التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة البقرة

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنة الطَّبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقم الطَّبعة : الأولى

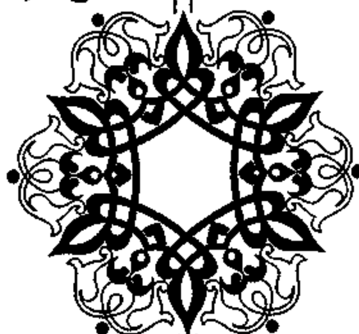

مكتبة الطبري
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخاتم رسله وخليله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فقد مَنَّ الله علينا وشرَّفنا بإنجاز هذا المشروع العلمي المبارك والذي سميناه: التفسير الثمين للعلامة العثيمين وهو تفسير القرآن الكريم؛ وهو خير عمل يتشرف المرء بخدمته ألا وهو تفسير كتاب الله عز وجل، وكان من نعمة الله علينا أن وفَّق لنا تفسير هذا العالم الجليل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ والذي وَضَعَ فيه خلاصة علمه رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فوائد فقهية، أصولية، حديثية، لغوية، عقدية. وقد أوضح كثيرًا من المخالفات العقدية التي يقع فيها كثير من المفسرين السابقين، وخاصة صاحبي تفسير الجلالين، وقد علق عليه رحمه الله واستدرك على مؤلفيه ما قد وقَعَا فيه من أخطاء.

هذا، ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل وأن يثيبنا عليه خير الجزاء، وكلَّ مَنْ أسهم فيه.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

وكتبه

أشرف بن كمال

أهم مميزات التفسير الثمين للعثيمين

أولًا: إن اسم الكتاب يدل على ما فيه من أفانين العلوم الشرعية والعربية.

ثانيًا: امتاز هذا التفسير بالشمول في عرض المادة العلمية بأسلوب يُخاطب به طالب العلم قبل المثقف المتوسط والعادي.

ثالثًا: يعتبر هذا التفسير جامعًا لكل الأنواع التي فُسر بها كتاب الله المجيد ـ وهي كالآتي:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

* **والدليل:** عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحقٍّ إلَّا هو.

فـ (إله): اسم لا النافية للجنس، وخبرها محذوف، تقديره: حق، وهناك آلهة باطلة ولكنها آلهة وُضِعَت عليها الأسماء بدون حق، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣]. وبهذا التقدير للخبر في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يزول الإشكال، وهو أنه كيف يُنفى الإله في مثل هذه الجملة، ويُثْبتُ في مثل قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]؟.

والجمع بينهما: أن تلك الآلهة باطلة، والإله في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إله حق، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: ﴿هُوَ﴾، (هو) ضمير وليس اسمًا لله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩]. فلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا عَلَم.

٢- تفسير القرآن بالسنة النبوية:

* **والدليل:** قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال: إذا كان الإنسان يسأل نفسه بما فيه الخير، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى به من نفسه.

ويشمل عدة وجوه:

الوجه الأول: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنسبة للمؤمنين، أبلغ من أنفسهم في مراعاة مصالحهم وما ينفعهم، وفي دفع الضرر عنهم ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ **«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»**(1) هذه من جملة قوله الداخلة في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثانيًا: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في تقديمه على أنفسهم، ولهذا لا يتم الإيمان حتى يكون النبيُّ ﷺ أحب إليك من نفسك، كما قال عمر: **«وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَر، قَالَ: وَمِنْ نَفْسِي، قَالَ الآنَ يَا عُمَر»**(2)، فيجب على كل مؤمن أن يحب النبي ﷺ أكثر من محبته لنفسه.

٣- تفسير القرآن بما ورد عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

*** والدليل، أولًا: ما ورد عن الصحابة:** فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١ ـ ٣] يقول العلامة ابن عثيمين بعدما عرض تفسير السورة بما يتفق مع قواعد التفسير:

[لكن السورة لها مغزى عظيم لا يتفطن له إلا الأذكياء، ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن الناس انتقدوه في كونه يُدني عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مع صغر سنه ولا يدني أمثاله من شباب المسلمين، وعمر ـ رضي الله عنه ـ من أعدل الخلفاء، أراد أن يبين للناس أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء، فجمع كبار المهاجرين والأنصار في يوم من الأيام ومعهم عبدالله بن عباس وقال لهم: ما تقولون في هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة ففسروها بحسب ما يظهر فقط، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئًا. فقال: ما تقول ياابن عباس قال: يا أمير المؤمنين هو أَجَلُ رسول الله ﷺ، أَعْلَمَهُ الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة فذلك علامة أجلِك، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فقال عمر: «والله ما أعلم منها إلا ما تعلم»].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٧١)، و مسلم (١٦١٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، و أحمد في «مسنده» (١٧٥٨٦).

ثانيًا: ما ورد عن التابعين في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]: **قال الشيخ:** [وأصح الأقوال فيها القول الثاني[1]؛ وهو: أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد].

٤ - تفسير القرآن باللغة - أي بمطلق اللغة -:

فالشيخ يأتي بالكلمة ويحللها صرفيًا ونحويًا ودلاليًا، مع ذِكْر الشاهد الشعري، إذا اقتضى السياق ذلك، ويزين ذلك بذِكر أبيات في القواعد من ألفية ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أو غيره.

* **الدليل:** قوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩] .

حيث قال العلامة العثيمين: (من) هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم بها، ودليل الجزم حذف الياء، وأصل «يطع»: يطيع، فإذا قال قائل: لماذا حذفت الياء ؟ قلنا: لأنه لما جزم الفعل صار ساكنًا، والياء ساكنة، والقاعدة: أنه إذا اجتمع ساكنان، فإن كان الأول حرفًا صحيحًا كُسِرَ، وإن كان حرف علة حُذِفَ، وفي هذا يقول ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيِنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

(لَيْنًا) يعني:حرف علة، (فحذفه استحق) يعني: فاحذفه، هنا نقول: حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وبعدها ساكن فوجب حذفها، فإن قال قائل: ما بعدها ليس بساكن بل هو مكسور ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، فالجواب أن هذه الكسرة عارضة لالتقاء الساكنين.

وجواب (مَنْ) جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وهنا نسأل لماذا اقترنت الفاء بالجواب؟

لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية فإنه يجب اقترانه بالفاء، وفي وجوب اقتران جواب الشرط بالفاء قال الشاعر:

اسْمِيةٌ طَلَبِيَّةٌ وبِجَامِدٍ وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وبِالتَّنْفِيسِ

---

(١) قال الشيخ: هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزَّ وجلَّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقًا.

القول الثالث: لها معنى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنىً؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: ألَها معنى، أم لا؟ وإذا كان لها معنى فلا ندري ما هو.

فهنا سبعة مواضع إذا وقعت جوابًا للشرط اقترنت بالفاء.

* وهذا الدليل على تفسيره بالقواعد النحوية مع ذكر شاهدها من منظومات القواعد.

أما الدليل على تفسيره اللغوي المعجمي ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص:٩].

* **يقول الشيخ عند تفسيره لهذه الآية: (العزيز: يقول المؤلف**[1]: [إنه الغالب]، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب.

وعزة القدر: تعني عزة الشرف والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، والعزة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]

والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أيـن المفـرُ والإلـه الطالـبُ   والأشرمُ المغلـوبُ لـيس الغالـبَ

فإذًا يكون تفسير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للعزيز بالغالب تفسيرٌ للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر).

رابعًا: من مميزات هذا التفسير أن الشيخ يعتني - أحيانًا - بذكر أسباب النزول لما لذلك من فائدة فهم الآية على حسب ما نزلت بسببه.

* **والدليل**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

* **قال الشيخ العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن الله تعالى إذا تكلم إنما يتكلم عن الرجال ولا يذكر النساء.

فأنزل الله هذه الآية.

خامسًا: تبدو في هذا التفسير غزارة الناحية العلمية للعلامة العثيمين؛ وإحاطته بآراء العلماء في كافة القضايا التي يتعرض لها ويناقشها. ويتعرض لأقوال العلماء ثم

---

(١) صاحب تفسير الجلالين.

يرجح منها ما يراه صوابًا، فهو إن أيد قولًا فبالدليل، وإن رَدَّ آخر فبالدليل أيضًا.

* **والدليل**: قوله تعالى في سورة الروم: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم:٤٥].

* عند حديثه رَحِمَهُ اللهُ عن الجزاء على العمل الصالح قال: [والإنسان الذي عنده إيمان بالله سبحانه وتعالى، ولكنه لم يعمل عملًا صالحًا يمكن أن يُجزى إلا في حالةٍ واحدة فقط وهي الصلاة، فإنه إذا لم يعملها فإنه لا ينفعه الإيمان؛ لأنه قد دلت الأدلة على أن هذا العمل وإن كان عملًا بدنيًّا لكنه يكفر الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أما غير الصلاة من الأعمال فقد قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا تركه كفر إلا الصلاة، يعني: لو لم يزكِّ فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يصم فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يحج فإنه لا يخرج من الإيمان، وهذا هو الصحيح، وعن الإمام أحمد رواية أن جميع أركان الإسلام إذا تركها الإنسان متهاونًا فهو كافر، فإذا لم يزكِّ فهو كافر، وإذا لم يصم فهو كافر، وإذا لم يحج فهو كافر، يقول: لأن ركن الشيء عليه اعتماد الشيء، فإذا لم يوجد الركن ما قام الشيء، وهذا لا شك أن له وجهًا، لكن الأدلة تمنع من القول بهذا، فإن حديث أبي هريرة في الصحيح فيمن لا يؤدي زكاته ذكر النبي ﷺ عقوبته ثم قال: «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» فقوله: «يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، يدل على أنه لا يكفر بمنع الزكاة؛ لأنه لو كان يكفر بذلك ما صار له سبيل إلى الجنة، فإذا لم يكفر بترك الزكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسلام التي دون الزكاة أنها دونها، فالصيام دون الزكاة والحج دون الزكاة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن ظاهره من كفر فلم يحج، فإن الله غني عن العالمين؟

الجواب: أن يقال: المراد بالكفر هنا: سوى الكفر الأكبر، يعني: كفر دون كفر، ولهذا ما قال: ومن لم يحج فهو الكافر، أو وترك الحج هو الكفر، كما قال في الصلاة، وكفر فعل، والفعل يدل على الإطلاق، ولا يدل على العموم، فهذا الجواب عن هذه الآية، والذين قالوا: إنه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية].

سابعًا، ومن مميزاته: الاعتناء بالقراءات القرآنية الصحيحة لا الشاذة ويكون ذلك إما بتتبع الشيخ لما ورد في الجلالين، أو باستقلاله هو رَحِمَهُ اللهُ :

* **والدليل على ما تتبع فيه صاحبي تفسير الجلالين**: قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

ﵟضِعۡفَيۡنِۚﵞ [الأحزاب:٣٠].

قال بعد ذكر ما ذكره الجلالين: فقوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ فيها إذن ثلاث قراءات: [يُضَاعَفْ – يُضَعَّفْ – نُضَعِّفْ] فعلى القراءتين الأوليين يكون العذاب بالرفع ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أو ﴿يُضعَّفْ﴾، وعلى القراءة الثالثة ﴿نُضعِّف﴾ يكون العذاب بالنصب على أنه مفعول به.

* **أما الدليل على استقلاله هو رحمة الله عليه بذكر القراءات التي في الآية ففي مثل قوله تعالى:** ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦].

* **قال الشيخ:** [قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ﴾ فيها أيضًا قراءتان: ﴿من يَصْرِف﴾، و﴿من يُصرف﴾.

وقوله: ﴿عَنۡهُ﴾ يعني عنه العذاب، ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ أي: رحمه الله عز وجل، والضمير في قوله: ﴿رَحِمَهُۥ﴾ قد يقول قائل: كيف نعرف أنه عاد إلى الله عز وجل؟ فيقال: لأنه تقدم ذكره ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿مَنْ يَصْرِفْ عنه﴾. يعني: ربي هذا العذاب ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾، أو يُصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه أي: ربي].

ثامنًا: يُعطي هذا التفسير صورة صحيحة جدًّا للعقيدة السلفية المعتدلة المتوسطة، ففيه يُبين الشيخ الآيات الخاصة بأسماء الله وصفاته بفهم لا يُخالف فيه ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

* **والدليل:** عند حديثه عن إثبات الوجه الحقيقي لله في قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

* **قال العلامة العثيمين:** [قوله تعالى: ﴿تُوَلُّواْ﴾ أي: تتجهوا؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك؛ والإشارة: إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾: اختلف فيه المفسرون من السلف والخلف، فقال بعضهم: المراد به: وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء؛ ولكن الراجح: أن المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْه المُصَلِي»(١)؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم

(١) وذلك للحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه» (٣٩٧): (عن أنس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: «إِنَّ أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدميه». ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض فقال (أو يفعل هكذا).

فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب].

تاسعًا: يمتاز هذا السفر الجليل بأنه يعطي ردودًا قرآنية علمية على أهل البدع والأهواء من المخالفين لأهل السنة والجماعة كالمعتزلة والأشاعرة والجبرية وغيرهم، وذلك باستنباط جيدٍ وكافٍ من الآيات القرآنية يفحم المخالف ويقوى إيمان صاحب العقيدة الصحيحة.

* **الدليل:** فالجبرية مثلًا ينفون الإرادة عن الإنسان فاستنتج الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

أن الإنسان له إرادة لقوله: ﴿يَكْتُمُونَ﴾.

فقال في الفوائد: [**ومنها:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ﴾؛ والكاتم مريد للكتم].

* وأيضًا بيَّن في هذه الآية أن فيها ردًّا على أهل التأويل من الأشاعرة وغيرهم.

فقال أيضًا في الفوائد: [**ومن فوائد الآية:** الرد على أهل التحريف الذين يُسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانًا للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ ويكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئًا لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية: الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم - كما قال شيخ الإسلام - أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.].

* **وأيضًا من ردوده على أهل التعطيل** أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، ذكر في الفوائد إثبات صفة الرحمة التي ينكرها هؤلاء المُعطلة فقال: [**ومنها:** إثبات الرحمة لله؛ وهي رحمة حقيقية تستلزم حصول النعم واندفاع النقم؛ وأهل التعطيل يفسرونها بـ «الإنعام»: الذي هو مفعول الرب؛ أو بـ «إرادة الإنعام»؛ وينكرون حقيقة الرحمة؛ وقد ضلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إياها].

* وبهذه الصورة الطيبة يمضي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره مُعلنًا لواء الحق – بالقرآن العظيم – وداحضًا أقوال أهل الباطل – بتفسيره الجليل – رَحِمَهُ اللَّهُ.

عاشرًا: يبدو في هذا التفسير شيء واضح جدًّا، وهو التكرار فكلما جاء مُقتضٍ للتكرار أعاد الشيخ الكلام للفائدة والتذكر، فالتكرار كما أنه سمة في القرآن فهو ميزة في هذا التفسير.

* **والدليل:** عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾

[آل عمران:١٣٤] قال:

* ولكن يُشترط في الأمرين أن يكون ذلك عن قدرة لا عن عجز، أما عن العجز فإنه مذمة، ولهذا قال الشاعر يذم قبيلته:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

لماذا؟ لضعفهم وعجزهم ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

- وقد كرر الشيخ نفس الكلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، فقال: [وانتفاء الظلم عما يمكنه الظلم ولكنه عاجز، يعتبر ذمًّا، ومن ذلك قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُون بِذمةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَل

هل قوله: «لا يغدرون بذمة» يعني أنهم أوفياء بالذمم؟ وهل قوله: «ولا يظلمون الناس حبة خردل» أنهم ذوو عدل؟ لا، بل هذا تحقير لهم، فهم لا يستطيعون أن يغدروا، ولا يستطيعون أن يظلموا، وقرينة ذلك قوله (قبيلة)، فإنها للتصغير، والتصغير يدل على التحقير، ومنه قول الحماسي يهجو قومه:

وَلَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشر فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَة أَهْلِ السُّوء إِحْسَانًا

هذا ظاهره المدح، ولكن المراد به: الذم، ولهذا قال:

فَلَيْتَ لي بهمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

ليت لي بهم: أي: بدلهم، فصار نفي الظلم عنهم وكونهم يجزون بالسوء مغفرة، وبالإساءة إحسانًا وذلك لعجزهم ليس لكمال أخلاقهم].

إذن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يكرر في المواضع التي تقتضي أن يُعيد الكلام نفسه ثانية، وأيضًا من أمثلة ذلك أنه يذكر التفسير الخاص بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في العديد من السور فقد فسرها في الفاتحة ثم أعاده في الأنعام ويس وغيرهما.

* ويُعيد أحيانًا الأبيات الخاصة ببعض القواعد النحوية كقول ابن مالك:

إن ساكنان التقيا احذف ما سبق ... وإن يكن لينًا فحذفه استحق

- فقد ذكره في معظم السور.

* وغير ذلك من الأشياء التي يُكررها الشيخ تنبيهًا لطالب العلم، وحثًا على المراجعة والاستذكار.

حادي عشر: خلو هذا التفسير من الإسرائيليات والموضوعات التي تكثر غالبًا في كتب التفسير بالأثر.

* **والدليل:** أنه أبطل ما ذكره الجلالين عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قال المؤلف: [فزوجها النبي ﷺ، لزيد، ثم وقع بصره عليها بعد حين، فبلغ في نفسه حبها، وفي نفس زيد كراهتها، ثم قال للنبي ﷺ، أريد فراقها، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»[1] كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾].

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ : [هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، ذُكر عن بعض المفسرين من السلف والخلف، لكنه كما قال ابن كثير: أقوال ينبغي أن يضرب الإنسان عنها صفحًا، لأنها أقوال باطلة، لا تليق بمقام النبي ﷺ، لأن القصة إذا قرأها الإنسان، يتصور أن النبي ﷺ كان عاشقًا من العشّاق، وما أشبه هذه القصة الباطلة بقصة داود - عليه الصلاة والسلام - التي ذكروا أن داودَ طلب من أحد جنوده أن يتزوج امراته، ولكنه أبى، فاحتال عليه بحيلة - انظر إلى الكذب - فما الحيلة؟ قال: نخرجه مع الجيش، لكي يقتل فأتزوج امرأته، هل هذا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله؟! أبدًا، هذه لو قال قائل: إنها وقعت من أحد السوقة من الناس، لقيل: ما أظلم هذا الرجل، وما أجهله، فكيف بنبي من أنبياء الله!!

والنبي ﷺ، هل يمكن أن يتصور أحد أنه عشق هذه المرأة، لأن بعض الناس، حتى بعض المفسرين، - والعياذ بالله -، صار يتلفظ بهذا اللفظ، يقول:عشق المرأة، الرسول عشق زينب، ولكن هذا قول باطل].

ثاني عشر: التعرض للقضايا العصرية ومعالجة الشيخ لها رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا تفسيره للآيات الخاصة بها.

* ومن ذلك هذه المستجدات التي ظهرت على الساحة الإسلامية مثل قضية تقديم النساء على

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، و مسلم (٨٦).

الرجال في الافتتاحات الخطابية وغيرها.

* **والدليل:** قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ......﴾ [الأحزاب:٣٥].

* **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي عند ذكر الرجال والنساء أن يقدَّم الرجال، كما في هذه الآية وغيرها من الآيات، وأما من تغرَّبوا، فصاروا يقدمون النساء على الرجال، هؤلاء ولاهم الله ما تولوا من مشابهة الكفار، وقلب الفطرة، وانتكاس الحال، أن يقدموا النساء على الرجال، عندما يقول ـ مثلًا ـ سيداته وساداته، سيداته يقدم النساء على الرجال، بل العجب من ذلك أنهم يسمون النساء سيدات، يقول: السيدة فلانة، والرجل ما يقال السيد فلان، من أين أخذوا ذلك؟ من الغرب الكفار، لأن الرجل في الحقيقة، هو السيد على المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما المرأة، ما هي سيدة على الرجل أبدًا، لكن هؤلاء كما قلت: قلب الله فطرتهم، بسبب أنهم تابعوا أعداء الله ـ عز وجل ـ وكثير من المسلمين ـ مع الأسف الآن ـ لا يحسون بهذه المسائل، ولا يرونها شيئًا، سائرين مع العالم، حتى الألفاظ التي قد تكون محرمة، يسيرون فيها.

* وأيضًا قضايا الحدود وما أثير حولها من الشغب وأنها ظلم للإنسان إذا طبقت عليه.

مثل قطع يد السارق، وجلد أو رجم الزاني وغيرها من القضايا.

ثالث عشر: من أجلِّ مميزات هذا التفسير استدلال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالأحاديث الصحيحة غالبًا. وذلك مُتضح جليًّا عند ذكرنا لتفسيره القرآن بالسنة النبوية المطهرة.

* **والدليل على ذلك أيضًا:** قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

قال المؤلف – الجلالين – عند تفسيره لهذه الآية: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ويقوم نصف الليل، وينام ثُلثه، ويقوم سُدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: «كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ» (١) فالعبارة فيها انقلاب على المؤلف].

إذن نستنتج من هذا أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا رأى دليلًا ضعيفًا مُفسرًا به الآية رده وذكر الدليل الصحيح في ذلك، كما في الآية السابقة، والأدلة على هذا كثيرة جدًّا، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يجنح إلى ما صح دليله ورجح مدلوله. والله أعلم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

رابع عشر: يمتاز هذا التفسير أيضًا بأنه غني بالفوائد العلمية وهي مأخوذة من قواعد الشريعة وأصولها، يعرضها الشيخ مُرتبة حسب فقهه وتفسيره للآية ويوضح فيها الحُكْمَ والمعنى المقصود من هذه اللفظة أو تلك قطعيًا مع إعطاء الاحتمالات التي قد ترد على هذه الآية أو اللفظة.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يذكر في الآية الواحدة من الفوائد ما لا يقل عن ثلاث فوائد وقد يصل في بعض الآيات إلى ما يقارب الثلاثين فائدة ويزيد.

وعدد الفوائد التي يشتمل عليها هذا التفسير أكثر من [٢٥ ألف] فائدة.

خامس عشر: يمتاز هذا التفسير بوحدة الأسلوب، فالذي يقرأ التفسير كأنه يستمع إلى الشيخ وهو يتكلم، ويحس فيه بروح واحدة سارية في التفسير تجل عن النظير.

سادس عشر: خلو أسلوب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من الركاكة وكل ما يشين الخطاب العربي الأصيل، فضلًا عن السهولة؛ فالتفسير بحق يحتوي على مُعجم لغوي فريد في بابه لثقافة عالم جليل.

سابع عشر: اعتمد الشيخ عند تفسيره لبعض السور على تفسير الجلالين، وكان المنهج في ذلك أنه يأتي بتعليق المفسِّر على الآية ثم هو رَحِمَهُ اللهُ يُبدي رأيه على ذلك بالموافقة أو برد قوله بما يوافق صريح الكتاب من غير تأويل.

* وهذه السور مثل: النور – العنكبوت – الروم – الأحزاب ـ يس والصافات، وص وغيرها.

ثامن عشر: تأثره بشيخه المفسر العلامة السعدي ويظهر ذلك جليًا في ذكره للفوائد والاستنباطات.

تاسع عشر: انطباق شروط المفسر على العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ، وذلك من خلال ما يتضح أثناء التفسير من ذكره للقواعد العربية وأصول الفقه وعلوم الحديث، وأصول التفسير، وإحاطته بكافة علوم الشريعة الإسلامية، وكل ذلك يصبه صبًّا في قالب علمي[1].

(١) شروط المفسر انظر «أصول في التفسير» للعلامة العثيمين، وقد صدَّرنا بها هذا التفسير الجليل.

عملنا في الكتاب

تمثل عملنا في هذا المشروع المبارك في الآتي:

١- قمنا بجمع المادة العلمية من الاسطوانات الليزر وأشرطة الكاسيت وقمنا بنسخها ونقلها إلى مادة مكتوبة على الكمبيوتر.

٢- قمنا بمراجعة المادة العلمية مراجعة لغوية دقيقة، وإعادة صياغة بعض الجمل والتعبيرات للاختلاف بين طريقة الإلقاء والتدريس وطريقة الكتاب.

٣- قمنا بالعديد من تجارب الطبع؛ لضمان سلامة النص من التصحيف والتحريف.

٤- وضعنا كلام مؤلفي تفسير الجلالين[1] بين معقوفتين هكذا [....].

٥- قمنا بتخريج وعزو الآيات القرآنية.

٦- قمنا بتخريج وعزو الأحاديث النبوية مع نقل كلام الشيخ العلامة الألباني رحمه الله في الحكم عليها صحة وضعفًا.

٧- قمنا بوضع جملة: (قال الله تعالى) قبل كل مقطع يقوم بتفسيره الشيخ العلامة العثمين رحمه الله.

٨- قمنا بوضع مقطع الآيات الذي يفسره الشيخ رحمه الله في برواز مظلل؛ ليتميز.

٩- وضعنا كلمة التفسير بين شكلين زخرفيين قبل الشروع في ذكر كلام الشيخ رحمه الله تعالى.

١٠- قمنا بِرَقْم الفوائد التي يستخرجها الشيخ رحمه الله من الآيات المفسرة.

١١- قمنا بإعادة سماع الاسطوانات والأشرطة مرة أخرى وقابلناها على التجارب التي روجعت.

١٢- قمنا بإعادة وزيادة المراجعات اللغوية ووضعنا علامات الترقيم بعد هذا السماع الثاني للاسطوانات والأشرطة.

١٣- قمنا بنقل كلام الشيخ رحمه الله على بعض الآيات التي لم يتعرض لها الشيخ بالتفسير في مشروعنا ـ فيما تحت أيدينا من مصادر ـ وذلك من خلال كلامه في مؤلفاته الأخرى وهي عدة مواضع؛ في سورة النور، وغيرها...

١٤- قمنا بإعادة ترتيب الفوائد في بعض المواضع؛ وذلك لأنها جاءت في مواضع من تفسير آيات أخرى؛ وليست هذه الفوائد خاصة بالآيات التي سيقت خلالها، وقد يرجع هذا للقائمين

---

(١) حيث قام فضيلة الشيخ رحمه الله بقراءة مواضع عديدة من تفسير الجلالين (جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلِّي) وشرحها والتعقيب عليها، فكأن تفسير الجلالين كان نواة لهذا العمل الضخم المبارك.

على تسجيل المادة العلمية، وقد وضعناها في موضعها الملائم لها والتي تتحدث عن الآيات الخاصة بها.

١٥- قمنا بالتنبيه على المواضع غير المسموعة، والتي لم نتمكن من سماعها من المصادر التي بين أيدينا وذلك في الحاشية.

١٦- قمنا بمقابلة نص تفسير الجلالين الذي علق عليه الشيخ رحمه الله على تفسير الجلالين.

١٧- قمنا بتقسيم الكتاب إلى أربعة عشر جزءًا؛ وذلك كما يلي:

الجزء الأول: يحتوي على المقدمة وكتاب «أصول في التفسير» للعثيمين وسورة الفاتحة وسورة البقرة.

الجزء الثاني: يحتوي على باقي سورة البقرة.

الجزء الثالث: يحتوي على سورة آل عمران.

الجزء الرابع: يحتوي على باقي سورة آل عمران.

الجزء الخامس: يحتوي على سورة النساء.

الجزء السادس: يحتوي على سورة المائدة.

الجزء السابع: يحتوي على سورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة النور.

الجزء الثامن: يحتوي على سورة النمل، وسورة القصص.

الجزء التاسع: يحتوي على سورة العنكبوت وسورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة.

الجزء العاشر: يحتوي على سورة الأحزاب، وسورة سبأ.

الجزء الحادي عشر: يحتوي على سورة فاطر، وسورة يس والنصف الأول من سورة الصافات.

الجزء الثاني عشر: يحتوي على النصف الثاني من سورة الصافات وسورة ص وسورة الزمر.

الجزء الثالث عشر: يحتوي على سورة غافر وسورة فصلت وسورة الشورى.

الجزء الرابع عشر: ويحتوي على سورة الزخرف وسورة محمد وسورة الحجرات، وسور جزء الذاريات وعلى بعض سور جزء قد سمع وجزء تبارك وجزء عم.

١٨- قمنا بعمل ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ العثيمين رحمه الله.

المشاكل التي واجهتنا أثناء العمل

١ - تمييز كلام مؤلفي تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى، ووضعه بين معقوفتين [....]؛ ليظهر للقارئ وليتميز.

٢ - صعوبة سماع بعض المادة العلمية (مادة الشريط أو الاسطوانة المُدمجة) لعدم وضوحها.

٣ - ذكر بعض فوائد الآيات متأخرة عن موضعها وذكرها في موضع آخر، فما كان منا إلا أن وضعناها في موضعها المناسب.

٤ - عدم وجود المادة العلمية الخاصة بتفسير بعض الآيات كما في سورة النور، وأواخر سورة الأحزاب.

٥- وهذه هي الآيات التي لم نضع لها تفسيرًا في هذا الكتاب إما لعدم وجودها في المادة المسموعة لدينا، أو لصعوبة سماعها؛ بعد إجراء كافة المحاولات لسماعها:

أ- آية رقم [١٢] سورة المائدة.

ب- الآيتان رقم [٢٣، ٢٤] سورة الأنعام.

جـ- الآيتان رقم [١٣، ١٤] سورة النور.

د- الآيات رقم [٢١-٢٤]، [٣٢، ٣٣]، [٥٩- ٦٤] سورة القصص.

هـ- الآيات رقم [١ - ٥] سورة لقمان.

و- الآيات رقم [٧٠- ٧٣] سورة الأحزاب.

أما سورة النمل ففيها إشكال وهو أنه قد توجد الفوائد للآية ولا نستطيع جمع مادة لتفسيرها.

فالآيات [١٥ - ١٧] ليس لها تفسير ولكن الفوائد موجودة.

والآية [٢٣، ٢٤] كذلك.

وأيضًا الآيات [٢٨- ٣٧].

وأيضًا الآيات [٧١- ٧٣].

سورة الروم [٥٥-٦٠].

وهذه تعتبر من أهم المشاكل التي لم نستطع التغلب عليها أثناء عرض المادة العلمية.

ونسأل الله أن ييسر لنا الحصول على مصادر جيدة للمادة العلمية؛ لإثبات ما فاتنا.

وأن يتقبل منا هذا العمل المبارك.

نبذة عن حياة
الشيخ محمد بن صالح العثيمين(١)

*** اسمه ونسبه:**

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي.

*** مولده ونشأته:**

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة؛ بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جدّه من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رُزق ذكاءً وزكاءً، وهمة عالية، وحرصًا على التحصيل العلمي في مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المُفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما (مختصر العقيدة الواسطية) للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين في الفقه) للشيخ السعدي أيضًا، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلَّا إلى الرياض، حين فُتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢هـ فالتحق بها.

واستغل الشيخ وجوده في الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية.

ويقول الشيخ أبو عبد الله العثيمين: «لقد تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا، وبسط نفسه للناس».

وقد عرض على الشيخ تولي القضاء من قبل مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل شيخ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، الذي ألحّ على فضيلته بتولي القضاء، بل وأصدر قراره بتعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

*** مشايخه:**

استفاد الشيخ أبو عبد الله في طلبه للعلم من عدة شيوخ، بعضهم في مدينة عنيزة، وبعضهم في

(١) نقلًا عن كتاب «مذكرة فقه الشيخ العثيمين» ط. دار البصيرة.

الرياض عندما سكنها للدراسة النظامية، ومن الشيوخ الذين درس عليهم:

١ - **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي**: المتوفى عام ١٣٨٦هـ، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) في ثمان مجلدات، وله مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، وقواعده، وفي العقيدة، وغيرها من الكتب النافعة.

٢ - **الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز**: المفتي العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء. درس عليه عندما كان مواصلًا لدراسته النظامية في الرياض، فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض كتب الفقه، والشيخ عبد العزيز من أبرز علماء هذه الأمة في هذا العصر.

٣ - **الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي**: المتوفى عام ١٣٩٣هـ، المفسِّر، واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن). ويُعد من أبرز آثاره العلمية.

٤ - **الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع**، رَحِمَهُ اللَّهُ: فقد قرأ شيخنا عليه (مختصر العقيدة الواسطية)، للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين) في الفقه للشيخ السعدي أيضًا، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف.

٥ - **الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان**، رَحِمَهُ اللَّهُ: قرأ شيخنا عليه بعض كتب الفقه، كما درس عليه الفرائض (علم المواريث).

٦ - **الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ**، رَحِمَهُ اللَّهُ: حيث قرأ شيخنا القرآن عليه حتى أتم حفظه، والشيخ عبد الرحمن الدامغ جد الشيخ من جهة أمه.

*** تلاميذه:**

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ؛ لأنهم ازدحموا في مجلسه - لا سيما في السنوات الأخيرة - بما يزيد على الخمسمائة طالب في بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم.

*** زهده وورعه:**

الزهد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، هو: «الزهد عما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحًا؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة، فالزهد فيها حمق».

أما الورع فقال شيخ الإسلام: «هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات؛ لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات، فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يحوم حول الحمى يوشك أن يواقعه».

وقد التزم الشيخ الزهد والورع من جميع جوانبه، فقد عرضت عليه المناصب، كتولي القضاء،

حيث أصدر مُفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، قرارًا يقضي بتعيين الشيخ رئيسًا لمحكمة الأحساء، وبعد مراجعات واتصالات وواسطات أُعفي من القضاء.

*** دقته في الأمور وتثبته فيها:**

إن دقة الشيخ وتثبته في الأمور نابع من الورع وإبراء الذمة في التوصل إلى موافقة الحق.

وربما فهم المقابل أن ذلك تعقيد للأمور وتضييق على المسلمين الذين يترددون إليه؛ لقضاء حوائجهم. ولا شك أن نظرتهم، إما أن تكون نابعة عن قصور في العلم؛ بسبب جهلهم بالحكم الشرعي، والحال الذي يتنزّل عليها ذلك الحكم، وإما أن تكون نظرتهم نابعة عن سوء في الفهم؛ بسبب عجزهم عن تصور تلك المسألة أو القضية المُعيّنة. فإذا كان الواجب على المسلم إحسان الظن بعامة المسلمين فكيف بعُلمائها، لا شك أن ذلك آكد وأوجب.

وهذه طبيعة وسجية عند الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، ألا وهي الدقة والتثبت في الأمور يتعامل بها مع أخص المقربين إليه، كأن يتقدم إليه أحد طلابه المقربين إليه، أو أي شخص مُقرب إليه من غير طُلابه، ممن يثق بهم حين يطلبون منه قضاء دين عليهم مثلًا، فإنه لا يكتفي بمعرفته الخاصة بهم، فربما طلب منهم الدلائل والبينات من الوثائق الأصلية، التي تثبت حلول ذلك الدين، وعدم مقدرتهم على ديونهم، بل يُساهم بسداد بعض الدين، بل بالنسبة القليلة منه، وربما قضى ربع الدين أو ثلثه إذا اقتضى الأمر ذلك.

*** منهجه العلمي:**

لقد أوضح الشيخ رَحِمَهُ اللهُ منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيرًا بشيخي عبد الرحمن السعدي، في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

*** طبيعة الدرس عند الشيخ:**

إن طبيعة الدرس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، يختلف عن الأساليب التي ينتهجها عامة العلماء في هذه البلاد.

وطريقة الشيخ أكثر نفعًا. هذا على وجه العموم؛ ذلك أن الشيخ يركز كثيرًا على حفظ المتون، ويُطالب التلميذ ويُتابعه على الحفظ في كل درس، بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ. وقد حفظنا على الشيخ كثيرًا من المتون المنثورة والمنظومة. والكتب التي حفظت وتحفظ في درس الشيخ منها:

١ – القرآن الكريم .

٢ – زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ .

٣ – بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ .
٤ – كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ .
٥ – منظومة محمد السفاريني في العقيدة.
٦ – العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٧ – منظومة البرهانية في علم المواريث.
٨ – ألفية ابن مالك في علم النحو والصرف. وغيرها.

وتقوم طبيعة الدرس عند الشيخ بمراجعة الباب أو الفصل بعد الانتهاء منه، والمراجعة تشمل مراجعة الحفظ، والمناقشة فيه، فلا ينتقل إلى الباب أو الفصل الذي بعده حتى يكون الطالب قد أتقن الباب أو الفصل الذي قبله.

ويحرص الشيخ على رفع الهمم وزرع الحرص في نفوس طلابه، وذلك بتكليفهم في تحرير بعض المسائل، أو ما يشكل عليهم في أثناء الدرس، سواء كان الإشكال من جهة اللغة، أو النحو، أو الفقه، أو الحديث أو غير ذلك، فيقوم الطالب بتحرير تلك المسألة، وقراءتها أمام الشيخ وطلابه، ويُناقش الطالب سواء من قبل الشيخ أو من قبل طلابه فيما يرد من الملاحظات، إن وجدت في بحثه حتى يخرج البحث في أحسن صورة وأبدعها.

*** آثاره العلمية:**

لقد صنف الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، آثارًا علمية في مجالات شتى، من مسموع، أو مكتوب، في العقيدة، والفقه، والحديث، والأخلاق، والسلوك، والمعاملات، وغيرها، مما كان لها الأثر الكبير في استفادة الناس منها، سواء على مستوى عامة الناس، أو طلبة العلم. وكان الإقبال عليها شديدًا ومنقطع النظير، وما ذاك إلا لثقة الناس به؛ لما يلمسون في ذات الشيخ من الأهلية والكفاءة التامة التي ترشحه إلى إصدار الأحكام الشرعية، والتصدي للفتوى والتأليف.

*** ومن آثاره العلمية:**

١ – فتح رب البرية بتلخيص الحموية، وهو تلخيص لكتاب الحموية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أول كتاب للشيخ كتبه عام ١٣٨٠هـ.
٢ – مصطلح الحديث.
٣ – الأصول من علم الأصول.
٤ – رسالة في الوضوء والغسل والصلاة.
٥ – تسهيل الفرائض.
٦ – لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشادِ – تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي(ت ٦٢٠هـ).(قام الشيخ بالتعليق عليه).
٧ – شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٨ – عقيدة أهل السنة والجماعة.
٩ – القواعد المُثلى في صفات الله وأسمائه

الحُسنى.

١٠- رسالة في الصلاة والطهارة لأهل الأعذار.

١١ - سجود السهو في الصلاة.

١٢- تفسير آية الكرسي.

١٣- رسالة في المسح على الخفين.

١٤- أصول التفسير.

١٥- شرح أصول الإيمان.

١٦- شرح زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل.

*** متابعة الشيخ لطلابه وحرصه عليهم:**

لقد اهتم الشيخ حفظه الله بطلابه، وحرص على تذليل الصعاب التي تواجههم في مسيرتهم العلمية، وذلك أنه خصص لهم سكنًا مجانيًا متوفرة فيه جميع سُبل الراحة، زيادة على ذلك أنه افتتح لهم مطعمًا داخل السكن، وفرّغ له عاملًا، يُعد لهم الطعام في الوجبات الثلاثة اليومية، كما هيأ لهم مكتبة حافلة بالمراجع، والكتب النادرة، والمخطوطات الأصلية، التي تصل إلى أكثر من سبعين مخطوطة أصلية، ومعها مكتبة سمعية من أشرطة لدروس الشيخ، وصالة للقراءة، وكل ذلك في السكن نفسه.

كما خصص لهم مكافآت مالية، وكتب مجانية يحتاجون إليها في أبحاثهم.

كما كان رجوع الشيخ عن رأيه واجتهاده إلى قول تلميذه لا يُعد عيبًا، بل هي منقبة عظيمة، يُشكر عليها.

كما كان يستعمل الشيخ رَحِمَهُ الله أسلوبًا مثاليًا في تدريب طلابه على إلقاء الكلمات الوعظية والدروس العلمية، فيكلف الطلاب بإعداد كلمة، وإلقائها أمام الطلاب، بحضور الشيخ، ثم تُوجه الملاحظات من قبل الشيخ، أو الطلاب للطالب، ليُجيب الطالب عليها.

منح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية

قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية منح جائزة عام ١٤١٤هـ لخدمة الإسلام إلى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي:

أولًا: تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

ثالثًا: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعًا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة، واتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًا لمنهج السلف الصالح فكرًا وسلوكًا.

وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى

رُزئت الأمة الإسلامية جميعها قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ بإعلان وفاة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، وأحس بوقع المصيبة كل بيت في كل مدينة وقرية وصار الناس يتبادلون التعازي في المساجد والأسواق والمجمعات وكل فرد يحس وكأن المصيبة مصيبته وحده.

وأخذ البعض يتأمل ويتساءل عن سر هذه العظمة والمكانة الكبيرة والمحبة العظيمة التي امتلكها ذلك الشيخ الجليل في قلوب الناس رجالًا ونساءً صغارًا وكبارًا امتلأت أعمدة الصحف والمجلات في الداخل والخارج شعرًا ونثرًا تعبر عن الأسى والحزن على فراق ذلك العالم الجليل فقيد البلاد والأمة الإسلامية – رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى –.

وصلت الآلاف المؤلفة عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ وقامت بتشييع جثمانه إلى المقبرة في مشهدٍ عظيم لا يكاد يوصف ثم صلى عليه الآلاف والجموع الكثيرة التي لا يحصيها إلا باريها من الغد بعد صلاة الجمعة صلاة الغائب في جميع مدن المملكة وفي خارج المملكة، ودفن بمكة المكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعة.

شكر وتقدير

انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «مَن لم يَشكرِ الناسَ لم يشكر الله» فإننا نتوجه بالشكر إلى فريق العمل؛ باحثين، لغويين، وكذلك القائمين على التنضيد بمكتبة الطبري والذي قام بإنجاز هذا المشروع العلمي المبارك.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الخاص للأخ الفاضل/ محمد إبراهيم إمام الباحث الشرعي الذي لم يدخر جهدًا في هذا العمل المبارك.

والله أسأل أن يتقبل منا عملنا وأن يدخره لنا يوم المعاد، وألا يخزنا أمام العباد، وأن يرفع درجاتنا يوم التناد، إنه خير مسئول وخير مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أصول في التفسير

المُقدِّمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا، أما بعد:

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونًا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنيًّا على أسس قوية ودعائمَ راسخةٍ، وقد قيل: مَنْ حُرِمَ الأصول حُرِمَ الوصول.

ومن أَجَلِّ فنون العلم - بل هو أجلها وأشرفها - علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل، وقد وضع أهل العلم له أصولًا، كما وضعوا لعلم الحديث أصولًا، ولعلم الفقه أصولًا.

وقد كنت كتبت في هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أُفردها في رسالة؛ ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي :

* القرآن الكريم :

١- متى نزل القرآن على النبي ﷺ؟، ومَنْ نزل به عليه من الملائكة؟

٢- أول ما نزل من القرآن.

٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤- القرآن مكي ومدني، وبيان الحِكْمة من نزوله مفرَّقًا، وترتيب القرآن.

٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ.

٦-جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما .

* **التفسير:**

١-معنى التفسير - لغة واصطلاحًا -، وبيان حُكْمِه، والغرض منه.

٢- الواجبُ على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجع في التفسير إلى ما يأتي :

أ-كلام الله تعالى؛ بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول ﷺ؛ لأنه مُبَلِّغٌ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج - كلام الصحابة رضي الله عنهم لاسيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د- كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم .

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللُّغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي، أُخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها، وأنواعها، وحكم كل نوع.

* خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير: ثلاث للصحابة، واثنتان للتابعين.

* أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه:

موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.

التشابه: حقيقي ونسبي.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

* موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.

الْقَسَم: تعريفه – وأداته- وفائدته.

* القصص: تعريفها – والغرض منها – والحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقِصَر والأسلوب.

* الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

* الضمير: تعريفه – ومرجعه – والإظهار في موضع الإضمار وفائدته – الالتفات وفائدته – وضمير الفصل وفائدته.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة [(١)]: مصدر قرأ بمعني تلا، أو بمعني جمع، تقول قرأ قرءًا وقرآنًا، كما تقول: غفر غَفْرًا وغُفرانًا، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعني متلوٌّ، وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل أي: بمعنى جامع؛ لجمعه الأخبار والأحكام [(٢)].

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المُنَزَّل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣] وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقد حَمَى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل؛ حيث تكفل عز وجل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولذلك مضتِ القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغيِّر فيه أو يزيد أو ينقص أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. ﴿وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥] ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١] ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال أيضًا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بُعث بها محمد ﷺ إلى كافة الناس، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وقال أيضًا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي

---

(١) راجع «لسان العرب» (١/ ١٢٨)، و«تاج العروس» (١/ ٣٦٣ و٣٦٤).

(٢) وقد يكون بمعنى اسم المفعول أيضًا، أي: بمعني مجموع؛ لأن القرآن جُمع في المصاحف والصدور، وجمع من الصدور واللخاف والأكتاف وغيرها.

﴿... ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١-٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرَّره القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

١ - نزول القرآن

نزل القرآن - أولَ ما نزل - على الرسول ﷺ في ليلة القَدْر في رمضان [(١)]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وقال أيضًا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكان عُمُرُ النبي ﷺ أولَ ما نزل عليه أربعين سنةً على المشهور عند أهل العلم [(٢)]، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيِّب وغيرهم، وهذه السِّن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي ﷺ: جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢- ١٩٥].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة ما جعله أهلًا لِأَن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩- ٢١]. وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم:٥-٧].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢]، وقد بيَّن الله تعالى لنا أوصاف جبريلَ الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل على عِظَم القرآن وعنايته تعالى، فإنه لا يُرسل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة.

---

(١) راجع «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩٧ وما بعدها).

(٢) كما روى البخاري في «صحيحه» (٣٣٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ قال: «كان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه وهو ابن أربعين فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه وبالمدينة عشر سنين وقبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»، وكذا رواه مسلم (٢٣٤٧)، والترمذي (٣٦٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٣١٠٧).

٢ - أول ما نزل من القرآن [1].

أول ما نزل من القرآن - على وجه الإطلاق قطعًا - الآياتُ الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]. ثم فَتَرَ الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]. ففي «الصحيحين»: صحيح البخاري ومسلم - عن عائشة ﵂ [2] في «بدء الوحي» قالت: حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حِراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: «ما أَنَا بِقَارِئٍ» (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث وفيه: ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وفيهما عن جابر ﵁ [3]، أن النبي ﷺ قال وهو يُحدِّث عن فترة الوحي: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ....) فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥].

وثمة آيات يُقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيَّدة مثل: حديث جابر ﵁ في الصحيحين [4]: أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنزل أولًا؟ قال جابر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] قال أبو سلمة: أنبئت أنه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءَ فَلَمَّا قَضَيْتُ جُوارِي هَبَطْتُ...» فذكر الحديث وفيه: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

فهذه الأولية التي ذكرها جابر ﵁ باعتبار أول ما نزل بعد الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نُبِّئَ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأُرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] [5].

---

(١) راجع «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٢٠٦ - ٢١٠).
(٢) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).
(٣) رواه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).
(٤) رواه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١/ ٢٥٧).
(٥) «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٣٢).

٣ - نُزولُ القرآنِ ابتدائيٌّ وسببيٌّ

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سببٌ يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥].

فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتُهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة [(١)]، ذكرها كثير من المفسرين [(٢)]، وروَّجها كثير من الوُعَّاظ، فضعيف لا صحة له [(٣)].

---

(١) وعلى شهرة هذه القصة آثرت نقلها هنا للتحذير منها: فكما روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٥٧): (عن أبي أمامة قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال النبي ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا فوالله لئن أعطاني الله لأتصدقن ولأفعلن، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزقه مالًا»، قال: فصارت له غنيمة فكان يشهد مع رسول الله ﷺ فلما كثرت غنمُه وَنَمَتْ خرج من المدينة فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ إلا المغرب والعشاء فَنَمَتْ غنمه فتقدم فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ إلا الجمعة فنمت غنمه وكثرت فتقدم فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ في جمعة ولا غيرها، قال: فبعث النبي ﷺ رجالًا يأخذون الصدقة فذهبوا إليه، فقال لهم: إذا فرغتم وانصرفتم اجعلوا طريقكم علي أو نحوها قال: فلما فرغوا وانصرفوا أتوه فقال: والله ما هذه إلا جزية فانصرفوا عنه ولم يأخذوا منه الصدقة، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بها قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، قال: فلما نزل فيه القرآن جاء بِصَدَقَتِهِ إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذها فلما قُبض رسول الله ﷺ جاء بصدقته إلى أبي بكر فأبى أن يأخذها، وقال شيئًا لم يأخذها رسول الله ﷺ لا أخذها وأبى أن يأخذها، فلما قبض أبو بكر جاء بصدقته إلى عمر فأبى أن يأخذها وقال شيئًا لم يأخذها رسول الله ﷺ ولا أخذها أبو بكر وأبى ذلك).

(٢) انظر مثلًا: تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٩)، والدر المنثور (٤/ ٢٤٦)، والكشاف (٢/ ٢٧٨)، والكشف والبيان (٥/ ٧١)، واللباب في علوم الكتاب (١٠/ ١٤٩)، والمحرر الوجيز (٣/ ٦٩)، وبحر العلوم (٢/ ٧٥)، وتفسير أبي السعود (٤/ ٨٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٠٣) وغيرها.

(٣) من فتاوى الشبكة الإسلامية برقم (١٥٨١٧): عند السؤال عن قصة ثعلبة رضي الله عنه كانت الإجابة:

هذه القصة لا تصح أبدًا وقد ضَعَّفها الأئمة رغم اشتهارها عند المفسرين، قال القرطبي في «تفسيره»: «قلت وثعلبة بدري – أي: شهد بدرًا – أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان حسب ما يأتي بيانه في أول سورة الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح» انتهى.

وقال ابن حزم في «المحلى»: «وقد روينا أثرًا لا يصح، وفيه أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف» انتهى.

وقال المناوي في «فيض القدير»: «قال البيهقي: في إسناد هذا الحديث نظر وهو مشهور بين أهل التفسير»، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «أخرجه الطبراني بسندٍ ضعيف».

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه،

والسبب:

أ - إما سؤال[1] يجيب الله عنه مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الآيتان نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه بقوله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ

وقال محمد بن طاهر في «تذكرة الموضوعات»: «ضعيف».

وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة»: «ضعيف جدًّا».

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: وهذا إسناده ضعيف جدًّا، وضعف القصة أيضًا الذهبي في «ميزان الاعتدال»، والسيوطي في «أسباب النزول» وغيرهم.

والراجح في تفسير الآية ما ذكره ابن حجر: أن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، قال: هؤلاء صنف من المنافقين فلما آتاهم ذلك بخلوا فأعقبهم بذلك نفاقًا إلى يوم يلقونه ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو، كما أصاب إبليس حين منعه التوبة انتهى. والله أعلم.

وقد سئل أحد الأفاضل عن هذه القصة فلخص أسباب ضعف هذه القصة في قوله:

وصفوة الكلام أن تلك القصة باطلة عند العلماء الأعلام؛ لخمسة أمور اختصارًا لما سُقناه من تفصيل ما سبق من كلام وهي:

١- سند الخبر منكر لا يثبت بحال .

٢- ثعلبة بن حاطب بدري من الأبرار المغفور لهم عند العزيز الغفار.

٣- القصة مخالفة لنصوص الشرع الثابتة الواضحة الدالة على قبول التوبة ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها.

٤- القصة متناقضة؛ حيث لم تعطِ ثعلبة حكم المؤمنين الأبرار ولا حكم الكافرين الفجار ولا نظير لذلك في الشريعة.

٥- مخالفة تلك القصة للتاريخ، ففرضية الزكاة كانت في السنة الثانية، وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين .

وختامًا أحب أن أشير إلى أن للأستاذ (عداب الحمش) رسالة في الدفاع عن ثعلبة رضي الله عنه بعنوان: (ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه) جمع فيها أقوال أهل العلم في بيان نكارة هذه القصة .

(١) هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبي ﷺ، فقال معاذ: يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهِلَّة فما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبيَّ ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟ قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم . «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٤١) .

وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥] (١).

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حُكمِه مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] (٢).

فوائدُ معرفة أسبابِ النُّزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًّا؛ لأنها تؤدي إلى فوائدَ كثيرة منها:

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبي ﷺ يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينًا له.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. ففي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود (٣) رضي الله عنه: أن رجلًا من اليهود قال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت _ وفي لفظ: فأمسك _ النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] وفي «صحيح البخاري» (٤) أن زيد بن أرقمَ رضي الله عنه سمع عبد الله بن أُبيٍّ رأسَ المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيدٌ عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ، فدعا النبي ﷺ زيدًا فأخبره بما

(١) راجع «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٢) من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر، وفيه انقطاع، وأخرجه (١٠/ ١٧٢) عن زيد بن أسلم مرسلًا و(١٠/ ١٧٣) عن محمد بن كعب وغيره وهو مرسل كذلك.

(٢) التي اشتكت إلى الله هي خولة بنت ثعلبة، وقيل بنت حكيم، وقيل اسمها جميلة، وخولة أصح، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وقد مر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تُدعى عُميرًا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف! فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر! وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظَاهَر مني، اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خرجه ابن ماجة في السنن والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾. «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٠ و٢٧١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢١) ومسلم (٢٧٩٤).

(٤) رواه البخاري (٤٦١٧).

سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أُبيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً [1] كَذَٰلِكَ [2] لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ [3] وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢] وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فِراش النبي ﷺ وتطهير له عمَّا دنسه به الأفَّاكون [4].

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم، ففي «صحيح البخاري» أنه ضاع عقد لعائشة ﵂، وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فَشَكَوْا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أُسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولًا [5].

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أي: يسعى بينهما: فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي «صحيح البخاري» عن عاصم بن سليمان [6] قال: سألتُ أنس بن مالك ﵁ عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] وبهذا عُرِفَ أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرُّجِهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يَرَوْن أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

عُمومُ اللَّفْظِ وَخُصوصُ السَّبَبِ:

إذا نزلت الآية لسببٍ خاص، ولفظُها عام كان حكمها شاملًا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن

---

(١) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقًا قالوا: هلَّا أنزل عليه جُملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود. «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨).

(٢) أي فعلنا. «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨).

(٣) نقوي به قلبك فتَعِيهُ وتحمله؛ لأن الكتب المتقدمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون، والقرآن أنزل على نبي أمي؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨).

(٤) راجع القصة كاملة في صحيح البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٥) رواه البخاري (٣٢٧).

(٦) رواه البخاري (٤٢٢٦).

القرآن نزل تشريعًا عامًّا لجميع الأمة، فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللِّعان، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦- ٩] ففي «صحيح البخاري» من حديث ابن عباس[١] رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قَذَفَ امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سَحْماء، فقال النبي ﷺ: البينة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور: ٦] فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩].

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد[٢] رضي الله عنه: أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ». فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث.

فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملًا لهلال بن أمية وغيره.

٤ - المَكيُّ وَالمَدَنيُّ[٣]

نزل القران على النبي ﷺ مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكيٌّ ومدنيٌّ[٤]:

---

(١) رواه البخاري (٢٥٢٦).

(٢) رواه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (١٤٩٢).

(٣) وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث:
١- ما نزل بمكة. ٢- ما نزل بالمدينة. ٣- ما اختُلِفَ به. ٤- الآيات المكية في السور المدنية. ٥- الآيات المدنية في السور المكية. ٦- ما نزل بمكة وحكمه مدني. ٧- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي. ٨- ما يشبه نزول المكي في المدني. ٩- ما يشبه نزول المدني في المكي. ١٠- ما حُمل من مكة إلى المدينة. ١١- ما حُمل من المدينة إلى مكة. ١٢- ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا. ١٣- ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً. ١٤- ما نزل في الحَضَر وما نزل في السَّفَر.
فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكي والمدني، ولذا سُمِّي هذا بـ «علم المكي والمدني». «مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص٥٢ و٥٣). ولمعرفة أمثلة على الأنواع السابقة، راجع المصدر نفسه (ص ٥٣ – ٥٧).

(٤) للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُنِيَ على اعتبار خاص:
الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عَرَفَةَ: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.
الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل

فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] من القسم المدني، وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة. ففي «صحيح البخاري» عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة[1].

ويتميز القسم المكي[2] عن المدني[3] من حيث الأسلوب والموضوع:

بالمدينة وما جاورها كأُحد وقُباء وسلع. ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة، فلا يسمى مكيًّا ولا مدنيًّا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيًّا.

الثالث: اعتبار المخاطَب، فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة.

وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكي، وما فيه من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مدني.

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفتتح بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها. «مباحث في علوم القرآن» لمناع قطان (ص ٦٠ - ٦٢).

(١) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٢) ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية: ١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية. ٢- كل سورة فيها لفظ «كلَّا» فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذُكرت ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة. ٣- كل سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وليس فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ ومع هذا فإن كثيرًا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك. ٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة. ٥- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك. «مباحث في علوم القرآن» (ص٦٢).

(٣) ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية: ١- كل سورة فيها فريضة أو حدٌّ فهي مدنية. ٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية. ٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع. ٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق،

أ- أما من حيث الأسلوب فهو :

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطَبين معرِضُون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي (المدثر، والقمر).

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللِّين، وسهولةُ الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين مُقْبِلُونَ منقادون، اقرأ سورة المائدة.

٢- الغالب في المكي قِصَر الآيات، وقوة المحاجَّة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مُشَاقُّون، فخُوطبوا بما تقتضيه حالهم، اقرأ سورة (الطور).

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسلة بدون مُحاجَّة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ مثلًا (آية الدَّين في سورة البقرة).

ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطَبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطَبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني؛ لاقتضاء الحال لذلك، حيث شُرِع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فَوائِدُ مَعْرِفَةِ المدنيِّ والمكيِّ (١) :

واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. ٣- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين. ٤- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها. المصدر السابق (ص٦٣ و٦٤).

(١) ومن تلك الفوائد ما ذكره الدكتور مناع القطان في كتابه «مباحث في علوم القرآن» (ص ٥٨ – ٥٩):

أ- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

ب- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لُبَّه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

جـ- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية: فإن تتابع الوحي على رسول الله ﷺساير تاريخ الدعوة

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة؛ وذلك لأن فيها فوائد منها :

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته؛ حيث يتدرج شيئًا فشيئًا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدُّعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

الحِكْمَةُ مِن نُزُولِ القُرْآنِ الكَرِيم :

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقًا، ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها :

١- تثبيت قلب النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (يعني كذلك نزلناه مفرقًا): ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ (ليصدوا الناس عن سبيل الله) ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به؛ حيث يقرأ عليهم شيئًا فشيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

٣- تنشيط الهِمَمِ لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه؛ حيث يتشوق الناس بلهف وشَوْق إلى نزول الآية، لاسيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللِّعان.

٤- التدرُّجُ في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وَأَلِفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهوا بالمنع منه منعًا باتًّا، فنزل في شأنه أولًا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه؛ حيث إن العقل يقتضي ألَّا يمارس شيئًا إثمُه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانيًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ

بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة، الذي لا يدع مجالًا للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٠- ٩٢] فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيئت النفوس، ثم مُرنت على المنع منه في بعض الأوقات.

تَرْتِيبُ القُرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تاليًا بعضُه بعضًا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفًا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته فلا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلًا من: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣، ٤] ففي «**صحيح البخاري**»: أن عبد الله بن الزبير[1] قال لعثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]: قد نسختها الآية الأخرى يعني: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذه قبلها في التلاوة قال: فلم تكتبها ؟ فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أُغَيِّر شيئًا في القرآن من مكانه.

وروى الإمام أحمد[2] وأبو داود[3] والنسائي[4] والترمذي[5] من حديث عثمان رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعضَ مَن كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا.

النوع الثالث: ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبًا، وفي « صحيح مسلم» عن حُذيفة بن اليَمان[6] رضي الله عنه: أنه صلَّى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥٦).
(٢) في مسنده (٣٩٩).
(٣) في سنن أبي داود (٧٨٦).
(٤) في سننه الكبرى (٨٠٠٧).
(٥) في سننه (٣٠٦٨).
(٦) رواه مسلم (٧٧٢).

وروى البخاري تعليقًا عن الأحنف[(١)]: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه[(٢)]: (تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة؛ ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة ﷺ في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان ﷺ، صار هذا مما سنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث [(٣)] على أن لهم سُنَّة يجب اتباعها) اهـ.

٥ - كِتَابَةُ القُرآنِ وَجَمْعُهُ

لِكتابةِ القرآن وجمعه ثَلاثُ مراحل :

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يُجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عَسَبِ النخل[(٤)]، ورقاع الجلود[(٥)]، ولخاف الحجارة[(٦)]، وكسر الأكتاف[(٧)] وكان القُرَّاء عددًا كبيرًا.

ففي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك [(٨)]ﷺ: أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلًا يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيان من بني سُليم رعْل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حُذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء ﷺ.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر ﷺ في السنة الثانية عشرة من الهجرة، وسببه أنه قُتِل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم: سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر ﷺ بجمعه؛ لئلا يضيع، ففي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر ﷺ بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعًا، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٦٨).
(٢) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٨٢).
(٣) إشارة إلى ما رواه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩) وفيه: أن رسول الله ﷺ قال: **«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»**.
(٤) العسيب من النَّخل: جريدة مستقيمة دقيقة يكشط خوصها. العين (١/ ٣٤٢).
(٥) قطع من الجلد.
(٦) اللخاف: مفردها لخفة، وهي حَجَرٌ أبيض عريض رقيق.
(٧) الكتف: عظم عريض يكتب عليه.
(٨) رواه البخاري (٣٨٦٠).

بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعْه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر طيلة حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري مطولًا[1].

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: (أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله)[2].

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصُّحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تُجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي «صحيح البخاري»[3] أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان من فتح أرمينية وأذْربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أدْرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وكان زيد بن ثابت أنصاريًّا والثلاثة قرشيين - وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روى ابن أبي داود[4] عن علي رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأٍ منَّا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد[5]: أدركت الناس متوافرين حين حرَّق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مُكَمِّلة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٢).
(٢) «المصاحف» لابن أبي داود (ص ٥).
(٣) رواه البخاري (٤٧٠٢).
(٤) «المصاحف» (ص٢٢).
(٥) «المصاحف» (ص١٢).

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر ﷺ أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر ﷺ تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان ﷺ فهو تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه؛ لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفُشُوِّ البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقًا عليه بين المسلمين متواترًا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

التَّفْسِيرُ

التفسير لغة: من الفَسْر، وهو: الكشف عن المغُطَّى [1].

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلّم التفسير واجب؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله تعالى بيَّن أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك: أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله تعالى وَبَّخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يُعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المُشافهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه [2].

والغرض من تعلُّم التفسير هو: الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعْبَدَ الله بها على بصيرة.

الوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشْعِرَ نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون مُعَظِّمًا لهذه الشهادة خائفًا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله،

---

(١) انظر «لسان العرب» (٥/ ٥٥).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٣/ ٣٣٢).

فَيُخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠].

المَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أولًا: كلام الله تعالى: فيفَسَّر القرآن بالقرآن؛ لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به، ولذلك أمثلة منها:

١-قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢]، فقد فسر ﴿الطَّارِقُ﴾ بقوله في الآية الثانية: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] فقد فسر ﴿دَحَاهَا﴾ بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣١، ٣٢].

ثانيًا: كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة؛ لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ففسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم[٢] صريحًا من حديث أبي موسى وأُبيٍّ بن كعب، ورواه جرير من حديث كعب بن عُجْرة في «صحيح مسلم»[٣] عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم عَزَّ وَجَلَّ»، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم[٤]، وغيره[٥] من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

ثالثًا: كلام الصحابة رضي الله عنهم لاسيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم؛ ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٢).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٨١).

(٤) رواه مسلم (١٩١٧).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢٨١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٣٣).

التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب. ولذلك أمثلة كثيرة جدًا منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع[1].

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرًا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا أجمعوا – يعني التابعين – على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[2].

وقال أيضًا: من عَدَلَ عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا[3].

خامسًا: ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللُّغوية حسب السياق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أُخذ بما يقتضيه الشرعي؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللُّغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقُدِّم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم[4] عن عبد الله بن أبي أَوْفَى، قال: كان النبي ﷺ إذا أُتى بصدقة قوم، صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**».

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

---

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٣٨٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٧٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٦١).

(٤) رواه مسلم (١٠٧٨).

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] قال ابن عباس: (قضى): أمر، وقال مجاهد: وصَّى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذُكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦] قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٤] قال ابن عباس: دهاقًا مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعًا ويكون كل قول لنوع من المعنى.

الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معًا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥] قال ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ من أكله، وقيل: غير خارجٍ على الإمام ولا عاصٍ بسفره والأرجح الأول؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحِلِّ ما ذُكِر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرَّم وغير ذلك.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد رُوِيَ فيه حديث[1] عن النبي ﷺ.

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٨٥١)، و«مسند الشافعي» (١٢١٦)، «المعجم الأوسط للطبراني» (٦٣٥٩).

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح، **وفي الاصطلاح**: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى، والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمة فيترجم ﴿إِنَّا﴾ ثم ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ ثم ﴿قُرْآنًا﴾ ثم ﴿عَرَبِيًّا﴾ وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجَم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات، وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك محرمة؛ لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حِسًّا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعًا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل؛ لأنه لا محظور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تُجعل بديلًا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلابد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن، ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها؛ بحيث يكون مسلمًا مستقيمًا في دينه.

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضًا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم.

١ - عَلِيُّ بنُ أبي طَالبٍ[1]

هو ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنه وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم، وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

وُلِدَ قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربى في حجر النبي ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلَّفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[2]، نُقِلَ له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنًى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والذكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن[3]، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروى عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو

(١) راجع ترجمته في «حلية الأولياء» (١/ ٦١ - ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٣٥٠٣)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١١٠٠).

نهار[(١)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نَعْدِل به[(٢)]، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب[(٣)]. كان أحد أهل الشورى الذي رشَّحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بُويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدًا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

٢ - عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ[(٤)]

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمه أم عبد وكان يُنسب إليها أحيانًا، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي ﷺ بضعًا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام: «إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ»[(٥)]، وقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[(٦)]، وفي «صحيح البخاري»[(٧)] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

وكان ممن خدم النبي ﷺ فكان صاحب نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا ما نرى عبدالله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ[(٨)].

ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحدًا أقرب هديًا وسمتًا ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عَبْد[(٩)].

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عمارًا أميرًا وقال: إنهما من النجباء من

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٥٦٨).
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٢٥).
(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ٣٥).
(٤) راج ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦١ - ٥٠٠).
(٥) رواه أحمد في «مسنده» (٤٤١٢)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده حسن.
(٦) صحيح: رواه ابن ماجه (١٣٨)، والطيالسي في «مسنده» (٣٣٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٩٦١).
(٧) «صحيح البخاري» (٤٧١٦).
(٨) رواه البخاري (٣٥٥٢)، ومسلم (٢٤٦٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٩) رواه الطيالسي في «مسنده» (٤٢٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٣٥٦)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أصحاب محمد ﷺ، فاقتدوا بهما، ثم أمَّرَهُ عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأَمَرَهُ بالرجوع إلى المدينة [١]، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفِنَ بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

٣ - عَبْدُ اللهِ بنُ عبَّاس [٢]

هو ابن عم رسول الله ﷺ وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي ﷺ؛ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ، وضمَّه النبي ﷺ إلى صدره وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ**»، وفي رواية: «**الكِتَابَ**» [٣]، وقال له حين وضع له وضوءه: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» [٤]، فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه؛ حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكانا عاليًا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمِرْنَا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم [٥].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لَنِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس [٦]، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي: ما كان نظيرًا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًّا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أُنزل على محمد ﷺ [٧].

وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقهًا وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع [٨].

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي: والٍ على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) فافتتح سورة النور وجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٢٣٥).

(٢) راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣١ - ٣٥٩).

(٣) رواه البخاري (٣٥٤٦)، والترمذي (٣٨٢٤)، وابن ماجه (١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٤٠٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٢٠).

(٧) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ١٤٧).

(٨) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ١٤٨).

فارس والروم والترك لأسلمت [(١)].

ولَّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين، وولَّاه عليٌّ على البصرة فلما قُتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة.

المُشْتَهِرُون بالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمُجَاهد وعكرمة وعَطَاء بن أبي رَبَاح.

ب- أهل المدينة وهم اتباع أُبيٍّ بن كعب، كزَيْد بن أسْلَم وأبي العالية ومحمد بن كَعْب القُرَظِي.

ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقَتَادة وعلقمة، والشَّعبي. فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مُجاهد وقَتَادة.

١ - مُجَاهِدٌ [(٢)]

هو مجاهد بن جَبْر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عَرَضَات من فاتحته إلى خاتمته أُوقفه عند كل آية وأسأله عنها [(٣)]، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به [(٤)]، واعتمد تفسيرَه الشافعيُّ والبخاري وكان كثيرًا ما ينقل عنه في «صحيحه» وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به [(٥)]، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢ - قَتَادَةُ [(٦)]

هو قتادة بن دعامة السَّدُوسي البصري ولد أَكْمه ـ أي أعمي ـ سنة إحدى وستين، وجدَّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدِّث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئًا قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المثْل فلعل، وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئًا إلا حفظه [(٧)]، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ستة وخمسين سنة.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٥١).

(٢) راجع ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٤٩ - ٤٥٧).

(٣) «تفسير الطبري» (١/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٩١).

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ٩١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠).

(٥) «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٤٠).

(٦) راج ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩ - ٢٨٣).

(٧) «البداية والنهاية» (٩/ ٣٤٣).

القرآنُ مُحكَمٌ ومُتَشابِهٌ

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول: الإحكام العام الذي وُصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]

ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والغايات الحميدة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

ومعنى هذا الإحكام: أن يكون معنى الآية واضحًا جليًّا، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣] وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبهًا خفيًّا، بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى: أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضًا حين يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله: أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ

﴿الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] فهذا ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكًّا فيما أُنزل إليه.

مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ المُتَشَابِهِ

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وقال في الراسخين في العلم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُّون، ويُضِلُّون وأما الراسخون في العلم يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وما جاء مشتبهًا ردوه إلى المحْكَم ليكون الجميع محكمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذاتًا لا تماثل ذوات المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فِعْل العبد كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقَدِّرِه، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّرِه، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أُنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينًا كما قال الله تعالى في نفس السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤] المعنى: إن كنتم في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] أن يكون الشك جائزًا على الرسول ﷺ، أو واقعًا منه ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزًا على الله تعالى أو حاصلًا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلًا، ولا جائزًا على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣].

ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ؛ لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ

إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص:٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدوا النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، والظن بما لا يليق بالرسول ﷺ.

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]؛ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1]، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض، فيكون معلومًا للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذْ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ حيث اشتبه على أهل التعطيل[2]، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعَوْا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] حيث اشتُبه على الوعيدية[3]، ففهموا منه أن قاتل

---

(١) «أقاويل الثقات» للكرمي (١/ ١٢١)، و«إيضاح الدليل» (١/ ٤١)، و«اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٣/ ٣٩٨)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٠٦).

(٢) قال الشيخ العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة السفارينية»: (والتعطيل: هو تخلية الله تعالى عما يجب له من الأسماء والصفات، فيعطلون النصوص عن مدلولها ويخلون الله عز وجل عما يتصف به مما تقتضيه هذه النصوص).

(٣) وهم الذين يقولون بخلود كل من مات مُصرًّا على الكبائر دون الشرك في النار، ويقولون بأن شفاعة النبي ﷺ إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع الدرجات، ومنهم من أنكر الشفاعة مطلقًا.

المؤمن عمدًا مخلدٌ في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، واعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] حيث اشتبه على الجبرية[1]، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يُخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكمًا لا اشتباه فيه.

الحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ القُرآنِ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ

لو كان القرآن كله مُحكمًا لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقًا وعملًا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابهًا لفات كونه بيانًا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وأُخر متشابهات امتحانًا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأما مَنْ في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلًا إلى تحريف المحْكَم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرًا من المنحرفين في العقائد والأعمال يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

مُوهِمُ التَّعَارُضِ فِي القُرآنِ

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية فيه.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري؛ لأنه يلزم كون إحداهما كذبًا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] وإذا ثبت النسخ كان

(١) الجبرية هي مذهب الجهم بن صفوان، الذي قال بأن الأفعال مقدورة للرب وليس للعبد، والمؤثر فيه قدرة الرب وليس العبد. «معجم ألفاظ العقيدة» (ص ١٢١).

حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاولِ الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وَجَبَ عليك التوقف، وَكِلِ الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، وبينوا الجمع في ذلك. ومن أجمع ما رأيتُ في هذا الموضوع كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣] وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك: أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء :١٦] ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق. والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعًا بالفحشاء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونًا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفًا.

القَسَمُ

القَسَم (بفتح القاف والسين): اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها، وأدواته ثلاث:

الواو - مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء - مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرنَّ المؤمنين.

والتاء - مثل قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: وربِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله.

والأصل ذكر المقْسَم به، وهو كثير كما في الأمثلة السابقة، وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن.

وقد يُحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

والأصل ذكر المقْسَم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقد يُحذف جوازًا مثل قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١] وتقديره ليُهلَكُنَّ.

وقد يُحذف وجوبًا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في «المغني»[1] ومثل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقْسَم به.

والثانية: بيان أهمية الـمُقسَمِ عليه، وإرادة توكيده؛ ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون الـمُقسَمِ عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددًا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرًا له.

---

(١) وهو كتاب «مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب».

القَصَصُ

القصص والقص لغة: تتبع الأثر [1].

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا.

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها على الواقع وأحسن القصص لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

الأول: قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

الثاني: وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

الثالث: وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأُحدٍ، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤-٥].

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المُكذِّبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذِّبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أُمروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) راجع «لسان العرب» (٧/ ٧٣).

[الأنبياء:٨٨] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد:١٠].

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩] وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا الـمُتَكَرِّر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحكمة في هذا التكرار:

١- بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال الـمُخاطَبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى؛ حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى. وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع :

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري [(١)] وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت

(١) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

نواجذه تصديقًا لقول الحَبْرُ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل، مثاله ما رواه البخاري[1] عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل زوجته من ورائها جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري [2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعِبْرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يُخْشَ محظور؛ لقول النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار» رواه البخاري[3].

وغالب ما يُروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لوْن كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد[4] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شيء؛ فَإِنَّهُم لَنْ يَهْدُوكُم، وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُم إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتبعَنِي». وروى البخاري[5] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا، لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله، وغيَّروا، وكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥٤)، ومسلم (١٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٥).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٤).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٦٧٢)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد.

(٥) رواه البخاري (٢٥٣٩).

مَوْقِفُ العُلَمَاءِ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ

اختلفت مواقف العلماء - ولاسيما المفسرون - من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبًا، فكان حاطب ليل مثل البَغَوِيُّ الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسيره: إنه مختصر من الثَّعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع [1].

ج- ومنهم من ذكر كثيرًا منها، وتعقَّب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن كمحمد رشيد رضا. [2]

الضَّمِيرُ

الضمير لغةً: من الضُّمور وهو الهزال؛ لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره [3].

وفي الاصطلاح: ما كُني به عن الظاهر اختصارًا وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتها.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]

الثاني: ما وُضِعَ للمخاطَب مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب: ما وضع للغائب. ولابد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع: أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورتبة، مطابقًا له لفظًا ومعنىً مثل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود: ٤٥].

وقد يكون مفهومًا من مادة الفعل السابق مثل: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد يسبق لفظًا لا رتبة مثل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقد يسبق رتبة لا لفظًا مثل: (حمل كتابه الطالبُ).

وقد يكون مفهومًا من السياق مثل قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٥٤)، و«منهاج السنة النبوية» (٧/ ٩٠).

(٢) صاحب «تفسير المنار» ومؤسس «مجلة المنار».

(٣) راجع «لسان العرب» (٤/ ٤٩١).

وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١] فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾.

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول.

وإذا كان المرجع صالحًا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٥-١٠] فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل، والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال الأول: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

الإظهار في موضع الإضمار

الأصل أن يُؤتى في مكان الضمير بالضمير؛ لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] عن العشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار). وله فوائد كثيرة تظهر بحسب السياق منها:

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

٢- إن الله عدو لهم بكفرهم.

٣- أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم، فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

٢- أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح له أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عَوْدُه إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم؛ لأَوْهَم أن يكون المراد

بطانة المسلمين.

ضميرُ الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين، ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وبضمير المخاطب كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وبضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

الثالثة: الفصل أي: التمييز بين كونه ما بعده خبرًا، أو تابعًا، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرًا، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرًا، لوجود ضمير الفصل.

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥] فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، فحوَّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله وبعثنا.

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغيُّر وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالبًا، وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام.

والله أعلم. وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولله الحمد رب العالمين.

تفسير سورة الفاتحة

تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سمِّيت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سمِّيت «أم القرآن»(1)؛ والمرجع للشيء يسمى «أمًّا».

وهذه السورة لها مميزات تتميّز بها عن غيرها؛ منها: أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (2)؛ ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ فبرئ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»؟!(3).

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط: تجده مثلًا إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: «الفاتحة»، يعني: اقرأوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله؟ وهذا أيضًا غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف والاتِّباع.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1]

❁ ❁

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا؛ فإذا قلت: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «باسم الله آكل».

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقًا بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل.

---

(1) انظر «صحيح البخاري» (4427)، ومسلم (295).

(2) رواه البخاري (723)، ومسلم (394).

(3) رواه البخاري (2156)، ومسلم (2201).

وقد رناه متأخرًا لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزَّ وجلَّ.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركًا به، ومستعينًا به، إلا باسم الله عزَّ وجلَّ.

وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله»[1]. أو قال ﷺ: «عَلَى اسْمِ الله»[2]. فخص الفعل.

و﴿ٱللَّهِ﴾: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمة هي صفته. هذه دل عليها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ ورحمة هي فعله. أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم. دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله، يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي: الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع: فهو ما جاء في الكتاب والسنّة من إثبات الرحمة لله. وهو كثير جدًا؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعمًا منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: «لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عزَّ وجلَّ»؛ والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصًا بوجه من الوجوه.

---

(١) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (١٩٦٠).

(٢) رواه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (١٩٦٠).

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عزَّ وجلَّ، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بَيْنها يدل على رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلًا على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفها حتى العوام، فإنك لو سألت عاميًا صباح ليلة المطر: «بِمَ مطرنا؟» لقال: «**بفضل الله ورحمته**»[1].

مسألة: هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهرًا في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة؛ ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا: النص، وسياق السورة:

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن: إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي؛ وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله تعالى: مجّدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن؛ وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.. إلخ، قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل**»[2]؛ وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي «**الصحيح**» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**صلّيت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر؛ فكانوا لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**»[3]: والمراد: لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه، يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة، وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) رواه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٧١).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وأبوداود (٨٢١)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨١).

(٣) رواه مسلم (٣٩٩)، وأحمد في «مسنده» (١٢١٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٥)، وابن الجعد في «مسنده» (٩٢٢).

وهي الآية التي قال الله فيها: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[1]؛ لأن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: واحدة؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الثانية؛ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: الثالثة؛ وكلها حق لله عزَّ وجلَّ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: الرابعة. يعني: الوسَط؛ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبد؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبد؛ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عزَّ وجلَّ وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد؛ وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربِّه وهي الرابعة الوسطى.

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة؛ كما أن البسملة ليست من بقية السور.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو «المحبة، والتعظيم»؛ قال أهل العلم: «**لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا؛ وإنما يسمى مدحًا**»؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئًا؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفًا منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزَّ وجلَّ حمدَ محبةٍ وتعظيم؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد؟ أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ و«أل» في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للاستغراق: أي: استغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام للاختصاص والاستحقاق؛ و «الله» اسم ربنا عزَّ وجلَّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه. أي: المعبود حبًا، وتعظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ «الرب»: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قال

---

(١) سبق تخريجه.

العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات الحمد الكامل لله عزَّ وجلَّ، وذلك من «أل» في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢ ـ **ومنها:** أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

٣ ـ **ومنها:** تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن «الله» هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

٤ ـ **ومنها:** عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفة للفظ الجلالة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفة أخرى؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وصفه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فعله؛ ولو أنه جيء بـ «الرحمن» وحده، أو بـ «الرحيم» وحده لشمل الوصف والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالوصف؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالفعل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات هذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لله عزَّ وجلَّ؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

٢ ـ **ومنها:** أن ربوبية الله عزَّ وجلَّ مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كأن سائلًا يسأل: «ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟» قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

۞ قال الله تعالى:

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ صفة لله؛ و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ هو يوم القيامة؛ و﴿ٱلدِّينِ ﴾ هنا بمعنى: الجزاء؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجازي فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و«الدين» تارةً يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: «كما تدين تدان»، أي: كما تعمل تُجازى.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ ﴾ قراءة سبعية: ﴿مَلِكِ﴾، و«الملك» أخص من «المالك».

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي: أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا ولكن ليس بمالك: يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا كعامة الناس؛ ولكن الرب عزَّ وجلَّ مالكٌ ملِك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات ملك الله عزَّ وجلَّ، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلًا لا يرون أن هناك ربًا للسموات والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

٢ - **ومن فوائد الآية:** إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

٣ - **ومنها:** حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

۞ قال الله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾؛ ﴿إِيَّاكَ ﴾: مفعول به مقدم؛ وعامله: ﴿نَعۡبُدُ ﴾؛ وقُدِّم على عامله

لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك؛ وكان منفصلًا لتعذر الوصل حينئذ؛ و﴿نَعۡبُدُ﴾ أي: نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلّا لله عزَّ وجلَّ: يسجد على التراب؛ تمتلئ جبهته من التراب كل هذا - ذلّا لله؛ ولو أن إنسانًا قال: «**أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي**» ما وافق المؤمن أبدًا؛ لأن هذا الذلَّ لله عزَّ وجلَّ وحده.

و «**العبادة**» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد: لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابدًا حقًا؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابدًا حقًا؛ العبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فـ «**العبادة**» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛ و «**الاستعانة**» طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢ - **ومنها:** إخلاص الاستعانة بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، حيث قدم المفعول.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله عزَّ وجلَّ، وقال النبي ﷺ: «**تُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعَ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»؟[1].

فالجواب: أن الاستعانة نوعان:

استعانة تفويض؛ بمعنى «أنك تعتمد على الله عزَّ وجلَّ، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خاص بالله عزَّ وجلَّ؛ واستعانة.

معنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حيًا قادرًا على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادرًا عليها؛ وأما إذا لم يكن قادرًا فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٤)، ومسلم (١٠٠٩).

صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئًا؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل: أن يعتقد أن الوليَّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضًا شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فيه قراءتان: بالسين: (السراط)، وبالصاد الخالصة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ والمراد بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: الطريق؛ والمراد بـ «الهداية»: هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ تسأل الله تعالى علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا؛ و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: لجوء الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ لأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من ﴿ ٱهْدِنَا﴾؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين:

هداية علم وإرشاد وهداية توفيق وعمل، فالأولى: ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزَّ وجلَّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ والثانية: فيها التوفيق للهدى واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا

﴿ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بيَّنَّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقًا للحق فهو مستقيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وما كان مخالفًا له فهو معوج.

❁ قال الله تعالى:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾: هم النصارى قبل بعثة النبي ﷺ، وكل من عمل بغير الحق جاهلًا به.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قراءتان سبعيتان: إحداهما: ضم الهاء؛ والثانية: كسرها؛ واعلم أن القراءة التي ليست في المصحف الذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه واحترامه إذا رأوه مرةً كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون.

الوجه الثاني: أن القارئ يتهم بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارئ حديث العوام في مجالسهم.

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العامي الظن بهذا القارئ، وأن عنده علمًا بما قرأ، فذهب يقلده، فربما يخطئ، ثم يقرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها وهذه مفسدة.

ولهذا قال عليّ: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذب الله ورسوله؟!**»[1]، وقال ابن مسعود: «**إنك لا تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[2]؛ وعمر بن الخطاب لما سمع هشام بن الحكم يقرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الذي قرأها به هشام خاصمه إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (١٢٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/١٠٨).

(٢) صحيح مسلم (٥).

لهشام: «اقْرَأْ»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «هَكَذَا أُنزِلَتْ»، ثم قال النبي ﷺ لعمر: «اقْرَأْ»، فلما قرأ قال النبي ﷺ «هَكَذَا أُنزِلَتْ»[1]؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس يقرأون بها حتى جمعها عثمان رضي الله عنه على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رضي الله عنه أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد. وهو حرف قريش؛ لأن النبي ﷺ الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيَت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رضي الله عنه فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: ما دام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: وهذا مجمل؛ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوقة إليه.

ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٢ ـ **ومنها:** إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٣ ـ **ومنها:** انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام.

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل، أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم – وعلى رأسهم اليهود ـ؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق – وعلى رأسهم النصارى ـ؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. – أعني النصارى ـ؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواءً، كلهم مغضوب عليهم.

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين:** بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥ ـ **ومنها:** أنه يقدم الأشد فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفةً للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه بخلاف المخالف عن جهل.

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ الله.

(١) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (٨١٨).

تفسير سورة البقرة

تفسير سورة البقرة

نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكي؛ هذا هو الصحيح؛ لأن العبرة بالزمن لا بالمكان.

وغالب السور المدنية يكون فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ ويكون التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ وتكون غالبًا أقل شدة في الزجر، والوعظ، والوعيد؛ لأنها تخاطب قومًا كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ وتكون غالبًا أطول آيات من السور المكية.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: قد تقدم الكلام عليها في سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ حروف هجائية: ثلاثة أحرف: أَلِف، ولام، وميم؛ تقرأ لا على حسب الكتابة: «أَلَمّ»؛ ولكن على حسب اسم الحرف: «أَلِفْ لامْ ميمْ».

هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منهاعلى أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزَّ وجلَّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقًا.

القول الثالث: لها معنى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنىً؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنى، أم لا؟ وإذا كان لها

معنى فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها القول الثاني؛ وهو: أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: ألِف، باء، تاء، ثاء، جيم؛ حاء...، فهي كذلك حروف هجائية.

أما كونه تعالى اختار هذا الحرف دون غيره، ورتبها هذا الترتيب فهذا ما لا علم لنا به.

هذا بالنسبة لذات هذه الحروف؛ أما بالنسبة للحكمة منها، فعلى قول من يعين لها معنًى؛ فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى. مثل غيرها مما في القرآن.

وأما على قول من يقول: «ليس لها معنى»؛ أو: «لها معنى الله أعلم به»؛ أو: «يجب علينا أن نتوقف» فإن الحكمة عند هؤلاء على أرجح الأقوال. وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي، وجمع كثير من أهل العلم. هو: الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا القرآن لم يأتِ بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم.

فهذا أبين في الإعجاز؛ لأنه لو كان في القرآن حروف أخرى لا يتكلم الناس بها لم يكن الإعجاز في ذلك واقعًا؛ لكنه بنفس الحروف التي يتكلم بها الناس ومع هذا فقد أعجزهم؛ فالحكمة منها ظهور إعجاز القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من العبارة؛ قالوا: ويدل على ذلك أنه ما من سورة افتتحت بهذه الحروف إلا وللقرآن فيها ذكر؛ إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن؛ لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن:.

فمثلًا: قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] ليس بعدها ذكر للقرآن؛ ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن؛ وهي ذِكر قصص من كان قبلنا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:٢].

كذلك في سورة الروم، قال تعالى في أولها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]؛ فهذا الموضع أيضًا ليس فيه ذكر للقرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن وهو: الإخبار عن المستقبل.: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢، ٤]

وكذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١، ٢] ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت: ٣].

فهذا القول الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره جمع من أهل العلم هو الراجح:

أن الحكمة من هذا ظهور إعجاز القرآن في أبلغ صوره؛ حيث إن القرآن لم يأتِ بجديد من الحروف؛ ومع ذلك فإن أهل اللغة العربية عجزوا عن معارضته وهم البلغاء الفصحاء.

وقال بعضهم: إن الحكمة منها: تنشيط السامعين؛ فإذا تلي القرآن، وقرئ قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ كأنه تعالى يقول: أنصتوا؛ وذلك لأجل المشركين. حتى ينصتوا له.

ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كذلك لكان هذا في كل السور؛ مع أن أكثر السور غير مُبْتَدأةٍ بمثل هذه الحروف؛ وأيضًا لو كان كذلك ما صارت في السور المدنية. مثل سورة البقرة؛ لأن السور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القرآن؛ فالصواب أن الحكمة من ذلك هو: ظهور إعجاز القرآن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: «ذا» اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ فإذا كان المشار إليه بعيدًا تأتي بهذه اللام التي نسميها «لام البعد»؛ أما الكاف فهي للخطاب؛ وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:

الأولى: مراعاة المخاطب؛ فإن كان مفردًا مذكرًا فُتِحت؛ وإن كان مفردًا مؤنثًا كُسِرت، وإن كان مثنى قرنت بالميم، والألف: «ذلكما»؛ وإن كان جمعًا مذكرًا قرنت بالميم: «ذلكم»؛ وإن كان جمعًا مؤنثًا قرنت بالنون المشددة: «ذلكنَّ»؛ وهذه هي اللغة الفصحى.

اللغة الثانية: لزوم الفتح والإفراد مطلقًا، سواء خاطبت مذكرًا، أو مؤنثًا، أو مثنىً، أو جمعًا؛ فتقول للرجل: «ذلكَ»؛ وللمرأة: «ذلكَ»؛ وللاثنين: «ذلكَ»؛ وللجماعة: «ذلكَ».

اللغة الثالثة: أن تكون بالإفراد سواء كان المخاطب واحدًا، أم أكثر. مفتوحة في المذكر مكسورة في المؤنث.؛ فتقول: «ذلكَ» إذا كان المخاطب مذكرًا؛ وتقول: «ذلكِ» إذا كان مؤنثًا.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لكل مخاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطَب.

والمراد بـ﴿الكتاب﴾ القرآن؛ و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ بمعنى المكتوب؛ لأن «فِعال» كما تأتي مصدرًا. مثل: قتال، ونضال. تأتي كذلك بمعنى اسم مفعول، مثل: بناء بمعنى مبني؛ وغراس بمعنى مغروس؛ فكذلك «كتاب» بمعنى مكتوب؛ فهو مكتوب عند الله؛ وهو أيضًا مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣،١٥]؛ وهو مكتوب في الصحف التي بين أيدي الناس؛ وأشار إليه بأداة البعيد لعلوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أهل النحو يقولون: إنّ ﴿لَا﴾ هنا نافية للجنس؛ و﴿رَيْبَ﴾ اسمها مبني على الفتح؛ لأنه مركب معها؛ فهي في محل نصب؛ ويقولون: إنّ ﴿لَا﴾ النافية للجنس تفيد العموم في أقصى غايته. يعني تدل على العموم المطلق، فتشمل القليل والكثير؛ فإذنْ القرآن ليس فيه ريب لا قليل، ولا كثير.

و«الريب» هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي

الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقًا.

والنفي هنا على بابه؛ فالجملة خبرية؛ هذا هو الراجح؛ وقيل: إنه بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه؛ والأول أبلغ.

فإن قال قائل: ما وجه رجحانه؟

فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكذا؛ وأنت لو فسّرت كلام بشر على خلاف ظاهره لَلامَكَ هذا المتكلم، وقال: «**لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر**»؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لومًا مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم. غير الله. ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزَّ وجلَّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام وأفصحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عزَّ وجلَّ ما يتضمنه كلامه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره.

فقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعنى: ليس فيه ريب أبدًا؛ وقيل: إن الخبر هنا بمعنى النهي؛ فمعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا ترتابوا فيه؛ والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار والمنافقين؛ قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]؛ فلا يستقيم النفي حينئذٍ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي؛ ولكننا نقول: إن الله تعالى يتحدث عن القرآن من حيث هو قرآن. لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن.؛ والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه؛ عندما أقول لك: «هذا الماء عذب» فهذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذبًا؛ كون مذاق الماء العذب مرًّا عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب؛ وقد قال المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيْضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبة؛ فإن القرآن في حد ذاته ليس محل ريبة؛ والله سبحانه وتعالى يصف القرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيرًا من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولون ذلك جحودًا، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القرآن؛ ويكون في

داخل نفسه يعرف أن هذا ليس بقول الرسول ﷺ وأن محمدًا ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك يجحدون، وينكرون.

وعلى هذا؛ فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه. وهو: أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾: وقف بعض القراء على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ وعليه فيكون خبر ﴿لَا﴾ محذوفًا، والتقدير: لا ريب في ذلك؛ ويكون الجار والمجرور خبرًا مقدمًا، و﴿هُدًى﴾ مبتدأ مؤخرًا؛ ووقف بعضهم على قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾؛ وعليه فيكون الجار والمجرور خبر ﴿لَا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو هدًى للمتقين.

و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾؛ فالإشارة بالبعد تفيد علوَّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم والمدح والعظمة، فهو وصف أيضًا لمن تمسك به.

٢ - **ومنها:** رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنًا به؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن نزل من عند الله يقينًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٤ - **ومنها:** أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلِّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.

٥ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد والتوفيق.

فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالجواب: أن الهدى نوعان: عام، وخاص؛ أما العام: فهو الشامل لجميع الناس وهو هداية العلم

والإرشاد؛ ومثاله: قوله تعالى عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى عن ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ وأما الخاص فهو هداية التوفيق: أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله: قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥]

التَفسِير

بعد أن ذكر الله عزَّ وجلَّ أن المتقين هم الذين ينتفعون ويهتدون بهذا الكتاب، بيَّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فذكر في هذه الآية ست صفات:.

الأولى: الإيمان بالغيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب؛ وعلى هذا فـ﴿الغيب﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل: أي بمعنى: غائب.

الصفة الثانية: إقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: يقومون بها على وجه مستقيم، كما جاء عن رسول الله ﷺ(١)؛ والمراد بـ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا الجنس؛ فتعم الفريضة، والنافلة.

الصفة الثالثة: الإنفاق مما رزقهم الله في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: مما أعطيناهم من المال يخرجون؛ و«مِن» هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكون للبيان؛ ويتفرع على ذلك ما سيُبيَّن في الفوائد. إن شاء الله تعالى..

الصفة الرابعة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: يؤمنون بجميع الكتب المنزلة؛ وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمنًا؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها؛ والمراد بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها.

الصفة الخامسة: الإيقان بالآخرة في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ والمراد بذلك: البعث

---

(١) لحديث رسول الله ﷺ «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، رواه البخاري (٦٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦٥٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٦٧٢).

بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و«**الإيقان**» هو: الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليه ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس؛ وأشار إليهم بصيغة البعد لعلوِّ مرتبتهم؛ ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ أي: على علم، وتوفيق؛ و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء؛ وتفيد علوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجًا أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلًا ينظرون في أسرار شريعة الله، وحِكَمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضًا عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه؛ و﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي خالقهم المدبر لأمورهم؛ والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا، والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الجملة مبتدأ وخبر، بينهما ضمير الفصل الدالّ على التوكيد والحصر؛ وأعيد اسم الإشارة تأكيدًا لما يفيده اسم الإشارة الأول من علوّ المرتبة، والعناية التامة بهم كأنهم حضروا بين يدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية والوسيلة؛ فالغاية: الفلاح؛ ووسيلته: ما سبق؛ و«**الفلاح**» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

تنبيه: من المعروف عند أهل العلم أن العطف يقتضي المغايرة أي: أن المعطوف غير المعطوف عليه؛ وقد ذكرنا أن هذه المعطوفات أوصاف للمتقين؛ وهو موصوف واحد؛ فكيف تكون المغايرة؟

والجواب: أن التغاير يكون في الذوات كما لو قلت: «قدم زيد، وعمرو»؛ ويكون في الصفات كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى (١) ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ [الأعلى: ١، ٤]؛ قالوا: والفائدة من ذلك أن هذا يقتضي تقرير الوصف الأول. كأنه قال: أتصف بهذا، وزيادة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن من أوصاف المتقين الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

٢ - **ومنها**: أن من أوصاف المتقين إقامة الصلاة؛ وهو عام لفرضها ونفلها.

ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ وإقامتها أن يأتي بها

مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

٣ ـ ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات والإنفاقِ في سبل الخير.

٤ ـ ومنها: أن صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

٥ ـ ومنها: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن «مِن» للتبعيض؛ أو للبيان.

ويتفرع على هذا: جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

٦ ـ ومن فوائد الآية: ذم البخل؛ ووجهه أن الله مدح المنفقين؛ فإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدة آيات.

تنبيه: لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٧ ـ ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين، الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل من قبله.

٨ ـ ومنها: أن من أوصاف المتقين الإيقان بالآخرة على ما سبق بيانه في التفسير.

٩ ـ ومنها: أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائمًا الإيمان به عزَّ وجلَّ، وباليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقط: يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه: يسرق مثلًا؛ يتمتع بشهوته؛ يكذب؛ يغش..؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل.

١٠ ـ ومنها: سلامة هؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: ٥].

١١ ـ ومنها: أن ربوبية الله عزَّ وجلَّ تكون خاصة وعامة؛ وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

١٢ ـ ومنها: أن مآل هؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٥].

١٣ ـ ومنها: أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذُكر؛ فإن اختلَّت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلَّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد وينقص، ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات: هناك

رتب كما جاء في الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الْغُرَفِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ»؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ« لَا؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»[1]، أي ليست خاصة بالأنبياء.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة:٦:٧]

التفسير

ثم ذكر الله قسمًا آخر. وهم الكافرون الخلَّص.؛ ففي هذه السورة العظيمة ابتدأ الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخلَّص؛ ثم الكافرون الخلَّص؛ ثم المؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذن الطيب: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ والخبيث: الكفار؛ والأخبث: المنافقون.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ أي مستوٍ؛ وهي إما أن تكون خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ ويكون قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فاعلًا بـ﴿سَوَاءٌ﴾ مسبوقًا بمصدر؛ والتقدير: سواء عليهم إنذارُك وعدمُه؛ وإما أن تكون ﴿سَوَاءٌ﴾ خبرًا مقدمًا، و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأً مؤخرًا؛ والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾؛ والأول أولى؛ لأنه يجعل الجملة جملة واحدة؛ وهنا انسبك قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بمصدر مع أنه ليس فيه حرف مصدري؛ لكنهم يقولون: إن همزة الاستفهام التي للتسوية يجوز أن تسبك، ومدخولها بمصدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا تسلية من الله لرسوله ﷺ. لا اعتذارًا للكفار، ولا تيئيسًا له ﷺ و«الإنذار» هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ والرسول ﷺ بشير ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ نذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين؛ فإنذار النبي ﷺ وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين والمخاصمين. الذين تبين لهم الحق، ولكن جحدوه. مستوٍ عليهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٨٣)، ومسلم (٢٨٣١).

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا محط الفائدة في نفي التساوي. أي: إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم. لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

و«الختم»: الطبع؛ و«الطبع» هو أن الإنسان إذا أغلق شيئًا ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء؛ وهكذا فهؤلاء - والعياذ بالله - قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: وختم على سمعهم، فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ والختم على الأذن: أن لا تسمع خيرًا تنتفع به.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾: الواو للاستئناف؛ فالجملة مستقلة عما قبلها؛ فهي مبتدأ، وخبر مقدم؛ ويحتمل أن تكون الواو عاطفة، لكن عطف جملة على جملة؛ و﴿غِشَـٰوَةٌ﴾ أي: غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الكفار الذين بقوا على كفرهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار.

انتهى الكلام على الصنف الثاني من أصناف الخلق، وهم الكفار الخُلَّص الصرحاء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** تسلية الرسول ﷺ حين يردُّه الكفار، ولا يَقبلون دعوته.

٢ - **ومنها:** أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد. قد ختم الله على قلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]. يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم.

٣ - **ومنها:** أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهًا من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

٤ - **ومنها:** أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني لا يصل إليها الخير.

٥ - **ومنها:** أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر؛ لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزَّ وجلَّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيِّنة مشهودة.

٦ - **ومنها:** وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم.

مسألة: إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء

وامتحان من الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: أن له سببًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: ﴿مَن﴾ للتبعيض؛ أي: وبعض الناس؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف. لا بإيمان، ولا بكفر.؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]؛ و﴿ٱلنَّاسِ﴾ أصلها الأناس؛ لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة تخفيفًا، كما قالوا في «خير»، و«شر»: إن أصلهما: «أخير»، و«أشرّ»؛ لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال؛ وسُموا أناسًا: من الأُنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضًا، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون: «الإنسان مدني بالطبع»؛ بمعنى: أنه يحب المدنية. يعني الاجتماع، وعدم التفرق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يقول بلسانه. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بقلوبهم، وسبق معنى الإيمان بالله، وباليوم الآخر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلّص، ثم الكفار الخلّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفة، وفهمًا.

٢ ـ **ومنها:** أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن المنافقين ليسوا بمؤمنين. وإن قالوا: إنهم مؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن فليسوا بمسلمين.

٤ ـ **ومنها:** أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان.

ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: «آمنا» بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛

لأن الإيمان باللسان ليس بشيء.

قال الله تعالى:

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: بإظهار إسلامهم الذي يعصمون به دماءهم، وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على لفظ الجلالة؛ والمعنى: ويخدعون الذين آمنوا بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فيظن المؤمنون أنهم صادقون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: ما يخدع هؤلاء المنافقون إلا أنفسهم، حيث منَّوها الأماني الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه؛ ولكن لا يُحِسُّون به، كما تقول: «مَرَّ بي فلان ولم أشعر به».

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر وخديعة؛ لقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون.

٢ ـ ومنها: التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: «فلان يخدع» فإنك تزداد تحفظًا منه؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا حذرًا، فلا ينخدع بمثل هؤلاء.

فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟

فالجواب: نعرفه بأن نتتبع أقواله وأفعاله: هل هي متطابقة، أو متناقضة؟ فإذا علمنا أن هذا الرجل يتملق لنا، ويظهر أنه يحب الإسلام، ويحب الدين، لكن إذا غاب عنا نسمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن المكر السيئ لا يحيق إلَّا بأهله؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾: فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئًا، ولا رسوله ﷺ ولا المؤمنين.

٤ ـ **ومنها**: أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و«الشعور» أخص من العلم؛ فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسول ﷺ، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم. والعياذ بالله، فلا يشعرون بهذا الأمر.

قال الله تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هذه الجملة جملة اسمية تدل على مكث وتمكنٍ هذا المرض في قلوبهم؛ ولكنه مرض على وجه قليل أثّر بهم حتى بلغوا النفاق؛ ومن أجل هذا المرض قال سبحانه وتعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: الفاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضًا على مرضهم؛ لأنهم. والعياذ بالله. يريدون الكفر؛ وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب أو فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيرًا فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه، وعلته.

وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولون لشياطينهم إذا خلوا إليهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: بهؤلاء المؤمنين السذج. على زعمهم. ويرون أن المؤمنين ليسوا بشيء، وأن العِلْية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جاء التعبير بـ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الذي يفيد المصاحبة والملازمة.

فهذا مرض زادهم الله به مرضًا إلى مرضهم حتى بلغوا إلى موت القلوب، وعدم إحساسها وشعورها.

قوله تعالى في مجازاتهم: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: عقوبة؛ ﴿أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلمًا لقوته وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلمًا لكثرته: فقد يكون ضربًا خفيفًا؛ ولكن إذا كثر وتوالى آلَمَ؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا ألم حسي؛ وقال تعالى في أهل النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكۡذِبُونَ﴾: الباء للسببية. أي: بسبب كذبهم.، أو تكذيبهم؛ و«ما» مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: بكونهم كاذبين أو: بكونهم مكذبين؛ لأن في الآية قراءتين؛ الأولى: بفتح الياء، وسكون الكاف، وكسر الذال مخففة؛ ومعناها: يَكْذِبون بقولهم: آمنا بالله، وباليوم الآخر. وما هم بمؤمنين.؛ والقراءة الثانية: بضم الياء، وفتح الكاف، وكسر الذّال مشددة؛ ومعناها: يُكَذِّبون الله، ورسوله؛ وقد اجتمع الوصفان في المنافقين؛ فهم كاذبون مكذّبون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضًا؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرِده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزۡدَادُوا۟ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن أسباب إضلال الله العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡا۟ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

٣ - **ومنها:** أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد وينقص؛ والمرض يزيد وينقص.

٤ - **ومنها:** الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾.

٥ - **ومنها:** أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي أن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكۡذِبُونَ﴾.

٦ - **ومنها:** أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال.

٧ - **ومنها:** ذمُّ الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله ﷺ أن الكذب من خصال المنافقين، فقال ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ..»[1] الحديث؛ والكذب مذموم شرعًا، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

مسألة: إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟

فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذٍ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله. تبارك وتعالى. حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١١:١٢]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾: القائل هنا مبهم للعموم. أي: ليعم أيَّ قائل كان؛ و «الإفساد في الأرض» هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي. كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما. وهو الأولى؛ أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض.

وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتون إلى اليهود، ويقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]: فيزدادوا استعداءً للرسول ﷺ ومحاربة له؛ كذلك أيضًا من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَّقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحًا واضحًا، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ و﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ؛ و﴿مُصْلِحُونَ﴾: خبر؛ والجملة اسمية؛ والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار؛ فكأنهم يقولون: ما حالنا إلا الإصلاح؛ يعني: أنه ليس فيهم إفساد مطلقًا.

ومن توفيق الله أنه لم يلهمهم فيقولوا: إنما نحن المصلحون؛ فلو أنهم قالوا: «نحن المصلحون»

كان مقتضاه أن لا مصلح غيرهم؛ لكنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما حالنا إلا إصلاح؛ ولم يدَّعوا أنهم المصلحون وحدهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ ﴿أَلَآ﴾: أداة تفيد التنبيه والتأكيد؛ و﴿إِنَّهُمْ﴾: توكيد أيضًا؛ و﴿هُمُ﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد أيضًا؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿أَلَآ﴾، «إن»، و﴿هُمُ﴾ وهذا من أبلغ صيغ التوكيد؛ وأتى بـ «أل» الدالة على حقيقة الإفساد، وأنهم هم المفسدون حقًا؛ ووجه حصر الإفساد فيهم أن ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل يفيد الحصر. أي: هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] أي: هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلادتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض.

٢ ـ **ومنها:** أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحًا صريحًا.

٤ ـ **ومنها:** أنه ليس كل من ادعى شيئًا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

٥ ـ **ومنها:** أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

٦ ـ **ومنها:** قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي: ﴿أَلَآ﴾ و «إن» و﴿هُمُ﴾؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾: القائل هنا مبهم للعموم. أي ليعم أيَّ قائل كان؛ والكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية. أي: كإيمان الناس؛ والمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا: الصحابة الذين كانوا في المدينة، وإمامهم النبي ﷺ

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ الاستفهام هنا للنفي والتحقير؛ والمعنى: لا نؤمن كما آمن السفهاء؛ وربما يكون أيضًا مضمنًا معنى الإنكار. أي: إنهم ينكرون على من قال: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾؛ وهذا أبلغ من النفي المحض؛ و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: الذين ليس لهم رشد وعقل؛ والمراد بهم هنا: أصحاب النبي ﷺ. على حدِّ زعم هؤلاء المنافقين؛ فقال الله تعالى. وهو العليم بما في القلوب. ردًّا على هؤلاء: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿أَلَآ﴾، و «إن»، وضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾، وهو أيضًا مفيد للحصر؛ وهذه الجملة كالتي قبلها في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون سفههم؛ فإن قيل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟

فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق؛ بل يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

٢ ـ **ومنها:** إعجاب المنافقين بأنفسهم؛ لقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٣ ـ **ومنها:** شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

٤ ـ **ومنها:** أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فأعداء الله في كل زمان وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر تنفيرًا عنهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] وورثة الأنبياء مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين، ولكن ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء؛ لأن أعداء الأنبياء يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين: مسلك الإضلال والدعاية الباطلة في كل زمان ومكان؛ ثم مسلك السلاح. أي: المجابهة المسلحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هَادِيًا﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال. وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة، وتضليل الأمة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقال تعالى: ﴿وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الثاني. وهو المجابهة المسلحة.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل من لم يؤمن فهو سفيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٦ ـ **ومنها**: أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمان بالله، واتباع شريعته؛ لأن الكافر المخالف للشريعة سفيه؛ فيقتضي أن ضده يكون حكيمًا رشيدًا.

٧ ـ **ومنها**: تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول؛ فهؤلاء قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والله عزَّ وجلَّ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعني: هم السفهاء لا أنتم؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل: فاستمع إلى قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] هذه مدافعة فعلية، حيث تنْزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جلَّ وعلاً الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزَّ وجلَّ، ولا نخشى أحدًا سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله، أو أشد خشية؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عزَّ وجلَّ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزَّ وجلَّ ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخْلَف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عزَّ وجلَّ؛ وهذه هي المصيبة والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيرًا من ولاة المسلمين. مع الأسف.

لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان وفلان؛ أو الدولة الفلانية والفلانية. ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول؛ وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله؛ فبدلًا من أن يكونوا عبيدًا لله أعزة صاروا عبيدًا للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحدًا في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط، وقلنا: لا نريد إلا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا؛ ولهذا يقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء.

٨ـ ومن فوائد الآية: الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزَّ وجلَّ نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ فالحقيقة أنهم من أجهل الناس. إن لم يكونوا أجهل الناس ـ؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهؤلاء المنافقون من أجهل الناس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤:١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قابلوهم، أو جلسوا إليهم؛ ﴿قَالُوا﴾ أي للمؤمنين الذين لقوهم ﴿آمَنَّا﴾ أي: كإيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾؛ ضُمِّن الفعل هنا معنى «رجعوا»؛ ولذلك عُدِّي بـ﴿إِلَىٰ﴾، لكن عُدِّي بالفعل ﴿خَلَوْا﴾ ليكون المعنى: رجعوا خالين بهم؛ والمراد بـ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ كبراؤهم؛ وسمي كبراؤهم بـ «الشياطين» لظهور تمردهم؛ وقد قيل: إن «الشيطان» كل مارد؛ أي: كل عاتٍ من الجن، أو الإنس، أو غيرهما: شيطان؛ وقد وصف النبي ﷺ الكلب الأسود بأنه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه؛ لأن أعتى الكلاب وأشدها قبحًا هي الكلاب السود؛ فلذلك قال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[1]؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان. أي: مَريدهم، وعاتيهم.

---

(١) رواه مسلم (٥١٠)، والترمذي (٣٣٨)، والنسائي (٧٥٠)، وأبوداود (٧٠٢)، وابن ماجه (٩٥٢)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣٦١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٦).

وكلمة: «شيطان»: النون فيها أصلية من «شطن» بمعنى: بعُد؛ ولكونها أصلية صُرف الاسم بتنوين، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]؛ ولو كانت النون والألف زائد تين منعت من الصرف؛ لأن الألف والنون إذا كانتا زائدتين في عَلَم أو وصف فإنه يُمنع من الصرف؛ وأما إذا كانتا زائدتين في غير علم ولا وصف فإنه لا يمنع من الصرف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي صحب مقارنون لكم تابعون لكم؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ما نحن إلا ساخرون بالمؤمنين: نظهر لهم أنا مسلمون لنخادعهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يسخر تبارك وتعالى بهم بما أملى لهم، وكفَّ أيدي رسول الله ﷺ وأصحابه عن قتلهم، مع أنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ الطغيان: مجاوزة الحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ و«العمه» الضلال؛ والمعنى: أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم؛ واعلم أن بين «يَمد» الثلاثي و«يُمد» الرباعي فرقًا؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]: وهذا في الشر؛ وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]: وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: فهو في الشر.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ خوفًا من المؤمنين؛ و﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ خوفًا منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر.

٢ - **ومنها:** أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقًا؛ واعلم أن ها هنا أربعة أقسام:

قسم هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل «المتكلم»، و«المريد»؛ فـ«المتكلم» و«المريد» ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة.

القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير.. وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: «يسمى الله به» أن نُحْدِث له اسمًا بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به.

القسم الثالث: ما لا يكون كمالًا عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد؛ فهذا لا يجوز أن

يوصف به إلا مقيدًا، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

مسألة: هل «المنتقم» من جنس الماكر، والمستهزئ؟

الجواب: مسألة «المنتقم» اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ«العفوّ»؛ فيقال: «العفوُّ المنتقم»؛ لأن «المنتقم» على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرن بـ«العفوّ»؛ ومثله أيضًا المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«المُعِز»؛ فيقال: «المعزُّ المُذل»؛ ومثله أيضًا «الضار»: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«النافع»؛ فيقال: «النافع الضار»؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة.

ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق. ولو مقرونًا بما يقابله. أي: إنك لا تقول: العفوّ المنتقم؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى «المنتقم»؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ والحديث الذي ورد في سرد أسماء الله الحسنى، وذُكر فيه المنتقم غير صحيح؛ بل هو مدرج؛ لأن هذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشياء هي من أسماء الله. مما يدل على أنه ليس من كلام الرسول ﷺ.

القسم الرابع: ما يتضمن النقص على سبيل الإطلاق: فهذا لا يوصف الله سبحانه وتعالى به أبدًا، ولا يسمى به، مثل: العاجز؛ الضعيف؛ الأعور.. وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقًا.

والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزئين مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] أي: أعظمَ منه كيدًا؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئًا من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فكل قول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جلَّ وعلاً يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقيًا؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله

فلا تقول لما حرم: «إنه حلال»، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقًا؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و«الخيانة» معناها: الخديعة في موضع الائتمان. وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٤٢] قال: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1]، وقال ﷺ: «لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[2]؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

٣ـ ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

فيستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزَّ وجلَّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجًا من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. كما جاء في الحديث[3].

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيمًا على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيمًا على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٤ـ ومن فوائد الآيتين: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ ومن الطغيان أن يُقدِّم المرء قوله على

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٤٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٢٥٢)، والحاكم في «مستدركه» (٢٢٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٤٠).

(٣) وذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾» [هود: ١٠٢].

قول الله ورسولهﷺ؛ والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

قال الله تعالى:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ «أولاء» اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولًا؛ و﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ أي: اختاروا؛ و﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: العماية؛ وهي: ما ساروا عليه من النفاق؛ و﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: الباء هنا للعوض؛ أخذوا الضلالة، وأعطوا الهدى. مثلما تقول: اشتريت الثوب بدرهم؛ فالهدى المدفوع عوض عن الضلالة المأخوذة، كما أن الدرهم المدفوع عوض عن الثوب المأخوذ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ أي: ما زادت تجارتهم. وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي: ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

٢ - **ومنها:** شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها.

٣ - **ومنها:** أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملًا وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظنًّا منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾.

٥ - **ومنها:** أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]: تقف على ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذا وصلناها بما

قبلها صار الخير معلقًا بكوننا نعلم. وهو خير؛ علمنا أم لم نعلم.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب. وليس على صواب.

قال الله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧-١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفهم، وحالهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: طلب من غيره أن يوقد له نارًا، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه؛ ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أي: أنارت ما حول المستوقد، ولم تذهب بعيدًا لضعفها؛ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يعني: وأبقى حرارة النار؛ و«لما» حرف شرط، و﴿أَضَاءَتْ﴾ فعل الشرط؛ و﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾ جواب الشرط؛ والمعنى: أنه بمجرد﴾ الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة.

وفي هذه الآية نجد اختلافًا في الضمائر: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾: مفرد؛ ﴿حَوْلَهُ﴾: مفرد؛ ﴿بِنُورِهِمْ﴾: جمع؛ ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾: جمع؛ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: جمع؛ قد يقول قائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟ الجواب من وجهين:

الأول: أن اسم الموصول يفيد العموم؛ وإذا كان يفيد العموم فهو صالح للمفرد والجمع؛ فتكون الضمائر في ﴿اسْتَوْقَدَ﴾، و﴿حَوْلَهُ﴾ عادت إلى اسم الموصول باعتبار اللفظ؛ وأما ﴿بِنُورِهِمْ﴾، و﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، و﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعادت إلى الموصول باعتبار المعنى.

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له، ولرفقته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ..﴾ إلخ.

وعلى الوجه الثاني تكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة، وبقيت الحرارة والظلمة، وتركهم جميعًا في ظلمات لا يبصرون.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: جمعها لتضمنها ظلمات عديدة؛ أولها: ظلمة الليل؛ لأن

استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت نارًا بالنهار فإنها لا تضيء؛ والثانية: ظلمة الجو إذا كان غائمًا؛ والثالثة: الظلمة التي تحدث بعد فقد النور؛ فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة؛ و﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ دال على شدة الظلمة.

قوله تعالى في وصفهم: ﴿صُمٌّۢ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. أي: هم صم؛ و﴿صُمٌّۢ﴾ جمع أصم؛ و«**الأصم**» الذي لا يسمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شيء معين: أي: هم صم عن الحق، فلا يسمعون؛ والمراد نفي السمع المعنوي. وهو السمع النافع؛ لا الحسي. وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون؛ وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]

قوله تعالى: ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ والمراد أنهم لا ينطقون بالحق؛ وإنما ينطقون بالباطل؛ و﴿عُمْىٌ﴾ جمع أعمى؛ والمراد: أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآيات التي تظهر على أيدي الرسل. عليهم الصلاة والسلام.

فبهذا سُدت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسموع؛ وإما مشهود؛ وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون؛ كذلك أيضًا لا يؤخذ منهم حق؛ لأنهم لا ينطقون بالحق؛ لأنهم بُكم؛ فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية. أي: بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم ـ؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالًا محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢ ـ **ومنها:** ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد؛ وكل مثل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.

٣ ـ **ومنها:** أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾؛ فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى، والعلم، والنور؛ فإذا وصل إلى قلوبهم. بمجرد ما يصل

إليها. يتضاءل ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام، وأخوال، وأقارب؛ فربما يجلس إلى المؤمن حقًّا، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.

٤- ومن فوائد الآيتين: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين. وهي أوسع ما تحدَّث الله به عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

٥ - ومنها: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلَّت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات.

٦ - ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، كأنه أخذه قهرًا.

فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزَّ وجلَّ بسببهم؛ وتذكَّر دائمًا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه .

٧- ومن فوائد الآيتين: تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾.

ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك. ليس عنده نور، ولا هدًى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

٨- ومن فوائد الآيتين: أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن يُنفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنفال: ٢١].

٩ - ومنها: أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق. كالأبكم.

١٠ - ومنها: أنهم لا يبصرون الحق. كالأعمى.

١١ - ومنها: أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحابًا للمؤمنين، وأصحابًا للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئًا فإنه لا يكاد أن يرجع عنه.

قال الله تعالى:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٩:٢٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ ﴿ أَوْ ﴾ هنا للتنويع؛ لأن المثل الثاني نوع آخر؛ والكاف اسم بمعنى «مِثل»؛ فالمعنى: أو مِثل صيب؛ ويجوز أن نقول: إن الكاف حرف تشبيه، والتقدير: أو مَثلهم كصيب؛ و«الصيِّب»: المطر النازل من السماء؛ والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا:العلو.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ أي: معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له؛ وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل؛ وظلمة السحاب؛ وظلمة المطر؛ والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾: وهذا لا يكون إلا في الليل؛ والثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيَحدُث من ذلك ظلمةٌ فوق ظلمة؛ والثالث: ظلمة المطر النازل؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدِث ظلمةً؛ هذه ثلاث ظلمات؛ وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

قوله تعالى: ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾؛ «الرعد» هو الصوت الذي نسمعه من السحاب؛ أما «البرق» فهو النور الذي يلمع في السحاب.

فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم. فهي مملوءة ظلمة من الأصل؛ أصابها صيب. وهو القرآن. فيه رعد؛ والرعد هو وعيد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد؛ وفيه برق. وهو وعد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾؛ الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ يعود على أصحاب الصيب؛ ففيها حذف المضاف؛ والتقدير: أصحاب الصيب؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب؛ وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب؛ و«أصابع» جمع أصبع، وفيه عشر لغات أشار إليها في قوله:

وهمزَ أنملةٍ ثلِّث وثالثة التسعُ في إصبعٍ واختم بأصبوع

هذا وقد قيل: إن في الآية مجازًا من وجهين؛ الأول: أن الأصابع ليست كلها تجعل في

الأذن؛ والثاني: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن؛ والتحقيق: أنه ليس في الآية مجاز؛ أما الأول: فلأن «أصابع» جمع عائد على قوله تعالى: ﴿يجعلون﴾، فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع. أي: يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه؛ وأما الثاني: فلأن المخاطَب لا يمكن أن يفهم من جعْل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن؛ وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تحمل الحقيقة على إدخال جميع الأصبع؛ بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع؛ وحينئذ لا مجاز في الآية؛ على أن القول الراجح:أنه لا مجاز في القرآن أصلًا؛ لأن معاني الآية تدرك بالسياق؛ وحقيقة الكلام: ما دلّ عليه السياق. وإن استعملت الكلمات في غير أصلها.وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة، وأصول الفقه، وأكبر دليل على امتناع المجاز في القرآن: أن من علامات المجاز صحة نفيه، وتبادر غيره لولا القرينة؛ وليس في القرآن ما يصح نفيه؛ وإذا وجدت القرينة صار الكلام بها حقيقة في المراد به.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾؛ ﴿مِّنَ﴾ سببية. أي: يجعلونها بسبب الصواعق ـ؛ و﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة؛ وهي ما تَصعَق. أي: تُهلك. مَنْ أصابته؛ هذه الصواعق معروفة بآثارها؛ فهي نار تنطلق من البرق؛ فإذا أصابت أحدًا أو شيئًا أحرقته؛ وغالبًا تسقط على النخيل وتحرقها؛ وترى فيها النار والدخان؛ وأحيانًا تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها.

فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا؛ إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فلن ينفعهم الحذر.

ولما بَيّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بَيَّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يقرب أن يخطف أبصارهم. أي: يأخذها بسرعة فتعمى؛ وذلك لقوته وضعف أبصارهم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾؛ فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة، ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين؛ كلما أضاء لهم. ولو شيئًا يسيرًا. مشوا فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أصابهم بظلمة؛ وذلك أن الضوء إذا انطفأ بسرعة اشتدت الظلمة بعده؛ ﴿قاموا﴾ أي: وقفوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا المثل ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلًا؛ بل كانوا كافرين من قبل، كاليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج والأوس، ومنهم يهود من بني إسرائيل؛ فاليهود لم يذوقوا طعم الإيمان أبدًا؛ لأنهم كفار من الأصل؛ لكن أظهروا الإسلام خوفًا من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر؛ فهؤلاء ليسوا على هدًى كالأولين؛ الأولون استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم. والعياذ بالله. انتكسوا؛ لكن هؤلاء من الأصل في ظلمات؛ فيكون هذا المثل غير المثل الأول؛ بل هو لقوم آخرين؛ والمنافقون أصناف بلا شك.

و«**الصواعق**» عبارة عما في القرآن من الإنذار والخوف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ و«**البرق**» نور الإسلام، لكنه ليس نورًا يستمر؛ نور البرق ينقطع في لحظة وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلًا، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شع، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضًا يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي ﷺ؛ بل لكبريائهم وحسدهم للعرب، يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعته ومقابلته.

فالظاهر أن القول الراجح أن هذين مثلان يتنزلان على صنفين من المنافقين.

فإن قال قائل: الصنف الأول كيف نقول: إنه دخل الإيمان في قلوبهم؟

فالجواب: نقول: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ وهذا يدل على أنهم آمنوا أولًا، ثم كفروا ثانيًا؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولم تستنر به؛ وإنما هو وميض ضوء ما لبث أن طفئ؛ وإلا فإن الإيمان إذا دخل القلب دخولًا حقيقيًّا فإنه لن يخرج منه بإذن الله؛ ولهذا سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب الرسول ﷺ الذين يدخلون في الإسلام: «**فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؟ فقال: لا؛ فقال: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ**»(١)؛ لكن الإيمان الهش - الذي لم يتمكن من القلب - هو الذي يُخشى على صاحبه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين**: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٢ - **ومنها**: أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلا يُخطف بصره.

٣ - **ومنها**: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: ﴿أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

٤ ـ **ومنها:** إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾

٥ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ أن يمتعه بسمعه وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ وفي الدعاء المأثور: «مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا»(١).

٦ ـ **ومنها:** أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء.

٧ ـ **ومنها:** عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهو جلَّ وعلَّا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: النداء هنا وجِّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهًا للمؤمنين. والله أعلم بما أراد في كتابه ـ؛

ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك – أي: عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس ـ؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلَّم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت.

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي: تذللوا له بالطاعة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي ذلًّا تامًّا ناشئًا عن المحبة والتعظيم و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر لشئون خلقه؛ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم من العدم؛ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ معطوف على الكاف في قوله تعالى: ﴿خلقكم﴾. يعني وخلق الذين من قبلكم؛ والمراد بـ«من قبلنا»: سائر الأمم الماضية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٣٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٧٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ «لعل» هنا للتعليل. أي: لتصلوا إلى التقوى؛ ومعلوم أن التقوى مرتبة عالية، حتى قال الله عزَّ وجلَّ في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** العناية بالعبادة؛ يستفاد هذا من وجهين؛ الوجه الأول: تصدير الأمر بها بالنداء؛ و الوجه الثاني: تعميم النداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنَّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ - **ومنها:** أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

٣ - **ومنها:** وجوب عبادة الله عزَّ وجلَّ وحده. وهي التي خُلق لها الجن والإنس؛ و«العبادة» تطلق على معنيين؛ أحدهما: التعبد. وهو فعل العابد؛ والثاني: المتعبَّد به. وهي كل قول أو فعل ظاهر أو باطن يقرب إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومنها:** أن وجوب العبادة علينا مما يقتضيه العقل بالإضافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ فإن الرب عزَّ وجلَّ يستحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هؤلاء المشركين الذين لم يمتثلوا هذا الأمر إذا أصابتهم ضرَّاء، وتقطعت بهم الأسباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ لأن فطرتهم تحملهم على ذلك ولابد.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات أن الله عزَّ وجلَّ هو الخالق وحده، وأنه خالق الأولين والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٦ - **ومنها:** أن من طريق القرآن أنه إذا ذَكر الحكم غالبًا ذَكر العلة؛ الحكم: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ والعلة: كونه ربًّا خالقًا لنا، ولمن قبلنا.

٧ - **ومنها:** أن التقوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٨ - وربما يستفاد التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضأ؟كيف نصلي؟. يعني: ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقرأ، ثم يركع، ثم يسجد.. إلخ، إلا بعدلوحي.

٩ - **ومنها:** الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبادة إلا بالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري رَحِمَهُ اللهُ على هذه المسألة بقوله:(باب: العلم قبل القول والعمل) [(١)].

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا..﴾ هذا من باب تعديد أنواع من مخلوقاته عزَّ وجلَّ؛ جعل الله لنا الأرض فراشًا مُوَطَّأة يستقر الإنسان عليها استقرارًا كاملًا مهيأة له يستريح فيها. ليست نشَزًا؛ وليست مؤلمة عند النوم عليها، أو عند السكون عليها، أو ما أشبه ذلك؛ والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾. كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]: السماء جعلها الله بمنزلة البناء، وبمنزلة السقف، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [لأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا العلو؛ لأن الماء. الذي هو المطر. ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ..﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ وبهذا نعرف أن السماء يطلق على معنيين؛ المعنى الأول: البناء الذي فوقنا؛ والمعنى الثاني: العلو.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي بسببه؛ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وجمعت باعتبار أنواعها.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي عطاء لكم؛ وهو مفعول لأجله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ أي لا تُصَيِّروا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي نظراء، ومشابهين في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِد له في الخلق، والرزق، وإنزال المطر، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية ومقتضياتها؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

الله إقرارًا تامًا، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهًا آخر؛ وينكرون على من وحَّد الله حتى قالوا في الرسول ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]؛ وإقرارهم بالخلق والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛ يعني: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان رحمة الله تعالى، وحكمته في جعل الأرض فراشًا؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يستقر الإنسان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشًا.

٢ ـ **ومنها:** جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بناءً أن نعلم بذلك قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن هذه السماء المحيطة بالأرض من كل الجوانب نعلم أنها كبيرة جدًا وواسعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

٣ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى ينزل هذا المطر العظيم بلحظة؛ وقصة الرجل الذي دخل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قال: ادع الله يغيثنا، فرفع ﷺ يديه، وقال: «اَللَّهُمَّ أَغِثْنَا»[1]، وما نزل من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته.

٤ ـ **ومنها:** حكمة الله سبحانه وتعالى، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الذي تحيى به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولو كان يجري على الأرض لحُرِمت منه أراضٍ كثيرة ـ الأراضي المرتفعة لا يأتيها شيء ـ؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضًا: أنه ينزل رذاذًا. يعني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

٥ ـ **ومنها:** إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

٦ ـ **ومنها:** أن الأسباب لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾.

٧ ـ ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب، مثل: لو أن أحدًا من الناس غرق، وجاء رجل فأخرجه ـ أنقذه من الغرق ـ؛ فليقل: أنقذني الله بفلان؛ وله أن يقول: أنقذني فلان؛ لأنه فعلًا أنقذه؛ وله أن يقول: أنقذني الله ثم فلان؛ وليس

(١) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧).

له أن يقول: أنقذني الله وفلان؛ لأن هذا تشريك مع الله؛ ويدل لهذا. أي: الاختيار أن يضيف الشيء إلى الله مقرونًا بالسبب. :أن النبي ﷺ لما دعا الغلام اليهودي للإسلام وكان هذا الغلام في سياق الموت، فعرض عليه النبي ﷺ أن يسلم، فأسلم؛ لكنه أسلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: «أطع أبا القاسم». أمر ولده أن يسلم، وهو لم يسلم في تلك الحال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «اَلْحَمْدُ للهِ اَلَّذِيْ أَنْقَذَهُ بِيْ مِنَ النَّارِ»[(١)]، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقرونًا ببيان السبب؛ وذلك؛ لأن السبب موصل فقط.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله، وفضله بإخراج هذه الثمرات من الماء؛ أما القدرة فظاهرة: تجد الأرض شهباء جدباء ليس فيها ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هذا النبات من كل زوج بهيج بإذن الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمرات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

٩ ـ **ومنها:** أن الله عزَّ وجلَّ منعم على الإنسان كافرًا كان أو مؤمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿لكم﴾، وهو يخاطب في الأول الناس عمومًا؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.

١٠ ـ **ومنها:** تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؟ وهل هي شرك جليّ، أو شرك خفي؟هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ خلاصته: إن اتخاذ الأنداد في العبادة، أو جَعْلِها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئت»[(٢)].

١١ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي لمن خاطب أحدًا أن يبين له ما تقوم به عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فإن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده.

(١) رواه البخاري (١٢٩٠)، وأبوداود (٣٠٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٣٣٩٩)، وأبويعلى في «مسنده» (٣٣٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٨٤).

(٢) والصواب أن يقول (ماشاء الله ثم شئت)، كما علمهم النبي ﷺ، والحديث رواه ابن ماجه (٣٧٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ..﴾: الخطاب لمن جعل لله أندادًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾

وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد ﷺ إشارة إلى كلمتي التوحيد؛ وهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لكن شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد القصد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن: الأول توحيد القصد بأن يكون العمل خالصًا لله؛ والثاني: توحيد المتابعة بأن لا يتابع في عبادته سوى رسول الله ﷺ، وإذا تأملت القرآن وجدته هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسالة؛ ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]؛ وهذا مطَّرد في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿فِي رَيْبٍ﴾: «الريب» يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشك، لكنه يختلف عنه بأن «الريب» يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول ﷺ حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصديق به؛ بخلاف الشك في الأمور الهينة، فلا يقال: «ريب»؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شك فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقًا واضطرابًا.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾: المراد به القرآن؛ لأن الله أنزله على محمد ﷺ ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: هو محمد رسول الله ﷺ، والله ـ تبارك وتعالى ـ وصف رسوله ﷺ بالعبودية في المقامات العالية: في الدفاع عنه؛ وفي بيان تكريمه بالمعراج والإسراء؛ وفي بيان تكريمه بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: هذا في مقام التحدي والمدافعة؛ وأفضل أوصاف الرسول ﷺ هي العبودية والرسالة؛ ولهذا قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله، وَرَسُولُهُ»(١)؛ و«العبودية»: هي

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١)، وأحمد في «مسنده» (٣٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٣/٢٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٤١٤)، والطيالسي في «مسنده» (٢٤).

التذلل للمحبوب والمعظم؛ ولهذا قال الشاعر في محبوبته:

لَا تَـدْعنِي إِلَّا بِيَـا عَبْـدِهَا فَإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَائِي

يعني: لا تقل: فلان وفلان؛ بل قل: يا عبد فلانة؛ لأن هذا عنده أشرف أوصافه، حيث انتمى إليها. نعوذ بالله من الخذلان.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾: أمر يقصد به التحدي، يعني: إذا كنتم في شك من هذا القرآن فإننا نتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة؛ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الرسول ﷺ؛ والمعنى: من مثل محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى القرآن المنزل؛ والمعنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا. أي من جنسه ـ؛ وكلاهما صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ أي: الذين تشهدون لهم بالألوهية، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعوهم ليساعدوكم في الإتيان بمثله؛ وهذا غاية ما يكون من التحدي: أن يتحدى العابدَ والمعبودَ أن يأتوا بسورة مثله.

قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مما سوى الله؛ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أن هذا القرآن مفترًى على الله؛ والجواب على هذا: أنه لا يمكن أن يأتوا بسورة مثله مهما أتوا من المعاونين والمساعدين.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ لأن الأمر هنا للتحدي؛ فالله عزَّ وجلَّ يتحدى هؤلاء بأن يأتوا بمعارضٍ لما جاء به الرسول ﷺ.

٢ ـ ومنها: فضيلة النبي ﷺ؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عزَّ وجلَّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزَّ وجلَّ. الذي هو مستحق للعبادة. عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية.هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

٣ ـ ومنها: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئًا بائنًا منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق.

٤ ـ ومنها: إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوُّ المتكلم به؛ وعلو الله عزَّ وجلَّ ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن القرآن معجز حتى بسورة ـ ولو كانت قصيرة ـ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾

٦ ـ **ومنها**: تحدي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشد ذلًّا مما لو تحدُّوا وحدهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني: فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

ولما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ـ وهي شرطية ـ قطع أطماعهم بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ يعني: ولا يمكنكم أن تفعلوا؛ و﴿لن﴾ هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تحدٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط. وهو ﴿إن لم تفعلوا﴾ يعني: إن لم تفعلوا، وتعارضوا القرآن بمثله فالنار مثواكم؛ فاتقوا النار. ولن يجدوا ما يتقون به النار إلا أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ ﴿الَّتِي﴾ اسم موصول صفة لـ﴿النَّارَ﴾؛ و﴿وَقُودُهَا﴾ مبتدأ؛ و﴿النَّاسُ﴾ خبر المبتدأ؛ والجملة: صلة الموصول؛ و«الوقود» ما يوقد به الشيء، كالحطب ـ مثلًا ـ في نار الدنيا؛ في الآخرة وقود النار هم الناس والحجارة؛ فالنار تحرقهم، وتلتهب بهم؛ و﴿وَالْحِجَارَةُ﴾: قال بعض العلماء: إن المراد بها الحجارة المعبودة. يعني الأصنام؛ لأنهم يعبدون الأصنام؛ فأصنامهم هذه تكون معهم في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ وقيل: هذا، وهذا. الحجارة المعبودة، والحجارة الموقودة التي خلقها عزَّ وجلَّ لتوقد بها النار.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾: الضمير المستتر يعود على النار؛ والمعِدُّ لها هو الله عزَّ وجلَّ؛ ومعنى «الإعداد» التهيئة للشيء؛ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لكل كافر سواء كفر بالرسالة، أو كفر بالألوهية، أو بغير ذلك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي

أيضًا توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين.

٣ ـ **ومنها**: إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار. على أحد الاحتمالين في قوله تعالى: ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين، فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم.

٤ ـ **ومنها**: أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضًا؛ فإن النبي ﷺ عُرضت عليه الجنة والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن لحيٍّ الخزاعي يجر قصبه. أي: أمعاءه. في النار[1]؛ ورأى المرأة التي حبست الهرَّة حتى ماتت جوعًا: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[2]؛ ورأى فيها صاحب المحجن. الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه[3]. يعذب: وهو رجل معه محجن. أي: عصا محنية الرأس. كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب ـ والعياذ بالله ـ بمحجنه في نار جهنم.

مسألة: هل النار باقية؛ أو تفنى؟

ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافًا عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب: أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عزَّ وجلَّ في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إني أذكر تعليقًا لشيخنا عبد الرحمن بن سعدي على كتاب «شفاء العليل» لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: «لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة»[4]. وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: «لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة»؛ والصواب الذي لا شك فيه. وهو عندي

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) رواه مسلم (٩٠٤)، والنسائي (١٤٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٨٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٢٢).

(٤) «الوافي بالوفيات» (١٠/ ٢٧)، و«المجالسة وجواهر العلم» (١/ ٣٦٣)، «ومجمع الأمثال» (٢/ ١٨٧).

مقطوع به.: أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليدًا أبديًا لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبديًا لابد أن تكون الدار أيضًا أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم، وثوابهم فضلًا ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزَّ وجلَّ قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؛ وليس المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] أنه سوف يخرجه من النار، أو سوف يُفني النار.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن النار دار للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمنين، فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يخرجوا منها؛ فلا تسمى النار دارًا لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن العاصي ـ إذا لم يعف الله عنه ـ فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

مسألة: إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟.

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولًا: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحًا، ومساءً. وربما يختمه في اليومين، والثلاثة. ولا يمله إطلاقًا؛ لكن لو كرر متنًا من المتون كما يكرر القرآن ملَّ.

ثانيًا: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى.

ثالثًا: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنياوالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

رابعاً: تأثيره على القلوب والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا.

مسألة ثانية:

حكى الله عزَّ وجلَّ عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقوالًا؛ وهذه الحكاية تحكي قول من حُكيت عنه؛ فهل يكون قول هؤلاء معجزًا؟ يعني مثلًا: فرعون قال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا

غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]: هذا يحكيه الله عزَّ وجلَّ عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعون؛ فكيف كان قول فرعون معجزًا والإعجاز إنما هو قول الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: أن الله تعالى لم يحك كلامهم بلفظه؛ بل معناه؛ فصار المقروء في القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ. وهو معجز.

قال الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]

التفسير

مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول ﷺ ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ..﴾ الآية؛ و«البشارة» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يُسِرُّه استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «البشارة» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]: إمَّا تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتَسودُّ به وجوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ﴾ إما للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشِّر أيها النبي؛ أو بشِّر أيها المخاطَب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله ﷺ؛ وقد بيَّن الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة وتعظيم لله عزَّ وجلَّ المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ

مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه»[1]؛ وما لم يكن على الاتّباع فهـو مردود لا يقبـل؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَد»[2].

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: هذا المبشر به: أن لهم عند الله عزَّ وجلَّ ﴿جَنَّٰتٍ..﴾: جمع «جنَّة»؛ وهي في اللغة: البستان كثير الأشجار بحيث تغطي الأشجار أرضه، فتجتن بها؛ والمراد بها شرعًا: الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[3].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تَسِيحُ من تحتها الأنهار؛ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل ﴿تَجْرِي﴾؛ و﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قال العلماء: من تحت أشجارها وقصورها؛ وليس من تحت سطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وما أحسن جري هذه الأنهار إذا كانت من تحت الأشجار والقصور! يجد الإنسان فيها لذة في المنظر قبل أن يتناولها.

وقد بيّن الله تعالى أنها أربعة أنواع، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ أي: أعطوا؛ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنات؛ ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي: من أيِّ ثمرة؛ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ لأنه يشبه ما سبقه في حجمه، ولونه، وملمسه، وغير ذلك من صفاته؛ فيظنون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ وما أجمل وألذَّ للإنسان إذا رأى هذه الفاكهة يراها وكأنها شيء واحد؛ فإذا ذاقها وإذا الطعم يختلف اختلافًا عظيمًا! تجده يجد في نفسه حركةً لهذه الفاكهة، ولذةً، وتعجبًا؛ كيف يكون هذا الاختلاف المتباين العظيم والشكل واحد! ولهذا لو قُدم لك فاكهة ألوانها سواء، وأحجامها سواء، وملمسها سواء، ثم إذا ذقتها وإذا هذه حلو خالص، وهذه مُز. أي: حلو مقرون بالحموضة، وهذه حامضة؛ تجد لذة أكثر مما لو كانت على حد سواء، أو كانت مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ ﴿وَأُتُوا۟﴾ من «أتى» التي بمعنى: جاء؛ فالمعنى: جيء إليهم به متشابهًا يشبه بعضه بعضًا. كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾؛ لما ذكر الله الفاكهة ذكر الأزواج؛ لأن في كل منهما تفكهًا، لكن كل واحد من نوع غير الآخر: هذا تفكه في المذاق والمطعم؛ وهذا تفكه آخر من نوع ثان؛ لأن

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) كما روى البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». فاقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

بذلك يتم النعيم؛ و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ جمع زوج؛ وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق «الزوج» على الذكروالأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: «زوج»، وللمرأة: «زوج»؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقًا بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث.

قوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضًا من الأقذار الباطنة، كالغل، والحقد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون لا يخرجون منها.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولقول الله تبارك وتعالى: ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين. عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّأك الله بهذا الشهر؟ الجواب: نعم؛ وكذلك أيضًا لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف.

٢ - ومن فوائد الآية: أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح.

فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟

فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحيانًا يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب.

٣ - ومنها: أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا وعملوا فالعمر محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبدًا؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضًا الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منَّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.

٤ - ومنها: أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ وقد دل على ذلك القرآن والسنة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا؛ وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠).

٥ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر أنها أنهار تجري من غير أخدود. يعني: لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء. يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية:

أَنْهَارُهَـا فِـي غَيْـرِ أُخْـدُوْدٍ جَـرَتْ ... سُـبْحَانَ مُمْـسِكُهَا عَـنِ الفَيَـضَانِ

٦ـ **ومن فوائد الآية**: أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهًا؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون.

٧ ـ **ومنها**: إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيُّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولدًا؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الوِلدان تطوف عليهم بأكواب وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسُّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ وأبلغ.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلا

ولو كان مثلًا حقيرًا ما دام يثبت به الحق؛ فالعبرة بالغاية؛ و﴿مَّا﴾ يقولون: إنها نكرة واصفة. أي: مثلًا أيَّ مثل.

قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً﴾: عطف بيان لـ﴿مَّا﴾ أي: مثلًا بعوضة؛ والبعوضة معروفة؛ ويضرب بها المثل في الحقارة؛ وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين اعترضوا: كيف يضرب الله المثل بالذباب في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]: قالوا: الذباب يذكره الله في مقام المحاجة! فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنه لا يستحيي من الحق حتى وإن ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها.

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: هل المراد بما فوق. أي: فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ الجواب: الذباب أكبر، وأقوى. لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المثل الذي ضربه الله ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ماذا﴾: «ما» هنا اسم استفهام مبتدأ؛ و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ. أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلًا، كما قال ابن مالك:.

وَمِثْلُ مَا ذَا بَعْدَ مَا اسْتِفْهَامُ ... أَوْ مَن إِذَا لَمْ تُلْغَ فِيْ الكَلَامِ

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾: الجملة استئنافية؛ لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ و﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي: بالمثل؛ ﴿كَثِيرًا﴾ أي: من الناس؛ ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ والمراد هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]: المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك هنا.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ

مَثَلًا مَّا﴾. ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحًا في السنة، كما في قول النبي ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»(١)؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرٍّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤]: إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلًا، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤ - **ومنها**: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم.

٥ - **ومنها**: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦ - **ومنها**: فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزَّ وجلَّ بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِمَ؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزَّ وجلَّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

٧ - **ومنها**: إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]: فالأولى ربوبية

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وأبوداود (١٤٨٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٨٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١١١)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

عامة؛ والثانية خاصة بموسى وهارون؛ كما أن مقابل ذلك «العبودية» تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ وخاصة كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.

٨ ـ ومن فوائد الآية: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلًا لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزَّ وجلَّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزَّ وجلَّ. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: ﴿كَثِيرًا﴾ لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن «كثير» يطلق على القليل، وعلى الأكثر.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

١١ - ومنها: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله. لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: العهد الذي بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ؛ وهو الإيمان به، وبرسله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآية فإن الواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضوا عهد الله، ولم يؤمنوا به، وبرسله؛ والنقض حَلّ الشيء بعد إبرامه؛ وقد بين الله عزَّ وجلَّ هذا العهد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسعون لما به فساد الأرض فسادًا معنويًا كالمعاصي؛ وفسادًا حسيًا كتخريب الديار، وقتل الأنفس.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: جملة اسمية مؤكَّدة بضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد؛ الفائدة الأولى: التوكيد؛ والفائدة الثانية: الحصر؛ والفائدة الثالثة: إزالة اللبس بين الصفة والخبر؛ مثال ذلك: تقول: «زيد الفاضل»: كلمة «الفاضل» يحتمل أن تكون خبرًا؛ ويحتمل أن تكون وصفًا، فتقول: «زيد الفاضل محبوب»؛ إذا قلت: «زيد الفاضل محبوب» تعين أن تكون صفة؛ وإذا قلت: «زيد الفاضل» يحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت بعد؛ ويحتمل أن تكون خبرًا؛ فإذا قلت: «زيد هو الفاضل» تعين أن تكون خبرًا لوجود ضمير الفصل؛ ولهذا سُمي ضمير فصل. لفصله بين الوصف والخبر؛ الفائدة الثانية: التوكيد؛ إذا قلت: «زيد هو الفاضل» كان أبلغ من قولك: «زيد الفاضل»؛ و الفائدة الثالثة: الحصر؛ فإنك إذا قلت: «زيد هو الفاضل» فقد حصرت هذا الوصف فيه دون غيره؛ وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]؛ ولو كان له محل من الإعراب لكانت: «هم الغالبون»؛ وربما يضاف إليه اللام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فيكون في إضافة اللام إليه زيادة توكيد.

وقوله تعالى: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾؛ «الخاسر» هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن نقض عهد الله من الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، فكلما رأيت شخصًا قد فرط في واجب، أو فعل محرمًا فإن هذا نقض للعهد من بعد الميثاق.

٢ ـ ومنها: التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأن ذلك يكون سببًا للفسق.

٣ ـ ومنها: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام ـ أي الأقارب ـ وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلَ الجَنَّةَ قَاطِعٍ»(١)، يعني قاطع رحم.

٤ ـ ومنها: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عزَّ وجلَّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠: ١٢].

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب ﵂ على النبي ﷺ حيث قال: «وَيلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ»؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(٢)؛ وقوله ﷺ: «إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» يشمل معنيين:

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف.

والثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلًا :إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سببًا للشر والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبث؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سببًا أيضًا للشر والبلاء؛ لأن المعاصي خبث.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اعترضوا على الله فيما ضرب من الأمثال، ونقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض هم الخاسرون. وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٨)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ..﴾: الاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ والكفر بالله هو الإنكار، والتكذيب مأخوذ من: كَفَر الشيء: إذا ستره؛ ومنه الكُفُرّى: لغلاف طلع النخل؛ والمعنى: كيف تجحدونه، وتكذبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتنكرون البعث مع أنكم تعلمون نشأتكم؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾: وذلك: قبل نفخ الروح في الإنسان هو ميت؛ جماد؛ ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: بنفخ الروح؛ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ثانية؛ وذلك بعد أن يخرج إلى الدنيا؛ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة التي لا موت بعدها؛ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: بعد الإحياء الثاني ترجعون إلى الله، فينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** شدة الإنكار حتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله ومآله.

٢ - **ومنها:** أن الموت يطلق على ما لا روح فيه. وإن لم تسبقه حياة؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: «ميت» إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

٣ - **ومنها:** أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئًا مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيِّ مكان في المقبرة، أو غيرها.

٤ - **ومنها:** تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ فإن هذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الروح، فيحيى، ويكون إنسانًا يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عزَّ وجلَّ.

٥ - **ومنها:** إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، فقالوا: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؛ فأقام الله - تبارك وتعالى - على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة «يس»:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]: هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم؛ وقوله تعالى: ﴿أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل قاطع، وبرهان جليّ على إمكان إعادته كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] يعني: كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم: يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]: الشجر الأخضر فيه البرودة، وفيه الرطوبة؛ والنار فيها الحرارة واليبوسة؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب؛ وكان الناس فيما سبق يضربون أغصانًا من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] تحقيقًا لذلك.

ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

ووجه الدلالة: أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ فـ ﴿الْخَلَّاقُ﴾ صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلّاقًا، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]: إذا أراد شيئًا مهما كان؛ و ﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم؛ ﴿أَمْرُهُ﴾ أي: شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون؛ أو ﴿أَمْرُهُ﴾ الذي هو واحد «أوامر»؛ ويكون المعنى: إنما أمره أن يقول: «كن»، فيعيده مرة أخرى.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٤]: كل شيء فهو مملوك لله عزّ وجلّ: الموجود يعدمه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزّه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ووجه الدلالة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكافر، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدًى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي.

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عزَّ وجلَّ في موضع واحد؛ وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة.

٦- ومن فوائد الآية: أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]

❁ التفسير ❁

لما ذكر جلَّ وعلَا أنه قادر على الإحياء والإماتة، بيَّن منَّته على العباد بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ أي: أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلَّ وعلَا، وعلمه؛ و﴿لَكُم﴾: اللام هنا لها معنيان؛ المعنى الأول: الإباحة، كما تقول: «أبحت لك»؛ والمعنى الثاني: التعليل: أي: خلق لأجلكم.

قوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ ﴿مَّا﴾ اسم موصول تعُمُّ: كل ما في الأرض فهو مخلوق لنا من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال.. كل شيء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعًا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: علا إلى السماء؛ هذا ما فسرها به ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ؛ وقيل: أي: قصد إليها؛ وهذا ما اختاره ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ؛ فللعلماء في تفسير ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ قولان: الأول: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تامًّا قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدل على الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل عُدِّي بـ ﴿إِلَى﴾ قال: إن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ هنا ضُمِّن معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علوٍّ جعل ﴿إِلَى﴾ بمعنى «على»؛ لكن هذا ضعيف؛ لأن الله تعالى لم يستوِ على السماء أبدًا؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ وهو أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة

الجازمة؛ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: العلوّ؛ وكانت السماء دخانًا. أي: مثل الدخان؛﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ أي: جعلها سوية طباقًا غير متناثرة قوية متينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ ومن علمه عزَّ وجلَّ أنه علم كيف يخلق هذه السماء.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** منَّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا. والحمد لله، والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.

٢ ـ **ومنها:** أن الأصل في كل ما في الأرض الحلُّ. من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناءً على هذا لو أن إنسانًا أكل شيئًا من الأشجار، فقال له بعض الناس: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالَب بالدليل؛ ولو أن إنسانًا وجد طائرًا يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يَحْرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾ مع أن ﴿مَّا﴾ موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئًا من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل.

٤ ـ **ومنها:** إثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ. أي: أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: و﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ فعل؛ فهو جلَّ وعلَّا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلا الله.

٥ ـ **ومنها:** أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾

٦ ـ **ومنها:** كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾

٧ ـ **ومنها:** إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

٨ ـ **ومنها:** أن نشكر الله على هذه النعمة. وهي أنه تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعًا؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجرد الخبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها.

٩ ـ **ومنها:** أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليمًا بكل شيء ـ حتى ما نخفي في صدورنا ـ أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزَّ وجلَّ سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: قال المعربون: ﴿إذ﴾ مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ؛ ولما كان الخطاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿للملائكة﴾: اللام للتعدية. أي: تعدية القول للمقول له؛ و «الملائكة» جمع «مَلْئَك»، وأصله «مألك»؛ لأنه مشتق من الأَلُوكة. وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل. أي: نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: «شيئاء»؛ و«الملائكة» عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالًا مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني آدم كملَك الموت.. إلى غير ذلك من الوظائف والأعمال.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضًا يتناسلون. على أقوال:.

أما الأول: فيحتمل أن الله أراد من هذه الخليقة ـ آدم، وبنيه ـ أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عباده بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى. وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمنُّ على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [ص: ٢٦]: هو خليفة يخلف الله عزَّ وجلَّ في الحكم بين عباده.

والثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون ﴿خَلِيفَةً﴾ هنا بمعنى الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول.

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضًا؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون ﴿خَلِيفَةً﴾ صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول.

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع؛ لكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك

الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كما فعل من قبلهم. واستفهام الملائكة للاستطلاع والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أي نُنَزِّه؛ والذي يُنَزَّه الله عنه شيئان؛ أولًا: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثًا إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه؛ النقص: مطلقًا؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا. لا وصفًا دائمًا، ولا خبرًا؛ والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان.. وهلم جرًّا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: تعب وإعياء؛ فهو عزَّ وجلَّ كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردها بالذكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول ـ النقص ـ لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصًا، كما قال القائل:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـسَّيفَ يَـنقُصُ قَـدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيفَ أَمضَى مِنَ العَصَا

لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا. عندما نقول: «سبحان الله»، أو: «أسبح الله»، أو ما أشبه ذلك. أن نستحضر هذه المعاني.

قوله تعالى: و﴿بِحَمْدِكَ﴾: قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة. أي: تسبيحًا مصحوبًا بالحمد مقرونًا به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة وتعظيمًا؛ فإن وصفتَ مرة أخرى بكمال فسَمِّه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: «قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قال تعالى: أثنى عليَّ عبدي»[1]؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يَرِد الكمال على محل خالٍ من النقص.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: «التقديس» معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على «التنزيه»؛ لأن «التنزيه» تبرئة وتخلية؛ و«التطهير» أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وأبوداود (٨٢١)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٨٩).

خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المشرقِ وَالمغربِ؛ اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَس؛ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالماءِ، وَالثَّلْجِ، وَالبَرَدِ»[1]: فالأول: طلبُ المباعدة؛ والثاني: طلب التنقية. يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية؛ حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره. أنه لا أثر إطلاقًا لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص.

قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ اللام هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضًا للاستحقاق؛ لأن الله. جلَّ وعلَّا. أهل لأن يقدس.

أجابهم الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ يؤخذ كونه بحرف من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ لأن هذه حروف؛ ويؤخذ كونه بصوت من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ وإثبات القول لله على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عزَّ وجلَّ متكلمًا بما شاء كونًا، وشرعًا؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة ﴿كُن﴾؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ وكل الكون مراد له قدرًا؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الملائكة ذوو عقول؛ وجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه؛ وإنما نبَّهْنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء.

٣ ـ **ومنها:** إثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ أي: أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعمًا منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يستوي على العرش، ولا ينزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه.

الثاني: أنها دعوى غير مسلَّمة؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء.

---

(١) رواه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨).

الثالث: أن كونه تعالى فعالًا لما يريد من كماله، وتمام صفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزًا؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى.

فتَعَجَّبْ كيف أُتي هؤلاء من حيث ظنوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن بني آدم يخلف بعضهم بعضًا. على أحد الأقوال في معنى ﴿خَلِيفَةً﴾؛ وهذا هو الواقع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الناس لو من وُلِد بقي لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

٥ - **ومنها:** قيام الملائكة بعبادة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

٦ - **ومنها:** كراهة الملائكة للإفساد في الأرض؛ لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

٧ - **ومنها:** أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا بأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر؛ لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

٨ - **ومنها:** شدة تعظيم الملائكة لله عزَّ وجلَّ، حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

قال الله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١:٣٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾: الفاعل هو الله عزَّ وجلَّ؛ و﴿آدَمَ﴾ هو أبو البشر؛

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨)، والترمذي (٣١٤٨)، وأبوداود (٤٦٧٣)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٢٠٤).

و﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ جمع «اسم»؛ و«أل» فيها للعموم بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾؛ وهل هذه الأسماء أسماء لمسميات حاضرة؛ أو لكل الأسماء؟ للعلماء في ذلك قولان؛ والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ وهذه الأسماء ـ والله أعلم ـ ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ولأن الميم علامة جمع العاقل؛ فلم تعلم الملائكة أسماء تلك المسميات؛ بل كان جوابهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: وأراد عزَّ وجلَّ بذلك أن يعرف الملائكة أنهم ليسوا محيطين بكل شيء علمًا، وأنهم يفوتهم أشياء يفضلهم آدم فيها.

قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: هل هو فعل أمر يراد به قيام المأمور بما وُجِّهَ إليه، أو هو تحدٍّ؟

الجواب: الظاهر الثاني: أنه تحدٍّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن لديكم علمًا بالأشياء فأنبئوني بأسماء هؤلاء؛ لأن الملائكة قالت فيما سبق: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم امتحنهم الله بهذا.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك؛ فأنت يا ربنا لم تفعل هذا إلا لحكمة بالغة.

قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: اعتراف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: هذه الجملة مؤكدة بـ «إن»، وضمير الفصل: ﴿أَنتَ﴾؛ والمعنى: إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل؛ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني ذا الحكمة والحكم؛ لأن الحكيم مشتقة من الحكم والحكمة؛ فهذان اسمان من أسماء الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** بيان أن الله تعالى قد يمنُّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك.

٢ ـ **ومنها:** أن اللغات توقيفية. وليست تجريبية؛ «توقيفية» بمعنى: أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناسَ إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها «تجريبية» بمعنى أن الناس كوَّنوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولًا أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه

ذلك؛ فاتخذ مما يسمع أصواتًا تدل على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء.

٣- ومن فوائد الآيتين: جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مجيد فيه.

٤- ومنها: جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٥- ومنها: أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٦- ومنها: اعتراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عزَّ وجلَّ.

ويتفرع على ذلك: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدَّعي علم ما لم يعلم.

٧- ومنها: شدة تعظيم الملائكة لله عزَّ وجلَّ، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

٨- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ فـ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئًا منها؛ و«الحكمة» هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: «ليته لم يأمر به»؛ وما نهى عن شيء، فقال: «ليته لم ينهَ عنه»؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة.

واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ولـ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ معنًى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدرًا على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة

يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حُكِم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ القائل هو الله عزَّ وجلَّ؛ و﴿آدم﴾ هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفًا؛ وهو مشتق لغة من الأُدْمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أنبأ الملائكة؛ ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: الاستفهام هنا للتقرير؛ والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]: والمعنى: قد شرحنا لك صدرك؛ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما. وهو نوعان: نسبي؛ وعام؛ فأما النسبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض؛ وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عمومًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون؛ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تخفون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ﴾؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح. أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض.

٢ - **ومنها:** أن آدم - عليه الصلاة والسلام - امتثل، وأطاع، ولم يتوقف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم﴾؛ ولهذا طوى ذكر قوله: «فأنبأهم» إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة.

٣ - **ومنها:** جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكذا. أي: بأمر لا يمكن دفعه؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٤ ـ **ومنها**: بيان عموم علم الله عزَّ وجلَّ، وأنه يتعلق بالمشاهد، والغائب؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن السموات ذات عدد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ و«الأرض» جاءت مفردة، والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي في العدد.

٦ ـ **ومنها**: أن الملائكة لها إرادات تُبْدَى، وتُكْتَمْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٧ ـ **ومنها**: أن الله تعالى عالم بما في القلوب سواء أبدي أم أُخفي؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟.

فالجواب: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ يعني: اذكر إذ قلنا؛ ومثل هذا التعبير يتكرر كثيرًا في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: «اذكر»، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن «إذ» ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكورًا؛ وإما محذوفًا؛ وفي نظم الجُمل:.

لَا بُدَّ للجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

ومثله الظرف؛ وجاء الضمير في ﴿قُلْنَا﴾ بضمير الجمع من باب التعظيم ـ لا التعدد ـ كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: سبق الكلام على ذكر الملائكة، ومن أين اشتق هذا اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: «السجود» هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعًا وخشوعًا؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرَّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي: من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب والتعقيب؛ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هو الشيطان؛ وسُمي إبليسًا لأنه أبلَسَ من رحمة الله. أي: أَيِس منها يأسًا لا رجاء بعده. ﴿أَبَىٰ﴾ أي امتنع؛ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: صار ذا كبر؛ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: زعم بعض العلماء أن المراد: كان من الكافرين في علم الله بناءً على أن﴿كان﴾ فعل ماضٍ؛ والمضي يدل على شيء سابق؛ لكن هناك تخريجًا أحسن من هذا: أن نقول: إن «كان» تأتي أحيانًا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون ﴿كان﴾ هنا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة؛ وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيمًا له.

٢ - **ومنها:** أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سجدة واحدة أُمر بها، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هو؛ وإن لم يستقم فقد دلت نصوص أخرى من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة على كفر تارك الصلاة كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة.

ويدل على أن المحرَّم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥]؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عزَّ وجلَّ به كان امتثاله عبادة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن إبليس - والعياذ بالله - جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و«الكبر» بطر الحق، وغمط الناس[1].

---

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» (٩١) من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة

تنبيه:

إن قال قائل: في الآية إشكال. وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟.

والجواب: أن إبليس كان مشاركًا لهم في أعمالهم ظاهرًا، فكان توجيه الأمر شاملًا له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

قال الله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٣٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ فاعل القول هو الله عزَّ وجلَّ؛ ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾: «زوج» معطوف على الفاعل في ﴿ٱسْكُنْ﴾؛ لأن ﴿أَنتَ﴾ توكيد للفاعل؛ وليست هي الفاعل؛ لأن ﴿ٱسْكُنْ﴾ فعل أمر؛ وفعل الأمر لا يمكن أن يظهر فيه الفاعل؛ لأنه مستتر وجوبًا؛ وعلى هذا فـ ﴿أَنتَ﴾ الضمير المنفصل توكيد للضمير المستتر؛ و﴿وَزَوْجُكَ﴾ هي حواء، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، وغيره.

قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ هي البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه مستتر بأشجاره؛ وهل المراد بـ ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ جنة الخلد؛ أم هي جنة سوى جنة الخلد؟.

الجواب: ظاهر الكتاب والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن «أل» هنا للعهد الذهني.

فإن قيل: كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها. وهذه أُخرج منها آدم؟

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة.

فحيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُك الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمَ

قال: «منازلك الأولى»؛ لأن أبانا آدم نزلها.

من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس».

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا﴾: أمر بمعنى الإباحة والإكرام؛ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من هذه الجنة؛ ﴿رَغَدًا﴾ أي: أكلًا هنيًا ليس فيه تنغيص؛ ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: في أيِّ مكان من هذه الجنة، ونقول أيضًا: وفي أيّ زمان؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَكُلَا﴾ فعل مطلق لم يقيد بزمن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشار الله تعالى إلى الشجرة بعينها، و«أل» فيها للعهد الحضوري؛ لأن كل ما جاء بـ «أل» بعد اسم الإشارة فهو للعهد الحضوري؛ إذ إن اسم الإشارة يعني الإشارة إلى شيء قريب؛ وهذه الشجرة غير معلومة النوع، فتبقى على إبهامها.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا﴾: وقعت جوابًا للطلب. وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾؛ فالفاء هنا للسببية؛ والفعل بعدها منصوب بـ «أن» مضمرة بعد فاء السببية؛ وقيل: إن الفعل منصوب بنفس الفاء؛ القول الأول للبصريين، والثاني للكوفيين؛ والثاني هو المختار عندنا بناءً على القاعدة أنه متى اختلف علماء النحو في إعراب كلمة أو جملة فإننا: نأخذ بالأسهل ما دام المعنى يحتمله.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من المعتدين لمخالفة الأمر.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٢ـ ومنها: أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ..﴾ إلخ؛ ولولا أن آدم يسمعه لم يكن في ذلك فائدة؛ وأيضًا هو مرتب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾: وهذه حروف مرتبة، كما هو ظاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال.

٣ـ ومن فوائد الآية: منَّة الله عزَّ وجلَّ على آدم وحواء حيث أسكنهما الجنة.

٤ـ ومنها: أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل، والأنبياء، ومن دونهم، كما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فإن قال قائل: زوجته بنت من؟.

فالجواب: أنها خلقت من ضلعه.

فإن قال: إذن تكون بنتًا له، فكيف يتزوج ابنته؟.

فالجواب: أن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ فكما أباح أن يتزوج الأخ أخته من بني آدم الأولين؛ فكذلك أباح أن يتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه.

٥ـ ومن فوائد الآية: أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: خيَّرهما أن يأكلا من أيِّ مكان؛ ولا شك أن الأمر يأتي للإباحة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة.

٦ ـ **ومنها**: أن ظاهر النص أن ثمار الجنة ليس له وقت محدود؛ بل هو موجود في كل وقت؛ لقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ فالتعميم في المكان يقتضي التعميم في الزمان؛ وقد قال الله تعالى في فاكهة الجنة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

٧ ـ **ومنها**: أن الله تعالى قد يمتحن العبد، فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها.

٨ ـ **ومنها**: أنه قد يُنهى عن قربان الشيء والمراد النهي عن فعله؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: المراد: لا تأكلا منها، لكن لما كان القرب منها قد يؤدي إلى الأكل نُهي عن قربها.

٩ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قال الله تعالى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ وفي قراءة: ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾؛ والفرق بينهما أن ﴿أزلهما﴾ بمعنى: أوقعهما في الزلل؛ و﴿أزالهما﴾ بمعنى: نحَّاهما؛ فعلى القراءة الأولى يكون الشَّيطان أوقعهما في الزلل، فزالا عنها، وأُخرجا منها؛ وعلى الثانية يكون الشيطان سببًا في تنحيتهما؛ و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الظاهر أنه الشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم: وسوس لهما ليقوما بمعصية الله كما فعل هو حين أبى أن يسجد لآدم.

قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم؛ لأنهما كانا في أحسن ما يكون من الأماكن.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ أي قال الله لهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: الضمير للجمع، والمراد آدم، وحواء، وإبليس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الشيطان عدو لآدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: أنكم سوف تستقرون في الأرض، وسوف

تتمتعون بها بما أعطاكم الله من النعم، ولكن لا على وجه الدوام؛ بل إلى حين. وهو قيام الساعة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: الحذر من وقوع الزلل الذي يمليه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾

٢- ومنها: أن الشَّيطان يغرُّ بني آدم كما غرَّ أباهم حين وسوس لآدم وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ فالشيطان قد يأتي الإنسان، فيوسوس له، فيصغر المعصية في عينه؛ ثم إن كانت كبيرة لم يتمكن من تصغيرها؛ منّاه أن يتوب منها، فيسهل عليه الإقدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك.

٣- ومنها: إضافة الفعل إلى المتسبب له؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ وقد ذكر الفقهاء - رحمهم الله - أن المتسبب كالمباشر في الضمان، لكن إذا اجتمع متسبب ومباشر تمكن إحالة الضمان عليه فالضمان على المباشر؛ وإن لم تمكن فالضمان على المتسبب؛ مثال الأول: أن يحفر بئرًا، فيأتي شخص، فيدفع فيها إنسانًا، فيهلك: فالضمان على الدافع؛ ومثال الثاني: أن يلقي شخصًا بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي. لا على الأسد.

٤- ومن فوائد الآية: أن الشيطان عدو للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]

٥- ومنها: أن قول الله تعالى يكون شرعيًا، ويكون قدريًا؛ فقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾: هذا شرعي؛ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الظاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنه لو عاد الأمر إليهما لما هبطا؛ ويحتمل أن يكون قولًا شرعيًا؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كوني. والله أعلم.

٦- ومنها: أن الجنة في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

٧- ومنها: أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]؛ وبناءً على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشوا في غير الأرض إما في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.

٨- ومنها: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾ يعني: أخذ وقَبِل، ورضي من الله كلمات حينما ألقى الله إليه هذه الكلمات؛ وهذه الكلمات[1] هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فالكلمات اعتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين؛ و﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾: الفاعل هو الله. يعني: فتاب ربه عليه؛ و«التوبة» هي: رفع المؤاخذة، والعفو عن المذنب إذا رجع إلى ربه عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾؛ لأن التوبة مقتضى هذين الاسمين العظيمين: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد هنا الحصر والتوكيد؛ و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة من «تاب»؛ وذلك لكثرة التائبين، وكثرة توبة الله؛ ولذلك سمى الله نفسه «التواب»؛ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة الواصلة إلى من شاء من عباده.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** منَّة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾.

٢ - **ومنها:** أن منة الله على أبينا هي منَّة علينا في الحقيقة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا منَّ على أحد أجداده كان مانًّا عليه.

٣ - **ومنها:** أن قول الإنسان: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» أربعة أنواع من التوسل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ الثالث: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا..﴾ إلخ؛ الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ص ١٢٠٧)، و«سنن البيهقي الكبرى» (٧٥٢٩)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣٧١٦).

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلًا بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمات؛ وتلقي الكلمات لا يكون إلا بسماع الصوت؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة.

٥ ـ **ومنها:** منة الله عزَّ وجلَّ على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منَّتان؛ الأولى: التوفيق للتوبة، حيث تلقَّى الكلمات من الله؛ و الثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله. تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]: فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة؛ فكرم الله عزَّ وجلَّ أعلى وأبلغ من كرم الإنسان.

٧ ـ **ومنها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وما تضمناه من صفة وفعل.

٨ ومنها: اختصاص الله بالتوبة والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله. وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. هذه خاصة بالله.

كذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت. لا يختص بالله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ»[1].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٩٢٤)، وأبوداود (٤٩٤١)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

قال الله تعالى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم وحواء هما أبَوَا بني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هذا هو الظاهر؛ وأما حمله على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأن كون أقل الجمع اثنين شاذ في اللغة العربية؛ وأما قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فإن الأفصح في المتعدد إذا أضيف إلى متعدد أن يكون بلفظ الجمع. وإن كان المراد به اثنين؛ و﴿جَمِيعًا﴾ منصوبة على الحال من الواو في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ أصلها: «فإنْ ما»: أدغمت النون في «ما»؛ و «إن» شرطية، و «ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد؛ ولذلك لم يكن مجزومًا؛ بل كان مبنيًا على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظًا، وتقديرًا.

قوله تعالى: ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ أي: علمًا: وذلك بالوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه، ورسله.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ﴾: الفاء هنا رابطة لجواب الشرط؛ لأن الجملة بعد الفاء هي جواب الشرط؛ والجملة هنا اسمية؛ و«مَنْ» شرطية؛ و«تبع» فعل الشرط؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ رابطة للجواب أيضًا، و «لا» نافية، و«خوف» مبتدأ؛ وجملة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب «إنْ» في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾؛ وجملة: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب ﴿فَمَن تَبِعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: أخذ به تصديقًا بأخباره، وامتثالًا لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه؛ لأنه الذي شرعه لعباده، ولأنه موصل إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبل؛ لأنهم آمنون؛ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى؛ لأنهم قد اغتنموه، وقاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن الجنة التي أُسكنها آدم أولًا كانت عالية؛ لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى.

٢ - ومنها: إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾.

٣ ـ منها: أنه بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾؛ فلولا أنهم سمعوا ذلك ما صح توجيه الأمر إليهم.

٤ ـ ومنها: أن التوكيد في الأسلوب العربي فصيح، ومن البلاغة؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾؛ وهو توكيد معنوي؛ لأنه حال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هامًّا فينبغي أن يؤكد؛ فتقول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشيء: «**يا فلان عجل عجل عجل**» ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث.

٥ ـ ومنها: أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾.

فإن قال قائل: «إنْ» في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ لا تدل على الوقوع؛ لأنها ليست كـ «إذا» ؟

قلنا: نعم، هي لا تدل على الوقوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع. أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة. ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم﴾. ما يدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه هو الذي يأتي به.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

٧ ـ ومنها: أنه لا يتعبد لله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

٨ ـ ومنها: أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالًّا كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي ﷺ في خطبة الجمعة يقول: «**وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا؛ وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ؛ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ؛ وجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خبر المبتدأ؛ وجملة: ﴿هُمۡ

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٥٣).

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في موضع نصب على الحال. يعني: حال كونهم خالدين. ويجوز أن تكون استئنافية لبيان مآلهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بالأمر؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ أي: بالخبر؛ فعندهم جحود واستكبار؛ وهذان هما الأساسان للكفر؛ لأن الكفر يدور على شيئين: إما استكبار؛ وإما جحود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مُقِرٌّ بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعون وقومه: كفر جحود؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ [النمل: ١٤]: فهم في ألسنتهم مكذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: كفروا بالله، فاستكبروا ؟عن طاعته، ولم ينقادوا لها؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شِدَّة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآية الكونية دون الشرعية؛ فمثلًا: كفار قريش مؤمنون بالآية الكونية مقرون بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآية الشرعية.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعًا لهم، وتعلية لهم؛ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي «أصحاب النار» إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبدًا؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لابد أن يلازم مَنْ صاحبه؛ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الذين جمعوا بين هذين الوصفين - الكفر، والتكذيب - هم أصحاب النار مخلدون فيها أبدًا. كما سبق -؛ فإن اتصفوا بأحدهما فقد دل الدليل على أن المكذب خالد في النار؛ وأما الكافر فمن كان كفره مخرجًا عن الملة فهو خالد في النار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار.

٢ - **ومنها:** أن الله تعالى قد بين الحق بالآية التي تقطع الحجة، وتبين المحجة.

٣ - **ومنها:** انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين. الكفر، والتكذيب.

٤ ـ **ومنها**: إثبات النار؛ وقد ثبت بالدليل القطعي أنها موجودة الآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

قال الله تعالى:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: يا أولاد إسرائيل؛ والأصل في «بني» أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور والإناث، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ ومعناه. على ما قيل: عبد الله؛ وبنوه هم اليهود، والنصارى، ورسلهم؛ لكن النداء في هذه الآية لليهود والنصارى الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ ووجه الله تعالى النداء لبني إسرائيل؛ لأن السورة مدنية؛ وكان من بني إسرائيل ثلاث قبائل من اليهود في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ سكنوا المدينة ترقبًا للنبي ﷺ الذي علموا أنه سيكون مُهَاجَرُهُ المدينة؛ ليؤمنوا به، ويتبعوه؛ لكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ مفرد مضاف، فَيَعُمُّ جميع النعم الدينية والدنيوية؛ وقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنِعَم كثيرة.

قوله تعالى: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل مَحْضٌ من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي: ائتوا به وافيًا ـ وعهده سبحانه وتعالى: أنه عهد إليهم أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا برسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢]. هذا عهد الله.

قوله تعالى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أعطكم ما عهدت به إليكم وافيًا ـ وهو الجزاء على أعمالهم ـ المذكور في قوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم.

وقوله تعالى: ﴿أُوفِ﴾ جواب الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف حرف العلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: لا ترهبوا إلا إياي؛ و«الرهبة» شدة الخوف.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب، إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجّهه لبني إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي ﷺ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم.

٢ ـ **ومنها:** أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى: أننا إذا أردنا أن ندعو شخصًا نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق، وأدعى لكونه يحب الله عزَّ وجلَّ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** عظيم منّة الله تعالى في إنعامه على هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ ـ **ومنها:** أن مَنْ وَفَّى لله بعهده وَفَّى الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: «**إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا؛ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1].

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن مَنْ نَكَثَ بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رَتَّبَ الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك؛ لأن المنطوق في الآية أن من وَفَّى لله وَفَّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يَفِ فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وُعِد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عزَّ وجلَّ.

٦ ـ **ومنها:** وجوب الوفاء بالنذر؛ لأن النَّاذِرُ معاهد لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

٧ـ **ومنها:** وجوب إخلاص الرهبة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠].

٨ ـ **ومنها:** أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها.

فإن قال قائل: هل ينافي التوحيد أن يخاف الإنسان من سَبُعٍ، أو من عدوٍ؟

فالجواب: لا ينافي هذا التوحيد؛ ولهذا وقع من الرسل: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما

---

(١) رواه البخاري (٧٠٩٩)، ومسلم (٢٧٦٥).

جاءه الضيوف، ولم يأكلوا أَوْجَسَ منهم خِيفَةً؛ وموسى - عليه الصلاة والسلام - لما ألقى السحرة حبالهم وعِصِيهمْ أَوْجَسَ فِي نفسه خِيفَةً؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: «إنك إذا خفت من أحد سوى الله خوفًا طبيعيًا لكنت مشركًا» لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خوف الإنسان مما يخاف منه خوفٌ طبيعي غريزي لا يمكنه دفعه؛ كل إنسان يخاف مما يُخشى منه الضرر.

فإن قال قائل: لو منعه الخوف من واجب عليه هل يُنهى عنه، أو لا؟

فالجواب: نعم، يُنهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحال فلا حرج عليه في هذا الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعدًا؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ ولو كان العدو أكثر مِنْ مِثْلَيِّ المسلمين فلا يلزمهم أن يُصَابِرُوْهُمْ، ويجوز أن يَفِرُّوْا.

❁ **قال الله تعالى**:

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾

﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾: هو القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: مصدِّقًا لما ذُكر في التوراة والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ ومن أوصاف القرآن الذي يأتي ﷺ به؛ وكذلك أيضًا هو مصدق لما معهم: شاهد للتوراة والإنجيل بالصدق؛ فصار تصديق القرآن لما معهم من وجهين؛

الوجه الأول: أنه وقع مطابقًا لما أخبرت التوراة والإنجيل به.

والوجه الثاني: أنه قد شهد لهما بالصدق؛ فالقرآن يدل دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل. وهذه شهادة لهما بأنهما صدق.؛ وكذلك التوراة والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد ﷺ حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع

الأمر كما ذُكر فيهما صار ذلك تصديقًا لهما؛ ولهذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: «صدقتَ»، ثم وقع ما حدثتك به مشهودًا تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقًا أيضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ يعني: لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك كونوا ثاني كافر؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿تَكُونُوٓا۟﴾ ضمير جمع، و﴿كَافِرٍۭ﴾ مفرد، فكيف يصح أن تخبر بالمفرد عن الجماعة؟

والجواب: قال المفسرون: إن تقدير الكلام: أول فريق كافر به؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل عمومًا. وهم جماعة..

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ أي: لا تأخذوا؛ ﴿بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: الجاه، والرئاسة، وما أشبه ذلك؛ لأن بني إسرائيل إنما كفروا يريدون الدنيا؛ ولو أنهم اتبعوا محمدًا ﷺ لكانوا في القمة، ولأوتوا أجرهم مرتين؛ لكن حسدًا، وابتغاء بقاء الجاه والشرف، وأنهم هم أهل كتاب حسدوا النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: لا تتقوا إلا إياي؛ و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ففي الآية الأولى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها عصيانًا؛ وفي هذه الآية: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾

٢ ـ ومنها: أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولًا، ثم يفعلها ثانيًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «فَادْعُهُم إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُم أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[1].

إذنْ هم لا يخاطبون بالفعل. يعني لا يقال: افعلوا.؛ فلا نقول للكافر: تعال صلِّ؛ بل نأمره أولًا بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢: ٤٧] يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: ﴿لَمْ نَكُ

(١) رواه مسلم (١٩)، والترمذي (٦٢٥)، والنسائي (٢٥٢٢)، وأبوداود (١٥٨٤)، وابن ماجه (١٧٨٣)، وأحمد في مسنده (٢٠٧١).

مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣. ٤٤] عبثًا لا فائدة منه، ولا تأثير له.

٣ - ومن فوائد الآية: أن من اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1] يعني ريحها؛ وحينئذٍ يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا ليتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكانًا ينفع به المسلمين فهذا لم يشترِ بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة.

٤ - ومن فوائد الآية: أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

٥ - ومنها: أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل والإصلاح، بخلاف ما يسنُّه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:.

أولًا: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يُصْلِحُ الخلق.

ثانيًا: لخفاء المصالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصلحة مصلحة؛ وبالعكس.

ثالثًا: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام أو القانون من أذكى الناس وأعلم الناس بأحوال الناس؛ فإن علمه هذا محدود في زمانه، وفي مكانه؛ أما في زمانه فظاهر؛ لأن الأمور تتغير: قد يكون المصلحة للبشر في هذا الزمن كذا، وكذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضًا قد يكون هذا التشريع الذي سنه البشر مناسبًا لأحوال هذه الأمة في مكانهم؛ ولكن في أمة أخرى لا يصلح؛ ولهذا ضل كثير من المسلمين - مع الأسف الشديد - في أخذ القوانين الغربية، أو الشرقية، وتطبيقها على مجتمع إسلامي؛ لأن الواجب تحكيم الكتاب والسنة؛ والعجب أن بعض الناس - نسأل الله العافية - تجدهم قد مشوا على قوانين شرعت من عشرات السنين، أو مئاتها، وأهلها الذين شرعوها قد عدلوا عنها، فصار هؤلاء كالذين يمشمشون العظام بعد أن ترمى في الزبالة؛ وهذا شيء واضح: هناك قوانين شرعت لقوم كفار، ثم تغيرت الحال، فغيروها، ثم جاء بعض المسلمين إلى هذه القوانين القشور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد في «مسنده» (٨٤٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٨). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٥٩).

٦ـ **ومن فوائد الآية:** وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ؟

فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عزَّ وجلَّ. فلا منافاة.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا تمزجوا بينهما حتى يشتبه الحق بالباطل؛ فهم كانوا يأتون بشبهات تُشَبِّه على الناس؛ فيقولون مثلًا: محمد حق، لكنه رسول الأميين لا جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾: هنا الواو تحتمل أنها عاطفة، وتحتمل أنها واو المعية؛ والمعنى على الأول: لا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق؛ فتكون الجملتان منفردًا بعضهما عن بعض؛ ويحتمل أن تكون الواو للمعية، فيكون النهي عن الجمع بينهما؛ والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل مع كتمان الحق؛ لكن على هذا التقدير يبقى إشكال: وهو أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يقتضي أنهم يذكرون الحق والباطل؛ فيقال: نعم، هم وإن ذكروا الحق والباطل فقد كتموا الحق في الحقيقة؛ لأنهم لبسوه بالباطل، فيبقى خفيًّا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة في موضع نصب على الحال. أي والحال أنكم تعلمون صنيعكم..

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ ومن لَبْس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو على أحكام القرآن، ثم يزيلون الإشكال ـ مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي ـ ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد

تستقر فيه. وإن ذكر ما يزيلها..

٢ ـ ومن فوائد الآية: أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال النبي ﷺ: «**اَلْقُرْآنَ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»[١].

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب. وهو المباح.؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: «**كَلُّ لَـهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا لِعْبَهُ فِي رُمْحِهِ، وَمَعَ أَهْلِهِ، وَفِي فَرَسِهِ**»[٢]؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة. كلها تعود إلى مصلحة..

٣ ـ ومن فوائد الآية: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا وكذا: فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يُسأل؛ وإذا سئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. هذه واحدة.

ثانيًا: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب: «**حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!**»[٣]؛ وقال ابن مسعود: «**إنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[٤]؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

ثالثًا: إذا كان قصد السائل الامتحان، أو قصده تتبع الرخص، أو ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض. وأنت تعلم هذا.: فلك أن تمتنع؛ الامتحان أن يأتي إليك، وتعرف أن الرجل يعرف

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٩٥٩).

(٢) رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٩٥٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٩٣) برقم(١٧٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٣٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

المسألة، لكن سألك لأجل أن يمتحنك: هل أنت تعرفها، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلامًا ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنع؛ كذلك إذا علمت أن الرجل يتتبع الرخص، فيأتي يسألك يقول: سألت فلانًا، وقال: هذا حرام، وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلًا: فحينئذٍ لك أن تمتنع عن إفتائه؛ أما إذا كان المسؤول رجلًا تعرف أنه ليس عنده علم. إما من عامة الناس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى: فحينئذٍ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قال لك: أنا سألت فلانًا، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلانًا؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتني: فحينئذٍ يجب عليك أن تفتيه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ وخلاصة القول أنه لا يجب عليك الإفتاء إلا إذا كان المستفتي مسترشدًا؛ لأن كتمان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلسان الحال، أو بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل أمر به هذه الأمة؛ و﴿الصَّلَوٰةَ﴾ هنا تشمل الفريضة، والنافلة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة؛ و«آت» التي بمعنى «أعطِ» تنصب مفعولين؛ المفعول الأول هنا الزكاة؛ والمفعول الثاني محذوف؛ والتقدير: أهلَها؛ و﴿الزكاة﴾ هي: المال المدفوع؛ امتثالًا لأمر الله إلى أهله من أموال مخصوصة معروفة؛ وسمي بذل المال زكاة؛ لأنه يزكي النفس، ويطهرها، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعًا كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعًا؛ وقد دلَّ على ذلك أيضًا قول الله تعالى لمريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود.

٢ ـ **ومنها:** أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلًا. بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير.؛ فيُمتحَن العباد بإيتاء الزكاة، وبذلِ شيء من

أموالهم حتى يُعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها.

٣ ـ **ومنها**، الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانها.

٤ ـ **ومنها**، جواز التعبير عن الكل بالبعض، إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

٥ ـ **ومنها**، وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذنْ لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن ـ الحمد لله ـ وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]

❁ التَّفسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ..﴾: الاستفهام هنا للإنكار؛ والمراد إنكار أمر الناس بالبر مع نسيان النفس؛ إذ النفس أولَى أن يبدأ بها؛ و«البر» هو الخير؛ قال أهل التفسير: إن الواحد منهم يأمر أقاربه باتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنه حق؛ لكن تمنعه رئاسته وجاهه أن يؤمن به؛ ومن أمثلة ذلك: أن النبي ﷺ عاد غلامًا من اليهود كان مريضًا، فحضر أجله والنبي ﷺ عنده؛ فدعاه النبي ﷺ إلى الرشد، فنظر إلى أبيه كأنه يستشيره، فقال له أبوه: «أطع أبا القاسم». وأبوه يهودي.، فتشهد الغلام شهادة الحق، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَه بِي مِنَ النَّار»[1] أي: بدعوتي؛ إذنْ هؤلاء اليهود من أحبارهم من يأمر الناس بالبر ـ وهو اتباع الرسول ﷺ ـ ولكنه ينسى نفسه، ولا يؤمن؛ فقال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: تقرؤون التوراة؛ والجملة هنا حالية. أي: والحال أنكم تتلون الكتاب؛ فلم تأمروا بالبر إلَّا عن علم؛ ولكن مع ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها، فلا تأمرونها بالبر.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ. يعني: أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم.؟! و«**العقل**» هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف.؛ وسمي إحسان التصرف عقلًا؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك مُنَافٍ للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان هذا دأبه؛ فقد أخبر النبي ﷺ «أَنَّهُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ». و«**الأقتاب**» هي: الأمعاء «فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجتَمِعُ إِلَيهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَلَيسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ، وتَنْهَانَا عَنْ المُنكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُم عَنْ المُنكَرِ وآتِيهِ»[1]؛ فهو من أشد الناس عذابًا. والعياذ بالله..

فإن قال قائل: بناءً على أنه مخالف للعقل، وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أَمَر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: «**لا تأمر، ولا تنهَ**»؟

فالجواب: نقول: لا، بل مُرْ، وافعل ما تأمر به؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين:

الأولى: ترك الأمر بالمعروف.

والثانية: عدم قيامه بما أمر به.

وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين:

الأولى: ترك النهي عن المنكر.

والثانية: ارتكابه للمنكر.

ثم نقول: أينا الذي لم يسلم من المنكر! لو قلنا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يأت منكرًا لم يَنهَ أحد عن منكر؛ ولو قلنا: لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى المعروف لم يأمر أحد بمعروف؛ ولهذا نقول: مُرْ بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وانْهَ عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

٢ - **ومن فوائد الآية:** توبيخ العالم المخالف لما يأمر به، أو لما ينهى عنه؛ وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالًا من الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾؛ وهذا أمر فُطر الناس عليه. أن العالم إذا خالف صار أشد لومًا من الجاهل.؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكرًا قالوا: كيف

---

(١) رواه البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٦٨).

تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجبًا قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟!.

٣ - ومن فوائد الآية: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٤ - ومنها: أن من أمر بمعروف ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم. والعياذ بالله.

قال الله تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: استعينوا على أموركم بالصبر والصلاة؛ و«الاستعانة» هي طلب العون؛ و«الاستعانة بالصبر»: أن يصبر الإنسان على ما أصابه من البلاء، أو حُمِّل إياه من الشريعة؛ و﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ هي: العبادة المعروفة؛ وتعم الفرض، والنفل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾: قيل: إن الضمير يعود على ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ لأنها أقرب مذكور؛ والقاعدة في اللغة العربية: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يمنع منه مانع؛ وقيل: إن الضمير يعود على الاستعانة المفهومة من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾؛ لأن الفعل ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ يدل على زمن ومصدر؛ فيجوز أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أي: العدل المفهوم من قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ أقرب للتقوى؛ لكن المعنى الأول أوضح.

قوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لشاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ أي: الذليلين لأمر الله.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: إرشاد الله - تبارك وتعالى - عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة.

٢ - ومنها: جواز الاستعانة بغير الله؛ لكن فيما يثبت أن به العون؛ فمثلًا: إذا استعنت إنسانًا يحمل معك المتاع إلى البيت كان جائزًا؛ قال النبي ﷺ: «وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلَهُ عَلَيهَا، أَو تَرْفَعَ لَهُ عَلَيهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ»(١).

أما الاستعانة بما لا عون فيه فهي سفه في العقل، وضلال في الدين، وقد تكون شركًا: كأن

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٤)، ومسلم (١٠٠٩).

يستعين بميت، أو بغائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه.

٣ ـ ومن فوائد الآية: فضيلة الصبر، وأن به العون على مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء:

الأول: الصبر على طاعة الله.

والثاني: الصبر عن معصية الله.

والثالث: الصبر على أقدار الله.

فالصبر على الطاعة هو أشقها وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلًا وكفًّا اختياريًّا: فعل الطاعة؛ وكفُّ النفس عن التهاون بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحيانًا يكون شديدًا على النفس؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[1] في رتبة الإمام العادل؛ من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وإن كان الإمام العادل أفضل؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيها إذا كان خاليًا بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: «إني أخاف الله»؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صبر معين في شخص معين؛ قد يكون بعض الناس يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع لابد أن يقع ـ صبرت، أم لم تصبر ـ : هل إذا جزعت، وندمت، واشتد حزنك يرتفع المقدور؟!.

الجواب: لا؛ إذن كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام؛ وإما أن تسلو سُلوّ البهائم.

٤ ـ ومن فوائد الآية: الحث على الصبر بأن يحبس الإنسان نفسه، ويُحمِّلها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهذا مجرب. أن الإنسان إذا صبر أدرك مناله؛ وإذا ملَّ كسل، وفاته خير كثير.؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِالله، ولَا تَعْجِزْ»[2]؛ وكثير من الناس يرى أن بداءته بهذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكِلُّ، ويترك؛ إذن ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمنًا كثيرًا؛ ولا يأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثانٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٦١).

أن يصيبه مثل ما أصابه أولًا، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعه؛ فليصبر: لنفرض أن إنسانًا من طلبة العلم هَمَّ أن يحفظ: «بلوغ المرام»، وشرع فيه، واستمر حتى حفظ نصفه؛ لكن لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس.

٥ ـ ومن فوائد الآية: فضيلة الصلاة؛ حيث إنها مما يستعان بها على الأمور وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى[1]؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[2].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عونًا للإنسان؟

فالجواب: تكون عونًا إذا أتى بها على وجه كامل. وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها، أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل هَمٍّ؛ لأنه اتصل بالله عزَّ وجلَّ الذي هو محبوبه وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِيَ فِي الصَّلَاةِ**»[3]؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عونًا له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر. هو على ما هو عليه.؛ لا لَانَ قَلْبُهُ لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة.

٧ ـ ومنها: أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين. ولا سيما الصلاة..

٨ ـ ومنها: أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل

---

(١) حسن: رواه أبوداود (١٣١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٣٤٧)، والبغوى في «شرح السنة» (٤/ ١٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣١٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٧٥٨)، و مسلم (١٧٦٣).

(٣) **صحيح:** رواه النسائى (٣٩٣٩)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٨٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٢٣٢)، وعبدالرزاق في «مصنفه» (٧٩٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٩٨).

من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبَاتُ إلى الله تعالى، والإنَابَةِ إليه تدعو إلى طاعته.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦]

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿الذين يظنون﴾ أي: يتيقنون؛ و«الظن» يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين، وله أمثلة كثيرة؛ منها قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنهم سيلاقون الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ أي: في جميع أمورهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات ملاقاة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء.

٢ - **ومنها:** إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فَثَمّ أدلة أخرى كثيرة تدل على ثبوت رؤية الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

٣ - **ومنها:** أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أمورًا:.

أولًا: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله فسوف تخاف منه.

ثانيًا: مراقبة الله عزَّ وجلَّ. المراقبة في الجوارح.؛ والخوف في القلب؛ يعني: أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله فسوف يخشونه في السرِّ والعلانية.

ثالثًا: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ أي: بألسنتكم وقلوبكم؛ والمراد بـ «النعمة» - وإن كانت مفردة - جمع «النِّعَم»، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: وهي نعم كثيرة؛ منها ما ذكَّرهم بها نبيهم موسى. عليه الصلاة والسلام.، حيث قال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]: وهي نعم عظيمة دينية، ودنيوية؛ فالدينية في قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ والدنيوية في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾؛ و ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: من النعمتين.

قوله تعالى: ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: جعلتكم أفضل من غيركم؛ والمراد عالَم زمانهم؛ وأصل «عالمين» كل من سوى الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]؛ فليس ثَمَّ إلا رب، ومربوب؛ العالَم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالَم من سوى الله؛ وسمي عالَمًا؛ لأنه عَلَم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمدًا ﷺ.

٢ - **ومنها:** إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٣ - **ومنها:** أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان؛ ولذلك كُتب لهم النصر على أعدائهم العمالقة، فقيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١]؛ و«الأرض المقدسة» هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ

﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ثم قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ إذن المتقون هم الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها؛ وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النبي ﷺ صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون ـ لا العرب ـ؛ ففلسطين ليس العرب بوصفهم عربًا هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين. لا غير وبوصفهم عبادًا لله عزَّ وجلَّ صالحين؛ ولذلك لن ينجح العرب فيما أعتقد ـ والعلم عند الله ـ في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبدًا؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ ومهما حاول العرب، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبدًا حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام ـ بعد أن يطبقوه في أنفسهم ـ؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»[1]؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول: «يا عبد الله». باسم العبودية لله، ويقول: «يا مسلم» ـ باسم الإسلام ـ؛ والرسول ﷺ يقول: «يقاتل المسلمون اليهود»، ولم يقل: «العرب».

ولهذا أقول: إننا لن نقضي على اليهود باسم العروبة أبدًا؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]: فجعل الميراث لعباده الصالحين؛ وما عُلّق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه؛ فإذا كنا عبادَ الله الصالحين ورثناها بكل يسر وسهولة، وبدون هذه المشقات، والمتاعب، والمصاعب، والكلامِ الطويل العريض الذي لا ينتهي أبدًا!! نستحلها بنصر الله عزَّ وجلَّ، وبكتابة الله لنا ذلك. وما أيسره على الله.! ونحن نعلم أن المسلمين ما ملكوا فلسطين في عهد الإسلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المدائن عاصمة الفرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعيًا صحيحًا بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي. لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصية.! ولعل بعضنا سمع قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما كسرت الفُرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسلمون إليهم؛ فسخَّر الله لهم البحر؛ فصاروا يمشون على ظهر الماء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشون على الماء كما

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٩٢٢).

يمشون على الأرض لا يغطي الماء خفاف الإبل؛ وإذا تعب فرس أحدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يستريح عليها؛ وهذا من آيات الله ـ ولا شك ـ؛ والله تعالى على كل شيء قدير؛ فالذي فلق البحر لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولقومه، وصار يبسًا في لحظة، ومشوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك.

فالحاصل: أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذِّلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذَل عباد الله لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ويدل لذلك. أي أن المراد بقوله تعالى.: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في وقتكم، أو فيمن سبقكم: قوله تعالى في هذه الأمة أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صريح في تفضيلهم على الناس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أننا نوفي سبعين أمة نحن أكرمها، وأفضلها عند الله عزَّ وجلَّ[1]. وهذا أمر لا شك فيه، ولله الحمد.

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحدًا بعلم أو مال، أو جاه فإن ذلك من النِعَمِ العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: خصها بالذكر لأهميتها.

٥ ـ ومنها، تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم ـ حتى الرسل يفضل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

قال الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ أي: اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٠١).

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تغني؛ و﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فيكون عامًّا؛ فلا تجزي ولا تغني نفس عن نفس أبدًا. حتى الرسول ﷺ لا يغني شيئًا عن أبيه، ولا أمه.؛ وقد نادى ﷺ عشيرته الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ الله، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا؛ يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ الله، لَا أُغْنِي عَنْكِ شَيْئًا..» (1). مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]: تزول الأنساب، وينسى الإنسان كل شيء، ولا يسأل أين ولدي، ولا أين ذهب أبي، ولا أين ذهب أخي، ولا أين ذهبت أمي: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة؛ و«الشفاعة» هي: التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة(2): من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها(3): من دفع المضرة؛ فيومَ القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي: من النفس؛ ﴿عَدْلٌ﴾ أي: بديل يعدل به عن الجزاء؛ و«العدل» بمعنى: المعادِل المكافئ؛ ففي الدنيا قد تجب العقوبة على شخص، ويفتدي نفسه ببدل؛ لكن في الآخرة لا يمكن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا أحد ينصرهم، أي: يمنعهم من عذاب الله؛ لأن الذي يخفف العذاب واحد من هذه الأمور الثلاثة: إما شفاعة؛ وإما معادلة؛ وإما نصر.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: التحذير من يوم القيامة؛ وهذا يقع في القرآن كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

٢ - ومنها: أنه في يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئًا - بخلاف الدنيا - فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة لا.

٣ - ومنها: أن الشفاعة لا تنفع يوم القيامة؛ والمراد: لا تنفع من لا يستحق أن يُشفَعَ له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبوت الشفاعة. وهي معروفة في مظانها من كتب الحديث والعقائد.

---

(1) رواه البخاري (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٤).

(2) كما روى مسلم في صحيحه (١٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا».

(3) انظر «صحيح مسلم» (١٩٣).

٤ ـ ومنها: أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداءً يعدل به؛ لقوله تعالى: ﴿ولا عدلٌ﴾

٥ ومنها: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]؛ فلا أحد يَنصُرُ أحدًا يوم القيامة. لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم..

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون؛ والمراد بـ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جماعة فرعون، ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلَّط لهم على بني إسرائيل.

وكان بنو إسرائيل مستضعفين في مصر، وسُلِّط عليهم الفراعنة حتى كانوا كما قال الله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ ومعنى «السوم» في الأصل: الرعي؛ ومنه السائمة ـ أي: الراعية ـ والمعنى: أنهم لا يرعونكم إلا بهذا البلاء العظيم و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: سيئه وقبيحه.

قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: الفعل مضعَّف ـ أي: مشدد ـ للمبالغة؛ لكثرة من يذبحون، وعظم ذبحهم؛ هذا وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ وهو بمعنى ﴿يُذَبِّحُونَ﴾؛ ويحتمل أن يكون مغايرًا له؛ فيُحمل على أنهم يقتلون بعضًا بغير الذبح، ويذبحون بعضًا؛ وعلى كلٍّ فالجملة بيان لقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ هذا وجاء في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بالواو عطفًا على قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب. وهو التنكيل والتعذيب، وبين الذبح.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يَسْتَبْقُونَ نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال وبقيت النساء ذلَّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدمًا لآل فرعون؛ وهذا ـ والعياذ بالله ـ من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ

وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩] وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]، وهم بنو إسرائيل..

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ عظيم ـ أي: اختبار عظيم ـ؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.

٢ ـ **ومنها:** أن الإنجاءَ من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاكُم﴾.

٣ ـ **ومنها:** بيان حِنْقِ آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال في سورة الأعراف: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتَّل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أُرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٤ ـ **ومنها:** أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يَسُوؤهُم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عزَّ وجلَّ؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

۞ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾: متعلقة بمحذوف؛ والتقدير: واذكروا - يعني بني إسرائيل - إذ؛ ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه لكم، وفصلنا بعضه عن بعض حتى عبرتم إلى الشاطئ.

قوله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: وذلك أن موسى وقومه لما تكاملوا خارجين من هذا الذي فلقه الله عزَّ وجلَّ من البحر دخل فرعون وقومه؛ فلما تكاملوا داخلين أمر الله تعالى البحر، فانطبق عليهم، فغرقوا جميعًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: الجملة هذه حالية. أي: أن هذا وقع والحال أنكم تنظرون؛ ولهذا قال الله - تبارك وتعالى - لفرعون: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢] ينظرون إليك أنك قد هلكت.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** مناسبة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ لما قبله ظاهرة جدًّا، وذلك أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فرعون عليهم ذكر مآل هؤلاء المتسلطين؛ وأن الله أغرقهم، وأنجى هؤلاء، وأورثهم أرضهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

٢ - **ومنها:** تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم.

٣ - **ومنها:** بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله - تبارك وتعالى - أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم. أي: كالجبل العظيم؛ وثَمَّ وَجهٌ آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت يبسًا في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبسًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧]؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض. حتى لا ينزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «البداية والنهاية» أنه ما من آية سبقت

لرسول إلا لرسولنا ﷺ مثلها: إما له ﷺ هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «**البداية والنهاية**» على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشَوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل ومشيهم على الأرض اليابسة.

٤ - من فوائد الآية: أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠:٩١] الآيتين.

٥ - ومنها: أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نُصروا بالريح التي أرسلها الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

٦ - ومن فوائد الآية: عتوُّ بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغيانًا، وتكذيبًا للرسل، واستكبارًا عن عبادة الله عزَّ وجلَّ.

٧ - ومنها: أن الله تعالى سخِر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى - عليه الصلاة والسلام - وقد كان فرعون يقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مَهِين، ولا يكاد يبين.

❁ **قال الله تعالى**:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١:٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ أي: واذكروا إذ واعدنا موسى؛ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: وعده الله

تعالى لميقاته ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدْنَا﴾ قراءتان سبعيتان: بألف بعد الواو؛ وبدونها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صيرتم العجل؛ و﴿الْعِجْلَ﴾ مفعول أول؛ والثاني: محذوف؛ والتقدير: اتخذتم العجل إلهًا؛ و«**العجل**» تمثال من ذهب صنعه السَّامِرِيُّ، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم، وإله موسى فنسي.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى حين ذهب لميقات الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: هذه الجملة حال من التاء في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾؛ والفائدة من ذكر هذه الحال زيادة التوبيخ، وأنهم غير معذورين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي: تجاوزنا عن عقوبتكم؛ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أتى بها؛ لأن العفو إنما حصل حين تابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، «لعل» هنا للتعليل؛ و﴿تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على نعمه؛ والشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عزَّ وجلَّ، وأن له المنة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافًا ـ لا افتخارًا ـ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المُنعِم؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ المُحَجَّبَا

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تقديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينَزِّل عليه فيها التوراة. مع أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يَنزِّلها في ليلة مرة واحدة؛ ولكن لحكمة ـ لا نعلم ما هي ـ وعده الله تعالى ثلاثين ليلة أولًا، ثم أتمها بعشر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

٢ ـ **ومنها:** بيان جهل بني إسرائيل الجهل التام؛ وجه ذلك أن هذا الحُلِّي الذي جعلوه إلهًا هم الذين صنعوه بأنفسهم؛ فقد استعاروا حُليًا من آل فرعون، وصنعوه على صورة الثور عجلًا جسدًا. لا روح فيه؛ ثم قال السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]؛ وزعموا أن موسى ضلَّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع ربًّا لكم ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] قال لهم نبيهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وصدق عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم.

٤ ـ **ومنها**: سعة حلم الله عزَّ وجلَّ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفِّقوا لها.

٥ ـ **ومنها**: أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ وإذا كان العفو؛ وهو زوال النقم. موجبًا للشكر فحدوث النعم أيضًا موجب للشكر من باب أولى.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[البقرة:٥٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: واذكروا إذ أعطينا موسى؛ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي:التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ إما صفة مشبهة، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأن المراد بـ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الفارق؛ والمراد به هنا الفارق بين الحق والباطل؛ وعطفه هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلًا: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]: المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١. ٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ نفس التوراة؛ و﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة؛ و﴿تَهْتَدُونَ﴾ أي: هداية العلم والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن إنزال الله تعالى الكتب للناس من نعمه وآلائه؛ بل هو من أكبر النعم؛ لأن الناس لا يمكن أن يستقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبيانًا للناس.

٢ ـ **ومنها**: أن موسى ﷺ نبيٌّ رسول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب.

٣ ـ **ومنها:** فضيلة التوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ و«أل» هذه للعهد الذهني؛ فدل هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضًا سماها الله تعالى الفرقان، كما سمى القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب وأهداهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩]. يعني: التوراة، والإنجيل. ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]؛ ودل هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقانًا؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان عتوِّ بني إسرائيل، وطغيانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نزلت عليهم فرقانًا، ثم هم يكفرون هذا الكفر دلَّ على زيادة عتوهم، وطغيانهم؛ إذ من نُزِّل عليه كتاب يكون فرقانًا كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا مذعنًا.

٥ ـ **ومنها:** أن الله تبارك وتعالى يُنزل الكتب، ويجعلها فرقانًا لغاية حميدة حقًّا، وهي الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

٦ ـ **ومنها:** أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة من السماء. لا يطلبها من الأساطير، وقصص الرهبان، وقصص الزهاد، والعباد، وجعجعة المتكلمين، والفلاسفة، وما أشبه ذلك؛ بل من الكتب المنَزلة من السماء.

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهاد، والعباد، ونحوهم نقول لكاتبيها وقارئيها: خير لكم أن تبدوا للناس كتاب الله عزَّ وجلَّ، وما صح عن رسوله ﷺ وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حتى يكون ذلك نافعًا للخلق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جاء من عند الله عزَّ وجلَّ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد.

٨ ـ **ومنها:** أن الإيتاء المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا؛ مثال الكوني: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ ومثال الشرعي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أيضًا فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أي: يا أصحابي؛ وناداهم بوصف القومية تحببًا، وتوددًا، وإظهارًا بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: أكد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه؛ و﴿ظَلَمْتُمْ﴾ بمعنى: نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن «الظلم» في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: الباء هنا للسببية. أي: بسبب اتخاذكم العجل؛ و«اتخاذ» مصدر فِعْله: اتخذ؛ وهو مضاف إلى فاعله: الكاف؛ و﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا؛ والمعنى: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلهًا تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السَّامري.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته؛ و«الباريء»: الخالق المعتني بخلقه؛ فكأنه يقول: كيف تتخذون العجل إلهًا وتَدَعون خالقكم الذي يعتني بكم؛ وهذا كقول إلياس عليه السلام لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟﴾ تفسير للمجمل في قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓا۟﴾؛ وعلى هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل. وهو أن تقتلوا أنفسكم؛ أي ليقتل بعضكم بعضًا؛ وليس المعنى أن كل رجل يقتل نفسه. بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنى قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنى: ليقتل بعضكم بعضًا: يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحًا؛ خناجر، وسكاكين، وسيوفًا. وكل واحد منكم يهجم على الآخر، ويقتله.

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أو وقع جهارًا بدون ظلمة؟ فقيل: إنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضًا وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه فيقتله،

وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضًا، ولا يدري مَن قتل.

وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهرًا بدون ظلمة، وأن هذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، وأنه لما رأى موسى ﷺ أنهم سينتهون؛ لأنه إذا قتل بعضهم بعضًا لن يبقى إلا واحد. ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكف؛ وقيل: بل سقطت أسلحتهم من أيديهم - والله أعلم -.

وظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضًا عِيانًا، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

وذهب بعضهم إلى أن المراد: أن يقتل البريء منكم المجرم. يعني الذين دعوا إلى عبادة العجل، وعكفوا عليه يُقتَلون؛ والذين تبرؤوا منه يَقتلون - والله أعلم -.

ولكن الظاهر الأول؛ لأن قتل البريء للمجرم ليس فيه دلالة على صدق التوبة من المجرمين؛ لأن الإنسان قد يُقتل وهو مُصِرٌّ على الذنب؛ ولا يدل ذلك على توبته.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه قتل أنفسهم؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي: من عدم التوبة؛ أو من عدم القتل؛ وهذا من التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ والتفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء وارد في اللغة العربية؛ لكن بعضهم يقول: إنه لا يكون بمعنى التفضيل؛ بل المراد به وجود الخير في هذا الأمر بدون وجود مفضَّل عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لما قبلها؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل؛ وسبق بيان فوائده؛ و﴿التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.

٢- **ومنها:** أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ﴾.

٣- **ومنها:** أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وَجهُ ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن

العاص: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا»[1].

٤ ـ **ومنها:** أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾؛ لأن ذكر «الباري» هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهًا؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهًا هو الباري؛ أي: الخالق سبحانه وتعالى.

٥ ـ **ومنها:** وجوب التوبة؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾

٦ ـ **ومنها:** أن التوبة على الفور؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾؛ لأن الفاء للترتيب، والتعقيب.

٧ ـ **ومنها:** إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾: فإن الباء هنا للسببية.

٨ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾.

٩ ـ **ومنها:** سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صنعوا وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًّا، ولا نفعًا.

١٠ ـ **ومنها:** ما وضع الله تعالى على بني إسرائيل من الأغلال والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

١١ ـ **ومنها:** أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأنهم ما أُمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضهم بعضًا؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا يلمز بعضكم بعضًا؛ وعبر عن ذلك بـ «النفس»؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه

١٢ ـ **ومنها:** تفاضل الأعمال؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾

١٣ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

١٤ ـ **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله. وهما ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وإثبات ما تضمناه من صفة. وهي: التوبة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما. لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة، وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

١٥ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله؛ فيتعرض لتوبة الله ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤١٣)، وأبوداود (١٣٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٣٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٢٩٢٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢١٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٦٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٤٦).

عنها رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا». أي: أسماء الله التسعة والتسعين. «دَخَلَ الجَنَّةَ»(١)؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥:٥٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا أيضًا يا بني إسرائيل إذ قلتم..؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم.

قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن ننقاد، ولن نصدق، ولن نعترف لك بما جئت به.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: ﴿نَرَى﴾ بمعنى نبصر؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ لأنها رؤية بصرية؛ واختلف العلماء متى كان هذا، على قولين:.

القول الأول: أن موسى ﷺ اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات الله، وذهب بهم؛ ولما صار يكلم الله ويكلمه الله قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فعلى هذا القول يكون صعقهم حينما كان موسى خارجًا لميقات الله.

القول الثاني: أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنزل الله عليه التوراة، وجاء بها قالوا: «ليست من الله؛ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾».

والسياق يؤيد الثاني؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾، ثم ذكر قصة العجل، وهذه كانت بعد مجيء موسى بالتوراة، ثم بعد ذلك ذكر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فقد أيد بعضهم القول الأول بهذه الآية؛ ولكن الحقيقة ليس فيه

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥)، ومسلم (٢٦٧٧).

تأييد لهم؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. رُجِفَ بهم؛ والأخرى: أخذتهم الصاعقة. صعقوا، وماتوا.

فالظاهر لي: أن القول الأول لا يترجح بهذه الآية لاختلاف العقوبتين؛ هذه الآية كانت العقوبة بالصاعقة؛ وتلك كانت بالرجفة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني: الموت الذي صعقوا به؛ ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضكم إلى بعض حين تتساقطون؛ والجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني: والحال أنكم تنظرون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾: أصل «البعث» في اللغة :الإخراج؛ ويطلق على الإحياء، كما هذه الآية؛ ويدل على أن المراد به الإحياء هنا قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾؛ وهو موت حقيقي، وليس نومًا، لأن النوم يسمى وفاة؛ ولا يسمى موتًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]

وقوله تعالى: ﴿بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾: هذه نعمة كبيرة عليهم أن الله تعالى أخذهم بهذه العقوبة، ثم بعثهم ليرتدعوا؛ ويكون كفارة لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله سبحانه وتعالى؛ و«لعل» هنا للتعليل.

وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٣]؛ والرابعة: في قصة الذي مرَّ على قرية، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ والخامسة في قصة إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي..﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية؛ والله تعالى على كل شيء قدير، ولا يُنافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها. كإخراج عيسى الموتى من قبورهم. تعتبر أمرًا عارضًا يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام: فإنه لا يكون إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من المشركين، ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦] نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم؛ حيث بعثهم من بعد موتهم.

٢ ـ ومنها: سفاهة بني إسرائيل؛ وما أكثر ما يدل على سفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

٣ ـ ومنها: أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾؛ لأن الفاء تدل على السببية؛ ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرْق بين قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فموسى قال ذلك شوقًا إلى الله عزَّ وجلَّ، وليتلذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشككًا. يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطلبين.

٤ـ ومن فوائد الآيتين: أن ألم العقوبة، ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعًا عليه.

٥ ـ ومنها: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أحياهم بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٦ ـ ومنها: وجوب الشكر على من أنعم الله عليه بنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقرارًا بالقلب، واعترافًا باللسان، وعملًا بالأركان؛ فيعترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضًا يتحدث بها بلسانه اعترافًا ـ لا افتخارًا؛ وكذلك أيضًا يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر؛ وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثلاثةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ المُحَجَّبَا

٧ـ ومن فوائد الآيتين: إثبات الحكمة لله تعالى: لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ فإن «لعل» هنا للتعليل المفيد للحكمة.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي: جعلناه ظلًّا عليكم؛ وكان ذلك في التِّيهِ حين تاهوا؛ وقد بقوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عندهم ماء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليه الغمام؛ و﴿الْغَمَامَ﴾ هو السحاب الرقيق الأبيض؛

وقيل: السحاب مطلقًا؛ وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو باردًا، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو. وهذا هو الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾: يقولون: ﴿الْمَنَّ﴾ شيء يشبه العسل؛ ينْزل عليهم بين طلوع الفجر وطلوع الشمس؛ فإذا قاموا أكلوا منه؛ ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾: طائر ناعم يسمى «السُّمَانَى»، أو هو شبيه به؛ وهو من أحسن ما يكون من الطيور، وألذه لحمًا.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ الأمر هنا للإباحة؛ يعني: أننا أبحنا لكم هذا الذي أنزلنا عليكم من المنِّ والسَّلوى؛ ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: ﴿مِن﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ لأنهم أبيح لهم أن يأكلوا جميع الطيبات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما نقصونا شيئًا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ وقُدِّم لإفادة الحصر. أي: لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم؛ أما الله ـ تبارك وتعالى ـ فإنهم لا يظلمونه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** نعمة الله تبارك وتعالى بما هيأه لعباده من الظلِّ؛ فإن الظلَّ عن الحرِّ من نعم الله على العباد؛ ولهذا ذكره الله عزَّ وجلَّ هنا ممتنًّا به على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١].

٢ ـ **ومنها:** أن الغمام يسير بأمر الله عزَّ وجلَّ، حيث جعل الغمام ظلًّا على هؤلاء.

٣ ـ **ومنها:** بيان نعمة الله على بني إسرائيل بما أنزل عليهم من المنِّ والسَّلوى. يأتيهم بدون تعب، ولا مشقة؛ ولهذا وصف بـ«المنِّ».

٤ ـ **ومنها:** أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيأ لهم لحوم الطير. وهو أيضًا لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

٥ ـ **ومنها:** أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]؛ فإن الإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم»؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه مِنَّة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان

اللحم لأنه يخشى أن تتسلى به نفسه حتى يكون همه أن يُذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاةً لغيره، مثل ما يذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة- عام الجدب المشهور- أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع[1]؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذنْ من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

٦- **ومنها**: أن المباح من الرزق هو الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾.

٧- **ومنها**: تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أي: نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرم على مُكتَسبه، وليس محرمًا على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدلّ ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب.

٨- **ومن فوائد الآية**: أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

٩- **ومنها**: أن العاصي لا يضر الله شيئًا؛ وإنما يظلم نفسه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨: ٥٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية؛ و﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ أمر كوني وشرعي؛ لأنهم أُمروا بأن يدخلوها سجدًا وهذا أمر شرعي؛ ثم

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٣٥).

فُتحت، فدخلوها بالأمر الكوني.

واختلف المفسرون في تعيين هذه القرية؛ والصواب أن المراد بها: بيت المقدس؛ لأن موسى قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]؛ و﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ هي: البلد المسكون؛ مأخوذة من القري. وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأما الكبير فيسمى: مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية ـ وهي لغة القرآن ـ لا فرق بين الصغير والكبير؛ فقد سمى الله عزَّ وجلَّ مكة قرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]: المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]: فسمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة والكبيرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾: الأمر للإباحة أي: فأبحنا لكم أن تأكلوا منها؛ ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: في أي مكان كنتم من البلد في وسطها، أو أطرافها تأكلون ما تشاءون؛ ﴿رَغَدًا﴾ أي: طمأنينة، وهنيئًا لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا يمانعكم.

قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب القرية؛ لأن القرى يجعل لها أبوابًا تحميها من الداخل والخارج؛ ﴿سُجَّدًا﴾ منصوب على أنه حال من الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟﴾ أي: ساجدين؛ والمعنى: إذا دخلتم فاسجدوا شكرًا لله؛ وعلى هذا فالحال ليست مقارنة لعاملها؛ بل هي متأخرة عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: احطط عنا ذنوبنا، وأوزارنا؛ فهي بمعنى قولوا: ربنا اغفر لنا؛ والمراد: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى إذا دخلتم وسجدتم؛ و﴿حِطَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: سؤالنا حطة، أو:حاجتنا حطة. أي: أن تحط عنا ذنوبنا؛ والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ بنون مفتوحة، وفاء مكسورة؛ وفي قراءة: ﴿تُغفَر لكم﴾ بتاء مضمومة، وفاء مفتوحة؛ وفي قراءة ثالثة: ﴿يُغفَر﴾ بياء مضمومة وفاء مفتوحة؛ وكلها قراءات صحيحة؛ بأيها قرأت أجزأك.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾: «المغفرة» هي: ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه: أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر. وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر «المغفرة» بمجرد الستر فقد قصَّر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقرره بذنوبه قال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨).

أي: اليوم أسترها أيضًا، ثم أتجاوز عنها؛ و﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ جمع خَطِيَّة، كـ«مطايا» جمع مطية؛ و«الخطية» ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى «أخطاء»؛ ولهذا يفرق بين «مخطئ»، و«خاطئ»؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ أي: سنعطي زيادة على مغفرة الذنوب ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين يقومون بالإحسان، و«الإحسان» نوعان:

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكَفُّ الأذى.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل، والمخالفة ﴿قولًا غير الذي قيل لهم﴾: وذلك أنهم قالوا: «حنطة في شعيرة» بدلًا عن قولهم: «حطة».

وفي قوله تعالى: ﴿فبدَّل الذين ظلموا﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ ومقتضى السياق أن يكون بلفظ: فبدلوا قولًا. إلخ، وللإظهار في موضع الإضمار فوائد من أهمها:.

أولًا: تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف؛ معنى ذلك: الحكم على هؤلاء بالظلم.

ثانيًا: أن هذا مقياس لغيرهم أيضًا؛ فكل من بدَّل القول الذي قيل له فهو ظالم؛ فيؤخذ منه تعميم الحكم بعموم علة الوصف.

ثالثًا: التنبيه ـ أعني: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا جاء الكلام على خلاف السياق انتبه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ الفاء للسببية؛ والمعنى: فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: عليهم؛ ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. أي: العذاب. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، والعذاب غير الرجس؛ لأن الرجس: النجس القذر؛ والرجز: العذاب، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من فوقهم، كالحجارة، والصواعق، والبَرَد، والريح، وغيرها؛ والمراد بـ﴿السَّمَاءِ﴾ هنا: العلوّ، ولا يلزم أن يكون المراد بها السماء المحفوظة؛ لأن كل ما علا فهو سماء ما لم يوجد قرينة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: الباء هنا للسببية. أي: بسبب؛ و«ما» مصدرية. أي: بكونهم فسقوا؛ وإذا كانت مصدرية: فإنه يحول ما بعدها من الفعل أو الجملة إلى مصدر؛ و﴿كَانُوا﴾: هل

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

المراد فيما مضى؛ أم المراد تحقيق اتصافهم بذلك؟ الجواب: الثاني؛ وهذا يأتي في القرآن كثيرًا؛ و﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي: يخرجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ وهكذا جميع صفات الله عزَّ وجلَّ لا يمكن إدراك حقائقها.

٢ - **ومنها:** وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.

٣ - **ومنها:** جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلُّ الغنائم من خصائص هذه الأمة. أي: أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلُّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.

٤ - **ومنها:** أنه يجب على من نصره الله وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع والشكر لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة دخلها مُطَأْطِئًا رأسه يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

٥ - **ومنها:** لؤم بني إسرائيل، ومضادَّتُهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجدًا؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكبارًا واستهزاءً.

٦ - **ومنها:** بيان قبح التحريف سواء كان لفظيًّا، أو معنويًّا؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٧ - **ومنها:** أن الجهاد مع الخضوع لله عزَّ وجلَّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وسبب للاستزادة أيضًا من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٨ - **ومنها:** أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحسانًا في عبادة الله، أو إحسانًا إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**اللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[1]؛ وقال: «**وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ**»[2].

٩ - **ومنها:** تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾.

١٠ - **ومنها:** بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٤٢٥)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وابن ماجه (٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (٢٥٨٠).

١١ ـ ومنها: الإشارة إلى عدل الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا يظلم أحدًا، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.

١٢ ـ ومنها: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده «**الإيمان**»، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ وفسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده «**العدالة**»، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]

١٣ ـ ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

١٤ ـ ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو: الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلمًا، والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

١٥ ـ ومنها: أن الفسوق سبب لنزول العذاب.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكر إذ استسقى موسى لقومه. أي: طلب السقيا لهم؛ وهذا يعم كونهم في التيه، وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: «العصا» معروفة؛ و﴿ٱلْحَجَرَ﴾: المراد به الجنس؛ فيشمل أيَّ حجر يكون؛ وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين؛ وهذه «**العصا**» كان فيها أربع آيات عظيمة:

أولًا: أنه يلقيها فتكون حيَّة تسعى ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانيًا: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيونًا.

ثالثًا: أنه ضرب بها البحر فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعًا: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي

تلقف ما يَأفِكون.

قوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾؛ «الانفجار»: الانفتاح والانشقاق؛ ومنه سُمِي «الفجر»؛ لأنه ينشق به الأفق؛ فمعنى ﴿انفجرت﴾ أي: تشققت منه هذه العيون.

قوله تعالى: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾؛ ﴿عَيْنًا﴾: تمييز؛ وكانت العيون اثنتي عشرة؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ لكل سبط واحدة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: من الأسباط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ أي: مكان شربهم، وزمانه حتى لا يختلط بعضهم ببعض، ويضايق بعضهم بعضًا.

وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل؛ وهي من نعمة الله على موسى؛ أما كونها نعمة على موسى: فلأنها آية دالة على رسالته؛ وأما كونها نعمة على بني إسرائيل: فلأنها مزيلة لعطشهم، ولظمئهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الأمر هنا للإباحة فيما يظهر؛ ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أي: من عطائه، حيث أخرج لكم من الثمار، ورزقكم من المياه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسيروا مفسدين؛ فنهاهم عن الإفساد في الأرض؛ فـ«العُثو»، و«العِثِي» معناه: الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشَرعُ مَنْ قبلنا شَرَعَ لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي ﷺ يستسقي في خطبة الجمعة[1]، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم[2].

٢ ـ **ومنها:** أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض.

٣ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ **ومنها:** أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء.

٥ ـ **ومنها:** رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه البخاري (٩٨٢)، ومسلم (٨٩٤).

٦ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى قَادِرٌ جَوَّاد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.

٧ـ **ومنها:** إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدل على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه.

٨ـ **ومنها:** كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، حيث إن موسى ﷺ يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيونًا؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه.

٩ـ **ومنها:** الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيونًا مع أن الحجر صلب ويابس؛ وقد وقع لرسول الله ﷺ ما هو أعظم، حيث أُتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون[1]؛ ووجه كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيونًا بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ ووجه آخر: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة.

١٠ـ **ومنها:** حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عينًا؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عينًا واحدة لحصلت مشقة الزحام.

الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ فلو كانوا جُمعوا في مكان واحد مع الضيق والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عينًا، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: كل أناس من بني إسرائيل.

١١ـ **من فوائد الآية:** أن الله سبحانه وتعالى يذكِّر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

١٢ـ **ومنها:** أن ما خلق الله تعالى من المأكول والمشروب للإنسان، فالأصل فيه الإباحةُ والحِلُّ؛ لأن الأمر للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حل شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحِلُّ والإباحة.

١٣ـ **ومنها:** تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ والأصل في النهي التحريم.

(١) رواه البخاري (٩٨٢)، ومسلم (٨٩٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ المنَّ والسَّلوى من أحسن الأطعمة، وأنفعها للبدن، وألذّها مذاقًا، ومن أحسن ما يكون؛ لكن بني إسرائيل لِدَنَاءَتِهِم لم يصبروا على هذا؛ قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾: لا نريد المنَّ والسَّلوى فقط؛ نريد أطعمة متعددة؛ ولكنها أطعمة بالنسبة للتي رُزِقوها أدنى. يعني: ليست مثلها؛ بل إنها تعتبر رديئة جدًّا بالنسبة لهذا.

فإن قال قائل: كيف يقولون: طعام واحد وهما طعامان: المنّ والسَّلوى؟

فالجواب: أن المنَّ في الغالب يستعمل في الشرب؛ فهو ينبذ في الماء ويشرب؛ أو يقال: المراد بالطعام هنا الجنس؛ يعني: لا نصبر على هذا الجنس فقط. ليس عندنا إلا منٌّ وسَلوى.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: هذا توسل منهم بموسى ليدعو الله عزَّ وجلَّ لهم؛ وكلمة: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ تدل على جفاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: «ادع لنا ربنا»، أو «ادع الله»؛ بل قالوا: «ادع لنا ربك»، كأنهم بريئون منه ـ والعياذ بالله؛ وهذا من سفههم، وغطرستهم، وكبريائهم.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾؛ ﴿يُخْرِجْ﴾ فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الطلب: «ادع»؛ أو جواب لشرط محذوف؛ والتقدير: إن تدعه يخرج لنا.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: مما تخرجه.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾؛ ﴿مِنۢ﴾ بيانية؛ بينت الاسم الموصول: ﴿ما﴾؛ لأن الاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان؛ و﴿بَقْلِهَا﴾: هو النبات الذي ليس له ساق، مثل الكرَّاث؛ ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: هي صغار البطيخ؛ ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الثُّوم؛ يقال: «ثوم» بالمثلثة؛ ويقال: «فوم» بالفاء الموحدة، ﴿وَعَدَسِهَا﴾؛ «العدس» معروف؛ ﴿وَبَصَلِهَا﴾: أيضًا معروف.

وكل هذه بالنسبة للمّن، والسَّلوى ليست بشيء؛ ولهذا أنكر عليهم موسى ﷺ،

فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، أي: أتأخذون الذي هو أدنى بدلًا عن الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ يعني: أن هذا ليس بصعب يحتاج إلى دعاء الله؛ لأن الله تعالى أوجده في كل مصر؛ وكأن موسى ﷺ أنكر عليهم هذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سبحانه وتعالى لهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛ وأما قول من قال من المفسرين: «إنه دعا، وقيل له: قل لهم: يهبطون مصرًا فإن لهم ما سألوا» فهذا ليس بصحيح؛ لأنه كيف ينكر عليهم أن يطلبوا ذلك منه، ثم هو يذهب ويدعو الله به!!! فالصواب: أن موسى وبَّخهم على ما سألوا، وأنكر عليهم، وقال لهم: إن هذا الأمر الذي طلبتم موجود في كل مصر؛ ولهذا قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾؛ و﴿مِصْرًا﴾ ليست البلد المعروف الآن، ولكن المقصود أيُّ مَصْر كانت؛ ولهذا نُكِّرت؛ و«مصر» البلد لا تنكَّر، ولا تنصرف؛ واقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧]؛ فالمعنى: اهبطوا أيَّ مصر من الأمصار تجدون ما سألتم.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾؛ وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ثلاث قراءات: كسر الهاء وضم الميم؛ وكسرها جميعًا؛ وضمها جميعًا.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ جملة مستأنفة، إخبار من الله عزَّ وجلَّ بما حصل عليهم؛ و﴿الذِّلَّةُ﴾: الهوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدوًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤] و﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر؛ فليس عندهم شجاعة، ولا غنًى؛ لا كرم بالمال، ولا كرم بالنفس؛ فـ«الشجاعة» كرم بالنفس: بأن يجود الإنسان بنفسه لإدراك مقصوده؛ و«الكرم» جود بالمال؛ فلم يحصل لهم هذا، ولا هذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوبًا ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة وأيديهم مغلولة.

قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: رجعوا؛ والباء للمصاحبة؛ و﴿مِنَ﴾ للابتداء؛ يعني الغضب من الله. أي أن الله غضب عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾: الظاهر أن المشار إليه كل ما سبق، وليس فقط قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ..﴾؛ فكل ما سبق مشار إليه حتى سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير؛ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية؛ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يُكَذِّبُونَ بها؛ والمراد: الآية الكونية والشرعية؛ فالشرعية تتعلق بالعبادة؛ والكونية تتعلق بالربوبية، فهم يكفرون بهذا وبهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: يعتدون عليهم بالقتل؛ وفي قوله تعالى: ﴿النَّبِيِّينَ﴾ قراءتان؛ الأولى: بتشديد الياء بدون همز: ﴿النَّبِيِّينَ﴾؛ والثانية: بتخفيف الياء،

والهمز: ﴿النبيئين﴾؛ فعلى القراءة الأولى قيل: إنه مشتق من النَّبْوَة. وهو الارتفاع؛ لارتفاع منْزلة الأنبياء؛ وقيل: من النبأ، وأبدلت الهمزة ياءً تخفيفًا؛ وعلى القراءة الثانية:فإنه مشتق من النبأ؛ لأن الأنبياء مُخبَرون عن الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الباطل المحض؛ وهذا القيد لبيان الواقع، وللتشنيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبدًا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾: الباء للسببية؛ و«**المعصية**» الخروج عن الطاعة إما بترك المأمور؛ وإما بفعل المحظور؛ ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾؛ و«**الاعتداء**»:مجاوزة الحد إما بالامتناع عما يجب للغير؛ أو بالتعدي عليه.

والفرق بين «**المعصية**»، و«**العدوان**» إذا ذكرا جميعًا: أن «**المعصية**» فعل ما نُهِيَ عنه؛ و«**الاعتداء**»: تجاوز ما أُمِر به، مثل:أن يصلي الإنسان الظهر مثلًا خمس ركعات؛ وقيل: إن «**المعصية**» ترك المأمور؛ و«**العدوان**» فعل المحظور.

وسواء أكان هذا أم هذا فالمهم أن هؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة.. وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها وبين الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** لُؤم بني إسرائيل وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

٢ - **ومنها:** غطرسة بني إسرائيل وجفاؤهم؛ لقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ ولم يقولوا: «ادع لنا ربنا»، أو: «ادع لنا الله»؛ كأن عندهم. والعياذ بالله. أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾. كما قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

٣ - **ومنها:** أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال.

٤ - **ومنها:** أن من علوِّ هِمَّة المرء أن ينظر للأكمل والأفضل في كل الأمور.

٥ ـ ومنها: أن التوسع في المآكل والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلًا عن الرديء[1]؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس كما فعله عمر ﷺ عام الرمادة؛ وأما إذا تركها لغير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعالى يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه[2].

٦ ـ ومن فوائد الآية: حِلّ البقول، والقثّاء، والفوم، والعدس، والبصل؛ لقولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ..﴾ إلى قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: من الأصناف المذكورة.

وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول ﷺ قدر فيه بقول فكره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كره أكلها قال الرسول ﷺ «**كُلْ؛ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي**»[3]؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في البصل، وعلموا كراهة النبي ﷺ لها قالوا: حُرِّمَت؛ قال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ**»[4]؛ فبين أنه حلال.

٧ ـ ومن فوائد الآية: جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾؛ والذي يُنبِتُ حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

٨ ـ ومنها: جواز إسناد الشيء إلى سببه الحقيقي الذي ثبت أنه سبب شرعًا، أو حسًّا؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعًا يكاد يموت من الجوع فإنه يجوز أن تقول: «**لولا أني أطعمته لهلك**»؛ لأن الإطعام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القراءة على المريض فيبرأ، فتقول: «**لولا القراءة عليه لم يبرأ**»؛ أما المحظور فهو أن تثبت سببًا غير ثابت شرعًا، ولا حسًّا، أو تقرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عزَّ وجلَّ؛ مثال الأول: أولئك الذين يعلقون التمائم البدعية، أو يلبسون حلقًا، أو خيوطًا لدفع البلاء أو رفعه. كما زعموا؛ ومثال الثاني: ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال له رجل: «**ما شاء الله وشئت**»، فقال له النبي ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[5]، لأنك إذا قلت: «**ما شاء الله وشئت**» جعلت المخاطَب ندًّا لله في المشيئة.

---

(١) رواه البخاري (٢١٨٨)، ومسلم (١٥٩٤).

(٢) لما روى الترمذي (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٢).

(٣) رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٥٦٤).

(٤) رواه مسلم (٥٦٥)، وأحمد في «مسنده» (١١٠٩٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٦٦٧).

(٥) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٦٠٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٩).

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحًا؟

فالجواب: أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبِّب فهو مشرك؛ وأيضًا فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغيًا بذلك الدار الآخرة.

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقرونًا بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: «لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت».

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبِّب؛ ومنه قول النبي ﷺ في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: «لَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1].

الرابعة: أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب المعلوم بـ«ثم»، كقوله: «لولا الله ثم فلان».

«وهذه الأربع كلها جائزة».

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: لولا الله وفلان

الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالفاء، مثل: «لولا الله ففلان»؛ فهذا محل نظر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعًا، ولا حسًّا، فهذا شرك. كما سبق.

٩ - ومن فوائد الآية: توبيخ موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وأن الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خير يستحق التوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾

١٠ - ومنها: أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم يكن لها داعٍ؛ لأنه قال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾؛ وكأنه قال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض.

١١ - ومنها: ضرب الذِّلة على بني إسرائيل؛ وقد ذكر الله تعالى أنهم ضُرِبت عليهم الذِّلة أينما ثُقِفُوا إلا بحبل من الله - وهو الإسلام؛ أو بحبل من الناس وهو المساعدات الخارجية؛ والمشاهد الآن أن اليهود أعِزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩).

١٢ ـ **ومنها:** أن اليهود قد ضربت عليهم المسكَنَةُ، وهي الفقر؛ ويشمل فقر القلوب الذي هو شِدَّةُ الطمع بحيث إن اليهودي لا يشبع ولا يتوقف عن طلب المال ولو كان من أكثر الناس مالًا؛ ويشمل أيضًا فقر المال وهو قلته.

١٣ ـ **ومنها:** أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حُورِبوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبالُ عليهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ [الحشر: ١٤]؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:

الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيرًا من الذين يقاتلون اليهود ـ أو أكثرهم ـ لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قَبَلِيٌّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة وصغيرة حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع والفشل، كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

١٤ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج مِنَّا، ويحمر الوجه، ويقفُّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزَّ وجلَّ دال على كمال عظمته وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلَّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله ﷺ.

وفسر أهل التحريف «غضب الله» بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزَّ وجلَّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [المجادلة:١٤] عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان.

١٦ ـ **ومنها:** بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيرًا في مسبَّباتها بما جعله الله رابطًا بين الأسباب والمسبَّبات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم ﷺ ـ مع أنها سبب للإحراق ـ لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]

التفسير

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذِّلة والمسكنة، والغضب؛ بيَّن أن المؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم كلهم لهم أجرهم عند الله.

ومناسبة الآية لما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بيَّن أن من آمن منهم وعمل صالحًا فإن الله لا يضيع أجره؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب والرسل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين اليهود: وهي شريعة موسى، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين عيسى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين. وهذا هو الأقرب؛ فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذُكروا معهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثوابهم؛ وسمى الله تعالى «الثواب» أجرًا؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به، كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفًا، وتكريمًا، وإظهارًا للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عزَّ وجلَّ، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ «الخوف» هو الهمُّ مما يستقبل؛ و«الحزن»: هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه؛ ولهذا يقال لمن أصيب بمصيبة: «إنه محزون»؛ ويقال لمن يتوقع أمرًا مرعبًا، أو مروعًا: «إنه خائف»؛ وقد يطلق «الحزن» على الخوف مما يستقبل، كقول النبي ﷺ لأبي بكر ﷺ وهما في الغار: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»[1]، فالمراد ـ والله أعلم ـ لا تخف؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من كل مما يخاف في المستقبل: من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا ويتحسر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٤. ٥٦]: هذا تحزُّن، وتحسُّر.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أيِّ صنف كان.

٢ ـ **ومنها:** ثمرة الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى.

٣ ـ **ومنها:** أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله واليوم الآخر ـ وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجرًا.

٤ ـ **ومنها:** عظم أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٥ ـ **ومنها:** أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحًا عامًا؛ لأنه تعالى بعدما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] بيَّن أن منهم من آمن بالله واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

(١) رواه البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (٢٠٠٩).

﴿ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤]

﴿ التفسير ﴾

ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأمر أخذه عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ يعني: اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم؛ و«الميثاق»: العهد الثقيل المؤكد؛ وسمي بذلك من الوَثاق - وهو الحبل الذي يُشد به المأسور -، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾ أي: فوق رؤوسكم ﴿ٱلطُّورَ﴾ هو الجبل المعروف؛ رفعه الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل لما تهاونوا في طاعة الله سبحانه وتعالى إنذارًا لهم، وقال تعالى لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١]واعملوا به بقوة؛ والمراد بالـ «قوة» هنا: الحزم، والتنفيذ والتطبيق؛ وضده: أن يأخذ الإنسان أخذًا ضعيفًا متساهلًا على كسل؛ والباء في قوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ للمصاحبة؛ أي: خذوا هذا الكتاب - أي التوراة التي جاء بها موسى ﷺ - أخذًا مصحوبًا بقوة، فلا تهملوا شيئًا منه.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول يفيد العموم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن تتقوا الله عزَّ وجلَّ؛ فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجُرُّ بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ فالطاعات يجر بعضها بعضًا، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عزَّ وجلَّ، ونفورًا، والمعاصي يجُرُّ بعضها بعضًا؛ وسبق قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]؛ ثم بعد هذا الإنذار وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا وخشعوا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟

أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أي: أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله سبحانه وتعالى ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه: رفع الجبل في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾؛ والمعنى: بعد هذه الإنابة وقت رفع الطور توليتم، ولم تذكروها؛ ما ذكرتم أن الذي خوفكم بهذا الجبل قد يعيد عليكم ذلك مرة أخرى.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإرسال الرسل، وبيان السبل، وغير ذلك فـ «**الفضل**» بمعنى: التفضل؛ و«**لولا**» حرف امتناع لوجود؛ و«**فضل**» مبتدأ، وخبره محذوف، كما قال ابن مالك:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ حَتْمٌ وَفِي نَصِّ يَمِينٍ ذَا اسْتَقَرْ

والتقدير: فلولا فضل الله عليكم موجود.

قوله تعالى: ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: اللام واقعة في جواب «لولا».

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الذين خسروا الدنيا والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** تذكير الله ـ تبارك وتعالى ـ لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام ـ أي: فالتزموا بالميثاق.

٢ ـ **ومنها:** عتو بني إسرائيل؛ حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقتَل.

٣ ـ **ومنها:** بيان قوة الله عزَّ وجلَّ، وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل ويجعله ظلة، لا يسقط عليهم إلا الله عزَّ وجلَّ؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤ ـ **ومنها**: أن الواجب على أهل المِلَّة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابد من قوة في التطبيق والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حدِّ قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥ ـ **ومنها**: أن الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزَّ وجلَّ.

٦ ـ **ومنها**: لُؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ﴾؛ وهذا من اللُّؤم؛ لأن من الواجب أن يذكروا رفع الجبل فوقهم حتى يستقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولوا من بعد ما رأوا الآية.

٧ ـ **ومنها**: بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٨ ـ **ومنها**: أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾.

٩ ـ **ومنها**: إثبات فضل الله تعالى على بني إسرائيل بما أعطاهم من الآيات كونية، والشرعية.

١٠ ـ **منها**: إثبات الأسباب، وربطها بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾؛ فهذا صريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّبها.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة للقسم؛ وعلى هذا فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام، و«قد»؛ والتقدير: والله لقد؛ و﴿عَلِمْتُمُ﴾: الخطاب لبني إسرائيل؛ أي: علمتم عِلم اليقين وعرفتم معرفة تامة ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي: تجاوزوا الحدود، وطغوا منكم.

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ أي: في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شُرَّعًا، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صيدها بحيلة؛ حيث وضعوا شباكًا يوم الجمعة، فتدخل فيها الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدها يوم السبت، فقال لهم الله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: ذليلين، فصاروا كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ أي: صيرناها؛ واختلف المفسرون في مرجع الضمير المفعول به؛ فقيل: يعود على القرية؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]؛ فيكون مرجع الضمير مفهومًا من السياق؛ وقيل: يعود على العقوبة ـ أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا﴾؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالًا.

قوله تعالى: ﴿نكالًا﴾: النكال، والتنكيل أن يعاقب الإنسان بعقوبة تمنعه من الرجوع إلى ما عوقب عليه.

قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾: اختلف في مرجع الضمير «ها»؛ فقيل: يرجع إلى القرية؛ فيكون: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا﴾: ما قرب منها من القرى من أمامها؛ و﴿وَمَا خَلۡفَهَا﴾: ما كان من القرى من خلفها؛ لأن أهل القرى علموا بما نزل بها من العقوبة، فكان ذلك نكالًا لهم؛ وقيل: إن المراد بـ «ما بين يديها»: ما يأتي بعدها: «وما خلفها»: ما سبقها؛ ولكن في هذا إشكالًا؛ لأن من سبقها قد مضى، فلا يكون منتفعًا، ولا ناكلًا إلّا أن يراد بـ«ما بين يديها»: من عاصرها، و«ما خلفها»: من يأتي بعدهم، ويكون «الخَلْف» هنا بمعنى الأمام، كما جاء «الوراء» بمعنى «الأمام» في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: موضع اتعاظ للذين يتقون الله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حلَّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله ﷺ.

٢ ـ **ومنها:** تحريم الحِيَل، وأن التحيُّل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثمًا من إتيان المحرم على وجه

صريح؛ لأنه جمع بين المعصية والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ في المتحيلين: «**إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون**»؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة - راجع إن شئت كتاب «**إغاثة اللهفان**» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره.

وأنت إذا تأملت حِيَلَ اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره؛ وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهود، ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**لَا تَرتَكِبُوا مَا ارتَكَبَتِ اليَهُودُ، فَتَستَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدنَى الحِيَلِ**»[1]؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣ - **ومن فوائد الآيتين**: بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مُسِخُوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئًا صورته صورة المباح؛

---

(١) قال الألباني رحمه الله في «غاية المرام» (١١): [وقال عليه السلام: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» جـ١ ص ٣٤٨. وقال: رواه أبو عبد الله ابن بطة بإسناد جيد يصحح مثله الترمذي) ص ٣٢ [٣٤]. ضعيف. أخرجه ابن بطة في «جزء الخلع وإبطال الحيل» (ص ٢٤ - من دفائن الكنوز) وإسناده هكذا: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن سلم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره.

قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات من رجال «التهذيب» غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن سلم، فلم أجد له ترجمة. وقد أورده ابن تيمية في «إبطال الحيل» (ص ٢٣ -٢٤) من المجلد الثالث من «الفتاوى» عن ابن بطة بإسناده هذا إلا أنه وقع فيه «ابن مسلم» بدل «ابن سلم» وقال: «وهذا إسناد جيد، يصحح مثله الترمذي وغيره تارة، ويحسنه تارة، ومحمد بن محمد (كذا) بن مسلم المذكور مشهور ثقة، ذكره الخطيب في «تاريخه» كذلك، وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى وصفهم. قلت: ثم رأيت ابن تيمية قال في موطن آخر (٣ / ٢٨٧): «إسناده حسن». وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٢٥٧): «إسناده جيد».

قلت: ولم أره في «تاريخ بغداد» كما سبق، لا باسم المتقدم ولا باسم محمد بن محمد بن مسلم، على أن الصواب الأول. فقد رأيت ابن بطة قال في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (ق ١١ / ٢): حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن محمد بن سلم المخرمي قال: حدثنا حسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ... فساق حديثا آخر. ولو فرضنا أن ابن سلم هذا ثقة، فلا يتم بذلك صحة الإسناد، لأن ابن بطة نفسه متكلم فيه من قبل حفظه، على علمه وفضله وصلاحه، فقد أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: «إمام في السنة، يهم ويغلط».

وقد بسط القول فيما قيل فيه من حيث الرواية العلامة المحقق عبد الرحمن اليماني في كتابه «التنكيل» ثم انتهى إلى القول بأنه «لا يحتج بما ينفرد بروايته»، وهذا هو الذي يقتضيه التحقيق العلمي مع نبذ التعصب، واتباع الحق، وعليه فالإسناد ضعيف، ويؤكد ضعفه عدم وروده في الأمهات الست والمسانيد وغيرها من الأصول المعتمدة وكتب الحديث المشهورة. وقد قال ابن الجوزي: «ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع. قال: ومعنى مناقضته للأصول أن يكون خارجا عن دواوين الإسلام من المسانيد والكتب المشهورة».

ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٤ ـ **ومنها**: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾؛ فكانوا في لحظة قردة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾.

٦ ـ **ومنها**: أن الذين مُسِخُوا قردة من هذه القرية هم الذين اعتدوا في السبت؛ وأما الذين نَهوا عن السوء فقد نجوا؛ وأما الذين سكتوا عن المعتدين ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم.

٧ ـ **ومنها**: أن العقوبات فيها تنكيل لغير العامل؛ لقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾؛ ولهذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

٨ ـ **ومنها**: أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل.

٩ ـ **ومنها**: أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.

١٠ ـ **ومنها**: أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالًا لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيرًا لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيرًا في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

١١ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطرارًا وإكراهًا؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور: ٤٤]؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

١٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن من فوائد التقوى ـ وما أكثر فوائدها ـ: أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٦٧:٧٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه، وإضافة «القوم» إليه لبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: قالها في جواب ذكره الله سبحانه وتعالى في أثناء القصة:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]؛ فقد قُتل منهم نفس فتخاصموا، وتدافعوا: كل يدعي أن هؤلاء قتلوه؛ حتى كادت تثور الفتنة بينهم؛ ولا حاجة بنا إلى أن نعلل لماذا قُتل؛ أو لأي غرض؛ هذا ليس من الأمور التي تهمنا؛ لأن القرآن لم يتكلم بها؛ ولكن غاية ما يكون أن نأخذ عن بني إسرائيل ما لا يكون فيه قدح في القرآن، أو تكذيب له، فقالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتل ويُذهب بعضنا بعضًا؛ نذهب إلى نبي الله موسى، ويخبرنا من الذي قتله؛ فذهبوا إليه، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ صدَّر الأمر من الله؛ لم يقل: آمركم، ولا

قال: اذبحوا؛ بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾؛ ليكون أعظم وقعًا في نفوسهم، وأدعى إلى قبوله وامتثاله.

وقوله ﴿بَقَرَةً﴾: لم تعين بوصف؛ فلو ذبحوا أيَّ بقرة كانت لكانوا ممتثلين؛ ولكنهم تعنتوا، وتشددوا فشدد الله عليهم. كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ ﴿هُزُوًا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: أتتخذنا مهزوءًا بنا؛ ويجوز أن تكون (هزوًا) على بابها؛ ويكون المعنى: أتتخذنا ذوي هُزْء؛ فحُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ و«الهزء» السخرية؛ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سببًا لزوال ما بينهم من المُدَارَأةِ؛ والتعبير بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أبلغ من قول «أتستهزئ بنا»؛ لأن الأولى تفيد أنهم جُعلوا محل استهزاء ـ بخلاف الثانية فإنها تدل على حصول الاستهزاء ـ ولو بمرة واحدة.

فأجابهم نبي الله بقوله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل فأتخذ عباد الله هزوًا؛ والمراد بـ «الجهل» هنا: السفه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] ـ أي: بسفاهة ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: سبق الكلام على نظيرها؛ ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾: هذا الطلب ليس له وجه؛ لأن اللفظ بيِّنٌ: فالبقرة معلومة، والمطلق ليس مجملًا ـ يحتاج إلى بيان ـ لوضوح معناه؛ فإذا قيل مثلًا: «أكرم رجلًا»؛ فلا يحتاج أن تقول: «ما صفة هذا الرجل؟» إذا أكرمت أيَّ رجل حصل المقصود؛ فلو أنهم ذهبوا وذبحوا أيَّ بقرة، وامتثلوا ما أمرو به لانتهى الأمر؛ ولكنهم تعنتوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾: «البكر» معروف: التي لم تلد ولا قرعها الفحل، و«الفارض» تُعرف بمقابلها، فإذا كانت «البكر» هي التي لم يقرعها الفحل، فإن «الفارض» هي المُسِنَّة الكبيرة؛ وهذا ـ أي: تفسير الكلمة، أو معرفة معنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها ـ له نظير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١]؛ فكلمة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ هنا يتبين معناها: بما ذكر مقابلًا لها ـ وهو قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾؛ فيكون معناها: متفرقين أفرادًا.

قوله تعالى: ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط بين ذلك ـ أي: بين كونها فارضًا وبكرًا؛ وفيه إشكال على هذا: لأنه إذا كان المشار إليه اثنين وجب تثنية اسم الإشارة؛ واسم الإشارة هنا مفرد

مذكر؟ والجواب عنه أن يقال: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر - أي: لا تكون هكذا ولا هكذا، ولكن عوان بين ذلك المذكور.

قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ هذا الأمر من موسى؛ وليس من كلام الله عزَّ وجلَّ؛ فموسى يقول لبني إسرائيل: افعلوا ما تؤمرون به من ذبح بقرة لا فارض ولا بكر، ولا تتعنتوا فيشدد عليكم مرة ثانية؛ ولو أنهم امتثلوا، وذبحوا بقرة عوانًا بين ذلك لحصل المقصود؛ وكان عليهم أن يفعلوا - وإن لم يأمرهم نبيهم به؛ ولكنهم أهل عناد وتعنت؛ ولهذا أمرهم أمرًا ثانيًا؛ ومع ذلك قالوا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾: كل هذا من باب التعنت والتشدد؛ و﴿مَا لَوْنُهَا﴾ يعني أيُّ شيء لونها - بيضاء؛ سوداء؛ شهباء...؟.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ أي: الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾: شدد عليهم مرة أخرى في اللون:

أولًا: حيث قال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾، فخرج بهذا ما عدا الصفرة من الألوان - وهذا نوع تضييق.

ثانيًا: بكونها: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ و «الفاقع» يعني الصافي؛ والمعنى: أنه ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة؛ وقيل: معنى ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديد الصفرة، وهو كلما كان صافيًا كان أبيَنُ في كونه أصفر.

ثالثًا: بكونها: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ يعني: ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها.

فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾: هذا أيضًا طلب ثالث؛ يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: من حيث العمل؛ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: اشتبهت علينا البقرة المطلوبة؛ وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذُكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

قولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾: أكدوا الهداية هنا بمؤكدين؛ وهما: «إن»، واللام؛ ومؤكد ثالث؛ وهو الجملة الاسمية؛ وهي أبلغ من الجملة الفعلية، وأخذوا على أنفسهم أنهم سيهتدون؛ ولكنهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله، قال بعض السلف: «**لو لم يقولوا: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ لم يهتدوا إليها أبدًا**» - وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: «**إن الله لم يشأ أن نهتدي**»! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم.

فأجابهم على هذا: ﴿قَالَ﴾: أي: موسى ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي:الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: هذا أيضًا تشديد زيادة على ما سبق؛ و﴿ذَلُولٌ﴾ على وزن فَعول؛ وهي المتذللة التي ذللت لصاحبها؛ و«والمذللة»: هي التي تثير الأرض للزرع؛ و﴿لَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ أي: لا يُسنَى عليها؛ فهي ليست سانية، ولا حارثة؛ و﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من العيوب؛ ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف لونها؛ مأخوذ من وشي الثوب؛ وهو تلوينه بألوان مختلفة، مثل عِدَة مأخوذة من الوعد؛ إذنْ هي صفراء ليس فيها سواد، ولا فيها بياض، ولا فيها أي لون آخر؛ وهذا كله من زيادة التشديد عليهم.

وبهذا التقرير نعرف أنه لا حاجة بنا إلى ما ذكره كثير من المفسرين من الإسرائيليات من أن هذه البقرة كانت عند رجل بارٍّ بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مَسكها ذهبًا، يعني: بملء جلدها ذهبًا؛ وهذا من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولكن ظاهر القرآن هنا يدل على كذبها؛ إذ لو كان واقعًا لكان نقله من الأهمية بمكان لما فيه من الحث على برِّ الوالدين حتى نعتبر؛ فالصواب أن نقول في تفسير الآية ما قال الله عزَّ وجلَّ، ولا نتعرض للأمور التي ذكرها المفسرون هنا من الحكايات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ اسم زمان، يُشار به للوقت الحاضر؛ فمقتضى كلامهم أنه أولًا أتى بالباطل، وقد صدَّروا هذه القصة بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ يعني: الآن عرفنا أنك لست تستهزئ، وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول؛ وقال بعض المفسرين اتقاءً لهذا المعنى البشع: إن المراد بقولهم: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالبيان التام ـ أي: الآن بينت لنا أوصافها، فجعلوا «الحق» هنا بمعنى البيان؛ ولكن الصواب أن «الحق» هنا ضد الهزء والباطل؛ يدل على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عزَّ وجلَّ قالوا: الآن جئت بالحق، وعرفنا أنك لست مستهزئًا بنا؛ بل إنك جادٌّ فيما تقول.

قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: بعد العثور عليها بأوصافها السابقة؛ ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما قاربوا أن يفعلوا؛ وذلك بإيرادهم الطلب عن سنها، ولونها، وعملها، وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفسًا؛ ووجه الخطاب لمن كانوا في عهد النبي ﷺ مع أن الفعل كان ممن سبقهم؛ لأن الأمة الواحدة بمنزلة الجسد الواحد؛ وفعل أولها كفعل آخرها فيما يلحقهم من ذمٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾ أي: تدافعتم؛ كل منكم يدافع عن نفسه التهمة، ويتهم الآخر، وكان قد قُتل منهم قتيل من إحدى القبيلتين؛ فادَّعت كل واحدة أن الأخرى هي قاتلته؛ وكاد

يكون بينهم فتنة؛ فأتوا إلى موسى، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ..﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينَّها في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ القائل هو الله عزَّ وجلَّ؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك وتعالى؛ لأنه هو الآمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦. ١٨]: فالمراد بقوله تعالى: ﴿قَرَأْنَاهُ﴾ قرأه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فهنا قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعني: أن الله تعالى أمر نبيه موسى ﷺ، فقال لهم بأمر الله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة؛ ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أيُّ جزء من أجزائها؟ فليس لنا أن نعينه بجزء منها.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عزَّ وجلَّ الموتى بكلمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهرها لكم حتى تروها؛ والمراد بـ «الآيات» هنا الآيات الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضًا؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقًا لقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن تعقلوا عن الله ـ تبارك وتعالى ـ آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ فالذكاء هو سرعة البديهة والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكيًّا، ولكنه ليس بعاقل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات:** تعظيم الله عزَّ وجلَّ، حيث أُسنِد الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

٢ ـ **منها:** أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر أو الخبر؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

٣ ـ **ومنها:** استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجدِّ مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجدِّ؛ لأنه أمر من الله عزَّ وجلَّ.

٤ ـ **ومنها:** أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة

والسلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

٥ - ومنها: أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عزَّ وجلَّ؛ فإن موسى ﷺ كان من أُولِي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزَّ وجلَّ؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله ﷺ: «فَمَنْ وَجَدَ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[1].

٦ - ومنها: استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ فأمروه أمرًا، ثم أضافوا ربوبية الله عزَّ وجلَّ إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: «ادع ربنا» أو «ادع الله»؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم ما هذه البقرة، مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أيَّ واحدة.

٧ - ومنها: تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا وطلبوا شيئًا آخر: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ فسألوه عن اللون مع أن أيَّ لون يمكن أن يكون في البقرة لا يمنع من إجزائها.

٨ - ومنها: بيان ما يدل أيضًا على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيان هل البقرة عاملة أو غير عاملة؟.

٩ - ومنها: أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديمًا معروفًا بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية.

١٠ - ومنها: تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة؛ وذلك بأن تكون متوسطة في السن لا فارضًا ولا بكرًا؛ وأن تكون صفراء فاقعًا لونها تَسرُّ الناظرين؛ وألا تكون ذلولًا تثير الأرض وتسقي الحرث؛ وأن تكون مسلَّمة ليس فيها شيء من العيوب وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

١١ - ومنها: أن من شدد على نفسه شدد الله عليه - كما حصل لهؤلاء؛ فإنهم لو امتثلوا أول ما أُمِروا فذبحوا أيَّ بقرة لكفاهم؛ ولكنهم شددوا وتعنتوا، فشدد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر.

١٢ - ومنها: أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عزَّ وجلَّ على درجات؛ الدرجة الأولى: ما سبق من قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ الدرجة الثانية: قولهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، الدرجة الثالثة: قولهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ الدرجة الرابعة: قولهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ مرة أخرى.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦).

١٣ ـ **ومنها**: استهتار بني إسرائيل؛ حيث قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قاموا بذبحها على مضض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عزَّ وجلَّ.

١٤ ـ **ومنها**: أن الإنسان إذا لم يقبل هدى الله عزَّ وجلَّ من أول مرة فإنه يوشك أن يشدد الله عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ؛ ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»(١).

١٥ ـ **ومنها**: تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

١٦ ـ **ومنها**: تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

١٧ ـ **ومنها**: أن قول الرسول قول لمرسله إذا كان بأمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

١٨ ـ **منها**: أن البعض الذي ضرب به هذا القتيل من البقرة غير معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾؛ فقد أبهمه الله؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية.

١٩ ـ **ومنها**: أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى:﴿بِبَعْضِهَا﴾؛ ولم يعين لهم ذلك توسعة عليهم؛ ليحصل المقصود بأيِّ جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثًا أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله..» كذا وكذا؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة وموضوعها؛ أما أن تعرف مَنْ هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلًا؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام ـ اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أُمِرُوا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: «افعل بعض هذه الأشياء» يكون أسهل مما إذا قيل لك: «افعل هذا الشيء بعينه»؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خُيِّروا في أمور متعددة ـ والله أعلم ـ.

٢١ ـ **ومنها**: أن هذه الآية من آيات الله عزَّ وجلَّ وهي أن تكون البقرة سببًا لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى.

٢٢ ـ **ومنها**: أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف والنِّزاع من نعمة الله عزَّ وجلَّ؛

---

(١) رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٧٦٥).

يعني مثلًا إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف وهذا النِّزاع.

٢٣ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يُخرج ما كان يكتمه أهل الباطل ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، واذكروا قول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

٢٤ ـ ومنها: التحذير من أن يكتم الإنسان شيئًا لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئًا مما لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ فإن الله سوف يطلع خلقه عليه ـ إلا أن يعفو الله عنه ـ.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي: صلبت، وتحجرت؛ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد أن مَنَّ الله عليكم بما حصل من المدارأة في القتيل حتى تبين.

قوله تعالى: ﴿فَهِيَ﴾ أي: قلوبكم ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ أي: مثلها؛ ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: من الحجارة؛ لأن الحجارة أقسى شيء ـ حتى إنَّها أقسى من الحديد؛ إذ إن الحديد يَلينُ عند النار، والحجارة تتفتت ولا تلين؛ و﴿أَوْ﴾ هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل هي بمعنى «بل»، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق ـ أي: أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟ في هذا قولان لأهل العلم ـ رحمهم الله؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]: فمن العلماء من قال: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى «بل»ـ أي: بل يزيدون على مائة ألف؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق ـ أي: إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا؛ والله أعلم بما أراد في كتابه.

ثم بيَّن الله عزَّ وجلَّ أن الحجارة فيها خير بخلاف قلوب هؤلاء فإنه لا خير فيها؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني: إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار ـ أي: أنهار الماء التي يشرب الناس منها، ويسقون بها زروعهم، ومواشيهم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾: ﴿ما﴾ اسم موصول في محل نصب اسم ﴿إن﴾؛ واللام للتوكيد؛

أي: لَلذي يتفجر منه الأنهار.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾: وهي دون الأول؛ الأول يتفجر منها الأنهار؛ أما هذه فإنها تتشقق، ويخرج منها الماء كالذي يحصل في أحجار الآبار، وما أشبهها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا سببية؛ و﴿خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: خوفهم مع العلم بعظمته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غافلًا عما يعملون؛ وذلك لكمال علمه، وإحاطته تبارك وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** لُؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم.

٢ - **ومنها:** تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شُبِهَ بالأمر الحسي؛ وهذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.

٣ - **ومنها:** أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل.

٤ - **ومنها:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل هذه الحجارة الصماء تتفجر منها الأنهار، وقد كان موسى- عليه الصلاة والسلام - يضرب بعصاه الحجر، فينبجس ويتفجر عيونًا بقدرة الله تبارك وتعالى.

٥ - **ومنها:** أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيرًا؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار؛ ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء؛ ومنها ما يهبط من خشية الله؛ وهذه كلها خير، وليس في قلوب هؤلاء خير.

٦ - **ومنها:** أن الجمادات تعرف الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]: ففهمتا الأمر، وانقادتا.

٧ـ ومن فوائد الآية: عظمة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه.

٨ـ ومنها: سعة علم الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات السلبية هي: التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه. وتتضمن أمرين هما:

نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.

قال الله تعالى:

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾؛ الهمزة للاستفهام؛ والمراد به الاستبعاد، والتيئيس ـ أي: تيئيس المسلمين من أن يؤمن هؤلاء اليهود لهم؛ والفاء عاطفة على مقدر بعد الهمزة مناسب للمقام؛ و«**الطمع**» معناه: الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة؛ يعني: أنتم ترجون مع رغبة؛ لأن الذي يرجو الشيء مع الرغبة الأكيدة فيه يقال: طمع فيه؛ و«**الإيمان**» هنا بمعنى التصديق أي: أن يُصَدِّقوا لكم؛ ويحتمل أن يكون بمعنى الانقياد، والاستسلام لكم؛ وهذا أمر بعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ..﴾: الواو هنا للحال؛ و﴿وَقَدۡ﴾ للتحقيق؛ فالجملة في محل نصب وهي حال، حالًا من الواو في ﴿يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ يعني: والحال أن فريقًا منهم يسمعون كلام الله؛ و«**الفريق**» بمعنى: الطائفة؛ و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: ذكر المفسرون فيه قولين:

القول الأول: أن المراد بذلك التوراة ـ يسمعونها ثم يحرفونها ـ أي: يغيرونها؛ ومنه قولهم: حَرَفْت الدابة ـ يعني: غيرت اتجاهها؛ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: من بعد ما فهموها، وعرفوا معناها، ولم تشكل عليهم؛ ومن ذلك تحريفهم إياها في صفة النبي ﷺ، ومبعثه، وقولهم: إنه الرسول المنتظر. وليس هذا الرسول.

والقول الثاني: أن المراد بذلك الذين أسمعهم الله كلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه

السلام؛ وهم الذين اختارهم موسى ـ وهم سبعون رجلًا ـ فأسمعهم الله تعالى كلامه لموسى، ولكنهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، ثم حرَّفوا ما سمعوه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى.

وقد بحثت في كتب التفسير التي لَديَّ فلم أجد احتمالًا ثالثًا ـ وهو أن المراد بـ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ القرآن، وأنهم يسمعونه ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي حتى يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحًا فهو أقرب من القولين السابقين ـ والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم يحرفون الكلم أي: كلام الله عزَّ وجلَّ، ويعلمون أن التحريف محرم؛ فتعدوا الحدود وحرَّفوا كلام الله عزَّ وجلَّ، وارتكبوا الإثم عن بصيرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه يَبْعُدُ أن يؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسمع كلام الله ثم يحرفه، أبْعَدُ قبولًا للحق ممن لم يسمعه.

٢ ـ **ومنها:** أن الله تعالى يسلي رسوله ﷺ بما يذهب عنه الأسى والحزن؛ حيث بين له حال هؤلاء، وأنهم قوم عتاة لا مطمع في إيمانهم.

٣ ـ **ومنها:** إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ وكلام الله تبارك وتعالى صفة حقيقية تتضمن اللفظ والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف وأصوات مسموعة؛ وتفصيل ذلك والرد على من خالفه مذكور في كتب العقائد.

٤ ـ **ومنها:** أن كلام الله سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية باعتبار آحاده؛ وأما باعتبار أصل الصفة فهو صفة ذاتية؛ والفرق بين الصفات الذاتية والفعلية، أن الصفات الذاتية: لازمة لذات الله أزلًا، وأبدًا ـ ومعنى «أزلًا» أي: فيما مضى؛ و«أبدًا» أي: فيما يستقبل ـ مثل الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة، والسمع والبصر إلى غير ذلك، والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، فتحْدُث إذا شاء، كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى سماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة للفصل بين العباد، والفرح، والرضا، والغضب ـ عند وجود أسبابها.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** الرد على الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛ بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه؛ و الرد عليهم مفصلًا في كتب العقائد.

٦ ـ **ومنها:** أن هؤلاء اليهود قد حرَّفوا كلام الله، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

٧ ـ **ومنها:** بيان قبح تحريف هؤلاء اليهود؛ لأنهم حرَّفوا ما عقلوه؛ والتحريف بعد عقل المعنى

أعظم؛ لأن الإنسان الجاهل قد يعذر بجهله؛ لكن الإنسان العالم الذي عقل الشيء يكون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها- فيكون أعظم.

٨- **ومنها:** قبح تحريف كلام الله، وأن ذلك من صفات اليهود؛ ومن هذه الأمة من ارتكبه، لكن القرآن محفوظ؛ فلا يمكن وقوع التحريف اللفظي فيه؛ لأنه يعلمه كل أحد؛ وأما التحريف المعنوي فواقع، لكن يقيض الله عزَّ وجلَّ من الأئمة، وأتباعهم من يبينه، ويكشف عوار فاعله.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ الضمير يعود على اليهود؛ أي: إذا قابلوا، واجتمعوا بـ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي: بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: دخلنا في الإيمان كإيمانكم، وآمنا بالرسول محمد ﷺ؛ هذا إذا لقوا المؤمنين؛ ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: إذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: الاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ والضمير الهاء يعود على المؤمنين بالرسول ﷺ؛ يعني يقول اليهود بعضهم لبعض إذا اجتمعوا: كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسوله ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من العلم بصحة رسالة النبي ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: اللام للعاقبة - أي: أن ما حدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة للاستفهام؛ والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟! أنتم إذا حدثتموهم بهذا، وقلتم: إن هذا الذي بُعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ الفاء واقعة بعد همزة الاستفهام؛ وهذا يكثر في القرآن: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾؛ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾؛ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾؛ وأشباه ذلك؛ يعني أنه يأتي حرف العطف بعد همزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجود العاطف؛ لأن الفاء عاطفة؛ فقال بعض النحويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عُطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخرون: بل إن الهمزة مقدمة؛ وإن حرف العطف هو الذي تأخر- يعني:

زُحلق حرف العطف عن مكانه، وجعلت الهمزة مكانه؛ وعلى هذا فيكون التقدير: فألا تعقلون؛ أما على الأول فيكون التقدير: أجهلتم فلا تعقلون؛ أو: أسفهتم فلا تعقلون.. المهم يقدر شيء مناسب حسب السياق؛ فالقول الأول أدق؛ والثانية أسهل؛ لأن الثاني لا يحتاج عناءً وتكلفًا فيما تقدره بين الهمزة والعاطف.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم لكونهم نزَّلوا أنفسهم منْزلة الجاهل؛ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: يشمل ما يسره الإنسان في نفسه، وما يسره لقومه وأصحابه الخاصين به؛ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يظهرون لعامة الناس؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا وهذا؛ ولا يخفى عليه شيء؛ والمعنى: كيف يؤنب بعضهم بعضًا بهذا الأمر وهم لو جاءوا إلى النبي ﷺ ومن معه، وأنكروا نبوَّته، ولم يؤمنوا فإن الله تعالى لا يخفى عليه الأمر؟! فسواء أقرُّوا، أو لم يُقِرُّوا عند الصحابة أن الرسول حق، فإن الله تعالى عالم بهم.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية:** أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا..﴾ إلخ.

٢ - **ومنها:** أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ..﴾ إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين.

٣- منها: أن بعضهم يلوم بعضًا على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** أن العلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه.

٥ - **ومنها:** أن المؤمن والكافر يتحاجَّان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥،١٦].

٦ - **ومنها:** سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحًا عليهم؛ لقولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٧ - **ومنها:** الثناء على العقل والحكمة؛ لأن قولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي ﷺ «**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيرًا، أو لِيَصمُتْ**»(١).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٤٧).

٨ ـ ومنها: أن كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوبًا عليهم.

٩ ـ ومنها: توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٠ ـ ومنها: إثبات عموم علم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

١١ ـ ومنها: الوعيد على مخالفة أمر الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ..﴾ الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود؛ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي: بمنزلة الأميين؛ والأُمِّي: من لا يعرف أن يقرأ، ولا أن يكتب؛ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا قراءة بدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعنى فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنه لا يستفيد شيئًا بقراءته؛ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلا يظنون؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف إلا اللفظ ليس عنده علم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن الأُمّية يوصف بها من لا يقرأ، ومن يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

٢ ـ ومنها: ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ.

٣ ـ ومنها: أن من لا يفهم المعنى فإنه لا يتكلم إلا بالظن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ العامي يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكن لا يفهم معناه؛ فإذا تكلم في حكم من أحكام الله الشرعية التي دل عليها الكتاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى.

٤ ـ ومنها: ذم الحكم بالظن، وأنه من صفات اليهود؛ وهذا موجود كثيرًا عند بعض الناس الذين يحبون أن يقال عنهم: «إنهم علماء»؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القرآن والسنة وهو لا يعلم.

٥ ـ ومنها: أن المقلِّد ليس بعالم؛ لأنه لا يفهم المعنى؛ وقد قال ابن عبد البر: «إن العلماء أجمعوا أن

المقلد لا يعد في العلماء»؛ وهو صحيح: المقلد ليس بعالم؛ غاية ما هنالك أنه نسخة من كتاب؛ بل الكتاب أضبط منه؛ لأنه قد ينسى؛ وليس معنى ذلك أننا نذم التقليد مطلقًا؛ التقليد في موضعه هو الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

قال الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ..﴾؛ «ويل» كلمة وعيد؛ يتوعد الله تعالى من اتصفوا بهذه الصفة؛ وهي مبتدأ؛ وجاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنها تفيد الوعيد؛ والوعيد معنًى خاص، فزال به إجمال النكرة المطلقة؛ و﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بمعنى: المكتوب؛ والمراد به: التوراة؛ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: كلمة مؤكدة لقوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ﴾؛ أو مبينة للواقع؛ لأنه لا كتابة إلا باليد غالبًا؛ والمعنى: أنهم يكتبونه بأيديهم، فيتحققون أنه ليس الكتاب المنزَّل؛ فهم يباشرون هذه الجناية العظيمة؛ ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ أي: بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صُنْع أيديهم؛ ﴿هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله؛ ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليأخذوا به؛ واللام للتعليل؛ فإذا دخلت اللام على الفعل المضارع تكون للتعليل كما هي هنا؛ وتكون للعاقبة، مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ وتكون زائدة، مثل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] أي: يريدون أن يطفئوا؛ لأن الفعل «يريد» يتعدى بنفسه بدون حرف الجرّ؛ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا قليلًا؛ وهذا العوض القليل هو الرئاسة، والجاه والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١): الدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيها، وقصورها، وكل ما فيها، وموضع السوط مترتقريبًا؛ إذنْ متاع الدنيا قليل.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٨)، والترمذي (١٦٤٨)، وابن ماجه (٤٣٣٠)، أحمد في «مسنده» (٢٢٨٤٩)، والدارمي في «سننه» (٢٨٢٠).

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾: هذا وعيد على فعلهم؛ ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾: هذا وعيد على كسبهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** الوعيد على الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ وهم كاذبون.

٢ ـ **ومنها:** أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجاه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علمًا يبتغي به وجه الله لينال عرضًا من الدنيا.

٣ ـ **ومنها:** أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

٤ ـ **ومنها:** أن الجزاء بحسب العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

٥ ـ **ومنها:** إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ فإن هذا بيان لعلة الوعيد؛ وهذه غير الفائدة السابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب.

٦ ـ **ومنها:** أن عقوبة القول على الله بغير علم تشمل الفعل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ فما نتج عن المحرم من الكسب فإنه يأثم به الإنسان؛ مثلًا: إنسان عمل عملًا محرمًا ـ كالغش ـ فإنه آثم بالغش؛ وهذا الكسب الذي حصل به هو أيضًا آثم به.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي: لن تصيبنا نار الآخرة

﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يعنون أنهم يبقون فيها أيامًا معدودة، ثم يخلفهم فيها النبي ﷺ، والمؤمنون؛ فنحن نقول: إقراركم على أنفسكم بدخول النار مقبول؛ ودعواكم الخروج من النار دعوى لا بينة لها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى متحديًا إياهم: ﴿قُلْ﴾ ـ الخطاب للنبي ﷺ ـ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: أاتخذتم عند الله عهدًا أن لا تمسكم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفكم فيها الرسول والمؤمنون؟! والاستفهام هنا للإنكار؛ و«العهد»: الميثاق والالتزام؛ ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ أي: إن اتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ قيل: إنَّ ﴿أَمْ﴾ متصلة؛ وقيل: إنها منقطعة؛ والفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن المنقطعة تكون بمعنى «بل»؛

والثاني: أن ما بعدها منقطع عما قبلها؛ وأما المتصلة: فتكون بمعنى «أو»، وما بعدها معادل لما قبلها؛ مثال المتصلة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]؛ ومثال المنقطعة: قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] أي: بل هم قوم طاغون؛ أما في هذه الآية التي نحن بصددها فيحتمل أنها منقطعة؛ وعلى هذا فيكون معناها: بل تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ويحتمل أنها متصلة، فيكون معناها: هل أنتم اتخذتم عند الله عهدًا فادعيتموه، أو أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون؟! وعلى كلا الاحتمالين فهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ إذنْ إذا لم يكن عندهم من الله عهد، وقد قالوا على الله ما لا يعلمون، فتكون دعواهم هذه باطلة.

قوله تعالى مبينًا من الذي تمسَّه النار، ومن الذي لا تمسَه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: قال المفسرون: ﴿بَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «بل»؛ فهي للإضراب الانتقالي؛ ويحتمل أن تكون للإضراب الإبطالي. أي لإبطال قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ و﴿مَن﴾ يحتمل أن تكون اسم شرط؛ وجوابه: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى: الذي؛ وهي مبتدأ، وخبره: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول لاسم الشرط في العموم؛ والاحتمال الأول أَوْلَى؛ و«الكسب» معناها: حصول الشيء نتيجة لعمل؛ و﴿سَيِّئَةً﴾ من ساء يسوء؛ والمراد: الأعمال السيئة.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: «الإحاطة» في اللغة: الشمول؛ و﴿وَأَحَٰطَتْ﴾ أي: صارت كالحائط عليه، وكالسور ـ أي: اكتنفته من كل جانب؛ وفي قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قراءتان: الإفراد، والجمع؛ والإفراد بمعنى الجمع؛ لأنه مفرد مضاف فيعم؛ لكن الجمع يفيد الإشارة إلى أنواع الخطايا.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَةً﴾، و﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: قيل: بمعنى واحد، وأن السيئة امتدت حتى أحاطت به؛ وقيل: إن المراد بالسيئة: الكفر؛ والخطيئة: ما دونه؛ وهذا هو المعروف عند المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: المشار إليه ما سبق؛ و﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمع صاحب ـ أي أهل النار ـ؛ وسموا أصحابًا لها لملازمتهم إياها ـ والعياذ بالله؛ و﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون؛ فالخلود بمعنى المُكْثِ والدوام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مبتدأ؛ خبره: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لما ذكر الله عزَّ وجلَّ مصير الكافرين ذكر بعده مصير المؤمنين ليكون العبد سائرًا إلى الله سبحانه وتعالى بين الخوف والرجاء؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني ـ أي تُثَنَّى فيه المعاني والأحوال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة ملازمة؛ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾: الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول ﷺ: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»[1]، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سبق الكلام عليها.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآيات:** أن اليهود يُقِرُّون بالآخرة، وأن هناك نارًا، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذَّبوا محمدًا ﷺ؛ وعلى هذا ليسوا بمؤمنين.

٢ ـ **ومنها:** أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إما كذبًا، وإما جهلًا؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤).

٣ ـ ومنها: حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما مُنْتَفٍ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهذا على القول بأن ﴿أَمْ﴾ هنا متصلة؛ أما على القول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد.

٤ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكَذِب، وإما لعجز؛ فكون الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته.

٥ ـ ومنها: أَنَّ مِنْ دَأْبِ اليهود، القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ والقول على الله يتضمن القول عليه في أحكامه، وفي ذاته وصفاته؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل أو حرَّم أو أوجب، فقد قال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئًا من أسماء أو صفات لم يثبتها الله لنفسه فقد قال على الله بلا علم؛ ومن نفى شيئًا من أسمائه وصفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صرف شيئًا عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم.

٦ ـ ومن فوائد الآيات: تحريم الإفتاء بلا علم؛ وعلى هذا يجب على المفتي أن يتقي الله عزَّ وجلَّ، وألا يتسرع في الإفتاء؛ لأن الأمر خطير.

٧ ـ ومنها: أن الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل.

٨ ـ ومنها: أن من أحاطت به خطيئته، فلم يكن له حسنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها.

٩ ـ ومنها: أن من كسب سيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها ـ ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه.

١٠ ـ ومنها: إثبات النار، وأنها دار الكافرين.

١١ ـ ومنها: خلود أهل النار فيها؛ هو خلود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزَّ وجلَّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ الموضع الثاني: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ الموضع الثالث: في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

١٢ ـ ومن فوائد الآيات، أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ ولا يكون

العمل صالحًا إلا بأمرين:

الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَركتهُ وَشِركَه»[1]- وهذا فقدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]- وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ: «فَأَيُّمَا شَرْطٍ كَانَ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ وإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرطٍ»[3].

١٣- ومن فوائد الآيات: أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بد من عمل صالح.

١٤ - ومنها: أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾؛ ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم.

١٥ - ومنها: بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَبًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ فإن من معاني المثاني: أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك.

١٦ - ومنها: إثبات الجنة.

١٧ - منها: أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَ بَنِيٓ إِسْرَٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَ بَنِيٓ إِسْرَٓءِيلَ﴾ أي: اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٦١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٢٤)، والنسائي (٣٤٥١)، وابن ماجه (٢٥٢١)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٧٥٨).

و«الميثاق»: العهد؛ وسمي «العهد» ميثاقًا؛ لأنه يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي والأرجل؛ لأنه يُلزمه؛ و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وبنوه: ذريته من ذكور وإناث، كما يقال: «بنو تميم» لذكورهم وإناثهم و«بنو إسرائيل» بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛ وجدهم واحد وهو إبراهيم ﷺ والميثاق بينه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فالميثاق اشتمل على ثمانية أمور:

الأول: ألّا يعبدوا إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ و«العبادة» معناها: الذل والخضوع؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبّد - أي: مذلّل.

الثاني: الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ وهو شامل للإحسان بالقول والفعل، والمال والجاه، وجميع طرق الإحسان؛ لأن الله أطلق؛ فكل ما يسمى إحسانًا فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ والمراد بـ «الوالدين»: الأب والأم، والأباعد لهم حق؛ لكن ليسوا كحق الأب والأم الأدنيين، ولهذا اختلف إرثهم، واختلف ما يجب لهم في بقية الحقوق.

الثالث: الإحسان إلى القرابة؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾؛ والمعنى: وإحسانًا بذي القربى؛ ﴿وَذِى﴾ بمعنى صاحب؛ و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى القرابة؛ ويشمل: القرابة من قِبَلِ الأم؛ والقرابة من قِبَلِ الأب؛ لأن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ جاءت بعد «الوالدين» أي: القربى من قِبَل الأم، ومن قِبَل الأب.

الرابع: الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربيهم أو يعولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة والرحمة والرعاية.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين وهو الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيرًا فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ لأن «الفقراء»، و«المساكين» من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة «الفقراء» إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ و«المساكين» إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ وإذا قيل: فقراء ومساكين - مثل آية الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] - صار «الفقراء» لها معنى؛ و«المساكين» لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: فـ«الفقير»: من لا يجد شيئًا من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و«المسكين»: من يجد نصف الكفاية دون كمالها.

السادس: أن يقولوا للناس قولًا حسنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ بسكون السين،

وفي قراءة: ﴿حَسَنًا﴾ بفتحها؛ والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته؛ وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف واللين، وعدم الغلظة والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير؛ وكل قول خير فهو حسن.

السابع: إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها قائمة ـ أي: قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها، وأركانها، وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها؛ و﴿الصَّلَوٰةَ﴾ تشمل الفريضة والنافلة.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها مستحقها؛ و«الزكاة» هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وفائدته: إدخال الموجودين في عهد النبي ﷺ في هذا الحكم ـ أعني التولي؛ و«التولي» ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة هنا حالية؛ أي: توليتم في إعراض؛ وذلك أن المتولي قد لا يكون عنده إعراض في قلبه ـ فقد يتولى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يُقْبِل بعد ذلك.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: بيان عظمة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾؛ لأن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي لا أعظم منه.

٢ ـ ومنها: أن التوحيد جاءت به الرسل جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

٣ ـ ومنها: أن العبادة خاصة بالله ـ تبارك وتعالى؛ فلا يعبد غيره؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ لأن هذا يفيد الحصر.

٤ ـ ومنها: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ وإنما أوجب ذلك؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]؛ فهما سبب وجودك، وإمدادك، وإعدادك. وإن كان أصل ذلك من الله؛ فلولا الوالدان ما كنت شيئًا؛ والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول والفعل، والمال والجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان؛ وضده أمران؛ أحدهما: أن يسيء إليهما؛ والثاني: ألَّا يحسن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء.

٥ ـ ومن فوائد الآية: وجوب الإحسان إلى ذوي القربى ـ أي: قرابة الإنسان؛ وهم من

يجتمعون به بالأب الرابع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلًا: يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.

٦ ـ **ومنها:** وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧ ـ **ومنها:** وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك.

٨ ـ **ومنها:** وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما قول السوء فإنه منهي عنه؛ وأما القول الذي ليس بسوء، ولا حسن فليس مأمورًا به، ولا منهيًّا عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]؛ وقال الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا؛ أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)].

٩ ـ **ومنها:** الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.

١٠ ـ **منها:** أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا.

١١ ـ **ومنها:** وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

١٢ ـ **ومنها:** وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

١٣ ـ **ومنها:** أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به؛ إلا القليل منهم.

١٤ ـ **ومنها:** أن تولي بني إسرائيل كان توليًا كبيرًا؛ حيث كان توليًا بإعراض.

١٥ ـ **ومنها:** أن المتولي المعرض أشد من المتولي غير المعرض.

١٦ ـ **ومنها:** أن التولي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقًا لم يستقم قوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

(١) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٤٧).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٤:٨٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: يذكِّرهم الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ وبيَّن الله تعالى الميثاق هنا بأمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا تُريقُونها؛ و«السفك» و«السفح» بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الدم: القتل، كما قال الرسول ﷺ في مكة: «لَا يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ باللهِ وَاليومِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا»[1] أي: يقتل نفسًا بغير حق؛ و﴿دِمَاءَكُمْ﴾ أي: دماء بعضكم؛ لكن الأمة الواحدة كالجسد الواحد؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «ذِمَّةُ المُسلمينَ وَاحِدَةٌ يسعَى بِها أَدنَاهُم»[2]، وقال: «وَيُجِيرُ عَلَيهِم أَقْصَاهُم»[3].

الأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾؛ المراد: لا يخرج بعضكم بعضًا من دياركم؛ ولا شك أن الإخراج من الوطن شاق على النفوس؛ وربما يكون أشق من القتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم بعد هذا الميثاق بقيتم عليه، وأقررتم به، وشهدتم عليه، ولم يكن الإقرار غائبًا عنكم، أو منسيًّا لديكم؛ بل هو باق لا زائل؛ ثم بعد هذا الميثاق، والإقرار به، والشهادة عليه ﴿أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ و﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ منادى حذف منه حرف النداء ـ أي: يا هؤلاء؛ وليست خبر المبتدأ؛ و﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ خبره جملة: ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛

(١) رواه البخاري (١٧٣٥)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٧٧١)، والترمذي (١٥٧٩)، وأبوداود (٢٠٣٤).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٦٦٩٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٢٨٠)، وقال الشيخ شعيب: صحيح وهذا إسناد حسن.

والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك ورضوا به.

وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضًا؛ ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي تجلونهم عن الديار؛ وهذا وقع بين طوائف اليهود قرب بعثة النبي ﷺ؛ حيث قتل بعضهم بعضًا، وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ بتخفيف الظاء؛ وفيها قراءة أخرى: ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾ بتشديد الظاء؛ وأصله: تتظاهرون؛ ولكن أبدلت التاء ظاءً، ثم أدغمت بالظاء الأصلية؛ و﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي تعالَون؛ لأن الظهور معناه العلوّ، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩] يعني ليعليه؛ وسمي العلوّ ظهورًا: من الظهر؛ لأن ظهر الحيوان أعلاه؛ وقيل: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي: تعينون من يعتدي على بعضكم في عدوانه.

قوله تعالى: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ أي بالمعصية؛ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدوانًا؛ إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب الخمر عاصٍ وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصومًا هذا آثم، ومعتدٍ؛ والذي يخرجه من بلده آثم،ومعتدٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع الإقراروالشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾ أي: يجيئون إليكم؛ ﴿أُسَارَىٰ﴾: جمع أسير؛ وتجمع أيضًا على أسرى، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٧٠]؛ والأسير هو الذي استولى عليه عدوه؛ ولا يلزم أن يأسره بالحبل؛ لكن الغالب أنه يؤسر به؛ لئلا يهرب؛ و﴿تُفَادُوهُمْ﴾ أي: تفكوهم من الأسر بفداء؛ وفي قراءة ﴿تفدوهم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ يعني: تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني: وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف والتماس الأعذار.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ «ما» نافية؛ والجزاء، والمجازاة، والمعاقبة معناها واحد؛ أو متقارب؛ ومعنى «الجزاء»: إثابة العامل على عمله؛ والمعنى: ما ثوابكم على عملكم هذا إلا خزي في الحياة الدنيا؛ و«الخزي» معناه الذلّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه يقام فيه العدل؛ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿يُرَدُّونَ﴾ أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا وخزيها؛ ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه؛ و﴿الْعَذَابِ﴾: العقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾: هذه صفة سلبية، أي: نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه ومراقبته؛ و﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: بالتاء؛ وفيها قراءة: ﴿يعملون﴾: بالياء.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾: المشار إليه هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد؛ ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: اختاروا الدنيا على الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمنًا؛ لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منْزلةً؛ لأنها دون الآخرة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[(1)].

وقوله تعالى: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: الباء هنا للبدل؛ وهي تدخل دائمًا على الثمن، كقولهم: «اشتريت الثوب بدينار»: فالدينار هو الثمن؛ ويقال: «اشتريت الدينار بثوب»: فالثوب هو الثمن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يهوَّن عنهم لا زمنًا، ولا شدة، ولا قوة؛ ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]؛ فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: «أخرجنا من النار»، ولم يقولوا: «يخفف عنا دائمًا»؛ بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾: يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يومًا واحدًا من الأبدي السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيخًا، وتقريعًا، وتنديمًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: ضياع.

الفوائد:

١- **من فوائد الآيات:** أن بني إسرائيل أُخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾

٢- **ومنها:** تحريم إخراج بعضهم بعضًا من ديارهم.

٣- **ومنها:** أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجه برقم (١٠٧).

٤ - **ومنها**: الأسلوب البليغ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نُهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه.

٥ - **ومنها**: أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

٦ - **ومنها**: بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضًا، ويخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

٧ - **ومنها**: أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم والعدوان.

٨ - **ومنها**: تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ وأما إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

٩ - **ومنها**: تناقض بني إسرائيل في دينهم، وقبولهم للشريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضًا، ويخرج فريقًا من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أسيرًا فاداه - أي: دفع فدية لفك أَسْرِهِ؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضًا؛ وهذا من الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك: أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. - ونوح هو أول الرسل لم يسبقه رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

١١ - **ومن فوائد الآيات**: مضاعفة العقوبة على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٢ - **ومنها**: إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم.

١٣ - **ومنها**: تهديد الذين نقضوا العهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١٤ - **ومنها**: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه.

١٥ ـ ومنها: إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

١٦ ـ ومن فوائد الآيات: توبيخ من اختار الدنيا على الآخرة؛ وهو مع كونه ضلالًا في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليل، ثم يزول؛ والآخرة خير وأبقى.

١٧ ـ ومنها: أن هؤلاء القوم خالدون في العذاب أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

١٨ ـ ومنها: أن المجرم لا يجد ناصرًا له يمنعه من عذاب الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

مسألة:

هذا الذي قصه الله تعالى علينا من أخبار بني إسرائيل مضمونه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه ولكن مع الأسف أن بعض هذه الأمة وقعوا في جنس ما وقع فيه بنو إسرائيل؛ وهذا مصداق قول النبي ﷺ «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم» (١).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧، ٨٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة للقسم؛ و«قد» للتحقيق؛ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات ـ وهي: القسم المقدَّر، واللام الموطئة للقسم، و«قد»؛ و﴿آتَيْنَا﴾ أي: أعطينا؛

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

و﴿مُوسَى﴾ هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ و﴿الْكِتَابَ﴾: المراد به هنا التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي: أتبعنا من بعده بالرسل؛ لأن التابع يأتي في قفا المتبوع.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: أعطيناه ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: الآية البينات؛ أي: الظاهرات في الدلالة على صدقه وصحة رسالته؛ وهذه الآيات البينات تشمل الآيات الشرعية؛ كالشريعة التي جاء بها؛ والآيات القدرية الكونية؛ كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أي: قويناه، كقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أي: قويناهم عليهم؛ وهو معروف اشتقاقه؛ لأنه من **(الأيد)** بمعنى القوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة.

قوله تعالى: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: بالروح المقدس؛ و(**القُدُس**)، و(**القُدْس**) بمعنى الطاهر؛ واختلف المفسرون في المراد بـ (**روح القدس**):

القول الأول: أن المراد روح عيسى؛ لأنها روح قدسية طاهرة؛ فيكون معنى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: أيدناه بروح طيبة طاهرة تريد الخير، ولا تريد الشر.

والقول الثاني: أن المراد بـ (**روح القدس**): الإنجيل؛ لأن الإنجيل وحي؛ والوحي يسمى روحًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

والقول الثالث: أن المراد بـ (**روح القدس**) جبريل ـ عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]: وهو جبريل؛ وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت، وهو يهجو المشركين: «اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»[1] أي: جبريل؛ وهذا أصح الأقوال؛ وهو أن المراد بـ (**روح القدس**): جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكون قرينًا له يؤيده، ويقويه، ويلقنه الحجة على أعدائه؛ وهذا الذي رَجَّحْنَاهُ هو الذي رَجَّحَهُ ابن جرير، وابن كثير؛ أن المراد بـ (**روح القدس**): جبريل عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري والتوبيخ؛ والفاء عاطفة؛ و(**كُلَّما**) أداة شرط تفيد التكرار؛ ولا بد فيها من شرط وجواب؛ والشرط هنا: قوله تعالى: ﴿جَاءَكُمْ﴾؛ والجواب: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أي: من الله؛ ﴿بِمَا﴾ أي: بشرع؛ ﴿لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ أي: لا تريد؛ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: سلكتم طريق الكبرياء، والعلوّ على ما جاءت به الرسل؛

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

﴿فَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة؛ ونصب على أنه مفعول مقدم لـ﴿كَذَّبْتُمْ﴾؛ ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: وطائفة أخرى تقتلونهم؛ وقدم المفعول على عامله؛ لإفادة الحصر مع مراعاة رؤوس الآي؛ والحصر هنا في أحد شيئين لا ثالث لهما: إما التكذيب؛ وإما القتل، يعني مع التكذيب.

وهنا قال تعالى: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾. فعل ماضٍ؛ وقال تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل مضارع؛ فأما كون الأول فعلًا ماضيًا، فالأمر فيه ظاهر؛ لأنه وقع منهم التكذيب؛ وأما الإتيان بفعل مضارع بالنسبة للقتل فهو أولًا مراعاة لفواصل الآية؛ لأنه لو قال: «فريقًا قتلتم» لم تتناسب مع التي قبلها والتي بعدها؛ ثم إن بعض العلماء أبدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمدًا ﷺ فإنهم قتلوا الرسول ﷺ بالسُّمِّ الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه ﷺ ما زال يتأثر منه، حتى إنه ﷺ في مرض موته قال: «مَا زَالَت أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي، وَهَذَا أَوَانُ انقِطَاعِ الأَبْهَرِ مِنِّي»(١)؛ قال الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود تسببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكون هذا من أسرار التعبير بالمضارع في القتل؛ وإن كان قد يَرِدُ عليه أن التكذيب استمر حتى زمن الرسول ﷺ فلماذا لم يقل: «فريقًا تكذبون وفريقًا تقتلون»؟! والجواب عن هذا: أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل.

فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود كانوا سببًا في قتله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ؟

فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: حال التبليغ؛ أي: بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبدًا في حال تبليغه فقتله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل معتذرين عن ردهم ما جاء به الرسول ﷺ؛ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف؛ و«الأغلف» هو الذي عليه غلاف يمنع من وصول الحق إليه - يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ و﴿بَل﴾ للإضراب الإبطالي - أي: أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، وبيّن أنه تعالى: ﴿لَّعَنَهُمُ﴾ - أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته؛ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم، حيث اختاروا الكفر على الإيمان؛ و«كُفْر» مصدر مضاف إلى فاعله؛ ولم يذكر مفعوله ليعم الكفرَ بكل ما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: قليلًا إيمانهم؛ وعلى هذا تكون ﴿مَّا﴾ إما مصدرية؛ وإما زائدة لتوكيد القلة؛ وهل المراد بالقلة العدم، أو هي على ظاهرها؟ المعنى الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليها القرائن الحالية أو اللفظية.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٦٧)، وقال حسين أسد: إسناده حسن وهو مرسل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ﴾.

٢ - **ومنها:** تأكيد الخبر ذي الشأن - وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ فإنها مؤكدة بثلاث مؤكدات مع أنه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:

أولًا: إذا خوطب به المنكِر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوبًا.

ثانيًا: إذا خوطب به المتردد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد استحسانًا.

ثالثًا: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده - وإن خوطب به من لم ينكر أو يتردد.

٣- **ومن فوائد الآيتين:** أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ﴾؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]

٤ - **ومنها:** ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ﴾

٥ - **ومنها:** أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه.

وبهذا نعرف أن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن: أم من ليس له أب شرعًا هي عصبته؛ فإن عدمت فعصبتها؛ خلافًا لمن قال: إن أمه ليس لها تعصيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثال: فلو مات من ليس له أب عن أمه وخاله: فلأمه الثلث والباقي لخاله - على قول من يقول: إن الأم لا تعصيب لها؛ أما على القول الراجح: فلأمه الثلث فرضًا، والباقي تعصيبًا.

٦ - **ومن فوائد الآيتين:** أن عيسى ابن مريم ﷺ أعطاه الله سبحانه وتعالى آيات كونية، وشرعية؛ مثال الشرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضًا يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمدًا ﷺ ترقى في عهده الكلام إلى منزلة عالية في البلاغة والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.

٧ - **ومن فوائد الآيتين:** أن الله سبحانه وتعالى أيد عيسى بجبرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

٨ - **ومنها:** أن الملائكة من جملة تسخيرهم للخلق أنهم يؤيدون من أمَرَهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٩ ـ **ومنها**: بيان عتوّ بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

١٠ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيبًا للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فورًا.

١١ ـ **ومنها**: توبيخ ولوم بني إسرائيل، وبيان مناهجهم بالنسبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع بما لا تهوى أنفسهم: انقسموا إلى قسمين: فريقًا يكذبون؛ وفريقًا يقتلون مع التكذيب.

١٢ ـ **ومنها**: أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق ـ سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذاهو الحق، ولكنه استكبر عنه ـ فإنه مشابه ببني إسرائيل.

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين:

قسم يقرُّ به، ويعترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بين، وقسم آخر يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.

١٣ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه.

١٤ ـ **ومنها**: أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب.

١٥ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف.

١٦ ـ **ومنها**: أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نُصِحوا ودُعوا إلى الحق قالوا: «ما هدانا الله»؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾

١٧ ـ **ومنها**: أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهذا الإضراب للإبطال؛ يعني: ليست القلوب غَلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصول الحق؛ وهو لَعْن الله إياهم بسبب كفرهم.

١٨ ـ **ومنها**: أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع.

١٩ ـ **منها**: بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئًا؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

٢٠ ـ **ومنها**: إثبات الأسباب، وأن لها تأثيرًا في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾

٢١ ـ **ومنها**: أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٨٩،٩٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾: هو القرآن؛ ونكَّره هنا للتعظيم؛ وأكد تعظيمه بقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه، كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: له معنيان:

المعنى الأول: أنه حكم بصدقها، كما قال في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصدقها، كما لو أخبرك إنسان بخبر فقلت: «صدقت» تكون مصدقًا له.

المعنى الثاني: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت الكتب السابقة التوراة، والإنجيل؛ فعيسى ابن مريم ﷺ قال: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]؛ فجاء هذا الكتاب مصدقًا لهذه البشارة.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: من التوراة والإنجيل؛ وهذا واضح أن التوراة أخبرت بالرسول ﷺ إما باسمه، أو بوصفه الذي لا ينطبق على غيره.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يجيئهم ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون، ويقولون: سيكون لنا الفتح والنصر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من المشركين الذين هم الأوس والخزرج؛ لأنهم كانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتاب ـ كما هو معروف؛ فكانوا يقولون:

إنه سيبعث نبي، وسنتبعه، وسننتصر عليكم؛ لكن لما جاءهم الشيء الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به؛ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾: اللعنة: هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: حاقة عليهم؛ وهو مظهر في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق: «**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله عليهم**»؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: مراعاة الفواصل كما هنا؛ ومنها: الحكم على موضع الضمير بما يقتضيه هذا الوصف؛ ومنها: الإشعار بالتعليل؛ ومنها: إرادة التعميم.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: «بئس»: فعل ماضٍ لإنشاء الذم؛ يقابلها «نِعْم»: فهي فعل ماضٍ لإنشاء المدح؛ و«بئس» و«نعْم» اسمان جامدان لا يتصرفان؛ أي: لا يتحولان عن صيغة الماضي؛ و«ما» اسم موصول بمعنى الذي؛ أي: بئس الذي اشتروا به أنفسهم؛ أو إنها نكرة موصوفة، والتقدير: «بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم»، و﴿اشْتَرَوْا﴾ فسرها أكثرهم بمعنى باعوا؛ وهو خلاف المشهور؛ لأن معنى «اشترى الشيء»: اختاره؛ والمختار للشيء لا يكون بائعًا له؛ والصحيح أنها على بابها؛ ووجهه: أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر كانوا راغبين فيه، فكانوا مشترين له.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾: ﴿أَنْ﴾ هنا مصدرية؛ والفعل بعدها مؤول بمصدر، والتقدير: كفرُهم؛ وهو المخصوص بالذم؛ وإعرابه مبتدأ مؤخر خبره الجملة قبله؛ ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: «ما» هذه اسم موصول بمعنى الذي؛ والمراد به: القرآن؛ لأنه تعالى قال في الأول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ و﴿بَغْيًا﴾ مفعول لأجله عامله، قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا﴾؛ و«البغي» فسره كثير من العلماء بالحسد؛ والظاهر أنه أخص من الحسد؛ لأنه بمعنى العدوان؛ لأن الباغي هو العادي، كما قيل: على الباغي تدور الدوائر؛ وقيل: البغي: مرتعٌ مبتغيه وخيم؛ فالبغي ليس مجرد الحسد فقط؛ نعَم، قد يكون ناتجًا عن الحسد؛ والذين فسَّروه بالحسد فسَّروه بسببه.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: «الفضل» في اللغة: زيادة العطاء؛ والمراد بـ «الفضل» هنا الوحي أو القرآن، كما قاله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم موصول؛ والمراد: النبي ﷺ؛ لأن القرآن في الحقيقة نزل على النبي ﷺ للناس، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ و﴿يَشَاءُ﴾ أي: يريد بالإرادة الكونية؛ والمراد بـ﴿عِبَادِهِ﴾ هنا الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا﴾ أي: رجعوا؛ ﴿بِغَضَبٍ﴾: الباء للمصاحبة؛ يعني رجعوا مصطحبين لغضب من الله سبحانه وتعالى؛ ونكَّره للتعظيم؛ ولهذا قال بعض الناس: إن المراد بـ «الغضب»:

غضب الله سبحانه وتعالى، وغيره ـ حتى المؤمنين من عباده يغضبون من فعل هؤلاء وتصرفهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ يعني غضبًا فوق غضب؛ فما هو الغضب الذي باءوا به؟ وما هو الغضب الذي كان قبله؟

الجواب: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضًا هناك أنواع أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: هذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير؛ أي: ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد سبق بيانها قريبًا.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عقوبة؛ و﴿مُّهِينٌ﴾ أي: ذو إهانة وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم ـ حين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]ـ، إلا قول الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] لكفى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** أن القرآن من عند الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسمًا يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق.

٣ ـ **ومنها:** التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، ولقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ **ومنها:** أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: يستنصرون؛ أي يطلبون النصر، أو يَعِدون به؛ فقبل نزول القرآن وقبل مجيء الرسول ﷺ يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينْزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به.

٥ ـ **ومنها:** أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم.

٦ ـ **ومنها:** أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٧ ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزَّ وجلَّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛

ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا، وَفُلَانًا»(١). لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حيًّا؛ وإن كان ميتًا فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُم قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»(٢).

٨ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٩ـ **ومنها**: أن من رد الحق من هذه الأمة؛ لأن فلانًا الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود

١٠ ـ **ومنها**: أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حقٌّ فاتْبَعْه من أيٍّ كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان وفلان.

١١ ـ **ومنها**: أن العلم من أعظم فضل الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم وفضل المال فانظر إلى العلماء في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قَلَّ ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يُدَرِّسون الناس، وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نُسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة أو محمودة؛ فدل هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال.

١٢ـ **ومن فوائد الآيتين**: إثبات مشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء عُلِّق بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة.

١٣ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن هذا الفضل الذي نزله الله لا يجعل المفضَّل به ربًّا يُعْبد؛ بل هو من العباد، حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وهذه الفائدة لها فروع نوضحها، فنقول: إن من آتاه الله فضلًا من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبدًا؛ إذن لا يرتقي إلى منزلة الربوبية؛ فالرسول ﷺ عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون ربًّا يملك النفع والضرر، ويعلم الغيب.

ويتفرع عنها: أن من آتاه الله من فضله من العلم وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه على غيره؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزَّ وجلَّ استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه؛ فقيل له في

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤٢)، وابن ماجه (١٠٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٦٣٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (٦٦٥).

(٢) رواه البخاري (١٣٢٩)، والنسائي (١٩٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٥٠٩).

ذلك؛ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(١)].

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم، فيتعالى في نفسه، ويتعاظم حتى إنه ربما لا يقبل الحق؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة.

١٤ - من فوائد الآيتين: أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾.

١٥ - ومنها: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

١٦ - ومنها: أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريبًا.

١٧ - ومنها: إثبات الغضب من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾؛ والغضب من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ وهكذا كل صفة من صفات الله تكون على سبب.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود؛ وأبهم القائل ليكون شاملًا لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسول ﷺ وإما غيره؛ ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: صدِّقوا به مع قبوله والإذعان له؛ لأن الإيمان شرعًا: التصديق مع القبول والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمنًا حتى يكون قابلًا مذعنًا؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدقًا برسول الله ﷺ ولم يكن مؤمنًا؛ لأنه لم يقبل، ولم يذعن؛ و«ما» اسم موصول؛ المراد به: القرآن العظيم؛ و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: من عنده.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾: هذا جواب: ﴿إذا﴾؛ ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنون به التوراة؛ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعنون به القرآن؛ و«وراء» هنا بمعنى سوى؛ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾: هذه

(١) رواه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٢/ ١٩).

الجملة حال من «ما» في قوله تعالى: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعني: أن هذا الذي كفروا به هو الحق؛ وضده الباطل؛ وهو الضائع سدىً الذي لا يستفاد منه؛ أما الحق فهو الثابت المفيد النافع؛ وهذا الوصف بلا شك ينطبق على القرآن؛ ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال أيضًا من ﴿هو﴾ أي: الضمير؛ وسبق معنى كونه مصدقًا لما معهم؛ وقوله تعالى هنا: ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة.

ثم قال تعالى مكذبًا لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ الخطاب في ﴿قُلْ﴾ إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ ﴿فَلِمَ﴾: اللام حرف جر؛ و«ما» اسم استفهام دخل عليه حرف جر، فوجب حذف ألفها للتخفيف؛ والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ يعني لو كنتم صادقين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله؟ لأن قتلهم لأنبياء الله؟ مستلزم لكفرهم بهم؛ أي: بأنبياء الله؛ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ فيها قراءتان: (أنبئاء) بالهمزة؛ و﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ بالياء، مثل: «النبي»، و«النبيء»؛ و«النبيء» جمعه أنبئاء؛ و«النبي» جمعه أنبياء.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن ـ وهو كلام؛ والكلام ليس عينًا قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ ومنها: علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القرآن كلامه وهو نازل من عنده دلَّ على علوّ المتكلم به.

٣ ـ ومنها: كذب اليهود في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ..﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلخ.

٤ ـ ومنها: عتوّ اليهود وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا.

٥ ـ ومنها: أن من دُعي إلى الحق من هذه الأمة وقال: «المذهب كذا، وكذا» ـ يعني ولا أرجع عنه ـ ففيه شبه من اليهود؛ لأن الواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقول: «سمعنا وأطعنا»؛ ولا تعارضه بأي قول كان، أو مذهب.

٦ ـ ومنها: وجوب قبول الحق من كل من جاء به.

٧ ـ ومنها: إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك: أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا

الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ﴾: الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام الموطئة للقسم - وهي للتوكيد؛ و«قد» وهي هنا للتحقيق؛ لأنها دخلت على الماضي؛ و﴿جَاءَكُم﴾: الخطاب لليهود؛ والدليل على أنه لليهود قوله تعالى: ﴿مُّوسَىٰ﴾؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم.

قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الباء للمصاحبة، أو للتعدية؛ يعني: جاءكم مصحوبًا بالبينات؛ أو أن البينات هي التي جيء بها، فتكون للتعدية؛ و«البينات» صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: بالآيات البينات؛ أي: بالعلامات الدالة على رسالته؛ ومنها: اليد، والعصا، والحجر، وفلق البحر، والجراد الذي أرسل على آل فرعون، والسنون، وأشياء كثيرة، مثل القمل، والضفادع، والدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾: تفيد الترتيب بمهلة- يعني: ثم بعد أن مضى عليكم وقت أمكنكم أن تتأملوا في هذه الآية، وأن تعرفوها: الذي حصل أنكم لم ترفعوا بها رأسًا: ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: «اتخذ» من أفعال التصيير، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] يعني صيَّره؛ إذنْ هي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر؛ المفعول الأول: ﴿الْعِجْلَ﴾؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا؛ وحذف للعلم به، كما قال ابن مالك في الألفية:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ ....

و﴿الْعِجْلَ﴾ هو ولد البقرة، وليس عجلًا من حيوان؛ ولكنه عجل من حلي: صنعوا من الحلي مجسمًا كالعجل، وجعلوا فيه ثقبًا تدخله الريح، فيكون له صوت كخوار الثور، فأغواهم السامري، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ لأن موسى كان قد ذهب منهم لميقات ربه على أنه ثلاثون يومًا، فزاد الله تعالى عشرًا، فصار أربعين يومًا؛ فقال لهم السامري: إن موسى ضلَّ عن إلهه؛ ولهذا تخلف، فلم يرجع؛ فهو قد ضلَّ، ولم يهتد إلى إلهه؛ فهذا إلهكم وإله موسى، فاتَّخِذوه إلهًا.

قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى لميقات ربه؛ لأن موسى رجع إليهم،

وقال للسامري عن إلهه: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]؛ وجرى هذا: فحرقه موسى ﷺ، ونسفه في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]؛ وسمي العدوان ظلمًا؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم؛ وجملة: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ حال في موضع النصب من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ أي: والحال أنكم ظالمون؛ وهذا أبلغ في القبح: أن يعمل الإنسان العمل القبيح وهو يعلم أنه ظالم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك: أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهًا.

٢ ـ **ومنها:** سفاهة اليهود وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهًا مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣ ـ **ومنها:** أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدل على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه.

٤ ـ **ومنها:** أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: ﴿إِذْ﴾ تأتي في القرآن كثيرًا؛ والمعربون يعربونها بأنها مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: اذكر؛ وإذا كان الخطاب لأكثر من واحد يقدر: اذكروا، أي: اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم؛ و«الميثاق»: العهد؛ وسمي العهد ميثاقًا؛ لأنه يتوثق به.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبل المعروف؛ رفعه الله عزَّ وجلَّ على رؤوسهم تهديدًا لهم؛ فجعلوا يشاهدونه فوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفًا من الله عزَّ وجلَّ،

وجعلوا ينظرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهود أنهم يرون أن أفضل سجدة يسجدون لله بها أن يسجدوا وقد أداروا وجوههم إلى السماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا.

قوله تعالى: ﴿خُذُواْ﴾ فعل أمر؛ وهو في محل نصب مقولًا لقول محذوف؛ أي: قلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي: ما أعطيناكم؛ والمراد به التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ ونشاط؛ فالجد: العزيمة الثابتة؛ والنشاط: القوة في التنفيذ؛ ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: سماع قبول واستجابة؛ فأمروا بأن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يسمعوا ويستجيبوا، وينقادوا؛ وكان الجواب: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أي: بآذاننا؛ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أي: بأفعالنا؛ فما سمعوا السمع الذي طُلب منهم؛ ولكنهم استكبروا عنه؛ وظاهر الآية الكريمة أنهم قالوا ذلك لفظًا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ وقال بعضهم: قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ بألسنتهم، وعصوا بأفعالهم؛ فيكون التعبير بالعصيان هو عبارة عن أفعالهم، وأنهم لم يقولوا بألسنتهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ وهذا ضعيف؛ لأن الواجب حمل اللفظ على ظاهره؛ حتى يقوم دليل صحيح على أنه غير مراد، ولأنه لا يمتنع أن يقولوا: «سمعنا وعصينا» بألسنتهم وهم الذين قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فالذين تجرأوا أن يقولوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ يتجرءون أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بألسنتهم؛ وكأن الذين قالوا: إن المراد بالمعصية هنا فعل المعصية؛ وليس معناه أنهم قالوا بألسنتهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ كأنهم قالوا: إنهم التزموا بهذا والجبل فوق رؤوسهم؛ ومن كان هذه حاله لا يمكن أن يقول: «سمعنا، وعصينا» والجبل فوقه؛ ويمكن الجواب عن هذا بأنهم قالوا ذلك بعد أن فُرِّج عنهم؛ و«العصيان»: هو الخروج عن الطاعة بترك المأمور، أو فعل المحظور؛ فمن ترك الجماعة وهي واجبة عليه فهو عاصٍ؛ ومن زنى، أو سرق، أو شرب الخمر فهو أيضًا عاصٍ لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾: قال بعضهم: إنه على تقدير مضاف؛ والتقدير: أشربوا في قلوبهم حب العجل؛ لأن العجل نفسه لا يمكن أن يشرب في القلب؛ ومعنى ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾: أنه جُعل هذا الحب كأنه ماء سقي به القلب؛ إذنْ امتزج بالقلب كما يمتزج الماء بالمدر إذا أشرب إياه؛ والمدر هو الطين اليابس؛ فهذا القلب أشرب فيه حب العجل، ولكن عبر بالعجل عن حبه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلوبهم؛ والذي أشرب هذا في قلوبهم هو الله سبحانه وتعالى؛ ولكن من بلاغة القرآن أن ما يكرهه الله يعبر عنه غالبًا بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن النبي ﷺ يقول: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ»(١)، وقال الله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ ففي الشر قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

فنسبوه إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: الباء هنا للسببية؛ أي: بسبب كفرهم بالله السابق على عبادة العجل؛ لأنهم قد نووا الإثم قبل أن يقعوا فيه؛ فصاروا كفارًا به، ثم أشربوا في قلوبهم العجل حتى صاروا لا يمكن أن يتحولوا عنه: قال لهم هارون ﷺ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]؛ ولكن كان جوابهم لهارون: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]؛ فأصروا؛ لأنهم أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾: يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه - أي: قل أيها النبي؛ أو قل أيها المخاطب: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾: «بئس» فعل ماضٍ يراد به إنشاء الذم؛ و«ما» نكرة مبنية على السكون في محل نصب تمييز، يعني: بئس شيئًا يأمركم به إيمانكم عبادةُ العجل؛ يعني: إذا كان عبادة العجل هو مقتضى إيمانكم فإن إيمانكم قد أمركم بأمر قبيح؛ يعني: أين إيمانكم وأنتم قد أشرب في قلوبكم العجل؟! وأن هذا الإيمان الذي زعمتموه هو الذي حبب إليكم عبادة العجل، وعبدتموه.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: صادقين في دعوى الإيمان؛ و﴿إِن﴾ شرطية، والمقصود بها التحدي؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح!!!.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ..﴾ إلخ.

٢ - **ومنها:** أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور.

٣ - **ومنها:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومنها:** أن أمر الكون كله بيد الله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

٥ - **ومنها:** وجوب تلقي شريعة الله بالقوة دون الكسل والفتور، لقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

٦ - **ومنها:** بيان عتوِّ بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتو؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٧ - **ومنها:** أن السمع نوعان: سمع استجابة، وسمع إدراك؛ مثال الأول: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ ومثال الثاني: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

٨ - **ومنها:** أن المؤمن حقًّا لا يأمره إيمانه بالمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مؤمنين حقًّا ما اتخذتم العجل إلهًا.

٩ـ **ومنها**: أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ والنبي ﷺ يقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»؛ فالشر في المفعول ـ لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلق الله عزَّ وجلَّ؛ لكن الشر بالنسبة لإيجاد الله له هو خير، وليس بشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة وغاية محمودة. وإن كان شرًّا ـ لكن الشر في المفعولات ـ أي: المخلوقات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشًر؛ أرأيت الرجل يكوي ابنه بالنار ـ والنار مؤلمة محرقة ـ لكنه يريد أن يُشفى ـ فهذا المفعول الواقع من الفاعل شر مؤلم محرق لكن غايته محمودة ـ وهو شفاء الولد؛ فيكون خيرًا باعتبار غايته.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيملأ قلبه حبًّا لما يكرهه الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾

١١ـ **ومنها**: أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾: ﴿كَانَتْ﴾ هنا ناقصة، وخبرها يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَكُمُ﴾؛ وتكون ﴿خَالِصَةً﴾ حالًا من ﴿الدَّارُ﴾ يعني: حال كونها خالصة من دون الناس؛ ويجوز أن يكون الخبر: ﴿خَالِصَةً﴾؛ والمعنى واحد؛ والمراد بـ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الجنة؛ وإنما قال تعالى ذلك؛ لأنهم قالوا: «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة، وبعدها تخلفوننا أنتم في النار؛ ونكون نحن في الجنة» ـ هذا كلام اليهود؛ والذي يقول هذا الكلام يدعي أن الدار الآخرة خالصة؛ أي: خاصة له من دون

الناس، وأن المستحق للنار منهم يدخلها أيامًا معدودة، ثم يخرج إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي: اطلبوا حصوله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذٍ تكون لكم خيرًا من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصلوا إليها؛ وهذا تحدٍّ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]؛ وذلك لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة.

وظاهر الآية الكريمة على ما فسرنا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يتحداهم بأنه إن كانت الدار الآخرة لهم كما يزعمون فليتمنوا الموت لِيَصِلوا إليها؛ وهذا لا شك هو ظاهر الآية الكريمة؛ وهو الذي رجحه ابن جرير، وكثير من المفسرين؛ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي: فباهلونا، وتمنوا الموت لمن هو كاذب منا؛ فتكون هذه مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكون المعنى: تمنوا الموت عن طريق المباهلة؛ ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصول الموت لكانوا يحتجون أيضًا علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضًا إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضًا تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضًا، والجواب عن ذلك: أنا لم ندَّع أن الدار الآخرة خالصة لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحًا سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾؛ اللام في ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ موطئة للقسم، والنون للتوكيد؛ وعليه تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والضمير الهاء يعود على اليهود؛ و﴿أَحْرَصَ﴾ اسم تفضيل؛ و(الحرص): هو أن يكون الإنسان طامعًا في الشيء مشفقًا من فواته؛ والحرص يستلزم بذل المجهود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجِزْ»(١)؛ ونكَّر ﴿حَيَاةٍ﴾ ليفيد أنهم حريصون على أيِّ حياة كانت ـ وإن قلَّت؛ حتى لو لم يأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: الشرك الأكبر؛ واختلف المفسرون فيها؛ فمنهم من قال: هو مستأنَف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومن الذين أشركوا من يود أحدهم لو يعمر..؛ وهذا وإن كان محتملًا لفظًا، لكنه في المعنى بعيد جدًا؛ ومنهم من قال: إنه معطوف على

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٧٧٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يعني: ولتجدنهم أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنةوالنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله؛ وهذا القول هو الصواب.

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ «الود» خالص المحبة؛ والضمير في ﴿أَحَدُهُمْ﴾ يعود على المشركين لا غير، على القول الأول أي: أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مُستأنَف؛ وعلى القول الثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا على اليهود؛ ويصير انقطاع الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَشْرَكُوا۟﴾؛ ويحتمل أن يكون عائدًا على المشركين؛ ويرجحه أمران:

أحدهما: أن الضمير في الأصل يعود إلى أقرب مذكور؛ والمشركون هنا أقرب.

والثاني: أنه إذا كان المشرك يود أن يعمر ألف سنة، وكان اليهودي أحرص منه على الحياة، فيلزم أن يكون اليهودي يتمنى أن يعمر أكثر من ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾ أي: لو يزاد في عمره؛ و(العمر) هو: الحياة؛ و﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية؛ وكلما جاءت بعد «ود» فهي مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الأحزاب:٢٠]؛ ومعنى «مصدرية» أنها بمعنى «أنْ» تؤول وما بعدها بمصدر، فيقال في الآية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يود أحدهم تعميره ألف سنة؛ و (السنة) هي: العام؛ والمراد بها هنا السنة الهلالية لا الشمسية؛ لأن الكلمات إذا أطلقت تحمل على الاصطلاح الشرعي؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ فالميقات الذي وضع الله للعباد إنما هو بالأشهر الهلالية، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكما قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بدافعه ومانعه؛ ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾: ﴿أَن﴾ والفعل بعدها فاعل (زحزح)؛ والتقدير: وما هو بمزحزحه تعميره؛ لأن (مزحزح) اسم فاعل يعمل عمل فعله؛ والمعنى: أنه لو عُمِّر ألف سنة أو أكثر وهو مقيم على معصية الله تعالى فإن ذلك لن يزحزحه من العذاب؛ بل إن الإنسان إذا ازداد عمره، وهو في معصية الله ازداد عذابه؛ ولهذا جاء في الحديث: «شرُّكم مَنْ طَالَ عُمْرُه، وَسَاءَ عَمَلُه»[1].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤٣١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٢٨٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٣١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: ﴿بَصِيرُۢ﴾ هنا بمعنى عليم؛ أي: إنَّه ـ جَلَّ وعلا ـ عليم بكل ما يعملونه في السر والعلانية من عمل صالح وعمل سيء.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآيات:** تكذيب اليهود الذين قالوا: «**لنا الآخرة، ولكم الدنيا، لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة**»؛ ووجهه: أن الله تعالى قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أنَّ الكافر يكره الموت؛ لما يعلم من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾

٣ ـ **ومنها:** إثبات السببية، تؤخذ من الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

٤ـ **منها:** إثبات علم الله تعالى للمستقبل لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدًا﴾؛ فوقع الأمر كما أخبر به.

٥ ـ **ومنها:** جواز تخصيص العموم لغرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فخص علمه بالظالمين تهديدًا لهم.

٦ ـ **ومنها:** أن اليهود أحرص الناس على حياة.

٧ ـ **ومنها:** إبطال قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾، ثم يخرجون منها ويكونون في الجنة؛ لأن من كان كذلك لا يكره الموت.

٨ ـ **ومنها:** أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿أَحۡرَصَ﴾؛ و﴿أَحۡرَصَ﴾ اسم تفضيل.

٩ ـ **ومنها:** أن المشركين من أحرص الناس على الحياة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود.

١٠ ـ **ومنها:** أن طول العمر لا يفيد المرء شيئًا إذا كان في معصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾

١١ ـ **ومنها:** غَوْرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يُقَال للإنسان: «**أطال الله بقاءك**»؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذن الطريق السليم أن تقول: «**أطال الله بقاءك على طاعة الله**»، أو نحو ذلك.

١٢ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى محيط بأعمال هؤلاء كغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ والبصر هنا بمعنى: العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي ﷺ: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]؛ فأثبت الله

(١) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٩٦٠٢).

بصرًا؛ لكن تفسيره بالعلم أعم.

❁ قال الله تعالى:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧،٩٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد؛ ويجوز أن يكون المراد: كل من يتوجه إليه الخطاب؛ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: معاديًا له؛ و«جبريل» هو المَلَك الموكل بالوحي؛ وكان اليهود يعادونه ويقولون: «إنه ينْزل بالعذاب»؛ قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: فيه إعرابان: الأول: أن الجملة جواب الشرط؛ ووجه ارتباطه بفعل الشرط من الناحية المعنوية: تأكيد ذم هؤلاء اليهود المعادين لجبريل، كأنه لم يكن فيه ما يوجب العداوة إلا إِنَّه نزله على قلبك؛ وهذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقول القائل:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

فالمعنى: من كان عدوًّا لجبريل فلا موجب لعداوته إلا إِنَّه نزله. أي: القرآن ـ على قلبك؛ وهذا الوصف يقتضي ولايته ـ لا عداوته؛ وقيل: إن جواب الشرط محذوف؛ والتقدير: من كان عدوًّا لجبريل فليمت غيظًا؛ لكن الإعراب الأول أصح وأبلغ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: قلب النبي ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ وإنما كان نزوله على قلبه؛ لأن القلب محل العقل والفهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه الكوني القدري؛ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: حال من الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ يعني: نَزَّلَهُ حال كونه مُصَدِّقًا لما بين يديه ـ أي: لما سبقه من الكتب، كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب التي أخبرت عن نزول القرآن؛ وسبق بيان معنى تصديق القرآن لما بين يديه.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة؛ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بشارة؛ و«البشارة» الإخبار بما يسر؛ وقد تأتي

في الإخبار بما يضر، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٧]؛ و﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ﴿وَبُشْرَىٰ﴾؛ وإنما كان بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم الذين قبلوه وانتفعوا به؛ «المؤمنون» أي: الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان؛ لأن الإيمان يدل على أمن واستقرار؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يكون في الأمور الغيبية دون الأمور المحسوسة.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ أي: معاديًا له مستكبرًا عن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ يعني: وعدوًا لملائكته؛ و«الملائكة» جمع مَلَك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عزَّ وجلَّ من نور، وسخرهم لعبادته يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي ﷺ يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل[1].

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد ﷺ أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: معطوف على قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل؛ ﴿وَمِيكَالَ﴾ هو ميكائيل الموكل بالقطر والنبات؛ وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما: موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني: موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط: من كان عدوًّا لله فالله عدو له؛ ومن كان عدوًّا للملائكة فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لرسله فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لجبريل فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لميكائيل فإن الله عدو له؛ وهنا أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما: لفظية؛ والثانية: معنوية؛ أما الفائدة اللفظية: فمناسبة رؤوس الآي؛ وأما الفائدة المعنوية؛ فهي تتضمن ثلاثة أمور: **الأول:** الحكم على أن من كان عدوًّا لله ومن ذُكر بأنه يكون كافرًا؛ يعني: الحكم على هؤلاء بالكفر؛ **الثاني:** أن كل كافر سواء كان سبب كفره معاداة الله، أو لا، فالله عدو له، **الثالث:** بيان العلة؛ وهي في هذه الآية: الكفر.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** أن من الناس من يكون عدوًّا لملائكة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾؛ ووجه ذلك: أن مثل هذا الكلام لو لم يكن له أصل لكان لغوًا من القول؛ والقرآن مُنَزَّهٌ عن هذا اللغو.

---

(١) الحديث مسلم (٧٧٠) أن عبدالرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين، بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

٢ ـ **ومنها:** فضيلة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن الله تعالى دافع عنه.

٣ ـ **ومنها:** ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به وليًّا لجبريل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون وليًّا.

٤ ـ **ومنها:** إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنزول لا يكون إلا من أعلى.

٥ ـ **ومنها:** أن النبي ﷺ قد وعى القرآن وعيًا كاملًا لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ لأن ما نفذ إلى القلب حلَّ في القلب؛ وإذا حلَّ في القلب فهو في حرز مكين.

٦ ـ **ومنها:** أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:

كوني: وهو المتعلق بالخلق والتكوين، ولا بد من وقوع ما أذن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]؛ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ والفرق بينهما: أن المأذون به شرعًا قد يقع، وقد لا يقع؛ وأما المأذون به قدرًا فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعًا محبوب إلى الله عزَّ وجلَّ؛ والمأذون به قدرًا قد يكون محبوبًا، وقد يكون غير محبوب.

٧ ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك: أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعًا به حريصًا عليه تاليًا له حق تلاوته فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو التثاقل في تطبيقه، فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

٨ ـ **ومنها:** أن من عادى الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

٩ ـ **ومنها:** أن من كان عدًّا للملائكة أو للرسل فإنه عدو لله؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ والرسل البشريون أيضًا رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غيره، أو عادى الرسل من محمد أو غيره فقد عادى الله عزَّ وجلَّ.

فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معاديًا لله ؟

فالجواب: هذا محل توقف في دلالة الآية عليه؛ اللَّهُمَّ إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا

بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكون عدوًّا لهم؛ لأن من عاداهم إنما فعل ذلك بسبب أنهم تمسكوا بما جاءت به الرسل؛ فكانت حقيقة معاداتهم أنهم عادوا رسل الله، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] أي: مبغضك، ومبغض ما جئت به من السنة هو الأبتر؛ وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى في الحديث القدسي قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»(١).

١٠ ـ **ومن فوائد الآيتين،** أن كل كافر فالله عدوّ له؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

١١ ـ **ومنها،** إثبات صفة العداوة من الله؛ أي: أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و(المعاداة): ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾: سبق الكلام عليها؛ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ وذلك؛ لأن القرآن كلام الله؛ والله تعالى فوق عباده.

قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ جمع آية؛ والآية في اللغة: العلامة، لكنها في الحقيقة أدق من مجرد العلامة؛ لأنها تتضمن العلامة والدليل؛ فكل آية علامة ـ ولا عكس؛ لكن العلماء ـ رحمهم الله ـ قد يفسرون الشيء بما يقاربه أو يلازمه ـ وإن كان بينهما فرق، كتفسيرهم (الريب): بالشك في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] مع أن (الريب) أخص من مطلق الشك؛ لأنه شك مع قلق؛ وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة: (**أصول التفسير**).

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ جمع بينة؛ وهُنَّ الواضحات في ذاتها ودلالتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾ أي: بهذه الآية البينات؛ ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن شريعة الله؛ فالمراد بـ (الفسق) هنا: الفسق الأكبر، كقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٦١٨٨).

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن القرآن وحي من الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ ومنها: عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية.

٣ ـ ومنها: ثبوت علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ والنُّزول لا يكون إلا من أعلى؛ وعلوّ الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

٤ ـ ومنها: وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهًا على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكون الجميع محكمًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ..﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

فالحاصل: أن القرآن ـ ولله الحمد ـ آيات بينات؛ ولكنه يحتاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكره القرآن، ثم يأتي بما يُشتَبه فيه؛ ليضرب القرآن بعضه ببعض فهذا لا يتبين له أبدًا؛ إنما يتبين الهدى من القرآن لمن أراد الهدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق.

٦ ـ ومنها: أن من كفر به فهو فاسق.

٧ ـ ومنها: إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين:

فسق أكبر مُخرِج عن المِلَّة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠] الآيات؛ ووجه الدلالة: إنَّه تعالى جعل الفسق هنا مقابلًا للإيمان.

والثاني: فسق أصغر لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي العدالة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]: فعطف ﴿الفسوق﴾ على ﴿الكفر﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة.

مسألة:

تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية: مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]؛ وأما الشرعية فهي: ما أنزله الله تعالى على رسله من

الشرائع، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

قال الله تعالى:

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠، ١٠١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾: الهمزة هنا للاستفهام؛ والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيرًا؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما ﴿كلما﴾ فإنها أداة شرط تفيد التكرار؛ أي: كثرة وقوع شرطها وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: «كلما جاء زيد فأكرمه» اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه؛ قَلَّ أو كثر.

قوله تعالى: ﴿عَاهَدُوا عَهْدًا﴾؛ «العهد»: الميثاق الذي يكون بين الطوائف؛ سواء كان ذلك بين أمة مسلمة وأمة كافرة؛ أو بين أمتين مسلمتين؛ أو بين أمتين كافرتين؛ والضمير في ﴿عَاهَدُوا﴾ يعود على اليهود؛ ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: «النبذ»: الطرح والترك؛ أي: ترك هذا العهد جماعة منهم؛ أي: من اليهود، فطرحوه، ولم يفوا به؛ وهذا هو حال بني إسرائيل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ فالله تعالى أخذ عليهم العهد والميثاق؛ ومع ذلك نبذوا العهد والميثاق؛ والنبي ﷺ عاهدهم، ونبذوا عهده.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتًا لما قبله، وزيادة وصف ـ وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم؛ لأن المؤمن حقيقة لا بد أن يفي بالعهد، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وأخبر النبي ﷺ أن «آيَةَ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ..»[1]؛ ولو أنهم آمنوا ما نقضوا العهد الذي بينهم وبين

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

الله، أو الذي بينهم وبين عباد الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ ﴿لما﴾ هنا شرطية؛ وهي على أربعة أنحاء في اللغة العربية: شرطية؛ ونافية جازمة؛ وبمعنى (إلا)؛ وبمعنى (حين)؛ و﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿رسول﴾ أي: رسول مرسل من عند الله ـ وهو محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: للذي معهم من التوراة إن كانوا من اليهود، ومن الإنجيل إن كانوا من النصارى؛ والحديث في هذه الآية كلها عن اليهود؛ وتقدم معنى ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ فكان على اليهود والنصارى أن يفرحوا بهذا القرآن؛ لأنه مؤيد لما معهم؛ ولكن الأمر كان بالعكس!!!.

قوله تعالى: ﴿نَبَذَ﴾ أي: طرح بشدة ﴿فَرِيقٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ أي: أعطوا؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُوا۟﴾؛ ومفعولها الأول: الواو، وهي نائب الفاعل؛ و«أل» هنا للعهد الذهني؛ وهو بالنسبة لليهود التوراة؛ وبالنسبة للنصارى الإنجيل؛ و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن؛ وهو مفعول ﴿نَبَذَ﴾؛ وأضيف إلى الله؛ لأنه المتكلم به؛ فالقرآن الذي نقرؤه الآن هو كلام ربنا تبارك وتعالى تكلم به حقيقة بلفظه ومعناه، وسمعه منه جبريل، ثم أتى به إلى النبي ﷺ فنزل به على قلب النبي ﷺ حتى وعاه وأداه إلى الصحابة؛ والصحابة أدوه إلى التابعين، وهكذا حتى بقي إلى يومنا هذا ـ ولله الحمد؛ وسمي القرآن كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ وفي الصحف التي بأيدي البشر.

قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولي والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خُلِّف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «كأن» لها معنى، ولها عمل؛ عملها: عمل (إنّ): تنصب الاسم، وترفع الخبر؛ وأما معناها: فهو هنا التشبيه، يعني: كأنهم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم.

٢ ـ **ومنها:** أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذًا من الأمة كلها ـ ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك: أن الله وَبَّخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه.

٣ ـ **ومنها**: أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود.

٤ ـ **ومنها**: أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:

أحدهما: النفاق؛ لقول النبي ﷺ: «آيَةُ المنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ؛ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، وفي الحديث الآخر: «أَربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتى يَدَعَهَا..»، وذكر منها: «إِذَا عَاهَدَ غَدَر»[2].

والمحظور الثاني: مشابهة اليهود.

٥ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٦ـ **ومنها**: أن الرسول ﷺ قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

٧ ـ **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ تقرر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٨ ـ **ومنها**: أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقًا من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.

٩ـ **ومنها**: أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لإظهار شدة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل.

١٠ ـ **ومنها**: أن القرآن كلام الله؛ لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ **ومنها**: توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشد من كفر من لم يعلم.

١٢ ـ **ومنها**: أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه: استبعاد القبول منهم.

١٣ ـ **ومنها**: شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به؛ حيث نبذوه وراء ظهورهم.

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي: اليهود؛ و﴿تَتْلُوا﴾ هنا ليست بمعنى (تقرأ)؛ لكنه من: تلاه يتلوه، بمعنى: «تبعه»؛ أي ما تَتْبعه الشياطين وتأخذ به؛ ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في ملكه: في عهده؛ وإنما قال تعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ لأن الله جمع له بين النبوة والملك، ووهبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: فسخر له الرياح، والجن، والشياطين فإن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًّا رسولًا؛ وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهم أنبياء رسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]؛ وعند اليهود - قاتلهم الله - أن سليمان مَلِكٌ فقط؛ وهو لا ريب مَلِكٌ ونَبِيٌّ وَرَسُوْلٌ؛ وسليمان كان بعد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ..﴾ [البقرة: ٢٤٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام -.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي بتعلم السحر؛ أو تعليمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بتشديد نون ﴿وَلَكِنَّ﴾، ونصب ﴿الشَّيَاطِينَ﴾؛ وفي قراءة سبعية بتخفيف نون ﴿لكن﴾ وإسكانها ثم كسرها تخلصًا من التقاء الساكنين؛ و﴿الشَّيَاطِينُ﴾ برفع النون؛ فعلى القراءة الأولى: تكون الواو حرف عطف، ﴿وَلَكِنَّ﴾ حرف استدراك يعمل عمل «إنّ» ينصب الاسم ويرفع الخبر، و﴿الشَّيَاطِينَ﴾ اسمها، وجملة: ﴿كفروا﴾ خبرها؛ وعلى قراءة التخفيف تكون الواو للعطف، ﴿وَلَكِنَّ﴾ حرف استدراك، مبني على السكون حُرِّكَ بالكسر لالتقاء الساكنين، و﴿الشَّيَاطِينُ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿كَفَرُوا﴾ خبر المبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ جمع شيطان؛ وجاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم بعضًا؛ و﴿كَفَرُواْ﴾: فسَّر هذا بقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ و«السحر» في اللغة هو كل شيء خفيَ سببه ولطف؛ ومنه قول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1]؛ لأن البيان ـ وهو الفصاحة ـ يجذب النفوس والأسماع، حتى إن الإنسان يجد من نفسه ما يشده إلى سماع هذا البيان والتأثر به، فيسحر الناس؛ لكن ليس هو السحر الذي ورد ذمه؛ وإنما المراد بالسحر المذموم: عُقَد ورُقى ينفث فيها الساحر، فيؤثر في بدن المسحور وعقله؛ وهو أنواع: منه ما يقتل؛ ومنه ما يمرض؛ ومنه ما يزيل العقل ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن متحركًا، أو المتحرك ساكنًا؛ ومنه ما يجلب المودة؛ ومنه ما يوجب البغضاء؛ المهم أن السحر أنواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع.

قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ جملة حالية من الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾ يعني: حال كونهم يعلمون الناس السحر؛ ويجوز أن تكون استئنافية لبيان نوع كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ يعني واتبعوا أيضًا ما أنزل على الملكين؛ والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ﴾؛ و﴿ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ بفتح اللام تثنية ملَك؛ والفرق بين «ملَك» و«ملِك»: أن «الملَك» بفتح اللام: واحد الملائكة؛ و«الملِك» بكسر اللام: الحاكم الذي له سلطة؛ و«بابل» اسم لبلد في العراق؛ و﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطف بيان على ﴿ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ لبيان اسمهما؛ وهما اسمان أعجميان؛ والمنزَّل عليهما شيء من أنواع السحر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي: الملكان هاروت وماروت ﴿مِنۡ أَحَدٍ﴾ أي أحدًا؛ وزيدت ﴿مِنۡ﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ﴾ أي: اختبار للناس؛ ليتبين من يريد السحر ممن لا يريده.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ أي: بتعلم السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾ أي سحرًا يفرقون به ﴿بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾؛ ويسمى هذا النوع من السحر «الصرف»؛ ويقابله سحر «العطف»؛ وهو من أشد أنواع السحر؛ لأنه يصل بصاحبه إلى الهيمان والخبل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ﴾ أي ما هؤلاء المتعلمون للسحر بضارين به أحدًا ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلا بإذنه القدري ـ وهو بمعنى المشيئة ـ و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَحَدٍ﴾ زائدة للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي: الناس من الملكين ﴿مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي: ما مضرته محضة لا نفع فيها.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٨٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾: الجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام الواقعة في جوابه، و«قد»؛ و﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾: اللام لام الابتداء؛ وهي معلِّقة للفعل ﴿عَلِمُوا﴾ عن العمل؛ و«مَن» مبتدأ؛ وخبره جملة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي نصيب؛ والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولَي ﴿عَلِمُوا﴾ أي علم هؤلاء المتعلمون للسحر أن من ابتغاه بتعلمه ليس له نصيب في الآخرة؛ وعلموا ذلك من قول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: اللام موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لبئس ما شروا به أنفسهم؛ و«بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم ـ وهو جامد ـ؛ ومثله: (نعم)، و(عسى)، و(ليس)؛ ويسمونها الأفعال الجامدة؛ لأنها لا تتغير عن صيغتها: فلا تكون مضارعًا، ولا أمرًا؛ و﴿مَا﴾ اسم موصول؛ وهي فاعل «بئس»؛ والمخصوص بالذم محذوف؛ و﴿شَرَوْا﴾ بمعنى باعوا في اللغة العربية؛ لأن الشراء بيع؛ و«الاشتراء» هو أخذ السلعة؛ فالمشتري: طالب؛ والشاري: جالب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] يعني يبيعها؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باعوا به أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقًا؛ والآخرة ليس لهم فيها ربح أيضًا؛ فخسروا الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: جملة شرطية؛ وجوابها محذوف تقديره: ما تعلّموا السحر؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السحر؛ وهنا ينبغي للقارئ أن يبتدئ بـ﴿لَوْ﴾، وأن يقف على ﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأن الوصل يوهم أن محل الذم في حال علمهم؛ أما في حال عدم علمهم فليس مذمومًا! وهذا خلاف المعنى المراد؛ إذ المعنى المراد: توبيخهم، حيث عملوا عمل الجاهل؛ فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ نداء عليهم بالجهل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾؛ ويدل على هذا أن أحدهم ـ وهو لبيد بن الأعصم ـ سحر النبي ﷺ[1].

٢ ـ **ومنها:** أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٥٤٣٠)، ومسلم (٢١٨٩).

٤ ـ **ومنها**: أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾؛ إذ لو أقرهم على ذلك ـ وحاشاه ـ لكان مُقرًّا لهم على كفرهم.

٥ ـ **ومنها**: أن تعلم السحر وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية: أنه كفر أكبر، مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية والأعشاب ونحوها، ففيه خلاف بين العلماء.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح :أنها تقبل فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس ـ أي ابتلاءً ـ وامتحانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت ـ أعني: صيد البحر ـ؛ فلم يصبروا حتى تحيلوا على صيدها يوم السبت؛ فقال لهم الله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]؛ واذكر قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عزَّ وجلَّ وهم محرِمون بالصيد تناله أيديهم ورماحهم؛ فلم يُقدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله تبارك وتعالى في تيسير أسباب المعصية؛ ليبلوَ الصابر من غيره.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس ـ وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه ـ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ فإذا كانت عندك سلعة رديئة وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره.

٨ ـ **ومنها**: أنّ من عِظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح:« إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُم مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمَهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»[1]؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء وزوجه؛ حتى إنه ـ والعياذ بالله ـ يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش ـ ولا لحظة ـ إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر ـ نسأل الله العافية..

---

(١) كما روى مسلم (٢٨١٣) من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُم مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمَهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ».

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الأسباب ـ وإن عظمت ـ لا تأثير لها إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

١٠ ـ **ومنها:** أن قدرة الله عزَّ وجلَّ فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب ـ والله لم يأذن ـ فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله.

١١ ـ **ومنها:** الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذنْ تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار.

١٢ ـ **ومنها:** أنَّ تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه.

١٣ ـ **ومنها:** أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾ يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيبًا من الآخرة.

١٤ ـ **ومنها:** أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾.

١٥ ـ **ومنها:** إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيبًا في دنياه لم يجعل الله له نصيبًا من الآخرة.

١٦ ـ **ومنها:** ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾

١٧ ـ **ومنها:** أن صاحب العلم الذي يَنتفِع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أنَّ من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ أي بقلوبهم ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ أي: بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛

والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛ وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملًا للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا»[1] وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: «التصديق مع القبول والإذعان»؛ وإلا فليس بإيمان؛ و(التقوى) أصلها: وَقْوَى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: (التقوى): أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف (التقوى):

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾: (أن) هنا مفتوحة الهمزة؛ و(أن) من الحروف المصدرية التي تؤول وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف؛ والتقدير: لو ثبت أنهم آمنوا، أي: إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ (المثوبة) و(الثواب) بمعنى: الجزاء؛ وسمي بذلك؛ لأنه من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عملُ الإنسان رجع إليه وعاد إليه منفعته وثمرته.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أضافها الله إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:

الأول: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة.

الثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾: الأولى أن نقول: هي خيرية مطلقة. خير من كل شيء؛ واللام في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾؛ ويوقف عند قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنى؛ حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلى هذا فجواب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني: فيما مضى وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٧٠٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٢٧٦)، وأبويعلى في «مسنده» (٢٩٢٣)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده جيد على شرط مسلم.

عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] فهم يحرِّقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.

٢ - **ومنها**: أن الإيمان يُنال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣ - **ومنها**: أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: خير من كل شيء؛ قال رسول الله ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا»(١).

٤- **ويؤخذ منها**: ومن قوله تعالى عن الناصحين، لمن تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠]، أنَّ التقوى هي العمل الصالح.

٥ - **ومنها**: أن فعل هؤلاء اليهود، واختيارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعلُ الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى**:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعها سمعك؛ يعني: استمع لها؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»(٢). وهذه الآية من النهي: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ يعني: لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ - راعنا؛ و﴿رَاعِنَا﴾ من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول ﷺ قالوا: «يا رسول الله، راعنا»؛ وكان اليهود يقولون: «يا محمد، راعنا»؛ لكن اليهود يريدون بها سيئًا؛ فيريدون (راعنا) اسم فاعل من الرعونة؛ يعني: أن الرسول ﷺ راعن؛ ومعنى (الرعونة): الحمق والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحدًا، وهو محتمل للمعنيين نهى الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن حنبل في «الزهد» (١١٥٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣).

عزَّ وجلَّ المؤمنين أن يقولوه تأدبًا وابتعادًا عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان - مثل المنافقين - فربما يقول: «راعنا» وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نُهي المسلمون عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ يعني: إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: ﴿رَاعِنَا﴾؛ ولكن قولوا: ﴿انظُرْنَا﴾: فعل طلب؛ و(النظر) هنا بمعنى: الانتظار؛ كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: ما ينتظر هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي: اسمعوا سماع استجابة وقبول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] يعني اسمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ المراد بـ (الكافرين) هنا: اليهود؛ و﴿عَذَابٌ﴾ بمعنى: عقوبة؛ و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني: أن يُتجنب الألفاظ التي توهم سبًّا وشتمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾

٢ - **ومنها:** أن الإيمان مقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

٣ - **ومنها:** أن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان.

٤ - **ومنها:** أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة.

٥ - **ومنها:** وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾

٦ - **ومنها:** التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قال الله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ﴿مَّا﴾ نافية؛

و﴿يَوَدُّ﴾ بمعنى يحب؛ و«الود» خالص المحبة؛ و﴿مِنْ﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ وعليه يصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار؛ ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: ما يود الذين كفروا من هؤلاء، ولا هؤلاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنها لو كانت معطوفة على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لكانت بالرفع؛ فعلى هذا تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس؛ أي: الذين كفروا من هذا الصنف. الذين هم أهل الكتاب؛ وكذلك من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾ مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ يعني: ما يودون تنزيل خير؛ وقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ زائدة إعرابًا؛ و«الخير» هنا: يشمل خير الدنيا والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيَّ خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصًّا بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول ﷺ؛ بل هو عامٌّ؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾؛ وهو دال على الاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿يُنَزَّلَ﴾ بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن «التنزيل»: هو إنزاله شيئًا فشيئًا؛ وأما (الإنزال): فهو إنزاله جملةً واحدةً؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون هذا ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئًا فشيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ (يختص) تستعمل لازمةً ومتعديةً؛ فإن كانت لازمة فإن ﴿مَن﴾ فاعل ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ والمعنى على هذا: ينفرد برحمته من يشاء؛ كما تقول: اختصصت بهذا الشيء: أي: انفردت به؛ وإن كانت متعدية فهي بمعنى: يخص برحمته من يشاء؛ وعلى هذا فتكون ﴿مَن﴾ مفعولًا به لـ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ وعلى كلا الوجهين المعنى واحد: أي: أن الله عزَّ وجلَّ يخص برحمته من يشاء؛ فيختص بها.

وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ يشمل رحمة الدين والدنيا ومن ذلك: رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد ﷺ؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هذا مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ أي: ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و﴿الْعَظِيمِ﴾ أي: الواسع الكثير الكبير؛ فالعِظم هنا يعود إلى الكمية، وإلى الكيفية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان

جميع الأصناف: أهل الكتاب ـ وهم اليهود، والنصارى.؛ والمشركين ـ وهم كل أصحاب الأوثان؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودون الخير للمسلمين.

٢ ـ **ومنها**: أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداءً، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين.

٣ ـ **ومنها**: أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم.

٤ ـ **ومنها**: أنه يحرم على المسلمين أن يُوَلُّوا هؤلاء الكفار أيَّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذن فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائمًا على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ وهي شاملة لخير الدنيا والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن خير الله لا يجلبه ودُّ وادٍّ، ولا يرده كراهة كارهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود والنصارى والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوْا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوْكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ؛ وَلَوِ اجْتَمَعُوْا عَلَى أَنْ يَضُرُّوْكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[1].

٦ ـ **ومنها**: أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شَبَهٌ باليهود والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

٧ ـ **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٤٠]، وغير ذلك من الآية.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «المسند» (٢٦٦٩)، وأبويعلى في «مسنده» (٢٥٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

٩ - **ومنها:** إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة.

١٠ - **ومنها:** إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو الْفَضْلِ﴾.

١١ - **ومنها:** إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى: أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ؛ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ؛ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي؛ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

تنبيه: لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون والرهبان الذين من صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول ﷺ، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم؛ حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة.

❁ قال الله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: بفتح النون الأولى في ﴿نَنسَخْ﴾؛ وضمها في ﴿نُنسِهَا﴾ بدون همز؛ والثانية: بفتح النون الأولى في ﴿نَنسَخْ﴾؛ وفتحها في ﴿نَنسأها﴾ مع الهمز؛ والثالثة: بضم النون الأولى في ﴿نُنسخ﴾؛ وضمها في ﴿نُنسها﴾ بدون همز.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ ﴿مَا﴾: شرطية؛ وهي اسم شرط جازم يجزم فعلين؛ الأول:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١).

فعل الشرط: ﴿نَنسَخْ﴾؛ والثاني: جوابه: ﴿نَأْتِ﴾؛ وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فهي معطوفة على ﴿نَنسَخْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بضمير الجمع للتعظيم؛ وليس للتعدد؛ لأن الله واحد؛ و(النسخ) معناه في اللغة: الإزالة؛ أو ما يشبه النقل؛ فالأول كقولهم: (نسخت الشمس الظل) يعني أزالته؛ والثاني كقولهم: (نسخت الكتاب)؛ إذ ناسخ الكتاب لم يزله، ولم ينقله؛ وإنما نقش حروفه وكلماته؛ لأنه لو كان (نسخ الكتاب) يعني: نقله كان إذا نسخته انمحت حروفه من الأول؛ وليس الأمر كذلك؛ أما في الشرع: فإنه رفع حكم دليل شرعي، أو لفظه، بدليل شرعي؛ و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم مبهم؛ والمراد بـ «الآية» الآية الشرعية؛ لأنها محل النسخ الذي به الأمر والنهي دون الآية الكونية.

وقوله: ﴿نُنسِهَا﴾ من النسيان؛ وهو ذهول القلب عن معلوم؛ وأما ﴿ننسأها﴾ فهو من «النسأ»؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تأخير الإنزال؛ أي: أن الله يؤخر إنزالها، فتكون الآية لم تنزل بعد؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلها بغيرها؛ وأما على قراءة ﴿ننسها﴾ فهو من النسيان؛ بمعنى نجعل الرسول ﷺ ينساها، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]؛ والمراد به: هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان لا يقتضي النسخ؛ فالنبي ﷺ قد ينسى بعض الآية؛ وهي باقية كما في الحديث: أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة فترك شيئًا لم يقرأه فقال له رجل: تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «هلَّا أَذْكَرْتَنِيهَا»[1].

قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ هو جواب الشرط؛ والخيرية هنا بالنسبة للمكلف؛ ووجه الخيرية - كما يقول العلماء - أن النسخ إن كان إلى أشد فالخيرية بكثرة الثواب؛ وإن كان إلى أخف فالخيرية بالتسهيل على العباد مع تمام الأجر؛ وإن كان بالمماثل فالخيرية باستسلام العبد لأحكام الله عزَّ وجلَّ، وتمام انقياده لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: نأتي بمثلها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الهمزة هنا للاستفهام؛ والمراد به التقرير؛ وكلما جاءت على هذه الصيغة فالاستفهام فيها للتقرير، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يقرر الله المخاطَب، سواء قلنا: إنه الرسول ﷺ؛ أو كل من يتأتى خطابه بالاستفهام بأنه يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ يعني: أنك قد علمت قدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ.

(١) حسن: رواه أبوداود (٩٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٤١)، والبيهقي في الكبرى (٥٥٧٣)، وحسنه الألباني في تعليقه على السنن.

وقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾: لما أريد بها الوصف جاءت على صيغة (فعيل)؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصيغة (الفاعل)، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ و(القدرة): صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ و«القوة» صفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذنْ المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]؛ والفرق الثاني بينهما: أن (القوة) يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأما (القدرة) فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر.

تنبيه:

من هذا الموضع من السورة إلى ذكر تحويل القبلة في أول الجزء الثاني، تجد أن كل الآية توطئة لنسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ ولهذا تجد الآية بعدها كلها في التحدث مع أهل الكتاب الذين أنكروا غاية الإنكار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلًا، وواقع شرعًا؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدها إلى يوم القيامة؛ فإذا نُسِخت فمعناه: أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ، أي: أخرجناه من الحكم؛ فمثلًا: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجبًا إلى يوم القيامة شاملًا لجميع الأزمان؛ فلما نُسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصًا؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافًا لفظيًّا؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا إنَّه يسميه تخصيصًا؛ وغيره يسمونه نسخًا؛ والصواب تسميته نسخًا؛ لأنه صريح القرآن: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾؛ أو مماثل له عملًا - وإن كان خيرًا منه مآلًا -؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾

٣ - **ومنها:** أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى: أنه قد يكون الحكم خيرًا للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيرًا لهم في وقت آخر.

٤ - **ومنها:** عظمة الله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ﴾: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة.

٥ - **ومنها:** إثبات تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛

ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء.

٦ ـ **ومنها:** أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ **ومنها:** أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادرًا عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذه هي الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد ذكر النسخ.

٨ ـ **ومنها:** أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فإن الله لا يبدل حكمًا بحكم إلا لمصلحة.

قد يقول قائل: ما الفائدة إذن من النسخ إذا كانت مثلها، والله تعالى حكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولًا وآخرًا دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه.

مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يمينًا أو شمالًا؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجَه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه، فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضل من ضل، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمنًا عابدًا لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقًّا، ومن ليس بعابد.

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئًا إلا أبدله بخير منه أو مثله؛ ووعده صدق.

١٠ ـ **ومنها:** ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾

❁ **قال الله تعالى:**

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن الله وحده الذي له ملك

السموات والأرض فهو ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات والأرض وأوصافها ملك لله؛ و(التدبير) يعني: أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع؛ و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء؛ ويُطلق على العلو، وعلى السقف المحفوظ - وهو المراد هنا - وهي سبع سموات كما جاء في القرآن الكريم - والسنة النبوية؛ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: جنس الأرضين، فيشمل السبع كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سواه؛ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: فعيل بمعنى مفعل؛ أي: ما من أحد يتولاكم فيجلب لكم الخير؛ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر يدفع عنكم الشر؛ و﴿مِن﴾: حرف جر زائد إعرابًا؛ ولكنه أصلي المعنى؛ إذ إن الغرض منه التنصيص على العموم؛ يعني: ما لكم أيّ ولي.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: تقرير عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ولا يَرِدُ على هذا إضافة الملك للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسان للأشياء ملك محدود، وناقص، وقاصر؛ محدود من حين استيلائه عليه إلى أن يخرج عن ملكه ببيع، أو هبة، أو موت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شرعًا؛ ولهذا لو أراد أن يحرق ملكه لم يملك ذلك؛ كذلك أيضًا ملك الإنسان قاصر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين.

٢ - ومن فوائد الآية: اختصاص ملك السموات والأرض بالله؛ وهذا مأخوذ من تقديم الخبر، حيث إن تقديم الخبر يدل على الحصر؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣ - ومنها: أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت؛ فكأن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ فالمالك للسموات والأرض يتصرف فيهما كما شاء.

٤ - ومنها: أنه لا أحد يدفع عن أحد إذا أراد الله به سوءًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٥ - ومنها: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولاية والنصر.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ فأثبت نصرًا لغير الله.

فالجواب: أن إثبات النصر لغير الله إثبات للسبب فقط؛ وليس نصرًا مستقلًا؛ والنصر المستقل من عند الله؛ أما انتصار بعضنا ببعض؛ فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن ما يريده الإنسان فهو: إما جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه.

قال الله تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ ﴾؛ ﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة بمعنى (بل) مع همزة الاستفهام؛ أي: بل أتريدون؛ والإضراب هنا ليس للإبطال؛ لأن الأول ليس بباطل؛ بل هو باق؛ فالإضراب هنا إضراب انتقال؛ و(الإرادة) هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقل: بمعنى المحبة؛ والخطاب هنا قيل: إنه لليهود حينما سألوا النبي ﷺ آيات يأتي بها؛ وقيل: إنه للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠]؛ وقيل: إنه للمسلمين؛ والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمدًا ﷺ رسول للجميع؛ لكن تخصيصها باليهود يبعده قوله تعالى: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾؛ فمعنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كانت بنو إسرائيل تورد الأسئلة على رسولها؛ ولا شك أن الاستفهام هنا يراد به الإنكار على من يكثرون السؤال على النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ رَسُولَكُمْ ﴾: أضافه سبحانه وتعالى إليهم، مع أنه في آيات كثيرة أضافه الله إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٥]؛ والجمع بين ذلك: أن كل واحدة من الإضافتين تنزل على حال: فهو رسول الله باعتبار أنه أرسله؛ ورسولنا باعتبار أنه أرسل إلينا؛ والمراد به: محمد ﷺ بالإجماع.

قوله تعالى: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي: كما سأل بنو إسرائيل موسى من قبل، كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وغير ذلك؛ فبنو إسرائيل هم المشهورون بالأسئلة، والتعنت، والإعجاز؛ أما هذه الأمة قد أدّبها الله عزَّ وجلَّ فأحسن تأديبها: لا يسألون إلا عن أمر لهم فيه حاجة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي: يأخذ الكفر بديلًا عن الإيمان؛ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ﴾ أي: تاه ﴿ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: وسط الطريق؛ يعني: يخرج عن وسط الطريق إلى حافات الطريق، وإلى شعبها؛ وطريق الله واحد؛ وعليك أن تمشي في سواء الصراط أي: وسطه حتى لا تعرض نفسك للضلال.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله ﷺ؛ لأن الاستفهام: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي ﷺ محذرًا من ذلك: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُم فَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُم بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِم عَلَى أَنْبِيَائِهِم»(١)؛ وصح عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»(٢)؛ فهذا نهي وإنكار على الذين يسألون رسول الله ﷺ مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عزَّ وجلَّ من أمر أو نهي.

٢ - **ومن فوائد الآية:** تأكيد ذم هذا النوع من الأسئلة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة.

٣ - **ومنها:** أن إرسال محمد ﷺ من مصالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** أن كثرة الأسئلة للنبي ﷺ فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى: ﴿كما سئل موسى من قبل﴾.

٥ - **ومنها:** أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسئول وإحراجه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي.

٦ - **ومن فوائد الآية:** ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم.

٧ - **ومنها:** أن اليهود قد سألوا موسى عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة.

٨ - **ومنها:** إثبات رسالة موسى ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني: وهو رسول.

٩ - **ومنها:** ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ وهذا يشمل من بقي على كفره بعد عرض الإيمان عليه، ومن ارتد بعد إيمانه؛ فإنه في الحقيقة تبديل؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا كفر فقد تبدل الكفر بالإيمان.

١٠ - **ومنها:** أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال.

١١ - **ومنها:** عكس هذه المسألة: أن من يتبدل الإيمان بالكفر فقد هُدي إلى سواء السبيل.

١٢ - **ومنها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٨٥٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

١٣ ـ **ومنها**: أنه يجب على السائل أن يعمل بما أجيب به؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تبين له أنكر؛ فالواجب على المرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقوله؛ ولهذا قال العلماء: ومن سأل مفتيًا ملتزمًا بقوله حرم عليه أن يسأل غيره؛ لأنه حين سأله كان يعتقد أن الذي يقوله هو الشرع؛ فإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غيره؛ فإذا سأل إنسانًا يثق به بناءً على أن فتواه هو الشرع، وأفتاه، ولكنه سمع في مجلس عالم آخر حكمًا نقيض الذي أُفتي به مدعَّمًا بالأدلة، فحينئذٍ له أن ينتقل؛ بل يجب عليه؛ أو سأل عالمًا مقتنعًا بقوله للضرورة؛ لأنه ليس عنده في البلد أعلم منه على نية أنه إذا وجد أعلم منه سأله؛ فهذا - أيضًا - يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه.

قال الله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾؛ ﴿وَدَّ﴾ بمعنى أحب؛ بل إن «الود» خالص المحبة؛ والمعنى: أن كثيرًا من أهل الكتاب يودون بكل قلوبهم أن يردوكم كفارًا؛ أي: يرجعوكم كفارًا؛ وعلى هذا فـ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ تنصب مفعولين؛ الأول: الكاف في ﴿يَرُدُّونَكُم﴾؛ والثاني: ﴿كُفَّارًا﴾؛ و﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى؛ والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: التوراة والإنجيل؛ و﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية؛ وضابطها أن تقع بعد (ود) ونحوها؛ و﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: من بعد أن ثبت الإيمان في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾ مفعول لأجله عامله: ﴿وَدَّ﴾؛ أي: ودوا من أجل الحسد؛ يعني: هذا الود لا لشيء سوى الحسد؛ لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفار أعداء؛ والعدو يحسد عدوه على ما حصل له من نعمة الله؛ و(الحسد): تمني زوال نعمة الله على الغير سواء تمنى أن تكون له، أو لغيره، أو لا لأحد؛ فمن تمنى ذلك فهو الحاسد؛ وقيل: (الحسد): كراهة نعمة الله على الغير.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: هذه المودة التي يودونها ليست لله، ولا من الله؛ ولكن من عند أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: من بعد ما ظهر ﴿لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء الكثيرين؛ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ما أنتم عليه من الحق؛ و«الحق» هو الشيء الثابت؛ فإن وصف به الحكم فالمراد به العدل؛ وإن وصف به الخبر فالمراد به الصدق؛ فـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ ودين الإسلام على هذا؛ وما جاء به الرسول ﷺ على هذا؛ فإن أخباره صدق، وأحكامه عدل.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾: الخطاب للمؤمنين عامةً؛ ويدخل فيهم الرسول ﷺ؛ و(العفو) بمعنى: ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من (عفا الأثر): إذا زال لتقادمه؛ و﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾: قيل: إنه من باب عطف المترادفين، كقول الشاعر:

.... فَـأَلْفَى قَوْلَهَـا كَـذِبًا وَمَيْنًـا

و(الكذب) و(المين) معناهما واحد؛ ولكن الصواب أن بين (العفو)، و(الصفح) فرقًا؛ فـ (العفو): ترك المؤاخذة على الذنب؛ و(الصفح) الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئًا صار يوليه صفحة عنقه؛ فـ (الصفح) معناه: الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فـ (الصفح) أكمل إذا اقترن بـ (العفو).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: بأمر سوى ذلك؛ وهو الأمر بالقتال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: لا يعتريه عجز في كل شيء فعله.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى للأمة الإسلامية؛ و وجه ذلك: أن كثيرًا منهم يودون أن يردُّوا المسلمين كفارًا حسدًا من عند أنفسهم.

٢ ـ ومنها: أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية لم يعط حكم اليهود والنصارى.

٣ ـ ومنها: أن الحسد من صفات اليهود والنصارى.

٤ ـ ومنها: تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُو مِنْهُم»[1]؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنى زواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٠٣١)، وأحمد في «مسنده» (٥١١٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا نارًا تتلظى في جوفه؛ وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهًا لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد أو الحسود - مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلًا فيها؛ لأنه لابد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر وكسب مكسبًا كبيرًا في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب، بينما هو عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضًا بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده - وإن كان أعلم منه - يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خُلُق الحسد إلا إنَّه من صفات اليهود لكان كافيًا في النفور منه.

٥ - **ومن فوائد الآية**: علم اليهود والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيرًا ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

٦ - **ومنها**: وجوب الحذر من اليهود و النصارى ما دام كثير منهم يودون لنا هذا، فإنه يجب علينا أن نحذر منهم.

٧ - **ومنها**: بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسدًا.

٨ - **ومنها**: أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: «**لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه**» لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول ﷺ حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئًا سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفارًا.

٩ - **ومن فوائد الآية**: مراعاة الأحوال وتطور الشريعة؛ حيث قال تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم.

١١- **ومنها**: جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة.

١٢ - **ومنها**: إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ، حيث أمر بالعفو والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية ينافي الحكمة.

١٣ - **ومنها**: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عزَّ وجلَّ؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد؛ فعلًا يليق بجلاله وعظمته وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٤ - **ومنها**: ثبوت القدرة لله عزَّ وجلَّ، وأنها شاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

١٥ - **ومنها**: الرد على المعتزلة القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ وإذا كان مستقلًا بعمله لزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل.

١٦ - **ومنها**: بشارة المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى سيغير حالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو.

١٧ - **ومنها**: اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر، والمصابرة؛ حتى يتحقق النصر، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها.

قال الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: أدوا الصلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء: جعله قيمًا معتدلًا مستقيمًا؛ فمعنى ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها كاملةً بشروطها، وواجباتها، وأركانها، ومكملاتها.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها؛ وهنا حذف المفعول الثاني؛ والتقدير: وآتوا الزكاة مستحقيها؛ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفعول الأول؛ ومستحقوها قد بيَّنهم الله في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلخ [التوبة: ٦٠].

و(الزكاة) في اللغة: النماء والزيادة؛ ومنه قولهم: «زكا الزرع» إذا نما وزاد؛ وفي الشرع: هي دفع

مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبدًا لله عزَّ وجلَّ؛ وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم﴾؛ ﴿ما﴾ شرطية؛ لأنها جزمت فعل الشرط، وجوابه.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يشمل ما يقدمه من المال والأعمال؛ وهو بيان للمبهم في اسم الشرط.

قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي:تلقونه عند الله يوم القيامة مُدَّخَرًا لكم: الحسنة بعشر لا أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ هذه الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾ مع أن الخطاب ابتدائي؛ إذ إنه لم يوجه إلى متردد ولا منكر؛ والخطاب إذا لم يوجه لمنكر ولا متردد فإنه يسمى ابتدائيًا؛ والابتدائي لا يؤكد؛ لأنه لا حاجة لذلك؛ ولكنه قد يؤكد لا باعتبار حال المخاطب؛ لكن باعتبار أهمية مدلوله؛ فهنا له أهمية عظيمة: أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه بكل ما نعمل بصير؛ و﴿ما﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ أي: بما نعمل قلبيًا، وبدنيًّا؛ قوليًّا، وفعليًّا؛ لأن القلوب لها أعمال كالمحبة، والخوف، والرغبة، وما أشبه ذلك؛ و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلقة بـ﴿بَصِيرٌ﴾ وقدمت عليها لغرضين؛ الأول: مراعاة الفواصل؛ لأن التي قبلها فاصلة بالراء: ﴿قَدِيرٌ﴾، وبعدها: ﴿بَصِيرٌ﴾؛ والثاني: من أجل الحصر؛ والحصر هنا وإن كان يقلل من العموم لكنه يفيد الترهيب والترغيب؛ لأنه إذا قيل: أيها أعظم في التهديد أو الترغيب، أن نقول: إن الله بصير بكل شيء مما نعمل، ومما لا نعمل؛ أو أنه بصير بما نعمل فقط؟

فالجواب: أن الأول: أعم؛ والثاني: أبلغ في التهديد و الترغيب؛ وهو المناسب هنا؛ كأنه يقول: لو لم يكن الله بصيرًا إلا بأعمالكم فإنه كافٍ في ردعكم وامتثالكم؛ و﴿بَصِيرٌ﴾ ليس من البصر الذي هو الرؤية؛ لكن من البصر الذي بمعنى العلم؛ لأنه أشمل؛ حيث إنه يعم العمل القلبي والبدني؛ والعمل القلبي لا يدرك بالرؤية.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: وجوب إقامة الصلاة؛ والصلاة تشمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحديث[1] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامة؛ ما من

---

(١) كما عند النسائي (٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَلَاتُهُ فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ تَامَّةً وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْءٌ قَالَ انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ يُكَمِّلُ لَهُ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَةٍ مِنْ تَطَوُّعِهِ ثُمَّ سَائِرِ الأَعْمَالِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح أبي داود (٨١٠).

إنسان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها وترقعها.

٢ - **ومنها**: وجوب إيتاء الزكاة - يعني: لمستحقيها -.

٣ - **ومنها**: أن الصلاة أوكد من الزكاة؛ ولهذا يقدمها الله عليها في الذكر.

٤ - **ومنها**: أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

٥ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتشاغل بالأهم فالأهم مع الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ.

٦ - **ومنها**: أن كل خير يقدمه العبد لربه عزَّ وجلَّ فإنه سيجد ثوابه عنده.

٧ - **ومنها**: أن الثواب عام لجميع الأعمال صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ فإنها نكرة في سياق الشرط؛ فتفيد العموم؛ فأيّ خير قدمته، قليلًا كان أو كثيرًا، ستجد ثوابه؛ قال الرسول ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[1].

٨ - **ومنها**: الترغيب في فعل الخير؛ حيث إن الإنسان يجد ثوابه عند ربه مدخرًا له - وهو أحوج ما يكون إليه -.

٩ - **ومنها**: أن الإنسان إذا قدم خيرًا فإنما يقدمه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ ولهذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه.

١٠ - **ومنها**: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل.

١١ - **ومنها**: التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: اليهود والنصارى؛ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾: هذا قول اليهود؛ ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾: هذا قول النصارى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: تلك المقالة؛ و﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه

(١) رواه البخاري (١٣٤٧)، ومسلم (١٠١٦).

الإنسان بدون سبب يصل به إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد؛ ﴿هَاتُوا﴾: فعل أمر؛ لأن ما دل على الطلب ولحقته العلامة فهو فعل أمر؛ يقال: «هاتي» للمرأة؛ «هاتيا» للاثنين؛ والأمر هنا للتحدي، والتعجيز؛ ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم؛ مِن (برهن على الشيء): إذا بينه؛ أو من (بَرِه الشيء): إذا وضح بالعلامة؛ فعلى الأول: تكون النون أصلية؛ وعلى الثاني: تكون النون زائدة؛ وعلى القولين جميعًا فـ (البرهان) هو الذي يتبين به حجة الخصم؛ يعني: ما نقبل كلامكم إلا إذا أقمتم عليه الدليل؛ فإذا أقمتم عليه الدليل فهو على العين، والرأس.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: أن هذا أمر لا يمكن وقوعه؛ فهو تحدٍّ، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذنْ: يكونون كاذبين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان ما كان عليه اليهود والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين.

٢ ـ **ومنها:** تعصب اليهود والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله.

٣ ـ **ومنها:** أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ فهم أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1]؛ فالحاصل: أن هذا القول ـ وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ـ كذب من الطرفين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ وقال النبي ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ»[2].

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها، ففيه شَبه من اليهود، والنصارى.

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٨١٨٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٠٤).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٦٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

٥ - **ومنها**: عدل الله عزَّ وجلَّ في مخاطبة عباده؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير.

٦ - **ومنها**: أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعَوه؛ بدليل أنهم لم يأتوا به.

٧ - **ومنها**: أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بها يبرر قولهم، ويصدِّقه لأتوا بها.

❀ قال الله تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾: هذا إبطال للنفي في قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ إلخ؛ وإن كان بعض المفسرين يقول: إن ﴿بَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «بل»؛ ولكن نقول: ﴿بَلَىٰ﴾ هنا حرف جواب تفيد إبطال النفي؛ يعني: لما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ إلخ قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: يدخل الجنة من ليس هودًا أو نصارى؛ وبيَّنه بقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ﴾؛ ﴿مَنْ﴾ شرطية؛ وهي مبتدأ؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾؛ والمراد بـ (**الوجه**) القصد، والنية، والإرادة؛ «أسلمه لله» أي: جعل اتجاهه، وقصده، وإرادته خالصًا لله عزَّ وجلَّ؛ وعبر بـ (**الوجه**)؛ لأنه الذي يدل على قصد الإنسان؛ ولهذا يقال: أين كان وجه فلان؟ يعني: أين كان قصده واتجاهه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الجملة في محل نصب على الحال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾؛ يعني: أسلم والحال أنه محسن أي: متبع لشريعة الله ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ أي: ثوابه؛ وشبَّهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل.

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾: أضاف العندية إليه لفائدتين:.

الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسول ﷺ إياه أنه قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحدًا أحفظ

(١) رواه البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٢٧٠٥).

من الله؛ إذنْ فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان.

وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا: من الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين: الأول: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

والثاني: اتباع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٢ - **ومنها:** أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته، فإنه لا يدخل في هذه الآية؛ لاختلال شرط الإحسان.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم - ولو مع حسن النية -؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان.

٣ - **ومن فوائد الآية:** الدلالة على الشرطين الأساسيين في العبادة؛ وهما: الإخلاص؛ والمتابعة للرسول ﷺ.

٤ - **ومنها:** ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٥ - **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل.

٦ - **ومنها:** عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾

٧ - **ومنها:** انتفاء الخوف والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما: الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

٨ - **ومنها:** حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تُملأ قلوبهم رعبًا وحزنًا؛ قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد.

٩ - **ومن فوائد الآية:** الحث على الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة، واتباع الشرع فيها؛ لأن الله إنما أخبرنا بهذا الثواب لمن أخلص واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد

الخبر؛ وهكذا يقال في كل ما أخبر الله به من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية؛ فإنه إنما يراد به الحث على الطاعة، والزجر عن المعصية.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: على شيء من الدين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: على شيء من الدين.

وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته دينًا؛ وقالت النصارى: ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به؛ أما عن دعوى اليهود، فإنها باطلة على كل تقدير؛ لأن النصارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي ﷺ؛ وأما دعوى النصارى في اليهود فحق؛ لأن دينهم نسخ بما جاء به عيسى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى؛ فإذا كذبوه لم يكونوا على شيء من الدين؛ بل هم كفار.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الجملة هذه حالية؛ والضمير ﴿هم﴾ يعود على اليهود والنصارى؛ يعني: والحال أن هؤلاء المدعين كلهم ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: يقرءونه؛ والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس، فيشمل التوراة والإنجيل؛ و«كتاب» فعال بمعنى مفعول؛ لأن الكتب المنزلة من السماء تكتب وتُقرأ؛ ولا سيما أن التوراة كتبها الله بيده سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ قال المعربون: إن الكاف في مثل هذا التعبير اسم بمعنى «مثل»، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة؛ وأن «ذلك» اسم إشارة يشير إلى المصدر؛ أي: مثلَ ذلك القول قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: الذين لم يقرؤوا كتابًا؛ وكلمة ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تأكيد لـ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ قالوا: لأن العامل الواحد لا ينصب معمولين بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ قال بعض المفسرين: المراد بهم كفار قريش ـ أهل الجاهلية ـ؛ لأنهم قالوا: إن محمدًا ﷺ ليس على دين، وليس على شيء؛ وقال بعض المفسرين: إنهم أمم سابقة؛ وقال بعض المفسرين: إنهم طوائف من اليهود والنصارى؛ يعني: أن الذين يتلون الكتاب من اليهود، والنصارى، قالوا مثل قول الذين لا يعلمون منهم؛ فاستوى قول عالمهم وجاهلهم؛

والأحسن أن يقال: إن الآية عامة ـ مثل ما اختاره ابن جرير، وغيره ـ؛ لأن القاعدة تقول: إن النص من الكتاب والسنة إذا كان يحتمل معنيين لا منافاة بينهما، ولا يترجح أحدهما على الآخر فإنه يحمل على المعنيين جميعًا؛ لأنه أعم في المعنى؛ وهذا من سعة كلام الله عزَّ وجلَّ، وكلام رسوله ﷺ، وشمول معناهما؛ وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ الفاء: حرف عطف؛ ولفظ الجلالة مبتدأ؛ وجملة: ﴿يَحْكُمُ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ؛ و﴿يَحْكُمُ﴾ للمستقبل؛ و(الحكم) معناه: القضاء والفصل بين الشيئين؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة يقضي بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؛ فيبين لصاحب الحق حقه ويجزيه به؛ و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هو اليوم الذي يبعث فيه الناس؛ وسمي بذلك لأمور ثلاثة سبق ذكرها.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في الخلاف الواقع بينهم؛ ومعلوم أن هناك خلافًا بين اليهود والنصارى؛ بل النصارى الآن مختلفون في مللهم بعضهم مع بعض اختلافًا جوهريًا في الأصول؛ واليهود كذلك على خلاف؛ وكذلك المسلمون عامة مع الكفار؛ والذي يحكم بينهم هو الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الأمم الكافرة يكفِّر بعضها بعضًا؛ فهم أعداء بعضهم لبعض من جهة؛ وأولياء بعضهم لبعض من جهة أخرى: بالنسبة لنا هم بعضهم لبعض وليّ؛ وبالنسبة لما بينهم بعضهم لبعض عدو؛ فالإسلام عدو مشترك لليهودية والنصرانية وسائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضًا.

٢ ـ **ومنها:** شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ فهذه الجملة تفيد زيادة القبح فيما قالوه؛ حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحق؛ فالنصارى تتلو التوراة وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة ـ وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى ـ؛ واليهود أيضًا يتلون الإنجيل، ويعرفون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكبارًا؛ ولا ريب أن الذي ينكر الحق مع العلم به، أعظم قبحًا من الذي ينكر الحق مع الجهل به؛ لأن هذا معاند مكابر بخلاف الجاهل، فالجاهل ينكر الحق للجهل به؛ ثم إذا تبين له الحق اتبعه، إذا كان المانع له من اتباعه الجهل؛ لكن العالم لا عذر له.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيرًا بالإيمان به عزَّ وجلَّ.

٤ ـ **ومنها:** إثبات الحكم لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي.

فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والجزائي: مثل هذه الآية: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: فإن خيرًا فخير؛ وإن شرًّا فشر؛ و هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرَّمًا»(١)؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضي بينهم بالعدل.

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤] ؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير.

٥ - ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عزَّ وجلَّ؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؛ ولهذا لا يوجد حكم يبين للمخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلًا لا يقول لأحد الخصمين: «لن يكون لخصمك سبيل عليك» حتى يتبين، ويأتي كلٌّ بحجته؛ لكن هنا بيّن الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام؛ وهي مبتدأ؛ و﴿أَظْلَمُ﴾ خبرها؛

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٢٨٣).

والاستفهام هنا: بمعنى النفي؛ يعني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبيّن أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حذفت الاستفهام وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بيِّنوا لي أيّ أحد أظلم سن كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل من الظلم؛ وأصله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرِّط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم - وهذا نقص -.

قوله تعالى: ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: «مِن» حرف جر؛ و﴿مَن﴾ اسم موصول؛ أي: من الذي منع؛ وأضيفت المساجد إلى الله عز وجل؛ لأنها محل عبادته؛ فتكون الإضافة هنا من باب التشريف.

وقوله تعالى: ﴿مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿مَنَعَ﴾؛ و﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بدل منه.

قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ معطوف على ﴿مَنَعَ﴾؛ يعني: جمع وصفين: منع المساجد أن يذكر فيها اسمه؛ والسعي في خرابها؛ والخراب: هو الفساد، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة، يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها؛ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: ما كان ينبغي لهؤلاء أن يدخلوها إلا خائفين، فضلًا عن أن يمنعوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها - إذا ظهرتم عليهم - إلا خائفين.

الثالث: أنها بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد - ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام - ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: ذل وعار ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عقوبة عظيمة.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن المعاصي تختلف قبحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ و﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلًا، ومفضَّلًا عليه؛ وكما أن المعاصي تختلف، فكذلك الطاعات تختلف: بعضها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمال تختلف، فالعامل نتيجة لها يختلف؛ فبعض الناس أقوى إيمانًا من بعض؛ وبهذا نعرف أن القول الصحيح قول أهل السنة والجماعة في

أن الإيمان يزيد وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا، لا في الكسب القلبي، ولا في الكسب البدني: فإن الناس يتفاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.

يتفاوتون في اليقين: فإن الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه، حتى كأنما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيَقِلُّ يقينه؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ وتفاوت الناس في العلم واليقين أمر معلوم: فلو أتى رجل، وقال: «قدم فلان» - والرجل ثقة عندي - صار عندي علم بقدومه؛ فإذا جاء آخر وقال: «قدم فلان» ازداد علمي؛ فإذا جاء الثالث ازداد علمي أكثر؛ فإذا رأيتُه ازداد علمي؛ فالأمور العلمية تتفاوت في إدراك القلوب لها.

أيضًا يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبِّح الله عشر مرات أزيد إيمانًا ممن يسبِّحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كذلك يتفاوت الناس في الأعمال من حيث جنس العمل: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيمانًا من المتعبد بالنافلة؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(1)؛ فبهذا يكون القول الصواب بلا ريب قول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص(2).

٢ ـ ومن فوائد الآية: جواز منع دخول المساجد لمصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؛ ومنع مساجد الله له أسباب؛ فتارةً تمنع المساجد من أن تمتهن فرشها، أو أرضها، أو كتبها، أو مصاحفها؛ فتغلَّق الأبواب حمايةً لها؛ وتارةً تغلق أبوابها خوفًا من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم؛ لإثارة الفتن والتشويش على العامة؛ فتغلق منعًا لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارةً تغلق لترميمها وإصلاحها؛ وتارةً تغلق خوفًا من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح أو مطلوب.

٣ ـ ومنها: تحريم منع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله، سواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليمًا للعلم، أو غير ذلك.

وأخذ بعض العلماء من هذه الآية: تحريم التحجر؛ وهو أن يضع شيئًا في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيه، ويخرج من المسجد؛ قالوا: لأن هذا منع من المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يذكر فيه اسم الله؛ وهذا مأخذ قوي؛ ولا شك أن التحجر حرام: أن الإنسان يضع شيئًا، ويذهب، ويبيع، ويشتري، ويذهب إلى بيته يستمتع بأولاده وأهله؛ وأما إذا كان الإنسان في نفس المسجد

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٢٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٧).

(٢) روى ابن الجعد في «مسنده» (١٨٦١): (حدثنا بن زنجويه ثنا عبد الرزاق قال سمعت سفيان وابن جريج ومعمرًا يقولان: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فقيل لعبد الرزاق: ما تقول أنت؟ قال: وما قولي؟ قال: ما لقيت به أحدا طرق إلا هذا قوله).

فلا حرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقاب عند الوصول إليه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذٍ يكون قد شغل مكانين.

٤- **ومن فوائد الآية**: شرف المساجد؛ لإضافتها إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافًا؛ أو أعيانًا؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضاف إلى الله وصفًا، فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلى الله عينًا قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به؛ ولولا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضًا مخلوق؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

٥- **ومن فوائد الآية**: أن المصلَّيات التي تكون في البيوت أو الدوائر الحكومية، لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصلَّيات خاصة؛ فلا يثبت لها شيء من أحكام المساجد.

٦- **ومنها**: أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأن ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ معناها: موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سببًا للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

٧- **ومنها**: وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

٨- **ومنها**: أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى نفسه: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والناس عباد الله - بالنسبة إلى الله في المسجد سواء -؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله، فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.

وهنا نقول: إن للعالِم الحق أن يتخذ مكانًا يجعله لإلقاء الدرس وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس - هو وغيره سواء -.

٩- **ومنها**: أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقول: لا إله إلا الله؛ سبحان الله؛ سبحان ربك رب العزة عما يصفون؛ سبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسان لا يكون إلا باسم الله؛ أما ذكر القلب فيكون ذكرًا لله، وذكرًا لأسمائه؛ فقد يتأمل الإنسان في قلبه أسماء الله، ويتدبر فيها، ويكون ذكرًا للاسم؛ وقد يتأمل في أفعال الله عز وجل، ومخلوقاته، وأحكامه الشرعية.

أما ذكره بالضمير المفرد فبدعة، وليس بذكر، مثل طريقة الصوفية الذين يقولون: أفضل الذكر أن تقول: «هو»، «هو»؛ «هو»، «هو»؛ قالوا: لأنك لا تشاهد إلا الله ـ والعياذ بالله؛ فهم يرون أن أكمل حال الإنسان هو الفناء ـ أي: يفنى عن مشاهدة ما سوى الله، بحيث إنه ما شاهد إلا الله؛

ويقولون: ليس بلازم أن تقول: «لا إله إلا الله»: تثبت إلهين: واحد منفي، والثاني مثبت! بل قل: «هو»، «هو»، «هو»؛ فهذا لا شك من البدع؛ وليس ذكرًا لله عز وجل؛ بل هو من المنكر.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ على هدم المساجد حسًّا بالمعاول والقنابل؛ وقد يخربها معنًى؛ بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد.

١١ ـ ومنها: البشارة للمؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن هؤلاء الذين منعوهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون؛ وهذا على أحد الاحتمالات التي ذكرناها.

١٢ ـ ومنها: أن عقوبة من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها: الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

١٣ ـ ومنها: أن الذنب إذا كان فيه تعدٍّ على العباد، فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة؛ عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم الْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك ثم رأيت عقوبة الله فيه، أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منه؛ أما إذا كان في حق الله، فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

١٤ ـ ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٥ ـ ومنها: أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يُري عباده نموذجًا من هذا ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد ولا فهم الوعد إلا بمشاهدة نموذج من ذلك؛ لو كان الله توعد بالنار، ونحن لا ندري ما هي النار، فلا نخاف إلا خوفًا إجماليًّا عامًّا؛ وكذلك لو وعد بالنعيم والجنة، ولا نعرف نموذجًا من هذا النعيم لم يكن الوعد به حافزًا للعمل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾؛ اللام للاختصاص؛ يعني: أن الله سبحانه وتعالى مختص بملك المشرق والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محدود؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ مكان الشروق؛ و﴿ٱلۡمَغۡرِبُ﴾ مكان الغروب؛ وقد وردت المشرق والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه: مفردة، ومثناة، وجمع؛

فجاءت مفردة هنا فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ وجاءت مثناة في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وجمعًا في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما «المشرق» فلا ينافي «المشارق»، ولا «المشرقين»؛ لأنه مفرد محلى بـ «أل»؛ فهو للجنس الشامل للواحد والمتعدد؛ وأما ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، و﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْـمَغَٰرِبِ﴾ فالجمع بينهما أن يقال: إن جمع ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، و﴿ٱلْـمَغَٰرِبِ﴾ باعتبار الشارق والغارب؛ لأن الشارق والغارب كثير: الشمس، والقمر، والنجوم؛ كله له مشرق ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم ومغربه؛ لأن كل يوم للشمس مشرق ومغرب؛ وللقمر مشرق ومغرب؛ وثنّى باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف؛ فمشرق الشتاء: تكون الشمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف: في أقصى الشمال؛ وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ و(سورة الرحمن) أكثر ما فيها بصيغة التثنية؛ فلذلك كان من المناسب اللفظي أن يذكر المشرق والمغرب بصيغة التثنية؛ أما عند العظمة فذكرت بالجمع: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]؛ فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: مشرق كل شارق؛ ومغرب كل غارب؛ ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن المشرق والمغرب يعني: الإحاطة والشمول.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ «أين» شرطية؛ و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿تُوَلُّوا۟﴾ فعل الشرط: مضارع مجزوم بأداة الشرط؛ وعلامة جزمه حذف النون؛ وقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ و﴿ثَمَّ﴾ اسم إشارة يشار به للبعيد؛ وهو ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ ﴿وَجْهُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ والجملة من المبتدأ وخبره في محل جزم جواب الشرط.

قوله تعالى: ﴿تُوَلُّوا۟﴾ أي: تتجهوا؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك؛ والإشارة: إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: اختلف فيه المفسرون من السلف والخلف، فقال بعضهم: المراد به: وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء؛ ولكن الراجح: أن المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْهِ الْمُصَلِّي»[1]؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب.

---

(١) وذلك للحديث الذى رواه البخاري في «صحيحه» (٣٩٧): (عن أنس : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَال: «إِنْ أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قبل قبله ولكن عن يساره أو تحت قدميه» . ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض فقال (أو يفعل هكذا) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ «الواسع» يعني: واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** انفراد الله بالملك؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

٢ - **ومنها:** عموم ملك الله؛ لأن المشرق والمغرب يحتويان كل شيء.

٣ - **ومنها:** إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

٤ - **ومنها:** عموم ملك الله تعالى للمشرق والمغرب خلقًا وتقديرًا؛ وله أن يوجه عباده إلى ما شاء منها من مشرق ومغرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيهًا؛ وقد سبق أن قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] إلى آيات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب، فإذا شاء جعل اتجاه القبلة إلى المشرق؛ وإذا شاء جعله إلى المغرب؛ فأينما تولوا فثم وجه الله.

٥ - **ومنها:** إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الله تعالى له مكان لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ﴾؛ لأن «ثم» إشارة إلى المكان؛ ولكن مكانه في العلو لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ قال النبي ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء[1].

٧ - **ومنها:** إبطال بدعتين ضالتين:

إحداهما: بدعة الحلولية؛ القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته؛ فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع، والعقل، والفطرة أيضًا.

الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؛ ولا فوق العالم، ولا تحته؛ ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم؛ وهذا القول قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفًا أدق من هذا.

٨ - **ومن فوائد الآية:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: ﴿وَاسِعٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾.

٩ - **ومنها:** إثبات سعة الله وعلمه؛ ونستفيد صفة ثالثة من جمع السعة والعلم؛ للإشارة إلى: أن علم الله واسع؛ بمعنى: أنه لا يفوته شيء من كل معلوم لا في الأرض ولا في السماء.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧)، والنسائي (١٢١٨)، وأبو داود (٩٣٠).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: قالت النصارى، واليهود، والمشركون اتخذ الله ولدًا؛ فاليهود قالت: عُزير ابن الله؛ والنصارى قالت: المسيح ابن الله؛ والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله؛ فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات، كما قال تعالى مبطلًا هذه الدعوى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ومن له ملك السموات والأرض لا يحتاج إلى ولد؛ ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلًا له؛ والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: كل له خاشع ذليل؛ لأنه مملوك؛ والله - تبارك وتعالى - هو المالك؛ وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولدًا.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ﴾: على وزن فعيل بمعنى مُفعل؛ أي: مبدع؛ ولها نظير في اللغة العربية، مثل قول الشاعر:

أم الريحانةَ الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

فـ«السميع» بمعنى: المسمِع؛ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجدهما على غير مثال سابق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد أن يقضي أمرًا؛ والفعل يأتي بمعنى: إرادته المقارنة له، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءته؛ والدليل على تأويل ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: (أراد أن يقضي) هو قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ على أنه يصلح أن يكون ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا..﴾ بمعنى إذا فعل شيئًا فإنما يقول تعالى له عند فعله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله عز وجل: ﴿كُن﴾ من غير تأخر؛ لأنه ليس أمرًا شاقًّا عليه؛ و﴿أَمْرًا﴾ واحد الأمور؛ يعني الشئون؛ أي: إذا قضى شأنًا من شئونه سبحانه وتعالى فإن ذلك لا يصعب عليه: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن﴾؛ أي: لا يقول له إلا: (كن) مرة واحدة بدون تكرار؛ و﴿كُن﴾ هنا تامة من (كان) بمعنى حدث؛ ﴿فَيَكُونُ﴾

أي: فيحدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ قراءتان؛ هما: النصب، والرفع؛ فعلى قراءة النصب تكون جوابًا للأمر: ﴿كُن﴾ أي: فبسبب ذلك يكون؛ وتكون الفاء للسببية؛ وعلى قراءة الرفع تكون للاستئناف؛ أي: فهو يكون.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيتين: بيان عتوّ الإنسان وطغيانه، حيث سبَّ الله سبحانه وتعالى هذه المسبَّة العظيمة، فقال: إن الله اتخذ ولدًا!!!؛ وفي الحديث الصحيح القدسي: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»(١)؛ فهذا من أعظم العدوان؛ وهو يشير كما تقدم في التفسير إلى ثلاث طوائف: اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وقد أبطل الله هذه الدعوى الكاذبة من ستة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهًا عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد يقصد به: الإعانة ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ ومنزه أيضًا عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلًا له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والمملوك لا يكون ولدًا للمالك؛ حتى إنه شرعًا إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولدًا للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولدًا للخالق!

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾؛ ووجهه: أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولدًا لربه.

الوجه الخامس: في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ووجهه: أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛ فالقادر على خلق السموات والأرض، قادر على أن يخلق إنسانًا بلا أب، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

الوجه السادس: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولدًا بدون أب.

فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولدًا.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٠)، والنسائي (٢٠٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٦٧).

٢ ـ ومن فوائد الآيتين: امتناع أن يكون لله ولد؛ لهذه الوجوه الستة.

٣ـ ومنها: عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ـ ومنها: أن الله لا شريك له في ملكه؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.

٥ـ ومنها: أن كل من في السموات والأرض قانت لله؛ والمراد: القنوت العام؛ وهو الخضوع للأمر الكوني؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ (المعنى الخاص): هو قنوت العبادة والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]؛ و(المعنى العام): هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات والأرض، كما في هذه الآية: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ حتى الكفار بهذا المعنى، قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

٦ـ ومن فوائد الآيتين: عظم قدرة الله عز وجل بإبداع السموات والأرض؛ فلأنها مخلوقات عظيمة.

٧ـ ومنها: حكمة الله - سبحانه وتعالى - لأن هذه السموات والأرض على نظام بديع عجيب؛ قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فهذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين والأعوام؛ فيدل ذلك على قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة، فكل شيء منظم تنظيمًا بديعًا متناسبًا، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شيئًا؛ بل كل سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]؛ إذنْ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يستفاد منها: القوة، والقدرة، والحكمة.

٨ـ ومن فوائد الآيتين: أن السموات عدد؛ لأن الجمع يدل على العدد؛ وقد بيَّن الله في القرآن، وثبتت السنة، وأجمع المسلمون على أن السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الذي فوقنا فضاء لا نهاية له؛ وأما الأرض فلم تأت في القرآن إلا مفردة؛ لكن أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وصرحت السنة بذلك في قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِين»[1].

٩ـ ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عن أمره شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٠ـ ومنها: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٢٣٠).

١١- ومنها: أن قول الله بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ و﴿لَهُ﴾ صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمر، فيمتثل ويكون.

١٢- ومنها: أن قول الله بحروف؛ لقوله تعالى: ﴿كُن﴾؛ وهي كلمة بحرفين.

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقول: ليس كمثله شيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟

قلنا: نعم؛ الحروف هي الحروف؛ لكن كيفية الكلام وحقيقة النطق بها ـ أو القول ـ لا يماثل نطق المخلوق وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكون ممثِّلة إذا قلنا: إنه بحرف وصوت مسموع؛ لأننا نقول: صوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته وجلاله.

١٣- ومن فوائد الآيتين: أن الجماد خاضع لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجماد؛ فالجماد إذا قال الله تعالى له: ﴿كُن﴾ كان.

١٤- ومنها: أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخٍ؛ بل يكون على الفورية؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾: بالفاء؛ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[البقرة:١١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليسوا من ذوي العلم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هلَّا يكلمنا الله بتصديق الرسل ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي: علامة على صدقهم؛ وهذا منهم على سبيل التعنت والعناد؛ فالتعنت قولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ والعناد قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾؛ لأن الرسل أتوا بالآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ وأعظمها القرآن الكريم؛ الذي نزل على محمد ﷺ؛ وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي مثلَ هذا القول قال الذين من قبلهم؛ وعلى هذا يكون ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ توكيدًا لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا القول

الذي اقترحوه قد اقترحه من قبلهم: قوم موسى قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فهذا دأب المكذبين للرسل ينكرون، ويقترحون؛ وقد أتوا من الآيات بأعظم مما اقترحوه.

قوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: الأولون والآخرون قلوبهم متشابهة في رد الحق، والعناد، والتعنت، والجحود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد ﷺ - بل وإلى يوم القيامة - فقلوب أهل الكفر، والعناد متشابهة؛ إنما يختلف الأسلوب؛ قد يقترح هؤلاء شيئًا؛ وهؤلاء شيئًا آخر؛ لكن الكلام على جنس الاقتراح، وعدم قبولهم للحق.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أي: أظهرنا؛ لأن (بان) بمعنى: ظهر؛ و(بيَّن) بمعنى: أظهر؛ و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمى آية؛ فآيات الله هي: العلامات الدالة عليه.

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾؛ و(الإيقان): هو العلم الذي لا يخالجه شك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٢ - **ومنها**: وصف من لم ينقَدْ للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.

٣ - **ومنها**: أن المشركين يقرون بأن الله يتكلم بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ فهم خير في هذا ممن يدعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.

٤ - **ومنها**: أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ هذا مدَّعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصدقه؛ مثلًا: إذا جاء رجل يقول: «**أنا رسول الله؛ آمنوا بي وإلا قتلتكم، واستحللت نساءكم، وأموالكم**» فلا نطيعه؛ ولو أننا أنكرناه لكنا غير ملومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيات؛ ما من رسول إلا وأعطاه الله تعالى من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل ويتركهم بدون تأييد.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد

بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلى اليوم، لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن والسنة: هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئًا.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الأقوال تابعة لما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقوال؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

٧- **ومنها:** تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٨- **ومنها:** تسلية الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بذلك، وتخف عليه المصيبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]؛ فالله تعالى يسلي رسوله ﷺ بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.

٩ - **ومنها:** إبطال دعوى قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾.

١٠ - **ومنها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا الموقنون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ وأما غير الموقنين: فلا تتبين لهم الآيات لما في قلوبهم من الريب والشك.

١١ - **ومنها:** أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغيره؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

١٢ - **ومنها:** أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية:

القسم الأول: الآيات الشرعية: وهي ما جاءت به الرسل من الوحي.

والقسم الثاني: آيات كونية: وهي مخلوقات الله الدالة عليه، وعلى ما تقتضيه أسماؤه وصفاته: كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها، كما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

١٣ - **ومنها:** زيادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فباليقين يزداد العلم؛ قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١]؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقينًا كان أكثر علمًا؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ «إن» للتوكيد؛ اسمها (نا) لكن حذفت النون لتوالي الأمثال؛ مع أن الأصل أنها لا تحذف: (إننا)؛ لكن لا نقول: اسمها الألف؛ إذ إن الألف لا تكون ضميرًا إلا إذا اتصلت بفعل، مثل: قالا، قاما، وما أشبه ذلك؛ وحذف المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأن النبي ﷺ مرسل إلى العالمين؛ وغيره من الرسل إلى قومهم خاصة.

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ الباء هنا للمصاحبة أو الملابسة؛ يعني: أرسلناك متلبسًا بالحق؛ أو أن المعنى: حاملًا الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أُرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛ فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول ﷺ رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول ﷺ ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة، يعني: أن رسالتك مصحوبة بالحق؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا﴾ من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي: بما يخاف منه.

والرسول ﷺ لا شك أنه مبشر بما يسر؛ وهو الجنة؛ ومنذر بما يخاف منه؛ وهو النار و﴿بَشِيرٗا﴾ حال من الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، و﴿نَذِيرٗا﴾ حال أخرى بواسطة حرف العطف؛ فجمع الله له بين كونه مبشرًا ومنذرًا؛ لأن ما جاء به أمرٌ ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي ﷺ جامعة بين البشرى وبين الإنذار؛ والأمر والنهي؛ إذنْ فالرسول مبشر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا؛ ومنذر للكافرين أن لهم نارًا كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ في ﴿تُسۡـَٔلُ﴾ قراءتان؛ إحداهما بالرفع على أن ﴿لَا﴾ نافية؛ والفعل مبني لما لم يسم فاعله؛ يعني: ولا تُسأل أنت عن أصحاب الجحيم؛ أي: لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلّغت؛ والحساب على الله؛ والقراءة الثانية: بالجزم على أن ﴿لَا﴾ ناهية؛ و«تَسأل»: فعل مضارع مبني لما لم يُسم فاعله مجزوم بها؛ والمعنى: لا تَسأل عن أصحاب الجحيم بما

هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل؛ والقراءتان سبعيتان جامعتان للمعنيين؛ و﴿أَصْحَٰبِ﴾ جمع صاحب؛ وهو الملازم؛ و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الرد على هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢- **ومنها:** ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

٣- **ومنها:** أن النبي ﷺ رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسِل.

٤ - **ومنها:** أن رسالة النبي ﷺ متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهٍ ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف؛ فمثلًا: الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني ومالي.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية؛ وهي: شدة عذاب أصحاب الجحيم - والعياذ بالله -؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تَسأل عن أصحاب الجحيم﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: كان النبي ﷺ يحب أن يتألف

اليهود والنصارى؛ والذي يجب أن يتألفهم يحب أن يرضوا عنه؛ فبين الله عزَّ وجلَّ أن هؤلاء اليهود والنصارى قوم ذوو عناد؛ لا يمكن أن يرضوا عنك مهما تألفتهم؛ ومهما ركنت إليهم بالتألف ـ لا بالمودة ـ فإنهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنهَ عنه؛ ثم بعد ذلك كان يأمر بمخالفتهم؛ و﴿وَلَا﴾ هنا للتوكيد؛ وليست مستقلة؛ فإنها لو حذفت وقيل: «ولن ترضى عنك اليهود والنصارى» لاستقام الكلام؛ لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل ألا يظن الظان أن المراد أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى؛ ونظير ذلك في زيادة (لا): قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٧]: فإنها تفيد ما أفادته «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ و﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية؛ وهي تنصب المضارع بنفسها عند الكوفيين؛ وبـ(أن) المقدرة عند البصريين؛ و﴿مِلَّتَهُمْ﴾ أي: دينهم الذي كانوا عليه؛ فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهوديًّا، والنصارى لن ترضى عنك حتى تكون نصرانيًّا؛ ولكن الجواب الوحيد لهؤلاء الذين يقولون: «لا نرضى عنك حتى تتبع ملتنا»: قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: مجيبًا لهم في عدم اتباعك لملتهم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أما اسمها فهو قوله تعالى: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: الخطاب للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول ﷺ؛ و﴿لئن اتبعت﴾ جملة فيها شرط وقسم؛ وإذا اجتمعا ـ أي: الشرط والقسم - فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابُ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والقسَم دلت عليه اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾؛ إذ إن التقدير: «والله لئن اتبعت»؛ والشرط «إن». والجواب: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ...﴾؛ وهو جواب القسم بناءً على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك؛ ولأنه لو كان جواب الشرط لوجب اقترانه بالفاء؛ لأنه نُفي بـ﴿مَا﴾؛ وجواب الشرط قيل: إنه محذوف دل عليه جواب القسم؛ وقيل: إنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه؛ وهذا القول هو الراجح ـ أنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه ـ؛ والدليل على ذلك؛ أنه لم يأت ذكره في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فإذا لم يأت في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية دل على أن الكلام مستغن عنه.

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يشير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي ﷺ سواء كان القرآن أو السنة؛ فالذي جاء إلى الرسول ﷺ عِلم.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ﴿مَا﴾ نافية؛ و﴿لَكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم؛ و﴿وَلِىٍّ﴾ مجرور لفظًا مرفوع محلًا؛ على أنه مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها

اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد إعرابًا؛ وأصلها: «ما لك من الله وليٌّ»؛ وجملة: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب القسم؛ و(الولي): هو الذي يتولى غيره بحفظه وصيانته؛ فالمعنى: ما أحد يتولى حفظك سوى الله عزَّ وجلَّ؛ و(النصير): هو الذي يدفع الشر؛ أي: ولا أحد يتولى نصرك فيدفع عنك الشر سوى الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان عناد اليهود والنصارى؛ حيث لا يرضون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

٢- **ومنها:** أن من كان لا يرضى إلا بذلك؛ فسيحاول إدخال غير اليهود والنصارى في اليهودية والنصرانية.

٣ - **ومنها:** الحذر من اليهود والنصارى؛ إذ لا يرضون لأحد حتى يكون يهوديًّا؛ أو نصرانيًّا.

٤ - **ومنها:** أن الكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾؛ وهو باعتبار مضادة الإسلام ملة واحدة؛ أما باعتبار أنواعه فإنه مِلَلٌ: اليهودية ملة؛ والنصرانية ملة؛ والبوذية ملة؛ وهكذا بقية الملل؛ ولكن كل هذه الملل باعتبار مضادة الإسلام تعتبر ملة واحدة؛ لأنه يصدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنسًا، والملل أنواعًا.

٥- **ومنها:** الرد على أهل الكفر بهذه الكلمة: ﴿هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ والمعنى: إن كان معكم هدى الله فأنتم مهتدون؛ وإلا فأنتم ضالون.

٦ - **ومنها:** أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]؛ فكل ما لا يوافق هدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله والضلال.

٧ - **ومنها:** أن البدع ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ فليس بعد الهدى إلا الضلال؛ ولقول النبي ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

٨ - **ومنها:** تحريم اتباع أهواء اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٩ - **ومنها:** أن ما عليه اليهود والنصارى ليس دينًا؛ بل هو هوى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ ولم يقل «ملتهم» كما في الأول؛ ففي الأول قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدًى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن

---

(١) سبق تخريجه.

مريم؛ ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لكن دينهم هوى، وليس هدًى؛ وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلوات والسلام ـ ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدًى.

١٠ـ ومن فوائد الآية: أن من اتبع الهوى بعد العلم فهو أشد ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية.

١١ـ ومنها: أن ما جاء إلى الرسول ﷺ سواء كان القرآن، أو السنة فهو علم؛ فالنبي ﷺ كان أميًا؛ لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت:٤٨]؛ ولكن الله تعالى أنزل عليه هذا الكتاب حتى صار بذلك نبيًا جاء بالعلم النافع والعمل الصالح.

١٢ـ ومنها: أن من أراد الله به سوءًا فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١٣ـ ومنها: أنك إذا اتبعت غير شريعة الله فلا أحد يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه ـ حتى لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشُّرَط؛ ولو اشتدت القوة ـ؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] فالأمن إنما يكون بالإيمان وعدم الظلم.

١٤ـ ومنها: أنه يجب تعلق القلب بالله خوفًا ورجاءً؛ لأنك متى علمت أنه ليس لك وليّ ولا نصير، فلا تتعلق إلا بالله؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ؛ وجملة ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قيل: إنها خبر المبتدأ؛ وعلى هذا فتكون الجملة الثانية: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ استئنافية؛ وقيل: إن قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ جملة حالية، وأن جملة: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر المبتدأ؛ والأقرب الإعراب الثاني؛ لأن الكلام هنا عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ أي: لا يؤمنون به إلا من يتلو الكتاب حق تلاوته سواء التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ وعلى هذا فقيد الذي آتيناه الكتاب بكونهم يتلونه حق التلاوة أحسن؛ يعني: أن من أوتي الكتاب وصار على هذا الوصف، يتلوه حق

تلاوته ـ فهو الذي يؤمن به ـ.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعطيناهم الكتاب؛ والإيتاء هنا: إيتاء شرعي، وكوني؛ لأن الله تعالى قدر أن يعطيهم الكتاب، فأعطاهم إياه؛ وهو أيضًا إيتاء شرعي؛ لأنه فيه الشرائع والبيان؛ والمراد بمن آتاهم الكتاب: إما هذه الأمة؛ أو هي وغيرها؛ وهذا هو الأرجح ـ أنه شامل لكل من آتاه الله الكتاب ـ؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد به: الجنس؛ فيشمل القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ **(التلاوة)** تطلق على تلاوة اللفظ؛ وهي القراءة؛ وعلى تلاوة المعنى؛ وهي التفسير؛ وعلى تلاوة الحكم؛ وهي الاتِّباع؛ هذه المعاني الثلاثة للتلاوة داخلة في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ فـ **(التلاوة اللفظية)**: قراءة القرآن باللفظ الذي يجب أن يكون عليه معربًا كما جاء لا يغير؛ و**(التلاوة المعنوية)**: أن يفسره على ما أراد الله؛ ونحن نعلم مراد الله بهذا القرآن؛ لأنه جاء باللغة العربية، كما قال لله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٥]؛ وهذا المعنى في اللغة العربية هو ما يقتضيه هذا اللفظ؛ فنكون بذلك قد علمنا معنى كلام الله عزَّ وجلَّ؛ و**(تلاوة الحكم)**: هي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتصديق الأخبار.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ هذا من باب إضافة الوصف إلى موصوفه؛ يعني: التلاوة الحق؛ أي: التلاوة الجِد، والثبات، وعدم الانحراف يمينًا أو شمالًا؛ وهو من حيث الإعراب: مفعول مطلق؛ لأنه مضاف إلى مصدر، كما قال ابن مالك في الألفية:

... ... كجِدَّ كل الجِدِّ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ ﴿مَنْ﴾ شرطية جازمة؛ ﴿يَكْفُرْ﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط؛ ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب؛ وجملة: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هي جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ والجملة الاسمية إذا كانت جوابًا للشرط وجب اقترانها بالفاء؛ وأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار؛ وأتى بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ لإفادة الحصر والتوكيد؛ يعني: فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم؛ وأصل **(الخسران)**: النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة وفانية، فلا تنفعهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** منة الله عزَّ وجلَّ على من آتاه الله تعالى الكتاب فتلاه حق تلاوته.

٢ـ **ومنها:** أنه ليس مجرد إتيان الكتاب فضيلة للإنسان؛ بل الفضيلة بتلاوته حق تلاوته.

٣ـ **ومنها:** أن للإيمان علامة؛ وعلامته العمل؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

٤ـ ومنها: أن من خالف القرآن في شيء كان ذلك دليلًا على نقص إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ فمعنى ذلك: إذا لم يتلوه حق تلاوته فإنهم لم يؤمنوا به؛ بل نقص من إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

٥ـ ومنها: أن تلاوة القرآن نوعان؛ تلاوة حق؛ وتلاوة ناقصة ليست تامة؛ فالتلاوة الحق: أن يكون الإنسان تاليًا للفظه ولمعناه، عاملًا بأحكامه مصدقًا بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

٦ـ ومنها: أن الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ يكون خاسرًا؛ ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمة، وقصور مشيدة؛ لأن هذه كلها سوف تذهب وتزول؛ أو هو يزول عنها، ولا تنفعه؛ واذكر قصة قارون، واتل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزُّمَر:١٥]؛ فإذنْ يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

٧ـ ومن فوائد الآية: علوّ مرتبة من يتلون الكتاب حق تلاوته؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ...﴾ الآية؛ سبق الكلام على نظيرها وفوائدها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾: سبق الكلام على نظيرها.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئًا؛ فلا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسْلَم بهم من النار، ومن عذاب هذا اليوم؛ و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء؛ ولا يرد على هذا

الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السُّنة؛ فإن هذه الآية مخصوصة بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي من النفس؛ والذي يَقبل أو يَردُّ هو الله سبحانه وتعالى؛ و﴿عَدْلٌ﴾ أي ما يعدل به العذاب عن نفسه، وهو الفداء؛ فـ «العدل» معناه: الشيء المعادِل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾[المائدة:٩٥] أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾؛ «الشفاعة» هي: التوسط للغير بدفع مضرة أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له صار شِفعًا بعد أن كان وترًا؛ فالشفاعة لأهل النار أن يخرجوا منها: شفاعة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة: شفاعة في جلب منفعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾: مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا﴾؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ للعموم؛ والعموم يدل على الجمع والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن – حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل ـ كما في قوله تعالى في سورة طه؛ ﴿... قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾ سورة طه؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذنْ من بلاغة القرآن.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه.

٢ـ ومنها: أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئًا؛ ولا المولود يجزي عن والده شيئًا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان:٣٣].

٣ـ ومنها: أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٣٦].

٤ـ ومنها: ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾؛ وثبت أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وأنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر ألا يدخلوا النار؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ مخصوصًا بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

٥ـ ومنها: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

٦ـ ومنها: أنه لا ينصر أحد أحدًا من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾؛ ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ مفعول مقدم؛ و﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل مؤخر؛ فالمُبْتَلِي: هو الله؛ والمُبْتَلَى: هو إبراهيم؛ والابتلاء: هو الاختبار والامتحان؛ و﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ بكسر الهاء وياء بعدها؛ وفيها قراءة: ﴿إبراهَام﴾ بفتح الهاء وألف بعدها؛ وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان: خاصة، وعامة؛ فالربوبية أيضًا نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: ﴿... ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١]: هذه عامة؛ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٨]: هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل، ولاسيما أولو العزم منهم؛ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام أخص الربوبيات.

قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ هذه الكلمات ـ التي هي محل الابتلاء والاختبار ـ أطلقها الله سبحانه وتعالى عامة؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها: أن كل ما أمره به شرعًا، أو قضاه عليه قدرًا، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتُلي بالأمر بذبح ابنه فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وأُلقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ أي: مُصيرك؛ وهي تنصب مفعولين؛ لأنها مشتقة من (جعل) التي بمعنى (صيّر)؛ والمفعول الأول: الكاف التي في محل جر بالإضافة؛ والمفعول الثاني: ﴿إِمَامًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ عامة فيمن أتى بعده: فإنه صار إمامًا؛ حتى لخاتم الرسل محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٣]؛

و«الإمام»: مَن يُقتدى به سواء في الخير أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا: إمامة الخير.

فإذا قال قائل: اذكروا لنا دليلًا على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]، وقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِم شَيْءٌ**»[1]؛ وهذا لأنه إمام.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي إمامًا؛ وهنا ﴿مِن﴾ يحتمل أنها لبيان الجنس؛ وبناءً على ذلك تصلح ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة؛ ويحتمل أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إمامًا؛ والكلام يحتمل هذا وهذا؛ ولكن سواء قلنا: إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيدًا، فقال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي: لا يصيب ﴿عَهْدِي﴾ أي: تعهدي لك بهذا ﴿الظَّالِمِينَ﴾؛ و﴿عَهْدِي﴾ فاعل؛ و﴿الظَّالِمِينَ﴾ مفعول به؛ أي: سأجعل من ذريتك إمامًا؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾؛ وكما أنه يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.

٢- ومنها: فضيلة إبراهيم ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾؛ حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم - وهي ربوبية خاصة -؛ ولقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣- ومنها: أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ فإنه لما أتمّهن جوزي على ذلك بأن جُعل للناس إمامًا.

٤- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠].

٥- ومنها: أن الظالم لا يستحق أن يكون إمامًا؛ والمراد: الظلم الأكبر - الذي هو الكفر -؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

٦- ومنها: أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

﴿قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ ﴿وَإِذْ﴾ للظرفية؛ وهي متعلقة بمحذوف تقديره: «اذكر»؛ يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس؛ و﴿جَعَلْنَا﴾ أي صيرنا؛ و﴿ٱلْبَيْتَ﴾: «أل» هنا للعهد الذهني؛ والمراد به: الكعبة؛ لأنها بيت الله عزَّ وجلَّ؛ وأتى هنا بـ «أل»: للتفخيم والتعظيم؛ يعني: البيت المعهود الذي لا يُجهل ولا يُنسى جعلناه مثابة..؛ و«المثابة» بمعنى: المرجع؛ أي: يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا، سواء ثابوا إليه بأبدانهم أو بقلوبهم، فالذين يأتون إليه حجاجًا أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم؛ والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم؛ فإنهم لا يزالون يتذكرون هذا البيت في كل يوم وليلة؛ بل استقباله من شروط صحة صلاتنا.

وقوله تعالى: ﴿أمنًا﴾ أي: وجعلناه أمنًا للناس؛ أي: مكان أمن يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم؛ حتى أشجار الحرم وحشيشه آمن من القطع.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ أي صيِّروا واجعلوا؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفعل الأمر: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾؛ والثانية: بفعل الماضي: ﴿اتَّخَذوا﴾ أي: واتخذ الناس؛ وعلى الأولى: اتخذوا أنتم من مقام إبراهيم مصلًّى؛ و﴿مِن﴾ هنا لبيان الجنس؛ ويجوز أن تُضمَّن «في»؛ يعني: واتخذوا في هذا المقام مكانًا للصلاة؛ و(المقام): مكان القيام؛ ويطلق إطلاقين: إطلاقًا عامًّا؛ وهو مكان قيام إبراهيم للعبادة؛ وإطلاقًا خاصًّا؛ وهو مقامه لبناء الكعبة؛ فعلى الإطلاق الأول: يكون جميع مواقف الحج ومشاعر الحج من مقام إبراهيم: عرفة؛ مزدلفة؛ الجمرات؛ الصفا، والمروة.. إلخ؛ وعلى الإطلاق الثاني الخاص: يكون المراد: الحجر المعين الذي قام عليه إبراهيم ﷺ ليرفع قواعد البيت؛ وهو هذا المقام المشهور المعروف للجميع.

وقوله: ﴿مُصَلًّى﴾ مفعول أول لـ﴿اتخذوا﴾ وهو منصوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر؛ والتنوين الذي فيه عوض عن الألف المحذوفة؛ والمفعول الثاني: هو الجار والمجرور المقدم؛ و(المصلى): مكان الصلاة؛ وهل المراد بالصلاة الصلاة اللغوية؛ أو الصلاة الشرعية المعروفة؟ يحتمل هذا وهذا؛ فإن قلنا بالأول: شمل جميع مناسك الحج؛ لأنها كلها محل

للدعاء؛ وإن قلنا بالثاني: اختص بالركعتين بعد الطواف خلف المقام؛ ويؤيده أن النبي ﷺ حين فرغ من طوافه تقدم إلى مقام إبراهيم، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وصلى ركعتين[1]؛ والقول بالعموم أشمل؛ ويجاب عن فعل النبي ﷺ بأنه فسر المعنى ببعض أفراده؛ وهذا لا يقتضي التخصيص عند أهل التحقيق من الأصوليين.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ **(العهد)**: الوصية بما هو هام؛ وليست مجرد الوصية؛ بل لا تكون عهدًا إلا إذا كان الأمر هامًّا؛ ومنه عهْد أبي بكر بالخلافة إلى عمر؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمور المسلمين العامة الخلافة.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢]؛ وقول من قال: «إنه إسحاق» بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات «الصافات» تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾؛ ﴿أَن﴾ تفسيرية؛ لأنَّ ﴿عهدنا﴾ فيه معنى القول دون حروفه؛ أي: إنّ العهد هو قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ...﴾؛ و﴿طَهِّرَا﴾ فعل أمر؛ و﴿بَيْتِىَ﴾ المراد به: الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف؛ والمراد: تطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية.

قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: للذين يطوفون بالبيت؛ فاللام هذه للتعليل؛ أي: لأجلهم، والثاني: ﴿العاكفين﴾ أي: الذين يقيمون فيه للعبادة؛ والثالث: ﴿الركع السجود﴾ أي: الذين يصلون فيه؛ وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلًا على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصح بدونه؛ و﴿الركع﴾ جمع راكع؛ و﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع ساجد؛ وهنا بدأ بـ﴿الطائفين﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ﴿العاكفين﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثلَّث بـ﴿الركع السجود﴾؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[2]؛ فإذنْ يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: فضيلة البيت الحرام من وجهين: أنه مثابة؛ وأمن.

---

(١) راجع «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٢) رواه البخاري (٣٢٨)، والترمذي (١٥٥٣)، والنسائي (٤٣٢).

٢ـ ومنها: ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة - والناس لابد أن يرجعوا إليه - رحمهم بأن جعله أمنًا؛ وإنما أحلها الله لرسوله ﷺ ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال ﷺ: «**وَقَد عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ**»؛ ثم أورد ﷺ سؤالًا قال فيه: «**فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ الله فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُم**»[(١)]؛ والحكم لله العلي الكبير: أذِن للرسول ﷺ في تلكَ الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم؛ حتى يبقى كل إنسان آمنًا؛ ولما طعن ابن عمر رضي الله عنهما وهو على راحلته في منى طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحَجَّاجُ يعوده، فقال الحَجَّاجُ: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: «**حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم**»[(٢)]؛ وبهذا تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم - والعياذ بالله - من أعظم الناس جرمًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمنًا في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أُمِّن - والله أعلم - إلا لأجلها.

٣ـ ومن فوائد الآية: أنه ينبغي أن يكون كل مكان مثابة للناس أمنًا؛ ولهذا كره أهل العلم أن يحمل السلاح في المساجد؛ لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأمورًا به.

٤ـ ومنها: وجوب اتخاذ المصلى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ فإن قلنا بأن المراد بالمقام: جميع مناسك الحج فلا إشكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كالمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات؛ ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بواجب؛ كصلاة الركعتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنا: «**المراد به: الركعتان بعد الطواف**» صار فيه إشكال: فإن جمهور العلماء على أنهما سنة؛ وذهب الإمام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول ﷺ فسر الآية بهما؛ حيث تقدم إلى مقام إبراهيم بعد الطواف فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

٥ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم ﷺ لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إمامًا للناس، وأمر الناس أن يتخذوا من مقامه مصلًّى؛ وهذا بعض من إمامته.

٦ـ ومنها: وجوب تطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا﴾؛ والعهد هو: الوصية بالأمر الهام؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) انظر صحيح البخاري (٩٢٣).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام؛ والله تعالى يقول: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

٧ـ ومن فوائد الآية: اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾.

٨ ـ ومنها: اشتراط طهارة لباس الطائفين من باب أولى، وأنه لا يجوز أن يطوف بثوب نجس؛ لأن ملابسة الإنسان للثياب ألصق من ملابسته للمكان.

٩ـ ومنها: أن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان ـ مثلًا ـ أن يطوف حول المسجد الحرام من خارجه فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذٍ طائفًا بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الذين يطوفون في نفس المسجد سواء فوق أو تحت: فهؤلاء يجزئهم الطواف؛ وعلى هذا يجب الحذر من الطواف في المسعى أو فوقه؛ لأن المسعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكانت المرأة إذا حاضت بعد الطواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

١٠ـ ومن فوائد الآية: فضيلة هذه العبادات الأربع: الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود؛ وأن الركوع والسجود أفضل هيئة في الصلاة؛ فالركوع أفضل هيئة من القيام؛ والسجود أفضل منه؛ والقيام أفضل من الركوع، والسجود بما يُقرأ فيه؛ ولهذا نُهي المصلي أن يقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا؛ فإنَّ ذِكْر القيام كلام الله؛ وهو أفضل من كل شيء؛ وذكر الركوع والسجود هو التسبيح؛ وهو أقل حرمة من القرآن؛ ولذلك حل الذكر للجنب دون قراءة القرآن، ويجوز مس الورقات التي فيها الذكر بغير وضوء دون مس المصحف؛ فالله سبحانه وتعالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصلاة ميزة يختص بها؛ فالقيام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتها.

تنبيه:

اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم ﷺ بناءَ الكعبة لاصقًا بالكعبة، أو كان منفصلًا عنها في مكانه الآن؟

فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقًا بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: «**إن هذا مكانه على عهد النبي ﷺ**» فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي ﷺ أقره؛ وإذا أقره النبي ﷺ فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع،

وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقًا بالكعبة ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة؛ وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم، وفيه نوع مفسدة؛ وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة؛ فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذرًا من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلّت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: اذكر إذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ أي صيِّر ﴿هَٰذَا﴾ أي مكة ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ «البلد» اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلدًا؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[التين:٣]؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣].

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنًا﴾: قال بعض المفسرين: أي: آمنًا مَن فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن والخوف؛ لأن (البلد): هي أرض وبناء؛ وإنما الذي يكون آمنًا: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْنًا؛ والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمنًا؛ وإذا أَمِنَ البلد أَمِنَ مَن فيه - وهو أبلغ -؛ لأنه: مثلًا لو جاء أحد وهدم البناء ما كان البناء آمنًا، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمنًا أبلغ من أن نفسره بـ«آمنًا أهله»؛ لأنه يشمل البلد ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾؛ لأن البلد لا يرزق.

قوله تعالى: ﴿ارزق﴾ فعل دعاء؛ ومعناه: أعطِ؛ و﴿أَهْلَهُۥ﴾ مفعول أول؛ و﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعول ثانٍ؛ و﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ بدل من قوله: ﴿أَهْلَهُۥ﴾، بدل بعض من كل؛

و«الإيمان» في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و﴿اليوم الآخر﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي آخرًا؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾؛ القائل هو الله سبحانه وتعالى؛ فأجاب الله تعالى دعاءه؛ يعني: وارزق من كفر أيضًا؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾؛ ولكنه تعالى قال في الكافر: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ فيها قراءتان؛ الأولى: بفتح الميم وتشديد التاء؛ والثانية: بإسكان الميم وتخفيف التاء؛ و(الإمتاع) و(التمتيع) معناهما واحد؛ وهو أن يعطيه ما يتمتع به؛ و(المتعة): البلغة التي تلائم الإنسان.

قوله تعالى: ﴿قليلًا﴾: القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتَّع به؛ فالزمن قصير، مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[الأحقاف:٣٥]؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا»[1]؛ ومع قلته فهو مشوب بكدر سابق ولاحق، كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

ويقول الآخر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

وإذا شئت أن تعرف حقيقة الأمر فقس ما بقي من حياتك بما مضى؛ فستعرف أننا خلفنا أيامًا كثيرة؛ وما خلفنا بالأمس كأنه لا شيء؛ فنحن الآن في الوقت الذي نحن فيه؛ وأما ما مضى فكأنه لم يكن؛ ولهذا قال النبي ﷺ واصفًا الدنيا: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[2]: إنسان اطمأن قليلًا تحت ظل شجرة، ثم ارتحل! هذه الدنيا كلها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ألجئه إلى عذاب النار؛ وإنما جعل الله ذلك إلجاءً؛ لأن كل إنسان يفر من عذاب النار؛ لكنه لابد له منه إن كان من أهل النار؛ لأنه هو الذي فعل الأسباب التي توجبه؛ و«العذاب»: العقوبة التي يتألم بها المرء؛ و﴿ٱلنَّارِ﴾ اسم معروف.

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ ﴿بئس﴾ فعل ماضٍ جامد إنشائي يراد به الذم؛ و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد في «مسنده» (٤٢٠٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٥٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٩).

فاعل ﴿بئس﴾؛ والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: وبئس المصير هي؛ لأنه لو لم تقدر هذا لم تكن الجملة عائدة على ما سبق؛ و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ بمعنى: مكان الصيرورة؛ أي: المرجع الذي يصير إليه الإنسان.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه والإعلام ما أمر به.

٢- **ومنها:** أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ...﴾ إلخ.

٣- **ومنها:** أن للدعاء أثرًا في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثرًا لكان الدعاء عبثًا؛ وقول من يقول: «**لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ**»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: «**لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا - ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت - ولو ملأت بطني إلى حلقومي**»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سببًا إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أُخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصًا كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذنْ الشرع والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

٤- **ومن فوائد الآية:** رأفة إبراهيم ﷺ بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمنًا يتضمن الإرفاق بمن أمَّه من الناس.

٥- **ومنها:** رأفة إبراهيم ﷺ أيضًا؛ حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٦- **ومنها:** أدب إبراهيم ﷺ؛ حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ خوفًا من أن يقول الله له: «من آمن فأرزقه»، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤]؛ فتأدب في طلب الرزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البلد؛ لكن المسألة صارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

٧- **ومنها:** أن رزق الله شامل للمؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ فالرزق عام شامل للمؤمن والكافر؛ بل للإنسان والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود:٦]؛ وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن ييسر الله له الرزق يُجلب إليه من حيث لا يشعر ولا يحتسب؛ ويُذكر في هذه الأمور قصص غريبة، ويشاهَد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يَجلب الله لها رزقًا كلما احتاجت إلى ذلك فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

٨ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملًا كثيرًا ينفعنا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾؛ والعمل اليسير ـ ولله الحمد ـ يثمر ثمرات كثيرة في الآخرة يضاعف بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٩ـ **ومنها:** إثبات عذاب النار.

١٠ـ **ومنها:** إثبات كلام الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾؛ وأنه بحرف وصوت مسموع؛ والدليل على أنه بحرف أن قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مثلًا مكوَّن من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتًا لم تكن محاورة.

١١ـ **ومنها:** إثبات سمع الله؛ لأنه يسمع إبراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

١٢ ـ **ومنها:** إثبات اليوم الآخر.

١٣ـ **ومنها:** الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عزَّ وجلَّ سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه جعل هذا البيت مثابة للناس؛ بيَّن الله تعالى كيف نشأ هذا البيت، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾؛ ﴿وَإِذْ﴾ ظرف عاملها محذوف؛ والتقدير: واذكر إذ يرفع؛ و﴿يَرْفَعُ﴾ فعل مضارع؛ والمضارع للحاضر أو للمستقبل؛ ورفع البيت ماضٍ؛ لكنه يعبَّر بالمضارع عن الماضي على حكاية الحال كأن إبراهيم يرفع الآن، يعني: ذكِّرهم بهذه الحال التي كأنها الآن مشاهدة أمامهم.

قوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء؛ والثانية: بفتح الهاء

بعدها ألف: (إبراهام).

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ مفعول ﴿يَرْفَعُ﴾؛ وجمع قاعدة؛ وقاعدة الشيء أساسه.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيان للقواعد؛ وهي في محل نصب على الحال؛ والمراد بـ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ الكعبة، كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ عطفًا على قوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾؛ فهو مشارك لأبيه في رفع القواعد؛ وأخّر ذكر إسماعيل؛ لأن الأصل: إبراهيم؛ وإسماعيل مُعِين؛ هذا الظاهر ـ والله أعلم ـ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ (رب): منادى حذفت منه «يا» النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذفت «يا» النداء للبداءة بالمدعو المنادى، وهو الله؛ وجملة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ عاملها محذوف تقديره: (يقولان)؛ وجملة: (يقولان) في موضع نصب على الحال؛ ودعَوَا الله سبحانه وتعالى باسم «الرب»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ يعني: كل واحد يقول بلسانه: ربنا تقبل منا؛ هذا ظاهر اللفظ؛ و(القبول): أخذ الشيء والرضا به؛ ومنه ما يذكره الفقهاء في قولهم: ينعقد البيع بالإيجاب والقبول؛ فتقبُّل الله سبحانه وتعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، فيرضى عن فاعله؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إياه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لطلب القبول؛ يعني: نسألك أن تقْبل لأنك أنت السميع العليم: تسمع أقوالنا، وتعلم أحوالنا؛ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إنَّ»؛ والثاني: ﴿أَنتَ﴾؛ ومن المعلوم أن ضمير الفصل يفيد التوكيد؛ وضمير الفصل لا محل له من الإعراب؛ و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر «إن»؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ذو العلم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: فضل عمارة الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ...﴾ إلخ.

٢ـ ومنها: فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام؛ حيث قاما برفع هذه القواعد.

٣ـ ومنها: أن من إحكام البناء أن يؤسس على قواعد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.

٤ـ ومنها: جواز المعاونة في أفعال الخير.

٥ـ ومنها: أهمية القبول، وأن المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل؛ فكم من إنسان عمل أعمالًا كثيرة، وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالًا قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الجُوعُ والظَّمَأُ؛ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ

مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»[1].

٦ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته؛ بل على صفتين أحيانًا، أو أكثر ـ ما يلزم من إثبات الصفة التي يدل عليها الاسم ـ؛ مثال ذلك: «الخالق»: دل على صفة الخلق؛ وصفة الخلق تستلزم ثبوت صفة العلم والقدرة؛ وقد يدل الاسم على الأثر إذا كان ذلك الاسم متعديًا؛ مثاله: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يدل على صفة السمع، ويدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

٧ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات السمع لله عزَّ وجلَّ؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى: سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى: الإجابة؛ فمثال الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ﴾ [الزُّخرُف:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]؛ ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» ـ يعني: استجاب لمن حمده ـ؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته ـ لم يزل ولا يزال سميعًا ـ؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع ـ أعني سماع الأصوات ـ تارةً يفيد تهديدًا؛ وتارةً يفيد إقرارًا وإحاطة؛ وتارةً يفيد تأييدًا. يفيد تهديدًا: كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ...﴾[آل عمران:١٨١] الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ﴾ [الزُّخرُف:٨٠] ويفيد إقرارًا وإحاطة: كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]؛ ويفيد تأييدًا: كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العلم لله ـ تبارك وتعالى ـ جملةً وتفصيلًا؛ موجودًا أو معدومًا؛ ممكنًا أو واجبًا، أو مستحيلًا؛ مثال علمه بالجملة: قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨]، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٦٩٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٨٨).

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]؛ ومثال علمه بالموجود: ما أخبر الله به عن علمه بما كان، مثل قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجِد: ما علمه الله من أحوال الماضين؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي لم يوجد بعد: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من الحوادث الواقعة من الإنسان؛ ومثال علمه بالواجب: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من كمال صفاته؛ ومثال علمه بالمستحيل: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون:٩١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

واعلم؛أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقه؛ فلو قال: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفَّر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٠]؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا قال الشافعي في القدرية: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا»؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.

٩ـ **ومن فوائد الآية**: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٠ـ **ومنها**: أن الدعاء يكون باسم «الرب»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خَلْق، وإيجاد.

قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾: أتى بالواو عطفًا على قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ يعني ربنا واجعلنا مع قبولك مسلمين لك؛ و﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ أي: صيِّرنا.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعني: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك؛ فأتى بـ﴿مِن﴾ التي للتبعيض؛ والمراد بـ﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾ من تفرعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرعوا منه.

قوله تعالى: ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ هذه الأمة هي: أمة محمد ﷺ؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا أمة محمد ﷺ؛ لأن اليهود والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: بيِّنها لنا حتى نراها؛ و(**المناسك**): جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ أي: وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عزَّ وجلَّ: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: هذا من باب التوسل بأسماء الله عزَّ وجلَّ المناسبة للمطلوب؛ و﴿التَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: شدة افتقار الإنسان إلى ربه؛ حيث كرر كلمة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.

٢- ومنها: أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيَّان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٣- ومنها: أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: ﴿لَكَ﴾ تدل على إخلاص الإسلام لله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[البقرة: ١١٢].

٤- ومنها: أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهرًا وباطنًا.

٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ وقال إبراهيم ﷺ في آية أخرى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

٦- ومنها: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ يعني: أعلمنا بها.

٧- ومنها: أن الأصل في العبادات أنها توقيفية - يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع -؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٨ـ **ومنها**: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعَوَا الله عزَّ وجلَّ أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتَعبدا بدون هذا السؤال.

٩ـ **ومنها**: افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.

١٠ـ **ومنها**: إثبات ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى وما تضمناه من صفة.

١١ـ **ومنها**: مشروعية التوسل إلى الله عزَّ وجلَّ بأسمائه وصفاته؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.

١٢ـ **ومنها**: أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

تنبيه:

إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مُسْلِمَيْن له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما بعدها في قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ والأول أقوى الاحتمالات.

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، أي: أرسل فيهم رسولًا مرسَلًا من عندك يقرأ عليهم آياتك، ويبينها لهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وما فيه من أخبار صادقة نافعة، وأحكام عادلة؛ و﴿الحكمة﴾ قيل: هي السنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]؛ ويحتمل أن يكون المراد بها: معرفة أسرار الشريعة المطهرة، وأنها شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ و﴿الْعَزِيزُ﴾ خبر ﴿إن﴾؛ و﴿الْحَكِيمُ﴾ خبر ثان؛ والكاف اسم ﴿إن﴾؛ و﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: ذو العزة؛ و«العزة» بمعنى: القهر والغلبة؛ فهو سبحانه وتعالى ذو قوة؛ وذو الغلبة: لا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء؛ و﴿الْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكم والحكمة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: ضرورة الناس إلى بعث الرسل؛ ولذلك دعا إبراهيمُ وإسماعيلُ الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

٢- ومنها: أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢]؛ فتأمل قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾[النجم:٢]؛ حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته، ما ضل، وما غوى.

٣- ومنها: أن الرسول ﷺ جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتاب، ويعلم الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

٤- ومنها: أن رسالة النبي ﷺ تتضمن ذكر آيات الله الكونية والشرعية، وتتضمن تعليم الكتاب تلاوةً، ومعنًى، وتتضمن أيضًا الحكمة؛ وهي معرفة أسرار الشريعة وتتضمن تزكية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٥- ومنها: أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(1)؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيرًا من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به - وهذه تزكية -؛ وينهى عن ضد ذلك؛ فينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق - وهذه أيضًا تزكية -.

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضًا عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافًا مضاعفة؛ يُغير بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية.. إلخ.

جاء الإسلام وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثته ﷺ وبعده علم الفرق العظيم بين

---

(1) روى الإمام أحمد في «مسنده» (٨٩٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، ورواه البيهقي (٢٠٥٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧٧٣).

حال الناس قبل البعثة وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٦- ومنها: أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي ﷺ لهذه المعاني الجليلة مما يدل على كمال شريعته.

٧- ومنها: إثبات العزة والحكمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٨- ومنها: إثبات هذين الاسمين لله: ﴿الْعَزِيزُ﴾، و﴿الْحَكِيمُ﴾.

٩- ومنها: مناسبة العزة والحكمة لبعث الرسول ﷺ؛ وهي ظاهرة جدًّا؛ لأن ما يجيء به الرسول ﷺ كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]؛ للمؤمنين عربًا كانوا أو عجمًا؛ من كان مؤمنًا بالله عزَّ وجلَّ قائمًا بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ ﴿مَن﴾ اسم استفهام يراد به النفي؛ وهو مبتدأ؛ وجملة: ﴿يَرْغَبُ﴾ خبره؛ ولا نقول: ﴿مَن﴾ هنا شرطية؛ لأنه لو كانت الآية: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه» صارت شرطية؛ لكن الأول أبلغ.

قوله تعالى: ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: يقال: رغب فيه؛ ورغب عنه؛ والفرق أن «رغب فيه» يعني: طلبه؛ و«رغب عنه» يعني: تركه واجتنبه؛ وهنا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني تركها؛ و«الملة» بمعنى الدين – أي دين إبراهيم –؛ ودين إبراهيم ﷺ أنه كان حنيفًا مسلمًا لله، ولم يكن من المشركين؛ و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ هو الخليل ﷺ وهو أبو الأنبياء، وأشرفهم بعد رسول الله ﷺ، وجعله الله إمامًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]، وجعل ملته هي الملة الحنيفية؛ فإذا كان كذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: أوقعها في سفه؛ و«السفه» ضد الرشد؛ وقيل: معناه: جهل نفسه – أي: جهل ما يجب لها – فضيعها؛ ولنا أن نقول: إن التعبير بـ ﴿مَا﴾ يحتمل الوجهين وبذلك

يكون فيه نكتة عظيمة؛ وهي: أن يكون التعبير صالحًا للأمرين؛ فكأنه ناب عن جملتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: الجملة هنا مؤكدة بمؤكدات ثلاثة؛ وهي: القسم المقدر؛ واللام؛ و«قد»؛ لأن اللام هنا موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لقد.

وقوله تعالى: ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ افتعال من الصفوة؛ فأصل هذه المادة من صفا يصفو؛ ومعنى ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اخترناه، وجعلناه صفيًّا من الخلق: اصطفاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا على كل الأنبياء ما عدا محمدًا ﷺ؛ واتخذه الله سبحانه وتعالى خليلًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ﴿إنه﴾: «إنّ» واسمها؛ و﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبرها؛ وهذه الجملة مؤكدة بـ «إن» واللام فقط؛ و﴿في الآخرة﴾: في موضع نصب على الحال؛ أي: إنه في حال كونه في الآخرة لمن الصالحين؛ واصطفاه الله واختاره؛ وفي الآخرة يكون من الصالحين الذين أدوا ما أوجب الله عليهم لنفسه ولخلقه.

مسألة: ذكر الله تعالى هنا الاصطفاء في الدنيا، والصلاح في الآخرة؛ فهل هنا نكتة لتغاير الحالين، أو لا؟

الجواب: يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هناك نكتة؛ وهي: أن الدنيا دار شهوات وابتلاء؛ فلا يصبر على هذه الشهوات ولا على هذا الابتلاء إلا واحد دون الآخر؛ فإذا أخلص الإنسان نفسه لله صار صفوة من عباد الله؛ والآخرة ليست هكذا؛ ففي الآخرة حتى الكفار يؤمنون؛ ولكن الفرق بين من يكون من الصالحين وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام:٣٠]، وقيل لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [غافر:٥٠]؛ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يس:٥٢].. وهكذا ما يدل على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين؛ فإن كانت هذه هي النكتة فذلك من فضل الله؛ وإن لم تكن إياها فالعلم عند الله؛ ولا بد أن يكون هناك نكتة جهلناها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

٢ـ **ومنها:** أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كان الإنسان حكيمًا في قوله فإنه يعتبر سفيهًا إذا لم يلتزم بشريعة الله.

٣ـ **ومنها:** فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث اصطفاه الله واختاره على العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

٤ـ **ومنها:** إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٥ـ **ومنها**: أن الصلاح وصف للأنبياء ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يحيُّون الرسول ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ»(١)؛ فوصفوه بالصلاح.

٦ـ **ومنها**: أن المخالفين للرسل سفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، وقوله في المنافقين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[البقرة:١٣]، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[البقرة:١٤٢]؛ فإنهم ـ وإن كانوا أذكياء وعندهم علم بالصناعة والسياسة ـ هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ هذا من الثناء على إبراهيم؛ ﴿إِذْ﴾: يحتمل أن تكون متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي: ولقد اصطفيناه إذ قال له ربه؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ قال له ربه؛ فيكون أمرًا للرسول ﷺ أن ينوه بهذه الحال التي كان إبراهيم ﷺ عليها.

قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ يشمل إسلام الباطن والظاهر.

قوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتضمن توحيد الربوبية، والأسماء والصفات؛ وما أكثر الذين أُمروا بالإسلام ولم يسلموا: تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف من بني آدم كلهم في النار، وواحد من ألف في الجنة؛ لأنهم أُمروا بالإسلام ولم يسلموا.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية**: فضيلة إبراهيم ﷺ؛ حيث لم يتوانَ ولم يستكبر؛ فبادَر بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حين قال له ربه عزَّ وجلَّ: ﴿أَسْلِمْ﴾ ولم يستكبر؛ بل أقر؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

٢ـ **ومنها**: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سُمّوا: (عالمين)؛ حيث إنهم عَلَم على خالقهم.

٤ـ **ومنها**: المناسبة بين قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، و﴿رب﴾؛ كأن هذا علة لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾؛ فإن الرب هو الذي يستحق أن يُسْلَم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧٨٦٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٠١).

وتعالى عبادة الأصنام، وبيَّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢٠، ٢١]؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقرونًا بالربوبية.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ ﴿وَصَّى﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما بهمزة مفتوحة مع تخفيف الصاد: ﴿أوصَى﴾، والثانية: بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: ﴿وَصَّى﴾؛ أما ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ ففيها قراءتان؛ إحداهما بكسر الهاء بعدها ياء: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾، والثانية بفتح الهاء بعدها ألف: ﴿إبراهام﴾؛ وقراءة: ﴿أوصَى﴾ لا تنطبق عليها الشروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما:

وَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهْوَ القُرَانُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

فقوله تعالى: ﴿وَصَّى﴾، و﴿أوصَى﴾ لم تتفق في الرسم؛ إذنْ الشروط أو الأركان التي ذكرت بناءً على الأغلب.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾: الضمير (ها): يعود على هذه الكلمة العظيمة؛ وهي ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]؛ ويجوز أن يكون الضمير يعود على الملة ـ أي: وصى بهذه الملة ـ؛ والمعنى واحد؛ لأن ﴿مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٠] هي ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]؛ و(التوصية): العهد المؤكَّد في الأمر الهام.

قوله تعالى: ﴿بَنِيهِ﴾ مفعول ﴿وَصَّى﴾؛ ولهذا نُصبت بالياء؛ لأنها ملحق بجمع المذكر السالم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوفة على ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ فهي مرفوعة؛ يعني: وكذلك وصى بها يعقوب بنيه؛ وسمي يعقوب: قيل: لأنه عقب إسحاق؛ وقيل: إنه اسم غير عربي، ومثله لا يطلب له اشتقاق.

قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ أي: يا أبنائي؛ وإنما ناداهم بوصف البنوة ترفقًا؛ معهم ليكون أدعى إلى القبول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿لَكُمُ﴾ أي: لأجلكم ﴿ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة والعمل الصالح؛ ويطلق على الجزاء؛ ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤] المراد بـ ﴿ٱلدِّينَ﴾ الجزاء؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، «الدين»: العبادة؛ فالدين يطلق على هذا وعلى هذا؛ - على العمل، وعلى الجزاء عليه -؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان، يعني: كما تعمل تُجازى.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ الفاء للتفريع؛ أي: فعلى هذا الاختيار تمسكوا بهذا الدين؛ و«لا» ناهية؛ و﴿تَمُوتُنَّ﴾ مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة؛ والنون هنا التي فيها للتوكيد؛ وأصلها: «تموتونَنَّ»: حذفت النون للجزم فصارت «تموتونَّ»؛ ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن الحرف المشدد أوله ساكن؛ والواو ساكنة؛ فحذفت الواو؛ قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لِيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ جملة حالية يراد بها استمرارهم على الإسلام إلى المات.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أهمية هذه الوصية؛ لأنه اعتنى بها إبراهيم ويعقوب؛ فإبراهيم أبو العرب والإسرائيليين؛ ويعقوب أبو الإسرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها؛ حيث جعلاها مما يوصى به.

٢ـ **ومنها:** أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداءً بإبراهيم ويعقوب.

٣ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى اختار لعباده من الدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾؛ فلولا أنه أقوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.

٤ـ **ومنها:** أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.

٥ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يتعاهد نفسه دائمًا؛ حتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٦ـ **ومنها:** أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؛ ﴿أَمْ﴾ هنا: منقطعة؛ و«المنقطعة» يقول المعربون: إنها بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام؛ فمعنى ﴿أَمْ كُنتُمْ﴾: بل أكنتم؛ والضمير في ﴿كُنتُمْ﴾ يعود على اليهود الذين ادعوا أنهم على الحق، وأنَّ هذه وصية أبيهم يعقوب، فالتزَموا ما هم عليه؛ ويحتمل أن يكون عائدًا على جميع المخاطبين، ويكون المقصود بذلك الإعلام بما حصل من يعقوب حين حضره الموت؛ وهذا الاحتمال أولى؛ لأنه لا يوجد هنا دليل على أنه يعود على اليهود؛ بل الآية كلها عامة؛ وهي أيضًا منقطعة عن اليهود بآيات سابقة كثيرة؛ فالمعنى: تقرير ما وصى به يعقوب حين موته؛ و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد، أو شاهد، بمعنى: حاضر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾؛ ﴿إِذْ﴾ ظرف مبنية على السكون في محل نصب ـ أي: وقت حضور يعقوب الموت؛ و﴿يَعْقُوبَ﴾ منصوبة؛ لأنها مفعول به مقدم؛ و﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فاعل مؤخر؛ لأن الحاضر الموت؛ والمحضور يعقوب.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، يعني: إذ حضر إذ قال؛ يعني: أم كنتم شهداء إذ قال لبنيه: «ما تعبدون من بعدي» حين حضره الموت وبنو يعقوب هم يوسف، وإخوته: أحد عشر رجلًا؛ حضر يعقوب الموت فكان أولاده حاضرون، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: من بعد موتي ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾: بدءوا به؛ لأنهم يخاطبونه؛ ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ جمع أب؛ ثم بينوا الآباء بقولهم: ﴿إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾؛ ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ بالنسبة إلى يعقوب جدٌّ؛ و﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بالنسبة إليه عم؛ و﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ بالنسبة إليه أب مباشر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فالأمر فيه ظاهر؛ لأن إسحاق أبوه، وإبراهيم جده؛ والجد أب؛ بل قال الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالَم؛ لكن الإشكال في عدِّهم إسماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»[1]؛ و(**الصنو**) الغصنان أصلهما واحد؛ فذُكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال

---

(١) رواه مسلم (٩٨٣)، والترمذي (٣٧٥٨)، وأبوداود (١٦٢٣).

الرسول ﷺ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ»[1]؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقرونًا بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقًا؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال: «القمران»؛ والمراد بهما: الشمس والقمر؛ ويقال: «العُمَرانِ»؛ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآئِكَ﴾؛ أو عطف بيان؛ وفيها قراءة أخرى: ﴿إبراهام﴾ بفتح الهاء بعدها ألف.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نعبده؛ و﴿إِلَٰهًا﴾ هذه حال؛ يسمونها حال موطئة؛ ولكنها بناءً على أن «إله» و«الله» غير مشتق؛ والصحيح: أنه مشتق، وأنه بمعنى مألوه؛ وعليه فتكون حالًا مؤسسة حقيقية؛ وليست موطئة؛ لأن الحال الموطئة التي تكون تمهيدًا لمشتق، مثل: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[يوسف:٢] فإن «قرآن» غير مشتقة؛ والحال ـ كما تقدم ـ تكون مشتقة و﴿وَٰحِدًا﴾ حال أخرى مكررة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ؛ و﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبره؛ و﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلقة بـ﴿مُسْلِمُونَ﴾ قدمت عليها لإفادة الحصر ـ من حيث المعنى؛ ولمراعاة فواصل الآيات ـ من حيث اللفظ - و﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لأمر هذا الإله الواحد سبحانه وتعالى وشرعه.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: أن التوحيد وصية الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾.

٢ـ ومنها: أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

٣ـ ومنها: جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾؛ وهذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فإن كان لا يعي ما يقول؛ فإنه لا تصح وصيته.

٤ـ ومنها: رجحان القول الصحيح بأن الجدَّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

٥ـ ومنها: أنه يجوز إطلاق اسم الأب على العم تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

٦ـ ومنها: أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيد؛ حيث قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾؛

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢)، والترمذي (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٢٨٠).

وهذا لا شك توحيد منهم.

٧- **ومنها**: أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

٨- **ومنها**: أهمية التوحيد والعناية به؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.

٩- **ومنها**: أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

١٠- **ومنها**: إخلاص الإسلام لله؛ حيث قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في ﴿لَهُۥ﴾؛ لأنه متعلق بـ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ فهو معمول له؛ وقد عُلم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

١١- **ومنها**: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: المشار إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي ﷺ في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فلا تنالون مما كسبوا شيئًا؛ ولا ينالون مما كسبتم شيئًا.

و«الأمة» هنا بمعنى: طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ؛ المعنى الأول: الطائفة، كما هنا؛ المعنى الثاني: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥] يعني: بعد حقبة من الزمن؛ والمعنى الثالث: الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠]؛ والمعنى الرابع: الطريق، والملة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تُسألون عن أعمال من سبقكم؛ لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ...﴾ الآية؛ يعني هم مضوا وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول ﷺ عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

٢- **ومنها:** الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾، فنحن معنيُّون الآن بأنفسنا؛ ويُذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: «**هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها**»؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق ويبطَل فيه الباطل؛ ونقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

٣- **ومن فوائد الآية:** أن الإنسان وعملَه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

٤- **ومنها:** أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يُسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص:٤١]؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[1]؛ وفي لفظ: «**فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ**»[2].

٥- **ومن فوائد الآية:** إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٦- **ومنها:** إثبات السؤال، وأن الإنسان سيُسأل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسئول عن العمل.

(١) رواه البخاري (١٣٢٩)، والنسائي (١٩٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٥٠٩).

(٢) صحيح: رواه «الترمذي» (١٩٨٢)، وأحمد في «مسنده» (١٨٢٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٠٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣١٢).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير يعود على اليهود والنصارى، يخاطبون المسلمين: ﴿هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يعني: من اليهود أي: على ملتهم؛ و«هود» جمع هائد، مثل «عود» جمع عائد؛ والذين يقولون: ﴿كُونُوا هُودًا﴾ هم اليهود؛ وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يقوله النصارى؛ أي: كونوا نصارى، أي: على ملتهم.

قوله تعالى: ﴿تَهْتَدُوا﴾ مجزوم على أنه جواب الأمر؛ أي: تكونوا مهتدين.

قال الله تعالى في جواب من يدعو إلى اليهودية من اليهود، أو النصرانية من النصارى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ ﴿بَلْ﴾ هنا: للإضراب الإبطالي؛ لأنها تبطل ما سبق؛ يعني: بل لا نتبع، ولا نكون هودًا ولا نصارى؛ بل ملة إبراهيم؛ وبهذا التقدير يتبين لنا على أيِّ وجه نصب ﴿مِلَّةَ﴾؛ فهي مفعول لفعل محذوف تقديره: بل نتبع ملة إبراهيم؛ و«الملة» بمعنى: الدين كما سبق؛ وملة إبراهيم هي التوحيد؛ يعني: نتبع توحيد الله عزَّ وجلَّ، والإسلام له؛ لأن إبراهيم لما قال له ربه: عزَّ وجلَّ: ﴿أَسْلِمْ﴾[البقرة:١٣١]؛ قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ منصوب على الحال من إبراهيم؛ وهي حال لازمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: هذا توكيد لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأن «الحنيف» المائل عما سوى التوحيد؛ مأخوذ من حنف الذنب،: أي ميله؛ فهو مائل عن كل ما سوى التوحيد؛ إذنْ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يكون توكيدًا لهذه الحال توكيدًا معنوياً لا إعرابيًا؛ يعني: أنه ﷺ ما كان فيما مضى من المشركين، ولا فيما يستقبل؛ لأن «كان» لا تدل على الحدث؛ تدل على اتصاف اسمها بخبرها، مثل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٩٦]؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني أن هذا الوصف منتف عنه؛ وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعم انتفاء الشرك الأصغر والأكبر عنه؛ هذه هي الملة التي يتبعها الرسول ﷺ، ونتبعها نحن ـ إن شاء الله سبحانه وتعالى ـ؛ ونرجو الله عزَّ وجلَّ أن نموت عليها؛ هذه هي الملة الحنيفية الحقيقية التي توصل العبد إلى ربه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: أن أهل الباطل يدعون إلى ضلالهم ويدَّعون فيه الخير؛ ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ هذه دعوة إلى ضلال؛ ﴿تَهْتَدُواْ﴾: ادعاء أن ذلك خير؛ وهكذا أيضًا قد ورَّث هؤلاء اليهود من ضل من هذه الأمة، كأهل البدع في العقيدة والقدر والإيمان ـ الذين ادعوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»[1].

٢- **ومن فوائد الآية**: أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ كدُعاة السفور الآن الذين يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ وتركِ التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داعٍ إلى ضلالة، سوف يطلي هذه الضلالة بما يغرُّ البليد فهو شبيه باليهود والنصارى.

٣- **ومنها**: مقابلة الباطل بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ إذ لابد للإنسان من أن يسير على طريق؛ لكن هل هو حق أو باطل؟! بَيَّنَ الله أن كل ما خالف الحق فهو باطل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٤- **ومنها**: الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:

أولًا: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا باتباعه؛ والمتبوع: هو الإمام.

ثانيًا: أنه حنيف؛ والحنيف: هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

ثالثًا: أنه ليس فيه شرك في عمله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية**: أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦- **ومنها**: أن ملة إبراهيم ﷺ أفضل الملل؛ وهي التوحيد والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٧- **ومنها**: أن اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهًا فهو شرك حقيقة وواقعًا؛ وإلا فإنه شرك باعتبار اتباع الهوى.

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

❁ قال الله تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾: الخطاب للرسول ﷺ وأمته جميعًا؛ والمراد بالقول هنا: القول باللسان وبالقلب؛ فالقول باللسان: نطقه؛ والقول بالقلب: اعتقاده؛ و«**الإيمان**» ـ كما سبق ـ هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بانفراده بالربوبية؛ والألوهية؛ والأسماء والصفات.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني: وآمنا بما أنزل إلينا؛ فـ﴿ما﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفًا على لفظ الجلالة: ﴿الله﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن ـ وهو منزل ـ؛ ويشمل السنة أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء: ١١٣]: فإن ﴿الحكمة﴾ [البقرة: ٢٦٩] هي السنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾؛ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ منزل إليه؛ لأنه نبي رسول؛ والذي أنزل إليه هي الصحف التي ذكرها الله تعالى في موضعين من القرآن: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٩]، ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]؛ و﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ نبي منزل إليه قطعًا؛ ولم نعلم ما الذي أنزل إليه بالتحديد؛ و﴿إسحاق ويعقوب﴾ أيضًا منزل إليهما؛ لكن لم يذكر لنا ما الذي أنزل إليهما؛ و﴿الأسباط﴾ جمع سِبْط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف؛ وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني: وما أعطوا من الآيات الشرعية والكونية؛ «**الشرعية**»: كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى؛ (**والكونية**): كاليد والعصا لموسى؛ وكإخراج الموتى من قبورهم بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى؛ ونص على موسى وعيسى؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

هنا قد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾، وفي موسى وعيسى قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا ـ والعلم عند الله ـ: إن هناك حكمة لفظية،

وحكمة معنوية:

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «**ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى.. وما أنزل إلى النبيين**» تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باقٍ إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى ابن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحيٍ وآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ والمراد بما أوتوه: ما أظهره الله على أيديهم من الآيات الكونية وما أوحاه إليهم من الآيات الشرعية؛ و﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾: ﴿مِن﴾ للابتداء؛ لأن هذا الإيتاء من الله؛ وإضافة الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ وإلا فالله سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لكن هذه ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ هذه الجملة داخلة في مقول القول؛ يعني: قولوا آمنا على هذا الوجه؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: في الإيمان؛ وليس في الاتباع؛ والضمير في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يعود على الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ ﴿لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله سبحانه وتعالى - يعني: ونحن لله -؛ وقدمه على عامله لإفادة الحصر ومناسبة رءوس الآي؛ و(الإسلام) هنا هو: الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: وجوب الإيمان بالله، وما أنزل إلينا.. إلى آخر ما ذكر في هذه الآية؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ...﴾ الآية.

٢ـ ومنها: أن الذين يؤمنون بوجود الله لكن يشركون معه غيره في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لم يكونوا مؤمنين.

٣ـ ومنها: أن الذين يؤمنون بالله وبربوبيته، وأنه الرب الفَعَّال الخَلَّاق الذي لا يشاركه أحد في هذا، لكنهم يعبدون معه غيره ليسوا بمؤمنين.

٤ـ ومنها: أن الذين يؤمنون بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون ـ إما أن ينكروا الأسماء والصفات؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات ـ هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق الإيمان، وإيمانهم ناقص.

٥ - **ومنها**: أن الكتب التي أوتيها الرسل قد نزلت من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، ولقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد:٢٥].

٦- **ومنها**: الإشارة إلى البداءة بالأهم - وإن كان متأخرًا - لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مع أن ما أنزل إلينا متأخر عما سبق.

٧- **ومنها**: الإيمان بما أوتي النبيون من الآيات الكونية والآيات الشرعية.

٨ - **ومنها**: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل على حد سواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شرعة ومنهاجًا، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[المائدة:٤٨]؛ فنحن مأمورون باتّباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

٩- **ومن فوائد الآية**: وجوب الإخلاص لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

١٠- **ومنها**: أن الرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات؛ فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ حتى الرسول ﷺ إذا طُلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها؛ ولهذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قال تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[الإسراء:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[العنكبوت:٥٠]، أي: فلا أملك أن آتي بالآيات.

١١- **ومنها**: أنه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي ﷺ: **«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»**(١) وشبَّك ﷺ بين أصابعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: فأتى بضمير الجمع: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... وَنَحۡنُ ...﴾.

١٢- **ومنها**: أن الإسلام لابد أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعالى: ﴿مُسۡلِمُونَ﴾؛ فيستسلم قلب المرء لله - تبارك وتعالى - محبة، وتعظيمًا، وإجلالًا؛ ويستسلم لسانه لما أمره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

(١) رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾ أي: اليهود والنصارى؛ لأن هذه الآيات كلها متتابعة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ... قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ...﴾ [البقرة:١٣٧].

قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: اختلف المعربون في الباء، وفي «مثل» أيهما الزائد؟ فقيل: إن (مثل) هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن (مثل): زائدة إعرابًا لا معنًى؛ وأن المعنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيمانًا مماثلًا لإيمانكم؛ فعلى هذا تكون الزيادة في كلمة «مثل»؛ وقيل: إن الزائد هو الباء، حرف الجر؛ وأن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم، أي: مثل إيمانكم؛ والباء الثانية أيضًا زائدة؛ فصار قولان: الأول: أن الزائد «مثل»؛ والثاني: أن الزائد الباء؛ والجميع اتفقوا على أن المراد: الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى، أي: لا فائدة فيه؛ والمعروف أن الأسماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جاءت لمعنى في نفسها؛ والحرف كلمة جاءت لمعنى في غيرها؛ ومعلوم أننا لو وزنا بالميزان المستقيم، لكان ما يجيء لمعنى في غيره أولى بالزيادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسماء، وقالوا: لا يمكن أن تزاد الأسماء؛ لأنها جاءت لمعنى في ذاتها؛ بخلاف الحرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في الباء، أي: فإن آمنوا مثل ما آمنتم؛ أي مثل إيمانكم؛ وعلى كلا الاحتمالين من حيث الإعراب فالمعنى واحد، أي: إن آمنوا إيمانًا مطابقًا لإيمانكم مماثلًا له من كل الوجوه فقد اهتدوا.

قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾ أي: سلكوا سبيل الهداية؛ و«الهداية» هنا: هداية العلم والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفِّقوا واهتدوا؛ والهداية هنا مطلقة كما أن المسلمين الذين آمنوا على الوصف المذكور مهتدون هداية مطلقة.

قوله تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾: «التولي» الإعراض؛ أي: عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ جملة اسمية للدلالة على الاستمرار والثبوت؛ وأتت بـ «إنما» الدالة على الحصر؛ أي: فما حالهم إلا الشقاق؛ و﴿فِى﴾ للظرفية ـ كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب منغمسون فيه؛ و«الشقاق» بمعنى: الخلاف؛ وهو في كل معانيه يدور على هذا، حتى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[الحج:٥٣]: فبعضهم قال: «الشقاق» هنا بمعنى

الضلال؛ ولكن الصحيح أن معناه: الخلاف؛ فكلما جاءت في القرآن فمآلها إلى الخلاف؛ ولكنها أشد؛ حيث تفيد الاختلاف مع طلب المشقة على الخصم؛ ويدل لهذا أن أصل معنى (الشقاق): أن يكون أحد الطرفين في شق والثاني في شق آخر؛ وبهذا يكون الخلاف.

وكأن الإنسان إذا سمع ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قد يهاب ويخاف؛ فطمأن الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ هذه الجملة فيها فعل، وفاعل، ومفعولان؛ الفاعل: لفظ الجلالة؛ والفعل: ﴿يكفي﴾؛ والمفعول الأول: الكاف؛ والمفعول الثاني: الهاء؛ والسين هنا يقول العلماء: إنها للتنفيس، وتفيد شيئين هما: تحقق الوقوع، وقرب الوقوع؛ بخلاف «سوف»؛ فإنها تفيد التحقق؛ ولكن مع مهلة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ ﴿السَّمِيعُ﴾ من أسماء الله؛ و﴿الْعَلِيمُ﴾ أيضًا من أسمائه - تبارك وتعالى -؛ وسبق تفسيرهما.

قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: «وهو القوي العزيز» لأنه قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فما هو الجواب عن ختمها بالسمع والعلم؟

فالظاهر لي - والله أعلم -: أنه لما كان تدبير الكيد للرسول ﷺ من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حربًا يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة وعزة؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: حتى الأمور التي لا يُدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحرابة للرسول ﷺ فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي - والله أعلم -.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أنه لابد أن يكون إيمان اليهود والنصارى مثل إيمان النبي ﷺ وأمته حقيقةً ووصفًا.

٢ـ **ومنها:** أن ما خالف ما عليه النبي ﷺ فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعالى علق الاهتداء بأن يؤمنوا بمثل ما آمن به الرسول ﷺ وأمته.

٣ـ **ومنها:** أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة النبي ﷺ إلا الشقاق والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

٤ـ **ومنها:** وقوع الشقاق بين أهل الكتاب والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعوة أهل الضلال الذين يدعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ فاليهود والنصارى لما لم يؤمنوا صاروا معنا في شقاق؛ وهذا الشقاق لابد أن يؤدي إلى عداوة وبغضاء؛ وبالتالي إلى قتال؛ وهكذا وقع: فالمسلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى - الروم كلهم نصارى -؛ ومن بعد ذلك قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضًا مرة أخرى؛ حتى يدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولا بد من هذا في

المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل اليهود حتى يختبئ اليهودي بالحجر والشجر فينادي: «يَا عَبْدَ الله، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ إِلَّا الغَرْقَد؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ»[1] فلا يبلِّغ عنهم.

٥ـ ومن فوائد الآية: الوعيد الشديد لهؤلاء المتولين عن شريعة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٦ـ ومنها: تكفل الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون وتولوا فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيه إياهم عن قرب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب؛ فإن الرسول ﷺ لم يُتوفَّ حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمالًا؛ وفي خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيبر؛ فكفى الله المؤمنين شرهم ـ والحمد لله ـ.

٧ـ ومن فوائد الآية: الإشارة إلى التوكل على الله ـ تبارك وتعالى ـ في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣].

٨ ـ ومنها: إثبات الاسمين الكريمين ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.

٩ـ ومنها: أنه يجب على المرء مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عزَّ وجلَّ ما توسوس به نفس الإنسان – وإن لم يتكلم به.

١٠ـ ومنها: مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر، والعلن؛ وذلك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أنه يعلم كل شيء.

قال الله تعالى:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ «الصبغة» معناها: اللون؛ وقالوا: المراد بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله؛ وسمي «الدين» صبغة؛ لظهور أثره على العامل به؛ فإن المُتَدَيِّن يظهر أثر الدين عليه:

(١) رواه مسلم (٢٩٢٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٣٨٧).

يظهر على صفحات وجهه، ويظهر على مسلكه، ويظهر على خشوعه، وعلى سمته، وعلى هيئته كلها؛ فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه؛ وقيل: سمي صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب؛ ولا يمنع أن نقول: إنه سمي بذلك للوجهين جميعًا: فهو صبغة للزومه؛ وهو صبغة أيضًا لظهور أثره على العامل به.

ووجه نصب ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: قيل: إنها مصدر معنوي؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[البقرة:١٣٦]؛ فإن ﴿ءَامَنَّا﴾ معناها: الدين، وأن التقدير: تدينا دين الله؛ ولا ريب أن هذا بعيد؛ لأن ﴿ءَامَنَّا﴾ في آية أخرى قبلها؛ ويبعد أن يكون هذا متعلقًا بها؛ ولأنه فُصِل بينهما بفواصل كثيرة؛ إذنْ هو منصوب على الإغراء، يعني: الزموا صبغة الله، ولا يصدنكم هؤلاء عن دينكم؛ وأضيفت «**الصبغة**» إلى الله؛ لأنها منه: فإن الشريعة جاءت من الله؛ ولا أحد يشرع للخلق إلا خالقهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة؛ وذلك لأن دين الله عزَّ وجلَّ مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن القائل إذا قال: «**ليس مثل زيد بشر**» ليس كقوله: «**مَنْ مثل زيد مِن البشر؟!**»؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطَب أن يأتي بأحد مثله.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾: الضمير ﴿نَحْنُ﴾ يعود على النبي ﷺ، وأصحابه؛ وتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]؛ و(**العبادة**): التذلل لله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره محبة له، واجتناب نواهيه تعظيمًا له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عزَّ وجلَّ.

٢- **ومنها**: أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ فإنه حق.

٣- **ومنها**: أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٤- **ومنها**: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامات العليا

لرسول الله ﷺ، فجاءت في مقام الدفاع عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣]؛ وفي مقام تكريمه بالإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[الإسراء:١]، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:١]؛ ويقول الشاعر في معشوقته:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ فإن العقل يهدي إلى التزام الأحسن؛ كل إنسان له عقل سليم فإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[البقرة:١٣٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾: الخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ موجه إلى رسول الله ﷺ؛ و﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ موجه للذين يحاجون الرسول ﷺ من اليهود والنصارى؛ و(**المحاجة**): هي أن يدلي كل خصم بحجته لينقض حجة الخصم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: أننا لا نسأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ مخلصون؛ و(**الإخلاص**): تنقية الشيء من كل الشوائب التي قد تَعْلَق به؛ فالمعنى: أننا مخلصون لله الدينَ لا نشرك به شيئًا.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية**: الإنكار على اليهود والنصارى الذين يحاجون المسلمين في الله مع إقرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

٢ـ **ومنها**: وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ فإن المراد بذلك: البراءة مما هم عليه.

٣ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي فنحن مفتخرون بها بريئون من أعمالكم.

٤ـ **ومنها:** أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله؛ لأن المشابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ فَهُو مِنْهُم»؛ وهنا قال تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾: فنحن متميزون عنكم، وأنتم متميزون عنا.

٥ـ **ومنها:** وجوب الإخلاص لله؛ لتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠، ١٤١]

❁ التَفسِير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ ...﴾؛ ﴿أَمۡ﴾ هنا: للإضراب؛ والمعنى: بل أتقولون؛ وهو إضراب انتقال؛ وليس إضراب إبطال؛ والمعنى: أنه انتقل من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله إلى توبيخ آخر؛ وهو دعواهم أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا هودًا أو نصارى؛ وهذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هودًا ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبخًا لهؤلاء مبينًا ضلالهم ـ الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديًا، أو نصرانيًا ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[آل عمران:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[آل عمران:٦٥]؛ فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!!!

قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾: هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في «سورة الصافات».

قوله تعالى: ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾: هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم ﷺ؛ ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾: هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطَ﴾ سبق الكلام على بيانهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ يعني: كانوا على ملة اليهودية والنصرانية؛ وهذا من سفه

هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى؟!!!

ثم أبطل الله تعالى دعواهم بطريق أُخرى فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؛ ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عزَّ وجلَّ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزامًا للخصم؛ حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩]؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن الله - تبارك وتعالى - أخبر عن نبيه محمد ﷺ، وذكر أوصافه في التوراة والإنجيل، كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ فهذه أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل معلومة لبني إسرائيل؛ ولكنهم يكتمون هذه الشهادة؛ ولا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله تعالى في كتمان الشهادة؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين؛ لكن اسم التفضيل يختص بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل والمفضل عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أن الله عزَّ وجلَّ لا يغفل عما يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ...﴾ الآية: قد سبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** إبطال دعوى هؤلاء اليهود والنصارى أن: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هودًا أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصفُ هؤلاء الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هودًا، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

٢- **ومنها:** رد علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٣- **ومنها:** الرد على أهل التحريف في أسماء الله وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلًا على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلًا على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله

أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ ويمتنع عليه كذا»؛ فنرد عليهم ونقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٤- ومن فوائد الآية: عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟﴾[آل عمران:١٨]؛ فكل إنسان يكتم علمًا فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومنها: كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- ومنها: ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

٧- ومنها: تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإياك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنسانًا بشيء تقول: لست بغافل عنك.

٨- ومنها: إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه رد على الجبرية الذين يقولون: «إن الإنسان مجبر على عمله»؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:١٤٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ ﴿سَيَقُولُ﴾: السين: للتنفيس؛ وإذا دخلت على المضارع أخلصته للمستقبل؛ المضارع إذا دخلت عليه «لم» أخلصته للماضي؛ وإذا دخلت عليه السين أخلصته للمستقبل؛ وإذا كان مجردًا فهو صالح للحاضر والمستقبل؛ و﴿سَيَقُولُ﴾ تفيد أيضًا مع الاستقبال تحقيق وقوع هذا الشيء، وتفيد أيضًا: قرب هذا الشيء؛ بخلاف (سوف) فإنها تدل على المستقبل البعيد؛ و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه؛ وهو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛ وقد يكونون في المال جيدين؛ وسفه الدين بينه الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ

نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيان للسفهاء؛ وهي في موضع نصب على الحال، يعني: حال كونهم من الناس.

قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ في موضع نصب على أنها مقول القول؛ و﴿مَا﴾ اسم استفهام؛ يعني: أيّ شيء صرفهم ﴿عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ أي: ما يستقبلون؛ فقبلة الإنسان ما يستقبله؛ والمراد بها بيت المقدس؛ لأن الرسول ﷺ أول ما قدم المدينة صار متجهًا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا؛ أو سبعة عشر شهرًا[1] – يعني: إما سنة وأربعة أشهر؛ أو سنة وخمسة أشهر؛ إذا كان مستقبلًا لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تمامًا؛ لهذا يقول ابن عمر: «**رأيت النبي ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشأم**»[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ أي: قبل أن يتجهوا إلى الكعبة؛ فأخبر الله عزَّ وجلَّ بما سيقول هؤلاء السفهاء، وأعلمه بالرد عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾؛ ﴿لِّلَّهِ﴾: خبر مقدم؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مبتدأ مؤخر؛ وتقديم الخبر ـ وهو حقه التأخير ـ يفيد الحصر؛ يعني: لله وحده المشرق والمغرب؛ فهو الذي يوجه إن شاء إلى المشرق؛ وإن شاء إلى المغرب؛ وإن شاء إلى الشمال؛ وإن شاء إلى الجنوب؛ وخَصَّ المشرق والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس وتغرب؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مكان شروق الشمس، والقمر، والنجوم؛ و﴿وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾: محل غروبها.

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: يدلُّ ويوفق؛ و﴿مَن يَشَآءُ﴾: مفعول ﴿يَهۡدِي﴾؛ وهي عامة؛ ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و«المشيئة»: هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

قوله تعالى: ﴿إلى صراط مستقيم﴾؛ «**الصراط**»: الطريق الواسع الذي يسهل سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده، و«المستقيم»: الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** علم الله تعالى بما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾.

٢ـ **ومنها:** تحقق وقوع خبر الله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم قالوا ذلك.

٣ـ **ومنها:** من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

٤ـ **ومنها:** تسلية النبي ﷺ وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلا سفيه.

---

(١) انظر البخاري (٤٠)، ومسلم (٥٢٥).

(٢) رواه البخاري (١٤٧)، ومسلم (٢٦٦).

٥- **ومنها:** إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعد له؛ ومن ذلك أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»؛ ليكون مستعدًّا.

٦- **ومنها:** جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية؛ لإسكات الناس، حتى لا يحصل منازعة؛ إذا قال أحد: لماذا كذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ «**لماذا أحل كذا، وحرم كذا؟**» تقول: لأنه ربك؛ «**لماذا توجه الناس من المشرق إلى المغرب؛ من المغرب إلى المشرق؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟**» قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٧- **من فوائد الآية:** أن العدو يحتج على عدوه بما يثير نعرته ويلزمه؛ لقوله تعالى: ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾؛ لم يقولوا: عن القبلة؛ كأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟!! وهكذا قد يثير شعور الإنسان؛ حتى يبقى على ما هو عليه، وكأنهم قالوا: بالأمس تختارونها، واليوم تنكرونها وتنبذونها؛ فالخصم دائمًا يُهيج خصمه بما يثير نعرته؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.

٨- **من فوائد الآية:** عموم ملك الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يُصرِّف إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع والطاعة؛ أينما وجهنا توجهنا؛ هذا المهم؛ لا أن نتجه إلى كذا، أو إلى كذا؛ فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله بالسجود لآدم طاعة وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق؛ ولاسيما قتل الولد فهو من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ابنه كان قربة وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

٩- **من فوائد الآية:** إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فإن قال قائل: هل في ذلك حجة للجبرية في قولهم: إن العبد مجبر على عمله؟

فالجواب: أنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجاج ببعض القرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول ﷺ تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصه؛ فإذن لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يرى؛ والواجب أن ينظر الإنسان إلى النصوص بعينين ثاقبتين؛ وليس بعين واحدة؛ وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الإنسان له إرادة، واختيار، وقدرة، وأضافت أعماله إليه؛ وحينئذٍ لا يمكن أن يكون مجبرًا.

١٠- **من فوائد الآية:** أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ومنها: أنْ هدَى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسول ﷺ.

١١- **ومنها:** الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مستقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

١٢- **ومنها:** أن معارضة الشرع كما أنه سفه فهو أيضًا ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم،

وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.

١٣ـ ومنها: فضيلة هـذه الأمـة؛ حيث هداها الله إلى استقبال بيته، الذي هو أول بيت وضع الناس.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾؛ الكاف هنا: اسم بمعنى: (مثل) في محل نصب على المفعولية المطلقة ـ أي: مثلَ ذلك؛ والمشار إليه ما سبق؛ وهو جعل القبلة إلى الكعبة؛ أي: مثلَ هذا الجعل الذي جعلنا لكم ـ وهو اتجاهكم إلى القبلة ـ جعلناكم أمَّةً وسطًا.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي: صيرناكم؛ والكاف: مفعوله الأول؛ و﴿أُمَّةً﴾: مفعوله الثاني؛ و﴿أُمَّةً﴾ هنا: بمعنى جماعة؛ وتطلق في القرآن على أربعة معانٍ، وسبق بيانها؛ و﴿وَسَطًا﴾ أي: عدلًا خيارًا.

قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ اللام في قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ للتعليل؛ وليست للعاقبة؛ والفرق بين لام العاقبة ولام التعليل: أن لام العاقبة تدخل على أمر غير مراد، لكن النتيجة آلت إليه؛ ولام التعليل تدخل على أمر مراد ليكون علة للحكم؛ و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد؛ أي: تشهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: النبي ﷺ يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي استقبال بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: المراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء، حتى يُمتحن العبد ويُنظر؛ أو علم ظهور ـ أي: علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هنا

بمعنى الماضي - أي: إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وهذا - وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحيانًا - لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذٍ يقال: إذنْ ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما: أن يكون المراد بالعلم هنا: الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

وذكر بعض المعربين أن «نعلم» هنا ضمن معنى: (نَمِيزُ) بدليل قوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾؛ مثل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[الأنفال:٣٧]؛ فقالوا: إن مثل هذا التقييد يدل على أن هذا الفعل للتمييز - أي: لنميز من يتبع ممن ينقلب على عقبيه؛ وليس هذا ببعيد أن يكون الفعل ضمن معنى (نَمِيزُ) مع أنه دال على العلم؛ إذ لا تمييز إلا بعد العلم؛ والفعل إذا ضمن معنى فعل آخر فإنه يدل على معناه الأصلي وعلى معناه المضمن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾: ﴿مَا﴾ نافية؛ و﴿جَعَلْنَا﴾ يحتمل أن تكون بمعنى (صَيَّرْنَا)؛ أو بمعنى: «(شَرَّعْنَا)؛ فعلى الاحتمال الأول: تحتاج إلى مفعولين؛ وعلى الثاني: لا تحتاج إلى مفعولين؛ و«الجَعْلُ» يأتي بمعنى الشرع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[المائدة:١٠٣] أي: ما شرع؛ وعلى هذا المعنى لا يبقى في الآية أيّ إشكال؛ يعني: ما شرعنا القبلة التي كنت عليها - وهي اتجاهك إلى بيت المقدس - إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيه؛ أما على احتمال أن تكون بمعنى «صيرنا» فإنها تحتاج إلى مفعولين؛ الأول: ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾؛ والتقدير: وما صيرنا القبلة التي كنت عليها قبلةً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر؛ وهذا الاستثناء من أعم الأحوال؛ إذا كان الاستثناء مُفَرَّغًا يقولون: إنه استثناء من أعم الأحوال - يعني: ما جعلنا بأي حال من الأحوال هذه القبلة إلا لهذه الحال فقط لنعلم من يتبع؛ والمراد بـ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ محمد ﷺ؛ وأظهر وصفه في موضع الإضمار تنويهًا بصدقه، وحثًا على اتباعه؛ إذ مقتضى السياق؛ لولا ذلك، أن يقال: إلا لنعلم من يتبعه.

والأصل في «الاتِّبَاع» المشي خلف الإنسان؛ وهو يختلف باختلاف السياق: إن تعلق بأمور حسية فمعناه: أنك تمشي خلفه في الشارع، وما أشبه ذلك؛ وإن تعلق بأمور معنوية يكون المراد به: التأسي بأفعاله وأقواله؛ وهنا عُلِّق بأمور معنوية؛ فيكون المراد به: التأسي بأقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أشد مما لو قال: ممن لم يتبع الرسول؛ لأن الانقلاب على العقب أشد نفورًا واستنكارًا ممن وقف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾؛ الضمير يعود على الواقعة؛ يعني: وإن كانت هذه الواقعة؛ وهي تحويل القبلة، لَكَبِيْرَة؛ و﴿إِن﴾ هنا مخففة من الثقيلة؛ واسمها ضمير الشأن؛ والتقدير: وإنها كانت لَكَبِيْرَة؛ واللام هنا: للتوكيد؛ ويجوز أن نقول: إنها للفصل بين «إنْ» النافية و«إنْ» المخففة؛ و﴿كبيرة﴾ أي: عظيمة شاقة؛ فالكبَر يراد به: الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله ﷺ في صاحبي القبرين: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»[(1)]، أي: في أمر شاق عليهما.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول؛ والعائد ضمير منصوب محذوف؛ والتقدير: إلا على الذين هداهم الله؛ والمراد بالهداية هنا: هداية العلم وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨] أي: العلماء به، وبأسمائه، وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق ـ وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥، ٧].

قوله تعالى: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾: أضاف الفعل إلى نفسه؛ لأن كل شيء بقضاء الله وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِيعَ﴾ يسمونها لام الجحود؛ و(الجحود): يعني النفي؛ وهذه اللام لها ضابط؛ وهو أن تقع بعد «كون» منفي؛ فاللام التي تأتي بعد «كون» منفي تسمى لام الجحود؛ هذا من جهة الإعراب؛ أما من جهة المعنى فكلما جاءت «ما كان الله..» في القرآن فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثل: «لا ينبغي»، أو «ما ينبغي» فالمراد: أنه ممتنع مستحيل، كقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾[يس:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٩٢] أي ممتنع مستحيل؛ وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[(2)]، المعنى: أنه مستحيل.

قوله تعالى: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾؛ «يضيع» بمعنى: يتركه سدًى بدون مجازاة عليه؛ والمراد بـ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾ صلاتهم إلى بيت المقدس؛ وهذا عام للذين ماتوا قبل تحويل القبلة ومن بقوا حتى حولت؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية: أن اليهود صاروا يقولون للمسلمين الذين صلوا منكم قبل تحويل القبلة: ضاعت صلاتهم، وليس لهم فيها ثواب؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ﴿لَرَءُوفٌ﴾ فيها قراءتان: «لرؤف» بحذف الواو بعد الهمزة؛ و«لرؤوف» بإثبات الواو بعد الهمزة؛ وكلتاهما قراءتان سبعيتان؛ هذه الجملة

(١) رواه البخاري (٢١٣)، ومسلم (٢٩٢).
(٢) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٩٦٤٩).

مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إنّ»؛ والثاني: اللام، و«الرؤوف» قال العلماء: إن الرأفة أشد الرحمة؛ فهي رحمة خاصة؛ و﴿رَّحِيمٌ﴾ أي متصف بالرحمة؛ وقالوا: إنه قدمت «الرؤوف» على ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ مع أن «الرؤوف»، أبلغ من أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ لأن هذا يتعلق بفعله، أي: برحمته الخلق.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: فضيلة هذه الأمة؛ حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في «مُسنده» أن مما يحسدنا عليه اليهود: القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها؛ فهم يحسدوننا على هذه الخصلة؛ وكذلك على يوم الجمعة، وعلى قولنا خلف الإمام: «آمين»؛ المهم أن استقبال القبلة مما حسدونا عليه؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجةً عظيمةً على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمرًا عظيمًا حتى إن بعض المسلمين ارتد ـ والعياذ بالله ـ عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.

٢- ومن فوائد الآية: فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾.

٣- ومنها: عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بـ «الأمة» هنا: أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه؛ حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط، إذا كانت على دين الرسول ﷺ فتكون شهيدةً، وتُقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعلية يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.

٤- من فوائد الآية: أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ والشهادة تكون في الدنيا والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بُلِّغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: «محمد، وأمته»؛ يُستشهدون يوم القيامة، ويَشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.

فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة صلوات الله وسلامه عليه.

٥- من فوائد الآية: أن نبينا ﷺ يكون شهيدًا علينا يوم القيامة، شهيدًا علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيدًا علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال: « اللَّهُم اشْهَد؛ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]؛ فأشهد النبي ﷺ ربه على إقرار أمته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بَلَّغَ ﷺ البلاغ المبين، فترك أمته على المحجة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم، صغيرًا كان أو كبيرًا إلا بينه ﷺ بيانًا واضحًا - والحمد لله -، فالرسول ﷺ شهيد على هذه الأمة؛ قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، يعني: كيف تكون الحال في ذلك اليوم عظيم؛ ولهذا لما قرأ ابن مسعود على النبي ﷺ ووصل إلى هذه الآية قال له النبي ﷺ: «حَسْبُكَ» يعني: قف؛ قال: «فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[2]؛ لأن الأمر العظيم؛ فالنبي ﷺ شهيد علينا؛ يشهد بأننا بُلِّغنا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأيِّ وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

٦- **ومن فوائد الآية:** إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٧- **ومنها:** أنه لا رسول بعده؛ لأن «أل» هنا: للعهد، وهو يخاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد ﷺ؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

٨ - **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد بالأحكام الشرعية إيجابًا، أو تحريمًا، أو نسخًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فليتنبه الإنسان لهذا؛ فإن الله قد يبتليه بالمال بأن يعطيه مالًا؛ ليبلوه أيقوم بواجبه، أم لا؛ وهذه محنة؛ لأن غالب من ابتلي بالمال طغى من وجه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضَلَّ في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علمًا ليبلوه أيعمل به، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل الله، أم لا؛ فليحذر من آتاه الله علمًا أن يخل بواحد من هذه الأمور.

وكذلك قد يمتحن العباد بالأحكام الكونية؛ ومنها ما يجري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه بها أن الله حرم الصيد على المحرِم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرِمون حتى تناله أيديهم ورماحهم.

٩- **ومن فوائد الآية:** وجوب اتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، فالله امتحن العباد؛ ليعلم هل يتبعون الرسول ﷺ؛ والصحابة رضي الله عنهم اتبعوا الرسول ﷺ في ذلك أشد

---

(١) رواه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (١٢١٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٠٦)، والترمذي (٩٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٧٨).

الاتباع: جاءهم رجل وهم يصلون الفجر في قباء وهم ركوع، فقال: «**إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه الليلة القرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشأم؛ فاستداروا إلى الكعبة**»(1)؛ هذا هو الاتباع العظيم؛ وكذلك فعل بنو سلمة في مسجد القبلتين؛ إذنْ فاتباع الرسول ﷺ واجب؛ وإلا لما احتيج إلى محنة الناس عليه.

١٠- **ومن فوائد الآية:** إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

١١- **ومنها:** أن الردة عن الإسلام انقلاب؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فإن بعض الذين أسلموا ارتدوا حينما تحولت القبلة إلى الكعبة؛ وقالوا: «**إن محمدًا ليس على يقين من أمره: بالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلة**»؛ وما علموا أن ذلك مما يؤيد رسالته؛ لأن الإنسان الكذاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن التراجع وصمة فيه؛ لكن الإنسان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليه، سواء وافق ما كان عليه أولًا، أو خالف.

١٢ - **ومنها:** أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله سَمَّى مخالفة الرسول ﷺ انقلابًا على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعًا أعمى - والعياذ بالله - لا يدري ما وراءه.

١٣- **ومن فوائد الآية:** أن تغيير القبلة شاق إلا على طائفة معينة من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ وهذا يقع كثيرًا للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويترك المعصية بمشقة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؟ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه فيتعب؛ وقال آخرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سَجِيَّةً له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة، ويسر، وانقياد فهذا أكمل حالًا بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني: فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضول، وله أجر المشقة ربما يمن الله عزَّ وجلَّ عليه - وهو أكرم الأكرمين - حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥)، ومسلم (٥٢٦).

بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب يسر الله له الطاعة حتى كانت سَجِيَّةً له.

١٤ـ ومن فوائد الآية: إظهار منة الله عزَّ وجلَّ على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ وهذه أعظم منة منَّ الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ فلا يَمُنَّ بدينه على ربه؛ بل يعتقد أن المنة لله عليه، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[الحجرات:١٧]؛ فكم من أناس ضلوا عن الحق مع بيانه ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦]؛ وانظر إلى الفضل، والكرم: هو الذي منَّ علينا بالهداية، ثم يقول في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[الرحمن:٦٠]؛ فكأننا نحن الذين أَحْسَنَّا؛ فأحسن إلينا بالجزاء مع أن له الإحسان أولًا وآخرًا؛ هو الذي أحسن إلينا أولًا، وأحسن إلينا آخرًا؛ ولكن هذه مِن منَّته سبحانه وتعالى، ومِن شكره لسعي عبده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

١٥ـ ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر عمل عامل إذا كان مبنيًّا على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمان فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجلًا ـ قولًا كان، أو فعلًا، أو همًّا بالقلب، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»(١).

١٦ـ ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الرؤوف» و«الرحيم»، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة والرحمة.

١٧ـ ومنها: إثبات عموم الرحمة لكل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وهذه هي الرحمة العامة: التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة: فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرَين لطاعة الله، ورسوله ﷺ.

١٨ـ ومنها: أن العمل من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ فإنها فسرت بالصلاة إلى بيت المقدس؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في الإيمان؛ وهذا أحد أدلتهم؛ ومن الدليل على ذلك قوله ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(٢)؛ فقول:

(١) رواه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (١٣١).
(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

«لا إله إلا الله» من أعمال اللسان؛ و«إماطة الأذى عن الطريق» من أعمال الجوارح وقوله ﷺ: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» من أعمال القلوب؛ كما أن الإيمان أيضًا يطلق على الاعتقاد؛ لقوله ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»(1)؛ فقوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ» هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعد عمل المنافق من الإيمان؛ عمل المنافق ـ صلاته، وذكره لله؛ ونفقاته ـ لا يُعَدّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق؛ و﴿نَرَىٰ﴾ فعل مضارع عَبَّرَ به عن الماضي؛ لأن النبي ﷺ كان يكرر تقلب وجهه في السماء؛ فأتى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار رؤية الله له كما استمر تقلب وجه النبي ﷺ في السماء ترقبًا لنزول جبريل بتحويل القِبْلَة إلى الكعبة؛ وقيل: إنه فعل مضارع على بابه، فيكون إخبارًا بأن الله سيرى تقلب وجهه، ثم يحوله إلى القبلة التي يرضاها؛ وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الفاء للتفريع؛ لأن ما بعدها مُفَرَّعٌ على ما قبلها؛ واللام موطئة للقسم؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ وهي: القسم المقدر، واللام، والنون؛ وقوله: ﴿فلنولينك﴾ أي: فلنوجهنّك؛ وقيل: فلنحولنّك إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ نُكِّرت ﴿قِبْلَةً﴾ للتعظيم؛ و﴿تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تطمئن إليها، وتحبها، وتقبلها؛ والرسول ﷺ قَبِل القبلة الأولى، ورضيها قبل أن يحول إلى الكعبة؛ لكنه يحب أن يحول إلى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي: استقبل بوجهك؛ و«وجه» مفعول أول؛ و﴿شَطْرَ﴾

---

(1) رواه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠).

مفعول ثان؛ والمراد بـ «الشطر» هنا بمعنى الجهة؛ يعني: جهة المسجد الحرام؛ والمراد بـ «الوجه» جميع البدن؛ لأن البدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلًا لها.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ «المسجد» في الأصل مكان السجود؛ وقيل: إن «المسجَد» بفتح الجيم: مكان السجود؛ و«المسجِد» بكسر الجيم: المكان المعد للسجود؛ فيكون بينهما فرق: هو أن المكان المبني المعَدّ للسجود يسمى مسجِدًا ـ بالكسر ـ وأما المكان الذي سجدت فيه بالفعل فيسمى مسجَدًا ـ بالفتح.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ صفة مشبهة من الحُرم؛ وهو المنع؛ وسمي «حرامًا»؛ لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به: الكعبة وما حولها من البناء المعروف.

قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ عدل عن الخطاب للنبي ﷺ إلى الخطاب لأمته؛ لأن الخطاب الموجه للنبي ﷺ خطاب له وللأمة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجه للإمام فهو خطاب له، ولمن اتبعه؛ ونظير ذلك أن الوزير مثلًا يقول للقائد: اتجه إلى كذا؛ المعنى: اتجه، ومن يتبعك من الجنود؛ فهكذا الخطاب الموجه للرسول ﷺ يكون له وللأمة؛ ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[الطلاق:١]؛ فخاطب النبي ﷺ أولًا، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾؛ لأن الحكم له، ولأمته.

قوله تعالى: «حيث» ظرف مكان لكنها شرطية زِيْدَتْ عليها ﴿مَا﴾ لفظًا لا معنًى للتوكيد؛ و﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس؛ وهو التوراة، والإنجيل؛ و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة:٢١٣] هم اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ اللام للتوكيد؛ فالجملة إذنْ مؤكدة بـ﴿إن﴾ واللام؛ و«العِلم» إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا للواقع.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: استقبالك المسجد الحرام الحق؛ و﴿ٱلْحَقُّ﴾ معناه: الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ (الرب): الخالق المالك الكامل السلطان المدبر لجميع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ ﴿ما﴾ هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]؛ ولم يقل: «بشر»؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و﴿مَا﴾ عندهم تعمل عمل «ليس».

وقوله تعالى: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الباء زائدة إعرابًا مفيدة معنًى ـ وهو التوكيد؛ و﴿غافل﴾ خبر ﴿مَا﴾ منصوب بها؛ وعلامة نصبه: فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف

الجر الزائد؛ و(**الغفلة**): اللهو والسهو عن الشيء.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾: (ما): اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أيِّ عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول والفعل.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- **ومنها**: أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

٣- **ومنها**: إثبات علو الله؛ لأن الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

٤- **ومنها**: كمال عبودية الرسول ﷺ لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أُمر بذلك.

٥- **ومنها**: إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةً﴾؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

٦- **ومنها**: أن النبي ﷺ كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿تَرۡضَىٰهَا﴾ مع قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾.

٧- **ومنها**: وجوب الاتجاه نحو المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

٨- **ومنها**: أن الوجه أشرف الأعضاء حيث عَبَّرَ به عن سائر الجسم.

٩- **ومنها**: ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمُصَلِّي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ فإذا ولَّى الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه غالبًا؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه المصلي حال القيام؟ فالمشهور عن المالكية: أن المُصَلِّي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمام أحمد: أنه ينظر إلى موضع سجوده، وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، وينظر إلى موضع سجوده؛ ولأنه أظهر في الخشوع؛ وقال بعض العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى موضع السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إِمَامِهِ - بكسر الهمزة؛ واستدلوا لذلك بأحاديث في «البخاري»؛ وهي أن الرسول ﷺ حينما صلى صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنار قال لهم: «وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ وَتَأَخَّرْتُ»[1]؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها: أنه لما صُنِعَ له المنبر قام يصلي عليه، فكان

(١) انظر البخاري (١١٥٤)، ومسلم (٩٠٤).

يقوم ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل وسجد على الأرض؛ وقال: «إِنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِيَتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»[١]؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضًا: أنهم لما أخبروا أن الرسول ﷺ كان يقرأ في صلاة السر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «بِاضْطِرَابِ لحيَتِهِ»[٢]؛ وهذه كلها في «الصحيح»؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهيًا مثلًا؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام والمنفرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المأموم محتاجًا إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالسًا؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «كان النبي ﷺ لا يجاوز بصره إشارته»[٣]؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة: أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لاسيما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]؛ وقد ورد عن النبي ﷺ أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاءت الطليعة أم لا؟[٤].

١٠ـ ومن فوائد الآية: عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام؛ أي: ذي الحرمة والتعظيم، ولهذا كان من يدخله آمنًا، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوبًا إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحبابًا إن كان قد أداه - بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم - حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

١١ـ ومنها: وجوب الاتجاه إلى القبلة في أيِّ مكان كان الإنسان: من بَرٍ، أو بَحْرٍ، أو جَوٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيدًا عنها، ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ إذنْ إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أيِّ الجهات كان؛ إلا إن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحًا ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولّى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة ـ ولكن في المسجد ـ فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نوَلِّ وجوهنا

---

(١) رواه البخاري (٨٧٥)، ومسلم (٥٤٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٣)، وأبوداود (٨٠١)، وابن ماجه (٨٢٦).

(٣) رواه النسائي (١٢٧٥)، وأبوداود (٩٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٩٨)، وصحح إسناده الألباني في تعليقه على السنن.

(٤) صحيح: رواه أبوداود (٩١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٨).

شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولّى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين ـ لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ ـ عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب ـ عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج ـ إذا كان عاجزًا عن استقبال القبلة لمرض ـ أو صلب ـ يعني: لو صلب إلى غير القبلة أو نحو ذلك.

أما إذا اشتبهت عليه القِبْلَةَ فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذنْ فالاشتباه لا يُستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

١٢- **ومن فوائد الآية**: مراعاة الشريعة اجتماع المسلمين على جهة واحدة؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ فالمسلمون في أقطار الدنيا كلها يتجهون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولاسيما أنهم يتجهون هذا الاتجاه، ويتحدون هذا الإتحاد في أعظم مشعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية ـ وهي الصلاة؛ فيدل هذا على أن الشرع يراعي مراعاة تامة توحيد المسلمين في دينهم، وتوحيدهم في الاتجاه البدني، وكذلك في الاتجاه القلبي الفكري.

١٣- **ومنها**: بيان عناد اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ ولكن مع ذلك شَنَّعُوا على النبي ﷺ تشنيعًا عظيمًا حين توجه إلى الكعبة بأمر ربه.

١٤ـ **ومنها**: أن ما كان من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ مضافًا إلى الله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

١٥ـ **ومنها**: أن هؤلاء المعاندين من أهل الكتاب يعاندون مع علمهم التام، ومع إقرارهم بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ فهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جاء في كتبهم من وصف الرسول ﷺ بأن هذا النبي الأمي سوف يتجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقروا بربوبية الله لهم، وعلموا الحق أن ينقادوا له، وأن يكونوا أولى الناس باتباعه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لإقامة الحجة عليهم؛ حيث يعترفون بربوبيته.

١٦ـ ومن فوائد الآية: انتفاء غفلة الله عزَّ وجلَّ عن أعمالهم المتضمن لكمال علمه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقول: انتفاء الغفلة فقط؛ بل نقول: المتضمن لكمال العلم، والإحاطة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

١٧ـ ومنها: صحة تقسيم الصفات إلى: ثبوتية ومنفية؛ والتي في الآية هنا منفية ـ وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فالصفات المنفية: كل صفة صُدِّرت بما يدل على النفي بأيِّ أداةٍ كانت، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾[الأحقاف:٣٣]؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: إثبات ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق:٣٨] فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته وقدرته.

١٨ـ ومن فوائد الآية: تهديد هؤلاء المعاندين الذين أوتوا الكتاب، وعلموا الحق، ولم يَتَّبِعُوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾؛ ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه من يتعصب لمذهبه ـ ولو علم أن الحق في خلافه ـ إحسانًا للظن بمن قلدهم؛ ولو أتيتهم بكلام من كلام مشايخهم قالوا: على العين والرأس! ولهذا أكثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الفتوى الحموية**» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: «**إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلًا إلى إمام أو مذهب، صار لو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيءٍ من كلامهم**»، وهذا من الدعوة بالحكمة، فإنه يقنع المعارض بما لا يمكن نفيه ومعارضته؛ إذا أتى إليه بشيءٍ من كلام مُقلِّده لا يمكنه أن يَحِيدَ عنه، وهؤلاء المتعصبون للمذاهب إذا قلنا لهم: هذا الإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام أبو حنيفة كلهم ينكرون تقليدهم مع مخالفة الكتاب والسنة، ويقولون: «**اضربوا بأقوالنا عُرض الحائط إذا خالفت الكتاب والسنة**»؛ ولهم عبارات في هذا المعنى كثيرة؛ وإذا كانوا يقولون هكذا فإن الذين يتعصبون لهم مع مخالفة الدليل لم يقلدوهم حقيقة؛ ولو قلدوهم حقيقة لكانوا إذا بَيَّنَ لهم الدليل أخذوا به كما أمر به هؤلاء الأئمة؛ لكنهم لم يقلدوهم حقيقة؛ بل تَعَصَّبُوا تَعَصَّبًا لا يحمدون عليه ما دام قام الدليل على خلافه؛ أما إذا لم يقم الدليل عند الإنسان ـ سواء كان ممن يطلب الدليل، ويستطيع أن يعرف الحكم بالأدلة؛ أو لم يكن كذلك ـ فهذا على كل حال يعذر إذا قلد من يرى أنه أقرب إلى الحق؛ أما مع وضوح الدليل وبيانه فإن التقليد حرام؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن التقليد بمنزلة أكل الميتة يحل للضرورة، أما مع وجود لحم مذكًّى فلا تأكل الميتة؛ فمع وجود الدليل من الكتاب والسنة وتبينه للإنسان فإنه لا يحل له أن يقلد؛ ولهذا لم يأمر الله بسؤال أهل العلم إلا عند عدم

العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[النحل: ٤٣، ٤٤]؛ أما إذا كنا نعلم بالبينات والزبر فلا نسألهم؛ ونأخذ من البينات، والزبر.

قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٤٥]

التفسير

في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ أمران متنازعان: قسَم، وشرط؛ قَسَم: مدلول عليه باللام؛ لأن اللام واقعة في جواب القسم المقدر ـ أي: والله لئن؛ والثاني المنازع للقسَم: «إن» الشرطية؛ وكل من القسم والشرط يحتاج إلى جواب؛ فجواب القسم: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾؛ والمحذوف جواب الشرط؛ لأن الشرط مؤخر؛ فاستغنى عن جوابه بجواب القسم؛ يقول ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْتَ﴾ بمعنى: جئت؛ و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى؛ و﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ الباء للمصاحبة؛ والمعنى: مصطحبًا كل آية؛ ويحتمل أن تكون الباء للتقوية ـ أي: تعدية الفعل؛ و«الآية»: العلامة على صدق ما أتيت به إليهم؛ يعني: إن أتيتهم بكل آية تدل على صدق ما أتيت به ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ أي: الكعبة؛ لعنادهم واستكبارهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: الواو هنا استئنافية؛ لأننا لو جعلناها عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ لصار المعنى: وما أنت بتابع قبلتهم في حال إتيانك بالآيات التي تدل على صدق ما جئت به؛ ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يتبع قبلتهم مطلقًا؛ وهذا هو السر في التعبير - والله أعلم - بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ﴾، وفي الكلام عنهم أتى بالجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: أي: أن اليهود لا تتبع قبلة النصارى؛ والنصارى لا تتبع قبلة اليهود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾: نقول فيها مثلما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾؛ ففيها قَسَم وشرط؛ والجواب للقسم ـ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا ...﴾؛ والخطاب للنبي ﷺ؛ و«إن» الشرطية لا تستلزم وقوع شرطها؛ وإنما قلنا ذلك لِئَلَّا يقول قائل: هل من الممكن أن الرسول ﷺ يَتَّبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم؟ الجواب: لا يمكن؛ و«إن» الشرطية لا تستلزم وقوع جواب شرطها: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزُّمَر:٦٥]؛ وإشراك النبي ﷺ لا يمكن أبدًا وقوعه؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[الزُّخرُف:٨١]؛ ووجود الولد لله لا يمكن.

وقوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ جمع هوى؛ وهو الميل؛ ومنه يقال للنجم: (هوى) إذا مال وسقط؛ ويطلق «الهوى» في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله «الهدى»؛ فيقال: اتبعَ الهوى بعد الهدى؛ وإن صَحَّ الحديث وهو قول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1]، فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر.

قوله تعالى: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ متعلق بـ﴿اتَّبَعْتَ﴾؛ يعني: إذا وقع هذا الاتباع بعد العلم فإنه يكون الظالم؛ وقوله تعالى: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾ وردت في القرآن على ثلاثة أوجه؛ هذا أحدها؛ والثاني: ﴿بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[الرعد:٣٧]؛ والثالث: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[البقرة:١٢٠] أما ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ و﴿بَعْدَ الَّذِي...﴾ فلا فرق بينهما إلا إنَّه عبر بـ﴿مَا﴾ عن ﴿الَّذِي﴾؛ وأما ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾ فهي أبلغ من قوله تعالى: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ﴾؛ لأن ﴿مِنَ﴾ تدل على أنه جاءه العلم، وتمهل، وحصل هذا الأمر بعد مجيء العلم؛ نظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فُصِّلَت:٥]؛ فهو أشد مما لو قالوا: «بيننا وبينك حجاب»؛ لأن ﴿مِنَ﴾ تدل على مسافة قبل الحجاب، ثم حجاب، والمراد بـ «العلم»: الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: أكدت بـ﴿إن﴾ واللام؛ وهذه الجملة جواب القسم؛ و﴿إِذًا﴾ ظرف؛ وهنا أدوات ثلاث: إذ، وإذا، وإذًا؛ وهذه الأدوات الثلاثة تنازعت الأزمنة: «إذ» للماضي؛ و«إذا» للمستقبل؛ و«إذًا» للحاضر؛ فمعنى ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أي: إنك في حال اتباعك أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين الذين نقصوا الواجب عليهم من اتِّبَاعِ الحق دون الأهواء.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: أن الرسول ﷺ كان حريصًا على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ

---

(١) سنده ضعيف: البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وانظر «المشكاة» (١٦٧).

أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ دليل على أنه ﷺ كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

٢- ومنها: شدة عناد هؤلاء الذين أوتوا الكتاب؛ وأنهم مهما أوتوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

٣- ومنها: أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول ﷺ؛ وإذا كان كذلك فلن يتبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمتى كفروا بها فهو كفرٌ بالدين كله.

٤- ومنها: أن الكعبة قبلة للمسلمين خاصة؛ لأنه تعالى أضاف استقبالها إليهم؛ ولكن الظاهر - والله أعلم - أن الكعبة قبلة لكل الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]؛ وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود والنصارى هم الذين بدلوا هذه القبلة.

٥- ومنها: وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سِيقَتْ مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات.

٦- ومنها: أن النبي ﷺ مستحيل أن يكون تابعًا لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شرعًا؛ ثم لو فرض أنها جاءت في شرائعهم فإنها نُسِخت بقبلة الإسلام.

٧- ومنها: إنَّه يستحيل شرعًا أن يتبع المسلم طريقة اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ وجه الاستحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكدة بحرف الجر في سياق النفي؛ فالمؤمن حقيقة لا يمكن أن يتابع أعداء الله، ولا أن يأخذ بآرائهم، وأفكارهم، واتجاهاتهم؛ وقد حمى النبي ﷺ ذلك غاية الحماية، حيث قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[1]، حتى نحذر ونبعد عن التشبه بأعداء الله والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فإن التشبه بأعداء الله حرام: وقد يؤدي إلى الكفر والشرك - والعياذ بالله.

٨ - ومن فوائد الآية: أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضهم بعضًا؛ بل يُضَلِّلُ بعضهم بعضًا؛ فاليهود يرون النصارى ليسوا على شيء من الدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الدين أيضًا؛ فَكُلٌّ منهم يضلل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرى أن الآخر ليس على ملة صحيحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس - إلى الصخرة؛ وقبلة النصارى إلى المشرق يتجهون نحو الشمس؛ لكنهم على الإسلام يد واحدة بعضهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- **ومن فوائد الآية**: أن اتِّباعَ اليهود والنصارى اتِّباعٌ للهوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾.

١٠- **ومنها**: أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى؛ حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

١١- **ومنها**: أن الإنسان لا يُؤَاخَذُ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ فالإنسان قد يتابع غيره جهلًا؛ فلا يؤاخذ به - وإن كان يسمى ضالًّا؛ لكنه ليس بظالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

١٢- **ومنها**: التلطف في الخطاب للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنك لو قلت لرجل: «أنت رجل ظالم» لكان أشد وقعًا من قولك له: أنت من الظالمين؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس:١] عندما تقرؤها تظن أن العابس والمتولي غير الرسول ﷺ؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول ﷺ.

١٣- **ومنها**: بيان أن العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: أتى بـ «أل» المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل؛ الذي هو محل الحمد والثناء: هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوة هو عصر العلم؛ وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعًا في الدين فإنه يمدح عليه لهذا.

١٤- **ومنها**: أن الظلم والعدل وغير ذلك مقرون بالأعمال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى: إنه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شيء يحابيه ويراعيه به؛ فكل من خالفه فهو ظالم؛ فلا نقول مثلًا: هذا قريب من الرسول ﷺ تكفر سيئاته لقربه من الرسول ﷺ؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سلالة الأشراف - من سلالة بني هاشم - تُكَفَّر عنه سيئاته؛ فإذا كان الرسول ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى له: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فما بالك بمن دون الرسول ﷺ!!! فلا أحد يحابى من قِبل الله عزَّ وجلَّ من أجل نسبه، أو حسبه، أو جاهه بين الناس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٥- **ومن فوائد الآية**: قد يرد التعليق على شرط لا يمكن تحققه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله ﷺ.

١٦- **ومنها**: تحذير الأمة من اتباع أهواء غير المؤمنين؛ وجه ذلك: إنَّه إذا كان هذا الوصف يكون للرسول ﷺ لو اتبع أهواءهم فالذي دونه من باب أولى؛ فعلينا أن نحذر غاية الحذر من اتباع أهواء أعداء الله؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذِّروها مما وقعت فيها الآن من اتباع أهواء

أعداء الله، ويبينوا لهم أن اتباع أهوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة؛ والظلم مَرْتَعٌ مُبْتَغِيه وَخِيم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ؛ والخبر جملة: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ والضمير الهاء المفعول يعود إلى النبي ﷺ؛ و﴿كَمَا﴾؛ الكاف للتشبيه؛ و«ما» مصدرية، أي: كمعرفة أبنائهم.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ أي أعطيناهم؛ والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل؛ والذين أوتوهما اليهود والنصارى؛ وإنها كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، إلى آخر ما ذكر من أوصافه التي عرفوه بها كما يعرفون أبناءهم؛ وعبَّر بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ بالفعل المضارع؛ لأن معرفتهم به تتجدد كلما تأملوا آياته وصفاته؛ وعَبَّر بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ لأن الغالب أن «العلم» يُعَبَّر به عن الأمور المعقولة التي تدرك بالحس الباطن، و«المعرفة» يُعَبَّر بها عن الأمور المحسوسة المدركة بالحس الظاهر؛ فأنا أقول لك: «أعرفت فلانًا؟» ولا أقول لك: «أعلمت فلانًا؟» لكن أقول: «أعرفت فلانًا فعلمت ما فعل؟»؛ فهنا جعلنا العلم في الفعل؛ و﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ جمع ابن؛ وَخَصَّهُ دون البنت؛ لأن تعلق الإنسان بالذَّكَر أقوى من تعلقه بالأنثى؛ فهو به أعرف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: طائفة منهم تكتم الحق، أي يخفونه، فلا يبينونه؛ ولهذا ذكر الله في سورة «آل عمران» أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبينون الهدى لمحمد وأصحابه؟! إذا بينتموه يحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصون بالكتمان ـ والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من فاعل يكتمون ـ وهو الواو؛ يعني: يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق؛ وهذا أبلغ في الذم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في

كتبهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢ـ ومنها: أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

٣ـ ومنها: بيان أن تَعَلُّقَ الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ فهو يعرف الابن أكثر مما يعرف البنت لقوة تعلقه به.

٤ ـ ومنها: الاحتراس في القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصارى من آمن، كالنجاشي؛ ومن اليهود ـ كعبد الله بن سلام ـ مَن آمن ولم يكتم الحق.

٥ـ ومنها: شدة اللوم والذم لهؤلاء الذين يكتمون الحق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامدون ظالمون؛ وهذا أشد قبحًا من كتمان الإنسان ما يكون متردِّدًا فيه.

۞ قال الله تعالى:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾: مبتدأ؛ و﴿مِن رَّبِّكَ﴾: خبره؛ وهنا الجملة لتقرير ما سبق؛ يعني: أن الحق ثابت وحاصل من ربك؛ وقيل: إن ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هذا الحق من ربك.

وهنا الربوبيَّة خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين؛ لكن أضافها إلى النبي ﷺ؛ لأن المقام يقتضيه؛ حيث هو مقام التثبيت والنصرة؛ فلولا أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت الرسول ﷺ لكان كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]؛ و«الرب»: هو الخالق المالك المدبِّر: فهو الذي خلق الخلق كله؛ وهو مالك الخلق كله؛ وهو سبحانه وتعالى المدبر للخلق كله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ والفعل بعدها مبني على الفتح في محل جزم؛ وإنما بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد؛ لأن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد صار مبنيًا على الفتح دائمًا؛ والخطاب هنا للرسول ﷺ؛ وهذا النهي يراد به التثبيت إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي ﷺ؛ كما أن أمر المؤمن بالإيمان يراد به: الثبوت والاستمرار عليه، كما

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾[النساء:١٣٦]، كما أن الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: معنى «الامتراء»: الشك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢- **ومنها:** أنه ما دام الحق من الله، فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك ولا مرية.

٣- **ومنها:** أن كل شيء خالف ما جاء عن الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس:٣٢].

٤- **ومنها:** تقوية الرسول ﷺ على ما هو عليه من الحق؛ وإن كتمه أهل الكتاب؛ لأن الإنسان بشر؛ لما أنكر هؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة - وإن كان بعيدًا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن ما جاء به هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٥- **ومنها:** عناية الله سبحانه وتعالى بالنبي بذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٦- **ومنها:** أن الشك ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

٧- **ومنها:** أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون من الممترين.

٨ - **ومنها:** عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول ﷺ، وتثبيته ما هو ظاهر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:١٤٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾؛ الوجهة، والجهة، والوجه، معناها متقارب؛ أي: لكل

واحد من الناس جهة يتولاها؛ وهذا شامل للجهة الحسية والمعنوية؛ مثال الحسية: اختلاف الناس إلى أين يتجهون في صلاتهم: فمنهم من يتجه نحو المشرق؛ ومنهم من يتجه نحو بيت المقدس؛ ومنهم من يتجه إلى الكعبة؛ واختلاف الناس كذلك في اتجاههم في العمل: فمنهم من يتجه للتجارة؛ ومنهم من يتجه للحدادة؛ ومنهم من يتجه للنجارة.. وهكذا؛ ومثال المعنوية: اختلاف الناس في المِلَلِ وَالنِّحَل، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ فيها قراءتان؛ الأولى: بكسر اللام، وياء ساكنة بعدها - ﴿مُوَلِّيهَا﴾ - على أنها اسم فاعل؛ والقراءة الثانية: بفتح اللام، وألف بعدها - «مولَّاها» - على أنها اسم مفعول؛ فالمعنى على القراءة الأولى: هو متجه إليها؛ والمعنى على القراءة الثانية: هو موجَّه إليها إما شرعًا؛ وإما قدرًا؛ وإما شرعًا وقدرًا؛ وجملة: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، أو هو «مولاها» في محل رفع صفة لـ ﴿وِجْهَةٌ﴾؛ وليس المراد بهذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد - والله أعلم - تسلية المؤمنين وتثبيتهم على ما هم عليه من الحق؛ لأن لكل أحد وجهة ولَّاه الله إياها حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أمر من الاستباق؛ والمراد به: التسابق إلى الخيرات؛ وتعدّى بنفسه دون حرف الجر كأنه ضُمِّن معنى: «افعلوا» على وجه المسابقة؛ وفائدة تضمين الفعل فعلًا آخر لأجل أن يدل التضمين على المعنيين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ «أين» شرطية؛ و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿تَكُونُوا﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون؛ والواو فاعل؛ لأن (كان) هنا تامة؛ وليست ناقصة؛ يعني: أينما توجدوا يأت بكم الله؛ و﴿يَأْتِ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء؛ والكسرة قبلها دليل عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ في برٍّ، أو بحرٍ، أو جوٍّ؛ فإن الله يأتي بكم جميعًا، وذلك يوم القيامة؛ حيث يحشر الله الأولين والآخرين في مقام واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذه جملة خبرية مُؤَكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾؛ عامة في كل شيء من موجود أو معدوم؛ و(القدرة): صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الأمم قد تختلف مناهجها - وإن اتفقت على أصل واحد؛ وهو الإسلام؛ ونعني بـ«الإسلام» المعنى العام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.

٢- ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كثرة المخالفين؛ لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية؛ والوجهة القدرية: يعني: ما وجه الله العباد إليه شرعًا، وما وجههم إليه قدرًا؛ الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتجاهه إلى

الحق؛ ومن الناس من يُخذَل فيَضل، ويكون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتبعها المشركون، واليهود، والنصارى، وما أشبه ذلك هذه وجهة قدرية؛ أما شرعية فلا؛ لأن الله ما شرع الكفر أبدًا؛ ولا شرع شيئًا من خصال الكفر؛ والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس؛ فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه: أنها ليست حقًّا؛ فإنها الحق من الله.

٣- ومن فوائد الآية: وجوب المسابقة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٤- ومنها: أن الأمر يقتضي الفورية؛ لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلا بالمبادرة إلى فعله؛ فهذه الآية مما يستدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

٥- ومنها: البلاغة التامة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دون «استبقوا إلى الخيرات» - وإن كان بعض الناس يقولون: إنها نُزِع منها حرف الجر؛ وليس بصحيح؛ لأن ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يشمل: الاستباق إليها والاستباق فيها؛ فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقًا؛ وهذا يشبهه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

٦- ومن فوائد الآية: إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٧- ومنها: الإشارة إلى البعث؛ لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٨ - ومنها: إثبات عموم قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: «**إن الله على ما يشاء قدير**»؛ وهذا لا ينبغي:

أولًا: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانيًا: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثًا: إنَّهُ قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: «**إن الله عزَّ وجلَّ لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها**».

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه، فنقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معين فلا بأس أن تقيد بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]؛ فإن ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ عائدة على «**الجمع**»؛ لا على «**القدرة**»؛ فهو قدير على الشيء شاءه أم لم يشأه؛ لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة؛ ومنه الحديث في قصة الرجل الذي أكرمه الله

سبحانه وتعالى، فقال: «ولكني على ما أشاء قادر»[1]؛ لأنه يتكلم عن فعل معين؛ ولهذا قال: «قادر»: أتى باسم الفاعل الدال على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة - «قدير» - الدالة على الاتصاف بالقدرة.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ ما أعظم هذا الحدث؛ ولهذا أكده الله عدة مرات؛ «مِن» حرف جر؛ و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم؛ قال ابن مالك في عدّ المبنيات:

«كأينَ أمسِ حيثُ والساكن كمْ»

و﴿خَرَجْتَ﴾: الخطاب هنا إما أن يكون للرسول ﷺ؛ وإما أن يكون لكل من يتأتى خطابه؛ أي: من حيث خرجت أيها الإنسان ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي مستقبلًا له؛ وذلك عند الصلاة؛ و﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ أي جهة المسجد؛ و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدُ الحَرَامِ..»[2]؛ بل لقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح:٢٥]؛ ووصف بالحرام لاحترامه وتعظيمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: توليك شطر المسجد الحرام ﴿لَلْحَقُّ﴾ اللام هنا للتوكيد؛ فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إن»؛ والثاني: اللام؛ و«الحق» هو الشيء الثابت؛ لأنه محقوق - أي مثبت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٩٦]: ﴿حَقَّتْ﴾ بمعنى: ثبتت ووجبت.

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقدم الكلام عليها، وأنها ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ والأولى أن نقول: «الباء للتوكيد» فقط؛ ولا نقول: «زائد»؛ لئلا يفهم أحد أن في القرآن ما ليس له معنى؛ و«غافل» خبر ﴿ما﴾ منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر؛ و«الغفلة» الذهول.

(١) رواه مسلم (١٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٧٤٣٠)، وأبويعلى في مسنده (٤٩٨٠).
(٢) رواه البخاري (١١٣٢)، ومسلم (١٣٩٧).

قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء: خطاب للمسلمين؛ وفي قراءة: ﴿عما يعملون﴾ بالياء: خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على النبي ﷺ؛ فإن الله تعالى ليس بغافل عنهم؛ بل سوف يجازيهم بما يستحقون.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: وجوب التوجه إلى المسجد الحرام أينما كان الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ...﴾ [البقرة:١٤٤] الآية.

٢- **ومنها**: تَكْرَار الأمر الهام لتثبيته، والثبات عليه، ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلما كُرِّر كان مقتضاه أن الأمر ثابت محكم يجب الثبوت عليه؛ وكون المسلمين ينقلون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هام له شأن عظيم؛ ولهذا ارتد من ارتد من الناس حين حوِّلت القبلة.

٣- **ومنها**: إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ فالمسجد محترم معظم؛ حتى ما حوله صار محترمًا معظمًا؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان؛ ولهذا حرم النبي ﷺ أن يختلى خلَاها، أو يُعَضَّد شَوْكُهَا، أَوْ يَقْطَع شَجَرَهَا(١)، كل هذا لاحترام هذا المكان وتعظيمه.

٤- **ومنها**: أن التوجه إلى الكعبة هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فأثبت فيه الحقية مؤكدًا بـ﴿إن﴾ واللام.

٥ - **ومنها**: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- **ومنها**: إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه رد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله؛ وعمله: كسبه - إن كان في الخير - واكتسابه - إن كان في الشر - كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

والناس في هذه المسألة - أعني مسألة أعمال العباد - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئًا باختيارٍ أبدًا؛ وما فعله الاختياري إلا كفِعله الاضطراري: فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة، هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية؛ وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية والعقلية.

القسم الثاني: من يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرِّف العبد

(١) رواه البخاري (٤٠٥٩)، وأحمد في مسنده (٢٩٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٩٧٢٤).

إطلاقًا؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عمله، ولا تعلق لمشيئة الله به، ولا تعلق لتقدير الله، وخلقه بعمل الإنسان، وهذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية والعقلية.

وكلا القسمين لبطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة.

القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة الله؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له؛ ووجه كونه فعل العبد مخلوقًا لله: أن الإنسان مخلوق لله؛ وفعله كائن بأمرين: بعزيمة صادقة؛ وقدرة؛ والله عزَّ وجلَّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة والقدرة؛ فالإنسان بصفاته وأجزائه وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزَّ وجلَّ.

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعًا؛ لأن الذين قالوا: «إن الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة والجماعة - والحمد لله - أخذوا بأيديهم بالدليلين؛ وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمُكرَه على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذه الجملة تقدم الكلام عليها؛ وكررت للتوكيد، وبيان الأهمية، والتوطئة لما بعدها؛ وهو قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ ﴿لِئَلَّا﴾ اللام هنا للتعليل اقترنت بها «أن» المصدرية، و«لا» النافية؛ و﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ«أن» المصدرية؛ ولا يضر الحيلولة بين الناصب والمنصوب بـ«لا» النافية؛ و﴿حُجَّةٌ﴾ اسم ﴿يَكُونَ﴾ إن كانت ناقصة؛ أو فاعل إن كانت تامة؛ والمراد بـ(الناس): كل من احتج على المسلمين بتحولهم من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وقد احتج على المسلمين في هذه المسألة

اليهود والمشركون والمنافقون؛ فالحجة التي احتج بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملتنا إلى ملة آبائه.

والجهة الثانية: إنَّه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا النبي هو الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما حجة المشركين فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد واستقبل الكعبة؛ وقالوا: «هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا».

وأما حجة المنافقين فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبيًّا حقًّا لثبت على دينه.

وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلبون الحق باطلًا؛ لأنهم يريدون غرضًا سيئًا؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه الاعتراضات والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقًّا فاعل ما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: الضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لأن كل حجة يُحتج بها على الرسول للتلبيس وإبطال الدعوة فهي في الحقيقة حجة على جميع أتباعه؛ لأن أتباعه إنما تبعوه لأنه على الحق؛ فإذا جاء من يُلَبِّس صار ذلك تلبيسًا على جميعهم - التابع والمتبوع.

وقوله تعالى: ﴿حُجَّةٌ﴾ أي: حجة باطلة؛ ولا يلزم من الاحتجاج قبوله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[الشورى:١٦] أي: باطلة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ المراد بهم المعاندون المكابرون الذين لا يَرْعَوون للحق مهما تبين؛ واختلف في الاستثناء أهو متصل، أم منقطع؟ فمنهم من قال: إنه متصل؛ ومنهم من قال: إنه منقطع، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»؛ يعني: لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم ومخاصمتهم؛ ومن قال: «إنه متصل» قال: يكون ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مستثنى من «الناس»؛ لأن الناس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم؛ والأقرب عندي - والله أعلم - أن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ هذا عام شاملٌ؛ لكن من ظلَم من اليهود أو المشركين فإنه لن يرعوي بهذه الحكمة التي أبانها الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يعني: مهما قال الذين ظلموا من كلام، ومهما قالوا من زخارف القول، ومهما ضايقوا من المضايقات فلا تخشوهم؛ و«الخشية»، و«الخوف» متقاربان؛ إلا إنَّ أهل العلم يقولون: إن الفرق أن «الخشية» لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] بخلاف (الخوف): فقد يخاف الإنسان من المخوف وهو لا يعلم عن حاله؛ والفرق الثاني: أن (الخشية) تكون لعظم المخشيِّ؛ و(الخوف) لضعف الخائف - وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلًا: الجبان يخاف من الجبان - يخاف أن يكون شجاعًا؛ وعلى كل حال إن صح هذا

الفرق فهو ظاهر؛ لكن الفرق الأول واضح؛ وهو أن الخشية) إنما تكون عن علم.

وأتى بالأمر ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ بعد النهي؛ لأنه كما يقال: التخلية قبل التحلية؛ أزِل الموانع أولًا، ثم أثبت؛ فأولًا فرّغ قلبك من كل خشية لغير الله، ثم مكن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكون المحل قابلًا؛ فإذا كان المحل قابلًا؛ فحينئذٍ يكون الوارد عليه واردًا على شيء لا ممانعة فيه؛ والأمر هنا للوجوب بلا شك؛ الواجب على المرء أن يخشى الله وحده.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾؛ وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكون في الكمال؛ و(النعمة): هي ما ينعَم به الإنسان؛ ويقال: «نِعمة» بكسر النون؛ ويقال: «نَعمة» بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسر؛ و«النَّعمة» بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[الدخان:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزّمل:١١].

ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة - يعني في السنة الثانية - ولا يعارضها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة:٣]؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ لأن المراد في آية المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] الإتمام العام في كل الشريعة؛ أما هنا: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: في هذه الشريعة الخاصة؛ وهي استقبال الكعبة بدلًا عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول ﷺ كان يقلب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عزَّ وجلَّ أن أنعم على المسلمين بأن يتجهوا إلى هذا البيت؛ الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي - كما قال بعض أهل العلم - هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويحتمل وجهًا آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدال على الانتهاء.

وأضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عزَّ وجلَّ صاحبها: هو الذي يسديها، ويوليها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٦، ٧]؛ في النعمة قال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣]؛ وأما الغضب على المخالف في دين الله فيكون من الله، ومن أولياء الله من الرسل، وأتباعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ «لعل» هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علمًا وعملًا؛ وهذه هي العلة الثانية؛ العلة الأولى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ والعلة الثانية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ والعلة الثالثة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: تكرار الأمر الهام؛ وذلك لتثبيته، وتُسَرُّ به النفوس، وبيان أهميته.

٢ـ ومنها: وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة:١٤٤] الآية.

٣ـ ومنها: دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٤ـ ومنها: أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٥ـ ومنها: أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججًا لِيَنْقَضَّ عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١٨].

٦ـ ومن فوائد الآية: وجوب تنفيذ شريعة الله عزَّ وجلَّ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم.

٧ـ ومنها: وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع، والضرر.

٨ ـ ومنها: نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه الأمة، وفضله، وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

٩ـ ومنها: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ ... وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٠ـ ومنها: أن تنفيذ أوامر الله، وخشيته سبب للهداية؛ والهداية نوعان: هداية علمية؛ وهداية عملية؛ ويقال: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق.

فـ(**الهداية العلمية**) معناها: أن الله يفتح على الإنسان من العلم ما يحتاج إليه لأمور دينه ودنياه.

و«**الهداية العملية**» أن يوفق للعمل بهذا العلم.

الأولى: وسيلة، والثانية: غاية؛ ولهذا لا خير في علم بدون عمل؛ بل إن العلم بدون عمل يكون وبالًا على صاحبه؛ والهداية هنا شاملة للعلمية والعملية؛ ووجه كونها شاملة: أنهم لم يعلموا أن مرضاة الله بالتوجه إلى الكعبة إلا بما علمهم الله؛ ثم إن الله وفقهم للعمل به؛ فلم يمانعوا أبدًا؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصلون صلاة الفجر، وكانوا متجهين إلى بيت المقدس، فاستداروا إلى الكعبة؛ فصار الإمام نحو الجنوب، والمأمومون نحو الشمال؛ هذه هداية عملية عظيمة؛ لأن انتقال الإنسان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات والمضايقات يدل على قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم سبحانه وتعالى؛ وهكذا يجب على كل مؤمن إذا جاء أمر الله أن يمتثل الأمر؛ وسيجعل

الله له من أمره يسرًا؛ لأن تقوى الله فيها تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

١١- **ومنها**: إثبات الحكمة في أفعال الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾؛ هذه أيضًا منَّةٌ رابعة وُجهت إلى المؤمنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ يعني: أن نعمة الله عزَّ وجلَّ علينا بالتوجه إلى الكعبة بدلًا عن بيت المقدس عظيمة، كما أن نعمته علينا بالرسول ﷺ عظيمة؛ و«الإرسال» بمعنى: البعث؛ يعني أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: يقرأ عليكم آياتنا؛ فيأتي بها كما سمع.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: ويطهركم، وينمي أخلاقكم ودينكم.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن؛ وكان العرب أُميين لا يقرؤون ولا يكتبون إلا النادر منهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي أسرار الشريعة، وحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به - بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرفون تصرفًا أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي: من أمور الدين والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب، والحكمة.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: بيان نعمة الله تعالى علينا بإرسال الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛

فإن هذا من تمام النعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليُعبَد بها شرع؛ ولا يمكن أن نعرف أن هذا مما يرضاه الله أن نتعبده به، وهذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسل؛ ولو أن الإنسان وكِل إلى عقله في العبادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِل إلى عقله في العبادة ما اجتمع الناس على عبادة الله: لكان كل واحد يقول: هذا هو الصواب؛ ولو أن الإنسان وكل إلى عقله في العبادة ما كانت أمتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حال لا يمكن لنا بمجرد عقولنا أن ندرك كيف نعبد الله؛ ومَثَل يسير يبين ذلك: لو أُمرنا بالتطهر للصلاة ـ ولم يبين لنا الكيفية ـ لتنازع الناس في ذلك؛ وأخذ كلٌ برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله أبان لنا كيف نعبده ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمدًا ﷺ الذي بين لنا كل شيء؛ ولهذا قال أبو ذر رضي الله عنه: «**تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم**»[1]؛ حتى الطيور في السماء علمنا عنها الرسول ﷺ.

٢ـ ومن فوائد الآية: أن كون الرسول ﷺ مِنَّا يقتضي أن تكون قريش أول من يصدق به؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانته؛ ولهذا وبخهم الله تعالى على الكفر به، ووصْفِه بالضلال والجنون، فقال جل وعلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢].

٣ـ ومنها: أن النبي ﷺ بلغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾؛ فإن هذا يدل على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن ـ والحمد لله ـ مبين لفظه ومعناه؛ ليس فيه شيء يشتبه على الناس إلا اشتباهًا نسبيًّا بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخرى؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة: ١٧ - ١٩].

٤ـ ومنها: أن من فوائد رسالة النبي ﷺ حصول العلم؛ لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾.

٥ـ ومنها: أن ما جاء به النبي ﷺ فهو من آيات الله الدالة على كمال ربوبيته، وسلطانه، ورحمته، وحكمته سواء كان من الآيات الكونية، أو الشرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الراسخين في العلم؛ ومنها ما هو بيْن ذلك.

٦ـ ومنها: أن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ كلها تزكية للأمة، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا كان من القواعد المقررة في الشريعة؛ أنها تأتي بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصة أو الراجحة؛ فالخمر فيه مصالح ومفاسد؛ لكن مفاسده راجحة؛ ولهذا حرم؛ الحجر على السفيه فيه مصالح وفيه مفاسد؛ لكن مصالحه راجحة؛ فلذلك

(١) صحيح: رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (١٦٤٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣).

قدمت المصالح؛ أو مصالح خالصة - فليس فيها مفاسد، كعبادة الله مثلًا؛ هذه قاعدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

٧- ومن فوائد الآية: أن كل ما فيه تزكية للنفوس، فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

٨ - ومنها: أن وظيفة الرسول ﷺ ومهمته التي جاء بها: أنه يعلمنا الكتاب والحكمة.

٩- ومنها: الرد على أهل التأويل وأهل التجهيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ - أهل التأويل الذين يؤولون آيات الصفات - لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لَعَلَّمَنَا إياه النبي ﷺ؛ فلما لم يعلمنا إياه علمنا أنه ليس من العلم الذي جاء به الرسول ﷺ؛ وأهل التجهيل - وهم طائفة يقولون: «**إن الرسول ﷺ وأصحابه والأمة كلها لا تعلم معاني آيات الصفات وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناها؛ حتى النبي ﷺ يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها**»!!!

١٠- ومن فوائد الآية: أن الرسول ﷺ علم الأمة لفظ القرآن ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئًا من المعنى سألوه فعلمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم وفي عصرهم، يعرفون معناه، ومغزاه، وأسبابه.

١١- ومنها: اشتمال الشريعة على الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ فالشريعة متضمنة للحكمة تضمنًا كاملًا؛ فما من شيء من مأموراتها ولا منهياتها إلا وهو مشتمل على الحكمة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله ﷺ فإن هذه أعظم حكمة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمته، وفيما لا نعقلها؛ ولهذا لما قالت المرأة لعائشة ﵂: «**ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟** قالت: **كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله ورسوله ﷺ؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه أو لم يُعقَل.

١٢- ومن فوائد الآية: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهو مما يدل على نقص الإنسان، حيث كان الأصل فيه الجهل؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨]؛ ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:٧٨]؛ فبين طرق العلم: ﴿السمع والبصر﴾؛ وبهما الإدراك؛ و﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ وبها الوعي والحفظ.

١٣- ومنها: فضل الله عزَّ وجلَّ، حيث علمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، والنسائي (٢٣١٨)، وأبوداود (٢٦٣).

إذا قال قائل: «اضربوا لنا مثلًا» فماذا نقول؟

فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلي إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا مَن تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضًا علمنا الله سبحانه وتعالى إياها، كابتداء الكون ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذنْ فعلومنا الشرعية والقدرية متلقاة من الرسول ﷺ؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؛ «اذكروني» فعل أمر؛ فيه نون الوقاية؛ والياء مفعول به؛ والواو فاعل؛ وجواب فعل الأمر: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ عمل وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: ﴿اذكروني﴾؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؛ وذِكر الله يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ فيها قراءة بفتح الياء؛ وقراءة بإسكانها؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها وفتحها، وحذفها تخفيفًا؛ لكنها في القرآن تتوقف على السماع.

قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾؛ ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾ فعل أمر من «شكر»؛ أي: قوموا بالشكر؛ و﴿لِى﴾ اللام للاختصاص؛ و(الشكر) هو: القيام بطاعة المنعم؛ وقد اختلف علماء العربية هل: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ بمعنى «اشكروني»؛ أي: إنَّ الفعل يتعدى بنفسه تارة، وباللام أخرى؛ أو أن بينهما فرقًا؟ فقال بعضهم: هي بمعناها، فيقال: شكره؛ ويقال: شكر له؛ وقال بعضهم: إنها ليست بمعناها؛ وأن «شكر» تتعدى بنفسها دائمًا، وأن المفعول هنا في نحو ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ محذوف؛ يعني: اشكروا لي ما أنعمت عليكم، أو نعمتي، أو ما أشبه ذلك؛ والخلاف في هذا قريب؛ لأن الجميع متفقون على أن المراد شكر الله عزَّ وجلَّ على نعمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛ والنون هنا نون الوقاية، وليست نون الإعراب؛ ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ ولهذا كانت مكسورة فيهما؛ و﴿لا تكفرون﴾ أي لا تجحدوني، أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها، وإعلانها، وإظهارها.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ فمطلق الذكر واجب: أي: يجب على كل إنسان أن يذكر ربه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه، ولا يصلي على النبي ﷺ إلا كان عليه ترة ـ أي خسارة، وحسرة يوم القيامة -؛ فالعبد مأمور بذكر الله؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سننه ـ بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه: أنه واجب.

٢ـ ومنها: أن مَنْ ذَكر الله ذكره الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؛ وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي؛ وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ»[1]؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما قال ﷺ: «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[2] فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨] وذكر الله باللسان أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جدًّا، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب: هي التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ وأما ذكر الله باللسان: فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعًا لله؛ وحينئذٍ تكون ذاكرًا لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ قال بعض العلماء: أي: لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

٣ـ ومن فوائد الآية: فضيلة الذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشأن بأن تذكر الله أو أن تحب الله؛ ولكن الشأن أن يذكرك الله عزَّ وجلَّ، وأن يحبك الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]؛ فقال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن هذا هو الغاية المطلوبة.

٤ـ ومنها: وجوب الشكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾؛ و«الشكر» يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «الحمد»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق «الحمد»؛ فيختلفان إذنْ من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ فسبب «الحمد» كمال المحمود وإنعامه المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان (الحمد) من (الشكر)؛

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

أما (الشكر) فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِيْ وَلِسَانِي وَالضَّمِيْرَ المُحَجَّبَا

قوله: - «يدي»: هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني»: هذا الشكر باللسان - يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني: القلب.

والشكر بالقلب: أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عزَّ وجلَّ وحده؛ فيحب الله سبحانه وتعالى لهذا الإنعام؛ ولهذا ورد في الحديث: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»(١)؛ فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحب الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

وأما الشكر باللسان: بأن يتحدث الإنسان بنعمه لا افتخارًا؛ بل شكرًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]؛ وقال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(٢).

وأما الشكر بالجوارح: بأن يقوم الإنسان بطاعة الله، ويصرف هذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

٥- ومن فوائد الآية: وجوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يعني: مخلصين لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الشكر طاعة؛ والطاعة لابد فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

٦- ومنها: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولًا: على سلوكه هو بنفسه؛ بحيث يكون معروفًا بعلمه وعمله به.

ثانيًا: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك على وجه العموم أو الخصوص.

ثالثًا: أن يدعو إلى الله على بصيرة؛ بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلًا، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب على الحاضرين، فيستفيد، ويفيد؛ وهذا طيب إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عوَّدهم على هذا،

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٧٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٧١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٥)، وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده ـ سؤالًا مثلًا ـ حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك إنَّه حرمان ـ وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم ـ حتى وإن لم يُسأل ـ أن يورد هو سؤالًا لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُم دِينَكُمْ»[1]؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلمًا وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ سبق أن الكلام إذا صُدِّرَ بالنداء فهو دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب التفات المخاطب إلى مناديه؛ وسبق بيان فوائد تصدير الخطاب بوصف الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: اجعلوا الصبر عونًا لكم؛ وكذلك استعينوا بالصلاة؛ وسبق الكلام على نظير هذه الجملة(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: هذه بشرى عظيمة لمن صبر؛ وقال تعالى: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرٌّ كما قال الشاعرّ:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنَّ عَوَاقِبَهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

فهو مُرٌّ يكابده الإنسان، ويعاني، ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى بدليل أنه ثبت عن

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبوداود (٤٦٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٨٤).

النبي ﷺ أن الإنسان المصلي يناجي ربه، وأن الله قِبل وجهه - وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...﴾.

٢- **ومنها:** الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٣- **ومنها:** بيان الآثار الحميدة للصلاة، وأن من آثارها الحميدة؛ أنها تعين العبد في أموره.

٤- **ومنها:** جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] وجاء في الحديث: «وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ».

٥- **ومنها:** أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟...﴾ إلخ.

٦- **ومنها:** فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصبر ثقيل جدًا على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق أو بلاء ثقل عليه تحمله، فاحتاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩]؛ فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذن الصبر شاق على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضًا غالبًا ينتظر الفرج لاسيما إذا صبر بإخلاص وحسن نية؛ وانتظار الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١)؛ لأنه إذا كان منتظرًا للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيرًا؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغتك الأمور اصبر فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عونًا.

٧- **ومن فوائد الآية:** أن في الصبر تنشيطًا على الأعمال والثبات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ فإذا آمن الإنسان بأن الله معه ازداد نشاطًا وثباتًا؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسددًا له، ومؤيدًا له، ومصبّرًا له، لا شك أن هذه درجة عالية كل يريدها؛ ولهذا لما جاء

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٨٠٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٤)، وقال الشيخ شعيب: صحيح.

النبي ﷺ إلى قوم يتناضلون قال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُم كَانَ رَامِيًا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ»؛ قال الآخرون: يا رسول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: «ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُم كُلِّكُم»(1).

٨ ـ ومن فوائد الآية: إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وسمعًا، وبصرًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعان: مقيدة بوصف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]؛ ومقيدة بشخص، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وعلامة جزمه حذف النون.

قوله تعالى: ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فيمن يقتل في سبيل الله؛ وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم أموات.

فإن قال قائل: كيف لا نقول «أموات» وقد ماتوا؟

فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا: أموات موتًا مطلقًا - دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفناهم، ولكانوا باقين يأكلون ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ يعني: بل هم أحياء؛ فـ﴿أحياء﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ وهي جمع «حي»؛ والمراد: أحياء عند ربهم، كما في آية آل عمران؛ وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل، وشرب، وهواء، يقوم به الجسد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون

---

(1) رواه البخاري (٢٧٤٣)، وأحمد في «مسنده» (١٦٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٩٣).

بحياتهم؛ لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عزَّ وجلَّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** النهي عن القول بأن الذين قتلوا في سبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب؛ وهو الاعتقاد، والقول باللسان؛ وهو النطق.

٢- **ومنها:** التنبيه على الإخلاص في القتال؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]؛ وهذه مسألة مهمة؛ لأن كثيرًا من الناس قد يقصد أن هذا جهاد، فيخرج؛ لأنه جهاد وقتال لأعداء الله؛ لكن كونه يشعر بأن هذا في سبيل الله؛ أي: في الطريق الموصل إلى الله أبلغ.

٣- **ومن فوائد الآية:** إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجلُّ، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

٤- **ومنها:** أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجلُّ وأعلى؛ وذلك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثواب الله؛ فأثابه الله، حيث جعله حيًّا بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٥- **ومنها:** إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن: ربه، ودينه، ونبيه.

٦- **ومنها:** إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾.

٧- **ومنها:** أن أحوال البرزخ وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله ﷺ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ...﴾ هذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكَّدة

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: والله لنبلونكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و«نبلو» بمعنى: نختبر.

وقوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾: التنكير هنا للتقليل؛ ويحتمل أن يكون للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ أي: الذُّعْر؛ وهو شامل للخوف العام، والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهددة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان مُبتلى في نفسه بما يخيفه ويروعه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُوعِ﴾: هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وضده «الشِّبع»؛ وله أسباب؛ السبب الأول: قلة الطعام؛ والسبب الثاني: قلة المال الذي يحصل به الطعام؛ والسبب الثالث: أن يصاب الإنسان بمرض يمنعه من الطعام إما لقلة الشهية؛ وإما للعجز عن استساغه لسدَدٍ في الحلق، أو قروح في المعدة، أو غير ذلك؛ والجوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جربها؛ أما من لم يجرب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾؛ ﴿الْأَمْوَالِ﴾ جمع «مال»؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ جمع «نفس»؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ جمع «ثمرة»؛ وهي ما ينتج من أشجار النخيل، والأعناب، وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار، أو تتلف.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم؛ وسبق معنى الصبر وأقسامه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾، أي: من هذه المصائب التي ذكرها في الآية الأولى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي: بقلوبهم وألسنتهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: اللام للملك؛ يعني: إنَّا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: صائرون إليه في جميع أمورنا دنيا وآخرة؛ فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، وبين الإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح؛ لأنهم يقولون: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه وبيده؛ وتقديم المتعلق يفيد: الحصرَ؛ أي: راجعون إليه لا إلى غيره، ومناسبةَ رءوس الآي.

الفوائد:

١- من فوائد الآيتين: ابتلاء العباد بما ذكر الله من الخوف، والجوع، ونقص الأموال،

والأنفس، والثمرات، وهو لمن وقع به ظاهر؛ ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار، والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابتُلُوا.

٢- ومنها: أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: «مَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(١)؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: الصبر؛ وهو واجب.

المقام الثاني: الرضا؛ وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه والصبر: أن الصابر: يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالًا من الصابر.

المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

فالجواب: أن ذلك من وجوه:

منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين؛ فتكون أهون، فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.

ومنها: احتساب الأجر على المصيبة بأنه كلما عَظُمَ المصاب كَثُرَ الثَّواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أُصِيبَت بمصيبة ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: السخط، وهو محرم، بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجيوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(٢).

٣- ومن فوائد الآيتين: البشرى للصابرين لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٤- ومنها: أن من سمة الصابرين تفويض أمرهم إلى الله بقلوبهم وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

٥- ومنها: مشروعية هذا القول؛ وقد جاءت السنة بزيادة: «اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي» - أي أثبني عليها - «وَأَخْلِفْ لِي» بقطع الهمزة - أي: اجعل لي خلفًا «خَيْرًا مِنْهَا»(٣) والدليل على هذا: قصة أم سلمة ﵂: كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات - وكان النبي ﷺ قد

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٨٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٣٢)، ومسلم (١٠٣).

(٣) رواه مسلم (٩١٨)، وأحمد في «مسنده» (١٦٣٨٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٣٤٩).

حدثها بهذا الحديث - قالت: «اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»؛ فكانت تفكر في نفسها وتقول: من يصير خيرًا من أبي سلمة!!! وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي ﷺ حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول ﷺ سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيرًا من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمنًا محتسبًا، أَجَرَه الله في مصيبته، وَأَخْلَفَ له خيرًا منها.

❁ قال الله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ الإشارة إلى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا...﴾ [البقرة: ١٥٦] إلخ؛ وجاءت بلفظ الإشارة للبعيد للدلالة على علو مرتبتهم، ومنزلتهم، ومقامهم؛ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر مقدم؛ و﴿صَلَوَاتٌ﴾ مبتدأ مؤخر؛ ولكنه مبتدأ ثانٍ؛ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول: ﴿أُولَٰئِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿صَلَوَاتٌ﴾ اختلف العلماء في معناها؛ ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها: الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعنى: أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعًا لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطفها على ﴿الصلوات﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، «أولاء»: اسم إشارة تعود إلى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ وهي مفيدة للحصر؛ وطريقه: ضمير الفصل؛ و﴿الْمُهْتَدُونَ﴾ أي: الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ فيما يبتلي به العباد.

٢ - **ومنها:** عظم ثواب الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

٣ - **ومنها:** إثبات رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يرحم من يشاء من عباده؛ ومن آثارها حصول النعم واندفاع النقم.

٤ - **ومنها:** الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتدون، الذين اهتدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾: جبلان معروفان؛ يقال للصفا: جبل أبي قبيس؛ وللمروة: قُعَيقعان؛ وهما شرقي الكعبة؛ وقد كانت أم إسماعيل عليه السلام تصعد عليهما لتتحسس هل حولها أحد؛ وذلك بعد أن نفد منها التمر والماء، وتقلص لبنها، وجاع ابنها؛ والقصة مطولة في «صحيح البخاري».

قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِن﴾ للتبعيض ـ يعني: بعض شعائر الله؛ و«الشعائر» جمع شعيرة؛ وهي التي تكون عَلَمًا في الدين؛ يعني: من معالم الدين الظاهرة؛ لأن العبادات عبادات خفية بَيْنَ الإنسان وربه؛ ومنها عبادات عَلَم ظاهر بيِّن ـ وهي الشعائر.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ليس المراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد: الطواف بهما من الشعائر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وأضيفت الـ﴿شَعَآئِرِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنه هو الذي شرعها وأثبتها، وجعلها طريقًا موصلًا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾؛ «حج» في اللغة بمعنى: قصد؛ إذنْ ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ أي: قصده لأداء مناسك الحج؛ و﴿ٱلْبَيْتَ﴾ هو بيت الله؛ أي: الكعبة.

قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾؛ ﴿أَوِ﴾ للتنويع؛ لأن قاصد البيت إما أن يكون حاجًّا؛ وإما أن يكون معتمرًا؛ و«العمرة» في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها: زيارة البيت لأداء مناسك العمرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: «لا» نافية للجنس؛ و﴿جُنَاحَ﴾ اسمها؛ وخبرها ﴿أَنْ﴾ وما دخلت عليه؛ أي: لا جناح عليه في التطوف بهما؛ والـ﴿جُنَاحَ﴾ هو الإثم؛ يعني: فلا إثم عليه في أن يتطوف بهما؛ وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما.

قوله تعالى: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: ﴿يَطَّوَّفَ﴾ أصلها يتطوف؛ ولكن قلبت التاء طاءً لعلة تصريفية؛ فصار ﴿يَطَّوَّفَ﴾؛ و﴿بِهِمَا﴾ المراد: بينهما، كما تفسره سنة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: ازداد خيرًا في الطاعة؛ ويشمل الواجب والمستحب؛ وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب والمستحب؛ و﴿مَن﴾ شرطية؛ و﴿تَطَوَّعَ﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ و﴿خَيْرًا﴾ يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن تكون منصوبة بنزع الخافض؛ والتقدير:

ومن تطوع بخير فإن الله شاكر عليم؛ والوجه الثاني: أن تكون مفعولًا لأجله؛ أي: ومن تطوع لأجل الخير وطلبه فإن الله شاكر عليم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: فالله يشكر؛ وهو سبحانه وتعالى شاكر وشكور؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه تعالى محيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢]؛ وقرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا عَلم العامل أن الله تعالى شاكر، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: مشروعية الطواف بين الصفا والمروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله؛ وهل هو ركن، أو واجب، أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة:

فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به.

وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه.

وقال آخرون: إنه سُنَّة وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضعيف جدًّا؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ بل الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون مترددًا بين الركن والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اسْعَوا فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُم السَّعَي**»[1]؛ وقالت عائشة: «**والله! ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة**»[2].

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق - رحمه الله؛ وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد - اختار أنه واجب يجبر بدم.

٢- من فوائد الآية: دفع ما توهمه بعض الصحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطواف بينهما ركنًا من أركان الحج، أو واجبًا من واجباته، أو مشروعًا من مشروعاته؛ وذلك أن أناسًا من

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧٦٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٩١٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري (١٦٩٨)، ومسلم (١٢٧٧).

الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهللون لمناة الطاغية المذكورة في القرآن؛ وهي في المشلّل - مكان قرب مكة -، فكانوا يتحرجون من الطواف بالصفا والمروة وقد أهلوا لمناة؛ فلما جاء الإسلام سألوا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ فعلى هذا يكون النفي هنا؛ لدفع ما وقع في نفوسهم من التحرج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سبب آخر لتحرج الناس من الطواف بها: وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بها كما كانوا يطوفون بالبيت أيضًا، فذكر الله عزَّ وجلَّ الطواف بالبيت، ولم يذكر الطواف بالصفا والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزًا لذكره الله عزَّ وجلَّ، فهذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهلية؛ فلا نطوف؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيه أيضًا سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلًا وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسخهما الله سبحانه وتعالى حجارة؛ فكان من جهل العرب أن قالوا: «هذان مسخا حجارة؛ إذنْ لابد أن هناك سرًّا، وسببًا، فاخرجوا بهما عن الكعبة، واجعلوهما على الجبلين: الصفا والمروة نطوف بهما، ونتمسح بهما»؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب:

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُوْن رِكَابَهُمْ ... بِمَفْضَى السُّيُوْل مِن إِسَافٍ وَنَائِلِ

و«مفضى السيول»: مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا والمروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآية؛ وأظهرها السبب الأول؛ على أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

٣- ومن فوائد الآية: أن الطواف بالصفا والمروة من طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٤- ومنها: أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.

٥- ومنها: إثبات اسم «الشاكر» لله؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ﴾.

٦- ومنها: إثبات «العليم» اسمًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٧- ومنها: إثبات صفة الشكر والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ لأنهما اسمان دالان على الصفة؛ وعلى الحكم إن كان متعديًا، فقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدل على العلم - وهذه هي الصفة؛ ويدل على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ ﴾ أي: يخفون؛ لكنه لا يكون كتمًا إلا حيث دعت الحاجة إلى البيان إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾؛ ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ جمع بينة؛ وهي صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: من الآيات البينات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡهُدَىٰ ﴾: أي: العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ أي: أظهرناه؛ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للناس عمومًا؛ المؤمن، والكافر؛ فإن الله تعالى بين الحق لعموم الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]؛ فكل الناس قد بين الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله.

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾: المراد به: جميع الكتب؛ فهو للجنس؛ فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾[الحديد:٢٥]، وكما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ مبتدأ؛ وجملة ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ خبره؛ والمبتدأ الثاني وخبره خبر «إن»؛ و﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: يطردهم، ويبعدهم عن رحمته؛ لأن «اللعن» في اللغة: الطرد والإبعاد.

قوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضًا بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن كَتْمَ العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

٢ - **ومنها:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكۡتُمُونَ ﴾؛ والكاتم مريد للكتم.

٣ - **ومنها:** أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدًى لا ضلالة فيه؛ لقوله

تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ والبيان ينقسم إلى قسمين: بيان مُفَصَّلٌ؛ وبيانٌ مُجْمَلٌ؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛ والمفصل هو أن يبين الله سبحانه وتعالى قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛ فإنها مُفَصَّلة مُبيَّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[المائدة:١]: فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة، وأحيانًا مجملة؛ وكل هذا يعتبر بيانًا.

٤ـ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانًا للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئًا لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية: الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم ـ كما قال شيخ الإسلام ـ أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

٥ـ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

٦ـ ومنها: بيان فضل الله عزَّ وجلَّ على عباده بما أنزله من البينات والهدى؛ لأن الناس محتاجون إلى هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضأون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالى بيّن ذلك.

٧ـ ومنها: إثبات عُلُوّ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلو الله بذاته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٨ ـ ومنها: قبح هذا الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ **لأنَّ الأمر مشتبه علينا**»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بَيَّنَه للناس يكون هذا أعظم قبحًا ـ والعياذ بالله.

٩ـ ومنها: وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، ولسان الحال: أن ترى إنسانًا يعمل عملًا ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلى أن تبين له الحق؛ ولسان المقال: أن يسألك سائل عن علم وأنت تعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «**لا أدري**»، أو «**لا أعلم**»؛ كذلك لو رأيت الناس عمَّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبين.

١٠ـ ومن فوائد الآية: أن الكتب السماوية كلها بيان للناس، لأن قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾

المراد به الجنس لا العهد؛ فالله تعالى بين الحق في كل كتاب أنزله؛ أي: لم يترك الحق غامضًا؛ بل بينه لأجل أن تقوم الحجة على الخلق؛ لأنه لو كان الأمر غامضًا لكان للناس حجة في أن يقولوا: ما تبين لنا الأمر.

١١ـ ومنها: أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.

١٢ـ ومنها: أن هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

١٣ـ ومنها: إثبات الأفعال الاختيارية لله عزَّ وجلَّ؛ وهي كل فعل يتعلق بمشيئته، مثل النزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و«**اللعن**» منها؛ ويدل على أنه منها أن له سببًا؛ وما كان له سبب فإنه يوجَد بالسبب، ويعدم بعدمه؛ إذنْ فاللعن من الأفعال الاختيارية.

١٤ـ ومنها: جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ لأن من معنى ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعين؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز - ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾[آل عمران:١٢٨]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتِ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[(١)]؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن وأحقاد من أقاربه وأصحابه وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[(٢)]؛ وأيُّ خير في كونك تلعن واحدًا كافرًا قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصيًّا فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه - وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر.

١٥ـ ومن فوائد الآية: عِظَمُ كتم العلم؛ حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل مُتعَنِّتًا، أو يريد الإيقاع بالمسئول، أو ضرب آراء العلماء بعضها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ببعض، أو يترتب على إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذٍ؛ وليس هذا من كتم العلم بل هو من مراعاة المصالح ودرء المفاسد.

مسألة: هل دفع الفتوى - وهو أن يحوِّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلانًا، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: أي: هل يجوز، أو لا يجوز؟

والصحيح: أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحًا فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس؛ لاسيما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوى؛ ويستعين الله عزَّ وجلَّ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

١٦- ومن فوائد الآية: استحقاق الكاتمين للعنة الله، ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائمًا به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: «قام القائمون» بمعنى: أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحِق، وذوو حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [النساء:١٣٦] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان، وأمرهم به؛ أي: بتحقيقه والثبات عليه.

إذنْ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى مع ظهوره وبيانه يستحقون - والعياذ بالله - هذا الجزاء الوخيم من الله ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق - نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودة، والمحبة من الله، ومن أولياء الله؛ وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل: «إِنَّ العالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ أَهْلُ السَّمَواتِ والأرْضِ حَتَّى الحِيتَانِ فِي الماءِ»؛ لأن الذي يبين شريعة الله يُلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودته، ومحبته، والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك - وإن لم يرد به نص خاص - عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه، ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبينون البينات والهدى يستحقون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلًا من اللعنة، ويقربهم بدلًا من البعد.

١٧- ومن فوائد الآية: أنه يجب على من قال قولًا باطلًا ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: الاستثناء هنا متصل؛ لأنه استثناء من الكاتمين؛ يعني إلا إذا تابوا؛ و«التوبة» في اللغة: الرجوع؛ وفي الشرع: الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ والمراد بالتوبة هنا: الرجوع عن كتمان ما أنزل الله إلى بيانه ونشره.

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أي أصلحوا عملهم ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ أي: وضحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه، وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيان المعنى؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين تابوا، وأصلحوا، وبينوا ﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي أقبل منهم التوبة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيان؛ أحدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثاني: قبول هذه التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة، ونسبة؛ لأن «فعال» تأتي للمبالغة، وتأتي للنسبة: فإن قيدت بمعمول فهي للمبالغة؛ وإن أطلقت فهي للنسبة؛ أو نقول: هي للمبالغة والنسبة بكل حال إلا أن يمنع من ذلك مانع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] فإن هذه للنسبة؛ ولا تصح للمبالغة لفساد المعنى بذلك؛ لأنها لو كانت للمبالغة لكان المنفي عن الله كثرة الظلم مع أنه جل وعلا ﴿لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٤٠]؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ تصلح للأمرين جميعًا؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بالتواب؛ وهو ذو توبة على جميع العباد؛ وكذلك موصوف بكثرة توبته سبحانه وتعالى، وكثرة من يتوب عليهم: كم يفعل الإنسان من ذنب ويتوب فيتوب الله عليه! وكم من أناس أذنبوا فتابوا فتاب الله عليهم! فلهذا جاء بلفظ: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ سبق الكلام عليه؛ وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبة؛ فجمع الله بينهما - فهو سبحانه يتوب - وإذا تاب سبحانه وتعالى على العبد رحم التائب، ويسّره لليسرى، وسهل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

وفي هذه الآية التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ...﴾ [البقرة:١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٥٩]؛ ولم يقل:

«نلعنهم»؛ وللالتفات فائدتان:

الأولى: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائدة الثانية: تكون بحسب السياق: ففي هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفائدة: التعظيم؛ لأن قوله: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبلغ في التعظيم من «**أولئك نلعنهم**»؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشد هيبة، مثل قول الملك: إن الملك يأمركم بكذا وكذا؛ وأمر الملك بكذا وكذا ـ ويعني نفسه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان والإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾: ثلاثة شروط:

الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.

الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.

الثالث: بيان الحق غاية البيان.

وبهذا تبدل سيئاتهم حسنات.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن كل ذنب ـ وإن عظم ـ إذا تاب الإنسان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.

٣ ـ **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على من أذنب؛ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على من أخلص وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.

٤ ـ **ومنها:** إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما: التوبة، والرحمة.

٥ ـ **ومنها:** إثبات حكمين من هذين الاسمين: أن الله يتوب، ويرحم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

٦ ـ **ومنها:** توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٧ ـ **ومنها:** كثرة توبة الله، وكثرة من يتوب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾.

والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ فيرجع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذل والخضوع؛ ومن كل معصية إلى ما يقابلها من الطاعة؛ وشروطها خمسة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والندم على الذنب؛ والإقلاع عنه في الحال؛ والعزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.

الشرط الأول: الإخلاص لله بأن يكون قصده بالتوبة رضا الله، وثواب الآخرة، وألا يحمله على التوبة خوف مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.

الشرط الثاني: الندم على ما جرى منه من الذنب؛ ومعنى «الندم»: أن يتحسر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية؛ وهذا يدخل فيه أداء حقوق العباد إليهم؛ لأن من لم يؤد الحق إلى العباد فإنه لم يقلع؛ فهو ليس شرطًا مستقلًّا ـ كما قاله بعض العلماء؛ ولكنه شرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤد الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.

الشرط الرابع: أن يعزم ألا يعود؛ فإن لم يعزم فلا توبة، وليس من الشرط ألا يعود، فإذا صَحَّت التوبة ثم عاد إلى الذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.

الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني: أن تكون في وقت قبول التوبة؛ وذلك بأن تكون قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فإذا كان بعد حضور الموت لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[النساء:١٨]؛ وإذا كانت بعد طلوع الشمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]؛ وقول النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ؛ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

وإن قال قائل: هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

نقول: للعلماء في هذا ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها تصح؛ والثاني: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس؛ والثالث: لا تصح؛ والصحيح: أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحرم فإن توبته من الزنى تصح على القول الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس، أي: إذا تاب من الزنى مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه؛ إلا على القول الثالث؛ الذي يقول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

٨ـ **ومن فوائد الآية**: عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصلاح، والبيان؛ لأن كتمهم لِما أنزل الله يتضمن إفسادًا في الأرض وإضلالًا للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قوم كتموا صفة النبي ﷺ، وقالوا: «ليس هو بالرسول الذي سيبعث»؛ فسيضل من الناس بناءً على قولهم عالَمٌ؛ فلا يكفي أن

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٤٧٩)، وأحمد في «مسنده» (١٦٩٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٦٩).

يتوبوا، ويندموا، ويقلعوا، ويُسْلِموا، حتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحق؛ وإلا لم تصح التوبة.

٩ - **ومن فوائد الآية**: عظم العلم، وأنه حمل ثقيل وعبء عظيم على من حمّله الله سبحانه وتعالى إياه، وأن الإنسان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسبق أن البيان حين يحتاج الناس إليه ويسألون، إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢]

التفسير

الآيتان قبلها في العلماء الذين كتموا الحق؛ وهذه في الكفار الذين استكبروا عن الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: «الكفر» في اللغة بمعنى الستر؛ ومنها كُفُرّى النخل - أي: وعاء طلعه - لستره الطلع؛ والمراد بالكُفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعالى من الطاعة والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار.

قوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ معطوفة على ﴿كَفَرُواْ﴾ فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها معطوفة على صلة الموصول التي لا محل لها من الإعراب؛ وجملة ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حالية من الفاعل في ﴿وَمَاتُواْ﴾؛ يعني أنهم - والعياذ بالله - استمروا على كفرهم إلى الموت، فلم يزالوا على الكفر، ولم يتوبوا، ولم يرجعوا؛ وخبر ﴿إِنَّ﴾ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ؛ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَعْنَةُ﴾؛ و﴿لَعْنَةُ﴾: مبتدأ ثالث؛ والجملة من المبتدأ الثالث وخبره خبر المبتدأ الثاني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: طرده، وإبعاده عن رحمته؛ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: ولعنة الملائكة؛ والملائكة عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خُلقوا عليها، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلِق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورة دحية الكلبي؛ وهم عباد لله عزَّ وجلَّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمْدٌ - أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف وأعمال

خصهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل وميكائيل وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...»[1] الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزَّ وجلَّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حياة القلوب - وهو جبريل - والثاني بما فيه حياة الأبدان - وهو إسرافيل - والثالث بما فيه حياة النبات - وهو ميكائيل -، وأفضلهم جبريل؛ ولهذا امتدحه الله عزَّ وجلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير: ١٩، ٢٠]، وبقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: عليهم لعنة الناس أجمعين؛ يلعنهم الناس ـ والعياذ بالله، ويمقتونهم؛ ولاسيما في يوم القيامة؛ فإن هؤلاء يكونون مبغضين عند جميع الخلق؛ فهم أعداء الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في هذه اللعنة ـ والعياذ بالله؛ والمراد فيما يترتب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسبب اللعنة.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: لا يخففه الله سبحانه وتعالى؛ وحذف الفاعل للعلم به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون؛ بل يؤخذون بالعقاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيَّد بقوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون:١٠٨]؛ فإن هذا من احتقارهم وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** أن الكافر مستحق للعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

٢ ـ **ومنها:** أنه تشترط لثبوت هذا أن يموت على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ فلو رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

٣ ـ **ومنها:** إثبات الملائكة.

٤ ـ **ومنها:** أن الكافر يلعنه الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ...﴾ [البقرة:١٦٦] إلخ؛ فالكافر ـ والعياذ بالله ـ ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

٥ ـ **ومنها:** أن الذين يموتون وهم كفار مخلدون في لعنة الله، وطرده، وإبعاده عن رحمته.

---

(١) سبق تخريجه.

٦ ـ **ومنها**: أن العذاب لا يخفف عنهم، ولا يومًا واحدًا؛ ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٩]؛ لم يسألوا أن يرفع العذاب؛ ولم يسألوا أن يخفف دائمًا؛ بل يخفف ولو يومًا واحدًا من أبد الآبدين؛ يتمنون هذا؛ يتوسلون بالملائكة إلى الله عزَّ وجلَّ أن يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب؛ ولكن يوبخون إذا سألوا هذا: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[غافر:٥٠]؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون حسرتهم حينئذٍ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدقنا؛ ليتنا اتبعنا الرسول؛ ولهذا يقولون: ﴿بَلَىٰ﴾؛ لا يستطيعون أن ينكروا أبدًا؛ ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾[غافر:٥٠] أي: أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[غافر:٥٠] أي في ضياع ـ والعياذ بالله؛ والمقصود: أنه لا يخفف عنهم العذاب.

٧ ـ **من فوائد الآيتين**: أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزُّمَر:٧١]؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزُّمَر:٧١]؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونُقُّوا، ثم شفع النبي ﷺ في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الخطاب للبشر كلهم؛ أي: أيها الناس معبودكم الحق الذي تكون عبادته حقًّا؛ و﴿إِلَٰهٌ﴾ بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و«المألوه» معناه المعبود حبًّا وتعظيمًا ـ وهو إله واحد؛ و﴿إلهكم﴾ مبتدأ؛ و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبر؛ و﴿وَٰحِدٌ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهٌ﴾؛ وجملة ﴿إلهكم إله واحد﴾ طرفها الأول معرفة؛ والثاني نكرة موصوفة، ومؤكد بالوحدانية، يعني: أن إله الخلق إله واحد؛ ووحدانيته بالألوهية متضمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يُعبد إلا من يُعلم أنه رب.

ثم أكد هذه الجملة الاسمية بجملة تفيد الحصر، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ وهذه الجملة توكيد لما قبلها في المعنى؛ فإنه لما أثبت أنه إله واحد نفى أن يكون معه إله.

وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو؛ وعلى هذا تكون ﴿لَّآ﴾ نافية للجنس؛

وخبرها محذوف؛ والتقدير: لا إله حق إلا هو؛ وإنما قدرنا «حق»؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الحج:٦٢]؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[النجم:٢٣]؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر «موجود»؛ وهذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالًا كبيرًا من وجهين:

الوجه الأول: أن هناك آلهة موجودة سوى الله؛ لكنها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الحج:٦٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:١٠١]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

الوجه الثاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله، ولا يخفى فساد هذا؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير: «لا إله حق»، كما فسرناه.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثالث، ورابع لقوله تعالى: ﴿إلهكم﴾؛ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو الرحمن الرحيم؛ فألوهيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]؛ فإن ذكر هذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله؛ أحدهما يدل على سعة رحمته ـ وهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ والثاني يدل على إيصال الرحمة ـ وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقة؛ ودلالة تضمن؛ ودلالة التزام؛ فدلالة الاسم على الذات والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها أو الصفة وحدها دلالة تضمن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصفات الأخرى دلالة التزام؛ مثال ذلك: «الخالق»: فهو دال على ذات متصفة بالخلق؛ وعلى صفة الخلق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ وهي تدل على صفة العلم والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة.

و«الرحمة»: تنقسم إلى عامة، وخاصة؛ فالعامة: هي التي تشمل جميع الخلق؛ والخاصة تختص بالمؤمنين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن إله الخلق إله واحد ـ وهو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٢ ـ **ومنها:** إثبات اسم «الإله» و«الواحد» لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ وقد جاء في قوله تعالى: ﴿لله الواحد القهار﴾ [إبراهيم: ٤٨]: فأثبت اسم «الواحد» سبحانه وتعالى.

٣ ـ **ومنها:** اختصاص الألوهية بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛

فما هو الجواب؟

فالجواب عن هذا: أن هذه الأصنام لم توجِد ما دعوا به قطعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾[الأحقاف: ٥، ٦]، ولقوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٤]؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزَّ وجلَّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عزَّ وجلَّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

٤ـ **ومنها**: كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة والإنجيل؛ بل ولجميع الرسل؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

« وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »[1].

٥ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

٦ـ **ومنها**: إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من الصفة ـ وهو الرحمة ـ والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.

٧ـ **ومنها**: أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره؛ لأن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ لو انفرد لدل على الصفة والحكم؛ وإذا جمع مع ﴿الرَّحِيمُ﴾ جُعل ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ للوصف؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ للفعل.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ جمع سماء، وتقدم أنها سبع؛

---

(١) سبق تخريجه.

و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مفرد يراد به الجنس؛ فيشمل السبع؛ و﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إيجادهما من عدم؛ ويشمل ذلك بقاءهما، وكيفيتهما، وكل ما يتعلق بهما من الشيء الدال على علم الله سبحانه وتعالى، وقدرته، وحكمته، ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يشمل ما أودع الله فيها من المنافع؛ حيث جعلها متضمنة ومشتملة على جميع ما يحتاج الخلق إليه في حياتهم وبعد مماتهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] إلى آخر الآيات؛ ما ظنك لو جعل الله هذه الأرض شفافة كالزجاج، فدفن فيها الأموات ينظر الأحياء إلى الأموات ـ فلا تكون كفاتًا لهم! وما ظنك لو جعل الله هذه الأرض صلبة كالحديد أو أشد فلا يسهل علينا أن تكون كفاتًا لأمواتنا، ولا لنا أيضًا في حياتنا! ثم هذه الأرض أودع الله فيها من المصالح والمعادن شيئًا لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني: في الإضاءة، والظلمة؛ في الحر، والبرد؛ في النصر، والخذلان؛ في كل شيء يتعلق بالليل، والنهار؛ هذه الليالي والأيام التي تدور على العالم كم فَني فيها من حي! كم فيها من حي! كم عز فيها من ذليل! كم ذل فيها من عزيز! كم حصل فيها من حوادث لا يعلمها إلا الله! هذا الاختلاف كله آيات تدل على تمام سلطان الله عزَّ وجلَّ، وعلى تفرده بالوحدانية سبحانه وتعالى.

واختلاف الليل والنهار أيضًا في الطول والقصر، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] على وجه خفي لا يشعر الناس به: يزداد شيئًا فشيئًا، وينقص شيئًا فشيئًا، ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السرطان، وفي اليوم التالي مباشرة من مدار الجدي! ولكنها تنتقل بينهما شيئًا فشيئًا حتى يحصل الالتئام، والتوازن، وعدم الكوارث؛ فلو انتقلت فجأة من مدار السرطان إلى مدار الجدي لهلك الناس من حر شديد إلى برد شديد؛ والعكس بالعكس؛ ولكن الله ـ جل وعلا ـ بحكمته ورحمته جعلها تنتقل حتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ هي السفينة؛ وتُطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢] و﴿تَجْرِى﴾ أي: تسير؛ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي في جوف البحر: فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس؛ ويجوز أن تكون ﴿فِى﴾ بمعنى «على» أي: على سطح البحر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[الشورى:٣٢]؛ وهذه أيضًا من آيات الله؛ سفن محملة بالآدميين، والأمتعة، والأرزاق، تجري على سطح الماء بدون تقلب أو إزعاج غالبًا! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية، وأكبر منه؛ وهو الفلك الذي يجري في الهواء؛ فإذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى شيء من

آياته في أمر فما هو أعظم منه يكون أقوى دلالة على ذلك؛ وها هو الطير مسخرًا في جو السماء لا يمسكه إلا الله من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل:٧٩]؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسها، فجعلها الله سبحانه وتعالى آية؛ فكيف بهذه الطائرات! تكون أعظم وأعظم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾: الباء هنا للمصاحبة ـ أي: مصحوبة بما ينفع الناس من الأرزاق، والبضائع، والأنفس، والذخائر، وغيرها؛ لأن ﴿ما﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ فالفلك آية من آيات الله عزَّ وجلَّ الدالة على كمال قدرته، وكمال رحمته، وتسخيره، كما قال تعالى في أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ: أنه قدر في الأرض أقواتها ـ يعني: جعل قدْرًا هنا، وقدْرًا هنا، وقدْرًا هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكثر عندهم البقول، والخضروات، وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك ناس يكثر عندهم نوع من النخيل لا يوجد في مكان آخر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبادل الناس الأرزاق، وينتفع الناس، ويتحركون، كل فيما قدر له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ يعني: وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء آيات لقوم يعقلون؛ والمراد بـ﴿السَّمَاءِ﴾ هنا: العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ وليس من السماء نفسها.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ والمراد به: المطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة؛ منها كونه ينزل من السماء؛ فإن الذي حمله إلى السماء هو الله عزَّ وجلَّ؛ كذلك كونه ينزل رذاذًا هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صبًّا لأهلك العالم؛ وكونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضًا من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض وجبالها؛ ولو كان يجري من الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى؛ كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حارًا، ولا باردًا؛ البَرَدُ ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣]؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾: الذي يحيى هو النبات الذي فيها ـ وليس الأرض؛ و﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد أن كانت يابسة هامدة لا نبات فيها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج:٦٣]؛ وفي إحياء النبات آيات كثيرة: آيات دالة على الرحمة؛ وآيات دالة على الحكمة؛ وآيات دالة على القدرة.

آيات دالة على الرحمة: لما في هذا الإحياء من المنافع العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[النازعات:٣١ - ٣٣]،

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾[عبس: ٢٤، ٢٥] إلى قوله تعالى: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٣٢]؛ فكم من نعم كثيرة في هذه الزروع التي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا ولأنعامنا قوتًا ودواءً، وغير ذلك.

وآيات دالة على الحكمة: وهو أن حياة الأرض جاءت بسبب - وهو الماء الذي نزل؛ فمنه نأخذ أن الله - جَلَّ وَعَلا - يخلق بحكمة، ويُقَدِّر بحكمةٍ؛ والله - جَلَّ وَعَلا - قادر على أن يقول للأرض: «أنبتي الزرع» فتنبت بدون ماء؛ لكن كل شيء مقرون بسبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحياء الأرض بنزول الماء يدل على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعداه منذ خُلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وآيات دالة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تأتي إليها بعد نحو شهر تجدها تهتز أزهارًا، وأوراقًا، وأشجارًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]؛ وهذه قدرة عظيمة؛ والله! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبة لما استطاعوا؛ وحبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة أليس هذا دليلًا على القدرة العظيمة!!!

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: نشر وفرق؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ أي: وفيما بث في الأرض من كل دابة آيات لقوم يعقلون؛ و﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: من كل ما يدب على الأرض من صغير، وكبير، وعاقل، وبهيم؛ وأتى بـ﴿كُلِّ﴾ لإفادة العموم الشامل لجميع الأجناس، والأنواع، والأفراد؛ ففي الأرض دواب لا يَعلَم بأنواعها، ولا أجناسها - فضلًا عن أفرادها - إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى يعلم هذه الأجناس، وأنواعها، وأفرادها، وأحوالها، وكل ما يصلحها؛ ففيها من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ورحمته، وعلمه، وحكمته ما يبهر العقول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة والحشرات الصغيرة كيف هداها الله لما خلقت له؛ قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] حتى إنك لترى الماء يدخل في جحر النمل، فترى النملة تخرج من هذا الجحر حاملة أولادها! ماذا ترجو من هذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الراحمين أن جعل في قلب هذه النملة رحمة، لتحمل أولادها عن الغرق؛ كذلك أيضًا السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيوان: تجدها تحنو على ولدها، وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدوًّا لها، أو صارت عدوة له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصارت عدوة لأولادها؛ فهذا من آيات الله عزَّ وجلَّ؛ ترى بعض الدواب تدب على الأرض؛ ولكن لا تكاد تدرك جسمها صغرًا فضلًا عن أعضائها، وعما في جوفها؛ ومع ذلك فهي عايشة، وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تأوي إليه؛ فهذه من آيات الله عزَّ وجلَّ؛ ومن درس في علم

الأحياء وجد من هذا ما يبهر العقول؛ فما بث الله سبحانه وتعالى في الأرض من الدواب من أجناسها، وأنواعها، وأفرادها فيه من آيات الله ما لا يحصى؛ لأن في كل شيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعًا أو أجناسًا فضلًا عن أفرادٍ؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة.

الثاني: ما فيه مضرة خالصة، أو راجحة؛ لكن مضرتها لها حِكَم كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

الثالث: ما لا مضرة فيه، ولا مصلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمال الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها؛ و﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ جمع ريح؛ وهي الهواء؛ وفي قراءة: «الريح» بالإفراد؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل: تصريفها من حيث الاتجاه؛ تصريفها من حيث الشدة وعدمها؛ تصريفها من حيث المنافع وعدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متجهة جنوبًا، وشمالًا، وغربًا، وشرقًا؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها؛ وتسمى النكبة؛ لأنها ليست في الاستقامة في الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء، ناكبة عن الاتجاه الأصلي.

وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدةَ بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى، والجراثيم، وغيرها؛ كذلك أيضًا في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فبعضها يجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلقحه؛ وبعضه يدره فيمطر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[الروم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضًا آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضًا آيات في إهلاك الناس، وإنجاء آخرين: أهلك الله به عادًا، وطرد به الأحزاب عن رسول الله ﷺ؛ وأنجى الله رسول الله ﷺ بهذه الريح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عرف ما فيها من قدرة الله ورحمته وعزته وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت وصارت على أقوى ما يكون من نَفْث هواء لا يمكن أن تحرك ساكنًا إلا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس فلا؛ والله - جَلَّ وَعَلَا - يقول للشيء إذا أراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة؛ حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضًا مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيرًا على الطائرات، كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وفي السحاب المسخر بين السماء

والأرض آيات لقوم يعقلون؛ و﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ هو هذا الغمام والمزن؛ وسمي سحابًا؛ لأنه ينسحب انسحابًا في الجو بإذن الله؛ و﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾ أي: المذلل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيات فيه: أنه دال على القدرة، والرحمة، والحكمة:

أما دلالته على القدرة: فلأنه لا يستطيع أحد أن يفرقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي: جهة إلا الله؛ ثم من يستطيع أن يجعل هذا السحاب أحيانًا متراكمًا حتى يكون مثل الجبال السود يوحش من يراه؛ وأحيانًا يكون خفيفًا؛ وأحيانًا يكون سريعًا؛ وأحيانًا يكون بطيئًا؛ وأحيانًا لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله.

وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرءوس حتى يكون شاملًا لما ارتفع من الأرض وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان ولا تشقق الأرض.

وأما دلالته على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان والبهائم.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: السقف المرفوع؛ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: أرضنا هذه؛ وهذه البينية لا تقتضي الملاصقة ولا المماسة – كما هو ظاهر؛ وبهذا يعرف الرد على الذين أنكروا قول الرسول ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بينَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»(١)، وقالوا: «لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلًا، ويصرف إلى معنى أن الله يقلب القلوب دون أن تكون بين أصابعه؛ ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ وقد تبين بهذه الآية الكريمة أن البينية لا تستلزم الملاصقة والمماسة؛ وعليه فلا يكون من لازم كون القلوب بين أصابع الرحمن أن تكون أصابعه داخل أجوافنا؛ ويقال أيضًا: بدر بين مكة والمدينة – هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة».

قوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد؛ و«آيات» اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب بها؛ و«آيات» جمع «آية»؛ وهي العلامة المعيِّنة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته، وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته.

قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لهم عقول؛ والمراد هنا: عقل الرشد الحامل لمن اتصف به على الانتفاع بالعقل؛ فالإنسان العاقل حقًّا إذا تأمل هذه الأشياء وجد أن فيها آيات تدل على خالقها – جَلَّ وَعَلا – وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعرض – وإن كان ذكاؤه قويًّا – فإنه لا ينتفع بها؛ ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأنهم لا يعقلون مع أنهم في العقل الإدراكي – يدركون به ما ينفعهم، وما يضرهم – عقلاء؛ لكن نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم به وعدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٦٥٦٩).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** عظم خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

٢ ـ **ومنها:** أن السموات متعددة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن السموات مخلوقة؛ فهي إذنْ كانت معدومة من قبل؛ فليست أزلية.

ويتفرع على هذه الفائدة: الرد على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك ـ يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزلية أبدية؛ ولهذا أنكروا انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ، وقالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير ولا العدم؛ وفسروا قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] بأن المراد: ظهور العلم والنور برسالة النبي ﷺ؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقًا حسيًّا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه السموات والأرض؛ ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

٥ ـ **ومنها:** أن الآيات في خلق السموات والأرض متنوعة بحسب ما تدل عليه من القدرة، والحكمة، والرحمة، وما إلى ذلك.

٦ ـ **ومنها:** ما في اختلاف الليل والنهار من الآيات، والعِبَر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

٧ ـ **ومنها:** أن اختلاف الليل والنهار من رحمة الله وحكمته.

٨ ـ **ومنها:** ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك.

٩ ـ **ومنها:** ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.

١٠ ـ **ومنها:** ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالة على كمال القدرة، والرحمة، والعظمة، وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.

١١ ـ **ومنها:** ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ من الآيات التي سبق بيان شيء منها.

١٢ ـ **ومنها:** ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.

١٣ ـ **ومنها:** ما في السحاب المسخَّر بين السماء والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.

١٤ ـ **ومنها:** مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات التي تزيده إيمانًا ويقينًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١٥ - **ومنها:** أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين:
قسم يعقل ما فيها من الآيات، ويستدل به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات.
وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

التفسير

لما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾[البقرة:١٦٣]، واستدل على ألوهيته بما في خلق السموات والأرض، وما ذكر من الآيات، بيَّن بعد ذلك أن من الناس - مع هذه الآيات الواضحة - من يتخذ من دون الله أندادًا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ ﴿مِن﴾ بمعنى بعض، ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾؛ ﴿مَن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، وعند بعض النحويين أن ﴿مِن﴾ مبتدأ، وأن ﴿مَن﴾ خبره، لكن المشهور ما قلناه أولًا.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: من يجعل من دون الله آلهة أندادًا؛ و﴿أَندَادًا﴾ جمع ندٍّ؛ وهو الشبيه النظير؛ لأنه من: نادَّه ينادُّه إذا كان نظيرًا له مكافئًا له.

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: يحبون تلك الأنداد؛ وجاء الضمير جمعًا للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث - مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنثًا - باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر.

وجملة: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ صفة لأنداد، ويحتمل أن تكون استئنافية لبيان معنى اتخاذهم أندادًا.

وقوله تعالى: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين لله؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أندادًا؛ أي: هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مساوية لله في المحبة فيحبونهم كحب الله؛ فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوبًا إلى الله عز وجل، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي ﷺ ندًّا لله في المحبة والتعظيم كمن اتخذ صنمًا من شجر أو حجر؛ لأن النبي ﷺ وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون ندًّا لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨]، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] - ولو عُبِدوا من دون الله - ؛ وقال النبي ﷺ لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا ما شاء الله وحده»(١)؛ فأنكر عليه أن يجعله ندًّا لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ ﴿الذين﴾: مبتدأ؛ و﴿أَشَدُّ﴾: خبره؛ و﴿حُبًّا﴾: تمييز؛ لأنها بعد أفعل تفضيل؛ و﴿أَشَدُّ﴾ اسم تفضيل يقتضي مفضلًا ومفضلًا عليه؛ فالمفضل: حب الذين آمنوا لله؛ والمفضل عليه: إما حب هؤلاء لأصنامهم؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ وإما أن المفضل عليه حب هؤلاء لله؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لله؛ وكلا الاحتمالين صحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمنين لله يكون في السراء والضراء، وحب هؤلاء لأصنامهم في السراء فقط؛ وعند الضراء يلجأون إلى الله عز وجل؛ فإذن ليس حبهم الأصنام كحب المؤمنين لله عز وجل؛ ثم إن بعضهم يصرح، فيقول: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حب المؤمنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحب هؤلاء لله مشترك: يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام ندًّا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ فيها قراءات؛ أولًا: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ بياء الغيبة في ﴿يَرَى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرَوْنَ﴾؛ ثانيًا: ﴿ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ بتاء الخطاب في ﴿ترى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرون﴾؛ وبضمها: ﴿يُرون﴾؛ فالقراءات إذنْ ثلاث.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾؛ الظلم في الأصل هو النقص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص؛ ولكنه يختلف بحسب السياق؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ هنا: أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أندادًا؛ وهم أيضًا ظلموا أنفسهم؛ أي: نقصوها حقها، لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ ﴿إذ﴾ ظرف بمعنى «حين»؛ أي: حين يرون العذاب؛ وقال بعض المعربين: ﴿إذ﴾ هنا بمعنى «إذا»؛ وتأتي «إذ» بمعنى «إذا»؛ لأنها إذا تعلقت بمضارع لا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»(١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٦٠٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

تكون للماضي؛ إذ إن الماضي للماضي، والمضارع للمستقبل؛ فهنا الآية للمستقبل، فتكون «إذ» بمعنى «إذا»؛ ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر:٧١] أي إذا الأغلال في أعناقهم؛ فكلمة ﴿إِذْ﴾ إذا كان العامل فيها فعلًا مضارعًا فهي للمستقبل بمعنى «إذا»؛ والحكمة في كونها جاءت للماضي - وهي في الحقيقة للمستقبل - بيان تحقق وقوعه؛ فصار المستقبل كأنه أمر ماضٍ؛ ونظيره في «الفعل» قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]؛ ﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى المستقبل؛ لأنه قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ ولو كان قد أتى لم يصح أن يُقال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ على قراءة ﴿يَرَوْنَ﴾ بفتح الياء الرؤية هنا بصرية؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ وكذلك على قراءة ﴿يُرون﴾ بضم الياء هي بصرية؛ لكنها تعدت إلى مفعولين بالهمزة؛ فهي رباعية؛ لأنها من: أراه يريه؛ فـ﴿يُرون﴾ أي: يُجعلون يَرون؛ وأصل «أراه»: «أرآه» لكن حذفت الهمزة تخفيفًا؛ والحاصل: أن ﴿يُرون﴾ هي رؤية بصرية؛ أي: يريهم الله عز وجل العذاب؛ و﴿ٱلْعَذَابَ﴾ معناه: العقوبة - والعياذ بالله - التي تحصل لهم على أفعالهم

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ اللام هنا للاختصاص؛ يعني: أن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله؛ و﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال من ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ﴾؛ أي: حال كونها جميعًا؛ فلا يشذ منها شيء؛ فكل القوة لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ و﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: قوي العقوبة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن بعض الناس يجعل لله ندًا في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

٢ - **ومنها:** أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوّى غيره فيها مشركًا متخذًا لله ندًّا؛ فالمحبة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبني على الحب والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.

٣ - **ومنها:** أن من جعل لله ندًّا في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

٤ - **ومنها:** إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

٥ - **ومنها:** إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

فإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ مع أن للمخلوق قوة؟

فالجواب: أن قوة المخلوق ليست بشيء عند قوة الخالق؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، مع أن الله أثبت للمخلوق عزة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل الصفة.

٦- **ومنها**: أن المؤمن محب لله عز وجل أكثر من محبة هؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾.

٧- **ومنها**: أنه كلما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك: أن الله سبحانه وتعالى رَتَّبَ شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكُلَّما ازداد الإنسان إيمانًا بالله عز وجل ازداد حبًّا له.

٨- **ومنها**: شدة عذاب الله عز وجل لهؤلاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

وشدة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن والسنة: قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: أهل النار ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾[الكهف:٢٩]؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]؛ ومع ذلك تتقطع وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]؛ و﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٨]؛ ويقال له أيضًا تبكيتًا وتوبيخًا وتنديمًا وتلويمًا؛ ﴿ذُقْ﴾ ويذكر أيضًا بحاله في الدنيا فيقال له: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]؛ فحينئذ يتقطع ألمًا وحسرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

تم -بحمد الله- المجلد الأول

ويليه -إن شاء الله- المجلد الثاني

وبدايته تفسير قوله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

الفِهْرِسُ

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة البقرة

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة البقرة

ALTABARI'S LIBERARY

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

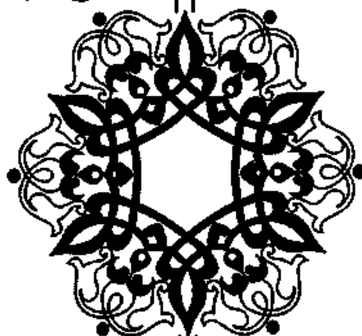

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾؛ ﴿إِذْ﴾ ظرف عامله محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ تبرأ؛ والمراد بالذكر هنا: الذكر للغير، والتذكر أيضًا؛ فالله سبحانه وتعالى يُذكّرنا، ويأمرنا أيضًا أن نذكر لغيرنا؛ و﴿تَبَرَّأَ﴾ أي: تخلى وبعُد، ﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾: وهم الرؤساء، والسادة يتبرأون من ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾: وهم الأتباع، والضعفاء، وما أشبههم؛ فمن ذلك مثلًا: رؤساء الكفر يدعون الناس إلى الكفر، مثل فرعون: فقد دعا إلى الكفر؛ فهو متَّبَع؛ وقومه متَّبِعون؛ وكذلك غيره من رؤساء الكفر والضلال، فإنهم أيضًا متَّبَعون؛ ومن تبعهم فهو متّبِع، فهؤلاء يتبرأ بعضهم من بعض؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى مناقشة بعضهم لبعض ومحاجة بعضهم بعضًا في عدة آيات.

ولا يشمل قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من اتبع أئمة الهدى؛ فالمتبعون للرسل لا يتبرأ منهم الرسل؛ والمتبعون لأئمة الهدى لا يتبرأ منهم أئمة الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ فالأخلاء والأحبة يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض إلا المتقين.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ أمامنا الآن فعل ماض في ﴿تَبَرَّأَ﴾، وفعلٍ ماضٍ في ﴿وَرَأَوُا﴾ - مع أن هذا الأمر مستقبل -؛ لكن لتحقق وقوعه عبر عنه بالماضي؛ وهذا كثير في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي رأوه بأعينهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]؛ و﴿الْعَذَابَ﴾ هو العقوبة التي يعاقب الله بها من يستحقها.

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾؛ الباء هنا: إما أن تكون بمعنى «عن»؛ أو تكون صلة بمعنى: أنهم متشبثون بها الآن، ثم تنقطع بهم كما ينقطع الحبل بمن تمسك به للنجاة من الغرق؛ و﴿الْأَسْبَابُ﴾ جمع سبب؛ وهو ما يتوصل به إلى غيره؛ والمراد بها هنا: كل سبب يؤملون به

الانتفاع من هؤلاء المتبوعين، مثل قولهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وقول فرعون لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؛ فهذه الأسباب التي سلكها المتبعون ظنًّا منهم أنها تنقذهم من العذاب إذا كان يوم القيامة تقطعت بهم؛ ولا يجدون سبيلًا إلى الوصول إلى غاياتهم؛ وَفَسَّرَ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾ هنا بالمودة؛ أي: تقطعت بهم المودة؛ وهذا التفسير على سبيل التمثيل؛ والآية أعم من ذلك؛ ووجه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية في سياق محبة هؤلاء المشركين لأصنامهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن المتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾؛ ولو كانوا ينفعونهم لم يتبرئوا منهم.

٢ - **ومنها:** أن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبيًّا.

٣ - **ومنها:** ثبوت العقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

ويتفرع عليه: ثبوت البعث.

٤ - **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخًا وتنديمًا لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا - لا شك - أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهًا لوجه.

٥ - **ومنها:** أن جميع الأسباب الباطلة التي لا تُرضي الله ورسوله ﷺ، تتقطع بأصحابها يوم القيامة، وتزول ولا تنفعهم.

٦ - **ومنها:** أن من استغاث بالرسل أو غيرهم من المخلوقات فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد ضل في دينه، وسفه في عقله، وأتى الشرك الأكبر.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾: هم الأتباع.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ﴾؛ ﴿لَوْ﴾ هنا ليست شرطية؛ ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لنا كرة فنتبرأ؛ والدليل على أنها للتمني أن الفعل نصب بعدها؛ وهو منصوب بـ«أنْ» المضمرة بعد

الفاء السببية؛ و«لو» تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أوجه: تكون شرطية؛ وتكون للتمني؛ وتكون مصدرية؛ فـ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] مصدرية؛ و﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] شرطية؛ ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ للتمني؛ ومثلها قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

و(الكَرَّة): الرجوع إلى الشيء؛ والمراد هنا: الرجوع إلى الدنيا؛ فنتبرأ منهم في الدنيا إذا رجعنا كما تبرَّءُوا منا هنا في الآخرة؛ فنجازيهم بما جازونا به؛ لكن أنى لهم ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعهم؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾؛ و﴿كَذَلِكَ﴾: الكاف: اسم بمعنى «مثل»؛ وهي مفعول مطلق عامله الفعل بعده؛ وهذا كثيرًا ما يأتي في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيهِمُ﴾ من: أرى يُري؛ فزيادة الهمزة جعلتها تنصب ثلاثة مفاعيل؛ الأول: الضمير، والثاني: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، والثالث: ﴿حَسَرَاتٍ﴾؛ و﴿حَسَرَاتٍ﴾ جمع حسرة؛ وهي الندم مع الانكماش والحزن؛ فهؤلاء الأتباع شعورهم بالندم والخيبة والخسران لا يتصور؛ فالأعمال التي عملوها لهؤلاء المتبوعين صارت - والعياذ بالله - خسارة عليهم وندمًا؛ ضاعت بها دنياهم وآخرتهم؛ وهذا أعظم ما يكون من الحسرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، أي: إنَّهم خالدون فيها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليتبرأوا من متبوعيهم كما تبرأ هؤلاء منهم في الآخرة؛ وهو غير ممكن؛ وما يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ - **ومنها:** تحسر هؤلاء وأمثالهم الذين فاتهم في هذه الدنيا العمل الصالح؛ فإنهم يتحسرون في الآخرة تحسرًا لا نظير له؛ لا يدور في خيالهم اليوم، ولا في خيال غيرهم؛ لأنه ندم لا يمكن العتبى منه.

٣ - **ومنها:** إثبات نكال الله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ - **ومنها:** أن المشركين مخلدون في النار لا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾؛ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الخلود الأبدي في النار في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة النساء؛ وفي سورة الأحزاب؛ وفي سورة الجن؛ وبه يبطل قول من ادعى أن النار تفنى؛ لأن خلود الماكث الأبدي يدل على خلود مكانه.

٥ - **ومنها:** إثبات النار، وأنها حق.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]

❁ التفسير ❁

هذه الآية جاءت في سورة البقرة؛ وسورة البقرة مدنية؛ وقد سبق أنه جاء أيضًا مثلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ وقد ذكر كثير من المؤلفين في أصول التفسير أن الغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ لأن الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة صارت المدينة بلاد إسلام؛ وهي أول بلد إسلامي يحكمه المسلمون في هذه الرسالة؛ فصار التوجه إليها بالخطاب بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لكنها ليست قاعدة؛ ولكنها ضابط يخرج منه بعض المسائل؛ لأن من السور المدنية فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، كسورة النساء، وسورة الحجرات.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أصلها: الأناس؛ وحذفت الهمزة منها تخفيفًا؛ والمراد بـ﴿النَّاسُ﴾ بنو آدم.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾؛ «مِن» يحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ ويحتمل أن تكون للتبعيض؛ لكن كونها لبيان الجنس أولى؛ ويرجحه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]؛ أي كلوا من هذا ما شئتم؛ ويشمل كل ما في الأرض من أشجار، وزروع، وبقول، وغيرها؛ ومن حيوان أيضًا؛ لأنه في الأرض.

قوله تعالى: ﴿حَلَالًا﴾: منصوبة على الحال من «ما»؛ أي كلوه حال كونه حلالًا، أي: مُحلَّلًا؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و﴿طَيِّبًا﴾ حال أخرى - يعني: حال كون طيبًا مُؤَكِّدٌ لقوله تعالى: ﴿حَلَالًا﴾ يحتمل أن يكون المراد بـ «الحلال» ما كان حلالًا في كسبه؛ وبـ «الطيب» ما كان طيبًا في ذاته؛ لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله تعالى في الميتة ولحم الخنزير: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ وهذا أولى؛ لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ و«اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله، كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة، وما أشبهها؛ و﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أعماله التي يعملها ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]؛ فكل

شيء حرمه الله فهو من خطوات الشيطان سواء كان عن استكبار، أو تكذيب، أو استهزاء، أو غير ذلك؛ لأنه يأمر به، وينادي به، ويدعو إليه؛ و﴿الشَّيْطَٰنِ﴾ من: شطن؛ فالنون أصلية؛ وليس من «شاط»؛ لأنه مصروف في القرآن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]؛ ولو كان من «شاط» لكانت النون زائدة، والألف زائدة؛ فيكون ممنوعًا من الصرف؛ إلا إنَّه قد يقال: لا يمنع من الصرف؛ لأن مؤنثه: شيطانة؛ والذي يمنع من الصرف إذا كان مؤنثه «فعلى» كـ«سكران» و«سكرى»: ومعنى «شَطَن»: بعُد؛ فسمي الشيطان بذلك لبعده عن رحمة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]؛ محل هذه الجملة استئنافية تعليل لما قبلها؛ والعدو ضد الصديق؛ وإن شئت فقل: ضد الولي؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[الممتحنة:١]؛ وقد حده الفقهاء - رحمهم الله - بقولهم: من سره مساءة شخص؛ أو غمه فرحه فهو عدو؛ فالعدو من يحزن لفرحك، ويُسَرّ لحزنك.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة؛ وقد كان عدوًّا لأبينا آدم ﷺ؛ فما زالت عداوته إلى قيام الساعة؛ وقال تعالى عنه: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[النساء: ١١٨، ١١٩]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إظهار منة الله على عباده؛ حيث أباح لهم جميع ما في الأرض من حلال طيب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[البقرة:١٦٨].

٢ ـ **ومنها:** أن الأصل فيما في الأرض الحل والطيب حتى يتبين أنه حرام.

٣ ـ **ومنها:** أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ ومخاطبتهم بفروع الشريعة هو القول الصحيح؛ ولكن ليس معنى خطابهم بها أنهم ملزمون بها في حال الكفر؛ لأننا ندعوهم أولًا إلى الإسلام، ثم نلزمهم بأحكامه؛ وليس معنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على الأول قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]؛ فكيف نلزمهم بأمر لا ينفعهم؛ هذا عبث وظلم؛ وأما الدليل على الثاني فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]؛ ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أحدًا ممن أسلم بقضاء ما فاته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: «إنهم مخاطبون بها» - كما قال أهل العلم - زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٧].

٤ - ومن فوائد الآية: تحريم اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[البقرة:١٦٨]؛ ومن ذلك الأكل بالشمال، والشرب بالشمال؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله**»[1]؛ ومن اتباع خطوات الشيطان: القياس الفاسد؛ لأن أول من قاس قياسًا فاسدًا هو إبليس؛ لأن الله لما أمره بالسجود لآدم عارض هذا الأمر بقياس فاسد: قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾[ص:٧٦]؛ يعني: فكان الأولى هو الذي يسجد؛ فهذا قياس في مقابلة النص؛ فاسد الاعتبار؛ ومن اتباع خطوات الشيطان أيضًا: الحسد؛ لأن الشيطان إنما قال ذلك حسدًا لآدم؛ وهو أيضًا دأب اليهود، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:١٠٩]؛ وكل خُلق ذميم أو عمل سوء فإنه من خطوات الشيطان.

٥ - ومن فوائد الآية: تأكيد عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ فإن الجملة مؤكدة بـ «إن».

٦ - ومنها: ظهور بلاغة القرآن؛ وذلك لقرن الحكم بعلته؛ فإن قرن الحكم بعلته له فوائد؛ منها: معرفة الحكمة؛ ومنها: زيادة طمأنينة المخاطب؛ ومنها: تقوية الحكم؛ ومنها: عموم الحكم بعموم العلة - يعني القياس -؛ مثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾[الأنعام:١٤٥]؛ فإن مقتضى هذا التعليل أن كل ما كان نجسًا فهو محرم.

٧ - ومنها: التحذير الشديد من اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ وما أظن أحدًا عاقلًا يؤمن بعداوة أحد ويتبعه أبدًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾؛ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ و«الحصر»: إثبات الحكم

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢٠)، والترمذي (١٧٩٩)، وأبوداود (٣٧٧٦).

في المذكور ونفيه عما سواه، كما لو قلت: «إنما القائم زيد»؛ أثبتَّ القيام لزيد، ونفيته عمن سواه؛ يعني: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء.. إلخ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُكُم﴾ أي: الشيطان؛ والخطاب للناس جميعًا؛ لأن الآيات كلها سياقها للناس.

وقوله تعالى: ﴿بِالسُّوٓءِ﴾ أي: كل ما يسوء من المعاصي الصغيرة؛ أي: السيئات؛ و﴿الفحشاء﴾ أي: المعاصي الكبيرة، كالزنا؛ فهو يأمر بهذا وبهذا؛ مع أن المعاصي الصغار تُكفَّر بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿بِالسُّوٓءِ﴾ يعني: أن الشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ أي: تنسبوا إليه القول من غير علم؛ وعطْف ﴿أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ على ﴿السوء والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ فإنه داخل إما في السوء، أو الفحشاء؛ وهو أيضًا إلى الفحشاء أقرب.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن للشيطان إرادة وأمرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾.

٢ - **ومنها:** أن الشيطان لا يأمر بالخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ وهذا حصر بـ﴿إِنَّمَا﴾؛ وهو يوازن: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء.

٣ - **ومنها:** أن الإنسان إذا وقع في قلبه همّ بالسيئة أو الفاحشة فليعلم أنها من أوامر الشيطان، فليستعذ بالله منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٤ - **ومنها:** أن القول على الله بلا علم من أوامر الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ والقول على الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قاله؛ هذا جائز؛ ويصل إلى حد الوجوب إذا دعت الحاجة إليه.

القسم الثاني: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه؛ فهذا حرام؛ وهذا أشد الأقسام لما فيه من محادة الله.

القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضًا.

فصار القول على الله حرامًا في حالين؛ إحداهما: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله، أم لم يقله؛ والثانية: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يشمل القول على الله في ذاته، كالقائلين أنه سبحانه وتعالى ليس بداخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا فوق العالم، ولا تحت؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم؛ بل بها يُعلم أن الأمر بخلافه.

ويشمل القول على الله في أسمائه، مثل أن يقول: إن أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام مجردة لا تحمل معانٍ ولا صفات: فهو سميع بلا سمع؛ وبصير بلا بصر؛ وعليم بلا علم؛ فهو عليم بذاته، لا بعلم هو وصفه.

ويشمل أيضًا من قال في صفات الله ما لا يعلم، مثل أن يثبتوا بعض الصفات دون بعض، فيقولون فيما نفوه: أراد به كذا، ولم يرد به كذا؛ فقالوا على الله بلا علم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم نفوا ما أراد الله بلا علم.

والثاني: أثبتوا ما لم يعلموا أن الله أراده؛ فقالوا مثلًا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] بمعنى استولى عليه؛ قالوا على الله بلا علم من وجهين؛ الوجه الأول: نفيهم حقيقة الاستواء بلا علم؛ والثاني: إثباتهم أنها بمعنى الاستيلاء بلا علم.

كذلك يشمل القول على الله بلا علم في أفعاله، مثل أن يثبتوا أسبابًا لم يجعلها الله أسبابًا، كمثل المنجمين، والخرَّاصين، وشبههم؛ هؤلاء قالوا على الله بلا علم في أفعاله ومخلوقاته؛ فيقولون: سبب وجود هذا وهذا كذا؛ وهو لا يُعلم أنه سبب له كونًا، ولا شرعًا.

ويشمل أيضًا القول على الله بلا علم في أحكامه؛ مثل أن يقول: (هذا حرام)؛ وهو لا يعلم أن الله حرمه؛ أو (واجب)، وهو لا يعلم أن الله أوجبه؛ وهم كثيرون جدًّا؛ ومنهم العامة، ومنهم أدعياء العلم الذي يظنون أنهم علماء وليس عندهم علم؛ ومن الأشياء التي مَرَّت عليّ قريبًا وهي غريبة: أن رجلًا ذهب إلى إمام مسجد ليكتب له الطلاق؛ فقال له: «طلق امرأتك طلقتين؛ لأني لا أكتب طلقة واحدة؛ لأن الله يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة:٢٢٩]»؛ فقال له الرجل: «اكتب أني طلقت امرأتي مرتين»؛ وهذا جهل مركب منافٍ لمعنى الآية؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولى والطلقة الثانية؛ فإن طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجًا غيره.

فالقول على الله بلا علم في ذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله، أو أحكامه، كل ذلك من أوامر الشيطان؛ والغالب أنه لا يحمل على ذلك إلا محبة الشرف، والسيادة، والجاه؛ وإلا لو كان عند الإنسان تقوى لالتزم الأدب مع الله عز وجل، ولم يتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وصار لا يقول على الله إلا ما يعلم.

فإذا قال قائل: ألستم تبيحون الفتوى بالظن عند تعذر اليقين؟

فالجواب: بلى؛ بشرط أن يكون لهذا الظن أساس شرعي ـ من اجتهاد، أو تقليد لمن هو أهل لذلك ـ يبنى عليه؛ فإذا أفتينا بالظن لتعذر اليقين فقد أفتينا بما أذن الله لنا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا

اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ومعلوم أن القول بغلبة الظن خير من التوقف؛ وكثير من مسائل الفقه التي تكَلَّم فيها الفقهاء، واختلفوا فيها من هذا الباب؛ لأنها لو كانت يقينية لم يحصل فيها اختلاف؛ ثم إن الشيء قد يكون يقينًا عند شخص لإيمانه، وكثرة علمه، وقوة فهمه؛ ومظنونًا عند آخر لنقصه في ذلك.

٥ ـ ومنها: تحريم الفتوى بلا علم؛ فإن المفتي يقول على الله، ويعبر عن شرع الله؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

٦ ـ ومنها: ضلال أهل التأويل في أسماء الله وصفاته؛ لأنهم قالوا على الله بلا علم.

٧ ـ ومنها: وجوب تعظيم الله عز وجل؛ لأنه تعالى حرم القول عليه بلا علم تعظيمًا له وتأدبًا معه؛ وقد قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحُجُرات:١].

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾؛ ﴿ قِيلَ ﴾ مبني وأصلها «قُوِل»؛ لكن صار فيها إعلال؛ وهي أن الواو مكسورة فقلبت ياءً، فكُسر ما قبلها للمناسبة؛ و﴿ لَهُمُ ﴾ أي: للكفار.

قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ عقيدةً، وقولًا، وفعلًا؛ و﴿ مَا ﴾ اسم موصول يفيد العموم فتشمل جميع ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة؛ وقد قال كثير من أهل العلم: «الحكمة:» هي السنة؛ فإذا قيل لهم هذا القول لا يلينون ولا يُقبلون؛ بل يكابرون.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾؛ ﴿ بَلْ ﴾ هذه: للإضراب الإبطالي؛ يعني: قالوا مبطلين هذا القول الذي قيل لهم: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾؛ ﴿ مَا ﴾ اسم موصول؛ ﴿ أَلْفَيْنَا ﴾ أي: وجدنا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [لقمان:٢١]؛ والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يعني ما وجدناهم عليه من العقيدة والعمل، حقًّا كان

أو باطلًا؛ و﴿ءَابَآءَنَآ﴾ يشمل الأدنى منهم والأبعد؛ وجوابهم هذا باطل خطأ؛ ولهذا أبطله الله تعالى في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]؛ والمعنى: أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم في هذه الحال التي لا يستحقون أن يُتَّبعوا فيها لا يعقلون شيئًا؛ والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد؛ لا عقل الإدراك؛ فآباؤهم أذكياء، ويدركون ما ينفعهم وما يضرهم؛ لكن ليس عندهم عقل رشد - وهو حسن تصرف -.

وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي؛ والنكرة في سياق النفي للعموم.

فإذا قال قائل: إذا كانت للعموم فمعنى ذلك أنهم لا يعقلون شيئًا حتى من أمور الدنيا مع أنهم في أمور الدنيا يحسنون التصرف: فهم يبيعون، ويشترون، ويتحرون الأفضل والأحسن لهم؟

فيقال: هذا ليس بشيء بالنسبة إلى ما يتعلق بأمور الآخرة؛ أو يقال: إن المراد بهذا العموم الخصوص؛ أي: لا يعقلون شيئًا من أمور دينهم لأن المقام هنا مقام منهاج وعمل، وليس مقام دنيا، وبيع، وشراء؛ فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا﴾ شيئًا من أمور الآخرة؛ وكلا الاحتمالين يرجع إلى معنى واحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: لا يعملون عمل العالم المهتدي؛ وبهذا انتفى عنهم الرشد في العمل؛ والعلم في طريق لا يستحقون أن يتبعوا؛ ولهذا جاءت همزة الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ وأقرب شبه لهؤلاء الآية التي بعدها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** ذم التعصب بغير هدى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ مع أن آباءهم لا عقل عندهم، ولا هدى.

٢ - **ومنها:** أن من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء؛ والواجب أن الإنسان إذا قيل له: «اتبع ما أنزل الله» أن يقول: «سمعنا وأطعنا».

٣ - **ومنها:** أنه لا يجب الانقياد إلا لما أنزل الله - وهو الكتاب، والحكمة -.

٤ - **ومنها:** بيان عناد هؤلاء المستكبرين الذين إذا قيل لهم: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ دون أن يقيموا برهانًا على صحته.

٥ - **ومنها:** أن كل من خالف الحق وما أنزل الله فليس بعاقل، وليس عنده هدًى؛ لقوله تعالى: ﴿لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون﴾.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يعني: كمثل الراعي الذي ينادي.

قوله تعالى: ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ وهم البهائم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل إنسان يدعو بهائم لا تفهم إلا الصوت دعاءً، ونداءً؛ و«**الدعاء**»: إذا كان يدعو شيئًا معينًا باسمه؛ و«**النداء**»: يكون للعموم؛ هناك بهائم يسميها الإنسان باسمها؛ بحيث إذا ناداها بهذا الاسم أقبلت إليه؛ والنداء العام لجميع البهائم هذا لا يختص به واحدة دون أخرى؛ فتقبل الإبل جميعًا؛ لكن مع ذلك لا تقبل على أساس أنها تعقل، وتفهم، وتهتدي؛ ربما يناديها لأجل أن ينحرها؛ هؤلاء الكفار مثلهم - في كونهم يتبعون آباءهم بدون أن يفهموا هذه الحال التي عليها آباؤهم - كمثل هذا الناعق بالماشية التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً.

قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ﴾ جمع أصم؛ وهو الذي لا يسمع؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هم صم؛ و﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ و﴿عُمْىٌ﴾ جمع أعمى؛ وهو الذي لا يبصر؛ أي فهم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بُكم لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عُمي لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لكونهم صمًا بكمًا عميًا فهم لا يعقلون عقل رشد - وإن كان عندهم عقل إدراك -؛ فلعدم انتفاعهم بعقولهم نفى الله عنهم العقل؛ وَرَتَّبَ الله انتفاء العقل عنهم على كونهم صُمًّا بكمًا عميًا؛ لأن هذه الحواس وسيلة العقل والإدراك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن هؤلاء في اتباع آبائهم مثل البهائم التي تستجيب للناعق وهي لا تسمع إلا صوتًا دعاءً ونداءً؛ لا تسمع شيئًا تعقله وتعرف فائدته ومضرة مخالفته.

٢ - **ومنها:** أن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فلا يسمعون ما يدعون إليه من حق، ولا يقولون به؛ فهُمْ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٣ - **ومنها:** أن لهؤلاء أمثالًا يدعون بدعوى الجاهلية، كأولئك الذين يدعون إلى القومية: فإن مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً؛ وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة، أو القومية،

فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجُرات:١٠]؛ هذه تدخل جميع المؤمنين ـ ولو من غير العرب ـ؛ وتخرج من ليس بمؤمن ـ ولو كان عربيًّا ـ؛ فهذا إبراهيم عليه السلام قال الله عز وجل عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]؛ وقد حثنا الله عز وجل على التأسي بإبراهيم عليه السلام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، ولما قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:٤٥] قال الله عز وجل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]؛ فكون الناس انجرفوا في هذه الدعوى الباطلة ـ دعوى القومية ـ هو داخل في هذه الآية: أنهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء، وبوصف الإيمان للمنادى؛ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: الأمر هنا للامتنان والإباحة؛ و﴿مِن﴾ هنا الظاهر أنها لبيان الجنس؛ لا للتبعيض؛ والمراد بـ «الطيب»: الحلال في عينه وكسبه؛ وقيل: المراد بـ «الطيب»: المستلذ والمستطاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ «الشكر» في اللغة: الثناء؛ وفي الشرع: القيام بطاعة المنعم؛ وإنما فسرناها بذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون:٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾»[1]؛ فالشكر الذي أمر به المؤمنون بإزاء العمل الصالح الذي

(١) صحيح مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٣٣٠).

أمر به المرسلون؛ والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]؛ ﴿إِن﴾ شرطية؛ وفعل الشرط: ﴿كُنتُمْ﴾؛ و﴿إِيَّاهُ﴾ مفعول لـ﴿تَعْبُدُونَ﴾ مقدم؛ وجملة:﴿تَعْبُدُونَ﴾ خبر كان؛ وجواب الشرط: قيل: إنه لا يحتاج في مثل هذا التعبير إلى جواب؛ وهو الصحيح؛ وقيل: إن جوابها محذوف يفسره ما قبله؛ والتقدير: إن كنتم إياه تعبدون فاشكروا له؛ و«العبادة»: هي التذلل لله عز وجل بالطاعة؛ وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبَّد - يعني مذللًا للسالكين -؛ يعني: إن كنتم تعبدونه حقًّا فكلوا من رزقه، واشكروا له.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان؛ حيث وجَّه الله الخطاب إلى المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ - **ومنها:** الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل.

٣ - **ومنها:** أن الخبائث لا يؤكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ والخبائث محرمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلا السبب فقط؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

٥ - **ومنها:** توجيه المرء إلى طلب الرزق من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعالى فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.

٦ - **ومنها:** وجوب الشكر لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾.

٧ - **ومنها:** وجوب الإخلاص لله في ذلك؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾.

٨ - **ومنها:** أن الشكر من تحقيق العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٩ - **ومنها:** وجوب الإخلاص لله في العبادة؛ يؤخذ ذلك من تقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

١٠ - **ومنها:** إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده من وجهين:

أولًا: من أمره إياهم بالأكل من الطيبات؛ لأن بذلك حفظًا لصحتهم.

ثانيًا: من قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإن الرزق بلا شك من رحمة الله.

١١ - **ومنها:** الرد على الجبرية من قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾، و﴿وَاشْكُرُوا﴾، و﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ كل هذه أضيفت إلى فعل العبد؛ فدل على أن للعبد فعلًا يوجه إليه الخطاب بإيجاده؛ ولو كان ليس

للعبد فعل لكان توجيه الخطاب إليه بإيجاده من تكليف ما لا يطاق.

١٢ ـ ومنها: التنديد بمن حرموا الطيبات، كأهل الجاهلية الذين حرموا السائبة، والوصيلة، والحام.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]

❁ التفسير ❁

مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه لَمَّا أمر بالأكل من الطيبات بَيَّنَ ما حرم علينا من الخبائث.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾؛ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه؛ فالتحريم محصور في هذه الأشياء؛ والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة..؛ و«التحريم»: بمعنى المنع؛ ومعنى ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: منعكم؛ أي: حرم عليكم أكلها؛ والدليل أنه حرم أكلها الآية التي قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾؛ فكأنه قال: «كلوا» ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ...﴾ أي: فلا تأكلوها؛ و﴿الْمَيْتَةَ﴾ في اللغة: ما مات حتف أنفه ـ يعني بغير فعل من الإنسان ـ؛ أما في الشرع: فهي ما مات بغير ذكاة شرعية، كالذي مات حتف أنفه؛ أو ذبح على غير اسم الله؛ أو ذبح ولم ينهر الدم؛ أو ذكَّاه من لا تحل تذكيته، كالمجوسي، والمرتد.

قوله تعالى: ﴿وَالدَّمَ﴾ يعني: وحرم عليكم الدم؛ و«الدم» معروف؛ والمراد به هنا: الدم المسفوح دون الذي يبقى في اللحم، والعروق، ودم الكبد، والقلب؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ أي: وحرم عليكم لحم الخنزير؛ و«الخنزير»: حيوان معروف قذر؛ قيل: إنه يأكل العذرات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ يعني: وحرم عليكم ما أهلَّ به لغير الله؛ و«الإهلال»: هو رفع الصوت؛ ومنه الحديث: «إِذَا اسْتَهَلَّ الْمَوْلُودُ وَرِثَ»[1]؛ والمراد به هنا: ما ذكر عليه اسم غير

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٩٢٠)، وابن ماجه (٢٧٥٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٥٧٥)، وصححه الألباني

الله عند ذبحه مثل أن يقول: «باسم المسيح»، أو «باسم محمد»، أو «باسم جبريل»، أو «باسم اللات»، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾: فيها قراءتان: بكسر النون؛ وضمها؛ فأما الكسر فعلى القاعدة من أنه إذا التقى ساكنان كسر الأول منهما؛ وأما الضم فمن أجل الإتباع لضمة الطاء؛ و﴿مَن﴾ هنا شرطية؛ و﴿اضْطُرَّ﴾ فعل ماضٍ مبني لما لم يسم فاعله؛ أي: ألجأته الضرورة للأكل؛ والضرورة فوق الحاجة؛ فالحاجة كمال؛ والضرورة ضرورية يكون الضرر منها.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ بنصب ﴿غَيْرَ﴾ على الحال من نائب الفاعل في ﴿اضْطُرَّ﴾؛ و«الباغي» الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة؛ و«العادي»: المتجاوز لقدر الضرورة؛ هذا هو الراجح في تفسيرهما؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]؛ والله سبحانه وتعالى أباح لنا الميتة بثلاثة شروط:

١- الضرورة.

٢- أن لا يكون مبتغيًا؛ أي: طالبًا لها.

٣- أن لا يكون متجاوزًا للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبناءً على هذا؛ ليس له أن يأكل حتى يشبع إلا إذا كان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيل: بأنه في هذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئًا منها يحمله معه ـ إن اضطر إليه أكل، وإلا تركه ـ لكان قولًا جيدًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: هذا جواب ﴿فَمَنِ﴾؛ وقرن بالفاء؛ لأن الجملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنها بالفاء؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا عقوبة عليه، أو فلا جناح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ هذا تعليل للحكم؛ فالحكم انتفاء الإثم؛ والعلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ ﴿غَفُورٌ﴾ يحتمل أن تكون صيغة مبالغة – وقد ورد أن من صيغ المبالغة «فعول» – لكثرة مغفرته سبحانه وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ فالكثرة هنا واقعة في الفعل وفي المحل؛ في الفعل: كثرة غفرانه لذنوب عباده؛ وفي المحل: كثرة المغفور لهم؛ ويحتمل أن تكون صفة مشبهة؛ و«الغفور» مأخوذ من الغَفْر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ وليس الستر فقط؛ ومنه سمي «المغفر»: الذي يغطى به الرأس عند الحرب؛ لأنه يتضمن الستر والوقاية؛ ويدل لذلك قوله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وحاسبه: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(1).

وقوله تعالى: ﴿الرحيم﴾ صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات

في «صحيح الجامع» (٣٢٨).

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨).

الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت:٢١] فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل؛ وأهل التأويل ـ والأصح أن نسميهم أهل التحريف ـ يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المراد برحمة الله: إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة ولين؛ والرقة واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصًا؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وهنا مسائل تتعلق بالآية:

١ ـ نجاسةُ الميتة حسيةٌ.

٢ ـ الذي يعيش في البر والبحر يعطى حكم البر تغليبًا لجانب الحظر.

٣ ـ بالنسبة لميتة الآدمي ـ إذا اضطر إليها الإنسان ـ اختلف فيها أهل العلم ـ؛ فالمشهور عند الحنابلة: أنه لا يجوز أن يأكلها ـ ولو اضطر ـ؛ وقالت الشافعية: **«إنه يجوز أكلها عند الضرورة»** ـ وهو الصحيح ـ.

٤ ـ كل المحرمات إذا اضطر إليها وزالت بها الضرورة كانت مباحة؛ قلنا: **«وزالت بها الضرورة»** احترازًا مما لا تزول به الضرورة، كما إذا ما اضطر الإنسان إلى أكل سمٍّ ـ فلا يجوز أن يأكل ـ؛ لأنه لا تزول بها ضرورته؛ بل يموت به؛ ولو اضطر إلى شرب خمر لعطشٍ لم يحل له؛ لأنه لا تزول به ضرورته؛ ولذلك لو احتاج إلى شربه لدفع لقمة غص بها حلَّ له؛ لأنه تزول به ضرورته.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.

٢ ـ ومنها: أن التحريم والتحليل إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ﴾.

٣ ـ ومنها: حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾؛ لأنها أداة حصر؛ لكن هذا الحصر قد بُين أنه غير مقصود؛ لأن الله حرم في آية أخرى غير هذه الأشياء: حرم ما ذبح على النصب – وليس من هذه الأشياء –؛ وحرم النبي ﷺ «كل ذي ناب من السباع»[1]، «وكل ذي مخلب من الطير»[2] – وليس داخلًا في هذه الأشياء –؛ وحرم النبي ﷺ الحمر الأهلية – وليس داخلًا في هذه الأشياء –؛ فيكون هذا الحصر

(١) رواه البخاري (٥٢٠٧)، ومسلم (١٩٣٢).

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤)، والترمذي (١٤٧٤)، والنسائي (٤٣٤٨).

غير مقصود بدلالة القرآن والسنة.

٤ - **ومن فوائد الآية:** تحريم جميع الميتات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾؛ و«أل» هذه للعموم إلا أنه يستثنى من ذلك السمك والجراد - يعني: ميتة البحر، والجراد -؛ للأحاديث الواردة في ذلك؛ والمحرم هنا هو الأكل؛ لقول النبي ﷺ في الميتة: «إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا»[1]؛ ويؤيده أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾؛ لأن السياق في الأكل؛ ويدخل في تحريم أكل الميتة جميع أجزائها.

٥ - **ومن فوائد الآية:** تحريم الدم المسفوح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّمَ﴾.

٦ - **ومنها:** تحريم لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ وهو شامل لشحمه وجميع أجزائه؛ لأن اللحم المضاف للحيوان يشمل جميع أجزائه؛ لا يختص به جزء دون جزء؛ اللهم إلا إذا قُرن بغيره، مثل أن يقال: «اللحم، والكبد»، أو «اللحم، والأمعاء»، فيخرج منه ما خصص.

٧ - **ومنها:** تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومنها:** تحريم ما ذبح لغير الله؛ ولو ذكر اسم الله عليه، مثل أن يقول: «**بسم الله والله أكبر؛ اللهم هذا للصنم الفلاني**»؛ لأنه أهلَّ به لغير الله.

٩ - **ومنها:** أن الشرك قد يؤثر الخبثَ في الأعيان - وإن كانت نجاسته معنوية -؛ هذه البهيمة التي أُهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمل خطر الشرك، وأنه يتعدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كذلك؛ لهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨] مع أن بدن المشرك ليس بنجس؛ لكن لقوة خبثه المعنوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثرًا حتى في الأمور المحسوسة.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة الإخلاص لله.

١١ - **ومنها:** أن الضرورة تبيح المحظور؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ ولكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين:

الشرط الأول: صدق الضرورة بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرم.

الشرط الثاني: زوال الضرورة به حيث يندفع الضرر.

فإن كان يمكن دفع الضرورة بغيره لم يكن حلالًا، كما لو كان عنده ميتة ومذكاة، فإن الميتة لا تحل حينئذٍ؛ لأن الضرورة تزول بأكل المذكاة؛ ولو كان عطشان وعنده كأس من خمر لم يحل له شربها؛ لأن ضرورته لا تزول بذلك؛ إذا لا يزيده شرب الخمر إلا عطشًا؛ ولهذا لو غص بلقمة

(١) رواه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (٣٦٣).

وليس عنده ما يدفعها به إلا كأس خمر كان شربها لدفع اللقمة حلالًا.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: إثبات رحمة الله عز وجل؛ لأن من رحمة الله أن أباح المحَرَّمَ للعبد لدفع ضرورته.

١٣ - **ومنها**: أن الأعيان الخبيثة تنقلب طيبة حين يحكم الشرع بإباحتها على أحد الاحتمالين؛ فإن حِلَّ الميتة للمضطر يحتمل حالين:

الأولى: أن نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ فالذي جعلها خبيثة بالموت بعد أن كانت طيبة حال الحياة قادر على أن يجعلها عند الضرورة إليها طيبة، مثل ما كانت الحمير طيبة تؤكل حال حلها، ثم أصبحت بعد تحريمها خبيثة لا تؤكل؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأشياء، وخالق صفاتها، ومغيرها كيف يشاء؛ فهو قادر على أن يجعلها إذا اضطر عبده إليها طيبة.

الحال الثانية: أنها ما زالت على كونها خبيثة؛ لكنه عند الضرورة إليها يباح هذا الخبيث للضرورة؛ وتكون الضرورة واقية من مضرتها؛ فتناولها للضرورة مباح؛ وضررها المتوقع تكون الضرورة واقية منه.

والحالان بينهما فرق؛ لأنه على الحال الأولى انقلبت من الرجس إلى الطهارة؛ وعلى الحال الثانية هي على رجسيتها لكن هناك ما يقي مضرتها - وهو الضرورة -؛ وهذه الحال أقرب؛ لأنه لو كان عند الضرورة يزول خبثها لكانت طيبة تحل للمضطر وغيره؛ ويؤيده الحس: فإن النفس كلما كانت أشد طلبًا للشيء كان هضمه سريعًا؛ بحيث لا يتضرر به الجسم؛ وانظر إلى نفسك إذا أكلت طعامًا على طعام يتأخر هضم الأول، والثاني - مع ما يحصل فيه من الضرر -؛ لكن إذا أكلت طعامًا وأنت جائع فإنه ينهضم بسرعة؛ ويشهد لهذا ما يروى عن صهيب الرومي أنه كان في عينيه رمد؛ فجيء إلى النبي ﷺ بتمر وهو حاضر؛ فأكل منه النبي ﷺ، فأراد صهيب أن يأكل منه، فقال له النبي ﷺ: «تَأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ» - لأن المعروف أن التمر يزيد في وجع العين - فقال: «إني أمضغ من ناحية أخرى»[1] أي: إذا كانت اليمنى هي المريضة بالرمد أمضغه على الجانب الأيسر؛ فضحك النبي ﷺ، ومكنه من أكله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: **«إن الحكمة في أن الرسول مكنه - مع أن العادة أن هذا ضرر -؛ لأن قوة طلب نفسه له يزول بها الضرر: ينهضم سريعًا، ويتفاعل مع الجسم، ويذهب ضرره»**.

١٤ - **ومن فوائد الآية**: أن من تناول المحرم بدون عذر فهو آثم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ فعُلم منها أن من كان غير مضطر فعليه إثم.

١٥ - ومن فوائد الآية عند بعض أهل العلم: أن العاصي بسفره لا يترخص؛ لقوله تعالى:

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٣٤٤٣)، والبيهقي في «الكبرى» (١٩٣٤٧)، وحسنه الألباني في تعليقه على السنن.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فإنهم قالوا: إن المراد بـ«الباغي»: الخارج عن الإمام؛ و«العادي»: العاصي بسفره؛ وقالوا: إن العاصي بسفره؛ أو الباغي على الإمام لا يترخص بأي رخصة من رخص السفر: فلا يقصر الصلاة، ولا يمسح الخف ثلاثة أيام، ولا يأكل الميتة، ولا يفطر في رمضان؛ وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم تفصيله في كتب الفقه.

تنبيه:

قد يقال إنه يستفاد من إباحة المحرم عند الضرورة: وجوب تناوله؛ لأن المحرم لا ينتهك إلا بواجب؛ وهذه قاعدة ذهب إليها بعض أهل العلم: قال: إن المحرم إذا انتهك فهو دليل على الوجوب، مثلما قالوا في وجوب الختان: فقد أخذ بعض العلماء الوجوب من هذه القاعدة، قالوا: إن الأصل أن قطع الإنسان شيئًا من بدنه حرام؛ والختان قطع شيء من بدنه؛ ولا ينتهك المحرم إلا لشيء واجب؛ فقرروا وجوب الختان من هذه القاعدة؛ ولكنها غير مُطَّرِدَة؛ ولهذا يجوز للمسافر أن يفطر في رمضان؛ والفطر انتهاك محرم مع أن الفطر ليس بواجب.

١٧ ـ ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الغفور» و«الرحيم»، وما تضمناه من صفة.

١٨ ـ ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر - وهو الحكم - ؛ لأنه لكونه غفورًا رحيمًا غفر لمن تناول هذه الميتة لضرورته، ورحمه بحلها؛ فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدل على «الذات» الذي هو المسمى؛ و«الصفة»؛ و«الحكم»، كما قال بذلك أهل العلم - رحمهم الله -.

تنبيه:

ما أهل به لغير الله أنواع:

النوع الأول: أن يهل بها لغير الله فقط، مثل أن يقول: باسم جبريل، أو محمد، أو غيرهما؛ فالذبيحة حرام بنص القرآن ـ ولو ذبحها لله ـ.

النوع الثاني: أن يهل بها لله ولغيره، مثل أن يقول: «باسم الله واسم محمد»؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لأنه اجتمع مبيح وحاظر؛ فغلب جانب الحظر.

النوع الثالث: أن يهل بها باسم الله، وينوي به التقرب والتعظيم لغيره؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لأنه شرك.

وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلالًا بها لغير الله؟

الجواب: إِنْ قَصَدَ بِهَا إِكْرَامَ الضيف فلا يدخل بلا شك، كما لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوها،

وإن قصد بذلك التقرب إليه وتعظيمه تعظيم عبادة فإنه شرك، كالمذبوح على النصب تمامًا، فلا يحل أكلها؛ وقد كان بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ إذا قدم رئيسهم أو كبيرهم يذبحون بين يديه القرابين تعظيمًا له ـ لا ليأكلها، ثم تترك للناس ـ؛ وهذا يكون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله؛ ولو ذكر اسم الله عليه.

النوع الرابع: أن لا يهل لأحد؛ أي: لم يذكر عليها اسم الله، ولا غيره؛ فالذبيحة حرام أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، ولقول النبي ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسمُ الله عَلَيْهِ فَكُلُوا»(١).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ...﴾: جملة مكونة من ﴿إِنَّ﴾ الدالة على التوكيد؛ و﴿الَّذِينَ﴾ اسمها؛ و﴿أُولَئِكَ﴾: «أولاء» مبتدأ ثانٍ؛ وجملة: ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ والخبر خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: يخفون؛ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾: «أل» إما أن تكون للعهد؛ أو للجنس؛ فإن قلنا: «للعهد» فالمراد بها: التوراة؛ ويكون المراد بـ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ اليهود؛ لأنهم كتموا ما علموه من صفات النبي ﷺ؛ وإن قلنا: إن «أل» للجنس، شمل جميع الكتب: التوراة، والإنجيل، وغيرها؛ ويكون ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ يشمل اليهود، والنصارى، وغيرهما؛ وهذا أرجح لعمومه.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: على رسله؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥]؛ فكل رسول فإن معه كتابًا من الله عز وجل يهدي به الناس.

قوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ يعني: يأخذون بما أنزل الله؛ ويجوز أن يكون الضمير عائدًا

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (١٩٦٨).

على الكتم؛ يعني: يأخذون بهذا الكتم.

قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: هذا الثمن إما المال؛ وإما الجاه، والرياسة؛ وكلاهما قليل بالنسبة لما في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾: الاستثناء هنا مُفرَّغ؛ والإشارة للبعيد لبعد مرتبتهم، وانحطاطها، والتنفير منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: لا يكلمهم تكليم رضا؛ فالنفي هنا ليس نفيًا لمطلق الكلام؛ ولكنه للكلام المطلق - الذي هو كلام الرضا؛ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يثني عليهم بخير.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ «فعيل» هنا بمعنى مفعِل؛ و«مؤلم» أي: موجع؛ والعذاب هو النكال والعقوبة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب نشر العلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾؛ ويتأكد وجوب نشره إذا دعت الحاجة إليه بالسؤال عنه؛ إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

٢ - **ومنها:** أن الكتب منزلة من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

٣ - **ومنها:** علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾؛ فإن لازم النزول من عنده أن يكون سبحانه وتعالى عاليًا.

٤ - **ومنها:** أن هذا الوعيد على من جمع بين الأمرين: ﴿يَكْتُمُونَ﴾، و﴿وَيَشْتَرُونَ﴾؛ فأما من كتم بدون اشتراء؛ أو اشترى بدون كتم فإن الحكم فيه يختلف؛ إذا كتم بدون اشتراء فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]؛ وهذا يدل على أن كتمان ما أنزل الله من كبائر الذنوب؛ ولكن لا يستحق ما ذُكر في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وأما الذين يشترون بما أنزل الله من الكتاب ثمنًا قليلًا بدون كتمان فقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

فالناس في كتمان ما أنزل الله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يكتم العلم بخلًا به، ومنعًا لانتفاع الناس به.

والقسم الثاني: من يكتم العلم، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي من مال، أو جاه، أو رئاسة، أو غير ذلك.

والقسم الثالث: من يكتم العلم بخلًا به، ولا يبينه إلا لغرض دنيوي؛ فيجمع بين الأمرين؛ وهذا شر الأقسام؛ وهو المذكور في الآية التي نحن بصدد تفسيرها؛ وقد تبين عقوبة كل واحد من هذه الأقسام فيما سبق.

أما من أظهر العلم لله، وتعلم لله، فهذا هو خير الأقسام؛ وهو القسم الرابع الذي يبين بلسانه، وحاله، وقلمه، ما أنزل الله عز وجل؛ والذي يكتم خوفًا إذا كان سيبين في موضع آخر فلا بأس؛ أما الذي يكتم مطلقًا فهذا لا يجوز؛ فيجب أن يبين ولو قُتل؛ إذا كان يتوقف بيان الحق على ذلك، كما جرى لبعض أهل السنة الذين صبروا على القتل في بيانها لتعينه عليهم.

٥ - ومن فوائد الآية: أن متاع الدنيا قليل - ولو كثر -؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٦ - ومنها: إطلاق المسبَّب على السبب؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ هم لا يأكلون النار؛ ولكن يأكلون المال؛ لكنه مال سبب للنار.

٧ - ومنها: إقامة العدل في الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ فجعل عقوبتهم من النار بقدر ما أكلوه من الدنيا الذي أخذوه عوضًا عن العلم.

٨ - ومنها: إثبات كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه لو كان لا يتكلم لا معهم، ولا مع غيرهم، لم يكن في نفي تكليمه إياهم فائدة؛ فنفيه لتكليمه هؤلاء يدل على أنه يكلم غيرهم؛ وقد استدل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ [المطففين:١٥] أي الفجار ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] برؤية الأبرار له؛ لأنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا لرؤية الأبرار في حال الرضا؛ إذ لو كان لا يُرى مطلقًا لم يكن لذكر حجب الفجار فائدة؛ وكلام الله عز وجل هو الحرف والمعنى؛ فالله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام بحروف وصوت؛ وأدلة هذا وتفصيله مذكور في كتب العقائد.

٩ - ومن فوائد الآية: أن الكلام من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأن تخصيصه بيوم القيامة يدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ وهذه هي الصفات الفعلية؛ لكن أصل الكلام صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا.

١٠ - ومنها: إثبات يوم القيامة.

١١ - ومنها: أن يوم القيامة يُزكى فيه الإنسان؛ وذلك بالثناء القولي والفعلي؛ فإن الله يقول لعبده المؤمن حين يقرره بذنوبه: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1]؛ وأما الفعلي: فإن علامة الثناء أنه يعطى كتابه بيمينه، ويَشهد الناسُ كلهم على أنه من المؤمنين؛ وهذه تزكية بلا شك.

١٢ - ومنها: غلظ عقوبة هؤلاء بأن الله تعالى لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزكيهم؛ والمراد كلام

---

(١) سبق تخريجه.

الرضا؛ وأما كلام الغضب؛ فإن الله تعالى يكلم أهل النار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

١٣ ـ ومنها: إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٤ ـ ومنها: أن عذاب هؤلاء الكافرين عذاب مؤلم: ألمًا نفسيًّا، وألمًا جسمانيًّا؛ فأما الألم النفسي: فدليله قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]؛ فهذا من أبلغ ما يكون من الإذلال الذي به الألم النفسي؛ وأما الألم البدني: فدليله قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

❁ قال الله تعالى:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾: المشار إليهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٧٤]؛ و﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ بمعنى اختاروا؛ ولكنه عبر بهذا؛ لأن المشتري طالب راغب في السلعة؛ فكأن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ طالبون راغبون في الضلالة بمنزلة المشتري؛ و﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ هنا: كتمان العلم؛ فإنه ضلال؛ وأما «الهدى» فهو بيان العلم ونشره.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: الباء هنا للعوض؛ ويقول الفقهاء: إن ما دخلت عليه الباء هو الثمن؛ سواء كان نقدًا، أم عينًا غير نقد؛ فإذا قلت: اشتريت منك دينارًا بثوب، فالثمن الثوب؛ وقال بعض الفقهاء: الثمن هو النقد مطلقًا؛ والصحيح الأول؛ والثمن الذي دفعه هؤلاء هو الهدى؛ فهم دفعوا الهدى - والعياذ بالله - لأخذ الضلالة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾؛ فهم أيضًا اشتروا العذاب بالمغفرة؛ ولو أنهم بينوا وأظهروا العلم لجُوزوا بالمغفرة؛ ولكنهم كتموا فجُوزوا بالعذاب.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ «ما» تعجبية مبتدأ، وجملة ﴿أَصْبَرَهُمْ﴾ خبرها؛

والمعنى: شيء عظيم أصبرهم؛ أو ما أعظم صبرهم على النار؛ وهذا التعجب يتوجه عليه سؤالان:

السؤال الأول: أهو تعجب من الله أم تعجيب منه؛ بمعنى: أيرشدنا إلى أن نتعجب ـ وليس هو موصوفًا بالعجب؛ أو أنه من الله ـ؟

السؤال الثاني: أن قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾ يقتضي أنهم يصبرون، ويتحملون مع أنهم لا يتحملون، ولا يطيقون؛ ولهذا يقولون لخزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]؛ وينادون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزُّخرُف:٧٧] أي: ليهلكنا؛ ومن قال هكذا فليس بصابر؟

والجواب عن السؤال الأول: ـ وهو أهو تعجب، أو تعجيب ـ: فقد اختلف فيه المفسرون؛ فمنهم من رأى أنه تعجب من الله عز وجل؛ لأنه المتكلم به هو الله؛ والكلام ينسب إلى من تكلم به؛ ولا مانع من ذلك لا عقلًا، ولا سمعًا ـ أي لا مانع يمنع من أن الله سبحانه وتعالى يعجب؛ وقد ثبت لله العجب بالكتاب، والسنة؛ فقال الله تعالى في القرآن: ﴿بَلۡ عَجِبۡتُ وَيَسۡخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] بضم التاء؛ وهذه القراءة سبعية ثابتة عن النبي ﷺ؛ والتاء فاعل يعود على الله سبحانه وتعالى المتكلم؛ وأما السنة ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ»[1]؛ وعلى هذا فالعجب لله ثابت بالكتاب والسنة؛ فلا مانع من أن الله يعجب من صبرهم.

فإذا قال قائل: العجب يدل على أن المتعجب مباغَت بما تعجب منه؛ وهذا يستلزم أن لا يكون عالمًا بالأمر من قبل ـ وهو محال على الله ؟

فالجواب: أن سبب العجب لا يختص بما ذكر؛ بل ربما يكون سببه الإنكار على الفاعل، حيث خرج عن نظائره، كما تقول: «**عجبت من قوم جحدوا بآيات الله مع بيانها وظهورها**»؛ وهو بهذا المعنى قريب من معنى التوبيخ واللوم؛ ومن المفسرين من قال: إن المراد بالعجب: التعجيب؛ كأنه قال: اعجب أيها المخاطب من صبرهم على النار؛ وهذا وإن كان له وجه لكنه خلاف ظاهر الآية.

وأما الجواب عن السؤال الثاني:- وهو كيف يتعجب من صبرهم مع أنهم لم يصبروا على النار: فقال أهل العلم: إنهم لما صبروا على ما كان سببًا لها من كتمان العلم صاروا كأنهم صبروا عليها، مثلما يقال للرجل الذي يفعل أشياء ينتقد فيها: «**ما أصبرك على لوم الناس لك**» مع أنه ربما لم يلوموه أصلًا؛ لكن فعل ما يقتضي اللوم؛ يصير معنى: ﴿ما أصبرهم على النار﴾ أنهم لما كانوا يفعلون هذه الأفعال الموجبة للنار صاروا كأنهم يصبرون على النار؛ لأن الجزاء من جنس العمل، كما تفيده الآيات الكثيرة، فيعبر بالعمل عن الجزاء؛ لأنه سببه المترتب عليه؛ و﴿ٱلنَّارِ﴾ هي الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين والظالمين؛ لكن الظلم إن كان ظلم الكفر فهم مخلدون

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد في «مسنده» (١٦٢٣٢)، والطيالسي في «مسنده» (١٠٩٢).

فيها؛ وإن كان ظلمًا دون الكفر فإنهم مستحقون للعذاب بحسب حالهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن سبب ضلال هؤلاء وكتمانهم الحق؛ أنهم لم يريدوا الهدى؛ وإنما أرادوا الضلال والفساد - والعياذ بالله -؛ لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ...﴾ إلخ.

٢ - **ومنها:** الرد على الجبرية؛ لإضافة الفعل إلى الفاعل.

٣ - **ومنها:** أن كتمان العلم أو بيانه لغرض من الدنيا من الضلال؛ وذلك؛ لأنه جاهل بما يجب على العالم في علمه من النشر والتبليغ، ولأنه جهل على نفسه؛ حيث منعها هذا الخير العظيم في نشر العلم؛ لأن من أفضل الأعمال نشر العلم؛ فإنه - أعني العلم - ليس كالمال؛ المال يفنى؛ والعلم يبقى؛ أرأيت الآن في الصحابة رضي الله عنهم أناس أغنياء أكثر غنًى من أبي هريرة رضي الله عنه، وذِكر أبي هريرة بين الخاص والعام الآن أكثر، والثواب الذي يأتيه مما روى عن النبي ﷺ من أحاديث أكثر وأعظم؛ ثم أرأيت منزلة الإمام أحمد بن حنبل، ونحوه من الأئمة مع من في عهدهم من الخلفاء، والوزراء، والأغنياء، هل بقي ذكرهم كما بقي ذكر هؤلاء الأئمة؟!! فكتمان العلم لا شك أنه ضلالة في الإنسان وجهالة.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن عقوبة الله لهم ليست ظلمًا منه؛ بل هم الذين تسببوا لها؛ حيث اشتروا الضلالة بالهدى؛ والله عز وجل ليس بظلام للعبيد.

٥ - **ومنها:** أن نشر العلم، وإظهاره، وبيانه من أسباب المغفرة؛ لأنه جعل لهم العذاب في مقابلة الكتمان، واختيارهم العذاب على المغفرة، والضلالة على الهدى؛ فدل ذلك على أن نشر العلم من أسباب مغفرة الذنوب؛ كما أن الذنوب أيضًا تحول بين الإنسان والعلم، فكذلك كتم العلم يحول بين الإنسان والمغفرة؛ وقد استدل بعض العلماء بأن الذنوب تحول بين الإنسان والعلم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]؛ فقال تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿واستغفر الله﴾؛ فدل هذا على أن الاستغفار من أسباب فتح العلم - وهو ظاهر -؛ وبقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]؛ لأن الذنوب - والعياذ بالله - رين على القلوب، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]؛ فإذا كانت رينًا عليها فإن الاستغفار يمحو هذا الرين، وتبقى القلوب نيرة مدركة واعية.

٦ - **ومن فوائد الآية:** إثبات العجب لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ - على أحد الاحتمالين -؛ وهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته؛ وكل صفة من

صفات الله تتعلق بمشيئته فهي من الصفات الفعلية.

فإذا قال قائل: ما دليلكم على أن العجب يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن له سببًا؛ وكل ما له سبب فإنه متعلق بالمشيئة؛ لأن وقوع السبب بمشيئة الله؛ فيكون ما يتفرع عنه كذلك بمشيئة الله.

٧ ـ ومنها: توبيخ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ وكان الأجدر بهم أن يتخذوا وقاية من النار لا وسيلة إليها.

٨ ـ ومنها: الإشارة إلى شدة عذابهم، كما يقال في شخص أُصِيبَ بِمَرَضٍ عَظِيمٍ: «مَا أصبره على هذا المرض!»، أي: إنَّه مرض عظيم يؤدي إلى التعجب من صبر المريض عليه.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة:١٧٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: المشار إليه ما ذكر من جزائهم؛ أي: ذلك الجزاء الذي يجازون به؛ ﴿بِأَنَّ﴾: الباء هنا للسببية؛ والرابط هنا بين السبب والمسبَّب واضح جدًّا؛ لأنه ما دام الكتاب نازلًا بالحق، فمن اللائق بهذا الكتاب المنزل بالحق أن لا يُكتم؛ الحق يجب أن يبين؛ فلما أخفاه هؤلاء استحقوا هذا العذاب؛ ومعنى: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أن ما نزل به حق، وأنه نازل من عند الله حقًّا؛ و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المراد به الجنس: القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾ لوقوع اللام في خبرها؛ أي اختلفوا في الكتاب الذي نزله الله عز وجل بحق؛ وهذا الاختلاف يشمل الاختلاف في أصله: فمنهم من آمن؛ ومنهم من كفر، والاختلافَ فيما بينهم أي فيما بين أحد الطرفين: فمنهم من استقام في تأويله؛ ومنهم من حَرَّفَ في تأويله على غير مراد الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: لفي جانب بعيد عن الحق؛ وهذا البعد يختلف: فمنهم من يكون بعيدًا جدًّا؛ ومنهم من يكون دون ذلك.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ﴾؛ والباء للسببية؛ وقد ذكر

بعض أهل العلم أن في القرآن أكثر من مائة موضع كلها تفيد إثبات العلة؛ خلافًا للجبرية ـ الذين يقولون: «إن فعل الله عز وجل ليس لحكمة؛ بل لمجرد المشيئة».

٢ ـ ومنها: الثناء على كتب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣ ـ ومنها: ثبوت العلو لله عزّ وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤ ـ ومنها: أن المختلفين في كتب الله لا يزالون في شقاق بعيد لا تتقارب أقوالهم ـ وإن تقاربت أبدانهم.

٥ ـ ومنها: أن الاختلاف ليس رحمة؛ بل إنه شقاق وبلاء؛ وبه نعرف أن ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ»(١) لا صحة له؛ وليس الاختلاف برحمة؛ بل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٩] أي: فإنهم ليسوا مختلفين؛ نعم؛ الاختلاف رحمة بمعنى: أن من خالف الحق لاجتهاد فإنه مرحوم بعفو الله عنه؛ فالمجتهد من هذه الأمة إن أصاب فله أجران؛ وإن أخطأ فله أجر واحد؛ والخطأ معفو عنه؛ وأما أن يقال هكذا على الإطلاق: «إن الاختلاف رحمة» فهذا مقتضاه أن نسعى إلى الاختلاف؛ لأنه هو سبب الرحمة على مقتضى زعم هذا المروي!!! فالصواب: أن الاختلاف شر.

قال الله تعالى:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: في هذه الآية قراءتان: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ بفتح الراء؛ و﴿ليس البرُّ﴾ بضم الراء؛ فأما على قراءة الرفع: فإن ﴿البرُّ﴾ تكون اسم ﴿لَّيْسَ﴾، و﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾ خبرها؛ وأما على قراءة النصب فتكون ﴿ٱلْبِرَّ﴾ خبر ﴿لَّيْسَ﴾، و﴿أَن

(١) موضوع: تذكرة الموضوعات (١/ ٩٠)، والمقاصد الحسنة (١/ ٦٩)، وكشف الخفاء (١/ ٦٤)، انظر «ضعيف الجامع» (٢٣٠).

﴿تُوَلُّوا﴾ اسمها مؤخرًا؛ يعني: تقدير الكلام على الأول: ليس البرُّ توليتكم وجوهكم؛ والتقدير على الثاني: ليس البرَّ توليتُكم ـ بالرفع.

و «البر» في الأصل: الخير الكثير؛ ومنه سُمِّي «البَرّ»؛ لسعته واتساعه؛ ومنه «البَرّ» اسم من أسماء الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨]؛ ومعنى الآية: ليس الخير أو كثرة الخير والبركة أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق أي جهة المشرق ـ ولا جهة المغرب أي: جهة المغرب.

وهذه الآية نزلت توطئة لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فبين الله عز وجل أنه ليس البر أن يتوجه الإنسان إلى هذا، أو هذا؛ ليس هذا هو الشأن؛ الشأن إنما هو في الإيمان بالله.. إلخ؛ أما الاتجاه فإنه لا يكون خيرًا إلا إذا كان بأمر الله؛ ولا يكون شرًّا إلا إذا كان مخالفًا لأمر الله؛ فأيّ جهة توجهتم إليها بأمر الله فهو البر؛ وجاءت الآية بذكر المشرق والمغرب؛ لأن أظْهَر وأبْيَن الجهات هي جهة المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾: فيها قراءتان؛ الأولى: ﴿ولكنِ البرُّ﴾ بالرفع؛ وعلى هذا تكون لكن مهملة غير عاملة؛ والقراءة الثانية التي في المصحف: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بتشديد نون ﴿لكنَّ﴾، فتكون عاملة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾: ﴿البر﴾ عمل؛ و﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ عامل؛ فكيف يصح أن يكون العامل خبرًا عن العمل؟

في هذا أوجه:

الوجه الأول: أن الآية على تقدير مضاف؛ والتقدير: ولكن البر بر من آمن بالله.. إلخ.

الوجه الثاني: أن الآية على سبيل المبالغة؛ وليس فيها تقدير مضاف، كأنه جعل المؤمن هو نفس البر، مثلما يقال: «رجل عدل» بمعنى أنه عادل.

الوجه الثالث: أن نجعل ﴿البر﴾ بمعنى: البارّ؛ فيكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البارَّ حقيقة القائمَ بالبر من آمن بالله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ تقدم أن «الإيمان» في اللغة بمعنى: التصديق؛ لكنه إذا قرن بالباء صار تصديقًا متضمنًا للطمأنية، والثبات، والقرار؛ فليس مجرد تصديق؛ ولو كان تصديقًا مطلقًا لكان يقال: آمنه - أي: صدقه؛ لكن «آمن به» مضمنة معنى الطمأنينة والاستقرار لهذا الشيء؛ وإذا عديت باللام - مثل: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦] - فمعناه: أنها تضمنت معنى الاستسلام والانقياد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: هو يوم القيامة؛ وسمي آخرًا؛ لأنه ليس بعده يوم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملَك؛ وهم عالَم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور،

وذللهم لعبادته، فهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم أجسام ذوو عقول؛ لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١]؛ ولقوله تعالى في وصف جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ المراد به: الجنس؛ فيشمل كل كتاب أنزله الله عز وجل على كل رسول.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّۧنَ﴾ يدخل فيهم الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، ولا عكس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى﴾ بالمد؛ بمعنى: أعطى؛ إذنْ هي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: ﴿ٱلْمَالَ﴾؛ والمفعول الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عطف عليه؛ و﴿ٱلْمَالَ﴾: كل عين مباحة النفع سواء كان هذا المال نقدًا، أو ثيابًا، أو طعامًا، أو عقارًا، أو أي شيء.

قوله تعالى: (عَلَىٰ حُبِّهِۦ) حال من فاعل (آتى)، يعني: حال كونه محبًّا له لحاجته إليه، كالجائع؛ أو لتعلق نفسه به، مثل أن يعجبه جماله، أو قوته، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أصحاب القرابة؛ والمراد: قرابة المعطي؛ وبدأ بهم قبل كل الأصناف؛ لأن حقهم آكد؛ وقد ذكروا أن القرابة ما جمع بينك وبينهم الجد الرابع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم؛ وهو من مات أبوه قبل بلوغه من ذكر أو أنثى؛ فأما من ماتت أمه فليس بيتيم؛ ومن بلغ فليس بيتيم؛ وسمي يتيمًا من اليتم؛ وهو الانفراد؛ ولهذا إذا صارت القصيدة جميلة أو قوية يقولون: هذه الدرة اليتيمة؛ يعني: أنها منفردة ليس لها نظير.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين؛ وهو الفقير؛ سُمِّي بذلك لأن الفقر أسكنه وأذله؛ والفقر - أعاذنا الله منه - لا يجعل الإنسان يتكلم بطلاقة؛ هذا في الغالب؛ لأنه يرى نفسه أنه ليس على المستوى الذي يمكنه من التكلم؛ ويرى نفسه أنه لا كلمة له، كما قال النبي ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّه»(١).

واعلم أن الفقير بمعنى: المسكين؛ والمسكين بمعنى: الفقير؛ إلا إذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى غير الآخر؛ فالفقير أشد حاجة، كما في آية الصدقة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ...﴾ [التوبة:٦٠]؛ لأن الله بدأ به؛ ويُبدأ بالأحق فالأحق والأحوج فالأحوج في مقام الإعطاء؛ ويجمعهما ـ أعني الفقير والمسكين ـ أن كلًّا منهما ليس عنده ما يكفيه وعائلته من مطعم، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح، ومركوب.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٦)، ومسلم (١٦٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ بمعنى الطريق؛ والمراد بـ ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الملازم للطريق؛ وهو المسافر؛ والمسافر يكون في حاجة غالبًا، فيحتاج إلى من يعطيه المال؛ ولهذا جعل الله له حظًّا من الزكاة؛ فابن السبيل: هو المسافر؛ وزاد العلماء قيدًا؛ قالوا: المسافر المنقطع به السفر - أي: انقطع به السفر؛ فليس معه ما يوصله إلى بلده؛ لأنه إذا كان معه ما يوصله إلى بلده فليس بحاجة؛ فهو والمقيم على حدٍّ سواء؛ فلا تتحقق حاجته إلا إذا انقطع به السفر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ جمع سائل؛ وهو المستجدي الذي يطلب أن تعطيه مالًا؛ وإنما كان إعطاؤه من البر؛ لأن معطيه يتصف بصفة الكرماء؛ ولذلك كان النبي ﷺ لا يُسأل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه؛ والسائل نوعان؛ سائل بلسان المقال: وهو الذي يقول للمسئول: أعطني كذا؛ وسائل بلسان الحال: وهو الذي يُعَرِّض بالسؤال ولا يصرح به، مثل أن يأتي على حال تستدعي إعطاءه.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: في إعتاق الرقاب، أو فكاكها من الأسر.

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذه معطوفة على ﴿ءَامَنَ﴾ التي هي صلة الموصول؛ فيكون التقدير: ومن أقام الصلاة؛ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المراد بها: الفرض والنفل؛ وإقامتها: الإتيان بها مستقيمة؛ لأن أقام الشيء يعني: جعله قائمًا مستقيمًا؛ وليس المراد بإقامة الصلاة الإعلام بالقيام إليها؛ واعلم أن «الصلاة» من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادْعُ لهم بالصلاة، فقل: صلى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطى الزكاة مستحقها؛ و«الزكاة» أيضًا من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فالزكاة في اللغة من زَكَا يَزْكُو - أي: نما، وزاد؛ وبمعنى الصلاح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] أي: أصلحها وقومها؛ لكن في الشرع «ٱلزَّكَوٰةَ» هي التعبد ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة؛ وسميت زكاة؛ لأنها تنمي الخُلق وتنمي المال، وتنمي الثواب؛ تنمي الخُلُق بأن يكون الإنسان بها كريمًا من أهل البذل، والجود، والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعًا، وعادة؛ وتنمي المال بالبركة، والحماية، والحفظ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1]؛ وتزكي الثواب، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]؛ وصَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تصدَّقَ بعَدْلِ تَمْرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا، كَمَا يُرَبِّي الإِنْسَانُ فُلُوه حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[2].

(١) رواه مسلم (٢٥٥٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٠٥).
(٢) رواه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (١٠١٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾؛ ﴿إِذَا﴾ هنا: مجردة من الشرطية؛ فهي ظرفية محضة - يعني: الموفون بعهدهم وقت العهد؛ أي: في الحال التي يعاهدون فيها؛ فإذا عاهدوا وفَّوا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: فيه إشكال من حيث الإعراب؛ لأن الذي قبله مرفوع؛ وهو غير مرفوع؛ يقول بعض العلماء؛ إنه منصوب بفعل محذوف، والتقدير: وأخص الصابرين؛ والبلاغة من هذا: إنَّهُ إذا تغير أسلوب الكلام كان ذلك أدعى للانتباه؛ فإن الإنسان إذا قرأ الكلام على نسق واحد لم يحصل له انتباه، كما يحصل عند تغير السياق.

و«الصبر» ليس بذل شيء؛ ولكنه تحمل شيء؛ وما سبق كله بذل شيء؛ فهو مختلف من حيث النوع: ﴿مَنْ ءَامَنَ ... وَأَقَامَ ... وَءَاتَى ...﴾ كل هذه أفعال؛ لكن ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ليس فعلًا؛ ولكنه تحمُّل.

و«الصبر» في اللغة: الحبس؛ ومنه قولهم: فلان قُتل صبرًا؛ أي: حبسًا؛ وأما في الشرع: فإنه حبس النفس على طاعة الله، أو عن معصيته، أو على أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ شدة الفقر؛ ومنه «البؤس» يعني: الفقر؛ و﴿الضَّرَّاء﴾: المرض؛ و﴿حين البأس﴾: شدة القتل؛ فهم صابرون في أمور لهم فيها طاقة، وأمور لا طاقة لهم بها؛ ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعني: في حال الفقر؛ لا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس، ولا يشكون أمرهم لغير الله؛ بل يصبرون عن المعصية: لا يسرقون، ولا يخونون، ولا يكذبون، ولا يغشون؛ ولا تحملهم الضراء - المرض، وما يضر أبدانهم - على أن يتسخَّطوا من قضاء الله وقدره؛ بل هم دائمًا يقولون بألسنتهم وقلوبهم: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا؛ كذلك حين البأس يصبرون، ولا يولون الأدبار - وهذا صبر على الطاعة؛ فتضمنت هذه الآية: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ الصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر عن المعصية؛ وعلى الأقدار المؤلمة؛ وعلى الطاعة؛ والترتيب فيها للانتقال من الأسهل إلى الأشد.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾؛ هذه شهادة من الله عز وجل؛ وهي أعلى شهادة؛ لأنها شهادة من أعظم شاهد سبحانه وتعالى والمشار إليهم كل من اتصف بهذه الصفات؛ والإشارة بالبعيد لما هو قريب؛ لأجل علو مرتبتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: صدقوا الله، وصدقوا عباده بوفائهم بالعهد، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك؛ والصدق هو مطابقة الشيء للواقع؛ فالمُخْبِرُ بشيء إذا كان خبره موافقًا للواقع صار صادقًا؛ والعامل الذي يعمل بالطاعة إذا كانت صادرة عن إخلاص واتباع صار عمله صادقًا؛ لأنه ينبئ عما في قلبه إنباءً صادقًا.

قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: القائمون بالتقوى؛ و«التقوى»: هي اتخاذ الوقاية

من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في تعريف التقوى؛ وتأمل كيف جاءت هذه الجملة بالجملة الاسمية المؤكدة؛ الجملة اسمية لدلالتها على الثبوت والاستمرار؛ لأن الجملة الاسمية تدل على أنها صفة ملازمة للمتصف بها؛ وهذه الجملة مؤكدة بضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد سبق ذكرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: هؤلاء جمعوا بين البر والتقوى؛ البر: بالصدق؛ والتقوى: بهذا الوصف: ﴿أولئك هم المتقون﴾؛ وإنما قلنا: إن الصدق بر؛ لقول النبي ﷺ: «عَلَيْكُم بِالصِّدقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ؛ وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ»؛ فجمعوا بين البر والتقوى؛ فهذا ما أمر الله به في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]؛ وَكَرَّر الإشارة مرة ثانية من باب التأكيد والمدح والثناء، كأن كل جملة من هاتين الجملتين مستقلة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن البر حقيقةً هو الإيمان بالله.. إلخ؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته:

أما الإيمان بوجوده: فإنه دل عليه الشرع، والحس، والعقل، والفطرة:

أ- **دلالة الشرع** على وجوده سبحانه وتعالى واضحة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

ب- **دلالة الحس**: فإن الله سبحانه وتعالى يُدعى ويجيب؛ وهذا دليل حسي على وجوده - تبارك وتعالى، كما في سورة الأنبياء وغيرها من إجابة دعوة الرسل فور دعائهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء:٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ج - **دلالة العقل**: أنّ ما من حادث إلا وله مُحدِث، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام، والتغيرات، والأحداث لابد أن يكون له موجِد مُحدِث يحدث هذه الأشياء - وهو الله عز وجل؛ إذ لا يمكن أن تَحدث بنفسها؛ لأنها قبل الوجود عدم؛ والعدم - كاسمه لا وجود له؛ ولا يمكن أن يحدثها مخلوق لِما فيها من العظم والعبر.

د- **دلالة الفطرة**: فإن الإنسان لو تُرِك وفطرته لكان مؤمنًا بالله؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]؛ حتى غير الإنسان مفطور على معرفة الرب عز وجل.

وأما الإيمان بربوبيته: فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبر له؛ وقد دل عليه ما سبق من الأدلة على وجوده؛ وقد أقر بذلك المشركون، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٧]؛ إلى غيرها من

الآيات الكثيرة.

وأما الإيمان بألوهيته: فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجود حق إلا الله عز وجل وكل ما سواه من الآلهة باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الحق.

وأما الإيمان بأسمائه، وصفاته: فهو الإيمان بما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبتته له رسله من الأسماء والصفات إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] ووجه الدلالة: تقديم الخبر في الآيتين؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٢ - ومن فوائد الآية: أن طاعة الله عز وجل من البر.

٣ - ومنها: أن الإيمان باليوم الآخر من البر؛ ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، ونعيمه، وعذابه، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والصراط، والميزان، وتناول الكتاب باليمين، أو الشمال، والجنة، وما ذُكر من نعيمها، والنار، وما ذكر من عذابها، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأمور مُفَصَّلًا أحيانًا، وَمُجْمَلًا أحيانًا.

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح، ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالى؛ فالذي يقول: إنه مؤمن باليوم الآخر، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة؛ ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد؛ كما أنه لو قيل مثلًا لإنسان عنده حَبٌّ: إنه سينزل اليوم مطر، فظلِّل الحَبّ؛ معلوم أن الذي لا يؤمن بهذا الكلام لن يغطيه؛ كذلك لو قيل: سيأتي اليوم عدو، فشدد في الحراسة؛ إذا آمن بأنه سيأتي عدو شدَّد في الحراسة بجميع ما يمكن؛ فإذا لم يشدد في الحراسة علمنا أنه لم يؤمن به.

٤ - ومن فوائد الآية: أن الإيمان بالملائكة من البر؛ ويشمل الإيمان بذواتهم، وصفاتهم، وأعمالهم إجمالًا فيما علمناه إجمالًا، وتفصيلًا فيما علمناه تفصيلًا؛ واعلم أن الملائكة - عليهم الصلاة السلام - منهم من عُين لنا، وعرفناه باسمه؛ ومنهم من لم يعين؛ فمن عُين لنا وجب علينا أن نؤمن باسمه كما عين، مثلًا «جبريل» عليه السلام؛ وإسرافيل؛ ومالك - خازن النار -؛ ومنكر ونكير إن صح الحديث بهذا اللفظ - ففيه نظر -؛ وميكائيل؛ وملك الموت - ولكننا لا نعرف اسمه؛ بعض الناس يقولون: عزرائيل؛ ولكن لم يصح هذا؛ وهاروت، وماروت؛ ثم كذلك أعمالهم منهم من علمنا أعماله؛ ومنهم من لم نعلم؛ لكن علينا أن نؤمن على سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون، وممتثلون لأمر الله عز وجل، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله؛ منهم الموكل بالقطر والنبات؛ والموكل بالنفخ في الصور؛ وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة؛ وملائكة موكلة بكتابة

أعمال بني آدم؛ وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]؛ لكن كل هذا بأمر الله عز وجل وبإذنه؛ وليس لهم منازعة لله عز وجل، ولا معاونة في أي شيء من الكون؛ قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] فنفى جميع ما يتعلق به المشركون: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [سبأ:٢٢] انفرادًا؛ ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ [سبأ:٢٢] مشاركة؛ ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ:٢٢] معاونة؛ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ:٢٣]: فنفى الشفاعة، والوساطة إلا بإذنه، ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ:٢٣]: وهم الملائكة إذا سمعوا الوحي صعقوا؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون؛ لكنهم يمتثلون أمر الله عز وجل.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان بالكتب من البر؛ وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه؛ واعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] أي: مع هؤلاء الرسل، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة:٢١٣]؛ فما من رسول إلا معه كتاب؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، والقرآن الكريم؛ وصحف موسى اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها؟ فمنهم من قال: إنها غيرها؛ ومنهم من قال: إنها هي؛ وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالًا؛ فتقول بقلبك ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله على كل رسول؛ ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى كتابًا يسمى التوراة؛ وعلى عيسى كتابًا يسمى الإنجيل؛ وعلى داود كتابًا يسمى الزبور؛ أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك؛ لأنه مُحَرَّف، ومُغَيَّر، ومُبَدَّل؛ لكن تؤمن بأن له أصلًا نزل على هؤلاء الرسل.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان بالنبيين من البر؛ فنؤمن بكل نبي أوحى الله إليه؛ فمن علمنا منهم نؤمن به بعينه؛ والباقي إجمالًا؛ وقد ورد في حديث صَحَّحَه ابن حبان أن عدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا؛ وأن عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا؛ فإن صح الحديث فهو خبر معصوم يجب علينا الإيمان به؛ وإن لم يصح فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨]؛ ونحن لا نُكَلَّف الإيمان إلا بما بلغنا؛ فالذين علمناهم من الرسل يجب علينا أن نؤمن بهم

بأعيانهم؛ والذين لم نعلمهم نؤمن بهم إجمالًا، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]؛ وقد ذكر في القرآن أربعة وعشرون رسولًا؛ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ٨٤] أي إبراهيم: ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٦]؛ فهؤلاء ثمانية عشر؛ ويبقى شعيب، وصالح، وهود، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد ﷺ.

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن إعطاء المال على حُبِّهِ من البر؛ وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به وقال: إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]؛ وعندما سمع أبو طلحة هذه الآية تصدق ببستانه الذي هو أحب شيء إليه من ماله؛ لا لأنه بستانه فقط؛ ولكن لأن الرسول ﷺ كان يأتي إليه، ويشرب فيه من ماء طيب، وكان قريبًا من مسجد الرسول ﷺ؛ ولما نزلت الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ذهب إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله أنزل هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ وإن أحب مالي إليّ «بيرُحاء»؛ وإني أضعها صدقة إلى الله ورسوله؛ فقال النبي ﷺ: «بخٍ! بخٍ! ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ! ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ! أَرَى أَنْ تَجْعَلَهُ فِي الأَقْرَبِينَ»[1].

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن إعطاء ذوي القربى أولى من إعطاء اليتامى والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

فلو سأل سائل: هل الأفضل أن أعطي القرابة أو اليتامى؟ لقلنا: أعطِ القرابة؛ اللهم إلا أن يكون هناك ضرورة في اليتامى ترجح إعطاءهم؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ تقديم صلة الرحم على العتق؛ واعلم أن الحُكْمَ إذا علق بوصف تختلف أفراده فيه قوة وضعفًا، فإنه يزداد قوة بقوة ذلك الوصف؛ فإذا كان معلقًا بالقرابة فكل من كان أقرب فهو أولى؛ وأقرب الناس إليك وأحقهم بالبر: أمك، وأبوك.

٩ - **ومن فوائد الآية**: أن لليتامى حقًّا؛ لأن الله امتدح من آتاهم المال؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ سواء كانوا فقراء أم أغنياء.

١٠ - **ومنها**: إثبات رحمة الله عز وجل، حيث ندب إلى إتيان المال لليتامى والمساكين؛ لأن هذا لا شك من الرحمة بهم.

١١ - **ومنها**: أن لابن السبيل حقًّا - ولو كان غنيًّا - في بلده.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (١١٠٦٦)، والدارمي (١٦٥٥).

١٢ ـ ومنها: أن إعطاء السائل من البر - وإن كان غنيًا -؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾.

فإذا قال قائل: إذا كان مؤتي المال للسائلين من أهل البر فكيف يتفق والتحذير من سؤال الناس؟

فالجواب: أنه لا معارضة؛ لأن الجهة منفكة؛ فالممدوح: المعطي؛ والمحذَّر: السائل المعطى؛ فإذا انفكت الجهة فلا تعارض؛ فلو رأيت مبتلى بهذه المهنة - وهي مهنة سؤال الناس - فأعطه إذا سألك، ثم انصحه، وحذره؛ لتكون مؤتيًا للمال، وناصحًا للسائل؛ لأن بعض الناس - والعياذ بالله - نعلم علم اليقين - أو يغلب على الظن المؤكد - أنه غني؛ وإنما سأل الناس تكثرًا؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أن: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَـهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ، أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»[1]؛ وأن «مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَا فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحمٍ»[2].

١٣ ـ ومن فوائد الآية: أن إعتاق الرقاب من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾؛ والمال المبذول في الرقاب لا يُعطى للرقبة؛ وإنما يعطى لمالك الرقبة؛ فلهذا أتى بـ ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية؛ والرقاب ذكر أهل العلم أنها ثلاثة أنواع:

أ ـ عبد مملوك تشتريه وتعتقه.

ب ـ مكاتب اشترى نفسه من سيده، فأعنته في كتابته.

ج ـ أسير مسلم عند الكفار، فافتديته؛ وكذلك لو أُسِرَ عند غير الكفار، مثل الذين يختطفون الآن ـ والعياذ بالله ـ؛ إذا طلب المختطفون فدية فإنه يفك من الزكاة؛ لأن فيها فك رقبة من القتل.

١٤ ـ ومنها: أن إقامة الصلاة من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٥ ـ ومنها: أن إيتاء الزكاة للمستحقين لها من البر.

١٦ ـ ومنها: الثناء على الموفين بالعهد، وأن الوفاء به في البر؛ والعهد عهدان: عهد مع الله عز وجل؛ وعهد مع الخلق.

فالعهد الذي مع الله بينه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة:١٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٠٤١)، وأحمد في «مسنده» (٧١٦٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٢٥).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (١٠٤٠).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]؛ فالعهد الذي عهد الله به إلينا أن نؤمن به ربًّا؛ فنرضى بشريعته؛ بل بأحكامه الكونية والشرعية؛ هذا العهد الذي بيننا وبين ربنا.

أما العهد الذي بيننا وبين الناس: فأنواعه كثيرة جدًّا غير محصورة؛ منها العقود، مثل عقد البيع، وعقد الإجارة، وعقد الرهن، وعقد النكاح، وغير ذلك؛ لأنك إذا عقدت مع إنسان التزمت بما يقتضيه ذلك العقد؛ إذنْ: فكل عقد فهو عهد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]؛ ومن العهود بين الخلق؛ ما يجري بين المسلمين وبين الكفار؛ وهو ثلاثة أنواع: مُؤَبَّد؛ ومُقَيَّد؛ ومطلق؛ فأما المؤبد: فلا يجوز؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الجهاد؛ وأما المقيد: فبحسب الحاجة وإن طالت المدة على القول الراجح؛ لأنه عهد دعت إليه الحاجة؛ فيتقيد بقدرها؛ وقيل: لا تجوز الزيادة فيه على عشرة سنوات؛ لأن الأصل وجوب قتال الكفار، وأبيح العهد في عشر سنوات تأسيًا برسول الله ﷺ في صلح الحديبية؛ والصحيح الأول؛ ويجاب عن عهد الحديبية بأن الحادثة لا تقتضي الزيادة؛ وأما المطلق: فهو الذي لم يؤبد، ولم يحدد؛ وهو جائز على القول الراجح عند الحاجة إليه؛ فمتى وجد المسلمون الحاجة إليه عقدوه؛ وإذا زالت الحاجة عاملوا الكفار بما تقتضيه الحال؛ ولا حجة للكفار فيه؛ لأنه مطلق.

والمعاهدون من الكفار لهم ثلاث حالات؛ الحال الأولى: أن يستقيموا لنا؛ الحال الثانية: أن يخونوا؛ الحال الثالثة: أن نخاف منهم الخيانة؛ فإن استقاموا لنا وجب علينا أن نستقيم لهم؛ ولا يمكن أن نخون أبدًا؛ لقوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧]؛ وإن خانوا نقض عهدهم ووجب قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٢]؛ وإن خفنا منهم الخيانة وجب أن ننبذ إليهم عهدهم على سواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨]: نخبرهم أن لا عهد بيننا ليكونوا على بصيرة؛ ومن العهد أيضًا: ما يقع بين الإنسان وبين غيره من الالتزامات غير العقود، مثل الوعد؛ فإن الوعد من العهد؛ ولهذا اختلف أهل العلم هل يجب الوفاء بالوعد أو لا يجب؛ والصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه يجب الوفاء بالوعد؛ لأنه داخل في العهد، ولأن إخلاف الوعد من علامات النفاق؛ وإذا كان كذلك فلا يجوز للمؤمن أن يتحلى بأخلاق المنافقين.

١٧ ـ ومن فوائد الآية: أن الصبر من البر؛ وهو ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر على طاعة الله، بأن يتحمل الصبر على الطاعة من غير ضَجَرٍ ولا كراهة.

الثاني: الصبر عن معصية الله، بأن يحمل نفسه على الكف عن معصية الله إذا دعته نفسه إليها.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة التي لا تلائم الطبيعة بأن لا يتسخط من المقدور، ولا

يتضجر؛ بل يحبس نفسه عن ذلك: قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وأعلى هذه الأنواع: الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه تحملًا ونوعًا من التعب بفعل الطاعة؛ ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه تحملًا وكفًّا عن المعصية؛ والكف أهون من الفعل؛ ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، لأنه على شيء لا اختيار للعبد فيه، ولهذا قيل: «إِمَّا أن تصبر صبر الكرام، وإِمَّا أن تسلوَ سلوَّ البهائم»[1].

١٨ ـ ومن فوائد الآية: أن ما ذُكر هو حقيقة الصدق مع الله، ومع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ فصدقهم مع الله؛ حيث قاموا بهذه الاعتقادات النافعة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين؛ وأنهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وبذلوا المحبوب في هذه الجهات؛ وأما صدقهم مع الخلق يدخل في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾؛ وهذا من علامات الصدق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ فصدقوا في اعتقاداتهم، وفي معاملاتهم مع الله، ومع الخلق.

١٩ ـ ومن فوائد الآية أن ما ذُكِر من تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؛ وسبق أنها إذا جمعت مع البر صارت التقوى ترك المحرمات، وصار البر فعل المأمورات؛ وإذا افترقا دخل أحدهما في الآخر؛ وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ مع أنهم قائمون بالبر؛ فدل هذا على أن القيام بالبر من التقوى؛ لأن حقيقة الأمر أن القائم بالبر يرجو ثواب الله، ويخشى عقاب الله.

٢٠ ـ ومنها: أن هؤلاء فقط هم المتقون؛ ونفهم ذلك من الحصر وطريقه هنا أمران:

أ ـ تعريف طرفي الجملة.

ب ـ ضمير الفصل.

تنبيه:

ظاهر الآية الكريمة العموم في إتيان المال لهؤلاء المذكورين في الآية: أولي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب؛ فظاهر الآية العموم للمسلمين والكافرين؛ لكنه غير مراد؛ بل هي خاصة بالمسلم؛ وأما الكافر فلا بأس من بره والإحسان إليه بشرط أن يكون ممن لا يقاتلوننا في ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]؛ وعلى

(١) المجالسة وجواهر العلم (١/ ٧٢٥).

هذا فإذا كان الكافر يقاتلنا بنفسه بأن يكون هذا الرجل المعين مقاتلًا، أو يقاتلنا حكمًا، مثل أن يكون من دولة تقاتل المسلمين فإنه لا يجوز بره، ولا إعطاؤه المال؛ لأنه مستعد حكمًا للقتال: إذا أمرته دولته بقتال فإنه يُلبي؛ وما دام حربًا للمسلمين فإنه يريد إعدام المسلمين، وليس أهلًا للإحسان إليه.

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ١٧٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام على ذكر فوائد تصدير الخطاب بالنداء بوصف الإيمان للمنادى.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ﴾؛ أي: فُرض، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ وسُمِّيَ الفرض مكتوبًا؛ لأن الكتابة تثبِّت الشيء وتوثقه؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلۡقِصَاصُ ﴾ هذه: نائب فاعل؛ والقصاص يشمل: إزهاق النفس وما دونها؛ قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال النبي ﷺ في كسر الربيع سن جارية من الأنصار: «كِتَابُ الله القِصَاصُ»[1]؛ ولكنه تعالى هنا قال: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾؛ وفي سورة المائدة: في القتل، وفيما دونه: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ ...﴾ [المائدة:٤٥].؟!

و«قتلى» جمع قتيل، مثل «جرحى» جمع جريح؛ و«أسرى» جمع أسير؛ وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ أي: في شأن القتلى؛ وليس في القتلى أنفسهم؛ لأن القتيل مقتول؛ فلا قصاص؛ لكن في شأنهم؛ والذي يُقتص منه هو القاتل.

وبعد العموم في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ بدأ بالتفصيل فقال تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ﴾؛ ﴿ٱلۡحُرُّ﴾ مبتدأ؛ و﴿بِٱلۡحُرِّ﴾ خبر؛ يعني: الحر يقتل بالحر؛ والباء هنا: إما للبدلية؛ وإما

(١) رواه البخاري (٢٥٥٦)، ومسلم (١٦٧٥).

للعِوَض؛ يعني: الحر بدل الحر؛ أو الحر عوض الحر؛ و﴿ٱلْحُرُّ﴾ هو الذي ليس بمملوك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ أي: العبد يقتل بالعبد؛ و﴿العبد﴾ هو المملوك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: الأنثى تقتل بالأنثى.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ «مَن» هذه شرطية؛ والفاء عاطفة ومفرِّعة أيضًا، تفيد: أن ما بعدها مفرَّع على ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾: المعفو عنه القاتل؛ و﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ المراد به: المقتول ـ أي: من دم أخيه – فأيّ قاتل عفي له من دم أخيه شيء سقط القصاص؛ وحينئذٍ على العافي اتباع بالمعروف عند قبض الدية، بحيث لا يتبع عفوه منًّا ولا أذًى؛ و﴿شَىْءٌ﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء قليلًا كان، أو كثيرًا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب اتباع بالمعروف؛ والاتباع بالمعروف يكون على ورثة المقتول؛ يعني: إذا عفوا فعليهم أن يَتَّبِعوا القاتل بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ﴾ أي: على القاتل إيصال إلى العافي عن القصاص؛ وهي معطوفة على «اتباع»؛ والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى العافي بإحسان؛ والمؤدَّى: ما وقع الاتفاق عليه.

قوله تعالى: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: يكون الأداء بإحسان وافيًا بدون مماطلة؛ والباء للمصاحبة – يعني: أداءً مصحوبًا بالإحسان – وإنما نص على «الإحسان» هنا؛ و«المعروف» هناك؛ لأن القاتل المعتدي لا يُكفِّر عنه إلا الإحسان ليكون في مقابلة إساءته؛ أما أولئك العافون فإنهم لم يجنوا؛ بل أحسنوا حين عدلوا عن القتل إلى الدية.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾: المشار إليه كل ما سبق من وجوب القصاص، ومن جواز العفو؛ تخفيف من الله في مقابل وجوب القصاص؛ وقد ذكر ابن عباس ﭬ أن بني إسرائيل فرض الله عليهم القصاص فرضًا؛ وهذه الأمة خفف عنها؛ فلم يجب عليها القصاص؛ لأن الإنسان قد يكون لديه رحمة بالقاتل؛ وقد يكون القاتل من أقاربه؛ وقد يكون اعتبارات أخرى فلا يتمكن من تنفيذ القصاص في حقه؛ فخفف على هذه الأمة؛ ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: «الرب» معناه: الخالق المالك المُدَبِّر لخلقه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: بالجميع: بالقاتل؛ حيث سقط عنه القتل، وبأولياء المقتول، حيث أبيح لهم أن يأخذوا العوض؛ لأن من الجائز أن يكون الواجب إما القصاص؛ أو العفو مجانًا؛ لكن من رحمة الله أنه أباح هذا وهذا؛ فهو رحمة بالجميع.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: ﴿من﴾ اسم شرط؛ وفعل الشرط: ﴿ٱعْتَدَىٰ﴾؛ وجوابه: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ المشار إليه في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: التنازل عن

القصاص بأخذ الدية أو قبولها؛ و﴿عَذَابٌ﴾ بمعنى عقوبة؛ و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، يعني: موجع؛ والمعنى: أن من اعتدى من أولياء المقتول بعد العفو فله عذاب أليم - ويحتمل أن يكون المراد: من اعتدى من أولياء المقتول، ومن القاتل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أهمية القصاص؛ لأن الله وجه الخطاب به إلى المؤمنين؛ وصدره بالنداء المستلزم للتنبيه؛ وتصدير الخطاب بالنداء فائدته: التنبيه، وأهمية الأمر.

٢ - **ومنها:** أن تنفيذ القصاص من مقتضى الإيمان؛ لأن الخطاب موجه للمؤمنين.

٣ - **ومنها:** أن ترك تنفيذه نقص في الإيمان؛ فما كان من مقتضى الإيمان تنفيذه فإنه يقتضي نقص الإيمان بتركه.

٤ - **ومنها:** وجوب التمكين من القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾.

٥ - **ومنها:** مراعاة التماثل بين القاتل والمقتول؛ لقوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الحر يقتل بالحر - ولو اختلفت صفاتهما، كرجل عالم عاقل غني جواد شجاع، قتل رجلًا فقيرًا أعمى أصم أبكم زمنًا جبانًا جاهلًا؛ فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾.

٧ - **ومنها:** أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا قُتل الحر بالحر فمن باب أولى أن يقتل العبد بالحر.

٨ - **ومنها:** أن العبد يقتل بالعبد - ولو اختلفت قيمتهما؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾؛ فلو قتل عبد يساوي مائة ألف عبدًا لا يساوي إلا عشرة دراهم فإنه يقتل به؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾.

٩ - **ومنها:** أن العبد إذا قتل وكان قاتله حرًّا فإنه لا يقتل به؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾؛ وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إن الحر يقتل بالعبد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥]، وقول النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ..»[1]؛ وهذا القول هو الصواب؛ والقول الثاني: أن الحر يقتل بالعبد إذا كان مالكًا له؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ»[2]؛ وفي الاستدلال بهذا الحديث نظر:

«أولًا»: للاختلاف فيه.

و«ثانيًا»: أن يقال: إذا كان السيد يقتل بعبده وهو مالكه فمن باب أولى أن يقتل به من ليس

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (١٤١٤)، والنسائي (٤٧٣٧)، وأبوداود (٤٥١٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٤٩).

بسيد له؛ وأما حديث: «لَا يُقْتَلُ حُرٌّ بِعَبْدٍ»[1] فضعيف.

١٠ - **ومنها**، أن الأنثى تقتل بالأنثى - ولو اختلفت صفاتها - لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾.

١١ - **ومنها**، أن الأنثى تقتل بالرجل؛ لأنها إذا قُتِلَتْ بالأنثى، فإنها من باب أولى تُقتل بالرجل؛ ودلالة الآية عليه من باب مفهوم الأولوية.

١٢ - **ومنها**، أن الرجل لا يُقتل بالمرأة؛ لأنه أعلى منها؛ هذا مفهوم الآية؛ والصواب: أنه يقتل بها؛ لأن النبي ﷺ قتل يهوديًا كان قتل جارية على أوضاع لها، رض رأسها بين حجرين؛ فرض النبي ﷺ رأسه بين حجرين؛ وهذا يدل أن قتله كان قصاصًا؛ لا لنقض العهد - كما قيل به.

١٣ - **ومنها**، جواز العفو عن القصاص إلى الدِّيَة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ...﴾.

وهل له أن يعفو مجانًا؟

الجواب: نعم؛ له ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى ندب إلى العفو فقال: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤]، وقال في وصف أهل الجنة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]؛ لكن العفو المندوب إليه ما كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]؛ فإذا كان في العفو إصلاح، مثل أن يكون القاتل معروفًا بالصلاح؛ ولكن بدرت منه هذه البادرة النادرة؛ ونعلم أو يغلب على ظننا أنا إذا عفونا عنه استقام، وصلحت حاله، فالعفو أفضل؛ لاسيما إن كان له ذرية ضعفاء ونحو ذلك؛ وإذا علمنا أن القاتل معروف بالشر، والفساد، وإن عفونا عنه لا يزيده إلا فساداً وإفسادًا فترك العفو عنه أولى؛ بل قد يجب ترك العفو عنه.

١٤ - **ومن فوائد الآية**، أنه إذا عفا بعض الأولياء عن القصاص سقط القصاص في حق الجميع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾؛ وهي نكرة تَعُم القليل والكثير؛ لأنها في سياق الشرط؛ وعلى هذا فلو كان لأحد ورثة المقتول جزء من ألف جزء من التركة، ثم عفا عن القصاص انسحب العفو على الجميع؛ لأن الجزء الذي عفا عنه لا قصاص فيه؛ والقصاص لا يتبعض؛ إذ لا يمكن قتل القاتل إلا جزءًا من ألف جزء منه.

١٥ - **ومنها**، أن دِيَة العمد على القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾؛ ولا شك أن المعفو عنه هو القاتل؛ وقد أمر بالأداء.

---

(١) رواه أبوداود (٤٥١٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٥٧١٧)، والدارقطني (١٥٨).

١٦ ـ **ومنها**: أن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فجعل الله المقتول أخًا للقاتل؛ ولو خرج من الإيمان لم يكن أخًا له.

١٧ ـ **ومنها**: الرد على طائفتين مُبْتَدِعَتَين؛ وهما: الخوارج والمعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج من الإيمان؛ لكن الخوارج يصرحون بكفره؛ والمعتزلة يقولون: إنه في منزلة بين المنزلتين: الإيمان، والكفر ـ فلا هو كافر؛ ولا هو بمؤمن؛ لكن اتفق الجميع على أنه مخلد في النار.

١٨ ـ **ومنها**: إنَّهُ يجب الاتباع بالمعروف ـ يعني يجب على أولياء المقتول إذا عفوا عن الدية ألا يتسلطوا على القاتل؛ بل يتبعونه بالمعروف بدون أذية، وبدون منة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ والخطاب لأولياء المقتول.

١٩ ـ **ومنها**: وجوب الأداء على القاتل بالإحسان، لقوله تعالى: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

٢٠ ـ **ومنها**: أن الله خفف عن هذه الأمة بجواز العفو، ورحمهم بجواز أخذ العوض؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾: تخفيف على القاتل؛ ورحمة بأولياء المقتول؛ حيث أذن لهم أن يأخذوا عوضًا؛ وإلا لقيل لهم: إما أن تعفوا مجانًا؛ وإما أن تأخذوا بالقصاص.

٢١ ـ **ومنها**: إثبات الرحمة لله؛ وهي رحمة حقيقية تستلزم حصول النعم واندفاع النقم؛ وأهل التعطيل يفسرونها بـ «الإنعام»: الذي هو مفعول الرب؛ أو بـ «إرادة الإنعام»؛ وينكرون حقيقة الرحمة؛ وقد ضلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إياها.

٢٢ ـ **ومنها**: أن المعتدي بعد انتهاء القصاص، أو أخذ الدية متوعد بالعذاب الأليم سواء كان من أولياء المقتول، أو من القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾؛ ﴿لكم﴾: خبر مقدم؛ و﴿حَيَوٰةٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ و﴿ٱلْقِصَاصِ﴾: هو قتل القاتل بمن قتله؛ فـ «أل» فيه للعهد؛ و﴿حَيَوٰةٌ﴾: نكرة للتعظيم؛ والمعنى: حياة كبرى أو عظمى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا أصحاب العقول؛ وإنما خاطبهم بذلك؛ لأن الحكم يحتاج إلى تعقل وتدبر؛ حتى يتبين مطابقته للعقل.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ «لعل»: للتعليل؛ والمعلَّل ثبوت القصاص؛ يعني: أوجبنا

القصاص، وكتبناه عليكم من أجل أن تتقوا العدوان بالقتل؛ فإن الإنسان إذا علم أنه مقتول بالقتل سيتقي القتل بلا شك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحكمة العظمى في القصاص؛ وهي الحياة الكاملة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾.

فإن قيل: كيف يكون لنا في القصاص حياة مع أننا قتلنا القاتل؛ فزدنا إزهاق نفس أخرى؟.

فالجواب: نعم؛ يكون لنا في القصاص حياة بأن القتلة إذا علموا أنه سَيُقْتَصُّ منهم امتنعوا عن القتل؛ فكان في ذلك تقليل للقتل، وحياة للأمة؛ ولهذا جاءت مُنكَّرة للدلالة على عِظَم هذه الحياة؛ فالتنكير هنا للتعظيم؛ يعني حياة عظيمة شاملة للمجتمع كله؛ أما بالنسبة للقاتل فيقتل؛ لكن قتل القاتل حياة للجميع.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن يُفعل بالجاني كما فَعل؛ لأن بذلك يتم القصاص؛ فإذا قتل بسكين قُتل بمثلها؛ أو بحجر قُتل بمثله؛ أو بسُمٍّ قُتل بمثله؛ وهكذا.

٣ - **ومنها:** أن كون القصاص حياة يحتاج إلى تأمل وعقل، لقوله تعالى: ﴿يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾.

٤ - **ومنها:** أنه يجب على الإنسان أن يؤمن بأحكام الشريعة دون تردد؛ وإذا رأى ما يستبعده في بادئ الأمر فليتأمل وليتعقل، حتى يتبين له أنه عين الحكمة والمصلحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾؛ فأتى بالنداء المقتضي للانتباه.

٥ - **ومنها:** أن من فوائد القصاص أن يتقي الجناة القتل؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]؛ واتقاؤهم للقتل من تقوى الله.

تنبيه: اعلم بأن للقصاص شروطًا لثبوته؛ وشروطًا لاستيفائه مذكورة على التفصيل في كتب الفقه؛ فليرجع إليها.

قال الله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ ﴾ أي: فُرض؛ فهو فعل مبني لما لم يسم فاعله؛ وفاعله معلوم - وهو الله عز وجل؛ ونائب الفاعل قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ ﴾؛ إنما لم يؤنث الفعل؛ لكون نائب الفاعل

مؤنثًا تأنيثًا مجازيًّا؛ وللفصل بينه وبين عامله.

قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يريد بذلك - والله أعلم - إذا مُرض الإنسان مرض الموت؛ أما إذا حضره- بمعنى: أنه كان في سياق الموت - فإن في ذلك تفصيلًا يأتي - إن شاء الله - في الفوائد.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: قال العلماء: أي: مالًا كثيرًا؛ و﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ هي: العهد إلى غيره بشيء هام؛ ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ يعني بذلك: الأم والأب؛ و﴿الأقربين﴾: من سواهما من القرابة؛ والمراد بهم: الأدنون؛ كالإخوة، والأعمام، ونحوهم؛ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما عرفه الشرع وأقره؛ وهو الثلث فأقل؛ ﴿حَقًّا﴾ أي: مؤكدًا؛ وهو مصدر حذف عامله؛ والتقدير: أحق ذلك حقًّا؛ ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتصفين بالتقوى؛ و«التقوى»: هي اتخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب الوصية للوالدين والأقربين لمن ترك مالًا كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ واختلف العلماء - رحمهم الله - هل هذا منسوخ بآيات المواريث؟ أم هو محكم وآيات المواريث خصصت؟ على قولين؛ فأكثر العلماء على أنه منسوخ؛ ولكن القول الراجح أنه ليس بمنسوخ؛ لإمكان التخصيص؛ فيقال: إن قوله تعالى: ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مخصوص بما إذا كانوا وارثين؛ بمعنى: إنَّهم إذا كانوا وارثين فلا وصية لهم اكتفاءً لما فرضه الله لهم من المواريث؛ وتبقى الآية على عمومها فيمن سوى الوارث.

٢ - **ومن فوائد الآية:** جواز الوصية للصحيح، والمريض، ومن حضره الموت؛ ولكن النصوص تدل على أن من حضره الموت ينقسم إلى قسمين:

الأول: من بقي معه عقله ووعيه، فوصيته نافذة حسب الشروط الشرعية.

الثاني: من فقد وعيه وعقله فلا تصح وصيته.

٣ - **ومنها:** جواز الوصية بما شاء من المال؛ لكن هذا مقيد بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: أتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»؛ قال: فالشطر؟ قال: «لا»؛ قال: فالثلث؟ قال: «الثلث؛ والثلث كثير»(١)؛ وعلى هذا فلا يزاد في الوصية على ثلث المال؛ فتكون الآية مُقَيَّدة بالحديث.

٤ - **ومنها:** أن الوصية الواجبة إنما تكون فيمن خلَّف مالًا كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ فأما من ترك مالًا قليلًا فالأفضل ألَّا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»(٢).

(١) رواه البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) انظر التخريج السابق.

٥ - ومنها: أن الوصية ليست مقيدة بجزء معين من المال؛ بل هي بالمعروف.

٦ - ومنها: أهمية صلة الرحم؛ حيث أوجب الله الوصية للوالدين والأقربين بعد الموت؛ لأن صلة الرحم من أفضل الأعمال المقربة إلى الله؛ فهذه إحدى أمهات المؤمنين أخبرت النبي ﷺ: أنها أعتقت جارية لها؛ فقال: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكِ**»(1)؛ فجعل النبي ﷺ صلة الرحم أعظم أجرًا من العتق.

٧ - ومنها: تأكيد وجوب الوصية على من ترك مالًا كثيرًا لمن ذُكر؛ وجه التوكيد قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٨ - ومنها: أن المتقين هم الذين يراعون فرائض الله؛ ولذلك وجه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

مسألة:

إذا قال قائل: كيف يكون الوالدان غير وارثين؟

فالجواب: أن ذلك ممكن، مثل أن يكون الأب أو الأم مخالفة في الدين؛ فإنه لا يرث فتوصي له.

كذلك بالنسبة للأقربين؛ فإنهم قد لا يرثون لحجبهم بمن هو أولى منهم.

مسألة ثانية:

فإن قال قائل: إن الله فرض للأب السدس مثلًا؛ وللأم السدس؛ وللزوجة الربع؛ وللزوج النصف؛ وما أشبه ذلك؛ وهذا يقتضي أن يكون لهم فرضهم كاملًا؛ ومع تنفيذ الوصية ينقص من فرضهم بقدر الوصية؟

فالجواب: أن الله بين أن حق الورثة من بعد وصية يوصى بها، أو دين؛ وعلى هذا فلا إشكال في الآية في تقدير أنصباء الورثة؛ وهذا القول هو الذي تجتمع به الأدلة.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ﴾؛ الفاء عاطفة؛ و«مَن» شرطية؛ و«بدل» فعل ماضٍ مبني على الفتح في

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (٩٩٩).

محل جزم فعل الشرط؛ وجملة: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: بدّل «الإيصاء» المفهوم من ﴿ٱلْوَصِيَّةُ ﴾؛ أي: غيّره بنقص، أو زيادة، أو منع؛ إن نقص فالضرر على الموصَى له؛ وإن زاد فعلى الورثة؛ وإن منع فعلى الموصى له؛ كل هذه الصور الثلاث تدخل في قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾: قال أهل العلم: عبر بالسمع عن العلم؛ لأن السمع من الحواس الظاهرة؛ والعلم من الإدراكات الباطنة – أي: فمن بدله بعد أن يعلمه علم اليقين، كما لو سمعه بنفسه؛ ومعلوم أن العلم بالوصية لا يتوقف على السماع؛ قد يكون بالكتابة؛ وقد يكون بالمشافهة والسماع؛ وقد يكون بشهادة الشهود؛ وما إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ الضمير يعود على التبديل.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ أي: يغيرونه؛ يعني: فهذا الإثم يعود على المُبَدِّل؛ لا على الموصي والموصى إليه من المخالفة؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين وما تضمناه من الصفات.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن من فعل الخير ثم غُيِّر بعده كُتب له ما أراد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أن من بدل الوصية جهلًا فلا إثم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾؛ ويؤخذ من هذا ـ بل من باب أولى ـ أنه لو تصرف في الوصية تصرفًا خطأً وهو معتقد أنه على صواب فإنه لا ضمان عليه؛ لأنه مُوَلًّى على التصرف فيها؛ فإذا أخطأ فلا ضمان إذا لم يكن هناك تفريط أو تعدٍّ.

٣ ـ **ومنها:** تحريم تغيير الوصية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾؛ فيجب العمل بوصية الموصِي على حسب ما أوصى إلا أن يكون جنفًا أو إثمًا.

٤ ـ **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «السميع» و«العليم»؛ وما تضمناه من الصفة والحكم الذي هو الأثر؛ فالسميع اسم؛ والسمع صفة؛ وكونه يسمع هو الأثر ـ أو الحكم؛ والعليم كذلك.

٥ ـ **ومنها:** إحاطة الله عز وجل بكل أعمال الخلق؛ لأن قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذكر عقب التهديد في قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾؛ وهذا يدل على أن الله يسمع، ويعلم ما يبدله الوصي.

٦ ـ **ومنها:** الرد على الجبرية وعلى القدرية؛ فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، ولا قدرة له، ولا اختيار؛ فأنكروا حكمة الله تعالى؛ لأنه إذا قيل بهذا القول الباطل انتفت حكمة الأمر والنهي، والثواب والعقاب؛ وصار من فعل ما أمر به أو ترك ما نُهي عنه ليس أهلًا للمدح؛ لأنه كالآلة ليس عنده قدرة ولا اختيار؛ وكذلك أبطلوا حكمة الله في الجزاء؛ لأنه ـ على أصلهم ـ يجزي

المحسن وهو غير محسن؛ ويعاقب العاصي وهو غير عاصٍ؛ والرد عليهم في قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾؛ فأضاف التبديل إلى الإنسان.

وأما القدرية فيقولون: «إن الإنسان مستقل بعمله، ولا تتعلق به إرادة الله، ولا قدرته، ولا خلقه»؛ وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة، فيقولون: «إن أفعال العبادة غير معلومة لله، ولا مكتوبة عنده»؛ وقالوا: «إن الأمر أُنُف – أي: مستأنف ـ لم يكن الله يعلم شيئًا مما نفعله؛ إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته، أو سمعه»؛ وجه الرد عليهم: إثبات العلم لله.

قال الشافعي، وغيره من السلف: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقروا به خُصِّموا؛ وإن أنكروه كُفِّروا؛ فأما إذا قالوا: «إن الله لا يعلم»؛ فكفرهم واضح لتكذيبهم القرآن؛ وأما إذا قالوا: «إنه يعلم لكن لا يقدرها، ولا يخلقها» قيل لهم: هل وقعت على وفق معلومه، أو على خلاف معلومه؟ سيقولون: «على وفق معلومه»؛ وإذا كان على وفق معلومه لزم أن تكون مرادةً له؛ وإلا لما وقعت.

فالحاصل: أن في الآية ردًّا على القدرية والجبرية؛ وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر؛ فالجبرية غلو في إثبات القدر، وفرَّطوا في أفعال العباد؛ والقدرية غلو في إثبات فعل العبد، وفرَّطوا في علم الله وإرادته؛ والوسط هو الخير؛ فأهل السنة والجماعة يثبتون لله العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق؛ كما يثبتون للإنسان إرادة وقدرة ـ لكن ذلك تابع لإرادة الله؛ وخلقه ـ؛ وتفاصيل ذلك مبسوطة في علم العقائد.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٨٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾: ﴿من﴾ شرطية؛ و﴿خَافَ﴾ فعل الشرط: وقوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي: من توقع أو اطلع.

قوله تعالى: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: «الجنف»: الميل عن غير قصد؛ و«الإثم»: الميل عن قصد.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فعَل صالحًا؛ أي: حول الأمر إلى شيء صالح؛ وليس المعنى: أصلح الشقاق؛ لأنه قد لا يكون هناك شقاق؛ هذا القول وإن كان له وجهة نظر؛ لكن كلمة: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تدل على أن المراد: إصلاح الشقاق؛ إذ إن البينية لا تكون إلا بين شيئين؛ فعلى الوجه

الأول يكون المراد بالإصلاح: إزالة الفساد؛ وعلى الوجه الثاني يكون الإصلاح فيها: إزالة الشقاق؛ لأن الغالب إذا أراد الوصي أن يغير الوصية بعد موت الموصي أن يحصل شقاق بينه وبين الورثة؛ أو بينه وبين الموصى له.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا عقوبة؛ وهذا كالمستثنى من قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ و﴿لَا﴾ نافية للجنس تعم القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملة تعليلية للحكم؛ وقد سبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن من خاف جورًا أو معصية من موصٍ فإنه يصلح؛ وهذا يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي، أو بعده؛ مثاله قبل موت الموصي: أن يستشهد الموصي، أو يستكتب شخصًا لوصيته، فيجد فيها جورًا، أو معصية، فيصلح ذلك؛ ومثاله بعد موته: أن يُطَّلع على وصية له تتضمن ما ذُكر فتُصْلح؛ مثال ذلك أن يوصي لوارث، فيُطَّلع على ذلك بعد موته، فتُصْلح الوصية، إما باستحلال الوارث الرشيد؛ وإما بإلغائها إذا لم يمكن.

٢ - **ومن فوائد الآية:** رفع الإثم عن الوصي إذا أصلح لخوفه جنفًا أو إثمًا.

٣ - **ومنها:** فضيلة الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾؛ فإن في الإصلاح درء الإثم عن الموصي، وإزالة العداوة والشحناء بين الموصى إليهم والورثة.

٤ - **ومنها:** أنه قد يعبر بنفي الإثم، أو نفي الجناح دفعًا عن توهمه؛ وعليه فلا ينافي المشروعية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]؛ ولما كان تبديل الوصية إثمًا نفى الله الإثم عمن أصلح؛ ثم تعود المسألة إلى القواعد العامة التي مقتضاها وجوب الإصلاح، ورفع الجنف والإثم.

٥ - **ومنها:** أن تغيير الوصية لدفع الإثم جائز؛ بل هو واجب بدليل آخر؛ وأما تغيير الوصية لما هو أفضل ففيه خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من قال: إنه لا يجوز؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ [البقرة:١٨١]؛ ولم يستثن إلا ما وقع في إثم فيبقى الأمر على ما هو عليه لا يغير؛ ومنهم من قال: بل يجوز تغييرها إلى ما هو أفضل؛ لأن الغرض من الوصية التقرب إلى الله عز وجل، ونفع الموصى له، فكلما كان أقرب إلى الله وأنفع للموصى له كان أولى أيضًا؛ والموصي بشر قد يخفى عليه ما هو الأفضل؛ وقد يكون الأفضل في وقت ما غير الأفضل في وقت آخر؛ ولأن النبي ﷺ أجاز تحويل النذر إلى ما هو أفضل مع وجوب الوفاء به؛ فالرجل الذي جاء إليه وقال: إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس؛ فقال ﷺ: «صلِّ ها هنا» فأعاد عليه

فقال: «صلِّ ها هنا» فأعاد الثالثة فقال ﷺ: «شَأْنَكَ إِذًا»(1).

والذي أراه في هذه المسألة: أنه إذا كانت الوصية لمعين فإنه لا يجوز تغييرها، كما لو كانت الوصية لزيد فقط؛ أو وقف وقفًا على زيد؛ فإنه لا يجوز أن يغير لتعلق حق الغير المعين به؛ أما إذا كانت لغير معين - كما لو كانت لمساجد، أو لفقراء - فلا حرج أن يصرفها لما هو أفضل.

٦ - **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الغفور» و«الرحيم»؛ وما تضمناه من وصف وحكم.

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فُرض؛ والذي فَرضه هو الله سبحانه وتعالى؛ و﴿ٱلصِّيَامُ﴾: نائب فاعل مرفوع؛ وهو في اللغة: الإمساك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا﴾ [مريم:٢٦] يعني إمساكًا عن الكلام بدليل قولها: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]؛ وأما في الشرع فإنه التعبد لله بترك المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾؛ «ما» مصدرية؛ والكاف حرف جر؛ وتفيد التشبيه؛ وهو تشبيه للكتابة بالكتابة، وليس المكتوب بالمكتوب؛ والتشبيه بالفعل دون المفعول أمر مطرد، كما في قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»(2): التشبيه هنا للرؤية بالرؤية؛ لا للمرئي بالمرئي؛ لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول إلى مصدر.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ - أي: من الأمم السابقة - يعم اليهود والنصارى، ومن قبلهم؛ كلهم كتب عليهم الصيام؛ ولكنه لا يلزم أن يكون كصيامنا في الوقت والمدة.

وهذا التشبيه فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: التسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؛ لقوله

---

(1) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٩٦١)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٠٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢١١٦)، وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي رجاله رجال الصحيح.

(2) رواه البخاري (٥٤٧)، ومسلم (١٨٢).

تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٣٩] يعني: لن يخفف عنكم العذابَ اشتراكُكم فيه - كما هي الحال في الدنيا: فإن الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شاق هان عليه؛ ولهذا قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وَلَــوْلَا كَثْـــرَةُ البَاكِيــنَ حَوْلِــي ... عَلَــى إِخْوَانِهِــمْ لَقَتَلْــتُ نَفْـسِي

وَمَــا يَبْكُــونَ مِثْــلَ أَخِــي وَلَــكِنْ ... أُسَلِّــي الــنَّفْسَ عَنْـــهُ بِالتَّـــأَسِّي

الفائدة الثانية: استكمال هذه الأمة للفضائل التي سبقت إليها الأمم السابقة؛ ولا ريب أن الصيام من أعظم الفضائل؛ فالإنسان يصبر عن طعامه، وشرابه، وشهوته لله عز وجل؛ ومن أجل هذا اختصه الله لنفسه، فقال تعالى: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**»[1].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم؛ أي: تتقون الله عز وجل؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم؛ وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية أو مصالح اجتماعية فإنها تبع.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أهمية الصيام؛ لأن الله تعالى صَدَّرَهُ بالنداء؛ وأنه من مقتضيات الإيمان؛ لأنه وَجَّه الخطاب إلى المؤمنين؛ وأنَّ تركه مخل بالإيمان.

٢ - **ومنها**: فرضية الصيام؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾.

٣ - **ومنها**: فرض الصيام على من قبلنا من الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٤ - **ومنها**: تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام به؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٥ - **ومنها**: استكمال هذه الأمة لفضائل من سبقها؛ حيث كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتترقى إلى درجة الكمال كما ترقى إليها من سبقها.

٦ - **ومنها**: الحكمة في إيجاب الصيام؛ وهي تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٧ - **ومنها**: فضل التقوى، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها؛ لأن الله أوجب الصيام لهذه الغاية؛ إذنْ هذه الغاية غاية عظيمة؛ ويدل على عظمها؛ أنها وصية الله للأولين والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

ويتفرع على هذه الفائدة: اعتبار الذرائع؛ يعني: ما كان ذريعة إلى الشيء، فإن له حكم ذلك

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١١٥١).

الشيء؛ فَلَمَّا كانت التقوى واجبة كانت وسائلها واجبة؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يبتعد عن مواطن الفتن: لا ينظر إلى المرأة الأجنبية؛ ولا يكلمها كلامًا يتمتع به معها؛ لأنه يؤدي إلى الفتنة، ويكون ذريعة إلى الفاحشة؛ فيجب اتقاء ذلك؛ حتى إن الرسول ﷺ أمر من سمع بالدجال أن يبتعد عنه حتى لا يقع في فتنته(١).

٨- **ومن فوائد الآية:** حكمة الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأننا إذا تدبرنا العبادات وجدنا أن العبادات متنوعة؛ منها ما هو مالي محض؛ ومنها ما هو بدني محض؛ ومنها ما هو مركب منهما: بدني ومالي؛ ومنها ما هو كفٌّ؛ ليتم اختبار المكلف؛ لأن من الناس من يهون عليه العمل البدني دون بذل المال؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ ومن الناس من يهون عليه بذل المحبوب ويشق عليه الكف عن المحبوب، ومنهم من يكون بالعكس؛ فمن ثَم نوَّع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبادات؛ فالصوم كف عن المحبوب قد يكون عند بعض الناس أشق من بذل المحبوب؛ ومن العجائب في زمننا هذا أن من الناس من يصبر على الصيام ويعظمه؛ ولكن لا يصبر على الصلاة، ولا يكون في قلبه من تعظيم الصلاة ما في قلبه من تعظيم الصيام؛ تجده يصوم رمضان لكن الصلاة لا يصلي إلا من رمضان إلى رمضان - إن صلى في رمضان؛ وهذا لا شك خطأ في التفكير؛ لكن الصلاة حيث إنها تتكرر كل يوم صار هينًا على هذا الإنسان تركها؛ والصوم يكون عنده تركه صعبًا؛ ولهذا إذا أرادوا ذم إنسان قالوا: إنه لا يصوم ولا يصلي - يبدؤون بالصوم.

قال الله تعالى:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا﴾ مفعول لقوله تعالى: ﴿الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ لأن الصيام مصدر يعمل عمل فعله - أي: كتب عليكم أن تصوموا أيامًا معدودات؛ و﴿أَيَّامًا﴾: نكرة؛ والنكرة تفيد القلة، وتفيد الكثرة، وتفيد العظمة، وتفيد الهون - بحسب السياق؛ لما قرنت هنا بقوله

(١) للحديث الذي رواه أبو داود من حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ «من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات» هكذا قال، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٠١).

تعالى: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أفادت القلة؛ يعني: هذا الصيام ليس أشهرًا؛ ليس سنوات؛ ليس أسابيع؛ ولكنه أيام معدودات قليلة؛ و﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ من صيغ جمع القلة؛ لأن جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم من صيغ جمع القلة؛ يعني: فهي أيام قليلة.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ كالاستثناء من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ لأن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة:١٨٣] يشمل المريض، والمسافر، والقادر، والعاجز.

و﴿من﴾ شرطية؛ و﴿كَانَ﴾ فعل الشرط؛ وجملة: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ جواب الشرط؛ و«عدة»: مبتدأ، والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليه عدة؛ ويجوز أن تكون «عدة» خبرًا، والمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عدة؛ أو فالمكتوب عدة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يعني: مرضًا يشق به الصوم؛ أو يتأخر به البرء؛ أو يفوت به العلاج، كما لو قال له الطبيب: خذ حبوبًا كل أربع ساعات، وما أشبه ذلك؛ ودليل التخصيص بمرض يشق به الصوم ما يُفهم من العلة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: السفر المبيح للفطر؛ والحكمة في التعبير بقوله: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ - والله أعلم -: أن المسافر قد يقيم في بلد أثناء سفره عدة أيام، ويباح له الفطر؛ لأنه على سفر، وليست نيته الإقامة، كما حصل للرسول ﷺ في غزوة الفتح؛ فإنه أقام في مكة تسعة عشر يومًا وهو يقصر الصلاة[(١)]، وأفطر حتى انسلخ الشهر[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: أيام مغايرة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يستطيعونه، وقال بعض أهل العلم: ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يطوّقونه؛ أي: يتكلفونه، ويبلغ الطاقة منهم حتى يصبح شاقًا عليهم؛ وقال آخرون: إن في الآية حذفًا؛ والتقدير: وعلى الذين لا يطيقونه فدية؛ وكلاهما ضعيف؛ والثاني أضعف؛ لأن هذا القول يقتضي تفسير المثبت بالمنفي؛ وتفسير الشيء بضده لا يستقيم؛ وأما القول الأول منهما فله وجه؛ لكن ما ثبت في «الصحيحين» من حديث سلمة بن الأكوع يدل على ضعفه: «**أنه أول ما كتب الصيام كان الإنسان مخيرًا بين أن يصوم؛ أو يفطر، ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها**: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ...﴾»[(٣)]؛ وكذلك ظاهر الآية يدل على ضعفه؛ لأن قوله بآخرها: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يدل على أنهم يستطيعون الصيام، وأنه خوطب به من يستطيع، فيكون ظاهر الآية مطابقًا لحديث سلمة؛ وهذا هو

---

(١) انظر صحيح البخاري (١٠٣٠).
(٢) انظر صحيح البخاري (١٨٤٦).
(٣) رواه مسلم (١١٤٥)، وأحمد في مسنده (٢٢١٧٧).

القول الراجح أن معنى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾: يستطيعونه.

قوله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر خبره: ﴿على الذين يطيقونه﴾؛ و﴿فِدْيَةٌ﴾ أي: فداء يفتدي به عن الصوم؛ والأصل أن الصوم لازم لك، وأنك مكلف به، فتفدي نفسك من هذا التكليف والإلزام بإطعام مسكين.

قوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ﴾ أي: عليهم لكل يوم طعام مسكين؛ وليس المعنى طعام مسكين لكل شهر؛ بل لكل يوم؛ ويدل لذلك القراءة الثانية في الآية: ﴿طعام مساكين﴾ بالجمع؛ فكما أن الأيام التي عليه جمع، فكذلك المساكين الذين يُطْعَمون لابد أن يكونوا جمعًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فدية طعام مساكين﴾ ثلاث قراءات؛ الأولى: ﴿فديةُ طعامِ مساكينَ﴾ بحذف التنوين في ﴿فِدْيَةٌ﴾؛ وبجر الميم في ﴿طعام﴾؛ و﴿مساكينَ﴾ بالجمع، وفتح النون بلا تنوين؛ الثانية: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾؛ بتنوين ﴿فديةٌ﴾ مع الرفع؛ و﴿طعامُ﴾ بالرفع؛ و﴿مسكينٍ﴾ بالإفراد، وكسر النون المنونة؛ الثالثة: ﴿فديةٌ طعامُ مساكينَ﴾؛ بتنوين ﴿فديةٌ﴾ مع الرفع؛ و﴿طعامُ﴾ بالرفع؛ و﴿مساكينَ﴾ بالجمع، وفتح النون بلا تنوين.

وقوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾؛ المراد بالمسكين: مَنْ لا يجد شيئًا يكفيه لمدة سنة؛ فيدخل في هذا التعريف الفقير؛ فإذا مر بك المسكين فهو شامل للفقير؛ وإذا مَرَّ بك الفقير فإنه شامل للمسكين؛ أما إذا جمعا فقد قال أهل العلم: إن بينهما فرقًا: فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ الفقير هو الذي لا يجد نصف كفاية سنة؛ وأما المسكين فيجد النصف فأكثر دون الكفاية لمدة سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ ﴿تَطَوَّعَ﴾ فعل الشرط؛ وجوابه جملة: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق؛ والتقدير: فمن تطوّع تطوعًا خيرًا؛ أي: فمن فعل الطاعة على وجه خير فهو خير له؛ ويحتمل أن تكون ﴿خَيْرًا﴾ مفعولًا لأجله؛ والمعنى: فمن تطوع يريد خيرًا؛ والمراد على كلا التقديرين واحد؛ يعني: فمن فعل الطاعة يقصد بها الخير فهو خير له؛ ومعلوم أن الفعل لا يكون طاعة إلا إذا كان موافقًا لمرضاة الله عز وجل بأن يكون خالصًا لوجهه موافقًا لشريعته؛ فإن لم يكن خالصًا لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ وإن كان خالصًا على غير الشريعة لم يكن طاعة، ولا يقبل؛ لأن الأول شرك؛ والثاني بدعة.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾: اختلف في ﴿خَيْرٌ﴾ هل نقول: هي للتفضيل؛ أي: خير له من سواه؛ أو نقول: إن ﴿خَيْرٌ﴾ اسم دال على مجرد الخيرية بدون مُفَضَّل، ومُفَضَّل عليه – وهذا هو الأقرب – ويكون المراد: أن من تطوع بالفدية فهو خير له؛ ومطابقة هذا المعنى لظاهر الآية واضح.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: المراد بالخير هنا: التفضيل؛ يعني: أن تصوموا خير لكم من الفدية؛ وهذا يمثل به النحويون للمبتدأ المؤول: فإن قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ فعل

مضارع مسبوك مع ﴿أن﴾ المصدرية بمصدر؛ والتقدير: صومكم خير لكم - يعني: من الفدية.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ هذه جملة مستأنفة؛ والمعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافهموا؛ و﴿إن﴾ ليست شرطية فيما قبلها - يعني: ليست وصلية - كما يقولون؛ لأنه ليس المعنى: خيرًا لنا إن علمنا؛ فإن لم نعلم فليس خيرًا لنا؛ بل هو مُسْتَأْنَفٌ؛ ولهذا ينبغي أن نقف على قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الصوم أيامه قليلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

٢ - **ومنها:** التعبير بكلمات يكون بها تهوين الأمر على المخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

٣ - **ومنها:** رحمة الله عز وجل بعباده؛ لقلة الأيام التي فرض عليهم صيامها.

٤ - **ومنها:** أن المشقة تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ لأن المرض والسفر مظنة المشقة.

٥ - **ومنها:** جواز الفطر للمرض؛ ولكن هل المراد مطلق المرض - وإن لم يكن في الصوم مشقة عليه؛ أو المراد المرض الذي يشق معه الصوم، أو يتأخر معه البرء؟ الظاهر الثاني؛ وهو مذهب الجمهور؛ لأنه لا وجه لإباحة الفطر بمرض لا يشق معه الصوم، أو لا يتأخر معه البرء؛ هذا وللمريض حالات:

الأولى: ألّا يضره الصوم، ولا يشق عليه؛ فلا رخصة له في الفطر.

الثانية: أن يشق عليه، ولا يضره؛ فالصوم في حقه مكروه؛ لأنه لا ينبغي العدول عن رخصة الله.

الثالثة: أن يضره الصوم؛ فالصوم في حقه محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

٦ - **ومن فوائد الآية:** جواز الفطر في السفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ وللمسافر باعتبار صومه في سفره حالات ثلاث:

الأولى: ألّا يكون فيه مشقة إطلاقًا؛ يعني: ليس فيه مشقة تزيد على صوم الحضر؛ ففي هذه الحال الصوم أفضل؛ وإن أفطر فلا حرج؛ ودليله: أن الرسول ﷺ كان يصوم في السفر، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: **«خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ؛ وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة»**[1]؛ ولأن الصوم في السفر أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أسهل عليه غالبًا لكون الناس

---

(١) رواه البخاري (١٨٤٣)، ومسلم (١١٢٢).

مشاركين له، وثقل القضاء غالبًا؛ ولأنه يصادف شهر الصوم - وهو رمضان.

الحال الثانية: أن يشق عليه الصوم مشقة غير شديدة؛ فهنا الأفضل الفطر؛ والدليل عليه أن النبي ﷺ كان في سفر، فرأى زحامًا، ورجلًا قد ظُلل عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم؛ فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1]؛ فنفى النبي ﷺ البر عن الصوم في السفر.

فإن قيل: إن من المتقرر في أصول الفقه؛ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يقتضي نفي البر عن الصوم في السفر مطلقًا؟.

فالجواب: أن معنى قولنا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يعني: أن الحكم لا يختص بعين الذي ورد من أجله؛ وإنما يعم من كان مثل حاله؛ وقد نَصَّ على هذه القاعدة ابن دقيق العيد في شرح الحديث في« العمدة»؛ وهو واضح.

الحال الثالثة: أن يشق الصوم على المسافر مشقة شديدة؛ فهنا يتعين الفطر؛ ودليله: ما ثبت في «الصحيح »أن الرسول ﷺ كان في سفر، فشُكي إليه أن الناس قد شق عليهم الصيام وإنهم ينتظرون ما يفعل؛ فدعا بماء بعد العصر، فشربه، والناس ينظرون؛ ثم جيء إلى النبي ﷺ، وقيل له: إن بعض الناس قد صام فقال ﷺ: «أُولَئِكَ الْعُصَاةُ! أُولَئِكَ الْعُصَاةُ!» [2]؛ والمعصية لا تكون إلا في فعلِ مُحَرَّمٍ؛ أو تَرْكِ وَاْجِبٍ.

٧ - ومن فوائد الآية: أن السفر الذي يباح فيه الفطر غير مقيد بزمن، ولا مسافة؛ لإطلاق السفر في الآية؛ وعلى هذا يرجع فيه إلى العرف: فما عَدَّهُ الناس سفرًا فهو سفر؛ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن تحديده بزمن أو مسافة يحتاج إلى دليل.

٨ - ومنها: أن المتهيئ للسفر كالخارج فيه - وإن كان في بلده؛ فإنه يجوز أن يفطر؛ وكان أنس بن مالك يفعل ذلك، ويقول: «السنة»[3]؛ لكن هذا الحديث فيه مقال؛ لكن على رأي من أثبته يقول: الإنسان إذا عزم على سفر أصبح مفطرًا، وقالوا: هذا خير من كونه يصوم ثم يفطر؛ لأنه لم يدخل في العبادة أصلًا؛ لكن جمهور أهل العلم على خلاف هذا القول، وعلى خلافٍ بينهم: أيجوز لمن سافر في خلال اليوم أن يفطر؟ والصحيح: أنه يجوز لدلالة السنة على ذلك.

٩ - ومن فوائد الآية: أن الظاهرية استدلوا بها على أن من صام في السفر لم يجزئه؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فأوجب الله سبحانه وتعالى على المريض والمسافر عدة من أيام أخر؛ فمن صام وهو مريض أو مسافر صار كمن صام قبل دخول رمضان، وقالوا: «إن الآية ليست فيها شيء محذوف»؛ وهذا القول لولا أن السنة بَيَّنَتْ جواز الصوم لكان له وجه قوي؛ لأن الأصل

---

(١) رواه البخاري (١٨٤٤)، ومسلم (١١١٥).

(٢) رواه مسلم (١١١٤)، والترمذي (٧١٠)، والنسائي (٢٢٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٧٩٩).

عدم الحذف؛ لكن أجاب الجمهور عن هذا؛ بأن الحذف متعين، وتقدير الكلام: فمن كان مريضًا، أو على سفر فأفطر فعليه عدة من أيام أخر؛ لأن النبي ﷺ صام في رمضان في السفر والصحابة معه منهم الصائم، ومنهم المفطر، ولم يعب أحد على أحد؛ ولو كان الصوم حرامًا ما صامه النبي ﷺ، ولأنكر المفطر على الصائم.

١٠ - ومن فوائد الآية: أنه لو صام عن أيام الصيف أيام الشتاء فإنه يُجْزِئُ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ وجهه: أن ﴿أَيَّامٍ﴾ نكرة.

١١ - ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى في التدرج بالتشريع؛ حيث كان الصيام أول الأمر يُخَيَّر فيه الإنسان بين أن يصوم، ويطعم؛ ثم تعين الصيام كما يدل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

١٢ - ومنها: أن من عجز عن الصيام عجزًا لا يرجى زواله، فإنه يطعم عن كل يوم مسكينًا؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى جعل الإطعام عديلًا للصيام حين التخيير بينهما؛ فإذا تعذر الصيام وجب عديله؛ ولهذا ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصيام، فيطعمان عن كل يوم مسكينًا[1].

١٣ - ومنها: أنه يرجع في الإطعام في كيفيته ونوعه إلى العرف؛ لأن الله تعالى أطلق ذلك؛ والحكم المطلق إذا لم يكن له حقيقة شرعية يرجع فيه إلى العرف.

١٤ - ومنها: أنه لا فرق بين أن يُمَلِّك الفقير ما يطعمه، أو يجعله غداءً أو عشاءً؛ لأن الكل إطعام؛ وكان أنس بن مالك رضي الله عنه حين كبر يطعم أدْمًا وخبزًا.

١٥ - ومنها: أن ظاهر الآية لا يشترط تمليك الفقير ما يطعم؛ وهو القول الراجح؛ وقال بعض أهل العلم: إنه يشترط تمليكه؛ فيعطى مُدًّا من البر؛ أو نصف صاع من غيره؛ وقيل: يعطى نصف صاع من البر، وغيره؛ واستدل القائلون بالفرق بين البر وغيره بما قاله معاوية رضي الله عنه في زكاة الفطر: «**أرى المد من هذه - يعني البر - يعدل مدين من الشعير**»[2] فعدل به الناس، وجعلوا الفطرة من البر نصف صاع؛ واستدل القائلون بوجوب نصف صاع من البر وغيره بحديث كعب بن عجرة رضي الله عنه حين أذن له النبي ﷺ بحلق رأسه وهو مُحْرِمٌ أن النبي ﷺ قال له مُبَيِّنًا المجمل في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، فقال في الصدقة: «**أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نصفُ صاعٍ**»[3]؛ ولم يفرق النبي ﷺ بين طعام وآخر.

---

(١) انظر إرواء الغليل (٤/ ٦٤).

(٢) انظر صحيح البخاري (١٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٧٢١)، وابن ماجه (٣٠٧٩)، وأحمد في «مسنده» (١٨١٤٥).

١٦ - ومن فوائد الآية: أن طاعة الله - تبارك وتعالى - كلها خير؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾.

١٧ - ومنها: ثبوت تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ فينبني على ذلك أن الناس يتفاضلون في الأعمال؛ وهو ما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، والواقع؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦]؛ والنصوص في هذا كثيرة.

١٨ - ومن فوائد الآية: التنبيه على فضل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾؛ الشهر هو مدة ما بين الهلالين؛ وسُمِّي بذلك لاشتهاره؛ ولهذا اختلف العلماء هل الهلال ما هَلَّ في الأفق - وإن لم يُرَ؛ أم الهلال ما رُئي واشتهر؟ والصواب الثاني، وأن مجرد طلوعه في الأفق لا يترتب عليه حكم شرعي حتى يُرى ويتبين ويُشهد، إلا أن يكون هناك مانع من غيم أو نحوه؛ و﴿شَهْرُ﴾ مضاف؛ و﴿رَمَضَانَ﴾ مضاف إليه ممنوع من الصرف بسبب العلمية وزيادة الألف والنون؛ مأخوذ من الرَّمْض؛ واختلف لماذا سمي برمضان؛ فقيل: لأنه يرمض الذنوب - أي: يحرقها؛ وقيل: لأنه أول ما سميت الشهور بأسمائها صادف أنه في وقت الحر والرمضاء؛ فَسُمِّيَ شهر رمضان؛ وهذا أقرب؛ لأن هذه التسمية كانت قبل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هي – أي: الأيام المعدودات – شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾؛ ﴿الَّذِي﴾ صفة لـ﴿شَهْرُ﴾؛ فمحلها الرفع؛ و﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: أنزله الله سبحانه وتعالى فيه؛ ومعروف أن النزول يكون من فوق؛ لأن القرآن كلام الله عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى فوق السموات على العرش؛ و﴿الْقُرْآنُ﴾ مصدر مثل الغفران والشكران؛ كلها مصادر؛ ولكن هل هو بمعنى اسم الفاعل؛ أو بمعنى اسم المفعول؟ قيل: إنه بمعنى اسم المفعول – أي: المقروء؛ وقيل: بمعنى اسم الفاعل – أي: القارئ؛ فالمعنى على الأول واضح؛ والمعنى على الثاني: أنه جامع لمعاني الكتب السابقة؛ أو جامع لخيري الدنيا والآخرة؛ ولا يمتنع أن نقول: إنه بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول؛ وهل المراد بـ (القرآن الجنس) فيشمل بعضه؛ أو المراد به العموم فيشمل كله؟ قال بعض أهل العلم: إن «أل» للعموم فيشمل كل القرآن؛ وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين المتأخرين؛ وعلى هذا القول يشكل الواقع؛ لأن الواقع أن القرآن نزل في رمضان، وفي شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة.. في جميع الشهور؛ ولكن أجابوا عن ذلك بأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في رمضان، وصار جبريل يأخذه من هذا البيت، فينزل به على رسول الله ﷺ[(1)]؛ لكن هذا الأثر ضعيف؛ ولهذا الصحيح أن «أل» هنا للجنس؛ وليست للعموم؛ وأن معنى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: ابتُدئ فيه إنزاله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] أي: ابتدأنا إنزاله.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ ﴿هُدًى﴾: مفعول من أجله؛ أو حال من ﴿الْقُرْآنُ﴾؛ فإذا كانت مفعولًا من أجله فالمعنى: أنزل لهداية الناس؛ وإذا كانت حالًا فالمعنى: أنزل هاديًا للناس ـ وهذا أقرب؛ و﴿هُدًى﴾ من الهداية؛ وهي الدلالة؛ فالقرآن دلالة للناس يستدلون به على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ و﴿لِّلنَّاسِ﴾ أصلها الأناس؛ ومنه قول الشاعر:

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

لكن لكثرة استعمالها حذفت الهمزة تخفيفًا، كما حذفت من «خير» و«شر» اسمي تفضيل؛ والمراد بهم البشر؛ لأن بعضهم يأنس ببعض ويستعين به؛ فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي كل الناس يهتدون به ـ المؤمن والكافر ـ الهداية العلمية؛ أما الهداية العملية: فإنه هدًى للمتقين، كما في أول السورة؛ فهو للمتقين هداية علمية وعملية؛ وللناس عمومًا فهو هداية علمية.

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٧٩٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٨١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠١٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: وآياتٍ بيِّنات، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٩]؛ والمعنى: أن القرآن اشتمل على الآيات البينات؛ أي: الواضحات؛ فهو جامع بين الهداية والبراهين الدالة على صدق ما جاء فيه من الأخبار، وعلى عدل ما جاء فيه من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ صفة لـ﴿بينات﴾ يعني: أنها بينات من الدلالة والإرشاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾: مصدر، أو اسم مصدر؛ والمراد: أنه يفرق بين الحق والباطل؛ وبين الخير والشر؛ وبين النافع والضار؛ وبين حزب الله وحرب الله؛ فرقان في كل شيء؛ ولهذا من وفق لهداية القرآن يجد الفرق العظيم في الأمور المشتبهة؛ وأما من في قلبه زيغ فتشتبه عليه الأمور؛ فلا يفرق بين الأشياء المفترقة الواضحة.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾؛ ﴿شَهِدَ﴾ بمعنى: شاهد؛ وقيل: بمعنى حضر؛ فعلى القول الأول يرد إشكال في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرَ﴾؛ لأن الشهر مدة ما بين الهلالين؛ والمدة لا تشاهد؛ والجواب: أن في الآية محذوفًا؛ والتقدير: فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه؛ والقول الثاني أصح: أن المراد بـ﴿شَهِدَ﴾ حضر؛ ويرجح هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾؛ لأن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ يقابل الحضر.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ أي: فليصم نهاره.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ هذه الجملة سبقت؛ لكن لما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، وكانت هذه الآية ناسخة لما قبلها قد يظن الظان أنه نسخ حتى فطر المريض والمسافر؛ فأعادها سبحانه وتعالى تأكيدًا لبيان الرخصة، وأن الرخصة ـ حتى بعد أن تعين الصيام ـ باقية؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ وعليه فليست هذه الجملة من الآية تكرارًا محضًا؛ بل تكرار لفائدة؛ لأنه تعالى لو قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ ولم يقل: ﴿وَمَن كَانَ ...﴾، لكان ناسخًا عامًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تقدم الكلام عليها إعرابًا ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ...﴾؛ و﴿يُرِيدُ﴾ أي: يحب؛ فالإرادة شرعية؛ والمعنى: يحب لكم اليسر؛ وليست الإرادة الكونية؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد بنا اليسر كونًا ما تعسرت الأمور على أحد أبدًا؛ فتعين أن يكون المراد بالإرادة هنا: الشرعية؛ ولهذا لا تجد - والحمد لله - في هذه الشريعة عسرًا أبدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾؛ الواو عاطفة؛ واللام لام التعليل؛ لأنها مكسورة؛ ويكون

العطف على قوله تعالى: ﴿ٱلۡيُسۡرَ﴾؛ يعني: يريد الله سبحانه وتعالى بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر؛ ويريد لتكملوا العدة؛ و«أراد» إذا تعدت باللام فإن اللام تكون زائدة من حيث المعنى؛ لكن لها فائدة؛ وذلك؛ لأن الفعل «أراد»: يتعدى بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء:٢٧]؛ وهنا: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ يعني: وأن تكملوا العدة؛ أي: ويريد الله منا شرعًا أن نكمل العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ فيها قراءتان؛ بتخفيف الميم؛ وتشديدها؛ وهما بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ الواو للعطف؛ و﴿وَلِتُكَبِّرُواْ﴾ معطوفة على ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ بإعادة حرف الجر؛ أي: ولتقولوا: الله أكبر؛ والتكبير يتضمن: الكِبَرَ بالعظمة، والكبرياءِ، والأمورِ المعنوية؛ والكِبَر في الأمور الذاتية؛ فإن السموات السبع والأرض في كف الرحمن كحبة خردل في كف أحدنا؛ والله أكبر من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾؛ ﴿عَلَىٰ﴾: قيل: إنها للتعليل؛ وليست للاستعلاء؛ أي: تكبروه لهدايتكم؛ وعبر بـ﴿عَلَىٰ﴾ دون اللام إشارة - والله أعلم - إلى أن التكبير يكون في آخر الشهر؛ لأن أعلى كل شيء آخره؛ و﴿مَا﴾ هنا: مصدرية تسبك هي وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: على هدايتكم؛ وهذه الهداية تشمل: هداية العلم؛ وهداية العمل؛ وهي التي يعبر عنها أحيانًا بهداية الإرشاد وهداية التوفيق؛ فالإنسان إذا صام رمضان وأكمله، فقد منَّ الله عليه بهدايتين: هداية العلم، وهداية العمل.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: تقومون بشكر الله عز وجل؛ و«لعل» هنا للتعليل؛ و﴿تَشۡكُرُونَ﴾ على أمور أربعة: إرادة الله بنا اليسر؛ عدم إرادته العسر؛ إكمال العدة؛ التكبير على ما هدانا؛ هذه الأمور كلها نِعَم تحتاج منا أن نشكر الله عز وجل عليها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ و«الشكر» هو القيام بطاعة المنعم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان الأيام المعدودات التي أبهمها الله عز وجل في الآيات السابقة؛ بأنها شهر رمضان.

٢ ـ **ومنها:** فضيلة هذا الشهر؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صومه.

٣ ـ **ومنها:** أن الله تعالى أنزل القرآن في هذا الشهر؛ وقد سبق في التفسير هل هو ابتداء إنزاله؛ أو أنه نزل كاملًا؛ والظاهر: أن المراد ابتداء إنزاله؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يتكلم بالقرآن حين إنزاله؛ وقد أنزله جل وعلا مفرقًا؛ فيلزم من ذلك أن لا يكون القرآن كله نزل في هذا الشهر.

٤ ـ **ومنها:** أن القرآن كلام الله عز وجل؛ لأن الذي أنزله هو الله، كما في آيات كثيرة أضاف الله

سبحانه وتعالى إنزال القرآن إلى نفسه؛ والقرآن كلام لا يمكن أن يكون إلا بمتكلم؛ وعليه يكون القرآن كلام الله عز وجل؛ وهو كلامه سبحانه وتعالى لفظه ومعناه.

٥ - **ومنها**: ما تضمنه القرآن من الهداية لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

٦ - **ومنها**: أن القرآن الكريم متضمن لآيات بينات واضحة لا تخفى على أحد إلا على من طمس الله قلبه فلا فائدة في الآيات، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

٧ - **ومنها**: أن القرآن الكريم فرقان يفرق بين الحق والباطل؛ وبين النافع والضار؛ وبين أولياء الله وأعداء الله؛ وغير ذلك من الفرقان فيما تقتضي حكمته التفريق فيه.

٨ - **ومنها**: وجوب الصوم متى ثبت دخول شهر رمضان؛ وشهر رمضان يثبت دخوله إما بإكمال شعبان ثلاثين يومًا، أو برؤية هلاله؛ وقد جاءت السنة بثبوت دخوله إذا رآه واحد يوثق بقوله.

٩ - **ومنها**: لا يجب الصوم قبل ثبوت دخول رمضان.

ويتفرع على هذا: أنه لو كان في ليلة الثلاثين من شعبان غيم أو قتر يمنع من رؤية الهلال فإنه لا يصام ذلك اليوم؛ لأنه لم يثبت دخول شهر رمضان؛ وهذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم؛ بل ظاهر حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما أن من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ؛ أي: إنَّ صيامه إثم.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: التعبير بـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾؛ قال أهل العلم: «وهذا أولى»؛ ويجوز التعبير بـ «رمضان» - بإسقاط «شهر»؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» و«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا»(١)، وقوله ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ»(٢)؛ ولا عبرة بقول من كره ذلك.

١١ - **ومن فوائد الآية**: تيسير الله - تبارك وتعالى - على عباده؛ حيث رخص للمريض الذي يشق عليه الصوم وللمسافر مطلقًا أن يفطرا، ويقضيا أيامًا أُخَر.

١٢ - **ومنها**: إثبات الإرادة لله عز وجل؛ وإرادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية: وهي التي بمعنى المشيئة؛ ويلزم منها وقوع المراد سواء كان مما يحبه الله، أو مما لا يحبه الله؛ ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

(١) رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٢) رواه البخاري (١٧٩٩)، ومسلم (١٠٧٩).

وإرادة شرعية: بمعنى المحبة؛ ولا يلزم منها وقوع المراد؛ ولا تتعلق إلا فيما يحبه الله عز وجل؛ ومنها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨].

١٣ ـ ومن فوائد الآية: أن شريعة الله سبحانه وتعالى مبنية على اليسر والسهولة؛ لأن ذلك مراد الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[1]؛ وكان ﷺ يبعث البعوث، ويقول: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا؛ وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»[2]؛ «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِين»[3].

١٤ ـ ومنها: انتفاء الحرج والمشقة والعسر في الشريعة؛ لقوله عز وجل: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

١٥ ـ ومنها: أنه إذا دار الأمر بين التحليل والتحريم فيما ليس الأصل فيه التحريم فإنه يغلب جانب التحليل؛ لأنه الأيسر والأحب إلى الله.

١٦ ـ ومنها: الأمر بإكمال العدة؛ أي: بالإتيان بعدة أيام الصيام كاملًا.

١٧ ـ ومنها: مشروعية التكبير عند تكميل العدة؛ لقوله الله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾؛ والمشروع في هذا التكبير أن يقول الإنسان: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد»؛ وإن شاء أوتر فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد»؛ وإن شاء أوتر باعتبار الجميع فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد»؛ فالأمر في هذا واسع - ولله الحمد.

١٨ ـ من فوائد الآية: أن الله يشرع الشرائع لحكمة وغاية حميدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٩ ـ ومنها: الإشارة إلى أن القيام بطاعة الله من الشكر؛ ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الـمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الـمُرْسَلِينَ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]؛ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]»[4]؛ وهذا يدل على أن الشكر هو العمل الصالح.

٢٠ ـ ومنها: أن من عصى الله عز وجل فإنه لم يقم بالشكر، ثم قد يكون الإخلال كبيرًا؛ وقد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

(٣) رواه البخاري (٢١٧)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٥٦)، وأبوداود (٣٨٠).

(٤) سبق تخريجه.

يكون الإخلال صغيرًا - حسب المعصية التي قام بها العبد.

تنبيه:

استنبط بعض الناس أن من كانوا في الأماكن التي ليس عندهم فيها شهور، مثل الذين في الدوائر القطبية، يصومون في وقت رمضان عند غيرهم عدة شهر؛ لأن الشهر غير موجود؛ وقال: إن هذا من آيات القرآن؛ فقد جاء التعبير صالحًا حتى لهذه الحال التي لم تكن معلومة عند الناس حين نزول القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ؛ والمراد بقوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾: المؤمنون؛ وقوله تعالى: ﴿عَنِّى﴾ أي: عن قربي وإجابتي؛ بدليل الجواب: وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: بعضهم قال: إنه على تقدير «قل» أي: إذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب؛ فيكون جواب ﴿إِذَا﴾ محذوفًا؛ و﴿إني قريب﴾ مقول القول المحذوف؛ ويحتمل أن يكون الجواب جملة: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ لوضوح المعنى بدون تقدير؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ يعود إلى الله.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ ﴿قَرِيبٌ﴾ خبر «إن»، و﴿أُجِيبُ﴾ خبر ثان لـ «إن»؛ فيكون خبرها الأول مفردًا؛ وخبرها الثاني جملة؛ و«الدعاء»: بمعنى الطلب؛ و﴿ٱلدَّاعِ﴾ أصلها «الداعي» بالياء، كـ«القاضي» و«الهادي»؛ لكن حذفت الياء للتخفيف نظيرها قوله تعالى: ﴿الكبير المتعال﴾؛ وأصلها: «المتعالي».

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱلدَّاعِ﴾ - لأنه لا يوصف بأنه داع إلا إذا دعا؟

فالجواب: أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ أي: إذا صدق في دعائه إياي بأن شُعر بأنه في حاجة إلى الله، وأن الله قادر على إجابته، وأخلص الدعاء لله بحيث لا يتعلق قلبه بغيره.

وقوله تعالى: ﴿دَعَانِ﴾ أصلها «دعاني» - بالياء، فحذفت الياء تخفيفًا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليجيبوا لي؛ لأن «استجاب» بمعنى: أجاب، كما قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] أي: أجاب، وكما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ عدَّاها باللام؛ لأنه ضمن معنى الانقياد - أي: فلينقادوا لي؛ وإلا لكانت «أجاب» تتعدى بنفسها؛ نظيرها قوله ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «فإن هم أجابوا لك بذلك»(1)؛ فضَمَّن الإجابة معنى الانقياد.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: وليؤمنوا بأني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان؛ واللام في الفعلين: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾، و﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ لام الأمر؛ ولهذا سكنت بعد حرف العطف.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ وكلما جاءت «لعل» في كتاب الله فإنها للتعليل؛ إذ إن الترجي لا يكون إلا فيمن احتاج، ويؤمل كشف ما نزل به عن قرب؛ أما الرب عز وجل فإنه يستحيل في حقه هذا.

و«الرشد» يطلق على معانٍ؛ منها: حُسن التصرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:٦]؛ ولا شك أن من آمن بالله واستجاب له فإنه أحسن الناس تصرفًا، ويوفّق، ويُهدى، وتُيسر له الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:٧].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن الصيام مظنة إجابة الدعاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في أثناء آيات الصيام؛ ولا سيما أنه ذكرها في آخر الكلام على آيات الصيام.

وقال بعض أهل العلم: يستفاد منها فائدة أخرى: أنه ينبغي الدعاء في آخر يوم الصيام ـ أي: عند الإفطار.

٢ ـ ومنها: رأفة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾؛ حيث أضافهم إلى نفسه تشريفًا وتعطفًا عليهم.

٣ ـ ومنها: إثبات قرب الله سبحانه وتعالى؛ والمراد قرب نفسه؛ لأن الضمائر في هذه الآية كلها ترجع إلى الله؛ وعليه فلا يصح أن يحمل القرب فيها على قرب رحمته أو ملائكته؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، ويقتضي تشتيت الضمائر بدون دليل؛ ثم قرب الله عز وجل هل هو خاص بمن يعبده، أو يدعوه؛ أو هو عام؟ على قولين؛ والراجح: أنه خاص بمن يعبده أو يدعوه؛ لأنه لم يَرِد

---

(١) رواه البخاري (١٣٣١)، ومسلم (١٩).

وصف الله به على وجه مطلق؛ وليس كالمعية التي تنقسم إلى عامة، وخاصة.

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦،١٧] ـ وهذا عام؟

فالجواب: أن المراد بالقرب في هذه الآية: قرب ملائكته بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، ومثلها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]: فإن المراد بها: قرب الملائكة الذين يقبضون الروح.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين قربه جل وعلا وعلوه؟

فالجواب: أن الله أثبت ذلك لنفسه ـ أعني القرب والعلو؛ ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين صفتين متناقضتين؛ ولأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو قريب في علوه عليٌّ في دنوه.

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات سمع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ﴾؛ لأنه لا يجاب إلا بعد أن يُسمعَ ما دعا به.

٥ - **ومنها:** إثبات قدرة الله؛ لأن إجابة الداعي تحتاج إلى قدرة.

٦ - **ومنها:** إثبات كرم الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

٧ - **ومنها:** أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي صادق الدعوة في دعوة الله عز وجل، بحيث يكون مخلصًا مشعرًا نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعرًا نفسه بكرم الله وجوده؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

٨ - **ومنها:** أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسألته؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرعًا إلى الله وإلحاحًا في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر - والله أعلم - في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾.

٩ - **ومنها:** أن الإنابة إلى الله عز وجل والقيام بطاعته سبب للرشد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

١٠ - **ومنها:** أن الاستجابة لابد أن يصحبها إيمان؛ لأن الله قرن بينهما؛ فمن تعبد لله سبحانه وتعالى وهو ضعيف الإيمان بأن يكون عنده تردد - والعياذ بالله - أو شك فإنه لا ينفعه؛ أو يكون عنده إنكار، كما يفعل المنافقون: فإنهم يتعبدون إلى الله عز وجل ظاهرًا؛ لكنهم ليس عندهم إيمان؛ فلا ينفعهم.

١١ ـ **ومنها:** إثبات الأسباب والعلل؛ ففيه رد على الجهمية وعلى الأشاعرة؛ لأنهم لا يثبتون الأسباب إلَّا إثباتًا صوريًّا؛ حيث يقولون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها لكن يكون الفعل عندها.

❁ قال الله تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي: أحل الله لكم؛ ونائب الفاعل فيه: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾؛ و﴿الرَّفَثُ﴾ هو الجماع والإفضاء؛ والمراد بـ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ جميع ليالي رمضان؛ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾: الجملة استئنافية للتعليل - أي: تعليل حل الرفث إلى النساء ليلة الصيام - لأن الزوج لا يستغني عن زوجه فهو لها بمنزلة اللباس؛ وكذلك هي له بمنزلة اللباس؛ وَعَبَّرَ سبحانه باللباس لما فيه من ستر العورة، والحماية، والصيانة؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ»(١).

ثم بيَّن الله عز وجل حكمة أخرى موجبة لهذا الحل؛ وهي قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخادعونها بإتيانهن، بحيث لا تصبرون؛ والظاهر - والله أعلم -: أن هذا الاختيان بكون الإنسان يفتي نفسه بأن هذا الأمر هين؛ أو بأنه صار في حال لا تحرم عليه زوجته؛ وما أشبه ذلك؛ وأصل هذا: أنهم كانوا في أول الأمر إذا صلى أحدهم العشاء الآخرة أو إذا نام قبل العشاء الآخرة فإنه يحرم عليه الاستمتاع بالمرأة والأكل والشرب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ فشق عليهم ذلك مشقة عظيمة حتى إن بعضهم لم يصبر؛ فبين الله عز وجل حكمته ورحمته بنا؛ حيث أحل لنا هذا الأمر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: أي: تاب عليكم بنسخ الحكم الأول الذي فيه مشقة؛ والنسخ إلى الأسهل توبة كما في قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:٢٠]؛ فيعبر الله عز وجل عن النسخ بالتوبة إشارة إلى أنه لولا النسخ لكان الإنسان آثمًا إما بفعل محرم؛ أو بترك واجب.

---

(١) رواه البخاري (١٨٠٦)، ومسلم (١٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: تجاوز عما وقع منكم من مخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَالْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾: الفاء: حرف عطف تقتضي الترتيب - يعني: فالآن بعد التحريم، وبعد تحقيق التوبة والعفو باشروهن؛ وكلمة «الآن»: اسم إشارة إلى الزمن الحاضر؛ وهي مبنية على الفتح في محل نصب؛ والمراد بالمباشرة: الجماع؛ وسمي كذلك لالتقاء البشرتين فيه: بشرة المرأة وبشرة الرجل.

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: اطلبوا ما قدر الله لكم من الولد؛ وذلك بالجماع الذي يحصل به الإنزال.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي: لكم الأكل والشرب.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ أي: حتى يظهر ظهورًا جليًا يتميز به ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ وهو بياض النهار ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهو سواد الليل.

قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بيان لمعنى ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾؛ ولم يذكر في الخيط الأسود «من الليل» اكتفاءً بالأول، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] يعني: والبرد؛ فهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد المتقابلين عن المقابل الآخر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ﴾ أي: أكملوا الصيام على وجه التمام؛ ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: إلى دخول الليل؛ وذلك بغروب الشمس؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»[1]؛ وبمجرد غروب الشمس - أي: غروب قرصها - يكون الإفطار؛ وليس بشرط أن تزول الحمرة، كما يظن بعض العوام؛ إذنْ الصوم محدود: من، وإلى؛ فلا يزاد فيه، ولا ينقص؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى - في الفوائد حكم الوصال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي: ولا تجامعوهن؛ وذكرها عقب قوله تعالى: ﴿فَالْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ لئلا يظن أن المباشرة المأذون فيها شاملة حال الاعتكاف؛ والضمير «هن»: يعود على النساء؛ وجملة: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ حال من الواو في قوله تعالى: ﴿لا تباشروهن﴾؛ و﴿عَٰكِفُونَ﴾ اسم فاعل من عكف يعكف؛ والعكوف على الشيء: ملازمته والمداومة عليه؛ ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢] أي: مديمون ملازمون؛ والاعتكاف في الشرع هو التعبد لله سبحانه وتعالى بلزوم المساجد لطاعة الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ «تي»: اسم إشارة؛ واللام: للبعد؛ والكاف: حرف خطاب؛ والمشار إليه ما ذُكر من أحكام الأكل، والشرب، والجماع في ليالي رمضان؛ و﴿حُدُودُ﴾ جمع حد؛ و«الحد» في اللغة: المنع؛ ومنه حدود الدار؛ لأنها تمنع من دخول غيرها فيها؛ فمعنى ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾

(١) رواه البخاري (١٨٣٩)، ومسلم (١١٠١).

أي: موانعه؛ واعلم أن حدود الله نوعان:

١ ـ حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرمات؛ ويقال فيها: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

٢ ـ وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ الفاء للتفريع؛ و«لا» ناهية؛ وإنما نهى عن قربانها؛ حتى نبعد عن المحرم، وعن وسائل المحرم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ وكم من إنسان حام حول الحمى فوقع فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾؛ فالمحرمات ينبغي البعد عنها وعدم قربها.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾: هذه الجملة ترد في القرآن كثيرًا؛ وإعرابها أن الكاف اسم بمعنى «مثل»؛ وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة؛ أي: مثلَ ذلك البيان يبين الله؛ وعاملها ما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من البيان؛ والبيان في هذه الآية كثير؛ فبين الله سبحانه وتعالى حكم الأكل، والشرب في الليل، وحكم المباشرة للنساء، وحكم الاعتكاف، وموضعه، وما يحرم فيه. إلخ، المهم عدة أحكام بينها الله.

قوله تعالى: ﴿ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾؛ «آيات» جمع آية؛ وهي في اللغة: العلامة؛ والمراد بها في الشرع: العلامة المعينة لمدلولها.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ أي: يتقون الله عز وجل وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معنى «التقوى».

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** رحمة الله تعالى بعباده؛ لنسخ الحكم الأول إلى التخفيف؛ حيث كانوا قبل ذلك إذا ناموا أو صلّوا العشاء في ليالي رمضان حرمت عليهم النساء، والطعام، والشراب إلى غروب الشمس من اليوم التالي؛ ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.

٢ ـ **ومنها:** جواز الكلام بين الزوج وزوجته فيما يستحيا منه؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾؛ لأنه مُضَمن معنى الإفضاء.

٣ ـ **ومنها:** جواز استمتاع الرجل بزوجته من حين العقد؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ما لم يخالف شرطًا بين الزوجين؛ وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز أن يستمتع بشيء من زوجته حتى يعلن النكاح – وليس بصحيح –؛ لكن هنا شيء يخشى منه؛ وهو الجماع؛ فإنه ربما يحصل حمل؛ وإذا حصل حمل مع تأخر الدخول ربما يحصل في ذلك ريبة؛ فإذا خشي الإنسان هذا الأمر فليمنع

نفسه لئلا يحصل ريبة عند العامة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن الزوجة ستر للزوج؛ وهو ستر لها؛ وأن بينهما من القرب كما بين الثياب ولابسيها؛ ومن التحصين للفروج ما هو ظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

٥ - **ومنها**: إثبات العلة في الأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن هذه الجملة لتعليل التحليل.

٦ - **ومنها**: ثبوت علم الله بما في النفوس؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٧ - **ومنها**: أن الإنسان كما يخون غيره قد يخون نفسه؛ وذلك إذا أوقعها في معاصي الله، فإن هذا خيانة؛ وعلى هذا فنفس الإنسان أمانة عنده؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية**: إثبات التوبة لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٩ - **ومنها**: إثبات عفو الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

١٠ - **ومنها**: ثبوت النسخ خلافًا لمن أنكره؛ وهو في هذه الآية صريح؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعني: وقبل الآن لم يكن حلالًا.

١١ - **ومنها**: أن النسخ إلى الأخف نوع من التوبة إلا أن يراد بقوله تعالى: ﴿تاب عليكم وعفا عنكم﴾ ما حصل من اختيانهم أنفسهم.

١٢ - **ومنها**: جواز مباشرة الزوجة على الإطلاق بدون تقييد؛ ويستثنى من ذلك الوطء في الدبر، والوطء حال الحيض أو النفاس.

١٣ - **ومنها**: أنه ينبغي أن يكون الإنسان قاصدًا بوطئه طلب الولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ وذكروا عن عمر ﷺ أنه لا يجامع إلا إذا اشتهى الولد؛ ولكن مع ذلك لا يمنع الإنسان أن يفعل لمجرد الشهوة؛ فهذا ليس فيه منع؛ بل فيه أجر؛ لقول النبي ﷺ: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «نَعَمْ؛ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَيَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» قالوا: نعم؛ قال: «فَكَذَلِكَ إِذًا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(١).

١٤ - **من فوائد الآية**: جواز الأكل، والشرب، والجماع في ليالي الصيام حتى يتبين الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾.

أخذ بعض أهل العلم من هذا استحباب السُّحور، وتأخيره؛ وهذا الاستنباط له غرض؛ لأنه

(١) رواه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥١١)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٦٧).

يقول: إنما أبيح الأكل والشرب ليلة الصيام رفقًا بالمكلف؛ وكلما تأخر إلى قرب طلوع الفجر كان أرفق به؛ فما دام نسخ التحريم من أجل الرفق بالمكلف فإنه يقتضي أن يكون عند طلوع الفجر أفضل منه قبل ذلك؛ لأنه أرفق؛ وهذا استنباط جيد تعضده الأحاديث؛ مثل قول الرسول ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»(١)؛ ففيه بركة؛ لكونه معينًا على طاعة الله؛ وفيه بركة؛ لأنه امتثال لأمر رسول الله ﷺ؛ وفيه بركة؛ لأنه اقتداء برسول الله ﷺ؛ وفيه بركة؛ لأنه يغني عن عدة أكلات وشربات في النهار؛ وفيه بركة؛ لأنه فَصَل بين صيامنا وصيام أهل الكتاب؛ فهذه خمسة أوجه من بركته.

١٥ ـ ومن فوائد الآية: أن الإنسان لو طلع عليه الفجر وهو يجامع، ثم نزع في الحال فلا قضاء عليه، ولا كفارة؛ لأن ابتداء جماعه كان مأذونًا فيه؛ ولكن استدامته بعد أن تبين الفجر حرام، وعلى فاعله القضاء والكفارة، إلا أن يكون جاهلًا؛ وقد قيل: إنه إذا نزع في هذه الحال فعليه كفارة؛ لأن النزع جماع؛ لكنه قول ضعيف؛ إذ كيف نلزمه بالقضاء والكفارة مع قيامه بما يجب عليه ـ وهو النزع ـ.

١٦ ـ ومنها: جواز أن يصبح الصائم جنبًا، لأن الله أباح الجماع حتى يتبين الفجر، ولازم هذا أنه إذا أَخَّرَ الجماع لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه كان يصبح جنبًا من جماع أهله، ثم يصوم(٢).

١٧ ـ ومنها: جواز الأكل، والشرب، والجماع مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾؛ فإن تبين أن أكله، وشربه، وجماعه، كان بعد طلوع الفجر فلا شيء عليه.

١٨ ـ ومنها: رد قول من قال: إنه يجوز أن يأكل الصائم، ويشرب إلى طلوع الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ وكذلك رد قول من قال: إنه يجوز أن يأكل ويشرب إلى الغلس.

١٩ ـ ومن فوائد الآية: بيان خطأ بعض جهال المؤذنين الذين يؤذنون قبل الفجر احتياطًا ـ على زعمهم ـ؛ لأن الله تعالى أباح الأكل، والشرب، والجماع، حتى يتبين الفجر؛ ولأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»(٣)؛ وهو أيضًا مخالف للاحتياط؛ لأنه يستلزم أن يمتنع الناس مما أحل الله لهم من الأكل، والشرب، والجماع، وأن يقدِّم الناس صلاة الفجر قبل طلوع الفجر؛ وأيضًا فإنه يفتح بابًا للمتهاون؛ حيث يعلم أنه أذن قبل الفجر فلا يزال يأكل إلى أمد مجهول، فيؤدي إلى الأكل بعد طلوع الفجر من حيث لا يشعر؛ ثم اعلم أن الاحتياط الحقيقي إنما هو

---

(١) رواه البخاري (١٨٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

(٢) رواه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٠٩).

(٣) رواه البخاري (١٨١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٥٦١).

في اتباع ما جاء في الكتاب والسنة؛ لا في التزام التضييق والتشديد.

٢٠ - ومن فوائد الآية: أنه لو أكل الإنسان يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تَبَيَّنَ أنه طلع فصيامه صحيح؛ لأنه قد أذن له بذلك حتى يتبين له الفجر؛ وما كان مأذونًا فيه فإنه لا يرتب عليه إثم، ولا ضمان، ولا شيء؛ ومن القواعد الفقهية المعروفة: «ما ترتب على المأذون فهو غير مضمون»؛ وهذا هو ما تؤيده العمومات، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥]؛ وتؤيده أيضًا نصوص خاصة في هذه المسألة نفسها؛ وهو فعل عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ حيث كان يضع عقالين تحت وسادته أحدهما أبيض، والآخر أسود؛ فيأكل وهو يتسحر حتى يتبين له العقال الأبيض من العقال الأسود، ثم يمسك؛ فأخبر النبي ﷺ، وبَيَّنَ له النبي ﷺ المراد في الآية، ولم يأمره بالقضاء.

٢١ - ومن فوائد الآية: الإيماء إلى كراهة الوصال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾؛ والوصال معناه: أن يقرن الإنسان صوم يومين جميعًا لا يأكل بينهما؛ وقد كان الوصال مباحًا، ثم نهاهم الرسول ﷺ عنه، وقال: «أَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ»(١)؛ وَرَغَّبَ ﷺ في تعجيل الفطر، فقال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوْا الفِطْرَ»(٢)؛ وهذا من باب أن الشيء قد يكون مأذونًا فيه، وليس بمشروع؛ فالوصال إلى السَّحَر مأذون فيه، ولكن ليس بمشروع؛ ومثال آخر: الصدقة عن الميت: فهذا أمر مأذون فيه، وليس بمشروع.

٢٢ - ومن فوائد الآية: أن الاعتبار بالفجر الصادق الذي يكون كالخيط ممتدًا في الأفق؛ وذكر أهل العلم أن بين الفجر الصادق والفجر الكاذب ثلاثة فروق:

الفرق الأول: أن الصادق مستطير معترض من الجنوب إلى الشمال؛ والكاذب مستطيل ممتد من الشرق إلى الغرب.

والفرق الثاني: أن الصادق متصل بالأفق؛ وذاك بينه وبين الأفق ظلمة.

والفرق الثالث: أن الصادق يمتد نوره ويزداد؛ والكاذب يزول نوره ويظلم.

٢٣ - ومن فوائد الآية: أن بياض النهار وسواد الليل يتعاقبان، فلا يجتمعان؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

٢٤ - ومنها: أن الأفضل المبادرة بالفطر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾؛ وقد جاءت السُّنَّة بذلك صريحًا، كما في قوله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوْا الفِطْرَ».

---

(١) رواه الدارمي (١٧٠٥)، وقال حسين أسد: إسناده ضعيف: عبد الله بن صالح سيئ الحفظ جدًا غير أن الحديث صحيح.

(٢) رواه البخاري (١٨٥٦)، ومسلم (١٠٩٨).

٢٥ ـ **ومنها**: أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

٢٦ ـ **ومنها**: أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾؛ وقد فَسَّر النبي ﷺ ذلك بقوله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»[1].

٢٧ ـ **ومنها**: الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لأن الله أَقَرَّهُ، وَرَتَّبَ عليه أحكامًا، وقوله تعالى: ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ بيان للواقع؛ لأن الاعتكاف المشروع لا يكون إلا في المساجد.

٢٨ ـ **ومنها**: أن الاعتكاف مشروع في كل مسجد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾؛ فلا يختص بالمساجد الثلاثة - كما قيل به -؛ وأما حديث حذيفة: «لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ»[2] - يعني: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى - فإن صَحَّ فالمراد به: الاعتكاف الكامل.

٢٩ ـ **ومنها**: أن ظاهر الآية أن الاعتكاف يصح في كل مسجد - وإن لم يكن مسجد جماعة -؛ وهذا الظاهر غير مراد لوجهين:

الوجه الأول: أن «أل» في ﴿الْمَسَاجِدِ﴾ للعهد الذهني؛ فتكون دالة على أن المراد بـ﴿الْمَسَاجِدِ﴾: المساجد المعهودة التي تقام فيها الجماعة.

الوجه الثاني: أنه لو جاز الاعتكاف في المسجد الذي لا تقام فيه الجماعة؛ للزم من ذلك أحد أمرين: إما ترك صلاة الجماعة؛ وهي واجبة؛ وإما كثرة الخروج إليها؛ وهذا ينافي الاعتكاف، أو كماله.

٣٠ ـ **ومن فوائد الآية**: النهي عن مباشرة النساء حال الاعتكاف.

٣١ ـ **ومنها**: أن الجماع مبطل للاعتكاف؛ ووجه كونه مبطلًا؛ أنه نهي عنه بخصوصه؛ والشيء إذا نهي عنه بخصوصه في العبادة كان من مبطلاتها.

٣٢ ـ **ومنها**: ما استنبطه بعض أهل العلم أن الاعتكاف يكون في رمضان، وفي آخر الشهر؛ لأن الله ذكر حكمه عقب آية الصيام؛ وهذا هو الذي جاءت به السنة: فإن النبي ﷺ لم يعتكف إلا في العشر الأواخر من رمضان حين قيل له: «إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ»[3]؛ وكان اعتكافه في العشر الأول والأوسط يتحرى ليلة القدر؛ فلما قيل له: «إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ» ترك الاعتكاف في العشر الأول والأوسط.

٣٣ ـ **ومنها**: أن أوامر الله حدود له؛ وكذلك نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: انظر «الصحيحة» (٢٧٨٦).

(٣) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١١٦٥).

٣٤ ـ ومنها: أنه ينبغي البعد عن المحارم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: «مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ؛ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ؛ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى؛ أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ»(١).

٣٥ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يبين للناس الآيات الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾؛ والآيات الكونية هي المخلوقات؛ فكل المخلوقات ذواتها، وصفاتها، وأحوالها من الآيات الكونية، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فُصِّلَت:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] ... وكانت المخلوقات آية لله؛ لأنه لا أحد من المخلوق يصنع مثلها.

والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله تعالى على رسله وأنبيائه من الوحي؛ فإنها آيات شرعية تدل على كمال منزلها سبحانه وتعالى في العلم والرحمة والحكمة، وغير ذلك مما تقتضيه أحكامها وأخبارها؛ وجه ذلك: أنك إذا تأملت أخبارها وجدتها في غاية الصدق، والبيان، والمصلحة، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]؛ فأحسن الأخبار أخبار الوحي: القرآن، وغيره؛ وأصلحها للخلق قصصها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]؛ وإذا تأملت أحكامها وجدتها أحسن الأحكام، وأصلحها للعباد في معاشهم ومعادهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]؛ ولو اجتمع الخلق على أن يأتوا بمثل الأحكام التي أنزلها الله على رسوله ﷺ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ بهذا تكون آية على ما تقتضيه من صفات الله سبحانه وتعالى.

٣٦ ـ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التعطيل وغيرهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في أسماء الله وصفاته؛ وجه ذلك: أنهم لما قالوا: المراد بـ«اليد» النعمة أو القوة؛ والمراد بـ«الاستواء»: الاستيلاء؛ والمراد بكذا كذا – وهو خلاف ظاهر اللفظ، ولا دليل عليه – صار القرآن غير بيان للناس؛ لأنه ما دام أن البيان خلاف ما ظهر فلا بيان.

٣٧ ـ ومنها: أن العلم سبب للتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ ووجهه: أنه ذكره عقب قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾؛ فدل هذا أنه كلما تبينت الآيات حصلت التقوى؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ فكلما ازداد الإنسان علمًا بآيات الله ازداد تقًى؛ ولهذا يقال: «من كان بالله أعرف كان منه أخوف».

٣٨ ـ ومنها: علو مرتبة التقوى؛ لكون الآيات تُبَيَّن للناس من أجل الوصول إليها.

---

(١) رواه مسلم (١٥٩٩)، وابن ماجه (٣٩٨٤)، وأحمد في «مسنده» (١٨٣٩٤).

مسألة: لو أَذَّنَ المؤذن للفجر وفي يد الصائم الإناء يشرب منه فهل يجب عليه أن ينزل الإناء، أو له أن يقضي نهمته منه؟

الجواب: على مذهب الإمام أحمد: يجب أن ينزل الإناء؛ بل يجب لو كان في فمه ماء لفظه؛ وكذلك الطعام؛ وهذا هو ظاهر القرآن؛ لكن ورد في «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صححه أحمد شاكر بأنه: «لَوْ أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ وَالإِنَاءُ فِي يَدِكَ فَلَا تَضَعْهُ حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَكَ مِنْهُ»؛ فإن كان هذا الحديث صحيحًا فإنه يحمل على أن المؤذن قد احتاط فيؤذن قبل الفجر - أي:لا يؤخر الأذان إلى أن يطلع الفجر -؛ لأنه قد يؤذن وهو لم يتبين له كثيرًا فسُمح للإنسان أن يقضي نهمته من الإناء الذي في يده؛ وإنما حملناه على ذلك لظاهر الآية، ولقول النبي ﷺ: «إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»(١)، وقد يقال: الحديث على ظاهره؛ ووجهه: أن هذا الشارب شرع في شربه في وقت يسمح له فيه، فكان آخر شربه تبعًا لأوله، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الصَّلَاةِ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ»(٢)؛ ويكون هذا مما سامح به الشارع.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]

التفسير

مناسبة هذه الآية لما سبق مناسبة واضحة؛ لأن ما سبق في آيات الصيام تحريم لأشياء خاصة في زمان خاص؛ وهذه الآية تحريم عام في زمانه وفي مكانه؛ هذا وجه المناسبة: أنه لما ذكر التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام بيَّن التحريم العام؛ الذي يحصل في الصيام، وفي غير الصيام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ المراد بالأكل: ما هو أعم منه، فيشمل الانتفاع بغير الأكل من الملبوسات، والمفروشات، والمسكونات، والمركوبات؛ لكنه خَص الأكل؛ لأنه أقوى وجوه الانتفاع؛ الإنسان ينتفع في المال ببناء مسكن له؛ وهو منفصل عنه؛ ويفترش الفراش فينتفع به؛ وهو منفصل عنه؛ إلا إنَّه ألصق به من البيت؛ ويلبس ثوبًا فينتفع به؛ وهو منفصل عنه؛ إلا أنه ألصق به من الفراش؛ والإنسان يأكل الأكل فينتفع؛ وهو متصل ممازج

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٠٧).

لعروقه؛ فكان أخص أنواع الانتفاع وألصقها بالمنتفع؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم - رحمهم الله - أن الإنسان إذا كان عنده مال مشتبه ينبغي أن يصرفه في الوقود؛ لا يصرفه في الأكل والشرب يتغذى بها البدن وهما أخص انتفاع بالمال؛ فإذا كان الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ وهو أخص الانتفاع، والذي قد يكون الإنسان في ضرورة إليه: لو لم يفعل لهلك - لو لم يأكل لمات -؛ فكيف بغيره!!!

وقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: عندنا آكل ومأكول عنه؛ فإذا كنت أنت أيها الآكل لا ترضى أن يؤكل مالك فكيف ترضى أن تأكل مال غيرك؟! فاعتبر مال غيرك بمنزلة مالك في أنك لا ترضى أن يأكله أحد؛ وبهذا تتبين الحكمة في إضافة الأموال المأكولة للغير إلى آكلها؛ و﴿بَيْنَكُم﴾ أي: في العقود من إجارات، وبيوع، ورهون، وغيرها؛ لأن هذه تقع بين اثنين؛ فتصدق البينية فيها.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ الباء للتعدية؛ أي: تتوصلون إليه بالباطل؛ و«الباطل»: كل ما أخذ بغير حق.

قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾؛ الضمير المجرور يعود إما على الأموال؛ وإما على المحاكمة؛ «والإدلاء»: أصلها مأخوذ من: أدلى دلوه؛ ومعلوم أن الذي يدلي دلوه يريد التوصل إلى الماء؛ فمعنى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: تتوصلوا بها إلى الحكام؛ لتجعلوا الحكام وسيلة لأكلها بأن تجحد الحق الذي عليك وليس به بينة؛ ثم تخاصمه عند القاضي، فيقول القاضي للمدعي عليك: «هاتِ بينة»؛ وإذا لم يكن للمدعي بينة توجهت عليك اليمين؛ فإذا حلفت برئت؛ فهنا توصلت إلى جحد مال غيرك بالمحاكمة؛ هذا أحد القولين في الآية؛ والقول الثاني: أن معنى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: توصلوها إليهم بالرشوة ليحكموا لكم؛ وكلا القولين صحيح.

قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾؛ قد يقول قائل: إن فيها إشكالًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ كيف يعلل الحكم بنفس الحكم؟ فنقول: إن اللام هنا ليست للتعليل؛ اللام هنا للعاقبة ـ يعني: أنكم إذا فعلتم ذلك وقعتم في الأكل ـ أكل فريق من أموال الناس ـ؛ وتأتي اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]: فآل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض؛ ولكن كانت هذه العاقبة.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ الفريق بمعنى: الطائفة؛ وسُمّي فريقًا؛ لأنه يُفْرَق عن غيره؛ فهذا فريق من الناس؛ يعني طائفة منهم افترقت وانفصلت.

لو قال قائل: قد يأكل كل مال المدعى عليه لا فريقًا منه؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لو أكل جميع مال المدعى عليه لم يأكل جميع أموال الناس؛ لأن مال المدعى عليه

فريق من أموال الناس.

الثاني: أنه إذا كان النهي عن أكل فريق من أموال المدعى عليه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾؛ الباء للمصاحبة؛ يعني: أكلًا مصحوبًا بالإثم؛ وهو الذنب؛ وذلك لأنه باطل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: الجملة حالية؛ وهي قيد للحكم على أعلى أنواع بشاعته؛ لأن من أكل أموال الناس بالباطل عالمًا أبشع مما لو أكله جاهلًا.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** تحريم أكل المال بالباطل؛ و«**الباطل**»: كل شيء ليس لك به حق شرعًا.

٢ ـ **ومنها:** حرص الشارع على حفظ الأموال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ ولأن الأموال تقوم بها أمور الدين وأمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء:٥].

٣ ـ **ومنها:** تحريم الرشوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ على أحد التفسيرين، كما سبق.

٤ ـ **ومنها:** أن الحاكم يحكم بما ظهر له ـ يعني يقضي بما سمع ـ؛ كما قال الرسول ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحوِ مَا أَسْمَعُ»(١)؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾؛ وهذه فيمن يدعي ما ليس له، ويخاصم، ويقيم بينة كذبًا؛ أو يجحد ما عليه، ويخاصم، ويحلف كاذبًا؛ كل هذا من الإدلاء بها إلى الحكام؛ لكن إن علم الحاكم أن الحق بخلاف ما سمع فالواجب عليه التوقف في الحكم، وإحالة القضية إلى حاكم آخر ليكون هو شاهدًا بما علم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** تيسير الله سبحانه وتعالى على الحكام بين الناس؛ حيث لا يعاقبهم على الأمور الباطنة؛ وإلا لكان الحكام في حرج ومشقة؛ وجه ذلك من الآية: أن الحاكم إذا حكم بما ظهر له ـ وإن كان خلاف الواقع - فلا إثم عليه.

٦ ـ **ومنها:** أن من حُكم له بما يعتقد أنه حق فلا إثم عليه؛ لكن لو تَبَيَّنَ له بعد الحكم أنه لا حق له وجب عليه الرجوع إلى الحق؛ مثاله: لو فرض أن غريمه أوفاه؛ لكنه ناسٍ، وحلف أنه لم يوفه، وحُكم له فلا إثم عليه؛ لكن متى ذكر أنه قد أوفي وجب عليه رَدُّ المال إلى صاحبه.

(١) رواه البخاري (٦٧٤٨)، والنسائي (٥٤٢٢)، وأبو داود (٣٥٨٣).

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾؛ ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع: هلال؛ وهو القمر أول ما يكون شهرًا؛ وسمي هلالًا لظهوره؛ ومنه: الاستهلال؛ والإهلال هو: رفع الصوت، كما في حديث خلاد بن السائب عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ آمُرَ أَصْحَابِي أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالإِهْلَالِ»[1] يعني: بالتلبية؛ ومنه قولهم: «استهل المولود»[2] إذا صرخ بعد وضعه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ يعني: الحكمة فيها بدليل الجواب: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾؛ وأما ما ذكره أهل البلاغة من أنهم سألوا الرسول ﷺ عن السبب في كون الهلال يبدو صغيرًا ثم يكبر؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى ببيان الحكمة؛ وقالوا: إن هذا من أسلوب الحكيم أن يجاب السائل بغير ما يتوقع إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يُسأل عن هذا؛ فالصواب: أنهم لم يسألوا الرسول ﷺ عن هذا؛ ولكن سألوه عن الحكمة من الأهلة، وأن الله سبحانه وتعالى خلقها على هذا الوجه؛ والدليل: الجواب؛ لأن الأصل أن الجواب مطابق للسؤال إلا أن يثبت ذلك بنص صحيح.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ﴾ أي: الأهلة ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ جمع ميقات؛ من الوقت؛ أي: يُوَقِّتون بها أعمالهم التي تحتاج إلى توقيت بالأشهر، كعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا، وعدة المطلقة بعد الدخول إذا كانت لا تحيض ثلاثة أشهر، وآجال ديونهم وإجاراتهم، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ يعني: مواقيت للحج؛ لأن الحج أشهر معلومات تبتدئ بدخول شوال، وتنتهي بانتهاء ذي الحجة؛ ثلاثة أشهر؛ وكذلك هي مواقيت للصيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ لكن سياق الآيات توطئة لبيان أشهر الحج؛ فلهذا قال تعالى: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾؛ ولم يذكر الصيام؛ لأنه سبق.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٨٢٩)، وأبوداود (١٨١٤)، وابن ماجه (٢٩٢٢)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾؛ ﴿الْبِرُّ﴾ هو الخير الكثير؛ وسمي الخير برًّا لما فيه من السعة؛ ومنه في الاشتقاق «البَرّ» ـ الذي هو الخلاء: وهو ما سوى البنيان ـ لسعته.

وقوله تعالى: ﴿بِأَن تَأْتُوا﴾: الباء: حرف جر زائد للتوكيد؛ يعني: وليس البر بإتيانكم البيوت من ظهورها؛ و﴿الْبُيُوتَ﴾ بضم الباء؛ وفي قراءة بكسر الباء.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾؛ ﴿مِن﴾ بيانية؛ أي: تأتوها من الخلف؛ وكانوا في الجاهلية من سفههم يأتون البيوت من ظهورها إذا أحرموا بحج أو بعمرة إلا قريشًا؛ فإنهم يأتونها من أبوابها؛ أما غيرهم فيقولون: نحن أحرمنا؛ لا يمكن أن ندخل بيوتنا من أبوابها؛ هذا يبطل الإحرام؛ لابد أن نأتي من الظهور لئلا يسترنا سقف البيت؛ فكانوا يتسلقون البيوت مع الجدران من الخلف، ويعتقدون أن ذلك بِرٌّ وقربة إلى الله عز وجل؛ فنفى الله هذا وأبطله بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾؛ لما فيه من التعسير، ولما فيه من السفه ومخالفة الحكمة، فهو خلاف البر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾؛ وفي قراءة: (ولكنِ البرُّ) بتخفيف النون في ﴿لكنِ﴾؛ ورفع ﴿البرُّ﴾؛ على أن تكون ﴿لكن﴾ مخففة من الثقيلة مهملة؛ و﴿البر﴾ مبتدأ؛ أما على قراءة التشديد فهي عاملة؛ و﴿البر﴾ اسمها؛ وقوله تعالى: ﴿الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾: ﴿الْبِرَّ﴾ اسم معنى؛ و﴿مَنِ اتَّقَىٰ﴾ اسم جثة؛ كيف يخبر بالجثة عن اسم المعنى؟

فالجواب: أنه يخرج على واحد من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون المصدر هنا بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ولكن البار.

الوجه الثاني: أن يكون المصدر على تقدير محذوف؛ أي: ولكن البر بر من اتقى.

الوجه الثالث: أن هذا على سبيل المبالغة أن يجعل ﴿مَنِ اتَّقَىٰ﴾ نفس البر، كما يصفون المصدر فيقولون: فلان عدل ورضا.

وقوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله عز وجل؛ لأن الاتقاء في مقام العبادة إنما يراد به اتقاء الله عز وجل؛ البر هو التقوى؛ هذا هو حقيقة البر؛ لا أن تتقي دخول البيت من بابه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أي: من جهة الباب فإن هذا هو الخير.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجعلوا لكم وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن تنالوا الفلاح؛ و«الفلاح» هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: حرص الصحابة رضي الله عنهم على العلم، وأنهم يسألون عن أمور الدين وأمور الدنيا؛ لأن هذا مما يتعلق بالدنيا.

٢ - **ومنها**: عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ؛ حيث يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه؛ وهذا من معونة الله للرسول ﷺ، وعنايته به.

٣ - **ومنها**: بيان علم الله، وسمعه، ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ علم الله بسؤالهم، وسمعه، ورحمهم بالإجابة.

٤ - **ومنها**: أن الحكمة من الأَهِلَّةِ أنها مواقيت للناس في شئون دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾.

٥ - ومنها: أن ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم - وهو الأَهِلَّةِ -؛ فهو الميقات العالمي؛ لقوله تعالى: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ وأما ما حدث أخيرًا من التوقيت بالأشهر الإفرنجية فلا أصل له من محسوس، ولا معقول، ولا مشروع؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يومًا، وبعضها ثلاثين يومًا، وبعضها واحدًا وثلاثين يومًا من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسية يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد.

٦ - **ومنها**: أن الحج مقيد بالأشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَجِّ﴾.

٧ - **ومنها**: أن البر يكون بالتزام ما شرعه الله، والحذر من معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

٨ - **ومنها**: أن العادات لا تجعل غير المشروع مشروعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ مع أنهم اعتادوه واعتقدوه من البر؛ فمن اعتاد شيئًا يعتقده برًّا عُرِض على شريعة الله.

٩ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يأتي الأمور من أبوابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؛ فإن هذه الآية كما تناولت البيوت الحسية كذلك أيضًا تناولت الأمور المعنوية؛ فإذا أردت أن تخاطب مثلًا شخصًا كبير المنزلة فلا تخاطبه بما تخاطب سائر الناس؛ ولكن ائت من الأبواب؛ لا تتجشم الأمر تجشمًا؛ لأنك قد لا تحصل المقصود؛ بل تأتي من بابه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى تتم لك الأمور.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى إذا نهى عن شيء فتح لعباده من المأذون ما يقوم مقامه؛ فإنه لما نفى أن يكون إتيان البيوت من ظهورها من البر بيّن ما يقوم مقامه، فقال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؛ وله نظائر منها: قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤]؛ ومنها: قول النبي ﷺ لمن قال له: «مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ: أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»؛ والأمثلة في هذا كثيرة.

١١ - **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٢ ـ **ومنها**: أن التقوى تُسَمَّى برًّا.

١٣ ـ **ومنها**: أن التقوى سبب للفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قاتلوا﴾ فعل أمر؛ والمقاتلة مفاعلة من الجانبين؛ يعني: اقتلوهم بمقاتلتهم إياكم؛ ولكن قال: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه وشرعه، ولأجله؛ فسبيل الله سبحانه وتعالى يتناول الدين، وأن يكون القتال في حدود الدين، وعلى الوجه المشروع، ولله وحده؛ فهو يتضمن الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قَدَّمَ المُقَاتِل من أجله قبل المُقاتَل إشارة إلى أنه ينبغي الإخلاص في هذا القتال؛ لأنه ليس بالأمر الهين؛ فإن المقاتِل يُعرِّض رقبته لسيوف الأعداء؛ فإذا لم يكن مخلصًا لله خسر الدنيا والآخرة: قُتِلَ، ولم تحصل له الشهادة؛ فنبه بتقديم المراد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليكون قتاله مبنيًّا على الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: ليصدوكم عن دينكم؛ وهذا القيد للإغراء؛ لأن الإنسان إذا قيل له: «قَاتِلْ مَنْ يُقَاتِلُك» اشتدت عزيمته وقويت شكيمته؛ وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي: في المقاتلة؛ والاعتداء في المقاتلة يشمل الاعتداء في حق الله، والاعتداء في حق المقاتَلين؛ أما الاعتداء في حق الله: فمثل أن نقاتلهم في وقت لا يحل القتال فيه؛ مثل أن نقاتلهم في الأشهر الحرم؛ على القول بأن تحريم القتال فيها غير منسوخ؛ وأما في حق المقاتَلين: فمثل أن نُمَثِّل بهم؛ لأن النبي ﷺ نهى عن المثلة[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: الجملة هنا تعليل للحكم؛ والحكم: النهي عن الاعتداء.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: في القتال وغيره؛ و«الاعتداء»: تجاوز ما يحل له.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: وجوب القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟﴾؛ ووجوب أن يكون في

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٩٥٦)، والنسائي (٤٠٤٧)، وأبوداود (٢٦٦٧).

سبيل الله - أي: في شرعه ودينه، ومن أجله -؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وقد دل الكتاب والسنة على أنه إذا كان العدو من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - فإنهم يدعون إلى الإسلام؛ فإن أبوا أخذت منهم الجزية؛ فإن أبوا قُوتِلوا؛ واختلف العلماء فيمن سواهم من الكفار: هل يعاملون معاملتهم؛ أو يُقاتلون إلى أن يسلموا؛ والقول الراجح: أنهم يعاملون معاملتهم، كما يدل عليه حديث بريدة[1] الثابت في «صحيح مسلم»؛ وقد ثبت أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر[2]؛ وهو يدل على أن أخذ الجزية ليس خاصًّا بأهل الكتاب.

٢- **ومنها**: أنه ينبغي للمتكلم أن يذكر للمخاطب ما يهيجه على الامتثال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾؛ هذا إذا قلنا: إنها قيد للتهييج والإغراء؛ فإن قلنا: «إنها قيد معنوي يراد به إخراج من لا يقاتلوننا» اختلف الحكم.

٣- **ومنها**: تحريم الاعتداء حتى على الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾؛ وعلى المسلمين من باب أولى؛ ولهذا قال الرسول ﷺ لمن يبعثهم كالسرايا والجيوش: «**لَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدُرُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»[3]؛ لأن هذا من العدوان.

٤- **ومنها**: إثبات محبة الله؛ أي: أن الله يحب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ وجه الدلالة: أنه لو كان لا يحب أبدًا ما صَحَّ أن ينفي محبته عن المعتدين فقط؛ فما انتفت محبته عن هؤلاء إلا وهي ثابتة في حق غيرهم.

٥- **ومنها**: حسن تعليم الله عز وجل، حيث يقرن الحكم بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ وقد سبق ذكر فوائد قرن الحكم بالعلة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾: الضمير الهاء يعود على الكفار الذين يقاتلوننا؛ لقوله تعالى:

(١) انظر «صحيح مسلم» (١٧٣١).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٩٨٧)، والترمذي (١٥٨٦)، وأبوداود (٣٠٤٣).

(٣) رواه مسلم (١٧٣١)، والترمذي (١٤٠٨)، وأبوداود (٢٦١٣)، وابن ماجه (٢٨٥٧).

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠].

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب؛ أي: اقتلوهم في أي مكان ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: ظفرتم بهم؛ أولًا: قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ [آل عمران:١٦٧]، ثم قال تعالى: ﴿واقتلوا﴾؛ والقتل أشد؛ يعني: متى وجدنا هذا المحارب الذي يقاتلنا حقيقة أو حكمًا؛ فإننا نقتله في أي مكان؛ لكنه يستثنى من ذلك المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ الإخراج يكون من شيء إلى شيء؛ أما القتال فيكون في شيء؛ القتال يكون في مكان؛ والإخراج يكون من المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: من المكان الذي أخرجوكم منه، فمثلًا: إذا قدر أن الكفار غلبوا على هذه البلاد وأخرجوا المسلمين منها فإن المسلمين يجب عليهم أن يقاتلوهم؛ فإذا قاتلوهم يخرجونهم من البلاد من حيث أخرجوهم؛ فهم الذين اعتدوا علينا، واحتلوا بلادنا؛ فنخرجهم من حيث أخرجونا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾؛ «الفتنة»: هي صدّ الناس عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠]؛ فصد الناس عن دينهم فتنة أشد من قتلهم؛ لأن قتلهم غاية ما فيه أن نقطعهم من ملذات الدنيا؛ لكن الفتنة تقطعهم من الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج:١١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: في مكة؛ لأن ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو المسجد نفسه؛ وما «عنده»: فهو البلد ـ أي: لا تقاتلوهم في مكة ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ـ؛ و«في» هنا: الظاهر أنها للظرفية.

قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي: إن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم؛ وتأمل كيف قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ لأن مقاتلتهم إياكم عند المسجد الحرام توجب قتلهم على كل حال.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مثلَ هذا الجزاء - وهو قتل من قاتل عند المسجد الحرام -جزاء الكافرين؛ أي: عقوبتهم التي يكافَؤون بها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ ...﴾؛ ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ ...﴾؛ ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾؛ ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾: الجمل هنا الأربع كلها بصيغة المفاعلة إلا واحدة ـ وهي الأخيرة ـ؛ وهناك قراءة أخرى؛ وهي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ﴾؛ ﴿حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ﴾؛ ﴿فإن قتلوكم﴾؛ ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ وعلى هذا فتكون الأربع كلها بغير صيغة المفاعلة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** وجوب قتال الكفار أينما وجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ ووجوب قتالهم أينما وجدوا يستلزم وجوب قتالهم في أي زمان؛ لأن عموم المكان يستلزم عموم الزمان؛ ويستثنى من ذلك القتال في الأشهر الحرم: فإنه لا قتال فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧]؛ وقال بعض أهل العلم: لا استثناء، وأن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ؛ لكن لوجوب قتالهم شروط؛ من أهمها: القدرة على ذلك.

٢ ـ **ومنها:** أن نخرج هؤلاء الكفار، كما أخرجونا؛ المعاملة بالمثل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إذا مثّلوا بنا مثّلنا بهم؛ وإذا قطعوا نخيلنا قطعنا نخيلهم، مثلًا بمثل سواءً بسواء.

٣ ـ **ومنها:** الإشارة إلى أن المسلمين أحق الناس بأرض الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]، وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

٤ ـ **ومنها:** أن الفتنة بالكفر والصد عن سبيل الله أعظم من القتل.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار؛ لأن استعمار الأفكار فتنة؛ واستعمار الديار أقصى ما فيها إما القتل، أو سلب الخيرات، أو الاقتصاد، أو ما أشبه ذلك؛ فالفتنة أشد؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين، والدنيا والآخرة.

٥ ـ **ومنها:** تعظيم حرمة المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾.

٦ ـ **ومنها:** جواز القتال عند المسجد الحرام إذا بدأنا بذلك أهله؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾؛ ولا يعارض هذا قول رسول الله ﷺ: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُوْلِ الله ﷺ فَقُوْلُوْا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ»[1]؛ المنوع هو ابتداء القتال لندخل مكة؛ فهذا حرام، ولا يجوز مهما كان الأمر؛ وأما إذا قاتلونا في مكة فإننا نقاتلهم من باب المدافعة.

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: المبالغة في قتال الأعداء إذا قاتلونا في المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

٨ ـ **ومنها**: وجوب مقاتلة الكفار؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله؛ وقتال الكفار في الأصل فرض كفاية؛ وقد يكون مستحبًّا؛ وقد يكون فرض عين ـ وذلك في أربعة مواضع ـ:

الموضع الأول: إذا حضر صف القتال فإنه يكون فرض عين؛ ولا يجوز أن ينصرف؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

الموضع الثاني: إذا حصر بلده العدو؛ فإنه يتعين القتال من أجل فكّ الحصار عن البلد؛ ولأنه يشبه من حضر صف القتال.

الموضع الثالث: إذا احتيج إليه؛ إذا كان هذا الرجل يحتاج الناس إليه إمّا لرأيه، أو لقوته، أو لأيّ عمل يكون؛ فإنه يتعين عليه.

الموضع الرابع: إذا استنفر الإمام الناس وجب عليهم أن يخرجوا، ولا يتخلف أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ...﴾ [التوبة:٣٨] إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...﴾ [التوبة:٣٩] الآية.

وما سوى هذه المواضع فهو فرض كفاية؛ واعلم أن الفرض سواء قلنا فرض عين، أو فرض كفاية لا يكون فرضًا إلا إذا كان هناك قدرة؛ أما مع عدم القدرة فلا فرض؛ لعموم الأدلة الدالة على أن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١]؛ فإذا كنا لا نستطيع أن نقاتل هؤلاء لم يجب علينا؛ وإلا لأثّمنا جميع الناس مع عدم القدرة؛ ولكنه مع ذلك يجب أن يكون عندنا العزم على أننا إذا قدرنا فسنقاتل؛ ولهذا قيدها الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١]؛ ليس على هؤلاء الثلاثة حرج بشرط أن ينصحوا لله ورسوله ﷺ؛ فأما مع عدم النصح لله ورسوله ﷺ، فعليهم الحرج ـ حتى وإن وجدت الأعذار في حقهم ـ.

فالحاصل: أننا نقول إن القتال فرض كفاية؛ ويتعين في مواضع؛ وهذا الفرض ـ كغيره من المفروضات ـ من شرطه القدرة؛ أما مع العجز فلا يجب؛ لكن يجب أن يكون العزم معقودًا على أنه إذا حصلت القوة جاهدنا في سبيل الله؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ،

مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»(١).

٩ - ومن فوائد الآية: إثبات العدل لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ والجزاء من جنس العمل.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: كفوا عن قتالكم؛ ويحتمل أن يكون المراد: كفوا عن قتالكم، وعن كفرهم؛ فعلى الأول يكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ طلب مغفرة المسلمين لهم بالكف عنهم؛ وعلى الثاني يكون المراد: أن الله غفر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: تمام عدل الله سبحانه وتعالى؛ حيث جعل أحكامه وعقوبته مبنية على عدوان من يستحق هذه العقوبة فقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢ - ومنها: وجوب الكف عن الكفار إذا انتهوا عما هم عليه من الكفر؛ فلا يؤاخذون بما حصل منهم حال كفرهم؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

٣ - ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله، وما تَضَمَّنَاهُ من صفة، أو حكم؛ وهما: «الغفور»، و«الرحيم».

٤ - ومنها: أخذ الأحكام الشرعية مما تقتضيه الأسماء الحسنى؛ ولها نظائر؛ منها قوله تعالى في المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤].

(١) رواه مسلم (١٩١٠)، والنسائي (٣٠٩٧)، وأبو داود (٢٥٠٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا الكفار ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: صد عن سبيل الله بأن يكفوا عن المسلمين، ويدخلوا في الإسلام، أو يبذلوا الجزية؛ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: يكون الدين الظاهر الغالب لله تعالى؛ أي: دين الله.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ أي: عن قتالكم وعن كفرهم، ورجعوا ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وهم قد انتفى عنهم الظلم؛ وحينئذٍ لا يكون عليهم عدوان.

وقوله هنا: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾: قيل: إن معناه فلا سبيل، كما في قوله تعالى في قصة موسى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨] أي: لا سبيل عليّ؛ وقيل: ﴿فلا عدوان﴾ أي: لا مقاتلة؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٩٤]؛ وهي من باب مقابلة الشيء بمثله لفظًا؛ لأنه سببه؛ وليس معناه: أن فعلكم هذا عدوان؛ لكن لمّا صار سببه العدوان صَحَّ أن يُعَبَّرَ عنه بلفظه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: خبر «لا»: يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ويجوز أن يكون خبر «لا» محذوفًا؛ والتقدير: فلا عدوان حاصل - أو كائن - إلا على الظالمين.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الأمر بقتالهم مُقَيَّدٌ بغايتين؛ غاية عدمية: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا توجد فتنة؛ و«الفتنة»: هي الشرك والصد عن سبيل الله؛ والغاية الثانية إيجابية: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بمعنى: أن يكون الدين غالبًا ظاهرًا لا يعلو إلا الإسلام فقط؛ وما دونه فهو دين معلو عليه يؤخذ على أصحابه الجزية عن يد وهم صاغرون.

٢ - **ومنها:** أنه إذا زالت الفتنة، وقيام أهلها ضد الدعوة الإسلامية - وذلك ببذل الجزية - فإنهم لا يقاتلون.

٣ - **ومنها:** أنهم إذا انتهوا؛ إما عن الشرك: بالإسلام؛ وإما عن الفتنة: بالاستسلام - فإنه لا يعتدى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الظالم يُجازَى بمثل عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وقد قلنا فيما

سبق: إن مثل هذا التعبير يراد به المماثلة بالفعل ـ يعني: أن تسمية المجازاة اعتداءً من باب المشاكلة حتى يكون الجزاء من جنس العمل.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾: الجملة: مبتدأ وخبر؛ ومعناها: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه؛ وهذا في انتهاك الزمن؛ وقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١] في انتهاك المكان.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾؛ ﴿الحرمات﴾: جمع حُرُم؛ والمراد بـ«الحرم»: كل ما يحترم من زمان أو مكان، أو منافع أو أعيان؛ لأن «حُرُم»: جمع حرام؛ و«حرمات» جمع حُرُم؛ فالمعنى: أن المحترم يقتص منه بمحترم آخر؛ ومعنى ذلك أن من انتهك حرمة شيء فإنه تنتهك حرمته: فمن انتهك حرمة الشهر انتهكت حرمته في هذا الشهر؛ ومن انتُهِكَ عِرض مؤمن انتهك عِرض مثله؛ ومن انتهك نفس مؤمن فقتله انتُهِكَت حرمة نفسه بقتله؛ وهكذا.

وكل هذا التأكيد من الله عز وجل في هذه الآيات من أجل تسلية المؤمنين؛ لأن المؤمنين لا شك أنهم يحترمون الأشهر الحرم والقتال فيها؛ ولكن الله تعالى سلاهم بذلك بأن الحرمات قصاص؛ فكما أنهم انتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة لكم فإن لكم أن تنتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة إليهم؛ ولهذا قال تعالى مفرعًا على ذلك: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تجاوز الحد في معاملتكم سواء كان ذلك بأخذ المال، أو بقتل النفس، أو بالعرض، أو بما دون ذلك، أو أكثر فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

وقوله تعالى هنا: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾: ليس أخذنا بالقصاص اعتداءً؛ ولكنه سُمِّيَ اعتداءً؛ لأنه مسبَّب عن الاعتداء؛ فكأنه يقول: أنتم إذا اعتدى عليكم أحدٌ فخذوا حقكم منه؛ ثم فيه نكتة أخرى: أن العادي يرى نفسه في مقام أعز من المعتدى عليه، وأرفع منه؛ ولو كان يرى نفسه في مكان دونه لم يعتدِ؛ فكأنه يقول: إن قصاصكم يعتبر أيضًا عزًّا لكم؛ كما أنه هو طغى واعتدى، فأنتم الآن يعتبر قصاصكم بمنزلة المرتبة العليا بالنسبة إليهم؛ وإن شئت فقل: أطلق على المجازاة

اعتداءً من باب المشاكلة اللفظية.

قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: ادعى بعضهم أن الباء هنا زائدة، وقال: إن التقدير: فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم؛ على أن تكون «مثل» هنا: مفعولًا مطلقًا؛ أي: عدوانًا أو اعتداءً مثل اعتدائه؛ ولكن الصواب أنها ليست زائدة، وأنها أصلية؛ وأن المعنى: اعتدوا عليه بمثله؛ فالباء للبدل؛ بحيث يكون المثل مطابقًا لما اعتدى عليكم به في هيئته، وفي كيفيته، وفي زمنه، وفي مكانه؛ فإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الحرم فاقتلوه؛ وإذا اعتدى عليكم أحد بقتال في الأشهر الحرم فقاتلوه؛ فتكون الباء هنا دالة على المقابلة والعوض.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وفي هذا المقام اتقوا الله فلا تتعدَّوا ما يجب لكم من القصاص؛ لأن الإنسان إذا ظُلِم؛ فإنه قد يتجاوز ويتعدى عند القصاص.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أمر بالعلم بأن الله مع المتقين؛ وهو أوكد من مجرد الخبر؛ والمراد به: العلم مع الاعتقاد.

وقوله تعالى: ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المتخذين وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** تسلية الله عز وجل للمسلمين بأنهم إذا فاتهم قضاء عمرتهم في الشهر الحرام؛ فيمكنهم أن يقضوها في الشهر الحرام من السنة الثانية، كما حصل في الحديبية.

٢ ـ **ومنها:** أن الحرمات قصاص؛ يعني: أن من انتهك حرمتك لَكَ أن تنتهك حرمته مثلًا بمثل؛ ولهذا فرع عليها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن المعتدي لا يجازى بأكثر من عدوانه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ فلا يقول الإنسان: أنا أريد أن أعتدي بأكثر للتشفي؛ ومن ثم قال العلماء: «**إنه لا يقتص من الجاني إلا بحضرة السلطان، أو نائبه**» خوفًا من الاعتداء؛ لأن الإنسان يريد أن يتشفى لنفسه، فربما يعتدي بأكثر.

٤ ـ **ومنها:** وجوب تقوى الله عز وجل في معاملة الآخرين؛ بل في كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٥ ـ **ومنها:** إثبات أن الله مع المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ والمعية تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة؛ فالعامة هي: الشاملة للخلق كلهم، وتقتضي الإحاطة بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وسمعًا، وبصرًا، وغير ذلك من معاني الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]؛ وأما الخاصة فهي: المقيدة بوصف، أو

بشخص؛ مثال المقيدة بوصف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]؛ ومثال المقيدة بشخص قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله تعالى فيما ذكره عن نبيه ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

تنبيه:

اعلم أن ما أثبته الله لنفسه من المعية لا ينافي ما ذكر عن نفسه من العلو؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يقاس بخلقه؛ فمعيته ثابتة مع علوه تبارك وتعالى؛ وإذا كان العلو والمعية لا يتناقضان في حق المخلوق ـ فإنهم يقولون: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، ولا يعدّون ذلك تناقضًا مع أن القمر في السماء؛ فثبوت ذلك في حق الخالق من باب أولى؛ وبهذا يبطُل قول من زعم أن معية الله تستلزم أن يكون في الأرض مختلطًا بالخلق؛ فإن هذا قول باطل باتفاق السلف المستنِد على الكتاب والسنة في إثبات علو الله فوق خلقه؛ وتفصيل القول في هذا مدوَّن في كتب العقائد.

٦ـ ومن فوائد الآية: تأكيد هذه المعية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ ولم يقتصر على مجرد أن يخبر بها؛ بل أمرنا أن نعلم بذلك؛ وهذا أمر فوق مجرد الإخبار.

٧ـ ومنها: بيان إحاطة الله عز وجل بالخلق، وتأييده بالمتقين الذين يقومون بتقواه؛ ووجه ذلك: أنه من المعلوم بالكتاب، والسنة، والعقل، والفطرة أن الله فوق جميع الخلق؛ ومع ذلك أثبت أنه مع الخلق.

٨ـ ومنها: فضيلة التقوى؛ حيث ينال العبد بها معية الله؛ فإنه من المعلوم إذا كان الله معك ينصرك ويؤيدك ويثبتك؛ فهذا يدل على فضيلة السبب الذي هو التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابذلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله؛ ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من الجهاد؛ ليشمل كل ما يقرب إلى الله عز وجل، ويوصل إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بعضهم يقول: إن الباء هنا زائدة؛ أي: لا تلقوا أيديكم

إلى التهلكة؛ والصواب: أنها أصلية وليست بزائدة؛ ولكن ضمنت معنى الفعل «الإفضاء» أي: لا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة؛ و﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾: من الهلاك؛ والمعنى: لا تلقوها إلى ما يهلككم، ويشمل الهلاك الحِسِّي والمعنوي، فالمعنوي: مثل أن يدع الجهاد في سبيل الله، أو الإنفاق فيه؛ والحسي: أن يعرض نفسه للمخاطر، مثل أن يلقي نفسه في نار، أو في ماء يغرقه، أو ينام تحت جدار مائل للسقوط، أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: افعلوا الإحسان في عبادة الخالق؛ وفي معاملة المخلوق؛ أما الإحسان في عبادة الخالق فقد فسره النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]؛ وأما الإحسان في معاملة الخلق: بأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به من بذل المعروف وكفّ الأذى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالإحسان؛ ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافيًا للمؤمن أن يقوم بالإحسان.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هذا الإنفاق؛ بل هي أول ما يدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفاق في سبيل الله؛ وهي أوجب من الإنفاق في الجهاد، وفي صلة الرحم، وفي بر الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام.

٢ - **ومنها:** الإشارة إلى الإخلاص في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ويدخل في هذا: القصد، والتنفيذ بأن يكون القصد لله، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

٣ - **ومنها:** تحريم الإلقاء باليد إلى التهلكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؛ والإلقاء باليد إلى التهلكة يشمل التفريط في الواجب، وفعل المحرم؛ أو بعبارة أعم: يتناول كل ما فيه هلاك الإنسان، وخطر في دينه، أو دنياه.

٤ - **ومنها:** أن ما كان سببًا للضرر فإنه منهي عنه؛ ومن أجل هذه القاعدة عرفنا أن الدخان حرام؛ لأنه يضر باتفاق الأطباء، كما أن فيه ضياعًا للمال أيضًا؛ وقد نهى ﷺ عن إضاعة المال[2].

٥ - **ومنها:** الأمر بالإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾؛ وهل الأمر للوجوب، أو للاستحباب؟

الجواب: إن الإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب؛ وأمّا الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٦١٠٨).

٦ - **ومنها**: فضيلة الإحسان، والحث عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ - **ومنها**: إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي ﷺ أن أُحُدًا - وهو حصى - جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه[1]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حَنَّتْ إليه وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: ائتوا بهما تامتين؛ وهذا يشمل كمال الأفعال في الزمن المحدد، وكذلك صفة الحج والعمرة - أن تكون موافقة تمام الموافقة لما كان النبي ﷺ يقوم به واللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ تفيد الإخلاص - يعني مخلصين لله عز وجل ممتثلين لأمره -.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم عن إتمامها ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ أي: فعليكم ما تيسر من الهدي؛ وزيادة الهمزة والسين للمبالغة في تيسر الأمر؛ و﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: الهدي الشرعي؛ فـ«أل» فيه للعهد الذهني؛ والهدي الشرعي هو ما كان ثنيًا مما سوى الضأن؛ لقول النبي ﷺ: «**لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا إِنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ**»[2]؛ وهذا النهي يشمل كل ما ذبح تقربًا

---

(١) رواه البخاري (١٤١١)، ومسلم (١٣٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٩٦٣)، والنسائي (٤٣٧٨)، وأبو داود (٢٧٩٧).

إلى الله عز وجل من هدي، أو أضحية، أو عقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أي: لا تزيلوها بالموسى ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾: «محل» يحتمل أن تكون اسم زمان؛ والمعنى: حتى يصل إلى يوم حلوله - وهو يوم العيد -؛ وثبتت السنة بأن من قدَّم الحلق على النحر فلا حرج عليه[1]؛ ويحتمل إن المعنى: حتى يذبح الهدي؛ وتكون الآية فيمن ساق الهدي؛ ويؤيد هذا أن النبي ﷺ سئل ما بال الناس حلوا ولم تحل؟ فقال ﷺ: «إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي فَلا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَر»[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: واحتاج إلى حلق الرأس؛ ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وهو صحيح، كما لو كان الرأس محلًا للأذى، والقمل، وما أشبه ذلك؛ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فعليه فدية يفدي بها نفسه من العذاب ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾؛ ﴿أَوْ﴾ هنا للتخيير؛ وقد بَيَّنَ النبي ﷺأن «الصيام» ثلاثة أيام[3]، وأن «الصدقة»: إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع؛ وأما «النسك»: فهو ذبح شاة[4]؛ وهذه الجملة قد حذف منها ما يدل عليه السياق؛ والتقدير: فمن كان منكم مريضًا، أو به أذًى من رأسه، فَحَلَقَ رأسه فعليه فدية.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أي: من العدو؛ يعني: فأتموا الحج والعمرة.

ثم فصَّل الله عز وجل المناسك فقال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فمن أتى بالعمرة متمتعًا بحله منها بما أحل الله له من محظورات الإحرام ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ أي: إلى ابتداء زمن الحج؛ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ما استيسر من الهدي شكرًا لله على نعمة التحلل؛ ويقال في هذه الجملة ما قيل في الجملة التي سبقت في الإحصار.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: فمن لم يجد الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيام ﴿فِي الْحَجِّ﴾ أي: في أثناء الحج، وفي أشهره.

قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: إذا رجعتم من الحج بإكمال نسكه، أو إذا رجعتم إلى أهليكم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ للتأكيد على أن هذه الأيام العشرة وإن كانت مُفَرَّقة فهي في حكم المتتابعة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ذلك التمتع المُوجِبُ للهدي.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلُهُ﴾: قيل: المراد به نفسه؛ أي: لمن لم يكن حاضرًا المسجد الحرام؛ وقيل: المراد

---

(١) انظر صحيح البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٢٢٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٩٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٣٠).

(٤) رواه البخاري (١٧٢١)، وابن ماجه (٣٠٧٩)، وأحمد في «مسنده» (١٨١٤٥).

بـ«الأهل»: سكنه الذي يسكن إليه من زوجة، وأب، وأم، وأولاد، وما أشبه ذلك؛ فيكون المعنى: ذلك لمن لم يكن سكنه حاضري المسجد الحرام؛ وهذا أصح؛ لأن التعبير بـ «الأهل» عن النفس بعيد؛ ولكن ﴿أَهْلُهُۥ﴾ أي: الذين يسكن إليهم من زوجة، وأب، وأم، وأولاد هذا هو الواقع.

وقوله تعالى: ﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ المراد به: مسجد مكة؛ و﴿ٱلْحَرَامِ﴾ صفة مشبهة بمعنى ذي الحرمة، وقد قال النبي ﷺ: «وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ»[1]؛ وحرمة المسجد الحرام معروفة من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

وَاخْتُلِفَ في المراد بـ﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فقيل: هم أهل الحرم - يعني: من كانوا داخل حدود الحرم -؛ فمن كان خارج حدود الحرم فليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وروي هذا عن ابن عباس وجماعة من السلف والخلف؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل المواقيت، ومن دونهم؛ وعلى هذا فأهل بدر من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وأهل جدة من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم دون المواقيت؛ وقيل: حاضرو المسجد الحرام أهل مكة، ومن بينهم وبين مكة دون مسافة القصر؛ وهي يومان؛ وعلى هذا فأهل جدة، وأهل بدر ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وأهل بحرة - وهي بلدة دون جدة - على هذا القول يكون أهلها من حاضري المسجد الحرام؛ لأنهم داخل المسافة؛ وأهل الشرائع من حاضري المسجد الحرام؛ والأقرب القول الأول: أن حاضري المسجد الحرام هم أهل الحرم؛ وأما من كان من غير أهل الحرم فليسوا من حاضريه؛ بل هم من محلٍّ آخر؛ وهذا هو الذي ينضبط.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا تقوى الله عز وجل؛ وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: شديد المؤاخذة والعقوبة لمن لم يتقه تبارك وتعالى؛ وَسُمِّيَتْ المؤاخذة عقابًا؛ لأنها تأتي عقب الذنب.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب إتمام الحج والعمرة؛ وظاهر الآية أنه لا فرق بين الواجب منهما وغير الواجب؛ ووجه هذا الظاهر: العموم في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾؛ فيكون شاملًا للفريضة والنافلة؛ ويؤيده أن هذه الآية نزلت قبل فرض الحج؛ لأن الحج إنما فُرِضَ في السنة التاسعة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]؛ السنة التي يسميها العلماء سنة الوفود.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن العمرة والحج سواء في وجوب إتمامهما؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾.

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

٣ـ **ومنها**: أنه لا تجوز الاستنابة في شيء من أفعال الحج والعمرة؛ فلو أن أحدًا استناب شخصًا في أن يطوف عنه، أو أن يسعى عنه، أو أن يقف عنه بعرفة، أو أن يقف عنه بمزدلفة، أو أن يرمي عنه الجمار، أو أن يبيت عنه في منى فإنه حرام؛ لأن الأمر بالإتمام للوجوب؛ فيكون في ذلك رد لقول من قال من أهل العلم: إنه تجوز الاستنابة في نفل الحج، وفي بعضه؛ أما الاستنابة في نفل الحج ـ كل النسك ـ فهذا له موضع آخر؛ وأما في بعضه فالآية تدل على أنها لا تصح.

٤ـ **ومن فوائد الآية**: الحذر مما يفعله بعض الناس الآن من التساهل في رمي الجمرات؛ حيث إنهم يوكلون من يرمي عنهم بدون عذر مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ وعليه فلا يصح رمي الوكيل حينئذٍ؛ لقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود عليه؛ أما إذا كان لعذر كالمريض، والخائف على نفسه من شدة الزحام إذا لم يكن وقت آخر للرمي يخف فيه الزحام فلا بأس أن يستنيب من يرمي عنه؛ ولولا ورود ذلك عن الصحابة لقلنا: إن العاجز عن الرمي بنفسه يسقط عنه الرمي كسائر الواجبات، حيث تسقط بالعجز؛ ويدل على عدم التهاون بالتوكيل في الرمي أن النبي ﷺ لم يأذن لسودة بنت زمعة أن توكل؛ بل أمرها أن تخرج من مزدلفة، وترمي قبل حطمة الناس[2]؛ ولو كان التوكيل جائزًا لمشقة الزحام لكان الرسول ﷺ يبقيها معه حتى تدرك بقية ليلة المزدلفة، وتدرك صلاة الفجر فيها، وتدرك القيام للدعاء بعد الصلاة؛ ولا تُحْرَم من هذه الأفعال؛ فلما أذن لها في أن تدفع بليل عُلم بأن الاستنابة في الرمي في هذا الأمر لا يجوز؛ وكذلك لو كان جائزًا لأذن للرعاة أن يوكلوا، ولم يأذن لهم بأن يرموا يومًا ويدعوا يومًا.

٥- **ومن فوائد الآية**: وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يعني: أتموها لله لا لغيره؛ فلا تراعوا في ذلك جاهًا، ولا رتبةً، ولا ثناءً من الناس.

٦- **ومنها**: أن الحج والعمرة يخالفان غيرهما في وجوب إتمام نفلهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا﴾؛ والأمر للوجوب؛ ويدل على أنه للوجوب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، حيث أوجب الهدي عند الإحصار؛ أما غيرهما من العبادات فإن النفل لا يجب إتمامه؛ لأن النبي ﷺ دخل على أهله ذات يوم فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟» قالوا: نعم، حَيْس؛ قال: «أَرِينِيهِ؛ فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِمًا»؛ فأكل»[3]؛ لكن يكره قطع النفل إلا لغرض صحيح؛ كحاجة إلى قطعه، أو انتقال لما هو أفضل منه.

٧- **ومن فوائد الآية**: أنه إذا أُحْصِر الإنسان عن إتمام الحج والعمرة فله أن يتحلل؛ ولكن

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (١٥٩٧)، وابن راهويه في «مسنده» (٩٨١).

(٣) رواه مسلم (١١٥٤)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٨٠٧).

عليه الهدي؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

٨- ومنها: أن الله تعالى أطلق الإحصار، ولم يقيده؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾؛ لأن الفعل لو بُني للفاعل وذُكر الفاعل اختص الحكم به؛ فإذا قلت مثلًا: «أقام زيد عمرًا» صار المقيم زيدًا؛ وإذا قلت: «أُقيم عمرٌو» صار عامًّا؛ فظاهر الآية شمول الإحصار لكل مانع من إتمام النسك؛ فكل ما يمنع من إتمام النسك فإنه يجوز التحلل به، وعليه الهدي؛ أما الإحصار بالعدو فأظنه محل إجماع فيتحلل بالنص والإجماع؛ النص: تحلل الرسول ﷺ في الحديبية[1]؛ والإجماع: لا نعلم في هذا مخالفًا؛ وأما الحصر بغير عدو، كمرض، أو كسر، أو ضياع نفقة، أو ما أشبه ذلك مما لا يستطيع معه إتمام الحج والعمرة؛ فإن العلماء اختلفوا في ذلك؛ فمنهم من قال: إنه لا يتحلل، ويبقى محرمًا حتى يزول المانع؛ ومنهم من قال: إنه يتحلل، كالحصر بالعدو؛ حجة الأولين: أن الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾؛ والآية نزلت في شأن قضية الحديبية؛ وهم قد أحصروا بعدو؛ فيكون الحصر هنا خاصًّا بالعدو؛ ودليل آخر: يقولون: ضباعة بنت الزبير رضي الله عنها لما جاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ أنها مريضة، وأنها تريد الحج قال لها: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي»[2]؛ فلو كان الإحصار بالمرض مبيحًا للتحلل ما احتيج إلى الاشتراط؛ فكانت تدخل في النسك، وإذا عجزت تحللت؛ وأجاب القائلون بأن الحصر عام بحصر العدو وغيره بأن الآية مطلقة: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ لم تقيد بحصر العدو؛ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لأن العلة في جواز التحلل بحصر العدو عدم القدرة على إتمام النسك؛ وهذا حاصل بالحصر بغير العدو؛ والشرع لا يفرق بين متماثلين؛ وأجابوا عن حديث ضباعة رضي الله عنها بأن يقال: إن الفائدة من حديث ضباعة رضي الله عنها أنه إذا حصل مرض يمنع من إتمام النسك فإنها تتحلل بلا شيء؛ وأما إذا لم تشترط فإنها لا تتحلل إلا بدم؛ وحينئذٍ تظهر فائدة اشتراط من خاف أن يعوقه مرض أو نحوه عن إتمام النسك؛ والفائدة هي: أنه لا يجب عليه الهدي لو تحلل بهذا الحصر؛ والصواب القول الثاني: أن الإحصار يكون بالعدو وبغيره.

فإن قال قائل: إن قوله تعالى في سياق الآية: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ يشير إلى أن الإحصار المذكور بعدو؟

فالجواب: أن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام لا يقتضي التخصيص، كما هو قول المحققين من أهل أصول الفقه وغيرهم؛ ونظير ذلك حديث جابر رضي الله عنه: «قَضَى النَّبِيُّ ﷺ بِالشُّفْعَةِ فِي كُلِّ مَا لَمْ يُقْسَمْ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ الْحُدُودُ وَصُرِفَتِ الطُّرُقُ فَلَا شُفْعَةَ»[3]؛ فإن قوله: «فإذا

---

(١) انظر صحيح البخاري (٢٥٨١).
(٢) رواه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (١٢٠٧).
(٣) رواه البخاري (٢٠٩٩)، ومسلم (١٦٠٨).

وقعت الحدود..» إلخ لا يستلزم اختصاص الشفعة بما له حدود وطرق؛ بل الشفعة ثابتة في كل مشترك على القول الراجح.

٩- **ومن فوائد الآية**: وجوب الهدي على من أحصر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

١٠- **ومنها**: أن من تعذر أو تعسَّر عليه الهدي فلا شيء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ ولم يذكر الله بديلًا عند العجز؛ وقال بعض أهل العلم: إنه إذا لم يجد هديًا صام عشرة أيام، ثم حَلَّ؛ قياسًا على هدي التمتع؛ ولكن هذا القياس ليس بصحيح من وجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر الآية؛ لأن الله لم يذكر بديلًا للهدي.

الوجه الثاني: أن تحلل المتمتع تحلل اختياري؛ وأما المحصر فتحلله اضطراري.

١١ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجب على المحصر الحلق عند التحلل؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ وهو أحد القولين في المسألة؛ والقول الثاني: وجوب الحلق؛ لثبوته بالسنة؛ لأن النبي ﷺ أمر به، وغضب على الصحابة حين تأخروا في تنفيذه؛ ولا يغضب النبي ﷺ لترك مستحب؛ لا يغضب إلا لترك واجب.

١٢ ـ **ومنها**: أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ ولو كان القضاء واجبًا لذكره الله عز وجل؛ وهذا يشمل من حصر في فريضة؛ ومن حصر في نافلة؛ لكن الفريضة إذا حصر عن إتمامها يلزمه فعلها بالخطاب الأول؛ لا على أنه بدل عن هذه التي أحصر عنها؛ فمثلًا: رجلًا شرع في حج الفريضة، ثم أحصر عن إتمامها، فذبح الهدي وتحلل؛ فيجب الحج عليه بعد ذلك؛ لكن ليس على أنه قضاء؛ لكن على أنه مخاطب به في الأصل؛ وتسمية العمرة التي وقعت بعد صلح الحديبية «عمرة القضاء» ليست لأنها قضاء عما فات؛ ولكنها من «المقاضاة» ـ وهي المصالحة ـ؛ ولذلك لم يأت بها كل من تحلل من عمرة الحديبية.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لابد أن يكون هذا الهدي مما يصح أن يهدَى: بأن يكون بالغًا للسن المعتبر سالمًا من العيوب المانعة من الإجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ و«أل» هنا: للعهد الذهني المعلوم للمخاطب؛ وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا إِنْ تَعْسِرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذْعَةً مِنَ الضَّأْنِ**».

فإن قال قائل: هل يؤكل من هذا الهدي أم لا؟

فالجواب: يؤكل؛ كل شيء فيه: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ فهو يؤكل؛ وأما ما فيه: «فعليه» فإنه لا يؤكل؛ فجزاء الصيد لا يؤكل منه؛ وفدية الأذى لا يؤكل منها؛ لأن الله جعلها كفارة؛ أما ما استيسر من الهدي هنا وفي التمتع فإنه يؤكل منه.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم حلق الرأس على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾؛ والنهي عام لكل الرأس، ولبعضه؛ إذن لو حلق بعضه وقع في الإثم؛ لأن النهي يتناول جميع

أجزاء المنهي عنه؛ فإذا قلت لك: «لا تأكل هذه الخبزة» وأكلت منها فإنك لم تمتثل.

١٥ ـ ومنها: أنه لا يحرم حلق شعر غير الرأس؛ لأن الله خص النهي بحلق الرأس فقط؛ وأما الشارب، والإبط، والعانة، والساق، والذراع، فلا يدخل في الآية الكريمة؛ لأنه ليس من الرأس؛ والأصل الحل؛ وهذا ما ذهب إليه أهل الظاهر؛ قالوا: لا يحرم على المحرم حلق شيء من الشعر المباح حلقه سوى الرأس؛ لأن الله سبحانه وتعالى خصه فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾؛ ولأن حلقه يفوت به نسك بخلاف غيره من الشعور؛ ولكن أكثر أهل العلم ألحقوا به شعر بقية البدن؛ وقالوا: إنه يحرم على المحرم أن يحلق أيّ شعر من بدنه حتى العانة – قياسًا على شعر الرأس؛ لأن العلة في تحريم حلق شعر الرأس الترفه، وإزالة الأذى؛ وهذا حاصل في حلق غيره من الشعور؛ وهذا القياس غير صحيح لوجهين:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر النص، أو صريحه.

الوجه الثاني: أن بين شعر الرأس وغيره فرقًا كثيرًا: فإن حلق شعر الرأس يتعلق به التحلل من النسك؛ فهو عنوان التحلل؛ بخلاف غيره من الشعور.

وأما التعليل بأنه للترفه ودفع الأذى ففيه نظر؛ ثم لو سلمنا بذلك فأين دفع الأذى في حلق شعر العانة، وشعر الساق، ونحو ذلك؟! وأين الدليل على منع المحرم من الترفه مع أنه يجوز له التنظف، والاغتسال، والتظلل من الشمس، واستعمال المكيفات؟!

وهل تلحق الأظافر بشعر الرأس؟

الجواب: لا تلحق؛ فالأظافر ليست شعرًا؛ وليست في الرأس أيضًا؛ فهي أبعد من إلحاق شعر بقية البدن بشعر الرأس؛ ووجه البعد: أنها ليست من نوع الشعر؛ صحيح أنها تشبه الشعر من حيث إنها جزء منفصل؛ لكنها ليست من نوع الشعر؛ ولذلك من لم ير تحريم حلق شعر بقية البدن فإنه لا يرى تحريم قص الأظافر من باب أولى؛ ولكن جمهور أهل العلم على أن تقليم الأظافر محرم على المحرِم قياسًا على تحريم حلق شعر الرأس؛ والعلة: ما في ذلك من الترفه والتنعم؛ ولكن هذه العلة غير مُسَلَّمة:

أولًا: لأن العرب في زمنهم لا يترفهون بحلق الرأس؛ بل الرفاهية عندهم إنما هي في إبقاء الرأس، وترجيله، وتسريحه، ودهنه، والعناية به؛ فليست العلة إذنْ في حلق شعر الرأس: الترفه.

ثانيًا: أن العلة لابد أن تطَّرد في جميع معلولاتها؛ وإلا كانت باطلة؛ وهذه العلة لا تطَّرد بدليل أن المحرم لو ترفه، فتنظف، وتغسل، وأزال الوسخ عنه، ولبس إحرامًا جديدًا غير الذي أحرم به لم يحرم عليه ذلك.

وأقرب شيء للتعليل: أن في حلق الرأس حال الإحرام إسقاطًا للنسك الذي هو حلْقُه عند التحلل؛ وهذا لا يساويه حلق بقية الشعر، أو تقليم الأظافر؛ ولكن نظرًا لأن جمهور أهل العلم

ألحقوا ذلك بشعر الرأس فالاحتياط تجنب ذلك مراعاة لقول الجمهور.

١٦ ـ ومن فوائد الآية: أن المحرَّم ما يسمى حلقًا؛ فأما أخذ شعرة، أو شعرتين، أو ثلاث شعرات من رأسه فلا يقال: إنه حلق؛ وهذه المسألة مما تنازع فيها أهل العلم؛ فقال بعضهم: إذا أخذ شعرة واحدة من رأسه فقد حلق؛ فعليه فدية إطعام مسكين؛ وإن أخذ شعرتين فإطعام مسكينين؛ وإذا أخذ ثلاث شعرات فدم؛ أو إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ أو صيام ثلاثة أيام؛ وقال بعض العلماء: إن الحكم يتعلق بربع الرأس؛ فإن حلق دون الربع فلا شيء عليه؛ وهذا لا شك أنه تحكم لا دليل عليه؛ فلا يكن صحيحًا؛ بل هو ضعيف؛ وقال آخرون: تتعلق الفدية بما يماط به الأذى؛ ومعنى يماط: يزال؛ أي: بما يحصل به إزالة الأذى؛ وهذا لا يكون إلا بجزء كبير من الرأس؛ قالوا: لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ...﴾؛ فدل هذا على أن المحرَّم الذي تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى؛ وهذا مذهب مالك؛ وهو صحيح من حيث إنَّ الفدية لا تجب إلا بما يماط به الأذى فقط؛ لكنه غير صحيح من كون التحريم يتعلق بما يماط به الأذى فقط؛ فالتحريم يتعلق بما يُسَمَّى حلقًا؛ والفدية تتعلق بما يماط به الأذى.

فإن قال قائل: ما هو دليلكم على هذا التقسيم؛ فالعلماء لم يقولوا هذا الكلام؟

فالجواب: أن نقول: دليلنا على هذا التقسيم الآية الكريمة، وفعل النبي ﷺ؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾؛ هذا عام لكل حلق؛ فكل ما يسمى حلقًا فإنه مَنْهِيٌّ عنه لهذه الآية؛ ثم قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾؛ فأوجب الفدية فيما إذا حلق حلقًا يزول به الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى﴾؛ فلو قدرنا محرِمًا رأسه تؤذيه الهوام، فحلق منه شيئًا يسيرًا لا يزول به الأذى فلا فدية عليه؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الفدية بحلق ما يزول به الأذى؛ ويدل لذلك فعل الرسول ﷺ: فقد احتجم وهو محرم في يافوخه في أعلى رأسه[1]؛ ومعلوم أن الحِجَامَة تحتاج إلى حلق الشعر الذي يكون في موضع الحجامة؛ ولم ينقل أن الرسول ﷺ افتدى؛ فدل ذلك على أن ما تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى دون الشيء اليسير.

١٧ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا يجوز الحلق إلا بعد النحر؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾؛ وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم مستدلين بقوله ﷺ: «**إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي؛ فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ**»؛ وهؤلاء الذين قالوا به عندهم ظاهر الآية الكريمة وفعل الرسول ﷺ حيث قال: «**فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ**»؛ لكن قد وردت الأحاديث بجواز التقديم والتأخير تيسيرًا على الأمة؛ فإن النبي ﷺ سئل في يوم العيد عن التقديم والتأخير؛ فما سئل عن شيء قدِّم ولا أُخِّر إلا قال ﷺ:

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٧٣٩)، ومسلم (١٢٠٣).

«افْعَلْ وَلَا حَرَجَ»[1].

١٨ ـ ومن فوائد الآية: جواز حلق الرأس للمرض والأذى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ...﴾.

١٩ ـ ومنها: وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه؛ وهي: إما صيام ثلاثة أيام؛ وإما إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع؛ وإما ذبح شاة تفرق على الفقراء ـ كما بينت ذلك السنة ـ؛ والسنة تبين القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]؛ والتبيين يشمل: تبيين اللفظ، وتبيين المعنى.

٢٠ ـ ومن فوائد الآية: أن هذه الفدية على التخيير؛ لأن هذا هو الأصل في معاني «أو».

٢١ ـ ومنها: التيسير على العباد؛ وذلك بوقوع الفدية على التخيير.

٢٢ ـ ومنها: أن محل الإطعام والنسك في مكان فعل المحظور؛ لأن الفورية تقتضي ذلك؛ أما الصيام فالظاهر ما قاله العلماء ـ رحمهم الله ـ من كونه يصح في كل مكان؛ لكن الفورية فيه أفضل.

٢٣ ـ ومنها: أن كفارات المعاصي فدًى للإنسان من العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ ...﴾.

٢٤ ـ ومنها: أن محظورات الإحرام لا تفسده؛ لأن الله لم يوجب في حلق الرأس ـ مع أنه من محظورات الإحرام ـ إلا الفدية؛ ومقتضى ذلك أن النسك صحيح؛ وهذا مما يخالف الحجُّ والعمرةُ فيه غيرَهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها؛ وألحق العلماء بفدية حلق الرأس فدية جميع محظورات الإحرام ما عدا شيئين؛ وهما: الجماع في الحج قبل التحلل الأول، وجزاء الصيد؛ فالجماع في الحج قبل التحلل الأول يجب فيه بدنة؛ وجزاء الصيد يجب فيه مثله؛ أو إطعام مساكين؛ أو عدل ذلك صيامًا؛ وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم.

٢٥ ـ ومن فوائد الآية: جواز التمتع بالعمرة إلى الحج؛ أي: أن يأتي الإنسان بالعمرة في أشهر الحج، ويتحلل منها؛ ويبقى حلاً إلى أن يأتي وقت الحج؛ وكانوا في الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور؛ ويقولون: «**إذا انسلخ صفر، وبرأ الدَّبَر، وعفا الأثر، حلت العمرة لمن اعتمر**»[2]؛ لكن الله سبحانه وتعالى يسَّر وبيَّن أنه يجوز للإنسان القادم في أشهر الحج أن يتحلل بالعمرة متمتعًا بها إلى الحج.

٢٦ ـ ومنها: أنه إذا حل من عمرته حل الحل كله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾؛ لأن إطلاق

(١) رواه البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).
(٢) رواه البخاري (١٤٨٩)، ومسلم (١٢٤٠).

التمتع لا يكون إلا كذلك.

٢٧ ـ ومنها: أن من لم يحل من عمرته لا يسمى متمتعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾؛ وعلى هذا فالقارن ليس بمتمتع؛ وهو كذلك عند الفقهاء أن القارن غير متمتع؛ لكن ذكر كثير من أهل العلم أن القارن يسمى «متمتعًا» في لسان الصحابة؛ وذلك؛ لأن بعض الصحابة عبر عن حج النبي ﷺ بالتمتع، فقالوا: تمتع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج[1]؛ ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يحل من إحرامه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: «لا شَكَّ أن النبي ﷺ حج قارنًا؛ والمتعة أحب إليّ»؛ ولهذا كان وجوب الهدي على المتمتع بالإجماع؛ ووجوب الهدي على القارن فيه خلاف؛ وجمهور أهل العلم على وجوب الهدي عليه؛ وسبب اختلافهم في ذلك اختلافهم في العلة: هل هي حصول النسكين في سفر واحد؛ فيكون قد ترفه بسقوط أحد السفرين؛ أو العلة التمتع بالتحلل بين العمرة والحج؟ فمن قال بالأول أوجب الهدي على القارن؛ ومن قال بالثاني لم يوجبه؛ لأنه لم يحصل للقارن تحلل بين النسكين.

٢٨ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا يجب على الإنسان أن يقترض للهدي إذا لم يكن معه ما يشتري به الهدي ـ ولو كان غنيًا – لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

٢٩ ـ ومنها: تيسير الله على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ والدين كله من أوله إلى آخره مبني على اليسر.

٣٠ ـ ومنها: بلاغة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾؛ فحُذف المفعول للعموم؛ ليشمل من لم يجد الهدي، أو ثمنه؛ فاستفيد زيادة المعنى مع اختصار اللفظ.

٣١ ـ ومنها: أن من لم يجد الهدي، أو ثمنه، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج: أولها من حين الإحرام بالعمرة؛ وآخرها آخر أيام التشريق؛ لكن لا يصوم يوم العيد؛ لتحريم صومه؛ ولا ينبغي أن يصوم يوم عرفة؛ ليتفرغ للدعاء والذكر وهو نشيط؛ وعلى هذا فيجوز لمن كان عادمًا للهدي من متمتع أو قارن أن يصوم من حين إحرامه بالعمرة.

فإن قال قائل: هذا ظاهر في القارن؛ لأنه إذا صام من حين إحرامه فقد صام في الحج؛ لكنه في المتمتع فيه إشكال؛ لأن المتمتع يحل بين العمرة والحج؟

والجواب عن هذا الإشكال أن نقول: إن النبي ﷺ قال: «دَخَلَت العُمْرَةُ فِي الحَجِّ»[2]؛ ولأن المتمتع من حين إحرامه بالعمرة فقد نوى أن يحج.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٦٠٦)، ومسلم (١٢٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨)، والترمذي (٩٣٢)، والنسائي (٢٨١٥).

٣٢ـ ومن فوائد الآية: أن صيام السبعة لا يجوز في أيام الحج؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

٣٣ـ ومنها: أنه يجوز التتابع والتفريق بين الأيام الثلاثة والأيام السبعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أطلق، ولم يشترط التتابع؛ ولو كان التتابع واجبًا لذكره الله، كما ذكر وجوب التتابع في صيام كفارة القتل وصيام كفارة الظهار.

٣٤ـ ومنها: تيسير الله ـ تبارك وتعالى ـ على عباده؛ حيث جعل الأكثر من الصيام بعد رجوعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

٣٥ـ ومنها: أن الهدي أو بدله من الصيام لا يجب على من كان حاضر المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ وقد سبق أن الصحيح أنهم من كانوا داخل حدود الحرم؛ وعلى هذا إذا تمتع أهل جدة أو الطائف أو أهل الشرائع فعليهم الهدي؛ ولكن هل لحاضر المسجد الحرام التمتع؟

الجواب: نعم؛ لأن حاضر المسجد الحرام قد تدخل عليه أشهر الحج وهو خارج مكة، ثم يرجع إلى أهله في مكة في أشهر الحج، فيحرم بعمرة يتمتع بها إلى الحج.

فإن كان شخص في مكة للدراسة، لكن وطنه الرياض، أو المدينة وتمتع فعليه الهدي؛ لأن أهله ليسوا من حاضري المسجد الحرام؛ وإقامته في مكة ليست إقامة استيطان؛ والمراد: أن يكون مستوطنًا في مكة.

وإذا كان له مَقَرَّان؛ في الطائف، وفي مكة؛ يعني: من أهل مكة والطائف، فهنا نقول: إن نظرنا إلى مقره في الطائف قلنا: ليس من حاضري المسجد الحرام؛ وإن نظرنا إلى مقره في مكة قلنا: هو من حاضري المسجد الحرام؛ فنعتبر الأكثر: إذا كان أكثر إقامته في الطائف فليس من أهل المسجد الحرام؛ وإذا كان أكثر إقامته في مكة فهو من حاضري المسجد الحرام.

٣٦ـ ومن فوائد الآية: فضيلة المسجد الحرام؛ لوصف الله سبحانه وتعالى له بأنه حرام ـ أي: ذو حرمة ـ؛ ومن حرمته تحريم القتال فيه، وتحريم صيده، وشجره، وحشيشه، وأن من أراد الإلحاد فيه بظلم أذاقه الله من عذاب أليم؛ وبسط ذلك في المطولات.

٣٧ـ ومنها: وجوب تقوى الله عز وجل، وتهديد من خالف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٣٨ـ ومنها: أن العلم بشدة عقوبة الله من أهم العلوم؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى به بخصوصه؛ لأنه يورث الخوف من الله، والهرب من معصيته.

٣٩ـ ومنها: أن العقوبة على الذنب لا تنافي الرحمة؛ إذ من المعلوم أن رحمة الله سبقت غضبه؛ لكن

إذا عاقب من يستحق العقاب فإن ذلك من رحمة المعاقب؛ لأن هذه العقوبة إن كانت في الدنيا فهي كفارة له؛ وإن كانت في الآخرة فيما دون الشرك أمره إلى الله: إن شاء عذب؛ وإن شاء غفر.

٤٠ ـ ومنها: أن شدة العقاب من كمال المعاقِب، وبسط قوته، وسلطانه؛ ولا يوصف الله سبحانه وتعالى إلا بالكمال؛ بل أمَرنا أن نعلم ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٨]؛ إذنْ فإذا عاقبت ولدك بما يستحق، وكانت الجناية كبيرة، فأكبرت العقوبة فإنك تُحمَد، ولا تذم؛ ولهذا قال ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ»[1]؛ لأنه إذا بلغ عشرًا صار تركه إياها والإخلال بها أعظم.

تنبيه:

كثير من الناس كُلَّما رأوا مخالفة من شخص في الإحرام قالوا: «عليك دم»؛ لو قال: حككت رأسي فسقطت منه شعرة بدون اختيار ولا قصد قالوا: «عليك دم»؛ وهذا غلط:

أولًا: لأنه خلاف ما أمر الله به؛ والله أوجب واحدة من ثلاث: صيام؛ أو صدقة؛ أو نسك؛ فإلزامهم بواحدة معينة فيها تضييق عليهم، وإلزام لهم بما لا يلزمهم.

ثانيًا: أن الدم في أوقات النحر في أيام مِنَى غالبه يضيع هدرًا؛ لا ينتفع به.

ثالثًا: أن فيه إخفاءً لحكم الله عز وجل؛ لأن الناس إذا كانوا لا يفدون إلا بالدم، كأنه ليس فيه فدية إلا هذا؛ وليس فيه إطعام، أو صيام! فالواجب على طالب العلم أن يختار واحدًا من أمرين:

* إما أن يرى الأسهل، ويفتي بالأسهل.
* وإما أن يقول: عليك هذا، أو هذا، أو هذا؛ واختر لنفسك.

أما أن يذكر الأشد فقط، ويسكت فهذا خلاف ما ينبغي للمفتين.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ يعني: أن الحج يكون في أشهر معلومات؛ وهي:

(١) صحيح: رواه أحمد (٦٧٥٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٠٥١)، والدارقطني (٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٩٨).

شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ وقيل: العشر الأول من ذي الحجة؛ والأول أصح؛ وقد استُشكل كون الخبر ﴿أَشْهُرٌ﴾؛ ووجه الإشكال: أن الحج عمل، والأشهر زمن؛ فكيف يصح أن يكون الزمن خبرًا عن العمل؟ وأجيب: بأن هذا على حذف مضاف؛ والتقدير: الحج ذو أشهر معلومات؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وقيل: التقدير: الحج وقته أشهر معلومات؛ والتقدير الأول أقرب.

قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾؛ «مَن» اسم شرط؛ و﴿فَرَضَ﴾ فعل الشرط؛ ﴿فِيهِنَّ﴾ الضمير يعود إلى أشهر الحج؛ وقد أجمع العلماء على أن الضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ يرجع إلى بعضهن؛ لأنه لا يمكن أن يفرض الحج بعد طلوع الفجر يوم النحر؛ ويفرض الحج من أول ليلة من شوال إلى ما قبل طلوع الفجر يوم النحر بزمن يتمكن فيه من الوقوف بعرفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ جواب الشرط؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما البناء على الفتح في ﴿رَفَثَ﴾، و﴿فُسُوقَ﴾؛ والثانية: التنوين فيهما؛ أما ﴿جِدَالَ﴾ فإنها بالبناء على الفتح على القراءتين.

قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ نفي بمعنى النهي؛ و«الرفث»: الجماع، ومقدماته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: لا خروج عن طاعة الله بمعاصيه؛ لاسيما ما يختص بالنسك، كمحظورات الإحرام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ يشمل الجدال فيه، وفي أحكامه، والمنازعات بين الناس في معاملاتهم؛ مثال الجدال فيه: أن يقال: «ما هو الحج؟»، فيحصل النزاع؛ أو «متى فُرض؟»، فيحصل النزاع فيه؛ ومثاله في أحكامه: النزاع في أركانه، وواجباته، ومحظوراته؛ ومثال النزاع بين الناس في معاملاتهم: أن يتنازع اثنان في العقود، فيقول أحدهما: «بعتك»، والثاني يقول: «لم تبعني»؛ أو يقول: «بعتك بكذا»، ويقول الثاني: «بل بكذا»؛ أو يتنازع اثنان عند أنابيب الماء في الشرب، أو الاستسقاء، أو عند الخباز.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: لما نهى عن هذه الشرور انتقل إلى الأمر بالخير؛ وهذه الجملة شرطية: ﴿ما﴾ أداة الشرط؛ وفعل الشرط: ﴿تَفْعَلُوا۟﴾؛ وجواب الشرط: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ ولهذا جزمت؛ و﴿مِنْ﴾ بيانية تبين المبهم من اللفظ؛ لأن ﴿ما﴾ شرطية مبهمة كالموصول؛ و﴿خَيْرٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، فيشمل كل خير سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: أي: يحيط به علمًا.

قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي: اتخذوا زادًا لغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم - وهذا أفضل النوعين -؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ هذا أجمع ما قيل في «التقوى».

لما رغب الله سبحانه وتعالى في التقوى أمر بها طلبًا لخيرها فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾؛ و﴿وَٱتَّقُونِ﴾ فعل أمر؛ والنون للوقاية؛ والياء المحذوفة للتخفيف مفعول به؛ و﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ جمع لُب؛ أي: يا أصحاب العقول؛ ووجه الله تعالى الأمر إلى أصحاب العقول؛ لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهرًا مع أنه أيام - ستة أيام -؛ وقد جعل الله له أشهرًا ثلاثة حتى يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يومًا فقط؛ لأنه إذا حج انتهى غرضه؛ فطُلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن أشهر الحج ثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿أَشْهُرٌ﴾؛ وهي جمع قلة؛ والأصل في الجمع أن يكون ثلاثة فأكثر؛ هذا المعروف في اللغة العربية؛ ولا يطلق الجمع على اثنين أو اثنين وبعض الثالث إلا بقرينة؛ وهنا لا قرينة تدل على ذلك؛ لأنهم إن جعلوا أعمال الحج في الشهرين وعشرة الأيام يرد عليه أن الحج لا يبدأ فعلًا إلا في اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وينتهي في الثالث عشر؛ وليس العاشر؛ فلذلك كان القول الراجح أنه ثلاثة أشهر كاملة؛ وهو مذهب مالك؛ وهو الصحيح؛ لأنه موافق للجمع؛ وفائدته: أنه لا يجوز تأخير أعمال الحج إلى ما بعد شهر ذي الحجة إلا لعذر؛ لو أخرت طواف الإفاضة مثلًا إلى شهر المحرم قلنا: هذا لا يجوز؛ لأنه ليس في أشهر الحج والله تعالى يقول: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾؛ فلا بد أن يقع في أشهر الحج؛ ولو أخرت الحلق إلى المحرم فهذا لا يجوز؛ لأنه تعدى أشهر الحج.

وهل هذه الأشهر من الأشهر الحرم؟

الجواب: أن اثنين منها من أشهر الحرم، وهما: ذو القعدة وذو الحجة؛ وواحد ليس منها -وهو شوال، كما أن «المحرم» من الأشهر الحرم، وليس من أشهر الحج؛ فرمضان شهر صيام؛ وشوال شهر حج؛ وذو القعدة شهر حج ومن الحرم؛ وذو الحجة شهر حج ومن الحرم؛ والمحرم من الحرم، وليس شهر حج.

٣ - **ومن فوائد الآية:** الإحالة على المعلوم بشرط أن يكون معلومًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّعْلُومَـٰتٌ﴾؛ وهذا يستعمله الفقهاء كثيرًا يقولون: هذا معلوم بالضرورة من الدين؛ والأمر هذا معلوم؛ وما أشبه ذلك؛ فلا يقال: إنه لم يبين؛ لأنه ما دام الشيء مشهورًا بين الناس معروفًا بينهم يصح أن يعَرِّفه بأنه معلوم؛ ومن ذلك ما يفعله بعض الكتاب في الوثائق: يقول: «باع فلان على فلان كذا، وكذا» - وهو معلوم بين الطرفين - يجوز وإن لم تفصل ما دام معلومًا؛ فإضافة الشيء إلى العلم وهو معلوم يعتبر من البيان.

٤ - **ومنها**: أن من تلبس بالحج أو العمرة وجب عليه إتمامه، وصار فرضًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]؛ فسمى الله تعالى أفعال الحج نذورًا؛ ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ فلم يبح الله تعالى الخروج من النسك إلا بالإحصار.

٥ - **ومنها**: وجوب إتمام النفل في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ﴾؛ والفرض لابد من إتمامه.

٦ - **ومنها**: أن الإحرام بالحج قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾؛ فلم يرتب الله أحكام الإحرام إلا لمن فرضه في أشهر الحج؛ ومعلوم أنه إذا انتفت أحكام العمل فمعناه أنه لم يصح العمل، وهذا مذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا أحرم بالحج قبل دخول أشهر الحج لم ينعقد إحرامه؛ ولكن هل يلغو، أو ينقلب عمرة؟ في هذا قولان عندهم؛ أما عندنا مذهب الحنابلة؛ فيقولون: إن الإحرام بالحج قبل أشهره ينعقد؛ ولكنه مكروه -يكره أن يحرم بالحج قبل أشهره -؛ ومذهب الشافعي أقرب إلى ظاهر الآية الكريمة: أنه إذا أحرم بالحج قبل أشهره لا ينعقد حجًا؛ والظاهر أيضًا أنه لا ينعقد، ولا ينقلب عمرة؛ لأن العبادة لم تنعقد؛ وهو إنما دخل على أنها حج؛ فلا ينعقد لا حجًا ولا عمرة.

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن المحظورات تحرم بمجرد عقد الإحرام - وإن لم يخلع ثيابه من قميص، وسراويل، وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾؛ لأنه جواب الشرط؛ وجواب الشرط يكون تاليًا لفعله؛ فبمجرد أن يفرض فريضة الحج تحرم عليه المحظورات.

٨ - **ومنها**: أن الإحرام ينعقد بمجرد النية - أي: نية الدخول إلى النسك؛ وتثبت بها الأحكام - وإن لم يلبّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾.

٩ - **ومنها**: تحريم الجماع ومقدماته بعد عقد الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾؛ وجواب الشرط يكون عقب الشرط؛ فبمجرده يحرم الرفث.

١٠ - **ومنها**: تحريم الفسوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾.

فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام وغيره؟

فالجواب: أنه يتأكد في الإحرام أكثر من غيره.

١١ - **ومنها**: تحريم الجدال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾؛ والجدال إن كان لإثبات الحق أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مُستثنى من هذا العموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]؛ وأما الجدال لغير هذا الغرض فإنه مُحَرَّمٌ حال الإحرام.

فإن قلت: أليس محرمًا في هذا، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟

فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.

١٢ - ومنها: البعد حال الإحرام عن كل ما يشوش الفكر ويشغل النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾؛ ومن ثم يتبين خطأ أولئك الذين يزاحمون على الحجر عند الطواف؛ لأنه يشوش الفكر، ويشغل النفس عما هو أهم من ذلك.

١٣ - ومنها: الحث على فعل الخير؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ يدل على أنه سيجازي على ذلك، ولا يضيعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

١٤ - ومنها: أن الخير سواء قَلَّ أو كَثُرَ فإنه معلوم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ وهي نكرة في سياق الشرط؛ والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

١٥ - ومنها: عموم علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

١٦ - ومنها: الحث على التزود من الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

١٧ - ومنها: أنه ينبغي للحاج أن يأخذ معه الزاد الحسيَّ من طعام، وشراب، ونفقة، لئلا يحتاج في حجه، فيتكفف الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾.

١٨ - ومنها: أن التقوى خير زاد، كما أن لباسها خير لباس؛ فهي خير لباس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ وهي خير زاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

١٩ - ومنها: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ﴾.

٢٠ - ومنها: أن أصحاب العقول هم أهل التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٢١ - ومنها: أنه كلما نقص الإنسان من تقوى الله كان ذلك دليلًا على نقص عقله - عقل الرشد؛ بخلاف قول النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[1]؛ فإن المراد بنقص العقل هنا: عقل الإدراك؛ فإن مناط التكليف عقل الإدراك؛ ومناط المدح عقل الرشد؛ ولهذا نقول: إن هؤلاء الكفار الأذكياء الذين هم في التصرف من أحسن ما يكون؟ نقول: هم عقلاء عقول إدراك؛ لكنهم ليسوا عقلاء عقول رشد؛ ولهذا دائمًا ينعى الله عليهم عدم عقلهم؛ والمراد عقل الرشد الذي به يرشدون.

(١) رواه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٧٩).

قال الله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [البقرة:١٩٨]

التفسير

لما أمر الله بالتزود، وبيَّن أن خير الزاد التقوى، وأمر بالتقوى، قد يقول قائل: إذا اتجرت أثناء حجي صار عليَّ في ذلك إثم؛ ولهذا تحرج الصحابة من الاتجار في الحج؛ فبين الله عزَّ وجلَّ أن ذلك لا يؤثر، وأنه ليس فيه إثم؛ فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: أن تبتغوا الرزق وتطلبوه بالتجارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [المزَّمل:٢٠].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾؛ أصل الإفاضة الاندفاع؛ ومنه إفاضة الماء؛ ومنه الإفاضة في الكلام والاستمرار فيه؛ ومعنى ﴿أَفَضْتُم﴾: دفعتم؛ والتعبير بـ﴿أَفَضْتُم ﴾ يصور لك هذا المشهد كأن الناس أودية تندفع؛ و﴿عَرَفَاتٍ ﴾ على صيغ الجمع؛ وهي اسم لمكان واحد؛ وهو معروف؛ وسمي عرفات لعدة مناسبات:

قيل: لأن الناس يعترفون هناك بذنوبهم، ويسألون الله أن يغفرها لهم.

وقيل: لأن الناس يتعارفون بينهم؛ إذ إنه مكان واحد يجتمعون فيه في النهار؛ فيعرف بعضهم بعضًا.

وقيل: لأن جبريل لما علَّم آدم المناسك ووصل إلى هذا قال: عرفت.

وقيل: لأن آدم لما أهبط إلى الأرض هو وزوجته تعارفا في هذا المكان.

وقيل: لأنها مرتفعة على غيرها؛ والشيء المرتفع يسمى عُرْفًا؛ ومنه: أهل الأعراف، كما قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾ [الأعراف:٤٨]؛ ومنه: عُرْف الديك؛ لأنه مرتفع؛ وكل شيء مرتفع يسمى بهذا الاسم.

وعندي - والله أعلم -: أن هذا القول الأخير أقرب الأقوال؛ وكذلك الأول: أنه سمي عرفات؛ لأن الناس يعترفون فيه لله تعالى بالذنوب؛ ولأنه أعرف الأماكن التي حوله.

و﴿عَرَفَاتٍ ﴾ مشعر حلال خارج الحرم؛ ومع ذلك فهو الحج، كما قال الرسول ﷺ: «الحجُّ

عَرَفَة»[1]؛ والحكمة من الوقوف فيها: أن يجمع الحاج في نسكه بين الحل والحرم؛ ولهذا أمر النبي ﷺ عائشة أن تحرم بالعمرة من التنعيم[2]؛ لتجمع فيها بين الحل والحرم.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الفاء هنا واقعة في جواب الشرط؛ وأداة الشرط: «إذا»؛ وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: باللسان، والقلب، والجوارح؛ فيشمل كل ما فعل عند المشعر من عبادة؛ ومن ذلك: صلاة المغرب، والعشاء، والفجر؛ و﴿ٱلْمَشْعَرِ﴾ مكان الشعيرة؛ فهي «مَفْعَل» اسم مكان؛ وهو المكان الذي تؤدى فيه شعيرة من شعائر الله عزَّ وجلَّ؛ و﴿ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ذي الحرمة؛ لأنه داخل حدود الحرم؛ وقال العلماء: إن هذا الوصف وصف قيدي؛ ليخرج المشعر الحلال ـ وهو عرفة ـ؛ وقالوا: إن المشعر مشعران: حلال ـ وهو عرفة ـ؛ وحرام ـ وهو مزدلفة ـ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أمر بالذكر مرة أخرى؛ لكن لأجل التعليل الذي بعده ـ وهو الهداية ـ؛ لهذا الكاف هنا للتعليل؛ و«ما» مصدرية تسبك وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: واذكروه لهدايتكم؛ والكاف تأتي للتعليل، كما قال ابن مالك في الألفية:

شُبِّهَ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يَعْنِي وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ...﴾ [البقرة:١٥١] الآية؛ وكما في التشهد في قوله: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ..»، أي: لأنك صليت على إبراهيم فصلِّ على محمد؛ فهو توسل إلى الله تعالى بفعل سبق منه نظير ما سألته.

ويحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ وعليه فيكون الأمر بذكره ثانية عائدًا على الوصف؛ أي: اذكروه على الصفة التي هداكم إليها ـ أي: على حسب ما شرع؛ وعليه فلا تكرار؛ لأن الأمر بالذكر أولًا: أمر بمطلق الذكر، والأمر به ثانيةً: أمر بكونه على الصفة التي هدانا إليها.

وقوله تعالى: ﴿هَدَىٰكُمْ﴾ أي: دلكم، ووفقكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة؛ فهي للتوكيد بدليل وجود اللام الفارقة؛ والتقدير: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين؛ واسم ﴿إن﴾ ضمير الشأن محذوف؛ وهو مناسب للسياق؛ وبعض النحويين يقدر ضمير الشأن دائمًا بضمير مفرد مذكر غائب فيكون التقدير: وإنه ـ أي: الشأن -؛ والصواب القول الأول: أنه يقدر بما يقتضيه السياق - يعني: وإنكم كنتم من قبله لمن الضالين -؛ وجملة: ﴿كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

(١) صحيح: رواه الترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥).
(٢) انظر «صحيح البخاري» (٣١٠)، ومسلم (١٢١١).

خبر ﴿إن﴾ المخففة؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعود على القرآن؛ أو يعود على الرسولﷺ؟ أو يعود على الهدى؛ كل ذلك محتمل؛ وكل ذلك متلازم؛ فالهدى جاء من القرآن ومن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: يشمل الضال عن جهل والضال عن علم؛ فالضال عن جهل: -؛الذي لم يعلم بالحق أصلًا؛ والضال عن علم: الذي ترك الطريق الذي ينبغي أن يسلكه - وهو الرشد -؛ والعرب من قبل هذا الدين ضالون؛ منهم من كان ضالًّا عن جهل؛ ومنهم من كان ضالًّا عن علم؛ فمثلًا قريش لا تفيض من عرفة؛ وإنها تقف يوم عرفة في مزدلفة؛ قالوا: لأننا نحن أهل الحرم؛ فلا نخرج عنه؛ فكانوا يقفون في يوم عرفة في مزدلفة، ولا يفيضون من حيث أفاض الناس؛ وإذا جاء الناس وباتوا فيها خرجوا جميعًا إلى منى؛ وهذا من جهلهم أو عنادهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** جواز الاتجار أثناء الحج بالبيع، والشراء، والتأجير - كالذي يؤجر سيارته التي يحج عليها في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ - **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان في حال بيعه وشرائه أن يكون مترقبًا لفضل الله لا معتمدًا على قوته وكسبه؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ - **ومنها:** ظهور منة الله على عباده بما أباح لهم من المكاسب؛ وأن ذلك من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** مشروعية الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾؛ وهو ركن من أركان الحج؛ لقول النبي ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَة»[1].

لو قال قائل: إن قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ ليس أمرًا بالوقوف بها؟

فالجواب: أنه لم يكن أمرًا بها؛ لأنها قضية مسلمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾.

٥ - **ومنها:** أنه يشترط للوقوف بمزدلفة أن يكون بعد الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ فلو أن أحدًا مر بمزدلفة في الليل، ووقف بها يدعو، ثم وقف بعرفة يدعو به، ثم رجع إلى منى: لم يجزئه الوقوف بمزدلفة؛ لأنه في غير محله الآن؛ لأن الله ذكره بعد الوقوف بعرفة.

٦ - **ومنها:** أن الصلاة من ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾؛ والنبي ﷺ أول ما بدأ: بالصلاة[1]؛ ولا شك أن الصلاة ذكر لله؛ بل هي روضة من رياض الذكر: فيها قراءة، وتكبير، وتسبيح، وقيام، وركوع، وسجود، وقعود؛ كل ذلك من ذكر الله: ذكر بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ثم من خاصية الصلاة: أن كل عضو من أعضاء البدن له ذكر خاص به، وعبادة تتعلق به.

٧ـ **ومنها**: بيان أن مزدلفة من الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٨ـ **ومنها**: جواز المبيت في مزدلفة في جميع نواحيها؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٩ـ **ومنها**: أن عرفة مشعر حلال؛ لأنها من الحل؛ ولهذا يجوز للمحرم أن يقطع الأشجار بعرفة.

١٠ـ **ومنها**: أن مزدلفة مشعر من المشاعر؛ فيكون فيه رد على من قال: إن الوقوف بها سُنَّة؛ والقول الثاني: أنه ركن لا يصح الحج إلا به كالوقوف بعرفة؛ والقول الثالث: أنه واجب يصح الحج بدونه؛ ولكن يجبر بدم؛ وأنا أتوقف بين كونها ركنًا وواجبًا؛ أما أنها سُنَّة فهو ضعيف؛ لا يصح.

١١ـ **ومنها**: أن الإنسان يجب عليه أن يذكر الله تعالى لما أنعم عليه به من الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ إذا جعلنا الكاف للتعليل؛ وإن جعلناها للتشبيه فالمعنى: اذكروه على الوجه الذي هداكم له؛ فيستفاد منها: أن الإنسان يجب أن يكون ذكره لله على حسب ما ورد عن الله عزَّ وجلَّ.

١٢ـ **ومنها**: أن الذكر المشروع ما وافق الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ والهداية نوعان:

هداية دلالة: وهذه عامة لكل أحد؛ فكل أحد قد بين الله له شريعته سواء وفِّق لاتباعها، أم لا؛ ودليلها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصِّلت:١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

والثاني: هداية توفيق بأن يوفق الله العبد لاتباع الهدى؛ ومنها قوله تعالى حين ذكر من ذكر من الأنبياء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] أي: لا توفق للهدى من أحببته، أو من أحببت هدايته.

١٣ـ **ومن فوائد الآية**: تذكير الإنسان بحاله قبل كماله؛ ليعرف بذلك قدر نعمة الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ ومن هذا قول النبي ﷺ للأنصار: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي»[2]؛ ومنه قول الملَك للأبرص والأقرع: «أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٥٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١).

النَّاسُ فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللهُ»[1] الحديث؛ فالتذكير بالنعم بذكر الحال وبذكر الكمال بعد النقص مما يوجب للإنسان أن يزداد من شكر نعمة الله عليه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا ﴾ أي: من عرفات.

قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: من المكان الذي يفيض الناس منه؛ وكانت قريش في الجاهلية لا يقفون مع الناس في عرفة؛ يقولون: نحن أهل الحرم فلا نقف خارج الحج؛ فأمر المسلمون أن يفيضوا من حيث أفاض الناس؛ أي: من عرفة؛ هذا هو ظاهر الآية الكريمة؛ ولكنه مشكل حيث إنه ذُكر بعد قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة:١٩٨]؛ وأجيب عن هذا الإشكال: أن الترتيب ذكري - لا ترتيب حكمي-؛ بمعنى: أن الله تعالى لما ذكر إفاضتهم من عرفات أكد هذا بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ دون أن يكون المراد الترتيب الحكمي؛ ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ أي: أفيضوا من المشعر الحرام من حيث أفاض الناس؛ فيكون المراد بالإفاضة هنا: الإفاضة من مزدلفة؛ وعلى هذا الاحتمال لا يبقى في الآية إشكال.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: اطلبوا المغفرة منه؛ والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المِغْفَر الذي يوضع على الرأس عند القتال لتوقي السهام؛ وليست المغفرة مجرد الستر؛ بل هي ستر ووقاية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ هذه الجملة تعليل للأمر؛ أي: استغفروا الله؛ لأنه أهل لأن يُستغفَر؛ فإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم.

وإعراب ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾؛ والخبر الأول: ﴿غَفُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة؛ وذلك لكثرة غفرانه تبارك وتعالى، وكثرة من يغفر لهم؛ و«الغفور» أي: ذو المغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦].

وقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾ إما صفة مشبهة؛ وإما صيغة مبالغة؛ و«الرحيم» أي: ذو الرحمة؛ وهي

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (٢٩٦٤).

صفة تقتضي جلب النعم ودفع النقم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب المبيت بمزدلفة؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ على أحد التفسيرين، كما سبق؛ ومتى أفاض الإنسان من حيث أفاض الناس فإنه يلزم من ذلك أن يكون قد بات بمزدلفة.

٢ - **ومنها:** أن هذا النسك كان أمرًا معلومًا يسير الناس عليه من قديم الزمان؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾.

٣ - **ومنها:** أن الناس في أحكام الله تعالى سواء؛ فلا يخص أحد بحكم من الأحكام إلا لمعنًى يقتضي ذلك؛ والمعنى المخصِّص يكون من قِبَل الشرع - لا من قبل الهوى والعادة -؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾؛ ولا يشكل على قولنا هذا ما ورد في قصة أبي بردة بن نيار رضي الله عنه أنه ذبح في عيد الأضحى أضحية قبل الصلاة؛ ولما خطب النبي ﷺ وقال: «إِنَّ مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ، وَأَنَّ شَاتَهُ شَاةُ لَحْمٍ» قام أبو بردة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إن عندي عناقًا هي أحب إلي من شاتين أفتجزي عنِّي؟ قال: «نَعَمْ؛ وَلَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ»[1]؛ والمراد بقوله ﷺ: «لَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» أي: بعد حالك؛ بمعنى: أن من جرى له مثله فإنها تجزي عنه؛ هكذا قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - وهو ظاهر -؛ وكذلك لا يشكل على هذا قصة سالم مولى أبي حذيفة الذي كان قد تبناه؛ فلما أبطل الله التبني جاءت زوجة أبي حذيفة إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في سالم أنه كان يدخل عليها؛ يعني: وكأنه أحد أبنائها؛ فقال لها النبي ﷺ: «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ»[2]؛ فإنه ليس خاصًّا به؛ بل لو جرى لأحد مثل ما جرى لسالم لحكمنا له بمثل ما حكم به النبي ﷺ لسالم؛ لكن هذا لا يمكن بعد نسخ التبني؛ إذ لا يمكن لأحدٍ أن يتبنى؛ وعلى هذا فالصورة التي تلحق بقصة سالم ممتنعة.

٤ - **ومنها:** أنه يشرع أن يستغفر الله عزَّ وجلَّ في آخر العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.

٥ - **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي المغفرة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من الحكم بمقتضاهما؛ وهو أنه يغفر ويرحم كما قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ [العنكبوت:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

---

(١) رواه البخاري (٩١٢)، ومسلم (١٩٦١).

(٢) رواه مسلم (١٤٥٣)، والنسائي (٣٣٢٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٦٩٠).

٦ - **ومنها**: قرن الحكم بالعلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وقرن الحكم بالعلة في مثل هذا يفيد الإقدام، والنشاط على استغفار الله عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠٠، ٢٠١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أي: أنهيتم مناسككم؛ وذلك بالتحلل من النسك.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ أمر تعالى بذكره بعد فراغ النسك؛ لأن الإنسان إذا فرغ من العبادة قد يغفل عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ جمع منسك: وهو فيما يظهر اسم مصدر، يعني: مصدرًا ميميًّا؛ أي: قضيتم نسككم؛ و«النسك» بمعنى العبادة؛ وهو كل ما يتعبد به الإنسان لله؛ ولكن كثر استعماله في الحج وفي الذبح؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

قوله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾؛ «ذكر» هنا مصدر مضاف لفاعله؛ و«آباء» مفعول به؛ أي: كما تذكرون آباءكم، أو أشد ذكرًا؛ و﴿أَشَدَّ﴾ يشمل الشدة في الهيئة، وحضور القلب، والإخلاص؛ والشدة في الكثرة أيضًا؛ فيذكر الله ذكرًا كثيرًا، ويذكره ذكرًا قويًّا مع حضور القلب.

وقوله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يذكرون أمجاد آبائهم إذا انتهوا من المناسك؛ وكل يفخر بنسبه وحسبه؛ فأمر الله تعالى أن نذكره سبحانه وتعالى كذكرهم آباءهم، أو أشد ذكرًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾: قال كثير من النحويين: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل؛ أي: بل أشد؛ وهو هنا متوجِّه؛ ويشبهها من بعض الوجوه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]؛ وقد ذكر ابن القيم في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أن ﴿أَوْ﴾ هنا ليست بمعنى «بل»؛ ولكنها لتحقيق ما سبق - يعني: إن لم يزيدوا فلن ينقصوا -؛ وبناءً على هذا نقول مثله في هذه الآية: أي كذكركم آباءكم - إن لم يزد فلا ينقص؛ إِلَّا إِنَّه هنا إذا جعلناها بمعنى «بل» تكون أبلغ؛ لأن ذكر الله يجب أن يكون أشد من ذكر الآباء.

قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ﴾؛ «من» للتبعيض؛ والمعنى: بعض الناس؛ بدليل أنها قوبلت بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾؛ فيكون المعنى: بعضهم كذا؛ وبعضهم كذا؛ وهذا من باب التقسيم؛ يعني: ينقسم الناس في أداء العبادة؛ لاسيما الحج إلى قسمين.

قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ أي: أعطنا في الدنيا؛ والمفعول محذوف؛ والتقدير: آتنا نصيبنا في الدنيا، بحيث لا يسأل إِلَّا ما يكون في ترف دنياه فقط؛ ولا يسأل ما يتعلق بالدين؛ وربما -: يكون قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ شاملًا للقول باللسان، والقول بالحال - أي: قد يقول صراحة ربنا آتنا في الدنيا مثلًا سكنًا جميلًا؛ سيارة جميلة؛ وما أشبه ذلك؛ وربما يقوله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأنه إذا دعا في أمور الدنيا أحضر قلبه، وأظهر فقره؛ وإذا دعا بأمور الآخرة لم يكن على هذه الحال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ ﴿ما﴾ نافية؛ و﴿مِنْ خَلَاقٍ﴾ مبتدأ؛ وخبره الجار والمجرور: ﴿لَهُ﴾؛ ودخلت ﴿مِنْ﴾ على المبتدأ من أجل توكيد العموم؛ لأن ﴿خَلَاقٍ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ فإذا دخلت عليها ﴿مِنْ﴾ كان ذلك تأكيدًا للعموم؛ و«الخلاق» بمعنى: النصيب؛ يعني ما له في الآخرة من نصيب؛ لأنه لا يريد إِلَّا الدنيا؛ فلا نصيب له في الآخرة مما دعا به؛ وقد يكون له نصيب من أعمال أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: ومن الناس.

قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ ﴿حَسَنَةً﴾: مفعول «آتِ» الثاني؛ وأما ﴿حَسَنَةً﴾ الثانية فهي معطوفة على الأولى؛ يعني من الناس من تكون همته عليا يريد الخير في الدنيا والآخرة؛ يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

وحسنة الدنيا: كل ما يستحسنه الإنسان منها، مثل: الصحة، وسعة الرزق، وكثرة البنين، والزوجات، والقصور، والمراكب الفخمة، والأموال.

وأما حسنة الآخرة فقيل: إنها الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]؛ ولا شك أن الحسنة العظمى في الآخرة هي الجنة؛ لكن في الآخرة حسنات يستحسن المرء وقوعها غير الجنة، مثل: أن يبيض وجهه، وأن تثقل موازينه، وأن يعطى كتابه بيمينه؛ فإنه إذا أعطي الكتاب بيمينه

يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩] فرحًا مسرورًا.

قوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: اجعل لنا وقاية من عذاب النار؛ وهذا يشمل شيئين:

الأول: العصمة من الأعمال الموجبة لدخول النار.

الثاني: المغفرة للذنوب التي توجب دخول النار.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** أن الإنسان ينبغي له إذا قضى العبادة ألَّا يغفل بعدها عن ذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠].

٢ - **ومنها:** تقديم ذكر الله تعالى على ذكر الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٣ - **ومنها:** أن الأجداد داخلون في مسمَّى الآباء؛ لأن العرب كانوا يفتخرون بأمجاد آبائهم، وأجدادهم، وقبائلهم.

٤ - **ومنها:** بيان انقسام الناس فيما يطلبون من الله، وأن منهم ذوي الغايات الحميدة والهمم العالية الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ ومنهم ذوو الغايات الذميمة والهمم النازلة الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآيتين:** أن الإنسان لا يذم إذا طلب حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

٦ - **ومنها:** أن الإنسان محتاج إلى حسنات الدنيا والآخرة.

٧ - **ومنها:** إثبات الآخرة.

٨ - **ومنها:** إثبات النار وعذابها.

٩ - **ومنها:** إثبات علم الله، وسمعه، وقدرته؛ إذ لا يدعى إلَّا من اتصف بذلك.

قال الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾: «أولاء»: اسم إشارة؛ والمشار إليه فيه خلاف؛

فقال بعض العلماء: إن الإشارة تعود إلى مورد التقسيم كله؛ يعني: أولئك المذكورون الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة:٢٠١]؛ والذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]؛ فيكون كلٌّ له نصيب مما كسب، كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٣٢]؛ ولأنه تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ وهذا يقتضي أن يكون المشار إليه كلا القسمين؛ وقال آخرون: بل إن الإشارة تعود إلى التقسيم الثاني الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١]؛ فهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ لقوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء:٨٥]؛ الآية إذنْ محتملة للمعنيين؛ والثاني منهما أظهر؛ لأن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: محاسبة الله سبحانه وتعالى الخلائق سريعة؛ والسرعة هنا قد تكون سرعة الزمن؛ بمعنى: أن حساب الله قريب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]؛ وقد يكون المراد سرعة محاسبة الله للخلق - أي: أن نفس حسابه سريع -؛ والثاني أبلغ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ يحاسب الخلائق كلها في يوم واحد، ويعطي كل إنسان ما يستحقه من ذلك الحساب؛ ومحاسبة الله للخلائق على نوعين؛ النوع الأول للمؤمنين؛ والنوع الثاني للكافرين؛ أما حساب المؤمنين: فإن الله سبحانه وتعالى يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، ويقول له: «عملت كذا في يوم كذا» حتى يقرَّ ويعترف، فيقول الله عزَّ وجلَّ له: **«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»**(١)؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **«مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»**؛ فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ فقال النبي ﷺ: **«ذَلِكَ العَرْضُ»**(٢)؛ أي: تعرض الأعمال على الشخص حتى يقر؛ فإذا أقر بها قال الله تعالى له: **«سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»**؛ وأما غير المؤمنين فإنهم لا يحاسبون كذلك؛ وإنما الأمر كما قال شيخ الإسلام: لا يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنهم لا حسنات لهم؛ ولكن تحصى أعمالهم، وتحفظ، فيُوقفون عليها، ويقرُّون بها، ليُخزوا بها؛ يعني: يُنادى عليهم على رءوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن الثواب يكون بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾؛ لكنه بالعدل في العقوبة؛ وبالفضل في المثوبة.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

٢ ـ **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.

٣ ـ **ومنها**: إثبات الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٤ ـ **ومنها**: تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات علم الله؛ لأن المحاسِب لابد أن يكون لديه علم يقابل به من يحاسبه.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ لما ذكر الله - تبارك وتعالى - أفعال الحج ذكر ما بعد انتهاء أفعال الحج؛ وهو ذكر الله تعالى في أيام معدودات؛ وهي أيام التشريق الثلاثة: الحادي عشر؛ والثاني عشر؛ والثالث عشر من شهر ذي الحجة؛ والذكر هنا: يشمل كل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ من قول أو فعل في هذه الأيام؛ فيشمل التكبير في تلك الأيام مطلقًا ومقيدًا؛ والنحر من الضحايا، والهدايا؛ ورمي الجمار؛ والطواف والسعي إذا وقعا في هذه الأيام؛ بل والصلاة المفروضة، والتطوع؛ وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالبَيْتِ، وَبِالصَّفَا، وَالمَرْوَةِ، وَرَمْيِ الجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ الله»[1]، وقال ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ، وَشُرْبٍ، وَذِكْرٍ لله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: من تعجل قبل تمام الأيام الثلاثة وأنهى حجه فلا إثم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: من تأخر إلى اليوم الثالث في مِنًى لرمي الجمرات فلا إثم عليه.

قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: الظاهر أنها قيد للأمرين جميعًا للتعجل والتأخر، بحيث يحمل الإنسان تقوى الله عزَّ وجلَّ على التعجل أو التأخر.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: ما أكثر ما يأمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى في كتابه العزيز؛ لأن

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٩٠٢)، وأبوداود (١٨٨٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٣٩٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٥٦).

(٢) رواه مسلم (١١٤١)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٧٤١).

«التقوى» اتخاذ وقاية من عذاب الله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمعون إلى الله - تبارك وتعالى؛ وذلك يوم القيامة؛ وصدر هذا بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للتنبيه على أنه لابد من الإيمان بهذا الحشر والاستعداد له.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** مزية الذكر في هذه الأيام المعدودات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ لأن ذكر الله على سبيل العموم في كل الوقت؛ لكن هذا على سبيل الخصوص.

٢ - **ومنها:** أنه يجوز في هذه الأيام الثلاثة التعجل والتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾.

٣ - **ومنها:** سعة فضل الله عزَّ وجلَّ، وتيسيره في أحكامه، حيث جعل الإنسان مخيرًا أنْ يبقى ثلاثة أيام، أو يتعجل في اليومين.

٤ - **ومنها:** أنّه لابد أن يكون خروجه من منى قبل أن تغرب الشمس؛ لأن ﴿فِي﴾ للظرفية؛ والظرف يحيط بالمظروف؛ فلابد أن يكون التعجل في خلال اليومين بعد الرمي الواقع بعد الزوال.

٥ - **ومنها:** أنه لا يجوز التعجل في اليوم الحادي عشر؛ لأنه لو تعجل في اليوم الحادي عشر لكان تعجل في يوم لا في يومين؛ فكثير من العامة يظنون أن المراد باليومين: يوم العيد واليوم الحادي عشر؛ وهذا ليس بصحيح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ وهي أيام التشريق؛ وأيام التشريق إنما تُبتدأ من الحادي عشر.

٦ - **ومنها:** أن الأعمال المخير فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسان على سبيل التقوى لله عزَّ وجلَّ دون التهاون بأوامره؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ فمن فعل ما يخير فيه على سبيل التقوى لله عزَّ وجلَّ والأخذ بتيسيره فهذا لا إثم عليه؛ وأما من فعلها على سبيل التهاون وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التقوى وتهاونه بأوامر الله.

تنبيه:

لا يستفاد من الآية جواز التأخر إلى اليوم الرابع عشر والخامس عشر؛ مع أن الله تعالى أطلق: ﴿...وَمَن تَأَخَّرَ﴾؛ لأن أصل الذكر في أيام معدودات؛ وهي ثلاثة أيام؛ فيكون المعنى: من تأخر في هذه الأيام المعدودات؛ وهي الأيام الثلاثة.

٧ - **ومنها:** وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٨ - **ومنها:** إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

٩ - **ومنها:** قرن المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ

﴿تُحْشَرُونَ﴾؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله، ويقوم بما أوجب الله، ويترك ما نهى الله عنه؛ وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عزَّ وجلَّ يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان به عزَّ وجلَّ دون بقية الأركان التي يؤمن بها؛ وذلك؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله ﷺ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]

❁ التفسير ❁

فيما سبق من الآيات قسم الناس في الحج إلى قسمين؛ منهم من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠]؛ ومنهم من يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]؛ وهؤلاء لهم نصيب مما كسبوا؛ هنا قسم الناس أيضًا إلى قسمين: إلى مؤمن؛ وإلى منافق؛ فقال تعالى في المنافق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ ﴿مِنَ﴾ هنا للتبعيض؛ لأنها بمعنى بعض الناس؛ ولهذا أعربها بعض النحويين على أنها مبتدأ؛ قال: لأنها حرف بمعنى الاسم؛ إذ إنها بمعنى بعض الناس؛ فيكون ﴿مَن﴾ مبتدأ، و﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾ خبره؛ لكن المشهور أن ﴿مِنْ﴾ حرف جر؛ و﴿من الناس﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾: مبتدأ مؤخر؛ يعني: ومن الناس الذي يعجبك قوله، والخطاب في قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ والأَوْلى الثاني.

وقوله تعالى: ﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ ذكر بعض النحويين أنه إذا قيل: «أعجبني كذا» فهو لما يستحسن؛ وإذا قلت: «عجبت من كذا» فهو لما ينكر؛ فتقول مثلًا: «أعجبني قول فلان» إذا كان قولًا حسنًا؛ و«عجبت من قوله» إذا كان قولًا سيئًا منكرًا؛ فقوله تعالى: ﴿مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ أي: من تستحسن قوله.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إذا تكلم فيما يتعلق بأمور الدنيا كأن يتكلم بشيء، ويتوصل به إلى نجاته من القتل والسبي؛ لأن هذه الآية في المنافقين؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤] من حسنه وفصاحته؛ ولكنهم أهل غرور، وخداع، وكذب؛ فإن آية المنافق ثلاث؛ منها: إذا حدث كذب.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمحذوف حالًا من ﴿قَوْلُهُۥ﴾؛ والتقدير: قوله حال كونه فيما يتعلق بالدنيا؛ لأنه لا يتكلم في أمور الدين؛ ويحتمل أن المعنى: القول الذي يعجب حتى

في الدين؛ لكن لا ينتفع به في الآخرة؛ إنما ينتفع به في الدنيا فقط.

قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾؛ اختلف المفسرون في معناها على قولين:

الأول: أن المعنى استمراره في النفاق؛ لأن الله - تبارك وتعالى - يعلم ما في قلبه من هذا النفاق؛ فاستمراره عليه إشهاد لله تعالى على ما في قلبه.

والقول الثاني: أن المعنى: أن يُقسم ويحلف بالله أنه مؤمن مصدق، وأن الذي في قلبه هو هذا؛ فيشهد الله على ما في قلبه من محبة الإيمان والتمسك به وهو كاذب في ذلك؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، أي: لكاذبون في دعواهم أنهم يشهدون بذلك؛ وعندي: أن المعنيين لا يتنافيان؛ كلاهما حق؛ فهو منطوٍ على الكفر والنفاق؛ وهو أيضًا يُعلم الناس، ويُشهد الله على أنه مؤمن؛ أما حقيقته: قال الله تعالى فيه: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ يعني: أعوجهم وأكذبهم؛ و﴿ٱلْخِصَامِ﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا؛ ويحتمل أن يكون جمعًا؛ إن كان مصدرًا ففعله: خاصم يخاصم، مثل: جادل يجادل؛ وقاتل يقاتل؛ وعلى هذا: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ تكون الإضافة لفظية؛ لأنها صفة مشبهة مضافة إلى موصوفها - أي: وخصامه ألد الخصام؛ وإن كان جمعًا فمفرده: خَصِم؛ فيكون المعنى أنه ألد الخصوم - أي: أعوجهم، وأشدهم كذبًا؛ ويكون أيضًا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ لأنَّ المعنى: وهو من الخصوم الأشداء الأقوياء في خصومتهم؛ وهذا الرجل صار ألد الخصام؛ لأن قوله جيِّد وبيِّن، يعجبك قوله فتجده لاعتماده على فصاحته وبيانه ألد الخصام.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يغتر بظواهر الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾؛ وكذلك من الناس من يعجبك فعله؛ ولكنه منطوٍ على الكفر - والعياذ بالله؛ ولكن لا شك أنه بالنسبة إلينا ليس لنا أن نحكم إلَّا بما يقتضيه الظاهر؛ لأن ما في القلوب لا نعلمه؛ ولا يمكن أن نحاسب الناس على ما في القلوب؛ وإنما نحاسبهم على حسب الظاهر.

٢- **ومنها:** أن هذا الصنف من الناس يُشهد الله على ما في قلبه إما مما أظهره؛ وإما مما أبطنه - حسب ما سبق.

٣- **ومنها:** الإشارة إلى ذم الجدل والخصام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة؛ وقد ثبت في «**صحيح البخاري**» من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمِ**»[1] أي: الإنسان المخاصم المجادل

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٥)، ومسلم (٢٦٦٨).

بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلَّا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلى مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها؛ وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، وينتهون إلى لا شيء؛ فلا ينتهون إلى الحق؛ لأنهم لم يقصدوا إلَّا أن ينصروا ما هم عليه؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

٤- **ومنها**: إثبات علم الله عزَّ وجلَّ بما في الصدور؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾؛ لأن ما في القلب لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: عنك، ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: المراد بالسعي هنا: مطلق الحركة؛ وليس المراد بالسعي الركض بالرِّجل؛ ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي: بالمعاصي، والكفر، والفتنة.

قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ أي: يكون سببًا لإهلاكهما؛ لأن المعاصي سبب لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦]؛ والمراد بـ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: المحروث؛ وهو الزروع، كما يقال: «الغرس» يعني: المغروس؛ والمراد بـ﴿النسل﴾ مثلها أيضًا ـ يعني: المنسول؛ وهو الأولاد؛ يعني: يكون سعيه سببًا لفساد الحرث والحيوانات.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ بيان أن عمله هذا مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد؛ وإذا كان لا يحب هذا الفعل فإنه لا يحب من اتصف به؛ ولهذا جاء في آية أخرى؛ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]؛ فالله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين؛ فالفساد نفسه مكروه إلى الله؛ والمفسدون أيضًا مكروهون إليه لا يحبهم.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن المعاصي سبب لهلاك الحرث والنسل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦].

٢ - ومنها: إثبات محبة الله عزَّ وجلَّ للصلاح؛ لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾؛ فإن قيل: هذا نفي، وليس بإثبات؛ قلنا: إن نفيه محبة الفساد دليل على ثبوت أصل المحبة؛ ولو كان لا يحب أبدًا لم يكن هناك فرق بين الفساد والصلاح؛ فلما نفى المحبة عن الفساد علم أنه يحب الصلاح.

٣ - ومنها: التحذير من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾؛ ومعلوم أن كل إنسان يجب أن يكون حذرًا من التعرض لأمر لا يحبه الله.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: إذا قال له أهل العلم والإيمان: «اتق الله» أي: اتخذ وقاية من عذاب الله بترك الكفر والفساد ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أي: حملته على الإثم؛ و﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ بمعنى الأنفة، والحمية، والترفع؛ والعزة قد تكون وصفًا محمودًا؛ وقد تكون وصفًا مذمومًا، فالمعتز بدينه محمود، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]؛ والمعتز بحسبه ونسبه حتى يكون عنده أنفة إذا أمر بالدين والإصلاح مذموم.

والمراد بـ ﴿الإثم﴾ الذنب الموجب للعقوبة؛ فكل ذنب موجب للعقوبة فهو إثم.

قوله تعالى: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي: كافيه؛ وهو وعيد له بها - والعياذ بالله؛ و«الحسب» بمعنى: الكافي، كما قال الله تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:١٢٩] أي: كافيني؛ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] أي: كافينا؛ فقوله تعالى؛ ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي: كافيته؛ والمعنى: أنه يكون من أهلها - والعياذ بالله-؛ و﴿جَهَنَّمُ ﴾ اسم من أسماء النار؛ قيل: إنها كلمة معربة، وأنها ليست من العربية الفصحى؛ وقيل: بل هي من اللغة الفصحى، وأن أصلها من الجهمة؛ وهي الظلمة؛ ولكن زيدت فيها النون للمبالغة؛ وعلى كلٍّ

فإن ﴿جَهَنَّمُ﴾ اسم للنار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين؛ وسُمِّيَتْ بذلك لبعد قعرها وظلمتها - والعياذ بالله -.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: اللام هنا للابتداء؛ أو موطئة للقسم - أي: ووالله لبئس المهاد - وهذا أقرب؛ و«بئس»: فعل جامد لإنشاء الذم؛ وفاعلها ﴿الْمِهَادُ﴾؛ وهي من الأفعال التي تحتاج إلى مخصوص بالذم؛ والمخصوص محذوف؛ أي: ولبئس المهاد مهاده؛ حيث كانت جهنم.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن هذا الرجل الموصوف بهذه الصفات يأنف أن يؤمر بتقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فهو يأنف، كأنه يقول في نفسه: أنا أرفع من أن تأمرني بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ وكأن هذا الجاهل تعامى عن قول الله تعالى لأتقى البشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]؛ وقال تعالى في قصة زينب: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

٢- **ومنها:** البلاغة التامة في حذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾؛ ليشمل كل من يقول له ذلك؛ فيكون رده لكراهة الحق.

٣- **ومنها:** التحذير من رد الناصحين؛ لأن الله تعالى جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين؛ فمن رد آمرًا بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين؛ والواجب على المرء إذا قيل له: «اتق الله» أن يقول: «سمعنا، وأطعنا» تعظيمًا لتقوى الله.

٤- **ومنها:** أن الأنفة قد تحمل صاحبها على الإثم؛ لقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

٥- **ومنها:** أن هذا العمل موجب لدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾.

٦- **ومنها:** القدح في النار، والذم لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾؛ ولا شك أن جهنم بئس المهاد.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧]

التفسير

لما ذكر الله حال المنافقين الذين يعجبك قولهم في الحياة الدنيا وهم ألد الخصام؛ والذين إذا تولوا

سعوا في الأرض فسادًا ليهلكوا الحرث والنسل - والله لا يحب الفساد - ذكر حال قوم على ضدهم؛ وهكذا القرآن مثاني تثَنَّى فيه الأمور؛ فيؤتى بذكر الجنة مع النار؛ ويذكر المتقين مع الفجار؛ لأجل أن يبقى الإنسان في روضة متنوعة؛ ثم ليبقى الإنسان بين الخوف والرجاء، فلا يغلب عليه الخوف فيقنط من رحمة الله، ولا الرجاء فيأمن مكر الله؛ فإذا سمع ذكر النار، ووعيدها، وعقوبتها أوجب له ذلك الخوف؛ وإذا سمع ذكر الجنة، ونعيمها، وثوابها أوجب له ذلك الرجاء؛ فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى؛ وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ الفادح أن يؤلف أحد القرآن مرتبًا على الأبواب والمسائل كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن والبلاغة وعمل السلف؛ فالقرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية وتهذيب للأخلاق؛ فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفيًا لا مجال للاجتهاد فيه؛ وكان النبي ﷺ إذا نزلت الآية قال: «ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي مَكَانِ كَذَا مِنْ سُورَةِ كَذَا».

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾؛ هذا هو القسيم لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ ...﴾ [البقرة:٢٠٤]؛ وعلى هذا تكون ﴿مِن﴾ للتبعيض؛ والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ و﴿مَن يَشۡرِي﴾: مبتدأ مؤخر.

وقوله تعالى: ﴿من الناس﴾: قال بعض المفسرين: إنها تعني شخصًا معينًا؛ وهو صهيب الرومي رضي الله عنه لما أراد أن يهاجر من مكة منعه كفارها، وقالوا: لا يمكنك أن تهاجر أبدًا إلَّا أن تدع لنا جميع ما تملك؛ فوافق على ذلك، وأنقذ نفسه بالهجرة ابتغاء مرضاة الله؛ وقال بعض العلماء - وهم أكثر المفسرين -: بل هي عامة لكل المؤمنين المجاهدين في سبيل الله؛ وقالوا: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١]؛ وهذا القول أصح؛ لهو أنها للعموم حتى لو صَحَّ أن سبب نزولها قصة صهيب؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾ أي: يبيعها؛ لأن «شرى» بمعنى: باع، كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف:٢٠] أي: باعوه بثمن بخس؛ أما «اشترى»: فهي بمعنى ابتاع؛ فإذا جاءت التاء فهي للمشتري الآخذ؛ وإذا حذفت التاء فهي للبائع المعطي؛ و﴿نَفۡسَهُ﴾ يعني ذاته.

قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلبًا لمرضاةِ الله؛ فهي مفعول لأجله؛ و﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: رضوانه - أي: يبيع نفسه في طلب رضا الله عزَّ وجلَّ -؛ فيكون قد باع نفسه مخلصًا لله في هذا البيع.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ﴾ أي: ذو رأفة؛ و«الرأفة» قال العلماء: هي أرق الرحمة وألطفها؛ و﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: جميعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿رَءُوفُۢ﴾ قراءتان؛ إحداهما: مد الهمزة على وزن فعول؛ والثانية: قصرها

على وزن فعُل.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** تقسيم الناس إلى قسمين؛ القسم الأول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ ﴾ [البقرة:٢٠٤]؛ والقسم الثاني: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾.

٢- **ومنها:** بلاغة هذا القرآن حيث يجعل الأمور مثاني؛ إذا جاء الكلام عن شيء جاء الكلام عن ضده.

٣- **ومنها:** فضل من باع نفسه لله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾.

٤- **ومنها:** الإشارة إلى إخلاص النية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات الرضا لله؛ لقوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ ورضا الله صفة حقيقية لله عزَّ وجلَّ متعلقة بمشيئته؛ وينكرها الأشاعرة وأشباههم من أهل التعطيل؛ ويحرفون المعنى إلى أن المراد برضا الله: إما إثابته؛ أو إرادة الثواب.

٦- **ومنها:** استحباب تقديم مرضاة الله على النفس؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام المدح والثناء.

٧- **ومنها:** إثبات الرأفة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

٨- **ومنها:** عموم رأفة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْعِبَادِ ﴾؛ هذا إذا كان ﴿العباد﴾ بالمعنى العام؛ أما إذا قلنا بالمعنى الخاص فلا يستفاد ذلك؛ واعلم أن العبودية لها معنيان: خاص؛ وعام؛ والخاص له أخص؛ وهو خاص الخاص؛ فمن العام قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]؛ وأما الخاص فمثل قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣]؛ المراد بهم: عباد الرحمن المتصفون بهذه الصفات؛ فيخرج من لم يتصف بها؛ وأما الأخص مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١]؛ هذه عبودية الأخص - عبودية الرسالة-

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: الخطاب للمؤمنين؛ وقد تقدم أن الله تعالى إذا ابتدأ

الحكم بالنداء فهو دليل على العناية به؛ لأن المقصود بالنداء تنبيه المخاطب؛ ولا يتطلب التنبيه إلّا ما كان مهمًّا؛ فعندما أقول: «انتبه» يكون أقل مما لو قلت: «يا فلان انتبه»؛ ثم إذا كان الخطاب للذين آمنوا فإن في ذلك ثلاث فوائد سبق ذكرها.

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾؛ ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ فيها قراءتان: بفتح السين؛ وبكسرها؛ والمراد به الإسلام؛ وهو الاستسلام لله - تعالى - ظاهرًا، وباطنًا.

فإن قال قائل: كيف يقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ ونحن قد عرفنا من قبل أن الإيمان أكمل من الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾؟ [الحجرات: ١٤]

قلنا: إن هذا الأمر مقيد بما بعد قوله: ﴿فِى ٱلسِّلْمِ﴾؛ وهو قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾؛ فيكون الأمر هنا منصبًّا على قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾؛ و﴿كَآفَّةً﴾: اسم فاعل: يُطلق على من يكف غيره؛ فتكون التاء فيه للمبالغة، مثل: راوية، ساقية، علامة.. وما أشبه ذلك؛ والتاء في هذه الأمثلة للمبالغة؛ فيكون ﴿كَآفَّةً﴾ بمعنى: كافًّا؛ والتاء للمبالغة؛ قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ [سبأ: ٢٨]، أي: كافًّا لهم عمّا يضرهم لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

وتأتي «كافة» بمعنى: جميع، مثل «عامة»، كقوله ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»(١)؛ ووجه ارتباطها بالمعنى الأصلي - الذي هو الكف - أن الجماعة لها شوكة ومنعة تكف بجمعيتها من أرادها بسوء؛ وهنا قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ هل المراد ادخلوا في السلم جميعه، فتكون ﴿كَآفَّةً﴾ حالًا من ﴿ٱلسِّلْمِ﴾؛ أو ادخلوا أنتم جميعًا في السلم، وتكون ﴿كَآفَّةً﴾ حالًا من الواو في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾؟ الأقرب: المعنى الأول؛ لأننا لو قلنا بالمعنى الثاني: ادخلوا جميعًا في السلم صار معنى ذلك أن بعض المؤمنين لم يدخل في الإسلام؛ وحينئذٍ لا يصح أن يوجه إليه النداء بوصف الإيمان؛ فالمعنى الأول هو الصواب أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ يعني: ادخلوا في الإسلام كله؛ أي نفذوا أحكام الإسلام جميعًا، ولا تدعوا شيئًا من شعائره، ولا تفرطوا في شيء منها؛ وهذا مقتضى الإيمان؛ فإن مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ نهي بعد أمر؛ لأن اتباع خطوات الشيطان يخالف الدخول في السلم كافة؛ و﴿خُطُوَٰتِ﴾ جمع خُطوة؛ و«الخطوة» في الأصل هي ما بين القدمين عند مدِّهما في المشي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: الجملة تعليلية مؤكدة بـ «إن»؛ فتفيد شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ و﴿عَدُوٌّ﴾: العدو من يبتغي لك السوء؛ وهو ضد الوليّ؛ و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن

(١) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢١).

العداوة؛ ويجوز أن تكون بمعنى مظهر للعداوة؛ لأن «أبان» الرباعية تصلح للمعنيين؛ ولا شك أن الشيطان بيِّن العداوة؛ ومظهر لعداوته؛ ألا ترى إلى إبائه السجود لأبينا آدم مع أن الله أمره به في جملة الملائكة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأن هذا النداء تشريف وتكريم.

٢ - **ومنها:** أن الإيمان مقتضٍ لامتثال الأمر؛ لأن الله صدَّر الأمر بهذا النداء؛ والحكم لا يقرن بوصف إلَّا كان لهذا الوصف أثر فيه؛ وهذه الفائدة مهمة؛ ولا شك أن الإيمان يقتضي امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومنها:** وجوب تطبيق الشرع جملة وتفصيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

٤ - **ومنها:** أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبس به باعتبار استمراره عليه، وعدم الإخلال بشيء منه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾؛ ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] يعني: استمروا على ذلك.

٥ - **ومنها:** تحريم اتباع خطوات الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ والمعنى: أن لا نتبع الشيطان في سيره؛ لأن الله بين في آية أخرى أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ وما كان كذلك فإنه لا يمكن لعاقل أن يتبعه؛ فلا يرضى أحد أن يتبع الفحشاء والمنكر؛ وأيضًا الشيطان لنا عدو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦]، ثم قال تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ ولا أحد من العقلاء يتبع عدوَّه؛ إذا كان الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وكان عدوًّا لنا، فليس من العقل - فضلًا عن مقتضى الإيمان - أن يتابعه الإنسان في خطواته - وخطوات الشيطان بيَّنها الله - عزَّ وجلَّ: يأمر بـ «الفحشاء» - وهي عظائم الذنوب؛ و«المنكر» - وهو ما دونها من المعاصي؛ فكل معصية فهي من خطوات الشيطان؛ سواء كانت تلك المعصية من فعل المحظور، أو من ترك المأمور، فإنها من خطوات الشيطان؛ لكن هناك أشياء بيَّن الرسول ﷺ أنها من فعل الشيطان، ونص عليها بعينها، مثل: الأكل بالشمال، والشرب بالشمال، والأخذ بالشمال، والإعطاء بالشمال؛ وكذلك الالتفات في الصلاة فهو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد[1]؛ فهذه المنصوص عليها بعينها واضحة؛ وغير المنصوص عليها يقال فيها: كل معصية فهي من خطوات الشيطان.

---

(١) رواه البخاري (٧١٨)، وأبوداود (٩١٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٤٥٧).

٦ - **ومن فوائد الآية:** تحريم التشبه بالكفار؛ لأن أعمال الكفار من خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر؛ ولا أنكر من الكفر - والعياذ بالله.

٧ - **ومنها:** شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

٨ - **ومنها:** أنه لا يمكن أن يأمرنا الشيطان بخير أبدًا؛ إذ إن عدوك يسره مساءتك، ويغمه سرورك؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

٩ - **ومنها:** قرن الحكم بعلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ثم علل: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي لمن أتى بالأحكام أن يقرنها بالعلل التي تطمئن إليها النفس؛ فإن كانت ذات دليل من الشرع قرنها بدليل من الشرع؛ وإن كانت ذات دليل من العقل والقياس قرنها بدليل من العقل والقياس؛ وفائدة ذكر العلة: أنه يبين سمو الشريعة وكمالها؛ وأنه تزيد به الطمأنينة إلى الحكم؛ وأنه يمكن إلحاق ما وافق الحكم في تلك العلة.

قال الله تعالى:

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ قال بعض العلماء: أي: عدلتم؛ وقال آخرون: أي ملتم؛ والمعنى متقارب؛ لأن العادل عن الشيء زال عنه.

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾؛ ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ صفة لموصوف محذوف - أي الآيات البينات - وسمى الله ذلك زللًا؛ لأن في الميل والعدول عن الحق هلكة، مثل لو زلَّ الإنسان، وسقط في بئر مثلًا.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: هذا جواب الشرط؛ والمراد بالعلم: أن نحذر ممن له العزة.

وذكر أهل العلم أن «العزيز» له ثلاثة معانٍ: عزة قَدْر؛ وعزة قهر؛ وعزة امتناع؛ فعزة القدر - أي: إنَّهُ عزَّ وجلَّ عظيم القدر - لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية؛ أما عزة القهر فمعناها الغلبة - أي: إنَّهُ سبحانه وتعالى غالب لا يغلبه شيء - وهذا أظهر معانيها؛

وأما عزة الامتناع فمعناها أنه يمتنع أن يناله السوء - مأخوذ من قولهم: «أرض عزاز» أي: قوية صلبة لا تؤثر فيها الأقدام - وأما «الحكيم» أي: ذو الحكم والحكمة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الوعيد على من زلَّ بعد قيام الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

فإن قيل: من أين يأتي الوعيد؟

قلنا: من قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن من معاني «العزة» الغلبة، والقهر؛ و«الحكمة»: تنزيل الشيء في مواضعه؛ فإذا كان هناك غلبة وحكمة فالمعنى: أنه سينزِّل بكم ما تتبين به عزته؛ لأن هذا هو مقتضى حكمته.

٢ - **ومنها:** أن الله تعالى أقام البينات بالعباد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

٣ - **ومنها:** أنه لا تقوم الحجة على الإنسان ولا يستحق العقوبة إلَّا بعد قيام البينة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ ولهذا شواهد كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن الإنسان لا حجة عليه حتى تقوم عليه البينة.

٤ - **ومنها:** وجوب الإيمان بأسماء الله، وما تضمنته من صفات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ علم اعتراف وإقرار وقبول وإذعان، فمجرد العلم لا يكفي؛ ولهذا فإن أبا طالب كان يعلم أن النبي ﷺ على حق، وأنه رسول الله؛ لكنه لم يقبل، ولم يذعن؛ فلهذا لم ينفعه إقراره؛ فالإيمان ليس مجرد اعتراف بدون قبول وإذعان.

٥ - **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله - وهما: «العزيز»، و«الحكيم» - وإثبات ما تضمناه من صفة - وهي العزة، والحُكم، والحكمة.

قال الله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون؛ أي ما ينتظر هؤلاء المكذبون الذين زلوا بعد ما جاءتهم البينات؛ وتأتي

بمعنى النظر بالعين؛ فإن عديت بـ«إلى»: فهي للنظر بالعين؛ وإن لم تعدّ فهي بمعنى الانتظار؛ مثال المعداة بـ«إلى»: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يأتيهم الله نفسه؛ هذا ظاهر الآية، ويجب المصير إليه؛ لأن كل فعل أضافه الله إليه فهو له نفسه؛ ولا يعدل عن هذا الظاهر إلَّا بدليل من عند الله.

قوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾؛ ﴿فِى﴾ معناها «مع»؛ يعني: يأتي مصاحبًا لهذه الظلل؛ وإنما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عزَّ وجلَّ؛ والله أعظم وأجلُّ من أن يحيط به شيء من مخلوقاته؛ ونظير ذلك أن نقول: جاء فلان في الجماعة الفلانية- أي: معهم - وإن كان هذا التنظير ليس من كل وجه؛ لأن فلانًا يمكن أن تحيط به الجماعة؛ ولكن الله لا يمكن أن يحيط به الظلل؛ وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]؛ فالسماء تشقق - لا تنشق - كأنها تنبعث من كل جانب؛ وقيل: إن ﴿فِى﴾ بمعنى الباء؛ فتكون كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]؛ وهذا قول باطل لمخالفته ظاهر الآية؛ و﴿ٱلْغَمَامِ﴾: قالوا: إنه السحاب الأبيض الرقيق؛ لكن ليس كسحاب الدنيا؛ فالاسم هو الاسم؛ ولكن الحقيقة غير الحقيقة؛ لأن المسميات في الآخرة - وإن شاركت المسميات في الدنيا في الاسم - إلَّا إنَّها تختلف مثلما تختلف الدنيا عن الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بالرفع عطفًا على لفظ الجلالة؛ يعني: وتأتيهم الملائكة أيضًا محيطة بهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]؛ وفي حديث الصور الطويل الذي ساقه ابن جرير وغيره(١): أن السماء تشقق؛ فتشقق السماء الدنيا بالغمام، وتنزل الملائكة، فيحيطون بأهل الأرض، ثم السماء الثانية، والثالثة، والرابعة.. كل من وراء الآخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] يعني: صفًّا بعد صف؛ ثم يأتي الرب عزَّ وجلَّ للقضاء بين عباده؛ ذلك الإتيان الذي يليق بعظمته وجلاله؛ ولا أحد يحيط علمًا بكيفيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ وقد تقدم الكلام على الملائكة عند قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ وبيَّنا أن الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور خلقهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعبادته يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: اختلف فيها المعربون؛ فمنهم من قال: إنها معطوفة على: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فتكون في حيِّز الأمر المنتظر بمعنى: هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله؛ وإلا أن يقضى الأمر؛ ولكنه أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوعه؛ وعلى هذا فيكون محل الجملة النصب؛ لأن

﴿تأتيهم الملائكة﴾ منصوبة - يعني: هل ينظرون إلَّا إتيانَ الله في ظلل من الغمام، وإتيانَ الملائكة، وانقضاءَ الأمر - ومنهم من قال: إنها جملة مستأنفة؛ أي: وقد انتهى الأمر، ولا عذر لهم بعد ذلك، ولا حجة لهم؛ و﴿ٱلْأَمْرُ﴾ بمعنى: الشأن؛ أي قضي شأن الخلائق، وانتهى كل شيء، وصار أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ وفي ﴿تُرْجَعُ﴾ قراءتان؛ الأولى: بفتح التاء، وكسر الجيم؛ والثانية: بضم التاء، وفتح الجيم؛ والمتعلَّق هنا مقدم على المتعلَّق به؛ لأن ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُ﴾؛ وتقديم المعمول: يفيد الحصر والاختصاص؛ أي: إلى الله وحده لا إلى غيره ترجع الأمور - أمور الدنيا والآخرة - أي: شئونها كلها: الدينية والدنيوية والجزائية وكل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فالأمور كلها ترجع إلى الله - عزَّ وجلَّ - ومنها أن الناس يرجعون يوم القيامة إلى ربهم، فيحاسبهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وعيد هؤلاء بيوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ إلخ.؟!!!

٢ - **ومنها:** أن الله تعالى لا يعذب هذه الأمة بعذاب عام؛ لأن الله جعل وعيد المكذبين يوم القيامة؛ ويدل لذلك آيات وأحاديث؛ منها قول الله - تبارك وتعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وقوله ﷺ: «أنه سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتَهُ بِسنةٍ عَامَّة فَأَجَابَهُ»(١).

٣ - **ومنها:** إثبات إتيان الله - عزَّ وجلَّ - يوم القيامة للفصل بين عباده؛ وهو إتيان حقيقي يليق بجلاله لا تُعلَم كيفيته، ولا يسأل عنها - كسائر صفاته - قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: **«الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»**؛ هذا وقد ذهب أهل التعطيل إلى أن المراد بإتيان الله: إتيان أمره؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل إلَّا ما زعموه دليلًا عقليًّا وهو في الحقيقة وهمي، وليس عقليًّا؛ فنحن نقول: الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عزَّ وجلَّ؛ وهو أعلم بنفسه؛ وهو يريد أن يبين لعباده، كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]؛ وإذا كان يريد أن يبين، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عِيٌّ وعجز عن التعبير بما أراد؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة؛ إذنْ فكلامه في غاية ما يكون من العلم؛ وغاية ما يكون من إرادة الهدى؛ وغاية ما يكون من الفصاحة والبلاغة؛ وغاية ما يكون من الصدق؛ فهل بعد ذلك يمكن أن نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا؛ لا يمكن هذا إلَّا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره؛ إذنْ المراد إتيان الله نفسه؛ ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧١٤).

ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب؛ والصفات توقيفية؛ فنتوقف فيها على ما ورد؛ فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه؛ والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم؛ بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

٤ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الملائكة.

٥ - **ومنها**: إثبات عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾؛ فـ﴿ظُلَلٍ﴾ نكرة تدل على أنها ظلل عظيمة وكثيرة؛ ولهذا جاء في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] يعني: تثور ثورانًا بهذا الغمام العظيم من كل جانب؛ كل هذا مقدمة لمجيء الجبار سبحانه وتعالى؛ وهذا يفيد عظمة الباري ـ سبحانه وتعالى.

٦ - **ومنها**: أن الملائكة أجسام؛ خلافًا لمن زعم أن الملائكة قوى الخير، وأنهم أرواح بلا أجسام؛ والرد على هذا الزعم في القرآن والسنة كثير.

٧ - **ومنها**: أن يوم القيامة به ينقضي كل شيء؛ فليس بعده شيء؛ إما إلى الجنة؛ وإما إلى النار؛ فلا أمل أن يستعتب الإنسان إذا كان من أهل النار ليكون من أهل الجنة؛ لكنه أتى بصيغة ما لم يُسَمَّ فاعله لعظمة هذا الأمر؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

٨ - **ومنها**: أن الأمور كلها ترجع إلى الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي الأمور الكونية، والشرعية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]؛ فالأمور كلها مرجعها إلى الله - تبارك وتعالى - وما ثبت فيه أنه يرجع فيه إلى الخلق فإنما ذلك بإذن الله؛ فالحكم بين الناس مرجعه القضاة؛ لكن كان القضاة مرجعًا للناس بإذن الله تعالى.

٩ - **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله - أي: إنَّهُ يحدث من أفعاله ما شاء - لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهذا مذهب السلف الصالح؛ خلافًا لأهل التحريف والتعطيل الذين ينكرون هذا النوع، ويحرفونه إلى معان قديمة لمنعهم قيام الأفعال الاختيارية بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومذهبهم باطل بالسمع، والعقل؛ فالنصوص المثبتة لذلك لا تكاد تحصى؛ والعقل يقتضي كمال من يفعل ما يشاء متى شاء، وكيف شاء.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: عظمة الله وتمام سلطانه وملكه، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿سَلْ﴾ أصلها: اسأل؛ فنقلت حركة الهمزة إلى السين، ثم حذفت تخفيفًا؛ ثم حذفت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها؛ و﴿كَمْ﴾ هل هي خبرية علقت الفعل ﴿سَلْ﴾ عن العمل؛ فصارت هي وجملتها في محل نصب؛ وأصله سل فلانًا عن كذا وكذا؛ فعلقت الفعل عن المفعول الثاني؛ و﴿كَمْ﴾ تحتاج إلى تميُّز؛ لأن ﴿كَمْ﴾ اسم مبهم تدل على عدد والمعدود: قوله تعالى: ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾؛ و (آتينا) أي: أعطينا؛ وهي تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: الهاء؛ والمفعول الثاني: محذوف؛ والتقدير: كم من آية بينة آتيناهموها؛ وعاد الضمير المحذوف إلى متأخر لفظًا؛ لأنه متقدم رتبة؛ إذ ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ كان حقها أن تكون بعد ﴿كَمْ﴾؛ وجملة: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ﴾ شرطية؛ و﴿مَن﴾: اسم شرط جازم؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وجوابه مفهوم من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ فالجملة هنا دالة على الجواب، وليست هي الجواب؛ لأن شدة عقاب الله ثابتة سواء بدلوا أم لم يبدلوا.

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ الخطاب هل هو للرسول ﷺ وحده؛ أو لكل من يتأتى خطابه؟ مثل هذه الخطابات تارةً يقوم الدليل على أنها خاصة بالرسول ﷺ، فتكون خاصة به؛ وتارة يقوم الدليل على أنها عامة له ولغيره، فتكون عامة؛ وتارة لا يقوم الدليل على هذا، ولا على هذا؛ فالظاهر أنها عامة؛ لأن القرآن نزل للأمة إلى يوم القيامة.

فمن أمثلة ما قام الدليل على أنها للرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١ - ٤].

ومثال الذي قام الدليل على أنها عامة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ ولكن أمر بحكم عام، فقال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾.

وأما المحتمل فهو كثير في القرآن؛ ومنه هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿سَلْ﴾: أي: سؤال توبيخ وتبكيت؛ لإقامة الحجة عليهم ببيان نعم الله التي كان حقه عليهم أن يشكروها، ولكن بدلوها كفرًا؛ وإلا فالظاهر أن الرسول ﷺ كان يعلم بما آتاهم الله من الآيات البينات؛ و﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ والمراد من ينتمي إليه؛ لا أبناء صلبه خاصة.

قوله تعالى: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾؛ ﴿كَمْ﴾ هذه تكثيرية - أي: أعطيناهم آيات كثيرة -

والإيتاء هنا يشمل: الإيتاء الشرعي، والإيتاء القدري الكوني؛ لأنهم أوتوا آيات بينات شرعية جاءت بها التوراة؛ وأوتوا آيات بينات كونية، كالعصا، واليد؛ و«الآية» بمعنى: العلامة على الشيء؛ و﴿بَيِّنَةٍ﴾ أي: ظاهرة في كونها آية.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يجعل بدلها؛ والمفعول الثاني محذوف؛ تقديره: كفرًا، كما يدل لذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: قوي الجزاء بالعقوبة؛ وسمي الجزاء عقوبة وعقابًا؛ لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذة به.

وقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل أن تقول: حسن الوجه - يعني: ذو الوجه الحسن - فهي صفة مشبهة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان كثرة ما أعطاه الله بني إسرائيل من الآيات البينة الدالة على صدق رسله؛ لقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾.

٢ - **ومنها:** تقريع بني إسرائيل الذين كفروا بآيات الله، وتوبيخهم؛ لأن المراد بالسؤال هنا: سؤال توبيخ.

٣ - **ومنها:** أن الآيات من نعم الله؛ لأنها تحمل المرء على الإيمان؛ وفي الإيمان نجاته وكرامته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الآيات مبينة لما أتت دالةً عليه.

٥ - **ومنها:** التحذير من تبديل نعمة الله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ [البقرة: ٢١١]؛ والمراد: تبديل الشكر بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

٦ - **ومنها:** إثبات شدة العقاب من الله لمن بدل نعمته بالكفر؛ وهذا من تمام عدله وحكمته.

قال الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾: مبني لما لم يسم فاعله؛ ونائب الفاعل ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ والتزيين جعل

الشيء بهيًّا في عين الإنسان، أو في سمعه، أو في مذاقه، أو في فكره؛ المهم أن أصل التزيين جعل الشيء بهيًّا جميلًا جذابًا؛ والمزيِّن إما أن يكون الله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤]؛ وإما أن يكون الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]؛ ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن الله زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم أساءوا، كما يفيده قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ والتزيين من الله باعتبار التقدير؛ أما الذي باشر التزيين ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] إلخ؟! فإما أن نحمل «الناس» على ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ونقول: هو عام أريد به الخاص؛ أو نقول: إن ذكر بعض ألفاظ العام لا يقتضي التخصيص؛ فيكون ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ عمومًا؛ وهنا ذكر الله تعالى تزيينه لبعض أفراد هذا الجنس وهم «الذين كفروا».

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ما فيها من الشهوات والملذات؛ وقد بين الله ذلك بقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فُعلى - يعني: أنه اسم تفضيل مؤنث مأخوذة من الدنو الذي هو ضد العلو - ووصفت هذه الحياة بالدنيا لوجهين: الأول: دنوّ مرتبتها؛ الثاني: سبقها على الآخرة؛ فهي أدنى منها لقربها ودنوّ منزلتها؛ أما قربها وهو سبقها على الآخرة فظاهر معلوم لكل أحد؛ وأما دنوّ مرتبتها فلقول الرسول ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيهَا»(١). وموضع السوط مقدار متر تقريبًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ هذه الجملة يقولون: إنها حالية؛ يعني: زينت لهم والحال أنهم يسخرون من الذين آمنوا؛ و﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ يعني: يجعلونهم محل سخرية وازدراء، واحتقار؛ إما لِما يقومون به من الأعمال الصالحة؛ وإما لكونهم لم يؤتوا من الدنيا ما أوتي هؤلاء - على زعمهم -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: اتقوا ربهم - عزَّ وجلَّ - و«التقوى» كثيرًا ما ترد في القرآن الكريم؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عن علم وبصيرة.

قوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: فوقهم مرتبة ومنزلة؛ وهذا ما أعاضهم الله به؛ حيث كان أولئك الذين كفروا يسخرون بهم في الدنيا، فجعلهم الله فوقهم يوم القيامة؛ وهذا كقوله

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطي من يشاء من فضله بغير محاسبة على ذلك؛ فهم يأخذون أجرهم يوم القيامة مجانًا؛ لأن العوض قد سبق؛ ويحتمل أن المعنى بغير تقدير - أي لا يقدَّر لهم ذلك - بل يعطون ما تشتهيه أنفسهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ٢٥] أي: غير مقطوع؛ لأن رزق الله لا نهاية له لاسيما الرزق في الآخرة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** انخداع الكافرين بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ - **ومنها:** أن الكفار عاشقون لها، وأنها هي همهم وغرضهم؛ لأن ما زين للشخص فلابد أن يكون الشخص مهتمًا به طالبًا له.

٣ - **ومنها:** أن المؤمنين ليست الدنيا في أعينهم شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا رأى ما يعجبه في الدنيا يقول: «**لَبَّيْكَ! إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ**»[1]. لتوجيه النفس إلى إجابة الله؛ لا إلى إجابة رغبتها، ثم يقنع النفس أيضًا: أني ما صددتك وأجبت الرب - عزَّ وجلَّ - إلَّا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة؛ والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]؛ هذه هي الخسارة: خسروا أنفسهم؛ لأن مآلهم النار - والعياذ بالله - وأهلوهم أيضًا الذين في النار لا يهتم بعضهم ببعض؛ كل - والعياذ بالله - شقيٌّ فيما هو فيه؛ والحاصل أنا نقول: ينبغي لكل إنسان حين يرى في الدنيا ما يعجبه أن يقول كما قال الرسول ﷺ.

٤ - **ومن فوائد الآية:** حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدنيا؛ وهي من الدنوِّ زمنًا ورتبة؛ زمنًا: لأنها قبل الآخرة؛ ورتبة: لأنها قليل بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلَّا مشوبًا بتنغيص قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأن له فيه أجرًا، كما أخبر الرسول ﷺ في قوله: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2]. والمؤمن إذا ابتلي بالبلاء الجسمي أو النفسي يقول: هذه نعمة من الله يكفِّر الله بها عني سيئاتي؛ فإذا أحس هذا الإحساس صار هذا الألم نعمة؛ لأن الإنسان خطَّاء دائمًا؛ وهذه الأشياء لا شك أنها - والحمد لله - تكفير للسيئات؛ فإن صبر

(١) رواه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في مسنده (١٨٩٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٨٩٦).

واحتسب صارت رفعة للدرجات؛ فالآلام، والبلايا، والهم، والغم، تكفير بكل حال؛ ولكن مع الصبر والاحتساب يكون عملًا صالحًا يثاب عليه، ويؤجر عليه.

٥ - **ومن فوائد الآية**: ألَّا نركن إلى هذه الحياة ونطمئن إليها؛ بل نجعل همتنا منصرفة إلى الدار الآخرة؛ وهذا لا ينافي أن نتمتع وننعم بما أحل الله لنا مع الاستقامة في ديننا.

٦ - **ومنها**: أن الكفار لا يزالون يسلطون أنفسهم على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ بالفعل المضارع؛ لأن المضارع يدل على :الاستمرار، والحال، والاستقبال؛ فهم دائمًا في سخرية من الذين آمنوا.

٧ - **ومنها**: أن العبرة بكمال النهاية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٨ - **ومنها**: تثبيت المؤمنين، وترسيخ أقدامهم في إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: اصبروا؛ فإن هذا دأبهم وشأنهم أن يسخروا منكم؛ فما دمتم تعرفون أن هذه عادة الكفار فإن الإنسان يصبر؛ إذا عرف الإنسان أن هذا شيء لابد منه يكون مستعدًّا له، وقابلًا له، وغير متأثر.

٩ - **ومنها**: البشرى للمؤمنين الذين اتقوا أنهم فوق الكفار يوم القيامة.

١٠ - **ومنها**: إثبات أفعال الله سبحانه وتعالى المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ فتسمى هذه الأفعال في كتب العقائد الأفعال الاختيارية - يعني المتعلقة بمشيئة الله - وهي ثابتة لله عزَّ وجلَّ على وجه الحقيقة؛ وأمثلتها في القرآن كثيرة.

١١ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ وكل ما في الكون واقع بمشيئة الله؛ والمشيئة تختلف عن الإرادة بأنها لا تنقسم إلى :كونية، وشرعية؛ بل هي كونية محضة؛ فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن سواء كان مما يحبه، أو مما لا يحبه.

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام: ٣٩]؛ فهذا لا يحبه؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]: فهذا يحبه؛ وكل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ ودليل ذلك سمعي وعقلي؛ فمن السمع: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فدل هذا على أن مشيئته مقرونة بالحكمة؛ وأما العقل: فلأن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه بأنه «حكيم»؛ والحكيم لا يصدر منه شيء إلَّا وهو موافق للحكمة.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: كثرة رزق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى: أنه يعطي عطاءً لا يبلغه الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال الله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أُمَّةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿مُبَشِّرِينَ﴾ حال من المفعول به؛ وهو ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ ﴿أُمَّةً﴾ هنا بمعنى: طائفة؛ و﴿كَانَ﴾ أي: فيما مضى من قبل أن مَنْ تبعث الرسل إليهم كانوا طائفة واحدة على دين واحد؛ وهذا الدين الواحد هو دين الإسلام؛ لأن آدم نبي موحًى إليه بشريعة يتعبد بها؛ فصار يتعبد بها، واتبعه أبناؤه على ذلك؛ ثم بعد مدة من الزمن كثر الناس، واختلفت الأهواء، فاختلفوا؛ فحينئذٍ صاروا بحاجة إلى بعث الرسل؛ فبعث الله الرسل مبشرين، ومنذرين. إلخ.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: الفاء هنا عاطفة؛ والمعطوف عليه: محذوف معلوم من السياق: اللاحق، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]؛ وعلى كل حال لابد أن يكون المعنى أنهم اختلفوا؛ فبُعث الرسل؛ ونظير هذا من المحذوف الذي يعينه السياق قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ [البقرة: ١٨٥]: فالمريض والمسافر ليس عليهما العدة لو صاما؛ إذنْ لابد أن نقدر: فأفطر فعليه عدة؛ و«بعث» بمعنى: أرسل، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ والمراد بـ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هنا: الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: هذان حالان؛ لأن الرسل يأتون بالبشارة والنذارة في آن واحد؛ يعني: ليس بعض الرسل مبشرًا، والآخر منذرًا؛ بل كل واحد جامع بين التبشير والإنذار؛ أي مبشرين بثواب الله عزَّ وجلَّ لمن استحقه؛ ومنذرين بعقاب الله من خالف أمره؛ قال الله - تبارك وتعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]؛ فهنا بينت الآية المبشَّر والمبشَّر به؛ فالمبشَّر: المؤمنون الذين يعملون الصالحات؛ والمبشَّر به: أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا؛ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥]؛ فالمنذَر: هم الكفار؛ والمنذر به: العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ المعية هنا: للمصاحبة؛ والمعية كلما أطلقت فهي للمصاحبة؛ لكنها في كل موضع بحسبه؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا: مفرد يراد به الجنس؛ فيعم كل كتاب؛ إذ لكل رسول كتاب؛ وقد زعم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾ أي: مع بعضهم؛ وقال: ليس كل الرسل معهم كتاب؛ ولكن هذا خلاف ظاهر القرآن؛ فقد قال الله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فظاهر الآية أن مع كل رسول كتابًا؛ وهذا هو مقتضى الحال حتى يكون هذا الكتاب الذي معه يبلغه إلى الناس؛ ولا يرد على هذا أن بعض الشرائع تتفق في مشروعاتها - وحتى في منهاجها - ولا يكون فيها إلَّا اختلاف يسير، كما في شريعة التوراة والإنجيل؛ فإن هذا لا يضر؛ المهم أن كل رسول في ظاهر القرآن معه كتاب؛ و«كتاب» بمعنى: مكتوب؛ فمنه ما نعلم أن الله كتبه؛ ومنه ما لا نعلم أن الله كتبه لكن تكلم به.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء للمصاحبة متعلقة بـ﴿وَأَنزَلَ﴾ أي: ما جاءت به الكتب فهو حق؛ ويحتمل أن المعنى أن الكتب نفسها حق من عند الله؛ وليست مفتراة عليه؛ وكلا المعنيين صحيح؛ فهي حق من عند الله؛ وما جاءت به من الشرائع والأخبار فهو حق؛ و«الحق» أي: الثابت النافع؛ وضده الباطل الذي يزول ولا ينفع؛ والحق الثابت في الكتب المنزلة من عند الله: بالنسبة للأخبار هو الصدق المطابق للواقع؛ وبالنسبة للأحكام فإنه العدل المصلح للخلق في معاشهم ومعادهم، كما قال الله - تبارك وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضمير يعود على الكتاب؛ أو على النبيين؛ أو على الله؛ يعني: ليحكم هو - أي الله - أو ليحكم الكتاب باعتبار أنه وسيلة الحكم؛ أو ليحكم النبي باعتبار أنه الذي معه الكتاب؛ ولكن هنا إشكال: وهو أن ﴿لِيَحْكُمَ﴾ مفرد؛ و﴿ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ جمع؛ لكن قالوا: لما كان النبيون جمعًا والجمع له أفراد صار ﴿لِيَحْكُمَ﴾ أي كل فرد منهم.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ فبعضهم قال: الحق كذا؛ وبعضهم قال: الحق كذا؛ خصمان لابد بينهما من حَكَمٍ؛ وهو ما جاءت به الرسل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ و«ما» اسم موصول؛ واسم الموصول من ألفاظ العموم؛ فيشمل كل ما اختلف فيه الناس من الدقيق والجليل في مسائل الدين والدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ﴿ٱخْتَلَفَ﴾؛ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿أُوتُوهُ﴾ أي: أعطوه؛ والمراد بهم هنا الأمم؛ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ﴾ أي: وما اختلف فيه من بعد ما جاءتهم البينات بغيًا إلَّا الذين أوتوه؛ أي من بعد ما جاءت هذه الأمم الذين اختلفوا؛ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات البيِّنات الدالة على صدق الرسل؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

قوله تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مفعول لأجله عامله ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾؛ و«البغي» هو العدوان.

قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق المسبوقة بهداية العلم والإرشاد؛ لأن الجميع قد جاءتهم الرسل بالكتب، وبينت لهم؛ لكن لم يوفق منهم إلَّا من هداهم الله؛ و«الإيمان» في اللغة: التصديق؛ ولكنه في الشرع التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ وليس مجرد التصديق إيمانًا؛ إذ لو كان مجرد التصديق إيمانًا لكان أبو طالب مؤمنًا؛ لأنه كان يقر بأن محمدًا ﷺ صادق، ويقول:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

لكنه لم يَقبل، ولم يُذعن، فلم يكن مؤمنًا.

قوله تعالى: ﴿لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: للذي اختلفوا فيه؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾ يعود إلى الذين أوتوا الكتاب؛ وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ في موضع نصب على الحال بيانًا لـ«ما» التي هي اسم موصول؛ ويبين أن الجار والمجرور بيان لها أنك لو قلت: «فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه» يستقيم المعنى؛ ومن هنا نعرف أن ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ ليس للتبعيض؛ ولكنها لبيان الإبهام الكائن في «ما» الموصولة؛ و﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي بمشيئته وإرادته؛ ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يشاء شيئًا إلَّا لحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾: الهداية هنا بمعنى الدلالة والتوفيق؛ فهي شاملة للنوعين؛ وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يعني: ممن يستحق الهداية؛ لأن كل شيء علق بمشيئة الله فإنه تابع لحكمته؛ فهو سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إذا كان أهلًا للهداية؛ كما أنه سبحانه وتعالى يجعل الرسالة في أهلها فإنه يجعل الهداية في أهلها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، كذلك هو أعلم حيث يجعل هدايته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فيها قراءتان: بالصاد، والسين؛ وهما سبعيتان؛ و﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في اللغة هو الطريق الواسع؛ وسُمِّيَ صراطًا - وقد يقال: «زراطًا» بالزاي ـ لأنه يبتلع سالكه بسرعة دون ازدحام ولا مشقة، كما أنك إذا بلعت اللقمة بسرعة يقال: «زرطها»؛ وقال بعضهم: هو الطريق الواسع المستقيم؛ لأن المعوج لا يحصل فيه العبور بسهولة؛ وجعل قوله تعالى: ﴿مُّسۡتَقِيمٍ﴾ صفة مؤكدة؛ وعلى كل حال «الصراط المستقيم» الذي ذكره ـ عزَّ وجلَّ ـ بَيَّنَهُ ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فهو الصراط الذي يجمع بين العلم والعمل؛ وإن شئت فقل: بين الهدى والرشد؛ بخلاف الطريق غير المستقيم الذي يحرم فيه السالك الهدى، كطريق النصارى؛ أو يحرم فيه الرشد، كطريق اليهود.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن دين الإسلام هو الفطرة؛ لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ فقبل أن يحصل ما يفتنهم كانوا على دين واحد - دين الإسلام.

٢ - **ومنها:** الحكمة في إرسال الرسل؛ وهي التبشير والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٣ - **ومنها:** أن النبوة لا تُنَالُ بالكسب؛ وإنما هي فضل من الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن من يوصف بالتبشير إنما هم الرسل وأتباعهم؛ وأما ما تَسَمَّى به دعاة النصرانية بكونهم مُبشِّرين فهم بذلك كاذبون؛ إلَّا أن يراد أنهم مبشرون بالعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ وأحق وصف يوصف به هؤلاء الدعاة أن يوصفوا بالمضللين، أو المُنَصِّرين؛ وما نظير ذلك إلَّا نظير من اغتر بتسمية النصارى بالمسيحيين؛ لأن لازم ذلك أنك أقررت أنهم يتبعون المسيح، كما إذا قلت: «فلان تميمي»؛ إذنْ هو من بني تميم؛ والمسيح ابن مريم يتبرأ من دينهم الذي هم عليه الآن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧] الآيتين؛ ولأنهم ردوا بشارة عيسى بمحمد ﷺ، وكفروا بها؛ فكيف تصح نسبتهم إليه؟!! والحاصل: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون حذرًا يقظًا لا يغتر بخداع المخادعين، فيجعل لهم من الأسماء والألقاب ما لا يستحقون.

٥ - **ومنها:** أنَّ الشرائع التي جاءت بها الرسل تنقسم إلى: أوامر، ونواهٍ؛ لقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ لأن الإنذار: عن الوقوع في المخالفة؛ والبشارة: لمن امتثل وأطاع.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الكتب نازلة من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٧ - **ومنها:** علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كانت الكتب نازلة من عنده لزم أن يكون هو عاليًا؛ لأن النزول يكون من فوق إلى تحت.

٨ - **ومنها:** أن الواجب الرجوع إلى الكتب السماوية عند النزاع؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وإلا لضاعت فائدة الكتب الـمُنَزَّلة؛ ومن المعلوم أن الكتاب المنزل على محمد ﷺ مصدق لما بين يديه من الكتاب، ومهيمن عليه؛ فيجب الرجوع إليه وحده؛ لأن ما سبقه منسوخ به.

٩ - **ومنها:** رحمة الله - عزَّ وجلَّ - بالعباد، حيث لم يكلهم إلى عقولهم؛ لأنهم لو وكِلوا إلى عقولهم لفسدت السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ فكل إنسان يقول: العقل عندي؛ والصواب معي؛ ولكن

الله تعالى بعث النبيين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

١٠ - **ومنها**: أن الناس لو رجعوا إلى الكتاب المنزل عليهم لحصل بينهم الاجتماع والائتلاف.

١١ - **ومنها**: أن الخلاف بين الناس كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ ولولا هذا ما قامت الدنيا؛ ولا الدين؛ ولا قام الجهاد؛ ولا قام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ ولم يمتحن الصادق من الكاذب.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: أن أولئك الذين اختلفوا في الشرع كانوا قد أوتوا الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الحجة قد قامت عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾

١٣ - **ومن فوائد الآية**: كمال التوبيخ واللوم على هؤلاء ما هو ظاهر؛ لأنه كان الواجب والأحرى بهؤلاء الذين أوتوه ألا يختلفوا فيه؛ بل يتفقوا عليه؛ لكنهم اختلفوا فيه مع تفضل الله عليهم بإيتائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

١٤ - **ومنها**: بيان ضعف ما يروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «**اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ**»(١)؛ فالاختلاف ليس برحمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]؛ نعم، دخول المختلفين تحت عفو الله رحمة إذا اجتهدوا، حيث إن الله - عزَّ وجلَّ - لم يعذب المخطئ؛ فالمختلفون تسعهم الرحمة إذا كانوا مجتهدين؛ لأن من اجتهد فأصاب فله أجران؛ ومن اجتهد فأخطأ فله أجر؛ أما أن نقول: «**إِنَّ الخِلَافَ بَيْنَ الأُمَّةِ رَحْمَةٌ**» فلا.

١٥ - **ومنها**: أن فعل الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات إنما كان ذلك بغيًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ فالذين اختلفوا في محمد ﷺ من اليهود والنصارى إنما كان اختلافهم بغيًا وعدوانًا؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وكذلك الذين اختلفوا في محمد ﷺ من قريش كان كفرهم بغيًا وعدوانًا.

١٦ - **ومنها**: أن كل مخالف للحق بعد ما تبين له فهو باغٍ ضال - وإن قال: أنا لا أريد البغي، ولا أريد العدوان.

١٧ - **ومنها**: أنه متى تبين الحق وجب اتباعه - ولو كان قد قال بخلافه من قبل - فيدور مع الحق حيث دار.

---

(١) موضوع: انظر «ضعيف الجامع» (٢٣٠).

١٨ - ومنها: رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾.

١٩ - ومنها: أن الإيمان سبب للهداية للحق.

٢٠ - ومنها: أنه كلما قوي إيمان العبد كان أقرب إلى إصابة الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ ..﴾؛ لأن الله علق الهداية على وصف الإيمان؛ وما عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوته ويضعف بضعفه؛ ولهذا كان الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم ليس في التفسير فقط، ولا في أحكام أفعال المكلفين، ولا في العقائد؛ بل في كل أبواب الشريعة؛ لأن الهداية للحق علقت بالإيمان؛ ولا شك أن الصحابة أقوى الناس إيمانًا؛ قال الرسول ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»[1]، ولهذا ذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ إلى أن قول الصحابي حجة ما لم يخالف النص؛ فإن خالف نصًّا فليس بحجة؛ أو يخالفه صحابي آخر؛ فإن خالفه صحابي آخر نظر في الترجيح أيهما أقرب إلى الصواب.

٢١ - ومن فوائد الآية: أنه يجب على المرء الذي هداه الله ألَّا يعجب بنفسه، وألا يظن أن ذلك من حوله وقوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: أمره الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردوا الحق بغيًا وعدوانًا.

٢٢ - ومنها: الإيماء إلى أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الهداية من الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢٣ - ومنها: إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾، وكذلك لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

٢٤ - ومنها: أن أفعال العباد واقعة بإرادة الله وخلقه.

٢٥ - ومنها: أن إذنَ الله نوعان: كوني، وشرعي؛ وسبق بيانهما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

٢٦ - ومنها: إثبات مشيئة الله في أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٢٧ - ومنها: أن كل ما سوى الشرع فهو طريق معوج؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢٨ - ومنها: أن الشرع لا ضيق فيه، ولا اعوجاج، ولا تعب؛ لأنه صراط واسع ومستقيم.

٢٩ - ومنها: الإشارة إلى الطرق الثلاثة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفاتحة؛ وهي: طريق الذين أنعم الله عليهم، وطريق المغضوب عليهم؛ وطريق الضالين؛ الذين أنعم الله عليهم: هم الرسل وأتباعهم؛ والمغضوب عليهم: اليهود وأمثالهم؛ والضالون: النصارى وأمثالهم؛ وهذا بالنسبة

---

(١) رواه البخاري (٢٥٠٨)، ومسلم (٢٥٣٥).

للنصارى قبل أن يُبعث الرسول ﷺ؛ أما لما بعث الرسول ﷺ وكذبوه صاروا من المغضوب عليهم كاليهود بالنسبة لدين المسيح؛ لأن اليهود كانوا مغضوبٌ عليهم، حيث جاءهم عيسى فكذبوه بعد أن علموا الحق؛ وبعد ما بعث عيسى واتبعه النصارى وطال الأمد ابتدعوا ما ابتدعوا من الدين، فضلُّوا؛ فصاروا ضالين؛ لكن لما بعث محمد ﷺ كذبوه، وأنكروه؛ فصاروا من المغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾؛ ﴿ أَمْ ﴾ من حروف العطف؛ وهي هنا منقطعة بمعنى «بل»؛ يقدر بعده همزة الاستفهام؛ أي: بل أحسبتم؛ فهي إذنْ للإضراب الانتقالي؛ وهو الانتقال من كلام إلى آخر؛ و﴿حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى ظننتم؛ وعلى هذا فتنصب المفعولين؛ قال بعض النحويين: إن ﴿أَن﴾ وما دخلت عليه تسد مسدَّ المفعولين؛ وقال آخرون: بل إن ﴿أَن﴾ وما دخلت عليه تسد مسد المفعول الأول؛ ويكون المفعول الثاني محذوفًا دَلَّ عليه السياق؛ فإذا قلنا بالأول فالأمر واضح لا يحتاج إلى تقدير شيء آخر؛ وإذا قلنا بالثاني يكون التقدير: أم حسبتم دخولكم الجنة حاصلًا..

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ يعود على كل من يتوجه إليه الخطاب: إلى النبي ﷺ، وإلى الصحابة، وإلى من بعدهم.

قوله تعالى: ﴿أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾؛ «الجنة» في اللغة: البستان كثير الأشجار؛ وفي الشرع: هي الدار التي أعدها الله للمتقين والتي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم ﴾؛ ﴿وَلَمَّا﴾ حرف نفي، وجزم، وقلب؛ والفرق بينها وبين «لم»: أن «لما» للنفي مع توقع وقوع المنفي؛ و«لم» للنفي دون ترقب وقوعه؛ مثاله: إذا قلت: «لم يقم زيد» فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: «لما يقم زيد» فقد نفيت قيامه مع ترقب وقوعه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[ص:٨].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ أي: صفة ما وقع لهم؛ و«المثل» يكون بمعنى الصفة، مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صفتها كذا وكذا؛

ويكون بمعنى الشبه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] أي: شبههم كشبه الذي استوقد نارًا؛ و﴿خَلَوْا﴾ بمعنى: مضوا.

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ إذا كانت ﴿خَلَوْا﴾ بمعنى مضوا؟

نقول: هذا من باب التوكيد؛ والتوكيد قد يأتي بالمعنى مع اختلاف اللفظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]؛ فإن الإفساد هو العثو؛ ومع ذلك جاء حالًا من الواو؛ فهو مؤكد لعامله.

ولما كانت ﴿مَثَلُ﴾ مبهمة بيَّنها الله تعالى بقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾؛ و«المس»: هو مباشرة الشيء؛ تقول: مسسته بيدي، ومس ثوبه الأرض؛ فـ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ يعني: أصابتهم إصابة مباشرة؛ وهذه الجملة استئنافية لبيان المثل الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ هذه ثلاثة أشياء؛ ﴿الْبَأْسَاءُ﴾: قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس؛ وهو الفقر الشديد؛ و﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: قالوا: إنها المرض، والمصائب البدنية؛ و﴿وَزُلْزِلُوا﴾: «الزلزلة» هنا ليست زلزلة الأرض؛ لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف، والقلق، والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات؛ فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال؛ والبدن؛ والنفس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؛ في ﴿يقول﴾ قراءتان: النصب، والرفع؛ أما على قراءة الرفع فعلى إلغاء ﴿حَتَّىٰ﴾؛ وأما على قراءة النصب فعلى إعمالها؛ وهي لا تعمل إلَّا في المستقبل؛ فإن قيل: ما وجه نصبها وهي حكاية عن شيء مضى؟

فالجواب: ما قاله المعربون: أنه نصب على حكاية الحال؛ وإذا قدرنا حكاية الحال الماضية صار ﴿يَقُولَ﴾ مستقبلًا بالنسبة لقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾؛ و﴿الرَّسُولُ﴾: المراد به الجنس - أي: حتى يقول الرسول من هؤلاء الذين زلزلوا، ومستهم البأساء والضراء - و﴿مَعَهُ﴾ المصاحبة هنا في القول والإيمان - أي يقولون معه وهم مؤمنون به - ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾: الجملة مقول القول؛ والاستفهام فيها للاستعجال - أي استعجال النصر - وليس للشك فيه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾: يحتمل أن يكون هذا جوابًا لقول الرسول ﷺ والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ويحتمل أن يكون جملة استئنافية يخبر الله بها خبرًا مؤكدًا بمؤكدين: ﴿أَلَا﴾؛ و﴿إِنَّ﴾؛ وكلاهما صحيح.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** عناية الله عزَّ وجلَّ بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ..﴾ إلخ؟! وهكذا كما

جاء في القرآن جاء في السنة؛ فالرسول ﷺ لما جاءه أصحابه يشكون إليه بمكة فأخبرهم: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلَ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلَ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلَ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطَ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ؛ مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»(١) تثبيتًا للمؤمنين.

٢ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الجنة.

٣ - **ومنها:** أن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلي؛ بل لابد من نية صالحة، وصبر على ما يناله المؤمن من أذى في الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومنها:** حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحانًا حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]؛ فلا يُعرف زيف الذهب إلَّا إذا أذبناه بالنار؛ ولا يُعرف طيب العود إلَّا إذا أحرقناه بالنار؛ أيضًا لا يُعرف المؤمن إلَّا بالابتلاء والامتحان؛ فعليك يا أخي بالصبر؛ قد تُؤذى في دينك؛ وقد يُستهزأ بك؛ وربما تلاحَظ؛ وربما تراقَب؛ ولكن اصبر، واصدق، وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل؛ فالرسول ﷺ كان ساجدًا لله في آمن بقعة على الأرض - وهو المسجد الحرام - فيأتي طغاة البشر بفرث الناقة، ودمها، وسلاها، ويضعونها عليه وهو ساجد؛ هذا أمر عظيم لا يصبر عليه إلَّا أولو العزم من الرسل؛ ويبقى ساجدًا حتى تأتي ابنته فاطمة وهي جويرية - أي صغيرة - تزيله عن ظهره فيبقى القوم يضحكون، ويقهقهون(٢)؛ فاصبر، واحتسب؛ واعلم أنه مهما كان الأمر من الإيذاء فإن غاية ذلك الموت؛ وإذا مت على الصبر لله ـ عزّ وجلّ ـ انتقلت من دار إلى خير منها.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان ألَّا يسأل النصر إلَّا من القادر عليه وهو الله ـ عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾.

٦ - **ومنها:** أن المؤمنين بالرسل منهاجهم منهاج الرسل يقولون ما قالوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؛ يتفقون على هذه الكلمة استعجالًا للنصر.

٧ - **ومنها:** تمام قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

٨ - **ومنها:** حكمة الله، حيث يمنع النصر لفترة معينة من الزمن - مع أنه قريب.

٩ - **ومنها:** أن الصبر على البلاء في ذات الله عزَّ وجلَّ من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

١٠ - **ومنها:** تبشير المؤمنين بالنصر ليتقووا على الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنصر المبشَّرينَ به.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٦)، وأبوداود (٢٦٤٩)، وأحمد في «مسنده» (٢١٠٩٥).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٣٧)، ومسلم (١٧٩٤).

١١ - **ومنها**: الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»[1]؛ لأن هذه مكاره؛ ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

١٢ - **ومنها**: أنه لا وصول إلى الكمال إلَّا بعد تجرع كأس الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ..﴾ إلخ؟!.

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: الصحابة ﵃؛ والخطاب للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾؛ ﴿مَا﴾ اسم استفهام مبتدأ؛ و﴿ذَا﴾ اسم موصول خبره؛ وجملة: ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة الموصول؛ والعائد محذوف؛ والتقدير: ماذا ينفقونه؛ وهذا إذا لم تُلْغَ ﴿ذَا﴾؛ فإذا أُلغيت صار الإعراب كالتالي: ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول مقدم لقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ و﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل مضارع؛ والفاعل الواو؛ والمفعول ما سبق؛ والمعنى لا يختلف على الإعرابين؛ والسؤال هنا عن المنفَق؛ لا على المنفق عليه؛ أي: يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم جنسًا، وقدرًا، وكيفًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾؛ ﴿مَا﴾ شرطية؛ فعل الشرط: ﴿أَنفَقْتُم﴾؛ وجوابه: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾؛ قد يبدو للإنسان في أول وهلة أن الله إنما أجابهم عن محل الإنفاق - لا عن ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ - لكن من تأمل الآية تبين له أن الله أجابهم عما ينفقون؛ وعما ينفقون فيه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ ففي هذا بيان ما ينفقون؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ ..﴾ بيان ما ينفقون فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ أي: الأب والأم - وإن علوا -؛ ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ جمع أقرب؛ وهو من كان أدنى من غيره إلى المنفِق؛ فأخ وابن أخ: فالأقرب الأخ؛ وعم وابن عم: فالأقرب العم؛ وابن أخ وعم: فالأقرب ابن الأخ؛ ولهذا اتفق أهل العلم على أنه إذا اجتمع عم وابن أخ في مسألة

(١) رواه البخاري (٦١٢٢)، ومسلم (٢٨٢٢).

فرضية فيقدم ابن الأخ؛ لقول النبي ﷺ: «فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1]؛ والقرابة لهم حق؛ لأنهم من الأرحام؛ لكن الأقرب أولى من الأبعد؛ ويدخل في ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأولاد من بنين وبنات - وإن نزلوا -.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم؛ وهو مشتق من اليتم والانفراد؛ والمراد به: من مات أبوه ولم يبلغ؛ وإنما أوصى الله به في كثير من الآيات جبرًا لما حصل له من الانكسار بموت الوالد مع صغره؛ فهذا إذا بلغ استقل بنفسه، فلم يكن يتيمًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين؛ وهو المُعدَم الذي ليس عنده مال؛ سُمِّيَ كذلك؛ لأن الفقر قد أسكنه وأذله؛ والمسكين هنا يدخل فيه الفقير؛ لأنه إذا ذكر المسكين وحده دخل فيه الفقير؛ وإذا ذكر الفقير وحده دخل فيه المسكين؛ وإذا اجتمعا صار الفقير أشد حاجة من المسكين؛ فيفترقان؛ وتجد في القرآن أن الفقير يأتي وحده، والمسكين يأتي وحده؛ والفقير والمسكين يجتمعان؛ ففي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] يشمل المساكين؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] يدخل فيه الفقير؛ وكذلك هنا؛ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ذكر الصنفين جميعًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر الذي انقطع به السفر؛ والسبيل هو الطريق؛ وسمي ابنًا للسبيل؛ لأنه ملازم له - أي: للسبيل - وكل ما لازم شيئًا فهو ابن له، كما يقال: «ابن الماء» لطير الماء؛ لأنه ملازم له؛ وإنما ذكر الله ابن السبيل؛ لأنه غريب في مكانه: قد يحتاج ولا يُعلَم عن حاجته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة شاملة لكل خير: هم سألوا ماذا ينفقون من أجل الخير؛ فعمم الله؛ والجملة شرطية: فعل الشرط فيها: ﴿تَفْعَلُوا۟﴾؛ وجوابه جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ والغرض منها بيان إحاطة الله علمًا بكل ما يفعلونه من خير، فيجازيهم عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عن العلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله ﷺ في القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة.

٢ - **ومنها:** أن من حسن الإجابة أن يزيد المسئول على ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه؛ فإنهم سألوا عمَّا ينفقون، وكان الجواب عما ينفقون، وفيما ينفقون ونظير ذلك أن النبي ﷺ سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥٦)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وأبوداود (٦٩)، وابن ماجه (٣٨٦).

٣ - **ومنها**: فضل الإنفاق على الوالدين والأقربين؛ وأنه مُقَدَّمٌ على الفقراء والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم؛ ولا يبدأ إلَّا بالأهم فالأهم.

٤ - **ومنها**: أنَّ لليتامى حقًّا في الإنفاق - ولو كانوا أغنياء - لأنه خصهم بالذكر، ثم ذكر بعدهم المساكين؛ فإن كانوا يتامى ومساكين اجتمع فيهم استحقاقان: اليتم والمسكنة؛ وإذا كانوا أقارب ويتامى ومساكين اجتمع فيهم ثلاثة استحقاقات؛ وإذا كانوا مع ذلك أبناء سبيل اجتمع فيهم أربعة استحقاقات.

٥ - **ومنها**: عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

٦ - **ومنها**: أن كل فعل خير سواء كان إنفاقًا ماليًّا، أو عملًا بدنيًّا، أو تعليم علم، أو جهادًا في سبيل الله، أو غير ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعلمه، وسيجازي عليه؛ لأن ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتكون للعموم.

٧ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان ألَّا يحقر من المعروف شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾؛ ويقول النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تمرةٍ»[1].

مسألة: هل يُعطى ابن السبيل إذا سأل، أو يعطى وإن لم يسأل؟

هذا على أوجه:

١ - أن تعلم أنه لا يحتاج، كما لو كان غنيًّا تعرف أنه غني، ومر بالبلد عابرًا؛ فهذا لا حاجة إلى أن تعطيه؛ حتى لو أعطيته لرأى في ذلك نقيصةً له.

٢ - أن يغلب على ظنك أنه محتاج؛ ولكنه متعفف يستحي أن يسأل؛ فالأَوْلَى إعطاؤه - وإن لم يسأل - بل قد يجب.

٣ - أن تشك في أمره هل يحتاج أم لا؛ فاعرض عليه الإيتاء؛ ثم اعمل بما يقتضيه الحال.

❁ قال الله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فُرِضَ؛ فـ «الكَتْب» هنا بمعنى الفرْض، كما في

(١) رواه البخاري (١٣٤٧)، ومسلم (١٠١٦).

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ أي: قتال أعداء الله الكفار؛ و﴿ٱلْقِتَالُ﴾ مصدر قاتل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾؛ ﴿كُرْهٌ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ يعني: وهو مكروه لكم، والمصدر بمعنى اسم المفعول يأتي كثيرًا، مثل: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق: ٦] يعني: محمول؛ وقول الرسول ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي: مردود.

وجملة: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ في محل نصب على الحال؛ والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود على القتال؛ وليس يعود على الكتابة؛ فإن المسلمين لا يكرهون ما فرضه الله عليهم؛ وإنما يكرهون القتال بمقتضى الطبيعة البشرية؛ وفرق بين أن يقال: إننا نكره ما فرض الله من القتال؛ وبين أن يقال: إننا نكره القتال؛ فكراهة القتال أمر طبيعي؛ فإن الإنسان يكره أن يقاتل أحدًا من الناس فيقتله؛ فيصبح مقتولًا؛ لكن إذا كان هذا القتال مفروضًا علينا صار محبوبًا إلينا من وجهٍ، ومكروهًا لنا من وجهٍ آخر؛ فباعتبار أن الله فرضه علينا يكون محبوبًا إلينا؛ ولهذا كان الصحابة ﷺ يأتون إلى الرسول ﷺ يصرون أن يقاتلوا؛ وباعتبار أن النفس تنفر منه يكون مكروهًا إلينا.

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ تأتي لأربعة معانٍ: للرجاء؛ والإشفاق؛ والتوقع؛ والتعليل؛ والظاهر أنها هنا للتوقع، أو للترجية - لا الترجي - فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يترجى؛ كل شيء عنده هين؛ لكن الترجية بمعنى: أنه يريد من المخاطَب أن يرجو هذا؛ أي: افعلوا ما آمركم به عسى أن يكون خيرًا؛ وهذا الذي ذكره الله هنا واقع حتى في الأمور غير التعبدية، أحيانًا يفعل الإنسان شيئًا من الأمور العادية، ويقول: ليتني لم أفعل، أو ليت هذا لم يحصل؛ فإذا العاقبة تكون حميدة؛ فحينئذ يكون كره شيئًا وهو خير له؛ القتال كره لنا ولكن عاقبته خير؛ لأن المقاتل في سبيل الله حاله كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ آمرًا نبيه أن يقول: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] - يعني: لابد من إحدى حسنيين- وهما: إما النصر والظفر؛ وإما الشهادة.

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ وذلك أيضًا كثيرًا ما يقع: يحب الإنسان شيئًا، ويلح فيه، ثم تكون العاقبة سيئة؛ والإنسان بمثل هذه الآية الكريمة يسلي نفسه في كل ما يفوته مما يحبه، ويصبر نفسه في كل ما يناله مما يكرهه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: هذه الجملة كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ كأنه قال: إنكم لا تعلمون الخير والشر فيما قدِّر لكم؛ ولكن الله يعلم ذلك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فرضية الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾؛ لكن لابد من

شروط؛ منها: القدرة على قتال العدو بحيث يكون لدى المجاهدين قدرة بشرية، ومالية، وعتادية؛ ومنها: أن يكونوا تحت راية إمام يجاهدون بأمره.

٢ - **ومنها**: أنه لا حرج على الإنسان إذا كره ما كتب عليه؛ لا كراهته من حيث أمَر الشارع به؛ ولكن كراهته من حيث الطبيعة؛ أما من حيث أمر الشارع به فالواجب الرضا، وانشراح الصدر به.

٣ - **ومنها**: أن البشر لا يعلمون الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

٤ - **ومنها**: أن الله قد يحكم حكمًا شرعيًّا، أو كونيًّا على العبد بما يكره وهو خير له.

٥ - **ومنها**: عموم علم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾؛ فحذف المفعول يفيد العموم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]: كلها محذوفة المفاعيل: آواك، وآوى بك أيضًا؛ وأغناك، وأغنى بك؛ وهداك، وهدى بك، كما قال النبي ﷺ للأنصار: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟!؛ وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»(١).

٦ - **ومنها**: ضعف الإنسان، وأن الأصل فيه عدم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وقال ممتنًّا على رسوله ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: يسألك الناس عن الشهر الحرام؛

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١).

والمراد به الجنس؛ فيشمل كل الأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب و ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال؛ فيكون السؤال عن القتال فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يعني في جوابهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: في الشهر الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جملة استئنافية لبيان أن ما فعله هؤلاء الكفار من الصد عن سبيل الله، والكفر به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله؛ فهذه أربعة أشياء يفعلها المشركون الذين اعترضوا على القتال في الشهر الحرام أعظم عند الله من القتال في الشهر الحرام؛ و﴿وَصَدٌّ﴾ يجوز أن تكون من الفعل اللازم - أي: صدهم أنفسهم عن سبيل الله - ويجوز أن تكون من المتعدي - أي: صدهم غيرهم عن سبيل الله - وكلا الأمرين حاصل من هؤلاء المشركين؛ والمراد بـ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طريقه الموصل إليه - أي: شريعته.

قوله تعالى: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بالجر: يحتمل أن تكون معطوفة على الضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾؛ ويحتمل أن تكون معطوفة على قوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فعلى الاحتمال الأول يكون المراد بالكفر بالمسجد الحرام: عدم احترامه، والقيام بتعظيمه؛ وعلى الاحتمال الثاني يكون المراد: وصد عن المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ يعني: بـ ﴿أَهْلِهِ﴾ النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بسبب إيذاء المشركين لهم، وتضييقهم عليهم حتى خرجوا بإذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من مكة إلى المدينة.

قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعظم إثمًا وجرمًا من القتال في الشهر الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يعني بـ ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الصد عن سبيل الله، ومنع المؤمنين وإيذاؤهم؛ و«الفتنة» بمعنى: «إيذاء المؤمنين» قد جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ..﴾ إلخ؟! أي: لا يزال هؤلاء الكفار يقاتلونكم وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أي: يرجعوكم عنه إلى الكفر ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ يعني: ولن يستطيعوا ذلك؛ ومثل هذه الجملة الشرطية تأتي لبيان العجز عن الشيء، كقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ ومن المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ أي: من يرجع عن دين الإسلام إلى الكفر ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: يموت على الكفر؛ فالجملة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿يَمُتْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أعاد اسم الإشارة بصيغة الجمع على اسم موصول صالح للمفرد والجمع؛ لأن اسم الموصول العام يجوز عود الضمير، والإشارة إليه على وجه الإفراد باعتبار لفظه؛ وعلى وجه الجمع باعتبار معناه.

قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: اضمحلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: ما قدموه من عمل صالح في الدنيا والآخرة؛ فلا يستفيدون بأعمالهم شيئًا في الدنيا من قبول الحق والانشراح به؛ ولا في الآخرة؛ لأن أعمالهم ضاعت عليهم بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها؛ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الرسول ﷺ هو مرجع الصحابة في العلم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾.

٢ - **ومنها:** اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بما يقع منهم من المخالفة؛ وأنهم يندمون، ويسألون عن حالهم في هذه المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾.

٣ - **ومنها:** أن الرسول ﷺ لا يعلم كل الأحكام؛ بل لا يعلم إلَّا ما علمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إياه؛ ولهذا أجاب الله عن هذا السؤال: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ..﴾.

وينبني على هذه المسألة: هل للرسول ﷺ أن يجتهد، أو لا؟

والصواب: أن له أن يجتهد؛ ثم إذا اجتهد فأقره الله صار اجتهاده بمنزلة الوحي.

٤ - **ومنها:** أن القتال في الشهر الحرام من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾؛ وهل هذا الحكم منسوخ، أو باقٍ؟ للعلماء في ذلك قولان؛ فذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحكم منسوخ؛ وأنَّ القتال في الأشهر الحرم كان محرمًا، ثم نسخ القول الثاني: أن الحكم باقٍ، وأن القتال في الأشهر الحرم حرام؛ دليل من قال: «إنَّهُ منسوخ» قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وأن الرسول ﷺ قاتل ثقيفًا في شهر ذي القعدة، وهو شهر حرام. وأن غزوة تبوك كانت في رجب، وهو شهر حرام، والذي يظهر لي: أن القتال في الأشهر الحرم باقٍ على تحريمه؛ ويجاب عن أدلة القائلين بالنسخ بأن الآيات العامة كغيرها من النصوص العامة التي تخصص؛ فهي مخصصة بقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾؛ وأما قتال الرسول ﷺ أجيب عنه بأنه ليس قتال ابتداء؛ وإنها هو قتال مدافعة؛ وقتال المدافعة لا بأس به حتى في الأشهر الحرم؛ إذا قاتلونا نقاتلهم؛ فثقيف كانوا تجمعوا لرسول الله ﷺ فخرج إليهم الرسول ﷺ ليغزوهم؛ وكذلك الروم في غزوة تبوك تجمَّعوا له فخرج إليهم ليدافعهم؛ فالصواب في هذه المسألة أن الحكم باقٍ، وأنه لا يجوز

ابتداء الكفار بالقتال في الأشهر الحرم؛ لكن إن اعتدوا علينا نقاتلهم حتى في الشهر الحرام.

٥ - **ومنها**، أن الأشهر قسمان: أشهر حرم؛ وأشهر غير حرم.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن الله يختص من خلقه ما شاء؛ فهناك أماكن حرام، وأماكن غير حرام؛ وأزمنة حرام، وأزمنة غير حرام؛ وهناك رسل، وهناك مرسَل إليهم؛ وهناك صديقون، وهناك من دونهم؛ والله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما يفاضل بين البشر يفاضل بين الأزمنة والأمكنة.

٦ - **ومن فوائد الآية**، أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: صغائر، وكبائر؛ وكل منهما درجات؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ**»(١)؛ وحدُّ الكبائر اختلف فيه أقوال الناس؛ فمنهم من قال: إن الكبائر معدودة؛ وذهب يتتبع كل نص قال فيه الرسول ﷺ: هذا من الكبائر؛ وَعَدَّها سردًا؛ ومنهم من قال: إن الكبائر محدودة؛ يعني أن لها حدًّا - أي ضابطًا يجمعها - ليست معينة: هذه، وهذه، وهذه؛ ثم اختلفوا في الضابط، فقال بعضهم: كل ذنب لُعن فاعله فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب فيه حدٌّ في الدنيا فهو كبيرة؛ وقال بعضهم: كل ذنب فيه وعيد في الآخرة فهو كبيرة؛ لكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قال في بعض كلام له: إن الكبيرة كل ما رتب عليه عقوبة خاصة سواء كانت لعنة؛ أو غضبًا؛ أو حدًّا في الدنيا؛ أو نفي إيمان؛ أو تبرؤًا منه؛ أو غير ذلك؛ فالذنب إذا قيل: لا تفعل كذا؛ أو حرم عليك كذا؛ أو ما أشبه ذلك بدون أن يجعل عقوبة خاصة بهذا الذنب فهو صغيرة؛ أما إذا رتب عليه عقوبة - أيَّ عقوبة كانت - فإنه يكون من الكبائر - فالغش مثلًا كبيرة؛ لأنه رتب عليه عقوبة خاصة - وهي البراءة منه، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»(٢)؛ وكون الإنسان لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه كبيرة؛ لأنه رتب عليه عقوبة خاصة؛ وهي قوله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٣)؛ وكون الإنسان لا يكرم جاره كبيرة؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»(٤)؛ وعدوانه على جاره أكبر؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**وَالله لا يُؤْمِنُ، وَالله لا يُؤْمِنُ، وَالله لا يُؤْمِنُ**»، قالوا: ومَنْ يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»(٥)؛ وهذا الضابط أقرب الضوابط في تعريف «الكبيرة»؛ ولكن مع هذا لا نقول: إن هذه الكبائر سواء؛ بل من الكبائر ما يقرب أن يكون من الصغائر على حسب ما رُتِّبَ عليه من العقوبة؛ فقطَّاع الطريق ـ مثلًا ـ أعظم جرمًا من اللصوص.

---

(١) رواه البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٨٧).

(٢) رواه مسلم (١٠٢)، والترمذي (١٣١٥)، وأبوداود (٣٤٥٢).

(٣) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٤٨).

(٥) رواه البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦).

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن الصد عن سبيل الله أعظم من القتال في الأشهر الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ ويحتمل أن مجموع هذه الأفعال الأربعة أكبر عند الله من القتال؛ لا أن كل واحد منها أكبر عند الله.

٨ - **ومنها**: أن أعظم الذنوب أن يصد الإنسان عن الحق؛ فكلُّ من صَدَّ عن الخير فهو صاد عن سبيل الله؛ ولكن هذا الصد يختلف باختلاف ما صد عنه؛ من صد عن الإيمان فهو أعظم شيء - مثل مشركي قريش- ومن صد عن شيء أقل - كمن صد عن تطوع مثلًا - فإنه أخف؛ ولكن لا شك أن هذا جرم؛ فالنهي عن المعروف من صفات المنافقين.

٩ - **ومنها**: عِظَمُ الصد عن المسجد الحرام؛ ولذلك صورٌ متعددة؛ فقد يكون بمنع الناس من الحج؛ ولكن لو قال وليُّ الأمر: أنا لا أمنعهم؛ ولكنني أنظمهم؛ لأن الناس يقتل بعضهم بعضًا لو اجتمعوا جميعًا؛ فهل نقول: إن هذا من باب السياسة الجائزة، كمنع الرسول ﷺ من لا يصلح للجهاد من الجهاد[1]؟ أو نقول: إن في هذا نظرًا؟ هذه المسألة تحتاج إلى نظر بعيد؛ وهل مراعاة المصالح بالنسبة للعموم تقضي على مراعاة المصالح بالنسبة للخصوص؛ أو لا؟.

وقد يكون الصد بإلهائهم وإشغالهم عن فعل العبادات؛ وقد يكون بتحقير العبادات في أنفسهم؛ وقد يكون بإلقاء الشبهات في قلوب الناس حتى يشكوا في دينهم ويدَعوه.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: تقديم ما يفيد العليّة؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾؛ المسئول عنه القتال في الشهر الحرام؛ لكنه قدم الشهر الحرام؛ لأنه العلة في تحريم القتال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ فقدم العلة على الحكم لتنفر النفوس من الفعل قبل الحكم به؛ فيقع الحكم وقد تهيأت النفوس للاستعداد له وقبوله.

١١ - **ومن فوائد الآية**: تفاوت الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ ويتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر، كما قال النبي ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[2]؛ فيكون في ذلك ردٌّ على من أنكروا زيادة الإيمان ونقصانه؛ وللناس في ذلك ثلاثة أقوال؛ منهم من قال: إن الإيمان يزيد وينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ ومنهم من قال: إن الإيمان يزيد ولا ينقص؛ وبحث ذلك على وجه التفصيل والترجيح في كتب العقائد؛ والراجح أن الإيمان يزيد وينقص.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: تسلية الله - عزَّ وجلَّ - للمؤمنين بما جرى من الكافرين مقابل فعل

(١) انظر «صحيح البخاري» (٢٥٢١)، ومسلم (١٨٦٨).
(٢) رواه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧).

المؤمنين، حيث قاتلوا في الشهر الحرام.

١٣ - **ومنها**: أن من كان أقوم بطاعة الله فهو أحق الناس بالمسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾؛ فمع أن المشركين ساكنون في مكة؛ لكنهم ليسوا أهله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

١٤ - **ومنها**: التحذير من الفتنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

١٥ - **ومنها**: أن الفتنة - وهي صد الناس عن دينهم - أكبر من قتلهم؛ لأن غاية ما في قتلهم أن تفوتهم الحياة الدنيا؛ أما صدهم عن الإيمان لو صدوا عنه لفاتتهم الدنيا والآخرة؛ وكثير من الناس يأتون إلى مواضع الفتن وهم يرون أنهم لن يفتتنوا؛ ولكن لا يزال بهم الأمر حتى يقعوا في فتنة؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الدجال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلا يَزَالُ بِهِ لِمَا مَعَهُ مِنَ الشُّبَهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ»[1]. المهم: أن الإنسان لا يعرض نفسه للفتن؛ فكم من إنسان وقع في مواقع الفتن وهو يرى نفسه أنه سيتخلص، ثم لا يتخلص.

١٦ - **ومن فوائد الآية**: حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾؛ ولهذا كان الغزو الفكري والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي؛ لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر؛ وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة؛ فلا يمكنون أحدًا أن يقاتلهم؛ أما هذا فسلاح فتّاكٌ يفتك بالأمة من حيث لا تشعر؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها ودنياها؛ ومن تأمل التاريخ تبين له حقيقة الحال.

١٧ - **ومن فوائد الآية**: تيئيس الكافرين أن يردوا المؤمنين كلهم عن الدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾؛ ولكن لن يستطيعوا حتى يأتي أمر الله، ويكون في آخر الزمان، فتهب ريح تقبض نفس كل مؤمن حتى لا يبقى إلّا شرار الخلق.

١٨ - **ومنها**: الحذر من الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾، وكلمة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ تفيد الاستمرار، وأنه ليس في وقت دون وقت، وأن محاولتهم ارتداد المسلمين عن دينهم مستمرة.

١٩ - **ومنها**: أن الردة مبطلة للأعمال إذا مات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

٢٠ - **ومنها**: أن من ارتد عن دينه ثم عاد إليه لم يبطل عمله السابق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩٨٨٨)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٢١ - **ومنها**، أن المرتد مخلد في النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٢ - **ومنها**، أن المرتد لا يعامل في الدنيا بأحكام المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فلا يُغَسَّل ولا يُكفن ولا يُصَلَّى عليه ولا يُدْفن مع المسلمين ولا يرث، وأما أن يورث فقد اختار شيخ الإسلام أنه يرثه أقاربه المسلمون؛ ولكن الصحيح أنه لا توارث لعموم قوله ﷺ في حديث أسامة: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ، ولا الكَافِرُ المُسْلِمَ»(١).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:٢١٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ «الإيمان» في اللغة :التصديق؛ قال تعالى عن إخوة يوسف قائلين لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]؛ وأما في الشرع: فهو التصديق المستلزم للقبول والإذعان.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ معطوفة على ما سبق من باب عطف الصفات، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٤]؛ فهذه المعطوفات من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف بها واحد؛ و«الهجر» في اللغة :الترك؛ ومنه: «هجرت فلانًا» إذا لم تكلمه؛ وفي الشرع له معنيان: عام، وخاص؛ فأما العام :فهو هجر ما حرم الله عزَّ وجلَّ، كما قال النبي ﷺ: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»(٢). وأما الخاص: فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله ﷺ، بأن يكون هذا البلد بلد كفر لا يقيم فيه الإنسان دينه؛ فيهاجر من أجل إقامة دين الله، وحماية نَفْسِهِ من الزيغ، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرأةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَر إِلَيْهِ»(٣)؛ والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين: العام، والخاص.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على الصلة في ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ ولم يعد

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٣)، ومسلم (١٦١٤).

(٢) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠).

(٣) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

الموصول؛ لأن الهجرة والجهاد عملان مبنيان على الإيمان؛ و«الجهاد في سبيل الله» هو قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا؛ و«الجهاد» هو بَذْلُكَ الجهد لأمر مطلوب؛ والجهد معناه الطاقة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] يعني: إلَّا طاقتهم؛ وهو يغلب على بذل الجهد في قتال الأعداء؛ وإلا فكل أمرٍ شاق تبذل فيه الطاقة فإنه جهاد؛ ولهذا كان جهاد النفس يسمى جهادًا؛ ولكن لا صحة للحديث الذي يذكر عن النبي ﷺ أنه لما رجع من تبوك قال: «رَجِعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»[1] يعني: جهاد النفس؛ ولكن لا شك أن النفس تحتاج إلى مجاهدة لحملها على فعل الطاعة وترك المعصية.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾؛ هذه الجملة خبر ﴿إِنَّ﴾ في أول الآية؛ واسمها ﴿الَّذِينَ﴾؛ وجملة: ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ الخبر؛ وهي جملة؛ لأن «أولاء» مبتدأ؛ و﴿يَرْجُونَ﴾ جملة خبر المبتدأ الثاني؛ والجملة من المبتدأ الثاني والخبر خبر ﴿إِنَّ﴾؛ والإشارة بمبتدأ جديد تدل على رفعة مقامهم؛ ولاسيما وقد أتى باسم الإشارة؛ وتصدير خبر ﴿إِنَّ﴾ باسم الإشارة للبعيد يدل على علو همتهم؛ فيكون في ذلك تنويه بذكرهم من وجهين:

أولًا: الإشارة إليهم بما يدل على الرفعة والعلو.

ثانيًا: أن تعدد المبتدأ يجعل الجملة الواحدة كالجملتين؛ فيكون في ذلك توكيد على توكيد.

و«الرجاء» الطمع في حصول ما هو قريب؛ ومعلوم أن الطمع بما هو قريب لا يكون قريبًا إلَّا بفعل ما يكون قريبًا به؛ وهؤلاء فعلوا ما تكون الرحمة قريبة منهم؛ والذي فعلوه: الإيمان، والهجرة، والجهاد؛ فإذا لم يرْجُ هؤلاء رحمة الله فمن الذي يرجوها؟!! فهؤلاء هم أهل الرجاء؛ فالرجاء لابد له من أسباب؛ وحسن الظن لابد له من أسباب.

والمراد بالرحمة هنا: يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته - أي أن يرحمهم -؛ ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته؛ وقد ثبت في «الصحيح» أن الله تعالى قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[2]؛ فجعل المخلوق رحمة له؛ لأنه من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال: «أَرْحَمُ بِكِ»؛ أما الرحمة التي هي وصفه فهي شيء آخر؛ فالآية محتملة للمعنيين؛ وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبدًا أدخله الجنة التي هي رحمته.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ قد يقول قائل: ما محل ذكر اسم الله «الغفور» هنا مع أن هؤلاء قاموا بأعمال صالحة؟ الجواب: أن القائم بالأعمال الصالحة قد يحصل منه شيء من التفريط والتقصير؛

(١) ضعيف: «كشف الخفاء» (١/ ٤٢٤)، وانظر «ضعيف الجامع» (٤٠٨٠).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

ولذلك شرع للمصلي أن يستغفر الله ثلاثًا بعد السلام، وأما ذكر «الرحيم» فواضح مناسبته؛ لأن كل هذه الأعمال التي عملوها من آثار رحمته؛ وسبق الكلام على هذين الاسمين الكريمين.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان والهجرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية.

٢ - **ومنها:** أن الجهاد دون مرتبة الهجرة؛ لأنه جعل الجهاد معطوفًا على الهجرة؛ ولم يجعل له اسمًا موصولًا مستقلًا.

٣ - **ومنها:** مراعاة الإخلاص في الهجرة والجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وأما بدون الإخلاص فهجرته إلى ما هاجر إليه، واعلم أنه يقال: في كذا ولكذا وبكذا، تقول مثلًا: جاهدت لله وجاهدت بالله وجاهدت في الله، فـ «لله»: اللام لبيان القصد؛ فتدل على الإخلاص، و«بالله»: الباء للاستعانة؛ فتدل على أنك جاهدت مستعينًا بالله، و«في الله»: «في» للظرفية؛ فتدل على أن ذلك الجهاد على وفق شرع الله - لم يتعد فيه الحدود .

٤ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازمًا بقبول عمله، بل يكون راجيًا؛ ولكنه يرجو رجاءً يصل به إلى حسن الظن بالله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يُدلُّون بها على الله؛ وإنما يفعلونها وهم راجون رحمة الله.

٥ - **ومنها:** إثبات اسمي «الغفور» و«الرحيم» لله - عزَّ وجلَّ - وإثبات ما دلَّا عليه من المغفرة والرحمة، وما يترتب على ذلك من غفران الذنوب والرحمة، فبالمغفرة يزول المكروه من آثار الذنوب، وبالرحمة يحصل المطلوب.

٦ - **ومنها:** كمال رحمة الله بالخلق؛ فلله على العامل عملًا صالحًا ثلاث نعم عظيمة:

الأولى: أنه بيّن له العمل الصالح من العمل غير الصالح؛ وذلك بما أنزله من الوحي على رسله، بل هي أعظم النعم.

الثانية: توفيقه لهذا العمل الصالح؛ لأن الله قد أضل أممًا عن العمل الصالح.

الثالثة: ثوابه على هذا العمل الصالح ثوابًا مضاعفًا: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهذا مما يدل على كمال رحمة الله بالخلق: أنه ينعم، ثم يشكر المنعمَ عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي: يسألك الناس، أو الصحابة ﵃ وسبب سؤالهم هو أن الإنسان العاقل إذا رأى ما يترتب على الخمر والميسر من المضار التي تخالف الفطرة فلابد أن يكون عنده إشكال في ذلك؛ ولهذا سألوا النبي ﷺ عن حكمها لا عن معناهما؛ لأن المعنى معلوم.

والسؤال إذا كان بمعنى طلب مال فإنه ينصب مفعولين؛ وإذا كان سؤال استفهام فإنه ينصب المفعول الأول، ويتعدى للثاني بـ «عن» كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وربما يُستغنى عن الثاني بجملة استفهامية كما في السؤال بعده، والفرق بين الصيغتين - تعديه إلى جملة استفهامية، وتعديه إلى المفعول الثاني بحرف الجر: أنه إذا عُدِّي إلى الثاني بصيغة الاستفهام صارت هذه الصيغة نفس لفظ السائل بعينها، وإذا تعدى بـ «عن» فقد تكون هي لفظ السائل بعينه، وقد تكون غير ذلك.

والمراد بالخمر: كل ما أسكر على وجه اللذة والطرب.

وقد أنزل الله تعالى في الخمر أربع آيات: آية تبيحه وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وآية تعرض بالتحريم وهي هذه الآية، وآية تمنعه في وقت دون آخر وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، وآية تمنعه دائمًا مطلقًا وهي آية المائدة التي نزلت في السنة الثامنة من الهجرة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ..﴾ [المائدة: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ المراد به القمار؛ وهو كل كسب عن طريق المخاطرة والمغالبة؛ وضابطه: أن يكون فيه بين غانم وغارم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لمن سأل عن الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَآ﴾ خبر مقدم؛ والضمير عائد على الخمر والميسر ﴿إِثْمٌ﴾ أي: عقوبة؛ أو كان سببًا للعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]؛ ويقال: «فلان آثم» أي: مستحق للعقوبة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَبِيرٌ﴾ قراءة: ﴿كثير﴾؛ والفرق بينهما: أن الكبر تعود إلى الكيفية، والكثرة تعود إلى الكمية، والمعنى: أن فيهما إثمًا كثيرًا بحسب ما يتعامل بهما الإنسان، والإنسان المبتلى بذلك لا يكاد يقلع عنه، وهذا يستلزم تعدد الفعل منه، وتعدد الفعل يستلزم كثرة الإثم؛ أيضًا الإثم فيهما كبير - أي عظيم؛ لأنهما يتضمنان مفاسد كثيرة في العقل والبدن والاجتماع والسلوك، وقد ذكر محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المكان أضرارًا كثيرة جدًّا؛ مَنْ قرأ هذه الأضرار عرف كيف عبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، أو (إثم كثير)؛ وهاتان القراءتان لا تتنافيان؛ لأنهما جمعتا وصفين مختلفين جهة؛ فيكون الإثم كثيرًا باعتبار آحاده، وكبيرًا باعتبار كيفيته.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ جمع منفعة؛ وهي من صيغة منتهى الجموع التي تدل على الكثرة، ففيهما منافع كثيرة عظيمة.

فإن قلت: كيف قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بهذا الجمع الكثير؟ أليس هذا مما يستلزم أن يُقبل الناس عليهما؛ لأن الإثم ذكره مفردًا - وإن كان قد وصف بالكبر، أو بالكثرة ـ لكن المنافع ذكرت بالجمع؟

فالجواب: أن يقال: إنه مع كثرة منافعهما فإن إثمهما أكبر وأعظم؛ لأنه لو كانت منفعة واحدة لم يستغرب كون الإثم أكبر، لكن حتى وإن تعددت المنافع وكثرت فإن الإثم أكبر وأعظم، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنها منافع مادية بحتة تصلح للناس من حيث هم أناس؛ وليست منافع ذات خير ينتفع بها المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ يعني: ما يترتب عليهما من العقوبة أكبر من نفعهما؛ لأن العقوبة في الآخرة، وأما النفع ففي الدنيا، وعذاب الآخرة أشق وأبقى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، هذا هو السؤال الثاني في الآية أي: أيَّ شيء ينفقونه، وفي إعرابها وجهان؛ الأول: أن ﴿مَاذَا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يُنفِقُونَ﴾، وعلى هذا فلا يحتاج إلى تقدير ضمير المفعول في: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ والثاني: أن «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر، وجملة: ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف والتقدير: ماذا ينفقونه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ فيها قراءتان: النصب، والرفع؛ فالرفع على تقدير «ما» اسمَ استفهام مبتدأ، و«ذا» اسمَ موصول خبرًا؛ فيكون ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف والتقدير: هو العفو، وأما النصب فعلى تقدير ﴿مَاذَا﴾ مفعولًا مقدمًا، و﴿ٱلْعَفْوَ﴾ منصوب بفعل محذوف والتقدير: أنفقوا

العفوَ؛ وإنما قلنا: الرفع والنصب مبني على إعراب الجملة التي قبلها؛ لأن الجواب مبني على السؤال؛ فهنا كلمة: «ما» هذه - الموصولية أو الاستفهامية - هي التي فُسِّرت بكلمة: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾، فإذا كانت تفسيرًا لها كان لها حكمها في الإعراب؛ إن نصبت ﴿مَاذَا﴾ فانصِب ﴿ٱلْعَفْوَ﴾، وإن رفعت ﴿مَاذَا﴾ فارفع ﴿ٱلْعَفْوَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، المشار إليه ما سبق من بيان حكم الخمر والميسر، وبيان ما ينفق؛ أي: مثلَ ذلك البيان يبين الله، و«البيان» بمعنى الإظهار يقال: بينته فتبين، أي ظهر و﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمعلومها، والمعنى: أن الله يبين لعباده الأحكام الشرعية بيانًا واضحًا.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، «التفكر» إعمال الفكر للوصول إلى الغاية و«لعل» للتعليل واسمها: الكاف، وخبرها: جملة ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في شئونها وأحوالها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ معطوفة بالواو، كأنها أسئلة متتابعة؛ سألوا أولًا عن الخمر والميسر، ثم سألوا ماذا ينفقون، ووجه الارتباط بين السؤالين واضح جدًّا؛ لأن في الخمر والميسر إتلاف المال بدون فائدة، وفي الإنفاق بذل المال بفائدة، ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، ووجه ارتباط السؤال الثالث بالسؤالين قبله :أن الله - عزَّ وجلَّ - لما أنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وقولَه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أشكل على الصحابة ﷺ، فصاروا يجعلون طعامهم على حدة، وطعام اليتامى على حدة، ثم ما جعلوه لليتامى إما أن يفسد ولا يصلح للأكل؛ وإما أن يصلح للأكل ولكن ليس على الوجه الأكمل؛ فتحرجوا من ذلك، وأشكل عليهم فيما لو خلطوا طعامهم بطعام اليتامى، فأجابهم الله - عزَّ وجلَّ - بجواب في غاية ما يكون من البلاغة والاختصار والوضوح، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم؛ وهو الذي مات أبوه ولم يبلغ؛ مشتق من اليتم؛ وهو الانفراد، واليتيم بما أن أباه قد تُوفي يحتاج إلى عناية ورعاية أكثر؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم الوصاية به كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، وكلمة: ﴿إِصْلَاحٌ﴾ تعني: أن الإنسان يتبع ما هو أصلح لهم في جميع الشئون سواء كان ذلك في التربية أو في المال، وسواء كان ذلك بالإيجاب أو السلب، فأيُّ شيء يكون إصلاحًا لهم فهو خير، وحذف المفضل عليه للعموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، هذه الجملة في شمولها وعمومها ووضوحها كالجملة الأولى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، هذه الجملة الثانية مما تتضمنه الجواب؛ لأن الجواب تضمن جملتين: إحداهما: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، والثانية: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، يعني: وإن خالطتموهم في الأكل والشرب، وجعلتم طعامهم مع طعامكم فإنهم ليسوا أجانب منكم بل هم إخوانكم في الدين أو في النسب أو فيهما جميعًا - على حسب حال اليتيم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾، العلم هنا علم معرفة؛ لأنه لم ينصب إلّا مفعولًا واحدًا؛ وكأنه ضمن «العلم» معنى التميز؛ يعني: يعلمه، فيميز بين هذا وهذا، ويجازي كل إنسان بما يستحق؛ لأن التمييز بين هذا وهذا يقتضي أن يميز بينهما أيضًا في الثواب والجزاء؛ ويشمل ذلك الإفساد الديني والدنيوي، والإصلاح الديني والدنيوي؛ ويشمل الذي وقع منه الإفساد أو الصلاح.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، ﴿لَوْ﴾ شرطية، فعل الشرط: ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وجواب الشرط: ﴿لأعنتكم﴾، واللام في جواب ﴿لو﴾ غالبة وليست واجبة الوجود، ومِنْ حذفها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، وإلا فالأكثر وجود اللام في جوابها.

وقوله تعالى: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لشق عليكم فيما يشرعه لكم، ومِنْ ذلك أن يشق عليكم في أمر اليتامى بألّا تخالطوهم؛ وأن تقدروا غذاءهم تقديرًا بالغًا، حيث لا يزيد عن حاجتهم ولا ينقص عنها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، هذه الجملة تعليل لما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ كأنه؛ قال: ولو شاء الله لأعنتكم؛ لأن له العزة والحكم، و«العزيز» و«الحكيم» اسمان من أسماء الله تقدم معناهما وأنواعهما.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيتين: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يفعلونه ويأتونه من مآكل ومشارب وغيرها.

٢ - **ومنها:** أن الدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح، ودرء المفاسد.

٣ - **ومنها:** المقارنة في الأمور بين مصالحها ومفاسدها.

٤ - **ومنها:** ترجيح المصالح على المفاسد، أو المفاسد على المصالح، حسب ما يترتب عليها.

٥ - **ومنها:** أنه مهما كثرت المنافع في الخمر والميسر، فإن الإثم أكبر من منافعهما.

٦ - **ومنها:** حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة ما يُبذل ويُنفَق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾.

٧ - **ومنها:** أن الأفضل في الإنفاق أن ينفق الإنسان ما يزيد على حاجته.

٨ - **ومنها:** أن دفع الحاجة أفضل من الإنفاق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: ما زاد على حاجتكم، كما سبق بيانه.

٩ - **ومنها**: أن الله - تبارك وتعالى - قد بين لعباده البيان التام في آياته الكونية والشرعية.

١٠ - **ومنها**: إثبات الحكمة في أفعال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١١ - **ومنها**: الحث على التفكر في آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٢ - **ومنها**: أن التفكر لا يقتصر على أمور الدنيا، بل هو في أمور الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

١٣ - **ومنها**: سؤال الصحابة رضي الله عنهم عن اليتامى كيف يعاملونهم، وهذا السؤال ناتج عن شدة خوف الصحابة رضي الله عنهم فيما يتعلق بأمور اليتامى؛ لأن الله تعالى توعد من يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

١٤ - **ومنها**: مراعاة الإصلاح فيمَنْ ولاه الله على أحد.

١٥ - **ومنها**: أن الإنسان إذا راعى ما يرى أنه أصلح ثم لم يكن ذلك فإنه لا شيء عليه؛ لأن الإنسان إنما يؤاخذ بما يدركه لا بما لا يدركه.

١٦ - **ومنها**: فضيلة الإصلاح في الولايات وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾؛ فإن المقصود بهذه الجملة الحث على الإصلاح.

١٧ - **ومنها**: جواز مخالطة الأيتام في أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

١٨ - **ومنها**: أنه يجب في المخالطة أن يعاملهم معاملة الإخوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾؛ ففي هذه الجملة الحث والإغراء على ما فيه الخير لهم، كما يسعى لذلك الأخ لأخيه.

١٩ - **ومنها**: إطلاق الأخ على من هو دونه؛ لأن اليتيم دون مَنْ كان وليًّا عليه، وهذه الأخوة أخوة الدين.

٢٠ - **ومنها**: التحذير من الإفساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

٢١ - **ومنها**: عموم علم الله - تبارك وتعالى - حيث يعلم كل دقيق وجليل.

٢٢ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾، وهذه المشيئة لما يفعله الله تعالى، ولما يفعله العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٢٣ - **ومنها**: أن الدين يسر ولا حرج فيه ولا مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾.

٢٤ - **ومنها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهما: «العزيز»، و«الحكيم»؛ وإثبات ما دلَّا عليه من صفة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾؛ النكاح في الأصل الضم والجمع؛ ومنه قول الشاعر:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

يعني: أيها المريد أن تجمع بين الثريا وسهيل وهما نجمان معروفان: الأول في الشمال، والثاني في الجنوب، فقوله: (كيف يجتمعان؟) يدل على أن النكاح في الأصل الجمع والضم؛ وأما في الشرع فهو عقد على مُحَلَّلة لقصد المصالح المترتبة على النكاح من تحصين الفرج والولادة والاستمتاع وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، ﴿تَنكِحُوا﴾ بفتح التاء؛ أي: لا تتزوجوا بهن حتى يؤمنَّ، و﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ جمع مشركة؛ والمشركة أو المشرك هو مَنْ جعل لله شريكًا فيما يختص به سواء كان ذلك في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأسماء والصفات، فمن اتخذ إلهًا يعبده فهو مشرك ولو آمن بأن الله خالق للكون، ومن اعتقد أن مع الله خالقًا للكون، أو منفردًا بشيء في الكون، أو معينًا لله تعالى في خلق شيء من الكون فهو مشرك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي: يدخلن في دين الله؛ ودخولهن في دين الله يلزم منه التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ أي امرأة مؤمنة ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، هذه الجملة تعليل للنهي عن نكاح المشركات مؤكَّدة بلام الابتداء، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أطلق الخيرية ليعم كل ما كان مطلوبًا في المرأة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي سرَّتكم ونالت إعجابكم في جمالها وخلقها ومالها وحسبها، وغير ذلك من دواعي الإعجاب.

فإن قيل: كيف جاءت الآية بلفظ: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ مع أن المشركة لا خير فيها؟

فالجواب من أحد وجهين:

الأول: أنه قد يرد اسم التفضيل بين شيئين، ويراد به التفضيل المطلق وإن لم يكن في جانب المفضل عليه شيء منه، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

الثاني: أن المشركة قد يكون فيها خير حسي من جمال ونحوه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، فبين ـ سبحانه وتعالى ـ أن ما قد يعتقده ناكح المشركة من خير فيها فإن نكاح المؤمنة خير منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ بضم التاء؛ أي: لا تُزَوِّجوهم، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ هذه الجملة تعليل لما سبق؛ والمشار إليه فيها أهل الشرك أي: يدعون الناس إلى النار بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم؛ حتى إنهم يبنون المدارس والمستشفيات، ويلاطفون الناس في معاملتهم خداعًا ومكرًا؛ ولكن قد بين الله نتيجة عملهم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾، أي: يدعو الناس إلى الجنة بالحث على الأعمال الصالحات، ومغفرة الذنوب بالحث على التوبة والاستغفار، و﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: إذن الله، والإذن على قسمين: إذن كوني: وهو ما يتعلق بالمخلوقات والتقديرات، وإذن شرعي: وهو ما يتعلق بالتشريعات، فمن الأول قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، يعني: شرع لكم، والظاهر أن الإذن في هذه الآية - والله أعلم - يشمل القسمين؛ لأن دخول الإنسان فيما يكون سببًا للجنة، والمغفرة كوني؛ وما يكون سببًا للجنة والمغفرة هذا مما شرعه الله.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: يُظهرها، و«آيات» جمع آية؛ وهي العلامة القاطعة التي تستلزم العلم بمدلولها، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون، والجملة تعليلية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه يحرم على المؤمن نكاح المشركات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، ويستثنى من ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، فإن هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ..﴾ مخصصة لآية البقرة، و«أل» في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ للعهد الحضوري؛ تفيد أن هذا الحكم ثبت في ذلك اليوم نفسه، والآية في سورة المائدة، ونزولها بعد نزول سورة البقرة، لكن مع كون ذلك مباحًا فإن الأولى ألّا يتزوج منهن؛ لأنها قد تؤثّر على أولاده، وربما تؤثر عليه هو أيضًا إذا أعجب بها لجمالها أو ذكائها

أو علمها أو خلقها، وسلبت عقله فربما تجره إلى أن يكفر.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾؛ فدل ذلك على أنه متى زال الشرك حل النكاح، ومتى وجد الشرك حرم النكاح.

٣ - **ومنها**: أن الزوج وليّ نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، فوجِّه الخطاب للزوج.

٤ - **ومنها**: أن المؤمن خير من المشرك، ولو كان في المشرك من الأوصاف ما يعجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فلا تغتر بالكثرة ولا تغتر بالمهارة ولا بالجودة ولا بالفصاحة ولا بغير ذلك، ارجع إلى الأوصاف الشرعية المقصودة شرعًا.

٥ - **ومنها**: تفاضل الناس في أحوالهم، وأنهم ليسوا على حد سواء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾.

٦ - **ومنها**: الرد على الذين قالوا: «**إن دين الإسلام دين مساواة**»؛ لأن التفضيل ينافي المساواة، والعجيب أنه لم يأتِ في الكتاب ولا في السنة لفظة «المساواة» مثبتًا، ولا أن الله أمر بها ولا رغب فيها؛ لأنك إذا قلت بالمساواة استوى الفاسق والعدل والكافر والمؤمن والذكر والأنثى، وهذا هو الذي يريده أعداء الإسلام من المسلمين، لكن جاء دين الإسلام بكلمة هي خير من كلمة «المساواة»، وليس فيها احتمال أبدًا، وهي «العدل»، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وكلمة «العدل» تعني أن يسوى بين المتماثلين، ويفرق بين المفترقين؛ لأن «العدل» إعطاء كل شيء ما يستحقه، والحاصل: أن كلمة «المساواة» أدخلها أعداء الإسلام على المسلمين، وأكثر المسلمين - ولاسيما ذوو الثقافة العامة - ليس عندهم تحقيق، ولا تدقيق في الأمور، ولا تمييز بين العبارات؛ ولهذا تجد الواحد يظن هذه الكلمة كلمة نور تحمل على الرؤوس: «**الإسلام دين مساواة**»! ونقول: لو قلتم: «**الإسلام دين العدل**» لكان أولى، وأشد مطابقة لواقع الإسلام.

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الناس، أو المسلمون، ﴿عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾: يحتمل أن تكون

مصدرًا ميميًّا فتكون بمعنى الحيض، أو تكون اسم مكان فيكون المراد به مكان الحيض؛ وهو الفَرْج، ولكن الأرجح الاحتمال الأول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، فإنه لا يحتمل عوده إلى مكان الحيض.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: لكل من الزوج والزوجة، وبيان ذلك عند الأطباء.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ أي اجتنبوا، والفاء هنا للتفريع أو للسببية؛ أي: فيتفرع على كونه أذًى توجيه الأمر إليكم باعتزال النساء، أو فبسبب كونه أذًى اعتزلوا النساء في المحيض، والمقصود بـ ﴿النِّسَاءَ﴾ هنا الحائضات؛ لقوله تعالى: ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾، والمراد بـ ﴿الْمَحِيضِ﴾ هنا مكان الحيض - وهو الفرج، فهي ظرف مكان؛ أي: لا تجامعوهن في فروجهن؛ لأنه مكان الحيض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، أي: لا تقربوا جماعهن كما يدل عليه ما قبله.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بسكون الطاء وتخفيف الهاء، أي: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ من المحيض بانقطاعه، وفي قراءة ﴿حتى يطّهرن﴾ بتشديد الطاء والهاء أي: يتطهرن من المحيض بالاغتسال، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦] أي: اغتسلوا، وعلامة الطهر للمرأة القَصة البيضاء بألَّا تتغير القطنة إذا احتشت بها، وهذا هو الغالب في النساء، لكن بعض النساء لا ترى ذلك، فتعرف الطهر بانقطاع الدم فقط ولا ترى القصة البيضاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: جمهور أهل العلم على أن المراد اغتسلن؛ فإن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فهي كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنبًا فاطهروا﴾ [المائدة: ٦]، أي: اغتسلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، والمراد بالإتيان: الجماع، كني بالإتيان عن المجامعة، والأمر هنا للإباحة؛ وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ بمعنى «في»؛ أي: فأتوهن في المكان الذي أمركم الله بإتيانه؛ وهو الفرج، وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ للابتداء؛ فهي على بابها، أي: فأتوهن من هذه الطريق من حيث أمركم الله؛ وهو أن تطؤوهن في الفروج؛ لقوله تعالى في الآية بعدها: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والحرث هو موضع الزرع، وموضع الزرع هو القبل، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من قُبُلهن، وليس من الدبر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، هذا تعليل لما سبق من الأوامر؛ وهي اعتزال النساء في المحيض، وإتيانهن من حيث أمر الله بعد التطهر.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، المحبة معروفة، و﴿التَّوَّابِينَ﴾ صيغة مبالغة تفيد الكثرة، فالتوابون كثيرو التوبة؛ و«التوبة» هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، و﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: الذين يتطهرون من الأحداث والأخباث، وجمع بين ذلك وبين التوبة؛

لأن «التوبة» تطهير الباطن؛ و «التطهر» تطهير الظاهر.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** تتابع أسئلة الصحابة رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ.

٢ - **ومنها:** حرص الصحابة على العلم؛ حيث يسألون رسول الله ﷺ عن مثل هذه الأمور.

٣ - **ومنها:** أنه لا ينبغي أن يستحيي الإنسان من سؤال العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الله - عزَّ وجلَّ - قد يتولى الإجابة فيما سئل عنه رسول الله ﷺ؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾.

٥ - **ومنها:** أن المحيض - وهو الحيض - أذًى؛ لأنه قذر ونجس؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بغسله قليله وكثيره؛ فقد كان النساء يصيب ثيابهن الحيض، فيسألن النبي ﷺ عن ذلك فيأمرهن بحته، ثم قرصه بالماء، ثم نضحه[1] - أي: غسله.

٦ - **ومنها:** تعليل الأحكام الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: إثبات الحكمة فيما شرعه الله - عزَّ وجلَّ -، لكن من الحكمة ما هو معلوم للخلق ومنها ما ليس بمعلوم، لكننا نعلم أن جميع أحكام الله الشرعية والقدرية مقرونة بالحكمة.

٧ - **ومن فوائد الآية:** تقديم علة الحكم عليه حتى تتهيأ النفوس لقبول الحكم والطمأنينة إليه، ويكون قبوله فطريًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، وقد يتقدم الحكم على العلة - وهو الأكثر- كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وكما في الحديث الصحيح: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُوْنَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[2].

٨ - **ومن فوائد الآية:** وجوب اعتزال المرأة حال الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، وقد بينت السنة ماذا يعتزل منهن وهو الجماع؛ لقول النبي ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»[3].

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٢٢٥)، ومسلم (٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٥٩٣٢)، ومسلم (٢١٨٤).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٦٢).

٩ - **ومنها**: منة الله على الرجل والمرأة في اعتزالها حال الحيض؛ لأنه أذى مُضِرٌّ بالمرأة، ومضر بالرجل.

١٠ - **ومنها**: تحريم الوطء بعد الطهر قبل الغسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾.

١١ - **ومنها**: وجوب جماع الزوجة بعد طهرها من الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾؛ وقد قال به بعض أهل العلم، ولكن هذا القول ضعيف جدًّا، والصواب :أن الأمر فيه لرفع الحظر؛ لأنه ورد بعد النهي، ويبقى الحكم على ما كان عليه قبل النهي.

١٢ - **ومنها**: أنه لا يجوز للإنسان أن يتعدى حدود الله لا زمانًا ولا مكانًا فيما أباحه الله من إتيان أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

١٣ - **ومنها**: جواز وطء المرأة في فرجها من ورائها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ولم يحدد الجهة التي تؤتى منها المرأة.

١٤ - **ومنها**: أنه لا يباح وطؤها في الدبر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ولقوله تعالى في المحيض: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، ومن المعلوم أن أذى الغائط أقبح من أذى دم الحيض، وهذا - أعني تحريم وطء الدبر - قد أجمع عليه الأئمة الأربعة، ولم يصح عن أحد من السلف جوازه، وما روي عن بعضهم مما ظاهره الجواز فمراده إتيانها من الدبر في الفرج.

١٥ - **ومنها**: إثبات محبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، والمحبة صفة حقيقية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الوجه اللائق به، وهكذا جميع ما وصف الله به نفسه من المحبة والرضا والكراهة والغضب والسخط وغيرها، فكلها ثابتة لله على وجه الحقيقة من غير تكييف ولا تمثيل.

١٦ - **ومنها**: أن محبة الله من صفاته الفعلية لا الذاتية؛ لأنها علقت بالتوبة، والتوبة من فعل العبد تتجدد، فكذلك محبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تتعلق بأسبابها، وكل صفة من صفات الله تتعلق بأسبابها فهي من الصفات الفعلية.

١٧ - **ومنها**: فضيلة التوبة، وأنها أمر مطلوب، وأنها من أسباب محبة الله للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

١٨ - **ومنها**: محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

١٩ - **ومنها**: حسن أسلوب القرآن؛ لأنه جمع في هذه الآية بين التطهر المعنوي الباطني والتطهر الحسي الظاهري؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾؛ وهي طهارة باطنة، وقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ وهي طهارة ظاهرة.

قال الله تعالى:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ يعني: زوجاتكم موضع حرث لكم، كما تكون الأرض حرثًا للزارع يبث فيها الحب، فيخرج الحب، وينمو ويُنتفع به، كذلك النساء بالنسبة للرجال حرث يضع فيها الإنسان هذا الماء الدافق، فينزرع في الرحم حتى ينمو، ويخرج بشرًا سويًّا.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾: الفاء للسببية أو للتفريع، والمراد بـ «الحرث» هنا موضع الحرث؛ وهو الفرج.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: من حيث شئتم فـ ﴿أَنَّىٰ﴾ ظرف مكان، والمعنى: ائتوا هذا الحرث من أي جهة شئتم؛ من جهة القبل يعني: الأمام، أو من جهة الخلف، أو على جنب، المهم أن يكون الإتيان في الحرث، وقد زعمت اليهود أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها في قبلها صار الولد أحول، وكذبوا في ذلك، وقد أنزل الله تكذيبهم في هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ يعني: الطاعات وما ينفعنا عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنما قال ذلك بعد ذكر إتيان النساء حتى لا ننشغل بهؤلاء النساء عن تقديم ما ينفعنا يوم القيامة، ومن التقديم للنفس أن يبتغي الإنسان بإتيان أهله تحصين فرجه، وتحصين فرج امرأته، وطلب الولد الصالح، وما أشبه ذلك مما يقارن الجماع من الأعمال الصالحة بالنية.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: لما أمرنا بالتقديم لأنفسنا بالأعمال الصالحة أمرنا بالتقوى؛ وهي فعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي: في يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: ٦-٧] الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أخبرهم بما يَسُرُّهُم، و«المؤمن» هنا يتضمن المسلم، وعلى هذا فلابد مع الإيمان من عمل صالح.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن النساء حرث للرجال؛ بمعنى: موضع زراعة.

٢ - **ومنها:** أن الرجل حرٌّ في الحرث: إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لكن عليه أن يعاشر

زوجته بالمعروف في كل ما يعاملها به؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٣ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾، وإذا كانت حرثًا فهل الإنسان عندما يحرث أرضًا يقلل من الزرع، أو يكثر من الزرع؟

فالجواب: الإنسان عندما يحرث أرضًا يكثر من الزرع؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ»[1]، وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء المسلمين، يريدون من المسلمين ألَّا يكثروا؛ لأنهم إذا كثروا أرعبوهم، واستغنوا بأنفسهم عنهم: حرثوا الأرض، وشغَّلوا التجارة، وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد، وغير ذلك من المصالح، فإذا بقوا مستحسرين قليلين صاروا أذلةً، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء، ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدده؟! فقد يموت هؤلاء المحدَّدون؛ فلا يبقى للإنسان نسل.

٤ - **ومن فوائد الآية**: جواز إتيان المرأة في محل الحرث من أيِّ جهة؛ قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

٥ - **ومنها**: مشروعية أن ينوي الإنسانُ بجماعه الولدَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾، فجعل الإتيان للحرث، فكأنه أشار إلى أنه ينبغي للإنسان أن يأتي المرأة من أجل طلب الولد، وقد ذكروا عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه ما جامع إلَّا بقصد الولد، وعلى كل حال الناس مختلفون في هذا، ولا مانع من أن الإنسان يريد بذلك الولد، ويريد بذلك قضاء الوطر.

٦ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يحافظ على هذه المرأة التي أضيفت له، وسميت حرثًا له كما يحافظ على حرث أرضه.

٧ - **ومنها**: أنه يشرع للمرء أن يقدم لنفسه عند الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾، وسبق معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

٨ - **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٩ - **ومنها**: وجوب معاملة الأهل حسب ما شرع الله؛ لأن ذلك من تقوى الله؛ ولقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

١٠ - **ومنها**: إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾.

١١ - **ومنها**: إثبات رؤية الله؛ لقوله تعالى: ﴿مُلَاقُوهُ﴾، والملاقاة في الأصل: المقابلة مع عدم الحاجب.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٠٥٠)، وأحمد في «مسنده» (١٢٦٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٠٢٨) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٤٠).

١٢ - **ومنها**: تهديد الإنسان من المخالفة؛ لأنه لما أمر بالتقوى قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾.

١٣ - **ومنها**: أن من البلاغة إذا أخبرت إنسانًا بأمر هام أن تقدم بين يدي الخبر ما يقتضي انتباهه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾، وهذا مما يزيد الإنسان انتباهًا وتحسبًا لهذه الملاقاة.

١٤ - **ومنها**: أن المؤمنين ناجون عند ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٥ - **ومنها**: أن البشارة للمؤمنين مطلقة، حيث قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦ - **ومنها**: أن البشارة للمؤمنين في الدنيا وفي الآخرة؛ ووجهه: عدم التقييد، وقد قال الله - سبحانه وتعالى - في آية أخرى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]؛ وسئل النبي ﷺ عنها فقال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ**»[1].

١٧ - **ومنها**: تحذير غير المؤمنين من هذه الملاقاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فدل ذلك على أن غير المؤمنين لا بشرى لهم.

١٨ - **ومنها**: فضيلة الإيمان؛ لأن الله علق البشارة عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: لا تُصيروا الحلف بالله معترضًا بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فـ «**البر**» فعل الخيرات، و«**التقوى**» هنا اجتناب الشرور، و«**الإصلاح بين الناس**»: التوفيق بين المتنازعين حتى يلتئم بعضهم إلى بعض، ويزول ما في أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع لما يقال، عليم بكل شيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: نهي الإنسان عن جعل اليمين مانعة له من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، والنهي للتحريم إذا كانت مانعة له من واجب، وقد صَحَّ عن النبي ﷺ قوله: «إذا

(١) رواه مسلم (٤٧٩)، والترمذي (٢٢٧٣)، والنسائي (١٠٤٥).

حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»(1).

٢ - **ومنها**: الحث على البر والتقوى والإصلاح بين الناس؛ وجهه: أنه إذا كان الله نهانا أن نجعل اليمين مانعًا من فعل البر، فما بالك إذا لم يكن هناك يمين؟!

٣ - **ومنها**: فضيلة الإصلاح بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾، فنص عليه مع أنه من البر، والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدل على العناية به والاهتمام به، ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رأب الصدع وَلَمِّ الشعث وجمع الشمل، وهذا خلاف مَنْ يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس، مثل النميمة - فهي توجب القطيعة بين الناس؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»(2).

٤ - **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: «السميع» و«العليم»، وما تضمناه من صفة، وما تضمناه من حكم، وأثر.

٥ - **ومنها**: تحذير الإنسان من المخالفة؛ وجهه: أنه إذا كان الله سميعًا عليمًا فإياك أن تخالف ما أمرك به، فإنك إن خالفته بما يُسمَع سَمِعك، وبما يُعلَم عَلِمك، فاحذر الله - عزَّ وجلَّ.

قال الله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، «يؤاخذ» لها معنيان؛ أحدهما: المؤاخذة بالعقوبة، والثاني: المؤاخذة بإلزام الكفارة، و«اللغو» في اللغة الشيء الساقط؛ والمراد به هنا: اليمين التي لا يقصدها الحالف، كقول: «لا والله»، «بلى والله» في عرض حديثه، ويبين ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: نويتم عقده، و «الأيمان» جمع يمين وهو القسم، والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظَّم بصيغة مخصوصة - هي: الواو والباء والتاء - مثل: «والله» و«بالله»، و«تالله».

قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، يفسره قوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

(١) رواه البخاري (٦٢٤٨)، ومسلم (١٦٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٣٧٣)، والبيهقي في «الكبرى» (١١١٠١).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، لما ذكر اللغو من اليمين والمنعقد منها ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ وسبق معنى «الغفور» و«الحليم» هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** عدم مؤاخذة العبد بما لم يقصده في لفظه، وهذه الفائدة قاعدة عظيمة يترتب عليها مسائل كثيرة؛ منها: لو جرى لفظ الطلاق على لسانه بغير قصد لم تطلق امرأته، ولو طلق في حال غضب شديد لم تطلق امرأته، ولو قال كفرًا في حال فرح شديد لم يكفر، كما في حديث: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ..»[1] الحديث، ولو أكره على كلمة الكفر فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر، وأمثلتها كثيرة.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن المدار على ما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٣ - **ومنها:** أن للقلوب كسبًا كما للجوارح، فأما ما حدَّث به الإنسان نفسه دون اطمئنان إليه فإنه لا يؤاخذ به؛ لأنه ليس بعمل؛ ولهذا جاء في الحديث قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[2].

٤ - **ومنها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين؛ وهما: «الغفور» و«الحليم»، وما تضمناه من وصف وحكم.

٥ - **ومنها:** الإشارة إلى أن مِنْ مغفرة الله وحلمه أن أسقط المؤاخذة باللغو في الأيمان.

٦ - **ومنها:** ألَّا نيأس من رحمة الله؛ لأنه غفور، وألَّا نأمن مكر الله؛ لأنه حليم، فيكون العبد سائرًا إلى الله بين الرجاء والخوف.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ خبر مقدم، و﴿تَرَبُّصُ﴾ مبتدأ مؤخر، وبعد هذا بيَّن الله الحال بعد هذا التربص.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (١٢٧).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾: اللام يحتمل أن تكون للإباحة، ويحتمل أن تكون للتوقيت يعني: أنه يباح للمولين أن يتربصوا أربعة أشهر، أو أن لهم وقتًا محددًا بأربعة أشهر، و﴿يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون على ترك وطء زوجاتهم، و﴿مِن﴾ قيل: إنها بمعنى «عن»، يعني: يحلفون عن وطء نسائهم، وقيل: إنها على بابها، فهي مبينة لموضع الإيلاء، يعني: الحلف، و﴿نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: زوجاتهم.

قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ﴾ أي: انتظار، وهو شبيه بـ «الصبر» لموافقته إياه في الحروف وإن خالفه في الترتيب، و«الصبر» بمعنى حبس النفس وانتظارها، ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: مدة أربعة أشهر، فينتظرون لمدة أربعة أشهر ابتداءً من إيلائهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلى نسائهم بعد أن آلوا منهن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر لهم ما تجرؤوا عليه من الحلف على حرمان الزوجات من حقوقهن؛ لأن حلفهم على ألَّا يطؤوا لمدة أربعة أشهر اعتداء على حق المرأة، إذ إن الرجل يجب عليه أن يعاشر زوجته بالمعروف، وليس من العشرة بالمعروف أن يحلف الإنسان ألَّا يطأ زوجته مدة أربعة أشهر، فإن فعل فقد عرض نفسه للعقوبة، لكنه إذا رجع غفر الله له، و﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، والمغفرة هي: ستر الذنب مع التجاوز عنه مأخوذة من «المغفر»؛ وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتقاء السهام، وفي المغفر تغطية ووقاية، و﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فهو مشتق من الرحمة المستلزمة للعطف والحنوِّ والإحسان ودفع النقم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي: قصدوه بعزيمة تامة، ويدل على أن العزم هنا بمعنى القصد أنه تعدى بنفسه إلى الطلاق، ولو كان العزم بمعناه الأصلي لتعدى بـ «على»؛ فإنك تقول: عزم على كذا، ولا تقول: عزم كذا.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوالهم ومنها الطلاق، عليم بأحوالهم - ومنها مفارقة زوجاتهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** ثبوت حكم الإيلاء؛ لأن الله تعالى وقَّت له أربعة أشهر.

٢ - **ومنها:** أن الإيلاء لا يصح من غير زوجة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ فلو حلف ألَّا يطأ أمته لم يثبت له حكم الإيلاء؛ ولو حلف ألَّا يطأ امرأة ثم تزوجها لم يكن له حكم الإيلاء، لكن لو جامع وجبت عليه كفارة يمين.

٣ - **ومنها:** أن المولي يضرب له مدة أربعة أشهر من إيلائه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، فيفيد أن ابتداء المدة من الإيلاء.

٤ - **ومنها**: حكمة الله - عزَّ وجلَّ - ورحمته بعباده في مراعاة حقوق الزوجة، وكما أنه حق للزوجة فهو من مصلحة الزوج أيضًا حتى لا يضيع حق المرأة على يده فيكون ظالمًا.

٥ - **ومنها**: أن المولي يوقف عند مُضِي أربعة أشهر، ويقال له: إما أن تفيء وإما أن تطلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦ - **ومنها**: أن الطلاق بيد الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾؛ والضمير يعود على «الذين يؤلون من نسائهم».

٧ - **ومنها**: صحة الإيلاء من غير المدخول بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، والمرأة تكون من نساء الإنسان بمجرد العقد الصحيح.

٨ - **ومنها**: أن الإيلاء من أربعة أشهر فما فوق محرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإن المغفرة لا تكون إلَّا في مقابلة ذنب.

٩ - **ومنها**: أن رجوع الإنسان عما هو عليه من المعصية سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن الله - سبحانه وتعالى - لا يحب الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١١ - **ومنها**: أن الطلاق لا يقع بمجرد تمام مدة الإيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

فإن قيل: لو امتنع عن الفيئة والطلاق فهل يجبر على أحدهما؟

فالجواب: نعم، يجبر على أحدهما إذا طالبت الزوجة بذلك؛ لأنه حق لها، فإن أبى فللحاكم أن يطلق أو يفسخ النكاح، والفسخ أولى من الطلاق لئلا تحسب عليه طلقة، فيضيق عليه العدد، أي: عدد الطلاق.

مسألة: هل يصح الإيلاء من الصغير الذي لم يبلغ؟

الجواب: لا يصح؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، والصبي لا تنعقد منه اليمين؛ لأنه غير مكلف.

١٢ - **ومنها**: إثبات أربعة أسماء من أسماء الله - سبحانه وتعالى - وهي: «الغفور» و«الرحيم» و«السميع» و«العليم»؛ وما تتضمنه هذه الأسماء من الصفات، والأحكام.

١٣ - **ومنها**: الإشارة إلى أن الفيئة أحب إلى الله من الطلاق؛ لأن ذلك نوع من التهديد.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أي: اللاتي طلقهن أزواجهن، وقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن في العدة، ويحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح؛ فقيل لها: تربصي بنفسك وانتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك. أي: هوِّن على نفسك وما أشبهها، وأما قول من قال: إن «أنفسهن» توكيد للفاعل في ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: يتربصن أنفسُهن، فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة، ولأن مثل هذا التعبير شاذ في اللغة العربية، فلا يحمل كلام الله على الشاذ، وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جمع (قَرْء) بفتح القاف؛ وهو الحيض على أرجح القولين، وهو رأي الجمهور؛ لقول النبي ﷺ في المستحاضة: «تَجْلِسُ أَيَّامَ أَقْرَائِهَا»[1] أي: حيضها، فقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي: ثلاث حيض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ﴾ أي: يخفين ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من الحمل، فلا يحل لها أن تكتم الحمل، و﴿أَرْحَامِهِنَّ﴾ جمع (رحم)؛ وهو مقر الحمل، وسمي رحمًا؛ لأنه ينضم على الجنين ويحفظه؛ فهو كذوي الأرحام من انضمامهم على قريبهم وحنوهم عليه وعطفهم عليه.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هذه الجملة فيها إغراء لالتزام الحكم السابق، وهي تشبه التحدي، يعني: إن كن صادقات في الإيمان بالله واليوم الآخر فلا يكتمن حملهن، والمراد بـ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: يوم القيامة، وإنما سمي اليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، فالناس إذا بعثوا يوم القيامة فليس هناك موت؛ بل إما خلود في الجنة، وإما خلود في النار، وذكر اليوم الآخر؛ لأن الإيمان به يحمل الإنسان على فعل الطاعات واجتناب المنهيات؛ لأنه يعلم أن أمامه يومًا يجازَى فيه الإنسان على عمله؛ فتجده يحرص على فعل المأمور وترك المحظور.

قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، البعل هو: الزوج، كما قال الله تعالى عن امرأة

---

(١) رواه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١٢٥)، والنسائي (٣٦١).

إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] أي: زوجي، وسمي بعلًا مع أنه مطلَّق؛ لأن الأحكام الزوجية في الرجعية باقية إلَّا ما استثني، و﴿أَحَقُّ﴾ اسم تفضيل، واسم التفضيل لابد فيه من مفضل ومفضل عليه، يعني: أن بعولتهن أحق بردهن من أنفسهن، و«ذا» اسم إشارة؛ والمشار إليه التربص المفهوم من قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ وهو مدة العدة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ أي إن أراد بعولتهن إصلاحًا في ردهن، و﴿إِصْلَٰحًا﴾ أي: ائتلافًا والتئامًا بين الزوج وزوجته، وإزالة لما وقع من الكسر بسبب الطلاق وما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للزوجات سواء كن مطلقات أو ممسكات ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: فكما أن على الزوجة أن تتقي الله تعالى في حقوق زوجها، وأن تقوم بما فرض الله عليها، فلها أيضًا مثل الذي له في أنه يجب على الزوج أن يعاشرها بالمعروف، وأن يقوم بحقها الذي أوجب الله عليه.

ولما كانت المماثلة تقتضي المساواة أخرج ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: فضل في العقل والحقوق، وهذا من باب الاحتراس حتى لا يذهب الذهن إلى تساوي المرأة والرجل من كل وجه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عزة، وأظهر معانيها: الغلبة، كقوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، و﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام والحكمة البالغة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب اعتداد المطلقة بثلاث حيض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾، وهي جملة خبرية بمعنى الأمر، قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر كان ذلك توكيدًا له؛ كأنه أمر واقع صَحَّ أن يخبر عنه.

٢ - **ومنها:** قوة الداعي في المرأة للزواج، لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، فكأن النفس تحثها على أن تنهي علاقتها بالأول وتتزوج؛ فقيل: «**تربصي بنفسك**» أي: انتظري؛ مثل أن تقول: تربصتُ بكذا وكذا وكذا.

٣ - **ومنها:** وجوب العدة بثلاث حيض على كل مطلقة سواء كان طلاقها بائنًا أم لا؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾.

ويستثنى من ذلك: مَنْ لا تحيض لصغر أو إياس فعدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

ويستثنى أيضًا: مَنْ طُلِّقَت قبل الدخول والخلوة: فليس عليها عدة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ويستثنى أيضًا: الحامل، فعدتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

فهذه ثلاث مسائل مستثناة من عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن مَنْ فارق الزوجة بغير طلاق فليس عليها أن تعتد بثلاث حِيَضٍ كالمختلعة، وعليه فيكفي أن تستبرئ بحيضة، وهذا هو القول الراجح.

٥ - **ومنها**: أنه لو طلقها في أثناء الحيض لم يحتسب بالحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ وجهه: أن الحيض لا يتبعض، فتلغى بقية الحيضة التي وقع فيها الطلاق، ولابد لها من ثلاث حيض جديدة، وإلا يلزم على ذلك أن تكون عدتها ثلاثة قروء وبعض القرء، وهو خلاف النص، وهذا على القول بأن طلاق الحائض واقع، ولكن الصواب أن طلاق الحائض لا يقع؛ لحديث ابن عمر، ولقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»؛ ولنصوص أخرى دلت على عدم وقوع طلاق الحائض.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن الطلاق لا يقع قبل النكاح منجزًا كان أو معلقًا، معينًا كان أو مطلقًا، فلو قال لامرأة: إن تزوجتك فأنت طالق. فتزوجها لم تطلق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾، ولا طلاق إِلَّا بعد قيد وهو عقد النكاح.

٧ - **ومنها**: أنه يرجع إلى قول المرأة في عدتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، وجه ذلك أن الله جعل قولها معتبرًا، ولو لم يكن معتبرًا لم يكن لكتمها أيّ تأثير، فإذا ادعت أن عدتها انقضت، وكان ذلك في زمن ممكن فإنها تصدق، وهي مؤتمنة على ذلك، أما إذا ادعت أن عدتها انقضت في زمن لا يمكن فإن قولها مردود؛ لأن من شروط سماع الدعوى أن تكون ممكنة، ودعوى المستحيل غير مسموعة أصلًا.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن المطلقة البائن عدتها ثلاثة قروء؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾، فيشمل حتى البوائن، وهو قول جمهور العلماء، حتى لو كانت بائنًا بالثلاث فإنها لابد أن تعتدَّ بثلاثة قروء، وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله: إن كانت المسألة إجماعية فالإجماع معتبر وهو حجة، وإن لم تكن إجماعية فإن القول بأن المبانة تعتد بحيضة واحدة قول وجيه، فعلق القول به على وجود مخالف وقد وجد، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، فإن هذا الحكم إنما هو للرجعيات، فيكون العموم مخصصًا بذكر الحكم المختص ببعض أفراده؛ وهذه المسألة فيها نزاع بين العلماء، وهي أنه إذا ورد لفظ عام ثم فرع عليه حكم يتعلق ببعض أفراده، فهل يكون ذلك مخصصًا لعمومه؟ أو يقال: إن ذكر حكم يختص ببعض الأفراد لا يقتضي التخصيص؛ ومن أمثلته حديث جابر: (قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت

الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة)[1]، إذا نظرنا إلى أول الحديث: (في كل ما يقسم) وجدنا أن الشفعة تجري في كل شيء؛ وإذا نظرنا إلى آخره: (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق)، قلنا: إن الشفعة لا تجري إلَّا فيما كان له حدود وطرق وهو الأرض.

و(الشفعة) أن ينتزع الشريك حصة شريكه التي باعها لطرف ثالث، مثال ذلك: زيد شريك لعمرو في أرض، فباع عمرو نصيبه لخالد، فلزيد أن يأخذ هذا النصيب من خالد بالثمن الذي يستقر عليه العقد، فإذا كان لشخصين سيارة واحدة، وباع أحدهما نصيبه من هذه السيارة لشخص ثالث فللشريك أن يأخذ هذا النصيب ممن اشتراه بثمنه على مقتضى أول الحديث العام؛ لكن قوله رضي الله تعالى عنه: (فَإِذَا وَقَعَتِ الحُدُودُ، وَصُرِفَتِ الطُّرُقُ) يقتضي ألَّا شفعة له في نصيب شريكه في السيارة؛ لأنه لا حدود ولا طرق فيها، والمسألة ذات خلاف معروف في كتب الفقه.

٩ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي ذكر ما يوجب القبول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١٠ - **ومنها**: أنه ينبغي تحذير المؤتمن الذي لا يعلم بأمانته إلَّا الله - عزَّ وجلَّ - من عذاب يوم الآخر إن هو لم يقم بواجب الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

١١ - **ومنها**: إثبات اليوم الآخر.

١٢ - **ومنها**: أن الرجعية في حكم الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾، فأثبت أنه بعل.

فإن قال قائل: ألا يمكن أن يقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ فيما مضى؛ لأن الشيء قد يعبر عنه بعد انتهائه، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وهم لا يؤتونها إلَّا بعد زوال اليتم؛ كما أنه قد يعبر عن الشيء قبل وجوده، كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، وهو إنما يعصر عنبًا ليكون خمرًا؟

فالجواب: أن الأصل خلاف ذلك، ولا يصار إلى خلاف الأصل إلَّا بدليل؛ لأن الأصل أن الوصف متحقق في الموصوف حتى يتبين زوال الوصف عنه؛ ولهذا قال أهل العلم: إن الرجعية زوجة في حكم الزوجات، وينبني على ذلك أن: كل ما يترتب على الزوجية فهو ثابت للرجعية إلَّا أنهم استثنوا بعض المسائل.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا حق للزوج في الرجعة إذا لم يرد الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾، وقال بعض أهل العلم: إن هذا ليس على سبيل الشرط، ولكنه على سبيل الإرشاد. وهو خلاف ظاهر الآية، والواجب إبقاء الآية على ظاهرها، فليس له أن يراجع إلَّا بهذا الشرط.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٩)، ومسلم (١٦٠٨).

١٤ - **ومنها**: أنه لا رجعة بعد انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾.

١٥ - **ومنها**: أن للزوجة حقًّا كما أن عليها حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾.

١٦ - **ومنها**: إثبات الرجوع إلى العرف؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهكذا كل ما جاء، ولم يحدد بالشرع فإن مرجعه إلى العرف.

١٧ - **ومنها**: استعمال الاحتراس، وأنه لا ينبغي الإطلاق في موضع يخشى فيه من التعميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: حقوق الرجال أكثر من حقوق النساء؛ ولهذا كان على الزوجة أن تطيع زوجها، وليس على الزوج أن يطيع زوجته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، وهذا من معنى الدرجة، ودرجة الرجال على النساء من وجوه متعددة؛ فالدرجة التي فضل بها الرجال على النساء في: العقل والجسم والدين والولاية والإنفاق والميراث وعطية الأولاد.

الأمر الأول: العقل؛ فالرجل عقله أكمل من عقل المرأة؛ وقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»؛ قلن: ما نقصان العقل يا رسول الله؟ قال: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الرَّجُلِ بِشَهَادَةِ امْرَأَتَيْنِ؟ فَذَلِكَ نُقْصَانُ عَقْلِهَا»[1].

الأمر الثاني: الجسم؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الجسم، فهو أنشط من المرأة، وأقوى في الجسم.

الأمر الثالث: الدين؛ فإن الرجل أكمل من المرأة في الدين؛ لأن الرسول ﷺ قال في المرأة: «إِنَّهَا نَاقِصَةٌ فِي الدِّينِ»، وفَسر ذلك بأنها «إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ»؛ ولهذا يجب على الرجل من الواجبات الدينية ما لا يجب على المرأة، كالجهاد مثلًا.

الأمر الرابع: الولاية؛ فقد فضل الرجل على المرأة في الولاية، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الرجل قَوَّامًا على المرأة، فالرجال قَوَّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض؛ ولهذا لا يحل أن تتولى المرأة ولاية عامة أبدًا لا وزارة ولا غير وزارة، فالولاية العامة ليست من حقوق النساء أبدًا، ولا يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة.

الأمر الخامس: الإنفاق؛ فالزوج هو الذي ينفق على المرأة، وقد قال النبي ﷺ: «اليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»[2]، و«الْيَدُ الْعُلْيَا»: هي المعطية و«السُّفْلَى»: الآخذة.

الأمر السادس: الميراث وعطية الأولاد، فإن للذكر مثل حظ الأنثيين.

١٨ - **ومن فوائد الآية**: أن الذين لهم درجة على النساء هم الرجال الذين هم جديرون بهذا

---

(١) رواه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٦١)، ومسلم (١٠٣٤).

الوصف، وأما من جعل نفسه بمنزلة النسوة فهذا يكون شرًّا من المرأة؛ لأنه انتكس من الكمال إلى الدون، ومن ثم لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[1]؛ حتى لا يعتدي أحد على حق أو على اختصاصات أحد.

١٩ - **ومنها**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: «العزيز» و«الحكيم»، وما تضمناه من صفة وهي العزة في «العزيز»، والحكمة، والحكم في «الحكيم»، وما يترتب على ذلك من أثر.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ يعني: أن الطلاق الذي فيه الرجعة مرتان: بأن يطلق مرة ثم يراجع، ثم يطلق مرة ثم يراجع.

قوله تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ مبتدأ خبره محذوف والتقدير: فعليكم إمساك بمعروف، أي: بما يتعارفه الناس من العشرة الطيبة الحسنة.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: إطلاق لهن، وهو كقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٢]، والمراد بـ «الإحسان» هنا أن يمتعها بشيء يجبر كسرها ويطيب قلبها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ أي: أعطيتموهن، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فالمفعول الأول الهاء في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾، والمفعول الثاني: محذوف والتقدير: مما آتيتموهن إياه، وهو العائد على الموصول، أما ﴿شَيۡـًٔا﴾ فهي مفعول: ﴿تَأۡخُذُواْ﴾ وهي نكرة في سياق النفي، فتعم كل ما آتاها من مهر وغيره.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ بمعنى يتوقعا ويخشيا، وقوله: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائع الله بما يلزمهما لكل واحد على الآخر، فإن خافت الزوجة ألَّا تقوم بحق الزوج أو خاف الزوج

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٩٧)، وابن ماجه (١٩٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٩١)، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في «صحيح الجامع» (٥١٠٠).

ألَّا يقوم بحق الزوجة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، هذا على قراءة ﴿يَخَافَآ﴾ بالبناء للفاعل، وأما على قراءة (يُخافا) بالبناء للمفعول فالخائف هنا غير الزوجين، أي: إلَّا أن يخشى غيرُهما ألَّا يقيما حدود الله، فالخوف يرجع هنا على ولي الأمر كالقاضي أو الأمير أو على أهل الزوجين أو على كل من علم بحالها ممن يمكنه إصلاح الحال: فله أن يتدخل ويعرض الخلع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، وهذا يؤيد القراءة التي بالبناء للمفعول، والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ وإن كان ظاهره أنه يعم جميع الأمة، فالظاهر أن المراد به مَنْ له صلة بالزوجين من قرابة أو غيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لا إثم على الزوجين فيما بذلته فداءً لنفسها عن المقام معه.

فإن قيل: لماذا جاءت الآية بنفي الجناح عليهما؟

فالجواب: أن طلب الفداء والطلاق حرام على الزوجة بدون سبب، وحرام على الزوج أيضًا أن يأخذ شيئًا مما آتاها بدون سبب.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، المشار إليه ما سبق من الأحكام والشرائع، و﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوزوها، وقال العلماء: إذا كانت الحدود مما يجب فعله قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، وأما إذا كانت الحدود من المحرمات فإنه تعالى يقول: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ أي: يتجاوز ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ المراد بها هنا: أوامره، والجملة: اسم الشرط وفعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: جواب الشرط ولم يذكر مفعول ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ليفيد العموم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** حكمة الله - عزَّ وجلَّ - ورحمته في حصر الطلاق بالثلاث بأنه لا رجعة بعد الثالثة حتى تنكح زوجًا غيره؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يطلِّق الإنسان زوجته عدة طلقات؛ فإذا قاربت انتهاء العدة راجع ثم طلق فتستأنف العدة، فإذا شارفت الانقضاء راجع ثم طلق فإذا شارفت الانقضاء راجع ثم طلق.. وهكذا، فتبقى المرأة مُعذبة: لا مزوجة ولا مطلقة، فتبقى معلقة، فجعل الله الأمر في ثلاث طلقات فقط.

٢ - **ومنها:** اعتبار التكرار بالثلاث، وهذه لها نظائر كثيرة؛ فالسلام ثلاث، والاستئذان ثلاث، ورد الكلام إذا لم يفهم من أول مرة ثلاث، وفي الوضوء والعبادات أيضًا تكرار الثلاث كثير، فإذن الثلاث تعتبر تكرارًا يكتفى به في كثير من الأمور.

٣ - **ومنها**: الإشارة إلى أن الطلاق المكرر بلفظ واحد ليس بطلاق، بمعنى أنه لا يتكرر به الطلاق؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وصف يجب أن يكون معتبرًا، فإذا طلقت امرأتك فقلت: أنت طالق. فقد طلقت، فإذا قلت ثانية: أنت طالق. فكيف تورد طلاقًا على مطلقة؟ لأن الطلاق لا يرد إِلَّا على من كانت غير مطلقة حتى يقال: طلقت، وهنا قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾؛ ولهذا قال الفقهاء - رحمهم الله -: لو أن الرجل طلق امرأته، وحاضت مرتين، ثم طلقها بعد الحيضة الثانية لا تستأنف عدة جديدة للطلقة الثانية، بل تبني على ما مضى، وإذا حاضت الثالثة وطهرت انقضت عدتها؛ لأن الطلاق الثاني ليس له عدة وهذا مما يؤيد اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الطلاق المكرر لا عبرة به إِلَّا أن يصادف زوجة غير مطلقة؛ ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، والفقهاء الذين خالفوا في ذلك يقولون: إنه إذا كرر الطلاق في المرة الثانية لا تستأنف العدة. فإذا هي مطلقة لغير عدة فلا يقع الطلاق؛ لأنه سيكون على خلاف ما أمر الله به، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وقد قال شيخنا عن اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن من تأمله تبين له أنه لا يسوغ القول بخلافه). لأنك إذا تأملت كلامه في أنه لا يقع طلاق على طلاق، وأنه لا يتكرر إِلَّا على زوجة غير مطلقة فلا يمكن أن يتكرر الطلاق إِلَّا إذا راجعها، أو عقد عليها عقدًا جديدًا، وهذا القول هو الراجح، وهو الذي أفتي به، وهو أنه لا طلاق على طلاق حتى لو قال ألف مرة: أنت طالق. فليس إِلَّا مرةً واحدة فقط، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: مرة بعد مرة، فلابد أن يقع على زوجة غير مطلقة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن الواجب على المرء الذي طلق زوجته أحد أمرين؛ إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، وأما أن يردها مع الإيذاء والمنة والتقصير أو يسرحها بجفوة وعدم إحسان فلا يجوز.

٥ - **ومنها**: بيان حكمة الله في تشريعه ـ سبحانه وتعالى ـ إذ قال تعالى في الإمساك: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ لأنه إذا ردها جبر قلبها بالرد، وقال تعالى في التسريح: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ لأنه سيفارقها، فيحتاج إلى زيادة في معاملتها بالتي هي أحسن حتى ينضم إلى الفراق الإحسانُ - والله أعلم.

٦ - **ومنها**: تحريم أخذ الزوج شيئًا مما أعطى زوجته من مهر أو غيره، إِلَّا أن يطلقها قبل الدخول والخلوة فله نصف المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٧ - **ومنها**: جواز افتداء المرأة نفسها من زوجها بِعَوض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

٨ - **ومنها**: أن ذلك إنما يكون إذا خافا أَلَّا يقيما حدود الله، أما مع استقامة الحال فلا يجوز

طلب الخلع، وفي الحديث: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّةِ»(١).

٩ - **ومنها**: أهمية النكاح، وبيان أنه راجع إلى الأسرة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن للوسائل أحكام المقاصد، يؤخذ ذلك من جواز أخذ الإنسان من امرأته ما آتاها أو بعضه إذا خيفت المفسدة في البقاء على الزوجية.

١١ - **ومنها**: اعتبار المفاسد، وسلوك الأهون لدفع الأشد؛ لأن الأخذ من مال الزوجة محرم بلا شك كما قال تعالى، لكن إذا أريد به دفع ما هو أعظم من تضييع حدود الله - عزَّ وجلَّ - صار ذلك جائزًا، وهذه القاعدة لها أصل في الشريعة، منه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإنَّ سبَّ آلهة المشركين واجب؛ ولكن إذا كان يخشى من ذلك أن يسبوا الله عدوًا بغير علم صار سبُّ آلهتهم ممنوعًا.

١٢ - **ومنها**: جواز الخلع بأكثر مما أعطاها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، فهو يشمل ما افتدت به من كثير أو قليل، وقيل: إن هذا العموم عائد على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾، فيكون المعنى: فيما افتدت به مما آتيتموهن، وعلى هذا فلا يأخذ منها أكثر مما أعطاها، ويمكن أن يقال: إن كانت هي التي أساءت وطلبت الخلع فلا بأس أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وإلَّا فلا.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: أن المخالَعة ليست رجعية، بمعنى: أن الفراق في الخلع فراق بائن فلا سبيل لإرجاعها إلَّا بعقد جديد؛ لقوله تعالى: ﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾، فإذا كان فداءً فالفداء فيه عوض عن شيء، وإذا استلم الفداء لا يمكن أن يرجع المفدى عنه - وهو الزوجة - إلَّا بعقد جديد.

١٤ - **ومنها**: جواز تصرف المرأة في مالها بغير إذن زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، فإن الزوجة تتصرف في مالها كما تشاء في الحدود الشرعية سواء وافق زوجها على هذا التصرف أم لم يوافق، ما دامت امرأة حرة رشيدة فلا اعتراض للزوج عليها، وهذه الفائدة قد ينازع فيها.

١٥ - **ومنها**: عظم شأن النكاح وما يتعلق به؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، فبين أن هذا من حدود الله، ونهى عن تعديه، وقد سبق الفرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

١٦ - **ومنها**: أن لله - عزَّ وجلَّ - أن يحكم في عباده بما شاء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

١٧ - **ومنها**: أنه لا حاكم للخلق ولا مشرِّع إلَّا الله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١١٨٧)، وأبو داود (٢٢٢٦)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٦).

﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ولو كان مشرع غيره لكان يمكن لكل إنسان أن يشرع لنفسه، ولو كان في ذلك تعدي حدود الله ـ سبحانه وتعالى.

١٨ - **ومنها**: أن الخلع لابد فيه من رضا الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، فإذا كانت الفدية منها فلابد من رضاها، وأما إذا كانت الفدية من غيرها فإنه لا يشترط رضاها، كما لو أن أحدًا من الناس رأى أن بقاء هذه المرأة مع زوجها فيه ضرر عليه في دينه، فذهب إليه وأعطاه فدية ليخلع هذه المرأة، ويسلم من شرها فهذا جائز حتى وإن لم ترض بذلك.

١٩ - **ومنها**: تحريم تعدي حدود الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والظلم حرام.

٢٠ - **ومنها**: أن التعدي لحدود الله ظلم عظيم، يؤخذ من حصر الظلم في تعديها ومن الإتيان به في الجملة الاسمية الخبرية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢١ - **ومنها**: جواز الطلاق الثلاث المتفرق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البقرة:٢٣٠] يعني: الثالثة، فهنا لا شك أن الطلاق متفرق؛ لأنه تعالى قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾. ثم أدخل الفداء بينهما وبين الطلاق الثالث، فدل هذا على أنه طلاق متفرق، وهذا جائز بالإجماع، أما إذا جمع الثلاث جميعًا في دفعة واحدة، مثل أن يقول: أنت طالق ثلاثًا. أو: أنت طالق طالق طالق. يريد الثلاث، أو: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق. فقد اختلف أهل العلم في جواز ذلك؛ فمنهم من قال بإباحته ونفوذه، فتبين به المرأة بينونة كبرى، ومنهم من قال بتحريمه ونفوذه؛ ومنهم من قال بتحريمه ويقع واحدة، ومنهم من قال بتحريمه وأنه لا يقع؛ لا واحدة ولا أكثر؛ فإذن الأقوال أربعة؛ والصحيح أنه حرام، وأنه لا يقع إلَّا واحدة، وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام «ابن تيمية»، وعليه يدل الكتاب والسنة؛ لأنه لا تقع البينونة إلَّا إذا طلقها بعد طلاق مرتين، والطلاق مرتين لا يكون إلَّا إذا كان بينهما رجعة أو عقد؛ أما أن يرسل طلاقًا بعد طلاق فهذا ليس بشيء.

❁ **قال الله تعالى**:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: المرة الثالثة بعد المرتين، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾ أي: فلا تحل المطلقة بعد الثالثة للزوج المطلق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: يعقد عليها بنكاح صحيح، وقال بعض العلماء:

أي حتى تطأ، وهذا لا شك لا يصح؛ لأن المرأة لا تطأ.

قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي الزوج الثاني، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: فلا إثم على الزوج الأول وزوجته المطلقة من الزوج الثاني ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: يرجع أحدهما إلى الآخر بعقد جديد، ﴿إِن ظَنَّآ﴾ أي: الزوج الأول وزوجته ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أوجبه الله تعالى على كل منهما من المعاشرة بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: المشار إليه ما سبق من الأحكام، و﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي حدها لعباده، ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أي: يوضحها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويظهرها، فكل الحدود التي يريدها الله من العباد قد بينها بيانًا كاملًا؛ والبيان يكون بالكتاب ويكون بالسنة، فما لا يوجد في كلام الله يوجد في سنة الرسول ﷺ؛ وما لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ نصًّا بعينه فإنه يوجد بمعناه؛ وذلك بالقياس الصحيح الذي يتساوى فيه الأصل والفرع في العلة فيلحق هذا بهذا، فبيان الله تعالى للحدود متنوع.

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم ذوي استعداد وقبول للعلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** تحريم المطلقة ثلاثًا على مطلقها حتى تتزوج؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾.

٢ - **ومنها:** أن نكاح الزوج الثاني على وجه لا يصح لا تحل به للأول؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، ولا يكون زوجًا إلَّا بعقد صحيح؛ ولذلك لو تزوجها الثاني بنية تحليلها للأول فنكاحه غير صحيح، فلا تحل به للأول.

٣ - **ومنها:** حلها للزوج الأول بعد مفارقة الثاني لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾، وظاهر الآية الكريمة: أنها تحل للأول بمجرد عقد الثاني عليها ومفارقته لها، لكن السنة بَيَّنَتْ أنه لابد من وطء الثاني وطأً تامًّا بانتشار؛ وذلك أن امرأة رفاعة القرظي بانت منه بالثلاث؛ فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير - بفتح الزاي وكسر الباء - ولم يكن يقدر على الجماع، فأتت النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إن رفاعة طلقني فَبَتَّ طلاقي، وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير ولم يكن معه إلَّا مثل هدبة الثوب. وقالت بثوبها، فقال لها النبي ﷺ: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟! لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ»[1].

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الزوجة المطلقة ثلاثًا لو وطئت بملك اليمين فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، مثال ذلك: امرأة مملوكة لشخص وقد تزوجها

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٦)، ومسلم (١٤٣٣).

شخص آخر، فطلقها الزوج الآخر، ثم انقضت عِدَّتُها، وجامعها سيدها بحكم ملك اليمين، ثم أراد زوجها الأول أن يتزوجها فلا يمكن أن يتزوجها؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾.

٥ - **ومنها**: إطلاق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾، والمعروف عند الفقهاء أن الرجعة إعادة مطلقة غير بائن إلى عصمة زوجها، هذه هي الرجعة عندهم، لكن هذا اصطلاح خاص، أما في القرآن فتطلق المراجعة على عقد النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾، هذا وقد قَسَّمَ بعض أهل العلم المراجعة شرعًا إلى ثلاثة أقسام؛ فقالوا: قد يراد بها العقد؛ وقد يراد بها إعادة المطلقة رجعيًّا إلى عصمة زوجها، كما في اصطلاح الفقهاء، وقد يراد بالمراجعة: أن تعاد المرأة إلى عصمة زوجها بدون طلاق، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما حين طلق امرأته وهي حائض، فقال النبي ﷺ لعمر: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ»[1]. فالمراد بقوله ﷺ: «فَلْيُرَاجِعْهَا» أن يردها إلى عصمته ويلغي الطلاق، كما لو تبايع رجلان على عقد فاسد وقلت لهما: «تَرَاجَعَا» أي: راجعا العقد أو ألغياه؛ فالمراد بالمراجعة في حديث ابن عمر إلغاء الطلاق على القول الصحيح، وإن كان الجمهور على أنها مراجعة مطلقة حسب اصطلاح الفقهاء.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجوز أن يتراجع الزوجان حتى يغلب على ظنهما أن يقيما حدود الله؛ أي: أن يقوم كل منهما بمعاشرة الآخر بما يجب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وجه ذلك: أنهما إذا تراجعا بغير هذا الشرط صار هذا العقد عبثًا وعناءً وتعبًا وخسارة مالية؛ لأنهما لا يضمنان أن يرجعا إلى الحال الأولى.

٧ - **ومنها**: الاكتفاء بالظن في الأمور المستقبلة؛ لأن طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ وقد قال الله - تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال: «قَدْ فَعَلْتُ».

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة مهمة وهي: إذا حلف الإنسان على المستقبل بناءً على غلبة الظن، فتبين بخلافه فلا كفارة فيه؛ لأنه يحلف على ما في نفسه وعلى ظنه، وهذا القول هو الراجح، وهو اختيار شيخ الإسلام «ابن تيمية».

٨ - **ومن فوائد الآية**: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعباده في بيان ما يجب عليهم في عبادتهم، وفي معاملة بعضهم لبعض حتى لا تحصل الفوضى المؤدية إلى النزاع الذي قد يصل إلى القتال.

٩ - **ومنها**: أنه إذا لزم من فعل المباح شيء محرم صار الشيء المباح حرامًا؛ لأن رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظن الإنسان أنه يقوم بالحدود صار حرامًا، وهو في الأصل حلال، وعلى هذا فنقول: إذا استلزم العقد إبطالًا لواجب، أو وقوعًا في محرم صار ذلك حرامًا، وهي في مسائل

(١) رواه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٤٧١).

كثيرة، منها: لو تبايع رجلان تلزمهما الجمعة بعد ندائها الثاني: فالبيع حرام، والعقد باطل؛ لأنه وقوع فيما حَرَّمَ الله ـ عزَّ وجلَّ.

١٠ - **ومنها**: أنه لا يعرف هذه الحدود ويتبينها إِلَّا مَنْ كان من ذوي العلم، فَكُلَّما كان أعلم كانت الحدود في حقه أبين وأظهر؛ فطالب العلم يتعلم من اللفظ مسائل أخرى، فالعلم يغذي بعضه بعضًا، وطالب العلم رابح بكل حال، فهو ليس كطالب المال قد يشتري السلعة وهو يظن الربح ثم يخسر؛ فطالب العلم أيّ مسألة يعلمها فإنها مفتاح له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا شيء في دين الله يكون مجهولًا لكل أحد؛ لا من العبادات، ولا من المعاملات؛ فكل شيء مبيَّن.

فإن قيل: هناك أشياء تشكل على أهل العلم، ولا يعرفون حكمها؟

فالجواب: أن الخلل هنا ليس في النصِّ؛ ولكنه فيمن يستنبط الأحكام من النص، فقد يكون لنقصٍ في علمه، أو قصور في فهمه، أو عدوان في قصده؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(١)، وقد يكون الخلل في إعراض الإنسان عن التدبر، وبذْل الاجتهاد، وطلبِ الحقِّ، وقد يكون عند الإنسان علم وفهم وجلد وتدبر، لكن هناك ذنوبًا تحول بينه وبين وصوله للحق، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣، ١٤]؛ لأن المعاصي تُظلم القلب، وإذا أظلم القلب لا يستنير، وكيف يتبين له الحق وهو مظلم؟! ولهذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، ثم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]؛أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنه ينبغي لمن سئل عن علم أن يستغفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى تزول عنه الذنوب باستغفاره، ويتبين له الحق، وعلى هذا فنقول: إن جميع الأحكام التي تتعلق بالعبادات أو المعاملات قد بينها الله لكن العيب عيب المستدل، فالأدلة واضحة كافية، لكن المستدل قد تخفى عليه الأحكام للأسباب التي ذكرناها وغيرها.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي غلط من قال: إن النصوص لم تستوعب جميع الأحكام، وأننا محتاجون إلى العقول في الأحكام؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، فالنصوص كافية من كل ناحية.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: أن كل ما خالف شريعة الله فليس من أحكام الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُهَا﴾.

١٣ - **ومنها**: أن الخلع ليس بطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا

(١) رواه البخاري (١٦٥٤)، والترمذي (٢٦٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٥١٦).

﴿تَحِلُّ لَهُۥ﴾ الآية، ولو كان الخلع طلاقًا لكان قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ هي الطلقة الرابعة؛ وهذا خلاف إجماع المسلمين؛ لأن المرأة تبين بالطلاق الثلاث بإجماعهم، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخلع إذا وقع بلفظ الطلاق صار طلاقًا، واختار شيخ الإسلام «ابن تيمية» أن الخلع فسخ بأي لفظ كان - ولو بلفظ الطلاق - وقال: إن هذا هو ظاهر الآية؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولم يذكر صيغة معينة؛ لأنه إنما يعتبر في العقود بمعانيها لا بألفاظها؛ فما دام هذا الطلاق الذي وقع من الزوج إنما وقع بفداء من المرأة- افتدت نفسها به - فهذا لا يمكن أن نعده طلاقًا ولو وقع بلفظ الطلاق، وما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه منظور فيه إلى المعنى، وما قاله غيره - من أنه إذا وقع بلفظ الطلاق كان طلاقًا - فقد نظر فيه إلى اللفظ، ولا ريب أن من تأمل الشريعة وجد أنها تعتني بالمعنى أكثر من الاعتناء باللفظ، أما الألفاظ فهي قوالب للمعاني، وأنت إذا ألبست المرأة ثوب رجل لا تكون رجلًا، كما أنك إذا ألبست رجلًا ثوب امرأة لم يكن امرأة، فالألفاظ عبارة عن قوالب تدل على ما وراءها، فإذا صار المعنى هو التخلص من الزوج بهذا الفداء، فكيف يحسب طلاقًا؟!

١٤ - **ومن فوائد الآية**: تعظيم شأن النكاح بأن الله ذكر له حدودًا في عقده وفي حله؛ لأنه يترتب عليه مسائل كثيرة من المحرمية والنسب والميراث وغير ذلك - كحقوق الزوجية؛ ولهذا اشترط فيه أن يكون بِوَلي، فالمرأة تستطيع أن تبيع كل مالها، لكن لا تستطيع أن تزوج نفسها، كما اشترط فيه الإشهاد على رأي كثير من أهل العلم، وكل العقود لا يشترط فيها ذلك، وأيضًا اشترط فيه الإعلان على رأي بعض أهل العلم، والعقود الأخرى لا يشترط فيها ذلك، وأيضًا أنه لا يصلح العقد في بعض الأحوال والأزمان، وهذا يشاركه فيه بعض العقود، وكل ذلك من باب الأهمية في هذا العقد العظيم الذي تترتب عليه هذه الأمور الكبيرة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: الخطاب هنا لعامة الناس؛ أي: إذا طلق الأزواج نساءهم ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قال بعض العلماء: المراد قاربن بلوغ أجلهن؛ لأنها إذا بلغت الأجل انتهت

العدة ولا إمساك حينئذٍ، ولكن الصحيح أن المراد ببلوغ أجلهن حقيقة بلوغ الأجل، وذلك بطهرها من الحيضة الثالثة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ردوهن إلى عصمتكم - وهو مراجعة ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهن بدون مراجعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ ﴿لا﴾ ناهية، والفعل بعدها مجزوم بحذف النون، و﴿ضِرَارًا﴾ مفعول لأجله، والمعنى: لا تمسكوهن لأجل الإضرار بهن، وقد مَرَّ أنهم كانوا في الجاهلية يراجعون الزوجات في العدة من أجل المضايقة؛ فحدد الله المراجعة باثنتين، وأنه بعد الثالثة لا رجوع حتى تنكح زوجًا غيره.

وقوله تعالى: ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾؛ اللام للعاقبة والمعنى: لتقعوا في الاعتداء، أي: إن عاقبة أمركم إذا أمسكتموهن ضرارًا هي الاعتداء، واللام التي تعرف عند بعض النحويين بـ«لام كي» تارة يراد بها التعليل، وتارةً تكون زائدة، وتارةً تكون للعاقبة؛ فتكون للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦]؛ وتكون زائدة كما في قوله تعالى: ﴿يريدالله ليبين لكم﴾ [النساء: ٢٦]؛ فإذا جاءت بعد الإرادة فهي زائدة؛ لأن فعل الإرادة يتعدى بنفسه، وتأتي للعاقبة: وهي إذا علم بأن ما بعدها غير مقصود، مثل قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ جملة شرطية، وجوابها قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، وارتبط الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصح أن يحل محل الشرط، وأضاف الظلم إلى نفسه وإن كان ظلمه واقعًا على غيره لأنه جلب على نفسه الإثم والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: لا تجعلوها مهزوءًا بها، أي: موضع استهزاء بحيث لا تعملون بها استخفافًا بها.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اذكروا باللسان وبالقلب وبالجوارح نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها، فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مفرد مضاف، والمفرد المضاف يدل على العموم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]؛ ولو كان المراد بالنعمة مدلولها الإفرادي لكان إحصاؤها ممكنًا، المهم أن نعمة الله هنا عامة، ونعم الله لا تحصى أجناسها فضلًا عن أفرادها، فقوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يشمل كل النعم وإن دقت؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ الواو حرف عطف، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وَخَصَّهُ بالذكر مع كونه من النعم للعناية به، والمراد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة النبوية.

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يذكِّركم به ترغيبًا وترهيبًا، والجملة في محل نصب حال من فاعل ﴿أَنزَلَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ما أكثر ما يأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالتقوى؛ لأن بالتقوى صلاح القلوب والأعمال، و«التقوى» فعل أوامر الله واجتناب نواهيه تقربًا إليه وخوفًا منه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أمر بالعلم بأن الله بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن لكل طلاق أجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، الأجل هنا مجمل، ولكنه مبين في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ وغيرها من الآيات الدالة على العدة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن يأتي مجملًا أحيانًا ومفصلًا أحيانًا، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]؛ وفائدة الإتيان بالإجمال ثم التفصيل: أنه إذا ورد النص مجملًا فإن النفس تتطلع إلى معرفة ذلك المجمل وبيان ذلك المبهم؛ فيكون في ذلك شدة الاشتياق إلى العلم.

٢ - **ومن فوائد الآية:** جواز المراجعة بعد تمام العدة قبل أن تغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾، وجه الدلالة أن قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ جواب للشرط في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ وهذا يقتضي أن يكون الإمساك أو التسريح بعد بلوغ الأجل ضرورة أن المشروط يقع بعد الشرط، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، فذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ إلى أن للزوج أن يراجع زوجته بعد طهرها من الحيضة الثالثة حتى تغتسل، فلو طهرت في الصباح بعد الفجر، ثم لم تغتسل إلَّا لصلاة الظهر، وراجعها زوجها فيما بين طهارتها واغتسالها صحت المراجعة، وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه ينتهي وقت المراجعة بالطهارة من الحيضة الثالثة، وأوَّلوا قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أن المعنى: قاربن بلوغ أجلهن، وأنه لا رجعة بعد الطهر من الثالثة؛ والقول الأول أصح؛ لأنه هو ظاهر الآية، وهو الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويكون هذا من باب التوسعة على الزوج؛ لأنه قد يندم فيرجع، وهو نظير ثبوت الخيار بين المتبايعين ما داما في المجلس، وإلا فالعقد قد تم بالإيجاب والقبول، لكن لهما الخيار ما داما في المجلس توسعة عليهما، وهذا شيء معلوم في غريزة الإنسان وطبيعته: إنه إذا مُنِعَ من الشيء صار في شوق إليه، فإذا حصله فقد يزهد فيه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الإمساك بمعروف أو التسريح بمعروف واجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

٤ - **ومنها**: وجوب المعاشرة بالمعروف حتى بعد الطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، لئلا يؤذي الإنسان زوجته بالقول أو بالفعل أو بمنع الحقوق أو ما أشبه ذلك ومما هو معروف أن ما يجري بين الأزواج أحيانًا من المشاحنة، وادعاء الزوج ما يكون لزوجته من الأمتعة التي أعطاها إياها في المهر، أو فيما بعد ذلك حتى يطالبها بالحلي التي أعطاها - خلاف المعروف الذي أمر الله به.

٥ - **ومنها**: عناية الله - عزَّ وجلَّ - بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق، أو في حال الاختلاف؛ لأن ذلك هو الذي يقيم وحدة الأمة، فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف - بل بالمنكر والإساءة - تفرقت واختلفت، فالأمة الإسلامية أمة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٦ - **ومنها**: تحريم إمساك المطلقة - أي: مراجعتها - للإضرار بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

٧ - **ومنها**: أن كل من عامل أخاه ضرارًا فهو معتدٍ، فلا يحل لأحد أن يعامل أخاه المسلم على وجه المضارة، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ ضَارَّ ضَارَّ اللهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللهُ عَلَيْهِ»[1]؛ وجاء في حديث آخر: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»[2]، فالمضارة بين المسلمين محرمة؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

٨ - **ومنها**: أن المضارة عدوان؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾ سواء كانت اللام للعاقبة أو للتعليل، أي: سواء كان المقصود من المضارة الاعتداء أو لم يقصد الاعتداء لكن حصل.

٩ - **ومنها**: تحريم ظلم الإنسان لنفسه؛ لأن الله تعالى نهى عن هذه الأشياء، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

١١ - **ومنها**: أن فعل المعاصي ظلم للنفس؛ فلا يقول الإنسان: (أنا حرٌّ أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب). هذا خطأ، فأنت لا يحل لك أن تظلم نفسك، فظلم الغير عدوان وحرام، وظلم النفس أيضًا عدوان وحرام، وفي الحديث: «وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[3].

١٢ - **ومنها**: أن من ظلم غيره بعدوانه عليه فقد ظلم نفسه في الحقيقة؛ لأن المظلوم إذا لم يتخلص الظالم من مظلمته في الدنيا فسوف يؤخذ من حسناته للمظلوم في الآخرة، فإذا فنيت حسناته أُخذ من سيئات المظلوم فطرحت عليه، ثم طرح في النار؛ ولذلك عَبَّرَ الله عن الإضرار

---

(١) رواه البخاري (٦٧٣٣)، والترمذي (١٩٤٠)، وأبوداود (٣٦٣٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٢٨٦٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١١١٦٦)، والدارقطني (٢٨٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٥٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٦٧)، والدارمي (٢١٦٩).

بالزوجة في إمساكها بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ مع أنه ظالم للزوجة أيضًا.

١٣ - **ومنها**: إغراء المخاطب باجتناب ظلم غيره؛ لأن الظالم قد يظن أنه منتصر على المظلوم، فإذا علم أنه ظالم لنفسه تهيب ذلك، واستقام على العدل.

١٤ - **ومنها**: أن آيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية: وهي ما جاءت به الرسل من الشرع، وآيات كونية: وهي هذه الكائنات التي نشاهدها في السموات والأرض والشمس والقمر، أما كون ما جاءت به الرسل من الشرع آية فلأنها أمور لا يمكن أن يأتي البشر بمثلها - ولاسيما القرآن الكريم - وأما كون هذه الكائنات آيات كونية؛ فإن هذه المخلوقات لا يمكن لأحد أن يخلق مثلها، وقد تحدى الله - عزَّ وجلَّ - أولئك العابدين أن تخلق معبوداتهم شيئًا من هذه الكائنات، فقال - عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، فهذه المخلوقات في انتظامها وحسنها، كلها آيات تدل على أن الله - سبحانه وتعالى - هو الخالق، وعلى وحدانيته، وعلى قدرته وتمام حكمته، كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

١٥ - **ومن فوائد الآية**: تحريم اتخاذ آيات الله هزوًا سواء اتخذ الكل أم البعض، فمثال اتخاذ آيات الله الشرعية هزوًا: أن يهزأ الإنسان ويسخر من شرع الله - عزَّ وجلَّ - سواء سخر بالشرع كله، أو بجزء منه؛ لأن الاستهزاء ببعض الشريعة استهزاء بجميع الشريعة، وهناك فرق بين مَنْ يَدَعُ العمل مع تعظيمه لشرع الله - عزَّ وجلَّ - وبين من يسخر بالشرع ويستهزئ به ويرى أنه عبث وأنه باطل، وما أشبه ذلك، فالأول له حكم العصاة، فإن كانت معصيته كبيرة تبلغ به الكفر فهو كافر، وإلَّا فهو فاسق، وإلا فهو دون الفاسق - كما لو كانت من صغائر الذنوب، ولم يصر عليها - وأما الثاني المستهزئ الذي يرى أن الشرع عبث، أو أنه لأناس انقرضوا ومضوا، وأن هذا العصر لا يصلح للعمل بهذا الشرع؛ فهذا لا شك أنه كافر، وإذا استهزأ مستهزئ بحامل الشريعة أو العامل بها من أجل حمله الشريعة أو عمله بها فهو كافر؛ لأنه استهزأ بشريعة من شرائع الله؛ ولهذا قال - عزَّ وجلَّ - في أولئك النفر الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون الرسول ﷺ، وأصحابه - أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، قال الله - سبحانه وتعالى - فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، أما الذين يقولون عن حملة الشرع والعاملين به: هؤلاء دراويش لا يعرفون المجتمع ولا الدنيا. وما أشبه ذلك من الكلمات، فهؤلاء أيضًا كفار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا

مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢]؛ وفي معنى ذلك قولهم: هؤلاء رجعيون وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدل على كفرهم في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، فدل هذا على أن أولئك الذين يسخرون بالمؤمنين من أجل إيمانهم كفار.

ومثال اتخاذ الآيات الكونية هزوًا: لو نزل المطر في أيام الصيف - وهذا لم تجر به العادة - فقال: ما هذا التبديل! يوم أن يكون الناس محتاجين إلى المطر في الشتاء لا يجيء؛ والآن يأتي! وهذا يمكن أن يوجد من بعض الفجرة الذين يقولون مثل هذا الكلام، أو مثلًا يُغْلَبُ قوميون من العرب - تغلبهم اليهود مثلًا - فيقول المستهزئ بآيات الله الكونية : ما هذا؟ كيف يكون النصر لليهود على العرب على بني كنعان وعدنان وقحطان، كيف هذا وهم بنو إسرائيل؟! وما أشبه ذلك، لكن المؤمن يستسلم لأمر الله - عزَّ وجلَّ - الكوني كما يستسلم لأمره الشرعي، ويرى أنه في غاية الحكمة، وفي غاية الإتقان، وأنه في مكانه، وأن ما حدث فهو واقع موقعه، وأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - حكيم لا يصنع شيئًا إلَّا لحكمة، فالمهم: أن الاستهزاء بالآية الكونية يمكن أن يكون، وقد نهى الله تعالى أن تتخذ آياته هزوًا، وهو عام للكونية والشرعية، لكن بما أن الآية في سياق الآية الشرعية تكون أخص بالآيات الشرعية منها بالآيات الكونية.

١٦ - ومن فوائد الآية: أن المخالفة نوع من الاستهزاء؛ لأنك إذا آمنت بأن الله - عزَّ وجلَّ - هو الرب العظيم الذي له الحكم، وإليه الحكم، ثم عصيته فكأنك تستهزئ بهذه العظمة، فلو أن ملكًا من الملوك - ولله المثل الأعلى - نهاك عن شيء، ثم إنك أمامه وعلى عينه تخالف هذا الأمر، فسيقول لك: أنت تستهزئ بي؛ لأني نهيتك، ففعلتَ ما نهيتك عنه أمامي. فالمعصية نوع من الاستهزاء بالله - عزَّ وجلَّ - وإن كانت ليست من النوع الذي يخرج به الإنسان من الإسلام.

١٧ - ومن فوائد الآية: وجوب ذكر نعمة الله - سبحانه وتعالى - لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فذكرها باللسان أن تقول: أنعم الله عليّ بكذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فتثني على الله - عزَّ وجلَّ - بها تقول: اللهم لك الحمد على ما أنعمت عليَّ به من المال أو الزوجة أو الأولاد، أو ما أشبه ذلك، وذكرها بالقلب أن تستحضرها بقلبك معترفًا بأنها نعمة من الله، وذكرها بالجوارح أن تعمل بطاعة الله، وأن يُرى أثَرُ نعمته عليك.

١٨ - ومن فوائد الآية: أن منة الله علينا بإنزال الكتاب والحكمة أعظم من كل منة، يؤخذ ذلك من تخصيصها بعد التعميم؛ لأن التخصيص بعد التعميم يدل على أهميتها.

١٩ - ومنها: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ لأن ما أنزل الله إما أن يكون عينًا قائمة بنفسها، أو صفة قائمة بموصوفها، فأما الأول: فمخلوق، كما في قوله تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأما الثاني: فكقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وكما في هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا يكون صفة لله -عزَّ وجلَّ- غير مخلوقة.

٢٠ - **ومن فوائد الآية**: أن شريعة الله - عزَّ وجلَّ - كلها حكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أنه لا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا في طلب الحكمة، أو أن نتمحل حكمة بعيدة قد تكون مرادة لله، أو غير مرادة؛ لأننا نعلم أن كل ما شرعه الله فهو لحكمة، ومن الحكمة امتحان العبد بالامتثال فيما لا يعلم حكمته؛ ولهذا لما سُئِلَت عائشة رضي الله عنها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نقضي الصلاة [1]. فجعلت الحكمة أمر الله - سبحانه وتعالى - ورسوله ﷺ، أما السؤال عن الحكمة من باب الاسترشاد فإن هذا لا بأس به؛ ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الرسول ﷺ عن حكمة بعض الأشياء، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والسؤال على هذا الوجه من باب طلب العلم الذي يزداد به المؤمن إيمانًا، وعلمًا وأما السؤال عن الحكمة بحيث لا يستسلم الإنسان للحكم ولا ينقاد إلَّا بمعرفتها فهذا ضلال، واستكبار عن الحق، واتباع للهوى، وجعل الشريعة تابعة لا متبوعة.

٢١ - **ومن فوائد الآية**: أن ما جاء في كتاب الله موعظة يتعظ بها العبد؛ والاتعاظ معناه: أن الإنسان يجتنب ما فيه مضرة إلى ما فيه منفعة، يقال: وعظته فاتعظ، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرته إلى ما فيه مصلحته؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

٢٢ - **ومنها**: ثبوت رحمة الله - عزَّ وجلَّ - وأن الله تعالى ذو رحمة واسعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾، فرحمة الله تعرف بآثارها.

٢٣ - **ومنها**: وجوب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٤ - **ومنها**: عموم علم الله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٥ - **ومنها**: تحذير المرء من المخالفة؛ لأنه إذا علم أن الله بكل شيء عليم حذر من مخالفته؛ ولهذا أعقبها بعد الأمر بالتقوى، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٦ - **ومنها**: الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى تقع

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، والنسائي (٢٣١٨)، وأبو داود (٢٦٣).

منهم، وهذا كان الغلاة يقولونه قديمًا، قال شيخ الإسلام: ومنكروه اليوم قليل. والقدرية هم الذين يقولون: إن للعبد مشيئة وقدرة مستقلتين عن الله -عزَّ وجلَّ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ سبق معنى الطلاق، والخطاب للأزواج، والمراد بـ ﴿النِّسَاءَ﴾: الزوجات.

قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انتهت عدتهن، وقوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: تمنعوهن، والخطاب للأولياء، ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ جمع زوج، وسمي الزوج زوجًا؛ لأنه يجعل الفرد اثنين بالعقد؛ فالزوج يشفع زوجته، وهي كذلك، والمراد بـ «الأزواج» هنا: الخاطبون لهن، وَعَبَّرَ عنهم بالأزواج باعتبار ما يكون، وقيل: الضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يعود للأزواج، وكانوا في الجاهلية إذا طلق الواحد منهم امرأته يستنكف أن يتزوجها أحد من بعده، فيمنعها من أن تتزوج بغيره إن استطاع، والأول أقرب، لكن لا مانع من حمل الآية على المعنيين.

وأضاف هنا النكاح إلى النساء؛ لأن المراد به العقد، والعقد حاصل من الطرفين؛ فيقال: نكحت المرأة الرجل؛ ونكح الرجل المرأة، وأما الوطء فيقال: نكح الرجل زوجته، ويقال: نكح بنت فلان أي: عقد عليها-؛ فإذا كان المراد بالنكاح العقد صَحَّ أن يطلق على الرجل وعلى المرأة، وإذا كان الجماعَ فهو للرجل خاصة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا﴾ أي: النساء وأزواجهن، و﴿تَرَاضَوْا﴾ صيغة مفاعلة أي: حصل الرضا من الطرفين، و﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأزواج والزوجات، و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ الباء للمصاحبة فالمعنى: أن يكون الرضا بينهم مصاحبًا للمعروف غير منكر شرعًا ولا عرفًا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، المشار إليه ما سبق من الأحكام، والكاف للمخاطبة، والخطاب لكل من يصح خطابه.

فإن قال قائل: لماذا لم يجيء الخطاب جمعًا مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا

تَعۡضُلُوهُنَّ﴾؟

فيقال: إن اسم الإشارة إذا خوطب به جماعة جاز أن يُذْكَرَ مفردًا، ولو كانوا جماعة، وجاز أن يراعى في ذلك المخاطَب، فالكاف التي تتصل باسم الإشارة يجوز فيها لغة ثلاثة أوجه كما سبق في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]، و﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يذكَّر به وينتفع، و﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ هو يوم القيامة ووصف بذلك لأنه آخر مراحل الإنسان.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾، المشار إليه ما سبق من الأحكام، وأتى الخطاب مراعيًا فيه المخاطب وهم جمع، و﴿أَزۡكَىٰ﴾: اسم تفضيل من الزكاء، والزكاء في الأصل النمو، ومنه الزكاة؛ لأنها تنمي المال بإحلال البركة فيه، وتنمي الأخلاق بخروج الإنسان عن طائفة البخلاء إلى طائفة الكرام، وقوله: ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: في أعمالكم ونموها وكثرتها؛ لأنكم إذا اتعظتم بذلك أطعتم الله -عزَّ وجلَّ- ورسوله ﷺ، فزادت الأعمال وزاد الإيمان؛ لأن الإيمان يزداد بامتثال الأمر واجتناب النهي لله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ أي: أشد طهرًا من الذنوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ أي: ما فيه مصلحتكم ونقاؤكم وطهركم، وحذف المفعول لإفادة العموم؛ لأنه إذا حذف المفعول من الفعل المتعدي صار شاملًا لكل ما يحتمله؛ فهو يعلم الحاضر والمستقبل والماضي وما يصلحكم وما لا يصلحكم، ومن يمتثل منكم ومن لا يمتثل، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا تعلمون ذلك، والجملة هنا اسمية في إسناد الله العلم إلى نفسه، وفي نفي العلم عن عباده.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه لا يحل عقد النكاح قبل انقضاء العدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾، فإن النكاح في العدة باطل إلَّا ممن كانت العدة له إذا لم يكن طلاقه بينونة كبرى.

٢ - **ومنها:** تحريم منع الولي موليته أن تنكح من رضيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

٣ - **ومنها:** أن النكاح لابد فيه من ولي، وأن المرأة لا تزوج نفسها، وجه ذلك أنه لو كانت تملك العقد لنفسها ما كان للعضل تأثير، فلولا أن عضلهم مؤثر ما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾؛ لأنهم لو عضلوا ولم يكن الولي شرطًا لزوجن أنفسهن، وربما ينازع منازع في دلالتها على ذلك؛ لأنه قد يقول: إن الله نهى عن منعهن، والإنسان قد يمنع بحسب العادة أو العرف ابنته أو موليته من أن تنكح زوجًا - وإن كان يمكنها أن تتزوج هي بنفسها - لأنها لا تريد أن تخالفهم مخافة المعرة واللوم من الناس، بمعنى: أن الآية ليست صريحة واضحة في أنه لا يمكن النكاح إلَّا بولي؛ لأنه ممكن أن يكون لها حق تزويج نفسها لكن يمنعها أبوها، ويقول: إذا زوجتِ نفسك قاطعتك أو هجرتك، وعلى فرض أنها لا تدل

على ذلك فهناك أدلة أخرى تدل على اشتراط الولي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقول النبي ﷺ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»[1].

٤ - **ومن فوائد الآية**: إطلاق الشيء على ما مضى، أو ما يستقبل مع أنه في الحال لا يتصف به؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾؛ لأنه إذا كان المراد مَنْ طلقت، ثم أراد زوجها أن يعود إليها، فهم أزواجهن باعتبار ما مضى، وإن كان المراد الخُطَّاب الذين يخطبونهن بعد انقضاء العدة فهم أزواجهن باعتبار المستقبل، وقد جاء التعبير عن الماضي والمستقبل في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢] مع أنهم حين إتيان المال قد بلغوا، فهذا تعبير عن الماضي، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، وهو لا يعصر الخمر ولكن يعصر عنبًا يكون خمرًا، فهذا تعبير عن المستقبل.

٥ - **ومن فوائد الآية**: اعتبار الرضا في عقد النكاح سواء كان من الزوج أو من الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾، فالرضا شرط لصحة النكاح سواء أكانت المرأة بكرًا أم ثيبًا، وسواء أكان الولي أباها أم غيره - على القول الراجح - وأنه ليس للأب ولا لغيره أن يجبر المرأة على النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «لَا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرُ؛ وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنُ»، قالوا: كيف إذنها يا رسول الله؟ قال:«أَنْ تَسْكُتَ»[2]. وورد في صحيح مسلم: «الْبِكْرُ يَسْتَأْذِنُهَا أَبُوهَا»[3]. وهذا صريح في أنه لا يحل لأحدٍ أن يزوج ابنته وهي كارهة، بل لابد من رضاها والمعنى يقتضيه أيضًا؛ لأنه إذا كان الأب لا يملك أن يبيع شيئًا من مالها إلَّا برضاها، فكيف يملك أن يزوجها بدون رضاها؟! فلو أن رجلًا أكره ابنته أن تشتري هذا البيت فالعقد غير صحيح، مع أنه بإمكانها إذا اشترت البيت وهي كارهة أن تبيعه بعد يوم أو يومين؛ فكيف يملك أن يكرهها على أن تتزوج برجل لا تريده؟! فالشريعة جاءت من لدن حكيم خبير، فالصواب بلا شك أنه لا يحل للإنسان أن يجبر ابنته على نكاح من لا تريد مهما كان، لكن إذا أرادت إنسانًا ليس مرضيًّا في دينه وخلقه فللولي أن يأبى - ولو بقيت لا تتزوج طوال عمرها - فليس عليه شيء؛ لأنه مأمور بذلك وما يترتب على المأمور فغير محظور.

فإن قيل: يرد على ذلك تزويج أبي بكر رضي الله عنه عائشة رضي الله عنها من النبي ﷺ ولها ست سنين؟

فالجواب: أن يقال: لن يرد مثل هذه الصورة؛ لأننا نعلم علم اليقين أن عائشة رضي الله عنها سترضى برسول الله ﷺ، ولا تبغي به بديلًا؛ ولذلك لما أمره الله - عزَّ وجلَّ - أن يخير نساءه فبدأ بها رضي الله عنها وقال ﷺ: «لَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ»؛ قالت: يا رسول الله، أفي هذا أستأمر

(١) صحيح: رواه الترمذي (١١٠١)، وأبو داود (٢٠٨٥)، وابن ماجه (١٨٨٠).
(٢) رواه البخاري (٤٨٤٣)، ومسلم (١٤١٩).
(٣) رواه مسلم (١٤٢١)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٤٤١).

أبوي؟! إنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1]؛ وعلى هذا لا يتم الاستدلال بها على تزويج المرأة بغير إذنها.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن المرأة لو رضيت الزوج على وجه غير معروف - بل على وجه منكر لا يقره الشرع - فإنها لا تمكن من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فلو أن المرأة رضيت هذا الخاطب لفسقه وانسلاخه من الدين - وإن لم يصل إلى حد الكفر - فلوليها أن يمنعها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٧ - **ومنها**: إثبات اليوم الآخر - وهو يوم القيامة - لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما ذكر في ذلك اليوم من البعث والحساب والصراط ودنوِّ الشمس والعرق، وغير ذلك مما ذكر في الكتاب والسنة مجملًا أحيانًا ومفصلًا أحيانًا؛ بل قال شيخ الإسلام- رحمه الله: يدخل فيه الإيمان بكل ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه وغير ذلك.

٨ - **ومنها**: أن الاتعاظ بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، فهو ينمي النفس، وينمي الإيمان، وينمي الأخلاق، وينمي الآداب، فكلما كان الإنسان أشدَّ تطبيقًا لأحكام الله كان ذلك أزكى له.

٩ - **ومنها**: أن تطبيق الأحكام أطهر للإنسان، يعني: أطهر للقلب؛ لأن الأعمال الصالحة تطهر القلب من أرجاس المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسان المؤمن من الحيوية والنشاط والسرور والفرح ما ليس عند غيره ويعرف ذلك في وجهه، فالإنسان صاحب المعاصي مظلم الوجه كاسف البال، ولو فرح بما فرح من زهرة الدنيا فهو فرح خاسر، لكن المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، وامتلأ قلبه بنور الله وهدايته ليس كذلك، وأسعد الناس في الدنيا أطهرهم قلبًا.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى نقص الإنسان في علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فنفى عن الإنسان العلم، والمراد نفي كماله؛ لأن الإنسان له علم، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]؛ لكن لنقصان علمه نفى الله عنه العلم، وهنا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإذا كان الله يعلم ونحن لا نعلم فإن مقتضى ذلك أن نستسلم غاية الاستسلام لأحكامه ـ سبحانه وتعالى ـ وأن لا نعارضها بعقولنا مهما كانت؛ ولهذا ينعى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الكفار والمشركين عدم العقل، وكل ما خالف الشرع فليس بعقل.

(١) رواه البخاري (٢٣٣٦)، ومسلم (١٧٤٥).

قال الله تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ اسم فاعل، أي اللاتي ولدن، ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ الإرضاع معروف، والأولاد يشمل الذكور والإناث، كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، والجملة خبرية بمعنى الأمر، وإتيان الأمر بصيغة الخبر أبلغ من الأمر المحض كأنه حين يأتي بصيغة الخبر أمر مستقر يتحدث عنه.

قوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾: الحول بمعنى السنة؛ وهو اثنا عشر شهرًا هلاليًّا؛ ثم أكد الله هذين الحولين بقوله تعالى: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ أي بدون نقص.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾؛ الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك لمن أراد، فيكون المراد به: الوالدات المرضعات، وذَكَّر الضمير في ﴿أَرَادَ﴾ باعتبار لفظ (مَن)، ويحتمل أن يكون متعلقًا بقوله تعالى: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، فيكون المعنى: الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الأزواج، فهنا مرضِع ومرضَع له، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، ولو قيل: إن الآية تشمل هذا وهذا لم يكن بعيدًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي: أن يأتي بها على وجه التمام؛ فإنها لا تنقص عن حولين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾، ﴿الْمَوْلُودِ﴾ اسم جنس، أو أن «أل» اسم موصول؛ لأنها إذا اقترنت بمشتق صارت اسمًا من الأسماء الموصولة المشتركة - أي: الصالحة للواحد ومن فوقه - فحينئذٍ أفرد الضمير الراجع إليها - ﴿لَهُ﴾ - باعتبار اللفظ؛ وجُمع ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ باعتبار المعنى، وملاحظة المعنى واللفظ في هذه الألفاظ المشتركة جاء بها القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الطلاق: ١١]، ﴿يُدْخِلْهُ﴾ باعتبار اللفظ: مفرد، و﴿خَالِدِينَ﴾ باعتبار المعنى: جمع.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم، و﴿لَهُۥ﴾ متعلقة بـ﴿ٱلْمَوْلُودِ﴾، و﴿رِزْقُهُنَّ﴾ مبتدأ مؤخر.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: على الزوج أو السيد أو الواطئ بشبهة، ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: نفقتهن ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: ما يكسو به الإنسان بدنه، وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: رزقهن وكسوتهن بما تعارف الناس بينهم عليه.

قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: التكليف معناه إلزام ما فيه مشقة، أي: لا يلزم الله - عزَّ وجلَّ - نفسًا إلَّا ما تقدر عليه.

قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾: المضارة في طلب ما يضر الغير، وفي الآية قراءتان: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ بفتح الراء؛ و(لا تضارُّ) بضمها، فعلى قراءة الفتح تكون ﴿لَا﴾ ناهية و﴿تُضَآرَّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية وحرك بالفتح لالتقاء الساكنين.

فإذا قيل: لماذا لم يحرك بالكسرة؛ لأن التحريك بالكسرة هو الغالب في التقاء الساكنين، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١]؟

فالجواب: أن الفتح أخف، أما على قراءة الرفع فإن ﴿لَا﴾ نافية، و(تضارُّ) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

وقوله تعالى: ﴿تُضَآرَّ﴾ يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأصله: «تضارِر» بكسر الراء الأولى، و﴿وَٰلِدَةٌۢ﴾ فاعل، ويحتمل أن يكون مبنيًّا لما لم يسم فاعله، وأصله: «تضارَر» بفتح الراء الأولى، و﴿وَٰلِدَةٌۢ﴾ نائب فاعل، وفاعل الإضرار المولود له على هذا الاحتمال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾: الواو حرف عطف، و﴿لَا﴾ نافية و﴿مَوْلُودٌ﴾ معطوف على والدة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ خبر مقدم، و﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ مؤخر، والمشار إليه الرزق والكسوة، يعني: أن على وارث المولود مثل ما على أبيه من النفقة والكسوة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، الفصال: بمعنى الفطام، والفاعل في ﴿أَرَادَا﴾ يعود على الوالدة والمولود له، فلابد من أن يقع هذا الفصال عن تراضٍ منهما؛ لقوله تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾، و«التراضي» تفاعل من رضي، فلابد أن يكون من الطرفين، فلو رضيت الأم دون الأب امتنع الفصال، ولو رضي الأب دون الأم امتنع الفصال، و«التشاور» تفاعل أيضًا وأصله من: شار العسل إذا استخلصه من الشمع، والمراد به: تبادل الرأي بين المتشاورين لاستخلاص الأنفع والأصوب، فلابد من أن يقع التشاور من أجل مصلحة الطفل، فينظر هل من مصلحته أن يفطم قبل الحولين، أو من المصلحة أن يبقى حتى يتم الحولين، أو من المصلحة أن يبقى بعد الحولين أيضًا؟ فربما يكون محتاجًا إلى الرضاعة حتى بعد الحولين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا إثم على الأبوين في فصاله قبل تمام الحولين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: إن أردتم أن تطلبوا لأولادكم من يرضعهم، وتوجيه الخطاب للجماعة من باب الالتفات من الخطاب بالتثنية إلى الخطاب بالجمع، فهو موجه للعموم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلا إثم عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم﴾ أي: إذا أعطيتم ما اتفقتم عليه في العقد على الإرضاع، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما عرف من حسن القضاء بحيث لا يكون نقصٌ ولا مماطلة فيما اتفق عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿آتَيْتُم﴾ قراءتان: أحدهما بمد الهمزة، والثانية بقصرها، والفرق بينهما أن (أتيتم) المقصور معناه: جئتم، و(آتيتم) الممدود معناه :أعطيتم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، وإن شئنا قلنا: إن تصديق أخباره داخل في فعل أوامره؛ لأن تصديق الأخبار من الواجبات.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وقدم على عامله للمبادرة بالتحذير والتأكيد على علمه بما نعمل، والعلم بأن الله بما نعمل بصير من تقوى الله - عزَّ وجلَّ - لكن لما كان من تمام التقوى أن تعلم أن الله بما تعمل بصير نص عليه؛ لأنك متى علمت ذلك خفت من هذا الذي هو بصير بعملك أن يجدك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك؛ لأنه بصير بذلك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب الإرضاع على الأم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن الله - عزَّ وجلَّ - أرحم بخلقه من الوالدة بولدها؛ لأنه أمرها أن ترضع مع أن فطرتها وما جُبِلَتْ عليه تستلزم الإرضاع؛ وهذا لأن رحمة الله أعظم من رحمة الأم بولدها، ومثله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، فلأن الله أرحم بأولادنا منا أوصانا فيهم.

٣ - **ومنها:** أن الرضاع التام يكون حولين كاملين؛ لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

٤ - **ومنها:** توكيد اللفظ لينتفي احتمال النقص؛ لقوله تعالى: ﴿كَامِلَيْنِ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فأكدها بـ﴿كَامِلَةٌ﴾؛ لئلا يتوهم واهم في تلك العشرة الكاملة أن تفريق الثلاثة والسبعة يقتضي أن يكون كل عدد منفردًا عن الآخر.

٥ - **ومنها:** أنه ينبغي استعطاف المخاطب بما يقتضي عطفه على الشيء؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ حيث أضاف الأولاد إلى المرضعات.

٦ - **ومنها**: أنه يجوز النقص عن الحولين، لكن ذلك بالتشاور والتراضي؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، لكن يجب أن نعلم أن الإتمام تارةً يكون واجبًا إذا ترتب على تركه إخلال بواجب، كقوله ﷺ: «مَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١). وتارةً يكون من باب الكمال، كما في هذه الآية: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا..﴾ إلخ، ولو كان الإتمام إتمام واجب لم يكن فيه خيار.

فإن قيل: هل تجوز الزيادة على الحولين؟

فالجواب: أنه ينظر في حال الطفل إن بقي محتاجًا إلى اللبن زيد بقدره، وإن لم يكن محتاجًا فقد انتهت مدة رضاعته، وقوله تعالى: ﴿الرَّضَاعَةَ﴾ هي اسم مصدر بمعنى الإرضاع الذي يحتاجه الطفل.

٧ - **ومن فوائد الآية**: الرد على الجبرية في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، والجبرية يسلبون الإنسان إرادته وقدرته واختياره ويقولون: الإنسان ليس له إرادة ولا قدرة إنما هو مجبر على عمله. فلا يرون فرقًا بين الذي يتحرك ارتعاشًا والذي يتحرك اختيارًا.

٨ - **ومنها**: أن الولد هبة للوالد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾، فبعض العلماء استنبط أن هذه الآية تدل على أن الوالد موهوب له، وعلى كل حال هذا شبيه بقول النبي ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»(٢).

٩ - **ومنها**: أنه قد يكون للشيء الواحد سببان، فالرزق والكسوة هنا لهما سببان، كفقير غارم، وإذا تخلف أحد السببين بقي حكم السبب الآخر، فلو فرض أن امرأة ناشز لا تطيع زوجها فيما يجب عليها، وهي ترضع ولده كان لها الرزق والكسوة لا بالزوجية - لأنها ناشز - ولكن بالرضاعة.

فإن قيل: إذا كان سبب الرزق والكسوة الزوجية أصبح الرضاع عديم التأثير؟

قلنا: لا؛ لأننا إذا قلنا: إن تخلف الإنفاق بالزوجية وجب بالرضاع، هذه واحدة. ثانيًا: أنه ربما يترتب لها من الطعام والكسوة إذا كانت ترضع ما لا يترتب لو كانت لا ترضع، فالمرضع ربما تحتاج إلى غسل ثيابها دائمًا من الرضاعة، وتحتاج إلى زيادة طعام وشراب.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: اعتبار العرف بين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذا ما لم يخالف الشرع، فإن خالفه رد إلى الشرع.

١١ - **ومنها**: أنه يجب على المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فيرجع إلى العرف في نوع الرزق وكميته وكيفيته وكذلك الكسوة.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩)، ومسلم (٦٠٣).

(٢) صحيح: رواه أبوداود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٦٦٧٨)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).

١٢ - **ومنها،** وجوب الإنفاق على المولود له من زوج أو غيره للمرضع، وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن تكون الزوجة في حباله أو بائنًا منه، فإن كانت في حباله فلوجوب الإنفاق عليها سببان: الزوجية والإرضاع، وإن لم تكن في حباله فلها سبب واحد وهو الإرضاع، ولا يمتنع أن يكون للحكم الواحد سببان - كما سبق - كما في الزوج يكون ابن عم، فيرث بالزوجية والقرابة.

١٣ - **ومنها،** أن المعتبر حال الزوجة لا حال الزوج، فيرجع تقدير الرزق والكسوة إلى حال الزوجة، فكأنه قال: الرزق الذي يصلح لمثلها، والكسوة التي تصلح لمثلها، وعلى هذا فإذا كان الزوج فقيرًا وهي غنية يُلزَم بنفقة غني وكسوة غني، وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم، وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن المعتبر حال الزوج، واستدل بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وأجيب عن الآية بأن المراد: رزقهن من أمثالكم وكسوتهن من أمثالكم، وبهذا تجتمع الآيتان، وقال بعض أهل العلم: بل نعمل بالآيتين جميعًا، فنقول: المعتبر حال الزوج والزوجة جميعًا: إن كانا موسرين فنفقة الموسر، وإن كانا معسرين فنفقة المعسر، وإن كان أحدهما فقيرًا والآخر غنيًا فنفقة المتوسط؛ والراجح أن المعتبر حال الزوج وهو مذهب الشافعي.

١٤ - **ومن فوائد الآية،** أن الله - عزَّ وجلَّ - لا يكلف نفسًا ما لا تطيق؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها.

ويتفرع على هذه الفائدة: بيان رحمة الله - عزَّ وجلَّ - بعباده، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يكلفهم إلَّا ما يطيقون.

١٥ - **ومن فوائد الآية،** تحريم المضارة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾؛ وقال النبي ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»، وقال ﷺ: «مَنْ ضَارَّ ضَارَّ اللهُ بِهِ»(١). ولا فرق بين أن تكون المضارة من الوالدة للمولود له أو بالعكس؛ لأن الآية تحتمل هذاوهذا.

١٦ - **ومنها،** وجوب النفقة للمولود على الوارث؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾، وإيجاب النفقة للمرضع من أجل الرضيع دليل على وجوب الإنفاق على الرضيع نفسه.

١٧ - **ومنها،** أنه يجوز للأم أن تفطم الولد قبل تمام الحولين، لكن بشرط التراضي والتشاور؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

١٨ - **ومنها،** عناية الله - عزَّ وجلَّ - بالرضَّع؛ لأنه لم يبح فطامهم قبل الحولين إلَّا بعد التراضي بين الوالدة والمولود له والتشاور.

١٩ - **ومنها،** أنه لا يكفي المراضاة بين الزوجين في الفطام، بل لابد أن يكون هذا بعد التشاور

(١) حسن: رواه الترمذي (١٩٤٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١١١٦٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٧٢).

والمراجعة في الأمر، حتى إذا تبينت مصلحة الطفل جاز ذلك.

٢٠ - **ومنها**: جواز استرضاع الإنسان لولده المراضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو أن الأم طلبت أن ترضعه، وقال الأب: ترضعه غيرها. أُجْبِر الأب على موافقة الأم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، فبدأ بـ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾؛ لأن الأم أشفق، ولبنها لطفلها أطيب؛ ولأن ذلك أدعى إلى التعاطف بين الأم وولدها.

فإن قيل: لو طلبت عليه أجرة أكثر من غيرها، فهل يلزمه إجابتها؟

فالجواب: إن كانت الزيادة يسيرة وجبت إجابتها، وإن كانت كثيرة لم تلزم إجابتها.

فإن قيل: هل للأم أن تطلب الأجرة إذا كانت مع المولود له؟

فالجواب: أن في ذلك قولين لأهل العلم؛ والراجح أنه ليس لها ذلك اكتفاءً بإنفاق الزوج عليها بالزوجية.

٢١ - **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على الإنسان تسليم العوض بالمعروف أي: بدون مماطلة، وبدون نقص؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٢٢ - **ومنها**: أنه لا يجب للأجير إلَّا ما اتفق عليه في العقد؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم﴾، فلو أن المستأجر طلب منه أن يزيد في الأجرة فإنه لا يلزمه؛ حتى ولو زادت المؤن فلا يلزمه شيء سوى ما اتفقا عليه.

٢٣ - **ومنها**: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢٤ - **ومنها**: وجوب الإيمان بأسماء الله وما تضمنته من الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٥ - **ومنها**: التحذير من مخالفة أمر الله؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن أمر بالتقوى، قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. يحذرنا من مخالفة أمره بذلك.

٢٦ - **ومنها**: عموم علم الله بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، و﴿مَا﴾ اسم موصول عام.

٢٧ - **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾، فهذه عدة شواهد تَرُدُّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله ليس له إرادة فيه.

٢٨ - **ومنها**: إثبات بصر الله، وعلمه بما نعمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٩ - **ومنها**: أن وساوس القلوب لا يؤاخذ بها؛ لأنها ليست من الأعمال؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ».

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، ﴿وَالَّذِينَ﴾ اسم موصول مبتدأ في محل رفع، وجملة: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر ﴿وَالَّذِينَ﴾؛ وفيها أشكال؛ حيث لا يوجد رابط يربطها بالمبتدأ؛ لأن قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ليس فيها ضمير يعود على ﴿وَالَّذِينَ﴾؛ فاختلف الناس في كيفية الربط بين المبتدأ والخبر؛ فقال بعضهم التقدير والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بعدهم، وعلى هذا يكون الضمير في «بعدهم» هو الرابط الذي يربط بين المبتدأ والخبر، وقال بعضهم: التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن، فقدر المبتدأ، هذان وجهان، ولكن الأول أيسر من الثاني وأقرب.

وقوله تعالى: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ ـ بضم الياء ـ أي: يتوفاهم الله وذلك بقبض أرواحهم عند الموت؛ وقد أضاف الله التوفي إليه تارةً، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وإلى ملك الموت تارة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وإلى رسله - وهم الملائكة - تارة، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ فإضافتها إلى الله؛ لأنها بأمره، وإلى ملك الموت؛ لأنه الذي يقبض الروح، وإلى الرسل؛ لأنهم يقبضونها من ملك الموت يصعدون بها إلى السماء؛ ولذلك بني الفعل في الآية لما لم يُسَمَّ فاعله؛ ليشمل كل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ الخطاب للناس جميعًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]؛ فالخطابات بصيغة الجمع لجميع من نزل إليهم القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي: يتركون أزواجًا بعدهم، و﴿أَزْوَاجًا﴾ جمع زوج وهو من عقد له النكاح من رجل أو امرأة، إلَّا أن الفرضيين - رحمهم الله - اصطلحوا على أن الرجل يقال له: زوج والمرأة يقال لها: زوجة؛ من أجل التمييز بينهما في قسمة الميراث.

وقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن ويحبسن أنفسهن عن الزواج؛ لأن المرأة بطبيعتها تطلب النكاح، فقيل لها: تربصي بنفسك انتظري، مثلما أقول: ارفق بنفسك. أي: هوِّن

على نفسك، وما أشبهها، وأما قول من قال: إن «أنفسهن» توكيد للفاعل في ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾ زيدت فيه الباء، وجعل معنى الآية: يتربصن أنفسُهن، فهذا ليس بصحيح؛ لأن الأصل عدم الزيادة، ولأن مثل هذا التعبير شاذٌّ في اللغة العربية؛ فلا يحمل كلام الله على الشاذ، وعلى هذا فالمعنى الصحيح: أن ينتظرن بأنفسهن فلا يعجلن.

قوله تعالى: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾، ﴿أَرۡبَعَةَ﴾ نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه وهي متعلقة بـ ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَشۡرٗا﴾ أي: وعشر ليالٍ، والمراد: عشرة أيام لكن يعبر عن الأيام بالليالي، كقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه ١٠٣-١٠٤] فتبين أن المراد بـ «العشر» هنا الأيام، وهنا قوله تعالى: ﴿وَعَشۡرٗا﴾ يعني عشرة أيام، ولكن قال أهل اللغة: إن العرب يعبرون بالليالي عن الأيام؛ لأنها قبلها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ﴾: الضمير يعود على الأزواج المتوفى عنهن أزواجهن، و﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي: مدة العدة، وأجل كل شيء: غايته، أي: الغاية التي تنتهي بها العدة؛ وهي هنا أربعة أشهر وعشرًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، الخطاب لأولياء النساء، فلو أرادت المرأة أن تعمل شيئًا محرمًا عليها في هذه العدة لزم وليها أن يمنعها، وإذا تمت العدة فلا جناح على وليها أن يمكنها من أن تفعل في نفسها ما تشاء، لكن بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، أي: عليم ببواطن الأمور؛ فالخبير أخص من العليم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾؛ لأنها خبر بمعنى الأمر.

٢ - **ومنها:** وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها سواء كانت صغيرة أم كبيرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ وأطلق، فأما الكبيرة فتقوم بما يلزمها من الإحداد، وأما الصغيرة فالمخاطب بذلك وليها يجنبها ما تتجنبه المحادة الكبيرة.

٣ - **ومنها:** وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها سواء دخل بها أم لم يدخل؛ لقوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾؛ لأن الزوجة تكون زوجة بمجرد العقد بخلاف الطلاق، فإن الطلاق قبل الدخول والخلوة لا عدة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

٤ - **ومنها:** وجوب انتظار المرأة بنفسها مدة العدة بحيث لا تتزوج، ولا تتعرض للزواج؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، كما تقول: تربص بكذا وكذا، يعني: لا تتعجل.

٥ - **ومنها:** أن السرية لا تلزمها عدة الوفاة؛ لأنها ليست بزوجة.

٦ - **ومنها**: أنه لو تبين عند الوفاة أن النكاح باطل لم تعتد بالوفاة، مثل أن يتبين عند وفاته أنها أخته من الرَّضاع؛ لأنه تبين أن النكاح باطل، وجوده كالعدم.

٧ - **ومنها**: أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام سواء كانت تحيض أو لا تحيض، ويستثنى من ذلك الحامل فعدتها إلى وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، ولا عدة للمتوفى عنها زوجها سوى هاتين.

٨ - **ومنها**: حكمة الله بتقدير عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشر، وعلق الحكم بهذا العدد، ولم يعلقه بالأقراء كما في المطلقات؛ لأن أقل ما يمكن أن يتحرك فيه الجنين أربعة أشهر، وزيدت العشرة للاستثبات، هكذا قال بعض أهل العلم، ولكن عند التأمل يتبين لك ضعف هذا التعليل؛ لأن المرأة المتوفى عنها زوجها قد لا يدخل بها، وقد تكون صغيرة لا يمكن أن تحمل، وقد تكون كبيرة آيسة من الحمل، ثم الاحتياط بأربعة أشهر وعشر: يمكن العلم ببراءة الرحم قبل هذه المدة؛ فتبين بهذا أن الحكمة شيء آخر، وعندي - والله أعلم: أن الحكمة أنهم لما كانوا في الجاهلية تبقى المرأة حولًا كاملًا في العدة بعد موت زوجها، وتبقى في بيت صغير كالخباء لها، ولا تمس الماء أبدًا، تأكل وتشرب حتى لا تموت، وتبقى بعرقها ورائحتها وحيضها ونتنها لمدة سنة كاملة، فإذا تمت السنة أتوا لها بفأرة أو عصفور، فقالوا لها: امحشي به فرجك. فقلَّ ما تتمسح بشيء إلَّا مات من الرائحة الكريهة، مدة سنة ربما يأتيها الحيض اثنتي عشرة مرة وهي في هذا المكان، ثم إذا تم الحول أتوا لها ببعرة، فأخذت البعرة ورمت بها، كأنها تقول: كل ما مر عليَّ فهو أهون من رمي هذه البعرة، فجاء الإسلام وأبدل الحول بأربعة أشهر؛ لأن أربعة أشهر: ثلث حول، وعشرة أيام: ثلث شهر، والثلث كثير، فأتي من الحول بثلثه ومن الشهر بثلثه، فإن تبينت هذه الحكمة، وكانت هي مراد الله فهذا من فضل الله، وإن لم تتبين فإننا نقول: الله أعلم بما أراد. وهذا كغيرها من العبادات ذوات العدد التي لا نعلم ما الحكمة فيها.

٩ - **ومن فوائد الآية**: أن العدة إذا انتهت جاز للمرأة أن تفعل كل ما كان معروفًا من تجمل، وخروج من البيت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن الأولياء مسئولون عن مولياتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، إشارة إلى أن الرجال لهم ولاية على النساء؛ فيكونون مسئولين عنهن.

١١ - **ومنها**: اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، والعرف مُعْتَبَرٌ إذا لم يخالف الشرع، فإن خالف الشرع فلا يعتبر.

١٢ - **ومنها**: إثبات علم الله - عزَّ وجلَّ - بالظاهر والخفي؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والخبير هو العليم ببواطن الأمور، ومن كان عليمًا ببواطن الأمور كان عليمًا بظواهرها من باب أولى.

١٣ - ومنها: التحذير من مخالفة هذا الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، أي: احذروا من مخالفته؛ فإن الله بما تعملون خبير.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: لا إثم عليكم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ لجميع الناس، فكل خطاب في القرآن بلفظ الجمع فهو للناس عمومًا إلّا ما خصه السياق بقرينة فليس للعموم.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا﴾ أي: في الذي، وقوله: ﴿عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾: «التعريض» هو أن يأتي الإنسان بكلام لا يصرح فيه بمراده؛ لكنه مقارب، مثل أن يقول للمرأة: إني في مثلكِ لراغب. إنكِ امرأة يرغب فيكِ الرجال. إذا انقضت العدة فأخبريني. وعلى هذا فقس، فهذا ليس فيه تصريح أن يخطبها لا لنفسه ولا لغيره، لكنه يُسَمَّى تعريضًا، والتعريض والتلويح بمعنًى واحد، و«الخطبة» معناها أن يعرض الإنسان نفسه على المرأة ليتزوجها ويطلبها إليه، وسميت خطبة إما من الخَطْب بمعنى الشأن؛ لأن هذا شأنه عظيم، وإما من الخطابة؛ لأنها مقرونة بالقول - حتى إنه كان فيما سلف يأتي الخاطب إلى المرأة وأهلها ويخطب فيهم، يعني يتكلم بخطبة، ثم يبدي أنه يرغبها، ومع ذلك يفرقون بين الخِطبة - بالكسر - وبين الخُطبة - بالضم - فيقول: الخُطبة - بالضم: هي القول المشتمل على الوعظ والتذكير وما أشبه ذلك، والخِطبة - بالكسر: هي طلب المرأة لتكون زوجة للطالب، والمراد بـ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ من مات عنهن أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أخفيتم وأضمرتم في أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: تكلمون فيهن معربين عن رغبتكم في نكاحهن، مثل أن يذكر لأخيه أو لأبيه أو لابنه أو لصديقه بأنه يرغب أن يتزوج فلانة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا

عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، ﴿لَّا﴾ ناهية لحذف النون، و﴿سِرًّا﴾ ذكر كثير من المفسرين أن «السرَّ» من أسماء النكاح، أي: لا تواعدوهن نكاحًا، وقالوا: إن السر من أسماء النكاح؛ لأنه يقع بين الرجل وامرأته سرًّا؛ وقال بعض العلماء: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: وعدًا سرًّا فيما بينكم وبينهن، وإذا نهي عن السر فالعلانية من باب أولى، ويختلف الإعراب بناءً على القولين؛ فإذا قلنا: إن ﴿سِرًّا﴾ بمعنى النكاح صار مفعولًا ثانيًا لـ ﴿تُوَاعِدُوهُنَّ﴾، وإذا قلنا: إن ﴿سِرًّا﴾ ضد العلانية، وأن المعنى: لا تواعدوهن وعدًا سريًّا. صار مفعولًا مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع، وعلامته أن تكون «إلا» بمعنى «لكن»، وأن لا يكون ما بعدها من جنس ما قبلها، فقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. ليس هو من جنس ما قبله من المواعدة سرًّا؛ لأن المواعدة سرًّا ليس من القول المعروف، إذ إن القول المعروف هو التعريض دون التصريح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾. العزم على الشيء هو إرادة فعله بلا تردد، والمراد به هنا الفعل، و﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: عقده؛ لأن النكاح عقد بين الزوج والزوجة، فهو كالعقود الأخرى؛ كعقد البيع وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، وما بعدها منصوب بها، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ فعال بمعنى مفعول، والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا - كما ذكره المفسرون - العدة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرضها فهي مفروضة، يعني حتى يبلغ المفروض أجله، والمفروض هي العدة، ويحتمل أن يكون المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا ما يكتبونه عند ابتداء سبب العدة من موت أو طلاق أو نحوه، كأن يقال مثلًا: توفي في يوم كذا. ويكون هذا داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١] يعني: اضبطوها وحرروها، وعلى هذا فيكون المعنى الكتاب المكتوب الذي فيه بيان متى كان سبب العدة من وفاة أو طلاق.

وقوله تعالى: ﴿أَجَلَهُۥ﴾: أجل الشيء منتهاه وغايته، أي: حتى يبلغ غايته حسب ما فرض الله ـ سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ فعل أمر، وأتى ـ سبحانه وتعالى ـ به للأهمية والتحذير من المخالفة، وهذه الجملة يؤتى بها من أجل التنبيه، فيقال: اعلم كذا وكذا. لكي تنتبه، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ما استقر في أنفسكم مما تضمرونه من كل شيء، ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾: الفاء هذه للتفريع؛ أي: إذا علمتم هذا فاحذروا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من أن تضمروا في هذه الأنفس ما لا يرضاه ـ سبحانه وتعالى ـ والحذر من الشيء معناه: أخذ الحِذْر؛ وهو الاحتياط، وعدم المخالفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فإذا أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه فإن لديكم

بابًا واسعًا - وهو المغفرة، تعرضوا لمغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأن تستغفروه وتتوبوا إليه، وسبق أن «الغفور» مأخوذ من: الغَفْر وهو الستر مع الوقاية، والمراد به: ستر الذنب مع التجاوز عنه، و«الحليم» هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها، كما قال ابن القيم:

وَهُوَ الْحَلِيْمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنَ الْعِصْيَانِ

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** جواز التعريض في خطبة المتوفى عنها زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٢ - **ومنها:** تحريم التصريح بخطبة المعتدة من وفاة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾، فنفي الجناح عن التعريض - وهو دون التصريح - يدل على تحريم التصريح، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

تكميلًا لهذه الفائدة نقول: إن خطبة المعتدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: تحرم تصريحًا وتعريضًا، وتباح تصريحًا وتعريضًا، وتحرم تصريحًا لا تعريضًا؛ فالأول: في الرجعية لغير زوجها، فيحرم على الإنسان أن يخطب الرجعية لا تصريحًا ولا تعريضًا، والرجعية هي: المعتدة التي يجوز لزوجها أن يراجعها بغير عقد؛ لأنها زوجة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، إلى أن قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والتي تحل تصريحًا وتعريضًا هي البائن من زوجها بغير الثلاث؛ كالمطلقة على عوض والمختلعة والفاسخة لنكاحها بسبب وما أشبه ذلك، فيجوز لزوجها أن يخطبها تعريضًا وتصريحًا وأن يتزوجها، والتي تباح تعريضًا لا تصريحًا كل مبانة لغير زوجها، فيجوز لغير زوجها أن يعرض بخطبتها بدون تصريح، كالمتوفى عنها زوجها تجوز خطبتها تعريضًا لا تصريحًا.

٣ - **ومن فوائد الآية:** جواز إضمار الإنسان في نفسه خطبة امرأة لا يجوز له التصريح بخطبتها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** جواز ذكر الإنسان المرأة المعتدة في نفسه، ولغيره؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، فلو قال شخص: إنني أريد أن أتزوج امرأة فلان المتوفى عنها زوجها. يحدث غيره، فلا بأس به.

٥ - **ومنها:** أنه لا يجوز للإنسان أن يواعد المعتدة من الوفاة بالنكاح، فيقول: إذا انتهت عدتك فإنني سأتزوجك. لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

٦ - **ومنها:** أن التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها من القول المعروف غير المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٧ - **ومنها:** تحريم عقد النكاح في أثناء العدة إلَّا من زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ

ﵟالنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥﵞ.

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي: أن النكاح باطل؛ لقوله ﷺ: «فَأَيُّمَا شَرْطٍ كَانَ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ؛ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ»[1]. وقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]. فلوَ عقد عليها في العدة فالعقد باطل، وهل له أن يتزوجها بعد انقضاء العدة؟ اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تحل له لزوال المانع؟ وهو قول الجمهور، أو لا تحل له عقوبة له لتعجله الشيء قبل أوانه على وجه محرم؟ في المسألة قولان؛ وينبغي أن يرجع في ذلك إلى حكم الحاكم فيحكم بما يراه أصلح للعباد.

٨ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى العناية بالعدة، وأنه ينبغي أن تكتب؛ لقوله تعالى: ﵟحَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥﵞ.

٩ - **ومنها:** المخاطبة بالمجمل، وأنها أسلوب من أساليب البلاغة؛ لقوله تعالى: ﵟحَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥﵞ، ومن فوائد الإجمال: أن النفس تتطلع إلى بيانه، وتحرص عليه حتى تدركه، فإذا أدركت البيان بعد الإجمال كان ذلك أحرى بأن يبقى العلم في نفس الإنسان ولا ينساه.

١٠ - **ومنها:** إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﵟوَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُﵞ.

ويتفرع على هذا: ألَّا يضمر الإنسان في نفسه ما لا يرضاه الله - عزَّ وجلَّ.

١١ - **ومنها:** أن هذا القرآن العظيم مثاني - بمعنى: تُثنَّى فيه الأمور والمواضيع - فإذا ذكر أهل الجنة ذكر أهل النار، وإذا ذكر الرجاء ذكر معه الخوف.. وهكذا، وقد نَصَّ الله على ذلك فقال تعالى: ﵟٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَﵞ [الزمر: ٢٣]، وهو هذا القرآن، ومثاله في هذه الآية: أن الله - سبحانه وتعالى - لما حذَّر قال: ﵟوَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞﵞ.

١٢ - **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الغفور» و«الحليم»، وقد ذكرنا فيما سبق أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن للصفة، فإذا كان متعديًا فهو يتضمن الحكم، وإن كان غير متعدٍّ لم يتضمنه، وربما يدل على أكثر من صفة بدلالة الالتزام؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة مطابقة، وتضمن والتزام، فالمطابقة: دلالة اللفظ على جميع معناه، والتضمن: دلالته على بعض معناه، والالتزام: دلالته على لازم خارج؛ مثل «الخالق» من أسماء الله، دلالته على الذات والخلق: مطابقة، ودلالته على الذات وحدها أو على الخلق وحده: تضمن، ودلالته على العلم والقدرة: التزام، فلا يمكن أن يكون خالقًا إلَّا أن يكون عالمًا قادرًا؛ لأنه لا يخلق من لا يقدر، ولا يخلق من لا يعلم، فلابد أن يكون عالمًا قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فذكر العلم والقدرة بعد أن ذكر أنه خلق، ولا يمكن أن يكون هناك خلق إلَّا أن يعلم كيف يخلق ويقدر على ذلك.

قال الله تعالى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم عليكم، وقوله: ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: اختلف أهل الإعراب في إعراب: ﴿مَا﴾، فقال بعضهم: إن ﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية، أي: مدة دوام عدم مسكهم لهن. وقال بعضهم: إن ﴿مَا﴾ شرطية، فهو من باب دخول الشرط على الشرط، أي: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن، وهذا يأتي في اللغة العربية كثيرًا - أي: كون الشرط الثاني شرطًا في الأول، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]، فهنا شرط في شرط، ومنه قول الشاعر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا   مِنَّا مَعَاقِلَ عَزٍّ زَانَهَا كَرَمُ

فيكون الثاني شرطًا في الأول، وكل شرط دخل على شرط فالسابق الثاني، فهنا نقول: إن ﴿مَا﴾ شرطية وأن تقدير الآية: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن، فإذا طلقها بدون مس فلا جناح عليه والمعنى واحد، ولكن الاختلاف في الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ فيها قراءة ثانية: «تُماسوهن»، وكلاهما بمعنًى واحد، والمراد به الجماع، لكن جرت عادة العرب - والقرآن بلسان عربي مبين - أن يُكنُّوا عمَّا يُستحيا من ذكره صريحًا بما يدل عليه؛ ولكل من القراءتين وجه؛ فعلى قراءة: «تماسوهن» يكون المسيس من الجانبين؛ فكل من الزوج والزوجة يمس الآخر، ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، وأما على قراءة حذف الألف - الذي يفيد وقوع الفعل من جانب واحد - فهو أيضًا واقع؛ لأن حقيقة الفاعل هو الرجل فهو ماسٌّ؛ ومنها قوله تعالى في مريم: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]. فجعل المسَّ من جانب واحد وهو الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: تجمعوا بين الأمرين: بين ألَّا تفرضوا لهن فريضة وبين ألا تمسوهن، فلا جناح عليكم إذا طلقتم المرأة بعد العقد بدون مسيس، وبدون تسمية مهر،

و﴿أَوْ﴾ هنا على القول الراجح حرف عطف على ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، قال بعض المفسرين: إنَّ هذه الجملة معطوفة على جملة مقدرة، والتقدير: فطلقوهن ومتعوهن، وأن تقدير: «فطلقوهن» مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ لأن معنى ذلك: أننا قد أبحنا لكم طلاق النساء فطلقوهن، فيكون المراد بالأمر المقدر - كما قالوا - الإباحة، والمراد بالأمر المذكور الوجوب، وقال بعض المعربين: لا حاجة إلى التقدير؛ لأن «فطلقوهن» المراد به: الإباحة مفهوم من قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وما دام المعنى يفهم بدون تقدير فإنه لا يجوز التقدير؛ لأن التقدير نوع من التأويل، ولأن الأصل تمام الكلام، وعدم احتياجه إلى تقدير، وهذا القول أرجح، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني: إذا طلقتموهن، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، و﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معناها: أن يعطيها ما فيه المتعة والبلاغ من زاد أو لباس أو غير ذلك، مما تقتضيه الحال والعرف.

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، في ﴿قَدَرُهُ﴾ قراءتان: ﴿قَدَرُهُ﴾ بفتح الدال، و(قدْره) بسكونها، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: ما يقدِر عليه، وعلى الثانية يكون المعنى: بقَدْره، أي: بقدر سعته، و﴿الْمُوسِعِ﴾ هو الغني الكثير المال، و﴿الْمُقْتِرِ﴾ هو الفقير الذي ليس عنده شيء، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، أي على الغني ما يناسب حاله، وعلى الفقير ما يناسب حاله، والجملة هذه قيل: إنها استئنافية لا محل لها من الإعراب تُبين مقدار الواجب الذي أوجبه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وقيل: إنها في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، يعني: متعوهن حال كونكم موسرين أو معسرين؛ على الموسر قدره وعلى المقتر قدره.

قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر، أي: مفعولًا مطلقًا عامله ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني: تمتيعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، فـ «متاع» هنا بمعنى تمتيع مثل كلام بمعنى تكليم، وسلام بمعنى تسليم وما أشبهها، ويحتمل أن يكون حالًا، أي: حال كون القدَر - أو القدْر - متاعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: بما يقتضيه العرف، والباء هنا للمصاحبة.

قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ منصوبة على أنه مصدر لفعل محذوف يعني: أحق ذلك حقًا، و«الحق» هو الشيء الثابت اللازم، و﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: على فاعلي الإحسان، و«المحسن» اسم فاعل من أحسَنَ أي: قام بالإحسان وعمل به، و«الإحسان» هنا ما كان موافقًا للشرع، فإذا قرن بـ«العدل» صار المراد بـ«الإحسان» الفضل الزائد على العدل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، فـ «الإحسان» تارة يراد به موافقة الشرع - ولو كان شيئًا واجبًا - وتارة يراد به ما زاد على الواجب، وهذا إذا قُرن بـ «العدل» كما سبق.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** جواز طلاق الرجل امرأته قبل أن يمسها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، وربما يشعر قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ﴾ أن الأولى عدم ذلك؛ لأن طلاقه إياها قبل أن يَمَسَّها وقد خطبها، وقدم إليها الصداق فيه شيء على المرأة وغضاضة، وإن كان الإنسان قد يتأمل في أمره، وتضطره الأمور إلى الطلاق فإنه لا ينبغي أن يكون متسرعًا متعجلًا.

٢ - **ومنها:** إطلاق المس على الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٣ - **ومنها:** أنه يجوز للإنسان أن يتزوج المرأة بلا تسمية مهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾ يعني: ما لم تفرضوا لهن فريضة، وقد اختلف العلماء فيما إذا تزوج المرأة وشرط ألا مهر لها، فمنهم من يرى أن النكاح غير صحيح؛ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الراجح؛ لأن الله اشترط للحل المال؛ قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: ٢٤]؛ ولأن النكاح إذا شرط فيه عدم المهر صار بمعنى الهبة، والنكاح بالهبة خاص بالنبي ﷺ؛ والحال لا تخلو من ثلاثة أمور: إما أن يشترط المهر ويعيَّن، وإما أن يسكت عنه، وإما أن يشترط عدمه؛ ففي الحال الأولى يكون النكاح صحيحًا ولا نزاع فيه، وفي الثانية يكون النكاح صحيحًا ولها مهر المثل، وفي الثالثة هناك موضع خلاف بين أهل العلم؛ وسبق بيان الراجح.

٤ - **ومن فوائد الآية:** وجوب المتعة على من طَلَّقَ قبل الدخول، ولم يسم لها مهرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

٥ - **ومنها:** أن ظاهر الآية الكريمة أنه إذا خلا بها ولم يمسها لم يكن عليه إلَّا المتعة، لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدة، وقياس ذلك وجوب مهر المثل إذا خلا بها ولم يسم لها صداقًا.

٦ - **ومنها:** أن العبرة في المتعة حالُ الزوج: إن كان موسرًا فعليه قدره، وإن كان معسرًا فعليه قدره؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾.

٧ - **ومنها:** امتناع التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، وهذه القاعدة دل عليها القرآن في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٨ - **ومنها:** مراعاة الأحوال في الأحكام فيثبت في كل حال ما يناسبها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾.

٩ - **ومنها:** أن للعرف اعتبارًا شرعيًّا؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٠ - ومنها، أن الحق إما أن يكون في الأخبار أو يكون في الأحكام، فإن كان في الأخبار فهو الصدق، وإن كان في الأحكام فهو العدل، وقد يجمع بين العدل وبين الصدق، فيحمل الصدق على الخبر والعدل على الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال الله تعالى:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، وفي قراءة: «تماسوهن»، وسبق توجيهها ومعناهما.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: قدرتم لهن مهرًا، كعشرة آلاف مثلًا، والجملة في موضع نصب على الحال، وهي في مقابل قوله تعالى فيما سبق: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، الفاء واقعة في جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، و«نصف» مبتدأ خبره محذوف، وتقدير هذا الخبر: فلهن، أو فعليكم. ويجوز أن نجعل «نصف» خبر المبتدأ المحذوف، ويكون التقدير: فالواجب نصف ما فرضتم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: فنصف ما فرضتم في كل حال إلَّا في هذه الحال، و﴿أَن﴾: حرف مصدر ينصب الفعل المضارع؛ لكنه اتَّصل بنون النسوة، فكان مبنيًّا على السكون، وضمير النسوة يعود على النساء المطلقات.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾، قيل: المراد به الزوج، وقيل: وليّ المرأة، والصواب الأول؛ لأن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح إذا شاء أبقاها، وإذا شاء حلها بالطلاق؛ ولأن وليَّ المرأة قد لا يملك إسقاط شيء من مهرها، كابن العم مثلًا؛ ولأنه إذا قيل: «هو الزوج» صار العفو من جانبين؛ إما من الزوجة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾، أو من الزوج، كما يفيده قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾، وإذا قيل: إنه وليُّ المرأة. صار العفو من جانب واحد؛ وهو الزوجة أو وليها، ويؤيد الترجيح قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ

﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولو كان المراد وليُّ المرأة لقال تعالى: «وأن يعفوَ» بالياء وفتح الواو.

فإن قيل: كيف يكون الزوج عافيًا وهو الباذل؟

فالجواب: أن هذا مبني على الغالب؛ وهو أن الزوج قد سلم المهر، فإذا طلقها قبل الدخول صار له عند المرأة نصف المهر، فإذا عفا عن مطالبتها به صار أقرب للتقوى.

وقوله تعالى: ﴿عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾. إشارة إلى أن النكاح ربط بين الزوجين، كما تربط العقدة بين طرفي الحبل.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أن تعفوا أيها الأزواج عمّا تستحقون من المهر إذا طلقتم قبل الدخول - وهو نصف المهر - أقرب للتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، أي: لا تتركوا الفضل - أي: الإفضال بينكم - بالتسامح والعفو.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بكل ما تعملون من خير وشر، وقوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عليم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه إذا طلقها قبل المسيس، وقد سَمَّى لها صداقًا وجب لها نصف المهر.

٢ - **ومنها:** أنه إذا خلا بها، ولم يمسها لم يكن عليه إلَّا نصف المهر، لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدة، وقياس ذلك وجوب المهر كاملًا إذا خلا بها.

٣ - **ومنها:** جواز الطلاق قبل المسيس مع تعيين المهر، وجهه: أن الله أقر هذه الحال، ورتب عليها أحكامًا، ولو كانت حرامًا ما أقرها ولا رتب عليها أحكامًا وعلى هذا فيكون ارتباط الآية بما قبلها ظاهرًا؛ لأن الآية قبلها فيما إذا طلِّقت قبل المسيس ولم يسمَّ لها مهر، وهذه الآية فيما إذا طلقت قبل المسيس وسُمي لها مهر، وإن طلقت بعد المسيس، إن سُمي لها مهر فلها المهر كاملًا، وإن لم يسمَّ لها مهر فلها مهر المثل.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن تعيين المهر إلى الزوج لا إلى الزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾.

٥ - **ومنها:** جواز إسقاط المرأة ما وجب لها من المهر عن الزوج أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾، ويشترط لذلك أن تكون حرةً بالغة عاقلة رشيدة.

٦ - **ومنها:** جواز تَصَرُّفِ المرأة في مالها - ولو على سبيل التبرع - لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾، وهل نقول: عمومه يقتضي جواز عفوها وإن كان عليها دين يستغرق، أو نقول: إن كان عليها دين يستغرق فليس لها أن تعفو؟ يحتمل هذا وهذا، وظاهر الآية العموم، لكن تبرع المدين لا ينفذ على القول الراجح إذا كان يضر بالغرماء؛ لكن قد يقال: هذا ليس تبرعًا محضًا، وإنما

هو إسقاط ما وجب على الغير، وليس كالتبرع المحض الذي ينتزع من مال المدين.

٧ - ومنها: جواز عفو الزوج عما يبقى له من المهر إذا طَلَّق قبل الدخول؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، ويقال فيما إذا كان مدينًا كما قيل في عفو الزوجة.

٨ - ومنها: أن النكاح من العقود؛ لقوله تعالى: ﴿عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، ويترتب على هذه الفائدة جواز التوكيل فيه؛ لأن النبي ﷺ وكَّل في العقود، فيجوز أن يوكل الإنسان من يعقد النكاح له، وحينئذٍ يقول وليُّ المرأة لوكيل الزوج: زوجت موكِّلَك فلانًا بنتي فلانة، ولا يصح أن يقول: زوجتك بنتي فلانة، ويقول وكيل الولي للزوج: زوجتك بنت موكلي فلانٍ فلانة، ولا يصح أن يقول: زوجتك فلانة بنت فلان؛ لَأَنَّهُ لابد من النص على الوكالة؛ حيث إنه لابد من الشهادة على عقد النكاح، وإذا لم يصرح بما يدل على الوكالة أوهم أن العقد للوكيل، وقال بعض العلماء: إنه إذا كان معلومًا عند الجميع أن العقد بوكالة لم يحتج إلى ذكر موكل، والأول أحوط سدًّا للباب؛ لئلا يدعي الوكيل أنه فسخ الوكالة ونوى العقد لنفسه.

وهل يثبت لعقد النكاح ما يثبت لعقد البيع من خيار المجلس، أو خيار الشرط؟

أما خيار المجلس فلا يثبت؛ لأن النبي ﷺ قال: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ»(١). ولا يصح قياس النكاح على البيع؛ لأن النكاح غالبًا إنما يصدر بعد تروٍّ دقيق ونظرٍ وبحث، بخلاف البيع فقد يصدر عن عجلة وعن حرص على الربح بدون أن يتروى الإنسان، واحتياط الإنسان لعقد النكاح أشد من احتياطه للبيع.

لكن، هل يثبت فيه خيار الشرط؟

فالمذهب أنه لا يثبت فيه خيار الشرط، واختار شيخ الإسلام أنه يجوز خيار الشرط في النكاح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوَفُّوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ»(٢). وقوله ﷺ: «الْـمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلَّا شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا، أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا»(٣). وهذا القول قد تحتاج إليه المرأة فيما إذا أراد الزوج أن يسكنها مع أهله، فتشترط عليه الخيار؛ وهذا له حالان:

الحال الأولى: أن تشترط عليه الخيار في أصل العقد، فَتَفسَخ النكاح إذا لم يمكن المقام معهم.

الحال الثانية: أن تشترط عليه الخيار في البقاء مع أهله، يعني: إن استقامت الحال، وَإِلَّا أنزلها في بيت آخر.

٩ - ومن فوائد الآية: الترغيب في العفو؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقد

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٣)، ومسلم (١٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٢٥٧٢)، ومسلم (١٤١٨).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (١٣٥٢)، وأبوداود (٣٥٩٤)، وابن ماجه (٢٣٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٦٢).

حَثَّ الله على العفو، وبيَّن أن أجر العافي على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنه تعالى قيد ذلك بما إذا كان العفو إصلاحًا، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

١٠ - **ومنها**: أن الأعمال تتفاضل؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

١١ - **ومنها**: أن الناس يتفاضلون في الإيمان؛ لأن تفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل، والأعمال من الإيمان، كما قد تقرر في غير هذا الموضع.

١٢ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان ألَّا ينسى الفضل مع إخوانه في معاملته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ؛ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى؛ سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى»(١). فإن هذا فيه من حسن المعاملة ما هو ظاهر، والدين الإسلامي يحث على حسن المعاملة، وعلى حسن الخلق وعلى البر كله.

١٣ - **ومنها**: إحاطة علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبصره بكل شيء مما نعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١٤ - **ومنها**: الترغيب في العمل الصالح، والترهيب من العمل السيء؛ لأن ختم الآية بهذه الجملة مقتضاه: احرصوا على العمل الصالح؛ فإنه لن يضيع، واحذروا من العمل السيء؛ فإنكم تجازون عليه؛ لأن كلًّا معلوم عند الله ـ سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]

التفسير

فإن قال قائل: ما وجه ارتباط هاتين الآيتين بما يتعلق بشأن العدة للنساء؟

فالجواب: أن ترتيب الآيات توقيفي ليس للعقل فيه مجال، والله أعلم بما أراد، وقد التمس بعض المفسرين حكمة لهذا، ولكن لما لم يتعين ما ذكره أحجمنا عن ذكرها، ونَكِلُ العلم إلى منزل هذا الكتاب العظيم، ونعلم أنه لابد أن يكون هناك حكمة أو حِكَم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم عليم.

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾: المحافظة: الاستمرار في حفظ الشيء مع العناية به،

(١) رواه البخاري (١٩٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٩٠٣).

ولم يبين الله في هذه الآية كيفية المحافظة، لكن بينت في مواضع أخرى من الكتاب والسنة، وهو أبلغ من قولك: احفظ كذا. بدليل أنك لو أعطيتني وديعة وقلت: حافظ عليها. أو قلت: هذه وديعة احفظها. لكان الأول أبلغ، فلهذا جاءت في الآية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، و﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ جمع صلاة، وهي في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: العبادة المعروفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي: الفُضلى؛ وهي صلاة العصر، كما صَحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[1]، ولا عبرة بما خالفه؛ لأن النبي ﷺ أعلم الناس بمراد الله؛ وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾: هذا أمر بالقيام ولا إشكال فيه، وهل المراد بالقيام هنا المكث على الشيء، أو القيام على القدمين؟ هما المعنيان جميعًا؛ واللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للإخلاص.

قوله تعالى: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ حال من الواو في ﴿وَقُومُواْ﴾، أي: حال كونكم قانتين، و«القنوت» يطلق على عدة معانٍ؛ منها: دوام العبادة والطاعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، ويطلق «القنوت» على «الخشوع»: وهو السكوت تعظيمًا لمن قُنِتَ له، وعليه يدل سبب نزول الآية، فإنه كان أحدهم يكلم صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام[2]، إذن فـ «القنوت» خشوع القلب الذي يظهر فيه خشوع الجوارح، ومنها اللسان حتى لا يتكلم الإنسان مع الناس؛ ليتجه إلى صلاته، وكذلك لا يفعل إلّا ما يتعلق بصلاته.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: خفتم حصول مكروه بالمحافظة على ما ذُكر بأن أخافكم عدو أو حريق أو سيل، أو ما أشبه ذلك مما يخاف منه الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فَرِجَالًا﴾ أي: على الأرجل، وهي جمع راجل، و«الراجل» هو الذي يمشي على رجليه؛ لأنه قابله بقوله تعالى: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: راكبين، و﴿فَرِجَالًا﴾ منصوبة على الحال على تأويل: راجلين، وعاملها وصاحبها محذوفان؛ والتقدير: فصلُّوا رجالًا.

قوله تعالى: ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: زال الخوف عنكمن وقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا الصلاة، وسماها ذكرًا؛ لأنها هي ذكر، ومشتملة على ذكر، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. قال بعض المفسرين: أي ولَمَا فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٢٧٧٣)، ومسلم (٦٢٧).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (١١٤٢)، ومسلم (٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾، الكاف هنا يحتمل أن تكون للتعليل أو التشبيه، فعلى الأول يكون المعنى: اذكروا الله لتعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمون، وعلى الثاني يكون المعنى: اذكروا الله على الصفة التي بيَّنَها لكم؛ وهي أن تكون صلاة أمن لا صلاة خوف، والمعنيان لا منافاة بينهما، فتحمل الآية عليهما.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب المحافظة على الصلوات؛ لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، والأصل في الأمر الوجوب.

فإن قيل: إن النوافل لا تجب المحافظة عليها؟

فالجواب: أنه لا مانع من استعمال المشترك في معنييه، فتكون المحافظة على الفرائض واجبة، وعلى النوافل سنة.

٢ - **ومن فوائد الآيتين:** فضيلة صلاة العصر؛ لأن الله خَصَّهَا بالذكر بعد التعميم؛ وهي أفضل الصلاتين المفضلتين - العصر والفجر وقد بين النبي ﷺ فضلهما في أحاديث؛ منها قوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١)، وقوله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٢).

٣ - **ومنها:** وجوب القيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

٤ - **ومنها:** وجوب الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾.

٥ - **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان إذا تَعَبَّدَ لله أن يستشعر أمر الله؛ لأنه أبلغ في الامتثال والطاعة، وكذلك ينبغي أن يستحضر أنه متأسٍ برسول الله ﷺ، كأنما يشاهده رأي عين؛ لقول النبي ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»(٣). فتتم له المتابعة.

٦ - **ومنها:** الأمر بالقنوت لله - عزَّ وجلَّ - وهو خشوع القلب الذي يظهر منه سكون الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰنِتِينَ﴾.

٧ - **ومنها:** تحريم الكلام في الصلاة بناءً على سبب النزول؛ وهو أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة حتى نزلت هذه الآية، فأمروا بالسكوت، ونهوا عن الكلام.

٨ - **ومنها:** وجوب القيام في الصلاة؛ ويستثنى من ذلك:

أ - صلاة النافلة؛ لدلالة السنة على جوازها من قاعد؛ هذا إذا جعلنا قوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٥٤٨)، ومسلم (٦٣٥).

(٢) رواه البخاري (٥٢٩)، ومسلم (٦٣٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥)، وأحمد في «مسنده» (١٢٦٣).

﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ عامة؛ وأما إذا جعلناها خاصة بالفرائض فلا استثناء.

ب - ويستثني أيضًا الخائف؛ مثل أن يصلي خلف الجدار إن قام علم به عدوه فمال عليه، وإن صلى جالسًا سَلِم.

ج - ويستثني أيضًا العاجز؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

د - ويستثني أيضًا المأموم القادر على القيام إذا صلى إمامه العاجز عنه قاعدًا من أول صلاته؛ لقول النبي ﷺ في الإمام: «إِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ»(١). أما إذا طرأ عليه العجز في أثناء الصلاة فإن المأمومين يتمونها قيامًا؛ لقصة صلاة أبي بكر - رضي الله عنه - بالناس، حيث ابتدأ بهم الصلاة قائمًا؛ فلمّا حضر النبي ﷺ في أثناء الصلاة صلى جالسًا، وأتموا خلفه قيامًا(٢).

٩ - **ومن فوائد الآيتين**: سعة رحمة الله - عزَّ وجلَّ - وأن هذا الدين يسر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانًا﴾؛ لأن هذا من التيسير على العباد.

١٠ - **ومنها**: جواز الحركة الكثيرة في الصلاة للضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِجَالًا﴾؛ لأن الراجل - وهو الماشي - يتحرك حركة كثيرة.

١١ - **ومنها**: جواز الصلاة على الراحلة في حال الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ رُكۡبَانًا﴾، أما في حال الأمن فلا تجوز الصلاة على الراحلة إلَّا النافلة، إلَّا إذا تمكن من الإتيان بالصلاة على وجه التمام فإنه يجوز؛ ولهذا جوزنا الصلاة في السفينة وفي القطار، وما أشبه ذلك؛ لأنه سيأتي بها على وجه التمام بخلاف الراحلة من بعير وسيارة وطائرة إلَّا أن يكون في الطائرة مكان متسع يتمكن فيه من الإتيان بالصلاة كاملة فتصح، لكن إذا خاف الإنسان خروج الوقت يصلي على أي حال - ولو مضطجعًا - في أيِّ مكان.

١٢ - **ومن فوائد الآيتين**: أنه يجب على المرء القيام بالعبادة على التمام متى زال العذر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٣ - **ومنها**: أن الصلاة من الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، والكلام هنا في الصلاة.

١٤ - **ومنها**: بيان منة الله علينا بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٥ - **ومنها**: بيان نقص الإنسان لكون الأصل فيه الجهل، حيث قال تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾، فالأصل في الإنسان الجهل حتى يُعَلِّمَه الله - عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٤١٤).

(٢) انظر صحيح البخاري (٦٥٥)، ومسلم (٤١٨).

١٦ - ومنها: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله. لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾. والرد على الجبرية أيضًا؛ لتوجيه الأوامر إلى الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾. وما أشبهها؛ لأننا لو قلنا بأن العبد مجبر صار توجيه الخطاب إليه نوعًا من العبث؛ لأنه أمر بما لا يطاق، ولا يمكن تطبيقه.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً﴾ فيها قراءتان: النصب والرفع، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، و﴿وصية﴾ بالرفع مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: عليهم وصية والجملة: خبر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، أما على قراءة النصب فإن خبر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ جملة فعلية محذوفة، والتقدير: يوصُون وصيةً، أو نوصيهم وصية على خلاف في ذلك: هل هي وصية من الله، أو منهم؟ فإن كانت من الله - عزَّ وجلَّ - فالتقدير: نوصيهم وصية، وإن كانت منهم فالتقدير: يوصُون وصيةً، والجملة المحذوفة خبر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، والرابط الضمير في الجملة المحذوفة سواء قلنا: عليهم وصية. أو قلنا: نوصيهم وصية. أو يوصُون وصية.

قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، وقوله: ﴿مَّتَٰعًا﴾ مصدر لفعل محذوف، والتقدير: يمتعونهن متاعًا إلى الحول، و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ إما صفة لمصدر محذوف؛ أي: متاعًا غير إخراج، أي: متعة غير مخرجات فيها، أو أنها حال من الفاعل في الفعل المحذوف.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ هذه «لا» النافية للجنس واسمها وخبرها، وقوله تعالى: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ متعلق بـ﴿فَعَلْنَ﴾، وباقي الآية إعرابها ظاهر وواضح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: يُقبَضون، والمراد: الموت، و﴿مِنكُمْ﴾ الخطاب لعموم الأمة، وليس خاصًّا بالصحابة رضي الله عنهم لأن القرآن نزل للجميع إلى يوم القيامة، فالخطاب الموجود فيه عام لكل الأمة، إلَّا إذا دَلَّ دليل على الخصوصية، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾، و﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: زوجات لهم.

قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم﴾ أي: عهدًا لأزواجهم، ولا تكون الوصية إلَّا في الأمر الذي له شأن وبه اهتمام، ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ أي: إلى تمام الحول من موت الزوج، و﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: من الورثة الذين يرثون المال بعد الزوج، ومنه البيت الذي تسكن فيه الزوجة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ أي: خرج الزوجات من البيت قبل الحول، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم عليكم، ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: مما يعرفه الشرع والعرف ولا ينكره.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو عزة وحُكم وحِكمة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الزوجة تبقى زوجيتها حتى بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾، ولا يقول قائل: إن المراد باعتبار ما كان؛ لأن هذا خلاف الأصل.

فإن قال قائل: فإذا كان الأمر كذلك فإنها لا تحل لأحدٍ بعده؟

قلنا: هي مقيدة بمدة العدة، ويدل على ذلك أن المرأة إذا مات زوجها جاز أن تُغَسِّلَهُ، ولو كانت أحكام الزوجية منقطعة ما جاز لها أن تُغسِّل زوجها.

٢ - **ومنها:** أنه يشرع للزوج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيته، وينفق عليها من تركته لمدة حول كامل، هذا ما تفيده الآية، فهل هذا الحكم منسوخ أو محكم؟ على قولين للعلماء؛ أحدهما: أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ويؤيده ما في «صحيح البخاري» حينما سئل عثمان رضي الله عنه: لماذا أبقيت هذه الآية وهي منسوخة؟ ولماذا وضعتها بعد الآية الناسخة، وكان الأولى أن تكون المنسوخة قبل الآية الناسخة لمراعاة الترتيب؟ فأجاب عثمان رضي الله عنه بأنه لا يغير شيئًا من مكانه؛ وذلك لأن الترتيب بين الآيات توقيفي، فهذه الآية توفي رسول الله ﷺ وهي تتلى في القرآن وفي مكانها، ولا يمكن أن تغير، وعلى هذا فتكون هذه الآية منسوخة بالآية السابقة بالنسبة للعدة، وأما بالنسبة لما يوصي به الزوج من المال فهو منسوخ بآية المواريث؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: ١٢]، وقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»[1].

والقول الثاني: أن الآية محكمة، فتحمل على معنًى لا يعارض الآية الأخرى؛ فيقال: إن الآية

(١) صحيح: رواه النسائي (٣٦٤١)، وأبوداود (٢٨٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٠).

الأخرى يخاطَب بها الزوجة، فتتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرًا، والآية الثانية يخاطَب بها الزوج ليوصي لزوجته بما ذُكر.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الله - عزَّ وجلَّ - ذو رحمة واسعة حتى أوصى الزوج بأن يوصي لزوجته مع أن الزوج قد جعل الله فيه رحمة لزوجته حين قال لله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ورحمة الله - عزَّ وجلَّ - لهذه الزوجة أعظم من رحمة الزوج لها.

٤ - **ومنها:** أن المرأة يحل لها إذا أوصى زوجها أن تبقى في البيت أن تخرج، ولا تنفذ وصيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأن هذا شيء يتعلق بها، وليس لزوجها مصلحة فيه.

ويتفرع عليه لو أوصى الزوج الزوجة ألَّا تتزوج من بعده لا يلزمها؛ لأنه إذا كان لا يلزمها أن تبقى في البيت مدة الحول فلأن لا يلزمها أن تبقى غير متزوجة من باب أولى.

وكذلك يؤخذ منه قياسًا: كل من أوصى شخصًا بأمر يتعلق بالشخص الموصى له، فإن الحق له في تنفيذ الوصية وعدم تنفيذها.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن المسئولين عن النساء هم الرجال؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ - **ومنها:** أن على الرجال الإثم فيما إذا خرجت المرأة عن المعروف شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾.

ويتفرع على هذا أن كل مسئول عن شخص إذا تمكن من منعه عن المنكر فإنه يمنعه؛ ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لأن الإنسان ما دام مسئولًا فإنه إذا فرط في مسئوليته كان وازرًا، ووزره على نفسه.

٧ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يجوز للمرأة أن تخرج عن المعروف في جميع أحوالها، و«المعروف» هو ما أقره الشرع والعرف جميعًا، فلو خرجت في لباسها أو مشيتها أو صوتها عن المعروف شرعًا فهي آثمة، وعلينا أن نردعها عن الخروج على هذا الوجه.

٨ - **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**العزيز**» و«**الحكيم**»؛ وإثبات ما تضمناه من صفة سواء كان ذلك عن طريق اللزوم أو المطابقة أو التضمن، وهي العزة والحكمة والحُكم، وقد سبق تفسير ذلك.

٩ - **ومنها:** إثبات العزة، والحكمة على سبيل الإطلاق، لأن الله - سبحانه وتعالى - أطلق، قال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فيكون عزيزًا في كل حال؛ وحكيمًا حاكمًا في كل حال.

قال الله تعالى:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، الجملة مكونة من مبتدأ وخبر؛ فالخبر مقدم: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾، والمبتدأ مؤخر؛ وهو قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ومن ثَمَّ جاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه يجوز الابتداء بالنكرة إذا تأخر المبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ من ألفاظ العموم؛ لأن «أل» فيها اسم موصول، فيشمل كل المطلقات بدون استثناء، وهن مَنْ فارقهن أزواجهن، وَسُمِّيَ طلاقًا؛ لأن الزوجة قبله في قيد النكاح، ولهذا قال النبي ﷺ: **«اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ»**[1]. أي: أسيرات، وقال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، و ﴿سَيِّدَهَا﴾: زوجها.

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌۢ﴾ أي: ما تتمتع به من لباس وغيره؛ وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بـ ﴿مَتَٰعٌۢ﴾، يعني: هذا المتاع مقيد بالمعروف، أي: ما يعرفه الناس، وهذا قد يكون مفسَّرًا بقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، أي: المتاع على الموسر بقدر إيساره، وعلى المعسر بقدر إعساره.

قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مصدر منصوب على المصدرية عامله محذوف، والتقدير: نحقه حقًا، و«الحق» هنا بمعنى الحتم الثابت، و﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ذوي التقوى، و«التقوى» هي: القيام بطاعة الله على علم وبصيرة. وما أحسن ما قاله بعضهم: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله. ولا يعني قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أنه لا يجب على غير المتقين؛ ولكن تقييده بالمتقين من باب الإغراء والحث على لزومه، ويفيد أن التزامه من تقوى الله -عزَّ وجلَّ- وأن مَنْ لم يلتزمه فقد نقصت تقواه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب المتعة لكل مطلقة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾، ويستثنى من ذلك:

أ - من طلقت قبل الدخول وقد فُرِض لها المهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ب - من طلقت بعد الدخول فلها المهر: إن كان مسمًّى فهو ما سمي، وإن لم يكن مسمًّى

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (١٨٥١)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٧١٤)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٩٩٧).

فمهر المثل، واختار شيخ الإسلام «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللَّهُ أن من طلقت بعد الدخول فلها المتعة على زوجها مطلقًا؛ لعموم الآية.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي تأكيد الحقوق التي قد يتهاون الناس بها؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ - **ومنها:** أنه ينبغي ذكر الأوصاف التي تحمل الإنسان على الامتثال فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن عدم القيام به مخالف للتقوى، والقيام به من التقوى.

٤ - **ومنها:** اعتبار العرف؛ لقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وهذا ما لم يكن العرف مخالفًا للشرع، فإن كان مخالفًا له وجب رَدُّهُ إلى الشرع.

٥ - **ومنها:** أن التقوى تحمل على طاعة الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

قال الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾. أي: مثلَ ذلك البيان السابق يبين الله لكم آياته، فالكاف في محل المفعول المطلق، ومعنى «البيان» التوضيح، أي: أن الله يوضحه حتى لا يبقى فيه خفاء، و﴿لَكُمْ﴾ يحتمل أن تكون اللام لتعدية الفعل: ﴿يُبَيِّنُ﴾، ويحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: يبين الآيات لأجلكم حتى تتبين لكم وتتضح، و﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جمع آية، وهي العلامة المعينة لمدلولها، وتشمل الآيات الكونية والشرعية، فإن الله - سبحانه وتعالى - بَيَّنَ لنا من آياته الكونية والشرعية ما لا يبقى معه أدنى شبهة في أن هذه الآيات علامات واضحة على وجود الله - عزَّ وجلَّ - وعلى ما له من حكمة ورحمة وقدرة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ «لعل» هنا للتعليل؛ أي: لتكونوا من ذوي العقول الرشيدة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** منة الله على عباده بتبيين الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن مسائل النكاح والطلاق قد يخفى على الإنسان حكمتها؛ لأن الله جعل بيان ذلك إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

٣ - **ومنها**: الرد على المفوضة - أهل التجهيل وعلى أهل التحريف - الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأن أهل التفويض يقولون: إن الله لم يبين ما أراد في آيات الصفات وأحاديثها، وأنها بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم معناها، وأهل التحريف يقولون: إن الله لم يبين المعنى المراد في آيات الصفات وأحاديثها، وإنما وكل ذلك إلى عقولنا، وإنما البيان بما ندركه نحن بعقولنا، فنقول: لو كان الأمر كما ذكرتم لكان الله - سبحانه وتعالى - يُبيّنُه، فلما لم يبين ما قلتم علم أنه ليس بمراد.

٤ - **ومن فوائد الآية**: الثناء على العقل؛ حيث جعله الله غاية لأمر محمود - وهو تبيين الآيات؛ والمراد عقل الرشد السالم من الشبهات والشهوات - أي: الإرادات السيئة.

٥ - **ومنها**: إثبات العلة لأفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦ - **ومنها**: أنه لا يمكن أن يوجد في الشرع حكم غير مبين؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ والآيات هنا جمع مضاف؛ فيعم.

فإن قال قائل: إننا نجد بعض النصوص تخفى علينا؟

فالجواب: أن ذلك إما لقصور في فهمنا، وإما لتقصير في تدبرنا، وإما لنقص في علومنا، أما أن النص نفسه لم يبين فهذا شيء مستحيل.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ﴾: الاستفهام الداخل هنا على النفي يراد به: التقرير، والتعجيب أيضًا؛ ﴿تَرَ﴾ أي: تنظر؛ والخطاب هنا إما لرسول الله ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه، والأخير أحسن؛ لأنه أعم، و«الرؤية» هنا رؤية الفكر لا رؤية البصر.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ لم يبين الله - عزَّ وجلَّ - من هؤلاء الذين خرجوا، فقيل: إنهم من بني إسرائيل. وقيل: إنهم من غيرهم. والمهم القصة والقضية التي وقعت، و﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: من بيوتهم وأحيائهم التي يأوون إليها، وقوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾: الجملة في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿خَرَجُوا۟﴾، وكلمة: ﴿أُلُوفٌ﴾ جمع

ألف، وهو من صِيَغ جموع الكثرة، فقيل: إنهم ثمانية آلاف. وقيل: ثمانون ألفًا. وإذا نظرت إلى صيغة اللفظ ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ تجد أنها تدل على أنهم أكثر من ثمانية آلاف، وأنهم عالم كثير، و﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول لأجله، والعامل قوله تعالى: ﴿خَرَجُوا﴾ يعني: خرجوا خوفًا من الموت، وهل هذا الموت طبيعي؛ لأنه نزل في أرضهم وباء، أو الموت بالقتال في سبيل الله؟ في ذلك قولان لأهل العلم: فمنهم من يقول - وهم أكثر المُفَسِّرين: إن المراد: خرجوا من ديارهم خوفًا من الموت لوباء وقع في البلاد؛ فخرجوا فرارًا من قدر الله، فأراد الله - عزَّ وجلَّ - أن يريهم أنه لا مفر منه إلَّا إليه. وقيل: إن المراد: خرجوا حذر الموت بالقتل؛ لأنهم دهمهم العدو، ولكنهم جبنوا وخرجوا خوفًا من أن يقتلهم العدو. فالذين قالوا بالأول قالوا: لأنا إذا أخذنا الآية بظاهرها - ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ - تبين أنه نزل في أرضهم وباء، فخرجوا من ديارهم خوفًا من الوباء. والذين قالوا بالثاني قالوا: لأن الله - سبحانه وتعالى - قال بعدها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فكأنَّ الله عرض قصة هؤلاء الذين جبنوا، وهربوا توطئة لأمرنا بالقتال في سبيل الله وأن نصبر.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي: قال لهم قولًا كونيًّا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾. «ثم»: تدل على التراخي، وأن الله - سبحانه وتعالى - أحياهم بعد مدة، وقيل: إنه أحياهم لسبب؛ وهو أن نبيًّا من الأنبياء مرّ بهم وهم ألوف مؤلفة جثث هامدة، فدعا الله أن يحييهم، فأحياهم الله. وقال بعض المفسرين: إن الله أحياهم بدون دعوة نبي. وهذا هو ظاهر اللفظ. وأما الأول: فلا دلالة عليه، وعليه فنقول: إن الله أحياهم ليُري العباد آياته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: اللام هنا للتوكيد، و«ذو» بمعنى صاحب، و«الفضل» بمعنى العطاء والتفضل.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. أي: لا يقومون بشكر الله - عزَّ وجلَّ - حين يتفضل عليهم. و«الشكر» طاعة المتفضل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه لا فرار من قدر الله؛ لقوله تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾. وقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال في الطاعون: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدِمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[1].

٢ - **ومنها:** تمام قدرة الله - عزَّ وجلَّ - بإماتة الحيِّ وإحياء الميت؛ لقوله تعالى: ﴿مُوتُوا﴾. فماتوا بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

(١) رواه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٢١٨).

٣ - **ومنها**: أن فيها دلالة على البعث، وجهه: أن الله أحياهم بعد أن أماتهم.

٤ - **ومنها**: أن بيان الله - عزَّ وجلَّ - آياته للناس وإنقاذهم من الهلاك من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٥ - **ومنها**: أن لله نعمة على الكافر؛ لعموم قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ولكن نعمة الله على الكافر ليست كنعمته على المؤمن؛ لأن نعمته على المؤمن نعمة متصلة بالدنيا والآخرة، وأما على الكافر فنعمة في الدنيا فقط.

٦ - **ومنها**: أن الشاكر من الناس قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

٧ - **ومنها**: أن العقل يدل على وجوب شكر المنعم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾. وهذا على سبيل الذم، فيكون من لا يشكر مذمومًا عقلًا وشرعًا.

٨ - **ومنها**: أن كلام الله - سبحانه وتعالى - بحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿مُوتُواْ﴾، فيكون فيه رَدٌّ على من قال: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه.

٩ - **ومنها**: أن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [يس: ٨٢]. أن الله - عزَّ وجلَّ - يتكلم بما أراد، لا أن يقول: ﴿كُن﴾ فقط، بل يتكلم بما أراد: كن كذا، كن كذا؛ لأن الكلام بكلمة ﴿كُن﴾ مجمل، ولما قال الله للقلم: «اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ مَاذَا أَكْتُبُ؟»[1]. فيصير معنى ﴿كُن﴾ أي: الأمر المستفاد من هذه الصيغة، ولكنه يكون أمرًا خاصًّا، فلو كان الله - سبحانه وتعالى - يريد أن ينزل مطرًا لا يقول: ﴿كُن﴾ فقط، بل يكون بالصيغة التي أراد الله - عزَّ وجلَّ.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: جواز حذف ما كان معلومًا، وأنه لا ينافي البلاغة؛ وهو ما يسمى عند البلاغيين بإيجاز الحذف؛ لقوله تعالى: ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾. والتقدير: فماتوا ثم أحياهم، وهذا كثير في القرآن، وكلام العرب.

١١ - **ومنها**: أنه - سبحانه وتعالى - يمدح نفسه بما أنعم به على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ»[2]. فهو - سبحانه وتعالى - يجب أن يُمدح ويُحمد؛ لأن ذلك صدق وحق، فإنه - سبحانه وتعالى - أحق من يُثنى عليه، وأحق من يُحمَد، وهو - سبحانه وتعالى - يحب الحق.

١٢ - **ومنها**: أن من طبيعة البشر الفرار من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

---

(١) انظر «سنن الترمذي» (٢١٥٥)، وأبوداود (٤٧٠٠).

(٢) رواه البخاري (٤٣٥٨)، ومسلم (٢٧٦٠).

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد للذي يحذر منه وهو لا يدري متى يفجؤه.

قال الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٤٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ فعل أمر حذف مفعوله للعلم به؛ والتقدير: قاتلوا في سبيل الله الكفار الذين يقاتلونكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: في الطريقة الموصلة إليه - وهي شريعته - وهذا يشمل النية والعمل؛ أما النية: فأن يكون الإنسان قاصدًا بقتاله أن تكون كلمة الله هي العليا، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ سُئِلَ عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه؛ أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1]. وأما العمل: فأن يكون جهاده على وفق الشرع.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، أي: سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم، وختم الله هذه الآية بالأمر بعلمنا بأن الله سميع عليم تحذيرًا من المخالفة، وترغيبًا في الموافقة؛ فنقوم بما أوجب علينا، ونجتنب ما حرم علينا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الأمر بقتال الكافرين؛ وهو إما فرض عين، أو فرض كفاية، أو مستحب؛ على حسب ما قرره العلماء، وقد سبق الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٢ - **ومنها:** الأمر بالقتال على وجه الإخلاص لله تعالى؛ بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ - **ومنها:** أنه يحرم على الإنسان أن يقاتل حمية، أو أن يقاتل شجاعة، أو أن يقاتل رياءً؛ لأن إيجاب الإخلاص في القتال يقتضي تحريم القتال لغير ذلك؛ اللهم إلَّا أن يكون دفاعًا عن النفس فهو مباح، بل قد يجب.

فإن قيل: لو قاتل دفاعًا عن وطنه لأنه بلد إسلامي؛ فيقاتل دفاعًا عنه لهذا الغرض، فهل يكون

---

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

قتالًا في سبيل الله؟

فالجواب: نعم؛ لأن نيته أن لا يفرق بين وطنه وغيره إذا كان ذلك لحماية الإسلام.

٤ - **ومن فوائد الآية**: وجوب التمشي في الجهاد على ما تقتضيه الشريعة من طاعة الأمير، والصبر عند اللقاء، ومعاملة الأسرى، وغير ذلك.

٥ - **ومنها**: التحذير من مخالفة الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فإن مقتضى ذلك أن نحذر من مخالفته؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٦ - **ومنها**: الترغيب في موافقة الشرع؛ فإن ذلك لا يضيع عند الله؛ لأنه سميع لأقوالنا عليم بأحوالنا.

٧ - **ومنها**: إثبات هذين الاسمين لله تعالى؛ وهما «السميع» و«العليم»؛ وما تضمناه من صفة وحُكم، وقد سبق تفصيل «السمع» الذي وصف الله -عزَّ وجلَّ- به نفسه.

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ فيها أربع قراءات؛ الأولى: «يضاعفُه» بمدِّ الضاد مع رفع الفاء، والثانية: بمدِّ الضاد مع فتح الفاء، والثالثة: «يضعِّفُه» حذف المد مع تشديد العين وضم الفاء، والرابعة: حذف المد مع تشديد العين وفتح الفاء؛ ولهذا جاء الرسم صالحًا للقراءات الأربع؛ لأن القرآن أول ما كُتب ليس فيه حركات؛ أما على قراءة فتح الفاء فوجهه أن الفاء السابقة للفعل للسببية، والفعل منصوب بـ«أنْ» بعد الفاء السببية؛ لأنه جواب الاستفهام، وأمَّا على قراءة الرفع فالفاء السابقة للفعل للاستئناف، والفعل مرفوع لتجرده من الناصب والجازم.

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا﴾ اسم استفهام، أو ﴿مَّن﴾ اسم استفهام، و﴿ذَا﴾ ملغاة، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبر المبتدأ، والمبتدأ ﴿مَّن﴾، وهذا الاستفهام بمعنى التشويق والحث، يعني: أين الذي يقرض الله فليتقدم؟

قوله تعالى: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾، القرض في اللغة: القطع، ومنه: المقراض - وهو المقص قاطع الثياب ومعنى «أقرضت فلانًا» اقتطعت له جزءًا من مالي فأعطيته إياه، ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي: يعبده، وسميت العبادة قرضًا للمجازاة عليها، ويحتمل: أن الله أراد بالإقراض إنفاق المال في سبيله؛ لأنه

تعالى لما قال: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] - والقتال يكون بالنفس والمال -؛ قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾، وهذا جهاد بالمال.

قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾، ﴿أَضۡعَافٗا﴾ مصدر مبين للنوع؛ لأن مطلق الضعف يكون بواحدة، لكن إذا قال تعالى: ﴿أَضۡعَافٗا﴾ صار أكثر من واحد؛ فيكون مصدرًا مبينًا للنوع، وقد بَيَّنَ الله - سبحانه وتعالى - هذه الأضعاف بقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾؛ فيها قراءتان: بالسين وبالصاد و«القبض» هو التضييق وهو ضد البسط و«البسط» هو التوسيع، فهو الذي بيده القبض والبسط، ويعم كل شيء؛ فيقبض في الرزق ويبسط؛ وفي العلم؛ وفي العمر؛ وفي كل ما يتعلق في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: تقديم المعمول: «إليه» له فائدتان؛ فائدة لفظية وفائدة معنوية؛ أَمَّا الفائدة اللفظية: فهي توافق رؤوس الآيات، وأما الفائدة المعنوية: فهي الحصر، فالمرجع كله إلى الله - عزَّ وجلَّ - لا إلى غيره، كما أن المبدأ كله من الله - سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحث على الإنفاق في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي﴾، والاستفهام هنا للحث والتشويق.

٢ - **ومنها:** أن الجزاء على العمل مضمون كضمان القرض لمقرضه.

٣ - **ومنها:** ملاحظة الإخلاص بأن يكون الإنسان منفقًا ماله لله - عزَّ وجلَّ - على سبيل الإخلاص، وطيب النفس، والمال الحلال، ولا يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى؛ لقوله تعالى: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، فالقرض الحسن هو ما وافق الشرع بأن يكون:

أولًا: خالصًا لله، فإن كان رياءً وسمعةً، فليس قرضًا حسنًا؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»[1].

ثانيًا: من مال حلال، فإن كان من مال حرام فليس بقرض حسن؛ لأن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا.

ثالثًا: نفسه طيبة به، لا متكرهًا ولا معتقدًا أنه غُرْمٌ وضريبة، كما يظن بعض الناس أن الزكاة

---

(١) سبق تخريجه.

ضريبة - حتى إن بعض الكُتّاب يعبرون بقولهم: ضريبة الزكاة - والعياذ بالله.

رابعًا: أن يكون في محله، بأن يتصدق على فقير أو مسكين أو في مصالح عامة، أما لو أنفقها فيما يغضب الله فإن ذلك ليس قرضًا حسنًا.

خامسًا: أن لا يتبع ما أنفق منًّا ولا أذًى، فإن أتبعه بذلك بطل ثوابه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن فضل الله وعطاءه واسع، وأن جزاءه للمحسن جزاء فضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. مع أن أصل توفيقه للعمل الصالح فضل منه؛ لقول النبي ﷺ لفقراء الأنصار حين ذكروا له فضل الأغنياء عليهم في الصدقات والعتق: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»[1]. وعلى هذا فيكون لله تعالى في توفيق العبد للعمل الصالح فضلان: فضل سابق على العمل الصالح، وفضل لاحق - وهو الثواب عليه أضعافًا مضاعفة - وأما جزاؤه للعصاة فهو دائر بين العدل والفضل؛ إن كانت المعصية كفرًا فجزاؤها عدل، وإن كانت دون ذلك فجزاؤها دائر بين الفضل والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٥ - **ومن فوائد الآية:** تمام ربوبية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكمالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾.

٦ - **ومنها:** الإشارة إلى أن الإنفاق ليس هو سبب الإقتار والفقر؛ لأن ذكر هذه الجملة بعد الحثَّ على الإنفاق يشير إلى أن الإنفاق لا يستلزم الإعدام أو التضييق؛ لأن الأمر بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[2]. وكم من إنسان أمسك ولم ينفق في سبيل الله، فسلط الله على ماله آفات في نفس المال؛ كالضياع والاحتراق والسرقة وما أشبه ذلك، أو آفات تلحق هذا الرجل ببدنه، أو بأهله يحتاج معها إلى أموال كثيرة، وقد يتصدق الإنسان وينفق ويوسع الله له في الرزق.

٧ - **ومن فوائد الآية:** إثبات المعاد والبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٨ - **ومنها:** ترهيب المرء من المخالفة، وترغيبه في طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن الإنسان إذا علم أنه راجع إلى رَبِّهِ لا محالة، فإنه لابد أن يكون فاعلًا لما أُمِر به تاركًا لما نُهي عنه؛ لأنه يخاف من هذا الرجوع.

(١) رواه مسلم (٥٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٦٨٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٠٥).

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الخطاب هنا إمَّا للرسول ﷺ وخطاب زعيم الأمة خطاب له وللأمة؛ لأنها تبع له - وإما أنه خطاب لكل من يتوجه له الخطاب؛ فيكون عامًّا في أصل وضعه، والفرق بين المعنيين: أن الأول عام باعتبار التبعية للمخاطب به أولًا - وهو الرسول ﷺ - والثاني عام باعتبار وضعه يعني: ألم تر أيها المخاطب؟ و﴿تَرَ﴾: هل المراد تنظر أو تسمع أو تعلم؟ الفعل هنا عُدِّيَ بـ﴿إِلَى﴾، وإذا عُدِّيَ بإلى تَعَيَّنَ أن يكون من رؤية العين، ولو عدِّي بنفسه لأمكن أن يكون المراد بالرؤية العلم، فإذا كان كذلك فإنه يلزم أن يكون المعنى: ألم تر إلى شأن بني إسرائيل؛ لأن من المعلوم أننا نحن - بل والرسول ﷺ - لم نشاهده، ويمكن أن نقول: إنها عديت بـ﴿إِلَى﴾، وهي بمعنى النظر؛ لأن الإخبار بها جاء من عند الله، وما كان من عند الله فهو كالمرئي بالعين بل أشد وأبلغ.

والاستفهام هنا الظاهر أنه للتشويق - يعني يشوقنا أن ننظر إلى هذه القصة لنعتبر بها - لأن التقرير إنما يكون في أمر كان معلومًا للمخاطب فيُقَرَّر به، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. وأما هذا فهو أمر ليس معلومًا للمخاطب إلَّا بعد أن يخبر به؛ فيكون هنا للتشويق، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ [الصف: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وما أشبهها، أما لو كان يخاطب من كان عالمًا بها لقلنا: إن الاستفهام للتقرير.

قوله تعالى: ﴿الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: الأشراف منهم، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾: لما بين قبيلتهم ذكر زمنهم، وأنهم بعد موسى - وهو نبي الله موسى بن عمران ﷺ - وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾. «إذ»: ظرف مبني على السكون في محل نصب؛ أي: حين قالوا

لنبيٍّ لهم، وفي «نبي» قراءتان: بالهمز وبالياء المشددة، وسبق توجيههما ومعنى النبوة.

إذا قال قائل: من هذا النبي؟

قلنا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبهمه، ولو كان في معرفة اسمه فائدة لكان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يبيِّن اسمه لنا، لكن ليس لنا في ذكر اسمه فائدة، المهم أنه نبي من الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ أي: مُرْ لنا بملك، أو أقم لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله، وكان أمرهم في ذلك الوقت فوضوي ليس عندهم ملك يدبر أمورهم، ويدبر شئونهم، والناس إذا كان ليس لهم ولي أمر صار أمرهم فوضى، كما قيل:

لَا يُصْلِحُ النَّاسَ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ. . . . . . .

ولهذا أمر النبي ﷺ القوم إذا سافروا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم حتى لا تكون أمورهم فوضى.

قوله تعالى: ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، «نقاتل» بالجزم جوابًا للأمر «ابعث»، وهذا يدل على عزمهم على القتال إذا بعَث إليهم ملكًا، وسبق معنى «في سبيل الله»، وأن رسول الله ﷺ فسرها بأحسن تفسير؛ وهو «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا»[1].

فقال لهم نبيهم يريد أن يختبرهم، وينظر عزيمتهم: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾. «عسيتم» فيها قراءتان: بفتح السين وكسرها، وهي هنا للتوقع، فيكون المعنى: هل يتوقع منكم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا؟

وقوله تعالى: ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ جملة شرطية معترضة بين اسم «عسى» وخبرها، فاسم «عسى» الضمير: التاء، و﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ خبرها، وجملة ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ الشرطية جوابها محذوف، وقد نقول: إنها لا تحتاج إلى جواب لعلمه من السياق.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾. أي: إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾، «أن» مصدرية؛ والمعنى: أي مانع لنا يمنعنا من القتال في سبيل الله وقد وجد مقتضى ذلك؛ وهو قولهم: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾. والإنسان إذا أُخرج من داره وبنيه فلابد أن يقاتل لتحرير البلاد وفكّ الأسرى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا..﴾ جملة حالية في محل نصب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ﴾: هم طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله، ولما استثبت نبيهم منهم قالوا: إنا عازمون على ذلك وثابتون عليه، ولكن لما

(١) سبق تخريجه.

كتب عليهم القتال وفرض عليهم ﴿تَوَلَّوْا﴾، فصار ما توقعه نبيهم حقًّا أنهم لن يقاتلوا، و﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن هذا الغرض ولم يقوموا به.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: «القليل» ما دون الثلث؛ لقول الرسول ﷺ: «الثُّلُثُ كَثِيرٌ»[1]. وهي منصوبة على الاستثناء.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، ومقتضى علمه بهم أن يجازيهم على ظلمهم، والظلم هنا ليس لفعل محرم ولكنه لترك واجب؛ لأنَّ تركَ الواجب كفعل المحرم؛ فيه ظلم للنفس ونقص من حقها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحث على النظر والاعتبار؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن في هذه القصة عبرًا لهذه الأمة؛ حيث إن هؤلاء القوم الذين كتب عليهم القتال تولوا إلَّا قليلًا منهم.

٣ - **ومنها:** تحذير هذه الأمة عن التولي عن القتال إذا كتب عليهم.

٤ - **ومنها:** أنه لابد للجيوش من قائد يتولى قيادتها؛ لقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٥ - **ومنها:** أن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الملك؛ لقولهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يخاطبون النبي، فالنبي له السلطة أن يبعث لهم ملكًا يتولى أمورهم ويدبرهم.

٦ - **ومنها:** إذا طلب الإنسان شيئًا من غيره أن يذكر ما يشجعه على إجابة الطلب؛ لقولهم: ﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فإن هذا يبعث النبي ويشجعه على أن يبعث لهم الملك.

٧ - **ومنها:** الإشارة إلى الإخلاص لله - سبحانه وتعالى - لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٨ - **ومنها:** امتحان المخاطَب بما طلب فعله أو إيجادَه من غيره: هل يقوم بما يجب عليه نحوه أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾؟

٩ - **ومنها:** أن الإنسان بفطرته يكون مستعدًّا لقتال من قاتله؛ لقولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾. ولهذا تجد الجبان إذا حُصر يأتي بما عنده من الشجاعة، ويكون عنده قوة للمدافعة.

١٠ - **ومنها:** أن من مبيحات القتال إخراج الإنسان من بلده وأهله ليرفع ظلم الظالمين؛ لقولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾. لكن لو كان إخراجهم بحق - كما فعل النبي ﷺ في بني النضير[2] - فلا حق لهم في المقاتلة أو المطالبة ولو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٣٨٠٤)، ومسلم (١٧٦٦).

أسلموا؛ لأن الله أورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم؛ والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع الصبر على ترك المحظور أو القيام بالمأمور، فإذا ابتُلي نكص؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾. مع أنهم كانوا في الأول متشجعين على القتال.

١٢ - **ومنها**: الإشارة إلى قول النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(١). وقوله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ؛ فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»(٢). ويشبه هذا أن بعض الناس ينذرون النذر وهم يظنون أنهم يوفون به ثم لا يوفون به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦].

١٣ - **ومن فوائد الآية**: أن البلاء موكل بالمنطق؛ لأنه قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾. فكان ما توقعه نبيهم واقعًا، فإنهم لما كتب عليهم القتال تولوا.

١٤ - **ومنها**: أن بعض السؤال يكون نكبة على السائل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

١٥ - **ومنها**: وجوب القتال دفاعًا عن النفس؛ لأنهم لما قالوا: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض عليهم؛ ليدافعوا عن أنفسهم، ويحرروا بلادهم من عدوهم، وكذلك أبناءهم من السبي.

١٦ - **ومنها**: تحذير الظالم من الظلم - أيَّ ظلم كان - لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ فإن هذه الجملة تفيد الوعيد والتهديد للظالم.

١٧ - **ومنها**: تحريم الظلم لوقوع التهديد عليه.

١٨ - **ومنها**: أن ترك الواجب من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: المتولين الذين فرض عليهم القتال، ولم يقوموا به؛ فَدَلَّ ذلك على أن الظلم ينقسم إلى قسمين: إما فعل محرم؛ وإما ترك واجب.

(١) رواه البخاري (٢٦٦٣)، ومسلم (١٧٤٢).

(٢) صحيح: رواه أبوداود (٤٣١٩)، وأحمد في «مسنده» (١٩٩٨٢)، وانظر «المشكاة» (٥٤٨٨).

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بتشديد الياء، وفي قراءة: «نبيئهم» بالهمز.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿طَالُوتَ﴾ علَم على المبعوث، و﴿مَلِكًا﴾ حال من ﴿طَالُوتَ﴾، و«المِلك» هو الذي له التدبير الذي لا ينازَع فيه، ولكنه بالنسبة للمخلوق بحسب ما تقتضيه الولاية الشرعية، أو العرفية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي: معترضين على هذا، ﴿أَنَّى﴾ بمعنى الاستفهام الإنكاري ﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾؟!.

ثم قالوا معززين لاستبعادهم هذا الشيء: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾. كأنهم يرون أن المِلك لا يكون إِلَّا كابرًا عن كابر، وأن هذا لم يسبق لأحدٍ من آبائه أنه تولى المُلك بخلافنا نحن، فإن الملوك كانوا منا، فكيف جاءه الملك؟! أيضًا ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾: فهو فقير، وقد يقال: إنه ليس بفقير، لكن ليس عنده مال واسع، وفرق بين الفقير المعدم وبين مَنْ يجد، ولكن ليس ذا سعة - يعني ليس غنيًّا نتنفع بماله - ويدبرنا بماله، ويحصِّل الجيوش والجنود بماله، فذكروا علتين؛ إحداهما: من حيث التوسط في مجتمعه، والثانية: من حيث المال، إذنْ فَقَدَ القوة الحسبية والقوة المالية، قالوا: هذا الرجل ليس عنده حسب فليس من أبناء الملوك، وليس عنده مال فليس من الأثرياء الذين يُخضعون الناس بأموالهم.

وجملة: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ في موضع نصب على الحال، وتأمل قول نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾. حيث عَبَّرَ باللام الدالة على أنه هذا المِلك بُعث لمصلحتهم؛ وبين قولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ حيث أومؤوا إلى أن بعثه للسيطرة عليهم.

جواب نبيهم: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾. أي: اختاره عليكم، وأصلها من: الصفوة؛ فيكون أصل «اصطفاه» اصتفاه - بتاء الافتعال - ولكنها قلبت طاءً لعلة تصريفية.

وقوله هنا: ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، وفي الأول قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾. إشارة إلى أنه تعالى فضَّله عليهم فاختاره؛ لأنه أفضل منهم، فهو مفضل عليهم لما أعطاه الله مما سيُذكر.

قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ أي: سعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، المراد بـ ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ علم تدبير المُلْك؛ فعنده الحنكة والرأي ما جعله مختارًا عليهم من قبل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أيضًا زاده بسطة في الجسم؛ وهي القوة والضخامة والشجاعة، فاجتمع في حقه القوتان: المعنوية وهي العلم، والحسية وهي أن الله زاده بسطة في الجسم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾. أي: يعطي ملكه من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: ذو سعة في جميع صفاته؛ واسع في علمه وفضله وكرمه وقدرته وقوته وإحاطته بكل شيء وجميع صفاته وأفعاله، و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم بكل شيء؛ ومنه العلم بمن يستحق أن يكون ملكًا، أو غيرَه من الفضل الذي يؤتيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من يشاء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن نبيهم وافقهم على أن يبعث إليهم مَلِكًا ليقاتلوا في سبيل الله، فدعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فاستجاب له.

٢ - **ومنها:** كمال تعظيم الأنبياء لله تعالى، وحسن الأدب معه؛ لقول نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾. ولم يقل: إني بعثت.

٣ - **ومنها:** أن أفعال العباد مخلوقة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** إسناد الفضل إلى أهله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾.

٥ - **ومنها:** أن الله قد يعطي المُلك من لا يترقبه؛ لكونه غير وجيه، ولا من سلالة الملوك.

٦ - **ومنها:** اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب وتسليمه للأمر الواقع؛ لقول نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾. فإنه أبلغ في الإقناع والتسليم من قوله: إني بعثت لكم.

٧ - **ومنها:** أن المعترض يذكر وجه اعتراضه لمخاطبه؛ لقولهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

٨ - **ومنها:** أن استفهام هؤلاء القوم يحتمل أن يكون المراد به (الاعتراض)، ويحتمل أن يراد به الاستكشاف والبحث عن السبب بدون اعتراض: كيف كان ملكًا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤتَ سعةً من المال؟ فإن كان الأول فإن حالهم تقتضي الذم؛ لأنهم كيف يعترضون وهم الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكًا!! وإن كان الثاني فلا اعتراض عليهم ولا لوم عليهم.

٩ - **ومنها:** أن المجيب يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهم فالأهم؛ لقول نبيهم في جوابه: ﴿إِنَّ

﴿ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلخ... فبدأ بذكر ما لا جدال فيه - وهو اصطفاء الله عليهم - ثم ذكر بقية المؤهلات: وهي أن الله زاده بسطة في العلم وتدبير الأمة والحروب وغير ذلك، وأن الله زاده بسطة في الجسم: ويشمل القوة والطول، وأن الله - عزَّ وجلَّ - هو الذي يؤتي ملكه من يشاء، وفعله هذا لابد وأن يكون مقرونًا بالحكمة فلولا أن الحكمة تقتضي أن يكون طالوت هو الملك ما أعطاه الله - عزَّ وجلَّ - الملك، وأن الله واسع عليم: فهو ذو الفضل الذي يمده إلى من يشاء من عباده، فله أن يتفضل على من يشاء، والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم أيضًا حيث يجعل ولايته.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: أن الملك تتوطد أركانه إذا كان للإنسان مزية في حسبه أو نسبه أو علمه أو قوته، يؤخذ هذا أولًا من قولهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾، وثانيًا من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾.

١١ - **ومنها**: بيان أن تقدير الله - عزَّ وجلَّ - فوق كل تصور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ مع أنهم قَدَحوا فيه من وجهين: أنهم أحق بالملك منه، وأنه فقير، فبيَّن نبيهم أن الله اصطفاه عليكم بما تقتضيه الحكمة.

١٢ - **ومنها**: أنه كُلَّما كان ولي الأمر ذا بسطة في العلم وتدبير الأمور والجسم والقوة كان أقوَم لملكه، وأتم لإمرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾.

١٣ - **ومنها**: أن ملك بني آدم مُلك لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾، فهذا المَلِك في مملكته هو في الحقيقة ما مَلَكَ إلَّا بإذن الله - عزَّ وجلَّ - فالمُلك لله - سبحانه وتعالى - وحده يؤتيه من يشاء.

١٤ - **ومنها**: أن ملكنا لما نملكه ليس ملكًا مطلقًا نتصرف فيه كما نشاء، بل هو مُقَيَّدٌ بما أذن الله به؛ ولهذا لا نتصرف فيما نملك إلَّا على حسب ما شرعه الله، فلو أراد الإنسان أن يتصرف في ملكه كما يشاء - يتلفه ويحرقه ويعذبه إذا كان حيوانًا - فليس له ذلك؛ لأن ملكه تابع لملك الله - سبحانه وتعالى.

١٥ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله - سبحانه وتعالى - لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ومشيئته تعالى تابعة لحكمته؛ لقوله - عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٦ - **ومنها**: أن أفعال الله - سبحانه وتعالى - تقع بمشيئته لا مكره له؛ لأنه المهيمن على كل شيء.

١٧ - **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: ﴿وَٰسِعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾، وما تضمناه من وصف أو حكم.

١٨ - **ومنها**: إثبات سعة الله - عزَّ وجلَّ - في إحاطته وصفاته وأفعاله.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، ﴿ءَايَةَ﴾ يعني: علامة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]. يعني: علامة تدل على أنه حق.

قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ﴿أَن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿ٱلتَّابُوتُ﴾ شيء من الخشب أو من العاج يشبه الصندوق، ينزل ويصطحبونه معهم، وفيه السكينة يعني: أنه كالشيء الذي يسكنهم، ويطمئنون إليه، وهذا من آيات الله.

قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾. وهم الأنبياء تركوا العلم والحكمة؛ لأن الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فهذا التابوت كان مفقودًا، وجاء به هذا المِلك الذي بعثه الله لهم، وصار معهم يصطحبونه في غزواتهم فيه السكينة من الله - سبحانه وتعالى: أنهم إذا رأوا هذا التابوت سكنت قلوبهم، وانشرحت صدورهم، وفيه أيضًا مما ترك آل موسى وآل هارون - عليهما الصلاة والسلام - من العلم والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾. خَصَّ موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - لأنهما جاءا برسالة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: الجملة حال من ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عالم غيبي خلقوا من نور، وسبق الكلام مبسوطًا في أحوالهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ بالنصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخرًا، والمشار إليه: «التابوت تحمله الملائكة، وفيه سكينة من الله، وبقية مما ترك آل موسى، وآل هارون».

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ذوي إيمان.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** رحمة الله - سبحانه وتعالى - بعباده؛ حيث يؤيد الأمور بالآيات لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ ولو شاء الله - عزَّ وجلَّ - لفعل ما يفعل بدون آية، وانتقم من المكذبين والمستكبرين؛ ولكن من رحمته - عزَّ وجلَّ - أنه يبعث بالآيات

حتى تطمئن القلوب، وحتى تقوم الحجة؛ ولهذا ما من رسول أُرسِلَ إِلَّا أوتي ما على مثله يؤمن البشر، وحصول الآيات حكمة ظاهرة؛ لأنه لو خرج رجل من بيننا وقال: أنا رسول الله إليكم: افعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ وَإِلَّا فَإِنَّ دماءكم وأموالكم حلال لي. فإنه لا يطاع؛ ولكن من رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكمته أن جعل للرسل آيات حتى تقوم الحجة ويستجيب الناس.

٢ - **ومن فوائد الآية**: ما في التابوت من الآيات العظيمة؛ حيث كان هذا التابوت مشتملًا على ما تركه آل موسى وآل هارون من العلم والحكمة من وجه؛ وكان أيضًا سكينة للقوم تسكن إليه نفوسهم وقلوبهم، ويزدادون قوة في مطالبهم.

٣ - **ومنها**: أن للسكينة تأثيرًا على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وتأمل كيف أضافه إلى ربوبيته إشارة إلى أن في ذلك عناية خاصة لهؤلاء القوم، والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأنَّ الإنسان وارتاح وانشرح صدره لأوامر الشريعة، وقَبِلها قبولًا تامًّا.

٤ - **ومنها**: إثبات الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ دليل على أن التابوت كبير.

٥ - **ومنها**: أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٦ - **ومنها**: تأكيد الشيء بأدوات التأكيد والتكرار، وهنا في هذه الآية اجتمع التكرار والأدوات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾. ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾: فهذا أكد بالتكرار؛ وأكد أيضًا بـ﴿إِنَّ﴾ واللام: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾: فهذا أكد بالأدوات.

٧ - **ومنها**: فضيلة الإيمان، وأن الإيمان أكبر ما يكون تأثيرًا في الانتفاع بآيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٨ - **ومنها**: أن الإنسان إذا ازداد إيمانًا ازداد فهمًا لكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسُنَّة رسوله ﷺ؛ لأن الشيء إذا علق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلما تم الإيمان كان انتفاع الإنسان بآيات الله أكثر وفهمه لها أعظم.

٩ - **ومنها**: أن الملائكة أجسام؛ لقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأما قول من يقول: إنهم عقول فقط، أو أنهم أرواح وليس لهم أجسام. فقول ضعيف بل باطل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]. والنبي ﷺ رأى جبريل على خلقته - أو على صورته - التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق[(١)].

(١) انظر «صحيح البخاري» (٤٥٧٧)، والترمذي (٢٤٤٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾. أي: مشى بهم وانفصل عن مكانه، و«الجنود» جمع «جند»، وهم الجيش المقاتلون، وكان طالوت رجلًا ذكيًّا عاقلًا؛ لأن الله زاده بسطة في العلم والجسم، وكان عنده علم بأحوالهم من قبل، وأنه لما كُتب عليهم القتال بيَّن لهم أن الله مبتليهم بنهر- والنهر هو الماء الجاري الكثير- فابتلاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا النهر؛ أولًا: ليعلم من يصبر ومن لا يصبر؛ لأن الجهاد يحتاج إلى معاناة وصبر. ثانيًا: ليعلم من يطيع ممن لا يطيع؛ ولهذا قال لهم الملك طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي: مختبركم به.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾. أي كثيرًا ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فإني منه بريء؛ لأنه ليس على منهجي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه شيئًا. ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: على طريقي ومنهجي، ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾. أي: شرب قليلًا مغترفًا بيده - لا بيديه.

قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: شربًا كثيرًا. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فلم يشرب كثيرًا، وقد قيل: إن عددهم ثمانون ألفًا، شرب منهم ستة وسبعون ألفًا، فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. أي: فلما تعداه طالوت والذين آمنوا معه، ولا يلزم أن يكونوا عبروا من فوقه ﴿قَالُوا﴾ أي: الذين جاوزوه، والمراد بعضهم بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: لا قدرة لنا، و«أل» للعهد الحضوري - أي: هذا اليوم - يعنون به اليوم الذي شاهدوا فيه عدوهم، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ أي: يوقنون بذلك؛ لأن «الظن» يراد به: اليقين أحيانًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، أي: يوقنون به.

قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾. ﴿كَم﴾ للتكثير، أي: ما أكثر ما تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة.

قوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾، أي: بقدره، ﴿والله مع الصابرين﴾ أي: بالنصر والتأييد.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أنه ينبغي للقائد أن يتفقد جنوده؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: مشى بهم وتدبر أحوالهم ورتَّبهم.

٢ - **ومنها**: أنه يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب سواء كان مخذلًا أو مرجفًا أو ملحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، والفرق بين المخذل والمرجف: أن المخذِّل هو الذي يخذل الجيش، ويقول: ما أنتم بمنتصرين. والمرجف هو الذي يخوف من العدو، فيقول: العدو أكثر عددًا. وأقوى استعدادًا.. وما أشبه ذلك.

٣ - **ومنها**: أن من الحكمة اختيار الجند؛ ليظهر من هو أهل للقتال ومن ليس بأهل، ويشبه هذا ما يصنع اليوم، ويسمى بالمناورات الحربية، فإنها عبارة عن تدريب واختيار للجند والسلاح: كيف ينفذون الخطة التي تعلَّموها؟ فيجب أن نختبر قدرة الجند على التحمل والثبات والطاعة، والأساليب الحربية مأخوذة من هذا، ولكنها متطورة حسب الزمان.

٤ - **ومنها**: أن طالوت امتحنهم على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: مَن شرب من النهر كثيرًا، فهذا قد تبرَّأ منه.

الوجه الثاني: مَن لم يشرب شيئًا، فهذا من طالوت – أي: من جنوده المقربين.

الوجه الثالث: مَن شرب منه غرفة بيده؛ فهذا لم يتبرأ منه؛ وظاهر الآية أنه مثل الوجه الثاني.

وهذا الابتلاء أولًا: ليعلم به من يصبر على المشقة ممن لا يصبر، فهو كالترويض والتمرين على الصبر. ثانيًا: ليعلم به من يمتثل أوامر القائد ومن لا يمتثل.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وهذا أمر يشهد به الحال. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وثبت عن النبي ﷺ «أَنَّ بَعْثَ النَّارِ مِنْ بَنِي آدَمَ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ مِنَ الأَلْفِ». فالطائع قليل والمعاند كثير.

٦ - **ومنها**: جواز إخبار الإنسان بالواقع إذا لم يترتب عليه مفسدة؛ لأنهم قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾. وقد يقال: إن هذا لا تدل عليه الآية؛ وأن فيها دليلًا على أن الجبان في ذُعر دائم ورعب؛ لقولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

٧ - **ومنها**: أن الإيمان موجب للصبر والتحمل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٨ - **ومنها**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي عباده إمَّا بفوات محبوب أو حصول مكروه؛ ليعلم ـ سبحانه وتعالى ـ صبرهم؛ ولهذا نظائر؛ منها ما قصه سبحانه عن بني إسرائيل حين حرم عليهم صيد الحوت في يوم السبت؛ فكانت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعًا، وفي غير يوم السبت لا يرون شيئًا، فصنعوا حيلة؛ وهي أنهم وضعوا شباكًا في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في هذا الشباك، ثم نشبت فيه، فإذا كان يوم الأحد إستخرجوها منه، فكان في ذلك حيلة على محارم الله؛ ولهذا انتقم الله منهم، ووقع ذلك أيضًا للصحابة - رضوان الله عليهم - وهم في حال الإحرام: فابتلاهم الله بصيد تناله أيديهم ورماحهم، ولكنهم ﷺ امتنعوا عن ذلك، وهؤلاء - أعني: أصحاب طالوت - ابتلاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا النهر وكانوا عطاشًا، فقال لهم نبيهم: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية**: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾؛ لأنهم لابد أن يشربوا للنجاة من الموت.

١٠ - **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾، حيث أضاف الفعل إليهم.

١١ - **ومنها**: أن القليل من الناس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

١٢ - **ومنها**: أن من الناس مَنْ يكون مرجفًا أو مخذِّلًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ هؤلاء مخذِّلون؛ وفي نفس الوقت أيضًا مرجفون.

١٣ - **ومنها**: أن اليقين يحمل الإنسان على الصبر والتحمل والأمل والرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. مع اليقين قالوا هذا القول لغيرهم لما قال أولئك: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾. فردوا عليهم.

١٤ - **ومنها**: إثبات ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

١٥ - **ومنها**: أن الظن يأتي في محل اليقين؛ بمعنى أنه يستعمل الظن استعمال اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾.

١٦ - **ومنها**: أنه قد تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة بإذن الله، وهذا قد وقع فيما سبق من الأمم،

ووقع في هذه الأمة مثل غزوة بدر، وقد تُغلَب الفئة الكثيرة وإن كان الحق معها، كما في غزوة حنين، لكن لسبب.

١٧ - **ومنها**: أن الوقائع والحوادث لا تكون إلَّا بإذن الله، وهذا يشمل ما كان من فعله تعالى وفعل مخلوقاته؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٨ - **ومنها**: إثبات الإذن لله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو ينقسم إلى قسمين: إذن كوني وإذن شرعي، ففي هذه الآية: إذن كوني؛ وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. هذا شرعي، وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] هذا شرعي أيضًا.

١٩ - **ومنها**: فضيلة الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢٠ - **ومنها**: إثبات المعية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فإن قلت: هذه الآية ظاهرها تخصيص معية الله بالصابرين، مع أنه في آيات أخرى أثبت معيته لعموم الناس؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] هذا عام، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

فالجواب: أن هذه المعية خاصة تقتضي الإثابة والنصر والتأييد، وتلك معية عامة تقتضي الإحاطة بالخلق علمًا وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية التي أضافها الله إلى نفسه منها ما يقتضي التهديد، ومنها ما يقتضي التأييد، ومنها ما هو لبيان الإحاطة والشمول. فمثال الذي يقتضي التأييد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ومثال الذي يقتضي التهديد قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، ومثال ما يقتضي الإحاطة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

فإن قلت: ما الجمع بين إثبات المعية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإثبات العلوِّ له؟

فالجواب: أنه لا تناقض بينهما؛ إذ لا يلزم من كونه معنا أن يكون حالًّا في الأمكنة التي نحن فيها، بل هو معنا وهو في السماء، كما نقول: القمر معنا، والقطب معنا، والثريا معنا، وما أشبه ذلك مع أنها في السماء.

٢١ - **ومن فوائد الآية**: الترغيب في الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والصبر

ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله: بأن يحبس الإنسان نفسه على الطاعة، فيقوم بها من غير ملل ولا ضجر.

الثاني: الصبر عن محارم الله: بأن يحبس نفسه عمَّا حرم الله عليه من قول أو عمل.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: بأن يحبس نفسه عن التسخط على ما يقدره الله من المصائب العامة والخاصة.

وأعلاها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: ظهر طالوت وجنوده، مأخوذ من البراز؛ وهي الأرض الواسعة البارزة الظاهرة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾. إفراغ الشيء على الشيء يدل على عمومه له، والمعنى: املأ قلوبنا وأجسادنا صبرًا حتى نثبت.

قوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ يعني: اجعلها ثابتة لا تزول فلا نفر ولا نهرب، وربما يراد بـ «الأقدام» ما هو أعمُّ من ذلك، وهو تثبيت القلوب أيضًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: قوِّنا عليهم حتى نغلبهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

٢ - **ومنها**: أن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته وإجابة دعوته، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأمَّا اعتماد الإنسان على نفسه واعتداده بها فسبب لخذلانه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. وهذا مشهد عظيم في الواقع، فإن كثيرًا من الناس إذا أعطاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نعمة في بدنه أو ماله أو أهله يرى أن ذلك من

حوله وقوته وكسبه، وهذا خطأ عظيم، بل هو من عند الله، هو الذي مَنَّ به عليك، فانظر إلى الأصل - لا إلى الفرع - والنظر إلى الفرع وإهمال الأصل سفه في العقل وضلال في الدين؛ ولهذا يجب عليك إذا أنعم الله عليك بنعمة أن تثني على الله بها بلسانك، وتعترف له بها في قلبك، وتقوم بطاعته بجوارحك.

٣ - **ومن فوائد الآية:** اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه على طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

٤ - **ومنها:** ذكر ما يكون سببًا للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. لم يقولوا: على أعدائنا. كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم. وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية والحمية، يعني: ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلا لأنهم كافرون.

قال الله تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: غلبوهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتقديره، فالإذن هنا كوني.

قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾. داود كان من جنود طالوت، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قويًّا شجاعًا، يقال: إن جالوت طلب البراز؛ لأن جالوت قائد جبار عنيد قوي، فخرج إليه داود فقتله، وقد ذكروا في كيفية قتله ما لا حاجة إلى ذكره، ولا سند صحيح في إثباته، وليس لنا في كيفية قتله كبير فائدة؛ ولذا لم يصف الله تعالى لنا القتل، فالمقصود قتله وقد حصل، وإذا قُتل - وهو القائد - انهزم الجنود.

قوله تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ﴾ ضمير المفعول به يعود إلى ﴿دَاوُودُ﴾، أي: أعطاه الله ﴿الْمُلْكَ﴾ فصار ملكًا، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ فصار رسولًا، واجتمع له ما به صلاح الدين والدنيا: الشرع والإمارة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾. أي: من الذي يشاؤه، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿دَفْعُ﴾ بفتح الدال وإسكان الفاء، وفي قراءة: "دفاع" بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها، وهما سبعيتان، و﴿دَفْعُ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به، و﴿بَعْضَهُم﴾ بدل منه، و﴿بِبَعْضٍ﴾ متعلق بـ﴿دَفْعُ﴾، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: موجود، يعني: لولا أن دفع الله الناس بعضهم ببعض موجود لفسدت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. جواب «لولا»، و«الفساد» ضد الصلاح، ومن أنواعه ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: صاحب فضل، و«الفضل» هو العطاء الزائد الواسع الكثير، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: جميع الخلق، وسموا عالمًا؛ لأنهم عَلَم على خالقهم - سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن مَنْ صَدَق اللجوء إلى الله وأحسن الظن به أجاب الله دعاءه.

٢ - **ومنها:** أنه يجب على المرء إذا اشتدت به الأمور أن يرجع إلى الله - عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومنها:** إضافة الحوادث إلى الله - عزَّ وجلَّ - وإن كان من فعل الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ هذا فعلهم، لكن ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فالله هو الذي أذن بانتصار هؤلاء وخذلان هؤلاء.

٤ - **ومنها:** شجاعة داود - عليه الصلاة والسلام - حيث قتل جالوت حين برز لهم، والشجاعة عند المبارزة لها أهمية عظيمة؛ لأنه إذا قُتِل المبارِز أمام جنده فلا شك أنه سيجعل في قلوبهم الوهن والرعب، ويجوز في هذه الحال أن يخدع الإنسان من بارزه؛ لأن المقام مقام حرب، وكل منهما يريد أن يقتل صاحبه، فلا حرج أن يخدعه، ويُذكر أن عمرو بن ود لما خرج لمبارزة علي بن أبي طالب صاح به عليّ، وقال: ما خرجت لأبارز رجلين. فظن عمرو أن أحدًا قد لحقه فالتفت، فضربه علي، هذه خدعة ولكنها جائزة؛ لأن المقام مقام حرب، هو يريد أن يقتله بكل وسيلة.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن داود - عليه الصلاة والسلام - أوتي الملك والنبوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ليس عندهم من العلم إلَّا ما علمهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، فالنبي نفسه لا يعلم الغيب، ولا يعلم الشرع إلَّا ما آتاه الله - سبحانه وتعالى - ومثل ذلك قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٧ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، ولكن اعلم أن مشيئة الله تابعة لحكمته، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

٨ - **ومنها**: أن الله - عزَّ وجلَّ - يدفع الناس بعضهم ببعض لتصلح الأرض ومن عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. وفساد الأرض يكون بالمعاصي وترك الواجبات؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

٩ - **ومنها**: إثبات حكمة الله؛ حيث جعل الناس يدفع بعضهم بعضًا ليقوم دين الله، فدفعَ الكافرين بجهاد المؤمنين؛ لأنه لو جعل السلطة لقوم معينين لأفسدوا الأرض؛ لأنه لا معارض لهم، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - يعارض هذا بهذا.

١٠ - **ومنها**: أن من الفساد في الأرض هدم بيوت العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، وهذا تفسير لقوله تعالى هنا: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾. أو هو ذكر لنوع من الفساد.

١١ - **ومنها**: إثبات فضل الله تعالى على جميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى الكفار، لكن فضل الله على الكفار فضل في الدنيا فقط بإعطائهم ما به قوام أبدانهم، أمَّا في الآخرة فيعاملهم بعدله بعذابهم في النار أبد الآبدين، وأما بالنسبة للمؤمنين فإن الله يعاملهم بالفضل في نياوالآخرة.

❁ قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق ذكر أو إلى القرآن كله، ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمدلولها، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ نقرؤها عليك، والمراد: تلاوة جبريل، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الحق في الأخبار: هو الصدق، وفي الأحكام: هو العدل، والباء إمَّا للمصاحبة أو لبيان ما جاءت به هذه الآيات، والمعنى أن هذه الآيات حق، وما جاءت به حق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾ واللام؛ لتحقيق رسالة النبي ﷺ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات آيات الله - سبحانه وتعالى - الشرعية؛ لأن المراد بـ «الآيات» هنا: الشرعية -وهي القرآن-.

٢ - **ومنها:** أن الله تعالى يتلو على نبيه ما أوحاه إليه؛ لقوله - عزَّ وجلَّ - ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، ولكن هل الذي يتلو ذلك هو الله أو جبريل؟ اقرأ في آية القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨]. يعني: إذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه، فجبريل يتلوه على النبي ﷺ وقد تلقاه من الله - سبحانه وتعالى.

٣ - **ومنها:** أن القرآن كُلَّه حق من الله، ونازل بالحق؛ لأن الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للمصاحبة، والملابسة أيضًا، فهو نازل من عند الله حقًّا، وهو كذلك مشتمل على الحق، وليس فيه كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، بل أحكامه كلها عدل، وأخباره كلها صدق.

٤ - **ومنها:** إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٥ - **ومنها:** أن هناك رسلًا آخرين غير الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ولكنه ﷺ كان خاتم النبيين، إذ لا نبي بعده.

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ التاء هنا: اسم إشارة، وأشار إلى «الرسل» بإشارة المؤنث؛ لأنه جمع تكسير، وجمع التكسير يُعَامل معاملة المؤنث في تأنيث فعله والإشارة إليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، و«الأعراب» مذكر، لكن لما جُمع جَمع تكسير صَحَّ تأنيثه، وتأنيثه

لفظي؛ لأنه مؤول بالجماعة، والمشار إليه هم المرسل الذين دلّ عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

قوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. يعني: جعلنا بعضهم أفضل من بعض في الوحي وفي الأتباع وفي الدرجات والمراتب عند الله ـ سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ أي: من الرسل ﴿مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: من كلمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فالعائد محذوف، وذلك مثل موسى ومحمد ـ ﷺ ـ وهذه الجملة استئنافية لبيان وجه من أوجه التفضيل.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ معطوف على ﴿فَضَّلْنَا﴾، لكن فيه التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أي: على بعض، فمحمد ﷺ له الوسيلة؛ وهي أعلى درجة في الجنة، ولا تكون إلَّا لعبدٍ من عباد الله؛ قال النبي ﷺ: «وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»(١). وفي المعراج وجد النبي ﷺ إبراهيم في السماء السابعة، وموسى في السادسة، وهارون في الخامسة، وإدريس في الرابعة وهكذا، وهذا من رفع الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الآيات البينات الدالة على رسالته، ويراد بها الإنجيل، وما جرى على يديه من إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قويناه، وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. ما المراد بها؟ فقيل: المراد بها: ما معه من العلم المطهر الآتي من عند الله، والعلم أو الوحي يسمى روحًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل: المراد بـ «روح القدس» جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]؛ فـ «روح القدس» هو جبريل، أيد الله عيسى به، حيث كان يقويه في مهام أموره عندما يحتاج إلى تقوية، والآية صالحة للأمرين، فتفسر بهما كما قررناه غير مرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. «لو» شرطية، فعل الشرط فيها ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾، وجوابه ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ..﴾، ومفعول ﴿شَاءَ﴾ محذوف دلَّ عليه جواب الشرط، والتقدير: ولو شاء الله أن لا يقتتل الذين من بعدهم ما اقتتلوا، إمَّا لاتفاقهم على الإيمان وإما لاتفاقهم على المهادنة وإن كفر بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرسل، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: هذا القتال حصل بعدما زال اللبس واتضح الأمر، ووجدت البينات الدالة على صدق الرسل، ومع ذلك فإنَّ الكفار استمروا على كفرهم، ورخصت عليهم رقابهم ونفوسهم في نصرة الطاغوت،

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، والترمذي (٣٦١٢)، والنسائي (٦٧٨)، وأبو داود (٥٢٣).

وقاتلوا المؤمنين أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كل ذلك من أجل العناد والاستكبار، و﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات البينات، وهو الوحي الذي جاءت به الرسل، وغيره من الآيات الدالة على رسالتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: الذين جاءتهم البينات، ثم بيَّن كيفية اختلافهم، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ..﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ هذه الجملة توكيد لما سبق، يعني: لو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا، وعلى هذا فالمفعول هنا كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، هذا استدراك على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾، ليبين أن ما وقع من الاختلاف والاقتتال كان بإرادته؛ والإرادة في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ كونية.

تنبيه:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ بعد قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾، بيان لسبب الاقتتال الواقع منهم، وقوله تعالى في الجملة الثانية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. بيان لكونه بإرادته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الرسل ـ عليهم السلام ـ يتفاضلون؛ لقوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

٢ - **ومنها:** أن فضل الله يؤتيه من يشاء، حتى خواص عباده يُفَضِّلُ بعضهم على بعض؛ لأن الرسل هم أعلى أصناف بني آدم، ومع ذلك يقع التفاضل بينهم بتفضيل الله.

ويتفرع عليها فائدة أخرى: أن الله يفضل أتباع الرسل بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[١]؛ كما أن مَنْ كان مِنَ الأمم أخلص لله وأتبع لرسله فهو أفضل ممن دونه من أمته؛ لأن الرسل إذا كانوا يتفاضلون فأتباعهم كذلك يتفاضلون.

فإن قلت: كيف نجمع بين هذه الآية المثبتة للتفاضل بين الرسل؛ وبين قوله ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»[٢]. ونهيه ﷺ أن يفاضل بين الأنبياء؟

فالجواب: أن يقال: في هذا عدة أوجه من الجمع؛ أحسنها أن النهي فيما إذا كان على سبيل

---

(١) رواه البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٠)، ومسلم (٢٣٧٣).

الافتخار والتعلِّي: بأن يفتخر أتباع محمد ﷺ على غيرهم، فيقولون: محمد أفضل من موسى. مثلًا، أفضل من عيسى. وما أشبه ذلك، فهذا مَنْهِيٌّ عنه، أما إذا كان على سبيل الخبر فهذا لا بأس به؛ ولهذا قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»(١).

٣ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الكلام لله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾. وكلام الله - عزَّ وجلَّ - عند أهل السنة والجماعة من صفاته الذاتية الفعلية، فباعتبار أصله من الصفات الذاتية؛ لأنه صفة كمال، والله - عزَّ وجلَّ - موصوف بالكمال أزلًا وأبدًا، أما باعتبار آحاده - أنه يتكلم إذا شاء - فهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، حصل الكلام بعد مجيئه لميقات الله؛ ولهذا حصل بينهما مناجاة: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فقال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾. بعد أن قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. هذا هو الحق في هذه المسألة، وزعمت الأشاعرة أن كلام الله - عزَّ وجلَّ - هو المعنى النفسي - أي: المعنى القائم بنفسه - وأما ما يسمعه المخاطب به فهو أصوات مخلوقة خلقها الله - عزَّ وجلَّ - لتعبر عما في نفسه، وقد أبطل شيخ الإسلام هذا القول من تسعين وجهًا في كتاب يسمى بـ«التسعينية».

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن كلام الله للإنسان يعتبر رفعة له؛ لأن الله تعالى ساق قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ على سبيل الثناء والمدح.

ومنه يؤخذ: علوُّ مقام المصلي؛ لأنه يخاطب الله - عزَّ وجلَّ - ويناجيه كما أخبر بذلك النبي ﷺ فإذا قال المصلي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: «حَمِدَنِي عَبْدِي؛ وإذا قال المصلي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»(٢). إلى آخر الحديث؛ فالله تعالى يناجي المصلي، وإن كان المصلي لا يسمعه؛ لكن أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الفضائل مراتب ودرجات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، وهذا يشمل الدرجات الحسية والدرجات المعنوية؛ فالنبي ﷺ له الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلَّا لعبد من عباد الله؛ قال الرسول ﷺ: «وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»(٣)؛ كذلك مراتب أهل الجنة درجات: قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ - يعني العالية - كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩).

(٣) سبق تخريجه.

مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِالله، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»(١).

٧ - **ومن فوائد الآية**: إثبات أن عيسى نبي من أنبياء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعطاه آيات ليؤمن الناس به، ومن الآيات الحسية لعيسى ابن مريم إحياء الموتى بإذن الله، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه والأبرص، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا يطير بالفعل بإذن الله، وهناك آيات شرعية مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ على أحد التفسيرين السابقين.

٨ - **ومنها**: أن البشر مهما كانوا فهم في حاجة إلى من يؤيدهم ويقويهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٩ - **ومنها**: الرد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾. أي: قويناه، ولازم ذلك أنه يحتاج إلى تقوية، والذي يحتاج إلى تقوية لا يصلح أن يكون ربًّا وإلهًا.

١٠ - **ومنها**: الثناء على جبريل عليه السلام حيث وصف بأنه روح القدس، ومن وجه آخر حيث كان مؤيِّدًا للرسل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

١١ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾.

١٢ - **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ﴾؛ لأن القدرية يقولون: إن فعل العبد ليس بمشيئة الله، وإنما العبد مستقل بعمله، وهذه الآية صريحة في أن أفعال الإنسان بمشيئة الله.

١٣ - **ومنها**: أن قتال الكفار للمؤمنين كان عن عناد واستكبار لا عن جهل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

١٤ - **ومنها**: لطف الله بالعباد؛ حيث كان لا يبعث رسولًا إلَّا ببينة تشهد بأنه رسول، وشهادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنبيائه بالرسالة تكون بالقول وبالفعل، مثالها بالقول: قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. ومثالها بالفعل: تأييد الله للرسول، ونصره إياه، وتمكينه من قتل أعدائه.

١٥ - **ومنها**: بيان حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر؛ لقوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٣٠٨٣)، ومسلم (٢٨٣١).

﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾. ولولا هذا ما استقام الجهاد، ولا حصل الامتحان.

١٦ - ومنها: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنَ﴾ و﴿كَفَرَ﴾؛ حيث أضاف الفعل إلى العبد، وهم يرون أن الإنسان مجبر على عمله، ولا ينسب إليه الفعل إلَّا على سبيل المجاز كما يقال: أحرقت النار الخشب. وهذه الآية ترد عليهم.

١٧ - ومنها: إثبات أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. مع أن الفعل فعل العبد: فالاقتتال فعل العبد، والاختلاف فعل العبد، لكن لما كان صادرًا بمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبخلقه أضافه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى نفسه.

١٨ - ومنها: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. والإرادة التي اتصف الله بها نوعان: كونية وشرعية، والفرق بينهما من حيث المعنى ومن حيث المتعلق ومن حيث الأثر، فمن حيث المعنى: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة، و:الإرادة الكونية بمعنى المشيئة، ومن حيث المتعلق: الإرادة الكونية تتعلق فيما يحبه الله، وفيما لا يحبه.

فإذا قيل: هل أراد الله الكفر؟

نقول: بالإرادة الكونية: نعم، وبالشرعية: لا؛ لأن الإرادة الكونية تشمل ما يحبه الله وما لا يحبه؛ والإرادة الشرعية لا تتعلق إلَّا فيما يحبه الله، ومن حيث الأثر: الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد، والإرادة الشرعية قد يقع المراد وقد لا يقع، فمثلًا: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، الإرادة هنا شرعية، لو كانت كونية لكان الله يتوب على كل الناس، لكن الإرادة شرعية، فيحب أن يتوب علينا بأن نفعل أسباب التوبة.

فإن قيل: ما تقولون في إيمان أبي بكر، هل هو مراد بالإرادة الشرعية أو بالإرادة الكونية؟

قلنا: مراد بالإرادتين كلتيهما.

وما تقولون في إيمان أبي طالب؟

قلنا: مراد شرعًا غير مراد كونًا، ولذلك لم يقع.

وما تقولون في فسق الفاسق؟

قلنا: مراد كونًا لا شرعًا. إذنْ نقول: قد تجتمع الإرادتان كإيمان أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد تنتفيان مثل كفر المسلم، وقد توجد الإرادة الكونية دون الشرعية مثل كفر الكافر، وقد توجد الشرعية دون الكونية كإيمان الكافر.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤]

❁ التفسير ❁

تقدم مرارًا وتكرارًا أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهمية المطلوب؛ لأن النداء يقتضي التنبيه، ولا يكون التنبيه إلَّا في الأمور الهامة.

وتوجيه النداء للمؤمنين يدل على أن التزام ما ذكر من مقتضيات الإيمان سواء كان أمرًا أو نهيًا، وعلى أن عدم امتثاله نقص في الإيمان، وعلى الحث والإغراء، كأنه قال: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا وكذا، مثل ما تقول للحث والإغراء: يا رجل افعل كذا وكذا. أي لأن ذلك من مقتضى الرجولة.

قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، الإنفاق بمعنى البذل والمراد به هنا بذل المال في طاعة الله، وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أي: مما أعطيناكم، «من» يحتمل أن تكون بيانية أو تبعيضية، والفرق بينهما: أن البيانية لا تمنع من إنفاق جميع المال؛ لأنها بيان لموضع الإنفاق، والتبعيضية تمنع من إنفاق جميع المال، وبناءً على ذلك لا يمكن أن يتوارد المعنيان على شيء واحد لتناقض الحكمين.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾. المراد به يوم القيامة، وفي قوله: ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾. ثلاثة أشياء منتفية؛ وهي «البيع» وهو تبادل الأشياء، و«الخلة» وهي أعلى المحبة، و«الشفاعة» وهي الوساطة لدفع الضرر أو جلب المنفعة، وفي الآية قراءتان؛ إحداهما ما في المصحف: بالضم والتنوين: ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾، و﴿لَّا﴾ على هذه القراءة ملغاة إعرابًا، لأنها متكررة، والقراءة الثانية البناء على الفتح، وعلى هذه القراءة تكون ﴿لَّا﴾ عاملة عمل «إنّ»، لكن بالبناء على الفتح لا بالتنوين.

وإنما قال ـ سبحانه وتعالى: ﴿لَّا بَيۡعٞ﴾؛ لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع والشراء؛ فيشتري ما ينفعه ويبيع ما يضره، لكن يوم القيامة ليس فيه بيع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾. هذا من جهة أخرى: قد ينتفع الإنسان بالشيء بواسطة الصداقة، و«الخُلة» بالضم: أعلى المحبة وهي مشتقة من قول الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلَا

يعني: أن حبها دخل إلى مسالك الروح فامتزج بروحه، فصار له كالحياة؛ ولهذا قال النبي ﷺ:

«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»(١). ولكنه ﷺ اتخذه حبيبًا. قيل له: من أحب النساء إليك؟ قال ﷺ: «عَائِشَةُ»؛ قيل: ومن الرجال؟ قال ﷺ: «أبوها»(٢). فأثبت المحبة؛ وكان أسامة بن زيد يسَمَّى حِب رسول الله(٣). أي: حبيبه، إذنْ الخلة أعلى من المحبة.

فانتفت المعاوضة في هذا اليوم، وانتفت المحاباة بواسطة الصداقة، وانتفى شيء آخر: الشفاعة وهي الإحسان المحض من الشافع للمشفوع له - وإن لم يكن بينهما صداقة - فقال تعالى: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾. فنفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل الوسائل التي يمكن أن ينتفع بها في هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. أي: أن الكافرين بالله هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، وحصر الظلم فيهم لعظم ظلمهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وأخبر النبي ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ الظُّلْمِ أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(٤).

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإنفاق مما أعطانا الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، حيث صَدَّرَها بالنداء.

٢ - **ومنها:** أن الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأن البخل نقصٌ في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلًا؛ المؤمن جَوَّادٌ بعلمِهِ جَوَّادٌ بجاهِهِ جَوَّادٌ بمالِهِ جوادٌ ببدنه.

٣ - **ومنها:** بيان منة الله علينا في الرزق؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، ثم للأمر بالإنفاق في سبيله والإثابة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾.

٤ - **ومنها:** التنبيه على أن الإنسان لا يُحَصِّل الرزق بمجرد كسبه، فالكسب سبب؛ لكن المسبِّب هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾. فلا ينبغي أن يعجب الإنسان بنفسه حتى يجعل ما اكتسبه من رزق من كسبه وعمله، كما في قول القائل: إنما أوتيته على علم عندي.

٥ - **ومنها:** الإشارة إلى أنه لا منة للعبد على الله مما أنفقه في سبيله؛ لأن ما أنفقه من رزق الله له.

٦ - **ومنها:** أن الميت إذا مات فكأنما قامت القيامة في حقه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٧ - **ومنها:** أن ذلك اليوم ليس فيه إمكان أن يصل إلى مطلوبه بأي سبب من أسباب الوصول إلى المطلوب في الدنيا؛ كالبيع والصداقة والشفاعة، وإنما يصل إلى مطلوبه بطاعة الله.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤١٠٠)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) انظر «صحيح البخاري» (٣٢٨٨)، ومسلم (١٦٨٨).

(٤) رواه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (٨٦).

٨ - **ومنها**: أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لأنه تعالى أعقب قوله: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

٩ - **ومنها**: أن الكفر أعظم الظلم، ووجه الدلالة منه: حصر الظلم في الكافرين، وطريق الحصر هنا ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن الإنسان لا ينتفع بماله بعد موته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾. لكن هذا مُقَيَّدٌ بما صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ؛ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ؛ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

١١ - **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟﴾؛ حيث أضاف الفعل إلى المنفقين، والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يفعل باختياره. وهذا القول يرد عليه السمع والعقل - كما هو مُقَرَّرٌ في كتب العقيدة.

١٢ - **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ لأننا نعلم أن رزق الله يأتي بالكسب، ويأتي بسبب لا كسب للإنسان فيه، فإذا أمطرت السماء وأنت عطشان وشربت فهذا رزق لا كسب لك فيه ولا اختيار، لكن إذا بِعْتَ واشتريت واكتسبت المال فهذا لك فيه كسب، والله - عزَّ وجلَّ - هو الذي أعطاك إياه، لو شاء الله لسلبك القدرة، ولو شاء لسلبك الإرادة، ولو شاء ما جلب لك الرزق.

١٣ - **ومنها**: أن إنفاق جميع المال لا بأس به، وهذا على تقدير ﴿مِّن﴾ بيانية بشرط أن يكون الإنسان واثقًا من نفسه بالتكسُّبِ، وصِدق التوكل على الله.

مسألة: ظاهر الآية الكريمة أن الإنفاق مطلق في أي وجه من وجوه الخير؛ ولكن هذا الإطلاق مقيد في آيات أُخر، مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وعلى هذا فيكون إطلاق الآية هنا مقيدًا بالآيات الأُخر التي تدل على أن الإنفاق المأمور به ما كان في سبيل الله - أي: في شرعه -.

مسألة ثانية: ظاهر الآية نفي الشفاعة مطلقًا، وحينئذٍ نحتاج إلى الجمع بين هذه الآية وبين النصوص الأخرى الدالة على إثبات الشفاعة في ذلك اليوم؛ فيقال: الجمع أن يحمل مطلق هذه الآية على المقيد بالنصوص الأخرى، ويقال. إن النصوص الأخرى دَلَّتْ على أن هناك شفاعة، لكن لها ثلاثة شروط: رضى الله عن الشافع، وعن المشفوع له، وإذنه في الشفاعة.

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، وابن ماجه (٢٤١).

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

❁ التَفْسِيرُ ❁

هذه الآية أعظم آية في كتاب الله كما سأل النبي ﷺ أبيّ بن كعب، وقال: «أَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ فِي كِتَابِ اللهِ؟» قال: آية الكرسي. فضرب على صدره، وقال: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ»(١). ولهذا من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهي مشتملة على عشر جمل، كل جملة لها معنى عظيم جدًا.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: الاسم الكريم مبتدأ، وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر، وما بعده إما أخبار ثانية وإما معطوفة، و﴿إِلَٰهَ﴾ بمعنى مألوه، والمألوه بمعنى المعبود حبًّا وتعظيمًا، ولا أحد يستحق هذا الوصف إِلَّا الله - سبحانه وتعالى - والآلهة المعبودة في الأرض أو المعبودة وهي في السماء - كالملائكة - كلها لا تستحق العبادة، وهي تُسَمَّى آلهة لكنها لا تستحق ذلك، الذي يستحقه رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

و﴿إِلَٰهَ﴾ اسم لا، و﴿لَآ﴾ هنا نافية للجنس، ولا النافية للجنس تدل على النفي المطلق العام لجميع أفراده، وهي نصٌّ في العموم، فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي عام محض شامل لجميع أفراده؛ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل من خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف؛ لأن التقدير: لا إله حق إِلَّا هو، والبدل في الحقيقة هو المقصود بالحكم، كما قال ابن مالك:

التَّابِعُ الْمَقْصُودُ بِالْحُكْمِ بِلَا   وَاسِطَةٍ هُوَ الْمُسَمَّى بَدَلَا

وهذه الجملة العظيمة تدل على نفي الألوهية الحق نفيًا عامًّا قاطعًا إِلَّا لله تعالى وحده.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هذان اسمان من أسمائه تعالى، وهما جامعان لكمال الأوصاف والأفعال؛ فكمال الأوصاف في ﴿ٱلۡحَيُّ﴾، وكمال الأفعال في ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾؛ لأن معنى ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ ذو الحياة الكاملة، ويدل على ذلك «أل» المفيدة للاستغراق، وكمال حياته تعالى: من حيث الوجود

(١) رواه مسلم (٨١٠)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣١٥).

والعدم، ومن حيث الكمال والنقص، فحياته من حيث الوجود والعدم أزليةٌ أبدية - لم يزل ولا يزال حيًّا ـ ومن حيث الكمال والنقص: كاملة من جميع أوصاف الكمال؛ فعلمه كامل وقدرته كاملة وسمعه وبصره وسائر صفاته كاملة، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: أصلها من القيام، ووزن «قيوم» فيعول، وهي صيغة مبالغة، فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، والقائم على غيره فكلُّ أحدٍ محتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نُعَاسٌ ولا نوم، فالنوم معروف والنعاس مقدمته.

قوله تعالى في الجملة الثالثة: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: له وحده، ففي الجملة حصر لتقديم الخبر على المبتدأ، و﴿السموات﴾ جُمِعَتْ و﴿الأرض﴾ أفردت، لكنها بمعنى الجمع؛ لأن المراد بها الجنس.

قوله تعالى في الجملة الرابعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿مَن﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿ذَا﴾ ملغاة إعرابًا، ويأتي بها العرب في مثل هذا لتحسين اللفظ، و﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول خبر ﴿مَن﴾، والمراد بالاستفهام هنا النفي بدليل الإثبات بعده، حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

و«الشفاعة» في اللغة: جعل الوتر شفعًا، وفي الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة، فشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم بعدما يلحقهم من الهمِّ والغمِّ ما لا يطيقون[1] شفاعة لدفع مضرة، وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة[2] شفاعة في جلب منفعة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: الكوني، يعني: إلَّا إذا أذن في هذه الشفاعة، حتى أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلَّا بإذن الله؛ فالنبي ﷺ يوم القيامة ـ وهو أعظم الناس جاهًا عند الله ـ ومع ذلك لا يشفع إلَّا بإذن الله لكمال سلطانه جلَّ وعلا وهيبته، وكلما كمل السلطان صار أهيب للملِك وأعظم، حتى إن الناس لا يتكلمون في مجلسه إلَّا إذا تكلَّم، وانظر وصف رسولِ قريشٍ النبي ﷺ مع أصحابه، حيث وصفهم بأنه إذا تكلم سكتوا، كل ذلك من باب التعظيم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. هذه هي الجملة السادسة، و«العلم» عند الأصوليين: إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا، فعدم الإدراك جهل، والإدراك على وجه لا جزم فيه شك، والإدراك على وجه جازم غير مطابق جهل مركب، فلو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: لا أدري. فهذا جهل، ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: إمَّا في الثانية أو في الثالثة. فهذا شك، ولو سئلت: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت: في السنة الخامسة. فهذا جهل مركب، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلم الأشياء علمًا تامًّا شاملًا لها جملة وتفصيلًا، وعلمه ليس كعلم العباد؛ ولذلك

(١) رواه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: المستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: الماضي، وقد قيل بعكس هذا القول ولكنه بعيد، فاللفظ لا يساعد عليه، و﴿مَا﴾ من صيغ العموم؛ فهي شاملة لكل شيء سواء كان دقيقًا أم جليلًا، وسواء كان من أفعال الله أم من أفعال العباد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ لها معنيان؛ المعنى الأول: لا يحيطون بشيء من علم نفسه؛ أي: لا يعلمون عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أسمائه وصفاته وأفعاله إلَّا بما شاء أن يعلمهم إياه فيعلمونه، المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيء من معلومه – أي: مما يعلمه في السموات والأرض – إلَّا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ استثناء بدل من قوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾، لكنه بإعادة العامل وهي الباء، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية؛ أي: إلَّا بمشيئته، ويحتمل أن تكون موصولة، أي: إلَّا بالذي شاء. وعلى التقدير الثاني يكون العائد محذوفًا، والتقدير: إلَّا بما شاءه».

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: شمل وأحاط، كما يقول القائل: وسعني المكان. أي: شملني وأحاط بي، و«الكرسي» هو موضع قدمي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له، وقد صَحَّ ذلك عن ابن عباس موقوفًا[1]، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيه، وما قيل من أن ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحة له، بل الذي صَحَّ عنه في« البخاري»[2] أنه كان ينهى عن الأخذ عن بني إسرائيل، فأهل السنّة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبهذا جزم شيخ الإسلام «ابن تيمية» و«ابن القيم» وغيرهما من أهل العلم وأئمة التحقيق، وقد قيل: إن «الكرسي» هو العرش. ولكن ليس بصحيح، فإن «العرش» أعظم وأوسع وأبلغ إحاطة من الكرسي، وروي عن ابن عباس أن ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه، ولكن هذه الرواية أظنها لا تصح عن ابن عباس؛ لأنه لا يعرف هذا المعنى لهذه الكلمة في اللغة العربية، ولا في الحقيقة الشرعية، فهو بعيد جدًّا من أن يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما فالكرسي موضع القدمين، وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»[3]. وهذا يدل على سعة هذه المخلوقات العظيمة التي هي بالنسبة لنا من عالم الغيب؛ ولهذا يقول الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦]، ولم يقل: أفلم ينظروا إلى الكرسي، أو إلى العرش؛ لأن ذلك ليس مرئيًّا لنا، ولولا أن الله أخبرنا به ما علمنا به.

---

(١) انظر «المعجم الكبير» للطبراني (١٢٤٠٤)، و«الأحاديث المختارة» (٣٣٢).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٦٩٢٩).

(٣) رواه ابن حبان (٣٦١)، وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف جدا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ﴾، أي: لا يثقله ويشق عليه، وقوله: ﴿حِفْظُهُمَا﴾؛ أي حفظ السموات والأرض، وهذه الصفة صفة منفية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر، فهو وحده العلي؛ أي ذو العلو المطلق وهو الارتفاع فوق كل شيء، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ذو العظمة في ذاته، وسلطانه وصفاته.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات هذه الأسماء الخمسة؛ وهي ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿ٱلْحَىُّ﴾، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وما تضمنته من الصفات.

٢ - **ومنها:** إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ - **ومنها:** إبطال طريق المشركين الذين أشركوا بالله، وجعلوا معه آلهة.

٤ - **ومنها:** إثبات صفة الحياة لله - عزَّ وجلَّ - وهي حياة كاملة: لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، ولا توصف بنقص، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

٥ - **ومنها:** إثبات القيومية لله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وهذا الوصف لا يكون لمخلوق؛ لأنه ما من مخلوق إلَّا وهو محتاج إلى غيره: فنحن محتاجون إلى العمَّال، والعمال محتاجون إلينا، ونحن محتاجون إلى النساء، والنساء محتاجة إلينا؛ ونحن محتاجون إلى الأولاد، والأولاد يحتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى المال، والمال محتاج إلينا من جهة حفظه وتنميته، والكل محتاج إلى الله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وما من أحد يكون قائمًا على غيره في جميع الأحوال، بل في دائرة ضيقة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ يعني: الله، فلا أحد سواه قائم على كل نفس بما كسبت.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى غنيٌّ عمَّا سواه، وأن كل شيء مفتقر إليه تعالى.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، فأثبت أنه يُنصر؟

فالجواب: أن المراد بنصره تعالى نصر دينه.

٧ - **ومنها:** تضمن الآية لاسم الله الأعظم الثابت في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وقد ذُكِرَ هذان الاسمان الكريمان في ثلاثة مواضع من القرآن: في «البقرة» و«آل عمران» و«طه»؛ في «البقرة»: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي «آل عمران»: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي «طه»: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. قال أهل العلم: وإنما كان

الاسم الأعظم في اجتماع هذين الاسمين؛ لأنهما تضمنا جميع الأسماء الحسنى، فصفة الكمال في ﴿ٱلْحَىُّ﴾، وصفة الإحسان والسلطان في ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية**: امتناع السِّنَة والنوم لله - عزَّ وجلَّ - وذلك لكمال حياته وقيوميته، بحيث لا يعتريها أدنى نقص؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وهذه من الصفات المنفية، والإيمان بالصفات المنفية يتضمن شيئين؛ أحدهما: الإيمان بانتفاء الصفة المذكورة. والثاني: إثبات كمال ضدها؛ لأن الكمال قد يطلق باعتبار الأغلب الأكثر، وإن كان يرد عليه النقص من بعض الوجوه، لكن إذا نُفِي النقص فمعناه أن الكمال كمال مطلق لا يرد عليه نقصٌ أبدًا بوجه من الوجوه، مثال ذلك: إذا قيل: فلان كريم. فقد يراد به أنه كريم في الأغلب الأكثر، فإذا قيل: فلان كريم لا يبخل. عُلم أن المراد كمال كرمه، بحيث لا يحصل منه بخل، وهنا النفي حصل بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فدل على كمال حياته وقيوميته.

٩ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الصفات المنفية؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، و«الصفات المنفية» ما نفاه الله عن نفسه، وهي متضمنة لثبوت كمال ضدها.

١٠ - **ومنها**: عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ويتفرع على كون الملك لله إلَّا نتصرف في ملكه إلَّا بما يرضاه.

١١ - **ومنها**: أن الحكم الشرعي بين الناس والفصل بينهم يجب أن يكون مستندًا على حكم الله، وأن اعتماد الإنسان على حكم المخلوقين، والقوانين الوضعية نوع من الإشراك بالله - عزَّ وجلَّ - لأن الملك لله - عزَّ وجلَّ.

١٢ - **ومنها**: تسلية الإنسان على المصائب، ورضاه بقضاء الله - عزَّ وجلَّ - وقدره؛ لأنه متى علم أن الملك لله وحده رضي بقضائه وسلَّم؛ ولهذا كان في تعزية النبي ﷺ لابنته أنه قال: «إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى»[1].

١٣ - **ومنها**: عدم إعجاب الإنسان بما حصل بفعله؛ لأن هذا من الله والملك له.

١٤ - **ومنها**: اختصاص الله تعالى بهذا الملك، يؤخذ من تقديم الخبر: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾؛ لأن الخبر حقه التأخير، فإذا قُدِّم أفاد الحصر.

١٥ - **ومنها**: إثبات أن السموات عدد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وأما كونها سبعًا أو أقل أو أكثر فمن دليل آخر.

١٦ - **ومنها**: كمال سلطان الله لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. وهذا غير عموم

(١) رواه البخاري (١٢٢٤)، ومسلم (٩٢٣).

الملك، لكن إذا انضمت قوة السلطان إلى عموم الملك صار ذلك أكمل وأعلى.

١٧ - ومنها: إثبات الشفاعة بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وإلا لما صَحَّ الاستثناء.

١٨ - ومنها: إثبات الإذن - وهو الأمر - لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وشروط إذن الله في الشفاعة: رضى الله عن الشافع وعن المشفوع له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

١٩ - ومنها: إثبات علم الله، وأنه عامٌّ في الماضي والحاضر والمستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢٠ - ومنها: الرد على القدرية الغلاة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. فإثبات عموم العلم يرد عليهم؛ لأن القدرية الغلاة أنكروا علم الله بأفعال خلقه إلَّا إذا وقعت.

٢١ - ومنها: الرد على الخوارج والمعتزلة في إثبات الشفاعة؛ لأن الخوارج والمعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأن مذهبهما أن فاعل الكبيرة مُخَلَّدٌ في النار لا تنفع فيه الشفاعة.

٢٢ - ومنها: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُحاط به علمًا كما لا يحاط به سمعًا ولا بصرًا؛ قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

٢٣ - ومنها: أننا لا نعلم شيئًا عن معلوماته إلَّا ما أعلمنا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. على أحد الوجهين في تفسيرها.

٢٤ - ومنها: تحريم تكييف صفات الله؛ لأن الله ما أعلمنا بكيفية صفاته، فإذا ادعينا علمه فقد قلنا على الله بلا علم.

٢٥ - ومنها: الرد على الممثلة؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم؛ بل بما يعلم خلافه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٢٦ - ومنها: إثبات مشيئة الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

٢٧ - ومنها: عظم الكرسي؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

٢٨ - ومنها: عظمة خالق الكرسي؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظمة الخالق.

٢٩ - ومنها: كفر من أنكر السموات والأرض؛ لأنه يستلزم تكذيب خبر الله، أما الأرض فلا أظن أحدًا ينكرها، لكن السماء أنكرها من أنكرها وقالوا: ما فوقنا هو فضاء لا نهاية له ولا حدود، وإنما هي سدومٌ ونجومٌ وما أشبه ذلك، وهذا لا شك أنه كفر بالله العظيم سواء اعتقده الإنسان بنفسه ووهمه، أو صدَّق مَنْ قال به ممن يعظمهم إذا كان عالمًا بما دَلَّ عليه الكتاب والسنّة.

٣٠ - ومنها: إثبات قوة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

٣١ - **ومنها**: أنه - سبحانه وتعالى - لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، وهذه من الصفات المنفية، فهي كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

٣٢ - **ومنها**: إثبات ما تتضمنه هذه الجملة: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾. وهي: العلم والقدرة والحياة والرحمة والحكمة والقوة.

٣٣ - **ومنها**: أن السموات والأرض تحتاج إلى حفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾. ولولا حفظ الله لفسدتا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

٣٤ - **ومنها**: إثبات علو الله - سبحانه وتعالى - أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، و﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ صفةٌ مشبهة تدل على الثبوت والاستمرار، وعلوُّ الله عند أهل السنة والجماعة ينقسم إلى قسمين: الأول: علوُّ الذات: بمعنى أنه سبحانه نفسه فوق كل شيء، وقد دل على ذلك: الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة، وتفصيل هذه الأدلة في كتب العقائد، وخالفهم في ذلك طائفتان؛ الأولى: من قالوا: إنه نفسه في كل مكان في السماء والأرض. وهؤلاء حلولية الجهمية ومن وافقهم، وقولهم باطل بالكتاب والسُّنَّة وإجماع السلف والعقل والفطرة، الطائفة الثانية: قالوا: إنه لا يوصف بعلوٍّ ولا غيره، فهو ليس فوق العالم ولا تحته ولا عن يمين ولا عن شمال ولا متصل ولا منفصل. وهذا قول يكفي تصوره في رَدِّهِ؛ لأنه يَؤول إلى القول بالعدم المحض، إذ ما من موجود إلَّا وهو فوق أو تحت أو عن يمين أو شمال أو متصل أو منفصل، فالحمد لله الذي هدانا للحق، ونسأل الله أن يثبتنا عليه.

والقسم الثاني: علو الصفة: وهو أنه كامل الصفات من كل وجه لا يساميه أحدٌ في ذلك، وهذا متفق عليه بين فرق الأمة، وإن اختلفوا في تفسير الكمال.

٣٥ - **ومن فوائد الآية**: الردُّ على الحلولية وعلى المعطلة النفاة؛ فالحلولية قالوا: إنه ليس بعالٍ بل هو في كل مكان، والمعطلة النفاة قالوا: لا يوصف بعلوٍ ولا سفل ولا يمين ولا شمال ولا اتصال ولا انفصال.

٣٦ - **ومنها**: التحذير من الطغيان على الغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾. ولهذا قال الله في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]. فإذا كنت متعاليًا في نفسك فاذكر علو الله - عزَّ وجلَّ - وإذا كنت عظيمًا في نفسك فاذكر عظمة الله، وإذا كنت كبيرًا في نفسك فاذكر كبرياء الله.

٣٧ - **ومنها**: إثبات العظمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

٣٨ - **ومنها**: إثباتُ صفةِ كمالٍ حَصَلَتْ باجْتِماع الوصفين؛ وهما: العلوُّ والعظمةُ.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ هذه الجملة نفي؛ لكن هل هي بمعنى النهي؟ أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين، أو بمعنى النفي أي: أنه لن يدخل أحدٌ دين الإسلام مكرَهًا، بل عن اختيار؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾؟ الجواب: تحتمل وجهين، و«الإكراه» الإرغام على الشيء.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾، الدين: يطلق على العمل ويطلق على الجزاء، أما إطلاقه على العمل ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وأمَّا إطلاقه على الجزاء فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]. أي: يوم الجزاء، وقد قيل: كما تدين تدان[1]. أي: كما تعمل تُجازَى، والمراد بـ «الدين» هنا العمل، والمراد به دين الإسلام بلا شك، فـ «أل» هنا للعهد الذهني، يعني الدين المفهوم عندكم أيها المؤمنون؛ وهو دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، قوله: ﴿تَّبَيَّنَ﴾ هنا ضمنت معنى تميَّز. وكلما جاءت «مِن» بعد «تبين» فإنها مضمنة معنى التميز؛ أي: تميز هذا من هذا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾: هناك رشد وغيّ وهدى وضلال فـ «الرشد» معناه: حسن المسلك وحسن التصرف: بأن يتصرف الإنسان تصرُّفًا يحمد عليه، وذلك بأن يسلك الطريق التي بها النجاة، ويقابل بـ «الغي» كما هنا، والمراد بـ ﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ هنا الإسلام، وأما «الغي» فهو سوء المسلك: بأن يسلك الإنسان ما لا يحمد عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ والمراد به هنا الكفر.

وتبيَّن الرشد من الغي بعدة طرق:

أولًا: بالكتاب، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرّق في هذا الكتاب العظيم بين الحق والباطل والصلاح والفساد والرشد والغي، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]، فهذا من أقوى طرق البيان.

ثانيًا: بسُنَّة النبي ﷺ، فإنها بَيّنت القرآن ووضحته، ففسرت ألفاظه التي تشكل ولا تعرف إلَّا

---

(١) ضعيف: انظر «ضعيف الجامع» (٤٢٧٤).

بنص، وكذلك وضحت مجملاته ومبهماته، وكذلك بينت ما فيه من تكميلات يكون القرآن أشار إليها وتكملها السنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

الطريق الثالثة: هدي النبي ﷺ وسلوكه في عبادته ومعاملته ودعوته، فإنه بهذه الطريقة العظيمة تبين للكفار وغير الكفار حسن الإسلام، وتبين الرشد من الغيِّ.

الطريق الرابعة: سلوك الخلفاء الراشدين؛ وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، فإن بطريقتهم بان الإسلام واتضح، وكذلك من كان في عصرهم من الصحابة على سبيل الجملة لا التفصيل؛ فإنه قد تبين بسلوكهم الرشد من الغي.

هذه الطرق الأربع تَبَيَّنَ فيها الرشد من الغي، فمن دخل في الدين في ذلك الوقت فقد دخل من هذا الباب، ولم يصب من قال: إن الدين انتشر بالسيف والرمح.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، «الكفر» في اللغة مأخوذ من الستر، ومنه سمي «الكُفُرَّى» لوعاء طلع النخل؛ لأن الإنسان الكافر ستر نعمة الله عليه، وستر ما تقتضيه الفطرة من توحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: من ينكره ويتبرأ منه. و «الطاغوت» فسره ابن القيم بأنه كل ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبود أو متبوع أو مطاع، مشتق من الطغيان، وهو تجاوز الحد: قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ لأن الماء الذي أغرق الله به الكفار بنوح تجاوز الحد حتى وصل إلى ما فوق قمم الجبال، فالمعبود كالأصنام طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بها حدَّهُ في العبادة، والمتبوع كالأحبار والرهبان الضالين طاغوت؛ لأن الإنسان تجاوز بهم الحد في تحليل ما حرم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو تحريم ما أحل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمطاع كالأمراء ذوي الجور والضلال الذين يأمرون بسلطتهم التنفيذية - لا التشريعية - طاغوت، إذنْ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ مَنْ كفر بالأصنام ومن كفر بأحبار ورهبان السوء، ومن كفر بأمراء السوء الذين يأمرون بمعصية الله، ويلزمون بخلاف شرع الله ـ عزَّ وجلَّ.

ولا يكفي الكفر بالطاغوت؛ لأن الكفر تخلٍّ وعدم، ولابد من إيجاد؛ الإيجاد: قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالجزم عطفًا على ﴿يَكْفُرْ﴾، والإيمان بالله متضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته إيمانًا يستلزم القبول والإذعان، والقبول للخبر، والإذعان للطلب سواء كان أمرًا أو نهيًا، فصار الإيمان بالله مركبًا من أربعة أمور مستلزمة لأمرين، ثم اعلم أن معنى قولنا: الإيمان بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه، وصفاته. المراد الإيمان بانفراده بهذه الأشياء: بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وبالوجود الواجب، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ منفرد بهذا بأنه واجب الوجود.

قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ أي: تمسَّك تمسُّكًا بالغًا، وقوله: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: المقبض القوي الذي ينجو به، والمراد به هنا الكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ لأن به النجاة من النار.

قوله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع ولا انفكاك لها؛ لأنها مُحْكَمَةٌ قوية.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سبق الكلام عليها مفصلًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه لا يكره أحد على الدين لوضوح الرشد من الغي؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، هذا على القول بأنها خبرية، أما على القول بأنها إنشائية فإنه يستفاد منها: أنه لا يجوز أن يكره أحد على الدين، وبينت السنة كيف نعامل الكفار، وذلك بأن ندعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فإلى بذل الجزية، فإن أبوا قاتلناهم.

٢ - **ومنها:** أنه ليس هناك إلَّا رشدٌ أو غيّ؛ لأنه لو كان هناك ثالث لذُكر؛ لأن المقام مقام حصر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

٣ - **ومنها:** أنه لا يتم الإخلاص لله إلَّا بنفي جميع الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾. فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمؤمن.

٤ - **ومنها:** أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ وجه هذا :أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الكفر بالطاغوت قسيمًا للإيمان بالله، وقسيم الشيء غير الشيء بل هو منفصل عنه.

٥ - **ومنها:** أنه لا نجاة إلَّا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الأعمال تتفاضل، يؤخذ ذلك من اسم التفضيل: ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ لأن التفضيل يقتضي مفضلًا ومفضلًا عليه، ولا شك أن الأعمال تتفاضل بنصِّ القرآن والسنة؛ قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ [الملك: ٢] و﴿أَحْسَنُ﴾ اسم تفضيل، وهذا دليل على أن الأعمال تتفاضل بالحُسن، وسُئِلَ النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»(1). وقال ـ سبحانه وتعالى ـ في الحديث القدسي: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»(2). ويلزم من تفاضل الأعمال تفاضل العامل: كلما كان العمل أفضل كان العامل أفضل، وتفاضل الأعمال يكون بعدة أمور: بحسب العامل، وبحسب العمل جنسه أو نوعه وبحسب الزمان وبحسب

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٢٣٦).

المكان وبحسب الكيفية والمتابعة وبحسب الإخلاص لله وبحسب الحال.

مثاله بحسب العامل: قول النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

ومثاله بحسب العمل: جنسه ونوعه، فالصلاة مثلًا أفضل من الزكاة، والزكاة أفضل من الصيام، هذا باعتبار الجنس.

ومثاله باعتبار النوع: الفريضة من كل جنس أفضل من النافلة، فصلاة الفجر مثلًا أفضل من راتبة الفجر.

ومثاله بحسب الزمان: قوله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ»(٢). وقوله ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَاعَدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»(٣).

ومثاله بحسب المكان: قوله ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»(٤).

ومثاله بحسب الكيفية؛ بمعنى أن كيفية العبادة تكون أفضل من كيفية أخرى، كالخشوع في الصلاة قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

مثاله بحسب المتابعة: قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكلما كان الإنسان للرسول أتبع كان عمله أفضل؛ لأن القاعدة أن الحكم المعلّق بوصف يقوى بحسب ذلك الوصف.

ومثاله بحسب الإخلاص: أنه كُلّما كان العامل أشد إخلاصًا لله كان أكمل ممن خالط عمله شيء من الشرك

ومثاله بحسب الحال: العبادة بين أهل الغفلة والإعراض أفضل من العبادة بين أهل الطاعة، والإقبال؛ ولهذا كان العامل في أيام الصبر له أجرُ خمسين من الصحابة لكثرة الإعراض عن الله - عزَّ وجلَّ - وعن دينه، فلا يجد أحدًا يساعده ويعينه، بل ربما لا يجد إلَّا من يتهكم به ويسخر به، ومن تفاضلها باعتبار الحال أن العفةَ من الشاب أفضل من العفة من الشيخ؛ لأن شهوة الشاب أقوى من شهوة الشيخ، فالداعي إلى عدم العفة في حقه أقوى من الداعي بالنسبة للشيخ؛ ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني أشد من عقوبة الشاب؛ لقوله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُشَيْمِطٌ زَانٍ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَةً لَا يَشْتَرِي إِلَّا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٧٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٥٤٤٦)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٥٣).

(٣) رواه مسلم (١١٥٣)، والنسائي (٢٢٤٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٤٢٤).

(٤) رواه البخاري (١١٣٣)، ومسلم (١٣٩٤).

بِيَمِينِهِ وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»(١).

٧ - **ومن فوائد الآية**: إثبات اسمين من أسماء الله هما: «السميع العليم»، وما تضمناه من صفة.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: متوليهم، والمراد بذلك الولاية الخاصة، ومن ثمراتها قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وأفرد ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنه طريق واحد، وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ باعتبار أنواعها؛ لأنها إما ظلمة جهل، وإما ظلمة كفر، وإما ظلمة فسق؛ أما ظلمة الجهل فظاهرة: فإن الجاهل بمنزلة الأعمى حيران لا يدري أين يذهب، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وهذا صاحب العلم، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهذا صاحب الجهل. وأما ظلمة الكفر: فلأن الإيمان نور يهتدي به الإنسانُ، ويستنير به قلبه ووجهه؛ فيكون ضدُّه - وهو الكفر - على العكس من ذلك. أما ظلمة الفسق: فهي ظلمة جزئية تكبر وتصغر بحسب ما معه من المعاصي؛ ودليل ذلك أن النبي ﷺ أخبر: «أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ»(٢). والسواد ظلمة، وتزول هذه النكتة بالتوبة، وتزيد بالإصرار على الذنب؛ فالظلمات ثلاث: ظلمة الجهل والكفر والمعاصي. يقابلها: نور العلم ونور الإيمان ونور الاستقامة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾. إذا تأملت هذه الجملة والتي قبلها تجد فرقًا بين التعبيرين في الترتيب: ففي الجملة الأولى قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأمور ثلاثة؛ أحدها: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولًا استبشر به. ثانيًا: التبرك بتقديم ذكر اسم الله - عزَّ وجلَّ - ثالثًا: إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولًا، فأخرجهم من الظلمات إلى النور. أما الجملة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، ولو كانت الجملة على سياق الأولى لقال: «والطاغوت أولياء الذين كفروا». ومن الحكمة في ذلك: أولًا: ألَّا

(١) صحيح: رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (٦١١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٨٨).
(٢) رواه مسلم (١٤٤)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله. ثانيًا: أن الطاغوت أهون وأحقر من أن يُبدأ به ويُقدَّم. ثالثًا: أن البداءة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كفروا بكل ما يجب الإيمان به، سواءً كان كفرهم بالله أو برسوله أو بملائكته أو باليوم الآخر أو بالقدر أو غيرها مما يجب الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾ جمع «وليّ»؛ وجمعت لكثرة أنواع الشرك والكفر، بخلاف سبيل الحق فإنها واحدة، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

• قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾: أتى بضمير الجمع؛ لأن المراد بالطاغوت اسم الجنس، فيعم جميع أنواعه.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: استُشكل؛ لأن ظاهره: الذين آمنوا أولًا، فدخلوا في النور، ثم كفروا فخرجوا منه، مع أنه يشمل الكافر الأصلي، فالجواب: إما أن يراد بهذا مَنْ كانوا على الإيمان أولًا، ثم أخرجوا كما هو ظاهر اللفظ، أو يقال: هذا باعتبار الفطرة، فإن كل مولود يولد على الفطرة، فكانوا على الفطرة السليمة والإيمان ثم أخرجوهم، كقوله ﷺ: «كُلّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]. و﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، المشار إليه الذين كفروا ودعاتهم، و﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمع صاحب، و«الصاحب» هو الملازم لغيره؛ فلا يسمى صاحبًا إلّا الملازم، إلّا صاحبًا واحدًا - وهم أصحاب النبي ﷺ، فإن صحبة النبي ﷺ تطلق على من اجتمع به ولو لحظة، ومات على ذلك، وهذا من خصائص النبي ﷺ، فأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، وقُدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، ولمراعاة الفواصل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان، وأنه تحصل به ولاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات الولاية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يتولى عباده، وولايته نوعان؛ الأولى: الولاية العامة؛ بمعني أن يتولى شئون عباده؛ وهذه لا تختص بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] يعني الكافرين، والنوع الثاني: ولاية خاصة بالمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨).

مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ومقتضى النوع الأول أن الله تعالى كمال السلطان والتدبير في جميع خلقه؛ ومقتضى النوع الثاني: الرأفة والرحمة والتوفيق.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن من ثمرات الإيمان هداية الله للمؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٤ - **ومنها**: أن الكافرين أولياؤهم الطواغيت، سواء كانوا متبوعين أو معبودين أو مطاعين.

٥ - **ومنها**: براءة الله - عزَّ وجلَّ - من الذين كفروا، يؤخذ من المنطوق والمفهوم، فالمفهوم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فمفهومه: لا الذين كفروا، والمنطوق من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾، وهذا مقابل لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٦ - **ومنها**: سوء ثمرات الكفر، وأنه يهدي إلى الضلال - والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، وهذا الإخراج يشمل ما كان إخراجًا بعد الوقوع في الظلمات، وما كان صدًّا عن النور، وعلى الثاني يكون المراد بإخراجهم من الظلمات: استمرارهم على الظلمات.

٧ - **ومنها**: أن الكفر مقابل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾، ولكن هل معنى ذلك أنه لا يجتمع معه؟ الجواب: أنه قد يجتمع معه على القول الراجح الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لقول النبي ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]. وهذا الكفر لا يرفع الإيمان لقول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا..﴾ [الحجرات: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فأثبت الأخوة الإيمانية مع الاقتتال الذي قال عنه النبي ﷺ: إنه كفر. وانظر إلى الإنسان يكون فيه كذب وهو من خصال المنافقين، ويكون فيه حسد وهو من خصال اليهود، ويكون فيه صدق وهو من خصال المؤمنين، ويكون فيه إيثار وهو من صفات المؤمنين أيضًا، لكن الكفر المطلق - وهو الذي يخرج من الإسلام - لا يمكن أن يجامع الإيمان.

٨ - **ومن فوائد الآية**: إثبات النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾، والنار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، فقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ بلفظ الماضي، والإعداد هو التهيئة، وثبت عن النبي ﷺ في غير حديث أنه رآها: ففي صلاة الكسوف عرضت عليه النار، ورأى فيها عمرو بن لُحَيّ يجر قصبه في النار، ورأى المرأة التي تُعَذَّبُ في هِرةٍ، ورأى صاحب المحجن يعذب[2]. المهم أن النار موجودة أبدية وليست أزلية؛ لأنها

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).
(٢) سبق تخريجه.

مخلوقة بعد أن لم تكن، ولكنها أبدية لا تفنى، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦]. وذكر تأبيد أهلها في ثلاثة مواضع من القرآن، وبهذا يعرف بطلان قول من يقول: إنها تفنى. وأنه قول باطل مخالف للأدلة الشرعية.

٩ - **ومنها**: أن الكافرين مخلدون في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، والصاحب للشيء: الملازم له.

١٠ - **ومنها**: أن الخلود خاص بالكافرين؛ وأن مَنْ يدخل النار من المؤمنين لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، يعني: دون غيرهم.

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؟ الهمزة للاستفهام، والمراد به هنا التقرير والتعجيب، والتقرير يعني: تقرير هذا الأمر وأنه حاصل، والتعجيب معناه: دعوة المخاطَب إلى التعجب من هذا الأمر العجيب الغريب الذي فيه المحاجة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿تَرَ﴾ أي: تنظر نظر قلب؛ لأنه لم يدرك زمنه حتى يراه بعينه، والخطاب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إما للنبي ﷺ، وإما لكل من يتأتى خطابه ممن نزل عليهم القرآن وهذا أعم، وقد ذكرنا قبل ذلك أن ما جاء بلفظ الخطاب في القرآن فله ثلاث حالات؛ إما أن يدل الدليل على أنه للرسول ﷺ وللأمة، أو يدل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ، أو لا يكون هذا ولا هذا، والحكم فيه أنه عامٌّ للرسول ﷺ ولغيره، ولكن هل هذا الخطاب المعين يراد به الأمة، وخوطب إمامها لأنهم تبع له، أو يراد به النبي ﷺ وغيره يفعله على سبيل الأسوة؟ قولان لأهل العلم ومؤدَّاهما واحد، فمن أمثلة ما دَلَّ الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢]، ومن الأمثلة التي دل الدليل على أنه للرسول ﷺ، ولغيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق:١]. فوجه الخطاب إلى النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ وهو عام، فدل على أن

المراد به العموم؛ ومما يحتمل، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فهذا يحتمل أنه للرسول ﷺ وحده، ولكن أمته تبع له وهو ظاهر اللفظ - وإن كان هذا الشرك لا يقع منه؛ لأن «إنْ» قد يراد بها فرض الشيء دون وقوعه - وهنا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟ يحتمل الأمرين؛ يعني: ألم تنظر يا محمد؟ أو: ألم تنظر أيها المخاطب؟

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾، ذكر «إبراهيم» في الآية ثلاث مرات، وفيها قراءتان: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، و﴿إبراهام﴾ وهما سبعيتان، و﴿حَآجَّ﴾: هذه صيغة مفاعلة، وصيغة المفاعلة لا تكون غالبًا إلَّا بين اثنين، كـ«قاتل»، و«ناظر»، و«دافع» - أقول: غالبًا. لئلا يرد علينا مثل: سافر، فإنها من واحد، ومعنى «حاجَّه» أي: ناظره، وأدلى كل واحد بحجته، و«الحجة» هي الدليل والبرهان، و﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: في وجوده وفي ألوهيته، فإبراهيم يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا ينكر الله رأسًا - كما أنكره من بعده فرعون - وقال: أين الدليل على وجود ربك؟!

قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: ﴿أَنْ﴾ مصدرية دخلت على الفعل الماضي، وإذا دخلت على الفعل الماضي لا تنصبه؛ لكنها لا تمنع أن يسبك بمصدر، والتقدير هنا: أنه حاجّ إبراهيم لكونه أُعطي مُلكًا، و «أل» في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ الظاهر أنها لاستغراق الكمال، أي: مُلكًا تامًّا لا ينازعه أحدٌ في مملكته؛ لأن الله لم يعطه ملك السموات والأرض، بل ولا ملك جميع الأرض، وبهذا نعرف أن فيما ذُكر عن بعض التابعين من أنه ملك الأرض أربعة؛ اثنان مؤمنان واثنان كافران، نظرًا ولم يُمَلِّك الله جميع الأرض لأيِّ واحد من البشر، ولكن يُمَلِّك بعضًا لبعض، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. أما أن يَملِك واحد من البشر جميع الأرض فهذا مستحيل في سنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيما نعلم.

فهذا رجل ملك - ولا يعنينا أن نعرف اسمه: أهو نُمروذ بن كنعان أم غيره؟ المهم هو القصة - لما آتاه الله ملكًا دام مدةً طويلة، وملك أراضيَ واسعة ملكًا تامًّا لا ينازعه أحد، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ..﴾ [يونس: ٢٤] الآية، استطال والعياذ بالله واستكبر وعلا وأنكر وجود العلي الأعلى، فكان يحاج إبراهيم لطغيانه بأن آتاه الله الملك، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. إذا رأى الإنسان نفسه استغنى فقد يطغى ويزيد عتوه وعناده.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. هذا بيان المحاجة، وهذه لا شك - كما يُعلم من سياق اللفظ - أنها جواب لسؤال؛ كأنه قال: ما ربك؟ أو: من هو؟ أو: ما شأنه؟ أو: ما فعله؟ فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما قال فرعون لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ..﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]، ومعنى «الرب» الخالق المالك المدبر، وهذه

الأوصاف لا تثبت على الكمال والشمول إلَّا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ و﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الجماد حيًّا، ويميت ما كان حيًّا، فبينما نرى الإنسان ليس شيئًا مذكورًا إذا به يكون شيئًا مذكورًا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. ثم يبقى في الأرض، ثم يُعدَم ويَفنى، فإذا هو خبر من الأخبار:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى ... أَنِيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

بَيْنَا يَرَى الإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا ... حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الأَخْبَارِ

قال إبراهيم هذا الكلام؛ كأنه يقول له: هو الذي يوجِد ويعدِم، ثم أتى بمثال؛ وهو الإحياء والإماتة التي لا يقدر عليها أحد، لكن هذا المعاند المكابر قال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. قالها إما تلبيسًا وإمَّا مكابرة؛ إمَّا تلبيسًا كما قاله أكثر المفسرين، وقالوا: إنه أتى باثنين؛ فقتل أحدهما وأبقى الآخر، فقال: أمتُّ الأول، وأحييتَ الثاني. هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ تلبيسًا، والحقيقة أنه ما أحيا ولا أمات هنا، وإنما فعل ما يكون به الموت في دعوى الإماتة، واستبقى ما كان حيًّا في دعواه الإحياء، فلم يوجِد حياة من عنده، وقال بعضهم: بل قال ذلك مكابرةً، يعني: هو يعلم أنه لا يحيي ولا يميت، كأنه يقول لإبراهيم: إذا كان ربك يحيي ويميت فأنا أحيي وأميت. ثم إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ انتقل إلى أمر لا يمكن الجدال فيه، قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾. أي: تحير واندهش ولم يحرِ جوابًا، فغلب إبراهيم الذي كفر؛ لأن وقوف الخصم في المناظرة عجز.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للهداية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بلاغة القرآن الكريم في عرض الأمور العجيبة معرض التقرير والاستفهام؛ لأن التقرير يحمِلُ المخاطَب على الإقرار، والاستفهام يثير اهتمام الإنسان، فجمع بين الاستفهام والتقرير.

٢ - **ومنها:** بيان كيف تصل الحال بالإنسان إلى هذا المبلغ الذي بلغه هذا الطاغية؛ وهو إنكار الحق لمن هو مختص به، وادعاؤه المشاركة؛ لقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

٣ - **ومنها:** أن المحاجة لإبطال الباطل، ولإحقاق الحق من مقامات الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾.

٤ - **ومنها:** الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة والمحاجة؛ لأنها سُلَّم ووسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ومَنْ طالع كتب شيخ الإسلام ونحوها تعلَّم المناظرة –

ولو لم يدرسها فنًّا.

٥ - **ومنها**: أن النعم قد تكون سببًا للطغيان؛ لأن هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق إلَّا لأن الله آتاه الملك؛ ولهذا أحيانًا تكون الأمراض نعمة من الله على العبد؛ والفقر والمصائب تكون نعمة على العبد؛ لأن الإنسان إذا دام في نعمة وفي رغد وفي عيش هنيءٍ فإنه ربما يطغى وينسى الله - عزَّ وجلَّ.

٦ - **ومنها**: صحة إضافة الملكية لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

٧ - **ومنها**: أن ملك الإنسان ليس ملكًا ذاتيًا من عند نفسه، ولكنه معطى إياه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٨ - **ومنها**: فضيلة إبراهيم ﷺ، حيث قال مفتخرًا ومعتزًا أمام هذا الطاغية: ﴿رَبِّىَ﴾. فأضافه إلى نفسه، كأنه يفتخر بأن الله - سبحانه وتعالى - ربه.

٩ - **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. وهذه المسألة أنكرها كثيرٌ من علماء الكلام؛ وعللوا ذلك بعلل عليلة بل ميتة لا أصل لها؛ لأنهم قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، وإن الحوادث إن كانت كمالًا كان فقدها نقصًا، وإن كانت نقصًا فكيف يتصف الله بها؟! إذنْ هي ممتنعة؛ لأنها نقصٌ على كل تقدير، وحينئذٍ يجب أن ننزه الله عنها، وأن تكون ممتنعة عليه، والجواب عن ذلك أن قولكم: الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث. مجرد دعوى، ونحن نعلم أن الحوادث تحدث منا، ولكنها ليست سابقة بسبقنا، ولا يعد ذلك فينا نقصًا، فالحوادث تحدث بعد مَن أحدثها، ولا مانع من ذلك، فمن الممكن أن يكون المتصف بها قديمًا وهي حادثة، وأما قولكم: إنها إن كانت كمالًا كان فقدها نقصًا، وإن كانت نقصًا فكيف يوصف بها؟ فنقول: هي كمال حال وجودها، فإذا اقتضت الحكمةُ وجودَها كان وجودها هو الكمال، وإذا اقتضت الحكمة عدمها كان عدمها هو الكمال.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: أن الإحياء والإماتة بيد الله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. إذنْ فاعتمد على الله - عزَّ وجلَّ - ولا تخف ولا تقدر أسبابًا وهمية، مثلًا دعيت إلى أيِّ عملٍ صالح فقلت: أخشى إن عملت هذا العمل أن أموت. نقول: هذا إذا كان مجرد وَهْم فإن هذه الخشية لا ينبغي أن يبني عليها حكمًا بحيث تمنعه من أمر فيه مصلحته وخيره.

١١ - **ومنها**: أن الإنسان المجادل قد يكابر فيدَّعي ما يعلم يقينًا أنه لا يملكه؛ لقول الرجل الطاغية: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾. ومعلوم أن هذا إنما قاله في مضايقة المحاجة، والإنسان في مضايقة المحاجة ربما يلتزم أشياء هو نفسه لو رجع إلى نفسه لعلم أنها غير صحيحة؛ لكن ضيق المناظرة أوجب له أن يقول هذا إنكارًا أو إثباتًا.

١٢ - ومنها: حكمة إبراهيم ﷺ، وجودته في المناظرة سواء قلنا: إن هذا من باب الانتقال من حجة إلى أوضح منها، أو قلنا: إنه من باب تفريع حجة على حجة.

١٣ - ومنها: الرد على علماء الهيئة الذين يقولون: إن إتيان الشمس ليس إتيانًا لها بذاتها، ولكن الأرض تدور حتى تأتي هي على الشمس، ووجه الرد أن إبراهيم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾. إذنْ الله أتى بها من المشرق، وهم يقولون: إن الله لم يأت بها من المشرق، ولكن الأرض بدورتها اطَّلَعت عليها. ونحن نقول: إن الله لم يقل: إن الله يدير الأرض حتى تُرى الشمس من المشرق؛ فأدرها حتى تُرى من المغرب! ويجب علينا أن نأخذ في هذا الأمر بظاهر القرآن، وألا نلتفت لقول أحدٍ مخالف لظاهر القرآن؛ لأننا متعبدون بما يدل عليه القرآن، هذا من جهة، ولأن الذي أنزل القرآن أعلم بما خلق: قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. فإذا كان يقول في كلامه إن الشمس: «تأتي» و«تطلع» و«تغرب» و«تزول» و«تتوارى». كل هذه الأفعال يضيفها إلى الشمس، لماذا نحن نجعلها على العكس من ذلك ونضيفها إلى الأرض؟!! ويوم القيامة سيقول الله لنا: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. لا يقول: ماذا أجبتم العالم الفلكي الفلاني. على أن علماء الفلك قديمًا وحديثًا مختلفون في هذا، لم يتفقوا على أن الأرض هي التي بدورانها يكون الليل والنهار، وما دام الأمر موضع خلاف بين الفلكيين أَنْفُسِهِم؛ فإننا نقول كما نقول لعلماء الشرع إذا اختلفوا: إن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﷺ. بل نقول: لو جاء علماء الفلك بأجمعهم ما عدلنا عن ظاهر القرآن حتى يتبين لنا أمر محسوس، وحينئذ نقول لربنا إذا لاقيناه: إنك قلت - وقولك الحق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وقلت: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ونحن ما وسعنا إِلَّا أن نقول: إن قولك: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف: ١٧] أي: إذا طلعت رأي العين، لا في حقيقة الواقع؛ لأننا علمنا بحسنا وبصرنا بأن الذي يكون به تعاقب الليل والنهار هو دوران الأرض، أما والحس لم يدل على هذا، ولكنه مجرد أقيسة ونظريات، فإنني أرى أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عن كلام ربه الذي خلق والذي أنزل القرآن تبيانًا لكل شيء لمجرد قول هؤلاء.

١٤ - ومن فوائد الآية: أن الحق لا تمكن المجادلة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

١٥ - ومنها: إثبات أن من جحد الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾. وهذه هي النكتة في الإظهار مقام الإضمار؛ لأجل أن نقول: كل مَنْ جادل كما جادل هذا الرجل فهو كافر.

١٦ - ومنها: الإشارة إلى أن محاجة هذا الرجل محاجة بباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾؛ لأن الذين كفروا هم الذين يحاجون حجة باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

١٧ - **ومنها**: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان حرٌّ: يهتدي بنفسه، ويضل بنفسه؛ وهذه الآية واضحة في أن الهداية بيد الله.

١٨ - **ومنها**: التحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ومن الظلم أن يتبين لك الحق فتجادل لنصرة قولك؛ لأن العدل أن تنصاع للحق، وألا تكابر عند وضوحه؛ ولهذا ضل من ضل من أهل الكلام؛ لأنه تبين لهم الحق؛ ولكن جادلوا فبقوا على ما هم عليه من ضلال.

١٩ - **ومنها**: أن الله لا يمنع فضله عن أحد إلَّا إذا كان هذا الممنوع هو السبب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فلظلمهم لم يهدهم الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

٢٠ - **ومنها**: أنه كلما كان الإنسان أظلم كان عن الهداية أبعد؛ لأن الله علق نفي الهداية بالظلم؛ وتعليق الحكم بالظلم يدل على عليته؛ وكلَّما قويت العلة قوي الحكم المعلق عليه.

٢١ - **ومنها**: أن من أخذ بالعدل كان حَرِيًّا بالهداية؛ لمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإذا كان الظالم لا يهديه الله فصاحب العدل حَرِيٌّ بأن يهديه الله عز وجل؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتبع الحق - والحق هو العدل - غالبًا يُهدى ويوفَّق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» عبارة من أحسن العبارات؛ قال: «من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق»؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقًا ومفهومًا.

قال الله تعالى:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ ﴿أَوْ﴾: حرف عطف؛ والكاف: قيل: إنها زائدة للتوكيد؛ وقيل: إنها اسم بمعنى «مثل»؛ وعلى كلا القولين فهي معطوفة على ﴿الذي﴾ في قوله

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ يعني: أو ألم تر إلى مثل الذي مر على قرية إذا جعلنا الكاف بمعنى «مثل»؛ أمَّ إن جعلنا الكاف زائدة، فالتقدير: أو ألم تر إلى الذي مر على قرية.. إلخ.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تقديم المفعول على الفاعل؛ لأن ﴿هَٰذِهِ﴾ مفعول مقدم؛ ولفظ الجلالة فاعل مؤخر.

قوله تعالى: ﴿مِائَةَ﴾ منصوبة على أنها نائبة مناب الظرف؛ لأنها مضافة إليه؛ والظرف هي كلمة ﴿عَامٍ﴾؛ وهي متعلقة بـ ﴿فَأَمَاتَهُ﴾؛ وقيل: متعلقة بفعل محذوف؛ والتقدير: فأبقاه مائة عام؛ قالوا: لأن الموت لا يتأجل؛ فالموت موت؛ ولكن الذي تأجل هو بقاؤه ميتًا مائة عام.

قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ﴾: اختلفت الحركة في التاء باعتبار من ترجع إليه؛ و﴿كَمْ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿لَبِثْتَ﴾؛ يعني: كم مدة لبثت.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ فيها قراءتان: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بالهاء الساكنة؛ و﴿لم يتسنَّ﴾ بحذفها عند الوصل؛ فالقراءتان تختلفان في حال الوصل؛ لا في حال الوقف؛ في حال الوقف: بالهاء الساكنة على القراءتين: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ وفي حال الوصل: بحذف الهاء في قراءة سبعية: ﴿لم يتسنَّ وانظر﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ الواو حرف عطف؛ والمعطوف عليه محذوف دَلَّ عليه السياق؛ والتقدير: لتعلم قدرة الله، ولنجعلك آية للناس.

قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾ بفتح الهمزة على أنه فعل مضارع؛ فالجملة خبرية؛ والقراءة الثانية «اعْلَمْ» بهمزة الوصل على أنه فعل أمر؛ وعلى هاتين القراءتين يختلف عود الضمير في ﴿قَالَ﴾؛ فعلى القراءة الأولى مرجعه ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ وعلى الثانية يرجع إلى الله.

وقد اختلف المفسرون في تعيين القرية، والذي مر بها؛ وهو اختلاف لا طائل تحته؛ إذ لم يثبت فيه شيء عن معصوم؛ والمقصود العبرة بما في هذه القصة - لا تعيين الرجل، ولا القرية - ومثل هذا الذي يأتي مبهمًا، ولم يعين عن معصوم، طريقنا فيه أن نبهمه كما أبهمه الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: «القرية» مأخوذة من القَرْي؛ وهي الجمع؛ وتطلق على الناس المجتمعين في البلد؛ وتطلق على البلد نفسها - حسب السياق -، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] المراد بـ «القرية» هنا المساكن؛ لأنه تعالى قال: ﴿أهل هذه القرية﴾، وأما في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥]، فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: وهذا لا يوصف به البلد.

فتبين أن القرية يراد بها أحيانًا البلد التي هي محل مجتمع الناس؛ ويراد بها القوم المجتمعون - على حسب السياق؛ وكما قال أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي

أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]: فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ لأن السؤال لا يمكن أن يوجه إلى القرية التي هي البناء؛ وإذا كانت «القرية» تطلق على أهل القرية بنص القرآن فلا حاجة إلى أن نقول: هذا مجاز أصله: واسأل أهل القرية؛ لأنا رأينا في القرآن الكريم أن «القرية» يراد بها الساكنون.

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ جملة حالية في محل نصب؛ ومعناها: أنه ساقط بعضها على بعض ليس فيها ساكن.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام للاستبعاد؛ وسياق الآية يرجحه؛ أي أنه استبعد حسب تصوره أن الله سبحانه وتعالى يعيد إلى هذه القرية ما كان سابقًا، وقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؛ وقال بعضهم: إنه للاستعجال والتمني؛ كأنه يقول: متى يحيي الله هذه القرية بعد موتها وقد كانت بالأمس قرية مزدهرة بالسكان، والتجارة، وغير ذلك؛ فمتى يعود عليها ما كان قبل.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: قبض روحه.

قوله تعالى: ﴿مِاْئَةَ﴾ فيها ألف بين الميم والهمزة؛ والميم مكسورة، والألف عليها دائرة إشارة إلى أن الألف هذه تكتب ولا ينطق بها؛ وبهذا نعرف خطأ من ينطقون بها: «مَائة» بميم مفتوحة؛ ومن قرأ بها في القرآن فقد لحن لحنًا يجب عليه أن يعدله؛ وبعض الكتاب المعاصرين يكتبها بدون ألف كـ «فِئة» يعني: ميم، وهمزة، وتاء؛ وهذا أحسن إلَّا في رسم المصحف؛ فيتبع الرسم العثماني؛ وإلا إذا أضيف إليها عدد كـ «ثلاثمائة» و«أربعمائة»؛ فتكتب الألف ولا ينطق بها.

قوله تعالى: ﴿عَامٍ﴾ مشتقة من العوم؛ وهو السباحة؛ لأن الشمس تسبح فيه على الفصول الأربعة؛ وهي الربيع؛ الصيف؛ الخريف؛ الشتاء؛ كل واحد من هذه الفصول له ثلاثة من البروج المذكورة في قوله:

حَمَلٌ فَثَوْرٌ فَجَوْزَاءُ فَسَرَطَانُ ... فَأَسَد سُنبلة مِيزَانُ
فَعَقْرَبٌ قَوْسٌ فَجَدْيٌ فكذا ... دَلْو وذي آخرها الحِيتَانُ

هذه اثنا عشر برجًا للفصول الأربعة؛ كل واحد من الفصول له ثلاثة؛ وقيل: إن كلمة ﴿عَامٍ﴾ غير مشتقة؛ فهي مثل كلمة «باب» و«ساج» و«سنة»؛ وما أشبه ذلك من الكلمات التي ليس لها اشتقاق؛ وأيًّا كان فالمعنى معروف.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: أحياه؛ ولعل قائلًا يقول: إن المتوقع أن يقول: «ثم أحياه» ليقابل ﴿فَأَمَاتَهُ﴾؛ لكن «البعث» أبلغ؛ لأن «البعث» فيه سرعة؛ ولهذا نقول: انبعث الغبار بالريح، وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على أن الشيء يأتي بسرعة واندفاع؛ فهذا الرجل بعثه الله بكلمة

واحدة؛ قال مثلًا: «كن حيًّا»، فكان حيًّا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾؛ القائل هو الله عز وجل؛ يعني: كم لبثت من مدة؛ والمدة مائة عام.

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ﴿أَوْ﴾ للشك؛ قال العلماء: وإنما قال ذلك؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار؛ فقال: لبثت يومًا إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته؛ أو بعض يوم إن كان هو اليوم الذي مات فيه.

قوله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾؛ ﴿بَل﴾ هذه للإضراب الإبطالي؛ يعني: لم تلبث يومًا، أو بعض يوم؛ بل لبثت مائة عام.

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ﴾ أي: بعينك ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾: أبهمه الله عز وجل فلم يبين من أي نوع هو؛ و«الطعام» كل ما له طعم من مأكول ومشروب؛ لكنه إذا قرن بالشراب صار المراد به المأكول.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَابِكَ﴾: لم يبين نوع الشراب؛ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير.

قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: انظر إليه بعينك؛ فنظر إلى حماره فإذا به قد تلوح عظامه ليس فيه لحم، ولا عصب، ولا جلد.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: لنصيِّرك علامة للناس على قدرتنا.

قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾؛ وفي قراءة: «ننشرها» بالراء؛ ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي يعني: نركب بعضها على بعض؛ من النشز؛ وهو الارتفاع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨]؛ فـ ﴿نُنشِزُهَا﴾ يعني: نعلي بعضها على بعض؛ فنظر إلى العظام فإذا به يأتي، ويركب على العظم الثاني في مكانه حتى صار الحمار عظامًا؛ كل عظم منها راكب على الآخر في مكانه، ثم بعد ذلك كسا الله العظام لحمًا بعد أن أنشز بعضها ببعض بالعصب؛ أما قراءة «ننشرها» بالراء فمعناها: نحييها؛ لأن العظام قد يبست، وصارت كالرميم ليس فيها أيُّ مادة للحياة، ثم أحييت بحيث صارت قابلة لأن يركب بعضها على بعض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي: نسترها باللحم؛ فشاهد ذلك بعينه، فاجتمع عنده آيتان من آيات الله: إبقاء ما يتغير على حاله – وهو طعامه وشرابه؛ وإحياء ما كان ميتًا – وهو حماره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي تبين لهذا الرجل – الذي مر على القرية، واستبعد أن يحييها الله بعد موتها؛ أو استبطأ أن الله سبحانه وتعالى يحييها بعد موتها، وحصل ما حصل من آيات الله عز وجل بالنسبة له، ولحماره، ولطعامه، وشرابه – تبين له الأمر الذي تحقق به قدرة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ وفي قراءة: ﴿اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ والفائدة من القراءتين: كأنه أمر أن يعلم فعلم وأقر؛ و«العلم» – كما سبق – هو إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا لما هو عليه؛ وعدم الإدراك هو الجهل البسيط؛ وإدراك

الشيء على غير ما هو عليه: هو الجهل المركب؛ وعدم الجزم: شكٌّ؛ أو ظنٌّ؛ أو وهم؛ فإن تساوى الأمران فهو شك؛ وإن ترجَّح أحدهما فالراجح ظن؛ والمرجوح وهم.

و«القدرة» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]: لما نفى أن يعجزه شيء قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فلمَّا نفى العجز ذكر القدرة والعلم مقابلها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث ينوع الأدلة والبراهين على الأمور العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾؛ فهذه الآية وما قبلها وما بعدها كلها في سياق قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى.

٢ - **ومنها**: الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يهتم الإنسان بأعيان أصحاب القصة؛ إذ لو كان هذا من الأمور المهمة لكان الله يبين ذلك: يقول: فلان؛ ويبين القرية.

٣ - **ومنها**: أن العبرة بالمعاني والمقاصد دون الأشخاص.

٤ - **ومنها**: إطلاق القرية على المساكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مع أنه يحتمل أن يراد بهذه الآية المساكن، والساكن لأن كونها خاوية على عروشها يدلُّ على أن أهلها أيضًا مفقودون، وأنهم هالكون.

٥ - **ومنها**: قصور نظر الإنسان، وأنه ينظر إلى الأمور بمعيار المشاهَد المنظور لديه؛ لقوله هذا الرجل: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فكونك ترى أشياء متغيرة لا تستبعد أن الله عز وجل يزيل هذا التغيير؛ وكم من أشياء قدَّر الناس فيها أنها لن تزول، ثم تزول؛ كم من أناس أمَّلوا دوام الغنى، ودوام الأمن، ودوام السرور، ثم أعقبه ضد ذلك؛ وكم من أناس كانوا على شدة من العيش، والخوف، والهموم، والغموم، ثم أبدلهم الله سبحانه وتعالى بضد ذلك.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان إذا استبعد وقوع الشيء - ولكنه لم يشك في قدرة الله - لا يكفر بهذا.

٧ - **ومنها**: بيان قدرة الله عز وجل في إماتة هذا الرجل لمدة معينة، ثم إحيائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

٨ - **ومنها**: إثبات الكلام لله عز وجل، والقول، وأنه بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾؛ والأولى الأخذ بظاهر القرآن، وأن القائل هو الله عز وجل.

٩ - **ومنها**: جواز امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾.

١٠ - **ومنها**: الرد على الأشاعرة الذين قالوا: «**إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن هذه الأصوات التي سمعها موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - وغيرهما ممن كلمه الله**

هي أصوات خلقها الله عز وجل لتعبر عما في نفسه»؛ وأن هذا القول مقتضاه إنكار القول من الله عز وجل.

١١ - **ومنها**: بيان حكمة الله، حيث أمات هذا الرجل، ثم بعثه ليتبين له قدرة الله عز وجل.

١٢ - **ومنها**: جواز إخبار الإنسان بما يغلب على ظنه، وأنه إذا خالف الواقع لا يعد مخطئًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ مع أنه لبث مائة عام.

١٣ - **ومنها**: أن الله قد يمنُّ على عبده بأن يريه من آياته ما يزداد به يقينه؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ..﴾ إلخ.

١٤ - **ومنها**: أن قدرة الله فوق ما هو معتاد من طبيعة الأمور، حيث بقي هذا الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير.

١٥ - **ومنها**: الرد على أهل الطبيعة الذين يقولون: إن السنن الكونية لا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: لكون هذا الطعام والشراب لم يتغير لمدة مائة سنة، والرياح تمر به، والشمس، والحر.

١٦ - **ومنها**: جواز الانتفاع بالحُمُرِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

١٧ - **ومنها**: ثبوت الملكية فيها: لأن الله أضاف الحمار إلى صاحبه؛ فقال تعالى: ﴿حِمَارِكَ﴾؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا حَرَّمَ أَكْلَ شَيْءٍ حَرَّمَ ثَمَنَهُ»[1]، وإثبات الملكية يقتضي حل الثمن؟

فالجواب: أنها إذا بيعت للأكل فهو حرام؛ لأنه هو المحرم؛ وأما إذا بيعت للانتفاع فهذا حلال؛ لأن الانتفاع بها حلال؛ إذنْ فهذا لا يعارض الحديث؛ فإذا اشترى الحمار للأكل فالثمن حرام؛ وإن اشتراه للمنفعة فالمنفعة حلال، وثمنها حلال.

١٨ - **ومن فوائد الآية**: أن الله يحدث للعبد ما يكون عبرة لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ ومثل ذلك قوله تعالى في عيسى ابن مريم وأمه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

١٩ - **ومنها**: أنه ينبغي التفكر فيما خلقه الله عز وجل وأحدثه في الكون؛ لأن ذلك يزيد الإيمان، حيث إن هذا الشيء آية من آيات الله.

٢٠ - **ومنها**: أنه ينبغي النظر إلى الآيات على وجه الإجمال والتفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾: مطلق؛ ثم قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ..﴾ إلخ؟! فيقتضي أن نتأمل أولًا في الكون من حيث العموم، ثم من حيث التفصيل؛ فإن ذلك أيضًا يزيدنا في الإيمان.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٩٣٨)، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٣١٨).

٢١ - ومنها: أن الله عز وجل جعل اللحم على العظام كالكسوة؛ بل هو كسوة في الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ ولهذا تجد اللحم يقي العظام من الكسر والضرر؛ لأن الضرر في العظام أشد من الضرر في اللحم.

٢٢ - ومنها: أن الإنسان بالتدبر والتأمل والنظر يتبين له من آيات الله ما لا يتبين لو غفل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ..﴾ إلخ؟!.

٢٣ - ومنها: بيان عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢٤ - ومنها: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن من الأشياء فعل العبد؛ والله سبحانه وتعالى قادر على فعل العبد؛ وعند القدرية المعتزلة أن الله ليس بقادر على أفعال العبد؛ لأن العبد عندهم مستقل خالق لفعله، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق أفعاله.

٢٥ - ومنها: الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾؛ وهذه أفعال متعلقة بمشيئته واختياره: متى شاء فعل، ومتى شاء لم يفعل؛ ومتى شاء خلق، ومتى شاء أمات؛ ومتى شاء أذل،و متى شاء أعز.

٢٦ - ومنها: أن كلام الله عز وجل بحروف وأصوات مسموعة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾؛ فإن مقول القول حروف بصوت سمعه المخاطَب، وأجاب عليه بقوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ ولكن الصوت المسموع من كلام الله عز وجل ليس كصوت المخلوقين؛ الحروف هي الحروف التي يعبر بها الناس؛ لكن الصوت: لا؛ لأن الصوت صفة الرب عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٢٧ - ومنها: أنه يلزم من النظر في الآيات العلم واليقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢٨ - ومنها: أنه يمكن الرد على الجبرية على قراءة: «اعلم»؛ لأنه لو كان الإنسان مجبورًا لكان توجه الخطاب إليه بالأمر والتكليف لغوًا وعبثًا.

٢٩ - ومنها: ثبوت كرامات الأولياء؛ وهي كل أمر خارق للعادة يجريه الله عز وجل على يد أحد أوليائه تكريمًا له، وشهادةً بصدق الشريعة التي كان عليها؛ ولهذا قيل: كل كرامة لوليٍّ فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ و«الولي» كل مؤمن تقي؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

٣٠ - ومنها: وجوب العلم بأن الله على كل شيء قدير.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

❁ التفسير ❁

في ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ قراءتان؛ ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ بكسر الهاء وياء بعدها؛ و ﴿إبراهام﴾ بفتح الهاء وألف بعدها؛ وكذلك في ﴿أَرِنِى﴾ قراءتان: ﴿أَرِنِى﴾ بكسر الراء؛ و (أَرْني) بسكونها؛ وفي ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ قراءتان أيضًا: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد؛ و(فصِرهن) بكسرها؛ وفي ﴿جُزْءًا﴾ قراءتان أيضًا: ﴿جُزْءًا﴾ بسكون الزاي؛ و (جزُءًا) بضمها؛ وكل هذه القراءات سبعية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى﴾ ﴿إِذْ﴾: مفعول فعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ و﴿أَرِنِى﴾: الرؤية هنا بصرية، فتنصب مفعولًا واحدًا؛ لكن لما دخلت عليها همزة التعدية صارت تنصب مفعولين؛ الأول: الياء؛ والثاني: جملة: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ فيها إعرابان مشهوران؛ أحدهما: أن الهمزة دخلت على مقدر عُطف عليها قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ وهذا المقدر يكون بحسب السياق؛ وعلى هذا فالهمزة في محلها؛ الثاني: أن الواو حرف عطف على ما سبق؛ والهمزة للاستفهام؛ وأصل محلها بعد الواو؛ والتقدير: «وألم تؤمن»؛ والثاني أسهل وأسلم؛ لأن الإنسان ربما يقدر فعلًا ليس هو المراد؛ وأسهل؛ لئلا يُتعب الإنسان نفسه في طلب فعل يكون مناسبًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾؛ إبراهيم ﷺ هو الأب الثالث للأنبياء؛ فالأول: آدم؛ والثاني: نوح؛ والثالث: إبراهيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]؛ وآدم معلوم أنه أبو البشر: كما قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾: منادى منصوب بفتحة مُقَدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ وحرف النداء محذوف للعلم به.

قوله تعالى: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: اجعلني أنظر وأرى بعيني؛ والسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان؛ لأن إبراهيم لم يشك في القدرة؛ ولا عن معنى الإحياء؛ لأن معنى الإحياء عنده معلوم؛ لكن أراد أن يعلم الكيفية: كيف يحيي الله الموتى بعد أن أماتهم وصاروا ترابًا وعظامًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: هل مراد إبراهيم ﷺ أيّ موتى يكونون؛ أو أن المراد به الموتى من بني آدم، فضرب الله له مثلًا بالطيور الأربعة؟ إذا نظرنا إلى لفظ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وجدناه عامًّا؛ يعني أيّ شيء يحييه الله أمامه فقد أراه؛ فيترجح الاحتمال الأول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾: هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ يعني: قد شرحنا لك؛ فمعنى ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾: ألست قد آمنت؛ لتقرير إيمان إبراهيم ﷺ.

وقد فسر كثير من الناس الإيمان في اللغة بـ«التصديق»؛ وهذا التفسير ليس بدقيق؛ لكنه تفسير بما يقارب؛ كتفسيرهم «الريب» بالشك؛ وتفسيرهم «الرهن» بالحبس؛ وتفسير قوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ [الأنعام: ٧٠] أي: تحبس؛ وما أشبه ذلك مما يفسرونه بالمعنى المقارِب الذي يَقرُب للفهم؛ وإلا فإن بين الإيمان والتصديق فرقًا؛ وقد سبق بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ حرف يجاب بها النفي المقرون بالاستفهام لإثباته؛ فإذا قلت: ألست حاضرًا معنا في الدرس؟ فالجواب: «بلى» - إن كنت حاضرًا؛ و«نعم» - إن لم تكن حاضرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ أي: ليزداد طمأنينة؛ وإلا فقد كان مطمئنًا؛ و«الطمأنينة» هي الاستقرار، كما قال النبي ﷺ: «ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا.. اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا»[1]، أي: تستقر؛ فأراه الله سبحانه وتعالى الآية: قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾: لم يعينها الله عز وجل؛ ولهذا تعتبر محاولة تعيينهن لا فائدة منها؛ لأنه لا يهمنا أكانت هذه الطيور إوَزًّا، أم حمامًا، أم غربانًا، أم أيَّ نوع من أنواع الطيور؛ لأن الله لم يبينها لنا؛ ولو كان في تبيينها فائدة لبيَّنها الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بكسر الصاد من صار يصير؛ وبضمها من صار يصور؛ أي أملهن إليك؛ و«الصُّور» الميل؛ ومنه الرجل الأصور - التي مالت عينه إلى جانب من جفنه؛ ويسمى «الأحول»؛ فمعنى ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي: أملهن واضممهن إليك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾، أي من الجبال التي حولك ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي من مجموعهن؛ والله أعلم بالحكمة من تعيين العدد والجبال.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾؛ ففعل عليه الصلاة والسلام فجمع الأربعة، وذبحهن، وقطعهن أجزاءً، وجعل على كل جبل جزءًا؛ ثم دعاهن فأقبلن.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ قيل: إنها جواب لفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾؛ وقيل:

---

(١) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٧).

إنها جواب لفعل شرط مقدر؛ والتقدير: «**إن تدعهن يأتينك**»؛ فعلى القول الأول يكون جوابًا لقوله: ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾؛ لأن من لازم أمر الله إياه بدعائهن أن يدعوَهن؛ فكأن الشرط معلوم من الأمر؛ وعلى القول الثاني لا إشكال إذا جعلت ﴿يَأْتِينَكَ﴾ جوابًا لفعل شرط محذوف - يعني: إن تدعهن يأتينك؛ و﴿يَأْتِينَكَ﴾ مبنية على السكون في محل جزم؛ وإنما بنيت على السكون لاتصالها بنون النسوة.

وقوله تعالى: ﴿سَعْيًا﴾ مصدر؛ لكن هل هو مصدر عامله محذوف، والتقدير: يسعَين سعيًا؛ أو هو مصدر في موضع الحال، فيكون بمعنى: ساعيات؟ يحتمل هذا وهذا؛ والثاني أولى؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ والقاعدة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام محذوفًا منه، أو غير محذوف فهو غير محذوف منه.

وقوله تعالى: ﴿سَعْيًا﴾؛ هل نفسر السعي في كل موضع بحسبه؛ أو نقول: سعيًا على الأرجل؟ في هذا قولان للمفسرين؛ أحدهما أن السعي هنا بمعنى الطيران؛ فالمعنى: يأتينك طيرانًا لا نقص فيهن؛ لأن سعي كل شيء بحسبه؛ وسعي الطيور هو الطيران؛ الثاني: أن المراد بالسعي المشي بسرعة على الأرجل؛ ولكن الأولى - فيما يظهر لنا - هو الطيران؛ لأن كونهن يمشين على الأرجل لا يدل على كمالهن؛ إذ إن الطائر إذا كُسر جناحه صار يمشي؛ لكن كونهن يطرن أبلغ؛ لأنه كأنهن أتين على أكمل الحياة، والوجوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: الخطاب لإبراهيم ﷺ؛ فإذا علمت ذلك علمت كمالَ قدرته عز وجل لكمال عزته، وكمالَ حكمته؛ لأنه حكيم؛ والله سبحانه وتعالى يقرن كثيرًا بين هذين الاسمين: «**العزيز**» و«**الحكيم**»؛ لأن العزيز من المخلوقين قد تفوته الحكمة لعزته: يرى نفسه عزيزًا غالبًا، فيتهور في تصرفاته، ويتصرف بدون حكمة؛ والحكيم من المخلوقين قد لا يكون عزيزًا؛ فإذا اقترنت حكمته بعزة صار له سلطان وقوة، ولم تفته الأمور؛ فجمع الله لنفسه بين العزة والحكمة؛ وسبق الكلام عليهما مفصلًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن التوسل إلى الله بربوبيته من آداب الدعاء التي يتوسل بها الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية؛ إذ إنه فعل؛ وكل ما يتعلق بأفعال الرب فهو من مقتضيات الربوبية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه إلى السماء: «**يقول: يا رب! يا رب!**»[1]؛ ولو تأملت أكثر أدعية القرآن لوجدتها مصدرة بـ«**الرب**»؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية.

٢ - **ومنها:** أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه، لقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٣٣٠).

﴿تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لأنه إذا رأى بعينه ازداد يقينه.

٣ - **ومنها**: أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لأن إبراهيم عليه السلام عنده خبر اليقين بأن الله قادر؛ لكن يريد عين اليقين؛ ولهذا جاء في الحديث: «لَيْسَ الْـخَبر كَالمُعَايَنَةِ»[1]؛ وقد ذكر العلماء أن اليقين ثلاث درجات: علم؛ وعين؛ وحق؛ كلها موجودة في القرآن؛ مثال «علم اليقين»: قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]؛ ومثال «عين اليقين» قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]؛ ومثال «حق اليقين»: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]؛ نضرب مثالًا يوضح الأمر: قلت: إن معي تفاحة حلوة - وأنا عندك ثقة؛ فهذا علم اليقين: فإنك علمت الآن أن معي تفاحة حلوة؛ فأخرجتُها من جيبي وقلت: هذه التفاحة؛ فهذا عين اليقين؛ ثم أعطيتك إياها، وأكلتَها وإذا هي حلوة؛ هذا حق اليقين.

٤ - **ومن فوائد الآية**: إثبات أفعال الله الاختيارية؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له أفعال تتعلق بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

٥ - **ومنها**: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإحياء الموتى؛ وقد قرر الله ذلك في آياتٍ كثيرة.

٦ - **ومنها**: إثبات الكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً﴾؛ والله سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء؛ بما شاء: من القول؛ متى شاء: في الزمن؛ كيف شاء: في الكيفية.

٧ - **ومنها**: أن كلام الله سبحانه وتعالى بحروف، وأصوات مسموعة؛ لوقوع التحاور بين الله عز وجل، وإبراهيم ﷺ.

٨ - **ومنها**: إثبات أن إبراهيم مؤمن بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين ما ثبت في «**صحيح البخاري**» أن النبي ﷺ قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيم»[2]؛ فأثبت شكًّا فينا، وفي إبراهيم، وأننا أحق بالشك من إبراهيم؟ فالجواب: أن الحديث لا يراد به هذا المعنى؛ لأن هذا معنًى يخالف الواقع؛ فليس عند الرسول ﷺ شك في إحياء الموتى؛ وإنما المعنى أن إبراهيم لم يشك؛ فلو قدر أنه يشك فنحن أحق بالشك منه؛ وما دام الشك منتفيًا في حقنا فهو في حقه أشد انتفاءً؛ فإذا عُلم أننا الآن نؤمن بأنه تعالى هو القادر، فإبراهيم أولى مِنَّا بالإيمان بذلك؛ هذا هو معنى الحديث، ولا يحتمل غيره؛ فإن قلت: لا زال هنا إشكال؛ وهو: هل إبراهيم أكمل إيمانًا من محمد ﷺ؟ فالجواب: لا؛

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٧٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١).

ولكن قاله ﷺ على سبيل التواضع؛ ولهذا قرن بينه وبين قوله ﷺ: «وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»(١)؛ فيوسف بقي في السجن بضع سنين، وجاءه رسول الملك يدعوه؛ فقال له: لا أخرج، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]؛ مع أن غيره لو حبس سبع سنين، وقالوا له: «اخرج» فإنه يخرج؛ هذا مقتضى الطبيعة؛ لكن يوسف - عليه الصلاة والسلام - كان حليمًا حازمًا؛ قال: لا أخرج حتى تظهر براءتي كاملة؛ فتبين من هذا أنه لا يلزم من قول الرسول ﷺ هذا أن يكون إبراهيم أقوى إيمانًا.

٩ - **ومن فوائد الآية:** إثبات زيادة الإيمان في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾؛ ففيه ردٌّ على من قال: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف؛ لأن الواقع يكذبه؛ والنصوص تكذبه أيضًا: ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ وفي السنة: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(٢)؛ فالإيمان يزيد كمية وكيفية؛ فمثال زيادة الكمية: أن الذي يسبح عشرًا أزيد إيمانًا من الذي يسبح خمسًا؛ والذي يصلي عشر ركعات أزيد إيمانًا من الذي يصلي ستًّا؛ وأما زيادة الكيفية فمثالها: رجل صلى ركعتين بطمأنينة وخشوع وتأمل فإيمانه أزيد ممن صلاهما بسرعة؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب: كلما كثرت الآيات لدى الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوة ورسوخًا؛ اقرأ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] أي على طرَف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]: هذا إيمانه ضعيف مهزوز: إن لم تأته فتنة فهو مستقر؛ وإن أتته فتنة - شبهة، أو شهوة - انقلب على وجهه؛ فمثلًا نحن الآن في المملكة العربية السعودية ليس عندنا - ولله الحمد - أحد يعارضنا في العقيدة؛ فليس عندنا معتزلة، ولا جهمية، ولا جبرية...، فنحن ثابتون على الفطرة؛ ولكن لو يبتلى الإنسان فيأتيه واحد من عفاريت الإنس جيد في المجادلة والمحاجة من المعتزلة لأوشك أن يؤثر عليه، وينقله إذا لم يكن لديه رسوخ في العلم والإيمان؛ كذلك لو أن إنسانًا عنده إيمان لكن تعرضت له امرأة ذات منصب وجمال وأغرته حتى وقع في الفاحشة؛ وإنسان آخر تعرضت له هذه المرأة فقال: «إني أخاف الله» تجد الفرق بينهما؛ فالمهم أن القول الراجح الذي لا شك فيه، والذي تدل عليه الأدلة السمعية والواقعية: أن الإيمان يزيد وينقص.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** جواز الاقتصار في الجواب على الحرف الدال عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾؛ وعليه فلو قيل للرجل: ألم تطلق زوجتك؟ فقال: «بلى»: طلقت؛ ولو قيل للرجل

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) سبق تخريجه.

عند عقد النكاح: أقبلت النكاح، وقال: «نعم» انعقد النكاح؛ لأن حرف الجواب يغني عن ذكر الجملة.

١١ - ومنها: امتنان الله على العبد بما يزداد به إيمانه، لقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

١٢ - ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**العزيز**» و«**الحكيم**»؛ وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ وهي العزة، والحكمة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة ولا عكس؛ يعني: ليس كل صفة يؤخذ منها اسم؛ لكن كل اسم يؤخذ منه صفة؛ لأن أسماء الله عز وجل أعلام وأوصاف؛ فكل اسم من أسمائه متضمن للصفة التي دَلَّ عليها اشتقاقه أو لوازمها.

۞ قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾؛ يطلق المثل على الشبه؛ ويطلق على الصفة؛ فإن ذكر مماثل فالمراد به الشبه؛ وإلا فالمراد به الصفة؛ ففي قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ..﴾ [محمد: ١٥] المراد بالمثل الصفة؛ لأنه لم يذكر المماثل؛ أما إذا قيل: «**مثَل هذا كمثَل هذا**» فهذا يعني الشبه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ..﴾ [البقرة: ١٧]، وكما في هذه الآية: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ فهذا المراد به الشبه؛ يعني: شبه هؤلاء كشبه هذا الشيء؛ والذي يظهر من الآية: أنه لا يوجد فيها مطابقة بين الممثل والممثل به؛ لأن «**الممثل**» هو العامل؛ و«**الممثل به**» هو العمل؛ فالحبة ليست بإزاء المنفِق؛ لكنها بإزاء المنفَق؛ والذي يكون بإزاء المنفِق زارع الحبة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الآية فيها تقدير: إما في المبتدأ؛ وإما في الخبر: فإما أن يقدر: مثل عمل الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة؛ أو يقدر: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع حبة أنبتت سبع سنابل؛ والحكمة من هذا الطيّ أن يكون المثل صالحًا للتمثيل بالعامل، والتمثيل بالعمل؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ و«**الإنفاق**» معناه البذل؛ و«**أموال**» جمع مال؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من أعيان، أو منافع؛ الأعيان: كالدراهم، والدنانير، والسيارات، والدور، وما أشبه ذلك؛ والمنافع: كمنافع

العين المستأجرة؛ فإن المستأجر مالك للمنفعة.

وقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ «سبيل» بمعنى طريق؛ وسبيل الله سبحانه وتعالى هو شرعه؛ لأنه يهدي إليه ويوصل إليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وأضيف إلى الله لسببين:

السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده، وشرعه لهم.

والسبب الثاني: أنه موصل إليه؛ ويضاف «السبيل» أحيانًا إلى سالك السبيل؛ فيقال: سبيل المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]؛ ولا تناقض بينهما؛ لأنه يضاف إلى المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه؛ وإلى الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنه موصل إليه.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾؛ حبة بذرها إنسان، فأنبتت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾؛ فتكون الجميع سبعمائة؛ فالحسنة إذنْ في الإنفاق في سبيل الله تكون بسبعمائة؛ وهذا ليس حدًّا.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يزيد ثوابًا لمن يشاء حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: ذو سعة في جميع صفاته؛ فهو واسع العلم، والقدرة، والرحمة، والمغفرة، وغير ذلك من صفاته؛ فإنها صفات واسعة عظيمة عُلْيا؛ و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم - وهو واسع فيه - وعلمه شامل لكل شيء جملة، وتفصيلًا؛ حاضرًا، ومستقبلًا، وماضيًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** ضرب الأمثال؛ وهو تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن ذلك أقرب إلى الفهم.

٢ - **ومنها:** أن القرآن على غاية ما يكون من البلاغة والفصاحة؛ لأن الفصاحة هي الإفصاح بالمعنى وبيانه؛ وضرب الأمثال من أشد ما يكون إفصاحًا وبيانًا: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣ - **ومنها:** فضيلة الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه ينمو للمنفق حتى تكون الحبة سبعمائة حبة.

٤ - **ومنها:** الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل.

٥ - **ومنها:** الإشارة إلى موافقة الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن ﴿فِي﴾ للظرفية؛ والسبيل بمعنى الطريق؛ وطريق الله: شرعه؛ والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله؛ والإنفاق الذي يكون موافقًا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله: أن يكون ذلك إخلاصًا لله، واتباعًا لشرعه؛ فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله؛ مثل «المرائي»: رجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على المساكين؛ لكنه أنفق ليقال: إن فلانًا جواد؛ أو أنه كريم؛ هذا ليس في سبيل الله، لأنه مراء؛ لم يقصد وجه الله عز وجل؛ إذنْ لم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله؛ ولا يهمه أن يقبل الله منه، أو لا يقبل؛ المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم، أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله: فإن أنفق في وجه لا يرضى به الله فليس في سبيل الله - وإن أخلص لله - كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله - وهذا كثير: كبناء الربط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع؛ هذا قد يريد الإنسان بذلك وجه الله لكنه خلاف شريعة الله؛ فلا يكون في سبيل الله.

٦ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الملكية للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ فإن الإضافة هنا تفيد الملكية.

٧ - **ومنها:** وجه الشبه في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾؛ فإن هذه الحبة أنبتت سبع سنابل؛ وشبهها الله بذلك؛ لأن السنابل غذاء للجسم والبدن؛ كذلك الإنفاق في سبيل الله غذاء للقلب والروح.

٨ - **ومنها:** أن ثواب الله وفضله أكثر من عمل العامل؛ لأنه لو عومل العامل بالعدل لكانت الحسنة بمثلها؛ لكن الله يعامله بالفضل والزيادة؛ فتكون الحبة الواحدة سبعمائة حبة؛ بل أزيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

٩ - **ومنها:** إثبات الصفات الفعلية - التي تتعلق بمشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَٰعِفُ﴾؛ و«المضاعفة» فعل.

١٠ - **ومنها:** إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ ولكن هل هذه المشيئة مشيئة مجردة؛ أي: أن الترجيح يكون فيها بدون سبب؛ أو هي مشيئة مقيدة بما تقتضيه المصلحة والحكمة؟ الجواب: أنها مشيئة مقيدة بما تقتضيه المصلحة والحكمة؛ وعليه فخذ هذا مقياسًا: كل شيء علقه الله على المشيئة فإنه مقيد بالحكمة؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

١١ - **ومنها:** أن الله له السلطان المطلق في خلقه؛ ولا أحد يعترض عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ ولهذا لما تناظر رجل من المعتزلة وآخر من أهل السنة قال له المعتزلي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالردى أحسن إلي، أم أساء؟ - يريد أن يبين أن أفعال العباد لا تدخل في إرادة الله؛ لأنه إذا دخلت في إرادة الله فإن هذا الذي قضى عليه بالشقاء، ومنع الهدى يكون إساءة من الله إليه-، فقال له السني: إن منعك ما هو لك فقد أساء؛ وإن منعك فضله فذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء؛ فغُلب المعتزلي؛ لأنه ليس لك حق على الله واجب؛ والله سبحانه وتعالى يؤتي فضله من يشاء.

١٢ - ومن فوائد الآية: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: «**الواسع**» و«**العليم**»؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ وإثبات ما تضمناه من صفة؛ وهما: السعة، والعلم.

١٣ - ومنها: الحث والترغيب في الإنفاق في سبيل الله؛ يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله، فإن الله لم يذكر هذا إلَّا من أجل هذا الثواب؛ فلابد أن يعمل له.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذكره مرة أخرى ليبني عليها ما بعدها؛ وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾ أي: لا يحصل منهم بعد الصدقة مَنٌّ بأن يظهر المنفِق مظهر المترفع على المنفَق عليه؛ ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أي: أذى المنفَق عليه بأن يقول المنفِق: «**لقد أنفقت على فلان كذا وكذا**» أمام الناس؛ فإن هذا يؤذي المنفق عليه.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ «**الأجر**» ما يعطاه العامل في مقابلة عمله؛ ومنه أجرة الأجير؛ وسمى الله سبحانه وتعالى الثواب أجرًا؛ لأنه عزَّ وجلَّ تكفَّل للعامل بأن يجزيه على هذا العمل؛ فصار كأجر الأجير.

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أصل العندية تكون في المكان؛ وقد يراد بها ما يعم المكان والالتزام، كما تقول: عندي لفلان كذا وكذا؛ أي في عهدي، وفي ذمتي له كذا وكذا - حتى وإن لم يكن ذلك عنده في مكانه - فالعندية قد يراد بها المكان؛ وقد يراد بها ما يلتزم به الإنسان في ذمته وعهده؛ وهنا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل المعنيين؛ يحتمل أنه عند الله سبحانه وتعالى ملتزم به، ولابد أن يوفيه؛ ويحتمل معنى آخر - وكلاهما صحيح - أن الثواب هذا يكون في الجنة التي سقفها عرش الرحمن؛ وهذه عندية مكان - ولا ينافي ما سبق من عندية العهد، والالتزام بالوفاء؛ فتكون الآية شاملة للمعنيين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى -

لكمال نعيمهم - لأن المنعَّم لو أصابه الحزن أو الخوف لتنغص نعيمه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحث على الإنفاق في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢ - **ومنها:** الإشارة إلى الإخلاص لله، ومتابعة الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ - **ومنها:** أن من أتبع نفقته منًّا أو أذى فإنه لا أجر له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ فإذا أتبع منًّا أو أذى بَطُلَ أجره، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٤ - **ومنها:** أن المنَّ والأذى يبطل الصدقة؛ وعليه فيكون لقبول الصدقة شروط سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة: فالإخلاص لله، والمتابعة؛ وأما المبطلات اللاحقة: فالمن، والأذى.

مسألة: هل مجرد إخبار المنفِق بأنه أعطى فلانًا دون منّ منه بذلك يعتبر من الأذى؟

الجواب: نعم؛ لأن المعْطَى تنزل قيمته عند من علم به؛ لكن لو أراد بالخبر أن يقتدي الناس به فيعطوه فليس في هذا أذًى؛ بل هو لمصلحة المعطى؛ أما إن ذكر أنه أعطى ولم يعيِّن المعطى فهذا ليس فيه أذى؛ ولكن يخشى عليه الإعجاب أو المراءاة.

مسألة أخرى: هل المنفق عليه إذا أحسَّ بأن المنفق مَنَّ عليه أو ربما أذاه هل الأفضل أن يبقى قابلًا للإنفاق أو يرده؟ الجواب: الأفضل أن يرده لئلا يكون لأحدٍ عليه منة.

ولكن إذا رده بعد القبض فهل يلزم المنفِق قبوله؟

الجواب: لا يلزمه قبوله؛ لأنه خرج عن ملكه إلى ملك المنفق عليه؛ فيكون رده إياه ابتداء عطية.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات العندية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ والعندية تفيد القرب؛ فيكون الله عز وجل في مكان، وبعض الأشياء عنده، وبعض الأشياء بعيدة عنه؛ ولكن كلها قد أحاط الله بها؛ كلها بالنسبة إليه - إلى علمه، وقدرته، وسلطانه، وربوبيته - كلها سواء - لكن لا شك أن من كان حول العرش ليس كمن حول الفرش؛ ولكن يجب أن نعلم أن المكان ليس محيطًا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء؛ لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ويَسْلَمون من المحبطات لا ينالهم خوف في المستقبل، ولا حزن على الماضي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ﴾ مبتدأ، و﴿خَيْرٌ﴾ خبره؛ وساغ الابتداء به هنا وهو نكرة؛ لأنه وصف؛ وإن شئت فقل: لأنه أفاد؛ وطريق إفادته الوصف؛ وإذا عللت بأنه أفاد صار أحسن؛ لأنه أعم.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: ما نطق به اللسان معروفًا في الشرع، ومعروفًا في العرف.

قوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: مغفرة الإنسان لمن أساء إليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]؛ القول المعروف إحسان؛ والمغفرة إحسان؛ ولكن الفرق بينهما: أن «**القول المعروف**» إسداء المعروف القولي إلى الغير؛ و«**المغفرة**» تسامح الإنسان عن حقه في جانب غيره.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾؛ «**الصدقة**» بذل الإحسان المالي؛ الإنسان قد ينتفع بالمال أكثر مما ينتفع بالكلمة؛ وقد ينتفع بالكلمة أكثر مما ينتفع بالمال؛ لكن لا شك أن القول المعروف خير من الصدقة التي يتبعها أذى – وإن نفعت؛ لأنك لو تعطي هذا الرجل ما تعطيه من المال صدقة لله عز وجل، ثم تتبعها الأذى؛ فإن هذا الإحسان صار في الحقيقة إساءة – وإن كان هذا قد ينتفع به في حاجاته – لكن هو في الحقيقة إساءة له.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ أي: عن غيره؛ فهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد؛ وكل من في السموات والأرض فإنه محتاج إلى الله تعالى؛ هو غنيٌّ بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فله الغنى المطلق من جميع الوجوه.

قوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾؛ «**الحلم**» تأخير العقوبة عن مستحقها؛ قال ابن القيم في «**النونية**»:

وَهْوَ الحَلِيْمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

وجمع الله في هذه الآية بين «**الغِنى**» و«**الحِلم**»؛ لأن الآية في سياق الصدقة، فبين عز وجل أن الصدقات لا تنفع الله؛ وإنما تنفع من يتصدق؛ والآية أيضًا في سياق من أتبع الصدقة أذى ومِنَّة؛ وهذا حري بأن يعاجَل بالعقوبة، حيث آذى هذا الرجل الذي أعطاه المال لله؛ ولكن الله حليم يحلم على عبده لعله يتوب من المعصية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة القول المعروف؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن

صَدَقَةٍ..﴾؛ و«القول المعروف» كل ما عرفه الشرع والعادة؛ مثال ذلك: أن يأتي رجل يسأل مالًا بحاله، أو قوله؛ فكلمه المسئول وقال: ليس عندي شيء وسيرزق الله، وإذا جاء شيء فإننا نجعلك على البال، وما أشبه ذلك؛ فهذا قول معروف ليِّن، وهيِّن.

٢ - **ومنها**: الحث على المغفرة لمن أساء إليك؛ لكن هذا الحث مقيد بما إذا كانت المغفرة إصلاحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أما إذا لم تكن المغفرة إصلاحًا، مثل أن أغفر لهذا الجاني ثم يذهب ويسيء إلى الآخرين أو يكرر الإساءة إليَّ، فإن المغفرة هنا غير مطلوبة.

٣ - **ومنها**: أن الأعمال الصالحة تتفاضل، ويلزم من تفاضلها تفاضل العامل وزيادة الإيمان أو نقصانه.

٤ - **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «الغني» و«الحليم»؛ وإثبات ما دلَّا عليه من الصفات.

٥ - **ومنها**: المناسبة في ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين؛ لأن في الآية إنفاقًا؛ وإذا كان الله عز وجل هو الذي يخلِف هذا الإنفاق فإنه لكمال غناه؛ كذلك المغفرة عمَّنْ أساء إليك: فإن المغفرة تتضمن الحلم وزيادة؛ فختم الله الآية بالحلم؛ وقد يقال: إن فيه مناسبة أخرى؛ وهي أن المن بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ والله سبحانه وتعالى حليم على أهل الكبائر؛ إذ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يحصل به تنبيه المخاطب؛ فيدل على العناية بموضوع الخطاب؛ ولهذا قال ابن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك: فإنه خير تأمر به؛ أو شر ينهى عنه»[1]؛ وصدق رضي الله عنه.

(١) الزهد لابن حنبل (٨٥٨)، والزهد لابن المبارك (١/ ١٣).

ثم في توجيه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان فيه فوائد؛ الفائدة الأولى: الحث على قبول ما يلقى إليهم، وامتثاله؛ وجه ذلك: أنه إذا علق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علة للتأثر به؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا وكذا؛ أو لا تفعلوا كذا؛ الفائدة الثانية: أن ما ذكر يكون من مكملات الإيمان ومقتضياته؛ الفائدة الثالثة: أن مخالفة ما ذكر نقص في الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾: الإبطال للشيء يكون بعد وجوده؛ فالبطلان لا يكون غالبًا إلَّا فيما تم؛ و«**الصدقات**» جمع صدقة؛ وهي ما يبذله الإنسان تقربًا إلى الله.

قوله تعالى: ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾؛ الباء للسببية؛ و«**المن**» إظهار أنك مانٌّ عليه، وأنك فوقه بإعطائك إياه؛ و«**الأذى**» أن تذكر ما تصدقت به عند الناس فيتأذى به.

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ الكاف هنا للتشبيه؛ وهي خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: مثلكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ و﴿رِئَاءَ﴾ مفعول لأجله؛ وهي مصدر راءى يرائي رئاءً ومراءاة، كقاتل يقاتل قتالًا ومقاتلة؛ وجاهد يجاهد جهادًا ومجاهدة؛ و«**الرياء**» فِعل العبادة ليراه الناس، فيمدحوه عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ﴾؛ وسبق معنى الإيمان بالله، واليوم الآخر؛ وهذا الوصف ينطبق على المنافق؛ فالمنافق - والعياذ بالله - لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر؛ ولا ينفق إلَّا مراءاةً للناس؛ ومع ذلك لا ينفق إلَّا وهو كاره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال في سورة «**التوبة**»: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]؛ هؤلاء لا ينفقون إلَّا وهم كارهون؛ لأنهم لا يرجون من هذا الإنفاق ثوابًا؛ إذ إنه لا إيمان عندهم، و﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي «**اليوم الآخر**»؛ لأنه لا يوم بعده؛ كل يذهب إلى مستقره: أهل الجنة إلى مستقرهم؛ وأهل النار إلى مستقرهم؛ فهو يوم آخر لا يوم بعده؛ ولذلك فهو مؤبد: إما في جنة؛ وإما في نار.

قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ أي كشِبْه صفوان؛ وهو الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾؛ والتراب معروف؛ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي مطر شديد الوقع سريع التتابع؛ فإذا أصاب المطر ترابًا على صفوان فسوف يزول التراب؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: ترك الوابلُ هذا الصفوانَ أملس ليس عليه تراب؛ وجه الشبه بين المرائي والصفوان الذي عليه تراب أن من رأى المنافق في ظاهر حاله ظن أن عمله نافع له؛ وكذلك من رأى الصفوان الذي عليه تراب ظنه أرضًا خصبة طينية تنبت العشب؛ فإذا أصابها الوابل الذي ينبت العشب سحق التراب الذي عليه، فزال الأمل في نبات العشب عليه من الوابل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ وَصَحَّ عَوْدُ واو الجماعة في ﴿يَقْدِرُونَ﴾ على (الذي) في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ﴾؛ لأن (الذي) اسم موصول يفيد العموم؛ فهو بصيغته اللفظية مفرد، وبدلالته المعنوية جمع؛ لأنه عام؛

وسمى الله عز وجل ما أنفقوا كسبًا باعتبار ظنهم أنهم سيتفعون به.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يهدي سبحانه الكافرين هداية توفيق؛ أما هداية الدلالة فإنه سبحانه لم يَدَع أمة إلَّا بعث فيها نبيًّا؛ لكن الكافر لا يوفقه الله لقبول الحق؛ و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين حقت عليهم كلمة الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** تحريم المن والأذى في الصدقة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾.

٢ - **ومنها:** بلاغة القرآن، حيث جاء النهي عن المنّ والأذى بالصدقة بهذه الصيغة التي توجب النفور؛ وهي: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾؛ فإنها أشد وقعًا من «**لا تمنّوا، ولا تؤذوا بالصدقة**».

٣ - **ومنها:** أن المن والأذى بالصدقة يبطل ثوابها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾.

٤ - **ومنها:** أن المنَّ والأذى بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ وجه ذلك: ترتيب العقوبة على الذنب يجعله من كبائر الذنوب؛ وقد قال شيخ الإسلام في حد الكبيرة: «**كل ذنب رُتب عليه عقوبة خاصة، كالبراءة منه، ونفي الإيمان، واللعنة، والغضب، والحد، وما أشبه ذلك**»؛ وهذا فيه عقوبة خاصة؛ وهي إبطال العمل؛ ويؤيد ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، والْمُنفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»[1].

٥ - **ومنها:** أن المنَّ والأذى بالصدقة مناف لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾؛ كأنه يقول: «**إن مقتضى إيمانكم ألا تفعلوا ذلك؛ وإذا فعلتموه صار منافيًا لهذا الوصف، ومنافيًا لكماله**».

٦ - **ومنها:** تشبيه المعقول بالمحسوس ليقربه إلى الذهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ..﴾ إلخ؟!!.

٧ - **ومنها:** تحريم مراءاة الناس بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ والتسميع كالمراءاة؛ والفرق بينهما: أن المراءاة فيما يُرى - كالأفعال - والتسميع بما يقال.

٨ - **ومنها:** أن من راءى الناس بإنفاقه ففي إيمانه بالله وباليوم الآخر نقص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لأن الذي يرائي لو كان مؤمنًا بالله حق الإيمان لجعل عمله لله خالصًا لله؛ ولو كان يؤمن باليوم الآخر حق الإيمان لم يجعل عمل الآخرة للدنيا؛ لأن مراءاة الناس قد يكسب

(١) رواه مسلم (١٠٦)، والترمذي (١٢١١)، والنسائي (٢٥٦٣)، وأبوداود (٤٠٨٧).

بها الإنسان جاهًا في الدنيا فقط؛ مع أنه لابد أن يتبين أمره؛ وإذا تبين أنه مراءٍ نزلت قيمته في أعين الناس؛ يقول الشاعر:

ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشِفُّ عَمَّا تَحْتَهُ ... فَإِذَا اكْتَسَيْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِي

أنت لا تظن أنك إذا راءيت الناس أنك ستبقى مخادعًا لهم؛ بل إن الله سبحانه وتعالى سيظهر ذلك؛ ما أسر إنسان سريرة إِلَّا أظهرها الله سبحانه على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

٩ - **ومن فوائد الآية:** إثبات اليوم الآخر؛ وهو يوم القيامة.

١٠ - **ومنها:** بلاغة القرآن في التشبيه؛ لأنك إذا طابقت بين المشبه والمشبه به وجدت بينهما مطابقة تامة.

١١ - **ومنها:** إثبات كون القياس دليلًا صحيحًا؛ وجه ذلك: التمثيل والتشبيه؛ فكل تمثيل في القرآن فإنه دليل على القياس؛ لأن المقصود به نقل حكم هذا المشبه به إلى المشبه.

١٢ - **ومنها:** أن الرياء مبطل للعمل؛ وهو نوع من الشرك؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]؛ فإن قصد بعمله إذا رآه الناس أن يتأسى الناس به ويسارعوا فيه فهي نية حسنة لا تنافي الإخلاص؛ لأن النبي ﷺ صلى على المنبر وقال: «إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»[2]؛ وفي الحج كان ﷺ يقول: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»[3]؛ وهو داخل في قول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[4].

١٣ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى تحسر هؤلاء عند احتياجهم إلى العمل، وعجزهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ وعجز الإنسان عن الشيء بعد محاولة القدرة عليه أشد حسرة من عدمه بالكلية؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥]؛ وكونه حطامًا ينظرون إليه أشد حسرة من كونه لم ينبت أصلًا؛ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠]؛ وكونه بين أيديهم أجاجًا لا يستسيغون شربه أشد مما لو لم يوجد أصلًا؛ والإنسان العاقل يجعل العمل لله: لله؛ والعمل للناس: للناس؛ أنا قد أحب أن أخرج للناس في ثوب جميل: لا بأس أن أتجمل ليراني الناس على هذه الحال؛ لكن أصلي ليراني الناس أصلي: لا يصح؛ لأن العمل لله يجب أن

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٨٧٥)، ومسلم (٥٤٤).

(٣) رواه مسلم (١٢٩٧)، وأبوداود (١٩٧٠)، وأحمد في «مسنده» (١٤٦٥٨).

(٤) رواه مسلم (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وأحمد في «مسنده» (١٩١٧٩).

يكون لله لا يشاركه فيه أحد.

١٤ - ومن فوائد الآية: أن من قضى الله عليه بالكفر لا تمكن هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع من أن الله سبحانه وتعالى هدى قومًا كافرين كثيرين؟

فالجواب: أن من هدى الله لم تكن حقت عليهم كلمة الله؛ فأما من حقت عليه كلمة الله فلن يُهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

١٥ - ومنها: أن المنافق كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعد أن ذكر ما يتعلق بصفة المنافق؛ وهو الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وهذا ينطبق تمامًا على المنافقين؛ ولا ريب أن المنافقين كفار - وإن تظاهروا بالإسلام - ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟ الجواب: لا نعاملهم معاملة الكفار؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ وأحكام الآخرة تجري على الباطن والسرائر، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]؛ ولأنه لو عومل الناس في الدنيا على السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يطاق من وجه؛ وكان في ذلك الفوضى التي لا نهاية لها من وجه آخر؛ أما تكليف ما لا يطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس؛ فلا يمكن أن نحكم عليه؛ وأما الفوضى فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا الرجل، أو يعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر؛ ولما استؤذن النبي ﷺ في قتل المنافقين قال: «**لَا أَقْتُلُهُم؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»(١).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ﴾: مبتدأ، وخبره قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤).

أي: يبذلون؛ وقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلب رضوان الله.

قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ معطوفة على ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ ﴿مِّنْ﴾ ابتدائية؛ يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد؛ ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت وتطمئن؛ أي لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب؛ وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ «الجنة» البستان الكثير الأشجار؛ وسميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها، وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراء، وهناك قراءة أخرى بضم الراء؛ و«الربوة» المكان المرتفع؛ من ربا الشيء إذا زاد وارتفع، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

قوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: نزل عليها وابل؛ و«الوابل» المطر الشديد.

هذه جنة بربوة مرتفعة للهواء بائنة ظاهرة للشمس؛ أصابها وابل؛ ماذا تكون هذه الجنة! ستثمر ثمرًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ «الأكل» بمعنى الثمر الذي يؤكل: قال الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] يعني: ثمرها الذي يؤكل؛ و﴿ضعفين﴾ أي: مضاعفًا وزائدًا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: الجملة شرطية؛ الشرط: «إن»؛ وفعل الشرط: ﴿لَّمْ يُصِبْهَا﴾؛ و﴿فَطَلٌّ﴾ أي: فهو طل - والجملة جواب الشرط؛ والمعنى: فإن لم يصبها المطر الشديد أصابها طل - وهو المطر الخفيف، ويكفيها عن المطر الكثير؛ لأنها في أرضٍ خصبة مرتفعة بينة للشمس والهواء؛ والمثل منطبق: فقد شبه هذا الذي ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من نفسه بهذه الجنة.

وهل المشبه نفس الرجل أو النفقة؟

الجواب: المشبه هو النفقة؛ ولهذا قال بعضهم: إن التقدير: «مَثَل إنفاق الذين ينفقون أموالهم كمثل جنة»؛ ويحتمل أن التقدير: «كمثل صاحب جنة»؛ فيكون المشبه «المنفِق» لا «الإنفاق»؛ وقال بعضهم: لا حاجة إلى التقدير للعلم به من السياق، وأن هذا من بلاغة القرآن، حيث طوى ذكر الشيء لدلالة السياق عليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: قدم الجار والمجرور - وهو متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ - لإفادة الحصر ومراعاة الفواصل؛ والحصر هنا إضافي للتهديد؛ لأن الله بصير بما نعمل وبغيره.

وهل ﴿بَصِيرٌ﴾ هنا من البصر بالعين؛ أو من العلم؟

الجواب: كونه من العلم أحسن ليشمل ما نعمله من الأقوال؛ فإن الأقوال تسمع، ولا تُرى؛ وليشمل ما في قلوبنا؛ فإن ما في قلوبنا لا يُسمع، ولا يُرى؛ وإنما يعلم عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه لا إنفاق نافع إلَّا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمُ﴾؛ فلو أنفق مال غيره لم يقبل منه إلَّا أن يكون بإذن من الشارع، أو المالك.

فإن قال قائل: عندي مال محرم لكسبه، وأريد أن أتصدق به فهل ينفعني ذلك؟

الجواب: إن أنفقه للتقرب إلى الله به: لم ينفعه، ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[1]؛ وإن أراد بالصدقة به التخلص منه والبراءة من إثمه: نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه - لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصحُّ أن أبني به مسجدًا، وهل تصح الصلاة فيه؟

الجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرب إلى الله بذلك لم يقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلص سلم من الإثم، وأثيب - لا ثواب باني المسجد - ولكن ثواب التائب.

٢ - **ومن فوائد الآية:** بيان ما للنية من تأثير في قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٣ - **ومنها:** اشتراط الإخلاص لقبول الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الإنفاق لا يفيد إلَّا إذا كان على وفق الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ وجه ذلك: أن من ابتغى شيئًا فإنه لابد أن يسلك الطريق الموصلة إليه؛ ولا طريق توصل إلى مرضات الله إلَّا ما كان على وفق شريعته في الكم والنوع والصفة؛ كما قال تعالى في الكم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]؛ وقال تعالى في النوع: ﴿أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤]، وقال النبي ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ»[2]؛ وفي الصفة قال الله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ..﴾ إلخ [البقرة: ٢٦٤].

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات رضا الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ وهو من الصفات الفعلية.

٦ - **ومنها:** بيان أن تثبيت الإنسان لعمله واطمئنانه به من أسباب قبوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل إلَّا كارهًا فيه خصلة من خصال المنافقين؛

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، وأحمد في «مسنده» (٨٣٣٠).

(٢) صحيح: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

٧ - **ومنها**: فضل الإنفاق على وجه التثبيت من النفس؛ لأنه يندفع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة.

٨ - **ومنها**: إثبات القياس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ..كَمَثَلِ..﴾؛ وقد ذكرنا قاعدة فيما سبق: أن كل مثال في القرآن سواء كان تمثيليًّا أو إفراديًّا فهو دليل على ثبوت القياس.

٩ - **ومنها**: أنه يحسن في التعليم أن يبين المعقول بالمحسوس؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾؛ وهذا من البلاغة؛ لأنه يقرب المعقول إلى أذهان الناس.

١٠ - **ومنها**: اختيار المكان الأنفع لمن أراد أن ينشئ بستانًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾.

١١ - **ومنها**: بركة آثار المطر؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ ولهذا وصف الله المطر بأنه مبارك في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] الآيتين.

١٢ - **ومنها**: أنه إذا كان مكان البستان طيبًا فإنه يكفي فيه الماء القليل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

١٣ - **ومنها**: إثبات علم الله، وعمومه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١٤ - **ومنها**: التحذير من مخالفة الله عز وجل؛ لكونه عالمًا بما نعمل.

قال الله تعالى:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي، كما سيتبين من آخر الآية؛ و«يود» أي يحب؛ و«الود» خالص المحبة.

قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ وهذه من أفضل المأكولات؛ فالتمر حلوى، وقوت، وفاكهة؛ والعنب كذلك: حلوى، وقوت، وفاكهة؛ وظاهر كلمة «أنهار» أن الماء عذب؛ وجمع ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ باعتبار تفرقها في الجنة وانتشارها في نواحيها؛ إذنْ يعتبر هذا

البستان كاملًا من كل النواحي: نخيل، وأعناب، ومياه، وثمرات؛ وهو أيضًا جنة كثيرة الأشجار، والأغصان، والزروع، وغير ذلك - هذا هو المشهد الأول من الآية.

والمشهد الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أصاب صاحب الجنة الكِبَر، فعجز عن تصريفها والقيام عليها؛ ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ يعني: صغارًا، أو عاجزين؛ فالأب كبير؛ والذرية ضعفاء - إما لصغرهم، أو عجزهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي: أصاب هذه الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح شديدة؛ وقيل: ريح منطوية التي ينطوي بعضها على بعض؛ وهذا الإعصار ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي حرارة شديدة؛ مر الإعصار على هذه الجنة ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ حتى تساقطت أوراقها، وثمراتها، ويبست أغصانها، وعروقها؛ فماذا يكون حال هذا الرجل؟! يكون في غاية ما يكون من البؤس؛ لأنه فقد هذه الجنة في حال الكبر، والذرية ضعفاء؛ فهو في نفسه لا يكتسب، وذريته لا يكتسبون له ولا لأنفسهم؛ فتكون عليه الدنيا أضيق ما يكون، ويتحسر على هذه الجنة أشد ما يكون من التحسر.

هذا الأمر الذي بيَّنه الله هنا ضربه الله مثلًا للمنفق المانِّ بنفقته؛ انظر كيف يبدئ الله ويعيد في القرآن العظيم للتنفير من المن بالصدقة؛ والذي يشبه الإعصار نفس المنِّ؛ فهذا الرجل تصدق بألف درهم، فهذه الصدقة تنمو له: الألف يكون بسبعمائة ألف إلى أضعاف كثيرة؛ لكنه - والعياذ بالله - منَّ بهذه الصدقة، فصار هذا المنُّ بمنزلة الإعصار الذي أصاب تلك الجنة الفيحاء؛ ولا يمكن أن تنزل هذه الصورة على المرائي؛ لأن المرائي لم يغرس شيئًا أصلًا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: مِثل ذلك البيان؛ وهذا التعبير يرد كثيرًا في القرآن، وتقديره كما سبق؛ وإذا كان هذا التقدير فإننا نقول: الكاف اسم بمعنى مثل؛ وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ وعاملها ﴿يُبَيِّنُ﴾؛ و﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ يشمل الآيات الكونية، والشرعية - يبينها الله، ويوضحها.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: «لعل» هنا للتعليل؛ و«التفكر» إعمال الفكر فيما يراد.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنه أقرب إلى الفهم؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلًا للمانِّ بالصدقة بصاحب هذه الجنة؛ ووجه الشبه سبقت الإشارة إليه.

٢ - **ومنها:** جواز ضرب المثل بالقول؛ فهل يجوز ضرب المثل بالفعل - وهو ما يُسَمَّى بالتمثيل؟

الجواب: نعم، يجوز لكن بشرط ألَّا يشتمل على شيء محرم؛ ولنضرب لذلك أمثلة للأشياء المحرمة في التمثيل:

أولًا: أن يكون فيه قيام رجل بدور امرأة، أو قيام امرأة بدور رجل؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»(1).

ثانيًا: أن يتضمن ازدراء ذوي الفضل من الصحابة وأئمة المسلمين؛ لأن ازدراءهم واحتقارهم محرم؛ والقيام بتمثيلهم يحط من قدرهم - لاسيما إذا عُلم من حال الممثِّل أنه فاسق؛ لأن الغالب إذا كان فاسقًا وقد تقمص شخصية هذا الرجل التَّقي الذي له قدره وفضله في الأمة فإن هذا قد يحط من قدره بهذا الذي قام بدور في التمثيلية.

ثالثًا: أن يكون فيه تقليد لأصوات الحيوانات، مثل أن يقوم بدور تمثيل الكلب أو الحمار؛ لأن الله لم يذكر التشبيه بالحيوانات إلَّا في مقام الذم، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيتين؛ وكذلك السنة لم تأت بالتشبيه بالحيوان إلَّا في مقام الذم، كقول النبي ﷺ: «الَّذِي يَتَكَلَّمُ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»(2)، وقوله: «الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»(3).

رابعًا: أن يتضمن تمثيل دَور الكافر أو الفاسق؛ بمعنى أن يكون أحد القائمين بأدوار هذه التمثيلية يمثل دَور الكافر، أو دَور الفاسق؛ لأنه يخشى أن يؤثر ذلك على قلبه: أن يتذكر يومًا من الدهر أنه قام بدور الكافر، فيؤثر على قلبه ويدخل عليه الشيطان من هذه الناحية؛ لكن لو فعل هل يكون كافرًا؟

الجواب: لا يكون كافرًا؛ لأن هذا الرجل لا ينسب الكفر إلى نفسه؛ بل صوَّر نفسه صورة من ينسبه إلى نفسه، كمن قام بتمثيل رجل طلق زوجته؛ فإن زوجة الممثل لا تطلق؛ لأنه لم ينسب الطلاق إلى نفسه؛ بل إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أنه إذا قام بدور الكافر فإنه يكفر، ويخرج من الإسلام، ويجب عليه أن يجدد إسلامه، واستدل بالقرآن وكلام أهل العلم؛ أما القرآن: فاستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]: وهؤلاء القوم يدعون أنهم يخوضون ويلعبون؛ يعني: على سبيل التسلية ليقطعوا بها عناء الطريق؛ ويقول أهل

---

(1) سبق تخريجه.

(2) ضعيف: رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٣٣)، والدارمي (٦٤٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٤٤٠).

(3) رواه البخاري (٢٤٤٩)، ومسلم (١٦٢٢).

العلم: إن من أتى بكلمة الكفر - ولو مازحًا - فإنه يكفر؛ قالوا: وهذا الرجل مازح ليس جادًّا؛ فالجواب أن نقول: إن النبي ﷺقال: «**ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ**»[1]: فلو قال الرجل لزوجته: أنت طالق يمزح عليها فإنها تطلق؛ فهل تقولون: إذا قام الممثل بدور رجل طلق امرأته فإنها تطلق امرأته؟ سيقولون: لا؛ وكلنا يقول: لا؛ والفرق ظاهر؛ لأن المازح يضيف الفعل إلى نفسه، والممثل يضيفه إلى غيره؛ ولهذا لا تطلق زوجته لو قام بدور تمثيل المطلِّق؛ ولا يكفر لو قام بدوره تمثيل الكافر؛ لكن أرى أنه لا يجوز من ناحية أخرى؛ وهي أنه لعله يتأثر قلبه في المستقبل، حيث يتذكر أنه كان يومًا من الدهر يمثل دور الكافر؛ ثم إنه ربما يعَيَّر به فيقال مثلًا: أين أبو جهل؟! إذا قام بدوره.

ويمكن أن نأتي بدليل على جواز التمثيل؛ وذلك في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأقرع، والأعمى، والأبرص؛ فالملك أتى الأبرص، والأقرع، والأعمى، وسألهم ماذا يريدون؛ كل ذكر أمنيته؛ فأعطاه الله سبحانه وتعالى أمنيته؛ ثم عاد إليهم المَلَك مرة أخرى؛ عاد إلى الأبرص بصورته، وهيئته - يعني أبرص فقيرًا - وقال له: «**إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ**»[2]؛ فالمَلَك يمثل دور رجل فقير - وهو ليس بفقير - وأبرص - وليس بأبرص - وكذلك بالنسبة للأقرع والأعمى؛ فبعض العلماء استدل بهذا الحديث على جواز التمثيل.

فعليه نقول: إذا كان التمثيل لا يشتمل على شيء محرم من الأمثلة التي ذكرناها، أو غيرها، فإنه لا بأس به، وليس من الكذب في شيء؛ لأن الكذب يضيف الإنسان الأمر إلى نفسه، فيأتي إليك يقرع الباب؛ تقول: مَن؟ يقول: أنا زيد - وليس هو بزيد؛ فهذا كاذب؛ لكن يأتي إنسان يقول: أنا أمثِّل دور فلان، ويعرف الناس أنه ليس فلانًا؛ فليس بكذب؛ لكنه إذا نسب القول إلى شخص معيَّن فهذا يحتاج إلى ثبوت هذا القول عن هذا الشخص المعين؛ أما إذا حكى قصة رجل بوصفه - لا بعينه - فليس بكذب.

٣ - ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى يبين لعباده الآيات الشرعية والكونية؛ كلها مبينة في كتابه سبحانه وتعالى أتم بيان.

٤ - ومنها: الحث على التفكر، وأنه غاية مقصودة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فالإنسان مأمور بالتفكر في الآيات الكونية والشرعية؛ لأن التفكر يؤدي إلى نتائج طيبة؛ لكن هذا فيما يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه؛ أما ما لا يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه فإن

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١١٨٤)، وأبوداود (٢١٩٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (٢٩٦٤).

التفكر فيه ضياع وقت، وربما يوصل إلى محظور، مثل التفكر في كيفية صفات الله عز وجل: هذا لا يجوز؛ لأنك لن تصل إلى نتيجة؛ ولهذا جاء في الأثر: «**تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ**»(١)؛ لأن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه؛ وغاية لا تمكن الإحاطة بها، كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فلا يجوز لأحد أن يتفكر في كيفية استواء الله عز وجل على العرش؛ بل يجب الكف عنه؛ لأنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة؛ إما إلى التكييف، أو التمثيل، أو التعطيل - ولا بد؛ وأما التفكر في معاني أسماء الله فمطلوب؛ لأن المعنى كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ لما سئل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: سبق مرارًا وتكرارًا أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته والعناية به؛ لأن النداء يتضمن التنبيه؛ والتنبيه على الشيء دليل على الاهتمام به، وأن تصديره بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يفيد عدة فوائد:

أولًا: الإغراء؛ و«**الإغراء**» معناه الحث على قبول ما تخاطَب به؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه**»(٢)؛ ولهذا لو ناديتك بوصفك، وقلت: يا رجل، يا ذكي، يا كريم. معناه: يا من توصف بهذا اجعل آثار هذا الشيء باديًا عليك.

ثانيًا: أن امتثال ما جاء في هذا الخطاب من مقتضيات الإيمان؛ كأنه تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن إيمانكم يدعوكم إلى كذا وكذا.

ثالثًا: أن مخالفته نقص في الإيمان؛ لأنه لو حقق هذا الوصف لامتثل ما جاء في الخطاب.

---

(١) حسن: انظر «صحيح الجامع» (٥٢٨١).

(٢) سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق فضيلة الإنفاق ابتغاء وجهه، وسوء العاقبة لمن منَّ بصدقته، أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق؛ لكن الفرق بين ما هنا وما سبق: أن ما هنا بيان للذي ينفَق منه؛ وهناك بيان للذي ينفَق عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: مما كسبتموه بطريق حلال؛ و﴿كَسَبْتُمْ﴾ أي: ما حصلتموه بالكسب، كالذي يحصل بالبيع والشراء والتأجير وغيرها؛ وكل شيء حصل بعمل منك فهو من كسبك.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: قال بعضهم: إنه معطوف على ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ يعني: «ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض»؛ ولكن الصحيح الذي يظهر أنه معطوف على قوله تعالى: ﴿طَيِّبَٰتِ﴾؛ يعني: «أنفقوا من طيبات ما كسبتم، وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض»؛ لأن ما أخرج الله لنا من الأرض كله طيب ملك لنا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمِمَّآ﴾: لو قلنا: إن «مِن» للتبعيض يكون المعنى: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض؛ وهناك احتمال أن «مِن» لبيان الجنس؛ فيشمل ما لو أنفق الإنسان كل ماله؛ وهذا عندي أحسن؛ لأن التي للجنس تعم القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل ما أخرج من ثمرات النخيل، والأعناب، والزروع، والفاكهة، والمعادن، وغير ذلك مما يجب أن ننفق منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تقصدوا الخبيث منه فتنفقونه؛ لأن «التيمم» في اللغة: القصد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦]؛ والمراد بـ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ هنا الرديء؛ يعني: لا تقصدوا الرديء تخرجونه وتبقون لأنفسكم الطيب؛ فإن هذا ليس من العدل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ يحتمل في ﴿مِنْهُ﴾ وجهان؛ أحدهما: أنها متعلقة بـ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ على أنها حال؛ أي: الخبيث حال كونه مما أخرجنا لكم من الأرض؛ وعلى هذا يكون في ﴿تُنفِقُونَ﴾ ضمير محذوف؛ والتقدير: تنفقونه؛ الوجه الثاني: أنها متعلقة بقوله تعالى: ﴿تُنفِقُونَ﴾؛ يعني: ولا تقصدوا الخبيث تنفقون منه؛ وقدمت على عاملها للحصر؛ والوجهان من حيث المعنى لا يختلفان؛ فإن معناهما أن الله ينهانا أن نقصد الخبيث - وهو الرديء - لننفق منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾: أي لستم بآخذي الرديء عن الجيد لو كان الحق لكم ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: تأخذوه عن إغماض؛ و «الإغماض» أخذ الشيء على كراهيته - كأنه أغمض عينيه كراهية أن يراه.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ فهو لم يطلب منكم الإنفاق لفقره واحتياجه؛ ﴿حَمِيدٌ﴾: يحتمل أن تكون بمعنى حامد؛ وبمعنى محمود؛ وكلاهما صحيح؛ لأن «فعيلًا» تأتي بمعنى فاعل؛ وبمعنى مفعول؛ وإتيانها بمعنى فاعل مثل: «رحيم» بمعنى راحم؛ و«سميع» بمعنى سامع؛ وإتيانها بمعنى مفعول مثل: «قتيل»، و«جريح»، و«ذبيح»، وما أشبه ذلك؛ وهنا ﴿حَمِيدٌ﴾ تصح أن تكون بمعنى حامد، وبمعنى محمود؛ أما كون الله محمودًا فظاهر؛ وأما كونه حامدًا فلأنه سبحانه وتعالى يَحْمَد من يستحق الحمد من عباده؛ ولهذا أثنى على أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده؛ وهذا يدل على أنه عز وجل حامد لمن يستحق الحمد.

ووجه المناسبة في ذكر «الحميد» بعد «الغني»: أن غناه عز وجل غِنًى يحمد عليه؛ بخلاف غنى المخلوق؛ فقد يحمد عليه، وقد لا يحمد؛ فلا يحمد المخلوق على غناه إذا كان بخيلًا؛ وإنما يحمد إذا بذله؛ والله عز وجل غني حميد؛ فهو لم يسألكم هذا لحاجته إليه؛ ولكن لمصلحتكم أنتم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ فإن هذا وصف يقتضي امتثال أمر الله؛ وهذا يدل على فضيلة الإيمان.

٢ - **ومنها:** أن من مقتضى الإيمان امتثال أمر الله، واجتناب نهيه؛ ووجهه أن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾؛ فلولا أن للإيمان تأثيرًا لكان تصدير الأمر بهذا الوصف لغوًا لا فائدة منه.

٣ - **ومنها:** وجوب الإنفاق من طيبات ما كسبنا؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ﴾؛ والأصل في الأمر الوجوب حتى يقوم دليل صارف عن الوجوب.

٤ - **ومنها:** وجوب الزكاة في عروض التجارة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولا شك أن عروض التجارة كسب؛ فإنها كسب بالمعاملة.

٥ - **ومنها:** أن المال الحرام لا يؤمر بالإنفاق منه؛ لأنه خبيث؛ والله تعالى طيب لا يقبل إلَّا طيبًا.

فإذا قال قائل: ماذا أصنع به إذا تبت؟

فالجواب: أنه يرده على صاحبه إن أخذه بغير اختياره؛ فإن كان قد مات رده على ورثته؛ فإن لم يكن له ورثة فعلى بيت المال؛ فإن تعذر ذلك تصدق به عمن هو له؛ أما إذا أخذه باختيار صاحبه كالربا، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، فإنه لا يرده عليه؛ ولكن يتصدق به؛ هذا إذا كان حين اكتسابه إياه عالمًا بالتحريم؛ أما إن كان جاهلًا فإنه لا يجب عليه أن يتصدق به؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٦ - **ومن فوائد الآية:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛

ووجه الدلالة: أنه لو كان الإنسان مجبرًا على عمله لم يصح أن يوجه إليه الأمر بالإنفاق؛ لأنه لا يقدر على زعم هؤلاء الجبرية؛ ولأن الله أضاف الكسب إلى المخاطَب في قوله تعالى: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولو كان مجبرًا عليه لم يصح أن يكون من كسبه؛ وليعلم أن مثل هذا الدليل في الرد على الجبرية كثير في القرآن، وإنما نذكره عند كل آية لينتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة على هؤلاء؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق.

٧ - **ومنها**: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ وظاهر الآية وجوب الزكاة في الخارج من الأرض مطلقًا سواء كان قليلًا أم كثيرًا؛ وسواء كان مما يوسَّق ويكال، أم لا؛ وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم؛ وهو أن الزكاة تجب في الخارج من الأرض مطلقًا لعموم الآية؛ ولكن الصواب ما دلت عليه السنة من أن الزكاة لا تجب إلَّا في شيء معين جنسًا وقدرًا؛ فلا تجب الزكاة في القليل؛ لقول النبي ﷺ: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسَقٍ صَدَقَةٌ»[1]؛ و«الوسق» هو الحِمل؛ ومقدار خمسة أوسق: ثلاثمائة صاع بالصاع النبوي.

ولا تجب الزكاة إلَّا فيما يكال؛ وذلك من قوله ﷺ: «لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسَقٍ»؛ و«الوسق» كما ذكرتُ هو الحمل؛ وهو ستون صاعًا؛ وعليه فلا تجب الزكاة في الخضراوات مثل: التفاح، والبرتقال، والأترج، وشبهها؛ لأن السنة بينت أنه لابد من أن يكون ذلك الشيء مما يوسق.

تنبيه:

لم يبين في الآية المقدار الواجب إنفاقه من الكسب والخارج من الأرض؛ ولكن السنة بينت أن مقدار الواجب فيما حصل من الكسب ربع العشر؛ ومقدار الواجب في الخارج من الأرض العشر فيما يسقى بلا مؤونة؛ ونصفه فيما يسقى بمؤونة.

٨ - **ومن فوائد الآية**: ما يتبين من اختلاف التعبير في قوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فلماذا عبر في الأول تعبيرًا يدل على أن ذلك من فعل العبد؛ وفي الثاني عبر تعبيرًا يدل على أنه ليس من فعل العبد؟ الأمر في ذلك واضح؛ لأن نمو التجارة بالكسب، وغالبه من فعل العبد: يبيع، ويشتري، ويكسب؛ أما ما خرج من الأرض فليس من فعل العبد في الواقع، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

٩ - **من فوائد الآية**: وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكن العلماء يقولون: إن كان المعدن ذهبًا أو فضة وجبت فيه الزكاة بكل حال؛ وإن كان غير ذهب ولا فضة كالنحاس والرصاص وما أشبههما ففيه الزكاة إن أعده للتجارة؛ لأن هذه المعادن لا تجب الزكاة فيها بعينها؛ إنما تجب الزكاة فيها إذا نواها للتجارة.

وهل يستفاد من الآية وجوب الزكاة في الركاز - والركاز هو ما وجد من دفن الجاهلية - أي

(١) رواه البخاري (١٣٤٠)، ومسلم (٩٧٩).

مدفون الجاهلية؛ يعني ما وجد من النقود القديمة أو غيرها التي تنسب إلى زمن بعيد بحيث يغلب على الظن أنه ليس لها أهل وقتَ وجودها؟

لا يستفاد؛ لكن السُّنَّة دَلَّتْ على أن الواجب فيه الخمس[1]؛ ثم اختلف العلماء ما المراد بالخمس: هل هو الجزء المشاع - وهو واحد من خمسة؛ أو هو الخمس الذي مصرفه الفيء؟ على قولين؛ وبسط ذلك مذكور في كتب الفقه.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: تحريم قصد الرديء في إخراج الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

١١ - **ومنها**: إذا ضمت هذه الآية إلى حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه حين بعث النبي معاذًارضي الله عنه إلى اليمن، وقال: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[2]، تبين لك العدل في الشريعة الإسلامية؛ لأن العامل على الزكاة لو قصد الكرائم من الأموال صار في هذا إجحاف على أهل الأموال؛ ولو قصد الرديء صار فيه إجحاف على أهل الزكاة؛ فصار الواجب وسطًا؛ لا نلزم صاحب المال بإخراج الأجود؛ ولا نمكنه من إخراج الأردأ؛ بل يخرج الوسط.

١٢ - **ومنها**: الإشارة إلى قاعدة إيمانية عامة؛ وهي قول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3]؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾؛ فالإنسان لا يرضى بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟!! فإذا كنت أنت لو أعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إِلَّا على إغماض، وإغضاء عن بعض الشيء؛ فلماذا تختاره لغيرك، ولا تختاره لنفسك؟!! وهذا ينبغي للإنسان أن يتخذه قاعدة فيما يعامل به غيره؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله والْيَوْمِ الآخِرِ؛ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[4]، هذه قاعدة في المعاملة مع الناس؛ ومع الأسف الشديد أن كثيرًا من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم على هذا الوجه كثيرًا؛ بل إن من الناس يرى أن المكر غنيمة، وأن الكذب غنيمة.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: إثبات القياس؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾؛ يعني إذا كنت لا ترضاه لنفسك فلا ترضاه لغيرك؛ أي: قس هذا بهذا.

١٤ - **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله، وما تضمناه من صفة؛ وهما: «غني» و«حميد».

(١) انظر صحيح البخاري (١٤٢٨)، ومسلم (١٧١٠).
(٢) رواه البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (١٩).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) صحيح: رواه النسائي (٤١٩١)، وأحمد في «مسنده» (٦٧٩٣)، وانظر «الصحيحة» (٢٤١).

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾؛ ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ مبتدأ؛ وخبره جملة: ﴿يَعِدُكُمُ﴾؛ ﴿وَيَأۡمُرُكُم﴾ فيها قراءتان: الضم، والسكون؛ فأمَّا الضم فواضح؛ لأنه فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب ولا جازم؛ وأما السكون فللتخفيف سماعًا لا قياسًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾: هذه الجملة مقابلة لما سبقها: الفضل ضد الفقر؛ والمغفرة ضد الفحشاء؛ لأن الفحشاء تُكسب الذنوب؛ والمغفرة تمحو الذنوب؛ ففرق بين هذا وهذا؛ والجملة مكونة من مبتدأ وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ والخبر: جملة: ﴿يَعِدُكُمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ جملة خبرية مُكوَّنةٌ من مبتدأ وخبر؛ المبتدأ: لفظ الجلالة: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ والخبر: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ و﴿عَلِيمٞ﴾ خبر ثانٍ.

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ اسم من أسماء إبليس؛ قيل: إنه مشتق من «شطن» إذا بعُد - وعلى هذا فالنون أصلية؛ وقيل: إنه مشتق من «شاط» إذا تغيظ وغضب؛ لأن صفته هو التغيظ والغضب والحمق والجهل؛ ولكن الأول أقرب: أنه من «شطن» إذا بعد؛ بدليل أنه مصروف؛ و«أل» فيه للجنس؛ فليس خاصًّا بشيطان واحد.

قوله تعالى: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ أي: يهددكم الفقر إذا تصدقتم؛ وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: البخل؛ وإنما فُسِّر بالبخل؛ لأن فحش كل شيء بحسب القرينة والسياق؛ فقد يراد به الزنى، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ ﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ وقد يراد به اللواط، كما في قوله تعالى عن لوط إذا قال لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠]؛ وقد يراد به ما يستفحش من الذنوب عمومًا، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ﴾ أي: لذنوبكم إن تصدقتم؛ ﴿وَفَضۡلٗا﴾ أي: زيادة؛ فالصدقة تزيد المال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات إغواء الشياطين لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ

(١) سبق تخريجه.

وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

٢ - **ومنها**: أن للشيطان تأثيرًا على بني آدم إقدامًا أو إحجامًا؛ أما الإقدام: فيأمره بالزنى مثلًا، ويزين له حتى يُقْدم عليه؛ وأما الإحجام: فيأمره بالبخل، ويعده الفقر لو أنفق؛ وحينئذٍ يحجم عن الإنفاق.

٣ - **ومنها**: أن أبواب التشاؤم لا يفتحها إلَّا الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ فالشيطان هو الذي يفتح لك باب التشاؤم يقول: «إذا أنفقت اليوم أصبحت غدًا فقيرًا؛ لا تنفق»؛ والإنسان بشر: ربما لا ينفق؛ ربما ينسى قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقول رسوله ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[1].

٤ - **ومنها**: بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لأنه في الواقع عدوٌّ له في الخبر، وعدو له في الطلب؛ في الخبر: يعده الفقر؛ في الطلب: يأمره بالفحشاء؛ فهو عدو مخبرًا وطالبًا - والعياذ بالله.

٥ - **ومنها**: أن البخل من الفواحش؛ لأن المقام مقام إنفاق؛ فيكون المراد بالفاحشة: البخل وعدم الإنفاق.

٦ - **ومنها**: أن من أمر شخصًا بالإمساك عن الإنفاق المشروع فهو شبيه بالشيطان؛ وكذلك من أمر غيره بالإسراف فالظاهر أنه شيطان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

٧ - **ومنها**: البشرى لمن أنفق بالمغفرة والزيادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ وشتان ما بين الوعدين: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾؛ ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ فالله يعدنا بشيئين: المغفرة والفضل: المغفرة للذنوب؛ والفضل لزيادة المال في بركته ونمائه.

فإن قال قائل: كيف يزيد الله تعالى المنفِق فضلًا ونحن نشاهد أن الإنفاق ينقص المال حسًّا؛ فإذا أنفق الإنسان من العشرة درهمًا صارت تسعة؛ فما وجه الزيادة؟

فالجواب: أما بالنسبة لزيادة الأجر في الآخرة فالأمر ظاهر؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ ومن تصدق بما يعادل تمرة من طيب - ولا يقبل الله إلَّا الطيب - فإن الله يربيها له حتى تكون مثل الجبل؛ وأما بالنسبة للزيادة الحسية في الدنيا فمن عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له على بال؛ فيزداد ماله.

الوجه الثاني: أن هذا المال ربما يقيه الله سبحانه وتعالى آفات لولا الصدقة لوقع فيه؛ وهذا مشاهد؛ فالإنفاق يقي المال الآفات.

الوجه الثالث: البركة في الإنفاق بحيث ينفق القليل وتكون ثمرته أكثر من الكثير؛ وإذا نُزعت

---

(١) سبق تخريجه.

البركة من الإنفاق فقد ينفق الإنسان شيئًا كثيرًا في أمور لا تنفعه بل قد تضره؛ وهذا شيء مشاهد.

٨ - **ومنها**: أن هذه المغفرة التي يعدنا الله بها مغفرة عظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾؛ لأن عظم العطاء من عظم المعطي؛ ولهذا جاء في الحديث الذي وصى به النبي ﷺ أبا بكر: «**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي**»[1].

٩ - **ومنها**: أنه ينبغي للمنفق أن يتفاءل بما وعد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾؛ فإذا أنفق الإنسان وهو يحسن الظن بالله عز وجل أن الله يغفر له الذنوب ويزيده من فضله كان هذا من خير ما تنطوي عليه السريرة.

١٠ - **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: ﴿وَٰسِعٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾؛ وما تضمناه من صفة؛ ويستفاد من الاسمين، والصفتين إثبات صفة ثالثة باجتماعهما؛ لأن الاسم من أسماء الله إذا قرن بغيره تضمن معنًى زائدًا على ما إذا كان منفردًا مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]؛ فالجمع بين العفْوِ والقدرة لها ميزة: أن عفوه غير مشوب بعجز إطلاقًا؛ لأن بعض الناس قد يعفو لعجز؛ فقوله تعالى: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فالصفة الثالثة التي تحصل باجتماعهما: أن علمه واسع.

وكل صفاته واسعة؛ وهذا مأخوذ من اسمه «الواسع»؛ فعلمه، وسمعه، وبصره، وقدرته، وكل صفاته واسعة.

قال الله تعالى:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾؛ ﴿يُؤْتِي﴾ بمعنى يعطي؛ وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ فالمفعول الأول هنا: ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾، والمفعول الثاني: ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ والمعنى: أن الله يعطي الحكمة من يشاء؛ و﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ من أحكم بمعنى أتقن؛ وهي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وتستلزم علمًا ورشدًا،

(١) رواه البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٢٧٠٥).

فالجاهل لا تأتي منه الحكمة إلَّا مصادفة؛ والسفيه لا تأتي منه الحكمة إلَّا مصادفة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: من يعطه الله سبحانه وتعالى الحكمة فقد أعطاه خيرًا كثيرًا.

فإن قال قائل: ما وجه اختلاف التعبير بين قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؟

فالجواب - والله أعلم -: أن الحكمة قد تكون غريزة؛ وقد تكون مكتسبة؛ بمعنى أن الإنسان قد يحصل له مع المران ومخالطة الناس من الحكمة وحسن التصرف ما لا يحصل له لو كان منعزلًا عن الناس؛ ولهذا أتى بالفعل المضارع المبني للمفعول ليعم كل طرق الحكمة التي تأتي - سواء أوتي الحكمة من قبل الله عز وجل، أو من قِبل الممارسة والتجارب؛ على أن ما يحصل من الحكمة بالممارسة والتجارب فهو من الله عز وجل؛ هو الذي قيض لك من يفتح لك أبواب الحكمة وأبواب الخير.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ما يتعظ بآيات الله إلَّا أصحاب العقول الذين يتصرفون تصرفًا رشيدًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات أفعال الله المتعلقة بمشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ وهذه من الصفات الفعلية.

٢ - **ومنها:** أن ما في الإنسان من العلم والرشد فهو فضل من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾؛ فإذا منَّ الله سبحانه وتعالى على العبد بعلم، ورشد، وقوة، وقدرة، وسمع، وبصر فلا يترفع؛ لأن هذه الصفات من الله عز وجل؛ ولو شاء الله لحرمه إياها، أو لسلبه إياها بعد أن أعطاه إياها؛ فقد يسلب الله العلم من الإنسان بعد أن أعطاه إياه؛ وربما يسلب منه الحكمة؛ فتكون كل تصرفاته طيشًا، وضلالًا، وهدرًا.

٣ - **ومنها:** إثبات المشيئة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ واعلم أن كل شيء علقه الله سبحانه وتعالى بمشيئته فإنه تابع لحكمته البالغة؛ وليس لمجرد المشيئة؛ لكن قد نعلم الحكمة؛ وقد لا نعلمها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

٤ - **ومنها:** إثبات الحكمة لله عز وجل؛ لأن الحكمة كمال؛ ومعطي الكمال أولى به؛ فنأخذ من الآية إثبات الحكمة لله بهذا الطريق.

٥ - **ومنها:** الفخر العظيم لمن آتاه الله الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ

خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٦ - **ومنها**: وجوب الشكر على من آتاه الله الحكمة؛ لأن هذا الخير الكثير يستوجب الشكر.

٧ - **ومنها**: أن بلوغ الحكمة متعدد الطرق؛ فقد يكون غريزيًّا جبل الله العبد عليه؛ وقد يكون كسبيًا يحصل بالمران ومصاحبة الحكماء.

٨ - **ومنها**: منَّة الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده بإيتائه الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٩ - **ومنها**: فضيلة العقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ لأن التذكر بلا شك يحمد عليه الإنسان؛ فإذا كان لا يقع إلَّا من صاحب العقل دل ذلك على فضيلة العقل؛ والعقل ليس هو الذكاء؛ لأن العقل نتيجته حسن التصرف - وإن لم يكن الإنسان ذكيًّا؛ والذكاء: قوة الفطنة - وإن لم يكن الإنسان عاقلًا؛ ولهذا نقول: ليس كل ذكي عاقلًا، ولا كل عاقل ذكيًّا؛ لكن قد يجتمعان؛ وقد يرتفعان؛ وهناك عقل يسمى عقل إدراك؛ وهو الذي يتعلق به التكليف، وهذا لا يلحقه مدح ولا ذم؛ لأنه ليس من كسب الإنسان.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: أن عدم التذكر نقص في العقل - أي عقل الرشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ فإن الحكم إذا علق بوصف ازداد قوةً بقوة ذلك الوصف، ونقص بنقص ذلك الوصف.

١١ - **ومنها**: أنه لا يتعظ بالمواعظ الكونية أو الشرعية إلَّا أصحاب العقول الذين يتدبرون ما حصل من الآيات سابقًا ولاحقًا؛ فيعتبرون بها؛ وأما الغافل فلا تنفعه.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ ﴿مَا﴾ هنا شرطية؛ والدليل على أنها شرطية أنها مركبة من شرط وجواب؛ والشرط هو: ﴿أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾؛ والجواب: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾؛ و﴿مِّن﴾ هنا زائدة؛ أي: زائدة إعرابًا وليست زائدة معنًى؛ لأنها تفيد النص على العموم؛ وهي حرف جر زائد من حيث الإعراب؛ ولهذا نعرب:

﴿نَّفَقَةٍ﴾ على أنها مفعول به - أي: ما أنفقتم نفقةً أو نذرتم نذرًا فإن الله يعلمه؛ ويجوز أن تكون بيانًا لاسم الشرط ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾؛ لأن «ما» الشرطية مبهمة؛ والمبهم يحتاج إلى بيان.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ هذه جملة جواب الشرط؛ والفاء هنا واقعة في جواب الشرط وجوبًا؛ لأنه جملة اسمية؛ وإذا وقع جواب الشرط جملة اسمية وجب اقترانه بالفاء؛ وفي ذلك يقول الناظم فيما يجب اقترانه بالفاء:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِمَا ... وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّسْوِيْفِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ جملة منفية؛ والمبتدأ فيها قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ و﴿مِنْ﴾ فيها زائدة إعرابًا زائدة معنًى؛ يعني تزيد المعنى - وهو النص على العموم - وإن كانت في الإعراب زائدة؛ ولهذا نعرب ﴿أَنصَارٍ﴾ على أنها مبتدأ مؤخر مرفوع بالابتداء؛ وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أي: أيّ شيء تنفقونه من قليل أو كثير فإن الله يعلمه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ أي: أوجبتم على أنفسكم من طاعة، مثل أن يقول القائل: «لله عليَّ نذر أن أتصدق بكذا»؛ أو «أن أصوم كذا»؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾؛ وذِكر العلم يستلزم أن الله يجازيهم، فلا يضيع عند الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للمانعين ما يجب إنفاقه أو الوفاء به من النذور، وقوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: مانعين للعذاب عنهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الإنفاق قليله وكثيره يثاب عليه المرء؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾، وكلمة ﴿نَّفَقَةٍ﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فهي تَعُمّ؛ وعلى ذلك تشمل القليل والكثير؛ لكن الثواب عليها مشروط بأمرين: الإخلاص لله؛ وأن تكون على وفق الشرع.

٢ - **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان إذا أنفق نفقة أن يحتسب الأجر على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾؛ لأنك إذا أنفقت وأنت تشعر أن الله يعلم هذا الإنفاق فسوف تحتسب الأجر على الله.

٣ - **ومنها:** أن ما نذره الإنسان من طاعة فهو معلوم عند الله.

٤ - **ومنها**: هل تدل الآية على جواز النذر؟

الجواب: الآية لا تدل على الجواز، كما لو قال قائل مثلًا: «إن سرقتَ فإن الله يعلم سرقتك»؛ فإن هذا لا يعني أن السرقة جائزة؛ وعلى هذا فالآية لا تعارض نهي النبي ﷺ عن النذر[1]؛ لأن النهي عن النذر يعني: إنشاءه ابتداءً؛ فأما الوفاء به فواجب إذا كان طاعة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[2].

٥ - **ومنها**: عموم علم الله بكل ما ينفقه الإنسان، أو ينذره من قليل، أو كثير.

٦ - **ومنها**: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه تدخل إطلاقًا؛ وجه ذلك: أنه إذا كان الله يعلمه فلابد أن يقع على حسب علمه؛ وإلا لزم أن يكون الله غير عالم؛ ولهذا قال بعض السلف: جادلوهم بالعلم؛ فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا.

٧ - **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر الظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ ولا يرد على هذا ما وقع في أحد من انتصار الكافرين لوجهين:

الوجه الأول: أنه نوع عقوبة، حيث حصل من بعض المسلمين عصيان لأمر النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

الوجه الثاني: أن هذا الانتصار من أجل أن يمحق الله الكافرين؛ لأن انتصارهم يغريهم بمقاتلة المسلمين؛ حتى تكون العاقبة للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن من دعا على أخيه وهو ظالم له فإن الله لا يجيب دعاءه؛ لأنه لو أجيب لكان نصرًا له؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

٩ - **ومنها**: الثواب على القليل والكثير؛ وفي القرآن ما يشهد لذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]، وقوله تعالى في آخر سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(١) انظر «صحيح البخاري» (٦٢٣٤)، ومسلم (١٦٣٩).
(٢) رواه البخاري (٦٣١٨)، والترمذي (١٥٢٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ أي: تظهروها، وقوله: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: جملة إنشائية للمدح؛ وقُرنت بالفاء وهي جواب الشرط لكونها فعلًا جامدًا ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي: تصدَّقوا سرًّا ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أي: تعطوها المعدمين؛ وذكر ﴿الْفُقَرَاءَ﴾ هنا على سبيل المثال؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من إظهارها؛ والجملة: جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء لكونها اسمية.

قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الجملة استئنافية؛ ولذلك كان الفعل مرفوعًا؛ و«التكفير» بمعنى السَّتر؛ ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ جمع سيئة؛ وهي ما يسوء المرء عمله أو ثوابه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: عليم ببواطن الأمور كظواهرها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحث على الصدقة، والترغيب فيها سواء أبداها أو أخفاها.

٢ - **ومنها:** أن إخفاء الصدقة أفضل من إبدائها؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص؛ وأستر للمتصدق عليه؛ لكن إذا كان في إبدائها مصلحة ترجح على إخفائها - مثل أن يكون إبداؤها سببًا لاقتداء الناس بعضهم ببعض، أو يكون في إبدائها دفع ملامة عن المتصدق، أو غير ذلك من المصالح - فإبداؤها أفضل.

٣ - **ومنها:** أن الصدقة لا تعتبر حتى يوصلها إلى الفقير؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾.

ويتفرع على هذا فرعان:

أحدهما: أن مؤونة إيصالها على المتصدق.

الثاني: أنه لو نوى أن يتصدق بماله، ثم بدا له ألَّا يتصدق فله ذلك؛ لأنه لم يصل إلى الفقير.

٤ - **ومنها:** تفاضل الأعمال - أي أن بعض الأعمال أفضل من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ وتفاضل الأعمال يكون بأسباب:

أ - منها التفاضل في الجنس، كالصلاة - مثلًا - أفضل من الزكاة وما دونها.

ب - ومنها التفاضل في النوع؛ فالواجب من الجنس أفضل من التطوع؛ لقوله تعالى في

الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(١).

ج - ومنها التفاضل باعتبار العامل لقوله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(٢).

د - ومنها التفاضل باعتبار الزمان، كقوله ﷺ في العشر الأول من ذي الحجة: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ»(٣)، وكقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

هـ - ومنها التفاضل بحسب المكان، كفضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره.

و - ومنها التفاضل بحسب جودة العمل وإتقانه، كقوله ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ؛ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»(٤).

ز - ومنها التفاضل بحسب الكيفية، مثل قوله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ..»، وذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(٥).

وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ لأن الإنسان يشرف ويفضل بعمله؛ وتفاضل الأعمال يستلزم زيادة الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل؛ فإذا تفاضلت الأعمال تفاضل الإيمان - أعني زيادة الإيمان، ونقصانه - وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن الصدقة سبب لتكفير السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثم تلا ﷺ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ..﴾(٦) [السجدة: ١٦].

٦ - **ومنها**: إثبات أفعال الله الاختيارية - كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾؛ فإن تكفير السيئات حاصل بعد العمل الذي يحصل به التكفير.

٧ - **ومنها**: بيان آثار الذنوب، وأنها تسوء العبد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه مسلم (٧٩٨)، وابن ماجه (٣٧٧٩).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) **صحيح**: رواه ابن راهويه في «مسنده» (٢٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٢٦٧).

٨ - **ومنها**: إثبات اسم الله عز وجل «الخبير»؛ وإثبات ما دَلَّ عليه من صفة.

٩ - **ومنها**: تحذير العبد من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فإن إخباره إيانا بذلك يستلزم أن نخشى من خبرته عز وجل فلا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يرانا حيث نهانا.

قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾؛ الخطاب هنا للرسول ﷺ؛ و﴿هُدَاهُمْ﴾: الضمير يعود على بني آدم؛ والهدى المنفي هنا هدى التوفيق؛ وأما هدى البيان فهو على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].. إلى آيات كثيرة تدل أن على الرسول ﷺ أن يهدي الناس هداية الدلالة والإرشاد؛ أما هداية التوفيق فليست على الرسول، ولا إلى الرسول؛ لا يجب عليه أن يهديهم؛ وليس بقدرته ولا استطاعته أن يهديهم؛ ولو كان بقدرته أن يهديهم لهدى عمه أبا طالب؛ ولكنه لا يستطيع ذلك؛ لأن هذا إلى الله سبحانه وتعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وهذا كالاستدراك لما سبق؛ أي لَمَّا نفى كون هدايتهم على الرسول ﷺ بين أن ذلك إلى الله عز وجل وحده؛ فيهدي من يشاء ممن اقتضت حكمته هدايته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وليس لله عز وجل؛ فالله سبحانه وتعالى لا ينتفع به؛ بل لأنفسكم تقدمونه؛ وما لا تنفقونه فقد حرمتم أنفسكم؛ و﴿مَا﴾ هذه شرطية بدليل اقتران الجواب بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان لـ ﴿مَا﴾ الشرطية؛ لأن ﴿مَا﴾ الشرطية مبهمة تحتاج إلى بيان؛ يعني: أيَّ خير تنفقونه فلأنفسكم؛ والمراد بـ «الخير» كل ما بذل لوجه الله عز وجل من عين أو منفعة؛ وأغلب ما يكون في الأعيان.

وقوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: الفاء رابطة للجواب؛ والجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فهو لأنفسكم؛ يعني: وليس لغيركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا تنفقون إنفاقًا ينفعكم إلَّا ما ابتغيتم به وجه الله؛ فأما ما ابتغي به سوى الله فلا ينفع صاحبه؛ بل هو خسارة عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ أي: إلَّا طلب؛ و﴿وَجْهِ ٱللَّهِ﴾: المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن من دخل الجنة نظر إلى وجه الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ ﴿مَا﴾ هذه أيضًا شرطية بدليل جزم الجواب: ﴿يُوَفَّ﴾؛ فإنه مجزوم بحذف حرف العلة؛ وهو الألف؛ يعني: أيَّ خير تنفقونه من الأعيان والمنافع قليلًا كان أو كثيرًا يوف إليكم؛ أي: تعطَونه وافيًا من غير نقص؛ بل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، أي: لا تنقصون شيئًا منه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن هداية الخلق لا تلزم الرسل؛ ونعني بذلك هداية التوفيق؛ أما هداية الدلالة فهي لازمة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ - **ومنها:** أن الإنسان إذا بلَّغ شريعة الله برئت ذمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾؛ ولو كانت ذمته لا تبرأ لكان ملزمًا بأن يهتدوا.

٣ - **ومنها:** إثبات أن جميع الأمور دقيقها وجليلها بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٤ - **ومنها:** الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنهم يقولون: «إن العبد مستقل بعمله، ولا تعلق لمشيئة الله سبحانه وتعالى فيه».

٥ - **ومنها:** إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٦ - **ومنها:** أن هداية الخلق بمشيئة الله؛ ولكن هذه المشيئة تابعة للحكمة؛ فمن كان أهلًا لها هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ ومن لم يكن أهلًا للهداية لم يهده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٧ - **ومنها:** أن أعمال الإنسان لا تنصرف إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾؛ وليس في الآية دليل على منع أن يتصدق الإنسان بعمله على غيره؛ ولكنها

تبين أن ما عمله الإنسان فهو حق له؛ ولهذا جاءت السنة صريحة بجواز الصدقة عن الميت، كما ثبت ذلك في «صحيح البخاري» في قصة الرجل الذي قال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ تَصَدَّقْ عَنْهَا»[1]؛ وكذلك حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه حين تصدق ببستانه لأمه؛ إذنْ فالآية لا تدل على منع الصدقة عن الغير؛ وإنما تدل على أن ما عمله الإنسان لا يصرف إلى غيره.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن الإنفاق الذي لا يُبتغى به وجه الله لا ينفع العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

٩ - **ومنها**: التنبيه على الإخلاص: أن يكون الإنسان مخلصًا لله عز وجل في كل عمله؛ حتى في الإنفاق وبذل المال ينبغي له أن يكون مخلصًا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾؛ فالإنفاق قد يحمل عليه محبة الظهور ومحبة الثناء، وأن يقال: فلان كريم، وأن تتجه الأنظار إليه؛ ولكن كل هذا لا ينفع؛ إنما ينفع ما ابتغي به وجه الله.

١٠ - **ومنها**: إثبات وجه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾؛ وأهل السنة والجماعة يقولون: إن لله سبحانه وتعالى وجهًا حقيقيًّا موصوفًا بالجلال والإكرام لا يماثل أوجه المخلوقين؛ وأنه من الصفات الذاتية الخبرية؛ و«**الصفات الذاتية الخبرية**» هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، ونظير مسماها أبعاض وأجزاء لنا.

وأهل التعطيل ينكرون أن يكون لله وجه حقيقي، ويقولون: المراد بـ «**الوجه**» الثواب، أو الجهة، أو نحو ذلك؛ وهذا تحريف مخالف لظاهر اللفظ، ولإجماع السلف؛ ولأن الثواب لا يوصف بالجلال والإكرام؛ والله سبحانه وتعالى وصف وجهه بالجلال والإكرام، فقال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

١١ - **ومنها**: الإشارة إلى نظر وجه الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾؛ وهذا - أعني النظر إلى وجه الله - ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف؛ لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فقد فَسَّرَ النبي ﷺ «**الزيادة**» بأنها «**النظر إلى وجه الله**».. إلى آيات أخرى؛ وأما السنة فقد تواترت بذلك؛ ومنها قوله ﷺ: «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[2]؛ وأما إجماع السلف فقد نقله غير واحد من أهل العلم.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: أن الإنسان لا يُنْقص من عمله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

١٣ - **ومنها**: الإشارة إلى أن الإنفاق من الحرام لا يقبل؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾؛ ووجهه: أن الحرام ليس بخير؛ بل هو شر.

١٤ - **ومنها**: نفي الظلم في جزاء الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾؛ وهذا يستلزم كمال عدله؛ فإن الله عز وجل كلما نفى عن نفسه شيئًا من الصفات فإنه مستلزم لكمال ضده.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٧٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

في هذه الآية بيان لمصرف الإنفاق؛ كأن سائلًا يسأل: إلى أين نصرف هذا الخير؟ فقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ...﴾؛ وعلى هذا فتكون ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ إما متعلقة بقوله تعالى: ﴿تُنفِقُواْ﴾؛ أو بمحذوف تقديره: الإنفاق أو الصدقات للفقراء؛ و(الفقراء) جمع فقير؛ و«**الفقير**» هو المعدم؛ لأن أصل هذه الكلمة مأخوذة من «**الفقر**» الموافق لـ «**القفر**» في الاشتقاق الأكبر - الذي يتماثل فيه الحروف دون الترتيب؛ و«**القفر**» الأرض الخالية، كما قال الشاعر:

وَقَبۡرُ حَرۡبٍ بِمَكَانٍ قَفۡرٍ ... وَلَيۡسَ قُرۡبَ قَبۡرِ حَرۡبٍ قَبۡرُ

فـ«**الفقير**» معناه: الخالي ذات اليد؛ ويقرن بـ «المسكين» أحيانًا؛ فإذا قرن بـ «المسكين» صار لكل منهما معنى؛ وصار «**الفقير**» من كان خالي ذات اليد؛ أو من لا يجد من النفقة إلَّا أقل من النصف؛ والمسكين أحسن حالًا منه، لكن لا يجد جميع الكفاية؛ أما إذا انفرد أحدهما عن الآخر صار معناهما واحدًا؛ فهو من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعوا من الخروج من ديارهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في شريعته ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا يقدرون على السفر لقلة ذات اليد؛ أو لعجزهم عن السفر لما أصابهم من الجراح، أو الكسور، أو

نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ أي: يظنهم الجاهل بأحوالهم أغنياء؛ وفي ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ قراءتان: فتح السين، وكسرها؛ و﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: بسبب تعففهم عن السؤال وإظهار المسكنة؛ لأنك إذا رأيتهم ظننتهم أغنياء مع أنهم فقراء، كقول النبي ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»(١).

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: تعرف أحوالهم بعلامتهم؛ والعلامة التي فيهم هي أن الإنسان إذا رآهم ظنهم أغنياء؛ وإذا دقق في حالهم تَبَيَّنَ له أنهم فقراء؛ لكنهم متعففون؛ وكم من إنسان يأتيك بمظهر الفقير المدقع؛ ثياب ممزقة، وشعر منفوش، ووجه كالح، وأنين، وطنين؛ وإذا أمعنت النظر فيه عرفت أنه غني؛ وكم إنسان يأتيك بزي الغني، وبهيئة الإنسان المنتصر على نفسه الذي لا يحتاج إلى أحد؛ لكن إذا دققت في حاله علمت أنه فقير؛ وهذا يعرفه من منَّ الله عليه بالفراسة؛ وكثير من الناس يعطيهم الله سبحانه وتعالى علمًا بالفراسة يعلمون أحوال الإنسان بملامح وجهه ونظراته، وكذلك بعض عباراته، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾؛ هل النفي للقيد؛ أو للقيد والمقيد؟ إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ فإن النفي للقيد؛ أي: أنهم لا يلحون في المسألة؛ ولكن يسألون؛ وإن نظرنا إلى مقتضى السياق ترجح أنهم لا يسألون الناس مطلقًا؛ فيكون النفي نفيًا للقيد - وهو الإلحاف، والمقيد - وهو السؤال؛ والمعنى: أنهم لا يسألون مطلقًا؛ ولو كانوا يسألون ما حسبهم الجاهل أغنياء؛ بل لظنهم فقراء بسبب سؤالهم؛ ولكنه ذكر أعلى أنواع السؤال المذموم - وهو الإلحاح؛ ولهذا تجد الإنسان إذا ألح - وإن كان فقيرًا - يثقل عليك، وتمل مسألته؛ حتى ربما تأخذك العزة بالإثم ولا تعطيه؛ فتحرمه، أو تنهره مع علمك باستحقاقه؛ وتجد الإنسان الذي يظهر بمظهر الغني المتعفف ترق له، وتعطيه أكثر مما تعطي السائل.

إذنْ في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ خمس صفات؛ والسادسة أنهم فقراء؛ وهؤلاء هم المستحقون حقًا للصدقة والإنفاق؛ وإذا تخلفت صفة من الصفات فالاستحقاق باقٍ؛ لكن ليست كما إذا تمت هذه الصفات الست.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: هذه الجملة شرطية ذيلت بها الآية المبينة لأهل الاستحقاق حثًا على الإنفاق؛ لأنه إذا كان الله عليمًا بأيِّ خير ننفقه فسيجازينا عليه

(١) رواه البخاري (١٤٠٩)، والنسائي (٢٥٧٢).

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه لا يجوز أن نعطي من يستطيع التكسب؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأنه عُلم منه أنهم لو كانوا يستطيعون ضربًا في الأرض والتكسب فإنهم لا يعطون؛ ولهذا لما جاء رجلان إلى الرسول ﷺ يسألانه الصدقة صعَّد فيهما النظر وصوَّبه، ثم قال: «إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا؛ وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ»[1]؛ فإذا كان الإنسان يستطيع الضرب في الأرض والتجارة والتكسب فإنه لا يعطى؛ لأنه وإن كان فقيرًا بماله؛ لكنه ليس فقيرًا بعمله.

٢ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة التعفف؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

٣ - **ومنها:** التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون فطنًا ذا حزم، ودقيق النظر؛ لأن الله وصف هذا الذي لا يعلم عن حال هؤلاء بأنه جاهل؛ فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ فينبغي للإنسان أن يكون ذا فطنة وحزم ونظر في الأمور.

٤ - **ومنها:** إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ فإن ﴿مِنَ﴾ هنا سببية؛ أي بسبب تعففهم يظن الجاهل بحالهم أنهم أغنياء.

٥ - **ومنها:** الإشارة إلى الفراسة والفطنة؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾؛ فإن السيما هي العلامة التي لا يطلع عليها إلَّا ذوو الفراسة؛ وكم من إنسان سليم القلب ليس عنده فراسة ولا بُعد نظر يخدع بأدنى سبب؛ وكم من إنسان عنده قوة فراسة وحزم ونظر في العواقب يحميه الله سبحانه وتعالى بفراسته عن أشياء كثيرة.

٦ - **ومنها:** الثناء على من لا يسأل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾؛ وقد كان من جملة ما بايع النبي ﷺ أصحابه: ألَّا يسألوا الناس شيئًا؛ حتى إن الرجل ليسقط سوطه من على بعيره، فينزل، فيأخذه ولا يقول لأخيه: أعطني إياه[2]؛ كل هذا بعدًا عن سؤال الناس.

والسؤال - أي سؤال المال - لغير ضرورة محرم إلَّا إذا علمنا أن المسئول يفرح بذلك ويُسَر؛ فإنه لا بأس به؛ بل قد يكون السائل مثابًا مأجورًا لإدخاله السرور على أخيه؛ كما لو سأل إنسان صديقًا له يعرف أنه يكون ممتنًا بهذا السؤال؛ وقد قال النبي ﷺ في اللحم الذي على البرمة: «هُوَ عَلَى بَرِيرَةَ صَدَقَةٌ؛ وَلَنَا هَدِيَّةٌ»[3].

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٢٥٩٨)، وأبو داود (١٦٣٣)، وأحمد في «مسنده» (١٨٠٠١).

(٢) انظر «صحيح مسلم» (١٠٤٣).

(٣) رواه البخاري (١٤٢٢)، ومسلم (١٠٧٤).

٧ - **ومن فوائد الآية**: بيان عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ فأيُّ خير يفعله العبد فإن الله به عليم.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر المبتدأ، واقترنت بالفاء لمشابهة المبتدأ بالشرط في العموم؛ لأن المبتدأ هنا اسم موصول؛ واسم الموصول يشبه الشرط في العموم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ يحتمل أن يراد بـ «الأموال» هنا كل الأموال؛ ويحتمل أن يراد الجنس فيشمل الكل والبعض.

قوله تعالى: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ الباء هنا للظرفية، وفيه عموم الزمن؛ وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فيه عموم الأحوال؛ أي على كل حال، وفي كل زمان؛ و﴿سِرًّا﴾ أي: خفاءً؛ وهو مفعول مطلق لـ ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ يعني إنفاقًا سرًّا، ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ أي: جهرًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله؛ وسمي أجرًا؛ لأنه يشبه عقد الإجارة التي يعوَّض فيه العامل على عمله؛ وهذا الأجر قد بُين فيما سبق بأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل؛ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فيما مضى؛ فهم لا يحزنون على ما سبق؛ ولا يخافون من المستقبل؛ لأنهم يرجون ثواب الله عز وجل؛ ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم أنفقوه عن طيب نفس.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلًا أو نهارًا، أو سرًّا أو جهارًا.

٢ - **ومنها**: كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ والثواب عند العظيم يكون عظيمًا.

٣ - **ومنها**: أن الإنفاق يكون سببًا لشرح الصدر، وطرد الهم والغم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ وهذا أمر مجرب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يبتغي بها وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» أن ذلك من أسباب انشراح الصدر.

٤ - **ومنها**: كرم الله عز وجل؛ حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه أجرًا لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥ - **ومنها**: كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف والحزن عنهم.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ؛ و﴿لَا يَقُومُونَ﴾ خبره؛ و﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾ أي الذين يأخذون الربا فينتفعون به بأكل، أو شرب، أو لباس، أو سكن، أو غير ذلك؛ لكنه ذكر الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، وأكثرها إلحاحًا؛ و﴿الرِّبَوٰا﴾ في اللغة: الزيادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] أي زادت؛ وفي الشرع: زيادة في شيئين منع الشارع من التفاضل بينهما.

قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾؛ اختلف المفسرون في هذا القيام، ومتى يكون؛ فقال بعضهم - وهم الأكثر: إنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلَّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ يعني: كالمصروع الذي يتخبطه الشيطان؛ و«التخبط» هو الضرب العشوائي؛ فالشيطان يتسلَّط على ابن آدم تسلطًا عشوائيًّا، فيصرعه؛ فيقوم هؤلاء من قبورهم يوم القيامة كقيام المصروعين - والعياذ بالله - يشهدهم الناس كلهم؛ وهذا القول هو قول جمهور المفسرين؛ وهو مروي عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

القول الثاني: إنهم لا يقومون عند التعامل بالربا إلَّا كما يقوم المصروع؛ لأنهم - والعياذ بالله - لشدة شغفهم بالربا كأنما يتصرفون تصرف المتخبط الذي لا يشعر؛ لأنهم سكارى بمحبة الربا،

وسكارى بما يربحونه - وهم الخاسرون؛ فيكون القيام هنا في الدنيا؛ شبَّه تصرفاتهم العشوائية الجنونية المبنية على الربا العظيم - الذي يتضخم المال من أجل الربا - بالإنسان المصروع الذي لا يعرف كيف يتصرف؛ وهذا قول كثير من المتأخرين؛ وقالوا: إن يوم القيامة هنا ليس له ذكر؛ ولكن الله شبَّه حالهم حين طلبهم الربا بحال المصروع من سوء التصرف؛ وكلما كان الإنسان أشد فقرًا كانوا له أشد ظلمًا؛ فيكثرون عليه الظلم لفقره؛ بينما حاله تقتضي الرأفة والتخفيف؛ لكن هؤلاء ظلمة ليس همهم إلَّا أكل أموال الناس.

فاختلف المفسرون في معنى «القيام»، ومتى يكون؛ لكنهم لم يختلفوا في قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾؛ يعني: متفقين على أن الشيطان يتخبط الإنسان؛ و﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: بالمس بالجنون؛ وهذا أمر مشاهد: أن الشيطان يصرع بني آدم؛ وربما يقتله - نسأل الله العافية -؛ يصرعه، ويبدأ يتخبط، ويتكلم، والإنسان نفسه لا يتكلم - يتكلم الشيطان الذي صرعه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾: المشار إليه قيامهم كقيام المصروع؛ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟..﴾ إلخ؟!: الباء للسببية؛ يعني: أنهم عُمِّي عليهم الفرق بين البيع والربا؛ أو أنهم كابروا فألحقوا الربا بالبيع؛ ولذلك عكسوا التشبيه، فقالوا: إنما البيع مثل الربا، ولم يقولوا: «إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ البَيْعِ»، كما هو مقتضى الحال.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي: أباح البيع، ومنع الربا؛ وهذا رد لقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾؛ فأبطل الله هذه الشبهة بما ذكر.

قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: من بلغه حكم الربا بعد أن تعامل به ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي كف عن الربا بالتوبة منه ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾، أي ما أخذه من الربا قبل العلم بالحكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: شأنه إلى الله - تبارك وتعالى - في الآخرة؛ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي ومن رجع إلى الربا بعد أن أتته الموعظة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أتى باسم الإشارة الدال على البعد؛ وذلك لسفوله - أي هوى بعيدًا؛ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أهلها الملازمون لها؛ وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** التحذير من الربا؛ حيث شبه آكله بمن يتخبطه الشيطان من المس.

٢ - **ومنها:** أن من تعامل بالربا فإنه يصاب بالنهمة العظيمة في طلبه.

٣ - **ومنها:** أن الشيطان يتخبط بني آدم فيصرعه؛ ولا عبرة بقول من أنكر ذلك من المعتزلة وغيرهم؛ وقد جاءت السنة بإثبات ذلك؛ والواقع شاهد به؛ وقد قَسَّم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد

المعاد» الصرع إلى قسمين: صرع بتشنج الأعصاب؛ وهذا يدركه الأطباء، ويقرونه، ويعالجونه بما عندهم من الأدوية، والثاني: صرع من الشيطان؛ وذلك لا علم للأطباء به؛ ولا يعالج إلَّا بالأدوية الشرعية كقراءة القرآن والأدعية النبوية الواردة في ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بيان علة قيام المرابين كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ وهي: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يعني: فإذا كان مثله فلا حرج علينا في طلبه.

٥ - **ومنها:** مبالغة أهل الباطل في ترويج باطلهم؛ لأنهم جعلوا المقيس هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾؛ وكان مقتضى الحال أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع.

٦ - **ومنها:** أن الحكم لله - تبارك وتعالى - وحده؛ فما أحله فهو حلال؛ وما حرمه فهو حرام سواء علمنا الحكمة في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنه تعالى رد قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾؛ فكأنه قال: ليس الأمر إليكم؛ وإنما هو إلى الله.

٧ - **ومنها:** أن بين الربا والبيع فرقًا أوجب اختلافهما في الحكم؛ فإنا نعلم أن الله تعالى لا يفرق بين شيئين في الحكم إلَّا وبينهما فرق في العلة والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٨ - **ومنها:** أن ما أخذه الإنسان من الربا قبل العلم فهو حلال له بشرط أن يتوب وينتهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

٩ - **ومنها:** أنه لو تاب من الربا قبل أن يقبضه فإنه يجب إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ ومن أخذه بعد العلم فإنه لم ينته؛ ولهذا قال النبي ﷺ في عرفة في حجة الوداع: «أَلَا وَإِنَّ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا؛ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»(١)؛ فبين ﷺ أن ما لم يؤخذ من الربا فإنه موضوع.

١٠ - **ومنها:** رأفة الله تعالى بمن شاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾؛ وهذه ربوبية خاصة تستلزم توفيق العبد للتوبة حتى ينتهي عما حرم الله عليه.

١١ - **ومنها:** التحذير من الرجوع إلى الربا بعد الموعظة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٢ - **ومنها:** التخويف من التفاؤل البعيد لمن تاب من الربا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فله ما سلف وأمره إلى الله﴾؛ يعني: أن الإنسان يتفاءل ويؤمل؛ لأن الأمر قد لا يكون على حسب تفاؤله.

١٣ - **ومنها:** بيان عظم الربا؛ لقوله تعالى: ﴿عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، و أبو داود (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٣٠٠٥).

قال الله تعالى:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:٢٧٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾؛ «المحق» بمعنى الإزالة؛ أي: يزيل الربا؛ والإزالة يحتمل أن تكون إزالة حسية، أو إزالة معنوية، فالإزالة الحسية: أن يسلط الله على مال المرابي ما يتلفه؛ والمعنوية: أن يَنزع منه البركة.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يزيدها: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾؛ إذا نفى الله تعالى المحبة فالمراد إثبات ضدها - وهي الكراهة؛ و«الكفَّار» كثير الكفر، أو عظيم الكفر؛ و«الأثيم» بمعنى الآثم، كالسميع بمعنى السامع، والبصير بمعنى الباصر، وما أشبه ذلك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** محق الربا: إما حسًّا وإما معنًى كما سبق.

٢ - **ومنها:** التحذير من الربا، وسد أبواب الطمع أمام المرابين.

٣ - **ومنها:** أن الله يرْبِي الصدقات - أي: يزيدها؛ والزيادة إما أن تكون حسية؛ وإما أن تكون معنوية؛ فإن كانت حسية فبالكمية، مثل أن ينفق عشرة فيخلف الله عليه عشرين؛ وأما المعنوية فأن يُنْزِل الله البركة في ماله.

٤ - **ومنها:** مقابلة الضد بالضد؛ فكما أن الربا يُمحَق ويزال؛ فالصدقة تزيد المال وتنميه؛ لأن الربا ظلم، والصدقة إحسان.

٥ - **ومنها:** إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾؛ ووجه الدلالة أن نفي المحبة عن الموصوف بالكفر والإثم يدل على إثباتها لمن لم يتصف بذلك - أي لمن كان مؤمنًا مطيعًا؛ ولولا ذلك لكان نفي المحبة عن «الكفار الأثيم» لغوًا من القول لا فائدة منه؛ ولهذا استدل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] على أن الأبرار يرون الله عز وجل؛ لأنه لما حجب الفجار عن رؤيته في حال الغضب دل على ثبوتها للأبرار في حال الرضا؛ وهذا استدلال خفيّ جيد؛ والمحبة الثابتة لله عز وجل هي محبة حقيقية تليق بجلاله وعظمته؛ وليست - كما قال أهل التعطيل - إرادة الثواب أو الثواب؛ لأن إرادة الثواب ناشئة عن المحبة؛ وليست هي المحبة؛ وهذه القاعدة - أعني إجراء النصوص على

ظاهرها في باب صفات الله - اتفق عليها علماء السلف وأهل السنة والجماعة؛ لأن ما يتحدث الله به عن نفسه أمور غيبية يجب علينا الاقتصار فيها على ما ورد.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به؛ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات؛ وهي المبنية على الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أتوا بها قويمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وعطفها على العمل الصالح من باب عطف الخاص على العام؛ لأن إقامة الصلاة من الأعمال الصالحة، ونُص عليها لأهميتها؛ ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أعطوا الزكاة مستحقها؛ وعلى هذا فتكون ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مفعولًا أولًا بـ ﴿وَءَاتَوُا۟﴾؛ والمفعول الثاني محذوف - أي آتوا الزكاة مستحقها؛ و«الزكاة» هي النصيب الذي أوجبه الله عز وجل في الأموال الزكوية؛ وهو معروف في كتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثوابهم عند الله؛ والجملة هذه خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟..﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم؛ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن ذكر الثواب يستلزم التشجيع، والحث، والإغراء.

٢ - **ومنها:** أنه لابد مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه - أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

٣ - **ومنها:** أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحًا؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ - وضده الشرك؛ والمتابعة - وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلة

هذا معروفة.

٤ - **ومنها**: بيان أهمية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

٥ - **ومنها**: أن هذين الركنين – أعني: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة – أعلى أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ للنص عليهما من بين سائر الأعمال الصالحة.

٦ - **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى ضمن الأجر لمن آمن، وعمل صالحًا، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧ - **ومنها**: الإشارة إلى عظمة هذا الثواب؛ لأنه أضافه إلى نفسه – تبارك وتعالى – والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا.

٨ - **ومنها**: أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع – الإيمان، والعمل الصالح، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة – ليس عليهم خوف من مستقبل أمرهم؛ ولا حزن فيما مضى من أمرهم؛ لأنهم فعلوا ما به الأمن التام، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: الجملة ندائية؛ فائدتها: تنبيه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا ما بقي من الربا.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: هذا من باب الإغراء والحث على الامتثال؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقًّا فدعوا ما بقي من الربا؛ وهذه الجملة يقصد بها الإغراء والإثارة – أعني إثارة الهمة.

فإن قلت: كيف يوجِّه الخطاب للمؤمنين، ويقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أفلا يكون في هذا تناقض؟

فالجواب: ليس هنا تناقض؛ لأن معنى الثانية التحدي؛ أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم فاتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بلوغ القرآن أكمل البلاغة؛ لأن الكلام في القرآن يأتي دائمًا مطابقًا لمقتضى الحال؛ فإذا كان الشيء مهمًا أحاطه بالكلمات التي تجعل النفوس قابلة له؛ وهذا أكمل ما يكون من البلاغة.

٢ - **ومنها:** أنه إذا كان الشيء هامًّا فإنه ينبغي أن يصَدَّر بما يفيد التنبيه من نداء أو غيره.

٣ - **ومنها:** وجوب تقوى الله، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ و«التقوى»وصية الله لعباده الأولين والآخرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

٤ - **ومنها:** وجوب ترك الربا - وإن كان قد تم العقد عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وذروامابقي من الربا﴾؛ وهذا في عقد استوفي بعضه وبقي بعضه.

٥ - **ومنها:** أنه لا يجوز تنفيذ العقود المحرمة في الإسلام - وإن عقدت في حال الشرك؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾، ولقول النبي ﷺ في خطبته في عرفة عام حجة الوداع: «ورِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ؛ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»[1]؛ ولكن يجب أن نعلم أن العقود التي مضت في الكفر على وجه باطل، وزال سبب البطلان قبل الإسلام فإنها تبقى على ما كانت عليه؛ مثال ذلك: لو تبايع رجلان حال كفرهما بيعًا محرمًا في الإسلام، ثم أسلما فالعقد يبقى بحاله؛ ومثال آخر: لو تزوج الكافر امرأة في عدتها، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها فالنكاح باقٍ؛ ولهذا أمثلة كثيرة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** تحريم أخذ ما يسمى بالفوائد من البنوك؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ وزعم بعض الناس أن الفوائد من البنوك تؤخذ لئلا يستعين بها على الربا؛ وإذا كان البنك بنك كفار فلئلا يستعين بها على الكفر؛ فنقول: أأنتم أعلم أم الله!!! وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾؛ والاستحسان في مقابلة النص باطل.

فإن قال قائل: إذا كان البنك بنكًا غير إسلامي، ولو تركناه لهم صرفوه إلى الكنائس، وإلى السلاح الذي يقاتَل به المسلمون، أو أبقوه عندهم، ونما به رباهم؛ فنقول: إننا مخاطبون بشيء، فالواجب علينا أن نقوم بما خوطبنا به؛ والنتائج ليست إلينا؛ ثم إننا نقول: هذه الفائدة التي يسمونها فائدة هل هي قد دخلت في أموالنا حتى نقول: إننا أخرجنا من أموالنا ما يستعين به أعداؤنا على كفرهم، أو قتالنا؟

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، والترمذي (٣٠٨٧)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

والجواب: أن الأمر ليس كذلك؛ فإن هذه الزيادة التي يُسَمُّونَهَا فائدة ليست نماءَ أموالنا؛ فلم تدخل في ملكنا؛ ثم إننا نقول له: إذا أخذته فأين تصرفه؟ قال: أصرفه في صدقة؛ في إصلاح طرق؛ في بناء مساجد تخلصًا منه، أو تقربًا به؛ نقول له: إن فعلت ذلك تقربًا لم يقبل منك، ولم تَسْلَمْ من إثمه؛ لأنك صرفته في هذه الحال على أنه ملكك؛ وإذا صرفته على أنه ملكك لم يقبل منك؛ لأنه صدقة من مالٍ خبيث؛ ومن اكتسب مالًا خبيثًا فتصدق به لم يقبل منه؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[1]؛ وإن أخرجته تخلصًا منه فأي فائدة من أن تلطخ مالك بالخبيث ثم تحاول التخلص منه؛ ثم نقول أيضًا: هل كل إنسان يضمن من نفسه أن يخرج هذا تخلصًا منه؟! فربما إذا رأى الزيادة كبيرة تغلبه نفسه ولا يخرجها؛ أيضًا إذا أخذت الربا وقال الناس: إن فلانًا أخذ هذه الأموال التي يسمونها الفائدة؛ أفلا تخشى أن يقتدي الناس بك؟! لأنه ليس كل إنسان يعلم أنك سوف تخرج هذا المال وتتخلص منه.

ولهذا أرى أنه لا يجوز أخذ شيء من الربا مطلقًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾؛ ولم يوجه العباد إلى شيء آخر.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن ممارسة الربا تنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ ولكن هل يُخرج الإنسانَ من الإيمان إلى الكفر؟ مذهب الخوارج أنه يخرجه من الإيمان إلى الكفر؛ فهو عند الخوارج كافر، كفرعون، وهامان، وقارون؛ لأنه فعل كبيرةً من كبائر الذنوب؛ ومذهب أهل السنة والجماعة أنه مؤمن ناقص الإيمان؛ لكنه يُخشى عليه من الكفر؛ لاسيما آكل الربا؛ لأنه غذي بحرام؛ وقد قال النبي ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[2] - نسأل الله العافية.

٩ - **ومن فوائد الآية**: رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ حيث حرم عليهم ما يتضمن الظلم؛ وأكد هذا التحريم، وأنزل القرآن فيه بلفظ يحمل على ترك هذا المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ والحكم: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾.

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني: فإن لم تتركوا ما بقي من ربا؛ ﴿فَأْذَنُوا﴾ بالقصر وفتح الذال، بمعنى أعلنوا؛ وفي قراءة ﴿فآذنوا﴾ بالمدِّ، وكسر الذال؛ والمعنى: أن من لم ينته عن الربا فقد أعلن الحرب على الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتم إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته؛ وذلك هنا بترك الربا؛ والتوبة من الربا كالتوبة من غيره - لابد فيها من توافر الشروط الخمسة المعروفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾؛ ﴿رُءُوسُ﴾ جمع رأس؛ و«الرأس» هنا بمعنى الأصل؛ أي: لكم أصول الأموال؛ وأما الربا فليس لكم، ثم علل الله عز وجل هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾؛ لأنكم لم تأخذوا الزيادة؛ و﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ لأنها لم تنقص رؤوس أموالكم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾؛ لأن الجبرية يقولون: إن الإنسان لا يستطيع الفعل ولا الترك؛ لأنه مجبر؛ وحقيقة قولهم تعطيل الأمر والنهي؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل ما أمر به، ولا ترك ما نهي عنه.

٢ - **ومنها:** أن المصِرَّ على الربا معلن الحرب على الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا كان معلنًا الحرب على الله ورسوله فهو معلن الحرب على أولياء الله ورسوله - وهم المؤمنون؛ وذلك بدلالة الالتزام؛ لأن كل مؤمن يجب أن ينتصر لله ورسوله؛ فالمؤمنون هم حزب الله عزَّ وجلَّ ورسوله.

٣ - **ومن فوائد الآية:** عظم الربا لعظم عقوبته؛ وإنما كان بهذه المثابة ردعًا لمتعاطيه عن الاستمرار فيه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك؛ ولهذا جاء في الحديث الذي طرقه متعددة: «**إِنَّ الرِّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أُمَّهُ**»[1]؛ وهذا كلٌّ يستبشعه؛ فالربا ليس بالأمر الهين؛ والمؤمن ترتعد فرائصه

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٧٥)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥١٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»

إذا سمع مثل هذه الآية.

٤ - **ومنها**: أنه يجب على كل من تاب إلى الله عز وجل من الربا ألا يأخذ شيئًا مما استفاده من الربا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾.

٥ - **ومنها**: أنه لا يجوز أخذ ما زاد على رأس المال من الربا لأيِّ غرض كان؛ سواء أخذه ليتصدق به، أو ليصرفه في وجوه البر تخلصًا منه، أو لغير ذلك؛ لأن الله أمر بتركه؛ ولو كان هنا طريق يمكن صرفه فيه لبينه الله عز وجل.

٦ - **ومنها**: الإشارة إلى الحكمة من تحريم الربا - وهي الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

فإن قال قائل: إن بعض صور الربا ليس فيه ظلم، مثل أن يشتري صاعًا من البر الجيد بصاعين من الرديء يساويانه في القيمة؛ فإنه لا ظلم في هذه الصورة.

قلنا: إن العلة إذا كانت منتشرة لا يمكن ضبطها فإن الحكم لا ينتقض بفقدها؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه أتي إليه بتمر جيد فسأل: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟» فقال بلال: تمر كان عندنا رديٌّ فبعت منه صاعين بصاع، فقال النبي ﷺ: «أَوَّهْ أَوَّهْ! عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا؛ لَا تَفْعَلْ»[1]؛ ثم أرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم؛ ويشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا؛ فدل هذا على أن تخلف الظلم في بعض صور الربا لا يخرجه عن الحكم العام للربا؛ لأن هذه العلة منتشرة لا يمكن ضبطها؛ ولهذا أمثلة كثيرة؛ ودائمًا نجد في كلام أهل العلم أن العلة إذا كانت منتشرة غير منضبطة فإن الحكم يَعُمُّ، ولا يُنْظَرُ للعلة.

٧ - **ومن فوائد الآية**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

٨ - **ومنها**: رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد، حيث أرسل إليهم الرسل؛ لأن العقول لا يمكن أن تستقل بمعرفة ما ينفعها ويضرها على وجه التفصيل لقصورها؛ إنما تعرفه على سبيل الجملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل؛ فكان في هذا رحمة عظيمة للخلق.

٩ - **ومنها**: مراعاة العدل في معاملة الناس بعضهم مع بعض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

(٣٥٣٩).

(١) رواه البخاري (٢١٨٨)، ومسلم (١٥٩٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ ﴿كَانَ﴾ تامة تكتفي بمرفوعها؛ و﴿ذُو﴾ فاعل رفعت بالواو؛ لأنها من الأسماء الستة؛ والجملة شرطية؛ والجواب: جملة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة شرطية نقول في إعرابها ما سبق في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨].

أما القراءات في هذه الآية: قوله تعالى: ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ فيها قراءتان: ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ بفتح السين؛ و(ميسُرة) بضمها؛ و﴿تَصَدَّقُوا﴾ فيها قراءتان: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بتخفيف الصاد؛ و(تَصَّدَّقوا) بتشديدها؛ أي تتصدقوا؛ لكن أدغمت التاء في الصاد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ أي: إن وجِد ذو عسرة؛ أي: صاحب إعسار لا يستطيع الوفاء؛ والجملة شرطية؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ ويجوز في إعراب «نظرة» وجهان؛ أحدهما: أن تكون مبتدأ والخبر محذوف؛ والتقدير: فعليكم نظرة؛ أو فله نظرة؛ وأما أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالواجب عليه نظرة؛ أي إنظار إلى ميسرة؛ أي: إيسار.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: تُبرءوا المعسر في دينه؛ و﴿أَنْ﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من إنظاره.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذه الجملة الشرطية مستقلة يراد بها الحث على العلم؛ «مستقلة» أي أنها لا توصل بما قبلها؛ لأنها لو وصلت بما قبلها لأوهم معنًى فاسدًا: أوهم أن التصدق خير لنا إن كنا نعلم؛ فإن لم نكن نعلم فليس خيرًا لنا؛ ولا شك أن هذا معنًى فاسد لا يراد بالآية؛ لكن المعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافعلوا - أي تصدقوا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** ثبوت رحمة الله عز وجل؛ وجه ذلك أنه أوجب على الدائن إنظار المدين؛ وهذا رحمة بالمعسر.

٢ - **ومنها:** حكمة الله عز وجل بانقسام الناس إلى موسر ومعسر؛ الموسر في الآية: الدائن؛ والمعسر: المدين؛ وحكمة الله عز وجل هذه لا يمكن أن تستقيم أمور العباد إلَّا بها، ولذلك بدأ

الشيوعيون - الذين يريدون أن يساووا بين الناس - يتراجعون الآن؛ لأنهم عرفوا أنه لا يمكن أن يصلح العباد إلَّا هذا الخلاف؛ قال عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولولا هذا الاختلاف لم يمكن أن يسخر لنا أحد ليعمل ما نريد؛ لأن كل واحد ندٌّ للآخر؛ فلا يمكن إصلاح الخلق إلَّا بما تقتضيه حكمة الله عز وجل، وشرعه من التفاوت بينهم: فهذا موسر؛ وهذا فقير؛ حتى يتبين بذلك حكمة الله عز وجل، وتقوم أحوال العباد.

٣ - **ومن فوائد الآية:** وجوب إنظار المعسر - أي إمهاله حتى يوسر؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؛ فلا تجوز مطالبته بالدَّين؛ ولا طلب الدَّين منه.

٤ - **ومنها:** أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لأنه لما كان وجوب الإنظار معللًا بالإعسار صار مستمرًا إلى أن تزول العلة - وهي العسرة - حتى تجوز مطالبته.

ولو أن الناس مشوا على تقوى الله عز وجل في هذا الباب لسلمت أحوال الناس من المشاكل؛ لكن نجد الغني يماطل: يأتيه صاحب الحق يقول: اقضني حقي؛ فيقول: غدًا؛ ويأتيه غدًا فيقول: بعد غد؛ وهكذا؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»[1]؛ ونجد أولئك القوم الأشحاء ذوي الطمع لا يُنظرون المعسر، ولا يرحمونه؛ يقول له: أعطني؛ وإلا فالحبس؛ ويحبس فعلًا - وإن كان لا يجوز حبسه إذا تيقنا أنه معسر، ولا مطالبته، ولا طلب الدين؛ بل يعزر الدائن إذا ألح عليه في الطلب وهو معسر؛ لأن طلبه مع الإعسار معصية؛ والتعزير عند أهل العلم واجب في كل معصية لا حدَّ فيها ولا كفارة.

٥ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنه صدقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ والإبراء سنة؛ والإنظار واجب؛ وهنا السنة أفضل من الواجب بنص القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ووجه ذلك أن الواجب ينتظم في السنة؛ لأن إبراء المعسر من الدَّين إنظار وزيادة؛ وعلى هذا فيبطل إلغاز من ألغز بهذه المسألة وقال: «**لنا سنة أفضل من الواجب**»، ومثل ذلك قول بعضهم في الوضوء ثلاثًا: «**إنه أفضل من الوضوء واحدة مع أن الواحدة واجب، والثلاث سنة**»؛ فيُلغِز بذلك، ويقول: «**هنا سنة أفضل من واجب**»؛ فيقال له: هذا إلغاز باطل؛ لأن هذه السنة مشتملة على الواجب؛ فهي واجب وزيادة؛ وصدق الله حيث قال في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[2]؛ وهذا الحديث

(١) رواه البخاري (٢١٦٦)، ومسلم (١٥٦٤).
(٢) سبق تخريجه.

يبطل مثل هذه الألغاز التافهة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل، وأن العاملين بعضهم أفضل من بعض؛ وهذا أمر معلوم بالضرورة الشرعية والعقلية أن العمال يختلفون، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

ويتفرع على تفاضل العمال بتفاضل الأعمال: تفاضل الإيمان؛ لأن الأعمال من الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ فإذا تفاضلت لزم من ذلك تفاضل الإيمان؛ ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

٧ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة العلم، وأن العلم يهدي صاحبه إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨ - **وهل يستفاد من الآية الكريمة** أن إبراء الغريم يجزئ من الزكاة: فلو أن إنسانًا أبرأ فقيرًا، ثم قال: أبرأته عن زكاتي؛ لأن الله سمى الزكاة صدقة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..﴾ [التوبة:٦٠]

الصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يجزئ؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]؛ وجعْل الدَّين زكاة للعين هذا من تيمم الخبيث لإخراجه عن الطيب؛ والمراد بالخبيث هنا الرديء - وليس الحرام؛ لأن العين مُلك قائم بيد المالك يتصرف فيه كيف يشاء؛ والدَّين الذي على معسر مال تالف؛ لأن الأصل بقاء الإعسار؛ وحينئذٍ يكون هذا الدَّين بمنزلة المال التالف؛ فلا يصح أن يجعل هذا المال التالف زكاة عن العين؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن إبراء الغريم المعسر لا يجزئ من الزكاة بلا نزاع؛ ولو قلنا: يجزئ لكان كل إنسان له غُرَمَاء لا يستطيعون الوفاء يقول: أبرأتكم ونويتها من الزكاة؛ فتبقى الأموال عنده، والديون التالفة الهالكة التي لا يرجى حصولها تكون هي الزكاة؛ وهذا لا يجوز؛ ولهذا لو خيرت شخصًا وقلت له: أنا أعطيك عشرة ريالات نقدًا، أو أحولك على إنسان فقير معسر عنده العشرة فإنه يختار العشرة نقدًا؛ ولا يتردد؛ بل لو خيرته بين عشرة نقدًا وعشرين في ذمة معسر لاختار العشرة؛ فصارت العشرة المنقودة بالنسبة للدَّين من باب الطيب؛ وذاك من باب الرديء؛ وبهذا يتبين أنه لا يجزئ إبراء المدين المعسر عن زكاة

مال بيد مالكه؛ لأنه من باب تيمم الخبيث؛ إذنْ نقول: لا يجوز إبراء الفقير واحتساب ذلك من الزكاة؛ نعم لو فرض أنه سيجعلها زكاة عن الدَّين الذي في ذمة المعسر - إذا قلنا بوجوب الزكاة في الدَّين - لكان ذلك مجزئًا؛ لأن هذا صار من جنس المال الذي أديت الزكاة عنه.

الخلاصة: تبين مما ذكر من الآيتين أن المعاملة بالدَّين ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأخذ به ربًا؛ وهذا محرم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

الثاني: أن يكون المدين معسرًا؛ فلا تجوز مطالبته، ولا طلب الدَّين منه حتى يوسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

الثالث: أن يبرئ المعسر من دينه؛ وهذا أعلى الأقسام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

تتمة:

في هذه الآية وجوب الإنظار إلى ميسرة؛ ومن المعلوم أن حصول الميسرة مجهول؛ وهذا لا يضر؛ لأنه ليس من باب المعاوضة؛ ولكن لو اشترى فقير من شخص، وجعل الوفاء مقيدًا بالميسرة فهل يجوز ذلك؟ فيه قولان؛ فأكثر العلماء على عدم الجواز؛ لأن الأجل مجهول؛ فيكون من باب الغرر المنهي عنه؛ والقول الثاني: أن ذلك جائز لحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: «قَدِمَ لِفُلَانٍ الْيَهُودِيِّ بَزٌّ مِنَ الشَّامِ لَوْ أَرْسَلْتَ إِلَيْهِ فَاشْتَرَيْتَ مِنْهُ ثَوْبَيْنِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَامْتَنَعَ»[1]؛ ولأن هذا مقتضى العقد إذا علم البائع بإعسار المشتري؛ إذ لا يحلُّ له حينئذٍ أن يطلب منه الثمن حتى يوسر؛ وهذا القول هو الراجح.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ أي: اتقوا عذاب يوم؛ أي: احذروه؛ والمراد به يوم القيامة؛ لقوله

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٢١٣)، والنسائي (٤٦٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٢٣٦).

تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾؛ وعلى هذا تكون ﴿يَوْمًا﴾ منصوبة على المفعولية؛ لأن الفعل وقع عليها - لا فيها.

قوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾؛ لأنه نكرة؛ والجمل بعد النكرات صفات؛ وهي بضم التاء وفتح الجيم على أنه مبني لما لم يُسَمَّ فاعله؛ وفي قراءة بفتح التاء وكسر الجيم على أنه مبني للفاعل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تعطى؛ والتوفية بمعنى الاستيفاء؛ وهو أخذ الحق ممن هو عليه؛ فـ ﴿تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تعطى ثوابها وأجرها المكتوب لها - إن كان عملها صالحًا؛ أو تعطى العقاب على عملها - إن كان عملها سيئًا.

قوله تعالى: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما حصلت عليه من ثواب الحسنات، وعقوبة السيئات.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ جملة استئنافية؛ ويحتمل أن تكون جملة حالية؛ لكن الأول أظهر؛ والمعنى: لا ينقصون شيئًا من ثواب الحسنات،ولا يزاد عليهم شيئًا من عقوبة السيئات.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** وجوب اتقاء هذا اليوم الذي هو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾؛ واتقاؤه يكون بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

٢ - **ومنها:** أن التقوى قد تضاف لغير الله - لكن إذا لم تكن على وجه العبادة؛ فيقال: اتق فلانًا، أو: اتق كذا؛ وهذا في القرآن والسنة كثير؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٣٠ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]؛ لكن فرق بين التقويين؛ التقوى الأولى تقوى عبادة وتذلل وخضوع؛ والثانية تقوى وقاية فقط: يأخذ ما يتقي به عذاب هذا اليوم أو عذاب النار؛ وفي السنة: قال النبي ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ»[1]؛ فأضاف «التقوى» هنا إلى «دعوة المظلوم»؛ واشتهر بين الناس: «اتق شر من أحسنت إليه»؛ لكن هذه التقوى المضافة إلى المخلوق ليست تقوى العبادة الخاصة بالله عز وجل؛ بل هي بمعنى الحذر.

٣ - **ومن فوائد الآية:** إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

٤ - **ومنها:** أن مرجع الخلائق كلها إلى الله حكمًا، وتقديرًا، وجزاءً؛ فالمرجع كله إلى الله سبحانه

(١) رواه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩).

وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، أي: في كل شيء.

٥ - **ومنها**: إثبات قدرة الله عز وجل؛ وذلك بالبعث؛ فإن الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد أن كانوا رميمًا وترابًا.

٦ - **ومنها**: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾؛ لأن توجيه الأمر إلى العبد إذا كان مجبرًا من تكليف ما لا يطاق.

٧ - **ومنها**: أن الإنسان لا يوفى يوم القيامة إلَّا عمله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ واستدل بعض العلماء على أنه لا يجوز إهداء القرب من الإنسان إلى غيره؛ أي أنك لو عملت عملًا صالحًا لشخص معين فإن ذلك لا ينفعه ولا يستفيد منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؛ لا ما كسب غيرها؛ فما كسبه غيره فهو له؛ واستثني من ذلك ما دلت السنة على الانتفاع به من الغير كالصوم؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[1]؛ والحج؛ لقول النبي ﷺ للمرأة التي استفتته أن تحج عن أبيها وكان شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة قالت: أفأحج عنه؟قال: «نَعَمْ»[2]؛ وكذلك المرأة التي استفتته أن تحج عن أمها التي نذرت أن تحج، ولم تحج حتى ماتت قالت: أفأحج عنها؟ قال ﷺ: «نَعَمْ»[3]؛ وكذلك الصدقة؛ لقول النبي ﷺ لمن استفتاه أن يتصدق عن أمه: «نَعَمْ»[4]؛ وأذن لسعد بن عبادة أن يتصدق بمخرافه عن أمه[5]؛ وأما الدعاء للغير إذا كان المدعو له مسلمًا فإنه ينتفع به بالنص والإجماع؛ أما النص ففي الكتاب والسنة؛ أما الكتاب :ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]؛ وأما السنة ففي قوله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومَ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[6]، وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ

(١) رواه البخاري (١٨٥١)، ومسلم (١١٤٧).
(٢) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٣٣٤).
(٣) رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (١٢٤٤٤).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) انظر «صحيح البخاري» (٢٦٠٥).
(٦) رواه مسلم (٩٤٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٠٩).

التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»[1]، وأما الإجماع: فإن المسلمين كلهم يصلون على الأموات، ويقولون في الصلاة: «اللهم اغفر له، وارحمه»؛ فهم مجمعون على أنه ينتفع بذلك.

والخلاف في انتفاع الميت بالعمل الصالح من غيره فيما عدا ما جاءت به السنة معروف؛ وقد ذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ إلى أن أيَّ قربة فعلها وجعل ثوابها لميت مسلم قريب أو بعيد نفعه ذلك؛ ومع هذا فالدعاء للميت أفضل من إهداء القرب إليه؛ لأنه الذي أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[2]؛ ولم يذكر العمل مع أن الحديث في سياق العمل.

وأما ما استدل به المانعون من إهداء القرب من مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] فإنه لا يدل على المنع؛ بل على أن سعي الإنسان ثابت له؛ وليس له من سعي غيره شيء إِلَّا أن يجعل ذلك له؛ ونظير هذا أن تقول: «ليس لك إِلَّا مالك»، فإنه لا يمنع أن يقبل ما تبرع به غيره من المال.

وأما الاقتصار على ما ورد: فيقال: إن ما وردت قضايا أعيان؛ لو كانت أقوالًا من الرسول ﷺ قلنا: نعم، نتقيد بها؛ لكنها قضايا أعيان: جاءوا يسألون قالوا: فعلت كذا، قال: نعم، يجزئ؛ وهذا مما يَدلُّ على أن العمل الصالح من الغير يصل إلى من أُهدي له؛ لأننا لا ندري لو جاء رجل وقال: يا رسول الله، صليت ركعتين لأمي، أو لأبي، أو لأخي أفيجزئ ذلك عنه، أو يصل إليه ثوابه ؟لا ندري ماذا يكون الجواب؛ ونتوقع أن يكون الجواب: «نعم»؛ أما لو كانت هذه أقوال بأن قال: «مَنْ تَصَدَّقَ لِأُمِهِ أَوْ لِأَبِيهِ فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ»، أو ما أشبه ذلك لقلنا: إن هذا قول، ونقتصر عليه.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن الصغير يكتب له الثواب؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

فإن قال قائل: وهل يعاقب على السيئات؟

فالجواب: لا؛ لقول النبي ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ..»، وذكر منها: «الصَّغِيرُ حَتَّى يَحْتَلِمَ»[3]؛ ولأنه ليس له قصد تامٌّ لعدم رشده؛ فيشبه البالغ إذا أخطأ أو نسي.

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٩٤٥).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٣٥١٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]

❁ التفسير ❁

هذه الآية الكريمة أطول آية في كتاب الله؛ وهي في المعاملات بين الخلق؛ وأقصر آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١]؛ لأنها ستة أحرف؛ وأجمع آية للحروف الهجائية كلها آيتان في القرآن فقط؛ إحداهما: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية؛ والثانية: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ..﴾ [الفتح: ٢٩] الآية؛ فقد اشتملت كل واحدة منهما على جميع الحروف الهجائية.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ سبق الكلام على مثل هذه العبارة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: إذا داين بعضكم بعضًا؛ و«الدين»: كل ما ثبت في الذمة من ثمن بيع، أو أجرة، أو صداق، أو قرض، أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة محدودة ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: اكتبوا الدين المؤجل إلى أجله؛ والفاء هنا رابطة لجواب الشرط في ﴿إِذَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب﴾ اللام للأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الواو؛ وهي تسكن إذا وقعت

بعد الواو، كما هنا؛ وبعد «ثم» والفاء، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ﴾ [الحج: ١٥] بخلاف لام التعليل؛ فإنها مكسورة بكل حال؛ و﴿بَّيْنَكُمْ﴾ أي: في قضيتكم؛ و﴿كَاتِبٌ﴾ نكرة يشمل أيَّ كاتب؛ ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالاستقامة - وهو ضد الجوْرِ؛ والمراد به: ما طابق الشرع؛ وهو متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، أي: لا يمتنع كاتب عن الكتابة إذا طلب منه ذلك.

قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ فالمعنى حينئذ: أن يكتب كتابة حسب علمه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويحتمل أن تكون الكاف للتعليل؛ فالمعنى: أنه لما علمه الله فليشكر نعمته عليه، ولا يمتنع من الكتابة.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾؛ الفاء للتفريع واللام لام الأمر؛ ولكنها سكنت؛ لأنها وقعت بعد الفاء؛ وموضع: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ مما قبلها في المعنى قال بعض العلماء: إنها من التوكيد؛ لأن النهي عن إباء الكتابة يستلزم الأمر بالكتابة؛ فهي توكيد معنوي؛ وقيل: بل هي تأسيس تفيد الأمر بالمبادرة إلى الكتابة، أو هي تأسيس توطئة لما بعدها؛ والقاعدة: أنه إذا احتمل أن يكون الكلام توكيدًا أو تأسيسًا حمل على التأسيس؛ لأنه فيه زيادة معنى؛ وبناءً على هذه القاعدة يكون القول بأنها تأسيس أرجح.

قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي: يملي؛ وهما لغتان فصيحتان؛ فـ «الإملال» و«الإملاء» بمعنًى واحد؛ فتقول: «أمليت عليه»؛ و«أمللت عليه» لغة عربية فصحى - وهي في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ لما أمر الله عز وجل بأن الذي يملي هو الذي عليه الحق دون غيره وجه إليه أمرًا ونهيًا؛ الأمر: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني: يتخذ وقاية من عذاب الله، فيقول الصدق؛ والنهي: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص لا في كميته، ولا كيفيته، ولا نوعه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾، أي: لا يحسن التصرف؛ ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾؛ الضعف هنا ضعف الجسم، وضعف العقل؛ وضعف الجسم لصغره؛ وضعف العقل لجنونه؛ كأن يكون الذي عليه الحق صغيرًا لم يبلغ؛ أو كان كبيرًا لكنه مجنونٌ، أو معتوهٌ؛ فهذا لا يملل؛ وإنما يملل وليه؛ ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أي: لا يقدر أن يملي لخرس، أو غيره؛ وقوله تعالى: ﴿أَن يُمِلَّ﴾ مؤولة بمصدر على أنه مفعول به؛ والضمير: ﴿هُوَ﴾ للتوكيد؛ وليست هي الفاعل؛ بل الفاعل مستتر في ﴿يمل﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾: اللام هنا لام الأمر؛ وسكنت لوقوعها بعد الفاء؛ ﴿وَلِيُّهُ﴾ أي: الذي يتولى شئونه من أب، أو جد، أو أخ، أو أم، أو غيرهم.

قوله تعالى: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ يعني: إملاءً بالعدل بحيث لا يجور على من له الحق لمحاباة قريبه، ولا يجور على قريبه خوفًا من صاحب الحق؛ بل يجب أن يكون إملاؤه بالعدل؛ و«العدل» هنا هو: الصدق المطابق للواقع؛ فلا يزيد ولا ينقص.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، أي: اطلبوا شهيدين من رجالكم.

وقوله تعالى: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، أي: إن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان؛ وهذا يدل على التخيير مع ترجيح الرجلين على الرجل والمرأتين.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾: الجملة جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا..﴾؛ والفاء هنا رابطة للجواب؛ و«رجل» خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: فالشاهد رجل وامرأتان.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ﴾ أي: فذَكَر بالغ؛ و﴿وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: أنثيان بالغتان؛ لأن الرجل والمرأة إنما يطلقان على البالغ.

قوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة؛ أي رجل وامرأتان كائنون ممن ترضون من الشهداء؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿تَرْضَوْنَ﴾ موجه للأمة؛ يعني: بحيث يكون الرجل والمرأتان مرضيين عند الناس؛ لأنه قد يُرضى شخص عند شخص ولا يُرضى عند آخر؛ فلابد أن يكون هذان الشاهدان أو هؤلاء الشهود - أي: الرجل والمرأتان - ممن عرف عند الناس أنهم مرضيون؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر؛ أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس وبعد العصر حتى تغرب**»(١)؛ إذنْ العبرة بالرضى عند عموم الناس؛ لا برضى المشهود له؛ لأنه قد يرضى بمن ليس بِمُرْضٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾: بيان لـ «مَنْ» الموصولة؛ لأن الاسم الموصول من المبهمات؛ فيحتاج إلى بيان؛ فإذا قلت: «**يعجبني من كان ذكيًّا**» فهذا مبهم؛ فإذا قلت: «**يعجبني من كان ذكيًّا من الطلاب**» صار مبينًا.

قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ فيها قراءات؛ القراءة الأولى بفتح همزة ﴿أَن﴾؛ وعلى هذا يجوز قراءتان في قوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾: تخفيف الكاف: (فتذْكِرَ)

---

(١) رواه البخاري (٥٥٦)، ومسلم (٨٢٦).

وتشديدها: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾؛ مع فتح الراء فيهما؛ والقراءة الثالثة: بكسر همزة ﴿إن﴾ مع ضم الراء في قوله تعالى: ﴿فتذكِّرُ﴾، وتشديد الكاف.

وقوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ من التذكير؛ وهو تنبيه الإنسان الناسي على ما نسي؛ ومن غرائب التفسير أن بعضهم قال: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ معناه: تجعلها بمنزلة الذَّكَر - لاسيما على قراءة التخفيف؛ أي: تكون المرأتان كالذَّكَر؛ وهذا غريب؛ لأنه لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ فالذي يقابل الضلال بمعنى النسيان: التذكير - أي تنبيه الإنسان على نسيانه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ من البلاغة: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه لم يقل: فتذكرها الأخرى؛ لأن النسيان قد يكون متفاوتًا، فتنسى هذه جملة، وتنسى الأخرى جملة؛ فهذه تذكر هذه بما نسيت؛ وهذه تذكر هذه بما نسيت؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾: لئلا يكون المعنى قاصرًا على واحدة هي الناسية، والأخرى تذكرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أي: لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتحمل الشهادة أو أدائها؛ و﴿مَا﴾ هذه زائدة لوقوعها بعد ﴿إِذَا﴾؛ وفيها بيت مشهور يقول فيه:

يا طالبًا خُذْ فَائِدة ... ما بعد إذا زائدة

واستعمالات «ما» عشر؛ هي كما جاءت في بيت من الشعر:

محامل «ما» عشر إذا رمت عدّها ... فحافظ على بيت سليم من الشعر

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكفٍّ ونفي زيد تعظيم مصدر

ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد بمعنى أنه لا معنى له؛ بل زائد إعرابًا فقط؛ أما في المعنى فليس بزائد.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: لا تملّوا أن تكتبوا الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا إلى أجله المسمى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه كل ما سبق من الأحكام؛ ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أقوم وأعدل؛ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أقرب إلى إقامتها؛ ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي: أقرب إلى انتفاء الريبة عندكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: فيها قراءتان؛ إحداهما بنصب ﴿تِجَٰرَةً﴾، و﴿حَاضِرَةً﴾؛ والثانية برفعهما؛ على الأول اسم ﴿تَكُونَ﴾ مستتر؛ والتقدير: إلَّا أن

تكون الصفقة تجارة حاضرة؛ وجملة: ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ صفة ثانية لـ ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ أما على قراءة الرفع فإن (تجارةٌ) اسم ﴿تَكُونَ﴾، و﴿حَاضِرَةً﴾ صفة؛ وجملة: ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ خبر ﴿تَكُونَ﴾.

والتجارة هي: كل صفقة يراد بها الربح؛ فتشمل البيع، والشراء، وعقود الإجارات؛ ولهذا سمى الله سبحانه وتعالى الإيمان والجهاد في سبيله تجارة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

وأما قوله تعالى: ﴿حَاضِرَةً﴾ فهي ضد قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾؛ فالحاضر: ما سوى الدَّين.

وقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ أي: تتعاطونها بينكم بحيث يأخذ هذا سلعته، والآخر يأخذ الثمن، وهكذا.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: الفاء عاطفة، أو للتفريع؛ يعني ففي هذه الحال ليس عليكم إثم في عدم كتابتها؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿تَكْتُبُوهَا﴾ يعود على التجارة؛ فهذه التجارة المتداولة بين الناس ليس على الإنسان جناح إذا لم يكتبها؛ لأن الخطأ فيهاوالنسيان بعيد؛ إذ إنها حاضرة تدار ويتعاطاها الناس بخلاف المؤجلة.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي: باع بعضكم على بعض.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾؛ مأخوذة من: الإضرار؛ يحتمل أن تكون مبنية للفاعل؛ فيكون أصلها «يضارِر» بكسر الراء الأولى؛ أو للمفعول؛ فيكون أصلها «يضارَر» بفتحها؛ ويختلف إعراب ﴿كَاتِبٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾ بحسب بناء الفعل؛ فإن كانت مبنية للفاعل فـ ﴿كَاتِبٌ﴾ فاعل؛ وإن كانت للمفعول فـ ﴿كَاتِبٌ﴾ نائب فاعل؛ وهذا من بلاغة القرآن تأتي الكلمة صالحة لوجهين لا ينافي أحدهما الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ أي: يضار الكاتب، أو الشهيد – على الوجهين ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي الفعل – وهو المضارة؛ ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خروج بكم عن طاعة الله إلى معصيته؛ وأصل «الفسق» في اللغة: الخروج؛ ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ الواو هنا للاستئناف؛ ولا يصح أن تكون معطوفة على ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التقوى وعدمها – وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشمل كل ما في السماء والأرض.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** العناية بما ذُكر من الأحكام؛ وذلك لتصدير الحكم بالنداء ثم توجيه النداء إلى المؤمنين؛ لأن هذا يدل على العناية بهذه الأحكام، وأنها جديرة بالاهتمام بها.

٢ - **ومنها:** أن التزام هذه الأحكام من مقتضى الإيمان؛ لأنه لا يوجه الخطاب بوصف إلَّا لمن كان هذا الوصف سببًا لقبوله ذلك الحكمَ.

٣ - **ومنها:** أن مخالفة هذه الأحكام نقص في الإيمان كأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لإيمانكم افعلوا كذا؛ فإن لم تفعلوا فإيمانكم ناقص؛ لأن كل من يدَّعي الإيمان ثم يخالف ما يقتضيه هذا الإيمان فإن دعواه ناقصة إما نقصًا كليًّا، أو نقصًا جزئيًّا.

٤ - **ومنها:** بيان أن الدين الإسلامي كما يعتني بالعبادات - التي هي معاملة الخالق - فإنه يعتني بالمعاملات الدائرة بين المخلوقين.

٥ - **ومنها:** دحر أولئك الذين يقولون: إن الإسلام ما هو إلَّا أعمال خاصة بعبادة الله عز وجل، وبالأحوال الشخصية، كالمواريث، وما أشبهها؛ وأما المعاملات فيجب أن تكون خاضعة للعصر والحال؛ وعلى هذا فينسلخون من أحكام الإسلام فيما يتعلق بالبيوع والإجارات وغيرها إلى الأحكام الوضعية المبنية على الظلم والجهل.

فإن قال قائل: لهم في ذلك شبهة؛ وهو أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة ورآهم يلقحون الثمار قال: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلوا لَصَلُحَ**» فخرج شيصًا - أي فاسدًا -؛ فمر بهم فقال: «**ما لنخلكم؟**»قالوا: قلت كذا، وكذا؛ قال:«**أَنْتُم أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم**»[1]؛ قالوا: **والمعاملات من أمور الدنيا، وليست من أمور الآخرة.**

فالجواب: أنه لا دليل في هذا الحديث لما ذهبوا إليه؛ لأن الحادثة المذكورة من أمور الصنائع التي مَنْ يمارسها فهو أدرى بها، وتدرك بالتجارِب؛ وإلا لكان علينا أن نقول: لابد أن يعلمنا الإسلام كيف نصنع السيارات والمسجلات والطوب وكل شيء!!! أما الأحكام - الحلال والحرام - فهذا مرجعه إلى الشرع؛ وقد وفى بكل ما يحتاج الإنسان إليه.

٦ - **ومن فوائد الآية:** جواز الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ سواء كان هذا الدَّين ثمن مبيع، أو قرضًا، أو أجرة، أو صداقًا، أو عوض خلع، أو أي دين يكون؛ المهم أن في الآية إثبات الدَّين شرعًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣).

٧ - **ومنها**: أن الدَّين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مؤجل بأجل مسمى؛ ومؤجل بأجل مجهول؛ وغير مؤجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ والدَّين إلى غير أجل جائز مثل أن أشتري منك هذه السلعة، ولا أعطيك ثمنها، ولا أعينه لك؛ فهذا دَين غير مؤجَّل؛ وفي هذه الحال لك أن تطالبني بمجرد ما ينتهي العقد؛ وأما الدَّين إلى أجل غير مسمى فلا يصح؛ وأُخذ هذا القسم من قوله تعالى: ﴿مُّسَمًّى﴾ - مثل أن أقول لك: «اشتريت منك هذه السلعة إلى قدوم زيد» - وقدومه مجهول؛ لأن فيه غررًا؛ وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»[1]؛ والدين إلى أجل غير مسمى لا يكتب؛ لأنه عقد فاسد، والدَّين إلى أجل مسمى جائز بنص الآية.

٨ - **ومن فوائد الآية**: جواز السلم - وهو تعجيل الثمن، وتأخير المثمن، مثل أن أشتري مائة صاع من البر إلى سنة، وأعطيك الدراهم؛ فيسمى هذا سلمًا؛ لأن المشتري أسلم الثمن وقدمه.

٩ - **ومنها**: وجوب كتابة الدَّين المؤجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾؛ وذهب الجمهور إلى عدم وجوب الكتابة - أعني كتابة الدين المؤجل؛ لقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ وينبغي على هذا القول أن يستثنى من ذلك ما إذا كان الدائن متصرفًا لغيره، كوليِّ اليتيم فإنه يجب عليه أن يكتب الدَّين الذي له لئلا يضيع حقه.

١٠ - **ومنها**: حضور كل من الدائن والمدين عند كتابة الدَّين؛ لقوله تعالى: ﴿بَّيْنَكُمْ﴾؛ ولا تتحقق البينية إلَّا بحضورهما.

١١ - **ومنها**: أنه لابد أن يكون الكاتب محسنًا للكتابة في أسلوبه وحروفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾.

١٢ - **ومنها**: أنه يجب على الكاتب أن يكتب بالعدل بحيث لا يجحف مع الدائن، ولا مع المدين؛ و«**العدل**» هو ما طابق الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

ويتفرع على ذلك: أن يكون الكاتب ذا علم بالحكم الشرعي فيما يكتب.

١٣ - **ومنها**: أنه لا يشترط تعيين كاتب للناس بشخصه، وأن أيَّ كاتب يتصف بإحسان

(١) رواه البخاري (٢١٢٤)، ومسلم (١٦٠٤).

الكتابة والعدل فكتابته ماضية نافذة؛ لقوله تعالى: ﴿كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ﴾؛ وهي نكرة لا تفيد التعيين.

١٤ - **ومنها،** تحريم امتناع الكاتب أن يكتب كما علمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ﴾؛ ولهذا أكد هذا النهي بالأمر بالكتابة في قوله تعالى ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ - هذا ظاهر الآية -، ويحتمل أن يقال: إنْ توقف ثبوت الحق على الكتابة كانت الكتابة واجبة على من طلبت منه؛ وإلا لم تجب، كما قلنا بوجوب تحمل الشهادة إذا توقف ثبوت الحق عليها.

١٥ - **ومنها،** أنه يجب على الكاتب أن يكتب على حسب علمه من الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

١٦ - **ومنها،** تذكير هؤلاء الكتبة بنعمة الله، وأن مِن شُكر نعمة الله عليهم أن يكتبوا؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ وهذا مبني على أن الكاف هنا للتعليل.

فإن قيل: «إنها للتشبيه» صار المعنى: أنه مأمور أن يكتب على الوجه الذي علمه الله من إحسان الخط وتحرير الكتابة.

١٧ - **ومنها،** أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر أو السمع أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلَّا بتعليم الله عز وجل.

١٨ - **ومنها،** مبادرة الكاتب إلى الكتابة بدون مماطلة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾.

١٩ - **ومنها،** أن الرجوع في مقدار الدَّين، أو نوعه، أو كيفيته؛ بل في كل ما يتعلق به إلى المدين الذي عليه الحق - لا إلى الدائن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنه لو أملل الذي له الحق فربما يزيد.

لكن إذا قال قائل: وإذا أملى الذي عليه الحق فربما ينقص؟!

فالجواب: أن الله حذره من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

٢٠ - **ومنها،** أن من عليه الحق لا يكتب؛ وإنما يكتب كاتب بين الطرفين؛ لأن الذي عليه الحق وظيفته الإملال؛ ولكن لو كتب صحت كتابته؛ إلَّا أن ذلك لا يؤخذ من هذه الآية؛ يؤخذ من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]؛ وكتابة الإنسان على نفسه إقرار؛ وإقرار الإنسان على نفسه مقبول.

٢١ - **ومن فوائد الآية،** وجوب تقوى الله عز وجل على من عليه الحق، وأن يتحرى العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٢٢ - **ومنها**: أنه ينبغي في مقام التحذير أن يُذكَر كلُّ ما يكون به التحذير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ ففي مقام الألوهية يتخذ التقوى عبادة؛ لأن الألوهية هي توحيد العبادة؛ وفي مقام الخوف من الانتقام يكون مشهده الربوبية؛ لأن الرب عز وجل خالق مالك مدبر.

٢٣ - **ومنها**: أنه يحرم على من عليه الدَّين أن يبخس منه شيئًا لا كمية، ولا نوعًا، ولا صفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

٢٤ - **ومنها**: أن الوليَّ يقوم مقام المولَّى عليه في الإملال؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٢٥ - **ومنها**: أن أسباب القصور ثلاثة: السفه والضعف وعدم الاستطاعة.

السفه: ألا يحسن التصرف؛ والضعيف: يشمل الصغير، والمجنون؛ ومن لا يستطيع: يشمل من لا يقدر على الإملال لخرس، أو عيٍّ، أو نحو ذلك.

٢٦ - **ومنها**: قبول قول الوليِّ فيما يقر به على مولَّاه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾.

٢٧ - **ومنها**: وجوب مراعاة العدل على الوليِّ؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾؛ فلا يبخس من له الحق؛ ولا يبخس من عليه الحق ممن هو مولى عليه.

٢٨ - **ومنها**: طلب الإشهاد على الحق.

٢٩ - **ومنها**: أن البينة إما رجلان؛ وإما رجل وامرأتان؛ وجاءت السنة بزيادة بينة ثالثة - وهي الرجل ويمين المدَّعي؛ وأنواع طرق الإثبات مبسوطة في كتب الفقهاء.

٣٠ - **ومنها**: أنه لابد في الشاهدين من كونهما مرضيين عند المشهود له والمشهود عليه.

٣١ - **ومنها**: قصر حفظ المرأة وإدراكها عن حفظ الرجل، وهذا باعتبار الجنس؛ فلا يرد على ذلك من نبوغ بعض النساء وغفلة بعض الرجال.

٣٢ - **ومنها**: جواز شهادة الإنسان فيما نسيه إذا ذُكِّر به فذكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ فإن ذُكِّر ولم يذكر لم يشهد.

٣٣ - **ومنها**: تحريم امتناع الشاهد إذا دُعي للشهادة؛ وهذا تحته أمران:

الأمر الأول: أن يُدعى لتحمل الشهادة؛ وقد قال العلماء في هذا: إنه فرض كفاية؛ وظاهر الآية الكريمة أنه فرض عين على من طلبت منه الشهادة بعينه؛ وهو الحق؛ لأنه قد لا يتسنى لطالب الشهادة أن يشهد له من تُرضى شهادته.

الأمر الثاني: أن يُدعى لأداء الشهادة؛ فيجب عليه الاستجابة؛ لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٣٤ - **ومن فوائد الآية**: النهي عن السأم في كتابة الدَّين سواء كان صغيرًا أو كبيرًا؛ والظاهر أن النهي هنا للكراهة.

٣٥ - **ومنها**: أنه إذا كان الدَّين مؤجلًا فإنه يبيِّن الأجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾.

٣٦ - **ومنها**: أن ما ذُكر من التوجيهات الإلهية في هذه الآية فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: أنه أقسط عند الله - أي أعدل عنده لما فيه من حفظ الحق لمن هو له أو عليه.

الثانية: أنه أقوم للشهادة؛ لأنه إذا كتب لم يحصل النسيان.

الثالثة: أنه أقرب لعدم الارتياب.

٣٧ - **ومن فوائد الآية**: العمل بالكتابة، واعتمادها حجةً شرعية إذا كانت من ثقة معروف خطه؛ ويؤيد هذا قوله ﷺ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»(١).

٣٨ - **ومنها**: أن الشهادات تتفاوت؛ فمنها الأقوم؛ ومنها القيم؛ ومنها ما ليس بقيم:

فالذي ليس بقيم: هو الذي لم تتم فيه شروط القبول.

والقيم: هو الذي صار فيه أدنى الواجب.

والأقوم: ما كان أكمل من ذلك؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾.

فإذا قيل: ما مثال القيم؟

فنقول: مثل شاهد ويمين؛ لكن أقوم منه الشاهدان؛ لأن الشاهدين أقرب إلى الصواب من الشاهد الواحد؛ ولأن الشاهدين لا يحتاج معهما إلى يمين المدعي؛ فكانت شهادة الشاهدين أقوم للشهادة.

٣٩ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل ما يكون له فيه ارتياب وشك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن دين الإسلام يريد من معتنقيه أن يكونوا دائمًا على اطمئنان وسكون.

ويتفرع أيضًا منها: أن دين الإسلام يحارب ما يكون فيه القلق الفكري أو النفسي؛ لأن الارتياب يوجب قلق الإنسان واضطرابه.

ويتفرع عليه أيضًا: أنه ينبغي للإنسان إذا وقع في محلٍّ قد يستراب منه أن ينفي عن نفسه ذلك؛

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٧).

وربما يؤيد هذا الأثر المشهور: «رحم الله امرءاً كفّ الغيبة عن نفسه»[(١)]؛ لا تقل: إن الناس يحسنون الظن بي، ولن يرتابوا في أمري؛ لا تقل هكذا؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فربما لا يزال يوسوس في صدور الناس حتى يتهموك بما أنت منه بريء.

٤٠ - **ومن فوائد الآية**: جواز الإتجار؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾؛ ولكن هذا الإطلاق مقيد بالشروط التي دلت عليها النصوص؛ فلو أتجر الإنسان بأمر محرم فهذا لا يجوز من نصوص أخرى؛ ولو رابى الإنسان يريد التجارة والربح قلنا: هذا حرام من نصوص أخرى؛ إذنْ هذا المطلق الذي هو التجارة مقيد بالنصوص الدالة على أن التجارة لابد فيها من شروط.

٤١ - **ومنها**: أن التجارة نوعان: تجارة حاضرة، وتجارة غير حاضرة.

فأما الحاضرة: فهي التي تدار بين الناس بدون أجل.

وأما غير الحاضرة: فهي التي تكون بأجل، أو على مسمى موصوف غير حاضر.

٤٢ - **ومنها**: أن الأصل في التجارة الدوران؛ لقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾؛ فأما الشيء الراكد الذي لا يدار فهل يسمى تجارة؟ يرى بعض العلماء أنه ليس تجارة؛ ولذلك يقولون: ليس فيه زكاة، وأن الزكاة إنما هي في المال الذي يدار - يعني: يتداول؛ ويرى آخرون أنها تجارة؛ ولكنها تجارة راكدة؛ وهذا يقع كثيرًا فيها إذا فسدت التجارة وكسد البيع؛ فربما تبقى السلع عند أصحابها مدة طويلة لا يحركونها؛ لكن هي في حكم المدارة؛ لأن أصحابها ينتظرون أيّ إنسان يأتي، فيبيعون عليه.

٤٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجب كتابة التجارة الحاضرة المدارة - ولو كان ثمنها غير منقود؛ بخلاف ما إذا تداين بدين إلى أجل مسمى؛ فإنه تجب كتابة الدَّين على ما سبق من الخلاف في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

٤٤ - **ومنها**: الأمر بالإشهاد عند التبايع

وهل الأمر للوجوب؛ أو للاستحباب؛ أو للإرشاد؟

فيه خلاف؛ والراجح أنه ليس للوجوب؛ لأن النبي ﷺ اشترى ولم يُشهِد[(٢)]؛ والأصل عدم الخصوصية؛ ولأن إيجابه فيه شيء من الحرج والمشقة؛ لكثرة تداول التجارة؛ اللهم إِلَّا أن يكون التصرف للغير، كالوكيل والوليّ؛ فربما يقال بوجوب الإشهاد في المبايعات الخطيرة.

٤٥ - **ومن فوائد الآية**: أن الإشهاد ينبغي أن يكون حين التبايع؛ بمعنى أنه لا يتقدم ولا يتأخر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾؛ لأن العقد لم يتم إذا كان الإشهاد قبله؛ وإذا كان بعده فربما

---

(١) «كشف الخفاء» (١/ ٤٢٦)، بلفظ: (رحم الله امرأ جب الغيبة عن نفسه).

(٢) انظر «سنن أبي داود» (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٨٦).

يكون المبيع قد تغير.

٤٦ - **ومنها**: تحريم مضارة الكاتب أو الشهيد: سواء وقع الإضرار منهما أو عليهما.

٤٧ - **ومنها**: أن المضارة - سواء وقعت من الكاتب، أو الشاهد، أو عليهما - فسوق؛ والفسق يترتب عليه زوال الولايات العامة والخاصة إِلَّا ما استثني؛ والفاسق يُهجر إما جوازًا؛ أو استحبابًا، أو وجوبًا - على حسب الحال - إن كان في الهجر إصلاح له.

فإن قال قائل: أفلا يشكل هذا على القاعدة المعروفة أن الفسق لا يتصف به الفاعل إِلَّا إذا تكرر منه، أو كان كبيرة؟.

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى حكم على المضارة بأنها فسوق؛ والقرآن يَحكم، ولا يُحكَم عليه.

٤٨ - **ومن فوائد الآية**: أن هذا الفعل فسوق لا يُخرِ من الإيمان؛ لأنه لم يصف الفاعل بالكفر؛ بل قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾؛ ومجرد الفسق لا يخرج من الإيمان؛ ولكن الفسق المطلق يخرج من الإيمان؛ لأن الخروج عن الطاعة خروجًا عامًّا يخرج من الإيمان، ويوجب الخلود في النار، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

٤٩ - **ومن فوائد الآية**: وجوب تقوى الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٥٠ - **ومنها**: امتنان الله عز وجل على عباده بالتعليم، حيث قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٥١ - **ومنها**: أن الدِّين الإسلامي شامل للأحكام المتعلقة بعبادة الله عز وجل، والمتعلقة بمعاملة عباد الله؛ لأنه بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التوجيهات قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فيكون في ذلك إبطال لزعم من زعم أن الدين الاسلامي في إصلاح ما بين العبد وبين ربه ولا علاقة له بالمعاملة بين الناس.

٥٢ - **ومنها**: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

٥٣ - **ومنها**: ثبوت صفة العلم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن المعلم عالم.

٥٤ - **ومنها**: أن العلم من منة الله عز وجل على عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولا شك أن العلم من أكبر النعم، حيث قال الله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ والعلماء كذلك ورثة الأنبياء؛ فالعلم أفضل من المال - ولا مقارنة - وهو كالجهاد في سبيل الله؛ لأن الدِّين الإسلامي لم ينتشر إلَّا بالعلم والسلاح؛ فالسلاح يذلُّ العدو؛ والعلم ينير له الطريق؛ ولهذا إذا ذلَّ العدو للإسلام وخضع لأحكامه وبذل الجزية وجب الكف عنه، ولا يُقاتَل؛ لكن العلم جهاد يجب أن يكون لكل أحد؛ ثم الجهاد بالسلاح لا يكون إلَّا للكافر المعلن كفره، ولا يكون للمنافق؛ والجهاد بالعلم يكون لهذا ولهذا - للمنافق وللكافر المعلن بكفره؛ والعلم أفضل بكثير من المال؛ والعلم جهاد في سبيل الله - ولاسيما في وقتنا الحاضر؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم على بعض، واختلط بعضهم ببعض، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار، واحتاج الناس الآن للعلم الراسخ المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذلك تجد رجلًا يمر به حديث أو حديثان ثم يقال: أنا ابن جلا، وطلاع الثنايا! من ينال مرتبتي! أنا الذي أفتي بعشرة مذاهب! ثم مع ذلك يندد بمن خالفه - ولو كان من كبار العلماء؛ وربما يضخم الخطأ الذي يقع منه - ولو كان ممن يشار إليه بالفضل، والعلم، والدِّين؛ وهذه خطيرة جدًّا؛ لأن العامي وإن كان وثق بشخص لا يهمه هذا الكلام؛ لكن كلما كرر الضرب على الحديد لابد أن يتأثر؛ لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصًا في هذا الوقت.

٥٥ - ومن فوائد الآية: إثبات هذا الاسم من أسماء الله - وهو ﴿عَلِيمٌ﴾؛ وإثبات ما دلَّ عليه من الصفة - وهي العلم.

٥٦ - ومنها: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٥٧ - ومنها: الرد على القدرية سواء الغلاة منهم، أو غيرهم؛ فإن غلاتهم يقولون: إن الله لا يعلم شيئًا من أفعال العباد حتى يقع؛ يقول شيخ الإسلام في «العقيدة الواسطية»: إن هؤلاء قليل وهذا في عهده، ولا ندري الآن هل زادوا أم نقصوا؛ لكن في الآية ردّ حتى على غير الغالية منهم وهم الذين يقولون: إن الله يعلم؛ لكنه لم يُرد أفعال الإنسان، لأن الإنسان مستقل بإرادته وفعله؛ وجه ذلك ما قاله الشافعي - رحمه الله: «ناظروهم بالعلم؛ فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا»؛ وعلى هذا نقول: في هذه الآية الكريمة دليل على أن أفعال العباد مرادة لله عز وجل؛ لأنها إن لم تكن مرادة فهي إما أن تقع على وفق علمه، أو على خلافه؛ فإن كان على خلافه فهو إنكار لعلمه؛ وإن كان على وفقه فلابد أن تكون مرادة له؛ لأنه أراد أن تقع على حسب علمه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين؛ وذلك كقوله تعالى في آية الصيام: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ وأتى بكلمة: ﴿عَلَىٰ﴾ لتحقق هذا الأمر - وهو السفر؛ لأن ﴿عَلَىٰ﴾ تدل على الاستعلاء؛ فكأنه متمكن من السفر، كالراكب على الراحلة؛ و«السفر»: مفارقة الوطن؛ وبعضهم قال: مفارقة محل الإقامة؛ لأن الإنسان قد لا يستوطن؛ ولكن يقيم دائمًا؛ والمفارقة قد تكون طويلة - ويسمى سفرًا طويلًا؛ وقد تكون قصيرة - ويسمى سفرًا قصيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ أي: يكتب بينكم؛ وهذا كما سبق يحتاج إليه فيما إذا تداينا بدين إلى أجل مسمى؛ فيكون المعنى: إن كنتم على سفر وتداينتم بدَين إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتبًا ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فيها قراءاتان؛القراءة الأولى: ﴿فَرِهَانٌ﴾ بكسر الراء، ومدٌّ الهاء؛ والثانية: ﴿فرُهُن﴾ بضم الراء، والهاء بدون مدٍّ؛ ولهذا تكتب بالألف في خط المصحف لكي تصلح للقراءتين؛ ومعنى ﴿فَرِهَانٌ﴾ أي: فعليكم رهن؛ أو فالوثيقة رهن - أو رهان؛ وعلى هذا فتكون إما مبتدأ خبره محذوف؛ وإما خبر مبتدأ محذوف؛ والجملة في محل جزم على أنها جواب الشرط؛ وقرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية فإنه يقترن بالفاء وجوبًا؛ ولا تحذف إِلَّا شذوذًا، أو اضطرارًا؛ ومن حذفها قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

ولم يقل: فالله يشكرها؛ ولكن هذا على سبيل الضرورة، أو الندرة والشذوذ.

و«الرهان» جمع رهْن؛ و«الرهن» في اللغة: الحبس؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] أي: محبوسة بما عملت؛ ولكنه في اصطلاح الفقهاء: توثقة دَين بعين يمكن استيفاؤه، أو بعضِهِ منها، أو من بعضها، مثل ذلك: زيد مدين لعمرو بعشرة آلاف ريال، فأرهنه سيارة تساوي عشرين ألف ريال؛ هنا يمكن استيفاء الدَّين من بعضه؛ لأن الرهن أكثر من الدَّين؛ مثال آخر: زيد

مدين لعمرو بعشرين ألف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء بعضه منها؛ لأن الدَّين أكثر من الرهن؛ فإذا كان الدَّين مساويًا للرهن، كما لو كان دينه عشرة آلاف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء الدَّين كله من كل الرهن.

وقوله تعالى: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: يقبضها من يتوثق بها - وهو الطالب - من المطلوب الذي هو الراهن؛ والطالب الذي قبض الرهن يسمى مرتهنًا؛ فهنا: راهن، ومرتهن، ورهن، ومرهون به؛ فالرهن: العين؛ والراهن: معطي الرهن؛ والمرتهن آخذ الرهن؛ والمرهون به: الدين؛ فأركان الرهن أربعة.

ولم يبين سبحانه وتعالى كيف القبض؛ فيرجع في ذلك إلى العرف؛ ومعناه: أن يكون الشيء في قبضة الإنسان، وتحت سيطرته.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: اتخذه أمينًا؛ بمعنى أنه وثق منه ألَّا ينكر، ولا يبخس، ولا يغير؛ والجملة شرطية جوابها قوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾؛ والفاء في ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ رابطة لجواب الشرط؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ ..﴾؛ وجاءت الفاء رابطة مع أن جواب الشرط فعل مضارع؛ لأنه مقترن بلام الأمر الدالة على الطلب؛ ومتى كانت الجملة الجزائية طلبية وجب اقترانها بالفاء؛ واللام هنا جاءت ساكنة لوقوعها بعد الفاء؛ ولام الأمر تقع ساكنة إذا وقعت بعد الفاء، أو الواو، أو «ثم»؛ بخلاف لام التعليل فإنها تكون مكسورة على كل حال؛ و﴿اؤْتُمِنَ﴾ فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله؛ و﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي: ما ائتمن عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾؛ «يتق» مجزومة بحذف حرف العلة - وهو الياء؛ والكسرة دليل عليها - وهنا أردف الاسم الأعظم: ﴿اللَّهَ﴾ بقوله تعالى: ﴿رَبَّهُ﴾ تحذيرًا من المخالفة؛ لأن «الرب» هو الخالق المالك المدبر؛ فَاخْشَ هذا الرب الذي هو إلهك أن تخالف تقواه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛ و«الكتمان» الإخفاء؛ و«الشهادة» ما شهد به الإنسان؛ أي: لا تخفوا ما شهدتم به لا في أصله ولا في وصفه؛ في أصله: بأن ينكر الشهادة رأسًا؛ وفي وصفه: بأن يزيد فيها أو ينقص.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: من يخفيها أصلًا أو وصفًا فقد وقع قلبه في الإثم؛ وإنما أضاف الإثم إلى القلب؛ لأن الشهادة أمر خفيٌّ؛ فالإنسان قد يكتمها، ولا يُعْلَم بها؛ فالأمر هنا راجع إلى القلب؛ ولأن القلب عليه مدار الصلاح، كما قال النبي ﷺ «أَلَا وَإِنَّ فِي

الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾؛ «ما» هذه موصولة تفيد العموم، وتشمل كل ما يعمله الإنسان من خير أو شر في القلب، أو في الجوارح؛ وقَدَّم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على متعلَّقها لقوة التحذير وشدته؛ فكأنه حصر علمه فيما نعمل؛ فيكون هذا أشد في بيان إحاطته بما نعمل؛ فيتضمن قوة التحذير؛ وليس مقتضاه حصر العلم على ما نعمل فقط.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه إذا لم يجد كاتبًا في السفر فإنه يوثق الحق بالرهن المقبوض.

٢ - **ومنها:** عناية الله عز وجل بحفظ أموال عباده؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى ذكر حتى هذه الصورة: أن الإنسان إذا داين غيره، ولم يجد كاتبًا فإنه يرتهن رهنًا حفظًا لماله، وخوفًا من النزاع والشقاق في المستقبل.

٣ - **ومنها:** جواز الرهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ﴾؛ ولكن ذلك مشروط - حسبما في الآية - بالسفر سواء كان قصيرًا أو طويلًا؛ وبألا نجد كاتبًا؛ فهل هذا الشرط معتبر؟ الجواب: دلت السنة على عدم اعتباره: فقد اشترى النبي ﷺ ثلاثين صاعًا من الشعير لأهله، ورهن درعه عند يهودي حتى مات[2]؛ وهذا يدل على جواز الرهن في الحضر حتى مع وجود الكاتب.

فإذا قال قائل: إذا كان الأمر هكذا فما الجواب عن الآية؟

فالجواب عن الآية: أن الله عز وجل ذكر صورة إذا تعذر فيها الكاتب فإن صاحب الحق يتوثق لحقه بالرهن المقبوض؛ فذكر هذه الصورة لا على أنها شرط للحكم؛ يعني كأنه قال: إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه؛ وإن كنتم في السفر وليس عندكم كاتب فرهان مقبوضة.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن بعض العلماء استدل بهذه الآية على لزوم القبض في الرهن؛ وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن قبض الرهن شرط لصحته؛ لأن الله جعل القبض وصفًا في الرهن؛ والوصف لازم للموصوف.

والقول الثاني: أن القبض شرط للزوم الرهن - لا لصحته؛ وعلى هذا القول يكون الرهن صحيحًا - وإن لم يُقبَض - لكنه ليس بلازم؛ فللراهن أن يتصرف فيه بما شاء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٣٧٤).

والقول الثالث: أن القبض - أعني قبض الرهن - ليس بشرط لا للصحة ولا للزوم؛ وإنما ذكر الله القبض في هذه الحال؛ لأن التوثق التام لا يحصل إلا به لكون المتعاقدين في سفر؛ وليس ثمة كاتب، فلا يحصل تمام التوثقة بالرهن إلا بقبضه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وعليه فالرهن لازم صحيح بمجرد عقده - وإن لم يقبض؛ لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ وعلى هذا القول عمل الناس: فترى الرجل يكون راهنًا بيته وهو ساكن فيه، أو راهنًا سيارته وهو يستعملها؛ ولا تستقيم حال الناس إلا بذلك.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أنه إذا حصل الائتمان من بعضنا لبعض لم يجب رهن، ولا إشهاد، ولا كتابة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾؛ ولهذ قال كثير من العلماء: إن هذه ناسخة لما سبق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾؛ والصحيح أنها ليست ناسخة؛ بل مخصِّصة لما سبق.

٦ - **ومنها**: وجوب أداء الأمانة على من اؤتمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾؛ فإذا وجب أداء الأمانة حرمت الخيانة.

٧ - **ومنها**: أنه لو تلفت العين بيد الأمين فإنه لا ضمان عليه ما لم يتعد، أو يفرط؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾؛ فسماها الله سبحانه وتعالى أمانة؛ والأمين يده غير متعدية؛ فلا يضمن إلا إذا حصل تعدٍّ أو تفريط؛ ومن التعدي: إذا أعطي الإنسانُ أمانة للحفظ تصرف فيها - كما يفعل بعض الناس - ببيع، أو شراء، أو نحو ذلك؛ وهذا حرام لا يجوز؛ وإذا أردت أن تفعل فاستأذن من صاحبها؛ فإن أذن لك صارت عندك قرضًا.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أنه يجب على هذا الذي اؤتمن ألا يغتر بثقة الناس به، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يتقي الله: قال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ﴾، وأردفها بقوله تعالى: ﴿رَبَّهُ﴾؛ ففيه فائدة - وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية؛ فبنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبدًا لله سبحانه وتعالى وتقربًا له؛ وبنظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة؛ لأن الرب هو الذي له الخلق، والملك، والتدبير؛ فلابد أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية ومقام الربوبية.

٩ - **ومن فوائد الآية**: إثبات ما دلَّ عليه هذان الاسمان؛ وهما: «الله»، و«الرب»؛ فالأول فيه إثبات

الألوهية؛ والثاني فيه إثبات الربوبية؛ لأن المعبود لابد أن يكون أهلًا للعبادة؛ والرب لابد أن يكون أهلًا للربوبية؛ ولا يتحقق ذلك إلّا بكمال الصفات؛ ولهذا نقول: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ والتوحيدان يستلزمان كمال الأسماء والصفات؛ ولهذا قال إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

١٠ - **ومن فوائد الآية**: تحريم كتمان الشهادة؛ يعني: إخفاءها سواء كان كتمان أصلها، أو وصفها؛ وسواء كان الحامل لها القرابة والغنى؛ أو البعد والفقر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا ..﴾ [النساء: ١٣٥] الآية.

١١ - **ومنها**: أن كتم الشهادة من الكبائر؛ لوجود العقوبة الخاصة بها - وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾.

١٢ - **ومنها**: عظم كتم الشهادة؛ لأنه أضاف الإثم فيها إلى القلب؛ وإذا أثم القلب أثمت الجوارح؛ لقول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»(١)؛ وقوله ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا»(٢) وأشار إلى صدره؛ فالتقوى في القلب، وليست في اللسان، ولا في الأفعال، ولا في الأحوال؛ فقد يكون الإنسان متقيًا بفعله متقيًا بقوله غير متقٍ بقلبه: تجده بفعله يتزيّ بزي المسلم الخالص - من إعفاء اللحية، والوقار، والسكينة، وكذلك يقول قول المسلم الخالص: «أستغفر الله»، «اللهم اغفر لي»، ويذكر الله، ويكبر؛ هذه لا شك تقوى في الظاهر؛ والغالب أنها دليل على تقوى الباطن.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾؛ فإن ﴿ما﴾ اسم موصول؛ والاسم الموصول يفيد العموم، فيشمل كل ما نعمل من أعمال القلب، وأعمال الجوارح.

إذا قال قائل: ما فائدة التقديم هنا - إن قيل: لمراعاة الفواصل قلنا: فالنون تأتي في الفواصل كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]؛ وإن قيل: للحصر قلنا: لا يصح؛ لأن الله يعلم كل شيء؛ لا يختص علمه بما نعمل فقط؛ فلا وجه للحصر؛ إذنْ ما الفائدة؟.

فالجواب: الفائدة شدة التحذير والتنبيه، كأنه يقول: لو لم يعلم شيئًا - وحاشاه من ذلك - لكان عالمًا بعملنا؛ فمن قوة التحذير والإنذار جاء الكلام على وجه الحصر الإضافي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

١٤ - **إذا قال قائل**: هل نستفيد من هذا أن من أسماء الله «العليم»؟

قلنا: ربما نقول ذلك؛ وقد لا نقوله؛ قد نقول: إن الاسم إذا قيد بمتعلّق فإنه ينقلب إلى وصف، فيكون «عليم بكذا» ليس كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]؛ لأن هذا قُيد: «عليم بـ..»، فكان وصفًا، وليس اسمًا؛ أما لو قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] لكان هذا اسمًا بلا شك.

١٥ - **ومن فوائد الآية**: التحذير من المخالفة بكون الله سبحانه وتعالى عالمًا بما نعمل؛ وجه التحذير: تقديم المعمول.

١٦ - **ومنها**: الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم أفعال العباد إلَّا إذا وقعت؛ فإن قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يتضمن ما قد عملناه بالفعل، وما سنعمله.

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جملة خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر؛ يعني: أن كل شيء في السموات أو في الأرض فهو لله خلقًا، وملكًا، وتدبيرًا؛ وليس لأحد غيره فيه ملك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ جملة شرطية جوابها: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ﴾ أي: وإن تُظهِروا؛ ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ما في قلوبكم؛ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: تسرُّوه، فلا يطلع عليه أحد.

قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يُطْلِعكم عليه على وجه المحاسبة؛ ولا يلزم من المحاسبة العقوبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فيها قراءتان؛ قراءة بالسكون؛ وقراءة

بالرفع؛ وجه قراءة السكون: أنه معطوف على ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ الذي هو جواب الشرط؛ والمعطوف على المجزوم مجزوم؛ ووجه قراءة الرفع أنه على سبيل الاستئناف؛ فالفاء استئنافية تفيد قطع الجملة التي بعدها عما قبلها؛ و«المغفرة» ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأن مادة «غفر» مأخوذة من المغفر وهو ما يلبسه المقاتل على رأسه ليتقي بها السهام؛ وهو جامع بين ستر الرأس والوقاية؛ و﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعاقب.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يوجد المعدوم، ويعدم الموجود بدون عجز؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ولما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ قال رسول الله ﷺ: «أَتُرِيْدُوْنَ أَنْ تَقُوْلُوْا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا! بَلْ قُوْلُوْا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾»، قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال تعالى: «نعم»؛ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال تعالى: «نعم»؛ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال تعالى: «نعم»؛ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال تعالى: «نعم»[1].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ وليس معلومًا لنا سوى السموات والأرض؛ ويدخل في السموات الكرسي، والعرش، والملائكة، وأرواح بني آدم التي تكون في السماء كأرواح المؤمنين في الجنة؛ لأن المراد بذلك: كل ما

(١) رواه مسلم (١٢٥).

علا؛ بل ويشمل ما بين السماء والأرض من الأفلاك، والنجوم، وغير ذلك؛ لأنها داخلة في السموات؛ لأنها في جهتها؛ ويدخل في الأرض العاقل وغير العاقل فيشمل بني آدم، والجن، ويشمل الحيوانات الأخرى، ويشمل الأشجار، والبحار، والأنهار، وغير ذلك.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن الله عز وجل هو القائم على هذه السموات والأرض يدبرها كما يشاء؛ لأنها ملكه.

٣ - **ومنها**: أن الله لا شريك له في ذلك الملك؛ يستفاد ذلك من تقديم الخبر الذي حقه التأخير؛ وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه.

٤ - **ومنها**: وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية؛ لأن الإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية - ولابد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فجعل الربوبية موجبًا لعبادته؛ وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ..﴾ [النمل: ٦٠] إلى آخر الآيات التي فيها تختم كل آية بقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠] يعني: فإذا كان هو المنفرد بما ذُكِر فإنه المنفرد بالألوهية.

٥ - **ومن فوائد الآية**: إثبات صفات الكمال لله عز وجل؛ لأننا إذا تأملنا في هذا الملك الواسع العظيم، وأنه يدبَّر بانتظام لا مثيل له علمنا بأن الذي يدبره كامل الصفات؛ فيؤخذ منه كل صفة كمال لله، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والعزة، والحكمة، وغير ذلك من صفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بملك هذه الأشياء العظيمة إلَّا من هو متصف بصفات الكمال.

٦ - **ومنها**: إثبات أن السموات أكثر من واحدة؛ وهي سبع بنص القرآن، والسنة، والإجماع؛ أما القرآن: فمثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وأما السنة: فمثل قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِين السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ..»[1] الحديث؛ وأما الأرض فإنها جاءت بلفظ الإفراد في القرآن، وجاءت في السنة بلفظ الجمع؛ وعددها سبع: جاء ذلك في صريح السنة، وفي ظاهر القرآن؛ ففي ظاهر القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ لأن المماثلة في الوصف متعذرة؛ فلم يبق إلَّا العدد؛ وأما في السنة لمثل قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٨٨٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٠٩)، وقال الألباني رحمه الله تعالى في «التعليق على فقه السيرة» (١/ ٣٤٠): حسن بشواهده.

الأرض ظلمًا طوَّقهُ اللهُ إيَّاهُ يومَ القيامةِ من سبعِ أرضينَ»[(١)].

٧ - **ومن فوائد الآية:** عموم علم الله وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ ولا محاسبة إلَّا من بعد علم.

٨ - **ومنها:** تحذير العبد من أن يخفي في قلبه ما لا يرضاه الله عز وجل؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله عالم بما يبدي وبما يخفي فسوف يراقب الله سبحانه وتعالى خوفًا من أن يحاسَب على ما أخفاه كما يحاسَب على ما أبداه.

٩ - **ومنها:** إثبات أن العبد يحاسب على ما في نفسه؛ وظاهره العموم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ ولكن جاءت النصوص الأخرى بالتفصيل في ذلك على النحو التالي:

الأول: أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيمانًا ويقينًا حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى رسول الله ﷺ ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال ﷺ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**»قالوا: نعم؛ قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[(٢)]؛ وفي حديث آخر: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»[(٣)].

الثاني: أن يهمَّ بالشيء المحرم، أو يعزم عليه ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن همَّ بسيئة فلم يعملها أنها تكتب حسنةً كاملة؛ قال الله تعالى: «**لِأَنَّهُ تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي**»[(٤)]، أي: من أجلي.

النوع الثاني: أن يهمَّ بها، ثم يتركها عزوفًا عنها؛ فهذا لا له ولا عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ؛ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[(٥)].

النوع الثالث: أن يتمناها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصِّلها بها؛ فهذا يعاقب على نيته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي ﷺ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ؛ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**»[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٦٩٢).

(٣) صحيح: رواه أبوداود (٥١١٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الظلال» (٦٥٨).

(٤) رواه مسلم (١٢٩).

(٥) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٦) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٠٥٣)، وانظر «التعليق الرغيب» (١/ ٢٧).

النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال:« إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[1].

١٠ - **ومن فوائد الآية**: إثبات محاسبة العبد؛ لقوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾؛ ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»[2]؛ فينبغي للإنسان أن يكون كَيِّسًا يحاسب نفسه قبل أن يحاسَب؛ وإني لأعجب أن كثيرًا من الناس إذا كان له تجارة دنيوية فإنه لا ينام حتى ينظر في الدفاتر: ما الذي خرج؟ وما الذي دخل؟ وما الذي بقي في ذمم الناس؟ وما الذي بيع؟ وما الذي اشتري؟ إما بنفسه؛ وإما بمن يجعلهم على هذا؛ ولكننا في أعمالنا الأخروية عندنا تفريط - يعني يندر يومًا من الأيام أن تقول: ماذا عملت اليوم؟ وتستغفر مما أسأت فيه أو فرطت؛ وتحمد الله على ما قمت به من طاعته.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن الله سبحانه وتعالى لم يصرح بالمعاقبة؛ ولا يلزم من المحاسبة المؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ ويؤيده ما ثبت في «**الصحيح**» «أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه، ويقول: عَمِلْتَ كَذَا فِي يَوْم كَذَا» حتى يقر؛ فإذا رأى أنه قد هلك يقول الله عز وجل: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[3].

١٢ - **ومنها**: سعة علم الله عز وجل، وكان من أسمائه: «**الواسع**» أي: ذو السعة في جميع صفاته.

١٣ - **ومنها**: إثبات المشيئة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ ومشيئته تعالى مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ كل شيء أضافه الله إلى مشيئته فاعلم أنه مقرون بحكمة؛ لا يشاء شيئًا إلَّا لحكمة - أيًا كان هذا الشيء.

١٤ - **ومنها**: أنه بعد المحاسبة إما أن يغفر للإنسان؛ وإما أن يعذبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فإن كان كافرًا عذب؛ وإن كان مسلمًا كان تحت

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٤٥٩)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٢٠١).

(٣) سبق تخريجه.

المشيئة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

١٥ - ومنها: إثبات القدرة لله، وعمومها في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا أحد يقدر على كل شيء إلَّا الله عز وجل؛ وأما المخلوق فقدرته محدودة.

فإن قيل: لماذا ختم الآية بالقدرة من بعد قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾؛ ولم يختمها بالرحمة، ولا بالعقوبة؟

فالجواب: أن المحاسبة تكون بعد البعث؛ والبعث يدل على القدرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وجه آخر: لو ختمت الآية بما يقتضي الرحمة وفيها التعذيب لم يكن هناك تناسب؛ ولو ختمت بما يقتضي التعذيب وفيها مغفرة لم يكن هناك تناسب؛ والقدرة تناسب الأمرين: تناسب المغفرة، وتناسب التعذيب؛ لأن المغفرة والتعذيب كلٌّ لا يكون إلَّا بقدرة الله عز وجل.

❁ قال الله تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿آمَنَ﴾؛ سبق مرارًا وتكرارًا بأنه - الإيمان - الإقرار المستلزم للقبول والإذعان لقبول الخبر، والإذعان للحكم، أو لما يقتضيه؛ أما مجرد التصديق والإقرار فلا ينفع؛ ولهذا كان أبو طالب مقرًّا ببعثة الرسول ﷺ، وأنه على حق؛ لكن لما لم يكن منه قبول وإذعان لم ينفعه هذا الإقرار؛ فالإيمان شرعًا هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

قوله تعالى: ﴿الرَّسُولُ﴾؛ «أل» هنا للعهد؛ والمراد به: محمد ﷺ؛ ﴿الرَّسُولُ﴾ بمعنى: مرسَل؛ و«الرسول» - كما قال العلماء - هو: من أوحي إليه بشرع وأمِر بتبليغه؛ هذا الذي عليه أكثر أهل العلم؛ و«النبي» هو الذي لم يؤمر بتبليغه ما لم يدل الدليل على أن المراد به الرسول؛ ففي القرآن الكريم كل من وصف بالنبوة فهو رسول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ...﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بالذي أنزل إليه من ربه؛ والذي أنزل إلى الرسول ﷺ بيَّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] - فهو القرآن والسنة؛ والرسول ﷺ كيف آمن بهما؟ الرسول آمن بأن القرآن من عند الله أنزله إليه ليبلغه إلى الناس، وآمن بأن ما أوحي إليه من السنة هو من الله عز وجل؛ أوحي به ليبلغه إلى الناس؛ ثم هو أيضًا آمن بما يقتضيه هذا المنزل من قبول وإذعان؛ ولهذا كان الرسول ﷺ أشد الناس تصديقًا بما أنزل إليه، وأقواهم إيمانًا - بلا شك - وكان أيضًا أعظمهم تعبدًا لله عز وجل حتى إنه كان يقوم في الليل حتى تتورم قدماه مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ وقام معه ابن مسعود رضي الله عنه ذات ليلة يقول: فقام فأطال حتى هممت بأمر سوء؛ قالوا: بم هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: «هممت أن أجلس، وأدعه»[1]؛ لأن الرسول كان يقوم قيامًا طويلًا - صلوات الله وسلامه عليه؛ إذنْ فهو أقوى الناس إيمانًا، وأشدهم رغبة في الخير، وأكثرهم عبادة.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ يراد بها: الربوبية أخص الخاصة؛ لأن ربوبية الله عز وجل عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ فالعامة: الشاملة لكل الخلق، مثل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ والخاصة: للمؤمنين؛ وخاصة الخاصة للرسل - عليهم الصلاة والسلام -؛ فالذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٦] هذه ربوبية خاصة لكل المؤمنين؛ ومثل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ هذه أخص الخاصة، ومثلها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]؛ يقابل ذلك «العبودية»: عبودية عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ العامة مثل قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ والخاصة مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ وخاصة الخاصة مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]؛ ولا شك أن الربوبية الخاصة تقتضي تربية خاصة لا يماثلها تربية أحد من العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: المؤمنون كذلك آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ من الله؛ فيؤمنون بثلاثة أشياء: بالمرسِل - وهو الله عز وجل؛ والمرسَل - وهو

(١) انظر «صحيح مسلم» (٧٧٣).

الرسول ﷺ؛ والمرسَل به - وهو الوحي: الكتاب والسنة.

فإن قال قائل: كيف قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فوصفهم بالإيمان مع أنهم مؤمنون؟

فنقول: هذا من باب التحقيق؛ يعني: أن المؤمنين حققوا الإيمان، وليس إيمانهم إيمانًا ظاهرًا فقط كما يكون من المنافق الذي يُظهر الإيمان، ولكنه مبطن للكفر.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ يعني: من الرسول والمؤمنين؛ ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته - كما تقدم ذلك مبسوطًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ معطوف على الاسم الكريم: «الله»؛ والملائكة: عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور، وأعطاهم قوة وقدرة على تنفيذ ما يريد منهم؛ قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾؛ وفي قراءة: «وكتابه»؛ ولا منافاة؛ لأن المفرد المضاف يعم؛ والكتب المنزلة على الأنبياء الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ ولكن مع ذلك فنحن لا نعرف على التعيين إلَّا عددًا قليلًا منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى إن كانت غير التوراة؛ وإن كانت هي التوراة فالأمر ظاهر؛ نعرف هذه الكتب، ونؤمن بها على أعيانها؛ والباقي نؤمن بها على سبيل الإجمال.

ولكن كيف الإيمان بهذه الكتب؟

نقول: الإيمان بالقرآن هو الإيمان بأنه كلام الله منزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ ونصدق بكل أخباره؛ ونلتزم بكل أحكامه؛ وأما الإيمان بالكتب السابقة فهو أن نؤمن بأن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وآتى داود الزبور، وأنزل صحفًا على إبراهيم وموسى؛ وأن كل ما جاء فيها من خبر فهو حق صدق؛ وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ؛ وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به؛ والصحيح أنه يعمل به؛ وبسط ذلك في أصول الفقه؛ وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يوثق بهما؛ لأنهم حرَّفوا، وبدلوا، وكتموا الحق.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ جمع رسول.

قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾؛ هنا التفات من الغيبة إلى التكلم؛ ومقتضى

السياق لو كان على نهج واحد لقال: «لا يفرقون بين أحد من رسله»؛ ولكنه تعالى قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾؛ وفائدة الالتفات هي التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغيب فكره؛ وأما إذا جاء الالتفات فكأنه يقرع الذهن يقول: انتبه! فالالتفات هنا من الغيبة إلى التكلم له فائدة زائدة على التنبيه وهي أن يقول هؤلاء المؤمنون: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ بقلوبنا وألسنتنا ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾؛ فالكل عندنا حق؛ فمحمد ﷺ صادق فيما جاء به من الرسالة، وعيسى ابن مريم ﷺ صادق، وموسى ﷺ صادق، وصالح ﷺ صادق، ولوط ﷺ صادق، وإبراهيم ﷺ صادق.. وهكذا؛ لا نفرق بينهم في هذا الأمر - أي في صدق رسالتهم، والإيمان بهم؛ ولكن نفرق بينهم فيما كلفنا به: فنعمل بشريعة محمد ﷺ؛ وأما شريعة أولئك فعلى ما ذكرنا من الخلاف.

قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا ما أمرتنا به، أو نهيتنا عنه؛ وأطعنا فعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور.

قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: نسألك غفرانك؛ والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا؛ وحذفت «يا» النداء للبداءة باسم الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع في أمور الدنيا والآخرة؛ ومن المصير إليه: يوم القيامة؛ وقدم الخبر لإفادة الحصر.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: أن محمدًا ﷺ مكلف بالإيمان بما أنزل إليه؛ ولهذا قال ﷺ: «أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ»[1]، في قصة دين جابر ﷺ - كما في «صحيح البخاري».

٢ - **ومنها**: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾؛ والمنزل هو الوحي؛ والكلام وصف لا يقوم إلَّا بمتكلم؛ لا يمكن أن يقوم بنفسه؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن القرآن كلام الله - الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ.

٣ - **ومنها**: إثبات علوِّ الله عز وجل؛ لأن النزول لا يكون إلَّا من أعلى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾.

٤ - **ومنها**: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّسُولُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٥١٢٨).

٥ - **ومنها**: عظم ربوبية الله، وأخصيتها بالنسبة إلى الرسول ﷺ، حيث قال تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾.

ويتفرع على ذلك: أن الله سبحانه وتعالى سينصره؛ لأن الربوبية الخاصة تقتضي ذلك لاسيما وأنه سوف يبلِّغ ما أنزل إليه من ربه.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن المؤمنين تبع للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ وجه التبعية أنه ذكر ما آمن به قبل أن يذكر التابع - يعني ما قال: «**آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه**»، وهذا يدل على أنهم أتباع للرسول ﷺ لا يستقلون بشريعة دونه.

٧ - **ومنها**: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالرسول ﷺ كان أشد اتباعًا له؛ وجهه: أنه تعالى قال: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: والمؤمنون آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ من ربه؛ وعليه فكل من كان أقوى إيمانًا كان أشد اتباعًا.

٨ - **ومنها**: أن إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين شامل لكل أصول الدين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ ويبقى عندنا إشكال؛ وهو أنه ليس في الآية ذكر الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر؟ والجواب من أحد وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن هذا داخل في عموم قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾.

والوجه الثاني: أن يقال: إن الإيمان بالكتب والرسل متضمن للإيمان باليوم الآخر والقدر.

٩ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الملائكة.

١٠ - **ومنها**: أن الإيمان بالرسل ليس فيه تفريق؛ لا تقول مثلًا: نؤمن بمحمد ﷺ، ولا نؤمن بعيسى؛ لأن عيسى من بني إسرائيل؛ نحن لا نفرق بين الرسل؛ وقد سبق لنا معنى قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن من صفات المؤمنين السمع والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من لا يسمع، ولا يطيع؛ بل هو معرض؛ لم يرفع لأمر الله ورسوله رأسًا.

القسم الثاني: من يسمع، ولا يطيع؛ بل هو مستكبر؛ اتخذ آيات الله هزوًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]،

وكقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]؛ وهذا أعظم جرمًا من الأول.

القسم الثالث: من يسمع ويطيع؛ وهؤلاء هم المؤمنون الذين قالوا: سمعنا وأطعنا، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

١٢ - **ومن فوائد الآية:** أن كل أحد محتاج إلى مغفرة الله؛ لقوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ﴾؛ فكل إنسان محتاج إلى مغفرة - حتى النبي ﷺ محتاج إلى مغفرة؛ ولهذا لما قال ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:« وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ»(١)؛ وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]؛ واعلم أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقامًا منه قبل الذنب؛ لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرئًا للحال التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه معتقدًا أنه كامل، وأن ليس عليه ذنوب؛ فإذا أذنب وأحس بذنبه رجع إلى الله، وأناب إليه، وأخبت إليه، فيزداد إيمانًا، ويزداد مقامًا - يرتفع مقامه عند الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] - فجعل الاجتباء بعد هذه المعصية - ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]؛ وهذا كثيرًا ما يقع: إذا أذنب الإنسان عرف قدر نفسه، وأنه محتاج إلى الله، ورجع إلى الله، وأحس بالخطيئة، وأكثر من الاستغفار، وصار مقامه بعد الذنب أعلى من مقامه قبل الذنب.

١٣ - **ومن فوائد الآية:** تواضع المؤمنين، حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ثم سألوا المغفرة خشية التقصير.

١٤ - **ومنها:** إثبات أن المصير إلى الله عز وجل في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ وقد سبق في التفسير أن المراد بذلك: المصير إلى الله في الآخرة، والمصير إلى الله في الدنيا أيضًا؛ فهو الذي يحكم بين الناس في الدنيا والآخرة - كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]: هذا في الدنيا؛ والآخرة: كما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٤١].

(١) رواه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]

❁ التفسير ❁

هذه الآية والتي قبلها وردت فيها نصوص تدل على الفضل العظيم؛ منها:

١ - أنها من كنز تحت العرش[(١)].

٢ - أنها فتحت لها أبواب السماء عند نزولها[(٢)].

٣ - أنها لم يعطها أحد من الأنبياء قبل رسول الله ﷺ[(٣)].

٤ - أن من قرأهما في ليلة كفتاه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾؛ «التكليف»: الإلزام بما فيه مشقة؛ يعني لا يلزم الله ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلَّا طاقتها؛ فلا يلزمها أكثر من الطاقة.

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما عملت من خير لا ينقص منه شيء؛ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: ما اقترفت من إثم لا يحمله عنها أحد؛ و«الكسب» و«الاكتساب» بمعنًى واحد؛ وقيل: بينهما فرق؛ وهو أن «الكسب» في الخير، وطرقه أكثر؛ و«الاكتساب» في الشر، وطرقه أضيق - والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾: هذه الجملة مقول لقول محذوف - أي «قولوا: ربنا»؛ أو: «قالوا: ربنا» عودًا على ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ - أي: و ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾؛ و﴿رَبَّنَا﴾ منادى حذفت منه «يا» النداء اختصارًا، وتيمنًا بالبداءة باسم الله عز وجل؛ و﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ أي: لا تعاقبنا بما أخطأنا فيه.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: «النسيان» هو: ذهول القلب عن معلوم؛ يكون الإنسان

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٦٠٤)، وقال الشيخ شعيب: صحيح لغيره.

(٢) انظر صحيح مسلم (٨٠٦).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٢٩٩)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق فمن رجال مسلم.

(٤) انظر «صحيح البخاري» (٨٠٧).

يعلم الشيء، ثم يغيب عنه؛ ويسمى هذا نسيانًا، كما لو سألتك: ماذا صنعت بالأمس؟ تقول: «نسيت»؛ فأنت فاعل؛ ولكن غاب عنك فعلك؛ و«الخطأ»: المخالفة بلا قصد للمخالفة؛ فيشمل ذلك الجهل؛ فإن الجاهل إذا ارتكب ما نهي عنه فإنه قد ارتكب المخالفة بغير قصد للمخالفة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: أتى بالواو؛ ليفيد أن هذه الجملة معطوفة على التي قبلها؛ وكرر النداء تبركًا بهذا الاسم الكريم، وتعطفًا على الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا من أسباب إجابة الدعاء؛ و «الإصر»: هو الشيء الثقيل الذي يثقل على الإنسان من التكاليف أو العقوبات.

قوله تعالى: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: اليهود، والنصارى، وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: لا قدرة لنا على تحمله من الأمور الشرعية والكونية.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: تجاوز عما قصرنا فيه من الواجبات؛ ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: تجاوز عما اقترفناه من السيئات؛ ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: تفضل علينا بالرحمة حتى لا نقع في فعل محظور، أو في تهاون في مأمور.

قوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: الجملة هنا خبرية مكونة من مبتدأ وخبر كلاهما معرفة؛ وقد قال علماء البلاغة: إن الجملة المكونة من مبتدأ وخبر كلاهما معرفة تفيد الحصر؛ والمراد: متولي أمورنا.

قوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الفاء هنا للتفريع؛ يعني فبولايتك الخاصة انصرنا على القوم الكافرين أي: اجعل لنا النصر عليهم؛ وهو عام في كل كافر.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: بيان رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث لا يكلفهم إلَّا ما استطاعوه؛ ولو شاء أن يكلفهم ما لم يستطيعوا لفعل.

فإذا قال قائل: كيف يفعل وهم لا يستطيعون؟ وما الفائدة بأن يأمرهم بشيء لا يستطيعونه؟

فالجواب: أن الفائدة أنه لو كلفهم بما لا يستطيعون وعجزوا عاقبهم على ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة من أصول الشريعة؛ ولها نظائر في القرآن، وكذلك في السنة.

٢ - ومن فوائد الآية: إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم؛ وهي: لا واجب مع العجز؛ ولا محرم مع الضرورة؛ لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط؛ وإن عجز عن بدله سقط؛ مثال ذلك: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء؛ لكن ينتقل إلى التيمم؛ فإن عجز سقط التيمم أيضًا - مثال ذلك: شخص

محبوس مكبل لا يستطيع أن يتوضأ، ولا أن يتيمم: فإنه يصلي بلا وضوء ولا تيمم؛ مثال آخر: رجل قتل نفسًا معصومة خطأً: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه أن يصوم شهرين متتابعين؛ فإن لم يستطع سقطت الكفارة؛ مثال ثالث: رجل جامع زوجته في نهار رمضان: فعليه أن يعتق رقبة؛ فإن لم يجد فعليه صيام شهرين؛ فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكينًا؛ فإن لم يجد فلا شيء عليه.

ومثال سقوط التحريم مع الضرورة: رجل اضطر إلى أكل الميتة بحيث لا يجد ما يسد رمقه سوى هذه الميتة: فإنه يحل له أكلها.

وهل له أن يشبع؛ أو يقتصر على ما تبقى به حياته؟

والجواب: إن كان يرجو أن يجد حلالًا عن قرب فيجب أن يقتصر على ما يسد رمقه؛ وإن كان لا يرجو ذلك فله أن يشبع، وأن يتزود منها - وأن يحمل معه منها - خشية ألّا يجد حلالًا عن قرب.

ومعنى الضرورة: أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المحرم؛ وأن ضرورته تندفع به فإن لم تندفع فلا فائدة؛ مثال ذلك: رجل ظن أنه في ضرورة إلى التداوي بمحرم؛ فأراد أن يتناوله: فإنه لا يحل له ذلك لوجوه:

الأول: أن الله حرمه؛ ولا يمكن أن يكون ما حرمه شافيًا لعباده، ولا نافعًا لهم.

الثاني: أنه ليس به ضرورة إلى هذا الدواء المحرم؛ لأنه قد يكون الشفاء في غيره، أو يشفى بلا دواء.

الثالث: أننا لا نعلم أن يحصل الشفاء في تناوله؛ فكم من دواء حلال تداوى به المريض ولم ينتفع به؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحبة السوداء: «إِنَّهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ» - يعني: الموت [(1)]؛ فهذه مع كونها شفاءً لا تمنع الموت؛ ولذلك لو اضطر إلى شرب خمر لدفع لقمة غص بها جاز له ذلك، لأن الضرورة محققة، واندفاعها بهذا الشرب محقق.

الخلاصة الآن: أخذنا من هذه الآية الكريمة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قاعدتين متفقًا عليهما؛ وهما:

أ - لا واجب مع العجز.

ب - ولا محرم مع الضرورة.

٣ - ومن فوائد الآية: أن الإنسان لا يحمل وزر غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾.

إذا قال قائل: ما تقولون في قول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ

(١) رواه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (٢٢١٥).

مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِم شَيْءٌ»[١]؟

فالجواب: أن هذا لا يرد؛ لأن الذي فعلها أولًا اقتدى الناس به؛ فكان اقتداؤهم به من آثار فعله؛ ولما كان هو المتسبِّب وهو الدال على هذا الفعل كان مكتسبًا له.

٤ - **ومنها**: يسر الدين الإسلامي؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ويتفرع على هذا: أن يختلف الناس فيما يلزمون به؛ فالقادر على القيام في الفريضة يلزمه القيام؛ والعاجز عن القيام يصلي قاعدًا؛ والعاجز عن القعود يصلي على جنب؛ وكذلك القادر على الجهاد ببدنه يلزمه الجهاد ببدنه إذا كان الجهاد فرضًا؛ والعاجز لا يلزمه؛ وكذلك القادر على الحج ببدنه وماله يلزمه أداء الحج ببدنه، والعاجز عنه ببدنه عجزًا لا يرجى زواله القادر بماله يلزمه أن ينيب من يحج عنه؛ والعاجز بماله وبدنه لا يلزمه الحج.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن للإنسان طاقة محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء: في العلم، والفهم، والحفظ، فيكلف بحسب طاقته.

٦ - **ومنها**: أن للإنسان ما كسب دون أن ينقص منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

٧ - **ومنها**: أن الأعمال الصالحة كسب؛ وأن الأعمال السيئة غُرْم؛ وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، ومن قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾؛ فإن «على» ظاهرة في أنها غُرم؛ واللام ظاهرة في أنها كسب.

٨ - **ومنها**: رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق، حيث علمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إياه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

٩ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب، مثل الربوبية - التي بها الخلق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية، مثل: «ربنا»، ومثل: «ربِّ».

١٠ - **ومنها**: رفع المؤاخذة بالنسيان والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقال الله تعالى: «قد فعلت»؛ ولا يلزم من رفع المؤاخذة سقوط الطلب؛ فمن ترك الواجب نسيانًا أو جهلًا وجب عليه قضاؤه، ولم يسقط الطلب به؛ ولهذا قال النبي - صلوات الله وسلامه عليه: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»[٢]؛ ولما صلى الرجل الذي لا يطمئن في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٧٢)، ومسلم (٦٨٤).

صلاته قال له: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[1]؛ ولم يعذره بالجهل مع أنه لا يحسن غير هذا؛ إذنْ فعدم المؤاخذة بالنسيان والجهل لا يسقط الطلب؛ وهذا في المأمورات ظاهر؛ أما المنهيات فإن من فعلها جاهلًا أو ناسيًا فلا إثم عليه ولا كفارة؛ مثال ذلك: لو أكل وهو صائم ناسيًا فلا إثم عليه؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ، أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»[2]؛ وكذلك لو أكل وهو صائم جاهلًا فإن صومه صحيح سواء كان جاهلًا بالحكم، أو بالوقت؛ لأن أسماء بنت أبي بكر قالت: «أفطرنا على عهد رسول الله ﷺ يومَ غيم، ثم طلعت الشمس»[3]؛ ولم يؤمروا بالقضاء؛ ولكن لو فعل المحرم عالمًا بتحريمه جاهلًا بما يترتب عليه لم يسقط عنه الإثم، ولا ما يترتب على فعله؛ مثل أن يجامع الصائم في نهار رمضان وهو يجب عليه الصوم عالمًا بالتحريم - لكن لا يعلم أن عليه الكفارة: فإنه آثم، وتجب عليه الكفارة؛ لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت قال: «مَا أَهْلَكَكَ؟» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم»[4]؛ فألزمه النبي ﷺ بالكفارة؛ لأنه كان عالمًا بالحكم بدليل قوله: «هلكت».

فإن قال قائل: قد ذكرتم أن المأمور لا يسقط بالجهل والنسيان، فما الفائدة من عذره الجهل؟

فالجواب: أن الفائدة عدم المؤاخذة؛ لأنه لو فعل المأمور على وجه محرم يعلم به لكان آثمًا؛ لأنه كالمستهزئ بالله عز وجل وآياته، حيث يعلم أن هذا محرم، فيتقرب به إلى الله.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن فعل الإنسان واقع باختياره؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ فيكون فيها رد على الجبرية الذين يقولون: إنه لا اختيار للعبد فيما فعل؛ وبيان مذهبهم والرد عليهم بالتفصيل مذكور في كتب العقائد.

١٢ - **ومنها**: أن النسيان وارد على البشر؛ والخطأ وارد على البشر؛ وجهه: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقال الله تعالى: «قَدْ فَعَلْتُ»(١)؛ وهذا إقرار من الله سبحانه وتعالى على وقوع النسيان والخطأ من البشر.

فإذا قال قائل: ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى يجعل البشر ينسى ويخطئ؟

فالجواب: ليتبين للإنسان ضعفه وقصوره: ضعفه في الإدراك، وضعفه في الإبقاء، وفي كل حال؛ وليتبين بذلك فضل الله عليه بالعلم، والذاكرة، وما أشبه ذلك؛ وليعرف الإنسان افتقاره إلى الله عز وجل في دعائه في رفع النسيان والجهل عنه؛ فيلجأ إلى الله عز وجل، فيقول: «رب علمني

---

(١) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٧).
(٢) رواه البخاري (١٨٣١)، ومسلم (١١٥٥).
(٣) رواه البخاري (١٨٥٨)، وابن ماجه (١٦٧٤).
(٤) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١١١١).

ما جهلت، وذكرني ما نسيت»، وما أشبه ذلك.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: امتنان الله على هذه الأمة برفع الآصار التي حملها مَنْ قبلنا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، فقال الله تعالى: «قَدْ فَعَلْتُ».

١٤ - **ومنها**: أن من كان قبلنا مكلفون بأعظم مما كلفنا به؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾؛ مثال ذلك: قيل لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل: لن تقبل توبتكم حتى تقتلوا أنفسكم - أي يقتل بعضكم بعضًا؛ قيل: إنهم أمروا أن يكونوا في ظلمة، وأن يأخذ كل واحد منهم سكينًا، أو خنجرًا، وأن يطعن من أمامه سواء كان ابنه، أو أباه، أو عمه، أو أخاه، أو غيرهم؛ وهذا لا شك تكليف عظيم، وعبء ثقيل؛ أما نحن فقيل لنا - حتى في الشرك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

١٥ - **ومن فوائد الآية**: أن ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى العافية، فلا يُحمِّلُه ما لا طاقة له به؛ ففيه رد على الصوفية الذين قالوا: نحن لا نسأل الله تعالى أن يقينا ما يشق علينا؛ لأننا عبيده؛ وإذا حصل لنا ما يشق فإننا نصبر عليه لنكسب أجرًا.

١٦ - **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان سؤال الله العفو؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير في المأمورات؛ فيسأل الله العفو عن تقصيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾؛ وسؤالُ الله المغفرة من ذنوبه التي فعلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ لأن الإنسان إن لم يُغفر له تراكمت عليه الذنوب، ورانت على قلبه، وربما توبقه وتهلكه.

١٧ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن يرحمه في مستقبل أمره؛ فيعفو عما مضى، ويغفر؛ ويرحم في المستقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ وبه نعرف اختلاف هذه الكلمات الثلاث: طلب العفو عن التفريط في الطاعات؛ والاستغفار عن فعل المحرمات؛ والرحمة فيما يستقبله الإنسان من زمنه - أن الله يرحمه، ويوفقه لما فيه مصلحته.

١٨ - **ومنها**: أن المؤمن لا وليَّ له إلَّا ربه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ وولاية الله نوعان: خاصة، وعامة؛ فالولاية الخاصة ولاية الله للمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]؛

والعامة: ولايته لكل أحد؛ فالله سبحانه وتعالى ولي لكل أحد بمعنى أنه يتولى جميع أمور الخلق؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

١٩ - ومن فوائد الآية: التوسل إلى الله تعالى في الدعاء بما يقتضي الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ بعد أن ذكر الدعاء في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

٢٠ - ومنها: أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل في النصرة على القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والنصر على الكافرين يكون بأمرين: بالحجة، والبيان؛ وكذلك بالسيف، والسلاح؛ وأما السيف، والسلاح فظاهر؛ وأما الحجة والبيان فقد يجتمع كافر ومسلم، ويتناظران في أمر من أمور العقيدة فإن لم ينصر الله المسلم خُذل، وكان في ذلك خُذلان له، وللدين الذي هو عليه؛ وهذا النوع من النصر يتعين في المنافقين؛ لأن المنافق لا يجاهَد بالسيف والسلاح؛ لأنه يُظهر أنه معك؛ ولهذا لما استؤذن الرسول ﷺ في قتل المنافقين قال: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

انتهى - بفضل الله - المجلد الثاني

وبه تم تفسير سورة البقرة

(١) سبق تخريجه.

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعًا وترتيبًا وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
في شَرحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عاصم عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

الدروس العلمية العامة

في

العلم والدعوة والتربية

مجموعة محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة آل عمران

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الأول

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

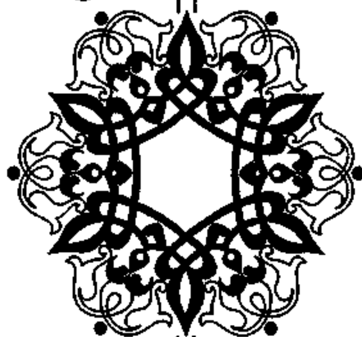

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس
١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة
تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣
tabari24@gmail.com

تفسير سورة آل عمران

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[آل عمران: ١-٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ﴾:

تقدَّم الكلام على ما يتعلق بالبسملة، وتقدَّم الكلام أيضًا على الحروف الهجائية التي ابتدأت بها بعض السور.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

هذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر. فـ ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر المبتدأ.

وجملة الخبر تسمى عند النحويين جملة صغرى؛ لأن الخبر إذا وقع جملة فهو جملة صغرى، والجملة الكبرى هي مجموع المبتدأ وجملة الخبر.

وقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبران آخران؛ ﴿الْحَيُّ﴾ خبر لـ ﴿اللَّهُ﴾ ثانٍ، و ﴿الْقَيُّومُ﴾ خبر ثالث.

و ﴿اللَّهُ﴾ عَلَمٌ على الذات المقدسة، علمٌ على الربِّ - عزَّ وجلَّ -، وأصله الإله بمعنى المألوه، وحذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت الهمزة من (خير) و (شر) في مثل قول الرسول ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وشَرُّهَا آخِرُهَا»[1]، أي: أخيرها وأشرها.

وكما حذفت الهمزة من (الناس)، وأصلها أُناس، وهو أعرف المعارف على الإطلاق.

ومعناه: المعبود حبًّا وتعظيمًا، فهو فِعال بمعنى مفعول، وما أكثر ما يأتي فعال بمعنى مفعول، كغِراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٤٠)، و الترمذي (٢٢٤)، والنسائي (٨٢٠)، وأبو داود (٦٧٨).

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود حقٌّ إلَّا هو.

فـ (إله): اسم لا النافية للجنس، وخبرها محذوف، تقديره: حق، وهناك آلهة باطلة ولكنها آلهة وُضِعَت عليها الأسماء بدون حق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:١٩: ٢٣]. وبهذا التقدير للخبر في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يزول الإشكال، وهو أنه كيف يُنفى الإله في مثل هذه الجملة، ويُثْبتُ في مثل قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]؟.

والجمع بينهما: أن تلك الآلهة باطلة، والإله في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إله حق، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

وقوله: ﴿هُوَ﴾، (هو) ضمير وليس اسمًا لله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]. فلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا علَم، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فعلى هذا نقول: (أنا) و (هو) في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلاهما ضمير رفع منفصل.

فكما أن الذاكر لا يجعل (أنا) اسمًا لله، فلا يجوز أن يجعل (هو) اسمًا لله، وبهذا نعرف بطلان ذكر الصوفية الذين يذكرون الله بلفظ: هُوْ هُوْ. ويرون أن هذا الذكر أفضل الأذكار، وهو ذكر باطل.

وقوله: ﴿ٱلْحَىُّ﴾: (أل) هنا للاستغراق، أي الكامل الحياة، وحياة الله - عزَّ وجلَّ - كاملة في وجودها، وكاملة في زمنها، فهو حي لا أول له، ولا نهاية له.

حياته لم تُسْبَقْ بِعَدَمٍ، ولا يلحقها زوال، وهي أيضًا كاملة حال وجودها، لا يدخلها نقص بوجه من الوجوه، فهو كامل في سمعه وعلمه وقدرته وجميع صفاته، إذا رأينا الآدمي بل إذا رأينا غير الله - عزَّ وجلَّ -، وجدنا أنه ناقص في حياته زمنًا ووجودًا.

حياته مسبوقة بعدم، ملحوقة بزوال وفناء، وهي أيضًا ناقصة في وجودها، ليس كامل السمع ولا البصر ولا العلم ولا القدرة، فكلُّ حي سوى الله ناقص.

وقوله: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على وزن فَيْعُول، وهو مأخوذ من القيام، ومعناه: القائم بنفسه، القائم على غيره، القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

وفي الجمع بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ استغراق لجميع ما يوصف الله به لجميع الكمالات.

ففي «الحي كمال الصفات، وفي القيوم» كمال الأفعال، وفيهما جميعًا كمال الذات، فهو كامل الصفات والأفعال والذات.

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: ﴿نَزَّلَ﴾: التنزيل يكون من أعلى إلى أسفل، ويكون بالتدريج شيئًا فشيئًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢].

فقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ يفيد أن هذا القرآن من عند الله، وأنه نزل بالتدريج ليس مرة واحدة.

وقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ الضمير يعود على الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وقد بيّن الله تعالى في آية أخرى أنه نزل على قلب الرسول ﷺ؛ ليكون أدل على وعيه لهذا القرآن الذي نزل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣ ـ ١٩٤].

وأما التعبير بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:٢] فهو يفيد الغاية، يعني نهاية الإنزال إلى الرسول.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو هذا القرآن، وهو فِعال بمعنى مفعول، فهو كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٧ ـ ٧٨] أي اللوح المحفوظ، وهو كتاب في الصحف التي بأيدي الملائكة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٢: ١٥]، وهو كتاب في الصحف التي بأيدينا، فهو مكتوب بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء يجوز أن تكون بمعنى أنه متلبس بالحق أي مشتمل على الحق، فهو نازل بحق لا بباطل، ويحتمل أن تكون متعلقة بالتنزيل،أي أنه نزول حقّ ليس بباطل.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠ ـ ٢١١] بعد: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٣]، فيكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يعني أنه نازل عليك نزولًا حقًّا ليس بباطل، فهو لم يكذب - عليه الصلاة والسلام - بهذا القرآن.

ويحتمل أن يكون نازلًا بالحق يعني مشتملًا عليه ومتلبسًا به، والمعنيان صحيحان لا يتنافيان.

والقاعدة: أن النص إذا دلَّ على معنيين صحيحين لا يتنافيان حُمل عليهما جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب، ولا يصح أن نجعلها صفة؛ لأنَّ مصدقًا نكرة، والكتاب معرفة، والصفة يجب أن تتبع الموصوف في التعريف والتنكير.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي للذي بين يديه من الكتب السابقة، وتصديقه لما بين يديه له وجهان:

الوجه الأول: أنه صدقها؛ لأنها أخبرت به فوقع مصدقًا لها.

الوجه الثاني: مصدقًا لما بين يديه أي حاكمًا عليها بالصدق.

فهو مصدق لما سبق من الكتب بالوجهين المذكورين؛ لأن الكتب أخبرت به فوقع، وإذا وقع صار تصديقًا لها.

الوجه الثاني: أنه حكم بأنها صدق من عند الله - عزَّ وجلَّ -، وهذا التصديق لما بين يديه يشمل الوجهين جميعًا.

فالقرآن شاهد بأن التوراة حق، والإنجيل حق، والزبور حق، وصحف إبراهيم حق، وأن الله أنزل على كل رسول كتابًا، كذلك مصدقًا للكتب التي أخبرت به، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، أنه سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما سبقه؛ لأنَّ الذي بين يديك سابق عليك؛ لأنه أمامك فهو متقدم عليك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ فاختلاف التعبير يدل على اختلاف المعنى.

قال أهل العلم: إن التوراة والإنجيل نزلتا دفعة واحدة بدون تدريج بخلاف القرآن، فإنه نزل بالتدريج، وهذا من رحمة الله - عزَّ وجلَّ - على هذه الأمة؛ لأنه إذا نزل بالتدريج صارت أحكامه أيضًا بالتدريج، لكن لو نزل دفعة واحدة لزم الأمة أن تعمل به جميعًا بدون تدريج، وهذه من الآثار التي كتبت على من سبقنا، إذا نزلت عليهم الكتب مرة واحدة أُلزِموا بالعمل بها من حين أن تنزل فيما ألفوه وفيما لم يألفوه، بخلاف القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

التوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى - عليه الصلاة والسلام -.

والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى - عليه الصلاة والسلام -.

وهذان اسمان، قيل: إنهما غير عربيين، وقيل: بل هما عربيان، ولكن الذي يظهر أنهما ليسا بعربيين، ولكنه إذا نزل القرآن بشيء صار اللفظ الذي نزل به القرآن عربيًّا بالتعريب.

قال تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

بضم اللام مبنيًا، على القاعدة المعروفة فيها وفي أخواتها: أنه إذا حُذف المضاف، ونُوي معناه بُنيت على الضم.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

﴿هُدًى﴾: مفعول لأجله متعلق بـ (نزل) و (أنزل)، أي: نزَّل عليك الكتاب هدى للناس، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، فهي مفعول من أجله، أي: من أجل هداية الناس.

والمراد بالهداية هنا، هداية الدلالة التي يترتب عليها هداية التوفيق.

لكن الأصل في هذه الكتب أنها هداية دلالة، ولهذا قال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ عمومًا، حتى الكفار تهديهم وتدلهم، وتبيِّن لهم الحق من الباطل، لكن قد يُوفَّقون لقبول الحق والعمل به، وقد لا يُوفَّقون.

والهدى ضد الضلال، واهتدى بمعنى سار على الطريق الصواب، وضلَّ بمعنى انحرف وتاهَ وضاع، ومنه سميت (الضالة) يعني البعير التائه الضائع.

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المراد بالناس: البشر وهم بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾:

ليس المراد بالفرقان هنا القرآن، بل المراد: أنزل ما يبيِّن به الفرق بين الحق والباطل.

وإنما قلنا ذلك ؛لأننا لو خصصناه بالقرآن لكان في ذلك تكرار مع قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، مع أن التوراة والإنجيل فيهما أيضًا فرقان، أي: فيهما تفريق بين الحق والباطل.

إذن أنزل الفرقان الذي تضمنته هذه الكتب الثلاث وهي القرآن والتوراة والإنجيل.

وكلمة«الفرقان» كلمة واسعة تشمل كل ما به الفرق من جميع الوجوه بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين النافع والضار، وبين الأنفع والنافع، وبين الأضر والضار وغير ذلك.

ولما ذكر الله – سبحانه وتعالى – منَّته على عباده بإنزال هذه الكتب العظيمة قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بعد إنزال هذه الكتب الواضحة الهادية المفرقة انقسم الناس إلى قسمين: قسم آمن، وقسم كفر. فذكر الله حكم الكافر، وبذكره يتبين حكم المؤمن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كفروا: يقال: إن أصل الكفر من الستر، ويطلق على الجحود؛ لأن الجاحد ساتر، و ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي جحدوها وأنكروها، وقلنا: إن الكفر من الستر ؛لأن منه الكُفُرَّى، والكُفُرَّى: وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر الطلع، فالكافر في الحقيقة ساتر، أي: جاحد للحقَ مخُفٍ له.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الآيات جمع آية، والآيات هي العلامات الدالة على وجود الله – عزَّ وجلَّ –، وعلى كماله الذاتي، وعلى كماله الفعلي، والآيات نوعان:

١ ـ آيات كونية:

ومنها السموات والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال والشجر والدواب والإنسان، واختلاف اللغات، واختلاف الألوان، والنوم واليقظة، وأشياء كثيرة.

٢ ـ آيات شرعية:

وهي الوحي المنزَّل على الرسل، ووجه كون الآيات الكونية آية: أنه لا يستطيع أحد أن يفعل مثل فعل الله – عزَّ وجلَّ –أبدًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

ووجه كون الآيات الشرعية من آيات الله: أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل شرع الله في هداية الخلق وإصلاحهم أبدًا، لو اجتمع جميع مفكري العالم ليأتوا بدستور يُصلح الخلق كما يُصلحه الوحي، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

لكن الآيات الكونية قد يعقلها كثير من الناس؛ لأنها آيات محسوسة مشهودة، حتى الكافر تقول له: هل تستطيع أن تخلق الذباب، يقول: لا أستطيع.

أما الآيات الشرعية فليس كل أحد يدركها، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:٧ : ١٤]، فالإنسان إذا اجتمعت الذنوب على قلبه ـ نسأل الله أن يطهرنا وإياكم منها ـ صار لا يرى الحق حقًا ولا الباطل باطلًا، عُمِي ـ والعياذ بالله ـ يُتلى عليه القرآن فيقول: هذه أساطير الأولين ليس كلام رب العالمين.

ولهذا نقول: إن الآيات الشرعية هي التي فيها الامتحان والابتلاء، ومن ثَمَّ لم ينكر أحد ربوبية الله، كلٌّ مُقِرٌّ بأن الله ربُّ العالمين، وأنه الذي خلق السموات والأرض، لكن الآيات الشرعية أُنكِرتْ.

فقريش كانوا إذا سُئلوا: مَنْ خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله. لكن قالوا في القرآن: إنه كهانة وشعر وسحر وما أشبه ذلك.وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:والعذاب هنا بمعنى العقوبة، والشديد: القوي، أي: العقوبة قوية ـ والعياذ بالله ـ وقد ذكر الله تعالى في القرآن، وذكر نبي الله ﷺ في السنّة أصنافًا وأنواعًا من هذا العذاب تقشعر منه الجلود، وتوجل منه القلوب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى﴾ [الكهف:٢٩] إن يستغيثوا، ولا يستغيثون إلّا لشدة الحر والظمأ، فإذا أغيثوا يؤتون بماء يشوي الوجوه، إذا أقبلوا به إلى أفواههم ليشربوه يشوى وجوههم والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف:٢٩] هذا شرابهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣ ـ ٤٦] هذا طعامهم.وأما لباسهم فقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم:٥٠].

ومقرهم: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

ولأهل هذا العذاب الصراخ والعويل. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيقال لهم توبيخًا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧]. والسنّة مملوءة بذكر أصناف العقاب الذي يعاقب به هؤلاء، فهو عذاب شديد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

عزيز: أي: ذو العزة، وهي ثلاثة أصناف:

١ - عزة القَدْر.

٢ - عزة القهر.

٣ - عزة الامتناع.

عزة القدر: بمعنى أن الله ذو قَدْرٍ شريف عظيم، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «السَّيِّدُ اللهُ»[1]. هذه عزة القدر.

وعزة القهر: بمعنى أنه القاهر لكل شيء، لا يُغْلَب، بل هو الغالب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٦١].

وقال الشاعر الجاهلي:

أَيْنَ المَفَرُّ وَذَا الإِلَهُ الطَّالِبُ وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

فالله سبحانه غالب على كل شيء.

وعزة الامتناع: أي: أنه - عزَّ وجلَّ - يمتنع أن يناله سوء أو نقص، ومن هذا المعنى قولهم: هذه أرض عَزَاز، أي: صلبة قوية لا تؤثر فيها المعاول.

وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: أي: صاحب انتقام، والانتقام أخذ المجرم بإجرامه. تقول: انتقمت من زيد.

يعني: أخذت بحقي منه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

وهنا قال: «ذو انتقام» ولم يقل «ذو الانتقام».

وفي الرحمة قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] ولم يقل: ذو رحمة».

وإن كان قد قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]؛ لأن الانتقام ليس من أوصاف الله المطلقة، وليس من أسماء الله المنتقم.

فـ (المنتقم) لا يوصف الله به إلَّا مقيدًا؛ فيقال: المنتقم من المجرمين، كما قال تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٧٠)، وأبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٠٠).

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

أما ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فهي لا تعطي معنى الانتقام المطلق؛ لأن (انتقام) نكرة، فلا تعطي المعنى على الإطلاق، بل له انتقام مقيد بالمجرمين، ونحوهم.

وبهذا نعرف أن الأسماء المسرودة في الحديث الذي رواه الترمذي لا تصح عن النبي ﷺ، لأنها ذُكِرَ فيها من أسماء الله المنتقم، وهذا لا يصح، وحُذِفَ من أسماء الله ما ثبتت به الأحاديث فلم يُذكر فيها مثل: الشافي، والرب.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ - إثبات ألوهية الله - عزَّ وجلَّ -، لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾.

٢ - انفراده بهذه الألوهية، لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣ - إثبات اسمين من أسماء الله ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وقد ورد أنهما اسم الله الأعظم، لاشتمالهما على كمال الذات والصفات والأفعال.

٤ - إثبات حياته وقيوميته؛ لأنَّ كل اسم فإنه متضمن للصفة، وقد يتضمن أمرًا زائدًا وهو الحكم الذي يسمى الأثر.

٥ - أن كل شيء مفتقر إلى الله، وأن الله غني عما سواه، ووجه ذلك: أنّ كمال حياته يستلزم غناه عن كل أحد، وكمال قيوميته يستلزم افتقار كل شيء إليه، وهو كذلك.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

٦ - إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾. والنزول لا يكون إلَّا من أعلى.

٧ - أن القرآن الكريم منزل؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾، ومجرد كونه منزلًا لا يستلزم إلَّا يكون مخلوقًا؛ لأن الله قد ينزل المخلوق.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد:١٧] والماء مخلوق، لكن بالنظر لكون القرآن كلامًا يستلزم إلَّا يكون مخلوقًا؛ لأن الكلام صفة المتكلم، وصفة الخالق غير مخلوقة، إذنْ فيؤخذ أن القرآن غير مخلوق لكونه نزل من عند الله وهو كلام، والكلام صفة المتكلم، والصفة تابعة للموصوف.

٨ - فضل رسول الله ﷺ وميزته؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، والله - سبحانه وتعالى - قد يضيف الإنزال إلى الناس كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:١٣٦]، وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران:٨٤]، لكنه أنزل إلى الرسول مباشرة وإلينا بواسطة الرسول ﷺ، وهو الذي بلغه إلينا، ومعلوم أن الأصل أشرف من الفرع.

٩ ـ أن هذا الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ مشتمل على الحق، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾. فقد جاء بالحق، ونزل به. قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، فالحق في الأخبار الصدق، والحق في الأحكام العدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

١٠ ـ أن القرآن نفسه حق. يؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنه نزل نزولًا بحق ليس نزولًا كذبًا باطلًا.

١١ ـ فضيلة القرآن لوصفه بالحق نزولًا وتضمنًا، وَلِوَصْفِهِ بالتصديق لما بين يديه.

١٢ ـ الإشارة إلى أن هذا القرآن قد أخبرت عنه الكتب السابقة.

١٣ ـ جواز التعبير بما يخالف الظاهر إذا دلّ عليه السياق كما في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لأن الكلمة دلت على معناها في سياقها، وإن كان يخالف أصل الوضع.

١٤ ـ أن التوراة النازلة على موسى، والإنجيل النازل على عيسى عليهما الصلاة والسلام حق؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

١٥ ـ الإشارة على أن التوراة والإنجيل قد نسخا بالقرآن، وقد صرح بذلك في سورة المائدة. قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

مسألة: المعروف عند السلف أن التوراة والإنجيل من كلام الله، لكن لا أذكر حتى الآن دليلًا على وصفهما بأنهما من كلام الله، إنما وصفهما الله بأنهما منزَّلة، وأنها كتب، والله تعالى يقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]، وجاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ». فأنا أتوقف في هذا، لكن السلف كلامهم واضح يقولون: إن التوراة والإنجيل من كلام الله. ويكفي أن نؤمن بأنها نازلة من عند الله.

١٦ ـ رحمة الله - عزَّ وجلَّ - بعباده، وعنايته بهم حيث كان ينزل الكتب على رسله هدى للناس.

١٧ ـ إثبات الحكمة لله تعالى في أحكامه الشرعية كما تثبت في أحكامه الكونية، لقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

ومن أسماء الله تعالى الحكيم، وهو ذو الحكمة. والحكمة هي إصابة الصواب، وإن شئت فقل: وضع الشيء في موضعه، وإن شئت فقل: إتقان الشيء وإحكامه، فإذا وقع من أفعال الله أو من شرع الله ما لا نعلم له حكمة فليس ذلك إلّا لقصور فهمنا، وعجزنا عن إدراك الحكمة.

وإذا وقع ما نظن أنه على خلاف الحكمة فما ذاك إلّا لسوء فهمنا، فالذي يظن أنه ليس له حكمةٌ قاصرَ الفهم، والذي يظن أنه على خلاف الحكمة سيئ الفهم، أما سليم الفهم الذي يعطيه

الله تعالى فهمًا فستتبين له الحكمة، ومع ذلك لا يمكن أن ندرك كل وجوه الحكمة؛ لأن حكمة الله - عزَّ وجلَّ - لا تدرك غايتها، والإنسان بشر ناقص، وكم من أحكام شرعية تظن أن حكمتها كذا وكذا ثم يتبين لك أن لها حِكَمًا أخرى، أو ربما يتبين لك أن هذه ليست الحكمة بل الحكمة شيء آخر، إنما يجب عليك أن تؤمن بأنه ما من حكم لله كوني أو شرعي إلَّا وله حكمة.

ولا يلزم على هذا أن تذهب مذهب المعتزلة في وجوب فعل الصلاح، أو وجوب فعل الأصلح على الله لأمرين:

الأول: قد تظن أن هذا هو الأصلح، وليس الأصلح.

ولنضرب لهذا مثلًا: نحن نظن أن الأصلح نزول الغيث، وخصب الأرض، فإذا امتنع المطر وأجدبت الأرض فقد يكون هذا هو المصلحة! ونحن لا نعلم.

إذنْ لا يمكن أن نقول: يجب على الله كذا؛ لأنه أصلح، إذ قد يكون ما قلنا إنه الأصلح هو الأفسد!

الثاني: إذا تحققنا أنه الأصلح فإنه يجب بمقتضى الحكمة لا بمقتضى العقل.

فنحن لا نوجب على الله بعقولنا، والعقل لا يوجب على الله شيئًا؛ لأن العقل مخلوق ناقص، فلا يوجب على الكامل الأزلي الأبدي شيئًا، فإذا وجب فعل الأصلح فإنما الذي أوجبه على نفسه الله.

قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]. فأوجب على نفسه أن يهدي الناس ويدلهم، فإذا ثبت أن هذا هو الأصلح فقد وجب على الله بمقتضى حكمته وإيجابه على نفسه، لا بمقتضى عقولنا وإيجابنا عليه، وبهذا ننفك عن قول المعتزلة الذين يرون أن العقل هو الذي يوجب الشيء أو الذي يمنع الشيء، أو الذي يقبح الشيء أو الذي يُحسِّن الشيء.

ومن ذلك مثلًا: البيان للخلق، بيان الشرائع للخلق وما يجب عليهم نحو ربهم، وما يجب عليهم نحو عباد الله، واجب على الله بمقتضى الحكمة، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢].

١٨ - أن هداية القرآن نوعان: عامة، وخاصة.

فالعامة مثل هذه الآية: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾. والخاصة مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] والفرق بينهما أن الهداية التي بمعنى الدلالة عامة؛ لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، والهداية التي بمعنى التوفيق والاهتداء خاصة بالمتقين.

١٩ - أن الكتب كلها فرقان تتضمن الفرق بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين المؤمن والكافر، وبين الضار والنافع، كل ما يمكن أن يكون فيه فرق فإن الكتب تفرقه.

٢٠ - أنه يمتنع أن تجمع الكتب السماوية بين مختلفين، أو أن تفرق بين متماثلين أبدًا؛ لأن

الفرقانَ هو الذي يفرق بين شيئين مختلفين.

أما شيئان لا يختلفان فلا تفريق بينهما، ويتفرع على هذه الفائدة إثبات القياس؛ لأن القياس إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، فهو جمع بين متماثلين، وعدم الأخذ بالقياس تفريق بين متماثلين.

٢١ - أنه كلما اهتدى الإنسان للفروق، كان أعظم اهتداء بالكتب المنزلة من الله؛ لأن الكتب كلها فرقان فمثلًا: إذا كان الإنسان يفرق بين الشرك الأصغر والأكبر، وبين النفاق الاعتقادي والعملي، وبين الكفر الأكبر والأصغر، وبين الحلال والحرام، كان أشد اهتداء بالكتب ممن لا يفرق.

وربما يؤخذ من هذا أيضًا الإشارة إلى أنه ينبغي الاعتناء بمعرفة الفروق بين الأشياء المتشابهة، وهذا فن أخذ به بعض أهل العلم ولاسيما في كتب الفقه، فيذكرون مثلًا: الفروق بين البيع والإجارة، بين الإجارة والجعالة، بين الرهن والضمان، بين الضمان والكفالة، بين الفرض والتطوع، وهذه من فنون العلم الشريفة التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها ،كذلك في العقائد والتوحيد يفرق بين الشرك الأكبر والأصغر، فرجل حلف بغير الله نقول: هو مشرك.ورجل عبد صنمًا نقول - أيضًا -: هو مشرك، لكن بينهما فرق عظيم.

العابد للصنم شركه أكبر، والحالف بغير الله شركه أصغر إلَّا أن يضاف إلى حلفه بغير الله جَعْله المحلوف به كالله تعالى في التعظيم، فحينئذ يكون شركًا أكبر لا من حيث القسم، ولكن من حيث إنه جعل رتبة المحلوف به كرتبة الخالق.

٢٢ - بيان عقوبة الكفار وهي العذاب الشديد، وذكر عقوبة الكافر تستلزم التحذير من الكفر.

٢٣ - الإشارة إلى أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

كافر له العذاب الشديد، ومؤمن له الثواب الجزيل؛ لأنه إذا ذكر عقوبة الضد، فإن ضده تثبت له ضد تلك العقوبة، ولهذا لما قال رسول الله ﷺ: «وَفِي بِضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»(١)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»(٢).

وقد يكون هذا من جملة الفرقان الذي يحصل حيث نفرق بين الكفار وبين المؤمنين، فكما اختلفوا وتفرقوا في أعمالهم فإنه يلزم أن يفترقوا في ثواب تلك الأعمال.

٢٤ - إثبات اسم من أسماء الله وهو: (العزيز) بالمعاني الثلاثة السابقة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

(٢) انظر ما قبله.

٢٥ ـ أن الله تعالى موصوف بالانتقام؛ لقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ولكنه ليس على سبيل الإطلاق كما تقدم بل هو منتقم ممن يستحق ذلك وهم المجرمون كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]

التفسير

هذه جملة خبرية مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾، وخبرها منفي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والخفاء ضد الظهور.

و﴿شَىْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء في الأرض والسماء، وقوله: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقة بـ «يخفي» يعني لا يخفى عليه شيء لا في هذا ولا في هذا.

والمراد بالأرض والسماء الجنس، فيشمل الأرضين والسموات جميعًا.وإنما خصَّ الأرض والسماء لأنهما مشهودان لنا، وما عدا ذلك لا نعلمه إلَّا عن طريق الغيب.

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله – عزَّ وجلَّ – أنَّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي صفة سلبية المراد بها :بيان كمال علمه؛ لأن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي، وإنما يراد بها بيان كمال ضد ذلك المنفي.

والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وأنك لا تظن أن عملك يخفى على الله، بل هو معلوم له، فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته.

لا تقل: أنا في بيتي أو في غرفتي لا يطلع عليّ أحد، فالله تعالى مطلع عليك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التحذير من مخالفة الله؛ لأنَّ الله يعلم بمخالفتك إياه.

٢ ـ الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء الذي يفعله العبد إلَّا بعد وقوعه.

٣ ـ أن الله تعالى عالم بالكليات والجزئيات؛ لقوله: ﴿شَىْءٌ﴾؛ لأنَّ النكرة في سياق النفي تعم كل شيء.

٤ ـ أن صفات الله – عزَّ وجلَّ – إما مثبتة وإما منفية، فالمثبتة يسمونها ثبوتية، والمنفية

يسمونها سلبية، والسلبية متضمنة لثبوت كمال الضد، فلكمال علمه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦]

❁ التفسير ❁

وهذا من جملة معلوماته التي تخفى على كثير من الناس وهي معلومة له.

وقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يجعلكم على صورة معينة يختارها ويريدها.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ حال من الضمير «الكاف» في يصوركم، أي حال كونكم في الأرحام.

﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم، وهو وعاء الجنين في بطن أمه.

وقد بيّن الله تعالى في آية ثانية أن الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث: وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة: وهو الوعاء المائي الذي يكون فيه الجنين.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ هذه حال من فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ أي أنه يصورنا على أي كيفية شاء، فلا خيار لنا في اختيار الصورة المعينة للجنين الذي في البطن.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:هذه الجملة خبرية فيها الحصر الذي طريقه النفي والإثبات، والـ ﴿إِلَٰهَ﴾: بمعنى مألوه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الضمير ﴿هُوَ﴾ بدل من الخبر المحذوف، أي لا إله حق إلّا هو.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: سبق لنا قريبًا معناه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فعيل بمعنى مُفْعِل، وفعيل بمعنى فاعل، أما فعيل بمعنى فاعل فهو كثير في اللغة العربية، مثل: قدير بمعنى قادر، وسميع بمعنى سامع، وأما سميع بمعنى مُسْمِع فهي واردة في اللغة العربية.

قال الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيْعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

فالسميع: بمعنى المُسمع الذي يُسمعني.

فتكون (حكيم) هنا بمعنى مُحكِم وبمعنى حاكم، فالله - عزَّ وجلَّ - حاكم محكم لما حكم.

وحكم الله تعالى ينقسم إلى قسمين:

١ ـ حكم كوني: وهو ما قضاه الله على عباده كونًا، وهذا يخضع له كل أحد من مؤمن وكافر، وبَرٍ وفاجرٍ، ولا يستطيع أحد أن يهرب منه أبدًا.

٢ ـ حكم شرعي: وهو ما قضاه الله على عباده شرعًا، وهذا هو الذي اختلف فيه الناس، فمنهم كافر ومنهم مؤمن، منهم من خضع لهذا الحكم الشرعي وقام بما يجب عليه نحوه، ومنهم من استكبر عنه، وكذب به، ولم يرفع به رأسًا.

وفي الآية هنا يكون (حكيم) بمعنى ذي الحكمة أي: متقن لكل ما حكم به. فكل ما حكم الله به من حكم كوني أو شرعي فهو على أتم وجه وأتقنه وأحسنه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣: ٤].

وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

والحكمة سواء في الحكم الكوني أو في الحكم الشرعي إما صورية؛ بأن يكون الشيء على صورة مطابقة للحكمة، أو غائية بأن تكون الغاية منه غاية حميدة، فإذا نظرنا إلى الشرع فإن جميع ما شرعه على الصورة المطابقة للحكمة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الغرض منها ـ وهو إصلاح القلوب وإصلاح الأعمال وإصلاح الفرد وإصلاح المجتمع ـ أيضًا موافق للحكمة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ - حيث يصور المخلوقات في الأرحام.

٢ ـ أن صور المخلوقات يكون تصويرها بأمر الله وإذنه كيف يشاء، هذا أبيض وهذا أسود، وهذا جميل وهذا قبيح، وهذا طويل وهذا قصير، وهذا غليظ وهذا دقيق وهكذا، بل ويشمل أن هذا ذكر وهذه أنثى؛ لأن صورة الذكر تختلف عن صورة الأنثى.

٣ ـ بيان رحمة الله - عزَّ وجلَّ - حيث يتولى شئون الجنين ويصوره، لا يخرج غير مصور.

لو شاء الله لخرج الجنين غير مصور ثم يصور شيئًا فشيئًا، كما ينمو عقله، ولكن من حكمة الله ورحمته أنه لا يخرج إلَّا على الصورة التي أرادها الله - عزَّ وجلَّ -.

فإذا قال قائل: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يستفاد منها أن هذا التصوير لا يرجع إلى فعل العبد وإنما يرجع لمشيئة الله - عزَّ وجلَّ - وهو كذلك، ولكن هذا لا ينافي أن تكون الصورة قريبة من صورة الأب أو من صورة الأم أو الجد أو الجدة، يعني أن يكون هذا الجنين قد نزعه عرق من آبائه وأمهاته وأقاربه، هذا لا يمنع؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - قد جعل لكل شيء سببًا، ويدل لهذا قصة الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود ـ وكان الرجل وزوجته أبيضين ـ كأنه يعرِّض بزوجته ما الذي أتى بالأسود لها؟ فقال له النبي ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبلٍ؟»، قال: نعم، قال:«فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر، قال: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ الأورق: الفضي بين

البياض والسواد)، قال: نعم، قال: «أَنَّى لَهَا ذَلِكَ؟»، قال: لعله نزعه عرق، فقال رسول الله ﷺ: «فَابْنُكَ هَذَا لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٍ»(1). فاقتنع الرجل؛ لأن هذا قياس جلي واضح.

الشاهد قوله: «لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ»، فيستفاد من ذلك أن هذه الكيفية التي يريدها الله - عزَّ وجلَّ - في الأرحام لا يمنع؛ أن يكون قد نزعها عرق من آبائه أو أمهاته أو أجداده أو جداته.

٤ - إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وقد سبق لنا أن المشيئة إذا أطلقت فهي مقرونة بالحكمة، فما من شيء يشاؤه الله إلَّا لحكمة.

فإن قال قائل: هل في الآية دليل على: أنه لا يجوز للإنسان أن يعمل عملية تجميل لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، حيث جعل التصوير راجعًا إلى مشيئته وحده.

قد يقال ذلك، وقد لا يقال؛ لأن الله تعالى أخبر في آيات كثيرة بأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أي يضيق، ولا نقول: إن الإنسان ممنوع من أن يفعل الأسباب التي يكون بها بسط الرزق؛ لأن البسط راجع إلى مشيئة الله! ولكن هناك فرق بين مسألة بسط الرزق وطلب البسط وهذه المسألة؛ لأن النصوص وردت بمنع التجميل، فقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام -، أنه لعن «النَّامِصَةَ والمُتَنَمِّصَةَ، وَالوَاشِرَةَ وَالمُسْتَوْشِرَةَ، وَالوَاشِمَةَ وَالمُسْتَوْشِمَةَ»(2).

وهذا يدل على أن الإنسان ممنوع من التجميل، والمراد التجميل: الذي يكون دائمًا، أما التجميل الطارئ كتجمل المرأة بالحناء وشبهه فلا بأس به.

فإذا قال قائل: هل في الآية ما يدل على منع إزالة العيوب لقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾، كما إذا خرج صبي له ستة أصابع في كل يد فهل يجوز أن نقطع الإصبع الزائد؟

فهذا ليس من باب التجميل ولكنه من باب إزالة العيب، وإزالة العيب جاءت السنّة بجوازه، فإن الرجل الذي قطع أنفه أذن له الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يتخذ أنفًا من وَرِق - أي من فضة - فأنتن! فأذن له أن يتخذ أنفًا من ذهب(3).

فهذا يدل على أن إزالة العيب ليست كجلب الجمال، وعلى هذا فيجوز قطع الإصبع الزائدة، ولكن بعض أهل العلم صرح بالتحريم إلَّا أنهم علَّلوا ذلك بأنه يُخشى على من قُطعت إصبعه أن يموت بنزيف الدم! وهذه العلة منتفية في الزمن الحاضر، وعليه فيجوز قطع الإصبع الزائدة، ومثله لو فرض أن هناك لحمة زائدة في الأذن أو في الرأس أو في الرقبة فتجوز إزالتها.

٥ - إثبات انفراد الله - عزَّ وجلَّ - بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٥٠٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٣١)، ومسلم (٢١٢٥).

(٣) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥)، وأبو داود (٤٢٣٣)، والنسائي (٢/ ٢٨٦)، والترمذي (١٧٧٠)، والحديث حسنه الشيخ الألباني وانظر «إرواء الغليل» (٨٢٤).

٦ - إثبات الاسمين الكريمين العزيز والحكيم، وما تضمناه من صفة.

وكل اسم من أسماء الله دال على الذات وعلى الوصف المشتق منه، فإن كان متعديًا ففيه دلالة ثالثة وهي الأثر المترتب على ذلك.

فـ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ مثلًا: فيه إثبات الاسم: وهو السميع، والصفة :وهي السمع، والأثر :وهو أنه يسمع، وهكذا العليم.

أما ما لا يتعدى للغير ففيه إثبات الاسم والصفة فقط، مثل: الحي، العظيم، العلي.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]

التفسير

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود على الله، وتأمل هنا ترابط الآيات مع بعضها البعض، لما ذكر الله - عزَّ وجلَّ - أنه هو المصور - والتصوير ابتداء الخلق - ذكر بعده إنزال الكتاب الذي به الهداية كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١ - ٤]، فأحيانًا يبيِّن الله النعمة الدينية قبل، وأحيانًا يبيِّن الله النعمة الدنيوية قبل، فبدأ الله هنا بالتصوير ثم ذكر إنزال القرآن، وفي سورة الرحمن ذكر تعليم القرآن قبل خلق الإنسان.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو ا لقرآن، ثم قسّم الله هذا الكتاب فقال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، أي: ومنه أُخر متشابهات. وهنا يتعين أن نقول: ومنه أُخر ليتم التقسيم.

فـ (أُخر) مبتدأ خبره محذوف يعني: ومنه أخر متشابهات، نظير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] فـ (سعيد) هنا ليست معطوفة على (شقي)؛ لأنها لو كانت معطوفة عليها لفسد التقسيم، ولكن التقدير: منهم شقي ومنهم سعيد.

والاشتباه قد يكون اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غير واضح، أو اشتباهًا في التعارض، بحيث يظن الظان أن القرآن يعارض بعضه بعضًا، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن الله -

عزَّ وجلَّ - قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. والقرآن يصدق بعضه بعضًا.

والتعارض الذي يفهمه من قد يفهمه من الناس يكون للأسباب التالية:

١ - إما لقصور في العلم.

٢- أو قصور في الفهم.

٣ - أو تقصير في التدبر.

٤ - أو سوء في القصد، بحيث يظن أن القرآن يتعارض، فإذا ظن هذا الظن لم يوفق للجمع بين النصوص، فيحرم الخير لأنه ظن ما لا يليق بالقرآن.

قال تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾:

الآيات: جمع آية وهي العلامة، وكل آية في القرآن فهي علامة على مُنْزِلها لما فيها من الإعجاز والتحدي، وقوله: ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي: متقنات في الدلالة والحكم والخبر، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾:

أي: أن أحكامها غير معلومة، وأخبارها غير معلومة، فصار المحكم هو المتقن في الدلالة سواء كان خبرًا أو حكمًا، والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة سواء كان خبرًا أو حكمًا.

ولهذا نجد أن بعض الآيات لا تدل دلالة صريحة على الحكم الذي اسْتُدِلَّ بها عليه، وبعض الآيات الخبرية أيضًا لا تدل دلالة صريحة على الخبر الذي استدل بها عليه.

قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: قدَّم وصف هذه المحكمات وبيان حالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات لأنها أمٌّ، وأمُّ الشيء مرجعه وأصله.

كما قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩] أي المرجع وهو اللوح المحفوظ الذي ترجع الكتابات كلها إليه، ومنه سميت الفاتحة أم الكتاب؛ لأن مرجع القرآن إليها. فهذه المحكمات يجب أن ترد إليها المتشابهات.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾:

ينقسم الناس بالنسبة إلى هذه المتشابهات إلى قسمين:

١ - قسم يتبعون المتشابه ويضعونه أمام الناس ويعرضونه عليهم.

فيقولون: كيف كذا وكيف كذا؟

٢ - وقسم آخر يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يتخالف، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم، ويكون جميعه محكمًا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ الزيغ: بمعنى الميل، من قولهم: زاغت الشمس إذا مالت عن كبد السماء.

أي: في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، فتجدهم ـ والعياذ بالله ـ يأخذون آيات القرآن التي فيها اشتباه حتى يضربوا بعضها ببعض وما أكثر هؤلاء!! ليصدوا عن سبيل الله ويشككوا الناس في كلام الله - عزَّ وجلَّ -، وأما الذين ليس في قلوبهم زيغ وهم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها، فهؤلاء لا يكون عندهم هذا التشابه بل يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ فلا يرون في القرآن شيئًا متعارضًا متناقضًا.

وكل أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم كلهم اتبعوا ما تشابه منه، لكن مستقل ومستكثر، فهؤلاء يتبعون ما تشابه لهذين الغرضين أو لأحدهما:

١ ـ ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: صد الناس عن دين الله؛ لأن الفتنة بمعنى: الصد عن دين الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

فتنوهم: أي صدُّهم عن دين الله.

٢ ـ ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾، أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسِّرونه على مرادهم لا على مراد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾: اختلف السلف في الوقف عليها، فأكثر السلف وقف على قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم نبتدئ فنقول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ وعلى هذا تكون الواو في ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ للاستئناف، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر المبتدأ، ويصبح المعنى أن هذا المتشابه لا يعلم تأويله إلَّا الله - عزَّ وجلَّ -، وأما الراسخون في العلم الذين لم يعلموا تأويله يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، وليس في كلام ربنا تناقض ولا تضارب، فيسلِّمون الأمر إلى الله عزَّ وجل؛ لأنه هو العالم بما أراد، وينقسم الناس إذن إلى قسمين:

١ ـ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾.

ووصل بعض السلف ولم يقف، فقرأ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ فتكون الواو للعطف، والراسخون: معطوفة على لفظ الجلالة، أي: لا يعلم تأويله إلَّا الله والراسخون في العلم، بخلاف الذين في قلوبهم زيغ فهؤلاء لا يعلمون. والحقيقة أن ظاهر القراءتين التعارض لأن:

القراءة الأولى: تقتضي أنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه إلَّا الله.

والقراءة الثانية: تقتضي أن هذا المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم.

فيكون ظاهر القولين التعارض، ولكن الصحيح أنه لا تعارض بينهما، وأن هذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى التأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فإن كان المراد بالتأويل التفسير فقراءة الوصل أولى؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن المتشابه، ولا يخفى عليهم؛ لرسوخهم في العلم، وبلوغهم عمقه؛ لأن الراسخ في الشيء هو الثابت فيه المتمكن منه، فهم لتمكنهم وثبوت أقدامهم في العلم وتعمقهم فيه يعلمون ما يخفى على غيرهم.

أما إذا جعلنا التأويل بمعنى العاقبة والغاية المجهولة، فالوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أولى؛ لأن عاقبة هذا المتشابه وما يؤول إليه أمره مجهول لكل الخلق.

والتأويل يكون بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلَّا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن.

فمن الأول: قول أحد صاحبي السجن ليوسف - عليه الصلاة والسلام -: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

أي: بتفسير هذه الرؤية ما معناها؟ ففسرها، ومن ذلك قول الرسول الله ﷺ في ابن عباس: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»(١) أي تفسير الكلام ومعرفة معناه.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

فقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ يعني: عاقبته وهو ما يؤول إليه، ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ بمعنى: تأتي عاقبته التي وعدوا بها.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] يعني: أحسن عاقبة ومآلًا.

واعلم أن كثيرًا من الناس الذين يتكلمون في العقائد فسروا المتشابه بآيات الصفات.

قالوا: إن المتشابهات هن آيات الصفات.

ولكن لا شك أن تفسير المتشابهات بآيات الصفات على الإطلاق ليس بسديد؛ لأن آيات الصفات معلومة مجهولة؛ فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله - عزَّ وجلَّ - ويحدثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلَّا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى، هذا غير ممكن إطلاقًا.

نعم، هي مجهولة من جهة أخرى وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيف يد الله، ولا ندرك حقيقتها، ولا نعلم وجه الله، ولا ندرك حقيقته، ولا ندرك حقيقة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٤٧٧).

علم الله - عزَّ وجلَّ -، ولا ندرك كل صفاته ولا ندرك حقائقها؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه على سبيل الإطلاق فقد أخطأ، والواجب التفصيل فنقول: إن أردت بكونها من المتشابه تشابه الحقيقة التي هي عليها فأنت مصيب، وإن أردت بالمتشابه تشابه المعنى وأن معناها مجهول لنا فأنت مخطئ غاية الخطأ، وقد ذهب إلى هذا من قال: إن آيات الصفات وأحاديثها مجهولة لا نعلمها، لا يعلمها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا ابن مسعود ولا ابن عباس ولا فقهاء الصحابة ولا فقهاء التابعين ولا أئمة الإسلام، كلهم لا يدرون معناها، نقول لهم: ما معنى «استوى على العرش؟» **فيقول: الله أعلم، ما معنى** ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]؟ **يقول الله أعلم مامعني** ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] **يقول: الله أعلم.**

فكل ما يتعلق بصفات الله يقول: الله أعلم.

والغريب أن هذا القول في غاية ما يكون من السقوط، وإن كان بعض الناس يظن أنه مذهب أهل السنَّة أو أنه مذهب السلف، حتى أدَّى بهم الأمر إلى هذه الكلمة الكاذبة: (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم).

وهذه القضية من أكذب القضايا؛ أن تكون طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لكن نقول: طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم.

فمن الناس من يظن أن مذهب السلف هو التفويض، أي: عدم معرفة المعنى وعدم الكلام به، حتى رسول الله ﷺ على زعمهم يقول: «**يضْحَكُ الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر، كلاهما يدخل الجنة**»(١)، لو سألته وقلت: يا رسول الله، ما معنى يضحك؟ قال: لا أدري!! وقوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر**»(٢)، لو سألته: ما معنى ينزل؟ قال: لا أدري!!.

هكذا زعموا!! وهو أمر يدعو للعجب، وزَعْمٌ بعيدٌ عن الصواب.

إذن نقول: آيات الصفات من المتشابه في الحقيقة والكيفية التي هي عليها؛ لأن الإنسان بشر لا يمكن أن يدرك هذه الصفات العظيمة، لكن في المعنى محكمة معلومة لا تخفى على كل أحد، كلنا يعرف ما معنى العلم، كلنا يعرف ما معنى الاستواء، كلنا يعرف ما معنى الوجه، وما معنى اليد.

لهذا قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ قوله المشهور الذي روي عن شيخه أيضًا قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، فمثلًا: نحن نعلم معنى (العين)، لكن حقيقة عين الله وكيفيتها غير معلومة، عين المخلوق معروفة مكونة من طبقات متعددة، ومن عروق، ومن كذا... لكن عين الله لا يمكن أن نقول فيها هكذا لأنها مجهولة لنا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

إذن حقيقتها غير معلومة، لكن معنى العين وهي التي يحصل بها النظر والرؤية أمر معلوم.

وكذا يد الله - عزَّ وجلَّ -، فاليد معروفة، والأصابع معروفة، والقبض باليد معروف، والأخذ باليد معروف؛ لكن حقيقة هذه اليد وكيفيتها لا نستطيع أن نتكلم فيها، ومن ادَّعى العلم بها فهو كاذب.

هذه معنى الحقائق، فالحقائق شيء والمعنى شيء آخر، وثقوا بأننا لو نقول: إننا لا نعلم معاني آيات الصفات أنه سيفوتنا ثلاثون في المائة من معاني القرآن أو أكثر؛ لأننا ما نكاد نجد آية إلَّا وفيها اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته. وقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: صدَّقنا به، بالمحكم وبالمتشابه، أما المحكم: فظاهر، وأنهم عرفوا معناه واطمأنوا إليه، وأما المتشابه: فإيمانهم به هو التسليم، ولهذا قال فيه: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ولا يمكن أبدًا أن يكون فيه تعارض أو تناقض.

في هذه الآية قسَّم الله القرآن إلى قسمين، ولكنه في موضع آخر جعله قسمًا واحدًا، فقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال في آية أخرى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]. ولم يذكر التشابه، وهذا أيضًا من المتشابه، فكيف يوصف القرآن بأوصاف ظاهرها التعارض؟!

فالراسخون في العلم يعلمون أنه لا تعارض، فيقولون: المتشابه الذي وصف به القرآن غير مقرون بالمحكم، فيراد به التشابه في الكمال والجودة والهداية.

فهو متشابه أي: كل آياته متشابهة، كلها كاملة البلاغة، كلها كاملة في الخبر، كاملة في الأمر والنهي، فهي متشابهة من حيث الكمال والجودة والإحكام والإخبار وغير ذلك.

وإذا ذكر محكم بغير ذكر المتشابه فالمعنى: أنه واضح متقن، ليس فيه تناقض ولا تعارض، ولا كذب في خبر، ولا جور في حكم، فيحمل الإحكام على معنىً، والتشابه على معنى آخر.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

﴿وَمَا﴾: نافية، ﴿يَذَّكَّرُ﴾: أصلها يتذكر، لكن قلبت التاء ذالًا وأدغمت في الذال الأخرى، فصارت ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أي: لا يتعظ وينتفع بالقرآن إلَّا أولو الألباب، أي: إلَّا أصحاب العقول؛ لأن الألباب جمع لب، واللب هو العقل، والمراد بالعقل هنا عقل الإدراك الذي ضده الجنون، وعقل التصرف الذي ضده السَّفه.

فالذي يتذكر بالقرآن هو الإنسان الذي أعطاه الله عقلًا يدرك به الأشياء، وأعطاه الله رشدًا يحسن به التصرف.

وأما من أعطاه الله عقلًا يدرك به الأشياء وهو العقل المضاد للجنون ولم يعطه عقلًا يحسن به

التصرف وهو العقل المضاد للسفه، فهو لا ينتفع بالقرآن.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هذا القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولا يَرِدُ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩] لأن الكلام صفة لا تقوم بذاتها، لا تقوم إلَّا بمتكلم، بخلاف الحديد والماء فإنهما عين قائمة بنفسها؛ فتكون مخلوقة، وأما القرآن فليس بمخلوق؛ لأنه صفة الخالق - عزَّ وجلَّ -، والمخلوق شيء بائن عن الخالق منفصل عنه.

٢ ـ إثبات علو الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿أَنزَلَ﴾ والإنزال لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل، فإذا كان القرآن كلامه ونزل فالله تعالى فوق، وهو كذلك.

ومذهب أهل السنّة والجماعة بل مذهب الرسل كلهم أن الله تعالى فوق كل شيء، ألم تروا إلى فرعون قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦ـ٣٧]، وهذا يدل على أن موسى قال له: إن الله فوق.

فالعلو لله - عزَّ وجلَّ - ثابت بخمسة أنواع من الأدلة:الكتاب والسنّة والإجماع والعقل والفطرة.

أما الكتاب: فأدلته أكثر من أن تحصى، أدلة متنوعة تارة بذكر العلو، وتارة بالفوقية، وتارة بنزول الأشياء، وتارة بصعود الأشياء، وتارة بذكر كونه في السماء.

والسنّة: كذلك متواترة في علو الله، ومتنوعة.

فتارة بقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وتارة بفعله، وتارة بإقراره.

أما قوله: فكان يقول في كل صلاة: «**سبحان ربي الأعلى**»[(١)].

وأما فعله: فقد أشار إلى السماء غير مرة، يشير إلى السماء في الدعاء، يرفع يديه إلى السماء، وأشار إلى السماء حين أشهد ربه على أمته أنهم أقروا بإبلاغه الرسالة في حجة الوداع في يوم عرفة، في أكبر مجمع للمسلمين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وأما إقراره: فسأل الجارية:«**أين الله؟**» قالت: في السماء. قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[(٢)].

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى بعدهم على أن الله تعالى فوق كل شيء، ولم يُنقل عن واحد منهم أنه قال: إنَّ الله في كل مكان، ولا أنه قال: إن

---

(١) وفي الحديث: «...... فكان رسول الله ﷺ إذا ركع قال: سبحان ربي العظيم وبحمده ثلاثًا، وإذا سجد قال: سبحان ربي الأعلى وبحمده ثلاثًا». أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

الله لا يوصف بأنه فوق العالم ولا تحته، ولا داخله ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا مباين ولا محايد.

وأما العقل: فإننا لو سألنا أي إنسان: ماذا تقول في العلو؟ أهو صفة كمال أو نقص؟ لقال: هو صفة كمال، والعقل يقول: كل صفة كمال فهي ثابتة لله - عزَّ وجلَّ -، فيثبت العلو لله بدلالة العقل من هذه الناحية.

وأما الفطرة: فحدِّث ولا حرج، الإنسان الذي لم يتعلم ولا يدري عن كلام العلماء في هذا إذا سأل الله يرفع يديه إلى السماء، وما رأينا أحدًا لما أراد أن يدعو ركز يديه إلى الأرض، ولا ذهب يمينًا ولا يسارًا، بل يرفعهما إلى السماء.

ولهذا استدل أبو العلاء الهمداني على أبي المعالي الجويني بهذا الدليل الفطري، حتى إن الجويني لم يتمالك أن صرخ وضرب على رأسه وقال: حيرني؛ لأن أبا المعالي الجويني غفرالله لنا وله كان يحدث الناس، ويقول: كان الله ولا شيء ـ وهذا صحيح؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء ـ، ويقول: وهو الآن على ما كان عليه!! وهذه الكلمة موهمة.

أي: غير مستوٍ على العرش؛ لأن العرش لم يكن وقد كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه، إذن فلم يستو على العرش.

فقال له أبو العلاء الهمداني: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش ـ لأن الاستواء على العرش دليله غير عقلي بل دليله سمعي، فلولا أن الله أخبرنا أنه استوى على العرش ما علمنا ذلك ـ أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا، ما قال عارف قط: يا الله، إِلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو!!

فصرخ أبو المعالي، وضرب على رأسه، وقال: حيّرني[1]!! لأنه لا يجد جوابًا عن هذه الفطرة.

فعلوُّ الله ـ ولله الحمد ـ دلَّ عليه الكتاب والسنّة والإجماع والعقل والفطرة.

ولولا قول من اجتالتهم الشياطين ما كان يفكر الإنسان أن الله تعالى في كل مكان أبدًا!! ولا يطرأ على باله، ولا يفكر أننا نسلب عنه كل صفة، فنقول: لا فوق العالم ولا تحته، ولا يمين العالم ولا شمال العالم، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم!! أين يكون!؟ فهذا هو العدم ـ والعياذ بالله ـ.

والغريب أن هؤلاء يرون أنهم نزهوا الله! وهم لو قيل لهم: صفوا لنا العدم ما وجدوا أحسن من هذا الوصف. نسأل الله إِلَّا يزيغ قلوبنا.

---

(١) والقصة ذكرها الذهبي في «العلو للعلي الغفار» (١/ ٢٥٩)، وابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٨٠).

٣ ـ أن هذا القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه؛ لقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

٤ ـ وجوب الرجوع إلى المحكم إزاء المتشابه؛ لقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : مرجعه، وهذا لا يختص بالقرآن، بل حتى في السنَّة، إذا وجدت أحاديث متشابهة وأحاديث واضحة محكمة، فالواجب رد المتشابه إلى المحكم ليكون الجميع محكمًا، سواء كان التشابه في مدلولات الألفاظ، أم كان التشابه في ثبوت الخبر، وهذا الأخير يختص بالسنَّة؛ لأن القرآن ليس فيه اشتباه بالنسبة إلى ثبوته، أو كان الاشتباه بأقوال أهل العلم، بمعنى أن العلماء يكون أكثرهم على قول وهو يكون مشتبه عليك.

وأمَّا بالنسبة للأدلة فإن الغالب أن الحق يكون مع من هو أوثق وأقرب إلى الكتاب والسنّة إما بالعلم أو بالأمانة أو بالكثرة.

٥ ـ حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في جعل القرآن ينقسم إلى قسمين، ووجه الحكمة أنه بهذا يحصل الابتلاء والامتحان، فالمؤمن لا يضل بهذا الانقسام، والذي في قلبه زيغ يضل، فكما أن الله يمتحن العباد بالأوامر والنواهي فهو يمتحنهم أيضًا بالأدلة؛ فيجعل هذا محكمًا وهذا متشابهًا، ليتبين المؤمن من غير المؤمن، ولو كان القرآن كله محكمًا لم يحصل الابتلاء، ولو كان كله متشابهًا لم يحصل البيان، والله ـ - سبحانه وتعالى - ـ جعل القرآن بيانًا، وجعله محكمًا متشابهًا للاختبار والامتحان.

٦ ـ أن من علامة الزيغ أن يتبع الإنسان المتشابه من القرآن سواء تبعه بالنسبة لتصوره فيما بينه وبين نفسه، وصار يورد على نفسه آيات متشابهات، أو كان يتبع ذلك بالنسبة لعرض القرآن على غيره، فيقول للناس مثلًا: ماذا تقولون في كذا وكذا، ويأتي بالآيات المتشابهات بدون أن يحلها.

ولهذا من الخطر العظيم أن تورد ـ سواء للطلبة أم للعامة ـ آيات متشابهة دون أن تبين حل إشكالها؛ لأنك إذا فعلت هذا أوقعتهم في الحيرة والشك، وصرت كمن ألقى إنسانًا في بحر لا يستطيع الخلاص منه ولم يخلصه، وهذا يقع من بعض المتحذلقين من طلبة العلم أنه يورد الآيات المتشابهات ثم يقف ولا يبين للناس وجه هذا التشابه، فيوقع الناس في حيرة وهو لا يشعر.

٧ ـ أن هؤلاء الذين يتبعون المتشابة تارة يبتغون الفتنة، وصدّ الناس عن دينهم، ونزع الثقة من قلوبهم بالنسبة للقرآن، لقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾.

وتارة يريدون بذلك أن يحرفوه إلى المعنى الذي يريدون، وذلك لأنهم لو أرادوا أن يحرفوا المحكم، ما قبلوا، لكن يأتون بالمتشابه ليتمكنوا من تحريفه على ما يريدون؛ لأنه إذا كان متشابهًا فإن المخاطب الذي يخاطبونه يكون قد اشتبه عليه الأمر، فيقبل ماجاءوا به من التحريف، وبهذا يزول الإشكال الذي قد يعرض للإنسان في قوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؛ لأن ابتغاء التأويل على الوجه المراد أمر مطلوب، وليس من شأن ذوي الزيغ، بل هو من شأن أهل الإيمان، لكن ذوي الزيغ يأتون بهذا

المتشابه من أجل أن يحرّفوه على ما يريدون؛ لأنه ليس محكمًا واضحًا حتى يعارضهم الناس، لكنه متشابه، فيحصل بذلك ما يريدون من التحريف.

وهنا مسألة: وهي أن كثيرًا من المتكلمين قالوا: إن آيات الصفات من المتشابه، وقالوا: إن المتشابه لا يعلم تأويله إِلَّا الله، فصارت النتيجة أن آيات الصفات لا يُعرف معناها، ولهذا قالوا: إن القول الحق في آيات الصفات هو التفويض.

فقولهم: إن الحق هو التفويض وألَّا تتكلم فيها بشيء ناتج عن هذين الأمرين:

الأول: أن آيات الصفات من المتشابه.

والثاني: أن المتشابه لا يعلم تأويله إِلَّا الله.

فتكون النتيجة إِلَّا نخوض في معاني آيات الصفات؛ لأنها من المتشابه، ولا يعلم تأويله إِلَّا الله، وما لا يمكن الوصول إلى علمه لا يجوز الخوض فيه.

ولكن نقول: إن هذا القول قول باطل، فماذا تعنون بالتشابه في آيات الصفات؟

إن قالوا: نريد اشتباه المعنى ، وهو الذي يريدونه ـ قلنا: هذا خطأ؛ لأن معاني آيات الصفات واضحة ومعلومة، وليس فيها اشتباه إطلاقًا.

كما قال الإمام مالك رحمه الله: (الاستواء غير مجهول)، أي: هو معلوم لكل أحد.

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أي علا عليه.

وإن أرادوا بالتشابه اشتباه الحقيقة والكيفية، فهم صادقون، ولكنهم لا يريدون هذا؛ لأنهم لو قالوا: نحن نعلم المعنى ونجهل الكيفية والحقيقة، قلنا: هذا مذهب صحيح.

لكنهم يقولون: نحن نجهل المعنى والكيفية والحقيقة، لهذا سموا أهل التفويض، وأهل التجهيل؛ لأنهم يقولون: كل آيات الصفات وأحاديثها غير معلومة لأحد، وقراءتنا لها بمنزلة قراءة الأعجمي للخطاب العربي، أو بمنزلة قراءة العربي للخطاب العجمي، أو بمنزلة قراءة الحروف الهجائية: أ، ب، ت... إلخ، هذا نظرهم بالنسبة لآيات الصفات، وهو نظر ـ بلا شك ـ خاطئ.

كيف نعلم معنى آيات الوضوء والصلاة والبيع وما أشبهه مما لا تعد شيئًا بالنسبة لصفات الله - عزَّ وجلَّ -، ونجهل معاني آيات الصفات؟! وهي أولى بالعلم من غيرها، ولا تكمل العبادة حقًا إِلَّا بمعرفة صفات الله - عزَّ وجلَّ -.

٨ـ فضيلة الرسوخ في العلم، وهو الثبات فيه والتعمق فيه، حتى نصل إلى جذوره؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، ضد الرسوخ في العلم السطحية في العلم، وما أكثر السطحية اليوم فينا!! أكثر الناس اليوم علومهم سطحية.

ولهذا تجدهم إذا ألَّفوا أو كتبوا يكثرون من النقول، بسبب أنه ليس عندهم حصيلة علمية،

فيجعل نفسه في حل من الكلام.

وأما أهل العلم حقًا فتجدهم يتكلمون بالعلم من صدورهم بدون نقل، ولهذا عباراتهم أحيانًا تخالف عبارات العلماء الآخرين، ومن أوضح ما يكون كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، تجد أنهما يتكلمان عن علم راسخ، وأمثالهما كثير.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يحرص أن يكون راسخًا في العلم، لا جامعًا كثيرًا منه؛ لأن العبرة بالرسوخ في العلم؛ لأن الإنسان إذا كان عنده رسوخ في العلم صار عنده ملكة يستطيع أن يقرب العلم بعضه من بعض، ويقيس ما لم يُنَصَّ عليه على ما نُصَّ عليه، ويكون العلم لديه كالطبيعة الراسخة.

١٠ ـ أن الراسخين في العلم يعلمون أن الذي يكون من عند الله لا يكون فيه تناقض، لقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

١١ ـ أن مقتضى الربوبية أن الله ينزل على عباده كتابًا لا يكون فيه اختلاف يوقعهم في الشك والاشتباه، لقوله ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عند الرب المعتني بعباده بربوبيته، فلن يكون فيه شيء يتناقض ويختلف.

١٢ ـ أنه لا يتذكر بهذا القرآن ولا بغيره إلَّا أصحاب العقول، لقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

١٣ ـ أنه كلما ازداد الإنسان عقلًا ازداد تذكرًا بكلام الله - عزَّ وجلَّ -، وكلما نقص تذكره بالقرآن دلَّ على نقص عقله؛ لأنه إذا كان الله حصر التذكر بأولي الألباب، فإنه يقتضي انتفاء هذا التذكر عَمَّن ليس عنده لبٌّ.

١٤ ـ أن العقل غير الذكاء؛ لأننا نجد كثيرًا من الناس أذكياء، ولكن لا يتذكرون بالقرآن، وهؤلاء لا نسميهم عقلاء، لكن الذي انتفى عنهم من العقل هو عقل التصرف والرشد، أما الإدراك فهم يدركون، ولهذا تقوم عليهم الحجة.

١٥ ـ أن من القرآن ما لا يعلم تأويله إلَّا الله، على قراءة الوقف: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والفائدة امتحان العباد بتأدبهم مع الله عزَّ وجل.

هل يحاولون أن يصلوا إلى شيء لا تدركه عقولهم، أو يقفون على حدود ما تدركه عقولهم؛ لأن من الناس من يذهب ويتجرأ على محاولة إدراك ما لا يصل إليه العقل، ومن الناس من يتأدب، فإذا وصل إلى ما لا يبلغه العقل وقف.

١٦ ـ سعة علم الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، على قراءة الوقف.

١٧ ـ أن كلام الله - عزَّ وجلَّ - يختلف؛ منه محكم، ومنه متشابه، ومنه أمر، ومنه نهي، ومنه خبر، ومنه استخبار، إلى أنواع لا يحصيها إلَّا الله،خلافًا لمن قال: إن كلام الله نوع واحد، وأن

اختلاف الصور أو الصيغ لا يدل على تنوعه واختلافه، مثل الأشاعرة الذين يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأنه شيء واحد، إن عُبِّرَ عنه بالعربية صار قرآنًا، وإن عُبِّرَ عنه بالعبرية صار توراة، وإن عُبِّرَ عنه بالسريانية صار إنجيلًا، وإن عُبِّرَ عنه بصيغة النهي صار نهيًا، وإن عُبِّرَ عنه بصيغة الأمر صار أمرًا، وإلَّا فهو شيء واحد، ولا شك أن هذا قول يبطله العقل والسمع.

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]

❁ التفسير ❁

الظاهر أن هذا من جملة قول الراسخين في العلم.

يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. ويقولون أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.
والدعاء غالبًا يُصَدَّر بالربِّ؛ لأن الدعاء يتطلب الإجابة، والإجابة من الأفعال: والأفعال علاقتها بالربوبية أكثر من علاقتها بالألوهية، ولهذا غالب الأدعية يأتي مُصَدَّرًا بالربِّ ﴿رَبَّنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ :ـمنصوبة بـ (يا) النداء المحذوفة. وأصل الكلام (يا ربنا) لكن حذفت يا النداء تخفيفًا، وتيمنًا بالبداءة باسم الله - عزَّ وجلَّ -.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾:

﴿لَا تُزِغْ﴾: هذه جملة دعائية وإن كانت بصيغة النهي؛ لأن النهي لا يمكن أن يَرِد من المخلوق للخالق.

إذ النهي طلب الكف على وجه الاستعلاء، ولا يمكن للمخلوق أن يطلب من ربه أن يكف على وجه الاستعلاء أبدًا.

وإذا وُجِّهَ الطلبُ من أدنى إلى أعلى سُمِّيَ دعاءً، فلهذا نقول: (لا): دعائية، ولا نقول: (لا): ناهية؛ لأنه لا نهي من المخلوق للخالق.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾:

أي: لا تزغها عن الهداية، بل اهدها هداية دلالة وهداية توفيق.

وقوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ سلط الفعل على القلب؛ لأن القلب عليه مدار العمل، لقول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، إِلَّا وَهِيَ

القَلْبُ»(١)، والقلب هو هذا الجزء المستقر في الصدر، لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وبهذا القلب يكون العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ [الحج:٤٦]، وبناء على هذه الأدلة يتبين أن العقل في القلب وليس في الدماغ، والعلماء اختلفوا قديمًا وحديثًا، هل العقل في الدماغ أو في القلب؟ والذي دلَّ عليه القرآن أنه في القلب، والقرآن كلام الخالق، والخالق - عزَّ وجلَّ - أعلم بما خلق.

فالعقل بالقلب لكن عقل القلب هو عقل التصرف والتدبير، ليس عقل الإدراك والتصور، فإن عقل الإدراك والتصور يكون في المخ.

فالمخ يتصور ويعقل، وهو بمنزلة المترجم للقلب يشرح ما يريد رفعه إلى القلب، ثم يرفعه إلى القلب، ثم يصدر القلب الأوامر، والذي يبلغ الأوامر الدماغ. ولهذا تنشط العضلات كلها بنشاط الدماغ، فصارت المسألة سلسلة، والذي يتصور ويدرك وفيه عقل الإدراك هو الدماغ، وأما عقل التصرف والتدبير والرشاد والفساد فهو عقل القلب.

وحينئذ يزول الإشكال، وتجتمع الأدلة الحسية والشرعية، فالعقل الإدراكي محله هو الدماغ، والعقل التصرفي الإرشادي الذي به الرشاد والفساد هو القلب.

يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ وإذا استقامت القلوب ولم تمل، استقامت الجوارح عقيدةً وقولًا وعملًا.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: هذه الجملة لا يراد بها الافتخار، وإنما يراد بها التوسل بالنعم السابقة إلى النعم اللاحقة، فكأنهم يقولون: ربنا إنك مننت علينا بالهداية أولًا، فنسألك أن تمن علينا بثبوت هذه الهداية فلا تزغها، فيكون في هذا الدعاء ثناء على الله - عزَّ وجلَّ - بالهداية السابقة، وأنه - عزَّ وجلَّ - أهل للفضل والإنعام.

وقوله: ﴿هَدَيْتَنَا﴾: هداية دلالة وتوفيق، فهداية الدلالة أن بيّن لهم الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وهداية التوفيق أن وفَّقهم لسلوك الحق، فمن الناس من يحرم الهدايتين كالنصارى: فهم ضالون لم يعرفوا الحق، ولم يعملوا به.

ومن الناس من يحرم الهداية الثانية، هداية التوفيق كاليهود؛ فاليهود علموا لكن لم يعملوا به.

ومن الناس من يرزق الهدايتين كالمؤمنين الذين أنعم الله عليهم، فهم هدوا إلى الحق بالدلالة عليه، واهتدوا إلى الحق بالتوفيق.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾:

(هب): بمعنى أعط، والهبة: هي العطاء بلا عوض، وكمالها بلا منة.

والله - سبحانه وتعالى - له المنة علينا، كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١٧]، والصيغة هنا للدعاء.

﴿وَهَبْ لَنَا﴾: أي أعطنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك، وأضافوا هذه الهبة إلى الله لئلا يكون لأحد عليهم منّة سواه، هذا من وجه، ولأنها إذا كانت من عند الله وهو أكرم الأكرمين صارت هبة عظيمة؛ لأن العطاء على قدر المعطي، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي بكر حين سأله أن يعلمه دعاء يدعو به صلاته قال: قل: «اللَّهُمَّ إِني ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغفرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدَكَ وَارْحَمْنِي»[1].

﴿رَحْمَةً﴾: الرحمة صفة من صفات الله - عزَّ وجلَّ -، وتطلق على نِعَمِهِ؛ لأنها من آثار رحمته، كما قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

وقال الله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، فتطلق الرحمة على هذا وهذا. وفي هذه الآية: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ هي النعم وهي من آثار رحمته.

والرحمة يحصل بها المطلوب، وينجو بها الإنسان من المرهوب، فإن جمعت مع المغفرة صار بالرحمة حصول المطلوب، وبالمغفرة النجاة من المرهوب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾: الجملة هنا استئنافية للتعليل والتوسل.

أي: أننا إنما طلبنا منك هبة الرحمة؛ لأنك أنت الوهاب، وأُتي بالضمير (أنت) ويسمى ضمير الفصل لثلاث فوائد:

١ - الفصل بين الصفة والخبر.

٢ - التوكيد.

٣ - الحصر.

و ﴿الْوَهَّابُ﴾ يعني الكثير العطاء، وهذه صفة لازمة له، والذين يعطيهم الله كثيرون لا يحصون.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٤٦).

قال النبي ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأَى، سَحَّاء اللَّيْلِ والنَّهَارِ، أَرأَيْتُم مَا أَنفَقَ مُنْذُ خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ، فَإِنَّه لَمْ يَغِضِ مَا فِي يَمِينِهِ»(١).

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا غُمِسَ فِي البَحْرِ»(٢) وهذا لا ينقص البحر شيئًا! فالله - عزَّ وجلَّ - لا يحصي أحد هباته أبدًا حتى بالنسبة لك أنت بنفسك لا تحصي هبات الله لك، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - مشروعية الدعاء بهذه الصيغة؛ لأنه دعاء الراسخين في العلم وأولي الألباب.

٢ - مشروعية تصدير الدعاء باسم الرب ﴿رَبَّنَا﴾.

٣ - أن الإنسان لا يملك قلبه، ولهذا تسأل الله إِلَّا يزيغ قلبك، فلا تغتر بنفسك أنك مؤمن، فكم من إنسان مؤمن زلَّ - والعياذ بالله - .لكن اسأل الله دائمًا أن يثبتك، وَأَلَّا يزيغ قلبك.

وقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام -: أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أزاغه وإن شاء هداه، يصرفها كيف يشاء.

٤ - الدلالة على أن في صلاح القلب صلاح جميع الجسد؛ لأنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٥ - أن للقلب حالين: حال استقامة، وحال زيغ، والإنسان مضطر إلى أن يسأل الله - سبحانه وتعالى - إِلَّا يزيغ قلبه، حتى يكون مستقيمًا.

٦ - التوسل إلى الله تعالى بنعمه؛ لقولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

٧ - الثناء على هؤلاء الراسخين حيث اعترفوا لله تعالى بالنعمة في قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

٨ - أن التخلية تكون قبل التحلية، أي يُفرغ المكان من الشوائب والأذى ثم يطهر، من قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ ثم قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

٩ - أن الإنسان مضطر إلى ربه في الدفع والرفع، وإن شئت فقل في الجلب والدفع؛ لأنهم سألوا إِلَّا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وسألوا أن يهب لهم منه رحمة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤١١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٩٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

فدعاؤهم إِلَّا يزيغ قلوبهم دعاء بالرفع، ودعاؤهم بـ ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ دعاء بالدفع، أي هب لنا من لدنك رحمة ندفع بها السوء، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا ترفع عنا الهداية بعد أن اهتدينا.

١٠ ـ أن العطاء يكون على قدر المعطي، لقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ هذا من باب التوسل بحال المدعو، ومن باب التوسل بصفات الله عزَّ وجل.

١١ ـ التوسل بأسماء الله؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فإنه من مقتضى كونه وهابًا أن يهب لنا من لدنه رحمة.

١٢ ـ أن الإنسان مفتقر إلى رحمة الله – عزَّ وجلَّ –، ولهذا سأل الله يهب له من لدنه رحمة.

* * *

* قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]

* التفسير *

﴿جَامِعُ﴾: اسم فاعل.

وهنا لم يعمل لأنه أضيف، ولولا الإضافة لكان يقول: ربنا إنك جامعٌ الناسَ، لكن بالإضافة لا يعمل إِلَّا الجر، وقوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ المعنى: أنه يجمعهم لهذا الوقت.

فاللام هنا للتوقيت، فهي كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] أي: وقت دلوكها. أو كقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] أي: وقت عدتهن.

فالله تعالى جامع الناس لهذا الوقت، ليوم لا ريب فيه، أي لا شك.

ولكن الريب أبلغ من الشك، وإن كان معناهما متقاربًا؛ لأن الريب فيه زيادة قلق واضطراب مع الشك، والشك خال من ذلك.

ولهذا جاءت كلمة (ريب) الدالة بمفهومها اللفظي على أن هناك نوعًا من القلق والاضطراب الحاصل بالشك؛ لأن من الشكوك ما لا يولد همًّا، ولا غمًّا، ولا اضطرابًا، ولا يهتم به الإنسان، ومن الشكوك ما يهتم به الإنسان، ويضطرب، ويقلق، مثل هذه الأمور العظيمة الواردة في الإخبار باليوم الآخر، فإن الإنسان لابد أن يطمئن اطمئنانًا كاملًا.

و ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و ﴿رَيْبَ﴾ اسمها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبرها، وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تأكيد لما سبق من كونه تعالى جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

في هذه الآية يقول الله تعالى عن هؤلاء الراسخين: إنهم بعد أن يدعوا الله بما سبق يخبروا هذا الخبر المعبر عن إيمانهم ويقينهم بأنهم يؤمنون بأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومن ثَمَّ دعوا الله ألَّا يزيغ قلوبهم، وأن يهب لهم منه رحمة؛ لأنهم يؤمنون بأن هناك يومًا يجمع الله فيه الناس، فيجازيهم بعملهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩ ـ ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣]. ما أكثر الناس الذين سبقونا! وما أكثر الناس الذين يلحقون بنا! والله أعلم.

ومع هذا كل هؤلاء الناس سوف يجمعون في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، يسمعهم الداعي؛ لأنه لا يحول بينهم وبين صوته لا شجر ولا جدر ولا جبال ولا أودية، وكذلك ينفذهم البصر؛ لأنهم في أرض مبسوطة غير كروية، فيكون البصر يرى أقصاهم مثلما يرى أدناهم ، وهذا ظاهر، فالأرض كلها مبسوطة بسط الأديم كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وأخبر الله تعالى أنه يجمع الناس كلهم في ذلك اليوم من أولهم إلى آخرهم، ويجمع الجن، بل ويجمع الوحوش والبهائم: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٤ ـ٥]، ويجمع الملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

وهذا اليوم العظيم دلَّ عليه السمع، ودلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه إجماع المسلمين واليهود والنصارى وكل متدين بدين.

فالأدلة مجتمعة على وجوب الإيمان باليوم الآخر؛ ولهذا قال: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أما دلالة الكتاب فهي دلالة واضحة في عدة آيات لا تحصى، ودلالة السنّة أيضًا بأحاديث كثيرة لا تحصى.

وأما دلالة العقل فهي ليست على إمكانه فحسب، بل دلَّ العقل على وجوبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، إن الذي فرض عليك القرآن، وأوجبه عليك، لابد أن يردك إلى معاد، فلا يمكن أن يدعك سدى.

إذ لا فائدة في قرآن ينزل، ورسل ترسل، ودماء تراق للمخالفين، والنتيجة لا شيء!! فالعقل يدل على أنه لابد من أن نحشر إلى الله - عزَّ وجلَّ -، وأن نجازى بعملنا، وأنه لا يمكن أن تخلق السموات والأرض، ويرُسل الرسل، وتُنزّل الكتب، وتكون النتيجة والغاية أن نُرْمَسَ في الأرض ولا نعود، لابد من عودة. ولهذا نقول: إن العقل دلَّ على وجود اليوم الآخر ووقوعه.

ودلَّت عليه الفطرة: فإن الإنسان لو ترك وفطرته لعَلِمَ أن له ربًّا يجازيه، وأن الجزاء يكون في الآخرة، ويكون في الدنيا.

ودلَّ عليه الإجماع، فإجماع المسلمين أمر متواتر معلوم بالضرورة من الدين، بل وإجماع اليهود والنصارى، ولهذا إلى يومنا هذا إذا مات منهم ميت يصلون عليه ويدعون له بالرحمة والمغفرة؛ لأنهم يؤمنون بيوم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: هذه الجملة موقعها مما قبلها لتأكيد وقوع ذلك اليوم.

ووجه ذلك: أن الله وعد به وهو لا يخلف الميعاد، أي: لا يخلف ما وعد به - عزَّ وجلَّ - من وقوع هذا اليوم.

وهذه الجملة أيضًا إذا تأملتها وجدتها تخالف ما قبلها في السياق؛ لأن ما قبلها السياق فيه للمخاطب: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وأما السياق هنا فهو للغائب: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ولم يقل: (إنك لا تخلف الميعاد)، فهل هذا من باب الالتفات والكلام من متكلم واحد، أو هذا من باب الاستئناف وهو من الله لا من قول الراسخين في العلم؟ على قولين للمفسرين:

١ - منهم من قال: إن قوله: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ من كلام الله، وليس فيه التفات على هذا التقدير.

٢ - ومنهم من قال: إنه من كلام الراسخين في العلم، وعلى هذا التقدير يكون فيه التفات.

ولكل منهما مرجح، فمن رجَّح الأول قال: إن الالتفات خروج بالكلام عن المألوف، والأصل عدمه، وعليه فيكون الكلام من كلام الله.

ومن قال: إنه من كلام الراسخين وفيه التفات قال: لأن الأصل أن الكلام من متكلم واحد، لاسيما وأن بعضهم مرتبط ببعض ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ فهو مرتبط بعضه ببعض، وهذا القول عند التأمل أرجح، وتكون فائدة الالتفات:

أولًا: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا كان الكلام على نسق واحد بقي الإنسان منسجمًا معه لا يتفطن، وتمرُّ به الأشياء، فإذا اختلف أسلوب الكلام وتغيَّر عليه الأسلوب فحينئذ ينتبه.

ثانيًا: أما من حيث المعنى فلأن مجيئه بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم، كأنَّ الربَّ - عزَّ وجلَّ - الذي هو الله، وهو ملك عظيم - سبحانه وتعالى - يتحدث عنه بصيغة الغائب تعظيمًا وتفخيمًا، كما يقول الملك الذي يعظم نفسه للجنود: إن الملك يأمركم بكذا وكذا، أو يقول القائد يأمركم بكذا وكذا، بدل أن يقول: إني آمركم.

وعلى كل تقدير فالصفة هنا من باب الصفات السلبية؛ لأنها صفة نفي، ولا يوجد في صفات الله صفة سلبية محضة، والنفي الموجود في صفات الله متضمن لثبوت كمال ضده، وأنه لكمال ضده لا يوجد هذا الشيء، فهنا: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لأنَّ إخلاف الميعاد إما أن يكون لكذب الواعد أو

لعجزه، والله لا يخلف الميعاد لكمال صدقه، وكمال قدرته - عزَّ وجلَّ -.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه؛ لقوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٢ - تمام قدرة الله - سبحانه وتعالى - بجمع الناس كلهم في هذا اليوم، ومع هذا فإن هذا الجمع لا يحتاج إلى مدة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ - ١٤].

٣ - حكمة الله في جمع الناس لهذا اليوم؛ لأن هذا الجمع له ما بعده، وهو جزاء كل عامل بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٩ - ١٠].

٤ - أنه يجب علينا أن نؤمن إيمانًا لا شك فيه بهذا اليوم، فإن شكَّ أحدٌ، أو أنكر، فليس بمؤمن بل هو كافر، والناس في هذا المقام أربعة أقسام: مؤمن إيمانًا لا ريب فيه، وشاك، وكافر منكر، وكافر مجادل، كما هي حال كفار قريش.

٥ - انتفاء صفة خلف الوعد عن الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، لكمال صدق الله - عزَّ وجلَّ -، وكمال قدرته.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا بما يجب الإيمان به؛ فكفروا بالله أو باليوم الآخر أو بالملائكة أو بالكتاب أو بالنبيين أو بالقدر، إذا كفروا بأي واحد من هذه الأشياء الستة فهم كفار؛ لأن الإيمان لا يتبعض، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠ - ١٥١].

وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥].

فالذين كفروا بما يجب الإيمان به، وهي الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ جوابًا لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَبِاليَوْمِ الآخِرِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1] إذا كفر بواحد منها فهو كافر.

الكفار لهم أموال ولهم أولاد، وربما يعطيهم الله من الأولاد والأموال أكثر مما يعطي المؤمنين، لكن لا ينتفعون بهذا.

يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

﴿تُغْنِيَ﴾: لها معنيان: تمنع أو تدفع.

فهذه الأموال والأولاد لا تمنع عن هؤلاء الكفار شيئًا، ولا تدفع عنهم شيئًا، فهم إن وقع بهم شيء من عذاب الله ما استطاع هؤلاء الأولاد أو هذه الأموال أن ترفعه، وإن قضى الله عليهم بشيء لم يستطيعوا أن يمنعوه ويدفعوه.

ولهذا تجد الواحد منهم عنده من الأموال الشيء الكثير، ولكن لو جاءه ملك الموت ما منعته هذه الأموال، وعنده من الأولاد والحشم والخدم الشيء الكثير ولا تغني عنهم شيئًا، والولد شامل للذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]:

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: أولئك: مبتدأ، و ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ أو ضمير فصل، ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وقود: خبر إما للمبتدأ الثاني وإما للمبتدأ الأول، فإن جعلت (هم) مبتدًا ثانيًا ف (وقود) خبر للمبتدأ الثاني، وإن جعلت (هم) ضمير فصل، فـ (وقود): خبر للمبتدأ الأول.

والوَقود بفتح الواو، ما يوقد به كالطَّهور ما يُتطهر به، والسَّحور ما يُتسحر به، والفَطور ما يُفطر به، بخلاف الضم فُطور، وسُحُور، وطُهُور، ووُضُوء؛ فهذه يراد بها نفس الفعل.

فهؤلاءالكفارهم وقود النار، وللنار وقود آخر وهي الحجارة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]. فهؤلاء وقود النار، وإذا كانوا - والعياذ بالله - وقودها فإنها تسعر بهم، وفي نفس الوقت تحرقهم.

و ﴿ٱلنَّارِ﴾: اسم من أسماء جهنم، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمكذبين برسله، وحرها شديد، وفيها زمهرير برده شديد، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا فُضِّلَتْ عَلَى نَارِكُمْ هِذِهِ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»[2].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

قال الله تعالى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[آل عمران:١١]

التفسير

قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾: الكاف للتشبيه، والجار والمجرور: خبر لمبتدأ مقدر، أي: دأب هؤلاء كدأب آل فرعون.

والدأب: يطلق على الشأن مثل هذه الآية، أي: كشأن، ويطلق على العادة، فإذا قلت: فلان هذا دأبه أي: هذه عادته.

وقوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أتباعه.

وفرعون: اسم علم لكل من ملك مصر كافرًا، كما أن كل من ملك الروم يسمى قيصرًا، ومن ملك الفرس يسمى كسرى.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وكان قبل آل فرعون أمم، مثل: قوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، ثم بيّن الله شأن آل فرعون والذين من قبلهم، بقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: كذبوا بالآيات الكونية، والآيات الشرعية. وأكثر ما يكون أن يكذبوا بالآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية قَلَّ من يكذب بها.

فالآيات الكونية مخلوقات الله، وقلَّ من ينكر أن يكون الخالق هو الله، ولكن الآيات الشرعية التي هي الوحي الذي جاءت به الرسل هي التي يقع فيها التكذيب، فآل فرعون كذبوا بآيات الله، قال فرعون عن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧].

وقال: إنه ساحر، ووصفه بأوصاف بالغة، وهدده: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

وكان يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ويقول لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ويقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٢-٥٣]. وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - قصته في كتابه كثيرًا من أجل اليهود الذين كانوا في المدينة، ومن أجل الأنصار الذين تلقوا من علوم اليهود شيئًا كثيرًا.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

﴿أخذهم﴾ أي أهلكهم بذنوبهم: أي بسبب ذنوبهم، والذنب: هو المعصية، ومعاصي هؤلاء

كلها كفر- والعياذ بالله -.

ولهذا أُخِذوا بالغرق، فأُهْلِكَ بما كان يفتخر به، كان يقول لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١] فأهلك بالماء الذي كان يجري جنسه من تحته، وكان مفخرة له.

فأهلكه الله - عزَّ وجلَّ - بالماء، والقصة معروفة، فإن فرعون جمع جميع أهل المدائن من أجل الكيد لموسى، فخرج موسى من مصر هو وقومه، واتجهوا بأمر الله إلى جهة بحر القُلزم، وهو البحر الأحمر المعروف الذي يفصل بين قارة إفريقيا وآسيا من ناحية جدة، فلما وصلوا إلى البحر ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] لأن البحر أمامهم، وفرعون وقومه خلفهم.

فهم هالكون على كل حال، إن ذهبوا إلى البحر هلكوا في البحر، وإن بقوا هلكوا بفرعون وجنوده، فقال موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ أي لستم بمدركين، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، الله أكبر! انظر إلى الإيمان عند الشدائد كيف يكون؟ فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣]، فضرب البحر بعصاه فانفلق في الحال، في لحظة، بدليل قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾، وانظر كيف حذف الله الفعل الذي حصل به الانفلاق؟ لأن هذا البحر لما أمر الله تعالى موسى أن يضربه تهيأ للانفلاق بمجرد هذه الضربة التي وقعت عليه، فكان اثني عشر طريقًا يبسًا، وصاروا يمشون عليه على أقدامهم، وكانت المياه ككتل الجبال، وذكر بعض المفسرين من خبر بني إسرائيل أن الله جعل في هذه الكتل نوافذ يرى بعضهم بعضًا ليطئمن بعضهم على بعض، فلما تكامل موسى وقومه خارجين، وإذا فرعون قد دخل هو وقومه، أمر الرب - عزَّ وجلَّ - البحر فانطبق عليهم في الحال، فغرقوا عن آخرهم، ولما أدرك فرعون الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، ولكن لم ينفعه ذلك كما قال الله تعالى في أمثاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥]. ولهذا قيل لفرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩١]، وهذا الاستفهام للإنكار عليه، ونفي انتفاعه بذلك الإيمان.

ولكن قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩٢]، لا لمصلحتك لكن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، والذين خلفه بنو إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون، ولو لم يظهر لهم بدنه على سطح الماء لكانوا يَشُكُّون؛ لعله ما دخل في قومه، أو لعله سَلِمَ، فأبقى الله جسده فقط، لا روحه، حتى يعلموا أنه قد مات.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

والباء هنا للسببية من وجه، وللعوض من وجه آخر، للسببية يعني أنه بسبب ذنوبهم؛ لأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ولم يأخذ الله أحدًا إلَّا بذنب.

وللعوض من جهة أخرى أنه لم يظلمهم، بل جعل جزاءهم من جنس العمل، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

خَتْم الآية بهذا الوصف مناسب جدًا؛ لأن هؤلاء الذين أخذوا بذنوبهم أخذوا بالعقاب الشديد الذي لا أشد منه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١- أن الكفار لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا.

٢- أن المؤمنين ينتفعون بأموالهم وأولادهم، فالمؤمن يتصدق بماله فينتفع، ويدعو له ولده في حياته وبعد موته فينتفع، أما الكافر فلا ينتفع ولو دعا له ولده، ولا يحل لولده أن يدعو له إلَّا إذا كان حيًّا، فيحل له أن يدعو له بالهداية.

٣- أن الكافر يملك؛ لقوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ فأضاف المال إليهم وهو دليل على أن الكافر يملك ماله.

واختلف العلماء في المرتد الذي يكفر بعد إسلامه هل يزول ملكه عمّا تحت يده أو لا؟

فمن العلماء من قال: إنه إذا ارتد الإنسان زال ملْكه عمَّا تحت يده، وعلى هذا لا يصح أن يتصرف فيه، ولكن القول الراجح أنه لا يزول مِلْكه إلَّا إذا مات على ردته، فإن مِلْكه لا ينتقل إلى ورثته بل إلى بيت المال.

ومن المعلوم أننا لو قلنا: إن المرتد يزول مِلكه لحصل إشكال عظيم في عصرنا هذا، وهو أن بعض الناس لا يصلي، والذي لا يصلي مرتد. فإذا قلنا بزوال مِلْك المرتد لزم من ذلك أن كل تصرف يتصرف به في ماله فهو تصرف غير صحيح، إن باع شيئًا لم يصح البيع، وإن اشترى شيئًا لم يصح الشراء، وإن استأجر شيئًا لم يصح الاستئجار، وإن أجّر شيئًا لم يصح التأجير.

وهذا وإن قال به بعض العلماء: لكن الراجح أن ملكه باق على ماله حتى يموت، فإذا مات فإننا نصرف ماله إلى بيت المال، ولا يرثه أحد من ورثته؛ لقول النبي ﷺ: «لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، ولاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»(١).

٤- بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ - وأنه لا ينفع مال ولا بنون من الله شيئًا؛ لقوله: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وأما من غير الله فقد تغني، فيمكن أن يدفع شيئًا من ماله ويسلم من القتل.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤).

ويمكن أن يكون عنده أولاد شجعان إذا أراده أحد بسوء دافعوا عنه، لكن من الله لا يغني عنهم لا مال ولا ولد.

٥ ـ تشجيع قلوب المؤمنين على الكافرين.

ووجهه: أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئًا، فإذا انتصرنا بالله فإنَّ ما عندهم من الأسلحة والذخائر والأموال والأولاد لا يغنيهم من الله شيئًا.

ولهذا لو شاء الله - عزَّ وجلَّ - أن يبطل جميع ما فعلوا لأبطله، وما يحصل من الزلازل التي تدمر كثيرًا ما صنعوا أكبر دليل، وكذلك ما صنعوه قد يفسد بأيديهم. فكم من انفجارات حصلت في مخازن القنابل الذرية والنووية وحصل بذلك شر عليهم وعلى من حولهم، لو شاء الله لأعتم عليهم الجو فقط إعتامًا بالضباب ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يقهر قدرتَه وقوتَه شيءٌ، ولهذا قال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

٦ ـ إثبات النار؛ لقوله: ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾.

٧ ـ أن الكفار في النار؛ لقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ولكن لا نشهد لكل كافر بعينه أنه في النار، ولكن نشهد على سبيل العموم، فنقول: كل كافر في النار، كما نقول: كل مؤمن في الجنة، ولا نشهد لواحد معين بالجنة، ففرق بين العموم وبين الخصوص.

٨ ـ أن الكافرين قد يرزقون الأموال والأولاد.

٩ ـ أن الكفار المتأخرين كالكفار السابقين؛ لأن سنّة الله تعالى في الخلق واحدة، فليس بينه وبين الخلق نسب يراعيه ويحابي من يتصل به، فالناس عنده تعالى سواء، أكرمُهم عند الله أتقاهم؛ لقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

١٠ـ أن فرعون وآله قد عُذِّبوا في الدنيا كما سيعذبون في الآخرة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

١١ ـ الردُّ على من زعم أن فرعون أسلم فنفعه إسلامه؛ لأن الله تعالى ذكر ذلك على وجه المؤاخذة والمعاقبة.

ولو كان تائبًا توبة تنفعه ما ذكر ذنبه بدون ذكر توبته؛ لأن الله تعالى عدل لا يذكر أحدًا بذنب تاب منه، إلَّا أن يبين توبته، فآدم - عليه الصلاة والسلام - لما أكل من الشجرة، وحصل له ما حصل، وتاب إلى الله ذكر الله تعالى معصيته، وذكر أنه تاب، فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧]، بل ذكر أنه بعد التوبة كان خيرًا منه قبلها ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

١٢ ـ إثبات الآيات لله، وهي العلامات الدالة على الله - عزَّ وجلَّ -، على وجوده، وعلى ما تتضمنه هذه الآيات من صفاته، فمثلًا: نزول الغيث آية على وجود ا لله وعلى رحمته، ونزول

العقوبات دليل على وجود الله وعلى غضبه.

وهكذا كل آية تدل على وجود الله - سبحانه وتعالى - وعلى ما تقتضيه تلك الآية من الصفات، سواء كانت آية رحمة أو آية عذاب.

١٣ - أن الله لا يظلم الناس شيئًا، وإنما يؤاخذهم بالذنوب ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

١٤ - الرد على الجبرية الذين لا ينسبون فعل العبد إليه، لقوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأضاف الذنوب إليهم، والفعل لا ينسب إلَّا لمن قام به حقيقة، والجبرية يقولون: إن الفعل لا ينسب إلى الإنسان على وجه الحقيقة.

١٥ - إثبات صفة شدة العقاب لله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢].

التفسير

هذه الآية مصدرة بـ ﴿قُلْ﴾ تدل على أن الله أمر رسوله ﷺ بإبلاغها إلى الكفار، فيدل على أهميته، وأنه أمر أن يبلغه أمرًا خاصًا، مع أن الرسول ﷺ أمر أن يبلغ القرآن كله، لكن هذا يدل على أنه معتنى به، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم:٣١]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، والخطاب هنا للنبي ﷺ واعلم أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ تارة يكون شاملًا له وللأمة بالنص المقترن بذلك الخطاب، وتارة يكون خاصًا به، وتارة يكون عامًا له وللأمة بمقتضى كونه إمامًا للأمة.

يعني ليس في الخطاب ما يدل على العموم، لكن باعتبار أنه إمام الأمة يكون الخطاب له، وحكمُه يشمله ويشمل الأمة.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ولم يقل إذا طلقت، فدلَّ هذا على أن هذا الخطاب موجه له ولأمته.

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦]، هذا خاص بالرسول - عليه الصلاة والسلام -.

ومثال الثالث: أكثر الخطابات الموجهة للرسول - عليه الصلاة والسلام - من هذا القسم، مثل هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هذا شامل له وللأمة، حتى نحن نقول للذين كفروا: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم. على وجه الاقتداء به والتأسي به.

وقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾، في قراءة: (سيُغلبون ويُحشرون) قراءة سبعية.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: يغلبهم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، المؤمن الغالب هو الذي آمن حقًّا، وقام بالعمل الصالح، ليس الإيمان هو مجرد القول باللسان. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، لابد من إيمان صادق يشهد له العمل، فيكون صالحًا، والله - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، فالذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا مصدقًا بالعمل سوف يغلبون - بلا شك - الكفار.

ولكن إذا قال قائل: ماذا تقول في الأمة الإسلامية اليوم، فإنها مغلوبة على أمرها، والكفار يستذلونها غاية الذل، ويحاربونها من كل وجه بكل أنواع السلاح.

فجوابنا أن نقول: إنَّ الأمة الإسلامية ليس لهم من الإسلام إلَّا اسمه فقط، ولا من القرآن إلَّا رسمه، ولذلك تجد الواحد منهم يعظِّم القرآن تعظيمًا متعديًا لحدود الشرع، ولكنه تعظيم رسم؛ يُقَبِّل القرآن، يضعه على جبهته، لكن لا يعمل بما فيه إلَّا نادرًا، حتى إنه ربما يفعل ذلك وهو يشرك بالله ويدعو غير الله.

أين العمل بالقرآن؟!

وإذا نظرت نظرة فاحصة في العالم الإسلامي اليوم وجدت أنه لا يمثل الإسلام حقيقةً، وجدت في العبادة أنواعًا كثيرة من الشرك بالأموات وبالأحياء، ووجدت أنواعًا كثيرة من البدع العقدية والعملية، ووجدت أنواعًا كثيرة من نقض العهد والغدر والخيانة والكذب والغش؛ فأين الإسلام؟ ليس هو إلَّا اسم، ومن ثَمَّ لم نغلب الذين كفروا، بل الذين كفروا هم الذين غلبونا في الواقع، وهم الذين لهم الآن السيطرة على العالم اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، فنحن اليوم لم نُصْدِقِ الله حتى يكون لنا النصر: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١].

وقوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: في الدنيا تغلبون، وفي الآخرة تحشرون إلى جنهم - والعياذ بالله - يجمعون إليها، ويدخلونها، ويخلدون فيها، فيكون هؤلاء الكفار قد خسروا الدنيا والآخرة؛ خسروا الدنيا بالغلبة والذل، وخسروا الآخرة، بأنهم يحشرون إلى جنهم، وهذا كقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: هذا ذمّ للنار ـ والعياذ بالله ـ أنها بئس المهاد، أي: بئس ما يتمهد به الإنسان، كالذي يتمهد في فراشه، ويلتحف بلحافه، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، أي شيء يغشيهم ويغطيهم من العذاب، فهم في حال لا يمكن أن يتصورها الإنسان لعظمها ولشدتها، وهم خالدون فيها أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن رسول الله ﷺ عبدٌ توجَّه إليه الأوامر؛ لقوله: ﴿قُلْ﴾ فهو عبدٌ لا يُعْبَد ورسولٌ لا يُكَذَّب.

٢ ـ أهمية هذا الخبر الذي أمر الله نبيه أن يبلغه للكافرين.

٣ ـ تقوية المؤمنين حيث يقال لأعدائنا الكفار: ستُغْلَبون في الدنيا، وليس لكم عاقبة في الآخرة، فإنكم ستحشرون إلى جهنم.

٤ ـ إرعاب الكفار وتحذيرهم؛ لقوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

٥ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - يجمع للكفار بين العقوبتين؛ عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، أما عقوبة الدنيا ففي قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ حتى وإن بذلوا أموالًا كثيرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

وأما العقوبة الثانية فهي قوله: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. أمَّا المؤمن فإن الله تعالى إذا عاقبه في الدنيا لم يعاقبه في الآخرة، لن يجمع الله له بين عقوبتين ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

٦ ـ البشرى لنا نحن في هذا الزمن؛ وهي أننا لو صدقنا الله تعالى بالإيمان لكان الكفار مغلوبين ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾، والذي يَغْلِبُ هم مَنْ قال الله فيهم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١].

فلو أننا رجعنا إلى الإيمان حقًا في العقيدة والقول والعمل والأخلاق والآداب وجميع ما يتعلق بالشريعة الإسلامية لكان الكفار أمامنا مغلوبين، ويشهد لهذا الواقع الذي حصل في سلف هذه الأمة حيث ملكوا مشارق الأرض ومغاربها.

٧ ـ إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وهذا أمر ثابت بالكتاب والسنّة وإجماع المسلمين، ومن أنكره فقد كفر.

٨ ـ إنشاء الذم بل غاية الذم للنار؛ لقوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٣]

التفسير

﴿قَدْ كَانَ﴾: يحتمل أن تكون هذه من جملة مقول القول السابق، أي: قل لهم اعتبروا بمَثَلٍ أضربه لكم ﴿ءَايَةٌ﴾، أي: علامة على أنكم ستغلبون؛ لأن الآية في اللغة: العلامة، ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾: أي: لقي بعضهما بعضًا للقتال بينهما، والفئة بمعنى الطائفة.

وهل المراد بالفئتين فئتان حقيقيتان واقعتان أو هو على سبيل المثال؟ أكثر المفسرين على أنهما حقيقيتان في أمر واقع.

وقال بعض المفسرين: إن ذلك على ضرب المثل، أي: ولنفرض أن هناك فئتين على هذا الوجه؛ فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة.

وإذا قلنا: إنهما فئتان في قضية واقعة، قد قال هؤلاء القائلون بهذا القول: إن المراد بهما فئة الكفار والمؤمنين في بدر، فهما فئتان: فئة تقاتل في سبيل الله، وهم النبي ﷺ ومن معه، وفئة كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، والخطاب في الآية للمؤمنين، - سبحان الله! - لو أخذنا بهذه الآية ونحن مؤمنون حقيقة، نقاتل في سبيل الله، لكان هؤلاء بين أيدينا كالفراش!.

﴿فئة﴾: مبتدأ، و﴿تُقَاتِلُ﴾: خبره، وجاز كون المبتدأ نكرة لأنه للتقسيم، فجاز الابتداء بالنكرة.

ومنه قول الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

فبدأ بالنكرة لأن المقام مقام تفصيل.

﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طريقه، والقتال في سبيل الله يتضمن أمورًا:

الأول: إخلاص النية لله.

الثاني: أن يكون موافقًا فيه أمر الله.

الثالث: أن تتجنب فيه محارم الله.

فالأول: أن يكون مرادًا به وجه الله، وأن تكون كلمته العيا، وهذا الإخلاص، فلا يقاتل للقومية، وللشجاعة.

ولهذا سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[1].

الثاني: أن يكون القتال في حدود شريعته، بحيث لا يكون فيه عدوان على أحد، فإن كان فيه عدوان على أحد فإنه ليس في سبيل الله.

ومثاله: أن يكون بيننا وبين المشركين عهد، ثم ننقضه ونقاتل، فهذا حرام، وليس هذا قتالًا في سبيل الله، بل هو معصية لله - عزَّ وجلَّ -؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]. ونهى أن نقاتل في حال العهد، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]، أي: إذا عاهدت قومًا من الكفار، وخفت أن يخونوا، فلا يجوز أن تنقض العهد، ولكن انبذ إليهم على سواء، أي قل لهم: لا عهد بيننا وبينكم، حتى تكون أنت وهم على سواء، أي: على علم بأن العهد قد نُقض، أما أن تقاتل مع العهد فهذا ليس في سبيل الله.

الثالث: أن تجتنب فيه محارم الله، فإن لم تجتنب فيه محارم الله، فإنه وإن كان أصله في سبيل الله لكن لا تتحقق فيه الغلبة والنصر.

بدليل ما وقع للمسلمين في غزوة أحد؛ فإن المسلمين في غزوة أُحد كان الأمر في أول النهار بأيديهم، والغلبة لهم، ولكنهم عصوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - فخُذِلوا، فكانت الدائرة للمشركين.

يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾: أي: حصلت الهزيمة للمشركين ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: صرف الله - عزَّ وجلَّ - المسلمين عنهم فلم يقاتلوهم.

وقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾: بعد هذا التقريع والتوبيخ الذي يتعظ به من يأتي بعدهم قال بعده: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ونحن لو فعلنا كما فعلوا، هل نحن ضامنون أن يعفو الله عنا؟ لكن الصحابة عفا الله عنهم، وصار ما فعلوه كأن لم يكن.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٠٤).

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾:

ولم يقل الله - عزَّ وجلَّ - تقاتل في سبيل كذا. وهذا من باب الاكتفاء بأحد الوصفين عن الآخر، الأولى: قال: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يقل: فئة (مؤمنة) تقاتل في سبيل الله.

والأخرى قال: ﴿كَافِرَةٌ﴾ ولم يقل: تقاتل في سبيل الطاغوت، فحذف من الأولى مقابل ما ذكر في الثانية.

حذف من الأولى (مؤمنة) التي تقابلها ﴿كَافِرَةٌ﴾، وحذف من الثانية ضد ما ذكر في الأولى؛ فحذف (في سبيل الطاغوت)، وقد ذكر في الأولى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا من باب الاكتفاء بذكر أحد الوصفين عن الآخر، وهو من البلاغة الإيجازية.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾:

وفي قراءة: سبعية: (ترونهم) والرائي هم المقاتلون في سبيل الله، أو الكفار.

فالضمير يصلح لهذا وهذا، لكن (ترونهم) واضح أنها تعود إلى الكفار؛ ترون الفئة التي تقاتل في سبيل الله مثلي الكفار، لكن رؤية فقط ليست حقيقية كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٤].

﴿يَرَوْنَهُم﴾: أي: يشاهدونهم بأعينهم أنهم مثليهم سواء كانوا مؤمنين أم كفارًا، فإن كانوا مؤمنين يرون الكفار مثليهم.

فواضح أن الفئة القليلة هي المؤمنة وإن كان الكفار يرونهم مثليهم رأي العين، ففيها إشكال؛ لأن الكفار إذا كانوا يرون المؤمنين رأي العين مثليهم صارت الغلبة للأكثر! لكنهم قالوا: إن رؤيتهم إياهم مثليهم من باب إراءة الله إياهم كذلك، وإن كانوا في الواقع دون ذلك.

والأقرب أن الرائي هم الطائفة المؤمنة، وأن المثلين الطائفة الكافرة، أي: أنَّ الطائفة المؤمنة ترى الطائفة الكافرة مثليهم، وتحقق أن هؤلاء الكفار يبلغون ضعفيهم، إذا كان المؤمنون مائة فالكفار يكونون مائتين، فإذا قلنا: إن هذه الآية في قضية واقعة وهي في يوم بدر، صار عندنا إشكال كبير في قوله ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ لأن عدد المؤمنين في بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، وعدد الكفار ما بين تسعمائة إلى الألف، ثلاثة أمثال أو أكثر.

فذهب بعض العلماء إلى أنهم يرونهم مثليهم وإن كانوا في الحقيقة أكثر، وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالمثل هنا: الزائد وجعل معنى قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرونهم أكثر منهم.

أما إذا قلنا: إنها ضرب مثل فلا إشكال فيه، وهذا هو المطابق لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦].

ويوجد رأي ثالث وهو أن المراد بمثلين: أي ضعفين، وعليه يكون مطابقًا للواقع؛ لأن ضعف الشيء مثله مرتين، فإذا كان ضعفين صار ضعفه ثلاث مرات، والمشركون ما بين تسعمائة إلى ألف والمسلمون ثلاثمائة وبضعه عشر.

وقوله: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾:

﴿رَأْيَ﴾: مصدر مؤكد لقوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ إذا جعلنا الرؤية بصرية. وأما إذا جعلناها علمية، أي: يعلمونهم ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾، فهي أيضًا من باب التوكيد المعنوي، أي: يعلمونهم علمًا يقينيًا كما يرونهم بأعينهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

﴿يُؤَيِّدُ﴾: يقوي، والباء هنا باء الوسيلة، أي: يؤيد بسبب نصره من يشاء، كما يقال: ذبحت بالسكين وضربت بالعصا، فالنصر إذن وسيلة التأييد، فهو يقوي - عزَّ وجلَّ - بنصره من يشاء.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: ممن تقضي الحكمة نصره أو تأييده.

ويجب أن نقرن كل آية جاءت بلفظ المشيئة، أو جاءت معلقة بالمشيئة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق من ذكر هذه القضية أي: إن في ذلك المذكور لعبرة، أي: لاعتبارًا، والاعتبار: مأخوذ من العبور من شيء إلى شيء، أي: كأن الإنسان يعبر بعقله من المذكور إلى المعقول، فهنا ذكرت لنا قصة نأخذ منها عبرة بأن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة فيكون تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]. فإذا افتخر الكفار بكثرتهم، نقول لهم: إن كثرتكم لا تغني عنكم شيئًا، فهذه فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، ومع ذلك صارت الغلبة للتي تقاتل في سبيل الله.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: جمع بصر، كأسباب جمع سبب، ويشمل بصر الرؤية الحسية وبصر العقل ما دام أنهم يرونهم رأي العين، فيكون فيه عبرة لأولي الأبصار الذين رأوا بأعينهم، وكذلك هو عبرة لأولي الأبصار بعقولهم، ولو كانوا لم يروا ذلك رأي العين؛ لأنهم إذا سمعوا اعتبروا؛ فكان في ذلك عبرة لهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - ضرب الأمثال بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ في التصديق والطمأنينة، ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للواعظ والداعي إلى الله - عزَّ وجلَّ - أن يضرب المثل للمدعوين بالأمور الواقعة؛ لأن ذلك أبلغ.

٢ - أن الإنسان مهما بلغ من الصدق فإنَّ عَرْضَه الأمثال الواقعة تجعل كلامه حق اليقين.

والمراتب ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

علم اليقين: هو خَبره الصادق.

وعين اليقين: ما تراه بعينك مشاهدًا.

وحق اليقين: ما تدركه بحسك.

فإذا قال لك قائل: في جيبي تفاحة، وهو رجل صادق، فالذي أدركت من وجود التفاحة علم اليقين، فإذا أخرجها ونظرت إليها فهذا عين اليقين، فإذا أكلتها فهو حق اليقين؛ لأن هذا هو الواقع.

٣ ـ أن النصر ليس بكثرة العدد، ولا بقوة العُدد، ولكنه من الله؛ لأن الله لما ضرب هذا المثل قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ والوسيلة الحقيقية لنصر الله الذي به التأييد ما ذكره الله - عزَّ وجلَّ - بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] ـ إلى الآن لم يأت سبب النصر ـ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]. هذا واحد، إخلاص العبادة لله - عزَّ وجلَّ -، هذا من أسباب النصر.

وهناك أسباب أخرى ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

٤ ـ أن القتال لا يكون سببًا للنصر إلَّا إذا كان في سبيل الله، إخلاصًا، وموافقةً للشرع، واجتنابًا للمحارم، فإذا تمت هذه الأمور الثلاثة فهذا هو الذي في سبيل الله.

٥ ـ أنه لا ألفة بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فمن حاول أن يجمع بين المؤمنين والكافرين فقد حاول الجمع بين النار والماء.

وهذا شيء غير ممكن؛ لا يمكن لأولياء الله أن يكونوا متآلفين مع أعداء الله، ومن حاول أن يؤلف بين أولياء الله وأعداء الله فمعنى ذلك أنه سوف يقضي على ولاية الله؛ لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]

اتخاذهم أولياء معناه: أن يتولاهم وينصرهم، لا أن يتقرب إليهم لدعوتهم، وكيف يمكن لشخص يقول إنه من أولياء الله، وإنه مؤمن بالله أن يوالي أعداء الله الكافرين بالله؟! هذا لا يمكن. ولهذا نجد أن الصراع بين أتباع الرسل وأعداء الرسل قائم دائم، إما بالقول، وإما بالفعل؛ أما بالقول: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢]. وإما بالصراع المسلح كما هو معروف.

٦ ـ أن الله تعالى قد يري المجاهدين الأمر على الواقع، أو على خلاف الواقع؛ لحكمة، كما تشهد

بذلك آية الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:٤٤] لأن الإنسان إذا رأى عدوه قليلًا نشط على القتال، وإذا رآه كثيرًا تخاذل، فالله - سبحانه وتعالى - أرى المؤمنين الكفار قليلًا، وأرى الكافرين المؤمنين قليلًا، لأجل أن يتقدم كل واحد على القتال.

٧ ـ إثبات أفعال الله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

٨ ـ الرد على الجبرية في قوله: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فأضاف الفعل إليها، والجبرية يقولون: إنه لا يضاف الفعل إلى الفاعل إلَّا على سبيل المجاز، كما نقول: أكلت النار الحطب.

٩ ـ إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾.

١٠ ـ أنه لا يعتبر بالأمور إلَّا أولو البصائر؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

١١ ـ أنك إذا وجدت من نفسك عدم اعتبار واتعاظ بما يجري، فاعلم أنك ضعيف البصيرة؛ لأن الله إذا أثبت العبرة لأولي الأبصار، فإن انتفاء العبرة يدل على ضعف البصيرة أو عدمها بالكلية.

١٢ ـ الثناء على أهل البصيرة؛ لأن السياق فيهم، ويتضمن القدح في عُمْي القلوب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤]

❁ التفسير ❁

هذه سبعة: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: أي جعلت هذه الأشياء مزيَّنة في قلوبهم.

والمزيِّن هو الله، وقد أضاف الله التزيين إلى نفسه في عدة آيات: قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤].

وأضاف التزيين إلى الشيطان، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤].

لكن تزيين الشيطان إنما كان بالنسبة لأعمال هؤلاء، أي: زين لهم الأعمال، أما الأشياء المخلوقة فالذي يُزينها هو الله - عزَّ وجلَّ - ابتلاءً واختبارًا؛ لأنه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عُرِف المؤمن حقًا.

لو كان الإنسان لا يهتم بمثل هذه الأمور، لم يكن ما يصده عن دين الله.

فإذا أُلقي في قلبه حب هذه الشهوات، فإن قَوِيَّ الإيمان لا يقدمها على محبة الله - عزَّ وجلَّ -.

ألم تروا إلى قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «رجلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[1].

هذا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إِلَّا ظله، والمرأة ذات المنصب والجمال هي من أشد ما يتعلق به الإنسان في النساء، ودعته في موضع خال ليس فيه أحد، لكن قال: إني أخاف الله، فالموانع منتفية، وأسباب الفاحشة موجودة متوفرة، ومع ذلك قال: إني أخاف الله، إذنْ فهذا التزيين ابتلاء واختبار من الله - عزَّ وجلَّ -.

قال الله تعالى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يقل حب النساء، أي: أن يتزوج الإنسان المرأة لمجرد الشهوة؛ لا لأمر آخر، ولهذا لا يدخل في هذا رسول الله ﷺ ولا يقال: إنه ممن زُيِّن له حب الشهوات، لأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يتزوج امرأة بكرًا سوى عائشة ﵂، ولو كان يريد الشهوة لاختار الأبكار الجميلات، ولا يمنعه مانع من ذلك.

ولكنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ»[2] لما في اختيار النساء من قِبَلِه - عليه الصلاة والسلام - من المصالح العظيمة، كاتصاله بالناس وقبائل العرب، وكذلك نشر العلم عن طريق النساء، لاسيما العلوم البيتية التي لا يطلع عليها إِلَّا النساء، إلى غير ذلك من المصالح؛ لأن تزيين حب النساء إذا كان لغير مجرد الشهوة قد يُحمَد عليه الإنسان، لكن إذا كان لمجرد الشهوة فهذا من الفتنة، ولهذا قال: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: يحب البنين لا ليكونوا عونًا له على طاعة الله، ولكن ليفتخر بهم، وكانوا في الجاهلية يفتخرون بالبنين، ويتشاءمون بالبنات. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل:٥٨ - ٥٩] يختفي منهم مخافة المسبة، ثم يفكر ويقدر ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: أيمسك هذا المولود وهو أنثى على هون وذل وهضم لحقها أم يدسه في التراب، أي: يدفنها حية في التراب؟ قال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠) وفي غير موضع صحيحه، ومسلم (١٠٣١).

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٦١).

ولا شك أن كثيرًا من الناس زُيّن لهم حب البنين شهوةً، وليس الشهوة الجنسية، ولكن شهوة الفخر والشرف.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾:

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: جمع قنطار، قيل: المراد به ألف مثقال ذهب، فإذا صارت قناطير تكون آلافًا، و ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: المعتنى بها، وقيل: إن القنطار ما يملأ مسك الثور - أي: جلد الثور - من الذهب، وهذا أكثر من ألف مثقال، وقد ذكر الله تعالى هذه المبالغ من الذهب والفضة؛ لأنه كلما كثر المال في الغالب افتتن به الإنسان، فإذا كانت قناطير مقنطرة من الذهب صارت الفتنة بها أشد.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ نصَّ عليهما لأنهما أغلى ما يكون من الأموال، ولذلك تتعلق الرغبات بهذين الجوهرين الذهب والفضة، حتى لو وجدت جواهر نفيسة لا تجد تعلق القلوب بهذه الجواهر كتعلقها بالذهب والفضة.

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾:

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: هي هذه الحيوانات المعروفة، وسميت خيلًا؛ لأن صاحبها غالبًا يُبْتَلى بالخيلاء؛ لأنها أفخر المراكب، فالراكب لها يكون في قلبه خيلاء، أو لأنها هي تختال في مشيتها، ولهذا ترى الخيل عند مشيتها ليست كغيرها، تشعر بأن فيها ترفعًا واختيالًا.

قال بعضهم: أو لأنها يخيل إليها أنه لا شيء يساميها، وهذا لا ندري عنه، اللهم إلَّا ما يظهر من أثر ذلك مثل اختيالها في مشيتها، وأصحابها لا شك يرون أنهم فوق الناس؛ لأنها أفخر المراكب في ذلك الوقت وإلى الآن، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

ومن المعلوم أن الآية هنا في سياق مَنْ أحب شهوة الخيل، أي: اتخذها شهوة، فهذا هو محل التزيين المذموم، أما من اتخذها ليجاهد بها في سبيل الله فهذا لا شك أنه خير له، كما أن من أحب الذهب والفضة لا للشهوة وجمع المال، ولكن لما يترتب على المال من المصالح فهذا محمود.

والخيل قسَّمها الرسول ﷺ إلى أقسام ثلاثة:

الأول: من اتخذها فخرًا وخيلاء وليناوئ بها المسلمين، فهذا عليه وزر.

الثاني: من اتخذها ليجاهد عليها في سبيل الله، فهذا له أجر.

الثالث: من اتخذها للركوب والتنمية والاستفادة من ورائها، فهي له ستر.

وقوله: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ قيل: معنى المسومة هي التي تُسوَم، أي: تُطلق لترعى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠] وقيل: المسَوَّمَة المعَلَّمة التي جعل عليها أعلامًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٧٣).

للزينة والفخر مثل أن يجعل عليها ريش النعام أو أشياء أخرى تُحسِنُها.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾:

قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نَعم، كأسباب جمع سبب، وهي الإبل والبقر والغنم، وهذه الأنواع من الحيوانات هي محل رغبة الناس أيضًا، أكثر الناس يقتنون الإبل والبقر والغنم، لا تجدهم يقتنون الظباء أو ما أشبهها من الحيوانات، وإنما يعتنون باقتناء هذه الأنواع الثلاثة في البادية وفي الحاضرة، لكنها في البادية أكثر، وأغلى هذه الأنواع هي: الحُمْر من الإبل، ولذلك يضرب بها المثل في الغلاء والمحبة، قال - عليه الصلاة والسلام - لعلي بن أبي طالب وقد وجّهه إلى خيبر قال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، ثُم ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم»(١).

وقوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: أي: حرث الأرض للزراعة.

فهذه سبعة أشياء: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، ولو فُتِّشت عامة رغبات الناس في هذه الدنيا لوجدتها لا تخرج عن هذه الأشياء السبعة في الغالب، وإِلَّا فهناك أشياء أخرى محل رغبة عند الناس مثل: القصور المشيدة، والمنازل الفاخرة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: أعاد اسم الإشارة على مفرد مذكر على تقدير:

ذلك المذكور، فطوى ذكر هذه السبعة كلها، وكنَّى عنها بالمذكور، وذلك لاحتقارها بالنسبة لنعيم الآخرة.

وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: المتعة التي يتمتع بها الناس في الحياة الدنيا، وغايتها الزوال، فإما أن تزول عنها، وإما أن تزول عنك، إما أن تخلد لك أو تخلد لها، فذلك مستحيل، لابد أن تفارقها أو تفارقك هي، وهذا أمر لا يحتاج إلى إقامة برهان، فهذه الأشياء لو اجتمعت كلها للمرء فما هي إِلَّا متاع الحياة الدنيا، يتمتع بها الإنسان ثم يفارقها أو تفارقه هي.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ بخلاف الحياة الأخرى، وهي الحياة الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، أما الدنيا فهي حياة بسيطة ليست بشيء، قال النبي ﷺ: «لَـمَوضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجنَّة خَيْرٌ مِن الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٢)، وموضع السوط حوالي متر، و(خير من الدنيا وما فيها) الدنيا منذ خُلقت إلى يوم القيامة بكل ما فيها من نعيم، وذلك لأن نعيم الدنيا في الحقيقة كأحلامنا، واعتبر الأمر بما مضى من عمرك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٩) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

و (دنيا): مؤنث، أدنى، ووصفت بهذا الوصف لدنو مرتبتها بالنسبة للآخرة، فليست بشيء بالنسبة للآخرة؟ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، وكذلك سميت دنيا لأنها أدنى من الآخرة باعتبار الترتيب الزمني، فهي دنيا، أي: قريبة للناس.

إذن ما دمنا نعرف أن هذا متاع الحياة الدنيا فللنظر إلى هذه الأشياء نظرة جدٍّ لا نظرة شهوة، فإذا كان ذلك ينفعنا في الآخرة فالنظر إليه طيب ونافع، ويكون من حسنة الدنيا والآخرة.

أما إذا نظرنا إليه مجرد نظر الشهوة فإنه يخشى على المرء أن يغلب جانب الشهوة على جانب الحق، ولهذا أدنى الله مرتبة هذه الأشياء ووضعها حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾:

أي: حسن المرجع في الدار الآخرة؛ لأن مرجع كل إنسان إلى الآخرة إما إلى جنة، وإما إلى نار، وليس ثمة دار أخرى ثالثة، كل الناس، بل كل الجن والإنس مآلهم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار، وليس ثمة دار أخرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة.

ووجه الحكمة: أنه لو لا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدين فائدة.

فلو كان الإنسان لم يُغرس في قلبه أو في فطرته هذا الحب لم يكن في الابتلاء في الدين فائدة؛ لأن الانقياد إلى الدين إذا لم يكن له منازع يكون سهلًا ميسرًا، ولهذا أول من يستجيب إلى الرسل الفقراء الذين ـ غالبًا ـ حُرِموا من الدنيا؛ لأنه ليس لديهم شيء ينازعهم لا مال ولا رئاسة ولا غير ذلك.

٢ ـ أنه لا يذم من أحب هذه الأمور على غير هذا الوجه، وهو محبة الشهوة، وذلك لأنه إذا زُينَت له محبة هذه الأمور لا لأجل الشهوة لم يكن ذلك سببًا لصده عن دين الله؛ لأن أكثر ما يفتن الإنسان الشهوة إذا لم يكن هناك شبهة، فإن كان هناك شهبة واجتمع عليه شبهة وشهوة حصلت له الفتنتان.

ويدل لذلك أن النبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَيّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطيب»[1]، ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ رغَّب في النكاح وحثَّ عليه وأمر به الشباب[2]، والنبي ﷺ حثّ على تزوج المرأة

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٦١).

(٢) وذلك في قوله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج....» الحديث. أخرجه البخاري

الولود[1]، والولود كثيرة الولادة، وإذا كانت ولودًا كثر نسلها، ومن نسلها البنون، فالمهم أن محبة هذه الأشياء لا من أجل الشهوة أمر لا يذم عليه الإنسان.

٣ - قوة التعبير القرآني، وأنه أعلى أنواع الكلام في الكمال، ولهذا قال: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ولم يقل: حبّ النساء، أو حبّ البنين، أو حبّ القناطير المقنطرة، بل قال: حبّ الشهوات من هذه الأشياء، فسلّط الحب على الشهوات، لا على هذه الأشياء؛ لأن هذه الأشياء حبها قد يكون محمودًا.

٤ - تقديم الأشد فالأشد، ولهذا قدَّم النساء، ففتنة شهوة النساء أعظم فتنة، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[2]. ولهذا بدأ بها قال: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٥ - أن البنين قد يكونون فتنة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، والأولاد أعم من البنين.

٦ - أن الذهب والفضة من أشد الأموال خطرًا على الإنسان، ولهذا قدَّمها على بقية الأموال، فقال: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ لأنها أعظم المال فتنة، لاسيما الموصوفة بهذه الصفة، أنها قناطير مقنطرة.

٧ - أنه كلما كَثُرَ المال ازدادت الفتنة في شهوته؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾.

ولهذا نجد بعض الفقراء يجود بكل ماله، والغني لا يجود بكل ماله، بل بعض الأغنياء - نسأل الله العافية - يبتلون كلما كَثُرَ مالهم اشتد بخلهم ومَنْعهم.

٨ - أن الخيل أعظم المركوبات فخرًا، ولاسيما إذا كانت مُسَوَّمة أي: مُعَلَّمة معتنى بها، أو مسومة مطْلَقة في المراعي معتنى بها في رعيها، فإنها تكون أعظم المركوبات فتنة.

٩ - أنَّ فتنة الأنعام - الإبل والبقر والغنم - دون فتنة الخيل بناءً على الترتيب، والترتيب في هذه الآية يكون من الأعلى إلى الأدنى.

١٠ - أن من الناس من يُفتن في الحرث بالزراعة، فيفتن بها ويزرع على الوجه المشروع وغير المشروع.

١١ - أن هذه الأشياء كلها لا تعدو أن تكون متاع الحياة الدنيا؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

(٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

(١) وذلك في قوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٤٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

١٢ - التزهيد في التعلق بهذه الأشياء؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكل ما كان للدنيا فلا ينبغي للإنسان أن يتبعه نفسه لأنه زائل، فلا تتبع نفسك شيئًا من الدنيا إِلَّا شيئًا تستعين به على طاعة الله.

وأنت سوف تنال منه ما يناله من أتبع نفسه متاع الحياة الدنيا للدنيا، فمثلًا: الطعام، من الناس من يأكله لأجل أن يحفظ بدنه امتثالًا لأمر الله، واستعانة به على طاعة الله، فيؤجر على ذلك، ومن الناس من يأكله لمجرد شهوة ليملأ بطنه فيُحرم هذا الأجر؛ لأنه نوى به مجرد الشهوة فقط.

١٣ - تنقيص هذه الحياة؛ لقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فوالله إنها لناقصة، إن دارًا لا يدري الإنسان مدة إقامته فيها، وإن دارًا لا يكون صفوها إِلَّا منغصًا بكدرٍ، وإن دارًا فيها الشحناء والعداوة والبغضاء بين الناس وغير ذلك من المنغصات؛ إنها الدنيا.

١٤ - أن ما عند الله خير من هذه الدنيا؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

١٥ - ما أشار إليه بعضهم مِنْ أن مَنْ تعلق بهذه الأشياء تعلُّق شهوةٍ فإن عاقبته لا تكون حميدة؛ لأن الله عندما ذكر التعلق على وجه الشهوة بهذه الأشياء قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فكأنه يقول: ولا حسن مآب لهذا المتعلِّق بهذه الأشياء أي: إن عاقبته ليست حميدة، هكذا ذكره بعضهم، ولكن في النفس منه شيء.

والذي يظهر لي أن الآية ختمت بهذا: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ من أجل ترغيب الإنسان فيما عند الله - عزَّ وجلَّ -، وألَّا يتعلق بمتاع الحياة الدنيا، ويدل لما ذكرتُ قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥].

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أأخبركم بخير من ذلكم؛ أي: المشار إليه في الآية السابقة.

والاستفهام يفيد تنبيه المخاطب وحضور قلبه لما سيلقَى إليه، فهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، ثم إن في هذا الاستفهام معنى غير التنبيه

وهو: التشويق، يعني: بعد أن قصّ الله علينا متاع الحياة الدنيا أمر نبيّه أن يقول للناس: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ ليشوقهم إلى ذلك الخير.

وقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقل: (أأخبركم)؛ لأن النبأ إنما يقال في الأمور الهامة، كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١، ٢]، ولهذا قيل للنبي: (نبي)، ولم يُقَل: (مخبِر). فهذا أمر هام يحتاج إلى الإنباء عنه.

وقوله: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ فيها قراءة (أؤنبئكم) بتحقيق الهمزتين بدون مدٌّ، وفيها قراءة ثانية (آؤنبئكم) أي: بتحقيق الهمزتين بالمد.

وقوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾، ولم يقل: (من ذلك)؛ لأن المخاطب جميع الناس، والمشار إليه ما سبق من متاع الحياة الدنيا بأنواعها السبعة، وأشير إليها بلفظ المفرد المذكر من أجل طي ذكره بشيء واحد، كأنه قال: بخير من ذلكم المذكور حتى لا يُشار إلى التفصيل فيه؛ لأن الدنيا كلها في الواقع ينبغي أن يزهد فيها الإنسان ولا يحتسبها شيئًا، كقوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَته إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(١) ولم يذكرها تحقيرًا لها.

وجواب الاستفهام هو مضمون قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ خبر مقدم، و﴿جَنَّاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن من القواعد المعروفة في البلاغة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والتقوى أحيانًا توجه لله - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:٢٧٨]. وأحيانًا نؤمر باتقاء يوم القيامة كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]. وأحيانًا نؤمر باتقاء النار: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١].

ولكن المعاني وإن اتفقت في أصل الوقاية، فإنها تختلف؛ لأن تقوى الله - عزَّ وجلَّ - تستلزم الخوف منه وتعظيمه.

أما النار فإن تقواها تستلزم الخوف منها فقط، لكنها ليست تقوى عبادة وإنابة وتعلق بها، بل تقوى فرار منها، وكذلك تقوى اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، وهو يوم القيامة.

فقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ينبغي أن نحملها على أعلى أنواع التقوى وأفضلها، وهي تقوى الله - عزَّ وجلَّ -، لا تقوى اليوم الآخر، ولا تقوى النار؛ لأن تقوى الله تحمِل على تقوى اليوم الآخر، وعلى تقوى النار.

قال بعض العلماء في تقوى الله: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٠٧).

تترك ما نهى الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله. وهذا يتضمن الإخلاص والعلم.

العلم: من قوله: على نور من الله.

والإخلاص: من قوله: ترجو ثواب الله، وتخشى عقاب الله.

أي: لا يحملك على هذا حب الدنيا أو الجاه أو الرئاسة، أو ما أشبه ذلك.

وقال بعض العلماء: إن تقوى الله أن يخلي الإنسان جميع الذنوب صغيرها وكبيرها. وعلى هذا قول الشاعر:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وقال بعض العلماء: تقوى الله - عزَّ وجلَّ -: اتخاذ وقاية من عذاب الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، ثم اعلم أن التقوى أحيانًا تقرن بالبر، وأحيانًا تفرد، فإن قرنت بالبر صار معناها: اجتناب المعاصي.

والبر: فعل الطاعات، وإن أفردت عنه صارت شاملة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولهذا الاستعمال في الكلمات نظائر كثيرة، كالفقير والمسكين، الفقير والمسكين إن ذكرا جميعًا صار لكل واحد منهما معنى، وإن أُفرد أحدهما صارا بمعنى واحد.

كذلك الإيمان والإسلام؛ عند الإفراد يدخل أحدهما في الآخر، وعند الجمع يكون لكل واحد منهما معنى غير الآخر.

قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: العندية هنا: تفيد فضلًا عظيمًا؛ لأنها هي القرب من الله - عزَّ وجلَّ -. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف:٢٠٦] وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

فثواب المتقين عند الله، والعندية تفيد القرب، ولا أقرب من شيء يكون سقفه عرش الله - عزَّ وجلَّ -، كالفردوس الأعلى.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر:٥٤-٥٥]. أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: الرب كما سبق هو الخالق المالك المدبر، وسبق أيضًا أن ربوبية الله - سبحانه وتعالى - تنقسم إلى عامة وخاصة، والربوبية هنا: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ربوبية خاصة؛ لأن الله وفقهم لما حرمه كثيرًا من عباده.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

﴿جَنَّٰتٍ﴾: كثيرة ومتنوعة ذكر الله تعالى في سورة الرحمن أن أجناسها أربعة، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام -: أنها جنتان من ذهب وجنتان من فضة[1]، وهذا باعتبار الجنس.

أما الأنواع فكثيرة؛ لأن لكل أمة ما يختص بها من الثواب، ولكل فرد من الأمة ما يختص به من الثواب.

ونحن نعرف الآن أن الفواكه في الدنيا اسمها واحد، ولكنها تختلف؛ فالرمان مثلًا في هذا البستان يكون جيدًا، وفي هذا البستان يكون رديئًا، وكذلك بقية الفواكه.

كذلك الجنة تختلف حتى وإن اشتركت في أن كلها رمان، وكلها فواكه وما أشبه ذلك، فإنها تختلف من شخص لآخر، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف العالية كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق[2].

فهي درجات عظيمة، فهنا قال: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالجمع لتعدد أجناسها وأنواعها وأفرادها.

والجنة في الأصل: البستان الكثير الأشجار، ولكن المراد بالجنات التي وعد الله بها المتقين: هي دار النعيم المقيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ليس من تحت أرضها، بل من فوق أرضها، لكن من تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة، وأنهار مختلفة الأنواع، أربعة أنواع: أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

هذا الماء لم يخرج من الآبار، ولم يذب من الجليد، وهذا العسل لم يخرج من نحل، وهذا اللبن لم يخرج من بهيمة، ولكن الذي خلق هذا في الدنيا من هذه الأشياء المعلومة قادر على أن يخلقه - عزَّ وجلَّ - في الآخرة ابتداء.

فهذه الأنواع الأربعة تجري من تحت هذه القصور، والأشجار اليانعة التي تبهج الناظرين وتسر القلب لا يتصور الإنسان ما فيها من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

هذا أيضًا من كمال النعيم (الخلد)، لا يذوقون فيه الموت، بل يقال لهم: «خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»[3]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٣٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٣٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٤٩).

فيسرون، بل يقال لهم: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»[1].

كل الآفات المنغصة للنعيم في الدنيا، كلها تنفى عنه ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

معطوفة على جنات، وعطفها عليها لاختلاف في نوع التلذذ؛ فالتلذذ بالجنات تلذذ شهوة بطن، والتلذذ بالأزواج تلذذ من نوع آخر، والإنسان الذي له زوجة في الدنيا، تبقى زوجةً له في الآخرة، وإذا كانت ذات زوجين، فإنها تخيَّر بينهما، وإذا لم يكن للرجل زوجة، ولا للمرأة زوج في الدنيا، فإنه في الجنة يزوَّج هذا من هذه.

وهناك أزواج أيضًا من نوع آخر، وهن الحور العين، داخلة في قوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل رجس حسي أو معنوي.

فالحسي: مثل البول والغائط والحيض والعرق المنتن والمخاط وما أشبه ذلك.

والمعنوي: مثل الغل والحقد والفجور وكراهية الزوج وما أشبه ذلك.

وذلك لأن الله أطلق فقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يقل من كذا وكذا، فَدَلَّ على العموم؛ لأن من القواعد المعروفة أن حذف المعمول يؤذن بعموم العامل.

ولهذا أمثلة كثيرة منها قوله تعالى للرسول ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨].

قال: ألم يجدك يتيمًا ولم يقل: فآواك، ووجدك ضالًّا ولم يقل: فهداك، مع أن الخطاب له، ووجدك عائلًا ولم يقل: فأغناك، بل حذف المفعول ليؤذن بعموم العامل.

فالرسول - عليه الصلاة والسلام -: وجده ربه يتيمًا فآواه، وآوي به، حتى جعله فئة لكل مؤمن، ووجده ضالًّا فهداه وهدى به، وكذا وجده عائلًا فأغناه وأغنى به.

وقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يقل: مطهرات؛ لأن نعت الجمع يجوز أن يكون مجموعًا ويجوز أن يكون مفردًا، إِلَّا جمع المؤنث السالم فإنه يكون مجموعًا؛ فتقول مثلًا: مررت بنساء مؤمنات، ولا تقول: بنساء مؤمنة، ومررت بمسلمات صالحات، ولا تقول: بمسلمات صالحة.

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾ جمع تكسير؛ فيجوز في وصفه الإفراد والجمع، يجوز أزواج مطهرات، وأزواج مطهرة.

قال ابن مالك: (وَاللهُ يَقْضِي بِهِبَاتٍ وَافِرَةْ)، ولو قال: وافرات لصحَّ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٩٥)، والترمذي (٣٥٢٥).

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾:

هذا من أعظم شيء؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يحل عليهم رضاه فلا يُسخط عليهم بعده أبدًا، كما قال الله تعالى لما عدد نعيم أهل الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وأعظم من ذلك النظر إلى وجه الله - سبحانه وتعالى -، كما الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فلا ألذ ولا أمتع ولا أحسن لأهل الجنة من النظر إلى وجه الله - سبحانه وتعالى -، فأعلى شيء هو النظر إلى وجه الله - عزَّ وجلَّ -، والرضوان يليه، ثم المتع الجسدية في الجنة تلي هذا، ولهذا قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فأفرده بالذكر؛ لأنه نعيم قلب، وما سبقه نعيم بدن وجسد، ولهذا يقول الله - عزَّ وجلَّ -: «إِنِّي أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾:

أي: الذين يريدون الدنيا، والذين يريدون الآخرة، فهو بصير بهم بصر نظر وبصر علم، أما بصر النظر فلا يغيب عن نظره شيء، وأما بصر العلم فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وقوله: ﴿بِالْعِبَادِ﴾ أي: العبودية العامة، فهو بصير بكل العباد، مؤمنهم وكافرهم، بَرِّهم وفاجرهم، مُتَّقيهم وعاصيهم، وهو - سبحانه وتعالى - بصير بمن يستحق أن يكون من المتقين، وبصير بمن يستحق أن يكون من العاصين، المعصية بحكمته وعدله، والطاعة برحمته وفضله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أهمية هذا النبأ، وذلك من وجهين:

الأول: تصديره بـ ﴿قُلْ﴾، فهو أمر بتبليغه على وجه الخصوص، وهذا يدل على العناية به، وإلَّا فكل القرآن قد أُمِر النبي ﷺ أن يقوله للأمة.

والثاني: إتيانه بصيغة الاستفهام الدالة على التشويق.

٢ - أن النبي ﷺ عبدٌ يؤمر ويُنهى؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ وليس له حقٌّ في الربوبية أبدًا، فهو لا يحيي ولا يميت، ولا يرزق ولا يدفع الضر عن نفسه ولا عن غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

٣ - عناية الله - سبحانه وتعالى - بخلقه؛ فإنه لما ذكر ما زُيِّن لهم من الشهوات في الأمور السبعة، أمر الله رسوله ﷺ أن ينبئهم بما هو خير من ذلك.

٤ - حسن أسلوب التعليم والدعوة، وأنه ينبغي للإنسان في مقام الدعوة أن يأتي بالألفاظ التي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (١٨٣).

توجب الانتباه؛ لأن الإنسان إذا قيل له: إلَّا أنبئك بكذا وكذا، سوف يتشوق وينتبه، بخلاف ما لو جاء الكلام مرسلًا.

٥ - جواز المفاضلة بين شيئين بينهما فرق عظيم؛ لقوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ ومعلوم أن كل ما ذكر من الشهوات السبع لا يساوي شيئًا أبدًا بالنسبة لثواب الآخرة.

ومن ذلك قول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «المَوْضِع سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، وفي مقام موافقة الخصم بدعواه قال الله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

٦- أن هذا الخير الذي شوَّق الله العباد إليه ثابت للمتقين؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي ذلك الحث على تقوى الله.

٧ - أن هذا الخير لهؤلاء المؤمنين في أكرم جوار، وهو جوار رب العالمين؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾.

٨ - عظم هذه الجنات لكونها عند الله بجواره - سبحانه وتعالى -.

٩ - عناية الله - سبحانه وتعالى - بهؤلاء القوم، حيث أضافهم إليه بالربوبية الخاصة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

١٠ - أن هؤلاء المتقين يتنعمون في ثواب الله بكل أنواع النعيم، بالأكل والشرب والنكاح، وهذه أصول لذائذ البدن.

١١ - فضيلة الأزواج في الجنة بكونهن مطهرات حسًّا ومعنى.

١٢ - أن تمام نعيم هؤلاء برضوان الله؛ لقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقد بيّن الله سبحانه في سورة التوبة أن هذا الرضوان أكبر النعيم فقال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

١٣ - إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته؛ متى وجد سبب الرضا وجد الرضا، وكل صفة تكون معلقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية.

١٤ - إحاطة الله - سبحانه وتعالى - بالعباد علمًا ورؤية؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

١٥ - بيان حكمة الله - عزَّ وجلَّ -؛ حيث قسَّم الناس قسمين: متقين وعصاة، أخذًا من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، بعد قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

١٦ - أن الله - سبحانه وتعالى - حكيم؛ حيث جعل التقوى في أهلها؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فمن بصره بعباده أن جعل هؤلاء متقين والآخرين عصاة، وهؤلاء ثوابهم الجنة،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

وأولئك ثوابهم النار.

١٧ - أن كل الخلق عباد لله، المتقي منهم وغير المتقي؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، بعد قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾.

١٨ - التحذير من مخالفة أمره؛ لأنه متى علم الإنسان أن الله بصير به، فسوف يردع نفسه عن مخالفة ربه؛ لأنه إذا خالف ربه فالله بصير به، وسوف يجازيه بحسب مخالفته.

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦ - ١٧]

التفسير

قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾: هذا بيان للذين اتقوا ربهم، لا للعباد؛ لأن العباد كلُّهم لا يتصفون بهذه الصفات، لكن المتقين منهم هم الذين يتصفون بهذه الصفات.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يريد بذلك القول باللسان والاعتقاد بالجنان؛ لأن الله تعالى إذا أطلق القول بالإيمان ولم يتعقبه، كان المراد به القول باللسان، والعقد بالجنان.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]. لما كان المراد بهذا القول، القول باللسان فقط، قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. أما إذا أطلق الله قول اللسان ﴿آمَنتُ﴾ فإنه يريد به القول باللسان والعقد بالجنان؛ ولهذا قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، فلا يريد منا أن نقول ذلك بألسنتنا فقط، بل بألسنتنا وقلوبنا.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ توسلوا إلى الله بربوبيته، للإخبار بحالهم في الإيمان به، كأنهم يقولون: ربنا آمنا، ولكننا لم نصل إلى الإيمان إلَّا بربوبيتك لنا، تلك الربوبية الخاصة المقتضية للعناية التامة.

وقوله: ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ مؤكد بـ (إنَّ) وقد سأل جبريل النبي ﷺ: ما الإيمان؟

قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وقال الله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فالإيمان هنا يشمل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، وهو ستة أنواع: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

والإيمان ليس هو مجرد التصديق؛ ولهذا يقال: (آمنا به) ويقال: (آمنا له) وبينهما فرق، والإيمان لابد أن يكون مقرونًا بقبول وإذعان؛ أي: يصدق، ثم يُقبل، ثم يذعن، فهذا هو الإيمان، ولهذا يقال: (آمنت به) ولا يقال: (آمنته).

ولو كان الإيمان مرادفًا للتصديق لصحَّ أن يقال: (آمنته) كما يقال: (صدقته).

ولهذا كلنا يعلم أن أبا طالب مصدق لرسول الله ﷺ، ويرى أن ما أخبر به مثل الشمس، حتى إنه يقر بذلك في قصائده ويقول:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارَ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

إذن هو مصدق، لكن لم يكن تصديقه هذا متضمنًا للقبول والإذعان، فلم يقبل منه.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الفاء هنا للسببية، أي: بسبب إيماننا فاغفر لنا؛ لأن الإيمان لا شك أنه وسيلة للمغفرة، وكلما قوي الإيمان قويت أسباب المغفرة، حتى إنه إذا أخلص الإنسان إيمانه صارت حسناته تُذْهِب سيئاته، ولهذا قال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: بسبب الإيمان اغفر لنا، وهذا من باب التوسل بالطاعة لقبول الدعاء.

وقوله: (اغفر): فعل دعاء وليس فعل أمر؛ لأن العبد لا يأمر الله لكنه يدعوه، إذن كل فعل بصيغة الأمر موجَّه إلى الله، يسمى فعل دعاء، ولا يسمى فعل أمر.

والمغفرة: مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية، ومنه (المِغْفَر) الذي يلبسه المقاتل في رأسه ليستر الرأس ويقيه السهام، فليست المغفرة مجرد الستر، بل هي ستر ووقاية، ولهذا نقول: مغفرة الذنوب سترها عن الناس، والعفو عن عقوباتها.

ويدل لهذا أن الله - سبحانه وتعالى - يخلو يوم القيامة بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه؛ يقول: عملت كذا، وعملت كذا وكذا، وعملت كذا حتى يقرَّ، فيقول الله - عزَّ وجلَّ -: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[1]. يعني: لا أجازيك عليها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

ويقال: إن بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا أذنب ذنبًا أصبح وذنبه مكتوب على بابه - والعياذ بالله - فضيحة.

أما هذه الأمة فستر الله عليها - ولله الحمد -، ولكن فتح لها أبواب التوبة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

والله - عزَّ وجلَّ - يمهل الإنسان ويحلم عليه، وإذا وفق اتعظ من نفسه بنفسه؛ فيستحي من الله - عزَّ وجلَّ -، ويخشى أن يفضحه الله؛ لأن الإنسان إذا تجرأ على ربِّه في السر، فربما يفضحه في العلانية إذا لم يتب إلى الله - عزَّ وجلَّ -، فإن تاب تاب الله عليه، وأبدل سيئاته حسنات.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الذنوب: هي المعاصي، وهي إما كبائر، وإما دون ذلك وهي الصغائر، وكلها تحتاج إلى مغفرة.

والصغائر إما أن تُكفَّر بالحسنات أو بالتوبة؛ فإذا كُفِّرت بالحسنات فإنها تُمحى فقط، ولا تبدل بحسنات، وإذا كُفرت بتوبة أُبدلَت بحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: من الوقاية، والمراد: قنا العذاب عند استحقاقنا له، وقنا العذاب حتى لا نعمل العمل الذي يوصلنا إلى العذاب، ثم هؤلاء إذا هم عملوا عمل أهل النار، فالله تعالى يقيهم ذلك بأمور متعددة.

وقد ذكر العلماء أسباب مغفرة الذنب فبلغت نحو عشرة أسباب؛ منها: أن يوفَّق الإنسان للتوبة، فإن تاب الإنسان من الذنب، وقاه الله تعالى عقاب ذلك الذنب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].

ومنها الأعمال الصالحة، والصدقة، ودعاء المؤمنين، ومشيئة الله - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نعت لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:١٥].

والصابر: اسم فاعل من الصبر، وهو في الأصل: الحبس، والمراد به شرعًا: حبس النفس عن محارم الله، وأنواعه ثلاثة:

١ - صبر على طاعة الله - عزَّ وجلَّ -.

٢ - صبر عن معصية الله.

٣ - صبر على أقدار الله المؤلمة.

أما الصبر على الطاعة: فإن الإنسان يجد منه معاناة عظيمة عندما يهمُّ بالطاعة؛ لأنه يجد نفسه الأمَّارة بالسوء والشيطان يحاولان أن يصداه عن طاعة الله، حتى إذا أعانه الله على ذلك تغلب على هذين العدوين، وفعل ما أمر الله به.

وأما الصبر عن المعصية: لاسيما مع قوة الداعي لها، وعدم المعارض؛ فإنه لا ينجو منها إِلَّا من عصمه الله؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في جملة من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إِلَّا ظله قال: «رَجُلٌ دَعَتْهُ اِمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِي أَخَافُ اللهَ»[1].

ومن ذلك صبر يوسف - عليه الصلاة والسلام -، عندما دعته امرأة العزيز، وهي سيدته، لكنه - عليه الصلاة والسلام - رأى برهان ربه، فعصمه الله - عزَّ وجلَّ -.

ومن ذلك الرجل الإسرائيلي الذي كان يراود ابنة عمه عن نفسها، وتأبى عليه.

فلما أَلَمَّت بها سَنَةٌ جاءت إليه، ومكَّنته من نفسها، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته، قالت له: «**اتق الله ولا تفض الخاتم إِلَّا بحقه، فقام عنها وهي أحب الناس إليه، لكن لما ذكرته بالله - عزَّ وجلَّ - اتقى الله**»[2].

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة: وهذا كثير، ومن ذلك صبر أيوب - عليه الصلاة والسلام -، فإنه صبر صبرًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] ومن ذلك أيضًا: الصبر على أقدار الله المؤلمة المترتبة على طاعة الله، كصبر الرسل على أذية الناس من أجل الدعوة إلى الله؟

فهؤلاء صبروا على الأقدار المؤلمة المترتبة على فعل اختياري منهم وهو طاعة الله بتبليغ رسالته.

ونضرب مثلًا بصبر سيد الخلق - عليه الصلاة والسلام -، مع الحلم والأناة والعفو والتسامح، كما حصل له مع أهل الطائف[3]، وقبل ذلك مع أهل مكة؛ فقد كان ذات يوم - عليه الصلاة والسلام - يصلي حول الكعبة في آمَنِ مكانٍ على وجه الأرض، ساجدًا لله - عزَّ وجلَّ -، فجاءه سفهاء قومه، فوضعوا سلا جزور على ظهره ﷺ وهو ساجد، حتى جاءته ابنته فاطمة رضي الله عنها فأزالت الأذى عن ظهره[4]. ومع ذلك صبر وصابر، ولم يخرج من مكة إِلَّا بعد أن أذن الله له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الصدق: هو المطابقة للواقع، والصادق هو الذي يكون خبره مطابقًا للواقع. والكاذب خلاف ذلك.

والصدق: يكون بالقول ويكون بالفعل، ويكون مع الله ويكون مع عباد الله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠) وفي غير موضع صحيحه، ومسلم (١٠٣١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢١٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤).

أما الصدق بالقول: فهو مطابقة القول للواقع؛ فإذا قيل لك: جاء زيد، وكان قد جاء، فهو مطابق للواقع، فيكون صدقًا.

والصدق من صفات المؤمنين، والكذب من صفات المنافقين، وقد حثَّ النبي - عليه الصلاة والسلام - على الصدق، وقال: «عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»[1].

والصديقية مرتبة تلي مرتبة النبوة، فهي في المرتبة الثانية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

وأما صدق الفعل: فهو إلَّا يظهر خلاف الباطن، فمن يُظهر لك المودة وقلبه يبغضك، أو يُظهر أنه مؤمن ويصلي ويتصدق ويحضر مجالس العلم، لكن قلبه منطوٍ على الكفر - والعياذ بالله - فهذا كاذب كذبًا فعليًّا، حيث أظهر خلاف ما يبطن.

فالأول كاذب مع عباد الله.

والثاني كاذب مع الله.

والحاصل: أنَّ الصدق خُلُقٌ عظيم، لا يناله إلَّا من وفَّقه الله ممن أنعم الله عليهم، ولا يزال الرجل يَصْدُق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾:

القانتون: اسم فاعل من القنوت، والقنوت يطلق على عدة معان، وأنسبها لهذه الآية أن المراد بالقنوت: دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع لله - عزَّ وجلَّ -، بحيث يكون الإنسان مديمًا لطاعة الله مقبلًا على الله - سبحانه وتعالى - في طاعته.

قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: خاشعين، ولهذا لما نزلت هذه الآية أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام.

وقوله: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾:

المنفقون من أنفق أي: بذل النفقة، والنفقة هي إخراج المال، وبيّن - سبحانه وتعالى - في آياتٍ أخرى الميزان للإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فلا يكون الإنسان مقترًا ولا مسرفًا، وهذا الميزان يختلف

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

باختلاف الأحوال والأزمان والبلدان، فقد يكون الإنفاق إسرافًا بالنسبة لشخصٍ وليس بإسراف بالنسبة لآخر.

فإنفاق الفقير ليس كإنفاق الغني، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧].

وأما مَنِ الذين يُنفَقُ فيهم؟ فبيّنه الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥]، فجهات الإنفاق كل جهة محتاجة، أو يحتاج المسلمون إليها، فالإنفاق في سبيل الله لحاجة المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الله - عزَّ وجلَّ - وحفظ لشريعته، والإنفاق على الفقير لحاجة الفقير، وليس لحاجة المسلمين.

وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾:

المستغفرون: هم السائلون لمغفرة الله، والمغفرة، هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الباء: هنا للظرفية، أي: فيها، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، أي: يسألون المغفرة في هذا الوقت من الزمن في آخر الليل؛ لأنه وقت نزول الله - عزَّ وجلَّ - إلى السماء الدنيا، فإن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يتبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[1].

ولأنه وقت فراغهم من التهجد، والإنسان مطلوب منه إذا فرغ من العبادة أن يستغفر الله، ولهذا يشرع لنا أن نستغفر الله تعالى ثلاثًا بعد الصلاة[2].

وأمر الله - سبحانه وتعالى - أن نستغفر في الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩]، وسؤال المغفرة بعد الانتهاء من العبادة فيه كمال الذل لله - عزَّ وجلَّ -، وأن الإنسان لا يعجب بعمله بل يخشى من التقصير فيه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن من صفات المتقين إعلانهم الإيمان بالله، واعترافهم بالعبودية؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، والقول هنا يكون باللسان ويكون بالقلب.

٢ - أن من صفات المتقين عدم الإعجاب بالنفس، وأنهم يرون أنهم مقصرون لطلبهم المغفرة من الله؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٩١)، والترمذي (٣٠٠)، وأبو داود (١٥١٢)، وابن ماجه (٩٢٨).

٣ ـ أن التقوى لا تعصم العبد من الذنوب، بل قد يكون له ذنوب، لكن المتقي يبادر بالتوبة إلى الله - عزَّ وجلَّ -.

٤ ـ جواز التوسل بالإيمان؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فإن الفاء هنا للسببية، تدل على أن ما بعدها مسبب عما قبلها.

٥ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله المغفرة والوقاية من النار؛ لقوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وسؤال المغفرة يُغني عن سؤال الوقاية من النار، إلَّا أنه في باب الدعاء ينبغي البسط لأربعة أسباب:

السبب الأول: أن يستحضر الإنسان جميع ما يدعو به بأنواعه.

السبب الثاني: أن الدعاء مخاطبة لله - عزَّ وجلَّ -، وكلما تبسط الإنسان مع الله في المخاطبة كان ذلك أشوق وأحبّ إليه مما لو دعا على سبيل الاختصار.

السبب الثالث: أنه كلما ازداد دعاءً، ازداد قربه إلى الله عزَّ وجل.

السبب الرابع: أنه كلما ازداد دعاء، كان فيه إظهار لافتقار الإنسان إلى ربِّه؛ ولهذا جاء: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجُلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»[1]، وهذا يُغني عنه قوله: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي»، بل لو قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» لكان صحيحًا لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط.

٦ ـ إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وعذاب النار إما دائم مستمر، وهذا لأصحاب النار الذين هم أصحابها، وإما مؤقت، وهذا لأصحاب المعاصي؛ فإنهم يعذبون بحسب معاصيهم، إذا لم يغفر الله لهم.

٧ ـ فضيلة هذه الصفات التي أثنى الله عليها، وهي: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار في الأسحار، والحثُّ على الاتصاف بها.

٨ ـ أن الصبر أفضل هذه الصفات؛ لأن الإنسان إذا حقق الصبر حقق جميع هذه الصفات؛ لأن من أقسام الصبر: الصبر على طاعة الله وعن معصيته.

٩ ـ ذمُّ الاتصاف بضدِّ هذه الصفات، وهي: الجزع، والكذب، وقلة الطاعة، والبخل والشح، والاستكبار عن الاستغفار.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٣)، و أبو داود (٨٧٨).

قال الله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:١٨]

التفسير

قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾:

الشهادة قد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل.

وشهادة الله - سبحانه وتعالى - لنفسه بانفراده بالألوهية هنا، كشهادته لرسوله ﷺ بأنه أنزل عليه الكتاب بقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء:١٦٦]؛ فقد شهد - عزَّ وجلَّ - هو وملائكته لنفسه بالوحدانية، ولنبيه ﷺ بالرسالة، والشهادة في الموضعين قولية.

وأما الشهادة الفعلية ففيما يظهره الله - سبحانه وتعالى - من آياته؛ فكل الكائنات تشهد لله - عزَّ وجلَّ - بالواحدانية بلسان الحال، وكذلك تأييده لنبيه ﷺ بالنصر، وجعل العاقبة له، هو شهادة له بأنه رسول الله حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

أي: لا معبود حق إِلَّا الله، فكل ما عُبد من دون الله فهو باطل، وإن سُمي إلهًا؛ فإن ألوهيته مجرد تسمية.

كما قال الله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [يوسف:٤٠]، فلا معبود حق إِلَّا الله.

وأما المعبود باطلًا فهو موجود؛ كما سمَّى الله تعالى الأصنام آلهة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [يس:٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود:١٠١]، وقال: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوفة على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ أي: وشهدت الملائكة أنه لا إله إِلَّا الله.

وقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾:

أصحاب العلم الذين رزقهم الله - سبحانه وتعالى - العلم، يشهدون أيضًا أنه لا إله إِلَّا الله.

والمراد بالعلم: العلم بالله - عزَّ وجلَّ -.

وقوله تعالى: ﴿قَآبِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: ﴿قَآبِمَۢا﴾: حال من لفظ الجلالة، أي: حال كونه قائمًا بالقسط، أي بالعدل.

وذلك في أحكامه التكليفية، وأحكامه القضائية والجزائية، فليس فيها جور، وتتضمن الفضل والعفو والإحسان.

ولهذا قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، هذا أمر زائد على العدل.

ومن ذلك أنه يجزي الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها أو يعفو، إلَّا من كان كافرًا فليس أهلًا للعفو، فلا يعفى عنه.

والله - سبحانه وتعالى - يقتص للمظلوم من الظالم، إما بإجابة دعوة المظلوم إن دعا على ظالمه في الدنيا، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لمعاذ بن جبل، وقد بعثه إلى اليمن: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[1].

وإما بالأخذ من حسناته يوم القيامة.

كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ تَعِدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُم؟» قالوا: من لا درهم عنده ولا متاع، أو قالوا: ولا دينار. قال: «الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِلَّا أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِم فَطُرِحَ عَلَيه وَطُرِحَ فِي النَّار»[2].

فلابد من العدل بين العباد. ولهذا قال العلماء - رحمهم الله -: إن الحقوق التي بين العباد من الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا، فلابد أن يقتص للمظلوم من الظالم.

فإن قال قائل: إنَّ الناس يصابون بالنكبات من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ إلَّا يكون هذا ظلمًا؟

فالجواب: كلا، ليس بظلم؛ لأن هذا بما كسبت أيدي الناس، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إذن فهذه المصائب فضل؛ لأن المقصود بها تأديب الخلق وردعهم حتى يرجعوا إلى الله - عزَّ وجلَّ -، فليس هذا من باب الظلم في شيء، بل هو من باب الجزاء بالعمل لغاية حميدة، وهي رجوع الناس عن ظلمهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، والترمذي (٢٤١٨).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل:٦١].

وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

هذا حكم بعد الشهادة: فشهد الله لنفسه أنه لا إله إِلَّا هو، وحكم لنفسه أيضًا بأنْ لا إله إِلَّا هو، فاجتمع في كلامه - عزَّ وجلَّ - الشهادة والحكم، فكان شاهدًا لنفسه، حاكمًا لها بالألوهية؛ لأن المعروف في المحاكمات والمرافعات أن تؤدى الشهادة أولًا، ثم يأتي الحكم.

فالله تعالى شهد أولًا، وأخبر بمن شهد معه، ثم حكم ثانيًا.

والمتكلمون يفسرون هذه الجملة العظيمة بأن المراد بها القادر على الاختراع، ففسروها بما يقر به المشركون، ولم يكونوا موحدين.

فالمشركون يقرون بأن الله هو القادر على كل شيء، وأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر، ومع ذلك هم مشركون قاتلهم الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنهم لم يحققوا معنى (لا إله إِلَّا الله).

وأنت إذا قرأت كتب هؤلاء المتكلمين وجدت كلامهم في الألوهية يدور على تحقيق الربوبية فقط، وهذا نقص عظيم، ومن مات على ذلك دون أن يؤمن بأنه لا معبود حق إِلَّا الله، فإنه لم يمت على التوحيد.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي ذو العزة، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مأخوذ من الحكم ومن الإحكام، فهو ذو الحكم وذو الإحكام، وسبق الكلام عليهما مفصلًا في أول السورة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان فضيلة التوحيد؛ حيث أخبر الله به عباده بلفظ الشهادة.

٢ - فضيلة الملائكة؛ حيث جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعده - سبحانه وتعالى -.

٣ - فضيلة العلم وأهله؛ لقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾.

٤ - تأكيد الشيء الهام، وإن كان المخبِر به من أهل الصدق، حيث صدر الله تعالى وحدانيته بالشهادة، وبيّن أن هذه الشهادة ليست له وحده بل له وللملائكة ولأولي العلم.

٥ - وصف الله تعالى بتمام العدل؛ لقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

٦ - أن الله - عزَّ وجلَّ - لما شهد لنفسه بانفراده بالألوهية، أكد ذلك بالحكم به لنفسه، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ - انفراد الله - سبحانه وتعالى - بالألوهية؛ فيتفرع على ذلك أن من أشرك مع الله أحدًا في

العبادة، فَعَبَدَه كما يعبد الله فإنه مشرك، وعمله مناف للتوحيد.

٨ ـ إثبات العزة والحكمة لله؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وأن عزة الله مبنية على الحكمة، وتنزيل الأشياء في منازلها، وهذا مأخوذ من ضم الاسمين الكريمين بعضهما إلى بعض؛ لأن العزيز من المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقول الحق، أما الله - عزَّ وجلَّ - فإنه يقول الحق مع كمال عزته.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩]

التفسير

﴿إِنَّ﴾ فيها قراءتان: القراءة الأولى: فتح الهمزة، والثانية: كسر الهمزة؛ فعلى قراءة فتح الهمزة تكون عطف بيان؛ لقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨]، أي: وشهد أنه لا إله إلَّا هو، وأن الدين عند الله الإسلام.

و﴿ٱلدِّينَ﴾: يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، أي: لكم عملكم ولي عملي، وكما في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، ويراد به الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

والمراد به في هذه الآية: العمل، أي: إن الدين الذي هو عبادة الله والعمل له، هو الإسلام.

و﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: مصدر أسلم يسلم.

والإسلام: هو التعبد لله تعالى بما شرع، حال قيام الشريعة.

وهذا الإسلام بالمعنى العام.

أما الإسلام بالمعنى الخاص ـ وهو المراد هنا ـ فهو التعبد لله بشرع محمد ﷺ.

والدليل على هذا التقسيم من القرآن أنَّ الله تعالى وصف إبراهيم بأنه كان حنيفًا مسلمًا.

وقال عن ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وقال يعقوب لبنيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]. وقال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤]. والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا لو سألنا سائل: هل ا ليهود والنصارى مسلمون؟

فنقول: أمَّا بالمعنى العام فهم مسلمون، أي: أنه لما كانت شريعة التوراة قائمة، وكانوا يتبعونها، فهم مسلمون بلا شك.

وأما بالمعنى الخاص الذي لا يراد سواه بعد بعثة محمد - عليه الصلاة والسلام -، فليسوا بمسلمين، بل هم كفار بمحمد ﷺ.

وهنا ننبِّه أن كثيرًا من الكُتَّاب اليوم إذا تكلموا عن اليهودية والنصرانية والإسلام، يقولون: هذه الأديان السماوية.

فيظن السامع أن دين اليهود قائم، وأن دين النصارى قائم، كقيام دين الإسلام.

وهذا لا يصح، فإن هذه الأديان أديان سماوية بلا شك، لكنها حُرِّفت، وبُدِّلت، وغُيِّرت ونُسخت ببعثة محمد ﷺ، فليست دينًا يرتضيه الله اليوم، بل المتمسكون بها كفار، لا يعدون من المسلمين.

وربما توهم بعض العامة أن اختلاف هذه الأديان كاختلاف المذاهب الإسلامية، أي: كاختلاف مذهب الشافعي، ومالك، والإمام أحمد، وأبي حنيفة، وهذا خطأ عظيم؛ لأنه من زعم أن هناك دينًا قائمًا بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهو كافر، فإن دينه نسخ جميع الأديان، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

والمُراد بالإسلام هنا: الدين كله بجميع شرائعه الظاهرة والباطنة، فليس قَسِيم الإيمان المذكور في حديث جبريل - عليه السلام -[1]، بل المراد به: ما يعمُّ جميع شرائع الإسلام فالصلاة من الإسلام، والزكاة من الإسلام، والتوكل على الله من الإسلام، والخوف منه من الإسلام، وهكذا جميع شرائع الدين من الإسلام. وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أي: إن المرجع في كون هذا الشيء دينًا أو غير دين، هو الله - عزَّ وجلَّ -.

وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾:

أي: إن الإسلام قد اتفقت عليه الأمة، ولم تختلف فيه، لكن الأمم السابقة جرى منهم الاختلاف، ومع ذلك لم يختلفوا إِلَّا من بعد ما جاءهم العلم، وعلموا الحق لكنهم اختلفوا فيه بغيًا وعدوانًا، كل واحد منهم يبغي على الآخر؛ كل واحد منهم يقول: إن دينك باطل، فتفرَّقوا وتمزَّقوا.

وهذا كما وُجِد في الأمم السابقة، وُجِدَ في هذه الأمة؛ نجد بعض العلماء يخالف الآخرين، ثم يجعل من هذا الخلاف خلاف قَلْبٍ؛ فتتنافر القلوب وتتشتت، فمن كان على ذلك ففيه شبه من

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العلم بالشريعة، فبعد أن عرفوا الشريعة وفهموها تنازعوا فيها.

وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: أن الحامل لهم على هذا الاختلاف هو البغي، حيث إن بعضهم يبغي على بعض؛ ولهذا جرى بين اليهود وبين النصارى من الحروب ما هو معلوم.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾: الجملة هذه شرطية.

فعل الشرط: يكفر،وجوابه جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وارتبطت جملة الجواب بالفاء لأنها جملة اسمية، كما قيل:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّنْفِيسِ

والكفر بآيات الله يدور على أمرين: الجحد والتكذيب، والاستكبار والعناد.

فالجحد والتكذيب: كما فعل المشركون مع النبي ﷺ، وكما فعل أعداء الرسل من قبل.

والاستكبار والعناد: بحيث يعلم الحق ثم يستكبر عنه ويعاند، كما هو كفر إبليس، وبين الكفرين تلازم، فإن المكذب مستكبر، والمستكبر وإن لم يكذب بلسانه، فهو مكذب بعمله؛ لأنه لم يَنْقَدِ لأمر الله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآيات نوعان: كونية، وشرعية.

فالكفر بالآيات الكونية: أن ينكر أن الله - عزَّ وجلَّ - هو الذي خلقها، أو أن يعتقد بأن لله تعالى شريكًا فيها، أو أن يعتقد بأن لله تعالى معينًا فيها.

كل هذا كفر بالآيات الكونية، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

فنفى الله في الآية ثلاثة أشياء:

١ - لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض على سبيل الاستقلال.

٢ - ما لهم فيهما من شرك على سبيل المشاركة.

٣ - ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من معين.

ثم قال في الرابع: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، لكمال سلطانه، لا أحد يشفع إِلَّا من أذن الله له.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

وهذه الجملة خبرية يقصد بها التهديد، أي: سيحاسبه، وهو سريع الحساب - عزَّ وجلَّ -.

والسرعة في الزمن والتقرير.

أما في الزمن: فإن الدنيا مهما طالت فهي سريعة الزوال، وكذلك أيضًا سريع الحساب يوم القيامة فإن الله تعالى يفرغ من الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، والقيلولة تكون في نصف النهار.

وهذه سرعة الحساب. وقد سأل أبو رزين العقيلي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يحاسبنا الله في يوم القيامة وهو واحد ونحن جميع - الجماعة الكثيرة -؟، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ - أَوْ أُنَبِّئُكَ - عَلَى شَيْءٍ مِنْ آلَاءِ اللهِ؟» - أي تستدل به على إمكان ذلك -، قال: بلى، قال: «هَذَا الْقَمَرُ وَاحِدٌ، وَالَّذِي يُشَاهِدُهُ كُلُّ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»(١).

أما السرعة في التقرير في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

الحساب: أن يحاسب الإنسان ويناقش، لكن لكلِّ صفة، فالمؤمن لا يناقشة الله - عزَّ وجلَّ -، ولكنه - سبحانه وتعالى - يقرره بذنوبه، ويقول: عملت كذا في يوم كذا فيقر(٢).

وأما حساب الكفار: يحاسبون فيقفون على أعمالهم، ويخزون بها - والعياذ بالله -، ويقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أنَّ الدين الذي يُعتد به، ويكون مقبولًا عند الله هو الإسلام، وكل دين يخالف الإسلام في أي زمان فليس بمقبول ولا مرضي عند الله.

والإسلام بعد بعثة الرسول ﷺ هو ما جاء به الرسول، وعلى هذا فدين اليهودية والنصرانية دين باطل غير مقبول عند الله، وقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه: «مَا مِنْ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - أي: أمة الدعوة - يسمع به - أي: بالرسول ﷺ - ثُمَّ لَا يَتَّبِعُ مَا جَاءَ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(٣)، فمن ادعى أن دين اليهودية أو النصرانية أو غيرهما من الأديان مقبول عند الله الآن فهو كافر؛ لأنه مكذب بالقرآن: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

٢ - بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا تكلَّموا عن الديانات، قرَنُوا بين دين الإسلام، واليهودية، والنصرانية، وقالوا: هذه هي الأديان السماوية؛ حتى إن الجاهل ليظن أن اختلاف

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

الأديان الثلاثة كاختلاف المذاهب الفقهية في الأمة الإسلامية.

وهذا ضلال عظيم ومداهنة لليهود والنصارى، بل نقول: إن الأديان السماوية، اليهودية والنصرانية، كانت أديانًا مقبولة عند الله.

أما الآن فقد نسخها الله - عزَّ وجلَّ -، وصار الدين السماويُّ المقبول الذي لا يمكن أن يشركه دين آخر، هو ما جاء به محمد ﷺ.

٣ ـ أن اختلاف اليهود والنصارى كان عن علم، وبعد أن جاءهم العلم اختلفوا، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

٤ ـ أن اختلاف هؤلاء ليس لقصد الحق، بل لقصد البغي والعدوان، بعضهم على بعض، حتى يضلل بعضهم بعضًا، بل ويُكَفِّرُ بعضهم بعضًا.

٥ ـ الإشارة إلى التحذير مِمَّا وقع فيه هؤلاء الكفار الذين أوتوا الكتاب.

ووجه ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، والبغي معلوم أنه مُحَذَّرٌ منه، غير مرغوب فيه.

٦ ـ الإشارة إلى أنه يجب على الإنسان إذا خالفه غيره، إلَّا يتطاول عليه، وألَّا يقصد بسوق الأدلة المؤيدة لقوله البغي على غيره، والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق، لينتفع هو وينفع غيره.

أما أن يأتي بالأدلة من أجل أن يعلو على أخيه، ويكون قوله هو الأعلى، فهذا خطأ عظيم.

٧ ـ التحذير من الكفر بآيات الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

٨ ـ أنه إذا كان التحذير من الكفر بآيات الله؛ فعلى العكس من ذلك الحثُّ على الإيمان بآيات الله؛ لأنَّ القدح في الشيء مدح لضدِّه.

٩ ـ بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ - بكونه سريع الحساب.

١٠ ـ أنه لابد أن يحاسب الإنسان على عمله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

والحكمة تقتضي ذلك، وإلَّا فما الفائدة أن تُخلَق هذه الخليقة العظيمة، وتُنَزَّل عليها الكتبُ، وتُرسل إليها الرسلُ، وتُؤْمَرُ وتُنْهَى، ثم في النهاية ينتهون إلى تراب!!

١١ ـ بيان أنه ينبغي للعاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب.

كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا.

فكون الإنسان يحاسب نفسه ليصلح ما عساه فسد، أولى من سكوته وإهماله وعدم حساب نفسه؛ لأن الذنوب تتراكم عليه ثم يهلك.

١٢ - أيضًا يُستفاد من الآية الرد على الجبرية.

ووجه ذلك: أن الله - عزَّ وجلَّ - أسند هذه الأفعال على فاعليها: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وما أشبه ذلك.

كل ذلك يفيد أن للإنسان إرادة وفعلًا اختياريًا، خلافًا للجبرية الذين قالوا: إن أفعال العباد يُجْبَرُ عليها الإنسان.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

❁ التفسير ❁

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: الخطاب للرسول ﷺ، والضمير في قوله: ﴿حَآجُّوكَ﴾ وهو الواو، قيل: لليهود، وقيل: للنصارى؛ لأن الآيات التي نزلت في أول سورة آل عمران كلها في النصارى، وقيل: للمشركين؛ لأنهم كانوا يحاجون الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، ويقولون: يا محمد، إنك تزعم أن الذي يدعو أحدًا غير الله يكون هو ومن يدعوه في النار، إذن عيسى في النار؛ لأنه يعبد من دون الله، فأنزل الله تعالى بعد الآية مباشرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢].

والمهم: أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يقول: إن حاجُّوك فقل لهم قولًا تخلص به منهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، وإذا أسلم الإنسان وجهه لله، قبل كل ما يخبر الله به، وامتثل كل ما يأمر به، وانتهى عن كل ما نهى عنه؛ فهو مُسلِّم وجهه لله.

والمراد بالوجه هنا: ليس الوجه الذي هو الجارحة التي في الرأس، وَإِنَّمَا المراد: القصد، ووجهة القلب، كما قيل:

رَبُّ العِبَادِ إِلَيْهِ الوَجْهُ وَالعَمَلُ

وربما نقول: إنه يشمل هذا وهذا؛ لأن الإنسان يسلم وجهه لله، فتجده يضع وجهه الذي هو أشرف أعضائه على التراب ذلًا لله، واستسلامًا له.

وإذا قلت: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ يترتب عليه تصديق خبر الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فهذه طريقتي، وأمرت أن أبلغكم، وقد بلغتكم، وليس عليَّ أكثر من ذلك: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وبهذا نعرف وجه مطابقة الجواب للشرط، وإلَّا فإن الإنسان قد يتوقع جوابًا غير هذا.

كأنْ يقال مثلًا: فإن حاجوك فحاججهم.

وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾: (من) معطوفة على الضمير في (أسلمت)، ولا يجوز أن تكون معطوفة على لفظ الجلالة؛ لأن الرسول لا يسلم وجهه لمن اتبعه، وإنما يسلم وجهه لله.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، فإن بعض المعربين قالوا: إن (مَنْ) معطوفة على لفظ الجلالة أي: حسبك الله وحسبك من اتَّبَعَكَ من المؤمنين، وهذا غلط؛ لأن النبي ﷺ حسبه الله وحده، وحسب من اتبعه من المؤمنين.

وكأنَّ الذين قالوا: إن «من اتبعك من المؤمنين» معطوف على (الله) استندوا إلى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، وبينهما فرق عظيم؛ لأن ﴿أَيَّدَكَ﴾ أسند التأييد إلى الله، فالمؤيِّدُ هو الله، وجعل النصر والمؤمنين وسيلة.

وقوله: ﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فيها قراءتان، بسكون الياء وفتحها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي: على ما جئتُ به، من العقيدة والقول والعمل؛ وعلامة المتبع للرسول - عليه الصلاة والسلام - حقًا، هو الذي إذا قيل له: قال رسول الله، صار كقول من يقال له: قال الله.

وإذا قيل له: فعل رسول الله، لم يعدل بفعله فعل أحد من الناس.

هذه حقيقة الاتِّبَاع. أما من قال شيئًا، أو فعل شيئًا، أو اعتقد شيئًا، ثم حاول أن يصرف كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - إليه، فهذا حقيقةً ليس بمتبع؛ لأنه لم يذعن لما جاء به الرسول، إنما اتبع هواه، ثم حاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يوافق هواه.

وهذه مسألة خطيرة، ومحنة عظيمة، أن تجعل الهدى تابعًا لهواك.

والواجب أن يكون الهوى تابعًا للهدى!! تتعجب إذا قرأت في بعض الأحيان في كتب العلماء الأجلَّاء في باب المناقشة، كيف يبنون الأدلة على ما يعتقدون من الأحكام أو من العقائد القلبية، ويحاولون أن يعطفوا هذه النصوص إلى ما يعتقدون؟!

وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾، هذا مما يدل على أن الواو في ﴿حَاجُّوكَ﴾ يشمل: اليهود، والنصارى، والمشركين: أي: وقل هل أنتم تفعلون مثل فعلي؟

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وهم العرب، وسُمُّوا أميين نسبة إلى الأم؛ لأن عامتهم جهال، إذ لم يأتهم رسول بعد إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -، ومنهم

من أخذ العلم ـ أي علم الرسالات الإلهية ـ عن النصارى مثل «ورقة بن نوفل».

قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ فيها قراءتان، آسلمتم، وأأسلمتم، أي: بتحقيق الهمزتين وإدخال ألف بينهما.

والاستفهام هنا يراد به الأمر، أي: قل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا، فهو مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٨] أي: فأسلموا.

وقيل: بل المراد أنه ينادي عليهم بالبلاهة، أي: أأسلمتم بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنكم بلهاء لم تفقهوا حتى الآن، ولم تسلموا مع ظهور المعنى ووضوحه، وهذا المعنى أبلغ من المعنى الأول.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾:

إن أسلموا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ فقد اهتدوا هداية التوفيق، وسلكوا طريق الهداية؛ لأن الهداية نوعان: هداية دلالة، وهذه شاملة لكل أحد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] لابد أن يهدي الله – سبحانه وتعالى – كل أمة.

وهداية التوفيق: وهذه خاصة بمن هُدِي بالإسلام في كل زمان ومكان بحسبه.

فمن اهتدى هداية التوفيق فهو محل المدح والثناء، وأما الأول: الذي اهتدى هداية الدلالة فمعناه علم الحق، فهذا إذا خالف الحق كان أشد ذمًّا ممن لم يعلم الحق.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾: أي استسلموا لله ظاهرًا وباطنًا.

أمَّا باطنًا: فالإيمان بما يجب الإيمان به، وهي الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ.

وظاهرًا: بعمل الجوارح، وهو الإسلام المبني على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾: اهتدوا هداية توفيق، كما قد هُدُوا هداية دلالة.

وقوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام فلم ينقادوا بظواهرهم ولا ببواطنهم، فقد أدّيتَ ما عليك، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾. وهذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ وهي تفيد الحصر، أي: ما عليك نحوهم إلَّا البلاغ، وقد بلَّغ البلاغ المبين – عليه الصلاة والسلام –، أمَّا الهداية فهي بيد الله – سبحانه وتعالى –، ولو كان بيد النبي ﷺ شيء من الهداية ـ هداية التوفيق ـ لكان أول من يهتدي على يديه عمه أبو طالب.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: بصير بهم: أي عليم بأحوالهم، وعليم بأهلية من يصلح للهداية ومن لا يصلح.

والبصر هنا: بصر الرؤية، وبصر العلم. فالله تعالى بصير بالعباد (بالرؤية)، لا يخفى عليه شيء منهم. و (بالعلم): لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

والعباد هنا: يشمل جميع الخلق؛ لأنه ما من أحد في السموات ولا في الأرض إلَّا آتي الرحمن عبدًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

فإذا كان الله بصيرًا بالعباد، وأنت قد أديت ما عليك من البلاغ فالحساب على الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية دليل على أن النبي ﷺ له من يحاجه من أعدائه، وهو كذلك فإنهم حاجُّوه في أصل الدين، وفي فروع الدين، وسَخِروا منه، وأوجدوا الشبهات الكثيرة.

٢ - أن هؤلاء الذين يحاجون الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يحتاجون إلى كبير عناء؛ لأنهم يحاجون على أمر واضح، ولهذا أمره الله أن يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، فإن أسلمتم فهو لكم، وإن لم تسلموا فعليكم.

ويتفرع على ذلك أنَّ من علمتَ أنه إنما يحاجك لقصد نصر قول، ولو كان باطلًا، فلك أن تعرض عنه؛ ولتقل: هذا ما أدين الله به، وهذا ما أستسلم له وتدعه؛ لأنه معاند مكابر، وليس أهلًا لأن تدخل معه في محاجَّةٍ أو خصومة.

٣ - أن أتْبَاعَ رسول الله ﷺ يحذون حذوه في إسلامهم لله، وتفويض الأمر إليه؛ لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾.

٤ - أن الوجه أشرف الأعضاء؛ وهو الذي يكون به الانقياد وعدمه؛ لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾. ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدًا؛ لأنه يضع أشرف أعضائه على موطئ الأقدام.

٥ - أن النبي ﷺ متبوع لا تابع؛ لقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾، ويتفرع على ذلك: أن الواجب على من تبين له الحق أن يأخذ به، إذا كان يريد أن يكون من أتباع الرسول ﷺ، أما من يلوي أعناق النصوص إلى قوله، فهذا ليس بمتبع حقيقة؛ لأن بعض الناس إذا قال قولًا، وجاء في النص القرآني أو النبوي ما يخالف قوله، حاول أن يلوي عنق النص، ويحرف النص من أجل أن يكون موافقًا لقوله، وهذا حرام؛ لأنك أنت تابع، ولست بمتبوع.

٦ - أنه لا يمكن أن يكون قول أحد من أهل العلم حجة على الآخرين؛ لأن الكل تابعون لا متبوعون.

٧ - النداء بالسفه والبلاهة على من جادل وعارض دون أن يستسلم لله؛ لقوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾، وإن جعلناها أمرًا فالأمر واضح.

٨ - بيان عظيم منة الله - عزَّ وجلَّ - على العرب ببعثة الرسول ﷺ، ووجه ذلك: أنه قال: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وفرق بين الوصفين، بين من أوتي الكتاب، وبين الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لكنهم ببعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - كانوا هم أهل الكتاب حقًّا؛ لأن هذا الكتاب الذي نزل على رسول الله ﷺ وصفه الله بأنه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

٩ - وجوب الإسلام لله سواء قلنا: إن الاستفهام للإنكار على هؤلاء، أو قلنا: إنه للأمر؛ فإنه يدل على وجوب الإسلام والاستسلام لله - عزَّ وجلَّ -.

١٠ - أن أهل الهدى المسلمون؛ لقوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

١١ - أن من لم يسلم فهو ضالٌّ؛ فإن كان قد علم بالحق كان من الضالين المغضوب عليهم؛ لأن كل من علم الحق ولم يتبعه فهو مغضوب عليه.

قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

١٢ - في هذه الجملة تحذير من تَوَلَّى بعد أن دعي؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

١٣ - أنه لا يجب على الداعية إلَّا البلاغ، أما الهداية فإلى الله، وهذا من قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

١٤ - وجوب البلاغ على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وكذا من آتاه الله علمًا بهذا الوحي وجب عليه البلاغ، خلفًا لرسول الله ﷺ.

١٥ - الإشارة إلى أن الإنسان لا يُسْأَلُ عن عمل غيره، فيقوم بما يجب عليه، وأمَّا غيره فأمره إلى الله؛ لقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، ولم يقل: فإنما عليك إثمهم.

وقد أشار النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى ذلك حين قال له قوم: يا رسول الله، إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال لهم: «سَمُّوا أَنْتُم وَكُلُوا»(١)، تنبيه إلى أنك إنما تطالب بفعلك، أما فعل غيرك فلست منه في شيء.

١٦ - عموم علم الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: بجميع أحوالهم: ويتضمن التحذير من مخالفة الله.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٠٧)، والنسائي (٤٤٣٦)، وأبو داود (٢٨٢٩)، وابن ماجه (٣١٧٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١]

❁ التفسير ❁

في هذه الآية قراءتان في كلمتين:

الأولى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيها قراءة: (النبيئين).

الثانية: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ فيها قراءة: ويقاتلون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: الآيات: جمع آية، وهي في اللغة العلامة، وهي كونية وشرعية، فالآيات الكونية هي: التي نشاهدها مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها.

وهي تدل على أن الخالق واحد لا شريك له، وعلى أنه لا يشبهه شيء.

والآيات الشرعية أيضًا: لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وهي دالة على أن الذي أنزل هذه الآيات إله واحد وأنه كامل الحكمة.

والكفر بالآيات الكونية معناه: أن يجحد أن الخالق - سبحانه وتعالى - خلقها، فيدَّعي أنَّ الذي خلقها غير الله، أو أن له شريكًا في خلقه، أو أن له معينًا في خلقه.

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها وبتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد، ومن تكذيبها أو الاستكبار عنها: تحريفُ النصوص، فإن تحريف النصوص نوع من الكفر بلا شك.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: يقتلون النبيين الذين أرسلهم الله إليهم بغير حق.

والنبيون هنا تشمل: الرسل ومن لم يرسل من النبيين، وما أكثر ما توجد هذه الصفة في اليهود؛ لأن اليهود هم أعتى المخالفين للرسل وأشدهم غلظة - والعياذ بالله -، فصار منهم من قتل الأنبياء بغير حق، وعبَدَ الطاغوت.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه الصفة لا يراد بها إخراج ما خالفها، وإنما يراد بها بيان الواقع، والدلالة على أن هذا القتل كان عدوانًا وظلمًا.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: والذين يأمرون بالقسط من الناس يشمل الرسل؛ وغير الرسل من أهل العلم والخلفاء الراشدين، فحينئذٍ عطفه على النبيين من باب عطف العام على الخاص، ولكنه خصَّ الأنبياء؛ لأن قتلهم أعظم من قتل غيرهم.

وذكر الخاص بعد العام من باب ذكره مرتين: مرة بطريقة العموم، ومرة بطريقة الخصوص.

ولكن خصَّ من بين سائر الأفراد، وأعِيد الحكم عليه من بين سائر الأفراد للاعتناء به والاهتمام به.

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي بالعدل.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: الخطاب إمَّا للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتي خطابه.

وبشرهم: أي أخبرهم بعذاب أليم.

والعذاب: العقوبة.

والأليم: بمعنى المؤلم، وهذه البشارة هل هي على سبيل التهكم بهؤلاء أو هي من باب تشبيه البشارة بما يسوء بالبشارة بما يسر، بجامع أن كلًا منهما تتأثر فيه البشرة وتتغير؟

يحتمل هذا وهذا، ولكن إذا قلنا: إنها من باب التهكم، استفيد بذلك زيادة الألم على هؤلاء المبشرين؛ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٧ ـ ٤٩].

﴿ذُقْ﴾: أي قولوا له: ذق، إنك أنت العزيز الكريم.

وهذه الجملة لاشك أنها ستبلغ في قلبه كل مبلغ، لأنه سيتذكر: أين العزة وأين الكرم، أين العزة التي بها أغلب، وأين الكرم الذي به أجود، فيكون أشد وقعًا وأشد تحسرًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أنه ينبغي أن يعلن لهؤلاء الكفار بما أمر الله تعالى أن نبشرهم به: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لا شكَّ أنه كلَّما كانت الحكمة في تبشير هؤلاء بالعذاب الأليم بشرهم.

وهكذا من ورث النبي ﷺ في العلم والدعوة، ينبغي أن يبشر كل كافر بآيات الله بالعذاب الأليم، لكن يجب أن يكون هذا تابعًا للحكمة.

٢ ـ وجوب الإيمان بآيات الله الشرعية والكونية؛ لأن الله تعالى توعَّدَ هؤلاء الكافرين بالعذاب الأليم.

٣ ـ تحريم قتل النبيين وأنه بغير حق وهو من جملة الكفر، لكن نصَّ عليه لشدة شناعته.

٤ ـ شناعة كل من يقتل أو يقاتل من يأمر بالقسط من الناس.

٥ ـ ثبوت العذاب على هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٦ ـ أن العذاب الذي يُبَشَّرون به ليس عذابًا هينًا يُتَحَمل، ولكنه عذاب مؤلم.

قال الله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:٢٢]

التفسير

﴿أُولَٰئِكَ﴾: المشار إليهم هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ فهؤلاء الذين قامت بهم هذه الصفات، هم الذين حبطت أعمالهم.

وحبوط الشيء: يعني ذهابه وزواله وعدم الاستفادة منه.

فهؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فظاهر؛ لأنهم لن يستفيدوا من أعمالهم، وإن كانت خيرًا كالإحسان إلى الناس، فإن ذلك لا ينفعه في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وأما في الدنيا: فلأنهم لما لم يستفيدوا منها، صاروا كأنهم لم يعملوها، فأعمالهم لم تنفعهم. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: يعنيك هؤلاء الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، ليس لهم أحد ينصرهم.

وأكد - سبحانه وتعالى - النفي هنا بـ ﴿مِّن﴾ الزائدة، أي: ما هم أحد ينصرهم، لا على سبيل الاجتماع، ولا على سبيل الانفراد، لأن (مِن) الزائدة إذا دخلت تجعل النفي نصًّا في العموم، كـ (لا) النافية للجنس.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - حبوطُ عملِ هؤلاء الذين كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه، وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس.

٢ - أن الكفر محبطٌ للأعمال؛ لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

٣ - أن هؤلاء الكفار ليس لهم ناصر في الآخرة، أما في الدنيا فقد ينصرهم من كان على

شاكلتهم، ولكن هم ومن نصرهم مآلهم إلى الذلِّ والخذلان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة:٢١].

قال الله تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران:٢٣]

التفسير

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الاستفهام هنا للتعجب، فإن هذه الحال يتعجب منها كل عاقل.

«وترى»: يحتمل أن يكون رؤية عين، ويحتمل أن يكون رؤية علم.

والثاني أولى؛ لأنه أشمل، ولأنه يتعلق بالحال، والحال تُعْلَم وليست تُرَى بالعين؛ ألم تعلم إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، أي: العلم، والذي آتاهم النصيب هو الله - عزَّ وجلَّ -، وحذف لفظ الجلالة للعلم به؛ لأن الله تعالى هو الذي يؤتي العلم.

قال الله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة:٢٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف:٦٥].

وقوله: ﴿نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: يحتمل أنه يفيد التقليل، أو التكثير، فيكون المراد: أنهم أوتوا نصيبًا كبيرًا من الكتاب، بحيث يكون حاملًا لهم على الاهتداء، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ استكبروا.

ويُحتَمل أنه ليس عندهم إلَّا علم قليل، وأنه لو فُرِض أن عندهم علمًا كثيرًا، فإن هذا العلم لم ينفعهم، فصاروا كالذي أُوتِيَ نصيبًا قليلًا من العلم.

وقوله: ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: هذا محلُّ التعجب؛ أي: أنهم مع ما عندهم من العلم يدعون إلى كتاب الله. والداعي لهم: هو رسول الله ﷺ ومن دعا بدعوته إلى يوم القيامة، هؤلاء يُدْعَوْن إلى كتاب الله.

﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾: إسناد الحكم هنا يحتمل أن يكون إلى الله - عزَّ وجلَّ - ليحكم الله بينهم بكتابه، ويُحتمل أن يكون إلى الكتاب، وأسند الحكم إليه؛ لأن الحكم صار به، ويُضَافُ الشيء إلى سببه كثيرًا.

ولكنهم لا يقبلون هذا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ يتولى فريق منهم لا كلهم؛ لأن بعضهم قد هُدِيَ.

بعض هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب قد هداهم الله، وهم كثير.

لكن تولى فريق منهم، ومع توليهم فإنهم معرضون - والعياذ بالله -، ليس عندهم إقبال، لا في الظاهر ولا في الباطن، بل هم مُتولون مُعرضون. وإنما قال: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الآية - وهي جملة حالية من ﴿فَرِيقٌ﴾ وصحَّ مجيء الحال منها؛ لأنها وصفت - إنما قال ذلك؛ لأن الإنسان قد يتولى لسبب طارئ، لكن في قلبه شيء من الإقبال.

أما هؤلاء فإنهم متولون، وهم قد امتلئوا إعراضًا عن كتاب الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أنه ليس كل من أُعطِي علمًا يوفَّق للعمل به؛ لقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾.

٢ - التعجب من حال هؤلاء؛ حيث إنَّ عندهم العلم، ثم بعد ذلك لا يُقبلون على كتاب الله - عزَّ وجلَّ -.

٣ - أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة، لكونهم دُعوا، وهذا هو محطُّ الذمِ، أما لو لم يُدعوا، ولم يعلموا بالحق، فإنهم لا يُذمون على ذلك إذا لم يفرطوا بطلب الحق.

٤ - أن الواجب التحاكم إلى كتاب الله؛ لقوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

٥ - أنه لا حكم إِلَّا لله، بما جاء في كتابه، فلا أحد من الحكام يستطيع أن يشرِّع أحكامًا مخالفة لأحكام الله، بل من شرَّع أحكامًا مخالفة لأحكام الله، وألزم العباد بها فهو كافر بالله - عزَّ وجلَّ.

اللهم إِلَّا أن يعذر بتأويل سائغ، فهذا قد يخرجه من الكفر، لكن فِعْلُه من حيث هو فعلٌ يؤدي إلى كفره.

٦ - أن الحكم في كتاب الله يكون في كل شيء؛ في العبادات والمعاملات والأخلاق والأعمال؛ لأنه لم يخصص منها شيء.

ويتفرع على هذه الفائدة: الردُّ على من قال: إن الشرع إنما جاء في تنظيم العبادات فقط.

أما المعاملات: فهي إلى الخلق، واستدلوا لذلك بأن النبي ﷺ قدم المدينة ورأى الناس يؤبرون النخل - أي يلقحونها - فقال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «**مَا أَرَىٰ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**» هذا أو معناه، فتركوا التأبير، ففسد الثمر؛ لأن النخل إذا لم يؤبر فسد، فلما حصلت الثمار جاءوا إلى النبي ﷺ يخبرونه، فقال: «**أَنْتُم أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُم**»[1].

قالوا: فوكَّل علم أمور الدنيا إليهم، بل جعلهم أعلم منه بهذا؛ وعلى هذا فأمور الدنيا لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٦٣)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٥٢) (٦/ ١٢٣)، وابن ماجه (٢٤٧١).

يتدخل فيها الشرع.

ولكن هذا فهم خاطئ، بل باطل؛ وذلك لأن أمور الدنيا إما أحكام شرعية، كالتحليل والتحريم، فهذه مرجعها إلى الشرع، وإما أمور فنية تُدرك بالتجارب والتعلم، فهذه مرجعها إلى أهل الخبرة.

فكم من عالم عنده علم واسع غزير في أمور الشرع لا يستطيع أن يصنع بابًا ولا إبرة، ويأتي رجل جاهل من أجهل الناس ويستطيع أن يصنع بابًا من أحسن الأبواب، وإبرة من أحسن الإبر.

ومسألة الصحابة ﷺ في التأبير مسألة فنية بلا شك، تُدْرَكُ بالتجارب.

والنبي - عليه الصلاة والسلام - كما نعلم وُلِدَ بمكة، ومكة ليست ذات نخل، ولا يعلم عن هذا شيئًا، فأهل المدينة الذين مارسوا التجارب في هذه الأمور، كانوا أعلم منه بذلك.

ولا يعارض هذا أننا نرجع إلى العرف في أمور كثيرة؛ لأنَّ الشرع هو الذي ردَّنا إلى العرف، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢].

٧ ـ أن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله، ممن أوتوا نصيبًا من الكتاب، لم يتولوا جميعًا، بل تولى فريق منهم.

والأمر كذلك فإن كثيرًا من اليهود والنصارى أسلموا وَحَسُنَ إسلامهم، وكان لهم قدم صدق في الإسلام.

٨ ـ ذَمُّ من يتولى بإعراض؛ لقوله: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لأن التولي كما ذكرنا في التفسير، قد يكون عن إعراض وقد يكون عن غير إعراض.

والتولي مذموم كله، ولكن إذا كان عن إعراض وعدم مبالاة كان أشد.

❁ قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤]

❁ التفسير ❁

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه التولي والإعراض بأنهم خدعوا أنفسهم وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾ أي: لن تصيبنا إِلَّا أيامًا معدودات، أيامًا قلائل؛ لأن كل معدود فهو قليل.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧]. فكل شيء معدود فهو قليل؛ لأن شيئًا يمضي بالعدد واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، لابد أن ينتهي.

فهؤلاء يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. ثم يدعون أن الذي يخلفهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: غرهم: الغرور والخداع بمعنى واحد متقارب، أي: أن هؤلاء خُدِعوا، أو انخدعوا في دينهم؛ حيث ظنوا أنهم على حق، وبعضهم عاند الحق عالمًا به مفتريًا كاذبًا، ومما كانوا يفترونه قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بطلان الأماني وأن النفس قد تُمني الإنسان ما لا يكون؛ لأن هؤلاء منتهم أنفسهم؛ حيث قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٢ - تحذير الإنسان أن يَتَّكِلَ على الأماني؛ لأن هذا من صُنْعِ اليهود والنصارى.

وكثير من العامة الآن يقعون في المعاصي، ويمنون أنفسهم بالمغفرة إذا وقعوا في المعصية.

صحيح أن الله غفور رحيم، لكن الله قال أيضًا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩: ٥٠]. وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

فلما أمر نبيه أن ينبئ بدأ بالمغفرة، ولما أخبر عن نفسه بدأ بالعقوبة؛ لأن المقام مقام سلطان وعلوّ.

يتمنى بعض العاصين الأماني ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فهو يريد أن يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعمل كل شيء دون الشرك، ثم يقول: إن الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا خبر من الله - عزَّ وجلَّ - وهو أصدق القائلين!!.

فنقول: اقرأ الآية، لا تكن أعمى، أو أعور لا تنظر إلَّا بعين واحدة فالله يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن لا يشاء لا يغفر له، وأنت لا تجزم بأنك من شاء الله أن يغفر له، إذنْ أنت على خطر.

على أن الذي يستخف بالمعصية، ويُلَبِّس على نفسه وعلى الناس، قد يكون ممن لا يشاء الله أن يغفر له - والعياذ بالله - لأن هذا مستهتر مستهين.

٣ - أن هؤلاء يؤمنون بالبعث، ولكن لم ينفعهم الإيمان؛ لقوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. ويتفرع على هذا أنه لا يكفي في الإيمان أن يؤمن الإنسان بوجود الله، وباليوم الآخر،

دون أن يستلزم هذا الإيمان قبولًا وإذعانًا، فمجرد التصديق لا يعتبر إيمانًا، ودليل هذا نصوص كثيرة، منها: أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان يُقِرُّ بأن رسول الله ﷺ حق، ويقول:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابنَنَا لاَ مُكَذَّبٌ لَدينَا وَلَا يُعْنَى بِقَولِ الأَبَاطِلِ

ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيرِ أَدْيَانِ البَرِيةِ دِينًا

ومع ذلك: لم ينفعه هذا الإقرار؛ لأنه لم يصحبه قبول وإذعان.

وخُتم له في الآخر - والعياذ بالله - بأنه قال: هو على ملة عبد المطلب[1]، ولكن نظرًا لما حصل منه من دفاع عن النبي ﷺ أذن الله لنبيه محمد ﷺ أن يشفع له، فشفع، فكان في ضحضاحٍ من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه أبد الآبدين، وهذا أهون أهل النار عذابًا - أجارني الله وإياكم منها - ولم نعلم أن كافرًا نفعت فيه الشفاعة على الإطلاق، بمعنى: أنه سلم من العذاب أبدًا، ولم نعلم أن كافرًا خَفَّفَ عنه العذاب بالشفاعة إِلَّا أبا طالب.

٤ - أن الإنسان قد يَغُرُّهُ ما هو عليه من الدين؛ لقوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، فيغتر بأنه يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ثم يقول في نفسه: لن أعذَّب.

وهذا قصور في النظر؛ لأنه ليس الشأن أن تصلي أو تزكِّي أو تصوم أو تحج، الشأن كل الشأن أن يُقبَل منك هذا العمل.

كم من عامل ليس له من عمله إِلَّا التعب لوجود مُبطِل سابق أو لاحق.

فالسابق كعدم الإخلاص مثلًا، واللاحق: كالإعجاب بالعمل، والإدلال به على الله - عزَّ وجلَّ -، وأن يرى الإنسان لنفسه حقًّا على ربِّه.

وقد يُبْتَلى الإنسان بالبدعة!! كم من أناس يُحِبُّون الخير وعندهم رغبةٌ ومحبةٌ لله ورسوله، ولكن لجهلهم يبتدعون في دين الله ما ليس منه، فيكون عملهم مردودًا؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقًا لما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لقوله ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»**[2].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠) وفي غير موضع من صحيحه، مسلم (٢٤).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

قال الله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٢٥]

التفسير

أي: كيف تكون حاله في هذا الوقت ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؟ والاستفهام للتعظيم؛ أي: ما أعظم ما تكون حالهم في ذلك اليوم، وما أشد حسرتهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، أي: جمعناهم في يوم لا ريب فيه.

واللام تأتي بمعنى في، ويسمونها لام التوقيت.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] أي: في قبل عدتهن، أي: في استقبال عدتهن ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: جمعوا لهذا اليوم، أي: فيه، وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إما أنه خبر بمعنى النهي؛ والمعنى: لا ترتابوا فيه، أو أنه خبر على حقيقته، والمعنى أن الله - عزَّ وجلَّ - يخبر عن هذا اليوم بأنه لا ريب فيه، أي: لا ريب في وقوعه.

وهذا اليوم قد دلَّ عليه الكتاب والسنّة والعقل:

أما الكتاب: فما أكثر الآيات التي فيها إثبات اليوم الآخر، وما أكثر الأمثال التي يضربها الله - عزَّ وجلَّ - لإثبات هذا اليوم ببعث الخلائق، وأما في السُّنّة فكثير أيضًا إثبات هذا اليوم.

وأما في العقل، فلأن العقل يدل بالضرورة على أن هذه الخليقة لابد أن يكون لها معاد تحاسب فيه على ما أُمِرت به؛ لأنه ليس من المعقول أن ينشيء الله الخليقة، يأمرها وينهاها، ويبعث إليها الرسل، وينزل عليها الكتب، وتُستبَاح دماء من لم يُنفِذ هذه الكتب، ويتبع هؤلاء الرسل، ثم تكون النتيجة أن تموت هذه البشرية ولا تُبعث، وتكون ترابًا.

لو وقع هذا الفعل من أي أحد لقيل هذا سفه، بل من أسفه السفه.

ولو أن الإنسان صنع ثوبًا وخاطه وأتقنه، ثم في النهاية أحرقه، فتلف ولم يبق له أثر، لعدَّ الناس كلهم هذا سفهًا، فكيف بهذه الخليقة التي خلقها الله - عزَّ وجلَّ - وأنزل عليها الكتب وأرسل إليها الرسل؟!

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾: أي أعطيت.

ومنه قولهم: وفَّاه حقَّه، أي: أعطاه حقَّه وافيًا.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كل نفس من البشر والجن، أي: من المكلفين الذين أُمروا ونُهوا، فهم الذين يُوفون أجورهم.

أما من لم يتوجه إليه أمر ولا نهي، فإنهم يُجمعون يوم القيامة، ولكن ليس لهم أعمال يُجازون عليها، فلا يشملهم قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

وقوله: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾، أي: من خير أو شر، بدليل العموم في كلمة ﴿مَّا﴾.

وتُوَفى الخير: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وأما في الشر: فتُوَفى السيئة بمثلها إن لم يعف الله، أو تكن لها أعمالٌ صالحة تُكفِّر عنها هذه السيئات.

فجزاء الله - عزَّ وجلَّ - وتوفيته للأعمال دائر بين الفضل والعدل، فالفضل لأهل الخير، والعدل لأهل السوء.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي: لا ينقص أحد من حسناته، ولا يزاد في سيئاته.

ونحن نعلم أن من أوفى غيره حقَّه فإما أن يوفيه بالفضل أو بالعدل أو بالجور، والجور - وهو الظلم - ممتنع على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢].

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «يَا عِبَادِي، إِنِي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية دليل على عِظَم ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢ - وفيها دليلٌ أيضًا على النداء بالنعي على هؤلاء الذين ليس لهم في ذلك اليوم إلَّا الخيبة والخسران؛ حيث خسروا دينهم ودنياهم.

٣ - إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٤ - أن من كفر باليوم الآخر أو شكَّ فيه فهو كافر؛ لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٥ - أن يوم التوفية الكاملة هو يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

والإنسان قد يوفى شيئًا من عمله في الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] مخرجًا من كل ضيق، وسعة في الرزق، ويرزقه من حيث

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

لا يحتسب، هذا في الدنيا، وهذا جزاء. وهناك جزاء آخر أعظم وأنفع وهو الهدى.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

الهدى والعمل الصالح أفضل من المال؛ لأن الهدى إذا زاد الله الإنسان منه انشرح صدره، واستنار قلبه، واطمأن، ثم صارت التقوى عنده أسهل من كل شيء، وصارت الأعمال الصالحة رياض قلبه، وسرور نفسه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]، والمؤمن كل الأعمال الصالحة قرة عينه؛ لأنه يشعر في كل عمل صالح بأمرين عظيمين:

الأمر الأول: أنه يتعبد لله بالعمل الصالح، فيزداد ذلًّا لربه ومحبة له، وإنابة إليه.

الأمر الثاني: أنه بذلك متبع لرسول الله ﷺ، فهو يشعر حين فعل العبادة أن إمامه محمد ﷺ، فيزداد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيمًا لقوله، وتعظيمًا لهديه وسنته.

وهذا أعظم كَسْبٍ؛ أن يحصل لك هذا الأمر في العبادة والتقوى.

٦ - انتفاء الظلم عن الله - عزَّ وجلَّ -؛ لأن قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ وقوله: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فاعلها معروف، فالموفي الله، والذي لا يظلم الله، وانتفاء الظلم عن الله - سبحانه وتعالى - هو من الصفات التي يسمُّونها بالسلبية، ويكون نفي الظلم لكمال العدل، فنأخذ من هذا قاعدةً مفيدة في باب الصفات، وهي: (أن كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنما يراد بها ثبوت كمال الضد).

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

الخطاب للرسول ﷺ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إذا دُعُوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم تولوا، يريدون أن تكون السيادة لهم، لا لغيرهم. فأمَر الله نبيه أن يبتهل إلى الله بهذا الدعاء المتضمن قدرة الله على نقل النبوة التي يَتْبعُها المُلك من بني إسرائيل إلى العرب.

فقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾:

﴿اللَّهُمَّ﴾: أصلها (يا الله)، منادى حُذِفَت منه ياء النداء، وعُوِّض عنها الميم، ولهذا لا يجمع

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٦١).

بينهما إِلَّا في حال الشذوذ، كما قال ابن مالك:

وَشَذَّ يا اللَّهُمَّ فِي قَرِيضِ - أي: في النظم -

وقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

مالك: اسم فاعل، والملك: يحتمل أن يكون بمعنى المملوك؛ أي: مالك المملوكات كلها.

ويحتمل أن يكون المراد به: التدبير؛ أي: مالك تدبير الخلائق كلها.

والأمران ثابتان لله - عزَّ وجلَّ -، فهو مالك المملوكات كلها بأعيانها، وهو مالك التصرف فيها، لا يشاركه في ذلك أحد، هو الذي يدبر الأمر ويملك المأمور، وقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قيل: إنه بدل من الله، ولكنه نُصب لأنه مضاف، والبدل، يكون على نية إعادة العامل.

وقيل: إنها منادى حُذِفَ منه حرف النداء.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، والأصحُّ أن ﴿تُؤْتِي﴾ هذه جملة استئنافية لبيان كيف يكون ملك الله - عزَّ وجلَّ - لهذا المملوك فقال: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾، وقال: ﴿تُؤْتِي﴾: أي: تُعطي، ولم يقل: تُمَلِّك؛ لأن ما يكون للعبد من الملك إنما هو من إعطاء الله تعالى إياه، وتسليطه عليه، ولهذا لا يتصرف المالك من المخلوقين فيما ملك، إِلَّا على حسب الشريعة التي شرعها الله - عزَّ وجلَّ -.

وقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: الفعل تؤتي من الأفعال التي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، ومفعوله الأول: الملك، ومفعوله الثاني: مَنْ تشاء.

وكل شيء له سبب إمَّا شرعي، وإمَّا كوني؛ لأن هذا مقتضى حكمة الله - سبحانه وتعالى -، وإذا كان كذلك فإن إتيان الله الملك لمن يشاء مقيد بسببه، فلابد أن يكون له سبب.

فالملك قد يكون مستقلًا عن الرسالة، وقد يكون تابعًا للرسالة.

فإذا كان مبنيًا على الشريعة صار تابعًا للرسالة، وإذا كان غير مبنيٍّ على الشريعة كان مستقلًا.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فهذا ملك مستقل عن الرسالة؛ لأن الذي حاجَّ إبراهيم كافر. وأما قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[1].

فالمراد بذلك هنا: ملك تابع للرسالة.

والمشيئة هنا ككثير من الآيات معلقة بالحكمة.

وقوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾:

قوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾: يحتمل وجهين:

الوجه الأول: نزع بعد ثبوت.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

والوجه الثاني: نزع بمعنى المنع.

فعلى الأول: يكون فيه إشارة إلى أن الله تعالى يملك من شاء من خلقه، ثم ينزع عنه الملك.

وكم من مَلِكٍ مَلَكَ ثم زَالَ مُلْكُه، إما بالغلبة له، أو بموته أو بغير ذلك.

ويُحتمل أن تكون بمعنى المنع؛ أي: تُمَلِّك من شئت، ولا تُمَلِّك من شئت. وكلا المعنيين صحيح.

وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾:

والإعزاز هنا: أي التقوية، أي: تجعله عزيزًا قويًا غالبًا على غيره، وكذلك تذل من تشاء.

وهذا عام، قد يعز الله الإنسان بدينه وعلمه وإيمانه، وإن لم يكن ملكًا، وقد يعزه بملكه.

وكذلك في الذل قد يذله بالمعصية، وبالغلبة؛ فالذل بالمعصية في مقابل العز بالإيمان، والذل بالغلبة في مقابل العز بالملك، والذين يعزهم الله هم من ذكرهم الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. فالله يعز الرسل وأتباعهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

ومن أسباب العزة: الإيمان، سواء كان الإنسان ملكًا أم غير ملك.

ومن أسباب العزة: الاستعداد والحذر والحزم والقوة والنشاط.

ومن أسباب الذل: أن يُعجب الإنسان بنفسه، وأن يتعرض لما لا يمكنه دفعه.

ولهذا جاء في الأثر: «لَا يَنبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لما لَا يُطِيقُ»[1].

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: ﴿ٱلْخَيْرُ﴾: بيد الله - عزَّ وجلَّ -، والخير كل ما فيه مصلحة ومنفعة للعبد، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة؛ فالرزق والصحة والعلم خير، والعمل الصالح أيضًا خير.

وهذا كله بيد الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وهنا قد يقال: لماذا ذكر أن الخير بيده، ولم يذكر الشر، مع أن الخير من الله والشر من الله؟!

فقال بعض المفسِّرين: إن هذا من باب حذف المقابل المعلوم؛ كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]. وزعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر، ولكن هذا وَهْمٌ باطل، وليس المقام مقام حذف واقتصار، بل المقام مقام ثناء، والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٠٥)، والترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦١٣).

فالحذف غير مناسب لفظًا، وهو باطل معنى؛ لأن الله لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]. فلا ينسب إلى الله الشر قولًا ولا فعلًا.

فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وُجِدَ شَرٌّ في المفعولاتِ فهو شَرٌّ من وجه، وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شرًّا، بل هو خير محض.

والشر إنما هو في المفعولات لا في الأفعال.

أما الخير فهو في المفعولات والأفعال، ولهذا ينسب إلى الله فيقال: بيده الخير.

ولنضرب لهذا مثلًا بالسباع والهوام، فالسباع: فيها شر، والهوام اللاسعة واللاذعة، فيها شرٌّ بلا شك، والشياطين كلُّها شر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء خير، والحكمة توجبه؛ لأنه لا يمكن أن تعرف تمام قدرة الله إلَّا بخلق الأشياء المتضادة، ثم في خلق هذه الأشياء من إصلاح العبد، واللجوء إلى ربه، والاستعاذة به من هذه الأمور الشريرة، خير كثير، والخير لا يعرف إلَّا بضده.

إذن: يجب أن نبقي الآية على ظاهرها بدون تقدير.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ومن قدرتك تغيير هذه الأشياء العظيمة: إيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، كل هذه أمور عظيمة لا يقوم بها إلَّا القادر عليها، - سبحانه وتعالى -.

والآية عامة؛ فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه.

وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ؛ لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩].

فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع؛ أي: إذا أراد جمعهم، وشاء جمعهم، فهو قدير عليه، لا يعجز عنه.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تعليم الله - عزَّ وجلَّ - نبيه محمدًا ﷺ أن يفوِّض الأمر إليه في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، والخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه لأمته، إما عن طريق التأسي، وإما لأنه الإمام، والخطاب للإمام خطاب له ولمن اتبعه، إلَّا إذا دلَّ الدليل على أنه خاصٌّ به، فيكون خاصًّا به.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

٢ - بيان تمام ملك الله - سبحانه وتعالى - وسلطانه؛ لقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾.

٣ - أن الله - سبحانه وتعالى - يؤتي الملك من يشاء؛ لقوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾.

٤ - أن ملك المخلوقين ليس ملكًا استقلاليًا، بل هو بإعطاء؛ لقوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾، والملك الذي بإعطاء لا شك أنه ناقص عن ملك المعطي. وقد جاء في الحديث الصحيح: «اليَد العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»[1].

٥ - إثبات المشيئة لله في قوله: ﴿مَن تَشَاءُ﴾، وكل أمر قرنه الله بالمشيئة، فإنه مبني على الحكمة؛ متى اقتضته شاءه الله.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

٦ - تمام ملك الله وسلطانه أيضًا، في كونه يحرم الملك من يشاء، وينزعه بعد ثبوته ممن يشاء؛ لقوله: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

٧ - بيان تمام ملك الله وسلطانه، لكون العزة من عنده في قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾.

٨ - أن الله - سبحانه وتعالى - تام الملك والسلطان لكونه يذل من يشاء، ولو بلغ ما بلغ من العزة البشرية، فإن يد الله فوقه مهما بلغ الإنسان من العز. فالله قادر على إذلاله.

ولذلك أمثلة كثيرة، منها: قصة فرعون، فإن فرعون طغى وقال: أنا ربكم الأعلى، وافتخر بما عنده من الأنهار، فأهلكه الله بمثل ما افتخر به، فأغرقه بالماء.

وعاد استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد مِنَّا قوة، فأهلكهم الله تعالى بالريح، وهي من ألطف الأشياء، لكنها من أشد الأشياء مع لطافتها، فالله - عزَّ وجلَّ - يذل من يشاء.

ويتفرع على هذه الفائدة: أننا متى علمنا أن الإعزاز والإذلال بيد الله، فإننا لا نطلب العزة إِلَّا به - عزَّ وجلَّ -. ولهذا نقول: من ابتغى العزة من غير الله فهو ذليل.

وكذلك يتفرع على هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله دائمًا من الذُّلِّ الحسي والمعنوي؛ لأن الله تعالى هو الذي بيده الإذلال؛ من شاء أذله، ومن شاء أعزه.

٩ - أن الله - سبحانه وتعالى - بيده الخير.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه إذا كان الخير بيده، فلا يطلب الخير إِلَّا منه؛ لأنه لا أحد بيده الخير إِلَّا الله - سبحانه وتعالى -، فهو الذي يُطلب منه الخير.

١٠ - أن الشر لا يضاف إلى الله، وإن كان - عزَّ وجلَّ - هو الذي خلق كل شيء؛ لأن أفعاله كلها خير، والشر في المفعولات. ثم هذا الشر في المفعولات قد يكون خيرًا؛ فكم من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٢٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٠٣٤).

مرض صار سببًا لصحة الجسم، وكم من آفاتٍ في الزروع وغيرها، صارت أسبابًا للنموِّ الاقتصادي من جهة أخرى.

١١ - عموم قدرة الله؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا يشمل ما كان من أفعاله، وما كان من أفعال الخلق، فيكون في ذلك رد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يخلق أعمال العباد ولا يريدها، وأن الإنسان مستقلٌ بإرادته وعمله، فإذا كانت بقدرة الله قلنا: يلزم أن يكون مرادًا ومخلوقًا لله؛ لأنه ما دام الأمر بقدرته، فلابد أن يكون مخلوقًا له، ومرادًا له.

١٢ - الرد على كلمة وقعت من بعض المفسرين، ومنهم جلال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ، في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، حيث قال: خص العقل ذاته فليس عليها بقادر، فإن هذه كلمة باطلة؛ هو أراد معنى حقًّا والله أعلم، لكن التعبير بهذا خطأ.

فنقول: إن الله قادر على كل شيء يتعلق بفعله أو بفعل عبادة، فكل شيء يفعله الله فهو بقدرته - سبحانه وتعالى -، وكل شيء يفعله العباد فهو أيضًا بقدرته.

وهذا التخصيص غير صحيح بل العقل يشهد لله تعالى بكمال القدرة وعمومها، وأنه على كل شيء قدير.

١٣ - الاستغناء بالثناء عن الدعاء؛ لأنك إذا تأمَّلْتَ الآية هذه لم تجد فيها دعاءً أي: طلبًا، لكن الثناء مما يُتَوَسَّلُ به إلى الله.

فهنا الثناء يتضمن ما تدل عليه هذه الجملة؛ فإذا قلت: أنت الذي تُعِزُّ، وأنت الذي تُذِلُّ؛ فمعنى هذا، أو فمقتضى هذا: أنك تسأل الله أن يعزك ولا يذلك، ولهذا قال الشاعر:

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

أي: ثناؤه عليك يكفي عن تعرضه وسؤاله.

قال الله تعالى:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٧]

التفسير

أي: تدخل الليل في النهار، وتدخل النهار في الليل، بمعنى: أن الليل يدخل على النهار، فيزيد الليل وينقص النهار.

وقوله: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: بالعكس؛ يدخل النهار على الليل، فيطول النهار وَيَقْصُر الليل، وهذا الفعل من الأفعال التي لا يقدر عليها إِلَّا اللهُ وَحْدَه.

هو الذي يُولِج الليل في النهار ويُولِج النهار في الليل، ومع هذا فإن هذا الإيلاج إيلاج بحكمة؛ بتدرج، يأتي قليلًا قليلًا حتى ينتهي ثم يعود، ولو أن الليل قفز من أقصر الليل إلى أطوله لاختلَّ نظام العالم، وفسدت مواقيته، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - يجعله بالتدريج ليعرف الناس أوقاتهم، وينبني أيضًا على هذا الإيلاج تغيُّر الفصول؛ فإنه إذا طال النهار طال زمن وجود الشمس على سطح الأرض فاحترَّ الجو، وأيضًا يكون شعاع الشمس عموديًا فيكون أشد تأثيرًا في الحرارة مما إذا كان غير عمودي، والعكس بالعكس بالنسبة للشتاء، فيترتب على هذا الإيلاج زمن الفصول.

ومن رحمة الله - عزَّ وجلَّ - أن هذا الزمن الفصلي لا يأتي أيضًا دفعة واحدة، ولو انتقل الناس من أحرِ يوم في السنة إلى أبرد يوم، لحصل ضررٌ عظيم، وبالعكس كذلك، لكن الربَّ الرحيم - عزَّ وجلَّ - الحكيم يأتي بهذا الشيء بتدرج.

فمن الذي يستطيع أن يزيد في الليل ساعة، أو في النهار ساعة، لا أحد يستطيع، لو اجتمعت كل الخلائق على أن يزيدوا ساعة في الليل أو ساعة في النهار، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الميت في الموضعين فيها قراءتان: المَيْت والمَيِّت أي: بالتشديد والتخفيف.

والمراد بالحيِّ: الحي حياة حسيَّة ومعنويَّة، وذلك لأن اللفظ صالح للمعنيين، وإذا صلح اللفظ للمعنيين بدون تنافٍ بينهما، فالواجب حمله عليهما.

الحي حياة حسية أمثلته كثيرة، فالإنسان مخلوق من نطفة، وهي ميتة بالمعنى اللغويّ، فصار حيًا من ميت.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، كنتم في أرحام أمهاتكم أمواتًا، ليس فيكم أرواح، ثم نفخ في الإنسان الروح فصار حيًا.

إذن يخرج الحي من الميت؛ أي: يجعل الميت حيًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤]، أو يخرج حيًا ناميًا متحركًا من شيء لا ينمو، فهو ميت؛ كإخراج الفرخ من البيضة؛ فإن البيضة ميتة يخرج منها فرخ حي. هذا الموت الحسي.

أما المعنوي: يخرج الحي من الميت أي: المؤمن من الكافر؛ لأن المؤمن حي حياة قلبية والكافر ميت، يخرج الحي العالم من الميت الجاهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

الأول: هو العالم، والثاني: هو الجاهل.

هذه الحياة المعنوية والحسية.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾: الميت من الحي: بالنسبة للحياة الحسية، مثل: البيضة من الدجاجة، وربما يتناول الميت إذا سقط من حي، أعني: المرأة إذا أجهضت جنينًا ميتًا.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: ترزق: أي تعطي.

بغير حساب: أي بغير عوض؛ لأن المحاسبة إنما تكون مع المعاوضة؛ فإن من لا يريد العوض لا يحاسب، لكن من يريد العوض هو الذي يحاسب، حتى يعلم هل ما أخذه مقابل لما أعطاه أو لا.

وما أكثر النعم التي أنعم الله بها علينا، لكن لا يحاسبنا، يعطينا منه - سبحانه وتعالى - تفضلًا وكرمًا، وإن أمرنا بالشكر فشكرناه، فهذا عطاء ثانٍ، فشكر الإنسان ربَّه على نعمته هو من نعمته أيضًا. ولهذا يقول الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِيْ نِعْمَةَ الله نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِيْ مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوْغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَامُ وَاتَّصَلَ العُمُرُ

والمعنى: أن الله إذا وفَّقك لشكر نعمته، فهذه نعمة تحتاج إلى شكر، فإذا شكرتها يحتاج الشكر إلى شكر آخر، وإذا شكرت الثالث يحتاج إلى رابع وهكذا، ولهذا قال:

فَكَيْفَ بُلُوْغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَامُ وَاتَّصَلَ العُمُرُ

واعلم أن رزق الله - عزَّ وجلَّ - نوعان: رزق به قوام البدن، ورزق به قوام القلب والروح.

أمَّا الأول: فيشمل المؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، والمطيع والفاسق، حتى البهائم.

ويدخل فيه الحرام؛ فالذي لا يأكل ولا يشرب إلَّا حرامًا، فهو برزقٍ من الله رُزِق، لكنه رِزْق يقوم به البدن.

والثاني: ما يقوم به القلب والروح، وهذا خاص بأهل الإيمان والعلم.

فالعلم والإيمان للقلب بمنزلة الماء للشجرة، لا يمكن أن تنمو بدونه.

وكلمة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: من اقتضت حكمتك أن ترزقه.

وأسباب الرزق كثيرة؛ إما حركة من الإنسان، وإما إمداد من الله.

والحركة أيضًا لا تنفع إلَّا بإمداد من الله، لكن أحيانًا يُرزق الإنسان بدون كسب، وبدون عمل؛ مثل أن يموت له قريب فيرث منه.

ومن أسباب الرزق: تقوى الله، وليس معنى التقوى أن تعكف في المسجد وتتعبد، بل التقوى أعمُّ من ذلك؛ فالساعي على الأرملة والمسكين، الذي يذهب ويطلب لهم الرزق ويقوم عليهم

«كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١) كما ورد عن النبي ﷺ.

والمسكين: كل من لا يكتسب، حتى ولو كان من أولادك؛ فلو أنت غني، وولدك لا يكتسب فهو مسكين، فأنت إذا سعيت عليه كالمجاهد في سبيل الله، قال: وأحسبه قال: «كَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ، وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ»(٢).

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تمام قدرة الله - عزَّ وجلَّ - وسلطانه في كونه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.

٢ - إثبات حكمة الله؛ لأن هذا الإيلاج له حكمة عظيمة لا تقوم مصالح الخلق إلَّا بها؛ لأنه يترتب على هذا الإيلاج كما قلنا اختلاف فصول السنة التي يترتب على اختلافها نمو الأجساد والنبات، من النبات ما يكون شتويًا، ومن النبات ما يكون صيفيًا.

٣ - أن الإنسان يعرف به ضَعفه وافتقاره إلى ربِّه، إن جاء البرد صار يتطلب ما يدفئه، وإن جاء الحر صار يتطلب ما يبرده، فهو محتاج إلى ربِّه في الحالين وهذا من فوائد اختلاف الحر والبرد.

٤ - أنَّ هناك أشياء مؤذية، وهي ما يُعَبَّر عنه في علم الطب بالجراثيم، لا يقتلها إلَّا شدة البرد، وأخرى لا يقتلها إلَّا شدة الحر، وهذا شيء مشاهد.

وهو أيضًا من حكمة الله - عزَّ وجلَّ - المترتبة على إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل.

٥ - أن هذا الإيلاج يدل على كمال القدرة كما أسلفنا أولًا، إذ إنه لا أحد يستطيع أن يزيد ساعة من الليل في النهار أو بالعكس، ولكن الله تعالى هو الذي يقدر على هذا.

٦ - تمام قدرة الله وسلطانه بإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي.

ووجه ذلك ظاهر: فإن إخراج الشيء من ضده دليل على أن قدرته تامة، وسلطانه نافذ - سبحانه وتعالى -.

٧ - أن الرزق بيد الله؛ لقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾، ويترتب على هذا أنه ينبغي للعاقل فضلًا عن المؤمن، إلَّا يطلب الرزق من أيدي الناس، وإنما يطلبه من الله - عزَّ وجلَّ -.

ولهذا جاءت النصوص بفضيله العفة عمَّا في أيدي الناس، وكان من جملة ما بايع الصحابة ﷺ عليه رسول الله ﷺ، إلَّا يسألوا الناس شيئًا.

فكان سوط أحدهم يسقط من يده وهو على بعيره، فينزل إلى الأرض ليأخذه ولا يقول:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٥٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

«نَاوِلْنِي إِيَّاهُ؛ لَأَنَّهُمْ بَايَعُوا عَلَى أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»(١).

وهذا لا شك يجعل الإنسان يلجأ إلى الله - سبحانه وتعالى -.

ولكن لا بأس أن يسأل الإنسان ما يباح له سؤاله، إنما تمام العفة أَلَّا يسأل الناس شيئًا، بل يجعل الأمر موكولًا إلى الله - سبحانه وتعالى -.

٨ - أن عطاء الله بلا عوض؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٩ - إثبات المشيئة لله - عزَّ وجلَّ - في قوله: ﴿مَن تَشَآءُ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾: لا: ناهية، والفعل بعدها مجزوم، وَكُسِرَ لالتقاء الساكنين.

وكلمة (اتخذ) تدل على اصطناع الشيء، والركون إليه والالتجاء إليه؛ مثل قولك: اتخذت هذا صاحبي أي: جعلته واصطنعته واخترته.

فالمعنى: لا يختار المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول (اتخذ) الأول.

و ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ.

وقوله: (أولياء) أي: لا ينصروهم، ولا ينتصروا بهم؛ فلا يتولون الكفار، ولا يجعلون الولاية للكفار عليهم.

فالنهي عن الأمرين، فإذا كان الأمر في سعة والمؤمنون في قوة، فإنهم لا يجوز لهم أن يتخذوا من الكفار من ينصرهم؛ لأن الكفار مهما كانوا أعداء المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

فليس لنا حق أن نستعين بالكفار، إِلَّا إذا دعت الحاجة، فلنا أن ننتصر بهم بأخذ السلاح،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٤٣)، والنسائي (٤٦٠)، وأبو داود (١٦٤٢)، ابن ماجه (٢٨٦٧).

وما أشبه ذلك: بل وبالعهد معهم أيضًا؛ فإن النبي ﷺ استعار من «صفوان بن أمية» دروعًا فقال له: أغصبًا يا محمد؟ قال: «بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»[1]، فدلَّ هذا على جواز الاستعانة بالمشرك بأخذ سلاحه.

كذلك حالف النبي ﷺ خُزَاعَةَ في صلح الحديبية، والناس في ذلك الوقت ليسوا على قوة.

فيجوز أيضًا أن يحالف المسلمون الكفار إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأنه قد يكون هذا من مصلحة المسلمين.

فإنَّ المسلمين إذا كانوا ضعفاء تسلط عليهم كفار آخرون، فإذا حالفوا كفارًا أقوياء انتصروا بهم؛ فصار في ذلك مصلحة.

ولكن مع ذلك لا يجوز أن نجعل هذا الانتصار بهم على حساب ديننا؛ أي: أن نداهنهم ونمكِّنهم من أفعالهم القبيحة في بلادنا، بلاد الإسلام؛ لأنَّ المداهنة في دين الله حرام.

وأصل النهي عن ولاية الكفار، هو من أجل ألَّا يُذَل الإسلام بين أيديهم؛ فإذا كان في مثل هذه الأمور مصلحة للمسلمين وقوة، صار ذلك جائزًا. هذا بالنسبة للانتصار بهم.

أما بالنسبة للانتصار لهم فهذا لا يجوز أبدًا.

لا يجوز أن ننصر كافرًا على مؤمن بأي حال من الأحوال، ولكن هل يجوز أن ننصر كافرًا على كافر إذا اقتضت المصلحة ذلك؟

نقول: إن المؤمنين فرحوا حين غلبت الروم الفرس، وهم كفار على كفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤-٥].

فإذا كان هناك عدوٌّ مشترك لنا ولهذه الطائفة من الكفار، ونحن نعلم أننا إن لم ننصر الكفار على هذا الكافر غلبه ثم استأصلنا، فحينئذٍ يكون عونه للحاجة جائزًا؛ لأننا نعينه لا لذاته، ولكن لمصلحة المسلمين، وهذا كله يعود إلى المصلحة.

أما لو رأينا كافرًا يطلب مِنَّا العون على مسلم، فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: مِنْ سوى المؤمنين؛ يعادون المؤمنين، ويوالون الكفار.

وجاءت هذه الآية: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولم يقل: «لا تتخذوا»؛ لأن الله فَرَّق بين قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وبين ما إذا اتخذ المؤمنون الكافرين أولياء لا من دون المؤمنين، فوجَّه الخطاب إلى

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٦٥)، وأبو داود (٣٥٦٢)، والبيهقي (٦/ ٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٣١).

المؤمنين مباشرةً في الثانية دون الأولى؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]. فخاطبهم خطابًا مباشرًا.

قال بعض العلماء المعاصرين: إن الله لم يخاطب المؤمنين خطابًا مباشرًا؛ لأن هذا أمر مُشين.

والأمر المشين تكون المخاطبة المباشرة فيه صدمة عظيمة، ولهذا قال الله تعالى لرسوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢]، ولم يقل: عَبست.

وهذا القول أول ما يطالعه الإنسان يظنه جيدًا؛ لكن يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤] فهنا واجههم بالخطاب مباشرة، مع أنه قال: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى هذا فيكون التوجيه الذي ذكره بعض المعاصرين فيه نظر.

ونقول: إن الله عبَّر بصيغة الغائب هنا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دون الخطاب، لبلاغةٍ يعلمها الله - عزَّ وجلَّ -، قد نعلمها وقد لا نعلمها.

ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، المشار إليه: الاتِّخاذ، وعادت الإشارة هنا على المفهوم من الفعل؛ لأن الفعل يدلُّ على حدث وفاعله.

فعاد الضمير هنا على الاتخاذ المفهوم من ﴿يَتَّخِذِ﴾، مثل قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، فعاد الضمير إلى العدل المفهوم من كلمة ﴿ٱعْدِلُواْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: أي: يتخذهم أولياء من دون المؤمنين ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ يعني: فالله بريء منه؛ لأنَّ الله تعالى لا يرضى أن يتولى أحدٌ من المؤمنين أحدًا من الكافرين؛ لأن الكافر عدو الله بل هو عدو لك أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، مهما كان، فإن الكافر لا يمكن أن يضمر لك المحبة أو الولاية أبدًا، ولا يمكن أبدًا أن يناصرك إلَّا لمصلحته هو؛ لأنه عدو، والعدو لا يمكن أن يريد منفعة عدوه.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: و﴿إِلَّآ﴾: هنا حرف استثناء.

والصواب أنه منقطع، بل يتعين؛ لأنه في حال التقاة لا نتخذهم أولياء، ولكن نوافقهم في الظاهر، ونخالفهم في الباطن.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار لهم سيطرة وقوة وقدرة نخشاهم، فنتقي منهم؛ أي: نتخذ وقاية من بطشهم وتنكيلهم بنا.

لكن في الظاهر دون الباطن، ولا يجوز إلَّا في حال الخوف على النفس لضعف المسلمين وقوة الكفار.

ولابدَّ أن تكون هذه الموالاة في الظاهر، باللسان فقط.

أما في الباطن: فيجب أن نضمر لهم العداوة والبغضاء وعدم الولاية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، في هذا التفات من الغيبة إلى الحضور.

ولولا الالتفات لقال: «إلا أن يتقوا منهم تقاة».

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: فيها فعل ومفعول به، ولفظ الجلالة (الله) فاعل. و ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: أي: يُخوِّفكم من نفسه - عزَّ وجلَّ -، ويحذركم من عقابه إذا اتخذتموهم أولياء، إلَّا في الحال التي تكون موالاتهم تقاة، وليس عن قصد واختيار.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: المرجع.

والجملة اسمية قُدِّم فيها الخبر لفائدة الحصر؛ يعني: إلى الله لا إلى غيره المصير.

والمراد المرجع في جميع الأمور، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة:٢١٠].

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تحريم اتخاذ الكفار أولياء؛ لقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ - أن مقتضى الإيمان الحقيقي أن يتخذ الإنسان الكافرين أعداءً؛ لقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فعلَّق هذا الحكم بالمؤمنين، وهو دليل على أن مقتضى إيمانهم ألَّا يتخذوهم أولياء، بل أن يتخذوهم أعداء؛ لأن هؤلاء الكفار شيعة الشيطان وأولياؤه.

فقد قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

٣ - أنَّ اتخاذ الكافرين أولياء ينافي أصل الإيمان، أو كمال الإيمان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف، فإنه يتبع ذلك الوصف قوةً وضعفًا.

فكلَّما كَمُلَ الإيمان كَمُلَتِ المُعاداة وانتفت الموالاة، وإذا وجدت الموالاة ضعف الإيمان، وإذا ضعف الإيمان أيضًا وجدت الموالاة.

٤ - الإشارة إلى أنه يجب أن يتخذ المؤمنون أولياء من المؤمنين، وهذا هو مقتضى الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]، فالواجب على المؤمن أن يتخذ له أولياء من المؤمنين.

٥ - أنَّ اتخاذ الكافرين أولياء من كبائر الذنوب.

ووجه الدلالة: أن الله تبرأ منهم؛ وتعليق الحكم، أو تعليق البراءة بحكم من الأحكام يدل على أنه من كبائر الذنوب.

٦ ـ أن الله - سبحانه وتعالى - وليُّ المؤمنين؛ ووجهه: أن الذي يتخذ الكافرين أولياء ويدع المؤمنين يتبرأ الله منه؛ لأنه ليس من المؤمنين في شيء، فلم يكن الله منه في شيء.

وهذا له شاهد من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد صحَّ في الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - فيما يرويه عن ربِّه أن الله - سبحانه وتعالى - قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»(١).

٧ ـ سهولة الإسلام ويسره؛ حيث رفع الحرج عن الأمة؛ وذلك بما أباح من اتخاذ التقاة عند الضرورة إليها؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

٨ ـ أنه لا تجوز المداهنة لأعداء الله، وإظهار الرضا بما هم عليه؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

ومعلوم أن التقاة لا تجوز إلَّا عند الضرورة، ومع ذلك ينوي بها الإنسان أنها وقاية مما يخاف منهم، ولا رضي بما فعلوا، أو اطمئنانًا إليه.

٩ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - مع كمال رحمته ومحبته للتوبة، إلَّا أنه في مقام الوعيد يذكر الآيات والكلمات الشديدة القويةَ؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ فإنه من أعظم الأشياء أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولهذا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١٠ ـ إطلاق النفس على الذات؛ لأن المراد بقوله: ﴿نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاته.

يحذركم الله نفسه: أي: ذاته.

والتعبير بالنفس أولى من التعبير بالذات، وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء.

لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصحى كما قال شيخ الإسلام «ابن تيمية»، وإنما هو متلقى من اصطلاح عرفي.

وأصله: أن «ذات» تستعمل مضافة فيقال: ذاتُ جمالٍ، ذاتُ دِينٍ، ذاتُ مَالٍ، وما أشبه ذلك؛ فيعبرون بالذات عن العين المتصفة بصفات، ثم سلبوها من الإضافة وعبَّروا بكلمة (ذات) مجردة عن الإضافة.

١١ ـ وجوب ردِّ الأشياء إلى الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

١٢ - تكرار التحذير إذا كان المقام يقتضي ذلك من أعلى أنواع البلاغة؛ لأن قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، تحذير ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، هذا أيضًا تحذير آخر؛ لأنه تهديد ووعيد لمن خالف ما حذر الله منه.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]

❁ التفسير ❁

﴿قُلْ﴾: الخطاب للرسول ﷺ. ولكن لا بأس أن يقوله من يحتاج إليه، وإن كان غير الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

﴿تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾:

والذي في الصدور هو ما تُكِنُّه القلوب، وجعله في الصدور؛ لأن القلوب في الصدور، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقوله: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ عامٌّ في كل شيء، من الخير أو من الشر، أو العداوة أو الولاية، أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾: ﴿يَعْلَمْهُ﴾: بالجزم؛ جوابًا للشرط في قوله: ﴿إِن تُخْفُوا﴾ يعلمه الله - عزَّ وجلَّ -، وهو - سبحانه وتعالى - عالم به قبل أن تخلق الصدور وما فيها، ولكن يعلمه أيضًا بعد أن يقع في الصدور عِلمَ وقوع، وأما علمه السابق فهو علمٌ بما سيكون.

وأما بعد وقوع الشيء فهو علم بالشيء بعد كونه.

فلله - سبحانه وتعالى - فيما يكون بالنسبة للعلم اعتباران:

الاعتبار الأول: باعتبار ما سيكون.

والاعتبار الثاني: باعتبار ما كان.

وبهذا التقرير يزول الإشكال الذي يرد على النفس، ويورده كثير من الناس، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد:٣١].

فيقول: أليس الله - عزَّ وجلَّ - قد علم المجاهدين والصابرين من غيرهم في الأزل؟

فالجواب: بلى؛ لكن علمه في الأزل علم بما سيكون، وعلمه بعد كون الشيء علم به كائنًا، وفرق بين الأمرين. هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن علمه الأزلي لا يترتب عليه عقاب ولا ثواب، وعلمه بالشيء بعد كونه هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؛ فيكون معنى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿وَيَعْلَمُ﴾: بالرفع على الاستئناف؛ والتقدير: وهو يعلمُ.

ولا يجوز في مثل هذا الجزمُ عطفًا على ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، فإنه يجوز، (فيغفرْ) لمن يشاء، ويجوز: (فَيَغْفِرُ)، ويجوز (فيغفرَ)، ثلاثة أوجه.

لكن في هذه الآية لا يجوز سوى الرفع؛ لأننا لو جعلناه بالجزم، صار علم الله بما في السموات وما في الأرض مُقَيَّدًا بقوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾؛ لأن المعطوف على جواب الشرط له حكم جواب الشرط، وجواب الشرط معلق بفعل الشرط.

وعلى هذا فيتعين في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ الاستئناف والرفع، ولا يجوز الجزم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَا﴾: من الأسماء الموصولة، وكلُّ اسم موصولٍ فإنه يفيد العموم، سواء كان من صيغ الجمع كـ (الَّذين) و(اللَّائي)، أو من صيغ المفرد كـ (الَّذي) و(الَّتي)، أو من الصيغ المشتركة كـ (ما)، و (من) وعليه فجميع الأسماء الموصولة بأصنافها الثلاثة كلها تفيد العموم.

ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]، أين الخبر: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ فجعل الخبر جمعًا، مع أن المبتدأ مفرد؛ لأنه مفرد في اللفظ، لكنه عام في المعنى. فكل ما في السموات فهو معلوم لله - عزَّ وجلَّ -، وكل ما في الأرض فهو معلوم لله - عزَّ وجلَّ -، بعلمه الأزلي القديم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ قَبْلَ خَلْقِ السَّمُوَاتِ وَالأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(١)، ولا يكتب إلَّا ما كان معلومًا عنده - عزَّ وجلَّ -.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: خَتْمُ الآية ببيان عموم قدرته، إشارة إلى أن الله تعالى قد وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ علمًا وقدرة، وأنه قادر على الانتقام منكم فيما إذا أخفيتم ما لا يرضاه، ولكنه لحكمته قد يؤخر الانتقام.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، الصيغة عامة في القدرة، فنقول: هو قادر على كل شيء.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦).

فكل ما شاءه الله فهو قادر عليه، كما جاء في الحديث القدسي: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[(١)].

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ وجوب إبلاغ الناس بعلم الله تعالى بما في صدورهم؛ لقوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ عموم علم الله - عزَّ وجلَّ - بما أخفاه الإنسان وما أبداه.

٣ ـ أن العقل في القلب، والتدبير في القلب، والإرادة في ا لقلب؛ لأنه قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾. وهذه المسألة اختلف فيها أهل الكلام. هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ ولكن من تأمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وجد أن العقل في القلب.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وهذه الآية نصٌّ صريح على أن العقل في القلب، ونصٌّ صريح على أنه ليس المراد بالعقل القوة المعنوية التي في المخ، وإنَّما المراد بالقلب القلب الحقيقي، قطعة اللحم التي في الصدر؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ والخالق أعلم بما خلق. ولكن الدماغ لا شك أن له تأثيرًا؛ لأن الدماغ يتصور الشيء ويرتبه ويجهزه، ثم يرسله إلى القلب، وينتظر الأوامر، ثم يصدر القلب الأوامر إلى المخ، والمخ يوجه الأوامر إلى الجوارح.

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، إِلَّا وَهِيَ القَلْبُ»[(٢)].

وأما ما اشتهر عند الأطباء الآن أن القلب مضخة فقط، مضخة يصفي الدم ويرسل، ويستقبل الدم الفاسد وينظفه ويرسله إلى العروق والشرايين، فهذا ليس بصحيح.

نوافقهم على أن للدماغ تأثيرًا، ولكن وجه التأثير فيه أنه ـ بإذن الله ـ قابل لكل ما يأمُر به القلب.

٤ ـ في هذه الآية أيضًا ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله وليس له فيه إرادة. ووجه الرد عليهم: أن الله أضاف الفعل إلى الإنسان فقال: ﴿إِن تُخْفُوا۟﴾، إن تبدوا.

٥ ـ أن الله محيط بكل شيء علمًا، حتى ما بين جوانح الإنسان؛ لقوله: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

(٢)متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، فلا يخفى عليه شيء مما في نفس الإنسان؛ بل زد على ذلك أنه يعلم ما لم يُحدِّث به الإنسان نفسه، بأنه سَيُحَدِّث به نفسه، في الوقت والمكان المعين.

٦ ـ التحذير من أن يُسِرَّ الإنسان في نفسه ما لا يرضي الله؛ لأن الله إنما أخبرنا عن علمه بذلك تحذيرًا لنا من أن نخفي في صدورنا ما لا يَرضَى.

٧ ـ عموم علم الله في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والآيات في العلم متنوعة؛ تارةً تكون مجملة، وتارةً تكون مفصلة، وتارةً تكون فيما يتعلق بفعل الإنسان، وتارة تكون فيما يتعلق بفعل الله - عزَّ وجلَّ -؛ لأن صفة العلم متى آمن بها الإنسان أوجب له ذلك أمرين:

الأمر الأول: الهروب من معصية الله، فلا يجده الله - عزَّ وجلَّ - حيث نهاه.

الأمر الثاني: الرغبة في طاعة الله، فلا يفقده حيث أمره؛ لأنه يؤمن بأن الله تعالى يعلمه.

٨ ـ إثبات السموات، وأنها جمع، وقد صَرَّحَ الله في كتابه أنها سبع؛ فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]. وأما الأرض فإنها تأتي مفردة، ولم تأتِ في القرآن مجموعةً، لكن جاءت في السنة مجموعة، وفي القرآن إشارة إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإن المثلية هنا بالكيفية متعذرة، وإذا تعذرت المثلية في الكيفية، لزم أن تكون المثلية في العدد؛ كما نقول: «سُبْحَانَ الله عَدَدَ خَلْقِهِ، وَالحَمْدُ لله مِثْلَ ذَلِكَ» أي: عدد خلقه.

٩ ـ إثبات قدرة الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وعموم هذه القدرة لقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٠ ـ إرشاد الإنسان إلى أن يتعلق بربِّه؛ لأنك متى علمت أن الله على كل شيء قدير، فإنه لن يمنعك مانع من أن تلتجئ إليه - سبحانه وتعالى - بسؤال ما تريد.

لا يستبعد شيئًا، ولهذا قال الله تعالى منبهًا على هذا الأمر: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة:٧]، ومعلوم أن العداوة بين المؤمنين والكافرين أمر ثابت، وأن الإنسان قد يستبعد أن يجعل الله في قلبه مودة لهذا الكافر؛ فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنه:٧]، ﴿قَدِيرٌ﴾: بالنسبة لتقليب القلوب. ﴿غَفُورٌ﴾: بأن يُيَسِّر هؤلاء الكفار إلى الإسلام، فيغفر لهم. وقد وقع؛ فإنه أسلم عام الفتح، وقبل عام الفتح، أمة من الكفار، وصارت العداوة في قلوب المؤمنين لهم مودة.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]

❁ التفسير ❁

﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان. تقديره: «اذكر يوم تجد» اذكر للناس وذكرهم بهذا اليوم العظيم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والمراد بالكلية هنا: كلية النفوس المكلفة، وهم: الإنس والجن؛ فإن هؤلاء مكلفون بعبادة الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، أما البهائم فإنها لا تجد ما عملت، لكن يوفى لها الظلم إن ظلمت، كما أخبر النبي ﷺ بأنه: «يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الجلحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

و﴿مَّا﴾: هنا اسم موصول مفعول أول.

و﴿مُّحْضَرًا﴾: مفعول ثانٍ.

و﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: جار ومجرور بيان لـ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾.

وجملة ﴿عَمِلَتْ﴾ صلة الموصول، وعائد الموصول محذوف، والتقدير: ما عملته من خير محضرًا.

وقوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ يشمل كل ما عملت، قلَّ أو كثُر.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

وقوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾ الذي يحضره الله - عزَّ وجلَّ -، إما بقوله، وإما بملائكته، أو هو - عزَّ وجلَّ - يأمر فيحكم.

وقوله: ﴿مُّحْضَرًا﴾ قد يتبادر للذهن أن هذا العمل يكون جسمًا، فيحضر كما تحضر الدراهم لمن يستوفيها، وإذا كان هذا مراد الله - عزَّ وجلَّ -، فليس بغريب أن تجعل الأعمال وهي أمر معنوي أجسامًا. وهذا هو ظاهر القرآن الكريم أن الأعمال توزن، والوزن لا يكون إلَّا لجسم كثيف، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، وليس هذا بغريب على قدرة الله - سبحانه وتعالى -.

فها هو الموت ـ وهو زوال الحياة ـ يمثل يوم القيامة بكبش، ويوقف بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل النار، ويا أهل الجنة، فيطلعون فيقال لهم: تعرفون هذا؟ فيقال: هذا الموت، فَيُذْبَح ويقال: يا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣٥)، والترمذي (٢٤٢٠).

أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت»[1]، وحينئذ يزداد أهل الجنة سرورًا إلى سرورهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم، - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾:

الواو: هذه يحتمل أن تكون استئنافية؛ فتكون (ما) مبتدأ، ويحتمل أن تكون عاطفة، فتكون (ما) معطوفة على (ما) الأولى، أي: ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء محضرًا كذلك.

فعلى الأول: تكون جملة ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، خبر (ما).

وعلى الثاني: يكون في الكلام حذف، تقديره: (وما عملت من سوء محضرًا).

ولكن المعنى الأول أظهر؛ لأن الأصل عدم الحذف.

والاستئناف كثير وارد في اللغة العربية، وهو هنا أبلغ؛ لأن ما عملت من سوء قد يحضر، وقد يقر به الإنسان ولا يحضر، والكلام هنا عام يشمل المؤمنين والكافرين، والمؤمن في حسابه لا يحضر له عمله السيئ، إنما يُقِرُّ بذنوبه؛ يخلو به الله - عزَّ وجلَّ - فيقرره، ويقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، فيقول: نعم، فيقول الله له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. أما الكفار فيحضر عملهم.

قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

لأن سيئات الكفار لا تمحى، بل تحضر ويحاسبون عليها.

وبهذا يتبين أن إعراب الواو استئنافية و (ما) مبتدأ، أظهر من أن تكون عاطفة و (ما) معطوفة على ما سبق.

وقوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾:

أي: زمنًا طويلًا أو مكانًا بعيدًا، وتود أنها لم تعمله، وتَذْكُره، ولم يحضر لها، إن كانت ممن يحضر لها العمل السيئ.

والودُّ: خالص المحبة، أي: تحب محبة شديدة من كل قلبها، لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.

و ﴿لَوْ﴾: مصدرية؛ لأنها إذا وقعت بعد (ودَّ) تكون مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، يعني: ودوا أن تُدهن، وفي قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ [البقرة:١٠٩]، أي: أن يردوكم.

و ﴿لَوْ﴾ داخلة على فعل محذوف، تقديره: تود لو حصل أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٣٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٤٩).

ويصح أن نقول: ﴿لَوْ﴾ زائدة، والتقدير: تود أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾:

كرر ذلك: لأن المقام يقتضيه، يقتضي التحذير؛ أي: احذر الله - عزَّ وجلَّ -، احذر الله أن يصيبك بعقابه إذا عصيته وخالفت أمره.

والأول: يحذركم الله نفسه في العمل في موالاة الكفار.

والثاني: في الجزاء؛ لأنه ذكره بعد أن ذكر الجزاء الذي يكون يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾:

فيها قراءتان: القراءة الأول: رؤوف، والقراءة الثانية: رؤف بدون واو.

والرؤوف: مفعول من الرأفة وهي أشد الرحمة، وأرق الرحمة؛ لأن الرأفة فيها شيء من الرقة واللين أكثر مما في الرحمة. وقوله: ﴿بِالْعِبَادِ﴾، جمع عبد، والمراد بهم: الخلق، فهو من العبودية العامة.

استشكل بعض العلماء إتيان قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، بعد قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

وقال: كان مقتضى الحال أن يقال: (ويحذركم الله نفسه والله شديد العقاب) لأن مقام التحذير يقتضي الوعيد.

فأجيب عن ذلك: بأن من رأفته - عزَّ وجلَّ - بالعباد أن حذرهم نفسه، وأخبرهم بأن الأمر عظيم؛ لأن إخبار الإنسان بحقيقة الحال لا شك أنه من الرأفة به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ التحذير والتذكير لهذا اليوم العظيم الذي يجد فيه الإنسان ما عمل من خير أو سوء.

٢ ـ وجوب - أو على الأقل استحباب - تذكر الإنسان لهذا اليوم؛ لأن التقدير بـ (اذكر) يشمل الذكر الخبري والذكر الفكري؛ أي: التدبر في القلب.

٣ ـ ثبوت الجزاء لكل نفس. وهل هذا على عمومه، أو مستثنى منه من لا يكلف؟ يحتمل؛ إن نظرنا إلى عموم اللفظ قلنا: إنه شامل، وغير المكلف يكتب له ولا يكتب عليه؛ فيكون ما عمل من خير محضرًا، وما عمل من سوء فهو مرفوع عنه.

ويحتمل أن يراد بها النفوس التي يلحقها الجزاء عقوبة وكرامة، وهي الأنفس المكلفة.

ولا شك أنه ليس على عمومه فيما يتعلق بالبهائم، فإن البهائم لا تجد هذا.

٤ ـ كمال قدرة الله - عزَّ وجلَّ - بإحضار ما عمله الإنسان من قليل وكثير؛ لقوله: ﴿مَا﴾ الموصولة التي تفيد العموم.

٥ - كمال رقابته - عزَّ وجلَّ -، وأنه لا يفوته شيء، فما عمل الإنسان فسوف يجده.

٦ - إثبات اليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء.

٧ - أن الشر يسوء صاحبه؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾.

٨ - إثبات الشعور في ذلك اليوم، لقوله: ﴿تَوَدُّ﴾ لأن المودة: خالص المحبة، وهي فرع من الشعور بالشيء.

٩ - كراهة المسيء لما عمله في ذلك اليوم، وأنه يحب أن يكون بينه وبينه كما بين المشرق والمغرب؛ لقوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

وهكذا يود الإنسان أن يكون بينه وبين عمله السيئ الأمدُ البعيد، وبينه وبين قرين السوء الأمد البعيد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٨] فهم في الدنيا أصدقاء، لكن في الآخرة أعداء.

١٠ - رحمة الله تعالى بعباده بتحذيرهم نفسه، لئلا يقعوا في عقوبته ونقمته؛ لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

١١ - أنه ينبغي استعمال الأسلوب المناسب للحال. فالله - عزَّ وجلَّ - قال في هذه الآية: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، وفي آيات كثيرة يتحبب إلى عباده - عزَّ وجلَّ - ويتودد إليهم؛ لأن هذا المقام الذي نحن فيه مقام تحذير وتهديد.

١٢ - إثبات الرأفة لله - عزَّ وجلَّ -، بل إثبات الاسم والصفة في قوله: ﴿رَءُوفٌۢ﴾ والرأفة: أشد الرحمة وأرقها. وتأمل قول الله تعالى عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. وقوله عن نبيه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فإن رأفة الله عامة، أما رأفة النبي ﷺ فهي خاصة بالمؤمنين.

أما الكفار والمنافقون فلا يرأف بهم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، هذه وصية الله لنبيه في الكفار والمنافقين، وفي جَلْد الزاني قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]. لكن الرب - عزَّ وجلَّ - رءوف بعباده، يسعهم حلمه ورحمته وعافيته ورزقه.

١٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه بالنسبة إلى ربِّه أنه عبد، والعبد يجب أن يكون منقادًا لأمر الربِّ، وأن يكون ذليلًا له - سبحانه وتعالى - شرعًا كما أنه ذليل له قدرًا.

فكل الناس أذلاء لله قدرًا، لا يستطيعون أن يخالفوا قَدَرَهُ.

وأكبر واحد في الدنيا، وأشدهم عتوًّا، يمرض ويموت، وهذا خضوع للربوبية القدرية.

لكن من ليس بمؤمن ليس بخاضع للربوبية الشرعية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]

❁ التفسير ❁

هذه الآية يسميها بعض السلف آية المحنة، أي: آية الاختبار والامتحان؛ وذلك أن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يتحداهم بهذا الميزان، وهو: إن كانوا صادقين فليتبعوا الرسول ﷺ، سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنافقين: المهم: أي واحد يدَّعي أنه يحب الله فهذا الميزان ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨]، إذا كانوا صادقين فليتبعوا الرسول. أما مجرد دعوى:

فَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا لِلَيْلَى ... وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

كل يدعي أنه يحب الله؛ لأن الدعوى سهلة.

لكن الكلام على البينة، والبينة على المدعي، فإذا كانوا يحبون الله حقًّا فليتبعوا النبي ﷺ؛ لينالوا ما هو أعظم من دعواهم، وهو محبة الله لهم.

ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فالشأن ليس أن تُحِب بل الشأن أن تُحب، أما أن تُحِب ولا تُحب، فهذا عذاب.

انظروا إلى بريرة ومغيث: خيَّرها النبي ﷺ قال: «اخْتَارِي لِنَفْسِكِ»[1]، قالت: لا أريد الرجل، تعني: زوجها، فطلبت الخيار لنفسها والشرع يمكِّنها من ذلك، فكان زوجها يبكي وراءها في السوق، وفي أزقة المدينة، يطلب إلَّا تختار نفسها، فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: اشفع لي يا رسول الله عندها.

فكلَّمها النبي ﷺ، قال لها: «ارْجِعِي إِلَى مُغِيث». قالت: يا رسول الله! إن كنت تأمرني، فسمعًا وطاعة، وإن كنت تشير علي فلا حاجة لي فيه».

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٠٤)، والترمذي (١١٥٤).

قال: «بَلْ أَشِيرُ»، قالت: لا حاجة لي فيه[1]. أي أنها لم تقبل شفاعة النبي ﷺ ولم ترحم الرجل الذي يمشي وراءها يبكي في الأسواق، والخطاب في الآية للرسول ﷺ، إذا وُجِه إليه بـ ﴿قُلْ﴾ في القرآن فهو دليل على العناية بهذا القول الذي أمر أن يقوله؛ لأن هذا أمر بالتبليغ الخاص لهذا القول. أما القرآن كله فقد أمر أن يقوله كله لكن بعض الأشياء يُخص بـ (قل) مثل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وما أشبه ذلك، فهذا أمر بتبليغ هذا الشيء الخاص بعينه فيكون في ذلك توكيد ودليل على العناية به، وهذه لا شك يجب الاعتناء بها.

فلا يكفي أن يأتي إنسان ويقول: أنا أحب الله، أنا حبيب الله. كما يدعي أناس أنهم أولياء لله. ولكن الذي يزعم أنه من أولياء الله نمتحنه، ننظر هل هو مؤمن تقي فهو صادق، أو هو عاصٍ فاسق دجال يريد أن يُشرَك به مع الله في المحبة والطاعة، فهو عدو وليس بولي؛ لأن الله قال في ميزان الأولياء: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾، إن الخطاب هنا غير معلوم بالشخص المخاطب، لكنه معلوم بالمعنى.

يُستفاد معناه مما بعد؛ أي: قل لمن ادعى أنه يحب الله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ والجملة هنا شرطية، وفعل الشرط: ﴿كُنتُمْ﴾ وجوابه ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾.

وجاءت الفاء في الجواب لأن الجملة طلبية؛ وإذا كانت جملة الجواب طلبية وجب اقترانها بالفاء.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: على ما أنا عليه من الشريعة، عقيدة وقولًا وفعلًا وتركًا، فمن اتبع الرسول ﷺ بهذه الأربعة صدق في اتباعه، ومن خالف فهو غير صادق.

عقيدةً: بحيث تكون عقيدته على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه لا تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ولا شك ولا تردد؛ بل إيمان كامل خال من جميع الشوائب.

وقولًا: لا يزيد ولا ينقص عمّا جاءت به الشريعة من الأقوال.

وفعلًا: كذلك لا يزيد ولا ينقص.

وتركًا: بحيث يترك ما لم يعمله الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فكل ما لم يتعبد به الرسول يجب عليه ألّا يتعبد به.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٨٣)، والنسائي (٥٤١٧)، وأبو داود (٢٢٣١).

فإن تعبَّدَ به ولو أنه يقول: إنه يحب الرسول فإن دعواه كاذبة، لو كنت تحبه حقًّا لاتبعته حقًّا، ولذا نجد الإنسان من بني آدم إذا أحب شخصًا غير الرسول.

تجده يترسم خطاه، يعجب به وينظر ماذا يفعل ويفعله.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾: هذه فُك إدغامها، ولذلك ظهر السكون فيها، وفي غير القرآن لو قيل يحبكم الله لكان صحيحًا؛ لأن الإدغام هنا وفكه يجوز.

قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

هذه الثمرة الأولى، والنتيجة التي يسعى إليها كل إنسان، أن يكون محبوبًا لدى الله - سبحانه وتعالى -، والثانية: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فائدتان عظيمتان: محبة الله لك ومغفرة ذنوبك.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: كل ما عملتم من الذنوب يغفرها لكم، ولكن هل نقول: إنه يغفر وإن لم يستغفر الإنسان منه؛ لأن حسنة الاتباع تمحو هذا الذنب، ومحبة الله للإنسان توجب عدم عقوبته.

أو نقول: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بأن ييسر أسباب المغفرة إن لم يغفر لكم بدون سبب، يحتمل أنه - سبحانه وتعالى - أراد أنه يغفر الذنوب بسبب هذا الاتباع والمحبة، أو أنه وإن فعل الإنسان ما فعل فإنه ييسر له أسباب المغفرة بأن يعود من معصية الله إلى طاعته. والله أعلم. لكن على كل حال الوعد هنا محقق، وهو مغفرة الذنوب إما بسبب من العبد أو لمجرد فضل الله.

وقوله: ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: الذنب هو: المعصية، وهو جمع مضاف لمعرفة، والجمع المضاف إلى معرفة يفيد العموم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الجملة اسمية اشتملت على ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، والغفور، والرحيم، فأما معنى «الله» فقد سبق بأنه: المألوه أي: المعبود حبًّا وتعظيمًا، وأن أصل (الله) الإله، فحذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال كما حذفت من الناس ومن شر وخير.

وأما الغفور: فالغفور هنا يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون صفة مشبهة، والمعنيان لا يتنافيان فتكون صفة مشبهة وصيغة مبالغة، صفة مشبهة؛ لأن الله لم يزل ولا يزال غفورًا، وصيغة مبالغة؛ لكثرة من يغفر له وكثرة ما يغفره من الذنوب.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست مجرد الستر، لوجهين: لُغوي وسمعي.

أما اللُّغوي: فلأن المغفرة مأخوذة من المِغْفَر الذي يستر به المقاتل رأسه ويتقي به السهام، والمغفر جامع للستر والوقاية.

وأما السمعي: فلما ورد في كيفية محاسبة الله لعبده المؤمن أنه يخلو به ويقرره بذنوبه، فيقول:

«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

وأما الرحيم: فهو ذو الرحمة وهو صالح أيضًا لأن يكون صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، والرحمة: صفة تقتضي العطف والإحسان على المرحوم، والجمع بينهما، بين الغفور والرحيم، لفائدة عظيمة: وهي الجمع بين الوقاية والعناية، بين الوقاية بالمغفرة يقيك الله - سبحانه وتعالى - شر الذنوب، والعناية بالرحمة، يعتني الله بك فييسرك لليُسرى ويجنبك العسرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يتحدى هؤلاء المدعين لمحبته بهذا الميزان القسط، وهو اتباعهم للرسول - عليه الصلاة والسلام -.

٢ - جواز مخاطبة المدعي بالتحدي؛ لأن هذا هو الحق، لأنه لو كان يعرف نفسه ما ادعى اتصافه بشيء لم يتصف به، فهو الذي أذل نفسه في الواقع، فلا تخش من تحديه ليقم الدليل والبرهان على دعواه.

٣ - أنها مصداق لقول النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»(٢)، وهذه وإن كانت في دعوى الناس بعضهم مع بعض لكنها في الحقيقة قاعدة عامة، فكل مدَّعٍ لابد أن يقيم بينة على دعواه.

٤ - أن محبة الله تعالى غاية لكل الناس حتى من غير المؤمن؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

٥ - أن رسول الله ﷺ رسول الله حقًّا، وجه ذلك: أن الله جعل اتباعه سببًا لمحبة الله للعبد.

٦ - أنه كلما قوي اتباع الإنسان للرسول ﷺ كان أقوى برهانًا على صدق محبته لله، فهذه من علامة محبة الإنسان لربه، فإذا رأيت الإنسان شديد الاتباع لرسول الله ﷺ فاعلم أنه شديد المحبة لله.

٧ - أن اتباع النبي ﷺ سبب لمحبة الله للعبد؛ لقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

٨ - أنه ينبغي للإنسان أن يجيب غيره بما هو أكثر من سؤاله إذا دعت إليه الحاجة؛ لأنه لم يقل: فاتبعوني تحبوا الله، بل قال: يحببكم، ولا أحد يحبه الله إلَّا وهو يحب الله؛ لأنك إذا أحببت الله عملت فأحبك الله. فلهذا أتى بالثمرة المهمة وهي محبة الله للعبد.

٩ - إثبات المحبة بين العبد والرب من الجانبين؛ لأنه قال: ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ فأثبت أن الإنسان يحب الله، وقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فأثبت أن الله يحب الإنسان، وهي محبة حقيقية خلافًا لمن أوَّلها.

قال: تحبون الله: أي تحبون ثوابه، يحببكم الله: أي يثيبكم الله، فإن هذا تحريف.

وسبب هذا التحريف القاعدة الباطلة للسمع والعقل؛ وهي: تحكيم العقل فيما يثبت وينفي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٣٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٩٧).

عن الله - عزَّ وجلَّ -، فإن قومًا ادَّعوا العقلية قالوا: نحن الذين نحكم على الله بما يجب له أو يجوز أو يمتنع، وليس ما أخبر الله هو الذي يحكم بيننا، هذا لازم قولهم وإن كانوا لا يصرحون بهذا.

والله إن الإنسان يجد طعمًا لا شيء يشبهه في محبة الله، ومحبة الله غير محبة الثواب، فإذا وقعت في قلبك محبة الله نسيت كل شيء حتى الجنة، فتحبه حتى إنك ترى أن كل شيء يضمحل ويكون عبدًا لله أمامك. ولهذا جاء في الحديث - وإن كان فيه ما فيه - «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ»(1)، وكل النعم من الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وأكبر نعمة على الإنسان هي أن يهديه للإسلام كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣]، الإنسان الذي هداه الله للإسلام ليس أحد من الناس مثله في النعمة إِلَّا من أنعم عليه بها، فأنت في الحقيقة تحب الله نفسه لذاته ولما أنعم عليك به من النعم، وليست محبة الله كمحبة الزوجة أو كمحبة الطعام، أو كمحبة الشراب، أو كمحبة اللباس، أو كمحبة السكن، أو كمحبة السيارة؛ كلا فإن محبة الله لا يشبهها شيء، وجرِّب تجد، اجعل قلبك صافيًا يومًا من الدهر وصلِّ وكن متصلًا بالله في صلاتك تجد شيئًا لا يخطر بالبال. وتجد شيئًا يبقى أثره مدة طويلة وأنت تتذكر تلك اللحظة التي كنت فيها متصلًا بربك - عزَّ وجلَّ -.

فالحاصل: أننا نقول: لا أحد ينكر محبة الله نفسِه إِلَّا من حُرمها، والله لو نعتقد أننا نحب ثواب الله دون الله ما حرصنا كل الحرص على الأعمال الصالحة، مع أننا مقصِّرون لم نعمل شيئًا، لكننا نقول: إن الإنسان يعمل العمل الصالح لله، لا يعني ذلك أننا لا نلاحظ ونحتسب الثواب.

لسنا صوفية يقولون: من عمل للثواب فهو للتراب، بل نقول: نحن نحب الله ونحب ثوابه.

لكن الأصل هو محبة الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، والحسنى: الجنة كلها بما فيها من نعيم، والزيادة: هي النظر لوجه الله.

فجعل النظر لوجه الله أمرًا زائدًا على النعيم؛ لأن الإنسان - جعلني الله وإياكم ممن ينظر إليه - إذا نظر إلى ربه - جل وعلا - فهذا أكمل ما يجد من النعيم واللذة.

فلهذا نقول: إن محبة الله - عزَّ وجلَّ - حقيقة ولا مانع منها.

أما قولهم: إن المحبة لا تكون إِلَّا بين متلائمين ولا ملاءمة بين الخالق والمخلوق.

فالجواب عنها أن نقول لهم: إن هذه دعوى باطلة يبطلها الواقع، ألستم تحبون منازلكم وثيابكم ومركوباتكم، ولو أن إنسانًا عنده بعير صلف شديد لا يحجزه اللجام، وبعير سهل الانقياد سلس المشي فأيهما أحب إليه؟ الثاني أحب إليه، ثم على فرض أن هذا يكون بين المخلوقات، وليس بين الخالق والمخلوق، فيقال: إن الله أثبت وهو أعلم أنه يُحِب ويُحَب.

---

(1) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٧٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٦٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

إذنْ في هذه الآية رد على من ينكر محبة الله، المحبة بين الإنسان وبين الرب. والناس في هذا ثلاثة أقسام:

قسم قال: لا محبة بين العبد والرب من الجانبين.

وقسم قال: لا، بل تثبت المحبة بين العبد والرب من الجانبين.

والثالث: قال: إن الله يُحب ولا يُحِب. والقرآن والسنة يرد على طائفتين ويؤيد طائفة، من نفى المحبة بين الطرفين فقوله باطل، ومن تناقض فأثبتها من جانب العبد دون الرب فقوله باطل أيضًا، فالأول: قوله باطل وإن كان قوله مطردًا، فقوله مطرد لكنه باطل.

والثاني: قوله متناقض وهو باطل أيضًا، ومن أثبتها بين العبد والرب فهذا هو الذي على الحق؛ لأن الله أثبت ذلك.

١٠ - الثمرة الجليلة باتباع رسول الله ﷺ وذلك بمحبة الله للعبد.

١١ - أنه ينبغي للإنسان إذا عمل العمل أن يستشعر أنه متبع بذلك لرسول الله ﷺ.

١٢ - أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، حيث جعل الاتباع برهانًا عل صدق دعوى المحبة، وجعل الجزاء من جنسها، أن الله يحب العبد.

١٣ - أن اتباع رسول الله ﷺ سبب لمغفرة الله للذنب؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

١٤ - كمال إحسان الله - سبحانه وتعالى - لجزائه على العمل أكثر منه؛ لأن الذي يتبع الرسول يحصل له محبة الله ومغفرة الذنوب.

١٥ - إثبات هذين الاسمين وما تضمناه من صفة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففيهما إثبات الاسمية لله في هذين الاسمين، والثاني إثبات الصفة التي تضمناها.

ومن المعلوم أن كل اسم من أسماء الله يدل على معناه الخاص به، لكن اجتماع الاسمين يدل على معنى ثالث؛ وهو: الجمع بين مغفرة المعائب والرحمة بالعناية بالفضائل؛ لأن المغفرة مقابل الذنوب، والرحمة مقابل العناية بالإنسان، إن الله تعالى يرحم الإنسان، فيحصل من اجتماع هذين الاسمين صفة ثالثة، وهي جمع الرب - سبحانه وتعالى - بين الإحسان والوقاية من الذنوب وآثارها بالمغفرة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢]

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ.

والطاعة هي عبارة عن: الانقياد والموافقة سواء كانت في فعل أو في ترك؛ فإن كانت أمرًا فالطاعة فعل المأمور به، وإن كانت نهيًا فالطاعة اجتناب المنهي عنه.

وقوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾، أتى بالواو الدالة على التشريك لأن طاعة الرسول ﷺ فيما يُؤمر به من الشريعة من طاعة الله، وأما فيما لا يُؤمر به من الشريعة فلا شك أنه أعظم الناس حقًا علينا.

ولكن قد يشير بالشيء أو قد يشفع بالشيء ولا يلزم طاعته في الشفاعة، كما في قصة بريرة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة:٥٩].

ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن هذا إتيان شرعي لا قدري؛ لأن الأمور القدرية لا يمكن أن يشرك فيها الرسول مع الله بـ (الواو).

وقوله: ﴿وَالرَّسُولَ ﴾: (أل) فيها للعهد وليست للاستغراق، والمعهود رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله.

والرسول: عند عامة العلماء من أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه.

والنبي: من أوحي إليه بشرع يتعبد به ولكن لم يُكلف بتبليغه.

فآدم ـ عليه السلام ـ نبي؛ لأنه أُوحي إليه بشرع لكنه ليس برسول؛ لأنه لم يلزم بتبليغه، لكن ذريته في ذلك الوقت كانوا يتبعونه؛ لأنهم قلة ولم يكثروا فيحصل النزاع بينهم ولم تفتنهم الدنيا، كانوا يتبعون أباهم فيما يتعبد به من شريعة الله.

فلما كثر الناس واختلفوا بعث الله النبيين، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة:٢١٣]، فصار الرسول أخص من النبي.

وعليه فنقول: كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، لكن الأنبياء الذين ذُكِروا في القرآن بلفظ النبوة هم أنبياء ورسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨]، فأفادت الآية الكريمة أن كل من قصَّه الله في القرآن فهو رسول وإن كان لم يرد ذكره إلَّا بلفظ النبوة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: فإن أعرضوا عن الطاعة ولم يمتثلوا لها ولم ينقادوا، وهذا كُفر منهم، ولكنه قد يكون مخرجًا من الإسلام وقد لا يكون مخرجًا، فإنْ كان كفرًا مطلقًا بكل ما أُمِروا به فهو كفر مخرج عن الإسلام، وإن كان كفرًا مقيدًا ببعض الأوامر فهو كفر دون كفر لا يُخرِج من الإسلام، والميزان في ذلك النصوص، فما دلَّت النصوص على أنه كفر كان التولي عنه كفرًا مخرجًا عن الملة، وما دلَّت النصوص على أنه معصية فهو كفر لا يُخرِج من الملة.

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فسَّر بعضهم نفي المحبة بأن المعنى لا يثيبهم ولكن هذا تحريف، والصواب أنه لا يحبهم، وهو إذا لم يحبهم لن يثيبهم، فهذا انتفاء محبة الله عنهم.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو إظهار في محل الإضمار.

ومقتضى السياق أن يقال: (فإن تولوا فإن الله لا يحبهم)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لفائدتين:

إحداهما: لفظية.

والثانية: معنوية.

والمعنوية، تتضمن ثلاث فوائد:

الفائدة اللفظية: مراعاة الفواصل، فواصل الآيات، فإن قال: (فإن تولوا فإن الله لا يحبهم) لم تتناسب هذه الفاصلة مع الفواصل التي قبلها وبعدها.

ومراعاة الفواصل من البلاغة؛ ألم تروا إلى قوله تعالى من سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مع أنه في الآية الأخرى يقدم موسى، وموسى أفضل من هارون ـ لا شك ـ وأحق بالتقديم، لكنه قدم هارون على موسى في هذه الآية من سورة طه من أجل مراعاة الفواصل، ولا شك أن القرآن في قمة البلاغة، فمراعاة الفواصل من البلاغة.

أما الفائدة المعنوية: فنقول: إن قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار، وله ثلاث فوائد معنوية:

الأولى: التسجيل على هؤلاء بالكفر؛ أي: الحكم عليهم بأنهم كفار، ولو قال: فإنه لا يحبهم لم تحصل هذا الفائدة أنهم كفار.

الثانية: التعميم، بحيث تكون محبة الله منتفية عن كل كافر، ولو قال: لا يحبهم لاختصَّ نفي المحبة بهؤلاء فقط.

الثالثة: التعليل، وذلك لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف دلَّ على عِلِّيَّةِ ذلك الوصف فيه، فإذا قلت: أكرِم المجتهد، أي: لاجتهاده، فدلَّ ذلك على أن الاجتهاد هو العلة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ عناية الله - سبحانه وتعالى - بطاعته وطاعة رسوله؛ لأن الآية صدرت بـ ﴿قُلْ﴾، والقرآن كله قد أَمَرَ الرسول ﷺ أن يقوله.

٢ ـ وجوب طاعة رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ وهذا مكرر في آيات متعددة.

٣ ـ الرد على من قال: إن السنة لا يُعمَل بها إِلَّا ما وافق القرآن.

وجهه أن الله قال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ومن المعلوم لو قلنا: إن الرسول ﷺ لا يطاع إِلَّا فيما أَمَرَ الله به لم يكن للأمر بطاعته فائدة؛ لأن كل من أمر بما أمر الله به فإنه مطاع لا لأمره ولكن لأمر الله، فطاعة أمر الرسول طاعة مستقلة.

على أننا نقول: إن الذي يقول: إنه لا يعمل بالسنة إلَّا ما وافق القرآن متناقض، وجهه أن قوله: إلَّا ما وافق القرآن يرد عليه بأنه ليس في السنة ما يخالف القرآن؛ لأن القرآن أمر بالعمل بالسنة، فالعمل بها موافقة للقرآن وليس بمخالفة، سمعت أن بعض الناس أنكر على من استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وقال: إن هذا في قسم الفيء وهذا صحيح، ولكن إذا كان يجب علينا أن نقبل ما قسمه الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الفيء، وأن ننتهي عما نهى عنه؛ فما بالك بالأمور الشرعية، فقبولنا لما جاء به شرعًا أولى من قبولنا بما قسمه مالًا.

٤ - إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

٥ - وجوب الطاعة؛ لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، واعلم أن ترك امتثال الطاعة إن كان سببه كراهة ماجاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فهذا كفر مُخرِج عن الملة كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٩]، وإن كان تكاسلًا وكراهةً لهذا العمل نفسه لا لأن الرسول جاء به، فهذا لا يخرج من الملة، وهذه مسألة يجب التفطن لها والتنبه؛ لأن بعض الناس إذا رأى أن شخصًا كره فلانًا لتطبيقه السنة قال: هذا كره ما أنزل الله، فهذا كافر، وهذا خطأ عظيم.

والكفر ليس نقدًا سهلًا تعطيه مَنْ شئت وتمنعه عمَّنْ شئت، الكفر أمره صعب جدًّا، لا يجوز أن نكفر إلَّا مَنْ تيقَّنا أنه صدق عليه أنه كافر.

ولهذا ربما يكره الإنسان هذا العمل من شخص ولا يكرهه من شخص آخر، إذنْ هو لا يكره العمل لأنه سنة، لكن قد يكره هذا الرجل نفسه؛ لأنه عمل به، لو أن أحدًا من الناس الموثوقين عند العامة فعل هذا الفعل لوجدتهم يأخذون به، أو على الأقل لا ينكرونه، لكن لو فعله واحد غير موثوق به ينتقدونه ويكرهونه، والنبي ﷺ يقول: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ يَا عَدُوَّ الله وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**»[1]، ومعنى (حار عليه) أي: أنه سيكفر إلَّا أن يمن الله عليه بتوبة؛ لأنه قال: (إلا حار عليه) ولم يقل: إلَّا أوشك أن يحور عليه.

كل هذا من أجل حماية أديان الناس، فإذا كان الشرع يحمي أعراض الناس بأن من قذف شخصًا وجب عليه الحد ثمانين جلدة، فأديان الناس حماها أيضًا.

فالواجب إلَّا نتسرع في هذه الأمور، وأن نعلم أن الأمر عظيم، ويسعك ما دلَّ عليه شرع الله -

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) واللفظ له.

عزَّ وجلَّ -، فمن كفَّره الله ورسوله فكفِّره. ومع ذلك إذا جاء نصٌّ يقول: من فعل كذا فهو كافر، فلا نطبق هذا الحكم على كل من فعله بعينه، كما أننا لا نشهد بالجنة لكل مؤمن بعينه إلَّا لمن شهد له الرسول ﷺ.

فكذلك أحكام الكفر كأحكام الإيمان تمامًا، واعلم أنك إذا حكمت عليه بالكفر فقد أبحت دمه وماله، وحرمته الجنة وأوجبت له النار، وأوجبت فسخ نكاح زوجاته منه، وألَّا يرثه أحد من أقاربه، وألَّا يُصَلَّى عليه، وألَّا يُدفَن مع المسلمين.

فأحكام الكفر ليست هينة حتى تكون على ألسنة كل أحد.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ هذه الجملة مؤكدة (بإن) لأن المقام يقتضي ذلك، إذ إن المقصود بيان أن الله تعالى يصطفي من الناس من شاء: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]، أي: ومن الناس رسلًا.

وآدم - عليه السلام - هو أبو البشر، خلقه الله تعالى خلقًا مستقلًا وليس متطورًا من جنس آخر أو من نوع آخر قبله كما يقول أهل الإلحاد.

ومن ادعى ذلك فقد كفر بالله؛ لأن الله تعالى أخبر في كتابه في عدة مواضع أن الله خلق آدم من تراب، من صلصال كالفخار، من طين، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجَد له ملائكته.

فمن زعم غير ذلك فهو كافر مصدق لغير الله مكذب لله - والعياذ بالله - مع العلم بأنه لن يأتي أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في ذلك إلى الوحي فإن قوله غير مقبول، لأنه لم يشاهده، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١]، وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فمن ادعى علم شيء ممن سبق فهو كاذب إلَّا ببرهان، وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمنة طويلة جدًّا، فلا يمكن أن نقبل قولًا فيه إلَّا عن طريق

الوحي الصحيح.

وسمي آدم: قيل لأدمته، أي: لونه ليس الأبيض الباهق ولا الأسود الحالك، لكنه بين ذلك.

وخلقه الله - عزَّ وجلَّ - على صورته أي: على صورة الله - عزَّ وجلَّ - تكريمًا له، ولا يلزم من كونه على صورة الله أن يكون مماثلًا له؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فعلينا أن نؤمن بالنصوص كلها، نؤمن بأنه خلقه على صورته، ونؤمن بأنه ليس كمثله.

فإن قلت: كيف يكون على صورته وليس مثله؟

فالجواب: يمكن هذا في المخلوق فما بالك في الخالق، فلقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»(١).

ومن المعلوم أنه لا يلزم التماثل؛ أي: ليس صورتهم كصورة البدر تمامًا، بل من حيث الجمال والبهاء والنور كالقمر ليلة البدر. ثم إن القرآن والسنة لا يُكذِّب بعضهما بعضًا.

وآدم - عليه الصلاة والسلام - أُوحي إليه كما في القرآن الكريم.

ولا شك أنه أُوحي إليه أيضًا من الناحية العقلية؛ وذلك لأنه لا يستقل بعبادة الله؛ أي لا يمكن أن يعرف كيف يعبد الله إلَّا بوحي من الله وهو مخلوق للعبادة. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فدلَّ السمع والعقل على أنه موحىً إليه، ولكن هل كان رسولًا؟ لا، ليس برسول بدلالة الكتاب والسنة.

أما الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، فجعل النبيين من بعد نوح. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، وفي الحديث الصحيح حديث الشفاعة الطويل: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ وَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»(٢).

وعليه فآدم نبي أُوحيَ إليه بشرع وتعبَّد الله به، وبقي الناس على هذا الشرع لأنهم قلة، ولم يحصل منهم اختلاف، فلما اختلفوا بعث الله النبيين كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقوله: ﴿وَنُوحًا﴾، ذكره الله - عزَّ وجلَّ - بعد ذكر آدم؛ لأنه الأب الثاني للبشرية، فإن نوحًا لما كذبه قومه إلَّا القليل أهلكهم الله تعالى بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقين كما في سورة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٣٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٤).

الصافات: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، فصار الأب الثاني للبشرية.

وقوله: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

آل إبراهيم: لا شك أنه يدخل فيهم إبراهيم بالأولى، لكن نصَّ على آله لكثرة الرسل فيهم ولاسيما أن فيهم أفضل الرسل محمدًا ﷺ؛ فإن محمدًا ﷺ من آل إبراهيم.

وآل عمران: آل عمران اختلفوا في المراد بهم، فقيل: آل عمران أبي موسى؛ لأن موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل.

وقيل: آل عمران أبي مريم، ومريم ابنة عمران، فذُكِر آل عمران لأن فيهم آخر الرسل قبل محمد ﷺ وهو: عيسى ابن مريم الذي ينتمي إليه النصارى، وخص آل عمران بذلك لأن المقام يقتضيه أيضًا، فإن هذه السورة نزل أولها في وفد نجران وهم من النصارى.

وسواء كان هذا أم ذاك فإنه يدل على أن الله اصطفى هذه القبيلة، قبيلة إبراهيم، فهو مصطفى من مصطفى. اصطفى آدم، وهذا الاصطفاء الأول، ونوحًا، وهذا الاصطفاء الثاني، وآل إبراهيم، الثالث، وآل عمران الرابع. فكان هؤلاء السادة من البشر هم الذين اصطفاهم.

ومعنى الاصطفاء: أن الله اختارهم وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، ليس على كل من خلقنا، بل على كثير ممن خلقنا تفضيلًا. والاصطفاء بمعنى: الاختيار؛ لأن أصله مأخوذ من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، واصطفى أي: أخذ صفوته.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، المراد بالعالمين: مَنْ سِوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾.

ذريةً: بالنصب بدل من ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾، أي: هؤلاء الأربعة الأصناف ذرية بعضها من بعض، وذرية: مأخوذة من (ذرأ) بمعنى: خلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى:١١] أي: يخلقكم.

وقيل: من (وذر) بمعنى ترك، فعلى الأول: تكون الذرية شاملة للأصول والفروع؛ لأن الأصول مخلوقون والفروع كذلك مخلوقون، أما إذا جعلناها من (وذر): بمعنى ترك فهي للفروع فقط، وهذا هو المعروف عند عامة الناس أن الذرية هم الفروع، أي من نشئوا عن الإنسان وتركهم بعده.

ومما يدل على إطلاق الذرية على الأصول قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، فإن الذين حُمِلوا في الفلك هم الذين آمنوا مع نوح وهم سابقون.

وقوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

بعضُها من بعض في جنس الخلقة، أو بعضها من بعض في الآداب والأخلاق والديانات، والظاهر الشمول، أي: أن الآدميين كلهم من جنس واحد، ليس فيه آدمي كان بالأول قردًا كما يقوله إخوان القردة ومن أقروا على أنفسهم بأنهم قردة، فالآدمي أصله آدمي، خلق الله إياه بيده ابتداء، لكن هؤلاء أبوا إلّا أن يجعلوا أنفسهم من القرود.

فبعضها من بعض في الخلقة من آدم إلى يومنا هذا، لم تتغير الخلقة إلّا في قوة الجسم؛ لأن آدم - عليه السلام - خُلِق طوله في السماء ستون ذراعًا[1] وعرضه أيضًا ـ على ما في أحاديث كثيرة حسان ـ سبعة أذرع(١)، وهذا الخلق قد نقص حتى وصل إلى هذه الأمة وانتهى؛ لأن هذه الأمة هي آخر الأمم.

ولا يرد على ذلك أنه في بعض المناطق يكون الجنس البشري ضخمًا وفي بعض المناطق يكون دون ذلك؛ لأن هذا من تغير المناخ والوراثة.

كذلك بعضها من بعض: في الآداب والأخلاق والديانات إلّا من كان منهم ظالمًا خارجًا عن هذا الأصل؛ فإنه يكون خارجًا بما خرج به.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ختمها بالسمع والعلم، إشارة إلى أن كل ما يقوله هؤلاء المصطفون أو يفعلونه فإنه معلوم عند الله، فهو يسمع ما يقولون، ويعلم ما يفعلون، بل هو يعلم ما يفعلون مما يكون في قلوبهم، بل يعلم ما سيفعلونه وإن لم يكن في قلوبهم؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - بيان أن الله اصطفى هؤلاء المخلوقين على بقية المخلوقات.

٢ - أن الله يختار من خلقه ما شاء كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

٣ - أن التفاضل كما يكون في الأعمال يكون في الأعيان، وكما يكون في الأعمال والأوصاف يكون كذلك في الأشخاص، ولهذا نقول: إن جنس العرب أفضل من غيرهم من الأجناس، لكن هذا الجنس الفاضل إذا اجتمع معه التقوى صار له الفضل المطلق، وإن تخلفت التقوى صار معدنه طيبًا وعمله خبيثًا؛ فيزداد خبثًا لكون أصله طيبًا ثم ارتد بنفسه إلى الخبث؛ لأن من كان أصله طيبًا ثم نزل بنفسه على المستوي الأدنى صار أكثر لومًا ممن لم يكن كذلك.

ولذلك لو زنت الحُرَّة لجُلِدَت مائة جلدة إن كانت غير محصنة، ورُجِمَت إن كانت محصنة،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٢٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٤١).

ولو زنت الأمة لم ترجم ولو كانت متزوجة، ولم تجلد مائة جلدة بل تجلد خمسين؛ لأن هناك فرقًا بين إنسان أصلة كريم وشريف ثم يضع نفسه موضع الوضيع، وبين شخص كان في الأصل على خلاف ذلك، ويدل لهذا - أي: أن الناس يختلفون في أجناسهم - قول الله في كتابه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقد جعلها الله تعالى في العرب؛ في محمد ﷺ فإذا كان محمد أطيب الخلق وأشرفهم لزم أن يكون جنس العرب أطيب الأجناس وأفضلها وأشرفها، وهو كذلك.

وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «خِيَارُكُم فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكم فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»[1].

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣].

فالجواب: أن نقول: إن الله تعالى أراد أن يمحو ما كان أهل الجاهلية يعتادونه من الفخر بالأحساب، حيث يقول: أنا من القبيلة الفلانية، أنا من القبيلة الفلانية.

فبيَّن الله أن هذه الشعوب والقبائل جعلها الله من أجل التعارف لا التفاخر، وأن فخركم لا يقربكم إلى الله، فالذي يقربكم إلى الله هو التقوى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، وهذا لا ينافي أن يكون جنس العرب أفضل من غيرهم كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) وأدلته ما سبق.

٤ ـ ما ذكره بعض أهل العلم من أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة، لقوله: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. والملائكة عالم فيكون المصطفون من هؤلاء أفضل من الملائكة، واستدلوا بأدلة أخرى، كأمر الله للملائكة بالسجود لآدم وغير ذلك.

وعندي أن البحث في هذه المسألة من فضول العلم؛ لأنه أيُّ فائدة لنا إذا قلنا: إن فلانًا أفضل من جبريل أو جبريل أفضل من فلان، أو إن الصالحين من بني آدم أفضل من الملائكة أو الملائكة أفضل من الصالحين؟ نحن نعلم أن الملائكة مقربون عند الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وأنهم كرام ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس:١١ ـ١٦]، أما أنهم أفضل من الصالحين من بني آدم أو الصالحون من بني آدم أفضل منهم فهذا شيء لم نكلف به.

ولذلك لم تأتِ السنة بالتمييز بين هؤلاء وهؤلاء أو بالتفضيل، أعطت لهؤلاء فضلهم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٧٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٣٧٨).

ولهؤلاء فضلهم، ولو كان هذا من الأمور التي لابد من اعتقادها ولا يتم الإيمان إِلَّا بها لكان الله ورسوله قد بيَّناه.

ولكن إذا ابتُلينا بمن يقول: بيِّن أيهما أفضل؟ فنقول: العلماء في ذلك اختلفوا، وجمع شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بين هذين القولين؛ فقال: إن الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالح البشر أفضل باعتبار النهاية.

كيف هذا؟ نقول: نعم لأن النور أفضل من الطين، والملائكة خُلِقوا من النور من مادة مشعة مضيئة محبوبة بخلاف الطين، وأما في النهاية فإن الجنة تكون للصالحين من بني آدم ومن الجن على القول الراجح، وقد ذكر الله - عزَّ وجلَّ - أن الملائكة يدخلون على أهل الجنة من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤]، يهنئونهم ويبشرونهم. ومع ذلك فإني أرى أن الإمساك عن هذا أولى.

٥ - بيان أن البشر جنس واحد بعضه من بعض؛ لقوله: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾.

٦ - الرد على من زعم أن البشر متطور من جنس لآخر، من القردة إلى الآدميين إلى البشر، وجدير بأن نسمي هذا القائل قردًا؛ لأنه رضي لنفسه أن يكون أصله القرد، أما نحن فنقول: إن أصلنا آدم - عليه الصلاة والسلام - الذي خلقه الله بيده من تراب، وأنه جنس مستقل بنفسه لا متطور.

٧ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع، والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بكل شيء بالأصوات والأحوال والأعيان.

وأسماء الله - عزَّ وجلَّ - يتضمن الإيمان بها ثلاثة أشياء إن كانت متعدية، وشيئين إن كانت لازمة.

إن كانت متعدية يتضمن الإيمان بها:

الأول: إثباتها اسمًا من أسماء الله.

الثاني: إثبات ما تضمنته من صفة أو استلزمته.

الثالث: إثبات الحكم الناتج عن هذه الصفة.

فمثلًا: الاسم (الخالق)، والصفة المتضمنة: (الخلق).

والمستلزمة: العلم والقدرة، والحكم: أنه يخلق، فهو خالق بخلق.

وكذلك اسم (الرحمن): تضمن الرحمة: صفة، وكونه يرحم: حكم أو أثر.

أما إذا كان لازمًا فإنه لا يتم الإيمان به إِلَّا بإثباته اسمًا من أسماء الله، وإثبات ما تضمنه من صفة، فالحي مثلًا: لا يتعدى لغير الله نثبته اسمًا من أسماء الله، ونثبت ما تضمنه من الصفة وهي: الحياة.

هذه هي القاعدة في إثبات أسماء الله وصفاته، إذا طبقنا هذه القاعدة على الاسمين الموجودين معنا.

فالسميع يتضمن الإيمان به على أنه اسم من أسماء الله، والإيمان بالصفة التي يدل عليها وهي السمع، والأثر أو الحكم أنه يسمع. وكذلك نقول في (العليم).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ يعني: اذكر إذ قالت، وهذا التركيب موجود في القرآن كثيرًا، وإنما حذف العامل لدلالة السياق عليه، وتلك قاعدة مشهورة عند النحويين أشار إليها ابن مالك في الألفية فقال:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا؟

فهنا العامل المحذوف معلوم بالسياق. (اذكر إذ قالت)، اذكر هذه الحال التي صدر فيها هذا القول من امرأة عمران. ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾، وهي: أم مريم أي جدة عيسى ابن مريم.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾.

﴿رَبِّ﴾: منادى حذفت منه ياء النداء، وأصله: يا رب، ولكن تحذف ياء النداء في مثل هذا التركيب اختصارًا لكثرة استعماله، وحذف منه ضمير المتكلم (الياء) تخفيفًا، وأصله: (ربي).

قولها: ﴿نَذَرْتُ﴾ بمعنى: التزمت أن يكون ما في بطني محررًا من خدمتي ليكون خادمًا للمسجد الأقصى، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك؛ أي أن الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائمًا

بخدمة المسجد الأقصى تعظيمًا له.

وقولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾، (ما) اسم موصول يفيد العموم، فيشمل ما لو وضعت واحدًا أو اثنين، ذكرًا أو أنثى.

فإذا قال قائل: كيف تقول: إنه يشمل ما لو وضعت اثنين وهي تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، ومحررًا واحد، ولم تقل: محرَّرَيْن.

فالجواب: أن الأسماء الموصولة المشتركة: أي التي تصلح للمفرد وغيره يجوز فيها مراعاة لفظها بالإفراد، ومراعاة معناها بالإفراد إن كان المراد بها المفرد، والتثنية إن كان المراد بها المثنى، والجمع إن كان المراد بها الجمع، مذكرًا كان أو مؤنثًا.

وعليه فلا يمنع أن يكون قولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾، شاملًا لما تضعه ولو كانوا أكثر من واحد؛ لأنه أُفرِد باعتبار اللفظ.

وقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ أي: تقبل مني هذا التقرب إليك، بنذر هذا الحمل الذي نذرته؛ ليقوم بخدمة بيتك.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

هذه الجملة استئنافية للتعليل؛ أي أني سألتك أن تتقبل مني لأنك السميع العليم.

﴿الْعَلِيمُ﴾ يشمل هنا سمع الإدراك وسمع الإجابة؛ أي: أنك تسمع دعائي وتستجيبه و(سمع) تأتي بمعنى: استجاب كما في قول المصلي: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي استجاب.

وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السامع لدعائي المستجيب له، العليم بما يكون صالحًا، وبكل شيء. لكن ذكر العلم هنا لأن الإنسان قد يُسأل الشيء وليس من صالحه حصوله، فيسند الأمر إلى علم الله - عزَّ وجلَّ -.

ومن المعلوم أن الداعي إذا دعا فإنه يحصل له واحد من أمور ثلاثة: إما أن يستجيب الله له الدعاء، وإما أن يدَّخر ذلك له يوم القيامة فيعطيه مثل ما دعا به، وإما أن يصرف عنه من السوء ما هو أعظم. هذا بالإضافة إلى أن الدعاء نفسه عبادة يثاب عليها الإنسان.

وقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾.

ولم يقل: فلما وضعته؛ مراعاة للمعنى؛ لأنها وضعت أنثى، فلما وضعتها وكانت قد نذرته محررًا بناءً على أنه ذكر، لما وضعتها اعتذرت لربها.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾.

وهذا اعتذار منها إلى الله أنها وضعتها أنثى، والأنثى ليس من العادة أن تخدم المسجد، فكأنها تعتذر إلى الله - عزَّ وجلَّ - من هذا النذر.

قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾.

وفي قراءة سبعية: (والله أعلم بما وَضَعْتُ).

فعلى قراءة (والله أعلم بما وَضَعْتُ) بضم التاء تكون الجملة من باب الاحتراس، حتى لا يظن بها أنها تعتقد أن الله لم يعلم

فقالت: «ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وَضَعْتُ»، فلستُ أخبر الله بأمر يخفى عنه، بل إني أؤمن بأنه عالم بما وضعتُ، أما على قراءة (السكون) ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ فالكلام من الله، وفيه دفاع عن هذه المرأة بأن الله تعالى يعلم أنها لم تقل: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ إخبارًا منها لله؛ لأنه - سبحانه وتعالى - زكاها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، هذا من وجه، ومن وجه آخر ليبيِّن - عزَّ وجلَّ - أن قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لا يعني أن الله لا يعلم بما وضعت بل هو عالم. و﴿أَعۡلَمُ﴾ اسم تفضيل يدل على أن المفضل زائد على المفضل عليه في هذا الوصف، كما لو قلت: فلان أكرم من فلان؛ معناه أن هذا المفضل وهو فلان زائد في الكرم على المفضل عليه.

فـ (أعلم) هنا أي: أعلم من كل أحد بما وضعت، ففيه إثبات العلم لله - عزَّ وجلَّ - مع الزيادة، وبهذا التقرير نعلم ضعف قول من قال: إن اسم التفضيل هنا بمعنى اسم الفاعل، وأن معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ أي: (والله عالم بما وضعت)، فإن هذا القول لا شك قصور في تفسير كلام الله؛ لأن إثبات العلم بلا تفضيل أنقص من إثبات العلم مع التفضيل؛ لأنك إذا قلت: فلان عالم لا يمنع أن يكون غيره مساويًا له في العلم.

لكن إذا قلت: فلان أعلم من فلان صار فاضلًا غيره في العلم وغيره مفضول.

ولا أعلم ـ سبحان الله ـ كيف يفر بعض العلماء من إثبات المفاضلة بين الله - سبحانه وتعالى - وبين خلقه، مع أن المفاضلة لا تدل على أي نقص، بل اللفظ الذي يقتضي المشاركة هو الذي قد يحتمل النقص والمماثلة، لكن اللفظ الدال على المفاضلة ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فالله أعلم من كل أحد سواء كان هذا العلم مقيدًا أو مطلقًا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ (ما): اسم موصول، والعائد ضمير مفعول به محذوف، أي: بما وَضَعَتْهُ أو بما وَضَعْتُهُ على القراءتين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾.

(ليس الذكر كالأنثى) هل هذا من كلامها أو من كلام الله؟

أما على قراءة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ فالظاهر أن كونه من كلام الله أرجح؛ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ من كلام الله، أما على قراءة (والله أعلم بما وَضَعْتُ) فإن كونه من كلامها أرجح لئلا تتشتت الجمل.

وفي هذه الجملة بيان أن الذكر لا يماثل الأنثى، وكأن الإنسان يحدث نفسه ويقول: إن مقتضى الحال أن تكون العبارة: (وليس الأنثى كالذكر)؛ لأن العادة أن الأدنى هو الذي يشبه بالأعلى، فهنا: (ليس الأنثى كالذكر) أقرب إلى بادي الرأي من ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، ولهذا ادعى بعض العلماء أن في التشبيه قلبًا؛ والتشبيه المقلوب أسلوب من أساليب اللغة العربية، ولاسيما عند الشعراء في العصور الوسطى، حتى بالغ بعضهم في التشبيه المقلوب فيقول:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فالصباح الذي يملأ الأفق ويضيء الدنيا، كأنَّ غرته ـ بياضه ـ وجه الخليفة إذا امتدح، هذا من المبالغة الكريهة في الواقع.

وقال بعضهم: إنه تشبيه على أصله ووضعه: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وشرف الذكر على الأنثى يعلم من أدلة أخرى، ومن قرائن أخرى، ولكن ليس الذكر في خدمته لبيت المقدس كالأنثى.

وإذا انتفت مساواة الذكر للأنثى انتفت مساواة الأنثى للذكر؛ لأن التساوي يكون بين شيئين، فإذا انتفت المساواة في أحدهما لزم أن تكون منتفية في الآخر.

فلا مساواة بين الذكر والأنثى بل لكل واحد منهما ميزاته وخصائصه، فالأنثى تفوق الرجل في شيء، والرجل يفوق الأنثى في شيء.

لكن الغالب أن الصالح لخدمة المساجد هو الرجل؛ لأنه أقوى وأذكى وأعقل وأدوم في العمل.

والأنثى إذا حاضت مثلًا لا تستطيع أن تخدم المسجد؛ لأنها سوف تخرج منه ولا تجلس، هذا إذا كانت شريعتهم كشريعتنا، وأيضًا الأنثى لا تتحمل من الأعمال ما هو شاق بل هي أضعف من الرجل، وإن كانت قد يكون عندها من الجلد والصبر أكثر مما عند الرجل في معاناة الأشغال لا في معاناة المصائب، فإن المرأة في معاناة المصائب أدنى بكثير من الرجل كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

تقولها أمها، وهذا الاسم إما أن يكون مشهورًا عندهم أو أنها اختارته لأمر يريده الله - عزَّ وجلَّ -، وهذه قضية عين، والله أعلم ما هو السبب أنها اختارت هذا الاسم.

قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾.

﴿أُعِيذُهَا﴾: أي أستجير بك لها؛ لأن الاستعاذة معناها: الاستجارة من أمر مكروه، ولهذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونستعيذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا

والمات، وفتنة المسيح الدجال. قالوا ـ أي أهل اللغة ـ:

(العياذ من المكروه، واللياذ في رجاء المحبوب) وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وهو يخاطب ملكًا من الملوك، وهذا الوصف لا يليق إِلَّا بالله - عزَّ وجلَّ -. لكن الشعراء يتبعهم الغاوون.

إذنْ ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، أي: أستجير بك لها من الشيطان الرجيم؛ والشيطان هو أبو الجن كما قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف:٥٠]، وهنا نقول: شيطان من شطن أو من شاط، قولان: فمنهم من قال: إنه من شطن أي بَعُدَ، ومنهم من قال: من شاط أي غضب؛ لأن طبيعة الشيطان الغضب والسرعة وعدم التأني، وهو أيضًا قد بَعُدَ من رحمة الله، ولكن الظاهر أنه من شطن، وأن النون أصلية، ولذلك لا يمنع من الصرف.

وقولها: ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، الرجيم: بمعنى المرجوم، وأصل الرجم: القذف بالحجارة؛ ومنه: رجم الزاني، وعلى هذا فيكون في الكلام استعارة، أي أننا استعرنا الرجم بالحجارة الدال على إبعاد المرجوم للمُبْعَد المطرود.

فالرجيم هنا: فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مطرود مبعد عن رحمة الله - عزَّ وجلَّ -، ومن العلماء من قال: إن الرجم يأتي بمعنى الطرد حقيقة لا استعارة، وإنما استعاذت بالله لها من الشيطان الرجيم؛ لأن الشيطان الرجيم مبعد عن رحمة الله، والمبعد عن الرحمة يريد أن يبعد كل إنسان عن الرحمة لاسيما بنو آدم؛ لأن بني آدم أعداء للشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] فهو عدو، والعدو لا يريد من عدوه إِلَّا ما فيه هلاكه، ولهذا استعاذت بربها - عزَّ وجلَّ - لهذه الأنثى من الشيطان الرجيم لئلا يغويها ويضلها، قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾،

لم يكن لها ذرية إِلَّا عيسى ابن مريم، وهل لعيسى ذرية؟

الله أعلم، قد يكون له ذرية، وقد لا يكون، لكن مهما كان هي قالت: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بناءً على الأصل والغالب أن الأنثى تتزوج ويكون لها ذرية، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - أراد لهذه المرأة شيئًا آخر.

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

تقبل: قال أهل اللغة: بمعنى قَبِل، ولهذا قال: (قبول) والمصدر الموافق لتقبل (تقبلًا)،

أما (قبول) فهو في هذا الموضع اسم مصدر وليس بمصدر كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧].

ولم يقل: إنباتًا، لكن هل تَقَبَّلَ وقَبِل بمعنى واحد أو أن في تقبَّل شدة عناية ومبالغة؟ قولان: قيل: إن تَقَبَّل بمعنى قَبِل كتعجَّب بمعنى عجب، وتبرَّأ بمعنى برئ، تقول: تبرأ من فلان بمعنى برئ منه.

والقول الثاني: أن تَقَبَّل أبلغ من قَبل، وذلك أن الغالب أن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى، ففيها شدة العناية والمبالغة.

وقوله: ﴿رَبُّهَا﴾، الربُّ: بمعنى الخالق، المالك، المدبر، فإذا أضيفت الربوبية لله فهذا معناها، أنه الخالق فلا خالق غيره، والمالك فلا مالك غيره، والمدبر فلا مدبر غيره، وهذا النفي باعتبار الإطلاق فلا خالق على سبيل الإطلاق إلَّا الله، وإذا أضيف الخلق إلى غيره فإنها هو باعتبار التغيير والتصيير لا باعتبار الأصل.

فخلق الباب من الخشبة ليس أصليًّا بل هو تغيير وتصيير، صيَّر الخشبة بابًا فقال: خلقهُ، لكن أصل هذا الخشب إنها خلقه الله - عزَّ وجلَّ -، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخلق خشبة واحدة ولا غصن شجرة.

فالمالك على الإطلاق هو الله، وإضافة الملك لغير الله إضافة جزئية، وإلَّا فقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون:٦]، فأضاف الملك إلى الإنسان، وقال تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، فأضافه أيضًا إلى الإنسان؛ لكن هذا ملك مقيد غاية التقييد.

والمدبر كذلك، فالتدبير على إطلاقه هو لله - عزَّ وجلَّ -، أما الإنسان فإنه وإن أضيف إليه التدبير فهو تدبير خاص محصور على كل حال.

وربوبية الله نوعان: عامة، وخاصة ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥]، هذه عامة، والخاصة مثل ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]، وهنا ﴿رَبُّهَا﴾ من الخاصة.

واعلم أن كل خاص من الربوبية والمعية والسمع والبصر وما أشبه ذلك مما قال العلماء إنه ينقسم إلى عام وخاص، أن الخاص يتضمن العام ولا عكس.

فكل من كان الله ربه على وجه الخصوص فهو ربه على وجه العموم، وكل من كان الله معه على وجه الخصوص فهو معه على وجه العموم، وكل من سمعه الله على وجه الخصوص فقد سمعه على وجه العموم، وهلم جرًّا. وهنا أضاف الربوبية إلى مريم؛ لأنه - عزَّ وجلَّ - تقبلها هذا القبول الحسن.

وقوله تعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾.

والقبول الحسن من الله أنه - سبحانه وتعالى - يسَّرها لليسرى وسهَّل أمرها وجعلها من خيرة

نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها، فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وتأمل أنه قال: من القانتين، ولم يقل: من القانتات؛ لأنه كما جاء في الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا قَلِيلٌ»[1].

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، قد يعود إلى المعنى، وقد يعود إلى الحس، فالمعنى: أنبتها نباتًا حسنًا أي: في كمال الآداب والعفة والحشمة وغير ذلك، وقد يكون أنبتها نباتًا حسنًا باعتبار الجسم؛ أي أنه نمّاها تنمية جيدة، لم يتعثر فيها جسمها، حتى إن بعضهم - ولعلها من الإسرائيليات - قال: إنها تنمو في العام ما ينموه غيرها في عامين، والله أعلم.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

هذا أيضًا من التيسير أن الله يسّر لها من يكفلها من الرسل، ولا شك أن الإنسان إذا كان عنده كافل مستقيم صالح كان هذا من أسباب صلاحه واستقامته، وإذا كان عند فاسق كان بالعكس.

ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن يترك الطفل المحضون بيد شخص لا يصونه ولا يصلحه.

وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، هذه القراءة المعروفة التي في المصحف.

وتكون (كفّل) ناصبة لمفعولين.

أحدهما: هاء.

والثاني: زكريا، وهذا الفعل من أخوات (كسا).

وفيه قراءة (كَفَّلَها زكرياءَ) والفرق بينهما أن القراءة الأولى بألف مقصورة، والثانية: بألف ممدودة.

وفيها قراءة ثالثة (وكَفَلَهَا زكريا)، (كَفَلَهَا) على أن زكريا فاعل، وفيه قراءة رابعة (وكَفَلَهَا زكرياءُ) على أنه فاعل أيضًا، لكن الفرق بين هذه والتي قبلها القصر والمد، فصارت زكريا تمد وتقصر، وكَفَل تخفف وتشدد، والإعراب على حسب الوضع.

ومعنى (كَفَلَها) أي: صار كافلًا لها؛ وكَفَّلها: أي جعل كفيلها زكريا.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ فيها القراءتان في زكريا.

و ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ المحراب مِفعال من الحرب، وهو: مكان العبادة، وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس، ورأيت في بعض المساجد مكتوب على طاق القبلة على القوس ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، يجعلون الإمام مريم وهم لا يشعرون، ويخطئون أيضًا في المعنى؛ لأن المحراب مكان العبادة سواء كان طاقًا أو مربعًا أو حجرة، ولهذا قال الله تعالى في قصة داود: ﴿إِذْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤١١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٤٣١)، ولفظه: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلَّا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران».

تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] وسمّي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان.

قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

وهي امرأة منقطعة للعبادة دائمًا في محرابها ويجد عندها رزقًا؛ والرزق هنا ما يُقَوِّم به البدن، أي: رزقًا تأكله ليُقَوِّم بدنها وتحفظ حياتها.

قال بعض المفسرين ـ وهو من الإسرائيليات ـ يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهذا لا داعي له، فإنه إذا وجد عندها فاكهة الصيف في الصيف، وفاكهة الشتاء في الشتاء، وهي امرأة متعبدة منقطعة للعبادة؛ فهو آية.

قوله: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

أي: من أين لك هذا؟ وخاطبها بقوله: يا مريم، إشارة إلى أنها في حال لا تقتضي أن يكون عندها ذلك؛ لأنها امرأة لا تكتسب منقطعة للعبادة، والمنقطع للعبادة - ولو كان ذكرًا - لا يتيسر له الرزق، ولهذا ناداها باسمها قال: يا مريم؛ يعني: انتبهي أيتها الأنثى كيف يجيئك هذا الرزق ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، فكان جوابها جوابًا عجيبًا ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وكلمة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا يلزم أن يكون الله تعالى ينزلها من السماء إليها، بل قد يكون ذلك بتسخير الله لها من يأتي لها بذلك الرزق، ولا يلزم أن يكون ينزل من السماء، أو يأتي به جبريل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الرزق: بمعنى العطاء؛ والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني، وعطاء شرعي.

فالعطاء الكوني: ما يرزق الله به الإنسان والحيوان، الحلال والحرام، لا يختص بالمؤمنين ولا بالطيب من الرزق.

والعطاء الشرعي: وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال، فهو الرزق الخاص الذي ليس فيه تبعة، ويشمل أيضًا العطاء الشرعي ما ثبت إعطاؤه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلًا، وإعطاء الغانمين من الغنيمة، فهذا عطاء وإيتاء شرعي، ودليله قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فالرزق لا يكون إلّا بمشيئة الله، وهي مربوطة بالحكمة، يعطي من يشاء لحكمة، ويمنع من يشاء لحكمة، والدليل على أن كل ما أثبت الله فيه المشيئة فهو مقرون بحكمة، قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغير مكافأة، يُطعِم ولا يُطعَم، يَرزُق ولا يُرزَق، ﴿مَآ أُرِيدُ

مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٧، ٥٨]، بخلاف غيره، فإنه قد يُعْطي ليُعطى، أما الله - عزَّ وجلَّ - فإنه يعطي لا ليُعطى بل يرزق بغير حساب.

وأما الحساب على ما أعطاه الله من الرزق، من أين اكتسبه؛ وفيم أنفقه وما أشبه ذلك، فإن هذا سوف يكون، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨]، يعني: لا يحاسب خلقه ليكافِئَهُ، ولكن يحاسبهم لينظر أو ليعلم - عزَّ وجلَّ - ماذا أنفقوا فيما أعطاهم.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

١ - تعظيم هذه القصة؛ لأن الله أمر رسوله أن يبيِّنها للناس إذ إن التقدير: (اذكر إذ قالت امرأة عمران).

٢ - جواز النذر في الأمر المجهول؛ لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾، ينبني على ذلك أن يقول القائل: لله علي نذر أن أتصدق بما في بطن هذه الشاة أو هذه الناقة، وينفذ النذر.

٣ - جواز تصدق المرأة بدون إذن زوجها، ووجهه: أنها نذرت تحرير هذا الولد بدون إذن الزوج.

فإن قال قائل: ما دليلكم على أنه بدون إذن زوجها، أفلا يمكن أن تكون استأذنت؟

الجواب: بلى، لكنه لم يذكر.

فإن قال قائل: عدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، فرق بين أن أسكت عن الشيء؛ وبين أن أنفي الشيء، نفي الشيء ذكر لعدمه، لكن السكوت عنه ليس ذكرًا لعدمه.

قلنا: هذا ليس في كل مكان، بل نقول: هذا فيما إذا كان هناك نصوص عامة ثم ادعى أحدٌ إخراجها، أو تقييدها، أو ما أشبه ذلك.

هذا هو الذي نقول له: عدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، وأما إذا جاءت قصة مرسلة، ولم يذكر فيها قيود فالأصل عدم القيد، وقد جاءت الشريعة الإسلامية مؤيدة لهذا؛ أي أن المرأة تتصرف في مالها، فالرسول ﷺ لما خطب النساء يوم العيد وقال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ»(١)، فجعلن يلقين من الخواتم والخروص في ثوب بلال.

ومن القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤]، طبن: أي: النساء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤) وفي غير من صحيحه، ومسلم (٩٠٧).

إذن المرأة حرة تتصرف، وليس لزوجها أن يمنعها من أي تصرف مثل أن يشتري لها حليًا وثياب زينة تتجمل بها له، فهنا ربما نقول: إن له أن يمنعها من التصرف في هذه الثياب، وهذا الحلي من بيع أو هبة؛ لأن ذلك يضر بمقصوده.

٤ ـ أن الولد يخدم والده من أم أو أب؛ لأنها قالت: ﴿مُحَرَّرًا﴾ يعني: محررًا من الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.

٥ ـ طرد الإعجاب بالنفس؛ وذلك بأن الإنسان إذا عمل عملًا لا يُدِلُّ به على الله يقول: أنا عملت، وأنا عملت، بل يعمل ويشعر أنه مفتقر إلى الله - عزَّ وجلَّ - في قبول ذلك العمل، ولهذا قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، وقال إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، والإنسان إذا علم أنه مفتقر إلى ربه - عزَّ وجلَّ - في العمل، وفي قبول العمل، زال عنه الإعجاب، وإذا زال عنه الإعجاب، صار حريًا بأن الله تعالى يقبل منه، ويثيبه.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع، والعليم، والسميع يكون بمعنى: استجابة الدعاء وبمعنى: إدراك المسموع، والعليم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه.

ومن فوائد قوله عزّوجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

١ ـ أن الأم تتكلف الحمل كما يشعر به كلمة: (وضعتها) أنها حاملة لها، وهو كذلك لا شك أنها تتكلف الحمل، وإذا قدَّرنا أن هذا الطفل الذي في بطنها: سيبقى تسعة شهور، وهي حاملة له في بطنها، في أرق ما يكون من البدن، قائمة وقاعدة ومستيقظة ونائمة، فماذا نتصور من التعب؟ ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]، ثم مع ذلك هذا الطفل في البطن يتحرك، وهي تحس به، ولولا لطف الله بعباده ما استطاعت أن تحمل هذا ولكن الله - عزَّ وجلَّ - يعينها. فيتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي:

٢ ـ عظم حق الأم على ولدها؛ لأن من أحسن إليك وأتعبته كان أحق الناس بِبِرِّكَ، ولهذا جعلها النبي - عليه الصلاة والسلام - أحق الناس بحسن الصحبة.

٣ ـ اعتذار الإنسان عند ربِّه إذا وقع الأمر خلاف ما أراد؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، فإن هذا شبه اعتذار لقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، والأنثى لا تخدم المساجد عندهم فلهذا اعتذرت.

٤ ـ التوسل إلى الله تعالى بربوبيته.

٥ ـ أنه من تمام البلاغة الاحتراز عن كل موهم لأمر خطأ، سواء كان في المقال أو في الفعل؛

لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ على قراءة الضم.

والمقال كما هنا، وفي الفعال: لما خرج النبي ﷺ لصفية رضي الله عنها يقابلها حين جاءت إليه، وهو معتكف، وتحدثت معه، فقامت لتخرج بالليل فخرج بها - عليه الصلاة والسلام - وإذا برجلين من الأنصار يمران فأسرعا، فقال لهما - عليه الصلاة والسلام -: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»، فقالا: سبحان الله، ثم قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خِفْتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا - أو قال: شَيْئًا -»[1].

لا شك أن أبعد الناس عن سوء الظن هو الرسول ﷺ ولاسيما من أصحابه، لا يمكن أن يظنوا به سوء الظن، ومع ذلك خاف أن الشيطان يلقي في قلوبهما شرًّا أو شيئًا.

ولهذا ينبغي للإنسان - أيضًا - أن يدرأ الغيبة عن نفسه ما استطاع، لا يقول: أنا لا أبالي بالناس «حسبنا الله ونعم الوكيل» هذا طيب، لكن افعل الأسباب التي تدرأ عنك الشر، حتى لا يظن الناس بك سوءًا.

٦ - إثبات التفضيل في أوصاف الله من قوله: ﴿أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ خلافًا لمن منع ذلك وفسّر أعلم بـ(عالم).

٧ - أنه لا يستوي الذكور والإناث ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ لا في الطبيعة، ولا في الأخلاق ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان؛ فالذكر ليس كالأنثى، وإذا كان الذكر ليس كالأنثى، فالأنثى - أيضًا - ليست كالذكر.

٨ - تسمية المولود حين يولد؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ وهذا هو السنة، أن يسمّى الإنسان حين يولد إلَّا إذا لم يتهيأ الاسم فإنه يسمى في اليوم السابع، وبهذا تجتمع الأدلة، فإن النبي ﷺ لما ولد إبراهيم قال: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ»[2].

وفي حديث العقيقة قال: «تُذْبَحُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُحْلَقُ وَيُسَمَّى»[3] فيكون الجمع أن من كان مُهَيِّئًا الاسم قبل الولادة، فالأفضل أن يسميه حال الولادة، ومن لم يُهَيِّئ، فالأفضل أن يؤجله إلى اليوم السابع.

٩ - في قوله: ﴿سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ دليل على التصدق الفضولي.

١٠ - مشروعية إعاذة الإنسان أبناءه بالله - عزَّ وجلَّ - من الشيطان الرجيم، ومن شر الخلق؛ لقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

١١ - جواز الدعاء للمعدوم من قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾؛ لأن ذريتها لم تأتِ بعد، فيجوز أن يقول:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٥)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٤)، وأبو داود (٣١٢٦).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١١٦٥).

(أصلحك الله وذريتك) وقوله: (وغفر الله لك ولذريتك) وما أشبه ذلك.

١٢ ـ أن الشيطان عدو لبني آدم حيث يطلب الإنسان من الله - عزَّ وجلَّ - أن يعيذه منه.

١٣ ـ بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على كل شيء، ومن ذلك الإجارة من الشيطان وإلَّا لكان الاستعاذة به من الشيطان عبثًا.

ومن فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

١ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - سميع، قريب، مجيب؛ لأنها دعت فسمعها الله، ولأنها دعت فأجابها الله، وفي القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

٢ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - منَّ على هذه الطفلة بشيئين: بالقبول الحسن، والنبات الحسن؛ فصار في ذلك تنمية لأخلاقها، ولجسمها وبدنها.

٣ ـ أن تطور الإنسان في حياته بأمر الله؛ لقوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾، وما الغذاء والعناية بالطفل إلَّا سبب، والله تعالى هو المسبب، وهو المكوِّن للإنسان والمُنبت له.

٤ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - قد ييسر للإنسان من يكفله من أهل الخير، فيكون ذلك من أسباب إعاذته من الشيطان الرجيم، لقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٥ ـ إثبات الحضانة للطفل؛ لقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٦ ـ أن هذه الطفلة صارت من العابدات القانتات؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

٧ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - قد ييسر للإنسان من الرزق ما لا يكون في حسبانه؛ لقوله: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

٨ ـ أن لكل ضعف لطفًا، فهذه المرأة الضعيفة التي منَّ الله عليها بالاشتغال بالعبادة يسَّر الله لها من يأتيها بالرزق.

٩ ـ أن الأشياء تضاف إلى الله وإن كان لها سبب؛ لقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ ـ أن الأنبياء لا يعلمون الغيب؛ لقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

١١ ـ إثبات أن الله - عزَّ وجلَّ - يرزق بغير مكافأة، ولا انتظار لمكافأة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٣٩]

❁ التفسير ❁

﴿هُنَالِكَ﴾: هذا اسم إشارة إلى المكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب؛ يعني: في ذلك الزمن، والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمن أي: في ذلك الزمن، ويحتمل أن تكون للمكان، أي: في المكان الذي هو محراب مريم.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾، وزكريا: فيها قراءتان، المد والقصر على ما سبق.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿هَبْ لِى﴾ أي: أعطني، والهبة: هي التبرع بالشيء بلا عوض، لكن قال العلماء: إن هناك هبة، وهدية، وصدقة.

فالصدقة: ما أريد به ثواب الآخرة.

والهدية: ما أريد به التودد، والتقرب بين الـمُهْدِي، والـمُهْدَي إليه.

والهبة: ما قصد به مجرد انتفاع الموهوب له.

وهنا قال ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾، أي: أعطني عطاء بلا ثمن.

﴿مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك، وأضاف العندية إلى الله - عزَّ وجلَّ - ليكون أبلغ وأعظم؛ لأن هدية الكريم أكرم.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بمعنى: مذروءة، أي: مخلوقة، وقوله: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي: طيبة في أقوالها وأفعالها، وكذلك في أجسامها، فهو متناول للطيب الحسي، والطيب المعنوي.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، أي: مجيبه، والدعاء: هو سؤال العبد ربَّه حاجته: إما بجلب منفعة، وإما بدفع مضرة.

قال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وفي قراءة: فناداه الملائكة؛ لأن الملائكة جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث.

ويمكن أن يراد بالملائكة واحد؛ وهو جبريل (ناداه)، وعبر عنه بالجمع باعتبار الجنس؛ لأنه واحد منهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾، جملة في محل نصب على الحال، من الضمير: (الهاء) في قوله: (نادته)، وقوله: ﴿يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾، المحراب: مكان الصلاة، أو مكان العبادة، وسمي بذلك؛ لأنه مكان حرب الشياطين، فإن العبادة حرب للشياطين كما سبق.

قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، ﴿أَنَّ﴾ فيها قراءتان: قراءة بالفتح، وقراءة بالكسر، فأما على قراءة الكسر: (إن الله).

فلأن النداء قول، ومقول القول إذا صُدِّرَ بـ(إِنَّ) يجب فيه كسر إن، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]. وأما على قراءة الفتح فهي على تقدير حرف الجر: (فنادته الملائكة بأن الله يبشرك)، ببشرى الله تعالى بهذا الابن (يحيى).

أيضًا في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ قراتان: يَبْشُرُك، يُبَشِّرُك، وكلاهما سبعيتان.

والبشارة هي: الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرة بالخبر؛ لأن الإنسان إذا بُشِّر بما يسره يفرح، ويظهر ذلك على وجهه، ألم تر إلى وجه النبي ﷺ حين دخل مجزز المدلجي على أسامة بن زيد، وزيد بن حارثة، وعليهما كساء لم يبد منه إلَّا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما وقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فدخل النبي - عليه الصلاة والسلام - على عائشة تبرق أسارير وجهه[(١)]، تأثر بالخبر السار.

ولهذا الإخبار بما يسوء بشرى؛ لأن البشرة تتأثر بذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨].

قال الله تعالى: ﴿بِيَحۡيَىٰ﴾.

(بيحيى) هذا المبشَّر به، ويحيى: قيل إنه من الحياة والله سماه بذلك إشارة إلى أنه سيحيا ويبقى، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية، ووزن الفعل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا﴾.

﴿مُصَدِّقَۢا﴾: حال من يحيى. ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو عيسى ابن مريم يعني: مصدقًا بعيسى؛ لأن عيسى كلمة من الله، وسمي بذلك، لأنه كان بكلمة الله، ولم يكن من أب كما يكون البشر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿خَلَقَهُۥ﴾ أي: آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولهذا سمي عيسى بالكلمة؛ لأنه كان

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٥٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٤٥٩).

بكلمة الله، وليس هو كلمة الله؛ لأن كلمة الله وصف لله - عزَّ وجلَّ -، فالكلام وصف للموصوف، ولا يمكن أن يكون وصفَ عينٍ بائنة منه.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بيان لابتداء الأمر وليست للتبعيض، فالكلمة هنا ليست بعضًا من الله بل منشَؤُها منه.

﴿وَسَيِّدًا﴾ معطوفة على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ فتكون منصوبة على الحال، والسيد: مَنْ ساد غيره، وشرف عليه بالعلم والدين، والخلُق، والمعاملة، وقولنا الخلق: يشمل كل خلق يسود به الإنسان غيره من الجود والشجاعة، والإيثار، وغير ذلك، فيكون جامعًا لصفات الكمال الممكنة في المخلوق.

وكذلك أيضًا قال في وصفه: ﴿وَحَصُورًا﴾ حصورًا معطوفة على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ فهي منصوبة على الحال، (حصورًا) فعول بمعنى فاعل أي: حاصرًا نفسه عن أراذل الأخلاق، فيكون هذا المبشر به موصوفًا بصفات الكمال الدال عليها قوله: (سيدًا) ومُبَـرًّا من النقص، وسوء الأخلاق الدال عليه قوله: (حصورًا)، فيكون جمع له بين النفي والإثبات، وذلك لأن الإنسان لا يكمل إلَّا بوجود صفات الكمال، وانتفاء صفات النقص، وهو أمر نسبي.

وأما من قال من المفسرين: إن الحصور هو الممنوع عن إتيان النساء يعني: لا يستطيع على النساء؛ فإن في هذا نظرًا واضحًا؛ لأن عدم قدرة الإنسان على النساء ليس كمالًا؛ إذ إن ذلك ليس منه بتخلق، ولكنه عيب.

وفيها قول آخر: أنه لا يأتي من النساء من لا تحل له فيكون وصفًا له بكمال العفة، وهذا يمدح عليه الإنسان.

لكن ما قلناه أشمل من هذا القول.

ومعلوم أنه إذا وجد معنى أشمل فهو مقدم على المعنى الأقل؛ لأن الأقل داخل في الأشمل لا العكس.

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

هذه معطوفة أيضًا على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾، فهو مصدق ونبي، ولا يلزم من تصديقه بعيسى أن يكون تابعًا له، فها هو محمد - عليه الصلاة والسلام - مصدق بجميع الأنبياء، وهم يتبعونه ولا يتبعهم، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي**»(١)، ولهذا صار إمامًا لهم ليلة المعراج، وإذا نزل عيسى في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي - عليه الصلاة والسلام -.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨٧)، والدارمي في «سننه» (١/ ١١٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٤٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٥٨٩).

المهم أن تصديقه لعيسى ابن مريم لا ينافي أن يكون نبيًّا، فهو نبي مصدق بالأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من جملتهم، وإنما قلنا ذلك لأن النبوة وصف أعلى من الصلاح، لكن هو في جملة الصالحين، فالنبوة صلاح وزيادة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، فالصالحون في المرتبة الرابعة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

١ - أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله، حتى الأنبياء لا يستغنون عن دعاء الله؛ لقوله: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾.

٢ - إثبات القياس؛ لأنه لما رأى أن الله يرزق هذه المرأة بدون سبب معلوم علم أن الذي يسوق لها الرزق، وهي امرأة منقطعة عن التكسب في محرابها، قادر أن يرزقه، فيكون الانتقال من الشيء إلى نظيره، وهذا هو نفس القياس؛ إذن هو استدل أو أخذ من هذه القصة عبرة، وهو أن يسأل الله أمرًا، وإن كان مستبعدًا.

٣ - أن الصيغة التي يتوسل بها غالبًا في الدعاء هي اسم الرب لقوله: (ربه)، ولم يقل: (الله)، ولهذا تجدون أكثر الأدعية مصدرة بالرب؛ لأن إجابة الداعي من مقتضى الربوبية، لأنها فِعل، وكل الأفعال من مقتضى الربوبية، فلهذا يتوسل الداعي دائمًا باسم الرب، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ»[(١)].

٤ - أن زكريا - عليه الصلاة والسلام - بلغ سنًّا بعيدًا دون أن يأتيه الولد، يؤخذ من قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران:٤٠].

٥ - يستفاد من قوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أن الشيء من الكريم يكون عظيمًا، حيث أضاف الهبة إلى الله - عزَّ وجلَّ -، وهبة الكريم تكون كبيرةً، ونظير هذا قوله ﷺ فيما علمه أبا بكر، الدعاء الذي يدعو به في صلاته، قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[(٢)].

٦ - أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية؛ لأن الذرية قد يكونون نكدًا وفتنةً، وإنما يسأل الذرية الطيبة.

٧ - أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي تكون بها ذريته طيبة، ومنها الدعاء؛ دعاء

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٨)، والترمذي (٢٩٨٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

الله، وهو من أكبر الأسباب، وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - عن الرجل يبلغ أشده أنه يقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥]، ولا شك أن صلاح الذرية أمر مطلوب؛ لأن الذرية الصالحة تنفعك في الحياة وفي الممات؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1].

٨ - التوسل إلى الله تعالى بأسمائه المناسبة للحاجة؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مُجيبه، وهكذا ينبغي أن تكون الأسماء التي يتوسل بها الإنسان في دعائه مناسبة للمدعو به، فالداعي بالمغفرة يتوسل باسم الغفور، والداعي بالرزق يتوسل باسم الرزاق وهكذا، ويدل لهذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ دعاء المسألة أن تجعلها وسيلة لدعائك، ودعاء العبادة أن تتعبد لله تعالى بمقتضاها، فإذا علمت أنه سبحانه (غفور) فتعرَّض لمغفرته، وإذا علمت أنه (رحيم) كذلك وهكذا.

٩ - إثبات سمع الله، وكرم الله، وقدرته.

وجه ذلك: أنه يسمع الدعاء، ويجيب من دعاه، وقادر على الإجابة.

فإن قال قائل: أحيانًا يدعو المرء، ولا يستجيب الله دعاءه، وهنا زكريا ﷺ يقول: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وقال إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

فالجواب: أن يقال: إن عدم إجابة الله الدعاء؛ إما أن تكون لوجود مانع، وإما أن تكون لمصلحة الداعي، أو لفوات شرط، فأما إذا تمت الشروط وانتفت الموانع، ولم تقتضِ المصلحة خلاف ما دعا به الداعي، فإن الله تعالى يستجيب الدعاء قطعًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

فإذا دعا الإنسان ربَّه وقلبه لاهٍ يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، لكن قلبه مشغول بشيء آخر، فهذا فيه سوء أدب مع الله، فهنا قد تتخلف إجابة الدعوة لعدم وجود الشرط.

ومن الموانع: أن يكون الإنسان آكلًا للحرام - والعياذ بالله -، فإن أكل الحرام من أكبر موانع إجابة الدعاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ، يَا رَبِّ ـ أربعة أسباب من أسباب إجابة الدعاء ـ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1] ـ والعياذ بالله ـ أستبعد أن الله يجيب هذا الداعي، فهنا قد تخلفت إجابة الدعاء لوجود مانع.

وقد تكون لمصلحة الداعي أن يدخر الله له عنده أعظم مما سأل، أو يعلم الله - سبحانه وتعالى - أنه لو أجابه لحصل عليه مضرة في دينه، مثل أن تكون إجابته سبب لفتنته عن دينه، فبرحمة الله وحكمته لا يستجيب له هذا الدعاء لمصلحة الداعي، ولهذا ينبغي للإنسان ألَّا يضجر إذا دعا الله فلم يستجب له، وألَّا يسأم ويستحسر؛ فيقول: دعوت ثم دعوت فلم يستجب لي، فإنه إذا قال ذلك: لم يستجب له، فزال الإشكال الذي قد يرد على قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وبقي أيضًا إشكال آخر: وهو أن يقال: لا فائدة من الدعاء؛ لأن المدعو به إن كان قد كتب لك فسوف يأتيك بلا دعاء، وإن لم يكتب لك، فلن يأتيك ولو دعوت، فنجيب أولًا: أن هذا قول باطل من أصله؛ لأنه يقتضي تسفيه الرسل والأنبياء والصالحين، بل يقتضي أن الله - عزَّ وجلَّ - يأمر بما لا فائد فيه، فإن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر:٦٠]، فكيف يأمر الله - عزَّ وجلَّ - بأمر لا فائدة منه؟ هذا مستحيل! ثم نقول: الشيء يكتب لك لكن بسبب، فإذا كان الله قد كتب لك ذريةً طيبه بسبب دعائك فإنه إذا انتفى الدعاء انتفت الذرية الطيبة؛ لأن الله قدرها ـ أي الذرية الطيبة ـ مقرونة بالدعاء.

وهل يقول عاقل: أنا لا أتزوج إن كان الله قد أراد لي ولدًا جاء بلا نكاح، وإن لم يرد لي ولدًا لم يأت ولو تزوجت، هذا لا يقوله عاقل، بل نقول: إن الله قدر الولد بالنكاح، فتزوج يأتك الولد، وهكذا الدعاء.

إذن فالدعاء لا شك أنه من أقوى الأسباب في حصول المطلوب، وزوال المكروه، وهذا أمر معلوم، ويكون الله - تعالى - قد قدر هذا الشيء، الذي هو حصول مطلوبك، أو زوال مكروهك مقرونًا بهذا السبب ـ أي بالدعاء ـ فيكون الدعاء مقدرًا، والمدعو به مقدرًا من عند الله - عزَّ وجلَّ -، لكن أنت لا تدري فعليك فعل السبب، ثم إننا نقول: إن الدعاء نفسه عبادة، فإذا رفعت يديك إلى ربك يا رب، هذا ذلٌّ وخضوع لله - عزَّ وجلَّ -، وهو من أجلِّ العبادات.

ومن فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

١ - إثبات الملائكة، وأنهم عالم غيبي مخلوقون من نور، خلقهم الله - عزَّ وجلَّ - لما أعدَّهم له، فقاموا به على حسب ما أراد خالقهم - عزَّ وجلَّ -، يسبحون الليل، والنهار لا يفترون.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٨)، والترمذي (٢٩٨٩).

وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - بقوله: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ - الأَطِيطُ: ما يسمع من صرير الرحل على البعير المحمل حملًا ثقيلًا - مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»(١). وإنكارُ الملائكةِ حُكْمُهُ الكفر؛ لأنه تكذيب للقرآن.

لو قال قائل: أنا لا أنكرهم وأقول: فيهم ملائكة، لكن الملائكة هي قوى الخير، والشياطين هي قوى الشر، فأجعلهم معانٍ لا ذواتٍ.

نقول: هذا أيضًا إنكار لهم؛ لأن الله قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١] كيف تكون قوى ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؟!

٢ - أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع؛ لقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣ - جواز تكليم المصلي من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، لكن المكلَّم وهو يصلي لا يخاطب الآخر وإنما يجيبه بالإشارة.

والأفضل تركه إلَّا لحاجة، وذلك لأنك إذا كلمته وهو يصلي، فإنك تشوش عليه، وربما ينسى ويخاطبك.

٤ - مشروعية تبشير الإنسان بما يسره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، وهذا أمر مشروع في نوعه وجنسه؛ ففي النوع سبق أن الله تعالى أخبر عن الملائكة، أنها بشرت إبراهيم بإسماعيل وبإسحاق، قال الله في إسماعيل، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١] وفي إسحاق ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣].

٥ - يستفاد من هذا أيضًا جواز تقديم التسمية على اليوم السابع، وهذا إذا كان الاسم مُهَيَّأً، أما إذا كان غير مهيأ فإنه ينبغي أن يؤخر إلى اليوم السابع.

٦ - الثناء على من صدَّق المرسلين؛ لقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فإن الله قال ذلك على سبيل الثناء على يحيى، ولا شك أن من صدَّق من قامت البينات على صدقه، فإنه محمود حتى في الأمور الدنيوية، وأما إذا صدقت من لم تقم البينة على صدقه، فهذا استعجال، وأما إذا صدقت من قامت البينة على كذبه فهذا خبال، وسفه في العقل، وضلال في الدين.

٧ - أن يحيى - عليه الصلاة والسلام - سيكون سيدًا، وذلك لأنه أحد الأنبياء، والأنبياء هم سادة الخلق وأفضل الخلق.

٨ - أن يحيى - عليه الصلاة والسلام - مع توافر صفات الكمال في حقه بالسيادة فإنه كان ممنوعًا من مساوئ الأخلاق؛ لقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ فإن أصح وأعم ما قيل فيه: أنه ممنوع عن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

مساوئ الأخلاق.

٩ ـ أن يحيى من الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَنَبِيًّا﴾ وكل من وصف بالنبوة في القرآن الكريم فإنه رسول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨] وما قصهم الله علينا يقصه بلفظ النبوة في الأكثر، فيكون كل من ذكر في القرآن بوصف النبوة فهو رسول.

١٠ ـ أن الأنبياء من الصالحين بل هم في أعلى مراتب الصلاح، فإن مراتب الصلاح أربعة: وهي النبوة، والصديقية، والشهادة، والصلاح، هذا إذا ذكرت جميعًا صارت مراتبًا، وإن لم تذكر جميعًا صار الصلاح عامًّا؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا قُلْتُمْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران:٤٠ - ٤١]

❁ التفسير ❁

قال لما بشره الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ يعني كيف؟ ليس استبعادًا ولا استنكارًا ولكن تثبتًا، وإلَّا فإنا نعلم أن زكريا - عليه الصلاة والسلام - قد آمن بما بشره الله به ولا يمكن أن يستبعده، ولكنه قال ذلك من أجل التثبت، ذلك أن الإنسان ناقص في الإدراك والعلم، يحتاج إلى شيء يثبت له الأمور.

وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا شك أنَّه يؤمن إيمانًا كاملًا بأن الله يحيي الموتى، ومع ذلك قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، لأنه ليس الخبر كالمعاينة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٠٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٠٢).

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

قال: ﴿غُلَامٌ﴾ مع أنه لم يولد بعد، لكن هذا باعتبار ما سيكون، والتعبير بما سيكون أمر سائغ في اللغة وارد في القرآن ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف:٣٦]، يعني: أعصر عنبًا يكون خمرًا؛ لأن الخمر لا يعصر، فعبَّر عن الشيء بما يؤول إليه.

ثم قال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

الواو هذه يسميها العلماء: واو الحال؛ يعني: أنها تدل على أن الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال، يعني: والحال أنه قد بلغني الكبر، فهي حال من الياء في قوله: (لي).

﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، يعني: وصل إلى الكبر، والحقيقة أنه قد يتراءى للإنسان أن في المعنى قلبًا، هل الكبر بلغك أو أنت بلغت الكبر؟

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨]، فصار هو الذي بلغ الكبر.

وهنا يقول: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، إذن فالتعبير صحيح في هذا وهذا، فأنت إن بلغت الكبر فقد بلغك الكبر، وإذا بلغك الكبر فقد بلغته، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾؛ يعني: أصابني.

وعادةً أن الكبير إذا لم يولد له في سن الشباب، فإنه لن يرى الأولاد؛ لأن الإنجاب والإخصاب إنما يكون في حال الشباب، وكلما تقدمت السن بالإنسان من رجل أو امرأة قلَّ إنجابه؛ فيقول: كيف لما كنت شابًا لا يأتيني ولد، والآن يأتيني الولد.

قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

امرأته عاقر؛ عاقر يعني: لا تحمل، وعاقر لفظة مذكر لكن معناها هنا مؤنث، وتطلق على الذكر والأنثى، يقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، وهو الذي لا يولد له، فالآن كل من الزوجين ليس بصدد الولادة، ولكن الله على كل شيء قدير، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ﴾.

يجوز عندي فيها وجهان:

الوجه الأول: أنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك؛ يعني: أنك بلغك الكبر وامرأتك عاقر، ولكن الله يفعل ما يشاء.

والوجه الثاني: أن تكون في موضع نصب على المفعولية المطلقة؛ أي: مثل ذلك الفعل ليفعله الله، لأنه يفعل ما يشاء، وكلا الوجهين صحيح، فإنه سيكون له ولد ولو كان بلغه الكبر ولو كانت امرأته عاقرًا؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

فكل ما شاءه فَعَلَهُ؛ لأنه - عزَّ وجلَّ - لا يمنعه مانع كما نقول نحن في دبر كل صلاة: «اللَّهُمَّ

لَا مَانِعَ لِـمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِـمَا مَنَعْتَ»[1]، فالله - عزَّ وجلَّ - يفعل ما يشاء؛ لأن له الملك المطلق في خلقه، فلا أحد يمنعه ولا أحد يسأله لِـمَ فعلت؟ ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

فلمَّا أيقن بأن الله - تعالى - سيهب له الولد ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: صيِّر لي علامة تدل على هذا الولد، وأنه بدأ ينشأ ليزداد طمأنينة فيما بشره الله به.

والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله - عزَّ وجلَّ - كونية وشرعية، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أُيِّدُوا بالآيات الدالة على صدقهم، الآيات الكونية، والآيات الشرعية.

وكثير من الناس يسمي آيات الأنبياء معجزات، وهذه التسمية - وإن اشتهرت على الألسن - لكنَّ فيها قصورًا، والتعبير الصحيح السليم أن نسميها آيات كما سمَّاها الله، نسمي ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء؛ نسميها آيات، ولهذا لا تجد آية في القرآن سمى الله فيها هذه الخوارق معجزات أبدًا، بل كان يسميها آيات.

والمعجزات لو أخذناها على ظاهرها، لشملت ما يأتي به السحرة، وما تأتي به الجن؛ لأن ما يأتي به السحرة أو الجن معجز.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾، يعني: الآية التي تدلك، فأضافها إلى زكريا، مع أنه ليس هو الذي أوجدها، لكن لأنها علامة له.

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾.

آيتك: يعني العلامة التي أعطيك إياها إلَّا تكلم الناس ثلاثة أيام إلَّا رمزًا، يعني: لا تخاطبهم إلَّا رمزًا ثلاثة أيام بلياليها، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، وقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾، إلا: هذه أداة استثناء.

والمفسرون قد اختلفوا، فبعضهم قال: الاستثناء هنا متصل، فتكون الإشارة من الكلام؛ لأن الكلام هو ما يعبر عما في النفس من قول أو إشارة أو كتابة، وبعض المفسرين يقول: إن الاستثناء منقطع؛ لأن الرمز ليس بكلام، ولذلك لو رمز الإنسان في الصلاة، لم تبطل صلاته، ولو كانت كلامًا لبطلت؛ لقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ هَٰذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصِحُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»[2].

فمن نظر إلى المعنى قال: إن الرمز كلام؛ لأنه ينبئ عما في النفس، وقد اعتبر الشارع الإشارة، أليس النبي - عليه الصلاة والسلام - قتل اليهودي بإشارة الجارية الأنصارية، التي قالت حينما قالوا لها: من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٥٩٣).
(٢)صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

قتلك؟ فلان؟ فلان؟ فلان؟ فأشارت: نعم[1]، فاعتبر الإشارة.

ولا شك أن الإشارة تعبر عما في النفس، لكنها ليست القول الذي هو الصوت، فمن لاحظ المعنى قال: الاستثناء متصل، ومن لاحظ اللفظ وأن الكلام هو الصوت قال: الاستثناء منقطع، ولكن على القولين المعنى واحد، لن يستطيع أن ينطق بلسانه مع الناس، ولكن يشير إليهم إشارة، ووجه كون هذه آية: أنه عجز عن النطق مع أ نه سليم، وأنه عجز عن النطق مع الناس لا مع الله، وهذا الشيء غريب، يعني إنسان يتكلم يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، لم تأته آفة ولا علة في لسانه، ثم لا يستطيع أن يكلم الناس، هذه آية.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾.

أمره الله - تعالى - بأن يذكر ربَّه كثيرًا؛ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب، ويزداد الإيمان، ويستنير القلب، فلهذا أمره الله أن يذكر ربه كثيرًا، وفائدة الأمر بالذكر كثيرًا، أن الله لما أخبره بأنه سيمنعه من مكالمة الناس، بشَّره بأنه لن يَمْتنع من ذكر الله الذي هو أجل وأشرف من مخاطبة الناس وكلامهم.

فأراد الله تعالى أن يُسرِّي عنه، وأن يذهب عنه ما قد يقع في قلبه، فقال له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، وهنا لم يقل له: وإنك ستذكر ربك، بل قال: واذكر ربك، فأمره بذكر الله، ليكون ذكره لله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة مأمورًا بها.

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ هل (كثيرًا) صفة لزمن محذوف، أي: زمانًا كثيرًا، أم لمصدر محذوف أي: ذكرًا كثيرًا؟

الثاني: كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١، ٤٢]، وهنا قال: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، العشي: آخر النهار، والإبكار: أول النهار، وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وهنا قال: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ والآيات في هذا كثيرة؛ لأن في الإشراق مستقبل النهار، وفي العشي مستدبر النهار، فيكون الإنسان شاغلًا وقته ـ أوله وآخره ـ بذكر الله.

والعشي يبتدئ من زوال الشمس بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي)[2] وهي: إما الظهر وإما العصر؛ وقيل: العشي ما بعد صلاة العصر إلى منتصف الليل، ولكن الأول أصح. نعم المساء يطلق من صلاة العصر إلى منتصف الليل. وأما العشي فهو آخر النهار.

وقوله تعالى: ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ الإبكار ليست جمعًا لبكر؛ لأن جمع بكر أبكار كسبب وأسباب،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٩٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٨٥٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٥٧٣).

لكنها مصدر أو اسم لهذا الوقت المعين الذي هو أول النهار، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يشمل تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كل ما لا يليق به.

وتسبيح الله يكون عن أمور ثلاثة: عن صفة الغيب، وعن نقص في كمال، وعن مماثلة المخلوقين؛ والمماثلة: هو اللفظ الذي جاء به القرآن، فالنقص كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، والنقص في الكمال مثل قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، ومماثلة المخلوقين مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

والتسبيح: يكون بالقول ويكون بالفعل؛ فكل من عبد الله فقد سبَّحه بالقول وبالفعل، وإن لم يكن فيها كلمة: «سبحان» إلَّا أن العابد تستلزم عبادته المعبود أن يكون كاملًا؛ لأن الناقص لا يمكن للعاقل أن يعبده، فكونه يعبد الله يستلزم أن يكون مقرًّا له بالكمال مسبحًا له عن النقص.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

الباء في قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ يحتمل أن تكون للاستيعاب؛ يعني: في كل الوقت، وأن تكون للظرفية أي: في العشي، فإن جعلناها للظرفية لم يلزم أن يستوعب الوقت بالتسبيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧، ١٣٨]، فهم لا يمرون عليهم كل الليل، بل يمرون في أوله، أو في آخره، أو في وسطه، وإذا كانت للاستيعاب فالمعنى أن الله أمره أن يستوعب هذين الوقتين كليهما بالتسبيح.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

١ - أنه لا حرج على الإنسان في طلب ما تطمئن به نفسه؛ لأن زكريا - عليه الصلاة والسلام - لم يشك في خبر الله، لكن أراد أن يقدم إليه الفرح والاستبشار بقوة البراهين، وخبر الله لا شك أنه برهان، لكن كلما ازدادت البراهين ازدادت قوة اليقين.

٢ - جواز وصف الإنسان بما يكره إذا كان المراد مجرد البيان، لا القدح والعيب؛ لقوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

ونظيره أن رسول الله قال: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ العَصَى عَنْ عَاتِقِهِ»[1]، وهذا من باب

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

المشورة، ولكن لم يقصد الرسول الله ﷺ أن يعيب الرجل، بل قصد أن يبين حاله ليكون الإنسان على بصيرة.

٣ ـ إثبات فعل الله؛ لقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ومذهب أهل السنة والجماعة: إثبات أفعال الله الاختيارية المتعلقة به، والمتعدية إلى غيره؛ أفعال الله الاختيارية: يعني: التي تقع باختياره، ولا شيء يقع من أفعال الله إلَّا باختياره، لكن منها شيء متعلق به مثل: الاستواء، والنزول، والضحك، والفرح، وأشياء متعلقة بغيره مثل الخلق، فإن الخلق يتعدى إلى الغير، فأهل السنة والجماعة يثبتون النوعين، ويقولون بلا شك: إنَّ الرب الذي يفعل ما يشاء أكمل من الرب الذي لا يستطيع الفعل، وغالبُ الأشاعرة إن لم أقل كل الأشاعرة، والمعتزلة ومن ضاهاهم، يقولون: إن الله ليس له أفعال اختيارية؛ لا يستوي، ولا ينزل، ولا يجيء، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يحب، ولا يكره، إلى آخر ما يقولون في نفي الأفعال الاختيارية، وعلتهم أَوْهَى من أي علة حيث قالوا: إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، والله - عزَّ وجلَّ - أزلي أبدي.

فيقال لهم: أولًا: من قال لكم إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، فهذا قياس عقلي فاسد، فإن الحوادث لا يلزم ألَّا تقوم إلَّا بحادث؛ لأنه من المعلوم أن المحدِث سابق عن الحدث، وإذا كان المحدِث سابقًا على الحدث لم يلزم أن يكون المحدِث حادثًا، أنت الآن تأكل الغداء اليوم، والغداء اليوم بالنسبة لك حادث وقت حدوثه، وأنت موجود من قبل، فالرب - عزَّ وجلَّ - يفعل الأفعال هذه في وقت فعلها، وهو لم يزل موجودًا.

لكن على زعمكم أنتم، وعلى مذهبكم الباطل، يلزم أن يكون الله - سبحانه وتعالى - لا يفعل أي فعل، معطل عن الأفعال، وهذا عيب؛ لأن من يفعلُ أكملُ ممن لا يفعلُ باتفاق الناس، وليس يعتري الله - عزَّ وجلَّ - من إثبات الفعل في حقه أي: نقص بأي وجه من الوجوه، والآيات كثيرة في إثبات فعل الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. والنصوص في هذا كثيرة، والحمد لله أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بها.

٤ ـ إطلاق الجمع على الواحد، على أن قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يدل على أن القائل واحد، وأن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: واحدًا منهم، وقد سبق في التفسير الخلاف في ذلك.

٥ ـ إثبات المشيئة لله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾. وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

١ - جواز البحث عما يزيد به الإيمان، وإن كان الإيمان موجودًا، بل قد نقول: وجوب البحث عما يزيد به الإيمان؛ لأن الإنسان مطلوب منه أن يقوي إيمانه بكل وسيلة.

٢ - تمام قدرة الله - سبحانه وتعالى - بخوارق العادات، فإن كون زكريا - عليه الصلاة والسلام - لا يكلم الناس إِلَّا رمزًا، لكن في باب التسبيح ينطلق لسانه، هذا من آيات الله، ولهذا قال: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًا﴾.

٣ - أن الآية قد تكون على عكس ما طلبت له، فهي قد طلبت لتحقق الوجود فيما بُشِّرَ به، والآية كانت على العكس؛ كانت إعدام موجود وهو الكلام.

٤ - أن الإشارة تقوم مقام العبارة؛ لقوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًا﴾ وهذه الفائدة مبنية على أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن التعبير، ووجه المأخذ: أن الاستثناء هنا منقطع، فلا يكون كلامًا لكنه يقوم مقامه عند العجز، وكلا الأمرين حق، فالإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام ولاسيما عند العجز.

٥ - أن الإنسان ينبغي له إذا انقطع عن الناس، أن يشغل وقته بذكر الله عزَّ وجل؛ لأنه لما منع من ا لكلام مع الناس وصار لا يكلمهم إِلَّا رمزًا، ومعلوم أن الإنسان الذي لا يكلم الناس إِلَّا رمزًا، سوف لا يكون حريصًا على مكالمتهم لئلا يَتعب أو يُتعب، لذا أمره الله فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

٦ - فضيلة التسبيح والذكر في هذين الوقتين، العشي آخر النهار، والإبكار أول النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

٧ - أن الذكر ينبغي أن يكون مقرونًا بالتسبيح، إِلَّا ما ورد النص بإفراد أحدهما عن الآخر، يعني قال: اذكر ربك وسبح، ولكن في الذكر قال: كثيرًا، وفي التسبيح قال: بالعشي والإبكار، فهل نقول: إن الذكر لا يتقيد بالعشي والإبكار؟ أو نقول: إنه متقيد لكن نكثر منه؟ يحتمل هذا وهذا، لكن الآيات الأخرى تدل على أن الإنسان مأمور بأن يذكر الله كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١، ٤٢]، وقال تعالى في وصف أهل الصلاح: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] وعلى هذا فالذكر يكون أكثر من التسبيح، لكن القرن بينهما أيضًا فيه فائدة، وهي أنه يجمع بين الثناء على الله وتنزيهه من النقائص.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢، ٤٣]

❁ التفسير ❁

الواو حرف عطف، و (إذ) نقول فيها مثلما قلنا في السابق، في قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ [آل عمران:٣٥]، يعني أنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وتضمين الجملة لهذا يدل على العناية بها، وأنه ينبغي إشهارها، وإظهارها حتى تتبين وتتضح للناس، وإنما ذكر الله قصة زكريا ومريم هنا، وعيسى فيما بعد؛ لأنها نزلت في وفد نجران(١) الذين قدموا على النبي ﷺ وهم من النصارى، فأراد الله أن يبيِّن لنبيه ﷺ قصة المسيح ومن حوله كاملة، حتى يتبين له الأمر تمامًا، فإذا احتاج إلى محاجة النصارى كان عنده علم أفضل مما عندهم.

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾.

الملائكة: المراد بهم الجنس، إذ ليس المراد كل الملائكة، بل واحد منهم، وهو في الغالب جبريل.

﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾.

ونداؤها باسمها نوع من التكريم، إذ لم يقل: يا هذه باسم الإشارة، بل أتى باسمها ـ الاسم العلَم ـ تكريمًا لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي: اختارك، وذلك لأن «اصطفى» أصلها: «اصتفى» بالتاء، لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاءً، وهي مأخوذة من الصفوة، أي: جعلك من صفوة الخلق، واصطفاؤه إياها - سبحانه وتعالى - من عدة وجوه:

منها: أنه تقبلها بقبول حسن حين قالت أمها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران:٣٥]، مع أن المعروف عندهم أنه لا يخدم المساجد إِلَّا الرجال، لكن هي قبلت.

ومنه - أي: مِن اصطفائه لها - أنه أنبتها نباتًا حسنًا، وقد سبق الكلام على معنى الكلمتين، وأنها تتضمنان التربيتين الروحية والجسدية.

ومن اصطفائه لها أيضًا: أن الله تعالى اختار أن تكون عند نبي من الأنبياء، حتى تتربى في بيت نبوة.

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٣/ ٢٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥٨)، و «الدر المنثور» (٢/ ٢٢٩).

وقوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ الظاهر أنه طهرها من الأرجاس المعنوية، وأنها بالنسبة للأرجاس الحسية كالبول والغائط والحيض كغيرها من النساء، لكنه طهرها من الأرجاس المعنوية، فبرأها الله تعالى مما رماها به اليهود، وكذلك طهرها من سفاسف الأخلاق، حتى كانت دائمًا في عبادة الله - سبحانه وتعالى - كما سيتبين إن شاء الله.

ثم قال: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الواو حرف عطف، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ميَّزك من بينهن، فالاصطفاء الأول اصطفاء عام، وهذا اصطفاء خاص بالنساء، اصطفاها الله تعالى من بين سائر النساء، حيث جعلها من النساء الكمَّل، وقد أخبر النبي ﷺ أن مريم عليها السلام خير نساء البشر، هي وخديجة بنت خويلد وآسيا امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

فهي من النساء الكمَّل ﵂، ولهذا قال: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهل المراد نساء العالمين في زمنها؟ لأن النساء اللاتي في زمن النبي ﷺ لا شك أنهن في أمة هي خير الأمم، أو المراد العموم؟ فيه قولان للعلماء، منهم من قال: إنه خاص بنساء زمانها، كما ذكر الله عن بني إسرائيل أنه فضلهم على العالمين، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، وهذه الأمة أفضل.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

هذا من خطاب الملائكة أيضًا، تقول لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾، والقنوت: هو دوام الطاعة، واللام في قوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ للاختصاص أي: قنوتًا خالصًا لله، أي: طاعة خالصة له؛ لأن من شرط الطاعة أن تكون خالصة لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ الربوبية هنا ربوبية خاصة، تختص بمن خصَّها الله به، وتفيد تربية وأكثر اعتناءً واختصاصًا من الربوبية العامة.

وقوله: ﴿وَٱسْجُدِى﴾ الواو حرف عطف، واسجدي: يعني السجود المعروف، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن هذه الأمة أمرت أن تسجد على سبعة أعضاء[2]، وعطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام.

وذكر الخاص بعد العام، يدل على فضله، ومزيته، ولا شك أن السجود من أفضل أنواع الطاعة، لذلك كان أقرب ما يكون العبد من ربه و هو ساجد.

وقوله: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الركوع معروف، وهو: انحناء الظهر، وقوله: ﴿مَعَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٤٣١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٠٩) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٩٠).

﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: في جملتهم، وليس المراد أنها تصلي مع الجماعة؛ لأن المرأة لا تخاطب بالصلاة مع الجماعة، لكن: كوني في جملة الراكعين الذين يركعون لله - عزَّ وجلَّ -، وفي قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات مع أنها امرأة؛ لأنَّ الكُمَّل من الرجال أكثر من الكمَّل من النساء، ولهذا لم يكمل من النساء إلَّا ثلاث.

وقوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ قدَّم السجود على الركوع؛ لأن هيئة السجود أفضل وأبلغ في الخضوع، فقدَّمها على الركوع، أما من حيث الترتيب الفعلي بالنسبة للصلاة، فإن الركوع قبل السجود.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - تعظيم شأن مريم - عليها السلام - حيث أمر الله نبيه أن يذكر قصتها لهذه الأمة؛ لأنه قلنا: ﴿وَإِذْ قَالَتِ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره (واذكر إذ قالت).

٢ - فضيلة مريم، حيث خاطبتها الملائكة بقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ - دليل على ما ذهب إليه بعض أهل العلم أن مريم نبية؛ لأن الملائكة أوحت إليها وقالت: إن الله اصطفاك... إلخ، ولكن في هذا الاستدلال نظر؛ لأنه ليس بصريح في أنها نبئت، ومجرد خطاب الملائكة لها لا يثبت نبوتها؛ لأن النبوة إنما هي لمن أوحي إليه بشرع، لا لمن أوحي إليه بثناء أو بتهيئته لما سيكون، بل لمن أوحي إليه بشرع، وهي لم يوحَ إليها بشرع، فالأمر ليس بصريح، ولدينا آية تدل على أنه لا يبعث من النساء نبية، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ وإلَّا تفيد الحصر، فتدل على أنه لا يمكن أن تكون امرأة من النساء نبية، وكذلك أيضًا قول النبي - عليه الصلاة والسلام - حين بلغه أن الفرس أمروا عليهم بنت كسرى قال: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»[1]، فكيف يمكن أن يرسل الله - تعالى - امرأة ليفلح الناس على يديها.

صحيح أن المرأة تكون عالمةً، وتكون داعيةً كما هو الواقع، أما أن تكون نبيةً يوحى إليها لتتولى السلطة، كما يقولون التشريعية والتنفيذية فهذا بعيد، فالصواب أن مريم من الصالحات القانتات، وليست من الأنبياء والرسل.

٤ - أن الله - تعالى - يصطفي من الناس من يشاء؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، أي: اختارك اختيارًا لم يشاركها فيه أحد؛ لأنها صارت خادمةً لبيت المقدس مع أنه لا يخدمه عندهم إلَّا الرجال، فهذا نوع من الاصطفاء.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

٥ ـ براءة مريم مما ادعاه اليهود من كونها بغيًّا؛ لقوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، واليهود ـ قبَّحهم الله ـ اعتدوا على مريم، وابنها فقالوا في مريم: إنها بغي، وقالوا في ابنها عيسى: إنه ولد زنا، وكذبوه، وقتلوه إثمًا لا حقيقةً، كيف قتلوه إثمًا لا حقيقة؟ لأنهم أمضوا هذا الأمر الذي يظنون أنهم قتلوا به عيسى وصلبوه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، فكانوا قتلة إثمًا لا حقيقة؛ لأن عيسى باقٍ إلى الآن.

٦ ـ أن مريم مفضلة، ومصطفاة على نساء العالمين، ولكن هل هذا يتناول نساء العالمين إلى يوم القيامة، أو نساء العالمين في زمنها؟

يحتمل معنيين: إما أن المراد نساء العالمين في زمنها، ويكون قول رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَا امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»[1]، يكون هذا مما أطلع الله عليه نبيه ولم تطلع الملائكة على هذا، والملائكة بلَّغت مريم ما بُلِّغت به.

٧ ـ جواز تكرار المناقب؛ لأن أوصاف الكمال كلما كررت ظهر من كمال الموصوف ما لم يكن معلومًا من قبل، ننطلق من هذه الفائدة إلى فائدة تتعلق بصفات الله - عزَّ وجلَّ -، وهي أن أكثر ما وصف الله به نفسه، الصفات الثبوتية التي يثبتها لنفسه، أما الصفات التي ينفيها عن نفسه فوصفه بها قليل بالنسبة لوصفه بصفات الإثبات؛ لأن صفات الإثبات كمالات، وصفات النفي نقائص تُنفى لا لذاتها، ولكن لإثبات كمال ضدها، مع أنها هي منفية أيضًا حقيقة.

٨ ـ بيان أنه كلما منَّ الله - سبحانه وتعالى - على إنسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة أكثر؛ لأن الملائكة لما قالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، أمرتها بالقنوت والسجود والركوع، فدلَّ هذا على أنه ينبغي للإنسان كلما ازدادت عليه نعم الله، أن يزداد على ذلك شكرًا بالقنوت لله، والركوع، والسجود، وسائر العبادات.

٩ ـ فضيلة القنوت لله، ولكن ما هو القنوت؟ دوام الطاعة، والخشوع، والاشتغال بالطاعة عما سواها.

ولهذا لما نزلت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام ليشتغلوا بالطاعة عما سواها، فالقنوت دوام الطاعة مع الاشتغال بها عن غيرها.

١٠ ـ فضيلة السجود والركوع؛ لقوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، مع أنه من القنوت

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٤٣١).

لكن لفضيلتها نصَّ عليها.

١١ - جواز ترك الترتيب للمصلحة أو لمراعاة شيء آخر؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾، ولا يقول قائل: لعل الصلاة في عهدهم يقدّم فيها السجود، وفي هذه الشريعة يقدم فيها الركوع، نقول: الأصل خلاف ذلك، لكن نصَّ على السجود وبدأ به؛ لأنه أبلغ في القنوت من الركوع كما ذكرناه في أثناء التفسير.

١٢ - أن العُبَّاد من الرجال أكثر من العباد من النساء؛ لقوله ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الراكعات إشارة إلى أن الكمال في الرجال، وكثرة العمل في الرجال أظهر منها في النساء، ولهذا كانت النساء أكثر أهل النار كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي[1] ﷺ.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤]

التفسير

﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق من ذكر قصة زكريا وقصة مريم.

وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار الغيب، أي: من أخبار الشيء الغائب الذي لا يعلم، وليس المراد من وقع في زمنه؛ لأن من وقع في زمنه يعلمونه لكن المراد لا يعلمه النبي ﷺ ولا قومه، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩] إذن هي غيب نسبي بالنسبة لمن لم تكن في زمنه، أما من كانت في زمنه فهي مشاهدة، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقومه كانوا أميين لا يعلمون شيئًا عن الأمم السابقة، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ما أوحى من أخبار السابقين، التي ما كان يعلمها لا هو ولا قومه، وهو دليل على أنه رسول الله حقًّا، وأن الوحي يأتيه من الله.

وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، فإذا أعلمك إنسان بسرعة على وجه خفي يسمى في اللغة وحيًا، ولكنه في الشرع: إخبار الله - سبحانه وتعالى - لنبي من أنبيائه بما يشاؤه من شرعه، هذا الوحي، ثم إنْ كلَّفه بتبليغه كان رسولًا، وإلَّا كان نبيًّا.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كنت عندهم، يعني عند زكريا وقومه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤) وفي غير من صحيحه، ومسلم (٩٠٧).

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ إذ: أي حين، وهي متعلقة بقوله: ﴿كُنتَ﴾ يعني: ما كنت في ذلك الوقت عندهم، إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وقوله: ﴿أَقْلَمَهُمْ﴾ اختلف العلماء في تفسيرها، فقيل: إنها على ظاهرها أنهم ألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، وقيل: إن المراد بها سهامهم التي تكون في النصل يرمون بها، وسميت قلمًا لأنها تشبهه في الاستطالة، ودقة الرأس، وظاهر القرآن أن المراد بالأقلام الأقلامُ حقيقةً التي يكتب بها، ولا نعدل عن ظاهر القرآن إلَّا بدليل، هذه هي القاعدة الشرعية في تفسير القرآن، بل وفي تفسير الحديث النبوي، بل وفي كلام الغير حتى كلام الناس يجب أن نعمل بظاهره إلَّا بدليل، ولكن ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ كيف ألقوا هذه الأقلام، المعروف أنهم ألقوها في النهر، في الماء الذي يمشي، فما انحبس منها فصاحبه الذي يكفل مريم، وما جرى فهو الذي لا يكفلها، والقرآن ليس فيه بيان ذلك، يعني: ليس فيه أنهم وضعوا هذه الأقلام في النهر، إنما ألقوا أقلامهم على وجهٍ، الله أعلم بكيفيته، من باب الاقتراع - يعني قرعة - أيهم يكفل مريم، فخرجت القرعة لزكريا كما قال تعالى في أول القصة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

يعني: ما كنت عندهم أيضًا في حال اختصامهم، أيهم يكفل مريم، هذا الاختصام الظاهر أنه قبل إلقاء الأقلام، لكن أُخِّر في الذكر لمناسبة رؤوس الآيات ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على أنه قد يقال: إن الله - سبحانه وتعالى - ذكر النتيجة قبل المقدمة وقبل السبب؛ لأنها هي الغاية، فإن إلقاء الأقلام والسهام هو غاية الاختصام، فاختصموا أيهم يكفلها، فقالوا: لنُسْهِم بإلقاء الأقلام، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ هذا كالدليل في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني: فأنت ما قلتها لأنك شاهد، ولكن قلتها لأنها أوحيت إليك، وأيضًا فيه إشارة إلى أن هذا الذي أنبئ به كأنما يراه بعينه، وكأنه حاضر وهو كذلك؛ لأن أخبار الله - عزَّ وجلَّ - أشد ثبوتًا وحقيقة مما يُرى بالعين.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[آل عمران:٤٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ يعني: اذكر إذ قالت الملائكة: يا مريم، والمراد جنس

الملائكة، والمشهور أنه جبريل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ سبق أن معنى البشارة في الأصل الإخبار بما يسر، وأنها قد تطلق على الإخبار بما يسوء، بجامع أن كل ما يسر وما يسوء يغير البشرة ويؤثر فيها.

وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ تحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن الكلمة في المبشر به كما تقول: بشرته بولد، فتكون الكلمة هي المبشر به.

والوجه الثاني: أن المراد بالكلمة هنا الصيغة التي حصلت بها البشارة، أي: يبشرك بشارة عن طريق النطق بها، كما تقول: بشرته بالقول لا بالكتابة، أي: أن الوسيلة التي حصلت بها البشارة هي الكلمة، يعني أن الله سبحانه وتعالى قال كلمة فيها البشرى بالمسيح عيسى ابن مريم، فالوجهان محتملان.

أما على الاحتمال الثاني: فلا إشكال أن تقع البشارة بالنطق، لكن على الوجه الأول: أن الكلمة هي المبشر به، فكيف يكون المبشر به كلمة مع أنه إنسان؟

أجاب العلماء عن ذلك: بأنه أطلق عليه الكلمة؛ لأنه كان بالكلمة لا بالوسائل الحسية المعلومة؛ لأن الولد في العادة يأتي بواسطة النكاح، لكنه لم يأتِ بالنكاح بل أتى بالكلمة، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فلهذا صح أن يطلق عليه الكلمة، وفي هذه الآية إشكال آخر إذا قلنا إن الكلمة تعني المبشَّر به، فما معنى (منه)، فإن (مِنْ) لها معانٍ منها التبعيض، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الخلاصة.

بَعِّضْ وبيِّنْ وَابتَدِئ فِي الأَمْكِنَةِ بِمَنْ وَقَدْ تَأْتِي لِبَدْءِ الأَزْمِنَةِ

الشاهد قوله: (بَعِّض) فإن «مِنْ» تفيد التبعيض، فهل معنى ذلك أن عيسى بعض من الله كما قالت النصارى؟ الجواب: لا، ليس بعضًا من الله؛ لأن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ولا يتتبعُ أحد هذه الآية ويدعي البعضية إلَّا من في قلبه زيغ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، والنصراني كما اتبع المتشابه في هذه الآية، اتبع المتشابه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] قال: هذا كلام الله يقول: ﴿إِنَّا﴾، و﴿إِنَّا﴾ تفيد الجمع، فاتبع المتشابه، انتصارًا لرأيه الفاسد، ولا يخفى على كل ذي لب أن المراد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وما أشبهها التعظيم لا التعدد، كذلك هنا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾: لا يقتضي أن يكون عيسى بعضًا من الله عزَّ وجل؛ لأنَّك إن ادعيت أنه بعض من الله، فلتدَّع أنه كلمة الله، ومعلوم أنه لا أحد يدعي أن عيسى كلمة، بل هو بشر له جسم وروح يأكل ويشرب، وهل الكلمة كذلك؟! لا. إذن فيتعين أن تكون (مِنْ) إما ابتدائية وإما بيانية؛ يعني: بكلمة صادرة من الله - عزَّ وجلَّ - بأن قال: كن فكان، نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] هل يدعي أحد أن ما في السموات وما في الأرض بعض من الله، لا، حتى

النصراني لا يدعي ذلك لكن هنا (مِنْ)، إما للابتداء يعني: ابتداء التسخير من الله أو للبيان، بيان مَن المسخر، أو مَنْ جاء بهذا التسخير.

قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، اسم: مبتدأ، والمسيح: خبر، وعيسى: خبر ثاني، وابن مريم: خبر ثالث، وإنما قلنا ذلك لأنك لو أفردت كل واحد عن الآخر لاستقام الكلام، لو قلت: اسمه ابن مريم صحَّ، اسمه عيسى صحَّ، اسمه المسيح، صح، وعلى هذا فكل واحد منها خبر، وقيل: بل الثلاثة خبر واحد، كقولك: البرتقال حلو حامض، هنا لا يصح أن تقول: حلو خبر وحامض خبر؛ لأنك لو أفردت أحدهما عن الآخر لفسد المعنى، لو قلت: البرتقال حلو، لم يصح، ولو قلت: البرتقال حامض، لم يصح، ولم يؤدِ المعنى الذي يؤديه قوله: البرتقال حلو حامض يعني: جامع بينهما، فلهذا نقول في قول القائل: البرتقال حلو حامض: حلو حامض جميعها خبر، لكن في الآية التي معنا ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا يستقيم هذا المعنى فيها، وبناء على ذلك نقول: إن كل واحد منها خبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] فهذه خمسة أخبار، هذه الأخبار الثلاثة جمعت أنواع العلم، التي أشار إليها ابن مالك بقوله:

واسْمًا أَتَى وكُنْيَةً وَلَقَبَا ... وأخِّرَنْ ذَا إِنْ سِوَاهُ صَحِبَا

أي: الاسم عيسى، واللقب: المسيح، والكنية: ابن مريم، هذه الكلمات الثلاثة قد جمعت أنواع العلم الثلاثة:

الاسم، واللقب، والكنية، لكن يبقى عندنا إشكال في قول ابن مالك: (وأخرن ذا) يعني: اللقب إن سواه صحبا، فإنه في الآية الكريمة قدَّم اللقب فيبقى إشكال إذن: كيف نجمع بين هذا الكلام من هذا العالم في النحو وبين الآية؟ من المعروف أن علماء النحو رحمهم الله لا تضيق عليهم أبدًا، يقولون: حجج النحاة كبيوت اليرابيع، قالوا: الجواب عن الآية: أن اللقب إذا اشتهر به الإنسان حتى صار كالعلم أو كالاسم جاز أن يقدم، ولهذا نجد في كلام العلماء: «**الإمام أحمد بن حنبل**»، المسيح عيسى ابن مريم على وزن المسيح ابن مريم، «**الإمام محمد بن إدريس الشافعي**»، فيقدم الإمام مع أنه لقب، للاشتهار، إذن لا إشكال فيه، قال: إنما ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ واختار الله - تعالى - له اسم المسيح؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلَّا بَرِئ، أو لكثرة مسحه الأرض وسيره فيها، أو من المسحة وهي الجمال، والمعنى الأول أشهر، يعني أنه لا يمسح ذا عاهة إلَّا بَرِئ، فهو يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم، وهذه الأمور لا تتم لكل أحد، بل لا تتم لأحد أبدًا إلَّا بإذن الله عزَّ وجل.

والمسيح فعيل بمعنى فاعل، إلَّا على قول من يقول: إن المراد بذلك المسح من الجمال، فهذا

يكون بمعنى مفعول.

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ولم ينسبه إلى أب؛ لأنه لا أب له، (مسألة): لكن لماذا نسبه إلى أمه؟

الجواب: إشارة إلى ألَّا يقول قائل: إنه ينسب إلى كافله زكريا، فبدأت الملائكة وبينت أن هذا الرجل ينسب إلى أمه، عيسى ابن مريم.

قوله: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ هذه منصوبة على الحال، حال من المسيح أي: حال كونه وجيهًا في الدنيا، والوجيه هو: ذو الجاه؛ وهو الشرف والمكانة والسيادة، وقد كان كذلك - عليه الصلاة والسلام - ، أما وجاهته في الدنيا فلأنه كان أحد الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم، وأولو العزم هم أعظم الناس جاهًا في الدنيا والآخرة، كما قال الله - تبارك وتعالى - عن موسى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وأما وجاهته في الآخرة فلأنه من أولي العزم من الرسل الذين هم بأعلى درجات الجنة، ولهم بالآخرة مقامات لا تكون لغيرهم.

فإن قيل: من هم أولو العزم من الرسل؟

فالجواب: أنهم أولو الحزم في الأمور والصبر عليها.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] والمشهور في (من) في هذه الآية أنها للتبعيض، وأن أولو العزم هم الخمسة الذين ذكروا في آيتين من القرآن الكريم، وبعضهم جعل (مِنْ) بيانية، وعلى هذا يكون جميع الرسل من أولي العزم، لكن المشهور الأول.

وهم مذكورون في آيتين من القرآن.

الأولى: في سورة الشورى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

والثانية: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، هذا وصف ثالث، أنه من المقربين إلى الله - عزَّ وجلَّ - في الدنيا والآخرة؛ لأن المقرب يكون مقربًا في الدنيا ويكون كذلك مقربًا في الآخرة، فعيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - كان وجيهًا في الدنيا والآخرة، وكان من المقربين إلى الله عزَّ وجل.

وهل هذا الوصف حاصل لغيره من الأنبياء؟

الجواب: نعم، أولو العزم من الرسل لا شك أن لهم وجاهة في الدنيا والآخرة وأنهم مقربون إلى الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٦ - ٤٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾.

الواو حرف عطف، والجملة معطوفة على ما سبق ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي: في حال الصغر، وأصل المهد أو المهاد: الفراش يوضع للإنسان فيطؤه ويستريح عليه، وقوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ أي: في الفراش وهو صغير، وهذا من آيات الله عزَّ وجل؛ لأن العادة التي أجرى الله - سبحانه وتعالى - البشر عليها ألّا يتكلم أحد إلّا في سن معين، أما في المهد فلم يتكلم إلّا ثلاثة، منهم المسيح عيسى ابن مريم، وتكلم بكلام من أبلغ الكلام لما جاءت به قومها تحمله: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٢٧ - ٣٣]، كلام من أفصح الكلام وأعظمه، وهو في المهد، وهذا من آيات الله - عزَّ وجلَّ - الدالة على قدرته، ولهذا كانت آيات عيسى كلها تدور حول هذا الأمر خوارق العادات في الأمور الكونية؛ فهو نفسه آية خُلِقَ بلا أب، وكلم الناس في المهد، وهذا من الآيات، يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا، ويبرئ الأكمه والأبرص ولا أحد يبرئهما من الأطباء، ويحيي الموتى ويخرجهم من القبور، قال أهل العلم: لأنه بعث في زمن ترقَّى فيه الطب ترقيًا عظيمًا، فجاء بآيات من جنس الآيات التي فيها إعجازهم، ومن جنس الأعمال التي يعملونها؛ ليكون ذلك أبلغ في الإعجاز، كما جاء موسى - عليه الصلاة والسلام - بالعصا واليد التي تبطل سحر السحرة، وكان السحر في وقته قد زاد

وانتشر، وكما أتى محمد ﷺ بكلام هو أبلغ الكلام وأفصحه لانتشار الفصاحة في زمنه وعهده، حتى يعجز هؤلاء البلغاء ويتبين أنه ليس من كلام البشر.

قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

يعني: ويكلمهم وهو كهل من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وفي هذه الحال ليس غريبًا أن يكلم الناس، ولكنه أتى بها لفائدة، وهي أن كلامه في المهد ككلامه وهو كهل؛ يعني: ليس ككلام الصبي الذي يتكلم في المهد كلام أطفال، بل كلامه فصيح من أبلغ الكلام كما يتكلم به وهو كهل.

قال: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وهو من الصالحين، وسبق لنا أن الصالح من صَلَحَت سريرته وعلانيته، يعني: ظاهره وباطنه، باطنه: بالإخلاص لله، والطهارة من كل شرك ونفاق وشك وأحقاد وبغضاء للمؤمنين وما أشبه ذلك.

وظاهره: بالمتابعة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وعدم الابتداع، فهو - عليه الصلاة والسلام - من الصالحين الذين صَلَحَت ظواهرهم وبواطنهم، وإن شئت فقل: سرائرهم وعلانيتهم.

قوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ هي الآن تخاطب الله، والذي كان يخاطبها الملائكة أو جبريل، لكنها لما قالوا: إن الله يبشرك وعلمت أن الأمر من الله وجهت الخطاب إليه - سبحانه وتعالى - فقالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾، وتأمّل هذا الاستعطاف منها حيث قالت: ﴿رَبِّ﴾ ومعلوم أن كلمة رب هنا مضافة إلى ياء المتكلم التي حذفت للتخفيف وأصلها (ربِّي أنّى يكون لي ولد).

وقولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ هذا استفهام يعني: من أين يكون لي الولد ولم يمسسني بشر؟، وهذا الاستفهام ليس على سبيل الشك، وليس على سبيل الاستبعاد، ولكنه على سبيل الاستثبات وزيادة الطمأنينة كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، ولم يكن ذلك عن شك.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ الجملة حالية؛ يعني والحال أنه لم يمسسني بشر، أي: لم يجامعني؛ لأن المس يطلق على الجماع؛ ويكنى به عنه؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]، أي: تجامعوهن، ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، فمن أين يكون الولد؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾، قال الله - عزَّ وجلَّ - لأنها نادت الله ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ﴿...قَالَ كَذَٰلِكِ﴾، يعني: الأمر كذلك، فالجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره (الأمر) وعلى هذا فيحسن الوقوف هنا، أي يحسن أن تقف فتقول: كذلك، ثم تبتدئ فتقول: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وهذا التركيب له نظائر في القرآن، مثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]،

وإنما تأتي هذه الصيغة للتقرير والتثبيت، يعني: الأمر مثلما وقع تمامًا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة يخلق خبر؛ أي: أن الله سبحانه يخلق ما يشاء سواء كان على وفق العادة أو على خلاف العادة، فعيسى - عليه الصلاة والسلام - جاء على خلاف العادة، لكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ـ أي خلق آدم من تراب ـ ثم قال له كن فيكون، فالله على كل شيء قدير.

وقد ذكر أهل العلم أن البشر منهم من خلق بلا أم ولا أب، ومنهم من خلق من أم بلا أب، ومنهم من خلق من أب بلا أم، وأكثر الخلق من أم وأب.

فالذي خلق من غير أم ولا أب (آدم)، ومن أب بلا أم (حواء) امرأة آدم، ومن أم بلا أب (عيسى)، وسائر الناس من أب وأم.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: الذي يشاء كمًّا وكيفًا وعلى سبب معلوم، وعلى سبب غير معلوم، فالله سبحانه لا معقب لحكمه، يخلق ما يشاء، قلنا: بالكمية والكيفية، والسبب المعلوم والسبب غير المعلوم وأيضًا النوعية؛ والنوعية ما أكثر أنواع الخلق لا يحصيها الإنسان فضلًا عن أفرادها، وما أكثر الخلق، لو أردت أن تحصي الخلائق ما استطعت، والله تعالى قد أحصاهم ورزقهم وأمدهم وأعدَّ كل مخلوق لما خُلق له، قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩، ٥٠]، كل شيء أعطاه الله خلقه المناسب له ثم هداه لما خلق له.

انظر أحيانًا تفتش الكتاب للمراجعة فتجد فيه حيوانًا لا يدركه البصر إلَّا بكلفة! مَنْ خلقه؟ الله، ومَنْ أعده للرزق؟ الله. ومن أمده برزقه المناسب له؟ هو الله - عزَّ وجلَّ -، فما بالك بالخلق الكثير الذي هو أكبر من هذا بكثير؟! فالحاصل أن الله يخلق ما يشاء كمًّا وكيفًا ونوعًا، وبسبب معتاد وبسبب غير معتاد، لا حَجْرَ على الله - عزَّ وجلَّ -، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ﴾، قضى: أي: قضاءً كونيًّا؛ لأن القضاء له معنيان كوني وشرعي، فمن أمثلة الشرعي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ومن أمثلة الكوني قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، قضينا شرعًا أو كونًا؟

الجواب: كونًا، ولا يصح شرعًا؛ لأن الله لا يقضي شرعًا بالفساد أبدًا، فهو لا يحب الفساد لكنه قضاء كوني.

والفرق بين القضاءين الكوني والشرعي:

القضاء الشرعي:

١ - أن القضاء الشرعي متعلق بما يحبه الله من فعل المأمور أو ترك المحظور.

٢ - القضاء الشرعي قد يقع وقد لا يقع، قد يقع من المقضي عليه وقد لا يقع.

القضاء الكوني:

١ - القضاء الكوني يتعلق فيما أحبه الله وفيما لا يحبه الله.

٢ - القضاء الكوني لابد أن يقع من المقضي عليه.

فصار الفرق أول شيء وجهين، وعندما نذكر الشيء وضده تكون أربعًا.

ومن أمثلة القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود:٤٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠] فهو شامل للكوني والشرعي.

حتى الكوني الذي يقضيه الله وإن كان شرًّا لكنه في المفعولات، أما في نفس القضاء فهو حق.

يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ «أمرًا» مفرد جمعه أمور أم أوامر؟

الجواب: أمور؛ لأن المراد بالأمر هنا الشأن يعني: إذا قضى شأنًا - أيُّ شأنٍ من الشؤون - فإنما يقول له كن فيكون، لا يحتاج إلى عمل ولا إلى آلات ولا إلى أي سبب، كل الخلائق مسلمة لله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:٨٣] تنتظر الأوامر، إذا صدر الأمر من الله - عزَّ وجلَّ - كان المأمور.

الأمر الكوني: يقول كن فقط فيكون.

قال الله تعالى عن البعث؛ بعث الخلائق كلها: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وبيَّن الله تعالى في سورة القمر كيف هذا الأمر هل يكرر؟ هل يتأخر المأمور؟ فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ [القمر:٥٠]، لا يوجد تكرار - واحدة - ولا يتأخر المأمور ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، يعني: لو شاء ربنا - عزَّ وجلَّ - لأمر هذه الأرض أن تزول ومن فيها بلحظة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هذه القدرة التامة العظيمة التي لا تنسب قُدرة الخلق إليها. ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، الفاء هذه تفيد الترتيب وإن شئت فقل: تفيد السببية، فإن قلت: إنها تفيد السببية فاقرأها بالنصب، وإن قلت: إنها تفيد الترتيب فاقرأها بالرفع، وكلتا القراءتين سبعية صحيحة (أن يقول له كن فيكونَ)، ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فعلى قراءة الرفع تكون استئنافية، والفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب (كن فهو يكونُ) في الحال، وعلى قراءة النصب تكون الفاء للسببية، فكأن الكون مسبب عن القول، ومعلوم أن المسبب يأتي مقارنًا للسبب.. على

قراءة النصب (كن) سبب، و (فيكون) مسبب، ومن المعلوم أن المسبب يأتي عقب السبب فورًا؛ لأنه سببه، والسبب مقارن للمسبب، وعلى هذا فتكون كل من القراءتين مفيدة لمعنى غير المعنى الثاني، لكنهما متلازمان.

هنا مسألة: إذا قال الله: ﴿كُن﴾ فهل يقول: ﴿كُن﴾ فقط فيقع الشيء على مراد الله، أو لابد أن يقول كن ويبين ما يكون؟ لننظر في حديث القلم، لما خلق الله القلم قال له: اكتب. هل كتب أم لم يكتب؟ لم يكتب، بل قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة(1)، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن الشيء إذا قال الله له: كن فلابد أن يعين ماذا يكون، بدليل حديث القلم، ولكنه إذا عين ما يكون فلابد أن يكون الشيء على ما عيّن، فالقلم لا يعلم الغيب، لكن لما قال له الرب - عزَّ وجلَّ -: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب، يعني: أن الله أعلمه فكتب.

فهذا هو الظاهر، وإذا كان الله - عزَّ وجلَّ - إذا أمر فقال: كن كان على مراد الله، فليس هذا بغريب على قدرة الله، إن الله تعالى يجعل هذا الشيء يخضع لأمر الله الذي أراده - عزَّ وجلَّ -، وإن كان لم يطلعه عليه، لكن الذي يترجح عندي بناءً على حديث القلم أن الله - عزَّ وجلَّ - يأمره أن يكون ويبين ما يكون عليه.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: الضمير يعود على عيسى، والفاعل هو الله - عزَّ وجلَّ - يعلمه الكتاب؛ لأن عيسى كغيره من البشر لا يعلم إلَّا ما علمه الله، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦ـ٢٧].

و ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: المكتوب، وهل المراد أنه يعلمه الكتابة، يعني: يحسن الخط، أو المراد أنه يعلمه الكتب السابقة؟

الجواب: كلاهما لا يتنافيان، علمه الكتابة فكتب، وعلّمه الكتب السابقة وعلّمه التوراة والإنجيل، والتوراة من باب عطف الخاص على العام لشرفه، وأما الإنجيل فإنه لم ينزل على أحد قبل عيسى.

وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: الشريعة؛ لأن الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمن للحكمة، قال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]،

---

(1) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فالحكمة: هي الشرع، وهو موافق لمن فسر ذلك بالسنة؛ لأن سنة النبي ﷺ هي شرعه الذي جاء به من الله، فعلمه الله - عزَّ وجلَّ - الحكمة، و (ال) في (الحكمة) للعهد الذهني، يعني: الشرع الذي شرعه الله لعيسى، وليس كل الحكمة بل الحكمة التي شرعت له.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

التوراة: الكتاب الذي أنزله الله على موسى، والإنجيل الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، التوراة كتبها الله تعالى كتابة ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]، ولهذا قال أهل العلم من علماء السلف: إن الله تعالى غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، كتب التوراة بيده - سبحانه وتعالى -، ونزلت ألواحًا على موسى وفيها ما تقتضيه المصلحة والحاجة والضرورة في ذلك الوقت.

وأما الإنجيل: فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى، وهو بالنسبة للتوراة كالمكمل لها كما قال تعالى فيما يأتي من الآيات: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، فهو كالمتمم للتوراة؛ لأنه في الحقيقة نزل على بني إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة؛ ومن المعلوم أن حال بني إسرائيل تغيرت من وقت موسى إلى عيسى، فكان في الإنجيل أشياء فيها تعديل أو زيادة، فهو متمم للتوراة.

ثم قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿وَرَسُولًا﴾: الواو حرف عطف، (ورسولًا) منصوب بفعل محذوف تقديره (ويرسله رسولًا) ولا يصح أن يكون معطوفًا على ما قبله، أي: ويرسله رسولًا إلى بني إسرائيل، وهم أبناء يعقوب الاثنى عشر، والرسول: هو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي.

هذا هو المشهور عند عامة العلماء رحمهم الله، وقيل: إن النبي لم يوحَ إليه بشرع وإنما كان مؤيدًا لشريعة قبله، يعني: يوحى إليه بتأييد الشريعة التي قبله، فكانت الأنبياء فيما سبق كالعلماء في هذه الأمة، وهذا وإن كان له وجه كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، لكن هذا القول يعكر عليه قضية آدم، فإن آدم نبي ومع ذلك لم يكن مجددًا لشريعة سابقة، إذ لم تنزل شريعة على البشر قبل آدم - عليه الصلاة والسلام -، فلهذا يترجح تعريف الجمهور في النبي والرسول.

وإذا قلنا: إن النبي من أوحي إليه بشرع فلا يمنع أن يكون هذا الشرع الذي أوحي إلى النبي هو شرع من قبله يوحي إليه تأكيدًا وتثبيتًا.

فإن قال قائل: ورد في صحيح مسلم: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِي قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدلَّ أُمتَهُ عَلَى

خَيرِ مَا يَعْلَمُهُ لَـهُم، وَيُنْذِرَهُم شَرَّ مَا يعْلَمُهُ لَـهُم»[1]، فهل يدل ذلك على أن النبي يبين لأمته ما يبينه الرسول، وعليه فلا فرق بين النبي والرسول؟.

الجواب: لا يدل؛ لأن هذا الحديث إن قلنا إنه يبين بأمر الله فهو رسول، وإن قلنا يبين تطوعًا من غير أن يلزم بذلك لكن لمحبته الخير فهو نبي، مع أن المراد بهذا الحديث: أنه النبي الذي هو الرسول، ولهذا يذكر الله كثيرًا النبيين دون الرسل، ويذكر الرسل دون النبيين، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

وفي آية آخرى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (بني إسرائيل)، وهل هذه اسم قبيلة أو اسم أشخاص معينين؟

الجواب: أنه اسم قبيلة، كما يقال: بنو تميم، والعلماء - رحمهم الله - يفرقون بين ابن وبني إذا كان اسمًا لقبيلة، أو اسمًا لشخص معين.

وذكروا ذلك في باب الوقف وفرَّعوا عليه مسائل؛ فإذا قلت: هذا وقف على بني فلان وهم قبيلة كبني تميم مثلًا، فهل يعم الجميع؟ وهل يشمل الذكور والإناث؟ قالوا: نعم. يعم الجميع ويشمل الذكور والإناث، ولكن لا يجب التعميم.

فيجوز أن يوزع هذا الوقف على ثلاثة من بني تميم فقط، ويجوز أن يعطي ثلاثة نساء فقط؛ لأنه لا يختص بالرجال بل يشمل الذكور والإناث، ولأنه لا يستلزم التعميم.

أما لو قلت: هذا وقف على بني فلان، (واحد معين من الناس) فإنه يجب للذكور دون الإناث؛ لأن الابن غير البنت؛ ولأن بني فلان المعين يمكن حصرهم فيجب تعميمهم، والتساوي بينهم وإخراج النساء منهم.

فبنو إسرائيل من أي الصنفين؟

الجواب: من الأول، من القبيلة.

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم بنو عم لبني إسماعيل، ولهذا لما بُعِثَ النبي ﷺ في بني عمهم - بني إسماعيل - غارت اليهود من ذلك، وأنكروه وكانوا بالأول يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي ونتبعه ونكتسحكم ونغلبكم؛ ظنًّا منهم أنه سيكون من بني إسرائيل وليس ظنًّا حقيقيًّا، بل هو وَهْمٌ؛ لأنهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنه سيبعث في مكة لكن توهموا ذلك، أوهمتهم أنفسهم الكاذبة فلما بعث في بني إسماعيل أنكروه وكذبوه، ومعنى إسرائيل في السريانية أو في العبرية: عبد الله، والآن تسمى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٤)، والنسائي (٤١٩١)، وأبو داود (٤٢٤٨)، وابن ماجه(٣٩٥٦).

الدولة اليهودية إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

الله يخلق ما يشاء، عبَّر هنا بالخلق وفي قصة زكريا بالفعل (يفعل)، وهنا قال: (يخلق) فهل هناك نكتة أو أنه اختلاف تعبير؟

الجواب: أن هناك نكتة، وهي من وجهين:

الوجه الأول: مما قاله العلماء وهو صحيح: أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - خلق من غير ما جرت العادة به، خلق على وجه لم تجرِ العادة بمثله إطلاقًا، فناسب التعبير بالخلق الدال على الإبداع، ولهذا يقال: خلق الله السموات ولا يقال: فعل الله السموات، مع أن الخلق فعله لكن الخلق فيه نوع من الإبداع ولذلك قال: (خلق).

الوجه الثاني: الرد على شبه النصارى الذين يقولون: إن عيسى هو الله، والله ثالث ثلاثة، فيكون فيه التصريح بأنه مخلوق، ويكون هذا قطعًا لدابر قولهم فيه، إذن نكتة كونية ونكته شرعية، يعني حكمة كونية شرعية.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾.

فيها قراءتان: قراءة بكسر الهمزة وفتحها، وبفتح الياء مع فتح الهمزة ثلاث قراءات... (أَنّيَ) (أَنّي) (إنّي).

قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، يكون هذا الشيء طيرًا.

وقوله: ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أي: كمثله وصورته، فينفخ فيه فيكون طيرًا، وفي قراءة سبعية (فيكون طائرًا بإذن الله)، والقراءتان لكل واحدة منهما معنى يكمل الأخرى، فقوله: (يكون طيرًا) الآية، أي: طيرًا حيًّا بعد أن كان على صورة الطير وليس فيه روح، وقوله: (يكون طائرًا) أي: يطير، تشاهدونه يطير بالفعل، فعندنا ثلاث مراتب:

١ - تصوير على هيئة الطير.

٢ - طير فيه روح على قراءة (فيكون طيرًا).

٣ - طير يطير بالفعل على قراءة (طائرًا). بإذن الله.

وعلى هذا فيكون: يخلق شيئًا على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون فيه روح ثم يطير.

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بإذنه الكوني والشرعي؛ لأن كونه يصور مضاهيًا لخلق الله يحتاج إلى إذن شرعي؛ لأن الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يصور على تصوير الله - عزَّ وجلَّ -، قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[1]، لكن الله تعالى أذن لعيسى - عليه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

الصلاة والسلام - لحكمة، هذا على تفسير ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، الإذن الشرعي، كذلك الإذن الكوني، يعني: بإذن الله الإذن الكوني؛ لأن خلق هذا الطير حتى يطير يكون بإذن الله الكوني، فيطير بإذن الله إذنًا كونيًا، فعيسى - عليه الصلاة والسلام - يخلق كهيئة الطير بإذن الله الشرعي فيكون طيرًا إذا نفخ فيه، ويطير بإذن الله الكوني.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا من أجل تحقيق التوحيد حتى لا يظن ظان أنه يخلق استقلالًا؛ لأنه لولا هذا التقييد ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لتوهم النصراني وغير النصراني أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - يخلق كما خلق الله آدم من طين على صورته، ثم نفخ فيه الروح فصار بشرًا، فيظن الظان أن عيسى يخلق كخلق الله، فلهذا كان يقول - عليه الصلاة والسلام -: بإذن الله.

قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾.

(أبرئ) بمعنى: أشفي، والبرء في الأصل من البراءة، والبراءة من الشيء: السلامة منه، ومنه برأ من دَينه أي سلم من غائلته أي: من غائلة الدين وضيق الدين، فالبرء من المرض يعني: السلامة والشفاء منه.

وقوله: ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأكمه قيل: إنه الذي لا يبصر ليلًا ويبصر نهارًا، وقيل: هو الذي يبصر ليلًا ولا يبصر نهارًا، وقيل: هو الذي لا يبصر إلَّا بمشقة، وقيل: الذي وُلُد بلا عين.

فإن كان الأكمه في اللغة العربية يحتمل هذه المعاني كلها، فهو للمعاني كلها، وإن كان لا يحتمل إلَّا معنى واحدًا، فأقرب الأقوال في ذلك أن الأكمه من وُلِدَ بلا عين؛ لأن هذا أبلغ في القدرة؛ لأنه كلما كان أبلغ في القدرة كان أعظم في الآية، فنحن نقول: إن كانت اللغة العربية تطلق الأكمه على كل ما قيل فلتكن الآية شاملة، وإن لم تحتمل إلَّا معنى واحدًا، فأقربها أن الأكمه من ولد بلا عين؛ لأن هذا أبلغ في القدرة.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ مَنْ به برص، والبرص: عيب يخرج في الإنسان من العيوب الجلدية، وهو قد يؤثر على الصحة العامة في البدن وقد لا يؤثر، لكن البرص ليس له دواء، ولهذا قال: أبرئ الأبرص بإذن الله.

وقوله: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أحيي الموتى الذين ماتوا، أحييهم بإذن الله، وليس المراد بالموتى هنا موتى معينين، بل هو للجنس، فأي واحد من الأموات يمكن أن يقع عليه هذا الأمر، أما قول من قال: إنه أحيا «سام بن نوح» أو أحيا فلانًا أو أحيا فلانًا، فهذا من الإسرائيليات، لكن الآية أنه يحيي الموتى، أيُّ ميت يقف عليه وهو ميت يأمره فيحيا بإذن الله.

قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

(أنبئكم) أي: أخبركم بما تأكلونه اليوم، وما تدخرونه للغد في بيوتكم من غير أن يأتي أحد

يخبره بذلك، وهذا فيه شيء من علم الغيب، فأخبرهم أن من جملة آياته؛ أنه يخبر الإنسان يقول: أكلت اليوم كذا وكذا وكذا، وادخرت لغدٍ أو بعد غدٍ كذا وكذا، مع أنه لم يبعث أحدًا يطَّلع على ما في البيت، وهذا لا يكون إلَّا بوحي من الله، فإذا لم يكن هناك بشر يطلعه على ما في البيوت، فإنه يكون من وحي الله.

وقد يكون بواسطة الجن، فإن الجن ربما تخدم الإنس فتذهب إلى الأمكنة البعيدة أو تتسور الجدران وتخبر بما في البيوت، لكن الجن الذي على هذا الوصف لا يجوز الاستمتاع به أو الاتصال به لماذا؟ لأن إطلاعه على أحوال الناس ظلم وعدوان، ولا يجوز للإنسان أن يستعين بظالم على ظلمه، ولهذا يمتنع هذا التقدير في حقِّ عيسى - عليه الصلاة والسلام -، يعني لو قال قائل: إن الذين يستعينون بالجن ربما يطلعون على ما يؤكل ويُدَّخر في البيوت، قلنا: لكن هذا لا يَرِد بالنسبة إلى عيسى؛ لأن الاستمتاع بالجن على هذا الوجه مُحرَّم لما فيه من العدوان والظلم، وعيسى لا يمكن أن يفعل هذا، فتبين أنه يأتيه عن طريق الوحي، والحكمة من إخبارهم بهذا هي:

١ - إطلاعهم على أنه - عليه الصلاة والسلام - يأتيه الوحي من الله في أمور خاصة في البيوت.

٢ - تحذيرهم - والله أعلم - من أن يأكلوا شيئًا محرمًا عليهم، ولهذا سيأتي أنه قال لهم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، لأنهم إذا كانوا يعلمون أنه يعلم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؛ فسوف يتوقفون عن الشيء المحرم، وهم إذا توقفوا عن الشيء المحرم ربما ييسر الله لهم فيحله لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن في ذلك المشار إليه ما سبق من عدة أمور قوله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾، هذه ثلاث آيات كل آية تدل على صدق عيسى - عليه الصلاة والسلام -، وأنه رسول الله حقًا؛ لأن مثل هذا لا يستطيعه البشر، وآيات الأنبياء التي جاءت هي علامات على صدقهم لا يستطيع أن يأتي بمثلها البشر؛ لأن الآية لو أمكن للبشر أن يأتوا بمثلها لم تكن آية، إذ إن كل إنسان يستطيع أن يفعل مثل هذا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. يعني أنها آية بهذا القيد؛ أي إن كنتم مؤمنين، وأما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بالآيات ولا تكون الآية آية له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، لأن قلوبهم قاسية مطبوع عليها - والعياذ بالله - لا يصل إليها الخير، ولا تلين من أجل العقوبات والنذر؛ لأنها قاسية، فالمؤمن هو الذي ينتفع بالآيات، بل إن غير المؤمن يرى أن هذه الآيات العظيمة أساطير الأولين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، وذلك بسبب ما كان على قلبه من ظلمات المعاصي والعياذ بالله؛ لقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ

﴿قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

والإيمان سبق لنا معناه كثيرًا بأنه: التصديق المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، ودليل ذلك أنه لا يتعدى بما يتعدى به التصديق، فإنه لا يقال: آمنته، ويقال: صدقته.

بل إنه يتضمن الإقرار والاعتراف والانقياد والتسليم، ومن صدَّق ولم يقبل ولم يذعن فليس بمؤمن، فأبو طالب عمُّ النبي ﷺ كان مصدقًا برسالته لكنه لم يقبل ولم يذعن فلم يكن مؤمنًا، وإلَّا فإنه مصدق كما يقول بأشعاره وفي أحواله لكنه ـ والعياذ بالله ـ ليس بمؤمن، إذن الإيمان معنى زائد على التصديق وليس هو مجرد التصديق.

من فوائد الآية الكريمة:

قال تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١ ـ أن عيسى ابن مريم قد جاء بالبينة من الله؛ لأن كل رسول يرسله الله إلى البشر لابد أن يأتي بآية، يؤخذ من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ الإشارة إلى وجوب قبول رسالته؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ يعني: فإذا كان ربكم وجب أن تكونوا له عبيدًا فتتقبلوا ما جاءت به رسله.

٣ ـ قدرة الله – عزَّ وجلَّ – حيث جعل عيسى ابن مريم يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله في الحال، بينما في الأحوال العادية لا يكون طيرًا إلَّا بعد مدة، بعد أن يفقس من البيضة ويترعرع فيطير.

٤ ـ أن ما فعل بأمر الله فهو حلال مباح، وإن كان نظيره بدون أمر حرامًا كقوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، فلو أن أحدًا أراد أن يصنع تمثالًا من الطين على هيئة الطير لكان ذلك حرامًا، لكن لما كان بأمر الله صار هذا حلالًا، ولهذا نظائر، السجود لغير الله شرك، والسجود لغير الله بأمر الله طاعة، ولهذا سجد الملائكة لآدم فكانوا طائعين، واستكبر عن ذلك إبليس فكان من الكافرين.

قتل النفس المحرمة ولاسيما ذو الرحم من كبائر الذنوب، وإذا كان بأمر الله كان مما يقرب إلى الله، فإبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أمر بذبح ابنه إسماعيل فامتثل، وكان امتثاله لذلك طاعة لله عزَّ وجل.

هكذا خلق عيسى كهيئة الطير لينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، هذا من الأمور التي أبيحت له بأمر الله عزَّ وجل.

٥ ـ إطلاق وصف الخلق على المخلوق، أي أن المخلوق يكون خالقًا؛ لقوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُم﴾

وهذا له نظائر، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، وقال النبي ﷺ في المصورين: «يُقَالُ لَـهُم: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم»(١)، لكن خلق غير الخالق - جل وعلا - ليس خلقًا في الحقيقة، ولكنه تغيير أو تحويل، فالإنسان مثلًا يخلق من الطين صورة لكن الذي خلق الطين هو الله - عزَّ وجلَّ -، لا يمكن أن يخلق جميع الخلق شيئًا على وجه الاستقلال، وإنما خلقهم الأشياء يعني: تغيير صور الأشياء أو تحويلها من شيء إلى شيء أو ما أشبه ذلك.

٦ - هذه المعجزة العظيمة لعيسى ابن مريم؛ وهو أنه ينفخ في هذا التمثال حتى يكون طيرًا، وفي قراءة طائرًا، والفرق بينهما هو أن الطير قد يطير وقد لا يطير، ولكنه يصير طيرًا يطير بإذن الله في الحال.

٧ - أنَّ من آيات عيسى - عليه الصلاة والسلام - أنه يبرئ الأكمه والأبرص لكن لا استقلالًا، بل بإذن الله، وإلَّا فلا أحد يشفي من المرض - أيَّ مرض كان - إلَّا بإذن الله عزَّ وجلَّ حتى الأشياء التي جعلها الله تعالى بطبيعتها شفاء للأمراض لا تشفي إلَّا بإذن الله، وكم من دواء كان مفيدًا ونافعًا لهذا المرض المعين ثم يستعمله المريض فلا ينتفع به.

٨ - الآية العظيمة وهي إحياء الموتى، وهذا من آيات الله، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]، في الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني: إذا ضممت هذه إلى هذه استفدت فائدتين، أنه يحي الموتي وهم على ظهر الأرض ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]، وفي هذه الآية الكريمة: إثبات الحكمة لله - عزَّ وجلَّ -، ووجهه أن الله جعل لعيسى من الآيات ما يكون مناسبًا لزمنه وعصره، حيث أوتي من الآيات ما يعجز عنه من كانوا محل تعظيم للناس في ذلك الوقت وهم الأطباء، ففي عهد عيسى عليه السلام ترقَّى الطب ترقيًا عظيمًا، ولكن مع ترقي الطب فإنه لم يصل إلى ما وصل إليه عيسى، فإن الأطباء لا يبرئون الأكمه ولا الأبرص ولا يحيون الموتى ولا يخرجونهم من القبور، لكن عيسى يأتي بهذه الآيات بإذن الله - عزَّ وجلَّ -، قال أهل العلم: وفي عهد موسى عليه السلام ترقى السحر ترقيًا عظيمًا فكانت آياته معجزة تقهر السحرة وذلك بالعصا واليد.

ومحمد ﷺ أتى وبُعث في قوم يفخرون بالبلاغة والفصاحة، ويرونها هي محل التقدير والاحترام، فكانت آياته أن جاء بكلام يعجز عن مثله البشر في بلاغته وفي معانية وأحكامه... إلى آخر وجوه الإعجاز في القرآن.

وفي هذه إشكال، وهو أن الله تعالى قال لعبد الله بن حرام: (إِنِّي قَضَيْتُ إِنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢١٠٧).

يَرْجِعُوْنَ)[1]، وهنا ذكر أنه أحيا الموتى لعيسى في الدنيا، الظاهر والله أعلم أن يقال: إن عبد الله بن حرام طلب الرجوع من أجل العمل، وأما ما وقع آية لعيسى فليسوا يرجعون على أنهم يعملون، على أن المسألة فيها أيضًا نظر من جهة أخرى؛ لأن الله تعالى لما أخذت الصاعقة أصحاب موسى الذين كانوا معه دعا الله - عزَّ وجلَّ - فبعثهم من بعد موتهم وبقوا وعملوا.

فيكون المراد - والله أعلم - أنه إذا لم يكن هناك سبب مثل أن تكون آية فهذا لا مانع، أما عبدالله بن حرام فليس هناك سبب.

٩ - إثبات الإذن لله، لا الأُذُن، الأُذُن هي الجارحة أو العضو الذي يكون في الإنسان لتلقي الأصوات، وأما الإِذْن فهو الإباحة والترخيص وما أشبه ذلك، أما الأُذُن فلا يجوز أن نثبتها لله ولا أن ننفيها عنه؛ لأن الصفات توقيفية، والله - عزَّ وجلَّ - لم يثبت لنفسه أذنًا ولم ينفِ عنه الأذن، وإنما أثبت لنفسه السمع، والسمع ليس بشرط أن يكون من ذي أُذن، فها هي الأرض تسمع وتحدث أخبارها وليس لها آذان، المهم أن الإِذْن هنا غير الأُذُن.

وإذن الله - عزَّ وجلَّ -- ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني، فما تعلق بالخلق فهو إذن كوني، وما تعلق بالشرع فهو إذن شرعي، هذا هو الضابط، ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، الإذن هنا شرعيًا وليس كونيًا؛ لأنه قد أذن الله فيه كونًا لكن لم يأذن به شرعًا، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] إذن كوني، وكذلك هنا ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ - أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يملكون شيئًا من الربوبية، وذلك لتقييد فعل عيسى بإذن الله.

١١ - الردُّ على النصارى في زعمهم أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - له حق في الربوبية، وَكَذِبُوا في ذلك، فعيسى؛ عبد الله ورسوله، قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران:٥١]، وقال الله تعالى عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، فهو عبد لا يملك من الربوبية شيئًا أبدًا؛ لأن الربوبية من حق الله الخاص الذي لا يشركه فيه أحد.

١٢ - أن الله تعالى أطلع نبيه عيسى ابن مريم على ما يأكل قومه وما يدخرون مما يخفى على

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

غيره؛ لقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

١٣ - إثبات الحكمة لله - سبحانه وتعالى - في أن الله أطلع نبيه عيسى على ذلك حتى يخافوا أن يخفوا شيئًا لا يرضاه الله ورسوله.

يعني: إذا كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم معناه أنه يطلع على أسرارهم البيتية، وهذا يلزمهم ألَّا يبيتوا شيئًا لا يرضاه.

١٤ - أنه ينبغي التكرار في المقام الهام؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، مع أنه قال في الأول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾، وذلك لأن الأمور الهامة ينبغي تكرارها؛ أولًا: من أجل أن يتبين للمخاطب أهميتها عند المتكلم، وأنه ذو عناية بها، والثاني: من أجل أن تُرسَّخ في الذهن؛ لأنه كلما تكرر الشيء ازداد رسوخًا.

١٥ - أن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات التي جاءت بها الرسل؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا شيء كثير، قد تُعلَّق الأحكام بالأوصاف إما بأدوات الشرط المعروفة، وإما بغير ذلك، المهم أن تعليق الأحكام بالأوصاف سواء عن طريق الشرط أو عن طريق الصفة المعروفة في النحو أو المبدل أو غير ذلك جار في القرآن والسنة.

قال الله تعالى:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠ - ٥١]

التفسير

قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾:

هذه معطوفة على ما سبق، يعني: أنها تكون منصوبة على الحال؛ يعني: وجئتكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة (وما بين يدي)، هو ما سبقه، ويطلق ما بين اليدين على ما سيأتي، فما بين اليدين يطلق على ما مضى، ويطلق على ما يستقبل، فإن قرن بالخلف فهو للمستقبل، وإلَّا فإنه صالح للمستقبل والماضي، ففي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، المراد المستقبل لقوله: «وما خلفهم»، وفي هذه الآية: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: لما سبقني من التوراة.

وتصديقه للتوراة له وجهان:

الوجه الأول: أنه يقرر صدقها ويقول: إنها كتاب حق.

والوجه الثاني: أنه يصدق ما أخبَرت به، فإذا كانت أخبرت به ثم بعث كان مصدقًا لما فيها.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى - عليه الصلاة والسلام -، وهي أصل الكتب الـمنزَّلة على بني إسرائيل وأعظمها، بل هي أعظم الكتب فيما نعلم بعد القرآن.

قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾.

أي: وجئتكم أيضًا لأحلَّ لكم بعض الذي حرم عليكم.

وقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: (كل) والمحرم عليهم ذكره الله في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠]، فلما حرمت عليهم هذه الطيبات لظلمهم وعدوانهم، وبعث الله عيسى عليه الصلاة والسلام أحل لهم بعض ما حرم عليهم، ولم يُذكر في القرآن بيان هذا البعض فيكون باقيًا على إطلاقه، ولو كان لنا مصلحة في تعيين ذلك لبيَّنه الله.

وقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، الفعل هنا مبني للمجهول، ولكن فاعله معلوم وهو الله - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام:١٤٦].

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، كرَّر هذا مرة أخرى بعد قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩]، تقتصر على تصديقه لما بين يديه من التوراة وعلى إحلاله بعض الذي حرم عليهم، وحينئذٍ لا يكون في الآية تكرار، وإما أن يقال: إن قوله: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾، يشمل كل ما جاء به من الآيات، ويكون هذا من باب التأكيد وإقامة الحجة عليهم، فكرر مجيئه بالآيات احتجاجًا عليهم بما كذبوا.

قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(اتقوا الله): يعني: اتخذوا وقاية من عذابه؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، فبماذا تكون الوقاية من عذابه؟ تكون بفعل أوامره واجتناب نواهيه وهذا هو المعنى الشامل للتقوى عند الإطلاق، وإذا قُرنت التقوى بالبرِّ صار المراد بها: اجتناب المحارم، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وقد عرَّف أهل العلم التقوى بعدة تعريفات؛ لكن يجمعها ما ذكرناه من أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: وأطيعوني بما أمرتكم به وفيما نهيتكم عنه، وطاعته من التقوى بلا شك لكن نصَّ عليها لأنها تقوى خاصة فيما جاء به عيسى؛ لأن التقوى يؤمر بها كل إنسان، فإذا قيل: (أطيعون) صارت تقوى خاصة في طاعة هذا الرسول الذي بعث إلى قومه، والطاعة قال

العلماء في تفسيرها: إنها موافقة الأمر تجنبًا للنهي وفعلًا للمأمور، فمن تجنب النهي ناويًا بذلك امتثال الأمر فهو مطيع، ومن فعل الأمر ناويًا بذلك امتثال الأمر أيضًا فهو مطيع، أما من ترك النهي، أو بعبارة أصح المنهي عنه عجزًا عنه، فإن هذا ليس بمطيع، بل إذا سعى في أسبابه حتى عجز كان كمن فعله؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الـمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ الـمَقْتُولِ؟ قَالَ: «لأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[1].

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

لما أمرهم بتقوى الله ذكر ما هو السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، والربُّ هو الخالق المالك المتصرف.

وتوحيد الله بالربوبية: أن نؤمن بأنه لا خالق ولا مالك ولا مدبر إلَّا الله - سبحانه وتعالى -، وما يضاف من الخلق أو الملك أو التدبير لغير الله فإنه على وجه ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف، فمثلًا الخلق يضاف إلى غير الله وقد مرَّ علينا قريبًا أن عيسى قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ [آل عمران:٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، وقال الله في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[2]، وقال النبي ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيامةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»[3]، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «يُقَالُ لَـهُم: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم»[4]، ولكن الخلق المضاف إلى غير الله - عزَّ وجلَّ - ناقص ليس إيجادًا حقيقة ولكنه تغيير لصورة، فمثلًا الإنسان يخلق من الخشب بابًا، هل هو خَلَق الخشب؟ ومن الحديد سيارة، هل هو خَلَق الحديد؟ كلا، ولكن حوَّله من حال إلى حال فصار هذا خلقه، لكنه ليس هو الذي أوجد الحديد أو الخشب حتى يقال: إنَّ خلقه كخلق الله.

أيضًا: خلق الإنسان أو البشر عمومًا ليس عامًّا شاملًا؛ لأن كل إنسان يخلق ما صنع فقط، وما لم يصنعه فليس من خلقه.

كذلك الملك ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨]، والآيات في إثبات الملك في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور:٦١]، فهل نقول: إن هذا الملك كملك الله؟

كلا. لا من حيث الشمول ولا من حيث التصرف؛ أما من حيث الشمول؛ فلأن كل إنسان لا يملك أكثر مما تحت يديه، ولذلك لا تملك كتابي ولا أملك كتابك، أما ملك الله فهو عام شامل،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٨٨).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).
(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٣١٦).
(٤)متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢١٠٧).

وأما من حيث التصرف فملك غير الله قاصر؛ لأن الإنسان لا يملك التصرف المطلق كما يريد، وإنما يتصرف حسب ما تقتضيه شريعة الله وحسب ما يأذن به الله، ولو أراد الإنسان أن يمزِّق كتابه هل يملك ذلك؟ لا يملك ذلك بل هو حرام عليه ويأثم بذلك، ولو أراد أن يمزق كتاب غيره كان حرامًا من وجهين: من وجه إفساد المال، ومن وجه العدوان على الغير، فالحاصل أن ملك الإنسان قاصر من ناحيتين.

فأما التدبير الذي هو المعنى الثالث للربوبية، فهو أيضًا يكون لغير الله، لكنه تدبير «ناقص» من حيث الشمول ومن حيث التصرف أيضًا، فالإنسان لا يدبر كل شيء، لا يدبر إِلَّا ما يملك تدبيره، ومع ذلك فتدبيره له تدبير ناقص على حسب ما يقتضيه الشرع.

لو أراد أن يدبِّر بعيره على وجه يشق عليه كأن يمشي به على الوحل أو على النار وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز فهو إذنْ تدبير ناقص.

لكن الله - عزَّ وجلَّ - يملك هذا كله بلا معارض له.

المهم أن الربوبية: هي انفراد الله بالخلق والملك والتدبير، ولا يعني ذلك أَلَّا أحد يشاركه في خلقٍ أو ملك أو تدبير، لكن على وجه لا يماثل ما يثبت للخالق من ذلك.

فالإنسان قد يخلق، فيقال خلق، ويقال ملك، ويقال دبر، لكنه كما سبق ناقص.

وقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، بدأ بنفسه ليكون أول مذعن لهذا الربِّ عزَّ وجل؛ لأن الربَّ خالق مالك مدبر، فبدأ بنفسه ليكون هو أول من يذعن وينقاد لهذا الرب، قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضًا أي: بسبب كونه ربًّا اعبدوه، ولهذا نقول: إن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، وأن من أقر بتوحيد الربوبية، وأنكر توحيد الألوهية فقد تناقض، ولذلك سفَّه الله المشركين الذين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ثم ينكرون توحيد الألوهية فيقول: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر:٦٩]، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وما أشبه ذلك مما يدل على أنه من السفه أن يقرَّ الإنسان بأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر ثم يعبد غيره.

فنقول مثلًا للمشرك: ألست تؤمن بالله؟

سيقول: بلى، إنه الخالق، بلى، إنه المالك، بلى، إنه المدبر، بلى، إنه لا خالق معه ولا مالك ولا مدبر، بلى أومن بذلك كله، إذن كيف تجعل معه إلهًا تعبده؟

ومن كان غير الله فهو عابد وليس بمعبود، عابد مربوب، هو عبد مربوب لله - عزَّ وجلَّ - فكيف تجعله معبودًا مع الله، ولهذا قال الله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فالفاء هنا عاطفة تفيد السببية أي: بسبب كونه ربي وربكم اعبدوه وحده.

وما هي العبادة؟

العبادة: مأخوذة من الذل، عَبَدَ بمعنى: ذَلَّ.

ومنه قولهم: طريق مُعَبَّد أي: مذلل لسالكيه، فأصلها الذل لكنها بالنسبة لله - عزَّ وجلَّ - ذلٌّ مقرون بمحبة وتعظيم.

فكل من تَعَبَّد لله فإن تعبده هذا مقرون بهذين الأمرين المحبة والتعظيم.

فبالمحبة يكون الطلب، وبالتعظيم يكون الهرب، فالإنسان إذا أحب شيئًا طلبه، وإذا عظَّم شيئًا هابه وهرب منه وخاف منه.

ولهذا كانت العبادة مبنية على الرجاء والخوف.

والعبادة تطلق أحيانًا على هذا المعنى الذي ذكرنا باعتبارها مصدرًا، وهو أي التذلل لله مع المحبة والتعظيم، وتطلق أحيانًا على اسم المفعول أو على الشيء المتعبد به وحينئذٍ نقول: إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فالصلاة مثلًا عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام عبادة، فأحيانًا تطلق على الفعل، وأحيانًا تطلق على المفعول.

قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

هذا المشار إليه إما أقرب مذكور، أو كل ما سبق في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، ﴿هَذَا﴾: أي تقوى الله وطاعة رسوله وتحقيق العبادة له.

قوله: ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق، ولا يسمى الطريق صراطًا إِلَّا إذا اجتمع فيه السعة والاعتدال؛ لأنه مأخوذ من (السَّرْط)، وهو: الابتلاع بسرعة، وإن شئت فقل: من (الزرط) وهو الابتلاع بسرعة، والطريق الواسع المستقيم يبتلع سالكيه بسرعة؛ لأن الضيق لا يمشي الناس فيه إِلَّا رويدًا ببطء، وغير المستقيم لا يوصل للغاية إِلَّا ببطء سواء كان انحرافه على اليمين، أو الشمال، أو من حيث الصعود والنزول، فإنه إذا كان صاعدًا نازلًا أتعب السالك.

فإن كان الصراط مستقيمًا في الانحرافات يمينًا وشمالًا وكذلك في الصعود والنزول اختصر الطريق، فإذا قدرنا أن هناك غاية تصل إليها بالطريق المستقيم في ثلاثين مترًا، إِلَّا أن فيه تعاريج، كل تعريجة عشرة أمتار، وفيها عشرة تعاريج، فإنك ستصل إلى الغاية بمائة متر، فالحاصل أن الصراط - قال العلماء -: لا يكون صراطًا إِلَّا إذا كان واسعًا مستقيمًا، وهو مأخوذ من السرط أو الزرط.

إذن، هو ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: لا اعوجاج فيه، ووصفه بالاستقامة بعد أن قلنا إن الصراط هو

الطريق الواسع المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج من باب التوكيد، كما تقول: هو رجل رجل.

ما معنى رجل رجل؟

يعني جامع لمعاني الرجولة، كذلك (طريق مستقيم) يعني جامع لكل معنى الطريق ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن عيسى ابن مريم قد جاء بها يُصدِّق به التوراة؛ لقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وقد سبق لنا أن معنى (مصدقًا) أو أن كلمة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كلمة ذات وجهين:

الوجه الأول: أنه شاهد بصدق التوراة، وأنها حق.

والثاني: أنه مطابق لما أُخبِرْتَ به، وإذا جاء الشيء مطابقًا لما أخبر به، فهذا تصديق شاهد بالصدق.

٢ - جواز النسخ في الشرائع؛ لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا نسخ، والنسخ في الشرائع ثابت منذ نوح إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وأنكرت اليهود وجود النسخ، وقالت: لا يمكن أن ينسخ الله الحكم؛ لأن هذا يستلزم نقصًا في حق الله، فيقال لهم: ومتى وصفهم الله بالكمال - أنقصكم الله وأذلكم - ألم تقولوا: إن يد الله مغلولة؟ ألم تقولوا: إن الله فقير؟ ألم تقولوا: إن الله استراح حين خلق السموات والأرض وتعب؟ فكيف تقولون: إن النسخ يستلزم النقص على الله؟ يقولون لأنه يستلزم العلم بعد الجهل، كأن الله إذا نسخ الحكم الأول تبين له أن الصواب في الحكم الثاني، وهذا نقص.

فنقول لهم: نحن نرد عليكم بشريعتكم، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران:٩٣]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠]، وأنتم تعتقدون أن التوراة ناسخة للكتب السابقة المنزلة على بني إسرائيل، وأنه يجب على كل واحد من بني إسرائيل أن يؤمن بها ويتبعها، وهل هذا إلَّا نسخ؟ ثم إن النسخ في الحقيقة من مقتضى الحكمة لا منافي للحكمة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يشرع الأحكام مناسبة للواقع أو ملائمة لمن شرعت له، فقد يكون هذا الحكم ملائمًا في زمن غير ملائم في زمن آخر، أو ملائمًا لقوم غير ملائم لآخرين.

وكون الأحكام تتبع الحِكمة هذا هو الكمال وليس النقص، وهنا عيسى ابن مريم قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ - جواز نسبة الحكم إلى من بلَّغه؛ لأنه قال: (أحل لكم) وأصل التحليل والتحريم من عند

الله - عزَّ وجلَّ -، لكن إضافته إلى من أبانه وأظهره لا بأس بها، ولهذا أضاف الله القرآن إلى نفسه وإلى جبريل وإلى محمد، أما إلى نفسه فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وأما إلى جبريل فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩، ٢٠]، وأما إلى محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠، ٤١] لكن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، وأما من قاله مبلغًا مؤديًا فإنما يضاف إليه لكونه أظهره وأبانه.

٤ ـ تكرار الأمور الهامة؛ لقوله في المرة الثالثة: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ ـ أن الطاعة أمر مشترك بين الرسل وبين الله - عزَّ وجلَّ -، وأما التقوى فهي خاصة بالله؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وطاعة الله هي الأصل، لكن طاعة الرسول طاعة للمرسِل الذي أرسله.

٦ ـ أن التقوى واجبة في كل شريعة لقوله هنا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولكن المتقَى به قد يختلف باختلاف الشرائع، لقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، يعني: هذا الذي يتقى الله به قد يختلف باختلاف الشرائع.

٧ ـ عموم ربوبية الله للبشر؛ لقوله: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، وربوبية الله ثابتة لكل السموات والأرض ومن فيهن ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون:٨٤]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦].

فالربوبية، ربوبية الله - سبحانه وتعالى - لكل شيء، لكن عيسى قال: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ ليقيم عليهم الحجة؛ لأنه إذا كان ربهم - سبحانه وتعالى - فإنه يشرع فيهم وعليهم ما يشاء ولا أحد يعقب حكمه.

٨ ـ أنَّ عيسى مربوب وليس ربًّا؛ لقوله: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾.

٩ ـ الرد على النصارى في دعواهم أن الله ثالث ثلاثة، وقد كفَّرهم الله بذلك فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، كفَّرهم بهذا، وهم بلا شك كافرون مخلدون في نار جهنم أبد الآبدين.

١٠ ـ وجوب العبادة؛ لقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾.

١١ ـ أن الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية، يعني: أن من أقر بربوبية الله لزمه أن يقر بعبوديته، ولهذا قال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، فأتى بالفاء الدالة على السببية، أي: فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة، ومن ثَمَّ نجد الله - سبحانه وتعالى - في كتابه يقيم الحجة على المشركين الذين يقرون بربوبيته لا بألوهيته، يقولون: إنه منفرد بالربوبية لكن في الألوهية لا يفردونه، يتخذون معه آلهة وليس إلهًا واحدًا، كل قوم لهم رب يعبدونه، وهذا لا شك بالغ في

السفه، فإذا كنت تعلم وتعتقد بأن الله وحده هو الرب لزمك أن تعتقد بأنه وحده الإله المعبود، وأنه لا إله غيره.

١٢ - أن الصراط المستقيم عبادة الله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، ولا شك أن أهدى السبل وأقومها عبادة الله، وعبادة الله - كما نعلم - هي: اتباع شرعه المرسل سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣]

التفسير

وفي قراءة (من أنصارِيَ إلى الله) لأن ياء المتكلم يجوز فيها ثلاث لغات: الفتح بناءً، والسكون بناءً، والحذف تخفيفًا. فتقول: هذا غُلامي، هذا غلامِيَ، هذا غلامِ، لكن تبين أنه مضاف.

يقول هنا: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، ﴿أَحَسَّ﴾ بمعنى: أدرك بحاسته وتيقن أنهم كفروا، مع هذه الآيات العظيمة التي يشاهدونها ولم يؤمنوا - والعياذ بالله - لأن الله إذا ختم على القلب لا يؤمن صاحبه أبدًا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٧]، ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، فهم مع هذه الآيات لم يؤمنوا، فلما أحس منهم الكفر وأدركه وتبين له، لجأ إلى الاختيار وانتخاب الأكْفاء، فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يعني: إذا كان الإيمان تعذر منكم جميعًا فمن الذي يكون ناصري؟!.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، (إلى) هنا للغاية، ولم يقل: من أنصاري في الله؛ ليكون النصر مبنيًا على الإخلاص؛ لأن (إلى) للغاية فيريد أن يكون نصرًا موصلًا إلى الله عزَّ وجل.

وقوله: (مَن) هذه مبتدأ (وأنصارى) خبر (وإلى الله) متعلق بأنصار.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

الحواريون جمع حواريّ - بتشديد الياء - وهو من الحَوَر وهو البياض، وسموا حواريين لسلامة قلوبهم من أثر المعاصي؛ لأن المعاصي - نسأل الله العافية - نكت سوداء تكون في القلب، كلما عصى

الإنسان نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل وعاد إلى الاستنارة، وإن لم يتب وأحدث معصية أخرى زادت نكتة أخرى، وهكذا حتى يُطبع على القلب.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾، يعني: لا غيرنا، ووجه قولنا «لا غيرنا» أن الجملة هنا مكونة من مبتدأ وخبر، فهي جملة اسمية طرفاها مَعْرِفة، والجملة الاسمية التي يكون طرفاها معرفة تفيد الحصر، لكن لا شك أن إفادة الحصر فيها ضعيف ليس كإفادة إنما، أو النفي والإثبات.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾.

﴿ءَامَنَّا﴾: الإيمان في اللغة أخص من التصديق؛ لأنه تصديق بإقرار، ولهذا عُدِّي بالباء فيقال: آمنت به، ولا يمكن أن نجعله بمعنى التصديق؛ وذلك لأن الشيء إذا كان مرادفًا للشيء أي بمعناه تعدى بتعديته ولزم بلزومه، ومعلوم أن (آمن) تتعدى بها لا تتعدى به (صدق)، فيقال: صدق بالخبر، ولا يقال: صدق له، ويقال: صدق زيدًا، ولا يقال: آمن زيدًا، بل آمن به وآمن له فلما اختلفا في المتعلق وجودًا وعدمًا علم أنهما ليسا بمعنى واحد، مع أن كثيرًا ممن يُعرِّفون الإيمان في اللغة يقولون: الإيمان في اللغة: التصديق، وهذا فيه نظر، بل هو أخص من التصديق، أما الإيمان في الشرع فهو: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

لا يكفي التصديق فقط بل لابد من قبول ما جاء به الرسول والإذعان له، وأنتم تعلمون أن أبا طالب كان مصدقًا لرسول الله ﷺ

ويعلن ذلك على الملأ فيقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لَدينا وَلَا يُعْنَى بِقَولِ الأَبَاطِلِ

لا مكذب لدينا، وأنه لا يعني بقول الأباطل ولا يهتم له، ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيرِ أَدْيَانِ البَرِيةِ دِينًا

وهذا تصديق، لكن لم يحصل منه القبول والإذعان والعياذ بالله، بل كان آخر كلامه أن قال: إنه على ملة عبد المطلب[1] على الكفر، فشفع له النبي ﷺ لأنه أبلى بلاء حسنًا في الدفاع عن الرسول الله ﷺ، لا لأنه عمه، بل لأنه لو كانت العلة الحاملة لشفاعة الرسول هي القرابة، لشفع لأبي لهب، يقول - عليه الصلاة والسلام -: «فَكَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُما دِمَاغُه، وَلولَا أَنا لكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ»[2].

قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أشهدوا نبيهم عيسى - عليه الصلاة والسلام - على إسلامهم، مع أنه شهيد عليهم سواء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠) وفي غير موضع من صحيحه، مسلم (٢٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

استشهدوه أم لم يستشهدوه، كما قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فكل رسول فهو شهيد على أمته؛ لأن الله تعالى أرسله إليهم وأنه بلغهم الرسالة.

فقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، من باب التوكيد وإعلان الإسلام.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾.

قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى حذفت منه ياء النداء لسببين:

١ - كثرة استعمال هذا الاسم الكريم في الدعاء.

٢ - التبرك بالبدء باسم الله عزَّ وجل؛ لأن الرب من أسماء الله.

هذا أيضًا من قولهم ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وهو الإنجيل الذي جاء به عيسى - عليه الصلاة والسلام -، وما قبله وهي التوراة التي أنزلت على موسى، بل أعم من ذلك تتناول كل ما أخبرهم به نبيهم مما أنزل الله. ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، (ال) هنا في الرسول للعهد الذهني، وهو عيسى - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه لا رسول لهؤلاء القوم من بني إسرائيل إلَّا عيسى، فالذي عيّن أن يراد بالرسول عيسى هو العهد الذهني الذي كان معلومًا عندهم، ويحتمل أن (ال) للعهد الذكري لقوله فيما سبق ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران:٤٩]، ويحتمل أيضًا أن المراد بالرسول الجنس أي: واتبعنا كل من كان رسولًا من عندك، فيكون هذا إقرارًا بأنهم آمنوا بجميع الرسل، وذلك أنه يجب على كل أمة متأخرة أن تؤمن بجميع الرسل السابقة.

فنحن مثلًا آخر الأمم يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، في أصل الإيمان، وإن كنا نفرق بين الرسل من جهة الاتباع، فإننا لا نتبع إلَّا محمدًا ﷺ وما أذن لنا فيه مِن شرع من سبق، أما الإيمان فيجب الإيمان بجميعهم.

وقوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، (مع) هنا للمصاحبة، والمصاحبة لا تقتضي المخالطة أو الموافقة في الزمن، فقد تكون المصاحبة مع قوم سبقوك لكن في النهاية يكونون معك إلى الله.

وقولهم: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، هذا في الحقيقة هو ثمرة الإيمان؛ الاتباع، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أشد اتباعًا لمن آمن به، وكلما قلَّ الاتباع، كان علامة على نقص الإيمان؛ لأن المؤمن حقًا لابد أن يطلب الوصول إلى ما آمن به، وهذا يقتضي أن يَجِدَّ كل الجدِّ في العمل الذي يوصله.

وقوله: ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال بعض العلماء: المراد بالشاهدين أمة محمد ﷺ؛ لأن الشهادة المطلقة ليست إلَّا لهم؛ لأنهم

آخر الأمم، فهم شهداء على جميع الرسل وعلى جميع الأمم، والشهداء الذين كانوا من قبلهم ليسوا شهداء إلَّا على من سبقهم فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

والمعنى: اكتبنا مع أمة محمد ﷺ، ولا يرد على هذا التفسير أنهم سبقوا أمة محمد فكيف يطلبون أن يكتبوا معهم؟

والجواب: أن نقول: إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - قد بشرهم بمحمد ﷺ فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فكان عندهم علم بهذه الأمة بواسطة البشارة التي ألقاها إليهم عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -.

والقول الثاني: أن المراد (بالشاهدين) الذين شهدوا لرسلك بالحق، وهذا يتناول من سبقهم بلا شك، ويتناول أمة محمد إذا كان بعد أن أخبرهم بذلك وبشرهم به، وهذا القول الثاني أعم من القول الأول وأقل إشكالًا منه.

فالقول الصحيح هو كل من شهد للرسل بالحق.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - عتو بني إسرائيل، وأنهم مع هذه الآيات العظيمة التي جاء بها عيسى لم يؤمن منهم أحد؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾.

٢ - أنه إذا اشتبه الأمر فينبغي أن ينادي الداعية بالإخلاص فيقول: من المخلص؟ أي: أن ينتدب الصفوة من القوم؛ لقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، فهو لما رأى أن القوم تمردوا وأحس منهم الكفر وظهر؛ انتدب من يرى أنه من صفوتهم.

٣ - أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - دعوتهم إلى الله لا إلى أنفسهم؛ لقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٤ - أن الرسل محتاجون لمن ينصرهم؛ لقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

٥ - فضيلة الحواريين ﭬ حيث أعلنوا أنهم أنصار الله مع كفر قومهم؛ لقوله: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾، وهكذا ينبغي للإنسان أن يعلن اتِّباعه للرسول بين أئمة الكفر حتى لا يداهن في دين الله؛ لأن المداهنة في دين الله والتقية نفاق في الواقع، والفرق بين المداهنة والمداراة:

أن المداهنة: أن يقرهم على ما هم عليه من الباطل.

والمداراة: أن ينكر عليهم ولكن يداريهم لئلا يمنعوه من الحق.

٦ - في هذه الآية دليل على أن النصارى مسلمون بقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إلَّا

أنهم مسلمون بالمعنى العام، وذلك أن كل إنسان متبع لرسول شَرْعُه قائمٌ فهو مسلم، وأما إذا وجد ما ينسخه فمَنْ بقي على الدين الأول فهو كافر إذا كان الرسول مرسل إليه. وبناء على ذلك فإنه لا مسلم بعد بعثة الرسول ﷺ إلَّا من اتبعه فقط، ومن سواه فهو كافر.

وعلى هذا فالنصارى كفار واليهود كفار من أهل النار، ومن قال إنهم مسلمون بالمعنى الخاص الذي يدخلون به الجنة اليوم فهو كافر؛ لأنه مكذب لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ولقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

٧ ـ أن إشهاد الإنسان على نفسه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أشبه ذلك لا يعد من الرياء لاسيما في الاتباع؛ لأن في ذلك فائدة وهي تقوية المتبوع، إذا قال: اشهد بأني مسلم أو مؤمن أو ممن اتبعك أو مما أشبه ذلك، لاشك أن في ذلك فائدة، وهي تقوية المتبوع، ولا يعد هذا من الرياء.

٨ ـ أن الرسل لا يعلمون الغيب؛ لقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، لأنه لو كان عنده علم من ذلك لما احتاج إلى إشهاد، اللهم إلَّا على سبيل إقرارهم الظاهري.

وهل يؤخذ من الآية الكريمة جواز قول الإنسان: أنا مؤمن؟ لقولهم: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، ربما يؤخذ جواز قول الإنسان: أنا مؤمن، ولا شك أن هذا جائز، ولكن الذي وقع فيه الخلاف بين أهل العلم: هل يجوز أن يستثنى في الإيمان فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله أم لا؟.

(الجواب): في هذا خلاف بين العلماء؛ منهم من قال: إنه لا يجوز، ومنهم من قال: إنه يجب، ومنهم من قال: إنه يجوز باعتبارين.

أما الذين قالوا إنه لا يجوز، فقالوا: إن هذا الاستثناء يوحي بالشك، أنه شاك وإلَّا كيف يقول إن شاء الله، فما دام الإيمان قد وقر في قلبه لا يقول إن شاء الله، ثم قالوا مؤيدين لتعليلهم: أرأيت لو صلى شخصًا فقيل له: أصليتَ؟ قال: إن شاء الله لعدَّ ذلك قريبًا من اللغو، ولو قيل له: لبست ثوبك؟ فقال: لبسته إن شاء الله وهو عليه، هذا لغو من القول.

فإذا كان جازمًا بإيمانه فلماذا يقول إن شاء الله؟ فالاستثناء على هذا حرام؛ لأنه يؤذن بالشك، وإن لم يكن فهو لغو من القول.

والقول الثاني: أنه يجب أن يقول: إن شاء الله، يجب وجوبًا، فلو قال: إنه مؤمن وسكت، كان ذلك حرامًا عليه، وعللوا لذلك بأن الإيمان النافع هو الذي يموت الإنسان عليه، والإنسان لا يدري ماذا يموت عليه، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَينَه وَبَيْنَها إِلَا ذِرَاعٌ فَيسْبِقُ عَلَيْه الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها»[1]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يقول: إن شاء الله.

وهذا الوجه ليس بصحيح وليس بعلة؛ لأن الإنسان إنما يتكلم عن حاضره، وحاضره يعلم أنه مؤمن، والمستقبل علمه عند الله، نعم لو قال: سأموت على الإيمان، قلنا له: قل إن شاء الله، لكن المأخذ الصحيح أنه إذا قال: أنا مؤمن وجزم فإن في ذلك نوعًا من تزكية النفس، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:٣٢]، ولهذا نقول له: مقتضى جزمك بالإيمان، أنك جازم بأنك من أهل الجنة فشهدت لنفسك بأنك من أهل الجنة، ولا يشهد بالجنة لأحد بعينه إلّا من شهد له الرسول ﷺ، وحينئذٍ لابد أن تقول: إن شاء الله، وليس لأجل أنك لا تدري ماذا تموت عليه، لكن من أجل ألّا تزكي نفسك فيلزم من تزكيتك إياها أن تشهد لها بالجنة وهذا ممنوع.

وفصَّل بعض العلماء في هذه المسألة فقال: قد يكون الاستثناء حرامًا، وقد يكون واجبًا، وقد يكون جائزًا باعتبارات، فإذا كان الإنسان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله يريد بذلك التبرك أو بيان أن ما حصل من الإيمان كان بمشيئة الله فهذا جائز.

والاستثناء بالمشيئة في الأمر الواقع جائز شرعًا، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]، فقال: إن شاء الله، مع أنهم سيدخلونها كما قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب، «إِنَّكَ آتِيهِ، وَمطَّوفٌ بِهِ»[1] في صلح الحديبية، وفي زيارة المقابر يقول الإنسان: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُون»[2] مع أن لحوقنا بهم مؤكد لكن هذا من باب بيان أن لحوقنا بهم مقرون بمشيئة الله.

وإن كان الحامل على الاستثناء الشك، حُرِّم أن يَستثني، إذا قال: إن شاء الله لأنه متردد، فهذا حرام؛ لأن الشك في الإيمان منافٍ للإيمان، إذ إن الإيمان لابد أن يكون جزمًا، ولكن الحذر الحذر أن يتلاعب الشيطان بالمؤمن في مسألة الوساوس التي كثر الشَّاكون منها من الذين منَّ الله عليهم بالإقبال إلى الله، فلما أقبل الشباب صار الشيطان يأتيهم بالوساوس والشكوك؛ لأجل أن يخلخل إيمانهم، ولكن هذا ـ والحمد لله ـ كيد كائد لمن كاد به كما جاء في الحديث: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَه إِلى الوَسْوَسَةِ»[3]، وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - بعلاج ذلك فقال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُون: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولُوا: مَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا بَلَغُوا ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٤)، النسائي (٢٧٧١)، وأبو داود (١٧٥٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (١٥٤٦).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٥)، و أبو داود (٥١١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَلْيَبِتَهِ»(١)، فهذا من جملة ما يوسوس به الشيطان وهذا علاجه.

وإذا كان الإنسان يخشى من تزكية نفسه إذا قال أنا مؤمن، أو يخشى أن يوكل إلى نفسه إن ظهر فيه الإعجاب؛ لأن الإنسان ـ أعوذ بالله ـ إذا أعجب بعمله وُكِلَ إلى نفسه ونزعت بركته، فإذا كان يخشى من ذلك كان الاستثناء واجبًا.

٩ ـ فضيلة الحواريين في لجوئهم إلى الله - عزَّ وجلَّ - حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، فإنهم بعد أن أشهدوا نبيهم لجأوا إلى ربهم عزَّ وجل.

١٠ ـ التوسل إلى الله تعالى بربوبيته؛ لأن الربوبية تدور على ثلاثة أشياء وهي: الخلق، والملك، والتدبير. وإجابة الدعاء داخل في هذه الثلاثة، فلذلك كان كثيرًا ما يتوسل الدعاة ـ دعاة الله ـ بالربوبية كما جاء في الحديث الصحيح: «يَمِدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ يَا ربِّ يَا ربِّ»(٢).

١١ ـ حسن الاحتراز في قول الحواريين ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، ولم يطلقوا الإيمان مثلًا بالتوراة؛ لأن التوراة التي بأيدي اليهود محرفة مبدَّلة، يبدون شيئًا ويخفون أشياءَ، فلهذا قالوا: ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، ونحن نقول: آمنا بما أنزل الله من التوراة والإنجيل؛ لا بالتوراة المحرَّفة التي بأيدي اليهود، ولا بالإنجيل المحرف الذي بأيدي النصارى.

١٢ ـ أنه يجب أن يكون الإيمان شاملًا لكل ما أنزل الله لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾.

١٣ ـ أن الإيمان لابد له من اتباع ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، ولهذا يقرن الله - عزَّ وجلَّ - بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة؛ لأن الإيمان المجرد لا ينفع، والعمل الصالح بمنزلة سقي الشجرة، إن لم تسقها ماتت، ولهذا ينبغي لنا عندما نتكلم عن الإسلام ألَّا نحاول جعل الإسلام عقيدة فحسب، بل هو عقيدة وعمل.

العقيدة لا تكفي؛ لأن العقيدة الآن كل يدعي أنه معتقد، اليهود والنصارى يقولون: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، ونؤمن بأن هناك ربًّا مدبرًا للخلق، وأنه - عزَّ وجلَّ - خالق، ونؤمن بالبعث، ولكن هذا ليس بإيمان، وإن كان عندهم هذه العقيدة، فهذه عقيدة فاسدة، فلابد من قرن العقيدة بالعمل الصالح، حتى لا يتكل الناس على ما عندهم من العقيدة، ويقولون لا حاجة للعمل، ولهذا قال: (آمنا... واتبعنا الرسول) لابد من هذا، وتأمل قوله: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، هل يؤخذ منها وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله من كتاب؟ وأما الاتِّباع فيكون للرسول الخاص.

الجواب: يمكن هذا لأنهم قالوا: آمنا بما أنزلت، وهذا عام، واتبعنا الرسول، وهذا خاص، وهو كذلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٨)، والترمذي (٢٩٨٩).

فالإيمان واجب بجميع ما أنزل الله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥]، ولكن الاتباع خاص بالرسول الذي أرسل إليك، أما الرسول الذي لم يرسل إليك فلست مأمورًا باتباعه إلَّا إن دلت شريعتك على اتباعه.

١٤ ـ أنه إذا كان هناك وصفان، وكان أحد الوصفين أخص من الآخر بالعمل أو بالحال التي أنت فيها؛ فإن الأولى أن تأخذ بالأخص لقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ لأنه رسول مرسل إلينا، ولم يقولوا: (واتبعنا النبي)، اتبعنا الرسول؛ لأن الرسول مرسل إلينا مبعوث، لكن النبي لا يؤمر بالتبليغ على قول جمهور العلماء، وهنا الاتباع الألصق به الرسالة. فلهذا اختاروا وصف الرسول.

فإن قال قائل: في حديث البراء بن عازب في ذكر النوم لما قرأ النبي ﷺ عليه ذكر النوم الذي يكون آخر ما يقول الإنسان قال من جملة ما قال: «**آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»، فلما أعادها البراء قال: «**وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**. فقال: «**قُلْ: وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[1]. ومعلوم أن المقام مقام اتباع، فلماذا لما قال البراء: ورسولك الذي أرسلت، والرسالة تتضمن النبوة، قال: قل: ونبيك؟

فالجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام، ودلالة النبوة على النبوة من باب دلالة المطابقة؛ ودلالة المطابقة أقوى بلا شك؛ لأن دلالة الالتزام قد يمانع فيها الخصم، قد يقول: هذا ليس بلازم، فلهذا اختار وصف النبوة مع أن الرسالة جاءت بعده (... الذي أرسلت) ولو قال: رسولك الذي أرسلت لدلَّ على النبوة بطريق الالتزام؛ لأن كل رسول نبي، لكن إذا قال: بنبيك الذي أرسلت دلَّ على النبوة بطريق المطابقة؛ لأنه صرح بها بلفظها، ومعلوم أن الدلالة بالمطابقة أقوى من الدلالة بالالتزام لجواز منع الملازمة.

الوجه الثاني: أنه إذا قال: برسولك الذي أرسلت لم يكن وصفًا مخصصًا لمحمد ﷺ إذ قد يراد بذلك جبريل مثلًا، جبريل رسول مرسل كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩،٢٠]، فجبريل مرسل، فلو قال: برسولك الذي أرسلت لم يحدد أن هذا الإيمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام -، أما إذا قال: بنبيك الذي أرسلت تحدد الوصف بالرسول محمد ﷺ؛ لأن جبريل لا يسمى نبيًّا وإنما يسمى رسولًا، وبهذا يزول الإشكال الذي أشرنا إليه، وهو أنه ينبغي أن يذكر الوصف المطابق للحال التي عليها المتكلم؛ لأن الحديث ـ حديث البراء ـ اختير فيه النبوة على الرسالة من أجل هذين الوجهين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧١٠).

١٥ - الحرص على صحبة الأخيار، نأخذه من قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ولا شك أن صحبة الأخيار خير، حتى إن الرسول ﷺ مثَّلها بحامل المسك قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالحِ وَالجَلِيسِ السَّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلِ المسكِ، إمَّا أن يُحْذِيَكَ - يعني يعطيك مجانًا هبة - وإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيبةً - كل هذا طيب - ونافِخُ الكيرِ..»[1]، والكِيرُ عبارة عن جلد مثل الغَرْب، والغرب دلو للبعير يرفع به الماء فهو يشبه الغرب وفيه طرف مفتوح، وفيه طرف متصل بأنبوب يتصل بمكان النار فيفتحه ثم يضمه، ويكون قد حمل هواء عن طريق هذا الأنبوب يدفعه جهة النار، فتلتهب بشدة، وغالبًا ما يكون اثنين، واحد عن يمين الرجل وآخر عن يساره، فتكون النار دائمًا تلتهب.

«وَنَافِخ الكِيرِ إمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً»[2]، ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار من الجلساء أصلحهم؛ لأن الجليس الصالح كله خير، والجليس السوء كله شر.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾: الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى، والمكر هو: أن يتوصل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة، يعني: بأسباب خفية ينتقم من خصمه، والمضاد له

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٢) انظر ما قبله.

بأسباب خفية، ويشبهه الخداع، فإن الإنسان يتوصل إلى أن ينتقم من خصمه من حيث لا يشعر بأسباب خفية.

وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، يعني: أن الله - سبحانه وتعالى - مكر بهم حينما مكروا بعيسى، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، يعني: أقواهم في المكر وأشدهم وأعلمهم بالأسباب التي تحيط بأعدائه.

فإذا قال قائل: ما الذي دلَّنا على أن الضمير في قوله: (مكروا) يعود على الذين كفروا بعيسى؟

فالجواب: (على هذا سهل) لأن قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ لا يمكن أن يصدر من قوم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، لا يمكن هذا بل لا يصدر إلَّا من قوم كفروا، وهو قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ [آل عمران:٥٢].

فإن قيل: ما هذا المكر الذي مكروه؟

فالجواب على هذا: أنهم مكروا بعيسى حيث تمالأوا على قتله فأنجاه الله منهم ومكر الله بهم، فجعل شبهه في رجل، إما منهم من الذين جاءوا لقتله، وإما من أصحاب عيسى، ألقى الله شبهه على واحدٍ منهم فقتل.

المهم أن هؤلاء تمالأوا على القتل وجاءوا إلى عيسى - عليه الصلاة والسلام - فدخلوا عليه، ولم يشعروه أنهم يريدون قتله لئلا يستنجد بأحدٍ أو يدافع عن نفسه، وما أشبه ذلك، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - ألقى شبهه على واحد منهم أو على واحد من أصحابه الحواريين، في هذا قولان للمفسرين:

القول الأول: منهم من قال: إن الله ألقى شبهه على واحد منهم وهو زعيمهم، جعل الله شبه عيسى في هذا الرجل، فلما أرادوا أن يقتلوه قال: أنا صاحبكم، قالوا: كذبت لست صاحبنا بل أنت عيسى فقتلوه وصلبوه، وهذا بلا شك مكر عظيم أعظم من مكرهم؛ لأن هذا الرجل الذي جاء متزعمًا هؤلاء القوم ليقتل عيسى صار هو القتيل، وهذا القول أقوى من حيث إن فيه مكرًا بهؤلاء عظيمًا.

أما القول الثاني: فيقولون: إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لما أحسّ بأنهم دخلوا عليه ليقتلوه قال لأحد أصحابه: من يقبل أن يلقي الله عليه شبهي فأضمن له الجنة، فانتدب واحدًا منهم لذلك، وألقى الله شبهه عليه، وقيل: بل ألقى الله شبهه على جميع من كانوا مع عيسى حتى إن هؤلاء القوم لما دخلوا كان كل واحد يقول: أيكم عيسى، أيكم عيسى، لم يعلموه.

هذان قولان رئيسيان، القول الأول: أن الشبة ألقي على زعيم القوم الذين جاءوا ليقتلوه فقتل، والقول الثاني: أنه على رجل من أصحاب عيسى، ثم هل ألقي الشبه على الجميع فاشتبه على

الذين دخلوا، أو أنه ألقي على واحد منهم؟ فيه أيضًا قولان، والمسألة ليست فيها نصٌّ عن النبي المعصوم - عليه الصلاة والسلام - فالله أعلم، لكن قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ...﴾ [النساء:١٥٧]، قد يؤيد القول الأخير أنه صار كل واحد من الذين مع عيسى يشبه عيسى، فاشتبه عليهم من هو عيسى.

المهم أن هذا هو مكرهم أنهم جاءوا إلى عيسى - عليه الصلاة والسلام - ليقتلوه على وجه لا يشعر بذلك؛ أما مكر الله بهم فهو أنه ألقى الشبه إما على واحد منهم، أو من أتباع عيسى فقتلوه، فظنوا أنهم قتلوا عيسى وصاروا يعلنون: قتلْنا عيسى وصلبناه، وهم لم يقتلوه ولم يصلبوه.

وفي قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، فيها من صفات الله إثبات المكر لله - عزَّ وجلَّ -، والبحث في هذا أولًا: هل المكر على حقيقته؟ أو هو عبارة عن المجازاة على مكر، فسمي المجازاة على المكر مكرًا من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية، فهو كقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، والمقتص لنفسه لا يسمى معتديًا لكنه يشبهه في اللفظ من باب المقابلة اللفظية لا المعنوية، أو أنه مكر حقيقي؛ لأن صنيع الله بهم مكر حيث كان القتيل منهم على أحد الأقوال أو اشتبه عليهم الأمر على القول الثاني، والصحيح في هذا أن الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه، ولسنا أعلم بالله من نفسه، هو أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، ولكنه يجب أن ينزه عن كل نقص، فالمكر هل هو من صفات النقص على سبيل الإطلاق يعني: ليس فيه مدح إطلاقًا أو هو نقص في حال دون حال؟

الجواب: الثاني: هو الحقيقة، أن المكر في مقام المكر مدح وصفة كمال، والمكر في غير موضعه صفة نقص؛ لأن المكر في غير موضعه خيانة، والخيانة صفة ذم، ولهذا لم يصف الله بها نفسه حتى في باب المقابلة، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٧١]، ولم يقل: فخانه؛ لأن الخيانة صفة ذم مطلقًا بخلاف ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ فقابل الله مكرهم بمكر ولم يقابل خيانتهم بخيانة.

إذن نقول: يجب أن نصف الله بما وصف به نفسه من المكر في الحال التي وصف الله نفسه فيها بالمكر، وذلك في مقابلة مكر أعدائه.

فنقول: إن الله يمكر بمن يمكرون به وبرسله وبآياته، أما أن نصف الله بالمكر على الإطلاق فنقول: إن الله ماكر ونطلق، فهذا لا يجوز، لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأن المكر كما قلنا: ليس كمالًا في كل حال، ولا نقصًا في كل حال، فإذا أطلق صار قابلًا لأن يكون نقصًا، فإذا قيدت بالحال التي يكون فيه كمالًا لم يحتمل أن يكون نقصًا.

إذن نقول: المكر يوصف الله به لا على سبيل الإطلاق، ولكن في الحال التي وصف الله نفسه

فيه به، ولهذا جاء في الحديث: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1]، وكلٌّ يعرف أن الخدعة في الحرب كمال وليست بنقص، ويذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما خرج إليه «عمرو بن ود» ليبارزه، ومعروفة هي المبارزة إذا التقى الصفان طلب المتقاتلون المبارزة، من يبرز لفلان؟ والمبارزة سبب للفتح والنصر أو للهزيمة؛ لأنه إذا تبارز الرجلان وانتصر أحدهما قويت نفوس أصحابه وضعفت نفوس الآخرين، لما خرج إلى مبارزة «عمرو بن ود» صاح «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه وقال: ما خرجت لمبارزة رجلين، فظن عمرو بن ود أنه قد تبعه أحد من قومه، فالتفت لينظر هل لحقه أحد، فلما التفت ضربه عليٌّ بالسيف حتى طن رأسه، هذه خدعة أم لا؟ محمودة أو غير محمودة؟ محمودة؛ لأنه جاء ليقتل عليًّا، فتخلص منه بهذه الخدعة، هذا يعدُّ منقبة لعلي بن أبي طالب وصفة كمال، وحينئذٍ نقول: المكر في موضعه مدح وكمال.

يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

هذه صفة ثابتة مطلقة، يعني: لا تحتاج إلى قيد؛ لأنها وصفت بكمال، ما هو الكمال؟ خير، فالله خير الماكرين، يعني: ما من أحد يمكر إلَّا ومكر الله فوقه وخير منه.

والمكر من الصفات الذاتية أو الفعلية؟ الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة من صفات الله لها سبب فهي متعلقة بالمشيئة؛ لأن مُقدِّر السبب هو الله، فإذا قُدِّر السبب فقد شاءه، ويترتب عليه ما يترتب من الصفات.

يقول تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾.

يحتمل أن تكون (إذ) متعلقة (بمكر الله) يعني ومكر الله (إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك)، ومحتمل أنها متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد مُنوِّهًا بفضل عيسى إذ قال الله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾.

أي: إني قابضك، مأخوذة من قولهم: توفى الدائن دَيْنه أي: قبضه، وعيسى قد قبضه الله إليه في السماء ورفعه حتى ينزل في آخر الزمان، هذا قول.

والقول الثاني: متوفيك وفاة نوم، يعني مُنيِّمُك؛ لأن النائم متوفى، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠].

والقول الثالث: أنها وفاة حقيقية، توفاه الله وفاة حقيقية وسيحييه في آخر الزمان وينزل إلى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٢٩) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٧٤٠).

الدنيا، والصحيح: أنها وفاة نوم؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - لما أراد أن يرفعه إلى السماء أنامه ليسهل عليه الانتقال من الأرض إلى السماء؛ لأن الانتقال من الأرض إلى السماء ليس بالأمر الهين لطول المسافة وبعدها ورؤية الأهوال فيما بين السماء والأرض وفي السموات أيضًا، فأنامه الله ثم رفعه نائمًا حتى وصل إلى السماء، لكن هذا القول لا ينافي القول الأول الذي معناه قابضك؛ لأن نهايتهما واحدة.

أما القول الثالث: أنها وفاة موت، فقول ضعيف يضعفه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:١٥٩]، قبل موته أي: عيسى، وهذا يدل على أنه لم يمت، ولأن الله تعالى لم يبعث أحدًا بعد الموت فيبقى كما في نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام - في آخر الزمان؛ ولأنه ـ أعني إطلاق الوفاة على النوم ـ كثير في القرآن، يعني: ليس بمعنى غريب حتى نقول: لا يصح حملها عليه، بل هو معنى له كثرة في القرآن.

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

(إليّ) إلى أي مكان؟ إلى السماء؛ لأن الرفع يكون من نازل بمعنى رافعك إليّ يعني في السماء، رفعه الله - سبحانه وتعالى - إلى السماء إلى الله.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

مطهرك منهم: التطهير هنا تطهير معنوي لا تطهير حسّي، وذلك لأن الذين كفروا ليسوا يلطخون عيسى بالقاذورات الحسّية لكنهم يلطخونه بالقاذورات المعنوية، قالوا: إنه كذّاب، وإنه ابن زنا والعياذ بالله، وأن أمه زانية، واتهموه بأشياء كثيرة، فطهره الله منهم وذلك بما أنزل من براءته في عهده وفيما بعد عهده.

وقوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفروا بمن؟ كفروا بعيسى؛ لأن الحواريين آمنوا به كما سبق.

قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

هذا أيضًا من جملة ما قاله الله له: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، جاعل هنا مضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول؟ إلى المفعول.

(فوق) محلها النصب، هي ظرف متعلق بمحذوف على أنه مفعول ثانٍ؛ لأن جاعل اسم فاعل من جعل، وجعل تنصب مفعولين، إذن (فوق): ظرف متعلق بمحذوف على أنه مفعول ثانٍ؛ لأن جاعل اسم فاعل من جعل، وجعل تنصب مفعولين، إذن (فوق): ظرف متعلق بمحذوف وهو المفعول الثاني.

وقوله: ﴿اتَّبَعُوكَ﴾ أي: الذين اتبعوا شريعتك ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فوق الكفار إلى يوم القيامة، هذه الآية يطبل لها النصارى ويقولون: نحن لنا العلو إلى يوم القيامة، ليس

إلى أن بُعث محمد، ولكن إلى يوم القيامة.

فنقول: نعم صدق الله العظيم، إن الذين يتبعون عيسى لهم النصر على الكافرين إلى يوم القيامة، ولكن مَنِ الذين اتبعوا عيسى؟ هم الذين ردُّوا بشارته وكذبوا من بشّر به؟ لا أبدًا أنتم لم تتبعوا عيسى ووالله لو خرج عيسى لقاتلكم حتى ترجعوا إلى الإسلام، ولهذا في آخر الزمان لا يقبل إِلَّا الإسلام، لا يقبل الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، في آخر الزمان لا يقبل حتى الجزية التي كانت تقبل قبل نزوله، لا تقبل من شدة كراهته لما عليه النصارى واليهود الآن، نحن نقرّ لليهود والنصارى بالجزية، نقول: ابقوا على دينكم لكن أعطوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، لكن إذا نزل عيسى لا يقبل، يقول: أسلم وإِلَّا فالقتل، لكراهيته لما هم عليه، لا يريد أن يقرهم على هذا. المهم أن نقول: إن الذين اتبعوا عيسى هم الذين آمنوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد بعثة محمد، أما قبل بعثة محمد نعم لا شك أن أتباع عيسى هم المسلمون، وأنهم على الحق قبل أن يحرّفوا ويبدّلوا.

فإذا قالوا: كيف تجيبون عن قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؟ قلنا: نعم آمِنُوا بمحمد ولكم النصرة إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن يراد بالذين اتبعوه أي: الذين انتسبوا إليه وتكون لهم الغلبة على الكافرين لا على المسلمين، يعني: مثلًا أن النصارى يغلبون اليهود والوثنيين وما أشبه ذلك، ويخرج من هذا المسلمون. ويكون الله - تعالى - قد وعد عيسى بأن يكون من انتسب إليه فوق الذين كفروا به.

الجواب: لا يمكن هذا، ليس بعيدًا متعذرًا؛ لأن هؤلاء لم يتبعوا عيسى، ألم تسمعوا أن الله يقول يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧]، وهل النصارى يقولون بهذا؟ أبدًا، إذن لم يتبعوه، فالآية وإن كان قد يتراءى لبعض الناس أن يقول: إن النصارى يغلبون غيرهم من الكفار لهذه الآية فإنا نقول: لا لأن الله يقول: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ والنصارى الآن لم يتبعوه، ثم إن الآية يعني لو فسرت بهذا التفسير لكان الواقع يخالفه، فالأمة الصليبية لم تظهر على الأمة الشيوعية بل هي خائفة منها فأين الفوقية؟ ليست هناك فوقية الآن، كل دول أوروبا الغربية بأسطولها وحلفها الأطلسي عجزت أن تكون فوق الشيوعية وحلفها، كل واحدة منهم تخاف الآن من الأخرى، وقد يكون أتى في يوم من الأيام أن أوروبا تخاف من الشيوعية أكثر مما تخاف منها هذا اليوم، فالحاصل أن الآية لا يمكن أن تحمل على النصارى الموجودين اليوم بأي حال من الأحوال.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: يعني: بعد يوم القيامة إليّ مرجعهم، ويوم القيامة هو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين يجازون على أعمالهم، وسمّي يوم القيامة لثلاثة وجوه.

الوجه الأول: أن الناس فيه يقومون لله رب العالمين كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

الوجه الثاني: أنه يقوم فيه الأشهاد، فالرسل يشهدون على أممهم، وهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

الوجه الثالث: أنه يقام فيه العدل، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، فهو يقام فيه العدل، ولهذا أقسم النبي ﷺ وهو الصادق البار المصدوق - عليه الصلاة والسلام - قال: «وَاللهِ لَتُؤَدِّيَنَّ الحقوقَ إِلَى أَهْلِها حَتَّى إِنَّه لَيُقْتَصُّ لِلشاةِ الجلْحَاءِ مِنْ الشاةِ القَرْنَاءِ»[1] هذا عدل، أكبر العدل، فلهذا سمي يوم القيامة للوجوه الثلاثة.

ثم قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، يعني: ثم بعد هذه الغلبة في الدنيا أو المغالبة في الدنيا حتى يكون بعضكم فوق بعض، بعد ذلك إليّ مرجعكم أي: مصيركم، وكل المصير إلى الله عزَّ وجلَّ في الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]، الأمر إلى الله أولًا وآخرًا لكن ظهور هذا الرجوع لا يكون إلَّا يوم القيامة حيث يتبين فيه للناس جميعًا أن الرجوع إلى الله - سبحانه وتعالى - يجازي كل نفس بما عملت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

الله أكبر، وما أعدل هذا الحكم، أحكم بينكم، بين مَنْ؟ بين الخلائق فيما كانوا فيه يختلفون، وهل الناس يختلفون في شيء؟ نعم، فمنهم كافر ومنهم مؤمن، اختلاف عظيم، فيحكم الله - عزَّ وجلَّ - بين هؤلاء وهؤلاء، ويحكم كذلك بين الرسل وأتباعهم، فتقيم الرسل البينة على أنها بلغت الرسالة، وقد ينكر ذلك أتباع الرسل لكن لا يتم لهم مقصودهم، فالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه إلى الله.

وقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، أحكم فعل مضارع فهل يشتق منه اسم من أسماء الله؟ القاعدة: أن الفعل لا يشتق منه، لكن قد وُجِدَ اسم من دون الرجوع إلى هذا الفعل وهو «الحكيم»، فإن الحكيم مأخوذ من الحُكْم والحِكْمة، ومن أسماء الله (الحَكَم) كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣٥)، والترمذي (٢٤٢٠).

وَإِلَيهِ الحُكْمُ»(١).

وهذا من الحكم، فالله هو الحكم الذي يرجع الناس إليه في تحاكمهم.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: الحكم لله - عزَّ وجلَّ - كونًا وشرعًا، فهو الحاكم كونًا وهو الحاكم شرعًا، أما حكمه الكوني فهو نافذ على كل أحد، ولا يستطيع أحد أن يتخلص منه ولا أن يعانده، وأما الحكم الشرعي فإنه باختيار المحكوم عليه، فمن شاء فليؤمن: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، إذن حُكم الله ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي.

١ - فالحكم الكوني: ما يقدّره الله على عباده، ولا يمكن التخلف عنه، ويتعلق فيما يحبه وما لا يحبه، فيحكم كونًا بوقوع الطاعات وهذا مما يحبه، ويحكم كونًا بوقوع السيئات والمعاصي وهذا لا يحبه، لكنه - عزَّ وجلَّ - يحكم به كونًا لحكمة ومصالح عظيمة.

٢ - وأما الحكم الشرعي: فهو ما قضاه بين العباد شرعًا، وهو الذي جاءت به الرسل، وأصله أوامر ونواهٍ، افعلوا كذا، لا تفعلوا كذا، ولا يلزم من الحكم الشرعي وقوع المحكوم به، بل قد يتخلف عنه كثير من الناس، وها هم الرسل يرسلهم الله - عزَّ وجلَّ - يتبعهم أناس قليلون وأناس كثيرون، بل قد قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «وَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(٢) فيتخلف الحكم الشرعي.

وقال بعض العلماء: إن هناك قسمًا ثالثًا للحكم وهو الحكم الجزائي الذي يحكم الله فيه بالجزاء على من عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وعليه يتنزل قوله هنا: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الفاء هذه عاطفة على ما سبق عطف تفريق، أي: أن ما بعدها فرع عمّا قبلها، يعني هذا الحكم يكون على هذا الوجه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾، و (أما) هنا شرطية تفصيلية، يعني: أنها تفيد التفصيل كما في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل:٨]، وهنا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران:٥٧].

وقوله: فأما الذين كفروا فأعذبهم، كفروا بمن؟ كفروا بالله ورسله.

والكفر في اللغة: الستر، ومنه سمي الكُفُرَّي الذي هو غطاء طلع النخل، الذين كفروا ستروا ما أنعم الله به عليهم من نعمة العقل ونعمة المال والصحة وغير ذلك، حيث لم تظهر عليهم آثار

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٠).

هذه الأشياء، فآثار العقل أن الإنسان يفعل ما ينفعه ويدع ما يضره، ومنه سمي العقل حِجْرًا؛ لأنه يحجر صاحبه عما يضره، لكن الذين كفروا ستروا ما يقتضيه العقل من حسن التصرف وذلك بالإيمان بالله ورسله، فلذلك سموا كفارًا، أي: ساترين لما أنعم الله به عليهم من نعمة العقل التي مقتضاها الإيمان بالله ورسله.

قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

العذاب: فعل ما به مشقة أو حصول ما به مشقة سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»(١)، وقال: «إِنَّ الميِّتَ يُعذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيهِ»(٢)، يعني: هذا عذاب مشقة، ومن عذاب المشقة عذاب العقوبة، لأنه شاق على المعاقب، والمراد بالعذاب - هنا - عذاب مشقة العقوبة.

قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، الشديد يعني: القوي العظيم في الدنيا والآخرة، في الدنيا قال العلماء: إن العذاب في الدنيا ما يحصل لقلوبهم من الضيق والضنك والقلق والحسرة وغير ذلك، وما يحصل لهم على أيدي المؤمنين من القتل والأسر والجزية وغير ذلك، فعذابهم يكون بالألم القلبي والألم البدني، ولهذا قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أما عذابهم في الآخرة فظاهر يعذبون في الآخرة بماذا؟ بالنار، يعذبون في الآخرة بالنار وهم لا تتخطاهم العقوبتان أو إحداهما، يعني إما أن يحصل لهم هذا وهذا وهو الغالب، وإما أن يحصل لهم عذاب الآخرة ولابد، ولكن ظاهر الآية الكريمة في الدنيا والآخرة أنه يحصل لهم العذاب في الدارين، قال: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، الدنيا هي هذه الحياة التي نحياها ووصفت بذلك لوجهين:

١ - لدنوِّها لأنها سابقة على الآخرة، فهي دانية.

٢ - لنزول مرتبتها كما قال: دنيا وعليا، فالدنيا نازلة في المرتبة عن الآخرة، مهما بلغ نعيمها فإنها نازلة عن الآخرة؛ لأن نعيم الدنيا إذا حصل فهو مشوب بالكدر كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وقال الثاني:

لَا طِيبَ لِلعَيشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوتِ وَالْهَرَمِ

فمهما نَعِمَ الإنسان في هذه الدنيا فنعيمها دانٍ، ولهذا وُصفت بالدنيا، أما نعيم الآخرة فقد قال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٠٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٢٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٨٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٩٢٧).

وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

(ما) نافية، يعني: هذا العذاب الشديد الذي يوقعه الله فيهم لا يجدون مَنْ ينصرهم منه أي: مَنْ يمنع عنهم هذا العذاب لا أهل ولا مال ولا صديق ولا قريب ولا أحد من الناس: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج:١١-١٥].

ثم جاء بالقسم الثاني قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، والرب - عزَّ وجلَّ - يكرر هذا دائمًا في القرآن، يجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه لا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، بل لابد من الأمرين.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: آمنوا بما يجب الإيمان به، وذلك بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي: التي تكون لله وفي الله، أي: أنها خالصة لله وفي حدود شريعة الله، يعني: خالصة صوابًا كما قال «**الفضيل بن عياض**» رَحِمَهُ اللهُ: خالصة لله صوابقًا يعني: على السُّنَّة، هذا هو العمل الصالح، فإن لم تكن خالصة فليست عملًا صالحًا بل هي مردودة على صاحبها؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وفي الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(١)]، وأما الموافقة أو الصواب كما قال الفضيل فلقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ**»[(٢)]، فلا يقبل العمل إلَّا بموافقة الشرع.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، (اللهم لك الحمد)، انظر إلى هذه المنة، كأن هؤلاء عمال يستحقون الأجر ولابد، حيث سمَّى الله جزاءهم أجرًا، والأجر من المستأجِر حق يجب له، ولكن هذا من فضل الله - عزَّ جل - وكرمه؛ لأن الذي أوجب الأجر على نفسه مَنْ؟ الله - عزَّ وجلَّ - هو الذي أوجب ذلك على نفسه، لم يوجبه أحد عليه، لو شاء لأمرنا ونهانا ولزمنا أن نطيعه بدون عوض؛ لأنه ربنا وخالقنا وما نعمله من الطاعات؛ فإنه لا يقابل واحدة من نعمه التي لا تحصى - سبحانه وتعالى -، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَنْ يَدخُلَ الـجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**»، قَالُوا:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١) ﷺ، فهذه الأجور التي هي جزاء الأعمال التي سماها الله أجرًا الأجرة المفروضة على المستأجر لم يوجبها أحد على الله، بل هو الذي أوجب على نفسه هذا الأجر، قال «ابن القيم» رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا لِلعِبَادِ عَلَيهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيهِ ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ
إِن عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَو نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

والحاصل: أننا ليس لنا حق على الله واجب ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، اللهم لك الحمد.

قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

خَتْمُ الآية بهذا مناسب؛ لأنه لما بيّن أن هؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات فيوفون أجورهم بيَّن أن هؤلاء قد قاموا بما يلزمهم وأنهم لم يظلموا أنفسهم، ولذلك أثابهم الله - عزَّ وجلَّ - هذا الثواب العظيم، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يحب الظالمين، فلو ظلموا أنفسهم ما استحقوا هذا الثواب كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فلو أشركوا بالله لحبط عنهم ما كانوا يعملون، ويطل عملهم؛ ولكنهم اتبعوا شريعة الله، فانتفى عنهم الظلم في الإخلاص وفي العمل، فكانوا أهلًا لإكرام الله - عزَّ وجلَّ -.

أما الذين كفروا واستحقوا العذاب؛ فإنهم ظلموا أنفسهم فحصلوا على مقت الله وعقابه ـ والعياذ بالله ـ وعدم محبته.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه كل ما سبق من ذكر آل عمران رحمهم الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]، فكل هذا مما تلاه الله تعالى على رسوله محمد ﷺ: وقوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرؤه عليك متتاليًا يتلو بعضه بعضًا. ولكنه بواسطة جبريل - عليه الصلاة والسلام -، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢ـ١٩٥].

وقوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ﴾.

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: «من»، قال بعضهم: إنها بيانية تبيِّن المشار إليه في قوله: «ذلك»، وقال بعضهم:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، مسلم (٢٨١٦).

إنها تبعيضية، أي: بعض الآيات، ولكن الصواب الأول، وهو أن ما تلاه الله على رسوله محمد ﷺ كله الآيات، والآيات جمع آية وهي في اللغة: العلامة، العلامة على شيء تسمَّى آية كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس:٣٧]، يعني: علامة على قدرتنا، وما أشبه ذلك من الآيات، ولما أرسل النبي ﷺ رجلًا إلى عامله في خيبر أن يعطيه ساقًا من التمر قال: «فَإِنْ طَلَبَ مِنْكَ آيَةً - أو قال: أَمَارَةً - فَضَعْ يَدَكَ عَلَى تَرْقُوَتِهِ»[1]، كأن النبي ﷺ قد قال للعامل: (إِذَا بَعثت إليك مبعوثًا فإن علامة صدقه أن يضع يده على ترقوتك).

قال: ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ﴾.

الذكر: يطلق على معان: منها الشرف كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، أي: شرف عظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]، أي: شرفك، ويطلق الذكر على ما يحصل به التذكر، فيسمى الكلام الجيد المشتمل على الموعظة ذكرى، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، أي: التذكرة، ويطلق الذكر على ذكر الله - عزَّ وجلَّ - كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء:١٠٣]، والمراد به في هذه الآية: المعنيان الأولان الشرف وما يحصل به التذكير، فإن هذا القرآن لا شك شرف لمن تمسك به وقام بحقه، فإنه ينال شرف الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة، ولم يشرّف العرب ولم ينالوا السعادة والنصر والظهور إِلَّا حين تمسكوا به، ولذلك لما تخلوا عنه زال عنهم وصف الشرف والظهور والنصر وصاروا إلى ما ترون ولن يعود لهم مجدهم السابق مهما طنطنوا بالعروبة والقومية وما أشبه ذلك إِلَّا إذا رجعوا إلى الإسلام، فمهما بلغوا في الدعاية فيما يتعلق بالقومية والعروبة وما أشبه ذلك؛ فإنها لن تنفعهم ولن تزيدهم إِلَّا دمارًا كالذين يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا، لن تزيدهم إِلَّا ذلا إِلَّا إذا رجعوا إلى دين الله الذي انتصروا به من قبل.

والقرآن أيضًا ذكر من جهة التذكير؛ لأن كل إنسان يقرأ القرآن بحضور قلب فلابد أن يتأثر به: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] لابد أن نتذكر به فهو موعظة عظيمة حتى لغير المؤمنين إذا سمعوه وهم يعرفون آياته أي: معانيها فسوف يتعظون به، وما وقع لبعض العرب في ذلك أمر مشهور في التاريخ، حتى إنه ذُكِر أن النبي ﷺ لما قرأ عليهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]، قالوا: أَمْسِكْ.

أو هم أَمْسَكُوا ووضعوا أيديهم على فمه من شدة ما يعلمون من هذه المعاني العظيمة.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: يعني: ذا الحكمة، فالقرآن كله حكمة، وهو فعيل بمعنى: مُفعَل، وفعيل بمعنى فاعل، فهو فعيل بمعنى مُفعل أي: محكم متقن، وهو فعيل بمعنى فاعل أي: حاكم لأن

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٦٣٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٨).

القرآن بلا شك حاكم بين الناس: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥].

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

١ - أن أعداء الرسل يكيدون لهم ويمكرون لهم؛ لقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ وننتقل من هذا إلى:

أ - أن أعداء الرسل أيضًا يمكرون لأتباع الرسل؛ لأن أعداء الرسل ليسوا يمكرون للرسل أو يمكرون بالرسل من أجل أنهم فلان وفلان لكن من أجل دعوتهم، ودعوتهم إذا ورثها العلماء من بعدهم؛ فإن الذين يمكرون للرسل سيمكرون بأتباع الرسل وورثة الرسل، وينبني على هذه الفائدة:

ب: أنه يجب على أهل العلم أن يتحفظوا تحفظًا كاملًا من أعداء الرسل الذين يتربصون بهم الدوائر، وأن يتقوا شرَّهم بما استطاعوا لئلا يمكروا بهم، والمكر وسائله وطرقه كثيرة، لكن العاقل الذكي ينتبه، ولهذا قال الله عزّ جل للرسول - عليه الصلاة والسلام - في المنافقين، قال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فبيّن أنهم هم العدو حقيقة، وأمر بالحذر منهم.

٢ - لا يوصف الله بالمكر على سبيل الإطلاق بل يقال: إن الله ماكر بمن يمكر به؛ ليعود المكر صفة كمال؛ لأن المكر إذا ذكر مطلقًا صار محتملًا للنقص، فإذا ذكر مقيدًا بأن قيل: إن الله ماكر بمن يمكر به وبأوليائه، صار صفة كمال تدل على قوة الله - عزَّ وجلَّ - وإحاطة علمه، وأن علمه أدق من علم هؤلاء الماكرين الذين يأتون بالأسباب الخفية، والطرق الملتوية ليوقعوا عباد الله في الشر، فيكون الله - سبحانه وتعالى - أقوى منهم في ذلك، فإذا مكروا مكر الله - عزَّ وجلَّ -، ولا يجوز أن يسمى الله بالماكر مطلقًا، ولا يوصف بالماكر على سبيل الإطلاق، وقد سبق أن الله وصف نفسه بالمكر والكيد والسخرية والخداع والاستهزاء ولم يصف نفسه بالخيانة أبدًا؛ لأن الخيانة صفة ذم بكل حال ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال:٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خديعة في مقام الائتمان، والخديعة في مقام الائتمان صفة ذم ونقص.

٣ - جواز المفاضلة بين الخالق والمخلوق في الوصف كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، و(خير) اسم تفضيل فيجوز أن يفاضل بين الخالق والمخلوق؛ لأن هذا مطابق للواقع تمامًا، فالله تعالى أكمل من كل ذي كمال، ومنه تتفرع قاعدة وهي خطأ بعض أهل العلم - رحمهم الله - حيث يفسرون اسم التفضيل المنسوب إلى الله باسم الفاعل، فيقولون مثلًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، يقولون: الله عالم حيث يجعل رسالته، ولم يتفطنوا أنهم إذا قالوا: الله عالم، لم يمنع مشاركة غيره في العلم مع المساواة، لكن إذا قالوا: الله أعلم، امتنع مشاركة غيره له في العلم الذي هو أعلم به من غيره.

من فوائد قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

١ - التنبيه على أنه ينبغي أن نذكرّ الناس بأحوال الأنبياء السابقين، وجه ذلك: أننا قدرنا ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ بـ (اذكر إذ قال الله).

فينبغي أن يُذَكِّرُ الإنسان الناس بأحوال الأنبياء السابقين لما في ذلك من محبتهم والثناء عليهم ومعرفة أحوالهم وإبقاء ذكراهم، وغير ذلك من المصالح العظيمة.

٢ - إثبات القول لله وأنه بحروف وبأصوات مسموعة؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾، وهذا خطاب من يسمع، ثم هو كلمات من حروف أو من غير حروف؟ من حروف، ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم كلامًا مسموعًا بحرف وصوت.

٣ - الرد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي القائم بنفسه، فإن هذا لا يسمى قولًا وإن أطلق عليه القول فلابد أن يقيد كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨]، فلما أراد القول النفسي قيَّده بـ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أما إذا جاء القول غير مقيد فالمراد به: ما يسمع، ففيه الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله هو الكلام النفسي القائم بنفسه، وأنه أزلي لا يحدث ولا يصدق بعضه بعضًا؛ لأنه معنى قائم بالنفس.

والحقيقة أن هذا القول مضمونه إنكار كلام الله، ولهذا قال بعض منصفيهم: ليست بيننا وبين المعتزلة فرق؛ لأن الأشاعرة يقولون: إن الله تعالى لا يتكلم (بما يسمع) بنفسه لكن يخلق كلامًا يعبر به عما في نفسه، وعلى هذا فالمسموع والمقروء والمكتوب مخلوق، فيتفق المعتزلة والأشاعرة، بل إن المعتزلة خير منهم من جهة النسبة؛ لأنهم يقولون: هذا كلام الله، وأولئك يقولون: هذا عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، المهم أن هذه الآية وأمثالها فيها الرد على الأشاعرة.

٤ - فضيلة عيسى ومنقبته بخطاب الله إياه، فإن من خاطبه الله فذلك فخر له بلا شك خصوصًا أنه قال له: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾... إلخ.

٥ - أن الله - سبحانه وتعالى - رفع عيسى بجسمه؛ لقوله: ﴿وَرَافِعُكَ﴾، والخطاب لعيسى المكون من بدن وروح فيكون رفعه ببدنه.

٦ - إثبات منقبة لرسول الله ﷺ، وذلك أن النبي ﷺ أُسري به إلى السموات السبع حتى اخترقها كلها وهو يقظان، وعيسى لم يُرفع إلَّا وهو نائم؛ لأن قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي: منيمك على أحد الأقوال وهو أقربها، ومعلوم أن ثبات قلب من يباشر الشيء وهو يقظان أقوى من ثبات من يباشره وهو نائم.

ولهذا تجد بعض الناس إذا سمع الرعد الشديد والبرق الخاطف يغمض ويضع إصبعيه في

أذنيه حتى لا يسمع ويقول: ليتني نمت قبل هذا، والإنسان الثابت يقول: لن يصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا، تجده لا يهتم.

المهم أن النبي ﷺ أسري به يقظة بروحه وبدنه، وعيسى عندما أراد الله أن يرفعه أنامه.

٧ ـ منقبة لعيسى أخرى حيث قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، فأضاف رفعه إلى نفسه - عزَّ وجلَّ -، وهذا لا شك أنه منقبة أن الله ضمَّه إليه ورفعه إليه، ليكون أقرب إليه مما لو كان في الأرض.

٨ ـ أن الله - عزَّ وجلَّ - منع الأذى عن عيسى الذي يمكن أن يلحقه من الكفار حيث قال: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وذلك بالدفاع عنه، فإن الذين كفروا قالوا عنه: ولد زنا - قاتلهم الله -، فطهره الله لما قالوا: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧،٢٨]، من أين جاءك الزنا؟! لأن هذا تعريض، يقولون: أبوك ما كان امرأ سوء بل هو نزيه وأمك كذلك فمن أين جاءك الزنا؟ أعوذ بالله.

لم تجاوبهم بل أشارت إليه: اسألوا الطفل، قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩] فأجابهم قبل أن يسألوه، ماذا قال؟ قال: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠] هذا تطهير عظيم له، ولأمه عليهما السلام.

٩ ـ أن كلَّ من رمى عيسى بهذا السوء فهو كافر؛ لأنه لم يقل مطهرك من الذين قدحوا فيك، قال: من الذين كفروا، فيستفاد من هذا أولًا: كفر هؤلاء، وثانيًا: أن كل من رماه بذلك فهو كافر.

١٠ ـ أن نصرة الأتباع نصرة للمتبوع.

١١ ـ أن أتباع عيسى منصورون إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وسبق لنا أن أتباعه بعد بعثة الرسول ﷺ هم أمة محمد، ومن كفر بمحمد فإنه لم يتبع عيسى، وذكرنا وجهًا آخر أن النصارى سيكونون فوق غيرهم من ملل الكفر، لكن الإسلام فوق الجميع، ولكن متى يكون الإسلام فوق الجميع؟ إذا رجع المسلمون إلى الإسلام حقيقة، أما إذا لم يرجعوا إلى الإسلام حقيقة فيخشى أن يكون النصارى فوقهم، والواقع الآن مع الأسف الشديد هو هذا.

١٢ ـ إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ويوم القيامة هو: اليوم الذي يبعث فيه الناس للجزاء إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

١٣ ـ إطلاق الفوقية على المعنوية، يعني: معناه أنهم يكونون فوق رؤوسهم فوقية معنوية، لا حسية، وفي هذا إثبات للفوقية المعنوية كالفوقية الحسية.

١٤ ـ أن مرجع الخلائق إلى ربهم - عزَّ وجلَّ - الذي ابتدأ خلقهم وستكون النهاية إليه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، ولابد.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الانشقاق:٦]، الإنسان ـ كل إنسان ـ مخاطب وليس فقط المؤمن: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ و (إلى) للغاية، أي النهاية إلى الله، ثم أكد هذه

النهاية بقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يعني: فاستعد لهذا اللقاء.

١٥ - إثبات حكم الله في الدنيا والآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾،هذا في الآخرة، وفي الدنيا: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، فالحكم كله راجع إلى الله عزَّ وجلَّ، والله تعالى هو الحكم في الدنيا وفي الآخرة.

١٦ - بشارة المؤمنين بأن خلافهم مع الكفار سوف يجري فيه الحكم على يد الواحد القهار ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وقد أخبرنا الله - عزَّ وجلَّ - أن الخاصم الغالب هم المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، الحمد لله، انظر ﴿سَبِيلًا﴾ نكرة في سياق النفي.

١٧ - ثبوت علو الله تعالى بذاته؛ لقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، لأن الرفع معروف أنه الصعود إلى أعلى، فإذا قال: (إلي) علم يقينًا أن الله - عزَّ وجلَّ - فوق وهو كذلك، هو فوق كل شيء بذاته، ولا ينافي هذا ما ثبت من أنه - عزَّ وجلَّ - ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[1]، هو النازل وهو عالٍ، ولا ينافي هذا أيضًا أنه مع الخلق كما قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، فهو مع الخلق وهو عالٍ عليهم، كما قال «شيخ الإسلام» في «الواسطية»: «عليٌّ في دنوه، قريب في علوه».

ولا ينافي هذا أيضًا أنه يأتي يوم القيامة للفصل بين العباد، فهو يأتي ولكنه فوق كل شيء، ولا ينافي هذا أنه يدنو عشية يوم عرفة يباهي بأهل الموقف الملائكة[2].

فإذا قال قائل: كيف لا ينافي هذا، أنا لا أتصور أن شيئًا يكون عاليًا نازلًا أبدًا.

قلنا: تبًّا لك، أنت لا تتصور هذا بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فكل ما أخبر الله به عن نفسه فهو، حق لا يتناقض وليس فيه غير ممكن أبدًا، إذا قلت: لا يمكن، معناه أنك لن تصدق أخبار الله ورسوله إلَّا إذا وافقت هواك وإلَّا فلا، ولهذا ضلَّ مَنْ ضلَّ من الناس في مثل هذه الأمور حيث قالوا: هذا غير ممكن، وهذا غير ممكن، وبنوا عقيدتهم على أهوائهم.

إذا كنت تريد أن تبني عقيدتك على هواك فما الفائدة من الرسل؟

لا فائدة من الرسل، إذا كنت أنت تريد أن تبني العقيدة على ما تهوى أنت، وإذا جاءت الرسل بكلام يخالف ما عندك ذهبت تحرِّفه، إذن لا فائدة من الرسل.

ولهذا أنصح دائمًا وأبدًا وأكرر أن يقبل المسلم كل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله عزَّ وجل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٨)، والنسائي (٣٠٠٣)، وابن ماجه (٣٠١٤).

ومن صفات اليوم الآخر أيضًا ـ لأنه في اليوم الآخر أشياء لا تكون في الدنيا ـ دُنُوُّ الشمس من الناس قدر ميل يوم القيامة، ولو كان في الدنيا لاحترقت الأرض ومن عليها، لكن أحوال الآخرة شيء آخر، وأحوال الناس مختلفة، هذا في نور وهذا في ظلمة والموقف واحد.

أما في الدنيا فغير ممكن لو أتيت بأدنى سراج معك لانتفع به مَنْ إلى جانبك، وفي الآخرة الناس يُعرفون على قدر أعمالهم، فمنهم من يلجمه العرق، ومنهم من إلى كعبيه والمقام واحد، فأمور الآخرة وأمور الغيب كلها لا يجوز لك أن تقيسها بما تشاهده في الدنيا؛ لأن القياس هنا ممتنع، فهو قياس مع الفارق لاسيما في صفات الخالق - عزَّ وجلَّ -، فإن الفارق بعيد بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولذلك حذار أن تقيسَ ما أثبت الله لنفسه من صفات - جل وعلا - بما تعرفه من صفات المخلوقين؛ فإنك ستضل لا محالة.

١٨ ـ أن مرجع الخلائق إلى الله نهايةً وحكمًا، فإن الناس يُبعثون يوم القيامة إلى ربهم حكمًا يحكم بينهم.

١٩ ـ إثبات الجزاء، لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا حكم جزائي.

٢٠ ـ أن الخصومة تقع بين المؤمنين والكافرين في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، ويحتمل أن يقال: إن هذا حكم سبقت الخصومة فيه في الدنيا حيث كان الكفار والمنافقون يختصمون، ولكن الأول أقرب ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

٢١ ـ أن الاختلاف بين المسلمين والكفار اختلاف جوهري يحكم الله فيه بين هؤلاء وهؤلاء يوم القيامة، وأما الاختلاف بين المسلمين فيما مصدره الاجتهاد، فإنه لا يحكم بينهم؛ لأن المجتهدين وإن اختلفوا في الحكم فإنهم لم يختلفوا في الحقيقة؛ لأن كل واحد منهم يعذر الآخر ولا يرى أنه مخالف له، وإن خالفه في القول والرأي لكنه لم يخالفه في المنهج والطريقة، كل واحد منهم يريد الحق ولكن اختلفوا في كيفية الوصول إليه.

٢٢ ـ إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إذ لا حكم إلَّا بعد علم، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ»[1].

ومن فوائد قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

١ ـ إثبات العذاب للكافرين؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٦٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٧١٣).

٢ ـ ومن فوائدها: أن العذاب في الدنيا قد لا يكفي عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفار، أو نقول: إن العذاب في الدنيا لا يغني عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفار؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، ولهذا يُعذَّب الكفار في الدنيا ويُهزمون ويُؤسرون، وتُسبي ذُريتهم ونساؤهم، وتُغنم أموالهم، وهذا عذاب عظيم ومع ذلك لا ينجون من عذاب النار.

٣ ـ إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل، فكلما كان العمل أسوأ كان الجزاء أشد، ولهذا قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٥ ـ أن العذاب ـ عذاب الكافرين ـ يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، فأما عذاب الدنيا فبالأسر والقتل والزلازل والفيضانات وما أشبه ذلك، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤]، وهذا يكون بالقتل والأسر، وأما العذاب بالزلازل وشبهها كقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان:١٠، ١١]، هذا عذاب من الله – عزَّ وجلَّ –، والأول عذاب بأيدي المؤمنين.

٦ ـ أن الكفار لا ناصر لهم من عذاب الله، لا أحد يمنعهم؛ لقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أما في الآخرة فظاهر؛ لأن الشفاعة لا تنفع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وأما في الدنيا فكذلك؛ لأن هؤلاء الكفار إذا عذبوا بأيدي المؤمنين فالمقاتلة منهم يقتلون، والنساء والذرية يسبون، والأموال والأراضي تغنم، وهذا لا ناصر لهم فيه.

فإذا قال قائل: أليس الإمام يخير في الأسرى بين أمور أربعة: إما القتل أو الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو بالاسترقاق بجعله رقيقًا يباع ويشترى، أو بالمنّ مجانًا، ولا إشكال في الأشياء الثلاثة الأولى، وإنما الإشكال في الأخير وهو المن وهذا ليس بعذاب.

فالجواب على ذلك نقول: إنه لا يجوز للإمام أن يختار واحدة من هذه الأربع إلَّا حيث يرى للمسلمين فيها مصلحة.

فالتخيير هنا تخيير مصلحة وليس تخيير تَشَّهٍ واختيار، وإذا كان للمسلمين مصلحة فلابد أن يكون هذا عذابًا على الكافرين، فلأن كل شيء فيه مصلحة للمسلمين ففيه عذاب للكافرين، وعلى هذا فلا ناصر لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٧ ـ بلاغة القرآن وحكمة القرآن، بلاغته في الإتيان بالمعاني متقابلة؛ لأن الإتيان بالمعاني المتقابلة توجب نشاط الإنسان حيث ينتقل الذهن من معنى إلى ما يقابله، فيزداد نشاطًا وشغفًا.

وأما من جهة كمال البلاغة؛ فلأن المعاني إذا تنوعت على وجوه التقابل ازداد اللفظ حسنًا،

وهذا معروف عند علماء البلاغة باسم علم البديع، وفيه أيضًا تربية للنفس؛ لأن النفس إذا سمعت عقاب الكافرين خافت ووجلت وربما يستولي عليها اليأس، فإذا جاء ثواب المؤمنين طمعت ورجت فصار سيرها إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

٨ - أن وفاء الأجر مرتبط بوصفين: الإيمان، والعمل الصالح.

فالإيمان وحده لا يكفي، بل لابد من عمل صالح ينمّي هذا الإيمان ويشهد بصحته، أما مجرد العقيدة فإنها لا تكفي، على أن العقيدة إذا كانت سليمة استلزمت العمل الصالح؛ لقول الرسول ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، إِلَّا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

٩ - أن العمل لا ينفع إِلَّا إذا كان صالحًا، والعمل الصالح ما جمع وصفين:

أ - الإخلاص لله.

ب - المتابعة لرسول الله ﷺ.

أي: ما كان خالصًا صوابًا كما قال «الفضيل بن عياض» رحمه الله.

١٠ - منّة الله - سبحانه وتعالى - على عباده حيث جعل هذا الجزاء كالأجور اللازم وفاؤها؛ لقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، والفرق بين التعبيرين ظاهر، هناك قال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وهنا قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

١١ - إثبات المحبة لله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، فإن قال قائل: كيف تستدلون على إثبات المحبة بنفي المحبة لأنه قال: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، فالجواب: أن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم، ولو كانت منتفية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة، ولهذا استدل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ على ثبوت رؤية المؤمنين لله بقول الله تعالى عن الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وقال في وجه الاستدلال: ما حجب أعداءه عن رؤيته في الغضب إِلَّا لثبوت رؤية أوليائه له في الرضا، وهذا واضح.

١٢ - شؤم الظلم على الإنسان، وأنه سبب لانتفاء محبة الله له، وإذا انتفت محبة الله للعبد فقد هلك.

١٣ - أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه رتّب عليه وعيد وهو انتفاء محبة الله سبحانه وتعالى، ولكن الظاهر أن هذا ليس على سبيل الإطلاق بل الظلم يكون كبيرة ويكون صغيرة؛ لأن جميع المعاصي ظلم، ومن المعاصي ما هو كبير ومنها ما هو صغير.

١٤ - من فوائد الآية مع التي قبلها: التنوع في الأسلوب وهو الانتقال من ضمير التكلم إلى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

ضمير الغيبة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ فهل هناك فرق من حيث المعنى؟.

الجواب: نعم هناك فرق من حيث المعنى، أما اللفظ فظاهر، ففيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة، لكن نريد الفرق في المعنى.

الفرق في المعنى: أن العذاب عقوبة تستدعي سلطة وقهرًا وعزة، فكان الأنسب التعبير بـ (أعذِّب) الدالة على قوة السلطان، أما هذه فكأن الله - سبحانه وتعالى - للتودد مع هؤلاء وبيان فضلهم قال: (فيوفيهم أجورهم) ولم يسند الإيفاء إلى نفسه ليعطيهم شيئًا من الشكر على عملهم؛ لأن هناك فرقًا بين أن تخاطب الإنسان بالتعبير عن فعلك به بضمير التكلم وأن تعبر بضمير الغيبة؛ لأن المواجهة أشد من الغيبة، وتأمل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١-٣]، فقال: (عبس) ولم يقل: (عبست) وقال: (وما يدريك) ولم يقل: (وما أدراه) أو (وما يدريه) فهذه - والله أعلم - الحكمة من أنه جاء التعبير بالعذاب بالفعل مسندًا إلى ضمير المتكلم بخلافه الجزاء، ويدل لهذا الاعتبار قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فجعل فعلهم إحسانًا يشكرون عليه ويحسن إليهم مع أن الإحسان كله من الله، فإن التوفيق للعمل الصالح من إحسان الله إلى العبد، لكن هذا من كمال رحمة الله - عزَّ وجلَّ - وثوابه وجزائه، قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢]، فصار في تغيير الأسلوب في الآيتين فائدتان: لفظية ومعنوية، اللفظية: هو الالتفات الذي يوجب الانتباه، والمعنوية: هو إظهار السلطة والعظمة والعزة في باب التعذيب، وإظهار الفضل والإحسان للعاملين في باب المثوبة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

١ - أن الله - عزَّ وجلَّ - تكلم في القرآن فقال: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، إذ كانت التلاوة لله حقيقة ونقلها جبريل إلى الرسول ﷺ، ويحتمل أن تكون التلاوة لجبريل لكن لما كان جبريل رسولًا لله نسب فعله إلى الله فهو كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٨]، ومعلوم أن الذي يقرؤه جبريل.

٢ - أن القرآن الكريم آية بل آيات كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، آيات عظيمة، فآياته كثيرة كل آية فيها عدة آيات، ولكن لا يفهم هذه الآيات إلَّا من فتح الله له قلبه بالإيمان والعمل، واعتقد أن هذا القرآن كلام الله وأن فيه آيات بينات، أما الذي تمر عليه - مثل هذه الجملة من الآيات - مرَّ الكرام، ولا يتحرك بها قلبه، ولا يتأمل هذه الآيات؛ فإنه لا ينتفع بما في القرآن من الآيات، لابد أن تؤمن بأن فيه آيات وأن تحاول استخراج هذه الآيات بالتدبر، والإنسان إذا تدبر القرآن وجد فيه آيات عظيمة لا يحصيها البشر.

٣ - أن القرآن ذِكْرٌ، لكن هل هو ذكر يتقرب إلى الله به أو هو ذكر يتذكر به الإنسان؟ ذكرنا أن

المعنى شامل لهذا وهذا، فهو ذكر يُقرِّبُ إلى الله؛ لأن من تلاه فله بكل حرف عشر حسنات، وهو ذكر يتذكر به الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، قيل: هو ذكر رَفَعَ الله به شأن الذين تمسكوا به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]، أي: شأنك أعلوناه، وعلى هذا فيكون للذكر ثلاثة معان:

أ ـ ذكر يتقرب به إلى الله بتلاوته.

ب ـ وذكر يتذكر به الإنسان.

ج ـ وذكر يعني: شرفًا لمن تمسك به.

٤ ـ وصف القرآن العظيم بهذا الوصف العظيم وهو الحكمة والذكر الحكيم، والحكيم هنا بمعنى الحاكم والمُحْكم؛ لأن القرآن حكم بين الناس ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، أي: إلى كتابه، فهو حَكَم، وهو أيضًا محكم متقن ليس فيه اختلاف، ولا اضطراب ولا تناقض.

٥ ـ أنه لا يوجد حُكمٌ دلَّ عليه القرآن إلَّا وهو في موضعه اللائق به، من أين يؤخذ؟ من الحكيم؛ لأن الحكيم هو الذي يضع الشيء في مواضعه، فكل حُكم حَكم به القرآن فإنه في موضعه، لا يقول العاقل: ليته لم يحكم به، أبدًا سواء كان ثبوتيًّا أو سلبيًّا.

٦ ـ فضيلة الرسول - عليه الصلاة والسلام - في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، فخصه ﷺ بالتلاوة عليه؛ لأنه ﷺ أشرف من يتلقَّى القرآن، وأقوم الناس عملًا به، فكأنه هو المخصوص بالتلاوة عليه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩ - ٦١]

التفسير

لقد مرَّ علينا أن هذه الآيات نزلت حين قدم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ وكانوا نصارى،

وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة؛ لأن تلك السنة كثر فيها الوافدون إلى رسول الله ﷺ، ولهذا تسمى سنة الوفود، وهذا أحد الأسباب التي منعت النبي ﷺ أن يحج في العام التاسع مع أن مكة قد فتحت.

قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، يعني: شأنه ـ أي: شأن عيسى ـ عند الله كشأن آدم لا يختلف عنه، فكما أننا متفقون على أن آدم خلقه الله - عزَّ وجلَّ - من غير أب ولا أم ـ والنصارى يؤمنون بهذا ـ فما بال النصارى يقولون: كيف خلق الله عيسى بلا أب ما هو إلَّا ابنه، نعوذ بالله.. فقالوا: إنه ابن الله جزء منه، ولم يقولوا: إن آدم ابن الله مع أنه لو كان أحد يدعي البنوة في أحد من البشر لكان الأحق بها آدم؛ لأنه ليس له أم ولا أب.. أما عيسى فله أم، والأم أحد الوالدين، فإذا كنا نقول: لا يمكن أن يوجد أحد من أب بلا أم، أو من أم بلا أب فلنقل: ولا أحد يوجد بدون أم ولا أب، فأنتم أيها النصارى أقررتم بأن آدم ليس ابنًا لله فيلزمكم أن تقروا بأن عيسى ليس ابنًا لله؛ لأن مثل عيسى كمثل آدم. وقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، خلقه يعني: ابتدأ خلقه من تراب، وضمير المفعول في خلقه يعود على آدم؛ لأنه هو المخلوق من التراب، خلقه أي: خلق آدم من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

نحن قلنا: ابتدأ خلقه ثم قال: كن، والأمر هذا لتمام الخلق، وإنما قلنا ذلك لئلا يقول قائل: كيف تكون كلمة (كن) بعد الخلق؟ لأن الترتيب العقلي يقتضي أن تكون كلمة (كن) قبل الخلق، كن فكان؟ فنقول: إن معنى خلقه أي: ابتدأ خلقه من تراب ثم قال له: كن بشرًا فكان بشرًا، وهل هذا القول (كن) قول قدري أو شرعي؟ قول قدري، والقول القدري لا يتخلف عنه المقول؛ لأنه أمرٌ حتمي بخلاف القول الشرعي، فإن من الناس من يستكبر عنه، يقول الله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] فيقول: لا، لا أقيم الصلاة.

أما القول الكوني فإنه لا مرد له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولم يقل: فكان، على حكاية الحال يعني لمَّا قال: كن فعلًا شرع بالكينونة حتى تمت.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ في هذه الآية بيان إقامة الحجة بمثل ما يحتج به الخصم؛ لأنه أقام الحجة على النصارى بمثل ما احتجوا به، فقال: إذا قلتم: إن عيسى ابن الله؛ لأنه خُلِقَ بلا أب، فقولوا: إن آدم ابن الله، وإلَّا فأنتم متناقضون.

٢ ـ بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - حيث خلق آدم من غير أم ولا أب، وخلق عيسى من أم بلا أب، وهناك أيضًا صنفان آخران: من خلق من أب بلا أم وهي حواء، ومن خلق من أب وأم وهم سائر البشر.

٣ ـ إثبات القياس، من أين يؤخذ؟ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، وكل مثل مضروب في القرآن فإنه دليل

على ثبوت القياس؛ لأنه إلحاق المورد بالمضروب، يعني أنك ألحقت الممثل بالممثل به.

٤ - إثبات القول للرب عزَّ وجل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ﴾.

٥ - أن قول الله بصوت مسموع وبحروف مرتبة؛ لقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ كُن﴾، فيُسمَع هذا القول بحرف مرتب.

٦ - إثبات صفة الخلق لله (خلقه) والخلق صفة ذاتية أو فعلية؟ من الصفات الفعلية، لكن قد مرَّ علينا أن جنس الصفات الفعلية ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فعَّالًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، الحق: خبر المبتدأ المحذوف، والتقدير (ذلك الحق) أي: هذا الذي قصَّ عليك هو الحق، وعلى هذا تكون شبه الجملة وهي ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تكون في موضع نصب على الحال من الحق، ويحتمل على بُعدٍ أن يكون ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ و ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبره.

وفائدة هذا التركيب على هذا الإعراب: أنك لا تطلب الحق من غير الله، فكأنه يقول: مصدر الحق من الله فلا تطلبه من غيره، الحق يوصف به الحكم، ويوصف به الخبر، فإن وصف به الحكم صار معناه العدل، وإن وصف به الخبر صار معناه الصدق، والصدق والعدل، وإن وصف به الخبر صار معناه الصدق، والصدق والعدل كلاهما ثابت، ولهذا وُصِفَا بالحق، وأصل الحق من حقَّ الشيء إذا ثبت كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣]، حَقَّتْ: يعني: ثبتت، إذن: في إعرابها وجهان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله تعالى لا يصدر منه إلَّا الحق ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤].

٢ - فضيلة رسول الله ﷺ بإضافة الربوبية إليه وذلك؛ لأن الربوبية هذه خاصة، والربوبية الخاصة تفيد معنى أخص من الربوبية العامة.

٣ - النهي عن الشك فيما أخبر الله به؛ لقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

٤ - أن الممترين كثيرون؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وإن كان يحتمل أن يراد به الجنس فيصدق بواحد، لك الظاهر الأول، ولا شك أن الممترين من بني آدم كثيرون؛ لأن ذرية بني آدم منهم تسعمائة وتسع وتسعون كلهم من أهل النار.

٥ ـ جواز التعريض، أو جواز المخاطبة بالتعريض؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، لا يعني أن الرسول يمكن أن يكون منهم، بل هو تعريض بهؤلاء وأنهم ذوو خلق سيئ، فلا تكن منهم، وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا المستقبل.

قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]

التفسير

﴿حَاجَّكَ﴾ أي: جادلك، وسُمِّيَت المجادلة محاجة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته من أجل أن يخصم الآخر ويحجه، ومنه الحديث: «تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى»(١)، أي: طلب كل واحد منهما أن يَحُجَّ الآخر، وأيهما الذي حجَّ؟ آدم، حاجك إذن بمعنى جادلك، وسميت المجادلة محاجة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يدلي بحجته ليغلب الآخر.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾، (مَنْ) هذه شرطية، وجواب الشرط ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾، الضمير يعود على عيسى والمراد بالمحاجة في عيسى ليس في ذاته؛ لأن عيسى معلوم أنه بشر لكن في شأنه وقضيته.

وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ مَنْ الذي يمكن أن يحاجَّ النبي ﷺ في عيسى؟ هم النصارى، وهذه الآية وما قبلها كلها نزلت في وفد نجران من النصارى.

قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: يعني: بعد أن علمت قضيته وشأنه وتيقنت، فالذي يحاجك فيه ادعه للمباهلة.

وفي قوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، أتى بـ(من) الدالة على أن النبي ﷺ أمر بالمباهلة بعد أن تروى من العلم؛ لأن ﴿مِن بَعْدِ﴾ تدل على أن هناك مهلة بين العلم الذي جاءه وبين المحاجة التي وقعت، بخلاف لو قال: (فمن حاجك فيه بعد ما جاءك)، فإنها تفيد البعدية لكن لا تدل على التراخي والمباعدة، ومعلوم أن الإنسان كلما تمعن في النظر فيما علم ازداد به علمًا ويقينًا.

وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، عن أي طريق؟ عن طريق الله - عزَّ وجلَّ -، فإن الله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦١٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٥٢).

تعالى أوحى إلى نبيه محمد ﷺ في شأن عيسى من العلم ما لم يكن عند غيره، فقال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾، قلنا: إن (قل) جواب الشرط.

(وتعالوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل.

وفيه إشكال؛ لأن (تعالوا) جمع و (من حاجك) مفرد فكيف صحَّ أن يكون الجمع عائدًا على مفرد؟

الجواب: أن الأسماء الموصولة وأسماء الشرط المشتركة التي تصلح للمفرد وغيره يجوز في العائد إليها أن يعود إليها باعتبار اللفظ، وأن يعود إليها باعتبار المعنى، فإن عاد إليها باعتبار اللفظ صار مفردًا، وباعتبار المعنى صار جمعًا، ولا فرق بين أن يكون هذا الجائز في كلام واحد أو في كلامين، قال تعالى، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١].

قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾، كيف قال: ندع، ولم يقل: أدع؟ نعم لم يقل ذلك؛ لأنهم إذا جاءوا معه صاروا جماعة.

قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾. هذه الآية كما ترون بصيغة الجمع ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ والرسول واحد - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ هم جماعة لا بأس ﴿وَنِسَآءَنَا﴾، الرسول واحد ولم يقل: نسائي ﴿وَنِسَآءَكُمْ﴾ جماعة واضح.

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ الرسول واحد وهم عدة أنفس؟

اختلف المفسرون في ذلك، فقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾، المراد بأبنائنا الحسن والحسين، وقوله: ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾، المراد بنسائنا فاطمة بنت الرسول ﷺ، وقوله: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ المراد بالأنفس علي بن أبي طالب، فيكون العدد أربعة: ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ الحسن والحسين، ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فاطمة، ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ علي بن أبي طالب، أما هؤلاء النفر الوافدون فليس معهم نساء وليس معهم أولاد، كلهم رجال بالغون عاقلون، إما أربعة عشر أو اثنان، المهم أنهم رجال ليس معهم أحد.

وقال بعض أهل العلم: المراد: ندع نحن المسلمين أبناءنا، يعني: أبناء المسلمين، يعني: ننتخب طائفة منا تأتي هي وأبناؤها ونساؤها، وأنتم كذلك تنتخبون جماعة يأتون بأبنائهم ونسائهم وأنفسهم نجتمع ونبتهل.

وهذا القول لا شك أنه موافق تمامًا لظاهر الآية؛ لأن الآية بصيغة الجمع، والعادة جرت بأن التباهل وكذلك التفاخر وغيره يكون بين جماعات.

وقد ذهب إلى هذا «محمد رشيد رضا» في «تفسيره» وهو لا شك تفسير مطابق لظاهر الآية

تمامًا، لكن أكثر المفسرين يختارون القول الأول أن المراد بأبنائنا الحسن والحسين، ونسائنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب؛ لحديث ورد في ذلك، والمسألة لا توافق ظاهر الآية، يعني: هذا القول لا يوافق ظاهر الآية، أولًا: أن أبناء جمع ونساء جمع، وإذا قلنا: الحسن والحسين صار اثنين، ابنان لجمع أو لواحد؟ لواحد، أيضًا النساء لم يرد في اللغة العربية أن المراد بالنساء: البنات، المراد بالنساء في اللغة العربية الزوجات، وأيضًا أنفسنا كيف يعبر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن علي بن أبي طالب بنفسه ولا يعبر عن الحسن والحسين بنفسه، أيهما أقرب؟ الحسن والحسين حتى إن الحسن سماه الرسول ابنه فقال: «إِنَّ ابْنِيَ هَذَا سَيِّدٌ»[1] ولهذا ظاهر الآية لا يطابق هذا التفسير، وقد زعم محمد رشيد رضا أن تفسيرها بالأربعة من تفسير الرافضة، وقال: إن الآية لا تنطبق عليهم، لكن الحديث الوارد في ذلك يدل على أن لها أصلًا، ولا شك أن آل البيت يدخل فيهم هؤلاء الأربعة، لكن انطباقه على الآية في النفس منه شيء.

على كل حال المسألة انتهت، لكن ما المراد بالأنفس والأبناء والنساء؟ المراد أنهم يريدون أن يجمعوا جماعة معهم أبناؤهم ونساؤهم وأنفسهم، وهذا أعز ما يكون عند الإنسان في الدنيا، هذا أعز ما يكون، نفسه، أبناؤه، زوجاته يحضرون، ويحضر الخصم أيضًا نفسه وأبناؤه ونساؤه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ إثبات أن ما جاء به الرسول ﷺ حق لأن الله أمره أن يلتعن مع هؤلاء.

٢ ـ أنه لا تجوز المباهلة إلَّا بعلم يقيني، أما إذا كان الإنسان شاكًّا فلا يجوز له؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

٣ ـ جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم؛ لقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾ [آل عمران:٦٤].

٤ ـ أن من آداب الالتعان إحضار النساء والأولاد؛ لأنه أشد خوفًا للنساء في المباهلة.

٥ ـ جواز الدعاء بالله على من خالف الحق، لكن بالوصف لا بالشخص؛ لأن الكاذبين وصف، أما الشخص فلا يجوز الدعاء عليه حتى لو كان كافرًا؛ لأن النبي ﷺ لما دعا على أبي جهل وغيره من كبار قريش نهاه الله عن ذلك.

٦ ـ جواز المباهلة لكن اشترط العلماء لجواز المباهلة شرطين:

الشرط الأول: العلم.

والثاني: أن تكون في أمر هام، أما الأمور التي ليست بهامة فلا ينبغي للإنسان أن يعرّض نفسه

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، والترمذي (٣٧٧٣)، والنسائي (١٤١٠)، وأبو داود (٤٦٦٢).

للخطر.

٧- هل يستفاد من الآية الكريمة جواز انغمار الشخص في العدو في باب المقاتلة؟؛ لأن هذا الإنسان الذي علم أن الحق معه وجاز أن يلتعن فيما قد يكون سببًا لهلاكه، فلما كان على حق وأجزنا له أن يدخل في هذا الأمر لأنه يخشى أن يكون كاذبًا فتنطبق عليه اللعنة، ربما يؤخذ لكن مأخذه بعيد.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: المؤكد الأول: (إنَّ)، لأن إنَّ للتوكيد، والمؤكد الثاني: (اللام)، والمؤكد الثالث: (هو)؛ لأن هو ضمير فصل، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الحصر.

الفائدة الثانية: التوكيد.

الفائدة الثالثة: الفرق بين الصفة والخبر.

يتضح ذلك بالمثال، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) هنا (هو) ضميرُ فصل أفادت الفوائد الثلاثة، أفادت الحصر، حصر الفضل في زيد، وأفادت التوكيد؛ لأن قولك: زيد الفاضل أقل من قولك: زيد هو الفاضل في توكيد الأفضلية، وأفادت الفرق بين الصفة والخبر لأنك لو قلت: (زيد الفاضل) تَشَوَّفَ المخاطب إلى خبر، وإذا قلت: زيد هو الفاضل علم أن كلمة الفاضل هي الخبر وهنا لو كانت: (هذا القصص الحق) لاستقام الكلام ولكن تفوت هذه المؤكدات الثلاثة.

وقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه ما ذكره الله في شأن عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -، وتعرفون أن الله - تعالى - تحدث عن عيسى ابن مريم في هذه الآيات حديثًا مسهبًا طويلًا عنه وعنه أمه.

وقوله: ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، القصص: مصدر قصَّ يقصُّ قصًّا وقصصًا، ولكنه هنا يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الفعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول أي: إن هذا لهو المقصوص الحق، وسواء قلنا بهذا أو بهذا فالمؤدي واحد، فإن هذا القصص الحق، والحق هنا صفة للقصص، والحق

إن قيل في مقابلة الحكم فهو بمعنى العدل، وإن قيل في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ هذه الجملة أيضًا كما نرى فيها حصر وفيها توكيد، أما الحصر فطريقه النفي والإثبات، النفي في قوله: (ما) والإثبات في قوله: ﴿إِلَّا﴾ وأما التوكيد ففي قوله: ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لأن (من) حرف جر زائد من حيث الإعراب لكنه يزيد المعنى، ماذا يزيد المعنى؟

يزيد المعنى توكيدًا، ولهذا نقول: إن الحروف الزائدة في القرآن الكريم هي زائدة، زائدة من حيث الإعراب، زائدة من حيث المعنى، أي: أنها تفيد معنى زائدًا على ما لو لم تكن موجودة.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾، إله بمعنى: مألوه، والمألوه هو المعبود محبةً وتعظيمًا، ولا يصدق هذا حقًّا إِلَّا على الله - عزَّ وجلَّ -، وكلمة (إله) هنا على وزن فِعَال ولكنها بمعنى مفعول، والكلمة هذه - يعني إله بمعنى مألوه أو فعال بمعنى مفعول - كثيرة في اللغة العربية؛ كالغراس والبناء والفراش والوطاء وما أشبه ذلك، غراس بمعنى: مغروس، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وإله بمعنى: مألوه، فما معنى المألوه؟ قلنا: هو المعبود محبة وتعظيمًا هذا مألوه.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾، (إلا) هذه أداة استثناء، والجملة التي قبلها فيها شيء محذوف تقديره: وما من إلهٍ حقٍ إِلَّا الله، وعلى هذا فنعرب كلمة (الله) بدلًا من الخبر المحذوف الذي تقديره (وما من إله حق إِلَّا الله) إِلَّا الله يعني: خالق السموات والأرض - عزَّ وجلَّ -، فعيسى ليس بإله، وأمه ليست بإله، وجبريل ليس بإله، وميكائيل ليس بإله، ولا أحد يستحق هذا الوصف إِلَّا خالق السموات والأرض - عزَّ وجلَّ -، ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ الحكيم مشتقة من الحكم والإحكام، وكل عزيز إذا اقترن في عزته الحكمة والحكم كَمُلَتْ عزته، وذلك لأن العزيز إذا غلب ولم يكن له حكمة أدته غلبته إلى الطيش وعدم ضبط النفس، فإذا اجتمعت العزة والحكمة كَمُل الموصوف بهما. إذن أقول: الحكيم من الحكم والإحكام، فهو - سبحانه وتعالى - الحاكم ولا حاكم غيره، وهو المحكم أي: المتقن لما حكم به سواء كان الحكم كونيًا أم شرعيًا، والحكمة أو الإحكام الذي بمعنى الإتقان هو: وضع الشيء في موضعه اللائق به بحيث لا يقال: إن هذا غير لائق أو هذا غير موافق، بل يكون موافقًا مطابقًا لما تقتضيه المصلحة، إذن الحكيم مشتق من الحكم والإحكام.

ثم نقول: الحكم نوعان: حكم كوني، وحكم شرعي.

فالحكم الكوني: ما قضى به الله قدرًا.

والحكم الشرعي: ما قضى به شرعًا.

والفرق بينهما ظاهر؛ الحكم الشرعي يتعلق فيما يحبه الله - عزَّ وجلَّ - فعلًا أو تركًا، فإن نهى عن شيء فهو يجب تركه، وإن أمر بشيء فهو يجب فعله، ويمكن أن يتخلف الحكم الذي حكم الله به، هذا الحكم الشرعي.

أما الحكم الكوني فيتعلق فيما يحبه وما لا يحبه، ولا يمكن أن يتخلف، لابد أن يكون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ تأكيد أن ما أخبر الله به عن عيسى ابن مريم هو الحق، ويتفرع من هذه القاعدة أن كل ما خالفه مما تكلمت به النصارى في شأن عيسى فهو كذب باطل لا يوافق الواقع.

٢ ـ أن من بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا للواقع أو موافقًا لمقتضى الحال، وجه ذلك أن هذه الجملة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، أكدت بثلاثة مؤكدات؛ لأن المقام يقتضي هذا، إذ إن دعاية النصارى قوية لا يبطلها إلَّا كلام مؤكد، إما باللفظ وإما بالحال، يعني: إما بالمقال وإما بالحال، وهكذا ينبغي لكل إنسان أن يتكلم بكلام تقتضيه الحال، فإن كانت الحال تقتضي أن يكون الكلام مؤكدًا فإن مقتضى البلاغة أن يؤكد.

٣ ـ أن القصص قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا، القصص من حيث هو، بِغَضِّ النظر عن القاص، قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا كذبًا، ويؤخذ هذا من وصف القصص بالحق؛ لأن الأصل في الصفة أن تكون لِما عدا الموصوف، هذا هو الأصل، ولهذا لو جاءت صفة غير مخرجة لما سوى الموصوف يسمونها صفة كاشفة لا مانعة.

٤ ـ أنه لا إله في الوجود إِلَّا الله، ولكن يراد لا حق، ويتعين أن يكون ذلك هو المراد؛ لأن هناك آلهة باطلة موجودة تعبد من دون الله وتسمى آلهة، وينكر حصر الألهة بواحد، قالت قريش من مخاطبتها للنبي - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٤، ٥]، الله أكبر، العُجاب أن تكون الآلهة إلهًا واحدًا أو تكون آلهة متعددة؟!

٥ ـ أن في سلامة العقيدة الراحة التامة؛ لأنك إذا سلمت عقيدتك وآمنت بأنه ما من إله إِلَّا الله، فإنك لن تتجه إلى من سوى الله، ولا شك أن هذا راحة، انحصار الهدف والمقصود من أكبر أسباب راحة الإنسان، وإذا تعددت الأهداف والمقاصد تبلبل الإنسان، ولهذا يذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (من بورك له في شيء فليلزمه)، أي شيء يبارك لك فيه، وترى أنك مطمئن إليه سواء كان سيارة أم بيتًا أم زوجةً أم صاحبًا فالزمه، فإنه خيرٌ مِنْ أن تنتقل إلى غيره، بعض الناس يقول: أقرأ اليوم زاد المستقنع، وغدًا المنتهى، وبعده الإقناع، وبعده المهذب، وبعده المدونة لمالك، كل يوم له كتاب، فهذا يفوت عليه الوقت ولا يستفيد شيئًا لماذا؟ لأن الهدف لم يتحدد، وهكذا هؤلاء المشركون أيضًا، هذا يعبد اللات، فإذا لم تنفع راح للعزى، وإذا لم تنفع لمناة،

وإذا لم ينفع عجن عبيطًا من التمر وجعله إلهًا، وإذا لم تنفع راح للشمس أو القمر.

وعلى كل حال إذا كانت العقيدة سليمة بألَّا يتجه الإنسان إلَّا إلى الله، ولا يعبد إلَّا الله؛ فإنه يجد الراحة التامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي هذا ردّ على النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ لأنه قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والعجيب أنه من سفه النصارى وضلالهم أنهم يقولون: الآلهة ثلاثة لكنها واحد، كيف ثلاثة وواحد؟ هل يمكن أن يكون الثلاثة واحدًا؟ إذا جعلت الثلاثة واحدًا صار الإله الأول ثُلُثًا، والإله الثاني ثُلُثًا، والإله الثالث ثُلُثًا، أما أن يكون كل واحد مستقلًا ثم نقول: هم واحد، فهذه مكابرة وضلال.

٦ ـ إثبات العزة بل تمام العزة لله؛ لقوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، و (ال) هنا تفيد الاستغراق، أي: جميع أنواع العزة ثابتة لله - سبحانه وتعالى -، وفيه إثبات الحكمة لله في قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وإثبات الحكم أيضًا، فيتفرع على هذا أنه لا حاكم إلَّا الله، الحكومة السلطانية القدرية والحكومة الشرعية هي لله وحده، فمن سيطر على الخلق بالحكم السلطاني ولم يراقب الرب فقد شارك الله أو فقد جعل نفسه شريكًا مع الله في هذا الحكم، ومن شَرَّع للناس قوانين مخالفة لشرعه فقد جعل نفسه شريكًا مع الله، واتخذ لنفسه منصبًا لا يستحقه؛ لأن الذي يشرع ويحكم هو الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ﴾، لا سواه، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ويتفرع على هذا أيضًا أن واجبنا نحو أحكام الله الكونية والشرعية التسليم والرضا والقناعة وألَّا نطلب سواها؛ لأننا نعلم أنها مبنية على الحِكمة، ولهذا كان السلف الصالح ﷺ بل كل مؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا لم يكن لهم الخيرة من أمرهم، حتى إنهم يجيبون إذا سُئلوا عن الحكمة بقال الله وقال رسوله، عائشة ﵂ لما سألتها المرأة: مَا بَال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنُؤمر بقضاء الصوم ولا نُؤمر بقضاء الصلاة[1]، والمؤمن حقًا، والعابد حقًّا هو الذي يقتنع بها لا يعرف حكمته كما يقتنع بها يعرف حكمته، هذا هو المؤمن حقًّا، أما الذي لا يقتنع بحكم الله إلَّا إذا عرف حكمته فهو في الحقيقة ليس عابدًا لله على وجه الكمال، بل هو عابد لهواه، إن تبينت له الحكمة اقتنع، وإن لم تتبين لم يقتنع، ولهذا نرى أن في إيجاب رمي الجمرات ـ وهي الحصى ـ في مكان معين نرى أن فيها مع إقامة ذكر الله - عزَّ وجلَّ - الذي نصَّ عليه الرسول ﷺ تمام العبودية وكمالها؛ لأن كون الإنسان يحمل حصى يرميها في مكان معين تعبدًا لله هو من كمال العبودية، أما كون الإنسان ـ مثلًا ـ يصلي أو يتجنب الزنى خوفًا من الله، ورجاءً لثوابه في الصلاة فهذا واضح الحكمة فيها، لكن كونه يرمي حجرات ـ حصيات ـ في مكان معين قد لا تتضح الحكمة فيها لولا أن الرسول ﷺ بيّن أنها لإقامة ذكر الله وفيها تمام العبودية؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، ومسلم (٣٣٥).

فالمهم أنك متى آمنت أن الله له الحكمة في حكمه الكوني والشرعي، ازددت قناعة وحكمة بما حكم به.

أما الحكم الكوني فسترضى به أو سينفذ عليك سواء رضيت أو لم ترضَ، لكن الشأن كل الشأن في ا لحكم الشرعي الذي هو باختيارك، أما الكوني فليس باختيارك، سيكون عليك مهما كان الأمر.

قال الله تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٦٣]

التفسير

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، الضمير يعود على هؤلاء النصارى الذين طلب منهم الرسول ﷺ المباهلة يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وسبق أنهم ابتعدوا عن المباهلة؛ لأنهم يعلمون أنهم لو باهلوا لأخذهم العذاب؛ لأن الرسول ﷺ حق وهم على باطل، يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾، يعني: عن المباهلة وعن اتباعك يا محمد فإنما هم مفسدون، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، ولم يقل: عليم بهم، بل أظهر في موضع الإضمار، والإظهار في مواضع الإضمار له فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل أو انطباق الوصف في هذا المظهر على من يعود عليه، يعني: هذا الوصف الذي جعل في موضع الضمير ينطبق على مرجع الضمير، فكأنه قال: فإن تولوا فإن الله عليم بهم، لكن وَصَفَهُم بالفساد.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنه لو جاء الضمير هنا حسب السياق، فإن الله عليم بهم، لاختص العلم بهم وحدهم، لكن إذا قال: ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾ صار عامًا فيهم وفي غيرهم.

الفائدة الثالثة: أن هذا الفعل الذي حصل من هؤلاء الذين جاء الإظهار في موضع الإضمار عنهم مرفوع من هذا الوصف الذي عبر به في موضع الضمير، يعني: أن فعلهم فساد وهو التولي والإعراض عن دين الله، ففي هذه الآية الكريمة تهديد من تولى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تهديد من تولى عن دين الله - عزَّ وجلَّ -، ووجه ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأن المقصود من ذكر علمه بهم تهديدهم، وأنه لا يخفى عليه حالهم، وسيعاقبهم بما تقتضيه حالهم.

٢ - أن التولي عن دين الله فساد كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي

ﭐلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وهل التولي نفسه فساد أو أنه يسبب الفساد؟ الجواب عن هذا أن نقول: هو فساد وسبب للفساد، ووجه كونه فسادًا أنه إذا تولى عن دين الله حلَّ محله ما سواه، ومعلوم أن دين الله صلاح وما سواه فساد، ولهذا نجد القوانين المحكّمة في عباد الله لا تُصلِحُ الخلق، لا يُصلح الخلق منه إلَّا ما وافق الشرع، وأما ما خالف الشرع، فإنه فساد مهما كان وضع القوانين في الذكاء والفهم لأحوال الناس، فإنهم إذا وضعوا من القوانين ما يخالف شرع الله فإنه فساد بكل حال، إذن نفس التولي فساد، ثم هو أيضًا سبب للفساد؛ لأن الجدب والقحط وضيق الرزق والفتن كلها سببها المعاصي، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، إذن التولي عن دين الله فساد وسبب للفساد.

٣ـ أن كل من تولى عن دين الله فهو مفسد، ولو زعم أنه مصلح؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولهذا قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٥٦]، قال: أي لا تفسدوها بالمعاصي، فكل عاصٍ فهو مفسد شاء أم أبى، وكل مطيع فهو مصلح؛ لأن بضدها تتبين الأشياء، فإذا كان العاصي مفسدًا فالطائع مصلحًا، لكن الطائع في الحقيقة قد يكون صالحًا بنفسه غير مصلح لغيره، وقد يكون صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره، فإذا كان عابدًا داعيًا إلى الله صار صالحًا مصلحًا، وإذا كان عابدًا غير داعٍ لله صار صالحًا غير مصلح لكنه ليس على وجه التمام في صلاحه؛ لأنه من تمام الصلاح أن تدعو إلى الله عزَّ وجل.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

التفسير

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، وقد مرّ بنا قاعدة أن الله تعالى إذا صدر الشيء بـ

﴿قُلْ﴾ الموجه للرسول ﷺ فإنه يقتضي زيادة العناية به؛ لأنه أمر بأن يبلغ هذا الشيء بخصوصه وإِلَّا فإن جميع القرآن مأمور النبي ﷺ أن يقوله.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أهل الكتاب يعني: بهم اليهود والنصارى، وعلى هذا فالمراد بالكتاب الجنس ليكون شاملًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يدعو أهل الكتاب إلى هذه الكلمة السواء؛ لقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهنا سؤال: هل الرسول قال بذلك؟ نعم قالها حتى إنه كان يكتب بها إلى الملوك، لم يكتب إلى كسرى ولكنه كتب إلى غيره: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، لكنه يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، من كمال أدبه، إذا قال: قل يا أهل الكتاب، فكأنه يقول: إنما كتبت لكم هذه الآية بأمر الله، لكن لو قال: يا أهل الكتاب بدون (قل)، لكان فيها احتمال أنه كتبها من عند نفسه، فالمهم أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال ذلك، ودعاهم إلى هذه الكلمة، لكنهم أبوا وامتنعوا لأنهم مصرُّون معاندون إِلَّا من هدى الله، فقد هدى الله من النصارى أقوامًا، ومن اليهود أقوامًا، ومن المشركين أقوامًا.

٢ - التنازل مع الخصم لإلزامه بالحق، كيف ذلك؟ لأنه قال: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ والحق بلا شك مع الرسول ﷺ، لكن من أجل إلزام الخصم، وإقامة الحجة عليه تنازل معه.

٣ - وجوب استعمال العدل في المناظرة حتى مع العدو؛ لأن الرسول أمر بأن يعلن هذا، وإذا كان هذا واجب في مناظرة المسلمين مع الكفار، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأوكد، ولهذا نقول: من الخطأ العظيم أن بعض الناس إذا رأى رأيًا قال عما سواه: خطأ، وخطأ غيره، هو قد يكون خطأ باعتبار اعتقاده لا ننكر عليه؛ لأنه من المعلوم إذا اختار ضده فهو عندهم خطأ ولا ينكر عليه، لكن الإنكار أن يُخطِّئ من قال به، وهذا فرق دقيق، فرق بين أن أعتقد أن هذا القول خطأ ولا آخذ به، وبين أن أخطِّئ من قال به؛ لأني إذا خطَّأته ادعيت العصمة لي والزلل له وهذا خطأ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين، كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل، ومن المعلوم أن الميزان العدل في ذلك كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، لكن المشكل أنه ليس كل أحد يفهم الكتاب والسنة كما ينبغي، يعني: من الناس من يكون ظاهريًا محضًا لا ينظر إلى مقاصد الشريعة ومعانيها العظيمة التي يقصد بها إصلاح الخلق، فتجده مثلًا يريد أن ينفذ شيئًا من المسائل التي لا تعتبر ذات شأن كبير في الإسلام وإن فات بذلك مصلحة عظيمة كبيرة، منها مسائل الخلاف التي يظهر فيها النزاع والمباينة بين المسلمين.

ولهذا أمثلة كثيرة، تجد مثلًا بعض الناس يقول: لابد أن ننفذ هذا الشيء وإن كان سنة، وإن كان يلزم على تنفيذه تَفَرُّق المسلمين وعدوانهم وحدوث البغضاء بينهم، لا ينظر إلى أن الشرع

في الحقيقة مبني على الألفة وائتلاف القلوب، فالشرع حرَّم البيع على بيع المسلم لأن ذلك يؤدي إلى العداوة والبغضاء، وحرَّم النَّجَش، والخطبة على خطبة أخيه، أشياء كثيرة إذا تأملتها وجدت أن هذا الشرع يرمي إلى أن يأتلف الناس، وتتفق القلوب، وتتحد الأهداف.

وأن المسائل الجزئية إذا خِيفَ منها فتنة تترك والحمد لله، أنت هل عليك لوم إذا تركت الأدنى للأعلى؟ ليس عليك لوم بل لك مدح، اللوم أن تفعل الأدنى لتفرط في الأعلى، ولهذا نعلم علم اليقين أن الصحابة أفقه منا بكثير، وأقوم منا في أعمالهم، وأشد منا حبًّا لشريعة الإسلام، ومع ذلك يتوافق بعضهم مع بعض في أمور لا يرونها، ولكن من أجل المصلحة وائتلاف الناس واتفاق القلوب، ولا يخفى عليكم أن رسول الله ﷺ امتنع عن هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم؛ مع أن هذا هو الذي يتمناه، وهو الذي همّ به؛ خوفًا من الفتنة؛ لأن قريشًا كانوا حديثي عهد بكفر[1].

وكان - عليه الصلاة والسلام - يترك ما يحب لمصلحة الناس، كان يصوم في السفر، فلما قيل: إن الناس قد شق عليهم، أفطر بعد العصر ورفع الماء وهو على بعيره على فخذه وشربه والناس ينظرون[2]، لم يقل: لم يبق إلَّا جزء يسير من النهار فأريد أن أكمل.

والصحابة ﭫ في خلافة عثمان، حيث بقي ﭬ سبع أو ثمان سنوات في خلافته يقصر الصلاة في منى وبعد مضي أكثر خلافته رأى ﭬ لسبب من الأسباب أن يُتِمَّ الصلاة فأَتَمَّ، فبلغ ذلك من بلغ من الصحابة فأنكروا عليه قالوا: كيف يقصر الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وأنت في أول خلافتك والآن تتم، حتى إن ابن مسعود ﭬ لما بلغه ذلك استرجع[3]، قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، كأنه أمر كبير، ومع ذلك يصلون خلفه، يصلون أربعًا مع اعتقادهم أنها خلاف السنة، وذلك من أجل اتحاد الكلمة وعدم التفرق، ولما سُئل «ابن مسعود» قيل: كيف تنكر فعل عثمان وتصلي خلفه أربعًا؟، قال: (الخلاف شر).[4] هذا والله هو الفقه، وهذه هي الشريعة.

أما أن يتفرق الناس، ويتخاصمون، ولا يتعاملون بالعدل، ويقول كل واحد للآخر: قولي هو الحق، وقولك الخطأ، وأنت مخطئ، فهذا ليس من طريق الشرع، بل هذا خلاف الشرع، وإن زعم من تمسك به أنه على الشرع، بل هذا خلاف الشرع، وإن زعم من تمسك به أنه على الشرع، وأنه هو الذي يصدع بالحق، وأنه هو المعصوم، فإن دعواه هذه هي التي جعلته مخطئًا، من ادعى العصمة فأول زلل زلَّ به ادعاؤه العصمة، وأنه هو الصواب وغيره على خطأ.

٤ - أن جميع الرسل متفقون على هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١١١٤)، والترمذي (٧١٠)، والنسائي (٢٢٦٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٨٤)، مسلم (٦٩٥).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٦٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

شَيْئًا﴾؛ لأنه ما دام أنها كلمة سواء بيننا وبينهم، معناه أنها عندهم كما هي عندنا، وهذا هو الواقع، أن جميع الرسل متفقون على هذه الكلمة، لا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئًا، بل إن الله تعالى قال في كتابه العظيم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، الخلق الذين خلقوا من آدم، ومن قبل آدم الجن، ما خلقوا إلَّا لهذا الأمر العظيم، لعبادة الله.

لم يخلقوا ليتمتعوا في الدنيا، ولينالوا الشهوات، لا والله ولكن لعبادة الله وحده لا شريك له.

ومع هذا فإنهم إذا عبدوا الله صَلَحَتْ دنياهم، والغريب ـ لكن ابن آدم نظره قاصر ـ أنه إذا صلح الدين صلحت الدنيا، لكن لا يلزم من صلاح الدنيا صلاح الدين.

بل إنها ربما إذا اعتني بها أكثر من الدين فسد الدين، كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «وَالله مَا الفَقْرُ أَخشَى عَلَيْكُم وَإِنَّما أَخشَى عَلَيْكُم أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَما تَنَافَسها مَنْ قَبْلَكُم فَتُهلِكَكُم كَما أَهْلَكَتْهُم»[1].

٥ ـ أن الحكم لله بين الناس، وأنه ليس لأحد أن يُشرِّع من دون الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ أن الحكم بين الناس والعبادة مقترنان؛ لأن الله قرن بينهما، قال تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ لأنك لن تعبد الله إلَّا بشريعته، إذن يلزم أن يكون الـمُشرِّع هو المعبود.

ما دمت تعبد الله فلن تعبده إلَّا بشريعته. فالمشروع هو المعبود الذي يُعْبَد؛ لأنه سنَّ طريقًا أو وضع طريقًا وقال: اسلكوا هذا لتصلوا إليَّ، إذن كل طريق يخالفه فلن يوصل إلى الله، وهذا وجه التلازم بين قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾، فإن من اتخذ ربًّا من دون الله يتبعه في التحليل والتحريم فإنه لم يعبد الله؛ لأن عبادة الله لا تكون إلَّا بموافقة الشرع.

٧ ـ أن من دعا الناس إلى حل أو حرام، لكن بإذن الله وشرعه، فهو على حق، تؤخذ من قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فهو - سبحانه وتعالى - لم يقل: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ فحسب بل قال: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

فائدة:

بعض الناس إذا زلَّ بعض العلماء مثلًا، ووقعوا في أخطاء أخذ هؤلاء يكتبون في المجلات والصحف أخطاءهم بحجة أنهم يبينون الحق. وهذا من الغلط، والحقيقة أن هذا الفعل فيه مضرة من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنها مضرة على الكاتب؛ لأن الذين يثقون بالشخص الآخر يرون أن هذا مخطئ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

ويقل وزنه عندهم.

الوجه الثاني: أن فيه أيضًا إضعافًا للثاني المردود عليه، ومعلوم أنه إذا ضعفت منازل العلماء في الأمة ضاعت الأمة؛ لأن العلماء هم القادة، فإذا ضعفت منازلهم عند العامة ضاعوا وصاروا كالإبل التي ليس لها راعٍ، أو كالغنم التي ليس لها راعٍ.

الوجه الثالث: أن فيها أيضًا إضعافًا للشرع؛ لأنَّ العالم الذي ردَّ أو المردود عليه إذا قال قولًا غير هذه المسألة شكَّ الناس فيه وقالوا: لعل هذه من خطأ فلان، فصار فيه مضرة من ثلاثة وجوه، والواجب على العلماء فيما بينهم إذا أخطأ أحدهم أن يتصلوا به فيناقشوه، فإن كان الصواب معه تبعوه، وإن كان الصواب معهم يتبعهم، ثم لو فرض أنه أصرَّ على ما هو عليه وله وجه ـ لأن المسألة مسألة اجتهاد ـ فلا أرى أن يرد عليه أبدًا؛ لأن الرد والأخذ والمناقشة في مسائل الاجتهاد بين العامة ـ لا شك ـ أنه ضرر، خصوصًا في هذا الوقت حيث يوجد أناس يدعون إلى التقليل من شأن العلماء، والكلام فيهم في المجالس؛ لأنهم فقدوا الزعامة التي يريدونها فصاروا مثل الزعماء الآخرين الذين عارضوا دعوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما فقدوا الزعامة التي يريدونها، ليس لهم سبيل إلى ما يريدون إلَّا أن يُضعِّفوا الجانب الآخر.

وهذا على خطر عظيم جدًا، فأنا أرى أنه إذا وجد خطأ من أي عالم ـ والإنسان غير معصوم، فقد يخطئ ولا يتبين له الخطأ إلَّا بالمناقشة ـ أن يتصل به ويبحث معه، فإن تبين الحق وجب على من تبين له الحق أن يتبعه، وإن لم يتبين وصارت المسألة فيها مساغ للاجتهاد فالواجب عَدم الرَّدِّ عليه.

٨ ـ أنه إذا تولى الخصم بعد إقامة الحُجَة عليه، فإنه يعلن له بالبراءة منه، والتزام الحق؛ لقوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

٩ ـ أنه ينبغي للمسلم أن يعتز بدينه، وأن يعلنه، ويشهره، خلافًا للضعفاء الذين عندهم ضعف في الشخصية، وقلة الدين، الذين يتسترون بدينهم مخافة أن يعيروا به، حتى إن بعضهم كما قيل لي يخجل أن يصلي بين الناس، يقول: أخشى أن أنسب إلى الدين، والعياذ بالله.

وهذا يدل على قلة الإيمان، وعلى ضعف الشخصية، وأن الإنسان ليس عنده رصيد يفتخر به ويعتز به.

١٠ ـ إشهاد الخصم على الحال التي يكون عليها خصمه؛ لقوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. لما في ذلك من الغضاضة عليه، وكسر جبروته، وعدم انقياده للحق.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥]

❁ التفسير ❁

الظاهر أن هذه الآية منفصلة عما قبلها يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ويعني بهم: اليهود والنصارى.

ووصفوا وخَصهم بذلك لأنهم هم الذين بقيت كتبهم قائمة يهتدى بها إلى أن بعث النبي ﷺ.

قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾، الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

فقولُه: ﴿لِمَ ﴾ «ما» اسم استفهام مجرور باللام، و«ما» الاستفهامية إذا جُرَّت بالحرف فإنها تحذف ألفها كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]، ومنه قولهم: [علام تفعل؟]، فهذه أيضًا ليس فيها ألف وتغيرت (عَلَى) من أجلها؛ لأن (عَلَى) تُكتب ألفها ياءً لكنها إذا دخلت على (ما) الاستفهامية كتبت ألفها ألفًا. علامَ مثل (علاّم).

قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾ أي: تخاصمون، وسميت المخاصمة محاجة؛ لأن كل واحد من المتخاصمين يدلي بحجته يريد أن يخصم صاحبه.

وقوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: في شأنه، وفي حاله، وفي دينه. وليس المراد في ذاته؛ لأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بشر متفق عليه، ولا محاجة فيه، لكن المحاجة في شأنه وحاله (لم تحاجون فيه)، وكيفية هذه المحاجة اختلف فيها أهل العلم على قولين:

القول الأول: ادعاؤهم أنهم على ملة إبراهيم.

اليهود يقولون: نحن على ملة إبراهيم، والنصارى يقولون: نحن على ملة إبراهيم.

القول الثاني: أن اليهود يقولون: إن إبراهيم يهودي على دين اليهود، والنصارى يقولون: إن إبراهيم نصراني على دين النصارى.

وهذا الوجه عكس الوجه الذي قبله؛ لأن الوجه الذي قبله يدعون فيه أنهم على دين إبراهيم، وفي هذا الوجه يدَّعون أن إبراهيم على دينهم.

كيف تحاجون فيه، وتقولون إن إبراهيم على ديننا، أو تقولون إنكم على دين إبراهيم؟، كيف المحاجة وكيف يكون إبراهيم على دينكم والتوراة لم تنزل بعد أيها اليهود؟! وكيف يكون إبراهيم على دينكم والإنجيل لم ينزل بعد أيها النصارى؟! أو تقولون إنكم على دينه وأنتم على الإنجيل والإنجيل ليس هو دين إبراهيم، أو على دين التوراة والتوراة ليست هي دين إبراهيم؟.

إبراهيم له شرعة خاصة؛ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فكيف تحاجون في هذا؟! تدعون أن إبراهيم على التوراة أو على الإنجيل، أو تدعون أنكم أيها المتمسكون بالتوراة، أو المتمسكون بالإنجيل على دين إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلَّا من بعده، هذا هوس وسخافة كيف يكون إبراهيم على دين كتاب لم ينزل بعد، التوراة نزلت على موسى، والإنجيل نزل على عيسى، وهما بعد إبراهيم بأزمنة كثيرة، فكيف يكون إبراهيم على هذا؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ والاستفهام - هنا - للتوبيخ يعني: أفلا يكون لكم عقول تعقلون بها ما تقولون؟ وهذا فيه غاية اللوم والتوبيخ.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ المراد بالعقل - هنا - عقل الرشد وليس عقل الإدراك؛ لأن هؤلاء عندهم عقل إدراك، والفرق بينهما أن عقل الإدراك مناط التكليف، وعقل الرشد مناط التصرف، يعني: أن عقل الرشد يكون به حسن التصرف من العاقل، وعقل الإدراك يكون به توجيه التكليف إلى العقل، ولهذا يقال للرجل العاقل الذكي إذا أساء في تصرفه، يقال: هذا مجنون، هذا غير عاقل مع أنه من حيث عقل الإدراك عاقل.

المنفي هنا في حق هؤلاء عقل الرشد، أي: أفلا يكون لكم عقل ترشدون به.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - توبيخ أهل الكتاب بكونهم يحاجون ويجادلون في إبراهيم - عليه الصلاة والسلام.

٢ - علو شأن إبراهيم ومنزلته بين جميع الطوائف.. اليهود والنصارى والمسلمين.

٣ - بيان الاحتجاج بالعقل؛ لقوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، فكيف تحاجون به مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلَّا من بعده وهذا خلاف العقل.

ويتفرع على هذه الفائدة:

٤ - أنه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال، كما لا ينبغي الاعتماد عليه وترك النص.

فالناس في الاستدلال بالعقل طرفان ووسط: طرف غَلا فيه حتى قدَّمه على السمع، وذلك بالنسبة للفقهاء من أصحاب الرأي والقياسيين الذين يعتمدون على الرأي وإن خالف النص، وفي باب العقائد جميع أهل البدع يعتمدون على العقل ويدعون السمع؛ مع أن العقل الذي يعتمدون عليه ليس إلَّا شبهات، وليس براهين ودلالات. لكنهم ينظرون أن العقل يقتضي كذا فيثبتونه، ويقتضي نفي كذا فينفونه، ولا يرجعون في هذا إلى السمع، ومن ذلك الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم.

كل من نفى صفة أثبتها الله لنفسه بشبهة عقلية؛ فإنه داخل فيمن يغالي في الاستدلال بالعقل..

الطرف الثاني: من أنكر الاعتماد على العقل بالكلية، وقال: ليس للعقل مدخل في إثبات أي حكاية أو أي خبر. فأنكروا القياس. وهذا مثل أهل الظاهر، أنكروا نهائيًا، وقالوا: لا يمكن أن

نرجع للعقل في شيء.

ومن الناس من هم وسط: رجعوا إلى العقل فيما لا يخالف الشرع؛ لأن العقل إذا لم يخالف الشرع؟ فإن الله تعالى يحيل عليه في مسائل كثيرة مثل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، ومثل هذه الآية: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، واستدلال الله تعالى على إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها استدلال عقلي حسي، فهو حسي لأنه مُشاهد، وهو عقلي لأنه يُستَدل به على نظيره الذي لا يخالفه تمامًا.

فالحاصل أن هذه الآية اعتبار العقل دليلًا؛ ولكن بشرط ألّا يخالف الشرع، فإن خالف الشرع فالأصح أن نقول: إنه ليس بعقل؛ لأن صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول أبدًا.

لكن إذا ظن أن العقل يخالفه فإما أن تكون لا مخالفة، وإما أن يكون السمع غير ثابت، وإما أن يكون العقل غير صحيح، ملوث بالشبهات والشهوات.

٥ - إثبات أن التوراة والإنجيل مُنَزَّلة من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، فإن قال قائل: كيف تستدلون بهذه الآية على أن التوراة والإنجيل مُنَزَّلٌ من عند الله؟ مع أن الفعل هنا ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، يعني: كيف يستقيم الاستدلال بهذه الآية على أن التوراة والإنجيل نازلة من عند الله مع أن الفعل مبني للمجهول؟

الجواب: أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وفي هذه السورة نفسها، وفي أولها ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣] فالمنزل للتوراة والإنجيل هو الله، وحينئذٍ نقول: بني الفعل للمجهول للعلم بالمنزل وهو الله، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] الخالق هو الله - عزَّ وجلَّ - لكن حُذِفَ للعلم به، ولكن لما كان الضعف صفة نَقْص بُنِيَ الفعل - هنا - للمجهول كما بُنِيَ للمجهول في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] الشر لم يضيفوه إلى الله مباشرة قال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، والرشد أضافوه إلى الله مباشرة ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

٦ - إثبات علو الله؛ لأن النزول لا يكون إلّا من أعلى. ولا شك أن التوراة منزلة من عند الله، لكن الله كتب التوراة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: لا نستطيع أن نثبت بأن التوراة من كلام الله، لكن الله كتبها بلا شك، وهي نازلة من عنده، أما الإنجيل فهو كالقرآن، ليس فيه أن الله تعالى كتبه، وإنما قال أنزله وهو كلام فيكون كلامه.

أما التوراة فقد قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

٧ - النداء على بني إسرائيل بالسَّفَهِ، وأن تصرفاتهم كما هي مخالفة للمنقول فهي مخالفة للمعقول.

ومن أراد أن يعرف سفاهة هؤلاء القوم فليرجع إلى كتاب [إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان] «لابن القيم» رَحِمَهُ اللهُ ، ذكر أشياء عجيبة من سفه الأمة الغضبية، والأمة الضالة.

الأمة الغضبية هم اليهود، والأمة الضالة هم النصارى.

ولِـمَ لَـمْ يكن إلَّا أن الله - تعالى - نعى عليهم عقولهم في هذه الآية، وفي آية: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فاليهود أمة غضبية جاهلية في أبعد ما يكون عن الرشد.

٨ - الإشادة بالعقل، وأن العقل لا يحمل صاحبه إلَّا على السداد والصواب؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والمراد بالعقل - هنا - عقل الرشد يعني: عقل التصرف الذي به الرشد، لا عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف؛ لأن هؤلاء اليهود والنصارى عندهم عقل، العقل الذي هو عقل الإدراك الذي هو مناط التكليف، هذا ثابت عند اليهود والنصارى، ولولا ذلك ما كُلِّفوا.

❁ قال الله تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهاء للتنبيه، وأنتم ضمير منفصل مبتدأ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهاء للتنبيه، و(أولاء) منادى، والتقدير: هأنتم يا هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم.

ونقول في قوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾ ما قلناه في قوله: (لم تحاجون) من حيث الإعراب.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أولًا: التنبيه هنا حسن، وذلك لأنه يخاطب قومًا لَـمَزَهُم بعدم العقل، والذي ليس عنده عقل ينبغي أن يصدر الخطاب له بما يقتضي تنبيهه لأنه غافل، والغافل يتصرف تصرف مجنون فاحتيج إلى أن ينبه، فلذلك أتى بهاء التنبيه.

إذن المشار إليه قريب ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ومع قربهم أتى (بهاء) التنبيه للدلالة على بَلَادَتِهِم، فإنهم مع قربهم وقرب الإشارة إليهم على بَلَادَةٍ عظيمة يحتاجون إلى تنبيه.

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ﴾.

يعني: خاصمتم غيركم فيما لكم به علم، وهو التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى، يعني: أنكم إذا حاججتم في التوراة، والإنجيل وكانت المحاجة في التوراة من اليهود

وفي الإنجيل من النصارى، فهذه محاجة فيما فيه علم لكم، لكن لم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ وهو إبراهيم وما هو عليه من الدين.

وقيل: المراد بقوله: ﴿حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: في دين الإسلام، يعني: حاججتم فيه وخاصمتم، تقولون: ليس على دين إبراهيم، دين إبراهيم دين اليهود والنصارى، وأنتم تعلمون أن الإسلام دين الله الحق؛ لأن اليهود والنصارى يعلمون أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، فصارت المحاجة الآن إما في الكتابين، وإما في دين الإسلام وما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والمحاجة التي يراد بها إثبات الباطل وإبطال الحق مذمومة، حتى وإن كانت عن علم، بل هي إن كانت عن علم أشد ذمًا، فكيف تحاجون فيما ليس لكم به علم وهو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؟

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والله يعلم الأمر على ما هو عليه في شأن إبراهيم، وفي شأن محمد ﷺ، وفي شأن موسى وعيسى، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله تعالى من هذا وغيره.

ولكن نفي العلم عنهم هنا ليس رفعًا للإثم عنهم، ولكنه إيذان بجهلهم وجهالتهم، وأن تصرفهم كتصرف الجاهل.

فهو في الأول قال: لا تعقلون، وفي الثاني قال: لا تعلمون، فجمعوا بين السفه في الرأي والتدبير، وبين الجهل في العلم والتصور، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - التنزل مع الخصم يعني: لو فرضنا أن المحاجة قبلت منكم فيما لكم به علم، فإنها لا تقبل منكم فيما ليس لكم به علم.

٢ - ذم المحاجة بغير علم؛ لقوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا، وكثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة، فيقول مثلًا: لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حرامًا وكان هذا حلالًا؟ لماذا كان هذا واجبًا وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك، فيحاجون فيما ليس لهم به علم.

وكثير من العامة الذين عندهم لَسَن وبيان، - وإن من البيان لسحرًا - يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو، بل مجرد مجادلة ومراء.

٣ - إقرار الإنسان على المحاجة بالعلم، ولكن بشرط أن يكون قصده حسنًا، بحيث يريد من المجادلة الوصول إلى الحق، فيثبت الحق ويبطل الباطل.

أما الذي يجادل - ولو فيما له فيه علم - إذا كان قصده إبطال الحق، وإثبات الباطل فلا شك

أنه مذموم ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

٤ - إثبات العلم لله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٥ - أن المحاج فيما ليس له به علم ليس عنده علم؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بل ليس عنده عقل أيضًا؛ لأن المحاجة فرع من العلم، فمن حاج بغير علم فلا عقل له كما أنه لا علم عنده.

٦ - إثبات علم الله في الحاضر؛ لأن قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع، والأصل في المضارع أنه موضوع للحاضر والمستقبل، وربما يتمحض للماضي، وربما يتمحض للمستقبل، فيتمحض للماضي إذا دخلت عليه (لَمْ)، ويتمحض للمستقبل مع السين وسوف، وإذا خلا فهو صالح للحاضر والمستقبل. فهنا يقول: ﴿يَعۡلَمُ﴾ يعني أن علمه - عزَّ وجلَّ - مستمر دائمًا.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]

❁ التفسير ❁

ثم ذكر الله - عزَّ وجلَّ - حال إبراهيم ذكرًا صادرًا عن علم، لا عن جهل، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

يعني: ليس على ملتكم أيها اليهود، ولا على ملتكم أيها النصارى، وهذا على قول من يقول: إن محاجتهم في إبراهيم أن اليهود يقولون: هو منا، والنصارى يقولون: هو منا، فنفى الله ذلك.

وعلى القول الثاني يعني: ما كان إبراهيم على ما أنتم عليه من التعصب والتمسك بدينكم وإن كان منسوخًا باطلًا بدين الإسلام ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾، فلو أن إبراهيم كان حيًّا لاتبع محمدًا ﷺ، ولم يكن كحالكم يبقى على ما هو عليه في دينه، كما بقيتم أنتم.

فالآية تحتمل الوجهين بناءً على القولين السابقين، أي ما كان إبراهيم يسير سير اليهود فيتعصب، أو يسير سير النصارى فيتعصب، وليس المعنى على القول الثاني، أنه ما كان يهوديًا أي على دين اليهود، أو على دين النصارى، بل ما كان على طريقتهم في التعصب لما هم عليه، وإن تبين أن الحق في خلافه، ولكن كان حنيفًا مسلمًا - عليه الصلاة والسلام -.

﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الشرك؛ لأن الحَنَفَ في الأصل الميل، فهو مائل عن الشرك، مثبت للتوحيد، ولهذا قال: ﴿مُّسْلِمًا﴾ فهو جامع - عليه الصلاة والسلام - بين البراءة من الشرك براءة كاملة، وبين تحقيق الإسلام تحقيقًا كاملًا.

وقوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾ يعني: مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا، فيشمل الإسلام الذي هو عمل بالجوارح والإيمان الذي هو اعتقاد القلوب وأعمال القلوب.

وهذه قاعدة مهمة، وهي أنه إذا أطلق الإسلام وأفرد شمل الإيمان، وإذا أطلق الإيمان وأفرد شمل الإسلام، وإذا اقترنا صار الإسلام في الظاهر، والإيمان في الباطن.

وهذه هي قاعدة أهل السنة والجماعة، وعليها يدل الكتاب والسنة، فقد وصف النبي ﷺ الإيمان لوفد عبد قيس بالإسلام بشهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة[1].

ووصف الله الصلاة بالإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وهو يشمل كل الدين؛ الإيمان وأفعال الجوارح. فمسلمًا هنا: مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا، فيشمل الإيمان والإسلام: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ وإن كانت معطوفة بالواو، ولكنها في المعنى مؤكدة لما سبق.

يعني: ما كان من الذين يشركون بالله، لا شركًا خفيًا ولا شركًا ظاهرًا، بل كان يحارب الشرك، وصبر على الدعوة إلى التوحيد، إلى أن أُلقي في النار - عليه الصلاة والسلام -.

ولكن كان جزاؤه على ذلك أن قيل للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تبرئة إبراهيم من دين اليهود والنصارى، أو من طريق اليهود والنصارى.

فقد ذكرنا أن الآية لها معنيان؛ فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليس يتدين بدين اليهود؛ لأن دين اليهود من بعده، ولا بدين النصاري؛ لأن دين النصارى من بعده.

كذلك أيضًا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليس كالنصارى واليهود يتعصبون لما هم عليه بحق أو بباطل، بل كان حنيفًا مسلمًا، منقادًا لأمر الله، يأتمر بأمر الله، وينتهي بنهي الله.

٢ - أنه ينبغي لمن لم يتصف بوصف أن يُبيِّن براءته منه، ولو كان هذا الوصف في أصله محمودًا، لكن إذا كان لم يتصف به فالواجب أن يُبيِّن؛ لأن الله نفى أن يكون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

مع أن اليهودية بعد بعثة موسى والنصرانية بعد بعثة عيسى كانتا حقًّا قبل أن تُنسخا.

٣ - الثناء على إبراهيم؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾، وجه الثناء عليه: بأنه وصفه بالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه أي نوع من الشرك.

٤ - الإشارة إلى ما اشتهر عند الناس من أن (التخلية قبل التحلية)، يعني: البداءة بالنفي قبل الإثبات؛ لأن النفي تخلية والإثبات تحلية.

فهنا بدأ بالنفي وهو ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ ثم أثبت بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ والظاهر أن هذا الترتيب موافق للطبيعة؛ لأنك تخلي الشيء ما يشينه أولًا، ثم تضيف ما يكون به الكمال ثانيًا، وفي حديث الاستفتاح: «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ الـمَشْرِقِ وَالـمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْـمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ»[1].

فالمباعدة أَلَّا أمارس الذنوب والخطايا، والتنقية أن تزال، أن يزال هذا الأذى، والغسل أن يطهر وينظف.

وأضرب مثلًا يتبين به المعنى: إنسان معه أذى يريد أن يضعه على بساط الصلاة فأقول: لا تضعه، هذه مباعدة. وآخر جاء به فوضعه فقلت: انزعه. هذه تنقية. المرتبة الثالثة: لما نزعه قد يكون في مكانه أثر أقول: اغسله.

٥ - أنه لابد في التوحيد من شيئين: نفي وإثبات، النفي في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ والإثبات في قوله: ﴿مُّسْلِمًا﴾ لأن الحنيف هو المائل عن الشرك وعن كل دين يخالف الإسلام.

والإسلام هو إثبات الاستسلام لله - عزَّ وجلَّ -، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والتوحيد لا يتم إِلَّا بإثباتٍ ونفي.

والتعليل ظاهر جدًّا؛ لأن النفي تعطيل، والإثبات بدون نفي لا يمنع المشاركة، والجمع بينهما إثبات مع نفي المشاركة.

نضرب مثلًا: إذا قلت: ليس هنا أحد قائم، هذا نفي، هذا تعطيل، يعني: صفة القيام الآن معطلة؛ لم يتصف بها أحد.

وإذا قلت: زيد قائم، هذا إثبات أن زيدًا قائم، فأثبت القيام الآن لواحد من الناس.

لكن هل هذه العبارة تمنع أن يكون غير زيد قائمًا؟

الجواب: لا تمنع، قد يكون واحد آخر غير زيد قائمًا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

ولهذا إذا قلت أنا: زيد قائم، فقلت أنت: وعمرو قائم، لا يعتبر قولك هذا ردًا على كلامي. بل إضافة إلى الكلام.

فإذا قلت: لا قائم إلَّا زيد؛ هذا فيه نفي وإثبات، حينئذٍ حصل التوحيد. صار المتفرد بالقيام زيدٌ، فتبين أنه لا توحيد إلَّا بنفي وإثبات.

ولهذا قال الله - سبحانه وتعالى - عن وصف إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ ـ أن الإسلام إذا أطلق أو أفرد دخل فيه الإيمان، ووجهه أن الله وصف إبراهيم بالإسلام، وهو كذلك، فالإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان، والإيمان إذا أفرد دخل فيه الإسلام، وإذا اقترنا افترقا صار الإسلام علانية والإيمان في القلب.. ففي حديث جبريل اجتمعا فافترقا.. ولهذا فسر النبي ﷺ الإسلام بشيء وفسر الإيمان بشيء آخر... وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، اجتمعا فافترقا.. فصار الإيمان الذي ادعوه غير الإسلام الذي أثبته الله لهم قال: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦] اجتمعا فافترقا، الإخراج لم يكن إلَّا للمؤمنين، لوط وأهله إلَّا زوجته، فصار الذين أُخرِجوا هم المؤمنون الخُلَّص.

البيت يشتمل على أهله الذين آمنوا إيمانًا خالصًا، وعلى امرأته التي خانته فهي مسلمة، وليست مؤمنة، فالبيت كله باعتبار الكل مسلم.

ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وأما من زعم أن الإسلام هو الإيمان، واستدل بالآية فقد أبعد النجعة للفرق بين التعبيرين ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: من المسلمين..

قال: من المؤمنين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. فالإسلام الذي هنا في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ يشمل الإيمان؛ لأنه أفرد.

٧ ـ الثناء على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأنه لم يكن فيه صفة من صفات المشركين ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل: لم يكن مشركًا.

فليس فيه صفة من صفات المشركين أبدًا، لا الشرك ولا غيره، وهكذا ينبغي لكل مؤمن ألَّا يتصف بأي صفة من صفات المشركين.

فمثلًا من صفات المشركين كراهتهم للتوحيد، وينكرونه ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥] فمن كره التوحيد وإن لم يكن مشركًا ففيه من صفات المشركين، بل قد يكون كافرًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]

❁ التفسير ❁

هذا حكم بين هؤلاء الخصوم، والخصوم ثلاثة: اليهود، والنصارى، والمسلمون.

من الحكم العدل ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾، قدم هنا ما كان ينبغي أن يكون خبرًا، وجعله هو المبتدأ الذي هو ركن الجملة الذي يسند إليه الخبر، فقال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ولم يقل: إن الذين اتبعوه أولى به؛ لأجل أن يحكم بأن الأولوية لهؤلاء لا لغيرهم ﴿أَوْلَى النَّاسِ﴾ من اليهود، والنصارى، والمشركين، وأصحاب الأوثان، وغيرهم للذين اتبعوه.

فتكون الجملة مؤكدة بمؤكدين بإن واللام.

قال: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

للذين اتبعوه من بني إسرائيل ممن سبق النبي ﷺ، ولا شك أنه تبعه كثير من المؤمنين الذين آمنوا به في حياته، والذين اتبعوا طريقته بعد مماته.

﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ المشار إليه محمد - عليه الصلاة والسلام -، وكفى به فخرًا أن يشير إليه رب العالمين، هذا شرف عظيم لرسول الله ﷺ أن يكون الله يشير إليه بهذه الإشارة المفيدة للقرب، ولم يقل: وذلك النبي، بل قال: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ إشارة إلى قربه لأنه ﷺ أقرب الناس منزلة إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ فيها قراءة النبيء أيضًا... وعلى هذه القراءة النبيء مشتق من النبأ، فهو فعيل بمعنى: فاعل، وبمعنى: مفعول... بمعنى: فاعل، لأنه مُنْبِئ مُخْبِر، وبمعنى: فعيل لأنه مُخْبِر، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ في وصف الرسول ـ: (وهو الصادق المصدوق)[1].. فهو فعيل بمعنى مفعول، وفعيل بمعنى مُفْعِل، وقد جاءت في القرآن، والقرآن حجة، وإذا أردت أن نأتي بحجة من كلام العرب فاسمع إلى قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع بمعنى المُسْمِع.. فهذه سميع بمعنى مُسْمِع في لغة العرب، على أننا في الحقيقة لا نحتاج إلى استشهاد للقرآن؛ لإثبات أن هذا لغة بل القرآن يُستشهَدُ به، ولا يُسْتَشْهَدُ عليه، لكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

من المعلوم أنه كلما زادت البينات ازداد الإنسان طمأنينة.. أما على قراءة النبي بدون همزة ففيها وجهان:

الوجه الأول: أنها مسهلة من النبيء بالهمز يعني: أن الهمزة جعلت ياءً للتسهيل، وهذا موجود في اللغة العربية، «أئمة» يقال فيها في اللغة العربية: أيمة... وعلى هذا الوجه يكون النبي في النبأ.

الوجه الثاني: أنَّ الياء أصلية وليست مسهلة من النبيء، وعلى هذا فيكون مشتقًا من النَّبْوَة.. وهي الشيء المرتفع الناتئ.

يقال: نبا ينبو. يعني: ارتفع. وذلك لارتفاع مرتبة النبي، لأن الرسل ومنهم خاتم الرسل محمد ﷺ أرفع الناس قدرًا عند الله، ولهذا بدأ الله بهم في صدر من أنعم عليهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء:٦٩].. والقول الراجح أنه إذا احتمل اللفظ معنيين بدون تضاد حمل عليهما؛ لأن ذلك أوثق في المعنى.

أما مع التضاد؛ فإنه ينظر للراجح ويحمل عليه. لكن مع إمكان الجمع يجب أن يحمل على المعنيين جميعًا، فإذا قال قائل: هذا استعمال لمشترك في معنييه.

يقول بعض العلماء: إن المشترك لا يمكن أن يحمل على معنييه؛ لأن كل معنى منهما يضاد الآخر، ولكن الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم أنه يجوز أن يحمل على معنييه بشرط عدم التعارض. فإن تعارض وجب طلب المرجح.

قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فهو في محل رفع بل هو مرفوع.. النبي بدل من اسم الإشارة، واسم الإشارة كما نعلم مبني على السكون قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ آمنوا بهذا النبي. والإيمان بالنبي ﷺ يتضمن الإيمان بكل شريعته، وهذا الإيمان أيضًا يستلزم القبول والإذعان. أن يقبل ماجاء به النبي ﷺ وأن يذعن له.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولي كل مؤمن من هؤلاء وغيرهم، كل مؤمن فالله – سبحانه وتعالى – وليه.

كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وهذه الولاية ولاية خاصة تقتضي أن ييسر المؤمن لليسرى، ويجنب العسرى.

وهناك ولاية عامة شاملة لكل أحد. فالله تعالى ولي كل أحد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢]، فجعل الله تعالى مولى لهؤلاء، وهم كفار لكن هذا بالولاية العامة، والولاية العامة هي ولاية التصرف.. التصرف في الكون والتدبير، والولاية الخاصة ولاية العناية بالمولى، وعليه؛ فإن الله – تعالى – يعتني به فييسره لليسرى ويجنبه العسرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في الآية دليل على أن الأولويات تختلف، أي أن الناس يتفاضلون بالأولوية والولاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾ اسم تفضيل، والتفضيل يدل على المفضل، والمفضل عليه، ولا شك أن الولاية درجات.. فأحق الناس بالولاية لإبراهيم من اتبعه، يعني: القوم الذين اتبعوه في عهده؛ لأن القوم الذين اتبعوه في عهده اتبعوه في أصل الدين، وفي فروع الدين، يعني في جليل الدين ودقيقه، ولهذا قدم الذين اتبعوه على النبي والذين آمنوا؛ لأن النبي ﷺ والذين آمنوا لم يتبعوا إبراهيم في فروع الشريعة بل ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] اتبعوه في أصل الدين والاستسلام لله عزَّ وجلَّ، وإلَّا فلا شك أن النبي محمدًا ﷺ أفضل من الذين اتبعوا إبراهيم، بل وأتباع الرسول أفضل من أتباع إبراهيم.

٢ - شرف النبي ﷺ ومن آمن معه، لكونهم أولى الناس بإبراهيم الذي تتنازعه الأمم، كل أمة تقول أنا أولى به.

٣ - الرد على اليهود والنصارى حيث ادعوا أنهم أولى الناس بإبراهيم فكذبهم الله.

٤ - تشريف النبي ﷺ بالإشارة إليه من رب العالمين في قوله: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾.

٥ - إثبات نبوة الرسول ﷺ، وهذا أمر لا شك فيه، وكل من وصف بالنبوة في القرآن فهو رسول. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣]، ثم قال في هؤلاء النبيين: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥]، فكل من وصف بالنبوة في القرآن فإنه رسول بدليل آية النساء: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٦ - إثبات ولاية الله للمؤمنين في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الولاية كما قلنا آنفًا ولاية خاصة تقتضي عناية تامة.

٧ - كل من كان أكمل إيمانًا فولاية الله له أكمل، هذه فائدة أخذناها من قاعدة معروفة عند أهل العلم وهي: (أن الحكم المعلق بوصف يزداد قوة بقوة هذا الوصف فيه) هذه قاعدة مفيدة.. كل حكم معلق بوصف؛ فإن هذا الحكم يزداد قوة بقوة الوصف الذي علق عليه الحكم.

فإذا قلت مثلًا: أنا أحب الصالحين معناه كل من كان أصلح فهو أحب إليَّ؛ لأن المحبة عُلِّقت بالصلاح، فكلما ازداد الصلاح ازدادت المحبة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ علقت الولاية بالإيمان، فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا، كانت ولاية الله له أتم وأخص.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويكمله بقدر استطاعته، من أجل أن ينال ولاية الله؛ لأن كل إنسان عاقل يسعى في الحقيقة إلى أن يكون الله له وليًّا، نقول: الأمر سهل.. حقق الإيمان يكون الله لك وليًّا، وكلما ازداد تحقيقك الإيمان ازدادت ولاية الله

لك، وإلَّا فكلنا يطلب ذلك.. ونسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يجعلنا وإياكم من أوليائه.

كلنا يطلب هذا، لكن فقط حقق الإيمان. من أَحَبَّ في الله، وَأَبْغَض في الله، ووَالَى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك.. هذه من أسباب الولاية أن يكون حبك وبغضك وكراهتك وعدواتك وولايتك لله - عزَّ وجلَّ - لا للدنيا.

٨ - إثبات الأسباب.. وجه ذلك: أن الإيمان جعله الله سببًا لولاية الله، ولا شك أن الأسباب ثابتة، والأسباب شرعية وعقلية وحسية؛ فالأسباب الشرعية: ماجعلها الله تعالى سببًا في القرآن، فمثلًا: الإيمان سبب لدخول الجنة.

هذا سبب شرعي، ودخول الوقت سبب لوجوب الصلاة، هذا سبب شرعي.. والعسل سبب للشفاء، هذا سبب قدري علمنا به من طريق الشرع يعني من طريق الوحي.. كذلك كون الماء سببًا لنبات الأرض سبب حسي. فما شاهدناه بأنفسنا فهو سبب حسي، الأدوية الطبيعية التي تستخرج بالتجارب أسباب حسية.

أما الأسباب العقلية: فهي كثيرة جدًّا، كل شيء يترتب على شيء عقلًا فهو سبب عقلي، والأسباب الشرعية والحسية والعقلية كلها مؤثرة بذاتها، حيث أودع الله فيها التأثير.

وإنما قلت ذلك؛ لأن بعض الناس غالى في التنزيه فقال: إن الأسباب لا تؤثر بذاتها وإنما يكون الأثر عندها لا بها، فقالوا مثلًا: إن الاحتراق بالنار ليس بالنار لكن حصل الاحتراق عند تماس النار بما يقبل الاحتراق فحصل الاحتراق.

أما النار فلا تحرق! لو جعلت النار تحرق، وتقلب الشيء عما كان عليه لأَثْبَتُّ مع الله خالقًا وصرت مشركًا!!.

لكننا نقول: الأسباب مؤثرة. وقد أودع الله فيها هذا التأثير، ولولا أن الله أودع فيها هذا التأثير ما أثرت، ولهذا لما ألقي إبراهيم في النار فقال الله لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] ما أثرت؟

إذن عرفنا الآن أن الأسباب جعلها الله مؤثرة وليست هي التي تخلق، أو خلقت بذاتها، ولكن الله أودع فيها هذه القوة التي يكون بها المسبب، هذا هو المعقول فنحن لا نغالي في إثبات الأسباب فنقول: إن هذا يكون بدون الله، ولا نغالي في التنزيه فنقول: إن الأسباب لا تؤثر وإنما يحصل الأثر عندها لا بها، كلا الأمرين خطأ، والوسط في الغالب هو الحق؛ لأنك تجد كلا الطرفين أخذ بجانب من الحق وترك جانبًا، والوسط يأخذ بالجانبين فيكون وسطًا.

قال الله تعالى:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران:٦٩]

التفسير

﴿وَدَّت﴾ أي: أحبت، والود خالص المحبة.

ومن أسماء الله تعالى (الودود) بمعنى: الواد، والمودود. فهو سبحانه وادٌّ لأوليائه وأصفيائه، وهو أيضًا مودود من أوليائه وأصفيائه، فالوُد إذن خالص المحبة، يعني: أحب هؤلاء أو هذه الطائفة بكل خالص المحبة.

وقوله: ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الطائفة يعني: الجماعة، والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى، ولكن الأغلب هم اليهود؛ لأنهم أكثر ممارسة للعرب من النصارى. فإن اليهود كانوا في المدينة، قدموا من أذرعات، ومن الشام، ينتظرون النبي الذي بشرت به التوراة. قدموا من بلاد الشام؛ لأنهم علموا أن مهاجر هذا النبي المدينة حسب ما في التوراة من البشارات به، فقالوا: نذهب إلى هناك لنكون معه ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.. ﴿لَوْ﴾ مصدرية بمعنى أنْ.

والقاعدة في (لو) أنها إذا أتت بعد ما يفيد الود والمحبة تكون مصدرية ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] أي: ودوا أن تدهن ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة:١٠٩] أي: ودُّوا أن يردوكم، فهي هنا مصدرية. وقد علم أنها تأتي شرطية؛ حرف امتناع لامتناع، مثل: لو جاء زيد لأكرمتك. فهنا امتنع إكرامي إياك لامتناع مجيء زيد.

يقول الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ يعني: ودوا أن يضلوكم، والإضلال: بمعنى الإتاهة عن الحق، يعني: وَدُّوا أن يخرجوكم من الهدى إلى الضلال.

وهذا الضلال الذي أرادوه بالمسلمين يمكن أن يفسر بالآية الثانية التي في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

يقول – عزَّ وجلَّ –: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: بمحاولتهم وودهم هذا لا يضلون إِلَّا أنفسهم، المعروف عند أكثر المفسرين أن المعنى: وما يهلكون إِلَّا أنفسهم، وذلك لأنهم إذا تمنوا

لكم الضلال أتموا على ذلك فصاروا هم كالضالين.

وقيل: بل المعنى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أنهم إذا اشتغلوا بمحاولة إضلالكم اشتغلوا عما فيه هداهم، كما هو الواقع أن الإنسان إذا أراد أن يَرُدَّ الحق، وأن يضل غيره اشتغل بمحاولة إضلال غيره عن محاولة هداية نفسه، فيكون المعنى: وما يضلون إِلَّا أنفسهم؛ لأنهم اشتغلوا بمحاولة إضلالهم إياكم عن طلب هدايتهم؛ لأن العادة أن الإنسان إذا اشتغل بمحاولة إضلال غيره تجده يطرق كل باب، ويسلك كل طريق يحاول به إضلال الغير وينسى نفسه.

وهذا واقع كثيرًا، حتى بين طلبة العلم أحيانًا، يريد الإنسان أن ينتصر لنفسه ولقوله، ولو كان على خطأ، فتجده يحاول أن يلتمس الأعذار والتحريفات والتأويلات وصرف النصوص عن ظاهرها من أجل أن توافق قوله، وينسى أن يكون الواجب عليه إذا عورض أن يطلب الحق، وأن يراجع نفسه، لعل الصواب مع غيره.

كما يقع كثيرًا عندما يختار الإنسان قولًا أو يقول قولًا ثم يُرَاجَع فيه فيتبين له أن الصواب خلاف ما كان يعتقده أولًا.

إذن ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ فيها رأيان:

الرأي الأول: ما يضلون إِلَّا أنفسهم بالإهلاك وكثرة العقاب حيث حاولوا صد الناس عن دين الله.

الرأي الثاني: ما يضلون إِلَّا أنفسهم بانشغالهم بمحاولة إضلالكم عن طلب هداية أنفسهم.

قال بعض المفسرين: وهذا أولى؛ وذلك لأن الوعيد عليهم بما يكون في الآخرة غير مُجد في هذا المقام؛ لأنهم أصلًا لا يؤمنون بمن أنذر بهذا حتى يقال إنهم لا يهلكون إِلَّا أنفسهم.

ولكن الواقع أن هذا غير وارد، يعني بمعنى: أن الله يتكلم عن الأمر الواقع، فالآية محتملة للمعنيين.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: يعني: ما يشعرون أنهم أضاعوا الوقت في محاولة إضلالكم، ونسوا أنفسهم؛ لأن الإنسان في غمرة الغلبة، أو حب الغلبة، وسكرة حب الظهور ينسى، ولا يشعر بالوقت إذا ضاع عليه، فهؤلاء لا يشعرون بأن الوقت ضاع عليهم بانشغالهم بطلب أو بمحاولة إضلالكم، والشعور هو المعنى النفسي الذي يشعر به الإنسان في نفسه توبيخًا وتنديمًا أحيانًا، أو عكس ذلك تفريحًا وتفاعلًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان عداوة أهل الكتاب المسلمين حيث يودون لهم الإضلال، والطائفة من القوم، والغالب أن مشرب بقية القوم مشربها، فإذا كانت هذه الطائفة تود هذا فغيرها كذلك.

٢ - التحذير من أهل الكتاب، وأنهم يحاولون صد المسلمين عن دينهم كالمشركين، وكل من

الطائفتين تودان من المسلمين الضلال، يقول تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩]، وقال تعالى عن المشركين من قريش: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢]، فكل المشركين، وكل الملحدين، وكل من ادعى أنه صاحب كتاب، كلهم يودون من المسلمين أن يكفروا ويضلوا بعد هدايتهم وإيمانهم.

وإذا كان كذلك فيجب علينا الحذر منهم، واعتقاد أنهم أعداء ألداء، ويودون أن يقضوا علينا، وعلى ديننا بين عشية وضحاها.

٣ ـ أن المعتدي يجازى بمثل عدوانه، ويبتلى بمثل ما ابتلى غيره به؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾.

٤ ـ تعزية المسلمين بما يريده بهم هؤلاء من الإضلال.

فكأن الله قال: لا تخافوا منهم فإن الإضلال إنما يعود عليهم، ولكن هذا في حق المؤمنين حقًّا الذين يؤمنون بدينهم تمامًا ويفخرون به، ويعتزون به، دون الذين يجعلون دينهم أقوالًا باللسان، أو حروفًا على الأوراق، وهم في الحقيقة يتبعون غيرهم، ويعظمون غيرهم في نفوسهم، فإن هؤلاء ربما يصابون برجس هؤلاء الكفار الذين يريدون إضلالهم.

٥ ـ أن الإنسان قد يعمى عن الباطل مع ممارسته له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٦ ـ إحاطة علم الله بما في قلوب الخلق؛ لقوله: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ﴾ فإن الوَدَّ محله القلب، ولا يعلم ما في القلوب إِلَّا الله.

٧ ـ أننا نرد على كل شخص يدعي أو يتوهم أن الكفار يريدون الخير بالمسلمين بهذه الآية؛ لأننا نقول له: إنك لا تعلم ما في قلوبهم، واسمع إلى علام الغيوب يقول: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ فأنت لا تعلم، فلا تغتر بمصانعتهم ومخادعتهم ومكرهم.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١]

التفسير

خطاب من الله لأهل الكتاب على سبيل التوبيخ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى وبالأخص اليهود.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، (ما) اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، والاستفهام هنا للتوبيخ.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ آيات الله جمع آية، وهي العلامة الدَّالة على الله عزَّ وجلَّ، وكل آية من آيات الله تدل على صفة من صفاته؛ فالانتقام آية تدل على الغضب.

وبسط الرزق، إذا - لم يكن الإنسان على معصية الله -، آية تدل على الرضا والرحمة، فالآيات تتنوع بحسب متعلقها، فهؤلاء كفروا بآيات الله الشرعية التي نزلت على رسلهم وعلى محمد ﷺ، فاليهود كفروا بآيات الله وهي: التوراة. والنصارى كفروا بآيات الله وهي الإنجيل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، لم يقل: أبناءهم وبناتهم؛ لأن معرفة الإنسان لابنه أقوى من معرفته لبنته لشدة تعلقه به فهو لا يجهل شيئًا منه، فهم يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأن نعته موجود عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنهم كفروا بآيات الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ إذن آيات الله تشمل: التوراة والإنجيل والقرآن، كفروا بهذه الثلاثة كلها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩]، لم يقل: وأنتم تعلمون؛ لأن الشهادة أقوى لكونها تقتضي أن يكون العالم كالمشاهد للشيء بحسه، والمشاهدة بالحس أقوى من المشاهدة بالذهن، أو من العلم بالذهن، فهم يشهدون الآيات ويعلمونها ومع ذلك يكفرون بهذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

وهم في كفرهم مخادعون يلبسون الحق بالباطل، ومعنى لبس الحق بالباطل خلط الحق بالباطل، فهم يأتون بالباطل ويموهونه بحق، ووجه ذلك أنهم لو جاءوا بالباطل صراحًا ما قُبِلَ منهم، لكنهم يأتون به مخلوطًا بحق من أجل أن يكون في ذلك تمويه على من لا يعرف الحقائق.

وهذا من المكر والخداع لكل مبطل يُمَوِّه الحق بالباطل، ومن ذلك أن يأتي بعبارات مجملة تحتمل حقًّا وباطلًا، ولكن هو يريد بها الباطل، ومن سمعها قد يحملها على إرادة الحق، وهذا أيضًا من لبس الحق بالباطل.

قال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

تكتمون الحق: أي تخفونه، وهنا قد يقول قائل: كيف قال: تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق، أليس في هذا تناقض؟

الجواب: لا. ليس في هذا تناقض؛ لأنهم يكتمون الحق الصريح، ويأتون به مخلوطًا مموهًا

بالباطل، وليس قصدهم أيضًا الحق إذا جاءوا بالحق مخلوطًا مع الباطل بل قصدهم الباطل، وهذا الحق الذي جاءوا به كالثوب الذي يخفي العيب.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعلمون الحق، بل وتعلمون حالكم أنكم لابسو الحق بالباطل.

فهم يعلمون الأمرين: يعلمون الحق الصريح، ويعلمون أنهم قد خلطوا الحق بالباطل، ولاسيما اليهود؛ لأن اليهود عصوا الله، وهم يعلمون أنهم عصوه، عصوا الله على بصيرة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله.

٢ - ومن فوائد الآية الأولى: أن هذا التوبيخ واقع موقعه أنهم كفروا بآيات الله وهم يشهدون.

٣ - الحكم الصريح الذي لا يقبل التأويل على أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بالكفر ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ولا يوبخ إلّا على أمر واقع، والكفر بآيات الله كفر بالله، وبه نعلم أنهم وإن زعموا مؤمنين بالله فهم كافرون به كفرًا صريحًا خالصًا.

٤ - أن هؤلاء الكفار كفروا عن علم وشهادة؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

٥ - أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحق بالباطل.

وما أكثر ما يموّهون بالقرآن الكريم على بطلان ما ذهبوا إليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩]، فيقول إن الذين آمنوا: أي المسلمين، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله منهم واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم.

فجعلنا نحن، وأنتم في صف واحد، المؤمن منا بالله واليوم الآخر له الأجر، ولو كنا مخالفين لكم ما كان لنا أجر! ويقولون: عيسى ابن مريم بَشَّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ولم يأت بعد! فالذي جاء اسمه محمد. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩]، فنحن ننتظر أحمد! فهم يلبسون الحق بالباطل ويمكرون، ولكن من أعطاه الله علمًا وفهمًا تبين له أنهم ملبسون، وقد ألف علماء المسلمين - ولله الحمد - في بيان باطلهم ودحض حججهم ما هو كالشمس إضاءةً ونورًا يخفي ضوؤه كل ساطع.

والجواب عن هاتين الشبهتين أن يقال: في الآيات الأولى قيد الله - عزَّ وجلَّ - من له الأجر من هؤلاء الأصناف بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [المائدة: ٦٩] فأنتم ما آمنتم بالله واليوم الآخر بنص هذه الآية: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. أنتم مؤمنون لما كانت رسالة النبي الذي أرسل إليكم قائمةً، أما وقد نسخت، فإذا بقيتم عليها فأنتم كفار.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] إذن فأحمد جاءكم ولا نعلم أن نبيًا جاء

بعد عيسى إلَّا محمد ﷺ.

وعلى هذا فيكون هذا التمويه لا يخفى على الإنسان الذي يعطيه الله - تعالى - علمًا وبصيرة، وقد ألف «شيخ الإسلام» رَحِمَهُ اللهُ كتابًا سماه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» والرد على النصارى من أئمة المسلمين كثير.

٦ - أنه يجب الحذر من أهل الباطل إذا لبسوا الحق بالباطل، وألا نغتر بهم؛ لأنهم يأتون بزخرف القول غرورًا.

ومن هذا ما حصل للمبتدعة من هذه الأمة، فإنك إذا سمعت كلامهم قلت: لا أعدل بذلك شيئًا، هذا هو الحق ولن أتجاوزه، ولكنه كما قيل:

حِجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا   حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورُ

حججهم كلها متهافتة ليس لها ما يقيمها على قدميها فضلًا عن أن تكون مهاجمة، هي لا تدافع عن نفسها فضلًا عن أن تهاجم غيرها، لكن مع ذلك يُموِّهون. فعلى الإنسان أن يحترز من هؤلاء الذين يلبسون الحق بالباطل.

٧ - التوبيخ لمن سلك هذا المسلك، ووجه ذلك: أن تخصيص التوبيخ لأهل الكتاب ليس تخصيصًا للشخص والعين، ولكنه بالجنس والنوع والوصف، فكل من كان على شاكلتهم فإنه يستحق هذا التوبيخ.

٨ - وجوب بيان الحق على من عَلِمَه؛ لقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أما من لم يعلم فعذره ظاهر، ثم اعلم أن بيان الحق يجب عند السؤال عنه إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال.

السؤال بلسان المقال: أن يأتيك شخص ويقول: ما حكم كذا وكذا؟ والسؤال بلسان الحال: أن يقع الناس في معصية يحتاجون إلى أن تُبيِّن لهم، لا تقل: إن الناس لما لم يأتوا إليَّ ويسألوني فأنا لست بملزم.

أنت ملزم لابد أن تبين لهم الحق ولا تكتم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢]

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله تعالى مكرهم بالقول ذكر مكرهم بالحيل الفعلية فقال: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: القرآن، وإن شئت فقل الشريعة كلها، آمنوا به ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوله.

والدليل على أن المراد بوجه النهار أوله قوله: ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾.

وهذه إحدى الطرق التي يعلم بها معنى الكلمات في القرآن الكريم، أن يعلم معنى الكلمة بذكر مقابلها كقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] ثباتٍ يعني: وحدانًا متفرقين.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ الضمير يعود على المؤمنين.

﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون عن دينهم؛ لأنكم أنتم أهل كتاب، فإذا آمنتم أول النهار ثم رجعتم قال الناس: لولا أنهم علموا أن هذا دين باطل لم يرجعوا.

أرأيتم كيف المكر، ادخلوا معهم في أول النهار وصلوا كما يصلون، واحضروا مجالس الذكر، وإن وجد بكاء فابكوا، كونوا معهم تمامًا، فإذا كان في آخر النهار اكفروا، قولوا: كفرنا بهذا الدين؛ لأن الناس إذا فعلتم هكذا قالوا لولا أن هذا الدين باطل ما كفر به هؤلاء بعد إيمانهم؛ لأن الإنسان إذا آمن بدين، وكان الدين حقًّا ثبت عليه ولم يرجع، والدليل على هذا أن «هرقل» سأل أبا سفيان حينما لاقاه في الشام عن أصحاب الرسول - عليه الصلاة والسلام -: هل يرجع أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟.

قال: لا، لا يرجع أحد: وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إذا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ... أو كلمة نحوها.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣]

❁ التفسير ❁

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

هذا من قول الطائفة أي: لا تظهروا ما أنتم عليه إِلَّا لمن تبع دينكم؛ لأنكم لو أظهرتم للمسلمين أنكم آمنتم ثم رجعتم من أجل إفساد دينهم ما قبلوا منكم هذا، ولا رجعوا؛ لكن إذا أخبرتم بهذا المكر والخديعة من تبع دينكم سَلِمَ لكم الأمر..

كأنهم يقولون: اخفوا هذه الطريقة إلّا على من تبع دينكم، فمن تبع دينكم أخبروه، أما غيرهم فلا تخبروهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾.

وهذه الجملة معترضة، لكنها في محل موافق تمامًا؛ لأنه لما كان الغرض من هذا العمل الماكر أن يضلوا الناس عن دينهم صار من المناسب تمامًا أن يفسد هذا المكر ببيان أن الهدى هدى الله، والتوفيق بيد الله بأن يقول: لن ينفعكم هذا المكر والخداع، فإن الهدى هدى الله حتى لو عملتم هذه الطريقة الماكرة الخادعة، فإن ذلك لن يضر المسلمين شيئًا؛ لأن الهدى هدى الله.

ثم قال: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾:

هذه أشكلت على المفسرين والمعربين كثيرًا، وأظهر ما نقول فيها أنها متعلقة بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ يعني: ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم، بأن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم، يعني: لا تخبروا أحدًا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لأنكم لو قلتم للناس إنكم ستؤتون مثل ما أوتينا من الكتاب والفضائل وغيرها؛ لأن الله آتي بَني إسرائيل كتبًا بل آتاهم التوراة التي فيها الهدى والنور، وآتاهم فضائل ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقتل عدوهم اللدود حتى شاهدوه.

يقول: لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلّا لمن تبع دينكم؛ لأنكم لو قلتم للناس: إن هذه الأمة الإسلامية ستؤتي مثل ما أوتينا من الفضائل والشرائع لكان في ذلك حثٌّ على تمسكهم بدينهم.

وقيل المعنى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تخبروا بهذا المكر والخداع أنكم تؤمنون أول النهار وتكفرون آخره من أجل أن يرجع المسلمون عن دينهم، لا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم يعني لا تخبروا أحدًا إلّا لمن تبع دينكم بأن يؤتى مثل ما أوتيتم من هذا المكر وهذا الخداع.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: ولا تؤمنوا أيضًا أن يحاجوكم عند الله؛ لأنكم لو آمنتم بذلك، فيوم القيامة سيحاجكم هؤلاء عند الله، وما قبل أحد منكم هذه الحيلة.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج:١٧]. فأنتم لا تخبرون الناس بهذا إلّا لمن تبع دينكم.. فهم إذن يؤمنون بأنهم سوف يحاجهم المسلمون يوم القيامة عند الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كما قالوا لا تؤمنوا لأحد أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ حتى لو حاولتم أن تخفوا ما يَمُنُّ الله به من الفضائل على هذه الأمة، فإن ذلك لن يمنع الأمر الواقع؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وقد آتي الله

هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ ما يربو بكثير على الفضائل التي أوتيها بنو إسرائيل.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع في كل صفاته، واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة، في كل الصفات، عليم بمن يستحق الفضل - سبحانه وتعالى -، فهو يؤتي فضله من يشاء عن علم وحكمة.

قال الله تعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:٧٤]

التفسير

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: يختص بمعنى يخص بالرحمة من يشاء.

ولكنه - عزَّ وجلَّ - يختص برحمته من هو أهل للرحمة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] كل فعل من أفعال الله قُرِنَ بالمشيئة فهو تابع للحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] فهو سبحانه عليم يؤتي فضله من يشاء ممن يستحق ذلك الفضل.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾: أي صاحب الفضل.

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: أي الواسع الكثير، فلا فضل أعظم من فضل الله - عزَّ وجلَّ -، وانظر إلى ما أنعم الله به على العباد من أول الدنيا إلى آخرها، وكل ذلك لم ينقص مما عند الله شيئًا.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُم، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيتُ كُلَ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِـمَّا عِندي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الـمخْيَطُ إِذَا غُمِسَ فِي البَحْرِ»[1].. اغمس المخيط في البحر وأخرجه، هذا البلل الذي حمله المخيط هل ينقص البحر شيئًا..؟ أبدًا فهكذا كل فضل أعطاه الله - عزَّ وجلَّ - لو فرض أنه خارج عن ملكه، فإنه لن ينقص مُلكَ الله شيئًا إِلَّا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر، وهذا لا ينقص البحر شيئًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٧٢-٧٣]:

١ - بيان كيد الكفار للمسلمين، وذلك بسلوك طرق الحِيَل المتنوعة؛ لأنهم قالوا: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

٢ - أن أهل الكتاب قد يكون فيهم منافقون؛ لقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾، فإن المؤمن حقًّا لابد أن يستقر الإيمان في قلبه ولا يكفر ويرجع.

٣ - أن المؤمن قد يخدع بمثل هذه الخديعة، فيتظاهر عدوه بأنه موافق له ثم يتبرأ منه في النهاية كقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، فيريدون أن يرجع المسلمون عن دينهم من أجل أن هؤلاء رجعوا.

٤ - تعصب أهل الكتاب لدينهم على ضلالهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

٥ - أن المسلم يرد كيد هؤلاء بإعلان أن الهدى هدي الله، وأنهم مهما حاولوا أن يصدونا عن ديننا، وقد أراد الله هدايتنا؛ فإن ذلك لا يضرنا، ويتفرع على هذه الفائدة أنه ينبغي للعبد أن يعتمد على ربِّه في طلب الهدى، وألّا يعتمد على نفسه؛ لأنه إذا اعتمد على نفسه خذل مهما كان من الذكاء والحيلة.

٦ - أن هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بينوا وأظهروا أن الذي حملهم على ذلك هو الحسد؛ لقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾؛ لأن اليهود من أبرز صفاتهم الحسد: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء:٥٤]، ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩].

٧ - أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والحساب؛ لقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾، ولذلك اتفقت اليهودية والنصرانية والدين الإسلامي على الإيمان بالبعث.

لكن ليس كل من آمن بالبعث يعمل له، فاليهود والنصارى ما داموا على كفرهم بمحمد ﷺ فإنهم لم يعملوا لهذا البعث، إذ لو عملوا له لآمنوا بالرسول ﷺ.

٨ - إثبات اليد لله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وهذه اليد يد حقيقية يقبضها الله ويقبض بها ويأخذ بها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر:٦٧] وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسِطُ يَدَهُ فِي اللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسِطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ»[1]، وأخبر النبي ﷺ: أن «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرةٍ - أي بما يُعادلُ التمرةَ - مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّب، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمِينِه ثُمَّ يُرْبِيها لِصَاحِبِها كَمَا يُرَبِّي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥).

أَحَدُكم فلُوَّه»(١)... الحديث.

أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن ذلك حق على حقيقته؛ لأن الله أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وأعلم بغيره، وأخبر به عن نفسه بكلام فصيح بيِّن لا يحتمل الشك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وأخبر به عن نفسه بخبر هو أصدق الأخبار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، فخبر الله أصدق الأخبار، وأخبر به عن نفسه ليهتدي الناس به كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦].

فهذه أربعة أوصاف اتَّصَفَ بها خبر الله تعالى عن نفسه:

الوصف الأول: أنه خبر صادر عن علم.

الوصف الثاني: أن كلام الله أحسن حديث في الفصاحة والبيان والوضوح.

الوصف الثالث: أن خبر الله عن نفسه أصدق خبر.

الوصف الرابع: أن الله يريد بما أخبر به عن نفسه أن يهتدي الناس به لئلا يضلوا.

فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الأربعة في كلام لم يبقَ فيه أدنى شك، ولا يمكن أن نقول إنه من المتشابه خلافًا لمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه، ولهذا قالوا: إنها من المتشابه، وإن فَرَضْنا نحوها أن نمرها دون أن نتعرض لمعناها، وهذا خطأ، بل نقرأ آيات الصفات ونتعرض لمعناها، ونسأل عن معناها، لكن لا نسأل عن الكيفية.

نسأل ما معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] لكن لا نسأل كيف استوى.. فهنا (يد الله) هذه اليد حسية يأخذ بها ويقبض - عزَّ وجلَّ -. ولكن لا نسأل عن كيفيتها.

فإن قال قائل: إنه جاء في حديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عَلَىَ صُورَتِهِ»(٢)، وفي رواية: «عَلَىَ صُورةِ الرَّحْمنِ»(٣)، وهذا يقتضي أن تكون صفات الله كصفات المخلوق، فوجهه كوجه المخلوق، ويده كيد المخلوق، وعينه كعين المخلوق، وساقه كساق المخلوق، وقدمه كقدم المخلوق، فما الجواب؟

الجواب على ذلك: أن هذا لا يمكن أن يكون مراد الحديث؛ لأنه لو كان هذا مراد الحديث لكان تكذيبًا لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وخبر الله ورسوله لا يتكاذب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٤٤)، والآجري في «الشريعة» (ص ٣١٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٨٦٢).

(٣) ضعيف: أخرجه الآجري في «الشريعة» (ص ٣١٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٩١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٢١٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٧٦).

بَل يُصدِّق بعضه بعضًا، فإذا كان كذلك فالجواب أن نقول:

أ ـ لا يلزم من كون آدم على صورة الله أن يماثله، فقد يكون الشيء على صورة الشيء من حيث العموم لا من حيث التفصيل.

ويدل لهذا أن النبي ﷺ أخبر أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر(١). وهل يلزم من ذلك أن يكونوا مثل القمر؟.

أبدًا لكن من حيث الإجمال على صورة القمر، وإلَّا فليس للقمر أنف، وليس له عين، وليس له فم، وأهل الجنة لهم أنوف وأعين وأفواه. وهذا وجه قوي جدًّا ويبقي النص على ظاهره.

ب ـ والوجه الثاني أن نقول: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن أي على الصورة التي اختارها الله - عزَّ وجلَّ - كما لو قلت: هذا الباب صنعه فلان يعني: هو الذي صنعه.

فالله هو الذي صور آدم، وإضافة صورة آدم إلى الله تقتضي التشريف، ولذلك جاءت هذه الجملة في بعض الأحاديث تعليلًا للنهي عن ضرب الوجه، وتقبيح الوجه؛ لأن آدم خلق على صورة الرحمن.

فإذا ضربت الوجه الذي خلقه الله - عزَّ وجلَّ - واختار هذه الصورة له؛ فإن ذلك الضرب قد يخدشه ويغيره، وإذا قبحت الوجه فقلت: ما أقبح هذا الوجه،فإن هذا أيضًا قدح في الصورة التي خلقها الله - عزَّ وجلَّ - واختارها لهذا الوجه.

وعلى هذا فيكون إضافة الصورة إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه كقوله: ناقة الله، وبيت الله، ومساجد الله وما شابه ذلك.. فحينئذٍ تبقى النصوص ـ ولله الحمد ـ سليمة لا تتناقض ولا تتعارض.

فاليد ثابتة لله على الوجه اللائق به من غير مماثلة، نجزم ونعلم علم اليقين أنه لا مماثلة بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعلق الرجاء بالله خوفًا وطمعًا؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، فإذا علمت أن الفضل بيد الله، تسأل الفضل من الله، وإذا علمت أن الفضل بيد الله فالذي تخاف أن يمنع الفضل عنك هو الله، إذن فينبغي بل يجب على المؤمن أن يعلق قلبه بالله - تعالى - رجاءً وخوفًا.

١٠ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله - عزَّ وجلَّ -، وأن الله يوصف بصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته؛ لقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فالإيتاء فعل عُلِّق بالمشيئة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٣٤).

فنؤمن بأن الله له أفعال يفعلها، ويحدثها تتعلق بمشيئته، ففيه ردٌّ على المعطلة الذين قالوا: إن الله تعالى لا يوصف بالصفات الفعلية الاختيارية؛ لأنه لا يوجد عندهم صفة لله تتعلق بالمشيئة، كل الصفات أزلية، فليس هناك صفات تحدث بمشيئة الله، وهذه الآية ترد عليهم؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يفعل.

يقولون: إن الله لا يستوي على العرش استواءً فعليًا، ولا ينزل للسماء الدنيا، ولا يأتي للفصل بين عباده، قالوا: لأن الحوادث لا تقوم إِلَّا بحادث، والله تعالى ليس بحادث، الله أزلي أبدي - سبحانه وتعالى -، فإذا أُثبتت له الأفعال الاختيارية المتعلقة بالمشيئة أثبت قيام فعل حادث به، ولا يقوم الحادث إِلَّا بحادث!.

والجواب:

أ ـ أن هذه القضية، أو هذا الحكم حكم عقلي معارض للنص؛ لأنه يتضمن رد كل نص يدل على قيام الأفعال الاختيارية بالله، وما تضمن رد النصوص فهو باطل؛ لأن ما تضمن رد الحق فهو باطل.

ب ـ أن هذه القضية أو القاعدة التي ذكرتم قاعدة باطلة، فإن الأفعال تأتي بعد الفاعل، ولا يلزم أن تكون قديمة بقدمه، ولا يلزم أن يكون حادثًا بحدوثها، ولذلك نحن نأكل اليوم، وأكلنا بالأمس، وما قبل أمس.

فهل يلزم إذا أكلنا اليوم أننا لم نوجد إِلَّا اليوم؟، إن وجودنا يسبق أفعالنا، فكذلك أفعال الله اختيارية، وجود الله سابق عليها، ولا يلزم أن نقول: إذا أثبتنا الأفعال الحادثة فقد أثبتنا حدوث الفاعل أبدًا، فهذه الملازمة العقلية ملازمة باطلة لذاتها، وهي أيضًا ملازمة باطلة لمصادمتها للنصوص.

١١ ـ إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

ولا أحد ينكر إثبات المشيئة لله فيما يتعلق بفعله أنه تابع لمشيئته، ولا يكون إِلَّا بمشيئته، ولكن اختلفت الأمة في فعل العبد هل يكون بمشيئة الله أو لا يكون؟ فأهل السنة والجماعة قالوا: إنه يكون بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد، أي فعل العبد بمشيئة الله مع إثبات إرادة العبد له.

وذهبت القدرية مجوس هذه الأمة إلى أن فعل العبد لا يقع بمشيئة الله، وأن العبد حر يفعل ما يشاء، ولا تعلق لإرادة الله ومشيئته بفعله، وبهذا سُمّوا مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم اعتقدوا أن العبد مستقل بما يحدثه، فجعلوا للحوادث خالقين: الله - عزَّ وجلَّ - فيما يتعلق بفعل نفسه، والإنسان فيما يتعلق بفعل نفسه أيضًا، فالله خالق لأفعاله، والإنسان خالق لأفعاله، والله شاءٍ لأفعاله والإنسان شاءٍ لأفعاله، ولا تعلق لمشيئة الله بفعل العبد.

وهناك طائفة أخرى وهم الجبرية قابلتهم فقالت: أفعال العبد بمشيئة الله ولا إرادة للعبد فيها.

إن قام فهو مجبر، وإن جلس فهو مجبر، وإن نزل من السطح على الدرج فهو مجبر، وإن تدحرج رغمًا عنه فهو مجبر، وإن مات فهو مجبر، وإن شرب فهو مجبر.. كله إجبار ما له اختيار، وهؤلاء أيضًا خالفوا المعقول والمنقول والمحسوس.

لو أن أحدًا منهم وقف أمامنا وقال: الإنسان مجبر على فعله فقام أحدنا وضربه كفًّا وقال: أنا مجبر على أن أضربك كفًّا فلن يرضى ؛ ولهذا يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفع إليه سارق فأمر بقطع يده، فقال: (مهلًا يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت إلَّا بقدر الله - يعني: غصبًا علي - فقال: ونحن لا نقطع يدك إلَّا بقدر الله). فردَّ عليه بحجته. مع أن أمير المؤمنين يقطع يد السارق بقدر الله وشرع الله.

ومشيئة الله مقيدة بالحكمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، يدل على أن مشيئة الله مقرونة بالعلم والحكمة وهو كذلك، فلا يشاء - سبحانه وتعالى - شيئًا إلَّا لحكمة، ولكن الحكمة قد تبين لنا وقد تخفى علينا؛ لأن عقولنا قاصرة. قد نظن مثلًا أن نزول المطر في هذا الوقت ضرر وليس بضرر، وقد نظن أن حبس المطر عنا ضرر وليس بضرر.

١٢ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما ﴿وَٰسِعٌ﴾ والثاني ﴿عَلِيمٌ﴾ واسع في كل صفاته؛ فكل صفاته سبحانه واسعة، رحمته وسعت كل شيء، وعلمه وسع كل شيء، وسلطانه شمل كل شيء، وقدرته على كل شيء ﴿وَٰسِعٌ﴾ بكل معناه حتى إن الله قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥]، أي مكان تولي وجهك له فالله أمامك، إذا كنت في الصلاة فإن الله تعالى يراك وهو أمامك كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُم يُصلِّي فَلَا يَبْصُق قِبَلَ وَجهِهِ إِذَا صَلَّى»[1]، الذين يستقبلون المشرق كالذين يقعون غربًا عن مكة، والذين يستقبلون المغرب كالذين يقعون شرقًا عن مكة، والذين يستقبلون الجنوب كالذين يقعون عنها شمالًا، والذين يستقبلون الشمال كالذين يقعون عنها جنوبًا، كل هؤلاء أينما تولوا فَثَمَّ وجه الله؛ لأن الله واسع عليم.

ولكن لا تظن أن الله في الأرض قِبَلَ وجهك وأنت تصلي، فإنه قبل وجهك وهو في السماء؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وإذا كان المخلوق وهو مخلوق يمكن أن يكون في السماء وقِبَلَ وجهك فما بالك بالخالق، لو استقبلت الشمس حين شروقها لكانت قبل وجهك وهي في السماء، وكذلك عند الغروب تكون قبل وجهك وهي في السماء. فالحاصل أن الله - تعالى - واسع بجميع صفاته وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٥٤٧).

١٣ - إثبات علم الله - سبحانه وتعالى - في قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه، فمن لم يدرك الشيء فليس بعالم، وإن أدركه على خلاف ما هو عليه فليس بعالم، والأول: جاهل بسيط، والثاني: جاهل مركب.

فلو سألنا سائل: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: كانت في السنة الثالثة من الهجرة، فالقائل جاهل جهلًا مركبًا، ولو سألنا سائل: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: الله أعلم، فالقائل جاهل لكن جهله بسيط، والأول أشدهما عمى؛ لأنه جاهل وهو جاهل أنه جاهل.

ولهذا قيل: إن الجهل المركب أشد قبحًا من الجهل البسيط، فعالم لم ينتفع بعلمه أشد إثمًا من الجاهل؛ لأن العالم الذي لم ينتفع بعلمه علم ولكنه - والعياذ بالله - لم يعمل بعلمه.

ولو سأل سائلٌ: متى كانت غزوة الفتح؟ فقيل له: في السنة الثامنة في رمضان لكان عالمًا.

إذن الله تعالى عالم، مدرك للأشياء على ما هي عليه، وعلمه تعالى تام من كل وجه أزلًا وأبدًا، فلم يزل عالمًا يعلم ما سيكون، وإذا علم وهو عالم - عزَّ وجلَّ - فلن ينسى، كما قال موسى عليه السلام: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

قال أهل العلم: لا يوصف الله بأنه عارف؛ لأن المعرفة انكشاف بعد لبس وخفاء، ولهذا إذا علمت الصبي تقول له: هل عرفت؟ فيقول: نعم، يعني: بعد أن كان خافيًا عليه صار الآن معلومًا له، فمن أجل أنها انكشاف بعد خفاء لم يصح إطلاقها على الله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال عالمًا.

ثانيًا: أن المعرفة تطلق على العلم والظن، ولهذا إذا قلنا: العلم معرفة الحق بدليله شمل قولنا: (معرفة الحق بدليله) العلم والظن؛ لأن المعلومات إما علمية وإما ظنية، لهذا لا يصح أن يطلق على الله أنه عارف.

فإن قال قائل: كيف تقولون هذا وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعرَّفَ إِلى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدةِ». (يعرفك) وهذا فعل.

فالجواب عن ذلك: أن هذه معرفة خاصة تستلزم العناية بالذي تعرّف إلى الله من قبل.

والدليل على أنها ليست معرفة العلم بل هي معرفة العناية قوله: «تَعرَّف إِلى اللهِ» مع أن الله يعرفك سواء قمت بعبادته أم لم تقم، لكن إذا قمت بعبادته فقد تعرفت إليه، فإذا تعرفت إليه في الرخاء عرفك في الشدة.

ومن فوائد قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

١ - أن الله - عزَّ وجلَّ - قد يرحم بعض العباد رحمة خاصة؛ لقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، وقد بيَّن الله في آية أخرى أن الله يرحم من يستحق أن يرحم، وهو الذي تعرض لأسباب الرحمة، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

وأن من كان على العكس لم يأت بما يقتضي الرحمة، فإنه ليس أهلًا لها، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

٢ - أنه لا اعتراض على الله في كونه يختص برحمته زيدًا ويمنع رحمته عن عمرو؛ لأن الأمر إليه وهو فضل إن شاء منعه وإن شاء أعطاه.

ويتفرع على هذه الفائدة أن من مُنِعوا فضل الله لم يكونوا قد ظُلموا شيئًا؛ لأن فضل الله يؤتيه من يشاء، ويختص برحمته من يشاء، أرأيت لو كان أمامك عشرة رجال فأعطيت واحدًا عشرة، وواحدًا تسعة، وواحدًا ثمانية، وواحدًا سبعة، وواحدًا ستة، وواحدًا خمسة، وواحدًا أربعة، وواحدًا ثلاثة، وواحدًا اثنين، وواحدًا واحدًا.

هل ظلمت من لم تعطه إلَّا درهمًا واحدًا؟ لا، ما ظلمته؛ لأن هذا فضل منك، فلا يقال إنك ظلمت من أعطيته درهمًا واحدًا لأنك أعطيت الأول عشرة دراهم، ولو استأجرت عشرة أجراء على عشرة دراهم كل يوم، فقاموا بالعمل، فأعطيت واحدًا عشرة دراهم؛ والثاني تسعة، والثالث ثمانية، وهكذا تنقص، لعددت ظالمًا؛ لأن هذا ليس من العدل أن يقوم الجميع بما استأجرتهم عليه ثم تعطي بعضهم وتحرم بعضًا، والفرق بين هذه، والتي قبلها أن الأولى فضل وإحسان، والثانية عدل، والعدل يجب أن يعطي فيه كل ذي حق حقه.

٣ - جواز وصف غير الله بالعِظَم؛ لقوله: ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ لأن الفضل هنا يحتمل: أن يُراد بها الفضل الذي هو فضل الله أي عطاؤه، أو أن المراد بها المُتفضَّل به وهو المُعطي، فعلى الثاني لا إشكال في استنباط الفائدة التي ذكرناها (أن العِظَم يوصف به غير الله) وعلى الأول إذا قلنا: إن الفضل هو نفس فعل الله فوصفه بالعِظَم لا إشكال فيه؛ لأنه من صفات الله، وصفات الله كذاته عظيمة.

فإن قال قائل: ما دام الاحتمالان قائمين فلا دلالة على أنه يوصف بالعِظَم من سوى الله، ما دمنا نقول: يحتمل أن يكون الفضل هنا صفة لله، وصفة الله عظيمة كذات الله.

فالجواب عن هذا أن يُقال: اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] فوصف العرش بالعِظَم مع أن عرشها مخلوق..

إذن يصح أن نقول: هذا الفعل عظيم، وهذا رجل عظيم، هذه سيارة عظيمة، هذا بيت عظيم، وما أشبه ذلك، ولا يضر، كما أنه يصح أن نقول: فلان عزيز، فلان قوي، ولا حرج في ذلك، ولكن يجب أن نعلم أن ما نصف به المخلوق من صفات الله لا يماثل صفات الله ولا يُدانيها أيضًا؛ لأن الصفة تكون لموصوف تُناسبه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥ - ٧٦]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - خيانة أهل الكتاب في الأمور الدينية ولبسهم الحق بالباطل، وعُتوَّهم وعنادهم ونفاقهم وتغريرهم للمؤمنين، ذكر حالهم في الأمور الدنيوية في المال، فقسَّمهم الله تعالى إلى قسمين:

فقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فهذا يشمل اليهود والنصارى، وسُموا أهل كتاب لأنهم هم الذين عندهم بقايا من الدين النازل على الأنبياء، فاليهود عندهم بقايا من التوراة، والنصارى عندهم بقايا من الإنجيل.

﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ﴾ هنا يجب الإظهار؛ لأن الهمزة همزة قطع، فيقال: ﴿مَنْ إِنْ﴾ خلاف لما يصدر من بعض الناس، حتى من أئمة المساجد، بقول: (من ان تأمنه)! وهذا خطأ، لأنه إذا قال: (من ان تأمنه) جعل الهمزة همزة وصل، وهي همزة قطع؛ لأنها (إن) الشرطية ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ﴾.

والخطاب في قوله: ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ﴾ يعود على المُخاطب، يعني: ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ﴾ أيها المخاطَب ﴿بِقِنْطَارٍ﴾ يعني على قنطار ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

والقنطار عبارة عن المال الكثير من الذهب، حدَّه بعضهم بألف دينار، وبعضهم بملء مسك الثور، يعني جلد الثور، من الدنانير، ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: يرُدُّه إليك من غير تغيير ولا نقص.

والأداء هو إبلاغ الشيء، ومنه أداء الحديث، ومنه أداء الأمانات: أي إبلاغها إلى مستحقها، فمن يؤده إليك: أي يُعطه إياك سالمًا من كل نقص، وهذا أمين.

وفي قوله: ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ قراءتان: قراءة بكسر الهاء ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وأخرى بالسكون «يُؤَدِّهْ إِلَيْكَ».

ومنهم القسم الثاني: الخائن الذي لا يؤتمن: ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾، والدينار هو الوحدة من النقد الذهبي، وهو ما يُسمى عندنا بالجنيه، ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: لا يرده إليك سالمًا

بل يُنْقِصَهُ ويخون فيه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ بمعنى: إِلَّا إذا بقيت قائمًا عليه، مراقبًا له، ناظرًا في أحواله؛ فحينئذٍ تَسلَم من خيانته، أما إذا غفلت أدنى غفلة؛ فإنه سوف يخونك.

فقسَّم الله - عزَّ وجلَّ - أهل الكتاب الآن إلى قسمين:

القسم الأول: أمين إذا ائتمنته على المال الكثير لم يُنقصه شيئًا، وإن ائتمنته على المال القليل لم يُنقص من باب أولى؛ لأنه إذا كان لا ينقص المال الكثير شيئًا مع أن المال الكثير إذا أخذ منه الشيء القليل لا يتبين، فائتمانه بالمال القليل من باب أولى.

والقسم الثاني: من هو خائن لو ائتمنته على أقل القليل، على وحدة من النقود؛ فإنه لا يؤديها إليك إِلَّا إن كنت قائمًا عليه مراقبًا له، فحينئذٍ تسلم من شره، وإِلَّا فإنه يمكن أن ينقص الواحد من الدنانير، وإن ائتمنته على أقل من دينار فكذلك لا يؤده، وعلى أكثر من باب أولى.

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ - معلِّلًا خيانتهم للأمانة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من خيانتهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ الباء هنا للسببية، أي أن عدم أمانتهم بأنهم قالوا، أي بسبب قولهم: ليس علينا في الأُمّيِّين سبيل.. (الأميون) هم العرب وسُمُّوا أميين نسبة إلى الأم، والإنسان الأُمِّي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] يعني لا يعلمونه إِلَّا قراءة، أما الأمي في الأصل فهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وبهذا كان العرب لا يقرؤون ولا يكتبون إِلَّا بعد أن بعث الرسول ﷺ .. فكانت لهم القراءة والكتابة .. الأمية عيب ذكرها الله بصفة القدح، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] وأشار إليها أيضًا في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

والضلال لا أحد يرى أنه مدح، ولكنها بالنسبة للنبي ﷺ تزكية؛ لأن كونه أميًّا ويأتي بهذا الكتاب العظيم يدل على أنه صادق؛ لأن الأمي لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] ونحن أمة أمية كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -[(١)]، ولكن بعد أن فتح الله علينا، وآتانا العلم والحكمة صرنا أمة علمية لا أمة أمية.

وإذا قال قائل: هذا ينتقض عليك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ»[(٢)] في المدينة بعد أن نزل عليه الكتاب.. نقول: نعم هو قاله باعتبار الهلال.. ونحن باعتبار الهلال حتى بعد الفتوحات أمة أمية لا ندري عن حساب الأهلة ولا نعرفها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠).

(٢) انظر ما قبله.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأميين من سوى أهل الكتاب، فيكون المراد بالأمي من ليس له كتاب، ويكون هؤلاء اليهود والنصارى يقولون: كل الناس سوى أهل الكتاب ليس علينا فيهم سبيل؛ لنا أن نظلمهم، نأخذ أموالهم، نقتلهم، نسبي نساءهم؛ لأننا نحن المُختارون عند الله وغيرنا عبيدٌ لنا، والإنسان يفعل في عبيده ما شاء، ولهذا تقول اليهود: إنهم شعب الله المختار، ولكن الله اختارهم على عالمي زمانهم، ولم يشكروا هذه النعمة.

﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ من نظر إلى الآية وأنها في سياق الائتمان على المال قيَّد هذا بأنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فيما يتعلق بالمال. ومن نظر إلى العموم قال إنها تشمل أنهم يدعون أنهم لا سبيل عليهم في الأميين في أموالهم ودمائهم .. وهذا المعنى أعم، وإذا كان المعنى أعم واللفظ لا يُنافيه فالاختيار أن تأخذ بالأعم؛ لأن الأعم يشمل الأخص، ولا عكس.

وقولهم: ﴿سَبِيلٌ﴾ السبيل في الأصل الطريق، والمراد به هنا اللوم، أي ليس علينا سبيل في اللوم أو سبيل إلى اللوم أي أننا لا نُلام ولا نذم ولا نأثم فيما يتعلق بالأميين.

هذا القول الذي يقولونه ليسوا ينسبونه لأنفسهم، وأنهم هم الذين أباحوا لأنفسهم الاعتداء على الأميين، وإنما يجعلون هذا شرعًا من عند الله، يقولون: إن الله أباح لنا ذلك، ولم يجعل علينا سبيلًا فيما يتعلق بالأميين.

ولهذا قال الله عزَّ وجل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنهم يكذبون على الله، ويفترون على الله، ويدَّعون هذا شرعًا من الله، وهم يعلمون أن الله حرم عليهم أكل أموال الناس بالباطل، ودماء الناس وأعراضهم، يعلمون هذا لكنهم يكذبون على الله.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ هنا مُضمَّنَةٌ معنى يفترون .. فـ(يقولون) أي: يفترون على الله الكذب. والتضمين مختلف فيه، هل تضمِّن الفعل معنى يُناسب المعمول؟ أو أننا نجعل التضمين في الحرف. والقول الراجح أننا نُضمِّن الفعل معنى يُناسب الحرف. ومن أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الباء بمعنى (مِن): أي يشرب منها. وعلى هذا القول تكون يشرب على ظاهرها من الشرب. وبعضهم قال: بل إنَّ يشرب بمعنى يروَى، وعلى هذا فالباء للسببية وليست بمعنى (من) أي يُروَى بها عباد الله. وهذا المعنى أصح لأنه إذا ضُمِّنت يشرب معنى يروى، فإنه لا ري إلَّا بعد شربٍ، وعلى هذا يكون الفعل (يروي) دالًا على معنى الشرب وزيادة، لكن إذا قلت يشرب على ظاهرها والباء بمعنى (من) لم نستفد هذه الفائدة، وهي الرِّيُّ.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حال من الواو في قوله: (يقولون) يعني: يقولون وهم يعلمون أنهم كاذبون، فيكون قولهم أشد من قول من يقول الكذب وهو لا يعلم أنه كذب.

ثم قال الله عزَّ وجل: ﴿بَلَىٰ﴾ و«بلى» حرف إبطال - في هذا المقام أو في هذا السياق - لِما قالوه وهو ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: بلى عليهم سبيل؛ لأنهم إذا خانوا الأمانة فإن عليهم السبيل، وكل من خان أمانته فعليه السبيل هم أو غيرهم، فتكون (بلى) حرف جيء به لإبطال ما ادَّعوه في قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل.

ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ الجملة هذه استئنافية، و﴿أَوْفَىٰ﴾ بمعنى: أتمَّ، فهي فعل ماض، وليست اسم تفضيل من ﴿أَوْفَىٰ﴾ يعني: أتم بعهده أي: بما عاهد عليه غيره ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ الله في هذا الإيفاء، فإن الله يحب المتقين.

والعقد عهد، فإن كلًا من المتعاقدين يُعاهد الآخر على إتمام ما تمَّ العقد عليه، وإن لم يذكرا العهد باللفظ، لكن هذا مُقتضى العقد. أي إذا تعاقدت معك أن أفي لك بما تم العقد عليه، فيكون كل عقد عهدًا.

﴿اتقى﴾ الله بوفائه بالعهد. ومن اتقائه الله ألَّا يخون، والتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي اسم جامع لفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، فإن ذُكرَت مع البر اختصت بالمناهي، واختص البر بالأوامر، كقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: فعل الأوامر واجتناب النواهي، أما إذا ذُكرت التقوى وحدها فهي شاملة لفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولفظها يدل على هذا؛ لأنها مأخوذة من الوقاية، ولا وقاية من عذاب الله إلَّا بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، هذه هي التقوى، وقال بعض العلماء: (التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله) [(١)]، فجمع بين العلم والعمل والاحتساب.

أن تعمل بطاعة الله: هذا هو العمل، على نور من الله: وهذا هو العلم، ترجو ثواب الله: وهذا هو الاحتساب.

وأن تترك ما نهى الله عنه على نورٍ من الله، تخشى عقاب الله، أيضًا جمع بين العلم والعمل والاحتساب.

وقال آخرون[(٢)] في تعريف التقوى:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَهَا وَكَبيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٥٦)، والزهد الكبير (ص٣٥١)، والزهد لابن المبارك (١/ ٤٧٤).

(٢) تنسب هذه الأبيات إلى: ابن المُعتَز، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس. الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضي بالله)، وبايعوه للخلافة، فأقام يومًا وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه سنة (٢٩٦ هـ). وللشعراء مراث كثيرة فيه.

واعمَلْ كَماشٍ فَوقَ أَرْ ... ضِ الشَّوكِ يَحذَرُ ما يَرى
لا تَحقِرَنَّ صَغيرةً ... إن الجِبالَ مِنَ الحَصَى

وهذا أيضًا لا يُنافي ما سبق، لكن اختلاف في التعبير.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هنا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يقل: (فإن الله يحبه)، ومثل هذا التعبير يُسمى الإظهار في موضع الإضمار. والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، منها:

أولًا: تنبيه المخاطب. ووجه ذلك أن الكلام إذا كان على نسق واحد لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه، ولهذا يمشي المخاطب أو المتكلم، ولا يوجد في كلامه ما يستدعي الانتباه، فإذا تغير الأسلوب وجاء الاسم مُظهرًا بموضع الإضمار فإن الإنسان ينتبه.

ثانيًا: أن في الإظهار في موضع الإضمار التعليل للحكم الذي جاء فيه الإظهار في موضع الإضمار، وذلك أن قوله: (فإن الله يحبه) ليس فيه إظهار العلة، كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنه إذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لتقواهم فأفاد العلة.

ثالثًا: أنها تفيد التعميم أي: كل من يَعُمُّه هذا المظهر، واقرأ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. ولم يقل: (فإن الله عدو له) لأجل أن يشمل كل كافرٍ سواء كان كفره بهذه العداوة، أو بغيرها، فيكون في هذا تعميم الحكم.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - بيان انقسام أهل الكتاب إلى قسمين: أمين وخائن، كما انقسموا إلى قسمين: مؤمن وكافر، فمثلًا «عبد الله بن سَلَام» رضي الله عنه كان من أحبار اليهود فمنَّ الله عليه بالإسلام فأسلم، وكعب بن أشرف من أشراف اليهود، ولكنه بقي على كفره فلم يؤمن، فهم كما انقسموا إلى كافر ومؤمن انقسموا أيضًا إلى خائن وأمين، ولقد عامل النبيﷺ اليهود، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي[1]، وهذا يدل على أن من اليهود من هو أمين وإلَّا كيف يرهن الرسول ﷺ الدرع وهو من آلات الحرب عند هذا الرجل اليهودي؟

٢ - أنه يجب الحذر من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)؛ لأنهم ما داموا ينقسمون إلى قسمين، فإننا لا ندري حين نعاملهم من أي القسمين هؤلاء، فيجب علينا الحذر لاسيما إذا تبيَّن لنا أنهم خونة، وأهل غدر، وأنهم لا يسعون لمصالحنا أبدًا كما هو الواقع، فإن الواقع في الوقت الحاضر أن اليهود والنصارى لا يسعون أبدًا لمصالح المسلمين، بل يسعون للإضرار بالمسلمين

(١) رواه البخاري (٢٧٥٩)، وأحمد في مسنده (٢٦٠٤٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

والإفساد عليهم، حتى إنهم إذا رأوا الدولة مُتجهة إلى الإسلام من دول المسلمين؛ فإنهم يحاولون إسقاطها، والتضييق عليها من الناحية الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وهذا شيء يعرفه كل من تدبر وتأمل في الحوادث اليوم. إذن يجب علينا أن نحذر غاية الحذر من اليهود والنصارى، وأن نعلم أن اليهود والنصارى كل واحد منهم وليٌّ للآخر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، مهما طال الأمد فهم أولياء ضد عدو مشترك وهم المسلمون.

لكن أعمال الدولة لا ينبغي أن يؤتمنوا فيها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ولهذا لما كتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إن عندنا رجلًا نصرانيًا جيدًا في الكتابة والحساب أريد أن أجعله على بيت المال، قال: لا تجعله، كيف تأمن من خوَّنه الله؟!، فكتب إليه مرة ثانية وقال: يا أمير المؤمنين، إن الرجل جيد، نحن في حاجة إليه. فردَّ عليه عمر: من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السلام عليكم، مات النصراني. والسلام) [1]. إذا مات تُحييه لأجل أن يكتب لك؟ لا تُحييه. قدِّر أنه مات وانتهى.

ولهذا ذكر «شيخ الإسلام» في عدة مواضع من كتبه أنه لا يجوز أن يؤتمن غير المسلمين على أسرار المسلمين، وأن ذلك من الخيانة، وأن ذلك خطر على الدولة الإسلامية، وذكر أشياء عجيبة رَحِمَهُ اللَّهُ في خطر هؤلاء على الأمة الإسلامية إذا وُلوا أشياء من أسرار الدولة. وهو صادق لا شك في هذا، لا شك أنهم أعداء مهما كان.

٣ - جواز الاقتصار على المثال ليُقاس عليه ما يشبهه؛ لأنه قال قنطار ودينار، ولو ائتمنه على سيارة أو لعبة صبي. فكذلك؛ لكن ذكر الله الدينار والقنطار على سبيل التمثيل.

٤ - إعجاب أهل الكتاب بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم؛ لأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾. وهذا يدل على العُجب بالنفس واحتقار الغير.

٥ - أن أهل الكتاب لا يقتصرون على الظلم والعدوان، ويجعلون ذلك من تِلقاء أنفسهم، بل ينسبونه إلى شريعة الله، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فهم يقولون على الله الكذب في هذا وفي غيره.

٦ - أن من افترى الكذب على الله فيما يُفتي به أو يحكم به بين الناس ففيه شَبَهٌ باليهود والنصارى. وقد وُجِدَ في هذه الأمة من يفتري الكذب على الله سواء في الحكم بين الناس، أو في الفتوى التي ليست بحكم ولكنها إخبار عن الشرع.

---

(١) حسن السلوك (ص١٦٢).

٧ - أن من افترى على الله الكذب وهو يعلم أشد إثمًا وعدوانًا ممن لا يعلم، وإن كان كلٌّ منهم على خطأ، لكن ليس المتعمِّد كغير المتعمد. لذلك قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذِبَ عَلَيَّ مُتعَمِّدًا فليَتَبَوأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ»[1].

٨ - الإشارة إلى أن الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط؛ لأن الذي يكذب وهو يعلم أقبح من الذي يكذب ولا يعلم. فالجاهل المركب الذي يتقدم بالشيء، وهو يعلم أنه ليس عنده علم، أقبح من الشخص الذي يرى أن هذا هو العلم.

٩ - الثناء على الموفين بالعهد؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

١٠- أن الوفاء بالعهد من أسباب محبة الله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

١١- أن تقوى الله عمومًا سببٌ لمحبته.

١٢- الرد على الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل الذين أنكروا محبة الله وقالوا: (إنه لا يجوز أن تثبت أن الله (يُحب) قالوا: إذا أثبتَّ أن الله يحب فقد وصفته بالنقص والعيب؛ لأن هذا من خصائص المحدثات، ولأن المحبة لا تكون إلَّا بين شيئين متناسبين).

وقالوا: (ليس المراد بإثبات المحبة نفس المحبة، بل المراد بذلك لازِمُها وهو الإثابة، فمعنى (يُحب المتقين) يعني: يُثيب المتقين أما أن يكون يحبهم فكلا).

ولكن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن النصوص لا تكاد تحصر في إثبات محبة الله وأنه يُحِب ويُحَب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] والمحبة غير الثواب، إذا أحب الله العبد أثابه، فالإثابة من لازم المحبة، وقولهم: (إنها لا تكون إلَّا بين متناسبين) هذا غير صحيح، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أُحُد: «جَبلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه»[2]، ولا مناسبة بين البشر والجبل؟

وثبت بالواقع المحسوس أن بعض الحيوان يحب البشر، فالناقة تحب صاحبها، وتأتي إليه من بين الناس تبرك عنده، ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها، أو عضته بفمها، لكن صاحبها تحنُّ إليه وتجلس عنده، وإذا سمعت صوته وإن لم تره حنت، وكذلك بقية الحيوانات، شيء مُشاهَد، وهذه محبة.

الهرة تحب بعض أهل البيت دون بعض، إذا جاء أحد من أهل البيت الذين لا تحبهم هربت، وإذا جاء الذي تحب دنت منه، وجعلت تتمسح به، وهذا الشيء مُشاهَد، ما الذي جعلها تتمسح بهذا وتهاديه وتجلب ودَّه والثاني تهرب منه وتعاتبه؟ إنها المحبة، فدعواهم بأن المحبة لا تكون إلَّا بين شيئين متناسبين يكذبها السمع والواقع. السمع، لقول النبي ﷺ في أُحد «جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحبُّه» والواقع لا يحتاج إلى إقامة بينة؛ لأن كل واحد يعرفه.

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٩) من حديث المغيرة ﵁، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) رواه البخاري (١٤١١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي ﵁.

١٣- ينبغي مراقبة الخائن والقيام عليه، فإذا أعطيت مَالك من ليس بأمين؛ فإنه ليس من الحزم ولا من العزم أن تدعه، بل احترز منه، وإذا كان هذا في الائتمان على الأموال، فالائتمان على الأعراض من باب أولى؛ ولهذا حذَّر النبي ﷺ من الدخول على النساء فقال: «إِيَّاكُمْ والدُّخُولَ على النساءِ»[1]، قالوا: يَا رسُولَ الله، أرأيتَ الحَمْوُ[2]؟ قال: «الحَمْوُ الموتُ[3]»[4].

فكل شيء تخشى منه تضييع الأمانة فاحرص على أن تكون مراقبًا له وقائمًا عليه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

١٤- أن هؤلاء الخونة من اليهود عندهم ما يُلَبِّسون به باطلهم في قولهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

١٥- أن اليهود وغيرهم سواء في أن كل من اعتدى على أحد فعليه السبيل، ولهذا قال الله- عزَّ وجلَّ -: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، وهو يدل على أن الأميين، وغيرهم سواء في تحريم الاعتداء عليهم.

١٦- أن هؤلاء اليهود عليهم السبيل في الأميين سواء اعتدوا على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: عليهم السبيل في الأميين، كما أن عليهم سبيلًا فيما لو اعتدى بعضهم على بعض.

١٧- الحث على تقوى الله؛ لأن كل إنسان يحب أن يحبه الله؛ فإذا أردت ذلك فما عليك إلَّا أن تقوم بتقوى الله؛ لأن محبة الله متعلقة بالعامل، ومتعلقة بالعمل، ومتعلقة بالزمن، ومتعلقة بالمكان.

فهي متعلقة بالعامل كما في هذه الآية: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]. وكما في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ومتعلقة بالعمل: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِها[5]»[6].

ومتعلقة بالزمن: «مَا مِنْ أَيَامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلى الله مِنْ هَذِه الأَيَّامِ العَشْرِ»[7]، وقد

---

(١) احذروا من الدخول على النساء غير المحارم ومنع الدخول يستلزم منع الخلوة من باب أولى.

(٢) أخبرني عن دخول الحمو على المرأة والمراد بالحمو أقارب الزوج من غير المحارم.

(٣) لقاؤه الهلاك لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبي وأقرب إلى وقوع الجريمة لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أمكن.

(٤) رواه البخاري (٤٩٣٤)، ومسلم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٥) في أول وقتها.

(٦) رواه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٧) صحيح: رواه أبوداود (٢٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، وأحمد في مسنده (١٩٦٨) من

يُقال: إن هذا متعلق بالعمل لا بالزمن.

ومتعلقة بالمكان كمحبة الله لمكة كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيها: «إِنَّكِ لَأَحَبُّ البِقَاعِ إلى الله»(١). فمحبة الله إذن مُتعلقة بالعامل والعمل والزمان والمكان.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران:٧٧]

❁ التَفْسِيرُ ❁

هذه الآية لها صلة بما قبلها، وهي أن هذا العمل من جنس العمل السابق ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]، فهذه الآية فيها أيضًا نوع من أكل أموال الناس بالباطل.

قوله: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يُقَال ﴿يَشْتَرُونَ﴾ ويقال: (يشرون).

البائع مُعطى والمشتري آخذ. الشاهد لهذا القرآن قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]. يعني: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧]، أي يبيع نفسه، وأما الاشتراء الذي بمعنى الأخذ ففي مثل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني: يأخذون ثمنًا قليلاً بعهد الله، فينكثون عهد الله من بعد ميثاقه، ويحلفون على الكذب بالأيمان من أجل الدنيا.

وقوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الله عليه، ويحتمل أن يكون المراد بما عاهدوا الخلق عليه، فأما على الأول أي: بما عاهدوا الله عليه، فهو ظاهر من الآية؛ لأن الله أضاف العهد إليه، ومثاله: أن يكتم العالم عِلْمَه من أجل عرَض من الدنيا، فإن الله عهد إلى العلماء أن يُبيِّنوا العلم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في الإرواء (٩٥٣).

(١) روى الترمذي (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفا على الحزورة فقال والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٨٩).

فإن قال قائلٌ: كيف أخذ الله العهد على العلماء، ونحن لم نعلم أحدًا من العلماء أجرى صفقة عهدٍ مع الله؟

فالجواب: لمّا أعطى الله العلماء العلم كان إعطاؤهم إياه عهدًا بأن يقوموا بنشره وإعلانه بين الخلق، فإذا لم يقوموا بذلك فإنهم لم يَفُوا بعهد الله.

القول الثاني: يشترون بعهد الله أي: بعهدهم مع الناس، وأضافَهُ الله لنفسه ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ لأنه أمر بالوفاء به، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فسمّى الله معاهدة المؤمنين لغيرهم، سمّاها عهدًا له ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ مع أنهم ما عاهدوا الله ،وإنما عاهدوا الخلق، لكنه أضافه إلى نفسه لأنه أمر بالوفاء به، فصحَّ أن يُقال أوفوا بعهد الله.

فقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يشمل المعنيين جميعًا؛ أي: بما عاهدوا الله عليه أو بما عاهدوا الخلق عليه، فعلى الوجه الأول المعنى ظاهر وواضح ليس فيه إشكال، وعلى الوجه الثاني فيه شيء من الإشكال حيث سمّي عهد المخلوقين عهدًا لله؛ ولكن الجواب عنه أن يقال: أضافه الله لنفسه لأنه أمر بوفائه.

وقوله: ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: ويشترون أيضًا بأيمانهم ثمنًا قليلاً، والأيمان جمع يمين، وهي الحلفُ بالله عزَّ وجلَّ، فيشترون باليمين ثمنًا قليلاً، مثل أن يحلف على جَحْد حقٍّ واجبٍ عليه، أو يحلف على دعوى حقٍّ له وهو كاذب، وهذه هي اليمين الغموس التي قال عنها النبي ﷺ: «مَنْ حَلفَ عَلى يَمينٍ هُو فِيهَا فَاجرٌ[١] يَقْتَطِعُ بِها[٢] مَالَ امرئٍ مُسلمٍ لَقِي اللهَ وَهُو عليه غَضْبَانُ»[٣]. والعياذ بالله.

وقوله: «هو فيها فاجر» يعني: كاذب، فهذا اشترى باليمين ثمنًا قليلاً.

مثال: اليمين في دعوى ما ليس له: أن يدّعي على شخص أن في ذمته له مائة ريال، فيقول الشخص: ليس في ذمتي شيء، فيقول القاضي للمدَّعي بأن في ذمة فلان له مائة ريال وهو يكذب. فهذا اشترى باليمين ثمنًا قليلًا.

ومثال الحلف على إنكار ما يجب عليه، مثل أن يدعي على شخص بأن في ذمته له مائة درهم فينكر المُدَّعي عليه وهو يعلم أن في ذمته له مائة درهم لفلان، ويحلف على أنه ليس في ذمته له شيء. فهذا حلف على إنكار ما يجب عليه. فالقاضي في مثل هذه الحال يُبرئ المُدَّعي عليه ويُخلي سبيله؛ لأنه حلف، فكلا الرجلين اشترى بيمنه ثمنًا قليلًا.

---

(١) كاذب في الإقدام عليها .

(٢) يأخذ قطعة بسبب يمينه .

(٣) رواه البخاري (٢٢٢٩)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليهم الذين اشتروا بعهد الله، وأيمانهم ثمنًا قليلًا.

وقوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي من نصيب، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢] قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ في مقابل قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ فدلَّ ذلك على أن الخلاق هو النصيب.

﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: في الدار الآخرة وذلك يوم القيامة، وسُمِّي يوم القيامة دار آخرة؛ لأنه آخر مراحل البشر بل الخلق، فالإنسان له مراحل في هذه الدنيا: في بطن الأم، وفي الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

أربعة دور. وفي الدار الأولى له حالان: حال حياة، وحال موت، فهو قبل أن تُنفخ فيه الروح ميت، وبعد أن تُنفخ فيه الروح حي، وآخِرُ مرحلة هي الآخرة، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، ولهذا قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وفي الدنيا يمكن أن يكون لهم خلاق، أي نصيب من هذا الثمن القليل الذي اشتروه، أرأيت لو حلف على دعوى مليون ريال لجاءه مليون ريال – هذا نصيب في الدنيا، لكنه والله بئس النصيب. كل الدنيا ليست بشيء.

لَـو سَاوتِ الـدُّنْيا جَنَاحَ بَعُوضَـةٍ ... لـم يَسقِ مِنْهـا الـربُّ ذا الكُفْـرَانِ

لَكِنهَّـــا والله أَحْقَـــرُ عِنْـــدَه ... مِـنْ ذَا الجَنَـاحِ القَاصـرِ الطَّيَـرَانِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

أولئك أيضًا لا يُكلِّمهم الله تكليم رضا، ولكنه قد يُكلمهم تكليم إهانة. فإن الله- سبحانه وتعالى- يقول لأهل النار: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وهذا كلام من الله، ولكنه كلام تقريع وتوبيخ وإهانة، والمنفي هو تكليم الرضا.

قوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾:

يعني: ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف ورأفة؛ وذلك لأنهم ليسوا أهلًا للرحمة. قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأما غيرهم فليس لهم من رحمة الله نصيبٌ في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ فيها قراءة «إليهُم» ولا ينظر إليهُم، وعندي قاعدة في هذا مكتوبة عندي في المصحف، تقول: هذه ضوابط في القراءات عامة في جميع القرآن: ضمير «هو وهي» الأولى بضم الهاء «هُو» والثانية بكسرها «هِي» عند جمهور القراء مُطلقًا، وسكَّن الهاء

فيها «الكسائي» و«قالون» و«أبو عمرو» بعد الواو والفاء واللام ... مثل: فَهْو، فَهْي، وَهْو، لَهْي «لَهْو الغني» «لَهْي الحيوان ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يجوز القراءة السبعية ونقول على رأي الجمهور (لهِي) بكسر الهاء وسكَّنها «الكسائي» وقالون أيضًا في قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وضمير (عليهِم) (لديهِم) (إليهِم) مكسور الهاء. وقرأه «حمزة» بضم الهاء (عليهُم) (إليهُم) (لديهُم)، مكسور الهاء ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ يقول: وقرأه «حمزة» بضم الهاء ومنه قوله هنا: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

يوم القيامة هو يوم البعث، وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة:

الأول: قيام الناس من قبورهم، والثاني: يوم يقوم الأشهاد، والثالث: يُقام فيه العدل. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾:

يعني: ولا يُطَهِّرَهُم من آثار رجسهم التي تلوثوا بها في الدنيا. فآثامهم باقية لا تُغفر - والعياذ بالله - فلا زكاء لهم عند الله لأنهم ليسوا أهلًا للتزكية.

ولهذا يُنادى يوم القيامة على الظالمين ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] يعني: طَردُهم وإبعادهم عن رحمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

(العذاب) معناه النَّكال والعقوبة و(أليم) بمعنى: مؤلم؛ لأن فعيلًا في اللغة العربية تأتي على عدة أوجه: تأتي بمعنى فاعل، وتأتي بمعنى مفعول، وتأتي بمعنى: مفعل. مثالها بمعنى فاعل سميعٌ بصيرٌ رحيمٌ، كلها بمعنى فاعل. ومثالها بمعنى مفعول: قتيلٌ جريحٌ ذبيحٌ وما أشبهها. ومثالها بمعنى مفعِل: هنا في هذه الآية أليمٌ بمعنى مؤلِم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، وينصبُّ هذا على العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله مُداهنةً أو مُراعاةً أو من أجل مال، فإنهم اشتروا بعهد الله ثمنًا قليلًا؛ لأن الله عَهِدَ إلى العلماء أن يُبيِّنوا العلم. وقد مرَّ بنا أن العلماء ثلاثة أقسام:

عالم أمة، وعالم دولة، وعالم ملة، فعالم الملة: لا يشتري بعهد الله ثمنًا قليلًا، بل يُبين الملة ولا يُبالي. وعالم الدولة: يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا ليكون له جاه عند الدولة، وربما ليعطي مالًا،

وعالم الأمة :هو الذي يُراعي الأمة، ينظر ماذا تشتهي الأمة «أي عامة الناس» فيُفتي به أو يقول به، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه، فإذا رأى الأمة على شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه، وإذا طلبوا منه شيئًا غير سائغ في الشرع، ولكنه يرى أنه يرضيهم وافقهم عليه.

٢ - تحريم اليمين الغموس؛ لقوله: ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

٣ - أن اليمين الغموس، وعدم القيام بعهد الله، من كبائر الذنوب. وكون ذلك من كبائر الذنوب أمر زائد على كونه مُحرمًا؛ لأن الكبيرة أعظم من مُطلق التحريم، ووجه كونها كبيرة؛ لأن فيها وعيدًا، وكل ذنب رُتِّب عليه وعيد فهو من كبائر الذنوب.

٤ - أن مَنْ وفى بعهد الله، وحلف على صدق، فإنه لا يُحرَمُ النصيب في الآخرة. ووجهه أنه إذا كان من اشترى بعهد الله ثمنًا قليلًا، أو بيمينه لا خلاق له في الآخرة، فإن ضده له خلاق. وهذا الطريق من الاستدلال أخذناه من قول الشافعي -رحمه الله- على قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال: في هذه الآية دليل على رؤية المؤمنين لله؛ لأنه لما حجب هؤلاء في الغضب كان دليلًا على رؤية الآخرين في حال الرضا.

٥ - إثبات الآخرة؛ لقوله: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٦ - أنه ينبغي للإنسان أن تكون الآخرة هي هدفه، ومغزاه، ومراده. ولهذا قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولم يقل في الدنيا؛ لأنه قد يكون لهم نصيب في الدنيا ولكن لا خير فيه.

٧ - إثبات الكلام لـلــــه؛ لقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ووجه ذلك أنه لو كان الله لا يتكلم لم يكن لنفي الكلام مع هؤلاء فائدة، فلولا أنه يكلم ما صار عدم تكليمه لهؤلاء عقوبة.

٨ - أنَّ كلام الله من أفعاله الاختيارية التي يفعلها متى شاء؛ لأن هذا الكلام الذي نفى الله عنهم نفاه في وقت مُعين، وهو يوم القيامة، فدلَّ ذلك على أن الكلام من أفعال الله الاختيارية التي تكون بمشيئته سبحانه وتعالى.

٩ - أنَّ من عقوبة هؤلاء مع حرمانهم من النصيب في الآخرة أن الله لا يُكلمهم. وهذا من أعظم العقوبات – والعياذُ بالله – ولهذا كان النظر إلى وجه الله من أفضل الثواب، وأعظمه، وأعلاه، بل هو غاية الثواب والفضل.

١٠- إثبات نظر الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ وهل فيه دليل على إثبات العين لله؟ لا لأنه لا يلزم من النظر العين كما قلنا، إننا نثبت سمع الله ولا يلزم أن نثبت الأذن، وهذه مسألة يجب أن نتفطن لها؛ لأنه لا يلزم من الكلام وجود اللسان والشفتين، ولا يلزم من السمع وجود الأذنين، ولا يلزم من النظر وجود العينين.

وهنا مسألة: يوم القيامة تحدث الأرض أخبارها فهل لها لسان وشفتان؟

الجواب: لا. وكان الحصى يُسبح بين يدي رسول الله ﷺ(١) فهل له لسان وشفتان؟ لا.

وهنا مسألة أخرى: هل تسمع الأرض أو لا تسمع؟

الجواب: تسمع؛ لأنها تُحدث أخبارها. فلولا أنها تسمع ما حدثت، ولما قال الله تعالى للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فُصِّلَت: ١١] خاطبهما فسمعتا أولًا؟ فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١].

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، أي ما عُمل عليها كما قال السلف، ما عُمل عليها من خير وشر، والذي يُعمل على الأرض إما قول يُسمع، وإما فعل يُنظر، إذن فهي ترى ومع ذلك لا نقول لها عينان. فإذن لا يلزم من ثبوت نظر الله ثبوت العين. ولكن العين ثابتة بنصوص أخرى. فإن لله تعالى عينين اثنتين لا تُماثلان أعين الخلق؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، إلَّا أن إثبات العينين ليس من هذه الآيات، ولكن من أدلةٍ أخرى كقول النبي ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُم لَيسَ بِأَعْوَرٍ»(٢).

الجمع في الآيات من أجل التعظيم كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١]، مع أن الله ليس له إلَّا يدان اثنتان.

١١- أن هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، والمراد به النظر الخاص، أما النظر العام فإن الله تعالى لا يحجب عن بصره شيء.

١٢- إثبات يوم القيامة وأنه حق؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٣- إثبات ما تضمنه هذا الوصف، وهو أنه يُقام فيه العدل، ويقوم فيه الناس من قبورهم لرب العالمين، ويُقام فيه الأشهاد.

١٤- أن هؤلاء المشترين بعهد الله، وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا يُزكيهم الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا جاءت الكلمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فهؤلاء لا يُزكيهم الله في الدنيا بل يظهر عُوارهم، ويفضحهم في الدنيا حتى يعرفهم العباد، ويعرفوا سقوط عدالتهم وزوال زكائهم، كذلك لا يُزكيهم الله يوم القيامة، فلا يُقبل منهم صرفًا ولا عدلًا.

١٥- إثبات العذاب؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، والكائن في الدنيا قد يكون بفعل الله، وقد يكون بفعل عباد الله الذين هم

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٣١٩٨)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١١٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٧١٢)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

حزبه، فمن أمثلة ما يكون على يد عباد الله قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وما حصل على الكفار في غزوة بدر وغيرها. ومما يكون من فعل الله ما حصل يوم الأحزاب، فإن الأحزاب تَفَرَّقوا عن المدينة لا بفعل الرسول ﷺ وأصحابه ولكن بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب؛ لأن الآيات سياقها واحد، وفي أول الآيات قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وهنا قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾، اللَّيّ معناه: العطف، ومنه لَيّ الحبل. فمعنى يلوون ألسنتهم: أي يعطفونها. و(اللَّيّ) هنا يشمل (اللَّيّ) اللفظي و(اللَّيّ) المعنوي. واللَّيّ اللفظي تارة يأتون بكلام من عندهم، ويقرأونه قراءة الكتاب المنزل فيتوهم مَن يسمعه من الناس أنه من الكتاب المنزل، يعني: يلحن الكلام كما يلحن القرآن، فيظنه السامع أنه من عند الله، هذا نوع. والنوع الثاني: من اللَّي اللفظي التحريف، تحريف الكلم بلفظه، كما حرف بعض المبتدعة قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] إلى قوله: «وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا» يريد بذلك أن يكون التكليم من موسى إلى الله.

أما التحريف المعنوي فهو تفسير الكلام بغير ما أراد الله، فيقول: معنى الآية كذا وكذا على خلاف ما أرادها الله به، فصار اللَّيُّ ثلاثة أقسام:

الأول: لَيّ باللفظ، لكنه لا يتعلق بنفس الكتاب المنزل، إنما يأتي بكلام من عنده فيأتي به يتغنى به كما يتغنى بالكتاب المنَزَّل، فيظن السامع أنه من عند الله.

والثاني من اللَّيّ: لَيٌّ لفظي يتعلق بتغيير هيئة الكتاب المنَزَّل، وذلك ما يسمى بالتحريف اللفظي.

والثالث: اللَّيّ المعنوي، فيقول: معنى الآية كذا وكذا، وهذا لا شك أنه لَيٌّ باللسان يلوون

ألسنتهم بالكتاب؛ لأن الكتاب يريد كذا وهم يقولون المراد كذا، هؤلاء المُحرِّفة اللذين يُحرِّفون الكلم عن مواضعه.

قوله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾:

اللام هذه يحتمل أن تكون للتعليل، ويحتمل أن تكون للعاقبة، والفرق بينهما أن لام التعليل تحمل على شيء، ولام العاقبة تكون غاية الشيء. فمثلاً إذا قلت: حضرت لأقرأ، اللام للتعليل، يعني: أن الذي حملني على الحضور هو القراءة، وإذا قلت: اصطدت هذا الصيد ليكون غداءً لي، هذه للعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فإن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا السبب أبدًا، ولو علموا أنه يكون عدوًّا وحزنًا لهم ما التقطوه. هنا ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ هل المعنى أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يضلوكم فتظنوا أنه من عند الله، أو أنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب من غير قصد فتظنونه من عند الله؟

الظاهر الأول. أنهم يفعلون هذا ليوهموا الناس أنه من عند الله. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: لتظنوه من الكتاب المنزل، وهو من الكتاب الملوي الذي حصل به اللَّيّ والتبديل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: هذا إبطال لما أرادوه من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب فيظن الظان أنه من الكتاب فقال الله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ والكتاب الذي أشير إليه هنا التوراة إذا كان هذا اللَّيّ واقعًا من اليهود، والإنجيل إذا كان هذا اللَّيّ واقعًا من النصارى، و«الكتاب» اسم جنس صالح لهذا وهذا.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: الضمير يعود على مَنْ لووا ألسنتهم بالكتاب يقولون: هو من عند الله. فأبطل الله هذه الدعوى بقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولهذا يحسن بالقارئ أن يقف فيقول مثلاً: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ثم يقول: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ويقف، ثم يقول: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: أيضًا هم يقولون على الله الكذب سواء بالتحريف اللفظي، أو بالتحريف المعنوي.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يقولون هنا مضمنة معنى يفترون، ولهذا تعدت بعلى «يقولون على الله الكذب» في أحكامه وفي أفعاله وفي أسمائه وفي صفاته، وفي كل ما يتعلق به -سبحانه وتعالى-، فهم مثلاً قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكذبوا، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وكذبوا، وقالوا: إن الله تعب واستراح، وكذبوا. وكل ما وصفوا الله به مما لا يليق به فهم كاذبون فيه.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

الجملة حالية حال من الواو في يقولون، يعني: يقولون الكذب وهم عالمون بأنه كذب، فيكون هذا أشد إثمًا ممن قال الكذب، وهو لا يعلم أنه كذب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ كلمة «ما كان» تُستعمل في الشيء الممتنع شرعًا أو قدرًا، فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾. هذا ممتنع شرعًا وقدرًا. وقوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] ممتنع قدرًا، بل ممتنع وصفًا؛ لأنه لا يُتصور أن يأتي به القدر، مستحيل أن يكون الله تعالى ناسيًا أو منسيًا. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ممتنع شرعًا، ولو شاء أن يُعذبهم وهو فيهم لعذبهم، ولكنه ممتنع شرعًا.

﴿لِبَشَرٍ﴾ البشر هو الإنسان من بني آدم، وسُمي بشرًا لظهور بشرته؛ فإن بشرة الإنسان ظاهرة بارزة ليس عليها شعر ولا صوف ولا وبر ولا ريش ولا زعانف بادية. وقيل: سُمي بشرًا لظهور أثر البِشارة عليه فيما إذا أُخبر بما يسره، ولا مانع من أن يكون سُمي بشرًا لهذا ولهذا، والحكمة من أن الله تعالى جعل الآدمي بارزالبشرة ليعلم الآدمي أنه مفتقر إلى اللباس الحسي، فينتقل من ذلك إلى العلم بأنه مفتقر إلى اللباس المعنوي وهو التقوى، وأنه بحاجة إلى أن يعمل الأسباب التي تستره معنى كما هو يعمل الأسباب التي تستره حِسًّا، وهذا من حكمة الله -عزَّ وجلَّ-. يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي واحد من البشر، أي إنسان، أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ أي يُعطيه إياه إيتاءً شرعيًا، وكذلك إيتاءً قدريًا.

﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكم أي: بما أوحي من الكتاب، كما قال الله - تعالى- للنبي محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ يعني: الإخبار بالوحي، وإنما قال: «والنبوة» مع قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾، قال ذلك لأنه قد يطلق إيتاء الكتاب على من أرسل إليهم به، لا من أرسل به، كما في

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، فالذين أوتوا الكتاب هنا ليسوا أنبياء. إذن لا يلزم ممن أوتي الكتاب أن يكون نبيًّا، ولهذا قال: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ لئلا يتوهم واهم أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين أُرسل إليهم بالكتاب، والمراد بالذين أوتوا الكتاب -هنا- الذي أُرسل بالكتاب لا الذي أُرسل إليهم به، بل الذي أُرسل بالكتاب إلى غيره.

وقوله: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ النبوة بتشديد الواو: إما أنها من النَّبْوَة وهي الارتفاع، وعلى هذا فتكون الواو أصلية؛ لأن رُتبة النبي أعلى طبقات الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] وإما أن تكون الواو مُسهلة واصلها النبوءة فتكون مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وذلك لأن الرسول مُنَبأ ومُنبِئ، مُنَبأ من قبل الله- عزَّ وجلَّ-، ومُنبِئ لمن أُرسل إليهم يُخبرهم ويُبشرهم ويُنذرهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، هذا هو الممتنع، وهو الذي انصبَّ عليه النفي، أي: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب بالرسالة، والحكم بين الناس بهذا الكتاب والنبوة أي: الرفعة، ثم بعد ذلك يقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله. أي: كونوا مُتعبدين لي، اعبدوني من دون الله، اعبدوني بالطاعة، اسجدوا لي، اركعوا لي، انذِروا لي، وما أشبه ذلك، هذا لا يمكن؛ لأن مَنْ آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة إنما جاء لضد هذه الأشياء، ليمحق هذا الشيء، لا ليدعو الناس إليه.

وقوله: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، إذا قال قائل: هل المُراد اعبدوني ولا تعبدوا الله؟ أو المُراد اعبدوني وإن عبدتم الله؟ المسألة إما أن يكون الإنسان عابدًا لله وحده أو عابدًا لغيره، أو عابدًا معه غيره، أما العابد لله وحده، فهذا مُخلص، والعابد لغير الله دون الله هذا مُشرك، أو نقول: مُستكبر عن عبادة الله ومتعبد لغيره، والعابد لله ولغيره هذا مُشرك، فنقول: من دعا الناس إلى عبادته وحده دون الله فهذا قد دعاهم إلى عبادته دون الله، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ولم ينههم عن عبادة الله؛ فإن حقيقة دعوته أنه دعا الناس ليعبدون دون الله؛ لأن الله غني عن عبادة هؤلاء. فإذا أشركوا بالله غيره تمحضت العبادة لغير الله؛ لقول الله -تعالى- في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ[1]»[2]، وبهذا يزول الإشكال في قوله: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فنقول: هل أحد قال للناس: اعبدوني ولا

(١) معناه أنه غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد في مسنده (٩٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعبدوا الله؟، أو هل أن المُراد بالآية هذا المعنى؟ فنقول: لا، لا يتعين، فالآية تشمل الوجهين جميعًا، تشمل من دعا إلى عبادة نفسه وألّا يعبد الله، ومن دعا إلى عبادة نفسه وإن عُبد معه الله؛ لأن الأول واضح أن يقول: اعبدوني ولا تعبدوا الله، والثاني: من لازم الإشراك ألّا تكون العبادة لله؛ لأن الإنسان إذا أشرك مع الله أحدًا فإن عبادته لله باطلة، يعني: سواء وجدت أم لم توجد. ويحتمل أن يكون المراد بالدون هنا معنى سوى، [من دون الله] أي من سواه. وليس المُراد منع الجمع بل من سواه أي: معه، فإن صحَّ هذا التفسير فلا إشكال، وإن لم يصح فقد تقدم الإشكال وجوابه.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ هذا الاستدراك استدراك واقع في مقابلة النفي الذي صدرت به الآية: «ما كان لبشر أن يؤتيه الله ثم يقول ... ولكن». إذن لابُدَّ أن يكون هناك حذف وتقديره: ولكن (يقول) كونوا ربانيين، أي (يقول للناس) كونوا ربانيين، كونًا شرعيًا، لا يملك أن يقول لهم كونوا كونًا قدريًا، لكن يملك أن يأمرهم شرعًا بأن يكونوا ربانيين، ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ نسبةً إلى الربِّ، ونسبةً إلى التربية، فالرباني هو من كان عبدًا للرب عزَّ وجلَّ، الرباني هو الذي يُربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالرباني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره مُضافًا إلى الله ربوبية، وباعتباره مُضافًا إلى الإصلاح تربيةً.

قوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي مُخلصين للرب مُتعَّبدين له.

قوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي مُربين للخلق على ما تقتضيه الشريعة.

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾: الباء - هنا- للسببية، أي بسبب تعليمكم الكتاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾؛ لأن الذي يُعلِّمُ الكتاب مُربٍّ. ولهذا كلما كثر الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس؛ لأن المفروض في المُعلم ألّا يكون مُعلمًا للناس تعليمًا نظريًا جدليًا؛ لأن هذا يمكن أن يُدركوه بالكتب، لكنه ينبغي أن يُعلمهم تعليمًا نظريًا وتعليمًا تربويًا. وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يُعلم الناس تعليمًا مقرونًا بالتربية مصحوبًا بها، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك، فلننظر مثلًا إلى سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس، ومنع المطلق ثلاثًا من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يُردَع الناس. فالحقيقة أن المُعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علمًا فحسب، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علمًا وأخلاقهم تربية.

قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ الباء هذه للسببيه و«ما» مصدرية أي: بكونكم، وعلامة (ما) المصدرية أن يحول ما بعدها إلى مصدر، فقوله: بما كنتم أي بكونكم تعلمون. وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ فيها قراءتان: إحداهما (تُعلِّمون) أي: تعلمون غيركم، من التعليم، وقراءة أخرى بما كنتم (تَعلَمون) أي: تعلمون أنتم بأنفسكم.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أعم؛ لأنه لن يعلِّم إلَّا من عَلِم. ولكن مع ذلك نقول: إن القراءتين كل

واحدة منهما تدل على معنى لازم للآخر، فيكون المعنى بما كنتم تُعلِّمون وتعلَمون.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا مفعول أول على التشديد، أي: تُعلِّمون، لكنه مفعول واحد، وحذف المفعول الثاني أي: بما كنتم تُعلِّمون الناس الكتابَ. وأما على قراءة (تعلَمون) فالكتاب مفعول واحد فقط ولا تتعدى إلى مفعولين.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد بالكتاب الجنس، يشمل التوراة والإنجيل والبعض منها والكل.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: أي: بما كنتم تقرأون أنتم، بما كنتم تعلمون وتدرسون تقرأونه، فيكون عندكم للكتاب علم لفظي وعلم معنوي، فالعلم اللفظي: يكون بالدراسة، والمعنوي: يكون بالعلم والتعليم، وقوله: «وبما كنتم تدرسون»، نقول فيها ما قلنا فيما سبقها بأن الباء للسببية و«ما» مصدرية.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: فيها قراءتان: قراءة (ولا يأمْرَكم) وقراءة ولا (يأمرَكم)، أما عن قراءة النصب (ولا يأمرَكم) فهي معطوفة على قوله: (ثم يقول للناس) يعني: وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يأمركم أن تتخذوا الملائكة ... فتكون معطوفة على قوله: (ثم يقول للناس)، وأما على قراءة التسكين فإن الفتحة تقدر عليها؛ لأن التسكين هنا ليس تسكين إعراب ولكنه تسكين تخفيف، تخفيف اللفظ؛ لأن قول القائل: (ولا يأمرْكم) أخف من قوله: (ولا يأمرَكم) ولهذا نقول هو منصوب على القراءتين لكنه منصوب على قراءة الفتح بالفتحة على الأصل، ومنصوب على قراءة التسكين بفتحة مُقدرة على آخره، وسَكَّنَ للتخفيف.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾: يعني: وما كان له أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، كما أنه لا يقول لكم: كونوا عبادًا لي، فإن هذا مستحيل غاية الاستحالة أن يمنَّ الله على شخص بالكتاب والحكمة، ثم يأمر الناس بعبادته أو يقول: اعبدوا الملائكة والنبيين واتخذوهم أربابًا. هذا شيء مستحيل.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الملائكة جمع مَلك، وأصله: مألك من الألوكة، وهي الرسالة، فصار قلبًا على وجه الإعلال الصرفي إلى ملأك، فزحزحت الهمزة إلى مكان اللام، وقدمت اللام إلى

مكان الهمزة. وأصل الألوكة الرسالة؛ قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

والملائكة هم عالم غيبي خلقهم الله - عزَّ وجلَّ - من نور، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناسلون، وإنما هم عباد لله مُكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولهم أعمال وأوصاف.

ثم قال: ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ فيها قراءة (والنبيئين) على تحقيق الهمزة.

﴿أَرْبَابًا﴾ جمع ربٍّ يعني: أربابًا تُعبد من دون الله، وتُقصد من دون الله. فإن هذا مستحيل أن يقع ممن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

قال الله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: الاستفهام هنا للنفي، يعني: لا يمكن أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون، وفي قوله: (يَأمُرُكُم) قراءتان (يأمْركم) تخفيفًا و(يأمُركم) على الأصل.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يعني: بعد أن تقرر إسلامُكم وثبت، فإنه لا يمكن أن يأمركم بالكفر.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]:

١ - أنَّ فريقًا من أهل الكتاب يُحرِّفون الكلم، إما لفظًا، وإما معنىً.

٢ - سوء مقصد هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، وهو إضلال الناس ليحسبوه من الكتاب.

٣ - أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يحب لعباده الهُدى، وأن يهتدوا، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حتى لا يغتر الناس بهذا الذي حصل من هؤلاء.

٤ - الحذر من الكفار، ومن زخارف القول التي تصدر منهم؛ لأنهم يُلبسون الحق بالباطل، ويريدون أن يُضلوا الناس.

٥ - الحذر ممن اتصف بصفاتهم من هذه الأمة فصاروا يلوون ألسنتهم بالكتاب. وإنما قلنا ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»[1]، فإذا كان في أهل الكتاب من يلوون ألسنتهم بالكتاب، فسيوجد في هذه الأمة من يلوي لسانه بالكتاب.

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ (لتتبعن) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

٦ - أن أهل الكتاب منهم من يفتري الكذب على الله، ومن ذلك كذبهم في عقوبة الزاني المُحصن. فإن عقوبة الزاني المُحصن عندهم الرجم، أن يُرجم حتى يموت، ولكن لما كثر الزنا في أشرافهم عَدَلوا عن هذا، وقالوا: نُسوِّد وجهه، ونطوف به هو والمرأة التي زنى بها على حمار، يكون دُبر أحدهما إلى دُبر الآخر. وهما راكبان على الحمار، ونطوف بهم في العشائر بين الناس. فحرَّفوا وكتموا، حرَّفوا حيث ادعوا أن هذا هو حد الزنى للمُحصن، وكتموا حيث قالوا: ليس في التوراة الرجم. ولهذا لما أنكروا أن يكون في التوراة الرجم طلب النبي ﷺ منهم أن يأتوا بالتوراة فأتوا بها، فجعل القارئ يقرأ، ووضع يده على آية الرجم لأجل أن يُخفيها. ولكن أُمِر أن يرفع يده، فلما رفع يده وإذا بآية الرجم تلوح بيّنةً واضحة، فأمر النبي ﷺ برجمها، أي رجم الزاني والزانية[1]. فالحاصل أنه من طريق أهل الكتاب أنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

٧ - الرد على النصارى الذين زعموا أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- له الحق في أن يُعبد من دون الله، ولهذا يقول الله له يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: لا يمكن أن أقول هذا، والنصارى يدَّعون أنَّ من دينهم التثليث، أي أن الله ثالث ثلاثة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]:

١ - أنَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بالعلم النافع؛ فإنه لا يمكن أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٢ - أنَّ مَنْ أَلْزَمَ الناس أو أراد منهم أن يتبعوا قوله مهما كان؛ فإنه قد جعلهم عبادًا له؛ لأن طاعة الشخص من العبادة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال له عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، قال: «أَلَيسَ يُحِلُّونَ مَا حرَّمَ الله فتحلُّونَه، ويُحرِّمونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَه؟ قَالَ: نَعمْ، قَالَ: فَتِلكَ عِبادَتُهم»[2]، فقد لا يقول الإنسان للناس: اعبدوني، اركعوا لي، واسجدوا، لكنه قد يقول: التزموا بما أقول، وهذا نوع من العبادة.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، والبيهقي في الكبرى (٢٠١٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

٣ - أن من منَّ الله عليه بالكتاب والحكمة والنبوة فإنه لا يأمر إلَّا بخير؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٤ - الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون مُعلمًا ربانيًا لقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، أما ما يحصل من بعض الناس، وهو أن يكون مُعلِمًا لا ربانيًا؛ فإن علمه قاصر جدًا؛ لأن فائدة العلم وثمرته هي العمل والتأدب بآداب العلم. فإذا كان هذا الرجل يملأ أدمغة الطلاب علمًا، ولكن ليس هناك سلوك وأخلاق وأعمال وعبادة، فإن تعليمه ناقص جدًا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٥- الرد على مُنكري الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والباء للسببية، ولا شك أن الأسباب ثابتة، ولكنها ليست مُستقلة بالإيجاد أو العدم، بل هي مؤثرة بما أودع الله فيها من قوة التأثير. وبهذا ندفع شُبهة من قالوا بنفي الأسباب مُحتجين بأن إثبات الأسباب يستلزم إثبات خالق مع الله. ونحن نقول لهم: إننا نثبت الأسباب، لكنها لا تؤثر بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوة. والدليل على هذا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- لما أُلقيَّ في النار قال الله للنار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، لم يتأثر بها مع أنها مُحرقة. قال أهل العلم: ولو قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾ ولم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأهلكته من البرد؛ لأنها تمتثل أمر الله -عزَّ وجلَّ-.

٦ - أن المعلم للناس يصح أن نسميه ربانيًا؛ لأنه قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولهذا نجد في تراجم العلماء -رحمهم الله- كثيرًا ما يصفون العالم بأنه العالم الرباني.

ومن فوائد قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]:

١ - إثبات الملائكة، والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، فلا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بالملائكة.

٢ - أن الذي مَنَّ الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة لا يمكن أن يأمر غيره باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا، كما أنه لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه.

٣ - أن من أمر غيره أن يكون عبدًا له فقد أمر بالكفر، ومن أمر أن تتخذ الملائكة والنبيون أربابًا فقد أمر بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٤ - أن هذا الكفر مخرج عن الملة؛ لقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

❁ التفسير ❁

(إذ) مفعول لفعل محذوف تقديره: (اذكر)، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني: اذكر يا محمد لمن أرسلناك إليهم، اذكر هذا العهد والميثاق. (والميثاق) هو العهد، وسمي الميثاق عهدًا؛ لأن كلًا من المتعاهدين يتوثق به مع الآخر (كالوثاق) الحبل الذي يشد به الإنسان.

وقوله: ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يشمل الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي.

وقوله: ﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فيها ثلاث قراءات (لَمَا آتيتكم)، (لِمَا آتيتكم)، (لَمَا آتيناكم)، وعلى كل القراءات ففيها التفات من غيبة إلى الحضور، وقوله: ﴿لَمَا آتَيْتُكُم﴾ في اللام قراءتان الأولى :الكسر، والثانية: الفتح، وقوله: ﴿آتَيْتُكُم﴾ يعني: أعطيتكم. والإيتاء هنا يراد به ما آتاه الله النبيين من أمور الشريعة، ولهذا قال ﴿مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الكتاب: معروف كالتوراة والإنجيل، والحكمة: الحكم بين الناس، وإصابة الصواب؛ لأن الحكم بين الناس وإصابة الصواب من تنزيل الأشياء منازلها، وهذه هي الحكمة.

و قوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾: يعني: ما آتيتكم من الكتاب والحكمة إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم فإنكم تؤمنون به وتنصرونه، وقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أنه يصدق ما سبقه من الكتب، ويقول مثلًا: إن التوراة حق، والإنجيل حق، وما أشبه ذلك.

والمعنى الثاني: أنه يقع مصداقًا لما سبقه من الكتاب؛ لأن الكتب أخبرت به، فإذا جاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدقًا لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنه حق، ويكون مع الوجه الأول شهادة بأن الكتب السابقة حق؛ لأن الله تعالى يقول في النبي ﷺ: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف الذي جاءت به التوراة والإنجيل وقع مصداقًا؛ لأنها أخبرت بشيء فجاء هذا الشيء فيكون مصدقًا. أرأيت لو أن أحدًا من الناس قال: إن فلانًا سيقدم اليوم بعد الظهر فقدم، صار هذا الذى قدم مصدقاً لما اخبرته،إذن لما قالت الرسل: إن محمدًا رسول الله يبعث على

الوجه الذي ذكر الله، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فجاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدقًا لها ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: للذي معكم من الكتب السابقة التي جاؤوا بها.

وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ هذا محل الميثاق يعني: إذا جاءكم هذا الرسول المصدق لما معكم فإن ميثاقي عليكم لتؤمنن به ولتنصرنه (تؤمنن به) أي: تؤمنن بأنه حق (وتنصرنه) أي: تعينونه على نشر رسالته، وعلى قتال أعدائه؛ لأن النصر هنا يشمل النصر بالعلم وبالسلاح.

وقوله: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾: لما أخبر أنه أخذ عليهم العهد والميثاق قررهم في هذا: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾.

وقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: اعترفتم والتزمتم بذلك، وقوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: أخذتم العهد الثقيل؛ لأن الإصر الذي جمعه آصار بمعنى الأشياء الثقيلة، فإصري أي: العهد الثقيل، وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ فيها قراءة (آقررتم) بمد الألف الأولى، وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ أي اعترفنا والتزمنا بأن نؤمن به وننصره، وقوله: ﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: اشهدوا يعني: ليشهد بعضكم على بعض، ولتشهدوا كلكم على الميثاق الذي بيني وبينكم وأنا معكم من الشاهدين، وكفى بالله شهيدًا، فاستشهدهم على أنفسهم، وشهد عليهم - عزَّ وجلَّ - بما حدث.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢ - ٨٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

أي: بعدما ذكر من هذا البيان والإيضاح، وأنَّ محمدًا ﷺ قد أخذ على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به، وأن ينصروه، وما أخذ على المتبوع مأخوذ على التابع؛ يعني: ما أخذ على الأنبياء مأخوذ على أتباعهم أيضًا. فإذا كان واجبًا على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه. ولهذا لما رأى الرسول ﷺ مع عمر بن الخطاب شيئًا من التوراة غضب وقال: «أَلَمْ آتِ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً؟ لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»[1]. فكيف تأتي بالتوراة والقرآن فيه غنى عن كل كتاب، كل ما في الدنيا من

---

(١) حسن: رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

الكتب فالنافع منها موجود في القرآن لا حاجة إليها، لاسيما وأنها الآن ليست من الكتب المنزلة من السماء بل فيها من التحريف والتبديل والإخفاء ما الله به عليم.

وقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني: من أمم هؤلاء الأنبياء؛ ولا ترد هذه الشرطية على الأنبياء؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شهدوا على أنفسهم وشهد الله معهم، لكن إنما ترد هذه الشرطية على أتباعهم، يعني: فمن تولي من أتباع الأنبياء بعد ما ذكر من هذا الميثاق العظيم فهو فاسق.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل. والفاسقون هم الذين خرجوا عن مستوى العدل، وعن مستوى الرجولة، وعن مستوى الإيمان فخرجوا عن الطاعة، وتولوا وأعرضوا، فهؤلاء هم الفاسقون، والمراد بالفسق هنا فِسق الكفر؛ لأن الفسق يطلق على فسق المعاصي وعلى فسق الكفر؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. هذا فسق المعصية، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠] المراد بالفسق: فسق الكفر؛ لأنه جاء في مقابل الإيمان، جاء قسيمًا للإيمان. وقسيم الشيء غير الشيء، فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] فهل هو فسق كفر أو فسق معصية؟ قيل: معصية، وقيل: كفر، وقيل بالتفصيل.

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ :الدين يطلق على الجزاء وعلى الشرط، يعني: على العمل وجزائه.

فمن إطلاقه على الجزاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٩].

وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] الدين هنا بمعنى: الجزاء.

ومن إتيان الدين بمعنى العمل والشريعة قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] أي: شريعة. وهنا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ دين الله يعني: شريعته التي شرعها لعباده، وأضافها الله لنفسه، بيانًا لأهميتها، وأنها الشريعة العادلة النافعة التي لا يقوم الخلق إلا بها؛ لأنها شريعة الله، فهي أكمل الشرائع، وأضافها لنفسه أيضًا لأنه شرعها. أحيانًا يضاف الدين إلى العامل مثل قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] أصلها (ولي ديني) فيضاف إلى العامل باعتبار أنه أخذ به وتمسك به، ويضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعباده.

وقوله: ﴿يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون، وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ، ينكر على من يطلب

غير دين الله ويوبخه. وفيها قراءة "تبغون" (أفغير دين الله تبغون) وأحيانًا نقول: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ إلَّا إذا كنا بحضرة عَوام فلا نقرأ القراءتين، وإنما نقرأ عندهم ما يعرفون؛ لأنك لو قرأت عند العامة بالقراءتين لتسلطوا عليك من جهة، ولَانحَطَّ قدر القرآن في أعينهم من جهة أخرى، ولأجلبوا عليك بالخيل والرجل، وقالوا: ما بقي عليك إلَّا أن تغير القرآن، ولتحسَّبوا عليك ليلاً ونهارًا. فإذن لا تقرأ بغير ما يعرفون، أما فيما بينك وبين الله فاقرأ هذا أحيانًا، وهذا أحيانًا، بشرط أن تكون متيقنًا لهذه القراءة؛ لأن هذا كلام الله فلا بد أن تتيقن.

قال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: الواو هذه للحال، يعني: والحال أنه أسلم له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا «أسلم» إسلامًا كونيًا ليس إسلامًا شرعيًا؛ لأن الإسلام الشرعي ليس فيه إكراه؛ ولأن الإسلام الشرعي لا يَعُم من في السماء والأرض بل يعم من في السماء، ولا يعم من في الأرض وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي: انقاد انقيادًا كونيًا، وإنما قال ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ بعد قوله: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ لإقامة الحجة على من لم يسلم لله شرعًا ولم يتبع دينه، كأنما يُقال: لقد أسلمت لله كونًا، فيجب أن تسلم له شرعًا؛ لأن الربَّ يدبر الخلق كما يشاء، شاءوا أم كَرِهُوا، هو الذي يجب أن نتمشى على شرعه، فيكون هذا كالدليل لما سبق.

وقوله: ﴿أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿مَن﴾ أتى بمن الدالة على العاقل تغليبًا لجانب العقلاء؛ لأننا لو قسنا من في السموات والأرض لكان الأكثر العقلاء؛ لأن السموات ما من موضع أربعة أصابع إلَّا وملكٌ قائم لله أو راكع أو ساجد، والسماء واسعة جدًّا، ما يعلم سعتها إلَّا الله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، السماء الدنيا أوسع بكثير من الأرض، والسماء الثانية أوسع بكثير من السماء الدنيا، وهلُمَّ جرًّا. كل سماء أوسع مما تحتها.

وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرض مفرد لكن المراد بها الجنس فيشمل الأرضين، والأرضون سبع بظاهر القرآن وصريح السنة. ظاهر القرآن قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا ليست بالكيفية، وليست بالكمية يعني: بالثقل، السماء أعظم من الدنيا، لكنها بالعدد مثلهن في العدد.

وصريح السنة قوله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِين»[1]، وفي هذا الحديث دليل على أن السبع متطابقة يعني: بعضها داخل بعض؛ لأنه يقول طوقه يوم القيامة من سبع أرضين، وهو إنما غصبه من الأرض العليا الظاهرة. فتكون الثانية في جوفها، والثالثة في جوف الثانية، وهلم جرًّا، تكون متطابقة، وبه نعرف أن من قال: إن المراد بالسبع سبع القارات فقد أخطأ؛ لأنها لو كانت سبع قارات فما هي صلة الأرض الثانية والثالثة،وما بعدها بالأرض التي حصل فيها الغصب؟

---

(١) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبويعلى في مسنده (٩٥٩) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه.

وقوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ طوعًا يحتمل أن يكون مصدرًا منصوبًا على أنه صفة لمصدر محذوف، والتقدير إسلامًا طوعًا، ويحتمل أنه مصدر منصوب على الحال مؤول باسم الفاعل. حال من قوله: ﴿أَسْلَمَ مَن﴾ يعني التقدير: وله أسلم من في السموات والأرض طائعين ومكرهين، والطوع ما فعل بالاختيار، والإكراه ما فعل بغير اختيار.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: وفي قراءة (ترجعون) بناءً على القراءة في (تبغون)، يعني: هؤلاء الذين هم مسلمون لله سوف يرجعون إلى الله -سبحانه وتعالى-، وينبئهم بما عملوا، ويحاسبهم على ما أرسل إليهم من الرسل.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة قالوا مثلاً: لو اختلفت القراءة في آية فهل لك أن تقرأ في أولها بقراءة واحدة، وفي آخرها بقراءة أخرى؟

أ - فمن العلماء من قال: نعم يصح؛ لأن الكل وارد، ولكن الراوي أو القارئ الذي رواها هو الذي يبقى على ما روى، أما أنا فمنقول إلي، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قرأ أول الآية على هذا الوجه وآخر الآية على هذا الوجه، فلي أن أقرأها بالوجهين، وهذا اختيار «شيخ الإسلام ابن تيمية»، وهو الصحيح.

ب - وبعضهم قال: لا، إذا قرأت بقراءة واحدة لا تقرأ بقراءة الثاني في آخر الآية، فمثلاً في الآية التي معنا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يصحُّ، ويكون المراد ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ من في السموات والأرض.

أما في الإعراب فنقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ فيها استفهام يليه حرف عطف، وقد ذكرنا في مثل هذا التركيب للعلماء قولين:

القول الأول: أن الهمزة للاستفهام، وحرف العطف الذي بعدها عاطف لما بعدهُ على مقدر بينه وبين الهمزة يعينه السياق.

القول الثاني: أن الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف على ما سبق، لكنها أُخِّرت لتكون الصدارة للاستفهام، وتقدير الكلام على هذا الوجه (فأغير دين الله يبغون)، وهذا الوجه أحسن من الوجه الأول؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأن الوجه الأول الذي يحتاج إلى تقدير قد يعييك في بعض الأحيان أن تجد شيئًا تقدره يناسب المقام، مثلاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، إذا قلنا: إنها معطوف على محذوف قد تقدِّر؛ أغفلوا فلم يسيروا في الأرض. هنا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أضلوا فغير دين الله يبغون؛ لأن من بَغَى غير دين الله فهو ضال.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: كما أنه له السلطان الكامل عليهم في الدنيا؛ فإنهم أيضًا يرجعون إليه في الآخرة، وتقديم المتعلق يدل على العموم أو يدل على التخصيص؛ لأن المتعلق هو مفعول الفعل، وتقديم المفعول يفيد الحصر يعني: يرجعون إلى الله لا إلى غيره، وسوف ينبئهم بما

عملوا إذا رجعوا إليه.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]:

١ - أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مربوبون، متعبدون لله - عزَّ وجلَّ - كما أن غيرهم كذلك، ووجهه من الآية: أن الله أخذ عليهم الميثاق بالتكليف.

٢ - إثبات أن الميثاق يكون بما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة، بناء على القراءة الثانية (لِمَا آتيتكم من كتاب). أما القراءة التي في المصحف «لَمَا» فإنه يستفاد منها فائدة وهي: أن الله - عزَّ وجلَّ - أعطاهم العهد أو أخذ منهم العهد والميثاق بما آتاهم من الكتاب والحكمة، يعني: لكونهم أوتوا الكتاب والحكمة صاروا أهلاً لهذا الميثاق العظيم، وأنهم مهما أوتوا فلا بد أن يؤمنوا بهذا الرسول.

٣ - ما مَنَّ الله به على النبيين من الكتاب والحكمة، ويتفرع على هذه الفائدة أن من ورث هذا الكتاب والحكمة؛ فإنه قد أخذ بحظ وافر مما أنعم الله به على النبيين؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ»[1]، فيجب عليهم إذ ورَّثهم الله علم الأنبياء أن يقوموا مقام الأنبياء في الدعوة إلى الله، ونشر العلم، والجهاد في سبيله، ومن توانى منهم عن ذلك فقد قصَّر.

٤ - فضيلة نبينا محمد ﷺ، لكون الله أخذ على جميع الأنبياء الميثاق والعهد أن يؤمنوا به.

فإن قال قائل: كلمة ﴿رَسُولٌ﴾ نكرة، فما الذي يجعلك تجعلها للنبي ﷺ والأصل في النكرة أنها اسم جنس شائع لا يختص به واحد دون آخر؟

فالجواب عن ذلك أن يُقال: إن هذا الوصف الذي وصف به هذا الرسول ينطبق تمامًا على النبي ﷺ. ويدل لذلك أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «لَو كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعه إِلَا اتِّبَاعِي»[2]، ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ لما جمع الله له الأنبياء ليلة المعراج صار هو إمامهم فصار هو المتبوع، لا التابع عليه الصلاة والسلام.

٥ - أن رسالة النبي ﷺ جامعة للتصديق بجميع الرسالات؛ لقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾، ولهذا كانت هذه الأمة - ولله الحمد - واسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - هي المصَدِّقة تمامًا لجميع الرسل، وهذه ميزة ليست لغيرها.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٨٨) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) حسن: رواه البيهقي في الشعب (١٧٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

٦ - أنه يجب على الأنبياء أن يؤمنوا بهذا الرسول الذي يأتيهم مصدقًا لما معهم، وأن ينصروه؛ لقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾. وإذا كان هذا واجبًا على الأنبياء؛ كان واجبًا على أممهم؛ لأن ما وجب على الإمام وجب على تابعه. فيجب على جميع الأمم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينصروه، ومن لم يكن كذلك فقد كفر برسوله؛ لأن رسوله قد أعطى الله هذا الميثاق، ومعلوم أنهم إذا كانوا صادقين في اتباع رسولهم أن يتبعوا ما التزم به رسولهم.

٧ - أن يجوز بل يشرع في الأمور الهامة أن يقرر من أخذ عليه العهد حتى يقر ويعترف زيادة على العقد الأول الذي جرى بينه وبين معاهِده، لقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ وهذا يَرِدُ في الأمور العظيمة العامة، ونظيره من بعض الوجه أن النبي ﷺ لما قرر من اعترف بالزنا[1] سأله: أفعلت كذا، أفعلت كذا حتى قال له: أَنِكْتَها ولم يُكَنِّ. قال: نعم، قال: «كَمَا يَغِيبُ الرِّشاُ في البئرِ والمِرودُ في المِكْحَلةِ»، قال: نعم[2]، كل ذلك من أجل التثبيت.

٨ - إثبات كلام الله -عزّ وجل-، وأنه متعلق بمشيئته؛ لقوله: قال: أأقررتم، قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا، وكل هذا يدل على أن كلامه - سبحانه وتعالى- بصوت مسموع، وأنه متعلق بمشيئته. فيكون فيه الرد على الأشاعرة الذين قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأنه لا يتعلق بمشيئته؛ لأنه وصف لازم له لزوم العلم والحياة.

٩ - جواز إشهاد الإنسان على نفسه إذا قلنا: إن قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾، خطاب لكل إنسان على حدة، وأما إذا قلنا: (اشهدوا) أي: بعضكم على بعض، فليس في الآية دليل على ذلك. لكن الإشهاد على النفس أمر جاءت به الشريعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

١٠ - تقوية هذا العهد بهذه التقريرات، والإشهادات المختومة بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾، وما أعظم شهادة الله - عزَّ وجلَّ - في أمر من الأمور. وهذا كله مما يزيد فضيلةً لرسول الله ﷺ، أن يؤخذ مثل هذا العهد المؤكد بهذه المؤكدات من أجل الإيمان به ﷺ ونصرته.

١١ - أنه إذا كان واجبًا على الأنبياء، والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينصرونه، كان إيماننا نحن به ونصرته من باب أولى؛ لأننا ننتسب إليه، وننتمي إليه، ونعتقده إمامنا، عليه الصلاة والسلام، فكان واجبًا علينا أن ننصره. ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه جنبًا إلى جنب، وأما نصره بعد وفاته فهو نصر سنته ونشرها، وبيانها للناس، والدفاع عنها، والجهاد في نصرتها، كل هذا واجب على الأمة الإسلامية. وبناء على ذلك يجب على الأمة الإسلامية أن

---

(١) لقصة الاعتراف انظر صحيح البخاري (٦٤٣٨)، ومسلم (١٦٩٢).

(٢) هذا اللفظ رواه أبوداود (٤٤٢٨)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٣٣٤٠)، وأبويعلى في مسنده (٦١٤٠)، وابن حبان في صحيحه (٤٣٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٥٠١).

ترفض كل وارد إليها من أعداء الله إذا كان مخالفًا للسنة؛ كل شيء يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان مخالِفًا لسنة الرسول ﷺ، فإن أقل ما يقال في النصرة أن يُرفض هذا الشيء، وأن يضرب به وجه مورده، وألّا يكون له مكان بين الأمة الإسلامية؛ لأنه كيف يكون نصره، ونحن نستورد من أعداء هذه النصرة ما يخالف هذه النصرة؟ من ادعى ذلك فهو كاذب. فإن فعله يكذب قوله، ولو كان صادقًا لكان أول ما يقوم به من نصرة شريعة الله أن يرفض كل ما خالف شريعة الله.

ومن فوائد قوله عزّ وجل: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]:

١ - أن الفسق يطلق على الكفر. ومن شواهد ذلك قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

٢ - أن من تولى قبل قيام الحُجة عليه، لم يحكم عليه بالفسق؛ لقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ويتفرع على هذا فائدة مهمة وهي: أن الشرائع لا تلزم قبل العلم. وهذه مسألة عظيمة جدًّا، اختلف فيها العلماء اختلافًا طويلاً عريضًا، لكن من تأمل نصوص الكتاب والسنة، وتأمل أيضًا ما لله من صفات عظيمة، تبين له أن الشرائع لا تلزم قبل العلم؛ لأن الله كتب على نفسه أن رحمته سبقت غضبه[1]. ولو قلنا بوجوب الشرائع قبل العلم لكان الغضب سابقًا على الرحمة؛ لأننا نلزم الإنسان بشيء لم يعلمه. لكن ربما يكون من الإنسان تفريط في السؤال، أي لا يسأل، فحينئذٍ قد نلزمه قبل أن يعلم من أجل تفريطه، أما لو لم يكن مفرطًا كإنسان نشأ في بادية، ولا يعلم شيئًا عن الدين، وليس عنده علم، ولا طرأ على باله، فكان يصلي على جنابة بدون اغتسال، وبقي على ذلك عشر سنوات أو أكثر، فجاء يسأل نقول له: ليس عليك شيء؛ لأنك لم تعلم بوجوب الغسل من الجنابة، لكن لو كان في البلد، ويسمع ويستطيع أن يسأل، فربما نلزمه بقضاء ما مضى، ومن ذلك ما يحدث لكثير من النساء التي تبلغ بالحيض وهي صغيرة، ولكنها لا تصوم بناء على أنها صغيرة، وأن الصوم لا يلزم إلّا من تمَّ لها خمس عشر سنة، ثم تأتي تسأل، فإذا علمنا من حالها أنها معذورة بالجهل؛ فإننا لا نلزمها بقضاء ما فات من الصيام لأنها معذورة، وهذا في الذي ينتسب إلى الإسلام نعذره، ونحكم بإسلامه، ونصلي عليه إذا مات، أمَّا من لا ينتسب إلى الإسلام فهذا كافر، كافر في الدنيا، وأما في الآخرة فعلمه عند الله، فالقوم الذين لم تبلغهم الدعوة وهم كفار، هؤلاء كفار في الدنيا لو ماتوا لا نصلي عليهم، ولا ندعو لهم؛ لكن في الآخرة، الصحيح أن أمرهم إلى الله، وأن الله - تعالى- يمتحنهم بما يشاء من تكليف. فمن استطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار،

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٦)، وابن ماجه (١٨٩)، وأحمد في مسنده (٧٤٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه مسألة يجب الانتباه إليها.

أما من ينتسب إلى الإسلام ولكنه على حال تكفره؛ من تَرْكِ واجب، أو فِعْلِ محرم، وهو لم يبلغه الشرع؛ فإن القول الراجح أنه لا يحكم بكفره؛ لأنه معذور. ولهذا تجد في نصوص الكتاب والسنة كلها أو غالبها مقيدًا ببلاغ الرسالة بالعلم، أو بالتَّبيين وما أشبه ذلك. وهذا كما قلت لكم هو مقتضى صفة الله - عزَّ وجلَّ - وهي أن رحمته سبقت غضبه، والحمد لله رب العالمين. ولهذا يقول ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾. وأما من قال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إن هذا القيد من أجل عِظَم الشناعة عليهم، وأن من تولى وإن لم يتبين له الأمر فهو فاسق، لكن قيده بالبعدية من أجل عِظَمِ الشناعة عليهم، فهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن ما قيد بوصف فالوصف عائد له نفسه، لا إلى شيء آخر. وهنا الذي قيِّد بالبعدية التولي، فإذا تولى بعد أن بلغه العلم فهو فاسق.

ومن فوائد قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]:

١ - أن من ابتغى غير دين الله، ولو في التنظيم، وما يسمى بالقانون، فإنه مستحق لهذا التوبيخ العظيم، ويدل لذلك قوله -تعالى- في سورة المائدة، وهي آخر ما نزل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وحكم الجاهلية: كل ما خالف حكم الشرع، فهو حكم جاهلية؛ لأن حكم الشرع مبني على علم، وما سواه مبني على جهل. وهذا في غاية ما يكون من التوبيخ، والتقريع أن تبتغي حكمًا جاهليًا وتدع حكم العليم الخبير، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وبه نعرف أن من ابتغى حكمًا غير حكم الله فهو من أضل عباد الله، وأسفه عباد الله، وأخسر عباد الله، وأنه لن تصلح له أمور دينه ولا دنياه والعياذ بالله.

٢ - إن من شرط صحة العمل، وقبوله أن يكون موافقًا لشرع الله، وجهه أن الله أنكر على من ابتغى دينًا غير دين الله، ولهذا كان من شرط العبادة الإخلاص لله، وموافقة شريعة الله.

٣ - تشريف هذا الدين الذي شرعه الله؛ لأن الله أضافهُ إلى نفسه فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

٤ - إقامة الحجة على أنه لا يليق بالإنسان أن يبغيَ دينًا غير دين الله وهو مربوب مملوك لله؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وقد تقدم أن هذه الجملة يحتمل أن تكون حالية، ويحتمل أن تكون استئنافية.

٥ - عموم ملك الله وسلطانه. ويؤخذ من قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وهذا تمام السلطان والملك أن كل من في السموات والأرض فهو مستسلم لله، طائعاً كان أم مُكرهًا.

ولذلك لا أحد يمكنه أن يشد أو يقاوم قدر اللـه. لو جاء أعتى خلق الله يريد أن يقاوم ما

أراد الله تعالى قدرًا لا يمكنه ذلك أبدًا. فرعون جبار عنيد أُغرق بما كان يفتخر به: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٥١] أُهلك بالماء الذي كان يفتخر به. وعادٌ استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة، فأُهلكوا بالريح، هواء سخره الله عليهم حتى دمرهم، فأصبحوا لا يُرى إِلَّا مساكنهم. هذا تمام القوة والقدرة، وضعفاء الإيمان اليوم إذا قيل لهم: ارجعوا إلى دينكم، تُنصَروا على أعدائكم، قالوا: كيف ونحن لا نعرف أن نصنع الإبرة، كيف نقاوم أهل الصواريخ، والمدافع، وأهل القنابل الموجهة؟! لم يعلموا أن الأمر بيد الله -عزَّ وجلَّ-، وأنه -سبحانه وتعالى- إذا شاء أطبق عليهم الأرض تطبيقًا، وخسف بهم إلى السابعة بكلمة واحدة. لو صَدَّقنا الله لَصَدَقَنا الله، ولكننا في الحقيقة ضيعنا أمر الله، فلما نَسِينَا الله نَسِيَنا الله - عزَّ وجلَّ - وتركنا.

سمعت أنا قبل سنوات أن الله أرسل على واشنطن، عاصمة أمريكا، صواعق من هذا الغمام الذي هو مثل القطن، صواعق دمرتها تقريبًا، حتى قطعت أسلاك الكهرباء، وصارت هذه العاصمة التي هي من أكبر عواصم الدنيا صارت دامسة، وحصل سطو ونهب عظيم على الفنادق ومحلات التجارة، وهذه الصواعق من أدنى شيء. الزلزال يضرب الأرض، وفي لحظة واحدة يدمر مئات المدن والقرى. قد حصل هذا الزلزال بكلمة واحدة (كن) انقلب أعلى الأرض أسفلها، وتغيرت معالم الأرض كلها.

فنحن إذا صدَّقنا الله صدَقنا الله. يذكر أن «سعد بن أبي وقاص» ﷛، وهو يُطارد الفرس من مدينة إلى مدينة، حتى وصل إلى دجلة، فانتقل الفرس إلى المدائن من وراء دجلة من الشرق، وأغرقوا السفن، وكسَّروا الجسور، من أجل أَلَّا يعبر إليهم المسلمون. وقف سعد ليس معه إِلَّا الإبل والخيول والراجلة، لا يستطيع أن يجاوز مكانه، فنادى سلمان الفارسي ﷛ وقال له: يا سلمان، أعطنا من تصميمك للحرب؛ لأنه هو الذي أشار على الرسول ﷺ بحفر الخندق. قال: والله يا سعد لا حيلة إِلَّا ما كان من تقوى الله، ولكن دعني أنظر في القوم - يعني الجُند - إن كانوا على تقوى من الله، فإن الذي فلق البحر لموسى سييسر لنا العبور على هذا البحر؛ لأن هذه الأمة خير من أمة موسى - الله أكبر، إنه الإيمان -.

فذهب سلمان فنظر في الجند فوجدهم في الليل يبيتون لربهم سُجدًا وقيامًا، وفي النهار في شأن الحرب، وما يصلح الحرب، فرجع إليه بعد ثلاث وقال: هم على خير ما يرام، ولكن استعن بالله واعبر، فنادى سعد بن أبي وقاص في القوم وقال: إنا عابرون إن شاء الله، ولكن سأقف، وأقول: باسم الله، وأُكبِّرَ الله ثلاثًا، فإذا كبرت الثالثة فاعبروا. ففعل فقال: بسم الله، ثم كبَّر، ولما كبَّر الثالثة عبر الناس يمشون على الماء، والنهر يسير ويقذف بزبده، وليس مثل البحر واقفًا، ولكنه يجري، يقول أهل التاريخ: حتى إنَّ الفَرَس إذا تعب أنشأ الله له ربوة من

الأرض، فوقف الفرس عليها يستريح، حتى عبروا دجلة. فلما رآهم الفرس ضجوا وصاحوا وقالوا: إنكم إنما تُقاتلون جنًّا، لا طاقة لكم بهؤلاء، فِرُّوا، ففروا وخرجوا من المدائن[1]، وانكسروا ولله الحمد براية التوحيد والجهاد الذي أُنشئ على التقوى؛ لتكون كلمة الله هي العليا وليس طلبًا للشهرة، وليس من أجل القومية، أو العصبية، أو الوطن، ليس على بالهم إلَّا أن تكون كلمة الله هي العليا، يكون هذا القرآن هو القانون لأهل الأرض.

أهل المدائن هربوا منها، عاصمة الفرس، فجاء المسلمون وفتحوها، وكسبوا من الأموال ما لا يعلمه إلَّا رب العباد مثلما قال النبي ﷺ: «لَتُنفقَنَّ كُنوزَهُما - كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصر - فِي سَبيلِ اللهَ»[2]، وأخذوا التاج - تاج كسرى - وهو الذي يجلس تحته، ويضعه فوق رأسه، مُرصع باللآلئ والذهب، وما شاء الله من حُلي الدنيا، فأرادوا أن ينقلوه، فلم يجدوا إلَّا جملين كبيرين يحملانه من المدائن إلى المدينة، فحملوه على جملين، من المدائن إلى المدينة ثم وضعوه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وما أدراك ما عمر - الذي عَدَلَ فعدلوا، وآمن فآمنوا، قال وهو ينظر إليه: والله إن قومًا أدوا هذا لأمناء. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: نعم يا أمير المؤمنين إنهم أمناء لأنك كنت أمينًا، ولو أنك رتعت لرتعوا؛ - الله أكبر - فهذا تاج كسرى من المدائن يوزع بين المسلمين في المدينة. من الذي نصرهم حتى عبروا النهر بخيلهم ورجلهم إلَّا الله عزَّ وجلَّ. لماذا لا نؤمن بهذا؟ والله إننا ضعفاء الإيمان. أليس الرب -عزَّ وجلَّ- وهو أصدق القائلين وأقدر الفاعلين يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١] تأكيدات لفظية ومعنوية في الآيتين من الله -عزَّ وجلَّ- توجب علينا الأخذ بما جاء في هذه الآية الكريمة.

بأي شيء ننصر الله؟ لأن الله شرط: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

نرى الآن النكبات تأتي على المسلمين متنوعة وما رأينا أحدًا إلَّا القليل النادر يقول: يا جماعة، ارجعوا إلى دينكم، البلاء منكم. من الذي يتكلم ويقول: إن الخطأ خطؤنا، والظلم ظلمنا، فلنرجع إلى ربنا، حتى لا يسلط علينا هؤلاء الظالمين؛ الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، تأتي النكبات وكأنها حوادث مادية، لا علاقة لها بالدين مع أننا مسلمون. هذه الحوادث ما تكون إلَّا بفعلنا. الكافر ربما يعطى في الدنيا ما

(١) البداية والنهاية (٧/ ٧٤ و ٧٥).

(٢) رواه البخاري (٢٩٥٣)، ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

يُريد لأنهُ عجلت له طيباته في الحياة الدنيا، ينعم في الدنيا أكثر مما يُنعم المسلم، حتى إذا انتقل إلى الآخرة صار العذاب عليه أشد؛ لأنه ينتقل من نعيم إلى عذاب، فيفقد هذا الذي يُدركه في الدنيا فيكون عليه أشد وأعظم.

لهذا وصيتي للمخلصين في مثل هذه الظروف أن يدعُوا الناس ويقولوا: ليس ما أصابنا هو حدث مادي أو خلاف من أجل المال أو الاقتصاد أو الحدود أو الأرض أو ما أشبه ذلك، وإنما هو قدر إلهي سلط بعضنا على بعض لأننا أضعنا أمر الله: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، أما أن نبقى هكذا، كأن شيئًا لم يجرِ، التاجر في كذبه وغشه، والموظف في خيانته وعدم القيام بالعمل، كل إنسان في الذي هو فيه، فهذا لا شك يدل على موت القلوب وقسوتها، وأنها لا تتعظ، وأن الأمور والحوادث يوشك أن تتطور وتتغير إلى أسوأ؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - يقدر مثل هذه الأمور لعلنا نحدث توبة، كما قال الرسول ﷺ في الكسوف: «... وَلكنَّها آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى يَعْتَبِرُ بِها عِبَادُه، فَيَنظُرُ مَنْ يُحدِث له منهم تَوبةً»[1]، ولكن أين القلوب الواعية؟! نسأل الله تعالى أن يُعيذنا من قسوة القلوب وغفلتها.

الحاصل أن الله ينكر على هؤلاء الذين يبغون دينًا غير دين الله، ويقول: كيف تبغون غير دين الله، والأمر كله لله، وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا.

٦ - إثبات السموات، وأنها عدد، وقد جاءت الأدلة بأنها سبع، وكذلك الأرضين هي سبع، لكن لم يفصح الله -تعالى- بها في القرآن، بل قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وجاء الإفصاح بها في السُّنة.

٧ - أنَّ الرجوع إلى الله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يرجعون في الدنيا، ويرجعون في الآخرة. أما في الدنيا فإن المرجع إلى الله في الأحكام؛ الحكم لله، العبادة لله، والأمر كله لله، والنهي كله لله. نرجع إليه، وإلى شرعه، لا إلى رأي فلان وفلان، ولا إلى قانون فلان وفلان، ولا إلى نظام فلان وفلان، إنما نرجع إلى الله. كذلك نرجع إليه في الآخرة، وسوف يُحاسب كل إنسان على ما عمل. فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

٨ - إثبات البقاء لله؛ لأنه إذا كان مرجع كل الخلق لزم من ذلك أنه سيبقى - عزَّ وجلَّ - ليكون مرجعًا لجميع الخلق.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٠١٩٠) من حديث سمرة بن جندب ﷺ، وقال الشيخ شعيب: إسناده ضعيف لجهالة ثعلبة بن عباد.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]

❁ التفسير ❁

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ خطاب له وللأمة، ما لم يقم دليل على أنه خاص به. والمتأمل في الخطاب الموجه للنبي ﷺ يتبين له أنه على ثلاثة أقسام:

قسم دلَّ الدليل على أنه خاص به، وقسم دلَّ الدليل على أنه له وللأمة، وقسم ليس فيه دليل.

أما ما دلَّ الدليل على أنه خاص به فهو له، يختص به، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وأما ما دلَّ الدليل على العموم، فهو على العموم، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وما سوى ذلك فإنه يكون عامًّا له وللأمة، لكن وُجِّه الخطاب إليه باعتباره الإمام لأمته -عليه الصلاة والسلام-، والخطاب الموجه للإمام موجه له ولمن كان مؤتمًا به؛ ولهذا لو وجه الضابط أمرًا إلى القائد لكان هذا الأمر للقائد، ولمن كان تبعًا له. فهنا يقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وأمته. بيان أن هذا هو المراد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]. فقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله يتضمن أمورًا: الأمر الأول: الإيمان بوجوده، الثاني: الإيمان بربوبيته، الثالث: الإيمان بألوهيته، الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته. لكن الثلاثة الأخيرة لابد من توحيده بذلك أي: توحيده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات، أما الوجود فشامل له ولغيره، وإن كان وجود الخالق يختلف عن وجود المخلوق. فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن، ومن آمن بوجوده ولم يؤمن بربوبيته على وجهٍ عام شامل، فهو لم يؤمن بالله، ومن آمن بالله وربوبيته ولكن لم يؤمن بالألوهية فليس بمؤمن. ومن آمن بذلك كله ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن؛ لكن الأخير فيه تفصيل، قد يخرج من الإيمان بالكلية وقد لا يخرج.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: وهو القرآن الكريم، والسُّنة النبوية، كلاهما مُنزل. قال الله

تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] فيشمل القرآن والسُّنة.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾: وما أنزل على إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-، وهو أبو الأنبياء، والذي نعرف مما أنزل إليه الصحف كما ذكر الله ذلك في موضعين من القرآن؛ في سورة النجم، وسورة الأعلى، فقال تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]، وقال في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

وإسماعيل، لم يصل إلينا كتابه الذي نُزِّلَ إليه، ولم نعرف إلَّا أنه أُنزل إليه، ولكن مع هذا يجب علينا أن نؤمن بما أُنزل على إسماعيل.

وإسماعيل هو الولد الأول لإبراهيم، وهو أبو العرب، وهو الذي صبر ذلك الصبر العظيم حين قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقال هذا الابن الحليم: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ولله دَرُّه من ابن، ابن لم يبلغ، ولكنه بلغ مع أبيه السعي، وهو أشد ما تكون النفس تعلُّقًا به؛ لأن الكبير من الأولاد قد زلت النفس عنه، والصغير لم تتعلق به بعدُ ذلك التعلُّق، ومع ذلك فإن إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- نفَّذ ما أمره الله به، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥]، لكن أرحم الراحمين -سبحانه وتعالى- نسخ هذا الأمر حين أسلما وتلَّه للجبين.

(أسلما): يعني: استسلما وانقادا لأمر الله، وتلَّه للجبين كابًّا له على الأرض، لئلا يرى وجهه حين يذبحه، فلما قارب أن يذبحه جاء الفرج من الله -عزَّ وجلَّ-، وهكذا يكون الفرج، كلما اشتدت الكُرب، فانتظر الفرج. كما قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا»[1] ولن يغلب عسر يُسرين كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: ٦].

---

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٣٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).

والحاصل أن إسماعيل هو الولد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح بلا شك؛ لأن الله لما ذكر قصَّة الذبح في سورة الصافات قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ [الصافات: ١١٢] بعد هذا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾. «وإسحاق» ذكر بعده للترتيب الزمني، والظاهر – والله أعلم – للترتيب المنزلي أيضًا؛ لأن إسماعيل أفضل من إسحاق؛ لأن إسماعيل أبٌ لأشرف الخلق محمد ﷺ، وإن كان إسحاق أبًا لأكثر الأنبياء، فالأنبياء من ولد إسحاق أكثر من الأنبياء من ولد إسماعيل، لكن العبرة بالأفضلية. محمد ﷺ أشرف الخلق من ذرية إسماعيل، فالظاهر – والعلم عند الله – أنه أخَّره ذِكرًا؛ لأن إسماعيل أفضل منه وأسبق. أفضل منه قدرًا، وأسبق زمنًا ... ومع ذلك فكل منهم في المرتبة الأولى من مراتب الخلق ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] أسأل الله أن يجعلنا من رفقائهم.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَعْقُوبَ ﴾ ويعقوب بن إسحاق وهو المُلقب بإسرائيل، والذي يُنسب إليه بنو إسرائيل. وأخره عن الاثنين؛ لأنه مُتأخر عنهما زمنًا.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾: جمع سِبط. وأصل السِّبْط في اللغة «ابن البنت»[1]، ولهذا يُقال في الحسن والحسين رضي الله عنهما سِبطًا رسول الله ﷺ. وابن الابن يُسمى حفيدًا ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢] أي: أبناء ابن، وفي المراد بهم قولان:

القول الأول: أن المراد بالأسباط أولاد يعقوب وأنهم أنبياء.

القول الثاني: أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل الذين فيهم الأنبياء، وعلى هذا فيكون في الآية على هذا المعنى، تقدير: أي وما أُنزل على أنبياء الأسباط، ويؤيد القول الأول أنه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأن الثاني يحتاج إلى تقدير، وتقديره أنبياء الأسباط. وإذا دار الكلام بين أن يكون ذا تقدير أو خاليًا منه حُمِل على الخالي منه لأنه الأصل، والأصل عدم التقدير؛ لكن يضّعفه أن الأسباط هم أبناء البنات، وهنا لا يتناسب مع الآية؛ لأن أولاد يعقوب أحفادٌ لإسحاق أو أحفادٌ لإبراهيم وليسوا أسباطًا، والقرآن نزل باللغة العربية فيجب أن تحمل الكلمة في القرآن على المعنى اللغوي ما لم تكن حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي، فإذا وجد حقيقة شرعية تمنع من حمله على المعنى اللغوي اتبعنا الحقيقة الشرعية، كالصلاة مثلاً في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: هي التعبد لله تعالى بذات الأقوال والأفعال المعلومة؛ المفتتحة بالتكبير،

---

(١) انظر لسان العرب (٧/ ٣٠٨).

المختتمة بالتسليم.

يُضَعِّفُهُ كذلك أنه لم يقم دليل على نبوة أولاد يعقوب إِلَّا يوسف، ويوسف من الأنبياء لا شك، أما أولاده الآخرون الأحد عشر فإنه لم يَقُم دليلٌ على كل واحدٍ منهم بخصوصه أنه نبي، والنبوة وصف عظيم يحتاج إلى بينة ودليل وبرهان تدل على أن هذا الشخص متصف بها.

ثم يضعفه أمرٌ ثالث وهو: فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسف، وما حصل منهم من الكذب حيث جاءوا على قميصه بدم كذب، وقالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، ثم اتهامهم لأبيه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، المهم أن هناك قرائن تدل على ضعف أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب، ويخرج منهم يوسف بدلالة الكتاب والسنة على أنه نبي.

إذن يترجح القول الثاني أن المراد بالأسباط الشعوب، يعني: وما أُنزِلَ على الأسباط بواسطة أنبيائهم؛ لأن المنزل على أنبيائهم منزلٌ عليهم: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ العدول عن التعبير بالإنزال إلى الإيتاء.

فقال بعضهم: لأن ما أوتيه موسى وعيسى نوعان: وحي، وآيات كونية محسوسة بقي ذكرها إلى نزول القرآن الكريم، ومعلوم أن الوحي يُسمَّى إيتاءً؛ لقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]. والآيات المؤيِّدة للرسالة هي أيضًا إيتاء. فقوله: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يشمل ما نزل من الوحي، وما حصل من الآيات، وذكر هذا؛ لأن ذكر الآيات والعلم بها بقي إلى نزول القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾: وحي وآيات، أما الوحي فالتوراة التي هي أفضل كتاب بعد القرآن، وأشمل كتاب وأعم كتاب وأهدى كتاب بعد القرآن: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩]. فقرنها الله مع القرآن. هذه التوراة نزلت على موسى، وهذا إيتاء الوحي، وأما إيتاء الآيات، فمن أعظم ما حصل له العصى واليد، وقد حصل في العصا ثلاث آيات عظيمة:

والآية الأولى في العصى: ألقاها على سحرة آل فرعون فالتَهَم جميع حِبَالهم وعِصِيِّهم، فالتهمها التهامًا، وهي ثعبان، والحبال والعصي قد ملأت الأرض، ومع ذلك هذا الثعبان يأكلها، ولا يُدرى أين تذهب؛ لأنها أكبر منه حجمًا، ولكن مع ذلك - قدرة الله فوق كل شيء

- ولم يتماسك السحرة لما رأوا هذه الآية العظيمة، حتى خرُّوا ساجدين. ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]. في كلمة ﴿وَأُلْقِىَ﴾ انظر كلمة ألقي كأنهم جاءوا وسجدوا من غير عقل، لقوة ما ورد على قلوبهم من الآيات التي يعرفون أنها ليست سحرًا.

والآية الثانية في العصى: أنه ضرب بها البحر فانفلق، صار اثني عشر طريقًا، بين كل طريق وآخر كُتَلٌ من الماء كأنها جبال، كل جبل كالطود العظيم، وقد ذكر بعض العلماء أن الله جعل في هذا الماء فُرجًا من أجل أن يطمئن الناس بعضهم إلى بعض، يُشاهد بعضهم بعضًا من هذه الفرج. هذا الماء الذائب المائع كأنه مسلح، وبلحظة ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧].

لو اجتمعت نيران الدنيا كلها لتيبس أرض البحر في هذه اللحظة ما تمكنت،أو رياح الأرض كلها، أو المخترعات، ما تمكَّنت، ولكن قدرة من يقول للشيء "كن" فيكون، جعلت هذا أمرًا ممكنًا وواقعًا.

الثالث من الآيات العظيمة للعصى: أنهم إذ استسقوا يعني: حصل عليهم نقص في الماء، ضرب موسى الحجر بهذه العصا فتفجَّر اثنتا عشرة عينًا، كل عين لسبطٍ من أسباط بني إسرائيل حتى لا يقع النزاع بينهم والمزاحمة والمشاقة. هذه من الآيات التي أوتيها موسى.

أما عيسى فأوتي أيضًا وحيًا، وآيات؛ الوحي: الإنجيل الذي كان متممًا للتوراة مبنيًا عليها، وآياتٌ حسيَّة منها: أنه يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُحيي الموتى، ويُخرجهم من القبور، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا يطير.

قال تعالى: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ [آل عمران: ٤٩]، وفي قراءة (طائرًا). والفائدة من القراءتين أنه يكون طيرًا ويطير، وقد يكون الشيء على هيئة طير ولكن لا يطير، وقد يطير وليس بطير، كالطائرة - مثلاً - لكن هذا يكون طيرًا يطير، يخلق بإذن الله شيئًا على صورة الطير، والتصوير هنا جائز؛ لأنه بأمر الله، والأصل في الطاعة أمر الله؛ أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا، فكان سجودهم طاعة لله، وأمر إبراهيم أن يقتل ابنه فامتثل، فكان امتثاله لهذا الأمر طاعة، المهم من الطاعة طاعة الله إذا أمر بأي شيء، فامتثال هذا الأمر طاعة وإن كان في آنٍ آخر يكون شركًا - مثلاً- أو كبيرة من كبائر الإثم.

قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩] الأكمه: الذي خُلق بلا عينٍ، ممسوح العين، يُبرئه، ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [آل عمران: ٤٩] يقف على الميت جثة فيُحييه؛ يقول له كلمة فيحيا.

أبلغ من هذا: يُخرج الموتى من القبور، يقف على القبر، ويُكلِّم صاحب القبر، ويقوم صاحب القبر حيًّا من القبر!! هذه آية من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرة الله، وعلى إمكان البعث، كالبعث يوم القيامة يخرج الناس من قبورهم بزجرة واحدة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. هذه الزجرة بلا تريّث ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (إذا) فجائية، تدل على المفاجأة في الحال، قال تعالى في سورة القمر كلمة عامة في كل مأموراته. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ... (لمح البصر): يُضرب به المثل في السرعة. واحدة فقط، إذا أمر الله بالشيء أمرًا واحدًا. ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كلمح البصر – سبحان الله – فإذن هذه الآيات التي أُعطيها عيسى فيها دليل على إمكان البعث.

قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾: لما جاء الجمع والنبيون دون التخصيص، جاء بالإيتاء دون الإنزال، من أجل أن يشمل الآيات التي قد يكون أُعطيها بعض النبيِّين فجاءت ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عطفًا على ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، كما جاء ذلك في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ المراد بهم هنا الرسل. وكل من وُصف بالنبوة في القرآن فإنه رسول، وكل من ذُكر في القرآن فإنه رسول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. إذن فكل من قصَّ الله علينا في القرآن فهو رسول، وإن كان لم يوصف في القرآن إلَّا بالنبوة، لكنه رسول بدليل هذه الآية.

يقول تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: كل هؤلاء نؤمن بهم على سبيل السواء، بدون تفريق، والإيمان بهؤلاء إيمان مجمل، ولكن كل ما صحَّ عنهم أنهم أخبروا به وجب علينا الإيمان به، ولو تفصيلاً، هذا في الأخبار، لكن في الأحكام لا نتَّبع إلَّا ما حكمت به شريعة محمد ﷺ، فهو الذي كُلِّفنا به، ووجب علينا اتِّباعه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فالاتِّباع لمحمد ﷺ، أما الإيمان فهو عام لجميع الرسل بدون تفريق. فإذا صحَّ عن موسى أنه أخبر بخبرٍ يتعلَّق بالله، أو بخبرٍ يتعلَّق بيوم القيامة، أو بالجنة، أو بالنار، وجب علينا أن نؤمن به إذا صحَّ. أمَّا ما يُروى من الإسرائيليات فقد يكون صحيحًا وقد لا يكون. واعلم أن شريعتنا في الأحكام بالنسبة لمن سبق على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما وردت شريعتنا بخلافه فهذا لا نعمل به؛ لأن شريعتنا ناسخة لجميع الأديان،

مثال ذلك: القصاص في النفس والأطراف كان في التوراة واجبًا مفروضًا، ولا عفو، لكن في الشريعة الإسلامية كان مُخيَّرًا فيه، فَنتبَع القرآن.

القسم الثاني: ما ورد شرعنا بوفاقه فإننا نعمل به اتِّباعًا لشريعتنا المصدِّقة لما سبق من الشرائع، ولا نخالفه، وهذا كثير، مثل الطيبات، أحل الله الطيبات لنا ولغيرنا، لكن حَرَّم على بني إسرائيل بعض الطيِّبات بسبب ظلمهم.

القسم الثالث: ما لم يرد في شرعنا له وفاق ولا خلاف، هذا محل نزاع بين أهل العلم، وبحثه موجودٌ في أصول الفقه، فمن العلماء من قال: إنه شرعٌ لنا، ومنهم من قال: إنه ليس بشرع، والصحيح أنه شرعٌ لنا، لدلالة شرعنا عليه. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] ... وكذلك النبي ﷺ أحيانًا كان يُسند الحكم إلى أنه فعله أخي فلان من الأنبياء، وما أشبه ذلك، والمعنى يقتضي ذلك أيضًا؛ لأنه لولا أن لنا فائدة من قصص الأنبياء السابقين - ومن الفوائد أن نعتبر ونعمل بما عملوا - لم يكن لذكر هذه القصص شيء من الفائدة كثير.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في الإيمان؛ لأنهم رسلٌ صادقون فيما أخبروا به، واجبٌ اتباعهم فيما أمروا به أو نهوا عنه، لكن بالنسبة لنا لا يجب علينا متابعتهم في الأحكام على التفصيل الذي سمعتم.

قال: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

الضمير يعود على الله ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لأنه الأصل في سياق هذا الكلام، وكل ما بعدها معطوف عليها، فلو قال قائل: لماذا لا تجعل الضمير يعود على (أحد) في قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنه اقرب مذكور، أي: ونحن لهذا الأحد مسلمون؟ قلنا: لا يستقيم الكلام؛ لأن أصل الكلام مداره على أول جملة فيه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فيكون مرجع الضمير ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ.يعني: ونحن لله مسلمون، أي: مستسلمون ظاهرًا وباطنًا، بالقلب، واللسان، والجوارح. فهو المستحق لذلك وحده لا شريك له؛ لأن من لم يستسلم لله استسلم لغيره ولابد. إما أن نستسلم لله، وننقاد لأمره وإلَّا فإنك سوف تستسلم لهواك وتنقاد لهواك، وهواك تابعٌ للشيطان، فتكون مستسلمًا للشيطان؛ لأن كل إنسان لابد وأن يكون له إرادة وهمة، فإما أن يكون مرادك مرضاة الله - عزَّ وجلَّ - فتستسلم له، أو مرضاة نفسك فتستسلم للهوى والشيطان.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ قدم المُتعلَّق على المتعلَّق لإفادة الحصر، يعني: ونحن له لا لغيره مسلمون، ولهذا نقول: إن المؤمن إذا تعارض عنده أمر الله، وأمر الخلق قدم أمر الله مهما كان الآمر، حتى أبوك وأمك، لو أمراك بخلاف أمر الله فقدِّم أمر الله.

لو قالت لك أمك: يا بني لا تخرج لصلاة الفجر، فالمسجد بعيد، ويُخشى عليك من كلب، لا تذهب للمسجد.. فلا تُطاع.

ولو قال أبوك: يا بُني لا تطلب العلم، فهل الإنسان يمتثل أمر أبيه في هذه الحال؟. لا.

ومن أحسن ما رأيتُ في هذا الموضوع ما قاله «شيخ الإسلام رحمه الله»: (إنه لا تجب طاعة الوالدين في ترك أمرٍ ينفعك ولا يضرُّهما).. هذا كلام جيد يُكتب بماء الذهب، فكل شيء ينفعك ولا يضُرُّ والديك فإنه لا تَجِبْ طاعتهما فيه. كما لو طلبتَ العلم.

ولا يرد على هذا مسألة الجهاد – أن بر الوالدين أفضل من الجهاد – لأن الجهاد فيه تعريض للنفس بالقتل، والقتل يُقلق راحة الوالدين.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون شرعًا وقدَرًا، لكن الاستسلام القدري لا مدح فيه؛ لأنه سيكون سواء قلته أم لم تقله، لكن يُحمد على الصبر عليها؛ لأن الصبر على المصائب استسلام شرعيٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - وجوب الإقرار بالإيمان باللسان، كما هو واجب بالقلب؛ لأن قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: باللسان المعبر عما في القلب، وإن الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطابٌ له وللأمة في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: (قل آمنت) فهذا له وللأمة.

٢ - أن الإيمان بالله هو أصل كل شيء، مقدَّم على كل شيء؛ لقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، وجعل ما بعده معطوفًا عليه.

٣ - وجوب الإيمان بما أنزل علينا، وهو القرآن، يجب الإيمان به تصديقًا بالخبر، وامتثالاً للأمر، واجتنابًا للنهي؛ لأنه شريعة ومنهاج لنا.

٤ - وجوب الإيمان بما أُنزِلَ على الرسل السابقين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى آخره. ولكن الإيمان بما أُنزل إليهم هو التصديق بما جاءت به هذه الكتب من الأخبار، وأما الأحكام فإن ما خالف شرعنا ليس شرعًا لنا بالاتِّفاق، وما وافق شرعنا هو شرع لنا بالاتفاق، لثبوته بشرعنا، وما لا هذا ولا هذا، ففيه خلاف بين العلماء، والصواب أنه شرع لنا.

٥ - ثبوت نبوَّة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٦ - وجوب الإيمان بالأسباط، وقد سبق لنا أن القول الراجح أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل، أي ما أُنزل عليهم بواسطة رسلهم.

٧ - وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، من الآيات الكونية التي يُسميها بعض العلماء (المعجزات)، ومن الآيات الشرعية التي هي الشريعة التي يمشي عليها هؤلاء، فنؤمن بما أوتوا، لكن العمل بالشرائع السابقة تقدم حكمها.

٨ - ثبوت نبوَّة موسى وعيسى؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٩ - أنه يجب علينا أن نؤمن بكل الأنبياء إجمالاً؛ لأنه خصَّص ثم عمَّم.

١٠ - أن هذا الدين الإسلامي ليس فيه عصبية، ولا يجوز أن يتخذ الإسلام منه عصبية؛ لقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ ... بخلاف ما يسلكه بنو إسرائيل حيث لا يؤمنون إلَّا بما جاء عن أنبيائهم فقط، أما هذا الدين الإسلامي فـ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، كلهم عندنا رسل الله، لكن نفرِّق في العبادات، لا نتعبَّد إلَّا بما أُمرنا بالتعبد به، ويُذكر أن شخصًا حاجَّ عالمًا من علماء المسلمين، فقال له: لماذا تُجيزون لأنفسكم أن تتزوَّجوا بناتنا، ولا تُجيزون لنا أن نتزوج بناتكم، فقال له العالم: لأننا نؤمن برسولكم ولا تؤمنون برسولنا، فألقمه حجرًا.

١١ - وجوب الاستسلام لله - عزَّ وجلَّ - وحده؛ لقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. ووجه التخصيص تقديم المتعلِّق على المتعلَّق، والمتعلِّق معمول المتعلَّق، وتقديم المعمول يُفيد الحصر؛ إذن في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩] فائدتان: إخلاص الإسلام لله، ووجوب الإسلام له.

١٢ - ألَّا نستسلم لأحد استسلامًا يُخالف الاستسلام لله، ووجه الدلالة أن هذا هو فائدة الاختصاص؛ ألَّا نستسلم لأحد إلَّا لله. فإذا جاءنا أمر من مخلوق يخالف أمر الله فإننا لا نستسلم له؛ لو استسلمنا له لم نكن أخلصنا الاستسلام لله -عزَّ وجلَّ-.

١٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يشعر في كل حياته العملية - قولاً كان أو فعلاً أو تركًا - أنه مستسلم لله حتى يستفيد من العمل. عندما أتوضَّأ أشعر بأنني أنفِّذ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] هل أنت أيها المسلم تستشعر هذا؟ الله أعلم لكن يغيب عن كثير من الناس هذا الأمر، لا يشعر الإنسان حينما يتوضَّأ، ويغسل وجهه ويديه، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه، أنه يمتثل لأمر الله أبدًا.

وبذلك ينبغي أن نستشعر في هذه الحال أمرين: امتثال أمر الله، واتّباع رسول الله ﷺ. يعني: تشعر وأنت تغسل وجهك كأن الرسول ﷺ أمامك يغسل وجهه، لتكون متّبعًا له، وكذلك نقول في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها. المهم أن نستشعر أو نُشعر أنفسنا أننا نفعل ذلك امتثالاً لأمر الله، واتّباعًا لرسوله ﷺ، حتى نحقّق شرطي العبادة في كل عمل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

❁ التفسير ❁

(من) شرطية، و﴿يَبْتَغِ﴾ مكسورة، مجزومة بحذف حرف الياء؛ لأن أصلها (يبتغي).

وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾: ﴿غَيْرَ﴾: مفعول يبتغِ، و ﴿دِينًا﴾: يصح أن تكون مفعولاً ثانيًا، أي: (من يطلبه دينًا)، أو تكون تمييزًا (لغير) المبهمة؛ لأن (غير) اسم مبهم. و(يبتغي): بمعنى يطلب.

وقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ المراد بالإسلام هنا: الإسلام الخاص وهو الذي جاء به محمد ﷺ، وإن كان الإسلام في الأصل يُطلق على: الاستسلام لله في كل زمانٍ ومكان، كما ذُكِر عن الأنبياء السابقين أنهم يُطلقون الإسلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، والآيات في هذا كثيرة، أن الرسل وأتباعهم مسلمون، ولكن هذا هو الإسلام العام، أما بعد بعثة الرسول ﷺ، فكل ما يُسمّى إسلامًا فهو ما جاء به الرسول ﷺ فقط.

إذن ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: غير شريعة محمد ﷺ؛ لأننا نقول: المراد بالإسلام هنا الإسلام الخاص الذي هو شريعة محمد ﷺ.

﴿دِينًا﴾: أي عملاً يَدين به الله، ويرجو أن يُدان به بالثواب من عند الله؛ لأن الدين يُطلق على الجزاء والعمل. ففي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وفي قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] المراد به الجزاء، وفي قوله هنا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ المراد به العمل.

لكن الدين لا يكون إلَّا في عملٍ يرجو الإنسان ثوابه، أي يرجو أن يُدان به، ولهذا يُقال: «كما تدين تُدان»[1].

وقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: الفاء رابطة للجواب ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾، ليعم الرفض والرد من الله عزَّ وجلَّ، ومن الرسول، ومن المسلمين، ولهذا لا يجوز للمسلمين أن يُقِرُّوا أحدًا على دين خلاف شريعة الرسول ﷺ.

والمراد بالقبول هنا قبول الصحة، ودليل ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، أي: مردود.

فمن دان بغير الإسلام، سواء في الأصل أو في الفرع، فإن دينه هذا مرفوض، ومردود، ولن يُقبل منه، ولا يُعطى ثوابًا في الآخرة على عمله.

ولهذا قال: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: وهذه والله هي الخسارة العظيمة، أن يعيش الإنسان في الدنيا ما شاء الله أن يعيش ثم لا يكتسب ما ينفعه في الآخرة، فإذا قدم إلى ربه لم يجد شيئًا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، (القيعة) يعني: الأرض المستوية الواسعة، هذه الأرض إذا كانت في شدة الحر يتراءى للإنسان من بعيد أن فيها ماء يسمى (السراب)، فإذا جاء الإنسان ظمآنًا رأي هذا السراب الذي كأنه ماء بحر، فرح، وأسرع إليه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فصارت خيبة الأمل بعد قوة الرجاء. وهذا أشد ما يكون حسرة على الإنسان، أن تكون خيبة أمله عند قوة رجائه؛ لأن الإنسان لو لم يرجُ من الأصل لهان عليه الأمر، لكن المشكلة كونه يرجو ثم ينتكس، هذا يكون أشد. نسأل الله العافية. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] ... كل من لم يَدِن بالإسلام فإنه في الآخرة خاسر.. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يشمل خسارة النفس، وخسارة المال، وخسارة الأهل.

أما خسارة النفس فإنه لن يستفيد من عمله شيئًا، وأما خسارة المال فإنه لو أنفق ماله كله فيما ينفع الخلق، لم ينتفع به في الآخرة، أي لو أصلح الطرق، وبنى المساجد، وبنى المدارس، فإنه لا

(١) ضعيف: رواه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٢٦٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٣٦٩).

(٢) بهذا اللفظ رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (٢٥٥١١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ينفعه، وأظنكم لا تتوقَّعون أن يكون من الكافر الصريح أن يبني المساجد والمدراس، لكن يكون من الكافر المرتد، فرجلٌ مثلاً لا يُصلِّي لكنه صاحب خير، يبني المساجد، ويبني المدارس، ويُصلح الطرق، ويُطعم المساكين، لكنه لا يُصلِّي، لا ينتفع بشيء من هذا العمل لأنه كافر، والكافر لن ينفعه عمله يوم القيامة أبدًا.

وخسارة الأهل أنهم لا ينتفع بهم في الدنيا، لو دعَوا له لم ينتفع بذلك؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ولا ينتفعون بالدعاء. كذلك في الآخرة لا ينتفعون بأهليهم؛ لأن كل واحدٍ منفصلٌ عن الآخر، في نار جهنم، بخلاف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١] ... لو كان لك ذرية وتكون في الدرجة الخامسة، وأنت في الدرجة السابعة، تُرَقَّى الذرية من الخامسة إلى السابعة، ولا تُنقَصُ أنت شيئًا، لا يُقال: انزل درجة وهم يرقون درجة وتكونون في السادسة.

فالله يعامل بالفضل عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾؛ لأنه ربما يتوهم متوهم أنه إذا رُقِيت الذرية نقص ثواب الآباء، فقال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١] ولو أننا نزَّلنا الآباء ما صار العامل رهينًا بما كسب.

قوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ... الواو معطوفة على جواب الشرط، يعني: ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فإنه يترتَّب عليه شيئان: الأول الرد وعدم القبول، والثاني أنه خاسر في الآخرة؛ لأنه يعمل عملًا لن ينفعه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بطلان كل عمل ليس على دين الإسلام؛ لقوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾.

٢ - أن جميع الأديان غير دين الإسلام غير مقبولة عند الله، ولا نافعة للمتدين بها؛ لعموم قوله: ﴿غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾، فيشمل دين المسيحية، ودين اليهودية، ودين البوذية، ودين المجوسية، وكل دين، فإن الله لا يقبل غير الإسلام.

٣ - الثناء على دين الإسلام، وأنه هو المقبول المحبوب إلى الله، ويؤخذ هذا من المفهوم؛ لأن المفهوم من قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾، أن من ابتغى الإسلام دينًا يقبل منه.

٤ - أن هؤلاء الذين يدينون بدين غير الإسلام يُتعبون أبدانهم، ويهلكون أموالهم، وربما يموتون جوعًا وعطشًا وحرًا وبردًا في الدعوة إلى غير دين الإسلام، كالذين يسمونهم

المبشرين، وهم في الحقيقة منصَّرون مضلَّلون، هؤلاء ينفقون أموالاً كثيرة، ويتعبون تعبًا عظيمًا، ويتعرضون للهلاك، وكل هذه الأعمال نتيجتها هباء: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، لا يستفيدون منها إطلاقًا؛ لأنها على غير شريعة الله، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، يغلبون إذا قام المسلمون بما يجب عليهم من نصرة دين الإسلام، ولهذا نأسف أن النصارى لهم هذا النشاط في دعوتهم إلى الضلال، والمسلمون نشاطهم لا يبلغ ولا عشر معشاره مع أنهم على حق. ولكن الحق لابُدَّ أن ينتصر ولو بعد حين.

٥ - إثبات الآخرة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وفيها أن الآخرة فيها خسارة وربح أعظم من خسارة الدنيا وربحها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ليس التغابن في الدنيا أن يكون عند الرجل قصور، وسيارات، ونساء، وأولاد، وحشم، وخدم، والآخر ليس له إلَّا ثوب يكسو عورته. هذا ليس بغبن في الحقيقة، الغبن يوم القيامة حينما يُحشَر المتقون إلى الرحمن وفدًا ويُساقُ المجرمون إلى جهنم وردًا، هذا الغبن العظيم، وهذه الخسارة العظيمة. ولهذا يجب أن نعلم أن الخسران المبين هو خسارة يوم القيامة: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمَر: ١٥].

❁ قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]:

﴿كَيْفَ﴾ استفهام بمعنى الاستبعاد، أي: يَبعُد جدًّا - إن لم يمتنع - أن يهدي الله قومًا كفروا

بعد إيمانهم، يعني: ارتدُّوا بعد أن آمنوا، وعرفوا الحق، فإن هدايتهم بعيدة، وذلك لأن من عرف الحق ثم ارتد عنه، فهو أعظم جرمًا ممن لم يعرف الحق، ولم يدخل فيه وبقي على كفره، ولهذا نقول: الكافر المرتد أعظم من الكافر الأصلي في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يترك الكافر ردته، بل يُجبر على أن يعود على الإسلام أو يُقتل؛ لقول النبي ﷺ «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

فالله عزَّ وجلَّ يقول: يبعد أن يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، أما من كانوا على الكفر أصلاً فما أكثر الذين اهتدوا بعد أن كانوا على الكفر وشهدوا أن الرسول حق.

﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (ال) للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق له ذكر لكنه معلوم ذهنًا، وبالمناسبة نقول: إن (العهدية) تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

فالعهد الذكري: أن تكون داخلة على ما سبق ذكره.

والعهد الحضوري: أن تكون داخلة على شيء حاضر.

والعهد الذهني: أن تكون داخلة على شيء معلوم في الذهن.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ المراد به رسول الله محمد ﷺ؛ لأن قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ معناه: أن يتوقع أن يُهدون، وهذا لا يمكن بعد نزول القرآن إِلَّا أن يكون الرسول مُحمدًا ﷺ. ونقول مثلاً: وأنت في البلد جاء القاضي، أي قاضٍ هو؟ قاضي البلد المعروف.

العهد الذكري: أن تدخل على شيء سبق ذكره، مثل: قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزّمل: ١٥، ١٦]. المراد بالرسول: الرسول الأول الذي أُرسل إلى فرعون وهو موسى. وهنا العهد ذكريّ.

والعهد الحضوري: أن تكون داخلة على شيء حاضر، وهذه أكثر ما تكون في (ال).الواقعة بعد اسم الإشارة للحضور، للعهد الحضوري؛ لأن الإشارة تدل على المشار إليه. والمشار إليه يكون حاضرًا، فنقول: (هذا اليوم شديد الحر) أي اليوم الحاضر.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] اليوم يعني اليوم الحاضر. وقسيمة لـ «أل» العهدية هي (ال) الجنسية. (ال) الجنسية تكون لبيان الحقيقة، ولبيان استغراق الحقيقة فإذا قلت: الرجال أكمل من النساء، هذه لبيان الحقيقة (الجنس)؛ جنس الرجال أفضل من جنس

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٤)، وأبوداود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٤٠٥٩)، وابن ماجه (٢٥٣٥)، وأحمد في مسنده (١٨٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النساء. ولا يعني أن كل واحدٍ من الرجال أكمل من كل امرأة من النساء. ففي النساء من هي خير من كثير الرجال.

وتكون للعموم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] يعني كل إنسانٍ، وهذه علامتها أن يحل محلها (كل) بتشديد اللام.

وقوله: ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾: حق ثابت صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حكم به ﷺ.

وقوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: يعني: الآيات البينات التي تُبين صدق ما جاء به الرسول ﷺ والبينات مؤنث، ولم يؤنَّث فعله لوجهين:

الوجه الأول: أن تأنيثه غير حقيقي.

الوجه الثاني: أنه فصل بينه وبين الفعل.

وقد جاء في القرآن مؤنثًا: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لأنه يجوز هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الجملة استئنافية، وهي كالتعليل لما قبلها من حيث المعنى، كأنه يقول: إنما لا يهديهم الله لأنهم ظلمة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. الذين ظلموا أنفسهم حيث بان لهم الحق، واتَّضح وجهه، ومع ذلك كفروا.

(وشهدوا) معطوفة على كفروا، ولكن يُحتمل معنى آخر، وهو أن تكون للحال، يعني: وقد شهدوا أن الرسول حق، وكفروا بعد إيمانهم.

ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٧]:

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أي المشار إليهم، وهم الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، وأتى بصيغة الإشارة على وجه البعد إشارة إلى انحطاط مرتبتهم؛ لأن الإشارة إلى القريب بصيغة البعد قد تكون إشارة إلى علو المرتبة، وقد تكون إلى انحطاط المرتبة، وهنا إشارة إلى انحطاط مرتبتهم، فهم لانحطاط مرتبتهم بعيدون، يُشار إليهم إشارة البعد.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مكافأتهم على عملهم. ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾: (على) تُفيد أن اللعنة أتتهم على وجه الاستحقاق، ومن أمر عالٍ؛ لأنها لعنة الله، ولعنة الله هي طرده وإبعاده عن رحمته، أي: أنه سبحانه وتعالى طردهم وأبعدهم عن رحمة الله.

و(لعنة الملائكة) الملائكة: جمع مَلَك وأصله (مألك) وهي من (الألوكة) وهي الرسالة، لكن صار فيه إعلال بالقلب، يعني قلب المكان وليس قلب الحرف، وذلك بأن قُدِّمت اللام وأُخرت الهمزة، وصار (ملأك)، وجمع (ملأك) ملائكة، ثم سُهِّل وقيل (ملك).

والملائكة هم: جنس من المخلوقات، عالم غيبي، خلقهم الله تعالى من نور وجعلهم صُمْدًا، لا يأكلون ولا يشربون. وإذا لم يأكلوا، ولم يشربوا، فهم لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولهذا وصفهم الله بأنهم مطهَّرون، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ الناس هم بنو آدم وأصلها (أناس) فحُذِفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد لما قبلها مباشرة، أو لما قبلها وما قبل الذي قبلها؟ للجميع، الملائكة أجمعين، والناس أجمعين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حال يعني: خالدين في هذه اللعنة، ماكثين فيها، إما على سبيل الأبد، وإما على سبيل المكث الطويل؛ لأن الخلود كما قال أهل اللغة يُستعمل في المكث الطويل، ويستعمل في المكث الدائم، ولكن هنا يُراد به (الدائم)؛ لأن هؤلاء كفرة، والكفرة خالدون خلودًا دائمًا في العذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: التخفيف ضد التثقيل، أي: لا يمكن أن يُهوَّن عليهم العذاب يومًا واحدًا، ولهذا قال الذين في النار لخزنة جهنم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]. طلبوا دعاء الملائكة ليكونوا واسطة بينهم وبين الله، ثم مع ذلك لم يقولوا: (ادعوا ربنا)، قالوا: (ادعوا ربكم) من شدة خجلهم وانكسارهم أمام الله، قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] ولم يطلبوا الإنقاذ من العذاب مطلقًا، ولم يطلبوا أن يخفف عنهم العذاب دائمًا؛ لأنهم عارفون أنهم مخطئون بل خاطئون، ولذلك طلبوا أن يُخفف عنهم العذاب يومًا واحدًا، ولكن لن يكون ذلك، ولهذا قال ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العذاب: العقوبة، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي يُمهلون ويؤخرون، بل يُبادرون بالعذاب.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٧١]. وقال في أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزُّمَر: ٧٣] (جاءوها وفتحت) فصار هناك فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ لأن أهل النار يُبادرون لفتحها فيقابلهم العذاب أول ما يقدمون عليها.

وأما أهل الجنة فإنهم إذا وصلوا إلى الجنة وقفوا على قنطرة بين الجنة وبين النار، فيُقتص لبعضهم من بعض، اقتصاصًا خاصًّا، غير الاقتصاص الأول الذي يكون في عرصات القيامة من أجل أن يزال ما في قلوبهم من الغِلِّ والحقد، حتى يدخلوا الجنة وهم على أصفى ما يكونون من

المودة، إخوانًا على سررٍ متقابلين.

ولهذا نقول في الواو هنا: إنها (عاطفة على جواب الشرط المحذوف) حتى إذا جاءوها حصل كيت وكيت، وفُتحت أبوابها. وليست زائدة كما قيل به، ولا واو ثمانية كما قيل به أيضًا، بل هي واو عاطفة على الوجه المعتاد والمعطوف عليه محذوف.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلون ويؤخر عنهم العذاب، بل يُبادرون به، بل إنهم يُبادرون به قبل أن تقوم الساعة. كما قال الله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

بل إنهم يُبادرون بالعذاب قبل أن يموتوا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] .. ويوبّخون قبل أن يموتوا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وتأمل قوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ إنهم والله لأشحاء في هذه الأنفس، أشحاء؛ لأن النفس إذا بُشرت بالعذاب نكصت واشمأزّت ورجعت في الجسد (أخرجوا أنفسكم) أعطونا إياها إلى العذاب: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].. فما بالكم والعياذ بالله بهذه البشارة السيئة القبيحة في حال الخروج من الدنيا، ومفارقة الأهل، والأموال، والأوطان، إنها لساعة حرجة نعوذ بالله، ونسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة، فهم لا يُمهلون، ولا يُنظرون في العذاب من حين أن يأتيهم الأجل إلى أبد الآبدين. نسأل الله لنا ولكم العافية.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]:

اللهم لك الحمد، رحمة الله سبقت غضبه. هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق، وجاءتهم البيِّنات، وقامت عليهم الحجة من كل وجه، إذا تابوا إلى الله تاب الله عليهم. ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

وقوله: ﴿تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا إلى الله. فالتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الهرب عنه إلى اللجوء إلى بابه، وللتوبة خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله، بأن يقصد الإنسان بتوبته وجه الله، وأن يتوب عليه ويتجاوز عنه، لا أن يقصد بتوبته مراءات الخلق أو شيئًا من أمور الدنيا؛ لأن التائب قد يريد مراءات الخلق،

ليعلم الناس أنه تاب ورجع، فيمدحوه على ذلك. هذا لا تنفعه التوبة ولا تُقبل منه، أو يقصد بتوبته شيئًا من أمور الدنيا؛ يسمع أن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] وهو يريد زوجة، يقول: لعلي أتّقِي الله حتى يُيسِّر الله لي زوجة، هذه التقوى أو التوبة ضعيفة جدًّا، ولهذا قال «شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» -رحمه الله- في كتاب التوحيد- باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا:- "فهذه إرادة نازلة، لكنها ليست كالأول؛ الأول يريد أن يتقرَّب إلى الناس بما يتقرب به إلى الله، وهذا شيء عظيم أن يجعل ما لله للخلق، أما هذا فأراد أن يتقرب إلى الله من أجل أن ييسِّر له شيئًا من أمور الدنيا، والآخرة هو غفلة عنها".. إذن هذا الذي أراد بالتوبة أحد الأمرين: توبته مردودة عليه بالنسبة للأول الذي أراد الرياء، وضعيفة جدًّا بالنسبة للثاني.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل من الذنب، والندم أشكل على بعض الناس، ولكنه في الحقيقة لا إشكال فيه إطلاقًا؛ لأن معنى الندم أن يشعر الإنسان بالحسرة على ما فعل، لا أن يكون الفعل أو عدمه عنده سواءً.

الشرط الثالث: أن يقلع عن المعصية في الحال، فإن كانت لله، فإمَّا أن تكون ترك واجب أو فعل محرم، فإن كانت فعل محرم أقلع عنه، أي: فارقه حتى لو كانت شربة الخمر في فمه، وجب عليه أن يمجَّه، وإن كانت للمخلوق فلا بد أن يُعطيه حقه أو يتحلله منه إن كان ماليًا أو بدنيًا أو عِرضًا علم صاحبه.

بدنيًا: مثل الضرب، ماليًّا: مثل أخذ المال أو جحد مال يجب عليه لشخص، عِرضًا: مثل الغيبة.

هذه إن كان الذي جُنِيَ عليه قد علم بالغيبة، فلا بد من استحلاله، وإن لم يعلم فلا حاجة إلى إخباره، ثم استحلاله؛ لأنه ربما إذا علم لا يُحِل، ولكن بدل أن دنَّس سمعته في مجلس من المجالس، يمدحه بما فيه في نفس ذلك المجلس؛ لأن الحسنات يُذهبن السيئات.

وإذا كان لله، إن كان فِعْلَ محرَّم فلا بد أن يُقلع عنه، وإن كان تَرْكَ واجب وَجَبَ عليه أن يتلافاه إن كان يمكن تلافيه، وإن كان لا يمكن سقط.

مثال: رجل غصب أرضًا وجعل فيها زرعًا، وفي أثناء وجوده فيها تاب إلى الله، فمشيه داخلها مشي في معصيته، وبقاؤه إن بقي معصية، فماذا يفعل؟

قال العلماء: إن مشيه خارجًا منها ليس بمعصية؛ لأنه خروج للتخلص من المعصية. والتخلص من الشيء لا يعطي حكم الشيء، ولهذا لو أن المُحرم تلطَّخ بطيب وأراد أن يغسله

فلابد أن يُباشره، ومباشرته للطيب عند غسله جائزة؛ لأنه يريد أن يتخلص منه.

كذلك الاستنجاء، الإنسان إذا أراد أن يستنجي يُباشر النجاسة بيده، وهذه المباشَرة مباشرة جائزة؛ لأنها من أجل التخلص من هذه النجاسة وإزالتها.

وكذلك الذي تاب من الأرض المغصوبة وكان في وسط الأرض، ومشي، فنقول: هذا المشي طاعة؛ لأنك إنما مشيت من أجل التخلُّص.

الشرط الرابع: أن يعزم على إلَّا يعود؛ فإن تاب وهو لم يعزم على عدم العود فإن توبته لا تصح، كرجل من عادته أن يسهر في شرب الخمر في أماكنها – والعياذ بالله –، وفي ليلة من الليالي صارت السماء ممطرة وجاء إلى المكان، فوجده مغلقًا فقال: "تبت"، لكن من نيته أنه إذا كانت القابلة صحوًا، وفتح المكان، فسيحضر ويشرب الخمر. هذا ليس بتائب، هذا أقرب أن تكون توبته سخرية.

ورجل أراد أن يتوب من الغيبة وهو مع أصحابه الذين يأللون لحوم عباد الله – والعياذ بالله–، فقال أحدهم: «أستغفر الله وأتوب إليه، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» يا فلان ما تقول بفلان؟ فهذا توبته غير صحيحة لأنه لم يقلع، ولو أقلع في حال قوله: أستغفر الله وأتوب إليه، فهو لم يعزم على إلَّا يعود بدليل أنه من حين قال هذا الكلام قال: ما تقولون في فلان؟ هذا الرجل لم يتب توبة حقيقية؛ لأنه لم يعزم إلَّا يعود.

ولو تاب حقًا ثم سوَّلت له نفسه فيما بعد فعاد، هل تبطل التوبة الأولى أو لا؟ لا تبطل التوبة الأولى، لكن يحتاج إلى توبة جديدة للعودة الأخيرة، أما التوبة الأولى فقد تمت. ولهذا نقول الشرط: العزم ألَّا يعود، لا أن يعود، لو أنه عاد وتاب توبة نصوحًا ثم عاد، يتوب، ثم عاد، يتوب. وقد أخبر النبي ﷺ أن رجلًا كان يُذنب ذنبًا فتاب منه، ثم أذنب ذنبًا فتاب منه، ثم أذنب فتاب، فقال الله تعالى: «عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَل ما شاء»[1] لأن هذا الرجل كان مخلصًا، ولكن هذا كما قال «شيخ الإسلام ابن تيمية» رَحِمَهُ اللهُ :لا ينطبق على كل تائب، إنما أخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام عن رجل حصل منه هذا الشيء ولكن لا يحصل لكل تائب.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول؛ فإن انقطع وقت القبول فلا توبة، وانقطاع وقت القبول نوعان: عام، وخاص. فالخاص: حضور الأجل لكل إنسان بعينه. والعام: طلوع

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الشمس من مغربها، فإذا حضر الأجل فإن التوبة لا تنفع؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨] وإذا كان هذا الشرط مُحققًا، دلَّ هذا على أن التوبة واجبة على الفور؛ لأن أحدًا لا يعلم متى يأتيه الموت، فإذا كنت لا تعلم متى يأتيك الموت، لزم من ذلك أن تبادر بالتوبة، وأن يكون دائمًا على بالك أنك تائب إلى ربك، وراجع إليه، حتى إذا قدر أن الأجل أتاك بغتة، إذا أنت على أتم الاستعداد، نسأل الله أن يقينا من غفلة القلوب.

القلوب غافلة لا تَحسِب لهذا الشيء حسابًا، والواجب أن الإنسان يحسب لهذا الشيء حسابه، يكون دائمًا على ذكر التوبة، ولهذا كان نبينا ﷺ يستغفر الله أكثر من سبعين مرة، ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة[1].

أما العام فهو طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس هذه تدور بإذن الله منذ خلقها الله إلى أن يأذن الله بوقوفها، والعجيب أنها لا تتقدم ولا تتأخر؛ انظر إلى طلوعها مثلًا اليوم الثاني من برج السنبلة؛ تطلع في الساعة كذا، الدقيقة كذا، هذا اليوم نفسه من مئات السنين السابقة وهي تطلع عليه على هذا القدر من الساعات والدقائق، لو أحصيت منذ علم الناس التاريخ لوجدت أنها لم تختلف إلى يوم القيامة، وهي إذا غربت كما قال النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: «إِذَا غَرَبَتْ تَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ تَعْظِيمًا لله -عزّ وجلّ-، وَتَسْتَأْذِنُ هَلْ تَخْرُجُ وَإِلَّا تَرْجِعُ، إِمَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَهَا وَإِماَّ أَنْ يُقَالَ: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ وَتَخْرُجُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنُوا كُلُّهم»[2] كلهم يؤمنون؛ لأنهم حينئذٍ يعلمون أن لها ربًّا مُدبرًا سبحانه وتعالى، وكانوا قبل ذلك يظن بعضهم أن هذا طبيعة تسير العالم على هذا النظام، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، لا ينفعهم الإيمان؛ لأن هؤلاء آمنوا كإيمان الذين نزل بهم العذاب، والله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

---

(١) كما روى البخاري (٥٩٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (١٥٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

فتبين أن شروط التوبة إذن خمسة، وقد قال بعض العلماء إنها ثلاثة، فأسقطوا الإخلاص، وأسقطوا أن تكون في وقت القبول، ولكن لابُدَّ من هذين الشرطين.

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ (إلا) أداء استثناء، والذين مستثنى، والأصل في المستثنى أن يكون من جنس المستثنى منه، وإن خرج عن جنسه فهو على خلاف الأصل، ولابد من دليل يدل على أنه ليس من الجنس، ويُسمى المستثنى الذي من غير الجنس استثناءً منقطعًا. لكن الاستثناء هنا متصل قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ هذا مستثنى من قوله: ﴿كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني إلَّا الذين تابوا من بعد الكفر بعد الإيمان، يعني: فإن الحكم يختلف فيهم. والتوبة كما أسلفنا الرجوع من معصية الله إلى طاعته.

قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الكفر، وأتى بإشارة البعيد لانحطاط مرتبته؛ لأن البعد قد يكون من عالٍ، وقد يكون من نازلٍ، فإن كان البعد من عالٍ، أشير إليه إشارة البعيد لعلوه فهو ثناء، وإن كان أشير إليه إشارة البعيد لدنوه وسفوله فهو قدح.

قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾: يعني: أصلحوا ما جرى، أو ما كان فعلهم سببًا في فساده، يعني: أصلحوا ما أفسدوه مباشرةً أو تسببًا؛ فمثلًا إذا كان هؤلاء أئمة قادة، لَمَّا كفروا كفر من يتبعهم، فإن توبتهم لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد على أيديهم، وذلك بمحاولة إرجاع الذين كفروا تبعًا لهم إلى الإيمان، إذا كان الإنسان كفر بكتابة ما يخالف الدين، فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ولن أعود إلى كتابة ما يخالف الدين، حتى يصلح ما أفسد بأن يكتب ردًّا على ما كتب أولًا؛ لأن المفاسد المتعدية لابد فيها من إصلاح، ولهذا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، والجواب هنا قد يبدو غير مطابق لما سبق؛ لأنه قد يتوقع السامع أن يكون الجواب فإن الله يتوب عليهم، ولكن الجواب كان ثناءً على الله باسمين من أسمائه وهما الغفور والرحيم، قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ولكن يؤخذ من هذين الاسمين أن هؤلاء الذين تابوا وأصلحوا يغفر الله لهم؛ لأن مقتضى هذين الاسمين يعمهم فيغفر الله لهم ويرحمهم، الغفور هو من يغفر الذنوب، ومغفرة الذنوب هو سترها والتجاوز عنها، والرحيم هو من يرحم العباد، والرحمة صفة تقتضي الإحسان والإنعام، وفي الجمع بين الغفور والرحيم زيادة معنى على ما يتضمنه الاسمان، وهو أن الله تعالى قد جمع بين المغفرة التي بها زوال المكروه، وآثار الذنب، والرحمة التي بها حصول المطلوب وهو النعمة والإحسان. إذن إذا تابوا وأصلحوا غفر الله لهم.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله عزّ وجلّ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾:

١ - أن من ضلَّ عن بصيرة فإنه يبعد أن يُهدَى - نعوذ بالله - لقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

٢ - أن من فسق عن بصيرة فإنه يبعد أن يكون من العدول؛ فإذا قيل لشخص: هذا حرام وهو مسلم، وبُيِّن له الحق، ثم عصى واستمر على فسقه، فإنه يبعد أن يُهدى والعياذ بالله.

٣ - أن الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ فنسب الهداية إليه.

وفي آيات أخرى أن الله نسب الإضلال إليه مثل: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ولكن يجب أن تعلموا أن هداية الله وإضلاله لحكمة؛ فمن كان أهلًا للهداية هداه الله، ومن كان أهلًا للضلال أضله الله. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] والله - عزَّ وجلَّ - يعلم، إذا علم من المرء أنه لا يريد الهداية أضله الله، وإذا علم أنه يريد الهداية، وأنه حريص عليها يطلبها أينما كانت، ويسلك ما دل عليه الدليل، فإن الله تعالى يهديه ويعينه ويوفقه ويفتح بصيرته حتى يرى الحق، كأنما يتلقاه عن فِيِّ رسول الله ﷺ.

٤ - أن الإنسان قد يستكبر ويُعاند بعد أن تبين له الحق؛ لقوله: ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

٥ - أن الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي؛ لأن الله تعالى استبعد أن يهتدي هؤلاء، وأما الكافرون فإن الله - سبحانه وتعالى- ذكر في سورة (الممتحنة) أن الله تعالى قد يهديهم فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ وذلك بالإيمان، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

٦ - أن النبي ﷺ حقٌّ؛ لأن الله لام هؤلاء على الكفر بعد أن شهدوا أن الرسول حق، ولا شك أن رسول الله ﷺ حقٌّ من عند الله، صادق فيما قال وفيما أخبر به عن ربِّه.

٧ - أن الله سبحانه وتعالى لم يدع الخلق هملًا، بل أقام لهم الحجج، وأقام البينات، حتى لا يكون للناس على الله حُجَّة؛ لقوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. هذه البينات تنقسم إلى أقسام: شرعية، وعقلية، وحسية؛ أما السمعية: فهي القرآن، وأما العقلية: فهي أن كل عاقل يتدبر ما جاء به

الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم أنه حق، فإنه ما أمر بشيء فقال: العقل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال: العقل ليته لم ينه عنه، وأما الحسية: فظاهرة، انتصاراته العظيمة في هذه المدة الوجيزة، وانتصار أصحابه حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها مع أنهم كانوا أذلة مُستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، هذا من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًّا، إذن فالآيات شرعية وعقلية وحسية.

٨ - أن من أضله الله فإنما ذلك لظلم منه، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأما من طلبوا الحق وتحرّوه وتشوّفوا له فإنهم جديرون بالهداية.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾:

١ - إثبات الجزاء، وفيها أن الجزاء من جنس العمل؛ فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم، أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس، ثلاث بثلاث.

٢ - أن الملائكة ذو عقول، يفهمون، ويفعلون، وليس كما قال بعضهم: إنهم ليس لهم عقول. وما أغرب هذا القول، وما أبعده عن الصواب؛ لأننا إذا قلنا: إن الملائكة ليس لهم عقول فإننا نطعن في القرآن؛ لأن الوسيط الذي بين محمد ﷺ وبين الله مَلك، فإذا قلنا: لا عقل له، ما نأمن؛ لأن غير العاقل لا يمكن أن يحتمل قوله ولا نقضه، ونأخذ «أَنَّ لَـهُمْ عُقُولًا» من إثبات أنهم تصدر منهم اللعنة.

٣ - أن أمثال هؤلاء يلعنهم الناس جميعًا؛ لقوله: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. لكن هذا فيه إشكال، وهو أنه يوجد من الناس من يُزَمِّر وراء الكافرين، ويصفق وراءهم ويفزع معهم، فكيف قال: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟ نقول: لأنه إذا صفق معهم وزمَّر وراءهم فهو منهم، فيكون هو ملعونًا من الناس أجمعين، من الآخرين؛ لأن من أعان ضالًا فهو ضال، ومن أعان كافرًا فهو كافر. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١ - إثبات أن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، خالدون في لعنة الله، أي في الطرد والإبعاد عن رحمته، وليس ثمة إلّا النار بعد الجنة، وليس بعد الهدى إلّا الضلال.

٢ - ومن فوائدها أنهم والعياذ بالله دائمًا في عذاب، لا يخفف أبدًا، ولا ينتظرون الفرج، لا بالتخلص منه، ولا بتخفيفه؛ لقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ وهذه جملة خبرية، وخبر -الله تعالى-

لا يخلف.

٣ - أن هؤلاء يبادرون بالعذاب، فهم يبادرون بالعذاب إما في الدنيا، أو عند الموت، وعند دخول النار، ففي الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وعند الموت تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وفي يوم القيامة حدِّث ولا حرج.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١ - أن التوبة تجبُّ ما قبلها؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢ - أنه لابدَّ مع التوبة من الإصلاح؛ لقوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾، وهذا واجب في كل من يتعدى جُرمه إلى غيره، أن يقوم بإصلاح ما ترتب على هذا الجرم.

٣ - إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي المغفرة والرحمة، ولهذا نقول: كل اسم من أسماء الله؛ فإنه دال على ثلاثة أشياء: على ذات الله، وعلى الصفة، وعلى الأثر الذي يترتب على هذه الصفة، لكن هذا الثالث لا يطرد في كل اسم من أسماء الله؛ لأن الأسماء غير المتعدية لا يدخل فيها إثبات الأثر، فالعلي مثلًا فيه إثبات الاسم والصفة، والعظيم كذلك، والكبير كذلك، لكن السميع فيه إثبات الاسم والصفة والأثر؛ الاسم: السميع، والصفة: السمع، والأثر: أنه يسمع. ومن هنا نعلم أن كل اسم فلا بد أن يكون متضمنًا لصفة بدون استثناء، وليس كل صفة مستلزمة لاسم؛ قد يوصف الله بالشيء ولا يُسمى بما دلت عليه هذه الصفة، ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء، أوسع لأن كل اسم متضمن لصفة، ولا عكس.

٤ - الثناء على المصلحين، ويستلزم الإصلاح أن يكون المصلح صالحًا -هذا- هو الأصل: أن كل مصلح فهو صالح، وقد يكون المصلح غير صالح؛ فإن من الناس مثلًا من ينهى عن المنكر وهو يفعله، ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله، لكن الغالب أن المصلح حقًّا يكون صالحًا؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لإصلاح غيره وهو مضيع لإصلاح نفسه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ وهؤلاء المرتدون؛ لأنهم آمنوا أولًا ثم كفروا.

وقوله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ يعني: أنهم صاروا - والعياذ بالله - ينحدرون في دركات الكفر.

وقوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا تابوا قبل الموت عند حضور الأجل؛ فإن توبتهم لن تُقبل لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء: ١٨]. إذن يكون قوله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا حضرهم الموت، أما إذا تابوا من قبل فقد سبق أنهم إذا تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن المرتد إذا بقي على ردته، فإنه لا تُقبل توبته عند الموت؛ لقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾، وهذا لا يكون إلَّا بالردة.

٢ - أنه كلما تمادى الإنسان في الكفر، ولم يتب، فإنه يزداد؛ لأن كل وقت يمر عليه يزداد وزرًا إلى وزره، كما أن المؤمن يزداد أيضًا بزيادة الأيام إيمانًا؛ لأن كل يوم يمرُّ عليه وهو مؤمن، فإنه يضيف إيمانًا إلى إيمانه.

٣ - أن من تاب قبل أن يحضر أجله فإن الله -تعالى- يتوب عليه، كما في الآيات السابقة وهي قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾.

٤ - أن من استمر على كفره فهو ضال، وذلك لأنه اجتنب طريق الحق، وكل من اجتنب طريق الحق فهو ضال؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] فالطرق: إما حق، وإما ضلال، فمن لزم الشريعة فهو مع الحق، ومن خالف الشريعة فهو مع الضلالة.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]

❁ التفسير ❁

وهذه المرتبة الثالثة: كفروا وبقوا على الكفر إلى الموت، فهؤلاء قال: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ ولم يقل: فلن تُقبل توبتهم؛ لأنهم لم يتوبوا، بل ماتوا على الكفر، فلم يبق أمامهم إِلَّا الفداء، أن يفتدوا أنفسهم بشيء. يعني: لو جاءوا بملءِ الأرض ذهبًا، وطلبوا أن يكون فداءً لهم، فإن ذلك لن يُقبل منهم، وحينئذٍ تكون هذه الآيات قسمت الكفار الذين ارتدوا إلى ثلاثة أقسام:

(١) قسم تاب وأصلح فتقبل توبتهم.

(٢) وقسم تاب عند حضور الأجل فلا تُقبل توبتهم.

(٣) وقسم ثالث مات على الكفر فلن تُقبل فديته، ولا نقول: فلا تقبل توبته؛ لأنه لم يتب، وهذا كالذي في سورة النساء تمامًا حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] يعني: قبل حضور الأجل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٧، ١٨] هذا القسم الثاني، ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] هذا القسم الثالث؛ فتكون هذه الآيات كالآيات التي في سورة النساء.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المشار إليه من مات على الكفر، ومن لم تقبل توبته، وهو من تاب عند حضور الأجل. ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى مؤلم؛ لأن أليمًا تأتي بمعنى الفاعل، وتأتي بمعنى المُفعِل، وتأتي بمعنى المفعول، فعيل تأتي بمعنى فاعل مثل سميع يعني: سامع ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وبمعنى مفعول مثل جريح وكسير، وبمعنى مُفعِل مثل أليم بمعنى مؤلم.

ومنه قول الشاعر(١):

أَمِنْ رَيْحانةِ الدَّاعي السَّميعِ   يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يعني: ما لهؤلاء أحد ينصرهم، ويمنع العذاب عنهم، أو يرفعه عنهم؛ لأنهم حقّ عليهم العذاب، ولا يجدون لهم ناصرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ هل الواو زائدة؟ يعني: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا لو افتدى به؟ أو إن الواو مؤسسة، يعني: غير زائدة؟ نقول: الأصل عدم الزيادة، ولا موجب لقولنا إنها زائدة؛ لأن الكلام مستقيم ولو كانت أصلية، والتقدير: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا إذا بذله من غير أن يصرح بأنه افتداء، وقوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ يعني: ولو صرح بأنه افتداء، والفرق بينهما أنه قد يُعطي الأول تزلفًا لا معاوضة، وأما إذا أعطاه ابتداءً فهو معاوضة؛ هذا هو الفرق بينهما، إذن: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ سواء أعطاه من باب التودد والتحبب، أو أعطاه على أنه فداء ومعاوضة، لن يُقبل منه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن من مات على الكفر فلن يُقبل منه شيء يمنعه من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

٢ - أن الأمر يسير على المؤمن؛ لأنه يفتدي من عذاب الله بما هو أقل من ملء الأرض ذهبًا. فإذا آمن وقام بالعمل الصالح، وأدى ما يجب عليه من الحقوق المالية نجا من هذا العذاب مع أنه أقل بكثير من ملء الأرض ذهبًا.

٣ - إثبات العذاب لهؤلاء الكفار؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤ - أن هذا العذاب عذابٌ شديد مؤلم؛ لقوله: ﴿أَلِيمٌ﴾.

٥ - أن هذا الألم ألم بدني، وألم نفسي؛ لأنهم مع العذاب الشديد العظيم على البدن يعذبون عذابًا نفسيًا، وذلك بالتوبيخ والإهانة.

٦ - أن هؤلاء الكفار الذين ماتوا على الكفر لن يجدوا أحدًا ينصرهم، حتى آلهتهم التي

---

(١) وهو: عمرو الزبيدي، عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبير، فأسلم وأسلموا وعادوا.
ولما توفي النبي ﷺ، ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية. توفي سنة (٢١هـ).

يعبدونها من دون الله، تُلقى في نار جهنم إهانةً لها، وإذلالًا لها، وإهانةً لعابديها، وإذلالًا لهم؛ لأنهم إذا كانوا يتعلقون بهذه الآلهة، وألقيت في النار صار هذا أشد عليهم حسرةً.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]

❁ التفسير ❁

«لن» تفيد النفي، وتحول الفعل من الحال إلى الاستقبال وتعمل، تغير الفعل ظاهرًا وهو النصب، فتغير الفعل شكلًا ومعنىً. أما شكلًا فلأنها تنقله من الرفع إلى النصب، وأما معنىً فتنقله من الحال إلى الاستقبال، وهناك أيضًا وجهٌ آخر في المعنى، وهو أنها تنقله من الإثبات إلى النفي، يقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تُدركوه، والبر في الأصل هو الخير والعطاء، ومنه بر الوالدين، وذلك بالإحسان إليهما، فالبر في الأصل هو الخير والعطاء، ويقرن أحيانًا بالتقوى، فإذا قرن بالتقوى صار معناه: فعل الطاعات، والتقوى: اجتناب المحرمات؛ لأن الإنسان يتقيها، ويحذرها، ويبتعد عنها، إذن البر هو الخير الكثير والعطاء، فلن تنالوا ذلك ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ «حتى» هذه للغاية، وهي من أدوات النصب، فالفعل بعدها منصوب.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا﴾، «من» يحتمل أن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض، والفرق بينهما: أننا إذا جعلناها لبيان الجنس شمل المدح مَنْ تصدق بجميع ماله، وإذا جعلناها للتبعيض صار مختصًا بمن تصدق ببعض ماله، ويمكن أن نقول إنها صالحة للأمرين، فأحيانًا يكون التصدق ببعض المال أفضل من التصدق بكله، وأحيانًا يكون العكس.

وقوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولكن كلما كان المال أحب كان إنفاقه أقوى إيمانًا، وأدل على محبة الإنسان للخير؛ لأن الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل على الإنسان أن ينفقه، لكن الشيء الذي تتعلق به النفس كثيرًا هو الذي تشح النفس في إنفاقه، فإذا أنفقه الإنسان مع قوة تعلق نفسه به كان ذلك دليلًا على قوة إيمانه؛ لأنه لا يدفع القوي إلَّا بما هو أقوى منه.

لما نزلت هذه الآية قام أبو طلحة ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالي إليّ «بيرحاء»، وكانت نخلاً مستقبلة المسجد، يعني: قريبة من مسجد النبي ﷺ، وكان فيها ماء عذب طيب، يأتي إليه النبي ﷺ ويشرب منه ويتطهر به، وهذا مما يزيده رغبةً أن الرسول ﷺ يأتي إليه ويشرب منه، ويتطهر به، قال: فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مالٌ رَابِحٌ» ثم قال: «أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ»[1]. فجعلها أبو طلحة في أقاربه، في بني عمه، وأقاربه. وكان ابن عمر ﷺ إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، أما نحن فإذا أعجبنا شيء من مالنا جعلناه في الصناديق، واستعملنا الرديء، وتركنا الباقي لورثتنا، فلا يكون لنا، ولكن هكذا الشح – نعوذ بالله –.

أما الذين يريدون الآخرة فهم يرون أن مالهم هو الذي يقدمونه، ولهذا لما سأل النبي -عليه الصلاة والسلام- أصحابه ذات يوم قال: «أَيُّكُم مَالُه أَحَبُّ إِليهِ مِنْ مَالِ وَارِثِه؟»، قالوا: يا رسول الله، ما منّا أحد إلّا وماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «فَإِنَّ مَالَه مَا قَدَّمَ، وَمَالَ وَارِثِه مَا أَخَّرَ»[2]، يعني: معناه: أنك إذا بخلت بالمال، وأبقيته فإنك سوف تذهب عنه وسوف يورث من بعدك؛ لكن إذا تصدقت به وأمضيته تجده أمامك، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به لعله ينال هذا البر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: يعني: أي شيء تنفقونه مما تحبون ومما لا تحبون، من قليل أو كثير، من نفائس الأموال أو صغائرها، فإن الله به عليم، وقوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ «من» هذه بيان لـ «ما» وهي نكرة و «ما» اسم شرط، واسم الشرط يدل على العموم، فهو عموم مبين بعموم العموم في «ما» الشرطية والذي بينها «شيء»، وهي أيضًا عامة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ «الفاء» هذه في جواب الشرط رابطة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ قدم الجار والمجرور على متعلقه، والمعروف أن تقديم المعمول يفيد الحصر، فهنا نقول: إنه قدم المعمول لفائدتين: الفائدة الأولى: لفظية، وهي مراعاة فواصل الآيات، والفائدة الثانية: معنوية، وهي بيان الاعتناء بهذا المُقدم حتى كأن الله تعالى حصر علمه به، فتقديم المعمول هنا يدل على العناية والاهتمام بهذا الشيء الذي قدمه الإنسان لنفسه وأن الله به عليم.

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٢)، ومسلم (٩٩٨) من حديث أنس ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٧)، والنسائي (٣٦١٢)، وأحمد في مسنده (٣٦٢٦) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

إن الله تعالى لم يذكر هذا العلم إلَّا لما يترتب عليه من المجازاة، فإن الله إذا علمه لا يمكن أبدًا أن يضيعه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨] والله تعالى عليم بكل شيء.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - الحث على الإنفاق مما يحبه الإنسان، وفيه أيضًا أن بالإنفاق مما يحب نيل البر الذي يطلبه كل إنسان.

٢ - إثبات الأسباب، حيث إن الله أثبت للبر سببًا، وهو الإنفاق مما نحب.

٣ - أنه كلما أنفق الإنسان مما هو أحب إليه، كان أكثر لبره، وذلك لأن من قواعد الأصول أن ما علّق بوصف فإنه يزداد وينقص بحسب ذلك الوصف.

٤ - عموم علم الله -عزّ وجلّ-؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

٥ - إثبات الجزاء، وأن كل إنسان سيُجازى بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، يؤخذ من قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لأن المراد من إثبات العلم إثبات ما يترتب عليه.

٦ - جواز إنفاق المرء جميع ماله، بناءً على أن (مِن) للجنس، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء: هل يُثاب الإنسان إذا تَصدَّق بجميع ماله ويمدح؟، أو نقول: الأفضل ألَّا تتصدق بجميع المال؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيرٌ من أن تَذَرَهُم عَالةً يَتكففونَ النَّاسَ»[1]، فجعل إبقاء المال للورثة لئلا يتكففوا الناس خيرًا من أن يُحرموا من المال فيتكففوا الناس، وإذا كان هذا بالنسبة للورثة فهو بالنسبة للنفس من باب أولى، ولما نذر «أبو لُبَابَة» أن يَتصدَّق بجميع ماله قال له النبي ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيكَ بَعضَ مَالِكَ»[2]، فأمره أن يمسك بعض ماله وأن يتصدق بالثُّلث.

ومن العلماء من قال: بل يمدح الإنسان إذا تصدق بجميع ماله؛ لأن النبي ﷺ لما حث على الصدقة ذات يوم جاء أبو بكر -رضي الله- عنه بجميع ماله، وجاء عمر بشطر ماله، اى: بنصفه، وأثنى النبي ﷺ على أبي بكر، قال له: «مَاذَا تَرَكْتَ لأَهْلِكَ؟»، قال: «تَرَكْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ»[3]، والصحيح في هذه المسألة أن ذلك يختلف، فمن علم من نفسه أنه إذا

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٤١٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٣) رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة (٥٢٧).

تَصدَّق بماله لم يخنع لأحد، ولم يُذَلّ لأحد، وكان عنده من قوة التوكل على الله، والعمل ما يُغنيه عن السؤال فهنا يمدح على الصدقة بجميع ماله، وكذلك لو فرض أن الحال تحتاج إلى الصدقة بجميع المال، لكون الناس في ضرورة إلى ذلك، كانت الصدقة بجميع المال أفضل، وأما إذا كان الإنسان يخشى على نفسه أن يتصدق بماله، ويتكفف الناس، فلا يتصدق؛ لأنه لا يمكن أن يفعل شيئًا مُستحبًا، ويدع شيئًا واجبًا؛ لأن إعفاف نفسه وأهله واجب، فكونه يتصدق ثم يسأل الناس، لا شك أن هذا إذلال لنفسه؛ فالصحيح أن المسألة تختلف باختلاف الأحوال واختلاف الأشخاص.

❁ قال الله تعالى:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، و ﴿كَانَ حِلًّا﴾ الجملة من (كان) واسمها وخبرها في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ مستثنى من كلام تام موجب، إذن يتعين فيه النصب.

وقوله: ﴿فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: جملة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ شرطية، واختلف المعربون في مثل هذا التركيب، هل يحتاج الشرط إلى جواب أو لا؟ فمنهم من قال: لا يحتاج إلى جواب؛ لأن المعلوم عقلاً أو حسًا كالمذكور، ومنهم من قال: إن الجواب محذوف يدل عليه ما سبق.

وترتيبه على هذا القول: (فاتلوها إن كنتم صادقين فاتلوها)، فيكون الجواب محذوفًا دلَّ عليه ما قبله، ويحتمل أن يُقال: إن الجواب ما سبق.

وقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: الطعام: ما يُطْعَم به، فإن قرن بالشراب صار المراد به ما يحتاج إلى

مضغ، والشراب ما لا يحتاج إلى مضغ، إذا قيل طعام وشراب، وأما إذا أطلق وقيل طعام صار شاملاً لما يؤكل وما يشرب، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] فسمى شرب الماء طعمًا أو طعامًا.

﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: حلًّا بمعنى: حلالاً لبني إسرائيل، سواء كان من النبات، أو من الحيوان، أو من أي شيء كان، يعني: أن كل شيء حلال لهم في الأول، وقوله: ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل بمعنى عبد الله، وبنو عمهم هم بنو إسماعيل بن إبراهيم، فإسماعيل وإسحاق أخوان أبوهما إبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق، وقد بشر الله به جدته على لسان الملائكة: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: ﴿حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ يعني: فكان حرامًا، إذن فهناك حلال في أول الأمر، وهناك حرام في ثاني الأمر: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.

أكثر المفسرين على أن المراد بإسرائيل يعقوب؛ فهو عَلَمٌ على شخص معين، لا على قبيلة معينة، يعني: إِلَّا ما حرم إسرائيل نفسُه على نفسه، وقد حرم شيئًا من الطعام، وأبهمه الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأن (ما) اسم موصول، والاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان ولم يبين، لم يقل الله - عزَّ وجلَّ - إِلَّا ما حرم إسرائيل على نفسه كذا وكذا، فما حرمه مبهمٌ، وقال بعض أهل العلم: إنه حرم على نفسه أكل الإبل؛ لأنه أصيب بعرق النسا، وهو عرق يمتد من القدم إلى الورك في الرِّجل، ويؤلم كثيرًا ويتعب، ولكن هذا من أخبار بني إسرائيل، لا تصدق ولا تكذب؛ وحينئذٍ لا نجزم بالذي حَرَّم إسرائيل على نفسه، بل نقول هو معلوم عند اليهود، ولكننا لا ندري ما هو؛ لأن الله أبهمه. هذا على القول بأن إسرائيل علم الشخص، يعني: إسرائيل نفسه.

وقيل: المراد بإسرائيل القبيلة كما تقول: قريش، فإن قريشًا كان اسمًا لشخص معين، ثم انتقل من اسم الشخص إلى اسم ذريته القبيلة التي تنسب إليه، فيكون المراد بإسرائيل على هذا القول بني إسرائيل، وإلى هذا ذهب «صاحب المنار»[1]، إن المراد بإسرائيل بنو إسرائيل، وعلى هذا القول الذي حرم بنو إسرائيل على أنفسهم هذا مبين في القرآن: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا

(١) الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى.

﴿ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] هذا ما اختاره «صاحب المنار»، لكن هذا الرأي ضعيف؛ لأن الله فرّق بين بني إسرائيل وإسرائيل فقال: ﴿حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ [آل عمران: ٩٣] ولم يقل: إلّا ما حرموا على أنفسهم شيئًا، وإنما حَرَّم عليهم شيئًا بسبب ظلمهم، والأصل أن الشيء إذا أضيف فهو لما أضيف إليه مباشرة لا تسببًا، فالصحيح أن المراد بإسرائيل علم الشخص. لكن ما الذي حرم؟ هذا الذي نتوقف فيه؛ لأن الله تعالى أبهمه، والواجب أن نبهم ما أبهمه الله، ونقول: إن إسرائيل -عليه الصلاة والسلام- حرم على نفسه شيئًا أو أشياء ولكن لا نعلمها، حتى يأتينا خبرها عن طريق معصوم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ معناه: أن هذا أمر متقرر من قديم الزمان، وبين إسرائيل وبين نزول التوراة دهور طويلة، وأزمان كثيرة، لكن الله أراد أن يقرر بأن التحريم - أي تحريم ما أحل - كان سابقًا متقدمًا بكثير على التوراة.

وقوله ﴿تُنَزَّلَ﴾ فيها قراءتان: (تُنَزَّل) بتشديد الزاي و(تُنْزَل) بالتخفيف، وكلتا القراءتين سبعيتان، يعني: أنه يجوز أن نقرأ بهذه وهذه، والقاعدة في القراءتين أن السنة أن تقرأ بهذه مرة، وبهذه مرة؛ لأن كلتا القراءتين ثبتت عن رسول الله ﷺ، فإذا قرأت بواحدة، وهجرت الأخرى لم تأت بالسنة كاملة؛ بل اقرأ بهذا مرة، وهذا مرة، لكن بشرط أن تكون متأكدًا من القراءة؛ لأن القرآن كلام الله، فلو قرأت شيئًا لم تتأكد، وكان على خلاف ما أنزل الله، كنت مفتريًا على الله كذبًا؛ الشرط الثاني: ألَّا يحصل في ذلك تشويش، فإن حصل في ذلك تشويش، كما لو قرأت بقراءة ثانية عند العامة الذين لا يعرفون إلَّا ما في مصاحفهم، فإن ذلك حرام، لا يجوز؛ لأنه يؤدي إلى تشكك العامة، وإلى رميك أنت بالسوء، تقول: هذا الرجل يحرف كلام الله، يقرأ بغير ما أنزل الله، فتكون عرضة لسبِّ الناس، واغتيابهم، فإياك، ورحم الله امرأ كفَّ الغيبة عن نفسه، أما فيما بينك وبين نفسك فاقرأ بها، اقرأ بالقراءة الثانية إذا كنت متقنًا لها وعارفًا بها، وكذلك إذا كنت بين طلبة علم، حتى يعرفوا القراءات وينتفعوا بها.

أما بالنسبة للفرق بين «تُنَزَّل» و«تُنْزَل» فلا فرق؛ لأن التوراة نزلت جملة واحدة، سواء قيل تُنَزَّل أو تُنْزَل، أما القرآن فإنه نزل مفرقًا، فإذا جاء «نَزَّلْنا عليك» فالمراد نزوله شيئًا فشيئًا، وإذا قيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فالمراد: يعني ابتدأنا إنزاله، وإذا قيل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤] فباعتبار أنه سيكون تامًّا، وبتمامه يكون قد نزل كله.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، فقوله: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾: هي الكتاب الذي أنزله

الله تعالى على موسى، وقد نزلت التوراة مكتوبة، كتب الله تعالى التوراة في الألواح، فأخذها موسى، وتلاها على الناس، وعلَّمهم إياها، وبقيت التوراة إلى أن جاء محمد ﷺ لكن صار فيها تحريف، كما قال الله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، هذا من باب التحدي. فالأمر هنا ﴿قُلْ فَأْتُوا۟﴾ للتحدي وإقامة الحجة على ما ادَّعوه، (ائتوا بالتوراة) يعني: هاتوها فاتلوها وانظروا أن ما قلته فهو حق، أي: أن الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلَّا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم نسخ ما بقي الحل، بل نسخ حل أشياء كثيرة، كما قال عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ﴾: يعني: هناك أشياء كثيرة حُرِّمت فأحل لهم عيسى بعض ما حرِّم.

﴿فَٱتْلُوهَآ﴾ أنتم أيضًا لا نحن حتى لا تتهمونا بأننا حذفنا شيئًا وأضفنا شيئًا، اتلوها أنتم بأنفسكم حتى يتبين لكم أن ما جئت به هو الحق.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ يعني: فيما تدَّعونه من كذب ما جئتُ به، فأتوا بالتوراة فاتلوها. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ هذه الشرطية لتمام التحدي، كما أقول لك في الكلام العابر: إن كنت صادقًا فافعل كذا، فهذا من كمال التحدي وتمامه، وكان سبب هذا أن اليهود كانوا ينكرون ما جاء به النبي ﷺ، ويقولون: إنك أحللت شيئًا، وحرَّمت شيئًا، والشرائع لا تتبدل، ولا تتغيَّر؛ لأنها من عند الله، ولهذا كانوا يُنكرون النسخ، ويقولون: إن النسخ في أحكام الله مستحيل؛ لأن النسخ إما أن يكون لحكمة أو عبثًا، فإن كان عبثًا فالله مُنزَّه عنه، وإن كان لحكمة لزم منه أن الله تعالى تظهر له الحكمة بعد أن كانت خافية عليه، وهذا يلزم منه الظهور بعد الجهل، وهو أيضًا مستحيل على الله، ولهذا كذَّبوا عيسى، وكذَّبوا محمدًا ﷺ، لأن هذا نسخ، والنسخ على الله مستحيل، لا يمكن أن تنسخ الشرائع، فقيل لهم: هاتوا التوراة، والتوراة تُثبت وتُقرِّر أن الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل - كل ما يُطعم - ثم حرَّم إسرائيل على نفسه أشياء، وبقي هذا التحريم في ذريته حرامٌ عليهم، إذن هذا نسخ لكنه في الحقيقة ليس النسخ الكامل الذي يأخذ الحكم كله، ولكنه نسخ لبعض أفراده، وهو ما يُسمَّى عند بعض الأصوليين بالتخصيص، ويُسمَّى عند السلف بالنسخ.

إذن في هذا إقامة الحجة عليهم بما ادَّعوه من أنه لا يمكن أن تُنسخ الشرائع، وأنكَ يا محمد كاذب، وأن عيسى كاذب، فأراد الله أن يُبيِّن كذبهم من كتبهم.

قال الله تعالى:

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]

التفسير

﴿فَمَنِ﴾. (من) عامة، يعني: أي إنسان يفتري على الله الكذب، والافتراء معناه: التقوُّل بغير حق، يعني: أن تنسب إلى الشخص ما لم يقله، هذا الافتراء.

وقوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أي: الإخبار بخلاف الواقع؛ لأن الإخبار بالواقع يُسمَّى صدقًا، وبما يخالف الواقع يُسمى كذبًا، فمن قال بعد هذا البيان أنه لا يمكن أن تنسخ الشرائع بعضها ببعض فهو ظالم.

يقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، فقوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: المشار إليه من افترى، و﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: الجملة اسمية، و﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، وليس له محل من الإعراب، وإنما جيء به للفصل بين الخبر والصفة، وقد ذكرنا أنه يُفيد ثلاثة أمور: (التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة)، فإذا قُلت: (محمد هو الفاضل) فأنت ترى أن (هو) أكَّدت الجملة، وترى أيضًا أنها حصرت الفضل فيه، ومعلوم أن محمدًا ﷺ أفضل الخلق، وثالثًا: أنها فرَّقت بين الخبر والصفة؛ لأنه لو قيل: (محمد الفاضل) لاحتُمِل أن يكون (الفاضل) صفة لمحمد، وأن الخبر لم يأتِ بعد فإذا قيل: (هو الفاضل) تعيَّن أن تكون (الفاضل) خبرًا.

وقوله: ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ يعني: المتصفين بالظلم، والظلم في الأصل النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تُنقص منه شيئًا، وهو في الحقيقة إما تفريط في واجب، وإما انتهاك لُمحرَّم، وكلاهما نقص؛ لأن المنتهك للمحرَّم، أو المفرِّط في الواجب قد نقَص الأمانة والرعاية؛ لأنه أمين على نفسه، وراعٍ عليها، فإذا أقدم على فعل المحرم، فقد أخلَّ بما يجب عليه من الرعاية، وخان الأمانة. فإذا فرَّط في الواجب فكذلك.

أما قوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: فهذا جملة شرطية، وجواب الشرط: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية، وفيه أن (من) روعي فيها اللفظ والمعنى، وفي الشرط روعي اللفظ، وفي الجواب روعي المعنى. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: مصوغ للواحد، روعي فيه اللفظ. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ للجماعة، روعي فيه المعنى.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن لله تعالى أن يُحلَّ ما يشاء، ويحرم ما يشاء؛ لقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ ومعلوم أن الله أقره على ذلك، وهذا تشريع من الله.

٢ - الرد على اليهود الذين زعموا أنه لا نسخ في الشرائع.

فإذا قال قائلٌ: هم يقولون لا نسخ في الشرائع، ويعللون بعلة تبدو وكأنها صحيحة، يقولون: إن كان لغير حكمة فهو عبثٌ وسفَه مُنزه الله عنه، وإن كان لحكمة لزم أن تكون هذه الحكمة مجهولة لله في الناسخ أو في المنسوخ، وهذا يستلزم أن يكون الله جاهلًا، ظهر له العلم من بعد أن كان خفيًّا عليه.

وجوابنا عن ذلك: أن نقول: إن النسخ لا يستلزم لا هذا ولا هذا، بل إن النسخ لحكمة، لكن هذه الحكمة تَتْبع مصالح العباد، والعباد مصالحهم تختلف، قد يكون من المصلحة أن يُشرَّع لهم الحل في هذا الزمن، والتحريم في زمن آخر، قد تكون هذه الأمة من المصلحة أن يُشرَّع لها الحل، والأمة الأخرى من المصلحة أن يُشرَّع لها التحريم، فهنا الحكمة لا تتعلق بفعل الله، ولكن تتعلق بالمخلوق الذي شُرِّع له هذا الحكم، وهذا أمر يختلف بلا شك.

فمثلًا: الناس في بدء الإسلام لا يتحملون جميع شرائع الإسلام، ولهذا جاءت الشرائع بالتدريج، بقي النبي -عليه الصلاة والسلام- عشر سنوات لا يجب على الناس لا صلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج، عشر سنوات بعد البعثة كل هذا لتقرير التوحيد؛ لأن قلوب الناس في ذلك الوقت لا تحتمل أن يُضاف إلى تحقيق التوحيد شيء آخر، ثم شُرعت الصلاة، ثم شُرعت الزكاة، ثم شُرع الصوم، ثم شُرع الحج في آخر الأمر، كل هذا من أجل مراعاة أحوال الناس، وكذلك في الخمر، كان حلًا، ثم عُرض بتحريمه، ثم حرم في أوقات معينة، ثم حرم إلى الأبد، أربع مراحل؛ لأن الناس كانوا قد ألفوه، قال الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وهذه الآية في سورة النحل، وقد نزلت في مكة، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا﴾: العنب والرطب هما مادة الخمر، ثم قال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، والعاقل إذا علم أن إثمهما أكبر من نفعهما يهديه عقله إلى تركهما، ثم قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، إذن نجتنب الخمر وقت الصلاة؛ لأنه إن لم نجتنبه لزم أن نقرب الصلاة ونحن سُكارى، وهذا منهيٌّ عنه،

إذن نجتنب الخمر خمس أوقات في اليوم والليلة، وهذا يُضعِفُ شربها، ثم جاءت آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] انتهى. إذن إن ما ادَّعاه اليهود من أن النسخ يستلزم وصف الله بالنقص إما في الحكمة، وإما في العلم فهو كذب.

٣ - إقامة الحجة على الشخص فيما يعتقد صحته أو مما يعتقد صحته، يعني: أن تُقيم الحجة على خصمك من شيء يؤمن به ويعتقد صحته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، التوراة التي أنتم تُقرون بأن ما فيها حق، ائتوا بها اتلوها، يتبين أن النسخ كان موجودًا فيها، ومن قديم الزمان.

٤ - أن التوراة مُنزلة كالقرآن، وهذا يدل على علو الله - جلّ وعلا -، وأنه فوق كل شيء، وهذا هو عقيدة أهل السُّنة والجماعة، يقولون: إن الله سبحانه وتعالى - نفسه - فوق كل شيء، ليس الله فوق كل شيء في القدرة والسلطان والقهر فحسب، بل في هذا وفي نفسه فوق كل شيء.

وجه دلالتها على علو الله: أن التوراة من عند الله، والنازل يكون من أعلى إلى أسفل.

٥ - أنه ينبغي للإنسان أن يُقابل الخصم بشيء يقطع نزاعه بالكُلِّية، حيث قال: ﴿فَٱتۡلُوهَآ﴾ ولم يقل (نتلوها)، قال: ﴿فَٱتۡلُوهَآ﴾ أنتم بأنفسكم، حتى تُقيم الحجة على نفسك من نفسك، لو أنا أخذناها نحن وتلوناها ربما تقول: أسقطت آية، أو زدت آية، فإذا تلوتها أنت بنفسك انقطعت حجتك.

٦ - أنه ينبغي للإنسان أن يتحدَّى خصمه بما تبينُ به الحجة على وجه لا مفر له منه؛ لقوله: ﴿فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهكذا ينبغي في المناظرة أن الإنسان لا يأتي بحجة واهية؛ لأنه إذا أتى بحجة واهية، ثم كسِّرت أمامه ضعفت عزيمته وبان خلله، وإذا أتى بحجةٍ لا يمكن أن يلحقها نقص، صار هذا أقوى لعزيمته وأنكى لخصمه، أرأيت محاجة إبراهيم عليه السلام للذي حاجه في ربِّه، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال المحاج الخصم: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، لكن هل هذه دعوى أو منزلة على شيء مُعيَّن؟ فيها خلاف، بعضهم قال: إنها دعوى وهو كاذب، لكن فيها إيهام، وبعضهم قال: إنها مُنزَّلة على شيء معين، وأن قوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ﴾ يعني: أوتى بالرجل يستحق القتل، فأرفع القتل عنه فيكون في هذا إحياء، ﴿وَأُمِيتُ﴾ يعني: أوتى بالشخص البريء فآمر بقتله ويُقتل.

لكن إبراهيم- عليه السلام- لم يُجادله مجادلة تحتاج إلى طول منازعة، قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي

بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: انقطع؛ لأنه عاجز عن أن يدَّعي الإتيان بقمر أو بنجم، وهكذا ينبغي أن تكون المخاصمة بحجة دافعة بعيدة عن الأشياء المشتبهة، فإذا أتيت بالشيء المشتبه فقد تكون خاذلًا للحق والحق معك، فلا بد أن تأتي بشيء قوي لا يستطيع الخصم أن يقف أمامه، وقد أكَّد ذلك المعنى كثير من العلماء رحمهم الله، حتى ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية بأن المطلوب أن تورد الحجة ضد أهل الباطل والبدع بقوة وحزم يضعف الخصم كما يصرخ الفارس بعدوِّه إذا التقى الصفَّان، وتأتي بالحجج الدامغة بقوة وعزيمة، وكل مقام له مقال؛ ولهذا نبَّه الله على ذلك فقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، زد أيضًا: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] ... سبحان الله، أنت فوقه والله معك، أين يكون هو؟ لا شك معه الشيطان.

وفي مقام النزاع والمخاصمة بالحق ينبغي للإنسان أن يكون قوي الحجة، وقوي القول، ليس من أجل أن تنتصر لنفسك، ولكن لأجل أن تنتصر للحق.

﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾، إذا أتَوا بالتوراة وَتَلَوْهَا وصارت موافقة لما جاء به محمد ﷺ صاروا يقدمون الحجة لك على أنفسهم.

٧ - أنه متى ظهر الحق فحاد الإنسان عنه صار أشد ظلمًا؛ لقوله: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كأنه لا ظالم سواه، كأنهم هم الذين أخذوا الظلم كله؛ لأنه إذا قامت الحجة لم يبق للإنسان محجَّة، يعني: لم يبق له أي طريق يمكن أن يتوصل إليه، أو أن يفر منه.

٨ - أن من عباد الله من يفتري الكذب على الله، والذي يفتري الكذب على الله -سبحانه وتعالى- يفتري الكذب على الرسول ﷺ من باب أولى، والذي يفتري على الرسول ﷺ يفتري على الناس من باب أولى، إذن: إذا افترى عليك إنسان شيئًا فلا تستغرب، افترى الناس على الله الكذب، وافتروا على الرسول الكذب، أفلا يفترون عليك؟.

٩ - أنه لا إثم مع الجهل؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد أن يتبين الحق فهذا هو الظالم، أما من ارتكب محرمًا قبل أن يتبين له الحق؛ فإنه لا يلحقه إثم ذلك المحرم، لا في الواجبات ولا في المحرمات، من ارتكب شيئًا بغير علمٍ فَإِنَّه لا إثم عليه، ما لم يُفرِّط في الواجبات، ولا في المحرمات، ولكن بالنسبة للمحرمات لا يترتب عليه شيء من آثارها أبدًا، لا إثم ولا كفارة، فلو أن رجلًا فعل محظورًا من محظورات الإحرام وهو جاهل أنه محظور، فلا شيء عليه، بل لو أن الإنسان جامعَ وهو مُحرم، يظن أنه لا شيء عليه في الجماع، فلا شيء عليه، لا كفارة، ولا فساد

حج، ولا غير ذلك.

أما في الواجبات إذا فعل شيئًا مُحرمًا عليه في الواجب، يعني: بأن ترك واجبًا أو فعل ما يُبطل ذلك الواجب وهو جاهل، فلا إثم عليه، لكن يجب أن يتدارك هذا الواجب ما دام في وقته، مثال ذلك: رجل جاءنا وقال: إنه صلى صلاة الظهر، ولكنه لم يقرأ الفاتحة، لم يعلم أن الفاتحة واجبة، نقول: لا إثم عليك، مع أنك لو تركت الفاتحة، وأنت تعلم أنها واجبة لأثمت بلا شك؛ لأن هذا من اتخاذ آيات الله هُزُوًا، لكن يجب عليه أن يُعيد الصلاة؛ لأن ذمته الآن مشغولة بهذه الصلاة، فلا بد أن يُعيدها. أما الصلوات الماضية، فإنه لا يجب عليه إعادتها، ولو كان قد ترك الفاتحة فيها؛ لأنه جاهل، ودليل ذلك حديث المسيء في صلاته، حيث قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[1] ولم يأمره بإعادة أو بقضاء ما سبق من الصلوات.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾.

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من يصح توجه الخطاب إليه، أي: للرسول ﷺ ولغيره. فعلى القول الثاني: لا إشكال فيه، إذا قلنا: إن كل واحد من الناس يجب عليه أن يصدق الله، فيقول: صدق الله، وعلى القول الأول يكون الخطاب للرسول ﷺ مرادًا به الخطاب مباشرةً للرسول وللأمة بالتبع؛ لأن الخطاب الموجه لإمام القوم خطاب للجميع، فإنَّك لو قلت للقائد مثلًا: اذهب إلى الجبهة الفلانية، وتحته جنود يمشون بأمره، صار هذا الأمر له ولمن كان تابعًا به، والرسول ﷺ قائد الأمة، وإمام الأمة، فإذا وُجِّه إليه الخطاب كان موجهًا له ولأمته ما لم يقم دليلٌ على التخصيص.

وقوله: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ جملة تتضمن الثناء على الله بالصدق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] فلا أحد أصدق من الله، والصدق: مطابقة الخبر للواقع،

---

(١) رواه البخاري (٧٤)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والكذب: مخالفة الخبر للواقع، فإذا قلت: غربت الشمس وقد غربت فعلًا فهذا صدق، وإذا لم تغرب فهذا كذب.

هل يُضاف إلى ذلك مع اعتقاد الوقوع، بمعنى: أنه لو أن شخصًا أخبر بما يُطابق الواقع، ولكنه يعتقد في نفسه أنه كاذب؟ نقول: إن خبره هذا صدق؛ لأنه موافق للواقع، لكن عليه إثم الكاذب إذا كان يعتقد هو أنه كاذب في ذلك. والكذب مخالفة الخبر للواقع، سواء كان موافقًا لاعتقاد المتكلم أو لا، حتى لو اعتقد أنه صدق وقد خالف الواقع فهو كذب.

ولهذا نقول: إن اليهود الذين زعموا أنهم صلبوا المسيح ابن مريم -عليه السلام-، وإن كانوا يعتقدون الصدق، فهم كاذبون، والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] هم أيضًا كاذبون، وإن كانوا قد اعتقدوا الصدق، إذن: لا يشترط اعتقاد القائل موافقة ما أخبر به للواقع أو مخالفته للواقع، المهم: أن هذا الخبر إن وافق الواقع فهو صدق، وإن اعتقد قائله أنه كاذب، وإن خالف الواقع فهو كذب، وإن اعتقد قائله أنه صادق.

﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: جملة خبرية تتضمن الثناء على الله، وإذا كانت تتضمن الثناء على الله فهي عبادة. فقول القائل: صدق الله، ثناء على الله بالصدق، لأن كل ثناء على الله فهو ذكر لله وتعبد له، ولم يذكر الخبر الذي حكم عليه بالصدق فيكون ذلك عامًا شاملًا، أي: صدق الله في كل شيء، كل ما أخبر الله به فهو صدق، ومن ذلك ما أخبر به مما أحل لبني إسرائيل إلَّا ما حرم إسرائيل على نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

﴿فَٱتَّبِعُواْ﴾: الخطاب للأمة، كما أن الله أمر نبيه ﷺ بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، فالنبي ﷺ مأمور بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا، وكذلك نحن مأمورون بأن نتبع ملة إبراهيم حنيفًا، والملة: هي الشريعة التي يكون عليها الإنسان، فكل شريعة يكون عليها الإنسان فهي ملة؛ فالإسلام ملة، واليهودية ملة، والنصرانية ملة، وقد جاء في الحديث: «لا يَتَوَارَثُ أَهلُ مِلَّتَينِ شَتَّى»[1]، أي: مفترقتين.

وقوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾. المراد هنا: اتبعوا ملة إبراهيم في التوحيد، وعدم الشرك، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلًا عن كل شرك.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١)، وأحمد في مسنده (٦٦٦٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، والترمذي (٢١٠٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح الجامع (٧٦١٣).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما سبق من باب عطف المترادفين، أو المرادف على مرادفه، فالحنيف معناه: المائل عن كل شرك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لذلك، وإذا انتفى الشرك في ملة إبراهيم لزم من ذلك أن يكون مخلصًا في التوحيد، وهو كذلك. ولذلك يُسَمَّى إبراهيم عليه الصلاة والسلام «إمام الحنفاء»، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مائلًا عن كل شرك. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: الذين يدخلون الشرك في عبادتهم. ﴿حَنِيفًا﴾ منصوبة على الحال من إبراهيم، يعني: حال كونه حنيفًا، وهي حال لازمة وإلَّا لما صحَّ أن نؤمر باتباعها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - وجوب تصديق الله - عزَّ وجلَّ - في كل ما أخبر به؛ لقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾.

٢ - وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، وهذا يستلزم تحريم تغييرها عن المراد بها، أي: تغيير النصوص التي أخبر الله بها عن نفسه من الأسماء أو الصفات.

٣ - وجوب اتباع ملة إبراهيم، لكن في أصل الشرائع؛ فإن قال قائل: ما الدليل على تقييدكم إياها بأصل الشرائع مع أن الآية عامة؟ قلنا: الدليل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. فدلَّ ذلك على أن الشرائع تختلف بحسب حاجات الناس ومصالحهم، أما أصلها وهو التوحيد فإن جميع الشرائع تتفق فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤ - الثناء على إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بأنه حنيف وإمام، ولهذا أمرنا باتباعه.

٥ -أنه يجب على الإنسان أن يتبع الحق أينما كان سواء كان من الرسول الذي أُرسل إليه مباشرةً أو من الرسل السابقين.

٦ - انتفاء الشرك عن إبراهيم انتفاءً كاملًا؛ لقوله: ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ويؤخذ من هذا ذم الشرك والنهي عن اتباعه؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فإذا أمرنا بالإخلاص فهذا يستلزم أننا منهيون عن الإشراك.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]

❁ التفسير ❁

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾: أي: وضع لعبادة الله، وليس أول بيت وُضِعَ في الأرض، يعني: مما يُبنى، ولكنه أول بيت وضع للناس للعبادة والتعبد.

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: وهو الكعبة، زاده الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا، (وبكة) اسم من أسماء مكة، وَسُمِّيَت بذلك قالوا: لأنها تَبُكُّ أعناق الجبابرة أي: تقطعها، وقيل: لأنه لا يوصل إليها إلَّا بمشقة وتعب، وقيل غير ذلك. والمهم: أن المراد ببكة مكة، وقد ذكرها الله تعالى في هذه السورة بهذا الاسم، وذكرها في سورة الفتح باسم مكة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] فمكة إذن لها اسمان مذكوران في القرآن: وأما القرية فهي اسم جامع لمكة وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: أن فيه البركة، وبركاته متعددة، فمن ذلك:

١ - أن مَنْ حَجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

٢ - ومن ذلك أن الحسناتِ فيه مضاعفة، ولهذا قال أهل العلم: إن العبادة فيه أفضل من العبادة في غيره، سواءً كانت صلاة، أم صدقة، أم صيامًا، أم غير ذلك.

٣ - ومن بركاته أيضًا أنه تُجبى إليه ثمرات كل شيء، فإنَّ مكة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان.

٤ - ومن بركته أيضًا أن فيها ماءً من شربه لأي شيء بنيةٍ صادقة فإنه يكون له، وهو ماء زمزم، فقد قال النبي ﷺ: «مَاءُ زَمْزَم لِمَا شُرِبَ لَهُ»(١).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤١٣٧)، وأحمد في مسنده (١٤٨٩٢) من

٥ - ومن بركته ما يحصل من المكاسب التي تكون فيه في أيام المواسم، وغير أيام المواسم.

٦ - ومن بركته أنه بعث فيه محمد ﷺ الذي جعل الله تعالى شريعته أفضل شريعة كانت إلى الخلق.

وقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾:

(هدى) أي: منارًا يُهتدى به؛ يجتمع فيه المسلمون من كل جانب، يأوون إليه من كل فج عميق، فيهتدي الضال منهم بالمهتدي، ويحصل به التعليم والأسوة الحسنة، وكذلك أيضًا هدىً للعالمين؛ لأنَّ الأمة الإسلامية كلها تهوي إليه، وتتجه إليه في كل يوم خمس مرات وجوبًا، يعني: يجب أن نولي وجوهنا كل يوم خمس مرات على الأقل، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ومن هدايته للعالمين: أن فيه إقامةَ الحج، وإقامة العمرة وذلك هُدى؛ لأن الأمة تزداد إيمانًا وهدى بالحج والعمرة.

وقوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ المراد بهم: الإنس، فهو عام أريد به خاص، وليس المراد بهم من سوى الله. العالمين في بعض المواضع يراد بها من سوى الله، وفي بعض المواضع يُراد بها الإنس فقط، وقد يُراد بها الإنس والجن مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وسموا (عالمين) من العلامة؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هؤلاء البشر، بل وهذه المخلوقات كلها تدلُّ على خالقها. ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾: ﴿فِيهِ﴾: الضمير يعود على قوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني: على البيت الذي بمكة.

﴿آيَاتٌ﴾: أي: علامات بينات واضحات، هذه الآيات البينات هي ما يشرع فيه من المناسك، والمواضع لهذه المناسك، وهي قائمة لم تزل من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا، كلها آيات وعلامات؛ فعرفة هي عرفة، ومزدلفة هي مزدلفة، ومنى هي منى، لم تزل بهذا من عهد إبراهيم إلى اليوم، والكعبة هي الكعبة ليس هذا البيت خفيًا لا يعلم الناس به، بل لم يزل مشهورًا بيِّنًا واضحًا من عهد إبراهيم إلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾: بدل من (آيات) أو عطف بيان، ومقام إبراهيم مكان قيامه، فهل

حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٢).

المراد بذلك الحجر المُسمى بالمقام؟ لقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مُصلى﴾ حين تقدم إليه بعد انتهاء الطواف، أو المراد بالمقام مقامه في المناسك؟

على قولين لأهل العلم: فمنهم من قال: إن المراد به المقام الخاص، وهو الحجر الذي صار يرتفع عليه حين ارتفع بناء الكعبة، ومنهم من قال: إن المراد به: كل مقام قامه في مناسك الحج، وإذا دار الأمر بين العموم والخصوص، فالأولى هو الأخذ بالعموم؛ لأن الأخذ بالعموم يتناول الخاص والعكس.

وعلى هذا فيقال: مقام إبراهيم مكان قيامه في مناسك الحج، وهذا المقام موجود من عهد إبراهيم إلى أن بُعث الرسول ﷺ، وإلى يومنا هذا، ولم يتغير إلَّا بحمية الجاهلية، حمية قريش فإنهم غيروا الوقوف بعرفة، وجعلوه في مزدلفة، فغيروا هذا المقام، وقالوا: نحن أهل الحرم، ولا يمكن أن نخرج إلى الحل، والخروج إلى الحل إنما يكون من أهل الحل، ولهذا كانت قريش في يوم عرفة لا تقف بعرفة، فكانت تقف في مزدلفة، حتى يأتي الناس إليها، فأمر الله تعالى أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، يعني: أن يفيضوا من عرفة، ودلَّ على ذلك حديث جابر ﷺ قال: فَأَجَازَ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ، قال: «وَلَمْ تَشُكَّ قُرَيش أَنَّهُ وَاقِف بِمُزْدَلِفَة كَمَا كَانَتْ قُرَيْش تَصْنَعُ فِي الجَاهِلِيَّة»[1]، لكنه ﷺ أجاز حتى أتى عرفة فوقف بها؛ لأنها هي التي كانت على زمن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾: (من دخله) أي: من دخل هذا البيت كان آمنًا، والمراد بالضمير في قوله: (من دخله) جميع الحرم. وإن كان ظاهره أن المراد به نفس البناء الذي هو الكعبة، لكن السُّنة دلَّت على أن الحكم عامٌّ في جميع الحرم.

وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ على قولين لأهل العلم: فمنهم من قال: إن هذه جملة تابعة لما سبق، أي: تابعة لقوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، فتكون من الآيات البينات، وهي أمِنَ من دخله حتى في زمن الجاهلية.

ومن العلماء من قال: إنها جملة مستأنفة، وهي خبرية لفظًا، إنشائية معنىً، أي: من دخله فليكن آمنًا، ولا يُتعرض له، وعلى كل حال فإن المعنيين يتفقان في وجوب تأمين من دخله؛ لأنه إن كان خبرًا عما كان عليه البيت فإنه خبرٌ أقره الله -عزّ وجلّ-، وأتى به للاستدلال على الآيات البينات التي في هذا البيت، وإن كان إنشاءً فالأمر واضح.

وقوله: ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني: آمنًا من أبناء جنسه، وليس آمنًا من عذاب الله، ولا آمنًا مما يريده الله

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

منه. لكنه آمن من بني جنسه حتى لو رأى الإنسان قاتل أبيه في مكة، فإنه لا يتعرض له حتى يخرج، هكذا كانت محترمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: فيها قراءتان (حِج)، و(حَج) وهما بمعنى واحد.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ اللام للاستحقاق في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ و ﴿عَلَى﴾ للوجوب، أي: يجب على الناس حقًا لله أن يحجوا البيت، وحج البيت أي: قصده؛ لأن الحج في اللغة القصد، والمراد به: قصده على الوجه الذي شرعه الله، بأن يأتي الإنسان بالمناسك المشروعة.

وقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾: ﴿مَنِ﴾ هذه بدل من الناس، بدل بعض من كل؛ وذلك لأن الناس قسمان: مستطيع، وغير مستطيع، فالمستطيع بعضٌ من الناس؛ ولهذا قلنا: إن هذا البدل بدلُ بعض من كل، وبدل البعض من الكل كثير في اللغة العربية، تقول مثلًا: أكلتِ الرغيف ثلثه، وقال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. إذا جعلنا نصفه بدلًا من الليل فهو بدل بعض من كل، وقد يبدل الكل من البعض، لكنه قليل في اللغة، ومنه قول الشاعر(١):

رَحِمَ اللهُ أَعْظُمًا دَفَنُوهَا ... بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

الشاهد هنا قوله: (طلحة) بدل من الأعظم، والأعظم بعض من الإنسان.

قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ طريقًا إلى البيت، ووصولًا إليه، والاستطاعة: يعني: بذلك القدرة، فمن لم يستطع فلا حج عليه.

فإن قال قائل: هذا الشرط ثابت في كل عبادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فلماذا قيَّد وجوب الحج بالاستطاعة مع أنه شرط مفهوم معلوم.

فالجواب عن ذلك: أنه لما كان الوصول إلى البيت شاقًا، أشق بكثير من سائر العبادات، نصَّ على اشتراط الاستطاعة، وإلَّا فلا شك أن كل العبادات لا تجب إلَّا بالاستطاعة، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ

(١) هو: عُبَيد الله بن الرُّقَيَّات، عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، من بني عامر بن لؤي، ابن قيس الرقيات. شاعر قريش في العصر الأموي. كان مقيمًا في المدينة. خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد الله) فأقام سنة وقصد الشام فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فسأل عبد الملك في أمره، فأمّنه، فأقام إلى أن توفي. أكثر شعره الغزل والنسيب، وله مدح وفخر. ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة، اسم كل واحدة منهن رقية، توفي سنة (٨٥هـ).

ﷺٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡﷻ، «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[1].

وهل المراد بالاستطاعة الاستطاعة بالمال أو بالبدن أو بهما؟.

نقول: الآية مطلقة، فمن استطاع الوصول ببدنه وجب عليه، وإن لم يكن عنده مال، كما لو استطاع أن يمشي إلى مكة ويأتي بأفعال المناسك.

ومن استطاع بماله دون بدنه وجب عليه الحج، لكن عن طريق الاستنابة، ومن كان عنده مال وهو قادر بالبدن، فالحج واجب عليه ولا إشكال.

إذن: الاستطاعة لا نقيدها بالبدن أو بالمال، نقول: سواء قدر بماله أو ببدنه أو بهما، فإن عجز بماله وبدنه بأن كان فقيرًا، ولا يمكنه أن يحج، لضعف في بدنه، فهنا ينتفي عنه الوجوب؛ لأنه غير قادر. إذن القادر هو القادر بماله أو بدنه أو بهما، والقدرة: هي القدرة الحسية، أما القدرة الشرعية ففيها خلاف؛ فمنهم من قال: إنه يشترط أيضًا القدرة الشرعية، الاستطاعة الشرعية، فلو كان هنا امرأة غنية قادرة ببدنها، لكن ليس لها محرم فإن الحج لا يجب عليها؛ لأنها عاجزة شرعًا عن الحج، لعدم وجود المحرم، وسفر المرأة بلا محرم ولو للحج غير جائز؛ لأن النبي ﷺ لما خطب وقال: «لَا تُسَافِرُ امْرَأَةٌ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» سأله رجل وقال: إن امرأتي خرجت حاجة وإني أكتتب في غزوة كذا وكذا، فقال: «انْطَلِقْ فَحجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»[2].

واختلف العلماء في مسألة الاستطاعة الشرعية، هل هي شرطٌ للوجوب أو شرط للأداء؟ .ويختلف الحكم باختلاف القولين، فإذا قلنا: إنها شرط للأداء فقط لزم المرأة أن تنيب من يحج عنها إذا كانت قادرة بمالها أو بمالها وبدنها.

وإذا قلنا: إنها – أي الاستطاعة الشرعية – شرط للوجوب، فإن هذه المرأة لا يلزمها أن تنيب من يحج عنها، هذا فرق، الفرق الثاني: لو ماتت هذه المرأة القادرة بمالها وبدنها على الحج، لكن ليس لها محرم، فهل يكون الحج دَينًا في تركتها فيلزم الورثة أن يقيموا من يحج عنها أو لا؟.

إن قلنا بأن الاستطاعة الشرعية شرط للوجوب؛ فإنه لا يلزم الورثة أن يقيموا من يحج عنها؛ لأن هذه المرأة كالمرأة الفقيرة سواء، ليس عليها حج.

وإن قلنا: إنه شرط للأداء لزم الورثة أن ينيبوا من يحج عنها، أو أن يحجوا هم بأنفسهم عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: يعني: أن من حجَّ البيت عند الاستطاعة

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٧٦٣)، ومسلم (١٣٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فقد أدى فريضته، ومن كفر يعني: فلم يحج، فكفر هذه الفريضة، ولم يقم بها، فإن الله غنيٌ عن العالمين، أي: عن كل أحد؛ لأن المراد بالعالمين هنا من سوى الله، فهي كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقد يُطلق العالم على بعض الأفراد مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فإن المراد بالعالمين هنا الإنس والجن؛ لأن الرسول ﷺ إنما أُرسل إلى الإنس والجن.

فالعالمون تارة يُراد بها ما سوى الله، وتارة يُراد بها البعض منهم حسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ (مَنْ) هنا يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، ويحتمل أن تكون شرطية، أما على كونها شرطية فالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رابطة وإنما أُحْتِيْجَ إليها؛ لأن جواب الشرط جملة اسمية، وأما على كون (مَنْ) اسمًا موصولًا فإنما وقعت الفاء في خبرها؛ لأن الاسم الموصول مُشْبِه للشرط في العموم، فيُعطى حكمه، يعني: والذين كفروا فإن الله غنيٌ عن العالمين.

وفي قوله: ﴿غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ لأن مُقتضى السياق أن يقول: ومن كفر فإن الله غنيٌ عنه، كما في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧] فهنا قال: ﴿غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والإظهار في موضع الإضمار ذكرنا أنه يفيد عدة فوائد منها:

١ - إرادة العموم؛ لأنه لو قال: فإن الله غنيٌ عنه لم تفد في العموم ما أفاده قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢ - الإشارة إلى أن هذا الذي وضع فيه الظاهر موضع المضمر من هؤلاء العالمين، يعني: أن الله غنيٌ عنه كما أنه غنيٌ عن جميع العالمين.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن أول بيت وضع للعبادة هو الكعبة التي في مكة فيكون سابقًا على بيت المقدس، وآخر بيت وضع للعبادة المسجد النبوي، وهذه هي المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَشُدَّ الرِّحَالَ – إذا قلنا لا تشُدوا الرحالَ فهي بالفتح، وإن قلنا لا تُشَدُّ الرحالُ فهي بالضم – إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الـمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالـمَسْجِدِ الأَقْصَا**»(١).

---

(١) رواه البخاري (١١٣٢)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ - أن تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ وهذا يُراد به التفضيل، ولهذا قال العلماء: إن المسجد الأسبق في إقامة الجماعة فيه أفضل من المسجد الحديث؛ فإن كان حول الإنسان مسجدان الأول قديم، والآخر جديد، ولم يتميز أحدهما عن الآخر بفضيلة أخرى، فإن القديم أفضل من الجديد لسبقه من العبادة فيه.

٣ - الرد على بني إسرائيل وهو أن مُحمدًا ﷺ بعث من البلد الذي فيه أول مسجد وضع للناس، وأنبياء بني إسرائيل بعثوا في بيت المقدس؛ فيكون في هذا ردٌّ على اليهود الذين يُقَدِّسُوْنَ بيت المقدس، وكذلك النصارى الذين يقدسونه، فقيل لهم: إن الكعبة التي بعث منها الرسول ﷺ أفضل من بيت المقدس.

٤ - أن هذا البيت هدى للعالمين، يعني: أن الناس يهتدون به بما يقيمونه من الشعائر، أو يهتدون به حيث يتوجهون إليه في صلواتهم.

٥ - فضيلة هذا البيت بكونه أول بيت وضع للناس.

٦ - أن الكعبة معَظَّمَة عند جميع الخلق؛ لأنه إذا كان أول بيت وضع للناس فسوف يعظمه الناس؛ ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى أن القبلة هي الكعبة لليهود والنصارى والمسلمين وجميع أهل الأديان، كما ذكره «شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله، ولكن اليهود صاروا يتجهون إلى بيت المقدس، والنصارى صاروا يتجهون إلى المشرق، وهو من جملة ما حرفوه من دينهم، وإلَّا فالأصل أن الكعبة قبلةٌ لجميع الناس.

٧ - أنَّ الناسَ لابُدَّ لهم من بيت يجتمعون عليه، وتهوي قلوبهم إليه، ولهذا وضع الله لهم ما كان بمكة.

٨ - أن من أسماء مكة (بكة)، ولها أسماء عديدة أكثر من هذا، ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى (الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) لابن ظهيرة، أو يرجع إلى (أخبار مكة) للأزرقي.

٩ - أن هذا البيت مبارك؛ مبارك قَدَرًا، ومبارك شرعًا، وقد مرَّ علينا في التفسير بيانُ وجوه بركته.

١٠- أنه هُدىً ومنار للعالمين، يهتدون به، ويهتدون إليه، ويؤمونه في عباداتهم، وقد جاء في الحديث: «البَيتُ الحَرامُ قِبْلَتُكُم أَحْياءً وأَمْواتًا»[١].

١١- أن في هذا البيت آيات بَيِّنَاتٌ ظاهرة لكل أحد، منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ومنها أن من دخله

(١) حسن: رواه أبوداود (٢٨٧٥) عن عمير ﷺ، وحسنه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح الجامع (٤٦٠٥).

كان آمنًا، ومنها فريضة حجه على جميع الناس، فإن هذه كلها آياتٌ تدُل على أن هذا البيت أشرفُ البيوت كما أنه أول بيت وُضِعَ للناس.

١٢- أن الآيات كما تكون شرعية، تكون كذلك حسيَّة كونية، كما في هذه الآيات التي ذكرت للبيت العتيق.

١٣- التنويه بفضل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في قوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، لأن القول الراجح أنه ليس المراد بمقامه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة فحسب، بل كل مقاماته في مكة وما حولها من المناسك.

١٤- وجوب تأمين من دخل المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾. وقد حرم النبي -عليه الصلاة والسلام- أَنْ يُسْفَكَ فِي مَكَةَ دَمٌ، وَأَنْ يُقْطَع فِيهَا شَجَرةٌ، وأَنْ يُنَفَّر صَيْدُهَا فضلًا عَن قَتْلِه، إذا رأيت الصيد في مكة على شجرة، أو في فرجة، فإنه لا يجوز لك أن تنفره منها؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لا ينفر»[1] كل ذلك من باب توطيد الأمن في مكة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قتال النبي ﷺ لأهل مكة؟.

فالجواب: أن قتال الرسول ﷺ لأهل مكة من أجل توطيد أمنها؛ لأن أهل مكة صاروا يتحكمون في البيت، ولهذا منعوا الرسول -عليه الصلاة والسلام- من أداء العمرة في «غزوة الحديبية»، فكان في هذا الإحلال الذي أحله الله لرسوله ﷺ في ذلك النهار مصلحة لتوطيد الأمن في البيت، وحمايته من الظلمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وأيضًا فإن هذا الإحلال ليس إحلالًا مطلقًا، بل هو إحلال مُقيد، كان ساعة من نهار، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَة مِنْ نَهَارٍ وَإِنَّهَا لَنْ تَحِلَّ لأَحدٍ بَعْدِي»[2]، فقد كان القتال فيها مُحرمًا ثم أحل، ثَم عاد تحريمه إلى يوم القيامة.

١٥- أن حرمة المسلم أعظم من حرمة البيت، فالذين ينتهكون دماء المسلمين وأموال المسلمين أشد من الذين ينتهكون حرمة البيت عند الله؛ لأن حرمة المسلم أعظم عند الله تعالى، ودليل ذلك أن القتال في مكة مُحرم، ولكن الله قال: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، فلمّا أرادوا سفك دماء المسلمين، وقاتلوا المسلمين، أمر الله بقتلهم مع أن في قتلهم انتهاكًا لأمن البيت، لكن لما أرادوا الاعتداء على حرمة المسلم أُبِيْحَتْ دماؤهم؛ ولهذا نجد الآيات الكريمة على القراءة المشهورة (فاقتلوهم) ولم يقل: (فقاتلوهم) وإن كان فيها قراءة (فقاتلوهم)، لكن

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٦)، وأحمد في مسنده (٢٨٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (١٣٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المراد قاتلوهم حتى تقتلوهم، والقتل أبلغ من المقاتلة؛ اقتلوهم لأنهم هم الذين انتهكوا حرمة البيت فلم يبق لهم حرمة.

١٦- وجوب حجِّ البيت على من استطاع إليه سبيلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ووجه الوجوب أن (على) كما قال الأصوليون ظاهرة في الوجوب.

١٧- أن الحج لا يجب على غير المستطيع؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والاستطاعة تكون بالمال أو البدن، أو بهما جميعًا.

١٨- بيان رحمة الله - عزَّ وجلَّ- حيث لم يفرض على عباده ما كان شاقًا عليهم ولا يستطيعونه؛ لقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

١٩- أن من لم يحج فهو كافر؛ لقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واختلف العلماء - رحمهم الله- في هذا الكفر، هل هو نوع من الكفر، أو هو الكفر المُطلق؟ على قولين لأهل العلم، وهما روايتان عن «الإمام أحمد»:

الأولى: فعلى القول بأنه الكفر المطلق: يكون من ترك الحج وهو مستطيع مرتدًا خارجًا عن الإسلام، يُستتاب، فإن تاب وإلَّا قُتِلَ.

الثانية: وعلى القول الثاني: أن المراد بالكفر هنا نوع منه، فإنه لا يكفر، وهذا القول هو الذي عليه جمهور أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو ظاهر ما روِي عن الصحابة؛ قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، وعلى هذا فيكون الكفر هنا نوعًا من الكفر، كقوله: ﷺ : «سِبابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ»[1]، مع أن قتال المسلم لا يُخرج من الإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجُرات: ٩] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

٢٠- بيان غنى الله - عزَّ وجلَّ- عن كل أحد، فهو لم يأمر عباده بالعبادة من أجل أن ينتفع بها، كما جاء في الحديث القدسي، حديث أبي ذر الغفاري الطويل: «يَا عِبادِي، لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم ما نَقَصَ ذَلكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[2]. فالله - عزَّ وجلَّ- غنيٌّ عنا، إنما أمرنا ونهانا لتستقيم أمورنا، وتصلح أحوالنا، ونسعد في الدنيا والآخرة، أما لو كنا على أفجر قلب

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والبيهقي في الكبرى (١١٢٨٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

رجل من الناس، فإن ذلك لا يضر الله شيئًا، لكن لما كان بنو آدم قد أُعطوا من العقل ما استحقوا به أن توجه إليهم التكاليف بالأمر والنهي صاروا أهلًا للأمر والنهي، ولهذا لا يوجه الأمر والنهي إلى البهائم؛ لأنها لم تُعط عقولًا، فكان إعطاء العقل لبني آدم معناه أو مقتضاه إلزامهم بالتكاليف، حتى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، أما البهائم: فآخر أمرها أن تكون تُرابًا، تُبعث يوم القيامة، ويقتص من بعضها لبعض، ثم يُقال: كوني ترابًا فتكون ترابًا.

٢١- أنه إذا كان الله غنيًا عن العالمين، لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه، وليس بهم غِنى عن الله وهو كذلك، فإن الخلق مفتقرون إلى الله تعالى غاية الافتقار، ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك بلسان الحال أو لسان المقال، في كل أمورك، واستعن بالله في كل أمورك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لا يغفل عن بالك تعلقك بالله -سبحانه وتعالى- في كل شيء، وقد جاء في الحديث: «لِيسْأَلْ أَحَدُكُم رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شَسْع نَعْلِه إِذَا انْقَطَعَ»(١)، أي: شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئًا، لا تغفل عن سؤال الله إياه، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]

❁ التفسير ❁

هنا أمر الله رسوله ﷺ أن يوبخ هؤلاء الذين من أهل الكتاب، وفي آية سبقت كان الخطاب من الله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] وهنا أمر من الله للرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «لِمَ»: الاستفهام هنا للتوبيخ، واللام حرف جر، و(ما) استفهامية، لكن حذفت ألفها؛ لأن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر حذفت ألفها مثل: (لِمَ، عَمَّ، فيمَ، علامَ) وما أشبه ذلك.

يقول الله - عزَّ وجلَّ-: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تكفرون؛ أي: تجحدونها، وتتغافلون عنها، وتتعامون عنها، والمراد بالآيات هنا الكونية والشرعية، الكفر بالآيات الكونية

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (٤٩٤٦).

يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: أن ينكر أن الله خلقها.

الثاني: أن يعتقد أن لله تعالى شريكًا في إيجادها.

الثالث: أن يُعتقد أن لله معينًا فيها.

أما الكفر بالآيات الشرعية فيتضمن أمرين:

الأول: تكذيبها، بأن يكذب بأنها من عند الله، أو يكذب بأخبارها، والتكذيب إما أن يكون في أصلها بأن يقول: هذه لم تنزل من عند الله، أو يكذب أخبارها، أي خبر فيها إذا كذبه فهو تكذيب بالجميع؛ لأنه لا يمكن أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

الثاني: مخالفتها، ثم إن كانت مخالفة تامة فهو كفر أكبر، وإن كانت غير تامة فهو كفر أصغر. وهو ما يعبر عنه بكفر دون كفر أو بالفسوق.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، شهيد: أي: شاهد، وأتى بصيغة المبالغة أو الصفة المشبهة؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- شهيد على أعمالهم؛ وأعمالهم كثيرة، وإذا كثُر المشهود عليه كثرت الشهادة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحتمل أنه داخل في ضمن التوبيخ في قوله: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ فيكون المعنى: لم تكفرون بآيات الله مع علمكم بأن الله شهيد على ما تعملون، ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف، ويكونُ التوبيخ انتهى عند قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ [آل عمران: ٩٩]، ثم استأنف فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيكون في ذلك تهديد لهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله، تهديد بكون الله شهيدًا على ما يعملون. وإذا كان شهيدًا على ما يعملون، فسوف يُجازيهم عليه في الدنيا وفي الآخرة بما يستحقون.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أمر النبي ﷺ أن يُوبِّخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، ويتعدى هذا الحكم إلى غيرهم، فيتفرع من هذه الفائدة أن كل من كفر بآيات الله فهو مستحق للتوبيخ.

٢ - إثبات شهادة -الله سبحانه- وتعالى على كل ما يعمل بنو آدم؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾: و(ما) اسم موصول يفيد العموم.

٣ - تهديد من يكفر بآيات الله؛ لأن مثل هذه الصيغة: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ يُراد بها توبيخ من فعل ما لا يرضي الله - عزَّ وجلَّ - بأن الله شهيد عليه، وسوف يُحصي عمله ثم يُجازيه

على ذلك.

٤ - إحاطة الله تعالى بكل شيء، وأنه وسع كل شيء؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ فمن يحصي بني آدم من أهل الكتاب وغيرهم؟ ومن يُحصي أعمالهم؟ الله - عزَّ وجلَّ -، واسع عليم، يُحصي كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

وربما يُستفاد من هذه الآية من قوله: ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أنه لا يحاسب العبد على ما حدَّث به نفسه، كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ في قوله: «إِنَّ اللهَ تَجَاوزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1].

فحديث النفس - أي: الوساوس التي تكون في الصدر - لا يؤاخذ عليها الإنسان إلَّا إذا عمل، وركن إليها، واعتقدها، وجعلها من أعمال القلب، فحينئذٍ يُحاسب عليها، وكذلك إذا نطق بها لسانه، أو عمل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذٍ يُحاسب عليها.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩]

❁ التفسير ❁

هذا أمر آخر للنبي ﷺ من ربه أن يُوَبِّخَ أهل الكتاب على عدوانهم على غيرهم؛ لأن التوبيخ الأول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٨] توبيخ على عملهم القاصر عليهم، والثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ على عدوانهم على غيرهم حيث يصدون عن سبيل الله.

قال: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: لأي شيء وبأي حجة تصدون؟ أي: تصرفون، وقوله: ﴿عن سبيل الله﴾ أي: عن دينه وشريعته، وسُمِّيَ الدين سبيلًا لله؛ لأنه موصل إليه، وأضيف إلى الله لوجهين:

الوجه الأول: أن الله هو الذي وضعه سبيلًا للخلق يمشون عليه.

(١) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الوجه الثاني: أنه موصل إلى الله، فمن سلك السبيل الذي وضعه الله للعباد فسيصل إلى الله - عزَّ وجلَّ -. فالمراد بسبيل الله دينه؛ لأنه الطريق الموصل إليه.

وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

﴿مَنْ﴾مفعول تصدون، يعني: تصرفون الذي آمن عن سبيل الله، وهذا شأن بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يصدون عن سبيل الله من آمن، وإنما ذكر مَنْ آمن مع أنهم يصدون من آمن حتى يرتد عن إيمانه، ويصدون مَنْ لم يؤمن حتى لا يدخل في الإيمان؛ لأن صدَّ من آمن أشد عدوانًا من صدِّ من لم يؤمن؛ لأن من آمن يصدونه ليكون مرتدًا، ومن لم يؤمن يصدونه عن سبيل الله من أجل أن يبقى على كفره، والبقاء على الكفر أهون من الرِدَّة كما هو ظاهر، وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يشمل الرجال والنساء، ولكن خطابات القرآن غالبها للرجال؛ لأن الرجل هو الأصل، وهو الأمير على المرأة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ﴿تَبْغُونَهَا﴾ الجملة حال من الواو في قوله: ﴿تَصُدُّونَ﴾، يعني: حال كونكم تبغون سبيل الله، أي: تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ أي: لأجل العوج، فتكون مفعولًا من أجله، ويجوز أن تكون مفعولًا به، أي: تطلبونها عوجًا أي: تصيرونها عِوَجاً، والعوج ضد المستقيم، ويُقال عِوَج في المعاني، وعَوَج في الأعيان، فتقول مثلًا: هذه العصا عَوَج؛ لأنه عين، وتقول: هذا القول عِوَج؛ لأنه معنى، ففي المعاني بكسر العين، وفي المحسوسات بفتحها، وأصل العوج: الميل، وضده الاستقامة، والعوج عن شريعة الله يشمل معنيين: المعنى الأول: في الأوامر، والثاني: في النواهي.

أما في الأوامر: فاعوجاجها إما بالتهاون بها والتفريط، وإما بالإفراط فيها والغلوّ، فالناس بالنسبة لأوامر الله ثلاثة أقسام: قسم وسط، وقسم مُفرِّط، وقسم مُفرِط، يعني: غالٍ متجاوز للحد؛ فالوسط: هو المستقيم، والمفرط عَوج، والزائد عَوج أيضًا، هذا في الأوامر، أما في النواهي فالعوج هو انتهاكها وارتكابها، هذا عوج؛ لأن الصراط المستقيم في النواهي أن تدعها، وأن تتجاوزها، فإذا أنت فعلتها وانتهكتها فهذا هو العوج فيها، فهؤلاء اليهود والنصارى، أهل الكتاب، يريدون من الناس العوج في الأوامر وفي النواهي، في الأوامر بالتفريط، والتهاون، أو بالغلو والإفراط، وفي النواهي بانتهاكها، والتهاون بها.

وقوله: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ الواو هذه للحال، يعني: والحال أنكم شهداء على

ما تفعلون، فأنتم تعلمون أنكم بفعلكم هذا تصدون عن سبيل الله تعلمون هذا وتشهدون به، ووجه ذلك أنه يوجد في كتبهم أن مُحمدًا بن عبد الله ﷺ سوف يُبعث، وأنه رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى، لكنهم يُحرفون الكلم عن مواضعه من أجل صدِّ الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ. فصاروا يصدون عن سبيل الله وهم شهداء، يشهدون بالحق، لكن -والعياذ بالله- استكبروا عنه، وأنتم شهداء على أنكم تصدون عن سبيل الله؛ لأنكم تعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ هو سبيل الله.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، نفى الله أن يكون غافلًا عن عملهم القليل والكثير، وهنا نجد أن هذه الصفة من الصفات السلبية؛ لأن صفات الله قسمان: ثبوتية، وسلبية؛ يعني: شيء ثابت لله، وشيء منفيٌّ عنه، فهنا الصفة سلبية فالذي نُفي عن الله: الغفلة. والقاعدة عند أهل السُّنة: أن الصفات السلبية تتضمن شيئين:

الأول: انتفاء هذه الصفة التي نفاها الله عن نفسه.

والثاني: ثبوت الكمال في ضدها؛ لأنها ما نفيت عنه إلَّا لأنه كامل، فيكون قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ متضمنًا لنفي الغفلة عن الله، والثاني: ثبوت كمال المراقبة؛ لأن من كان كامل المراقبة فإنه ليس عنده غفلة، فتكون هذه الآية مثبتة لله تعالى كمال المراقبة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وانتفاء الغفلة عنه.

والجملة تفيد التهديد لهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أمر رسول الله ﷺ أن يوبخ أهل الكتاب على عدوانهم على الغير، وذلك بالصدِّ عن سبيل الله.

٢ - أن من صدَّ عن سبيل الله من المسلمين ففيه شبه من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فإذا وجد أحد يثبطك عن فعل الخير أو يُرغِّبُك في فعل الشر، ففيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى؛ لأن هذا سبيلهم.

٣ - إثبات أن الشياطين ليست شياطين الجن فقط، فكما أن للجن شياطين يصدون عن سبيل الله، ففي الإنس أيضًا شياطين يصدون عن سبيل الله، وإلى هذا يقول الله - تبارك وتعالى - في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٤ - الحثُّ على لزوم الشرع؛ لأنه سبيل الله، وكل إنسان عاقل فإنه يسعى إلى الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه غاية المطالب، ولا وصول إلى الله إِلَّا بسلوك شرعه، وسبيله الذي يوصل إليه.

٥ - أن من صدَّ عن سبيل الله مِمَّنْ آمن به، فإنه في غاية ما يكون من العدوان، وهو أعظم ممن صدَّ عن سبيل الله مِمَّنْ لم يؤمن؛ لأن هذا منع، والأول رفع، والرفع أشد، رفع الخير أشد عقوبة من منعه، وأشد جناية.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** سوء القصد من أهل الكتاب؛ حيث يبغون أن تكون سبيل الله عوجًا.

وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقًا عليهم إلى اليوم، فللنصارى دُعاة يُنَصِّرون الناس، ويسعون بكل جهدهم إلى أن يصدوا عن سبيل الله من آمن؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العَوَج، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي، وما زالوا إلى اليوم، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلى النصرانية، والعياذ بالله، النصرانية الباطلة التي يُحاربها عيسى -عليه الصلاة والسلام-، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، فهم الآن يَدَّعون أن دين عيسى عليه الصلاة والسلام القولُ بالتثليث، ويقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ثم يضحكون على أنفسهم وعلى الناس، ويقولون: إنه ثلاثة في واحد، فهل هذا معقول؟!

لكن هذا من ضُلَّال النصارى؛ لأن النصارى ضالُّون، حتى الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد؟! هذا لا يمكن.

على كل حال: هم يريدون أن يُضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا، ومن ثَمَّ يجب على المسلمين الحذر منهم، والتشهير بهم، حتى ينفر الناس منهم، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص.

والتوحيد والإخلاص موافقان للفطرة السليمة، لو وجد من يعرضهما عرضًا حقيقيًا شيِّقًا، لكن - مع الأسف - أن المسلمين في غفلة، فالمسلمون الذين هم على الحق لا تجد منهم الدُعاة الذين يدعون إلى الحق إِلَّا قليلًا في بلادهم، أما أولئك النصارى المُنَصِّرون، فإنهم يجوبون مشارق الأرض ومغاربها، ويغرون الناس بالمال، ويحسن الخلق، حتى ينخدع الناس بهم.

٧ - أن أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيل الله يعلمون أنهم على باطل، وأن الحق في خلافهم؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ لكن الذي يمنعهم هو الاستكبار.

٨ - إثبات إحاطة الله -سبحانه وتعالى- بكل شيء علمًا ورقابةً؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٩ - أن من صفات الله ما هو سلبي أي: منفي، وهذا كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]

❁ التفسير ❁

أولًا: هذا الحكم مصدَّرٌ بالنداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟﴾ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به، والعناية به، وذلك لأن النداء يتضمن تنبيه المخاطب، والتنبيه لا يكون إلَّا لأمر هام تجب العناية به، ثم صار النداء موجهًا للذين آمنوا من باب الإغراء لقبول ما يأتي تصديقًا به إن كان خبرًا، وامتثالًا له إن كان طلبًا أمرًا ونهيًا؛ لأن وصفهم بالإيمان يقتضي أن يقوموا بمقتضى هذا الخطاب الموجه لهم، كما لو قلت لشخص: يا رجل افعل كذا، يعني: أن مقتضى رجولتك أن تفعل هذا، فإذا قلت: يا مؤمن افعل هذا، فالمعنى: أنه من مقتضى إيمانك أن تفعل هذا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟﴾ يعني: من مقتضى إيمانكم أن تنتبهوا لما سيُلقى عليكم، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فارْعَها سمعك، فإمَّا خير تُؤمر به، وإمَّا شر تُنهى عنه، ثم إن الخطاب بوصف الإيمان يقتضي أن امتثال ذلك من مقتضيات الإيمان، ويقتضي أيضًا أن مخالفته نقصٌ في الإيمان؛ لأن المؤمن يقتضي إيمانُه أن يقوم بما أمر به، وأن يدع ما نُهي عنه، فالخلاصة أنه يقتضي أمورًا:

الأمر الأول: إذا صدر الخطاب بالنداء فهو دليل على الاعتناء به، وأهميته.

الأمر الثاني: اختيار النداء بوصف الإيمان موجب.

الأمر الثالث: اختيار وصف الإيمان.

الأمر الرابع: الإعراض عنه ورفضه من مُنقصات الإيمان.

الامتثال إن كان أمرًا، والاجتناب إن كان نهيًا، والتصديق إن كان خبرًا، من مقتضيات الإيمان.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

﴿فَرِيقًا﴾ يعني: طائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى، فالكتاب لليهود هو التوراة، والكتاب للنصارى هو الإنجيل، وقوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: لا جميعهم؛ لأن بعض أهل الكتاب ليسوا على هذا الوصف، فإن منهم من آمن، فآمن من النصارى النجاشي، وآمن من اليهود عبد الله بن سَلَام. وهؤلاء من خيار المؤمنين، لكن فريقًا منهم يقول عنهم: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني: يوجبوا لكم أن ترتدوا بعد الإيمان، سواء كان ذلك بالقتال فيما بينكم، كما يذكر أن رجلًا من اليهود وَشَى بين الأوس والخزرج، وذكَّرهم أيام الجاهلية، فثاروا، أي: ثار بعضهم على بعض، وغضبوا، وقد يكون هذا السبب، أو هذا المعنى الذي ذكر ضعيفًا، لكن مهما كان الأمر فإن أهل الكتاب يريدون منا أن نرتد عن الإيمان، وقد صرح الله بذلك في آياتٍ أُخَر: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

فأهل الكتاب يودون هذا، وكما هو معلوم أن من ودَّ شيئًا سعى في تحصيله، إذن: فنحن نعلم أن أهل الكتاب يسعون بكل ما يستطيعون أن يردوا المسلمين عن دينهم، سواء منعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام، أو أخرجوهم من دين الإسلام بعد دخولهم فيه، وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا مطولًا في ذكر الفوائد.

قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

والرِّدَّة بعد الإيمان أعظم من منع الإيمان من أصله؛ لأنها إخراج من الإيمان إلى الكفر، ومن المعلوم أن الإنسان لن يخرج من الإيمان إلى الكفر إلَّا بمحاولات شديدة، إذ إن إبعاد من لم يدخل في الشيء أهون ممن دخل فيه، وآمن به، ولهذا قال: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿كَٰفِرِينَ﴾ المُراد به: الكفر المُخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يُخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يُلقونه أمامنا من معوِّقات كمالِ الإيمان، حتى ينحل الإيمان شيئًا فشيئًا، ولا يبقى في القلوب شيء، وحينئذٍ يكون الكفر المحض.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

(كيف) استفهامية، لكن تحتمل وجهين:

الوجه الأول: الاستبعاد.

الوجه الثاني: التعجب.

فإذا نظرنا إلى حالهم أنهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله، قلنا: إن ارتدادهم بعيد عن أن يرتدُّوا على أدبارهم، وهم يُتلى عليهم كتاب الله وفيهم رسوله، قال تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يُشاهدون النبي ﷺ، مساءً وصباحًا، ويسمعون الآيات التي تُنزَّل عليه، فرِدَّتهم بعيدة، ولهذا لم تكن الرِدَّة إِلَّا بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام، والردَّة في حياته قليلة جدًّا.

والوجه الثاني: أن تكون للتعجب، فيكون هذا تعجبًا من حال من يمكن أن يرتد، فإن الذي يرتد وتُتلى عليه آيات الله وفيه رسوله، لا شك أن حاله عجيبة؛ لأن الإنسان لو ارتد وهو لم يُشاهد الرسول ﷺ، ولم يسمع الآيات تنزل يومًا فيومًا، لكان له شيءٌ من العذر، ولكن في الحال التي يسمع فيها آيات الله، ويُشاهد فيها الرسول ﷺ، ليس له عذر إطلاقًا، فيكون الاستفهام للتعجب، يعني: ما أعجب حالكم لو كفرتم!

إذن: يكون في الآية على الوجهين تأييس للذين أوتوا الكتاب أن ينالوا مُرادَهُم من المؤمنين بمحاولة ردتهم.

على الاستبعاد يعني: مهما حاولوا لا يمكن، وعلى الوجه الثاني: يكون توبيخًا لمن حاولوا أن يرتدوا كيف تفعلون، وأنتم تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟

قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

﴿تُتْلَىٰ﴾: أي: تُقرأ عليكم، والتلاوة تأتي بمعنى القراءة، أي: تُقرأ عليكم، وإذا وقعت من الفاعل فقيل (تلا) صار لها معنيان:

المعنى الأول: القراءة.

والمعنى الثاني: الاتباع.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]، يتلونه يعني: يقرؤونه، ويتّبعونه، فهنا تُتلى عليهم آيات الله، أي: تُقرأ، والذي يقرؤها عليهم رسول الله ﷺ، السند: رسول الله ﷺ، عن جبريل عن الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤] فهم يُتلى عليهم بواسطة الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جمع آية، وهي العلامة، والمراد بها هنا: القرآن، والقرآن آيات، كل آية منه، دليلٌ على المتكلم بها وهو الله -سبحانه وتعالى-، على ما له من الصفات المقتضية لتلك الآيات، ولهذا كل آية من القرآن فإنها معجزة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] (حديث) آية، أو عشر آيات، أو سورة، أو عشر سور، أو القرآن كله ... مُعجزة.

والمراد بآيات الله هنا: الآيات الشرعية؛ لأن الآيات الكونية لا تُتلى لكن يُتلى عنها، أي: يُخبر عنها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾. (في): للظرفية ﴿وَفِيكُمْ﴾ أي: في مجتمعكم، وليس حالًّا فيهم -عليه الصلاة والسلام-، لكنه في مجتمعهم كما قال حسان بن ثابت:

وَفِينَا رَسولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَه

فالرسول ﷺ كان في مجتمعهم، يُشاهدونه صباحًا ومساءً، ويغشاهم في مجالسهم، ويعودهم إذا مرضوا، ويزورهم ﷺ في بيوتهم، ويُعلمهم الكتاب والحكمة، فمن كان في هذه الحال هل يمكن لشرذمةٍ من أهل الكتاب أن يردُّوه عن دينه؟ لا.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ يشمل الاعتصام به توكلًا عليه، والاعتصام به تعبُّدًا له؛ لأن في كل منهما عصمة. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ... فمن اعتصم بالله تعبُّدًا واستعانةً، فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم، وأتى هنا بالفعل الماضي (هُدي): إشارةً إلى أن هذا قد ثبت له الهدى سابقًا وواقعًا، سابقًا في اللوح المحفوظ، وفي الكتابة حينما تُنفخ فيه الروح في بطن أمه، وواقعًا؛ لأنه اعتصم بالله.

وقوله: ﴿هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حذف الفاعل وذلك لتعدُّد طرق الهداية، فأعلى الهُداة الله -عزّ وجلّ-، ثم الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ثم ورثة الرسول ﷺ وهم العلماء، فهنا حذف الفاعل؛ ليشمل كل الهُداة، وأولهم الله -عزّ وجلّ-: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:

١٤٢]، ثم الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم ورثة الرسول وهم العلماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

إذن هُدي الهداية الأولى من الله، ثم الرسول، ثم أولو العلم، لكن هداية التوفيق خاصة بالله - عزّ وجلّ -، لو اجتمع جميع الخلق على أن يهدوا أحدًا هداية توفيق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولكنهم يدُلُّون ويحثُّون ويُرغِّبون.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيها قراءتان: بالسين والصاد، (سراط، وصراط)، لأن الصاد والسين تتناوبان دائمًا.

وقوله: ﴿صِرَٰطٍ﴾ هو الطريق الواسع، يُسمى سراطًا وأصله من (الزرط) بالزاي الابتلاع بسرعة؛ لأن الطريق الواسع يَلِجه الناس، ويخرجون منه بسرعة؛ بخلاف الضيِّق، فإن الناس يزدحمون فيه ولا يكادون يخرجون منه إلَّا بمشقة.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: غير معوج، بل هو مستقيم، وهو يشمل الاستقامة نزولًا وارتفاعًا، والاستقامة انحرافًا واعتدالًا، إذن هو معتدل وليس فيه نزول ولا ارتفاع؛ لأن الصراط وهو الطريق إذا كان فيه انحراف واعتدال لم يكن مستقيمًا، ويُبطئ الوصول إلى الغاية، كذلك إذا كان مختلفًا نزولًا وارتفاعًا، فإنه ليس بمستقيم؛ لأنه تطول المسافة، ويحصل مشقة عند الارتفاع وعند النزول.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾:

١ - تحذير المؤمنين من طاعة الكفار؛ لقوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم﴾.

٢ - أن الكفار ولو كانوا أهل كتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر، وقائل هذا هو الله العالم بما في صدورهم، قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمُداهنة، وأنهم أولياء، وأنهم أصدقاء، ولكن في قلوبهم الحقد، والغل، ومحبة أن نرتد على أعقابنا كافرين، من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يُبدون لنا الود والصداقة والمحبة؟ نعلم هذا من القرآن الكريم.

فإن قال قائل: إن الله يقول: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والفريق مُبهم ما ندري، ربما بعضهم على خلاف ذلك، وإذا وُجد الاحتمال بَطَل الاستدلال، فلا يمكن أن تعين طائفة من أهل الكتاب تقول: هؤلاء يُحبُّون أن نرتد على أعقابنا كافرين، لا يمكن أن تُعيِّن ما دام الله يقول:

«فريقًا»، الفريق مبهم، فإذا قلت: إنهم هؤلاء، قلنا لك: بل هؤلاء، بل أولئك، فما هو الميزان إذن؟ لنا على هذا جوابان:

الجواب الأول: أن الله ذكر في آياتٍ أخرى أن جميع الكفَّار يودُّون منا أن نكفر، وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

إذن: هناك آيات تدل على أن جميع الكفار، ومن ضمنهم أهل الكتاب يودُّون منا ذلك.

الجواب الثاني: أن نقول هذا الفريق المبهم، يُبيِّنه الواقع، وهو أن من أهل الكتاب من آمن، ومن آمن لا يمكن أن يُحب من غيره أن يكفر، وحينئذٍ نقول: المراد بالفريق هنا: من لم يؤمن منهم، فكل من لم يؤمن فهو داخلٌ في هذا الفريق.

٣ - أن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر، إلَّا أن يكون وسيلة إلى الكفر؛ لأنه الغاية، قال: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جدًا ومتنوعة، منها: أن يفتحوا عليهم باب الشهوات؛ فإن باب الشهوات باب واسع، والضيِّق من أبواب الشهوات يتَّسع بسرعة، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «مَا تَرَكتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[1]. ولهذا هم - قبَّحهم الله، ولعنة الله على اليهود والنصارى جميعًا - يسعون جادين على أن يُعطوا المرأة ما يُسمَّى بالحرِّية، وهي في الحقيقة الرق وليست حرِّية؛ لأن المرأة - ومثلها الرجل - إذا خرجت عن حدود الله، خرجت من رقِّ الدين إلى رقِّ الشيطان، تخرج من رقِّ الدين وهو الرق الحقيقي؛ لأنه عبودية لله، إلى رقِّ الشيطان، وإذا خرجت إلى رقِّ الشيطان واسترقَّها الشيطان صارت عبدًا له، هلكت وأهلكت، قال ابن القيم رحمه الله:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيطَانِ

(هربو من الرق الذي خُلقوا له): الرق الذي خُلقنا له هو عبادة الله عزَّ وجلَّ.

(وبُلوا): يَعني: ابتلاهم الله برقِّ النفس والشيطان، ولهذا تجدهم يُركِّزون على المرأة على أن تتدهور، وتتحرر من عبودية الله لتقع في عبودية الشيطان؛ لأنهم يعلمون أن أشد فتنة على الرجال هي المرأة، فيسعون بكل جهدهم على أن تختلط بالرجال، وتُشاركهم في الأعمال، ويلصق منكبها

(١) رواه البخاري (٤٨٠٨)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد ﵄.

بمنكبه، وساقها بساقه، ويشم رائحتها، وتشم رائحته، وتُصافحه، وربما تُعانقه، لأنهم يعلمون أن الإنسان إذا وصل إلى هذه الدرجة بقي حيوانيًا بهيميًّا ليس له أي غرض إلَّا أن يُشبع غريزته - والعياذ بالله - وحينئذٍ ينسى الدين وما وراء الدين، ويرجع بعد ذلك إلى الكفر.

لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين: اكفروا؛ لأنهم لو قالوا: اكفروا، ما كفروا بل لقالوا: نعم نكفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، ونضرب هامك، لكنهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق، والفسوق بريد الكفر.

ثانيًا: يلقون الأفكار الرديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم (الناس أحرار - دعوا كل أحد يعتنق ما شاء - دعوا كل أحد يقول ما شاء - لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنَّانة التي إذا سمعها الإنسان قال: هذا هو الدين، ثم تحلَّل الناس وصار كلٌّ يعمل على ما يُريد، ولكن ما هي الطريق التي يتوصَّلون بها إلى هذا؟ الطريق: أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجعلوا الناس لا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن مُنكر؛ لأنهم يعرفون أنه إذا أُمر بالمعروف قام المعروف، وإذا نُهي عن المنكر غاب المنكر، فيحاولون أن يُقلِّلوا ويُضعفوا هذه الناحية، حتى يبقى الناس لا آمر ولا ناهٍ، كلٌّ يركب ما شاء.

وهناك شيء آخر يضربون عليه؛ وهو مسألة الحدود والتعزيرات، يُشوِّهون الإسلام بأنه يقطع اليد - يد السارق - ويرجم الزاني، يُشوِّهون هذا حتى يُضعفوا هذه الناحية، ومن المعلوم أنه إذا ضعف الإيمان فلا بد من رادع السلطان، فإن ضعف الإيمان وعُدم رادع السلطان، صارت المسألة فوضى، كلٌّ يفعل ما شاء، يكفر، يزني، يسرق، يشرب الخمر ...؛ لأنه لا توجد حدود رادعة، والإيمان ضعيف؛ بناءً على أنهم يقولون: اجعلوا كل إنسان حُرًّا في نفسه، ويتحلل الناس من الدين بمثل هذه الطرق، إلقاء الأفكار الرديئة في المسلمين؛ هذه من أساليب اليهود والنصارى التي يُضللون بها الناس، ويردونهم بعد إيمانهم كافرين.

كذلك أيضًا من أساليبهم التي يردون بها الناس عن الإيمان أن يُزيِّنوا للناس محبة المال، وجباية المال، بكل ما يكون بحلال أو حرام، فيُزينوا لهم المكاسب الربوية بشتى أنواعها، والمكاسب الميسرية بشتى أنواعها التي تتمثَّل في التأمينات وما أشبهها، فإن التأمينات لا شك أنها من الميسر؛ لأن المؤَمِّن والمؤمَّن له عقدهما دائرٌ بين الغنم والغرم، وهذا هو الميسر تمامًا، والنفس إذا اعتادت ذلك نسيت كل شيء، صار أكبر همِّها أن تكسب هذا المال بالربا؛ لأن الربا يوجب زيادة المال باطِّراد، وزياد الظلم باطِّراد، زيادة المال لآخذ الربا، والظلم لموكل الربا، فتأخذ النفس على

الجشع، والشُّح، وحب المال، وتنسى ما خُلقت له، كذلك الميسر وعلى رأسه القمار، يجلس المتقامران في مجلس، كل واحد عنده خمسة ملايين من الأموال مثلًا فتحصل لعبة القمار فإذا بأحدهما يكتسح مال الآخر كله، خمسة ملايين فيصبح هذا عنده عشرة ملايين، والثاني ما عنده إلَّا ثيابه يخرج من قاعة المقامرة ليس عليه إلَّا ثيابه، على كل حال مثل هذه الأساليب التي يُلقيها اليهود والنصارى، وأشباههم بين المسلمين يجب على المسلمين الحذر منها؛ لأن الله يقول: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

يجب على المسلمين أن يستمدُّوا حياتهم ومنهاجهم من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأنا واثق كل الثقة، أنهم إذا اعتمدوا في ذلك على الكتاب والسُّنة، فسيطؤون أعناق هؤلاء الكفار؛ لأن الله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] هذا كلام الله -عزَّ وجلَّ-، كلام الله الذي يقدر على كل شيء، هو وعدٌ من الله، من قادرٍ صادقٍ في وعده، فإذا كان كذلك فلماذا لا نتمسَّك بدينه؟ لماذا لا نتمسَّك تمسُّكًا تامًا، ونُظهر الأمة الإسلامية من جديد، تتمسَّك بدينها نصًّا وروحًا، لا نصًّا فقط؛ لأن التمسك بالدين نصًّا فقط لا روحًا، ليس بشيء، هو تمسُّك ظاهري يتلاشى عند حدوث النوازل، وأمَّا التمسُّك نصًّا وروحًا فهو الذي ينتفع به الإنسان في دنياه وآخرته، إذن: علينا أن نحذر كيد الذين أوتوا الكتاب وكيد كل كافر؛ لأن الله يقول في الكافرين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقال في سورة الممتحنة: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] فعلينا أن نأخذ بهذه الإرشادات التي أرشدنا الله إليها، وأن نسير في طريقنا مُهتدين بِهَدْي الله، مُقتدين برسول الله ﷺ حتى يحصل لنا النصر والسعادة، والعزة والكرامة في الدنيا والآخرة.

وأقول رأيي في هذا: إن كل واحد مُقصِّر، لم يقم كل واحد بالواجب عليه، كل واحد في الشعوب الإسلامية، وولاة المسلمين مُقصِّر لم يَقُمْ بالواجب، ولا ينبغي أن نُقْصِر التقصير على طائفةٍ مُعيَّنة، بل كلنا مُقصِّرون، هل الإنسان إذا رأى مُنكرًا من أخيه يقول: يا أخي تعال هذا حرام، لا يجوز، اتَّق الله؟ لا. مع أن هذا لم يُمنع منه أحد، ومع ذلك لا تجد من يقوم بهذا إلَّا النادر، لو أن الناس عُوِّدوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا شأن المسلمين كلهم «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ»[1] لتغيَّر الأمر، والمعروف لا يُشترط له أن يكون له طائفة معينة من قِبَلِ الولاة، كلٌ يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لكن بالحكمة، وأنا أقول دائمًا: إن

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (٤٦٥٠).

الأمر بالمعروف غير تغيير المنكر. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس هو تغيير المنكر.

تغيير المنكر يحتاج إلى سلطة، لكن الأمر لا يحتاج إلى سلطة، كلٌّ يأمر وينهى، وقد ذكرنا أن هناك ثلاثة أشياء تشتبه على بعض الناس وهي مختلفة:

١ - الدعوة.

٢ - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - والتغيير.

قال الله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]. فهنا قسَّم الله تعالى الناس غير المسلمين إلى ثلاثة أقسام: اليهود والمشركين والنصارى ... وهنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، ولم يقل: (والنصارى) ... ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، فلاحظ الفرق، ثم نجد أن الله قال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وهذا أعم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] ...

فهذه ثلاث آيات، فالذين قالوا: إنا نصارى، ليسوا هم النصارى الذين هم أولياء لليهود وللكافرين ... هؤلاء قوم مُعيَّنون، وصفهم الله بوصفٍ لا يوجد في بقية النصارى، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذه الطائفة من النصارى هي التي تكون أقرب مودَّة للذين آمنوا، ، أما الطائفة التي إذا سمعت ما أُنزل إلى الرسول نفرت، وسعت بكل ما تستطيع أَلَّا يَقبل الناس هذا الذي أُنزل، فوالله ليست أقرب مودَّةً من اليهود والمشركين، هم على حدٍ سواء.

٤ - أن طاعة الكفار مخالفة للإيمان؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فتكون طاعتهم مخالفة لكمال الإيمان، وقد تصل إلى انتفاء الإيمان بالكلية.

٥ - أن حرص الكفار على ذلك من أجل إيماننا، وبناءً عليه فإننا نُنزل القاعدة السابقة: (أن ما عُلِّق على وصف، فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف وقوته) وعلى هذا فتقوا أنه كلما ازداد المؤمنون

تمسُّكًا بدينهم ستزداد شراسة الكفار في صدهم عن دينهم، ما دام الوصف هو الإيمان، فإنه كلما ازددنا تمسكًا بالإيمان، ازداد الكفار شراسةً في صدنا عن الإيمان، ومثل ذلك أيضًا: الطاعة والمعصية، كلما ازداد الناس في الإقبال على الله والتمسك بهديه، ازداد أهل الفسوق شراسةً في القضاء على هذه القوة في الطاعة.

٦ - أن من أهل الكتاب من لا يُحاول إضلالنا عن ديننا، يؤخذ هذا من قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

ومن فوائد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١ - استبعاد أن يرتد المؤمن كافرًا، وهو يُتلى عليه كتاب الله وفيهم رسوله، والواقع شاهد بذلك، ولم تحصل الردة إلَّا بعد موت الرسول ﷺ.

٢ - أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال عليهما أعظم مانع يمنع من الكفر؛ يؤخذ من قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يعني: بعيد منكم الكفر إذا كانت تُتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، آيات الله تُتلى علينا الآن، ورسوله ليس فينا ولكن فينا سُنته، فنأخذ من هذا أنه كلما تمسَّكنا بكتاب الله وسنة رسوله، فإن ذلك سيكون حصنًا منيعًا دون الكفر.

٣ - إثبات أن القرآن الكريم آية من آيات الله؛ لقوله: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا كان آية من آيات الله، فإنه لا يمكن أن يأتي أحد بمثله، إذ إن الآية هي العلامة التي تعيِّن معلومها، ولو أمكن أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ما كانت آيات الله.

٤ - أنه ربما نقول: إن القرآن آية شرعية، وكذلك يتضمن آيات كونية بما أودع الله فيه من الإشارات العظيمة إلى ما في الكون من الآيات، من أجل أن نجعل ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ تشمل الشرعية وما دلَّت عليه هذه الشرعية من الآيات الكونية، وإلَّا فلا شك أن الذي يُتلى هو الشرعية، لكنها قد تضمنت آيات كونية دلت عليها، مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠]، ومثل قوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، فإن هذه الآية آخر جملة فيها تشمل كل ما يمكن الركوب عليه إلى يوم القيامة، ومثل قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] عند بعض

العلماء، فإن قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ يخرج الذي يطير بالقوة مثل الطائرات الحديدية هذه فإنها ليست من الأمم التي هي أمثالنا.

٥ - الحث على الاعتصام بالله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ﴾.

٦ - بشارة من وفق للاعتصام بالله بأنه مهدي، وهذه فرد من أفراد البشارات الكثيرة التي إذا تدبرها الإنسان حمد الله -سبحانه وتعالى- على نعمته أنه قد هداه وأنعم عليه.

٧ - أن دين الله - عزَّ وجلَّ - دين مستقيم؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمراد به صراط الله، وهو مستقيم في كل شيء، إن نظرت إلى الحقوق وجدته مستقيمًا فيها ليس فيه جور، فللَّه علينا حقوق، ولأنفسنا علينا حقوق، ولأهلنا علينا حقوق، ولزائرنا علينا حقوق، ولكل أحد حق على الآخر، قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لأبي الدرداء: «فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[1]. إذن هذا عدل، ليس في جنف، وهذا من استقامة هذا الدين، ولكن نبهنا فيما سبق على مسألة؛ وهي أن بعض الناس يقول: إن دين الإسلام دين المساواة، وبيَّنا أن هذا خطأ، بل إن دين الإسلام هو دين العدل؛ لأن أكثر ما في القرآن نفي المساواة، لا إثبات المساواة، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] وآيات كثيرة فيها نفي الاستواء؛ لكنه العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] وذكرنا أن هذه العبارة دخل فيها من قال إنه يسوي بين الرجل والمرأة، وبين العالم والجاهل، وبين كل إنسان وآخر، مع الاختلاف في الصفات، وتميز كل واحد عن الآخر بصفاته، وهذا لا شك أنه خطأ، ولا يأتي الإسلام به؛ الإسلام يأتي بالعدل «أَنْ تُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

❁ التفسير ❁

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وما أكثر ما أمر الله بالتقوى في كتابه في

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٧)، والترمذي (٢٤١٣).

آياتٍ كثيرة، بل جعلها الله وصية لجميع الخلق: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] والتقوى مأخوذة من الوقاية، ولهذا يُقال: إن أصلها (وَقْوَى) مؤنث من الوقاية، والوقاية اتخاذ الإنسان ما يقيه الذي يضره؛ ولهذا نقول: إن أجمع تفسير للتقوى أن يُقال: التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ هذا أجمع ما يُقال.

وقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ﴿حَقَّ﴾ مفعول مطلق مبيِّن لنوع التقوى التي أمرنا بها. أي اتقوا الله على هذا الوجه حق تقاته. ومعنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن تتقوا الله ما استطعتم؛ لأن هذه هي التقوى التي أُمرنا بها في آيةٍ أخرى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أي: ابذلوا كل ما تستطيعون في تقوى الله؛ ولهذا لا تظنوا أن هذه الآية ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أنها تهون التقوى؛ لأن بعض الناس يتخذ من هذه الآية تهوينًا لأمر التقوى ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] والحقيقة أنها بالعكس، يعني: اتقوا الله بقدر ما تستطيعون، ابذلوا كل الجهد في تقوى الله -عزَّ وجلَّ-. فيكون قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ موازيًا لقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وبناءً على هذا تكون الآية مُحكمة أي: غير منسوخة وهذا القول هو الراجح، ومقابله أن الآية منسوخة، وأنها أمر بما فيه مشقة، وأن المراد بتقوى الله أن يُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر؛ ولكن لدينا قاعدة مهمة جدًّا توجب ألَّا يتسرع الإنسان في دعوى النسخ؛ لأن دعوى النسخ ليست دعوى بسيطة، فإن النسخ يتضمن إبطال حكم من الأحكام الشرعية، وإبطال الحكم من الأحكام الشرعية ليس بالأمر السهل؛ وإن كان بعض الناس وبعض العلماء يتساهل، وإذا عجز أن يوفِّق بين النصوص، أو يُرجح ادَّعى النسخ، وهذا غلط؛ لأنه يترتب عليه إلغاء حكم شرعي، فنحن نقول: ما دام النص من القرآن أو السُّنة يمكن أن يُحمَل على وجه صحيح لا يُعارض النصوص الأخرى، فهذا هو الواجب؛ لأننا إذا سلكنا هذا المسلك عملنا بكل النصوص، أما إذا قلنا: إن أحدهما منسوخ فإننا نلغي نصًا جاء به الوحي، وهذا ليس بالأمر الهين، فالصحيح أن هذه الآية غير منسوخة؛ لأنها لا تخالف الآيات، هي مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والغريب أن الذين قالوا بالنسخ قالوا: إنها نسختها هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا ...﴾ إلخ لكن لا وجه لهذا. فالصحيح أن معنى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، أي: بقدر ما تستطيعون و﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ما أمرنا به عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا مما يدخل تحت الخطاب، ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون، يعني: إلَّا وأنتم مسلمون لله ظاهرًا وباطنًا، والإسلام هنا يدخل فيه الإيمان، وكما مرَّ في آيات كثيرة الدعاء بأن يموت الإنسان مُسلمًا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وفي سورة يوسف قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. لكن جاء في السُّنة أن الرسول ﷺ كان يقول في دعاء الميت: «اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ»[1]، ففرق بين حال الحياة وحال الموت.

والجواب عن ذلك أن نقول: إنما غاير النبي ﷺ بينهما؛ لأن صلاح الأمة على سبيل العموم بالإسلام؛ إذا حيت الأمة مسلمة انتظم أمرها؛ لأن الإسلام معناه: الاستسلام، ولم يكن فيها ما يُوجِبِ العناد والاستكبار، ولما قال: «أَحْيَيْتَه مِنَّا فأَحْيِهِ عَلى الإِسْلَامِ»، قال: «وَمَنْ تَوفَّيْته فَتَوفَّه عَلَى الإِيمانِ»، لأن المدار عند الموت على ما في القلب؛ لكن في هذه الآية وكذلك في الآيات الأخرى التي أشرنا إليها لم يذكر الإيمان معها فيكون الإسلام هنا شاملًا للإيمان.

وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا تمت إلَّا وأنت مسلم، وهذا يقتضي أن تكون مسلمًا من الآن، لا تنتظر وتقول: سأسلم إذا جاء الموت، بل تكون مسلمًا من الآن؛ لأنك لا تدري متى يفاجئك الموت، فالآية لا تعني أن تؤخر الإسلام إلى عند الموت؛ لأنك لا تدري، بل فيها الأمر بالمبادرة بالإسلام، وبالثبات عليه إلى الموت.

وفي هذه الآية إشكال في قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ (لا) ناهية وليست نافية؛ لأن عطف الطلب على الطلب أولى من عطف الخبر على الطلب ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا طلب أمر ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ هذا طلب نهي، وإذا كانت ناهية يَشْكل علينا أن الفعل بعدها مرفوع، فكيف كانت ناهية والفعل بعدها مرفوع؟

الجواب: أنَّ (تموتن) أصلها بدون نهي (تموتونن) ولما جاءت لا الناهية حذفت نون الإعراب فالتقت الواو بالنون والنون المُشددة، نونان أولها ساكن، والساكن لا يمكن أن يُقابل ساكنًا آخر كما قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِر مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

إذن: نحذف الواو هنا؛ لأنه من حروف اللين، وبقيت الميم التي تليها الواو مضمومة، ونون التوكيد تبقى على حالها، فصار الإعراب واضحًا الآن: فـ(لا) ناهية، (تموتن): فعل مضارع مجزوم

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٠٢٤)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وأحمد في مسنده (٨٧٩٥).

بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون للتوكيد.

وجملة ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ حال من الواو المحذوفة في قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - وجوب تقوى الله حقَّ تقاته للأمر بذلك بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

٢ - العناية والاهتمام بالتقوى، يؤخذ من تصديره بالنداء.

٣ - أن التقوى من مقتضيات الإيمان لتوجيه النداء إلى المؤمنين.

٤ - أن ترك التقوى من نواقص الإيمان؛ لأنه إذا نودي الإنسان بوصف؛ فإنه يزداد وصفه هذا بحسب زيادته فيما وجه إليه.

٥ - وجوب البقاء على الإسلام والمبادرة به؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٦ - أن المدار على الخاتمة، نسأل الله حسن الخاتمة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومصداق ذلك حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّ الرَّجلَ لَيَعْملُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنةِ حتَّى مَا يَكُونَ بَينهُ وَبينَها إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعْملُ بِعَمَلِ أَهلِ النَارِ فَيَدْخُلها، وَإِنَّ أَحَدَكُم لَيعملُ بَعملِ أَهْل النَار حَتَّى مَا يَكُون بَينهُ وَبَينهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسبقُ عَليه الكِتَابُ فَيَعْملُ بَعمَلَ أَهلِ الجَنةِ فَيدخلُها»[1].

لكن الأول ورد فيه قيد – والحمد له – يُريح البال، ويزيل الخوف: «إِنَّ الرَّجلَ لَيَعْملُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». ورد هذا الحديث في قصة الرجل الذي كان مع النبي -عليه الصلاة والسلام- في غزوة وكان شُجاعًا مقدامًا لا يدع شاذة ولا فاذة، فقال النبي ﷺ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ» – نسأل الله العافية – فَعَظُمَ ذلك على الصحابة وشقَّ عليهم كيف يكون هذا الرجل من أهل النار وهو بهذه المثابة في جهاده؟! فقال رجل: والله لألزمنَّه، يعني: أصاحبنّه حتى أنظر ما عاقبته؟ فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم فجزع فأخذ سيفه واتكأ عليه حتى خرج من ظهره – أعوذ بالله –، جعله في صدره حتى خرج من ظهره ومات، فلما أصبح الرجل غدا إلى رسول الله ﷺ وقال: أشهد أنك رسول الله، قال: وبم؟ ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرَّجلَ لَيَعمَلُ بِعمَلِ أَهلِ الجَنةِ فيمَا يَبْدُو للناسِ وَهُو مِنْ أَهلِ النَّارِ»[2]، يعني: يكون في قلبه – نسأل الله العافية – سرٌّ خبيث ليطيح به في مواضع

(١) رواه البخاري (٣١٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٩٧٠)، ومسلم (١١١).

الشدة والضيق، يعني: أنه تخونه سريرته عند الموت؛ لأن قلبه فيه شيء، ولهذا يجب علينا أن نُطهر قلوبنا دائمًا وأبدًا ونغسلها فليس العبرة أن يصلي الإنسان أو أن يصوم إذا كان قلبه خربًا؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يصلي أحسن صلاة؛ لأنه عمل جوارح، ولكن الكلام على عمل القلب، أسأل الله أن يُطهر قلوبنا جميعًا.

لذا علينا أن نحرص على ملاحظة القلوب وإصلاحها، وإخراج النفاق منها، وإخراج الشك وإبعاده، وإخراج الحسد والغل والحقد على المسلمين؛ لأن كل هذا من خصال اليهود، أحسد الناس وأشدهم غلًا اليهود، هل ترضى أن يكون في قلبك خُلق من أخلاق اليهود؟ لا أحد يرضى بهذا النفاق من أخلاق المنافقين، لا أحد يرضى أن يكون منافقًا، فالمهم: أن نحرص حرصًا شديدًا على إصلاح القلوب.

لما جيء برجل كان يشرب الخمر في عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ويكرر شرب الخمر، فدعا عليه رجل من الصحابة وسبَّه، وقال: ما أكثر ما يؤتى به إلى رسول الله ﷺ ليعاقبه على شرب الخمر قال: «لا تَلْعنوه فَواللهَ مَا عَلمتُ إِلَّا أنِه يحبُّ اللهَ ورسولَه»[1] - سبحان الله -، انظر إلى طهارة قلبه، نفسه الأمارة بالسوء تحدوه إلى أن يشرب الخمر، لكن قلبه مملوء بمحبة الله ورسوله، فالمدار كله على القلب، ولذلك يجب علينا أن نحرص حرصًا كثيرًا على صلاح القلب؛ لأن هذا يوجب حسن الخاتمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٧ - أن الإسلام يدخل فيه الإيمان عند الإطلاق، وهو كذلك، والدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «وَمَنْ تَوَفَّيتَه مِنَّا فَتَوفَّه عَلى الإِيْمانِ»[2]، فالإسلام عند الإطلاق يدخل فيه الإيمان، وأما عند الجمع فالإسلام عمل الجوارح، والإيمان عمل القلب كما قال بعض السلف: (الإيمان سر، والإسلام علانية).

فإن قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، فهذا ظاهره أن الإيمان والإسلام شيءٌ واحد مع أنهما ذُكِرَا جميعًا في موضع واحد؟

فالجواب: أن يُقال: البيت لم يخرج كله، إنما الذي خرج المؤمنون من أهل البيت، والقصة في لوط، امرأته كافرة لم يخرج بها لكنها في بيت إسلام، ولم تظهر أنها كافرة، والدليل على أنها لم

---

(١) رواه البخاري (٦٣٩٨) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

تظهر أنها كافرة أن الله تعالى قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فهي لم تظهر أنها كافرة، فالبيت بيت إسلام، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] لكن الإيمان ليس لأهل البيت كلهم، ولهذا بقيت الزوجة، وخرج الأهل، فالقاعدة الصحيحة: أن الإسلام والإيمان يكونان مترادفين، ويكونان متباينين؛ يكونان مترادفين إذا افترقا، ويكونان متباينين إذا اجتمعا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجُرات: ١٤]، هذا واضح على أن هناك فرقًا بين الإيمان والإسلام.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

❁ التفسير ❁

هذا داخل تحت قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢] فهي معطوفة على ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ وفيما سبق قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١]، والاعتصام بالله هو: الاعتماد عليه، والتوكل عليه، والاستعانة به، والاعتصام بحبله أي: بشرعه، فحبل الله هو شرعه، وسمي شرعه حبلًا لأنه موصل إليه، والحبل كما تعلمون يوصل إلى المقصود، فإن الإنسان إذا أراد أن يشرب من البئر أدلى الدلو بالحبل، بالرشاء، فحبل الله هو شرعه الموصل إليه كما يُقال: حبل البئر هو: الرشاء الموصل إلى الماء ليستقي منه الساقي، وأضيف إلى الله - عزَّ وجلَّ - لأمرين: الأمر الأول: أنه هو الذي وضعه سبحانه وتعالى، والأمر الثاني: أنه موصل إليه.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الواو في اعتصموا، يعني: اعتصموا كلكم، لا يشذ أحد عن هذا الاعتصام.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ في حبل الله، كونوا جميعًا تحت المظلة الشرعية، لا يشذ أحد منكم ولا تفرقوا أحزابًا ولا أفرادًا.

﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾: اذكروا بألسنتكم، واذكروا بقلوبكم، والذكر بالقلب هو التذكر، يتذكر الإنسان حتى ولو كان وحده، في بيته يتذكر الحال التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها، اذكروا أيضًا بألسنتكم ثناءً على الله بذلك وتحدثًا بنعمته.

وقوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ والنعمة بمعنى: العطاء والرزق، وهذه النعمة التي ذكر الله هنا، وأمرنا أن نذكرها، هي من أكبر النعم ولهذا قال: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ هذا بيان هذه النعمة، أي: أن بعضكم عدو لبعض، ولا شك أنه مع العداوة لا يمكن أن تستقيم الأمة، فالعداوة التي كانت بينهم قبل الإسلام أزالها الله تعالى بالإسلام، ومن ذلك ما كان بين قبائل العرب من قريش وهوازن وغيرهم، وما كان بين قبائل الأنصار بين الأوس والخزرج، حروب، وفتن، وعداوات، وثأرات؛ شيء إذا قرأه الإنسان في التاريخ يقول: إن من أكبر نعم الله على العرب أن جاء بهذا الإسلام، ولهذا ذكَّر النبي ﷺ الأنصار بذلك حين قسَّم غنائم حنين، وكان رسول الله ﷺ حكيمًا، أعطى المؤلفة قلوبهم عطاءً كثيرًا، حتى إنه يُعطي الإنسان مائة ناقة، فصار في قلوب بعض الأنصار شيء، حتى إنهم قالوا: وجد أصحابه فأعطاهم، أو كلمة نحوها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمرهم أن يجتمعوا، وألَّا يدخل معهم أحد، اجتمعوا فجاء إليهم، وذكَّرهم بنعمة الله - عزَّ وجلَّ - عليهم، وقال لهم: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُم اللهُ بِي؟»، قالوا: «الله ورسوله أَمَنّ؟ قال: «أَلَمْ أَجِدْكُم عَالَةً فَأَغْنَاكُم اللهُ بِي؟» قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ؟ قال: «أَلَمْ أَجِدْكُم متفرقين فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟»، قالوا: الله ورسوله أَمَنّ؟ كلما قال شيئًا، وذكَّرهم به، اعترفوا بأن الله ورسوله أَمَنُّ، ولكنه - عليه الصلاة والسلام- لما ذكرهم بفضله عليهم قال: (لَو شِئْتُم لَقلتُم: جِئتَنَا طَرِيدًا فَآوَينَاكَ)، وذكر -عليه الصلاة والسلام- فضلهم عليه ثم قال: «أَمَا تَرْضَونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعيرِ وَتَذْهَبونَ بِرَسولِ الله ﷺ إِلى رِحَالِكُم، لَولَا الهِجْرةُ لَكُنتُ امرءًا مِنْ الأَنْصَارِ، الأَنْصَارُ شِعارٌ[١] والنَّاسُ دِثَارٌ[٢]»[٣]، حتى جعلوا يبكون، وخضبوا لحاهم بدموعهم ﷺ، واقتنعوا اقتناعًا كاملًا، الشاهد من هذا أنه ذكَّرهم -صلوات الله وسلامه عليه- أنهم كانوا متفرقين فجمعهم الله به، وألفهم به، ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ألَّف يعني: جمع، ومنه قولنا: ألَّف فلان كتابًا يعني جمعه.

وقوله: ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل بينكم؛ لأن الائتلاف في القلوب، وهذا هو الذي عليه المدار،

---

(١) هو الثوب الذي يلي الجلد من البدن.

(٢) هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

(٣) رواه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبدالله بن زيد ﷺ.

ليس المدار الائتلاف بالأجسام، كم من أمة ائتلفت بأجسامها ولكن قلوبها متفرقة كما قال الله تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] ولا فائدة من اجتماع الأبدان مع تفرق القلوب. الفائدة باجتماع القلوب، وتآلف القلوب، ولو تباعدت الأبدان، وكم من إنسان يكون بينك وبينه مودة وصداقة وهو بعيد منك، وبعيد عنك، وكم من إنسان بالعكس تشعر بأنه يُنافقك وأنه لا يُكنُّ لك المحبة ولا الصداقة، ومع ذلك هو مُلازم لك كملازمة الظل، فالشأن كل الشأن بالقلوب.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ومن الذي يستطيع أن يؤلف بين قلوب الناس؟ الله -عزَّ وجلَّ-. لا أحد يستطيع أبدًا سواه. يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] صحيح أن المال يؤلف، ولهذا جعل الله تعالى للمؤلفة قلوبهم نصيبًا من الزكاة، وكان النبي يُعطي المؤلفة قلوبهم. لكن ثقوا أن ما كان مؤلفًا لشيء فإنه سوف ينعدم تأليفه بزوال هذا الشيء وفَقْدِه لكن التأليف الذي يكون على الإيمان، ومن الرحمن -عزَّ وجلَّ-، هذا لا ينفصل؛ ولهذا قال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ أصل الإصباح الدخول في الصباح الذي هو أول النهار؛ لكنه يطلق أحيانًا مُجردًا من الزمان ويُراد به الصيرورة، أي: صرتم إخوانًا وهذا هو المُراد هنا (أصبحتم إخوانًا) يعني: صرتم إخوانًا في الصباح والمساء.

وقوله: ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ الباء هنا للسببية، أي: بسبب إنعامه عليكم بعد العداوة، أصبحتم إخوانًا يعني: إخوة، والأخوة في الأصل المقارنة أو القران بين الشيئين، وكل شيئين اتفقا في شيء واقترنا به فهما أَخَوان، فمعنى ﴿إِخْوَانًا﴾ أي: مقترنين، مؤتلفين، كأنما بينكم رابطة النسب، بل أعظم من رابطة النسب؛ لأن أخوة الدين أعظم من أُخُوَّةِ النسب، بل إن أخوة النسب تتلاشى إذا لم توجد أخوة الدين، ودليل هذا أن نوحًا -عليه الصلاة والسلام- قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مع أنه ابنه بضعة منه، لكنه ليس من أهله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ يعني: أنه عمل عملًا غير صالح، فهو كافر، وأنت رسول، فليس بينكما نسبٌ يعني: قرابة، فالأخوة الإيمانية أقوى رابطة من الأخوة النَّسَبية، فإذا اجتمعا قوَّى بعضهما بعضًا، إذا كان أخاك من النَّسب وهو أيضًا أخوك في الدين صار هذا أقوى وأقوى.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ وقد ظهرت هذه الأخوة، فإن الأنصار ﷺ لما قدم إليهم المهاجرون صاروا يؤثرونهم في أموالهم، يتنازل الإنسان عن ماله لأخيه المهاجر، بل ربما يتنازل عن إحدى زوجتيه له من شدة الأخوة والمحبة بينهما.

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: ﴿وَكُنتُمْ﴾ أي: قبل الإسلام. ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: على طرف، وشفا الشيء طرفه كشفا البئر أي: طرفها.

وقوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من نار جهنم؛ لأنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام والأوثان، فهم على شفا حفرة، لو ماتوا على تلك الحال لسقطوا في الحفرة، لكن قبل أن يسقطوا في الحفرة أنقذهم الله بالإسلام، ولله الحمد والمنة. فبيَّن الله - عزَّ وجلَّ - هنا حالهم الاجتماعية، وحالهم الدينية، حالهم الاجتماعية كانوا أعداء مختلفين، متفرقين، فألف بين قلوبهم، وحالهم الدينية أنهم على شفا حفرة من النار، لم يبق عليهم أن يتساقطوا في النار إلَّا أن يموتوا على الكفر، ولكن الله تعالى أنقذهم بنعمته بهذا الدين الذي قال الله فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فقوله: ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ كلمة (أنقذ) تدل على أن هذا الشفا كان هلكة، وهو كذلك، فإنه لا هلكة أعظم من هلكة من كان في النار فأنقذه الله منها إنقاذًا.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يذكرها الله -سبحانه وتعالى- كثيرًا في كتابه العزيز، وهي على تقدير مثل ذلك، فكذلك أي: مثل ذلك، ثم هي تختلف باختلاف السياق، ففي مثل هذا السياق الذي نحن فيه تكون مفعولًا مُطلقًا، وإن شئتم فقولوا نائبة مناب المصدر؛ لأن التقدير مثل ذلك البيان: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: أن الله -سبحانه وتعالى- أظهر آياته لنا - آياته الكونية وآياته الشرعية - بيانًا واضحًا ظاهرًا ليس فيه لبس؛ لأنه هنا لما ذكَّر حالهم الاجتماعية والدينية، وهي حال ظاهرة لا تشكل عليهم جعل ذلك بيانًا فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: العلامات الدالة عليه وعلى وحدانيته، وربوبيته، وسلطانه، وعلمه، وقدرته، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الآية؛ لأن كل آية من آيات الله تدل على معنى من معاني ربوبيته -سبحانه وتعالى-.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: (لعل) هنا للتعليل، أي: لأجل أن تهتدوا، والهداية هنا شاملة لهداية التوفيق، وهداية الإرشاد والدلالة. أي: لتهتدوا اهتداءً علميًا، وتهتدوا اهتداءً عمليًا، والاهتداء العلمي هو: هداية الإرشاد والدلالة، والاهتداء العملي: هداية التوفيق؛ لأن الإنسان

بفطرته كلما تبين له شيء من آيات الله ازداد إيمانًا ويقينًا وعملًا، وقد ذكرنا أن (لعل) للتعليل وهي كثير ة في القرآن بهذا المعنى، وتأتي للرجاء، وتأتي للإشفاق، والرجاء ضد الإشفاق، «الإشفاق»: الخوف، و«الرجاء»: الأمل، فإذا قلت لشخص: استغفر الله لعل الله أن يغفر لك، هذا رجاء، وإذا قلت: لا تمش في هذا الطريق فلعلك تهلك، هذا إشفاق، والتعليل أيضًا معروف من السياق.

من فوائد الآية الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾:

١ - وجوب الاجتماع على شرع الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾.

٢ - وجوب التحاكم إلى شرع الله؛ لأن الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المحكَّم.

٣ - أن الاجتماع عصمة؛ لقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾ فاجتماع الأمة الإسلامية عصمة لها داخليًا، وعصمة لها خارجية، أما خارجيًا فإن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت هابها الأعداء ورأوا أنها أمامهم كالجبال الصُّمِ التي لا يستطيعون لها صعودًا، وإذا تفرقت تمزقت فدخل الأعداء، أيضًا عصمة داخلية؛ لأنهم إذا اجتمعوا على شرع الله تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ودعوا إلى الخير وصاروا أمة واحدة، كل إنسان يخشى الله في أخيه لا يعتدي عليه؛ لا على ماله ولا على عرضه ولا على دمه، لماذا؟ لأنهم أمة واحدة جميعًا، ففي الاجتماع عصمة في الداخل وعصمة في الخارج.

٤ - تحريم التفرق في القلوب، لأن المدار على التفرق في القلوب، أما التفرق في الأبدان فضروري أن يتفرق الناس، كلٌّ الآن في بيته، وفي الأقوال أيضًا يتفرقون، وما أكثر الخلاف بين أهل العلم قديمًا وحديثًا في المسائل العلمية، لكن الذي يجب على المسلمين أن يبعدوا عنه هو التفرق بينهم في القلوب؛ لأنه هو الذي عليه المدار، ولهذا قال الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُم»[1]، فالمدار على القلوب.

إذن: في هذه الآية دليل على تحريم التفرق في القلوب حتى لو تفرقت الأبدان أو تفرقت الأقوال، فالواجب أن القلوب لا تتفرق، وكان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد المؤدي إلى التفرق في الأقوال لكن القلوب واحدة، لا يكره بعضهم بعضًا إذا خالفه في الرأي، بل إني أؤكد ما ذكرت سابقًا: إنه ينبغي للإنسان العاقل أنه إذا خالفه أخوه في رأيه بمقتضى الدليل

(١) رواه مسلم (٤٣٢)، وأبوداود (٦٦٤)، والترمذي (٢٢٨)، والنسائي (٨٠٧)، وابن ماجه (٩٧٦)، وأحمد في مسنده (١٧١٤٣).

عنده أن يكون ذلك أدعى إلى قوة المحبة له لأنه خالفه للدليل، والثاني: أيضًا خالفه للدليل، فكان ينبغي عليه أن تكون محبته أقوى؛ لأن الرجل لم يحابني في ذات الله، وإنما قدَّم محبة الله، وأنا حينما أخالفه تقديمًا لمحبة الله -عزَّ وجلَّ-، فالإنسان العاقل المؤمن هو الذي لا تزيده مخالفة أخيه له في الرأي تلك المخالفة المبنية على الاجتهاد إلَّا محبةً له وتمسكًا به، خلافًا لما يفعله بعض الناس الآن ومع الأسف أنهم طلبة علم إذا خالفه أخوه في الرأي، مع أنه لا يعلم الصواب عنده أو عند أخيه أبغضه وكرهه وهجره، وربما يُلاقيه فاسق فيُسلم عليه، ويُلاقيه أخوه الذي خالفه في الرأي ولا يُسلم عليه، وما ذاك إلَّا من الشيطان، الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة بين المسلمين ولاسيما بين طلبة العلم حتى ينبذ بعضهم بعضًا؛ لأن الشيطان يعلم أن الشريعة لا تقوم إلَّا بالعلم وبالعلماء، فإذا تنابذوا وتقاطعوا فيما بينهم، وصار بَعضهم يكره بعضًا؛ ارتكبوا مخالفة لنصوص الكتاب والسُّنة التي تأمر العباد بالاجتماع والأُلفة، وتنهاهم عن الاختلاف والفُرقة: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

٥ - وجوب تذكر نعمة الله، وهذه مسألة مهمة؛ لأن الغفلة عن تذكر النعمة يستلزم الغفلة عن الشكر، والشكر واجب: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] فالغفلة عن تذكر النعمة موجب أو مستلزم للغفلة عن الشكر بحيث إن الإنسان لا يعترف بنعمة الله، يجب أن تتذكر نعمة الله عليك في كل شيء في الأمور الدينية وفي الأمور الدنيوية، المالية والجاهية والخلقية والأهل، كل شيء، مثلًا: اذكر نعمة الله عليك بالعلم؛ لأنك تعرف أن في الناس من هو جاهل، لا تقل: والله إنعام الله على «شيخ الإسلام ابن تيمية» أكبر من نعمته عليّ، لا، قل: نعمة الله عليَّ أكبر من نعمته على من هو دوني في العلم، اذكر نعمة الله عليك في الصحة، فإن من الناس بل إن كثيرًا من الناس يئن من المرض وأنت في صحة، اذكر هذه النعمة حتى لو فيك مثلًا مرض أو عيب في عضو من أعضائك فاذكر من هو أشد، من هو مريض بعضوين ومعيب بعيبين وهكذا، أيضًا اذكر نعمة الله عليك بالدين، إذ أنعم الله عليك بالدين وهذه أكبر نعمة لأنه هو الربح في الدنيا والآخرة، اذكر نعمة الله عليك بالدين في مقابلة الكفر، هذا في أصل الإيمان، ثم اذكر نعمة الله عليك بالثبات على الإسلام، وتطبيق أحكام الإسلام حيث إنه يوجد من هو مسلم ولكن مخالف عاصٍ عنده فسوق، إذن ذكر نعمة الله علينا واجب حتى نعرف قدر نعمة الله ونشكر ربنا -سبحانه وتعالى- على نعمه التي حُرم منها كثير من الناس.

٦ - أن من أكبر نعم الله على الأمة أن يؤلف بين قلوبها؛ لقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولا شك أن هذا من أكبر النعم أن يؤلف الله بين القلوب ويجمع بينها؛ لأنه إذا تفرقت القلوب فسد كل شيء؛ فتأليف القلوب من أكبر نعم الله -سبحانه وتعالى- على الأمة، ومن تحتها القبيلة، ومن تحتها الفخذ، ومن تحتها الأخوة، فإذا ألف الله تعالى بين القلوب - ابدأ من الأولاد والآباء إلى ما شاء الله - فهذه من أكبر النعم، أما إذا تعادت القلوب فبئس المجتمع، مجتمع تعادت قلوبه وتنافرت، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بهذه النعمة فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] لو أنفقت كل ما في الأرض من ذهب وفضة وثمار وزروع ومواشٍ وغيرها لو أنفقته عليهم ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، والحاصل: إن من أكبر نعم الله على الأمة التأليف بين القلوب.

٧ - أن نتيجة التأليف أن يصبح الناس إخوانًا كالأخ مع أخيه تمامًا، بل كما ذكرت سابقًا: إن الروابط الدينية أقوى من الروابط النسبية.

٨ - أنك إذا رأيت الناس متفرقين فإن هذا عنوان على شقائهم، وأن النعمة سُلبت منهم؛ لأنه قال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فإذا لم تتحقق الأخوة والتأليف بين القلوب؛ فإن ذلك دليل على أن النعمة في هذا الأمر سلبت منهم.

٩ - مِنَّة الله -سبحانه وتعالى- على الصحابة بالذات، حيث أَلَّف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداءً فأصبحوا إخوانًا ﷺ وهم الذين طبقوا مقتضى الأخوة الحقيقية الصادقة التي بُنيت على الإيمان، لا الأخوة المبنية على القومية أو الوطنية، فهذه أخوة فاشلة باطلة، ولا أدل على فشلها مما عليه العرب اليوم حيث كانوا يعتزون بالقومية العربية، ومع ذلك فشلوا فشلًا ذريعًا، وكذلك الوطنية، اعتزاز الإنسان بوطنيته فشل، لا يمكن أن يكون هناك أخوة إِلَّا بالإيمان والإسلام.

الأنصار من الأوس والخزرج، والعرب طائفة أخرى مقابلة، هؤلاء قحطانيون وهؤلاء عدنانيون، ومع ذلك اجتمعوا على قلبٍ واحد، بل جاءهم أناس من غيرهم، جاء صُهيب من الروم، وسلمان من فارس، وبلال من الحبشة، وصاروا إخوانًا لهؤلاء، فإذن نقول: إن الأخوة الحقيقية هي أخوة الإيمان، ولن يقوم للعرب قائمة حتى يرجعوا إلى الأخوة الإيمانية، وإِلَّا فهم فاشلون مهما كان ولا يمكن أن يسعدوا بظفرٍ أو نصرٍ ما دام هتافهم بالقومية وما أشبهه.

١٠ - مِنَّة الله -سبحانه وتعالى- على أهل الخطاب الذين خوطبوا بهذه الآيات حيث كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها، يعني: أن الله بعث فيهم مُحمدًا ﷺ فاهتدوا به قبل أن يموتوا،

وإذا كان هذا نعمة على هؤلاء، فهو أيضًا نعمة على من بعدهم إلى يوم القيامة، فأكبر نعمة يُنعم الله بها على الإنسان أن يُنقذه من النار.

١١- أن الله -سبحانه وتعالى- خالق لعمل العبد، تؤخذ من قوله: ﴿فَأَنقَذَكُم﴾، لأن الله أنقذهم بعملهم فأضاف هذا الإنقاذ المبني على العمل إلى نفسه، وهو كذلك، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة أن الله -تعالى- خالق العبد، وخالق عمل العبد، فالعبد ليس مستقلًا بل هو مخلوق في ذاته وفي إرادته وفي عمله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي: وعملكم على قول، أو والذي تعملونه على قول آخر، وإذا خلق المعمول فهو خالق للعمل؛ لأن المعمول نتيجة العمل، فالآية دالة على أن الله خالق لأعمال العباد سواء جاءت «ما» مصدرية أو موصولة.

١٢- إثبات العقوبة بالنار؛ لقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ...﴾ الخ.

ومن فوائد قوله -عزّ وجلّ-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

١ - أن الله - عزَّ وجلَّ - بيّن لنا الآيات الكونية والشرعية، وجه هذا أن (آيات) جمع مضاف، والجمع المضاف يفيد العموم، وبيان آياته الكونية ظاهرة، الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأنهار وغير ذلك، والشرعية كذلك ظاهرة لمن فتح الله عليه معرفة ما أنزل الله - عزَّ وجلَّ - على رسله، ثم إن بيان الآيات الكونية ليس مجرد أن تعرف أن هذه الآية لا يقدر على خلقها وتصريفها إلَّا الله فقط، لكن أن تستدل بالسُّنن الماضية على السُّنن الحاضرة مثلًا: إهلاك الله الأمم السابقة نستدل به على أن سُنة الله في الخلق واحدة، فالذي أهلك الأمم السابقة بذنوبهم يُهلك بعض هذه الأمة أيضًا بذنوبهم كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

٢ - الرد على أهل البدع الذين حرَّفوا نصوص الكتاب والسُّنة إلى معانٍ لا يدل عليها ظاهرها، ووجه ذلك أننا إذا قلنا: إن المراد بهذه الآيات والأحاديث خلاف الظاهر بدون بيان من الله ورسوله صارت هذه الآيات مُبهمة، مثلًا: إذا قالوا: المراد باستواء الله على عرشه استيلاؤه عليه بدون بيان من الله ورسوله نقول: كون الله يُعبر بـ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ على العرش بدل استولى إيهام، وإذا قالوا: المراد باليد: النعمة والقوة قلنا: سبحان الله كيف يُعبر الله باليد عن النعمة والقوة، وهو يُريد النعمة والقوة بدون بيان، ما هذا إلَّا إيهام، فالمهم أنه على طريقة ومنهاج أهل البدع وغيرهم أيضًا ممن يُحرفون الكلم عن مواضعه بدون بيان من الله ورسوله يكون القرآن ليس هُدىً ولا بيانًا للناس وكذلك السُّنة، وهو خلاف هذه الآية وغيرها.

٣ - محبة الله - عزَّ وجلَّ - لهداية الخلق؛ لأنه يُبيِّن ليهتدي الناس، إذن فهو يحب من العباد أن يهتدوا.

٤ - إثبات العلل في أفعال الله -سبحانه وتعالى-، تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ لأن «لعل» للتعليل، والحكمة من مقتضى كماله عزَّ وجلَّ-؛ فهو الحكيم العليم في أحكامه الكونية والشرعية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

تم بعون الله وتوفيقه المجلد الأول من تفسير سورة آل عمران

ويليه المجلد الثاني

وأوله تفسير قوله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ

وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٤] إلى آخر السورة.

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الدروس العلمية العامة

في

العلم والدعوة والتربية

مجموعة محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
في شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين
والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمهما الله تعالى

اعتنى به
أشرف بن كمال

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة آل عمران

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسيرُ
سُورَة آلِ عِمْرَان

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنَةُ الطَّبْع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقَمُ الإيدَاع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقَمُ الطَّبْعَة : الأولى

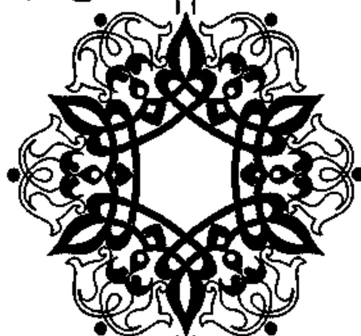

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٢٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة آل عمران

قال الله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، ودليل ذلك جزم الفعل بها ﴿وَلْتَكُن﴾ ولام الأمر تجزم الفعل المضارع. ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة يدعون إلى الخير، والأمة في القرآن الكريم وردت على معانٍ متعددة، منها الطائفة، ومنها الزمن، ومنها الإمامة، ومنها الملة، فمثالها في الطائفة هذه الآية، قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ومثالها في الملة قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٣]، أي: على ملة، ومثالها في الإمامة قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠]، ومثالها في الزمن قوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، أي: بعد زمن.

﴿مِّنكُمْ﴾ (مِنْ) يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس، فعلى الأول يكون المعنى: وليكن بعضكم يدعو إلى الخير، وعلى الثاني: ولتكونوا جميعًا دعاةً إلى الخير؛ لأننا إذا جعلناها لبيان الجنس صار المعنى أن كل الأمة يجب أن تكون من هذا الطراز، يعني: ولتكونوا أمة تدعون إلى الخير، وإذا جعلناها للتبعيض صار المعنى: وليكن بعضكم يدعو إلى الخير.

قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ كل من تتوجه الدعوة إليه، أي إنسان تتوجه الدعوة إليه فليدعوه حتى الجن، ولهذا كان المفعول محذوفًا من أجل العموم ﴿الْخَيْرِ﴾ كل ما جاء به الشرع فهو خير، ويشمل ما كان خيرًا في الدين وما كان خيرًا في الدنيا، أما ما كان خيرًا في الدين فأمره ظاهر قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] وأما ما كان من أمر الدنيا فلأن، ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة، فيكون الخير هنا يشمل خير الدين وخير الدنيا، فمثلًا: يدعون إلى فعل الطاعات، صَلِّ، زكِّ، صُم، حُج، بر والديك، صِلْ أرحامك، انصح في البيع والشراء، بيِّن، وما أشبه ذلك، كل هذا دعوة إلى الخير.

لا تزنِ، لا تسرق، لا تشرب الخمر، لا تقتل النفس بغير حق، لا تَعُق والديك، لا تقطع أرحامك، لا تغش الناس، هذا أيضًا دعوة إلى الخير؛ لأن النهي طلب كفٍّ فهو في الحقيقة دعوة إلى الخير؛ لأن ترك الشر خير.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: جعل الأمر بالمعروف بعد الدعوة؛ لأن الدعوة سابقة على الأمر، فأنت تدعو أولًا، ثم تأمر ثانيًا، ثم تغير ثالثًا، وهذا يلتبس على كثير من الطلبة؛ حيث يظنون أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر شيء واحد، والأمر ليس كذلك، فالدعوة إلى الخير عامة، فالخطيب إذا خطب الناس في الجمعة وأمر ونهى، يقال: داعٍ إلى الخير، والرجل إذا قال: يا أخي صلِّ، اتق الله يا أخي، لا تغش الناس، اتق الله، فهذ أمر بمعروف ونهي عن منكر، وولي الأمر إذا رأى آلة عزف وكسرها هذا تغيير منكر، ولكلٍّ درجات. وكلمة (يأمرون) تدل على أنهم يتكلمون مع الناس على وجه الاستعلاء لا على وجه العلو، يعني: على وجه أنني آمر، والآمر بالخير أعلى مرتبة من المأمور.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعروف هو كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات فعلًا؛ لأنه قال: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، جمع بينهما، فصار المراد بالمعروف كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات المأمور بها، فالأمر بالتوحيد أمر بالمعروف والأمر باتباع السلف في العقيدة أمر بمعروف، والأمر بالصلاة أمر بمعروف، والأمر ببر الوالدين أمر بالمعروف، وهلم جرا.

ثالثًا: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: النهي هو: طلب الكف على وجه الاستعلاء، يعني: يطلبون من الناس أن يكفوا عن المنكر، والمنكر ما أنكره الشرع من الأعمال والأخلاق، فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وقتل النفس، والعدوان على الناس بأخذ أموالهم وانتهاك أعراضهم، كل هذه منكرات، فهم ينهون عن المنكر.

قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (أولئك): المشار إليه الأمة الداعية إلى الخير، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، وهي مبتدأ، و(هم): ضمير فصل لا محل له من الإعراب، (والمفلحون) خبر المبتدأ، فلو قال قائل: لماذا لا تجعلون (هم) مبتدأً ثانيًا، و(المفلحون) خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول؟ قلنا: لا نقول ذلك؛ لأننا لو قلنا ذلك لفاتتنا فوائد ضمير الفصل، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٤٠]، ووجه الدلالة أنه لم يجعل ضمير الفصل مبتدأً، فلو جعل مبتدأ لقال: (إن كانوا هم الغالبون) حتى تكون الغالبون خبر لـ(هم).

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هم: الناجون من الكربات، الحاصلون على المطلوبات، فالفلاح هو النجاة من المكروبات أو من المكروهات والحصول على المطلوبات، ففيها أمران:

١- سلامة.

٢- وكسب.

ولهذا تعتبر كلمة الفلاح من أجمع الكلمات، فالمفلح هو الفائز بمطلوبه، الناجي من مرهوبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

نهى الله أن نكون مثل هؤلاء الذين جمعوا بين وصفين ذميمين: التفرق والاختلاف، ورتَّب على هذا الجزاء المشين وهو قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ أي: لا تصيروا مثل الذين تفرقوا، وعلى هذا فنعرب الكاف هنا اسمًا لتكون خبر (تكون): تكونوا مثل الذين تفرقوا، قال ابن مالك:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يَعْنِي وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

واستعمل اسمًا، فالكاف هنا اسم بمعنى مثل، وهي خبر (تكون).

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ : أتى بها بعد قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلابد أن تتفرق؛ لأنه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة، كل واحد يعمل على هواه؛ لأنه ما يُدعى إلى الخير، والنفوس لها نزعات متباينة مختلفة، وكذلك أيضًا إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرق الناس ولا بد؛ لأن هذا يريد الزنا، وهذا يريد شرب الخمر، وهذا يريد السرقة، وهذا يريد أشياء غير الأولى فيحصل التفرق، فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلهم على المعروف، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلهم على ترك المنكر.

قال: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ مثل من قال فيهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة:٤] وأول من مثَّل بهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى)؛ حيث اختلفوا اختلافًا عظيمًا من بعد ما جاءتهم البينات، فنهانا الله تعالى أن نكون مثلهم في التفرق والاختلاف.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وإذا نُهينا عن ذلك فهو أمر بضده، يعني: إذا نُهينا عن التفرق والاختلاف فهو أمر بالاجتماع والائتلاف، الاجتماع ضد التفرق، والائتلاف ضد الاختلاف، كأن الله يقول: اجتمعوا وائتلفوا، ولا يكن فيكم افتراق ولا اختلاف فتكونوا مثل اليهود والنصارى.

قوله: ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ أي: تفرقوا في أبدانهم ولم يجتمعوا، وصاروا أحزابًا، واختلفوا في قلوبهم وفي مناهجهم، فصار لكل حزب منهجٌ معين يفرح به ولا يتزحزح عنه، ويرى أن من سواه على ضلال.

قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أشار إليهم بصيغة البعد؛ لأن (أولاء) اسم إشارة للبعيد، وذلك لانحطاط مرتبتهم، يعني: كأنهم لانحطاط مرتبتهم أنزلهم المتكلم منزلة البعيد منه؛ لأنه يتبرأ منهم ومن أعمالهم.

قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب هو: العقوبة -والعياذ بالله- لأنه يؤلم صاحبه ويعذبه، والعظيم، هو: الشيء المستعظم في كيفيته وفي كميته؛ لأن عذابهم -نسأل الله العافية- شديد متنوع، يسقون من ماءٍ حميم -والعياذ بالله- إلى برودة كذلك، كما أنه عظيم في دوامه ومستمر أبدي، نسأل الله العافية.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١- في الأولى وجوب الدعوة إلى الخير، تؤخذ من لام الأمر في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

٢- أن ذلك على الكفاية؛ لقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ وهذا على القول بأن (مِن) للتبعيض، أما إذا قيل إنَّ (من) لبيان الجنس فإنه يدل على أنه يجب على الأمة كلها أن تكون أمة داعية إلى الخير، بمعنى أنه لا ينتظر بعضهم بعضًا هل يأمر أو لا يأمر، بل كلهم يكونون مستعدين لذلك. كلهم دعاة، فمثلًا، إذا قيل لشخص: قُم وادع إلى الخير قال: فلان يدعو إلى الخير وفيه كفاية، هذا لا ينبغي، بل ينبغي أن يدعو إلى الخير ما استطاع؛ لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ تكن أمة بمجموعها تدعو إلى الخير.

٣- ملاحظة الإخلاص؛ لقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، لا إلى أنفسهم؛ لأن بعض الناس يدعو إلى نفسه، وبعض الناس يدعو إلى الخير، وعلامة الداعي إلى نفسه: أنه لا يريد من الناس أن يخالفوه ولو كان على خطأ، وهذا لا شك أنه داعٍ إلى نفسه، ثانيًا: من علامة ذلك أنه يكره أن يقوم غيره بذلك، أي: بالدعوة إلى الخير يريد أن يستبدَّ به من بين سائر الناس، هذا أيضًا داعٍ إلى نفسه؛ ليصرف الوجوه إليه، نسأل الله الحماية والعافية. أما إذا كان يودُّ أن يقوم هو بالأمر لينالَ الأجر لا ليحرم غيره أو ليصرف الناس إلى نفسه فهذا ليس عليه شيء، يعني: كل واحد يجب أن يكون داعية إلى الخير.

٤- أن اتِّباع الخير في كل شيء مطلوب للشرع.

والخير قسمان:

خير بنفسه وخير لغيره، يعني: خير يكون وسيلة لغيره، فمثلًا: لو أنك سألت شخصًا عن المجريات اليومية من أجل إدخال السرور عليه، وأنت ما تستفيد من هذا، فهذا من الخير لغيره؛ لأنك ما تستفيد من هذا وهو ربما لا يستفيد لكن تريد أن تدخل السرور عليه، ومن ثَمَّ صار الناس يتساءلون: هل يُسَنُّ للإنسان أن يتحدث على الأكل أو لا يُسَنّ؟ نقول: يُنظر إن كان الإنسان يتحدث ليشغلهم عن الأكل فهذا غير حسن، وإن كان يتحدث من أجل أن يشحذ نفوسهم على الأكل حتى ينبسطوا ويستأنسوا ويأكلوا، فهذا خير لغيره بشرط أن يكون الأكل بالقدر الشرعي. والقدر الشرعي بيَّنه الرسول ﷺ بقوله: «**بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ،**

فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1]. لكن الخير لغيره يختلف، فلو أراد الإنسان أن يتوصل إلى خير بشرٍّ كأن يصانع إنسانًا بمعصية يقول لعله يهتدي، مثل أن يغتاب زيدًا أو عمرًا؛ ليتقرب إلى هذا الرجل، فهذا ليس بجائز، لا يمكن أن تكون الدعوة إلى الخير بوسيلة محرمة إطلاقًا؛ لأن الوسيلة المحرمة خبث في ذاتها، كيف تكون وسيلة إلى خير، لكن إذا كان من المباح صار خيرًا لغيره، وإن كان هو بنفسه خيرًا صار خيرًا على خير.

٥- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهل هو فرض كفاية أو فرض عين؟ ينبني على الخلاف في (مِنْ) هل هي تبعيضية أو لا؟ ولا شك أننا إذا رأينا منكرًا وجب علينا أن نُنْكِرَهُ وننهي عنه، لكن لا يجب على كل واحد أن ينهى عن منكر معين، مثلًا: لو أن شخصًا اغتاب عندنا ونحن عشرة، هل نقول: كلنا ننهي عنه أو إذا نهى واحد وحصلت به الكفاية كفى؟ الثاني بالطبع، لكن لو أنه نهاه ولم ينته وجب على الآخرين أن يكونوا معه، وهذا عكس ما يفعله بعض الناس الآن -نسأل الله العافية- إذا نهى الناهي عن المنكر قاموا ضده؛ هؤلاء يخشى عليهم أن يطبع الله على قلوبهم؛ لأنهم خذلوا مَنْ يجب نصره، وهذا خطر عظيم جدًّا.

٦- أنه لابد من العلم يعني: الحث على العلم؛ لأنه لا يمكن أن يدعو إلى الخير من لا يعلم الخير، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف من لا يعرف المعروف، ولا يمكن أن ينهى عن المنكر من لا يعرف المنكر، فلابد من العلم، فيستفاد من هذه الآية الكريمة: الحث على العلم؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب.

ويُشْترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يلي:

الشرط الأول: العلم بالشرع، والعلم بالحال، العلم بالشرع بأن أعرف أن هذا مما أمر الله به حتى آمر به، أما إذا كنت لا أدري هل هو مأمور به أو لا؟؛ فلا يحل لي أن آمر به؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ويقول عزوجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

والعلم بالحال بأن أعلم أن هذا الرجل ترك المعروف أو فعل المنكر، أما أن آمره بالمعروف وأنا لا أدري هل فعله أو لا، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا من قَفْوِ ما ليس لي به علم، وكذلك لو نهيته عن منكر وأنا لا أدري هل ارتكب المنكر أو لا؟، فإن ذلك لا يجوز؛ لأنه من قَفْوِ ما ليس لي به علم،

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٥).

مثال ذلك: دخل المسجد رجل فجلس وأنا لم أره حيث دخل، فهل أقول له: قُمْ فصلِّ ركعتين أو أسأل، هل صَلى أو لم يصلِ؟ الثاني؛ لأن الرسول ﷺ كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فجلس، فقال: «أَصَلَّيْتَ؟» قال: لا، قال: «قُمْ فصلِّ»[1]. ولم يأمره: قم صلِّ، لماذا تجلس؟ حتى استفهمَ، وهذا مثال على الأمر بالمعروف، أما المثال على النهي عن المنكر: وجدت شخصًا يمشي وإلى جانبه امرأة قلت: يا أخي: اتقِ الله كيف تمشي مع المرأة؟ هذا لا يجوز؛ لأنه من الممكن أن تكون هذه المرأة من محارمه، فكيف تنهى عن شيء على أنه منكر وأنت لا تعلم أنه منكر. إذن لابد من العلم بحال المأمور وحال المنهي، كما أنه لابد من العلم بالشرع: أن أعلم بأن هذا من المعروف الذي أمر به الشرع أو من المنكر الذي نهى عنه الشرع.

أما ما ينتشر عند بعض الناس من قولهم: يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، ويعين بعضنا بعضًا فيما اتفقنا فيه، هل لهذه الكلمة أصل في الشرع؟

هذا غلط في الجملتين جميعًا، الجملة الأولى: (يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه) فهي كقول بعض الفقهاء: لا إنكار في مسائل الاجتهاد؛ لأن هذه العبارة معروفة عند الفقهاء، وهذا على إطلاقه ليس بصحيح، فما اختلفنا فيه إن كان الحق لم يتبيَّن فيه تبينًا لا يعذر فيه المخالف فهنا نعم نعذره؛ لأنه له رأي ولنا رأي، أما إذا كان الحق واضحًا فإن من خالفنا لا نعذره في ذلك، فهي على إطلاقها غير صحيحة.

وأما الثانية؛ وهي قوله: (يعين بعضنا بعضًا فيما اتفقنا فيه فهذا غير صحيح أيضًا؛ لأننا لو اتفقنا على باطل لم يحلّ أن يعين بعضنا بعضًا بل وجب أن ينهى بعضنا بعضًا عن هذا الباطل، فهو أيضًا على إطلاقه لا يصح، ولعلَّ الذي قاله يقصد ما ليس بباطل ولا يخالف الشريعة، لكن الجملة الأولى دخل فيها أناسٌ عندهم انحراف في العقيدة وفي المنهج والإسلام يسعهم وقالوا: نحن يجب أن نستظل بظل الإسلام وإن اختلفنا، ولذلك تجدهم يُدخلون في حزبهم الفاسق حالق اللحية، شارب الدخان، المتهاون بالصلاة وما أشبه ذلك، وهذا خطأ، وفي المقابل الذي يريد من الناس أن يكونوا صالحين في كل دقيق وجليل وإلَّا فليسوا إخوانًا لنا، وهذا أيضًا خطأ.

على كل حال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] فانظر للحكمة، أحيانًا يكون الإنسان المدعوّ غضبانًا بسبب مؤثرات خارجية، فلا تتحمل نفسه أن يقبل منك حتى ولو كان كلامًا عاديًّا، وأحيانًا يكون راضيًا ومنبسطًا تقدر أن تضرب له الأمثلة حتى يهديه الله، ولهذا يخطئ بعض الناس -مثلًا- إذا قابل شخصًا ولم يعامله المعاملة اللائقة به، نفر منه، فمثل هذه الأمور لا ينبغي للإنسان أن يحكم على الشخص بمجرد أنه دعاه مرةً ونفر. انظر للوقت الذي تراه فيه متقبلًا وادعه إلى الحق.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٣٠)، ومسلم (٨٧٥).

فإن قيل: أيهما أولى، دعوة العاصين في هذه البلاد أو دعوة الكفار في الخارج؟

فالجواب: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤، ٢١٥] فالواجب أن تصلح الأحوال التي عندك، ثم بعد ذلك تحاول إصلاح الخارج، لكن إذا كان في الداخل مَنْ يقوم بالدعوة، وأردت أن تخرج للدعوة في الخارج فلا مانع من ذلك.

الشرط الثاني: أن لا يتغير المنكر إلى ما هو أنكر منه؛ لأن النهي عن المنكر يراد به: تقليل المنكر، فإذا كان يترتب عليه أن يقع المنهي عن المنكر في منكر أعظم؛ فإنه لا ينهى عنه، فلو فرضنا أن شخصًا يشرب الدخان. ولا شك أن شربه منكر لكن لو نهيناه لذهب ليشرب الخمر، فلا ننهاه عن هذا؛ لأننا نعلم أنه سينتقل إلى منكر أكبر نكارة مما هو عليه، ومن ذلك ما يذكر عن شيخ الإسلام «ابن تيمية» رَحِمَهُ اللهُ أنه مرَّ ومعه صاحب له بطائفة من التتار يشربون الخمر فلم يقل لهم شيئًا. فسأله صاحبه: لماذا لا ننكر عليهم؟ قال: هؤلاء لو أنكرنا عليهم لذهبوا ينهبون أموال الناس ويستحلون حرماتهم فيتعدى ضررهم، أما شربهم الخمر فهو على أنفسهم، ودليل هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فهنا نهى الله المسلمين أن يسبوا أصنام الكفار مع أن هذه الأصنام جديرة بأن تُسبَّ وسبُّها قربة، لكن لما كان يترتب على سبِّها مفسدة أكبر نهى الله عن سبِّها، مع أن السكوت عن سب آلهة المشركين حُكْمُهُ أنه منكر. لكن نسكت على هذا المنكر الأخف درءًا لمنكر أعظم، إذن لابد من هذا الشرط.

الشرط الثالث: أن يعلم أن هذا مفيد، بمعنى: أنه يحتمل عنده أن هذا الفاعل للمنكر أو التارك للواجب كان على جهل، وأنه قريب الرجوع إلى الحق، فإن كان يعلم أن صاحبه عالم بالحكم لكنه متمرد مستكبر، فإنه لا يجب حينئذٍ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثلًا: حلق اللحية اليوم معروف عند عامة الناس وأكثر الناس أنه حرام، لكنه يمرّ بك عشرة قد حلقوا لحاهم وعشرة قد أعفوا لحاهم، يعني: نصف الناس تقريبًا قد حلقوا لحاهم، فهل يلزمك كلما رأيت شخصًا حالقًا لحيته في الشارع أن توقفه وتقول له: اتق الله لا تحلق لحيتك؟

نقول: ننظر قد يكون هذا الرجل تتراءى فيه الخير، وأنك إذا نصحته امتثل، وقد يغلب على ظنك أنه رجل عارف بالحكم لكنه مستكبر عنه أو متهاون به، المهم أن بعض أهل العلم يرى أن هذا من شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]. ذكر إن نفعت يعني: فإن لم تنفع فلا تذكر، قال: فإذا كان التذكير وهو دعوة للخير لا يجب إلَّا إذا نفع؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب أولى؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد من الدعوة إلى الخير، فكل إنسان

يستطيع أن يدعو وليس فيه شيء عليه، لكن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو الذي قد يجد أذية من المأمور أو المنهي.

وهذه المسألة في النفس منها شيء، قد نقول: إن عليه أن يأمر وينهى وأن ذلك لا يخلو من فائدة لو لم يكن من فائدته إلَّا علم الناس بأنه معروف أو بأنه منكر لكفى؛ لأننا إذا سكتنا بحجة أن الأمر لا ينفع أو أن النهي لا ينفع؛ بقيت المنكرات على ما هي عليه، وبقي التهاون بالواجبات على ما هو عليه، وصار الشباب الذين يخرجون من جديد يظنون أن هذا المنكر معروف، وأن المعروف ليس بمعروف؛ ولهذا في هذا الشرط نظر، بل نقول: يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء ظننت أنه مفيد أم لم يفد. لكن في حدود الاستطاعة؛ لأن جميع الواجبات إنما تجب بالاستطاعة قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] فإذا كان يشق على الإنسان أن يمسك كل واحد يمرُّ به في السوق على منكر من حلق لحية أو غيره فإنه لا يلزمه، لا يلزمه إلَّا ما يقدر عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

الشرط الرابع: أن يكون الآمر بالمعروف فاعلًا له، والناهي عن المنكر تاركًا له. يعني: لا تأمر بالمعروف وأنت لا تفعله، ولا تنه عن المنكر وأنت تفعله. فإذا كان هذا الرجل مثلًا يتعامل بالربا ووجد إنسانًا يتعامل بالربا فإنه لا يلزمه، ولا يجب عليه أن يقول للثاني: يا فلان اترك الربا، فإن الربا حرام ملعون فاعله؛ لأنه هو يفعله، فكيف ينهى عن شيء يفعله هو؟

مثال آخر: شخص رأى رجلًا يمشي بعد الأذان عند المسجد، وقد ترك المسجد، فقال: يا فلان حرام عليك أن تترك صلاة الجماعة، ثم إنَّ هذا الآمر فتح بابه وذهب إلى أهله بعد أن أمر الرجل أن يصلي، أما هو فلم يصلِّ، فينبغي عليك إذا كنت قد نويت أن تدخل بيتك عند أهلك ولو فاتتك الجماعة، فلا تأمر غيرك أن يصلي مع الجماعة، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. فوبَّخ الله هؤلاء على أمرهم بالبر، ونسيان أنفسهم. وبيَّن أن هذا خلاف العقل، كيف تأمر الناس وتترك نفسك؟ هذا ليس بمعقول! فأنتم خالفتم الشرع وأنكرتم العقل، واستُدل أيضًا بما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّار حَتَّى تَنْدَلِقَ أَقْتَابُ بَطْنِهِ (يعني أمعاءه) فَيَدُورُ عَلَيْهَا كَمَا يَدُورُ الحِمارُ عَلَى رَحَاهُ، فَيجْتَمِعَ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ وَيَقُولُونَ: مَا لَكَ يَا فُلَانُ؟ أَلَسْتَ تَأْمُرنا بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُم بِالمعْرُوفِ وَلَا آتيهِ، وَأَنْهَاكُم عَنِ المنْكَرِ وَآتيه»(١). قالوا: وهذا يدل على شدة عقابه إذا أمر بالمعروف ولم يأته أو نهى عن منكر وأتاه. فلا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من لا يفعل المعروف ولا يترك المنكر، وأبى هذا أكثر أهل العلم وقالوا: إن هذا خلاف الأدب لكنه محرم، يعني: كونه يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

وخلاف العقل لكنه حرام عليه، فيجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ بنفسه، فإذا فرَّط في حق نفسه فليس له الحق في أن يُفَرِّطَ في حق غيره. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليه ولو كان هو لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر؛ لأنه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن منكر فقد أتى محذورين: ترك الواجب على نفسه لنفسه، وترك الواجب على نفسه لغيره، الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو كان هو لا يأتمر بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر، وهذا القول هو الصحيح، وعليه أن يوبخ نفسه ويقول: كيف آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه؟ هذا خلاف المعقول والمنقول، وخلاف الأدب مع الله، وخلاف الأدب عند عباد الله؛ ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام من أوصافه الذي وصفه بها ملك غسان قال: (إنه ما أمر بشيء إلَّا أن أول فاعل له، ولا نهى عن شيء إلَّا كان أول تارك له) عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال الله له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣]، ليس معنى (أول المسلمين) زمنًا؛ لأن هناك أممًا مسلمة قبله لكن أول المسلمين فعلًا، يعني: أنا أول المستسلمين لله، والمنقادين لأمره، فهي أولية مرتبة وليست أولية زمن، وَيُذْكَرُ عن عبد الرحمن بن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ الواعظ المشهور صاحب كتاب «التبصرة»، وكان له مجلس كل يوم جمعة وفيه يعظ الناس ويحضره آلاف، حتى إنه لانفك يوم من الأيام إلَّا وقد مات في مجلسه عدد من الناس من شدة وقع الموعظة في نفوسهم، فأتاه يومًا من الأيام رجلٌ عبد فقال له: يا سيدي إن لي سيدًا يؤذيني ويتعبني ويحملني ما لا أطيق، ويضربني عليه، فأرجو منك أن تحث الناس على العتق لعل الله أن يهديه فيعتقني، فلما جاءت الجمعة انتظر هذا العبد كلام الشيخ فلم يتكلم عن العتق، ثم جاءت الجمعة الثانية والثالثة ولم يتكلم، وبعد عدة جُمَع تكلم عن العتق وإذا سيد العبد حاضر فأعتقه فورًا، فذهب العبد إلى عبد الرحمن بن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ وقال: لماذا تأخرت؟ قال: لم يكن عندي دراهم أشتري بها عبدًا فأعتقه قبل أن آمر الناس بالعتق. سبحان الله يقول: لا أحث الناس على العتق وأنا لم أعتق، إذا أعتقت مملوكًا أمرت الناس أو حثثت الناس على العتق، وهذا أمر مشاهد أن فاعل المعروف ينقاد الناس لأمره، وتارك المنكر ينقاد الناس لنهيه؛ لأن الناس يبصرون بأعينهم وبصائرهم ويقولون للذي يأمر بالمعروف وهو لا يفعله: هذا يضحك علينا، وهذا يلعب بعقولنا لو كان الأمر معروفًا عنده لماذا لا يكون هو أول فاعل له، ولو كان المنكر عنده منكرًا لماذا لا يكون أول تاركٍ له، فلذلك لا شك أنه من الأدب أن يكون الآمر فاعلًا لما أمر به، والناهي تاركًا لما نهى عنه، أما أن يُجعل ذلك شرطًا في الوجوب ونقول لهذا الذي لا يفعل المعروف، ولا ينتهي عن المنكر: لا يجب عليك الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر، ولا تأثم بتركه، فهذا بعيدٌ جدًّا؛ لأن الذين يقولون: من شرط الوجوب أن يكون فاعلًا لما أمر به تاركًا لما نهى عنه يقولون: إنه إذا لم يأمر

بالمعروف ولم ينه عن المنكر في هذه الحال فإنه لا إثم عليه؛ لأن من شرط الوجوب أن يكون هو ممتثلًا. وبهذا يتبين ضعف هذا القول، وأن الواجب عليه أن يأمر بالمعروف ولو كان لا يفعله، وأن ينهى عن المنكر ولو كان يفعله، لكن يجب أن يوبخ نفسه أيضًا وتكون نفسه هي أول من يأمره بالمعروف وأول من ينهاه عن المنكر، فالشروط إذن خمسة.

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا الواجب، أن يكون لينًا في أمره لينًا في نهيه؛ لأن اللين خلق كريم يعطي الله سبحانه وتعالى به ما لا يعطي على العنف كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، وكما أرشد الله إليه موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤] يتذكر فيما تأمرانه به، أو يخشى فيما تنهيانه عنه. مع أنه من أعتى أهل الأرض، إن لم يكن أعتى أهل الأرض، فعلى كل حال من الآداب أن يكون الإنسان لينًا في أمره ونهيه. ومن الآداب أيضًا أن يكون مقنعًا في حجته؛ لأنه إذا أمر بالمعروف قد يقول المأمور: ما دليلك على هذا؟ وإذا نهى عن منكر قد يقول: ما دليلك على هذا؟ فلابد أن يكون عنده إقناع، وليعلم أن مسألة الإقناع غير مسألة العلم، بعض الناس يكون عنده علم لكن لا يستطيع أن يقنع غيره، ليس عنده قوة حجة وبيان، وبعض الناس يكون أقل علمًا منه لكن عنده قوة إقناع، فلابد أن تتمرن على قوة الإقناع ولو بضرب الأمثال؛ لأن ضرب الأمثال يقرّب.

ويوجد الآن مثلًا طائفة معروفة تدعو إلى الله وتخرج للدعوة إلى الله، وعندهم من الإقناع للعامة ما لا يوجد عند بعض أكابر العلماء، ولهذا تجدونهم يؤثرون تأثيرًا عظيمًا؛ لأن عندهم أسلوب في الإقناع، والإنسان إذا كان عنده أسلوب وأمر غيره وقيل له: ما دليلك؟ قال: هذا هو الدليل ثم ضرب له أمثلة معقولة، فهذا لا شك من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويذكر عن رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد أن رجلًا استأذن النبي ﷺ في الزنا، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «**أَتَرْضَى أَنْ يُفْعَلَ هَذَا بِأُمِّكَ وَأُخْتِكَ وَذَاتِ رَحِمِكَ؟ قَالَ: لَا مَا أَرْضَى، قَال: إِذَا كُنْتَ لَا تَرْضَى أَنْ يُفْعَلَ ذَلِكَ بِمَحَارِمِكَ، فَكَيْفَ تَرْضَى أَنْ تَفْعَلَهُ أَنْتَ بِمَحَارِمِ النَّاسِ**»(١). هذا أسلوب مقنع، يعني مجرد أن يتصور الإنسان هذه المسألة يبتعد، أنت لو ترى شخصًا يغازل أختك أو زوجتك أو بنتك ماذا تفعل؟ لا شك أنك لا ترضى بذلك. فكيف أنت ترضى لنفسك أن تغازل بنات الناس، أو أشد من ذلك تزني والعياذ بالله. هذه من الأساليب التي ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون على دراية بها وإجادة.

ومن الآداب أيضًا أن يصبر على الأذى والمحاجة والمخاصمة لا سيما إذا كثر الجدل في الناس فليصبر؛ لأن الله تعالى حكى عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦-٢٥٧)، وقال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠): «و هذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح».

بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧]. لابد لكل آمر من أن يصاب بأذى، وبعض الناس ربما يثقل عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يصب بأذى لكن لم تتقبل دعوته أو لم يتقبل أمره أو نهيه فيضيق صدره ولا يأمر ولا ينهى، هذا ليس بصحيح، مُرْ بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، وانظر إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ماذا أصابهم من الأذى، أصابهم أذى عظيم، طعن في أجسادهم، وطعن في عقولهم، وطعن في أهدافهم، كل شيء طعن فيه ومع ذلك هم صابرون، أوذي موسى عليه الصلاة والسلام بأنواع من الأذى، وأوذي أول الأنبياء نوح كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود:٣٩] وأوذي خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، أذى عظيمًا من أقرب الناس إليه، هل قريش فعلت بأي واحد من الناس دخل المسجد الحرام وجعل يصلي تحت الكعبة وسجد لله عزَّ وجلَّ، هل آذوا أحدًا من الناس بأن أتوا بسلا الجزور ووضعوه عليه وهو ساجد؟ أبدًا، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر[1]. هل كانوا يأتون بالأذى والقذر والأنتان يضعونها على أبواب الناس في مكة؟ لا، لكن الرسول فعلوا به هذا وصبر.

فالواجب أن يصبر الإنسان وأن يحتسب هذا الصبر على الله، وهذا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم أجرًا من الصبر على أعظم مصيبة تنال الإنسان في أقرب الناس إليه؛ لأن هذا صبر على أذى في الله ليس صبرًا على أقدار الله، هذا صبر على أذى في الله عزَّ وجل فاحتسب الأجر من الله واصبر على ما أصابك. ومما يصيب الإنسان الأذى بالقول، الأذى الجدلي مثل أن تأمره بالمعروف فيقول: علِّم نفسك، أو يقول: اذهب أدِّب أبناءك. وما أشبه ذلك. بعض الناس يفور دمه ويغضب غضبًا شديدًا فنقول: يا أخي اصبر هذه مسألة بسيطة، إذا قال لك: علِّم أبناءك. قل: يا أخي لا بأس جزاك الله خيرًا لكن أنا أعلِّمهم وأعلمك أنت الآن. إذا احتدم هذا الرجل وأخذته العزة بالإثم فلِن أنت؛ لأن المشكل أن تقابل الحدة بمثلها، أما إذا قوبلت بهدوء صارت المسألة طبيعية، لذلك أقول: إنه يجب علينا أن نصبر، وإذا رأينا الناس قد شدوا الحبل أرخيناه، وإذا رأينا لينًا جذبناه.

هذه إذن ثلاثة آداب ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتأدب بها، وإذا أضفنا الشرط الخامس أن من الآداب أن يكون هو أول فاعل لما يأمر به وأول تارك لما ينهى عنه، صارت الآداب أربعة، وشروط الوجوب أربعة.

٧- فضيلة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الآية دليل على فضيلة هذه الخصال قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إذا خسر الناس فهؤلاء هم المفلحون الرابحون.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤).

٨- النهي عن التفرق؛ لقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴾ وقد ذكرنا في التفسير أن المراد بذلك تفرق القلوب لا الآراء؛ لأن تفرق الآراء أمر لابد منه؛ لأن الناس يختلفون في العلم والحفظ والفهم والإيمان والعمل، وكل هذه الأمور الخمسة كلها من أسباب اختلاف الناس، لا يمكن أن يتفق الناس في الرأي لكن الواجب اتفاق القلوب.

٩- أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق؛ لأنه أعقب الآية السابقة بهذه الآية مما يدل أن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق.

١٠- أن التفرق بعد أن تبيّن الحق أشد قبحًا من التفرق حين خفاء الحق، يؤخذ من قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وذلك؛ لأنه إذا جاءت البينات واتضح الحق فلا وجه للتفرق، لكن إذا كان الحق خفيًّا فقد يحصل التفرق، والحق -ولله الحمد- في هذه الشريعة واضح بيّن؛ لأنه في كتاب الله المحفوظ إلى يوم القيامة.

١١- الوعيد الشديد على الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١٢- أن العقاب يختلف باختلاف الجرم؛ لأنه لما كان فعل هؤلاء عظيمًا كان عذابهم عظيمًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ يحتمل أنها جملة استئنافية متعلقة بمحذوف تقديره: اذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، يعني: اذكر هذا اليوم الذي ينقسم فيه الناس إلى هذين القسمين، ويحتمل أنها متعلقة بالخبر؛ لقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعني: لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ الابيضاض معروف أي: تكون بيضًا، وهذه الوجوه التي تكون بيضاء هي: وجوه المؤمنين، وتختص هذه الأمة بأنها يكون لابيضاضها نور تُعرف به يوم القيامة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «سِيما لَيْسَتْ لِغَيْرِكُم، تُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾؛ قد يبدو للإنسان من أول وهلة أن هذين القسمين متساويان، ولكن هذا غير مراد، وذلك؛ لأن أكثر بني آدم من أهل النار، وجوههم مسودة -والعياذ بالله- فإن من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحدًا من الألف في الجنة كما صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[1].

وقوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تكون سوداء، وسبب هذا الابيضاض والاسوداد -والله أعلم- أنه مما يبشّر به هؤلاء ويوبخ به هؤلاء، فإن المؤمنين يبشّرون إذا بعثوا من قبورهم برحمة الله عزَّ وجلَّ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، وأما الكافرون فبالعكس، ومن المعلوم أن الإنسان إذا بُشِّر بما يسره يستنير وجهه، وتظهر عليه علامة السرور.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ (الفاء) للتفريع و(أما) للتفصيل؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ بدأ بذكر الذين اسودت وجوههم مع أنه أخَّر ذكرها فيما قبل لأنه قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وكان من المتوقع أن يقول: فأما الذين ابيضت وجوههم؛ لأن هذا هو الترتيب، ولكن كان الأمر بخلاف المتوقع، ويسمي علماء البلاغة هذا النوع من السياق لفًّا ونشرًا غير مرتب.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ جواب (أما) محذوف، والتقدير: فيقال: أكفرتم، وأما الجملة ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فهي مقول للقول المحذوف أي: فيقال: أكفرتم.

ويحتمل أن القائل هو الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة، وعلى كل تقدير فالمراد بالاستفهام هنا هو التوبيخ والتنديم يقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فهذا الاستفهام للتوبيخ أي أن هؤلاء يوبخون، فيجمع لهم بين الألم البدني والألم القلبي النفسي وذلك؛ لأن العذاب قد يكون على البدن، وقد يكون على النفس، وقد يكون عليهما جميعًا، من الناس مثلًا من تضربه ولا توبخه، فهذا العذاب على البدن، ومن الناس من توبخه في مقام يرى فيه الإكرام والاحترام فتهينه، فهذا عذاب نفسي قلبي. ومن الناس من يجمع له بين الأمرين كالكفار، فإن الكفار يوبخون في عرصات القيامة ويوبخون عند دخول النار يقول الله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨، ٩] ويوبخون أيضًا بعد ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]فإنهم يوبخون أيضًا في حال دخولهم النار ومكثهم فيها ما شاء الله وطلبهم أن ينجوا منها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ المراد بالإيمان هنا: إيمان الفطرة؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَواه يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمجِّسَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ**»[1]. ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان: الإيمان الفطري الاختياري، وتكون الآية في سياق من يرتد بعد إيمانه، لكن الأول أولى؛ لأنه أعم.

قال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: البدني والنفسي، أي: مسّه، والذوق هنا ليس ذوقًا باللسان بل هو ذوق بالبدن كله؛ لأن الذوق قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالبدن، فقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا**»[2] المراد به ذوق القلب لا ذوق اللسان، وإذا قيل: ذاق الثمرة، فهذا ذوق اللسان، ذاق العذاب: هذا ذوق البدن، فلكل مقام مقال.

قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: يقال لهم أيضًا: (ذوقوا العذاب) وهو: العقوبة على الذنب (ذوقوا العذاب) بسبب كفركم، الباء هنا سببية و(ما) مصدرية أي: بكونكم تكفرون بالله، وقوله: ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تكفرون بالله وبما يجب الإيمان به.

من فوائد الآية الكريمة:

١- وجوب التذكير بهذا اليوم العظيم الذي ينقسم فيه الناس إلى قسمين؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهذا على تقدير قولنا: (اذكر يوم)، أما إذا جعلناه متصلًا بما قبله فإنه لا يستفاد منه هذه الفائدة، ولكن يستفاد منه التذكير بهذا اليوم أي: أن الله يذكرنا بهذا اليوم.

٢- إثبات البعث والجزاء، وهو أحد أركان الإيمان الستة، فأحد أركان الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر ليس معناه أن الإنسان يؤمن بأن الناس يبعثون فقط، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية: (ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت) فالإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالصراط والميزان والشفاعة، كل ذلك من الإيمان باليوم الآخر.

٣- أن الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم مبيضة وجوههم وهم أهل الإيمان والطاعة، وقسم مسودة وجوههم وهم أهل الكفر والعصيان، فإذا قال قائل: الآيات هنا بيّنت أن الوجوه تسود وفي آية أخرى كذلك: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر:٦٠] وفي آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] فكيف نجمع بين الآيتين اللتين تثبتان اسوداد الوجوه والآية التي تثبت أنهم يحشرون زرقًا؟ قال أهل العلم في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٨٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٠٨)، والترمذي (٢٦٢٣).

الجمع بين هذا وأمثاله: إن يوم القيامة ليس زمنًا متحدًا قصيرًا تتعارض فيه الأحوال، لكنه زمن طويل مقداره خمسون ألف سنة، فيمكن أن تكون الوجوه في وقت من هذا اليوم مسودة، وفي وقت آخر مزرقة، هذا جمع.

الجمع الثاني: أن المراد بالسواد الزرقة؛ لأن الزرقة كلما اشتدت مالت إلى السواد، وحينئذ يكون ﴿زُرْقًا﴾ و ﴿ٱسْوَدَّتْ﴾ بمعنى واحد.

الجمع الثالث: أن الناس يختلفون في الجرم والكفر، فتسود وجوههم أو تزرق بحسب كفرهم وجرمهم، فمنهم من يكون جرمه شديدًا عظيمًا فتسود وجوههم، ومنهم من يكون أخف فتكون زرقاء.

الجمع الرابع: قالوا: إنهم سود البشرة زرق العيون، وهذا أعظم في القبح، إذا كان الوجه أسود والعين زرقاء، صار هذا أقبح منظرًا.

على كل حال هذه أوجه جمع العلماء بها بين هذا الظاهر الذي يظهر أنه متعارض، وهنا نقف لنقول: ليس في القرآن شيء متعارض لا يمكن الجمع بينه وبين الآخر؛ لأن التعارض يقتضي أن يكون أحد المتعارضين حقًا والثاني باطلًا؛ لأنه ليس معنا إلَّا حق وضلال، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، ولا يمكن أن يكون شيء في كتاب الله باطلًا ضلالًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] نعم يمكن أن يتعارض النصان ولكن يكون أحدهما ناسخًا للآخر كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال:٦٥] ثم قال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦] والنسخ يكون به إبطال المنسوخ من عند الله، فلا يكون هناك تعارض، فإن وجد من القرآن ما ظاهره التعارض فلابد أن يكون هناك انفكاك بين النصين ينتفي به التعارض، وأما أن يبقى متعارضًا فهذا شيء ممتنع، ومن أحسن ما أُلف في الجمع بين الآيات المتعارضة كتاب محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ المسمى «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» وهو كتاب جيد ومفيد لطالب العلم.

٤- أنه يجمع لهؤلاء الكافرين بين العذاب البدني والعذاب النفسي، نأخذه من قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ قيل: إن التقدير: يقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فهذا العذاب النفسي.

٥- شدة التنكيل بهؤلاء المكذبين حيث يجمع لهم بين العذابين البدني والنفسي، ثم يقال: (ذوقوا العذاب) فهذا لا شك أنه من أشد ما يكون تنكيلًا بهم.

٦- إثبات الأسباب، يؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ لأن الباء للسببية. والناس في إثبات الأسباب طرفان ووسط، منهم من أنكر الأسباب رأسًا، وقال: إن الأسباب ليس لها تأثيرٌ إطلاقًا، ومنهم من أثبت تأثير الأسباب بنفسها، ومنهم من توسَّط وقال: إن الأسباب مؤثرة لا بنفسها ولكن بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وهذا القول هو الصحيح وهو الحق، مثال ذلك: لو أن شيئًا أُلقي في النار فاحترق بها، فالذين أنكروا الأسباب قالوا: إن هذا الاحتراق لم يحصل بالنار إنما حصل عندها حين ملامسة النار احترق، أما النار نفسها فإنها لا تحرق. ومنهم من قال: بل النار أحرقت بطبيعتها فهذه هي الطبيعة، ومنهم من قال: بل أحرقت النار ما يلقى فيها بما أودعها الله تعالى من القوى المحرقة. وهذا الأخير هو الحق بلا شك. ويدل على هذا أن النار التي أُلقي فيها إبراهيم لم تحرقه بل كانت بردًا وسلامًا عليه، ولو كانت الأسباب مؤثرة بطبيعتها لأحرقته بكل حال، والذين أنكروا الأسباب هم في الحقيقة طاعنون في حكمة الله تعالى مدَّعون أن الله ليس له حكمة؛ لأن ربط المسببات بأسبابها هو عنوان الحكمة، فإذا قيل: ليس هناك سبب يؤثر، فهذا طعن في حكمة الله تعالى، والعجيب أن هؤلاء أنكروا الأسباب ظنًّا منهم أن إثباتها يستلزم الإشراك بالله تعالى، يقول: إنك إذا أثبتَّ أن السبب فاعل أو أن السبب مؤثر فقد جعلت مع الله خالقًا، وهذا شرك لأنك مثلًا إذا قلت: إن النار هي التي أحرقت، معناه أن النار فاعلة للإحراق فيكون هذا شركًا بالله عزَّ وجلَّ، فيقال: نحن لا نقول: إن النار مستقلة في الإحراق، بل هي محرقة بما أودع الله فيها من قوة الإحراق، لا أنها بنفسها المحرقة. وكذلك قالوا: لو أنك رميت زجاجة بحجر فانكسرت الزجاجة فلا تقل: إن الحجر كسر الزجاجة؛ لأنك لو قلت هذا صرت مشركًا بالله، بل قل: حصل الكسر عندها لا بها!! سبحان الله! عندها، لو تضع حجرًا من أكبر الأحجار عند زجاجة لم يكسرها إِلَّا بالصدمة، إذن فالسبب معلوم، ليس فيه إشراك، وإنما المشرك هو الذي يقول: إن الأسباب تؤثر بطبيعتها أي بمقتضى طبيعتها ويقطع صلتها بالله، هذ لا شك أنه مشرك، ولكن الذي يقول: إنها تؤثر بما أودع الله تعالى بها من القوى هو الموافق للمعقول والمنقول.

ويمكن أن يؤخذ من هذه الآية أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم؛ لأن المسبب يتقدر بقدر السبب.

٧- أن من فيه خصلة من خصال الكفر فله من عذاب الكافرين بقدرها؛ لأن لدينا قاعدة وهي أن الحكم المعلق بوصف يقوى ويضعف بحسب ذلك الوصف، إن وُجِدَ فيه جملة كبيرة من الوصف استحق من الحكم الذي رتِّب عليه بقدر هذه الجملة الكبيرة وإِلَّا فبحسبها.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٧-١٠٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(الواو) حرف عطف، ﴿وَأَمَّا﴾ تفصيلية كما في الأولى، ﴿الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم: المؤمنون. وهذا البياض يكون على قسمين: بياض عام لكل مؤمن، وبياض خاص لهذه الأمة حيث قال ﷺ: «سِيما لَيْسَت لِأَحَدٍ مِن الأُمَمِ (يعني فيكم) تَرِدُون عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِين مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ»(١). فهذه الأمة تكون وجوهها بيضاء ولكن لها نور بخلاف غيرها، وأيضًا هذه الأمة يكون النور لها حيث يبلغ الوضوء، أي: يكون في اليدين وفي الرجلين، ولهذا قال: (غرًّا محجَّلين)، وأما من سواها لا نعلم إلَّا أن وجوههم فقط هي التي تكون بيضاء، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هم المؤمنون ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، (في) للظرفية، و(رحمة الله) هنا ليست الرحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]؛ لأن هذه الصفة صفة الله، أمَّا هنا ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فهي مخلوق الله والمراد بها: الجنة كما جاءت في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ قَالَ لها -أي الجنة- أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(٢)، ويمتنع أن يكون المراد بها الصفة؛ لأن الصفة لا تكون ظرفًا للبشر، وإذا امتنع أن تكون ظرفًا للبشر امتنع أن يراد بالرحمة هنا الرحمة التي هي صفة لله تعالى، بل هي الرحمة المخلوقة لله، وأطلق عليها اسم الرحمة؛ لأنها كانت برحمة الله يرحم الله بها من يشاء من عباده.

وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ مبتدأ وليست ضمير فصل بل لها محل من الإعراب، و﴿خَالِدُونَ﴾ خبر المبتدأ و(فيها) جار ومجرور متعلق بـ(خالدون) أي: ماكثون، وقد دلَّت الآيات على أن هذا الخلود مؤبَّد. فذكر الله التأبيد في عدة آيات من كتابه، فالخلود خلود أبدي.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿تِلْكَ﴾ المشار إليه: ما سبق من الآيات التي ذكر الله سبحانه وتعالى، ويحتمل أن يكون المراد بها: كل القرآن وربما يُرشِّح هذا ، أي يُقوى بالإشارة حيث جاءت بصيغة البعد، فتكون الإشارة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٤٦).

هنا شاملة لجميع القرآن.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: العلامات الدالة على الله عزَّ وجلَّ على وجوده وعلى ما تضمنته من الأسماء والصفات والأفعال، وهنا المراد بالآيات: الآيات الشرعية.

وقوله: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نقرؤها عليك، وهل المراد أن الله تعالى يقرؤها على النبي ﷺ مباشرة أو بواسطة جبريل؟ بواسطة جبريل وربما يقع الأول أيضًا، ربما يُلقى في قلب النبي ﷺ إلقاءً، ولكن الثاني هو الأكثر، بل قد يكون بالنسبة للقرآن هو المتعين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢- ١٩٤] وظاهر الآية أن جميع القرآن نزل به جبريل، وعلى هذا فتكون إضافة التلاوة إلى الله في هذه الآية يراد بها: تلاوة جبريل، وَنُسِبَت إلى الله تعالى؛ لأن جبريل أُرسل بها من عنده، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦- ١٩] (فإذا قرأناه) والقارئ هو: جبريل كما ثَبَتَ به الحديث، أن الرسول ﷺ إذا سمع قراءة جبريل تعجَّل في القراءة خوفًا من أن ينسى شيئًا[1]، فكان يتعجل فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ حتى لو نزلت آيات كثيرة في آنٍ واحد فلن تنساه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أنه سيبقى ولا تنسى منه شيئًا، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ لابد أن نبيِّنه للناس بلفظه ومعناه، يقول: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ هل الباء هنا للمصاحبة؟ يعني أنها مصحوبة بالحق ونازلة بالحق، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام؟ أو أن المعنى أنها نزلت من عند الله حقًّا، فالباء هنا للملابسة يعني: متلبسة بالحق أي أنها نزلت من عند الله نزولًا حقًّا لا شبهة فيه ولا باطل وهو يشمل المعنيين جميعًا، فهي نازلة من عند الله حقًّا بلا شك، وهي أيضًا نازلة بالحق، والقاعدة في عمل التفسير أن الآية إذا تضمنت معنيين لا يتنافيان فالواجب حملها على المعنيين، فإن كانا يتنافيان طُلب المرجّح، فما ترجَّح منهما فهو المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

(ما) نافية وهي حجازية؛ لأن الشروط تامة، لكن اسمها مفرد كما هو العادة في المبتدأ أن يكون المبتدأ مفردًا، وخبرها جملة (يريد) والترتيب موجود، ولم ينتقض النفي، ولم تقترن (بإن) فالشروط تامة، إذن هي حجازية، وليس مرادنا بقولنا حجازية أنه لا يتكلم بها إلَّا أهل الحجاز بل يتكلم بها جميع العرب لكن أهل الحجاز يُعملونها عمل (ليس) وبنو تميم يهملونها، مثلًا إذا خاطبك شخص وقال: (ما زيدٌ موجودٌ) عرفت أنه تميمي.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٢٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٤٨).

يقول الشاعر:

وَمُهَفْهَفُ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ

هذا تميمي أو حجازي تميمي لأنه قال: (ما قتل المحبِ حرامُ) لو كان حجازيًا لقال: (حرامًا).

وفي الآية الكريمة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ (ما) لا شك أنها حجازية، والاسم الكريم اسمها، وجملة (يريد) خبرها، يقول الله تعالى وينفي عن نفسه سبحانه وتعالى أن يريد ظلمًا للعالمين كهؤلاء الذين ابيضت وجوههم أو اسودت وجوههم لم يُظلموا، الذين ابيضت وجوههم نالوا هذا بعملهم أي: بسببه، والذين اسودت وجوههم نالوه أيضًا بعملهم، فالأولون عملوا صالحًا فأثيبوا هذا الثواب، والآخرون عملوا سيئًا فأثيبوا هذا الثواب؛ لأن الله لا يمكن أن يظلمهم.

قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ العالمين المراد بهم: كل من سوى الله، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

الخبر هنا مقدم؛ لفائدة وهي: الحصر، يعني: التخصيص؛ لأنك إذا قدمت ما حقه التأخير كان بذلك حصرًا، كلما قدَّمت شيئًا حقُّه التأخير فهذا حصر سواءً كان خبرًا أو مفعولًا به أو جارًا ومجرورًا. فمثلًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] قدّم المفعول به؛ لإفادة الحصر، أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نستعين إلَّا إيَّاك، وهنا قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا لغيره فقدم الخبر لأجل الحصر.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (ما): اسم موصول، يشمل كل ما في السموات والأرض، يشمل كل هذا، ما فيها من الملائكة، وما في الأرض من البشر والجن والأشجار والأحجار وكل شيء.

وقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأتى «بما» تغليبًا لغير العاقل؛ لأنهم الأكثر فغلّبوا، هذا من وجه، ومن وجه آخر أنه إذا أريدت الصفة فإنه يعبر «بما» بدل «من» ولو في العاقل، ومثّلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل: (من طاب) لأنه لم يقصد عين الشخص العاقل بل قصد الوصف والجنس والكم، انكح ما طاب من جميل وقبيح وواحد ومتعدد من النساء.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صِلَة الموصول تأتي جملة وتأتي شبه جملة، تأتي جملة اسمية وجملة فعلية، وجارًا ومجرورًا وظرفًا، أربعة أنواع، فالجملة الاسمية والفعلية ظاهرة. تقول: (يعجبني الذي خلقه حسن) هذه جملة اسمية، وتقول في الجملة الفعلية: (يعجبني الذي كان شجاعًا)، وتقول في الظرف: (يعجبني الذي فوق السطح)، وتقول في الجار والمجرور: (يعجبني الذي في المسجد)، في هذه الآية الجار والمجرور، يقولون: إن الجار والمجرور بنفسه ليس جملة؛

لأنه يحتاج إلى عامل فكيف يكون جملة؟.

قالوا: لأنه متضمن لشيء محذوف، ولهذا نقول في الإعراب: جار ومجرور متعلق بمحذوف، قَدَّر المحذوف في الاسم الموصول فعلًا، وقَدَّره في خبر المبتدأ اسمًا، فإذا قلت: (يعجبني الذي عندك) فالتقدير: الذي استقرَّ عندك، وإذا قلت: (زيدٌ عندك) التقدير: زيد مستقر عندك؛ لأن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون مفردًا غير جملة، والأصل في صلة الموصول أن تكون جملة، فنقدِّرها فعلًا في صلة الموصول، ونقدِّرها اسمًا في خبر المبتدأ، هذه هي القاعدة.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ هذه الآية مفيدة للحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق وهي (تُرجع).

وقوله: ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يَعمّ كل أمر، والأمور هنا جمع أمر بمعنى الشأن؛ لأن كلمة أمر يراد بها الشأن كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧] أي: ما شأنه، ويراد بالأمر الخطاب الموجه على وجه طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وجمع أمر الأول أمور، وجمع أمر الثاني أوامر، وعلى هذا تكون الأمور جمع أمر، وهي الشؤون، كل الشؤون تعود إلى الله تعالى وترجع إليه؛ لأنه الخالق الذي ابتدأها فيجب أن ترجع إليه.

من فوائد الآية الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١- الذين ابيضت وجوههم في الجنة؛ لقوله: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

٢- أن الرحمة تطلق على غير صفة الله بل على مخلوقاته كما أسلفنا في التفسير أن المراد بالرحمة هنا الجنة، وأمَّا قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] فالمراد: الصفة، رحمة الله التي هي صفته غير مخلوقة، كل صفات الله غير مخلوقة، ورحمة الله التي هي الجنة مخلوقة، قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم:٥٠] عندما ذكر نزول المطر وأنه يُحيي به الأرض قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] ما المراد بالرحمة هنا المخلوقة التي هي المطر أو الصفة؟ يحتمل أن يكون المراد بـ(آثار رحمة الله) المطر فيكون مخلوقًا، ويحتمل أن يراد بـ(رحمة الله) صفته والتي من آثارها وما ينشأ عنها هو المطر قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:٢٨] الرحمة مخلوقة؛ لأنها هي التي تنشر، إذن الرحمة قسمان: قسم مخلوق وهو ما كان بائنًا عن الله، وقسم غير مخلوق وهو ما كان صفة له.

٣- أن الله تعالى أكرم من الخلق؛ لأن عمل الذين ابيضت وجوههم لو نسب إلى الثواب لم يكن شيئًا ومع ذلك يجزون بالرحمة التي يخلدون فيها أبد الآبدين، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

٤- أن أهل الجنة مخلدون فيها؛ لقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والخلود فيها أبدي؛ لأنه جاء

بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار. كما ذكره تعالى في آيات كثيرة، فإن قال قائل: إذا قلت إنه أبديٌّ فما جوابك عن قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] فاستثنى فقال: إلَّا ما شاء ربك؟ فالجواب: لا تعارض الآيات الدالة على الأبدية هذه الآية؛ لأنها من المشكل الذي يجب رده إلى المحكم، والعلماء لهم في هذه الآية أقوال.

ولكن القول الذي يريح الإنسان أن يجعل هذا القيد والقيد الذي في أهل النار (خالدين فيها إلَّا ما شاء ربك) من الأمور المتشابهة، ويحمل على النصوص المحكمة فنقول: إن الله قال: (إلا ما شاء ربك) مع أنه قد شاء أن يبقى هذا أبد الآبدين وهو كقول الرسول ﷺ في زيارة القبور: «إِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُم لَاحِقُونَ»[1] فعلَّقه بالمشيئة مع أن اللحوق بهم لابد منه، وهذا القول يستريح به الإنسان، ولا يعترض عليه معترض كما اعترض ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بأن الله قال في أهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وقال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

قال: فاختلاف ختم الآيتين يدل على أن أهل النار ليس خلودهم أبديًّا بخلاف أهل الجنة؛ لأنه قال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وقال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وهذا في الحقيقة يدلك أن الإنسان مهما بلغ في العلم والذكاء فلن يسلم من الغلط، والفرق بين الآيتين ظاهر؛ لأن آية (السعادة) فضل فقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وآية النار (الشقاء) عدل فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وهذا من فعله الذي أراد وليس المعنى أنه (فعال لما يريد) سيفعل في المستقبل خلاف ذلك كما فهمه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ، فإن هذا فَهْم غير سليم بلا شك، بل إن مناسبة ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هو أنه لما كان الشقاء غير محمود قال: هذا من فعل الله، والله يفعل ما يريد مع أنه لم يظلمهم.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾:

١- أن القرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله تعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا﴾، وما أضيف إلى الله ولم يكن عينًا قائمة بنفسها فهو من صفاته؛ لأنه لابد أن يكون هذا المضاف قائمًا بشيء، فإذا كان صفة فلن يكون إلَّا صفة الله عزَّ وجلَّ، فإذا قلنا: كلام الله فهذا إضافة صفة، وإذا قلنا: هذا مخلوق الله فهذا ليس إضافة صفة؛ لأن المخلوق عينٌ قائمة بنفسها، فـ(ناقة الله) غير صفة لأنها عين قائمة بنفسها. و(بيت الله) كذلك غير صفة لأنه عين قائمة بنفسها، قال جلَّ وعلا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر:٢٩] فقوله: ﴿رُّوحِى﴾ ليست صفة بل هي مخلوقة؛ لأنها لو كانت صفة الله ما بانت منه، وهنا بانت من الله وحلَّت في جسد آدم، وليست صفة من صفات الله؛ لأنها بائنة منه،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٤)، والنسائي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (١٥٤٦).

فإضافة الروح إلى الله هنا من باب إضافة المخلوق إلى الخالق، ولهذا لا يمكن أن نقول: إن هذه جزء من روح الله التي هي صفته، هذا شيء مستحيل إذ لو قلنا بهذا لحَلَّ شيء من الله في مخلوقاته.

٢- أن من كان وكيلًا عن الغير فله حكم ذلك الذي وكله؛ لأن الله أضاف التلاوة إليه مع أن التالي رسوله، فدلَّ هذا على أن حكم ما نفذه الرسول بما أرسل به حكم ما قاله المرسِل.

٣- أن كتاب الله تعالى كله حق ليس فيه باطل، وإذا أخذنا هذه الكلمة على عمومها قلنا: جميع أحكامه حق، وجميع أخباره حق، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه لو كان فيه تناقض أو اختلاف لكان أحد المتناقضين باطلًا، والقرآن ليس فيه شيء باطل بل كله حق.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ حيث قال: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيكون المتلو عليه هذه الآيات قطعًا رسولًا لله رب العالمين.

٥- إثبات إرادة الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن قال قائل: الآية هنا نفي ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ فكيف تقول إنها دالة على إثبات؟.

نقول: إن هذا النفي ليس مطلقًا بل هو نفي لإرادة شيء معين وهو الظلم، إذن فغير الظلم يريده.

٦- أن الظلم ممكن في حق الله تعالى ولكنه لا يريده لكمال عدله، وجهه أنه قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل: (لا يمكن أن يريد الله ظلمًا) على أنه لو قال: (لا يمكن) لم يدل على انتفاء الظلم لو أراده، وحينئذ يكون فيه رد على القائلين بأن الظلم في حق الله محال لذاته، وهم الجهمية حيث يقولون: إن الظلم في حق الله مستحيل لذاته، لا لأنه غير مراد الله تعالى بل لذاته، وعلى قولهم يكون تمدح الله تعالى بنفي الظلم عنه لغوًا لا فائدة منه؛ لأن ما لم يمكن لا يصح أن يكون مدحًا أو أن يتمدح به من كان ممتنعًا عليه، فالظلم في حق الله ممكن عقلًا ولكنه ممتنع شرعًا وعدلًا. ولو شاء الله تعالى أن يعذب المطيع لأمكن ولكنه لكمال عدله لا يمكن أن يعذبه؛ لأنه ظلم، وهم يقولون: لا يمكن أن يظلم الله تعالى أبدًا، الظلم مستحيل لماذا؟ أليس يمكن أن الله يعذب المطيع الذي أمضى طول عمره في طاعة الله؟ قالوا: نعم، يمكن، لكن هذا ليس بظلم؛ لأنه فعله فيما يملكه، فالعبد ملك لله، فإن فعل به أي شيء فليس بظالم له. هذا وجهة نظرهم لكنها وجهة فاسدة؛ لأنه لو قال لك قائل: افعل كذا سأثيبك، ولا تفعل كذا فإن فعلت عاقبتك، ثم فعلت ما أمرك به وما وعدك الإثابة عليه ثم عذبك أشد العذاب هل هذا ظلم عقلًا أو غير ظلم؟ هذا ظلم ولو كان مالكًا لك، لو أن السيد قال لعبده: يا عبد أعِدَّ الغداء واجعل فيه كذا وكذا وقدِّمه لي، ففعل على الوصف الذي أُمِرَ به، وأتى به في الزمن المطلوب، ثم أخذ السيد خشبة وجعل يضربه بها، فإنه يكون ظالمًا ولو كان عبده. عقلًا يكون ظالمًا، هم يقولون: يجوز أن يمضي الإنسان عمره كله في طاعة الله امتثالًا لأمر الله وإذا مات يخلده في النار، وإذا فعل هذا ليس بظالم؛

لأنه فعله في ملكه. نقول: إذا كان الأمر كذلك وكان الظلم على زعمكم محالًا فإن الله تعالى لا يصح أن يقال: إنه ينفي الظلم عن نفسه تمدحًا بذلك.

٧- أنه إذا انتفت إرادة الظلم انتفى الظلم. وجه ذلك: أن الله لا مكره له، فإذا كان لا يريد الظلم سبحانه وتعالى فنفي إرادة الظلم نفي للظلم، وحينئذ لا يكون بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦] تعارض؛ لأن نفي إرادة الظلم تستلزم نفي الظلم، ونفي الظلم يستلزم نفي إرادة الظلم؛ لأنه لو أراد أن يظلم لظلم، إذن لو أن أحدًا من الناس قال لي: كيف تجمع بين هذه الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؟ أقول لهم: لا منافاة؛ لأنه إذا انتفت إرادة الظلم لزم نفي الظلم، وإذا انتفى الظلم لزم انتفاء إرادته؛ لأن الله تعالى قادر لو أراد أن يظلم لظلم.

٨- إثبات الصفات السلبية؛ لأن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى قسمين: ثبوتي وانتفائي، أو إن شئت قل: سلبي، فالثبوتي كله صفات كمال، كل صفة أثبتها الله لنفسه فهي صفة كمال، والانتفائي كله صفات نقص ولكنه متضمن لثبوت كماله، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤] نفي الغفلة؛ لكمال علمه ومراقبته، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت:٤٦] لكمال عدله، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨] لكمال قوته، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤] لكمال قدرته وعلمه، وهلم جرًّا.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾:

١- عموم ملك الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ و(ما): موصولة تفيد العموم.

٢- انفراد ملك الله تعالى بذلك أي: أن الله وحده هو المالك لها، وهذا يؤخذ من تقديم الخبر؛ لأن القاعدة المقررة عند البلاغيين وأصحاب الأصول أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

٣- إثبات السموات والأرض، وهو أمر معلوم ولا ينكر، ولكن الفائدة من هذه الفائدة بيان عظمة الله تعالى بخلق هذه المخلوقات العظيمة التي قال الله عنها: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

٤- أن مرجع الأمور إلى الله وحده؛ لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٥- أن من حاول أن يشرع للخلق شيئًا سوى ما شرعه الله فقد شارك الله أو فقد جعل نفسه شريكًا مع الله. وجه ذلك: أن الله حصر مرجع الأمور إليه فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾، فمن حاول أن يشرع للناس أمورًا لم يشرعها الله فقد جعل نفسه شريكًا مع الله تعالى.

٦- بيان سعة الله تعالى حيث كانت جميع الأمور ترجع إليه؛ لأن الأمور جمع أمر وهو محلى

(بأل) فيفيد العموم، فكل الأمور ترجع إليه، الدقيقة والجليلة، قال الله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦] كل الدواب صغيرها وكبيرها فالله تعالى آخذ بناصيتها فهو الذي يوجهها ويدبرها، العاقل منها وغير العاقل.

٧- إثبات أن السموات جمع، وقد بيَّنت آية أخرى أن عددها سبع سموات، أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة ولكن الله أشار إلى عددها في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] وجاءت السنة صريحة في ذلك في قول النبي ﷺ: «مَن اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْض ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَة مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، الخطاب لهذه الأمة، وقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ قيل: في علم الله وذلك؛ لأن (كان) للماضي، ومعلوم أن هذه الأمة آخر الأمم فلا يمكن أن يتحدث عنها على أنها أمة بائدة، فمن ثَمَّ قال بعض العلماء: إن فعل الماضي هنا باعتبار علم الله أي: كنتم في علم الله خير أمة، وعلم الله سابق على وجود الأمم. وقيل وهو الصحيح: إن (كان) هنا ليست دالة على زمان، وإنما هي مبيِّنة لاتِّصاف المبتدأ بالخبر وتحقق وجوده فيه، وهذا هو الأصح، ولهذا أمثلة منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

لا نقول: إن (كان) هنا تدل على الماضي، وإن هذه صفة زالت عن الله تعالى، لا، لكنها مسلوبة الزمن تدل على تحقق اتصاف اسمها بما دل عليه خبرها.

قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: طائفة، وسبق لنا أن كلمة أمة تطلق في القرآن على أربعة معانٍ.

قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني: أخرجها الله تعالى وبيَّنها وأبرزها، خير أمة أخرجت ولم يقل: خلقت؛ لأن هذه الأمة من وصفها الخروج والبروز، فخير أمة ظهرت وبرزت هي هذه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

الأمة، هناك أمم أخرجت للناس وظهرت وبانت لكنها لم تحصل لها الخيرية التي كانت لهذه الأمة.

ثم بيَّن الله تعالى وجه هذه الخيرية بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

فقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ سبق معنى الأمر بالمعروف ومعنى المعروف ومعنى النهي ومعنى المنكر في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾هذا يشمل الإيمان بكل ما أمر الله الإيمان به، وتشمل أيضًا تطبيق كل ما أمر الله به فعلًا وكل ما نهى الله عنه تركًا؛ لأن من مقتضى الإيمان بالله أن تؤمن بما أخبر به؛ وعلى هذا فيكون جميع ما أخبر الله به من أمور الغيب داخلًا في الإيمان بالله، ومن تحقيق الإيمان بالله أن تذعن له وتقبل حكمه، وهذا يشمل جميع الإسلام، جميع الأعمال الصالحة، ولذلك كان من مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وتأمل كيف أخَّر الإيمان بالله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن شأن الأمة أن تكون قاهرة غالبة آمرة ناهية، فقدَّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون الإيمان بالله لا ينفع، ولكن لما كانت الأمة بمظهرها، كان عنوان قوتها أن تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله: دائمًا نسمع كثيرًا من المؤلفين -يرحمهم الله- يقولون: إن الإيمان هو الإقرار، وبعضهم يقول: إن الإيمان هو التصديق، ولكن هذا على إطلاقه لا يصح باعتبار الإيمان الشرعي، فالإيمان الشرعي هو: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فمن صدق وأقر ولكن لم يقبل ويذعن فليس بمؤمن، ودليل ذلك أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ كان مقرًّا ومعترفًا بصدق رسول ﷺ، ومع ذلك لم يكن مؤمنًا؛ لأنه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له، وإلَّا فإنه يقول في قصائده.

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

(لقد علموا) يعني: قريشًا، (أن ابننا) وهو: محمد ﷺ، (لا مُكذبٌ لدينا) أي: نُصدقه، (ولا يُعنى بقول الأباطل) أي: لا يهتم بقول الكذب الباطل، ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

أعوذ بالله! مع ذلك لم ينفعه هذا الإيمان بل مات على الكفر. فالإيمان شرعًا هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط فيها (آمن) وجوابه (لكان خيرًا لهم)، (ولو) الشرطية إذا كان جوابها إثباتًا فالأفصح أن يقرن باللام، كما في هذه الآية: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وكما في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزُّخرُف:٦٠] والأمثلة على هذا كثيرة، وربما حذفت اللام ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] ولم يقل: لجعلناه أجاجاً، أما إذا كان الخبر منفيًا فإن الغالب حذف اللام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢] ولم يقل: (لما فعلوه)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣] ولا تقترن بها اللام إلَّا نادرًا، يعني قولك: لو شئت لما فعلت، هذا نادر ولكنه قد يرد، ووجه كونه نادرًا أن اللام تفيد التوكيد و(ما) تفيد النفي وبينهما شبه تضاد، ولا يجمع بين الشيء وضده.

وتأتي (لو) مصدرية مثل (أن) وذلك إذا جاءت بعد (ودَّ) ونحوها فإنها تكون مصدرية، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ [البقرة:١٠٩]، أي ودوا ردَّكم، ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]أي: إدهانك وهكذا، فهنا (لو) مصدرية فصارت تأتي مصدرية إذا جاءت بعد (ودَّ) وما أشبهها مما دلَّ على المحبة وتقول: أحب لو تذهب، أحب لو تفهم، أي أحب ذهابك، وأحب فهمك.

قال تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾. خيرًا لهم من الكفر لو آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة:١٠٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:١٠- ١١] إذن لكان خيرًا لهم من بقائهم على كفرهم، ويحتمل أن يقال: لكان خيرًا لهم، أي: لكان خيرًا مضاعفًا كما أخبر النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَاب آمَنَ بنبيه وَآمن بِي فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1].

ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. منهم أي: من أهل الكتاب المؤمنون أي الذي آمنوا مثل: (النجاشي) من النصارى، و(عبد الله بن سلام) من اليهود، هؤلاء آمنوا إيمانًا وقر في قلوبهم.

قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الفسق هنا المراد به: الخروج عن طاعة الله خروجًا مطلقًا وهو: الكفر؛ لأن الفسق يراد به الخروج عن الطاعة خروجًا مقيدًا، ويراد به الخروج عن الطاعة خروجًا مطلقًا، فالخروج عن الطاعة خروجًا مقيدًا، كما قال الفقهاء رحمهم الله: إن فاعل الكبيرة فاسق؛ لأنه خرج عن الطاعة خروجًا مقيدًا بهذه المعصية التي فسق بها، والخروج عن الطاعة خروجًا مطلقًا يكون بالفسق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٥٤).

يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠] وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١- أن هذه الأمة خير الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الخيرية وبين ما جاء في بني إسرائيل أن الله فضّلهم على العالمين، ومعلوم أن المفضل خير من المفضل عليه، فنقول: لدينا آيتان أو لدينا نصّان متعارضان كلاهما على سبيل العموم، كهذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(للناس) هذه عامة تشمل بني إسرائيل وغيرهم، وقوله في بني إسرائيل: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]تقتضي التفضيل العام على هذه الأمة وعلى غيرها، فبين النصين الآن عموم متعارض، فإن ادعيت تخصيص عموم آية بني إسرائيل بخصوص هذه الآية قال لك الإسرائيلي: وأنا أدعي تخصيص عموم هذه الآية بخصوص بني إسرائيل، فأقول: أنتم خير أمة أخرجت للناس ما عدا بني إسرائيل، فيقال: إن النبي ﷺ بيّن لنا أي العمومين مرادًا بقوله: «**تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةٍ أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»(١) فبيّن الرسول ﷺ أن هذه الأمة خير الأمم التي أوفتها وختمت بها وهذا من الرسول ﷺ نص فيكون عموم قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾مقدمًا على عموم قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] وحينئذٍ يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مخصوصًا بقوله في هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، بنصّ كلام الرسول ﷺ.

وقال بعض العلماء: إن المراد بالعالمين العام خصوص عالم زمانهم، يعني: العالمين في هذا الزمن أي: في زمن بني إسرائيل، فيكون من باب العام الذي يراد به الخاص فلم يرد به العموم من الأصل، والعام الذي يراد به الخاص كثير في القرآن والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]فإن (الناس) في قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لا يراد به عموم الناس بل القائل واحد، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أيضًا لا يراد به جميع الناس؛ لأنه لم يجمع لهم إلّا قريشًا، عامة البشر لم يجمعوا للرسول ﷺ وأصحابه، فيكون قوله: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] عامًا أريد به الخاص، وعلى هذا فلا يكون في الآية عموم إطلاقًا، وحينئذٍ لا تعارض هذه الآية.

٢- أن هذه الأمة فَضَلَت غيرها بالخيرية لوصفٍ ليس في غيرها، وهي أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأما من سبقها فلا، يقول الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٦١)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٧) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٠١).

يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩].

٣- أنه متى زال هذا الوصف الذي به فُضلت هذه الأمة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال كونها خير أمة أخرجت للناس، وذلك لأن الحكم المعلل بعلة يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، ويقوى بقوّتها ويضعف بضعفها.

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ترتب الخيرية عليه يدل على أهميته.

٥- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد في الأمة وجد الخير فيها، وكلما ضعف فيها ضعف الخير، ولهذا لما كانت الأمة قوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلادنا كانت البلاد على خير ما يرام، ولما ضعف الأمر بالمعروف والنهي فات هذه البلاد من الخير بقدر ما فاتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦- أنه كلما ازداد الإنسان أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر كان خيرًا من غيره؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوّته ويضعف بضعفه.

٧- أن العامل أو أن العاملين يتفاضلون، من قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وهذا واضح، وتفاضل العمال بتفاضل الأعمال، وتفاضل الأعمال ثابت بالكتاب والسنة: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء:٩٥] فهذا تفضيل العامل لفضل العمل، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، وأن العامل يزيد وصفه بالطاعة وينقص بحسب ما معه من العمل.

٨- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩- التنديد بأهل الكتاب حيث كفروا بالرسول ﷺ مع أنهم يدَّعون أنهم يريدون الخير، ولو كانوا صادقين في إرادة الخير لكانوا يؤمنون بالرسول ﷺ.

١٠- أن من أهل الكتاب من هو مؤمن ومنهم من هو فاسق وهم الأكثرون. فإن قال قائل: هل معنى ذلك أن أهل الكتاب الموجودين اليوم مؤمنون؟ لا، ولهذا قال: (منهم المؤمنون) و(أل) هنا للعهد الذهني يعني: المعروف وهو الإيمان بمحمد ﷺ ولم يقل: منهم مؤمنون قال: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: الإيمان المعهود عندكم أيها المسلمون وهو الإيمان برسول الله ﷺ.

١١- أن أكثر أهل الكتاب فاسق مارق خارج عن الدين وهو كذلك، والقليل منهم آمن ويؤمن، وحتى الآن يوجد أناس من أهل الكتاب يؤمنون بالله.

قال الله تعالى:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمـــران: ١١١]

التفسير

الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه المتمسكين بهديه، والفاعل في (يضروكم)، يعود على أهل الكتاب أي: لن يضركم أهل الكتاب إِلَّا أذىً، وقوله: ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ اختلف المفسرون فيها: هل هذا الاستثناء منقطع أم متصل؟ فمنهم من قال: إنه استثناء متصل؛ لأن هذا هو الأصل في الاستثناء.

وعلى هذا الرأي يكون في الآية شيء من الحذف تقديره: (لن يضروكم إِلَّا ضررَ أذىً) ليس ضرر عدوان حسِّي ببتر عضو أو أخذ مال، وإنما هو أذى، وذلك بأن يُسمِعُوكم ما تكرهون بالتوبيخ والاستهزاء وما أشبه ذلك، ولا شك أن الأذى نوع من الضرر لكنه ليس الضرر الذي يطلق عليه اسم ضرر.

والقول الثاني: أن الاستثناء هنا منقطع، وعلى هذا القول يكون المعنى: (لن يضروكم ولكن يؤذونكم) والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»(١) فالضرر منتفٍ عن الله، والأذية حاصلة، ومن أمثلتها قوله تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»(٢)، ويوضح هذا أنه لو صلى إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا أو ثومًا فإنك تتأذى برائحته ولكن هل يضرك؟ لا يضرك، وهذا القول أصح وهو أن الاستثناء منقطع، وهو وإن كان خلاف الأصل لكنه أعلى في البلاغة، لن يضروكم ولكن الأذى ستصبرون عليه والأذى ليس بضرر.

فإن قال قائل: هل هذه الآيةُ محكمةٌ عامة إلى يوم القيامة أو هي منسوخة خاصة بما كان قبل النصر؟، فالجواب: الأول، فإن قال قائل: يرد على دعواكم أن المراد الأول أن اليهود يعملون بنا اليوم ما هو من أشد الأضرار، ومعلوم أن خبر الله تعالى لا يخلف؟

فالجواب أن نقول: الخطاب للنبي ﷺ وأصحابه، ومن كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

وأصحابه فلن يضره اليهود ولا النصارى، أما من يعتقد أن الدين الإسلامي دينَ رجعية وتخلف ويُبدله بغيره من القوانين الرجعية الوضعية فهؤلاء لا يكتب لهم النصر، ويضرونهم بالأذى القولي والفعلي والاقتصادي وفي كل شيء، وإلّا فإن لام الله تعالى لا يخلف أبدًا. فقوم يقاتلون قتالًا جاهليًا مبنيًا على القومية المتمزقة وعلى أسس باطلة مضادة لدين الله فهؤلاء لا يستحقون النصر، ولذلك كانت اليهود الآن يفعلون الأفاعيل بنا، من يقدرون على الفعل ببدنه فعلوا، ومن لا يقدرون فإنهم يفعلون به ما يفعلون من المضار الاقتصادية العالمية. وحينئذٍ تبقى الآية محكمة غير منسوخة باقية إلى يوم القيامة، لكن المشروط يتوقف على الشرط، فانتفاء الضرر موقوف على وجود شرطه وهو أن نطبق سيرة من وعدوا بهذا الوعد وهم الرسول ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

يعني: لو فُرض وحصل بين المسلمين وبين أهل الكتاب قتال ولَّوا الأدبار قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر:١٤]ولكن الخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه ومن كان على مثل هدي الرسول ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ﴾ عندنا شرط وجوابه، الشرط المقاتلة، والجواب تولي الأدبار، فهم بمجرد ما يحصل بيننا وبينهم لقاء وقبل أن يصل أول سهم إليهم -والله أعلم- يفرون ويولون الأدبار، وهنا يقول: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾أي: يجعلون الأدبار تليكم وهو كناية عن الانهزام؛ لأن المنهزم يولي ظهره المنهزم منه؛ ولهذا قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما حينما حُوصر في مكة قال مُنشدًا:

وَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تُدْمَى كُلُومُنَا ... وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا

الذي تقطر الدماء أقدامه مُقبل، والذي تُدمى أعقابه مُدبر.

وقوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ حذفت منها النون؛ لأنها وقعت جواب الشرط.

قال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للمهلة والتراخي، و ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ فيها النون وهو محل إشكال؛ لأن (ثم) حرف عطف و ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ معطوف عليه، والمعطوف على المجزوم يكون مجزومًا، ولكن نقول: (ثم) هنا ليست للعطف ولكنها للاستئناف والتقدير: (ثم هم لا يُنصرون) ولا بد من هذا التقدير؛ لأنها لو كانت عطفًا على قوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لجزمت ولقيل: «ثم لا يُنصروا» وحينئذٍ يفسد المعنى؛ لأنه لو كان انتفاء النصر عنهم حين يقاتلوننا لأمكن لقائل أن يقول: إنهم ينتصرون بعد ذلك، ولصار انتفاء النصر مُقيدًا بها إذا قاتلونا، ولكن الأمر ليس كذلك، إنهم لا يُنصرون أبدًا سواء قاتلونا أم لم يُقاتلونا، ولهذا قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ فتبين

الآن أن «ثم» هنا ليست عاطفة ولكنها استئنافية، والفعل بعدها مرفوع؛ لأنها جملة مبتدأ بها لم تُعطف على منصوب ولا مجزوم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ النصر هو: المنعة والقوة والصرف وما أشبه ذلك. فمعنى «نَصَرْتُهُ» أي: صرفت عنه عدوه، وأيّدتُهُ وقوَّيتُهُ، هذا معنى النصر، فهؤلاء لا يُنصرون أبدًا. ولكن قد يقول قائل: إنه جرت حروب بين المسلمين وبين النصارى، وبين المسلمين وبين اليهود؛ فنُصِر النصارى على المسلمين، واليهود على المسلمين والجملة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ جملة خبرية، وخبر الله عزَّ وجلَّ لا يمكن إخلافه فما هو الجواب؟

من العلماء من قال: إن هذا في اليهود وإن اليهود ما انتصروا يومًا من الدهر على المسلمين أبدًا، بل من هزيمة إلى هزيمة، هُزم المسلمون في المدينة بني قينقاعٍ وبني النضير وبني قريظة، وهزموا في خيبر بني النضير ولم يقم لهم قائمة أمام المسلمين، وبناءً على هذا نقول: إن الآية خاصة باليهود أما النصارى فلم تتعرض لهم الآية. ولكننا نجيب بجواب أصح من هذا فنقول: الخطاب للمسلمين حين كانوا يمثلون الإسلام بالعقيدة والقول والفعل، وهم في هذه الحال سينتصرون على اليهود والنصارى والمجوس وسائر الكفار، وحينئذٍ لا يشكل علينا تغلب النصارى الصليبيين على المسلمين، ولا يشكل علينا تسلط اليهود على العرب؛ لأن القتال مع اليهود في راية العروبة قتالُ جاهلية وقتال طائفة لطائفة، لا لدين، بل ربما اعتقد اليهود أنهم يقاتلون للدين، وهم على باطل وأن الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم مكتوبة لهم إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١] ويذكر أنه لما كانت هزيمة عام ١٣٨٧ هـ لما دخلوا سيناء وما استولوا عليه من بلاد العرب صار الواحد من الجنود يأخذ التراب ويُقبله ثم يسجد عليه.

إذن الجواب عندنا على وجهين:

الوجه الأول: أن ذلك خاص باليهود، وأن اليهود لم تقم لهم قائمة بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة، ثم بعد ذلك أُجلوا من خيبر.

والقول الثاني: أن المراد اليهود والنصارى ولكن بشرط أن يكون المقابل لهم يقاتل للإسلام؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - فيه دليل على أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يضروا المسلمين، والواقع شاهد لذلك لما كان المؤمنون على الإيمان حقًّا، أما لما تفرقوا وتمزقوا واختلفوا في دين الله فإن الله تعالى

يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] لم يحصل ولم يتحقق لهم هذا الضمان من الله ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾.

٢ - أنه لو تقابل المسلمون وأهل الكتاب في قتال فالمنتصر هم المسلمون قال تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ وهذا الخبر صدق مَخْبَرُهُ لما كان المؤمنون على الإيمان الحق، ولكن لما اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءهم البينات رفع الله عنهم هذا الالتزام ولم يلتزم لهم، وكانوا فريسة لأعدائهم من اليهود والنصارى. وكلما بعدنا عن الإسلام زاد افتراس هؤلاء الأعداء لنا، ووجه ذلك أن المسلمين إذا تخلوا عن الإسلام بقيت الموازنة بين قوىً مادية وأخرى، ومعلوم أن هؤلاء بالنسبة للقوى المادية سيكونون أقوى منا؛ لأننا إذا أضعنا أمر الله أضعنا القوى المادية، فإن من جملة أمر الله أن يكون لدينا قوة مادية. إذن فكلما أضعنا أمر الله حصل لهم من القوة علينا بقدر ما أضعنا من أمر الله، وكل درجة بدرجة، كلما نزلنا درجة ارتَقَوا درجة، وهذا الآن هو الواقع، تكاد أن تقول: إن السيطرة على البسيطة ليست للمسلمين ولكنها لغيرهم، حتى في بلاد المسلمين ليست السيطرة للمسلمين مع الأسف، لا نقول: إنهم مغلوبون عسكريًّا، وقد يكونون غير مغلوبين عسكريًّا ولكن مغلوبون فكريًا؛ لأن الذين يقودون المسلمين فكريًّا هم الكفار من أتباع الهوى والصد عن سبيل الله وفتح أبواب الكفر على اختلاف مُسمياتها حتى ضاع المسلمون وصاروا يُدبَّرون من الخارج، وليس من شرط التدبير أن تحتل العساكر بلاد الإسلام، إذا استعمرت الأفكار بالنسبة للقادة فسد الناس، ولهذا يجب أن نكون منهم على حذر، فقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ نقول: إن هذا الخبر صدق مَخْبَرُهُ حين كان المسلمون متمسكين بالإسلام كان عدوهم مرعوبًا منهم مسيرة شهر «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١)؛ لأنهم متمسكون بدين الله، منصورون بنصر الله.

٣ - أن أهل الكتاب إذا قاتلونا لا يكتفون بوضع السلاح بل يولون الأدبار ويهربون، لا يمكن أن يقفوا حيال المسلمين، لذلك قال تعالى: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ وهذا أشد ما يكون من الانهزام، عدوك إذا هرب منك وولاك دبره حينئذٍ تُسيطر عليه تمامًا.

٤ - أن هؤلاء لا يُنصرون، وهل المُراد لا يُنصرون علينا أم المُراد لا يُنصرون نصرًا مُطلقًا؟ نقول: لا يُنصرون علينا وهو أيضًا مشروط بأن نتمسك بديننا عقيدةً وقولًا وعملًا وإلَّا فسيُنصرون علينا بقدر ما أهملنا من ديننا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٥٢١).

قال الله تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]

التفسير

الهاء فيها ثلاث قراءات:

الأولى: (عليهُمْ).

الثانية: (عليهُمُ).

الثالثة: (عليهِم). بدل من عليهِمْ.

فصارت الهاء فيها قراءتان: الضم والكسر، والميم فيها قراءتان: الضم والكسر.

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ لم يبين الضارب ولكنه معلوم وهو الله عزَّ وجلَّ، فأبهمه للعلم به كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] مع أن الله هو الذي خلقه، ولكن من طريقة القرآن أن الأشياء غير المرغوبة يُعبر الله عنها بصيغة الفعل المبني للمجهول، بخلاف الأشياء المرغوبة فيُعبر عنها باسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الذي ضربها هو الله عزَّ وجلَّ، وسمَّى ذلك ضربًا كالضرب على النقود الذي يبقى مُنطبعًا لا يزول إلَّا بمسح الأيدي، فكأن هذه الذلة مطبوعة عليهم لا يمكن أن تتغير. وهنا يقول: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب، ولكن هل المُراد أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه خاص باليهود؟ اختلف في هذا أهل العلم فقال بعضهم: إنه خاص باليهود. وقال بعض العلماء: بل هو عام، والأصل العموم؛ لأن الضمير عليهم يعود على أهل الكتاب المذكورين في قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فنقول: الضمير يعود على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإذا قُدِّر أنه صار لهم عز في وقت من الأوقات فإنما ذلك لسبب يقتضيه، فهو خلاف الأصل وإلَّا فالأصل أن الذلة مضروبة عليهم.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الذلة هنا بمعنى: الإهانة، أي: أن الله تعالى أهانهم.

وقوله: ﴿الذِّلَّةُ﴾ على وزن (فِعْلَة) وهي تختلف عن الذُّل؛ لأنها تدل على ذِلة معينة مخصوصة، قال ابن مالك:

وفَعْلَــة لمــرة كجَلْســة وفِعْلَــة لهيئــةٍ كجِلْســة

فـ «ذِلة» على وزن فِعلة أي: ذلة مخصوصة كما تقول: جلس فلان جِلْسة الأسد يعني جِلْسَة معروفة، هذه الذِلة ذلة - والعياذ بالله - لا تخرج من قلوبهم؛ لأنه قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ فكما أن النقش في السكة المضروبة لا يتحول ولا يزول فكذلك هذه الذلة.

قوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أين: ظرف مكان تدل أيضًا على عموم الأمكنة، ويؤكد عمومها «ما» الزائدة، أينما و «ثقفوا» بمعنى: وجدوا، يعني: في أي مكان وجدوا فإن الذلة مضروبة عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] يعني: حيث وجدتموهم، فهؤلاء اليهود والنصارى من بني إسرائيل ضربت عليهم الذلة في أي مكان كانوا من الأرض فهم أذلاء؛ لأن الله ضرب عليهم الذلة.

قال تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، الحبل: هو السبب، وسُمي السبب حبلًا؛ لأنه يوصل إلى المقصود كما يوصل الحبل إلى المقصود فيما لو أدلى الإنسان دلوه إلى بئر مثلًا، فإنه يتوصل به على المقصود، قال بعض أهل العلم: إن الحبل من الله هو الإسلام؛ لأن الإسلام فيه العزة وفيه النصر وفيه الظهور، فهم أذلاء إِلَّا أن يُسلموا فيكون المُراد بالحبل من الله هو: الإسلام، فإذا أسلموا ارتفعت عنهم الذلة، وقيل: المُراد بالحبل من الله: الذمة، يعني: أن يكونوا من أهل الذمة وذلك أن الإسلام يحمي أهل الذمة ويُدافع عنهم، ولهذا يجب علينا بالنسبة لأهل الذمة حمايتُهم ممن يعتدي عليهم في مالٍ أو دمٍ أو عرضٍ؛ لأنهم تحت رعايتنا وهم يبذلون لنا الجزية ما لم ينقضوا الذمة، فإن نقضوا الذمة فإنهم يعودون كالحربيين يُقتَلون لانتقاض عهدهم، فصار المُراد بالحبل من الله على قولين:

القول الأول: أنه الإسلام.

والقول الثاني: أنه الذمة.

وأما قوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ فإن ظاهره العموم، يعني: بسبب من الناس أي: الناس يدافعون عنهم ويرفعون معنوياتهم ويُعزِّزونهم، ولكن ما هو الحبل من الناس؟ قيل: إنه العهد والأمان، فالعهد كالذي يجري بين المسلمين وبين الكفار يحصل بينهم عهد أن لا يعتدي أحدٌ على أحد وأن تبقى هُدنة كما حصل في غزوة الحديبية، والأمان أن يدخل رجل من المشركين أو من اليهود والنصارى بأمان من أحد من المسلمين يؤمِّنه، والفرق بين العهد والأمان: أن الأمان يصح من كل واحد من المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[1]، والعهد لا يكون إِلَّا بين أهل الحل والعقد يعني: بين الإمام أو قائد الجيش أو ما أشبه ذلك. والفرق بين العهد والأمان والذمة أن الذمة تُثبِتُ لأهل الذمة حقوقًا تجب على المسلمين يُدافعون بها عنهم؛ ولهذا يأخذ المسلمون الجزية منهم عوضًا عن ذلك، فالحبل من الناس هو العهد والأمان، ويحتمل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٣٣٦).

أن الحبل من الناس أعم من ذلك أي بأن يكون المُراد به: العهد والأمان والنُصرة والإعزاز كما حصل لليهود الآن من النصارى من الأمريكان وغيرهم، فإن اليهود أذلة قد ضرب الله عليهم الذلة والهوان لكن الأمم النصرانية الآن تساعدها وتعززها لا محبةً لها ولكن من أجل أنها ضد المسلمين، فيكون المراد بالحبل من الناس هنا: ما هو أعم من العهد والأمان، ومعلوم أنه إذا صلح اللفظ للعموم فإن الأولى أن يبقى على عمومه، فيكون المراد بالحبل من الناس: أيّ مساعدة منهم وحماية كالعهد والأمان والنُصرة والولاية وما أشبهها.

قال تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، (باؤوا): أي: رجعوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩] أي: سكنوها، فهذه المادة (الباء، والألف والهمزة) تدل على الرجوع والاستقرار، والمعنى: أنهم رجعوا بغضبٍ من الله أي: مُصطحبين للغضب، والغضب: صفة انفعالية لا فعلية، والفرق بين الانفعالي والفعلي، أن الفعلي يكون باختيار الإنسان وبالجوارح الظاهرة كالبطش مثلًا، والانفعالي يكون بغير اختيار الإنسان وهو من القوى الباطنة؛ فالغضب: صفة انفعالية وليست فعلية، ولهذا تأتي للإنسان بغير اختياره، يستثيره أحد من الناس فيغضب، ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، ويقف شعره وربما يقْتُل مَنْ أمامه، وربما يُطلق نساءه، وربما ينتحر أيضًا، نسأل الله العافية. فالغضب إذن صفة انفعالية وهو كما قال النبي ﷺ: «جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ»(١) فيفور ويغضب، هذا بالنسبة لغضب الإنسان الآدمي البشر، أما غضب الله عزَّ وجلَّ فهو صفة من صفاته التي يجب إثباتها له على الوجه اللائق به جل وعلا، فهو سبحانه وتعالى يغضب ويرضى ويسخط ويكره ويحب، وكل هذه الصفات ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به، جل وعلا.

وقوله: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هذه الجملة مما يؤيد القول بأن المُراد بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ اليهود؛ لأنهم هم المغضوب عليهم، و (مِنْ) للابتداء أي: بغضب صادر منه، وربما يقول قائل: إنها أعم من أن يكون الغضب صادرًا من الله، بل بغضبٍ من تقدير الله، وعلى هذا تكون «مِنْ» للسببية ويكون المُراد بالغضب: غضب الله وغضب غيره، وهذا هو السر في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ولم يقل: (غير الذي غضبتَ عليهم)؛ لأن هؤلاء مغضوب عليهم من قِبَل الله ومن قبل أولياء الله.

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

الضارب هو الله تعالى، والمسكنة هي الفقر، فهم أذلاء ليس عندهم شجاعة، فقراء ليس عندهم غِنى، ولكن يجب أن نعلم أن الغِنى ليس كثرة العرض إنما الغِنى غِنى النفس والقلب،

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٦١)، والترمذي (٢١٩١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فهؤلاء قد ضربت عليهم المسكنة، فهم دائمًا في فقر حتى لو حصّل الإنسان منهم ملايين الملايين فهم في فقر، ولذلك حتى الآن نجد أن اليهود أحرص الناس على المال، وأنهم لا يمكن أن يبذلوا فلسًا إلَّا وهم يؤملون أن يحصلوا درهمًا، ولا يبذلون درهمًا إلَّا ويؤملون أن يحصلوا دينارًا، وهذه حالهم ومن ثم صاروا من أغنى العالم إن لم نقل هم أغنى العالم، لكنهم أغنى العالم بكثرة العرض لا بالقلب والنفس، فهم أشد الناس فقرًا.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: ما سبق من ضرب الذلة والغضب والمسكنة، والمشار إليه: مفرد مذكر وإن كان ثلاثة أشياء؛ لأن الإشارة عادت إليها باعتبار أنها مذكورة، فيكون تقدير الإشارة ذلك المذكور، قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الباء) معناها: السببية أي ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله. وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تدل على اتصاف اسمها بخبرها، و ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فعل مضارع يدل على استمرار الكفر منهم وهو كذلك، فإنهم كانوا يكفرون بآيات الله مع ظهورها وبيانها حتى إنهم قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. مع أنه قد قال لهم: إن الله إله واحد، فهم يكفرون بآيات الله، ومن جملة كفرهم أنهم كفروا بمحمد ﷺ مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولا أشد معرفةً من معرفة الإنسان لابنه ومع ذلك كفروا به عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآيات جمع آية وهي: العلامة على الشيء التي إذا وجدت كان الشيء موجودًا؛ لأنها علامته، كما لو قلت مثلًا: علامة طلوع الشمس أن ترى ضوءها على رأس الجبل، فهنا متى رأيت ضوءها على رأس الجبل فهي طالعة.

وآيات الله تنقسم عند أهل العلم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، وكلها علامات على الله عزَّ وجلَّ، أما الآيات الكونية: فهي المخلوقات كالشمس والقمر والأرض والنجوم والجبال والدواب وغيرها، وكل مخلوق لله فهو آية من آياته سبحانه وتعالى، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

أما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الكتب التي أنزلها الله على الرسل، وإن شئت فقل: ما جاءت به الرسل؛ ليعم الكتب والسُّنن، ومعنى كون الشيء آية: أن غير الله لا يمكن أن يحصل له ذلك أو أن يأتي به؛ لأنه لو أمكن أن يأتي به لم يكن آية.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] هذا تحدٍّ بالآيات الكونية، تحدّى الله عزَّ وجلَّ هؤلاء بأصغر آية من آياته الكونية: الذباب، في قوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، وفي الآيات الشرعية يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ولهذا صار آية لا يمكن لأحد أن يأتي بمثل القرآن أبدًا لا من جهة صدق الأخبار ونفع القصص وعدالة الأحكام وبلاغة الكلام إلى غير ذلك، ولو لم يكن منه إِلَّا أنك لو تردده صباحًا ومساءً ما مللته وغيره من الكلام لو قرأته عدة مرات مللته وتركته، أما القرآن فسبحان الله لا تمل، الفاتحة تقرؤها في اليوم على الأقل سبع عشرة مرة ومع ذلك تقرؤها في الركعة الثانية كأنك لم تقرأها في الركعة الأولى من إشفاقك عليها ومحبتك لها، وهذا لا شك أنه من آيات الله.

إذن الآيات الكونية هي المخلوقات، والآيات الشرعية ما جاءت به الرسل. كل الشرائع آيات شرعية، وسميت آية؛ لأنها تُعْجِز الغير، فلا يمكن أن تأتي بمثلها.

والآيات الكونية تتعلق بالربوبية، والآيات الشرعية تتعلق بالربوبية والألوهية، ولهذا فهي منهج عبادة للخلق كما أنها من حيث كونها حكمًا تتعلق بالربوبية، فإن لها علاقة وصلة بالربوبية؛ لأنها حكم، والحكم يتعلق بالربوبية؛ لأن الرب هو الخالق المالك المُدبر.

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا أيضًا من أفعالهم الشنيعة أنهم يقتلون الأنبياء، وهذا أعلى ما يكون من الجناية على البشر. الضرب، الحبس، الإهانة، الأذى كله دون القتل، فأعلى أنواع الأذية القتل، هؤلاء يقتلون الأنبياء - والعياذ بالله - إمَّا قتلًا أو ذبحًا بالسكين أو رميًا بالحجر أو بالسهم أو غير ذلك، المهم أنهم يقتلون الأنبياء فأخلّ هؤلاء بالتوحيد والرسالة، بالتوحيد بكفرهم بآيات الله، وبالرسالة بقتلهم الأنبياء.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه الصفة ليست قيدًا ولكنها كشف وإيضاح، لو قلنا إنها قيد لزم من ذلك أن ينقسم قتل الأنبياء إلى قسمين: قسم بحق وقسم بغير حق، وهذا لا يكون؛ لأن قتل الأنبياء كله يكون بغير حق. ولو قلنا إنها للإيضاح والكشف، صار المعنى يختلف فلا تكون قيدًا بل تكون لبيان الواقع أي: أن قتل الأنبياء بغير حق، فيكون المقصود بذلك شدة التوبيخ لهؤلاء، وأنهم يقتلون أشرف الخلق بغير حق، هذه لها نظائر منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة للإيضاح والكشف والبيان وليست للقيد. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ليس قيدًا ولكنه كشف وبيان؛ لأنك لو جعلته قيدًا لكان دعاء النبي ﷺ للمؤمنين ينقسم إلى قسمين:

قسم يُراد به الإحياء، وقسم يُراد به الإماتة، وهذا غير صحيح، إذن فقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بيان وكشف لما يدعو إليه وأنه ﷺ لا يدعو الناس إِلَّا لشيء يُحييهم.

يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ هذا من باب التوكيد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾؛ لأن الكفر عصيان لكن كأن الجملة هذه - والله أعلم - تعليل لذلك. فكان الكفر سببًا لضرب الذلة عليهم

والمسكنة والغضب؛ لأنه عصيان ومخالفة.

قوله: ﴿وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ تعود إلى قتل الأنبياء. فقتل الأنبياء عدوان، والكفر بالله معصية مع العلم بأنه كله معصية، ولكن هذا للعدوان أقرب، وهذا للمعصية أقرب.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن هؤلاء الذين ينتسبون للكتاب ولاسيما اليهود منهم قد ضربت عليهم الذلة، فهم أذل الناس حتى إنه قيل: إن اليهودي لا يمكن أن يُشهر السلاح على من مرَّ عليه بغير سلاح، يعني: لو كان مع اليهودي سلاح ومرَّ عليه شخص بغير سلاح سقط السلاح من يده من شدة ما ضُرب عليه من الذلة.

٢ - أن هؤلاء اليهود قد يكون لهم عزة بحبلٍ من الله أو حبلٍ من الناس. نحن قلنا: إن المُراد بالحبل من الله إما الإسلام أو الذمة، إن كان هو الإسلام فإن الاستثناء مُنقطع؛ لأنهم إذا أسلموا لم يكونوا من أهل الكتاب بل صاروا من المسلمين، وإن كانت الذمة فالاستثناء مُتصل.

٣ - أن أهل الكتاب قد ترتفع عنهم الذلة بحبلٍ من الله أو حبلٍ من الناس.

٤ - أن الناس قد ينصر بعضهم بعضًا بالباطل، وهذا عائد إلى قوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا الواقع المحسوس أن من الناس من ينصر غيره بالباطل؛ لأن الناس ليسوا كلهم أهل عدل بل فيهم أهل الجَوْر وأهل العدوان الذين يُساعدون أهل العدوان.

٥ - إثبات الغضب لله تعالى؛ لقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومنهج أهل السُّنة والجماعة في مثل هذه الصفة: إثباتها لله على الوجه اللائق به، وأن الله يغضب وينتقم، ولكن أهل البدع يقولون: إن الله لا يغضب وحاشاه من الغضب، فقدّموا الرأي على النص قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، والله عزَّ وجلَّ مُنزه عن ذلك، أحدٌ صمد ليس له قلب بمعنى أنه لا يحتاج إلى ذلك؛ لأنه أحدٌ صمد. قال ابن عباس: الصمد الذي ليس له جوف. فعلى هذا يقولون: إن الغضب الذي وصف الله به نفسه ليس بثابت له؛ لأنه مُنزه عنه، ولهذا لا يكون الغضب إلَّا في مقام القوة ويُقابله الحزن ويكون في مقام الضعف، ولكن أهل السُّنة والجماعة قالوا: لسنا أعلمَ بالله من نفسه، وقد وصف نفسه بالغضب فنحن نؤمن بأن الله يغضب، وأن جميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه بابها واحد، يجب إثباتها بدون تمثيل، ولا يلزم إذا كان غضب المخلوق هو غليان دم القلب لطلب الانتقام أن يكون هذا المعنى هو الذي يوصف الله به، بل نعلم أن بين غضب الخالق والمخلوق فرقًا كما أن بين ذواتهما فرقًا، فالغضب ثابت لله ولكننا لا نعلم كيفيته، كيفيته موكولة إليه سبحانه وتعالى، فإن الغضب لغة: هو غليان دم القلب نقول: هذا غضب المخلوق، أما غضب الخالق فيختص به جل وعلا كما أنكم أنتم تثبتون الإرادة لله وتقولون: إن الله مريد مع أن إرادة المخلوق هي: ميل القلب إلى ما ينفعه أو يضره، أي: لطلب منفعة أو دفع مضرة، فهل الإرادة التي أثبتموها لله تعالى بهذا المعنى؟ سيقولون: (لا) نحن

نثبت لله إرادة تليق به وتخالف إرادة المخلوق. نقول: يجب عليكم إذن أن تثبتوا لله غضبًا يليق به مخالفًا لغضب المخلوق، فالباب واحد، فإما أن تنفوا ما أثبتم، وإما أن تُثبِتُوا ما نفيتم، فإن أثبتوا ما نفوا وافقوا السلف، وإن نفوا ما أثبتوا وافقوا المعتزلة، وهم يرون أنهم في حرب مع السلف وفي حرب مع المعتزلة يُحاربون المعتزلة، ولا أدل على ذلك من فعل أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان معتزليًا وبقي على الاعتزال أربعين سنة، ثم هداه الله وأنكر على المعتزلة إنكارًا عظيمًا وبيَّن زيفهم وخطأهم وتبرأ منهم ومن الذين قالوا: إننا لا نُثبت الغضب لله؛ لأنهم يقولون: إن السلف مُجسمة ممثلة إذ يعتقدون أن مَنْ أثبت لله الصفات على وجه الحقيقة فهو مُجسم وممثل، ولهذا صاروا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فنحن نقول لهم: كما أثبتم لله إرادة تليق به فأثبتوا له غضبًا يليق به، وإلَّا فانفوا الجميع لتوافقوا المعتزلة، وهم لا يثبتون الجميع ولا ينفون الجميع كما هو المعروف من مذهبهم، وأعني بذلك الأشعريين.

فسّروا غضب الله بالانتقام، فقالوا: الغضب: الانتقام. وهذا تحريف وليس بتأويل؛ لأن الانتقام شيء مُنفصل عن الله عزَّ وجلَّ، يعني هم فسروه: بالعذاب، ويدل على بطلانه قوله تعالى في آل فرعون: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥] فلما آسفونا بمعنى: أغضبونا، ومن المعلوم أن السبب غير المُسبب، وأن فعل الشرط غير جواب الشرط، وهذا أكبر دليل على بطلان تفسيرهم الغضب بأنه الانتقام أو إرادة الانتقام.

٦ - أن الله ضرب على هؤلاء من أهل الكتاب المسكنة، وسبق أن المراد بها: مسكنة القلب فقد يكونون كثيري المال لكن لا يزالون في شُحٍّ وبخلٍ وطلبٍ للمال.

٧ - إثبات العلة أي: أن أفعال الله تعالى مُعللة أي: مقرونة بالحكمة، ودليل ذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ وقد نفى الجبرية حكمة الله وتعليل أفعاله، وشبهتهم في هذا أنهم يقولون: إن العلة غرض يريده الفاعل، والله تعالى مُنزه عن الأغراض، ومن كلماتهم الدارجة يقولون: إن الله مُنزه عن الأغراض والأعراض والأبعاض، ثلاثة أشياء: الأغراض: يعني الحكمة؛ ولهذا يُنكرون الأسباب كلها، الأسباب الشرعية والكونية. الأعراض: الصفات الفعلية كالمجيء والضحك وما أشبه ذلك. الأبعاض: الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين وما أشبه ذلك.

٨ - أن أفعال الله عزَّ وجلَّ وعقوباته لابد أن يكون لها حكمة؛ لأن هذا الغضب الذي باءوا به وضرب المسكنة والذلة بيَّن الله له حكمة وهي: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ويكفرون بآيات الله ويعصون الله.

٩ - أن الكفر بآيات الله سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقد دلَّ على هذا عدة آيات من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

١٠- عُتُوُّ بني إسرائيل بالكفر وقتل الأنبياء والمعصية والعدوان؛ لقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

١١- أن قتل الأنبياء موجب للعقوبة؛ لأن الله ذكر لهذه العقوبة عدة أسباب منها قتل الأنبياء.

١٢- أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقد سبق توجيه ذلك أثناء التفسير.

١٣- جواز تعدد العلل لمعلولٍ واحد، وهذا متفق عليه وذلك؛ لأن العقوبات التي ذكرت مُتعددة والسبب واحد لكنه متعدد النوع، ويجوز أيضًا أن تتحد العلة، أي أن تكون واحدة والمعلول مُتعدد، مثل أن يفعل الإنسان فعلًا واحدًا يترتب عليه عدة أشياء.

١٤- أن بني إسرائيل عندهم عدوان على حق الله وحق الأنبياء وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

وهذه الأوصاف وما ينتج عنها من العقوبات يجب أن نتخذ منها عبرة، والفائدة المهمة المسلكية أن لا نقرأها على أنها أمر جرى وقصص تاريخية مضت بل يجب أن نقرأها من أجل أن نعتبر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

❁ قال الله تعالى:

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥]

❁ التفسير ❁

﴿لَيْسُوا۟﴾ الضمير يعود على أهل الكتاب، ﴿سَوَآءً﴾ بمعنى: مستوين أي: ليسوا متساوين في هذه الأوصاف، بل منهم أمة قائمة يتلون آيات الله إلى آخره، ومنهم أمة فاسقة غير قائمة على أمر الله، ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي: لا يستوون في المعصية والأحوال والأوصاف.

ثم بين ذلك فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾.

قوله: ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم: اليهود والنصارى كما مرَّ علينا كثيرًا، وأظهر هنا في موضع الإضمار، إما لطول الفصل بين الظاهر الذي ترجع إليه الضمائر؛ وإما لاستئناف الجملة؛ لأن

قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جملة مُستأنفة.

﴿أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة، و ﴿قَآئِمَةٌ﴾ أي: ثابتة مستقيمة على أمر الله، فالقيام هنا بمعنى: الثبات والاستقامة على أمر الله، وليس المُراد به القيام الذي هو ضد القعود؛ لأن المسلم قائم على أمر الله سواء كان جالسًا أو واقفًا أو مُضطجعًا.

قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ، ويجوز الابتداء بالنكرة إذا أفادت، وهي إذا تأخرت فهي مفيدة. لو قلت: في الدار رجلٌ فهي مفيدة، وإذا قلت: رجلٌ كريم في الدار فهي أيضًا مفيدة، فإذا وُصِفَت أو أُخرت فهي مفيدة.

قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، كلمة ﴿قَآئِمَةٌ﴾ صفة و ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة أيضًا صفة أخرى، ويجوز أن تكون حالًا؛ لأن لدينا قاعدة نحوية وهي: أنه إذا وصفت النكرة جاز في الصفة الثانية أن تكون حالًا وأن تكون صفة، هذه القاعدة سواءً كانت الصفة الثانية جملة أم مُفردًا، فإذا قلت: جاءني رجُل كريم راكبٌ. صحَّ لأنه وصف، وإذا قلت: جاءني رجلٌ كريمٌ راكبًا. صحَّ أيضًا، هنا في الآية الكريمة ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ «أمة» نكرة، و«قائمة» صفة لها و «يتلون» يجوز أن تكون حالًا فتكون الجملة في موضع نصب على الحال، ويجوز أن تكون صفة.

قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التلاوة تارة يُراد بها: القراءة، وتارة يُراد بها: الاتباع، فإن صلح المقام للمعنيين جميعًا حُمل عليهما، وإن اختص بأحدهما اختص به، فإذا قلت: تلا عليَّ آية من القرآن، فالمُراد: القراءة. وإذا قلت: هذا الرجل يتلو آيات الله إخلاصًا وتعبدًا، فهذا يحتمل القراءة ويحتمل الاتباع، وإذا كان يحتمل المعنيين وهما لا يتنافيان حُمل عليهما. إذن قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يشمل تلاوة اللفظ وتلاوة العمل بآيات الله.

وقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ آناء بمعنى: أوقات، ومنه النوء لوقت ظهور النجم أو للنجم، فـ ﴿ءَانَآءَ﴾ بمعنى أوقات، آناء الليل بمعنى: أوقات الليل وساعاته.

قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، هذه الجملة يجوز فيها وجهان: أن تكون استئنافية، وأن تكون حالية من الواو في قوله ﴿يَتْلُونَ﴾ أي: يتلون آيات الله والحال أنهم يسجدون، فوصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات؛ لأن السجود أفضل من القيام، وأفضل من الركوع حيث إن الساجد أقرب ما يكون من ربه، لكن تلاوة الآيات أفضل الأذكار؛ فلهذا اختصت بالقيام، فقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ذكر لأعلى أوصاف القول ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ذكر لأعلى أوصاف الفعل وهو السجود.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء، ويجوز أن تكون صفة لقوله: «أمة» وأن تكون حالًا.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، والإيمان بالله يتناول أربعة أشياء لابد منها:

الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، فمن أنكر وجود الله فهو لم يؤمن به، ومن آمن بوجوده وأنكر توحيده بالربوبية فإنه لم يؤمن بوجوده، ومن آمن به وبربوبيته ولكنه أنكر انفراده بالألوهية فإنه لم يؤمن به، ومن آمن بذلك كله ولكن أنكر شيئًا من صفاته فإنه لم يؤمن به، فلا إيمان بالله إلَّا بهذه الأمور الأربعة.

أما الإيمان باليوم الآخر فالمُراد: باليوم الآخر يوم القيامة، وسُمّي اليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده إذ هو مُنتهى الخلائق، ولا يوجد فيه ليل ولا نهار، كله يوم واحد لا شمس ولا قمر ولا نجوم، كلٌّ في مكانه إما في الجنة أو النار، فهو آخر شيء يكون فيه العباد، ومعلوم أن للعباد أربع دور: الدار الأولى في بطون أمهاتهم، والثانية في هذه الدنيا، والثالثة في البرزخ، والرابعة في اليوم الآخر وهي الأخيرة، ولهذا سُمي اليوم الآخر، واليوم الآخر يدخل في الإيمان به كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فسؤال الميت في قبره داخل في الإيمان باليوم الآخر، وعذاب القبر أو نعيمه داخل في الإيمان باليوم الآخر، ووجه ذلك أن كل من مات فقد قامت قيامته، فما يجده في قبره كالذي يجده بعد حشره، كله من أمور الغيب، كله في دار الجزاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ويدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، والإيمان به: أن تؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسُّنة مما يكون بعد الموت جملةً وتفصيلًا. ولكن اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها، ولا أحسن من الرجوع إلى الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو الترهيب، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد؛ لأن كوننا نملأ أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعة خطأ حتى لو كان فيها ترغيب وترهيب، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية، والناس سوف يأخذون كل ما ذكر على أنه صحيح، يقولون: ما قيل في المحراب فهو صواب، والواجب على من ألف في الترغيب والترهيب أن لا يذكر إلَّا ما كان حُجة من صحيح أو حسن، أما الضعيف فلا حاجة لذكره؛ لأننا في غِنىً عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ.

بعض الكتب تذكر أنه لا بأس بذكر الحديث الضعيف في فضائل الأعمال؟ نعم أجاز بعض العلماء ذكر الحديث الضعيف في فضائل الأعمال لكن بشروط ثلاثة:

الأول: أن يكون أصل العمل ثابتًا.

والثاني: أن لا يكون الضعف شديدًا.

والثالث: أن لا يُعتقد أن النبي ﷺ قاله.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، سبق ذكره في هذه السورة مرتين، وذكرنا في أول ما مرَّ علينا شروطه وآدابه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: مع كونهم مؤمنين وكونهم مُصلحين هم أيضًا مُسارعون في الخيرات، يعني: أنهم يتسارعون في الخيرات كما يتسارع الناس في الغنائم، قال: ﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ولم يقل: «إلى الخيرات» مع أن سارَعَ تتعدى بـ «إلى» كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ لأن المراد بذلك مسارعتهم إليها وفيها أثناء القيام بها، فالمُراد: المسارعة إليها، وإذا وصلوا إليها لم يقفوا عن المسارعة فيها، وهذا هو السبب والعلم عند الله في قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ولم يقل: إليها.

وقوله: ﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الخيرات جمع خير أو خيرة، وهي كل ما انتفع به العبد أو نفع غيره، فالصلاة خير، وتعليم الناس كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ خير، والدعوة إلى الله خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خير أيضًا، وكل ما يُقرب إلى الله تعالى هو خير، والمسارعة فيه هي المسارعة إليه والمسارعة فيه أثناء العمل.

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، المشار إليه: هذه الأمة القائمة من أهل الكتاب، قال أهل العلم: و«الصالح» من قام بحق الله وحق العباد، وضده الفاسق، والصلاح يدور على شيئين: علم، وعمل، وضده الجهل والكفر والتمرد، فمن كان جاهلًا فإنه ليس بصالح، والمُراد: ليس بصالح الصلاح الذي يكون في قمة الصلاح وإلَّا فإن معه من الصلاح بمقدار ما عنده من العلم، ومن لم يكن عاملًا فليس بصالح وعنده من فَقْد الصلاح بقدر ما فَقَدَ من العمل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾، (ما) شرطية، وجملة ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ جواب الشرط، وفي هذه الآية قراءتان: «وما تفعلوا من خير فلن تُكْفَروه» بالتاء، والثانية «وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه» بالياء، فعلى القراءة الثانية بالياء لا يكون في الآية التفات؛ لأنها جرت على ضمير الغيبة كما في الآية التي قبلها، وعلى قراءة التاء «ما تفعلوا» يكون فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، وأيضًا يكون الخطاب فيها موجهًا إلى النبي ﷺ وإلى هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ هذه للبيان، بيانية لوقوعها بعد اسم الشرط، واسم الشرط اسم مُبهم يحتاج إلى بيان؛ ولهذا كلما أتتك «من» بعد اسم الشرط فهي بيانية.

وقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ سبق آنفًا أن الخير كل ما يُقرب إلى الله، وقوله: ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ يعني: لن يُحرموا ثوابه، والكفر أصله: الستر ومنه (الكُفُرَّى) وهو غُلاف طلع النخل، وهذا الكُفُرى يستر ولهذا قالوا: إن الكفر أصله الستر؛ لأن الإنسان يستر نعمة الله عليه لا يُظهرها عليه، والنعمة تقتضي الشكر، فإذا لم تشكر فهذا هو الكفر. إذن ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ معناه: فلن يُحرموا ثوابه؛ لأنهم إذا حُرموا ثوابه كان فعلهم لهذا الخير خفيًا (أي ليس له أثر).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾، فيجازيهم على تقواهم، والتقوى لها فوائد كثيرة،

وتخصيص العلم بالمتقين من أجل الحث على التقوى والحذر من مخالفتها وعدم القيام بها وإلَّا فإن الله عليم بكل شيء.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ - أن أهل الكتاب ليسوا بسواء، فإن منهم أمة ضالة ومنهم أمة قائمة بأمر الله، وهو صريح في هذه الآية: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

٢ - بيان عدل الله تعالى وأنه يُعطي كل ذي حقٍّ حقه، فلما ذكر الذم - ذم أهل الكتاب - في الآيات السابقة فقد يتوجه الفهم إلى أن جميع أهل الكتاب على هذا الوصف أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ويعصون الله ويعتدون على حقِّه وحقِّ عباده، فقال: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي: منهم من ليس كذلك.

٣ - أن من أهل الكتاب أمة، والأمة تقتضي الجمع والعدد الكثير بهذا الوصف المحمود المطلوب، وقد ذكروا أنه أسلم من اليهود نحو عشرين رجلًا، ومن النصارى عدد كثير أيضًا، ولذلك عبّر بقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالأمة هنا أمة الإسلام؛ ولكن هذا بعيدٌ جدًّا؛ لأن ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ وخبرها ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ولم يعبر الله عزَّ وجلَّ عن هذه الأمة بأهل الكتاب بل قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] كما أنه لم يعبر عن أهل الكتاب بالمؤمنين، فكل آية فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فهي للمؤمنين بمحمد ﷺ، وكل آية فيها ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فالمراد بهم: بنو إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى وعيسى.

٤ - الثناء على القيام بطاعة الله والثبات عليها، تؤخذ هذه الفائدة من قوله: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ هذا وجه الثناء عليهم.

٥ - الثناء على من يتلون كتاب الله قراءةً وعملًا، تؤخذ من قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ثم ذكر الفرق.

٦ - فضيلة السجود، تؤخذ من الآية ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

٧ - الثناء على من آمن بالله واليوم الآخر، يؤخذ من ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

لكن هل إذا أثنى الله على شخص بصفة يكون مذمومًا إذا لم يتصف بها، ينتفي عنه الحمد وقد يستحق الذم وقد لا يستحق؟

لا شك أنه إذا انتفى الإيمان باليوم الآخر هو مذموم؛ لأنه كافر، لكن في غير هذا لو أثنينا على شخص بأنه يُصلي صلاة الضحى هل معنى ذلك أنه لو لم يصل فهو مذموم؟ لا، إذن نأخذ قاعدة: لا يلزم من ترك المستحب الوقوع في المكروه، فلو أن رجلًا صلى ولم يرفع يديه عند تكبيرة الإحرام هل نقول إن هذا مكروه؟ لا. وهذه قاعدة مفيدة، لا يلزم من ترك المسنون أن يقع الإنسان في مكروه ولكنه ينقص أجره لا شك، لكن لا يُذمُّ ولا يُقال إنه وقع في مكروهٍ أو أمرٍ منهي عنه.

٨ - الثناء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتؤخذ من الآية ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لو قال قائل: لماذا ذكر الله الإيمان بالله واليوم الآخر بين ذكر تلاوة الآيات وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ بدأ بتلاوة آيات الله والسجود، وثنَّى بالإيمان بالله واليوم الآخر، وثلَّث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلماذا جعل الإيمان وهو الأصل بين تلاوة الكتاب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الجواب: أن تلاوة الآيات تُذكر باليوم الآخر وتثبت الإيمان به، أي: أنه لا يمكن الإيمان بالشيء إلَّا بعد العلم به، فهم إذا تلوا آيات الله علموا باليوم الآخر ثم آمنوا به، يعني: أنه غاية.

٩ - الثناء على المسارعة في الخيرات من قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فإن قال قائل: كيف يجمع بين هذه الآية التي فيها الثناء على المسارعة في الخير وبين قول النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُم الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُم السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ وَلَا تُسْرِعُوا»[1]؟ الجواب أن نقول: إن المسارعة في الخيرات هي المسارعة في موافقة الشرع.

١٠ - الثناء على هؤلاء بالصلاح؛ لقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذن فينبغي لنا أن نلتزم أو أن نقوم بهذه الأعمال التي مدح الله بها هؤلاء القوم من أهل الكتاب وأثنى عليهم بها.

فإذا قال قائل: هل الصلاح أمر كسبي أو أمر فطري؟ إذا قلت: إنه أمر فطري فكيف يكون الإنسان نفسه ليكون صالحًا؟ وإذا قلت أمر كسبي فهذا أمر ممكن.

فالجواب: أن الأصل أنه فطري ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لكنه في النهاية والغاية يكون كسبيًّا، ولهذا قال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2].

وللصلاح أسباب: منها ما ذكر الله في كتابه مثل: تلاوة آيات الله، وكثرة الصلاة، والإيمان بالله واليوم الآخر، وتحقيقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا يشكو كثير من الناس اليوم أنه قد يجد في قلبه شيئًا من الفساد فكيف يُصلحه؟ فنقول: أصلحه بما ذكر الله من هذه الأحوال لأهل الكتاب، فإن هذا من أسباب الصلاح، ولذلك قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، صحبة الأخيار من أسباب الصلاح. فهل في الآية ما يدل عليها؟ الجواب: نعم؛ لأنهم إذا كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يمكن أن يصحبوا أحدًا من أهل المنكر والشر، فيكون في الآية الكريمة إشارة إلى صحبة الأخيار، ولا شك أن صحبة الأخيار من أسباب الصلاح؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه مثّل الجليس الصالح بحامل المسك[3]، ويُروى عنه ﷺ أنه قال: «المَرْءُ عَلَى دِينِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٦)، و مسلم (٦٠٢).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٨٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٥٨).
(٣) متفق عليه:أخرجه البخاري (٢١٠١)، و مسلم (٢٦٢٨).

خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِل»[1]. وأخذ الشاعر هذا المعنى وقال:

عَنْ الـمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالـمُقَارَنِ يَقْتَدِي

١١- التحذير من طاعة أهل الكتاب، تؤخذ من ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٠] أخبرنا الله تعالى بذلك من أجل أن نحذر منهم، وأن لا نطيعهم؛ لأنهم يحرصون غاية الحرص على أن يردونا بعد إيماننا كافرين.

١٢- أنه من فعل خيرًا أُثيب عليه؛ لأن المُراد بالنفي هنا تمام الإثبات، أي أنهم يُعطون أجرهم كاملًا بلا نقص.

١٣- كمال عدل الله عزَّ وجلَّ لكون العامل إذا عمل عملًا أُثيب عليه، ولو حوسب على ما أعطاه الله من النعم لهلك، لكن يُثاب وتكون نعم الله عليه مجرد فضل من الله.

١٤- إثبات علم الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٥- الثناء على أهل التقوى، والتقوى ذكرت في القرآن الكريم على وجوه متنوعة ومتعددة أمرًا وثناءً على أهلها وبيانًا لثمراتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

١٦- ثبوت الثواب على عمل الخير قليلًا كان أم كثيرًا؛ لقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وهي في سياق الشرط فتكون عامة.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦ - ١١٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يشمل كل من كفر بالله من يهودي أو نصراني أو شيوعي أو دهري أو مسلمًا ارتد، المهم أن كل من كفر بالله فهذا حكمه، والكفر ذكر أهل العلم أنه قسمان:

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥).

كفر مُخرج عن الملة، وكفر غير مُخرج عن الملة. وعليه يتنزل قول ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] قال: كفر دون كفر، ومن أمثلة هذا النوع أعني (الكفر الذي لا يُخرج عن الملة) قول النبي ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُه كُفْرٌ»[1]، فإن قتال المسلم ليس بكفر أي ليس بكفر مُخرج عن الملة ولكنه كفر دون كفر؛ لأنه لا أحد يُقدِم على قتل المسلم إلَّا الكافر، فإذا قدم المسلم على قتل أخيه المسلم فقد أتى بخصلة من خصال الكفر، والدليل على أن قتال المسلم ليس بكفر مُخرج عن الملة قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجُرات: ٩]. ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ومن ذلك قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفْر: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»[2] ولها أمثلة. المهم أن هذا كفر أصغر لا يُخرج من الإسلام.

أما الكفر الأكبر: فهو الكفر الذي يُخرِج من الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيِّنة: ٦]، وهنا يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الظاهر – والله أعلم – أن المراد به: الكفر الأكبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأن أصحاب النار لن يكونوا إلَّا الكفار كفرًا أكبر؛ لأن صاحب الشيء هو الملازم له، ومن كفر كفرًا أصغر فإنه لن يُلازم النار بل لابد له من الخروج منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله إذا أراد الله بهم سوءًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١] وحينئذٍ نقول: إن قوله: ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ أي: لن تمنع ولن تدفع، فهي عاجزة عن منع ما أراد الله وعن رفعه.

وقوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ذكر الأموال؛ لأن الأموال يفتدي بها الإنسان نفسه في مواطن الحرج، لو أن أحدًا أمسك شخصًا وأراد أن يحبسه أو أن يقتله أو يعتدي على عرضه وقال له: دعني أنا أعطيك ما شئت من المال أو خُذ ما شئت من مالي، حينئذٍ أغنى عنه المال. والأولاد كيف يُغنون عن الإنسان شيئًا؟ لأن الأولاد يُدافعون عن آبائهم وأمهاتهم، وهم – أي الأولاد – أشد الناس حماسًا في الدفاع عن آبائهم وأمهاتهم، فالإنسان لا يمكن أن يدع عدوه يبطش بأبيه أو أمه أبدًا وهو على قيد الحياة؛ فلهذا قال: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾؛ لأن الأولاد هم الذين يُدافعون عن آبائهم وأمهاتهم. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، شيئًا: نكرة في سياق النفي ﴿لَن تُغْنِىَ﴾، قال الأصوليون: والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أيُّ شيء كان سواءً كان هذا الشيء شديدًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧٧)، والترمذي (١٠٠١).

أم كان ضعيفًا.

قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ففي الدنيا لا يُغني عنهم مالهم ولا أولادهم، وفي الآخرة كذلك هم أصحاب النار هم فيها خالدون، والنار معروفة هي ذلك الجسم الحار، ولكن حرارة النار في الآخرة ليست كحرارة النار في الدنيا حيث فُضّلت على حرارة النار في الدنيا بتسعة وستين جزءًا – نسأل الله السلامة – إذن فإن قدرت الآن أعظم ما في الدنيا من النيران في الحرارة فإن نار جهنم أشد منها، تزيد عليها بتسعة وستين جزءًا، فإذا أخذنا الأصل والزيادة صارت سبعين عن حرارة الدنيا.

وقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها.

وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ في بيان أن أموالهم لا تُغني عنهم شيئًا ولا تنفعهم: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

هذا تشبيه تمثيلي؛ لأن التشبيه يقولون إنه نوعان: تشبيه إفرادي مثل أن نقول: فلان كالبحر، فلان كالأسد، وتشبيه تمثيلي بمعنى أن تشبه الهيئة بالهيئة، يكون المشبه شيئًا مؤلفًا من عدة أمور، والمشبه به كذلك يكون شيئًا مؤلفًا من عدة أمور، فيُسمَّى عند البلاغيين تشبيهًا تمثيليًّا، والأول تشبيهًا إفراديًا. وقوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الصورة الآن: ريح شديدة فيها برودة عظيمة ولها صرير من شدتها أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم، فالتشبيه مُركب الآن من ريح شديدة باردة أصابت حرث قوم يعني: مصيبٌ ومُصاب، أي: زرعهم، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: استحقوا أن يُعذبهم الله عزَّ وجلَّ بهذه الريح فأهلكته، فإذا هبت الريح العاصفة الباردة القوية انتقامًا من بني آدم فإنها سوف تهلك هذا الحرث، ووجه الشبه ظاهر؛ لأنهم سُلطوا على أموالهم تسليطًا عظيمًا لكن لم ينتفعوا بهذا التسلط وعادت هباءً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] هذه حال الكفار إذا أنفقوا أموالهم لن ينتفعوا بها إطلاقًا، كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: أنها مُشتملة على الصرّ، وفسرنا الصرّ بأمرين: البرودة وشدة الصوت، لها صرير من شدتها وباردة، هذه لا تُبقي على الزرع ولا تذر، فأهلكتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني: ما ظلمهم الله عزَّ وجلَّ حين سلطهم على إهلاك أموالهم بدون أن ينتفعوا بها؛ لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا. ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هم الذين يظلمون أنفسهم بكفرهم بآيات الله، ولا أحد أجبرهم على هذا الكفر، وإذا فعل الإنسان الشيء من نفسه فلا يلوم إلَّا نفسه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، يظلمون أنفسهم هذه مفعول مُقدم، وعلامة ذلك أنه لو كان في غير القرآن وحولت الجملة بالتقديم والتأخير فقلت: ولكن يظلمون أنفسهم لاستقام الكلام.

إذن فأنفس هذه: مفعول به مقدم، وفائدة التقديم الحصر، يعني أنهم: ما ظلموا الله عزَّ وجلَّ، والله أيضًا ما ظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم، أما كونهم ما ظلموا الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وأما كونهم لم يُظلموا؛ فلأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى لم يظلمهم وهم لم يظلموا الله، لم ينقصوه شيئًا وإنما نقصوا أنفسهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - بيان أن الكفار مهما بلغوا في القوة عددًا ومددًا فإن قوتهم لن تُغنيهم من الله شيئًا، عددًا؛ لقوله: «أولاد» ومددًا؛ لقوله: «أموال»، مهما كثرت قوتهم عددًا ومددًا فإنها لن تُغني عنهم من الله شيئًا.

٢ - تمام قدرة الله وسلطته على العباد حيث إن الكفار العُتاة لا يستطيعون أن يدفعوا شيئًا بأموالهم وأولادهم مما قضاه الله عزَّ وجلَّ، فإن قال قائل: مفهوم الآية أن المؤمنين تُغني عنهم أموالهم وأولادهم من الله شيئًا، قلنا: هذا غير مُراد؛ لأن الآية سيقت في الرد على الكفار الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم، فبيَّن الله أن أموالهم وأولادهم لا تُغني عنهم من الله شيئًا، أما المؤمنون فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] ولا أحد ينفعه ماله وولده إلَّا أن يكون عونًا له على طاعة الله.

٣ - أن الكفار في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

٤ - أنهم مُخلدون فيها؛ لقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والجملة اسمية تدل على الدوام والثبوت، فإن قال قائل: هل هذا الخلود أبدي أم له غاية؟

فالجواب: أنه أبدي وليس له غاية، ودليل ذلك في كتاب الله في ثلاث آيات منه في النساء والأحزاب والجن، ففي النساء يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩] وفي سورة الأحزاب يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥] وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] وليس بعد هذه الآيات قول يُقال، بل لو قاله قائل فقوله مردود عليه؛ لأن هذا أمر غيبي لا يُعلم إلَّا من قبل الشرع والوحي، والوحي كما ترون نزل بأنهم خالدون فيها أبدًا،

وإذا جاء النص فلا قياس، فمن ادَّعى أنهم يخلدون فيها إلى أمد فإنه لولا تأويله لكان أمره خطيرًا جدًا، لكنه تأول واشتبهت عليه بعض الآيات وقال بعدم التخليد الأبدي وإلّا لكان أمره خطيرًا جدًا؛ لأن ظاهر هذا القول تكذيب القرآن، والأمر خطير جدًا، ولكنه صدر من أُناس نعلم نصحهم لكتاب الله ولسنة نبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم على وجه تأولوا فيه، والله يغفر لهم تأويلهم، لكن بالنسبة للعقيدة التي بين الإنسان وبين ربِّه إذا تبين له خطأ عالم من العلماء وجب عليه مخالفته، أما بالنسبة للعالم فنرجو له المغفرة والرحمة إذا علم بالنصح للأمة لأنه غير معصوم، والعصمة في كتاب الله وسُنة نبيه ﷺ.

٥ - إثبات القياس؛ لقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ ووجه ذلك: أن المثل إلحاق للأصل بالفرع، إلحاق للمشبه بالمشبه به، وهذا هو أصل القياس، إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، فكل مثال ضربه الله في القرآن ففيه دليل على القياس إذ إنه إلحاق المشبه بالمشبه به، وعليه يكون في هذه الآية إثبات القياس.

٦ - حسن أو تمام بلاغة القرآن، وذلك بقياس الغائب على الشاهد، ووجهه أن الريح التي فيها صِرٌّ وأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم كل يعرف أنها مُدمرة ومُهلكة، فكذلك أعمال الكافرين هالكة لا خير فيها؛ لأن الكفر مُدمر لها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤].

٧ - أن الكافر لن ينتفع بما عمل في الآخرة، ووجهه أنه إذا هلك ما عمله وزال فإنه لن ينفعه لكن قد ينفعه في الدنيا، فيدفع الله عنه به من البلاء ما يدفع، أو يحصل من الخير الذي يرجوه ما يحصل بسبب الإنفاق الذي أنفقه من ماله.

٨ - انتفاء الظلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهل هو محال لذاته أو لغيره؟

قيل: إنه محال لذاته، وذلك؛ لأن الخلق كلهم عبيد الله ومهما فعل السيد بعبيده فليس بظالم، وعلى هذا فإن الظلم في حق الله مستحيل لذاته، وهذا القول يتضمن أن الله غير قادر على الظلم؛ لأنه مستحيل لذاته عندهم.

والقول الثاني: أن الظلم بالنسبة لله مستحيل لغيره، يعني: لو شاء الله أن يظلم لظلم، ولكنه مستحيل لغيره. والغير كمال عدل الله، وهو الذي منع أن يقع الظلم من الله سبحانه وتعالى، ولهذا نقول: لو شاء الله لظلم العباد فأهدر أعمالهم الصالحة، وأضاف إليهم أعمالًا سيئة لم يعملوها، لكن لكمال عدله لا يمكن أن يقع منه ذلك سبحانه وتعالى.

وأيهما أدل على الكمال؟

الجواب: أن يكون الظلم بالنسبة لله مستحيلًا لغيره؛ لأنه لو كان مُحالًا لذاته لم يكن فيه مدح لله عزَّ وجلَّ، فالمدح أن يكون قادرًا عليه ولكنه تركه لكمال عدله. وأضرب لكم مثالًا يُبيِّن الأمر: لو

أن رجلًا عنينًا – أي لا يقدر على الجماع – دعته امرأة إلى نفسها فقال: ما لي رغبة، فهل نمدحه؟ لا، لا نمدحه؛ لأنه غير قادر على ذلك، لكن لو كان رجلًا شابًا وعنده قدرة، ودعته امرأة لنفسها فقال: إني أخاف الله ولو شاء لأجابها وفعل، فإنه يُمدح لأنه قادر، فلو قلنا: إن الظلم بالنسبة لله مستحيل لذاته، وأنه لا يمكن أن يقع منه، صار عدم ظلمه ليس فيه مدح، وصار تمدّح الله به لا فائدة منه، إذن فالله تعالى نفى عن نفسه الظلم لكمال عدله، فلعدله لا يمكن أن يقع منه الظلم.

فإن قيل: نفي السِّنة والنوم هل هي مثل نفي الظلم؟

السِّنة والنوم ليست فعلًا بل هي حال وانفعال يطرأ على النائم والناعس، فقد يُقال: إنها مُحال لغيره ولو شاء لنام وأخذته السِّنة، وقد يُقال: مُحال لذاته؛ لأن في ذلك نفي لكماله، ولأن هذا ليس فعلًا بل هو انفعال، فبينه وبين نفي الظلم فرق.

٩ - إثبات أن الله تعالى موصوف بالنفي كما هو موصوف بالإثبات. وصف الله بالإثبات كثيرًا في القرآن، ووصفه بالنفي أقل لكنه موجود، هذا النفي الذي وصف الله به نفسه هل هو نفي محض مُجرد؟ لا، بل هو نفي متضمن لثبوت، وهو كمال ضد ذلك الشيء، فإذا قال الله عن نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦] قلنا: لكمال عدله. وإذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] قلنا: لكمال مراقبته. وإذا قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] قلنا: لكمال قوته وقدرته، وهلمَّ جرًّا، لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي محض بل هو نفي متضمن لثبوت ضده على وجه الكمال، يقول العلماء رحمهم الله: ولا بد من هذا التقدير إثبات كمال الضد؛ لأن مجرد النفي إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه، وإن كان للعجز المنفي فهو نقص.

إن كان لعدم القابلية فلا مدح فيه، مثلًا لو قلنا: الجدار لا يظلم، الجدار لا يغدر بالوعد، هذا لغو، كل الناس يعرفون هذا، فما مثلك إلَّا مثل الذي قال: السماء فوقنا والأرض تحتنا، أو قال: كأننا حول المدرس طلبة يدرسون، فما الفائدة من هذا؟ فإذا كان غير قابل لهذا المنفي عنه فإن وصفَه به لغو لا فائدة منه، وإن كان هذا النفي لعجزه عن تحقيقه صار نقصًا، لو قلنا: إن الله لا يظلم لأنه لا يستطيع أن يظلم، لا شك أنه نقص، إذن فالقاعدة فيما وصف الله به من النفي أنه ليس نفيًا محضًا بل هو مُتضمن لإثبات الكمال، الكمال ضد ذلك النفي.

١٠- أن نفس الإنسان عنده أمانة يلحقها ظلمُه وغشمُه، ويلحقها بره وإحسانه، فيجب أن يرعى هذه الأمانه حقَّها، وإذا كان يجب على الإنسان أن يرعى الأمانة في ولده وأهله ففي نفسه من باب أولى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] هذه وصية منه تعالى لنا بأنفسنا وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فأوصانا الله بأولادنا وصية منه لنا بأولادنا، والولد بضعة من أبيه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٢]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾.

الخطاب بمثل هذا:

أولًا: تصديره بالنداء يدل على أهميته والتنبه له.

ثانيًا: توجيهه إلى المؤمنين له ثلاث فوائد:

الأولى: الإغراء على الامتثال كأنه يقول: إن كنت مؤمنًا فافعل كذا وكذا، إن كنت مؤمنًا فلا تفعل كذا وكذا، إن كنت مؤمنًا فصدق بالخبر، ففيه توجيه للمؤمنين وإغراء بالامتثال.

الثانية: أن امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يُخاطب الشخص بوصف ثم يوجه إليه حكم متعلق بهذا الوصف إِلَّا كان ذلك دليلًا على أن امتثال هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يصح أن توجه لفاسق كلمة تتعلق بالمؤمن.

الثالثة: أن الإخلال به نقص في الإيمان، إذا وجّه الله الخطاب للمؤمنين فهذا دليل على أن الإخلال به نقص في الإيمان، ثم إنه لابد أن يكون هناك فائدة عظيمة إذا وجه الله الخطاب للمؤمنين كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فأرعها سمعك يعني: استمع إليها، فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه[1].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ هذا نهي ﴿لَا﴾ ناهية ولهذا جزمت الفعل فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والمراد (بالبطانة): القوم المُقربون إلى الشخص، مأخوذ من بطانة الثوب؛ لأنها أقرب إلى البدن من ظهارته، فالثوب له بطانة وله ظهارة، البطانة أقرب، فالمعنى: لا تتخذوا قومًا مقربين إليكم تفضون إليهم بالأسرار وتخبرونهم بالأحوال وبما تريدون أن تقوموا به.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من غيركم كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] أي: من غيره. المراد بذلك: كل من يُغايرك في أمر من الأمور، وهذا يختلف، قد يكون في الدين مثلًا، وقد يكون في الدنيا، فإذا كان الأمر يتعلق بالدين فحينئذٍ لا نتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، لا نتخذ المنافقين أولياء من دون المؤمنين؛ لأنهم غيرنا، إذا كان يتعلق بتجارة فلا نتخذ أحدًا بطانة يخدعنا في تجارتنا؛ لأنه مغاير لنا في هذا الاتجاه، وهذه في الحقيقة قاعدة موجهة لكل مؤمن، وهي صالحة حتى للكفار مثلًا: لا يتخذ بطانة من دونه: أي: من غيره ممن يضره اتخاذه بطانة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

هذه أربع جمل ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ هذه واحدة ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ هذه الثانية ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ هذه الثالثة ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ هذه الرابعة. هذه الجمل هل هي أوصاف لبطانة يعني: بطانة متصفة بهذه الصفات، أو هي جُمل تعليلية للبطانة أى لاتتخذوا بطانةمن دونكم فإنهم لا يألونكم خبالًا ويودون ما عنتم ... إلخ؟، في هذا احتمالان: يحتمل أن هذه الجمل أوصاف، ويحتمل أنها جمل استئنافية مُعللة، لبيان التعليل أي: لا تتخذوا بطانة من دونكم؛ لأنهم لا يألونكم خبالًا ويودون ما عَنتُم ... إلى آخره، وعلى القول الأول يكون معنى الآية: لا تتخذوا بطانة من دونكم على هذا الوصف أي: بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا وودّوا ما عنتم ... إلى آخره.

فإن قلنا بأن هذه الجمل أوصاف فإن قوله ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يُعتبر وصفًا خامسًا؛ لأن (من دونكم) الجار والمجرور صفة لبطانة، وعليه فيكون نهي الله أن نتخذ بطانة مَنْ اتصفوا بهذه الصفات الخمس: أنهم من دوننا، أنهم لا يألوننا خبالًا، يودون ما عنتنا، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ «الألْيُ»: بمعنى بذل الجهد، أي: لا يألون جهدًا في خبالكم يعني: أنهم يبذلون كل جهد في خبالكم، والخبال هو الفساد في الرأي والعقل، ولهذا يقول الناس لرجل فاسد عقله ورأيه: إنه خِبَل، فمعنى لا يألونكم خبالًا أي: لا يألون جهدًا في خبالكم يبذلون كل جهد لفساد أموركم؛ لأنهم قوم ليسوا منكم وهم بعيدون عنكم، بطانة من دونكم.

وقوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ الود: خالص المحبة أي: أنهم يحبون بكل قلوبهم، قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: الذي شق عليكم، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: ودُّوا عنتكم، والعنت المشقة والشدة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي: ألحق بكم المشقة، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: ما شق عليكم، فالمعنى: أن هؤلاء البطانة لا يألون جهدًا في إفساد أمورنا، ويودون بكل قلوبهم العنت علينا والإشقاق والإتعاب، العنت الفكري والبدني والمالي، وكل شيء يمكن أن يلحقنا فيه مشقة فهؤلاء يودونه.

الوصف الثالث: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بدت: أي ظهرت و ﴿مِنْ﴾ لبيان محل البدو، فهي ابتدائية يعني ظهرت من أفواههم كأنها يريدون أن يكتموا هذه العداوة والبغضاء ولكنها تبدو لابد أن تفهم من أقوالهم وإن كانوا لا يريدون هذا، ولهذا لم يقل: قد أبدوا البغضاء من أفواههم بل قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ وهو دليل أنها جاءت فلتة من أفواههم وإلَّا فهم يتكتمون في البغضاء من أجل أن يتوصلوا إلى مآربهم في اتخاذهم بطانة، لكن لابد أن تبدو البغضاء من أفواههم.

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، أي: أكبر مما يبدو من أفواههم، أي: عندهم من البغضاء في القلوب أكثر بكثير مما تبديه الألسن، هؤلاء القوم المتصفون بهذه الصفات نهانا الله عزَّ وجلَّ أن نتخذهم بطانة، والنهي عن اتخاذهم بطانة يستلزم إبعادهم والحذر منهم وأن لا نركن إليهم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: أظهرناها حتى صارت بينة مثل فلق الصبح، والآيات هي: العلامات، وهل المُراد العلامات التي وصف بها هؤلاء أو هي أعم فتشمل جميع ما بيَّنه الله لنا؟ الأولَى أن نجعلها عامة، نقول: بيَّن الله لنا العلامات الدالة على الحق وعلى الباطل في هذه المسألة وفي غيرها، وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يدل على أن الله تعالى له عناية خاصة في المؤمنين يُبين لهم الآيات التي قد تخفى عليهم، بل هي خافية عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، يعني: أنه لا يظهر بياننا للآيات إلَّا لمن كان له عقل يعقل به نفسه وهواه، أما غير العاقل فإنه لا ينتفع لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] ويحتمل أن الشرط ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عائد على قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ والمعنى على هذا التقدير: إن كنتم تعقلون فلا تتخذوا بطانة من دونكم، أما على الأول فيكون التقدير: إن كنتم تعقلون فقد بيَّنا لكم الآيات فاعقلوها، ومرَّ علينا أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان فالأولى أن تحمل عليهما فيكون من العقل أن لا نتخذهم بطانة، ومن العقل أن نتبين ما بيَّنه الله لنا من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ قراءتان: المد ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أو القصر (هأنتم) وكلاهما قراءتان سبعيتان ينبغي للقارئ أن يقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، يعني بهذه أحيانًا وبهذه أحيانًا إلَّا أمام العامة، فأمام العامة لا ينبغي أن تقرأها إلَّا بقراءة المصحف الذي بين أيديهم؛ لأنك لو قرأت بغير قراءة المصحف الذي بين أيديهم اتهموك بالخطأ أو شككوا في القرآن. وربما - إن كانوا عامة دهماء - يضربونك يقولون: أنت غيَّرت كتاب الله؛ لأن العامة الدهماء لا يُميزون.

و(ها): قيل: إنها منقولة عن مكانها، وأن الأصل (أنتم هؤلاء) وقيل: بل هي للتنبيه وأنها في مكانها، ولأن التنبيه ينبغي أن يكون في أول الكلمات، فهي في مكانها. وقوله: ﴿أُوْلَآءِ﴾ مُنادى وأصله (يا هؤلاء) ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: تحبون هذه البطانة الذين لا يألونكم خبالًا، والذين ودُّوا ما عنتم، والذين قد بدت البغضاء من أفواههم، والذين ما تخفيه صدورهم أكبر، تحبونهم وذلك؛ لأن المؤمنين يغلب عليهم سلامة القلب وطهارته وعدم ظن السوء في غيرهم، وكان هؤلاء يتوددون إليهم ويدّعون أنهم يصلونهم فيحبهم المؤمنون بناء على تغريرهم بهم. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ يعني: وهم لا يحبونكم مع أنكم تحبونهم وكيف يحبوننا وقد بدت البغضاء من أفواههم؟ وقوله: ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ هذا معلوم لنا لكن ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ هذا غير معلوم، ولكن الله أعطانا له قرائن وهي ما تبديه أفواههم، فإذا كانوا لا يحبونكم فكيف تحبونهم؟ الإنسان العاقل الحازم هو الذي يُعامل من كانت هذه صفته بمثل ما كان عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾، الكتاب هنا اسم جنس يشمل جميع الكتب، تؤمنون بالكتاب القرآن، بالكتاب التوراة، بالكتاب الإنجيل، بالكتاب الزبور، بالكتاب صحف إبراهيم، تؤمنون بهذا كله وهم لا يؤمنون بذلك، مَنْ هؤلاء؟ يصدق هذا على اليهود والنصارى والمنافقين كلهم بهذا الوصف، لكن اليهود يدَّعون أنهم مؤمنون بالتوراة، والنصارى يدَّعون أنهم مؤمنون بالإنجيل، والمنافقون لا يؤمنون بشيء.

قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا ومُداهنة ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: وحدهم أو إلى شياطينهم.

قوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي: من شدة الغيظ، لكن من شدة الغيظ لما يرون من نعمة الله عليكم، أو من شدة الغيظ لعدم اتباعكم لهم، أو من الأمرين جميعًا؟

الجواب: من الأمرين جميعًا بل ربما نقول: يشمل ما ادعوه في أنهم أمضوا مع المسلمين وقتًا ولم يتمكنوا من نيل مآربهم.

وقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ الأنامل أي: أطراف الأصابع، وعضُّها يُعبر به عن شدة الندم والحزن، ويُعبر به عن شدة الغيظ أحيانًا، فالذي يتوعد غيره تجده يعض أنامله ويومئ برأسه من

الغيظ، والثاني انكسرت سيارته فعضَّ أنملته من شدة الندم، ولكن هنا بيَّن الله أنهم يعضون الأنامل من شدة الغيظ، يتمنى أن تكون أنت الذي بين أسنانه حتى يقضمك،قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ وهل الأنامل التي تعض طرف الأصابع أو وسط الأصابع؟ الظاهر أنها تختلف بحسب أعراف الناس. بعض الناس يعض الأعلى والآخر يعض الوسط، المهم كلها تنبئ عن شدة، إما شدة حزن أو شدة غيظ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾، ﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لمن يتأتى خطابه وهو الأقرب؛ لأنه كان يُخاطب المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني: قل يا أيها المؤمن لهؤلاء: موتوا بغيظكم، هذا الأمر بالإهانة وبيان عدم المبالاة بهم.

قوله: ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ الباء: قيل: إنها للغاية والمصاحبة أي: ابقوا على غيظكم إلى أن تموتوا، وقيل: إنها للسببية أي: موتوا بسبب غيظكم فإنه لا يهمنا، والثاني أقرب، فالأول دعاء عليهم ببقاء الغيظ إلى الموت، والثاني دعاء عليهم بتعجيل الموت بسبب الغيظ، فيكون هذا أقرب للصواب وأشد في التحدي والبُعد عنهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، الجملة استئنافية يبين الله تعالى فيها أنه عليم بذات الصدور أي: بصاحبة الصدور وهي القلوب؛ لأن القلوب هي محل العقل والإدراك والتدبير للجسد. وإنما قلنا: إن (ذات الصدور) هي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. والقلب هو محل العقل ومحل التدبير، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»[١]. وهي محل النية والإرادة؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[٢] إذن عليم بذات الصدور أي: بالقلوب، بصاحبة الصدور، هذا تفسير لفظي والمُراد القلوب.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾، الخطاب للمؤمنين، وهنا أتى بصيغة الجمع، وأتى بصيغة المفرد في قوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ وسبق أن جاء بصيغة الجمع، وهذا من التفنن في الخطاب، ومن فوائده الانتباه، أنَّ الإنسان إذا اختلف الأسلوب عنده انتبه وليس كما إذا كان الأسلوب على وتيرة واحدة. وقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الحسنة: أيها حسنة دنيوية أو دينية أو مالية أو أهلية بدنية شاملة، ووجه الشمول أن حسنة نكرة، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فأيُّ حسنة تصيب المؤمنين فإنها تسوؤهم؛ لأنهم أعداء سواء كانت هذه الحسنة في المال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

أو البدن أو الأهل أو للنصرة أو أي حسنة كانت، فإن هؤلاء تسوؤهم الحسنة إذا مستكم.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

السيئة: ما يسوؤكم، أي: أصابكم ما يسوؤكم في البدن أو الأهل أو المال أو الدين، قال تعالى: ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾، أي يلحقهم الفرح بسببها، في الحسنة قال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ وهنا يقول: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ في السيئة، فهل هذا من باب اختلاف التعبير أو هناك فرق معنوي؟ قال بعض العلماء: إن هذا من باب اختلاف التعبير، وأن المعنى في قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: إن تصبكم حسنة، قالوا: ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال بعض العلماء: بل بينهما فرق؛ لأن المسَّ أخف من الإصابة، وبنى على ذلك أنهم يُساؤون من الحسنة وإن كانت قليلة جدًّا ويفرحون بالسيئة إذا أصابت وأوجعت، وهذا الفرق بالنسبة لقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وجيه، لكن بالنسبة لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ لو قلنا بهذا الفرق لكان فرحهم بالسيئة لا يكون إلَّا إذا كانت شديدة، وهذا فيما يظهر خلاف حالهم، وبناءً على ذلك يترجح القول بأن «مسَّ وأصاب» بمعنى واحد، لكن اختلف التعبير لفائدة وهي التنبيه؛ لأنه إذا اختلف الأسلوب لابد أن يحدث للإنسان المُخاطب انتباه بخلاف ما إذا كان على وتيرة واحدة.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾، هل يدخل في ذلك هزيمتهم في الجهاد؟

نعم يدخل، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢ - ٧٣].

وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

إن تصبروا على ما ينالكم منهم، ومعلوم أن الصابر ينتظر الفرج. وتتقوا فيما تعاملونهم به؛ لأن الإنسان مُطالب بالنسبة لهؤلاء الكفار بأمرين: الأول: الصبر على ما فعلوا، والثاني: أن يتقي الله فيما يفعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ يعني: ولو آذوكم فلا يضركم، والكيد هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم بالأسباب الخفية، وهو بمعنى: المكر وبمعنى الخداع، وهو ثابت لله عزَّ وجلَّ أي أن الله يوصف بالمكر والخداع والكيد في مواطنها بخلاف الخيانة، فإن الله عزَّ وجلَّ لا يوصف بها؛ لأنها صفة ذم في كل حال، وفي قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ قراءتان: إحداهما (لا يَضُرُّكم) والثانية (لا يَضِرْكم) من الضَّير، والضَّير بمعنى: الضرر، وبمعنى الضيم فهو ضرر بضيم، ومنه ما جاء في حديث رؤية الله تعالى حيث قال ﷺ: «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ

لَيْلَةَ الْبَدْرِ لا تَضَارُونَ وَلَا تُضَارُّونَ»[1] أي: لا يلحقكم ضير، فتكون القراءتان كل واحدة منهما أفادت معنى غير الأخرى؛ لأن مُطلق الضرر دون مُطلق الضير، فالضير أشد، فهم لا يلحقونا بضرر ولا بضير.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النفي فتكون عامة، يعني أيّ شيء يكون. ولكن يلحقهم من ذلك أذى؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] ولكن لا يلزم من الأذى الضرر؛ ولهذا قال تعالى في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي)[2]، وأثبت أن بني آدم يؤذونه فقال: (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهر)[3]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، الإحاطة هنا: إحاطة العلم والقدرة والسلطان، فهو محيطٌ بهم كإحاطة السور بمن في داخله، أي: لا يتمكنون أن يفروا من قضاء الله عزَّ وجلَّ وعلمه وسلطانه وقدرته، وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (ما) هذه موصولة فتفيد العموم، والعائد: محذوف أي: بما يعملونه محيط.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

من هذه الآية إلى قُرَيْبِ آخر السورة كله في غزوة أُحد وما يتعلق بها، فقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ إذ: ظرف، عاملها محذوف تقديره: اذكر إذ غدوت، «وغدوت»: بمعنى: خرجت غُدوة أي: في أول النهار كما كان الأمر كذلك، فإن النبي ﷺ خرج إلى غزوة أُحد في أول يوم السبت الحادي عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وفي هذا اليوم غدا الرسول الكريم من أهله.

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ من: ابتدائية أي: أن مبتدأ هذه الغدوة من أهله، من المدينة خرج النبي ﷺ غاديًا إلى أُحد بعد أن استشار الصحابة ﭫ هل يخرج أو لا؟

وسبب هذه الغزوة أن قريشًا لما قُتل من صناديدهم من قُتل في بدر، سبعون رجلًا من كُبرائهم، وأُسر منهم سبعون رجلًا، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ، فخرجوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يريدون قتاله، وكانوا ثلاثة آلاف معهم العُدَّة الكثيرة يُريدون النبي ﷺ؛ ليقضوا عليه، فعسكروا حول المدينة، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ استشار الصحابة هل يخرج إليهم أو لا؟ أما شباب الصحابة الذين لم يحضروا بدرًا فأشاروا على النبي ﷺ أن يخرج وقالوا: نخرج نقاتلهم، وأما بعض الصحابة فسكتوا، وأما المنافقون فقالوا: لا نخرج إليهم بل ندعهم فإن بقوا بقوا على

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٦٣٣).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧)..
(٣) تقدم تخريجه.

شر حال، وإن ملُّوا رجعوا إلى مكة، وإن دخلوا المدينة نقاتلهم نحن بالسيوف ويُقاتلهم النساء والصبيان بالحجارة من على السطوح، كذلك قال المنافقون لا نُصحًا لله ورسوله ولكن جُبنًا وخورًا وخداعًا وغشًّا، فدخل النبي ﷺ بيته ولبس لأمة الحرب وتهيأ عليه الصلاة والسلام، فقال بعض الصحابة: لعلنا استكرَهنا رسول الله ﷺ على الخروج يعني: ندموا، قالوا: ليتنا لم نتكلم بهذا، فلما خرج ولبس لأمة الحرب – وهو ما يوضع على الرأس – وتهيأ قالوا: يا رسول الله، إن شئت أن لا نخرج فعلنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَا كَانَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ»(١). فمضى وخرج من المدينة ومعه ألف مُقاتل، وفي أثناء الطريق رجع عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين بنحو ثُلث الجيش وقالوا: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فانخذلوا ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بثباتهم وإيمانهم لم يضرهم ذلك شيئًا، واستمروا حتى نزلوا أُحدًا، ولما نزلوا عبَّأهم النبي ﷺ أحسن تعبئة ورتَّبهم واختار منهم خمسين رجلًا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم، جعلهم في سفح الجبل على شُعبة منه قال: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، فبقوا يحمون ظهور المسلمين، فحصل القتال في أول النهار وكانت الدائرة على المشركين فتولوا الأدبار فجعل المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى أهل الجبل حال المسلمين وأن المشركين قد ولّوا الأدبار وصار المسلمون يجمعون الغنائم قالوا: ننزل لنساعد إخواننا في جمع الغنائم فقد انتهت الحرب، فذكَّرهم أميرهم بقول رسول الله ﷺ: لا تبرحوا مكانكم سواء كانت لنا أم علينا، ولكنهم أصروا إلَّا أن ينزلوا، فنزلوا، فلما رأى فرسان قريش أن الثغر خالٍ وليس هناك أحد يحمي المسلمين من ورائهم كروا عليهم بخيولهم من خلفهم ودخلوا، وكان على رأسهم قائدان عظيمان هما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قبل إسلامهما رضي الله عنهما، فاختلط الناس بالمسلمين من ورائهم وحصل ما قضى الله وأراد؛ لحكمةٍ عظيمة، وقُتل من المسلمين سبعون رجلًا وجُرح النبي عليه السلام، وكُسرت رُباعيته، وشُجَّ وجهه حتى كانت ابنته فاطمة تأتي بالحصير تحرقه وتذر رماده على جُرح النبي ﷺ ولكن الدم يندفع(٢)، وحصل من الابتلاء والامتحان ما الله قد قضاه وقدّره؛ لحكمةٍ عظيمة حتى يعلم الناس أن الله تعالى له الحكم وإليه المُنتهى، وحتى يعلم الناس أنه لا نصر مع المعاصي أبدًا. هم عصوا النبي عليه الصلاة والسلام شرعًا وفرَّطوا فيما يلزمهم قدرًا، كيف ذلك؟ عصوا النبي ﷺ؛ لأنه قال لهم: لا تبرحوا مكانكم، وتركوا ما يلزمهم قدرًا وهو حماية المسلمين من خلفهم؛ لأن هذا من الأسباب النافعة، وترك الأسباب النافعة سفه في العقل ونقص في الدين؛ لأن الله تعالى أمر بأن نأخذ

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٥١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٧٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠).

بالأسباب وأعظمها التوكل على الله، ولكن لابد من أن نفعل الأسباب الحسية المادية، فهم رضي الله عنهم وعفا الله عنهم حصل منهم ما حصل فصارت النكبة العظيمة، الشهداء رضي الله عنهم حملهم أهلهم إلى المدينة؛ ليدفنوهم في البقيع، ولكن النبي ﷺ أمر أن يُردوا إلى مصارعهم، ويُدفنوا هناك في أحد ففعلوا، والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن المقتول في سبيل الله يُبعث يوم القيامة وجُرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك[1]، ولا يُغسَّل لئلا يزول هذا الدم من على جسده، ولا يُكفَّن وإنما يُدفن في ثيابه التي قُتل فيها، كل هذا من أجل أن يتحقق خروجه يوم القيامة من المكان الذي صُرع فيه وعلى الهيئة التي صُرع عليها.

المهم أن الله تعالى يُذكِّر نبيه عليه الصلاة والسلام بهذه الغزوة العظيمة التي فيها من الأسرار والحكم ما يتبين به أن ذلك هو عين الصواب وعين الخيرة للمؤمنين، وقد ذكر الحافظ ابن القيم - رحمة الله عليه - في كتابه «زاد المعاد»[2] من الحكم في هذه الغزوة ما لا تجده في أي كتاب آخر، فتحسن مراجعته فإنه مفيد.

يقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

«تبوئ» هذه الجملة حالية يعني: حال كونك تبوئ، ومعنى تبوئ يعني: تنزل، والتبوؤ: معناه: النزول كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[3] أي: فليُنزل نفسه مقعدًا من النار، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] أي: نزلوها.

قال: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، المؤمن هو: المُقر بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، وفي هذه شهادة من الله عزَّ وجلَّ أيما شهادة على أن هؤلاء الذين شهدوا هذه المعركة مؤمنون. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ الله أكبر، مقاعد للقتال أي: يثبتون ويقعدون كثبوت القاعد؛ ولهذا قال: ﴿مَقَاعِدَ﴾ ولم يقل منازل من أجل أن تكون هذه الأماكن التي بوؤوها مكانًا ثابتًا كثبات القاعد في مجلسه، وليس المعنى أن الرسول ﷺ جعل لهم هذه المنازل وقال: اجلسوا. بل هم يتكيفون كما يُناسب مصلحة الحرب لكنها سُميت مقاعد من أجل الثبات فيها. ﴿لِلْقِتَالِ﴾. يعني: لقتال الأعداء، وتعلمون أن المقاتل لن يبقى في مكانه دائمًا إنما يكرُّ ويفرُّ حسب ما تقتضيه المصلحة.

قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: سميع لما تقول لهم، «عليم» بأحوالهم. وقد نقول: إنَّ كلمة «سميع» أعم من كونها لما يقول لهم حين ترتيبهم وتبوئهم، فتكون أشمل، وهذا هو الأحسن؛ لأنه كلما كان اللفظ شاملًا كان أحسن وأعم، «عليم» أي: عليم بما يحدث من قول وفعل وحال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٠٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ١٩٦).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٦١). و مسلم (٣).

وحاضر ومستقبل.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾:

﴿إِذْ﴾ قال المفسرون أو المُعربون: إنها بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، يعني يكون التقدير على هذا: (اذكر إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا).

﴿هَمَّت﴾ الهَمُّ: يُطلق على مجرد حديث النفس، ويُطلق الهَمُّ على العزم، يعني: أن الإنسان قد يهم ويحدث نفسه هل يفعل أو لا يفعل، يُقال: هذا «هَمّ» ويُطلق على العزم المصمم الذي ينفذ إن لم يوجد مانع، وهنا الطائفتان وهما: بنو سلمة وبنو حارثة، همّوا أن يفشلوا، والفشل هنا بمعنى: الجبن والخوف، يعني: أن هاتين الطائفتين وقعتا في الهم بالانهزام، وسببه ما جرى من المنافق عبد الله بن أُبي بن سلول الذي انخذل بنحو ثلث الجيش، وتعرفون أنه إذا انخذل ثلث الجيش فإن هذه ثُلمة كبيرة في الجيش، فهاتان القبيلتان همّتا أن تفشلا، أن تجبُنا وترجعا ولكن الله تعالى ثبّتهما؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فثبتهما سبحانه وتعالى فلم تفعلا ما عزمتا عليه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ هذه ولاية خاصة، وولاية الله تعالى تنقسم: إلى عامة وخاصة، فالولاية بمعنى التدبير للشؤون: ولاية عامة، والتي بمعنى العناية أي: تقتضي العناية: ولاية خاصة؛ لأن الإنسان إذا همَّ بالمعصية أو بالذنب ثم حصل له من عند الله ما يمنعه منه فهذه ولاية خاصة من الله لا شك، فكثير ما يهمُّ الإنسان بالذنب أو بترك الواجب يعني: بالذنب من فعل المعصية أو ترك واجب فيجد في قلبه إذا هَمَّ بالمحرم انحلالًا عن هذه الهمة وعدولًا عنها، هذه ولاية من الله، وأحيانًا يهم بترك الواجب فيُقيِّض الله له مَنْ يُعينه عليه حتى يفعل، هذه أيضًا ولاية خاصة، فهاتان القبيلتان لمّا همتا تولاهما الله عزَّ وجلَّ بعنايته فلم تفشلا وبقيتا مع الجيش، وكان بعض هاتين الطائفتين يقول فرحًا لقد كان من حظهم أن الله أخبر عنهم بهذا الخبر؛ لأنه أخبر بأنهما همّتا أن تفشلا، وأخبر بخبر آخر سارٍّ ومنقبة لهما وهو أن الله وليهما.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

«على الله» مُتعلقة بـ «يتوكل» وقُدمت لإفادة الحصر أي: على الله لا على غيره فليتوكل، والتوكل: قال أهل العلم: هو صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به وفعل الأسباب التي أمر بها، هذا التعريف طويل ولكنه جامع، إذن لا يكفي أن تصدق الاعتماد على الله حتى يكون في قلبك ثقة بأن الله سيعينك ويكفيك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ولا يكفي أيضًا أن تعتمد على الله وتثق به حتى تفعل الأسباب التي أمر بها؛ لأنك إن لم تفعل الأسباب التي أمر بها كنت متواكلًا لا متوكلًا، ويُذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: إن قومًا من أهل اليمن جاؤوا حجاجًا وليس معهم زاد فقالوا: نحن المتوكلون. فقال: إنهم ليسوا بمتوكلين ولكنهم متواكلون، بمعنى أنهم مُفرطون مهملون، فلو أن

أحدًا قال: سأعتمد على الله تعالى في جلب الرزق وهو قادر على فعل الأسباب ولكن لم يفعل قلنا: أنت مهمل متواكل، افعل السبب: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [المُلك: ١٥]، قد يقول: ربما يموت قريب لي فأرثه فهذا من رزق الله، فنقول: فإذا لم يمت تقتله؟! نعوذ بالله ولو قتله؛ ليأخذ ماله حُرِمَ من الميراث؛ لأن القاتل عمدًا لا يرث، فالحاصل أنه لابد لصحة التوكل من فعل الأسباب التي أمر الله بها، أما الأسباب التي لم يأمر الله بها فإنه لا يجوز للإنسان أن يتعاطاها.

وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر المؤمنين أن يتوكلوا على الله؛ لأنه لا يمكن أن يُحقق التوكل إلَّا المؤمن، فالتوكل من مُقتضيات الإيمان، والإيمان الحقيقي من أسباب التوكل على الله.

من فوائد الآيات الكريمة:

من فوائد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾.

١ - تحريم اتخاذ البطانة التي ليست مِنَّا؛ لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ والأصل في النهي التحريم.

٢ - أن هذا التحذير ليس خاصًّا بولاة الأمور، بل كل إنسان لا يجوز له أن يتخذ بطانة من دونه حتى الواحد الفرد، بمعنى أنها ليست على طريقه ولا على منهاجه، فلو أن رجلًا مسلمًا صَادَقَ كافرًا واتخذه بطانةً يُسِرُّ إليه بالأمور لقلنا: إن هذا حرام عليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

٣ - أن تجنب البطانة السيئة من مقتضيات الإيمان؛ لأن الخطاب وُجِّه إلى المؤمنين.

٤ - أن اتخاذ بطانة السوء من نواقص الإيمان بناءً على القاعدة التي أصَّلناها فيما سبق وهي: أن ما كان الإيمان مقتضيًا له فإن فواته يكون نقصًا في الإيمان، ولكن هل يكون من نواقض الإيمان؟ ربما يكون، لو اتخذ هذه البطانة فيما يخرج من الإسلام.

٥ - أن الذين من دوننا لا يألوننا خبالًا، وهذا بناءً على أن الجملة استئنافية للتعليل، وقد مرَّ بنا في التفسير أن من العلماء من قال: إنها صفة لما قبلها، وأن الذين من دوننا إذا كانوا لا يألوننا خبالًا فلا بأس أن نتخذهم بطانة، ولكن الظاهر الأول أن الجملة استئنافية للتعليل يعني أن الذين من دوننا لا يألوننا خبالًا. ولنضرب لذلك مثلًا بالمؤمنين يتخذون البطانة من الكافرين، فإن الكفار لا شك أنهم لا يقصرون في طلب الخبال لنا. يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليه أبو موسى رضي الله عنه يريد منه أن يولي كاتبًا نصرانيًّا على بيت المال لأنه - أي هذا الكاتب النصراني - كان جيدًا في الحساب، فكتب إليه عمر أن لا تفعل وأمره بعزله، فأعاد عليه مرة ثانية يطلب منه أن يبقيه كاتبًا، فكتب إليه عمر (مات النصراني والسلام) المعنى: إذا مات هل معناه أن يتعطل بيت المال أو حساب بيت المال، أي: قدِّر أنه مات. أما أن نأتمنه على بيت مال المسلمين وقد خان الله

ورسوله فلا يمكن. وبه نعرف أنه لا يجوز أن يولى أعداؤنا من الكفار أو غير الكفار أسرار أمورنا؛ لأننا إذا وليناهم أسرار أمورنا فقد اتخذناهم بطانة.

٦ - بيان عناية الله تعالى بعباده المؤمنين حيث حذرهم إلى أمور قد تخفى عليهم وذلك باتخاذ البطانات السيئة.

٧ - أن أعداءنا يودون لنا ما يشق علينا؛ لقوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وهنا سؤال: هل يودون ما يشق علينا في الدنيا أو الدين؟

الجواب: يشمل الأمرين فيودون ما يُدمِّر جيوشنا، ويودون ما يُدمِّر اقتصادنا، ويودون ما يُدمِّر معارفنا، ويودون ما يدمر ديننا. والظاهر عندي - والله أعلم - أن أهم شيء لديهم هو: تدمير الدين؛ لأنهم يعلمون أن ديننا إذا قوي صار فيه تدمير لهم، لكن اقتصادنا إذا قوي لا يكون فيه تدمير لهم؛ لأنهم هم أقوى منا اقتصادًا وأقوى منا جيوشًا، وأقوى منا عدة في الوقت الحاضر، لكن الدين هو الذي يُدمرهم؛ ولذلك نقول: إن كل ما يشق علينا في أمر الدين والدنيا يتطلبونه، يريدون أن يُضايقونا في الدين بقدر ما يستطيعون، يودون أن يُضايقونا في الاقتصاد بقدر ما يستطيعون، يودون أن يُضايقونا في السلاح بقدر ما يستطيعون، يرسلون لنا من الأسلحة ما عفا عليها الزمن، من الأسلحة التي زالت منفعتها في الوقت الحاضر، وصارت بالنسبة لأسلحة الوقت الحاضر كالسكين أو الهراوة بالنسبة للأسلحة، يعني ليس فيها فائدة، هم يريدون أن يكملوا اقتصادهم وأن يشغلوا مصانعهم ولا يهمهم أن ننتفع.

٨ - أن أعداءنا إذا تأمل الإنسان أحوالهم وجد من أفواههم ريح البغضاء؛ لقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بما يتكلمون به، وربما تبدو البغضاء من أفعالهم أحيانًا بالمضايقة، فهم أحيانًا يُبدونها من أفواههم، وأحيانًا من أفعالهم بالتهديد الفعلي لا القولي ونحو ذلك.

٩ - أن ما في قلوب الأعداء من العداوة والبغضاء والحقد والحنق أكثر مما يبدو، وهذا أمر لا يطلع عليه إِلَّا الله وهو الذي أخبرنا بذلك في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أكبر مما تبديه أفواههم.

١٠- بيان الأوصاف الذاتية أو الفعلية تتفاضل؛ لقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ وهو قد تكلم عن البغضاء، والبغضاء وصف في القلب ذاتي لا يمكن للإنسان أن يعرفه إِلَّا بآثاره، فهنا بيّن أن البغضاء متفاوتة وكذلك المحبة متفاوتة، ولا شك في المحبة أنها متفاوتة؛ لأنها جاءت في القرآن والسُّنة في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]. والبغضاء أيضًا تتفاوت بعضها أعظم من بعض.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٥)، و مسلم (٤٤).

١١- مِنَّة الله تعالى علينا ببيان آياته؛ لقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ والآيات التي بيَّنها الله قسمان: آيات كونية وآيات شرعية، وبيانه لها إما بالمشاهدات الحسية وإما بالتأملات العقلية، فالآيات الشرعية تكون بالتأملات العقلية، والآيات الكونية تكون بالمشاهدات الحسية التي قد تكون طريقًا إلى التأملات العقلية أيضًا.

١٢- أنه كلما كان الإنسان أشد عقلًا أو أقوى عقلًا كان أفهم لآيات الله، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أنه كلما كان الإنسان أعقل كانت الآيات له أبين وأظهر.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾:

١ - بيان علم الله تعالى بما في القلوب؛ لقوله: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ لأن المحبة والكراهة من أعمال القلوب، ولا يطلع عليها إلَّا الله تعالى لكن لها آثار تدل عليها.

٢ - التحذير ممن يُبدي أنه ناصح لك وقلبه كاره لك؛ لأن المقصود من هذا قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ إلى آخر التحذير من هؤلاء، فلا تغتر بمن ظاهر حاله النصح بل قس الأمور بالأفعال؛ لأن الأفعال هي التي تبين حقيقة الأمر، فكم من إنسان يقول لك قولًا وهو على خلاف ما يقول لك ولكن الأفعال هي التي تُبيِّن.

٣ - أن هذه الأمة الإسلامية تؤمن بجميع الكتب؛ لقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أما اليهود فيكفرون بالإنجيل ويكفرون بالقرآن، وأما النصارى فيكفرون بالقرآن، ومع ذلك هم كفار؛ لأن من كفر بكتاب مما أنزله الله فهو كافر بجميع الكتب، وقد مرَّ علينا تقرير هذا مرارًا، وأن من آمن ببعض الرسل دون بعض فقد كفر بالجميع، وأن من كفر ببعض الرسل دون بعض فقد كفر بالجميع، وكذلك من كفر ببعض الشريعة فقد كفر بالشريعة كلها؛ لأن الشريعة واحدة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

٤ - أن هؤلاء يُخادعون المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

٥ - أن العبرة بالأفعال لا بالأقوال؛ لقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: أنهم من شدة غيظهم يعضون أناملهم كأنكم أنتم الذين بين أضراسهم ليمضغوكم مضغًا من شدة الغيظ والحنق؛ ولهذا تجد الناس حتى الآن إذا أراد شخص أن يتوعد إنسانًا أخذ يهز برأسه وهو عاض إصبعه لشدة غيظه.

٦ - إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ لأن (من) للسببية أي: بسبب الغيظ، وإثبات الأسباب شيء معلوم ظاهر، ولو تأملت لوجدت أن كل مسبب له سبب قطعًا، وأن جميع الأشياء يجعل الله لها أسبابًا تحصل بها.

٧ - أنه ينبغي للمسلم أن يكون قويًا صارمًا أمام أعدائه؛ لقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

٨ - إثبات علم الله لما في القلوب على وجهٍ صريح؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ودلالة هذه الجملة على علم الله بما في القلوب دلالة مُطابقة، ودلالة قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ دلالة التزام.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

١ - أن العدو إذا أصابت عدوه حسنة ساءته، وإذا أصابته سيئة فرح بها، وقد جعل الفقهاء رحمهم الله هذا ضابطًا في العداوة حينما تكلموا في باب الشهادات على أن العدو لا تقبل شهادته على عدوه، قالوا في ضابط العدو: هو من سرَّه مساءتك وساءه مسرتك، مأخوذ من هذه الآية.

٢ - بيان أن العدو مهما أظهر لك من الصداقة فإنه كاذب؛ لأن الذي يسوؤه حسنتك لا شك أنه ليس بصديق، والذي يفرح بمصيبتك لا شك أيضًا أنه ليس بصديق وإن تَظَاهَرَ بالصداقة.

٣ - بيان شدة عداوة هؤلاء للمؤمنين الذين اتخذوهم بطانة؛ فكيف تتخذونهم بطانة وهم يساؤون بما يسركم، ويسرون بما يسؤوكم؟

٤ - التحذير من تولية اليهود والنصارى لأمور المسلمين القيادية كأن يجعلوهم مُدراء أو وزراء أو ما أشبه ذلك؛ لأنهم لا يألوننا خبالًا ويُسرون بما يسوؤنا، ويساؤون بما يسرنا، فكيف نتخذهم بطانة نوليهم أمورنا القيادية من إدارة أو رئاسة أو غيرها؟

٥ - أن أعداءنا لا يألون جهدًا في الكيد لنا، ولكن نداوي هذا بالصبر والتقوى، بالصبر على كل ما يجب الصبر عليه من أمور فنقوم بها، أو نواهٍ فنتركها، أو سياسات فنتبعها، ونكون ثابتين على مبدأ وليس كل يوم لنا سياسة بل نكون ثابتين على مبدأ معين نصبر عليه.

٦ - أن الصبر والتقوى يدفع الأعداء؛ لقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وما فعلوه علنًا إن صبرنا واتقينا لا يضرنا من باب أولى؛ لأن الكيد الذي يكون بالمكر والخديعة إذا كان لا يضرنا مع الصبر والتقوى فما كان ظاهرًا بيِّنًا فهو من باب أولى.

٧ - إحاطة الله سبحانه وتعالى بعمل هؤلاء في كل شيء، في العلم والتدبير وإحباط أعمالهم وتدميرهم وغير ذلك، فالله مُحيطٌ بهم من كل وجه، ولكن قد يبتلي الله بهؤلاء الأعداء ويحصل من كيدهم ما يضر لفوائد كثيرة، منها أن ينال المسلمون الصبر على المؤذي، وأن يرجعوا إلى الله عزَّ وجلَّ فيُقيموا الدين.

٨ - أن العدو يطغى ويرتفع ويعلو، فإذا بلغ القمة في العلو رمى به الله سبحانه وتعالى إلى السفل؛ فيكون نزوله من العلو إلى السفل أشد من نزوله أثناء الطريق، ولهذا الذي يسقط من السقف يكون أشد ممن لو سقط من أثناء الدرج، فالله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يتمادى

في ظلمه وطغيانه، حتى إذا ظن أنه بلغ القمة حطَّ به إلى أسفل السافلين، فصار ذلك أشد وأعظم، وقد نبَّه الله تعالى على ذلك في سورة آل عمران فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. مع أنه في ذلك الوقت كان الظفر للمشركين في أُحد لكن جعل الله ذلك سببًا لمحقهم؛ لأنهم إذا شموا رائحة النصر ازدادوا في طغيانهم وقووا، ثم تكون النكبة.

٩ - أنه يجب على الإنسان أن ينتظر نصر الله عزَّ وجلَّ، وأن يثق بوعده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: فلا تظنوا أن أمرهم هذا كائن بدون قدرة الله عليه، ولكن الله تعالى قادر عليه ومحيط به.

ومن فوائد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١ - أن الرسول ﷺ خرج من المدينة في أول النهار؛ لقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في الغداة وهي أول النهار.

٢ - حُسن تدبير رسول الله ﷺ في الحرب؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

٣ - أنه ينبغي للقائد أن يبوئ أمكنة المقاتلين ويعرّف كل واحد منهم مكانه وعمله حتى لا يحصل ازدواج يضر بالجيش، كل واحد يرتبه على حسب ما يليق به ويقول: اجلس مكانك، وهذا عملك واستمر عليه؛ لأن في النظام و لا سيما في مثل هذه المواقف فائدة كبيرة، بل إن النظام مطلوب حتى في أعمالك اليومية في نفسك، فكيف بهذه الأعمال الكبيرة؟!.

٤ - شهادة الله سبحانه وتعالى للذين خرجوا في أُحد بأنهم مؤمنون؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؛ لأن المنافقين انخذلوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال فقد رجعوا في أثناء السير.

٥ - إثبات هذين الاسمين لله وهما السميع والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بما هو أعم، بما يُدرك بالسمع وما يدرك بالبصر وغير ذلك، بالعليم هو من أوسع الأسماء دلالة.

ومن فوائد قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

١ - في هذه الآية دليل على أن طائفتين من المؤمنين همّتا بالفشل ولكن الله ثبّتهما، همّتا بالفشل أن يرجعا كما رجع المنافقون.

٢ - أن الدعاية ولو كانت باطلة ربما تؤثر حتى على المؤمن.

٣ - أن الله سبحانه وتعالى قد يلطف بالمؤمن حتى يُثبته على الحق؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

٤ - منّة الله على هاتين الطائفتين حيث إن الله كان وليًّا لهما؛ ولهذا فرحت الطائفتان بهذه الولاية.

٥ - وجوب التوكل على الله وأنه من مقتضى الإيمان؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٦ - أنه ينبغي للإنسان أن يتوكل على الله ولاسيما في هذه المواطن التي يشتد فيها الأمر على المسلم، بل على المؤمن أن لا ينظر إلى الأمور نظرًا ماديًا؛ لأن وراء الأمور المادية ما هو أعظم منها، وهي قدرة الله سبحانه وتعالى التي تقضي على كل هذه الأمور المادية قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٧ - أنه إذا قوي الإيمان، قوي التوكل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بناءً على قاعدة معروفة وهي أن ما عُلِّق على وصف يقوى بقوّته، ويضعف بضعفه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

التفسير

يقول الله عزَّ وجلَّ مبينًا نعمته على النبي ﷺ وأصحابه بل وعلى الأمة جمعاء؛ لأن انتصار النبي ﷺ وأصحابه انتصار لجميع الأمة إلى يوم القيامة، بل إن انتصار الرسل السابقين انتصار للمؤمنين إلى يوم القيامة؛ ولهذا صام النبي ﷺ عاشوراء شكرًا لله على نعمته بإنقاذ موسى وقومه وإهلاك فرعون وقومه، وقال لليهود: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنكُم»(١).

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ والجملة هذه مؤكدة بأمورٍ ثلاثة:

الأول: القسم المُقدر.

الثاني: اللام.

والثالث: قد.؛ لأن التقدير (والله لقد نصركم الله) والنصر هو أن يجعل الغلبة لهؤلاء على هؤلاء، فمن جعل الله لهم الغلبة فقد نصرهم، وللنصر أسباب خمسة:

أولًا: الإخلاص لله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

والثاني: إقامة الصلاة.

والثالث: إيتاء الزكاة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٩٧)، و مسلم (١١٣٠).

والرابع: الأمر بالمعروف.

والخامس: النهي عن المنكر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠،٤١].

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ﴾ الباء هنا بمعنى: (في) فهي للظرفية، ولا غرابة أن تأتي الباء للظرفية كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِ﴾ [الصافات: ١٣٨] يعني: (في الليل).

و (بدر) مكان معروف، ولا يزال حتى الآن معروفًا بين مكة والمدينة، وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما سمع بِعِيرٍ لقريش قدمت من الشام ندب أصحابه إلى الخروج إليها لأخذها؛ لأن قريشًا أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم وأموالهم وهم حرب على رسول الله ﷺ؛ فكانت أموالهم حلًا للرسول ﷺ، فندب أصحابه أن يخرجوا إليهم فخرجوا في عدد قليل وعدة ضعيفة، خرجوا نحو ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلًا على سبعين بعيرًا وفرسين فقط يتعاقبونها، الرجلان على بعير والثلاثة على بعير، على أنهم يُريدون العير، ولكنَّ أبا سفيان وهو أمير العير أخذ نحو الساحل، ساحل البحر لا على الطريق المعروف، وأرسل صارخًا إلى أهل مكة يستنجدهم لحماية عيرهم، ثم لما نجا أرسل إليهم أنه نجت العير ولكنهم كانوا قد تأهبوا للخروج لمحاربة النبي ﷺ فخرجوا بكبرائهم وزعمائهم على الوصف الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ، خرجوا بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله وقال لهم الشيطان: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم، ولكنه خانهم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، خرجوا ما بين ألف وتسعمائة ومعهم النساء؛ لأجل أن يشتد قتالهم خوفًا على نسائهم؛ وجعلوهن بالخلف فحصلت المعركة بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المشركين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في قلة عَدَد وعُدَد ولكن الله تعالى نصرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ أذلة جمع ذليل كأعزة جمع عزيز، أذلة من ناحية العَدَد ومن ناحية العُدَد، فثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا بالنسبة لتسعمائة إلى ألف يعني أقل من الثلث، والذي معهم من العدة ليس بشيء، سبعون بعيرًا وفَرسان ولكن الله نصرهم سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ اتقوا الله، هذه الفاء للتفريع يعني: بهذا النصر الذي نصركم الله يجب عليكم أن تتقوا الله، وإلَّا تجعلوا النصر سببًا للأشر والبطر كما يفعله من ليس عنده إيمان إذا انتصر على عدوه جعل هذا سببًا للأشر والبطر، ودخل البلد وهو يُغني ويطرب، كما ذُكر عن بعض مُذيعي العرب أيام حربهم مع اليهود يقول: غدًا تُغنَّى الأغاني في تل أبيب! فهل هذا جزاء وشكر النعمة؟!

أما الرسول ﷺ فإنه دخل مكة عام الفتح وهو من أعظم الانتصارات مُطأطئًا رأسه خاضعًا لله سبحانه وتعالى مُتقيًا الله، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأنك إذا فعلت الأوامر وتركت النواهي فقد أخذت بالوقاية من عذاب الله تعالى.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لعلَّ) هنا: للتعليل أي: لأجل أن تنالوا شكر الله، فالتقوى في الحقيقة هي الشكر لله عزَّ وجل أي: من أجل أن تنالوا درجة الشاكرين. وشكر النعمة يكون بالقلب واللسان والجوارح:

أما شكر القلب: فبأن تعتقد أن هذه النعم من الله فضلًا منه ومِنَّة، وأنه ليس لك منها إِلَّا فعل السبب الذي أذن لك فيه، وأما حقيقتها فهي من الله، تؤمن بذلك ولا تكون كما قال القائل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، بل قل: أوتيته بفضل الله ورحمته حتى وإن كان من عملك، أما إن كان من فعل الله فهو واضح بأن كل إنسان ينسبه إلى الله، ومع ذلك من الناس مَنْ لا ينسب ما كان من فعل الله إلى الله، إذا حصل المطر يقول: مُطرنا بنوء كذا وكذا، ولهذا قال زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: صلى بنا رسول الله ﷺ في الحديبية على إثر سماء كانت من الليل أي: على إثر مطر، فلما انصرف أقبل إلينا فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِه فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(١).

إذن لابد أن تعتقد في قلبك أن النعمة من الله تعالى، وأن ما يحصل منك في جلب هذه النعمة إنما هو سبب مأذون فيه من الله عزّ وجل.

وأما شكر اللسان: فهو أن تُثني بها على الله لا أن تقولها فخرًا على عباد الله، بل تُثني فتقول: الحمد لله الذي أعطاني كذا وكذا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[الضُّحى:١١].

وأما شكر الجوارح: فهو أن تعمل بجوارحك بطاعة الله ولاسيما فيما يتعلق بهذه النعمة بخصوصها، فليس من الشكر إذا رزقك الله مالًا أن تشتري به محرَّمًا من المحرمات؛ لأن هذا استعانة بنعمة الله على معصية الله، وليس من الشكر، بل الشكر أن تجعل النعمة مُعِينَة لك على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وقد قال أحد الشعراء:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الـمُحَجَّبَا

يدي: الجوارح، ولساني: القول بالثناء على الله بالنعمة، والضمير المُحجبا: الاعتقاد.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، و مسلم (٧١).

من فوائد الآية الكريمة:

١ - امتنان الله سبحانه وتعالى على رسول الله ﷺ وأصحابه بنصرهم في بدر، والنصر لهم نصر للأمة إلى يوم القيامة.

٢ - أن الإنسان بغير نصر الله لا يستطيع أن ينتصر؛ لأنه إذا كان جند الله الذين هم أعظم جند كان على وجه الأرض وهم رسول الله ﷺ ومن معه لم ينتصروا بأنفسهم وإنما انتصروا بنصر الله؛ فَمَنْ سواهم من باب أولى؟ ويتفرع على هذه الفائدة: أننا لا نعلق النصر إلَّا بالله سبحانه وتعالى، لا نعلق النصر بقوتنا ولا بقوة مُساندة لنا، وإنما نُعلق النصر بالله وحده، ونجعل هذه الأشياء المادية التي يكون بها النصر نجعلها أسبابًا قد تتخلف عنها مُسبباتها؛ لأن النصر يكون من عند الله وحده.

٣ - أنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أقرب إلى نصر الله، وكلما كان الإنسان مستغنيًا عن الله كان أبعد عن النصر؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ والإنسان إذا رأى من نفسه العزة وعلا وشمخ فإنه يخذل، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦،٧].

٤ - أن النصر لا يكون بكثرة العَدَد ولا بقوة العُدَد بل هو من عند الله سبحانه وتعالى، لكن كثرة العَدَد وقوة العُدَد مما أمرنا الله به وجعله سببًا للنصر كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني: من ورائهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولهذا يجب على ولاة الأمة الإسلامية أن يعدوا أعظم سلاح يفتك بالأعداء من أجل إذا احتاجوا إليه يستطيعون مهاجمة العدو أو المُدافعة إذا اعتدى عليهم أحد، وأما الأسلحة التقليدية التي تعتبر في وقتنا الحاضر مثل الحمير بالنسبة للخيل في الوقت السابق فهذه لا تكفي إلَّا إذا كان الإنسان لا يستطيع فإنه معذور، لكن إذا كان يستطيع فالواجب أن يُجهز نفسه بكل ما يستطيع من قوة؛ لأن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ويريدون أن يقضوا عليه بكل وسيلة، فإذا لم يكن عندنا سلاح نكبتهم به ونخزيهم به ونذلهم به فإننا لم نقم بما أوجب الله علينا: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٥ - أن مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمة كان ذلك موجبًا لتقوى الله، فالنصر سبب للتقوى والذل لله والخضوع له والانطراح بين يديه، كما فعل النبي عليه السلام حين فتح مكة دخل مُطَأْطِئ الرأس يتلو كتاب الله عزَّ وجلَّ، خلافًا لما يفعله الناس اليوم أو بعض الناس إذا انتصر جعل هذا النصر سببًا للأشر والبطر والملاهي والأغاني وغير ذلك من المعاصي، بل قد يكون بعد النصر أكثر منه فسوقًا مما قبل الحرب، وهذا خلاف ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فأمر بالتقوى بعد النصر لئلا يشمخ الإنسان بأنفه ويتطاول على ربِّه بانتصاره فيعود إلى ما كان عليه من الفرح والبطر والأشر.

٦ - أن تقوى الله تعالى من الشكر لله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا أمرٌ لا شك فيه أن التقوى من الشكر بل هي الشكر حقيقةً؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والشكر هو القيام بطاعة المُنعم بالقلب واللسان والجوارح.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهذا من الخطابات التي تختص برسول الله ﷺ. فالخطابات الموجهة لرسول الله ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دل الدليل على أنه خاص به.

والثاني: ما دل الدليل على أنه عام للأمة.

والثالث: ما لم يدل الدليل لا على هذا ولا هذا.

الأول: ما دل الدليل على أنه خاص به فهو خاص به مثل هذه الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] هذا خاص. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] هذا خاص. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] هذا أيضًا خاص وإن كانت الأمة يجب عليها التبليغ من جهةٍ أخرى.

الثاني: ما دل الدليل فيه على العموم كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] هذا واضح أنه عام؛ لأنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فوجه الخطاب أولًا للنبي ﷺ ثم عمَّم في الحكم فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

الثالث: ما لم يدل الدليل على هذا ولا هذا فهو عام بلا شك، حكمه عام، ولكن هل الخطاب عام من حيث اللفظ أو لا؟ الذي يظهر أنه عام حتى من حيث اللفظ، وذلك؛ لأن الخطاب للإمام خطاب لمن تبعه؛ ولهذا لو قال الوزير مثلًا للقائد: اذهب إلى الجهة الفلانية كان ذلك الخطاب له ولمن كان تحت إمرته، كذلك الخطاب إذا وجِّه للرسول عليه الصلاة

والسلام ولم يدل الدليل على أنه خاص به فهو شامل له وللأمة جميعًا، وقال بعض العلماء: إنه لا يشمل الأمة، وأن الخطاب له وحده ولكن على الأمة الاتباع، والمتأمل يجد أن الخلاف قريب من اللفظي؛ لأننا متفقون على أن الحكم عام لكن هل الأمة تدخل في ضمن هذا الخطاب أو تدخل بخطاب آخر؛ لأنها مأمورة بالاتباع؟

وقوله: ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف، والقاعدة في اللغة العربية أن الظرف والجار والمجرور لابد له من متعلق، وذلك؛ لأن الظرف والجار والمجرور يقعان موقع المفعول به، وما كان واقعًا موقع المفعول به فلابد له من عامل يكون واقعًا عليه. قيل: إن متعلقها قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. نصركم إذ تقول للمؤمنين، ولكن هذا قول ضعيف، والقول الثاني أنها بدل من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] والتقدير: إذ غدوت إذ تقول للمؤمنين، وهذا أقرب، ثم إن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ، وهذا من الخطاب الخاص به الذي لا يتعدى إلى الأمة.

وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُراد بهم: الصحابة ﷺ ووصفهم بالإيمان دون الصحبة؛ لأنه - أعني الوصف بالإيمان - هو مناط النصر في كل وقت حتى فيما بعد الصحابة، فإن الله ينصر الذين آمنوا.

قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ هذه مقول القول، أي: إذ تقول لهم هذا الكلام.

قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ قال أهل العلم: إن الصحابة ﷺ بَلَغَهُم أن المشركين صار بعضهم يُمِد بعضًا على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فقال لهم الرسول ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ أي: يكون كافيًا لكم هذا الأمر: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، الملائكة هم: عالم الغيب خلقهم الله تعالى من نور، ووجَّه لهم عبادات وأعمالًا يقومون بها لا يعصون الله فيها ويفعلون ما يؤمرون، فليس عندهم استكبار تكون به المعصية، وليس عندهم عجز يكون به تخلف الفعل، بل هم سامعون مطيعون قادرون على تنفيذ أمر الله بخلاف البشر، فإنه يكون عنهم استكبار فيعصون الله ويكون عندهم عجز فلا يقدرون على تنفيذ أمر الله، أما الملائكة فعندهم قوة لا يعجزون عن امتثال أمر الله، وعندهم انقياد تام فلا يعصون الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ منزلين من السماء؛ لأن الأصل أن مكان الملائكة السماء، ولكن هناك ملائكة يكونون مع الإنسان كالكرام الكاتبين والحفظة الذين يتعاقبون على الإنسان ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. وقوله: (منزلين) بالتخفيف تكون من أنزل، وعلى قراءة التشديد تكون من نزل، والمعنى واحد، والذي ينزلهم هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم ينزلون بأمره.

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه للإثبات أو التقرير للاستفهام ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ يعني: يكفيكم أن

يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين، يقول: ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: يكفيكم هذا الإمداد لكن بشرط أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربكم بأكثر مما قلت لهم. فالنبي ﷺ قال: ألن يكفيكم أن يُمدكم بثلاثة لكن إن صبرتم واتقيتم أمدكم الله بأكثر، ولهذا قال: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ﴾ فها هنا شيء: ثلاثة آلاف من الملائكة وعد بها الرسول ﷺ، وخمسة آلاف من الملائكة زائد على الثلاثة تكفل الله به ولكن بشرط الصبر والتقوى.

وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أي: يأتوكم من الجهة التي جاءوكم منها في وقت مبادر؛ لأن الفور معناه: المبادرة بالشيء، فالمعنى: أنهم إذا باغتوكم وأتوكم من فورهم، فإنه يُمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، فالشروط إذن ثلاثة: الصبر، والتقوى، وأن يأتوهم من فورهم هذا؛ فإن الله يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة ليسوا مُنزلين فقط بل مُسومين أي: مُعلمين علم الجهاد وعلم القتال، وهذا أبلغ من مجرد الإنزال، فالله تعالى تكفل بالزيادة وهذا يعود إلى الكمية، وتكفل بالقوة والشجاعة وهذا يعود إلى الكيفية.

وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعلمين بعلامات القتال؛ لأن العادة أن الشجعان يجعلون لهم علامات فوق لأمة الحرب حتى يُعرف بها الشجاع من غيره، وهذه الآية أو هذا الإمداد اختلف أهل العلم هل كان هذا في بدر أو في أُحد؟ فإن كان في بدر ففيه إشكال حيث إن الله تعالى ذكر أنه أمدهم في بدر بألف من الملائكة فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وهنا قال: ثلاثة آلاف وخمسة آلاف لكن جمعوا بينهما بأنه لا مانع أن الله استجاب لهم فأمدهم بألف من الملائكة ثم زيد فيها إلى ثلاثة آلاف، ثم زيد فيها إلى خمسة آلاف إذا تمت الشروط، وبناءً على هذا القول يكون قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ متعلق (بنصر).

والقول الثاني: أن هذه الآية في أُحد وليست في بدر؛ لأن الذى فى بدر كان الأمر فيها غير مشروط: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وفي هذه مشروط ولم يحصل الشرط فلم يحصل المشروط، أي: أن المسلمين في غزوة أحد لم يحصل منهم الشرط الذي شرطه الله وهو التقوى والصبر، وذلك؛ لأنهم حصل منهم تنازع وفشل ومعصية، فلم يكونوا على الحال التي يستحقون بها ما شرط الله لهم، وهذا القول أصح وأقرب أن يكون المُراد بذلك: غزوة أُحد، وأنه لم يحصل الإمداد ؛ لأن الإمداد كان مشروطًا بشرط ولم يتحقق، وعلى هذا فلا يبقى إشكال بين الآيتين؛ لأن كل آية نزلت في غزوة، ثم إنه يجب أن نعلم أن الذي وعدهم به الرسول ﷺ غير الذي وعدهم الله به، فليس الكلام من متكلم واحد بل من النبي ﷺ ومن الله تعالى، فالرسول قال: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ والله قال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾:

١ - ما كان عليه النبي ﷺ في معاملة أصحابه من إدخال الأمل في قلوبهم عند اشتداد الأزمات، وهذه هي الطريقة السليمة؛ لأنك إذا أدخلت الأمل على الناس نشطوا ونسوا ما هم فيه من الهم والغم، أما بعض الناس فيكون على العكس تجده يدخل على الناس التشاؤم والمروعات والمخيفات، كلما قلنا انتهت هذه المروعات جاءنا بما هو أشد ترويعًا، هذا لا شك أنه خلاف السياسة الشرعية بل وخلاف العقل، نعم الشيء الذي تدعو الضرورة إليه مما يروع هذا لابد منه، أما الذي لا تدعو الحاجة إليه ولا الضرورة فافتح للناس باب الأمل، فالرسول ﷺ قال لهم لما خافوا من إمداد المشركين بعضهم بعضًا: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ولما أخبر بأن بني قريظة نكثوا العهد في عام الأحزاب أرسل إليهم من يقص الخبر وقال للرسول: إذا أتيتم فالحنوا لي لحنًا يعني أخبروني بهذا إشارة، وهي تُسمى عندنا الآن الشفرة شفرة خاصة أخبرهم بها؛ لأنهم إذا جاؤوا ووجدوا أن اليهود قد نقضوا العهد ثم أخبر الرسول أمام الناس يلحقهم الرعب والخوف، فقال: الحنوا لي لحنًا، فلما رجعوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وأخبروه أن بني قريظة نقضوا العهد ولكن ليس باللفظ الصريح بل باللحن الذي أرشدهم إليه قال: أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا. أما بعض القادة في الوقت الحاضر فالمتوقع أن يقول: والله هذه مصيبة، جاءنا عدو جديد، ثم ملأت القلوب رعبًا، لكن الرسول عليه السلام قال: أبشروا.

ولما كانوا يحفرون الخندق واعترضتهم صخرة شديدة عجزوا عنها جاؤوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، فجاء ونزل في الخندق وأخذ المعول فضربها ضربةً انقدح منها شعاع، قال في الأولى أضاءت منه قصور كسرى أو قيصر، وفي الثانية قصور كسرى أو قيصر، وفي الثالثة قصور اليمن «صنعاء» فقال: أبشروا، مع أن الله تعالى قال عنهم في ذلك الحال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] ولهذا ينبغي لنا أن ندخل على الناس باب الأمل الذي يُنشطهم ويُدخل عليهم السرور ويُنسيهم الهموم، لا أن ندخل عليهم باب المروعات والمقدرات حتى إن الإنسان تيبس أمعاؤه على بطنه، فليس هذا بصحيح، بل أدخل الأمل وما أراد الله سوف يكون، ولكن مع ذلك أن أقول: إنما يكون إدخال الأمل حينما يتعلق القلب بالله عزَّ وجلَّ وتنقطع الحيل إلَّا من عند الله عز وجل.

٢ - إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ والربوبية نوعان: عامة، وخاصة، ففي

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه عامة، وفي قوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ هنا خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] الأولى عامة، والثانية خاصة.

والربوبية الخاصة في قوله: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ تقتضي - مع المعنى العام وهو التدبير والملك - التثبيتَ والإعانةَ والكفَّ عن الشرور وما أشبه ذلك؛ لأنها خاصة.

٣ - أن الملائكة أجسام يحصون بالعدد؛ لقوله: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٤ - أن موطن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصل؛ لقوله ﴿مُنزَلِينَ﴾؛ لأن النزول إنما يكون من أعلى إلى أسفل، فإذا كان هؤلاء الملائكة منزلين دلَّ على أن مكانهم في السماء، هذا هو الأصل لكن ينزلون الأرض كثيرًا حسب أمر الله تعالى.

٥ - أن الملائكة لم تقاتل بلا شك، ولكن هل أمدوا؟ ذكرنا أن المسألة فيها قولان للعلماء:

الأول: إن كان في بدر فقد أمدوا.

والثاني: إن كان في أُحد فإنهم لم يمدوا؛ لأن ذلك شرط بالصبر والتقوى.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

١ - أن الصبر والتقوى سببان للنصر؛ لقوله: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تصبروا على الأوامر وتتقوا المحارم.

٢ - أن الله تعالى زادهم على ما بشرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام ألفين إذا صبروا واتقوا.

٣ - أن هؤلاء الملائكة الذين يمدون بهم لو صبروا واتقوا مُسوِّمين أو مُسَوَّمين على قراءتين، فمُسَوَّمين قد جعل فيها علامة تختص بهم كما سبق. ومُسَوِّمين أي: هم جعلوا علامة على ما جعل لهم من الخيول على حسب ما جاءت به الروايات.

٤ - أن من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يتولاه الملائكة؛ لأن الملائكة تثبت على الخير بخلاف الشياطين فإنها تثبت على الشر، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا امتنعت الملائكة عن بيت فإنه نوع من العقوبة كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٧)، و مسلم (٢١٠٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

❁ التفسير ❁

﴿جَعَلَهُ﴾ قيل في الضمير: إنه يعود إلى الإمداد أو إلى الوعد به بالشروط الثلاثة، وقيل: إنه يعود إلى قول النبي ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] يعني: أن الله لم يجعل قول الرسول ﷺ إلَّا بشرى لكم، و «البشرى» هي: الخبر بما يسر، وهذه ولا شك بشرى إذ إن المقاتل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى سيمده بالملائكة فإنه سوف ينشط ويقوى ويؤمل النصر بخلاف ما إذا كان لم يحصل له هذا الشيء.

وقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ «بشرى» مفعول ثانٍ لـ «جعل»، إذا كان «جعل» بمعنى: صيَّر، وإذا كانت (جعل) ليست بمعنى صير فتكون مفعولًا لأجله، ولا تصلح أن تكون منصوبة على الاستثناء؛ لأن الأداة هنا للحصر؛ لأن العامل لم يستكمل معموله.

وقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ الاطمئنان معناه: الاستقرار وعدم القلق، ولا شك أن طُمأنينة القلب فيها راحة للنفس وفيها فتح للتفاؤل والأمل، وفيها ثبات على الأمر بخلاف الإنسان الذي لم يطمئن قلبه فتجده دائمًا في قلق وضيق، أما إذا اطمأن قلبه فإن ذلك مما يعينه على التحمل والثبات والصبر، ولهذا قال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وفي آية الأنفال يختلف السياق هناك قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] وحذف قوله: «لكم» وقدم الجار والمجرور على الفاعل ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أما هنا ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وهذا مما يؤيد أن الآيتين ليستا في غزوة بدر، بل آية الأنفال في غزوة بدر وهذه في غزوة أُحد، ولم يحصل الإمداد لما عرفتم من تخلف الشرط.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حتى وإن أُمددتم بالملائكة، ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف فليس النصر بهم، ولكن النصر من عند الله وهو الذي يُهيء أسباب النصر فلا تعتمد على غير الله تعالى مما جعله الله سببًا في النصر.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ العزيز يعني: ذا العزة، وعزة الله تعالى ثلاثة أنواع: عزة قدر، وعزة قهر، وعزة امتناع.

عزة القدر يعني: الشرف والسيادة والفضل مثل أن نقول: هذا الشيء عزيز وجوده يعني أنه منفرد في الصفات الكاملة عن غيره.

وعزة القهر يعني: الغلبة، يعني أنه غالب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أي: غلبني فيه، فالله سبحانه وتعالى له الغلبة كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: المنافقين ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فسلَّم الله لهم ذلك أن الأعزَّ يُخرجُ الأذل، ولكن لمن العزة؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إذن عزة القهر يعني: الغلبة أنه غالب، غالب لكل شيء، ومن الشعر الجاهلي:

أَيْــنَ الْــمَفَرُّ وَالْإِلَــهُ الطَّالِــبُ وَالْأَشْـرَمُ الْـمَغْلُوبُ لَـيْسَ الْغَالِـبُ

الثالث: عزة الامتناع: يعني أنه يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى أو النقص، وهو مأخوذٌ من قولهم: أرض عزاز يعني: صلبة قوية لا تؤثر فيها المعاول.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فمأخوذ من الحُكْم ومن الإحكام، والحكم: القضاء، والإحكام يعني: الإتقان، وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

حكم كوني: لا يتخلف المحكوم فيه.

وحكم شرعي: قد يتخلف.

فالحكم الكوني لا يتخلف أبدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] يعني: حكمًا كونيًّا.

وأما الحكم الشرعي فمثل قوله تعالى في سور الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] ومنه قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم إن في كل منهما حِكْمَة يعني: ما من حكم شرعي أو كوني إِلَّا وهو مقترن بالحكمة؛ لأننا قلنا مأخوذ من الحكم والإحكام.

ثم إن الحكمة قد يكون المُراد بها: أن وقوع الشيء على هذا الوجه حِكمة، والغاية منه حكمة أيضًا، فتكون الحكمة في صورة الشيء، والحكمة الثانية في الغاية منه.

فكون الصلوات على هذا الوجه هذا حكمة تتعلق بصورة العمل، والغاية منها حكمة تتعلق بالمراد من هذا العمل.

وربط العزة بالحكمة يفيد معنًى ثالثًا غير المعنى المستفاد من العزة على انفراد أو الحكمة على انفراد، وذلك لأن العزيز قد تغلبه العزة حتى يتصرف تصرف الطيش والسفه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] لكن عزة الله تبارك وتعالى لا تخرج عن

الحكمة مع أن له العزة المُطلقة، فإن هذه العزة لا تخرج عن الحكمة، وكل شيء يفعله سبحانه وتعالى إنما يفعله على وجه الحكمة جل وعلا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن هذا الوعد بشرى من الله أو من الرسول عليه الصلاة والسلام على خلاف بين العلماء، والخلاف في هذا يسير الخطب سواء كان ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: قول الرسول أو ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي قول الله لهم: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

٢ - أن إمداد الشخص بما يعينه سببٌ لسروره وبشارته؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

٣ - أنه مهما عظمت الأسباب إذا لم يؤيد الله الإنسان بنصرٍ فإنه لن ينتصر؛ لقوله بعد ذكر هذا الإمداد ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - يجب على المرء مع فعل السبب أن يعتمد على ربه، وأن يؤمل النصر منه سبحانه وتعالى.

٥ - أن النصر من مُقتضى اسمه العزيز الحكيم.

٦ - أن الله لن ينصر إِلَّا من اقتضت الحكمة نصره؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ولا يرد على هذا أن الله سبحانه وتعالى جعل للمشركين نصرًا في غزوة أُحد؛ لأننا نقول: إن هذا النصر فيه فائدة أو فوائد عظيمة للمسلمين فهو حكمة، فانتصار المشركين في أُحد لا شك أنه حكمة تترتب عليه فوائد عظيمة تذكر إن شاء الله في الآيات التالية.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٧]

❁ التفسير ❁

اللام هنا للتعليل، والفاعل في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ يعود إلى الله سبحانه وتعالى، والمراد بالقطع هنا: الإهلاك أي: ليهلك طرفًا، اللام هذه إما مُتعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ولكن هذا ضعيف؛ لأنه بعيد، يعني أنه جاءت آيات كثيرة تفصل بين العامل والمعمول، وهذا لا نظير له، وإما أن يكون مُتعلقًا بمحذوف تقديره: فعل ذلك ليقطع طرفًا، وهذا القول أصح، فتكون اللام مُتعلقة بفعل محذوف يقدر على وجهٍ مناسب.

وقوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: ليهلكهم، ولكن هل هذا فيما إذا انتصروا على

المسلمين أو فيما إذا انتصر المسلمون عليهم أو على الوجهين جميعًا؟ الصواب أنه على الوجهين جميعًا؛ لأنه إن انتصر المسلمون وهزموهم فقد هلك طرف منهم، وإن انتصروا هم على المسلمين فإنهم سوف يلحقهم الغرور ونشوة النصر ثم يُعيدون الكرة مرة ثانية، وحينئذٍ يقضي عليهم، فيكون الوجهان حاصلين سواء غَلبوا أو غُلِبوا.

وقوله: ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الطرف: طرف الشيء هو: منتهاه من أسفل أو من أعلى، والمراد: الطرف الذي يلي المسلمين؛ وذلك لأن المسلمين مُطالبون بقتال من يليهم من الكفار حتى يفتحوا بلاد الكفار بلدًا بلدًا

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] فهذا كما أنه سُنة الله الشرعية فهو أيضًا موافق للفطرة؛ لأنه ليس من الحكمة أن تذهب إلى البعيد تقاتله وتترك القريب، إذ إن القريب في هذه الحال ربما يكون كمينًا يعني يحول بينك وبين رجوعك إلى بلدك.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يعني: يخذلهم ويذلهم وإن لم يحصل فيهم قتل.

وقوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾: ينقلبون إلى بلادهم خائبين أي: لم يحوزوا خيرًا، وذلك كما حصل في غزوة الأحزاب فإنهم في غزوة الأحزاب رجعوا خائبين بدون قتال كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فقد ردهم الله بالريح والجنود التي لم نرها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وتشريعاته؛ وذلك لأن اللام للتعليل، والتعليل هو الحكمة.

٢ - أن الله سبحانه وتعالى يُسلط المؤمنين على الكفار؛ ليقطع طرفًا من الذين كفروا، وليس كل الذين كفروا؛ لأن من حكمة الله أن يبقى الإيمان والكفر مُتصارعين دائمًا حتى يتبين المؤمن الخالص من غيره.

٣ - أن مآل الكفار واحد من هذه الأمور: إهلاكهم أو خذلانهم؛ لقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ والكبت هو: الإذلال، والخذلان هو: الخيبة؛ لقوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ مثل قصة الأحزاب فإن الله سبحانه وتعالى ردهم على أعقابهم خائبين.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

❁ التفسير ❁

﴿لَيْسَ لَكَ﴾ قال بعض العلماء: إن المعنى: ليس إليك من الأمر شيء مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] يعني يُنادي إلى الإيمان، ولكن الظاهر أن اللام على بابها وليست بمعنى (إلى) والمعنى: أنك لا تملك شيئًا، وليس المعنى أنه لا يرد إليك شيء، بل المعنى أنك لا تملك شيئًا، فاللام على ما هي عليه، والخطاب في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ يعني: الأمر الكوني، أما الأمر الشرعي فإن الرسول عليه الصلاة والسلام له منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أما الأمر الكوني فلا.

واختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية، ففي بعض الروايات أن سببها أن النبي ﷺ دعا على قوم من الكفار، مثل: أبي سفيان وسهيل بن عمرو وصفوان بن أُمية والحارث بن هاشم، هؤلاء الأربعة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو عليهم، يلعنهم إذا صلى الفجر في الركعة الأخيرة، يدعو عليهم: اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا بأسمائهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] فالأمر إلى الله. وفي رواية أخرى صحيحة أن النبي ﷺ لما شجوا وجهه في أُحد جعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2]. والقاعدة في أسباب النزول أنه إذا لم يكن الترجيح فلاَ مانع من أن يتعدد السبب، فيكون لنزول الآية سببان، الأول: إنكاره عليه الصلاة والسلام على هؤلاء القوم وقوله: «كَيْفَ يُفْلِحُ؟» استبعاده فلاحهم، والثاني: لعنه هؤلاء الأربعة، ولا محظور في ذلك فإن الآية قد يكون لنزولها سببان.

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: إنها معطوفة على (يقطع)، وقيل: (أو) بمعنى: إلى أن يتوب عليهم، فعلى القول الأول لا إشكال في الآية، ويكون الله عزَّ وجلَّ ذكر في عاقبة هؤلاء الكفار

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٤٦)، والترمذي (٣٠٠٥)، والنسائي (١٠٧٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩١)، والترمذي (٣٠٠٢)، وابن ماجه (٤٠٢٧).

أربعة أمور:

١ - يقطع طرفًا من الذين كفروا.

٢ - أو يكبتهم.

٣ - أو يتوب عليهم.

٤ - أو يعذبهم.

وهذا الوجه كما ترون وجهٌ حسن ليس فيه إلَّا الجملة المعترضة في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وهذا لا يضر، ففي القرآن جُمل مُعترضة بين أشياء مُتقاربة في المعنى، بل فيه آيات، فمثل قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ذكرت هذه في أثناء آيات العدد ولا يظهر للإنسان وجه مناسبة، لكن الله عزَّ وجلَّ أعلم منا، كذلك أيضًا هنا نقول: لا يضر أن توجد جملة معترضة مع أننا سنبين إن شاء الله المناسبة فيها.

أما القول الثاني الذي يقول: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى (إلى) فيقولون: إن في الآية حذفًا والتقدير: «ليس لك من الأمر شيء فاصبر أو يتوب الله عليهم» فيقدرون فعلًا هو (اصبر) يعني لا تدعُ عليهم اصبر أو يتوب عليهم، وتعلمون أن (أو) تأتي بمعنى: (إلى) وتأتي بمعنى: (إلا أن)، فإذا قال القائل: لأقتلن الكافر أو يسلم فهي بمعنى (إلا أن) ولا يصلح أن نقول بمعنى: (إلى أن)، وإذا قال: لألزمن الغريم أو يقضيني ديني، فهي بمعنى: (إلى أن).

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: على الكافرين، وتوبة الله على الكافر أن يهديه للإسلام، وتوبته على الفاسق أن يرده عن الفسق إلى الطاعة، وتوبة الله على العبد قسمان: توبة سابقة، وتوبة لاحقة، وتوبة العبد متوسطة بينهما، وهذا مذكور في سورة التوبة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٧، ١١٨] تاب عليهم ليتوبوا، هذه التوبة السابقة، والتوبة السابقة معناه: التوفيق للتوبة، والتوبة اللاحقة معناها: قبول التوبة، وتوبة العبد تكون بينهما.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ييسرهم للإسلام من الكفر.

وموقع هذه الجملة مما قبلها أنها تعليل لها يعني: أنهم يستحقون أحد هذه الأمور؛ لأنهم ظالمون إلَّا التوبة، فإن الله إذا تاب عليهم زال وصفهم بالظلم، والأربعة الذين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو عليهم كلهم تاب الله عليهم فأسلموا، وفي هذا إشارة كما سبق إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يدعو على شخص مهما بلغ في الكفر والطغيان باللعنة، بل لا يجوز أن يدعو عليه باللعنة؛ لأن اللعنة هي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولا يحل لك أن تتحجر رحمة الله، فقد

يمنُّ الله على هذا الكافر المجرم فيتوب، كما أنه سبحانه وتعالى قد يمن على الفاسق الذي لم يصل إلى حد الكفر فيستقيم وتصلح حاله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن النبي ﷺ لا يملك شيئًا من الأمر الكوني، وفي هذه الجملة ردٌّ على الذين يتعلقون بالرسول عليه الصلاة والسلام في الدعاء والاستعانة به والاستغاثة به حتى بعد موته، فتجدهم عند قبره الشريف يدعون الرسول عليه الصلاة والسلام صراحةً، بل إنهم عند الدعاء ولو كانوا بعيدين يتجهون إلى القبر لا إلى القبلة، وهذا من سفههم.

٢ - أن النبي ﷺ مُكلف يأمره الله سبحانه وتعالى وينهاه، وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوى من يقولون: إن الإنسان إذا وصل إلى حالة معينة من العبودية سقطت عنه التكاليف، وهذا قول طائفة من الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان يترقى في اليقين حتى إذا وصل إلى الدرجة العليا سقط عنه التكليف، وصار كل شيء حرام حلالًا له، وكل شيء واجب ليس بواجب عليه، فلا يوجبون عليه الصلاة، ولا يُحرمون عليه الزنى ولا شرب الخمر؛ فيُقال لهم: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق لا يصل إلى هذه المرتبة فما بالك بمن دونه؟!.

٣ - أن الله سبحانه وتعالى قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم لعموم قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ - أن الله سبحانه قد يُعذب الكافرين عذابًا ليس للمسلمين فيه يد، بل هو من عند الله وحده؛ لقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

٥ - أن الله سبحانه وتعالى لا يُعذب إلَّا بذنب؛ لقوله ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ والظالم مُستحق لأن يُنكل الله به؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب الظلم، بل إنه قال في الحديث القدسي: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]

❁ التفسير ❁

لما ذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء فمَنْ دونه من الخلق من باب

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

أولى؟ بيَّن لمن يكون له الأمر فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص والملك يعني: لله ملكًاواستحقاقًا واختصاصًا، والخبر «الجار والمجرور» مُقدم على المبتدأ لإفادة الحصر يعني لله لا لغيره.

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (ما) اسم موصول يشمل كل ما في السموات وما في الأرض من إنس وجن وحيوان وجماد وغير ذلك، وعبر بـ (ما)؛ إما لأن غير العاقل أكثر من العاقل فصار هذا من باب التغليب، وإما لأن المقصود الأعيان والأوصاف، وإذا كان المقصود الأعيان والأوصاف يؤتى بـ (ما) لا بـ (مَنْ) ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل (مَنْ)؛ لأنه ليس المقصود العين، وإنما المقصود الوصف يعني: الذي يطيب لكم وتركنون إليه.

على كل حال: سواء كانت (ما) من باب التغليب، أو المقصود به الأعيان والأوصاف فإنها تدل على العموم، وأن جميع ما في السموات والأرض لله.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذه جمع قد صرح الله سبحانه في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] أما الأرض فليس في القرآن نص على أنها سبع، وإنما فيه ظاهر، يعني ما يدل ظاهرًا على أن الأرضين سبع، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا لا يمكن أن تكون مثلية الجنس والنوع والصفة؛ لأن الأرض مختلفة عن السماء اختلافًا ظاهرًا؛ فتعيَّن أن يكون مراد المثلية: بالعدد.

وقد جاءت السُّنة مُصرحةً بأن عدد الأرضين سبع، ولكن هذه الأرضين السبع هل هي متجاورة أو مُتطابقة كالسموات؟

ظن بعض العلماء أنها متجاورة، وأن المراد بها القارات السبع، ولكن هذا ليس بصحيح، والصحيح أنها مُتطابقة أي: بعضها فوق بعض، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١)، فإن هذا يدل على أنها متطابقة إذ لو لم تكن كذلك لم يُعذب هذا الذي اقتطع شبرًا من الأرض إلَّا بأرضٍ واحدة فقط، ثم هل هي متلاصقة أو متباينة؟ قال بعض العلماء: إنها مُتلاصقة.

وقال آخرون: بل هي متباينة أي: بين كل أرض والأخرى فاصل هواء، والله أعلم بذلك، وربما نطلع عن طريق العلم الحديث على الراجح من هذين القولين.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ (يغفر) مضارع من المغفرة، والمغفرة هي: ستر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يوضع على الرأس عند القتال، فإنه ساتر للرأس وواقٍ له، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هذه الآية مُقيدة بالحكمة أي: من اقتضت حكمته أن يغفر له غفر له، هذا واحد، والثاني: مُقيدة بما عدا الشرك، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] لكن المشرك لو أسلم لغفر الله له لقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: ممن يستحق التعذيب، وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يُستثنى منها المُشرك؛ لأن المشرك قد أعلمنا الله أنه لا يشاء أن يغفر له فلا يكون داخلًا في المشيئة بل هو يُعذب المشرك قطعًا؛ لأن وعده لا يُخلف سبحانه وتعالى، فالمشرك لابد أن يُعذب: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] لكن لو تاب فإن الله يغفر له ويتوب عليه.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين مناسب جدًّا؛ لقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلكونه غفورًا صار يغفر لمن يشاء، والغفور اسم من أسماء الله المتعدية إذ لا يتم الإيمان به إِلَّا بثلاثة أمور:

١ - الإيمان بأنه اسم من أسماء الله.

٢ - الإيمان بما تضمَّنه من صفة.

٣ - الحكم المترتب على هذه الصفة وهو أنه يغفر.

فنستفيد إذن من هذه الآية إثبات الاسم (الغفور) وإثبات الصفة (المغفرة) وإثبات الحكم المترتب على هذا (أنه يغفر بهذه المغفرة).

و (الرحيم) أيضًا اسم من أسماء الله، والرحيم معناه: ذو الرحمة المُقتضية للإحسان والإنعام، فالإحسان والإنعام من مُقتضى الرحمة وليس هو الرحمة، وقد فسَّر من يُنكرون الرحمة بأنها الإحسان أو إرادة الإحسان، وهؤلاء هم الأشاعرة - عفا الله عنا وعنهم - يقولون: إن الله ليس له رحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين وخضوع للأمر الواقع فيُقال لهم: هذه رحمة المخلوق؟ أما رحمة الخالق فلا تتضمن نقصًا أبدًا بل هي كمال محض، ثم إن قولكم إنها رقة ولين فنقول: إن الرقة واللين صفة مدح؛ لأنها خير من الغلظة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١). وقولهم: إنها توجب أن الإنسان يخضع للأمر الواقع وما أشبه ذلك حتى يرحم نقول: هذا بالنسبة لرحمة المخلوق أما رحمة الخالق فليس فيها خضوع إطلاقًا، ثم إنه منقوض

(١) متفق عليه:أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

عليكم؛ لأنه يوجد ملك من الملوك الذي لا أحد ينابذه فيها يتكلم به ويكون عنده من الرحمة الشيء العظيم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و (ما) من صيغ العموم كما هو معروف.

٢ - انفراد الله بذلك لتقديم الخبر، والخبر حقه التأخير، ومن طرق الحصر تقديم ما حقه التأخير.

٣ - إثبات تعدد السموات، وقد بيَّن الله سبحانه في كتابه أنها سبع سموات، وأما الأرض فذكرت بصيغة الإفراد والمُراد: الجنس فيشمل جميع الأرضين، وقد بينت السُّنة أنها سبع.

٤ - إثبات المغفرة لله؛ لقوله: ﴿يَغْفِرُ﴾ وإثبات التعذيب لقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ ويتفرع لهاتين الفائدتين إثبات تمام سلطانه في مُلكه، وأن الأمر له في التعذيب والمغفرة.

٥ - إثبات المشيئة لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ والمشيئة تأتي كثيرًا في القرآن الكريم ولكنها مقرونة بالحكمة أي: من اقتضت الحكمة أن المغفرة له، ومن اقتضت الحكمة أن يُعذب.

٦ - إثبات الاسمين الكريمين من أسماء الله وهما (الغفور الرحيم) وإثبات ما تضمناه من صفة وهي: المغفرة والرحمة.

٧ - إثبات الحكم المترتب على ذلك وهو ما يُعرف عند بعض العلماء بالأثر وهو أن يغفر ويرحم، والقاعدة في أسماء الله أنه إذا كان مُتعديًا فإن الإيمان به يتضمن ثلاثة أمور: الإيمان بكونه اسم من أسماء الله، وبما دلَّ عليه من صفة، وبالحكم الذي يترتب على ذلك، وإذا كان لازمًا غير مُتعدٍ فإن الإيمان به يتضمن أمرين: الإيمان بأنه اسم من أسماء الله، والإيمان بما دلَّ عليه من الصفة.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٣٠]

التفسير

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب يقظة المخاطب وانتباهه، والخطاب الذي يُعتنى به يُسبق بما يفيد الانتباه والاستيقاظ،

وتوجيهه إلى المؤمنين يدل على فوائد:

أولًا: الإغراء والحث على ما تضمنه الخطاب؛ لأن مناداة هؤلاء باسم الإيمان يدل على أن ذلك من أجل أن يُثير هممهم كما تقول للرجل تُخاطبه: يا كريم أكرم ضيفك، فإنك إذا قلت: يا كريم فإن هذا من باب الإغراء والحث، يعني: من أجل كرمك أكرم. وتقول: يا رجل اترك السفلة، أو يا حليم اترك السفه وما أشبه ذلك، فالمقصود بمثل هذا الإغراء والحث. ويفيد أيضًا: أن الالتزام بما دلَّ عليه الخطاب من مقتضيات الإيمان، فمثلًا: ترك أكل الربا من مُقتضيات الإيمان؛ لأن الخطاب وُجِّه للمؤمنين، ويُستفاد أمرٌ ثالث وهو: أن المخالفة في هذا منقصة للإيمان وسبب لنقصانه.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تأتي هكذا مُطلقة في القرآن الكريم لكن معناه مُقيد بما يجب الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وبيَّن الرسول ﷺ أن الإيمان يتضمن الإيمان بستة أشياء: بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. ثم إن المراد بالإيمان ليس مجرد التصديق فقط بل الإقرار المتضمن أو المستلزم للقبول والإذعان، أما مجرد أن يُصدق الإنسان بالشيء فإنه ليس بمؤمن، فأبو طالب مثلًا مُصدق بأن مُحمدًا رسول الله ﷺ ومع ذلك لم ينفعه؛ لأنه لم يقبل ولم يُذعن، فلابد من قبول وإذعان يعني: انقيادًا.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ آمِنُوا بما يجب الإيمان به وهي: الأمور الستة التي بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ لا تأكلوا الربا، الأكل معروف، وخلافه الشرب واللبس والسُكنى والانتفاعات الأخرى، لكنه عبر بالأكل؛لأنه أخص ما يكون في مُلامسة الإنسان، فالذي يدخل إلى جوفك ليس كالذي تلبسه ظاهر جسدك، وليس كالبيت الذي تسكنه، فإن أبلغ ما يكون في ملامسة الإنسان هو الأكل، ولهذا نهى عنه، والإنسان عندما لا يكون لديه شيء وهو جائع عارٍ وليس عنده سكن يُقدم الأكل فهو أشد ما يكون ضرورة للإنسان، ولهذا قال: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾، والربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: ٥] يعني: علت ومنه «الرُّبى» جمع رابية للمكان المرتفع من الأرض، والمراد بالربا هنا: الربا الشرعي وهو زيادة ونسأ، زيادة ويُسمى: ربا الفضل، ونسأ ويُسمى: ربا النسيئة، ويكون الربا في أموال خاصة بيَّنها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالْـمِلْحُ بِالْـمِلْحِ**»(١).هذه الأشياء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٨٧)، والترمذي (١٢٤٠)، والنسائي (٤٥٦٠).

الستة متفق على جريان الربا فيها، فإذا أبدل جنس بمثله لزم فيه شيئان: التساوي، والتقابض في مجلس العقد، وإذا بيع بغير جنسه لزم فيه أمرٌ واحد وهو التقابض في مجلس العقد إلَّا بين الذهب والفضة وسواهما فإنه لا يُشترط التقابض في مجلس العقد.

لكن قد يقول قائل: إن قوله: «إِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»[1] يشمل ما إذا باع برًّا بفضة فإن الجنس مُختلف، وإذا طبقنا هذا على الحديث قلنا: لابد أن يكون يدًا بيد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ». نقول: نعم هذا هو مُقتضى هذا الحديث لكن يخصصه ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم الرسول ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: «مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»[2]. ومعنى يسلفون: يعني يقدمون الدراهم - الثمن - ويؤخرون المثمن، يعني: يأتي الرجل ويشتري من صاحب البستان تمرًا لمدة سنة أو سنتين بدراهم يُعطيه إياها نقدًا، فهنا اشترى تمرًا بدراهم مع تأخر القبض، والسَلَمْ جائز بالإجماع، وهذا هو الدليل لتخصيص قول النبي عليه الصلاة والسلام: «فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ». أما ما عدا هذه الستة فإن من أهل العلم من قال: ليس فيها ربا، كل شيء سوى هذه الستة لا ربا فيه، ومنهم من قال: إن ما كان بمعناها فله حكمها؛ فالأوراق النقدية المُستعملة الآن بدل النقد يكون لها حكم ذلك النقد، فإذا كانت أوراقًا جعلت عوضًا عن فضة فلها حكم الفضة، لكن إذا اختلف جنسها دخلت في عموم قوله: «إِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ». كذلك الذرة والأرز ليس من الأصناف الستة لكنهما بمعنى الأصناف الستة، فإنك لا تجد فرقًا بين البر والأرز أو بين الشعير والذرة، كل منهما طعام يُقتات، أما الفواكه كالبرتقال والعنب فليس فيها ربا، فيجوز أن تعطيني كيلوين بكيلوين ونصف أو بثلاثة من العنب، يعني كيلوين عنب بكيلوين ونصف عنب لا بأس؛ لأن هذا لا يجري فيه الربا. كذلك سيارة بسيارتين يجوز؛ لأنه ليس من الأصناف الستة، وبعير ببعيرين يجوز؛ لأنها ليست من الأصناف الستة، وطن من حديد بطن ونصف يجوز؛ لأنه ليس من الأصناف الستة، وعلى هذا فقس، فأنت إذا عرفت الأصناف الستة وما كان بمعناها تمامًا فما عدا ذلك فقد قال الله فيه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. لو باع ثوبًا بثوبين يجوز ولو مع عدم التقابض؛ لأن هذا لا يجري فيه الربا.

وقوله تعالى: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ضعف الشيء مثله بمعنى أنك تكرره مرتين فيكون ضعفًا كالدرهم بدرهمين ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ يعني: مزيدة على الضعف الأول مثلًا كدرهم بدرهمين، وبعد

---

(١) انظر ما قبله.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٤١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٦٠٤).

سنة نجعله بثلاثة دراهم، وبعد سنة نجعله بأربعة دراهم، هذا هو فعل الجاهلية، وربا الجاهلية: أن يستدين الرجل من الشخص، فإذا حلَّ الأجل قال: إما أن توفي، وإما أن تُربي، فإذا أوفى برئت ذمته، وإذا لم يوفِ يُربِي بمعنى أنه يزيد، فيقول مثلًا إذا حلَّ وقدره ألف: إما أن توفيني الألف وإلَّا فهو عليك إلى السنة القادمة بألفين، فإذا جاءت السنة القادمة ولم يوفِ قال: إما أن توفي وإما أن تُربي، فإذا أوفى برئت ذمته، وإن لم يوفِ قال: نجعله للثالثة لكن يكون بثلاثة آلاف، هذه أضعاف مُضاعفة، ولا شك أنها ظلم عظيم؛ لأنه إذا حل الدَّين على الإنسان وليس عنده شيء فالواجب إنظاره كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] فالممتنع عن الوفاء ليس بآثم مع العجز، والمُطالِب بالوفاء مع العجز آثم؛ لأن الله أوجب الإنظار.

ولا شك أن هذا ظلم عظيم؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يُربي إلَّا لأحد أمرين: إما أنه عاجز، وإما أنه كاسب أكثر مما جعل عليه من الربا، بمعنى أنه يقول: أنا لا أوفي؛ لأن مائة ألف أكسب بها في السنة ثلاثمائة ألف ولا يهمني أن يزيد عليَّ مثلًا مائة ألف لأنني سأكسب، أما أن يكون الإنسان قادرًا وليس له فائدة من بقاء الدين في ذمته فإنه لا يمكن أن يفعل.

وقوله: ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ فيها قراءة (مُضَعَّفَة)، والمعنى واحد، وقوله ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ ليس له مفهوم؛ لأنه جاء على وفق العادة الغالبة، وما جاء على وفق العادة الغالبة فإنه لا مفهوم له، هذه قاعدة من قواعد أصول الفقه، أن القيد إذا كان من أجل أنه الأمر الغالب فإنه لا مفهوم له، وله أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] فإن قوله: ﴿ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾قيد على وفق العادة والغالب، ولهذا تُحرم الربيبة وإن لم تكن في حَجْره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] فإن هذا لا يدل على أن الأمة إذا امتنعت من الزنا؛ لأن الرجل الذي طلب منها أن يزني بها لا يعجبها أنه يجوز إكراهها عليه.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: نهى عن أكل الربا أضعافًا مُضاعفة ثم أمر بالتقوى، وهذا من باب التوكيد يعني أن أكلكم مُجانب للتقوى، وتقوى الله عزَّ وجلَّ هي اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد قيل في تعريفها:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

نعم، ولكن ما ذكرناه أعم، وهي أن التقوى أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله بفعل

أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: (لعلَّ) هنا للتعليل؛ لأن الكلام صادر من الله، والترجي في حق الله مُستحيل؛ لأن الترجي طلب ما فيه مشقة، والله سبحانه وتعالى لا يشق عليه شيء، فكل شيء عليه هين، فتكون (لعل) للتعليل يعني من أجل أن تُفلحوا، والفلاح قال أهل العلم: إنه كلمة جامعة لحصول المطلوب وزوال المكروه، فمن حصل له المكروه فهو ناقص الفلاح، ومن زال عنه المكروه ولكن لم يحصل مطلوبه فهو ناقص الفلاح، ومن لم يحصل مطلوبه ولم ينجُ من مرهوبه فلا فلاح عنده، ومن حصل له المطلوب ونجا من المكروه فهو المفلح، إذن تقوى الله عزَّ وجلَّ من أسباب الفلاح، وكل واحد من الناس ينشد الفلاح، فكل واحد يحب أن ينال مطلوبه وأن ينجو من مرهوبه، فأين نجد هذا؟ نجده في تقوى الله عزَّ وجلَّ في القيام بطاعته واجتناب نهيه، وهو أمر يسير على من يسَّره الله عليه، افعل ما أُمرت به واترك ما نُهيتَ عنه وبذلك يحصل لك الفلاح.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تعظيم شأن الرّبا وخطره، ووجهه أنه صدر الخطاب في شأنه بالنداء.

٢ - أن اجتناب الربا من مقتضيات الإيمان، وأن كل مؤمن صادق الإيمان فلابد أن يتجنب أكل الربا.

٣ - أن أكل الربا مُنقص للإيمان، وهذا أمر لا شك فيه عند أهل السُّنة والجماعة؛ لأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وفعل الكبائر عند أهل السُّنة ينقص الإيمان، وعند الخوارج يخرج من الإيمان ويُدخل الكفر، وعند المعتزلة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، فهو خارج من الإيمان غير داخل في الكفر. وعند المُرجئة مؤمن كامل الإيمان، لو يأكل الربا ليلًا ونهارًا فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن نحن نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان.

٤ - تحريم أكل الربا؛ لقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا﴾ والأصل في النهي التحريم، لا سيما وأنه أُكِّد بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ويُقاس على الأكل بقية الإتلافات بالشرب واللباس وبناء المساكن وما أشبهها، لكن عبر بالأكل؛ لأنه أخص وجوه الانتفاع وغيره مثله.

٥ - أن الربا لا يُحرَّم إلَّا إذا كان أضعافًا مُضاعفة، وهذا فيه نظر، فالصحيح أن هذا القيد لا مفهوم له؛ لأن هذا بناء على الواقع الغالب، وما كان كذلك فإنه لا مفهوم له، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الذي أشرنا إليه أولًا قال: «مَنْ زَادَ أَوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى»[١] أي: وقع في الربا مع أنه لم يأكل أضعافًا مضاعفة، وقال في أخذ صاع بصاعين من التمر: «عَيْنُ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ»[٢]، إذن هذا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٨٤)، والترمذي (١٢٤٠)، والنسائي (٤٥٦٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣١٢)، و مسلم (١٥٩٤).

القيد لا مفهوم له خلافًا لمن قال إنه قيد شرطي، وأن الربا لا يحرم إلَّا إذا كان في هذه الصورة، وأجازوا الربا إذا كان ليس فيه ظلم وإنما هو استثماري تزداد به أموال الدولة وينشط به الاقتصاد، فإن من العلماء ولاسيما المتأخرون من زعم ذلك ولكنه زعمٌ باطل، الربا مُحرم بأي نوع من أنواعه سواء كان أضعافًا مُضاعفة أو ضعفًا واحدًا أو دون الضعف، من زاد أو استزاد فقد أربى، والصاع بالصاعين وصفهُ النبي عليه الصلاة والسلام بأنه عين الربا، وليس فيه ظلم، وليس فيه أضعافًا مُضاعفة، ومع ذلك سماه ربًا بل عين الربا.

٦ - أنه لا يجوز أن أبيع عليك سلعة توفيني بها بأكثر من ثمنها ويبقى ثمنها في ذمتك، يعني: لما حلَّ الأجل وهو عشرة آلاف ريال، قلت: أنا أبيع عليك سلعة تساوي عشرة آلاف ريال باثني عشر ألفًا ثم توفيني بقيمتها، هذا لا يجوز؛ لأنه حيلة، ومع الأسف أن بعض المسلمين يفعلون هذا، فيكونون سواءً مع اليهود في التحايل على محارم الله، ويكونون سواء مع اليهود في أكل الربا؛ لأن هؤلاء أكلوا الربا وتحيلوا على أكله؛ فيزداد الربا قبحًا إلى قبحه؛ لأنه بعد أن كان صريحًا ربما تؤنبك نفسك عليه في يوم من الدهر صار خداعًا زيَّنه لك الشيطان، والذي يفعل هذا يعتقد أنه لا شيء فيه، ولا شك أن هذا أخبث مما لو قال سنجعل العشرة اثني عشر إلى سنة، هذا لا شك أنه حرام، لكن الحيلة الأولى أخبث؛ لأنها تضمنت مع مفسدة الربا الخداع لله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1].

وهذه غير مسألة العينة، فمسألة العينة: أن يبيع عليه السلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها بأقل منها نقدًا، أما هذا فدينٌ ثابت في ذمته تحيَّل عليه إذ قال: أبيع عليك هذه السيارة بعشرة من أجل أن تبيعها وتأخذ دراهمًا وتوفيني، وبعد سنة أطالبك بقيمة السيارة اثني عشر.

قال الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]

التفسير

اتقوا الله واتقوا النار، تقوى الله عزَّ وجلَّ سبق الكلام عليها بأن معناها فعل الأوامر وترك النواهي لكن تعبدًا لله، فتفعل الأوامر تعبدًا لله، وتترك النواهي تعبدًا لله وتذللًا له، أما قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ فهي تقوى من نوع آخر، وهي أن تتخذ ما يقيك منها كما تتخذ ما يقيك من الحر في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، و مسلم (١٩٠٧).

[النحل: ٨١] فليست تقوانا للنار تقوى عبادة وتذلل كتقوانا الله، فاللفظ واحد والمعنى مختلف، فتقوى النار معناها أن نتخذ حجابًا دونها حتى لا يُصيبنا لفحها، هذه هي تقوى النار وليست كتقوى الله التي هي تقوى تذلل وعبادة.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذه النار ورد في الكتاب والسُّنة مِنْ أوصافها وأوصاف عذابها ما تنخلع له القلوب، وبَسْط هذا معروف، ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ أي: هُيئت لهم، والمُعِدُّ لها هو الله عز وجل.

وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أصل الكفر في اللغة: الستر ومنه الكُفُرَّى الذي نسميه الكافور، وهو وعاء طلع النخل، هذا أصله في اللغة، أما في الشرع: فإنه جحد الإنسان لنعمة الله عز وجل. وأعظمه الكفر المُخرج عن الملة، وهنا كفر دونه كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:كفر دون كفر[1]، وقوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: الكافرين بما يجب الإيمان به، وأركان الإيمان وأصوله الستة بيَّنها الرسول ﷺ في قوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - وجوب اتخاذ ما يقي من النار؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والأصل في الأمر الوجوب.

٢ - أن النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾.

٣ - أن أهل النار هم الكافرون؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الفساق الذي يُعذبون بالنار على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها؛ فإن النار لم تُعد لهم حتى إن بعض العلماء قال: إن النار ناران: نار الكافرين، ونار العُصاة، لكن ظاهر النصوص خلاف ذلك، وأن النار واحدة لكن عذابها يُخفف ويثقُل بحسب عمل الإنسان.

قال الله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٢]

التَّفْسِيرُ

الجملة هنا معطوفة على ما سبق، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الطاعة هي: موافقة الأمر، فعلًا

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٠)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي في «التلخيص».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

للمأمور وتركًا للمحظور، فمن ترك مأمورًا به فليس بطائع، ومن فعل منهيًا عنه فليس بطائع، وأصلها من الطوع وهو الانقياد، ومنه قولهم: هذه ناقة طوع أي: مُنقادة لقائدها لا تستعصي عليه.

﴿وَٱلرَّسُولَ﴾، «أل» فيه للعهد؛ لأن هذا الخطاب موجَّه لهذه الأمة. وهذه الأمة رسولها واحد وهو مُحمد ﷺ. فتكون «أل» هنا للعهد الذهني. وذلك أن العهد ثلاثة أنواع: ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت «أل» تشير إلى شيء مذكور فهي للعهد الذكري مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزَّمل: ١٥ - ١٦]، وإن كانت تشير إلى شيء حاضر فهي للعهد الحضوري مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وهكذا كل «ال» تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري مثل: هذا الرجل، هذا الإنسان وما أشبهه. والثالث للعهد الذهني الذي يكون معلومًا بالذهن، فهنا الرسول هو مُحمد ﷺ، وهو معهود ذهنًا.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.(لعل) هنا للتعليل وليست للترجي، ولعلَّ تأتي كما مرَّ علينا كثيرًا للتعليل وللإشفاق، وللترجي وللتمني أحيانًا، والفرق بين التمني والترجي أن الترجي فيما يُرجى حصوله، والتمني فيما لا يُرجى حصوله إما لعسره وإما لتعذره، وهنا للتعليل يعني: إذا أطعتم الله والرسول حصلت لكم الرحمة، والرحمة يكون بها حصول المطلوب وزوال المكروه، وإذا قرنت بالمغفرة صارت المغفرة لزوال المكروه، والرحمة لحصول المطلوب، أي لعلكم تكونون في رحمة الله التي بها النجاة وحصول الثواب والأجر الكثير.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أولًا وجوب طاعة الله ورسوله، من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، والأصل في الأمر الوجوب.

٢ - جواز اقتران اسم الرسول باسم الله في الأمر الذي يكون مُشتركًا بينهما؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أما الأمر الذي لا يكون مشتركًا بينهما، وهو الأمر الكوني القدري، فهذا لا يذكر فيه الرسول مع الله إلَّا بحرف يدل على الترتيب، وبهذا نعرف الفرق بين إسناد الشيء الشرعي إلى الله ورسوله، وبين إسناد الكوني إلى الله ورسوله، فإسناد الشيء الشرعي يجوز بالواو، وأما الكوني فلا يجوز إلَّا بـ «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، فإذا قلت في أمر شرعي: الله ورسوله أعلم فهذا صحيح وجائز، وقد أقره النبي ﷺ نفسه فإنه في حديث زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ صلى بهم صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل فقال: «هَلْ تَدْرُوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ»[1] فأقرهم لأن المراد هنا العلم الشرعي، لكن في المسائل الكونية لما قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، و مسلم (٧١).

له رجل: «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ» أنكر عليه وقال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَه»(١).

٣ - أن طاعة الله ورسوله سبب للرحمة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولكن هل المراد الرحمة العامة أو الخاصة؟ المراد الخاصة؛ لأن العامة حاصلة لنا على كل حال حتى الكفار لهم رحمة من الله لكن رحمة عامة، فالمراد بالرحمة هنا: الرحمة الخاصة التي بها سعادة الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]

التفسير

قال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ ولم يقل: أسرعوا؛ لأن المفاعلة تكون من اثنين في الغالب. والمعنى: ليسبق بعضكم بعضًا أو ليُسابق بعضكم بعضًا إلى هذا الأمر، أي: المغفرة والجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

قوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ المغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست هي مجرد التجاوز عن الذنب؛ لأن أصلها من المِغفَر، والمغفر ما يوضع على الرأس حال الحرب يتوقى به السهام، وهو مفيد فائدتين وهما: السَّتر والوقاية، ويدل لهذا قوله تعالى حينما يُحاسب عبده في الآخرة ويقر العبد بذنوبه فيقول: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، فمن ستر الله عليه ذنبه في الدنيا فقد غفره له، ولكن لا تتم المغفرة إلَّا بالتجاوز عن الذنب وعدم العقوبة عليه، وإلَّا فإن الستر نوع من المغفرة بلا شك، فإن الإنسان لو فضح بذنبه - والعياذ بالله - لم يكن هذا مغفرة، لكن إذا ستر عليه فإن هذا فيه مهلة أن يجعل الله تعالى الأمر بينه وبين عبده لعله يتوب ولا يعلم بذنبه.

والمسارعة إلى المغفرة إما استغفار، وإما عمل صالح: الاستغفار أن يقول: اللهم اغفر لي، أستغفر الله وما أشبه ذلك، وإما عمل صالح؛ لأن من الأعمال الصالحة ما يكفِّر الله به الخطايا مثل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة، والعمل

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، و مسلم (٢٧٦٨).

الصالح يُذهب العمل السيئ.

وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ﴾، مغفرة وجنة؛ لأن الإنسان لا تتم سعادته إلَّا بأمرين: زوال المكروه، وحصول المطلوب.

والجنة هنا هي: الدار التي أعدها الله عزَّ وجلَّ لأوليائه، أعدها الله للمتقين، والمتقون المؤمنون هم أولياء الله، هذه هي الجنة. أما الجنة في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة:٢٦٥] فهي: البستان، ففرق بين الجنتين جنة الدنيا وهي البساتين، وجنة الآخرة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن للإنسان أن يتصور ما في الجنة من النعيم، أما جنات الدنيا فكل إنسان يتصور ذلك.

وقوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، والفرق بينهما أن التشبيه هنا بليغ، وأما التشبيه هناك فليس ببليغ، يعني من حيث الاصطلاح، وإلَّا فكل القرآن بليغ؛ لأنهم يقولون: التشبيه بليغ مؤكد، وغير مؤكد، وبليغ غير بليغ إذا ذكرت الكاف، فإذا ذكرت أداة التشبيه فهو غير بليغ، وإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار بليغًا، وهنا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أما إذا ذكرت أداة التشبيه فإنه يُسمى تشبيهًا مُرسلًا، وإذا ذكر وجه الشبه صار مُرسلًا غير مؤكد.

نقول: فلان كالبحر كرمًا، وإن شئت فقل: في الكرم، هذا التشبيه فيه كل الأركان الأربعة؛ لأن التشبيه له أركان أربعة مثل القياس، مشبه، ومشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، باعتبار ذكر أداة التشبيه يُسمى مُرسلًا، وباعتبار ذكر وجه الشبه يُسمى غير بليغ، يعني أن هذا أدنى أنواع التشبيه إذا ذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه، فهذا أدنى أنواع التشبيه.

وإذا حذفت أداة التشبيه وذكر وجه الشبه صار مؤكدًا لكن غير بليغ؛ لأنك إذا قلت: **«فلان بحر في الكرم»** أكدت أنه بحر في الكرم لكن نقصت قليلًا، فإذا حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه صار تشبيهًا بليغًا، إذا قلت: **«فلان بحر»**، فإذا قلت: رأيت بحرًا يُعطي الدراهم بلا عدٍّ، صار هذا أبلغ من الأول، ويُسمى هذا استعارة.

على كل حال ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ هذا التشبيه بليغ؛ لأنه حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه، فيكون بليغًا.

ومعنى ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يعني: كعرض السماء والأرض، لكن هل يلزم من هذا أن تكون مالئة للسماء والأرض، أو أنها كعرض السماء والأرض وإن كانت هي في محل آخر؟

الجواب: الثاني، ولذلك شكك بعض العلماء في الأحاديث التي فيها أن رجلًا من اليهود سأل النبي ﷺ قال: كيف يكون عرضها السموات والأرض؟ أين السموات والأرض إذا كانت هي

عرضها عرض السموات والأرض؟ فقال الرسول ﷺ: «أَيْنَ يَكُوْنُ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»[1]، فهذا الحديث في رفعه نظر؛ لأن الآية لا تدل على أن الجنة ملأت السموات والأرض وصارت في محلها، بل تدل على أن عرضها عرض السموات والأرض وإن كانت هي فوقهم، ولذلك نقول: إن الجنة فوق السموات والأرض كلها، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوْهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهَا أَوْ فَوْقُهَا - روي بالوجهين - عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[2] وهذا يدل على أن الجنة فوق السموات. وأما النار فهي في أسفل السافلين، وعلى هذا فلا يكون في الآية إشكال إطلاقًا، ويُحتمل أن نقول: إن هذا اليهودي أراد أن يلبس ويشبّه في القرآن ويتبع ما تشابه، وأن النبي ﷺ إذا صحَّ الحديث أجابه على وجه يبهت فيه ولا يتكلم على مقتضى عقله، فقال: «أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟».

على كل حال: فإن معنى الآية الكريمة أن هذه الجنة عرضها عرض السموات والأرض، أما طولها فقال بعض أهل العلم: إنه إذا كان عرضها السموات والأرض فطولها أعظم وأعظم؛ لأن العادة أن العرض دون الطول، ولكن الصحيح أن عرضها وطولها واحد إذ ليس لها عرض وطول وذلك لأنها مستديرة، وليست مربعة، وإذا كانت كذلك فإن عرضها يكون طولها. هذا هو الصحيح الذي صحّحه جماعة من أهل العلم.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: في محل جر صفة للجنة، ويجوز أن تكون في محل نصب حالًا. والنكرة إذا وصفت جاز أن تأتي منها الحال.

أعدها الله عزَّ وجلَّ، وقد بيّن الله ذلك في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فالمعد هو الله ولكنه ذكر بصيغة المجهول ليوافق قوله فيما سبق ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

(والمتقون) هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

ثم ذكر الله تعالى من صفاتهم:

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤- ١٣٦]. هذه أوصافهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وحينئذٍ قد يسأل سائل: كيف بدأ بالإنفاق

---

(١) رواه أحمد في مُسنده (١٥٢٢٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

دون ذكر الصلاة مثلًا، والصلاة أهم من الإنفاق؟

الجواب: لأنه لما نهى عن أكل الربا أضعافًا مُضاعفة بدأ بضده - ضد أكل الربا - وهو الإنفاق، وهذا كقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] فإنه لما قال: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠] بدأ بذكر الإنفاق في صفات المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، يُنفقون ماذا؟ هنا حذف المفعول ليكون دالًا على العموم. أي: يُنفقون كلَّ ما يمكن إنفاقه من أعيان ومنافع وجاه وغير ذلك، فإن الإنسان قد يُنفق أعيانًا كالثياب، ودراهم كالنقود مثلًا. وكذلك قد يُنفق منافع، بأن يُعير شخصًا ما ينتفع به هذا المستعير، وجاهًا بأن يتوسط لشخص أو يشفع له، فالإنفاق هنا عام، السراء ما يسر، والضراء ما يضر، يعني: في حال الرخاء وفي حال الشدة ينفقون، ولم يبيِّن على مَنْ يُنفقون ولكن الله قد بيَّن في سورة البقرة فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٥] فينفق في جهات الخير، لا في جهات الشر؛ لأنه لو أنفق في جهات الشر لخرج عن وصف المتقين، والله سبحانه وتعالى ذكر الإنفاق هنا وصفًا للمتقين فلابد أن يكون إنفاقهم فيما يُرضي الله.

فإذا قال قائل: ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أما في السراء والسعة والرخاء فالإنفاق وجيه، وأما في الضراء فكيف يكون الإنفاق؟

فالجواب: أنه يجب أن نعلم أن الإنفاق ليس خاصًا بالإنفاق على البعيد عنك، بل هو عام، يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبنتك وأمك وأبيك وزوجتك بل ونفسك، حتى الإنفاق على النفس يؤجر الإنسان عليه ويكون صدقة، قال النبي عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كلمة جامعة نافعة مانعة قال: «وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعلهُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»(1). وهل يكون الإنفاق في الضراء؟ الجواب: نعم، قد يكون الإنسان في أشد العسر ويُنفق على أهله وزوجته بل وعلى نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾، الكظم معناه: المنع مع ألم وتأثر، والغيظ قيل: إنه أشد الغضب، يعني: أنهم إذا غضبوا وثاروا حبسوا غيظهم، ومعلوم أن من أشد ما يكون على الإنسان أن يحبس غيظه، ويعرف ذلك من يكون سريع الغضب، فإنه إذا أراد أن يكظم الغيظ يجد شدة عظيمة، كأن أحدًا يصرعه صرعًا، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ تَعُدُّونَ الصرْعَةَ فِيكُم؟ قالوا: الذي لا يصرع - والصرعة والصرع معناه الطرح - قال: إِنَّ الصرْعَةَ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»(2)، هذا هو الصرعة الذي إذا ثارت نفسه ملكها، فلهذا قال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٩٦)، و مسلم (١٦٢٨).

(2) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٨)، وأبو داود (٤٧٧٩).

يعني إذا فعل به إنسان ما يغيظهم فإنهم يكظمون على شدة ومعاناة وألم، ويدل على أن الكظم فيه شدة ومعاناة قول النبي ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ»(١). ولهذا تجد بعض الناس إذا أراد التثاؤب شدة عظيمة في منع فتح فمه، مع أن المشروع أن تكظم ولا تفتح الفم، وقد ذكر بعض العلماء شيئًا ييسر لك الكظم، قال: إذا أصابك التثاؤب فعضَّ شفتك السفلى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني: الذين يكظمون أشد الغضب، وإذا كانوا يكظمون أشد الغضب فأسهل الغضب من باب أولى، كم من إنسان لا يملك نفسه عند الغضب فتجده مثلًا يكسر ما له، أو يُطلق زوجته، أو ربما يلطم نفسه، أو ربما يسقط نفسه من علو، المهم أن الغضب الشديد جمرة يُلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى لا يدري ما يقول؛ ولهذا كان أصح أقوال أهل العلم أن من غضب غضبًا لا يملك نفسه به فإنه لا عبرة بقوله، أيًّا كان هذا القول، سواء كان طلاقًا أو خلعًا أو لعنًا أو قذفًا أو غير ذلك، فإنه لا عبرة به؛ لأنه ليس له قصد. وبعض الناس - نسأل الله العافية - إذا غضب تغيَّب عن الدنيا لا يرى مَنْ أمامه أبدًا، ولا يسمع قول من يتكلم، وربما يتكلم بكلام مكروه ويصيحون به وهو لا يسمعهم من شدة غضبه، لهذا نقول: إن الغضب ثلاثة أقسام: بداية، وغاية، ووسط، البداية لا تؤثر؛ لأن كل إنسان يغضب، والغاية لا حكم لها، بمعنى أن كل ما صدر عن الغاضب فإنه لا حكم له. وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إغاثة اللهفان في بيان عدم وقوع طلاق الغضبان» أن ذلك بالاتفاق، والثالث: الوسط، هذا محل خلاف بين العلماء، والصحيح أنه لا حكم لقوله، وأن طلاقه لا يقع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، العفو هو: ترك المؤاخذة على الذنب، والمعنى: هم الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو، وخير من ذلك أن يُقابلوه بالإحسان لكن بشرط أن يكون لديهم قدرة على الانتقام، أما من عفا لعدم القدرة على الانتقام فهذا عفو العاجز الذي لا يُحمد عليه، بل يكون عفوه هذا عجزًا مذمومًا، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فأنتم إن عفوتم عن السوء قد تعفون عن قدرة وقد تعفون عن عجز، أما الله عزَّ وجلَّ فإنه يعفو عن قدرة، وهذا هو محل المدح، أما مجرد العفو فليس بمدح حتى يكون عفوًا عن قدرة. فترك المؤاخذة على الذنب عفو وهو محمود، وخير منه الإحسان، ولكن يُشترط في الأمرين أن يكون ذلك عن قدرة لا عن عجز، أما عن العجز فإنه مذمة، ولهذا قال الشاعر يذم قبيلته:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٨٩)، ومسلم (٢٩٩٤) واللفظ له.

لماذا؟ لضعفهم وعجزهم ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

فالحاصل: أن قوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الذين لا يؤاخذون الناس بما أساؤوا به إليهم، بل ربما يُحسنون إليهم ولكن عن قدرة، أما العفو عن عجز فليس بعفوٍ حقيقةً، بل هو عجز لا يُمدح عليه الإنسان.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ عام، شامل، ولكنه ليس على عمومه بالاتفاق، فإن الإساءة إذا كانت في حق الله فهي لله وليس لأحد أن يعفو عنها، فلو زنا رجل بمَحْرَم رجل وأراد أن يعفو عنه، قلنا: لا يمكن، الحق ليس إليك، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] أما إذا كان حقًّا للإنسان ليس فيه شائبة حقٍ لله فهذا يُنظر فيه، أي ليس على عمومه بل ينظر فيه، إن اقتضت المصلحة العفو فالعفو خير، وإن اقتضت المصلحة المؤاخذة فالمؤاخذة خير. وإن لم تقتضِ لا هذا ولا هذا بأن تساوى الأمران فالعفو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] والدليل على هذا أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فعلم منه أن من عفا بدون إصلاح فلا أجر له، بل قد يأثم على عفوه، مثال ذلك: رجل اعتدى عليه شخص شرير، كلما عفا الناس عنه ازداد شرًا، فهنا المؤاخذة خير بل قد تجب، وإنسان آخر اعتدى على شخص ولكنه رجل معروف بالاستقامة - أعني المعْتَدِي - وعدم الاعتداء، لكن بدرت منه بادرة فحصلت منه إساءة، فهنا العفو أولى، ولاسيما إذا جاء هذا المعتدي يعتذر ويتعهد أن لا يعود أو ما أشبه ذلك. ورجل ثالث اعتدى على آخر وهو شرير لكنه لم يبلغ في الشر غايته، يعني أحيانًا وأحيانًا، فهنا العفو أفضل؛ لأنه يتساوى الأمران، فالعفو هنا أفضل.

وقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يشمل حتى عن الكفار إذا لم يكونوا حربيين، فإن الإنسان إذا عفا عنهم فيما يتعلق بحق خاص، وكان في العفو إصلاح؛ فإنه يدخل تحت الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: الذين يُحسنون إلى الناس، ولكن هل المراد بذلك المحسنين فيما سبق أو المحسنين فيما يستقبل؟ بمعنى هل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عائد على قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وأن هؤلاء من المحسنين؟ أو أنه لما ذكر العفو وهو إسقاط الإنسان حقه عن المؤاخذة ذكر حالًا أخرى أكمل منها وهي الإحسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: فإذا أحسنوا مع العفو كان ذلك سببًا لمحبة الله؟ الثاني له

وجه، والأول أعم؛ لأننا إذا قلنا: (المتقين) هل هم مُحسنون؟ نعم، لا شك أن المتقي مُحسن إذا كان كما وصف النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

فالإنفاق إحسان، وكظم الغيظ إحسان، والعفو عن الناس إحسان، فيكون هذا أشمل، فعليه نقول: هذه الجملة فيها الترغيب والحث على فعل الخصال السابقة، وأنها من الإحسان، وإذا فعل الإنسان خصلة أعلى مما سبق كانت داخلة في هذا من باب أولى كما لو عفا وأحسن فإنني أقول: هذه خصلة زائدة على مُجرد العفو فتكون أولى بالدخول في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

١ - فيها الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والرحمة والجنة. وهل الأمر للوجوب؟ نقول: أما فيما يجب فواجب، وأما فيما لا يجب فليس بواجب، ولكن الإنسان يؤمر بأن يُسارع، وفيه دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يؤثر غيره بالقربات؛ لأنه إذا آثر غيره بالقربات فهذا يعني التأخر، ومن أمثلة ذلك: أن يؤثر غيره بمكانه الفاضل في الصف بأن يتأخر عن مكانه في الصف الأول لرجل آخر، فإن هذا خلاف المسارعة إلى الخيرات.

ولكن إذا ترتب على إيثار غيره بهذا المكان مصلحة أكبر من مصلحة التقدم لم يكن إيثاره من باب التأخر عن الخيرات؛ لأنه تنازل عن فضيلة إلى فضيلة أعلى، فلا يكون هذا إيثارًا في الحقيقة، ولا يدل على هذا زهد الإنسان في فعل الخير، بل هو انتقال من خير إلى ما هو خير منه. والإيثار بالقرب، إما: إيثار بواجب فهو حرام، أوإيثار بمستحب فهو مكروه. مثال الإيثار بالواجب: رجل عنده مال لا يكفي إِلَّا لحج رجل واحد، فيُعطي غيره ليحج به ويدع نفسه. ومثال الإيثار بمستحب: أن يؤثره بالمكان الفاضل في الصف.

٢ - أن التخلية قبل التحلية؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾؛ فبالمغفرة الزحزحة عن النار التي أوجبتها الذنوب، وبالجنة دخول الجنة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

٣ - أن المغفرة لا تكون إِلَّا من الله ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لأن مغفرة غير الله لا تفيد، إنما تفيد في حق الإنسان الخاص إذا سمح عنك وغفر لك فهذا يفيد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ﵁. و مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

٤ - بيان سعة الجنة؛ لقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

٥ - أن الجنة موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ والإعداد: التهيئة، وقد تضافرت النصوص الكثيرة على أن الجنة موجودة الآن.

٦ - أن أصحاب الجنة هم المتقون؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال في النار: ﴿ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فالمتقون هم أهل الجنة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

١ - فضيلة الإنفاق على كل حال؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فإن قال قائل: إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل يُنفق؟ نقول: لا يُنفق على أجنبي بل يُنفق على نفسه وعائلته، وهو داخل في الآية؛ لأن إنفاقه على نفسه وعلى أهله صدقة.

٢ - الثناء على من أنفق في السراء والضراء؛ وذلك لأن الإنفاق في السراء ليس بغريب، كل إنسان يهون عليه أن يُنفق إذا كان في سراء، لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدل على أن الإنسان يُنفق طلبًا للأجر لا زُهدًا في المال.

٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يكظم الغيظ؛ لأن ذلك من صفات أهل الجنة؛ لقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

فإن قال قائل: هل يمدح من لا يُبالي بما أصابه من خير وشر، أو يمدح من كظم الغيظ عند وجود الشر؟.

الثاني؛ لأن الأول لا يُبالي سواءً وجد ما يثيره أم لم يوجد، لكن من يعرف الخير والشر ولكنه يكظم الغيظ عند وجود الشر هذا هو الذي يُمدح.

٤ - الحث على العفو عن الناس لكنه مُقيد بما إذا كان أصلح.

٥ - إثبات المحبة لله عزَّ وجلَّ وأنه يحب، وهل المحبة هنا صفة ثابتة لله أو يُراد بها إرادة الإحسان أو الإحسان نفسه؟ الصحيح أنها صفة لله عزَّ وجلَّ، وأن إرادة الإحسان أو الإثابة غير المحبة.

فإن قال قائل: المحبة لا تكون إلَّا بين مُتجانسين، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق.

نقول: هذا غير صحيح أصلًا، فلا يلزم من المحبة تجانس المتحابين، الإنسان يحب بعض السيارات، بعض الإبل، بعض الدور، يحبها محبة حقيقية بقلبه، ويكون عنده قلم سائل نظيف فيحبه. فهذه الدعوى دعوى باطلة يُكذبها الحس والواقع، وإذا قالوا: إن المحبة هي ميل الإنسان

إلى ما يجلب له المنفعة أو يدع عنه المضرة.

نقول: هذا أيضًا غير صحيح. وهذا إن قدر أنه لازم المحبة في المخلوق فليس بلازم المحبة بالنسبة للخالق؛ لأن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فإن قالوا: العقل لا يدل عليها فلا يجوز إثباتها.

فالجواب عن هذا:

أولًا: أن العقل ليس دليلًا في إثبات صفات الله أو نفيها، فنحن نمنع الاعتماد على العقل في إثبات الصفات أو نفيها ونقول: من أين لكم أن المدار في إثبات الصفات أو نفيها هو العقل؟

ثانيًا: أن نقول: هب أن العقل لم يدل عليها فإنه لا ينفيها؛ لأن دعواكم النفي بأنه لا تكون المحبة إلَّا بين متجانسين دعوى باطلة والشرع قد أثبتها، وانتفاء الدليل المعين الذي هو العقل على زعمكم لا يمنع انتفاءِ المدلول؛ لأن المدلول قد يثبت بدليل آخر غير ما ذكرتم، فهب أن العقل لم يدل عليه فقد دلَّ عليه السمع (الكتاب والسُّنة) فوجب ثبوته، ثبوت المحبة.

ثالثًا: أن نقول: إن العقل قد دلَّ على ثبوت المحبة لله. فإثابة الطائعين تدل على أن الله أحبهم إذ لا يمكن أن يثيب أحدًا عقلًا إلَّا وهو يحبه، فتكون إثابة الطائعين دليلًا عقليًا على ثبوت المحبة كما جعلتم أنتم التخصيص دليلًا عقليًا على ثبوت الإرادة ولا فرق بينهما، بل إن إثابة الطائعين أدل على المحبة من دلالة التخصيص على الإرادة، ولكن يجب أن نعلم أن محبة الله سبحانه وتعالى للإنسان ليست محبة لجماله أو لحُسن ثيابه أو ما أشبه ذلك كما تكون بين المخلوقين، بل هي محبة لإيمانه وعمله، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صِوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(١). فالمدار على القلب والعمل، فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله وأكثر عبادة له كان أحب إليه.

٦ - الحث على الإحسان من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن كل إنسان يعلم أن الله يحب الإحسان سوف يُحسن ويتقدم إلى الإحسان ويحرص عليه؛ لأن محبة الله للعبد هي غاية ما يريد، نسأل الله أن يجعلنا من أحبابه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الغاية أن الله يحبك، حتى الذين قالوا: إنا نحب الله قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن الشأن كل الشأن أن يحبك الله، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أحبابه.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٥٣٩)، وابن ماجه (٤١٤٣).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ١٣٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾: الواو هذه حرف عطف، والأصل في المعطوف أن يكون مُغايرًا للمعطوف عليه، وليس المراد إذا قلنا إن العطف يقتضي المغايرة أن تكون المغايرة في الذات فقط، بل قد يكون التغاير في الصفة وفي اللفظ وفي المعنى، فإذا قلنا: قدم زيدٌ وعمرٌو، فهنا عطف يقتضي المغايرة في الذات؛ لأن هذا غير هذا بلا شك. وفي هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ المغايرة في الصفة، فهي كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١-٤] فالذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى هو الله، لكن هذا عطف صفة على صفة. والتغاير في اللفظ مثل قول الشاعر:

فألفى قولها كذبًا ومَيْنا

المَيْنُ هو الكذب، ولكنه عطف عليه من باب عطف المترادفين، ولهذا لا يأتي في اللغة العربية كذبًا وكذبًا، إنما يأتي كذبًا ومينًا، فلابد من التغاير في اللفظ. والتغاير في المعنى قريب من التغاير في الصفة. والذي معنا الآن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ من باب تغاير الصفة.

والفاحشة: ما يستفحش شرعًا أو عُرفًا مثل: الزنا، فإن الزنا فاحشة شرعية وفاحشة عرفية. كذلك اللواط فاحشة شرعية وعُرفية؛ قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] كذلك نكاح ما نكح الآباء هو أيضًا فاحشة قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢] أو عادة، ولكن في باب الثواب والعقاب المرجع إلى الشرع، ولهذا قال بعض العلماء: المراد بالفاحشة الكبيرة.

وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ المراد به: ما دون الفاحشة وهي الصغائر، وعلى هذا فالعطف بين قوله: ﴿فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ عطف بين متغايرين، وليس من باب عطف العام على الخاص، وإن كانت الفاحشة لا شك أنها داخلة في ظلم النفس، لكن المراد هنا: التنويع، وإذا كان المراد التنويع لزم أن يكون كل نوع سوى النوع الآخر.

وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ قد يقول قائل: كيف يتصور أن الإنسان يظلم نفسه، الإنسان

يدفع عن نفسه الظلم فكيف يظلم نفسه؟

والجواب على ذلك أن نقول: كل من خالف أمر الله بفعل مُحرم أو ترك واجب فقد ظلم نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] لماذا؟ لأن النفس عندك أمانة تجب عليك رعايتها، وقد أوصاك الله بها فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فنهى عن قتل النفس وعن ظلم النفس؛ لأنها أمانة عندك.

ومن المناسب أن نورد قول العلماء: إن الله أرحم بك من أبيك وولدك ونفسك، أما كونه أرحم بك من أبيك فإن الله قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] فأوصى الآباء والأمهات بالأولاد، إذن فهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وأما بالعكس أن يكون أرحم بك من أبنائك، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨] وأما أرحم بك من نفسك فلأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

إذن نقول: وجه كون الإنسان ظالم لنفسه أن نفسك عندك أمانة، فإذا فرطت في هذه الأمانة بأن أقحمت نفسك فيما حرم الله عليك أو تأخرت عما أوجب الله عليك فقد ظلمت نفسك.

وظلم النفس هو في الواقع ظلم في حق الغير؛ لأن ظلم النفس إما في حق يتعلق بالله عزَّ وجلَّ، وإما في حق يتعلق بالمخلوق، فإن كان في حق الله فإنك ظالم في حق الله، وإن كان في حق المخلوق فإنك ظالم في حق المخلوق، قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم»[1]. ولهذا نعرف أن من ظلم نفسه فقد ظلم ثلاثة: ظلم نفسه، وظلم حق الله عزَّ وجلَّ، وظلم المخلوق؛ لأن هذه كلها تتعلق بأوامر الله ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا۟ اللَّهَ﴾ أي: ذكروا الله باللسان وبالجوارح وبالقلب.

أما ذكر الله بالقلب فإنه إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا عظمة الله وما أعد للمخالفين من العقاب، وذكروا كذلك رحمة الله وما أعد للطائعين من الثواب، هذا ذكر بالقلب، فإذا ذكروا الله بالمعنى الأول ذكروا عظمته فخافوا من عقابه واستقاموا على دينه هربًا من عقابه، وإذا ذكروا الله بالمعنى الثاني وهو ذكر رحمته وثوابه فإنهم يستقيمون على شرعه طلبًا للوصول إليه، فذكر الأول من باب الهرب، وذكر الثاني من باب الطلب، والعابد بمقتضى الطلب أعلى حالًا من العابد بمقتضى الهرب، قالوا: لأن الطالب ناصح في غيبة المطلوب وفي حضوره، والهارب ناصح في حضور المخوف لكن في غير حضوره لا يهتم، ويمكن أن يؤخذ هذا من قول الرسول ﷺ: «أَنْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، و مسلم (١٥٦٤).

تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)].

وذكر الله باللسان يمكن أن يكون المراد به الذكر الخاص مثل: لا إله إِلَّا الله كما يروى عن الشيطان أنه قال: (أهلكت بني آدم بالمعاصي، وأهلكوني بلا إله إِلَّا الله والاستغفار)[(٢)]. فذكر الله لا شك أنه من أسباب مغفرة الذنوب، فيذكرون الله بألسنتهم يقولون: لا إله إِلَّا الله – كلمة الإخلاص – وهذه إذا قالها الإنسان مُخلصًا غفر الله له، وكذلك أيضًا ذكر الله باللسان يكون بالاستغفار: اللهم اغفر لي أو أستغفر الله أو ما أشبه ذلك.

والذكر بالفعل هو أنهم يفعلون ما يكفرِّ هذه الذنوب والخطايا، ومن ذلك الصدقة فإن النبي ﷺ قال: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»[(٣)]. وكذلك أيضًا الصلاة، فإن الإنسان إذا توضأ وأسبغ الوضوء ثم صلى ركعتين لا يُحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، يعني: فإذا ذكروا الله استغفروا لذنوبهم، أي طلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى لذنوبهم، وتقدم لنا مرارًا أن المغفرة تعني ستر الذنب والتجاوز عنه، وقوله: ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ الذنوب: هي المعاصي والآثام، فيسألون الله تعالى أن يغفر لهم هذه المعاصي والآثام، وإذا استغفر الإنسان ربه بنية صادقة وافتقار إليه فإن الله تعالى يغفر له، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. (مَنْ) اسم استفهام وليست اسم شرط، والدليل على أنها اسم استفهام لا اسم شرط أن الفعل بعدها وقع مرفوعًا ﴿وَمَن يَغْفِرُ﴾. ثم إن أداة الإثبات جاءت بعدها وهي ﴿إِلَّا﴾، وعلى هذا نقول: (مَنْ) اسم استفهام بمعنى النفي، ويدل أنها بمعنى النفي إتيان الإثبات بعدها وهي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يأتي النفي بصيغة الاستفهام؟ فلماذا لم تكن الآية كما في حديث أبي بكر رضي الله عنه الذي علَّمه النبي ﷺ حيث قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيْرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلَا أَنْتَ»[(٤)] وهذه الآية جاءت بقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟

فنقول: لأن النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من النفي المُجرد؛ لأنه إذا جاء النفي بصيغة الاستفهام صار مُشرَّبًا بالتحدي كأن المُستفهِم يقول: ائت لي بكذا وكذا، ائت لي بأحد يغفر الذنوب إِلَّا الله عزَّ وجلَّ، فيكون الاستفهام هنا دالًّا على النفي مُشربًا بالتحدي.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. و مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٤٢). فقد أوردها عن ابن الجوزي قال: إن إبليس قال: «أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إِلَّا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يُذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا».

(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٩٠١).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

قوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بالرفع مع أنه وقع بعد ﴿إِلَّا﴾؛ لأن الكلام مفرغ، والمفرغ: هو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه. فإذا قلت: ما قام إلَّا زيد، فهنا الاستثناء مفرغ لم يذكر فيه المستثنى منه. وإذا قلت: ما قام أحد إلَّا زيد، فهذا غير مفرغ؛ لأنه ذكر المستثنى منه. وإذا قلت: ما رأيت إلَّا زيدًا، مفرغ؛ لأنه لم يذكر فيه المستثنى منه. وإذا قلت: ما رأيت أحدًا إلَّا زيدًا، فهذا غير مفرغ.

هنا ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: لا أحد يغفر الذنوب إلَّا الله، لو تستغفر كل الخلق من ذنبك ما نفعوك، لو أنك مثلًا أتيت إلى كل الذين في المسجد وقلت: أستغفركم من الذنب الذي فعلت، فهل تنفع مغفرتهم؟

لنفرض أن رجلًا أساء في المسجد إساءة محرمة تؤذي المصلين، فجاء فقال: أيها المصلون أستغفركم مما فعلت، هل يمكن أن يغفروه له؟ يُقال: يمكن أن يغفروا له ما يتعلق بهم، لكن أصل الذنب لا يمكن أن يغفروا له؛ لأنه يقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾ معطوفة على قوله: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾،

ويُصروا: أي يستمروا على ما فعلوا ويبقوا عليه؛ لأن طالب المغفرة لا يمكن أن يصر على اقتراف الذنب، يقول اللهم اغفر لي وهو مصرٌّ على معصيته، هذا سخرية واستهزاء، ولهذا قال: ﴿مَا فَعَلُوا۟﴾ من الفاحشة وظلم النفس.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أن تكون استئنائية ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ يعني: أتى بجملة مستأنفة فقال: وهؤلاء يعلمون عظم الذنوب، ويعلمون عظم مَنْ عصوه، ولذلك لا يصرون على ما فعلوا، ويحتمل أن تكون الواو للحال يعني: ولم يصروا على ما فعلوا حال كونهم عالمين بأن الإصرار على الذنب لا تحصل معه المغفرة، أو وهم يعلمون بأن هذا ذنب، فإذا وقع منهم ذنب أصروا عليه فإنهم لا يعلمون أنه ذنب، والآية ما دامت تحتمل هذه الأوجه الثلاثة فإننا نقول على القاعدة أنها تحمل عليها كلها، كل ما تحتمله الآية من معنى ولا تناقض بين المعاني فإنه يجب أن تحمل عليها كلها، فإن كانت المعاني تتناقض أو تتعارض فإنه يطلب المرجح؛ لأنه لا يمكن أن يحمل الكلام على الشيء وضده.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن المتقي لا يكون معصومًا من فعل الفاحشة أو ظلم النفس؛ لأن الله لم يقل: وهم لا يفعلون الفواحش أو لا يظلمون أنفسهم، بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ففعل الفاحشة لا يخدش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد جاء في الحديث عن

النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاء، وَخَيْرُ الخَطَّائِيْنَ التَّوَّابُوْنَ»(١)، وصح عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ»(٢). إذن ليس الشأن في أن لا يفعل الإنسان المعصية، كل إنسان لابد أن يعصي، لكن الشأن في أنه إذا فعل المعصية رجع إلى الله.

٢ - أن الذنوب تنقسم إلى قسمين: فواحش ودونها؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ (أو) هنا: للتنويع، وهذا متفق عليه بين العلماء أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، ولكن ما هو الضابط للكبائر والصغائر؟ بعض العلماء يقول: إن الكبائر معدودة فجعل يعددها ويقول الكبيرة الأولى، الكبيرة الثانية، الكبيرة العاشرة، إلى أن انتهى إلى ما بلغه علمه من الكبائر، وبعضهم يقول: إن الكبائر محدودة وليست معدودة، ومعنى محدودة يعني مُعلقة بوصف لا بعدد، فقالوا مثلًا: ما فيه حدٌّ في الدنيا فهو كبيرة مثل الزنا والسرقة والقذف، كل ما فيه حد في الدنيا فهو كبيرة، وكل ما رتّب عليه اللعنة فهو كبيرة مثل: «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحدثًا»(٣). ومثل: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِي والمُرْتَشِي»(٤) وما أشبهه، وكل ما رتب عليه غضب فهو كبيرة، مثل قوله تعالى في القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣] وكل ما رتب عليه وعيد في الآخرة بأن قيل: من فعل كذا فهو في النار أو ما أشبه ذلك، مثل: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ»(٥).

ورأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كل ما رتّب عليه عقوبة خاصة، دنيوية أو أخروية فهو كبيرة، وما جاء النهي عنه بدون ذكر عقوبة فهو صغيرة، فقال مثلًا: الغش من كبائر الذنوب؛ لأن الشارع جعل له عقوبة خاصة: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(٦). وإيذاء الجار من كبائر الذنوب؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»(٧). وهذا الذي حدَّه رَحِمَهُ اللهُ يدخل فيه من الذنوب شيء كثير، ولكن لا شك أن ما قاله رَحِمَهُ اللهُ ليس معناه أن هذه الكبائر تكون على مرتبة واحدة بل حتى الكبائر فيها ما هو أكبر، وفيها ما هو أصغر، كما في الحديث الصحيح: «أَلَا أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»(٨). وعلى هذا فنقول:

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، و الدارمي (٢٧٢٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٤٩)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٩)، والترمذي(٢٥٢٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٨)، والنسائي (٤٤٢٢).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨٧)، والترمذي (١٣٣٧)، وأبو داود (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢٣١٣).

(٥) صحيح:أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤١٠)، والنسائي (٥٣٣٠).

(٦) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤١٧)، وابن ماجه (٢٥٧٥).

(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨٦)، و مسلم (٤٧).

(٨) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، و مسلم (٨٧).

الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، تؤخذ من الآية هذه. ثم إنَّ الكبائر تختلف مراتبها بحسب ما يترتب عليها من المفاسد والآثام.

٣ - سرعة انتباه هؤلاء عند فعل الذنوب؛ لقوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيُبادرون بالتوبة، والمبادرة بالتوبة من صفات المتقين وهل هي واجبة؟ الجواب: نعم، تجب المبادرة بالتوبة؛ لأن التوبة إذا نزل الأجل لا تُقبل، والإنسان لا يدري متى ينزل أجله، وعلى هذا فيجب أن يتوب الإنسان من ذنوبه فورًا بدون تأخير.

٤ - أن ذكر الله عزَّ وجلَّ سبب للتوبة والرجوع إلى الله؛ لقوله: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٥ - أنهم يُبادرون بالتوبة وسبق استغفار هؤلاء المتقين لذنوبهم؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة عجز أولئك القوم الذين يقولون: إن الله غفور رحيم ولا يستغفرون الله، فإن بعض المذنبين إذا نهيته عن الذنب قال: إن الله غفورٌ رحيم ولكن هو نفسه لا يستغفر، وإذا كان هؤلاء السادة يستغفرون ربهم بل إذا كان الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يستغفر فما بالك بمن دونهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

٦ - أنه لا أحد يستطيع أن يغفر الذنوب إلَّا الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويتفرع عليها أن لا تعتمد على أحد في مغفرة الذنوب أو طلب المغفرة، وإنما يكون اتجاهك إلى الله عز وجل.

٧ - أن هؤلاء السادة المتقين لا يُصرون على ما فعلوا من الفاحشة أو ظلم النفس وهم يعلمون.

٨ - أن الرجل إذا أذنب فاستغفر ثم أذنب فاستغفر ثم أذنب فاستغفر، فإنه غُفر له وإن تكرر الذنب منه؛ لأن الله قال هنا: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل: (ولم يعيدوا ما فعلوا)، والإنسان إذا كان كلما أذنب استغفر فإنه يُغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] ويجب أن لا يكون استغفاره بلسانه، وقلبُه منطوٍ على الرجوع، فإن كان كذلك فإن هذا الاستغفار لا يفيده، لكن يكون استغفاره حقيقةً بقلبه ولسانه، والإنسان بشر ربما تغلبه نفسه في المستقبل فيفعل المعصية مع أنه قد استغفر منها فنقول: مهما عملت ومهما تكرر منك الذنب ما دمت تستغفر فإن الله تعالى يغفر لك.

٩ - توبيخ من أصرَّ على الذنب وهو عالم به؛ لقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال العلماء: إن الإصرار على المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة؛ لأن إصراره عليها يدل على تهاونه بمَنْ عصاه.

❁ قال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]

❁ التفسير ❁

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: هنا إشارة وخطاب، الإشارة مأخوذة من قوله «أولاء»، والخطاب من «الكاف» في قوله: «أولئك»، ويجب أن نعلم من حيث اللغة العربية أن اسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، وأما كاف الخطاب فبحسب المخاطب، ثم إذا كانت بحسب المخاطب فهل تبقى مفردة مفتوحة مبنية على الفتح، أو تكون بحسب المخاطب تذكيرًا وتأنيثًا وتثنية وجمعًا وإفرادًا، أو تكون بالفتح للمذكر مُطلقًا ولو جمعًا أو مثنى، وبالكسر للمؤنث مُطلقًا ولو جمعًا أو مثنى؟ في هذا ثلاث لغات للعرب:

اللغة الأولى: أنها لازمة للفتح باعتبار أن المخاطب اسم جنس، فإذا قلت: (ذلك) تخاطب اثنين فالمعنى أنك تخاطبهما باعتبار جنس الذكور أو باعتبار جنس الشخص.

اللغة الثانية: أنها بالفتح للمذكر مُطلقًا، وبالكسر للمؤنث مُطلقًا. ومعنى الإطلاق أي في حالة التثنية والجمع والإفراد.

اللغة الثالثة: هي الأفصح أنها بحسب المخاطب مُطلقًا، فإذا كان مفردًا مذكرًا فهي بالفتح مفردة. وإذا كان مثنى فهي بالتثنية، وإذا كان جماعة ذكور فهي تقترن بالميم، وإذا كان جماعة إناث فهي تقترن بالنون، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ لأنها تخاطب جماعة نسوة، وقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ لأنه يخاطب اثنين، وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]؛ لأنه يخاطب جماعة ذكور، هذا هو الأفصح، فهنا يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الخطاب لواحد يعني: أولئك أيها المخاطب، والإشارة لجمع يعني: أولئك المتقون أيها المخاطب.

﴿جَزَآؤُهُم﴾ أي: ثوابهم ومكافأتهم على عملهم مغفرة من ربهم يكون بها النجاة من النار ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ يكون بها حصول المطلوب في جنات النعيم.

﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: عفو وتجاوز عن الذنوب وستر عن الخلق.

﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ جنات جمع؛ لأن الجنة درجات كثيرة ومنازل متنوعة يختلف الناس فيها بحسب أعمالهم، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أهل الجنة يتراءون الغرف كما تتراءى الكوكب الدري الغابر في الأفق، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ قال: «بَلَى وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»[(١)]. فهذه منازلهم، نسألك اللهم من فضلك، اللهم اجعلنا منهم.

هذه المنازل يختلف الناس فيها. أهل الجنة يتراءونها مثل ما نرى الكوكب الدري المضيء الغابر في الأفق بعيدًا جدًّا، ليس فوق مسافة الرؤوس بل هو بعيد، فهي درجات؛ ولهذا تُجمع، وأعلى ما فيها الفردوس؛ لأن فوقه عرش الله جل جلاله، وهو و سط الجنة وأعلى الجنة ومنه تُفجر أنهار الجنة، ووصفها الله بأنها جنات؛ لأن فيها من أنواع النعيم ما لا يخطر على البال، فهي دار لا يمكن أن يدرك الإنسان كنهها وحقيقتها؛ لأنها أعظم من أن تدركها مخيلتنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقال تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(٢)].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قال العلماء: أي من تحت قصورها وأشجارها لا من تحت أرضها؛ لأنه لو كان من تحت أرضها لكانت في الأسفل في قعر، ولكنها تمشي على سطح أرض الجنة تحت القصور والأشجار، وقد ورد في الأثر أن هذه الأنهار تجري بلا أخدود وبلا حفر[(٣)]. وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

تجري على الأرض بدون أن يكون لها أخدود يعني سواقٍ أو حُفر، ومع هذا تجري حيث أراد الإنسان.

وقوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر، وقد بين الله تعالى في سورة محمد أنها أربعة أنواع: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يعني: لا يقبل أن يكون آسنًا بخلاف ماء الدنيا فإنه يكون آسنًا أي: متغيرًا، فإنه إذا تأخر وأبطأ تغير، أما ماء الجنة فلا يتغير ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بخلاف ألبان الدنيا فإنها تتغير إذا زادت عن المدة تغيرت وفسدت. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] لا توجع الرأس، ولا تغتال العقول، وأشد ما يكون من اللذة. الرابعة ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أنهار من العسل ليس من عسل النحل الذي يكون نصفها أو أكثرها شمعًا ولكنه من عسل مُصفى.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أي: ماكثين فيها مكثًا طويلًا، وقد جاءت آيات أخرى تدل على أن هذا الخلود

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٨).

خلود تأبيد، وقد أجمع علماء أهل السُّنة على أنها -أي الجنة- مؤبدة بما فيها من النعيم.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجملة هنا إنشائية للمدح والثناء. الثناء على هذا الأجر العظيم و﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: ثوابهم، وجعله ذو الفضل والإحسان أجرًا ليكون الإنسان مطمئنًا على الحصول عليه إذا قدَّم العوض وإلَّا فالمنة لله عزَّ وجلَّ أولًا وآخرًا، لكن يمنّ علينا والحمد لله بالعمل ثم يمنُّ علينا ثانيًا بالجزاء، ويقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] كأننا نحن مُحسنون استقلالًا وابتداءً، فإذا أحسنّا فجزاؤنا أن يُحسن إلينا مع أنه سبحانه وتعالى هو الذي أحسن إلينا أولًا وآخرًا، كذلك يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] سبحان الله، يمن علينا بالسعي ويوفقنا له ويعيننا عليه ثم يشكرنا عليه، هذا والله هو غاية الفضل والإحسان فله الحمد والشكر. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الذين يعملون لهذا الأجر العظيم، وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ نقول في إعرابها: إن ﴿أَجْرُ﴾ فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: (نعم أجر العاملين هو) أو الجنة كما قال الشاعر:

نِعْمَتْ جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّة ... فِيهَا الْأَمَانِي وَالمُنَا وَالمِنَّةِ

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان جزاء المتقين وأنه جزاء لا يُدركه الإنسان بتصوره؛ لأنه أعظم مما يتصور.

٢ - أن جزاءهم متضمن لحصول المطلوب ودرء المكروه، يؤخذ من قوله (المغفرة) (وجنة) فبالمغفرة درء المكروه، وبالجنة حصول المطلوب.

٣ - أن مغفرة الله عزَّ وجلَّ للمرء من أعظم الثواب، فلا تغفل أن تكثر من سؤال المغفرة، كان النبي ﷺ حينما نزلت عليه سورة النصر يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي»(١).

٤ - بيان حال الجنات التي وعدها المتقون وما يُصوره قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من النعيم العظيم.

٥ - أن أهل الجنة خالدون فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد دلت النصوص على أن هذا التخليد أبدي.

٦ - عظم هذا الأجر؛ لأن العظيم إذا أثنى على شيء دلَّ على عِظمه، والله سبحانه وتعالى هو العظيم جل وعلا وقد أثنى على هذا النعيم.

٧ - بيان فضل الله عزَّ وجلَّ على عباده حيث جعل هذا الجزاء أجرًا بمنزلة الأجر المُحتم الذي لابد من أن يناله العبد.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨١٧)، و مسلم (٤٨٤).

فإذا قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ...»[1]، وظاهر الآية التي معنا أن هذه الجنة التي أعدت لهم هي أجرٌ وعوض على ما قاموا به من العمل؟

والجواب عن هذا أن نقول: إن قول الرسول ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» أي: على سبيل المكافأة أي أن الجزاء يُكافئ العمل ويكون عوضًا عنه، وأما على أنه سبب من الأسباب ولكن الله بفضله جعله بمنزلة العوض فهذا ثابت، فأعمالنا سبب ولو قوبلت بنعم الله لم تكن شيئًا. لو أنك جمعت نعم الله عليك وقارنت بينها وبين عملك لكان العمل ضئيلًا جدًّا ولا يساوي شيئًا. لو أصيب الإنسان بضيق في نَفَسه لكان يبذل لك ما يملك من أجل زوال هذه المحنة،كذلك البول، الغائط، السمع، البصر إلى غير ذلك، نعمٌ كثيرة لا يقابلها العمل، وقد قال بعض الشعراء:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ[2]

فإذا وفقت للشكر وشكرت الله فهي نعمة؛ لأن الله قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وما أكثر الذين كفروا نعمة الله، ثم إذا شكرت الله قلنا: إنها نعمة تحتاج أيضًا إلى شكر آخر، فإذا وفقت لشكر الشكر فهو نعمة ثالثة تحتاج إلى شكر وهلم جرا، ولهذا قال:

فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العُمْرُ

والمُصرُّ هو الذي يبقى على الذنب وكأنه ليس بذنب، أما الإنسان الذي يتوب ثم تغلبه نفسه في المستقبل ويفعل المعصية فهذا ليس مُصرًّا، ولهذا ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: «أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ اللهَ، ثُمَّ أَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ اللهَ، ثُمَّ أَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ، ثُمَّ أَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[3]. فكون الإنسان كلما أذنب استغفر، وكلما استغفر عاد فأذنب لا يبطل توبته الأولى.

وهل إذا تاب من ذنب وهو مُصرٌّ على آخر تُقبل توبته من هذا الذنب أو لا؟

ذكرنا أن في هذا خلافًا للعلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: لا تُقبل، ومنهم من قال: تُقبل مُطلقًا، ومنهم من قال: إن كان الذنب الذي هو مُصرٌّ عليه من جنس الذنب الذي تاب منه فإنها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) البيتان للشاعر محمود الوراق. انظر: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر (١/ ٢٣٢)، وكتاب المُستظرف (١/ ٥٠٣)، وكتاب تاريخ دمشق (٥/ ١٩٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، و مسلم (٢٧٥٨).

لا تُقبل، وإن كان من غير جنسه قبلت، فمثلًا إذا تاب من غش الناس في البيع لكن غشَّهم في الإيجار لم تُقبل توبته؛لأن هذين الذنبين من جنس واحد وإن اختلف محل الغش، والصحيح أنها تقبل إذا تاب من ذنب ولو أصرَّ على مثله أو على جنسه، ولكنه لا يستحق الوصف المُطلق في مدح التوابين يعني لا يدخل في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إنما يُقال: هذه توبة مُقيدة.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]

التفسير

قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ جملة مُحققة بـ (قد)؛ لأن ﴿قَدْ﴾ إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق، وإذا دخلت على الفعل المضارع تفيد التقليل، وقد تفيد التحقيق بالقرائن، فقول القائل: قد يجود البخيل، هذه للتقليل. وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨] هذه تفيد التحقيق. أما إذا دخلت على الماضي فإنها تكون للتحقيق كقول المقيم: قد قامت الصلاة.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت.﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ الخطاب لهذه الأمة، والسُنن جمع سُنة وهي: الطريقة، والمراد بها سُنن الله عزَّ وجلَّ في المُكذبين حيث يأخذهم ويدمرهم كما قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. قال: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أهلكهم وأبادهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ من هذه الأمة. إذن سُنن جمع سُنة وهي الطريقة، والمراد بها: طريق الله تعالى في المُكذبين للرسل حيث تكون عاقبتهم الهلاك والدمار.

وقوله: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء هنا للترتيب وهي عاطفة، عطف جملة على جملة. ﴿فَسِيرُوا۟﴾ فعل أمر من السير وهو: المشي، والمراد به هنا: سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو بالتفكير، أن يتفكر الإنسان في الأمم السابقة عليه زمنًا، وكذلك يتفكر في الأمم السابقة عليه مكانًا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨] فالإنسان يسير بقلبه ويسير بقدمه، أما سيره بقلبه فهو أن يتفكر في عاقبة من مضى زمنًا وفي عاقبة من مضى مكانًا، فمثلًا ديار ثمود موجودة الآن يُفكر الإنسان فيها زمنًا أو مكانًا، فينظر كيف كان عاقبتهم، والسير بالقدم قد يكون أشد وقعًا من السير بالقلب؛ لأن

الإنسان يصل به إلى حق اليقين، والمشاهدة بالعين والسير بالقلب أعم وأشمل؛ لأن الإنسان يصل به إلى ما لا يمكنه الوصول إليه بالسير قدمًا.

وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: (في) ظرفية ولكنها عند المفسرين هنا بمعنى (على) أي: سيروا على الأرض؛ لأن السير في جوف الأرض غير ممكن وغير مفيد أيضًا، وإنما يفيد السير على ظهر الأرض.

وقوله: ﴿الْأَرْضِ﴾ أي: أرض من سبق فـ (ال) هنا للعهد المفهوم من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: سيروا في أرضهم وانظروا كيف كانت عاقبتهم.

وقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: انظروا بعين البصر وبعين البصيرة جميعًا، فإن وصل إلى مكان هؤلاء الأمم فالنظر يكون بعين البصر وبعين البصيرة، وإن لم يصل ولكنه فكَّر بقلبه فالنظر يكون بعين البصيرة؛ لأن البصر لا يمكن أن يصل إليه وهو ينظر في قلبه.

«وانظروا»: فعل أمر، وهي تنصب المفعول به لكنها عُلِّقت عن العمل؛ لأنه وليها جملة استفهامية، والجملة الاستفهامية إذا وليت الفعل المتعدي علقته عن العمل. وعلى هذا تكون الجملة في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في محل نصب مفعول (انظروا).

أما إعراب ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تفصيلًا:

﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر (كان) مقدمًا، وتقديمه هنا واجب؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فإذا وقع خبرًا وجب تقديمه، و ﴿عَاقِبَةُ﴾ اسمها و ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ معروف أنه مضاف إليه.

﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: مآل أمرهم، وعاقبة الشيء ما يعقبه ويعود إليه الشيء. و﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ هنا المراد بهم: المكذبين لله ورسله فماذا كان عاقبتهم؟ كان عاقبتهم الهلاك والدمار، وعقوبتهم على حسب ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠] الذين أرسل الله عيهم حاصبًا مثل قوم لوط ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كثمود قوم صالح. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وقوم نوح، أغرقهم الله عزَّ وجلَّ حسبما تقتضيه الحكمة.

والعقول قاصرة غالبًا عن معرفة تناسب العقوبة والعمل. وأقول غالبًا؛ لأنها أحيانًا قد تعرف المناسبة، فمثلًا: نحن نعرف مناسبة إهلاك عاد بالريح، وهي أنهم كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥]، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يُريهم أنه يُهلكهم بما هو من ألطف الأشياء وهو الريح (الهواء)، الهواء لطيف ومع ذلك دمَّر الله به هذه الأمة التي تفخر بقوتها.

في آل فرعون؛ كان فرعون يعتز بالأنهار التي تجري من تحته، ويقول لقومه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف: ٥١ - ٥٢]، فأهلكه الله عزَّ وجلَّ بجنس ما افتخر به وهو الماء.

وأما الباقي فلا أستطيع أن أُحدد التناسب بين العمل وبين العقوبة، لكن قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يدل على أن العقوبة تناسب العمل، ومن الأمثال المشهورة عند الناس: (كما تدين تُدان).

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله سبحانه قد أهلك أممًا قبل هذه الأمة؛ لقوله سبحانه ﴿سُنَنٌ﴾ وسنن جمع كثرة لا جمع قلة.

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثم فِعْلَةٌ ثُمَّتَ أَفْعَالٌ جموعُ قِلَّة

يعني أنَّ جمع القلة محصور بهذه الأوزان الأربعة فقط: أفعِلة، أفعل، ثم فِعلة، ثمت أفعال، جموع قلة.

٢ - تسلية هذه الأمة من وجه، وتحذيرها من وجه آخر:

تسليتها بأن الله سبحانه وتعالى قد عاقب من قبلها، فعقوبته لها في غزوة أُحُد من سنن الله عز وجل؛ لأنه لا شك أن ما حصل في أُحد عقوبة قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وفيها أيضًا تحذير من جهةٍ أخرى من عقوبة أشد؛ لأن الأمم السابقة أُهلكوا ودُمروا عن آخرهم.

٣ - إثبات القياس؛ لأن المقصود بقوله: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ النظر والاعتبار، وأن يُقاس ما حضر على ما مضى وسلف.

٤ - الأمر بالسير في الأرض، ولكن هل هو على إطلاقه أو من أجل الاعتبار فقط؟

لننظر ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ إذن السير في الأرض لغير غرض شرعي مذموم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ [1] وغيره من أهل العلم؛ لأن السير في الأرض من غير غرض شرعي فيه إتعاب للنفس، وتعريضها للهلاك، وإضاعة المال، وإضاعة الوقت، أما إذا كان

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٢٧).

لغرض شرعي فهو على حسب هذا الغرض. وعلى هذا فإن السير في الأرض ينقسم إلى أقسام:

قسم لأغراض مُحرمة، وهذا لا شك في تحريمه. وقسم آخر لأغراض مشروعة مطلوبة، وهذا لا شك في طلبه. وقسم ثالث لمجرد الفرجة والنزهة، وهذا يُنظر فيه، فالأصل فيه الإباحة، ولكن إن توصل به الإنسان إلى محرم كان حرامًا، وإن توصل به إلى مشروع كان مشروعًا.

فمثال الأول وهو السير في الأرض من أجل الحرام: ما يفعله بعض الناس المترفون الذين يسيحون في أرض الكفر وأرض المجون من أجل أن يحصلوا على مآربهم التي لا يستطيعون الحصول عليها في بلادهم، وهذا لا شك أنه حرام، فالسفر لهذا الغرض حرام، ونفس هذا الغرض حرام، وإضاعة المال حرام، فهو حرام مُركب، ظلمات بعضها فوق بعض، والعياذ بالله.

ومثال الثاني الذي يكون لغرض مشروع: السير في الأرض لطلب الرزق الواجب، كإنسان ليس عنده ما يقوته وأهله، فسار في الأرض من أجل الحصول على الرزق، وكذلك أيضًا السير في الأرض لطلب العلم، وقد كان السلف رحمهم الله يسيرون في الأرض لطلب العلم مسيرة شهر من أجل مسألة واحدة، يرحلون ارتحالًا في الأرض من أجل مسألة واحدة، والسفر في ذلك الوقت ليس كالسفر في وقتنا هذا، كان فيه مشقة، وفيه أخطار كبيرة.

أما السفر لا لهذا ولا لهذا مثل سفر بعض الناس للاستجمام والنزهة في أيام الإجازة – إجازة الأعياد وما أشبهها – وهذا نقول: ليس فيه بأس في الأصل، لكن قد يكون مُفضيًا إلى خير فيكون خيرًا، كما لو كان في هذا السير صلة رحم، أو بر الوالدين أو ما أشبه ذلك، فإنه يكون في هذا الحال أمرًا مطلوبًا.

وهنا مسألة: وهي إذا سار في الأرض لأمر شرعي كالعلاج لكن صَاحَبَهُ أمر مُحرم فهل يمنع من هذا السير؟

الجواب: أنه إذا كان لا يمكن أن يسير للعلاج إِلَّا بارتكاب هذا المحرم صار هذا حرامًا، وذلك لأن العلاج بالمحرم حرام؛ لأن ارتكاب المحرم ضرر محقق، والشفاء من المرض مصلحة متوقعة غير مُتيقنة، ولولا هذا لقلنا: إن من احتاج إلى أكل لحم الخنزير للعلاج جاز له أن يأكله مع أنه لا يجوز، وهذا هو الفرق بين جواز أكل لحم الخنزير للجوع، وأكل لحم الخنزير للاستشفاء. الثاني حرام، والأول جائز؛ لأن أكل اللحم عند الجوع يُفيد قطعًا، فإنه يدفع الجوع، ويسد رمق الإنسان، لكن علاجه بالمحرم قد ينجع وقد لا ينجع، فهو يرتكب مفسدة مُحققة لتوقع مصلحة موهومة، وإن شئت فقل راجحة أيضًا، لكن ليس الراجح كالمتيقن، ولهذا جاء في الأثر من قول ابن مسعود: «**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**»[1].

(١) صحيح: علقه البخاري (١٠/ ٦٥ -فتح الباري) وصححه الحافظ ابن حجر، وانظر «الصحيحة» (١٦٣٣).

السير في الأرض التي أهلك أهلها هل هو من الأمور المطلوبة؟

نقول: نعم، إذا كان المقصود بهذا الاتعاظ، أما إذا كان المقصود بهذا التفرج على قوة القوم، وما أشبه ذلك، فإنه لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ لما مرَّ بديار ثمود في ذهابه إلى تبوك مرَّ مُسرعًا مُقنعًا رأسه عليه الصلاة والسلام خائفًا، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**»(١). وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس الذين ماتت قلوبهم، يذهبون إلى ديار ثمود من أجل الاطلاع على مآثرهم وآثارهم وقدرتهم، فهذا لا شك أنه حرام؛ لأن الرسول ﷺ نهى عنه، فقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم**».

٥ - أن عاقبة المُكذب لله ورسله وخيمة؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]

❁ التفسير ❁

﴿هَٰذَا﴾ المشار إليه هل هو القرآن أو ما ذكر من قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] إلى آخر الآية؟

في هذا قولان للمفسرين:

أ - فمنهم من قال: إنه عائد إلى القرآن؛ لجريان ذلك كثيرًا في كتاب الله، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وما أشبه ذلك من الآيات التي فيها الإشارة التي تعود إلى القرآن نفسه. فتكون (هذا) أي: القرآن بيانًا للناس.

ب - ومنهم من قال: إنه عائد إلى أقرب ما ذكر؛ لأن اسم الإشارة والضمير كلاهما يعودان على أقرب مذكور، ولكن الأول أولى أن يكون عائدًا إلى القرآن كله، ومنه هذه الآية؛ لأن هذه الآية من القرآن، فإذا جعلنا ﴿هَٰذَا﴾ يعود على القرآن كله صار من ضمنه ما ذكر في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾. ﴿بَيَانٌ﴾ اسم مصدر، بيَّن، يبيِّن تبيينًا، مثل بدَّل يُبدِّل تبديلًا ومثل: كلَّم يُكلِّم تكليمًا، واسم المصدر: كلام.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ﴾ إذا قلنا إنه اسم مصدر فقد عبَّر باسم المصدر الذي هو البيان عن الموصوف بالبيان. وهذا من باب المبالغة أن يجعل الموصوف هو الصفة نفسها، كأننا سلبنا اتصافه بها حتى جعلناه هو نفس الصفة، ولهذا يقولون: إن قول القائل (فلان عدل) أبلغ من قولهم: (فلان ذو عدل) كأنه جعل هذا الموصوف هو الصفة. إذن القرآن ليس فيه البيان، بل هو نفسه البيان ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾.

كيف كان القرآن وهو عربي بيانًا للناس كلهم وفيهم العجم الذين لا يعرفون لغة العرب؟

نقول: لأن هؤلاء سيقيض لهم مَنْ يبلغهم إياه، ولهذا كثير من علماء المسلمين الآن الذين لهم قدم صدق في العلم والدين، كثير منهم عجم. وإن شئتم فاعجبوا! إن مرجع أكثر الناس في اللغة العربية الآن كتاب «القاموس المحيط» الذي ألفه أعجمي: الفيروزآبادي رحمه الله. وفي النحو مَن إمام البصريين؟ سيبويه رحمه الله.

فالحاصل: أن العجم - والحمد لله - بَلَغَهُم القرآن بواسطة، وليس لازمًا أن يأخذوه بأنفسهم، وبعضهم تَعَرَّب وصار لسانه عربيًا.

كل الناس، كل من قرأ القرآن تبيّن له ما دلَّ عليه القرآن، ولكن هل كل من بان له ذلك يهتدي؟

الجواب: لا. ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، هدىً بمعنى: دلالة يَسْتَدِلُّ بها المتقي. وموعظة بمعنى: امتثال؛ لأن الموعظة هي تليين القلوب بذكر ما يخاف منه، أو ذكر ما يرغب فيه، فهو هُدى يعني دلالة، وموعظة يعني امتثالًا.

فوصف الله القرآن بثلاثة أوصاف، وصف عام، ووصفان خاصان، الوصف العام هو (بيان للناس)، والخاصان (هدى) (وموعظة). فإنه لا يهتدي به إِلَّا المتقون، ولا يتعظ به إِلَّا المتقون. أما مَن ليس كذلك فهو عليهم عمى والعياذ بالله، ولا يزدادون به اتعاظًا، بل يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: نجاسة إلى نجاستهم، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٥].

فسبحان الله، كلام واحد يكون له هذا التأثير المتباين؛ في قوم هدى وموعظة، وعلى قومٍ عمًى ورجس؛ لأن القلوب بمنزلة الأراضي، الأراضي منها أرض طيبة تقبل الماء، وتنبت الكلأ، وينتفع بها الناس، ومنها أرض صلبة، لا تشرب الماء، ولكن تحفظ الماء، فينتفع به الناس، ومنها أرض سَبِخَة قِيعَان، تشرب الماء ولكنها لا تُنبت، فيزيدها الماء ضررًا؛ لأنها إذا كانت يابسة أمكن السير عليها، وإذا كانت رطبة لا يمكن السير عليها، تكون زلقًا وحرًا، ومع ذلك لا ينتفع بها الناس، لا بماء تحبسه، ولا بنبات تخرجه، فهكذا القرآن بالنسبة للناس؛ منهم من ينتفع به ويزداد هُدىً وتقوى، ومنهم من لا ينتفع به، بل لا يزداد إِلَّا عمى وضلالة؛

لأنه كلما كذب بآية ازداد إثمًا وعقوبة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن القرآن بيان للناس في كل شيء، فهو عام من حيث التبيين، وعام من حيث المبيَّن له نأخذ العموم من قوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾، والتبيين من كونه حذف المتعلق، وحذف المتعلق يدل على العموم ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ لكل شيء، ويؤيد هذا الآيات التي ذكرناها آنفًا كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٢ - أن القرآن صالح لهداية المؤمن والكافر؛ لقوله ﴿لِّلنَّاسِ﴾ فهو يشمل المؤمن والكافر.

٣ - أنه عِلْمٌ لكن للمتقين، يعني: لا ينتفع به إِلَّا المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤ - أن من لم يتعظ بالقرآن فليتهم نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإذا لم تتعظ بالقرآن فاتهم نفسك، فإن فيك بلاء، كما أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليتهم نفسه، فإن صلاته قاصرة؛ لأن الذي أخبر بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو الله عزَّ وجلَّ، وخبره صدق مُطابق للواقع، فإذا علم الإنسان من واقع نفسه أن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر فليتهم نفسه؛ لأن خبر الله لا يُتَّهم، ولهذا قال بعض السلف: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنها لا تزيده من الله إِلَّا بُعدًا - نسأل الله العافية ونسأل الله أن يُعيننا - فإذا لم تتعظ فاتهم نفسك بأنك غير متقٍ؛ لأن المتقي لابد بأن يتعظ بالقرآن.

٥ - فضيلة التقوى، وأنها سبب للاهتداء والاتعاظ بالقرآن.

٦ - أنه كلما ازداد الإنسان تقوى ازداد هُدىً وموعظة؛ لأن الحكم المعلق بوصف يقوى بقوّته، ويضعف بضعفه، فإذا كان الهدى والموعظة مُعلقًا بالتقوى فإنه لابد أن يزداد ويقوى بالتقوى، ويضعف وينقص بعدم التقوى.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

❁ التفسير ❁

في هذه الآية نهي المؤمنين عن الوهن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ (لا) ناهية، والفعل بعدها مجزوم بها بحذف النون (تهنوا) وأصله (تهنون) فحذفت النون من أجل الجزم.

قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾، الخطاب لهذه الأمة، وعلى رأسها نبينا محمد ﷺ وأصحابه، والوهن:

الضعف؛ يعني لا تضعفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: لا تضعفوا وتجبنوا، ولا تحزنوا على ما أصابكم وأنتم الأعلون. فذكر الله سبحانه وتعالى حال إقدامهم وحال إدبارهم، حال إقدامهم نهاهم عن الضعف، وهذا يعطيهم قوة وإقدامًا، وحال إدبارهم نهاهم عن الحزن، وهذا يعطيهم إعراضًا عما وراءهم وعدم الالتفات إليه. ومعلوم أن الحزن يكون فيما يسوء، والحزن على ما مضى لا يفيد الإنسان، بل يفتر عزيمته، ويقلق راحته، ولا يستفيد منه بشيء، فلهذا نهاهم الله سبحانه وتعالى عما يعوقهم حال الإقبال، وعما يعوقهم حال الإدبار.

(لا تهنوا) عما يكون سببًا لتوقفهم في حال الإدبار؛ لأن الإنسان إذا حزن على ما مضى بقي قلقًا لا يُحسن التصرف فنهاهم عن هذا وهذا.

ثم قال: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وقد اختلف المفسرون في الواو هنا هل هي حالية أو استئنافية؟

إذا قلنا: إنها حال يعني: والحال أنكم أنتم الأعلون، صار هذا النهي مُنحطًّا على الأمة ما دامت هي العليا؛ لأن الأعلى لا يليق به أن يضعف أو يحزن. يعني: فإذا انخفضت فلها أن تهن، ولها أن تحزن؛ لأنها ضعيفة لا يمكنها أن تتقدم، ولا يمكنها أن تتسلى عما مضى، لأنها كيف تتسلى وبأي شيء؟

وإذا جعلنا (الواو) استئنافية ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ يقرر الله فيها علو المؤمنين، وإذا تقرر علوهم فإن حالهم تقتضي أن لا يهنوا ولا يحزنوا؛ فيصير فيها تشجيع للأمة بأن لا يضعفوا ولا يحزنوا، لأنهم هم الأعلون حتى لو أصيبوا بما يُصابون به فيما تقتضيه حكمة الله بمداولة الأيام بين الناس فإن العاقبة لهم، وعلى هذا فيكون هذا الوجه الثاني هو أقرب إلى الصواب، وإن كان الوجه الأول مُحتملًا.

والمعنيان مُتلازمان؛ لأن من اعتقد أنه الأعلى فسوف لا يجبن ولا يحزن، ومن كانت حاله العلو فإنه كذلك لن يضعف ولن يحزن.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ إشكال من جهة الإعراب؛ لأن المعروف أن واو جمع المذكر السالم يُضم ما قبلها، فيُقال: مسلمُون، ولا يُقال: مُسلمَون وهنا قال: وأنتم الأعلَون، ولم يقل: وأنتم الأعلُون.

الأعلون مفردها الأعلى، حذف الألف لالتقاء الساكنين، الألف ساكنة، والواو ساكنة، وإذا حذفت الألف لالتقاء الساكنين، يجب أن تبقى الحركة التي قبلها وهي الفتحة على ما هي عليه؛ لأنك لو ضممتها لم يتبين أن هناك ألفًا محذوفة، فأبقيت الفتحة لتكون دالة على الألف المحذوفة.

والإنسان في الحقيقة بين زمنٍ ماضٍ وزمنٍ مُستقبل، فإذا فاته الخير أو حصل له الشر في الزمن الماضي فحاله الحزن، يحزن على ما مضى، وإذا ضعف وجبن فاته من الخير في المستقبل بقدر ضعفه وجبنه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ يعني: عن العمل في المستقبل، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما جرى

عليكم في الماضي؛ لأنكم أنتم الأعلون، ومن كان العلى فستكون العاقبة له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط للعلو؛ يعني: أنتم الأعلون في حال كونكم مؤمنين، والإيمان أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام يقع من المنافق وضعيف الإيمان، والإيمان لا يكون إلَّا من كامل الإيمان، من المؤمن حقًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الأعراب البادية ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ لماذا؟ قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات: ١٤]، حتى الآن لم يدخل الإيمان في القلب، عندكم إسلام لكن ليس عندكم إيمان، إلَّا أن الإيمان قريب منكم؛ لأن قوله: (لما) حرف نفي يدل على قرب المنفي؛ يعني: أن الإيمان قريب ما يدخل قلوبكم أما الآن فلا.

إذن هذه الأمة هي العليا بشرط الإيمان، أما إذا لم يكن لديها إيمان فليس لها عهد عند الله بالنصر؛ لأن العهد الموثق بين الله وبين عباده بالنصر، هو أن يكون النصر مُتبادلًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، أما إذا لم يكن منا نصر لله عزَّ وجلَّ فإن نصر الله قد يتخلف، يعني ليس بمضمون.

إذن ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وعلامات الإيمان كثيرة، منها:

أن لا يخاف الإنسان في تنفيذ حكم الله أحدًا من الخلق، فإن خاف أحدًا من الخلق فليس بمؤمن، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] يُخوف أولياءه: يعني يُخوفكم أولياءه، أي من أوليائه. ويوقع الخوف على أوليائه؟

ولهذا نقول: إن قوله (أولياءه) مفعول ثان لـ (يخوف)، والمفعول الأول محذوف، وتقدير الكلام (يخوفكم أولياءه) يعني: يوقع الخوف في قلوبكم من أوليائه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فماذا قالوا؟ قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فإذا خوف الشيطان أولياءه وهم الكفار، فإنه لا يجوز لنا أن نخافهم، بل نفعل ما أمرنا الله به.

غير أن أمره سبحانه وتعالى لنا بقتل الكفار إنها يكون حين نمتلك القوة التي نستطيع أن نقاتلهم بها، أما أن نقاتلهم بسلاح دون سلاحهم، وأقل من سلاحهم بكثير فإن هذا يُعتبر تهورًا، ولهذا لم يؤمر المؤمنون بالجهاد إلَّا حين صار لهم شوكة وقوة، فأما إذا لم يكن فلا، لكن هذا يستلزم أنه يجب علينا أن نتسلح لقتالهم حتى يكون الدين لله جل وعلا.

والخطاب هنا في إيجاب التسلح لولاة الأمر لا للأفراد؛ لأن أفراد الناس لا يستطيعون القيام

بهذا، ويجب على ولاة الأمور من المسلمين أن يكوِّنوا جيشًا عرمرمًا مُسلحًا بأحدث الأسلحة من أجل أن يُقاتل الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. لكن مع الأسف أننا اليوم فقدنا حتى السلاح الدعوي، حتى الدعوة لدين الإسلام، لا نجد أحدًا يدعو كما ينبغي، بينما نجد النصارى على قدم وساق في الدعوة إلى ما هم عليه من الباطل، يبذلون الأموال الكثيرة ويُغامرون بأنفسهم في المجاهل، في الطرقات، في البراري، يحمل القسيس منهم كسرة خبز وجرة ماء، ويضرب الفلاوات من أجل يدعو واحدًا من المسلمين إلى أن يكون نصرانيًا، أما نحن مع الأسف الشديد فإننا لا نحمل هذه القوة المعنوية في نفوسنا، مع أننا نحن إذا دعونا فإنا ندعو إلى الحق، فإن ديننا - ولله الحمد - إذا عُرِضَ عرضًا صحيحًا في الدعوة، وعرضًا صحيحًا في التطبيق، فإن ذلك كفيل بأن يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

أما إذا كنا ندعو إلى الصدق مثلًا ونحن من أكذب عباد الله، أو ندعو إلى الوفاء بالعهد ونحن من أغدر الناس، أو ندعو إلى حفظ الأمانة ونحن من أخون الناس، فهذا ليس بصحيح، بل هو تلاعب.

إذا كان ديننا ينهى عن الربا ومنا من يُرابي، كيف تكون الدعوة؟! أين الدعوة؟!

إذا لم تمثل الدعوة بحال الداعي تطبيقًا تامًّا بقدر المُستطاع، فإنه سينقص من قبول الناس بقدر ما نقص من تطبيقه؛ ولهذا نقول: إن الله شرط فقال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وصدق الله ورسوله.

هل الأمة الإسلامية اليوم هي العليا؟

الجواب: لا؛ لأن الإيمان ناقص، وشرط أن تكون الأمة عليا هو الإيمان، فإذا لم يوجد الإيمان فستتأخر، وسيكون من سوانا ممن لديه قوة مادية هو الأعلى.

إن الإنسان إذا كان عنده الإيمان، وفعل ما يجب عليه من الاستعداد المادي، كما فعل الرسول وأصحابه عليه الصلاة والسلام، فسينصرون على عدوهم بقوة لا طاقة لعدوهم بها، لكن بشرط أن يبذلوا الجهد بالسلاحين: سلاح الإيمان، والسلاح المادي بقدر المستطاع. وإذا شئتم مثلًا على ذلك فانظروا إلى غزوة الخندق، اجتمع على رسول الله ﷺ وهو في المدينة عشرة آلاف مقاتل من مختلف العرب، وبأقوى السلاح، ومعهم القوة العظيمة التي لا تقابلها قوة المسلمين من حيث القوة المادية، ففعل المسلمون كلَّ ما يستطيعون من أجل الدفاع عن أنفسهم إلى حد أنهم حفروا خندقًا، قاموا بالواجب ولكن مع ذلك حوصروا نحوًا من شهر.

فما الذي حصل؟ أتى الله عزَّ وجلَّ بقوة لا قبل للكفار بها، ولا للمسلمين أيضًا، ليس لهم فيها حول، وهي الريح، ريح شديدة باردة وهي الريح الشرقية، التي قال عنها النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ**

بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1]، ريح شديدة باردة، وجنودٌ من الملائكة تلقي الرعب في قلوب هؤلاء، حتى رحلوا بين غروب شمسٍ وشروقها. كانت الريح تكفئ قدورهم، وتهدم خيامهم، وتقلقهم إقلاقًا عظيمًا، حتى إن أبا سفيان وكان قائد الجيش في ذلك الوقت، كان يتصلى على النار مع أن النار غير مستقرة من شدة الهواء، وكان حُذيفة بن اليمان قريبًا منه يقول: لو شئت لرميته بالسهم حتى يموت، ولكن النبي ﷺ قال: «لَا تُحْدِثْ شَيْئًا» ولو كان من بعض شباب عصرنا لقال: هذا قد أتى الله به ورماه، لكنه منعه من ذلك امتثال أمر النبي عليه الصلاة والسلام الذي هو الحكمة، وإلّا كان قتله سهلًا. فقال أبو سفيان: لينظر كل واحد منكم جليسه من هو؟ خاف أن يكون أحد من الناس من غير الجيش، يقول حذيفة: فأمسكت بيد رجل قريب مني قلت: من أنت؟ وهذا من ذكائه رضي الله عنه لئلا يسبقه أحد فيقول لحذيفة: من أنت؟

وعلى كل حال فالمسلمون إذا بذلوا ما يستطيعون من القوة المعنوية وهي الإيمان، والقوى المادية وهي ما أمروا أن يعدوه للكفار، فإنهم سيُنصرون بقوة لا قبل لهؤلاء بها.

سمع رجل شخصًا يقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، فقال له هذه الأوصاف الأربع: أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، هذه الأوصاف كيف تُقابل القنابل الذرية والهيدروجينية والكيميائية وغير ذلك؟

فماذا نُجيب؟

نجيبه بخاتمة الآية ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فالذي يملك عواقب الأمور هو الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قدَّم الخبر ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، إذا كان الذي يملك عاقبة الأمور هو الله فما أيسر هذه الأسلحة على الله عز وجل. فإن الله تعالى قادر أن يُزلزل أرضهم بهم وبسلاحهم رجفة تفنيهم عن آخرهم، من فيضانات تُدمرهم، ورياح تحملهم مثل ما حملت قوم هود. فيجب على الإنسان أن يعلم أنه إذا بذل ما يجب بذله من الإيمان والقوة المادية حسب ما أُمر، فإنه سينتصر مهما كان. لكن مع الأسف فاليقين عندنا ضعيف، بل الإيمان ضعيف، فقد فَقَدْنا الإيمان والعمل الصالح والحكمة، فتأخرنا كل هذا التأخر.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ - ينهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن الوهن عن العمل في المستقبل، وعن الحزن على ما مضى؛ لأن هذا في الحقيقة كما أنه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ لأن الحزن على ما فات

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠٥)، و مسلم (٩٠٠).

لا يرد الفائت.

لو تحزن ليلًا ونهارًا على ما مضى لن تغير شيئًا، الذي مضى وقع كما هو لن يتغير، ولهذا كان من الحزم أن لا يحزن الإنسان على شيء مضى، بل يقول: قَدَّرَ الله، وما شاء فعل.

كذلك الضعف عن العمل في المستقبل والوهن والخور كما أنه خلاف الشرع فهو خلاف العقل؛ لأن العقل يقتضي أن تقابل الأمور بجدٍّ وحزم، وفي الحديث: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِي**»(١).

٢ - أنه ينبغي للإنسان أن يكون قوي العزيمة لا يضعُف ولا يجبن، وكم من إنسان ضعف وجبن ففاته خير كثير، ولو أقدم لحصل على خير كثير؛ لأن المستقبل لا تدري ما النتيجة فيه.

٣ - أن هذه الأمة هي العليا بشرط أن تؤمن؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

٤ - التلميح بالتوبيخ إذا حصل الوهن أو الحزن لا سيما إذا قلنا: إنَّ الواو هنا واو الحال؛ يعني: كيف يليق بكم أن تهنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟ لأن الأعلى لا يليق به أن يهن أو يحزن.

٥ - أنه كلما ازداد إيمان الأمة ازدادت علوًّا؛ لأنه رتَّب العلو على الإيمان، والمرتب على شيء يزيد بزيادته وينقص بنقصه، وهذه الآية قريب منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] ليُظهره يعني: يُبينه ويُعليه، ومنه قولهم: (ظهر على الجبل) يعني: علا عليه، ومنه ظَهْرُ الحيوان وهو أعلى الحيوان.

إذن ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] يُعليه، فإذا أردت أن تعلو على البشر فخذ بهذا الدين؛ لأن هذا الدين لابد أن يكون هو الدين العالي على كل شيء.

❁ **ثم قال تعالى مُسلياً الصحابة ﷺ بقوله:**

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

❁ التفسير ❁

إن يمسسكم (قَرحٌ) وفي قراءة (قُرحٌ) في الموضعين ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ فقيل:

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

معناهما واحد، وأن القَرْح والقُرْح هو الجرح، وقيل: إن القُرْح الجرح، والقَرْح ألم الجرح، والقولان إن قلنا باختلافهما متلازمان؛ لأن القَرْح من لازم الجرح الذي هو القُرح، فالإنسان المقروح لابد أن يكون متألمًا.

يعني: إن يمسسكم جراح وألم فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله يعني جرح وألم.

بل قال الله تعالى في نفس سياق الآيات: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فإذا كان قد أصابتكم مصيبة فقد أصبتم مثليها، ففي أُحد قُتل منكم سبعون، لكن في بدر قُتل من عدوكم سبعون وأُسر سبعون، ضعف.

هنا يقول: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وفي هذا تسلية للمؤمنين؛ لأن الإنسان إذا علم أن عدوه أصابه مثل ما أصابه فإنه تهون عليه المصيبة.

تقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخرًا:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ الْبَـاكِينَ حَـوْلِي ... عَلَـى إِخْـوَانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَفْسِي

وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ ... أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّأَسِّـي

ولهذا أشار في القرآن: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٩] فاشتراككم في العذاب لم ينفعكم ولم يخفف عنكم الألم، لكن الله عزَّ وجلَّ يقول للمؤمنين: إن كنتم قد أصبتم بقرح فقد أصيب عدوكم بقرحٍ مثله، بل في آية أخرى يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ أي: في طلبهم، يعني: لا تضعفوا في طلبهم، اطلبوهم، اقتلوهم ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ صدق الله، وأيضًا ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: ١٠٤] هذه الفائدة العظيمة،هم لا يرجون شيئًا إنما يُريدون علوًّا واستكبارًا، خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس وأنتم ترجون الجنة، ترجون الشهادة؛ ولهذا قال: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾، والصحابة ماذا قالوا لأبي سفيان في أُحد، لما قال: يوم بيوم والحرب سجال؟ يقصد بدرًا، يعني مرة لنا ومرة علينا.

قالوا: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار والعياذ بالله. إذن فالمؤمنون لا يظنون أن عدوهم لا يُصيبه ألم ولا يُصيبه قرح، يصيبهم، لا يهولهم دعايته الكاذبة أنه سيفعل ويفعل ويفعل، لا يهولهم هذا. إذا قُتل منهم واحدًا ذاقوا ألم هذا المقتول، كما لو أنه قُتل منا واحدًا ذقنا ألمه، لكن نحن نرجو من الله ما لا يرجون، ولهذا قال: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ هذه بهذه.

ثم قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾ المشار إليه هنا بعيد، ولكنه في الحقيقة قريب؛ لأن الأيام هي الزمن فهي

قريبة، لكن لما كانت الأيام منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب غلَّب جانب البُعد ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها بينهم دولًا: فمرة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء، ومرة تكون الدولة لهؤلاء على هؤلاء. ففي بدرٍ كانت الدولة على المشركين، وفي أُحد كانت الدولة على المؤمنين، فهذا مرة وهذا مرة، لِحِكَم عظيمة بيَّنها الله سبحانه وتعالى فيما بعد.

وقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يشمل مداولتها بين أمة وأمة، ويشمل كذلك مداولتها في الإنسان الواحد، فالإنسان يجد يومًا سرورًا ويجد يومَ آخر حزنًا. كما قال الشاعر:

فَيَــــوْمٌ عَلَيْنَــــا وَيَــــوْمٌ لَنَــــا وَيَــــوْمٌ نُــــسَاءُ وَيَــــوْمٌ نُــــسَرُّ

فالدنيا هكذا لا تبقى على حالٍ واحدة، ولهذا يُقال: دوام الحال من المحال، فالأيام دول.

وانظر إلى قوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ حيث أتت بصيغة نون العظمة إشارةً إلى أن الله عزَّ وجلَّ لكمال سلطانه وكبريائه يديل الناس بعضهم على بعض، فتارة تكون أيامًا لهؤلاء وتارة تكون أيامًا لهؤلاء.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الواو هنا حرف عطف، فما هو المعطوف عليه؟ هل هي الجملة التي سبقت الأيام ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ نقول: لا؛ لأن ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ تعليل للجملة التي قبلها وهي: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، والعلة غير المعلول ولا يصح عطفها عليه؛ لأن العلة هي السبب في وجود المعلول، إذن فهناك شيء معطوف عليه فيقدر بما يناسب الحال، فالذي يُناسب هنا هو أن نقول: إن التقدير ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليتبين بذلك تمام سلطان الله عزَّ وجلَّ، وأن الله عزَّ وجلَّ هو الذي له الحكم يحكم في عباده بما يشاء؛ فيخذل أقوامًا وينصر آخرين، ويأتي بالعسر ويأتي باليُسر حتى يتبين بهذا تمام سلطانه سبحانه وتعالى. حتى المخلوقات بعضها فيها خير وبعضها فيها شر، كل هذا ليظهر للناس تمام السلطان للعلي الكبير سبحانه. إذن فالواو هنا حرف عطف.

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ علم وجود وعلمٌ يترتب عليه الجزاء، وإنما قلنا بذلك؛ لأن الله تعالى قد علم الذين آمنوا قبل أن يؤمنوا، فإن علم الله بالأشياء علم أزلي قديم يعلم سبحانه وتعالى ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، لكن يعلمه علم وجود، أي: يعلمه موجودًا، أما العلم السابق فإنه يعلمه أنه سيوجد، وهناك فرق بين علمه الشيء موجودًا حال وجوده وبين علمه الشيء بأنه سيوجد، فهذا هو الأول.

والثاني: يعلمه علمًا يترتب عليه الجزاء؛ وذلك حين يوجد الإيمان أو يُفقد، أما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الجزاء، وذلك لأن المؤمن لم يكن موجودًا بعد حتى يُجازى أو لا يُجازى، وبهذا يزول الإشكال الوارد على مثل هذه الجملة، ويحصل به الجواب عن الإشكال، وهو أن يُقال: إن الله عزَّ وجلَّ قد علم الذين آمنوا من قبل، فإنه سبحانه وتعالى كتب في

اللوح المحفوظ مقادير كل شيء إلى يوم القيامة، وقد علم المؤمن من غيره من قبل، فكيف يقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾؟ فالجواب أن نقول: ليعلم علم وجود أي: بأن الشيء وجد، وتعلق العلم بالموجود غير تعلقه بالمعدوم الذي سيوجد. الثاني: أن يعلمه علمًا يترتب عليه الجزاء؛ لأن علمه السابق بأنه سيوجد لا يترتب عليه الجزاء.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كيف ذلك؟ لأن المؤمن يرضى بهذه المداولة، بمداولة الله الأيام بين الناس، يرضى بها رضًا تامًّا؛ إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، ويعلم أن ذلك بتقدير الله فيرضى ويُسلم، لكن غير المؤمن بالعكس إن أُصيب بالسراء أشر وبطر، وإن أُصيب بضراء ضجر وتسخط، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على طرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، والفتنة المُراد بها هنا: ضد الخير ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] وكم من إنسان ارتد؛ لأنه أُصيب بمصيبة والعياذ بالله.

الحكمة الثالثة قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ انظر إلى هذا التعبير! لم يقل: وليوجد بل قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فهؤلاء الشهداء اتخذهم الله واصطفاهم لنفسه جل وعلا، ولولا مثل هذه الهزيمة لم يكن شهداء، ولكن من أجل أن يتخذ منكم شهداء أي: يتخذ منكم أُناسًا قتلوا في سبيل الله، وكم شهيد اتخذهم في غزوة أُحد؟ سبعون رجلًا. لولا هذا لم يكن هناك شهداء.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الظالمون هم الذين نقصوا حق الله وحقَّ عباده؛ لأن الأصل أن معنى الظلم النقص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص. الظالم هو: الذي نقص في حق الله وحق عباده بل وحق نفسه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، فالظالم لا يحبه الله، فإن كان ظلمه ظلم كفر فلا حظَّ له في محبة الله، وإن كان ظلمه دون ذلك فله من محبة الله بقدر ما معه من العدل، ومن كراهة الله بقدر ما معه من الظلم.

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قد يبدو غريبًا على القارئ مناسبة هذه الجملة لما قبلها ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ كيف هذا؟ فيُقال: الجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بيان أن الذين تخلفوا عن غزوة أُحد، وهم مقدار ثلث الجيش لم يكن منهم شهيد؛ لأنهم نجوا بأنفسهم، فلكونهم ظَلَمَةً لم يتخذ الله منهم شهداء، فيكون ذلك تنديدًا بالذين تخلفوا ورجعوا من أثناء الطريق، وهم عبد الله بن أُبي ومن تبعه من المنافقين، فكأنه قال: اتخذ منكم أيها الصفوة شهداء ولم يتخذ من أولئك الذين نكصوا على أعقابهم؛ لأن هؤلاء ظَلَمَةٌ والله لا يحبهم.

الوجه الثاني: أن الذين قتلوا في أُحد؛ قتلوا على أيدي المشركين، والمشركون هم الظالمون كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فهل انتصار الظالمين في أُحد واستشهاد من استشهد من المسلمين في أُحد لأن الله يحب الظالمين ويكره المؤمنين؟ لا!

إذن ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ لئلا يظن ظان أن انتصار المشركين في تلك الغزوة من محبة الله لهم، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنه لا يحب الظالمين.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان رأفة الله سبحانه وتعالى برسول الله ﷺ وأصحابه بهذه التسلية العظيمة ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

٢ - أنه ينبغي للإنسان أن يعزي المصاب بمثل هذه التعزية فيقول مثلًا: يا أخي لست أول من أُصيب، كم من أُناس أُصيبوا بهذه المصيبة أو أكثر، ويقول له مثلًا: قدّر أن المصيبة أعظم من هذا؛ لأن كل شيء ممكن، فإذا أُصبت بفَقْدِ ألف فقدِّر أنك أُصبت بفَقْد ألفين؛ لأن هذا ممكن، فإذا قدرت أنك أُصبت بألفين والمفقود ألف هان عليك فَقْدُ الألف، إذن فالله علمنا كيف نُعزي المصاب بأن نسليه بذكر النظائر أو بذكر ما هو أعظم.

٣ - أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الدنيا دولًا تتقلب لئلا يركن الإنسان إليها؛ لأن الدنيا لو كانت دائمًا راحة ونعمة ركن الإنسان إليها ونسي الآخرة، ولو كانت دائمًا محنة ونقمة لكانت عذابًا مُستمرًّا، ولكن الله جعلها دولًا يُدال فيها الناس بعضهم على بعض، وتتداول الأحداث على الإنسان ما بين خير وشر.

٤ - تمام سلطان الله سبحانه وتعالى في خلقه، وأن له التدبير المطلق؛ ليظهر أو يتبين بذلك تمام سلطان الله.

٥ - أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العبد ليعلم إيمانه من عدمه، يمتحنه بأنواع من الامتحانات: تارة بالمصائب وتارة بالمعايب، فهنا ابتلاء بالمصائب، وإذا يسَّر الله للإنسان أسباب المعصية فهذا ابتلاء بتيسير المعائب مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

٦ - أن علم الله سبحانه وتعالى بالأشياء على قسمين: علم بأنها ستوجد وهذا أزلي، وعلم بأنها وجدت، وهذا يكون عند الوجود، ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٧ - أن الله تعالى قد يقدر المكروه لِحِكَم بالغة كثيرة؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

٨ - فضيلة الشهادة، تؤخذ من قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ فكأنه سبحانه اصطفى هؤلاء الشهداء واتخذهم لنفسه.

٩ - فضيلة شهداء أُحد؛ لأن قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾، أول من يدخل فيها

شهداء أُحد ﷺ.

١٠- إثبات المحبة لله، أن الله يحب، وجه ذلك أن نفيها عن الظالمين يدل على ثبوتها لغيرهم أو لضدهم؛ لأنها لو انتفت عن هؤلاء وهؤلاء لم يكن في نفيها عن الظالمين فائدة؛ ولهذا استدل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني: الفجار، قال: فلما حجب هؤلاء عن رؤيته في السخط دلَّ على رؤية الآخرين في حال الرضا.وهذا لا شك استدلال جيد، فهنا نقول: لما نفى المحبة عن الظالمين دلَّ على ثبوتها لمن كان ضدهم؛ لأنها لو كانت منتفية عن هؤلاء وهؤلاء لم يكن لتخصيص الظالمين فائدة.

والمحبة تعني كونِ الله يحب الشخص، فهل فيها نقص بالنسبة لله؟ لا. ولهذا كان أهل السُّنة من السلف يُثبتون أن الله تعالى يُحِب وأنه يُحَب أيضًا. كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومحبة الله سبحانه وتعالى إذا وفِّق العبد لها لا يُعادلها شيء ولا تُماثلها لذة. يجد الإنسان في محبة الله لذة لا توصف أبدًا، حتى إن بعض السلف يقول: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف! الله أكبر، الملوك هم في قمة النعيم الدنيوي وأبناؤهم كذلك، لكن أحباب الله وأولياء الله أعظم منهم في هذا النعيم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

إذن نقول: من مذهب أهل السُّنة والجماعة إثبات المحبة لله، وأن الله يُحِب وأنه يُحَب ولكن من الناس من أنكر محبة الله ليس إنكار تكذيب بل إنكار تأويل، فقال: المُراد بالمحبة الإرادة أو الثواب، فمعنى يُحبهم أي يُريد أن يثيبهم أو يثيبهم، وهؤلاء هم الأشاعرة، ومن كان أشد منهم في التعطيل، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيرًا وبيَّنا بطلان مذهبهم، وأن ما ذهبوا إليه يعتبر تحريفًا لكتاب الله وليس تأويلًا له.

١١- التحذير من الظلم؛ لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكل إنسان يهرب من كل فعل يؤدي إلى عدم محبة الله له.

والظلم أقسام: إما في حق الله وإما في حق الآدمي. والظلم في حق الآدمي إما في المال، وإما في النفس، وإما في العرض، وكل ظلم فإن الله لا يحبه.

١٢- أن محبة الله قد تتبعض بمعنى أنه يحب هذا أقوى من هذا، ويكره هذا أقوى من هذا، وجهه: أن الحكم إذا عُلِّق بوصف فإنه يزداد بزيادته ويقوى بقوته، وينقص بنقصه ويضعف بضعفه، فإذا كان انتفاء المحبة من أجل الظلم؛ فكلما كان الإنسان أظلم كان أبعد عن محبة الله عزّ وجل.

❁ ثم ذكر الله فائدة أخرى فقال:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]

❁ التفسير ❁

(يمحص) بمعنى: يُنقِّي، وهل المراد تنقيتهم من غيرهم؛ بحيث يتبيَّن المؤمن النقي الصافي الإيمان، أو تنقيتهم من الذنوب بما أصابهم من القرح أو الأمران جميعًا؟

الجواب: الأمران جميعًا؛ لأنَّ لدينا قاعدة سبقت وهي: أن اللفظ إذا كان يحتمل معنيين لا يُنافي أحدهما الآخر فإنه يحمل عليهما جميعًا، إذن فهو يُمحصهم وينقيهم من الذنوب بما أصابهم من القرح، ويُنقيهم أيضًا باعتبار الخلاصة؛ يعني: يتبين بذلك خلاصة المؤمنين مِمَّن في إيمانهم شيء من الشك أو الكفر، وهذا أمر ظاهر، وهو كما أشار الله في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠]، إذن من الحكمة فيما حصل للمسلمين من القرح أن الله يمحص الذين آمنوا: يُنقيهم من الذنوب بما أصابهم من هذه المصيبة، ويُنقيهم ببيان الخُلَّص، أهل الصفوة.

وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سبحان الله، إذا نصرهم يكون سببًا لمحقهم، لأنهم إذا انتصروا علوا واستكبروا وانتفخوا في أنفسهم، وظنوا أن لهم السيطرة دائمًا، فحينئذٍ يُعيدون الكرة مرة أخرى لقتال المسلمين، وبذلك يكون محقهم، هذا هو وجه الآية، وقال بعض أهل العلم: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يُهلكهم بما جنوه على المسلمين من القرح، فجعل المحق يعني العذاب والهلاك في الآخرة، ولكن المعنى الأول أوجه، أنه يمحقهم محقًا حسيًّا؛ وذلك لأنهم إذا انتصروا في هذه المرة، حاولوا أن يُعيدوا الكرة مرة ثانية لأجل الانتصار مرة أخرى، وبذلك يكون محقهم والقضاء عليهم.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مأخوذ من الكفر، وأصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه سُمي الكُفُرَّى يعني: وعاء طلع النخل لأنه: يستر ما كان فيه.

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هاتين الآيتين لمسِّ القرح خمس فوائد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله سبحانه وتعالى قد يبتلي المؤمن من أجل تمحيصه، وقد ذكرنا أن التمحيص من وجهين:

الوجه الأول: بيان مَنْ إيمانه صادق يصبر على الضراء، ومَنْ إيمانه مُهتز لا يصبر.

الوجه الثاني: أن هذه المصائب فيها تمحيص للمؤمنين بتكفير السيئات.

٢ - محق الكافرين، فيُستفاد من هذا فائدة وهي أن النعمة قد تكون سببًا للنقمة، فإن انتصار الكفار يوجب فرحهم وبطرهم حتى إذا بطروا مُحِقُوا.

٣ - أن الكافر مآله المحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] وأمثال ذلك كثير.

٤ - أن الله سبحانه وتعالى له التدبير الكامل في عباده؛ لقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ فإن هذا الفعل كان فيه خير للمؤمنين وشر للكافرين.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]

❁ التفسير ❁

﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة، فتكون بمعنى (بل) و(همزة الاستفهام)، أي: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة، وقولنا منقطعة احترازًا من المتصلة، فما هو الفرق بين المتصلة والمنفصلة؟.

المنقطعة بمعنى (بل)، والهمزة المتصلة بمعنى (أو). و(أم) المتصلة يذكر معها المُعادل، و(أم) المنقطعة ليس لها معادل، الفرق إذن يتضح بالمثال؛ إذا قلت: قال الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] متصلة؛ لأنها ذكر فيها المعادل؛ ولأنها بمعنى (أو).

وإذا قلت: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] فهي منقطعة بمعنى (بل)؛ لأن أمر أحلامهم – يعني عقولهم – بهذا ليس معادلًا لكونهم طُغاة، بل قال: أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم لم تأمرهم؟ الجواب: لم تأمرهم، ولكنهم قوم طاغون، هنا ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ منقطعة؛ لأنه لم يذكر المعادل، ولأنها بمعنى بل والهمزة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي أظننتم أن تدخلوا الجنة، والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: هل تظنون أن تدخلوا الجنة بلا اختبار، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، (الجنة) هي مأوى المتقين ودار الخلد جعلنا الله وإياكم من أهلها.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ (لَمَّا) هنا جازمة، والدليل على جزمها أن الفعل جزم بعدها، لكن لما كان ما بعده ساكنًا كسر؛ لأنه على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك في الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اِكْسِرْ مَا سَبَقَ وَإِنْ يَكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟﴾: الواو هنا حالية يعني: والحال أن الله لا يعلم الذين جاهدوا منكم. و(لما) تأتي على أربعة أوجه في اللغة العربية وقد ذكرناها فيما سبق، وهي هنا حرف

نفي وجزم، ويفرق بينها وبين (لم) بأن مدخولها يترقب الحصول كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي: لم يذوقوه ولكنه قريب، وهنا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ أي: أنَّ الله لم يعلم ولكن علمه بذلك قريب.

وقوله: ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ أي: بذلوا جهدهم في إعلاء كلمته بالقتال في سبيله. والعلم هنا ليس كالعلم الأول، فإن علم الله عزَّ وجلَّ نوعان: أزلي سابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم بما حصل بعد حصوله، وهذا هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، ويسميه بعض العلماء علم ظهور، أي: يعلمه ظاهرًا بعد أن لم يكن، فالمراد بالعلم هنا: علم الشيء بعد كونه ووجوده؛ لأنه هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الذين يصبرون على ما أصابهم، والصبر هنا في هذا المقام يشمل الصبر بأنواعه الثلاثة؛ وذلك لأن الجهاد فيه صبر على طاعة الله، وفيه صبر عن معصية الله، وفيه صبر على الأقدار المؤلمة.

ففيه الصبر على طاعة الله؛ لأن الإنسان يصبر نفسه ويحبسها، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فلابد من أن يصبر الإنسان نفسه ويحبسها حتى يخرج في الجهاد. وفيه صبر عن معصية الله، عن الفرار حين يتلاقى الصفان، فإن هذا يحتاج إلى صبر وتحمل؛ لأن صبر الإنسان قبل الدخول في المعركة قد يكون مُحتملًا لكن بعد الدخول وإذ يرى السيوف أمام وجهه فإنه قد يفر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]. وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأن الجهاد لا يخلو من جراح ومن تعب ومن عناء ومشقة، ففيه أنواع الصبر الثلاثة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان أن التمني رأس مال المفاليس. يعني: يكون الإنسان يتمنى بدون أن يفعل السبب، هذا خسران، وذلك رأس مال المفلس الذي لن يحصل له شيئًا؛ لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢ - أن الجنة لا تدرك بالتمني كما قال الحسن البصري رحمه الله: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي؛ ليس بالتمني بالقلب، ولا بالتحلي بالمظهر، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال[1].

٣ - أن الجنة غالية رخيصة؛ غالية لكون ثمنها غاليًا؛ لأنه بذل النفوس في طاعة الله والجهاد لإعلاء كلمته، ورخيصة؛ لأن هذا الأمر على من سهله الله له يسير جدًّا، ولهذا تجد الموفق يُسابق

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٩٣) وسنده ضعيف كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٠٩٨).

إلى أن يكون ممن يكتب اسمه في الجهاد حتى يخرج فيجاهد في سبيل الله.

٤ - أن الله سبحانه وتعالى يمتحن العبد بما يدل على صبره أو ضجره بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٥ - أن جزاء الله سواء كان عقوبة أو مثوبة لابد أن يسبقه ما يمتحن فيه العبد؛ لقوله ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فلابد من امتحان أولًا لينظر.

٦ - أن علم الله عزَّ وجلَّ الأزلي لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على علم الله المقرون بالفعل، الذي يكون علمًا بالشيء بعد وجوده.

٧ - أن الجهاد سبب لدخول الجنة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ ولا فرق بين الجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم فكلاهما جهاد، بل قد تحتاج الأمة الإسلامية إلى جهاد العلم أكثر مما تحتاج إلى جهاد السلاح، وقد يكون بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لابد من وجودهما في الأمة الإسلامية، لابد من وجود علماء، ولا بد من وجود طلبة علم، ولا بد من وجود مُسلحين يُقاتلون الكفار بالسلاح؛ لأن الجهاد لا ينزل عَلَمه إلى يوم القيامة، لابد أن يكون قائمًا.

٨ - أن الصبر سبب لدخول الجنة أيضًا؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، واعلم أن الجزاء يكون على قدر العمل، فإذا كان ثواب الجهاد الجنة وثواب الصبر الجنة دلَّ على عظم مرتبتهما في دين الله عزّ وجل.

٩ - أن الصبر درجة عالية لكنه يحتاج إلى مصبور عليه؛ لأن الصبر على ما يُلائم الطبيعة ليس بصبر، ولهذا لا يُقال للإنسان الذي وقف تحت (الدُّش) يصب عليه ماءً باردًا في اليوم الحار، لا يُقال إنه صابر؛ لأن هذا يُلائم طبيعته. الصبر لابد له من شيء يُعانيه الإنسان لا يُلائم الطبيعة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أكد الله هذه الجملة لإقامة الحجة عليهم، (لقد كنتم) الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: بالقسم المقدر، وباللام الواقعة في جوابه، وبقد. كنتم فيما مضى تمنون الموت من قبل أن تلقوه، وكانوا يتمنون الموت في سبيل الله لا الموت على الفراش، وذلك أنه - كما يعلم الكثير من الناس - تخلف عن بدر جماعات كثيرة من الصحابة، فإن غزوة بدر لم يكن الخروج فيها

للغزو، ولكن لأخذ العير، ولهذا لم يخرج من أهل المدينة كلهم إلَّا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا على أنهم يريدون العير، ولكن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد فاستشهد من استشهد من المسلمين نحو ثلاثة عشر رجلًا، وتمنى الذين لم يُدركوا هذه الغزوة أن يكونوا قد خرجوا فيها ولاسيما الشباب منهم، ولهذا لما استشارهم النبي ﷺ في غزوة أُحد؛ أيخرج إلى العدو أم يبقى في المدينة؟ كلهم قالوا: نخرج. ولاسيما الذين تخلفوا في بدر حيث كانوا يتمنون بذلك الشهادة كما استشهد إخوانهم في بدر، نعم فهم كانوا يتمنون الموت يقولون: يا ليتنا خرجنا، يا ليتنا قُتلنا في بدر، يتمنون الموت. والتمني هو أن الإنسان يطلب تقديرًا ما يصعب حصوله، هذا التمني أن يتمنى تقديرًا ما في قلبه يصعب حصوله سواء كان يصعب ثم يحصل أو يصعب ولا يحصل، ولهذا يقع التمني على الأشياء المستحيلة، كقول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيْبُ

ولا يمكن أن يعود، ويكون في الشيء الذي فيه العسر، ولكنه قليل، إذن يتمنون الموت، يعني: في نفوسهم يتمنون أنهم كانوا مع أهل بدر فاستشهدوا فقتلوا في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾، يعني: فقد حصل لكم ما تمنون ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يعني: رأيتموه وأنتم على أشد ما يكون إحساسًا. وتأمل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، هل هي مؤكدة أو مؤسسة؟ لأن الإنسان قد يرى ولكن لا يحقق ما يرى، قد يرى الشيء وهو غافل عنه لكن إذا رآه وهو ينظر إليه تمامًا قد ركز، فهذا نظر خاص أخص من النظر العام. نحملها على ذلك؛ لأن الأصل في الكلام التأسيس؛ لأن التوكيد نوع زيادة ليس فيه إلَّا توكيد ما مضى، وقد لا يحتاج إليه لكن التأسيس هو الأصل.

إذن يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ﴾ ويقيم على ذلك الشهادة بالتوكيد ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فلماذا يحصل منكم هذا التخاذل؟ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: الموت أو من استشهد في غزوة أُحد رأوه بأعينهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد رأوه أي: رأوا أسبابه وهو القتال؛ لأن من لم يقتل لم ير الموت، ولكن هذا تفسير فيه نظر؛ لأن رؤية الموت يراها الإنسان في نفسه وفي غيره، فقد رأيتموه فيما بينكم وأنتم تنظرون.

وفي هذه الآية من المسائل النحوية قوله: ﴿تَمَنَّوْنَ﴾ حيث إن صورته صورة الماضي، ولكنه صيغ بصيغة المضارع أصلها: تتمنون الموت.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت وقد رأوه، ومع ذلك حصل منهم تخاذل؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني: فيها، أنتم الآن رأيتموه فيما موقفكم؟.

٢ - وفيه أنه لا ينبغي للإنسان أن يتمنى المكروه؛ لأنه إذا تمناه ووقع ربما ينكص ولا يصبر، وقد قال النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوا لِقَاء الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(١). وهكذا الإنسان قد يشعر في نفسه أنه يقوى على الشيء ولكن يعجز عنه، وقد ذكروا أن سحنون صاحب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كان من العُبَّاد فقال يومًا من الأيام كلامًا معناه: يا رب إني صابر فكيفما شئت فامتحني، ابن آدم فقير مسكين، يعني أصبر على كل بلاء فامتحني يا رب، فأصيب بعسر البول، صار لا يبول إلَّا بمشقة شديدة، قالوا: فكان يدور على مدارس الصبيان فيقول: ادعوا لعمكم الكذاب. وذهب إلى الصبيان، لأنهم أقرب إلى الإجابة لطهارة قلوبهم وسلامتها ولا ذنوب عليهم، الكذاب! لأنه قال: إني اصبر فكيفما شئت فامتحني. ولم يصبر، وهكذا الإنسان ينبغي له أن يسأل الله العافية لكن إذا ابتلي فليصبر.

٣ - أنه لا بأس أن يوبِّخ الإنسان من تحدى واتخذ لنفسه مكانًا عاليًا إذا وجده قد تخاذل في هذا المكان، مثل لو كان رجل من الناس يزعم أنه صبور وأنه جَلْد وما أشبه ذلك، فإذا ألَمّت به الأمور صار جبانًا هلوعًا لا يتحمل فيذكِّره. أظن أن أحد الشعراء كان يقول في شعره:

الْخَيْـلُ وَاللَّيْـلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنِـي ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ

شجاعة، وعلم، وكتابة وكل شيء، فحصلت غزوة كان فيها هذا الشاعر، فأراد أن ينهزم ويولي الدبر، وإذا حوله أناس قد حفظوا هذا البيت من شعره فقالوا: ما لك يا فلان ألست القائل:

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفنـي ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فعتب على نفسه ورجع وأظن أنه قتل في تلك المعركة. فالإنسان قبل أن يُصاب بالبلاء قد يشعر في نفسه أنه قوي يصبر، لكن يعجز، فإذا ذكَّرت أحدًا بشيء كان يفتخر به كأن يقول: أنا أفعل، وأنا أقول، وأنا أصبر، فهذا لا بأس به، ولكن هل هذا محمود إذا كان الأمر ضارًّا، أو ينظر للمصلحة؟

الجواب: أنه ينظر للمصلحة فقد يكون هذا المسكين يفتخر فيما لا فخر فيه، فإذا وقع فيه وأراد أن يتأخر عنه ثم أغريته قد يقع في ضرر. فالمسألة يرجع فيها إلى المصلحة.

٤ - جواز التأكيد على رأي من يرى أن قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فيها توكيد أي: جواز تأكيد اللفظ إذا دعت الحاجة إليه، وكان ذلك مُقتضى البلاغة، بل قد يكون مطلوبًا كما في هذه الآية، فهذه الآية على قول بأن قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ توكيد وأنها لم تأت بمعنى جديد، أما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (٤٥٤٢).

على القول الراجح الذي رجحناه أنها أتت بمعنى جديد فإننا لا نأخذ هذه الفائدة من هذه الآية، لكن نأخذها من آيات أخرى مثل: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٨] وقوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣ - ٤]، وقوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]، كثير من القرآن تأكيدات للأهمية.

تنبيه: ذكرنا في التفسير أنهم يتمنون الشهادة، الموت في سبيل الله، وليس الموت المطلق؟ لكن يؤخذ منه أنه يجوز أن يتمنى الإنسان الشهادة، بل لو قيل بمشروعية هذا لم يكن بعيدًا، وقد قال عمر رضي الله عنه: اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك والموت في بلد رسولك ﷺ، فكان الناس يقولون: كيف هذا الدعاء وكيف يُجاب والمدينة بلد إسلامي؟ ولكن الله أجاب دعاءه فقد قُتل ظلمًا وهو يُصلي، ولم يقتل لأنه عمر بن الخطاب بل قتل لأنه قائم بأمر الله، منفذ لشريعة الله، قتله مجوسي مضاد للمسلمين، حرب على المسلمين، قتل في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ومات فيها، وقد تتمنى الشهادة، لكن ذكر بعض المتأخرين أنه لا يجوز أن تتمنى الشهادة، قال: لأن تمنيك الشهادة يستلزم أن الأعداء يغلبون المسلمين، فليتأمل هذا الكلام هل هو حق أم باطل

قال الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

محمد يعني: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي خاتم الأنبياء كونه (رسولًا) فهذا أمرٌ معلوم، لكن محط الفائدة قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ توطئةً لما بعده وهو قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ يعني: أن رسول الله ﷺ رسول قد خلت من قبله الرسل فماتوا من قبله ومنهم من قُتل كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، فإذا كان كذلك فهل أقوامهم لما ماتت أنبياؤهم أو قتلوا هل تركوا أديانهم؟ الجواب: لا، لم يتركوا الأديان؛ وذلك لأن الأمم إنما تعبد الله وتتبع الرسل، والرسل لا تنقطع رسالتهم بموتهم، بل رسالتهم باقية ما بقيت الرسالة حتى تأتي رسالة تنسخها، أما رسالة النبي ﷺ فإنه لا ناسخ لها؛ لأنها آخر الرسالات. وهذه الآية نزلت حينما صاح الشيطان في يوم أُحد، يقول: إن مُحمدًا قد قُتل،

فلما قال هذا فتَّ ذلك في أعضاد الصحابة رضي الله عنهم.

أولًا: لأن موت النبي ﷺ مصيبة عظيمة تحزن القلب وتضعف النفس.

ثانيًا: لأن محمدًا كان قائدهم، وإذا مات القائد فإنه لا شك سيكون له أثر على الذين ينقادون بقيادته، فلما شاع الخبر بأن محمدًا ﷺ قُتل حصل ما حصل على المسلمين فأثابهم غمًّا بغَمٍّ وصار عند بعضهم بعض الشك، ولكن الله عزَّ وجلَّ وبَّخهم فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، فإذا كان كذلك فهل الرسل الذين سبقوا وماتوا أو قتلوا هل ارتد أقوامهم من بعدهم؟ لا، ولكن بقيت الرسالات وبقي الأتباع، وهنا قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ الهمزة هنا للاستفهام التوبيخي يعني: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ هذا لا يليق بكم ولا ينبغي لكم، بل ما دامت شريعته باقية فاتِّبَاعُهُ باق، ولا يليق بأي مؤمن أن يرتد على عقبه إذا مات الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ هذه جملة شرطية، (إن) أداة الشرط، و ﴿مَّاتَ﴾ فعل الشرط و ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ جواب الشرط، ولكن محل التوبيخ هو جواب الشرط حقيقةً؛ لأنه يوبِّخهم على انقلابهم على تقدير أن يكون مات أو قتل، أي: أتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ لا يليق بكم. وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ أي: بغير فعل بشر ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ بفعل البشر.

وقوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي: رجعتم إلى الوراء، والأعقاب: جمع عقب وهو العرقوب، والمنقلب على عقبيه يكون ماشيًا على غير هدى كالذي يمشي مُكبًّا على وجهه، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المُلك: ٢٢]، والانقلاب على العقبين أعظم وأبلغ؛ لأن الانقلاب على العقب يمشي الإنسان فيه على غير الهيئة المعتادة. على أنه يحتمل أن يكون المراد بالانقلاب على العقب أي: أنه يسقط على قفاه ولا يستطيع أن يتقدم أو يستقيم.

وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ هنا قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ فعدل من جملة الخطاب إلى العموم دون أن يقول: وإن انقلبتم على أعقابكم فلن تضروا الله شيئًا من أجل أن يكون الحكم عامًّا شاملًا، فقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ (من) شرطية تعم كل مُنْقَلِبٍ على عقبيه، والفعل هنا بعدها مجزوم، فعل الشرط. أما جواب الشرط فهو ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وشيئًا نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم، يعني: الذي ينقلب على عقبيه ويرتد عن الإيمان لن يضر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لن ينتفع بطاعة الطائعين، ولن يتضرر بمعصية العاصين، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرجع بعد أن كان مسلمًا فلن يضر الله شيئًا وإنما يضر في الحقيقة نفسه.

وقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

السين للتنفيس، وهي تحول الفعل المضارع من كونه صالحًا للحال والاستقبال إلى كونه للاستقبال، (وسوف) مثلها إلَّا أن سوف تدل على المهلة والسين تدل على الفورية ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سيكافئهم، والشاكرون: هم الذين قاموا بشكر نعمة الله، وقد مر علينا أن الشكر هو: القيام بطاعة الْمُنعم بالقلب واللسان والجوارح؛ فالاعتراف بالقلب أن النعم من الله شكر، والثناء على الله بها باللسان شكر، والقيام بالطاعة بما يناسب تلك النعمة شكر، فشكر العلم مثلًا العمل به ونشره، وشكر المال صرفه في طاعة الله، وشكر القوة البدنية استعمال البدن في طاعة الله، وهلم جرا. واعلم أن بين الشكر والحمد عمومًا وخصوصًا من وجهين أي: أن أحدهما أعم من الآخر من وجهٍ، فباعتبار أن الحمد يكون لكمال المحمود ولإنعام المحمود يكون أعم من الشكر، وباعتبار أن الحمد يكون باللسان يكون أخص من الشكر، والشكر باعتبار كونه مُتعلِّقًا بالقلب واللسان والجوارح أعم من الحمد، وباعتبار أنه في مقابلة نعمة أخص من الحمد. يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وبهذا التقرير نعرف أنه ليس بين الحمد وبين الشكر ترادف، بل هما متباينان، يتفقان فيما إذا حمد الله سبحانه وتعالى على نعمته كما لو أكل أو شرب فقال: الحمد لله، فهذا يعتبر شكرًا وحمدًا، ويختلفان فيما إذا حمد الله على كماله فهنا لا يكون هذا من باب الشكر، وإذا شكر الله بجوارحه فليس هذا من باب الحمد.

قال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.يبين الله سبحانه وتعالى هذا المجمل في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] هذا الجزاء، وصح عن النبي ﷺ أن الله يُضاعف الحسنة إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف[1].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان أن رسول الله ﷺ بشر يلحقه الموت كما يلحق جميع الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ...﴾.

٢ - أن النبي ﷺ ليس ربًّا فيدعى ولا إلهًا فيُعبد؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

٣ - أنه ينبغي الدليل بذكر النظائر ليقتنع الإنسان بما سمع؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فإن من سمع هذا اقتنع وقال: ما دام الرسل السابقون قد ماتوا أو قتلوا فإن ذلك

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١٥١)، والترمذي (٧٦٤)، والنسائي (٢٢١٥).

يكون تسلية له.

٤ - إثبات أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ و (أل) هنا للعموم ولم يقل: قد خلت من قبله رسل بل قال: الرسل، وإذا كان الرسل كلهم قد خلوا من قبله لزم من ذلك أن يكون هو آخرهم.

٥ - جواز موت الرسول ﷺ وإمكان قتله؛ لقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

فإن قال قائل: يشكل على هذا أن الله قد قال في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. فإذا كان هذا في الشهداء فكيف يكون الرسول ﷺ ميتًا مع أنه أفضل من الشهداء؟

والجواب عن ذلك أن نقول: إن الحياة حياتان: حياة دنيوية جسدية وهي حياة الدنيا، وحياة برزخية ليست كحياة الدنيا، فهذه هي التي تثبت للشهداء. والأنبياء أفضل من الشهداء حيث حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم، وأما الشهداء فقد تأكل الأرض أجسادهم، فالأنبياء أجسادهم باقية وحياتهم البرزخية أكمل من حياة الشهداء بلا شك.

٦ - الرد على من توهم أو زعم أن الرسول ﷺ حي في قبره؛ لقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ ونحن نعلم بالضرورة من النقل المتواتر أن النبي ﷺ لم يُقتل، فإنه ما قتل لا بسيف ولا برمح بل مات على فراشه، ولكن ثبت عنه ﷺ أنه قال: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي، وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ الْأَبْهَرِ مِنِّي»[1]. الأبهر: عرق عُرف عند أهل اللغة على أنه عرق في الظهر إذا انقطع مات الإنسان، فهذا يدل على أن أكلة الشاة المسمومة في خيبر كان لها أثر في موته؛ ولهذا قال بعض التابعين وأظنه الزهري قال: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود قتلوه، ولكن الله تعالى أمد في عمره حتى تأخر، وهذا ليس ببعيد؛ لأن أكلة خيبر كما ثبت عن النبي ﷺ ما زال أثرها في لهواته، يرى في لهواته أثر السم، والسم كان شديدًا، ولذا مات واحد من الصحابة الذين أكلوا معه، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبلع اللحم الذي أكل.

٧ - أن الارتداد عن الإسلام انقلاب على العقب، ولا يخفى علينا ماذا يكون أثر الانقلاب على العقب ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وهو كذلك؛ لأن الذي على الإسلام يمشي على برهان ونور، يمشي على صراط مستقيم.

٨ - الرد على الملحدين الذين يقولون: إن الإسلام رجعية ورجوع إلى الوراء، فإننا نقول لهم: أنتم الرجعيون، أنتم الذين انقلبتم على أعقابكم، أما من تمسك بالإسلام فإنه التقدمي؛ لأن الإسلام يحث

---

(١) صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٢٩).

على التقدم لكل فضيلة وأن يسارعوا إلى المغفرة ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، والآيات كلها تدل على أن الإسلام يأمر بالتقدم لكن ليس التقدم إلى الكفر الذي قال الله عن زعيمه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ولكن التقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. المهم أن هذه الآية فيها رد على الملحدين الذين زعموا أن التمسك بالإسلام رجعية، فنقول لهم: إن التمسك بالإسلام هو التقدم، والتخلف عن الإسلام هو الرجعية.

٩ - أن الله عزَّ وجلَّ غني عن طاعة الطائعين؛ لقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

١٠- انتفاء الضرر عن الله، وأنه لن يضره شيء، ولكن إذا قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وفي الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[1] فأثبت الأذية لله؟ فالجواب: أنه لا يلزم من الأذية الضرر. فالله تعالى قد يتأذى ولكن لا يتضرر، وأضرب لك مثلًا: لو أن شخصًا جلس إلى جنبك وقد أكل بصلًا أو شرب دخانًا ألست تتأذى برائحته؟ بلى، ولكن هل تتضرر؟ لا تتضرر، إذا رأيت شيئًا مكروهًا فإنك تتأذى ولكن لا تتضرر، إذن لا يلزم من كون الله تعالى يتأذى أن يتضرر.

١١- الحث على الشكر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ووجهه أن الجزاء أضيف إلى الله فدلَّ على عظمه؛ لأن الثواب من العظيم عظيم، ولهذا كانت الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٢- جواز الإطلاق في الكلام إذا جاء مفسَّرًا في موضع آخر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فإن هذه الآية مجملة لم يبين الله تعالى كيف هذا الجزاء، ولكنه قد بين في نصوص أخرى، والشريعة يفسر بعضها بعضًا، ويقيد بعضها بعضًا، ويخصص بعضها بعضًا، وما تجده مُجملًا في مكان تجده مبينًا في مكان آخر، وهذا من تمام الشريعة؛ لأن الشيء إذا أتاك مُجملًا فإن نفسك تتطلع إلى بيان هذا المُجمل، فتحرص وتبحث وتقرن بين الأدلة، وتقارن بعضها إلى بعض حتى يتبين لك الأمر، وحتى تكون ملمًّا في كل وقت بجميع النصوص.

١٣- أن الخلق لو كانوا كلهم على الردة فإن الله تعالى لن يتضرر بذلك؛ لقوله: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، وهذا عام يشمل أي ضرر كان من فرد أو جماعة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، و مسلم (٢٢٤٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ أي: يمتنع غاية الامتناع لأي نفس من الأنفس أن تموت إِلَّا بإذن الله، مهما حاول الناس أن يميتوا أحدًا بدون إذن الله، فإنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا. وإذا جاءت (ما كان) فإنها للممتنع إما شرعًا أو قدرًا، فهذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان قدرًا لنفس أن تموت إِلَّا بإذن الله.

وقوله: ﴿لِنَفْسٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل نفس من الآدميين وغير الآدميين، لا يمكن لأي نفس أن تموت إِلَّا بإذن الله.

وقوله: ﴿أَن تَمُوتَ﴾ الموت هو: مفارقة الحياة، ويحصل هذا بانفصال الروح عن الجسد انفصالًا تامًّا، وذلك؛ لأن الروح تتصل بالبدن اتصالًا تامًّا، وتنفصل منه انفصالًا ناقصًا، وتنفصل منه انفصالًا تامًّا؛ فإذا كان الإنسان يقظًا فالاتصال تام، وإذا كان نائمًا فهو انفصال ناقص، وإذا مات الإنسان فهو انفصال تام، لكن هذا لا يمنع أن تعود إليه في قبره عودًا ليس على الوجه الذي عليه في الدنيا؛ لأن حياة البرزخ تخالف حياة الدنيا، فالإنسان في قبره تُعاد إليه روحه ويجلس ويُخاطب ويتكلم ويفهم، ولكن ليست هذه الحياة كحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت كحياة الدنيا لهلك فورًا؛ لأنه مغمور بالتراب الذي فوقه، وربما يكون غرقًا في ماء أو مُحترقًا في نار.

وقوله: ﴿أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ «إذن» هنا يُراد بها: الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فالإذن الشرعي ما قضى به شرعًا وأذن فيه شرعًا، وهو تحت المشيئة قد يقع وقد لا يقع، فمثلًا: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] الإذن هنا شرعي وليس بكوني؛ لأن الله قد أذن به كونًا لكنه لم يأذن به شرعًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] الإذن هنا إذن شرعي، أما في مثل هذه الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو إذن كوني يعني: لا يمكن أن تموت إِلَّا إذا أذن الله بذلك كونًا.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ (كتابًا) هذه مصدر مؤكد للجملة التي قبله، أي: أن الموت مكتوب كتابًا مؤجلًا مُحددًا بحدٍ معلوم لا يتجاوزه ولا

يقصر عنه، هذا الكتاب يكتب في عدة كتب؛ يكتب في ليلة القدر بأنه سيموت في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية من الشهر الفلاني، وهذه كتابة سنوية، ويكتب أيضًا إذا كان الإنسان في بطن أمه حين يُبعث إليه الملك ويؤمر بكَتْبِ رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. ويكتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، فهذه كتب لا تتغير.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ لا يزيد ولا ينقص.

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: (من) شرطية، وفعل الشرط ﴿يُرِدْ﴾ وجواب الشرط ﴿نُؤْتِهِۦ﴾، وفي كل من فعل الشرط وجوابه حذف، أما في فعل الشرط فالحذف من وسط الكلمة، وأما في جوابه فالحذف من آخر الكلمة؛ لأن قوله (يرد): أصلها يريد فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، (ونؤته) أصلها نؤتيه فحذفت الياء للجازم؛ لأن الفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من يرد الجزاء في الدنيا من الدنيا فإن الله تعالى يؤتيه منها، ﴿نُؤْتِهِۦ﴾: أي: نعطه منها وليس نعطيه كل الدنيا، فالإنسان قد يريد شيئًا كثيرًا من الدنيا، ولكن لا يحصل له وإنما يؤتى منها، مثلًا منا من يريد القصور والأموال الكثيرة والزوجات والمراكب الوثيرة وما أشبه ذلك. ومن يُرد هذا يؤته الله منها؛ لأن من يرد هذا لابد أن يسعى له. فإذا كان لابد أن يسعى له فالغالب أن السعي التام يحصل به الموجب، ولهذا قال: نؤته منها، فقدّر الله الأسباب لحصول ما أراده من الدنيا.

وقوله: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ واضح في أن الله لا يؤتيه كل الدنيا وإنما يؤتى منها، وهذا يحتمل أن يكون عائدًا إلى ما أراده، بمعنى: أن الله لا يعطيه كل ما يريد. ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الدنيا من حيث هي على سبيل العموم فيعطيه الله كل ما أراد، وعلى كل تقدير فهذه الآية مُقيدة بآية الإسراء، وهي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، يعني: الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] ولم يقل: عجلنا له ما يريد، قال: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، وهذا يؤيده الواقع فإن كثيرًا من الناس يريدون الدنيا ويسعون لها بأيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأعينهم ولكن لا يُحصّلونها؛ لأن الله قيَّد هذا العموم في سورة الإسراء بقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يشاء هو ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فقيَّد المعجَّل، والمعجَّل له، ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ هنا هذا الإطلاق مقيد بذلك.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾: ولا نعطيه الآخرة كلها؛ لأن الآخرة درجات يختلف فيها الناس، ولا يمكن أن يُعطى الإنسان جميع درجات الناس ولكن يُعطى من الآخرة، ولهذا قال: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ولكنها تختلف عن عطية الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧] عطية الآخرة ليست كعطية الدنيا بل هي أعظم، ولهذا قال في

آية الإسراء: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] وهنا قال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ فدلَّ ذلك على أن من أراد الآخرة فهو من الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين بفضله الواسع. من أتى بحسنة أُعطي حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وتأمل هذا الفضل العظيم: يتطهر الإنسان في بيته فيسبغ الوضوء فتكفر عنه سيئاته مع آخر قطرة من قطرات الماء، فإذا تشهد فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء، فإذا خرج من بيته بعد التطهر يريد المسجد لا يُخرجه إلَّا الصلاة لم يخط خطوة إلَّا رفعه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة. هذا أيضًا ثواب كثير، كل خطوة لك فيها فائدتان: الأولى رفع الدرجة، والثانية حط الخطيئة، ثواب كثير عظيم في عمل قليل، فإذا دخل المسجد فصلى لم تزل الملائكة تُصلي عليه ما دام في مُصلاه تقول: الله صلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، دعاء من الملائكة سخرهم الله عزَّ وجلَّ، فأنت ترى أن من أراد الآخرة فهو من الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين، سيجزيهم على شكرهم أكثر بأضعاف مضاعفة من أعمالهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن آجال الأنفس محددة؛ لقوله: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾.

٢ - تسلية أصحاب الرسول ﷺ حين قيل لهم إن محمدًا قد قُتل، فأصابهم ما أصابهم من الغمِّ، فقال الله لهم: لا يمكن أن يُقتل محمدٌ قبل أجله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾. إن كان الله قد أنهى أجله فإنه ينتهي، وإن لم ينته أجله بقي إلى الأجل المحدد. فلماذا تجزعون إذا قيل: إن محمدًا قد مات أو قد قتل، وهذا الشيء مؤجل عند الله عزَّ وجلَّ وبإذنه، وما كان مؤجلًا عند الله وبإذنه فإن الإنسان يجب عليه أن يستسلم له ويصبر عليه ويرضى به.

٣ - إثبات أن كل شيء حتى الموت مخلوق لله في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما كان صادرًا عن إذن فهو مخلوق، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

٤ - أنه لا يمكن أن يتقدم الإنسان أو يتأخر عن الأجل الذي قدره الله له؛ لقوله: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾، ويؤيد هذا آيات منها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. ومنها: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

فإن قال قائل: يشكل على هذا قول النبي ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١)، فإن هذا يفيد بأن الإنسان إذا وصل رحمه زيد في عمره.

فالجواب عن ذلك أن يُقال: مد الأجل كبسط الرزق، والحديث يقول: «أن ينسأ له في أثره، وأن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٨٥)، و مسلم (٢٥٥٧).

يبسط له في رزقه». والرزق مكتوب، فقد بيَّن الرسول ﷺ أن الرزق يبسط ويوسع إذا وصل الإنسان رحمه، فكذلك الأجل يمدد إذا وصل الإنسان رحمه، ولا فرق، وهذا كقولنا: من أراد أن يولد له فليتزوج، والحديث: (من أحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره) لا يعدو أن يكون بيانًا لسبب طول العمر، وليس معناه أن الإنسان له عمران، عمر عند قطيعة الرحم وعمر عند صلة الرحم؛ لأن المعلوم عند الله والمكتوب عنده عمرٌ واحد مقرون بسبب، وهو صلة الرحم، فإذا وصل الإنسان رحمه علمنا أن له عمرًا واحدًا زائدًا مقرونًا بالسبب. يوضح ذلك أنك تقول: إذا أكل الجائع سلم من الموت، فهذا الإنسان على آخر رمق في الحياة، أتينا له بطعام فأكل وعاش، هل نقول: إنه كان له عمران مع أننا لو تأخرنا عن إسعافه بالطعام لمدة دقيقة واحد لمات، فهذا لا نقول له عمران، نقول: له عمر واحد، لكن هذا الطعام سبب لاندفاع الموت عنه الذي حصل من الجوع، فالمسألة ليس فيها إشكال، إذا تأملها الإنسان وجد أن سبب زيادة العمر الذي هو صلة الرحم كغيره من الأسباب التي يحث الشارع عليها. أيضًا نقول: من أراد الجنة فليعمل عملًا صالحًا وهو مؤمن بالله، هل نقول: إن الإنسان له حالان: حال يكفر وحال يؤمن؟ أو نقول: هذا قد قدّره الله بقضائه السابق أن يكون مؤمنًا من أهل الجنة؟ فالجواب: الثاني.

هكذا الذي وصل رحمه نقول: هذا من الأول لم يكن له إلَّا عمر واحد مبني على سبب وهو صلة الرحم، إذن فالمُراد بيِّنٌ، الحديث حث الناس على صلة الرحم التي هي سبب لطول العمر.

وهناك قولٌ آخر وهو أنه ظن بعضهم أنه ليس المُراد امتداد الأجل فقال: إن المراد بذلك بركة العمر، يعني: يُبارك له في عمره أو ينسأ له في أجله أي: أن ذكره بعد موته يطول، والإنسان إذا ذُكر بعد موته فكأنه حي، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ويقول المتنبي:

وَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِ

فهذه ثلاثة آراء: إما أن يكون المراد بذلك ذكره بعد وفاته بالخير، وإما المراد بذلك البركة في عمره، والصحيح أنها الزيادة الفعلية في عمره، وأن المكتوب عند الله المعلوم عنده هو أن هذا الرجل سوف يصل رحمه ويمتد عمره.

٥ - أن الناس لهم مشارب ولكلٍّ مسلك؛ لقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو كذلك.

٦ - أن الإخبار عن الشيء أو عن وقوع الشيء لا يدل على حله، فقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ لا يدل على حلِّ إرادة الإنسان الدنيا بعمله، إنما هو خبر عن أمر وقع، والحل والحرمة يؤخذ من دليل آخر من الشرع. ومن ثم يتبين خطأ من

قال: إنه لا يشترط للمرأة محرم في السفر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أن «الظَّعِينَة تَخْرُجُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى عَدَنٍ لَا تَخْشَى إِلَّا اللهَ وَلَا تَخَافُ عَلَى نَفْسِهَا»(١)؛ لأن هذا إخبار عن الواقع وليس إقرارًا له شرعًا، ألم يقل الرسول ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»(٢). بلى قال ذلك، فهل يعني هذا أنه يجوز أن نتبع سُنن اليهود والنصارى لأن الرسول أخبر بأننا سنتبعها؟ أبدًا ... فالإخبار عن الشيء وقوعًا لا يدل على جوازه شرعًا، إنما يؤخذ جوازه أو عدم جوازه من أدلة أخرى.

٧ - الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ حيث أثبت للإنسان إرادة، والجبرية يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، وأنه يفعل بدون اختيار ولا إرادة، ولكن كل النصوص السمعية والعقلية ترد على قولهم.

٨ - أن الإنسان قد يريد بعمله أن يُمدح عند الناس، وهذا لا يكون له من عمله إلَّا ما ناله من الدنيا فقط، نسأل الله السلامة. يعني مثلًا: الإنسان يُصلي ليُقال مُجتهد في العبادة. يقرأ ليُقال قارئ، يتصدق ليُقال كريم، يُقاتل ليُقال شُجاع وما أشبه ذلك، فالذي يريد بعمله الصالح هذه الأمور الدنيوية ليس له حظ في الآخرة، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

٩ - إيثار إرادة الآخرة على الدنيا؛ لقوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فإن هذا يدل على أن من أراد الآخرة فإنه من الشاكرين الذين يجزيهم الله عز وجل.

١٠- إثبات الجزاء على العمل، وهذا أعني الجزاء على العمل دائر بين أمرين، بين عدل وفضل، ويمتنع الأمر الثالث وهو الظلم بالنسبة لله عزَّ وجلَّ، والذين يُجازون العمال على أعمالهم ينقسمون في جزائهم إلى ثلاثة أقسام: عدل وفضل وظلم.

ولهذا نجد أن منهم من يظلم عماله، ومنهم من يُعطيهم حقهم كاملًا، ومنهم من يزيد، أما بالنسبة لجزاء الله تعالى فإن الظلم ممتنع عن الله، لا عجزًا عنه ولكن لكمال عدله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١١- الحث على الشكر؛ لأن الإخبار بأن الله يجزي الشاكرين يُراد به الحث على الشكر. قال العلماء: الشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح؛ فبالقلب بحيث يشعر الإنسان بنفسه أن هذه النعمة من الله عزَّ وجلَّ لا من حول الإنسان وقوته ولكنها بفضل الله. وباللسان يشكر الله يعني: يتحدث بنعمة الله، يتحدث بلسان الحال وبلسان المقال، فلسان المقال أن يقول: أحمد الله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا، أحمد الله الذي أعطاني الولد، أحمد الله الذي أعطاني المال، أحمد الله الذي يسَّر لي بيتًا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٩٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

وما أشبه ذلك، وبلسان الحال أن يظهر أثر النعمة على العبد، فإن الله يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه، وعلى هذا فإذا آتى الله الإنسان مالًا وخرج إلى الناس بالثياب الخلقة أو بثياب رثة أو ما أشبه ذلك هل يُعد شاكرًا؟ أليس هذا زُهدًا؟ لا، ليس بزهد، هذا من رآه قال: هذا فقير ما أنعم الله عليه بشيء، فيكون هذا المظهر مُنبئًا عن أن الله لم يُنعم على هذا الشخص. والشكر بالفعل وهو الثالث: أن يقوم الإنسان بطاعة الله، إذا أنعم الله عليه بمال يتصدق منه، بعلم ينشره، بجاهٍ يتوسط للناس ويشفع لهم وما أشبه ذلك. هذا من الشكر بالفعل، وعلى هذا يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وابن القيم ذكر أن الله يسَّر له شيخ الإسلام ابن تيمية، وأخبر أنه لا يستطيع أن يجزيه بيده ولا لسانه. ولقد مرَّت علينا هذه في شرحنا على نونيته رحمه الله تعالى حيث قال:

حَتَّى أَتَاحَ لِيَ الْإِلَهُ بِفَضْلِهِ ... مَنْ لَيْسَ تَجْزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

حَبْرٌ أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَّانَ فَيَا ... أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَّانِ

فَاللهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ ... مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

قال الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]

التفسير

أولًا: القراءات في هذه الآية كما يلي:

﴿وَكَأَيِّن﴾ فيها قراءتان: ﴿وَكَأَيِّن﴾ و (كَائِنْ من نبي).

﴿نَّبِيٍّ﴾ فيها قراءتان: ﴿نَّبِيٍّ﴾ و(نبيء).

﴿قَاتَلَ﴾ فيها قراءتان (قُتِل) و ﴿قَاتَلَ﴾.

والذي معنا في المصحف ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾.

(كأين) الصحيح أنها كلمة غير مركبة يعني بسيطة. البسيطة عند النحويين يعنون بها غير المركب، وقال بعضهم: إنها مُركبة من كاف التشبيه وأي الاستفهامية، ولكن الصحيح خلاف ذلك، الصحيح أنها كلمة بسيطة نطق بها العرب هكذا، كما نطقوا بـ (كم)، وأن معنى ﴿وَكَأَيِّن مِّن

﴿نَّبِيٍّ﴾ كم من نبي. فهي إذن للتكثير، وهي مبنية على السكون (كأين أو كائن) على اللغتين، هي مبنية على سكون النون، أما محلها من الإعراب فهي مبتدأ، والجملة التي بعدها خبرها.

وقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ جار ومجرور مميز لكأين؛ لأن (كأين) من الألفاظ المبهمة، والألفاظ المبهمة تحتاج إلى تمييز، من ذلك مثلًا ألفاظ العدد، ألفاظ العدد من الأشياء المبهمة؛ قولك مثلًا: عندي عشرون، فكلمة عشرون مبهمة تحتاج إلى تمييز فتقول: عشرون رجلًا، عشرون كتابًا، عشرون بيتًا، عشرون سيارة، وما أشبه ذلك، وتمييزها – أي كلمة (كأين) – يأتي بعدها مجرورًا (بمن) كأين من نبي.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ﴾ يعني: كثير من الأنبياء.

وقوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ كلمة قاتل أو قُتِلَ اختلف المفسرون فيها، فبعضهم وقف عليها، وقال في قراءته: (وكأين من نبي قتل، أو ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ وتكون جملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ جملة مكونة من مبتدأ وخبر ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ و ﴿مَعَهُۥ﴾ خبر مقدم، والجملة في موضع نصب على الحال من الضمير في قتل أو قاتل يعني: قاتل أو قتل والحال أن معه ربيين كثير.

وقيل: إن قوله (وكأين من نبي) جملة مستقلة يوقف عليها ثم يُستأنف فيُقال: (قتل معه ربيون كثير) يعني: وكأين من نبي وُجد وأُرسل وبُعث وأُيد بالآيات واتبعه ناس فقُتل معه وفي صحبته ربيون كثير، وعلى هذا القول تكون ربيون نائب فاعل على قراءة قُتِل، وفاعل على قراءة قَاتَل، ويكون النبي سالمًا على هذا التقدير الثاني. أما على الأول فيكون مقتولًا.

وقوله: ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ (مع) ظرف وهي خبر مُقدم و ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخر على تقدير أن الضمير في قاتل أو قتل يعود على النبي، (وكأين من نبي قتل أو قاتل)، لكن فيه وجه آخر يقول: إن (ربيون) فاعل قاتل أو نائب فاعل على قراءة قتل، وبناءً على هذا يختلف الإعراب، فتكون (مع) ظرف مكان متعلق بقاتل أو بقتل، ويكون (ربيون) فاعلًا على قراءة قاتل، ونائب فاعل على قراءة قُتل، وعلى هذا التقدير يكون القتال أو القتل واقعًا على الربيين وليس على النبي، ويختلف الحكم بالنسبة للصحابة، فإذا كان قاتل أو قتل فيه ضمير يعود على نبي صار فيه تسلية للصحابة؛ أي أن الأنبياء قد قتلوا قبل محمد وقاتلوا. وعلى الاحتمال الثاني أن (ربيون) فاعل أو نائب فاعل يكون فيه إشارة إلى أن الصحابة لم يكن الابتلاء بالقتال أو القتل خاصًّا فيهم بل هو سابق في الأمم المتقدمين، فيكون المُراد من الآية شيئًا من التوبيخ واللوم للصحابة الذين جزعوا لما أصابهم في أُحد، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ إلى آخره.

هذا من حيث تركيب الجملة، أما من حيث الإفراد فقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ المُراد بالنبي: من أوحي

إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، ولكن ليس في القرآن لفظ نبي إلَّا ويُراد به الرسول قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]. ونوح من المعلوم أنه من الرسل، بل هو من أولي العزم من الرسل. على كل حال: النبي عند أهل العلم من أُوحِي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أُوحِي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، ولهذا سُمي رسولًا من الرسالة. ولكن كل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهو رسول.

وقد أشكل على بعض الناس فقالوا: كيف يوحى إليه بالشرع ولا يؤمر بالتبليغ؟ ولكن هذا في الحقيقة ليس محل إشكال؛ لأنه يمكن الجواب عنه بأنه أوحي إليه بالشرع ليتعبد به، ويكون هذا من باب التذكير له إذا كان نبيًّا بعد الرسل، ومن باب البيان له إذا كان نبيًّا لم يُسبق بالرسل. مثال الثاني: آدم، فآدم نبي ولم يُسبق بالرسل. ومثال الأول: ما وجد من أنبياء بني إسرائيل الذين هم أتباع ولم يؤمروا بالتبليغ، فيكون إنباء الله لهم من باب التفضل عليهم بذكر الشريعة السابقة وإحيائها وإن كانوا لم يُلزموا بأن يبلغوا الناس، وبهذا يزول الإشكال. فيمكن أن الله يُنبئ أحدًا ولا يأمره ولا يُكلفه بالإبلاغ.

وقوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ قاتل أو قُتل، المقاتلة مفاعلة تقتضي وجود مُدافعة بالقتل من الجانبين؛ وهي أعم من القتل، ولهذا قد تجوز المقاتلة ولا يجوز القتل، فلو وجدنا أهل قرية لا يؤذنون مثلًا فإنه يجب قتالهم ولكن لا يجوز قتلهم، يعني: أننا إذا قدرنا على المعيَّن لا نقتله، ولكن نقاتلهم حتى يؤذنوا. مثلًا لو وجدنا قرية لا يُصلون العيد فإنه يجب علينا قتالهم حتى يُصلوا العيد ولكن لا يجوز قتلهم، فالقتل أخص من القتال بمعنى أنه يمكن أن يجوز القتال لقوم ولا يجوز قتلهم، ومن ذلك على رأي بعض العلماء الرجل الذي يريد المرور بين يديك أو بينك وبين سترتك فتدافعه فيأبى، فقد قال النبي ﷺ: «فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ ...»[1] ولكن لا يجوز أن يقتله. والفرق ظاهر؛ لأنه لو قلنا إنه يجوز أن يقتله لجاز لهذا المُصلي أن يضرب هذا الذي أراد المرور في مكان مميت، ويسقط ميتًا، ولكن هذا ليس بجائز، وإنها يُقاتله مُقاتلة دفاع، فإن اندفع كفَّ عنه.

وقوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربيون، قال بعضهم: إن الربيين نسبة إلى الربِّ ولكن كُسرت الراء؛ لأنها تُغيَّرُ عند النَّسب، وكم من حركة تغيرت عند النسب، مثلًا بنو أُمية نقول فيهم: الأمويين، تختلف الحركة عند وجود النسبة، فالربيون أصلها رَبيّون من الرَّب أو من التربية وهي مفتوحة الراء، ولكنها لما تحولت إلى نسبة كُسِرَت الراء، وعلى هذا فالرِّبيون هم الذين قاموا بعبادة الرب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥).

فنالوا منه سبحانه وتعالى تربية خاصة.

ونظير ذلك قول العلماء: هذا عالم رباني نسبة إلى الرب والتربية، وقيل: إنها مُضافة إلى رِبَّة بالكسر يعني منسوبة إلى (ربة) وهي الطائفة فيكون معنى ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: طوائف كثيرون. وعلى كل حال فالله تعالى يبين أن كثيرًا من الأنبياء قاتلوا أو قتلوا ومعهم ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قاتل معه ربيون أو قتل معه ربيون.

وقوله: ﴿كَثِيرٌ﴾ صفة «الربيون» وهي لا تقتضي الأكثر، مثلًا: إذا كان عندنا مائة وسلم منهم خمسون نقول: هؤلاء كثير. سلم منهم عشرون نقول: هذا كثير، سلم منهم ستون نقول: هذا كثير، لكن ما قبل الخمسين لا نقول فيها أكثر، وإنها نقول أكثر فيها تجاوز النصف. المهم أن ﴿كَثِيرٌ﴾ هنا يعني: طوائف كثيرة قاتلوا أو قتلوا.

قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ما جبنوا من أجل ما أصابهم في سبيل الله بل لم يزدهم ما أصابهم في سبيل الله إلَّا شجاعة وإقدامًا؛ لأن عندهم من الإيمان ما يدفعهم إلى ما يصيبهم في سبيل الله، كما أن من طبيعة البشر أن الإنسان إذا اعتُدِيَ عليه احتمى أو حمي وزاد إقدامًا، فكذلك هؤلاء ما جبنوا لما أصابهم في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طريقه وشريعته؛ لأنهم مؤمنون بأن كل ما أصابهم فهو على خير، ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

«هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»[1]

قوله: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: ما ضعفت عزيمتهم حتى لو قتل الكثير منهم، فإنها لا تضعف عزيمتهم خلافًا لمن كان عنده جبن فإنه تضعف عزيمته إذا قُتل أحد من قومه.

قوله: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ من الاستكانة وهي: الذل، أي: ما ذلوا لعدوهم مع أنه قُتل منهم كثير لكن كانوا على عزة؛ لأن الذي يعلم أن من قتل من قومه في سبيل الله لا يهتم إذ إنه مؤمن بأنه لو قتل هو لكان مقتولًا في سبيل الله، فلا يذل لأعداء الله.

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ يحب الصابرين الذين يصبرون على كل ما يجب عليه الصبر، والصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه على الطاعة ولا يضجر منها ولا يدعها، وصبر عن معصية الله، يعني أن الإنسان يصبر نفسه عن المعصية فلا يقدم عليها، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخط بها يقضيه الله عليه من الأشياء المؤلمة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله سبحانه وتعالى له عناية خاصة بهذه الأمة، حيث يسليهم بما حصل للأمم السابقة؛ لقوله: (وكأين من نبي قُتِلَ) على قراءة الوقف.

٢ - أن الجهاد مشروع في غير هذه الأمة؛ لقوله: ﴿قَـٰتَلَ﴾ والقتال من الأنبياء وأتباعهم لا يكون إلَّا عن جهاد وهو كذلك.

٣ - الثناء على من سبق ممن يستحق الثناء، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

٤ - أن من طرق التشجيع على الشيء والإغراء به، أن يُذكر للإنسان سلفٌ يُقتدى به ويتشجع للحاق به؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾.

٥ - الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يذلون لأعداء الله، يؤخذ من قوله: ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وذلك أن الإنسان المؤمن يجب أن يكون أشم كالطود العظيم بالنسبة لأعداء الله حتى إنه يجوز للإنسان الخيلاء وجر الثوب في مقابلة الأعداء، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْطِنِ»[1]، حتى إن بعض العلماء قال: يجوز للجيش الإسلامي أن يصبغ بالسواد رأسه ولحيته أمام الأعداء من أجل إرهابهم؛ لأنهم يظنون أن المقابل لهم شباب، على كل حال سواء قلنا بهذا القول أم لم نقل، ينبغي للإنسان إلَّا يذل أمام عدوه بل يُظهر له العزة بالقول وبالفعل؛ لأن إذلال الكافرين محبوب إلى الله، قال الله تبارك وتعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكل شيء تغيظبه الكفار فهو قُربة لك عند الله، وكل شيء تنال به الكفار من أذى أو قتل أو غير ذلك فإنه قربة تقربك إلى الله عزَّ وجلَّ، إلَّا إذا كان بيننا وبينهم عهد، فإن الواجب الوفاء بعهدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

٦ - إثبات المحبة لله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ والمحبة صفة من صفات الله تعالى المتعلقة بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بالمشيئة، ووجه كونها تتعلق بالمشيئة أنها مربوطة بسبب، وكل صفة مربوطة أو مُعلَّقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية، وبناءً على هذه

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٨٠٥): «وفيه من لم أعرفه».

القاعدة المفيدة نقول: الرضا والفرح والضحك صفات فعلية.

فالله تعالى يُحب، ولا ألذ للإنسان من محبة الله، من كونه يحب الله عزَّ وجلَّ، ولذلك إذا قمت تصلي وأنت صافي القلب بعيدًا عن الدنيا، مُقبلًا على الله، تجد في هذه الصلاة محبة الله ولذة عظيمة تنسيك الدنيا كلها؛ لأنك لا تجد شيئًا ألذ من محبة الله سبحانه وتعالى.

ومرَّ علينا كثيرًا ولا حاجة إلى التكرار أن أهل التعطيل ينكرون حقيقة المحبة يقولون: إن المراد بالمحبة الإثابة أو إرادة الإثابة يعني: أنها الشيء المخلوق المنفصل عن الله، وهو الثواب أو الإرادة؛ لأنهم يثبتون صفة الإرادة، فمعنى ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على قولهم: أي يُثيبهم أو يريد أن يُثيبهم.

٧ - الحثُّ على الصبر؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأننا لا نعلم فائدة أجلّ وأعظم من الحث على الصبر في مثل هذا التعبير.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى حسن فعل هؤلاء الربيين الذين قاتلوا مع الأنبياء وقتلوا، وأنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وهذا حُسْنُ فِعْل ذَكَرَ حُسْنَ قولهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر، فهي تساوي المصدر أي: وما كان قولهم إِلَّا قولهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا.

وهذه جملة مفيدة للحصر، يعني حصرت أقوالهم عند هذه المصائب أنهم سألوا الله المغفرة؛ مغفرة الذنوب والإسراف، وسألوه الثبات؛ وذلك لأن ما أصابهم إنما أصابهم بالذنوب كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] إذن علاقة هذه الآية بما قبلها أنه لما ذكر الله حُسْنَ فعالهم ذكر حُسْنَ مقالهم.

أما من حيث الإعراب فيقول المعربون: إن (قول) خبر كان مُقدم، و(أن) وما دخلت عليه (أن قالوا) اسمها مؤخر، وعلى هذا فهو من باب تقديم خبر كان.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ يعني: عند حدوث القتل ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ الضمير يعود على الباقين منهم

الذين لم يقتلوا؛ لأن الذين قتلوا لا يمكن أن يقولوا هذا. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾، (ربنا) يعني: يا ربنا، فهو مُنادى حذفت منه ياء النداء تخفيفًا وتيمنًا بالبداءة باسم الله. فحذف ياء النداء هنا له وجهان:

الأول: للتخفيف، **والثاني**: التيمن بالبداءة باسم الله.

نادوا الله تعالى عند الدعاء باسم الربوبية؛ لأن الربوبية هي التي فيها التصرف، وإجابة الدعاء من باب الربوبية، فتوسلوا باسم الله الذي يُناسب ما يطلبون وهو إجابة الدعاء.

﴿ٱغْفِرْ﴾ يعني: استر وتجاوز؛ لأنه مأخوذ من المِغْفَر وهو ما يقي به المقاتل رأسه من السهام، في المغفر الستر والوقاية، ولهذا لو أن الله سبحانه وتعالى هتك ستر المذنب لم تكن مغفرة تامة، ولو عذبه به وأخفاه عن الناس لم تكن مغفرة تامة، فإذا ستره وعفا عنه صارت المغفرة تامة.

﴿ذُنُوبَنَا﴾أصل مادة «**الذال والنون والباء**» تدور حول معانٍ مُتعددة منها النصيب كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي: نصيبًا. ومنه سُمي ذنوب الماء، أي: الدلو؛ لأنه شيء مُقدر من الماء، ويُطلق الذنب على الإثم؛ لأنه نصيب العامل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧،٨].

قوله:﴿وَإِسْرَافَنَا﴾الإسراف: مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد هي إما في غلو وإما في تقصير، أما مجاوزة الحد في الغلو فظاهر، وأما في التقصير؛ فلأن المطلوب من المُكلَّف إِلَّا يتعدى حدود الله تجاوزًا ولا يقربها أيضًا، فإذا كان الإنسان فاعلًا للمحرم فهو مسرف؛ لأنه تجاوز حد العبودية إذ مُقتَضَى العبودية أن يكون مُجتنبًا لما حرم الله. وإذا فرَّط في الواجب كان مُسرفًا أيضًا فيما تقتضيه العبودية؛ لأن مُقتضى العبودية أن يكون قائمًا بالواجب، فالإنسان قد يُسرف في الواجب وفي المحرم وفي المباح أيضًا، كما لو أسرف في الإنفاق على نفسه وعلى أهله فإنه داخل في الإسراف.

وقوله: ﴿فِىٓ أَمْرِنَا﴾ المُراد بالأمر هنا: الشأن أي في شأننا، وهو مفرد مضاف فيعم جميع الأمور.

وقوله:﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ ثبت أقدامنا عند مُلاقاة الأعداء وعند حلول الشبهات وعند ورود الشهوات، والإنسان مُحتاج إلى أن يثبِّته الله في مواطن القتال، إذ لو لم يثبته الله لفرَّ. ومحتاج إلى أن يُثبِّته الله عند الشبهات، إذ لو لم يُثبته الله لزاغ. ومحتاج إلى أن يُثبته الله عند الشهوات، إذ لو لم يثبته الله لهلك. وكثير من الناس ينزلقون عند وجود الشبهات فتجده ذا يقين، ولكنه إذا وردت عليه أدنى شُبهة تأثر؛ لأنه لم يثبت. وكثير من الناس أيضًا يكون عنده علم ويقين، وليس عنده شك ولكن الشهوة قد تغلبه فلا يثبت. فالمطلوب تثبيت الأقدام في كل موضع يمكن أن تزل فيه، فيدخل في ذلك - كما قلت - تثبيت الأقدام عند القتال كما هو المفهوم من سياق الآيات، وتثبيت

الأقدام عند الشُّبهات، وتثبيت الأقدام عند الشهوات.

وقوله: ﴿وَٱنصُرۡنَا﴾ انصرنا يعني: اجعل النصر لنا، وهو الغلبة ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: الكافرين بالله، فيدخل في ذلك أن ينصرك الله عزَّ وجلَّ على نفسك؛ لأن نفسك إن لم ينصرك الله عليها فإنها تأمرك بالسوءقال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإذا لم ينصرك الله عليها أهلكتك، وإذا نصرك الله عليها وجعل الغلبة للنفس المُطمئنة سلمت منها، ويدخل في النصر على القوم الكافرين النصر على الشيطان، فإن الشيطان كافر، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ويدخل في ذلك النصر على كفار الإنس، وذلك حين قتالهم فإن الإنسان إذا لم ينصره الله عليهم فإنه لا ناصر له كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن هؤلاء الرِّبيين الذين قاتلوا مع النبي كملت منهم الأفعال والأقوال، فمن الأفعال قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ومن الأقوال: أنهم لجأوا إلى الله عزَّ وجلَّ بسؤال المغفرة، - مغفرة الذنوب والإسراف في الأمر-؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم إنها هو بسبب الذنوب.

٢ - أنه ينبغي على الإنسان أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء لا سيما عند مُلاقاة الكفار حتى ينتصر عليهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٣ - أن الإنسان مفتقر إلى مغفرة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها ولكنه مُفتقر إليها غاية الافتقار، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا حدَّث أصحابه أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[1].

٤ - أن الإنسان لا يخلو من الإسراف على نفسه؛ إما في غلو وإما في تقصير، وجه ذلك أن سؤالهم اللهَ أن يغفر لهم الإسراف يدل على وجود هذا الشيء، وأنت إذا تأملت نفسك وجدت أنك لن تخلو من الإسراف.

٥ - أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت القدم من الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، وقد ذكرنا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

أن هذا يشمل ثلاثة مواطن: عند مواجهة الأعداء، وعند الشبهات، وعند الشهوات.

٦ - أن الله إذا لم ينصرك على عدوك، فإنك لن تنتصر؛ لقوله: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن قلت: هل هذا يُعارض أمر الله عزَّ وجلَّ باتخاذ ما نستطيع أو بإعداد ما نستطيع للأعداء من القوة؟

فالجواب: لا؛ لأنك إذا سألت الله شيئًا فإن المطلوب منك أن تسعى في حصوله وإيجاده، ولهذا لو سألت الله الجنة، فالمطلوب منك أن تعمل لها لا أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وتترك العمل، كذلك إذا سألنا الله أن ينصرنا على القوم الكافرين فإن علينا أن نفعل من الأسباب ما نستطيع، سواء كانت هذه الأسباب معنوية أو مادية.

❁ ثم قال الله تعالى مبيناً ما ترتب على حُسن حالهم ومقالهم:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]

❁ التفسير ❁

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ آتاهم: أي أعطاهم الله. و «آتى»: تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر؛ لأنها من باب كسا وأعطى.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ المفعول الأول هنا: الهاء في آتاهم، والثاني: ثواب ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: جزاءها وذلك بالنصر على أعدائهم والغنيمة فيمن تحل له الغنيمة. ومعلوم أنه لا تحل الغنيمة إلَّا لهذه الأمة، لكن المُراد: النصر على الأعداء والعزة والغلبة عليهم، وحُسْن ثواب الآخرة، ولم يقل: ثواب الآخرة، بل قال: (حُسن)؛ لأن ثواب الآخرة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وليس ثواب مكافأة فقط، إذ لو كان ثواب مكافأة فقط لكان الحسنة بمثلها، لكنه ثواب حُسْن وفضل، ولهذا قال: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ هذا وجه، والوجه الثاني أنه لم يعبر عن ثواب الدنيا بالحسن؛ لأن الدنيا مهما كانت فهي دار شقاء وعناء وكدر، لا يمكن أن يخلو صفوها من كدر؛ ولهذا لم يقل: حُسن ثواب الدنيا، إذ إنه في الحقيقة ليس له حسن، وهو إن كان حُسنًا فهو حُسن نسبي وإلَّا ففيه حُسن لا شك ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] لكنه أمر نسبي حتى المُنعمون بالنعمة تجدهم أحيانًا يأتيهم ما

ينغص عليهم هذه النعمة.

وقوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة، وذلك برفعة الدرجات في جنات النعيم، والنجاة من دركات الجحيم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: أنهم هم مُحسنون فأحبهم الله عزَّ وجلَّ، وكان من مُقتضى محبته لهم هذا الثواب الحاصل في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿يُحِبُّ﴾ المحبة صفة من صفات الله حقيقة، فهو عزَّ وجلَّ يحب حقيقة، وليست محبته بمعنى الثواب أو الجزاء كما قاله بعض أهل التحريف الذين يُنكرون من الصفات ما يُنكرون ومنها المحبة، فإنهم يُنكرونها؛ ويقولون: إن الله لا يحب بل ولا يُحَب، وتعليلهم أن الحب لا يكون إلَّا بين مُتجانسين، مخلوق ومخلوق، ولكن نقول لهم: هذا باطل. فالحب قد يكون بين شيئين متباعدين ومنه قول الرسول ﷺ: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ»[1] وهو جماد، ومن الأشياء المحسوسة الملموسة أن الإنسان يحب أثاثه وأمتعته ورواحله وسياراته ودوره؛ يحبها محبة ظاهرة ملموسة محسوسة وهي ليست من جنسه فهي من جنس آخر، بل هي أيضًا دونه؛ لأنها ملكه، فهذا التعليل الذي نفوا به صفة المحبة لله تعليل باطل.

وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشمل المحسنين في عبادة الله والمحسنين إلى عباد الله؛ أما المحسنون في عبادة الله فقد بيَّن الرسول ﷺ كيف يكون الإحسان فقال حين سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، يعني: أن تعبد الله تعالى طلبًا مع اليقين التام، فإن لم تصل إلى هذه الدرجة فلا أقل من الدرجة الثانية، وهي أن تعبد الله هربًا، تعبده كأنه يراك فتهرب من عقابه بالقيام بطاعته، فالإحسان حقيقة يشير فيه الرسول ﷺ إلى أنه نوعان: إحسان بطلب، وإحسان بهرب:

الأول: أن تعبد الله كأنك تراه، فتطلبه طلب الوصول إليه.

والثاني: كأنه يراك فتخافه وتخشاه وتُعظمه، والأول أكمل من الثاني. هذا هو القول الراجح في معنى الحديث، وإن كان بعضهم يقول: إنه مرتبة واحدة، وأن المعنى: وإن لم تكن تراه فإنه يراك قريب من المعنى الأول، فالجملتان قريبتان من الترادف، والصواب ما قلناه أولًا، وإذا كان يحب المحسنين؛ فإنه يترتب على محبة الله سبحانه وتعالى أشياء كثيرة، منها ما يكون في الدنيا ومنها ما يكون في الآخرة؛ فما يكون في الدنيا فإن الله إذا أحب الإنسان سدد أعماله وخطواته وأقواله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٤٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأفعاله، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ...»(1) هذا من فوائد محبة الله.

ومن فوائد محبة الله عزَّ وجلَّ تيسير فعل الطاعة وترك المعصية؛ وذلك لأن الإنسان إذا أحب شيئًا طلب الوصول إليه؛ فإذا كان يحب المال طلب الوصول إلى المال بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، وإذا أحب شخصًا طلب الوصول إليه بمصاحبته ومصادقته، وإذا أحب أي شيء فإنه يطلب الوصول إليه، فإذا أحب الله العبد أحبه العبد فطلب الوصول إليه.

ومن فوائد محبة الله للعبد أن الله تعالى يُلقي في قلوب العباد محبته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. وجاء في الحديث: «أَنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(2) فيكون مقبولًا عند الناس.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله سبحانه وتعالى أثاب هؤلاء الذين أحسنوا في مقالهم وفعالهم بثواب الدنيا وثواب الآخرة.

٢ - أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ فهو يثيب الطائع بثوابين: ثواب في الدنيا وثواب في الآخرة، بخلاف العقوبة: فإن الله تعالى لا يجمع بين عقوبتين، فإذا شرع عقوبة في الدنيا على ذنب فإنه لا يُعاقب به في الآخرة، كما جاء في الحديث «إِنَّ الْحُدُودَ كَفَّارَةٌ»(3). والحدود يعني العقوبات كحد الزنا والسرقة فإنها كفارة لأصحابها، وقال النبي ﷺ للمتلاعنين: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»(4)، بل إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فلن يجمع الله للإنسان عقوبتين على معصية، عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، لكن يجمع بين ثوابين في الطاعة ثوابًا في الدنيا وثوابًا في الآخرة؛ لأن رحمة الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٩٤)، و مسلم (١٧٠٩).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٩٣)، والترمذي (١٢٠٢)، والنسائي (٣٤٧٣).

سبقت غضبه.

فإن قال قائل: في بعض الآيات رتَّب الله عزَّ وجلَّ على بعض الأعمال - مثل من حارب الله عزَّ وجلَّ أو سعى في الأرض فسادًا - عذابين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ثم ذكر في النهاية ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فالجواب: صحيح أن هذا الخزي ينالهم في الدنيا، ولكن لعل هذا لعظم أفعالهم صار لهم الحد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، وإلَّا فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: «أَنَّ مَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ»(١). ولقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وأن الله لا يجمع للإنسان عقوبتين على المعصية. وقد يُقال: لشدة جرمهم وذنبهم يجمع لهم بين هذا وهذا.

٣ - الإشارة إلى خفة شأن الدنيا بالنسبة للآخرة، وهذه تؤخذ من قول الله تعالى: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ كأن الدنيا ليست بشيء حتى يكون فيها حسن كما قررنا. ففيه إشارة إلى أن العاقل ينبغي له أن يعتني بثواب الآخرة الذي هو حسن.

٤ - إثبات البعث والجزاء؛ لقوله: ﴿ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾.

٥ - إثبات المحبة لله، وهي صفة حقيقية ثابتة لله على الوجه اللائق به.

وهكذا جميع الصفات التي جاءت في الكتاب والسُّنة، كالرضا والفرح والعجب، يجب علينا أن نؤمن بها على أنها حق على حقيقتها؛ لأن الله خاطبنا بالقرآن بلسانٍ عربيٍ مُبين. ولم يأتِ عن الصحابة ولا عن الأئمة أنهم حرَّفوا هذه النصوص عن ظواهرها، وهذا يدل على أنهم أقرّوا بها كما جاءت على ما هي عليه، وهذا مذهب السلف ومذهب أهل السُّنة والجماعة وفيه الراحة والطمأنينة؛ لأن الإنسان إذا لاقى ربه وقد أثبت له الصفة التي دلَّ عليها القرآن والسُّنة فإنه يوافيه بحجة؛ لكن إذا وافى ربه وقد حرَّف وقال: معنى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يُثيبهم فليس له حجة عند الله. ونحن نتكلم دائمًا على أن الذين أنكروا شيئًا من صفات الله بحجة عقلية نجيبهم على سبيل الإجمال بأن نقول:

أولًا: أن هذا خلاف طريقة السلف؛ لأن السلف لم يستدلوا بالعقل على إثبات الصفات أو نفيها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٩٤)، و مسلم (١٧٠٩).

ثانيًا: أن العقل لا مجال له في باب صفات الله؛ لأن صفات الله خبر محض، والأخبار المحضة ليس للعقول فيها مجال إطلاقًا، ثم لو قال قائل: إلَّا يمكن أن نقيس الغائب على الشاهد؟ قلنا: لا يمكن القياس؛ لأن الله نفى هذا القياس ونهى عنه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] نعم ربما أقيس شخصًا لم أعلم به على شخص أعلم به وأشاهده، ولكني لا يمكن أن أقيس الخالق على المخلوق؛ لأن الله نفى ذلك بل نهى عنه.

ثالثًا: أن نقول لهم: إن نفيكم لما نفيتم بحجة أن العقل لا يدل عليه غير صحيح في الاستدلال عند العقلاء، وذلك لأننا لو قدرنا أن العقل لا يدل عليه فقد دلَّ عليه السمع، وانتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول.

يعني إذا قلنا: هذا لا يدل على كذا، قلنا: لكن عندنا دليل آخر، هب أن العقل لا يدل على ما نفيتم من الصفات لكن السمع دلَّ عليه، وهذا كما أنه في الأمور المعقولات فهو أيضًا في الأمور المحسوسات، لو قلت: إن هذا الطريق لا يؤدي إلى مكة، هل معناه أنه لا يمكن أن نصل إلى مكة؟ يمكن أن نصل من طريق آخر، فهب أن العقل لا يدل على ثبوت ما نفيتم فإننا نستدل عليه بالسمع.

رابعًا: أن نقول: بل إن العقل يدل عليه وأولى مما ذكرتم، يعني أن نثبت ما نفيتم بدليل العقل، نثبته بدلالة العقل إثباتًا على وجه يكون أظهر مما ذكرتم، فمثلًا: هم يقولون والكلام هنا مع الأشعرية: إن الإرادة ثابتة لله عزّ وجل؛ لأن العقل دلَّ عليها بالتخصيص، يعني كون السماء سماء والأرض أرضًا هذا تخصيص.

ما الذي خصص أن تكون السماء سماء والأرض أرضًا؟ الإرادة: أراد الله أن تكون السماء سماء فكانت، وأن تكون الأرض أرضًا فكانت، إذن فهذا دليل عقلي على ثبوت الإرادة لله. ونقول: أنتم نفيتم الرحمة ونحن نستدل لها بالعقل! ألم تكن نعم الله عليكم لا تُحصى؟ سيقولون: بلى لا تُحصى. وهي آثار رحمة، ولهذا حتى العامة إذا جاء المطر وانتشر الخصب يقولون: هذه من رحمة الله أن أنزل علينا المطر وانتشر الخصب، بل يقولون: مُطرنا بفضل الله ورحمته، يثبتون الرحمة لله بدليل عقلي. كذلك أيضًا الرضا يمكن أن نثبته بدليل العقل. فإثابة الطائعين تدل على رضا الله عنهم، إذ لو غضب لانتقم لكنه رضي فأثاب. فهذا دليل عقلي، فصار الذين يُنكرون ما يُنكرون من الصفات بحجة أن العقل لا يدل عليها محجوجين من أربعة أوجه كما ذكرناها سابقًا.

٦ - الحث على الإحسان؛ لأن الإحسان سبب لغاية هي غاية كل إنسان وهي محبة الله، فإذا كان سببًا لهذه الغاية العظيمة كان مأمورًا به محثوثًا عليه. ويدلكم على أن محبة الله هي الغاية أن الله

قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولم يقل: فاتبعوني تصدقوا فيما ادعيتم بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن الثمرة العظيمة هي أن الله يحبك، مع أننا نضمن أنه من أحب الله حقًّا فسيحبه الله؛ لأن الله يقول: «مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْه بَاعًا»[1]. فإذا كانت محبتك لله صادقة فإن محبة الله لك مضمونة. لكن البلاء كل البلاء أن تدَّعي المحبة وليست محبتك صادقة، يكون قلبك مشغولًا بمحابَّ أخرى كمحبة المال ومحبة الأولاد ومحبة القصور ومحبة المراكب ومحبة النساء وهكذا، هذه المحاب تُضْعِفُ محبة الله في القلب، إلَّا إذا كانت تابعة لمحبته سبحانه وتعالى، ولا يُقال عنا: أنا نوصد باب محبة جبلت النفوس عليها، وإنما نقول: محبة هذه الأشياء إذا كانت تابعة لمحبة الله صارت من محبة الله. فلو أحب المال من أجل أن يُنفقه في سبيل الله، كانت هذه المحبة لا تزاحم محبة الله بل تزيدها. ولو أحب النساء من أجل تكثير الأمة ومن أجل تحصين فرجه ومن أجل الفوائد التي رُتبت على النكاح، كان هذا من محبة الله، لكن لمجرد قضاء الوطر تجده يتعلق قلبه بكل امرأة، ما يستقر على شيء، فحينئذٍ تكون هناك مُزاحمة فتضعف محبة الله سبحانه وتعالى في القلب، المهم أن الشأن - كل الشأن - هو أن الله يحبك، هذا هو المهم.

٧ - إثبات الصفات الاختيارية لله عزَّ وجلَّ يعني التي تتعلق بمشيئته، فإذا علَّق الله الصفة على فعل علمنا أنها من الصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئته. فإذا كان الإحسان سببًا لمحبة الله وهو فعل العبد وهو حادث، لزم من ذلك ثبوت المحبة المعلقة بالإحسان. والصفات الاختيارية أيضًا أنكرها الأشاعرة ونحوهم، وقالوا: لا يمكن أن يكون لله صفات حادثة اختيارية، لماذا؟

قالوا: لأننا لو أثبتنا لله صفات حادثة لزم قيام الحوادث به، والحوادث لا تقوم إلَّا بحادث، والله عزَّ وجلَّ أزلي أبدي. فيُقال: ويلكم هذا كذب أن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث! أليس الله يقول: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ويقول: ﴿ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أليس الإنسان منا إرادته ليست تابعة لوجوده، بل للإنسان إرادات تتجدد ولا يلزم أن يكون هذا المريد لم يوجد إلَّا عند وجود الإرادة بل هو سابق عليها. نحن سابقون على إرادتنا يعني أن الإنسان موجود قبل أن يُريد، فلا يلزم تساوي الإرادة مثلًا أو الأفعال الاختيارية مع الوجود، فالإنسان يفعل أفعالًا كثيرة متجددة لم تكن معه حين وجوده، فكذلك الرب عزَّ وجلَّ يفعل ما يريد أفعالًا لم تكن معه سبحانه وتعالى أزلية بل هي حادثة، لكن قد تكون حادثة النوع وقد تكون حادثة الآحاد، ويكون نوعها قديمًا أزليًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، و مسلم (٢٦٧٥).

فالكلام مثلًا قديم أزلي لم يزل الله سبحانه وتعالى مُتكلمًا لكن آحاده حادثة لا شك ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ونحن نعلم أن مُرادات الله عزَّ وجلَّ تقع، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يُحيي ويُميت، ويعز ويذل، ويزرق ويمنع، وكل هذه الأشياء بإرادةٍ مقرونة بالقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومع ذلك لا يلزم منه أن يكون سبحانه وتعالى حادثًا. فتعليلهم هذا النفي الذي سلكوه تعليل عليل يوجب الوصف بالنقص. فانظر كيف كان أهل الباطل يفرون مما يعتقدونه باطلًا، فيقعون في شيء هو أبطل منه وأشر منه، مع تطاولهم على تحريف النصوص وتعطيل الله عزَّ وجلَّ عما وصف به نفسه، فهم مُحرفة ومُعطلة واقعون في شر مما فروا منه.

فإن قال قائل: وهل يؤثر أخذ المغنم على الثواب الأخروي لحديث: «**مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ**»(١)؟

الجواب: أن أخذ المغنم لا يؤثر على الثواب الأخروي إذا خلصت النية أن تكون كلمة الله هي العليا، لكن قد يكون بعض المجاهدين يغلِّب جانب الغنيمة؛ فمن هنا ينقص الأجر كثيرًا حسب التغليب الذي قام في قلبه، فالحديث يحتاج إلى نظر في سببه، فلربما يكون سببه يدل على أن لهم إرادة في الدنيا.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠]

❁ التفسير ❁

صدَّر الله هذه الآية بالنداء، والتصدير بالنداء يدل على العناية بما سيوجه للمُخاطب؛ وذلك لأن النداء يفيد التنبيه، ولا ينبه الإنسان إلَّا لشيء مهتم به. فإذا وجَّه الله الخطاب، أو إذا صدَّر الخطاب بالنداء فهو دليل على العناية به لأهميته، ثم وجَّه إلى العباد باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والغرض من ذلك هو:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠٦)، والنسائي (٣١٢٥)، وأبو داود (٢٤٩٧)، وابن ماجه (٢٧٨٥).

أولًا: الإغراء والتشجيع على قبول ما يُلقَى؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على قبول ما أمره الله به وعلى ترك ما نهى الله عنه. ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: «إذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شرٌّ تُنهى عنه»(١).

ويفيد أيضًا فائدة ثانية: وهي: أن قبول المذكور من مقتضيات الإيمان. كما أنك لو وجهت إلى شخص كريم وقلت له: يا أيها الكريم، أعط الفقير وأعن المحتاج، فهو يدل على أن إعطاء الفقير وإعانة المحتاج من مُقتضى كرمه، إذن قبول ما يأتي بعد هذا الخطاب يكون من مُقتضى الإيمان.

الفائدة الثالثة أو الغرض الثالث: أن عدم قبوله نقص في الإيمان؛ لأنه إذا وجِّه الخطاب إلى إنسان بلفظ الإيمان ولكن لم يمتثل فهذا نقص في إيمانه؛ لأن ما يأتي بعد النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إما مأمور به أو منهي عنه أو مُخبر به، فترك المأمور به نقص في الإيمان، والوقوع في المحظور نقص في الإيمان، والتكذيب بالخبر نقص في الإيمان.

استمع إلى هذا الخبر من الله عزَّ وجلَّ، خبر من العليم بكل شيء سبحانه وتعالى:

﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (إن) هنا شرطية، وفعل الشرط (تطيعوا) مجزوم بحذف النون والواو فاعل؛ لأنه من الأفعال الخمسة.

أما جواب الشرط فهو قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ وهو مجزوم بحذف النون والواو فاعل.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إذن هناك أمر موجه من الكفار إلى المؤمنين؛ لأن الطاعة تقابل الأمر، أو نهي موجه من الكافرين إلى المؤمنين يأمرونهم بالفحشاء وينهونهم عن المعروف، فإن أطعتموهم في ذلك فالجواب: يردوكم على أعقابكم.

وقوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عامة تشمل اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة الذين ليس لهم دين ولا يتعبدون بشيء، أي واحد من الكفرة إذا أمرك بشيء فأطعته فإنه يردك على أعقابك فتنقلب خاسرًا.

وقوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فيما يُتَعَبَّد به الله، أما في المسائل الأخرى كمسائل الصناعة مثلًا فإنه لا يدخل في الآية بلا شك، فلو أن مهندسًا من الكفار أمرك أن تصنع كذا لتكون النتيجة كذا فإنه لا يدخل في الآية، إنما يُقصد به ما يكون على سبيل التعبد كأن يأمرك بالفحشاء مثل شرب الخمر والسرقة وسوء الأخلاق، أو ينهاك عن المعروف؛ كأن ينهاك عن الصلاة، أو ينهاك عن الإخلاص لله وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

وقوله: ﴿أَعۡقَـٰبِكُمۡ﴾ الأعقاب جمع عقب، وهو مؤخرة القدم، ويُقال له: العرقوب يعني: يجعلونكم تمشون على الخلف، ومعلوم أن الذي يمشي على الخلف سوف يقع في الحفر ويطأ الشوك والحصى، وهذا قريب من قوله: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: ٢٢].

وقوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ الانقلاب يقتضي التحول من حال إلى حال، ولهذا يُقال: انقلب في فراشه من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر. إذن هناك تحول من حال إلى أخرى إذا أطعنا هؤلاء الكفار.

وقوله: ﴿خَٰسِرِينَ﴾ هذه حال من الواو في قوله: (فتنقلبوا) أي: تكونوا في خسارة بعد أن كنتم في ربح؛ لأن الإيمان ربح كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر:١ - ٢] كل إنسان، ولهذا «ال» هنا للعموم أي: أن كل إنسان في خسر. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣] الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع هم الرابحون، ومن سواهم فهو خاسر عصره.

وهذه الحكمة من أن الله أقسم بالعصر دون غيره؛ لأن العصر هو خزائن الأعمال. فإذا لم يقم الإنسان بهذه الصفات الأربع خسر عصره وكان عمره خسارة.

وقوله: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾؛ لأنكم تحولتم من الإسلام إلى الكفر، وفي آية أخرى سبقت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهناك قال: ﴿فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾. لأن الذين أوتوا الكتاب بعضهم فيه خير، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: ١١٣]. وهذا من بلاغة القرآن لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] فريقًا منهم.

أما الكفار فكل الكافرين يريدون منا أن نكفر، وأن ننقلب على أعقابنا خاسرين.

فإن قال قائل: لِمَ لا نحمل قوله ﴿فَرِيقٗا﴾ على العموم فيشمل كل أهل الكتاب لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] أي: كل يهودي وكل نصراني؟

فالجواب: أن يُقال: الآية صريحة ﴿فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]؛ لأن بعض أهل الكتاب معهم نصح لكن ليس كلهم، ثم إن أهل الكتاب في الحقيقة في الوقت الحاضر ليس فيهم نصح؛ لأن الذين فيهم مودة للذين آمنوا أو أقرب الناس مودة هم الذين إذا ﴿سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، هؤلاء قريبون من

المؤمنين، يتأثرون بأدنى دعوة ويدخلون في الإسلام، أما نصارى اليوم فالظاهر أنهم كيهود الأمس مُعاندون ضد الإسلام، ولا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة. ولكن الإسلام دين الفطرة تتقبله النفوس وتطمئن إليه، وهو أمر يحث الدُّعاة المخلصين من المسلمين، والقلوب بيد الله عزّ وجل.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ (بل) هنا للإضراب الإبطالي، لكنه إبطال شيء مُقدر؛ لأن طاعتنا للكفار تكون لرجاء أو خوف، يعني: نحن لو أطعنا الكفار فإما أن نطيعهم رجاء، وإما أن نطيعهم خوفًا؛ رجاء أن ينصرونا أو يمدونا بالمال وما أشبه ذلك، أو خوفًا من أن يسطوا علينا وأن يحاربونا ويُقاتلونا.

هنا حسن الإضراب تمامًا فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ يعني: لا تطيعوهم وتتولوهم فإن لكم مَنْ هو خير من ولايتهم وهو الله.

ولهذا يُعتبر هذا الإضراب إضرابًا إبطاليًا لشيء مُقدر ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أجل أن يكونوا لكم أولياء فإنهم سوف ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ إذا كان الله مولانا سبحانه وتعالى فإنه لا يهمنا أحد من الخلق ما دمنا نؤمن بأن الله هو مولانا بما معنا من الأوصاف التي نستحق بها الولاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولن يهمونا أبدًا مهما كانوا من القوة، ومهما كانوا من الصناعة، ومهما كانوا من المال؛ لأن معنا الله عزَّ وجلَّ وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكن الله عزَّ وجلَّ يأمرنا أن نقاتل بأيدينا، فإذا أعيتنا القدرة مع القيام بما يجب حينئذٍ جاءنا نصرٌ من الله لا قِبَل للبشر به، وهذه حقيقة يجب أن نفهمها.

نحن مأمورون بأن نعدَّ العدة وأن نقاتل، لكن إذا جاءنا من لا طاقة لنا به حينئذٍ يأتي نصر من الله ليس لنا به طاقة ولا لغيرنا، وله شواهد في التاريخ.

فموسى عليه السلام لما خرج من مصر وكان فرعون قد جمع له جميع أهل المدائن، كل المدن جميعهم من أجل القضاء على موسى وقومه وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] ليخفف شأنهم عند قومه حتى يستعدوا ويهموا بالقضاء عليهم، ووصلوا إلى البحر.

هل للإنسان طاقة بالبحر؟ ليس له طاقة، ولهذا قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ لأن البحر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم فكيف ينجون منهم؟ قال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فأمره سبحانه أن يضرب البحر فضربه مرة واحدة بعصا تُحمل باليد، مرة واحدة فقط، فانفلق اثني عشر طريقًا يبسًا بلحظة، هذه الأرض الرطبة التي هي وحل وطين صارت بلحظة يبسًا، وها هو الماء السيال صار كل فرق منه كالطود العظيم كالجبل، جبال واقفة ليست سيالة.

حتى إن بعض العلماء يقول: إن الله تعالى جعل في هذه الكتل المائية فُرَجًا حتى ينظر بنو

إسرائيل بعضهم إلى بعض؛ لأن الإنسان في وسط الماء، والمياه عن يمينه ويساره يخشى أن أصحابه قد غرقوا فجعل الله لهم فُرَجًا في هذه الأطواد ينظر بعضهم إلى بعض، بلحظة لا طاقة للبشر بها. فمن كان الله مولاه فهو منصور.

خرجوا من البحر ناجين، ثم دخل فرعون وقومه في البحر، ولَمَّا تكاملوا داخلين، أمر الله البحر أن ينطبق فانطبق بلحظة فأغرق فرعون وجنوده، وكان فرعون قد أرعب بني إسرائيل فأخرجه الله جل وعلا لهم جسدًا ينظرون إليه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢] فاطمأنوا أنه هلك.

وفيما يُذكر من تاريخ هذه الأمة الإسلامية أن العلاء بن الحضرمي لما وصل إلى البحرين وجد البحر أمامه وليس معه سفن، فدعا الله عزَّ وجلَّ فعبر الماء على أقدامه والخيول والإبل كلها تمشي على الماء كأنها تمشي على صفا من حجر، هذه ليس لنا بها طاقة.

وكذلك أيضًا ما يُذكر عن سعد بن أبي وقاص عند فتح المدائن أنه وصل إلى دِجْلة وهي تقذف زبدًا من قوة الجريان، وقد عبرها الفرس بسفنهم وجسورهم وكسروا الجسور وأغرقوا السفن، ولم يبق للمسلمين شيء يعبرون به، فقال سعد بن أبي وقاص لسلمان الفارسي: أعطنا من آرائك؛ لأنه رضي الله عنه كان ذا رأي في الحرب، وهو الذي أشار بحفر الخندق على المدينة في عام الأحزاب فقال: والله لا أرى حيلة في هذا، البحر بين أيدينا وليس معنا سفن ولا جسور ولكن دعني أنظر في القوم، إن كانوا على ما ينبغي وهم أهل للنُّصرة فليس بنو إسرائيل بأولى منا من النُّصرة، والله عزَّ وجلَّ قد فلق البحر لهم فعبروا. فذهب فوجد القوم فرسانًا في النهار رُهبانًا بالليل؛ في الليل ركوعًا وسجودًا، وفي النهار يُصلحون معدات الحرب ويستعدون. فرجع إليه بعد ثلاث وقال: إني وجدت القوم على أحسن ما يُرام، ولكن توكل على الله، فنادى سعد بالرحيل وأنه سوف ينفذ البحر وقال: إني مُكبر ثلاثًا، فإذا كبرت الثالثة فخوضوا البحر باسم الله ففعلوا، فيُقال - سبحان الله - إنهم عبروا كلهم بخيلهم ورجلهم وإبلهم. حتى إن بعض المؤرخين ذكر أن الخيل إذا تعبت أنشأ الله لها ربوة تقف عليها وتستريح، هذا نصر ليس لنا به طاقة لكنه من الله عزّ وجل. ولهذا قال هنا: لا تراءوا الكافرين ولا تطيعوهم استجلابًا للنصر أو خوفًا منهم؛ لأن لكم وليًّا أعظم منهم وهو الله عز وجل.

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ يعني: خير من ينصر، بل هو خير الناصرين، وأعظم الناصرين وأقدرهم وأقواهم عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] لا أحد.

فالإضراب هنا من أحسن ما يكون في هذا الموضع ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ

﴿ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: خير مَنْ ينصر.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - فضيلة الإيمان حيث يوجه الخطاب إلى الناس بوصف الإيمان في مقام الإرشاد والتنبيه، وأن الإيمان مُقتضٍ للامتثال.

٢ - أنه لا يجوز لنا أن نطيع الكافرين؛ لأن طاعتهم وسيلة إلى الكفر، قال تعالى: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

٣ - وجوب الحذر من الكفار، وأنهم لا يمكن أن يُدبروا أمرًا فيه مصلحة للمسلمين والإسلام أبدًا، إن ذلك مستحيل، حتى الحلفاء الذين يكون بينهم وبين المسلمين حلف فإنه لا يمكن أن يُحالفوا المسلمين إلَّا لمصلحتهم قطعًا. فخُزاعة كان بينها وبين الرسول ﷺ حلف في صلح الحديبية لكن لمصلحتهم.

٤ - أن طاعة الكفار نتيجتها الحتمية الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

فالكفار يأخذوننا شيئًا فشيئًا، إذ يوردون علينا أشياء نُطيعهم فيها، وهل يقفون عند هذا الحد؟ لا، لا يقفون، يدخلون أشياء حتى ننقلب على أعقابنا، وليس معنى ذلك أن نسجد لهم ونركع لهم. كلا، بل إذا خرج الإنسان من دينه كفى، ولهذا يُذكر عن بعض رؤسائهم أنه قال: نحن نسعى للتنصير لا من أجل أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية؛ لأن دين النصرانية معروف بعيد عن الفطرة، وأعني بدين النصرانية الذي هم عليه الآن، أما ما جاء به المسيح فهو حق، لكن ما جاء به المسيح قد انتهى ونُسخ بالدين الإسلامي. يقول: (نحن لا نريد أن نخرج المسلم من دينه إلى النصرانية لكن يكفينا أحد أمرين: إما أن نُخرجه من دينه إلى (لا دين) ويكون بهيميًّا ليس همه إلَّا بطنه وفرجه ومتعه، وإما أن نشككه في الدين)، ومعلوم أن الإيمان لا يصح مع الشك، لأن الإيمان يقين إذا كان عند الإنسان أدنى تردد فليس بمؤمن، فلا إيمان مع التردد. هم يقولون: يكفي أن نُخرجه إلى أن يكون بهيميًّا أو مُترددًا شاكًّا حائرًا، هذه نتيجة كُفرية.

٥ - أن الكفر خسارة؛ لقوله: ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ وإذا كان الكفر خسارة فالإيمان ربح، ولهذا لا نجد أحدًا أربح من المؤمن في هذه الدنيا، حتى لو كان فقيرًا ولو كان وحيدًا ليس عنده أموال ولا بنون، فإنه أربح من الكافر؛ لأن الكافر قد خسر الدنيا والآخرة، ولم يستفد من دنياه حقيقة وإنما يعيش كما تعيش البهائم كما قال أعلم العالمين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، سبحان الله مثال مُنطبق تمامًا ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] نتيجة سيئة (النار مثوى

لهم) يخرجون من الدنيا - والعياذ بالله - التي نعموا فيها إلى نار جهنم، وحينئذٍ يكون خروجهم أشد وأصعب بخلاف المؤمن - عسى الله أن يجعلنا من المؤمنين - فإنه يخرج من الدنيا ونكدها وتنغيصها إلى دار النعيم كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ عند موتهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وهذه الآية تدل على نعيم القبر؛ لأنه قال: ادخلوا الجنة الآن من موتكم. وقد ثبت في الحديث الصحيح: «**يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَنَعِيمِهَا**»[1] كما هو معروف.

٦ - التحذير الشديد من طاعة الكفار وولايتهم، ومع الأسف الشديد إننا اليوم قد هان علينا الولاء والبراء، فالولاء والبراء الذي يجب أن يكون من المؤمن وهو الذي به يذوق حلاوة الإيمان مفقود إلَّا ممَّن شاء الله.

كان الناس - وقد أدركناهم - إذا ذكر النصراني عند أحدهم اقشعر جلده وقال: أعوذ بالله، نصراني أو يهودي. أما الآن فيُقال: إن بعض الناس من المسلمين يصف النصراني بالأخوة - أخونا فلان - كيف أخونا فلان؟! ماذا قال إبراهيم عليه السلام هو وقومه؟: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، تبرؤوا منهم قبل أن يتبرؤوا من الأصنام ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾ إلى متى؟ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤] هذه الأسوة الحسنة أن نتبرأ من الكافرين، وأن نبغضهم، ونعتقد أنهم أعداء مهما ألانوا لنا القول وزخرفوه لنا، فهم أعداؤنا، ووالله لن تعود هذه العداوة ولايةً أبدًا إلى يوم القيامة.

فيجب علينا أن نحذر، وهنا نوجه الخطاب إلى ولاة الأمور وإلى عامة الناس بالتحذير من الكفار وولايتهم، وننصحهم بأن يتخذوهم أعداء حقيقيين كما هو الواقع، كذلك أيضًا الرعية يجب عليهم أن يبتعدوا عن الكفار ولاسيما في هذه الجزيرة؛ لأن هذه الجزيرة لها شأنٌ خاص في إبعاد الكفار عنها. قال النبي ﷺ في مرض موته عند فراقه الدنيا يوصي أمته يقول: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِن جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[2]. ويقول: «**لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا**»[3]. الأول في الصحيحين والثاني في مسلم. ويقول فيما صحَّ عنه أيضًا: « **أَخْرِجُوا**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧)، و أبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦٧)، والترمذي (١٦٠٦)، وأبو داود (٣٠٣٠).

الْيَهُودَ والنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ »(١). وننصح إخواننا العامة بأن يأخذوا بعين الاعتبار هذه الوصية من الرسول ﷺ وأن لا يُحضِرُوا إلى هذه البلاد أحدًا من اليهود أو النصارى أو غيرهم من الكفار إلَّا للضرورة القصوى في حدود معينة. بمعنى أن لا يُحضروهم على سبيل الاستيطان المؤبد، بل يُحضرونهم عند الضرورة، وتُقدر الضرورة بمدة معينة لا على سبيل الاستيطان المؤبد.

٧ - إثبات الولاية لله عزَّ وجلَّ، إثبات ولاية الله تعالى للمؤمنين؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وهذه ولاية خاصة؛ لأن ولاية الله للخلق نوعان:

عامة لكل أحد، وهذه معناها تولي الأمور سواء بنصر أو بخذلان أو غير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١ - ٦٢].

أما الولاية الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] وهو عزَّ وجلَّ ولي المتقين، فالولاية هذه خاصة ومعناها أو مُقتضاها أن الله سبحانه وتعالى يتولى هذا الذي استحقها باللطف والعناية ويوفقه، ويُفسر هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فقدَ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ...»(٢) يعني: أن الله يُسدده في جميع تصرفاته، إذن هذه ولاية خاصة تختص بمن يستحقها من المؤمنين المتقين.

هنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ والمراد بها: الولاية الخاصة.

٨ - أن الله عزَّ وجلَّ ناصر لأوليائه؛ لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وهذا من ولايته.

فإن قال قائل: كيف نُجيب عما أخبر الله به في كتابه أن من الناس من قتل الأنبياء بغير حق؟

فالجواب عن هذا من أحد وجهين:

الوجه الأول: أن المُراد بالنصر أو الوعد بالنصر لمن أمر بالجهاد، فإن الله ينصره؛ لأن الله لا يكلفه بشيء إلَّا والعاقبة له فيه، وأما الذين قُتلوا من الأنبياء فلم يُؤمروا بالجهاد.

الوجه الثاني: أن نقول: إن النصر نوعان:

أ - نصر شخصي معين بمعنى أن الإنسان يُدركه بشخصه.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١/ ٣٤٩)، وأبو بكر الشيباني في «الآحاد والمثاني» (١/ ١٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

ب – نصر معنوي بمعنى أن الله ينصر من جاء بهذا ولو بعد موته.

ولهذا نجد أقوال الأئمة – أئمة المسلمين – كأنهم أحياء بيننا، أقوالهم حية فكأنهم أحياء، إذا أخذت كتابًا لعالم من العلماء وقرأته وانتفعت به فكأنما درّسك هذا العالم، إذن هذا نصر، نصر لمبدئه وهدفه ودعوته.

وجهٌ ثالث أيضًا: أن نوزع النصر على الزمن، فنقول: إن النصر قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، والذين قُتلوا من الأنبياء سوف يكون نصرهم في الآخرة عندما يختصمون مع أقوامهم، فإنَّ أهل الحق وأهل الباطل يوم القيامة يختصمون عند الله؛ يختصمون فيُقضى بينهم فيما هم فيه يختلفون.

فلا تظنوا أن الخلاف الذي يقع بين أهل الحق وأهل الباطل ينتهي بالدنيا، كلا، سوف يحكم الله بينهم يوم القيامة وينصر أهل الحق ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣]، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، والآيات مُتعددة تدل على هذا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠ - ٣١]، إذن إذا حكم الله لأهل الحق على أهل الباطل يوم القيامة فهذا نصر. فصار الجواب على هذه الآية من ثلاثة أوجه:

- إما أن نقول: إن الذين وُعدوا بالنصر هم الذين أُمروا بالجهاد.

- أو نقول: إن النصر نوعان: نصر لشخص منصور يُدركه في حياته، ونصر لدعوته وما جاء به، وهذا يكون ولو بعد مماته.

- أو نقول: إن المراد بالنصر هو النصر يوم القيامة عندما يختصمون عند الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

٩ - ومن الفوائد أيضًا أنه يوجد أحد ينصر غير الله عزَّ وجلَّ، وهذا صحيح ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، لكن الله هو خير الناصرين، كما أنه يوجد خالق غير الله لكن الله أحسن الخالقين. وكما ذكرت فيما سبق أن الخلق المُضاف إلى غير الله ليس هو الخلق المضاف لله؛ لأن الخلق المُضاف لله هو الإبداع، والخلق المُضاف إلى غيره ما هو إلَّا تحويل وتغيير الشيء من شيء إلى شيء، ومن صورة إلى صورة مثله.

١٠- وهنا فائدة وهي أنه يجب أن يُعْلَم أن ما لم يكن في القرآن وصحيح السُّنة من الأخبار فإنه لا يُصدق ولا يُكذب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ

أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، إذن لا نتلقى أخبارهم إلَّا من الله عز وجل؛ إما من كتابه أو صحيح السُّنة وما عدا ذلك فإنه يُتوقف فيه.

❁ قال الله تعالى:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾ الفاعل هو الله عزَّ وجلَّ، وعبَّر عن نفسه تعالى بفعل يقتضي الجمع مُريدًا بذلك التعظيم (أي سنُلقي نحن)، ولا يمكن أن يُراد به إلَّا ذلك؛ لأن الله واحد ليس مُتعددًا، فلا يمكن أن يكون معه أحد بخلاف غيره، فإنك إذا قلت لشخص: سنأتيك يحتمل أنك أردت التعظيم، ويحتمل أنك أردت الجمع، أما بالنسبة لله عزَّ وجلَّ فلا يمكن أن يُراد الجمع الذي هو التعدد، وإنما يُراد به التعظيم، ويدل لهذا قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فالله سبحانه وتعالى هو المُلقي لكنه يذكر نفسه تعالى أحيانًا بصيغة الإفراد؛ لأنه واحد، وأحيانًا بصيغة الجمع؛ لأنه عظيم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويحتمل أنه يذكر نفسه بصيغة الجمع لما له من الجنود العظيمة التي لا يعلمها إلَّا هو، فيكون هذا إشارة إلى أنه ذو عظمة وسلطان وجنود تفعل ما يأمر به جل وعلا.

وقوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ السين تدخل على الفعل المضارع وتفيد أمرين: القرب، والتحقيق. وهي تفيد التحقيق من وجه وتفيد القرب من وجهٍ آخر بخلاف (سوف) فإنها تفيد التحقيق وتفيد الإمهال، ولهذا تكون (سوف) للتسويف، والسين للتنفيس أي القرب.

وقوله: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ فيها قراءتان: (الرُّعُب)، و (الرُّعْب)، وهذا يوجد في اللغة العربية كثيرًا يعني: التسكين للتخفيف، والحركة على الأصل مثل: النهْر والنهَر، والمعنى واحد.

والرعب أشد الخوف، وإنما يذكر الله عزَّ وجلَّ أنه يُلقي الرعب في القلب؛ لأن القلب إذا دخله الرعب فإنه لا يمكن أن يثبت البدن، ولو ثبت البدن أو حاول الإنسان الثبات فإن قلبه من

شدة الرعب سوف يحمله عن الأرض حملًا ويفر ولا يمكن أن يبقى، ولهذا نجد بني النضير لما ألقى الله في قلوبهم الرعب ماذا صنعوا؟ الواحد منهم ينجو بنفسه حتى إنهم كانوا من شدة خوفهم يحملون الأمتعة ويكسرون البيوت، يعني: لا يقلعون الأبواب بتؤدة وطُمأنينة من شدة الرعب الذي أصابهم. والرعب أقوى سلاح يكون على العدو، فإذا ألقى الله الرعب في قلوب العدو؛ فإنه لن يبقى.

قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ الباء هنا للسببية أي: بسبب شركهم بالله. و(ما) يُسميها العلماء مصدرية أي: بشركهم، وعلامة (ما) المصدرية أن يصح تحويل ما بعدها إلى مصدر، فإذا صحَّ تحويل ما بعدها إلى مصدر فهي مصدرية، وقد ذكروا أن لـ (ما) معانِيَ عشرة مجموعة – أو مُشارًا إليها – في بيت من الشعر:

سَتَفْهَمُ شَرْطَ الوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنَكْرِها بِكَفٍّ وَنَفْيِ زَيْدِ تَعْظِيمِ مَصْدَر

والأخير هو المثال الذي معنا.

وقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: بشركهم بالله، وحيث جعلوا لله تعالى شركاء، ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مع الله إنما جعلوهم شركاء في العبادة لا في الربوبية، ولهذا كان شرك العرب شركًا في الألوهية لا في الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرُف: ٨٧] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، فهم يُقرون بأن الله هو الخالق، وأن ما في الكون ملكه، لا ينكرون هذا لكنهم يُشركون في العبادة، فيعبدون مع الله غيره، ومع ذلك يدَّعون أنهم يعبدون هذه الأصنام لتكون شفعاء لهم عند الله، فهم يُقرون أيضًا أنها دون مرتبة الله لكن يعبدونها قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] أي يقولون: ما نعبدهم إلَّا ليُقربونا إلى الله زُلفى.

يقول: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ﴿مَا﴾ تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا أي: الذي لم ينزل به سلطانًا، وتحتمل أن تكون نكرة موصوفة أي: شيئًا لم ينزل به سلطانا، والمعنى لا يختلف على التقديرين، فقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ فيها قراءتان: ﴿يُنَزِّلْ﴾، ويُنزِل، أي بالتشديد والتخفيف.

وقوله: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة وبرهانًا فيجعلون لله شركاء لم ينزل الله بهم سلطانًا أي ليس لهم بهم حجة.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا﴾ القيد هنا لبيان الواقع وليس للاحتراز، أي: أن واقع هؤلاء الشركاء أنه لا سلطان لشركهم ولا دليل، وليس المعنى أنهم يُشركون ما لم يُنزل به ولو أشركوا ما نزل به لكانوا على صواب، لا؛ لأنه لا يمكن أن يأتي سلطان أي «حجة» على أن الله له شركاء.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من ذكره هذا الوصف الذي يُبيّن الواقع؟

قلنا: الفائدة في ذلك إقامة الحجة على أنه ليس لهم دليل في إشراكهم به؛ لأنهم بنوا على غير سلطان وعلى غير حجة، إذا كان كذلك فالغرض من هذا التنفير عن هذا الإشراك، عكس ذلك أن يأتي وصف لبيان الواقع من أجل الحث والإغراء على لزوم الحكم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فإن الرسول ﷺ لا يدعو الخلق إلى ما يميتهم، وإنما يدعوهم إلى ما يُحييهم. فالقيد إذن لبيان الواقع ولكن جيء به للحث والإغراء على إجابة دعوته، كما أن القيد الذي في الآية هذه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا﴾ لبيان بطلان هذا الإشراك وأنه ليس له دليل.

قال: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا﴾ واعلم أن السلطان ما كان له سلطة، فالدليل يُسمى سُلطانًا، والأمير على القوم يُسمى سُلطانًا، وولاية الرجل على أهله سلطان، وهكذا كل من كانت له سلطة فإنه يُسمى سلطانًا. وقد يكون السلطان بمعنى القدرة على الشيء مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بقدرة، ولا قدرة لكم على نفوذ أقطار السموات والأرض.

قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مرجعهم النار، فهم - والعياذ بالله - مغلوبون في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يُلقي الله في قلوبهم الرعب فلا يقرون ولا يستقرون، وفي الآخرة مأواهم النار، والنار هي الدار التي أعدها الله عزَّ وجلَّ لأعدائه يُعذبهم بها، وهي موجودة الآن عرضت على النبي ﷺ في صلاة الكسوف حتى إنه تأخر مخافة أن يصيبه من وهجها عليه الصلاة والسلام[1] ورأى فيها من يُعذب.

قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (بئس) فعل جامد لإنشاء الذم، ويقابله (نِعْمَ) وهذا الفعل يحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص؛ فاعله مثوى، والمخصوص محذوف والتقدير: هي أو النار.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٥)، والنسائي (١٤٩٨)، وابن ماجه (١٢٦٥).

وقوله: ﴿مَثْوَى﴾ المثوى: المُستقر الذي يثوي إليه الإنسان ويستقر فيه كالمسكن مثلًا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - إثبات الأفعال الاختيارية لله؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾.

٢ - من كمال الله عزَّ وجلَّ تجدد أفعاله التي تكون تابعة لإرادته وحكمته؛ لأن إلقاء الرعب في قلوب هؤلاء حادث، ﴿سَنُلْقِي﴾ أي: في المستقبل. ثم هؤلاء متى وُجدوا؟ هل هم أزليون؟ لا، هم حادثون وقلوبهم حادثة والرعب الذي يُلقى فيها حادث. وبه نرد على من أنكروا أفعال الله الاختيارية وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى ليس له أفعال حادثة، زعمًا منهم أن الفعل الحادث لا يقوم إلا بحادث، فيلزم من هذا إنكار صفة القِدَم عن الله، هذا على زعمهم، ونحن نقول: هذه دعوى باطلة، دعوى من يقول: إن الفعل الحادث لا يقوم إلَّا بحادث، ونحن نشاهد أفعالًا لنا لم تكن قديمة كقدمنا، فالإنسان يتعشى اليوم غير عشائه بالأمس، فهذا فعل حادث في محدث فلا يلزم أن يكون الفعل مقارنًا للفاعل أبدًا (لوجود الفاعل).

إذن نقول: في هذه الآية ردٌّ على هؤلاء الذين يُنكرون قيام الأفعال الاختيارية بالله عزّ وجل.

٣ - بيان عظمة الله، من قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾. فإن هذه الصيغة تدل على العظمة أو التعدد. والتعدد في حق الله مُحال فتعيَّن أن تكون للتعظيم.

٤ - أن محل الإرادة والتدبير للبدن هو القلب؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وليس المحل هو الدماغ خلافًا للمشهور عند فلاسفة اليوم، فإن الدماغ في الحقيقة لا يُدبر، بل يتصور ثم يُرسل الصورة إلى القلب، والقلب يحكم، فالدماغ بمنزلة ما نسميه بـ «السكرتير» يُجهز الأوراق ويُرتبها ثم يُرسلها إلى الملك ويقول له: ماذا تأمر؟والدليل على هذه قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] نصٌّ واضح أن العقل يكون في القلب، وأن محل هذا القلب هو الصدر، وبهذا نرد على من قالوا: إن المُراد بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] القلوب المعنوية هي الدماغ، والله يقول: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهذا نص صريح، ثم إن السُّنة أيدت هذا فقال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، إِلَّا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1] فالتدبير للقلب، والتصور للدماغ.

(١) تقدم تخريجه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: العقل في القلب وله اتصال بالدماغ، واتصاله هو ما ذكرنا أن الدماغ يتصور ثم يُرسل إلى القلب، والقلب يأمر بواسطة الدماغ، والدماغ يُحرك الأعصاب، وبهذا التقرير يتبين لنا أن ما جاء به القرآن والسُّنة في هذه المسألة لا يُخالف ما هو معروفٌ عند الأطباء اليوم. فإن القلب الصناعي لابد أن يدخله مثلًا العروق ويحصل منه حركة، هذه الحركة يمكن أن نفسرها بأنها أمر من القلب يصدر سواء بشيءٍ ثابت بخلقة الله عزَّ وجلَّ أو بالصناعة.

٥ - أن إلقاء الرعب في قلب الأعداء من أكبر النصر؛ لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] ثم قال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فالرعب من أقوى أسباب النصر وهو أمر معروف، وهذا الرعب هل هو خاص في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، أو يشمل ما يحصل لأعداء أتباعه إلى يوم القيامة؟

الثاني هو الثابت؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما صحَّ عنه: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1].

٦ - إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾؛ لأن الباء للسببية وهو الحق.

والأسباب إما شرعية وإما حسية، وإنكارها سفه في العقل وضلال في الدين؛لأن النصوص قد تكاثرت وتجمعت على إثبات الأسباب. فدخول الجنة لا يحصل إِلَّا بسبب، والنجاة من النار لا تحصل إِلَّا بسبب. والولد لا يحصل إِلَّا بسبب، والرزق لا يحصل إِلَّا بسبب، إذنْ كل شيء لابد له من سبب، فإنكار الأسباب ضلال في الدين وسفه في العقل.

ومن العجب أن الأشاعرة ومن نحا نحوهم في هذا الباب يقولون: إن الله تعالى يوجِد الأشياء بلا واسطة، وتقع الأشياء بتدبيره مباشرة بلا واسطة؛ لأنَّهم يقولون: لو أثبتنا الواسطة وجعلنا لها تأثيرًا لكان هذا نوعًا من الشرك بالله. فمثلًا يقولون: لا أثر للسكين في قطع اللحم، ولا أثر للحجر في كسر الزجاجة، فلو أتى إنسان بلحم وجعل يقطعه بالسكين فلا أثر للسكين في قطع اللحم، ولو رمى زجاجة بحجر وانكسرت، فلا أثر للحجر في كسر الزجاجة، فالأسباب لا تؤثر عندهم، وهذا سفه في العقل، لكنني أقول: هذه الأسباب لا يوجد بها المُسبَّب بذاتها وإنما يوجد بما أودع الله فيها من القوى التي خلقها الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك الرعب الذي يُلقى في قلوب الذين كفروا بسببٍ وهو الإشراك.

٧ - أنه إذا كان الرعب يُلقى في قلوب الذين كفروا لإشراكهم، فإن الأمن يُلقى في قلوب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٩٨)، و مسلم (٥٢١).

الذين آمنوا لتوحيدهم؛ لأن ما ثبت للشيء ثبت ضده لضده، فإذا ثبت الرعب للكفار بسبب إشراكهم ثبت الأمن للمؤمنين بتوحيدهم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، والظلم هو الشرك كما فسره النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية. قالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(١).

إذن كلما كان الإنسان أشد إيمانًا بالله وأشد توحيدًا لله كان أشد أمنًا واستقرارًا، وهذا شيء مُجرب؛ لأنه من كان أشد إيمانًا بالله وأشد توحيدً لله كان أقوى توكلًا عليه، ومن أقوى أسباب الأمن ومصابرة الأعداء التوكل على الله عزَّ وجلَّ حتى إن من الناس من يقوم توكله على الله مقام الدواء في الشفاء، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو واقع.

وبعض الناس يكون عنده قوة توكل على الله ويشفى بدون علاج بسبب قوة توكله على الله، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حينما ذكر أن الدواء بالمحرم ليس ضروريًّا، حتى يُقال: إن الدواء بالمحرم جائز للضرورة، قال: هذا ليس للضرورة؛ لأن المريض قد يشفى بدواء آخر وقد يشفى بالقراءة، قال: وقد يشفى بقوة التوكل على الله.

وقد مرض أبو بكر رضي الله عنه فقيل له: ألَّا ندعوا لك الطبيب؟ قال: إنه قد رآني، وقال: «إني أفعل ما أريد»(٢). من يعني به؟ الله عزَّ وجلَّ، فالحاصل أن نقول: إن الإنسان كلما قوي إيمانه بالله وقوي توحيده ازداد أمنًا وطمأنينة واستقرارًا، وهذا أمر مُشاهد مُدرك بالحس.

٨ - أنه لا دليل لأحد على شركه؛ لقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

٩ - النداء والإعلان عن سفه هؤلاء المشركين لكونهم أشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطانًا، ولو كان لهم دليل لعُذِرُوا لكن لا دليل لهم، وهذا نداء عليهم وإعلان بسفههم.

١٠- إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

١١- إثبات أن النار مأوى الكافرين الذين أشركوا بالله، فنحن نشهد بأن كل كافر مُشرك فمأواه النار ولكن هل نشهد بهذا على شخص بعينه؟.

الجواب: لا، لا نشهد عليه ولكننا نقول: إننا نعامله في الدنيا معاملة الكافر، فمثلًا لو مات زعيم من زعماء الكفرة كزعيم الروس أو زعيم أمريكا أو ما أشبه ذلك نحكم بأنه كافر، وأن كل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٦)، و مسلم (١٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٤).

كافر في النار، فلا نُصلي عليه ولا نُكفنه ولا ندفنه مع المسلمين، ولا ندعوا له بالرحمة، لكن مسألة الجزاء هذا ندخله في العموم، نقول: كل كافر فإنه في النار.

فالمعين غير العموم، وكذا لو مات واحد من المسلمين ومات على شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن مُحمدًا رسول الله هل نشهد له بالجنة؟

الجواب: لا، بل نقول: إن كل مسلم يدخل الجنة، ونقول أيضًا: كل كافر سيدخل النار، ولهذا كان من عقيدة أهل السُّنة والجماعة أننا لا نشهد لمعين بجنة ولا نار إلَّا من شهد له رسول الله ﷺ.

وزاد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أنه لو اتفقت الأمة على الثناء عليه كالأئمة الأربعة مثلًا نشهد لهم بالجنة، لا لأن الرسول ﷺ شهد لهم، ولكن؛ لأن الأمة أثنت عليهم وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولما مرت جنازة من عند الرسول عليه الصلاة والسلام وهو جالس في أصحابه فأثنوا عليها خيرًا، قال: «وَجَبَتْ» ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شرًّا، قال: «وَجَبَتْ» قالوا: ما وجبت؟ قال: «**أَمَّا الْأَوَّلُ فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(٢).

والمقصود: أننا لا نشهد لأحد معين بجنةٍ ولا نار، لكن يكفي أن نقول: الأصل في هذا أنه من أهل النار، لكن لا نجزم بالأصل فيجوز أنه في آخر لحظة من حياته ألقى الله في قلبه الإيمان. فإنه إذا كان قد تاب ولم يحضره الموت فإن الله يتوب عليه. وعلى كل حال شهادتنا له بالنار لا توجب له النار، وعدم شهادتنا له بالنار لا تمنعه عن النار، إذن: لا فائدة من أن نُلزم أنفسنا بالشهادة لهذا الشخص المعين بالنار.

١٢- ذم النار ومثواها والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصدق الله عزَّ وجلَّ فإن أبأس دار وأقبح دار وأخبث دار هي النار، ولهذا استحقت هذا الوصف من الله عزَّ وجلَّ وهو قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٧)، و مسلم (٩٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، و مسلم (٢٦٤٣).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

الأول: القسم المقدر؛ لأن التقدير: (والله لقد).

والثاني: اللام.

والثالث: قد، فهذه ثلاثة مؤكدات في هذه الجملة.

وقوله: ﴿صَدَقَكُمُ﴾: أي: أنجزه لكم. وقوله: ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ منصوب بنزع الخافض أي: صدقكم الله في وعده، يُقال: صدقه، ويُقال: صدَّقه، وبينهما فرق، فإذا قيل: صَدَقه يعني: أخبر بالصدق، وإذا قال: صدَّقه أي قال: إنَّ ما أخبرت به صدق، فالتصديق من المخاطب للمتكلم، والصدق من المتكلم للمخاطب، فمعنى قوله تعالى: ﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: أنجز لكم الوعد فصار ما أخبركم به صدقًا.

قوله: ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: ما وعدكم به من النصر، ثم بيَّن موضع هذا الصدق فقال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ فـ «إذ» هنا ظرف متعلق بصدق، أي: صدقكم وعده حين حسستموهم بإذنه. وقوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ مضارع عبَّر به عن شيء ماضٍ على تقدير حكاية الحال؛ لأن القاعدة أن يعبر عن الماضي بصيغة الماضي، فيُقال: قال زيد، لكنه عبَّر هنا عن الماضي بصيغة الحاضر لحكاية الحال لتقريب تصور الماضي في الذهن؛ لأن الماضي قد انقضى فربما يكون الإنسان ناسيًا له، فإذا صيغ بصيغة المضارع صار الماضي كأنه حاضر، وهذا ما يعبر عنه النحويون بحكاية الحال، حكاية الحال الماضي كأنها الآن واقعة من أجل أن يكون ذلك أقرب لحضورها في الذهن.

وقوله: ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ الحس: القتل أو أشد القتل، ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم أشد قتلة بإذن الله الكوني والشرعي، بإذنه الكوني؛ لأنه قد وقع، وكل شيء قد وقع فإن

الله قد أذن به كونًا، وبإذنه الشرعي؛ لأن الله تعالى قد شرع لنا أن نقاتل الكفار فيكون قتلنا لهم مأذونًا فيه شرعًا، إذن في هذه الآية اجتمع الإذنان: الكوني والشرعي.

وقوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم بإذنه، هذا نصر.

فإن قال قائل: وهل قُتل أحدٌ من الكفار يوم أُحد؟

فالجواب: نعم قُتل منهم أكثر من تسعة رجال وانهزموا وفروا حتى رُئي النساء ينطلقن فيصعدن في الجبل مذعورات كاشفات الرؤوس حاسرات السيقان؛ لأنهن قد هربن حيث أيقنَّ بالأسر وكانت الغلبة والعزة في أول النهار للمسلمين.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾ قيل: إنها ابتدائية، وقيل: إنها للغاية.

فالوجه الأول: أن (حتى) للغاية، أي: صدقكم وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم، وعلى هذا فتكون (إذا) غير شرطية، حتى وقت فشلكم، هذا وجه كون (حتى) للغاية.

﴿إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: حتى حين فشلتم، أي: أن صدق الوعد والحَسّ استمر إلى أن فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون.

والوجه الثاني: أن (حتى) ابتدائية، فالجملة مستأنفة وتكون (إذا) على هذا الوجه شرطية وجوابها يُذكر إن شاء الله.

قوله:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ الفشل معناه: الجبن والخور أي: حتى إذا جبنتم وخِرتم[1] وعجزتم عن الانتصار.

قوله:﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ المنازعة: المخاصمة والاختلاف.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ هل المراد بالأمر الشأن أو المُراد بالأمر واحد الأوامر؟ على القول الأول يكون الأمر واحد الأمور، وعلى الثاني يكون الأمر واحد الأوامر، ومعنى ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في الشأن على القول الأول أو في الأمر أي: أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، على القول الثاني، ويكون الخطاب موجهًا إلى الرُّماة وكانوا خمسين رجلًا أَمَّر عليهم النبي ﷺ عبد الله بن جبير، وقال لهم: «لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُم، ابْقَوا فِي الجَبَلِ سَوَاء كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا»، ولما رَأَوْا المسلمين قد انتصروا وانهزم المشركون وصار المسلمون يجمعون الغنائم أرادوا النزول من الجبل فنازعهم أميرهم وقال لهم: امكثوا، ولكنهم أصروا على النزول فنزل أكثرهم. إذن: يكون الأمر

(١) يُقال: خارت قواه: أي ضَعُفَتْ وَوَهَنَتْ.

هنا واحد الأوامر أي: تنازعتم في أمر الرسول ﷺ فمنكم من قال: نبقى امتثالًا لأمره، ومنكم من نزل اغتنامًا لكسب الغنيمة[1]. والمعنيان متلازمان؛ لأنهم لما اختلفوا في أمر الرسول تنازعوا في شأنهم أي في أمرهم.

قوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾

أي: وعصيتم الرسول لكن لم يذكر المفعول به كراهة لذكره حيث إنه يكون أشد وقعًا وتوبيخًا، وكأن الله عزَّ وجلَّ أراد أن يوبِّخهم بطريق لين، قال: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ ولم يقل: عصيتم الرسول؛ لأن هذا أهون مما لو صرح به وقال: (وعصيتم الرسول) فإذا قيل: عصيتم الرسول صار أشد وقعًا في التوبيخ.

وقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ ﴿أَرَىٰكُم﴾ يعني: من بعد ما أراكم رؤيا عين ما تحبون من النصر وهزيمة أعدائكم، وجواب الشرط على الوجه الثاني في ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ قال بعضهم: إن جواب الشرط (تنازعتم) والتقدير: حتى إذا فشلتم تنازعتم في الأمر وعصيتم، وعلى هذا الوجه تكون الواو زائدة.

وقال بعضهم: جواب الشرط (عصيتم) والتقدير: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. وعلى هذا الوجه تكون الواو زائدة أيضًا.

وقال بعضهم: جواب الشرط محذوف تقديره: انقسمتم قسمين: منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة.

وقال بعضهم: محذوف تقديره: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فاتكم النصر.

وقال بعضهم: الجواب محذوف قطعًا، والقول بأن الواو زائدة في (تنازعتم)، وأنه جواب الشرط، أو في (عصيتم) وأنه جواب الشرط قول ضعيف؛ لأن الحرف هنا حرف جاء لمعنى يفوت بفواته ما جاء من أجله، فالجواب إذن محذوف وفائدة حذفه: أن يذهب الذهن كل مذهب في تقديره، وكل شيء يُقدر جوابًا لـ «إذا» لا يُنافي المقدر الآخر، فإنه صالح، وعلى هذا ممكن أن نقول: «**وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون فاتكم ما تحبون، أو فاتكم النصر، أو خُذِلتم، أو انقسمتم إلى قسمين**» كل هذه الاحتمالات صحيحة ولا تتنافى، فقد فاتهم النصر وانقسموا إلى قسمين، وخُذِلوا، وهذا من بلاغة القرآن؛ فالحذف من أجل أن يكون أشمل للمعنى وأكثر.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٣٩)، وأبو داود (٢٦٦٢).

ثم قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾

(مِنْ) هنا تبعيضية أي: بعضكم يريد الدنيا، وبعضكم الآخر يريد الآخرة، فالذين نزلوا لجمع الغنائم ظاهر عليهم أنهم يريدون الدنيا والذين ثبتوا ظاهر عليهم أنهم يريدون الآخرة، وهذا على سبيل المثال، وإلَّا فالأمثلة كثيرة في الذين يريدون الدنيا والذين يُريدون الآخرة، حتى في طلب العلم، فمن الناس من يريد الدنيا، ومن الناس من يريد الآخرة، ومن الناس من يريد الجاه والرفعة والسيادة؛ لأن العلم يرفع بيوتًا لا عماد لها، والجهل يهدم بيوت العز والشرف، ومنهم من يريد الآخرة: أن يحفظ شريعة الله، وأن يُعلِّم عباد الله، وأن يتعبد لله على بصيرة، وما أشبه ذلك، فهذا حال الناس كلهم، منهم من يريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن صدقكم الله وعده بحَسِّهم - أي بقتلهم - ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، يعني: بعد أن فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم صرفكم عنهم، وتأمل قوله: ﴿صَرَفَكُمْ﴾ فإن الصرف يقتضي إقبالًا شديدًا يُعاني فيه المقبل حتى يصرف، كما تقول: صرفت الدابة عن العَلَفِ وما أشبه ذلك، فيفيد بأن المسلمين كانوا مقبلين جدًّا على هؤلاء الأعداء لكن صرفوا عنهم مع شدة رغبتهم في القضاء عليهم؛ لأنه كان لهم النصر في أول الأمر لكن صرفوا عنهم.

وقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليختبركم؛ والابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان، ويكون في الخير ويكون في الشر، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال سليمان عليه السلام لما رأى عرش بلقيس حاضرًا عنده مستقرًّا أمامه قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فالخير ابتلاء، والشر ابتلاء، الشر يُبتلى به الإنسان ليصبر، والخير يُبتلى به ليشكر؛ فكله ابتلاء، ولهذا قال: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ هذه الجملة أيضًا مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر؛ لأن الأصل: والله لقد، واللام، وقد، وإنما أكدت الجملة هنا والجملة هناك في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾؛ لأنه قد يتبادر من الوقائع خلاف ذلك، فمثلًا في الجملة الأولى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ قد يتبادر من كون الهزيمة في آخر الأمر على المسلمين أن الله لم يصدقهم وعده، فأكد ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، هذا النصر. والثانية لما ابتلوا بهذه البلوى قد يتبادر إلى الذهن بأن الله سوف يُعاقبهم على معصيتهم وتنازعهم وجبنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ فكان التأكيد هنا وفي أول الآية في غاية ما يكون من البلاغة؛ لأن المقام يقتضي التأكيد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ العفو بمعنى: التجاوز، ويكون للإنسان محمودًا ويكون

مذمومًا، فإذا كان مع القدرة فهو محمود، ويكون مذمومًا إذا كان مصدره العجز، فلا يُحمد عليه الإنسان؛ لأن هذا يدل على ضعفه وعدم أخذه لنفسه بالحق. أما عفو الله فهو بلا شك كائن مع القدرة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قادر على أن يُعاقب لكنه يعفو سبحانه وتعالى مع القدرة كما قال تعالى: ﴿كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ يشمل كل من وقعت منهم المخالفة، وهذا من فضل الله عليهم، ويجدر بنا هنا أن نذكر قصة عجيبة: جاء رجل من الخوارج إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو مُستظل بالكعبة، فوقف عليه بعد أن سأل عنه فقال: من هذا؟ فقالوا: هذا عبد الله بن عمر. فسأله عن أمير المؤمنين عثمان، قال له: أما علمت أن عثمان بن عفان تخلَّف عن غزوة بدر؟ قال: بلى تخلف، قال: أما علمت أنه فرَّ يوم أُحد؟ قال: بلى فرَّ. قال: أما علمت أنه لم يُبايع بيعة الرضوان؟ قال: بلى. قال الخارجي: الله أكبر – يعني أنه انتصر – لأنه إنما سأل هذه الأسئلة الثلاثة ليقدح في عثمان رضي الله عنه فكبَّر الخارجي، فلما كبَّر قال له: أما وقد قلت فسأحدثك: أما تخلفه عن غزوة بدر فإن النبي ﷺ أمره أن يبقى ليُمرِّض ابنته – أي: ابنة الرسول ﷺ كانت مريضة – رقية – زوجة عثمان – فتخلَّف ليُمَرِّضُها بأمر النبي ﷺ وضرب له النبي ﷺ بسهمه وأجره، إذن لا يُلام. أما فراره في أُحد فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وبعد العفو لا يبقى أثر الذنب. وأما تخلفه عن بيعة الرضوان فإنه لا يوجد أحد من بطون قريش أعز من البطن الذي منه عثمان؛ لأنه بطن قوي في قريش، فلم ير النبي ﷺ أحدًا أحق بأن يبعثه إلى قريش من عثمان فبعثه إلى قريش ليفاوضهم؛ لأن له مكانة، ثم إن الرسول ﷺ لما بايع المؤمنين تحت الشجرة أخذ بيده الكريمة ووضعها على اليد الأخرى، وقال: هذه عن يد عثمان – الله أكبر – فكانت يد النبي عليه السلام خير من يد عثمان لعثمان، أليس كذلك؟ سبحان الله ! ثم قال: اذهب بها إلى قومك أو كلمة نحوها، يعني: أنت جئت تريد أن تقدح في أمير المؤمنين وصار الآن القدح – ولله الحمد – مدحًا[1].

فمثل هذه المسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها ويكون حذرًا، فبعض الناس ربما يسأل سؤالًا ظاهره الاسترشاد ولكن يكون معناه النقد، فإذا جاء به على هذا الوجه ألقم الناقد حجرًا، وصار هذا من سوء فهمه.

وعلى كل حال فلكل مقام مقال، وليس معنى هذا أن نُسيء الظن في كل واحد. فابن عمر رضي الله عنهما فَهِمَ من هذا الخارجي أنه يريد الطعن والقدح في عثمان فأجابه.

قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ أي: صاحب فضل ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وأنتم منهم ولذلك عفا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٩٨)، والترمذي (٣٧٠٦).

عنكم، وهنا في الجملة إظهار في موضع الإضمار، إذ مُقتضى السياق أن يقول: «والله ذو فضل عليكم» وفائدته - أي فائدة الإظهار في مقام الإضمار - تقدمت لنا وقلنا: فيه ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التسجيل على محل الإضمار أو على مرجع الضمير بأنه من أهل هذا الوصف، يعني: إثبات هذا الوصف لمرجع الضمير، مثلًا: (والله ذو فضل عليكم) إذا قال: «على المؤمنين» بدل «عليكم» أفاد بأنهم مؤمنون.

الفائدة الثانية: العموم؛ لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) اختص الفضل بمرجع الضمير، وإذا قال: «على المؤمنين» تشملهم وغيرهم.

الفائدة الثالثة: العلة (علة الحكم)، الحكم كون الله ذو فضل، والعلة - وهي الإيمان - في هذه الآية، وهي تختلف باختلاف السياق، هذه فائدة الإظهار في موضع الإضمار هنا، فهنا مناسبة لفظية في الإظهار، وهي تُناسبُ رؤوس الآيات، لأنه لو قال: (والله ذو فضل عليكم) لم تتناسب مع ما بعدها ومع ما قبلها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله سبحانه وتعالى قد نصر المؤمنين في أُحد كما نصرهم في بدر؛ ودليله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

٢ - أن من البلاغة أن يؤكد الخبر إذا كان الحال يقتضي ذلك، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ حيث كان فيه قسم وتوكيد باللام وقد.

٣ - شدة عزيمة الصحابة رضي الله عنهم في طلب العدو؛ لأنه قال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ والحس: القتل أو أشده كأنه يُسمع له صوت عند القتل، وهكذا ينبغي للمسلمين أن يأتوا أعداءهم الحربيين على شدة وغلظة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤] يعني: لا تضعفوا في طلبهم، وانظر إلى هذه التعزية للصحابة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

٤ - أن النزاع والمعصية سببان لفوات كمال النصر؛ لأن المسلمين في أول الأمر انتصروا وقتلوا المشركين، لكن لما حدث هذا المانع امتنع أو انتفى كمال النصر.

٥ - أن مثل هذا الأمر - النزاع والمعصية - سبب للخذلان؛ هذه تؤخذ من واقع الأمر؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جواب الشرط فيه محذوف، والمعنى أنكم خسرتم هذا النصر وخذلتم، ومن قرأ الغزوة تبين له ما حصل للصحابة من الأمور العظيمة التي ستأتي إن شاء الله

عند قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

٦ - المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة؛ لقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وإلَّا لكان يقول: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ فقط، لكن كون المعصية تقع بعد أن أراهم الله ما يحبون هذا أعظم مما إذا لم يكن الله قد أراهم ما يُحبون.

٧ - الحثُّ على اجتماع الكلمة، وجهه أن النزاع سبب للخذلان، فيكون الاتفاق سبب للنصر وهو كذلك، الاجتماع اجتماع الناس على كلمة واحدة لا شك أنه سبب للنصر، ولهذا ينبغي لطلبة العلم والعلماء أن لا يظهر خلافهم ونزاعهم أمام العامة، لأن اختلاف الآراء لابد أن يكون ، لكن كون كل واحد منهم يعيب على الآخر إن خالفه، هذا خطر عظيم جدًّا؛ لأن العامة ترى هذا النزاع فلا تثق بواحد منهم، على أن العامة أيضًا سوف يتفرقون، فالنزاع لا شك أنه سبب للخذلان والفشل وتمزق الأمة.

٨ - أن المدار كله على ما في القلب؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وكأن هذا - والله أعلم - فيه إشارة إلى أن سبب الجبن والنزاع والمعصية سوء النية من بعض مَنْ كان فيهم، ويمكن أن نجعل قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ جملة استئنافية تعليلية لما حصل، ولا شك أن المدار كله على ما في القلب، وأنه متى كان القلب صالحًا صلح العمل، ومتى كان فاسدًا فسد العمل.

٩ - أنه قد يكون في خير القرون من يُعاب عليه الفعل؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾، ولكن الصحابة ﷺ بخاصة لهم من الفضائل والسوابق والصحبة ما يُكفِّر ما حصل منهم من الآفات وغيرها، ولهذا للصحابة مزية على غيرهم، يعني: المُكفرات العامة لكل أحد مثل: «مَا يُصِيبُ المُؤمِنَ مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذىً حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ»(١). هذه عامة لكل أحد، لكن للصحابة أشياء خاصة توجب محو ما حصل منهم من السيئات، ويدلك على هذا أن من أعظم المصائب وأكبر المعايب التجسس لحساب المشركين، ووقعت من حاطب رضي الله عنه، ولما استأذن عمر النبي ﷺ في قتله قال له النبي ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٢)، مع أن هذه مصيبة عظيمة، فالتجسس لحساب الكفار يوجب القتل ولو كان الإنسان مسلمًا؛ لأن هذا من السعي في الأرض فسادًا، ولهذا لم يقل الرسول ﷺ لا تقتله لأنه مسلم، بل قال: لا تقتله لأنه شهد بدرًا. وقد قال الله

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨١٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، و مسلم (٢٤٩٤).

تعالى: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، ولهذا كان القول الصحيح الذي لا شك فيه أن الجاسوس يُقتل ولو كان مسلمًا، ولو كان يُصلي ليلًا ونهارًا فإنه يُقتل.

١٠- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، فإن سبب صرف الله هؤلاء عن الكفار هو ما حصل منهم من الفشل والتنازع والمعصية.

١١- إثبات الحكمة في أفعال الله، فيكون في هذا ردٌّ على الجهمية ونحوهم ممن ينكرون حكمة الله عزَّ وجلَّ، ويقولون: إن الله يفعل لا لحكمة ولكن لمجرد مشيئة، ونحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا ولا يُشرع شيئًا إلَّا لحكمة، لكن من الحِكم ما هو معلوم للبشر وما هو مجهول لا تبلغه العقول.

١٢- أن ما حصل من المؤمنين من التنازع والفشل والمعصية وإرادة الدنيا كله محاه الله عزَّ وجلَّ، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ إذن لا أثر له وكما سبق في قصة الخارجي الذي جاء إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

١٣- إثبات الفضل لله عزَّ وجلَّ عليهم وعلى غيرهم من المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا قال قائل: وهل لله فضل على غير المؤمنين؟

فالجواب: نعم، إن الله لذو فضل على الناس و ﴿اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] على كل أحد.

لكن الفضل نوعان: فضل خاص، وفضل عام، فالخاص للمؤمنين، والعام للجميع، وإلَّا فكل أحد قد تفضل الله عليه بالصحة والعافية والطعام والشراب واللباس والأزواج والبنين وغير ذلك، أما الفضل الخاص الذي يتصل بفضل الآخرة فهو للمؤمنين فقط.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]

التفسير

وقوله: ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف، والظرف لابد له من متعلق، ومتعلق «إذ» على أرجح الأقوال

محذوف، والتقدير: (اذكروا إذ تُصعدون) هذا أحسن ما قيل فيها وإلَّا بعضهم قال: إن متعلق «إذ» ما قبلها (ولقد عفا عنكم حين تُصعدون). وبعضهم قال: «ثم صرفكم عنهم حين تُصعدون». وبعضهم قال: «ثم صرفكم عنهم حين تُصدعون» ولكنه الأقرب أن المتعلق محذوف، والتقدير: (اذكروا إذ تُصعدون) حتى تكون هذه الحال دائمًا على أذهانكم.

وقوله: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء وهي غير تَصعدون) - بفتحها -؛ لأن الصعود الرقي إلى أعلى كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أما الإصعاد فهو السير هربًا في أرض مستوية يُقال: (أصعد) أي ذهب هاربًا أو مسرعًا في الأرض، وهذا هو الذي حصل للصحابة رضي الله عنهم ومنهم من صعد الجبل لكن المراد بقوله ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي تهربون سراعًا في أرض مستوية؛ لأن أصعد مأخوذ من الصعيد، و (الصعيد) وجه الأرض كما قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

قال: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾: أي لا تعكفون أو تلتفتون إلى أحد، ولم يقل: لم تلتفتوا؛ لأن (اللّيّ) أبلغ، و(اللي) هو الانعطاف على الشيء، فهم لا يلوون على أحد هربًا أو خوفًا من قتل الكفار إياهم، وتصور المشهد كيف كان، حوالي سبعمائة نفر من خيار المؤمنين يهربون لا يبقى مع الرسول ﷺ إلَّا نفر قليل، وانظر أيضًا قوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ الرسول ﷺ في أخريات القوم هو الذي يلي الأعداء في الآخر يدعوكم يا عباد الله، كروا، ارجعوا، ولكن لشدة الأمر لا يلوون على أحد، وهذه قضية عظيمة ولكن الله قد عفا عنهم ولم يؤاخذهم بما جرى.

وقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

﴿أُخْرَاكُمْ﴾ يعني: الآخر منكم؛ لأن من عادة النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يكون في أخريات القوم، ليس كالملوك يأخذون الصدر بل هو كالراعي يكون في الآخر يتفقد الرعية، فقد يحتاجه أحد عندما يتخلف بعيره أو فرسه، فيساعده. كما في قصة جابر رضي الله عنه لما رجعوا في سيرهم وكان على جمل قد تعب ولا يقدر على السير قال: فلحقني رسول الله عليه الصلاة والسلام، ودعا للجمل وضربه، ضرب الجمل ضربًا عاديًا، ودعا له فسار سيرًا لم يسر مثله قط، سبحان الله! كان لا يمشي إلَّا قليلًا، ثم أصبح جابر يرده في خطامه لئلا يسبق القوم - الله أكبر - هذه آية من آيات الله وآيات الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم قال له: «بعنيه» طلب الرسول ﷺ من جابر أن يبيعه عليه (بعنيه بِوَقِيَّةٍ) والأوقية أربعون أو خمسون درهمًا ولكنه أَبى، قال: لا أبيعه، والآن يساومه النبي ﷺ قال: «بعنيه»، فباعه النبي عليه الصلاة السلام لكنه استثنى أن يحمله إلى المدينة فأعطاه النبي ﷺ شرطه، ثم لما وصل المدينة وأتى إلى النبي ﷺ عند باب المسجد، قال له: «أصليت؟»

قال: لا، قال: «ادخل فصلِّ ركعتين»؛ لأن السُّنة للمسافر إذا قدم بلده أن يبدأ قبل كل شيء بالمسجد يصلي فيه ركعتين، ثبت هذا من فِعْل الرسول ﷺ وأمْرِه، وهذه سُنَّة تفوت كثيرًا من الناس، ثم أعطاه الدراهم وجابر يريد أن يُعطيه الجمل، فقال النبي ﷺ: «أَتُرَانِي مَاكَسْتُكَ لآخُذَ جَمَلَكَ؟ خُذْ جَمَلَكَ وَدَرَاهِمَكَ فَهُوَ لَكَ»(١).

حقًّا هذا غاية ما يكون من الكرم، والنبي ﷺ لم يقصد بأن يتصدق عليه. لكن بعض العلماء رحمهم الله قالوا: إن الرسول ﷺ أراد أن يتصدق عليه بثمن الجمل ففعل هذه الحيلة، وهذا غلط. لكن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يعرف كيف كان غلاء هذا الجمل في قلب جابر بعد أن كان عنده رخيصًا يريد أن يتركه، فطلب منه البيع، وإلّا فالذي يظهر من قوله: «أَتُرَانِي مَاكَسْتُكَ لِآخُذَ جَمَلَكَ» أن الرسول ﷺ لم يُرد الشراء من الأصل ولكنه أراد أن يعلم ما عند جابر رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ «أثابكم» الفاعل هو الله، ومعنى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: أعطاكم و ﴿غَمًّۢا﴾ هو: الثواب الذي أعطاهم الله،فهو المفعول الثاني لأثابكم، والثواب هو: المجازاة على العمل إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، حتى الإثابة على الشر تُسمى ثوابًا، قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفِّفين: ٣٦] لكن إذا قرن الثواب بالعقاب صار العقاب الجزاء على السيئات، وصار الثواب الجزاء على الحسنات، وأمثال هذا في اللغة كثير، حيث تكون الكلمة لها معنى إذا أفردت، ولها معنى إذا قُرنت بغيرها.

وقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ غمًّا: مفعول ثانٍ لأثابكم، ﴿بِغَمٍّ﴾: الباء هنا قيل: إنها للمصاحبة، وقيل: إنها للمبادلة، وقيل: إنها بمعنى على، ولكلٍّ وجهة نظر، فأما الذين قالوا للمصاحبة، فقالوا: إن معناها أثابكم غمًّا مصحوبًا بغم يعني مُقترنًا به لم يفصل بينهما فاصل، فهي غموم متتابعة، والذين قالوا إنها بمعنى «على»، يقولون: إن معناها أصابكم غمًّا على غمٍّ، ولا يلزم أن تكون متتابعة، والذين قالوا إنها للبدل والعوض يقولون: إن معناها أصابكم غمًّا (بغم) بدلًا عن الغم الذي حصل منكم، وإذا تأملنا وجدنا أن الآية الكريمة تحتمل كل المعاني الثلاثة كما سيتبين إن شاء الله من تفسير الغم ما هو؟ والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل أكثر من معنى وليس بينهما منافاة فإنها تحمل على ما تحتمله من المعاني؛ لأن هذا من بلاغة القرآن. فما هي الغموم التي أصابتهم؟

نحن نعلم أن المسلمين في أُحد أصيبوا بمصائب عظيمة:

أولًا: كان النصر لهم في أول النهار ثم كان عليهم في آخر النهار، وهذا لا شك أنه يحدث غمًّا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧١٨)، و مسلم (٧١٥).

عظيمًا؛ لأنه بعد أن تفرح النفوس بالنصر ثم تنتكس يكون هذا أشد عليها مما لو كانت الانتكاسة لم تسبق بنصر.

ثانيًا: قُتل منهم شهداء - من شجعانهم - مثل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وهذا لا شك أنه يفتُّ في أعضادهم.

ثالثًا: تأخر ثلث الجيش تقريبًا من أثناء الطريق وهم المنافقون الذي انخذل بهم عبد الله بن أُبيّ المنافق.

رابعًا: أُشيع أن النبي ﷺ قُتل، وكيف تكون نفوس المؤمنين إذا أشيع أن إمامهم وقائدهم ﷺ قد قُتل؟!

خامسًا: أن الرسول ﷺ أُصيب يوم أُحد، فكسرت رباعيته وشُجَّ وجهه، وأصابه من الضعف والوهن ما لم يُصبه من قبل، فالغموم كثيرة.

وهذه الغموم إذا قلنا: إن الباء بدلية يكون معناها أنكم أصابكم غم بسبب ما أصبتم الرسول ﷺ به من الغم؛ لأن نزولهم من الجبل الذي جعلهم النبي ﷺ فيه لا شك أنه يحزن الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك القائد الذي رتَّب الجيش وأمرهم بأن لا يَدَعُوا المكان مهما كان الأمر ثم خالفوه، وطاعة النبي ﷺ في هذا الباب واجبة من وجهين:

الأول: أن أمره شرع يجب اتباعه.

والثاني: من وجهة أنه قائد وولي أمر، ومخالفة القائد ولو لم يكن رسولًا تعتبر شديدة في نفسه، فكما أنه حصل للنبي ﷺ منهم غم أصابهم الله بغموم.

أما على القول بأنها للمصاحبة فالأمر ظاهر؛ لأنها غموم متلاحقة في غزوة واحدة.

وأما كونه غمًّا على غم فكذلك أيضًا، كلما فات غم أتى غم آخر، ولهذا قال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، اللام هنا للتعليل، والمعلل قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: أثابكم غمًا بغم من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم كيف ذلك؟ لأن الغم الأكبر يُنسي الغم الأصغر فمثلًا:

إذا فاتهم النصر فهذا غم بلا شك، لكن إذا قُتل نبيهم عليه الصلاة والسلام هذا أشد غمًّا، فلما أُشيع أنه قتل نسوا الغم الأول ولم يحزنوا عليه؛ لأنهم أصيبوا بغم أكبر. فإذا جاء الفرج وتبين أن الرسول ﷺ قد بقي زالت الغشاوة كلها، فيكون هذا من لطف الله بهم أنه يصيبهم بمصائب تنسيهم المصائب الأولى، ثم بعد ذلك تنفرج، وهذا من رحمته عزَّ وجلَّ وعنايته بالصحابة والنبي ﷺ، ولهذا قال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني: من النصر والغنيمة

﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ﴾ من الخذلان وفقد الغنيمة، فهذه من حكمة الله عزَّ وجلَّ، هذا هو الصواب في معنى الآية الذي لا يحتمل غيره. وأما قول صاحب الجلالين رحمه الله: إن «لا» زائدة هنا والمعنى لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم، فهذا قول بعيد جدًّا، بل إن الله عزَّ وجلَّ يحب من المؤمنين إِلَّا يحزنوا بل ويُسلِّيهم إذا وجدت أسباب الحزن. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة:١٠] هذا تسلية، فكيف يفعل الله شيئًا من أجل أن يحزنوا؟ لكن المعنى كما سبق أن هذه الغموم التي أصابتهم من أجل أن يُنسي بعضها بعضًا فلا يحزنوا على ما أصابهم ولا ما فاتهم، وحينئذٍ إذا انكشف الكل صار له طعم لذيذ في النفوس.

ونصبُ الفعل «تحزنوا» في قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ هل هو بـ «كي» أم باللام؟

يقولون: إذا ذكرت «اللام» وكي فالنصب بـ «كي»، وإذا ذكرت «كي» وحدها أو «اللام» وحدها فالكوفيون يقولون: الحرف هو الناصب، والبصريون يقولون: الناصب (أن مضمرة) يعني: إذا اجتمعا صار النصب بـ (كي) مباشرةً.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. خبير مأخوذ من الخَبْرِ وهو العلم ببواطن الأمور، ومنه سُمي الزارع خبيرًا؛ لأنه يدفن الحب ويخفيه. فالأصل أن هذه المادة تدل على الخفاء، فالخبير هو العليم ببواطن الأمور، والعليم ببواطن الأمور عليم بظواهر الأمور من باب أولى.

وقوله: ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بِمَا﴾ أي (بالذي) تعملون من خير وشر، ومن فعلٍ وقول ووسوسة في النفوس، لكن هنا قال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن المُراد بالخبرة هنا ما يترتب عليها من الحساب، فهي جملة خبرية تفيد التهديد؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لا يُحاسب إِلَّا على العمل. أما حديث النفس فلا يُحاسب عليه، ولو حدَّثَ الإنسان نفسه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات ثم لم يُنفذ فإنه لا يُحاسب، ولهذا قال: ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تذكير المؤمنين بما جرى منهم من المخالفة حيث قال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ هذا على القول بأن (إذ) متعلقة بمحذوف تقديره (اذكر)، أما على القول بأنها متعلقة بـ (عفا) فيُستفاد منها تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم في عفوه عنهم حين أَصْعَدوا.

٢ - التوبيخ اللطيف في قوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ فإن الشجاعة تمنع أن يقع من الإنسان مثل هذه الحال، يهرب ولا يلوي على أحد، والرسول يدعوه يقول: (إِليَّ عباد الله) ففيها توبيخ لطيف للصحابة مما جرى منهم.

٣ - حسن رعاية النبي ﷺ لأمته في قيادته العظيمة حيث يكون في أخريات القوم، وهذا شأنه صلوات الله وسلامه عليه، أن يكون في أخريات القوم من أجل أن يتفقدهم، وليس كالملوك الذين يتقدمون الناس، بل هو يتأخر، كما حصل في قصة جمل جابر رضي الله عنه حيث كان النبي ﷺ في أخريات القوم وقد أعيا جمل جابر، فلحقه النبي ﷺ وضربه ودعا له فمشى الجمل. مما يدل على أنه من أهداف النبي ﷺ للتأخر مثل هذه الحالة.

٤ - أنه ينبغي للقائد أن يكون ذا شجاعة في قيادته بحيث يثبت ويدعو إلى الثبات، وذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ لأنه لو لم يثبت وهرب معهم لم يكن صالحًا للقيادة.

٥ - إثبات رسالة النبي ﷺ في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾.

٦ - حكمة الله عزَّ وجلَّ وعدله في إثابته عباده؛ لقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾، فالعدل ظاهر جدًّا إذا جعلنا الباء للبدل، والحكمة ظاهرة إذا جعلناها للمصاحبة أو بمعنى على؛ لأن هذه الغموم التي يتلو بعضها بعضًا يخفف بعضها بعضًا.

٧ - إثبات حكمة الله عزَّ وجلَّ في أفعاله، وهذا يؤخذ من قوله ﴿لِّكَيۡلَا﴾، فإن اللام هنا للتعليل، وهذه المسألة – أعني إثبات الحكمة لله في أفعاله وأحكامه الشرعية – ينفيها الجهمية بل والأشعرية أيضًا ينفونها ويقولون: إن أفعال الله لا تُعلل؛ لأنها لو عُلِّلت لكان يفعل لغرض؛ ولأنها لو عللت لصح أن يتوجه السؤال إليه عنها. فيُقال: لم فعلت؟ والله سبحانه وتعالى ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقد بيَّنا فيما سبق أن نفي العلة أو نفي الحكمة لأفعال الله يعد تنقصًا لله عز وجل؛ لأنه إذا انتفت الحكمة في أحكامه الشرعية أو القدرية صارت أحكامه عبثًا ولعبًا، وقد أبطل الله سبحانه وتعالى ذلك في عدة آيات من أشهرها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

٨ - أن الله عزَّ وجلَّ يحب من عباده إلَّا يحزنوا؛ لأنه قلّل الغم بالغم من أجل ألَّا يحزنوا، وذلك؛ لأن الحزن يحدث للإنسان انقباضًا ربما يمنعه عن كثير من المصالح، وربما يحدث له عقدًا نفسية، والإنسان ينبغي أن يعوِّد نفسه على انشراح الصدر وانبساط النفس بقدر ما يستطيع؛ لأنه لا شك أن الإنسان إذا كان صدره منشرحًا ونفسه مُنبسطة أن يكون مستريحًا قابلًا للتفهم والتفهيم.

٩ - التربية العظيمة للعباد، وهي إلَّا يحزنوا على ما فاتهم، فإذا فاتك خير تظنه خيرًا لنفسك فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، وكذلك إذا أصابك ما تكره قل: قدر الله وما شاء فعل، واعلم أن الحزن لا يرد الغائب أبدًا، وإنما يزيد الإنسان بلاءً.

١٠- إثبات علم الله عزَّ وجلَّ الواسع بكل معلوم؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١١- وجوب الحذر من المخالفة - مخالفة الله عز وجل - ووجهه: أنه إذا كان خبيرًا بعملنا فإن ذلك يوجب لنا إلَّا نخالفه؛ لأننا إن خالفناه علم، وإذا علم فسوف يُحاسبنا.

١٢- الرد على الجبرية توهذا يؤخذ من قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ووجه ذلك: أنه أضاف العمل إليهم، والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يعمل، ولا يفعل شيئًا باختياره.

١٣- الرد على غُلاة القدرية وهذا يؤخذ من قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأن غُلاة القدرية يُنكرون علم الله بفعل العبد، ويقولون: إن الله عزَّ وجلَّ لا يعلم أفعال العبد لكن إذا فعلها علم بها.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

التفسير

قوله: ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمهلة، ﴿أَنزَلَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ أي: كل الغموم السابقة، فالمراد بالغم هنا: جنس الغم فشمل الغم بعد الغم. ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أمنة يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون مفعولًا لأجله.

الوجه الثاني: أن تكون مفعولًا به لأنزل، فعلى الوجه الأول يكون ﴿نُّعَاسًا﴾ مفعول أنزل، وعلى الثاني يكون ﴿نُّعَاسًا﴾ بدلًا أو عطف بيان من ﴿أَمَنَةً﴾، وأمنة بمعنى: أَمْن، يعني أنزل لكم من بعد الغم أمنًا، وأمنة وأمن بمعنى واحد، وقال بعض المفسرين: إن هناك فرقًا بين الأمن وبين الأمنة، وهو أن الأمنة أمن مؤقت يكون بعده خوف كما في الآية، والأمن يكون أمنًا مُطردًا

كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] في الجنة.

وهذا ليس بصحيح؛ لأن الأمن مصدرٌ، والمصدر مُطلق يشمل القليل والكثير، أما ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ فإن فيها (ال) الدالة على الكمال والاستغراق، لكن لو قلت: أَمِن أمنًا لا يدل على أنه دائم أو أمنة لا يدل على أنه دائم، فالظاهر القول الأول، أنه لا فرق بينهما، لهذا فسره كثير من المفسرين وقالوا: أمنة يعني أمنًا.

فما المراد بهذا الأمن؟ قال: (نُعاسًا) والنعاس: مقدمة النوم، وهو دليل على طمأنينة القلب؛ لأن الخائف لا يمكن أن يَنْعَس، لِأنَّ قلبه مضطرب، لكن الآمن المطمئن ينعس، ولهذا قال: ﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وفي قراءة: (تغشى طائفة منكم) فإذا كانت القراءة (تغشى) فالضمير يعود على أمنة. وإذا كانت القراءة (يغشى) فالضمير يعود على نُعاسًا.

وقوله: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ أي: يُصيب طائفة، والغشيان في الأصل: التغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لكن قد يُراد به مجرد الإصابة وقد يُراد به مع الإصابة أنه شملهم جميعًا. وفي قوله ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾

يعني: فلم يغشهم النعاس لماذا؟ لأن أنفسهم قد أهمتهم، وأوقعتهم في الهم؛ وهم من شدة قلقهم يقولون: لا ندري ما يكون، والذي هكذا حاله لا يأتيه النوم ولا يقربه النعاس، ولهذا قال: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وطوى ذكر ترك عدم النعاس؛ لأنه يعلم من حَار منهم فإنه لا يمكن أن ينعس إذا كانت قد أهمتهم أنفسهم.

يقول: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾

جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ يجوز أن تكون خبرًا ثانيًا لقوله: ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ والخبر الأول جملة (قد أهمتهم أنفسهم)، يعني: وطائفة أهمتهم أنفسهم وكذلك يظنون بالله غير الحق، ويجوز أن ﴿يَظُنُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الضمير في ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ يعني: أهمتهم حال كونهم يظنون بالله غير الحق، يعني: يظنون بالله سبحانه وتعالى ظنًّا غير ظن الحق، فما هو هذا الظن؟

يظنون أشياء كثيرة يقولون مثلًا: هل لنا من الأمر من شيء؟ وظنهم مثلًا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قُتل حقيقة، وأنه لا نصر للإسلام بعده، وأن الدولة ستكون للكافرين، وما أشبه ذلك من الظنون الفاسدة، ولا شك أن هذا ظن مبني على الجهل، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ فبدأ ببطلان هذا الظن أولًا، ثم بيَّن أنه صادر عن جهل ولهذا قال: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

أي: ظن أهل الجهل؛ لأن من عرف الله عزَّ وجلَّ بأسمائه وصفاته وأحكامه لا يمكن أبدًا أن يظن به هذا الظن، أن الله يديل الباطل على الحق، وأن الله لا ينصر رسوله، ولا يظن هذا الظن إلَّا من لا يعرف الله عز وجل.

قال: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾

جملة (يقولون) يصح أن تكون خبرًا ثانيًا أو ثالثًا لطائفة، ويصح أن تكون حالًا من الواو في ﴿يَظُنُّونَ﴾، يظنون حال كونهم قائلين.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم أو بقلوبهم؟

يحتمل الأمرين، يحتمل أنهم يقولون في أنفسهم، ويحتمل أنهم يقولون في قلوبهم بألسنتهم، يعني يقول بعضهم لبعض: هل لنا من الأمر من شيء؟.

والأصل في القول إذا أُطلق فهو قول اللسان، وإذا كان قول النفس فلابد أن يقيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، فإذن تكون الآية دالة على أن هذا القول صادر منهم بألسنتهم.

إذا قال قائل: أنتم تقولون: إن القول إذا أطلق فهو قول اللسان فكيف تجيبون عن قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]؟ يُقال: هذا من باب التأكيد، وليقابل قول ما ليس في قلوبهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾:

﴿هَل﴾ هنا للاستفهام لكن المراد من الاستفهام هنا الإنكار، كأنهم يقولون: هل نحن روجعنا؟ هل أخذت مشورتنا؟ أو أنهم ينفون فيكون الاستفهام للنفي يعني يقولون: ليس لنا من الأمر من شيء.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾

هذا يؤيد أن ﴿هَل﴾ بمعنى الإنكار أي: أنهم ينكرون أنهم لم يرجع إليهم بشيء، فسياق الآية يدل على هذا، وأن هؤلاء أخذوا على القيادة في هذه الغزوة أنها لم تراجعهم. وقالوا: هل لنا من الأمر من شيء؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾. ويؤيد هذا أيضًا قوله: يقولون ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ يعني: لو كان لنا من الأمر شيء ما حصلت هذه الهزيمة إلى آخر الآيات. فالظاهر أن الاستفهام هنا ليس للنفي كما ذهب إليه بعض المفسرين، ولكن معناه الإنكار على القيادة أنها لم تراجعهم في هذا الأمر.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، الأمر هنا واحد الأمور أو واحد الأوامر؟

الأول: يعني: هل لنا من أمور الحرب شيء؟ لم يوجه إلينا من أمر الحرب شيء، فكأنهم يريدون أن يتنصلوا مما حصل ويقولون: ما روجعنا ولا رُجع إلينا ولا أُخِذ رأينا.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾

فيها قراءتان: (كُلُّه) و (كُلَّه) فأيهما أرجح؟

يُقال: إن كليهما راجح؛ لأنهما قراءتان سبعيتان، فإذا كانت (كلَّه) صارت كل: منصوبة على التوكيد؛ توكيد الأمر ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وعلى قراءة الرفع تكون (الأمر) اسم إن، و (كل) مبتدأ و(لله) خبره، والجملة من المبتدأ والخبر: خبر إن، على كل حال هنا (الأمر كلَّه لله) يشمل الأمر الكوني والأمر الشرعي، فالأمر لله عزَّ وجلَّ كله هو الذي يتصرف في عباده كما يشاء حسب ما تقتضيه الحكمة، سواء كان هذا الأمر كونيًّا وهو الذي يقول الله له: كن فيكون، أو شرعيًّا وهو الأمر الموجه للعباد افعلوا أو لا تفعلوا، كله لله، كما أن الحكم كله لله.

قال الله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: يُضمرون في نفوسهم ما لا يبدونه للرسول ﷺ، ولكن الله يعلمه، وهذا يُعد بلا شك مما جرى من بعض الصحابة ﷺ، وهو أمر لو تركوه لكان أفضل، فلو كانوا يُصارحون الرسول ﷺ ويصالحونه لكان خيرًا من كونهم يتكلمون فيما بينهم ويخفونه عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس لجميع الصحابة بل لطائفة منهم؛ لأن المنافقين كلهم رجعوا قبل أن يصلوا إلى أُحد، فإن بقي فقد بقي ناس قليلون، لكن ظاهر الآية حين قال: ﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أن هذه الطائفة من المؤمنين مع أنه ربما يقول قائل: بل إن الآية تدل على أن هذه الطائفة ليست من المؤمنين؛ لأنه قال: ﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقل: وطائفة منكم لكن الذي يُرجح التقسيم الأول؛ لأنه قال: يغشى طائفة وطائفة قد أهمتهم، والمفسرون مختلفون في ذلك على قولين:

القول الأول: أن هذه الطائفة طائفة من المنافقين.

والقول الثاني: أنها طائفة من المؤمنين لكنهم ضِعاف الإيمان.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾: جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ تفسير للذي يخفونه، والقول هنا قول باللسان؛ لأن القول إذا أطلق فهو قول اللسان.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾

الأمر هنا واحد الأمور، يعني: لو كان لنا من الشأن في هذه الغزوة شيء ورُدَّ الأمر إلينا ما قُتلنا ها هنا، يعني: ما خرجنا ولا قتلنا، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام استشار الصحابة حين

الخروج إلى أحد هل يخرج أم لا؟

فأشار عليه الشبان بأن يخرج؛ لأنهم أو كثيرًا منهم لم يخرجوا في غزوة بدر، فأرادوا أن يعوضوا عن تخلفهم عن غزوة بدر بهذه الغزوة، وقال بعض الصحابة: بل نبقى يا رسول الله في المدينة فإن دخلوا علينا قاتلناهم من على السطوح، وكان رأي النبي ﷺ يميل إلى هذا، ولكنه دخل بيته عليه الصلاة والسلام ثم عزم على أن يخرج ولبس لأمة الحرب وخرج.

فكأنهم أرادوا أن يرجع عن عزيمته وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا له فقال: «مَا كَانَ لِنَبِي لَبِسَ لَأْمَةَ الحَرْبِ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ»(١) فخرج، فالذين قالوا نبقى في المدينة هم الذين قالوا: ﴿لَوْكَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ يعني: لبقينا في المدينة ولم نقتل.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾

يعني: قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْكَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: لو كنتم في بيوتكم أي: لو بقيتم فيها ولم تخرجوا ليس في مدينتكم فحسب بل في بيوتكم في قعر البيت لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، يعني: اختفاءكم وبقاءكم في بيوتكم لا يمنع أن تبرزوا إلى مضاجعكم حيث كتب عليكم القتل.

وقوله: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: ضم الباء وكسرها في (بيوتكم).

وفي ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾ ثلاث قراءات سبعيات: كسر الهاء والميم، وضم الهاء مع ضم الميم، وكسر الهاء مع ضم الميم (عليهِمِ القتل) (عليهُمُ القتل) (عليهِمُ القتل).

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط: (كنتم) وجوابه (لبرز)، وقد مرَّ علينا أن (لو) تأتي شرطية وتأتي مصدرية للتمني، مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] يعني: ودوا أن تُدهن، فتكون مصدرية.

وقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾:

كُتب عليهم القتل كتابة قدرية لا كتابة شرعية، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] هذه كتابة قدرية. أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] فهي كتابة شرعية بمعنى فرض.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾أي: مكان الاضطجاع؛ لأن الميت يضطجع في قبره ولكنه اضطجاع إلى أمد، إلى أن يُبعث يوم القيامة، فإن الاضطجاع في القبور ليس هو آخر شيء، ولما سمع أعرابي

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٥١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٧٥).

رجلًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ - ٢] قال: والله ما الزائر بمقيم، فاستدل بهذه الآية على أنه لابد من مفارقة لهذه المقابر وذلك في البعث.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: محل اضطجاعهم الذي يُدفنون فيه.

قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ الواو حرف عطف، واللام: لام التعليل، ولهذا يجب كسرها ولا يجوز أن تسكنها، يعني: لا يجوز أن تقرأ (ولْيبتلي) بل يجب أن تقول (ولِيبتلي) لأن لام التعليل مكسورة في كل حال بخلاف لام الأمر تُسكن إذا وقعت بعد حرف العطف الواو والفاء وثم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] أما لام التعليل فإنها مكسورة دائمًا ولو بعد الواو أو ثم أو الفاء.

يقول: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ الواو حرف عطف فأين المعطوف عليه؟

يقولون: إن المعطوف عليه مُقدر، والتقدير: فعل ما فعل ليتبين لكم ما حصل بسبب عصيانكم وليبتلي، فالمقدر الآن علة ومعلول لأجل أن يصح عطف العلة الثانية على العلة التي حُذِفَتْ مع معلولها.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ (يبتلي) بمعنى: يختبر ويمتحن، و (ما في صدوركم) هي: القلوب؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ معطوفة على يبتلي، والتمحيص بمعنى: التخليص، محَّصه أي: خلَّصه، يخلّص ما في قلوبكم من كل ما يكون فيها من إرادات سيئة كقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أو فيه شيء من التسخط على القدر أو غير ذلك مما يفسد ما في القلب.

وقوله: ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ إذا قال قائل: ذكرتم أن ما في الصدور هي القلوب، وأن التمحيص أيضًا للقلوب، فكيف كان ذلك؟

نقول: كان ذلك؛ لأن الابتلاء غير التمحيص، الابتلاء: اختبار، والتمحيص: تنقية، ولهذا اختلف التعبير فقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل: ما في صدوركم بل قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الأذى الذي يضركم في دينكم؛ لأن كراهة ما وقع أو إرادة ما لا ينبغي إرادته أين تكون؟ تكون في القلب؛ ولهذا كان التمحيص على ما في القلب أو كان التمحيص لما في القلب لا للقلب نفسه، والابتلاء للقلب نفسه، ويبتلي ما في صدوركم ويمحص ما في القلوب أي: يُنقي، فاختلف المورد. المورد في الأول: القلب، وفي الثاني: ما في القلب.

وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

الجملة هذه استئنافية لبيان إحاطة علم الله بما في القلب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦ - ١٧].

وفائدة ختم الآية بها أنه لما بيّن أن الله تعالى قدّر ما قدّر لهاتين الحكمتين الابتلاء والتمحيص، بيّن أنه بعد ذلك سيعلم ماذا يكون في القلب بعد هذا الابتلاء وهذا التمحيص.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي يجلب للمرء النوم أو يرفعه عنه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، ولكن الله بحكمته جعل للنوم أسبابًا، فالإنسان مثلًا إذا اضطجع واسترخى أتاه النوم، وإذا انشغل قلبه واهتم لأمر ما فإنه لا يأتيه النوم، وهذا كغيره من الأشياء التي تكون بإرادة الله ولكن لها سبب.

٢ - أنك إذا أرقت ولم يأتك النوم في الليل؛ فالجأ إلى الله عزَّ وجلَّ واسأله أن يُذهب عنك الأرق، وادع بما وردت به السُّنة من دعاء الأرق المشهور[1].

٣ - أن النعاس قد يكون محمودًا ويُعتبر من النعم؛ لقوله: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾. قال العلماء: النعاس في الحرب نعمة، والنعاس في العلم لا يكون نقمة ولكن يكون مذمومًا، يعني محمودًا في الحرب ونعمة، أما في العلم فإنه مذموم، وكذلك أيضًا في الصلاة. ولكنه إذا غلب على الإنسان فإنه لا يؤاخذ به إلَّا أن النبي ﷺ أمر الإنسان إذا أصابه النعاس في الصلاة أن يضطجع، وأن يستريح قال: فلعله يذهب ليدعو لنفسه فيكون الأمر بالعكس[2].

٤ - أن النعاس الذي أصابهم إنما أصاب المؤمنين الخلص؛ لقوله: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

٥ - أنه قد يوجد في الكُمَّلِ من المؤمنين شيء من العيوب كالأنانية، فإن قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يدل على أنانيتهم وأنهم ليس لهم همٌّ إلَّا أنفسهم، والذي يليق بالمؤمن أن يكون همُّه في مثل هذه المواطن نصرة الإسلام وعزة الإسلام، وأن يبيع نفسه لله.

٦ - أن الإنسان الذي لا يكون له همٌّ إلَّا نفسه في هذه المواطن قد يُبتلى - والعياذ بالله - بهذه البلوى العظيمة، وهي أن يظن بالله غير الحق ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» أنواعًا كثيرة من الظن بالله غير الحق منها:

أنهم ظنوا أن هذه الهزيمة لا انتصار بعدها، وهذا ظن سوء؛ فكل من ظنَّ أن الله يديل الباطل على

---

(١) انظر كتاب الأذكار للحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦)..

الحق إدالة مستقرة فقد ظنَّ بالله ظن السوء، ومن أراد أن يرجع إلى كلام ابن القيم في «زاد المعاد» فهو كلام جيد لم يوجد لا في كتب التفسير ولا في كتب التاريخ.

٧ - ذم من ظنَّ بالله غير الحق؛ لأن الله ذكر ذلك في سياق ذم هؤلاء الذين ليس لهم همٌّ إِلَّا أنفسهم، فإذا كان من ظنَّ بالله غير الحق مذمومًا كان من ظنَّ به ظنَّ الحق محمودًا.

٨ - أنه لا يظن أحدٌ بالله ظنًّا غير الحق إِلَّا وهو جاهل؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ فكل من ظنّ بالله غير الحق فإنه بلا شك جاهل لم يقدر الله حقَّ قدره.

٩ - أن هؤلاء أنكروا ما فعله الرسول ﷺ من الخروج إلى أحد، لكنه على وجهٍ خفي؛ لقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾؛ لأنه على زعمهم لو كان لهم شيء من الأمر ما قتلوا.

١٠- بيان أن الأمر كله لله، الأمر الشرعي، والأمر الكوني، ليس لأحد مع الله أمر، فكل الأمر لله؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١١- أنه يجب على الإنسان أن يُنكر المُنكر بذكر الحق؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، والأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾ أدنى أحواله أن يكون للاستحباب.

١٢- أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾؛ لأنه لو كان يعلم الغيب لكان يعلم ما يُخفون وإن لم يُبدوه، ولكن النبي ﷺ لا يعلم الغيب لا في حياته ولا بعد مماته، وإذا كان لا يعلم الغيب في حياته فعدم علمه الغيب في مماته من باب أولى، وقد صرح الله بذلك حيث أمره أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] أمر الله أن يُعلن هذا وقد أعلنه عليه الصلاة والسلام على الملأ، ولم يكتم شيئًا مما أوحاه الله إليه ومنه هذا.

١٣- التنديد بمن يعترضون على القدر؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ إلخ.

١٤- أن ﴿لَوْ﴾ بعد القدر لا تفيد شيئًا؛ لقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فقضاء الله لا مفر منه.

١٥- أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن الشهداء يُدفنون في مكان استشهادهم؛ لقوله: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: في أماكن قتلهم. وهذا إن لم تُفده هذه الآية فقد استفيد من السُّنة، فإن قومًا من الصحابة حملوا قتلاهم في أُحد لدفنهم في المدينة فأمر النبي ﷺ بردِّهم إلى مصارعهم يُدفنون هنا فدُفِنوا في أُحد[1].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٠٨)، و النسائي (٢٠٠٤)، و ابن ماجه (١٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

١٦- إثبات الحكمة في أفعال الله بقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ والنصوص في إثبات حكمة الله لا تُعد ولا تُحصى، بل حتى الأمور الكونية التي لا حصر لها كلها تفيد إثبات حكمة الله عزّ وجل.

١٧- أن العبرة والمدار على القلوب التي في الصدور؛ لقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وقد بيّنا فيما مضى أن أحكام الدنيا على الظواهر، وأحكام الآخرة على البواطن، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ - ١٠]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨،٩] ولأن النبي ﷺ كان لا يقتل المنافقين وهو يعلم ببعضهم ويقول: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1] إجراءً على ظاهرهم؛ ولأنه لو رُجِعَ إلى الباطن في أحكام الدنيا لسادت الفوضى بين الأمة؛ لأن كل إنسان قد يقتل الشخص أو يؤدبه أو يُعزِّره ويقول: إن قلبه منطوٍ على الكفر والنفاق، ويحصل في هذا من الشر ما لا يمكن أن تعيش الأمة به، ولكن الله بحكمته ورحمته جعل أحكام الدنيا على الظواهر.

١٨- أن الله تعالى قد يبتلي عباده بما يُنقّي قلوبهم ويُخلصها من الشوائب؛ لقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والتمحيص كما قلنا التنقية.

١٩- إثبات علم الله بما في القلوب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: التحذير من إضمار ما لا يرضى به الله؛ لأنك إذا أضمرت ما لم يرض به الله فسوف يُحاسبك عليه وإن كان لا يبدو للناس، فعلى المرء أن يُحاسب نفسه دائمًا وينظر ما في قلبه، هل في قلبه الخير وإرادة ما يُرضي الله أو أن الأمر بالعكس؟ فليُصححِ الوضع.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾ هذه جملة مؤكدة بـ (إن)، و (الذين) اسمها، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ جملة خبر إن.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات. وهي: القسم المُقدّر، واللام، وقد.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، و مسلم (٢٥٨٤).

يقول الله عزَّ وجلَّ خبرًا عن هؤلاء الذين تولوا يوم أُحد وانهزموا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾:

الجمعان: مُثنى جمع، والمراد بهم: جمع الرسول ﷺ وجمع الكفار، المسلمون بقيادة الرسول ﷺ، والكفار بقيادة أبي سفيان.

يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ ﴾ تولوا: يعني أدبروا وهربوا وهم أكثر الجيش حتى إنه لم يبق مع النبي ﷺ إلَّا نحو ثلاثة عشر رجلًا منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم[1]، هؤلاء الذين تولوا يوم التقى الجمعان أي: تلاقوا وجهًا لوجه. ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾: استزل: في الأصل طلب الزلة، يعني: إنها صدهم الشيطان من أجل أن يطلب زلتهم، وقيل: استزل بمعنى أزل يعني إنما أزلهم. والمُراد بـ «أزل» أي: أوقعهم في الزلل، والزلل هو: الخطأ والانحراف عن الصواب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾.

الشيطان: اسم جنس، ولكل إنسان شيطان قرين له يأمره بالشر وينهاه عن الخير، والشيطان هنا يقولون: إنه مشتق من شَطَن إذا بَعُدَ؛ لبعده عن رحمة الله، ومن أجل ذلك كان مُنصرفًا كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر: ١٧]. وقال بعضهم: إنه من شَاطَ، ولو كان كذلك لكان غير منصرف إذا قصد به العَلم؛ لأنه إذا كان من شاط صارت النون والألف زائدتين، وإذا كانت النون والألف زائدتين في عَلَمٍ أو في وَصْفٍ امتنع من الصرف.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾.؟

الباء هنا للسببية، أي: ببعض الذي كسبوه، وما هو الذي يكون سببًا لإغواء الشيطان من المكاسب؟ هو المعاصي أي: أن لديهم ذنوبًا كانت سابقة، ثم إن الشيطان استزلهم بها أي: أوقعهم في الزلل لسبب هذه الذنوب؛ لأن الذنوب تكون سببًا للذنوب الأخرى، ولهذا قال بعض السلف: إن من علامة قبول الحسنة الحسنة بعدها، ومن علامة ردها السيئة بعدها.

فالإنسان إذا أذنب ذنبًا فإنه إن لم يتب فإن الشيطان يوقعه في ذنبٍ آخر، وهكذا حتى يصبح قد أحاطت به خطيئته، ولهذا قال العلماء: إن المعاصي بريد الكفر، يعني: تنتقل بالإنسان مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى قمة المعاصي وهي الكفر.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ لما بيَّن خطأهم وأنهم هم السبب في هذا الخطأ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

---

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٢١٣).

وهذه كالتي سبقت في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فكرر الله العفو مرتين.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الذين تولوا، والعفو: ترك المؤاخذة على الذنب، ويكون في الغالب في ترك الواجبات، يعني: أن الله عفا عمن ترك الواجب، والمغفرة تكون فيمن فعل المُحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

الغفور من أسماء الله، والحليم من أسمائه سبحانه، والغفور معناه: ذو المغفرة وهي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأن أصلها من المِغْفَر وهو ما يُلبس على الرأس ليُتقى به السهام، وهو جامع بين الستر والوقاية، أما الحلم فهو التأني وعدم السرعة؛ ولهذا قال ابن القيم رحمه الله:

وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلَا يُعاجِل عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

فالحليم معناها: المُمهل للعباد المُتأني في عقوبتهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان سبب انهزام من انهزم من الصحابة، وهو استزلال الشيطان لهم، ثم بيان هذا السبب الذي بُني عليه هذا السبب، وهو بعض ما كسبوا من المعاصي، فيُستفاد من هذا أو يتفرع من هذه الفائدة فائدتان:

الفائدة الأولى: أن كل ترك للواجب أو فعل للمحرم فإنما هو من استزلال الشيطان؛ لأنه هو الذي يأمر بالفحشاء وينهى عن المعروف، فكل ما حصل من تفريط في واجب، أو وقوع في محرم فإنه من الشيطان.

والفائدة الثانية: أن الإنسان قد يُعاقب بالمعصية لمعصية أخرى، أي: أنه تكون عقوبته أن يعصي الله مرة ثانية.

ويتفرع على هذا أيضًا فائدة وهي: أن العقوبة لا تختص بالألم البدني أو فوات الشهوات، بل قد تكون العقوبة بخذلان المرء عن الطاعات، ويُذكر عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: إن الرجل ليُحرم قيام الليل بما فعل من المعصية أو الذنب يصيبه.

ولا شك أن المعاصي سبب للخذلان، ويؤيد ما قلنا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وهي التي بنينا عليها هذه الفائدة، لكن يؤيدها أيضًا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ هذه عقوبة بدنية، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وهذه عقوبة دينية،

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وهذه أيضًا عقوبة دينية ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] كذلك، فالمعاصي لها أسباب سيئة وعواقب وخيمة نسأل الله العفو والعافية.

٢ - تحريم الفرار إذا التقى الجمعان، وجهه أن الله بيّن أن هذا من استزلال الشيطان وأنه عفا عنهم، ولولا أنهم يستحقون العقوبة لم يكن لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فائدة، نستثني من ذلك - أي من تحريم الفرار عند التقاء الجمعان - مسائل:

المسألة الأولى: إذا كانوا أكثر مثليهم فلهم الفرار ولكن الثبات أفضل.

المسألة الثانية: إذا كان متحرفًا لقتال، يعني: من أجل أن يأتي بأسلحة أو يستحث قومًا على الجهاد، أو ذهب من أجل أن يكرّ عليهم من الجهة الأخر ى، المهم أنه متحرف لقتال.

المسألة الثالثة: أو متحيزًا إلى فئة، يعني: أن الجبهة التي هو فيها ضعفت ففرَّ من أجل أن يتحيز إلى فئةٍ أقوى، أو تكون الجبهتان ضعيفتين فتتحيز إحداهما إلى الأخرى، فهذا لا بأس به، وما عدا ذلك فإن الفرار يوم الزحف من كبائر الذنوب والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

٣ - إثبات أن للشيطان تأثيرًا على العبد حتى في عمله الصالح وحتى في الجهاد؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾، ولكن بماذا تحصل العصمة من هذا الشيطان؟ تحصل العصمة بما ذكره الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، هذه العصمة كلما أحسست بشيء في داخلك ينهاك عن معروف ويأمرك بمنكر فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٤ - الردُّ على الجبرية وذلك من قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾، ومن قوله:﴿تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾.

٥ - بيان أن الله عزَّ وجلَّ قد عفا عن هؤلاء؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾.

٦ - أنه ينبغي التأكيد من أجل زيادة طمأنينة المخاطب؛ لأنه أكَّد هذه الجملة الخبرية التي تفيد العفو عنهم؛ بقسَم، ولام، وقد، من أجل أن تزداد طمأنينتهم في هذا العفو.

٧ - بيان فضل الله على عباده وإلّا فإن الفرار الذي حصل من الصحابة عظيم، لكن رحمة الله أوسع، فمن أجل سعة رحمة الله عفا الله عنهم.

٨ - إثبات اسمين من أسماء الله وهما الغفور والحليم وما تضمناه من صفة، فالغفور تضمن المغفرة، والحليم تضمن الحلم.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران:١٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ اللام هل هي للتعدية أي: تعدية القول أم لها معنى آخر؟ نقول: إن لها معنى آخر، وليس لتعدية القول؛ لأن إخوانهم قد ماتوا وقتلوا، فلا يمكن أن يوجَّه القول لهم لكنها بمعنى (في) أي: قالوا في إخوانهم. أو بمعنى (عَنْ) أي: قالوا عن إخوانهم أيضًا.

يقول: ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غُزًّى: جمع غازٍ على وزن فُعَّل، قال ابن مالك:

وفُعَّلٌ لفاعلٍ وفاعلة ... وصفين نحو عاذلٍ وعاذلة

عاذلة يُقال: عُذَّل، وغزٍ يُقال: غُزَّى، ويُقال أيضًا: غُزاة كقاضي وقُضاة، ولكن هنا نجعل غُزَّى جمع غازٍ، ووزنها الصرفي فُعَّل.

وكذلك أيضًا قوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام هل هي للتعليل أو للعاقبة؟ يُقال: إنها للعاقبة، يعني: يُقال هذا القول ليجعل الله هذا القول حسرةً في قلوبهم.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخطاب أو النداء موجَّه للمؤمنين، وفائدة توجيه النداء للمؤمنين في هذا الخطاب:

أولًا: الحث والإغراء على قبول ما يوجَّه إليهم وامتثاله؛ لأن وصف الإيمان يزيد الإنسان قوة وشجاعة كما لو قلت لشخص: يا أيها الرجل افعل كذا وكذا، أي (لرجولتك) افعل، وهذا سيعطيه قوة واندفاعًا في قبول ما توجه إليه.

الفائدة الثانية: أن ما يأتي بعدها من مقتضيات الإيمان.

الفائدة الثالثة: أن مخالفة ذلك نقص في الإيمان؛ لأنه إذا كان قبوله والإتيان به من مقتضيات الإيمان، كان مخالفته من نواقص الإيمان.

أما بدء الخطاب بالنداء فإنه يفيد التنبه والعناية بما يُذكر، ولهذا قال ابن مسعود: «**إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه**».

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإيمان شرعًا: هو الإقرار المتضمن للقبول والإذعان، فالإقرار

المُجرد لا يُسمى شرعًا إيمانًا، بل لابد من قبول وإذعان. والقبول ضد الرفض، والإذعان ضد الاستكبار.

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعني مثل الذين كفروا.

ثم قال: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾: وهذا لا شك أنه من جملة كفرهم؛ لأنه دال على ضعف الإيمان.

قال بعض المفسرين: إخوانهم في النسب، وقال بعض المفسرين: إخوانهم في الكفر، والثاني أقرب، أي: قالوا في شأن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ يعني: لو لم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا، فقوله: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ هذا فيه ما يُسمى عند البلاغيين لفٌّ ونشرٌ مرتبٌ، (ما ماتوا) مقابل (إذا ضربوا)، (وما قتلوا) مقابل (أو كانوا غُزى)، و (إذا ضربوا) قبل (كانوا غزى)، إذن فهو مرتب، فلو كانوا عندنا ولم يضربوا في الأرض ما ماتوا، ولو كانوا عندنا ولم يغزوا ما قتلوا. يقول هؤلاء: لو أنهم لم يسافروا ما ماتوا، ولو أنهم لم يغزوا ما قتلوا، هكذا يقولون.

لكن الله يقول: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾

أي: ليجعل الله هذا القول الذي قالوه وهو لا يُغني عنهم شيئًا، يجعله الله حسرة في قلوبهم، حسرة: يعني تحسرًا وندمًا يستحسر به القلب ولا ينبسط ولا يفرح، وإلَّا فإن هذا القول لا يُغني شيئًا.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ سبق أن بيَّنا أنها للعاقبة، وبيَّنا أن اللام الداخلة على الفعل في مثل هذا التركيب، تكون إما للعاقبة وإما للتعليل وإما زائدة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] هذه زائدة، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨] اللام زائدة، ودليل هذا أنه في الآية الثانية قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ [التوبة: ٣٢]. واللام في قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] للعاقبة؛ ولو ظنوا أنه يكون عدوًا وحزنًا لقتلوه. هذه الآية ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أيضًا للعاقبة، لأنهم لو ظنوا أن هذا حسرة وأنه لا فائدة منه إلَّا التحسر والندم وتكرار المصيبة ما قالوا هذا، ولكن الواقع أنه يكون حسرة في قلوبهم وإلَّا فإنه لا يُغني شيئًا لماذا؟ لأن الأمر بيد الله، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الإحياء والإماتة بيد الله عزَّ وجلَّ أي: إذا قدَّر الله إماتة شخص على سبب من الأسباب يسَّر له هذا السبب، وصار هو نفسه يفعل ذلك السبب، فالإحياء والإماتة بإذن الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

يعني: ومن جملة ما هو بصير به عملهم، والبصير هنا يحتمل بصر الرؤية، ويحتمل بصر العلم،

أي: يحتمل المعنيين جميعًا، فهو بصير بما نعمل بمعنى عليم، وهذا بصر العلم، وبصير بما نعمل بمعنى راءٍ لما نعمل، وهذا بصر الرؤية.

فإذا قال قائل: هل تُثبتون لله بصر الرؤية؟ قلنا: نعم، قال النبي ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ - أي الله عزَّ وجلَّ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1]. هذا لإثبات البصر لله. أما بصر العلم فواضح وكثير، إذن في هذه الآية إثبات إحاطة علم الله بكل ما نعمل لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، و (ما) هنا اسم موصول، واسم الموصول يفيد العموم ولو كان واحدًا. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٣].

(فالذي) اسم مفرد وعاد عليه الإشارة والضمير جميعًا؛ لأنه عام، فإن اسم الموصول - وإن كان لفظه لفظ المفرد - يكون للعموم، فالقاعدة: أن كل اسم موصول فهو للعموم.

وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فيها قراءة ثانية، فهل في الآية التفات؟ الواقع ليس فيها التفات حقيقةً؛ لأنه إذا قال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالخطاب في أول الآية موجه للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا﴾ مخاطبةً، لا تكونوا، فإن كنتم فالله بما تعملون بصير، إذن لا التفات، إذا جعلنا (بما يعملون) عائدًا على (الذين كفروا) و (قالوا لإخوانهم) أيضًا، فليس فيه التفات، فالحقيقة أنه ليس في الآية التفات سواء جاءت بالتاء أو بالياء؛ لأنها إن جاءت بالتاء فقد روعي فيها صدر الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وإن كانت بالياء فقد روعي فيها آخر الآية.

وفي هذه الآية إشكال وهو أن قوله: (قالوا) ماضٍ و (إذا ضربوا) مُستقبل، ويُجاب عنه بأن بعض العلماء قال: إن (إذا) هنا لا يُراد بها الاستقبال، وأنها سُلبت الدلالة على المستقبل، وأن المراد بها مُجرد الظرف، وهذا يُشبه قوله: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ قالوا: والدلالة على المعنى قد تسلب الكلمة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] هل معناه كان في الأزل ثم لم يكن الله غفورًا رحيمًا؟ لا، سُلبت الدلالة على الزمان، لذلك سلبت «إذا» الدلالة على المستقبل، وصار المُراد بهذا مجرد الزمان فقط.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تعلية شأن المؤمنين بإيمانهم تؤخذ من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن المخاطب لا يُنادى إلَّا بأحب الأوصاف إليه، ولهذا لو ناديت أحدًا بأقبح الأوصاف لسابَّك وشاتمك، ففيه تعلية

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

شأن المؤمنين بإيمانهم. ومنها فضيلة الإيمان وأنه مُقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة.

٢ - الإشارة إلى النهي عن التشبه بالكفار؛ لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

والتشبه بالكفار اختلف فيه العلماء، فذهب أصحاب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في المشهور عنهم إلى أن التشبه بالكفار مكروه، والمكروه عند الفقهاء كراهة تنزيه، أي: يُثاب تاركه امتثالًا، ولا يُعاقب فاعله، لكن قولهم هذا ضعيف. والصواب أن التشبه بالكفار حرام، ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حديث: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1] في كتابه القيم الذي أشير به على كل طالب علم وهو (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لما ذكر هذا الحديث قال: وأقل أحوال هذا الحديث التحريم؛ وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم؛ لأن قوله: «من تشبه بقومٍ فهو منهم» ظاهره أنه كافر، فالاقتصار على الكراهة التي يُراد بها كراهة التنزيه عند الفقهاء فيه نظر ظاهر.

المهم: أن في هذه الآية إشارة إلى النهي عن التشبه بالكفار، لا سيما إذا كان الفعل نفسه مُحرمًا، فإن قولهم هذا فيه اعتراض على القدر كما سيتبين إن شاء الله.

فإن قال قائل: ما هو ضابط التشبه؟ وهل يُشترط فيه القصد؟

فالجواب: أن ضابط التشبه أن يأتي بما يختص بالكفار من لباس أو تحلية جسم أو غيره، بحيث يقول من رآه: هذا من الكفار؛ لأنه لا يمكن أن يقول هذا من الكفار إلَّا إذا كان الشيء مُختصًا بهم، أما إذا كان عامًّا فإنه لا يمكن أن يُقال هذا من الكفار. فمثلًا الذي يلبس البنطلون عند الناس مع أنه في بعض البلاد الإسلامية هو لباس الناس، هل نقول: إن البنطلون تشبه؟ الجواب: لا؛ لأنه ليس خاصًّا بالكفار.

مسألة: وهل يشترط في التشبه القصد أو لا يُشترط؟

الجواب: لا يُشترط؛ لأن الإنسان لو قصد التشبه لكان الخطر عظيمًا؛ لأنه لا يقصد التشبه بهم إلَّا من مُلئ قلبه - أو كاد يُملأ - بمحبتهم وتعظيمهم، بل إن التشبه حاصل بصورة التشبه سواء قصد أم لم يقصد. هذا نقوله باعتبار الشخص نفسه، أما باعتبار إنكارنا عليه فإننا ننكر عليه مُطلقًا؛ لأننا لو سكتنا عن الإنكار عليه لأمكن كل واحد أن يقول: إنني لم أقصد التشبه، فنحن نقول: الإنكار على المتشبه مطلقًا سواء قصد أم لم يقصد، لكن الكلام على المتشبه نفسه هل يشترط لكونه متشبهًا أن يقصد التشبه أم لا يشترط؟

مسألة: التشبه في الأمور الدينية بالكفار أعظم بكثير من التشبه في الأمور العادية؛ لأن التشبه

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٥٠)، و أبو داود (٤٠٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٦٩).

بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم الباطل لذاته لا لكونه من خصائصهم. ولهذا ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «أحكام أهل الذمة» أنه حرام بالاتفاق، وقال: هذا إن سلم فاعله من الكفر فقد أتى محرمًا لا شك فيه؛ لأن التشبه بهم في الأمور الدينية يعني تعظيم دينهم، ودينهم منسوخ بدين محمد ﷺ بإجماع المسلمين، ومن زعم أن اليهود والنصارى أو غيرهم على دين صحيح مقبول عند الله فهو كافر، يُعَزَّر حتى يرجع؛ لأن الله يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] ويقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وصحَّ عن النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، وإذا قيل أصحاب النار فهم أصحابها الذين لا يخرجون منها وهم الكفار.

٣ - أن الندم على ما وقع لا يرفع الواقع، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٤ - أن هذا الدين رحمة؛ لأن نهي الله عن الندم على ما مضى مصلحة للإنسان؛ لأنه يطمئن قلبه ولا يتحسر ولا يحزن، فإنه يقول لنفسه: هذا الأمر لابد أن يقع كما وقع، فلا حاجة لأن تقول: لو أني فعلت لما حصل؛ إنما تقول: لو أني فعلت في أمر تكون فرطت فيه، أما شيء لم يكن بتفريطك فهذا لا يحل لك أن تندم عليه.

٥ - أنه لو أن شخصًا سافر ثم حصل له حادث، ثم قال أهله: لو أنه لم يُسافر لما حصل له حادث. نقول: هذا من قول الكفار: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟﴾، هذا قول الكفار، والمؤمن لا يقول هذا، فالمؤمن يقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويقول: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ويقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أن الأمر بيد الله ولا يمكن أن يتغير المقدور عما وقع أبدًا.

٦ - أن هؤلاء المعترضين على القدر يكون اعتراضهم حسرة في قلوبهم، ولا ينسون المصيبة، وتجد الشيطان يلعب بهم (ليته ما راح، ليته ما غزا، ليته ما فعل ...)، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام مُشيرًا إلى هذا المعنى: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»(٢)، وهل المراد القوي في بدنه يحمل الحجر الكبير ولا يُبالي ولكن صلاته ضعيفة، أو المؤمن الذي لا يحمل إلَّا عشر كيلو أو ما شابه ولكنه يتهجد بالليل ويصوم ما شاء الله ويصلي الواجبات؟. المراد الثاني،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

المؤمن القوي في إيمانه؛ لأنه القوي وصف عائد على ما سبق، والمؤمن مُشتق من الإيمان. إذن المؤمن القوي في إيمانه ولا بد، وليس المؤمن القوي في بدنه، فلو قال: البدين القوي، لقلنا: معناه القوي في بدنه، ولو قال: الرجل القوي، قلنا: في رجولته، لكنه قال: المؤمن القوي أي: في إيمانه، وقوة البدن لا تُمدح إلَّا إذا كان فيها زيادة قوة في الإيمان، وكثرة المال لا تمدح إلَّا إذا كان فيها زيادة في الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَب إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». ولما كان هذا الكلام من الصادق المصدوق قد يؤدي إلى انحطاط رتبة المؤمن الضعيف، لذلك قال: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» جبرًا لما يتوهم من نقص الضعيف، وهذا الأدب من الرسول عليه الصلاة والسلام هو مما أدّبه الله به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» ثم قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجِزْ» يعني: لا تكسل أو تضعف عن الاهتمام بالعمل، وإن أصابك شيء بعد الحرص والاستعانة بالله والقوة في العمل فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان.

إذن من قال: (لو) مُعترضًا على القدر فقد شابه الكفار، وقد فتح على نفسه باب عمل الشيطان.

٧ - الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أن الله قدَّر أن يقولوا هذا القول ليجعله حسرة في قلوبهم.

٨ - إثبات أن الإحياء والإماتة بيد الله ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهذا أيضًا مؤجل، أي: الإحياء والإماتة مؤجلة بأجل لا يزيد ولا ينقص أبدًا ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

٩ - إثبات عموم علم الله عزَّ وجلَّ بكل ما نعمل؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أو (بما يعملون) ويترتب على هذه الفائدة فائدة مسلكية ينتفع بها الإنسان في سلوكه وعمله، وهي أنه إذا آمن بأن الله بصير بما يعمل لزم من ذلك أن يستقيم على أمره، فعندما تريد أن تفعل معصية تذكر أن الله بصير بعملك، وإذا أردت أن تعمل طاعة تذكر أن الله بصير بعملك فأحسن الطاعة، فهذه تفيد الإنسان في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، إذا آمن بأن الله بصير بما يعمل حسن سيره إلى الله، واستعان بذلك على إحسان العبادات وعلى ترك المحرمات.

١٠- الرد على الجبرية حيث أضاف العمل إليهم، والجبرية لا يضيفون العمل إلى الإنسان يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، فالإنسان الذي يُحركُ يده اختيارًا كالإنسان الذي فيه رعشة وكلاهما سواء لا يستطيعان أن يمنعا أنفسهما.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧]

التفسير

في هذه الآية كلمتان فيهما قراءتان: الأولى: (مُتُّم) مأخوذة من مات يموت، وتكون (مُتُّم) بضم الميم، وإذا أخذت من مات يَمات تكون: (مِتُّم) بكسر الميم، تقول: مات الرجل ويَمات الرجل، ومات الرجل ويَمُوت الرجل، ويمات كيخاف، وأصلها: مَوِتَ يَمْوَتُ، كخَافَ يَخَاف أصلها خَوِفَ يَخْوَفُ، إذن هي من باب فَرِحَ يَفْرَح، خَوِف يَخْوَف. ففيها قراءتان: قراءة بكسر الميم (مِتم) وقراءة بضم الميم (مُتم).

الكلمة الثانية: قوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيها قراءتان: قراءة بالياء (يجمعون) وقراءة بالتاء (تجمعون).

هل في الآية التفات؟

يُقال: نعم، وهذا على قراءة الياء، أما على قراءة التاء فليس فيها التفات؛ لأن الآية كلها للخطاب، وفي الآية أيضًا من جهة اللغة العربية ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أنه اجتمع في الجملة قسَم وشرط، والسابق هنا القسم، وإذا تقدم القسم أيهما يحذف جواب الشرط أم جواب القسم؟ الجواب: أن الذي يحذف هو جواب المتأخر وهو هنا الشرط.

قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمِ ... جَوَابَ مَا أَخَّرتَ فَهْوَ مُلْتَزَم

يعني: عند اجتماع شرط وقسم في الجملة احذف جواب ما أخرت فهو ملتزم، وهنا المتقدم القَسَم. إذن الذي يحذف جواب الشرط، ولهذا جاء الجواب ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ وهو جواب قسم، فاللام هنا واقعة في جواب القسم، واللام في لئن موطئة للقسم، وجواب الشرط محذوف. فإن قال قائل: كيف يحذف وهو ركن في الجملة؟ قلنا: لأنه وجد ما يسد مسده وهو جواب القسم.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد في سبيله، ويحتمل أن يكون أعم من ذلك بمعنى قتلتم في سبيل الله في الجهاد، أو قتلتم في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قتلتم في سبيل الله في الدعوة إليه، أو قتلتم في سبيل الله في بيان الحق، كل هذا داخل في سبيل الله؛ لأن الجامع بينها أن هذا قتل وهو يدافع عن دين الله عز وجل.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: خير من الدنيا وما فيها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ هل نقول: إن المعنى أو مُتُّم في سبيل الله فيكون المراد به من مات في الجهاد؟ أو متُّم مُطلقًا؟ الظاهر الثاني؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لو أراد الأول لقال: (ولئن قتلتم أو متم في سبيل الله) فلما أخَّر (متم) عن القيد علم أنه غير مراد في الجملة الثانية، ولهذا يقول العلماء قاعدة، وهي: (أن كل قيد بشرط أو صفة أو استثناء أو غيره، إذا تعقب جملًا – أي: صار في آخرها – فهو عائد على الكل، وإن توسط عاد على ما سبق فقط دون ما تأخر عنه إلَّا ما دلَّ عليه الدليل)، وعلى هذا نطبق قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤ – ٥] هذه الآية فيها قيد بالاستثناء تعقب الجمل الثلاث، فهل يعود إلى الثلاث؟ نقول: أما الأولى فلا يعود إليها بالإجماع، وأما الثالثة فيعود إليها بالإجماع، وأما الوسطى ففيه خلاف. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤] الجملة الأولى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ والثانية ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ والثالثة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الاستثناء لا يعود إلى الأولى بالاتفاق، فلو تاب القاذف، فإن حق المقذوف لا يسقط ويُجلد القاذف ثمانين جلدة، ولو تاب القاذف زال عنه وصف الفسق بالاتفاق، وإذا تاب القاذف فهل تقبل شهادته أم لا؟ في هذا خلاف، فمنهم من قال تُقبل، ومنهم من قال لا تُقبل.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

يقول الله عزَّ وجلَّ مبيِّنًا ومُسليًا لعباده المؤمنين أنهم إذا خرجوا من ديارهم وقتلوا أو ماتوا، فإن ما يُقبِلُون عليه خير مما يرحلون عنه، وهذا بما قبله ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] يعني: لو متم أو قتلتم فإن هذا ليس حسرة، بل هذا خير ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد في سبيل الله، ويحتمل أن يكون المعنى أعم من الجهاد في سبيل الله بالسلاح ليشمل الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ والعلم، فمن قتل لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه، وقوله: ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ يعني: دون أن تقتلوا في سبيل الله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا كلها أي: (المغفرة) لكم من الله، ورحمة لكم أيضًا، والفرق بين المغفرة والرحمة أن المغفرة بها زوال المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب،

أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم وتنجون من مرهوبكم، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه.

وفي قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إضافة المغفرة على الله تدل على عظمة هذه المغفرة، وذلك لأن الشيء يعظم بعظم باذله، فمثلًا: إذا قلت: أعطاني الملك عطية، وقلت: أعطاني الصعلوك عطية، - والصعلوك هو الفقير - إذا قلت: أعطاني الملك عطية يتصور الناس أنها كثيرة. وإذا قلت: أعطاني الصعلوك عطية يتصورون أنها قليلة، فالشيء يعظم بحسب ما يُضاف إليه؛ فلهذا قال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ابتداؤها منه فهو الذي يبتدئها عزَّ وجلَّ ويتفضل بها.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: خير مما يجمعون أو خير مما تجمعون من الدنيا كلها، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن من قتل في سبيل الله أو مات من المؤمنين فقد انتقل إلى خير من الدنيا كلها؛ لقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢ - مِنَّةُ الله عزَّ وجلَّ على عباده بتسليتهم في الأمور التي يهمهم فواتها، فالإنسان يهمه فوات الدنيا، فكلٌّ يحب أن يبقى في الدنيا، فإذا جاءت التسلية من الله وقيل: إنك إذا مت أو قتلت انتقلت إلى ما هو خير، فإن الإنسان يتسلى بهذه ويقول: الحمد لله أنني إذا انتقلت إلى الآخرة فأنا أنتقل إلى خير من الدنيا.

٣ - الجمع بين المغفرة والرحمة ليكمل للإنسان سعادته، إذ بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب.

٤ - جواز إيقاع التفضيل بين شيئين بينهما بُعدٌ تام؛ لأنك إذا نسيت ما في الدنيا للآخرة فليس بشيء، قال الرسول ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُم فِي الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، وأَبيَن من ذلك قول الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]

التفسير

نقول في ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ من حيث الإعراب ما قلنا في الآية التي قبلها أي: أنه اجتمع فيها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

جواب القسم وجواب الشرط، فحذف جواب الشرط ونقول: في (متم) قراءتان كما في الآية التي قبلها بكسر الميم على أنها من مات يمات، وبضم الميم على أنها من مات يموت.

يقول الله عزَّ وجلَّ: إن متم أو قتلتم فإن مرجعكم إلى الله مهما طالت بكم الأيام أو قصرت فالمرجع إلى الله، وإذا كان المرجع إلى الله فإن الإنسان سوف يبقى مُطمئنًا، إذ إن من كان مرجعه إلى الله عزَّ وجلَّ فإنه لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، بل إنه إذا كان مؤمنًا فإنه يستبشر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ولما حدَّث النبي عليه الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها فقال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»، قالت: يا رسول الله، كلنا يكره الموت ولقاءَ الله يكون بالموت، قال: «لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْأَجَلُ فَبُشِّرَ بِالجَنَّةِ اشْتَاقَ إِلَى رَبِّهِ وَأَحَبَّ لِقَاءَ الله، وَالْكَافِرُ - والعياذ بالله - إِذَا حَضَرَهُ الْأَجَلُ بُشِّرَ بِالنَّارِ فَكَرِهَ لِقَاءَ الله فَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1]. ففي هذه الآية أن المرجع إلى الله عزَّ وجلَّ مهما طالت بالإنسان الحياة، وعلى أي صفة كان موته سواء كان بالقتل أو بغيره فالمرجع على الله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - زيادة التسلية للمؤمنين؛ لأن المؤمن إذا علم أن مرجعه إلى الله فإنه سوف يطمئن وسوف يستبشر وينشرح صدره بذلك.

٢ - إثبات لقاء الله عز وجل؛ لقوله: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٣ - إثبات الحشر يوم القيامة، فإن الناس يقومون من قبورهم ويُحشرون إلى الله عزَّ وجلَّ ليُجازيهم.

قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ الفاء عاطفة، والباء حرف جر، و(ما) زائدة ولكنها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧).

زائدة لفظًا ومعنىً، أي تفيد زيادة المعنى، وقد كره بعض العلماء أن نقول زائدة، أو أن نقول عن أي حرف في القرآن (إنه) زائد، قال: لأن القرآن لا زيادة فيه، ولكن نقول: إن المراد بقولنا زائدة: أي من حيث الإعراب لا من حيث المعنى، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ إذا جعلنا (ما) زائدة تكون رحمة مجرورة بالباء، وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: فبنقضهم ميثاقهم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] أي عن قليل.

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ الجار والمجرور متعلق بالفعل (لنت).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ﴾ «لو» هذه شرطية وفعل الشرط ﴿كُنتَ﴾ وجوابه ﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

يقول الله عزَّ وجلَّ مخاطبًا نبيه ﷺ ومبينًا نعمته عليه وعلى أمته يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: فبسبب رحمة الله لك ولأمتك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: كنت لينًا لهم، لينًا في مقالك ولينًا في جلوسك، ولينًا في مقابلتك، وفي كل أحوالك، فالرسول عليه الصلاة والسلام من أسهل الناس خُلُقًا وأكرمهم نُزُلًا، وقد قال الله عنه وكفى به قولًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أسند الرحمة إلى الله عز وجل؛ لأنه المتفضل بها، ولأن إسنادها إليه يفيد عظمتها وأنها رحمة عظيمة.

وقوله: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ الضمير يعود على الصحابة رضي الله عنهم وعلى من بعدهم أيضًا؛ لأن التشريع الذي يقع في عهد الصحابة تشريع لهم وللأمة إلى يوم القيامة، وكونه رحمةً له واضح، وكذلك كونه رحمة لهم واضح أيضًا من أجل أن يألفوه وأن يستأنسوا به وتتسهل معاملته إياهم، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام: لَا يُخَيَّرُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا[1].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

هذه عطف على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ اللين يقابله الشدة، والشدة تكون في الهيئة وفي القول وفي القلب، قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ (الفظ) الجافي الشديد في مقاله الذي يُصعِّر خده للناس، جافيًا أيضًا في قوله عنيفًا شديدًا لا يلين، والغِلَظ يكون في القلب؛ تجد قلبه قاسيًا لا يرحم، ولا يُنزل الناس منازلهم، ولا ينظر إلى الأحوال المقترنة بالأفعال، فأحيانًا تكون هناك أحوال تقترن بفعل الشخص يعذر بفعله من أجلها، فتجد غليظ القلب - والعياذ بالله - يعامل الناس معاملة واحدة لا ينظر إلى أحوالهم، ولا ينظر إلى ظروفهم - كما يقولون -، وإنما تجده غليظ القلب قاسيًا لا يلين. ومن أعظم ما يدل على ذلك ما يبدر من بعض الناس في معاملة الصغار، تجده في معاملة الصغار

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

عنيفًا يريد من الصغير أن يكون أدبه كأدب الكبير، وهذا لا شك أنه خطأ عظيم، وهذا من غلظ القلب، ولما رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ يُقبل الحسن والحسين قال: أتقبلون أولادكم؟ قال: «نعم»، قال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتهم، قال: (أوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ)[1].

فالإنسان ينبغي له أن يكون رحيمًا، وأن يكون لين القلب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ الفظ: الجافي الشديد القول.غليظ القلب: القاسي القلب الذي لا يلين قلبه لأي سبب من الأسباب.

يقول تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ انفضوا: أي تفرقوا وخرجوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أي: تفرقوا إليها وخرجوا.

وقوله: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولم يقل منك؛ لأن من حولك أبلغ من قوله منك، يعني: انفضوا وبعدوا حتى لا يقربوا إلى مكان قريب منك، أي: يبعدون حتى عما قارب مكانك.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾: هذا تفريع على قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فاعف عنهم إذا قصروا في حقك. والعفو: هو التسامح وعدم المؤاخذة.﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: في حق الله عزَّ وجلَّ إذا قصروا فيه، فالصحابة قد يُقصرون في حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد يقصرون في حق الله، أما في حق الرسول ﷺ فقال: (اعف عنهم)، وما أكثر ما يحصل من جُفاة الأعراب أو غيرهم من الكلام المُسيء إلى رسول الله ﷺ، ولكنه يصبر ويتحمل ويعفو عنهم إلى حد أن رجلًا من الأنصار قال له لما حكم فيه في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟ وهذا اتهام فظيع. فالزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام[2]. فقال هذا الرجل الأنصاري عفا الله عنه قال: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟ وقال له رجل وهو يقسم فيئًا: إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجه الله، وقال له: اعدل[3].

كل هذه الكلمات كان النبي عليه الصلاة والسلام يصبر ويحتسب الأجر من الله ويعفو حتى أحيانًا يأتيه من زوجاته ما يأتيه مما يحصل بسبب الغَيْرَة بين النساء وهو يعفو عنهن.

قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الضمير في شاورهم يعود على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أي: شاور أصحابك في الأمر. والمشورة هي: استطلاع الرأي بحيث يعرض الشيء على المستشار ليستطلع الرأي وينظر ما رأيه فيه، والمستشار مؤتمن يجب عليه أن يؤدي الأمانة على الوجه الذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٦٠)، و مسلم (٢٣٥٧).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

يرى أنه أصلح لمستشيره.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ كلمة ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ المراد بها: واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ لأن الأوامر لا يستشير فيها أحدًا، فالأوامر يؤمر بها شرعًا، لكن في الأمر أي: في الشأن وهو مفرد مُحلى بـ(أل) فهل (أل) هذه للعموم؟ أي: شاورهم في كل أمر أو هو عام أريد به الخاص؟ أي: شاورهم في الأمر الذي يكون مشتركًا أو مشتبهًا عليك وجهه؟ الجواب: الثاني بلا شك؛ لأنه لا يمكن أن الرسول ﷺ يأمره الله بأن يشاورهم في كل شيء، إنما يشاورهم في الأمر العام المشترك بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أمرهم الذي يجمعهم جميعًا شورى بينهم، أما الأمر الخاص فإنه تطلب الاستشارة عند اشتباه الأمر، كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام حين استشار أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب في شأن عائشة رضي الله عنها لما حصلت قصة الإفك، وكثر فيها القيل والقال، وغير هذا من الأمور الخاصة التي قد تشْكل على الرسول عليه الصلاة والسلام فيستشير فيها، إذن (شاورهم): اسْتَطْلِعْ رأيهم (في الأمر) أي: في الأمر المشترك أو في الأمر الخاص إذا اشتبه عليك؛ وذلك لأن الشورى يحصل فيها فوائد نذكرها إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: إذا عزمت أي: صممت على الفعل، هل بعد المشورة أو قبل المشورة؟ الظاهر بعد المشورة؛ لأن الفاء تدل على أن ما بعدها مفرع على ما قبلها، أي: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ بعد الاستشارة واستطلاع الرأي، فلا تعتمد على مشورتهم بل اعتمد على الله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهنا أمر بالأسباب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، الأسباب هي المشورة، والاعتماد على الله هو التوكل عليه، فما معنى التوكل؟ معنى التوكل هو: الاعتماد على الله عزَّ وجلَّ في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وشعور النفس بأنها محتاجة إلى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾: لما أمره الله بالتوكل بيَّن الثمرة العظيمة من هذا التوكل، وله ثمرات كثيرة منها هذه الثمرة التي ذكرها الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: إن الله يحب المتوكلين عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان رحمة الله عزَّ وجلَّ بنبيه ﷺ وبأمته، وذلك بجعله لينًا لهم، فهذه رحمة به وبهم.

٢ - أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينًا ليتعرض لرحمة الله عزَّ وجلَّ، دليل ذلك واضح، أن رسول الله ﷺ سيد قومه بل سيد الأمة جميعًا فألانه الله لهم.

٣ - أن اللين أولى بكثير من الفظاظة والشدة؛ لأن الله جعله من الرحمة، ولكن الفقهاء رحمهم الله لما ذكروا ما ينبغي للقاضي أن يتأدب به قالوا: ينبغي أن يكون لينًا من غير ضعف؛ لأن بعض

الناس قد يكون لينًا ويكون بسبب لينه ضعيفًا غير حازم، وهذا نقص في اللين، لكن ينبغي أن يكون لينًا مع الحزم والقوة في موضعها؛ لأن القوة في موضعها حكمة، فاللين إن ضاعت منه الحكمة فهو مذموم، وإن اجتمع مع الحكمة فهو محمود.

٤ - بيان مضار الفظاظة والغلظة، وأن من أعظم مضارها نفور الناس عن الإنسان إذا كان فظًّا غليظ القلب؛ لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾. هذا مع أنهم يرجون من قربهم من الرسول عليه الصلاة والسلام ما يرجون، فكيف إذا كان الإنسان لا يُرجى منه ما يُرجى من الرسول إذا كان فظًّا غليظ القلب؟ فالظاهر أنه لا يكفي أن يَنفَضُّوا من حوله، فربما رموه بالحجارة؛ لأن الصحابة يرجون من الرسول الخير بقربهم منه، فإذا قدّر أنه غليظ القلب ينفضون من حوله، فمِنْ سواه من باب أولى.

٥ - الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل مع الناس كل ما يجلبهم إليه، ووجهه: أن الله جعل الفظاظة والغلظة سببًا للتنفير على سبيل الذم لا على سبيل المدح، فينبغي للإنسان أن يستعمل في معاملة الناس كل ما يقربهم إليه بشرط إِلَّا يضيع شيئًا من الواجبات.

٦ - أن الإنسان قد يعذر في الابتعاد عن أهل الخير إذا كانوا جُفاة غلاظ القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ويعني بهم: الصحابة رضوان الله عليهم، ويعني بالمنفض عنه: الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذا كان الصحابة لا يُلامون على الانفضاض عن الرسول إذا كان فظًّا غليظًا فما بالك بمَنْ دونه بمراحل، فلهذا إذا كان الإنسان فظًّا غليظًا ولم ير الناس حوله فلا يلومن إِلَّا نفسه، ونحن نرى الآن أن الإنسان ربما يكون كافرًا فإذا كان يُعامل الناس باللين والرفق والبشاشة والسماحة ربما يفضلونه على مسلم فظ غليظ القلب.

٧ - أنه ينبغي للإنسان أن يعفو عن حقه في معاملة إخوانه؛ لقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولكن هذه الآية مُقيدة بما إذا كان العفو إصلاحًا، قيَّدها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].، أما إذا كان في العفو زيادة إفساد وطغيان فإن هذه مصلحة تضمنت مفسدة أعظم، مثل: لو كان الجاني معروفًا بالشر والفساد فهل الأولى أن نعفو عنه أو أن نؤاخذه بالذنب؟ الأولى أن نؤاخذه بالذنب، ولهذا ينبغي في حوادث السيارات إِلَّا يتعجل الإنسان بالعفو عمن تسبب في الحادث، بل ينظر إذا كان من الرجال المتهورين الذين إذا عفونا عنه اليوم أحدث حادثًا غدًا، فهنا الأولى أن لا نعفو، أما إذا علمنا أن الرجل شديد الحرص على سلامة الأنفس والأموال، ولكن هذا أمر لم يستطع التحرز منه ونعلم أنه سوف يتحرز غاية التحرز في المستقبل، فإن الأولى في هذا العفو، إذن فالعفو مُقيد بالإصلاح ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾.

وهل العفو واجب؟ الجواب: أنه ليس بواجب؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]. فمن انتصر لنفسه بعد أن ظلم فليس عليه سبيل، لكن الأفضل أن يعفو إذا كان في العفو إصلاح.

٨ - أن التفريط في حقِّ النبي عليه الصلاة والسلام قد يكون ذنبًا؛ لأن الله لما أمر نبيه بالعفو عن حقِّه الخاص قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهو كذلك، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس كغيره؛ لأن له حق الإسلام وحق الرسالة، ولأنه أعظم الناس حقوقًا علينا، فالاعتداء في حقه أشد من غيره بل يكسب الإثم، ولهذا قال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، أما غير الرسول ﷺ إذا عفا عن حقِّه الخاص انتهى، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كان الأمر الذي يتعلق به مُتعلقًا بحق الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ولهذا إذا سبَّ أحد شخصًا من الناس لم يكفر ولو سبَّ النبي ﷺ كفر؛ لعظم حقه.

٩ - الأمر بالشورى؛ لقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ وهذا الأمر قد يكون للوجوب وقد يكون للاستحباب حسب الأمر المشاور فيه، وحسب الإشكال الواقع فيه، فالأمور الكبيرة مع الإشكال الكبير تكون المشاورة فيها واجبة، والأمور الصغيرة مع الإشكال اليسير تكون المشورة فيها مُستحبة، فإذن الأمر هنا (شاورهم) مشترك بين الوجوب والاستحباب حسب ما تقتضيه الحال، وهنا مسألتان:

الأولى: هل معنى هذا أن النبي ﷺ يكوِّن مجلسًا للشورى يرجع إليه؟

الجواب: لا، بل شاورهم عند وجود سبب الاستشارة لا أن يُكوَّن مجلس يُرجع إليه، لأنه إذا كُوِّن مجلس يُرجع إليه ربما يبقى هذا المجلس دائمًا مع تغيُّر أحوال أهله، ومع وجود أناس جُددٍ خيرٍ منهم، فإذا قلنا: إن ولي الأمر إذا نزلت به نازلة حينئذٍ يستشير من يرى أنه مؤهلٌ للشورى، يبقى وليُّ الأمر تتجدد له الرجال الذين يستشيرهم، ولا يبقى المجلس الاستشاري هذا، ولا يبقى رافعًا رأسه، وإليه يُرجع الأمر، ولا شك أن هذا هو طريق النبي ﷺ، لكنه قد يكون لولي الأمر أصحاب خاصُّون يستشيرهم، مثل أبي بكر وعمر، كان النبي ﷺ يرجع إلى رأيهما دائمًا ويستشيرهما، ويرى أنه في رأيهما السداد والرُّشد، ولكن ليس في كل شيء يرجع إليهما، أحيانًا يستشير بقيَّة الصحابة عمومًا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ هل إذا صدر من المستشارين أمر هل هو مُلزِمٌ أو كاشف للرأي؟ الجواب: أنه كاشف للرأي، وليس بمُلزِم؛ لأنه لو كان مُلزمًا لكان الحكم بأيدي جماعة، والحكم بيد واحد، لكن يجب على المستشير أن يتبع ما يرى أنه أصلح، ولا يجوز أن ينتصر

لرأيه لأنه رأيه، بل الواجب عليه - لحق الله ولحق من ولاهم الله عليه - أن يتبع ما هو أصلح حتى لو خالفوه، والأصلح في رأيهم يجب عليه أن يتبع رأيهم، لكنه ليس بمُلزِم. بمعنى أننا لا نقول: إن هؤلاء لهم سلطة على الحاكم، بل الحاكم له السلطة، ولهذا قال هنا: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إذا أشاروا عليك فخذ به إذا عزمت، وهو قد يعزم على ما أشاروا به، وقد يعزم على غيره.

١٠- الحكمة من الأمر بالمشاورة ما يترتب عليها من فوائد، فللمشاورة فوائد منها:

أولًا: ألَّا يستبد الرئيس أو ولي الأمر برأيه، هذه فائدة مهمة جدًّا.

ثانيًا: تعويد أفراد الأمة على النظر في شئونهم حتى يتمرنوا ويمارسوا هذا الأمر.

ثالثًا: التواضع ممن شاور، فلا شك أنه إذا شاور فهو متواضع.

رابعًا: تنشيط الأمة حيث ترى أنه يُرجَع إليها في الرأي، فتنشط وتعمل ما فيه الخير العام، بخلاف ما إذا استبد ولي الأمر في رأيه، فإنه وإن كان صوابًا ربما تشمئز النفوس منه فيقولون مثلًا: لم يرجع إلينا، لم يشاورنا في هذا الأمر الكبير وما أشبه ذلك.

خامسًا: أنه إذا اجتمعت الآراء مع حُسن النية فإن الغالب أن الله يوفقهم للصواب.

سادسًا: أن الإنسان ربما يرى في هذا الأمر مصلحة ويفوته ما يترتب عليه من مفسدة لا سيما إذا كان له هوى، فإن الهوى كما قيل: يُعمي ويُصِم، فأحيانًا يكون للإنسان هوى فيرى المصلحة ولا يرى المفسدة في الشيء، فإذا حصل التشاور تبينت المصالح من المفاسد.

سابعًا: ومن فوائد المشورة أيضًا: أن الأمة إذا اجتمعت على رأيها لم يكن للناس اعتراض، ومعلوم أن الذي يُشاوَر هم أهل الأمانة وأهل الحل والعقد والمعرفة، فإن ولي الأمر إذا أشكلت عليه المسألة الشرعية يشاور علماء الشرع، وإذا أشكلت عليه مسألة سياسية يشاور علماء السياسة، وإذا أشكلت عليه مشكلة اجتماعية يشاور علماء الاجتماع، وإذا أشكلت عليه مسألة جيولوجية يشاور علماء الجيولوجيا، وإذا أشكلت عليه مسألة طبية يشاور علماء الطب. والمراد أن يجعل مستشارين لكل حال ما يُناسبها؛ لأن من شرط الاستشارة أن يكون المستشار ذا رأي سديد وأمانة، ومعلوم أنك لو استشرت عالمًا من علماء الشرع من أحسن العلماء في مسألة طبية لم يقدر أن يقول لك شيئًا.

إذن الاستشارة تكون في كل إنسان بحسب ما يناسبه؛ لأن المستشار مؤتمنٌ.

ثامنًا: ومن فوائد الشورى أيضًا: أنه إذا أخطأ الإمام أو ولي الأمر لم يُنسب الخطأ له بل يُنسب إلى المستشارين، ولهذا يقول بعضهم في المشورة: إن الشورى ستر لعيبي، إذا أخطأت قالوا: هذا

من المستشارين، وإن أصبت مدحوني وإياهم.

تاسعًا: أنها طاعة لله ورسوله؛ لأن الله أمر بها.

١١ - أنه يجب على الإنسان أن يكون اعتماده على الله عزَّ وجلَّ مع فعل الأسباب؛ لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٢ - أن النبي ﷺ يعتريه ما يعتري البشر من التردد في الأمور، ووجه الدلالة: أولًا في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ وثانيًا في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإن العزيمة قد يسبقها تردد كما هو الواقع.

١٣ - أنه ينبغي على الإنسان إذا عزم على الأمر إلَّا يتردَّد؛ لأن التردد يُحيِّر الإنسان ويوقعه في القلق، ولهذا قال الشاعر:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ ... فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدا

وكثير من الناس يرى المصلحة في شيء ويعزم عليه ثم يتردد فيكون مُذبذبًا، أحيانًا كذا وأحيانًا كذا، ويُؤْثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة نافعة جدًّا، وهي قوله: (من بورك له في شيء فليلزمه) ... كلمة عجيبةٌ لو توزن بالذهب لوزنته.

(من بورك له في شيء فيلزمه) يعني: إذا عمل الإنسان عملًا ورأى فيه البركة والثمرة فليلزمه، ولنضرب لهذا مثلًا بحال طالب العلم الذي شرع في دراسة كتاب أو مراجعته، ووجد فيه خيرًا، ووجد أنه يستفيد وينتفع، فنقول له: الزم هذا وأكمله، ولا تقل: هذا كتاب مختصر قليل، كمن شرع في مطالعة كتاب «زاد المستقنع»، ورأى فيه بركة، وانتفع به، إلَّا أنه لم يكمله وقال لا يكفي هذا، أريد أن أطالع «الإنصاف»، ثم قال: لا يكفي هذا، أريد أن أطالع «المغني»، هذه طريقة غير مُجدية، بل إذا بارك الله لك في شيء فالزمه حتى لا يضيع عليك الوقت ...

وهنا مسألة أيضًا قد ترد وهي: أنه يريد أن يُطالع مسالة في «الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فيُراجع الفهرس حتى يقع عليها، ثم يُلاحظ مسألة ثانية، فيذهب ينظر فيها فيضيع عليه الوقت، ولهذا كان من حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام، أن يبدأ بالشيء الذي يريده، فلما دعاه عتبان بن مالك رضي الله عنه، ليُصلي في مكان في بيته يتخذه مُصلى، خرج النبي ﷺ مع بعض أصحابه، فلما دخل البيت قال: يا رسول الله، قد صنعت لكم طعامًا. قال: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟»[1]، سأله قبل الطعام، لماذا؟. لأنه جاء لهذا الغرض. فابدأ بالغرض الذي أتيت إليه، فهذه المسألة ينبغي للإنسان أن يجعلها على باله في تصرفاته في العلم وفي الدنيا أيضًا. وهذه نأخذها من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٨٦)، ومسلم (٣٣) واللفظ للبخاري.

قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٤- إثبات المحبة لله عزَّ وجلَّ، أن الله يحب، وهل محبة الله حقيقية؟ نعم، حقيقية؛ لأن لدى أهل السُّنة والجماعة قاعدة: أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حقيقة، لكن مذهبهم مُبرَّأ من التمثيل والتكييف،والتحريف والتعطيل، فلا يُمثِّلون صفات الله بصفات خلقه، ولا يُكيِّفونها، فما هي المحبة؟ المحبة هي المحبة، لا يُمكن أن تُعرَّف المحبة بأوضح. من لفظها، لأننا كما قلنا فيما سبق: الانفعالات النفسية لا يمكن تحديدها بغير ألفاظها أبدًا، فلو قال قائل: ما معنى البُغض؟ الجواب: الكراهة، وما معنى الكراهة؟ الجواب: البغض، فكل هذه لا يمكن تحديدها إلَّا بآثارها.

وأما إثبات المحبة لله - أي: صفة المحبة - فإن أهل القِبلة الذين ينتسبون للإسلام اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: نفي حقيقتها عن الله وعن المخلوق، فيقولون: إن الله لا يُحِب ولا يُحَب. أعوذ بالله، عِلَّتُهم: أن المحبة إنما تكون بين شيئين من جنس واحد، ومعلوم الفرق بين الخالق والمخلوق.

القول الثاني: يقولون: إن الله يُحَب ولا يُحِب.

القول الثالث: أن الله يُحِب ويُحَب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وفي القرآن الكريم كثير من الأوصاف علَّق الله بها المحبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وأمثلةٌ كثيرة.

نحن نرى أن المحبة صفة حقيقية ثابتة لله، وأن من آثارها الثواب والرضا وغير ذلك مما يترتب عليها، والذين يُنكرونها يقولون: المراد بمحبة الله الثواب، فيقولون مثلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يعني يُثيب المتوكلين، وهذا خطأ.

١٥- فضيلة التوكل، ووجهه أن الله علَّق المحبة عليه، وهذا يدل على فضيلته وعلى الحث عليه، فإن قال قائل: هل التوكل خاص بالله؟ فنقول: أما توكُّل العبادة الذي يعتمد الإنسان فيه على ربه، ويُفوِّض الأمر إليه فهذا خاص بالله، وأما توكُّل الاستنابة، بمعنى أن الإنسان يُنيب غيره عنه في شيء من الأشياء، فهذا جائز، والفرق بينهما ظاهر:

التوكل على الله: يقطع الإنسان العلائق مما سوى الله عزَّ وجلَّ حتى من نفسه، ويُفوِّض أمره إلى الله تفويضًا كاملًا، لكن الاستنابة يرى فيه أنه فوق الوكيل، أنا وكَّلت إنسانًا يشتري لي حاجة، فأنا متوكِّل عليه ولكن هل توكُّلي عليه كتوكُّلي على الله؟ أبدًا؛ لأن توكُّلي على الله تفويض أمري إلى الله تفويضًا مُطلقًا، وأعتقد أنه هو حسبي، لكن هذا الرجل توكُّلي عليه على أنه نائبٌ عنِّي، لا على

أني طريح عليه، أفوِّض الأمر إليه، على أنه نائب عني أستطيع أن أعزله، وأستطيع أن أوبِّخه إذا خالف مُرادي، وأستطيع أن أحبسه إذا تسبَّب علي بضررٍ بخلاف التوكل على الله.

قال الله تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ هذه الجملة جملة شرطية، فعل الشرط فيها مضارع مجزوم (إن ينصرك)، وجواب الشرط فيها جملة اسمية مصدَّرة بلا، واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

كما في قول الناظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّنْفِيسِ

قوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أيضًا الجملة هذه جملة شرطية، فعل الشرط فيها فعل مضارع مجزوم، وجواب الشرط فيها جملة استفهامية مرتبطة بالفاء وجوبًا؛ لأن الجملة اسمية.

وقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فيها (من) و (ذا) و (الذي)، فهل (ذا) التي بعد (من) اسم موصول أو مُلغاة؟ الجواب: أنها مُلغاة؛ لأن ما بعدها اسم موصول، و (ذا) التي بعد (مَنْ) تكون اسمًا موصولًا بشرط إلَّا يأتي بعدها اسم موصول، فإن أتى بعدها اسم موصول تعيَّن أن تكوم مُلغاة.

وقال بعض النحويين: لا يتعيَّن أن تكون مُلغاة، ويكون الاسم الموصول الثاني توكيدًا للاسم الموصول الأول، كأنه يُقال: من الذي الذي ينصركم من بعده، هذا ما يتعلَّق بالآية من حيث الإعراب.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فقد سبق الكلام على مثلها.

يقول الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يعني: إذا قدَّر الله نصركم فإنه لن يغلبكم أحد، وإنما قلت: (إن يُقدِّر الله نصركم)؛ لأنه لو كان المراد النصر بالفعل لم يكن لقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فائدة؛ لأن النصر قد حصل. وعلى هذا يكون المعنى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾

أي: إن يُقدِّر نصركم، وهذا نظير قول الرسول ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ»[1].

قال بعض العلماء: أن ما أصابك أي: ما قُدِّر أن يُصيبك؛ لأن ما أصابك بالفعل قد حصل، فلا يستقيم قوله: «لم يكن ليُخطئك»، ولكن الصحيح أن الحديث على ظاهره: «أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ». يعني: أن الأمر لا يمكن أن يقع على خلاف الواقع. فما أصابك لم يكن ليُخطئك أبدًا فلا حاجة إلى الندم.

هنا يقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، و (لا) هذه نافية للجنس، والنافية للجنس نصٌّ في العموم؛ لأن النفي قد يكون للعموم نصًّا وقد يكون للعموم ظاهرًا، والفرق بين النص والظاهر: أن النصَّ لا يحتمل التخصيص، والظاهر يحتمل أن يكون عامًّا أُريدَ به الخصوص.

قال أهل العلم في النحو: و (لا) النافية نصٌّ في العموم، كما أن (مِن) الزائدة إذا جاءت بعد النفي، صار النفي نصًّا في العموم، كما لو قلت: (ما في الدار من رجلٍ) هذه نص في العموم كقولك: (لا رجلَ في الدار).

الحاصل: أن قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ عام، يعني: لا أحد يغلبكم مهما كانت قوته ومهما كان عدده، وإنما قال الله عزَّ وجلَّ ذلك من أجل أن نعلِّق النصر بالله عزَّ وجلَّ لا بغيره.

قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾. معنى ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ مقابل ﴿يَنصُرْكُم﴾ فالخذلان ضد النصر، وهذه من القواعد التي تُفيدك في تفسير القرآن، أن الكلمة قد يظهر معناها بما قُرِن معها من الضد.

لو قال قائل: في قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ما معنى ثُبات؟

الجواب: فُرادى؛ لمقابلتها لقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

قوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي: إن يُقدِّر لكم الخذلان، وهو عدم النصر ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

ويمكن أيضًا أن نستدل على معنى الخذلان بقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فـ (مَن): استفهام جاء بمعنى النفي؛ لأنه مُشْرَب بمعنى التَّحدِّي، يعني كأن الله يقول: نتحدَّاكم إذا أراد الله خذلانكم أن ينصركم أحدٌ من بعده، حتى لو اجتمعت قوى الأرض كلها على أن تنصركم، والله تعالى لم ينصركم فإنه لا يمكن أن تنتصروا، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟ الجواب: لا أحد.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤)

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (على الله): جار ومجرور مُقدَّم على عامله وهو (يتوكل)، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، أي على الله لا غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، والفاء هنا قال النحويون: إنها زائدة لتحسين اللفظ، ولا يمكن أن تكون عاطفة؛ لأن الواو في قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ تُغني عنها، ولهذا لو قيل: (وعلى الله ليتوكل) صحَّ، فهي زائدة لتحسين اللفظ، ووجه كونها لتحسين اللفظ: أن اللفظ لو جاء (وعلى الله ليتوكل المؤمنون) لم يكن بذاك بلاغة، فإذا قيل: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ أي: فليعتمد، ولكن التوكل على الله عزَّ وجلَّ ليس كالتوكل على الآدمي، التوكل على الله فيه إنابةٌ وخضوع وذل وتفويض واعتمادٌ تام على الله، بخلاف ما إذا توكل الإنسان على شخص وكيل له، فإنه لا شك يعتمد عليه فيما وكله فيه، لكن لا يجد من قلبه أنه مفوِّض تفويضًا تامًّا، فالتوكل على الله عبادة، فلهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: وحده فليتوكل المؤمنون أي: المؤمنون به.

والإيمان بالله إذا أُطلق شمل جميع ما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيَّنها الرسول ﷺ في قوله لجبريل: «الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(1).

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

٢ - وجوب تعلق القلب بالله وحده في طلب الانتصار؛ لقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، إذن يُطلب النصر بناءً على هذه القاعدة من الله عز وجل.

٣ - أن الله إذا قدَّر خذلان أحدٍ فلا ناصر له؛ لقوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٤ - أنه إذا آمن الإنسان بهذا فإنه لابد أن يفعل الأسباب التي يكون بها النصر، ومنها:

الأول: الإخلاص لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. الإخلاص لله في العبادة.

ثانيًا: إقامة الصلاة.

ثالثًا: إيتاء الزكاة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

رابعًا: الأمر بالمعروف.

خامسًا: النهي عن المُنكر.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] يتبين لك أن هذا النصر مُحقَّق؛ لأنه إذا كان الله قويًا عزيزًا فكل من أمامه ضعيفٌ ذليل، ثم تأمل مرة أخرى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] يتبين لك أن القوى الظاهرة المادية مهما عظمت فإن عاقبتها بيد الله عزَّ وجلَّ، هو الذي يجعل العاقبة لمن يشاء والعاقبة للمتقين، وإذا أردت أن تعرف هذا من الناحية التاريخية فانظر ما جرى للأمة الإسلامية في أول عهدها، أسقطت الدول الكبرى العظمى، دولة الروم ودولة الفرس ودولة القبط في مصر، ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، هذا من الناحية التاريخية، ومن الناحية الواقعية زلزلة واحدة في لحظات من رب العرش تُدمر كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يمنع هذه الزلزلة، فلهذا نقول: إن من ضعف الإيمان أن ينظر الإنسان إلى الأمر المادي، ولا ينظر إلى قدرة الله عزَّ وجلَّ وقوته، إذن لابد أن نسلك أسباب النصر، ونحن إذا سلكنا أسباب النصر بإيمان ويقين تحقق لنا.

٥ - التحذير من فعل أسباب الخذلان؛ لقوله: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾. ومن أسباب الخذلان: تولي الكفار ومناصرتهم ومعاضدتهم، فإن هذا من أسباب الخذلان، فالاعتماد يكون على الله عز وجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾.

٦ - وجوب التوكل على الله وحده؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإفراده بالتوكل يؤخذ من تقديم المعمول على عامله؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وهذه قاعدة، حتى للمبتدأ والخبر، فلو قلت: لله ملك السموات والأرض يعني: لا لغيره.

٧ - أن التوكل من مقتضيات الإيمان؛ لأنه علق الحكم على وصف، وهو الإيمان، فدل ذلك على أنه كلما قوي الإيمان قوي التوكل على الله، وكلما ضعُف الإيمان ضعف التوكل على الله.

فإذا قال قائل: هل إفراد الله بالتوكل يُنافي فعل الأسباب؟

فالجواب: لا، بل فعل الأسباب من التوكل على الله؛ لأنك إذا توكَّلت على الله فمن مُقتضيات

التوكل عليه أن تفعل ما أمرك به.

لو قال قائل: أنا سأدخل النار متوكلًا على الله، نقول: هذا غير صحيح، اللهمَّ إلَّا أن يقع ذلك على سبيل التحدي، فيمكن لهذا أن يكون آية من آيات الله، وينصر الله هذا الفاعل لنصرة دينه، ويكون هذا الذي حصل من دخوله في النار كرامة، ولهذا ذُكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لما ناظر رئيس البطائحية الذي جاء يُناظره في مسائل من أصول الدين قال رئيس البطائحية: أنا أصوب منك؛ لأني أنا أستطيع أن أدخل في النار ولا يُصيبني منها شيء، فهل تستطيع أن تدخل في النار ولا يُصيبك شيء؟ قال شيخ الإسلام: نعم، أنا أستطيع بشرط أن أنزل أنا وإياك في هذا النهر، ونغتسل تمامًا ثم ندخل النار؛ وذلك لأن الرجل قد طلى جسمه بشيء يُضاد النار، فيريد أن يُموِّه على الناس بدخول النار، وعلى كل حال أقول: إن فعل الأسباب لا يُنافي التوكل، ولهذا شواهد:

نعلم علم اليقين أن نبينا محمدًا ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك كان يتوقَّى الحرَّ، ويتوقَّى البرد، ويأكل لدفع الجوع، ويشرب لدفع الظمأ، وفي الغزوات كان يلبس الدرع يتوقَّى به السهام، وفي غزوة أُحد لبس درعين، وفي غزوة الخندق لما أحاط الأعداء بالمدينة حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه، ولم يقل نتوكل على الله، والوقائع على هذا كثيرة تدل على أن فعل الأسباب لا يُنافي التوكل، ولكن يجب أن نُلاحظ شرطًا مُهمًّا، وهو أن تكون الأسباب أسبابًا شرعية أو كونية، لا أسبابًا وهمية.

أسباب شرعية يعني: ثبت بالشرع أنها سبب، أو أسباب كونية أي: ثَبت بالتجارب أنها سبب. أما السبب الوهمي كتعليق التمائم غير الشرعية والتطير وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز الاعتماد عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]

التفسير

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ فيها قراءة أخرى (لنبيءٍ) بالهمزة (أن يَغُل) فيها قراءة (يُغَل)، والفرق بين القراءتين في (نبي) و (نبيء) أن قراءة (لنبيء) على وزن فَعِيل من (النبأ) بالهمزة، وهل هو بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول، أو بمعناهما جميعًا؟ الجواب: يشملهما، فإن (النبيء) فعيل بمعنى فاعل؛

لأنه منبِئ، وفَعيل بمعنى مفعول، لأنه مُنبَأ. فالرسول ﷺ مُنبَأ، مُنبِئ، أما على قراءة (لنبي) بالياء، فقيل: إنه مُسهَّل وأن أصله (لنبيء) فسُهِّلت الهمزة إلى ياء، وقيل: بل هو مشتق من (النَّبوَة) وهي الارتفاع، وعلى هذا يكون (لنبي) أصله (لنبيو) لكن لعلَّةٍ تصريفية صارت الواو ياء، فالقاعدة في هذا أن تُجعل الواو ياء، وذلك أنه إذا اجتمعت الواو والياء في كلمة، وسُبقت إحداهما بالسكون قُلبت الواو ياء، إذا قلنا: (لنبيو) فقد اجتمعت الواو والياء في كلمة وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، فصار (لنبي)، هل يمكن أن نقول على هذه القراءة: إنه مُشتق من الوجهين، من النبأ ومن النبوة؟ الجواب: يمكن ذلك بناءً على ما سبق من أن الكلمة في القرآن إذا احتملت معنيين لا يتنافيان تحمل عليهما جميعًا؛ لأن معاني القرآن واسعة.

أما قوله: (أنْ يَغُل) ففيها قراءة: (أن يُغَل) والفرق بينهما ظاهر. (أن يَغُل) مبنية للفاعل، و (أن يُغَل) مبنية للمفعول، أما على وجه (أن يَغُل) فالمعنى أن الله نفى أن النبي ﷺ يَغُل، وغلول النبي يحتمل معنيين، غلول المال، وغلول العلم، فغلول العلم: كتمه، وغلول المال: إخفاؤه وأخذه، وكل هذا مُنتفٍ عن النبي شرعًا، ولم نعلم أنه واقع قَدَرًا، ولا يمكن أن يقع قَدَرًا فيما نعلم، فالنبي لا يمكن أن يكتم ما أنزل الله إليه، ولا يمكن أن يسرق من مال المسلمين.

أما على (أن يُغَل) فمعناه أن النبي يغُلُّه غيره، يعني: ما كان لنبيٍّ أن يُغَل شرعًا، أما قَدَرًا فقد يُغَل كما وقع هذا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

الإعراب: قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ إشكال، وهو أن ﴿يَأْتِ﴾، مجزوم لجواب الشرط، فلماذا صارت مكسورة، وجواب الشرط يكون مجزومًا؟

الجواب: أن الكسرة بقيت قبل الياء دليل على أن المحذوف ياء، إذن يأتي مجزوم على هذا الحال، جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها.

و ﴿يَوْمَ﴾ مفعول فيه، أو منصوب على الظرفية، كلها واحد، متعلِّق بـ ﴿يَأْتِ﴾.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ إذا جاء (ما كان) في القرآن فإن معناها نفي مُحقَّق مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ومثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. الشواهد في هذا كثيرة. يعني أن هذا مُنْتفٍ قطعًا، ولا يمكن أن يكون.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ على هذه القراءة يقول الله: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا

يمكن أن يَغُلُّوا،؛ لأن (نبي) نكرة و (ما) نافية، والنكرة في سياق النفي تُفيد العموم. فالله تعالى ينفي أن يَغُلَّ النبي شرعًا، وقَدَرًا أيضًا؛ لأننا لا نعلم أن الله قدَّر على نبيٍّ الغلول.

أما على قراءة أن (يُغَل)، فإن الله تعالى ينفي شرعًا أن يُغَلَّ النبي، يعني: أن النبي إذا كسب المال فإن ماله للمسلمين جميعًا، وإذا كان للمسلمين جميعًا فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يَغُلَّ منه شيئًا؛ لأنه لو غَلَّ منه شيئًا لكان هذا متعلِّقًا بجميع المسلمين، فإذا أخذت منه شيئًا فقد خُنت جميع المسلمين لا سيما المشتركون في هذه الغنيمة.

ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ هنا عموم، ولم يقل: من يغلُل من الأنبياء، لو فُرِض أن يَغُل. قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ يعني: من أتباع الأنبياء.

﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يأت به يوم القيامة حاملًا له أمام الناس، في هذا الموقف العظيم الذي تشهده الخلائق كلُّها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٢، ٣].

وقوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، هل يأتي بنفس الذي غلَّ أم يأتي بالعقاب المرتَّب عليه؟ نقول: إن ظاهر الآية يدل على أنه يأتي بنفس الذي غلَّ، إن كانت شاة أو بعيرًا أو أي شيء يغُلُّه يأتي به يوم القيامة، وكذا لو غلَّ ثيابًا أتى بها يوم القيامة، لكن هل يأتي بها مُكتسيًا بها؟ الجواب: لا، بل يأتي بها حاملًا لها وهو عارٍ. البعير الذي غلّه وركبه، يأتي به يوم القيامة حاملًا له تعذيبًا له.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن يُبعث الناس يوم القيامة ويأتي كل إنسان بما غل ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

﴿تُوَفَّىٰ﴾: من التوفية، يُقال: وفَّاه حقّه أي: أعطاه إياه.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يشمل حتى الرسل، والمُرسل إليهم ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. كلٌّ يُعطى ما كسب.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، يُحتمل أن يكون المراد بالعموم هنا: كل من كان مُكلفًا؛ لأن غير المُكلَّف لا يُعاقب؛ لأنه مرفوع عنه القلم، وقد يُقال: إنه يشمل حتى غير المُكلَّف؛ لأن التوفية لا يلزم منها عقوبة، فقد يوفَّ حقَّه بالأجر، ومعلوم أن غير المُكلَّف يؤجر، ويُكتب له ولا يُكتب عليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة (حال) من قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، ومعناها العموم.

﴿وَهُمْ﴾ أي الأنفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقصون من الحسنات، ولا يُزادون في السيئات؛ لأن الظلم في الأصل هو النقص، كما قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص، وهو يشمل – أي الظلم – شيئين:

الأول: الزيادة في السيئات.

والثاني: النقص من الحسنات.

وكلاهما ممتنعٌ في حق الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وإنما انتفى الظلم عنه لكمال عدله، لا لعجزه عن الظلم، هو قادرٌ على أن يظلم عزَّ وجلَّ ولكنه لكمال عدله لا يظلم، ولدينا قاعدة في العقيدة وهي: أن جميع الصفات التي نفاها الله عن نفسه لا يُراد بها مُجرد النفي، وإنما يُراد بها إثبات كمال الضد.

فمثلًا: الظلم ضده العدل، فإذا نفى الله عن نفسه الظلم، فالمراد بذلك أنه لكمال عدله لا يظلم، وإنما قلنا ذلك؛ لأن النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبدًا، إذ إن النفي المحض عدمٌ محض، والعدم المحض ليس بشيءٍ فضلًا عن أن يكون كمالًا.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] يعني: من تعب، فالمراد به إثبات القوة يعني: وما مسَّنا من لغوب لكمال قوَّتنا، وهلُمَّ جرًّا.

قال العلماء: النفي قد يكون للعجز عن الشيء، وقد يكون لعدم قابلية الشيء، فإذا قلت: (إن جدارنا لا يظلم) هذا لعدم القابلية؛ لأن الجدار لا يقبل الظلم، ولا العدل.

وإذا قلنا عن رجل ضعيف يضربه الناس ولا يستطيع أن يُدافع عن نفسه، نقول: (هذا الرجل لا يظلم) هذا ذم، ولهذا يقول الشاعر في ذم قبيلة:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

الذي يقرأ البيت هذا يقول: هؤلاء الناس جيِّدون، لا يغدرون بذمة، أي: يوفون بالعهد، ولا يظلمون الناس حبة خردل، يعني: أنهم عاجزون لا يقدرون أن يغدروا بالذمم؛ لأنهم يخافون أن يُعاقبوا، ولا يظلمون الناس؛ لأنهم لا يستطيعون أن يظلموا الناس، ومن ذلك قول الشاعر:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِ فِي شَيءٍ وَإِنْ هَانَا

يعني: هم بعيدون عن الشر وإن كان هيِّنًا.

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

عندما يسمع السامع هذا البيت يظن أنهم في قمة الأخلاق العالية، ولكنه العكس، ولذلك قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا ... شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

(فليت لي بهم): أي ليت لي بدلهم.

إذن فهمنا الآن أن الكلام الأول ذم، أما صفات الله عزَّ وجلَّ إذا وجدت فيها النفي فهي مدح، فإذا وجدت نفي الظلم؛ فلكمال العدل، وإذا وجدت نفي اللغوب؛ فلكمال القوة، وإذا وجدت نفي العِي ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ فلكمال القوة أيضًا، وإذا وَجدت نفي الغفلة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة :٧٤]؛ فلكمال العلم والمراقبة، وهكذا.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز في حقهم كتمان ما أنزل الله عليهم؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

٢ - أنه لا يجوز لأتباع النبي الغلول ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ إذن فأتباعه ليس لهم أن يغُلُّوا، ولهذا كان الغلول من كبائر الذنوب، حتى إن العلماء يقولون: إن الغالَّ يُحرَّق رحله، إلَّا المصحف وما فيه روح والسلاح، وتحريق الرحل من أجل التنكيل به وإلَّا فمن الممكن أن يقول القائل: لماذا تحرقون رحله؟ لماذا لا تضعونه في بيت المال ينتفع المسلمون منه؟

لكن نقول: إن إحراقه خيرٌ من إدخاله لبيت المال، لأجل التنكيل به؛ ليكون ردعًا له ولغيره أن يعود إلى الغلول.

٣ - أن الأنبياء لا يُغلُّون شرعًا، وأن النبي لا يَحل لأحد أن يَغُلَّهُ، أن يَغُل من الغنيمة التي اكتسبها بِحَربِه.

٤ - أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذا على سبيل العقوبة، ولهذا نعرف ضعف قول من قال من السلف: (غُلَّ المصحف لتأتي به يوم القيامة). هذا خطأ؛ لأنه يأتي به يوم القيامة على سبيل العقوبة لا على سبيل الثواب، وربما يأتي به يوم القيامة لا على الوجه الذي غله في الدنيا.

٥ - إثبات البعث؛ لقوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٦ - إثبات قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يأتي الإنسان بما غلّ مع أنه قد فني وزال، وإن كان طعامًا قد أُكل، ولكن الله على كل شيءٍ قدير ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٧ - جزاء كل نفس بما كسبت؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ لا زيادةَ ولا نقص، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن إهداء ثواب القرب لا يُجدي شيئًا؛ لأنه ليس من كسب المُهْدَى إليه، مثاله رجل صلى ركعتين ينويها لفلان أو فلانة، وأن ثوابه إما أن يضيع وإما أن يكون

للعامل، وذلك لأن المهدي للقرب ليس له ثواب إِلَّا الإحسان إلى الغير فقط، أما ثواب العمل المخصوص المُرتب عليه، فإنه إن قيل بصحة إهداء القُرَب يكون للمُهدى له، وإن قلنا بعدم صحته فإنه يذهب هدرًا؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ»[1]. وعلى هذا فيقولون: إن ما جاءت به السُّنة من العمل للغير مستثنى من هذا العموم مثل قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَليه صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّه»[2]، وكذلك الحج وكذلك في الصدقة، كلها جاءت بها السُّنة، ولكن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يرى التعميم، أي: يرى أن الإنسان إذا عمل عملًا ونواه لشخص وهو أهل لأن يُثاب، والأهل لأن يُثاب هو (المسلم) فإنه يصل إليه الثواب، واستدل بعموم قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى».

والحقيقة أنك إذا تأملت الأدلة وجدت أن بعضها بينه وبين الأدلة الأخرى عموم وخصوص من وجه، فبعضها عام في أنه لا ينفع النفسَ إِلَّا ما كسبت، وبعضها عام في أن الإنسان له ما نوى، والقاعدة فيما إذا تعارض نصَّان عامان أحدهما أعم من الآخر من وجه فإنه يطلب المُرجح؛ لأنه لا يمكن أن ترجح عموم أحدهما على الثاني، فهنا سؤال: هل لعموم قوله: «إنما الأعمال بالنيات» ما يُرجحه؟

نقول: نعم، ورد أن الصدقة تُجزئ عن الميت، وأن الحج يُجزئ عن الميت، وأن الصيام يُجزئ عن الميت، إذن فَعُموم قوله: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ خصص بمقتضى السُّنة، والعام إذا خصص ضعفت دلالته على العموم، حتى إن بعض العلماء قال: إن العام إذا خصص سقطت دلالته على العموم؛ لأن تخصيصه يدل على أنه لا يُراد به العام، لكن الصحيح أن العام إذا خُصص بقي على عمومه في غير ما خُصص به، فالصحيح في هذه المسالة أننا نرجح عموم قوله: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»، لكن بشرط أن يكون المنوى له العمل مسلمًا أهلًا لذلك، فلو أن شخصًا تصدق عن أبيه الذي مات وهو لا يُصلي فإن الصدقة لا تصح لأبيه، وهل يشمل قولنا على الراجح أن جميع القرب يصح إهداؤها لمن هو أهل لذلك العمل؟ وهل يشمل النبي ﷺ؟ بمعنى: هل الإنسان إذا أراد أن يهدي للرسول ﷺ قربة من الصلوات أو غيرها يقول: اللهم إن صلاتي هذه التي سأصليها ثوابها لرسول، أو هذه الدراهم التي أتصدق بها ثوابها للرسول ﷺ ؟

نقول: إن هذا فعله بعض العلماء ولكن لم يفعله السلف الصالح، فالصحابة ما أهدوا للرسول ﷺ شيئًا من القُرب، وكذلك التابعون وتابعوهم، وقد ذُكِرَ أن أول ما حدث هذا الأمر في القرن الرابع أي: بعد القرون المُفضَّلة؛ وذلك لأن القرون المُفضلة أعمق علمًا ممن بعدهم، يقول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

أهل القرون الأولى: إننا إذا عملنا أي عمل صالح فإن للنبي ﷺ مثل ثوابنا، وإذا كان كذلك فلا حاجة أن أقول: اللهم اجعل ثوابه للرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ قد استحق الثواب فلا فائدة من ذلك إلَّا أني حرمت نفسي من الأجر.

٨ - إثبات نفي الظلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ويتفرع على هذا - بناءً على القاعدة التي ذكرناها في الصفات - إثبات كمال عدله سبحانه وتعالى.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

الهمزة هنا للاستفهام ويليها حرف عطف، وقد ذكرنا فيما سبق أنه إذا جاءت همزة الاستفهام وبعدها حرف عطف فإن لعلماء النحو في ذلك رأيين:

الرأي الأول: أن الهمزة داخلة على جملة مُقدرة تناسب المقام، والفاء عاطفة على تلك الجملة.

الرأي الثاني: أن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة ولم يحذف شيء، ولكنها مقدمة عن موضعها؛ لأن لها الصدارة، وأن الفاء في مثل قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ محلها في الأصل قبل الهمزة، والتعديل «فأمن اتبع» ولكن لما كان الاستفهام له الصدارة قُدِّمت على حرف العطف، وهذا الرأي أسهل، ووجه سهولته أنه لا يحتاج إلى تكلف تقدير المحذوف؛ لأنه أحيانًا يصعب عليك أن تُقدِّر المحذوف، وربما تُقدِّر محذوفًا ويُقدِّر غيرك غيرَه. إذن نعتمد أن الهمزة للاستفهام، وأن الفاء عاطفة على ما قبلها.

قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ﴾.

(مَن) هنا اسم استفهام أو اسم موصول، التقدير (أفالذي اتَّبع). إذن هي اسم موصول لئلا نجعل أداة الاستفهام داخلة على اسم استفهام أو على جملة استفهامية.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتبع ما يُرضِي الله عزَّ وجلَّ، فكل ما يُرضِي الله يقوم به.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: كالذي باء أي: رجع بسخطٍ من الله، والسخط ضد الرضوان، فمن هو الذي يتعرَّض للرضوان؟ ومن هو الذي يتعرض للسخط؟

المطيع يتعرض للرضوان، والعاصي يتعرض للسخط.

قوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

الواو يحتمل أن تكون للاستئناف، ويكون المُراد بها الإخبار عن مآل هذا الذي باء بسخط من الله، ويحتمل عاطفةً على جملة صلة الموصول، وهي (باء). أي: كمن باء بسخطٍ من الله وكمن مأواه جهنم.

قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مرجعه، يأوي إليه إيواءً لا مغادرة بعده، وجهنم اسمٌ من أسماء النار -أعاذنا الله منها- وسُمِّيت بهذا الاسم المشتق من الجُهْمَة، وهي تتضمَّن السواد واللَّبس؛ لأن جهنم سوداء عميقة بعيدة العمق، وقيل: إن جهنم لفظ مُعرَّب من (كهنَّام) فارسية ثم عُرِّبت إلى (جهنم).

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. (بئس) جملة إنشائية لإفادة الذم، و(نِعم) جملة إنشائية لإفادة المدح، و(بئس) و(نِعم) يحتاجان إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص. كلما جاءت (نِعم) أو (بئس) فإنهما تحتاجان إلى فاعل ومخصوص.

فهنا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والمخصوص محذوفٌ تقديره (وبئس المصير هي) أي: جهنم، أو (وبئس المصير مصيره) فيجوز الوجهان.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان أنه لا يستوي من يتبع رضوان الله، ومن يبوء بسخطه؛ لقوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والاستفهام للنفي.

٢ - إثبات أن الرضا صفة من صفات الله؛ لقوله: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، ومن قاعدة أهل السُّنة والجماعة (أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه فإنه يجب علينا أن نؤمن به ونصف الله به) فنقول: إن لله رضوانًا وأنه يرضى، والرضا صفة فعلٍ؛ لأن الرضا له سبب، وكل صفة من صفات الله لها سبب فإنها من الصفات الفعلية.

وأنكر بعض الناس الصفات الفعلية لله مُتعللين بعلتين:

العلة الأولى: أن صفات الأفعال حادثة، والحوادث لا تقوم إلَّا بحادث؛ لأن حدوث الصفة يدل على حدوث الموصوف، فالحوادث لا تقوم إلَّا بحادث.

العلة الثانية: قالوا: إن كانت هذه الصفة كمالًا لزم أن يكون مُتَّصفًا بها دوامًا، وإن كانت نقصًا لزم أن لا يتَّصف بها دوامًا؛ لأن النقص لا يمكن أن يتصف الله به.

فنقول: إن قولكم إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث غير صحيح؛ لأن الحوادث فعل الفاعل، والفعل عقلًا يتأخر عن الفاعل بلا شك؛ لأن الفعل يكون بإرادة الفاعل وقدرته، وهو متأخر عن وجوده، فالفاعل سابق للمفعول وسابق للفعل أيضًا، فكيف نقول: إن الحادث لا يقوم إلَّا

بحادث؟

الثاني: قولكم: أنها إن كانت هذه الصفة كمالًا وجب أن يتصف بها دوامًا، وإن كانت نقصًا لزم إلَّا يتصف بها دوامًا. الجواب عنه: هي كمالٌ حال فعلها ولا شك، وحال عدمها ليست كمالًا، والكمال في عدمها.

خذ الرضا مثالًا: الرضا على من يستحق الرضا كمال، ولا يستحق الرضا إلَّا بعد فعل ما يوجبه، والرضا عمن لا يستحق نقص يُنافي الحكمة، فإذا اتصف بالرضا فإنه يتصف بها في الحال التي يكون بها كمالًا.

والرضا يُفسِّره الذين يقتصرون على إثبات سبع صفات بأنه الثواب أو إرادة الثواب، والصحيح أن الرضا صفةٌ حقيقية ثابتة لله عزَّ وجلَّ، وليست هي الثواب؛ لأن الإثابة خَلْقُ ما يُثَابُ به غير الرضا، وهي -أي الإثابة- من مُقتضيات الرضا وآثاره، وليست هي الرضا بلا شك.

وعليه فلا يصح أن نُفسِّر الملزوم باللازم؛ لأنهما شيئان متباينان، فحينئذٍ يتبيَّن أن الصواب ما ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة - جعلنا الله منهم -.

٣ - إثبات السخط لله؛ لقوله، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والسخط والغضب معناهما متقارب، وأهل السُّنة يقولون: إن السخط صفةٌ حقيقية ثابتة لله عزَّ وجلَّ، وأهل البدع يقولون: لا يمكن أن يسخط الله عزَّ وجلَّ، بل المراد بالسخط الانتقام أو إرادة الانتقام. فيقولون: إن سخطه ليس وصفًا في نفسه، بل معناه انتقم وعاقب المسخوط عليه أو أراد أن ينتقم منه، وهذا بناءً على أن صفات الأفعال لا تقوم بالله، والتعليل هو ما سبق، ونحن نقول: إن الانتقام من آثار السخط، وإرادة الانتقام أيضًا من آثار السخط، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥]. ﴿ءَاسَفُونَا﴾ بمعنى: أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فجعل الانتقام بعد وجود الغضب، وهذا يدل على أن هذا ليس هو ذاك.

٤ - التحذير من التعرض لسخط الله؛ لقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ - إثبات النار؛ لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ وهي ثابتة الآن وموجودة، ولا تفنى أبدًا؛ لأن الله ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع من كلامه: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن، فقال في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩]، وقال في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٥]، وقال في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] ولا قول بعد قول الله عزَّ وجل؛

لأن قوله أصدق الكلام وأبين الكلام، وهو الخالق عزّ وجل.

٦ - ذم النار والثناء عليها بالقدح؛ لقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٧ - التنبيه لأمرٍ يتكلم فيه الناس كثيرًا الآن، يقولون: إذا مات الرجل فإنه يرجع إلى مثواه الأخير، وهذا لو أخذنا بظاهره، لكان يتضمَّن إنكار البعث، مع أن القبر ليس المثوى الأخير، وإنما المثوى الأخير الآخرة، الجنة أو النار، والقبر مزار.

سمع أعرابيٌ رجلًا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢] فقال: والله إن الزائر ليس بمُقيم، فَهِمَ هذا من قوله: ﴿زُرْتُمُ﴾ وهذا مفهوم فهمًا فطريًا لا يحتاج إلى دراسة، وهذا كالذي سمع قارئًا يقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم). قال: الأعرابي: اقرأ الآية صوابًا، فقال: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم). قال: اقرأها صوابًا ما هكذا، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. قال: الآن عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع، ولهذا قال في الذين يُحاربون الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤]. قال العلماء: في هذا دليل على أنهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم خُلِّيَ سبيلهم، يعني: أن الله قد غفر لهم ورحمهم، فمن أين أخذ أن الله قد غفر لهم ورحمهم؟ الجواب: من ختم الآية: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن مقتضى علمنا بهذا أن نفهم أن الله قد غفر لهم ورحمهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿هُمْ﴾ يعود الضمير على من اتبع رضوان الله وعلى من باء بسخط من الله، ولكن هنا يشكل علينا أنه أعاد الضمير بصيغة الجمع (هم) مع أن (مَن) وصِلَتها بصيغة الإفراد (أفمن اتَّبع ... كمن باء).

والجواب عن ذلك: أن الاسم الموصول يُفيد العموم، فيجوز أن يعود الضمير إليه باعتبار لفظه، ويجوز أن يعود عليه باعتبار معناه، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٣]؟ لم يقل: (هو المتَّقي) بل قال: (هم المتقون)، فأعاد الضمير على معنى اسم الموصول وهو الجمع.

قال: ﴿هُمْ﴾ أي: الذين اتَّبعوا رضوان الله، والذين باءوا بسخطٍ من الله، ﴿دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: منازل عند الله، يختلفون، فكل من كان أتبعَ لرضا الله كان أرفع عند الله، وكل من كان أبعد من الله كان أنزل، فالمراد: أنهم درجات عند الله، أي في المراتب، وميزان هذه الدرجات أن كل من كان أتبع لرضا الله كان أرفع درجات عند الله، والعكس بالعكس. والدرجات إذا جاءت عامة دخل فيها المؤمن وغير المؤمن كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] أما إذا خُصت بأهل النار فإنه يُقال: دركات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

(بصير): اسم فاعل، يجوز أن يكون من الإبصار بالعين، ويجوز أن يكون من الإبصار بالعلم، فيكون (بصير) بمعنى: عليم، أو (بصير) بمعنى: راءٍ. وهل لله بصرٌ؟

الجواب: نعم، قال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحات وَجْهِهِ مَا انتهى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١).

وقوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي يعملونه من ظاهر وباطن، وخير وشر.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الناس عند الله منازل مُختلفة، ويتفرَّع عن هذه الفائدة: أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأن زيادة الدرجات بعد زيادة الإيمان باليقين والعمل الصالح، وهل هي زيادة اليقين أم زيادة الأقوال أم زيادة الأفعال أم الجميع؟ الجواب: الجميع، فاليقين يتفاضل، والأقوال تتفاضل، ليس من قال: لا إله إلَّا الله عشرًا كمن قالها عشرين مثلًا، والأفعال كذلك تتفاضل، ليس من صلى ستَّ ركعات كمن صلى عشر ركعات، وهذا ما جرى عليه أهل السُّنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد باليقين والقول والفعل، كيف يزيد باليقين؟ هل اليقين يتفاضل؟ الجواب: نعم يتفاضل بنص القرآن. قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لربه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] هذا دليل من القرآن، والدليل من الواقع هو أن الإنسان كلما كثر المُخبرون بالخبر ازداد يقينًا، وإذا شاهد ازداد أكثر، ولهذا جاء في الحديث: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١). أما زيادة الأقوال والأفعال فهذا شيءٌ واضح ولا إشكال فيه.

٢ - إثبات العلو لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ والعندية تعني: عندية المكان، وإذا كانوا درجات فالدرجات ترتفع شيئًا فشيئًا، فيؤخذ منها إثبات علو الله، فهذا أمر مُتفقٌ عليه، ومُجمع عليه بين السلف، وقد دلَّت عليه الأدلة الخمسة كلها: الكتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفطرة، يعني: علو الله عزَّ وجلَّ دلَّت عليه هذه الأدلة الخمسة: الكتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفطرة.

الكتاب والسُّنة مملوءان من ذلك، والإجماع، يقول شيخ الإسلام: والله يعلم أني بعد البحث التام، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ما رأيت أحدًا منهم قال: إن الله ليس في السماء. وأما العقل فقد دلَّ على علو الله. كيف دلَّ؟ لا شك أن العلو (علو المكان) كعلو المكانة، أي: أنه كمال، وإذا كان كذلك فلله كل صفة كمال. أما الفطرة فإن كل إنسان لم يقرأ كتب أهل البدع يتجه قلبه إذا ذُكر الله إلى العلو، ولهذا يُقال: إن أبا المعالي الجويني كان يُقرر في العلو ويقول: إن الله تعالى كان ولم يكن شيءٌ قبله، وهو الآن على ما كان عليه.

وهذا الكلام قد لا يفهمه الإنسان، لكنه يُريد أن يُنكر استواء الله على العرش، فقال له الهمذاني رحمه الله: يا شيخ دعني من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها الإنسان، فما قال عارف قط (يا الله) إلَّا وجد من قلبه ضرورة طلب العلو؟. فجعل يضرب على رأسه، ويقول: حيَّرني الهمذاني، حيَّرني الهمذاني. فلم يجد له جوابًا.

إذن نقول: علو الله ثابت بالأدلة الخمسة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يُكرِّر هذا المعنى في النونية كثيرًا؛ لأنه من أعلى صفات الكمال.

٣ - إثبات إحاطة الله عزَّ وجلَّ بما نعمل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، ويترتب على هذا، الأدب السلوكي، وهو أن نحذر من مخالفته؛ لأننا إذا كنا نعلم أنه بصير بما نعمل،فسوف نتجنَّب كل ما يُسخطه جل وعلا، ونأتي بكل ما يُرضيه، لاسيما وأن الآية جاءت بعد قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٧٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

❁ التفسير ❁

لقد ذكرنا فيما سبق ضوابط عامة في القراءات وهي:

أولًا: ضمير (هُوَ) و(هِي) الأول بضم الهاء، والثاني بكسر الهاء عند جمهور القراء مُطلقًا، وسكَّن الهاء فيهما الكسائي وقالون وأبو عمرو بعد الواو والفاء واللام مثل: (وهْو، وهْي، فهْو، فهْي، لَهْي، لَهْو). فإذا جاءت في القرآن فلك أن تُسكِّنها أو تضُمها، وسكَّنها الكسائي وقالون في قوله: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] في هذا الموضع فقط، لأنها وقعت بعد (ثم).

ثانيًا: ضمير (عليهِم، إليهِم، ولديهِم) مكسور الهاء، وقرأه حمزة بضم الهاء في كل القرآن (غير المغضوب عليهُم، إليهُم، لديهُم).

ثالثًا: ميم الجمع في مثل (عليهم) ساكنة إذا وقع بعدها متحرِّك غير ضمير، وضَمَّها موصولًا ابن كثير، فيقرأ (عليهِمُو)، وضمَّه موصولًا ورش إن وقع بعد همزة قطع، فيقرأ «عَلَيْهِمُو أأنذرتهم». وإن وقع بعده ساكن فهو مضموم بدون وصل عند جميع القراء، مثل: (آتيناهمُ الكتاب) وإن وقع بعد ضمير ضُم موصولًا للجميع مثل: (أَنُلْزِمُكُمُوهَا)، فلا يصح أن تقول: أنلزمكمُهَا، لابد من الواو.

ويُستثنى من ذلك ميم الجمع إذا وقعت بعد (هاء) قبلها كسر أو ياء وبعده ساكن؛ ففيه في حال الوصل ثلاث قراءات: ضم الهاء والميم وهي لحمزة والكسائي، وكسرهما وهي لأبي عمرو، وكسر الهاء وضم الميم وهي للباقين، وأما حال الوقف فكلهم كسر الهاء وسكَّنوا الميم مثل: ﴿بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

رابعًا: إذا لم يقع بعد هاء الضمير ساكن، وكان قبله متحرك فهو موصول عند جميع القراء، مثل: ﴿أَمَاتَهُ﴾ [عبس: ٢١]، وإن وقع بعده ساكن، فهو غير موصول عند الجميع مثل: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإن كان ما قبله ساكن فهو موصول عند ابن كثير وحده مثل: (اجتباه -- عقلوه – عليْهِ) ووافقه حفص في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]:

(لقد): كلما وجدت في القرآن (لقد) فإنها جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المُقدَّر، واللام، وقد. وتقدير الكلام: (والله لقد منَّ الله على المؤمنين).

فإن قال قائل: القسم إنما يُقال للشاك أو المنكر، فلماذا أقسم الله في هذه الآية على أنه مانٌّ على المؤمنين ببعث محمد ﷺ، مع كون الأمر ظاهرًا، ولم يقل: لقد منَّ الله على الناس، بل قال على المؤمنين الذين يعرفون أن ذلك مِنَّةٌ؟.

فالجواب: أن الداعي للقسم ليس هو الإنكار أو الشك من المخاطب، بل قد يكون الداعي للقسم أهميَّة المُقسم عليه، وإن لم يكن هناك شك، وهذه الآية من هذا النوع؛ فالمقصود بذلك بيان أهمية هذه المنَّة العظيمة التي لا يُعادلها شيء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] فأكد مع أن الموت مُحقَّق، ولكن يُقال: لَمَّا كان بعض الناس غافلًا كأنه لن يموت، أُكِّد.

قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: على المؤمنين خاصة دون غيرهم؛ لأن الكفار لم يعرفوا هذه المِنَّة ولم يرفعوا بها رأسًا، ولم يروا في مخالفتها بأسًا، فتركوها وأعرضوا عنها، وحُرموا خيرها، أما المؤمنون فهم الذين تبيَّنت لهم هذه المِنَّة واستمسكوا بها.

وقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ﴾ هذه إما أن تكون ظرفًا لـ (مَنَّ)، وإما أن تكون للتعليل، أي: لأنه بعث، وكلاهما لا يتنافيان، فهي بيان لمحل المِنَّة، وهي البعثة، وهي كذلك تعليل للمنَّة.

وقوله: (بعث) أصل البعث الإنشاء، وسُمِّيت الرسالة بعثًا؛ لأنها إخراج للناس من حالٍ إلى حال، فكأنهم بُعثوا خلقًا جديدًا، وأُنشئوا خلقًا جديدًا.

وقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾.

(في): للظرفية؛ لأن النبي ﷺ بُعِث في (سِطَة) المؤمنين، وكان هو عليه الصلاة والسلام أشرف من بُعث فيهم نسبًا.

وقوله: ﴿رَسُولًا﴾ أي: مُرسلًا من عند الله.

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. أي: من جنسهم، وفي سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ١، ٢]؛ لأن النبي ﷺ من الأميين، وأما عامة الناس فليس منهم، ولكن من أنفسهم أي: من جنسهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. ومعنى «من

أنفسهم» أي: من جنسهم، ولا شك أن كونه من جنسنا أتم في النعمة؛ لأنه لو كان من الملائكة ما أَلِفَه الناس، ولا ركنوا إليه، وربما لا يقبلون منه، فإذا كان من جنسهم يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وينام كما ينامون، ويكون معهم في أسواقهم وفي بيوتهم، كان ذلك أبلغ في المِنَّة.

وقوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جملة (يتلو) صفة ثانية لـ (رسولًا) أي: رسولًا من أنفسهم تاليًا عليهم آياته.

والتلاوة هنا تشمل التلاوة لفظًا، والتلاوة معنىً، والتلاوة حُكمًا؛ فالتلاوة لفظًا: أن يقرأ الكتاب بينهم، والتلاوة معنىً أن يُعلِّمهم معانيه، والتلاوة حُكمًا أن يعمل بأحكامه عليه الصلاة والسلام. ولا شك أن هذه الثلاثة كلها تحتملها كلمة (يتلو)؛ فهو عليه الصلاة والسلام يتلوه لفظًا ويتلوه معنىً. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ويتلوه عليهم كذلك حُكمًا. قالت عائشة: (كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، يتأول القرآن)[1] يعني: يُطبقه.

﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل هي الآيات الكونية أو الشرعية؟ الظاهر أن المُراد: آياته الشرعية، وهي: الوحي الذي أنزله على رسوله ﷺ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطهِّرهم حسًّا ومعنىً. أما الطهارة حسًّا فقد أمرهم بالوضوء عند الصلاة، وأمرهم بالغسل من الجنابة، وأمرهم بإزالة النجاسة، بل حثَّ على النظافة عمومًا. وأما التزكية معنىً فهي أنه طهّر قلوبهم من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق، وهذّب أخلاقهم عليه الصلاة والسلام، حتى زكى نفوسهم وأخلاقهم.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ليست تكرارًا مع قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لأن الأول تلاوة والثاني تعليم، والتعليم أخص من التلاوة؛ لأن الإنسان إذا تلا عندك القرآن لا يُعد مُعلمًا لك يُعلمك. إنما يكون مُعلمًا إذا أقرأك إياه ولقنك إياه.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يُعلمهم الكتاب، والتعليم هنا شاملٌ لتعليم اللفظ، وتعليم المعنى، وتعليم الحكم، أي: العمل به.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوب، فهو فِعَالٌ بمعنى مفعول، وقد تكرَّر علينا كثيرًا أن فِعَال تأتي بمعنى مفعول، ومن أمثلته: فِراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني؛ فالقرآن كتاب، يعني: مكتوب؛ كُتب في اللوح المحفوظ، وفي الكتب التي بأيدي السفرة، والكتب التي بأيدينا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨١٧) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٨٤).

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالكتاب هنا: الكتابة؛ لأن العرب كانوا أميين، فلما نزل هذا الكتاب العظيم تعلموا الكتاب؛ فصاروا يكتبونه للرسول ﷺ ثم صاروا يكتبون بعض الأحاديث، ثم انتشرت الكتابة فيهم.

ومعلوم أن من جملة الفداء الذي أُخذ من أسرى بدر أن يُعلِّموا صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة.

وأيّد هذا القائل قوله بأن تعليمهم الكتاب مُستفاد من قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ولكن في هذا نظر؛ وإن كنا لا نمنع أن يكون المُراد بالكتاب هنا الكتابة والقرآن جميعًا؛ لأن القاعدة عندنا في التفسير: أنه متى احتملت الكلمة معنيين فأكثر، ولا منافاة بينهما، فإن الواجب حملُها عليهما؛ لأن كتاب الله عزَّ وجلَّ واسع المعنى. فعلى هذا يكون المُراد بالكتاب: القرآن والكتابة.

وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال بعض العلماء: أي السُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وقيل: المراد بالحكمة أنه علّمهم كيف يضعون الأشياء مواضعها؛ لأن الشريعة الإسلامية تُعلّم الإنسان كيف يضع الشيء في موضعه.

وأيضًا علّمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع؛ لأن الشرع كما نعلم أحكام وحِكَم، فالأحكام ظاهرة. والحِكَم هي الأسرار والمعاني التي تُناط بها هذه الأحكام، والإنسان إذا عرف هذه الحكم والأسرار، تبين له أن الشريعة ليست لهوًا ولا لعبًا، وأن الشريعة ذات معانٍ سامية، لا يُدركها إلَّا من فتح الله عليه.

ويمكن أن نقول: إن الحكمة تشمل هذا وهذا؛ أي: علّمهم السُّنة التي يطلق عليها الحكمة، وعلّمهم وضع الأشياء مواضعَها، وأسرار الشريعة وحِكَمها ليزدادوا بصيرة في دين الله.

قال: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

«إنْ» تأتي في اللغة العربية لعدة معانٍ، والسياق هو الذي يُعين المعنى.

فتأتي (إنْ) شرطية، ومثالها ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وتأتي (إنْ) نافية؛ وعلامة «إن» النافية أن تأتي بعدها (إلَّا) ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وتأتي مخففة من الثقيلة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذه (إن) المُخففة من الثقيلة، وأصلها (وإنهم كانوا من قبل) وعلامة (إن) المخففة من الثقيلة: أن تأتي اللام في خبرها؛ فإذا أتت بعدها اللام فهي المخففة من الثقيلة، ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى﴾.

قال ابن مالك:

وخففت (إن) فقل العمل وتلزم اللام إذ ما تهمل

وتأتي (إنْ) زائدة:

بنـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ ... ولا صَـرِيفٌ وَلكـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

أي: (ما أنتم ذهب).

والتي في الآية الكريمة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (إن) المخففة من الثقيلة وعلاقتها أن تأتي اللام في خبرها أو في اسمها إن تأخر، بمعنى أن تأتي بعدها اللام، وأين اسمها؟ قيل: إنه محذوف مُقدر باسم ظاهر، والتقدير: (وإن الشأن كانوا من قبل في ضلال مُبين).

وقال بعضهم: بل هو محذوف مقدر بضمير مناسب. وهذا هو الصحيح؛ فإذا كان الخبر جمعًا كان الضمير المُقدر جمعًا. وعلى هذا يكون التقدير هنا: (إنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين)؛ فيقدر ضمير الشأن بما يناسب المقام، (وإن كانوا) الضمير يعود على المؤمنين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعث هذا الرسول ﷺ.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: «في» للظرفية، يعني: أن الضلال مُحيط بهم، كإحاطة الظرف بمظروفه.

﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: بيِّن.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ نقول (مِن) حرف جر، و(قبلُ) هنا غير مجرورة، بل هي مبنية؛ والمبني لا تظهر عليه علامة الإعراب كما في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، ولم يقل: (من حيثِ) وهنا قال: (من قبلُ)، ولم يقل (من قبلِ)، ولكن في بعض الأحيان تُجر (قبل)، فيُقال: (من قبلِهم) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وإنما تُبنى على الضم إذا حُذف المضاف إليه ونُوِيَ معناه، وهذا كلام النحويين.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - عظيم منَّة الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين ببعث النبي ﷺ، وذلك لتأكيد هذه المنَّة بالقسم.

٢ - أن المنة ببعث الرسول ﷺ إنما كانت على المؤمنين؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بها لقوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ - أن من لم يعترف بالمنة فهو كالمسلوب منها، أو هو كالمسلوبة منه؛ لأنه خصَّ المنة بالمؤمنين.

٤ - وجوب شكر نعمة الله على مَن مَنَّ الله عليه بالإيمان؛ لقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ لأن المراد بهذا الخبر هو: شكر نعمة الله تعالى على هذه المنة، وأن لا يتعاظم الإنسان في نفسه.

٥ - الرد على الأعراب الذين منّوا بإيمانهم وإسلامهم على الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات: ١٧].

٦ - اللجوء إلى الله تعالى بأن يثبتك على الإيمان؛ لأنه إذا كان هو المانُّ به فهو الذي يملك ثبوته وزواله؛ فارجع إليه.

٧ - فضيلة الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث كان مبعوثًا من قِبَلِ الله، والرسول يَشْرُف ويَعْظُم بحسب مَنْ أرسله، ولهذا يفرق الناس بين رسول السلطان ورسول الرجل العادي، فرسول السلطان يرونه أعظم من رسول الرجل العادي.

٨ - ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٩ - إثبات منّة الله تعالى بكون الرسول من جنسنا؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. ويتفرع على هذه الفائدة:

الردّ على أولئك السفهاء المعاندين الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]؛ لأنه لا يمكن أن يعيش الملك بين البشر، ولا يمكن أيضًا للبشر أن يتقبلوا منه كما يتقبلون ممن كان من جنسهم.

١٠- الثناء العظيم على رسول الله ﷺ حيث كان يتلو عليهم آيات الله ويُزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة.

١١- حرص النبي ﷺ على إبلاغ الرسالة، حيث كان يتلو عليهم آيات الله ويُعلمهم الكتاب والحكمة.

١٢- أن القرآن مُعجز؛ لقوله: (آيات)؛ لأن الآيات بمعنى العلامات، والعلامة على الشيء هي المُعَيِّنَة له، والتي لا تصلح لغيره، فهي آية لله لا تصلح لغيره.

١٣- جواز إضافة الشيء إلى سببه ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، مع أن الله قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، لكنه ﷺ سبب للتزكية. ففي الآية جواز إضافة الشيء إلى سببه، ولكن بشرط أن يكون معلومًا أنه سبب إما عن طريق الشرع، أو عن طريق العقل أو الحس.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

❀ التفسير ❀

قوله: ﴿أَوَلَمَّآ﴾ الهمزة هنا تلاها حرف عطف، وقد مرَّ علينا كثيرًا أن الهمزة إذا وليها حرف عطف، فلعلماء النحو في ذلك قولان:

أحدهما: أن العطف على شيء مُقدر يُناسب المقام.

والثاني: أن العطف على ما سبق. وعلى هذا الوجه تكون الهمزة مُقدمة عن موضعها، وموضعها بعد حرف العطف، وهذا أسهل على المُعرب؛ لأنه لا يحتاج إلى تكلف المُقدر، وأحيانًا قد يصعب على الإنسان أن يُقدر شيئًا مُناسبًا.

وقوله: ﴿لَمَّا﴾: شرطية؛ ودليل كونها شرطية أنها تحملت فعل الشرط وجوابه؛ فعل الشرط في قوله: ﴿أَصَبَتْكُم﴾ وجوابه في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾.

(ولمّا) تأتي على عدة وجوه: فتأتي بمعنى (إلا) وتأتي بمعنى (حين) وتأتي بمعنى (لم) وتأتي شرطية؛ ففي قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بمعنى: إلَّا، وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨] بمعنى: لم، وإن كان بين «لم» و «لما» فروق لكن هي هنا بمعنى «لم» النافية. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس: ٩٨] قال بعض العلماء: (لما) هنا بمعنى حين. فهذه وجوه أربعة لـ «لمَّا» الواردة في كتاب الله عز وجل.

وقوله: ﴿أَصَبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾: أصابتكم يعني: حلَّت بكم مصيبة قد أصبتم مثليها، أي: حلَّ بكم مثلاها. وهذه المصيبة هي: ما حلَّ بهم في أُحد؛ فإنه قُتِلَ منهم سبعون رجلًا، وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله وعم النبي ﷺ: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يشير سبحانه وتعالى إلى ما حصل في يوم بدر؛ حيث قُتل سبعون رجلًا من المشركين، وأُسر منهم سبعون رجلًا، فسبعون مع سبعين ضعفان؛ ولهذا قال: ﴿أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، وأما قول من قال: إن في الآية إشارة إلى موقعة الأحزاب، وأن النصر سيكون للمسلمين فإنه غير صحيح؛ أولًا: لأنه خلاف الظاهر حيث قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ وهذا فعل ماضٍ، ولم يقل: قد تصيبون. والشيء الثاني: أنهم في غزوة الأحزاب لم يصيبوا مثليها في الواقع؛ لأن غزوة الأحزاب لم يحصل فيها إلَّا قتل يسير جدًّا، وانتصارهم في الأحزاب كان بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود.

فإن قال قائل: كيف قال: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ مع أن المقتول سبعون، والمأسور سبعون، والأسر ليس كالقتل؟

قلنا: إن الأسر يحصل به من الإذلال مثل ما يحصل بالقتل، وربما يكون أكثر؛ لأن المقتول يُقتل ويستريح، ولكن المأسور يُستَذَل، ولهذا يُخيَّرُ الإمام في المأسورين بين أربعة أمور: الفداء بمال أو بأسير مسلم، أو الرق، أو القتل، أو المنّ بدون شيء قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فالحاصل أن الأسر في الإذلال كالقتل إن لم يكن أشد منه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: قلتم جواب «لمَّا» أي: إذا أصابتكم مصيبة

قلتم: كيف أصابنا هذا؟! وكيف تأتينا الهزيمة ونحن جنود الله، ومع رسول الله ﷺ؟!

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ (أنّى) هذه الاستفهامية، وتأتي شرطية؛ ففي قولك: أنى تقم أقم، هذه شرطية.

وفي مثل هذه الآية استفهامية، وهذا الاستفهام للتعجب، ولا أظن أن يكون للإنكار؛ لأن الصحابة ﵃ لا يُنكرون من قدر الله شيئًا، ولكنهم يتعجبون: كيف يُصيبنا هذا، ونحن جُند الله، ومع رسول الله؟! قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وهنا أمَرَ الله نبيَّه أن يقول ولم يقل عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، بل أمر نبيه أن يُبلغهم. وهذا الأمر للتبليغ الخاص، وقد قلنا: إن القرآن كلَّه قد أُمر رسول الله ﷺ أن يُبلغه جميعًا للناس.

وتوجد بعض الأحكام والأخبار التي يؤمر بها النبي ﷺ ليبلغها تبليغًا خاصًّا، أي: قل لهؤلاء الذين قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾: ﴿هُوَ﴾ أي: ما أصابكم ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم، (ومِنْ) هنا للسببية؛ أي: فأنتم السبب.

والسبب الذي يظهر لنا هو ما حصل من النزاع والمعصية للنبي عليه الصلاة والسلام؛ حيث أمرهم أن يبقوا في المكان الذي عيَّنه لهم، سواء كانت الغلبة للمسلمين، أو كانت الغلبة للكافرين، ولكنهم ﵃، وعفا عنهم، لما رأوا المشركين قد انهزموا، ورأوا أن المسلمين بدأوا يجمعون الغنائم، ظنوا أن الحرب قد انتهت، فنزلوا من المكان الذي عيَّنه النبي ﷺ، وحصل ما حصل؛ فإن الفرسان من المشركين لما رأوا الثغر الذي يحمي المسلمين من ورائهم خاليًا، كروا من وراء المسلمين واختلطوا بهم، وحصل ما أراد الله عزّ وجل. هذا معنى قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وخَتمُ الآية بهذه الجملة في غاية ما يكون من المناسبة؛ فهو قدير على أن ينتصر من هؤلاء المشركين، ولكنه لم يفعل ذلك لحكمة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] لأن الله لو شاء لأماتهم، أو خسف بهم، أو أنزل عليهم صواعق، أو ما أشبه ذلك ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «كل شيء» عامة تشمل ما كان موجودًا؛ فهو قادر على إعدامه، وما كان معدومًا؛ فهو قادر على إيجاده، ولا استثناء في هذا العموم. وأما قول بعض المفسرين رحمهم اله في سورة المائدة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]: وخصّ العقل ذاته فليس عليه بقادر؛ فهذا تخصيص في غير محله.

أولًا: لأن العقل ليس له تدخل في صفات الله عزّ وجل.

وثانيًا: نقول: ما تريد بقولك: وخص العقل ذاته؟ هل تريد أن الله سبحانه وتعالى لا يقدر أن يفعل، لا يقدر أن ينزل، لا يقدر أن يستوي، لا يقدر أن يأتي يوم القيامة للفصل بين عباده؟ أم ماذا تريد؟

إن أردت هذا، فهذا خطأ؛ فالله قادر على أن يفعل، على أن يستوي على العرش، على أن ينزل إلى السماء الدنيا، على أن يأتي للفصل بين عباده، كما صحَّ بذلك النقل.

أم تريد بقولك: خصَّ العقل ذاته، أنه لا يقدر على أن يفعل بنفسه ما لا يليق به؛ كالموت مثلًا؟ إن أردت ذلك فهذا خطأ منك أيضًا؛ وذلك لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات، أما المستحيلات فهي مستحيلة غير واقعة؛ هل يمكن أن نقول: إن الشيء يكون متحركًا ساكنًا في آنٍ واحد؟ لا يمكن؛ لأن هذا لا تتعلق به القدرة أصلًا، والله عزَّ وجلَّ لا يمكن أن يتصف بالنقص، ولله المثل الأعلى، فكونك تفرض أن الله تعالى يمكن أن يتصف بالنقص، ولكنه غير قادر عليه، فهذا خطأ عظيم. فنقول: هذا أصلًا غير وارد على القدرة، كما قال السفاريني رحمه الله: [**«بقدرة تعلقت بممكن»**].

فالشيء المستحيل مستحيل، لا تتعلق به القدرة أصلًا؛ لأنه إذا كان الشيء ساكنًا لا يمكن أن يكون مُتحركًا، وإذا كان مُتحركًا لا يمكن أن يكون ساكنًا، والله قادر على كل شيء، لكن إذا قدر أن يجعله مُتحركًا صار غير ساكن، وإذا قدر أن يكون ساكنًا صار غير متحرك، فهذا أصلًا لا يرد على العقل، فإذن نقول: إن الله على كل شيء قدير عمومًا مُطلقًا لا استثناء فيه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله وبَّخ الذين قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، ويتفرع على هذا جواز توبيخ من كان كامل الإيمان إذا فعل ما يستحق التوبيخ عليه؛ يعني أننا لا نقول: إن كمال إيمانه يمنع أن نوبخه إذا فعل ما يقتضي التوبيخ.

٢ - من المُستحسن أن يُذَكَّر الإنسان بما يهون المُصيبة عليه؛ لقوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

٣ - أنه ينبغي لمن أجاب غيره أن يجيبه بما يمنع احتجاجه؛ لقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم السبب.

٤ - إثبات الأسباب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

٥ - منَّة الله على الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الله قد جعل على أيديهم مُصيبة أكبر مما أصابهم، بل هي مِثْلَا ما أصابهم في قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

٦ - إثبات اسم القدير من أسماء الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. والقدرة صفة يتصف بها القادر، تمنعه من وصف العجز. وذكرنا فيما سبق ما تستلزم.

٧ - أنه ينبغي إذا وصفنا الله بالقدرة أن نصفه كما وصف نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، خلافًا لِمَن قال: إن الله على ما يشاء قدير؛ لأنه إذا قال: إن الله على ما يشاء قدير، فقد يكون مفهوم العبارة: أن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه. والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لم يشأ.

وأيضًا إذا قلنا: «إنه على ما يشاء قدير» فإنه يدخل علينا مذهب القدرية الذين قالوا: إن الله لا يشاء أفعال العباد، فإذا كان لا يشاء أفعال العباد، وقلنا: إنه لا يقدر إلَّا على ما يشاء، لزم أن لا يكون قادرًا على أفعال العباد.

ثالثًا: أننا إذا قلنا: على ما يشاء قدير، فقد خرجنا عما وصف الله به نفسه؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قصة الرجل الذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه يكون آخر أهل الجنة دخولًا، وأن الله يقول له: إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ[1]؟

فالجواب عن ذلك: أن هذا حديث عن مسألة وقعت، فإذا وقع شيء من الأشياء وكان الإنسان يستغرب وقوع هذا الشيء فقال: كيف يقع هذا الشيء؟ فنقول له: «إن الله على ما يشاء قادر» يعني: أن الله لَمَّا شاءه وقع.

أما إذا أردنا أن نصف الله بالوصف المُطلق غير المُقيد بفعل فإن الأولى أن نقول: «إن الله على كل شيءٍ قدير».

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧]

قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ (ما) هذه شرطية، ودليل أنها شرطية أنه وجد في الجملة فعل شرط وجوابه. فعل الشرط قوله: ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾ وجوابه قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه جملة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

اسمية، وتقدير الكلام: فهو بإذن الله.

قال: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ يعني بالتقاء الجمعين: التقاؤهما يوم أُحد، فإنه لما التقى الجمعان، وصارت النهاية أن هُزِمَ المسلمون واستشهد منهم سبعون رجلًا، وهذه تُعتبر نكبة أمام الكُفار؛ لأن الكفار سيكون لهم في هذا الحال سيطرة وعلو واستكبار كما وقع؛ فإن أبا سفيان قال في ذلك اليوم: (أُعْلُ هُبل) فافتخر بعلو صنمه على المسلمين الذين يعبدون الله. وهذا الذي حصل يوم التقى الجمعان يقول الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾. بإذن الله القدري؛ لأن الله هو الذي قدّره، وإِذْنُ الله ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني.

فما تعلق بالتكوين والخلق فهو: إذن كوني؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠]، وما تعلق بالشرع فهو: إذن شرعي، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١] أي: إذن شرعي.

فإن قال قائل: فما الفرق بينهما؟

فالجواب: أن الفرق بينهما:

أولًا: أن الإذن الشرعي يكون فيما يحبه الله، والإذن الكوني يكون فيما يحبه وما لا يحبه.

ثانيًا: أن الإذن الكوني يقع فيه المأذون به، والإذن الشرعي قد يقع وقد لا يقع.

وقوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فهو كائن بإذن الله؛ والباء للسببية، ولذلك صحَّ أن يعطف عليه قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ اللام للتعليل، ولا يجوز أن تسكن اللام، فنقول: «وَلْيَعْلم» لأن التي تسكن بعد حروف العطف هي لام الأمر، أما لام التعليل فهي مكسورة دائمًا.

وقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني: الذين صدقوا الله في إيمانهم، وقالوا فيما أصابهم: إنه بقدر الله، ورضوا به، وتابوا إلى الله من أسبابه، وهي المعاصي والتنازع.

والعلم هنا علم ظهور وليس علم إدراك أي: وليعلمه بعد ظهوره، أما علمه قبل ظهوره فهو ثابت لله عزّ وجل؛ لأن الله علم كل شيء إلى يوم القيامة.

وأيضًا هذا العلم علم يترتب عليه الثواب، أما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب، ولا يترتب عليه العقاب، فهذان فرقان.

والفرق الثالث: أن هذا العلم علم بالشيء بعد أن يقع، فهو علم بأنه وقع، وأما العلم الأزلي فهو علم بأنه سيقع، وهناك فرق بين العلم بأنه وقع، وبين العلم بأنه سيقع.

هذه ثلاثة أوجه، وإلّا فإن كثيرًا من الناس يقول: كيف ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ أليس الله قد علمهم من قبل؟.

فنقول: بلى، علمهم؛ لكن العلم يختلف من هذه الوجوه الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يعني: يعلم المؤمنين، ويعلم الذين نافقوا، فيميز هذا من هذا.

وقال في المؤمنين: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالوصف، وأما في المنافقين فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إلى آخره فأتى بالفعل، وذلك لأن النفاق طارئ عليهم، فلأنَّ كثيرًا من المنافقين كان آمن ثم كفر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣]، ولهذا أتى بالفعل الذي يدل على التجدد، وأيضًا ليُناسب قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

النفاق في الأصل هو: إظهار خلاف الواقع، ومنه سُمي نفق الجربوع أو اليربوع؛ فإنه من ذكائه إذا حفر له جُحْرًا جعل له بابًا ظاهرًا يدخل منه ويخرج منه، ويجعل في أقصى ذلك الجُحْر طبقة خفيفة؛ يعني: يخرق إلى أن يصل إلى قريب من الانفتاح، فتبقى طبقة خفيفة جدًا من أجل أنه إذا فوجئ من باب الجُحر، خرج من هذه القشرة الرقيقة؛ لأنها تكون سهلة عليه، فيكون هذا مُخادعة؛ لأن الصائد إذا أراد صيده وهجم عليه من الباب، لا يدري أن هناك نفقًا يخرج منه.

واليربوع حلال، وهو يُشبه الفأر إلى حدٍّ كبير، لكن له أرجلًا طويلةً وأياديَ قصيرة، وذيلًا طويلًا في طرفه هدب.

فنقول: إن النفاق أصله من هذا؛ لأن فيه مكرًا ومخادعة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ مثل عبد الله بن أُبَيّ، فإن عبد الله بن أُبي كان من المعارضين للخروج إلى أُحد، ولكن النبي ﷺ عزم على الخروج بمشورة الصحابة، ولاسيما الذين لم يُدركوا بدرًا، فهم الذين أشاروا على الرسول ﷺ، وأكدوا عليه المشورة أن يخرج إلى أُحد، فخرج الناس مؤمنهم ومُنافقُهم، وفي أثناء الطريق انخذل عبد الله بن أُبيّ بنحو ثلث الجُند، ولحقهم من لحقهم من المؤمنين، يوبخونهم ويأمرونهم بالرجوع.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ يعني: فإما قتال في سبيل الله، أو دفاع عن أوطانكم. فالقتال في سبيل الله قتالٌ يُعتبر جهادًا، يُثاب عليه المقاتل ثواب المجاهد، وقتال الدفاع بحسب نية المُقاتل، فهم قيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله جهادًا، أو ادفعوا عن أوطانكم. ولو رجعوا لما قاتلوا إلّا دفاعًا، لعدم إيمانهم بها في سبيل الله.

وجملة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إما أنها معطوفة على (نافقوا)، أو أنها جملة حالية على تقدير (قد)؛ أي: وقد قيل لهم.

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾: (لو) سبق الكلام عليها، وأنها في مثل هذا السياق تكون شرطية.

ومُرادهم من هذه المقولة: تبرير رجوعهم من الجيش، فهم يقولون: نحن معكم، لكن ما نعلم أنه يكون قتال. وهذه قولة رجل مخذول جبان، والإنسان الشجاع هو الذي يقول: نعم نأتي لنقاتل أو ندفع، ثم إن حصل قتال فنحن مستعدون، وإن لم يحصل رجعنا من حيث جئنا.

وقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (يومئذٍ): أي: في هذا الوقت أو في هذا اليوم الذي انصرفوا فيه، وانخذلوا عن المسلمين، هم للكفر أقرب منهم للإيمان، وإن كان فيهم شيء من الإيمان، ولعل هذا في بعضهم، لكن هم للكفر أقرب.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: كما أنهم يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون: نشهد إنك لرسول الله، ويذكرون الله فيقولون: لا إله إلَّا الله، ويحضرون بعض الصلوات على أنهم مسلمون، فهم - والعياذ بالله - يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ فالذي في قلوبهم الكفر، والذي في أفواههم الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ يعني: هو أعلم من غيره بما يكتم هؤلاء، ولهذا أبدى الله ما يكتمونه، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وفي وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ خلاف بين المفسرين، فمنهم من قال: إن ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم، عالم بما يكتمون، خوفًا من أن تقع المفاضلة بين علم المخلوق وعلم الخالق؛ لأنك إذا جئت بأفعل التفضيل فإن مُقتضى ذلك أن يكون بين المفضل والمفضل عليه اشتراك في الأصل، ولكن المفضل زاد على المفضل عليه، ولهذا تجدهم في مثل هذه الآية ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾؛ يفسرون أعلم بعالم؛ أي: والله عالم بما يكتمون. وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: أي: بما يخفون في نفوسهم من الكفر، وأما ما يظهرون من الإسلام فهو معروف للمسلمين وغير المسلمين. والله عالم بما يكتمون.

ولكن هذا القول ضعيف.

أولًا: لأنهم صرفوا اللفظ عن ظاهره؛ لأن اللفظ باسم التفضيل، والمعنى الذي أثبتوه باسم الفاعل، وبينهما فرق، ولا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره إلَّا بدليل.

والثاني: أنهم إذا قالوا عالم، لم يمنع المشاركة على وجه المماثلة؛ لأنه يُقال: فلان عالم وفلان عالم، لكن إذا قيل: فلان أعلم من فلان، امتنعت المشاركة على وجه المماثلة لظهور التفضيل. فهم الآن

فروا من شيء ووقعوا في شرٍ منه، ففروا من أن يُطلقوا أعلم على الله؛ لأنها تقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى، لكن وقعوا في معنى لا يمنع المشاركة على وجه المماثلة، وهذا أشَرّ.

إذن نقول: إن أعلم اسم تفضيل على ظاهرها، ولا يستلزم ذلك شيئًا مما يُنزه الله عنه، ونحن نعلم أن هناك اشتراكًا في العلم بين الخالق والمخلوق، لكن يمتاز الخالق بما يختص به، والمخلوق بما يختص به، فمثلًا الله يعلم أن هذا عمود من الحديد، والإنسان يعلم، لكن علم الله أشد إحاطة من علم الإنسان وأسبق، وهو علم لا يزول، فعلم الإنسان ليس كإحاطة علم الله، وليس أزليًا، وليس أبديًا، فيختص الخالق بعلمه والمخلوق بعلمه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

١ - تسلية المؤمن بقضاء الله وقدره؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المؤمن إذا علم أنه من عند الله رضي وسلّم.

فإذا قال قائل ما الجمع بين هذا وبين قوله فيما سبق ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؟

قلنا: الجمع بينهما: أنّ إضافتها إلى الأنفس من باب إضافة الشيء إلى سببه؛ يعني: أنتم السبب، وأما إضافتها إلى إذن الله فهي من باب إضافة الشيء إلى فاعله؛ فالذي قضى هذا هو الله، لكن السبب أنتم، وإذا انفكت الجهة زال التعارض، فالجهة في الآية الأولى سبب، والثانية: فعل وتقدير.

٢ - أن الله قد يُقدّر على عبده المؤمن ما يكرهه لحكم عظيمة؛ لقوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وفي الحديث الصحيح أن الله قال: «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَردِدِي عَنْ نَفْس المؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[1]. فتأمل الآن أن الله عزَّ وجلَّ يفعل ما يكره المؤمن لكن لحكمة، وهو أنه قضى عزَّ وجلَّ بحكمته بالفناء على كل الخلق قال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ويتفرع على هذه الفائدة: أن المقضي المكروه محنة للعبد، فعليه أن يعتبر وأن يصبر؛ حتى يكون من المؤمنين الصابرين الذين إذا أصابتهم مُصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ومن فوائد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾:

١ - إثبات النفاق في هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: بعد إيمانهم، ولم يبرز النفاق إلَّا بعد غزوة بدر، وغزوة بدر كانت في السنة الثانية في رمضان، وحصل بها للمسلمين من العز ما جعل المنافقين يظهرون نفاقهم؛ لأنهم صاروا يخافون من المؤمنين فصاروا يُنافقون، أي: يظهرون أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

٢ - التحذير من النفاق، وفي الآية الأولى: الترغيب في الإيمان، والذين يميز بين هذه وهذه هي قرينة الحال، فإن المنافقين سيأتي من أفعالهم أنهم في غاية الذم.

٣ - أن المنافقين من أكذب الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، ويقولون: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ وهم كاذبون في هذا؛لأنهم يعلمون أنه سيكون قتال؛ لأن أعداء المسلمين جاءوا من بلادهم، وتركوا أهليهم، وتركوا بلادهم، وتركوا أموالهم، وهم في غاية الحنق على الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي غاية الاستعداد، فهل يعقل أن قومًا جاءوا على هذه الصفة يرجعون دون قتال؟!.

فقول المنافقين: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ هم كاذبون فيه، ولهذا قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾.

٤ - أن القول عند الإطلاق ما تواطأ عليه القلب واللسان؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ لأنه لو قال: (يقولون)، لكان القول في الأصل ما تواطأ عليه القلب واللسان، لكن لما كان هذا القول يختلف فيه القلب عن اللسان قيّده بالأفواه، قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، وبهذا التقدير يندفع عنا قولان: القول الأول: أن بعض المفسرين قالوا: إن قوله بأفواههم من باب التأكيد، فهو كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، قالوا: لأن القول لا يكون إلَّا بالأفواه، ويندفع به أيضًا قول آخر أشد منه، وهو القول بالكلام النفسي، قالوا: إنه لما قيّد هذا القول بالأفواه، دلّ على أن هناك قولًا نفسيًا، وهو ما كان في القلب، وهذا أخطر من الأول؛ لأن هذا مبني على بدعة الأشاعرة ومن وافقهم في أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول من تسعين وجهًا في كتاب سماه (التسعينية)، وأشار إليه ابن القيم في النونية.

إذن الفائدة من قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ أن هذا القول ليس قولًا مُطلقًا؛ لأن القول المُطلق ما تواطأ عليه القلب واللسان.

ويمكن أن نُفرع على هذا فائدة مهمة؛ وهي أن من نطق بقوله دون أن يكون له قصد في قلبه، فإنه

لاغ؛ يعني أن أثر هذا النطق لاغ، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] وهذا يفيد في مثل طلاق السكران؛ أنه لا يقع؛ لأنه باللسان فقط، والموسوس -نسأل الله العافية- يوسوس دائمًا أنه طلق زوجته، ربما حتى في الصلاة يقول هذا، ويعجز عن كبح نفسه، نقول: هذا الرجل لو طلق بلسان ألف مرة فليس بشيء.

٥ - أن المنافقين يحرصون غاية الحرص على كتم نفاقهم، ولكن الله يعلم بذلك، وقد كشفهم الله بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

٦ - أن المنافقين لا خير فيهم، لا في الجهاد في سبيل الله، ولا في الدفاع عن المسلمين، يُستفاد ذلك من قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٧ - أن الإنسان تتغير أحواله، فيكون في حال أقرب إلى الإيمان من الكفر، وفي حال أخرى بالعكس؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ واستدل بعض العلماء بهذه الآية على زيادة الإيمان ونقصانه، فما وجه الاستدلال؟ الجواب: أنه كلما قرب الإنسان من الإيمان ازداد إيمانًا، وكلما بَعُد سوف ينقص، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، ولكن هل يزيد بالعمل الظاهر أو يزيد حتى بالعمل الباطن؟ الجواب: أنه يزيد بهذا وهذا؛ فالعمل الظاهر كأن يكثر الإنسان من الأعمال الصالحة فيزداد إيمانًا، وأما في الباطن فكذلك يزداد إيمان الإنسان في الباطن بحسب ما يكون عنده من البينات، فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] والإنسان يُدرِك بحسِّه أنه إذا أخبره ثقة بخبر ثم أخبره ثقة بنفس الخبر ثم ثقة ثم ثقة يحس بنفسه أنه كلما زاد المخبرون ازداد إيمانًا، وهذا شيء مُشاهد ليس فيه إشكال.

٨ - أن الكفر ضد الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، ولكن هل يجتمع الإيمان والكفر في قلب رجل، نقول: أما الإيمان المُطلق والكفر المُطلق فلا يمكن أن يجتمعا أبدًا، وأما الإيمان الناقص أو الكفر دون الكفر فيمكن أن يجتمعا على مذهب أهل السُّنة والجماعة. فإن الإنسان يكون فيه خصال إيمان وخصال كفر، فيُحَب على ما معه من الإيمان، ويُكره على ما معه من الكفر.

٩ - أنه ينبغي للإنسان أن يحترس في الحكم، وإلَّا يُطلق الحكم بل يحترس فيه؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾، ربما في المستقبل أيضًا يُغير الله حالهم فيكون الإيمان أقرب، فأنت إذا حكمت على شخص فينبغي لك أن تقيِّد؛ لأن الإطلاق ربما يأخذ المحكوم عليه هذا الحكم مُطلقًا.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨]

التفسير

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ (الذين) هنا بدل من (الذين) السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أو صفة، وكونها صفة أولى بل هو المتعين، وذلك؛ لأن البدل يكون هو المقصود من الحكم دون المبدل منه، فإذا قلت: أكرم زيدًا عمرًا، عمرًا بدل من زيد، فالذي يُكرم عمرو. وإذا قلت: كُلِ الرغيفَ ثُلُثَه، يأكل الثلث، فلو أكل النصف لأكل السدس بغير حق، فإذا قال: أنت قلت لي: كُلِ الرغيف، قلت: لكني أبدلت وقلت: ثلثه، فالسدس الذي أكلته زائد فتكون آثمًا، ولصاحب الرغيف أن يُطالبك بقيمة السدس، على كل حال البدل هو المقصود بالحكم كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في الألفية:

التابع المقصود بالحكم بلا ... واسطة هو المسمى بدلًا

وعلى هذا فيتعين أن تكون (الذين) الثانية صفة لـ (الذين) الأولى، واسم الموصول يصح أن يكون صفة؛ لأنه بصلته يكون بمعنى المشتق.

وقوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾أي: إخوانهم ظاهرًا، هذا هو الصحيح، وقال بعضهم: لإخوانهم في النسب، والمعنى الأول أصح؛ لأنهم لا يخاطبون إخوانهم في النسب فقط بل يخاطبون كل من استشهد في غزوة أُحد، وليس كل من استشهد أخًا لواحد من المنافقين، فيكون المراد بإخوانهم أي: ظاهرًا؛ لأن المنافقين مع المؤمنين كأنهم مؤمنون، ولهذا لما اسْتُئْذِن النبي في قتلهم، قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(1)، إذن فهم ظاهرًا إخوان وأصحاب، فلهذا نقول في ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الصواب: لإخوانهم ظاهرًا؛ لأنهم يُظْهِرُون الإسلام ويُبطِنُون الكفر.

وقوله: ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ أي: قعدوا عن القتال، والله يُسمي المتخلفين عن القتال قعودًا، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] فسمى المتخلفين عن القتال قَعَدَة. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، و مسلم (٢٥٨٤).

إذن «وقعدوا» يعني: عن القتال، والجملة في قوله: (وقعدوا) في محل نصب على الحال بتقديم «قد» أي: (وقد قعدوا) وهذا أولى من أن نجعل الجملة معطوفة على الصلة، يعني قالوا وقعدوا؛ لأن قولهم حال كونهم قعودًا أشد، فهم جمعوا بين أمرين، بين السوء في القول والسوء في الفعل. حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أطاعوهم بعدم الخروج؛ لأن المنافقين أشاروا بعدم الخروج ولكنَّ النبي ﷺ والصادقين من المؤمنين أبوا إلَّا أن يخرجوا، وفي أثناء الطريق انخذل عبد الله بن أُبي ومن معه بثلث العسكر فتخلفوا والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وفي قراءة (ما قُتِّلوا) بالتشديد على سبيل المبالغة؛ لأنه حصل في الذين استشهدوا، حصل فيهم تمثيل مثل حمزة رضي الله عنه، فإنه مُثِّلَ به، حتى إن هندًا بنت عُتبة أخذت كبَدَهُ ومضغتها، ولكنها لم تستطع أن تهضمها، فلم تبلغها.

فنقول: (قُتِّلوا) بناءً على أن هذا التقتيل مبالغ فيه لما فيه من المثلة، أما (قُتِلوا) بالتخفيف فأمرها ظاهر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا مُحمد لهؤلاء: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿فَادْرَءُوا﴾ بمعنى: ادفعوا، يعني لما تخلفتم هل أنتم نجوتم من الموت؟. الجواب: لا.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا من باب التحدي، يعني: إن كنتم صادقين في أن من تخلف لا يموت فادفعوا عن أنفسكم الموت، والجواب أنهم لا يستطيعون ذلك. وفي ختم هذا التحدي(ادرءوا) بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لكذبهم في قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ يعني: هم لو تخلَّفوا فالموت سيأتيهم، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - التنديد بهؤلاء الذين جمعوا بين قبح الفعل وقبح القول، يؤخذ من قوله: (قالوا)، (وقعدوا) قبح الفعل من كونهم قعدوا، والقول من قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

٢ - أن هؤلاء مع قبح قولهم وإدخال الندم على قومهم اعترضوا على القَدَر؛ لقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

٣ - الإشارة إلى أن مثل هذا القول عند حلول القدر لا يجوز؛ لأنه سيق في سياق الذم، وهو كذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**»[1]،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩).

أما لو قاله الإنسان خبرًا لا اعتراضًا على القدر ولا ندمًا على ما وقع؛ فإن هذا لا بأس به، ومنه قول النبي ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الهْدْيَ وَلحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا»[1]، وليس هذا من باب التمني مثل ما ذهب إليه بعض العلماء، وأن (لو) هناك استخدمت في تمني الخير، بل نقول: هي خبر، وهذا يقع كثيرًا. وقد تقول للشخص: لو زرتني بالأمس لأكرمتك وما أشبه ذلك، تريد بذلك الخبر، وعلى هذا فنقول: إن استعمال (لو) يكون على وجوه:

الوجه الأول: أن يكون اعتراضًا على المقدَّر، فهذا لا يجوز، وهو منازعة للرب عزَّ وجلَّ في قضائه وقدره.

الوجه الثاني: أن يكون مثارًا للندم والتحسر، فهذا لا يجوز أيضًا؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه فقال: «إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا».

والوجه الثالث: أن يكون خبرًا عن الواقع، فهذا لا باس به؛ لأنه لا يحمل الإنسان على الندم، وليس فيه منازعة لقدر الله عزَّ وجلَّ، وهو يقع كثيرًا في كلام الناس.

٤ - تحدي هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام بدفع الموت عنهم؛ لقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾.

٥ - أنه لا يمكن درء الموت؛ لأن ما وقع التحدي به فإنه لا يمكن وقوعه، إذ لو أمكن وقوعه لم يكن للتحدي به فائدة، ومن هنا نعرف أن قول الله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] لا يصح تنزيله على وصول الناس الآن إلى أعماق الفضاء وإلى الكواكب كما زعم بعضهم عندما وصل الناس إلى القمر وحلوا به قالوا: إن هذا دَلَّ عليه القرآن؛ لِأَنَّ الله قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، والسلطان هو العلم، فهؤلاء أوتوا علمًا حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فالقرآن شاهد لذلك، ولكن هذا في الحقيقة تحريف للقرآن، فالقرآن في الآيات هذه إنما هو للتحدي بدليل أن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]. وهذا كله يدل على أن المراد بذلك: التحدي، ويكون يوم القيامة وليس هو في الدنيا، ولهذا نقول: هؤلاء لو نفذوا من أقطار الأرض لم ينفذوا من أقطار السموات، والآية فيها تحدٍّ في هذا وهذا، المهم أنه لا ينبغي أن نُخضع نصوص القرآن من أجل أن نقول إنها دالة على ما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٥١) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (١٢٤٠).

حدث أو ما يحدث، بل نقول: ما حدث أو يحدث إذا قامت البراهين على صدقه فإنه لا يحتاج إلى أن نُقحمه في دلالة القرآن، نقول: هذا شيء وقع، وهذا شيء شهد به كل الناس فهو صحيح، ولو كنا نقحم كل ما حدث من العلوم في الوقت الحاضر في القرآن، لكنا نحمل القرآن ما لا يحتمل، وليعلم أن تفسير القرآن تعبير عن مراد الله، فمن فسَّره في غير ما يظهر من مراده فهو كاذب على الله مُفترٍ عليه، وليس الكذب على الله كالكذب على الناس، فليحذر الناس من هذه المسألة.

٦ - تكليف النبي ﷺ تكليفًا خاصًا بإبلاغ شيء من القرآن أو مجادلة أحد من الناس؛ لقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟﴾ يعني: أن تجادلهم وقل: فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

٧ - معاملة الناس بما يظهر من حالهم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟﴾ فإنه سبق لنا أن قلنا: إن الصواب في الأخوة هنا أخوة الظاهر لا أخوة النسب؛ لأنه ليس كل من قتل في أحد يكون له قرابة لهؤلاء المنافقين.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]

❁ التفسير ❁

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فيها قراءتان: (قتَّلوا و(قُتِلوا) وكذلك (تحسَب) و(تحسِب) وكلاهما سبعيتان.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب هنا إما للرسول ﷺ أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، فإن كان لكل من يصح توجيه الخطاب إليه دخل فيه النبي ﷺ وغيره، وإن كان خطابًا للنبي ﷺ دخل فيه غيره بالتبع، فيكون المقصود قصدًا أوليًا بهذا الخطاب النبي ﷺ وغيره تبعًا له، أما إذا قلنا: إن الخطاب موجه لكل من يصح توجيه الخطاب إليه فهو عام، يعني: (فلا تحسبن أيها المُخاطب) هذا على الثاني أو (لا تحسبن أيها النبي)، هذا على الأول (والحسبان) هنا بمعنى: الظن أي: لا تظن أن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا.

وقوله: ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمل من قتله العدو ومن قُتِل حِرْفَةً للعدو، كما لو ارتد السهم على حامله فقتله، فإنه يكون مقتولًا في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام، بأن المُراد بذلك: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك حين سُئل عن الرجل يُقاتل شجاعةً، ويُقاتل حمية، ويُقاتل رياءً، وفي لفظ: «يُقاتِلُ لِيُرَى مَكَانَه، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟».

فقال ﷺ كلمةً جامعة مانعة: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةَ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»(١).

إذن ما المُراد بالذين (قُتلوا) في سبيل الله؟

الجواب: هم الذين قاتلوا؛ لتكون كلمة الله هي العليا، لا شجاعةً ولا حميةً ولا رياءً.

والشجاعة معناها: الإنسان تحمله شجاعته على أن يُقاتل؛ لأن الشجاع يُحب القتال، وكذا من قاتل حميةً وطنية أو قومية فليس في سبيل الله، ومن قاتل لأجل الدفاع عن الديار فقط، فقتاله مساوٍ لقتال الكافر، فالكفار يُقاتلون دفاعًا عن بلادهم، لكن من قاتل دفاعًا عن بلده من أجل أنه بلدٌ إسلامي؛ ليحمي الإسلام في هذا القتال فهو في سبيل الله، ولذلك يجب إذا وجَّهنا جندنا للدفاع عن الوطن أن نقول: لاحظوا أنكم تُدافعون عن وطنكم باعتباره وطنًا إسلاميًا لا لمجرد الوطنية.

الثالث: من قاتل رياءً ليُرى أنه رجل يُقاتل في سبيل الله، هذا ليس في سبيل الله، وكذا من قاتل لمجرد طاعة أمير فقط فليس في سبيل الله.

فالرسول ﷺ سُئل عن ثلاثة ولم يُجب عن كل واحدة بعينها، بل أجاب بكلمة جامعة مانعة؛ لأجل أن تشمل حتى النيات الأخرى سوى هذه الثلاث: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةَ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»(٢).

وهؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله هل هم أهل بدر، أو أهل أُحد، أو هو عام؟.

الجواب: أنه عام، لكن أول من يدخل فيه الشهداء في بدرٍ وفي أُحد.

وقوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقه، وقد يُطلق ويُضاف أحيانًا إلى المؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

فهو يُضاف إلى الله باعتبارين: باعتبار أنه واضعه، فالله تعالى هو الذي شرع هذا الطريق، وباعتبار أنه موصِلٌ إليه، أي: أن هذا الطريق موصل إلى الله تعالى. ويُضاف إلى المؤمنين باعتبار

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (١٩٠٤).

(٢) انظر ما قبله.

واحد وهو أنهم هم الذين سلكوه.

هنا المضاف إلى الله باعتبار أن الله تعالى هو الذي شرع هذا الدين، وأن هذا الدين موصل إليه.

﴿أَمْوَاتًا﴾ هذا مفعول ثانٍ لـ (تحسب)؛ لأن (حسب) تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف (كسا - وأعطى) فإنهما تنصبان مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر.

يقول: ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ والمعروف أن مَنْ قُتل مات، فكيف يُقال: إنهم أحياء؟ المراد أي: لا تحسبن أنهم إذا ماتوا انتهوا، بل هم إذا ماتوا انتقلوا إلى حياةٍ أخرى أفضل مما فارقوه، فيكون المعنى: لا تحسبهم ماتوا وانتهوا، ليس الأمر كذلك بل هم أحياء ماتوا مِيتة الدنيا، لكنهم هم أحياء حياةً أخرى تتميز عن الحياة الدنيا، وهي خير وأفضل.

وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (عند): تُفيد القرب من الله عزَّ وجلَّ وهو كذلك، فإن أرواح الشهداء في حواصل طيرٍ خُضرٍ تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى قناديل مُعلَّقة تحت العرش[1]، فهذه عندية خاصة يمتاز فيها بالقرب من الله تعالى، فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ المُراد بذلك: حياة أرواحهم، أما أبدانهم فقد ماتت بلا شك لكن أرواحهم حية حياة برزخية، ولهذا قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وليست الحياة المُطلقة التي هي كالحياة الدنيا؛ لأنها لو كانت الحياة الدنيا لم يصيروا قُتِلوا في سبيل الله بل كانوا باقين، ولما صحَّ أن يُدفنوا، وهم فارقوا الدنيا ودُفِنوا، ولكنهم أحياء عند الله عزَّ وجلَّ حياة لا تُشبه حياة الدنيا.

وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ أي: يُعطون؛ لأن الرزق في اللغة العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، يعني يعطون من رزق الله في الجنة حيث شاءوا، ولكن هذا العطاء عطاء ناقص بالنسبة للعطاء الأكمل الذي يكون بعد البعث؛ لأن العطاء قبل القيامة عطاء للبدن وعطاء للروح، وكلاهما ناقص بالنسبة لما بعده. فهو عطاء للبدن؛ لأنه في القبر يُفسح له مد البصر، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من رَوحها ونعيمها لكنه لا يتمتَّع التمتُّع الكامل، كذلك الأرواح لا تتمتَّع التمتع الكامل في وجودها في الجنة، إنما يكون التمتُّع الكامل بعد البعث حين تلتقي الأرواح بالأجساد، اللقاء الذي لا مفارقة بعده؛ لأنه إذا التقت الأرواح في البعث فلا مفارقة، تبقى أبد الآبدين، وحينئذٍ يحصل كمال النعيم.

ثم قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾:

الفرح ضد الحزن، وهو قريب من معنى السرور، والمعنى: أنهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨٧)، والترمذي (٣٠١١)، وابن ماجه (٢٨٠١).

وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ منصوبة على الحال. ولكن هل هي حال من الضمير المستتر في (أحياء) ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي حال كونهم فرحين، أو حال من الظرف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من متعلق الظرف، أو حال من نائب الفاعل في ﴿يُرْزَقُونَ﴾؟ كل هذا جائز، والمعنى لا يختلف فيه اختلافًا كثيرًا.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾: أي: بالذي أعطاهم من فضله ولم يُبيِّنه سبحانه وتعالى، بل أتى به مُجملًا؛ لأنه ذُكِرَ مُفصلًا في آيات أخرى بعد دخول الجنة يوم القيامة.

و ﴿آتَاهُمُ﴾: بمعنى أعطاهم، وأما (أتاهم) فبمعنى: جاءهم.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾.

(الفضل) في اللغة الزيادة، والمُراد بالفضل هنا: ما تفضَّل الله به عليهم من النعيم الذي لم يكن يخطر على بالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾:

الواو هنا حرف عطف، وهل هي معطوفة على (فرحين) من باب عطف الفعل على الاسم، أو معطوفة على ﴿يُرْزَقُونَ﴾؟.

نقول: يحتمل هذا وهذا، ولا يختلف المعنى كثيرًا.

قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا بما سيُذكر، فمعنى (استبشر) أي: بشَّر غيره، أو دخلت عليه البُشرى بفعل غيره.

وقوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾:

يعني: بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ولم يُقتَلوا حتى الآن في سبيل الله. ﴿أَلَّا خَوْفٌ﴾ (أن) المصدرية أدغمت بـ (لا)، والقاعدة الأخيرة في الكتابة أن تكتب (أن) فتكون (أن لا) لكن القاعدة القديمة أن لا تكتب، وهنا لم تكتب ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وأصل الكلمة: أن لا خوف، وأن هنا بدل من قوله: ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ وكأنه قال: (يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بأن لا خوف عليهم)، ونوع البدل هنا بدل اشتمال؛ لأن الخوف ليس بعض الإنسان وإنما يشتمل عليه الإنسان، يعني: (يستبشرون بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي: لا خوف عليهم فيما يستقبل من أمرهم، ولا هم يحزنون على ما قضى من أمرهم؛ لأن الأصل أن الخوف للمستقبل والحزن للماضي.

وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الجملة استئنافية تُبين استبشارًا آخر سببه غير السبب الأول، الأول سببه: أنهم ينتظرون إخوانًا لهم لم يلحقوا بهم، والسبب الثاني للاستبشار: ما أنعم الله عليهم من النعمة والفضل.

وهنا قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقبلُ بقليل قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ ولا منافاة بينهما، فهم فرحون بما حصل، ويستبشرون بالذي سيحصل، فهم فرحون بما آتاهم الله مغتبطون به مسرورون به، ومع ذلك يستبشرون بفضلٍ زائد، ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ومع ذلك أنهم يُؤمِّلون النظر إلى وجه الله، وأنهم بُشِّروا بالخلود الذي لا موت بعده، ويستبشرون أيضًا بما وعدهم الله تعالى في الدنيا وما زالوا يذكرونه؛ لأن في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

فيها قراءتان: (وإِنَّ الله) بالكسر، (وأَنَّ الله) بالفتح، فعلى قراءة الفتح تكون معطوفة على نعمة، أي: وبـ (أن الله)، وعلى قراءة الكسر تكون استئنافية من كلام الله عزّ وجلّ، لا من كلامهم، أي: يستبشرون بنعمة من الله وفضل. والله قد جازاهم على عملهم وبـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتركه هملًا وسُدًى بل لابد أن يُثيبهم عليه.

من فوائد الآيات الكريمة:

١ - فضيلة من قُتل في سبيل الله لكونهم أحياء عند الله عزّ وجل.

٢ - الترغيب في الجهاد ليحصل الإنسان على الشهادة، ولكن هنا مسألة: هل يُشرع للإنسان أن يُجاهد ليُقتل في سبيل الله، أو الذي يُجاهد لتكون كلمة الله هي العليا؟ الجواب: الثاني، ولهذا ينبغي للإنسان إذا ذهب للجهاد في سبيل الله أن ينوي القتال؛ لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمجرد أن يُقتل في سبيل الله؛ لأن كونه (في سبيل) مفرَّغ على كونه يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حتى إن بعض العلماء يقول: إذا قاتل من أجل أن يُقتل فقط، فهذا قاتل؛ ليموتَ، ولكن القتال الحقيقي هو: أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإذا قتل فهو في سبيل الله، وبعض العلماء يقول: لا بأس أن ينوي بالجهاد أن يُقتل في سبيل الله؛ لأنه لن يتم له أن يُقتل في سبيل الله إلَّا إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ولكن حتى لو قيل بهذا فإن النية الأولى والرتبة الأولى (هي العليا) أن يخرج ليقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ثم يتمنى الشهادة بناءً على هذا.

٣ - أنه يصح نفي الشيء باعتبار، لا نفيًا مُطلقًا؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فإن نفي كونهم أمواتًا هنا يُراد به: الموت الذي حصل فيه العدم بلا فائدة، وبدون ثواب.

٤ - فضيلة الشهداء لكونهم عند الله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أما الحديث الذي في المسند أن النبي ﷺ قال: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ حَتَّى

يُرْجِعَهَا الله تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»[1].

فإن بعض العلماء يرى أن المراد بالمؤمن هنا: المؤمن المجاهد الذي قُتل في سبيل الله، ويرى آخرون أنه عام، وهو الصحيح، وأن الفرق هو أن نسمة المؤمن في الجنة طائر يعلق فيها، يعني يأكل منها، أما أرواح الشهداء في حواصل أجواف طير خضر تأوي إلى قناديل مُعلَّقة، فهي كما أنها تمزّق بدنها في الدنيا أبدلها الله بأبدان أخرى، وهي هذه الطيور الخضر، فتمتاز أرواح الشهداء عن بقية المؤمنين بهذا، وهذا هو الأقرب، أن أرواح المؤمنين في الجنة، ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: قد تُحبس بعض الأرواح بسبب، مثل: الدَين قد يمنع صاحبه من دخول النسمة في الجنة، وقد سُئل النبي ﷺ عن الشهادة هل تُكفّر الذنوب؟ قال: «تُكفّر كلَّ شَيْءٍ». ثم جاءه جبريل فقال: إِلَّا الدَّين، فقال: «إلا الدَّين»[2].

وهذا يدل على أنه قد يُحبس ثواب المجاهد عنه إذا كان عليه دَين، فقد يكون هناك عوائق لكن الأصل أن أرواح المؤمنين في الجنة.

٥ - إبطال حجة من قال: إن الرسول ﷺ حيٌّ في قبره يُرزق، وقال: إن مقام النبوة أعلى من مقام الشهادة، ولا شك في هذا أن مقام النبوة أعلى من مقام الشهادة، لكن قولهم: أنه حيٌّ في قبره يُرزق، إن أرادوا أنها حياة برزخية فهذه حقيقة، وإن أرادوا أنها حياة دنيويَّة فهذا كذب ولا شك؛ لأنها لو كانت حياة دنيوية، ما غُسِّل ولا كُفِّن، ولا صُلِّي عليه، ولا دُفن، ولكان الصحابة ﷺ وَأَدُوا النبي ﷺ، ودفنوه حيًّا، ولا يَردُ على هذا أنها تُردُّ عليه روحه، فيرد السلام على من سلَّم عليه؛ لأن ردّ الروح في البدن في القبر ليس كردّها في الحياة الدنيا، بل هو رد خاص ولذلك لا يحتاج الميت في قبره إلى طعام وشراب وهواء، وإن رُدت إليه روحه.

٦ - أن الشهداء يُرزقون وهم أموات؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ولكن هذا الرزق هل يحتاج إلى ما يحتاجه الناس في الدنيا؟ الجواب: لا، لأن هذا رزق أخروي، والرزق الأخروي لا يحتاج إلى ذلك، بل إن أهل الجنة باقون فيها أبد الآبدين، ولا يحتاجون إلى هذا، وإنما يخرج الطعام والشراب بصفة عرق، ولكنه ليس كعرق الدنيا أيضًا، عرق منتن كريه الرائحة، بل هو أطيب من رائحة المسك - اللهم اجعلنا منهم - هذا معنى قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

٧ - أن الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتًا بل أحياء، ووجه الدلالة قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾، ولكن هذه الحياة ليست كالحياة الدنيا بل هي حياة برزخية.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٥٥)، والنسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٧٣).

(٢) إسناده جيد: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١١٩٧).

٨ - أنه إذا ثبت هذا للشهداء فإنه يثبت للأنبياء من باب أولى، فالأنبياء أحياء، ويمتاز الأنبياء عن الشهداء، بأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم بخلاف الشهداء، فإن الأرض تأكلهم، وقد لا تأكل بعضهم إكرامًا لهم، وإلَّا في الأصل أنهم كغيرهم تأكلهم الأرض.

٩ - إثبات العندية لله عزَّ وجلَّ أي: أن يكون أحد من الخلق عند الله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه عندية خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

١٠ - أن هؤلاء الشهداء لهم شعور؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾؛ لأن الفرح من الشعور النفسي، وهل يحزنون؟ ذُكر في بعض الآثار أن الميت تُعرض عليه أعمال أقاربه، فإذا كانت سيئة حزن، وإن كانت حسنة فرح، لكنها آثار يُشك في صحتها.

١١ - قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أن هذا الثواب الذي يناله هؤلاء الشهداء، ثواب عظيم، وجه الدلالة أنه من عند إلهٍ عظيم ذي إفضال، والثواب يعظم بعِظم المُثيب، لا سيما وقد قال: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾.

١٢ - أن الفضل لله على عباده في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فكما أن لله فضلًا في الدنيا فله فضل في الآخرة، فمن أمثلة فضله في الدنيا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فهذا فضلٌ دنيوي.

١٣ - أن هؤلاء الشهداء يستبشرون، أي: يُبشِّر بعضهم بعضًا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أي: من بعدهم، يعني: يستبشرون بأن سيلحقهم أناسٌ شهداء يكونون في منازلهم.

١٤ - أن هؤلاء الشهداء ليس عليهم خوفٌ ولا حزن، لا خوف يتعلق بالمستقبل، ولا حزن يتعلق بالماضي؛ أما كونهم لا خوف عليهم في المستقبل؛ فلأنهم قد أحلهم الله الجنات، والجنة من يدخلها ينعم فلا يبأس، ويصح فلا يسقم، ويحيى فلا يموت، وفيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وأهل الجنة في الآخرة هم أهل الجنة في الدنيا؛ ولهذا لا تجد أحدًا أنعم بالًا وأسرّ حالًا من المؤمن، إن أُعطي شكر، وإن ابتُلي صبر، وإن أذنب استغفر، ودائمًا مع الله عزَّ وجلَّ في حكمه الكوني، وفي حكمه الشرعي، راضٍ بقضاء الله؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَه، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَر فَكَانَ خَيْرًا لَه، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا للمُؤْمِنِ»(١). وقد ذكر بعض العلماء أن قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

٥٦] ذكروا أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] مع أن الموتة الأولى قد انتهت؛ لأن نعيم أهل الجنة مستمر من الحياة الدنيا إلى دخول الجنة. وأما كونهم لا يحزنون على ما مضى – أعني الشهداء – فلأنهم استكملوا عملًا من أفضل الأعمال، وهو الجهاد في سبيل الله، الذي أدى بهم إلى الشهادة، فلا يحزنون على الماضي، فمن خرج من الدنيا شهيدًا فقد خرج أكمل خروج وهو في الطبقة الثانية من طبقات الذين أنعم الله عليهم.

١٥- استبشار الشهداء مرة ثانية بما أنعم الله عليهم من الفضل؛ لأن الاستبشار الأول فيما يكون لإخوانهم، والثاني فيما أنعم الله به عليهم، فهم لهم استبشارات متعدِّدة، حسب ما يجدون من النعيم.

١٦ - إسناد النعمة إلى مسديها، وهو الله جل جلاله، فهم لا يرون لأنفسهم فضلًا بل يرون المنَّة والفضل لله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

١٧- عظم النعمة التي يُعطونها، ووجهه أن الله أضافها إليه، وإضافة العطاء إلى الله يدل على عظمته.

١٨- أن كل مؤمن فلن يُضيِّعَ الله أجره؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو على القراءة الثانية: (وإِنَّ)، فالله عزَّ وجلَّ لا يُضيِّع أجر المؤمنين، كل إنسان يعمل وهو مؤمن فإن أجره لن يضيع.

١٩- إثبات عدل الله عزَّ وجلَّ، وذلك بعدم إضاعته أجر المؤمنين، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٢٠- فضيلة الإيمان، وأنه سبب للحصول على الثواب والأجر.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣]

التفسير

﴿ٱلَّذِينَ﴾: يحتمل أن تكون بدلًا مما سبق، أو نعتًا، ويحتمل أن تكون مبتدأ، فعلى الثاني يكون خبرها جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾:

﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾ بمعنى أجابوا وانقادوا لله والرسول حينما دعاهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى

الغزوة مرة أخرى بعد أُحد، لما قيل: إن المشركين أرادوا الكرَّة على المسلمين لما علموا بالجراح التي أصابت المسلمين والوهن والضعف، وقفوا في حمراء الأسد، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محمد وأصحابه؟ فأمرهم النبي ﷺ أن يستعدوا للقتال فاستجابوا لله والرسول مع ما أصابهم من الجراح والتعب النفسي والتعب البدني، فقد جُرح النبي ﷺ وكُسرت رباعيته[1]، وحصل ما حصل من الأمور التي قد لا نشعر بها الآن ونحن نصورها بأفكارنا، لكن لو كنا نشاهدها عين اليقين لكان الأمر فظيعًا جدًّا، فهؤلاء الذين أصابهم القَرْح، وفي قراءة (القُرْح) هم الذين استجابوا لله وللرسول.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بالاتباع (واتقوا) بترك المخالفة، فلهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كثير واسع.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾:

هذه أيضًا بدل مما سبق، أو عطف بيان، أو صفة، وهي الأقرب؛ وذلك لأن البدل لا يُراد به البدل والمبدل منه، وإنما يُراد به البدل الثاني، بخلاف النعت فإنه يُراد به المنعوت والنعت، ولهذا نقول هنا: إن البدل ضعيف؛ لأنه لو كان المُراد البدل لسقط الوصف السابق كما قال ابن مالك في الألفية:

التَّابِعُ المقْصُودُ بِالحكمِ بِلَا ... وَاسِطةٍ هُوَ المسَمَّى بَدَلَا

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾:

القائل: رجل جاء إلى النبي ﷺ وقال: إن أبا سفيان قد جمع لك يريد الكرَّة عليك.

﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ أي: احذروهم، اتقوهم، وما أشبه ذلك.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾:

وذلك أن المؤمن عند المصائب يزداد إيمانًا، ومن أمثلة ذلك أنه لما أحاط الأحزاب بالمدينة قال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] فازدادوا إيمانًا، هنا أيضًا لَّما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ بالله واعتمادًا عليه وتوكُّلًا عليه.

قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾:

﴿حَسْبُنَا﴾ يعني: كافينا الله جل جلاله، وهذه الجملة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فيها مبتدأ وخبر، لكن الخبر فيها مُقدم، والتقدير (الله حسبنا)، ويجوز أن يكون (حسبنا) مبتدأ، و(الله) خبر، لكن المعروف أن المحكوم عليه هو المبتدأ، والمحكوم به هو الخبر، وعلى هذا فيكون (حسبنا) خبر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٢٢)، ومسلم (١٧٩٠).

مُقدم، و(الله) مبتدأ مؤخر.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، ولو جمع لنا الناس فإننا لا نخشاهم إنما نخشى الله عزّ وجل.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (نعم: فعل إنشاء يُقصد به المدح، وفاعله لابد أن يكون مُحلًى بـ (أل) أو مضاف إلى محلى بـ (أل) مثل ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، فهذه مضافة إلى محلى بـ (أل)، وهنا (نعم الوكيل)، الفاعل فيها مُحلًّى بـ (أل)، وهي تحتاج إلى فاعل وإلى مخصوص، والغالب أن المخصوص يكون محذوفًا، والتقدير في هذه الآية: (ونعم الوكيل هو).

و ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ ليس المراد به المتوكل عن غيره، ولكن المراد: المدافع عن غيره؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لا يتوكل عن أحد، بل بيده الأمر كله، فيكون المراد بالوكيل هنا: (المدافع).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - بيان فضيلة الصحابة ﷺ وأنهم بما معهم من الأعمال نالوا خيرية هذه الأمة؛ لأنهم استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، وقد بيَّنَّا في التفسير أن أهل مكة المشركين لما انصرفوا من أُحد ندموا على ما حصل، وقالوا: لماذا لا نرجع ونقضي على محُمد، ونسبي ذراريهم، ثم تركوا ذلك وعدلوا عنه إلى العام القادم.

٢ - أن أمر الرسول ﷺ أمر لله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ومعلوم أنه لم ينزل الوحي بأمرهم بالخروج إلى المشركين، إنما الذي أمرهم الرسول ﷺ.

٣ - أن المصائب محك لمعرفة الرجال، وذلك أن هذه المصيبة التي حصلت في أُحد كانت محكًّا للصحابة ﷺ، لولا فضلهم وميزتهم عن الخلق ما خرجوا بعد أن أصابهم القرح.

٤ - أن هذا الذي عملوه من الإحسان؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يقل: (لهم أجر عظيم) بل قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ ويحتمل أن يكون هذا القيد قيدًا تخصيصيًّا، يعني: الذين استجابوا لله والرسول منهم من أحسن واتقى، ومنهم من حصل منه بعض الخلاف، مثل الرُماة الذين جعلهم النبي عليه الصلاة والسلام على الجبل فإنهم عفا الله عنهم لم يحصل منهم إحسان كما ينبغي ولا تقوى كما ينبغي.

٥ - فضيلة الإحسان والتقوى؛ لقوله: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقد بيّن الله تعالى شيئًا من أجر الإحسان والتقوى وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

٦ - أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه لا شك أن التقوى والإحسان من أعظم عمل العبد فكان ثوابها عظيمًا.

٧ - بيان أن المؤمن كلما ضاقت عليه المصائب فإنه يلجأ إلى ربه ويزداد إيمانًا به؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

ٱلْوَكِيلُ ﴾. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فالمؤمن كلما أصابته النكبات والمصائب ازداد إيمانًا بالله ومعرفةً به.

٨ - جواز إرادة الخصوص بلفظ العموم، وأن هذا أسلوب لغوي لا يخرج به الإنسان عن قواعد اللغة العربية؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ والقائل واحد. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ والجامع لهم بعضٌ من الناس.

٩ - أن المؤمن حقًّا لا يهمه أن يجمع له أعداء الله؛ لقوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾.

١٠- أن الحسب هو الله وحده ولا أحد معه؛ لقوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، بل قالوا: حسبنا الله وحده، فالله وحده هو الحسب كما أنه وحده المتوكل عليه، وبهذا نعرف أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أن (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفة على الكاف في قوله «حسبك» وليست معطوفة على لفظ الجلالة ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنها لو عطفت على لفظ الجلالة لكان المعنى أن الله حسبك ومن اتبعك من المؤمنين حسبك، وليس الأمر كذلك وإنما حسبه وحسب من اتبعه هو الله عزّ وجل.

١١- الثناء على الله عزَّ وجلَّ لكونه وكيلًا لعباده أي حسيبًا لهم وعمدة لهم؛ لقوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١٢- إثبات اسم ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ لله؛ لأن تقدير الآية: ونعم الوكيل هو، وقد ذكر الله تعالى في آية أخرى أنه على كل شيء وكيل، (فالوكيل) من أسماء الله تعالى، ومعناه: المتكفل بشؤون عباده، وليس معناه القائم بالأمر نيابةً عنهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي: انقلب هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول وخرجوا بأمر النبي ﷺ لقتال هؤلاء الكفار الذين بلغهم عنهم أنهم مجمعون على الكرة على المسلمين ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

فإنهم لما خرجوا بلغوا ما بلغوا من الطريق - بلغوا حمراء الأسد - وجدوا المشركين قد ذهبوا، صرفهم الله وقالوا: نرجع في العام القادم.

أو المعنى في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾:

انقلبوا يعني: عائدين إلى المدينة بعد أن وصلوا إلى حمراء الأسد.

﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما هي هذه النعمة؟ النعمة أنهم سلموا من مُلاقاة العدو ولم يحصل حرب؛ لأن العدو مضى في سبيله ولم يرجع.

وأما قوله: ﴿وَفَضۡلٖ﴾ ففسرت بأن المراد به: فضل الجهاد، وأن الله كتب لهم بهذا الخروج أجر غزوة كاملة، فسلموا من الحرب ونالوا ثواب المجاهدين.

وقوله: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ أي: لم يصبهم ما يسوؤهم لا من جهة عدوهم ولا من جهة أحوالهم، بل كانوا على أحسن ما يرام ذهابًا ورجوعًا.

وقوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ فيها قراءتان: (رُضوان) (رِضوان) بضم الراء وكسرها، ومعنى (اتبعوا رضوان الله) أي: اتبعوا ما يُرضي الله عزَّ وجلَّ وذلك بالاستجابة لله ورسوله، فإن الاستجابة لله ورسوله سبب رضاء الله عزَّ وجلَّ، أسأل الله أن يجعلنا ممن يرضى الله عنهم.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾:

﴿ذُو فَضۡلٍ﴾ بمعنى: صاحب فضل عظيم على العباد في الدنيا والآخرة، ومنه أن تَفَضَّلَ على هؤلاء بأن انقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - فضيلة هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول لما أصابهم من الثواب.

٢ - ومنها أن الإنسان إذا عمل العمل وسعى فيه ولم يكمله كتب له أجر كامل، ولهذا شواهد منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠]، ومنها قول النبي ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[1]، فالإنسان إذا سعى في العمل ولكنه لم يُدركه فإنه يُكتب له أجره كاملًا، حتى طالب العلم لو مات قبل أن يُدرك ما يُريد من العلم فإنه يُكتب له ما نوى؛ لأنه شرع فيه وعمل ما يقدر عليه فينال الأجر.

٣ - إثبات الرضا لله؛ لقوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ والرضا: صفة من صفات الله الحقيقية، وهي من

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٦)، أحمد في «مسنده» (٤/ ٤١٠)، أبو داود (٣٠٩١).

الصفات الفعلية لماذا؟ لأن القاعدة عند السلف أن كل ما يتعلق بمشيئة الله من الصفات فهو صفة فعلية، والرضا يتعلق بمشيئة الله، كل صفة متعلقة بسبب فإنها بلا شك تتعلق بالمشيئة، فرضوان الله مُعلق بفعل ما يُرضيه، وعلى هذا فتكون هذه الصفة مُتعلقة بمشيئته.

أما أهل التعطيل فإنهم يفسرون رضا الله بالثواب؛ لأن الثواب شيء منفصل بائن عن الله، وليس من صفاته مخلوق مفعول، أو يُفسرونه بإرادة الثواب؛ لأنهم يُثبتون الإرادة، أما الرضا نفسه فإنهم لا يُثبتونه، ولا شك أن هذا التفسير للرضا بإرادة الثواب أو بالثواب نفسه أنه تحريف للكلم عن مواضعه، ويا سبحان الله كيف يثبت الله لنفسه أنّه رضي ونحن نقول: (لا) بل رضي يعني أثاب أو رضي يعني أراد أن يُثيب، أنحن أعلم بالله من نفسه ؟!.

إذن نحن نثبت الرضا لله حقيقة، وأنه صفة من صفاته الفعلية التي تتعلق بمشيئته، ولكن هل رضاه كرضانا؟ الجواب: (لا) لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فكما أن سمعه وبصره وحياته وعلمه وقدرته لا تماثلها صفات المخلوقين، فكذلك هو لا يُماثل المخلوقين، وكذلك الرضا والفرح والعجب وغيره.

٤ - إثبات اتصاف الله عزَّ وجلَّ بالفضل العظيم في كميته، العظيم في كيفيته، أما في كميته فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وجعل جزاء الحسنة عشرًا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وأما في كيفيته فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

❁ التفسير ❁

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر عند العلماء: إثبات الحكم للمحصور فيه، ونفيه عما سواه، إذن فهو بمنزلة نفي وإثبات، وله طرق: منها ﴿إِنَّمَا﴾، ومنها تقديم ما حقُّه التأخير، ومنها النفي والإثبات مثل (لا قائم إلَّا زيد)، ومنها إذا كانت الجملة اسمية مُعرّفًا طرفاها، وهذا معروف في كتب البلاغة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني: ما الشيطان إلَّا مُخوف لأوليائه، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ تضمن إشارة أي مُشارًا إليه ومُخاطبًا، فالإشارة (ذا) والمخاطب (الكاف). الإشارة بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطَب، فإذا كنت مُشيرًا إلى جماعة من الذكور أو مُخاطبًا جماعة من الذكور قلت: (أولئكم)؛ لأن المُشار إليه جماعة، والمخاطب جماعة فتأتي بالميم، وإذا كنت مُشيرًا إلى جماعة من الذكور مُخاطبًا جماعة من الإناث قلت: (أولئكن) أولاء؛ لأن المُشار إليه جماعة ذكور، (كُنّ) النون للنسوة، أولئكن، وإذا كنت مُشيرًا إلى اثنين مُخاطبًا اثنتين، قلت: (ذانكما) (ذان للمثنى و(كما) للمثنى، وإذا كنت مشيرًا إلى جماعة نسوة مخاطبًا جماعة نسوة قلت: (أولائكن)، وإذا كنت مشيرًا إلى مُثنى مؤنث مُخاطبًا جماعة ذكور قلت: (تانكم)، على كل حال اسم الإشارة يُراعى فيه المشار إليه، وكاف الخطاب يُراعى فيها المُخاطب، ولهذه المسألة في اللغة العربية بالنسبة إلى الكاف ثلاث لغات:

اللغة الأولى: أن يُراعي المُخاطب إفرادًا وتثنية وجمعًا مُذكرًا ومؤنثًا، فنقول(ذلكَ) بفتح الكاف مخاطبًا رجلًا واحدًا. و(ذلكِ) بالكسر مُخاطبًا امرأة واحدة و(ذلكما) مخاطبًا اثنين ذكورًا وإناثًا و(ذلكن) مخاطبًا جماعة نسوة و(ذلكم) مخاطبًا جماعة ذكور، فالكاف تتبع المخاطَب وتتحول حسب المُخاطب. واسم الإشارة يتبع المشار إليه.

واللغة الثانية: أن تكون الكاف مُفردة مفتوحة للمذكر، ومُفردة مكسورة في المؤنث، فنقول مخاطبًا جماعة ذكور: (ذلكَ)، ومخاطبًا اثنين: (ذلكَ)، ومخاطبًا واحدًا (ذلكَ) و(للنسوة) تقول: (ذلكِ) مخاطبًا امرأة واحدة، و(ذلكِ) مخاطبًا امرأتين، و(ذلكِ) مخاطبًا جماعة نسوة.

واللغة الثالثة: فتح الكاف مُطلقًا وتقول لكل واحد تخاطبه: (ذلكَ) وهذا باعتبار المبتدئين أسهل. وفي هذه الآية يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ راعى في اسم الإشارة المشار إليه وهو الشيطان واحد، وراعى في الكاف الجماعة المُخاطبين.

قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾:

﴿الشَّيْطَانُ﴾: يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون خبرًا للمبتدأ (ذا).

الوجه الثاني: أن تكون بدلًا من المبتدأ (ذا) أو عطف بيان عليه.

فعلى الأول: تكون جملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ في موضع نصب على الحال.

وعلى الثاني: تكون جملة ﴿يُخَوِّفُ﴾ خبر المبتدأ، وكلاهما صحيح، فالشيطان يُخوف أولياءه.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ﴾ معروف أنها تنصب مفعولين بالتحويل؛ فالمفعول الأول محذوف وتقديره

(يُخوفكم أولياءه)، وأولياء هنا هي المفعول الثاني، وليس المعنى ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، فإن المعنى أنه يُخوف الناس من أوليائه فيكون على هذا المفعول الأول محذوف، والمفعول الثاني هو الموجود والتقدير (يُخوفكم أولياءه) أي: يُعظمهم في صدوركم حتى تخافوهم وتتركوا الجهاد وتتركوا الدعوة؛ لأنكم تخافون منهم بسبب تخويف الشيطان.

قوله: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أولياء الشيطان هم كل مجرم وفاسق ومُلحد وكافر، هؤلاء هم أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] فكل كافر مُلحد فاجر فهو من أولياء الشيطان.

وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: لا يؤثر فيكم تخويفه فتخافوا منهم، فيؤثروا عليكم بهذا في ترك الجهاد. ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فلا تتأثروا بهم وجاهدوا.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: (إن) شرطية، ولعلماء العربية في مثل هذه الجملة وجهان:

الوجه الأول: أنها جملة شرطية لا تحتاج إلى جواب؛ لأنه مفهوم مما سبق، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله.

الوجه الثاني: أنها تحتاج إلى جواب، وأن جوابها محذوف معلوم مما سبق أي: فلا تخافوهم إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان شدة عداوة الشيطان لبني آدم حيث يرعبهم ويخوفهم بأوليائه.

٢ - أن الشيطان يُدافع عن أوليائه بل يُهاجم بهم؛ لقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يُخوفكم أولياءه.

٣ - أنه يجب على المؤمن أن لا يخاف من أولياء الشيطان؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائل: الخوف أمر طبيعي يعتري الإنسان عندما يرى ما يخافه أو يسمع به ولا يستطيع مدافعته، فالجواب عن ذلك أن يُقال: بل يستطيع مدافعته بأن يشق طريقه الذي أوجب الله عليه ولا يهتم بأحد، وإلّا فمن المعلوم أن طبيعة الإنسان الخوف مما يكره، لكن نقول: امضِ لسبيلك ولا تلتفت، فقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ أي: لا يؤثر خوفهم فيكم شيئًا ﴿وَخَافُونِ﴾؛ لأنكم إن تركتم الجهاد عذبتكم.

٤ - أنه كلما قوي إيمان الإنسان بالله قوي خوفه منه؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥ - أيضًا أنه كلما قوي الإيمان بالله قوي الخوف منه، وضعف الخوف من أولياء الشيطان؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثم اعلم أن العلماء رحمهم الله قالوا: إن الخوف ينقسم إلى أقسام:

الأول: خوف العبادة، وهو خوف السر الذي يخاف فيه الإنسان شيئًا خفيًّا؛ كخوفه من الولي الميت أو من الشيطان أو ما أشبه ذلك، وهذا عبادة ولا يجوز إلَّا لله عزّ وجل.

الثاني: خوف طبيعي يعتري الإنسان بسبب وجود ما يخاف منه، وهذا لا يُلام عليه العبد إلَّا أن يكون سببًا في ترك واجب أو وقوع في محرم، وإلا: فإن العبد لا يُلام عليه وقد وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال الله عن موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال سبحانه وتعالى يُخاطب موسى حينما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]، وقال عن موسى حينما اجتمع السحرة له قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، وقال عن إبراهيم لما جاءته الملائكة ولم يأكلوا: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]، والآيات في هذا كثيرة، فالخوف الطبيعي من طبيعة الإنسان ولا يُلام عليه العبد إلَّا إذا تضمن ترك واجب أو فعل مُحرم.

الثالث: خوف الجبناء، وهذا هو السيئ، فالجبان يخاف من كل شيء حتى لو حركت الريح سَعْفَةً لقال: هذا صوت مَدَافِع لأنه جبان، ولهذا لا يأتيه النوم كما قال الله تعالى فيما سبق: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، هذا القسم الثالث يجب على المؤمن أن يُطارده ما أمكن؛ لأن المؤمن ليس بجبان، المؤمن قوي، ومن أكبر أسباب دفعه أن يذكر الإنسان ربه عزَّ وجلَّ، فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، وتزول الكروب، وينشرح صدر المرء، ويزول عنه الخوف والرعب والذعر. فهذه أقسام الخوف: خوف عبادة، وخوف طبيعة، وخوف جبن.

٦ - أن الخوف من الله من مقتضيات الإيمان ومستلزماته؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦]

❁ التفسير ❁

في قوله: ﴿يَحْزُنكَ﴾ قراءتان: القراءة الأولى (يَحْزُنك) من الثلاثي (حَزَنَ) والقراءة الثانية (يُحزِنك) من الرباعي (أحزنه).

قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يدخلون فيه بسرعة. وذلك أنه من المعلوم أن المسارعة تتعدى بـ «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وهنا جاءت (في) مكان (إلى) وهذا من باب التضمين، وقد اختلف علماء النحو في مثل هذا التركيب إذا عُدي الفعل بغير الحرفِ المعتاد هل التجوز بحرف الجر أو بالفعل الذي تعدى بحرف الجر؟ على قولين:

الأول: أن التجوز في حرف الجر يعني أن نقدر حرفًا مناسبًا للفعل فنقول: (في) بمعنى (إلى).

الثاني: أن التجوز في الفعل؛ بمعنى أن نضمن الفعل معنى يتعدى بـ (في).

والفرق بين القولين أنه على القول الأول: نُحوّل معنى الحرف الموجود إلى الحرف المناسب للفعل، وعلى الثاني: نُحوّل الفعل إلى المعنى المناسب للحرف، وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] المعروف أن يشرب تتعدى بـ (مِن) وهنا تعدت بالباء، فقال بعض النحويين: الباء بمعنى (مِن) والتقدير (يشرب منها عباد الله).

وقال بعض العلماء: يشرب بمعنى يَروَى، ومعلوم أن الرِّيَّ يستلزم الشرب، فيكون: يشرب دالة على معنى الشرب باللزوم وعلى الري، ويكون هذا أبلغ مما لو قلنا يشرب منها؛ لأن الإنسان قد يشرب ولا يروى، وهذا الأخير هو مذهب نُحاة البصرة أي: أنهم يحوّلون الفعل إلى معنى مناسب للحرف ليكون الفعل دالًا على معناه اللفظي وعلى معناه التضميني أو المعنى اللزومي. وعليه فيكون معنى الآية ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يدخلون في الكفر مُسرعين.

وهذا المعنى الثاني أولى وأدق وأعمق، فإذا فسرنا ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بقول: (يدخلون فيه بسرعة) تضمن المسارعة والدخول في الشيء.

وقوله: ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ أصل الكفر في اللغة: الستر، ومنه الكُفُرَّى وهو وعاء طلع النخل وهو معروف لدى الجميع. أما في الاصطلاح: فإنه جَحْدُ ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه مثل الصلاة، فتركها كفر وإن لم يجحد وجوبها.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، الجملة هنا محلها مما قبلها تعليل، أي: مهما سارعوا في الكفر فإنهم لن يضروا الله شيئًا.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: لن يلحقوا الضرر به جل وعلا وتقدس عن أن يُنَال بضرر، وفي الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن الله تعالى قال: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[1].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء في ذاته ولا في ملكه ولا في أسمائه وصفاته ولا في غير ذلك، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي الذي أشرنا إليه آنفًا: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُم وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»(١).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

أي: يريد الله سبحانه وتعالى بكفرهم أن لا يجعل لهم حظًّا، أي: نصيبًا في الآخرة، والإرادة هنا إرادة كونية، أي: يشاء الله إلَّا يجعل لهم حظًّا في الآخرة؛ لا قليلًا ولا كثيرًا. وهكذا كل كافر ليس له نصيب في الآخرة، والمؤمن له نصيب في الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين يُسارعون في الكفر (عذاب) أي: عقوبة (عظيم) أي: ذو عظمة، وعظمة كل شيء بحسبه؛ فقد يكون مدحًا وقد يكون ذمًّا، ففي مقام المدح تكون العظمة مدحًا، وفي مقام الذم تكون العظمة ذمًا، فقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] كلمة عظيم هنا من باب الذم، وقوله ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] من باب المدح، وفي هذا الموضع نقول: إن العقوبة لا شك أنها مكروهة عند الإنسان فهي بالنسبة لفعل الله عدل، وبالنسبة للمخلوق المُعذب قبح وذم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تهديد هؤلاء الذين يُسارعون في الكفر؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي: لا يهمنك أمرهم فسوف يعذبون.

٢ - حرص النبي ﷺ على هداية الخلق؛ لأنه يحزُنهُ هؤلاء الذين يُسارعون في الكفر، ولولا حرصه عليه الصلاة والسلام ما حزن لكفرهم.

٣ - بيان ما يلحق النبي ﷺ من الهمِّ ومن الحزن لعدم إسلام الأمة؛ وذلك لمحبته للخير عليه الصلاة والسلام حتى الذين يُسارعون في الكفر يحزن عليهم؛ لأنه يود أن يسلموا.

٤ - بيان ما يقع فيه سفهاء بني آدم من الخطأ والخطل كما في فعل هؤلاء، يُسارعون في الكفر مع أنه ضرر عليهم وهلاك.

٥ - انتفاء الضرر عن الله وأنه لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فإن قيل: إن الله قد أثبت أن بعض عباده يؤذيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر ما قبله

يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وفي قوله في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»[١] فكيف نجمع بين نفي الضرر وإثبات الأذية؟

الجواب: أن يُقال: لا يلزم من الأذية الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر به، أرأيت لو صلى إلى جانبك أو جلس إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا وثومًا فإنك تتأذى برائحته ولكن لا تتضرر، فلا يلزم من الأذية الضرر، وحينئذٍ لا معارضة بين نفي الضرر عن الله عزَّ وجلَّ وإثبات الأذية.

٦ - بيان غنى الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٧ - إثبات الإرادة لله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وقد قسم العلماء إرادة الله تعالى إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية؛ فالكونية هي ما يتعلق بفعله، والشرعية ما لا يلزم فيها وقوع المُراد، فالفروق ثلاثة:

الأول: أن الإرادة الكونية تتعلق بفعله والثانية بشرعه.

الثاني: الكونية بمعنى المشيئة، والشرعية بمعنى المحبة.

الثالث: الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

فإذا قال قائل: ما تقولون في إيمان أبي بكر؟ أهو مُراد بالإرادة الكونية أو الشرعية؟.

الجواب: إرادة كونية وشرعية؛ لأنه وقع بالإرادة الكونية، ولأنه متعلق بالشرع، فهو مما يحبه الله.

وما تقولون في إيمان أبي لهب؟ الجواب: أنه مراد شرعًا لا كونًا؛ لأن الله لو أراده كونًا لكان، وما تقولون في كفر المسلم؟ الجواب: أنه ليس مُرادًا لا كونًا ولا شرعًا؛ لأنه الآن مسلم ولو أراد الله أن يكفر لكفر، وهل هو مُراد شرعًا أن يكفر؟ الجواب: لا، إذن انتفت في هذا الإرادتان، وإيمان المؤمن اجتمعت فيه الإرادتان، وإيمان الكافر وجدت فيه الإرادة الكونية. فإيمان الكافر مراد شرعًا وغير مُراد كونًا، وإسلام المسلم مُراد كونًا وشرعًا، وكفر الكفار مُراد كونًا لا شرعًا، فهناك ما تجتمع فيه الإرادتان، وما تنتفي فيه الإرادتان، وما فيه الإرادة الشرعية فقط، وما فيه الإرادة الكونية فقط، وهذا التقسيم مهم؛ لأن من الناس من قال: إن المعاصي غير مُرادة لله لا كونًا ولا شرعًا مع أنها واقعة، فنوافقهم بأنها غير مُرادةٍ شرعًا لكنها مُرادة كونًا.

٨ - أنه لا حظَّ للكافر في الآخرة؛ لأنه مُخلد في النار؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٩ - ومن فوائدها بالمفهوم أن الكافر قد يكون له حظ في الدنيا، وكفره لا يمنعه من الحظ في الدنيا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

فإن قال قائل: إن الله قال في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] فهذا يدل على أن الكافر لا يحصل له نعيم في الدنيا قلنا: نعم، الأصل إلَّا يحصل له نعيم في الدنيا ولكنه قد ينعم استدراجًا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

١٠- إثبات الآخرة، وأنها حق، وأن الناس ينقسمون فيها إلى قسمين: منهم من له نصيب، ومنهم من لا نصيب له؛ لقوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾.

١١- إثبات العقوبة لهؤلاء الكفار، فليس حظهم إلَّا يجدوا حظًّا في الآخرة فقط بل مع ذلك يُعذبون، ولهذا يقولون: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرُف: ٧٧] أي: فنستريح ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] نسأل الله العافية.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧]

❁ التفسير ❁

هذه الآية صلتها بما قبلها أنها كالتوكيد لها.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وإلَّا فإن الكفر ليس سلعة يُباع ويُشترى، فالاشتراء هنا بمعنى: الاختيار وترك الطرف الآخر. يقول بعض علماء البلاغة: في هذه الجملة مجاز بالاستعارة المكنية أو الاستعارة التصريحية التبعية، فإنه شبَّه الكفر بالسلعة التي تُباع وتُشترى، وحذف المُشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الشراء، هذا على أنها مكنية، وتصريحية تبعية معناها: أنها تجري مجرى الاستعارة بالفعل أو اسم الفاعل، يعني: بالشيء المُشتق، فهنا ﴿اشْتَرَوُا﴾ بمعنى: اختاروا، فشبَّه الاختيار بالشراء ثم اشتق من لفظ الشراء (اشتروا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقوله: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فإذا قال قائل: هم لم يؤمنوا؟ قلنا: لكن اختيارهم للكفر أخرجهم من الفطرة التي كانوا عليها، وهي التوحيد فهم اشتروا الكفر بعد الإيمان وقد سبق

معنى الكفر.

أما الإيمان فإنه في اللغة قيل: التصديق، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] وقيل: الإقرار، والإقرار أخص من التصديق، واستدل هؤلاء بأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فلابد أن تتعدى بما تتعدى به، ومن المعلوم أن الإيمان لا يتعدى كما يتعدى التصديق، فإنك تقول: صدقته ولا تقول: آمنته. إذن فليس معناهما واحدًا، فمعنى الإيمان الإقرار، هذا في اللغة.

أما في الشرع فهو: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فليس مجرد الإقرار إيمانًا، بل لابد أن يقبل ما جاء به الرسول ﷺ، ويذعن له، ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمنًا مع أنه مُقر بما جاء به الرسول ﷺ ولكنه لم يقبله ولم يُذعن له فلم يكن مؤمنًا، وإذا كان هذا هو الإيمان أي: الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فإنه يتضمن جميع شرائع الإسلام كما هو مذهب أهل السُّنة والجماعة: أن الإيمان شامل للاعتقاد وقول اللسان وعمل الجوارح وعمل القلب، أربعة أشياء كلها من الإيمان.

قوله: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ كالآية السابقة تمامًا.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هنا قال: إنه أليم، وهناك قال: إنه عظيم، فيجتمع في عذابهم - والعياذ بالله - العظيم والأليم، وأليم هنا بمعنى: مؤلم، وليس بمعنى شديد، فهو بمعنى اسم الفاعل من الرباعي آلمه يؤلمه إيلامًا فهو مؤلم، وهل يأتي فَعِيل بمعنى مُفْعِل؟ الجواب: نعم، مثاله:

أَمِنَ الرَّيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

(الداعي السميع) يعني: المسمع.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان شدة رغبة الكفار في الكفر؛ لأنهم اشتروا الكفر اشتراءً، والمشتري طالب للسلعة، فهم يأخذون الكفر عن رغبة.

٢ - بيان خسران هؤلاء حيث أخذوا الكفر بدلًا عن الإيمان، وهذه أَخْسَرُ صفقة على وجه الأرض أن يأخذ الإنسان الكفر بالإيمان طائعًا طيبةً به نفسه والعياذ بالله.

٣ - بيان كمال الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا تضره معصية العاصي ولا تنفعه طاعة الطائعين، لقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٤ - كمال سلطان الله حيث إن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان لن يضروا الله شيئًا، مع أن المعروف أن الملك كلما قلّت جنوده ضعفت قوته إلَّا الله عزَّ وجلَّ فإنه لا يضره شيء.

٥ - عذاب هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان عذابٌ مؤلم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فينادون توبيخًا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: لا يظن الذين كفروا، وفيه قراءة ثانية سبعية (ولا تحسبن الذين كفروا).

وقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: نُمهلهم عن الأخذ بالعقوبة ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ وهنا يقع تساؤل: لماذا كانت ﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع مع أنه قال: نُملي، والفعل المضارع ينصب المفعول به؟ والجواب: أن يُقال: (ما) اسم موصول وليس حرف حصر، فتكون اسم (أنَّ) وعليه يكون التقدير (أن الذي نُملي لهم خيرٌ) وإن كانت في المُصحف مرسومة مُتصلة بـ (أن) وصورتها صورة الحصر، ولكن هذا لا يمنع أن تكون اسمًا موصولًا؛ لأن العلماء اتبعوا في رسم المصحف الرسم العثماني، وإلّا فهي على القاعدة الإملائية الموجودة الآن تُكتب (أنَّ) وحدها و(ما) وحدها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ هنا للحصر. أي: نُمهلهم ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ اللام للتعليل باعتبار فعل الله، يعني: أنه عزَّ وجلَّ يُملي من أجل زيادة الإثم، وللعاقبة باعتبار حال المُشركين أو الكافرين؛ لأنهم لم يكفروا لأجل أن يزدادوا إثمًا، ولكن كفرهم كان سببًا في زيادة الإثم.

وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ أي: إلى إثمهم؛ لأن الرجل إذا كفر عشرة أيام وزاد يومًا زاد كفرًا، وإذا زاد عشرة أيام أخرى زاد أكثر، فهم والعياذ بالله لا يستفيدون من دنياهم وإنما يزدادون فيها كفرًا.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

أي: مهين مُذلٌّ من الإهانة؛ وذلك لأنهم إنما كفروا استكبارًا وعلوًّا، فعوقبوا بعذاب يُذلهم ويُهينهم.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أنه يجب على الإنسان أن لا يظن أن إمهال الله له خيرٌ له، تؤخذ من النهي، فإن الأصل في النهي التحريم، فلا يجوز للإنسان أن يغتر بإمهال الله له.

٢ - أن الله عزَّ وجلَّ بحكمته قد يستدرج بعض الخلق، فيعطيه النعم تترًا وهو متجاوز حدوده؛ ليبلغ في الطغيان غايته حتى إذا أخذه لم يُفلته كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

فإن قال قائل: هل تقيسون العاصي على الكافر بمعنى أنه قد يُمهَل له وهو مقيم على المعصية؟

الجواب: نعم، قد نقول بالقياس بجامع أن كل واحد منهما أمهله الله ولم يُعاقبه، وقد نقول بعدم القياس؛ وذلك لأن الكفر أعظم من الفسوق، ولكن من رجع إلى ظاهر القرآن تبيَّن له أنه حتى الفاسق ربما يُمهل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٣ - أنه يجب على الإنسان أن يعتبر في عمره هل أمضاه في طاعة الله فليبشر بالخير، أو أمضاه في معصية الله، والله تعالى يدرُّ عليه النعم فليعلم أن هذا استدراج.

٤ - الإشارة إلى أن الإنسان قد يغتر بظواهر الحال ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ فالإنسان قد يغتر بظاهر الحال ويقول: إن الله لم يُنعم عليَّ نعمة إلَّا لأنني أهلٌ لها كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

٥ - إثبات زيادة الآثام؛ لقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ فتدل بالمفهوم على زيادة الإيمان؛ لأنه إذا ازداد إثمًا نقص إيمانًا، فما نقص عن الإثم كان زيادة في الإيمان، ولهذا قال أهل السُّنة: إن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٦ - إثبات العقوبة المُذلة لهؤلاء؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٧ - أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما استكبروا على الخلق وعلوا عليهم أذلهم الله.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾: (ما): نافية. و(كان): فعل ماضٍ ناقص، واللام هنا لام الجحود،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

يعني: لام النفي، وهي التي تأتي بعد كونٍ منفي إما: (ما كان)، وإما: (لم يكن). ومثالها في (ما كان) هذه الآية: ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ ومثالها في (لم يكن): ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧].

وسُمِّيت لام الجحود؛ لأنها واقعة في سياق النفي، والجحود هو النفي، وهو (لم يكن) أو (ما كان). وهي تنصب الفعل المضارع، إما بنفسها كما هو اختيار الكوفيين، أو بـ (أن) مُضمرة بعدها وجوبًا كما هو اختيار البصريين.

قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾ أي: أن هذا ممتنع غاية الامتناع، وإذا جاء مثل هذا التعبير في القرآن، فإنه يعني الامتناع، أي: أنه ممتنع على الله عزَّ وجلَّ غاية الامتناع أن يفعل كذا، وهذا الامتناع ليس امتناعًا لعدم المقدرة عليه، فهو قادر، لكنه امتناعٌ شرعي، أي: يمتنع بحسب ما تقتضيه حكمته أن يترك المؤمنين على ما هو عليه حتى يميز الخبيث من الطيب.

وقوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ أي: ليترك. وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين آمنوا بالله. وقد تقدم تعريف الإيمان.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما هم عليه من غير بيان ولا تمييز بين الخبيث والطيب، وهذا مستحيل على الله؛ وذلك لأن المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ خليط بين المؤمنين الخُلَّص والكافرين الخُلَّص، والمنافقين، أما الكافرون الخُلَّص فهم متميزون بإعلانهم للكفر وتصريحهم به، ولا تخفى حالهم على أحد، وأما المؤمنون الخُلَّص فكذلك أمرهم واضحٌ ظاهر، يبقى الاشتباه بين المؤمن الخالص وبين المنافق؛ لأن المنافقين يُظهرون الإيمان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] فالأمر يحتاج أن يُميِّز الله عزَّ وجلَّ بين الخبيث والطيب، ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾. يعني من الخفاء والإشكال.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾:

﴿يَمِيزَ﴾ بمعنى: يفصل، يعني: يفصل بين الخبيث والطيب بما يُخبر به عزّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ يعني: وما كان الله ليُطلعكم على الغيب في تمييز الطيب من الخبيث، فأنتم لا تعلمون ما في صدورهم، أي: ما في صدور هؤلاء الخبثاء المنافقين؛ لأنكم لا تعلمون الغيب، والله عزَّ وجلَّ ما كان ليُطلعكم على الغيب، وهذه الآية تُشبه آية الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

هذا استدراك على قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، وأن هذا الخطاب عام حتى النبي ﷺ، ولهذا جاء الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

قوله: ﴿يَجْتَبِي﴾ يعني: يختار من رسله من يشاء فيُطلعه على الغيب الذي يُريد أن يُطلعه عليه، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ هذه الجملة من الآية تُصوِّر لنا حال المجتمع النبوي في عهد النبي ﷺ، أن فيهم أناسًا يخفى أمرهم، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أن هؤلاء الناس الذين يخفى أمرهم، لابد أن يفصل الله بينهم وبين المؤمنين بالعلامات التي يُظهرها، ولا يكون هذا باطلاعهم على الغيب؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لا يُطلع أحدًا على الغيب إلَّا من ارتضى من رسول، ويكون هذا عن طريق اطلاعنا على ما في قلوب هؤلاء عن طريق الوحي، ولهذا سَمَّى النبي ﷺ عددًا من المنافقين لحذيفة بن اليمان الذي كان يُلقَّب بصاحب السر، سرّ النبي ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ أسرَّ إلى حُذيفة بأسماء رجال من المنافقين ولم يُسِرّ إلى أبي بكر ولا عمر، ولا إلى من هو أفضل من حُذيفة، وهذا تُذكِّرنا بقاعدةٍ ذكرها ابن القيم في النونية، وهي: أن الخصيصة بفضيلة مُعيَّنة لا تستلزم الفضل المُطلق، وأن الفضل نوعان: مُطلق، ومُقيد، فهنا لا شك أن حُذيفة رضي الله عنه امتاز عن الصحابة بما أخبره به النبي ﷺ من أسماء هؤلاء المنافقين، لكنه لا يلزم من هذا أن يكون أفضل ممن له فضلٌ مُطلق عليه، كأبي بكر وعمر ومن أشبههما، وعليه فإننا لا نعلم عما في قلوب هؤلاء ولكن الله يُميِّزهم بما يُطلع عليه نبيه ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ والذي اجتباه من الرسل في عهد النبوة المُحمدية هو مُحمد ﷺ، ولا نبي غيره.

ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني: حقِّقوا إيمانكم بالله ورسله، وذلك بالتصديق التام، والانقياد والإذعان بدون اعتراض، لا على القضاء والقدر، ولا على الحكم الشرعي. وهكذا حال المؤمن حقًّا وهو الانقياد لأمر الله الكوني فيرضى به، والانقياد لأمر الله الشرعي فينفِّذه ويُذعن له، مع أن الانقياد للحكم الكوني يعمُّ كل أحدٍ سواء طوعًا أو كرهًا.

قوله: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ جمع رسول، والرسل هم الذين كلَّفهم الله تعالى بما أوحى إليهم أن يعملوا به ويدعوا إليه، ويُبلِّغوا الناس، ولهذا قال جمهور العلماء في تعريف الرسول: أنه مَنْ أوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه، والنبي من أُوحي إليه بشرعٍ يتعبَّد به ولم يُكلَّف أن يُبلِّغه الناس، فآدم عليه الصلاة السلام نبي، ولكنه ليس رسولًا، فإنه نُبِّئ ليس عنده أحدٌ وصار يعمل بما يوحى إليه واتبعه على ذلك ذريته، ولما طال الزمن واختلف الناس، احتاجوا للرسالة، فأرسل الله إليهم، وأول من أرسل إليهم نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الإيمان بالله يتضمَّن أربعة أمور:

الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته. لابد من هذا

كله، فمن نقص شيئًا منها فإنه لم يؤمن بالله حقيقة.

والإيمان بالرسل يتضمن تصديقهم فيما جاءوا به من الوحي، ويتضمن التعبُّد لله بشريعتهم على من أُلزموا باتباعه، وبعد بعثة النبي ﷺ لم يُلزم الخلق إِلَّا باتباع النبي مُحمد ﷺ، فإنَّ شريعته نسخت جميع الأديان. إذن كيف نؤمن بعيسى مثلًا؟ نؤمن بأنه رسول الله حقًا، وأن الله أنزل إليه الكتاب، وأنه صادق بما جاء به من الرسالة، وأما شرعه فلسنا مأمورين باتباعه، فنحن مأمورون بالإيمان به فقط.

قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إن تؤمنوا بقلوبكم وتتقوا بجوارحكم، فلكم أجرٌ عظيم، (الإيمان بالقلب) هو: الإقرار المتضمِّن للقبول والإذعان. و(التقوى) هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله عزَّ وجلَّ، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، ولكن ليعلم أن التقوى قد تقرن بالبِرِّ، وقد تُقرن بالإحسان ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ [النساء: ١٢٨]، وقد تُقرن بالإصلاح، فإذا قُرِنتْ بمثل هذا تُفسر بأن المراد بها تقوى المحارم، يعني: اجتناب محارم الله، أما إذا أُطلقت فإنها تشمل الأوامر والنواهي، وهذا كثير، فإن من الأسماء ما إذا قُرن مع غيره صار له معنى، وإذا وُحِّدَ صار له معنى، لكن أيها أشمل أو أعم إذا قُرِن أو إذا أُفرد؟.

الجواب: إذا أُفرد؛ لأنه إذا قُرِن مع غيره فهذا الذي قُرن معه سيأخذ جانبًا كبيرًا من المعنى.

قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

الفاء هنا واقعة في جواب الشرط، لربط الجملة الجوابية بالجملة الشرطية الفعلية، وإنما قُرنت بالفاء؛ لأن الجواب وقع جملة اسمية، وهناك بيت جمع المواضع التي يقترن فيها جواب الشرط بالفاء وهو:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وبِالتَّنْفِيسِ

معناه: أن هذه الجمل السبع إذا وقعت جوابًا للشرط فيجب أن تقترن بها الفاء.

وقوله: (أجرٌ) يعني: ثوابًا، وسَمّى الله الثواب أجرًا من باب التكرُّم والتفضُّل كأننا نحن مُستأجَرين أدَّينا العمل، فنطالب بالأُجرة، مع أن الحقَّ لله علينا لكنه عزَّ وجلَّ أوجب على نفسه أنه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤].

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فهل الله فقيرٌ حتى نُقرضه؟ كلا، ولكن هذا من باب إظهار التزام الله عزَّ وجلَّ بالوفاء لعبده إذا أوفى بعهده: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله: ﴿عظيم﴾ هذا وصف من الله عزَّ وجلَّ لهذا الأجر، والوصف بالعظم من العظيم يدلُّ على عظمه؛ ولهذا قال النبي ﷺ في حديث الدعاء الذي علَّمه أبا بكر ﵁: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1] أضافها إلى عندية الله عزّ وجل.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله عزَّ وجلَّ لابد أن يُميِّز الخبيث من الطيب؛ لقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فإن قال قائل: بماذا يحصل التمييز؟

قلنا: يحصل بالوحي في عهد النبوة، ويحصل بالقرائن في غير عهد النبوة وفي عهد النبوة أيضًا، فإن القرائن قد تُبيِّن الخبيث من الطيب بحيث نلاحظ أعماله وننظر كيف يسير وكيف يعمل، فيتبيَّن لنا خبثه من طيبه.

٢ - بيان رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده حيث لا يتركهم هكذا يشتبه بعضهم ببعض، بل لابد من ميْز هذا عن هذا.

٣ - بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ في أفعاله وشرعه أيضًا؛ لقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

٤ - انقسام الناس إلى خبيث وطيب؛ لقوله: ﴿يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وهذا كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولم يذكر قسمًا ثالثًا، وكقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] ففي العمل قسَّم الله الناس إلى قسمين، وفي الجزاء أيضًا قسَّمهم إلى قسمين.

فإذا قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الخوارج الذين يقولون: إن الناس إما مؤمن أو كافر. ولا يمكن لأحد أن يجمع بين الإيمان والكفر؟

الجواب: أن يُقال: ليس فيه دليل على مذهبهم؛ لأن المؤمن إذا لم يفعل ما يخرج به من الإيمان فإنه لا يصدق عليه وصف الخبيث على سبيل الإطلاق، بل هو من قسم الطيب، لكنَّ فيه خبثًا، وهذا الطيب غلب على خبثه، كما أن الكافر وإن فعل ما يُحمد عليه، كالبر والجود والشجاعة، وطلاقة الوجه، وما أشبه ذلك، هذه خصال إيمان، لكن خُبثه أعظم من هذه الخصال فهو من قسم الخبثاء، وليس من قسم الطيبين، إذن نقول: هؤلاء المؤمنون الذين عندهم صفات كفر من قسم الطيب الذي فيه خبث، لكن طيبه يغلب على خبثه، والكفار الذين فيهم خصال من الطيب من قسم الخبيث، لكن الطيب الذي فيهم قد انغمر في جانب الخبث، وعلى هذا فليس هناك قسم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

ثالثٌ بل هما قسمان.

٥ - أن من ادَّعى علم الغيب فهو كاذب، وتؤخذ من: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بل هو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ولأنه إذا ادَّعى علم الغيب فقد كذَّب بمضمونها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، ولكن ما المراد بالغيب؟.

المراد بالغيب هنا: ما غاب غيبًا مُطلقًا، وذلك الذي يكون في المستقبل، أما الشيء الحاضر، ولكنه غائبٌ عن أُناسٍ دون أُناس؛ فهذا قد يطَّلع عليه الإنسان، وإن لم يُشاهده، فالجن يسيحون في الأرض، يذهبون شمالًا ويمينًا، وهم سريعو التصرف فربما يسعون في الأرض ثم يُخبرون أولياءهم بما شاهدوا في أراضٍ بعيدة، فيكون هذا غيبًا إضافيًّا.

ومعنى الغيب الإضافي: أي بالإضافة إلى قوم دون قوم، فالذين شاهدوه ليس غيبًا عندهم، أما البعيدون عنه فإنه غيب عندهم، ويُقال: المغيب النسبي.

فالمراد بالغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله هو: الغيب المُطلق، هو الذي يكون في المستقبل، فهذا لا يطلع عليه إلَّا الله، فإن قال قائل: ألسنا إذا رأينا السماء مُدْهِمَّةً والرعد قاصفًا، والبرق خاطفًا، أننا نتوقَّع المطر؟!.

الجواب: بلى، فإذا قلنا ستُمطر، فليس هذا من علم الغيب، بل هذا ظن مبنيٌّ على القرائن، وقد يُخطئ ظننا وقد يأمر الله هذا السحاب فيتمزَّق ولا يُمطر، ولكن حسب ما نتوقَّع، ولسنا نقول هذا علم، والخلاصة أن الغيب هنا هو المُطلق، وهو الذي يكون في المستقبل، أم الغيب الإضافي النسبي فهذا قد يُطلع الله عليه من يشاء من عباده، بواسطةٍ كالجن مثلًا، فالجن يعلمون ما حصل في الأرض، ويُخبرون به أولياءهم، وأولياء الجن قد يكونون متقين وقد يكونون مجرمين، فإن كانت ولاية الجن لهم بسبب الشرك فيهم، كالذبائح للجن وما أشبه ذلك، فهذه ولاية إجرام، لكن يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إن الجن قد يتولون المؤمن لإيمانه، يحبونه في الله، ويخدمونه في أمره، قال: وهذا جائز بشرطين: إلَّا تكون وسيلة استخدامهم مُحرَّمة، وإلَّا يستخدمهم في مُحرَّم، فمثلًا إذا قالوا: لا نخدمك حتى تسجد لنا، فهذا حرام وشرك، وإذا قالوا: لا نخدمك حتى تُدخل فلانًا السجن، فهذا حرام لكنه ليس بشرك، يعني خدموه بدون شرك، لكن استخدمهم في شيء مُحرَّم. فلو قال قائل: إن استخدامهم حرام بكل حال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وهذا يدل على أن استمتاع الإنسي بالجني مُحرم بكل حال، فالجواب عن ذلك أن نقول: اقرأ الآية التي بعدها حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:

١٢٩] فهذا الاستمتاع استمتاع في ظلم، ولا شك أنه حرام، أما إذا كان استمتاعًا بما ينفع وخلا من المحرم في طريقه أو في استخدامه فإن هذا لا بأس به.

٦ - أن الله قد يُطلع الخلق على الغيب بواسطة الرسل؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٧ - أن الرسل ممن اجتباهم الله واصطفاهم على الخلق، وهذا موجود في القرآن، بأن الأنبياء هم الصفوة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].

٨ - إثبات المشيئة لله عزَّ وجلَّ، في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ولكننا نقول: كل شيء علَّقه الله بالمشيئة، فإنه لابد أن يكون مقرونًا بالحكمة، ليست مشيئةً مُجرَّدة، بل لابد أن تكون مقرونة بحكمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] فقال: أشار إلى أن مشيئته تتبع علمه وحكمته.

٩ - وجوب الإيمان بالله ورسله عمومًا؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وقد بيَّنا في التفسير كيفية الإيمان بالرسل، وأنه يؤمن بأنهم حقٌّ، وجاءوا من عند الله وهم صادقون، أما الاتباع فهو خاصٌّ بالنبي ﷺ.

١٠- فضيلة الإيمان والتقوى، وأنه يترتب عليهما الأجر العظيم.

١١- بيان مِنة الله على العباد، حيث جعل إثابتهم على العمل بمنزلة الأجر المتقرَّر لهم، كأن شخصًا استأجر أجراء وأعطاهم أجرهم فرضًا إلَّا أنه تعالى هو الذي فرض ذلك على نفسه.

١٢- إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل، فكما أن الإيمان والتقوى يُعتبر أمرًا عظيمًا ظاهرًا وباطنًا، فكذلك الأجر، كان أجرًا عظيمًا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]

التفسير

﴿يَحْسَبَنَّ﴾: فيها ثلاث قراءات:

الأولى: ولا يحسِبنّ.

الثانية: ولا يحسَبنّ.

والثالثة: ولا تحسَبنّ بالخطاب.

وكلها قراءات سبعيَّة، يُسنُّ للإنسان أن يقرأ بهذه أحيانًا، وبهذه أحيانًا، إلَّا أنه لا ينبغي أن يقرأ بالقراءة الخارجة عن المصحف أمام العامة؛ لأن ذلك قد يوجد فتنة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يظن الذين يبخلون بما آتاهم الله. والبخل هو: المنع مع شحٍّ، ولهذا عُدِّي بالباء، ولم يقل: (يبخلون ما آتاهم) بل قال: يبخلون به، أي: يمنعونه مع شح يعني: يشِحُّون به.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ أي: بما أعطاهم الله من فضله، وفيه إشارة إلى أن هذا البخل في غير موضعه؛ لأنهم بخلوا بشيءٍ ليس من كسبهم، ولا من كدِّهم، وهذا من الحمق البالغ، إذ إن الأمر يقتضي أن الذي أعطاك إذا أمرك أن تصرفه في شيء، أن تصرفه فيه كما أمرك؛ لأنه فضله.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من خيره؛ لأن الفضل في الأصل هو الزيادة، فالإنسان قد يعمل عملًا يؤمِّل أن يكسب فيه ألفًا، فيكسب ألفين أو أكثر من فضل الله عزّ وجل.

قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثانٍ لـ (يحسب) والمفعول الأول محذوف تقديره: بخلهم هو خيرًا لهم. يعني: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ كما ذكر الله عزّ وجل.

وقوله: (هو خيرًا لهم) (خير) هنا اسم تفضيل، فلابد فيه من مفضَّل، ومفضَّل عليه، فالمفضَّل عليه هو البخل، هو خير لهم من العطاء. يعني: لا يظنُّوا أن البخل خيرٌ لهم من العطاء، فهم يظنُّون أن البخل أفضل لهم من العطاء، وهذا الظن خطأ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال**»[1]. وكم من إنسان يزداد ماله بالصدقة، ولا تُنقِص الصدقة مالًا مع الاحتساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

ومعنى ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يأتي بخلَفِه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾:

أي: شرٌ لهم من العطاء، والعطاء ليس فيه شر، ولكن الله خاطب هؤلاء بحسب اعتقادهم، حيث يظنُّون أنهم إذا أنفقوا ضاق عليهم الرزق، فيقول القائل منهم: أنا عندي ألف، إذا أنفقتُ منه مائةً نقص، وصار تسعمائة، فيظنون أن هذا شر، فيقول الله عزَّ وجلَّ: إن المنع هو الشر، ولهذا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣٥)، والترمذي (٢٠٢٩).

قال: ﴿بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾. شرٌ من العطاء، فالعطاء خيرٌ، والمنع شر.

وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾ إضراب إبطالي، وقد يأتي الإضراب في القرآن انتقاليًّا كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] فالثاني لا يبطل الأول بل يؤكده.

ثم قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

(السين) يقول علماء النحو: إنها للتنفيس، وتُفيد التحقيق. والتنفيس معناه: حصول الشيء عن قرب، والتحقيق واضح، يعني: أن كلمة ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ أبلغ في التحقيق من كلمة (يطوّقون)؛ لأن السين تُفيد التحقيق وتُفيد أيضًا التنفيس، فتفيد ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ أن هؤلاء سوف يُعاقبون هذه العقوبة حتمًا وعن قرب، ومن أين أخذنا الحتمية؟

الجواب: من السين الدالة على تحقق وقوع العذاب، وأخذنا القرب؛ لأن التنفيس الذي تدلُّ عليه السين معناه القرب، فإذا قال قائل: إن تحققه معلوم، ولكن كيف يكون قريبًا؟ قلنا: إن يوم القيامة قريب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧] فيوم القيامة وإن كان بعيدًا في نظر الناس، لكنه في الحقيقة قريب، وانظر إلى الأيام كيف تنطوي بسرعة حتى تنتهي، لتعرف أن يوم القيامة وإن بَعُد أمده فهو في الحقيقة قريب.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

أي: سيُجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم. والطوق معروف مثل طوق القميص يحيط بالعنق، وقد بيَّن النبي ﷺ كيف يكون هذا التطويق فقال: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتِيهِ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا مَالُكَ**»(١). قال العلماء: الشجاع الأقرع هو: الذكر من الحيَّات. والأقرع: كثير السُّم؛ لأن رأسه من كثرة سمِّه قد تمزّق شعره، فهو أقرع.

«**وله زبيبتان**»: أي غدَّتان تُشبهان الزبيب، قد امتلأتا من السُّم.

«**فيأخذ بلهزمتيه**» أي: شدقيه كما جاء مُفسَّرًا في الحديث. ويقول: أنا كنزك، أنا مالك: يقول ذلك توبيخًا له فيزداد بذلك حسرة.

هذا هو تفسير الآية الكريمة كما فسَّرها النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ يُعبِّر الله تعالى عن الجزاء بالعمل نفسه، وهو كثير في القرآن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٠٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٩٨٧).

مثل: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكأنه هو العمل نفسه، فلهذا يُعبِّر الله عن الجزاء بالعمل كثيرًا.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (يوم القيامة): هو يوم يبعث الناس، وسُمِّي يوم القيامة لوجوه ثلاثة: يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويقوم فيه الأشهاد، ويقوم فيه العدل.

فالوجه الأول: يقوم فيه الناس لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

والثاني يُقام فيه القسط؛ لقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والثالث: يُقام فيه الأشهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] فلهذا سُمِّي يوم القيامة.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (لله): اللام هذه للاختصاص، والجار والمجرور خبر مُقدم، وتقديمه يفيد الحصر، أي: أنه له وحده عزّ وجل.

وَ (الميراث): انتقال المال من سابق إلى لاحق، كانتقاله من الميت إلى الحي. فالذي يرث السموات والأرض ويبقى بعدها هو الله سبحانه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يتحوَّل ميراثها إِلَّا إليه وحده عزَّ وجلَّ، ومناسبة هذه الجملة لما قبلها واضحة، وذلك أن الذي يبخل بماله إنما يبخل به ليبقى له، فبيَّن الله أنه لن يبقى له، لابد أن يموت ويرثه ورثته ثم يموتون ويرثهم ورثتهم وهكذا إلى أن ينتهي الإرث إلى الله عزّ وجل. فالمناسبة إذن بين هذه الجملة وما قبلها ظاهرةٌ جدًّا.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيها قراءتان (تعملون) و(يعملون). وخَتْمُ الآية هذه بهذا الاسم وهو الخبير واضح المناسبة؛ لأن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله قد لا يطَّلع عليهم الخلق، فالإنسان قد يكون عنده ملايين ولا يعلم الناس عنه، ويبخل بزكاتها ولا يُعْلَم عنه، فبيَّن الله تعالى أنه خبير بعملهم، والغالب أن من منع الحق في ماله سُلِّط على هلكته في الباطل، يعني: فتح له أبوابًا من الباطل يَصرف فيها ماله فيكون مانعًا لما يجب، واقعًا فيما يحرم، ولهذا هدَّدهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١- تهديد من بخل بما آتاه الله من فضله، وسبق لنا أن البخل المتوعد عليه هو منع الواجب في المال.

٢ - أن الشيطان قد يَغُرُّ الإنسان فيقول: لا تُنفق فيهلك مالك؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾، ولا شك أن هذا هو الواقع، ودليل ذلك أن الله يُحذِّرنا دائمًا من هذا الشيطان ويقول: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]، وأول من يغُرُّنا بالله هو الشيطان.

٣ - إقامة اللوم والتوبيخ على هؤلاء الذين بخلوا؛ لقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: كيف يبخلون بشيءٍ ليس من كسبهم ولا مِن كدِّهم، بل هو من فضل الله، فيبخلون به في طاعة الله.

٤ - أن ما أوتيه الإنسان من علم أو مال أو ولد، فإنه من الله عزَّ وجلَّ، فالولد لا يقول الإنسان: أوتيته بسبب أني تزوَّجت، وأتيتُ أهلي، والعلم لا يقول: أوتيته لأني سعيت فيه، والمال كذلك لا يقول: أوتيته لأني سعيت فيه؛ لأن الجميع من فضل الله، فتوفيقك للسعي في هذا الأمر من فضل الله، ثم حصول النتيجة التي كنت ترجوها من فضل الله، فكم مِن إنسانٍ خُذل فلم يسعَ، وكم مِن إنسانٍ سعى ولم يحصل على ثمرة، فأصل السعي والثمرة كلها من الله؛ ولهذا قال: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٥ - تحذير الباخلين من البخل؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾.

٦ - أن الإنسان قد يُزيَّن له سوء عمله فيظنه حسنًا، فالبخل خلق سيئ وعمل سيئ، قد يُزيَّن للإنسان فيبخل مع أنه من الأعمال السيئة، والأخلاق السيئة.

٧ - إثبات الجزاء، بل إثبات العقوبة العظيمة على هؤلاء الباخلين، وهي أنهم يُطوَّقون به يوم القيامة، حين لا ينفعهم الندم ولا يمكنهم الخلاص.

٨ - تحقُّق وقوع الجزاء؛ لقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ وذلك بواسطة السين.

٩ - إقامة الحجة على أن هذا البخل ليس بنافع أصحابه، مأخوذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فبخلهم لن يُخلِّدهم في الدنيا، ولن يخلَّد المال لهم، بل هم سوف يُجازون عليه، وسوف ينتقل المال منهم إلى ورثتهم، ومن ورثتهم إلى الآخرين حتى ينتهي الأمر إلى الله عزّ وجل.

١٠ - إثبات علم الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، (بما يَعْمَلونَ)، و ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان. (خبير) لأن الخِبرة كما قال العلماء: هي العلم ببواطن الأمور، ومن المعلوم أن العليم ببواطن الأمور عليم بظواهرها من باب أولى.

١١ - الإشارة إلى اسم الله «الآخِر»، فإن الله هو الأول والآخر، وذلك من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإذا ثبت إرثه لهما لزم منه أن يكون هو الآخِر عزّ وجل.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]

❁ التفسير ❁

القراءات في هذه الآية:

(سنكتب) و (قتل) و (الأنبياء) و (نقول).

كل واحدة منها فيها قراءتان: فقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ...﴾ تُقرأ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ﴿وَنَقُولُ﴾: بالنون، وبناءً على هذه القراءة تكون (ما) مبنية على السكون في محل نصب مفعولًا به، وتكون (قتلَ) معطوفة على المفعول به (ما)، والمعطوف على المنصوب منصوب.

وعلى القراءة الثانية (سيُكتب ما قالوا) تكون (ما) مبنية على السكون في محل رفع نائب فاعل، وتكون (قتلُ) معطوفًا على نائب فاعل فتكون بالرفع، وعليه فلا يجوز أن تُقرأ (سنكتب ما قالوا وقتلُهم الأنبياء بغير حق) برفع (قتل)؛ لأنه لا يُرفع إلَّا إذا قرأنا (سيُكتب ما قالوا وقتلُهم الأنبياء بغير حق ويقول). (يقول) بالياء توافق قراءة (سيُكتب).

أما الأنبياء ففيها قراءتان: «الأنبئاء» و «الأنبياء» ... بالياء كما في «النبيين» وبالهمزة كما في «النبئين»..

فعلى قراءة (الأنبئاء) تكون من (النبأ) بالهمز، وهو الخبر. وعلى قراءة الياء تكون من (النَّبْوة) وهي الارتفاع.

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ أكد الله هذا الخبر بثلاثة مؤكدات:

الأول: القَسم المُقدَّر؛ لأن اللام هنا واقعة في جواب قسم.

والثاني: (قد).

والثالث: اللام في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾.

وإنما أكده سبحانه وتعالى للمبالغة في تهديد هؤلاء، وأما نحن المؤمنين فإننا نعلم أنه بمجرد ما يُخبرنا عن شيء فهو مؤكد، لكن من أجل تهديد هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾:

﴿سَمِعَ﴾ هنا بمعنى: أدرك هذا القول جلّ وعلا، أي سمعه سماعًا، ولا نقول بأذنه؛ لأنه لم يثبت لنفسه ذلك جل وعلا؛ ولأنه لا يلزم من السماع الأذن، بخلاف قولنا: (استوى على العرش). فنقول: بذاته سبحانه وتعالى؛ لأن الله أضاف الفعل إلى نفسه، أما هنا فلا نقول سمع بأذنه؛ لأنه لا يلزم من السماع ثبوت الأذن، فها هي الأرض يوم القيامة تُحدِّث أخبارها، أي تُخبر عما فعل الناس عليها، أو عما قالوا عليها، مع أنه ليس لها أذن، والجلود والأيدي والأرجل تشهد يوم القيامة على الإنسان بما عمل، وهي ليس لها آذان، إذن لا يجوز أن نقول: إن الله له أذن بناءً على أن الله أثبت له السمع، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائل: ألستم أثبتم لله عينًا؟ نقول: بلى. ولكن كيف أثبتنا؟ أهو من طريق أنه يرى أو من طريق أنه أثبت لنفسه عينين؟ الجواب: الثاني، فلولا أن الله أثبت لنفسه سبحانه وتعالى عينين ما جاز لنا أن نُثبت العين، ولهذا نحن نؤمن أن الله يتكلم، ولكن لا نقول باللسان، لأن الله لم يُثبت ذلك لنفسه، ولا يلزم من الكلام ثبوت اللسان، بدليل أن الأرض تُحدِّث أخبارها، والجلود تشهد، ويقول صاحب الجلد لجلده: لِمَ شهدت عليَّ؟ فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فُصِّلَت: ٢١] ولا تقول: لي لسان وشفتان.

قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾

وهم أُناس من اليهود منهم رجلٌ يُسمى (فِنحاص) ولكن الله عزَّ وجلَّ في كتابه لا يذكر شيئًا خاصًّا إِلَّا لسبب، لابد من تعيين الشخص، ولهذا لم يذكر الله عزَّ وجلَّ أحدًا باسمه في القرآن من هذه الأمة إِلَّا رجلًا مؤمنًا ورجلًا كافرًا فقط. الرجل المؤمن زيد بن حارثة ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والرجل الكافر من هذه الأمة أبو لهب؛ لأن الوصف أكثر فائدةً لوجهين:

الأول: أنه قد تتغير حال المعيَّن، يكون بالأول فاسقًا ماردًا كافرًا، ثم يسلم ويتوب الله عليه، فإذا تاب ولم يذكر اسمه في القرآن كان أحسن مما لو ذكر، فإنه لو ذكر اسمه لبقي العار عليه ولو تاب.

الثاني: أنه أعمُّ؛ لأن تعليق الحكم بالوصف أعَمُّ من تعليقه بالشخص، ولهذا إذا عُلِّق الحكم بالشخص احتمل الخصوصية، وإذا قلنا بعمومهِ – بعموم الحكم المُعلق الشخص – فإنه ليس عمومًا شموليًّا، ولكنه عمومٌ تمثيلي، يعني: بالقياس، إذن ينبغي لنا في مثل هذه الأمور أن لا نُعيِّن الشخص بعينه، فإذا أردنا مثلًا أن نتكلم على صحيفةٍ خبيثةٍ فالأولى إِلَّا نعينها بل نقول: قالت بعض الصحف، وإذا ذكرنا الكلام عُرف. أولًا: لأن الصحيفة قد تتغير، والثاني: أنه إذا حصرنا وعيَّنّا فقد يفهم السامع أنه لا يوجد سوى هذه الصحيفة، ولكن إذا عمَّمنا وجعلنا الحكم مُعلقًا

بالوصف شمل غيرها، وصار هذا أنفع، وهذه مسألة دلَّ عليها القرآن وكذلك السُّنة أيضًا تدل عليها، كان الرسول ﷺ لا يقول: ما بال فلان يقول كذا؟ بل كان يقول: ما بال أقوام، من أجل الفائدتين اللتين أشرنا إليهما.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾:

هؤلاء هم اليهود، وسبب قولهم هذا أن الله قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فرحت اليهود بهذا وجاءت إلى النبي ﷺ وقالت: يا محمد، إن ربك قد افتقر لأنه يطلب القرض منا - نسأل الله العافية - ولم يعلم هؤلاء البُلهاء إن كانوا صادقين فيما ادّعوا وهم كاذبون في هذا، لكن تنزلًا معهم نقول: إن الله عزَّ وجلَّ جعل الإنفاق في سبيله له بمنزلة القرض إشعارًا للمنفق بأن سوف يُجازى عليه، كما أن المقترض يجب عليه أن يوفي مُقرضه، فهكذا جعل الله العمل له بمنزلة القرض تفضلًا منه عزَّ وجلَّ وإحسانًا للعباد، واليهود لا يُستغرب منهم أن يصفوا الله بمثل هذا، فهم قالوا: يد الله مغلولة، فوصفوه بالبخل، وهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم تعب واستراح يوم السبت، ولهذا يجعلون يوم السبت هو يوم الراحة عندهم - قاتلهم الله - وهم كاذبون في هذا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وليتهم اقتصروا على هذا القول - مع كونه من أعظم المناكر - لكنهم قالوا: (ونحن أغنياء) فجعلوا أنفسهم أكمل من الله، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة.

قال الله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾.

وإضافة الكتابة إليه؛ لأن جنوده يكتبون ذلك، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١١]، وقوله تعالى وهي أصرح: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٠]، إذن الكتابة هنا كتابة الله عزَّ وجلَّ بملائكته؛ لأنهم يكتبون بأمره وهم جنده، كما يقول القائد: فعلت كذا، والفاعل الجنود، فالملك والسلطان يتكلم بالشيء مُضيفًا إياه إلى نفسه؛ لأنه حصل بأمره وسلطته، إذن سنكتب ما قالوا بملائكتنا، والله عزَّ وجلَّ أحيانًا يضيف الشيء إلى نفسه مُريدًا به الملائكة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]، أقرب إليه بالملائكة ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ مما يدل على أنه أي: القريب في نفس المكان لكننا لا نبصره، وهم الملائكة. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] الراجح فيها أن المراد أقرب إليه بملائكتنا بدليل قوله: ﴿إِذْ

﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وهذا ما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع من كلامه، منها كلامه في شرح حديث النزول وهو مشهور ومتداول.

يقول: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾:

هل هو لمجرد الاطلاع عليه أو للمجازاة؟ الجواب: للمجازاة بدليل ما يأتي في آخر الآية قال: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر قتل الأنبياء بغير حق مع أنهم لم يقولوا: إنا قتلنا الأنبياء، لكن ليبين أن هؤلاء اعتدوا على حق الله وعلى حق رسله وأنبيائه، فقتلوا الأنبياء بغير حق، وهو شامل لقتل الأنبياء والرسل؛ لأن كل رسولٍ نبي.

قاعدة: وهي أن الأنبياء المذكورين في القرآن رسلٌ، فما نجد نبيًّا ذُكر في القرآن إِلَّا وهو رسول، والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، فإن استقام هذا فالأمر واضح، وإن لم يستقم فنقُل: إن المقصود بهم الأنبياء الذين لم يوحَ إليهم بشرع جديد يُبلِّغونه الناس.

وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: (بغير حق) هذا قيد كاشف وليس احترازي، يعني: أن قتلهم للأنبياء بغير حق، وليس المعنى أن الأنبياء ينقسم قَتْلهم إلى قَتْل بحق وقَتْل بغير حق، فكل قَتْل للأنبياء إنما هو بغير الحق، ومع ذلك لا يقتلون النبي لشخصه، وإنما يقتلونه لما جاء به من الحق أي أنهم يقتلونهم لكونهم أنبياء. ففي هذا القيد فائدتان: الأولى: بيان الواقع، فهي صفة كاشفة. والثانية: المبالغة في التشنيع عليهم، فإنه يقتلونهم بغير حق.

وقوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وذلك يوم القيامة أو في القبر أيضًا، والقول هنا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ يقصد به الإهانة والإذلال وإِلَّا فإنهم سيذوقون عذاب الحريق، قيل لهم ذلك أم لم يُقل، فهو حق.

ومن هذا الباب قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. يُقال له: وهو يُعذب في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ إهانةً له، أي: أن عزك وكرمك لم ينفعك.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - إثبات سمع الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، والسمع هنا بمعنى: إدراك الصوت وإن خفي.

والمراد به هنا (التهديد)، والعلماء رحمهم الله قسَّموا سمع الله عزَّ وجلَّ إلى قسمين:

الأول: بمعنى الاستجابة.

والثاني: بمعنى إدراك الأصوات.

أما السمع بمعنى الاستجابة فهو كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] ﴿سَمِعْنَا﴾: يعني بآذانهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي لا يستجيبون.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا﴾ [التغابن: ١٦] «اسمعوا» يعني: سمعَ استجابةٍ. ومنه قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: لمستجيب الدعاء.

وهذا القسم من السمع معلوم أنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلَّق بمشيئة الله.

والقسم الثاني من السمع: سمع الإدراك، قالوا: إنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يُراد به التهديد، وقسم يُراد به التأييد، وقسم يُراد به بيان الإحاطة والشمول لسمع الله، فأما الذي يُراد به التأييد كقوله تعالى لموسى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، والمراد بالسمع هنا: التأييد، وقد يقول قائل: والتهديد بالنسبة إلى فرعون. وأما ما يُراد به التهديد فمثل هذه الآية: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وأما الذي يُراد به بيان شمول علم الله وسمعه فمثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في طرف الحجرة، وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها، والله عزَّ وجلَّ فوق عرشه فوق سبع سموات يسمع كلام هذه المرأة[1]، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] أي: تحاور الرسول والمرأة سمعه الله.

٢ - بيان ما عليه اليهود من الوقاحة والعدوان حيث اعتدوا على الربِّ عزَّ وجلَّ بوصفهم إياه بأنه فقير.

٣ - أنهم لشدة عتوِّهم وبغيهم لم يقتصروا على أن وصفوا الله بأنه فقير، بل قالوا: ونحن أغنياء، فهم بذلك أثبتوا الكمال لأنفسهم والنقص لله عز وجل.

٤ - إثبات الكتابة لله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾، ولكننا ذكرنا أن المُراد هنا الملائكة التي تكتب بأمره، وذكرنا لهذا دليلًا: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٠].

٥ - أن اليهود كما اعتدوا على الله اعتدوا أيضًا على رسل الله، فقتلوا الأنبياء بغير حق، فصار منهم عدوان على مقام التوحيد ومقام الرسالة، فلم يُحققوا شهادة أن لا إله إلَّا الله ولا أنَّ رسلَ الله رسلُ الله.

٦ - إثبات القول لله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ والله سبحانه

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وتعالى قد ثبت له القول بإجماع السلف أن يقول ويتكلم بكلام حقيقي بحرف وصوت مسموع، وهذا الكلام صفة من صفات الله ليس بمخلوق.

وقالت المعتزلة والجهمية: أنه خَلْقٌ من مخلوقاته، هو كلامه لكنه خلق من مخلوقاته.

وقالت الأشاعرة ومن ضاهاهم: إنه لا يتكلم بكلام مسموع، وكلامه هو الكلام القائم بنفسه والذي يسمع عبارة عنه أو حكاية، وهو مخلوق فالمسموع مخلوق.

وقد ذكر ابن القيم أن شيخ الإسلام رحمهما الله أبطل هذا القول من تسعين وجهًا في رسالة تُسمى «التسعينية».

٧ - أن هؤلاء سوف يذوقون العذاب بالألم البدني والألم النفسي في قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، ففي الحريق: ألم بدني وفي قوله (ذوقوا): ألم نفسي؛ لأن هذا توبيخ وإهانة، فالأمر هنا للتوبيخ والإهانة.

٨ - الردُّ على من قال: إن أهل النار لا يذوقون العذاب؛ لأن أجسامهم تأخذ على النار وتتكيف بها، فيُصبحون لا يذوقون ألمًا؛ لقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

٩ - بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ حيث يحترق هؤلاء وتنضج جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، ومع ذلك لا يموتون مع أن مثل هذا الحريق لو أصاب أحدًا في الدنيا لهلك كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣] فلا يموت ويستريح ولا يحيا حياةً هنيئة.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]

❁ التفسير ❁

هذا من تمام قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: يُقال لهم زيادة في التوبيخ والندم والحسرة ذلك، أي ما أصابهم من العذاب والتوبيخ، فالمشار إليه ما سبق في قوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وهنا قال: (ذلك) مع أنه يتحدَّث عن جماعة وأتى بكاف الخطاب المُفردة؛ لأنه مرَّ علينا قريبًا أن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وأن الكاف بحسب المخاطب على اللغة الفصحى، أو هي بفتح الكاف مفردة للمذكر وبكسرها مفردة للمؤنث، أو هي بفتح الكاف المُطلقة، وكلها لغات، لكن الأكثر أنها بحسب المُخاطب.

قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب، فالباء هنا للسببية. و(ما) اسم موصول بمعنى

الذي، أي: بالَّذي، وقوله: ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾: أي في الدنيا. والمراد بالأيدي هنا: أنفسهم، لكن أُضيف العمل أو المقدَّم بالأيدي؛ لأن الغالب أن الأيدي هي محل البطش والعمل، وإلَّا فمن المعلوم أنه قد قدَّمت أيديهم وألسنتهم وأرجلهم، فكلها عملت بالشرك.

قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ﴿وَأَنَّ﴾ هنا بالفتح عطفًا على (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ أي: وذلك بأن الله ليس بظلامٍ للعبيد.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ﴾، (ظلّام) على صيغة المبالغة، ولكنها في نفس الوقت على صيغة النسبة، والفرق بينهما: أن صيغة المبالغة تدلُّ على الكثرة، والنسبة تشمل الكثرة والقِلَّة، فهل المراد هنا صيغة المبالغة أم النسبة؟ المُراد: النسبة، لأننا لو قلنا: إن المراد بذلك صيغة المبالغة لكان المنفي كثرة الظلم، مع أن الله لا يظلم مثقال ذرَّة، وعلى هذا فنقول: (ظلاَّم) هنا نسبة، أي: ليس بذي ظلم، كما نقول: فلان ليس نجارًا، يعني: ليس بذي نجارة، أي ليس منسوبًا إلى النجارين.

وقوله: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ جمع عبد، وعبد: اسم مفرد، وهو من أكثر المفردات جموعًا، وله جموعٌ متعدِّدة كثيرة، مثل: (شيخ) اسم مفرد له جموع كثيرة تصل إلى عشرة جموع.

و(العبيد) هنا: المُراد بهم: العبيد كونًا. فهو لا يظلم أحدًا من العبيد كونًا، وإنما قلنا كونًا لندفع أن المراد بذلك العبيد شرعًا، وهو المتعبِّدون لله، فالعبودية في هذه الآية هي العبودية العامة والشاملة للكافر والمؤمن، فالله لا يظلم كافرًا، ولا يظلم مؤمنًا، بل يُجازِي كل إنسان بعمله.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - إثبات الأسباب، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

٢ - نفي الظلم عن الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّـٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ وهنا نقف لنُبيِّن أن الله سبحانه وتعالى موصوف بالإثبات وموصوفٌ بالنفي، أما الإثبات: فإن الله عزَّ وجلَّ وصف نفسه بإثبات كل صفة كمال، فكل صفة كمال فهي ثابتة لله عزَّ وجلَّ، وميزان الكمال نصوص الكتاب والسُّنة، ولهذا نحن لا نحكم على الله فنقول: هذه صفة لائقة بالله عزَّ وجلَّ، وهذه صفة غير لائقة به، بل المرجع في هذا إلى الكتاب والسُّنة في التفصيل، أما في الإجمال، فالعقل يدل على أن الربَّ لابد أن يكون كاملًا.

أما الصفات المنفية: فإنه لا يُراد بها مجرد النفي، بل المُراد انتفاء هذه الصفة لثبوت كمال الضد، فإذا نفى أن يكون ظلّامًا للعبيد فذلك لكمال عدله، وإذا نفى أن تأخذه سِنةٌ ولا نوم فذلك لكمال حياته وقيوميته، وإذا نفى أن يصيبه لغوب فذلك لكمال قوته، وهكذا، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفيٌ مُجرَّد، وهذه قاعدة: (لا يوجد في صفات الله نفي مُجرَّد) والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] والنفي المُجرد ليس مثلًا أعلى، المثل

الأعلى أي: الوصف الأعلى والأكمل، والنفي المُجرد عدم، والعدم ليس بشيءٍ فضلًا عن أن يكون وصفًا أعلى.

ثانيًا: أن النفي المحض قد يكون لعجزِ الموصوف عنه، وقد يكون لعدم قابليته لهذا المنفي، أي معناه: نفينا عنه هذا الشيء؛ لأنه عاجز لا يستطيع أن يفعل هذا الشيء الذي نفيناه عنه، وقد يكون لعدم قابليته لهذا الشيء، فمثلًا: إذا قال قائل: فلان رجل حُبَيِّب لا يظلم الناس ولا يعتدي عليهم، نعرف من هذا الكلام عجزه، ولهذا قلنا: (حُبيب)، و(حبيب) عند الناس كلمة تصغير وتحقير، وهذا كقول الشاعر:

قُبَيِّلَــــةٌ لَا يَغْـــــدِرُونَ بِذِمَّـــــةٍ وَلَا يَظْلِمُـــونَ النَّـــاسَ حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ

وقد يكون النفي لا يتضمن كمالًا، كأن يكون لعدم القابلية، يعني أن ما نفي عنه هذا الوصف ليس لكماله ولكنه لا يقبل هذا الوصف ولا يقدر عليه، وقد مثَّل العلماء لذلك بأن تقول: إن جداري لا يظلم، فقولك: الجدار لا يظلم ليس بمدح؛ لأنه لو أراد أن يظلم لم يقدر.

فالقاعدة: أنه (لا يوجد في صفات الله نفي محض، بل كل ما نفى الله عن نفسه فهو مُتضمِّنٌ لكمالٍ).

٣ - أن الله يخبر عما يخبر من صفاته لتطمين الخلق؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ حتى يطمئن الإنسان أنه لن يُجازى إِلَّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٤ - جواز إطلاق البعض على الكل إذا وجدت قرينة تدل عليه؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فاليد بعض من الإنسان لكن (القرينة) تدل على أن المراد الكل يعني (بما قدمتم)، ونظيرها في صفات الله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس: ٧١] هل نقول: إن الله خلق الإبل مثلًا بيده كما خلق آدم؟ الجواب: لا، فيكون المراد: (مما عملت أيدينا) أي: مِمَّا عملنا؛ لأن الله لم يخلق الإبل بيده كما خلق آدم، ولكن لا يعني هذا أن الآية ليس فيها دلالة على ثبوت اليد لله، بل فيها دلالة على ثبوت اليد لله تعالى؛ لأنه لولا أن له يدًا ما صحَّ أن يضيفها إلى نفسه.

٥ - ومن فوائدها: إمكان الظلم من الله لولا أن الله نفاه عن نفسه في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ لأنه لو كان الظلم غير ممكن في حقِّه، لم يصح أن يمتدح بتركه عزَّ وجلَّ، إذ لا يتمدَّح بترك شيء إِلَّا إذا كان تَركه اختيارًا، أما لو كان مُستحيلًا في حقِّه، لم يكن للتمدُّح به فائدة، وبناءً على هذه الفائدة يكون فيها ردٌّ على الجهمية الذين يقولون: (إن الظلم مُحالٌ على الله، مُحالٌ لذاته، لا لأن الله نفاه عن نفسه)، لأنهم يقولون: (إنه مهما تصرَّف فقد تصرف في مُلكه، والمُتصرِّف في ملكه يفعل ما يشاء، فالظلم عنده مُحال لذاته). كما قال ابن القيِّم في النونية: «**والظلم عندهم المُحال لذاته**».

ونحن نقول: الظلم ليس مُحالًا على الله لذاته، لو شاء الله أن يظلم لظلم، لكنه نفاه عن نفسه

تمدُّحًا بذلك، ولذلك قال في الحديث القدسي: «**إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»(١)، وهذا يدلُّ على إمكانه منه، لكنه لا يفعله.

فإن قال قائل: قد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَوْ أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»(٢).

فالجواب: أن نقول: لا معارضة بين هذا الحديث وبين الآية؛ لأن الله لو عذَّبهم لم يمكن أن يُعذِّبهم وهو ظالمٌ لهم، إذن لا يُعذِّبهم إِلَّا وهم مُستحقُّون للعذاب، وعلى هذا فيكون الحديث مُطابقًا للآية. أو يُقال من وجهٍ آخر: «**لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم**» أي: إذا أراد أن يُناقش العباد فإن من نوقش الحساب عُذِّب؛ لأنه لو ناقشهم لكانتْ نعمةٌ واحدةٌ من نعمه تُقابل جميع أعمالهم، فحينئذٍ يستحقُّون أن يُعذَّبوا.

قلنا في هذا الحديث مخرجان:

الأول: أنه يُعذِّبهم وهو غير ظالمٍ لهم، أي لا يُعذِّبهم إِلَّا لذنب، فيكون الحديث مُطابقًا للآية.

والثاني: أن المُراد بذلك مناقشةُ الحساب؛ لأن الله لو ناقشهم لكانتْ نعمة واحدة من نعمه سبحانه وتعالى تُحيط بجميع أعمالهم، فيبقون وليس لهم رصيد.

فإن قال قائل: هذه صفة سلبية كما يقولون، فهل توجد الصفات السلبية في صفات الله؟

فالجواب: نعم، ولكن المراد بالصفات السلبية: ثبوت كمال ضدِّها، فهو لا يظلم لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]

❁ التفسير ❁

هذا أيضًا من كذب هؤلاء اليهود، أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أي: أوصانا وصيةً موثقةً بالعهد. يُقال: عهِد إليه: أي أوصى إليه وصيَّةً موثقةً بالعهد، ومنه العهد بالولاية، أي: ولاية

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه(٤٢٥٧).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٢)، وابن ماجه(٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤).

الحاكم إلى من بعده، فإنه يُوصي بالحكم إلى من بعده، مثل عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى عمر.

فمعنى عهد إلينا، أي: أوصانا وصيَّةً مُثبَّتة بالعهد ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ هكذا قالوا، وهذا من كذبهم كما سيأتي.

يقول: ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي: لرسولٍ من عند الله.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ وذلك بأن نُقرِّب قُربانًا من طعامٍ أو بهائم أو لحم أو ثياب، ثم تنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان، يعني أنه حصروا الآيات التي يطلبونها من الرسول، بأن يأتي بنارٍ تأكل هذا القربان، وكانوا فيما سبق إذا غنموا غنائم من الكفار جمعوها ثم نزلت نارٌ من السماء فأكلتها حتى أُحلَّت الغنائم لهذه الأمة(1)، فهؤلاء يقولون: لا نؤمن لرسولٍ إلَّا إذا أتانا بهذه الآية فقط، وهي: أننا إذا قرَّبنا قربانًا أكلته النار.

فقال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾:

أي: قد جاءتكم رسلٌ بأكثر مما تدّعون الآن.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات البيِّنات التي تُبيِّن صدق رسالتهم.

﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: بالقربان الذي تأكله النار.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: ومع ذلك كذَّبتموهم وقتلتموهم.

فإن قال قائل: لماذا عَدَل الله عزَّ وجلَّ عن المطالبة بصدق ما ادَّعوه؟

قلنا: هذا من باب موافقة الخصم، يعني: على فرض أن الأمر كما قلتم فقد اعتديْتم حتى فيما جيء به من مطلوبكم، فاعتديتم على الرسل. وهنا فائدة وهي: أن من ادَّعى دعوةً فإننا نُعامله بمراتب:

المرتبة الأولى: صحة ما قال.

المرتبة الثانية: مخالفته لما قال.

فهنا لم يُطالبهم الله بصحة ما قالوا من باب موافقة الخصم، وقولنا من باب موافقة الخصم أحسن من قولنا من باب التنزّل؛ لأن الذي معنا قرآن وإن قلنا: تنزّل فإنه بناء على العبارة المعروفة عند العلماء.

والمعنى أن يقول: هب أن الأمر كما قُلتم وأنه عهد إليكم إلَّا تؤمنوا لرسول حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، فقد جاءكم رسولٌ بقربان تأكله النار ومع ذلك قتلتموه، إذن فطلبكم هذه الآية المعيَّنة ليس عن صدق؛ لأنها قد جاءتكم ومع ذلك فقد كذَّبتم الرسل وقتلتموهم، فهنا عَدَل عن المطالبة بصحة الدعوى، من باب موافقة الخصم، أي: أنكم لا تُريدون أن تُصدِّقوا الرسل، وإنما تُريدون تكذيبهم.

---

(1) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٨٤)، وابن حبان (١٦٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٥٥).

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: الآيات البينات الدالة على رسالتهم وصدقهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ يعني: والذي قلتم دون البينات التي جاؤوا بها، بدليل أنه قدَّم قوله «بالبينات» فدلَّ هذا على أن ما قالوه وإن كان آية، لكنه دون البينات التي جاؤوا بها؛ لأنهم جاؤوا بأعظم من هذا، فمثلًا موسى عليه الصلاة والسلام جاء ببينةٍ أعظم من ذلك: كان يلقي العصا فتكون حية، ويحملها فتكون عصا، وكان يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء لكن من غير عيب أو من غير برص، كذلك عيسى كان يخرج الأموات من القبور أحياء، أو يقف على الميت قبل أن يُدفن فيحيا بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فينفخ فيه (فيكون طيرًا) أو (فيكون طائرًا) فيه قراءتان. يعني: يكون طيرًا طائرًا أيضًا بالفعل. أيها أعظم: هذا أم أن تنزل من السماء نار تأكل القربان؟ الجواب: الأولى أعظم ولهذا قدَّمها.

قوله: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: قوله: ﴿فَلِمَ﴾ الفاء: عاطف، و(لِمَ): اللام حرف جر و «ما» استفهامية، ومن قواعد الإملاء أن «ما» الاستفهامية إن دخل عليها حرف جر فإنها تحذف ألفها مثل: عَمّ – بِمَ – لِمَ. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾: في أنكم تقبلون الرسل إذا جاؤوا بهذه الآية.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ الجملة شرطية، وهل تحتاج إلى جواب أم لا؟ ذهب بعض العلماء إلى أنها لا تحتاج إلى جواب؛ لأن المعنى مفهوم بدونه، والجواب إنما يؤتى به ليتمم المعنى. وقال بعضهم: بل جوابها محذوف دلَّ عليه ما قبله، وعلى هذا الرأي يكون التقدير: إن كنتم صادقين فلم قتلتموهم، وإلى القول الأول ذهب ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في أن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان تعنت اليهود الذين ردُّوا ما جاء به النبي ﷺ من البينات بناءً على ما ادَّعوه من هذه الآية.

٢ - أنه ينبغي عند المخاصمة إفحام الخصم بما يدعيه؛ ليكون ذلك أبلغ في دحض حُجَّته، ويؤخذ من قوله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾؛ لأنه إذا خوصم بما يقوله لم يبق له حجة، ومن ذلك مخاصمة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ للرافضة وأهل التعطيل حيث يخاصمهم بما يُقرّون به، فمثلًا: الأشاعرة أو المعتزلة – أهل التعطيل عمومًا – قالوا: إن المراد بآيات الصفات خلاف الظاهر؛ لأن العقل يمنع من الأخذ بظاهرها، فقالت الفلاسفة – أهل التخييل – المراد بنصوص المعاد: خلاف الظاهر لامتناع القول بظاهرها، أي: أنه لا يوجد بعثٌ ولا ربٌ ولا جنةٌ ولا نارٌ، فبماذا ردَّ عليهم أهل التعطيل، وأهل التعطيل يُقرون بالبعث واليوم الآخر؟ قالوا: إن كلامكم هذا غير مقبول، بل البعث حقٌ واقع، وذلك لأننا علمنا أن الرسل جاءت به، وأن الشُبهة المانعة منه فاسدة، الشُبهة المانعة هي قول القائل: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلزم القول بثبوته.

ونحن نقول لهم أيضًا: آيات الصفات علمنا بأن الرسل جاؤوا بها، وقد علمنا فساد الشُبهة المانعة منه فوجب إثباتها، بل قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن نصوص الصفات في الكتاب والسُّنة أكثر بكثير من نصوص المعاد؛ لأنك لا تكاد تجد آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ إلَّا وتجد فيها اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته، لذلك فإن إفحام الخصم بحجته أنكى وأقوى في خصمه، أي في أننا نخصمه ولا يستطيع أن يُجادل بعد ذلك.

٣ - أن الرسل عليهم الصلاة والسلام جاءوا بالبينات الدالة على رسالتهم ولا بد من هذا عقلًا كما هو واقع شرعًا، وذلك أنه لو جاء رسول من البشر يقول: أنا رسول الله إليكم أدعوكم إلى كذا وأمنعكم من كذا ومن خالفني قاتلته، فإنه لا يقبل ذلك إلَّا ببينة تشهد لما قال، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]، فقال: ما من رسول إلَّا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر، وهذا لابد منه.

٤ - إقامة الحجة على هؤلاء الذين ادَّعوا هذه الدعوى؛ لأنهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤوا بما قالوه.

ثم قال تعالى مُسليًا لرسوله ﷺ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]

التفسير

وفيها قراءة (وبالزبر والكتاب) أي زيادة الباء.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والفاعل قريش وأهل الكتاب وكل من كذَّب الرسل ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

﴿فَقَدْ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأنه مقرون بقد.

﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤] فلماذا جاء التذكير والتأنيث؟

نقول: لأن رسل جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه ثبوت التاء وحذفها، قال ابن مالك:

والتاء مع جمعٍ سوى السالم ... من مذكر كالتاء مع إحدى اللَّبن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

مع إحدى اللّبِن: اللّبن إحداها لبنة، فاللبنة تذكر وتؤنث، وجميع الجموع تؤنث وتذكر ما عدا جمع المذكر السالم على رأي ابن مالك، ويُضاف إليها على رأي ابن هشام جمع المؤنث السالم، ويُقابله من قال بأن جميع الجموع يجوز تذكيرها وتأنيثها حتى السالم من مذكر أو مؤنث، ومنه قول الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ يردُّ به على أعدائه يقول: لا أبالي بجمعكم كل جمع مؤنث. فالمؤنث لا يُقابل الرجال، الشاهد قوله: كل جمع مؤنث. والذي يظهر – والله أعلم – أن الرأي الصحيح رأي ابن هشام؛ أن السالم من جمع المذكر يجب تذكيره، ومن الجمع المؤنث يجب تأنيثه، وأما جمع التكسير فيجوز فيه التذكير والتأنيث، لذا قال هنا ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾.

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الرسول كما مرَّ علينا كثيرًا هو: الذي أُوحي إليه بالشرع وأُمر بالتبليغ.

وجملة: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يجوز أن تكون صفة للرسل، ويجوز أن تكون حالًا، أما جواز أن تكون صفة فظاهر؛ لأن (رسل) مُنكَّر، فالذي يأتي بعده يكون صفة، وأما جواز كونه حالًا مع أن الذي قبلها مُنكر؛ فلأن هذه النكرة وُصفت، وإذا وُصفت النكرة جاز وقوع الحال منها؛ لأنها إذا وُصفت تخصَّصت.

قوله: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ (البينات) هي: الآيات البيِّنات الشرعية والكونية، فالآيات الشرعية هي: الكتب التي جاءوا بها، والآيات الكونية هي: ما يُسمَّى بالمعجزات الحسِّية.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور، والمراد به ما اشتمل على المواعظ والزواجر، ولهذا كان الزبور الذي أوتيه داود أكثره مواعظ وزواجر.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (الكتاب) بمعنى المكتوب، و(المنير) بمعنى: المنير للظلمات.

وهذا العطف الذي في قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ هذا من باب عطف الصفة على الصفة الأخرى؛ لأن الزبر تتضمَّن الكتاب المنير، وعطف الصفات بعضها على بعض موجود في القرآن ومنه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ٤]. فقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ هذا من باب عطف الصفات، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أيضًا من باب عطف الصفات، فالتغاير تغاير صفة وليس تغاير ذات.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتفرَّع عليها أن يتسلى الإنسان في كل ما أصاب غيره، فمثلًا: الآمر بالمعروف أو الناهي عن المُنكر قد يؤذى فليتسلى بأذيَّة غيره؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره أُصيب بما أُصيب به لا شك أنه ينسى الحزن، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وَلَـوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِينَ حَـوْلِي عَلَـى إِخْـوَانِهِم لَقَتَلْـتُ نَفْـسِي

وَمَـا يَكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَكِـنْ أُسَـلِّي الـنَّفْسَ عَنْـهُ بِالتَّأَسِّـي

الشاهد هنا قولها: «أُسلِّي النفس عنه بالتأسي»، فالإنسان إذا نظر يمينًا وشمالًا، وإذا هذا مُصاب بعقله، وهذا مُصاب ببدنه، وهذا مُصاب بأهله، وهذا مُصاب بماله، يتسلَّى.

كذلك الرسول ﷺ إذا قال الله له: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، لا شك أنه تهون عليه المصيبة وأنه يتسلى بذلك؛ لأنه بشر يلحقه من أحكام البشرية ما يلحق غيره.

٢ - أن الرسل يُؤذَون بالتكذيب، ولا أظن أن شيئًا أشق على النفس من التكذيب فيمن جاء بالصدق. والإنسان يكاد يتقطَّع إذا أخبر بشيء صدقٍ ثم قيل له: كذبت، فكيف وهُم من عند الله عزَّ وجلَّ مؤيدون بآياته، لا شك أنها شديدة عليهم ولكنهم يصبرون عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]، يعني: وعلى ما أوذوا، أو معطوفة على كذبت أي: وحصل لهم الأذية أيضًا، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم النصر.

٣ - أن الرسل لابد أن يؤيدوا بالبينات؛ لقوله: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٤ - أن الرسل السابقين كلهم جاؤوا بكتاب، ما من رسولٍ إلَّا ومعه كتاب، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وذلك لأنه لابد لكل رسولٍ من شريعة، والشريعة إنما تكون بها يكتب سواءً نزلت وحيًا ثم كتبت، أو نزلت مكتوبة كالتوراة، فإن الله كتبها بيده وأنزلها عزَّ وجل.

٥ - أن الكتب السابقة ككتابنا كلها تنير الطريق لمن أراد المسير، ولكن أعظمها إنارة هو هذا القرآن الكريم، ولهذا كان مهيمنًا على ما سبق من الكتب، فكل الكتب التي سبقت منسوخة به.

❁ قال الله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: «كلّ» من صيغ العموم، والنفس قد يُراد بها الروح، وقد يُراد بها البدن بالروح، وكلاهما صحيح، فالموت يذوقه البدن وتذوقه الروح.

وقوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ذائقة طعمه أي: لابد أن تموت، ولكن الله عبَّر بالذوق؛ لأنه أبلغ

في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حق اليقين، وقد قسَّم العلماء اليقين إلى ثلاث درجات: علم، وعين، وحق، فالعلم بالخبر، والعين بالمشاهدة، والحق بالذوق.

فإن قال قائلٌ: هذه تفاحة وقد أخفاها في كيس، والقائل صدوق، فهذا تسميه: علم اليقين، فإذا كشفها فهو عين اليقين، فإذا أكلها المُخبر فهو حقُّ اليقين، ولهذا عبر بالذائقة؛ لأن الموت حق لابد لكل حيٍّ من موت، إلَّا الحي القيوم عزّ وجل.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: هل المُراد من بني آدم ومن الجن ممن على الأرض، بحيث نقول: إن الملائكة لا يموتون؟

الجواب: لا. كل أحدٍ يموت، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] ذكر العلماء أنه يستثنى من هذا من لا يموت ممن خُلقوا للبقاء كالولدان الذين في الجنة والحور اللّاتي في الجنة، فإنهم خلقوا للبقاء فلا يموتون. أما الملائكة وجميع الخلق فإنهم يموتون.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذه حصر، يعني: لا توفَّون أجوركم إلَّا يوم القيامة، والمراد بالتوفية هنا: توفيَة الكمال، وإلَّا فإن الإنسان قد يوفَّى أجره في الدنيا ويُدَّخر له أيضًا زيادة على ذلك، والكافر أيضًا يوفَّى أجره في الدنيا، مثل ما عمل من خير فإنه يُطعم به في الدنيا، لكن في الآخرة ليس له خلاق.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بعد قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قد يُشعر بأن المراد بيوم القيامة هنا ما هو أعم من القيامة الكبرى، فيشمل القيامة الصغرى التي تكون لكل موجود من ذوات النفوس.

وقال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾:

﴿زُحْزِحَ﴾ أي: دُفع ببطء؛ وذلك لأن النار - أعاذنا الله وإياكم منها - محفوفةٌ بالشهوات، والشهوات تميلُ إليها النفوس، فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلَّا بزحزحة؛ لأنه يُقبل عليها بقوَّةٍ، لهذا قال: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: دُفع عنها بمشقَّةٍ وشدَّة.

قوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ لأنه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب.

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (ما) هذه نافية، ولم تعمل عمل (ليس)؛ لأن النفي انتقض، وإذا انتقض النفي بطُل عمله كما قال ابن مالك: «مع بقا النفي ...»، فإن انتقض فهي مُهملة.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ وصفُ هذه بالدنيا لوجهين:

الوجه الأول: لدنوِّها زمنًا،

والوجه الثاني: لدنوِّها قدرًا.

أما دنوها زمنًا فظاهر؛ لأنها قبل الآخرة، وأما دنوها قدرًا فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الْمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُم فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا»(1).

(موضع السوط): لعله يُقارب المتر، (خير من الدنيا وما فيها)، من الدنيا: ليست دنياك التي أنت فيها، وليست دنياك الخاصة بك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها. إذن فالحياة هذه بالنسبة للآخرة دانية، من الدنو وهو الانحطاط.

وقوله: ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: إلّا متعة تَغُرُّ صاحبها وتخدعه، وكم من أُناس زُيِّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى وادٍ سحيق - والعياذ بالله - لأنهم اغتروا بها.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الموت حقٌّ لابد منه؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٢ - حث الإنسان على المبادرة للعمل الصالح؛ لأنه إذا كان ميتًا ولا محالة وهو لا يدري متى يموت، فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولاسيما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم. فلا تُهمِل ولا تؤخِّر، فإن التأخير له آفات، كثيرًا ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غدًا ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت.

٣ - أن كمال الأجر إنما يكون يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. والتوفية تقتضي أن هناك شيئًا سابقًا يُزاد، وهو كذلك، فإن الإنسان قد يُثاب في الدنيا على عمله، ولاسيما الإحسان إلى الخلق، وقضاء حوائجهم؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «والله فِي عَوْنِ العَبْدِ ماَ كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»(2) وقال: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ»(3).

٤ - إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وسُمّي يوم القيامة؛ لأنه يقوم الناس فيه لربِّ العالمين، ويقوم الأشهاد، ويُقام فيه القسط، وأدلة هذا معروفة: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفين: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٥ - أنه لا يكمل الفوز إلّا بأمرين: أن يُزحزح الإنسان عن النار، وأن يُدخل الجنة، ومعلوم أن من زُحزح عن النار فلابد أن يدخل الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلّا داران فقط: إما النار وإما الجنة، وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم مِن الزحزحة عن النار وإدخال الجنة، فقال: «من أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدخَلَ الجنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مِنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بالله

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

(2) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٥٢)، والترمذي(١٤٢٥)

(3) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٥١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٥٨٠).

وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يحبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[1] ... فذكرَ حقَّ الله وحقَّ العباد، فمن وجد من نفسه هذين الوصفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه، فليبشر بهذا.

٦ - هل تدلُّ على أن الله لا يُرى في الجنة؟ الجواب: أنه لا يوجد نفي ولا إثبات، ولكن الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره قال: (أي فوزٍ أعظم من أن يُزحزح الإنسان عن النار ويُدخَل الجنة) ... يُريد بذلك نفي الرؤيا، فنقول له: إذا دخل الإنسان الجنة فإنه سيرى ربَّه، وتكون رؤيته لربه أعظم النعيم، فليس في الآية ما يدل على نفي الرؤية إطلاقًا، وإذ لم يكن فيها دليل على نفي الرؤية، فإن هناك نصوصًا من القرآن والسُّنة تدلُّ على ثبوت الرؤية، والمؤمن هو الذي لا يتتبع المتشابه من القرآن بل يتَّبع المُحكم، ويحمل عليه المتشابه. والمُحكم مثل الآيات الواضحات، والمتشابه مثل الآيات التي وقع فيها الخلاف بين العلماء.

٧ - التزهيد في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

٨ - أنه يجب على الإنسان الحذر من مغبَّة الدنيا وغرورها، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «والله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُم فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَن قَبْلَكُم، فتُهلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُم ...»[2]. وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن هذا هو الخوف، وانظروا الآن لَمَّا فُتِحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، بل حتى الذين لم تُفتح عليهم إذا سمعوا من فُتحت عليهم هلكوا.

قال الله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

التفسير

قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: هذه الجملة مؤكَّدة كما هو معلوم بثلاثة مؤكدات:

لام التوكيد، واللام، والقسم المُقدر؛ لأن اللام هذه موطأة للقسم أي (والله لتبلون).

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٤)، والنسائي (٤١٩١)، وأبو داود (٤٢٤٨)

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

والابتلاء: الاختبار، والله سبحانه أحيانًا يختبر بخير وأحيانًا يختبر بِشَرٍّ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وكما قال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وذلك أن الإنسان دائر بين حالين إما شيء يسر به ويفرح به، فهذا وظيفته الشكر، وإما شيء يسوؤه ويحزنه فهذا وظيفته الصبر، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «عَجَبًا لِأَمْرِ المؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَه كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَه، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَه» وقال: «ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا للمؤْمِنِ»[1].

هنا يقول عزَّ وجلَّ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾:

(في أموالكم): إما من قِبَل الله عزَّ وجلَّ كالجوائح، وإما من قِبَل المخلوقين كتسلط المشركين على أموال المسلمين، وكل ذلك من البلاء الذي يبتلي الله به العباد.

وقوله: ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ يشمل أيضًا البلوى المتصلة والمنفصلة.

البلوى المتصلة: ما يحصل على الإنسان من بلوى من الله عزَّ وجلَّ في بدنه مثل: المرض والعجز وما أشبه ذلك.

والبلوى المنفصلة: ما تكون في الأولاد؛ لأن الأولاد من أنفسنا، يُبتلى الإنسان في ولده، أو في أهله، أو في زوجته، أو في غير ذلك، وهذا أيضًا من الابتلاء، ثم إن الابتلاء الذي يكون إما من الله وإما من المخلوق، فيُبتلى الإنسان في نفسه من المخلوقين يؤذونه أحيانًا بالضرب، وأحيانًا بالقول، وأحيانًا بالقتل، كما قتلوا الأنبياء بغير حق.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾:

قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ فعل مضارع متصل بنون التوكيد، مع ذلك كان مرفوعًا، والمعروف أن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد يُبنى على الفتح، وذلك أن الاتصال يجب أن يكون لفظًا وتقديرًا، وهذه متصلة لفظًا لا تقديرًا؛ لأن الأصل فيها (لتسمعونن) فهنا واو ونون محذوفتان.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: وهم اليهود والنصارى.

قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم: الوثنيون كقريش وغيرهم.

تسمعن منهم أذىً كثيرًا بالقول، لأنه هو الذي يُسمع، مثل أن يعيّروكم أو يسبّوا دينكم، أو يسبّوا نبيكم، وقد قالوا عن النبي ﷺ إنه ساحر كذاب ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

[ص: ٥] وقالوا: إنه مجنون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦] وقالوا: إنه كاهن، ووصفوه بكل عيب، ولا شك أن هذا يؤذي المؤمنين، ويؤذي النبي ﷺ ولكن وظيفتنا نحو هذا الأمر الصبر، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقوله: ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ يعني: وأذىً قليلًا، لكن الأذى الكثير أشد على الإنسان من الأذى القليل، ومع ذلك فإنه مأمور بالصبر فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وتأمّل (ولتسمعن أذىً) ولم يقل ضررًا؛ لأن هذا الذي نسمع يؤذينا ولكن لا يضرنا.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وهنا فرق بين الأذية وبين الضرر، قد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر منه، ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالى أن عباده يؤذونه، أي من عباده من يؤذيه، ونفى أن يكون أحدٌ يضره، فقال الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[1]، وقال ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] فأثبت الأذية، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»[2] فأثبت الأذية أيضًا، أما الضرر فلا. فهنا يسمع المؤمنون من أهل الكتاب ومن المشركين ما يؤذيهم ولكنه لا يضرهم.

ثم قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ تصبروا على ما سمعتم، وعلى ما ابتُليتم به في أموالكم وأنفسكم. والصبر بمعنى: الحبس، ومنه قولهم: (قتل صبرًا) أي: حبسًا، يُوقف ويُحبس ويُقتل.

وهو في الشرع: حبس القلب واللسان والجوارح عمَّا يُغضب الله عزّ وجل.

قال أهل العلم: والصبر على ثلاثة أقسام:

١ - صبرٌ على طاعة الله، وهو أعلى الأقسام.

٢ - صبرٌ عن معصية الله، وهو دونه.

٣ - وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة، وهو دون الاثنين الأولين؛ لأن الاثنين الأولين: صبرٌ على شرع الله، والثالث صبرٌ على قدر الله، والصبر على قدر الله يكون من المؤمن والكافر، ومن الناطق والبهيم، لكن الصبر على شرع الله لا يكون إلَّا من المؤمن، ثم الصبر على المأمور أعلى من الصبر عن المحظور، لأن الصبر عن المحظور كفٌّ فقط، والصبر على المأمور فعل؛ فهو إيجاد وعمل، ففيه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

نوع من الكُلفة بخلاف الصبر عن فعل المحظور، فإنه ليس إلَّا مُجرد كفّ، على أنه قد يكون أحيانًا بالنسبة للنفس أشد من الصبر على فعل المأمور، فيسهل على بعض الناس مثلًا أن يُصلي، لكن يصعب عليه أن يدع ما حرّم الله عليه من الأمور التي تحثه نفسه إليها حثًّا.

صبر الصائم على الصيام، من الأول، وصبره على ألمه الذي يحصل بالجوع والعطش، من الثالث، وصبره عمّا حُرِّم عليه بالصوم من الثاني، ولهذا يُسمى شهر رمضان شهر الصبر؛ لأن جميع أنواع الصبر الثلاثة تحصل للصائم، ففيه - أي في الصيام - صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على الأقدار.

ومن الأمثلة: صبر يوسف على إلقاء إخوته إياه في البئر من الثالث، وصبره عن إجابة امرأة العزيز من الثاني، صبرٌ عن المعصية، وصبره على الدعوة إلى الله وهو في السجن من الأول.

يقول: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ تتقوا الله عزَّ وجلَّ بأن لا تتجاوزوا أو تعتدوا على غيركم؛ وذلك لأن النفس مجبولة على محبة الانتقام من الغير، فربما إذا سمعت أذى أن تأخذ أكثر من نصيبها، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تتقوا الله عزَّ وجلَّ فلا تعتدوا على الذين أسمعوكم الأذى.

قوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من معزومات الأمور، فعزم هنا: مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: من الأمور المعزومة التي تحتاج إلى عزم وإلى همة وإلى مكابدة؛ لأنها شاقة على النفس، والعزم في الأمور من الصفات الحميدة التي وصف بها الكُمّل من الخلق، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالعزم لا شك أنه خُلقٌ عالٍ يهبه الله عزَّ وجلَّ لمن يشاء، فإذا كان الإنسان عنده عزم في أموره فهذا هو الموفق، أما الإنسان الذي ليس عنده عزم فتجده دائمًا في ملل، وفي كسل، وفي تهاون، فإن هذا لا شك خاسر، فالإنسان العازم في أموره هو الرابح دنيا ودينًا: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن من البلاغة تأكيد الشيء بما يوجب الاطمئنان فيه؛ لقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. والتأكيد يقول علماء البلاغة: «**إنه قد يكون حسنًا، وقد يكون واجبًا، وقد يكون لغوًا**».

يكون لغوًا: إذا لم تدعُ الحاجة إليه؛ وذلك لأن التأكيد لابد فيه من زيادة؛ وهي زيادة الحروف التي حصل بها التأكيد، فإذا لم يكن حاجة إليه صار لغوًا، ثم إنه أيضًا لغو من حيث المعنى، ولهذا لو أنك أكدت لشخص شيئًا شاهده لعتب عليك، كما لو قلت: والله لقد صليتُ ركعتين حين دخلتُ

المسجد، وهو يراك ويُشاهدك، فإنه سيقول لك: كيف تُقسم لي وأنا أُشاهدك، هذا لغو من القول.

ويكون حسنًا: - أي التوكيد - إذا كان عند المخاطب شيء مِن التردد، فيحسن أن تؤكِّد له الكلام ليطمئن.

ويكون واجبًا: إذا كان المخاطب مُنكِرًا أو فاعلًا فعل المُنكِر، والمُنكِر: هو الذي إذا ألقيت إليه الخبر أنكره، وقال: أبدًا ما يصح، فهنا يجب أن تؤكد له الكلام، وفاعل فعل المُنكِر: هو الذي يفعل فعلًا لو كان مُصدقًا ما فعله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥] هنا فيه تأكيد بإن واللام، وهل الموت يحتاج إلى توكيد؟! فكلٌّ يعلم أنه سيموت، لكن لما كان فعل أكثر بني الإنسان فعل المُنكِر حسن التوكيد.

٢ - أنه ينبغي للإنسان أن يتفطن لما فيه من خير وشر ليعلم أنه ابتلاء من الله، ففي الخير يُبتلى ليشكر، وفي ضده يُبتلى ليصبر.

٣ - التأكيد على الحذر من أهل الكتاب اليهود والنصارى والمشركين أيضًا؛ وجهه: أن الله أكَّد لنا أننا سنسمع منهم ما يؤذينا، هذا بالقول، وهم يمكرون بنا بالقول وبالفعل، ولهذا يجب التحرز من اليهود والنصارى، وأن لا نتخذهم أولياء، وأن نعلم أنهم لن يعطونا قرشًا إلَّا في مقابله درهم أو أكثر، ولن ينفعونا بشيء إلَّا وقد ضرّونا بأكثر منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بيَّن عداوة هؤلاء، وأنه لا يجوز اتخاذهم أولياء، وقد ذكر أن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للذين آمنوا. أما قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾، فإن الخطاب هنا في نصارى معينين وصفهم الله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] فهل في نصارى اليوم من يكون هذا وصفهم؟ بالعكس بل نجد أنهم يُحاربون الدين الإسلامي ربما أكثر من محاربة اليهود؛ لأنه صارت بينهم وبين المسلمين معارك أدمت قلوبهم وأيتمت أولادهم ولن ينسوها، وهي المعروفة بالمعارك الصليبية التي لن ينسوها أبدًا، فهم في الحقيقة إذا سمعنا ما ينشرونه من دينهم المنسوخ الذي لا يُقبل عند الله وحرصهم على ذلك، وكونهم يجمعون حتى من العجائز من الأموال ما يقضون به على الإسلام ليدخلوا الناس في النصرانية عرفنا أنهم يسعون بكل وسيلة إلى القضاء على الإسلام، ولهذا يأملون أنه في حدود الألفين من تاريخهم الميلادي ستكون أفريقيا كلها على زعمهم نصرانية، لكن بحول الله الأمر سيكون مُنقلبًا عليهم، وستكون إن شاء الله إسلامية، وسيدحرهم الله عزَّ وجلَّ ويردهم على أعقابهم خائبين.

٤ - في هذه الآية الكريمة الثناء على الصبر أمام ما نسمعه من أذية الأعداء، وأن لا يردنا ذلك على أعقابنا، وأن نحذر منهم.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله: هل هذا الآية منسوخة وأننا نصبر ونتقي إذا كنا عاجزين عن الرد بالمثل أو هي مُحكمة؟ والصحيح أنها مُحكمة، وأنها إنما تكون في حال يكون الصبر فيه على الأذى خيرًا، أما إذا كان الأمر بالعكس فالخير مطلوب في جميع الأحوال.

٥ - التنبيه على فضيلة العزم في الأمور؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وكل ما كان الإنسان عازمًا في أموره كان ذلك أنجح له وأحسن.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

❁ التفسير ❁

(إذ): ظرف لما مضى، وتأتي في القرآن كثيرًا محذوفة العامل، ويقدره العلماء بقولهم: (اذكر إذ)، أي: واذكر إذ أخذ الله، يعني: اذكر هذا للناس مُبينًا ما حصل.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل، وسُمي العهد الثقيل ميثاقًا من الوثاق، وهو: الحبل الذي يُشد به الإنسان ويُربط، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤] يعني: الحبل الذي تربطونهم به، وتأسرونهم به، فالميثاق: بمعنى العهد الثقيل، وسُمي العهد الثقيل ميثاقًا؛ لأنه كالرباط للمعاهد.

وقوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ المراد بهم: اليهود والنصارى، أخذ الله عليهم العهد والميثاق، بما أعطاهم من الكتاب أن يُبيِّنوه للناس، ولهذا قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ اللام موطأة للقسم، أي: أخذ عليهم عهدًا بهذا.

قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ هنا قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ فكيف يصح قول: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ مع أنه قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾؟ الجواب: لأن البيان ضد الكتمان، ولكن نقول: المعنى: لتبيننه بيانًا لا كتمان فيه.

والكتمان نوعان: إما إخفاء لبعض الآيات كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وإما تحريف للآيات إلى معانٍ أخرى، فإن هذا يُعدُّ كتمًا؛ لأن الذي يُحرِّف

الآيات إلى معانٍ أخرى لم يُبين الآيات على ما هي عليه بل كتم المعنى الحقيقي المُراد إلى معنىً آخر.

ومن ذلك مثلًا: أن النصارى قالوا: إن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ليس هو الذي بشَّر به عيسى؛ لأن الذي بشَّر به عيسى اسمه أحمد، وهذا اسمه محمد، وهذا كتمان، كتمان معنى.

فإن قال قائل: هل يشعر العالِم بهذا الميثاق وأنه جرى بينه وبين الله عزَّ وجلَّ صفقة عهد؟

الجواب: أنه لا يشعر به، لكن إيتاء الله العلم له يُعتبر ميثاقًا، فالله تعالى لم يهبه هذا العلم إِلَّا من أجل أن يُبيِّنه وإن كان الإنسان لا يستحضر أنه جرى بينه وبين الله عهد.

قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾:

نبذوه: أي نبذوا الميثاق، أي: طرحوه، ومع ذلك لم يطرحوه بين أيديهم بل طرحوه وراء ظهورهم، وهو كناية عن شدة إعراضهم عما آتاهم الله من الكتاب حيث نبذوه نبذًا ولم ينبذونه أمامهم بل وراء ظهورهم، فيكون هذا أشد في كراهية ما أنزل الله وفي الاستكبار عنه والإعراض عنه.

قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ اشتروا به؛ أي: استبدلوا به ثمنًا قليلًا، أي بهذا العهد والميثاق ثمنًا قليلًا، وما هو الثمن القليل الذي اشتروه؟ هو إبقاء رئاستهم وجاههم وسلطانهم على قومهم؛ لأن هؤلاء الأحبار والقسيسين لو تبعوا محمدًا ﷺ زالت رئاستهم ووجاهتهم وصاروا كعامة الناس، فقالوا: نُكذب محمدًا ونبقى على ما كنا عليه من الرئاسة والجاه والتقديم، إذن ما هو المبيع، وما هو الثمن؟

المبيع: العهد. والثمن: الجاه والرئاسة وما أشبه ذلك.

ووصف الله هذا بأنه قليل؛ لأن جميع ما في الدنيا قليل، قال تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، فهذا الذي استبدلوه هو ثمن قليل زهيد لا يدوم للإنسان، ولا يدوم الإنسان له، بل لابد من زواله، إما زوال الإنسان وإما زوال الثمن الذي اشتراه.

قوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (بئس): فعل ماضٍ جامد، جامد يعني لا يتصرف، والنحويون يُسمون الفعل الذي لا يتصرف جامدًا؛ لأنه باقٍ على حالٍ واحدة، والمُتصرف يسمونه متصرفًا؛ لأنه يُشبه المائع الذي يسيل ويسيح، لكن هذا جامد لا يتصرف.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ كلمة بئس ونعم وما أشبهها تحتاجان إلى شيئين إلى فاعل ومخصوص بالذم أو بالمدح، فقوله: ﴿مَا يَشْتَرُونَ﴾ هذا هو الفاعل، والمخصوص محذوف والتقدير: فبئس ما يشترون هذا الثمن أو هذا الشراء.

وفي هذه الآية قراءات:

قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فيها قراءة: (لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ) يعني بالياء،

بدلًا عن التاء.

فعلى القراءة الأولى بالتاء يكون في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام نسقًا واحدًا ليس فيه التفات.

والالتفات ذكرنا أن فيه فوائد منها:

التنبيه على هذه الجملة؛ لأن الكلام إذا صار على نسقٍ واحد شرد الذهن، فإذا جاء التفات تنبه.

ومنها: تشويق السامع.

ومنها: أن العدول عن الغيبة إلى الخطاب أشد وقعًا من الغيبة، يعني: أن المشافهة بالخطاب أشد وقعًا من المشافهة بالغيبة، ولهذا قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] ولم يقل: عبست وهو يريد ـ سبحانه وتعالى ـ النبي ﷺ، لكن أسلوب الغيبة أهون وقعًا من أسلوب الخطاب، وتأملوه في قصة الخضر مع موسى في الجملة الأولى قال له: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وفي الثانية قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] فكانت الثانية أشد وقعًا من الأولى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن الله عزَّ وجلَّ أخذ على أهل العلم العهد ببيان العلم وعدم كتمانه؛ لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾.

٢ - التحذير من كتمان العلم؛ لأن الله ذكر ذلك على سبيل الذم لا على سبيل المدح، وقد جاء عن النبي ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَه ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[1] نعوذ بالله منه، أي: أنه مَنْ كتم العلم ولم ينطق به فإنه يجعل له يوم القيامة لجام يُلجم به على فمه لسكوته عن بيان العلم.

٣ - وجوب بيان العلم على أهل العلم فيبينوا العلم الذي آتاهم الله، ولم يذكر الله عزَّ وجلَّ الوسيلة التي يحصل بها البيان، فتكون على هذا مُطلقة راجعة إلى ما تقتضيه الحال، قد يكون البيان بالقول، وقد يكون بالكتابة، وقد يكون في المجالس العامة، وقد يكون في المجالس الخاصة، على حسب الحال؛ لأن الله أطلق البيان ولم يفصّل ولم يُعيّن.

٤ - أنه في الأمور الهامة ينبغي أن يُقرن النفي بالإثبات ليتحقق الكمال؛ لقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ووجه ذلك ما أشرنا إليه قبل، أن البيان عدم الكتمان، لكن لما قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أكد البيان بأن يكون بيانًا كاملًا ليس فيه كتمان.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٤٩)، وأبو داود (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٤).

٥ - الذم القبيح لأهل الكتاب اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأنتم تجدون شدة القذف في قوله: (نبذوه) ثم شدة الاستكبار لقوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

٦ - أن هؤلاء الذين نبذوا العهد والميثاق وراء ظهورهم أخذوا بدله ثمنًا قليلًا، أي لم يأخذوا مقابله ولا مماثله ولا ما فوقه، لكنهم أخذوا بدله ثمنًا قليلًا، مما يدل على خسة هممهم، وأن هممهم دنيئة حيث أخذوا الأدنى بدلًا عن الأعلى.

٧ - القدح في هذه الطريقة؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة تحذير أولئك الذين يُحابون الرؤساء والأُمراء والوجهاء والأعيان في ترك بيان العلم؛ لأن الله تعالى أثنى بالقدح واللوم والتوبيخ على من كانت هذه حاله، والواجب البيان حتى عند الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء، بل إن بيان الحق عندهم يكون أوجب، وكلمة الحق عند السلطان الجائر من أفضل الجهاد.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فيها قراءات: (لا تَحسَبن) بفتح السين، و(لا تحسِبن) بكسر السين، وفيها قراءة (لا يحسَبن) بالياء بدل التاء، فالقراءات ثلاث: (لا تحسَبن)، (لا تحسِبن)، (لا يحسَبن الذين يفرحون)، فعلى قراءة التاء يكون الخطاب موجهًا إما للنبي ﷺ، وإما لكل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، والمعنى الثاني أعم وأشمل، يعني: لا تحسبن أيها المخاطب.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ (الذين): محلها من الإعراب أنها مفعول أول لتحسبن، والمفعول الثاني إما أن نقول: إنه محذوف قبل الجملة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ ويكون المعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ناجين، ثم فرّع عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ جملة مؤكدة لقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ هو المفعول الثاني، والأول أقرب، أي: لا تحسبنهم ناجين، فلا تحسبنهم بمفازة.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ فيها قراءتان أيضًا بل ثلاث قراءات: (فلا تَحسِبنَّهم) و(فلا تَحسَبنَّهم) و(فلا يَحسِبُنَّهم) أي: لا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ أي: يفرحون فرح أشرٍ وبطرٍ ومنةٍ على الله وعلى رسول الله ﷺ ﴿بِمَا أَتَوا﴾، أي: بما أتوا من الأعمال التي يتقربون بها إلى الله على زعمهم.

وقوله: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: يحبون أن الناس يحمدونهم على شيء لم يفعلوه مثل: أن يتظاهروا للناس بالصلاح من أجل أن يثني الناس عليهم ولو لم يفعلوا الصلاح، مثل ما فعل أهل الكتاب كتموا صفة النبي ﷺ ولم يُبينوها؛ فقالوا: الآن غلبنا محمدًا حين قلنا: إنه ليس هو المُبشر به، ففرحوا بما أتوا وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، كذلك المنافقون يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فأما المسلم إذا فرح بما أنعم الله عليه من العمل وأحب أن يُحمد بما يفعل لا رياء ولكن من طبيعة البشر أن يحب أن يحمده الناس، فإن هذا لا يدخل في الآية، فالذي يدخل في الآية صنفان:

الصنف الأول: أهل الكتاب الذين فرحوا بما أتوا من كتمان صفة النبي ﷺ وعدم الإيمان به، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا حيث يتظاهرون للناس بأنه لو جاء الرسول الذي بشَّر به عيسى لآمنا به.

والصنف الثاني: المنافقون، فإن المنافقين يفرحون بما أتوا ويقولون: نحن أسلمنا أمام محمد وأصحابه وهم على العكس من ذلك، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا من الإخلاص والمحبة لله ورسوله واتباع رسوله ﷺ.

قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾:

المفازة: مكان الفوز، أي: لا تحسبنهم بمكانٍ يفوزون به وينجون به من العذاب، بل هم منغمسون في العذاب والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الجملة هذه استئنافية، لمّا بيّن أنهم ليسوا بمفازةٍ من العذاب وليسوا ناجين أكّد هذا بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أليم بمعنى: مؤلم، فهي فعيل بمعنى مُفعل، وفعيل بمعنى مُفعِل تأتي في اللغة العربية كثيرًا، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيْعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

بمعنى: المُسْمِع!!

من فوائد الآية الكريمة:

١ - تحذير من يفرح بما أتى فرح منةٍ أو فرحَ غدرٍ وخيانةٍ كالمنافقين.

٢ - التحذير من محبة الإنسان أن يُحمد بما لم يفعل، وهذا يقع كثيرًا، أحيانًا يصرح الإنسان بأنه عمل عملًا وهو كاذب، وأحيانًا يورّي فيظن السامع أنه فاعل وهو لم يفعل، أما الأول كأن يقول

مثلًا: صليت البارحة آخر الليل ودعوت الله وهو كاذب، لكن من أجل أن يُحمد على ذلك، أو يقول: رأيت فقيرًا فتصدقت عليه، أو يقول: طبعت كتابًا، أو أنقذت غريقًا، أو ما أشبه ذلك وهو كاذب، هذا قسم صرّح بما لم يفعل، وأحيانًا يورّي فيتظاهر أمام الناس أنه فعل وهو لم يفعل، فالذي يسمع كلامه يقول: هذا هو الفاعل وهو لم يفعل. وكلاهما مذموم، أما من أحب أن يُحمد بما لم يفعل ولكنه لم يتظاهر أمام الناس بالشيء ليُحمد عليه فهذا لا يضر؛ لأن كل واحد يحب أن يُحمد وإن لم يفعل، ولكن إذا حُمد على فعل وهو مُتظاهر للناس بأنه فعل فهذا مذموم.

٣ - أن من كان على هذا الحال فلن ينجو من العذاب؛ لقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

٤ - إثبات العذاب الأليم لمن هذه حاله، وقد عرفتم أنها مُنطبقة على صنفين من الناس: أهل الكتاب الذين كتموا صفة الرسول عليه الصلاة والسلام، والثاني: المنافقون.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم. ﴿مُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: جملة استئنافية.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملك السموات أي: مُلك الأعيان ومُلك التصرف، فهو مالك لأعيانها، وهو مالك للتصرف فيها. قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: على سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ على سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: ما لله، ﴿مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء الآلهة التي تدعونها، ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من معين، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لا أحد يشفع عند الله إلَّا بإذنه.

هذه الآيات يقولون: إنها قَطَّعت علائق المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان؛ لأنه يقول: هذه الأصنام هل لها ملك مستقل في السموات والأرض؟ هل شاركت الله؟ هل أعانته؟ هل تنفع شفاعتها بدون إذن؟ الجواب بالنفي، وعلى هذا فلا تنفعهم عبادة هذه الأصنام.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: السبع، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ للجنس فتشمل الأرضين السبع.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقدرة هي: التمكن من الفعل بلا عجز، فالتمكن من الفعل بلا عجز يُسمى قدرة، والتمكن من الفعل بلا ضعف يُسمى قوة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] فقابل الضعف بالقوة، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فقابل القدرة بـ ﴿لِيُعْجِزَهُۥ﴾ بالعجز، فالقدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عام في كل شيء، فما من موجود إلَّا والله قادر على إعدامه، وما من معدوم إلَّا والله قادر على إيجاده، وما من موجود إلَّا والله قادر على تغييره وتحويله من شيء إلى آخر، إذن هو على كل شيءٍ قدير، وهو قادر على أفعاله يفعل ما يشاء، وهو قادر على ذاته.

يقولون: إن ذات الله عزَّ وجلَّ إذا قصدْتَ أن الله قادر على إعدامها مثلًا، فإن هذا لا تتعلق به القدرة أصلًا؛ لأنه من المستحيل، ولهذا قال السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته:

لَـهُ الحيَـاةُ وَالْكَـلَامُ وَالْبَـصَرُ سَـمْعٌ إِرَادَةٌ وَعِلْـمٌ وَاقْتَـدَر

بِقُـدْرَةٍ تَعلَّقَـتْ بِمُمْكِـنِ كَـذَا إِرَادَةٌ فَعِـي وَاسْـتَبِن

ولكن مع ذلك فإن من الأدب أن نقول: إن الله على كل شيءٍ قدير ونسكت ولا نفصل؛ لأن الآيات التي جاءت بهذا عامة، ولا تقل: إن الله لا يقدر على الشيء المستحيل؛ لأن المستحيل أصلًا لا يتعلق به الفعل، يعني مثلًا: السكون والحركة هل يمكن أن يجتمعا؟ لا يمكن؛ لأنه إن تحرك لم يكن ساكنًا، وإن سكن لم يكن متحركًا، إذن، الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الساكن متحركًا، والمتحرك ساكنًا، فإذا قال قائل: هل يمكن أن يجعل الله المتحرك ساكنًا؟ الجواب: نعم يحول المتحرك إلى ساكن أو يجعل الساكن متحركًا، لكن أن يجعل الشيء متحركًا وساكنًا في آنٍ واحد فهذا لا يمكن أصلًا؛ لأنه ما دام متحركًا فيساوي عدم سكون، وما دام ساكنًا فيساوي عدم حركة، فبمجرد ما يتحرك انتفى عنه السكون، وبمجرد ما يسكن انتفت عنه الحركة.

من فوائد هذه الآية:

١ - أن ملك السموات والأرض خاص بالله عزَّ وجلَّ، ووجه تقديم الخبر القاعدة التي تقول: «**أنه إذا قدّم ما حقّه التأخير كان ذلك دليلًا على الحصر**».

٢ - أن الملك المطلق لله وحده؛ لأنه قدَّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾، وتقييدنا الملك «**بالمطلق**» ينفي توهم التعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حيث حصر الملك

له وحده، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٦] وقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]. ووجه ذلك: أن الملك المضاف إلى المخلوق ملك مقيد «ليس ملكًا مُطلقًا».

ودليل هذا: أن هذا المالك المخلوق لو أراد أن يتصرف بماله على خلاف ما جاءت به الشريعة كان ممنوعًا من هذا ولا يملكه، والله جل وعلا يملك ملكًا عامًا شاملًا يستغني به عن غيره.

٣ - الإشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يتصرف في ملكه إلَّا على حسب إذن الشارع؛ لأن كون الملك لله يدل على أن تصرفنا فيه إنما يكون بطريق الوكالة، يتقيد بما أُذِن له فيه، ولهذا لو وكلت شخصًا على بيع بيت لا يملك أن يؤجره؛ لأنه إنما وُكِّل على البيع فقط. والمالك الذي يملك البيت لم يأذن له في التأجير، إنما أذن له في البيع. فنحن باعتبار ما ملكت أيماننا لا نملكها مُلكًا مُطلقًا نتصرف فيها كيف شئنا، وإنما تملّكنا لها تملك مُقيد.

٤ - أن الشيء العام للخلق ليس ملكًا لأحد؛ وهو الذي أخرجه الله عزَّ وجلَّ، وليس من صنع إنسان، فهو ليس بملكٍ لأحد إلَّا مَنْ سبق إليه بمقتضى النصوص الشرعية، ووجه ذلك أن الله جعل ملك السموات والأرض له، فإذا كان له، فإنك لا تملك شيئًا من أرضه إلَّا على الوجه الذي أُذن فيه.

٥ - عموم قدرة الله عزّ وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

وأنت إذا قرأت هذه الآية وطبقتها على ما يريده بعض أهل الباطل من التشكيك في الشريعة فإنك تستريح؛ مثلًا يقول بعض المُلحدين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر: كيف يعود الإنسان إنسانًا بعد أن كان ترابًا؟.

وجوابنا على هذا سهل أن نقول: إن هذا من قدرة الله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

٦ - أن من آمن بهذا - أي بأن الله على كل شيء قدير - فإنه يطرد عنه اليأس؛ لأن الإنسان قد يُصاب بمرض مثلًا فييأس من بُرئه بعد العلاج، فيُقال له: لا تيأس إن الله على كل شيءٍ قدير، وأنت إذا أراد الله أن يبقى المرض بك فقد يكون خيرًا لك؛ لأنك تكسب من ورائه الثواب من الله عزّ وجل. فإنه لا يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذىً حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفَّر الله به - يعني من ذنوبه -. فأنت لا تيأس إذا أصابك مرض لا يُرجى زواله مثلًا، فإن الله على كل شيءٍ قدير.

٧ - أن ما أخبر الله به عن نفسه من الأمور والآيات فإنها حق؛ لأن الله على كل شيء قدير، فلو قيل: كيف ينزل إلى السماء الدنيا وهو على العرش؟! فنقول: الله على كل شيءٍ قدير، وليس لك أن تُعارض ما أخبر به رسول الله ﷺ عن ربِّه في أحاديث متواترة بمرجد وَهْم.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

هذه الجملة مؤكدة (بإن)، وفيها اختلاف في ترتيب الجزأين أعني: «جزأي المبتدأ والخبر» وهو تقديم الخبر في قوله: ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا الخبر، ثم إن فيها مؤكدًا آخر غير ﴿إِنَّ﴾ وهو (اللام) في قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾.

يقول الله عزَّ وجلَّ مؤكدًا مضمون هذه الجملة الخبرية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الخلق: «هو الابتداع على غير مثال سبق». يعني: إيجاد الشيء على غير مثال سبق يُسمى خلقًا.

وفي خلق السموات والأرض آيات من عدة أوجه:

الوجه الأول: من جهة الكبر والسعة.

الوجه الثاني: ما فيها من الحسن والبهاء والجمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [المُلك: ٥]. والذي يطّلع على ما صوَّره العلماء من هذه الآيات العظيمة يتبين له عظمة الله عزَّ وجلَّ في هذا الخلق.

الوجه الثالث: في خلق السموات من جهة إتقانها وعدم تخلخلها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك: ٣ - ٤].

الوجه الرابع: في خلق السموات والأرض مما أودع الله فيها من المواد المتعددة المختلفة الأنواع والأشكال والمنافع، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] يعني: متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينها من الاختلاف ما لا يعلمه إلَّا الله.

فيها أيضًا ما فيها من المنافع العظيمة للخلق. فالشمس فيها خير عظيم، والقمر كذلك، والأشجار وغيرها كلها فيها خيرات عظيمة من آيات الله عزّ وجل.

فأنت ترى النخيل على أرضٍ واحدة، وتسقى بماءٍ واحد، ويفضل الله بعضها على بعض في الحجم واللون والمذاق والادخار، وهي جنس واحد لكنها مختلفة، والآيات في هذا كثيرة. لو أن الإنسان جلس يتدبر ويتأمل ويكتب كل ما يعبر على خاطره لجمع آيات كثيرة في هذا، ونحن مأمورون أن نتدبر قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مأمورون بأن نتدبر ما في السموات والأرض من الآيات، لنستدل بها على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ وما في ذلك من الحكم العظيمة والرحمة.

وقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا هو التعبير القرآني الغالب: وهو أن الله تعالى يذكر السموات مجموعة والأرض مفردة، ولم يأت في القرآن الكريم التصريح بعدد الأرض بخلاف السماء فقد جاء التصريح بأنها سبع سموات، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

أما الأرضون فجاءت مُشارًا إليها بأنها سبع؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: في العدد لا في الكيفية ولا في الماهية.

وجاءت السُّنة صريحة في هذا في قول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ اقتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ طَوَّقَهُ الله بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

وقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾:

أيضًا هذا فيه آيات. اختلاف الليل والنهار على أي وجه من الاختلاف يُراد؟!

الجواب: أنه يُراد اختلافهما من وجوهٍ شتى:

أولًا: من جهة أن الليل ظُلمة والنهار نور، وهذا من آيات الله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

فهذا من آيات الله قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢].

ثانيًا: كذلك أيضًا اختلافهما من جهة الطول والقصر. أحيانًا يطول الليل، وأحيانًا يطول النهار، وأحيانًا يتساويان. ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا، فهو من آيات الله. ولو أن أهل الأرض كلهم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

اجتمعوا على أن يدخلوا من الليل جزءًا في النهار ما استطاعوا ولا العكس. فهذا من آيات الله.

ثالثًا: اختلاف الليل والنهار يدخل فيه اختلافهما حَرًّا وبردًا، أحيانًا يكون هذا حارًا وهذا باردًا، وأحيانًا يتساويان.

رابعًا: ومن ذلك أيضًا اختلافهما في الرخاء والشدة. أحيانًا تمرُّ بك الأيام رخاء، وأحيانًا تمر بك الأيام شدة.

خامسًا: من هذه الآيات: اختلافهما في العز والذل والنصر والخذلان. ينصر أحيانًا أقوامًا ويخذل هؤلاء الأقوام في آنٍ آخر، وهكذا فإن الليل والنهار فيهما آيات، تختلف باختلافهما في ذاتهما وفيما يقع فيهما، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ولو تأمل الإنسان لوجد أكثر مما ذكرنا من اختلاف الليل والنهار.

وقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ آيات: جمع؛ لأنها متنوعة ومتعددة ولكنها لا يفهمها ولا يتخذها آيات إلَّا أولو الألباب، ولهذا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لأصحاب العقول.

وسُمي العقل لُبًّا: لأنه «خالص الإنسان»، كما أن «اللُّب خالص الحبة»، فالإنسان بعقله، والعقل ليس هو الذكاء كما قد يتبادر بأذهان كثير من الناس، ولكن العقل هو: «الرشد في التصرف». فكلما كان الإنسان أشد رشدًا وتصرفًا كان أعقل. وليس كلما كان أذكى فهو أعقل؛ لأنه قد يكون من الأذكياء من هو أبعد الناس عن العقل، ولهذا يمكن أن نقول لصناديد الكفرة الممتلئين ذكاءً نقول: إنهم غير عقلاء وإن كانوا أذكياء.

قال الله تعالى لنبي إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] مع أنهم عندهم ذكاء!.

فأصحاب الألباب: هم الذين يعرفون ما في هذه الأشياء الأربعة من الآيات العظيمة: خلق السموات، خلق الأرض، اختلاف الليل، اختلاف النهار.

ثم بيَّن الله تعالى ما يتصف به هؤلاء فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾، وهذه صفة مبينة، وعليه فإن لنا أن نجعلها «عطف بيان» ولنا أن نجعلها «صفة مبينة لحالها».

قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾:

يعني: يذكرون الله على كل حال، قيامًا «وهي أعلى ما يكون الجسد عليه»، وقعودًا «وهي مرتبة بين القيام والاضطجاع»، والثالثة: على جنوبهم.

يذكرون الله سبحانه وتعالى بالتأمل في هذه المخلوقات، كلما رأوا شيئًا استدلوا به على كمال حكمة الله وقدرته وعلمه، وهذا ذكر.

يذكرون الله بألسنتهم بالتهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن وغير ذلك.

يذكرون الله بجوارحهم بالقيام والقعود والركوع والسجود في الصلاة وبالطواف بالبيت، وبالوقوف بمزدلفة، وبالوقوف بعرفة. وبالوقوف بمنى لرمي الجمار. كل عبادة تتعبد لله تعالى بها هي عبادة فعلية وهي من ذكر الله؛ لأنك تريد بها وجه الله. وبذلك تكون ذاكرًا له.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. نعم يذكرون الله على جنوبهم بالقلوب والجوارح؛ لقول النبي ﷺ لعمران بن حُصين: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[1].

قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتفكرون: التفكر: «إعمال الفكر». وذلك بأن يفكر في خلق السموات والأرض، لأي شيءٍ خُلقت؟! وكيف خُلقت ؟! وكيف رُفعت السماء ؟! وكيف سُطحت الأرض ؟! وما أشبه ذلك، فهم يعملون أفكارهم، ثم يتفكرون هل هذه السموات والأرض خلقت نفسها أم كانت مخلوقة؟

يستنتجون بهذا التفكير أن السموات والأرض كانتا غير مخلوقتين؛ لأنهم بالتفكير يطلعون على ما لا يطلع عليه غيرهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ هذه الجملة مقول لقول محذوف. يعني: (يقولون ربنا ما خلقت هذا باطلًا).

يعني: بعد أن يتفكروا في خلق السموات والأرض تحصل لهم هذه النتيجة المباركة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾.

قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ هذه نافية.

وقوله: ﴿بَاطِلًا﴾ حال لازمة لو حذفت لفسد الكلام. وعلى هذا فتكون لازمة، والقاعدة في الحال اللازمة «هي التي لو حذفت لفسد الكلام»؛ لأنه لو حذفت ﴿بَاطِلًا﴾ لكان اللفظ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ مع أنه خلق، وكم من «جملة حالية» أو «مفرد حال» صار لابد منه في الكلام، وتسمى هذه «حال لازمة».

وقوله: ﴿بَاطِلًا﴾ حال من ﴿هَٰذَا﴾ ﴿هَٰذَا بَاطِلًا﴾، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي: خلقًا باطلًا.

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ يعني: يا ربنا، فهو مُنادى منصوب بياء النداء المحذوفة.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ سبحان اسم مصدر منصوب على المفعولية المُطلقة، وعامله محذوف، والتقدير من حيث المعنى: «نُسبحك تسبيحك» أي: «ننزهك تنزيهك اللائق بك». وأصل التسبيح: التنزيه

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١١٧)، والترمذي (٣٧١)، والنسائي (١٦٦٠)، وأبو داود (٩٥١).

والإبعاد عن السوء؛ ومنه قولهم: «تسبح فلان»، يعني بَعُد ونزل في الماء يسبح.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك أن تخلق هذه السموات والأرض باطلًا، وقد بيَّن الله في آيات أخرى أن من ظن أن الله خلق شيئًا باطلًا فقد أخذ بظن الكفار.

الدليل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. ولهذا قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ «الفاء» هذه مُفرِّعة للجملة الثانية عن الأولى، و «قِ» فعل أمر مكون من حرف واحد لأنه فعل ناقص، وأوله حرف علة. والفعل الثلاثي الناقص الذي أوله حرف علة يكون عند الأمر أو الجزم على حرف واحد فتقول: «قِ» مأخوذ من «وقى»، «عِ» من «وعى»، «دِ» من الدية من «ودى» ولها أمثلة كثيرة ذكرها الخضري رَحِمَهُ اللَّهُ في حاشيته على شرح «ابن عقيل على الألفية».

وهذه الحاشية - أعني حاشية الخضري على شرح ابن عقيل - من أحسن الحواشي التي كتبت على شروح ألفية «ابن مالك»؛ لأنه متأخر وجمع أقوال من سبقه، وله تحرير جيد في بعض الأشياء التي يُحررها، فأشير بها على كل من أراد أن يقرأ ألفية «ابن مالك» وشرحها «لابن عقيل». فإن هذه الحاشية مُفيدة، وقد ذكر عدة أمثلة للفعل الثلاثي المبدوء بحرفة علة المختوم بحرف علة بأنه تحذف منه العلتان.

والنحويون يقولون: ما أوله حرف علة فهو «مثال». وما وسطه حرف علة فهو «أجوف». وما آخره حرف علة فهو «ناقص» أو «مقصور».

قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

«قنا» مأخوذ من الوقاية. أي: قنا عذاب النار بما تشاء؛ إما بعدم إدخالنا فيها، يعني: أن لا ندخلها أصلًا، أو بإخراجنا منها بالشفاعة؛ لأن المؤمن الفاسق يستحق دخول النار على فسقه ثم بعد ذلك يخرج منها، وقد يعفو الله عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - الحث على التأمل في خلق السموات والأرض؛ لأن الله ذكر أن فيها آيات. والآيات هي: العلامات، وكلما ازدادت الآيات وضوحًا ازداد الإيمان قوة.

٢ - النظر إلى خلق السموات والأرض على الوجه التي ذُكرَ في التفسير، من حيث ذواتها ومنافعها وما فيها من الخير والمصالح حتى لا يذهب ذاهب إلى أنها خلقت عبثًا.

٣ - الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار من رخاء إلى شدة وبالعكس، ومن حرب إلى سلم،

ومن عزٍّ إلى ذُلٍّ، ومن فقرٍ إلى غنىً وبالعكس في هذه الأمور.

٤ - الثناء على أصحاب العقول؛ لأن الله جعل هذا الاختلاف لذوي العقول. أما من لا عقل له فإنه لا ينتفع بهذه الآيات، ولا يعتبر بها وتمرُّ عليه وكأنها مظاهر طبيعية لا علاقة لفعل الله تعالى بها، وهذا - والعياذ بالله - من الطمس على القلوب وعمى الأبصار؛ لأن هذا الكون على هذا النظام البديع لا يمكن أبدًا أن يقع إلَّا من ربٍ حكيمٍ عزَّ وجلَّ، ولا يمكن أن يقع من فاعل على وجه السفه أبدًا.

٥ - أن الربَّ عزَّ وجلَّ أظهر آياته لخلقه مع أنه مُجرد الإيمان بأن الله تعالى حيٌّ موجود يكفي؛ لكن كلما تعددت الأدلة والآيات ازداد الشيء يقينًا، ودليل هذا أن إبراهيم قال لله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فالإنسان قد يكون مؤمنًا ولا إشكال عنده في الأمر لكن يحتاج إلى من يُطمئنه.

٦ - الثناء على العقل، وهو عقل الرشد لا عقل التكليف؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٧ - أنه كلما كان الإنسان أعقل كان بالله وآياته أعلم؛ لقوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والحكم المعلق على وصف يثبت لثبوته ويعدم لعدمه، فإذا كان أصحاب العقول هم الذين ينتفعون بهذه المخلوقات ويستدلون بها على الخالق عزَّ وجلَّ وعلى ما له من صفات الكمال، فإن مَن عقله عقل بهيمي لا ينتفع بهذه الآيات؛ لأنه ليس من ذوي الألباب.

فإن قال قائل: العقول هبة من الله عزَّ وجلَّ فكيف يذم الإنسان على فقدها أو يُمدح على وجودها؟!

فالجواب: أن العقل - أعني عقل الرشد - نوعان: عقل غريزي وعقل اكتسابي؛ فالعقل الغريزي لا يحتاج إلى تأمل وتفكر، وأما العقل المكتسب فإنه يحتاج إلى تأمل ونظر وتفكر؛ لأنه كلما ازداد تفكره ازداد إيمانه ويقينه ورشده.

٨ - الثناء على ذوي العقول؛ لأن الله جعل هذه الآيات نافعة لأولي العقول، وعلى هذا فينبغي لك أن تكرس جهودك على التأمل المبني على العقل، حتى يكون عندك عقل غريزي وعقل مُكتسب.

٩ - أن ذكر الله عزَّ وجلَّ من لوازم العقل ومقتضياته؛ لقوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾.

١٠- فضيلة إدامة الذكر؛ ذكر الله عزَّ وجلَّ على كل حال؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وكان أبلغ منْ وفَّى بهذا حقه عزَّ وجلَّ رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها:

«كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»(١).

١١- جواز ذكر الله تعالى للجُنُبِ: أي أنه يجوز للجُنُبِ أن يذكر الله لدخوله في العموم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

١٢- أن ذكر الله في حال كون الإنسان على جنب لا يُعد استهانة بالذكر، وكذلك قراءة القرآن، (وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن مُتكئًا في حجر عائشة وهي حائض ﵂)(٢).

١٣- فضيلة التفكر في خلق السموات والأرض؛ لقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولكن التفكر المقرون بقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ لا التفكر الذي يُراد به الاطلاع على العلم المادي فقط في خلق السموات؛ لأن هذا التفكر وإن كان يفيد الإنسان في الدنيا، لكنه لا يفيده في الآخرة. لابد أن يكون التفكر هذا منتجًا هذا القول والإقرار: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾.

١٤- أنه إذا أثنى على المتفكرين في الخلق، فالمتفكرون في الشرع من باب أولى؛ لأن الشرع ليس أمرًا محسوسًا، فالتفكر فيه أبلغ في الإيمان من التفكر في الخلق. الخلق أمر محسوس كل إنسان يُدركه، لكن حِكم وأسرار الشرائع ليس لكل أحد أن يُدركها.

١٥- التوسل إلى الله تعالى بالربوبية حال الدعاء، وأكثر ما يكون التوسل به من أسماء الله بالدعاء هو الربوبية؛ لأن الربوبية بها الخلق والمُلك والتدبير، فلهذا نجد أن أكثر ما يُدعى به الربوبية؛ اسم الربوبية، أو وصف الربوبية.

١٦- انتفاء الباطل في خلق الله نفيًا مُطلقًا، وذلك من قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾، وإذا انتفى الباطل نفيًا مُطلقًا ثبت الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

١٧- إثبات ما أثبته أهل السُّنة من أن من صفات الله ما هو منفي أو ما هو سلبي؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾.

والقاعدة عند أهل السُّنة: «**أن الصفات المنفية لا يُراد بها مجرد النفي وإنما يُراد بها النفي مع إثبات كمال الضد**»؛ لأنه لثبوت كمال الضد انتفى هذا الوصف.

١٨- الإقرار من هؤلاء العقلاء بأن الله هو الخالق: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ وهو من تقرير توحيد الربوبية.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٧٣)، والترمذي (٣٣٨٤)، وأبو داود (١٨)، وابن ماجه (٣٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٧) ومسلم (٣٠١).

١٩- إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ لأنه لو خلقها باطلًا لانتفت الحكمة، فإذا انتفى الباطل ثبتت الحكمة، وهذا هو الذي عليه أهل السُّنة والجماعة من أن أفعال الله وشرائعه كلها لحكمة ليس فيها شيء عبث إطلاقًا، وما خفيت علينا حكمته فهو لقصور أفهامنا وليس لانتفاء الحكمة فيه؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ونحن نؤمن بأن الله عزَّ وجلَّ لا يحكم بشيء حكمًا كونيًا ولا قدريًا إلَّا لحكمة.

٢٠- تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل عيب ونقص، مأخوذ من قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾. والذي يُنزَّه عنه شيئان: «النقص»، «ومماثلة المخلوقات»، حتى فيما هو كمال في المخلوقين، فإن الله مُنزه عن مماثلتهم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فكل نقص قد تنزه تعالى الله عنه.

٢١- أن صفوة الخلق محتاجون إلى الدعاء للوقاية من النار؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٢- إثبات التوسل في الدعاء بصفات الله من قوله: ﴿فَقِنَا﴾؛ لأنهم بنوا ﴿فَقِنَا﴾ على قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا﴾ يعني: أننا نتوسل إلى الله عزَّ وجلَّ بتنزُّهه عن النقص أن يقينا عذاب النار؛ لأننا مؤمنون؛ لقوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقرون بأنها خلقت بالحق وللحق، وينزهون الله عزَّ وجلَّ عن كل نقصٍ وعيب.

وينبني على ذلك أنهم جعلوا ذلك وسيلة لوقاية الله تعالى إياهم من النار ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا﴾؛ لأنه من المعروف في اللغة العربية أن «الفاء» تدل على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

٢٣- إثبات النار وهي دار المجرمين والعُصاة والظالمين والكفرة؛ لقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٤- في الآية الكريمة كلمتان لا يجوز فصل إحداهما عن الأخرى، وهي قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فلو قلت: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ وسكتَّ أوهم معنىً فاسدًا، ولهذا يجب الوصل ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾. وهذا مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] لابد أن تصل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] لو قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣] فقط لفسد المعنى.

ومثل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] لابد أن تصل فتقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وذلك لأنك لو سكت لأوهم أن الوعيد لمن يُصلي.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

❁ التفسير ❁

هذه الآية كالتعليل للدعاء السابق ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأن من أدخلته النار فقد أخزيته.

﴿رَبَّنَآ﴾ هذه مُنادى حذفت منها «ياء النداء»، والتقدير: «يا ربنا».

قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾:

إن واسمها في «إنك»، والجملة الشرطية ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ في محل رفع خبر «إن».

قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾:

مبتدأ وخبر، الخبر مُقدم، و «الأنصار» مبتدأ مؤخر وهو مجرور بـ «من» الزائدة «من أنصارٍ»، والتقدير: (وما للظالمين أنصار). هذا إعراب الآية.

يقول هؤلاء السادة العقلاء: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾.

«مَن» تشمل العصاة والكفار؛ فالعصاة مستحقون لدخول النار، وإذا أُدخلوا النار فإنهم غير مظلومين؛ لأنهم مستحقون لذلك، والكفار مُستحقون لدخولها على وجه التأبيد والتخليد، وكل منهم إذا أُدخل النار فقد أخزاه الله أمام العالم، أي: فضحه وهتك سره.

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هنا إظهار في موضع الإضمار، فإن مُقتضى السياق أن يقول: (وما لهم من أنصار)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أن هؤلاء الذين يدخلون النار مستحقون لهذا الوصف، أي: وصفهم بالظلم.

الفائدة الثانية: العموم؛ أن كل ظالم حتى وإن لم يدخل النار إذا أراد الله أن يُعاقبه فإنه لن يجد من ينصره.

الفائدة الثالثة: إثبات العلة في الحكم، فلو قال: (وما لهم من أنصار) لم يتبين لنا أن السبب؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، فإذا وصفهم بهذا فكأنه بيَّن الحكم بعلته.

وقوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني: من أعوان؛ لأن الناصر بمعنى المعين. وسواء كان العون في دفع العذاب عنهم أو في تخليصهم منه، فلا أحد ينصرهم عند إدخالهم فيمنعهم، ولا أحد ينصرهم إذا سقطوا فيها فيُخرجهم. قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد يستدل بعض الخوارج بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ على أن من دخل النار فهو منزوع الإيمان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التحريم: ٨]، فالرد عليهم: أنه ليس فيه دليل على هذا؛ لأن الخزي قد يكون عامًّا دائمًا، وهذا لأهل النار الذين يستحقون الدوام فيها، وقد يكون خزيًا جزئيًّا يفضح به ثم يزول عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - فقه هؤلاء السادة أولي الألباب حيث بيَّنوا سبب دعائهم أن يقيهم الله من النار، وأن سبب ذلك هو أن النار دار الخزي والعياذ بالله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

٢ - إثبات النار؛ لقوله: ﴿مَن تُدْخِلِ النَّارَ﴾.

٣ - أنه لا نصير للظالم وذلك في الآخرة، أما في الدنيا فقد يُنْصَرُ الظالم، ولكن تدور عليه الدوائر، أما في الآخرة فلا أحد ينصره.

٤ - أن الظلم سبب دخول النار؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بعد قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

❁ التفسير ❁

نقول في: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ مثل ما قلنا في: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ﴾ أو ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ أي: أنها مُنادى حُذف منها «ياء النداء».

قوله: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ سمعوا مناديًا يُنادي للإيمان، جملة (ينادي للإيمان) صفة لقوله: (مناديًا) لكن فائدتها أنها بيَّنت ماذا يُنادي له؛ وذلك أن المنادي قد يُنادي لكذا ولكذا، فبيّنت ماذا يُنادي له. فهي إذن صفة لـ «مناديًا».

وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ «أن» هذه تفسيرية؛ لأنها جاءت بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه، وكل «أَنْ» تقع بعد جملة تتضمن معنى القول دون حروفه فإنها تُسمى تفسيرية، فهي بمعنى «أي» ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] يعني: «أي اصنع

الفلك». فـ «أنْ» هنا تفسيرية.

وقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾:

«الفاء» هذه عاطفة ولكنها تفيد السببية؛ لأنها عطفت جملة على جملة.

وقوله: ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾: بالكسر مع أنه مفعول به؛ لأنها «جمع مؤنث سالم».

وقوله: ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ظرف، ولكن هنا المراد بالمعية: المعية الحكْمِيَّة لا الزمنية؛ لأن ميتات الأبرار تختلف.

يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: قالوا ذلك تحدثًا بنعمة الله على ما أنعم به من إرسال هذا المنادي.

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾: المنادي أصله: «المصوِّت»؛ لأن النداء هو رفع الصوت، ولكن المراد به: محمد ﷺ، وسماعهم له يقع على وجهين: أحدهما: أن يسمعوا صوته مباشرةً بدون واسطة.

والثاني: أن يسمعوا من ورثته ما جاء به، وهم العلماء، وكل هذا داخل في الآية؛ يعني: السماع المباشر الذي سمعوه من صوته، والسماع غير المباشر الذي سمعوه بالواسطة من ورثته وهم العلماء.

وقوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ قد يقول قائل: إن المتوقع أن يُقال: إلى الإيمان، فيُقال إليه، ولكنه أتى باللام؛ لأن اللام ألصق من «إلى»، إذ إن «إلى» تفيد الغاية، والغاية لابد لها من مغنّى، والمغنّى طرف فهو مؤمن بالبُعد. أما «للإيمان» فهي للإلصاق فتكون ألصق من «إلى».

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ هذا بيان للإيمان الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾:

الإيمان بالله عزَّ وجلَّ: هو الإقرار المتضمن للقبول والإذعان وليس مُجرد الإقرار، ولو كان الإيمان مُجرد الإقرار لكان أبو طالب مؤمنًا؛ لأنه مُقر، ولكنه لا يكون إيمانًا حتى يتضمن القبول والإذعان، يعني: الانقياد، فأما إذا لم يقبل أو قبل ولم يُذعن فإنه ليس بمؤمن.

وقوله هنا: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ قد يقول قائل: هل الإيمان يقتصر على ركنٍ واحد؟ وهو الإيمان بالله.

فالجواب: أن من آمن بالله آمن بكل ما أخبر الله به ومنه بقية الأصول الستة: «ملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره».

فعلى هذا يكون الإيمان بالله مُتضمنًا للإيمان ببقية أركان الإيمان، ويكون ذكرها أحيانًا مُفصلة من باب التفصيل والبيان وليس من باب التخصيص، فإن الإيمان بالله يتضمن هذا كله.

قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ يعني: أقررنا بذلك مع الانقياد والقبول والإذعان.

قوله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: بسبب إيماننا اغفر لنا ذنوبنا. و «المغفرة»: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، وإنما نقول: إنها ستر وتجاوز؛ لأنها مأخوذة من «المِغْفَر» وهو ما يُلبس على الرأس من الحديد الذي يقي السهام، ومعلوم أن هذا «المِغْفَر» فيه ستر وفيه وقاية، فمن قال من العلماء: المغفرة هي الستر فإن تفسيره لها ناقص، لابد أن يُقال: الستر مع الوقاية.

وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾:

الذنوب: هي المعاصي، وأصلها «النصيب» كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي: نصيبًا مثل نصيب أصحابهم، ولكنها خصت بالنصيب من الآثام والعياذ بالله.

وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ السيئات طلبوا تكفيرها، والذنوب طلبوا مغفرتها؛ لأن السيئات: هي «الصغائر» وهي تُكَفَّر بالأعمال الصالحة، بالطاعات، ولا يمكن أن تُكفر بالطاعات إلَّا بعد أن تكون الطاعات على الوجه الأكمل؛ لأن الطاعات إذا نقصت لم تَقْوَ على تكفير السيئات. إذ إن الإنسان قد يفعل الطاعة ولا يحصل له منها إلَّا إبراء الذمة، لكن لا تقوى على التكفير حتى تكون «تامة» بقدر المستطاع، ولهذا قالوا: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ بما نفعله من الأعمال الصالحة.

ثم اعلم أن تكفير السيئات قد يكون مُعيَّنًا من قبل الشرع أي: ما يكفَّر به قد يكون معينًا من قبل الشرع مثل كفارة الظهار، وكفارة القتل، وكفارة الجماع في نهار رمضان. فهذا مُقيد بالشرع، وقد يكون عامًا كتكفير السيئات عمومًا بالصلاة، وبالوضوء، وبالجمعة إلى الجمعة، وبرمضان إلى رمضان، وبالعمرة إلى العمرة. فالتكفير إما مُقيد وإما مُطلق عام.

وهناك فرق بين الكبائر والصغائر؛ فإن الكبيرة أحسن ما قيل فيها: هي ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت العقوبة دنيوية أو دينية في الدنيا أو في الآخرة، هذا أحسن ما قيل فيها، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله. وقال بعضهم: إن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، أو لعنة أو غضب أو نفي إيمان، أو تبرؤ منه، وصاروا يعدّون مثل هذا.

فإذا قلنا: ما رتب عليه عقوبة خاصة صار أشمل، ومن المعلوم أن الكبائر بعضها أهون من بعض أو أعظم من بعض؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي بكرة: «أَلَا أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٨٧).

وهم طلبوا من الله تكفير الكبائر والصغائر؛ لأن الكبائر لا تُكفَّر، وإنها تحتاج إلى مغفرة من الله عزَّ وجلَّ، إما بُجرد فضل منه سبحانه وتعالى، وإما بعمل أسباب كالاستغفار والتوبة حتى ترفع حكم هذه الكبائر.

قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ «توفنا» يعني: «اقبضنا إليك» «والتوفية» بمعنى «القبض»، ومنه قولهم: تَوَفَّى فلان حقَّه أي: قبضه وافيًا.

وقولهم: ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ المعية هنا ليست معية زمنية؛ لتعذر اجتماع وفاة الأبرار في آنٍ واحد، لكنها معية حُكْمِيَّة ومصاحبة حكمية. يعني: أن نكون معهم، أي: في جملتهم ولو كنا بعدهم.

و (الأبرار) جمع بَرّ؛ والبَرُّ هو: كثير الخيرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، وأهل الحق والأعمال الصالحة لا شك أنهم مُكثرون لفعل الخيرات، وعليه فإنهم أبرار.

فإن قال قائل: هل في هذا الدعاء جواز الدعاء بالموت؟

الجواب: ليس كذلك، فمعلوم أن الله سبحانه وتعالى لن يتوافهم إلَّا إذا جاء أجلهم، وليس فيها أنهم يتمنون تقديم الوفاة، وهذا نظير قول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. ليس المعنى: أنه يسأل الله أن يتوفاه الآن، بل أن يتوفاه على الإسلام متى جاء أجله، وكذلك قول مريم: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣] ليس معناه: أنها تمنت الموت بل تمنت أن هذا لم يقع، يعني معناه نقول: «يا ليتني مت وأنا ما رأيته».

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أنه ينبغي للإنسان أن يعترف بنعمة الله عليه غير مانٍّ بها على ربه؛ لقولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

٢ - أن دعوة النبي ﷺ دعوة إلى الإيمان: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٣ - بيان أن رسول الله ﷺ بذل الجهد في دعوة الخلق إلى الحق؛ لأن النداء يكون برفع الصوت، فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس بأعلى صوته يُناديهم للإيمان.

٤ - أن الكلمات قد يُستغنى بمضمونها عن تفصيلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦] أي: بكل شيء يجب الإيمان به، فكل ما أخبر الله به وصدقنا به وأقررنا به فهو داخل في الإيمان بالله عزّ وجل.

٥ - الإشارة إلى بيان علة الإيمان؛ لقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فالرب أهل لأن يؤمن به

الإنسان؛ لأنه ربٌّ خالق، مالك، مُدبر، فهو جدير بأن يؤمن به العبد.

٦ - أن ذكر الإنسان لعمله الصالح لا يُحبطه، فإذا قال: أمرني ربي بالصلاة فصليت، أو بالزكاة فزكيت، أو بالحج فحججت، فإن هذا لا يُبطل العمل؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

٧ - جواز التوسل في الدعاء بالأعمال الصالحة؛ لقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ عطفًا على قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ والتوسل بالأعمال الصالحة مما ثبت بالسُّنة أيضًا.

ففي قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار بصخرةٍ عظيمةٍ لم يستطيعوا زحزحتها فقال بعضهم لبعض: إنه لا يُنجيكم من ذلك إلَّا أن تتوسلوا إلى الله بصالحِ أعمالكم؛ فتوسل كلٌّ منهم بصالح عمله، فلما دعا الأول وتوسل بصالح عمله انفرجت الصخرة قليلًا، ثم الثاني قليلًا لكن لا يستطيعون الخروج، ثم الثالث انفرجت كلها فخرجوا يمشون.

هنا يَحسُن أن نذكر أنواع التوسل:

التوسل ينقسم إلى قسمين: ممنوع، وجائز.

فالممنوع: ما لم يرد به الشرع.

والجائز: ما ورد به الشرع، **هذا هو الضابط**.

فما لم يرد به الشرع من أنواع التوسل فهو ممنوع، مثل التوسل بجاه الرسول ﷺ يقول أحدهم: أتوسل إليك بجاه نبيك، فالتوسل هنا غير مشروع فيكون ممنوعًا؛ لأن التوسل «**جعل الشيء وسيلة**» وكون الشيء وسيلة لا يثبت إلَّا بدليل من الشرع، وجاه النبي ﷺ ليس سببًا لقبول دعائنا؛ لأن جاهه عليه الصلاة والسلام مما يختص هو نفسه بفضله، أما نحن فليس لنا تعلق فيه.

أما الجائز فهو ما جاء به الشرع وهو أنواع منها:

الأول: التوسل بأسماء الله، أن تقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحُسنى، ودليله حديث ابن مسعود رضي الله عنه في دُعاء الكرب والغم: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ... إلخ**»[1]. فهذا توسل بأسماء الله: «**بكل اسم هو لك**».

الثاني: التوسل بصفات الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهُمَّ**

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»[1]. فقوله: «بعلمك الغيب» هذا توسل لله بصفته، ومن ذلك: «اللهُمَّ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[2]، فإن هذا ليس استغاثة بالرحمة ولكن استغاثة بالله لصفته وهي الرحمة، فإن الرحيم يُغيث.

الثالث: التوسل إلى الله بأفعاله وإن كان من الصفات، لكن هو صفة ليست أزلية أبدية، ومنه قولنا في التشهد: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[3].

فقوله: «**كما صليت على إبراهيم**» المراد بذلك: التوسل إلى الله، يعني: مثل ما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فصلِّ على محمد، فإذا قلنا بهذا صارت الكاف للتعليل.

وبهذا التقرير يرتفع الإشكال الذي أورده بعض العلماء وقالوا: من المعلوم أن محمدًا ﷺ أفضل من إبراهيم، والقاعدة: «**أن المشبه دون مرتبة المشبه به**» وهنا قال: «**صلِّ على محمد كما صليت على إبراهيم**»، وإذا قلنا: بأن الكاف ليست للتشبيه ولكنها للتعليل، وأن هذا من باب التوسل؛ يعني: أننا لا نسألك أمرًا غريبًا، بل نسألك أمرًا فعلته من قبل، فإن الإشكال هنا يرتفع ولا يبقى في هذا إشكال.

الرابع: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به وبرسله، ومنه هذه الآية: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، فجعلوا إيمانهم بذلك وسيلة لسؤال المغفرة ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

الخامس: التوسل إلى الله عزَّ وجلَّ بالأعمال الصالحة، وليس بالإيمان بالأعمال الصالحة، ومن ذلك قصة أصحاب الغار الثلاثة حين انطبقت عليهم صخرة فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ؛توسل أحدهم بكمال برِّه لوالديه، وتوسل الثاني بكمال عفته، وتوسل الثالث بكمال أمانته، ففرّج الله عنهم.

فإذا قال قائل: التوسل بهذا والذي قبله فيه إشكال؛ لأنه قد يقول قائل: أليس هذا إدلالًا على الله عزَّ وجلَّ، وإعجابًا وفخرًا بالعمل؟ كأنه يقول: يا رب إني فعلت كذا وفعلت كذا، فاغفر لي مثلًا.

فالجواب: لا، بل هذا من باب التذلل له عزَّ وجلَّ وأنني يا رب قد ذللت لك وعلمت أنك

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (١٣٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).
(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٧٧).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٧٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٠٦).

الملجأ فعبدتك وآمنت بك، فأسألك أن تغفر لي مثلًا.

السادس: التوسل إلى الله عزَّ وجلَّ بذكر حال الداعي، أن تذكر حالك، فتقول: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي.

الأول توسل بالعمل الصالح، وهنا على العكس بالحال، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ما ذكر إلَّا هذا، وهذا توسل بذكر الحال؛ لأن الإنسان إذا ذكر حاله وأنه مُفتقر إلى الله أوجب ذلك له أن يلجأ إلى ربه عزَّ وجلَّ، ويكون هذا من أسباب إجابة الدعاء.

السابع: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، ومنه قول عكاشة بن مُحصن للنبي ﷺ لما قال: «**إِنَّ من أُمَّتِهِ سَبعين أَلفًا يَدْخُلُونَ الجنَّة بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، قَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَال: أَنْتَ مِنْهُم**»(١).

ومنه قول الأعرابي: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السُبل، فادعُ الله يُغيثنا فدعا(٢).

ومنه قول عمر للعباس: قم فادعُ الله، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا(٣).

وهذا النوع السابع ينبغي أن يُلاحَظ منه ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا طلب منه أن يدعو له فإنما يقصد بهذا منفعة الداعي وأجره؛ لأن الداعي يؤجر إذا دعا لأخيه، وإنما قال ذلك احترازًا مما إذا أراد الطالب نفع نفسه فقط. قال: فإن هذا من المسألة المذمومة، أن تقول: ادعُ الله لي. وقصدك منفعة نفسك.

بل قل: ادعُ الله لي، وتقصد أن ينتفع هو أيضًا بدعائه لك؛ لأنه يؤجر على الإحسان إليك؛ لأنه إذا دعا لك بظهر الغيب، قال الملك: آمين ولك بمثله. هذا إذا أردت أن تطلب من شخص أن يدعو لك أنت خاصة، أما إذا طلبت منه أن يدعو للمسلمين عمومًا فهذا ليس من المسألة المذمومة، حتى وإن لم تلاحظ نفعه هو. ونظيره: لو أنك سألت رجلًا درهمًا لنفسك، أو قلت: أعطني درهمًا لفلان الفقير، كان الأول من السؤال المذموم، والثاني من الإحسان إلى المُعطِي وإلى المُعطَى؛ لأنك تنفع المعُطي في الآخرة، وتنفع المُعطى في الدنيا.

فهذه سبعة أنواع من التوسل كلها جاءت بها السُّنة وهي جائزة؛ لأنها حقيقة، سبب من

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٥).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٠١٠).

الأسباب، والوسيلة هي أصلًا تُشبه الوصيلة، والسين والصاد يتناوبان كثيرًا. كما في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ و(اهدنا السراط المستقيم)، كلاهما قراءتان سبعيتان، إذن نأخذ من هذه الآية جواز التوسل بالإيمان، واستطردنا بذكر أقسام التوسل.

وهنا مسألة: هل شرك المشركين بآلهتهم من باب التوسل الممنوع أم ماذا؟

الجواب: ليس من التوسل، بل هو عبادة؛ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزُّمَر: ٣]، فهم يقصدون العبادة، يدعون هذه الأصنام ويركعون لها ويسجدون لها، وينذرون لها ويذبحون لها، فهذا ليس من باب التوسل، بل من باب القصد والغاية أن هذه الأصنام تُعبد.

٨ - أن كل أحد مُحتاج لمغفرة الذنوب؛ لقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾. فلا تغرنك كثرة الطاعات، فالإنسان كلما كثرت طاعاته ينبغي أن يكون أخوف على نفسه من أن تُرد هذه الطاعات ويذهب عمله سُدىً.

٩ - التفريق بين المعاصي؛ بعضها ذنوب، وبعضها سيئات، وهو كقولنا: إنها تنقسم إلى كبائر وصغائر، والكبائر والصغائر تختلف في ذاتها وتختلف فيما بينها، فالكبائر منها كبرى، ومنها صُغرى. والصغائر منها ما يقرب من الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك.

١٠- جواز سؤال الموت على طريق أهل الخير؛ لقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا ليس من باب الدعاء بالموت العاجل، وإنما من باب الدعاء بالموت على صفة مطلوبة، وهي أن يموت على ما مات عليه الأبرار، وذكرنا لهذا نظائر، مثل قول مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٣]. والمعنى: يا ليتني مت قبل المصاب، وكذلك قول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

١١- الثناء على أهل البر والإحسان؛ لقوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]

التفسير

انظر إلى التكرار في قوله: «ربنا»؛ لأنهم يتلذذون بهذا التعبير أن يكون الله ربهم، وإذا كان الله

ربهم فهم عبيده، وتلذذ الإنسان بعبوديته لله عزَّ وجلَّ دليل على كمال إيمانه؛ لأنه كلما كان الإنسان أذل لله كان أكمل إيمانًا؛ ولهذا يكررون «ربنا» تلذُّذًا بهذا الاسم الكريم.

وقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾:

آتنا: بمعنى أعطنا، بخلاف ائتنا: بمعنى جئنا، آتِ بمعنى أعطِ، وأتى بمعنى جاء.

والمصدر من آتى: إيتاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. أما المصدر من أتى فهو إتيان.

يقول: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾:

«ما»: هذه موصولة ومحلها من الإعراب مفعول ثانٍ لآتِ؛ لأن «آتِ» تنصب مفعولين وهي من أخوات أعطى، بمعنى ليس أصلهما من المبتدأ والخبر، فالذي ينصب مفعولين ينظر فيها: إن كان أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات ظن، وإن لم يكن أصلهما المبتدأ والخبر فهو من أخوات أعطى وكسا، وهذه من أخوات أعطى وكسا.

قوله: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: عهدت به إلينا من الثواب الجزيل على أعمالنا، وقوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: على الإيمان برسلك.

والثاني: على أيدي رسلك.

فعبَّر بالرسل عن أيدي الرسل؛ لأن الذين وعدوهم هم الرسل أنفسهم، وعدوا المؤمنين بما وعدهم الله به، ووعدوا المخالفين بما توعدهم الله به.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

«تُخزنا» أي: تفضحنا وتذلنا يوم القيامة، أي: يوم يقوم الناس من قبورهم لله عزَّ وجلَّ، وسُمِّي هذا اليوم يوم القيامة لأمورٍ ثلاثة:

الأول: أنه يقوم الناس فيه من قبورهم لله.

الثاني: أنه يُقام فيِ العدل.

الثالث: أنه يقوم فيه الأشهاد.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تعليل لسؤالهم، يعني: سألناك يا ربنا أن تُعطينا هذا؛ لأنك لا تخلف الميعاد، وإنما انتفى عنه إخلاف الوعد لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الوعد، إما أن يكون لكذِب الواعد، كميعاد أهل النفاق، وإما أن يكون لعجز الواعد أي أنه يفي لكنه عجز،

والله عزَّ وجلَّ قد انتفى في حقِّه الأمران، أعني: الكذب والعجز، فهو لكمال صدقه وكمال قدرته لا يخلف الميعاد، وهذه الصفة من الصفات السلبية، والسلب بمعنى: النفي. وقد قررنا غير مرة أن الصفات السلبية يُراد بها شيئان:

الأول: انتفاء الصفة التي نُفِيَت.

الثاني: إثبات كمال ضدها، يعني: انتفى عنه هذا كمال ضده، هذا هو المعنى. فإذا قلت: فلان لا يكذب، فالمعنى أنه كامل الصدق لا يوجد في كلامه كذب، ولهذا نقول: إن الصفات المنفية عن الله سبحانه لا يُراد بها مُجرد النفي، وإنما يُراد بها إثبات كمال الضد.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أنه ينبغي للداعي أن يُكثر من الثناء على الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ لأن هذا من وسائل إجابة الدعاء.

٢ - كمال إيمان هؤلاء بوعد الله؛ لقوله ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ إذ لو كان عندهم شك ما سألوا هذا السؤال.

٣ - أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ ولا شك أن الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه؛ ومن حكمة الله أن جعلهم من البشر؛ لأنه لا يمكن التلاؤم بينهم وبين البشر إذا لم يكونوا من جنسهم، ولهذا قال الله تعالى رادًّا على الكفار الذين قالوا: لو كان محمدٌ ملكًا لآمنا به، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨، ٩] وحينئذٍ تعود المشكلة على زعمهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

٤ - إثبات أن الخلق لهم أكثر من رسول ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾؛ لأن رسل جمع رسول، وهذا أمر معلوم باليقين القطعي، فالقرآن كله مملوء بقصص الأنبياء، فإذا قال قائل: قد ورد الجمع ويُراد به الواحد، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ومعلوم أن قوم نوح لم يُكذبوا إلَّا نوحًا، فالجواب عن ذلك أن نقول: إن هذه الآية قد دلت على أن المرسل إليهم واحد، ولكن لما كان تكذيب الرسول الواحد تكذيب لجميع الرسل، قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]؛ لأن المقصود التكذيب بالجنس لا بالواحد، فكأنهم كذبوا بجنس الرسالة وقالوا: لا يمكن أن يبعث الله الرسل كما قال تعالى في بيان تكذيب الأمم أنهم يقولون لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

٥ - أن هؤلاء الأبرار يؤمنون بيوم القيامة وبما يلحق الناس به من الذل والخزي؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٦ - أن الخوف من عذاب الله لا يُنافي البر؛ لقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بل إن الخوف من عذاب الله يزيد البر؛ لأنه يزيد تصديقًا بما أخبر الله به.

٧ - كمال صدق الله وقدرته، تؤخذ من قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

٨ - أن الله تعالى لا يُخلف الميعاد أبدًا.

فإن قال قائل: يرد على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقد توعد الله عزَّ وجلَّ العصاة بما يستحقون من الذنوب مثل قوله: (لَا يَدْخُلُ الجنَّةَ قَتَّاتٌ)[1] أي: نمام.

فالجواب: أن نقول: إن النفي يُراد به بيان كمال الله في الصدق والقدرة، فإن عفوه عمن استحق العقاب لا يُعد إخلافًا للوعد؛ لأنه قادر، ولكنه كمال فوق كمال، فإن العفو عن الانتقام مع القدرة كمال، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

❁ قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

❁ التفسير ❁

استجاب بمعنى: أجاب كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقوله: ﴿رَبُّهُمْ﴾ ولم يقل (الله)؛ لأنهم كانوا يدعون بقولهم: (ربنا) فالموقع هنا يقتضي الربوبية، وهي هنا ربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢].

ومُقتضى الربوبية العامة مُطلق التصرف، ومُقتضى الربوبية الخاصة النصر والتأييد واللطف، وغير ذلك مما يقتضي عناية خاصة. الربوبية هنا من الخاصة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ﴾ هذا بيان الُمستجاب.

فما الذي استجاب لهم؟ قال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

قوله: ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ يعني: لا أهدره بل أحتسبه.

وقوله: ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾ (عمل) هنا مُضاف فيقتضي العموم يعني: أي عمل قلَّ أو كثر فإن الله لا يُضيعه، وهذا كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ هذه بيان لـ «عامل» فـ «مِن» هنا بيانية؛ بيان للعامل، يعني: سواء أكان العامل ذكرًا أم أنثى، ثم قال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يعني: في الدعاء واستجابته، أما في المناصرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] لكن في باب العمل والاستجابة له والثواب بعضهم من بعض لا فرق بين الذكر والأنثى.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾:

هذه خمسة أوصاف: «هاجروا» يعني: هجروا بلادهم وخرجوا منها إلى بلاد الإسلام.

قوله: ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ إما مباشرة بأن طردوا من البلاد، أو بالتضييق عليهم حتى يخرجوا؛ لأن الإخراج من البلاد، إما أن يكون مباشرةً بالطرد، وإما أن يكون بالتضييق عليه حتى يخرج، فأيهما أشد؟

الجواب: الأول أشد؛ لأن الثاني يمكنه أن يصبر ويتحمل ولا يخرج، يختفي أحيانًا ويهرب أحيانًا، ويبقى في بلده، لكن الطرد بأن يمسك ويطرد لا شك أنه أشد، ولهذا قال أهل العلم خصوصًا الحنابلة: فيمن فعل ما يوجب الحد من زنا أو غيره، ثم لجأ إلى مكة إلى الحرم فإنه لا يخرج من الحرم ولا يُقام عليه الحد في الحرم، لأنه لجأ إليه، ومن دخله كان آمنًا، ولكنه يضيق عليه فلا يؤاكل ولا يُشارب ولا يُبايع ولا يُكلّم، حتى تضيق عليه الأرض ويخرج، أما أن يخرج بالقوة ليُقام عليه الحد فلا.

إذن هناك فرق بين من أُخرج بالفعل أي: بالقوة مباشرةً ومن أُخرج بواسطة التضييق عليه.

قوله: ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ ديارهم: يعني التي يسكنونها سواء بأجرة أو بغير أجرة، فإن الدار المستأجرة مثلًا تُسمى دار الإنسان.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ مع أنهم أُخرجوا حصل لهم أذية في سبيل الله، أي: في دين الله كما حصل للنبي ﷺ حين كان ساجدًا تحت الكعبة، فذهب قوم من قريش وأتوا بسلا

الجزور ووضعوه على ظهره [1]، هذا إيذاء ولم يضره ولكنه أذية له، وَفُعِلَ أيضًا في كثير من الصحابة من الأذى ما هو معروف بالسيرة.

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾:

وفي قراءة: (قَاتَلوا وَقُتِّلوا) وقراءة ثالثة (وقُتِلُوا وقَاتَلوا) فالقراءات هنا ثلاث: الأولى قَتَلُوا وقَتِلوا، والثانية: قَاتَلوا وقُتِّلُوا، والثالثة: قُتِلُوا وقَتَلُوا. والمعنى لا يختلف اختلافًا كبيرًا؛ أما قوله: (قَاتَلُوا) فهذا يعني: الجهاد، هم قاتَلُوا الكفار. وأما قوله: قُتِلُوا) فهذا يعني: الاستشهاد، قتلهم الكفار في سبيل الله.

وأما قوله: (قُتِلُوا وقَاتَلُوا) فهي هي ولكن فيها تقديم وتأخير، وأما قوله: (قَاتَلوا وقُتِّلُوا) فهي أشد. كما قال تعالى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦١]؛ فالتقتيل أشد من مجرد القتل.

وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ الجملة في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ولكنها جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم، ونون التوكيد.

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: بما حصل لهم من هذه الأشياء من هجرة، وإخراج من ديار، والإيذاء في سبيل الله، والمقاتلة في سبيل الله والقتل ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، وقد مرَّ علينا أن الفرق بين مغفرة الذنوب وتكفير السيئات عند الجمع بينهما: أن المغفرة في الكبائر، والتكفير في الصغائر؛ تكفّرها الأعمال الصالحة وتُكفّرها المصائب.

قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: صغائر ذنوبهم، ويجوز أن يُراد بالسيئات هنا: ما هو أعم؛ لأنها لم تُقرن بالذنوب حتى نقول: كل واحدة لها معنى، وهذا له نظائر كثيرة؛ تجد بعض الكلمات يكون لها معنى وحدها ولها معنى إذا اقترنت بغيرها.

قوله: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ﴾ الجملة أيضًا فيها تأكيد باللام، والقسم، والنون، وهي معطوفة على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ فمحلها الرفع على أنها خبر المبتدأ كالأولى.

قوله: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

﴿جَنَّٰتٖ﴾ بالجمع، وأحيانًا يُقال: بالإفراد، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمُراد: بها أنواع الجنات، وفي القرآن في سورة الرحمن أن أنواع الجنات أربع، وربما يكون هناك أنواع أخرى لا نعلم بها. المهم أن الجمع باعتبار الأنواع، والإفراد باعتبار الجنس. فما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤).

هذه الجنات؟!.

أصل الجنة البستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه يجنّ مَنْ فيه؛ أي: يستره، والمادة هذه «ج ن ن» كلها دالة على الستر والخفاء، ومنه الجُنَّة للمقاتل يأخذها يستتر بها عن السهام، ومنها الجَنَان يعني: القلب لاختفائه، ومنه الجِنَّة أي: (الجن) لاستتارهم.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾:

الجريان معروف، والأنهار جمع نهر، وجمعت؛ لأنها أربعة أنواع مذكورة في سورة محمد: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، ولا تحتاج إلى حفر ولا إلى إقامة جدر.

قال ابن القيم في النونية:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الْفَيَضَانِ

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾:

هل المراد من تحت الأرض أم من تحت الأشجار الساترة؟ الجواب: الثاني من تحت الأشجار الساترة والقصور، فهي أنهار مُطردة، لكنها لا تؤذي؛ لأنها تنقاد لأمر مالكها، إذا أمر هذا النهر أن ينصرف يمينًا أو شمالًا فعل بأمر الله عزَّ وجلَّ، وإذا أمره أن يقف وقف.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾:

قوله: ﴿ثَوَابًا﴾ في نصبه ثلاثة أوجه:

الأول: أنه نصب على المصدرية، فيكون مصدرًا مؤكدًا لعامل محذوف؛ لأن معنى الجملة قبله يقتضيه، والتقدير: (لأثيبنهم إثابة أو تثويبًا) فوضع ثوابًا موضع أحد هذين المصدرين؛ لأن الثواب في الأصل اسم لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى، ثم قد يقعان في موقع مصدر، وهو نظير قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ و ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ في كونهما مؤكدين.

الثاني: أن يكون منصوبًا على الحال من جنات أي: مثابًا بها، وجاز ذلك وإن كانت نكرة لتخصصها بصفة.

الثالث: أنه حال من الضمير المفعول به، أي حال كونه مثابًا. يعني مع الحال أو مصدر، لكنه مصدر غريب، يكون العامل فيه لأكفرن ولأُدخلن على اعتبار أن التكفير والإدخال ثواب، وفي النفس من هذا شيء، فالظاهر أنه مصدر لعامل محذوف.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الثواب يُطلق على العطاء الذي يُعطاه الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] أي هل أُعطي؟ ويُطلق على الإثابة التي هي فعل

المثيب. والأصل الأول، أن الثواب اسم لما يُثاب به، كالعطاء اسم لما يُعطى، وقد يُراد به الإثابة.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

العندية هنا تقتضي تعظيم هذا الثواب؛ لأن الثواب من العظيم يكون عظيمًا، كقول النبي ﷺ في الدعاء الذي علمه أبا بكر: «اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»(١).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾:

الجملة هذه مؤكدة لما سبق، أي: أن الله سبحانه وتعالى يُثيبهم الثواب الحسن؛ لأن هذا هو الذي عند الله، ولهذا يُجازي المُحسن بحسنته عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - بيان فضل الله عزَّ وجلَّ بإجابة هؤلاء الذي دعوا بما سبق؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ﴾.

٢ - بيان ثبوت سمع الله؛ لأنه لم يثبهم إلَّا حين سمع دعاءهم.

٣ - أن تكرار الدعاء من أسباب الإجابة، ونأخذ منها بناءً على ما سبق أن الدعاء باسم الربوبية أقرب إلى الإجابة من الدعاء باسمٍ آخر؛ لأن أكثر الأدعية الواردة في القرآن جاءت باسم الربوبية.

٤ - عناية الله عزَّ وجلَّ بهؤلاء الأبرار؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ لأن هذه الربوبية، قلنا: إنها ربوبية خاصة.

٥ - أن الله يُعطي الأجر كاملًا؛ لقوله: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾، وهذا النفي يتضمن إثباتًا، فإذا كان لا يضيع عمل عامل فمقتضاه أنه يُعطي العامل كل ما عمل، أي: أجر كل ما عمل.

٦ - استواء الذكر والأنثى في الجزاء على الحسنات وإجابة الدعوات؛ لقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

فمعناه أنهم إذا دعوا الله عزَّ وجلَّ استجاب للذكر والأنثى، يعني: لا يستجيب للذكر فقط دون الأنثى، وكذلك في ثواب الأعمال الصالحة يشتركان فيه؛ لا يفضل الذكر على الأنثى في الثواب على عمل عمله.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(٢) وذكر من نقصان دينها أنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟.

فالجواب: بلى. ولكنها إذا صلت في الوقت الذي تُطالب بالصلاة فيه، فإن أجرها وأجر الرجل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٨٠).

سواء، فإذا صلت امرأة صلاة الظهر، وصلى الرجل صلاة الظهر، فهما في الأجر سواء.

٧ - فضيلة الهجرة في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وقد قال العلماء: إن الهجرة تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: هجر ما حرم الله، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، وهذا يعني أن المهاجر هو الذي قام بفعل الواجبات وترك المحرمات.

القسم الثاني: الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، كما فعل المهاجرون من مكة إلى المدينة، وهذه هي التي يكون فيها المدح الذي جاء في القرآن.

القسم الثالث: الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة، فإن بعض البلاد تكون بلادًا إسلامية تُقام فيها الشعائر الإسلامية، ويُنادى فيها بالأذان، وتُقام الجماعات، وتُقام الجُمُعات، فهي بلاد إسلامية، ولكنها بلاد فسق من جهةٍ أخرى لكثرة المعاصي والفواحش وغيرها في هذا البلد، فيُهاجر الإنسان منها إلى بلد الاستقامة، فلننظر ما هو الواجب من هذه الأنواع الثلاثة؟!

نقول:

أما الأول: (وهو هجر ما حرم الله) فهو واجب على كل إنسان، حتى في بلاد الإسلام المستقيمة يجب عليه أن يهجر ما حرم الله.

وأما الثاني: (المهاجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام) فإن العلماء رحمهم الله يقولون: إن كان قادرًا على إظهار دينه لم تجب الهجرة، وإن كان عاجزًا وجبت عليه الهجرة، فإذا كان في بلاد يحبسون الحريات ويمنعون المسلمين من إقامة شعائر دينهم كالصلوات في الجماعة مثلًا؛ فالهجرة هنا واجبة؛ لأن المسلم لا يقدر على إظهار دينه. وإن كان في بلد تعتبر نفسها بلد حرية فإن الهجرة ليست بواجبة، لكن مع هذا نقول: هي أكمل وأحسن مما لو بقي. وعليه فإذا كان يمنع من إظهار الدين وجب عليه الهجرة حتى لو كان من أهل البلد أصلًا، أما إذا كان في بلد الحرية فالهجرة أكمل، خوفًا من الفتنة.

وأما الثالث: (الهجرة من بلد الفسق إلى بلد الاستقامة) هذه فيها تفصيل أيضًا: إن كان يخشى على نفسه من الفتنة وجبت عليه الهجرة، وإن كان لا يخشى لم تجب عليه الهجرة، وربما يكون بقاؤه أحسن في هذه البلاد إذا كان يدعو إلى الله.

٨ - الإخراج من الديار سبب لتكفير السيئات؛ لقوله: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وكذلك أيضًا قوله: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

لكن لو قال قائل: إن التكفير للسيئات مرتب على كل الأوصاف الخمسة، وهي المذكورة في الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

فالجواب عن ذلك أن نقول: إن تعليق التكفير بهذه الأوصاف الخمسة دليل على أن لكل وصف منها تأثيرً في الحكم، ولولا التأثير لكل واحد منها ما صحَّ أن تكون تكفيرًا للسيئات، وهذه فائدة مهمة؛ لأن بعض المُجادلين قد يقولون: إن الحكم مرتب على أسباب خمسة أو أكثر فنقول: نعم إذا رتب على أسباب أكثر من واحد فإن هذه الأسباب تدل على أن لكل واحد منها تأثيرًا، ولولا أن له تأثيرًا ما ترتب الحكم أصلًا، لو أننا قلنا: رقم واحد ليس له تأثير، ورقم اثنين ليس له تأثير، ورقم ثلاثة ليس له تأثير، ورقم أربعة ليس له تأثير، لم يثبت الحكم. لكن نقول: كل واحد له تأثير بنفسه، لكن قد يقوى على حصول الحكم وقد لا يقوى إلَّا على حصوله بعضه.

٩ - أن الإيذاء في سبيل الله يزداد الإنسان فيه أجرًا، ويتفرع على هذه القاعدة أنه ينبغي للإنسان أن يصبر على الإيذاء في سبيل الله ما دام ينتظر الأجر به؛ لأن الإنسان كلما علم أنه ينال أجرًا وثوابًا بإيذائه، فإنه لابد أن يصبر عليه.

١٠- فضيلة القتال في سبيل الله؛ لقوله: (وقاتَلوا).

١١- فضيلة القتل في سبيل الله وذلك أن القتل في سبيل الله من الشهادة.

١٢- أن الأعمال الصالحة تكفر بها السيئات، أي: تستر؛ لأن التكفير مأخوذ من الكفر وهو من الستر، ومنه الكُفُرَّى: الغلاف الذي يكون على طلع النخل؛ لأنه يستره، لهذا سُمي ستر السيئات بالحسنات تكفيرًا.

١٣- أن الله سبحانه وتعالى ضمن ضمانًا مؤكدًا لهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الخمس، ضمن لهم ضمانين:

الضمان الأول: تكفير السيئات.

والضمان الثاني: إدخال الجنات.

وهذا الضمان مؤكد بثلاثة مؤكدات: اللام، والقسم، ونون التوكيد.

١٤- التشويق إلى الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل لها؛ لقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والجنات في الأصل البساتين الكثيرة، لأنها - أي البساتين الكثيرة الأشجار - تجن من فيها، أي: تستره وتُغطيه، فيُستفاد منها التشويق إلى هذا الثواب العظيم.

١٥- أن في الجنة قصورًا؛ لقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ والتحت لا يكون إلَّا في مقابل الفوق العالي، وهو كذلك.

١٦- أن الجنة فيها عدة أنهار وهي مُجملة هنا، مُفصلة في سورة محمد على أنها أربعة أنهار، قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ

مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

١٧- أن هذا الجزاء مثوبة لهم من الله، فلله فيه المِنّة عليهم، وليس لهم المِنّة على الله بعملهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولو شاء الله لم يُثبهم، ولو شاء لأثابهم دون ذلك، ولكنه بفضله جعل الثواب لهم، هذا الثواب العظيم ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

١٨- الإشارة إلى عِظم هذا الثواب من قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وذلك؛ لأن العطية تعظُم بحسب مُعطيها، والهبة تعظُم بحسب واهبها، وإذا كان ذلك من عند الله كان هذا دليلًا على أنه ثواب عظيم؛ لأن الثواب من العظيم عظيم.

١٩- أنه لا يتلقى حصول الثواب إلَّا من الله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ﴾ أي: وحده ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فلا تذهب تتلقى الثواب إلَّا من عنده؛ لأنه مهما آتاك الخلق من ثواب، فإنه لن يكون مثل ثواب الله تعالى.

فحسن الثواب إنما هو عند الله وحده، وفي هذه الجملة ما سبق بيانه من أن فيها تأكيدًا لعظم هذا الثواب، لأنه لما قال من عند الله استفدنا منه عظم الثواب.

٢٠- وفيها فائدة أخرى وهي تأكيد لما سبق أن هذا الثواب ثواب عظيم، وأنه أحسن مثوبة يُثاب بها الإنسان ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

وهل يُستفاد من هذه الآية الكريمة علو الله؟.

الجواب: أن هناك من العلماء من يُقرر: أنه كلما جاءت العندية في القرآن فإنها دليل على العلو، ولكنها في بعض المواضع ليست واضحة وفي بعض المواضع واضحة مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ومثل قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] فهنا الفوقية واضحة، لكن في مثل هذه الآية ليست ظاهرة جدًا.

قال الله تعالى:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧]

التَفْسِيرُ

لا يخفى أن ﴿لَا﴾ أي في قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ناهية، ولكن سيقول قائل: كيف تكون ناهية

والفعل مفتوح ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾؛ لأن النون هي آخر الفعل؟!.

والجواب عن هذا: أنه إذا اتصلت نون التوكيد بالفعل المضارع لفظًا وتقديرًا صار مبنيًا على الفتح. فإن اتصلت به لفظًا لا تقديرًا لم يكن مبنيًا مثل ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، فهي نون التوكيد متصلة بالمضارع لفظًا لا تقديرًا، لهذا نقول عند الإعراب: (يغرن) فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة.

وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ الخطاب هنا يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، ويُحتمل أن يكون لكل من يتأتى خطابه، والقاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين متباينين لكن لا يتناقضان حملت عليهما جميعًا، وإذا احتملت معنيين أحدهما أعم حُملت على الأعم؛ لأن الأخص يدخل في الأعم ولا عكس، فهنا إذا قلنا: إن الخطاب خاص بالنبي ﷺ أخرجنا عنه بقية الأمة، وإذا قلنا: إن الخطاب عام لكل من يتأتى خطابه صار شاملًا للرسول ﷺ ولغيره، وعلى هذا فيكون الخطاب هنا عام يعني: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ أيها الرائي الذي ترى تقلب الكفار في البلاد، لا يغرنك هذا.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التقلب يعني: التردد، أي: ترددهم في البلاد وتقلبهم من بلدٍ إلى آخر، وتقلبهم في التجارات وفي أنواع الصناعات وفي غيرها مما فتح الله عليهم، فهذا لا يغرك، ووجه الغرور الذي قد يحصل هو أن الإنسان قد يغتر بهذا الذي أعطاهم الله عزَّ وجلَّ، فيصنع مثل صنيعهم، أو يظن أن إعطاء الله إياهم هذا الشيء دال على أنه لا يُنكر ما هم عليه، ولو أنكر ما هم عليه لم يُمكِّنهم مِن التقلب في البلاد. وعلى هذا فيكون وجه الغرور من وجهين:

الوجه الأول: ظن أن ما هم عليه حق؛ لأنه يقول: لو كان باطلًا ما مكَّنهم الله تعالى من هذا التقلب.

الوجه الثاني: أن يفعل مثل فعلهم، كما انخدع كثير من الناس اليوم حيث ظنوا أن الكفار وصلوا إلى ما وصلوا إليه من أجل تحللهم من دينهم، فصار يرى أن الالتزام بالدين - ولو كان هو الدين الحق وهو الإسلام - سبب للتأخر والتقهقر والعياذ بالله.

إذن الغرور له وجهان:

الأول: أن الله مكَّنهم من هذا التقلب، ولو كان ما هم عليهم باطلًا لم يُمكنهم.

والثاني: أن يفعل مثل فعلهم ظنًا منه أن ما فعلوه سبب لهذا التقلب والاتساع في التجارات وغيرها. والحقيقة أن هذا لا يغر المؤمن؛ لأن الله قال في كتابه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ويقول تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، فلا تغتر،

هذا ليس إلَّا زيادة حسرة فيما عليهم.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾:

البلاد: جمع؛ والمفرد بلد، ويجمع البلد أيضًا على بلدان، وكيف التقلب في البلاد؟ الجواب: يذهبون من هذا البلد إلى هذا البلد يتنقلون ويحملون تجارتهم في أمنٍ وطُمأنينة يُتاجرون ويربحون، فيغتر الإنسان بذلك.

وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو متاع، هو: أي تقلبهم ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ والمتاع ما تقوم به المتعة سواء كانت متعة نفسية أو مُتعة جسدية، وكل مُتعة أُضيفت إلى الدنيا أو إلى الكفار فهي متعة جسدية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، والمتاع ما تحصل به المتعة، والمتعة نوعان:

الأولى: متعة قلبية روحية، وهذه لا تكون إلَّا للمؤمن؛ يتمتع بذكر الله وبما أنعم الله عليه من الإيمان.

والثانية: مُتعة جسدية يشترك فيها الإنسان والبهائم، وهي ما يحصل للجسد من اللذة والنعيم وغير ذلك.

يقول تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ فهو قليل في زمنه، قليل في كميته، قليل في كيفيته، قليل في كل شيء، فالزمن قليل محدود وهو عمر الإنسان؛ ذلك العمر المجهول الذي لا يدري الإنسان متى ينتهي.

قليل أيضًا في الكمية؛ لأن الإنسان لا يملك كل شيء، قليل في الكيفية؛ لأن الإنسان قد يُحرم التمتع في هذه الدنيا بأمراض تعتريه ولا يتمتع بها، قد يُحرم بفَقْدِ بعض الأشياء والله أعلم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعني: ثم بعد هذا المتاع القليل مأواهم جهنم، وأتى بـ «ثم» وإن كانت دالة على التراخي للإشارة إلى أنه مهما طالت بهم المدة في هذه الحياة فإن مآلهم هذا المآل الخبيث والعياذ بالله.

والمأوى بمعنى: ما يأوي إليه الإنسان، فهو اسم مكان، أي: المصير الذي يصيرون إليه وهو جهنم؛ وجهنم اسم من أسماء النار - أعاذنا الله منها - وسميت بذلك؛ لأنها مُشتقة من التجهم، أو من الجهمة وهي السواد، وقيل: إنه اسم أعجمي وأصله «كهنام» لكن عُرِّب إلى جهنم، وهو اسم من أسماء النار فهو غير مُشتق، وأيًّا كان فهو اسم من أسماء النار.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ «بئس» فعل من أفعال الذم له فاعل وله مخصوص، فالفاعل هو «المهاد» والمخصوص محذوف والتقدير: وبئس المهاد هي، وإنما احتاج النحويون إلى هذا التقدير؛ لأن المهاد غير النار، والذم للنار، فكان لابد من ذكر مخصوص بالذم غير فاعل الفعل،

والمخصوص بالذم هو الضمير المحذوف، أي: وبئس المهاد هي، هذا ما قدره النُحاة. و «المهاد» ما يكون مهدًا للإنسان، أي: مقرًا له، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦] «مهادًا» أي: مقرًا تستقرون فيه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - نهي الإنسان أن يغتر بما أُوتي الكفار من النعم والرفاهية؛ لقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٢ - أن ما يُعطيه الله العبد من الرخاء وسعة الرزق والانطلاق في الأرض يمينًا وشمالًا ليس دليلًا على رضاه عن العبد، وإنما المقياس لرضا الله عن العبد هو اتباع العبد لشرع الله.

٣ - أن الله عزَّ وجلَّ قد يستدرج المرء بإغداق النعم عليه فتنةً له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ووجه ذلك أن الله مكَّن هؤلاء الكفار من التقلب في البلاد كما يشاؤون فتنةً لهم، ليستمروا على ما هم عليه فيكون ذلك شرًا - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

٤ - أن المؤمن قد يُضيِّق الله عليه في الرزق أحيانًا؛ ليرجع إليه بخلاف الكافر، وإنما قلت ذلك لئلا يقول قائل: أفليس قد قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، نقول: إن المؤمنين هم الذين يُبتلون بالضراء من أجلِ أن يرجعوا إلى الله عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، أما الكفار فقد تُمهد لهم الدنيا ويُعطون ما يُريدون وتكون جنتهم دنياهم بخلاف المؤمنين.

٥ - أن الدنيا مهما أُعطي الإنسان فيها من النعيم فإنها متاع قليل، قليل في زمنه، وفي كميته، وفي كيفيته، لكن الآخرة خلاف ذلك، قال النبي ﷺ: «**المَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُم فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1]، «السوط» متر أو أقل، خير من الدنيا وما فيها، وليست الدنيا الحاضرة فقط بل خير من كل الدنيا وما فيها، وليست الدنيا الحاضرة فقط بل خير من كل الدنيا وما فيها ن أولها إلى آخرها. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٩].

٦ - الحذر من لعب أعداء المسلمين بالمسلمين حيث يغرونهم بوسائل الترفيه، ويفتحون لهم وسائل الترفيه ليلهوهم عما خلقوا له من عبادة الله، وعما ينبغي أن يكونوا عليه من العزة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

والكرامة، فإن هذه الوسائل «الترفيهية» هي في الحقيقة حَبٌّ مسموم للدجاج، والحب المسموم للدجاج تغتر به؛ تجده حبًّا مُنتفخًا ليِّنًا فتفرح به وتأخذه بطرف مناقيرها وتبتلعه بسرعة ولكنه يقطع أمعاءها، فهكذا أعداؤنا فتحوا علينا أبواب الترفيه من كل ناحية، من أجل أن ننغمس فيها ولا يكون لنا هَمٌّ إلَّا الرفاهية، وننسى ما خلقنا له من عبادة الله، وننسى ما ينبغي لنا أن نكون عليه من العزة والكرامة، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾.

٧ - أنه لا يمكن للكافر أن يدخل الجنة؛ لقوله: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، لا يمكن أن تكون مأواهم الجنة أبدًا؛ لأنهم كفار.

٨ - الإشارة إلى أن هذا النعيم الذي يُدركونه في الدنيا سوف ينسى بهذا المأوى السيء، فإذا كان المأوى هو النار نسوا كل شيء كما جاء في الحديث: «أَنَّهُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مِنْ أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا - يعني أكثرهم نعمة ورفاهية - فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً وَاحِدَةً فَيُقَالُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ»؛ لأنه نسيه بهذه الغمسة الواحدة، فقد نسي كل ما حصل له في الدنيا من نعيم.

«وَيُؤْتَى بِأَبْأَسِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا - أي أشدهم بؤسًا - فَيُغْمَسُ فِي الجَنَّةِ غَمْسَةً وَاحِدَةً، فَيُقَالُ: هَلْ رَأَيْتَ شَرًّا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: مَا رَأَيْتُ شَرًّا قَطُّ»[1]، لأنه نسيه بهذا النعيم الذي هو لحظة، فقد نسي كل ما حصل له في الدنيا من بؤس وفقر وأذى، وهذه الحقائق نحن نؤمن بها لكن الغفلة تستولي علينا، نسأل الله العافية، وأن يوقظ قلوبنا بذكره.

٩ - بيان قبح هذا المأوى؛ لأن الله أثنى عليه بأسوأ الثناء فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهذا يدل على قبح مأوى أهل النار، نسأل الله السلامة منها.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وهنا قد يقول قائل: ما وجه مجيء الاستدراك في هذه الآية: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ لأن الاستدراك إنما يكون فيما يتوقع دخوله فيما سبق، مثل قولنا: (قام القوم لكن فلان لم يقم) ممن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٢٠٣).

يتوقع أن يكون فيهم قائم، فهنا ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ ما وجه الاستدراك؟

وجه الاستدراك أن الذين اتقوا ربهم لو حصل لهم في الدنيا مثل ما حصل لهؤلاء الكفار لم يكن ذلك حائلًا بينهم وبين ما عند الله، يعني: قد يحصل تقلب المؤمنين في البلاد كتقلب الكفار، فهل يكون مأوى المتقين كمأوى الكافرين؟

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ فالاستدراك هنا من ألطف ما يكون لئلَّا يظن الظان أن الله لو مكَّن للمؤمنين أن يتقلبوا في البلاد تقلب الكفار لفاتهم ما عند الله، فبيَّن أنه لن يفوتهم فقال: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾. والتقوى تمرُّ بنا كثيرًا، وأحسن ما فُسِّرت به أنها: (اتخاذ ما يقي من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه)، هذا أجمع ما قيل في التقوى: اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ ولم يقل: (اتقوا الله) إشارة إلى أن ربوبية الله لهم ربوبية خاصة أعانهم فيها على التقوى، ووفَّقهم لها، فكانت ربوبيته لهم ربوبية خاصة بهم كربوبيته لبعض الأنبياء مثل ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، فهي ربوبية خاصة لا يشركهم فيها أحد.

قوله: ﴿ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

إذا رجعنا إلى الإعراب بعد معرفة المعنى نقول: (لكن): حرف استدراك غير عاملة، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، و ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ وخبر، والمبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول.

قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

جنات: جمع جنة، وأصلها: البستان الكثير الأشجار، سُمي بذلك؛ لأنه يجن مَنْ كان فيه أي: يستره، ولكننا لا نفسر «جنات» أو «جنة» التي في القرآن، والتي يريد الله بها جنة الخلد، بهذا التفسير (عند العامة)، لأنك لو فسرتها هذا التفسير عندهم لنزلت رغبتهم في الجنة نزولًا كثيرًا. بل نقول - وهو المُراد - الجنة هي: الدار التي أعدَّها الله تعالى للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لهذا أقول: ينبغي لطالب العلم أن يُفسر القرآن بمعناه، ولكن إذا خاف فتنة فليفسره بما يوافق العقول ولا يُخالف النصوص.

فإذا قلت عند العامة: الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالتفسير هذا صحيح. لكن عندما تتكلم مع طالب علم يقول: ما معنى الجنة؟ ولماذا سُميت بهذا؟

نأتي إلى المادة (الجيم والنون) نجد أنها كلها تدل على الاستتار، فتقول: هي في الأصل البستان

الكثير الأشجار، ولنا أن نقول: إن الجنة في الأصل هي هذا المعنى، لكن نقلت شرعًا إلى الدار التي أعده الله للمتقين كما نقلت الصلاة والزكاة والحج والعمرة إلى معناها الشرعي.

قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

سبق لنا أن قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يدل على علو قصورها وأشجارها، وأن الأنهار أربعة، وأنها تجري بلا أخدود وبلا شق ساق، بل تجري حيث شاء صاحبها، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (النونية):

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

يقول: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الخلود: هو البقاء، باقون فيها أبدًا كما قال الله تعالى في آيات أخرى متعددة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

قوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

نزلًا: هذه منصوبة على الحال، أي: حال كون هذه الجنات نزلًا.

فإذا قال قائل: كيف تكون حالًا وصاحبها نكرة؛ لأن «جنات» نكرة والحال لا تأتي من النكرة، بل لابد أن يكون صاحبها معرفة؟

فالجواب عن ذلك أن نقول: وإن كان صاحبها نكرة إلَّا أنه خصص بالنعت: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والنكرة المخصصة تأتي منها الحال كما تأتي من المعرفة، والنزل اسم جامد وليس بمشتق، فإن قيل: إن الحال لا يكون جامدًا بل لابد أن يكون مُشتقًا.

فالجواب: أن يُقال: إنه قد تأتي الحال جامدة، لكنها مؤولة بالمشتق، يعني: أنهم مكرمين بهذا النزل.

والنزل اسم لأول ما يقدم للضيف من الطعام، ومعلوم أن أول يوم للضيف يُقدم له أطيب وأحسن شيء، فجعل الله هذه الجنة كلها نزلًا لا يختلف آخرها عن أولها بخلاف نُزل الضيافة في الدنيا، فإنه يكون أول يوم من أطيب ما يكون ثم يقل في اليوم الثاني وهكذا.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

أي: أن هذا النُزل ليس من فلان أو فلان بل من عند أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وهو الله، والنُزل من الأكبر يكون عظيمًا وكريمًا وكثيرًا.

قال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

(ما) اسم موصول، ولا يمكن أن تكون نافية؛ لأن المعنى يفسد كثيرًا، لو قلت (ما) نافية صار

المعنى: ليس عند الله خير للأبرار، وهذا كذب، فهي (ما) الموصولة، يعني: والذي عند الله خير فتكون مبتدأ و«خير» خبره.

يعني: وما عند الله خير مما ذكر من وصف الجنات، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ففي الجنة أكثر مما يتمناه الإنسان وأكثر مما يتصوره؛ وهو النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، فإن النظر إلى وجه الله أعظم ما يكون من النعيم، ولهذا سماه الله «زيادة» في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقد فسَّر أعلم الخلق بالله وهو النبي ﷺ «الزيادة» بأنها النظر إلى وجه الله – سبحانه وتعالى –[1].

قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

الأبرار: جمع بَر، والبَرُّ كثير الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] أي: كثير الخيرات، فالأبرار جمع بر، وهم كثيرو الخيرات، وذلك بفعلهم ما أمر الله به وتركهم ما نهى الله عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - أن المتقين وإن تقلبوا في البلاد فليس مآلهم كمآل الكافرين؛ لقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾.

٢ - فيه بيان فوائد التقوى، وأن من فوائدها ما حصل لهؤلاء المتقين من النزل العظيم عند الله عزَّ وجلَّ، وهي هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

٣ - أن هؤلاء المتقين ثوابهم عند الله عزَّ وجلَّ أكثر بكثير مما يُعطى هؤلاء الذين يتقلبون في البلاد؛ لأن الله قال في المتقلبين: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾، أما هؤلاء فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمًا وأبدًا.

٤ - عظم هذا الجزاء والثواب الذي يحصل لهم؛ لأنه نُزل من عند أكرم الأكرمين وهو الله عزَّ وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٥ - ما استنبطه بعض أهل العلم من أن قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يفيد العلو؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يفيد السفلى؛ لأن ذلك نقص يُنزه الله عنه، فتعيَّن أن يكون ذلك في العلو ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

٦ - أن الجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما كانوا بررة كثيري الخيرات كان لهم عند الله هذا النُزل العظيم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

٧ - أن في الجنات أنهار عظيمة تجري من تحت غرفها وأشجارها؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٨ - أن مَنْ مَنَّ الله عليه بالتقوى فإن ذلك من مُقتضى ربوبية الله تعالى الخاصة، حيث قال: ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ فتخصيص الربوبية هنا بهؤلاء المتقين هو من باب الربوبية الخاصة، وقد مرَّ علينا كثيرًا أن ربوبية الله عزَّ وجلَّ لخلقه نوعان: «عامة، وخاصة»، فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق. والخاصة هي: الخاصة بالمؤمنين، كما أن «العبودية لله عزَّ وجل» أيضًا نوعان:

عامة: وهي التي لجميع الخلق كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وخاصة: وهي للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذه الخاصة منها ما هو أخص كما في عبودية الرسول فهي أخص من العبودية العامة للمؤمنين المتقين، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وعلى هذا ففي العبودية عموم مُطلق وعموم نسبي.

فالعموم المطلق: هو الذي يشمل جميع من في السموات والأرض.

والنسبي: هو عموم عبودية المؤمنين، فإنه عام بالنسبة لعبودية الرسول، خاص بالنسبة للعبودية المُطلقة.

٩ - أن هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار إذا كانت نُزلًا، وهو ما يُقدم للضيف من الكرامة، فما بالك بما يكون بعد هذا؟ لا شك أنه سيكون خيرًا كثيرًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن﴾ «إن» للتوكيد و «اللام» أيضًا للتوكيد، ففي الآية

مؤكدان «إنَّ» و «اللام»، وهنا لا يخفى أن في الجملة تقديمًا وتأخيرًا، فإن ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ خبر مُقدم و ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: للذي يؤمن بالله وما أُنزل إليكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم: اليهود والنصارى.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

وهؤلاء كثير في النصارى؛ لأن مَنْ آمن منهم كثير بمحمد ﷺ، أما في اليهود فلم يبلغوا العشرة الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حال حياته.

فمن اليهود الذين أسلموا (عبد الله بن سلام رضي الله عنه) فإنه كان حبرًا من أحبارهم فأسلم، ومن النصارى كثير مثل النجاشي ملك الحبشة.

وقوله: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ومن جملة ما أنزل إلينا، أي: يؤمنوا بعموم الرسالة رسالة النبي ﷺ وأنه مرسل إليهم كما أنه مرسل إلى العرب، فأما من قال: أنا أُومن برسالة محمد ﷺ لكن للعرب خاصة فإنه لم يؤمن بما أُنزل إلينا، لا يمكن أن يتم إيمانه بما أنزل إلينا حتى يؤمن بمحمد ﷺ على أنه رسول لجميع الخلق، وأنه رسول إليهم يجب عليهم أن يتبعوه.

ولهذا أقسم النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يعني: (أمة الدعوة) يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلَّا كان من أصحاب النار، إذا مات وهو لم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ كان من أصحاب النار [(1)].

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾:

أما ما أُنزل إليهم فظاهر أنهم سيؤمنون به، اليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، ولكن إذا لم يؤمنوا بمُحمد ﷺ فإنهم لم يؤمنوا بالتوراة والإنجيل؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام قد بشَّرهم بمحمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] فقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ يعني: محمدًا ﷺ بعد أن جاءهم بالبينات وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى قالوا: هذا سحر مبين، ولم يؤمنوا به ولم يتبعوه، إذن الذين يؤمنون بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم، يقول: لا يتم إيمانه بأن مُحمدًا أُرسل إلى العرب، وأن القرآن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

كلام الله مثلًا، بل لا يتم إيمانه حتى يؤمن بمُحمد ﷺ على أنه رسول الله إلى جميع البشر، وأنه مُلزم باتباعه؛ يتبعه كما يتبعه غيره.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾:

قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ يُحتمل أن تكون حالًا مِن (مَن) في قوله: ﴿يُؤۡمِنُ﴾ وبناءً على ذلك يكون مُراعىً بها المعنى؛ لأن (مَن) لفظها مُفرد ومعناها الجمع؛ لأن اسم الموصول وإن كان مُفردًا يصح للعموم مع أن (مَنْ) من الأسماء الموصولة للمفرد وللجماعة.

أقول: إن ﴿خَٰشِعِينَ﴾ تحتمل أن تكون حالًا من (مَنْ) أي: للذي يؤمن حال كونه خاشعًا، أو من فاعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾ لمن يؤمن حال كونه خاشعًا، والمعنى لا يتغير.

والخشوع هو: الذل، أي: مُتذللًا لله عزَّ وجلَّ، يؤمن بالله مُتذللًا له خاشعًا له.

قوله: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي: لا يأخذون ويطلبون بآيات الله ثمنًا قليلًا، فالشراء هنا بمعنى الأخذ؛ لأنه ليس هناك عقد بيع وشراء، لكن لما كان المشتري يأخذ السلعة طالبًا لها حريصًا عليها صار الذين يأخذون الحياة الدنيا بالآخرة بمنزلة المشترين، ولهذا قال: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ وهي الدنيا أو بمالها أو بجاهها أو بغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب من يبقى على رئاسته وعلى جاهه وماله ليكفر بالرسل. فمثلًا (أبو جهل) وغيره من زعماء العرب (قريش) ما الذي صدَّهم عن اتباع مُحمد ﷺ غير الكِبر والإبقاء على الجاه وعلى الرئاسة؟!. ولهذا يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخرُف: ٣١]، يعني: هلا أنزل على رجل عظيم حتى نتبعه وهم يقولون ذلك وهم يعلمون أن مُحمدًا ﷺ من خيرهم، بل هو خيرهم نسبًا، وأنه أعظمهم وأشرفهم، وهم يُسمونه قبل الرسالة (الأمين والصادق)، لكن لما جاءت الرسالة شرقوا بها والعياذ بالله وأنكروها وقالوا: هذه من رجل مَهين، كما قال فرعون لموسى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف: ٥٢]، فهؤلاء قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخرُف: ٣١].

قوله: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

والمراد بآيات الله هنا: الآيات الشرعية؛ لأن مِن الناس مَنْ يشتري ثمنًا قليلًا بالآيات الشرعية، ومعنى (يشتري ثمنًا قليلًا) أي: يأخذ الجاه والرئاسة والمال وغير ذلك بدلًا عن آيات الله الشرعية واتباعها.

ووصف الله ذلك بأنه قليل؛ لأنه بالنسبة لما في الآخرة ليس بشيء كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه

قال: «لموْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُم فِي الجنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

أولئك الذين عدلوا عن الدنيا ولم يأخذوها بدلًا عن طاعة الله والإيمان به: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أجر، أي: ثواب، وإضافته إلى الله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على عِظمِهِ وأنه عظيم جدًّا، فإن الشيء من العظيم عظيم، ومن الكريم كثير، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: فيه إشارة كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد أنه باقٍ؛ لأن ما عند الله يبقى، ولهذا يخلد أهل الجنة فيها أبدًا، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾:

﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ السرعة: عدم التباطؤ في الشيء، فالله تعالى سريع الحساب من وجهين، الوجه الأول: أن الدنيا قليلة وفانية وسريعة وما هي إِلَّا لحظات ثم تنقضي بسرعة، فاليوم الجمعة مثلًا، أو السبت أو الأحد أو أحد أيام الأسبوع ما تأخذ إِلَّا شيئًا قليلًا حتى يصل الإنسان إلى نهايته ويموت، فيجد الحساب أمامه، فهذه سرعة، والسرعة الثانية: يوم القيامة فإن الله تعالى يُحاسب الخلائق كلها في نصف يوم؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] والقيلولة إنما تكون في نصف النهار، ويلزم من هذا أن الله يُحاسب الخلائق كلهم في نصف يوم حتى إن كل واحد منهم يقيل في منزله ومستقره.

من فوائد الآية الكريمة:

١ - الثناء على بعض أهل الكتاب؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (ومِنْ) هنا للتبعيض، وهم قليل.

٢ - كمال عدل الله عزَّ وجلَّ بإسناد الفضل إلى أهله، فإن الله عزَّ وجلَّ لما ذكر عقاب الكافرين وثواب المؤمنين قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ﴾ فأسنَد الفضل إلى أهله عزّ وجل.

٣ - أن هؤلاء الذين يؤمنون بما أنزل الله على رسوله عليه الصلاة والسلام مع إيمانهم بكتبهم إنما يفعلون ذلك تعظيمًا لله وذُلًّا له، لا طلبًا للدنيا، أو المدح أو ما أشبه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

٤ - بيان إخلاص هؤلاء حيث لم يؤمنوا بالله وما أنزل إلينا من أجل الدنيا فهم لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ لقوله: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ فإنه يدل على أنهم مخلصون في إيمانهم بالله وما أُنزل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

إلينا وما أُنزل إليهم، يعني: لا يقصدون شيئًا من الدنيا أو جاهًا أو رئاسةً أو رياءً.

٥ - أن هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب عن إخلاص سوف يكون لهم الأجر، يعني: الثواب من الله، وإن فاتهم ما يفوتهم من الدنيا بسبب إسلامهم؛ لقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٦ - بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ في سرعة حسابه حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وقد أورد بعض الصحابة على الرسول ﷺ إشكالًا في هذا المعنى وقال: كيف يُحاسبنا في ساعة ونحن جمع – يعني كثير –، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ مِنْ آلَاءِ الله – أي من آياته – يُقَرِّبُ لكَ هَذَا؟» وَذَكَرَ لَهُ القَمَرَ[1].

القمر مخلوق من مخلوقات الله، وكل الناس يرونه في ساعة واحدة لا يُضامون في رؤيته، فإذا كان هذا في مخلوق من مخلوقات الله يُضيء نوره على كل من رآه، ويشترك فيه من العالم ما لا يُحصيه إلَّا الله، فما بالك بالخالق جلَّ وعلا؟!

٧ - إثبات الحساب، وأن الإنسان سوف يُحاسَبُ على عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وليعلم أن «الحقوق» نوعان:

(حق لله عزّ وجل) فهو مبني على المسامحة وعلى العفو والإحسان.

(وحق للخلق) بالاعتداء عليهم وعلى أعراضهم، فهذا لا يغفره الله عزَّ وجلَّ، بل قد قال النبي عليه الصلاة والسلام حين بعث مُعاذًا إلى اليمن قال: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم، واتقِ دَعْوَةَ المظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[2].

فالمظلوم يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، فإذا لجأ إلى ربِّه فهو سيلجأ بصدق لأنه قد ضيم من الخلق، فإذا رجع إلى الله عزَّ وجلَّ بهذا الصدق فإن الله سبحانه وتعالى يُجيب دعوته، يقول عزَّ وجلَّ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّك وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»[3]، فلذلك يجب على الإنسان أن يحذر من ظلم نفسه بحق الله عزَّ وجلَّ، ومن ظلم غيره بالعدوان عليه بالقول أو الفعل، فإن الدنيا لن تدوم، لابد لها من زوال، ولا بد من رجوع إلى الله عزّ وجل.

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»

قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

التَفسِير

دائمًا نتكلم على قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ونستشهد بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فأرعها سمعك - يعني استمع لها - فإما خيرًا تؤمر به، وإما شرًّا تُنهى عنه»[1]. وقلنا: إن الله تعالى إذا صدَّر الخطاب بهذا فهو دليل على العناية به.

ووجهه: أنه صدّره النداء الذي يُفيد تنبيه المخاطب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ثم إذا كان النداء بوصف الإيمان كان دليلًا على أنَّ ما يأتي بعده من مقتضى الإيمان؛ لأنه لولا أنه من مُقتضاه ما صدّر الخطاب لمن يوجه إليه بلفظ الإيمان. فكأنه قال: (يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا وكذا)، أو: (لإيمانكم لا تفعلوا كذا وكذا).

ثانيًا: يدل على أن مخالفة ذلك من «نواقض الإيمان» أو من «نواقص الإيمان»، إن كان الشيء من «أصول الدين» مثل (يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله) فإن مخالفته من «نواقض الإيمان».

وإن كان في «فرع من فروع الدين» فإن مخالفته من «نواقص الإيمان»، مثل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١١] لو لم يتفسح الإنسان لم نقل: إنه كافر، بل نقول: إنه مُخالف للأمر، وإيمانه ناقص؛ لأن مُقتضى الإيمان أن يفعل ما أمر الله به حيث وجّه الله له هذا الأمر بوصف الإيمان.

ثالثًا: أنه يفيد الإغراء، يعني: إغراء الإنسان وحثّه على أن يفعل ما وجّه إليه من الأمر أو النهي؛ لأن الإنسان إذا وصف بوصف فإنه يغريه هذا الوصف، فإذا قيل لشخص: يا أيها الكريم «جُد» على هذا، فمعناه: أنك تغريه وأنه لكرمه لابد أن يجود، ولهذا لما قيل للمتنبي حين أحجم في مجال القتال: ألست القائل:

الخيـلُ وَالليـلُ وَالبَيـدَاءُ تَعرِفُـني ... وَالسَّيفُ والرُّمحُ وَالقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ؟

قال: الآن قتلتني ثم أقدم حتى قُتل.

وذلك لأن الوصف الذي يتصف به الإنسان ويفخر به إذا لم يُطبقه فعلًا فإنه كاذب في دعواه، فكأن الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا بإيمانكم افعلوا كذا).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

قوله: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾:

﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على كل ما يحتاج إلى صبر، ومعلوم أن الذي يحتاج إلى الصبر هو الذي يُخالف هوى النفس؛ فالذي يُخالف هواك هو الذي يحتاج إلى الصبر؛ لأنه يشق عليك تحمله، فطاعة الله عزَّ وجلَّ ثقيلة على النفوس فاصبر عليها، والمعاصي ثقيل تركها على النفوس فاصبر على الترك، والآلام والمصائب التي تصيب الإنسان ثقيلة على النفس فاصبر عليها.

فالمصائب التي تصيب الإنسان هي بنفسها مُكفرة للذنوب، فإذا احتسب الإنسان أجرها على الله وانتظر بذلك ثواب الله كانت مع التكفير زيادة حسنات، والإنسان في الدنيا لابد أن يُبتلى كما قال الشاعر:

فَيَوْم عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُساءُ ويَوْمٌ نُسرّ

لم تبقَ الدنيا لأحد زاهية مُطلقًا أبدًا، وهذه من حكمة الله عزَّ وجلَّ يبتلي الإنسان بالنعيم ويبتليه بالمصائب، قال الله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فعلى الإنسان أن يصبر على كل ما يخالف هواه، والصبر ثقيل على النفس مُتعب لها، ولكن الإنسان ينظر إذا صبر إلى ما أمامه، فإن النتيجة خير. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزُّمَر: ١٠] إذا صبر فليبشر بالخير، وفي المَثَل (مَنْ صَبَرَ ظَفَرَ)، وفي الشعر:

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وهذا شيء مُجرب دائمًا، إذا صبر الإنسان ظفر، ولاسيما إذا قرن صبره باحتساب الأجر على الله عزَّ وجلَّ، فإنه يكون في ذلك الثواب والعاقبة الحميدة.

وقوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾ المصابرة تكون من اثنين، ولهذا جاءت على وزن فاعل، كقاتل وجاهد، فصابر أيضًا لابد من شخص آخر يضادك فصابِرْه.

«الصبر الأول»: لا أحد يضادك في الشيء إنما هو شيء بينك وبين نفسك تصبر.

«الصبر الثاني»: إنسان يضادك ويُثيرك ويعتدي عليك فصَابِرْه ... بمعنى غالبه بالصبر، وهذا يكون في ملاقاة الأعداء. فالعدو يُصابرك وأنت تُصابره، ولكن الله تعالى قد سلا عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، أنت إذا جُرحت تتألم وهو إذا جُرح يتألم بلا شك، ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فرق عظيم، فالذي يرجو من الله عزَّ وجلَّ هذا الثواب على ما حصل له يهون عليه هذا الشيء، حتى إنه أحيانًا لا يشعر به من شدة احتسابه الأجر على الله عزّ وجل.

إذن الصبر: حبس النفس مع غير مصابر، وتكون على ما لا يُلائم الإنسان وما يشق عليه.

والمصابرة: مع شخص مُضاد يُصابِرُك ويصبر عليك على معاندتك وعلى مضادتك فأنت تصبر، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

أما قوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾ المرابطة: أخص من المصابرة، يعني: رابطوا على الطاعات، ومن ذلك ما بيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال: «إِسْبَاغُ الوضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطا إِلَى المسَاجِد»[1]، إسباغ الوضوء على المكاره، يعني: في أيام البرودة، فإن الإنسان إذا أسبغ الوضوء على المكاره، يعني: أتمه وأكمله دلَّ هذا على إيمانه بالله عزَّ وجلَّ وعلى شدة تصديقه ورجائه لثواب الله.

ثم قال ﷺ: (كثرة الخطا إلى المساجد) فإن الإنسان إذا ذهب إلى المسجد البعيد الذي يحتاج إلى كثرة الخطا دلَّ هذا على مرابطته في الخير ومثابرته عليه، وعلى صدق الإيمان في قلبه، ولهذا يذهب إلى المسجد ولو كان بعيدًا، ويتردد إليه على الأقل في اليوم والليلة خمس مرات، هذا أيضًا يدل على المرابطة على الخير.

ومن المرابطة: المرابطة في الثغور، لكنها غير موجودة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام «لم توجد مرابطة»، يخرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى العدو ويغزو ويرجع، لكن بعد ذلك لما فُتحت الفتوحات وانتشر الإسلام في أقطار الأرض بعد ذلك صارت المُرابطة، واحتاج المسلمون إلى مُرابطة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِسْبَاغُ الوضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المسَاجِد، وَانتِظَارُ الصَّلَاة إِلَى الصَّلَاة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ثَلَاثًا»[2]، لأن الرباط على الحدود الإسلامية غير موجود في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: من أجل أن تفلحوا.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا أمر بتقوى الله عزَّ وجلَّ، وسبق لنا مرات كثيرة أن المُراد «بالتقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا أحسن ما قيل في التقوى، هذه هي التقوى، وعطفها على ما سبق إما أن يُقال من باب عطف العام على الخاص، وهو كثير في القرآن. وإما أن يُقال: إن ما سبق أوامر والتقوى للنواهي كما نقول في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، إن «البر» فعل الخير، و «التقوى» اجتناب الشر، وإذا ذكرت «التقوى» وحدها شملت فعل الخير وترك الشر.

والمعنيان لا يتنافيان؛ فهذه الأوصاف أو الأوامر الأربعة: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥١)، والترمذي (٥١)، والنسائي(١٤٣).
(٢) انظر ما قبله.

ﷺاللَّهَ﴿ كلها تشتمل على شيء واحد وهو فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

لعل: هنا للتعليل وليست للرجاء؛ لأن كلام الله عزَّ وجلَّ ليس فيه رجاء، فإنه على كل شيء قدير، ولا يصعب عليه شيء ولا يعسره شيء، لكنها للتعليل أي: لأجل أن تفلحوا.

و (الفلاح) قالوا: إنها كلمة جامعة للفوز المطلوب والنجارة من المرهوب، الفلاح: أن يفوز الإنسان بمطلوبه، وأن ينجو من مرهوبه، ولا شك أن كل واحد من الخلق يتمنى هذا.

من فوائد الآية الكريمة:

في هذه الآية الكريمة يوجِّه الله النداء إلى المؤمنين فيُستفاد منه:

١ - فضيلة الإيمان، وأن أهل الإيمان هم أجدر الناس بتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ - أنه ينبغي للإنسان أن يأتي في أسلوبه بما يحمل الإنسان على فعل ما طُلب منه أو ترك ما نُهي عنه؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

٣ - الحث على الصبر بل الأمر بالصبر؛ لقوله: ﴿اصْبِرُوا﴾ وهو في الحقيقة مُشترك، قد يكون «واجبًا» وهو: الصبر على الواجب، وعلى ترك المُحرم، وعلى الأقدار المؤلمة.

وقد يكون «مُستحبًا» وهو: الصبر على المُستحبات أو على ترك المكروهات، فإن الصبر هنا ليس بواجب لكنه أكمل وأفضل.

٤ - الأمر بالمصابرة، وأن الإنسان يُصابر من يُضاده ويَعُدُّ له، فإن العاقبة ستكون له عليه إذا صابره؛ امتثالًا لأمر الله عزَّ وجلَّ ورجاءً لثوابه، وتحسُّبًا للعاقبة الحميدة التي تكون فيها الدائرة على مَنْ ضاده.

٥ - الأمر بالمرابطة، والمرابطة إن كانت على واجب فهي واجبة، وإن كانت على مُستحب فهي مُستحبة، حسب الأمر المُرابط عليه.

٦ - الأمر بالتقوى، و «التقوى» واجبة؛ لأنها اتقاء الوقوع في المُحرم إما بترك الواجب وإما بفعل المُحرم.

٧ - النتائج الحميدة لمن قام بأوامر الله من الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى وهي - أي: العاقبة الحميدة - الفلاح؛ لقول الله تعالى: ﴿اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعًا وترتيبًا وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة النساء

اعتنى به

أشرف بن كمال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة النساء

ALTABARI'S LIBERARY

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سَنَةُ الطَّبْعِ : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقَمُ الإِيدَاعِ : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقَمُ الطَّبْعَةِ : الأولى

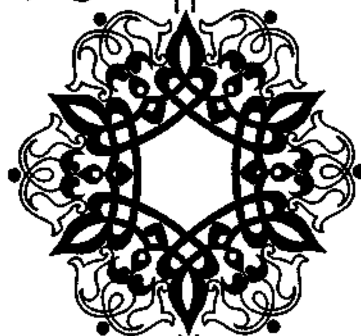

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جُمهُوريَّة مِصر العَرَبيَّة - القَاهِرة - عَين شَمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة النساء

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[النساء:١-٣]

❁ التفسير ❁

* هذه السورة هي سورة النساء وهي مدنية والمدني عند الجمهور: ما نزل بعد الهجرة، والمكي: ما نزل قبل الهجرة، فالمدني ما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة، والمكي ما نزل قبل الهجرة ولو في غير مكة، وعلى هذا فالمدار في تعيين المكي والمدني إلى الزمن لا إلى المكان، وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ ضوابط للمكي والمدني، وذكروا مميزات المكي والمدني وهي معروفة في علم أصول التفسير.

ومن ذلك: أن الغالب في الآيات المكية: القصر والقوة ـ قوة الأسلوب ـ وموضوعها في الغالب: التوحيد وما يتعلق به، وأما الآيات المدنية فالغالب عليها السهولة وطول الآيات، وموضوعها: في الأمور الفرعية كالبيوع، وآداب المجالس، وآداب الاستئذان وغير ذلك، والمكية فالغالب أن النداء فيها يكون لعموم الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأن أكثر المخاطبين بها ليسوا بمؤمنين، والمدَنِيَّة بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هذا هو الغالب؛ لأن المخاطبين فيها مؤمنون كلهم أو أكثرهم.

هذه سورة النساء وسُميت بهذا الاسم؛ لذكر النساء فيها وهي - كما هو معلوم - مبتدأة بأصل خلقة بني آدم من أين خلقوا، ثم ذكر الأرحام وما يتصل بها من المواريث وغير هذا، ثم ذكر ما يتعلق بالنكاح؛ لأن النكاح صلة بين الناس كما أن القرابة صلة بين الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، ثم ما يتعلق بمخاطبة اليهود والمنافقين، وما يتعلق كذلك بأحوال النزاع بين الزوجين كما سيمر بنا إن شاء الله تعالى.

وهذه السورة هي السورة الرابعة بعد الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، وقد ورد في صحيح مسلم من حديث حذيفة أن النبي ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران[1]، وهذا في أول الأمر، ثم بعد ذلك في الترتيب الأخير صارت البقرة ثم آل عمران ثم النساء، واستقر على ذلك المصحف الذي جمعه أبو بكر ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

يقول الله - عز وجل -: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البسملة آية مستقلة يُؤتى بها في أوائل السور إلا سورة واحدة وهي براءة (التوبة)، فإنه لم تنزل لها بسملة، ولو نزل لها بسملة لكانت محفوظة موضوعة في مكانها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر:٩]. ولكن الصحابة رضي الله عنهم أشكل عليهم هل هي مستقلة أم من سورة الأنفال؟ فوضعوا فاصلًا بينهما من أجل الإشكال فقط؟ أم أن هناك شكًّا في نزول البسملة أو لا؟ فلا شك في هذا؛ لأن البسملة لو نزلت لحُفظت كما تحفظ آيات القرآن الأخرى؛ والصحيح: أن البسملة ليست من السورة التي قبلها ولا من السورة التي بعدها ولا تُحسب من آياتها لا في الفاتحة ولا في غيرها، خلافًا لبعض أهل العلم الذين قالوا: إنها آية من الفاتحة لا من غيرها، وعلى هذا جرت طباعة المصاحف، فإن طُبَّاع المصاحف جعلوا البسملة آية من الفاتحة دون غيرها، والصحيح: أنه لا فرق وأن البسملة ليست من الفاتحة، ودليل ذلك: ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: (الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي**»[2]، ولم يذكر البسملة، ويدل لذلك أيضًا: أنه إذا كانت الفاتحة بين الله وبين العبد نصفين فإنه لا يستقيم أن تكون البسملة منها؛ لأننا إذا عددنا الآيات وجدناها كما يلي:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ آية، هذه ثلاث، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ آية، هذه الرابعة وهي الوسط، وهي التي بين العبد نصفين، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ آية، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية، فتكون الآيات متلاصقة، ويكون حق الخالق - عز وجل - ثلاث آيات مستقلة وهي الأول، وحق

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٢)، والترمذي(٢٦٢)، والنسائي (١٠٠٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي(٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩).

العبد ثلاث آيات مستقلة وهي الآيات الأخيرة، والسابعة بينهما، شقها الأول تبع لحق الله، وشقها الثاني تبع لحق العبد، وبهذا يُعرف أن البسملة ليست من الفاتحة.

وقد مر علينا إعرابها، فبأي شيء تعلق الجار والمجرور؟

البسملة هي جار ومجرور متعلق بمحذوف، وهذا المحذوف فعل مؤخر يقدَّر بحسب المسمى عليه، فإذا كنت أريد أن أقرأ فالتقدير (بسم الله اقرأ)، أريد أن أذبح (بسم الله أذبح) أريد أن أتوضأ (بسم الله أتوضأ) وهلم جرًّا، وإنما اختير أن يكون الفعل متأخرًا تيمنًا بالبداءة بـ (بسم الله) من وجه، وإفادته الحصر من وجه آخر؛ لأن تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر، فكأنك تقول: (لا أقرأ إلا باسم الله) وإنما اختير أن يكون فعلًا لا اسمًا أي: لا نقدر (بسم الله قراءتي) أو (بسم الله ابتدائي)؛ لأن الأصل في العمل الأفعال دون الأسماء ولذلك لا تجد اسمًا عاملًا إلا بشروط بخلاف الأفعال، وإنما قدر مناسبًا لما يسمى عليه؛ لأنه أنسب، ولأن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بَاسْمِ اللهِ»(1)، فقدَّر فعلًا خاصًّا وهو الذبح، أما لفظ الجلالة فهو عَلَمٌ خاص بالله - عز وجل - وحده لا يُسمى به غيره بالإجماع، وأما الرحمن فهو علم خاص بالله أيضًا لا يُسمى به غيره، وأما الرحيم فهو عَلَمٌ على الله - عز وجل - اسم من أسماء الله علم عليه لكن يُوصف به غيره كما قال تعالى في النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

بماذا يفسر أهل السنة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ يفسرون: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بأنه ذو الرحمة، وهي صفة لازمة تتعلق بذات الله - عز وجل -، ومن آثارها: الإنعام والإحسان، ويفسرها أهل التعطيل بالإحسان فيقولون: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المحسن أو المنعم أو بإرادة الإحسان أو الإنعام أي: المريد للإحسان، المريد للإنعام؛ لأنهم لا يَصِفُونَ الله بصفات الرحمة.

وكذلك يقال في ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، فإن قال قائل: هل (الرحمن والرحيم) مترادفان؟ فالجواب: إن ذُكر أحدهما منفردًا عن الآخر فهو متضمن له، وإذا ذكرا جميعًا فالرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، لأن الرحمن على وزن «فَعْلَان» وهي تدل على الوصف كغضبان، وسكران، ونشوان، وما أشبه ذلك، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ تدل على الفعل، فيقول: (رحمن) هذا باعتبار وصف الله - عز وجل - بالرحمة، (والرحيم) باعتبار فعله أي: باعتبار رحمته لمن رحم، قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الجملة هذه جملة ندائية مصدَّرة بـ (يا)، والمنادى (أيُّ) وهو مبني على الضم في محل نصب، و (ها) للتنبيه، و ﴿ٱلنَّاسُ﴾ نعت لـ (أيُّ) أو عطف بيان، فهي مبنية على الضم في محل نصب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وجّه الخطاب للناس مع أنها سورة مدنية؛ لبيان أن رسالة النبي ﷺ عامة لجميع الناس، و ﴿ٱلنَّاسُ﴾ قيل: إن أصلها (أناس)، وأن الهمزة حُذفت لكثرة الاستعمال؛ تخفيفًا كما حُذفت الهمزة من شر وخير وأصلها أشر، أخير، تقول: إن هذا خير من هذا أي: أخْير منه، وهذا أشَرُّ من هذا يعني: أشر منه، لكن حذفت الهمزة؛ تخفيفًا لكثرة الاستعمال،أما (الناس) فمشتق من الأُنس؛ لأن البشر كما يُقال عنهم: مدنيون بالطبع يحتاجون إلى أن يأنس بعضهم ببعض؛ ولهذا لا تجد أحدًا يُحبَّب إليه الخلوة إلا لسبب خارج عما جَبَل الله عليه الناس.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ التقوى هي من الوقاية وهي: أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومعنى الربّ في قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾، أي: هو الخالق المالك المدبر، فهو متضمن لهذه المعاني الثلاثة، (خالق) أي: موجد من العدم، والثاني (مالك) لا يشاركه أحدٌ في ملكه، والثالث (مدبر) للأمور على ما تقتضيه حكمته.

قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، ﴿ٱلَّذِي﴾ صفة لرب، ولكنها صفة كاشفة، ومعنى قولنا: كاشفة أي: موضحة لهذه الربوبية أو لبعض معانيها، واحترزنا بكلمة (كاشفة) عن كونها مقيدة؛ لأننا لو جعلناها مقيدة لكان هناك ربَّان: ربٌّ خَلقَنا من نفس واحدة، وربٌّ لم يخلقنا من نفس واحدة، وليس الأمر كذلك، بل الذي خلقنا من نفس واحدة رب واحد، فتكون الصفة هنا صفة كاشفة أي: موضحة لمعنى الربوبية أو لبعض معانيها، ﴿خَلَقَكُم﴾أي: أوجدكم، ﴿مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هذه النفس هل يراد بها نفس بعينها أو المراد بالنفس الجنس؟ الظاهر: الأول أن المراد بالنفس: نفس بعينها وهو آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين بيده الكريمة، وعلَّمه أسماء كل شيء يحتاج إليه؛ لأنه خُلق من غير أن يكون هناك أحد يتعلم منه اللغة، فعلمه الله تعالى اللغات التي يحتاج إليها فيقول: معنى قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] يعني: مما يحتاج إليه.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وقد جاء في الآثار: أنها خُلقت من ضلعه الأيمن لكن ثبت في السنة أن المرأة خلقت من ضلع، ولم يقل: زوجتها ، لأن اللغة الفصحى أن الزوج يطلق على الرجل والمرأة، وأصله ضد الوتر؛ لأن الزوجة إذا انضمت إلى زوجها صارت شافعة له بعد أن كان منفردًا؛ ولهذا يُقال: الزوجة شريكة زوجها في الحياة؛ لأن بعضهما انضم إلى بعض، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ويُراد بها: حواء.

قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾، (بث) بمعنى: نشر وأخرج، ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من النفس وزوجها ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾،وهذان قسمان لا يخرج عنهما بنو آدم، وما جاء في الخُنثى فإن الخُنثى: إما ذكر وإما أنثى أو مركب منهما لكن لا يخرج عن الذكورة والأنوثة، وقال:﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾، ولم يقل نساءً كثيرات؛ لأن الكثرة في الرجال عز، بخلاف الكثرة في الإناث، وإن كان

الواقع أن النساء من بني آدم أكثر من الرجال؛ كما استنبط شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ من قول النبي ﷺ: «إِنَّكُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّار» و «أَنَّ أَهْلَ النَّارِ مِن بَنِي آدَمَ تِسْعُمِائَة وَتِسْعَة وَتِسْعُونَ»، فإذا قلنا: أكثر أهل النار[1]، وأهل النار من بني آدم تسعمائة وتسع وتسعون، لزم من هذا أن يكُنَّ أكثر من الرجال، وهذا هو الواقع، لكن الكثرة في الرجال عز وفخر ويفتخر الناس به، بخلاف النساء، فإن الكثرة منهن عالة وتعب وعناء.

قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾، كرر الأمر بتقوى الله - عز وجل -؛ لما لها من الأهمية؛ لأن الإنسان إذا وُفِّق لتقوى الله صَلحت أموره الدينية والدنيوية.

وقوله: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، في ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ قراءتان، الأولى: ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ كما هي في المصحف، والثانية: (تَسَّاءلون)، وأصل (تَسَّاءلون) تتساءلون، أي: يسأل بعضكم بعضًا به للحماية فيقول: أسألك بالله أن تنقذني، أسألك بالله ألا تؤذيني، أسألك بالله كذا وكذا مما يُسأل، فالله تعالى هو الذي يتساءل به الناس، وقوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ فيها قراءتان، بالجر وبالفتح، فإذا كانت بالفتح فهي معطوفة على قوله: ﴿اللَّهَ﴾ يعني: واتقوا الأرحام لا تضيعوها، ولا تفرطوا في حقها، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: جمع رَحِم، وهم القرابة، فيكون في الآية أمر بصلة الأرحام والقيام بحقهم، وأما على قراءة الجر: ﴿والأَرْحَامِ﴾ فهي معطوفة على الضمير في ﴿بِهِ﴾، أي: تساءلون به وبالأرحام، كيف التساؤل بالأرحام؟ التساؤل بالأرحام أنه مما جرت به العادة عند العرب أنه يقول: أسألك بالله وبالرحم، أو يقول: أسألك بالرحم التي بيني وبينك، وهم لعصبيتهم يقدرون الرحم تقديرًا بالغًا، ويحترمونها ويرون حمايتها، ولهذا ذكَّرهم الله تعالى بها فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

فإذا قال قائل: هل بين القراءتين منافاة (والأرحامِ - والأرحامَ)؟

فالجواب: لا، والقراءتان في الحقيقة تصير الكلمة كلمتين، فإما أن تكون القراءة تبيانًا لإحدى القراءتين، يعني: كل قراءة تبيان للأخرى، وإما أن تكون القراءة الثانية جاءت بمعنًى جديد، وهنا القراءتان هل إحداهما تبين الأخرى أم أن كل واحدة جاءت بمعنى جديد؟ كل واحدة جاءت بمعنى جديد، فقراءة النصب فيها الأمر باتقاء الأرحام، أي: اتقاء التفريط في حقهم، والقراءة الثانية فيها التذكير بأن الناس يتساءلون بالأرحام ولم يتساءلوا بها إلا لعظم حقها بينهم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، لما أمر بتقواه - عز وجل - مرتين في الآية، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، أي: يراقبكم في جميع أحوالكم، هل أنتم اتقيتم الله أم لم تتقوه؟ هل أنتم اتقيتم الأرحام وقمتم بواجبها أم لم تتقوها؟ هذا هو معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. وَخَتْمُ الآية بهذه الجملة يُراد به: التهديد من المخالفة كما لو قلت لأحد من أبنائك: افعل كذا فأنا رقيب عليك

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٩٠٧).

فهذا يعني: أنك تهدده بألا يخالف، وأنه إن خالف فسيجد عقوبته.

١ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: وجوب تقوى الله على جميع الناس، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، حيث وَجَّهَ الخطاب لجميع الناس.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان أن الناس وُجدوا من العدم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

٣ـ **وفيها**: الردُّ على الفكرة الملحدة: أن الناس تطوروا من القرود إلى البشرية من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، ونحن لا نعرف النفس إلا آدم الذين نحن من نسله، ولكن مَنِ ادعى أن أصل بني آدم قرد، قلنا له: إقرارك على نفسك مقبول، وعلى غيرك غير مقبول.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ بما خلق لنا من الأزواج، لقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، و (من) هنا للتبعيض، ويجوز أن تكون بيانية أي: من جنسها، وهذا من النعمة الكبيرة، فلو كانت أزواجنا من غير جنسنا، هل يمكن أن نركن إليها؟ أبدًا، لا يركن الإنسان إلَّا إلى مَنْ كان من جنسه، فلو كانت من جنس البقر أو من جنس الغنم هل يركن إليها الإنسان؟ لا يمكن، بل ينفر منها نفورًا شديدًا.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أصل هذه البشرية ـ التي لا يحصيها إلا الله ـ واحد، وإن شئت فقل: أصلها اثنان زوج وزوج خُلق منها هؤلاء الرجال الكثير والنساء، بشر لا يحصيهم إلا الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

٦ـ **ومن فوائدها**: أن كثرة الرجال أهم من كثرة النساء؛ لقوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾، فإن التخصيص على كثرة الرجال يدل على أهمية هذه الكثرة.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أهمية التقوى؛ ولهذا كرر الله الأمر بها مرتين.

٨ ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن التقوى واجبة بمقتضى الربوبية وبمقتضى الألوهية.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التساؤل بالله أمر واقع معروف عند العرب؛ لقوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، ولكن هل يجوز للإنسان أن يسأل غيره بالله؟ نقول: إن كان المقصود بذلك التذكير فلا حرج، وإن كان المقصود بذلك الإلزام ففيه نظر، إذا قال: أسألك بالله يعني: أذكرك به حتى تراعي عظمة الله وحقه هذا لا بأس به، وإذا كان القصد الإلزام أنك ستلزمه فهذا إحراج، ومن ذلك ما يقع أحيانًا من بعض الذين يقدمون أسئلتهم في المحاضرات يقول: أسألك بالله إلا ما رددت عليَّ، أو يقول لمقدم السؤال: أسألك بالله إلا ما قدمته، هذا إحراج، قد يرى المجيب أو المقدم من المصلحة ألا يقدم هذا السؤال أو ألا يجاب عليه، فإذا سأل بالله، هل تجب إجابته؟ نقول: إن سأل بالله شيئًا محرمًا فلا كرامة له ولا تجوز إجابته كما لو قال: أسألك بالله أن تدخل بستان فلان وتأتي لنا منه ببرتقال وتفاح، يجوز هذا أم لا؟ لا يجوز، ولا كرامة، إذا سأل بالله شيئًا

يضرني قال: أسألك بالله أن تعطيني نصف مالك، هل يجب عليَّ أن أجيبه؟ لا، لأن هذا فيه ضرر عليَّ، إذا قال: أسألك بالله أن تعطيني حقي الواجب عليك هذا يجب من وجهين، أولًا: أنه حقٌّ واجب، والثاني: أنه سأل بالله، وقال بعض أهل العلم: إن معنى قول ﷺ: «مَنْ سَألَكُم بِالله»[1]، أي: من سألكم حقًّا أوجبه الله عليه ـ على المسئول ـ فكأن معنى قول: «مَنْ سَألَكُم بِالله» أيَ: من سألكم بشرع الله، والمعنى: من سألكم سؤالًا يقتضي الشرع إجابته فأجيبوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله، لأن من قال: أسألك بالله، قد يُراد بها معنىً لا يصح إطلاقًا يعني إذا قال: أسألك بالله، وأراد أن يجعل الله شفيعًا إلى هذا المسئول كان هذا حرامًا، لأنه لا يجوز أن يُستَشفَع بالله على خلقه، فإن مقام الله أعظم من أن يكون واسطة بينك وبين الخلق.

١٠ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب احترام الأرحام؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ على قراءة النصب، وكذلك الإشارة إلى احترام الأرحام على قراءة الجر، يعني: كما أنكم تحترمونها وتسعدون بها فعظِّموها وآتوها حقها.

١١ـ ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من مخالفة الله ـ عز وجل ـ وتُؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ومن آمن بهذا ـ بأن الله رقيب عليه ـ فسوف يحذر من مخالفة الله عز وجل ـ هل نأخذ من هذه الآية إثبات اسم «الرقيب» لله؟ نعم، العلماء يأخذون منها إثبات اسم الرقيب لله، هل نقول: إن ﴿كَانَ﴾ هنا يراد بها: معناها الزمني أو لا؟ لا؛ لأنه لو أُريد بها المعنى الزمني لكانت الرقابة قد مضت، ولكنها يراد بها: تحقيق اتصاف الموصوف بالصفة التي كانت خبرًا في هذه الجملة، إذنْ هي تحقيق أن الله رقيبٌ علينا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ليس المراد أنه كان فزال، بل المراد: تحقيق اتصافه بالمغفرة والرحمة.

مسألة: روي أن النبي ﷺ كان يُسِرُّ بالبسملة أحيانًا ويجهر بها أحيانًا، فما معنى هذا؟

الجواب: كون الرسول يسر بها أحيانًا ويجهر بها أحيانًا يدل على أنها ليست من الفاتحة؛ لأنها لو كانت من الفاتحة لجهر بها دائمًا، فإسراره بها في بعض الأحيان يدل أنها ليست من الفاتحة؛ لأنها لو كانت منها لجهر بها دائمًا كما يجهر بالفاتحة، هذه واحدة، وشيء ثانٍ: كون الجهر بها يدل على أنها منها احتمال، وحديث أبي هريرة: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَينِ» ما فيه احتمال خلاف.

حول كسر كلمة «الأرحام» في الآية السابقة:

هناك خلاف على قراءة الجر من حيث القواعد النحوية؛ لأن النحويين يقولون: إذا عطفتَ على ضمير متصل فأتِ بالضمير المنفصل، أو أعد حرف الجر، فقل: (تساءلون به وبالأرحام) فهل نقول: إن في القرآن ما خرج عن القواعد؟ لا، لكن نقول: إن القرآن حاكم وليس محكومًا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٥٤).

عليه، وكون النحويين يقولون: هذا شاذ، نقول: الشاذ أنتم، وليس في القرآن ما هو شاذ أبدًا، فالقرآن بلسان عربي مبين، وإن كان يَقِلُّ استعمال هذا عند العرب فإنه بنزول القرآن به يكون كثيرًا يقرأه الناس في كل وقت، وفي كل حين؛ ولهذا أنكر الرازي وغيره من العلماء على النحويين إنكارًا بالغًا في هذا، وقالوا: كيف يقولون: إن في القرآن شيئًا شاذًا، والقرآن يحكُم ولا يُحكم عليه، بل إذا جاء في القرآن تركيب لم يُعهد في اللغة العربية، فإن الفضل للقرآن بإحياء هذا التركيب، وابن مالك رَحِمَهُ اللهُ قال: إنه ليس بلازم أن يُعاد حرف الجر فقال:

وَلَيْسَ عِنْدِي لَازِمًا إِذْ قَدْ أَتَى ... فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ الصَّحِيحِ مُثْبَتَا

وهذا هو الصحيح وعلى هذا فنقول في كل آية زعم النحاة أنها شاذة نقول: الشاذ أنتم، وليس في القرآن شيء شاذ، وكل ما في القرآن فهو على اللغة الفصحى بلسان عربي مبين، ويجب أن تُؤخذ القواعد من القرآن؛ ليحكم بها وعليها، لا أن تُؤخذ القواعد مؤصلة باصطلاحات حادثة ثم يقال: القرآن شاذ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ﴿وَءَاتُوا۟﴾ بمعنى: أعطوا، و (أَتَوْا) بمعنى: جاءوا، وقوله: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ مفعول أول، و ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول ثانٍ، وهذا الفعل ﴿وَءَاتُوا۟﴾ ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وقوله: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ جمع يتيم، وهو مأخوذ من اليُتم وهو الانفراد، والمراد به اصطلاحًا: من مات أبوه وهو صغير لم يبلغ سواء أكان ذكرًا أم أنثى، أما إذا بلغ فإنه يزول يُتمه بحسب الاصطلاح والحكم الشرعي، ولهذا جاء في الحديث «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»[1] أي: بعد بلوغ، لأنه إذا بلغ استقل بنفسه.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني: التي لهم سواء أكانت عندكم بصفتكم أولياء أو ليست عندكم، ولكن أخذتموها بغير حق، وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعني: لا تأخذوا منها شيئًا ولا تكتموا منها شيئًا ولا تفسدوها بل أعطوها كما كانت ولا يلزم من قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أن نعطيهم المال وهم أيتام؛ لأن اليتيم لا يُعطى ماله إلا إذا اختُبر كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦]، وهنا فرق بين دفع المال إليه، وبين حفظ المال له حتى يُؤتاه كاملًا، هل هناك فرق بين الإيتاء وبين الدفع؟

نقول: نعم بينهما فرق؛ لأن الدفع معناه: لا تعطيه المال حتى يبلغ ويرشد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وأما إيتاء المال فالمراد: أن نحفظ المال لهم، بحيث

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، وصححه الشيخ الألباني بمجموع الطرق كما في «الإرواء» (١٢٤٤).

نعطيهم إياه كاملًا عند وجوب الدفع.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ يعني: لا تأخذوا الخبيث بدلًا عن الطيب، كيف لا نأخذ الخبيث بدلًا عن الطيب؟ المعنى: أننا لا نعطيهم الخبيث من أموالنا، ونأخذ بدله طيبًا، هذا معنى الآية، وقالوا معناها: لا تأخذوا أموالهم تستغنوا بها عن الطيب؛ لأن الأموال حرام والحرام خبيث، ففيها وجهان:

الوجه الأول: ألا تأخذوا الطيب من أموالهم وتعطوهم الخبيث، مثال: أن يكون لليتيم غنمٌ سمينة جيدة وعند وليه غنمٌ هزيلة رديئة فيأخذ من غنم اليتيم الطيب بالرديء الذي عنده، هذا حرام، أو يكون عنده طيب نقي فيأخذه ويعطيه رديئًا مخلوطًا، وما أشبه ذلك، فالمعنى إذنْ: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تأخذوا الطيب وتعطوهم الخبيث، هذا واحد.

الوجه الثاني: لا تأخذوا من أموالهم شيئًا؛ لأن أموالهم حرام عليكم، والحرام خبيث ويكون معنى الآية: لا تأخذوا أموالهم فتستغنوا بها عن الطيب الذي تكتسبونه بوجه حلال، وكلا الأمرين محرم، يعني: سواء أخذتَ ماله بدون أن تعطيه عنه شيئًا، أو أخذت ماله الطيب وأعطيت عنه مالًا رديئًا، فكله حرام.

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾، ﴿إِلَىٰ﴾: قال العلماء: إنها بمعنى (مع)، أي: لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم، وقيل: بل ﴿إِلَىٰ﴾ على بابها ولكن: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ ضُمنت معنى تضموا، أي: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوها، وهذا الأخير أصح؛ لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر في القرآن كثير، وإتيان ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى(مع) قليل وحمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل، وهذه من قواعد التفسير: أن حمل الآية على المعنى الكثير في القرآن أولى من حملها على المعنى القليل؛ لأنها إذا كانت هي الكثير في القرآن صارت هي اصطلاح القرآن، وهي حقيقة القرآن.

﴿إِنَّهُ﴾: الضمير يعود على الفعل السابق المكون من شيئين: تبديل الخبيث بالطيب، والثاني: أكل أموال اليتامى إلى أموالنا، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: هذا الفعل، فالضمير يعود على الفعل المفهوم مما سبق، قوله: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: كان عند الله ﴿حُوبًا﴾ أي: إثمًا أو ذنبًا، والكبير ضد الصغير؛ لأن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر فهذا من الذنب الكبير.

١- **في هذه الآية عدة فوائد، منها:** بيان رحمة الله - عز وجل - حيث أوصى بهؤلاء اليتامى؛ لأن اليتيم محل الرحمة فهو مكسور الخاطر ليس له أب، وربما لا يكون له أم أيضًا؛ فلهذا أوصى الله بالعناية به وبماله.

٢- **ومنها:** وجوب حفظ أموال اليتامى؛ لأنه يلزم من إيتائهم أموالهم: الحفظ، إذ لو فرَّط وأهمل وضاعت الأموال لم يكن قد آتاهم أموالهم.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن اليتيم يملك وملكه تام؛ لقوله: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة: أن الزكاة واجبة عليه؛ لأن الزكاة تبع للمُلك، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة:١٠٣] وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه لليمن: «أَعْلِمْهُم أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِم صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ»(١)، فإذا ثبتت الملكية ثبت وجوب الزكاة، وفي هذا رد على قول بعض أهل العلم -رحمهم الله-: إن الزكاة لا تجب في أموال اليتامى؛ لأن اليتيم صغير غير مكلَّف فنقول في الجواب عن هذا: إن الزكاة ليست تكليفًا محضًا، بل هي تكليف لحق الغير وهم الفقراء، فهي شبيهة بالدَّين؛ ولهذا وجبت في أموال اليتامى والمجانين وإن كانوا غير مكلفين.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن اليتيم تجب النفقة في ماله على مَنْ تجب عليه نفقته، تُؤخذ من إثبات المالية، والنفقة واجبة على كل غني لكل فقير، فإذا تمت شروط النفقة ولم يبق إلا البلوغ، قلنا: إن البلوغ ليس بشرط؛ لأن الله أثبت المالية لليتامى، وإذا ثبتت المالية ترتب عليها ما يترتب على ذوي الأموال.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب أداء الأمانة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾.

٦- ومن فوائدها: إطلاق اسم الخبيث على الرديء، على أحد الوجهين في تفسير الآية، وقد صرح الله -عز وجل- بأن الرديء يسمى خبيثًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]. فسمى الرديء خبيثًا، وسمَّى النبي ﷺ البصل ونحوه خبيثًا وقال: إنه حلال، مع أنه أُطلق عليه وصف خبيث.

٧- من فوائد الآية الكريمة: تحريم ضم مال اليتيم إلى مال الولي إذا كان بقصد إتلافه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، أما إن ضم مالَه إلى مالِه لا لقصد الأكل والإتلاف، ولكن لقصد الحفظ والتجارة فإن هذا لا بأس به، بل قد يتعين على الإنسان، فإذا ضم مال اليتيم إلى ماله لقصد الحفظ أو لقصد التجارة فإنه إحسان إليه ولا يدخل في النهي؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ لم يقل: لا تخلطوها؛ ولهذا قال الله في سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]. لكن في حالة ضم المال إلى المال بقصد الحفظ أو التكسب يجب أن يحتاط الإنسان في كتابة مال اليتيم الذي أدخله مع ماله، وتمام الاحتياط أن يُشْهِدَ على ذلك فيقول مثلًا: أدخلت كذا وكذا من مال اليتيم في ضمن مالي الذي اشتريت به الأرض، أو اشتريت به السيارة وما أشبه ذلك مما يتكسب منه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العدوان على مال الأيتام وأخذ الطيب وإعطائه الخبيث، أو أكل مالهم من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

فإن قال قائل: لِماذا لَمْ يقل ـ عز وجل ـ (ولا تأكلوا أموالهم) ويكتفي ولا يقل: إلى أموالكم؟

الجواب: لو قال: (ولا تأكلوا أموالهم إنه كان حوبًا كبيرًا) لكفى، لكنه قال: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾؛ لأن ولي اليتيم قد يتستر ويُدخِل مال اليتيم في ماله ومن يعلم عنه؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، وعلى هذا فيكون ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ليس قيدًا بحيث نقول: لو أكل مال اليتيم من غير أن يضمه إلى ماله فهو جائز، لا نقول هذا ، بل نقول: إن الله ذكر هذا؛ لأن بعض الأولياء يتستر فيُدخل مال اليتيم في ماله، ولا يعلم أحدٌ به.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء:٣].

الآية الأولى في أموال اليتامى، والثانية في أبضاع اليتامى قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم والمراد به: اليتامى من النساء، وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ قال بعضهم: الخوف هنا بمعنى العلم يعني: علمتم ألا تقسطوا، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٨٢].

فإن معنى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ أي: فمن علم، ولكن الصحيح في هذه الآية ـ آية النساء ـ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ أن المراد بها: الخوف وإن لم يعلم، لكن متى خاف الإنسان؟ ألا يقسط في اليتامى فليفعل ما ذكر الله، وقوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ أي: ألا تعدلوا في اليتامى، وهنا فرق بين أقسط وقسط، أن (قَسطَ) معناها: جَارَ ، و(أَقْسطَ) معناها: عدل ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، إذنْ: ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ أي: ألا تعدلوا في اليتامى، وكانوا في الجاهلية إذا تولى الإنسان على ابنة عمه جَارَ عليها بأن يتزوجها، وهي كارهة أو يتزوجها بدون مهر أو بمهر قليل، أو يتزوجها وهو كاره لها لكن يريد أن يتحجرها، أو غير ذلك من أنواع الظلم والجوْر فقال الله ـ عز وجل ـ مرشدًا عباده: إن خفتم عدم العدل فالباب مفتوح ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: ليست النساء معدومة إلا هؤلاء اليتيمات، بل الأمر واسع اعدلوا عنهن إذا خاف ألا يعدل في اليتيمة وجب عليه أن يَعْدِلَ عنها، لقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: اتركوهن، وانكحوا ما طاب لكم من النساء، ﴿مَا﴾ فسرها بعضهم بمَنْ ـ فانكحوا مَنْ طاب ـ لماذا؟

قال: لأن المرأة عاقلة من ذوات العقل، والعاقل له «من» وغير العاقل له «ما»، فقالوا: إن ﴿مَا﴾ بمعنى«من» أي: فانكحوا من طاب، ولكن هذا القول ضعيف، بل نقول: إذا كان الأمر

يراد به الوصف فالوصف ليس من العقلاء فيؤتى بـ «ما»؛ وهنا المرأة تطيب للرجل لشخصها أو لوصفها؟ الثاني لوصفها ولهذا عبر بـ «ما»، لأن اختيار المرأة لمقام الأوصاف التي توجب اختيارها، فالصحيح أن ﴿مَا﴾ في موضعها، وليس بمعنى «مَنْ»، وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾، ﴿مَا طَابَ﴾ أي: ما حَسُن ورأيتموه طيبًا، وطابت به نفوسكم، ولا تُكرهوا أنفسكم على نكاح ما لا تريدونه ومن لا تطيب لكم؛ لأن إكراه الإنسان نفسه على من لا تطيب له كإكراه الرجل نفسه على طعام لا يشتهيه، وإذا أكْرَه الإنسان نفسه على طعام لا يشتهيه صار هذا الطعام في معدته حجارة يعني: لا تهضمه المعدة، ولكن انكح من تطيب بها نفسك، وطيب النفس يكون بأي شيء؟ بالجمال وغيره، قال النبي ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِها»، ومن المال الوظيفة، تنكح المرأة الآن لوظيفتها؛ لأن الوظيفة تحصيل للمال، إذنْ المرأة تطيب للرجل بأحد هذه الأوصاف الأربعة، وهذه أوصاف أغلبية وإلا فقد ينكح الرجل المرأة لا لهذه الأوصاف ولكن لأسباب أُخرى، لكن هذا هو الغالب ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿مِّنَ﴾ يسميها العلماء بيانية؛ لأنها جاءت بعد اسم مبهم وهو اسم موصول فتكون مبينة لهذا المُبهم، وكلما جاءت من بعد اسم الشرط أو الأسماء الموصولة فهي بيانية كقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] هذه بيانية وكذلك هنا.

مسألة: إن بعض العلماء قالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

الجواب: إن هذا القائل أخطأ خطأً عظيمًا؛ لأن قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، ليس هو الأكل الذي نهى الله عنه هنا حتى نقول: إن هاتين تعارضتا، الله يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: تخلطوها لأجل أن تأكلوها أما إذا خلطها للإصلاح أو لمصلحة فهذا لا بأس به، لكن بعض العلماء ـ عفا الله عنا وعنهم ـ إذا عجزوا عن الجمع بين النصين قالوا: هذا منسوخ وأقول: إذا عجزوا؛ لأنه قد لا يكون بين النصين تعارض، قد يكون كل نص محمول على معنى، وهذه مسألة خطيرة جدًّا؛ لأن معنى النسخ إنكار المنسوخ، ليست مسألة هينة، معنى النسخ إنكار المنسوخ ولم نجعله حكمًا شرعيًّا، فالمسألة خطيرة، ولهذا لا يجوز ادِّعاء النسخ مع إمكان الجمع أبدًا.

مسألة: لو ضم الولي مال اليتيم إلى ماله فخسر في ماله، فهل يضمن لليتيم أم لا؟

الجواب: : ما دام حين فعله يعتقد أن هذا هو الأصلح ولكن اختلفت الأمور ليس عليه إثم ولا ضمان وهذا بالإجماع؛ لأنه يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وهذه قاعدة كل إنسان له الولاية في التصرف فلا ضمان عليه أن تأتي الأمور بغير ما يتوقع.

مسألة: ما الفائدة من ذكر الأكل دون غيره؟

الجواب: لأنه أكثر ما يكون، وهو أعم ما يكون من الانتفاعات؛ ولأنه هو الذي ينتفع به

البدن انتفاعًا مباشرًا، فاللباس يُنتفع به لكن من الخارج؛ فلهذا تكون الآيات كلها تعبر في الغالب بالأكل، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران:١٣٠] وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ كانوا في الجاهلية يكون الرجل تحته اليتيمة - أي عنده - ثم يؤخِّر زواجها لنفسه حتى يتزوجها، أو يتزوجها وهو كاره لها، لكن من أجل رعايتها والقيام بنفقتها، فبيَّن الله في هذه الآية أن: إذا خافوا ألا يعدلوا في اليتامى فليعدلوا عنهم.

والمعنى: انكحوا المرأة التي تطيب لكم، أي: ترونها طيبة وتستحسنونها، ولهذا قال: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فأتى بـ ﴿مَا﴾ دون (مَنْ)؛ لأن (من) للعاقل إذا قُصد الشخص، فإن قصد الوصف يُؤتى بـ ﴿مَا﴾، ومن قول العرب (سبحان ما سخركن لنا)، يعني: الإبل، يريد سبحان مَنْ يعني سبحان الله، لكن لما أراد هذا القائل الوصف وهو كمال قوة الله - عز وجل - وتسخيره، أتى بـ (ما)، وقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هل هي متعلقة بـ (انكحوا) أي: انكحوا من النساء ما طاب لكم أو بيان لـ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾؟ الثاني أقرب والأول جائز، أي: انكحوا ما يطيب لكم من النساء.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ هذه الكلمات الثلاث، يقول النحويون: إنها لا تتصرف، والمانع لها من الصرف الوصفية والعدل؛ لأن معنى ﴿مَثْنَىٰ﴾ أي: اثنتين اثنتين، ﴿وَثُلَٰثَ﴾ أي: ثلاثًا ثلاثًا، ﴿وَرُبَٰعَ﴾ أي: أربعًا أربعًا، وعلى هذا نقول: مثنى حال من النساء، يعني: حال كونهن: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: انكحوا على اثنتين اثنتين، أو على ثلاث ثلاث أو على أربع أربع، وليس المعنى: انكحوا اثنتين وثلاثًا وأربعًا، خلافًا لمن زعم ذلك وقال: إن الآية تدل على جواز نكاح التسع؛ لأن اثنتين وثلاثًا تساوي خمسة نساء، ورباع أربع، فالجميع تسع، وهذا بعيد من هذا الأسلوب في اللغة العربية هذا الأسلوب للتقسيم، يعني: منكم من ينكح اثنتين اثنتين، ومنكم من ينكح ثلاثًا ثلاثًا، ومنكم من ينكح أربعًا أربعًا، لأن خطاب (انكحوا) للجماعة، وليس للواحد، فإذا كان الخطاب للجماعة، فوزَّع مثنى وثلاث على الجماعة، يكون المعنى: ينكح بعضكم اثنتين، وبعضكم ثلاثًا، وبعضكم أربعًا، ويدل لهذا الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ أن الرجل لا يتزوج أكثر من أربع، أما النبي ﷺ فإنه مخصوص بخصائص متعددة في النكاح:

١- منها: أنه يتزوج أكثر من أربع.

٢- ومنها: أنه يتزوج بالهبة.

٣- ومنها: أنه لا يجب عليه القسم على أحد الأحوال.

٤- ومنها: أنه بعد أن خيَّرهن فاخترن الله ورسوله، حرُم عليه أن يتزوج غيرهن إلى أن مات.

٥- ومنها: أن زوجاته لا يحل لأحد بعده أن يتزوجهن، فالرسول ﷺ خُصَّ بخصائص لا تجب

في غيره.

وهذه الآية من حيث الدلالة كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١] ولو أراد الله - عز وجل - أن يبين لعباده حِل النساء التسع لقال: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمسًا أو ستًا إلى التسع) ولا يأتي بهذا الأسلوب المشتبه؛ لأن القرآن نزل تبيانًا لكل شيء، وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ لم يذكر الواحدة؛ لأن المقام مقام تخيير، ومقام إعطاء النفس حظها إذا خاف الإنسان ألا يقسط في اليتامى يقول: إذا خفت ألا تُقسط في اليتيمة، فأمامك النساء كمية وكيفية، كمية من اثنتين فصاعدًا، والكيفية قال: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ فأنت أمامك الباب مفتوح فيما تريد من النساء كيفية وكمية، ومعلوم: أن الواحدة ليس فيها كمية، فالكمية تعني الزيادة في الكم من اثنتين فصاعدًا.

قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾، ﴿خِفْتُمْ﴾ أي: ظننتم ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ أي: فانكحوا واحدة ولا تزيدوا عليها.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعني: أو انكحوا ما ملكت أيمانكم؛ لأن ما ملكت اليمين لا تُنكح، مُلك اليمين تُوطأ بالملك ولا تُوطأ بالنكاح، ولهذا يحرم على الرجل أن يتزوج أمته؛ لأنها تحل له بعقد أقوي من النكاح وهو مُلك اليمين، والأضعف لا يرد على الأقوى بخلاف العكس، فإنه يرد الأقوى على الأضعف، فلو اشترى الرجل زوجته انفسخ النكاح وحلت له بملك اليمين، أما لو كان عنده أمة لا يمكن له أن يتزوجها؛ لأنه ملكها بعقدٍ أقوى من النكاح، فإن السيد يملك الرقبة والمنفعة بخلاف الزوج فإنه لا يملك إلا المنفعة.

إذنْ لا يصح أن نقول: إن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ معطوفة على قوله: ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ فيختل المعنى، بل المعنى: فانكحوا واحدة أو استمتعوا بما ملكت أيمانكم، المهم: أنها ليست معطوفة على ما سبق إلا من بعد عطف الجمل فيقدر فعل مناسب لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه نكاح الواحدة عند خوف عدم العدل أم المشار إليه أن يتزوج الإنسان اثنتين أو ثلاث أو أربع عند خوف عدم العدل في اليتامى أم الأمران؟ الأمران، يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاحكم ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ إذا خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، أو نكاحكم واحدة إذا خفتم ألا تعدلوا، ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ يعني: ألا تجوروا.

هذا هو معنى الآية المتعين، وأما ما يُروى أن المعنى: أدنى ألا تكثر عيالكم فهو قول ضعيف جدًّا؛ لأن كثرة العيال مرغوبة عند الله؛ ولأن العيال يكثرون إذا جامع الإنسان ما ملكت يمينه والله - عز وجل - يقول: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، فإذا كان عند الإنسان مائة جارية، وجامع كل واحدة فإنه يأتي في السنة بمائة ولد، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف نقول: إن

الإنسان إذا جامع ما ملكت يمينه يكون أدنى إلى عدم العيال؟ ولهذا يعتبر هذا القول ضعيف جدًّا لمنافاته مقصود الشارع في كثرة الأولاد؛ ولأن قلة الأولاد لا تكون فيما إذا جامع الإنسان مملوكاته.

١ـ من فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان الاحتياط إذا خاف الوقوع في المحرم؛ لقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، يعني: ولا تعرضوا أنفسكم للجور.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يتزوج من تَطيبُ نفسه بها؛ لأن ذلك أدنى أن يؤدم بينهما؛ ولهذا شرع للإنسان أن ينظر إلى مخطوبته حتى تطيب نفسه بها ويتفرع على هذه الفائدة: تبين خطأ ما يستعمله بعض البادية من إجبار الإنسان على نكاح ابنة عمه مع أنه لا يريدها؛ لأن الله يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾، فإذا كان الرجل لا تطيب نفسه بهذه المرأة كيف يتزوجها؟! فما يفعله بعض البادية لا شك أنه خطأ، مخالف للشرع، فإن ابنة عمه إذا لم يتزوجها هو تزوجها أحد غيره من الناس.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية: أن الله ـ عز وجل ـ إذا سد باب حرام فتح باب حلال أو أبواب حلال؛ لأن قوله: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ يعني: فلا تتزوجوهن، ولكن انكحوا ما طاب لكم من النساء وهذا من طريقة القرآن وطريقة السنة أنه إذا سُدَّ باب الحرام فإنه يفتح باب الحلال؛ لئلا يُوصد أمام الإنسان العمل والحركة، وذلك تقدم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤]، ومنها: إرشاد النبي ﷺ إلى بيع التمر الرديء بالدراهم، ثم يشتري بالدراهم تمرًا طيبًا(١).

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: مشروعية التعدد في الزوجات، وهل يُؤخذ من هذه الآية مشروعية التعدد أو جواز التعدد؛ لأن هناك فرق بين أن نقول: بالمشروعية أو بالجواز؟ الظاهر أنه يفهم منها جواز التعدد؛ لأن عرض العدد هنا في مقابلة المنع من نكاح اليتامى اللاتي يخاف الإنسان ألا يقسط بينهن، فكأنه قال: إذا تركت نكاح واحدة من اليتامى فأمامك أن تنكح اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، وهذا هو الأقرب، لكن يُؤخذ مشروعية التعدد من أدلة أخرى، منها: أن النبي ﷺ أراد من أمته تكثير النسل، وهذا يحصل بالتعدد أكثر مما يحصل بالإفراد، وقد عرض عليَّ بعض الناس قصصًا من الجريدة، يقول: إن الشيعة في القطيف بدأوا يعملون عملًا طيبًا في الحقيقة وهو الحفل الجماعي في الأنكحة حتى إنهم جمعوا في ليلة واحدة في وليمة واحدة فوق خمس وستين عُرسًا في ليلة واحدة، يعني: بدل ما نذهب إلى قصر الأفراح في فرح رجل واحد فقط، نجعل في هذه الليلة في نفس القصر عشرين رجلًا أو خمس وستين رجلًا أو مائة رجل، وهذا لا شك يوفر النفقات ويوفر تعبًا على الناس، وهذه سُنة حسنة إذا حصل أن الناس يفعلونها فهذا طيب، وإذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٨٠)، ومسلم (١٥٩٤).

أرادوا بهذا وجه الله أثيبوا عليها، يعني: هذا من باب تخفيف المؤونة وأعظم النكاح بركة أيسره مؤونة «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١).

مسألة: يقال: إن الشيعة معروفون أنهم أعداء لأهل السنة والجماعة فكيف يكون فعلهم محمودًا؟

الجواب: إن الإنسان قد يُحمد على فعله ولا يحمد على دينه يعني: لا يلزم من حمدنا فعلهم هذا أن نحمدهم على دينهم، قد لا نشك أنهم على دين باطل، وأنهم بعيدون عن الصواب، وأن الواجب عليهم أن يرجعوا إلى طريق أهل السنة، والعجب أنهم يقولون لأهل السنة: أنتم أهل السنة ثم يخالفونهم، إذنْ إذا كانوا أهل السنة، هل أنتم تريدون أن تتبعوا السنة؟ وهذا الإنسان يحمد على كرمه وهو كافر، وعلى إحسانه وهو كافر، قال النبي ﷺ في أسرى بدر: «لَوْ كَانَ المُطْعَمُ بنُ عَدِيٍّ حيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤلَاءِ الأَسْرَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» لماذا؟ لأن الرسول ﷺ دخل في جوار المطعم، فالواجب العدل، نحن نقول بالعدل وأن الفعل المحمود من أي شخص أتى به يُحمد، فلو خفنا من هذا مفسدة بأن يعجب هذا الشخصَ بنفسه، أو يكون في ذلك دعاية لما هو عليه من الباطل، فحينئذٍ نسكت، ونأخذ بالخير دون أن نحمد مَنْ سنَّه، إذ لم يكن أهلًا للحمد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يجوز تجاوز الأربع؛ لقوله ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، مع أن المقام مقام فتح باب للناس وتكثير ومِنَّةٍ، ومثل هذا الباب يُذكر فيه أقصى ما يكون من المنة التي ليس وراءها شيء.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم الوسائل إلى المُحرم لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾ فأوجب الاقتصار على الواحدة إذا خاف الإنسان عدم العدل، وهذه القاعدة قاعدة عظيمة في أصول الفقه أن للوسائل أحكام المقاصد، فلا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المندوب إلا به فهو مندوب، وما يحصل به المحرم فهو حرام.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يجب العدل بين الإماء في الجماع ولا في غيره؛ لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: وجوب العدل بين الزوجات؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾ والجور بين الزوجات من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهِمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»(٢).

٩- **ومن فوائد الآية**: إثبات مُلك اليمين؛ لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ولا يمكن رفع هذا الحكم الشرعي مخافة ذم الناس أو شماتتهم، بل الواجب بقاؤه أي: بقاء ملك اليمين إذا وُجد

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢١٣٣)، والنسائي (٣٩٤٢)، والترمذي (١١٤١).

سبيه، وما هو سبب ملك اليمين؟ الكفر، إذا قاتل المسلمون الكفار وسَبَوا نساءهم وذريتهم.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المُلكية للإنسان وليس إثبات الرق، إثبات الملكية وهي أن الإنسان يملك ولا ينافي هذا أن نقول: إن الملك لله؛ وذلك لأن الملك ملكان: ملك شامل كامل لا يُسأل فيه المالك عن أي تصرف وهذا لله، وملك دون ذلك في الشمول والتصرف فهذا ثابت، ثم إنه أنواع: تارة يملك الإنسان الرقبة، وتارة يملك المنفعة، وتارة يملك المنفعة والرقبة، تارة يملك المنفعة مثل المستأجر، وتارة يملك الرقبة فقط كعبد موصىً به لشخص، ويمنفعته لشخص آخر، فهنا يكون مالك الشخص زيد، ومالك الرقبة عُبيد، لكن لبعضكم أن يقول: ما الفائدة من الوصية لعبد وبمنفعته لعبد آخر؟ نقول: لها فائدة، العتق إذا أعتقه مالك الرقبة صار حرًّا ومالك المنفعة له منفعته، المهم على كل حال:هناك ملك عين، وملك منفعة، وملكهما جميعًا؛كالمالك المعتاد الذي يملك مطلق التصرف.

١١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن اليمين أفضل من اليسار؛ لأنه أضاف الملك إليها ولا شك أن اليمين أفضل من اليسار، ولهذا تعد اليمين للإكرام واليسار للإهانة، فالشيء الطيب يُتناول باليمين، والشيء الخبيث يُزال باليسار.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تفاضل الأعمال يعني: بعضها أعلى من بعض في السوء، وأدنى من بعض في الحسن؛ لقوله: ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾؛ لأن الأدنى اسم تفضيل، فلا بد أن يكون هناك من فاضل ومفضول.

مسألة: (مثنى) معناها اثنتين اثنتين، فما الفرق بينهما وبين اثنتين فقط؟

الجواب: لأنه إذا صارت موزعة لازم أن تأتي بما يدل على التكرار.

مسألة: في الآية دليل على أنه لا يجب العدل بين الإماء من أين يُؤخذ من الآية؟

الجواب: من قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فدل هذا على: عدم وجوب العدل بين الإماء.

مسألة: ما معنى قوله: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾؟

الجواب: ألا تجوروا.

مسألة: وكيف كان أقرب ألا يجوروا؟

الجواب: لأنه إذا اقتصر على واحدة فليس معها مَنْ يجب العدل بينهما، وحينئذٍ لا يكون هناك جَوْر، وكذلك فيما ملكت الأيمان لا يجب العدل، فلو مال إلى إحداهن فلا جور؛ لأنه لا يجب العدل.

قال الله تعالى:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء:٤-٦]

التفسير

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء:٤].

﴿ وَءَاتُوا۟ ﴾ أي: أعطوا، والفرق بين(أتوا) و(آتوا) أن (آتوا) بمعنى: أعطوا، و (أتوا) بمعنى: جاءوا، ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ ﴾ الخطاب في قوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ ﴾ هل هو للأزواج أو للأولياء؟ في الآية قولان:

القول الأول: أنه للأولياء، فيكون المعنى: أن الله أمر الأولياء أن يُعطوا النساء صدقاتهن بدون أن يأخذوا منهن شيئًا؛ لأن العرب في الجاهلية إذا زوج الرجل ابنته أخذ المهر ولم يعطها إلا ما تلبسه ليلة الزفاف والباقي يأخذه، يسلبه إياها، فأمرهم الله أن يؤتوا النساء صدقاتهن نحلة.

والقول الثاني: أن الخطاب للأزواج حيث أمرهم الله ـ عز وجل ـ أن يؤتوا النساء صدقاتهن عن طيب نفس بدون مماطلة وبدون تكرم، وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين بدون تناقض، فمن الواجب حملها على الوجهين، فنقول: الخطاب للأزواج وللأولياء.

وقوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾، ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾ يعني: المتزوجات، بدليل قوله: ﴿ صَدُقَـٰتِهِنَّ ﴾، وصدقات جمع صدقة وهي: المهر، وسُمي بهذا الاسم؛ لأن بذله دليل على صدق الطالب للمرأة، وقوله: ﴿ نِحْلَةً ﴾، أي: عطية طيبة بها نفوسكم، يقال: نَحلَهُ أي: أهداه هدية طيبة بها نفسه، وعلى هذا فزَعَم بعضهم أنها مفعول مطلق لقوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾، فهي مثل قول القائل: (وقفت قيامًا) أو (جلست قعودًا)؛ لأن (آتى) بمعنى نحل، و(آتوا) بمعنى انحلوا، والنحلة هي: العطية عن طيب نفس.

قوله: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ ﴾، ﴿ فَإِن طِبْنَ ﴾ يعني: النساء، وقوله: ﴿ نَفْسًا ﴾ مصدر محول عن الفاعل، والمصدر المحول تارة يُحول عن الفاعل كما في هذه الآية، وتارة يُحول

عن المفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢] يعني: عيون الأرض.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾، ﴿مِّنْهُ﴾، قيل: إنها تبعيضية، وقيل: إنها بيانية، فعلى الأول يكون المعنى: (إن طبن لكم عن بعضه)، وعلى الثاني يكون المعنى: (إن طبن لكم عن كله أو بعضه)؛ لأن (من) بيان لمحل الحكم بغض النظر عن كونه كله أو بعضه، ﴿فَكُلُوهُ﴾ عَبَّرَ بالأكل؛ لأنه أحض وجوه الانتفاع، إذ إن الأكل يغذي البدن، وينمو به البدن، بخلاف اللباس، وبخلاف المساكن، وبخلاف المراكب فإن منفعتها خارجية، فاللباس كسوة خارجية، ولكن الأكل كسوة داخلية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٨-١١٩] التناسب بين الظمأ والضحى وهو حرارة الشمس واضح، وبين الجوع والعُري واضح؛ لأن الشبع كسوة الباطن؛ لأنه إذا كانت المعدة خاوية ما فيها شيء عارية ودخل الطعام فيها غطَّاها وكساها فهو كسوة باطنية، وعلى كل حال أقول: عبر بالأكل؛ لأنه أحض وجوه الانتفاع؛ ولأن منفعته للبدن مباشرة، ينمو بها البدن بخلاف اللباس وبخلاف المسكن وبخلاف المركوب فهي منفعة خارجية، وقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: حين الأكل، ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: بعد الأكل، فالمريء محمود العاقبة، والهنيء: سهل المسار.

وأضرب لكم مثلًا: إذا أعطينا شخصًا من غير أهل جِدة سمكة وأراد أن يأكلها، يمكن إذا أكلها يكح عشرة مرات قبل أن تصل إلى معدته؛ لأن فيها شوكًا وزعانف وما أشبه ذلك مما يغصصه بها، هل هذا الأكل هنيء أو غير هنيء؟غير هنيء لكن الجداوي تسمع صريخ عظامها بين أسنانه ولا يبالي، وهذا الشيء شاهدته أنا بنفسي، حيث يأخذ الذيل هذا، ويجعله بين أسنانه ويقرضه كما نقرض التمر اليابس هذا يكون هنيئًا له أم لا؟ يكون هنيئًا له؛ لأنه يسيِّره بسهولة، لكن الذي لم يعدته ليس هنيئًا له، و(مريئًا) قلنا: الطعام محمود العاقبة، ربما يأكل الإنسان أكلًا لينًا لذيذًا في الفم لكن إذا وصل إلى بطنه جعل يتلوى منه، ماذا يكون، مريء أم غير مريء؟ غير مريء، حال من ذلك ما يفعله بعض الناس يكون الطعام حارًّا يشوي يده ثم يشوي فمه ثم يبتلعه بسرعة ثم يشوي بطنه، هذا ليس محمود العاقبة؛ لأنه يضره، لكن بعض الناس -سبحان الله- لا يهمهم هذا الشيء، والذي ينبغي أن يأكل الإنسان أكلًا يكون محمود العاقبة، يكون مريئًا، ولهذا قال بعض الناس كلمة أعجبتني، قال:«**كل ما يلذ لبطنك لا ما يلذ بفمك**»، وهذا صحيح فأحيانًا الإنسان يأكل الطعام طعمه طيب وحلو، لكن إذا وصل إلى البطن أوجع البطن، إما يكون بطنه مملوءة من قبل أو لسبب ما، ولهذا قال شيخ الإسلام -رحمة الله-: (إن الطعام يكون حرامًا إذا خاف الإنسان منه الأذى أو التخمة)، يعني:يحرم أن يأكله إذا خاف الأذى أو التخمة، الأذى بالأكل، يحمل بطنه وقد ملأها، فيتعب حتى إذا جلس لا يجلس إلا متربعًا من شدة ملئها، هذا نقول له: يحرم عليك أن تأكل، أو التخمة وهي التغير، ونحن نسميها غِيَرة كطِيرة يعني: التغير،

والتغير الحمد الله الآن لطيب المآكل قليل جدًّا،لكن فيما سبق لما كانت المآكل ليست بذاك الطيب يجد الإنسان التخمة، يصير يتجشأ يظهر منه رائحة خبيثة، وربما يُصاب بالمرض.

شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يقول: إن الإنسان إذا خاف من الأكل الأذى أو التخمة فإنه يحرم عليه، وما قاله له وجه، لكن مع الأسف الآن نأكل كثيرًا ثم إذا ملأنا البطون ذهبنا نطلب المهضِّم، بل إن بعض الموائد أجد فيها المُثلجات، وما أشبهها من أجل أن يأكل ويشرب هذا نقول له : لا تكلف نفسك، كُلْ أكلًا معتادًا.

وحدثني إنسان طبيب أمريكي أسلم، يقول: أنا أسلمت على حديث واحد وعلى آية واحدة، الحديث هو «حَسْبُ ابْنَ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[1]، يقول: هذه أصول الطب، ولو أن الناس نفذوا ما كان يمرض أحد.

أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة:٦]

يقول: هذه الأعضاء التي هي بارزة ظاهرة تتعرض للغبار وتتعرض للأوساخ، وتتعرض لكل شيء، فإذا غُسلت في اليوم والليلة خمس مرات بقيت نظيفة، إِذَنْ الإسلام دين النظافة ودين الحمية، وهذه أصول الطب، فقلنا له شيئًا آخر غير ذلك: إن الطهارة هذه تطهر الأذى المعنوي وهو الذنوب؛ لأنه يُغفر للإنسان في آخر قطرة من قطراته، لكن هذه لا يعرفها الكفار، فهم ليس لهم غير الظاهر.

فأقول: إننا لو جربنا ولو أسبوعًا واحدًا ألا نأكل كثيرًا ولكن قد يقول القائل: أنا إذا لم آكل كثيرًا جعت قبل أن تأتي الوجبة الأخرى، نقول: كُلْ وقتها تجوع.

وحدثني بعض الناس: أن الدول التي تسمي نفسها الدول الراقية يأكلون في اليوم والليلة خمس وجبات؛ لأنهم ما يكثرون، يأكلون ثم إذا جاعوا أكلوا، ولو أنكم تجربون لمدة أسبوع لكان خيرًا.

١- يستفاد من هذه الآية فوائد منها، وجوب إعطاء النساء مهورهن؛ لقوله ﴿وَءَاتُواْ﴾.

٢- ومن فوائدها أيضًا: أنه لا يجوز للولي أن يأخذ شيئًا من صداق النساء لوجهين: الوجه الأول: أنه أضاف الصداق إليهن فهو ملكهن، والوجه الثاني: أنه أمرنا بإيتاء صدقاتهن ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء، فمنهم من قال: يجوز للأب خاصة أن يشترط من مهر ابنته ما شاء، وقال بعض العلماء: لا يجوز للأب ولا لغيره أن يشترط لنفسه شيئًا من المهر، والذي تؤيده السنة أنه لا يجوز أن يشترط الولي لنفسه شيئًا من المهر سواءً كان الأب أم غيره، لكن إذا تم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٢)، والترمذي (٢٣٨٠)، والحاكم (٤/ ١٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٥).

العقد وأراد الزوج أن يعطي الأب أو غيره من الأولياء أو الأم أو الخالة وما أشبه ذلك شيئًا من باب الإكرام فلا بأس به كما دلت على ذلك السُّنة، أما ما كان قبل العقد فكله للمرأة ولا يحل لأحد أن يشترط شيئًا لنفسه.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب إعطاؤهم الصداق على وجه النِّحلة يعني: الهدية التامة، فلا يكون فيه منة في المستقبل.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إسقاط المرأة شيئًا من المهر أو رده إن كانت قد قبضته؛ لقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

٥ـ ومن فوائدها: أنها لو أسقطت شيئًا خجلًا أو حياءً فإنه لا يحل قبوله، لقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾؛ ولهذا قال العلماء: إذا أهدى إليك شخص هدية، وأنت تعلم أنه إنما أهداها حياءً وخجلًا، فإنه لا يجوز أن تقبلها منه؛ لأن هذا كالإكراه.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ تملك شيئًا عن طيب نفس فإنه يحل له حاضرًا ومستقبلًا، لقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ هنيئًا: حين الأكل، ومريئًا: بعد الأكل.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يحل أخذ شيء من مال الغير بغير طيب نفسٍ منه؛ لأن الله اشترط لِحل أكله أن يكون عن طيب نفس وقد جاءت بذلك السنة صريحة: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[1] وكذلك جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٥]

قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾: فيها قراءتان، القراءة الأولى بهمزتين محققتين: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، والقراءة الثانية بحذف إحدى الهمزتين: (السفها أموالكم) الأولى على الأصح، والثانية للتخفيف.

وكذلك قوله: ﴿قِيَٰمًا﴾ فيها قراءتان: ﴿قِيَٰمًا﴾، و (قِيمًا)، والمعنى واحد.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي: لا تعطوهم، و﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: جمع سفيه، وهو: مَنْ لا يحسن التصرف، إما لقلة في سِنِّه وإما لقصور في عقله ورشده هذا هو السفيه، والسفه يكون في الأموال ويكون في الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، فمن يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية السمحة فهو سفيه وإن كان من أرشد الناس في تصرفه في ماله.

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٥)، و الدارقطني (٣٠٠) كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٤٥٩).

يقول: ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾، ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾، أضاف الأموال إلينا فاختلف العلماء، هل المعنى: (لا تؤتوا السفهاء أموالكم الخاصة بكم؛ لأنهم سوف يضيعونها بغير فائدة فتفوت عليكم وتفوت عليهم)، وقال بعض العلماء: بل المراد بذلك أموالهم هم، لكنه أضافه إلينا من أجل الولاية، فكأننا بولايتنا على هذا المال نملك هذا المال، والآية صالحة للوجهين، ومن قواعد التفسير: أن الآية إذا كانت صالحة لوجهين لا يتنافيان فإنها تُحمل عليهما.

وقوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾، ﴿جَعَلَ﴾: هنا بمعنى صير، يعني: جعلها الله لنا قيامًا وهي الأموال التي تقوم بها مصالح ديننا ومصالح دنيانا، فكم من أسير فُك بالمال، وكم من ضرورة أزيلت بالمال، وكم من يتيم جُبر قلبُه بالمال، فالأموال في الحقيقة قيام للناس في أمور دينهم ودنياهم حتى إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ لأن ضرورة الجهاد بالمال أكثر من ضرورتها بالنفس حتى الذي يجاهد بنفسه محتاج للمال، ما الذي يوصله إلى ميدان القتال إلا الأموال؟! ولهذا نجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدم ذكر الأموال في الجهاد على ذكر النفوس.

قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، ﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾، يعني: أعطوهم رزقًا والرزق هو: العطاء، وقوله: ﴿فِيهَا﴾، أي: في الأموال، ولم يقل منها، إشارة إلى أنه لابد أن يكتب الولي بمال هؤلاء السفهاء حتى يكون الرزق فيه لا منه، وفرق بين الرزق فيها والرزق منها؛ لأنه لو لم يتجر فيها ويكتسب صار العطاء منها، وإذا قدرنا أنهم مائة فأعطاهم نفقة عشرة آلاف نقصت، وكلما أعطاهم نقصت، لكن إذا قال (فيها)، فالمعنى: أن الرزق يكون فيها فيكون المال أوسع من الرزق المعطَى، وهذا يتضمن أن يتجِر فيها ثم يعطيهم من الربح، ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: أعطوهم طعامًا وشرابًا. أما الكسوة فقال: ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، اكسوهم ما يحتاجون إليه من السراويلات والقُمُص وغيرها، أما الفُرش والسكن فيدخل في قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾.

قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: حين إعطائكم إياهم، وكسوتكم إياهم قولوا: ﴿لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: قولًا ليّنًا هيّنًا، ولا تشمخوا بأنفكم عليهم، وتمنُّوا عليهم؛ لأن ذلك خلاف الولاية الحقيقية، فمثلًا: إذا جاء السفيه: يقول أعطوني، اكسوني، لا تقل له قولًا غليظًا، فلا تقل له: أنت فقدتَ ثوبك، ما أنت تهضم طعامك، وما أشبه ذلك من الكلمات النابية؛ لأن المال ماله وإذا كان مالهم فإنه لا ينبغي لكم أن تمنُّوا عليهم بما أعطيتموهم.

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم إعطاء السفهاء الأموال سواء لهم أو لنا على الوجهين؛ لقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾، والنهي للتحريم، لاسيما إذا قُرن النهي بما يفيد العلة وهي السفه، كأنه قال: لا تعطوهم لسفههم؛ لأنكم إذا أعطيتموهم وهم سفهاء أضاعوا المال.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ذم السفه، وأنه سبب للحيلولة بين الإنسان وبين ماله.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن السفه موجب للحَجْرِ على الإنسان في ماله، وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ الحَجْرَ إلى قسمين: قسم لحظ الغير، وقسم لحظ النفس.

أما الأول: فمثل أن تستغرق ديون الإنسان ماله ففي هذا الحال يحجر عليه لماذا؟ لحظ الغير، فإذا كان الإنسان عليه ديون أكثر من ماله، وطلب الغرماء أن يحجر عليه حُجر عليه، وإن لم يطلبوا، فإنه يحرم عليه أن يتصرف تصرفًا يضر بالغريم، وإن فعل لم ينقض التصرف، ولهذا لو وقف الإنسان الذي ديونه أكثر من ماله شيئًا من ماله لم ينفذ الوقف، لماذا؟ لأنه تعلق به حق الغير، هذا هو القول الراجح في هذه المسألة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، أما المشهور من المذهب: فإن تصرفه نافذ ما لم يطلب الغرماء أو بعضهم الحجر عليه، فإن طلبوا الحجر عليه حُجر عليه ومُنع من التصرف في ماله.

القسم الثاني من الحجر: الحجر لحظ النفس، وهو ما كان سببه السفه أو الصغر أو الجنون، فالمجنون يحجر عليه في ماله، والصغير يحجر عليه في ماله، والسفيه يحجر عليه في ماله؛ لأنهم لا يحسنون التصرف فيه، هذا الحَجرُ لحظ المحجور عليه، وليس لحظ الغير، فإذا قال المحجور عليه: هذا مالي دعوني أتصرف فيه بما شئت، قلنا: لا يمكن؛ لأنك سفيه، وإذا لم نحجر عليك فسوف تفسد المال.

فإذا قال قائل: ما ضابط السفه الذي يحصل به الحَجْرُ؟

فالجواب: أن أهل العلم قالوا: إن السفيه هو الذي يبذل ماله في الحرام أو في غير فائدة، فالأول: كالذي يبذل ماله في الخمر والمخدِّرات وما أشبهها، فهذا سفيه يُحجر عليه.

أو من غير فائدة كالذي يصرف ماله في المفرقعات أو في الفقاعات أو ما أشبه ذلك أو يشتري زيتًا أو بنزينًا ويُشعل فيه النار ويشاهده وهو يحترق فقط، فهذا سفيه يحجر عليه.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الله ـ عز وجل ـ في المال الذي أعطاه الله عباده، وهو أنه قيام للناس في مصالح دينهم ودنياهم.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه إذا كان المال قيامًا للناس في مصالح دينهم ودنياهم فإنه يحرم أن يُصرف في غير ما فيه قيام دينهم ودنياهم؛ لأن الله جعله قيامًا تقوم به مصالح الدين والدنيا.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على ولي السفيه أن يتصرف في ماله بما يحصل به الفائدة؛ لقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾.

٧ ـ ومن فوائدها أيضًا: أنه يجب أن يُرزقوا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وغير ذلك؛ لأن الأمر يقتضي الوجوب لاسيما أنه متعلق بحق الغير.

٨ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن يجب على من ولاه الله على أحد أن لا يغلظ بالقول، بل يقول له

القول المعروف حتى يجمع بين الإحسان القولي والفعلي.

ثم قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

قوله: ﴿وَابْتَلُوا﴾: أي: اختبروا، و﴿الْيَتَامَى﴾: جمع يتيم وهو كل من مات أبوه قبل بلوغه، أي: قبل بلوغ الطفل وليس قبل بلوغ الأب.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا﴾، ﴿حَتَّى﴾: هنا ابتدائية أي: اختبروهم واستمروا في الاختبار ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، ﴿إِذَا﴾: شرطية، وقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم﴾ شرطية أيضًا، ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ جواب الشرط، فيكون هذا شرطًا في ضمن شرط آخر، وهو سائغ في اللغة العربية ومنه قول الشاعر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا ... مِنَّا مَعَاقِلَ عِزٍّ زَانَهَا كَرَمُ

فهذه: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ شرط في ضمن شرط.

وقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم﴾ أي: أبصر، وقوله: ﴿رُشْدًا﴾: الرشد في كل موضع بحسبه، ولكنه يجمع جميع معانيه كلمة واحدة وهي: (حسن التصرف) هذا هو الرشد، فإن كان في المال بأن يبيع الإنسان ويشتري مرارًا ولا يُغبَن إلا بما جرت به العادة، منتهيًا عما حرم الله، وإن كان في التصرف للغير بأن يكون حسن الولاية، ومنه الرشد في ولاية النكاح وهو أن يكون عالمًا بالكُفء ومصالح النكاح، إذن الرشد بيد الله في كل موضع بحسبه، فما المراد بـ ﴿رُشْدًا﴾ هنا؟ أي: تصرفًا صحيحًا في أموالهم.

قوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أعطوهم إياها، وقوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ يعني: أوصلوها إليهم، ولا تقولوا: ائتوا خذوا أموالكم، ولكن أنتم ادفعوها إليهم، وسيأتي أن هذا الولي له الأُجرَة أو الأكل بالمعروف حسب ما تقتضيه الحال.

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾ أي: أموالهم ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾، وقوله: ﴿إِسْرَافًا﴾ يجوز أن تكون مفعولًا مطلقًا أي: أكلًا إسرافًا، والإسراف: هو مجاوزة الحد، وهو أيضًا في كل موضع بحسبه، وقوله: ﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرة فهي من بادر بمعنى: استعجل الشيء.

وقوله: ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾، أي: بدارًا لكبرهم، يعني: تبادروا كبرهم؛ لأنهم إذا كبروا زالت الولاية عنهم وصاروا راشدين، فربما يأكل بعض الأولياء أموالهم على وجه الإسراف، أو على وجه الاقتصاد ولكن يبادرون، ولهذا لا يقول قائل: إن الكلمتين مترادفتان بل نقول: الإسراف مجاوزة الحد، فمثلًا: إذا كان يكفيه عشرة أخذ خمسة عشر، ﴿وَبِدَارًا﴾ يعني: أن يأكل بلا إسراف، لكن يبادر بالأكل قبل أن يكبر.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: مَنْ كان من الأولياء غنيًّا لا يحتاج إلى مال اليتيم ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: فليكفَّ عن الأكل، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ اللام هنا في قوله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ للأمر، والثاني: للإباحة هكذا، وذلك أن الأول مطلوبٌ منه أن يستعفف والثاني مباح له أن يأكل، فإذا قال قائل: ما الذي أخرج اللام في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ عن الأمر؟ قلنا: لأنها أعقبت النهي وهو قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، والأمر بعد النهي لرفع الحذر يعني: إما للإباحة على قول بعض العلماء، أو لرفع الحذر، وهنا إذا رُفع الحذر فهو مباح.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليأكل أكلًا بالمعروف أي: بما جرى به العرف، فلا يأكل أكل الأغنياء وإنما يأكل أكل مثله، مثال ذلك: إذا كان فقيرًا فقال: أنا سآكل أكل الأغنياء؛ لأنني ولي عليه، قلنا: لا يجوز، كُلْ بالمعروف، والمعروف: ما جرى به العرف، ومن المعلوم أن أكل الفقير ليس كأكل الغني.

قال: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، و ندفع إليهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا، ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أشهدوا أنكم دفعتموها لهم.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، ﴿وَكَفَىٰ﴾: من الكفاية، يعني: أن الله ـ جل وعلا ـ يكفي عن كل أحد، و(الباء) في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة؛ لتحسين اللفظ، والأصل (وكفى الله حسيبًا)، والحسيب بمعنى: الرقيب المحاسِب، فهذه الآية ختمها الله بهذه الجملة تحديدًا لأولياء اليتامى من أن يتجرأوا على أكل أموالهم ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾.

١ـ يُستفاد من هذه الآية الكريمة: وجوب اختبار اليتامى؛ لقوله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾.

٢ـ ومنها: العمل بالتجربة، ومن أين يؤخذ العمل بالتَّجْرِبة؟ أن الابتلاء يعني: الاختبار وهو تجارب.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز لولي اليتيم أن يستعمل ما يكون سببًا لاختباره، فإذا رأى منه تمردًا على الاختبار فله أن يؤدِّبه حتى يختبره؛ ليتم ما أمر الله به.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا بلغ اليتيم ورَشُد وجب دفع ماله إليه، لقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحَجْرَ على اليتامى لا يحتاج إلى حكم الحاكم لا ابتداءً ولا انتهاءً؛ لأنه وَكَّل الأمر إلى أوليائه.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأيتام؛ لقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، فإن قال قائل: لو أكلها لغير هذا الغرض، ليستمتع بها مثلًا فهل يجوز هذا؟ فالجواب: لا؛ لكن ذكر الإسراف والبدار؛ لأنه هو الذي يحمل على أكله غالبًا، وقد قال العلماء: إن القيد إذا ذكر لكونه غالبًا فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا: فلا يجوز أكل مال اليتيم لا إسرافًا ولا

مبادرة أن يكبروا.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب استعفاف الغني عن أموال اليتامى، لقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، ولكن قد يقول قائل: إذا قال الولي: أنا لا أعمل في مال اليتيم إلا بمثل ما يعمل به غيري، وكيف أعمل بدون فائدة؟!

فالجواب عن هذا أن نقول: إذا كان الأمر كذلك فلا بد من مراجعة القاضي الذي هو الولي العام؛ لأن من الناس مَنْ يدعي هذه الدعوى ويقول: أنا لا أستطيع أن أعمل إلا بجزء من الربح أو بأجرة أو ما أشبه ذلك، نقول: إذنْ لابد أن ترجع إلى القاضي.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز أكل الفقير بالمعروف من مال اليتيم.

وظاهر الآية الكريمة: أنه يأكل بالمعروف ولو زاد على قدر الأجرة، فمثلًا: إذا كان أجيرًا فله من الشهر مائة، وإذا أكل بالمعروف لم يكفه إلا مائتان، فهل نقول: يحل له أقل الأمرين أو يحل له الأكل بالمعروف ولو زاد على الأجرة؟ ظاهر الآية الكريمة الثاني؛ لأن الولي محبوس على التصرف لليتيم، فلابد له من مأكل ومشرب، فليأكل بالمعروف، وأيضًا فإن هذا الولي ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم، فلا ينبغي أن نلحقه بالأجير الأجنبي، لكن المعروف عند الفقهاء: أنه يأخذ الأقل من أجرته أو كفايته.

٩- **ومن فوائد الآية:** أنه إذا كان فقيرًا فَأَكَلَ لا يلزمه إن أغناه الله أن يَرُدَّ ما أكل؛ لأن المباح لا ينقلب حرامًا، ولو قلنا بوجوب الردِّ إذا أغناه الله لم يكن هناك فائدة لإباحة الأكل، وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب رد ما أكله إذا أغناه الله، فكأنه استقرض من مال اليتيم لا أكل أكلًا مباحًا، ولكن الصحيح الأول: أن الأكل مباح له ولا يجب عليه رده إذا أغناه الله.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** اعتبار الحال وأن الأحكام تختلف بحسب الأحوال وهذا من حكمة الشريعة، يؤخذ هذا من التفريق بين الغني ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ والفقير: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** الرجوع إلى العرف؛ لقوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا دفع المال إلى اليتامى بعد أن بلغوا ورشدوا فَلْيُشْهِدْ؛ لقوله: ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، والأصل في الأمر الوجوب وإنما أمر بالإشهاد؛ لئلا يقع النزاع بينهم في المستقبل، ولئلا يتهم الولي عند النزاع، فقطعًا للنزاع، ودفعًا للتهمة أوجب الله ـ عز وجل ـ أن يُشْهِدَ الولي إذا دفع إليهم أموالهم.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لو ادعى الولي أنه دفع المال فإن دعواه لا تقبل؛ لأنه لو قُبلت دعواه لم نحتج إلى إيجاب الإشهاد، وهذا هو الصواب، وللعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا تقبل دعواه الدفع؛ لظاهر الآية.

والقول الثاني: أنها تقبل فلو طالبه اليتيم فيما بعد وقال أين مالي؟ فقال: قد دفعته لك، تقبل

دعواه، واستدل هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١].

والقول الثالث: الوسط وهو أنه إن كان بأُجرة لم تقبل دعواه الدفع، وإن كان يعمل له مجانًا قُبلت دعواه الدفع، وعللوا ذلك بأنه إذا كان يأخذ الأجرة لم يكن إحسانه إحسانًا محضًا؛ لأنه أبقى عنده المال لحظ نفسه، فلا يدخل في قول الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

والأخذ بظاهر الآية أولى وهو أنه لا تقبل دعواه الدفع إلا بشهود، إلا إذا وجدت قرائن قوية تؤيد هذه الدعوى، مثل: أن يكون الولي معروفًا بالصدق والأمانة ويكون المولَّى عليه وهو اليتيم معروفًا بالطمع والجشع، فحينئذٍ نقبل قول الولي، وبأي شيء نقبله؟ بالقرينة أي: بقوة الظاهر؛ ولأننا لو لم نقبل قوله لكان في هذا منع من التولي على أموال اليتامى؛ لأن الإنسان قد لا يتسنى له الإشهاد عند الدفع.

١٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحذير الولي من أن يخون في ولايته، وتحذير لليتيم من أن ينكر ما وقع، نأخذها من قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، فإذا كان الله -عز وجل- هو الكافي على حساب عباده، فإن الإنسان سوف يخشى هذه المحاسبة ويتوب إلى الله منها.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: العناية باليتامى وأموالهم؛ لأن اليتامى محل الرحمة حيث إن آباءهم قد ماتوا وليس لهم ولي يقوم بحاجاتهم، ويتفرع على هذه الفائدة: بيان رحمة الله -عز وجل- وأن رحمة الله عند المنكسرين وعند الضعفاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٧-١٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

الإعراب:

﴿لِلرِّجَالِ﴾: خبر مقدم، و ﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، وكذلك ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾، هذه متعلقة بمحذوف صفة لـ ﴿نَصِيبٌ﴾، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أي: وذلك مما قل منه.

وقوله: ﴿نَصِيبًا﴾ حال من (ما)، في قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ و ﴿مَفْرُوضًا﴾ صفة، أو حال أخرى، صفة لـ ﴿نَصِيبٌ﴾ وهو أولى، ويجوز أن تكون حالًا أخرى وهو مرجوح.

يقول الله -عز وجل-: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، ﴿نَصِيبٌ﴾ أي: حظ ولم يبينه هنا، ولكن بينه في آيات ستأتي، والإجمال ثم التفصيل من البلاغة التامة؛ لأن الشيء إذا أجمل بقيت النفوس تتطلع إلى تفصيله، فيأتي التفصيل والنفوس متطلعة إليه، بخلاف ما لو جاء الشيء مفصلًا مباشرة فإنه قد يرد على نفس ليست متشوقة إليه، فلا يرسخ في الذهن ولا يكن له قوة في القبول.

وقوله: ﴿الْوَالِدَانِ﴾ يعني: الأم والأب، أما الأم فظاهر أنها والدة، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وأما الأب فكذلك، قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(١)، والولد لا بد له من والد، وكذلك جاء في الحديث: «لَا يَحِلُّ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيهَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا وَهَبَهُ لِابْنِهِ»(٢)، فالوالد إذن يطلق على الأم والأب، أما الأم فظاهر، وأما الأب فللنصوص التي ذكرناها.

وقوله: ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ ولم يقل (والأقارب)، والأقرب اسم تفضيل، وذلك لأن الميراث لا يتناول جميع الأقارب، بل الأقرب فالأقرب، ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(٣)، وخمسة من الورثة لا يمكن أن يُحجبوا وهم الذين يتصلون بالميت مباشرة، وهم: الأب والأم والابن والبنت وأحد الزوجين، هؤلاء لا يمكن أن يُحجبوا؛ لأنهم يرثون من الميت مباشرة، وكذلك قال: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وإنما نص على نصيب النساء بهذه الصيغة المساوية لنصيب الرجال تأكيدًا لحقهن، وإلا فمن المعلوم: أن نصيب النساء دون نصيب الرجال قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء:١٧٦]، وكذلك قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٢٩٩)، والنسائي (٢٦٩٠)، وأبو داود (٣٥٣٩)، وابن ماجه (٢٣٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٥٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).

[النساء:١١]. لكن جاء بهذه الصيغة تأكيدًا لنصيب النساء؛ لأنهم في الجاهلية في أحكامهم الجائرة كانوا لا يورثون النساء ويقولون: إن الميراث لمن حمل السلاح وخاض المعارك وهم الرجال، وأما النساء فلا حق لهن في الميراث، ولا شك أن هذا حكم مبني على الجور، ولو نظرنا بادي الرأي لقلنا: إن النساء أحق بالميراث من الرجال؛ لأنهن أعجز وأضعف عن التكسب من الرجال لكن حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحسن الأحكام، جعل لهن نصيبًا وللرجال نصيبًا، ولكن لكثرة المسئولية على الرجال جعل للذكر مثل حظ الأنثيين.

قال: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ يعني: نصيب من القليل أو الكثير، سواء خلَّف الميت أموالًا كثيرة أم أموالًا قليلة، فلو خلَّف درهمًا واحدًا كان للرجال نصيب وللنساء نصيب، ولو خلف ملايين الملايين كان للرجال نصيب وللنساء نصيب، فلا يقال: إنه إذا قلَّ المال فلا نصيب للنساء، أو إذا كثر المال فلا نصيب للنساء بل نقول: لا فرق بين القليل والكثير.

وقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ هذه الجملة ينبغي الوقوف عليها؛ لأن ما بعدها: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ لا يتعلق بـ (كثُر) و(قلَّ)، بل هو متعلق بمقدر المعنى: جعل هذا نصيبًا مفروضًا أو حال كونه نصيبًا مفروضًا، لكنه لا يتعلق بالفاعل في (قل أو كثر) وقوله تعالى: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ المراد: أنه محتم، وليس المراد: أنه مقدر؛ لأن ميراث الأولاد إذا اجتمعوا بنين وبنات ليس بفريضة بل هو تعصيب، ولكن المراد بالفرض هنا: الحتم كما تقول: فُرضت الصلوات الخمس أي: حتمت وأُلزم بها.

١ـ في هذه الآية الكريمة من الفوائد: تقديم الرجال على النساء حتى في الأمر الذي يشتركون في الاستحقاق فيه، وجه الدلالة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وهذا هو المشروع والمعقول والفطري: أن يكون الرجال هم المقدمين على النساء، وعَكس ذلك من عكس الله قلوبهم من الكفرة والمبهورين بهم، فيقدمون النساء على الرجال فيقولون مثلًا: أيها الأخوات والإخوة، أيها السيدات والسادة، هذا خطأ عظيم؛ لأن الرجال مقدمون على النساء قوَّامون عليهن، ولكن ليس بعد الكفر ذنب، هؤلاء الكفار يرون أن النساء لُعب فيقدمونهن كسبًا لقلوبهن وتعطف عليهن، ليعطفن عليهم، لأنهم كما وصفهم الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]، ليس لهم هَمٌّ إلا الدنيا، فَجَاءَ قليلو البصيرة ضعيفو الدِّين فأخذوا هذه الحقارة منهم والتهموها من غير أن يقدروا النتائج وأنهم بذلك مخالفون لطريقة الشريعة وللفطر السليمة وللعقول الحكيمة.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن الدين الإسلامي هو الذي انتصر للمرأة وأعطاها حقها بعد أن كان مهضومًا في الجاهلية، وجهه: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، ولكن الدين الإسلامي لم يعطِ المرأة أكثر من حقها ولم ينزلها أكثر من منزلتها، بل أعطاها الحق اللائق بها، وهو معروف ـ والحمد لله ـ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرجال والنساء المستحقين للميراث يستحقون منه سواء كان المتروك الذي خلَّفه الميت كثيرًا أم قليلًا؛ لقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

٤ـ ومن فوائد الآية: التحذير مما يتهاون به بعض الناس اليوم، يموت الميت عن زوجته وبناته، وله أبناء عم عصبة، ليسوا في البيت فتجد أهل الميت يأكلون من طعام البيت وينتفعون بأجهزته كالثلاجات وغيرها دون أن يستأذنوا من لهم حق في الميراث وهذا لا يجوز؛ لأنه إذا مات الميت فبدل أن يكون ماله له شخصيًّا صار موزعًا بين ورثته، لكل وارث ما يستحق من هذا الميراث قلَّ المال أو كثر، وهذه مسألة يجب لطلبة العلم أن ينبهوا العامة عليها؛ لأن العامة قد لا يفهمون، وإلا فعندهم ـ ولله الحمد ـ ورع يردعهم عن هذا، لكنهم لا يفهمون.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا النصيب واجب؛ لقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

٦ـ ومن فوائدها: جواز حذف ما يُعلم، وذلك يؤخذ من قوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾ فمن الفارض؟ الله، لكن حُذف وبني الوصف للمفعول؛ للعلم به فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] فمن الذي خلقه؟ الله ـ عز وجل ـ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

الذي يظهر لي ـ والعلم عند الله ـ من هذه الآية والتي قبلها: أن الناس فيما سبق إذا أرادوا قسم مال الميت يقسمونه علنًا ظاهرًا سواء كان ظاهرًا للناس عمومًا أو ظاهرًا لمنْ حولهم لقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أولًا الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: مفعول به مقدم، و﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل مؤخر ورفع بالواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم وحذفت النون منه للإضافة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: معطوفة على: ﴿أُوْلُواْ﴾، وأيضًا ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ معطوفة على ﴿أُوْلُواْ﴾.

وقوله: ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ جواب الشرط لـ (إذا)، واقترنت الفاء بها؛ لأنها طلبية، والجواب الذي يقترن بالفاء له سبعة أنواع جمعت في بيت من الشعر:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

والجملة التي معنا جوابية طلبية.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة المال الموروث إذا حضر ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: أصحاب القرابة الذين لا يرثون، وإنما قلنا: الذين لا يرثون؛ لأن الذين يرثون لهم نصيب من هذا المقسوم، لكن المقصود الذين لا يرثون، ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هنا بمعنى: القرابة.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو من مات أبوه قبل بلوغه، أي: قبل بلوغ الولد سواء كان ذكرًا أو أنثى، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ هم: الفقراء وسموا مساكين؛ لأن الفقر أسكنهم فإن الفقر ـ أعاذنا الله وإياكم منه ـ يوجب الذل وألا يتكلم الإنسان؛ لأنه يشعر بأنه غير مسموع، وغير مقبول فتجده ساكنًا لا يتكلم؛ كأنه لا يسمع، ولكن قد يكون هذا الفقير المسكين عند الله مسموعًا، قال النبي ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ»[1]، والشأن كل الشأن أن تكون وجيهًا عند الله وأنت إذا كنت وجيهًا عند الله فستكون وجيهًا عند العباد، ولكن لا تطلب أن تكون وجيهًا عند الله لتكون وجيهًا عند العباد، لكن اطلب أن تكون وجيهًا عند الله؛ لتنال رضاه، وإذا رضي الله عنك أرضى عنك الناس.

قال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أعطوهم؛ لأن الرزق بمعنى العطاء، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ ولم يقل(فيه)؛ لأن هؤلاء يُعطون من رأس المال من أصله، وأما أموال اليتامى قال الله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء:٥] وقد سبق لنا أنه قال: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل:(منها)؛ لأنهم يرزقون بعد الإتجار بها فيُعطون من الربح، وهو إشارة ـ أعني ما سبق ـ إلى أنه ينبغي لولي اليتيم أن يتجر بماله حتى يحصل على ما يرزقه فيه، أما هنا قال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ يعني: من هذا المال الذي يُقسَّم أمامهم، ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: قولًا طيبًا تطيب به نفوسهم، فلنفرض أن المال كثير، وأن كل وارث سيحصل على مليون ريالٍ مثلًا، فإذا أعطيت الفقير الحاضر مائة ريال ربما يقول: مائة من مليون؟! فهذا قُل له قولًا معروفًا تطيب به نفسه؛ حتى تجمع له بين الإحسان القولي والإحسان الفعلي، بخلاف ـ والعياذ بالله ـ مَنْ قلبه حجر إذا وجد اليتيم حوله قال له: ما الذي أتى بك؟! اذهب اطلب الرزق عند الله، فهذا قلبه ليس لينًا لعباد الله ولا راحمًا لهم، والإنسان يجب أن يقدِّر أنه لو كان هو بهذه الحال، ماذا يفعل؟ سوف يتشوق إلى شيء من هذا المال، وسوف يرى أن من أشد الأشياء عليه أن يصرف ولاسيما إذا صُرف بقول منكر غير معروف.

١ـ في هذه الآية الكريمة من الفوائد: أمر مَنْ قسم مالًا وحضره هؤلاء الأصناف الثلاثة: الأقارب، واليتامى، والمساكين. أن يعطيهم منه، وهل الأمر للوجوب؟ يحتمل أن يكون للوجوب ويحتمل أن يكون للاستحباب؛ لأنه أمر بأدب، وقد قال بعض العلماء: كل الأوامر المتعلقة بالآداب وحسن الأخلاق فهي للاستحباب، فعلى كل حال المهم أن نقول: بالأمر بإعطاء من حضر القسمة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

٢- **ومن فوائد الآية:** جواز قسمة المال المشترك بحضور غير الشركاء، يُؤخذ من قوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾؛ لأن الشركاء لهم نصيب بدون أن نؤمر بإعطائهم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ما جاء به الإسلام من الآداب العالية والأخلاق الفاضلة حيث أمرنا أن نعطي هؤلاء الذين حضروا القسمة؛ لأن قلوبهم تتعلق بالمال وتتشوق بالنوال، فلهذا أمر الشرع بإعطائهم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأوامر قد تكون موكولة إلى المأمور غير مقدرة؛ لقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، ولم يقل: الثلث أو الربع أو العشر، بل جعل هذا مطلقًا يرجع إلى كرم المعطي من وجه، وإلى كثرة المال من وجه آخر.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإحسان إلى القرابة أفضل من الإحسان إلى اليتيم والمسكين، وجه ذلك: أنه قدمهم؛ ولهذا لما أخبرت إحدى أمهات المؤمنين رسولَ الله ﷺ أنها أعتقت جارية لها قال لها رسول الله ﷺ: «**أَمَا أَنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِيهَا**» يعني: أقاربها «**لَكَانَ خَيْرًا لَكِ**»(١)، فدلها على أن صلة الرحم أفضل من إعطاء البعيد.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عناية الشرع بل عناية الله - عز وجل - بالضعفاء المستحقين للعناية، تُؤخذ من قوله: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾؛ لأن اليتيم صغير منكسر القلب لفقد لأبيه، يحتاج إلى رعاية وعناية، والمسكين كذلك، فقير ذليل يحتاج إلى من يجبر ذله ويسقي ظمأه ويكسو عورته.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمنْ أعطى أحدًا شيئًا أن يقول له قولًا معروفًا يطيِّب قلبه ويبعده من المنِّ بالعطاء؛ لأن المن بالعطاء كبيرة، كالمنِّ بالصدقة من كبائر الذنوب، وهو مبطل للأجر؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الجمع بين الإحسان القولي والفعلي، الفعلي من قوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، والقولي: ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

اللام في قوله: ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾ لام الأمر والفعل مجزوم بها بحذف الألف وأصلها (يخشى) بالألف، وسكنت اللام - لام الأمر هنا -؛ لأنها وقعت بعد (الواو والفاء وثم)، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج:٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج:١٥]، بخلاف (لام التعليل) فإنها مكسورة ولو وقعت بعد (الواو أو ثم أو الفاء) مثل قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [العنكبوت:٦٦]، لا تقرأها (وَلْيَتَمَتَّعُوا) إلا إذا ثبت فيها قراءة بسكون اللام فحينئذٍ تكون اللام لام الأمر ولا تكون لام التعليل.

وقوله: ﴿لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ﴿لَوْ﴾ هنا شرطية فعل شرطها ﴿تَرَكُوا۟﴾، وجوابه ﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، وهنا خرجت الآية الكريمة عن الأكثر في جواب ﴿لَوْ﴾ إذا كان مثبتًا، وهو أن تقترن به اللام فيقال: «لو جاء زيد لجاء عمر»، و (لو تركوا ذرية ضعافًا لخافوا عليها)، ولكن اللام تُحذف أحيانًا في جواب (لو) في الإثبات، ومنه هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠]، وفي نفس السياق قال في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، أما إذا جاء جواب (لو) منفيًا بـ (ما) فالأفصح: ألا تذكر اللام؛ فإن قلت (لو جاء زيد ما قلت شيئًا) هذا أفصح من أن تقول: (لما قلت شيئًا) لكن قد تقترن اللام بـ (ما) النافية في جواب (لو)، ومنه قول الشاعر:

وَلَـوْ نُعْطَـى الخِيَـارَ لَمـا افْتَرَقْنَـا ... وَلَكِـن لَا خِيَـارَ مَـعَ اللَّيَـالِي

إذنْ فعل الشرط في (لو): ﴿تَرَكُوا۟﴾، وجوابه: ﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، وتكميلًا لفائدة (لو) تأتي على أوجه هذا واحد أي: أن تكون شرطية، والثاني: أن تكون مصدرية، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] أي: ودوا إدهانكم فيدهنون، وهل هي إذا جاءت شرطية تكون جازمة؟ لا، هي من أدوات الشرط غير الجازمة.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بالتقوى تأكيد للأمر بالخشية في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾، يقول الله ـ عز وجل ـ مذكرًا هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ويضيعونها: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَلْيَخْشَ﴾: الخشية أشد من الخوف ولا تكون إلا مع العلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] فيقول: يخشى هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾، ومفعول يخشى محذوف، أي: ليخش أن يُضَيِّعوا أموال اليتامى ويأكلوها.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ الذرية: هم الأولاد من بنين وبنات، وأولاد البنين وأولاد بني البنين، وأما أولاد البنات، وأولاد بنات البنات وبني البنات فإنهم لا يدخلون في الذرية، هذا هو المشهور عند أهل العلم، فلو قال قائل: هذا وَقْفٌ على ذريتي، لم يدخل أولاد البنات في هذا الوقف؛

لأن أولاد البنات ليسوا من الذرية، فهم كالأولاد والبنين لا يدخل فيهم أولاد البنات ولا بنو أولاد البنات.

فإن قال قائل: هذا القول ينتقص عيسى بن مريم فإن الله تعالى جعله من ذرية إبراهيم وهو ابن بنت، فيقال في الجواب عن ذلك: إنه لا أب له فأمه أبوه؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ : إن ولد الزنا أمه ترثه بالفرض والتعصيب؛ لأنها أم وأب إذ لا أب له شرعًا، إذنْ: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ يعني: أولادًا أو أولاد أبناء، لا أولاد بنات، وقوله: ﴿ضِعَٰفًا﴾ يعني: لا يستطيعون أن يتكسبوا لعدم رشدهم ولصغر سِنِّهم فكل واحد من الناس إذا حضرته الوفاة، وله أولاد صغار سوف يخاف عليهم ويفكر ويقدر من يتولاهم بعده، ولكن المؤمن يقول كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حين قيل له: ألا توصي لولدك؟ قال: لا، لئن كان ولدي صالحًا فالله يتولى الصالحين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦]، وإن كانت الأخرى فلن أعينه على فساده، وهذا جواب سديد وفيه حكمة.

فأقول: إن الضعيف من الأولاد هو الصغير أو المجنون أو السفيه الذي ليس لديه رشد ولا يستطيع التصرف لنفسه.

وقوله: ﴿خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: من الضياع وأكل أموالهم، ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، والتقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، هذا أجمع ما قيل في التقوى، وهذا إذا أطلقت التقوى وأفردت، أما إذا قيدت فإنها بحسب ما قيدت به، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وكذلك إذا قُرنت بالبِر صار معناها: اجتناب المعاصي، ومعنى البر: فعل الأوامر، أما إذا أُطلقت فهي تشمل هذا وهذا ،﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي: ليتخذوا وقاية منه ـ من عذابه ـ ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ما هو السديد؟ القول السديد: هو ما سد موضعه، أي: ما كان صوابًا موافقًا للحكمة، وليس كل قول ليِّنٍ يعتبر سديدًا، ولا كل قول قاسٍ يعتبر سديدًا، قد يكون السداد بالشدة ـ شدة القول ـ، وقد يكون السداد بلين القول، وانظر إلى النبي ﷺ كيف يشتد أحيانًا بقوله وكيف يلين أحيانًا بقوله، وقوله ﷺ كله سداد، وكله سديد بلا شك، فليس السديد أن تلين في القول، ولا أن تشتد به، ولكن أن يكون قولك صوابًا مطابقًا للحكمة، والحكمة تختلف باختلاف الأحوال وباختلاف الأشخاص، وباختلاف موضوع الكلام، فلو أن رجلًا أراد أن يخطب في قوم أسرفوا على أنفسهم ووقعوا في المحارم فما هو السداد في خطبته؟ أن تكون الخطبة قوية وبانفعال وبزجر شديد وكأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم[1]، وإذا كان يخطب مع قوم ليسوا بهذه المثابة ولا يرون الشدة في القول، بل ربما ينفرهم فإنه في هذه الحال يلين لهم بالقول، فالقول السديد: ما سد محله بأن كان صوابًا موافقًا للحكمة.

هل ورد ذكر القول السديد في غير الآية هذه؟ نعم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠] هنا: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾، ما هي النتيجة

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (١٥٧٨)، وأبو داود (٢٩٥٤).

لتقوى الله والقول السديد؟ النتيجة قال الله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، نتيجة من أحب ما يكون من النتائج: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ الدينية والدنيوية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: ما أذنبتموه، فعلينا أن نأخذ بهذه التوجيهات الإلهية والأوامر فنتقي الله ونقول قولًا سديدًا.

١- **من فوائد هذه الآية**: تذكير المرء بما يحدث له حتى يراعي في ذلك غيره؛ لقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾، فكما أنك تخاف على ولدك فخف على ولد غيرك.

٢- **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أنه يجب على المرء أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به؛ لأنه إذا كان يكره لنفسه أن يعتدي أحد على أولاده بعد موته، فكذلك لا يعتدي هو على أولاد الناس.

٣- **ومن فوائدها**: أنها تشير بدلالة الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد أن يجني على غيره فليتذكر نفسه، فإذا كان مثلًا: يهم بأن يزني بامرأة، فليذكر هل يرضى أحد بأن يُزنى بأحد من محارمه؟ ومن المعلوم بأن الجواب: لا، فإذا كان كذلك فلماذا ترضى أن تزني بمحارم الناس، وأنت لا ترضى أن يزني أحد بمحارمك؟ فقس ما تريد أن تفعله بالناس على ما تحب أن يفعلوه بك.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان يكون مجانبًا للتقوى إذا لم يراع ربه - عز وجل - في رعاية هؤلاء الضعفاء الذين كانوا بين يديه.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان ينبغي له أن يتقي الله - عز وجل - في الولاية على غيره، وأن يقول قولًا سديدًا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية**: أن القول ينقسم إلى قسمين: سديد وغير سديد، فالسديد: ما وافق الصواب، وغير السديد: ما خالف الصواب، ومن ذلك اللغو من الكلام فإنه ليس بالسديد؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾: هذه جملة اسمية مبدوءة بـ (إن) وخبر (إن) هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ يعني: ما يأكلون إلا نارًا ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وفي قراءة: ﴿وسيُصلَون﴾ بالبناء للمفعول، وهي قراءة سبعية.

يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ يأكلونها أي: يتلفونها، لكنه عبَّر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع؛ لأن أكثر ما يجني الإنسان من مال من أجل أكله وما يتعلق به، فعبر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع وإلا فغير الأكل مثله، بل قد يكون أشد كما لو أتلف هذه الأموال بإحراق أو إغراق أو ما أشبه ذلك فهو أعظم من أكلها.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب رعاية أموال اليتامى؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، واليتامى سبق أنه هو الذي يموت أبوه ولم يبلغ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لو أكل مال اليتيم بحق فلا إثم عليه، مثل أن يكون فقيرًا فيأخذ قدر أجرته من هذا المال الذي هو قائم عليه فلا حرج؛ ولهذا نقول كلمة: ﴿ظُلْمًا﴾ مصدر في موضع الحال أي: حال كونهم ظالمين.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أكل مال اليتيم بغير حق من كبائر الذنوب؛ لأنه تُوعد عليه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، وعند أهل العلم: أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، وقيل: إن الكبيرة ما فيه عقوبة خاصة، أي: ما ذكر له عقوبة خاصة؛ وذلك لأن المحرمات نوعان: نوع ليس فيها إلا النهي، ونوع آخر يذكر فيها عقوبة خاصة، إما دنيوية وإما دينية وإما أخروية، فالدنيوية كالحد، مثل الزنا والسرقة، والدينية كالبراءة منه مثل قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[1]، والأخروية: العقوبة كما في هذه الآية.

٤- ومن فوائد الآية: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

٥- ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه قابل أكلهم بالنار التي يُعذبون بها.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الوعيد الشديد على مَنْ أكل مال اليتيم بأنه سيَصْلَى سعيرًا، وهذا أعظم من قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، فتكون الحرارة في أجوافهم وفي ظاهر أجسامهم؛ لقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥١٩)، ومسلم (١٠٣).

﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الوصية هي: العهد بأمر هام عهد به إليك، أي: أنه عهد إليك بشيء هام، وتكون بعد الموت، وأما ما قبل الموت فهي وكالة، وينبغي أن يُعلم أن المتصرف في غير ماله له أوصاف بحسب الوظيفة التي هو قائم فيها أو التي هو قائم بها فتارة نسميه وكيلًا وتارة وصيًّا، فإذا كان يتولى مال الغير، بغير إذن منه بل بإذن من الشرع فإنه يُسمى: وليًّا كولي اليتيم، وإذا كان يتولى مال الغير بعد موته فإنه يسمى وصيًّا، وإذا كان يتولى الوقف فإنه يسمى: ناظرًا وإذا كان يتولى مال غيره قبل الموت فإنه يسمى: وكيلًا.

وهنا: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ قلنا: أصل الوصية العهد بالأمر الهام وقوله:﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُوصِيكُمُ﴾، أي: أن الوصية في الأولاد، والأولاد جمع ولد ويشمل الذكور والإناث بدليل قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني: إذا اجتمعت الأولاد ذكورًا وإناثًا، فإننا نعطي الذكر مثل حظ الأنثيين وتأمل كيف جاءت العبارة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، دون أن يقول: للأنثى نصف الذكر؛ لأن الحظ والنصيب فضل وزيادة والنصف نقص؛ ولهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ولم يقل: للأنثى نصف مال الذكر لما في كلمة نصف من النقص بخلاف حظ ﴿حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإن فيه زيادة فهو أحسن تعبيرًا مما لو قال: للأنثى نصف مال الذكر ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإذا هلك عن خمسة أبناء وبنت فكم للبنت؟ واحد من أحد عشر، لأن الخمسة عن عشرة، وإذا هلك عن سبعة أبناء وثلاث بنات فنصيبها واحد من سبعة عشر؛ لأن السبعة عن أربعة عشر سهمًا، والثلاث عن ثلاثة أسهم، فالجميع سبعة عشر سهمًا وهلم جرًّا.

قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ هنا قال: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾، ولم يقل: (فإن كانوا نساءً) أي: الأولاد مع أنه جائز في الضمير إذا اكتنفه مذكر ومؤنث يجوز أن تذكره باعتبار ما سبق إن كان السابق مذكرًا، وتؤنثه باعتبار ما لحقه فهنا قال: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أنَّث الضمير باعتبار ما لحقه، ولو كان في غير القرآن وقيل: فإن كان نساءً، جاز باعتبار ما سبقه، فالضمير في مثل هذا التركيب يجوز أن يعود على ما سبق، ويجوز أن يعود على ما لحق، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾، اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾، فقيل: إنها فائدة وأن المعنى: فإن كن نساءً اثنتين؛ وذلك لأن الثلث حق الثنتين فما فوق، وظاهر الآية الكريمة أن الثنتين لا تستحقان الثلثين، لماذا؟

لأنه قال: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ فظاهرها أن الثنتين لا تستحقان الثلثين مع أن الحكم خلاف ذلك؛ فلهذا قال بعض العلماء: إنها زائدة، لكن الصحيح أنها ليست بزائدة، بل هي مفيدة وأصلية؛ ليتبين أن ما فوق الثنتين لا ينحصر فلو كنَّ عشرة أو عشرين فإن الفرض لا يزيد بزيادتهن.

الثنتان لنا في تقرير الثلثين لهما عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه قال: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ واحدة فلها النصف مفهوم، وما زاد على الواحدة ليس لها النصف، ولا نعلم فرضًا للبنات سوى النصف أو الثلثين فإذا لم يكن لها النصف بقي لها الثلثان؛ لأنه ليس هناك فرض بين النصف والثلثين.

الوجه الثاني: أن الله جعل للأختين الثلثين في آخر السورة، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء:١٧٦].

وصلة البنتين بأبيهما أقوى من صلة الأختين بأخيهما، وعلى هذا فيكون للبنتين الثلثان، كما أن للأختين الثلثين.

الوجه الثالث: وإن كان خارجًا عن نطاق القرآن: أن النبي ﷺ أعطى ابنتيْ سعد بن الربيع الثلثين، وهما اثنتان[(١)].

وعلى هذا فنقول: بيَّن الله في هذه الآية الكريمة أن الأولاد: إما أن يكونوا ذكورًا وإناثًا، وإما أن يكونوا إناثًا فقط، وبقي قسم ثالث وهو: أن يكونوا ذكورًا فقط، فهل بيَّن الله حكم هذه الأقسام الثلاثة؟

الجواب: ننظر أما إن كانوا ذكورًا وإناثًا فقد بيَّن الله الحكم وهو: أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وإذا كانوا نساءً فقط بيَّن الله الحكم: أن للواحدة النصف ولما زاد الثلث، وسكت عن الأولاد الذكور فقط فدل هذا على أنهم يرثون بلا تقدير، وأنهم يرثون بالسوية؛ لأنه لو كان لهم مقدَّر لبينه كما بيَّن المقدر للإناث ولو كانوا يختلفون لبيَّن ذلك كما بين خلاف الواحدة من البنات مع الثنتين فأكثر، وعلى هذا: فإذا كانوا ذكورًا فقط فلهم المال، وكم تكون مسألتهم من عدد الرؤوس؟ الورثة إذا كانوا عصبة لا توَصَّل لهم مسألة، وأصل مسألتهم من عدد رؤوسهم، فإذا كانوا مائة بني عم من كم المسألة؟ من مائة، وإذا كانوا عصبة فمن عدد رؤوسهم مهما بلغوا، وإذا كانوا مائة بني عم وخمسين بنت عم، الخمسين بنت عم لا ترث؛ لأنه لا يرث من الإناث إلا الأخوات،أما بنات أخ أو بنات عم فليس لهم من الميراث.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٩٢)، وأبو داود (٢٨٩١)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٧٧).

يقول عز وجل: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ في قراءة ﴿وإن كانت واحدة﴾ وعلى هذه القراءة تكون (كان) تامة و (كان) التامة هي التي يُكتفى بمرفوعها عن خبرها؛ لأنها لا تطلب سواها فهي تامة به، والناقصة هي التي تحتاج إلى خبر؛ لأنها لا تتم إلا به ولهذا سميت كان إذا اكتفت بمرفوعها سميت تامة لا تحتاج إلى تكميل، ففيها قراءتان: (إن كانت واحدةٌ)، و(إن كانت واحدةً).

إذنْ ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ـ أبوي الميت ـ ولم يسبق له ذكر، لكن المقام يقتضيه بأي دليل؟ إنه يقتضيه بقوله: ﴿مَا تَرَكَ﴾؛ لأن الإنسان لا يترك ماله إلا بعد موته، ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ يعني: أباه وجدَّه من باب التغليب؛ إذنْ الأبوان هما الأب والأم وهو هنا ملحق بالمثنى أو مثنى.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوي الميت ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، هذا بدل من قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ بإعادة العامل، والبدل معروف أن له حكم المُبدل في إعرابه، لكن هنا نستغني عن التبعية في الإعراب؛ لأننا أعدنا العامل.

وقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: لكل واحد من الأبوين السدس مما ترك ابنهما أو بنتهما أيضًا، ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾، ﴿لَهُۥ﴾ أي: للميت ﴿وَلَدٌ﴾، وقوله: ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ يشمل الذكر والأنثى، فإذا كان الميت له أبوان وله أولاد، فلكل واحد من الأبوين السدس، لا يزيد على هذا.

فإذا كان الولد ذكرًا فللأم السدس وللأب السدس والباقي للابن، وإن كان أنثى فُرض لها فرضها وهو النصف إن كانت واحدة أو الثلثان إن كانت زائدة، والباقي للأب تعصيبًا، لقوله ﷺ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1] إذنْ ميراث الأبوين مع الولد تعصيب، أما الأم ففرض وليس لها تعصيب إطلاقًا، وفرضها السدس مع وجود الولد ذكرًا كان أم أنثى، وأما الأب فإن كان في الأولاد ذكور فليس له إلا السدس، وإن كان ورثه إناثًا فله السدس فرضًا والباقي ـ إن بقي ـ تعصيبًا، وحينئذٍ نقول: إما أن يكون الولد الذي مع الأبوين ذكورًا فقط أو إناثًا فقط أو ذكورًا وإناثًا، فإن كانوا ذكورًا فقط فليس للأب ولا للأم إلا السدس، وإن كانوا إناثًا فقط فليس للأم إلا السدس وكذلك الأب يُفرض له السدس وإن بقي شيء أخذه تعصيبًا، وإن كانوا ذكورًا وإناثًا فليس للأب إلا السدس كالأم؛ لأنه لا تعصيب للأب مع وجود أحد من الأبناء أو أبنائهم؛ لأن الأبناء أو أبناءهم أولى بالتعصيب من الأب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: إن لم يكن له فرع وارث لا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ابن ولا بنت، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، لم يكن له ولد هذا أول شرط، والشرط الثاني ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، والجواب: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي؛ لأنه إذا كان المال بين شخصين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).

وفرض لأحدهما، فالباقي كله للآخر، هنا حصل إرث في الأبوين ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، والباقي للأب وعرفنا أن الباقي للأب؛ لأن الله قال ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، وأعطى أمه الثلث، فيكون الباقي للأب بالضرورة، فعرفنا الآن إذا هلك هالك عن أم وأب وليس معهما صاحب أي: ولد ولا إخوة ولا زوج ولا زوجة فلأمه الثلث، وهذا ماشٍ مع قاعدة الفرائض؛ لأن القاعدة - قاعدة الفرائض - إذا كان الوارثان ذكرًا وأنثى من جنس وفي مرتبة واحدة، فإن للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ إن حصل الإرث قلنا في الأبوين: لكل أم الثُلث فماذا إذا كان مع الأبوين زوج أو زوجة هل للأم الثلث؟ نقول: الآية الكريمة تدل على أنه ليس لها الثلث فماذا يكون لها؟ ننظر في الموضوع، لو امرأة هلكت عن زوجها وأمها وأبيها ليس في المسألة ولد، فانحصر الإرث في ثلاثة أشخاص، فيكون للزوج النصف، وللأم ثلث الباقي وللأب الباقي، لماذا فرض لأمها ثلث الباقي؟ نقول: لأن الأم والأب ورِثا ما بقي بعد الزوج، وقد قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، فكأن الأبوين ورثا نصف المال الباقي بعد الزوج فيكون للأم ثلثه يعني: نزل المال بعد فرض الزوج كأنه المال كله، فإذا جعلنا كأنه المال كله فلأمه الثلث وهذا واضح جدًّا، فنحن نجعل ما بقي بعد فرض الزوج كأنه المال كله، ومعلوم بنص القرآن أن الأم والأب إذا ورثا المال كله فللأم الثلث، فيكون لها ثلث الباقي، وإذا سألَنا سائلٌ: هل هذه القسمة مخالفة للنص؟ فقلنا: لا، بل هي موافقة للنص ووجهها ما قيل.

مثال آخر: هلك رجل عن زوجة وأم وأب كم للزوجة؟ الربع وبقي ثلاثة أرباع، الأم ثلث الباقي، وللأب الباقي؛ لأن الزوجة لما أخذت نصيبها، صار الباقي بعد فرضها كأنه المال كله، والأم والأب إذا ورثا المال كله صار للأم الثلث، وعلى هذا: فللأم ثلث الباقي بعد فرض الزوجة والباقي للأب وهذا مقتضى النص القرآني الذي معنا.

هاتان المسألتان: زوج وأم وأب، وزوجة وأم وأب، يُسميان العمريتين والغراوين، العمريتين؛ لأن أول مَنْ قضى بهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ لم توجد هذه الصورة لا في عهد الرسول ﷺ، ولا في عهد أبي بكر، لكن هاتين الصورتين وُجدتا في عهد عمر رضي الله عنه فقضى بهما على هذا النحو قضاءً مُوفقًا للصواب بلا شك، فسميتا بالعمريتين وسميتا بالغراوين؛ لأنهما في الفرائض كالغرة في وجه الفرس؛ لظهورهما واشتهارهما. فصار للأم والأب السدس مع وجود الولد، وللأم ثلث الباقي في زوج وأبوين وزوجة وأبوين.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، هذا معطوف على قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾، أي: حين إرثه أبويه له (فإن كان) و(الفاء) هنا عاطفة تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها فإذا ورث الرجلَ أبواه، وكان له إخوة فلأمه السدس، ويشمل أن يكونوا أخوة ذكورًا أو إناثًا ويشمل أن يكونوا أشقاء أو لأب أو لأم.

مثاله: هلك هالك عن أم وأب وأخوين شقيقين كم تُعطى الأم؟ تعطى السدس والباقي للأب، لماذا فرضنا للأم السدس؟ لوجود جمع من الإخوة، ولماذا لم نفرض للأب السدس؟ لعدم الفرع الوارث فنقول: للأم السدس والباقي للأب، والإخوة يسقطون بإسقاط النبي ﷺ لهم حيث قال: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1]، فألحقنا الفرائض الآن بأهلها مَنْ صاحب الفرض في هذه المسألة؟ الأم، أعطيناها نصيبها، بحثنا وقارنا بين الأب والأخوة، وجدنا أن الأب أولى؛ لأن الميت بضعة منه فقلنا: الباقي للأب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، فإن قال قائل: كيف يحجب الإخوة وهم محجوبون؟ نقول: يحجبون غيرهم وهم محجوبون؛ لأن حجبهم هنا لوجود المانع لا لفوات الشرط فهم من أهل الإرث يعني: ليس فيهم مانع من موانع الإرث حتى نقول: إن هؤلاء ليسوا مستحقين من الأصل الميراث نقول: هم مستحقون لولا وجود المانع؛ لهذا حجبوا وهم محجوبون، والغريب في هذه المسألة أنه لو كان الإخوة إخوة من أم حجبوا الأم من الثلث إلى السدس، وهذه غريبة من غرائب العلم أن يكون المدلي حاجب لمنْ أدلى به، والعادة: أن الذي يَحجب هو المدلى به، لكن هذه بالعكس؛ فالابن يحجب ابن الابن؛ لأن الابن مدلٍّ بابن الابن وَمَنْ أدلى بواسطة حجبته تلك الواسطة، وهنا الإخوة من الأم يدلون بالأم، ولم تحجبهم الأم بل هم الذين حجبوا الأم على العكس، ولكن مسائل الفرائض كثير منها لا مجال للرأي فيها ولا مدخل للاجتهاد فيها، فهي أمر مسلَّم به قال تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

إذنْ ميراث الأبوين على النحو التالي:

الحالة الأولى: إذا كان معهما ولد فلكل واحدٍ منهما السدس، ثم إن كان الولد ذكرًا فليس للأب سوى السدس وإن كان أنثى فللأب ما بقي بعد الفروض تعصيبًا.

الحالة الثانية: إذا ورث الميتَ أبواه فقط أي: لم يوجد وارث سوى الأبوين لا إخوة ولا أخوات فما ميراث الأم؟ الثلث بالنص ، والباقي للأب؛ لأن المال الذي بين شخصين إذا قدِّر لأحدهما نصيبه سار الباقي للثاني؛ ولهذا لو أعطيتك مالًا أريد أن تشتغل فيه، وقلت لك: نصف أو ربع الربح لك، ماذا يكون لي أنا صاحب المال؟ ثلاث أرباع المال؛ لأن المال بين اثنين، فإذا قدِّر لأحدنا نصيب فالباقي للآخر.

الحالة الثالثة: إذا ورث الأبوان ولدهما وله إخوة يكن للأم السدس، وإن كان الإخوة غير وارثين فللأم السدس والباقي للأب، والإخوة يسقطون؛ لقول النبي ﷺ «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).

فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1].

هذه الآية في حكم ميراث الفروع والأصول ويبدأ بذكر الفروع قبل الأصول، وكان متوقع أن يبدأ بالأصول؛ لأنهم أحق بالبر من الفروع، لكن ذكر الفروع؛ لأنهم بضعة من الميت، والأصول بالعكس حيث الميت بضعة منهم، فكان الذي بضعة منه أولى، أي: أن الميت بضعة منه، وهذه من الحِكَم، ومن المتوقع أن يقول قائل: لماذا لم يبدأ الله عز وجل بذكر الوالدين قبل ذكر الأولاد؟ والجواب هو هذه الآية التي اشتملت علي ميراث الفروع والأصول.

قال الله عز وجل: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ الوصية بالأصل هي: العهد بالشيء المهم وهي اصطلاحًا: الأمر بالتبرع بالمال، بل هي التبرع بالمال بعد الموت أو الأمر بالتصرف بعد الموت، فإذا أوصى رجل إلي شخص بالنظر على أولاده الصغار فهل الوصية هذه بالمال أم بالتصرف؟ بالتصرف، وإذا أوصى شخص بمائة درهم لفلان، فهذا تبرع بالمال بعد الموت، وهذا هو المراد بهذه الآية أن الوصية هي: التبرع بالمال بعد الموت.

وقوله عز وجل: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ مطلق لم يُقيد، لكن دلت السنة على أنه لا يزيد على الثلث، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين عاده النبي ﷺ في مكة فقال له سعد: إني ذو مال يعني: ذو مال كثير ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثيْ مالي؟ قال: «لا» قال: فالشطر قال: «لا» قال: فالثلث قال: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ إِنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو أن الناس تصبو من الثلث إلى الربع لكان أحسن؛ لأن النبي ﷺ قال: «الثلث كثير» ولم يرحب بالثلث إلا في المراجعة الثالثة من سعد رضي الله عنه، ويُذكر أن أبا بكر الصديق قال: أرضى بما رضي الله لنفسه فأوصى بالخمس، واعتمد ذلك الفقهاء فقالوا: ينبغي أن تكون الوصية بالخُمس، ولكن شخص الناس اليوم ساروا لا يعرفون في الوصية إلا الثلث، يندر جدًّا أن ترى شخصًا أوصى بخُمس ماله وينبغي لطلبة العلم أن يبينوا للناس أن الوصية بالثلث جاءت بعْدَ مراجعات، وما دون الثلث أفضل منه، ودل القرآن علي أن الوصية لا تكون لوارث، وهذا هو الشرط الثاني في الوصية، والشرط الأول: ألا تزيد على الثلث؛ فوجه الدلالة قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾، فجعل الوصية مستقلة عن الميراث، وقال في الآية التي تلي هذه لما ذكر الإرث قال ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ١٣]، ولا شك أن مَنْ أوصى لأمه بالخُمس،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).

وقد أعطاها الله السدس فقد تعدى حدود الله، فرض الله لها السدس وهو زاد على ذلك الخمس فأعطاها من الميراث أكثر من السدس، وهذا تعدٍّ لحدود الله؛ إذنْ نقول: إن الوصية التي تُقدم على الميراث هي الوصية الشرعية التي جمعت شرطين هما: ألا تزيد على الثلث، وألا تكون لوارث.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ دليل على أنه لابد من ثبوت الوصية وإن كان الموصي أوصى بها عن طمأنينة وعن معرفة، فلو أوصى وهو في غمرة المرض قد ذهل، ولم يكن يتصور ما يقول، فإن الوصية لا تُقبل ولا يُعتد بها؛ لأنه حقيقة لم يوصِ بها، وكذلك لو لم تثبت الوصية ببينة فإنها لا عبرة بها إلا إذا صدق الورثة وهم مرشدون بذلك، فالحق لهم والرجوع إليهم.

وقوله ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ الدَّين: كل ما ثبت في الذمة فهو دَين، فالأجرة دَين، والقرض دَين، وثمن المبيع دَين والصَّداق على الزوج دَين، وعوض الخُلع على الزوجة دَين، وأرش الجراحات دَين، فيقدم الدَّين على الميراث، فلو قُدِّر أن الدَّين يستغرق جميع المال فلا شيء للورثة؛ لأنه قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وإذا قُدر أنه يستغرق نصف المال صار الميراث نصف المال؛ لأن الله قال: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾، وهنا نسأل هل الدَّين مقدم أو الوصية ؟ الجواب الدين قبل الوصية، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصية)[1]، والمعنى يقتضيه؛ لأن الدَّين قضاؤه من باب الواجب، والوصية من باب التبرع، يعني: أن المدين واجب عليه أن يقضي دينه، والموصي مستحب وليس بواجب، ومعلوم أن النظر الصحيح يقتضي تقديم الواجب، فإن قال قائل: إن كان الأمر كذلك فما الحكمة من تقديم الوصية على الدَّين؟

فالجواب على ذلك: الحكمة أولًا: العناية بالوصية، والإشارة إلى أن الدَّين ينبغي للعاقل ألا يحمله نفسه، وثانيًا: أن الدَّين له مَنْ يُطالب به، يعني: لو فُرض أن الورثة سكتوا وقسَّموا التركة، هل يسكت صاحب الدَّين؟ لا يسكت، ولابد أن يطالب، لكن الوصية لو كتموها لم يعلم بها الموصَى إليه؛ فلهذا قدمها، ليهتم الورثة بها، لا ليقدموها على الدَّين، فالدَّين مقدم ثم الوصية ثم الميراث.

ثم قال الله تعالى ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

لما قسم الله تعالى القسمة على ما اقتضته حكمته قطع حق الاعتراض على هذه القسمة؛ بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، فلو قال قائل: الآباء أحق من الابن؛ لأن برهم واجب، ولو قال آخر: الأبناء أحق؛ لأنهم يحتاجون إلى رعاية في الغالب، نقول: وراء ذلك كله حكمة الله عز وجل فنحن لا ندري آباءنا أم أبناءنا أيهم أقرب لنا نفعًا، وهل المراد التفضيل بين الجنس والجنس أي: بين الآباء والأبناء؟ لا ندري الأبناء أقرب أم الآباء أم حتى بين الأبناء

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٩٤)، وابن ماجه (٢٧١٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٦٧).

والآباء، وهل المعنى: لا تدرون الآباء أقرب نفعا أم الأبناء أم المعنى: لا تدرون أي الأبناء أقرب لكم نفعًا وأي الآباء أقرب إليكم نفعًا؟ الآية تعم المعنيين يعني: لا تدرون الآباء أنفع لكم أم الأبناء، ولا تدرون هل الأكبر من الأبناء أنفع أم الأصغر، وهل الأقرب من الآباء أنفع أم الأعلى؟ كثيرًا ما يكون الجد أرأف وأرحم من الأب لأحفاده، وكثيرًا ما يكون الابن الأصغر أرحم من الابن الأكبر، فنحن حقيقة لا ندري هل الآباء أبر وأنفع لنا أم الأبناء وهل أبناؤنا فيما بينهم أنفع هل الكبير أم الصغير أم الوسط، وكذلك بالنسبة للآباء لا ندري؟ ولما كنا لا نعلم وجب أن نكِلَ الأمر إلى عالمه، وهو الله عز وجل.

ثم قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فريضة هذه مصدر عاملها محذوف، وقد تكون مصدرًا نابت عن عاملها، والتقدير على الأول: فرضنا ذلك فريضة، وعلى الثاني: نجعل فريضة هي نفسها عاملها، ولا تحتاج إلى عامل ينصبها فتكون تأكيدًا لما سبق، ويسمون هذا المصدر المؤكِّد للجملة التي قبله ولا يحتاج إلى عامل، قال ابن مالك :

(ابني أنت حقًّا) كلمة حقًّا ما لها عامل، ولكنها تؤكد الجملة السابقة، هذه أيضًا ما فيها عامل، لكن حين قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ﴾، وقسم وقدر، صار هذا المصدر مؤكدًا للجملة التي قبله، وقوله:﴿فَرِيضَةً﴾ الفرض في اللغة الحزُّ والقطع يقال مثلًا: فرض اللحم حزها، وفرض العصا قطعها، ولكنها في الشرع: ما ألزم به الشارع، ولا فرق، وهو الصحيح بين ما ثبت بدليل ظني أو بدليل قطعي، وقال بعض العلماء: ما ثبت بدليل قطعي فهو فرض، وما ثبت بدليل ظني فهو واجب، والصحيح: أنه لا فرق فطالما ثبت بالدليل فسمِّه فرضًا أو سمِّه واجبًا.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: صادرة منه لا من غيره، فلم يقم بفرضها مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل، بل الله تعالى هو مَنْ تولى فرضها، ثم قال:﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: عليمًا بمن يستحق وبمقدار ما يستحق، وحكيمًا في وضع الحق في أهله كمًّا وكيفًا، فالله عز وجل له العلم التام والحكمة التامة، وبالعلم والحكمة تتم الأمور؛ لأن تخلُّف الأمور سببه أحد أمرين: إما الجهل وإما السفه، فإذا وُجد العلم ارتفع الجهل، وإذا وُجدت الحكمة ارتفع السفه، والله سبحانه وتعالى عليم بالأمور وبمَنْ يستحق وبمقدار ما يستحق، وهو حكيم في وضع الأمور في مواضعها، فلما اجتمع في حقه سبحانه وتعالى العلم والحكمة انتفى أي اعتراض يمكن أن يُعترض به على الحكم؛ ولهذا نجد أن الجاهل يتخبط في الأحكام؛ لأنه جاهل، ولو كان عنده حسن قصد وحسن إرادة لما كان كذلك، ولكنه جاهل فتجده متخبطًا، ونجد العالم السفيه الذي ليس لديه حكمة ترشده إلى ما فيه الخير يتعثر، وأما الله فلديه العلم والحكمة فهو سبحانه وتعالى أحكامه تامة.

والعليم والحكيم من أسماء الله عز وجل، والعلم هو: (إدراك المعلوم على ما هو عليه) فخرج بقولنا: (إدراك المعلوم) مَنْ لم يدرك، فهذا جاهل جهلًا بسيطًا، وخرج بقولنا: (على ما هو عليه) مَنْ أدرك الأشياء على غير ما هي عليه، وهذا جاهل، ولكن جهله مركب وأيهما أهون: الجاهل جهلًا مركبًا أم الثاني؟ البسيط أهون.

ونضرب ثلاثة أمثلة الآن:

سأل سائل عن غزوة بدر فقيل له: في رمضان في السنة الثانية، فهذا عالم.

وسأل سائل آخر عن غزوة بدر فقيل له: إنها في السنة الثالثة، فهذا جاهل جهلًا مركبًا.

وسأل ثالث متى كانت غزوة بدر؟ فأجيب بلا أدري، فهذا جهله جهل بسيط، وهو خير من الجهل المركب.

ويقال: إن رجلًا يسمى توما كان يدَّعي الحكمة، وأنه عالم حكيم فقال حمار الحكيم توما:

(لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَبُ لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبُ)

وهو الحمار والحمار جاهل، ولكن جهله بسيط، وتوما صاحبه جاهل مركب، وعلى هذا يقول الشاعر الآخر:

وَمَــنْ رَامَ العُلــومَ بِغَيْــرِ شَــيْخٍ ... يَــضِلُّ عَــنِ الــصِّرَاطِ المُــسْتَقِيمِ
وَتَلْتَــبِسُ العُلُــومُ عَلَيْــهِ حَتَّــى ... يَكُــونَ أَضَــلَّ مِــن تَومَــا الحَكِــيمِ
تَــصَدَّقَ بِالبَنَــاتِ عَلَــى رِجَــالٍ ... يُرِيــدُ بِــذَاكَ جَنَّــاتِ النَّعِــيمِ

يعني: يهب النساء ليُزنى بهن ويظن أن ذلك تقرب إلى الله وصدقة، وهذا جهل مركب.

والحكيم مشتق من الحكم والحكمة، والحكيم من أسماء الله فهو عز وجل حاكم وهو محكِم، وعليه فتكون حكيم بمعنى: فاعل إذا كانت الحكم، وحكيم بمعنى: محكِم إذا كانت من الحكمة، ويبقى عندنا إشكال في حكيم هل هي تأتي بمعنى محكم؟

ومنه قول الشاعر:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي الــسَّمِيعُ ... يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ

السميع بمعنى: المسمِع.

إذنْ إذا كانت من الحكم والإحكام فلابد أن نعرف أن حكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كوني، وحكم شرعي، فقول أخي يوسف ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، هذا حكم كوني؛ ولهذا لم يقل: عليَّ، بل قال: (لِي) أي: يقدِّر لي ذلك، وقوله تعالى في سورة الممتحنة لما ذكر أحكام النساء قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، هذا

حكم شرعي، والفرق بينهما يقارب الفرق بين الإرادتين: الكونية والشرعية. فما تعلق بما يحبه ويكرهه أي: يحبه فأمر به، أو يكرهه فنهى عنه، فهذا هو الحكم الشرعي، وما يتعلق بتقديره سواء أحبه أم لم يحبه فهذا حكم كوني، الحكم الكوني لابد من وقوعه والحكم الشرعي قد يمتثل وقد لا يمتثل، فيتبين من هذا أن الحكم قريب من الإرادة في التفصيل أما على الوجه الثاني في الحكيم وهو المحكم فنقول: الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، وتتعلق بالحكم الكوني والحكم الشرعي، ثم هي إما حكمة باعتبار الصورة المعينة، وإما حكمة باعتبار الغاية فإذا ضربت اثنين في اثنين صار أربعة، الحكمة إما أن تتعلق بالحكم الكوني على صورته المعينة، وعلى غايته الحميدة، فمثلًا: إذا حكم الله عز وجل على أناس بالفقر والمرض والزلازل، وما أشبه ذلك فهذا الحكم لا شك أنه متضمن لحكمة كونه وقع على هذا الوجه، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] خلق الإنسان على هذه الصفة لحكمة، خُلِقَ قائمًا منتصبًا وغيره على العكس؛ لأن الإنسان له وظائف لا تتم إلا على خَلْقِ الإنسان على هذا الوجه، الإنسان له وظائف قيام ركوع سجود لا تتم إلا على هذا الوجه؛ ولذلك خلقه الله تعالى قائمًا منتصبًا خلافًا للحيوانات، كونه على هذا الوجه حكمة، وكونه الغاية منها أداء الوظائف على الصورة المرادة منه، هذه حكمة أخرى، وهكذا فَكِّر في الشمس والقمر والجبال والأنهار وما أشبهها.

في الشرع أيضًا حكمة على الصورة المعينة، وحكمة على الغاية، فكون الشرع جاء على هذا الوجه فيجعل الله الصلوات خمسًا وأوقاتها متفرقة، وعددها كذا وكذا هذا ولا شك أنه من ضابط الحكمة؛ ولهذا تجد الصلوات كلها متعلقة بتغير الشمس في الأفق، فالفجر عند إقبالها، والمغرب والعشاء عند إدبارها، والظهر والعصر عند توسطها وميلها، وليس هناك شك أن هذه حكمة الغاية من الصلاة؛ ولهذا أقول: الحكمة تتعلق بالحكم الشرعي والكوني على الصورة التي هو عليها، وعلى الغاية من مقصوده منها اثنين في اثنين فتكون أربعة حكمة، الحكم الكوني باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة الحكم الكوني باعتبار مقصوده، وحكمة الحكم الشرعي باعتبار الصورة التي عليها، وحكمة الحكم الشرعي باعتبار الغاية المقصودة منه، كل هذه المعاني الجليلة العظيمة تحملها قوله: ﴿حَكِيمًا﴾، فأسماء الله تعالى مليئة بالمعاني فهي حُسنى كما وصفها سبحانه وتعالى.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى أرحم بالإنسان من والديه تؤخذ من ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، فالذي يوصيك على الشيء أرحم به منك وأشد عناية به منك؛ ولهذا إذا أوصى أحد على أولاده فهو أرحم على أولاده منه.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحكمة في توزيع الميراث أنه يشمل جميع الأولاد دون

الصغار فقط، يعني: لا يوقف على الصغار أو ذوي الحاجة أو على من كان لا يكتسب وما أشبه ذلك، وفي العرف الاصطلاحي تبديد الثروة أي: توزع الثروة حتى لا تنفد، هذا المال الذي هو ملايين كان في الأول يملكه واحد، والآن يملكه عدد كبير، ثم العدد أيضا إذا مات انتقل إلى آخرين، وهذا لا شك من الحكمة.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة أخرى في توزيع الميراث؛ حيث جعل ميراث الذكر مثل حظ الأنثيين، وحكمة ذلك: اعتبار ما يكون على الذكر من مسئوليات النفقة، والذكر عنده مسئوليات مالية أكثر من الأنثى، فعليه الإنفاق، وعليه المهر، وعليه الجهاز وعليه حقوق مالية أكثر، فَرُوعِي في ذلك قسمة المواريث وجُعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لبيان شرف الرجل على المرأة وأنه أحق بالتكريم منها؛ خلافًا للمتفرنجين الآن الذين يقدِّمون الإناث على الذكور، وخلافًا لأهل الجاهلية الذين لا يورثون الإناث شيئًا، بل يقولون: لا نورث إلا مَنْ يحمي الديار ويركب الخيل ويزود عن الحمى، أما امرأة قابعة في البيت ما لها ميراث، ولكن الإسلام جاء وأعطاها الميراث، ولكن ليست مثل الذكر.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان اختيار الألفاظ الأحسن والأمثل، وإن كان المؤدى واحدًا؛ لقوله: ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾،ولم يقل: يوصيكم الله في أولادكم للأنثى مثل ما للذكر، ولقد مر علينا كثيرًا التنبيه على ذلك، وحسن التعبير له أثر معلوم مثل: قصة الملك الذي رأى في المنام أن جميع أسنانه قد سقطت فدعا بعابر ليعبر الرؤيا فقال: أيها العابر عبِّر لي هذه الرؤيا، قال: أيها الملك تموت حاشيتك وأهلك، فارتعب الملك وأمر به فجُلد؛ لأنه روَّعه، وقال: ائتوا بعابر آخر، فأتوا بعابر آخر فقال: يكون الملك أطول حاشيته عمرًا، فقال: على الرحب هذا العابر صحيح، وأمر له بجائزة، والمعنى: أنهم سيموتون قبله فالاثنين واحد، ولكن حسن التعبير يكون له أثر، فينبغي للإنسان أن يختار أجزل العبارات وأسهلها وأحبها إلى النفوس.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ميراث النساء الخُلَّص إن كانت واحدة فالنصف لها، وإن كن اثنين أو أكثر فلهما الثلثان، وسبق لنا توجيه قوله عز وجل: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإرث شامل لجميع التركة من عقار ومنقول وحيوان ومنافع وحقوق وهذا يؤخذ من قوله:﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أي: كل ما ترك فهو داخل في الإرث، وهذا يجب التنبه لمن كان له ورثة في غير البيت الذي هو فيه فمثلًا: لو مات ميت وترك البيت الذي هو فيه، فإن من الناس مَنْ إذا مات لهم ميت وهم في بيته، ولهم ورثة آخرون خارج البيت يتمتعون بما في البيت من طعام وسكن وغيره أيضا، وهذا لا يجوز إلا بعد إذن بقية الورثة وإلا فانه يخصم من ميراثه، وكذلك تضرب أجرة على هؤلاء الذين في البيت لحين التقسيم.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يزيد فرض الثلثين بزيادة الإناث وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾، فإنه يشمل لو كن مائتين.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحكمة في تقديم ميراث الولد على ميراث الأبويين؛ لأن الأولاد بضع من أبيهم أو من أمهم، فقُدِّم ذكرهم على الأبويين.

٩ - ومن فوائد الآية أيضًا: أن الوالدين إذا ورثا ولدهما واختصا بالإرث، كان للأم الثلث والباقي للأب؛ لقوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا وُجد للميت فرع وارث، فإن للأبوين لكل منهما السدس لا يزيد إلا مع الإناث، فإن بقي شيء أخذه الأب تعصيبًا.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن للأم السدس مع جمع من الأخوة؛ لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، وظاهر الآية سواء كانوا وارثين أو غير وارثين، بل ظاهر الآية إن لم يكونو وارثين فللأم السدس؛ لأن الفاء مفرعة لما بعدها على ما قبلها.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الميراث يأتي في المرتبة الثالثة مما تركه الميت؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، ولكن قد دلت السنة أن تجهيز الميت مقدَّم على كل ذلك، وعلى هذا يكون الميراث في المرتبة الرابعة، ودليل السنة أن رجلًا وقصته راحلته وهو واقف بعرفة فسئل النبي ﷺ عنه فقال: «اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ»(١)، ولم يقل: هل عليه دين أو وصية، فدل هذا على أن التجهيز مقدم على الوصية والدَّين؛ ولأن الوصية متعلقة بذات الموصى، أما التجهيز فمتعلق ببدن الميت فكان مقدمًا على الوصية والدَّين كالمحجور عليه إذا أفلس، وأمَّرنا عليه من يتصرف في ماله فإننا نبدأ بما تتعلق به حاجته، ولا نقول: اخلع ثيابك نبيعها، لا بل ما تتعلق به حاجته تبقى.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب تنفيذ الوصية؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ فقدمه على ما يستحق من المال؛ لأن تنفيذها واجب.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرقَّ مانع من الإرث؛ لقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ومن قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، ووجه ذلك: أن (اللام) تفيد المُلك والرقيق لا يملك، وعلى هذا فلا حق للرقيق في الميراث؛ لأنه لا يملك.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا اجتمع الأبوان في الميراث فللأم الثلث والباقي للأب، وعلى هذا فيكون الأب في هذه الحال وارثًا بالتعصيب؛ لأن نصيبه لم يقدر فيكون وارثًا بالتعصيب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٤٩)، ومسلم (١٢٠٦).

١٦- ومن فوائدها: الإشارة إلى اجتهاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ الاجتهاد الصائب في العُمَرِيَّتَيْنِ حيث جعل للأم ثلث الباقي بعد فرض الزوجين، وذلك أن الزوج أو الزوجة إذا أخذ حقه انفرد الأب والأم فيما بقي، ولقد جعل الله للأب والأم - إن انفردا - للأم الثلث وللأب الباقي، فيكون ما بقي بعد فرض الزوجين للأم ثلثه.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإخوة يَحجبون الأم من الثلث الى السدس وإن كانوا محجوبين بالأب؛ لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، فعطف بالفاء الدالة على أن ما بعدها مفرع على مَا قبلها.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الواحد من الإخوة لا يَحجب الأم إلى السدس؛ لقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، بخلاف الأبناء أو البنات فإن الواحد يحجبها إلى الثلث لقوله: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، و﴿وَلَدٌ﴾ نكرة في سياق الشرط فيعم الواحد والمتعدد والذكر والأنثى، فإن قال قائل: كيف تجعلون للأم السدس مع وجود إخوة محجوبين بالأب ألستم تقولون: لو وُجدت أم إخوة أرقاء فإن الإخوة لا يحجبون الأم إلى السدس، أو وجدت أم وإخوة كفرة فإنهم لا يحجبون الأم إلى السدس يعني: إن هلك هالك عن أمه وإخوته الذين لا يصلون فإن لأمه الثلث ولا يحجبونها الإخوة الذين لا يصلون إلى السدس؛ لأنهم كفار لا يرثون؟ فالجواب: أن هؤلاء محجوبون بوصف فهم ليسوا من أهل الإرث أصلًا، وأما الإخوة الذين حجبوا بوجود الأب فهم من أهل الإرث، ولكن وجد مانع وفرق بين وجود مانع وبين فوات الشرط، فالإخوة مع اختلاف الدين أو كونهم أرقاء ليسوا أهلا للميراث أصلا؛ لأن من شرط استحقاقهم الإرث أن يكونوا موافقين للإنسان الميت في دينه وأن يكونوا أحرارًا، لكن هنا الإخوة مع الأب مستحقون للإرث أحرارًا، موافقون في الدين، ولكن وُجد مانع وهو الأب، فهذا هو الفرق بين كون المحجوب بالوصف وجوده كالعدم، والمحجوب بالشخص وجوده معتبر.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الميراث لا يكون إلا بعد الدَّين والوصية؛ لقوله ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، ولكن الدَّين قد يستغرق جميع التركة، فلا يبقى للورثة شيء، وأما الوصية فلا تستغرق جميع التركة؛ لأن أقصى ما يمكن الثلث وما زاد على الثلث فهو إلى الورثة، وعلى هذا فيفرق بين الدَّين والوصية، وهو أن الدَّين قد يستغرق المال فلا يبقى للورثة شيء، وأما الوصية فلا يمكن أن تستغرق جميع التركة؛ لأن أقصى ما يمكن الثلث، وما زاد على الوصية فيفرَّق بين الورثة، وعلى هذا يفرق بين الدَّين والوصية، بأن الدَّين قد يستغرق المال فلا يبقى للورثة شيء، والوصية لا يمكن أن تستغرق المال؛ لأن ما زاد على الثلث موقوف على إجازة الورثة، وعلى هذا لو مات شخص وخلَّف مائة ألف وعليه دَين يبلغ مائة ألف، فليس للورثة شيء، ولو مات ميت وقد أوصى بمائة ألف، ولما مات وجدنا خلفه مائة ألف، فلن يبقى للورثة شيء، نقول: نرد مائة ألف إلى الثلث ما لم تجز الورثة.

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المفضول قد يُقدم على الفاضل لاعتبارات أخرى وتؤخذ من قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ والدين أوجب من الوصية وأقدم، ولكن قُدمت الوصية لاعتبارات أخرى؛ كتقديم هارون على موسى في بعض المواضع في سورة طه قال الله: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠] لاعتبارات وهي مراعاة الفواصل، ولا شك أن موسى أفضل من هارون ومقدم عليه في جميع مواضع القرآن.

٢١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: قصور علم الإنسان، تؤخذ من قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، فأقرب الناس إلى الإنسان آباؤه وأبناؤه، فإذا كان لا يدري أيهم أقرب نفعًا فما بالك بالبعيد، وهذا لا شك يعود إلى قصور علم الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالروح التي بين جنبيك لا تعرفها؛ لأنك لم تؤتَ من العلم إلا قليلًا.

٢٢- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب إعطاء الورثة نصيبهم من الإرث، وأنه فرض، تؤخذ من قوله: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وعلى هذا فيكون تعلم الحساب الفَرَضِي فريضة، ونقول: إن كان يتوقف عليه إعطاء كل نصيب نصيبه، فهو فرض، وإن كان لا يتوقف فليس بفرض، فتعلم الحساب في الفرائض هل هو مقصود أو وسيلة؟ إذا كان وسيلة ننظر إذا احتجنا اليه أخذنا به، وإن لم نحتج فلا، لكن في الغالب أننا نحتاج إليه وإلا لا حاجة إليه.

مثلًا: إذا جاء إنسان وقال: اقسمْ هذه المسألة، زوج وأم وأخ لأم، أقول: للزوج النصف وللأم الثلث، وللأخ من الأم السدس، ولكن أحيانًا يتوقف القسم وإعطاء كل نصيب نصيبه على معرفة الحساب، فإذا توقف على معرفة الحساب صار معرفة الحساب فريضة.

٢٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الفرائض إلى الله؛ لقوله ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وأقول ذلك - وإن كان أمرًا معلومًا، لكن من أجل الأدب في الفتيا -: كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ مع علمه الغزير لا يطلق على الشيء أنه فريضة أو أنه حرام إلا إذا ورد به النص وإلا، تجده يقول: لا يفعل .. أكره هذا .. لا يعجبني، وما أشبه ذلك، كل هذا من باب الوَرع، أما نحن قشور الحَبب تجد الواحد منا يقول: هذا يحرمه الشرع، هذا حرام بالشرع - سبحان الله - وربما هذا الرجل إن بحثت معه في أدنى مسألة ما يعرفها ، ويقول: هذا حرام في الشرع وهو من المسائل الاجتهادية، وقد يكون الصواب أنه ليس بحرام، ثم يضاف إلى الشرع كله من شخص ليس أهلًا للاجتهاد، فهذه مشكلة؛ إذنْ يجب على الإنسان أن يتحرى.

٢٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهما العليم والحكيم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

٢٥- ومن فوائدها اللغوية: أن (كان) قد تُسلب دلالتها على الزمان؛ لأنها لو دلت على الزمان

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لكان الرب عز وجل الآن ليس عليمًا ولا حكيما، لكنها أحيانًا تسلب دلالتها على الزمان، ويكون مدلولها مجرد الحدث أو مجرد الوصف إذا كان صفة؛ ولهذا قال بعض السلف ـ وأظنه ابن عباس ـ : (إن الله كان غفورًا رحيمًا ولم يزل غفورًا رحيمًا)؛ خوفًا من هذا الوهم، وعلى كل حال: (كان) في الأصل تدل على زمن مضى، ولكنها أحيانا تسلب دلالتها على الزمان فتكون لمجرد الوصف بخبرها.

٣٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنها تستلزم التسليم التام لقضاء الله الكوني والشرعي؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فسأطمئن وأعلم أنه ما قضى قضاء شرعيًا إلا والحكمة تقتضيه، ولا قضى قضاء كونيًا إلا والحكمة تقتضيه، فيسلِّم الإنسان لربه عز وجل تسليمًا تامًّا وينشرح صدره بقضائه وقدره وينشرح صدره بشرعه وحُكمه، ولا يبقى عنده تردد؛ ولهذا انظر للصحابة كيف كان قبولهم للشرع لما قال النبي ﷺ للنساء: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»[1] ماذا فعلن؟ بدأت الواحدة تأخذ قُرطها أو تأخذ خاتمها أو تأخذ سوارها، ويقلن لبلال: أعطنا ثوبك فجعلن يلقين ذلك في ثوب بلال، فحلي المرأة الذي تتجمل به لزوجها تخلعه؛ لأن النبي ﷺ أمرهن أن يتصدقن، فهذا امتثال عجيب، والرجل الذي نزع النبي ﷺ خاتمه من أصبعه ـ وهو ذهب والذهب حرام على الرجال ـ وطرحه فقيل للرجل: خذه، قال: لا آخذ خاتمًا طرحه النبي ﷺ[2]، امتثال عجيب.

ولما قال النبي ﷺ لأصحابه بعد غزوة الأحزاب: لايصلين أحد إلا في بني قريظة[3]، اليهود وجب قتالهم؛ لأنهم نقضوا العهد فهل تأخروا؟ أبدًا، وشدوا رحالهم وانطلقوا، وماذا فعلوا؟ بعضهم أخذ بظاهر اللفظ وقال: لا أصلي العصر إلا في بني قريظة ولو في نصف الليل وصاروا حتى وصلوا إلى بني قريظة فصلوا، والآخرون قالوا: لا إنما قصد النبي ﷺ أن نبادر وما قصد أن نؤخر الصلاة، وقالوا: عندنا نصان أحدهما متشابه، والثاني محكم، المتشابه هو: «لا يصلين أحد إلا في بني قريظة»[4]، فهذا يحتمل معنى تأخير الصلاة، أو المعنى تعجيل السير والمشي، لكن وجوب الصلاة في وقتها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وهذا محكم، فيجب أن نرد المتشابه إلى المحكم ونصلي الصلاة في وقتها ولا نؤخرها إلى أن نصل إلى بني قريظة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٩٠).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، لا يمكن أن يصدق على المرأة أنها زوج إلا إذا تمت شروط النكاح، وعلى هذا فلابد من عقد الزوجية الصحيح، فإن كان العقد غير صحيح فلا إرث والعقد غير الصحيح يشمل الفاسد والباطل فالأنكحة عند العلماء ثلاثة: صحيح، وباطل، وفاسد فما أجمع العلماء على صحته فهو صحيح، وما أجمعوا على بطلانه فهو باطل، وما اختلفوا فيه فهو فاسد هكذا يقرر العلماء أن النكاح ثلاثة أقسام.

مثال الأول: أن يعقد على امرأة بعقد صحيح خالٍ من الموانع الشرعية.

ومثال الثاني: أن يعقد على امرأة فيتبين أنها أخته من الرضاعة فهنا العقد باطل؛ لإجماع العلماء على فساده أو أن يتزوج امرأة في عدتها، فالعلماء مجمعون على فساد العقد.

ومثال الثالث: أن يتزوج امرأة بلا شهود أو بشهود من الأصول أو الفروع أو بلا ولي أو يتزوج امرأة رضعت من أمه ثلاث رضعات كل هذه الأنواع مختلف فيها، فمثلًا مَنْ رضعت من أمه ثلاث رَضعَاتٍ فهي عند كثير من العلماء أو عند أكثر العلماء تحل له؛ لأن الرضاع المحرم خمس، وعند بعض العلماء المحرِّم ثلاث؛ لقول النبي ﷺ: «لَا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَلَا المَصَّتَانِ»[1]، فكل ما زاد عليها يحرِّم، فعلى هذا الرأي يكون النكاح فاسدًا، وإذا تزوج الرجل امرأة رضعت من أمه واحدة فهو أيضًا فاسد، لكن فساده دون من يقول: إنه يحصل بثلاث رضعات؛ والقول بأن الرضاع مطلقًا يحرِّم هو قول أهل الظاهر وهو قول ضعيف.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥٠)، والترمذي (١١٥٠)، والنسائي (٣٣١٠)، وأبو داود (٢٠٦٣).

المهم: أن النكاح الفاسد لا توارث بين الزوجين فيه، والنكاح الباطل كذلك لا توارث، والنكاح الصحيح الذي أجمع العلماء على صحته لتمام شروطه وانتفاء موانعه، هذا هو الذي يأخذ الإرث وذلك فهو مستفاد من قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾، هذا شرط عدمي، ووجه قولي: (شرطًا عدميًا) دخول النفي على مضمونه، والنفي عدم، فاشترط لإرث الزوج ـ وهو النصف مما تركت شرطًا عدميًا وهو: ألا يكون لهن ولد.

وقوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ يشمل الواحد والمتعدي والذكر والأنثى؛ لأن كلمة (ولد) بمعنى مولود، وهو صالح للذكر والأنثى، ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، فدل هذا على أن الأولاد تشمل الذكور والإناث.

وقوله تعالى :﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾، هذا تصريح بالمفهوم من قوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾، فمفهوم (إن كان لهن ولد)، يعني: لا يكون لهم النصف بل الربع؛ لقوله تعالى:﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

فإن قال قائل: ما الحكمة في أن مع الأولاد يكون للزوج الربع ومع عدمهم يكون له النصف؟

نقول: لأنه إن كان لها أولاد فإن أولادها محتاجون إلى الإنفاق عليهم؛ لذلك توفر لهم من المال ثلاثة أرباع بخلاف إذا لم يكن لها ولد، وعموم قوله: ﴿وَلَدٌ﴾، يشمل الذكر والأنثى والواحد والمتعدي، وَمَنْ كانوا من زوجها ومن كانوا من غير زوجها كما لو ماتت ولها أولاد من زوج سابق فليس لزوجها إلا الربع.

وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ويشترط الوصية التي تقدم على الإرث أن تكون وصية مشروعة وذلك بأن تكون من الثلث فأقل لغير وارث، وأن تكون وصية تامة الشروط، فإن اختل شرط منها فبطلت فلا عبرة بها، فلو أوصت المرأة بشيء من مالها يصرف على أهل العفو والغنى فالوصية خاطئة لا يعتد بها، وذلك أن هناك قاعدة مهمة: أن الألفاظ الشرعية تحمل على المعنى الشرعي المعتبر، فعليه نقول: الوصية المعتبرة شرعًا هي أن تكون من الثلث أو أقل لغير وارث، وبالشروط المعروفه عند أهل العلم.

وقوله ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾، (أو) هنا مانعة الخلو وليست مانعة الاشتراك، والفرق بينهما أن (أو) التي تمنع الخلو يشترط فيها ألا يخلو واحد من هذين الأمرين وإن اجتمعا فهو أولى، والثانية التي تمنع الاشتراك وهي التي يكون الحكم فيها لأحد الأمرين، فإذا قلت: أكرم زيدًا أو عمرًا فأنا أريد أن تكرم أحدهما، فهذه مانعة اشتراك، وإذا قلت: أكرم زيدًا أو عمرًا بمعنى أني جعلت لك الخيار، تسمى هذه مانعة خلو يعني: أنه لا يخلو الحال من إكرام أحد الرجلين وأكرام أحدهما من باب أولى، فهنا في الآية مانعة خلو بمعنى: أنه قد يجتمع الدَّين والوصية، وقد ينفرد أحدهما فالإرث لا يكون إلا بعد الوصية والدَّين، ولكن الوصية ـ كما هو معلوم ـ تكون من الثلث فأقل والدَّين قد

يستغرق جميع المال، فإن استغرق الدين جميع المال فلا حق للورثة، يعني: لو كان عليه ألف درهم وخلَّف ألف درهم، فهنا لا شيء للورثة؛ لأننا إذا قضينا الدَّين بالألف فلن يبقى للورثة شيء، ولو أوصت المرأة بألف وتركت ألفًا فقط، فليس للورثة شيء؛ لأنها لا تملك الوصية إلا بالثلث فأقل، وفي هذه الآية يقدم الله تعالى الوصية على الدَّين، وقد سبق في الآية الأولى كذلك، وبيَّن العلماء رحمهم الله الحكمة من هذا: بأن الوصية تبرُّع والدين واجب فقدمت الوصية لجبر نقصها؛ لكونها تبرعًا على الواجب، هذا وجه، والوجه الثاني: أن الدَّين له مَنْ يطالب به بخلاف الوصية فإنها تبرع ولو شاء الورثة أن يجحدوها لجحدوها، فقُدم اهتمامًا بها واعتناء بها.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾، يقال في هذه الجمل ما قيل فيما قبلها: والحكمة في أن الله فرَّق بين الرجال والنساء، فجعل للأنثى نصف ما للرجال؛ لأن هذه القاعدة في الفرائض: أن الرجل والأنثى إن كانا من جنس واحد فهما على التفريق، يعني: يكون للرجل نصف ما للأنثى إلا مَنْ ورث بالرَّحم المجردة فإنه يستوي فيه الذكر والأنثى مثل أولاد الأم فإن ذكورهم وإناثهم سواء، وكذلك ذوو الأرحام، فإن المشهور من المذهب أنهم يتساوون، فابن الأخت وبنت الأخت المال بينهما بالسوية.

ثم قال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ﴾، يحتمل أن تكون (كان) هنا ناقصة، وتكون جملة (يورث) خبر (كان)، ويحتمل أن تكون تامة، و(رجل) فاعل، و(يورث) صفة لرجل، وهذا أقرب؛ لأن التقدير إن وُجد رجلٌ يورث كلالة، وقوله: ﴿كَلَٰلَةً﴾، هذه مفعول مطلق، ودليل أنها مفعول مطلق: أنه يصح أن يقدر قبلها المصدر، والتقدير: يورث إرث كلالة.

وإرث الكلالة: أن يرث من دون الأصول والفروع أي :من غيره ، فهو كالإكليل الذي يحيط بالشيء، فهم الحواشي وهو الذي لا يرثه فرع ولا أصل؛ ولهذا ورد عن السلف أن الكلالة مَنْ ليس له ولد ولا والد، فالموروث كلالة هو الذي لا يرثه الا الحواشي.

وقوله: ﴿أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ معطوفة على رجل، ولكن هل امرأة هنا معطوفة على رجل بصفة أو بغير صفة؟ بصفة أي: أو امرأة تورث كلالة، وقد اتفق النحويون وكذلك الأصوليون على أن الوصف إذا تعقَّب جملًا عاد على الكل، مثل أن أقول: أكرم زيدًا وعمرًا وبكرًا وخالدًا إن اجتهدوا في الدراسة، فيعود الإكرام على الكل، وأما إذا انفرد وقدمت وقلت: أكرم زيدًا وعمرًا وخالدًا إن اجتهددوا وبكرًا، فقد اختلفوا هل يكون بكرًا إكرامه مطلقًا، أو يكون موصوفًا بما سبق؟ على قولين في هذه المسألة، والصحيح: أنه يرجع في هذا إلى القرائن، والقرائن هنا دلت على أن امرأة معطوفة على رجل باعتباره موصوفًا بكونه يورث كلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ (له) الضمير يعود على الرجل الذي يُورث الكلالة، وكذلك المرأة، ولم يقل: ولهما أخ أو أخت اعتبارًا في الوصف الأول الذي هو الرجل، وقوله: ﴿أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾، هنا مطلق يشمل الشقيق أو لأب أو لأم، ولكن العلماء أجمعوا على أن المراد : له أخ من أم أو أخت من أم، وقد ورد فيها قراءة عن بعض السلف: (وله أخ من أم أو أخت من أم)، وهذا ظاهر جدًّا، حتى وإن لم ترد القراءة هذه، فإن الإخوة الأشقاء لأب، قد ذكر الله حكمهم في آخر السورة في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ ..﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ يعني: إذا كانوا اثنين فهم شركاء في الثلث وإذا كانوا ثلاثة فهم شركاء في الثلث وأربعة أيضًا شركاء في الثلث وكذلك أخ وأخت شركاء في الثلث. وهنا لا يُفضَّلُ الأخ على الأخت؛ لقوله: ﴿شُرَكَآءُ﴾، ومقتضى الشركة المساواة أو التسوية.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ نقول فيها ما سبق: من أن هذه الوصية وصية شرعية في حدود ما أذن فيه الشرع، وقوله: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ يعني: أولًا قضاء الدَّين كما سبق، ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ يعني: بشرط ألا يكون المقصود في الوصية المضارة فإن ثبت أن المقصود بها المضارة فهي لاغية فإذا علمنا أن هذا الميت الذي ليس له إلا إخوة من الأم قد أوصى بالثلث من أجل أن يضيق على الإخوة فهذه وصية ضرار لا تنفذ؛ لأنه يشترط في الوصية النافذة أن تكون غير مضار بها، وكذلك لو فُرض أن المريض تديَّن دَينًا يضر بالورثة يستغرق جميع ماله فإنه في هذه الصورة يُنظر فيه إذا كان قد أضر به فإن الضرر ممنوع شرعًا.

ثم قال: ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، (وصية) مفعول مطلق عامله محذوف وجوبًا؛ لأن المقصود بها هنا الإلزام، والوصية بمعنى: العهد المؤكد.

وقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ عليم بما يصلح عباده حليم بهم.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يشترط في الميراث أن يكون الوارث حرًّا يؤخذ من اللام لأنها للتمليك، والعبد لا يملك ولو كان زوج الحرة عبدًا فإنها إذا ماتت لا يرث منها شيئًا؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا لَهُ مَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ»[1].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الميراث يشمل الأعيان والديون والحقوق، الأعيان مثل الدراهم والنقود والعقارات، والديون التي في ذمم الناس، والثالث: الحقوق كحق الشفعة وحق الانتفاع، وما أشبه ذلك؛ لأن قوله: ﴿مَا تَرَكَ﴾ عامٌّ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: ثبوت الزوجية؛ لقوله: ﴿أَزْوَٰجُكُمْ﴾، ولا تثبت الزوجية إلا بعقد صحيح.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ثبوت الإرث ولو ماتت قبل الدخول؛ لأنها تكون زوجة بمجرد العقد، ولا يشترط الدخول.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الزوجة إذا بانت فلا توارث؛ وذلك يؤخذ من قوله: ﴿أَزْوَٰجُكُمْ﴾ لأنها إذا بانت لم تعد زوجة، فلو طلقها وانتهت عدتها ثم ماتت فلا ميراث له منها؛ لأنها صارت أجنبية منه، ولو طلقها طلاقًا بائنًا وماتت في العدة فلا ميراث له منها؛ لأنها لم تعد زوجته والدليل: أنها لا تحل له إلا بعقد جديد أو بعد زوج إذا كان بينونة كبرى.

واستثنى العلماء من هذه مسألة مهمة وهي: ما إذا أبانها في مرض موته المخوف متهمًا بقصد حرمانها، وهذه أربعة شروط، قالوا: إن كان الأمر كذلك ترثه ولو لم تنته العدة مالم تتزوج أو تأتي بمنافٍ للزوجية كالرِّدة.

إذنْ إذا بانت منه إما بطلقة بائنة أو طلقها ثلاثًا فلا ميراث لها إلا إذا كان في مرض موته وقصد بذلك حرمانها فهناك أربعة شروط: (مرض- موت – مخوف- متهمًا بقصد الحرمان) فإذا تمت الشروط الأربعة ترث منه، فإن طلقها في الصحة طلاقًا بائنًا ثم مات قبل انقضاء العدة فلا ترث منه شيئًا؛ لأنه طلقها في الصحة، وإن طلقها في مرض مَخوف ثم عُوفيَ منه ثم غلب عليه الحال فمات فلا ترث؛ لأنه لم يمت في المرض الذي طلقها فيه فإنها لا ترث، وإن طلقها في مرض الموت المخوف بطلبها فإنها لا ترث؛ لأنه ليس متهمًا بقصد حرمانها، إذنْ ينقطع التوارث بين الزوجين بالبينونة إلا أن يطلقها في مرض موته المخوف متهمًا بقصد حرمانها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للزوج النصف بشرط عدميٍّ وهو عدم الولد؛ لقوله: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

٧- **ومن فوائدها**: أنه لا فرق بين أن يكون الولد واحدًا أو متعددًا ذكرًا أو أنثى، ووجه الدلالة في هذه الآية: لأن كلمة (الولد) وردت في سياق النكرة فتشمل، وهل ولد الولد كالولد؟ الجواب: نعم، فلو كان لها ابن ابن فليس للزوج النصف؛ لأن أولاد الأبناء كأولاد الصلب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: عناية الله سبحانه وتعالى بالمواريث؛ لمجيء الآيات على هذا التفصيل، ولقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المواريث مبنية على الحكمة، ووجهه: أنه إن لم يكن للزوجة ولد فللزوج النصف، ومع الولد الربع؛ ليتوفر المال للولد.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا ميراث إلا بعد الدَّين والوصية؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

١١- ومن فوائدها: أن الزوجة حرَّة في التصرف في مالها؛ لقوله: ﴿يُوصِينَ بِهَآ﴾، فأضاف الفعل إليها، فلو كانت الزوجة لا تستطيع التصرف إلا بإذن زوجها فلربما منعها الزوج من الوصية؛ لأنها يمكن أن تضر به وينبني على هذه الفائدة أمثلة منها:

لو مات الميت وخلَّف ألفًا وعليه ألف دَين فهل للورثة شيء؟ لا؛لأن الدَين مقدم على الميراث، لكن كيف تكون الوصية مقدمة على الميراث مع أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث؟ يتضح هذا بالمثال: فلو هلك هالك عن زوج وأخت شقيقة فللزوج النصف؛ لعدم الفرع الوارث وللشقيقه النصف؛ لتمام شروط إرثها النصفَ، وإذا قدرنا أن المال ستون ألفًا صار للزوج ثلاثون ألفًا وللأخت ثلاثون ألفًا، فلو كانت المرأة المتوفاة قد أوصت بالثلث اختلف الحال قلنا للوصية الثلث أي: عشرون ألفًا، وللزوج نصف الباقي عشرون ألفًا، وللأخت الشقيقة كذلك النصف عشرون ألفًا، فنحسب الآن هل الوصية أخذت الحق كاملًا كما أخذ الموصَى له الثلث عشرين ألفًا، وتجد أن الميراث بعد أن كان للزوج النصف لم يعدْ له إلا الثلث، وكذلك الأخت الشقيقة، فتبين الآن أن الوصية مقدمة على الميراث فلو قدَّرنا أن الوصية كالميراث لاختلف الحكم وقلنا: عندنا ثلث زائد على الكل.

وعلى كل: نقول مسألة الزوج ثلاثة والأخت ثلاثة والوصية اثنان من ثمانية، فيكون نصيب الوصية الربع مع أننا أعطيناه حسب القسمة الأولى ثلثًا كاملًا.

لو قلنا: إن الوصية لا تقدر لكانت المسألة من ستة، للزوج ثلاثة، وللأخت ثلاثة، وللوصية الثلث اثنان فتعود إلى ثمانية ويكون نصيب الوصية الآن ربع الثمن كما أن للزوج ربع الثمن، وكذلك الأخت ربع الثمن، فتبين أن الوصية مقدمة على الميراث، فيُعطى الموصَى له سهمه كاملًا، ثم يقسم الباقي على الورثة بحسب الأنصبة.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: الحكمة في توزيع الميراث حيث جعل للأنثى نصف ما للذكر في ميراث الزوجين.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان العدل في الدين الاسلامي؛ حيث لم يهضم المرأه حقها من الميراث خلافًا لما كانوا يفعلونه في الجاهلية يحرمونها من الميراث، ويظهر العدل لكونه عبر عن ميراث الزوجة بمثل ما عبَّر عن ميراث الزوج .

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا كان الحديث عن الرجال والنساء فمن الحكمة أن يقدم الحديث عن الرجال؛ لأنه بدأ بميراث الأزواج قبل ميراث الزوجات، وهذا هو الموافق للفطرة؛ خلافًا لمن حرف الله فطرته وغيَّر سليقته، فصار يقدم النساء على الرجال في الذِّكر، ففي الإذاعات الغربية ومنْ قلَّدها يقولون: أيها السيدات والسادة، وأخص بذلك مَنْ يكتب حمامًا للسيدات وبجانبه حمامًا للرجال، يعني: بعد ما كانت الأنثى تطالب بالحقوق فأصبحنا نحن

نطالب بحقنا، حيث يجعل النساء سيدات والرجال لوقف الرجولة فقط لا للقوامة، وكل هذا مما يدل على ضعف الشخصية ـ كما قاله الحكيم المؤرخ ابن خلدون في «مقدمته» التي كلها فلسفة كما يقولون حتى إن العلماء أنكروا أن تكون له؛ لأنها فوق مستواه ـ يقول: (عادة الأمم أن الأمة الضعيفة تقلد الأمة القوية ولو بالباطل)، ونحن الآن استَضْعفنا أنفسنا فصرنا نقلد من سلبهم الله الدِّين في مثل هذه الأمور ـ نسأل الله أن يحمينا وإياكم ـ.

١٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإخوة من الأم لا يرثون إلا إذا كان الإرث كلالة، أي: ليس فيه فروع ولا أصول ذكور لا والد ولا ولد.

١٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: المساواة في إرث الذكور والإناث في ميراث الإخوة من أم، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ وأصل الشركة يقتضي التسوية، كما أن البينية تقتضي التسوية، فلو قلت لرجلين: هذه مائة درهم بينكما، فلكل واحد خمسون، كذلك عندما قال الله تعالى في ميراث الإخوة لأم: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، ولم يذكر تفضيل الذكر على الأنثى فدل ذلك على أنهم سواء، وهل يشاركهم غيرهم في التسوية بين الذكر والأنثى؟ الجواب: لا، إلا لعارض مثل: أن يهلك هالك عن بنتين وأبوين، فهنا يستوي الأب والأم؛ لأن البنتين لهما الثلثان والأب السدس، والأم السدس، ولكن هذه التسمية لأمر عارض؛ لأنه لم يبق شيء بعد الفروض حتى يأخذه الأب، ثانيًا: يرى بعض العلماء أن ذوي الأرحام لا يفرق بين ذكرهم وأنثاهم.

فلو مات ميت عن ابن أخت شقيقة وبنت أخت شقيقة فلهما ميراث أمهما بالسوية، والصحيح في هذه المسألة أنهم أي: ذوي الأرحام إن أدلوا بمن يفضَّل ذكرهم على أنثاهم فُضِّل ذكرهم على أنثاهم، وإن لم يدلوا بمن يُفضَّل ذكرهم على أنثاهم، لم يفضل ذكرهم على أنثاهم؛ مثال ذلك: ابن أخت شقيقة وبنت أخت شقيقة، فالإخوة الأشقاء في الفرائض أن يفضل الذكر على الأنثى فنقول: في هذا المثال للذكر مثل حظ الأنثيين، وفي ابن أخ من أم وبنت أخ من أم، نقول: الميراث بينهما بالسوية؛ لأنهم أدلوا بمن لا يفضل ذكرهم على أنثاهم.

١٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله عز وجل بالوصية والدَّين؛ لأنه كلما ذكر ميراثًا قال: من بعد وصية أو دين، فمثلًا في باب الفروع والأصول السابقة قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

١٨ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الوصية المضار بها لاغية بها؛ لقوله: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾، والوصية المضارة حرام، وفيها إثم كبير حتى إنه رُوي عن النبي عليه الصلاه والسلام أن الرجل والمرأة ليعملان من الصالحات كذا سنة ثم يجوران في الوصية فيُعذَّبان، وهذا دليل على أن الجور في الوصية من كبائر الذنوب.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب العمل بما فرَض الله تعالى؛ لقوله تعالى ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والله عز وجل لا يوصي إلا بما هو حق: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ......﴾.

٢٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الوصية مبنية على أمرين: العلم والحلم؛ لقوله ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

٢١- **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله عز وجل وهما: العليم والحليم، وهما يدلان على صفتي العلم والحلم، والقاعده عندنا: أن كل اسم متضمن لصفة وليس كل صفة متضمنة لاسم، ولهذا كانت الصفات أوسع من الأسماء[1].

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾،هذه الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، فـ ﴿تِلْكَ﴾ اسم إشارة مبتدأ، وخبره، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، والمشار إليه ما سبق من المواريث في الآية، ويحتمل أن يكون المشار إليه كل ما سبق من الأحكام قبل هذه الجملة، وذلك أن القرآن وإن كان آيات مفصَّلات، لكنه في الحقيقة كلام واحد من حيث المعنى والسياق، ومعنى كلامنا: (إنه كلام واحد) أن بعضه ينبني على بعض؛ ولهذا اعتنى بعض المفسرين ببيان تناسب الآيات كما اعتنى بعضهم ببيان تناسب السور، وهذا بحث جيد، ولكن لو قال قائل: إن الإشارة تعود إلى أقرب مذكور على حسب القاعدة، كان المراد به المذكور في هذه الآية: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، (حدود) جمع حد والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض بعضها عن بعض، وحدود الله عز وجل تنقسم الى قسمين: حدود واجبات، وحدود

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

محرمات، أما حدود الواجبات فهي ما أوجبه الله على عباده بشروطها وأركانها وواجباتها، وأما حدود النواهي فهي ما حرمه الله على عباده كالزنا واللواط وشرب الخمر وقتل النفس وغير هذا، قال أهل العلم: إذا قال الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فهي من حدود الأوامر، وإذا قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] فهي من حدود النواهي فالزنا مثلًا نقول: هو حد من حدود الله فلا تقربه وهو حد من حدود النواهي. وهذه الآية هنا من حدود الأوامر.

ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، الجملة هذه شرطية،اسم الشرط فيها (مَنْ)، وفعل الشرط ﴿يُطِعِ﴾، وهو مجزوم بالسكون وأصل (يُطِعْ) يطيع، لكن حُذفت الياء؛ لالتقاء الساكنين، ولأن العين استحقت السكون بالشرط، وقال ابن مالك في «الكافية»:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

على أيهما تنطبق الآية؟ على الثاني، في قوله: ﴿يُطِعِ اللَّهَ﴾ كسر العين؛ إذنْ الآية جمعت الوجهين.

قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فما هي الطاعة؟ قال العلماء: الطاعة هي موافقة الأمر وتكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ فتاركُ شرب الخمر امتثالًا لنهي الله عز وجل يقال: إنه مطيع، والمصلي يقال: إنه مطيع، هذا إذا أفردت الطاعة فإنها تشمل فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأما إذا قُرنت بالمعصية فإذا قيل مثلًا: من أطاع الله ومَنْ عصى الله، كانت الطاعة في الأوامر خاصة والمعصية في النواهي، والآية التي معنا المراد بها: اتباع الأوامر؛ لأنها مقرونة بفعل.

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فهنا عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه تعالى؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، والمراد به: رسول معين حين نزول القرآن وهو محمد ﷺ، وأما حين قيام الشرائع السابقة، فالمراد بالرسول: من كانت شريعته قائمة، ففي عهد المسيح يكون المراد بالرسول: عيسى وفي عهد موسى يكون الرسول: موسى وهلم جرًّا، ولكن بعد بعثة الرسول ﷺ يكون المراد بالرسول: محمد ﷺ.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ﴿يُدْخِلْهُ﴾ هذه جملة جواب الشرط، وهي مجزومة بالسكون، ومقتضى الدلائل العقلية: أن الشرط يترتب على المشروط، فالشرط هنا الطاعة والمشروط: الجزاء والثواب، وهنا يكون قوله: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، المشترط الذي اشترطه الله على الطاعة يكون ضرورة حتمية؛ لصدق المُخْبِر به، وهو الله عز وجل؛ لأن المخْبَرَ به هو الله وهو أصدق القائلين وهو قادر على فعله؛ ولهذا فالله تعالى يقول في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]؛ لأنه كامل الصدق كامل القدرة وإخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إما كذب الوعد وإما العجز وعدم القدرة، والله عز وجل لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾، (جنات) جمع جنة وهي في الأصل: البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يستر من كان فيه لكثرة أشجاره، وهذه المادة (الجيم والنون) تدل على الستر، فانظر إلى لفظ (الجَنَانِ) وهو القلب؛ لأنه مستتر، و(الأجِنَّة) وهي الأحمال في بطون أمهاتها؛ لأنها مستترة، و(الجِنُّ) كذلك؛ لأنهم مستترون؛ وقوله:(الجُنَّة) ما يستتر به المقاتل، فهذه المادة كلها تدور على هذا المعنى، فالجنَّات هي: البساتين الكثيرة الأشجار، ولكنه لا يحسن أن نفسرها في هذا الموضع بهذا المعنى؛ لأنك إذا فسرتها بهذا المعنى فكأنها حصرت مدلولها بما يعرفه الناس، وسوف تقلل من أهمية الجنة الموعود بها؛ ولهذا يجب أن نفسرها بجنات النعيم وأنها الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا فسرتها بهذا التفسير بقيتْ هيبتُها في القلوب، لكن إذا فسرتها بالمعنى الأول توهم بأنها مثل: بستان فلان بن فلان كثير الأشجار كثير النخيل وما أشبه ذلك، وهي أعظم مما في الدنيا بأضعاف مضاعفة لا يعلمها إلا الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما:(ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء)، وإلا فالحقائق تختلف كما قال الله تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكما قال في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

وقوله: ﴿تَجْرِى﴾، الجريان معروف وهو سير الماء على الأرض، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت هذه الجنات يعني: أشجار وارفة وظل وأنهار متفجرة، لو تخيَّل الإنسان هذا النعيم لوجده أكبر نعيمًا، وهذه الأنهار فصَّلها الله عز وجل في سورة القتال فقال: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، ما هو عسل نحل، بل عسل خلقه الله عز وجل هكذا مصفى، واللبن ليس لبن البقر ولا الغنم ولكن أنهار خلقها الله عز وجل، أيضًا الماء لا يأسن أبدًا مهما طالت مدته بخلاف ماء الأرض فإنه يأسن وتتغير رائحته من طول المُكث، والخمر لذة قال الله فيها: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قال العلماء: إنها تجري من تحتها لا تحتاج إلى بناء يمنع تسرب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

الماء ولا تحتاج إلى حفر أخدود بل تسيل هكذا حيثما أردت قال ابن القيم في «النونية»:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ　　　سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

فهي أنهار لا تحتاج إلى حفر سواقٍ ولا إلى إقامة سدود بل تجري هكذا على الأرض، وقال أهل العلم أيضًا: إنها تجري حيثما أراد الانسان بدلًا من أن يأتي بمواد وآلات البناء يكفي أن يريدها بقلبه أو يأمرها بلسانه، اللهم اجعلنا من أهلها.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ هنا حال من ضمير (ادخلوا)، ولكن يشكل عليه أن الحال كالنعت والنعت يتبع المنعوت في إفراده وتثنيته وجمعه، وهنا صاحب الحال مفرد والحال جمع فكيف الجواب؟ الجواب أن نقول: إن الحال هنا عائدة على مَنْ الشرطية، ومن الشرطية يجوز فيها مراعاة لفظها ومراعاة معناها، فإن راعيت اللفظ أعدت الضمير إليها مفردًا، وإن راعيت المعنى أعدت الضمير إليها جمعًا، وكذلك ما يشبه الضمير من الحال والصفة وما أشبهها يجوز مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، فهنا في الآية قد راعى اللفظ في قوله:﴿يُدْخِلْهُ﴾، والمعنى في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ويجوز أن تراعي اللفظ والمعنى وتعود مرة ثانية لمراعاة اللفظ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، فراعى في الأول اللفظ، ثم راعى المعنى، ثم راعى اللفظ، وهذا جائز في اللغة العربية.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، قال العلماء الخلود: هو المكث الدائم، إلا أن يدل دليل على أنه مؤقت فيراد به المكث الطويل، وإلا فالأفضل أن الخلود هو المكث الدائم.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، المشار إليه ما ذكر من هذا الثواب الذي أعده الله لكل مَنْ أطاعه، و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ معناه: الربح يقال: فاز فلان، بمعنى ربح و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ معناه: ذو العظمة، والعظمة: هي ضخامة الشيء وجلالة الشيء وكثرة الشيء أيضًا، ومعلوم أن نعيم الجنة يتصف بالضخامة والجلالة والدوام فهو أعظم فوز، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويذكر أن الزمخشري ـ وهو من المعتزلة ـ قال تعليقًا عن هذه الآية: (أيّ فوز أعظم من أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة؟) والاستفهام هنا بمعنى النفي يعني: لا فوز أعظم من ذلك، قال بعض المتعقبين له: إنه أراد بذلك نفي رؤية الله عز وجل ـ والله أعلم بذلك ـ فَمَنْ نظر إلى اللفظ قال: لا يلزم أن يكون أراد النفي، فمن لازم دخول الجنة النظر لوجه الله، ومن عرف حال الرجل وأنه معتزلي، ولكنه ذكي، قال: لعله أراد ذلك وهذا يكفي، فأنت إذًا وَقَعَتْ مثل هذه العبارة من شخص معروف أنه يؤمن برؤية الله عز وجل ما قلنا ذلك، وما قلنا إنه أراد نفي الرؤية، ولكن من عرف حاله لم يستبعد أن يكون هذا مراده.

١ـ من فوائد الآية الكريمة: أن المواريث من حدود الله.

٢ـ ومن فوائدها: أن من نفذ هذه المواريث على نحو ما فرض الله فله هذا الثواب.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن قسمة المواريث من العبادات، وهذه تؤخذ من ترتيب التوابع عليها، ووصف ذلك بأنه طاعة.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية: عناية الشرع بإيصال الحقوق إلى أهلها؛ لأن حقيقة المواريث أن تُوصل الحقوق إلى أهلها، والله عز وجل حَكَمٌ عَدْلٌ يريد من عباده أن يوصلوا الحقوق إلى أهلها.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم طاعة لله؛ ولهذا عطفها بالواو الدالة على الجمع والاشتراك، فإن قال قائل: ما وجه الجمع بين هذه الآية وقول الرسول ﷺ لرجل قال له: ما شاء الله وشئت، قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1]؟ فالجواب: أن الأمور الشرعية لا حرج أن تقرن الرسول ﷺ معَ الله تعالى بالواو، وأما الأمور الكونية فلا يجوز؛ لأنها من خصائص الربوبية، وفعل العبد بعد فعل الله، أما الحكم فحكم الرسول حكم لله؛ ولهذا قال الله عز وجل في القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، ولم يقل ثم رسوله، وقوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]؛ لأن هذا الإتيان إتيان شرعي كإتيان الزكاة والأموال الشرعية، أما الأمور الكونية فلا؛ لأنها من خصائص الربوبية، فيجب أن يكون فعل العبد بعد فعل الله. فلا يجوز ما شاء الله وشئت؛ لأنك جعلت مشيئة الرسول كمشيئة الله وليس كذلك، ولكن طاعة الرسول كطاعة الله لقوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فجعلَ الله طاعةَ الرسول طاعة له.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾، ووجه ذلك: أن إدخال الجنات ليس في الدنيا وإنما هو في الآخرة.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعيم هذه الجنات وأن الأنهار تجري من تحتها، وأنواع هذه الأنهار معروفة في آية أخرى.

٨ ـ ومن فوائدها: دوام نعيم هذه الجنات؛ لقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وهذا الخلود هنا مؤبد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في عدة آيات في القرآن، وأجمع المسلمون على أن نعيم الجنة مؤبد، ولم يذكر في ذلك خلاف.

٩ ـ ومن فوائدها: أن هذا النعيم هو الربح العظيم الذي لا يماثله شيء؛ لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وإعراب هذه الجملة كالآتي: (ذلك) اسم إشارة مبهم (الفوز) خبر المبتدأ و(العظيم) صفة الفوز، وإذا قال قائل: (الفوز) بدل أو عطف بيان أو صفة، وعلى ذلك يكون المعنى: ذلك الفوز

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

هو العظيم، لكان صالحًا، ولكن الأعراب الأول أحسن.

ثم قال الله تعالى﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

المعصية: مخالفة الأمر أو الوقوع في النهي، فمن ترك الواجب فقد عصى، ومن فعل الحرام فقد عصى، ونقول في: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ما قلنا في: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، إلا أن الإعراب هنا يختلف، فإن (يعص) فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة وهي الياء.

وقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ كيف تكون (يتعد) بالفتح مع أنها معطوفة على (يعصِ) المجزومة؟ لأنها مجزومة بحذف حرف العلة وهو الألف، وأصلها يتعدى، والمراد بتعدي الحدود هنا: مجاوزةالأوامر، أي: يتجاوز ما حده أمرًا.

وقوله: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ هذه جواب الشرط، والنار معروفة هي: هذا الجسم الملتهب الحار فالنار معروفة وهذا يكفي، كما نقول: السماء فوقنا والأرض تحتنا.

وقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ هنا قال: (خالدًا)، وهناك في الجنة قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: فهل هناك نكتة أو فائدة أو حكمة؟ الجواب: نعم؛ لأن أهل الجنة يتنعمون باجتماع بعضهم إلى بعض، وأما أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد ورد أن كل واحد منهم في تابوت لا يرى أحدًا ولا يراه أحد، اللهم إلَّا على سبيل التقريع، فهذا هو السر ـ والعلم عند الله ـ.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يعني: مع إدخاله النار وخلوده فيها لا يبقى مستقرًّا أبدًا، بل هو معذب عذاب إهانة، فيكون عذابًا جسميًّا وعذابًا قلبيًّا نفسيًّا؛ لأن العذاب الجسمي أهون من العذاب القلبي والألم القلبي؛ ولهذا قال العلماء: ينبغي أن يُختن الإنسان وهو صغير؛ لأن الختان في الصغر ليس فيه إلا ألم الجسم، أما الكبير إذا خُتن وهو كبير صار فيه ألم جسمي وألم نفسي قلبي، فيفكر ربما هذا الجرح ربما يزداد عليَّ وربما أموت وما أشبه ذلك، ولكن الصغير إذا برد عليه سكت وإذا طال عليه الوجع صاح ولو ماشيناه يسكت. المهم: أن عذاب أهل النار ـ والعياذ بالله ـ عذاب مهين، أي: ذو إهانة؛ لأنهم يُقرَّعون ويوبخون.

١ـ في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن معصية الله عز وجل سبب لدخول النار؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾، وإنما قلنا: سبب؛ لأنه قد يتخلف لوجود مانع وهو عفو الله عز وجل في غير الشرك، أما الشرك فلابد أن يدخل صاحبه النار وهو خالد فيها؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وعلى هذا فنقول: إن المعصية إن كانت دون الشرك فهي سبب لدخول النار، وليس دخول النار واجبًا بها؛ إذ قد يعفى عنه وإن كان شركًا فهي سبب حتمي لابد أن يدخل صاحبها النار ويخلد فيها.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم الوصية للوارث؛ لأنك إذا أوصيت للوارث تعديت الحدود، فإذا أوصت المرأة لزوجها بالثلث كان له على مقتضى الوصية ثلث ونصف، وهذا تعدٍّ للحدود؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَةَ لِوَارِثٍ»[(١)].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: تقسيم المخالف إلى عاصٍ ومتعدٍّ للحدود، فالمعصية هنا فعل المحرم، وتعدي الحدود: ترك الواجب أو الغلو فيه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن معصية رسول الله معصية لله أو كمعصية الله؛ لأنه قرنها بمعصية الله بحرف يقتضي التسوية.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ جمع بين الأمرين: المعصية وتعدي الحدود يدخل النار، ولكن هل هو دخول أبدي أم هو دخول مؤقت؟ يقال: حسب المعصية؛ لأن الله ذكر في الآية السابقة أن مَنْ أطاع الله ورسوله دخل الجنة، وهنا قال: من عصى الله ورسوله دخل النار، فيقال: الطاعة الغالبة يدخل بها صاحبها الجنة بدون أن يدخل النار، والمعصية الغالبة التي ما فيها طاعة يدخل بها صاحبها النار، فيعطى الحكم جزاءً وفاقًا. وعلى هذا فالعاصي معصية مطلقة والمتعدِّي للحدود تعديًا مطلقًا يدخل النار ولا يدخل الجنة، والذي جمع بين المعصية والطاعة فإن غلبت الطاعة لم يدخل النار، وإن غلبت المعصية دخل النار بقدر ذنبه وخرج منها.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الخلود في النار؛ لقوله: ﴿خَـٰلِدًا فِيهَـا﴾، وقد ذكر الله تعالى أن الخلود في النار مؤبد في آيات ثلاث من القرآن في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن، ففي سورة النساء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وفي سورة الجن قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وإذا كان الله تعالى ذكر التأبيد في آيات ثلاث، فإن أي قول يخالف ذلك فهو ساقط؛ لأن من لزوم الخلود لزوم المكان، إذا قيل: هذا خالد في النار أبدا لزم أن يكون المكان الذي يخلد فيه مؤبد وإلا فلا معنى لتأكيد التأبيد، فقول بعض العلماء: إنهم خالدون فيها أبدًا ما دامت باقية، قول ساقط لا وجه له من النظر؛ لأن الله صرَّح بالتأبيد - تأبيد الخلود - ويلزم من تأبيد الخلود في مكان أبدية المكان وإلا لم يكن لذلك فائدة.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الذين في النار - والعياذ بالله - يعذبون عذابًا مهينًا أي: ذا إهانة لهم وليسوا بمكرمين، فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٢٠)، وأبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٣٩٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٥٥).

فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩]؟

فالجواب من أحد وجهين: إما أن يكون هذا على سبيل التهكم به، وإما أن يكون هذا ليذكر حاله في الدنيا، يعني: أنت العزيز الكريم في الدنيا؛ حتى يزداد حسرة حيث إنه كان في الدنيا عزيزًا كريمًا وهو الآن ذليلًا مهينًا، وكلا الأمرين - والعياذ بالله - يحصلان لهذا الذي يُوجه له هذا الخطاب.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥، ١٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي﴾ مبتدأ، وخبره جملة ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾، وهنا نقول: لماذا اقترنت الفاء في خبر المبتدأ؟ والجواب على ذلك: أنه لما كان المبتدأ اسمًا موصولًا كان مشبهًا لاسم الشرط في العموم، فأُعطي حكمه واقترنت الفاء بخبره، ومنه قول النحويين في المثال المشهور: (الذي يأتيني فله درهم)، فإنه ناب مكان قولك: (من يأتيني فله درهم)، فاسم الموصول لما أشبه الشرط في العموم صار دخول الفاء في خبره كدخول الفاء في جواب الشرط.

وقوله: ﴿وَالَّتِي﴾ جمع التي، ولكنه على غير القياس، لأن هذه الأسماء غير مشتقة.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾، الفاحشة: ما يُستفحش شرعًا وعرفًا، والذي يستفحش شرعًا يستفحش عرفًا في أعراف المسلمين لا في أعراف غير المسلمين، وإنما قيدنا ذلك؛ لأن الزنا فاحش شرعًا وفاحش عرفًا لدينا، لكن في عرف الكفار ليس بفاحشة، ومن هنا نعرف أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[1]، أن هذا خاص بالمسلم الذي يكره الإثم ويكره أن يطلع عليه الناس في حال إثمه، وإلا فإن الكافر لا يحوك في نفسه الإثم.

قوله: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ المراد بالفاحشة هنا: ما يستفحش شرعًا وعرفًا، والمراد بها: الزنا، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وعلى هذا فتكون (أل) للعهد

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥٣)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٧٩)، والترمذي (٢٣٨٩)، والدارمي (٢٧٨٩).

الذهني؛ لأنه لم يطلب لكنه معروف شرعًا وإنما قررنا ذلك لرد قول من يقول -كأبي مسلم الخرساني-: إن المراد بها: السِّحاق بين النساء، ولكن هذا بعيد من الصواب، ولم يقل به أحد من الصحابة والتابعين فيما نعرف، والصواب: أن المراد بالفاحشة هنا: الزنا.

وقوله ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾، المراد بها الجنس يعني: جنس النساء سواء كانت من زوجاتنا أو من غير زوجاتنا، و(من) هذه بيان للموصول بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة، وأربعة هنا عدد يدل على أن المعدود مذكر وجهه كونها مرفوعة، فلو كانت مرفوعة لم تدل على أن المعدود رجال؛ وذلك لأن العدد المؤنث يكون معدوده مذكرًا فتقول: تسعة رجال وتسع نساء، والمعنى: أربعة منكم من أفراد المسلمين؛ لأن من صفات الشهادة، ولاسيما في مثل هذا الأمر العظيم أن يكون الشاهد مسلمًا.

وقوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟﴾، يعني: شهدوا على فعل الفاحشة.

وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، الخطاب هنا عام فمن الذي يقصد به؟ الذي يقصد به ولي الأمر إما الخاص وإما العام، وقوله: ﴿ٱلْبُيُوتِ﴾ جمع بيت، أي: أمسكوها في بيتها لا تخرج؛ لأن ذلك وسيلة إلى تقليل الزنا حيث تبقى محبوسة في بيتها لا تخرج فتفتن الناس وتفتتن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: يقبضهن يقال: توفيت حقي من فلان، أي: قبضته، وقوله:﴿ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: ملك الموت؛ لقول الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ولكنه عبر عن ذلك بالموت توسعًا، والموت: هو فقد الحياة، وذلك بخروج الروح من البدن؛ لأن الروح بالبدن عريَّة متى دعيت خرجت.

وقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، (أو) هذه حرف عطف، وقوله:(يجعل) معطوفة على (يتوفى) فهي منصوبة، والمعنى: أي يصيِّر الله لهن طريقًا للخلاص من هذا الإمساك، وقد جعل الله لهن سبيلًا بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وقال النبي ﷺ: «خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مَائَةٍ وَالرَّجْمُ»[1]، فتبين من هذا أن المراد بالسبيل: ما شرعه الله تعالى من حدِّ الزاني جلدًا وتغريبًا، أو رجمًا وجلدًا.

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: عظم الزنا وأنه من الفواحش؛ لأنه بالاتفاق أن المراد

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٩٠)، والترمذي (١٤٣٤)، وأبو داود (٤٤١٥).

بذلك: الزنا، والقول بأنه السّحاق قول ضعيف لا يعول عليه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لابد في الزنا من شهادة أربعة رجال عدول لقوله: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، والصحابة كلهم عدول، أو نقول: ﴿مِّنكُمْ﴾ خطاب للصحابة كلهم، ويحمل على الإطلاق على العدالة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الرجل أفضلُ من المرأة في الشهاده وأثبتُ؛ وذلك لأن الله لم يعتبر في الزنا إلا شهادة الرجال.

٤ - **ومنها**: أن الحد يُدرأ بالشبهة؛ وذلك لأن اشتراط أربعة رجال أَثْبَاتٍ للشهادة، وشهادة النساء الأربع فيها شبهةٍ بأنهن لم يضبطن، كقول الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولا شك أن الحدود تُدرأ بالشبهات، ولكن يبقى عندنا مناط الحكم وهو ما هي الشبهة التي يُدرأ بها الحد؟ فمن العلماء مَنْ توسَّع في الموضوع فقال: لو أنه استأجر امرأة للزنا فزنا بها فلا حد عليه؛ لأن استئجاره إياها شبهة كما لو استأجر بيتًا يسكن به، ومن العلماء من توسط، ومنهم من شدَّد، والغالب: أن الأقوال إذا اختلفت على ثلاثة فإن الوسط هو الصحيح.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لابد من تصريح الشهداء بالشهادة؛ لقوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، ولهذا يجب أن يقول الشهود: رأينا ذكره في فرجها كما يوضع المِرْوَدُ في المكْحَلَة، ولا يكفي أن يقول الشهود: رأينا رجلًا على امرأة وهما عراة ورأينا ذكره بين فخذيها لا يكفي هذا لابد من التصريح بالجماع كما قال رسول الله لماعز: «أَنِكْتَهَا؟»[1]، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في زمنه: إنه لم يثبت حد الزنا بالشهادة إلى يومنا؛ لأنها صعبة.

فإن قال قائل: هل يمكن أن نثبته بالتقاط الصورة؟

قلنا: كنا نقول بذلك لكن لما تبين لنا (دبلجة المصورين) قلنا: لا يثبت و(الدبلجة) تعني: أنهم يجمعون صورة فيجعلون رجلًا على امرأة قد جامعها، وهما ليسا كذلك، والمشكلة في الدبلجة هذه - نسأل الله أن يكفينا شرها - بدأوا يدبلجون كلامنا أيضًا فيأخذون مثلًا من كلامي حرفًا من كلمة وحرفًا من كلمة أخرى ويركبون بعضها على بعض وينشرونها خطبة بصوتي على ما يريدون هم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن حبس المرأة في بيتها من أسباب دَرْء الفتنة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾؛ لأن هذا نوع من العقوبة من وجه، وكف لأسباب الفتنة من وجه آخر.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن البيت خير للمراة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٣٨)، وأبو داود (٤٤٢٧)، وقال الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٢٢): «وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

﴿فِي ٱلْبُيُوتِ﴾، وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «بُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»(١).

٨ ـ **ومن فوائدها**: أنه لا يجوز حبس المرأة في بيتها بحيث تمنع من الخروج إلا إذا كان هناك فتنة وشر، وإلا بالأصل أنها لا تمنع من الخروج من البيت وبيان هذا أن الله أوجب بقاء المرأة المتوفى عنها زوجها في بيتها؛ فدل ذلك على أن غيرها لا يلزمها البقاء في البيت وهو كذلك، فينبغي أن نرغِّب النساء في البقاء في البيوت، ولكن لا نلزمهن بذلك.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: مشروعية العقوبة بالحبس المؤبد والعقوبة بالحبس المؤبد أصلٌ في الشرع، أما أن نجعله مشروعًا، وقد نسخ ففي النفس منه شيء.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الجَعْل لله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والجَعْل نوعان: جعل شرعي وجعل كوني قدري، فمن أمثلة الجعل الشرعي قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ما جعل أي: جعلًا شرعيًا، أما قدريًا فقد جعل البحيرة والسائبة والوصيلة والحام موجودة، وأمثلة الجَعل الكوني كثيرة في القرآن قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩-١١]، والأمثلة كثيرة.

١١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، يعني: إثبات صفة الفعل المتجدد لله، واعلم أن الفعل من ظاهر اللفظ نوعان: جنس ونوع

الأول: الجنس وهو صفة أبدية أي: أن الله كان ولم يزل فعالًا، فهو فعال في الأزل كما هو فعال في الأبد؛ ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: القول بتسلسل الحوادث في الماضي كما هي في المستقبل لكننا لا نعلم ما تسلسلها في الماضي إلا بما أخبرنا به فقط، وإلا فنحن نؤمن بأن الله كان ولم يزل فعالًا سبحانه وتعالى.

الثاني: النوع مثل الاستواء على العرش، وهذا حادث فالله عز وجل لم يستوِ على العرش قبل خلق العرش، أما الأحاد فكثير كالنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة وكالمجيء للفصل بين العباد والنزول إلى السماء الدنيا عشية عرفة، والغضب عند وجود السبب والرضا عند وجود سببه والضحك والعجب عند وجود سببه أشياء كثيرة، وقد أثبت أهل السنة ذلك وأنكر ذلك الأشاعرة والمعتزلة ومَنْ سلك سبيلهم، وقالوا: لا يمكن أن يوصف الله بصفة ثبوتية أبدًا؛ ولهذا يرون القرآن الذي بين أيدينا قديمًا، وعللوا هذا الحكم الفاسد فقالوا: إن قيام الحوادث بالله عز وجل يقتضي أن يكون حادثًا؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بالحادث، ولا شك أن هذه علة عليلة، بل ميتة، من قال لهم هذا؟! بل كون الحوادث تحدث بالله تعالى وأنه يفعل ما يريد دليل على كماله وكمال حياته ولو تصور الإنسان ربًا لا يفعل وربًا يفعل لكان مقتضى الفطرة أن الثاني أكمل بلا

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٣٨)، وأبو داود (٥٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥١٥).

شك. فالصواب: أن أفعال الله سبحانه وتعالى كما تكون جنسًا تكون نوعًا وتكون فرضًا آحادًا.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ في مقابل اللاتي وهي تكون للذكور، ولكن المقابلة ليست ختامًا، هنا قال: اللذان وهناك قال اللاتي لماذا؟ قال بعض العلماء: إن المراد بـ ﴿ٱلَّذَانِ﴾ هنا الزانية والزاني، ولكن الزانية سبق حكمها بأنها تحبس في البيت والزاني يُؤذى ولا يحبس في البيت، وقال بعض العلماء: المراد بهما: اللوطي يعني: الفاعل والمفعول به، وأضاف الإتيان إلى المفعول به مع أنه مأتيٌّ لأن القابل الراضي كالفاعل.

وقوله: ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾، هنا الضمير يعود على الفاحشة، وفاحشة الرجال هي اللواط وهي أعظم من فاحشة الزنا والدليل على عظمتها أن لوطًا قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾، وفي الزنا قال الله عنه: ﴿كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ أي: من الفواحش، أما هذا فقال: ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾؛ لأنها مستفْحَشة في عقل كل إنسان، ثم إن الزنا جنسه مما يباح بالعَقْد، واللواط لا يُباح بأي حال من الأحوال لا بعقد ولا بغيره فكان أفحش، وقوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ وذلك بالسب والتعيير والضرب والإعراض على سبيل التعزير وما أشبه ذلك؛ لأنه يفعل ما يتأذى به.

وقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: إن تابا مما وقع منهما وأصلحا عملهما في المستقبل فأعرضوا عنهما؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له فيُعرض عنه؛ لأن السبب ما دام موجودًا فالمسبب يتبعه، فإذا زال السبب زال المسبب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿تَوَّابًا﴾ صيغة مبالغة، فذلك لكثرة توبته وكثرة مَنْ يتوب عليهم فالذين يتوب عليهم لا يعصون وتوبته عز وجل لا تُحصى، وتوبة الله على العبد نوعان: توبة قبل فعل التوبة، وتوبة بعدها فالتوبة التي قبل فعل التوبة: توفيق للتوبة، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، والتوبة التي بعد التوبة هي: قبول التوبة كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، فالله سبحانه وتعالى تواب بهذا المعنى وهذا المعنى، و﴿رَّحِيمًا﴾ أي: ذو رحمة يوصلها إلى مَنْ يشاء من عباده كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وفي هذه الآية شيء من الإشكال وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، فإن المعروف أن (كان) للماضي ويفهم منها أن هذا الوصف كان فزال، كما لو قلت: كان فلان طالب علم، يعني: كان ولم يعد. فأجاب العلماء عن هذا الإشكال أن: (كان) قد تسلب منها الدلالة على الزمن ويكون المراد بها: تحقق الاتصاف، وكل ما أضيف إلى الله من هذا القبيل فهذا هو المراد به ،قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤] وقال أيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٦] والمراد: أنه متصف به أزلًا وأبدًا، ولكن أتت (كان) لتحقيق اتصافه بهذا الوصف.

١ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن اللُّواط له حكمان: الحكم الأول: ما دلت عليه الآية، والحكم الثاني: ما دلت عليه السنة، أما الحكم الأول: أن الذي يأتي الفاحشة من الرجال يؤذى بالقول والفعل وبالهجر ووغيره وكثير من الناس تكون أذيته أشد من ضربه وأشد من حبسه، وأما الحكم الثاني الذي من السنة: فهو قتل الفاعل والمفعول به؛ لقول النبي ﷺ «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ**»(١)، ولا يحمل هنا المطلق على المقيد فيقال: اقتلوا الفاعل والمفعول به إن كانا محصنين كما هو الشأن في الزنا، وذلك أنه من شرط حمل المطلق على المقيد أن يكون الحكم واحدًا والسبب واحدًا، وهنا اختلف السبب والحكم، فهناك السبب الزنا وهو فيه تارة يحل بالجملة بعقد النكاح الصحيح، أو ملك اليمين أما هذه فاستباحة فرج لا يحل مطلقًا، كذلك أن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ يصعب التحرز منها؛ لأنها تكون بين الذكور ومن يحبس الذكور بعضهم عن بعض؟! لا يمكن حبسهم فالتحرز منها صعب، فإن لم يكن لها عقوبة رادعة قوية انتشرت في المجتمع وإذا انتشرت في المجتمع فسد الرجال والنساء ـ نسأل الله العافية ـ لأن من عقوبة اللوطي ألا يشتهي النساء فإذا لم يشتهِ النساء بقيت النساء متعطلة، وانتشر الفساد، والدليل على أن اللوطي ينزع منه شهوة النساء قول لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] فهم لم يذروا النساء إلا لأنه سُلبت شهوة النساء من نفوسهم، وإلا فإن الإنسان بفطرته يميل إلى النساء، وهذه الفاحشة إذا انتشرت في المجتمع فسد رجاله ونساؤه وتعطلت مصالحه، ولذلك كانت الحكمة تقتضي القضاء على هذه الجرثومة الفاسدة بالقتل، ولا يحمل هنا المطلق على المقيد لاختلاف السبب والحكم، وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن الصحابة أجمعوا على قتل الفاعل والمفعول إلا أنهم اختلفوا في كيفية القتل؛ فمنهم من قال: يُلقون من شاهق من أعلى مكان في البلد ثم يتبعان بالحجارة، ومنهم من قال: يرجمان، ومنهم من قال: يحرق اللوطي الفاعل والمفعول به؛ لأن جريمتها عظيمة منكرة وسماها لوط ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾، والزنا في كتاب الله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ والأول أشد.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من تاب وأصلح وجب الكفُّ عن عقوبته، وقد صرح الله تعالى في آية المحاربين في سورة المائدة أن ذلك مشروط بما إذا تاب قبل أن يُقدر عليه قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٤]،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، و أبو داود (٤٤٦٢)،والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

أما لو تاب بعد القدرة فلا ترفع عنه العقوبة، لكن الذي يظهر من السنة أن الذي يظهر بإقرار ثم تاب فإنه يجب أن يترك؛ ودليل ذلك حديث ماعز بن مالك رضي الله عنه حين جاء إلى رسول الله ﷺ فأمر برجمه، فلما أصابته الحجارة أي: لما أصابه مس الحجارة هرب، ولكن الصحابة لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر برجمه قالوا: لابد من تنفيذ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام فنفذوا الرجم ثم أخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ؟»[1]، فدل ذلك على أن المقر إذا تاب ـ ولو في أثناء الحد ـ فإنه يُترك ليتوب الله عليه.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن التوبة من الذنب لابد أن يقارنها إصلاح؛ لقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾، ولكن كيف تكون التوبة في مثل هذا؟ قيل: إن التوبة في مثل هذا أن يُراود فيمتنع يعني: مثلًا يقال لهذا المفعول به ما هذا يريد أن يفعل بك فإذا امتنع دل ذلك على توبته، ويقال للفاعل هذا يريد أن تفعل به فلو امتنع فهذه توبته، وكذلك يقال في الزاني والزانية، ولكن هذا القول قول منكر بعيد عن الصواب؛ لأن المراودة لا تكون إلا في حال سر فلن يراود أحد شخصًا أمام الناس ثم إن كان المَراوِدُ أهلًا للفعل، يعني: يُتوقع منه أن يفعل فإنه قد يستجيب وعندئذٍ تقع الفاحشة، وإن كان المراود ليس أهلًا لأن يفعل فسيتنبه المُرَاوَدُ أنه يختبره فيمتنع، وبهذا نعرف أن هذا القول لا أساس له من الصحة، ولكن التوبة من غير هذا إذا عرفنا أن الرجل عزف عن هذا الشيء وصار لا يذهب إلى المجالس التي فيها هذه الفاحشة وما أشبه ذلك، عرفنا أنه تاب؛ ولهذا قرن التوبة هنا بالإصلاح فلابد من شيء يدل على أنه تاب وهو إصلاح العمل والبعد عن هذه الفاحشة.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن الحكم يدور مع سببه وجودًا وعدمًا وجهه: أنه قال: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ إذنْ لما زالت العلة زال الحكم، ولكن إن كانت العلة منصوص عليها فإنها إذنْ تخلفت، فلابد أن يتخلف الحكم وإن كانت مستنبطة فلا ينبغي أن يتخلف الحكم بتخلفها؛ لأنه من الجائز ألا تكون هذه العلة المستنبطة شرعًا هي هذه العلة المستنبطة فنلغي حكمًا من أحكام الله ثابتًا لمجرد الاحتمال، أما لو نص عليها فالحكم يدور معها مثل قوله ﷺ: «إِذَا كُنْتُم ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[2]، فهذا دل على أنه إن كان لا يحزن بهذا التناجي جاز ذلك.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين لله وهما: التواب والرحيم وقد سبقا لنا.

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٣٨٣)، وأبو داود (٤٤١٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٤٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري(٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ التوبة مبتدأ مسبوق بأداة الحصر وهي (إنما)، وخبر المبتدأ قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أو قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ يحتمل هذا أو هذا وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ (السوء) يعني: العمل السيء كفعل المنكرات ما أو ترك الواجبات، ولكنه قيدها بقوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾، والمراد بالجهالة هنا: السفاهة، وليست الجهل؛ لأن فاعل السوء بجهل معذور لا لوم عليه؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكن المراد بالجهالة هنا: السفاهة، ومن الأول قول الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يعني: إذا فعلوا السوء بجهالة تابوا إلى الله من قريب، والقريب هنا: ما كان قبل الموت فإذا تابوا قبل الموت تاب الله عليهم، ولكن سيأتينا في الفوائد أنه تجب التوبة فورًا، و﴿يَتُوبُونَ﴾ يعني: يرجعون إلى الله، وذلك بترك ما فعلوه من السوء أو فعل ما تركوه من الواجب.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، هذه جملة باعتبار ما قبلها تأكيد؛ لأن هذا الحكم مفهوم من قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، ولكنه أكد ما التزم به الله تعالى على نفسه بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وأشار إليهم بـ (أولئك) مع أنهم باعتبار الحديث عنهم في محل القرب، والقريب يشار إليه بـ (هؤلاء)، ولكن هنا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾، فأشار إليهم بإشارة البعيد وذلك إشارة إلى علو منزلتهم بالتوبة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: ذا علم وحكم وحكمة، فالعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه، وهذا التعريف يخرج الجهلين جميعًا: الجهل البسيط والجهل المركب؛ لأن الجهل البسيط ليس فيه إدراك مطلقًا، والجهل المركب فيه إدراك الشيء على غير ما هو عليه، وعلم الله عز وجل علم كامل شامل لم يسبق بجهل ولم يلحق بنسيان، قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، لا يجهل ولا ينسى ما عرف، فعلمه شامل قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد بيّن الله تعالى علمه في كتابه أحيانًا بالإجمال وأحيانًا بالتفصيل كقول الله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهذا تفصيل، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، أيضا فيه شيء من التفصيل، أما الإجمال فكثير في القرآن والعلم أشمل من القدرة وأوسع؛ لأنه يتعلق بكل شيء حتى بالممتنع بخلاف القدرة التي تشمل كل شيء وبخلاف المستحيل، أما العلم فيشمل حتى المستحيل ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فإن تعدد الآلهة مستحيل، ومع ذلك أخبر الله تعالى أنه لو كان كذا لكان كذا وكذا، وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ مشتق من الحُكم والحكمة فهو حاكم ومُحكِم؛ حاكم إذا جعلناه مشتقًا من الحكم، ومحكم إذا جعلناه مشتقًا من الحكمة.

١- من فوائد الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بيان فضل الله عز وجل على عباده بإيجاب التوبة على.

٢- ومن فوائدها: أن لله أن يوجب على نفسه ما شاء وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولكن له أن يوجب على نفسه ما شاء وله أن يحرم على نفسه ما شاء قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[(١)]، فَحَرَّمَ على نفسه الظلم، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، هذا إلزام وفرض ومن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٣- ومن فوائدها: أن الرشد يختلف باختلاف مواضعه فالرشد في المال إحسان التصرف فيه، والرشد في الولاية معرفة ما يجب لها في الولاية إن كان ولاة سلطان وإمارة فلها رشد معين وإن كانت ولاية نكاح فالرشد في الولي: إن يعرف الكفْء للمرأة ومصالح النكاح إن كان رشد في معاملة الناس فهناك أيضًا رشد يخصه ويجمع هذا كله هو إحسان التصرف فيما يتصرف فيه هذا هو الرشد وضده إساءة التصرف.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على المبادرة بالتوبة؛ لقوله ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ بل وجوب المبادرة بالتوبة، ووجهه: أن المراد بالقرب هنا: الموت، والموت ليس معلوم وقته وإذا كان كذلك كانت المبادرة بالتوبة واجبة؛ لأن الإنسان ما يعرف ما يعرض له وهو كذلك الواجب المبادرة بالتوبة؛ ولأن الإنسان إذا أصر على المعصية يقسو قلبه وتكون هذه الصغيرة وإن كانت من صغار الذنوب تكون كبيرة؛ ولهذا ذكر بعض العلماء: أن التهاون بالمعصية والاستمرار على المعصية

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

الصغيرة يجعلها كبيرة فإذا فعل الإنسان صغيرة تهاونًا بالله وبأوامر الله صارت كبيرة بما قام بقلبه من التهاون بها، بل وقالوا: وإذا فعل الكبيرة مع شدة تعظيمه لله عز وجل وخوفه منه وخجله منه، ولكن سولت له نفسه أن يفعلها فإن ذلك يجعلها صغيرة والرجل الذي كان يضرب في الخمر حين لعنه بعض الصحابة قال له النبي عليه الصلاة والسلام «إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ»، فالإنسان العاصي قد يكون بقلبه من هيبة الله وإجلاله وتعظيمه ما يجعله عند فعل المعصية خجلًا من الله مستحي منه فتنقلب الكبيرة صغيرة لما قرنها بخوف الله وتعظيمه وإجلاله؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات والعكس بالعكس، فتهاون الإنسان لأمر الله ويعصي الله معصية صغيرة ولكنه متهاون غير مبالٍ بعظمة الله فتكون هذه الصغيرة كبيرة لما قام في صدره من التهاون في حق الله عز وجل.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: قبول الله للتوبة إذا تاب الإنسان من قريب؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾

٧- **ومن فوائدها**: إثبات العلم لله والحكم أيضًا المفهومة من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقد بينا في التفسير أن علم الله تعالى واسع شامل لكل صغير وكبير وقريب وبعيد وأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

٨- **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمين لله وهما: (العليم والحكيم).

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]

❁ التفسير ❁

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هنا قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ﴾، ولم يقل: على الله؛ لأن هذه التوبة منتفية شرعًا فهي ليست حقيقية ليست التوبة للذين يعملون السيئات.

وقوله: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل المراد بها: الجنس، وهو الأظهر أو: الجمع؛ لأنه ظاهر اللفظ.

فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، هؤلاء لا توبة لهم؛ لأن توبتهم توبة ضرورة كالمكره على العمل، والمكره على العمل لا حكم لعمله كما هو معروف أن من

أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فلا يحكم بكفره كذلك هذا الذي تاب بعد أن آيس من الدنيا وأيقن أنه راحل فإن هذه التوبة لا تنفع.

وقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ أي: عندما شاهد الموت يتوب أي: توبة صادقة لشخص علم أنه قد فارق الدنيا، وهذا نظير قوله ﷺ من بعض الوجوه: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ البَقَاءَ وَتَخْشَى الفَقْرَ»(١)، والمعنى: أنه صحيح لا يخشى الموت ولا يخشى الفقر؛ لأنه شحيح.

ولا تمهل يعني: تؤخر حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان من فلان الذي كان له الوالد وهذا يقع كثيرًا إذا أيس الإنسان من حياته زهد وأوصي بأعمال البر والصدقة على الفقراء وطبع الكتب وبنى المساجد وكان قبل عشرة أيام ما كان يفعل، أما الآن آيس من حياته وعلم أنه مفارق لا محالة.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (الواو) حرف عطف، وقوله:(لا) زائدة للتوكيد و﴿ٱلَّذِينَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: ولا تأتي التوبة أيضًا على الذين يموتون وهم كفار فلا توبة لهم؛ لأن من مات انقطع عمله، فكيف يقول: و(لا) الذين يموتون وهم كفار ؟ نقول: المراد بذلك ندمهم يوم القيامة حيث يندمون ويقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فتوبة الكافر بعد الموت المراد بها: ندمه الذي يظهره يوم القيامة، فإن ذلك لا ينفعه؛ لأن وقت العمل انتهى وما بقي إلا وقت الجزاء فلا تنفعه.

وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ المشار إليهم الكفار الذين ماتوا على الكفر أعد الله لهم عذابًا أليمًا، أما من مات على ما دون الكفر فهذا أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له فإعداد النار إنما هو للكافرين، أما العصاة فقد يعفى عنهم ولا يدخلون في النار أبدًا .

١- **في هذه الآية عدة فوائد منها:** أن التوبة تنقطع بحضور الموت؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن المحتضر لا حكم لقوله أو نقول لا حكم لقوله الذي يستعتب به؛ لأنه في هذه الحال لا وقت للاستعتاب، أما لو قال قولًا آخر فإنه يعتبر؟ الجواب: الأول ـ المحتضر ـ لا عبرة لقوله؛ لأنه غير كامل الشعور فلا يعتمد بقوله.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يشترط من صحة التوبة أن تكون في الزمن الذى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

تقبل فيه التوبة، وذلك قبل حضور الموت وحينئذ يحسن بنا أن نذكر شروط التوبة وقد تتبعناها فوجدناها خمسة:

الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل بأن لا يكون الحامل له علي التوبة إلا محبة لله والقرب إليه والخوف من عذابه لا لينال شيئًا من الدنيا، إنما يحمله على التوبة الإخلاص لله عز وجل.

الشرط الثاني: الندم أي: الندم على ما فعل من الذنب فإن تاب بلا ندم فتوبته إما فاسدة لعدم تمام شروطها أو ناقصة جدًا وقد أورد بعض العلماء عن هذا الشرط إشكالًا وهو أن الندم انفعال والإنسان يفعله ولا يندم فكيف هذا؟ والجواب عن ذلك سهل جدًا: إن النادِم يشعر بنفسه أنه أساء فيحزن ويتمنى أن لم يكن فعل هذا؛هذا هو الندم والمراد به وهذا شئ ممكن ولهذا أرشد النبي عليه الصلاة والسلام أن الانفعال قد يملكه الإنسان فقال: «لَيْسَ الشدِيْدُ بِالصُّرْعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيْدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[1]، عند الغضب أي: الانفعال وكذلك أيضًا ضعف الانفعال ممكن.

الشرط الثالث: الإقلاع عن الذنب فإن لم يقلع فتوبته كاذبة وهو أن الاستهزاء بالله أقرب منه إلى تعظيم الله فكيف يقول: إنه تائب عن شرب الخمر مثلًا، وهو مدمن لها؟ وكيف يقول: إنه تائب عن الربا وهو مصرٌّ عليه؟ هذا استهزاء بالله عز وجل فلو أنك أتيت ملكًا من الملوك وقلت: أنا تائب ما أسبك ، ووجد غفلة من الملك فقلت ولو بالإشارة: هذا ملك لا خير فيه، هل تكون هذه توبة؟لا أبدًا ما هي توبة، فكيف بملك الملوك عز وجل؟ كيف تتوب إلى الله من ذنب وأنت مصرٌّ عليه؟

فإذا قال قائل: نرى بعض الناس يقول: وإذا كان الذنب حقًا لآدميٌّ فلابد من إيصاله إليه.

قلنا: هذا الشخص لا يقضى عما قلنا وهو الإقلاع عن الذنب إذا كان ذنبك حقًا لآدمي وأصررت علي إضاعة هذا الحق فأنت لم تقلع عن الذنب فإن كان حق الآدمي مالًا فأعطه إليه إن كان جمل فأعطه إياه، و إن كان عرضًا فاستحلله منه . إذا كان مالًا وقد مات الذى ظلمته فيه، فماذا أصنع؟ ابحث عن ورثته فإن لم تجد وتعذر عليك فتصدق به وحينئذٍ تتصدق به عن الورثة أو عن الميت، وحتى إذا رددت المال إلى الورثة فيجب عليك أن تستغفر لذنبك عن الميت؛ لأنك حُلت بينه وبين ماله .

مسألة: إذا كانت غيبة يعنى: قد ظلم شخصًا في عرضه، فماذا يصنع؟

الجواب: قال بعض العلماء: لابد أن يستحله ويذهب إليه ويقول: إني اغتبتك فحللني، وهذه المسألة اعترض عليها بعض العلماء وقالوا: إنه إن ذهب يقول له: إني اغتبتك فحللني

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

ربما تأخذه العزة بنفسه ويقول: لا، ولكن يجب التبسيط وهو أنه إذا كان قد علم بأنك اغتبته فإنه وجب عليك أن تستحله، أما إذا لم يعلم ولا تخشى أن يعلم فإنه يكفي أن تستغفر له على ما جاء في الحديث كفارة لمن اغتبته أن تستغفر له، فتستغفر له واذكره بخيرٍ في المجالس التي كنت تغتابه فيها.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألّا يعود في المستقبل علي ما تاب منه.

فان كان قد تاب وندم وأقلع لكن في قلبه أنه لو تمكن من فعل الشيء مرة ثانية فعله، فهذا لم تصح توبته؛ لأنه لم يعزم على ألّا يعود بل لابد أن يعزم علي ألّا يعود فإن كان يحدث نفسه أنه إذا حدث له هذا الذنب يعود إليه، فهذا لم يتب ويجب أن تعرف الفرق بين قولنا: العزم على ألّا يعود وبين شرط ألّا يعود فهذا ليس بشرط ألّا يعود الشرط أن يعزم على ألّا يعود ،والفرق بينهما ظاهر؛ لأنك إذا قلت: يشترط العزم علي ألّا يعود وعزم ألّا يعود، ثم سولت له نفسه بعد ذلك فعاد فإن التوبة الأولى صحيحة، لكن لو قلت: يشترط ألّا يعود فإنه إذا عاد بعد ذلك فتوبته غير صحيحة، لكن العلماء يقولون: يشترط أن يعزم ألّا يعود .

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل به التوبة فإن كانت في وقت لا تقبل به كما لو حضر الأجل أو طلعت الشمس من مغربها فإن التوبة لا تقبل قال النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ التَّوبَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الهِجْرَةُ وَلَا تَنْقَطِعَ الهِجْرَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1] فإذا تاب الإنسان عند حلول الأجل أو عند طلوع الشمس من مغربها فلن تقبل منه وهذا فرعون لما أدركه الغرق أسلم بل آمن ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، يعني: الله ـ عز وجل ـ لكنه لم يصرح باسم الله وإنما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مبالغة في التذلل، واتباعه لبنى اسرائيل بعد ما كان مستعليًا عليهم ومستكبرًا والآن صار تابعًا لهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لله فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] نسأل الله العلي العظيم التوبة قبل حلول الأجل، واختلف العلماء رحمهم الله هل يشترط أن ينزل عن جميع المعاصي وأن من تاب عن الزنا وهو يرابي فإن توبته من الزنا لا تقبل؛ لأن التوبة الحقيقية هي التي تملأ قلب العبد خشية لله، وتعظيمًا لله، والذي يتوب من ذنب وهو مصر على الآخر لا يتحقق في حقه ذلك، ومنهم من فسر وقال: إن كان مصرًّا علي ذنبٍ من جنس الذنب الذي تاب منه فإنه لا تقبل توبته وإن كان من غير جنسه فإنها تقبل، فلو أن إنسانًا تاب من النظر إلى النساء النظر المحرم، ولكنه يلمس النساء فلمسه

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٩٩)، وأبو داود (٢٤٧٩)،والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٥٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٨).

محرم، فهنا لا تقبل توبته من النظر؛ لأنه يمارس جنسه، فالنفس هنا متعلقة بهذا الذنب ولم تقلع عنه، أما إذا كان من غير جنسه فلا بأس فيرابي أو يشرب الخمر فتوبته من الربا صحيحة ومقبولة، وإن كان يشرب الخمر وهو مصرٌّ على الزنا فتوبته مقبولة.

والصحيح: أن التوبة من الذنب لا تقبل مع الإصرار على غيره، ولكنه لا يستحق على التائب وصف التوابين الوصف المطلق وإنما هو تائب توبة مقيدة لهذا الذنب المعين، فالوصف المطلق للتائبين لا يستحقه، لكن وصفه بالتوبة من هذا الذنب وهو وصف مقيد يثبت له؛ لأن هذا هو العدل، والله ـ عز وجل ـ أمر بالعدل والقسط وهو سبحانه وتعالى أهل للعدل والقسط، وهذا القول هو الصحيح، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المدارك السلفية لما تكلم عن هذه المسألة قال: (وبعد فإن هذه المسألة لها غور بعيد) يعني: أنها ليست بأمر هين، ألّا تلقي أحكامه على اللسان؛ لأن لها تعلق بالقلوب، والقلوب حساسة كالكرة على سطح الماء تهتز لا يمسكها شيء، فالمسألة دقيقة لها غور عظيم، وأصل التوبة تعظيم الله ـ عز وجل ـ وإجلاله والخشية منه فإذا تحقق للإنسان هذا هانت عليه التوبة، وأما مع عدم ذلك فالتوبة عليه صعبة نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم.

مسألة: إذا كانت التوبة لا تنفع عند حلول الأجل فماذا عن قول الرسول صلي الله عليه وسلم لعمه أبي طالب: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ بِهَا لَكَ عِنْدَ اللهِ»[1].

الجواب: إن هذه قضية عين فكما أن أبا طالب ينتفع بشفاعة الرسول ﷺ دون غيره من الكافرين فقد ينتفع بإسلامه دون غيره من التائبين في هذه الحالة، وغير ذلك أن النبي ﷺ لم يجزم بأنها تنفعه، بل قال: «أحاجُّ بها لك»، والمحاجُّ قد تقبل حجته، وقد لا تقبل، فإذا كان هذا الحديث لا يدل على أنها تقبل جزمًا فإنه من المتشابه الذي يحمل على المحكم، وأن التوبة في هذه الحال لا تقبل.

٤ ـ من فوائد هذه الآية: أن التائب لو تاب يوم القيامة لا تنفعه توبته؛ لقوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: وجوب المبادرة بالتوبة؛ لأن الله علق قبولها على أمد لا يعلم فإذا كان كذلك وجب الإسراع بها.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله عز وجل أعد للذين ماتوا على الكفر عذابًا أليمًا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]

التفسير

هذا إغراء به، كما تقول: يا أيها الكريم لا تبخل على الضيف، يا أيها الرجل لا تغلبك النساء، فإن هذا يوجب للإنسان أن يأخذه الحماس حتى يمتثل.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ ونَفيُ الحل يقتضي التحريم، والمحلِل والمحرِّم هو الله عز وجل، ولهذا أحيانًا يعبر بالتحريم وأحيانًا بنفي الحل، ففي هذه الآية قال: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ وسيأتي بعد ذلك آيات تصريح بالتحريم في قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿كَرْهًا﴾ يعني: كرهًا عليهن بحيث لا يرضين بذلك وأنتم تجبرونهن على هذا الميراث. وهل معناه أنهم يرثونهن كما يرثون المال بمعنى أنهم يسترقونهن، أو أنهم يخلفون أزواجهن فيهن دون تملك؟ الثاني؛ لأنهم ليسوا يرثون النساء كما يرثون المال، بل يرثون النساء أي: يخلفون أزواجهن فيه. فسماه الله ميراثًا، فمن خلف غيره في شيء فهو وارث له. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] مع أنه عز وجل مالك لها من قبل، لكنه يُفني من عليها ويبقى هو سبحانه وتعالى.

وقال تعالى عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥، ٦] أي: يخلفني في قومي في العلم والنبوة، وليس يرثه ميراث مال؛ وذلك لأن الأنبياء لا يُورَّثون.

وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ تخلفوا أزواجهن فيهن كرهًا.

وقوله: ﴿كَرْهًا﴾ هذا القيد وإذا كان لبيان الواقع فلا يدل على أنهن لو رضين أن يخلف الرجال أزواجهن فإن ذلك جائز؛ لأن هذا لا يجوز إلا بعقد نكاح شرعي، وذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل جاء ورثته من بعده ومنعوا المرأة أن تتزوج، وإذا كانوا من بني عمه اختارها أحدهم فتزوجها قهرًا عليها وعدوانًا، فلهذا نهى الله عنه قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وعلى هذا فيكون القيد بيانًا للواقع، وما كان بيانًا للواقع فإنه لا مفهوم له.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ هذه مسألة أخرى، أي: لا تمنعوهن حقوقهن فتلجئوهن إلى أن يفتدين أنفسهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، وهذا يقع كثيرًا من بعض الأزواج الظلمة حيث يعضل زوجته فيمنعها، فإذا ضاقت ذرعًا اضطُرّت إلى أن تفتدي نفسها منه بمال، أخذًا لما أعطاها من قبل، إما الكل وإما البعض.

لو قال قائل: لو عضلها ليأخذ كل ما أعطاها يدخل في النهي؟ نعم؛ لأنه من باب أولى.

قوله: ﴿أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وفي قراءة (مبيَّنة) يعني: إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة فلا تعضلوهن.

والفاحشة المبينة فيها أقوال منها: أنها الزنا، فإذا زنت فله أن يعضلها من أجل أن تفتدي منه؛ لأن الإنسان إذا علم بزنا زوجته لا تطيق نفسه أن يطلقها هكذا فيذهب ماله، فله في هذه الحال أن يعضلها ويمنعها حقها من أجل أن تخالع وتفتدي نفسها منه.

وقيل المراد بالفاحشة المبينة: بذاءة اللسان، أن تكون سليطة اللسان عليه وعلى أهله، فإن ذلك مستفحش عُرفًا، فإذا حصل من المرأة هذا فله أن يعضلها حتى تفتدي منه.

وقيل المراد: سوء العشرة، بحيث لا تعطيه حقه على وجه الرضا والانبساط والانشراح إذا دعاها إلى فراشه يحمر وجهها ويصفر، ولا تجيبه، وإذا أمرها بحاجة - التي يجب عليها أن تبذلها - أبت، فهذا من الفاحشة المبينة.

وهذا الأخير يشمل القولين الأولين، لأنه من سوء العشرة أن تخدع المرأة زوجها فتزني - والعياذ بالله - ، ولا شك أيضًا أن من سوء العشرة بذاءة اللسان وطوله، فعليه يكون المعتمد أن المراد بالفاحشة المبينة: سوء العشرة بأي شيء يكون سواء بما يُستفحش شرعًا كالزنا أو عرفًا، مع أن الزنا يستفحش شرعًا وعرفًا.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ هذه الجملة الثالثة، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: النساء، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع، والمعاشرة مفاعلة، وتكون من الجانبين؛ لأن الغالب أن الفعل الذي يكون مصدره مفاعلة أنه واقع من الجانبين - هذا الغالب - مثل: جاهد مجاهدة، وقاتل مقاتلة، وياسر مياسرة، وعاشر معاشرة، وقد لا يكون من الجانبين كـ(سافر) فإن هذا السفر لا يكون إلا من واحد.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ليعاشر كل منكم الآخر بالمعروف أي: بما يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع. فإن كان مما يتعارفه الناس ولكن الشرع ينكره فإنه لا يجوز، فإنه ليس بالمعروف بل هو منكر.

والمراد بالمعاشرة بالقول والفعل والبذل، بالقول: بأن يلين القول لها وتلين القول له، وبالفعل: بالخدمة وما أشبهها، والبذل أي: بذل النفقات من كسوة، وطعام، وشراب، ومسكن، وقضاء

دين، مع أنه لا يلزمها قضاء دينه ولا يلزمه قضاء دينها، اللهم إلا أن تستدين لنفقة واجبة عليه، وجب عليه قضاء هذا الدَّين؛ لأنه لازم له.

وقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يعني: قد يكره الإنسان الزوجة فلا يعاشرها بالمعروف؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه إذا كره شيئًا لا ينقاد له ولا يفرح به، فيقول الله عز وجل: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾؛ لسوء أخلاقهن أو لغير ذلك فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا، وهذا إشارة إلى أننا نصبر عليهن، يعني: إن كرهتموهن فاصبروا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ومن الخير: أن يقدر الله بينهما ولدًا صالحًا، فإن هذا من أعظم الخيرات.

ومن الخير أيضًا: أن يقلب الله أحوالها وصفاتها التي كان يكرهها من أجلها إلى أحوال وصفات يرضاها وحينئذ يطمئن إليها ويعيش معها عيشة حميدة.

١ - **في هذا الآية من الفوائد:** تحريم إرث النساء على وجه يَكْرَهْنَهُ كما كان يجري في الجاهلية، لقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن نفي الحل يراد به التحريم، وذلك لأن نفي الشيء إثبات لضده.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه لو ورث المرأة على وجه ترضى به فلا بأس، لكنه مقيَّد برضا الشرع، فلو تزوج بعد موت ابن عمه زوجة ابن عمه فإن ذلك لا بأس به، ولو تزوج زوجة أخيه - بعد موته - برضاها وبعد عقد شرعي فلا بأس.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم عُضْلِ المرأة بغير حق لتفتدي نفسها، لقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

٥ - **ومن فوائدها - وهي محل أخذ وردٍّ -:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون الخُلْع بأكثر مما أعطاها، لقوله: ﴿بِبَعْضِ﴾، ولكن قد يُناقش في هذه الفائدة فيقال: إن الله نهى عن العضل ليذهب ببعض ما آتاها لبيان أن العضل لأخذ شيء منها ولو قلَّ حرام، وليس فيه التعرض إلى أخذ أكثر أو أقل، وقد سبق في تفسير سورة البقرة خلاف العلماء في هذا: هل يجوز للإنسان في الخلع أن يأخذ مما أعطاها أو لا يجوز؟ وبينَّا أن المسألة فيها ثلاثة أقوال: الجواز، والتحريم، والكراهة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز تنويع الخطاب، لقوله في الأول: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، وفي الثاني: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ هذا إذا جعلنا (لا) ناهية، فإن جعلناها نافية جاءت زائدة للتوكيد وجعلنا تقدير الآية: (ولا أن تعضلوهن لتذهبوا..) وصار الكلام على نسق واحد. ولكن لا شك أنه من الفصاحة والبيان والبلاغة أن يتنوع الأسلوب والخطاب إذا اقتضت البلاغة ذلك.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الصَّداق للمرأة؛ لقوله: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أعطيتموهن، وقد مرَّ علينا في أول السورة ما هو واضح جدًّا بأن الصداق حقٌّ للمرأة في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وعلى هذا فإذا كانت مكلفة رشيدة، فالأمر إليها فيما لو أسقطت عن زوجها بعض المهر أو كل المهر، ولا اعتراض لأحد عليها. وأيضًا لا يحل لأحد أن يأخذ من المهر شيئًا لا اختيارًا ولا غصبًا إلا بعد أن يتم العقد وتملك الزوجة مهرها فلها حينئذ أن تتبرع بما شاءت لمن شاءت إذا كانت أهلًا للتبرع.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن سوء العشرة مبيح لعضل المرأة لتفتدي نفسها، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ يعني: فلكم أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب معاشرة المرأة بالمعروف في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: اعتبار العرف في إحالة الحكم إليه في قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقد أحال الله تعالى إلى العرف في مواضع متعددة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولكن هذا المعروف ـ الذي هو العرف ـ لا يعتد به ولا يُرجع إليه إذا كان مخالفًا لمعروف الشرع؛ لأن الشرع محكَّم وحاكم على العادة.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى أنه ينبغي للزوج أن يصبر إذا رأى من زوجته ما يكره، فإن العاقبة قد تكون حميدة، لقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه وإن كان الحكم ورد في كراهة الزوجة فالعلة عامة، كثيرًا ما يكره الإنسان الشيء ويجعل الله سبحانه وتعالى عاقبته حميدة نافعة له، وهذا أمر مشاهد محسوس، وقد تكون العاقبة غير حميدة، لكن الغالب أن وعد الله يتحقق، فإن قال قائل: عسى هنا هل للتحقق أو للرجاء؟ قال العلماء: (عسى) من الله واجبة، يعني إذا ذكر الله عسى فالأمر واجب يقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ وذلك لأن الرجاء في حقه عز وجل غير وارد إذ إنه المتصرف المدبر والرجاء إنما يكون ممن لا يملك الشيء، فيرجوه من غيره، وعلى هذا فتكون الآية وعدًا من الله أن من صبر ابتغاء وجه الله على ما يكرهه واحتسابًا لثواب الله في أن الله يجعل فيه خيرًا كثيرًا، فإنه يتحقق له هذا الوعد، فإن تخلف هذا الوعد فلوجود مانع، وإلا فإن وعد الله حق.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات وصف الله عز وجل بالجعل، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقد بيَّنا فيما مضى أن الجُعل كونيّ وشرعيّ، وأكثر ما في

القرآن الكوني.

ومن الجعل الشرعي: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] مع أن هذا يحتمل أن يكون جعلًا كونيًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما جعلها شرعًا وإن كان جعلها قدرًا.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] وقد مرت علينا قريبًا.

١٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز ثبوت الكراهة بين الرجل المسلم وأخيه، لقوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فأثبت الله الكراهة شرطًا وتحقيقًا، ولا شك أن هذا وارد أن الإنسان قد يكره أخاه المسلم، ولكنه مأمور إذا وجد من قلبه كراهة لأخيه المسلم أن يفكر لأي سبب كرهه؟ إذا كان لأمر شرعي فلينصح أخاه عن هذا الشيء، حتى يزول وتزول الكراهة، وإذا كان لغير أمر شرعي بل مجرد كراهة، كما يقع فعليه أن يعالج نفسه عن هذا الفعل؛ لأن من أوثق عرى الإيمان المحبة في الله، فإذا كان كذلك ووجد أنه يكره هذا الرجل كراهة عادية ما هو لخلل في دينه أو خلقه فعليه أن يعالج هذا الداء حتى يزيل عن قلبه كراهة إخوانه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]

التفسير

قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ يعني: اخترتم، الإرادة هنا بمعنى: المشيئة والاختيار، وقوله: ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ يعني: أخذ زوج مكان زوج، يعني: إن أردتم أن تطلقوا الزوجة الأولى وتأخذوا بدلًا عنها زوجة جديدة.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ الآية مبهمة، لكن ما دام الأمر فيه بدل فإن المبدل منه هو الأولى يعني: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ وهي الأولى، على أنه يصح أن يكون للثانية بأن يتزوج ثانية، ولكن لا يرغب فيها ويريد أن يطلقها، فتكون الآية عامة لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ بمد الهمزة بمعنى: أعطيتم، أما قصر الهمزة (أتيتم) فهو بمعنى جئتم.

فـ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ بمعنى: أعطيتم وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وفي هذه الآية المفعول الأول ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ والثاني ﴿قِنطَارًا﴾، فإذا قال قائل: ما هي العلامة على أنها تنصب ما ليس بمبتدأ ولا خبر؟ قلنا: العلامة أنه إن صح الإخبار عن الثاني بالأول فأصلهما المبتدأ والخبر، وإن لم يصح فليس أصلهما المبتدأ والخبر، فهنا لو قال: (هن قنطارًا) فلا يصح.

وقوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (الفاء) هذه رابطة للجواب، وإنما رُبط الجواب بالفاء؛ لأنه طلب و(لا) ناهية، والدليل على أنها ناهية جزم الفعل وإذا وقع الجواب جملة طلبية وجب اقترانه بالفاء ونظم في ذلك بيت من الشعر.

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

هنا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا﴾ من باب«طلبية»، أي: مما آتيتموهن ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي تعم القليل والكثير ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ لماذا؟ لأن لها المهر بما استحل من فرجها كما سيأتي في الآية التي بعدها ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١]

وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أن استحلال الفرج موجب للمهر كاملًا كما سيأتي في الفوائد.

وقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، فالله تعالى يوبخ هؤلاء الذين يحاولون أن يأخذوا منه شيئًا وينكر عليهم، وقوله: ﴿بُهْتَٰنًا﴾ أي: كذبًا؛ لأنكم لم تستحقوه، وقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: عقوبة أو معصية بيِّنة واضحة، فـ ﴿مُّبِينًا﴾ هنا بمعنى: بَيِّن، وإن كانت من الرباعي؛ لأن (أبان) الرباعي يجوز أن يكون لازمًا ومتعديًا، فإذا قلت: أبان المدرس المسألة هذا متعدٍّ، ومن اللازم (بان الصبح) أي: ظهر، وهنا ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ من (أبان) اللازم، أي: إثمًا بينًا.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿وَكَيْفَ﴾ هذه استفهام للتعجب والإنكار وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ الجملة هنا في موضع نصب على الحال، يعني: والحال أنه قد أفضى بعضكم إلى بعض أي: انتهى بعضكم إلى بعض بما لا ينتهي إليه إلا الزوج ﴿وَأَخَذْنَ﴾ أي: النسوة، ﴿مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وهنا إشكال من جهة أن ما سبقها إما مفرد وإما مثنى فكيف عاد الضمير جمعًا لما سبق؟ والجواب عن ذلك أن يقال: إن ما سبق من المفرد أو المثنى يراد به: الجنس، وإذا أُريد به الجنس صح أن يُجمع باعتبار الجنس، قوله: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ والميثاق هو: العهد، والغليظ أي: المشدد أو الشديد، أي: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وذلك بعقد النكاح، فإن عقد النكاح يستلزم أنه متى ملك العوض، ملك المُعوَّض، فأنت لما ملكت

البُضع واستحللت منها ما لا يستحله إلا الزوج وجب لها المهر الذي هو العُوض وهو عهد وميثاق غليظ لا يوجد له نظير من العقود فأشد ما يكون من العقود وأقوى هو عقد النكاح؛ لأنه يترتب عليه أشياء كثيرة، كثبوت المحرمية ولحوق النسب ووجوب النفقة، وغير ذلك من الأحكام الكثيرة؛ ولهذا احتاط له الشارع، أو احتاط له صاحب الشرع ما لم يحتط لغيره، فلا بد فيه من ولي، لا تستقل فيه المرأة بنفسها مع أن بيع مالها ولو كثر تستقل به إن كانت المكلفة رشيدة، ولابد فيه من شهود عند كثير من أهل العلم، وعقد البيع لا يجب فيه الشهادة، ولابد فيه من الخلو من الموانع وبقية العقود قد تنعقد مع مانع لكن يأثم، أما هذا فلا، ثم عند التحلل منه وفسخه هل هو كغيره من العقود، متى شاء فسخ؟ لا، لابد من قيود، فلا يفسخه في حيض ولا يفسخه في طُهر جامعها فيه، ثم إذا فسخ يترتب على هذا آثار كالعدة وغيرها، إذنْ فهو أخطر العقود؛ ولهذا سماه الله ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

١- **في هاتين الآيتين فوائد منها:** جواز التزوج بثانية ولو كان يريد أن تكون بدلًا عن الأولى؛ لقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، يعني: إن أراد أن يتزوج امرأة تكون بدلًا عن الأولى تخدمه وتقوم بحوائجه فلا بأس.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز كثرة المهر؛ لقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، والقنطار قيل: إنه ألف مثقال من الذهب، وقيل: إن القنطار ملء جلد ثور من الذهب، هذا الكثير، فهل نقول: إن الآية تدل على جواز الزيادة في المهر أو نقول: إن هذا من باب المبالغة يعني: لو آتيتم إحداهن هذا المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئًا ولو قليلًا؟

الأول: إن صحت الرواية عن عمر رضي الله عنه أنه خطب الناس وقال: لا يزيد أحد على صداق رسول الله ﷺ إلا جعلته في بيت المال، فقامت امرأة وقالت: يا أمير المؤمنين كيف هذا والله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، فقال: امرأة أفقه منك يا عمر، وفي لفظ: أصابت امرأة وأخطأ عمر فعدل عن قوله، فإن صحت هذه القصة فإن قوله: ﴿قِنطَارًا﴾ لا يُراد به المبالغة التي لا حقيقة لها، وإنما أراد به الكثرة الحقيقية، والأصل: أنه يجوز أن يُزاد في المهر ولو بلغ قناطير؛ لأنه عقد بين متعاقدين لابد فيه من الرضا فإذا لم ترضَ الزوجة وأولياؤها إلا بكثير فالأمر إليهم، ولكن هل يقال: إن الأفضل عدم المغالاة في المهور؟

الجواب: نعم، يقال هكذا: الأفضل عدم المغالاة في المهور وكلما قلَّ المهر كان أكثر بركة في النكاح وأحسن عاقبة.

وأضرب مثلًا بسيطًا: إذا كان المهر قليلًا ولم يوفَّق بين الزوج وزوجته سهل عليه أن يطلقها سواء بفداء أو بغير الفداء، إن طلب الفداء فإنما يطلب شيئًا يسيرًا، وإن لم يطلب الفداء وقال: المسألة بسيطة فارقها وانتهى منها لكنه لو أنفق عليها شيئًا كثيرًا حيث قالوا: لا نرضى إلا بشيء

كثير، ثم ذهب يستدين من فلان وفلان فركبه الدَّين الذي هو ذل في النهار وهمٌّ في الليل، ماذا تكون قيمة المرأة عنده وقد كانت سببًا لهذا؟ يكرهها ويقول: هذه التي أدت إلى لحوق الدَّين عليَّ، ثم إذا لم يرد الله التوفيق بينهما لا يسهل عليه أن يطلقها إلا بأن ترد إليه مهره وهي أنفقت المهر وراح يمنةً وشمالًا فيصعب عليها جدًّا أن تدرك ذلك؛ ولهذا لا شك أن فوائد تقليل المهر كثيرة؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أَعْظَمُ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مَؤُونَةً**».

٣ـ ومنها: تحريم أخذ الزوج شيئًا من المهر ولو قليل؛ لقوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ وكلمة ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم القليل والكثير، ولكن لو رضيت الزوجة بأن يأخذ من مهرها شيئًا، فالحق لها إذا كانت مكلفة رشيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

٤ـ ومن الفوائد: الإنكار الشديد على من أخذ شيئًا من المهر من امرأته بغير رضاها؛ لقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾.

٥ـ ومنها: أن من كمال البلاغة أن يأتي المتكلم بأبشع صورة؛ تنفيرًا مما يريد التنفير عنه، لقوله. ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ والعقل يقتضي أنه مع هذا الإفضاء يرجع كل من المتعاقدين إلى ما كانوا عليه، فالمرأة ترجع بمهرها، والزوج قد جاءه عوضه وهو استحلال فرجها.

٦ـ ومن فوائد الآيتين الكريمتين: الإشارة إلى ستر ما بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، وهذا الإفضاء معروف إفضاء سري؛ ولهذا كان الذي يفضي السر الذي ما بينه وبين زوجته من شر الناس منزلة يوم القيامة عند الله.

٧ـ ومن الفوائد أيضًا: أن العقود عهود؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، ولأن العقود عهود، فيدخل الوفاء بالعقد تحت قول الله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل:٩١]، وتحت قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وهل الوفاء بالعقود يختص بالوفاء بأصل العقد أو بأصله وما أضيف إليه من شرط أو صفة؟ الثاني؛ لأن الشروط التي تشرط في العقود هي من أوصاف العقود فإذا وجب الوفاء بالأصل وجب الوفاء بالصفة، ويتفرع على هذا:

التقرير أن في الآية دلالة على وجوب الوفاء بالشروط في العقود، لكن يُستثنى من ذلك ما منع الشرع منه فإذا منع الشرع من شرط حرم اشتراطه وحرم الوفاء به مثل أن يشترط البائع على المشتري ولاء العبد الذي باعه عليه، فهذا شرط باطل لا يصح وقد أبطله النبي ﷺ علنًا، ومثل أن يشترط البائع على مشتر الأَمَة أن يطأها لمدة شهر فإن هذا الشرط باطل؛ لأنه لما باعها انتقل الملك إلى المشتري فيطؤها البائع لو اشترط أن يطأها وليس ملكًا له ويكون وطؤه زنىً، فإن اشترط البائع ـ بائع الأمة ـ أن تخدمه لمدة شهر مثلًا فلا بأس؛ لأن الخدمة تجوز في ملك اليمين وغيره.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: غلظ عقد النكاح وأنه عقد يجب أن يُهتم به؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ويدل على هذا قوله تعالى في الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١] يعني: اضبطوها بالحساب لكن لماذا لم يقل: بحساب؟ لأن من عادتهم أن يضبطوا الشيء بالحصى وعلى هذا جاء قول الشاعر:

وَلَسْتُ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

كيف أكثر منهم حصى؟ لأن كثرة الحصى بها فائدة وهي: أنها يُعرف به عدد القبيلة إذا كانت كثيرة؛ ولهذا قال: «وإنما العزة للكاثر» يعني: لمن يكثر غيره ويفوق غيره في الكثرة، إذنْ هذه الآية الكريمة تفيد خطر عقد النكاح وأهميته، وأنه يجب أن يُعتني به ويُحتفظ به ويشروطه وكل ما يلزم فيه حتى لا يقع الإشكال بين الرجل وزوجته ويحصل أمور لا تُحمد عقباها.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]

التفسير

صلة هذه الآية بما قبلها واضحة؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء:١٩] ومن جملة النساء زوجات الآباء التي يُخلفها الأب بعد موته فبيَّن الله - عز وجل - أن زوجات الآباء حرام لا تحل قال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿مَا نَكَحَ﴾، النكاح في القرآن الكريم يطلق على العقد؛ لأنه يقع على أجنبية، أما إذا وقع على زوجة الإنسان فالمراد به: الوطء، فإذا قيل: نكح زوجته فهو الوطء، وإذا قيل: نكح بنت فلان فهو العقد، ويبقى عندنا إشكال في هذه المسألة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]، فقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ هل المراد بالنكاح هنا العقد أو أن المراد به الجماع؟ الثاني؛ لأن هنا قرينة تدل على ذلك وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ ولا يمكن أن يُطلَقَ أنه زوج إلا بعقد؛ ولهذا لابد أن يكون عقدًا صحيحًا حتى تتحقق الزوجية، أما فيما عدا ذلك فالمراد به العقد مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ بناءً على ما قررناه يكون المراد بها نكح الآباء العقد أي: بما

عقدوا عليهن سواء حصل الدخول أو لم يحصل وسواء حصل الوطء أو لم يحصل، وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ جمع أب وهو شامل للجدِّ من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم؛ وذلك لأن النكاح يكفي في تحريمه أدنى ملابسة بخلاف الإرث والنفقات فإنه في باب الإرث والنفقات لا يدخل في الآباء الأجداد من جهة الأم لكن في باب النكاح يدخل؛ وذلك لأنه يكتفى فيه بأدنى ملابسة، فمثلًا الرضاع يحرم النكاح، لكنه لا يوجب أي شيء مما يوجبه النسب من نفقة أو تحمل دية أو صلة أو غير ذلك، إذنْ ـ آباء ـ المراد بهم: الآباء الأدنون والأعلون من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذه بيان لـ (ما) الموصولة، وذلك أن (ما) الموصولة وكذلك أسماء الشرط مبهمة تحتاج إلى بيان فيأتي في الغالب الجواب بعدها مصدر بـ (من).

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ هنا أداة استدراك، وليست أداة استثناء فهي بمعنى (لكن)، فيعبر بعض العلماء عن مثل هذا بأنه استثناء منقطع، ويعبر آخرون بأن ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى (لكن) وليست باستثناء أصلًا، قال: لأن الاستثناء لابد أن يكون المستثنى قد دخل في المستثنى منه ثم أُخرج، والاستثناء المنقطع لا يصدق عليه ذلك، وعلى هذا: فإذا جاء الاستثناء المنقطع فإننا نجعل ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) ويكون هذا من باب تناوب حروف بعضها عن بعض، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن ما سلف فإنه لا حرج عليكم فيه ولا يلحقكم به الإثم، فإن قال قائل: ما قد سلف لا يلحقه الإثم فيه؛ لأن الحكم لم يقرر بعد فكيف استدرك وقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؟

فالجواب ـ والعلم عند الله تعالى ـ: أنه لما كان عقد النكاح أخطر العقود وأشدها استثنى ما سلف؛ لئلا يظنَّ الظانُّ أن ما سلف ينسحب عليه الحكم الذي ثبت أخيرًا فكأنه قال: (لا تنكحوا ما قد نكح آباؤكم من النساء وقد عفا الله عما سلف)؛ لتطمئن النفوس، وليس يعني ذلك أن ما سلف من العقد يبقى ويقر عليه الإنسان، بل يجب فسخُه والتفريق بين الإنسان والزوجة ـ زوجة أبيه ـ ؛ لأن هذا التحريم باقٍ لم يزل وصفه وسيأتي إن شاء الله في أثناء الكلام عن الفوائد تفصيل ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: الضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ أي: (إن نكاحكم)، والضمير قد يعود على المصدر المفهوم من الفعل؛ لدلالة السياق عليه كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ﴿هُوَ﴾: أي: العدل المفهوم من كلمة: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾.

فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: نكاحكم ما نكح آباؤكم، ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ والآن أيضًا، فعلى هذا تكون ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبة الزمان جاءت لتحقق هذا؛ لأن (كان) إذا سلبت الزمان كانت للتحقيق؛ إذنْ نقول: هذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]، فليس

المعنى أنه كان فيما مضى فقط، ولكن ثبت ثبوتًا قطعيًا أنه غفور رحيم أزلًا وأبدًا.

فهنا نقول: كأنما ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: ثبت فحشه، وقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾ أي: نفسه، و ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: عند الله، فنكاح ما نكح الآباء من النساء فاحشة في نفسه تستفحشها العقول والشرع، وهو أيضًا مقت والمقت أشد البغض كما قال أهل العلم، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣] أي: كبر بغضًا، فالمقت أشد البغض.

وقوله: ﴿وَسَآءَ﴾ فعل ماضٍ من أنواع الجامدة هو جامد في سياقه على هذا الوجه، على إنه إنشاء يكون جامدًا وإنما قيدت ذلك؛ لأنه إذا جاء بمعنى الإساءة أو السيئة صار متعرفًا كما قال تعالى: ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، (يسوءُوا) هذه مضارع (ساء)، فـ (ساء) إذا كان المقصود بها إنشاء الذنب صارت فعلًا جامدًا، وإذا كان المقصود به ضد ما يسر صارت متصرفة، فلا بد من قيد إذا أردت أن تقول: (ساء) فعل جامد ولابد أن تقول: كان المقصود بها إنشاء الذنب.

وقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا فوصف الله ـ عز وجل ـ ما نكح الأبناء بثلاثة أوصاف: أنه فاحشة، وأنه مقت، وأنه سبيل سيء.

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم نكاح مَنْ نكحه الآباء الأدنون والأبعدون؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: أنه لو وقع هذا العقد لكان فاسدًا؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ولقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، والذي ينكح ما نكح آباؤه من النساء عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله.

٣ـ ومن فوائدها: حِلُّ مَنْ زنا بها أبوه وتلك تؤخذ من قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، والزنا ليس نكاحًا؛ خلافًا للمشهور عند الحنابلة من أن موطوءة الأب ـ ولو بزنا ـ حرام على الابن، فإن هذا لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤]، ولا يصح قياسه على النكاح؛ لأن النكاح عقد شرعي معتبر والزنا سِفاح، وأغرب من ذلك أن بعضهم قال: حتى في اللُّواط ـ والعياذ بالله ـ يعني: مثلًا لو كان الابن تلَّوط بشخص فإنه حكمه كما لو زنا بأمه أو أخته ـ أخت هذا الشخص ـ وهذا لا شك خطأ عظيم.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم نكاح زوجات الآباء وإن لم يحصل وطء ولا خلوة، وجه ذلك: صدق النكاح بمجرد العقد، فإن من عقد على امرأة صدق عليه أنه تزوجها.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٧١٨).

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إن الخطيئة المفعولة قبل العلم لا يلحق الفاعل إثمها؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذه قاعدة شرعية، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (الشرائع لا تلزم قبل العلم لا إيجابًا ولا تحريمًا) وعلى هذا فلو أن الإنسان أسلم في بادية بعيدة ولم يعلم عن وجوب صوم رمضان ثم علم بعد ذلك فإننا لا نلزمه بقضاء ما ترك من الصوم؛ لأنه لم يبلغه وجوبه فلم تقم عليه الحجة به، وكذلك الصلاة، وكان لا يصلي أو يصلي وعليه جنابة أو بغير وضوء أو بغير طمأنينة فإنه لا يُلزم بقضاء ما فاته وله أدلة كثيرة منها حديث المسيء في صلاته حيث لم يلزمه النبي ﷺ بقضاء ما سبق مع أنه قال له: «إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»(1) وإنما أمره بإعادة الصلاة الحاضرة؛ لأنه مطالب بها في الوقت.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن رحمة الله سبقت غضبه حيث عفا عما سلف من الذنوب؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وهذه قاعدة معلومة من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، ومن قوله تعالى في كتابه الذي كتبه عنده تحت العرش أو فوق العرش: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» وينبني على هذه القاعدة: أن العفو أقرب إلى السلامة من العقوبة؛ ولهذا جاء عن بعض الصحابة ـ وأظنه علي بن أبي طالب ـ أنه قال: (لئن أخطئ في العفو أحب إليَّ من أن أخطئ في العقوبة)، وينبني على ذلك قاعدة مهمة، وهي: لو تنازع العلماء في مسألة من المسائل بين محرم ومحلل وتكافأت أدلة الطرفين فإننا نأخذ بالأيسر ـ الأسهل ـ بناءً على هذه القاعدة: أن رحمة الله سبقت غضبه، وأن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وبأن الأصل براءة الذمة وهذه ثلاثة.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن نكاح المحارم أشد من الزنا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وقال تعالى في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، ولم يقل (ومقتًا).

ولهذا ذهب كثير من العلماء أن مَنْ زنا بامرأة من محارمه أو تزوَّجها فإنه يرجم ولو كان غير محصن؛ لأن نكاح ذوات المحارم أعظم من الزنا وأشد.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** قبح هذا المسلك؛ لقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله ـ عز وجل ـ علينا في هذه الشريعة حيث جنبنا سلوك السبل السيئة المذمومة؛ لقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ويؤخذ من ضدها أن سلوك الإسلام أو المنهج الإسلامي هو خير السُّبل وأفضلها وأحسنها.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٦٧)، ومسلم (٣٩٧).

❁ قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]

❁ التفسير ❁

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، ﴿حُرِّمَتْ﴾: مَنْ المُحَرِّم؟ الله عز وجل، وحُذف الفاعل للعلم به، وأصل الحرام في اللغة: المنع، ومنه حريم البئر وهو ما حولها مما يكون حماية لها ويمنع غير مالكها من تملكه، فأصل الحرام في اللغة المنع أي: مُنعتم من أمهاتكم.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أمهات جمع أم أو أمهة، ويقال في جمع أم في العاقل أمهات وفي غير العاقل أمَّات بحذف الهاء، فيقال: هذه الشياة أمَّات هذه الأطفال ـ أي: أطفال الشياة ـ.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ يشمل الأم الدنيا والأم العليا كالجدة وأم الجدة وأم الأب وأم الأم وأم الجد وأم الجدة، المهم أن نقول فيها كما قلنا في قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾، يعني: أنها تشمل القريب والبعيد من الأمهات من جهة الأب ومن جهة الأم.

وقوله: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ البنات جمع بنت ويشمل البنت وبنت الابن وبنت البنت وإن نزلن، ويشمل أيضًا البنت من الزنا على مذهب جمهور أهل العلم وإن كانت لا تُنسب إليه شرعًا لكنها خلقت من مائه فهي على القول الراجح داخلة كما سيتبين إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ الأخوات جمع أخت وهن فروع الأب الأدنى يعني: الأب الصلبي.

وقوله: ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ جمع عمة، وهن فروع الأب الأعلى يعني: فروع الجد، وفروع أب الجد، وفروع جد الجد وهلم جرًّا، وليُعلم أن عمة الرجل عمة له ولذريته من بنين وبنات، أي: عمة لك ولأولادك وبناتك وأولاد أبنائك وأولاد بناتك.

وقوله: ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ الخالات: فروع أب الأم وإن علون يعني: أخوات أمك ، والعمّات

فروع أب الأب.

وقوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ وإن نزلن، ويشمل الأخ الشقيق والأخ لأب، والأخ لأم.

ونسبتك إلى بنات الأخ أنك عم لهن.

و قوله: ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ تكون أنت خالًا لهن، وهن حرام على الإنسان وإن نزلن.

انتهت المحرمات من النسب وهن سبع كما يظهر ذلك: ﴿أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾.

هذه سبع محرمات بالنسب، ويقال في حصرهن على طريق الفقهاء، الأصول والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى دون فروعهن.

الأصول مثل: الأمهات والجدات، الفروع: كالبنات وإن نزلن.

فروع الأصل الأدنى وإن نزلن هؤلاء الأخوات وإن نزلن ـ بنات الأخوات ـ.

وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصة العمات والخالات، لكن لصلبهم خاصة يعني دون من نزل، فبنت العمة مثلًا حلال، بنت الخالة حلال هذا على طريق الفقهاء، أما على طريق القرآن الذي هو أفصح شيء وهو كلام الله ـ عز وجل ـ فلا يحتاج إلى زيادة بيان، ولذلك لو تقول للعامِّي: يحرم عليك نكاح الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت ذهب مطمئنًا متضحًا له الأمر، لكن لو تقول له: يحرم عليك الأصول والفروع، وفروع الأصل الأدنى وإن نزلن، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصة، قال: هذا أمر معقد، وذهب يطلب ترجمة لهذا الشيء، ولذلك ـ سبحان الله العظيم ـ القرآن أبلغ شيء ومهما تكلم أحد وكانت بلاغته شديدة، فإن القرآن أبلغ منه وأوضح وأبين.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾، فالآية تدل على أن مُطْلَقَ الرضاع يثبت به التحريم وسيأتي إن شاء الله بالفوائد بيان أن السنة قيدت ذلك.

وقوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ والأخوات من الرضاعة هن: بنات المرأة التي أرضعتك وبنات زوجها منها أو من غيرها؛ لأن بنات زوجها يكنَّ أخوات من الأب وبنات التي أرضعتك أخوات لك من الأب والأم يعني: شقائق أو من الأم؛ لأنها قد ترضعك بلبن زيد ولها بنات من عمرو، فتكون بناتها من عمرو أخوات لك من الأم.

المهم: أن قوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ يشمل الشقيقات واللاتي لأب واللاتي لأم.

ويكُنَّ شقيقات إذا أرضعتك من لبن أبيهن.

ويكُنَّ لأب إذا كان للزوج الذي أرضعتك بلبنه بنات من غيرها ـ من غير التي أرضعتك ـ؛ لأن الأب واحد، فهذا أبوك من الرضاعة، وأبوها من النسب.

ويكُنَّ أخوات من الأم إذا كان لها بنات من غير الزوج الذي أرضعتك.

المهم: أن الأخوات من الرضاعة يشمل الشقيقات أو لأب أو لأم.

وهل يشمل من تقدَّم، يعني مثلًا إذا رضعت مع الطفل المسمى محمدًا، ولها بنت قبله اسمها فاطمة، هل تتزوجها أو لا؟ لا تتزوجها؛ لأنها أختك من الرضاعة.

وقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ الأم قلنا: إذا أطلقت فهي التي وَلدت الإنسان قال الله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢] ، فأمهات النساء يعني: اللاتي ولدن نسائكم.

وقوله: ﴿نِسَآئِكُمْ﴾ أي: زوجاتكم، ولا تكون المرأة زوجة إلا بعقد صحيح، فلا بد من أن يكون عقدًا صحيحًا، ومن هنا ابتُدئ الصنف الثالث للمحرمات وهن المحرمات بالمصاهرة.

وقوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾، (ربائب) جمع ربيبة، مثل صحائف جمع صحيفة.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، كلمة ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ صفة لـ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ و ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ بيان لها؛ لأن الربائب من هؤلاء النساء اللاتي دخلتم بهن، و﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ يعني: زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهن عقدًا صحيحًا، إذ لا تكون المرأة من نساء الرجل إلا بعقد صحيح، و﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، ﴿ٱلَّٰتِي﴾ هنا صفة لقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، والمراد بالدخول بهن: الجماع دون الخلوة، وهنا نفرق بين الدخول الذي هو الجماع وبين الخلوة، فالخلوة لا تؤثر.

والربائب ذكر الله فيهم قيدين: القيد الأول أن تكون في حجر الإنسان فيتزوج امرأة ولها بنت من غيره ويضم البنت مع الأم فتكون عنده هذه في حجره، والقيد الثاني: أن تكون المرأة قد دخل بها الزوج أي: جامعها، فهل هذان القيدان معتبران أو أحدهما هو المعتبر؟ في هذا خلاف بين العلماء فالجمهور على أن القيد الأول غير معتبر وهو قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾، وأنها بناءً على الأغلب أو بيانًا للحكمة من التحريم وهي أنها في حجرك فتكون كبنتك، والقول الثاني: أن القيد الأول غير معتبر وهو رأي الجمهور، وهو معناه أن بنت الزوجة حرام عليك سواء كانت في حجرك أو لم تكن، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا حث صريح بمفهوم القيد الثاني وسكت عن مفهوم القيد الأول، فدل هذا على أن القيد الأول غير معتبر؛ لأن الله سكت عنه، ولو كان معتبرًا لقال: (فإن لم تكونوا دخلتم بهن أو لم يكن في حجوركم فلا جناح عليكم)، ولما سكت عن هذا علم أنه قيد ليس بمعتبر، ولكنه إما للغالب أو لبيان الحكمة.

فلو سكت الله عن المفهوم ولم يقل: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ لكان القيد معتبرًا وكانت الحجة مع من جعله شرطًا، فالمراتب ثلاثة: الأولى أن يقال: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، فإن لم يكنَّ في حجوركم أو لم تدخلوا

بأمهاتهن فلا جناح عليكم، ففي هذه المرتبة يكون القيدان معتبرين ولا شك.

الثانية: أن يقال: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ فهذان القيدان معتبران.

الثالثة: كما في الآية الآن أن يقول: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فهذا يُؤذن بأن القيد الثاني معتبر، والقيد الأول غير معتبر، وهذا هو رأي الجمهور وهو الصحيح.

وقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: جمع حليلة وتشمل الزوجة والمملوكة، لكن الزوجة تحرم على ابن الزوج بمجرد العقد، وأما السُّرِّية فلا تحرم على أبي السيد إلا بالوطء إذا وطأها وذلك أن السُّرِّية قبل أن يجامعها يحتمل أن تكون سلعة تُباع وتشترى فإذا جامعها فقد اختارها لنفسه (فالحلائل) إذنْ جمع حليلة وهي: الزوجة التي استحلها في العقد أو الأمة التي استحلها بالوطء.

وقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لم يذكر الله ـ عز وجل ـ فيها قيدًا فتشمل كل زوجة سواء دخل بها الابن أو لم يدخل بها، وعلى هذا فزوجة الابن حرام على أبيه، وإن طلقها قبل الدخول وإن طلقها قبل الخلوة؛ لعموم الآية، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أصلاب جمع صلب وهو الظهر والمراد: الأبناء الذين وُلِدوا من مائكم؛ لأن هذا هو ابن الصلب ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، وهذا قيد.

وجمهور العلماء على أنه يخرج به أبناء التبني الذين كان من عادة الناس في الجاهلية أن يتبنى الإنسان ابنًا له ويقول: أنت ابني ويجعله كابنه في الميراث وغيره فقيد الابن هنا بكونه من الصلب؛ ليخرج ابن التبني، وهذا هو رأي الجمهور، ولكنه لا مانع من أن يقال: إنه يشمل ابن التبني، وابن الرضاع؛ لأن ابن الرضاع ليس من صلبه، وابن الرضاع يسمى ابنًا شرعًا لكن ابن التبني، قد أبطله الشرع فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فإذا كان قد أبطل شرعًا فلا حاجة إلى قيد يخرجه؛ لأنه غير داخل في معنى البنوة، غير داخل شرعًا، ولا حسًا كذلك أيضًا؛ لأنه ليس من مائه، وعلى هذا فيكون هذا القيد لإخراج ابن الرضاع أظهر منه لإخراج ابن التبني؛ لأن ابن التبني غير معترف به شرعًا فلا حاجة إلى قيد يخرجه من معنى البنوة، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وإن كان يظن أنه خالف الناس في هذا، لكن قوله عند التأمل هو الصواب: (أن المصاهرة تجري في الرضاع، ولا علاقة

للرضاع فيها)؛ لأن الحديث: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[1]، وأبو الزوج وابن الزوج حرام بالمصاهرة، فكيف نُدخل في الحديث ما لم يَدخل فيه، وكذلك أيضًا في الآية الكريمة.

ثم قال: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ وهنا المحرم ليس عينًا، ولكنه عملًا وهو الجمع يعني: وحرم علينا أن نجمع بين الأختين، ولهذا لا يصح التعبير بأن نقول: تحرم أخت الزوجة، أو تحرم عمة الزوجة؛ لأن ذلك ليس واردًا لا في القرآن ولا في السنة، وفي السنة: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا»[2]، فالحكم معلق بعمل وهو الجمع وليس بعين وهي الأخت أو العمة؛ ولهذا نقول: إن تعبير بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ تحرم أخت زوجته وعمتها وخالتها فيه تساهل. الصواب: أن يقال: (يحرم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها) وهذا هو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿الْأُخْتَيْنِ﴾ يشمل الأختين الشقيقتين والأختين من أب والأختين من أم؛ لأن الآية مطلقة.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ نقول كما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: لكن ما قد سلف معفو عنه، وإنما ذكره الله ـ عز وجل ـ؛ لعظم المقام، ولئلا ينشغل الإنسان بفعله السالف الذي وقع على الوجه المنهي عنه، وبناءً على ذلك الولد الحاصل من النكاح فيما سلف ماذا يكون أهو للواطئ أم لا؟ يعني: لو كان الإنسان قد نكح زوجة أبيه في الجاهلية وأتت منه بولد وأسلم يفرق بينهما؛ لأن سبب التحريم باطل، لكن الولد الذي حصل من النكاح الأول ينسب إليه شرعًا، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الحكمة من قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأجل أن يزول ما في قلب الإنسان نهائيًا، لأنه قد يقول: إذا كان ذلك حرامًا عليَّ فما موقفي أمام الولد الذي خُلق مني في ذلك الوقت؟ فطمأن الله العباد بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وإلا قد يقول قائل: ما سبق كيف يجري عليه، كيف يرجع التحريم إليه، بما يسمى أثر الرجعية؟ نقول: الحكمة من ذلك هو عظم المقام، والثاني: أنه لو يولد ولد في ذلك النكاح، فالولد ولد شرعي لا قلق فيه؛ لأنه معفو عنه وعن آثاره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذه مرَّت علينا كثيرًا وهي تأكيد اسمين من أسماء الله بمؤكدين، (إن) و (كان)، لأن (كان) ـ كما أسلفنا ـ مسلوبة الزمان هنا تفيد تحقيق الوصف.

و(الغفور) هذه صيغة مبالغة من الغفر وهو: ستر الذنوب وعدم المؤاخذة عليها.

و(الرحيم) كذلك صيغة مبالغة من الرحمة، والرحمة: صفة ذاتية لله ـ عز وجل ـ ولكن لها آثارًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

مثل نزول المطر،والرزق، وكثرة العلم، واتجاه الناس اتجاهًا سليمًا، وما أشبه ذلك، فهذه الأشياء هي من آثار رحمة الله وليست هي الرحمة، لكن يطلق عليها أنها رحمة؛ لأنها آثار رحمة الله، كما قال الله تعالى في الجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1].

١ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: تحريم نكاح هؤلاء السبع بالنسب، وكلهن قريبات؛ لقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾، فإن قال قائل: الإضافة هنا إضافة التحريم إلى الأعيان فما الذي جعلك تخصص هذا بالنكاح؟ ألا يجوز أن يقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ يعني: لا تنظروا إليهن، أو لا تقتلوهن، من الذي يقيد التحريم بالنكاح؟

نقول: السياق، سياق الآية التي قبلها: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، فالسياق في الآية التي قبلها وفيها أيضًا، كل ذلك للنكاح، فتعين أن يكون المراد به: النكاح، وأيُّ زعم في الآية خلاف هذا لا وجه له.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ثبوت التحريم بالرضاع؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، المحرمات في الصهر أربعة: أصول الزوج على الزوجة خاصة، وفروع الزوج على الزوجة خاصة، وأصول الزوجة على الزوج خاصة، وهذه الثلاث بمجرد العقد يثبت فيها التحريم.

والرابع: فروع الزوجة على الزوج خاصة، لكن هذا بشرط الدخول، بناءً على ذلك، هل يجوز للإنسان أن يتزوج بنت زوجة أبيه؟ إذا كانت زوجة أبيه هذه أمه لا يجوز؛ لأنها أخته.

وهل يجوز للإنسان أن يتزوج أم زوجة أبيه؟ التحريم يتعلق بالزوج خاصة، أو بالزوجة خاصة، والزوج يحرم عليه أصول الزوجة وفروعها، والزوجة تحرم عليها أصول الزوج وفروعه، وهذا الرجل أراد أن يتزوج أم زوجة أبيه (يجوز)؛ لأن أصول الزوجة يحرمون على الزوج خاصة، والتحريم يتعلق بالزوج فقط، وبالزوجة فقط الزوج يحرم عليه أصول زوجته وفروعها، والزوجة خاصة يحرم عليها أصول زوجها وفروعه، وهذا هو الضابط في المحرمات بالصهر، والقرآن واضح في هذا، من حين ما عقد على المرأة يحرم عليه أصولها أبد الآبدين، وفروعها أبد الآبدين إذا دخل بها.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأم عند الإطلاق لا يدخل فيها الأم من الرضاع، وجه ذلك: أنه لو كانت الأم من الرضاع تدخل في الأم عند الإطلاق ما احتيج إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾؛ لأنها تدخل في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن أم الزوجة من الرضاع لا تتدخل في قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ﴾ لماذا؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

لأن الأم عند الإطلاق لا يدخل فيها الأم من الرضاعة، فإن قال قائل: أم الزوجة من الرضاع حرام لدخولها في عموم قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، قلنا: لا نسلم بهذا؛ لأن الأم عند الإطلاق لا يدخل فيها الأم من الرضاع بدليل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، ولو كانت الأم عند الإطلاق يدخل فيها الأم من الرضاعة لكان في الآيات تكرار ينافي البلاغة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ثبوت الأمر بالرضاعة، وعلى هذا فيصح أن يقول القائل لمن أرضعته: أمي، لكن لا ينبغي أن يقولها إلا مقيدة؛ لأن الله قيدها فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ فإن تقول: أمي من الرضاع تقيد؛ لئلا يتوهم السامع أنها أم من النسب، ويتفرع من هذه الفائدة: ما يُطْلقه كثير من الناس على زوجة الأب أنها عمة، والبعض يسميها خالة على الإطلاق، وكذلك ما يفعله بعض الناس من إطلاق اسم العم أو الخال على أبي الزوجة يقول: عمي أو خالي، وهذا غلط؛ لأنها تسمية لا تصح لغةً ولا شرعًا، وتُوهم؛ ولهذا نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - عن تسمية العشاء بالعتمة، وذلك لأنها في كتاب الله العشاء؛ لقوله: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور: ٥٨]. فالمصطلحات لا ينبغي أن تُطلق على خلاف الحقائق الشرعية.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المرضعة تحرم بمطلق الرضاعة؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، والرضاع يصدق بمرة بل بمصة؛ لأن من مصَّ من ثدي المرأة فقد رضع، وعلى هذا فيثبت التحريم بمجرد رضعة واحدة، وإلى هذا ذهب الظاهرية، وقالوا: إن التحريم بالرضاع يثبت بالرضعة الواحدة؛ لأن الرضاع جاء مطلقًا في القرآن، والمطلق يصدق بمرة واحدة، ولكن الصحيح أن هذا الإطلاق في القرآن قد قيدته السنة فيما صح عن النبي ﷺ في قوله: «لَا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَالمَصَّتَانِ»[1]، والثلاث تحرم بمقتضى مفهوم هذا الحديث، فالمصة والمصتان لا تحرم هذا منطوقه، ومفهومه أن ما زاد عليهما يحرم، وإلى هذا ذهب أيضًا كثير من العلماء - أهل القياس - من أهل الظاهر، وقالوا: إن الثلاث محرمة بمفهوم الحديث وقال بعض العلماء: لا تحرم إلا خمس لما صح في «مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أُنزل «عشر رضعات معلومات يحرمن» فنسخن بخمس معلومات) فتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يُقرأ من القرآن[2]، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن المحرِّم خمس رضعات، وأجاب عن الحديث: «لَا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَلَا المَصَّتَانِ» بأن تحريم الثلاث بالمفهوم، وإذا تعارض المفهوم والمنطوق يُقدم المنطوق؛ لأن المفهوم يصدق بصورة واحدة: «لَا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَلَا المَصَّتَانِ» لا تحرم، والثلاث والأربع

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥٠)، والترمذي (١١٥٠)، والنسائي (٣٣١٠)، وأبو داود (٢٠٦٣).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥٢)، والترمذي (١١٥٠)، والنسائي (٣٣٠٧)، وأبو داود (٢٠٦٢).

والخمس والعشر، مسكوت عليهم، بالمفهوم، فإذا رضع خمس رضعات ثبت التحريم، وإذا قلنا: يثبت التحريم بخمس رضعات فإننا لم نخالف المنطوق؛ لأن مفهومه الثنتان لا تحرم وما زاد فيصدق بصورة واحدة؛ لهذا نقول: إننا نقدم دلالة المنطوق، لكن بعض العلماء طعن في هذا الحديث وأنه لا يصح ولو كان في مسلم، فكيف يتوفى رسول الله ﷺ وهي فيما يُتلى من القرآن ولم نجدها الآن في القرآن، لأن الواجب إذا كانت بعد وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ موجودة في القرآن يجب أن تبقى، ولو فتح الباب لكان هذا سبيلًا إلى تصحيح قول الرافضة أن في القرآن شيئًا محذوفًا، وبناءً على ذلك فالمتن منكر، ونأخذ بحديث: «لَا تُحَرِّمُ المصَّةُ وَلا المصَّتَانِ» أو نأخذ بالإطلاق؟! ولكن عند التأمل لا يتبين أن هذا طعن في الحديث؛ لأن عائشة صرحت بالنسخ، ولكنها ما زالت في القرآن عند وفاة الرسول ﷺ ؛ لعدم علم التالي لها بالنسخ، فإنه لا ينبغي أن نتجرأ على طعن الرواة؛ لأنك إذا حكمت بنكارة المتن حكمت بوهم الرواة وخطئهم، وهذا شيء صعب، فمهما أمكن قبول الخبر الثقة فاقبله، أما إذا لم يمكن وكان مخالفًا للقرآن فلا تقبله، لكن إذا كان غير مخالف ويمكن الجمع فاجمع، وهذا الذي ذهب إليه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ والصحيح: أنها خمس رضعات وفي الحديث: «مَعْلُومَاتٍ»، فيفيد أنه لو وقع الشك في عددها هل هي خمس أو أربع، فلا عبرة بهذه الرضاعة لأنه قال: «معلومات»، ومع الشك لا يثبت الحكم.

بقي علينا أن ننظر هل يمكن أن نقيد إطلاق القرآن بالسنة؟ نعم يمكن أن يُقَيد إطلاق القرآن بالسنة كما يخصص عموم القرآن كذلك بالسنة، وأما نسخ القرآن بالسنة، فالصحيح: أنه يُنسخ القرآن بالسنة إذا صحت؛ لأن الكل من عند الله ـ عز وجل ـ قد ينسخ الله قوله بقوله، وقد ينسخ الله قوله بقول رسوله ﷺ.

إذنْ المحرِّم خمس رضعات معلومات، وما هي الرضعة؟ ما في الحديث «خمس رضعات مشبعات»، فقال بعضهم: الرضعة المصة؛ لقوله: «لَا تُحَرِّمُ المصَّةُ وَلَا المصَّتَانِ» والمصة هي الرضعة، ومعلوم أن الطفل إذا مصَّ فقد رضع وأتاه اللبن بمصته، وعلى هذا يمكن أن تكون الخمس في مجلس واحد وفي نَفَسٍ واحد، والطفل ممكن أن يمص خمس مرات في نَفَسٍ واحد والثدي في فمه، ولكن هذا فيه شيء من الاشتباه؛ لأن الإحاطة بهذا صعبة، وقال بعض العلماء: المراد بالرضعة: التقام الثدي، فما دام الصبي ملتقمًا الثدي فهذه رضعة، وإذا أطلقه لأي سبب من الأسباب فقد تمت الرضعة سواء أطلقه للتنفس أو لسماع صوت أزعجه، أو لملل أمه من الجهة اليمنى فتحوله إلى اليسرى أو ما أشبه ذلك، المهم: أن الرضعة التقام الثدي فما دام الطفل ملتقمًا للثدي فهي رضعة وإذا أطلقه لأي سبب فقد تمت الرضعة، وعلى هذا يمكن أن تتم الخمس في مجلس واحد،

هذان قولان، والقول الثالث: أن الرضعة هي فعلة مما يعد رضعة أي وجبة في الإرضاع كما تقول: أكلة، كما جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى عَنِ الَّذِي يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[1]، هل الحمد يكون كلما أكلت لقمة قلت الحمد لله أم عند الانتهاء؟ عند الانتهاء، فتكون الرضعة كالأكلة تمامًا، فلا بد أن تكون الرضعة الأخرى منفصلة عنها بزمن بعد انفصالها، كأن تكون واحدة في الصباح وواحدة في المساء، وواحدة في الليل، وواحدة في السَّحر وما أشبه ذلك، وهذا هو اختيار شيخنا عبد الرحمن بن السعدي رَحِمَهُ اللهُ أن المراد بالرضعة: ما انفصلت عن أختها انفصالًا بيِّنًا لتكون رضعة كاملة، وإذا قدَّرنا أن الحديث يحتمل المعاني الثلاثة وهي: المصة، والتقام الثدي، والوجبة من الرضاعة، فالأصل الحل حتى يقوم دليل بيِّن على أن هذا الرضاع محرم، وبناءً على هذا الأصل يكون الراجح: الثالث وهو الأخير؛ لأن دلالة الحديث على المعنى الأول مشكلة فيها اشتباه، وعلى المعنى الثاني فيها اشتباه، وعلى المعنى الثالث تتفق الأقوال ولا يوجد اشتباه وحينئذٍ نأخذ بهذا؛ لأن الأصل الحل حتى يثبت التحريم بيقين ليرفع هذا الأصل .

إذنْ قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ مطلق مقيد بالسُّنة في قوله ﷺ: «خمس رضعات» وأيضًا في الآية إطلاق آخر: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، ظاهر الآية أنه يشمل الإرضاع في الصغر والإرضاع في الكبر فهل هذا مُراد؟ نقول: نعم هو مراد عند بعض العلماء ظاهريًّا أن إرضاع الكبير كإرضاع الصغير، واستأنسوا لقولهم بحديث سالم مولى أبي حُذيفة حيث كان متبنىً عند أبي حذيفة من أبنائه الذين تبناهم في الجاهلية.

ومعلوم أنه إذا كان ابنًا فسوف يدخل على أهل البيت ليلًا ونهارًا وفي أقصى البيت وأدناه كالولد تمامًا، فلما أبطل الله التبني جاءت امرأة أبي حذيفة إلى النبي ﷺ وقالت: إن سالمًا كان يدخل علينا، يعني: ويشق علينا أن نتحرز منه فقال ﷺ: «أَرْضِعِيهِ تَحْرمِي عَلَيْهِ»[2] يعني: وإذا حرمتِ عليه جاز أن ينظر إليك وأن يخلو بك وهو كبير، وهذا الحديث مطابق لظاهر الآية فيكون شاهدًا للإطلاق، وقال بعض العلماء: إنه لا يعتبر الرضاع إلا إذا كان في الحولين؛ لأن قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ أي: الإرضاع المعتبر شرعًا، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ ﴾ [البقرة:٢٣٣]، فما كان في الحولين فهو رضاع معتبر، وما كان بعد الحولين فلا عبرة به؛ لأن هذا هو زمن الإرضاع الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، وهذ هو المشهور عند أكثر أهل العلم، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد أن العبرة بالحولين، فما كان قبلهما فرضاع معتبر، وما كان بعدهما فليس بمعتبر.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥٣)، والنسائي (٣٣١٩).

قالوا: وهذا حد فاصل لا يُبقي اشتباهًا، وعليه فلو أرضعته ثلاث مرات في يوم السبت، والرابعة في ضحى يوم الأحد والخامسة بعد ظهر يوم الأحد، لكن سوف يتم سنتين عند زوال الشمس فهذا الرضاع غير معتبر؛ لأن الخامسة وقعت بعد الحولين فلا يُعتبر، مع أن الرابعة لم تنهضم بعد من المعدة وهي في معدته، ولكن تمت السنتان، كما أن الرجل قبل تمام خمسة عشر سنة غير بالغ وبعدها بالغ، يعني: لو أن الشخص فعل شيئًا يُشترط فيه البلوغ ضحى اليوم الذي بلغ فيه فإنه لا يؤاخذ به وآخر النهار يُؤاخذ به، وقال بعض العلماء: المعتبر الفطام، فما كان قبل الفطام فهو معتبر، وما كان بعده فليس بمعتبر؛ لحديث: «لَا رَضَاعَ إِلَّا مَا أَنْشَزَ العَظْمَ وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ»[1]، وهذا وإن كان ليس فيه شيء من الصحة، يعني: أنه ضعيف، لكن يؤيده النظر؛ لأن الإرضاع قبل الفطام يؤثر في نمو الولد، وليس له إلا هذا الغذاء وبعد الانفطام لا فرق بين الصغير والكبير في تأثير الرضاعة؛ لأنه إذا فُطِمَ وصار لا يأكل إلا الطعام لا فرق بينه وبين من له عشر سنوات، فتأثير الغذاء عنده في اللبن كتأثيره عند صاحب العشر السنوات، وهذا القول - أعني أن الحكم معلق بالفطام - اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن العبرة بالفطام، وهذا من حيث المعنى أصح، لكن فيه شيء من العُسر؛ وذلك لعدم انضباطه في بعض الأحيان؛ لأن الطفل ليس يفطم مرة واحدة بل يفطم شيئًا فشيئًا؛ لصعوبة الفطام عليه.

ولو قال قائل: باعتبار الأكثر من الفطام وهو السنتان لم يكن هذا القول بعيدًا يعني: فإذا فطم قبل السنتين امتد الحكم إلى السنتين، وإن تمت السنتان قبل فطامه امتد الحكم إلى فطامه، فلو قيل بهذا كان جيدًا، لكن تعليقه بالفطام أصح من حيث المعنى؛ لأنه إذا فطم لا يتغذى باللبن وليس معنى قولنا: لا يتغذى باللبن أنه لا يستفيد منه، لا الإنسان يستفيد باللبن ولو بلغ خمسين سنة لكن المقصود إذا فُطم. فإن قال قائل: ما الجواب عن إطلاق الآية وعن قصة سالم؟ قلنا: أما إطلاق الآية فقد ذكرنا أنها مُقيدة بعدد خمس رضعات فالتقيد بزمن أيضًا هو الحولان، ثم إن ظاهر الآية يؤيد اشتراط الفطام؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، ومعلوم أن الكبار ليسوا من المراضيع فقد فُطموا وانتهوا.

فظاهر ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ يعني: في وقت الرضاعة، ونرد عليهم بالنسبة لقصة سالم مولى أبي حذيفة بأحد وجهين بل بأحد ثلاثة أوجه، إما أنها منسوخة، أو مخصوصة خاصة به عينًا، أو مخصوصة به نوعًا، أما القول بأنها منسوخة: فهذا ليس بشيء، لأن الأصل عدم النسخ، ولابد من

---

(١) جمع الشيخ بين حديثين الأول أخرجه أبو داود (٢٠٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «لا رضاع إلا ما شد العظم وأنبت اللحم» وفي رواية «وأنشز العظم» وانظر «الإرواء» (٢١٥٣)، والحديث الثاني: أخرجه الترمذي (١١٥٢) من حديث أم سلمة بلفظ: «لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢١٥٠).

إثبات التاريخ وتعذر الجمع، وأما القول بأنها مخصوصة به عينًا: فضعيف أيضًا؛ لأن الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يخص أحدًا بحكم إلا لمعنى فيه حتى النبي ﷺ ما خُصَّ بها خص به من الأحكام إلا لأنه نبي، لا لأنه محمد بن عبد الله، فلا بد من علة يتغير بها الحكم ويخصص به من اتصف به، والمعنى الذي اختص به سالم حتى نقول: إن الحكم لا يتعداه وأنه خاص به لا يوجد؛ لأنه إذا قلنا: إن الحكم لا يتعداه وأنه خاص به صار معناه أنه حكم له بذلك؛ لأنه سالم مولى أبي حذيفة وهذا لا معنى له، وعلى هذا فيضعف هذا القول أيضًا أنه خاص به عينًا.

بقي أن يكون خاصًّا به نوعًا يعني: فإذا وُجد حال من حال سالم ثبت الحكم، وهذا لا يمكن الآن؛ لأن ابن التبني بطل، وعلى هذا فلا يرد علينا أبدًا ما دمنا قررنا أنه لا أحد يُخصص عينًا بحكم من شريعة الله، لابد أن يكون هناك معنى يتعدى إلى نوعه، وهذا لا يمكن، لكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ لم يعتبر في بعض كلامه، في الكلام الأول يوافق ما قلت أنه لابد من مراعاة التبني، أما القول الثاني يعتبر الحاجة وأنه إذا احتيج إلى إرضاع الكبير رُضِّع وثبت حكم الرضاعة، ولكن قوله هذا ضعيف؛لأن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» قالوا: يا رسول الله أرأيت الحمو؟ قال: «الحَمْوُ المَوْتُ»[1].

ومعلوم: أن أخا الزوج يحتاج الدخول إلى بيت أخيه، لاسيما إذا كانوا في بيت واحد، ولو كان إرضاع الكبير مؤثرًا لقال: الحمو ترضعه زوجة قريبه ليزول الحرج، فلما لم يقل ذلك عُلم أن مطلق الحاجة لا يؤثر في ثبوت حكم إرضاع الكبير، وأنه لابد أن تكون حاجة خاصة تتمشى فيها على كل ما حصل في قضية سالم مولى أبي حذيفة، وإذا اعتبرنا ذلك صارت الآن غير موجودة، وبهذا تسلم الأدلة من التعارض ويحصل الجمع بينهما.

في قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، هل لابد من مباشرة الإرضاع، بحيث لو صُبَّ اللبن في إناء وشربه الطفل لا يؤثر أو لا؟ الجواب: لا، ليس من الشرط أن يلتقم الثدي بل لو صب في إناء وشربه وفرق له ذلك خمس مرات ثبت الحكم؛ لأن المعنى موجود في التقام الثدي هذا من حيث تغذى الطفل باللبن، لكن يُفقد منه الحنان والمحبة، فإن الرضيع إذا كان يلتقم الثدي حصل من حنان المرضعة ومحبتها له ما لم يحصل فيما لو صُب لبنها في إناء وأُسقي الطفل، فهل هذا معتبر وأن الشرع لاحظ التحريم بالرضاع؛ لأنه يحصل من المرضعة مثل ما يحصل من أم النسب من المحبة والحنو ولذلك صارت هذه العلاقة مؤثرة أو أن المقصود تغذي الطفل باللبن؟ هذا موضع خلاف ـ كما أظن ـ لكن الظاهر العموم يعني: أنه لا فرق بين أن يرضع من ثدي المرضعة أو أن يصب له في إناء ويشرب؛ لأن الجسم يتغذى بهذا وهذا.

٦- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن لبن الفحل مُحرم ومعنى لبن الفحل أي: أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٣٢)،و مسلم (٢١٧٢).

الأخت من الأب من الرضاعة حرام؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾، وهذا ـ والله أعلم ـ من فائدة ذكر الأخوات دون البنات من الرضاعة، فالبنات من الرضاعة ما ذُكرن، والعمات ما ذكرن، لكن الأخوات تغني عن العمات؛ لأنهن حواشٍ، وهن أقرب الحواشي إلى الإنسان؛ إذنْ الأخوات من الأب أو الأخوات من الأم أو الأخوات من أم وأب من الرضاعة كلهن حرام.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أم الزوجة حرام بدون شرط؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ يعني: بمجرد العقد على المرأة عقدًا صحيحًا تحرم أمها وكذلك جداتها وإن علون.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أن أم المزني بها لا تحرم على الزاني؛ خلافًا لما ذهب إليه كثير من أهل العلم، لقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، والمزني بها ليست من نسائكم ولا يمكن قياسها على نسائه؛ لأن نسائه حللن له بعقد شرعي صحيح، والمزني بها لم تحل له فكيف يُقاس السِّفاح على النكاح الصحيح.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا**: بطلان قول من قال: إن التلوط بالذَّكر ـ والعياذ بالله ـ كعقد النكاح، وأن من تلوط بذكر حرمت عليه أمه وهي كأم الزوجة، وهذا منكر من القول، فكيف تجعل هذه الفاحشة العظيمة بمنزلة النكاح الصحيح؟ فأم الملوَّط به حلال وليست حرامًا، لكن نعم الملوَّط والزاني لا يحل أن يُزوج من أي امرأة حتى يتوب.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم الربيبة، لكن اشترط الله في تحريم الربيبة شرطان، الشرط الأول: أن تكون في حجره، والشرط الثاني:أن يكون قد دخل بأمها، ولكن دلت الآية الكريمة على أن شرط كونها في الحجر غير مقصود لبيان الواقع وليست شرطًا؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

١١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم حلائل الأبناء من زوجات ومملوكات؛ لقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾؛ لأن المملوكة لا تكون حليلة إلا بالوطء، ولذلك لو أن شخصًا اشترى أمَةً ولم يطأها ثم ملكها أبوه فإنها تحل لأبيه، لكن لو عقد على امرأة ولم يطأها ثم طلقها فلا تحل لأبيه؛ لأن المملوكة لا تكون حليلة إلا بالوطء، وأما الزوجة فتكون حليلة بمجرد العقد الصحيح.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن حليلة ابن الرضاع لا تحرم؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾، وسبق في التفسير اختلاف العلماء هل هذا القيد مخرج لابن التبني أو لابن الرضاع؟ وذكرنا أن الصواب: أنه مخرج لابن الرضاع، أما ابن التبني فهو ليس ابنًا شرعيًا فلا يحتاج إلى قيد لإخراجه.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية**: تحريم الجمع بين الأختين؛ لقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ

﴿ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، وعمومه يشمل الأختين من النسب والأختين من الرضاع، فلا يجوز أن يجمع الإنسان بين أختين من الرضاع، ولا بين أختين من النسب، وهل هذا شامل بملك اليمين أم خاص بملك النكاح؟ اختلف فيه السلف، والصحيح: أنه شامل للملك اليمين وعقد النكاح، فالإنسان إذا كان عنده أختان مملوكتان ووطئ إحداهما فإن الأخرى تحرم عليه حتى يحرم الموطوءة بإخراج لها عن ملكه، يبيعها مثلًا أو يزوجها بعد الاستبراء، أما ما دامت عنده وقد وطأها فإنه لا يحل له أن يطأ الأخرى.

وبالنسبة للنكاح هل يشترط بتحريم الأخت أن يطأ التي عنده أو تحرم الأخت بمجرد العقد؟ تحرم الأخت بمجرد العقد، ولهذا يجوز أن يجمع بين الأختين في ملك يمين بعقد بيع أو غيره ولا يجوز أن يجمع بينهما بعقد نكاح، والفرق: أن ملك اليمين يُراد للوطء ولغيره، والنكاح للوطء، فصار الحكم ثابتًا بمجرد عقد النكاح، أما في الإماء فبالوطء.

١٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما سلف من الذنوب قبل الشرع فلا يؤخذ به؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وكذلك ما حصل من الذنوب بعد الشرع قبل علم الفاعل فإنه لا يُؤخذ به؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥]، ولكن ثبت لنا أنه إذا كان مفرطًا في ترك السؤال فترك واجبًا من أجل هذا التفريط فيلزمه قضاؤه.

١٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور والرحيم، فبالمغفرة يكون زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، والمغفرة للذنوب والرحمة للحسنات، ومن هذين الاسمين نأخذ صفتين هما: المغفرة والرحمة؛ لأن من طريقة أهل السنة والجماعة أن كل اسم من أسماء الله دال على ذات الله وصفته، أي: الصفة المشتقة منها.

فالغفور دال على الذات وعلى الصفة وهي المغفرة، الرحيم دال على الذات وعلى الصفة وهي الرحمة، وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ الرحمة إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، ولكنها رحمة لا تتصل بها رحمة الآخرة إنما يتصل بها عدل الآخرة وهذه للكافرين والمؤمنين، ورحمة خاصة بالمؤمنين وهذه تتصل بها الرحمة في الآخرة بالرحمة في الدنيا أي: يكون الإنسان مرحومًا في الدنيا والآخرة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] هذه عامة، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال الله تعالى:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٢٤]

التفسير

قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعني: وحرمت عليكم المحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ اسم مفعول من فعل رباعي وهو (أحصن)؛ لأن اسم المفعول يكون فعله مبنيًّا للمجهول، والإحصان يطلق على عدة معانٍ، فيطلق على الحرائر ويطلق على العفيفات، ويطلق على المتزوجات، وكل هذا جاء في القرآن، قال الله تعالى في الأول: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء:٢٥]، والمراد بالمحصنات هنا: الحرائر.

وفي الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور:٢٣]، والمحصنات يعني: العفيفات عن الزنا، ومن الثالث (المتزوجات) هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

فإن قال قائل: مثل هذه الألفاظ المشتركة لعدة معانٍ كيف نعرف تعين المعنى المقصود من هذه المعاني؟

نقول: نعرف بالسياق فإن لم يكن سياق يعين، فالصحيح أنه يجوز استعمال المشترك في جميع معانيه ويكون شاملًا لها كما يشمل اللفظ العام جميع أفرادها، فاللفظ المشترك بين معنيين فأكثر يكون عامًّا للمعنيين، إذا لم توجد قرينة تعين أحد المعنيين، كما أن لفظ العام يشمل جميع أفراده، فاللفظ المشترك يشمل جميع معانيه، لننظر الآن في الأمثلة الثلاثة:

المثال الأول: أن المراد بالمحصنات الحرائر، ما هو السياق الذي يعين ذلك؟ قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء:٢٥].

إذن المحصنات غير مملوكات فهن حرائر.

والثانية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور:٢٣]، يعينها قوله: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ غافلات عن الزنا، فهن عفيفات.

الثالثة: المتزوجات حال هذه ليس في اللفظ الذي في الآية الكريمة ما يعين المراد، لكن السنة جاءت به فمن المحصنات وما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، هل معناه أن الرجل إذا كانت له أمة متزوجة فإنه يجوز أن يجامعها؟ لا، لكن المسألة وقعت في شيء معين وهي المرأة المسبيَّة في القتال مع الكفار إذا كانت ذات زوج ثم ملكها المسلمون فإنها تحل؛ لانتساخ نكاح زوجها الأول بسبيها.

إذنْ المحصنات يعني: المتزوجات اللاتي يسبين بالجهاد فإذا سُبين بالجهاد صرن مِلكًا للسابي فحينئذٍ تحل له، إذا ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ يعني: المتزوجات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني: المسبيات، وذلك في قتال الكفار، أما قتال المؤمنين فإنه لا سبي للنساء ولو كان قتالًا محرمًا كأهل البغي ـ مثلًا ـ فإن نساءهم لا يُسبين، لكن المراد: نساء الكفار، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يعني: فإنهن حلال ما لم يكنَّ من المحرمات، فقد تكون أخت الإنسان أو عمته أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿كِتَٰبَ﴾: قيل: إنه مفعول لفعل محذوف أي: الزموا كتاب الله عليكم أي: الزموا فريضة الله؛ لأن الكتاب هنا بمعنى المكتوب أي: المفروض، والكَتب يأتي بمعنى الفرض كما في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، فالمعنى: الزموا فريضة الله عليكم ولا تتجاوزوها وأكد الله ذلك لأهميته، ويحتمل أن يكون ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا لفعل محذوف أي: كتب الله كتاب الله عليكم، فيكون مصدرًا لفعل محذوف دل عليه السياق، لكن معنى الأول كأنه أوضح، ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرضه مفروضًا عليكم، ﴿وَأَحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، ﴿وَأَحِلَّ﴾، وفي قراءة: (أَحل)، فالقراءة السبعية (أَحل) أليق في السياق في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ والقراءة الأخرى السبعية (أُحل) أليق بالسياق في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ يعني: حرم ما بين مفعول (أُحل) بالمفعول فيكون تناسق بين اللفظين الدالين على هذين الحكمين، وعلى كل حال: فالقراءة التي فيها البناء للمفعول حذف الفاعل؛ لأنه معلوم، ولأن الخلق أو الشرع إذا بني للمفعول فإنما ذلك للعلم بالفاعل؛ لأنه لا خالق إلا الله ولا شارع إلا الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، ﴿مَّا وَرَآءَ﴾ وراء هنا بمعنى: دون أو سوى يعني: ما سوى ذلك فهو حلال، وهذا لفظ عام ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ﴿مَّا﴾ اسم موصول للعموم فتشتمل كل ما سوى ذلك وحينئذٍ نرجع إلى الآية ننظر ماذا يحدث.

في قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ لو جمع الإنسان بين المرأة وعمتها؟ لا يجوز، قال: ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، ولا شك أن ما بين الأختين من الضوابط ما ليس بين غيرهما لكن نقول: جاءت في السنة: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

إذن: عندنا الآن أربع: العمة من الرضاع والخالة من الرضاع، وبين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها كل هذا مما جاءت به السنة فيكون مخصصًا لعموم قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

مسألة: تحريم الجمع بين الأختين إلى متى ينتهي؟

الجواب: إلى أن تموت أو تطلق، وإذا طلقت هل هناك تفصيل فنقول: إذا طلقت طلاقًا رجعيًّا وجب الانتظار حتى تنتهي العدة، يعني: لو طلق امرأته ولها أخت طلاقًا رجعيًّا فإنه يجب الانتظار بالإجماع حتى تنتهي العدة، وإذا كان الطلاق بائنًا أي: طلاق بثلاث أو طلاق على عوض فهل يجب الانتظار حتى تنتهي العدة أوله أن يتزوج أختها؟ المشهور من مذهب الحنابلة أنه يجب الانتظار حتى تنتهي العدة؛ لأنها إلى الآن مشغولة بحق من حقوق الزوج فيجب الانتظار، وقال بعض العلماء: إذا كان الفراق بائنًا بفسخ أو طلاق على عوض، أو طلاق خلاف فإنه يصح أن يتزوج أختها؛ لأنها الآن ليست زوجة، والله قال: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ والآن ليس هناك جمع بين اثنين، ولو قال قائل: للتفريق بين البينونة الكبرى والصغرى لكان له وجه بأن يقال: إن كانت بائنًا بطلاق ثلاث أو بفرقة لعان فإنه يجوز أن يتزوج أختها بمجرد الفراق؛ لأنه لا يمكن أن يرجع لهذه.

وإن كانت البينونة بغير ذلك، فالطلاق على عوض والفسخ فإنه لا يتزوجها؛ لأنه في هذه الحال يمكنه أن يراجعها بعقد، لو قال قائل بهذا لكان له وجه وكان بعض قول من يقول بالجواز مطلقًا، لكن الجواز مطلقًا أقرب إلى القواعد أي: إذا كان الطلاق بائنًا سواء إن كان يمكن الرجوع فيه أو لا فإنها تحل، ويحل أن يتزوج أختها؛ لأنه لم يجمع بين الأختين.

السؤال الآن: هل يجوز أن يجمع بين عَمَّتينِ؟

لا، لأنه إذا امتنع بين المرأة وعمتها فبين العمتين من باب أولى.

مسألة: ما الضابط في قول الرسول ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[(١)]؟

الجواب: الضوابط في (الرضاع) التي ذكرها الفقهاء تقول: يحرم على الإنسان من الرضاع الأصول وإن علون، والفروع وإن نزلن، وكذلك فروع الأصل الأدنى وإن نزلوا، وفروع الأصل الأعلى لصلبهم خاصة فقط، ونفس الشيء يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، بالنسبة للرضيع ذريته، لكن بالنسبة لأصوله وفروعه وحواشيه ما لهم دخل في الموضوع، وهذه المسألة يجب أن نتفقه لها، الرضاع لا علاقة له بقرابة الرضيع إلا ذريته فقط، ولهذا يجوز لأخيه من النسب أن يتزوج من أرضعته ـ أمه من الرضاع ـ ويجوز أن يتزوج أخته من الرضاع أخوه من النسب، لأن الرضاع لا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

علاقة له بمن سوى الرضيع إلا ذريته فقط.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هذه هي اللغة الفصحى أنه إذا جاء اسم الإشارة مقرونًا بكاف الخطاب يراعى فيه المخاطبة، فإن كان مفردًا مذكرًا فهو مفرد مفتوح مثل (ذَلك)، وإن كان مثنىً فهو بالتثنية (ذلكما) مثل: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧]، وإن كان لجماعة الإناث تكون (ذلكن).

هنا: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب لجماعة الذكور، وهذه اللغة الفصحى، وفيه لغة أخرى بالإفراد والفتح للمذكر مطلقًا مفردًا كان أو مثنى أو جمعًا وفيه لغة ثالثة بالفتح مطلقًا.

وجه الأخيرة: أن للمخاطبة شخص، فصح أن تأتي بلفظ الإفراد والتذكير، وأما الثانية فوجهه: مراعاة المعنى دون مراعاة المخاطبة، فالمذكر مفتوح والمؤنث مكسور، وأما اللغة الفصحى فالأمر فيها واضح.

وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾، ﴿أَن﴾: هذه مصدرية، ولهذا نصب الفعل بها ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ فحذفت النون، المعنى: أُحل بهذا الشرط أي: بأن تبتغوا بأموالكم النكاح، وكل ما يتمول من أعيان ومنافع فإنه مال، والمعنى: فإذا ابتغيتم بأموالكم وعقدتم النكاح.

وقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ هذه حال من فاعل ﴿تَبْتَغُواْ﴾ أي: حال كونكم، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أي: محصنين لفروجكم، محصنين لفروج زوجاتكم والإحصان في اللغة المنع، ومنه سمي الحصن للقصر المنيع؛ لأنه يحصن ما فيه، والنكاح الشرعي سبب لمنع الزنا، قال النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ»(١).

وقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ المسافحة مفاعلة من السفح وهو: الزنا، وسمي الزنا سفحًا؛ لأن المقصود به سفح الماء أي نيل الشهوة فالزاني لا يريد أولادًا ولا يريد عِشرة وإنما يريد أن يسفح هذا الماء الذي غَيَّظ عليه حتى تبرد شهوته، والسَّفح في الأصل: الدفع، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥].

ثم قال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني: أيَّ استمتاع، بالعقد منهن، ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطوهن أجورهن، والأجور هنا جمع أجر وهو: المهر أي المال الذي طالبتموهن به، وسمي المهر أجرًا؛ لأنه في مقابلة منفعة فهو كالرجل يستأجر أجيرًا يبني له بيتًا فيعطيه أَجْرَه، فكذلك الزوج مع زوجته.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حال كونها ـ أي الأجور ـ فريضة بناءً على أنها مفروضة والمعنى: ما فرضتم لهن فأعطوهن من المهور.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ يعني: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة بزيادة أو نقص، يعني: إذا سمي المهر، وفُرض وعرفت الزوجة نصيبها فلا جناح عليه ولا عليها فيما تراضيا به من بعد الفريضة بزيادة أو نقص؛ بأن تتنازل المرأة عن شيء مما فُرض لها أو بكل مما فرض لها، وقد تطلب الزيادة ويعطيها الزوج، كل هذا لا بأس به.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بـ (إن)، و(كان)؛ لأن كان مسلوبة للزمان هنا فتفيد الثبوت والتحقق للعلم والحكمة، فَعِلْمُ الله ـ عز وجل ـ واسع كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في الحاضر ولا في الماضي ولا في المستقبل.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ أي: أنه ذو حكمة، والحكمة: هي وضع الشيء في مواضعه سواء كانت مما يتعلق بالقدر أو مما يتعلق بالشرع، فإن أقدار الله ومشروعات الله كلها حكمة، ولكن معنى (حكيمًا) أوسع مما ذكرت الآن فهو أوسع من كونه دالًّا على الحكمة، بل هو الأعلى في الحكمة والحكم فمعنى: (الحكيم) أي: حاكم مُحكم، حاكم من الحُكم، مُحكِم من الإحكام الذي هو الحكمة، ثم إن حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي، ثم إن الحكمة أو الإحكام حكمة في صورة الشيء، وحكمة في غاية الشيء والمراد منه، وكل ذلك ثابت من قوله: ﴿حَكِيمًا﴾، وعلى هذا تكون أربعة أقسام: حكم كوني، وحكم شرعي، إحكام في صورة الشيء، وإحكام في غاية الشيء، ووجه ختم الآية بهذا هو أن هذه أحكام عظيمة من هذين الاسمين الكريمين وهي أن هذه الأحكام صادرة عن علم تام بما يصلح الخلق وعن إحكام تام.

١ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أن النساء المسبيات يكن أرِقَّة بمجرد السبي، وعليه عمل المسلمين، فإن سبيت مع زوجها فإنها تبقى معه، لكن بدونه تكون رقيقة.

٢ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينفسخ نكاحها من زوجها؛ لأن المسلمين ملكوها وهي مع زوج هل تُطلق بهذا الانتقال؟ فالجواب: في هذا قولان للعلماء: الأول أن بيع الأمة طلاقها، والثاني: أنها لا تطلق وتبقى على زواجها ويقال للمشتري ـ إن لم يعلم بأنها متزوجة ـ بأن لها الخيار؛ لأنه يفوت عليه الاستمتاع بها، والدليل على هذا القول الصحيح: أن بريرة لما عُتقت خيَّرها النبي ﷺ أن تبقى مع زوجها أو تفسخ النكاح، ولو كان البيع سببًا للطلاق لانفسخ بدون تخيير.

إذنْ لا يصح أن يقاس بيع الأَمَةِ على سبيها وإن كان قد انتقل مُلكها.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الرق؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهذا أمر مجمَع عليه بين المسلمين، أعني: ثبوت الرق، ولا يمكن لأحد الإنكار؛ لأنه في القرآن والسنة وفي إجماع المسلمين، ولكن يبقى النظر في سبب الرق هل يسترق الإنسان بأي سبب أم لا بد من

سبب شرعي؟

الجواب: الثاني وعلى هذا فكثير من الأرقة الذين كانوا يوجدون لا حقيقة برقهم؛ لأن أهلهم كانوا يبيعونهم بحاجة أو بغير حاجة فيشتريهم المشتري ويسترقهم، وهذا ليس سببًا شرعيًّا للرق، لكن إذا ثبت السبب الشرعي ثبت المسبب وثبت الرق ولا يجوز إلغاؤه؛ لأنه حكم شرعي فلا يجوز إلغاؤه بأي حال من الأحوال، لكن لو قال قائل: هؤلاء الأرقة الموجودون لماذا استرقوا؟ فنلغي الرق هنا لأجل بطلان سببه، ولكن يجب ألا يكون إلغاء الرق كذب، يعني: فيه مصادمة للنص والإجماع ، لكن يقال: الرق الموجود الآن ليس على سبب شرعي فلا يجوز اعتماده كهذا يقال؛ لتبين الحكمة أو ليبين السبب حتى يلقى الحكم الشرعي وهو الاسترقاء.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: صحة إطلاق البعض على الكل تؤخذ من قوله: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وأيمان جمع يمين وهي اليد والملك في الحقيقة ملك للإنسان كله لكن عبَّر باليمين؛ لأن الغالب أن الأخذ والإعطاء بها.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب التزامنا بما فرض الله علينا في قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: كتاب شرعي كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، وكتاب كوني كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ:٢٩] أي: الكتاب القدري، وكما في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المحللات أكثر من المحرمات، تؤخذ من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، لكن وجه ذلك أنه حصر المحرمات وعمَّم في المحللات.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من ادعى تحريم امرأة فعليه الدليل، يعني: لو خطب إنسان امرأة فقال له بعض الناس: هذه المرأة حرام عليك ـ أي: من المحرمات ـ لابد أن يقيم دليلًا على ذلك؛ لأن المحرمات محصورات، والمحللات الأمر فيهن مطلق.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أننا إذا شككنا في سبب التحريم، فالأصل عدم التحريم يعني: الأصل الحل، ومن الأمثلة: لو شككنا في هذا الرضيع هل رضع خمس مرات أو أربع فالأصل أربع، فلو كانت هذه المرأة قد رضعت من أم الرجل وشككنا هل رضعت خمسًا أم أربعًا فالأصل الحل، وأنها لا تحرم عليه حتى يثبت سبب التحريم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن رحمة الله أوسع من غضبه، وأسبق من غضبه أيضًا، أما في كونها أسبق لما في الحديث الصحيح: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]، وأما كونها أوسع؛ فلأن ما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

أحل الله لعباده أكثر مما حرم عليهم.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب بذل المال في النكاح، وأنه لا نكاح إلا بمال؛ لقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾، وعلى هذا فلا بد في النكاح من مال وفي هذا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يشترط شرطًا معينًا فيقال: المهر ألف ريال، وهذا جائز لا إشكال فيه.

الحالة الثانية: أن يشترط عدمه فيقول: زَوَّجْتُك ابنتي، فيقبل الزوج: فيقول: بشرط ألا مهر لها، فيزوجه بهذا الشرط، ففي هذا للعلماء قولان:

القول الأول: أن النكاح صحيح، ولها مهر المثل، وهذا هو المذهب.

والقول الثاني: أن النكاح غير صحيح، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: لأن الله اشترط للحل أن يكون ذلك بالمال، وإذا شُرط عدمه انتفى المشروط وهو الحِل وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قوي، ولعل نكاح الشغار مأخذه من هنا، أنه ليس بمال، وإذا ذكر فيه المال فإنه مذكور غير مقصود.

الحال الثالثة: أن يسكت عنه ولا يشترط عدمه، فيقول: زوَّجتك ابنتي فيقول: قبلت، وفي هذا الحال النكاح صحيح، ولها مهر المثل، كما جاء في القرآن والسنة: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]، هذا إن طُلقت قبل الدخول، فإن طُلقت بعد الدخول فلها مهر المثل كما صح ذلك في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١١- **ومن فوائد هذه الآية**: أن الطالب للنكاح هو الزوج لقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾، فهل يمكن أن تطلب الزوجة؟

نقول: يمكن للمرأة أن تخطب نفسها إلى شخص، وهو على كل حال بالنسبة للثاني يندر لكنه واقع، فقد وهبت المرأة نفسها للنبي ﷺ، وهذا عمر عرض ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، ولا بأس، لكن الغالب أن الطالب هو الزوج.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المهر إذا كان مغصوبًا فإنه لا يعتد به، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾، فهو مال لكنه ليس له، لأن الله أضاف المال إليه.

١٣- **ومن فوائد الآية**: أنه لو كان المهر خمرًا فإنه لا يصح؛ لأنه ليس بمال.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز جهل المنفعة مهرًا ربما تؤخذ من (مال) إذا جعلنا المال العين والمنفعة، أو من (أجور) إذا قلنا: المال هو العين، فنقول: إن الله سماه أجورًا والأجرة تكون على المنافع والأعيان، وعلى كل حال: المهر يصح أن يكون منفعة، فإن عادت المنفعة إلى الزوجة فالأمر ظاهر، وإن عادت إلى غيرها بإذنها فلا بأس كما في قصة موسى مع صاحب مدين؛ لأن المهر كان أن يرعى غنمه ثماني حِجَجٍ، فالمنفعة لوالدها لكن برضاها، فإذا رضيت فالحق لها، وإلا فالمهر للمرأة.

وهل يصح أن يجعل الزوج مهر زوجته خدمته لها؟ يعني: يقدم خدماتها، فيغسل ثوبها، ويفرش فراشها، ويقدم لها السجادة لتصلي عليها؟

يصح لأن هذه منفعة، لكن بعض العلماء قال: لا يصح؛ لأن هذا استرقاق للزوج والعكس هو الصواب، فإن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ النِّسَاءَ عَوَانٍ»[1]، يعني: مثل الأسرى عندنا.

على كل حال: إذا كانت المنفعة خدمة الزوج للزوجة، ففيه خلاف بين العلماء نظرًا إلى أن استخدامها إياه نوع من الإذلال وعكس ما يريد الشرع من كون ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، والصحيح: أنه إذا دعت الحاجة فلا بأس يعني: لو لم يجد امرأة يتزوجها إلا بهذا الحال، أما لو جعلت المهر على رعي غنمها، وإصلاح بستانها مما لا يكون خدمة مباشرة، فهذا لا شك في جوازه.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة تحريم المتعة، لقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وصاحب المتعة لا يريد الإحصان، بل يريد السفاح؛ لأن من أراد الإحصان فإن الإحصان لا يحصل إلا بالملازمة، أما أن يبقى عندها يومين أو ثلاثة أو أسبوعًا، فهذا لا يزيد في الإحصان بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ لأن كون الإنسان قد كف نفسه وآيس نفسه ربما يتحصن بعض الشيء لكن إذا استمتع مدة يومين أو ثلاثة، يزداد شبقًا فلا يحصل الإحصان والله - سبحانه وتعالى - اشترط أن يكون مُحصنًا، وزواج المتعة إنما هو للسفاح فقط، لسفح هذا الماء الذي غَيَّظ عليه، ولذلك لا يثبت به شيء من أحكام النكاح فليس به طلاق، ولا نسب ولا عِدة، ولا إحصان، وكل أحكام النكاح حتى عند القائلين بجوازه لا يترتب عليه شيء من أحكام النكاح، فدل هذا على أنه سفاح كما دلت عليه السنة، فإنه في حديث سبرة بن معبد الجُهني، أن الرسول ﷺ في «حجة الوداع»، أو في «غزوة خيبر» أعلن ﷺ أن المتعة حرام إلى يوم القيامة[2]، وهذا خبر مؤبد حتى لا يدعي مدعٍ أنه نسخ؛ لأن جعل غايته يوم القيامة، فنسخه غير ممكن، ولو أمكن نسخه لأمكن تكذيب الرسول - ﷺ، وهذا مستحيل، وأجاز بعض العلماء المتعة للضرورة فقال: إذا خاف الإنسان على نفسه الزنا لكونه شديد الشهوة، ولكون الزنا متيسرًا كما يجري في بلاد الكفر، فلا حرج أن يتمتع، ويروون هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: إنه كالميتة إذا اضطر الإنسان إليه فعله، وإلا فلا، وحجته: أن فيه ارتكاب أدنى المفسدتين بدفع أعلاهما، وما هو الأعلى؟ الزنا الذي يشعر الإنسان بأنه تيس وجد عنزة في الطريق فركبها ومشى.

لكن المتعة فيها نوع من الارتباط بين الرجل والمرأة، ما هو؟

هو المدة التي اتفقا عليها ففيها شيء من العلاقة التي لا يشركه فيها أحد، لكن الزنا على خلاف

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٠٣٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٠٦)، والنسائي (٣٣٦٨)، وأبو داود (٢٠٧٢).

ذلك، ولكن القول الراجح: أنها لا تحل مطلقًا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣] هذا هو الصحيح، وقد أنكر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على ابن عباس إنكارًا عظيمًا في هذه المسألة وهو محل إنكار؛ لأن النبي ﷺ قال: «حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» وأطلق؛ ولأن حقيقة المتعة استئجار الرجل المرأة ليزني بها في مدة معينة - هذه حقيقتها - وإذا تمت المدة خرجت من الباب الذي دخلت منه ولا تعتد ولا تفعل شيئًا يتفق مع مبدأ الزواج وهل الزنا إلا هذا؟! أما الضرورة فقد جعل الشارع لها حَلًّا، قال ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّومِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»، وأما في ارتكاب أدنى المفسدتين فيقال: هذه مفسدة مثل الزنا لا فرق بينهما، والعلاقة الحاصلة كما لو اتفق مع امرأة يزني بها ليالي معينة يحصل بينهما علاقة في هذه الليالي، فالصواب: التحريم مطلقًا.

إذن علماء السنة كلهم يقولون بتحريم المتعة، لكن خالف في ذلك الرافضة، وإنك لتعجب أن يخالفوا في ذلك، وإمامهم يقول بتحريمها ويعلن ذلك، لكن هذا ليس بغريب على من يتبع هواه، فها هو عليٌّ رضي الله عنه هو مِن جملة مَن روى المسح على الخفين، ومع ذلك الرافضة لا يقولون بالمسح على الخفين، وعلي رضي الله عنه مِن جملة مَن روى تحريم المتعة، وهم لا يقولون بالتحريم، وعلي رضي الله عنه قام على منبر الكوفة وأعلن أن خير هذه الأمة أبو بكر وعمر، وهم يقولون: لا، ليسوا خير هذه الأمة، بل بعضهم يقولون: إنهما ماتا على النفاق، وبعضهم يقولون: كفار، وما أشبه ذلك، مما ينبئ أن منبع عقيدتهم ليس على هدىً، ولكنه على هوىً، وإلا لو كانوا يتشجعون لآل البيت حقيقة، ما صاروا إلى مخالفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي هو أفضل آل البيت.

مسألة: يُذكر عن ابن عباس أنه رجع عن قوله، هل هذا صحيح؟

الجواب: لا، ما رجع، لكن رجع عن ما نُسب إليه من حلِّها مُطلقًا.

مسألة: ما حكم النكاح بنية الطلاق؟

الجواب: النكاح بنية الطلاق ليس متعة؛ لأنه ليس به شرط، لكن فيه محظور وهو الغش بالزوجة وأهلها؛ لأن الزوجة وأهلها لو علموا أن هذا الرجل يريد أن يطلقها إذا سافر مثلًا أو إذا طهرت امرأته من النفاس لا يزوجونه، والمخرج ألا يفعل.

وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا كلامًا يؤيد هذا، ويقول: إن فيه مثلبة على المسلمين فيعرف الناس عنهم أنهم متلاعبون في أنكحتهم، ثم إن فيه سدًّا لباب التزويج؛ لأن كل إنسان يعرف أن هؤلاء يتزوجون ثم يطلقون عند السفر، فإنه لا يثق به ولا يأمن أن يفعل مثل ما فعل، وحينئذٍ يكون سدًّا لباب التزويج؛ ولهذا ينبغي لنا إذا لاحت لنا مصلحة، ألا نتعجل في الأخذ بها حتى نرى ماذا يترتب عليها، فقد يترتب عليها من المفاسد ما هو أعظم من المصلحة، والذين قالوا بالجواز، يقول: لأن كل إنسان إذا لم تتلاءم معه زوجته فإنه يطلقها، ولكن نقول: هناك فرق بين شخص لم يدخل

إلا على أنه سيطلقها في يوم معين، وشخص آخر دخل على أنها زوجته، ولكن وجد عارضًا يمنع الاستمرار في الحياة الزوجية.

فهذا فرق عظيم، ثم إننا نقول: ألستم تقولون: إن الرجل إذا تزوج المرأة بنية التحليل للزوج فإن النكاح فاسد، فهذا مثله فإذا نوى أن يطلق بعذر معين، وهذا نوى أن يطلق بعذر معين، و (الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[1]، فإذا قالوا: هذا يمكن أن يرغب ويبقى قلنا: والمحلل يمكن أن يرغب ويبقى، فعلى كل حال: لا يجوز للإنسان أن يتزوج بنية الطلاق إذا سافر، ولكن هل يصح النكاح أو لا؟ المذهب عند الحنابلة أن النكاح غير صحيح؛ لأن نية المتعة كشرطها، كما أن نية التحليل كشرطه.

مسألة: الرجل يصوم بالنهار لكن بالليل ما الذي يفعله؟

الجواب: لا يصوم بالليل، ولكن يصلي، ثم هناك شيء آخر، أولًا توجد عقاقير الآن تُخفف الشهوة دون أن تقضي عليها، أما الذي يقضي عليها لا يجوز، والشيء الثاني (يستمني) مثلًا، لأن الاستمناء أهون من المتعة، أو الزواج بنية الطلاق، فللضرورة الاستمناء أهون من الزنا.

١٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المهر يثبت باستمتاع الزوج بزوجته، لقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وعلى هذا فيثبت المهر بالجماع، وبأي استمتاع بالمرأة، كالتقبيل والضَّم ونحو ذلك، ويثبت أيضًا بالخلوة كما جاء ذلك عن الخلفاء الراشدين.

١٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسمية المهر أجرًا وجهه: أنه عوض في مقابل منفعة لا في مقابل عين، فلو كان في مقابل عين لسمي بيعًا، لكنه في مقابل منفعة وهو استمتاع الزوج بالزوجة فصار مثل الإجارة.

١٨- **ومن فوائد الآية:** أن المهر لازم كلزوم الأجرة على المستأجر، ولكن إذا سمح من له الحق فهل يسقط؟ الجواب: نعم، لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهنا مسألة مهمة وهي لَمَّا سمى الله المهر أجرًا، هل الزوج يعامل زوجته وهو يشعر أنها كالأجير أو أن معاشرة الزوج لزوجته ومعاملته لها أسمى من ذلك وأعلى؟ الثاني؛ لأنه إذا شعر بأنها كأجير استأجرها ليستمتع بها لم يحصل مقصود النكاح، وهو المودة والرحمة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، ولأنه لو شعر هذا الشعور لكان يغضب حينما تمتنع منه لسبب أو لغير

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

سبب حتى ربما طلقها، لكن إذا شعر بأن الأمر أعلى وأسمى من ذلك لاختلف الأمر، فالمهر أجر؛ لأنه في مقابل منفعة، ولكن الذي سيق إليه المهر ليس كالأجير، فالعوض وإن سمي أجرًا لكن المعوَّض له ليس كالأجير.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا، وجوب إتيان النساء مهرهن؛ لقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروض عليكم أن تؤتوهن أجورهن.

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة، أنه إذا تراضى الزوج والزوجة على زيادة أو نقص أو إسقاط فلا حرج؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾.

٢١- ومن فوائدها، أن نأخذ قاعدة مهمة وهي: (أن ما أوجبه الله - عز وجل - لحق الإنسان وأسقط حقه فلا إثم على من لم يقم به).

وهذه القاعدة سيكون لها فروع كثيرة منها: إجابة دعوة الوليمة واجبة لحق الزوج فإذا أسقطها فلا إثم عليه، فإذا دعيت وقلت: أنا عندي شغل، ولا أستطيع وما أشبه ذلك. فذلك مسموح فإنه لا إثم عليك؛ لأن الحق له والشيء الذي أوجبه الله من باب الحقوق على الناس بعضهم لبعض إذا أسقطه من له الحق سقط.

٢٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة، وهي فائدة قد تكون بعيدة، أن من سبَّ الرسول ﷺ وجب قتله ولو تاب، ومن سب الله فإنه إذا تاب لا يقتل.

فأيهما أعظم سب الله أم سب الرسول؟ سب الله أعظم، لكن الله أخبرنا عن نفسه أن من تاب إليه تاب عليه، ولكن حق الرسول ﷺ لا نعلم أنه أسقطه، فيقتل لحق الرسول، لكن تقبل توبته، فكيف يقتل مع قبول توبته؟

نقول: نقبل توبته وإذا قتلناه غسلناه وكفَّناه وصلَّينا عليه، ودفناه مع المسلمين؛ لأنه تاب، لكن القتل لابد منه.

٢٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة، إثبات اسمين من أسماء الله وهما: (العليم والحكيم)، وقد سبق تفسيرهما بشرح وافٍ.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ

مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]

التفسير

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ﴾، ﴿مَن﴾ هذه اسم شرط جازم، و﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ﴾ جواب الشرط.

وهنا نسأل: اجتمع في هذه الجملة موجبان للجزم أحدهما: ﴿مَن﴾ والثاني: ﴿لَّمْ﴾ فهل الفعل مجزوم بـ ﴿مَن﴾ أو مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾؟

نقول: بـ ﴿لَّمْ﴾؛ لأنها المباشر، وعلى هذا فنقول: ﴿يَسْتَطِعْ﴾ فعل مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ وهو فعل الشرط.

وقوله: ﴿طَوْلًا﴾ الطَول هو: الغنى، يعني: من لم يستطع منكم غنىً يكفي لمهر المحصنات، ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ضد الكافرات، ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يعني: فانكحوا التي ملكت أيمانكم وهي الإماء، فيتزوج الإنسان أَمَةَ غيره أو أمة نفسه؟ لو تزوج أمة نفسه لم يصح النكاح؛ لأن ملك البضع بالملك أقوى من ملكه بالنكاح، ولا يمكن أن يرد الأضعف على الأقوى؛ إذنْ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يعني: ملكت أيمان غيركم، كرجل يريد أن يتزوج أمة سيدٍ وقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (من) هذه بيان لما في قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وفتيات جمع فتاة وهي: الأمة، فالفتاة تطلق على الشابة إذا أضيفت على الحُرة، وعلى المملوكة إذا أضيفت لرقيقة.

يقول: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ضد الكافرات ولو كتابيات، فلا بد أن تكون الأمة مؤمنة، فالكافرة في هذا المقام ولو يهودية أو نصرانية لا يصح.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ يعني: وليس لكم إلا الظاهر، أما الباطن فعلمه إلى الله، فإذا قال الإنسان: هذه أمة لا ندري هل هي مسلمة حقًا أو مسلمة خوفًا؟ نقول: الله أعلم بإيمانها أنت ليس لك إلا الظاهر.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أنت لست تنكح إلا إنسانة فأنت معها.

وقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ الهمزة همزة وصل، لأنها من الثلاثي (نكح)، أي: انكحوا الفتيات المؤمنات.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: أسيادهن، وهنا قال: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، ولم يقل: بإذن

أوليائهن؛ لأنه لا ولاية لأحدٍ في المملوكة إلا لسيدها؛ لأن سيدها مالك لها عينًا ونفعًا فهو الذي يزوجها حتى لو كان لها أب، فإنه لا يزوجها مع وجود السيد.

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (آتوا) بمعنى: أعطوا، بخلاف (أتوا) فإنها بمعنى جاءوا، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨]، فـ ﴿أَتَوْا۟﴾ هنا بمعنى: جاءوا.

وقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يتعارفه الناس، وبما أقره الشرع بدون مماطلة وبدون منّة، ولا تقولوا: هذه أَمَة فتماطل بمهرها أو تمنّ به عليها.

قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي: متزوجات لا زانيات، وهو من باب التوكيد لما سبق؛ لأنه يغني عنه قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ بأن نكاحهن الشرعي بإذن أهلهن يكون العقد معهن؛ عقد الإحصان لا زنى لكن لخطر هذا الأمر أكده الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ والمسافح هو: الزاني ـ والعياذ بالله ـ وسمي السافح؛ لأنه ليس له هم إلا سفح الماء في القبل، لا يريد أولادًا ولا عِشْرَةً وَلَا مَوَدَّةً؛ وإنما كالتيس يريد أن يقضي نهمته فقط .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ الأخدان جمع خدن أو خِدن، والمراد به: ما يعرف عند الكفرة بالصديق والصاحب، فإن في بلاد الكفر تتخذ المرأة صديقًا صاحبًا يفعل بها ما يفعل الرجل بامرأته ما عدا الجماع؛ وربما يصل الحال إلى الجماع، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أما الحرائر فأنه يبغض فيهن الزنا حتى قيل إن هندًا بنت عتبة لما بايع النبي ﷺ النِّسَاءَ عَلَى أَلَّا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ قَالَتْ: يَا رَسُول الله! أَوَ تَزْنِي الحرَّة، وهو ضعيف لكن ذكره بعض العلماء، والزنا في الحرائر قليل وهو كثير في الإماء، ولهذا قيد بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ وفي قراءة (فإذا أحصَن) بفتح الهمزة والصاد أي: أحصنهن من يحصنهن، وعلى قراءة (فإذا أَحْصَن) بفتح الهمزة والصاد، أي: أحصن أنفسهن، واختلف المفسرون بالمراد بالإحصان فقال بعض العلماء: إنها على قراءة الفتح بمعنى: أسلمن وأحصن بالضم، بمعنى نُكحن، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد، وأن معنى أحصن أي: صرنا ذات إحصان، كما يقال: أنجد أي: دخل نجدًا فأحصن أي: صار ذا إحصان، فأحصن أي: صرنا ذوات إحصان؛ أما على قراءة الضم أحصن فالأمر ظاهر في أن المراد أحصن أي: نكحن فأحصن فروجهن بهذا النكاح، والصواب: أنها بمعنى واحد أي: أن الكلمتين بمعنى واحد، وكونها بمعنى أسلمن بعيد؛ لأن السياق هنا في سياق الفتيات المؤمنات .

وقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والمؤمنة هي مسلمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا شرط داخل في شرط.

الشرط الأول: إذا أحصن، والشرط الثاني : فإن أتين بفاحشة فعليهن جواب الشرط الثاني، فهو شرط في شرط يعني: إذا أحصنت الأمة وأتت بفاحشة، فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب، والمحصنات هنا: الحرائر، ولا يصح أن يقول: إذا أحصن فعليهن نصف ما على المحصنات من الإماء فلا يستقيم؛ ولكن معنى نصف ما على المحصنات أي: الحرائر من العذاب، وعذاب الحرائر أن تجلد البكر مائة جلدة وأن ترجم الثيب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ والعذاب هو: الحد لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] فيكون المراد بالعذاب هنا: الحد، الحد للمحصنة يعني: الحرة إن كانت محصنة بمعنى منكوحة وهو الرجم؛ لأن النبي ﷺ رجم الغامدية(١)، وإن كانت غير محصنة فهو الجلد؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فما هو الحد للمحصنة الذي يمكن أن يتنصف في حق الأمة؟ أما البكر فتجلد خمسين جلدة، أما الحرة لا يمكن أن نرجمها نصف الرجم؛ لأن الرجم يحصل به الموت والموت لا يمكن أن يتنصف فيكون المراد بنصف العذاب: خمسون جلدة.

أما الحُرَّة: تعذب تعذيبًا آخر وهو التغريب، فقد جاء في صحيح السنة أن النبي ﷺ قال لأبي العسيف: «عَلَى ابنِكَ جَلْدُ مائةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ»(٢) وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : «البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ»(٣) ولكن العلماء اختلفوا في تغريب الحرةهل تُغرَّب أو لا تُغرَّب؟ منهم من قال: إنها لا تُغرَّب؛ لأن التغريب إنما هو لصيانة الإنسان من الزنا، والمرأة إذا غُرِّبت يزداد زناها لاسيما إذا لم يكن معها محرم فلا تغرب المرأة، فإذا لم تغرب قلنا: إن الأَمَةَ عليها خمسون جلدة بلا تغريب؛ لأن الحرة لا تغرب، ولكن إذا قلنا بالقول الثاني: إنها تغرب فهل تغرب الأمة كما تغرب الحرة؟ قال بعض العلماء: تُغرَّب نصف سنة، وقال بعض العلماء: لا تغرب؛ لأن تغريبها إضرار بمالكها وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] ولكن هذا التعليل عليل؛ لأننا إذا قلنا: إن التغريب حد فإنه كما يكون إضرارًا بالسيد فالجلد إضرار بالسيد أيضًا؛ لأنها ربما تتأثر صحتها بالجلد، وستتأثر سمعتها بذلك، وتنقص قيمتها، وإذا قلنا: إن التغريب يرجع إلى اجتهاد الإمام في الحرة وليس بحد واجب، ونقول أيضا: يرجع تغريب الأمة إلى اجتهاد الحاكم، فالصواب أن عليها نصف ما على الحرة من العذاب في الجلد والتغريب.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٩٥)، و أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٤٧)، وأبو داود (٤٤٣٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٦)، و مسلم (١٦٩٨).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٩٠)، و الترمذي (١٤٣٤)، وأبو داود (٤٤١٥).

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإذا لم تحصن فماذا عليها قال بعض العلماء: ليس عليها شيء؛ لأن مفهوم الآية الكريمة إذا لم تحصن فليس عليها شيء من العذاب ومفهومها واضح، وإذا سكت الله عن شيء فهو مما عفا الله عنه، ولا شك أن زنا من أحصنت أقبح من زنا من لم تحصن فهي لم تتزوج، وقال بعض العلماء: إذا أحصنت فعليها نصف العذاب وإذا لم تحصن فعليها العذاب كاملًا قالوا: نأخذ بالآيتين بآية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ هذا عام يشمل الحرة والأمة خرج منه الأمة إذا أحصنت فعليها نصف ما على الحرة من العذاب وبقيت الأمة غير محصنة يعني: غير مزوجة كالبكر التي لم تتزوج من الحرائر، والبكر التي لم تتزوج من الحرائر حدها مائة جلدة، وعلى هذا فإذا أحصنت الأمة فزنت فعليها خمسون جلدة وإذا لم تحصن فعليها مائة جلدة، وأحق الناس بهذا المذهب الظاهرية، فإن الظاهرية قالوا: ما لنا إلا الظاهر، ومن العلماء من قال: إذا أحصنت فعليها نصف ما على الحرة وإذا لم تحصن وجب تأديبها بالجلد المطلق؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدهَا ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدها ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدها ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَبِعهَا وَلَوْ بِضُفَيْرٍ»(١) يعني: ولو بحبل فقال فليجلدها وأطلق، فعلى هذا فإذا زنت قبل أن تحصن وجبت عقوبتها بالجلد الذي ليس بحد، وهذا القول هو الصحيح: أنها إذا تزوجت فعليها نصف ما على الحرة وهو خمسون جلدة، ولا يمكن أن نقول عليها نصف الرجم؛ لأنه لا يتبعض وإذا لم تحصن فإنه يجب جلدها تعزيرًا لها لأننا لو تركناها أيضًا صارت مشكلة.

وأما القول أنها إذا زنت قبل الإحصان فإنها ترجم أو أنها تحد حدًّا كاملًا؛ لأن الرجم لا يتأتى وهي لم تحصن بالنكاح؛ لكني أقول: إنه يجب أن تجلد الجلدة الكاملة هذا قول ضعيف لا شك فيه؛ لأن علة التنصيف هو الإحصان أي: التزوج فإذا زالت العلة زال الحكم.

قال الله تعالى في بيان شروط نكاح الأمة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ ذلك المشار إليه الحكم المذكور وهو جواز نكاح الإماء لمن خشي العنت منكم، والجار والمجرور خبر المبتدأ خبر ذلك، أو الخبر محذوف والتقدير ثابت أو كائن.

قال تعالى: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ خشي أي: خاف، والخشية والخوف يترادفان يحل بعضهما مكان الأخر؛ ولكن فرقوا بينهما أن الخشية إنما تكون عن علم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وأن الخشية يكون سببها عظم المخشي وإن كان الخاشي عظيمًا، وأما الخوف فسببه ضعف الخائف وإن كان المخوف ضعيفًا فهي أقوى وأشد فقوله: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ أي: خافه خوفًا مؤكدًا، والعنت أي: المشقة ومنه قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٥٤)، و مسلم (١٧٠٣).

عَنِتُمْ ﴾ أي: ما شق عليكم وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ بيان ﴿لِمَنْ﴾ في قوله: ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ الجملة مبتدأ وخبر؛ لكن المبتدأ مؤول فإن معنى وأن تصبروا خير لكم أي: وصبركم، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وصومكم خير لكم، فإن المبتدأ هنا المصدر المؤول من أن والفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ يعني: تحبسوا أنفسكم؛ لأن الصبر هو الحبس، يحبسوا عن نكاح الإماء حتى مع وجود الشرطين وهما عدم استطاعة الطول وخوف العنت؛ خير لكم من أن تنكحوا الفتيات، والخيرية هنا مطلقًا وإذا أطلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشيء صار عامًّا أي: خير لكم على كل حال لكن إن عجز الإنسان عن الصبر فالأمر واسع.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الإشارة في ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين وهما ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تشير بأنه يجب على الإنسان أن يتحرز احترازًا بالغا لئلا يقع في الإثم وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما أباح لنا ذلك من أجل أنه موصوف بوصفين، اللذين دلَّ عليهما الاسمان الكريمان وهما المغفرة والرحمة، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه مأخوذة من المغفر وهو ما يوضع على الرأس من الحديد من أجل وقاية الرأس من السهام ويحصل به ستر ووقاية والمغفرة تشتمل على هذين المعنيين الستر ووالوقاية من العذاب، فليست سترًا فقط ولا وقاية فقط؛ بل ستر ووقاية.

وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ تقتضي الإحسان إلى الخلق ودفع الضرر عنهم والله سبحانه وتعالى سمى نفسه بالرحمن وبالرحيم، ووصف نفسه بأنه ذو الرحمة قال: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨] وهي صفة مستقلة عن الإرادة وعن الإحسان، فهي عند السلف وأئمة أهل السنة، صفة مستقلة عن الإرادة أو الفعل، وحرَّف معناها من لا يرى ثبوت الرحمة لله وقال: إن المراد بالرحمة إرادة الإنعام أو الإنعام نفسه وإنما حرَّفوها لهذا المعنى؛ لأنهم يثبتون الإرادة فقالوا: إرادة الإحسان أو الإحسان نفسه؛ لأن الإحسان منفصل عن الذات فلا يمتنع عندهم وقوعه من الله ـ عز وجل ـ وهؤلاء هم الأشاعرة، وفي الحقيقة لو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا أن تفسيرهم للرحمة بهذا يستلزم ثبوت الرحمة؛ لأن إرادة الإحسان لا تكون رحمة إلا بما استحقه ومحبة الإحسان، والإحسان الذي هو نفسه المنفصل عن الله لا يكون إلا من آثار الرحمة، وعلى كل حال مذهبنا ولله الحمد مذهب أهل السنة والجماعة أن كل ما سمى الله به نفسه أو وصف به نفسه فهو ثابت له على وجه الحقيقة لكن بدون تمثيل وبدون تكييف.

هذه الآية الكريمة فيها فوائد:

١- **منها:** الحث على تزويج الحرائر المؤمنات، وجه ذلك أن الله لم يرخص في العدول عن النكاح بهن إلا لحاجة وعذر لقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾.

٢- **ومنها**: أنه لا بد في النكاح من مال لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أنه لا ينبغي لمن لم يستطع الطول أن يستدين فليعدل إلى طريق آخر دون الطول الذي عجز عنه لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ ويؤيد ذلك من السنة قصة الرجل الذي طلب من النبي - عليه الصلاة والسلام - أن يزوجه المرأة الواهبة نفسها للرسول حين رفضها ﷺ قال: زوجنيها، فطلب منه ﷺ المهر، فقال: ليس عندي شيء ولا خاتم من حديد، ولم يقل استقرض بل سأله هَلْ مَعَه شيء من القرآن؟ فقال: نعم. قال: زوجتكها بما معك من القرآن[1]، ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويؤيده أيضًا قوله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَه وِجَاءٌ»[2].

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه يجوز للحر أن يتزوج الأمة بالشرطين المذكورين، ألا يجد طول حرة مؤمنة من المحصنات المؤمنات فله أن يتزوج الفتيات المؤمنات كما سيذكر إن شاء الله.

٥- **ومن فوائدها**: أنه لو قدر على مهر حرة كتابية لا حرة مؤمنة فله أن يتزوج الفتاة المؤمنة، تؤخذ من قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإذا كان الإنسان عنده خمسة آلاف ريال ولا تكفي لنكاح الحرة المؤمنة ولكنها تكفي لنكاح الحرة الكتابية، أو لنكاح الأَمَة، فهل يعدل إلى نكاح الأمة أو يتزوج الحرة الكتابية؟ الأول، له أن يعدل إلى نكاح الأَمَة دون الحرة الكتابية؛ هذا ظاهر القرآن، وقال بعض العلماء: بل الحرة الكتابية أولى من الأَمَة المؤمنة؛ وذلك لأن أولاد الحرة الكتابية ينشؤون على أنهم أحرار وأولاد الأمة المؤمنة ينشؤون على أنهم أرقاء مملوكين لسيدها، وهذا الثاني هو المشهور من مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أنه لو قدر على نكاح أمة أو نكاح كتابية فإنه لا يجوز الأمة فقد يتزوج كتابية، ولكن ظاهر القرآن مقدم؛ لأن الله قال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولأن الكتابية لا يؤمن أن تضل زوجها لا سيما إذا كانت ذات شهادة عالية وليس عنده مثل هذه الشهادة، أو كانت فصيحة اللسان قوية البيان فإن قد تؤثر على الزوج فيرتد فيكون يهوديًا أو نصرانيًا لا سيما أيضًا إذا كان عندها مال وهو فقير فإنها تؤثر عليه وإن لم تؤثر عليه فربما تؤثر على أولاده؛ ولهذا كان ظاهر القرآن هو أن يقدم الأمة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: نقص مرتبة الرق عن مرتبة الحرية وهو كذلك، فإن الرقيق مملوك يباع ويشترى ولا يملك نفسه، حتى إنه إذا قتل فإن ديته قيمته وليست دية الحر، فتختلف الديات إلى صفات المقتولين ربما عبد إذا قتل تكون ديته مليون ريال وعبد آخر تكون

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، و مسلم (١٤٢٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، و مسلم (١٤٠٠).

ديته عشرة ريالات فلا شك أن مرتبة الحرية أعلى من مرتبة الرق.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا يحل لمن لا يجد طول الحرة المؤمنة أن يتزوج أمة كتابية يؤخذ من قوله: ﴿فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ فلا يحل أن يتزوج أمة كتابية إذا عجز عن طول الأمة المؤمنة وإذا لم يعجز عن طول الحرة المؤمنة؛ فهل يتزوج أمة كتابية؟ الجواب: لا من باب أولى، وبهذا يتبين أن الأمة الكتابية لا يحل للمؤمن تزوجها ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فالمحصنات هنا: الحرائر ويحتمل أن يكون المراد بها: العفيفات عن الزنا لكن هذه الآية تدل على أن المراد الحرائر وأن الإماء من أهل الكتاب لا يحل تزوجهن مطلقًا.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات علم الله عز وجل لما كان غيبًا خفيًا لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾.

٩- **ومن فوائدها**: جواز استعمال صيغة التفضيل في صفات الله ـ عز وجل ـ فيقال الله أعلم، الله أكبر، الله أعظم، الله أعز، وما أشبه ذلك خلافًا لمن قال: إنها لا تجوز وأنه يجب أن نفصل اسم التفضيل باسم الفاعل فيقول هذا القائل: والله أعلم بإيمانكم أي: عالم بإيمانكم، أو مَا عَلِمَ هذا القائل أن قوله: (الله عالم بإيمانكم) أدنى من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾؟ لأن عالم اسم فاعل لا تمنع المشاركة في الوصف ولا في الرتبة لكن أعلم اسم تفضيل تمنع المشاركة في الرتبة؛ وهذا من الأفهام الخاطئة أن نجعل اسم التفضيل بالنسبة لصفات الله بمعنى اسم الفاعل؛ لأن هذا لا شك فيه نقص عما أراد الله عز وجل.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الملك الذي هو الرق لقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ وهذا الحكم ثابت إلى يوم القيامة لا يمكن أن يرفع بأي حال من الأحوال متى وجدت أسبابه الشرعية فإنه ثابت، مثل أن ينهب الإنسان من ينهب ويأت بهم إلى أسواق الناس يبيعهم فهنا لا يمكن أن يثبت هذا الرق من هذا الطريق لكن إذا ثبت الرق بطريقه الشرعي فإنه ثابت ولا يمكن رفعه لقوله: ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ وهنا نسأل هل ملك الإنسان لما يملك من آدمي أو بهيمة أو عقار أو غيره هل هو ملك تام؟ الجواب: لا ليس ملكًا تامًا؛ ولذلك لا يتصرف الإنسان فيما يملك كما يحب؛ بل تصرفه مقيد بالشرع لكن العلماء ـ رحمهم الله ـ جعلوا من ملك التصرف الذي جعل له على وجه كامل جعلوه مالك ومن ملك على وجه مقيد جعلوه مستأجرًا مثلًا أو مستعيرًا أو ما أشبه ذلك.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز إطلاق البعض على الكل تؤخذ من قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ والمراد: مما ملكتم؛ لأن اليد وحدها لا تملك.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: استعمال ما يكون سببًا لقبول الحكم، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بتخفيف الأمر على المحكوم عليه لقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وذلك أن العرب كانوا يأنفون مأنفة كبيرة بالنسبة للأرقاء ويرون أن من نكح رقيقة شيئًا فاحشًا عظيمًا تقول الرقيقة مملوكة، والبعير مملوكة فإذا نكحت الرقيقة فكأنما نكح بعيرًا، يرونها كبيرة جدًّا ولهذا أرشد الله إلى هذا الأمر بقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ بتهوين الأمر على الناس، فيؤخذ من هذا أنه ينبغي للمتكلم أن يخاطب المخاطب بما يهون عليه الحكم.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: اشتراط إذن الأهل في تزويج الإماء؛ لقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ ويترتب على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي: أن المرأة لا تزوج نفسها.

فإن قال قائل: هذا ظاهر فيما إذا كانت أمة أنها لا تزوج نفسها؛ لأنها مملوكة لكن إذا كانت حرة؟

نقول: وإذا كانت حرة؛ لأن هناك أدلة تدل على أنها لا تزوج نفسها وأنه لا بد من ولي.

١٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأمة تملك مهرها لقوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والمراد بها المهور وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم وقال: إن مهر الأَمَة لها؛ لأنها تحتاج للتزين لزوجها، والتزين لزوجها في البيت وفي المطبخ وغيره للزوج فلا يكون مهرها للزوج؛ لأنها تتعلق به حاجاتها؛ ولكن جمهور أهل العلم على خلاف ذلك أن مهر الأمة لسيدها لقول النبي - عليه الصلاة والسلام - «مَنْ بَاعَ عَبْدًا لَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ» قالوا: وإضافة الأجور إليهن من باب الاختصاص أو من باب مراعاة السبب؛ لأنهن السبب في هذا المهر ولولاها لما حصل المهر لسيدها وهذا أقرب إلى القواعد الشرعية العامة.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرجوع إلى العرف تؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا قاعدة للشيء الذي لم يحدده الشرع أن نرجع فيه إلى العرف.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: اشتراط أن يكون هذا النكاح نكاح إحصان لقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ ونكاح الإحصان هو ما تمت شروطه يعني: هو الذي تمت شروطه وانتفت موانعه هذا هو نكاح الإحصان، فإن لم يتم شروطه فهو سفاح وإن وجدت موانعه فهو سفاح، مثال الأول: لو تزوج امرأة مكرهة فهذا النكاح سفاح لفوات الشرط، ومثال الثاني: لو تزوج امرأة في عدتها فهذا النكاح سفاح لوجود المانع وهو العدة.

١٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإحصان يطلق على العفة يؤخذ من قوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ فجعل المسافحة مقابل الإحصان.

١٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم اتخاذ الأخدان لقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ حتى وإن لم يحصل الزنا فإن اتخاذ الأخدان يعني: الأصحاب أو الأصدقاء سبب للزنا؛

ولهذا نهي عن الخلوة بالمرأة خوفًا من ذلك ونهي أن يخضعن بالقول خوفًا من ذلك، ويتفرع عن هذه الفائدة بيان ما عليه المجتمع الغربي من مجانبة الأخلاق حيث إن كثيرًا منهم يكون لهم صاحبة وصديقة يخرج معهن ويبيت عندها وتبيت عنده لكن لا يجامعها نظرًا؛ لأنهم لا يتسحلون الجماع إلا بعقد نكاح، وربما يجامعها، ومعلوم أن الإنسان إذا خلا بامرأة وأطال معها المقام والحديث فيه «أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجرَى الدم». فيغويهما جميعًا ويحصل الشر.

١٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأمة إذا زنت فإنها تحد لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ .

٢١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا حد عليها إلا بعد الإحصان لقوله :﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ فإن زنت قبل الإحصان فلا حد عليها وإنما تجلد جلد تعزير وأما ما ورد في بعض روايات مسلم «فَلْيَجْلِدْهَا الحدَّ» فقد ذكر أهل العلم بأن هذه الكلمة وهي الحَدُّ وهمٌ من الراوي كأنه توهم ألا جلد إلا بحد فقال: «فليجلدها الحد» ويؤيدها الرواية الأخرى أنه قال: «فليجلدها» دون أن يقيد ذلك بالحد وهذا هو ظاهر القرآن أنه لا حد عليها إلا إذا أحصنت أما قبل ذلك فعقوبتها التعزير.

٢٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا رجم على الأَمَة إذا زنت ولو بعد أن تتزوج، وجه ذلك أن الرجم لا يتنصف والله ـ عز وجل ـ قال: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولهذا اشترط العلماء للرجم أن تكون الزانية حرة.

٢٣- **ومن فوائدها:** أن الأمة إذا زنت بعد الإحصان تغرب نصف سنة يؤخذ من قوله:﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهذا مبني على ثبوت التغريب للمرأة الحرة، وهو موضع خلاف بين العلماء فإن من العلماء من يقول: التغريب إنما هو للرجل فقط دون المرأة وعلل ذلك بأن تغريب المرأة إغراء لها بالمفسدة؛ لأنها إذا غُرِّبتْ انفردت عن أهلها وعن من يراقبها وصار لها من الشر أعظم منها لو كانت عند أهلها؛ فقالوا: لا تُغَرَّب الحرة، وعلى هذا القول لا تُغَرَّب الأَمة من باب أولى، ثم على القول بأن الحرة كما هو ظاهر حديث عبادة بن الصامت «الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مائةٍ وَتَغْرِيبُ عام»[1] يبقى النظر هل تغرب الأَمة أو لا؟ لو أخذنا بعموم قوله:﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإن الأمة تغرب نصف سنة وإن قلنا: لدى الأمة مانع من التغريب وهو حق السيد؛ لأنها إذا غربت قد تهرب ولا ترجع إلى سيدها ثم إن لديها من ضعة المكانة أو دنو المكانة ما لا يمنعها من الفاحشة بخلاف الحرة؛ ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا تغريب في حق الإماء، ولا في حق العبيد للسبب الذي ذكرنا أن تغريبهم يغريهم بفعل الفاحشة؛ لأنهم دون الأحرار في الشرف ولا يهمهم أن يفعلوا الفاحشة وهذا القول قوي جدًّا أنها لا تُغَرَّب.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٩٠)، و الترمذي (١٤٣٤)، وأبو داود (٤٤١٥).

٢٤- ومن فوائد الآية الكريمة، أنه يشترط لجواز نكاح الإماء أن يلحق الإنسان مشقة لترك ذلك لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

٢٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة، حسن الترتيب في سياق القرآن؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر مسألة الزنا من بين ذكر الشروط في نكاح الأمة للإشارة إلى أن عند الأمة من دنو المنزلة ما لا يمنعها من الزنا، فهذا من جملة النهي عن نكاح الإماء إلا بالشروط. إذنْ يشترط في النكاح بهن شرطان:

الشرط الأول: أن لا يجد مهر حرة مؤمنة.

والشرط الثاني: أن يخاف المشقة بترك النكاح، واشترط بعض العلماء ألا يجد ثمن أمة قال فإن وجد ثمن أمة فإنه لا يحل أن يتزوج الأمة، وأخذ هذا الشرط من المعنى وإن كان لا يوجد في الآية الكريمة لكن أخذه من المعنى فقال: إن كان قادرًا على ثمن الأمة فإنه يشتري الأمة يطؤها بملك اليمين لا بالنكاح، والوطء بملك اليمين شرف وعز حتى عند العرب ثم إنه إذا أتت منه بولد فالولد حر ليس عبدًا فاشترط بعض العلماء ومنهم فقهاء الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أن يعجز عن ثمن الأمة فإن قدر على ثمن الأمة اشتراها ولنضرب لهذا مثلًا؛ مهر الحرة عشرة آلاف، ومهر الكتابية ثمانية آلاف قيمة، الأمة ثمنها ستة آلاف، وقيمة مهر الأمة خمسة آلاف، وهو قادر الآن عنده ستة آلاف فحقق الشرط الأول وهو عدم القدرة على مهر الحرة ولكن هنا يستطيع أن يشتري أمة ويتسرى بها فهل نقول أن تعدل وتتزوج أمة بخمسة آلاف؟ إن قلنا إنه شرط قلنا: لا تملكها اشتر أمة وتسر بها، وإن قلنا: ليس بشرط كما هو ظاهر القرآن قلنا أنت مخير إن شئت فاشتر وإن شئت فلا تشتري؛ لأنه قد يقول: أنا إذا اشتريت أمة صار علي من الواجبات ما ليس عليَّ فيها لو كانت زوجة؛ لأنها لو كانت زوجة ولم يقدم بينهما ألفة فماذا يصنع؟ يطلقها ويتولاها سيدها لكن إذا كانت أمة له وأتت منه بولد فماذا يصنع؟ على المشهور من المذهب أنه لا يجوز بيعها ومعناه أنه يلزم بالإنفاق عليها وهو لا يريدها فيقول: أنا لا أريد أن أتسرى بها؛ لأنه يلحقني من الواجبات ما لا يلحقني لو إذا كانت زوجة، وعلى كل فالأخذ بظاهر القرآن أولى أن نقول: إن الشرط ألا يقدر على مهر الحرة وأنه لو قدر على أن يتزوج الأمة فإنه يتزوج الأمة.

٢٦- ومن فوائد الآية الكريمة، أن الصبر على عدم النكاح بالأمة أولى من النكاح بها لقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٧- ومن فوائد الآية الكريمة، أن المباح قد يكون مستوي الطرفين وهو الأصل وقد يكون مرجوحًا كما هنا؛ لأن الله تعالى أحل نكاح الإماء بالشرطين لكن قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٢٨- ومنها، أن الأمر بالشيء قد يستفاد من الثناء على فاعله لقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

فكأنه قال: اصبروا، ولكن جعله على وجه الترغيب.

٢٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين لله عز وجل وما تضمناه من صفة وهما الغفور والرحيم.

٣٠- **ومن الفوائد**: لو أن دولتين تحاربتا إحداهما مسلمة والأخرى كافرة؛ فيجوز اتخاذ الأسرى من النساء والسبايا إماءً، وأما ما يحدث في فلسطين فلا يجوز أخذ نساء اليهود إماء؛ لأن المسلمين محكومين وضعاف والدولة لهم أما لو أن جماعة لهم شوكة ودولة وانتصروا على اليهود فلا بأس حتى اليهود الذين ليس لهم معاهدة فالأصل الحرب.

٣١ ـ **ومن الفوائد أيضًا**: تقديم الأمة المؤمنة على الحرة الكتابية؛ لأن الكتابية لا يأمن أن تضل زوجها لا سيما إذا كانت ذات شهادة عالية وليس عنده مثل هذه الشهادة أو كانت فصيحة اللسان أو قوية البيان فإنها قد تؤثر على الزوج فيرتد فيكون يهوديًّا أو نصرانيًّا، ولا سيما أيضًا إذا كانت عندها مال وهو فقير فإنها تؤثر عليه وإذا لم تؤثر عليه فربما تؤثر على أولاده ولهذا كان ظاهر القرآن وهو الواجب اتباعه أن نقول: إذا قدر على مهر حرة كتابية أو مهر أمة دون حرة مؤمنة فالواجب أن تقدم الأمة، فالصواب أن يقال: فإنه يخير؛ لأن الحرة الكتابية يجوز أن يتزوجها فإنه يخير فبدلًا أن نقول: واجب أن يقدم نقول فإنه يخير؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بدلًا الواجب أن يقدم الأمة فإنه يخير ولكن الآية تقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يعني: فانكحوا من ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات فقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يعني: فانكحوا مما ملكت أيمانكم طيب فإن استطاع طولًا لكن طول الحرة الكتابية فهو الآن مخير إن شاء تزوج الحرة الكتابية؛ لأنه يجوز أن يتزوجها بكل حال وإن شاء تزوج الأمة فيكون فرق بين المؤمنة والكتابية هنا أنه إذا قدر على مهر المؤمنة حرمت عليه الأمة لكن يمكن أن يشكل عليهم قيد الإيمان نقول: هذه الفائدة إذا قدر على مهر حرة مؤمنة حرمت عليه الأمة إذا لم يقدر عليه حلت له الأمة؛ هذا معنى الآية بقيت الحرة الكتابية حلال له؛ لأنه الأصل وحينئذ مخير بين أن يتزوج الحرة الكتابية باعتبار أنه حلال له في الأصل أو يتزوج الأمة بخلاف ما لو قدر على مهر حرة مؤمنة فإنه لا يحل أن يتزوج الأمة فيكون فرقًا بين هذا وهذا، وأنه إذا قدر على مهر حرة مؤمنة حرم عليه نكاح الحرة الكتابية، وإذا قدر على مهر حرة كتابية جاز له أن يتزوج الأمة.

إذًا مفهوم الآية أن ينكح المحصنات المؤمنات ويكون الله عز وجل قد خير الإنسان بين: إذا وجد مهر حرة كتابية، أو مهر أمة أخذًا بمفهوم الآية ثم هل يقدم الأمة المسلمة أو الحرة الكتابية؟ ينظر للمصلحة بغض النظر عن خلاف العلماء قد يكون من المصلحة أن يتزوج حرة كتابية وقد

يكون بالعكس، إلا إذا اشترط أولاده من الأمة أحرارًا فهنا يتعين الأمة.

مسألة: هل يشكل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وقوله أيضًا: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟

الجواب: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ قال هذا في سورة البقرة وقد قال الله تعالى في المائدة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والمائدة من آخر ما نزل من السور نزلت بعد البقرة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء: ٢٦-٣٠]

❁ التفسير ❁

قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الإرادة هنا إرادة شرعية؛ لأن الله سبحانه وتعالى قسَّمها إلى قسمين:

إرادة كونية وإرادة شرعية، والفرق بينهما أن الإرادة الشرعية تتعلق فيما يحبه ويرضاه وقد يقع فيها المراد وقد لا يقع، وأما الإرادة الكونية فتتعلق في كل ما شاءه وقد يكون محبوبًا لله وقد يكون مكروهًا له، ولا بد أن يقع فيها المراد؛ لأنها بمعنى: المشيئة؛ لأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا كانت الإرادة بمعنى المحبة بمعنى أنه يصح أن يحل محلها أحب أو يحب فهي إرادة شرعية فإذا كانت يحل محلها شاء أو يشاء فهي إرادة كونية يقول الله عز وجل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يحب ذلك، وقد فعل سبحانه وتعالى وبين لنا غاية البيان بلسان عربي مبين.

واللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ زائدة قد تفيد التعليل وقد لا تفيد التعليل وتكون للتعدية، ولكنها لو حذفت فكأنه قال: يريد الله أن يبين لكم كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لصح

الكلام لكنها وجدت، ويقولون أن اللام بعد الإرادة زائدة كل لام بعد الجر فهي زائدة أردت لكذا أي أردت كذا.

وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ البيان هنا يشمل البيان اللفظي والبيان المعنوي وكلاهما واقع؛ قال الله تعالى لرسوله محمدًا ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ بيانه يعني إظهاره، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا ألقى عليه جبريل القرآن يتعجل ويسرع ليختطفه منه حبًّا له وشفقة عليه يعني حبًّا للقرآن وشفقة عليه فقيل له لا تعجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْنَا﴾ يعود على الله والمراد به جبريل فإنه هو الذي يقرأ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قرأه جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ البيان اللفظي والمعنوي.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يهديكم أي: هداية الدلالة وهداية التوفيق، أما هداية الدلالة فهي: ما أنزله من الوحي والشرع، وأما هداية التوفيق فهي: أن يوفق من شاء من عباده للزوم هذه الهداية، ومن أمثلة الهداية التي بمعنى الدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هديناهم أي: دللناهم أي: على طريق الحق ولكنهم استحبوا العمى على الهدى.

وأما الهداية بمعنى التوفيق فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: لا توفقه لسلوك طريق الهداية؛ لأن ذلك إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ السنن جمع سنة وهي: الطريقة، والمراد بسننهم: ما كانوا عليه من الشرائع لكن الشرائع تختلف باختلاف الأمم واختلاف الأزمنة والأمكنة قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ لكن الأصل الناس فيه سواء.

وقوله: ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى ممن نزل عليهم الوحي.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ بالنصب يتوبَ عطفا على يبين يعني: ويريد ليتوب عليكم أي: يوفقكم للتوبة وتوبة الله على العبد نوعان:

توبة توفيق للتوبة، وتوبة قبول للتوبة، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ تاب عليهم أي: وفقهم للتوبة.

ومن الثاني: أي: قبول توبة التائبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والآية هنا أي: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يشمل المعنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ العلم هو: إدراك المعلوم على ما هو عليه فخرج بقولنا إدراك: الجهل؛ لأنه ليس بإدراك، وخرج بقولنا على ما هو عليه: الجهل المركب؛ لأن الجهل المركب يدرك الشيء على خلاف ما هو عليه فالله سبحانه وتعالى عليم أي: ذو علم، وقد بين الله سبحانه وتعالى في آية أخرى أن علمه واسع شامل محيط بكل شيء جملة وتفصيلًا قال تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكم وحكمة وقد سبق شرح ذلك وبينًا أن حكمة الله عز وجل تكون في الحكم الشرعي والحكم الكوني وأنها تكون على صورة الشيء وعلى الغاية منه أي: صورية وغائية.

فوائد الآية الكريمة:

١- في هذه الآية فوائد منها: إثبات الإرادة لله في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وهذه الإرادة هل هي أزلية أو هي حادثة؟ نقول: الإرادة نوعان: إرداة أزلية، وإرادة حادثة، فالإرادة القارنة للفعل إرادة حادثة والإرادة السابقة إرادة أزلية، ويظهر لك هذا بالمثال: أنت الآن تريد أن تصلي العشاء هذه الإرادة السابقة على الفعل فإذا أذن قمت إلى الصلاة فصليت هذه إرادة مقارنة للفعل، فإرادة الله مقارنة لفعله هذه حادثة وإرادة أزلية وهي: السابقة لفعله وهو موجد سبحانه وتعالى لكل ما سيكون.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: سعة رحمة الله عز وجل لعباده حيث أراد أن يبين لهم؛ لأن هذا من لطفه وكرمه ألا يدع الناس على جهلهم.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ليس في الشرع شيء مجهولًا لكل أحد لقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فالشرع لا يمكن أن يكون خفيًا على كل أحد؛ لكنه يخفى على الإنسان لأسباب إما لقلة العلم وإما قصور الفهم وإما التقصير في الطلب وإما سوء القصد أربعة أسباب لخفاء الحكم الشرعي على الإنسان هي:

الأول: قلة العلم مثل إنسان لم يراجع ولم يطالع ولم يستوعب كتب العلماء هذا تخفى عليه الأحكام الشرعية لقلة علمه.

الثاني: أو لقصور فهمه، يكون عنده علم واسع لكنه حجر لا يفهم هذا أيضا يفوته شيء كثير من الأحكام الشرعية أو التحصيل في الطلب.

الثالث: إنسان مقصر عنده علم وعنده فهم، لكن ما يحرص على أن يحقق المسائل وينقحها ويحررها فيفوته شيء كثير.

الرابع: سوء القصد حيث لا يريد إلا نصر نفسه فقط فهذا ـ والعياذ بالله ـ يحرم الخير ويحرم الصواب.

وما دواء هذه العلل والآفات؟

الأول: قلة العلم دواؤه: كثرة العلم بأن يراجع الإنسان أو الطالب كتب العلماء وكتب الحديث وكتب التفسير.

الثاني: قصور الفهم هذه ليست مشكلة؛ لأنها غريزة لكن ثقوا أنه بالتمرن يحصل على قوة الفهم وأضرب لكم مثلًا: لو أن الإنسان راجع كتب شيخ الإسلام ابن تيمية أول ما يراجعها لقال: هذه فيها ردم يأجوج ومأجوج ولا يمكن أن يفهمها لكن مع التمرن عليها يفهمها، وتكون عنده كالفاتحة، إذنْ الفهم يحتاج إلى تمرين

ومن تمارين الفهم المناقشة مع الناس؛ لأنه كثيرًا ما يغيب عنك شيء من العلم وبالمناقشة يتبين لك شيء كثير.

الثالث: التقصير في الطلب ودواؤه: الجد والاجتهاد اجتهدْ ولا تتوانَ ثم إن التقصير في الطلب ليس معناه قلة الطلب حتى عدم الترتيب للطلب هذا أيضًا ينقص علم الإنسان فبعض الناس مثلًا إذا أراد أن يراجع مسألة في الكتب الكبيرة فيطالع الفهرس ليجد بحثًا ثم يبحث فيه وينسى ما كان من أجله يبحث وهذا خطأ وهذا هو الذي يقطع الأوقات عليك تقطيعًا ما دمت تريد تحقيق مسألة فأغمض عينيك عن ما سواها وإما ستكون كالذي يلقط الجراد من أرض جرداء ما تحصل شيئًا، فأنت مثلًا تريد أن تطالع مسألة في الطهارة فلا تلتفت إلى غيرها من المسائل.

الرابع: سوء القصد هذا يحتاج إلى إخلاص لله ـ عز وجل ـ فإذا قصد الإنسان حفظ الشريعة ونفع الخلق، وأن يرث الأنبياء سهل عليه حسن القصد؛ لأنه إذا علم الإنسان أنه طلب العلم لغير الله فإنه يحرم الخير وعليه الوعيد؛ وأن الله ينزع بركة العلم منه فاحرص على أن يكون قصدك حسنًا فهذه الأمور الأربعة هي التي يحرم الإنسان إياها في عدم تبين الأحكام الشرعية وإلا فالله ـ عز وجل ـ تكفَّل ببيانها قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

٤- من فوائد هذه الآية الكريمة: كمال هذه الأمة وكمال شريعتها لقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فما من خير كان عليه الأمم إلا ولهذه الأمة منه نصيب، ويهديكم سنن الذين من قبلكم وقد مثل النبي عليه الصلاة والسلام نفسه مع الأنبياء قبله بقصر مشيد يعجب الناظرين إلا أنهم إذا طافوا به قالوا: هذا القصر كامل إلا موضع هذه اللبنة؛ لأنها عيب قال: «فأنا اللبنة» تمم الله به مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال فكمل القصر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدل على ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

لماذا قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ إشادةً بهذه الأمة وأنها كملت لها الفضائل التي لغيرها وتسليةً لها أيضًا أي: لا تظنوا أن تكليفنا إياكم بالصيام خاص بكم بل لكم ولغيركم.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله عز وجل يحب التوابين إذن الله تعالى يحب منا أن نتوب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ويتفرع على هذا غاية الكرم لله عز وجل ووجه: أن التوبة تعود نفعها على الذي تاب وليس على الله وهو يحبها لمصلحتنا وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الله يفرح بتوبة عبده كما يفرح الرجل الذي أضل ناقته في أرض فلاة فطلبها فلم يجدها فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت قد آيس من الحياة فإذا بخطام ناقته فأخذ به وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك فأخطأ من شدة الفرح.

٦- **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات اسمين من أسماء الله تعالى وهما: العليم والحكيم وما تضمناه من وصف العليم تضمن العلم والحكيم تضمن الحكم والحكمة؛ لأنه مشتق من الحكم والحكمة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية:** اقتناع الإنسان بما يجزي الله من حكم شرعي وحكم كوني وجه ذلك: أن ما يجريه الله - عز وجل - من الأحكام مقرون بالحكمة فإذا علمت هذا اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية حتى المصائب التي تنال العباد لا شك أن لها حكمة يقتنع الإنسان بوجودها، ولا يعترض على الله تعالى به.

٨- **ومن فوائد هذه الآية المسلكية:** مراقبة الله - عز وجل - في السر والعلانية من أين تؤخذ؟ من ثبوت صفة العلم؛ لأنك متى علمت أن الله عالم بك فإن ذلك يوجب مراقبة الله سبحانه وتعالى - ألّا يفتقدك حيث أمرك ولا يجدك حيث نهاك.

٩- **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى التوبة وقد مر علينا ذلك قريبًا وبينّا أن من شروط التوبة خمسة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

قد يقول قائل: هذا مع ما قبله تكرار؛ لأنه قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فكيف قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؟

نقول: الفائدة من ذلك شيئان:

الأول: التوكيد وإذا أكد الله عز وجل أنه يريد التوبة علينا؛ فإن ذلك مما يسر ويزيدنا نشاطًا في التعرض لتوبة الله عز وجل.

الثاني: التوطئة لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني: تمهيد وتوطئة لما ذكر بعده وهو أن الله له هذه الإرادة، وللذين يتبعون الشهوات هذه الإرادة لهذا كرر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يريد الذين

يتبعون الشهوات من هم؟ يشمل الكافر والفاسق؛ لأن الكافر يريد الشهوات بل يتبع الشهوات والفاسق كذلك قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ فالذين يتبعون الشهوات هم: الكفار والفساق.

قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أن تميلوا أي: تنحرفوا عما يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكم من أسباب التوبة، وهي: فعل الأوامر وترك النواهي هم يريدون شيئًا، والله يريد شيئًا بخلافه.

ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ التخفيف ضد التثقيل وتخفيفه سبحانه وتعالى: تخفيف في الأوامر وتخفيف في النواهي أما التخفيف في الأوامر: فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر ما يجب علينا من الطهارة كالوضوء والغسل والتيمم قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ وكذلك في النواهي: خفف عنا فقال﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فليس بحرام وهذا تخفيف ولله الحمد على العباد.

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ الإرادة ـ هنا ـ شرعية وليست كونية؛ لأن الله يقدر على العبد أشياء تثقل عليه العبادات بها لكن شرعًا لا يريد أن يشق علينا بل إن رسول الله ﷺ ـ لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لأصومن الدهر ما بقيت، ولأقومن الليل ما عشت نهاه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»، وقال عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه أيضًا؛ أنه سبحانه وتعالى لا يكلفنا من العمل إلا ما نطيق، فالإرادة إذن إرادة شرعية قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ الواو هنا: يحتمل أن تكون استئنافية لبيان حال الإنسان الموجبة للتخفيف، ويحتمل أن تكن الواو للحال والجملة على تقدير حذف أي: وقد خلق الإنسان ضعيفًا، وعلى الاحتمالين فالجملة فيها نوع تعليل لقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ كأن قائلا يقول: لماذا قال؟ لأن الإنسان خلق ضعيفًا أي: خلقه الله ـ عز وجل ـ ضعيفًا، ضعيفًا في كل أموره، ضعيفًا في جسمه، ضعيفًا في إرادته، ضعيفًا في علمه ضعيفًا في كل شيء، والدليل على ذلك أنه لا يحتمل البرد في الشتاء، ولا الحر في الصيف، ولا الأتعاب فهو ضعيف، فكانت الشرائع مناسبة لحاله وتأمل الفرق بين قوله هنا: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وبين قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ الشيطان بكيده العظيم ضعيف، فإذا كان كيد الشيطان ضعيفًا؛ فإن هذا يقتضي منا أن نكون أقوياء على الشيطان؛ لأن الشيطان كيده ضعيف ونحن وإن كنا ضعفاء لكن يجب أن نكون أقوى منه؛ وأن نثق بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ كلمة ﴿ضَعِيفًا﴾ منصوبة لمناسبة الآيات، أو لا محل لها من الإعراب؟ لا محل لها من الإعراب وهي حال؛ لأنها وصف بعد معرفة، والوصف بعد المعرفة حال والوصف بعد النكرة نعتٌ.

في هاتين الآيتين فوائد:

١- **منها:** تأكيد قول الله - عز وجل - على عباده حيث كرر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لأن التوكيد تزداد به الطمأنينة وتزداد به معرفة قدر فضل الله تعالى.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** علم الله سبحانه وتعالى بما في القلوب لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ لأن الإرادة محلها القلب، ومع ذلك أخبر الله - تعالى - عنها فهو عالم بما في القلوب؛ قلوب أهل الخير وأهل الشر قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر من الذين يتبعون الشهوات؛ لأنهم يريدون منا أن نميل ميلًا عظيمًا، والشهوات قد تكون شهوة البطن والفرج، وقد تكون شهوة فكر وقلب، وكلا الأمرين مراد هنا.

٤- **وفيها أيضًا:** الحذر من أهل البدع؛ لأن أهل البدع ينقسمون إلى قسمين:

قسم عندهم شبهات، وقسم عندهم شهوات.

١- فالجاهل منهم عنده: شبهات يلتبس عليه الحق بالباطل.

٢- والعالم منهم عنده شهوات يريد ما لا يريد الله ورسوله.

ففي الآية الحذر أو التحذير من هؤلاء وهؤلاء.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يتبعون الشهوات حيث جعلهم أتباعًا، ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ تقودهم الشهوات، وهذا ظلم أن يكون الإنسان تابعًا للشهوات؛ لأن العزة أن يكون الإنسان متبوعًا، فإذا كان تابعًا فمعناه أن شهوته ملكته حتى صار تابعًا أو أنه يجبر على ذلك.

٦- **من فوائد هذه الآية:** أن الله سبحانه وتعالى يريد التخفيف على العباد بالإرادة الشرعية.

٧- **ومن فوائدها:** أن اليسر إلى الله أحب إليه من العسر لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** الحث على اتباع رخص الله؛ لأن الرخص من التيسير وقد أيد ذلك ما جاء في الحديث أن الله سبحانه وتعالى يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ.

٩- **ومن فوائدها:** أنه إذا تعارضت الأدلة عند المستدل بين التيسير والتعقيد فالأولى أن يأخذ التيسير؛ لأن هذا هو مراد الله عز وجل.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى العلة في إرادة التخفيف على العباد، وهي

قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

١١- **ومن فوائدها**؛ أن الإنسان ينبغي له إذا شمخت به نفسه، وعلا أنفه؛ أن يذكر حقيقة نفسه وهي: الضعف حتى لا يطغى أو يجور لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**؛ حذف الفاعل إذا علم لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإن الخالق هو الله عز وجل معلوم بالضرورة.

١٣- **ومن فوائد الآية**؛ أن ما كان مكروهًا للعبد؛ فإن الله يعبر عنه بالبناء للمجهول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ولم يقل: وخلق الله مع أن ذكر الله وارد في الآية التي قبلها ويؤيد هذا قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ويؤيده أيضًا ما في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف النعمة إلى الله وقال في الغضب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: الذي غضبت عليه مع أن المغضوب عليهم، أو من غضب عليهم هو الله عز جل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ النداء كما سبق يدل على العناية بما جاء في الخطاب، ووجه ذلك أن النداء تنبيه للمنادى؛ فإنه فرق بين أن يأتي الخطاب مرسلًا وبين أن يأتي مصدرًا بالنداء، وتوجيه النداء إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يفيد الإغراء بإلتزام هذا الخطاب، أو بالتزام مدلول هذا الخطاب ووجه ذلك: أن وصف الإنسان بالإيمان يحمله على الامتثال، ويفيد أيضًا: أن امتثال هذا الشيء من مقتضيات الإيمان، ويفيد أيضًا: أن مخالفة ذلك نقص للإيمان.

وهذا النداء يجب علينا أن نعتني به؛ وأن ننتظر ماذا يوجهنا الله إليه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارعها سمعك فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ جاء النهي يعني: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل؛ فإن لا ـ هنا ـ ناهية ولذلك جزم الفعل بعدها بحذف النون ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم﴾ أي: ما تتناولونه من قليل، أو كثير من عروض أو نقول: من ديون أو أعيان كل الأحوال، وقوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ أي: في التعامل؛ لأن أكل المال لابد أن يكون بين اثنين فصاعدًا، أما إذا كان من واحد لواحد فهذا قد أكل ماله.

وقوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ أي: في حال تعاملكم وقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الباطل في اللغة: الضائع سدى الهالك الذي ليس فيه خير، والمراد بالباطل هنا: ما خالف الشرع؛ لأن الشرع حق وما خالفه باطل والمعنى على هذا ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ على وجه يخالف الشرع مثل الربا والغش والكذب والتزوير وما أشبه ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ إلا : أداة استثناء لكن

المراد بها: الاستدراك، يعني لكن إن كانت تجارة بينكم عن تراض منكم فهذا لا بأس به، وإنما قلنا: إن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ليس من جنس الأكل بالباطل، بل هو أكل بحق، والاستثناء المنقطع: هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، وهنا لابد أن يكون منقطعًا؛ لأن التجارة عن تراض منا ليست هي أكلًا بالباطل، بل هي أكلًا بالحق، ولهذا نقول الاستثناء في هذه الآية منقطع. قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾ فيها قراءتان سبعيتان (تجارةٌ) بالرفع، (وتجارةً) بالنصب أما على قراءة الرفع فلا إشكال فيها يعني: إلا أن تحدث تجارة بينكم، وهنا تكون (كان) تامة لا ناقصة، وأما على قراءة النصب فإن كان ناقصة، وتجارةٌ: خبرها واسمها مستتر، وحينئذ يشكل أن يكون الاسم مستترًا وتقديره (هي) مع أن الأكل (لا تأكلوا) مذكرًا فهل يصح أن نقول: إلا أن يكون الأكل تجارة؛ لا يصح ولكن هنا فائدة: وهو إذا توفق الضمير، والإشارة بين شيئين الثاني: مذكَّر، والأول: مؤنث أو بالعكس؛ فإنه يجوز مراعاة الأول أو الثاني، إذا توفق الضمير أو اسم إشارة بين شيئين الأول مذكر، والثاني مؤنث جاز أن يذكر وجاز أن يؤنث، أن يذكر باعتبار مرجعه السابق، وأن يؤنث باعتبار مرجعه اللاحق فهنا (إلا) باعتبار مرجعه الثاني اللاحق يعني: إلا أن تكون التجارة التي تأكلون بها الأموال تجارة عن تراض منكم، والتجارة هي: التبادل بين الناس من أجل الربح، ومنه قول الفقهاء عروض التجارة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ : القتل معروف وهو: إزهاق النفس، ولكن ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ هل المراد بذلك نفس القاتل ويكون هذا بمعنى الانتحار، أو المراد بأنفسكم أي: إخوانكم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن الإنسان لا يلمز نفسه، وإنما يلمز غيره، فأيهما المراد؟

الجواب: المراد نقول: هو شامل فلا يقصر على من يقتل نفسه بنفسه ولا يقتصر على من يقتل غيره فيقال: الآية شاملة لهذا وهذا، وإن كان المراد لا تقتلوا أنفسكم أنتم فلا إشكال في الآية ، وإن كان لا تقتلوا غيركم ، فلماذا عبر بالنفس عن الغير؟ نقول: عبر عن النفس بالغير؛ لأن المؤمن مع أخيه كالجسد الواحد، كما ضرب ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلًا: «**إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بِالْحُمَّى والسَّهَرِ**».

وأيضًا كالتعبير عنه الأخ بالنفس فيه إغراء وحث يعني: كأنه هو نفسه، ففيه إغراء للإنسان عن تجنب قتل الغير وحمل للإنسان على التحمل على أخيه وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، تعليل للحكمين: أكل الأموال، وقتل النفوس، فالله سبحانه و تعالى بنا رحيم، ومن رحمته الأول: تحريم أكل الأموال بيننا بالباطل أو النهي، والثاني : النهي عن قتل

أنفسنا؛ فإن هذا من رحمة الله بنا، وجهه في الأول: أن أكل الأموال بالباطل يؤدي إلى التشاؤم والنزاع، وربما يؤدي إلى احتدام مسلح.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿بِكُمْ﴾ الخطاب يعود على من؟ على المؤمنين؛ لأنه يخاطب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ولم يرد في القرآن إضافة الرحمة إلى الله - تعالى - منسوبة إلى الكافرين يعني بالمعنى العام: الرحمة التي اتصف الله بها ذكرت في القرآن إما على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص في المؤمنين أما على سبيل الخصوص بالكافرين فلم ترد.

الآية في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قيل المراد بها: لا تتركوا الإنفاق في سبيل الله فتهلكوا.

وليس المراد الإلقاء بالنفس إلى ما يهلكها كالقتل والتعرض له، هذا تصريح بأن الآية عامة، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

١- **في هذه الآية من الفوائد منها:** العناية بالأموال وعدم البطلان لقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

٢- **وفيها:** تحريم أخذ مال الإنسان بغير رضًا منه لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

٣- **وفيها أيضًا:** تحريم التعامل المحرم ولو كان برضًا من الطرفين؛ لأن التعامل المحرم أكل للمال بالباطل، وعلى ذلك فالإقرار الربوي من الطرفين محرم.

٤- **ومن فوائدها:** أن من مقتضى الإيمان تجنب أكل المال بالباطل؛ لأنه وجه الخطاب للمؤمنين.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** اشتراط الرضا لعهود المعاملات لقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ والرضا إذا كان ثابتًا [صادقًا] عن العقد لا إشكال فيه ولكن إذا كان لاحقًا فهل ينقص العهد أم لا؟ وذلك فيما يسمى عند أهل العلم بالتصرف الفضولي يعني: لو أنني بعت مال شخص بدون إذنه ولكن أذن فيما بعد ورضي فهل يقع العقد الثابت صحيحًا أو باطلًا؟ الجواب: إذا نظرنا إلى عموم قول الله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قلنا: إنه يكون صحيحًا؛ لأن هذه التجارة صار مآلها إلى التراضي وهنا القول هو الراجح، أما التصرف الفضولي إذا أذن لصاحبه فإنه جائز، وذلك لأن عموم قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ يدخل في هذه السورة ولكن بعض أهل العلم قال: لا يصح مطلقًا. سواء أذن أو لم يأذن

وسواء تصرف في ذمته أو في عين ما، أو سواء كان في الشراء أو في البيع، وبعضهم فصَّل فسر وفرق بين الشراء وبين البيع، قال: إذا اشترى له من ذمته ولم يمسه في العقد ورضي فلا بأس، وإلا فالقول الراجح أنه متى رضي ولو بعد العقد؛ فإنه يقع العقد صحيحًا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم القتل، أي: قتل الإنسان نفسه لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

وعلى التفسير الثاني.

٧- **من فوائدها:** أن المؤمنين كنفس واحدة، وأن قتل الإنسان غيره كأنما قتل نفسه.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ أرحم بالإنسان من نفسه؛ لأنه نهاه أن يقتل نفسه فصار أرحم به من نفسه.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات صفة الرحمة لله لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ والرحمة عند السلف صفة حقيقية ثابتة لله وأنكرها المعطلة ، أنكروها إنكار تأويل لا إنكار تعطيل يعني: لم يقولوا إن الله ليس له رحمة بل قالوا: إن المراد برحمته كذا وكذا متعللين؛ لأن الرحمة فيها شيء من الرقة واللين، والله عز وجل لا يوصف بهذا، فنقول لهم: بماذا تفسرون؟ قالوا: نفسرها بإرادة الإيمان والإحسان أو نفسرها بالإحسان أما أن تكون من الرحمة بها يريد الإحسان وبحسن هذا لا يجوز، ولا شك أنهم بذلك خالفوا ظاهر القرآن وخالفوا إجماع السلف قد يقول قائل: أين إجماع السلف؟ فنقول: إن القرآن نزل بلغة عربية، وفهموها على مقتضى اللغة العربية، فإذا أثبت الله لنفسه الرحمة أثبتوا له الرحمة؛ لأن هذا هو الأصل ، ونقول لمن قال إنه لا إجماع إئت بحرف واحد من السلف يفسرون الرحمة بغير ظاهرها، وهذه فائدة مهمة، ويندفع بها من شبه ولبس قال: أين إجماع السلف؟ والقرآن بين أيديهم ولم يفسروه بخلاف ظاهره، والأصل أنهم فهموه على ظاهره، ثم نقول لهم أن تفسروه بالإرادة فرارًا من المشابهة بزعمكم والمخلوق له إرادة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ولا أحد يشك في أن المخلوق له إرادة، فإذا قالوا إرادة المخلوق تليق به وإرادة الخالق تليق به قلنا له: ورحمة الله تليق به ورحمة المخلوق تليق به، وكذلك إذا فسرتم الرحمة بالإنعام، قلنا: النعم لا تكون إلا بإرادة، والإرادة لا تكون إلا برحمة، من لم يرحم لم يرد النعمة ولم يردها، وبهذا تبين بطلان تحريفهم ونسميه تحريفًا لا تأويلًا على كل تقدير.

مسألة: ولو سألنا سائل أيها أعظم أن يحرف القرآن والسنة فيها يتعلق بإثبات الله أو فيها يتعلق بالأفعال التكليفية المتعلقة بأفعال العباد؟

الجواب: الأول. لا شك؛ لأن الأول: لا مجال للعقل فيه ، فالواجب أن يجاء على ظاهره، أما الثاني: فهي أحكام تكليفية للعقل فيها مجال وقياس مثلًا فيكون التحريف فيها أهون، وكذبوا هؤلاء المعطلة ينكرون أشد الإنكار على من حرف النصوص فيما يتعلق بالفعل المتكلف، ولا ينكرون على أنفسهم تحريف النصوص فيما يتعلق بإثبات الله -عز وجل-.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز التجارة والإتجار؛ لأن الله أقر ذلك في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾ وظاهر الآية العموم؛ أن الإتجار جائز لذوي الجاه والشرف وللسوقة من الناس ولمن دونهم فلا عيب على الإنسان أن يتجر ويطلب الرزق، ولهذا وجه الله المؤمنين بالسعي إلى الجمعة عند ندائها وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لما أمرنا بطلب الرزق بعد الإنصراف من الجمعة ذكرنا ألا ننسى ذكر الله قال: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ على كل حال التجارة جائزة، ولا عيب على الإنسان فيها ويذكر التاريخ أن أبا بكر رضي الله عنه لما ولِّي على المسلمين خليفة نزل إلى السوق، قالوا به: كيف تبيع وتكسب وأنت خليفة مسؤول وضربوا له نصيبًا معينًا من بيت المال بقدر كفايته رضي الله عنه.

مسألة: فما هي التجارة المذمومة؟

الجواب: التجارة المذمومة: ما صدَّتْ عن ذكر الله ولهذا امتدح الله الرجال الذين لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، قال بعض أهل العلم: والتجارة التي يقصد بها المكاثرة في الدنيا هي أيضًا مذمومة؛ لأن الغالب أن من كانت هذه نيته يلهي عن ذكر الله، فإذا رأيت من نفسك جشعًا وطمعًا وشحًّا في التجارة فأمسك؛ لأن ذلك يخشى أن يكون على حساب الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما ذكر في الآية السابقة فقط خلافًا لبعض العلماء الذين قالوا: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: كل ما نهى عنه من أول السورة، فإن هذا لا وجه له. نقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى أقرب مذكور أي: من يأكل الأموال بالباطل إلا ما استثنى، ومن يقتل النفس عدوانًا وظلمًا، عدوانًا أي: اعتداء بأن يفعله عن قصد، وظلمًا. قيل: إنها من باب عطف المرادف على مرادفه؛ لأن الظلم عدوان والعدوان ظلم وقيل: فالعدوان ظلم فالعدوان ما فعل عن قصد والظلم يعود إلى نفس الفاعل، فهو إذا خالف ما يذكر أو فعل ما ذكر من المناهي، فقد اعتدى على غيره فأكل ماله واعتدى على غيره، فقتله وظلم نفسه فيكون عدوانًا باعتبار وظلمًا باعتبار النفس، وأيها أصح؟

الجواب: الثاني أصح لا شك؛ لأن حمل الكلام على التأثير أولى من حمله على الترادف؛ لأن إذا

جعلتها مترادفتين صار ذلك تكرارًا، لكن إذا قلت هذه لها معنى وهذه لها معنى فهذا هو الأصل، وعليه فنقول عدوانًا: أي: عن عمدٍ وقصد وهو عدوان على الغير، ظلم أي: للنفس؛ لأن جميع المعاصي ظلم للنفس.

قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: ندخله نارًا تحرقه وهذه ﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾ نصبت مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فتكون من باب كسا وأعطى ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: يدخل نارًا يصلاها فتحرقه، وكان ذلك على الله يسيرًا، كان ذلك المشار إليه إدخاله النار للتصلية التي يصلاها كان على الله يسيرًا أي: سهلًا؛ لأنه لا يمانعه أحد في ملكه، التعذيب بالنار قد يصعب على بعض ملوك الدنيا مثلًا؛ لكنه على الله يسير سهل قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الإعراب في هذه الآية: ﴿مَن﴾ شرطية وفعل الشرط: ﴿يَفْعَلْ﴾ وجوابه: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وارتبطت جملة الجواب بالفاء لوجود ما يقتضي ذلك، وهو سوف، والجواب الذي يحتاج ربطًا بالفاء مجموع في قول الشاعر:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ ولن وَبِالتَّنْفِيس

سوف تدخل في قوله: وبالتنفيس.

١١- من فوائد الآية الكريمة: التحليل من فعل هذه المنهيات، وذلك بالوعيد عليها في النار.

١٢- ومن فوائدها: أن فعل هذه المنهيات من كبائر الذنوب؛ لأنه توعد عليه بالنار وكل ذنب توعد عليه بالنار فهو من كبائر الذنوب.

١٣- ومن فوائدها: بيان عظمة الله، وتمام سلطانه وقدرته لقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

١٤- ومن فوائد الآية: تعظيم الله نفسه لقوله: ﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾؛ لأن الضمير هنا تقديره نحن، وهو ضمير العظمة وليس من التشابه إلا من طمس الله قلبه كالنصراني الذي يقول: إن ضمير الجمع يدل على التعدد وينسى آيات الكمال الدالة على أن الله إله واحد؛ لأن الله طمس على قلبه ومن طمس على قلبه؛ فإنه لا يتبين له الحق.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[النساء: ٣١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾: هنا عدول من الغيبة إلى الخطاب أين الغيبة؟ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ﴿نُصْلِيهِ﴾ وأما ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾ فهذا للاختصار يخاطب الله سبحانه وتعالى العباد بقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾ أي: تبتعدوا عن كبائر ما تنهون عنه: كبائر جمع كبيرة، وما تنهون عنه: النهي هو طلب الكف على وجه الاستعلاء أي: ما ينهاكم الله عنه قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: صغائر ذنوبكم يكفر: مأخوذ من الكفر وهو الستر فالتكفير إذن معناه: الستر للسيئات وذلك بالعفو عنها، وقوله عز وجل: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ : نقول جمع سيئة والمراد هنا: الصغيرة؛ والدليل على أن المراد بها الصغيرة أنها جاءت في مقابلة الكبائر: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وإلا فالأصل أن السيئة عامة ولا الكبيرة ولا الصغيرة، وهذه من بلاغة القرآن؛ أن يعرف معنى الكلمة بذكر ما يقابلها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ لو قيل ما معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ ؟ فرادى، ما دليله؟ أنه قوبل بقوله: ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ مع أنك لو ذهبت تراجعها في القاموس أو كتب اللغة لأخذت وقتًا، لكن إذا عرفت أن الله يذكر الشيء وما يقابله كما في هذه الآية عرفت أن المراد بـ(ثبات): أي الفرادى.

وقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ المدخل الكريم هو: الجنة؛ لأنها دار الكرم دار الفضل دار الإحسان دار السلام، وهنا قال مُدْخَلًا ولم يقل مَدْخَلًا؛ لأنه من الرباعي واسم المكان والزمان والمصدر الميمي إذا كان من الرباعي فهو على وزن مُفعل لا على وزن مَفعل، ولهذا تقول: أقام الرجل عندنا مقامًا أي: مُقامًا وتقول: قام الرجل فينا مقامًا؛ لأنه من الثلاثي، على هذا يدخلكم مدخلًا بضمة؛ لأنها من الرباعي من أدخل يدخل، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: يدخلكم في مكان دخول كريم، بناءً على أن مدخل هنا: اسم مكان، ويجوز أن تكون مصدرًا ميميًّا، ويجوز أن يراد بها هذا وهذا، أي: أن الكرم وصف للإدخال ولمكان الدخول، فإذا قال قائل: ما هي الكبائر؟ قلنا: الكبائر جمع كبيرة، وقد جاءت الأحاديث بعدها بثلاث وأربع وسبع وتسع وتفاوتت الأحاديث في هذا ومن ثم اختلف العلماء، فقيل: إن الكبائر ما نص إنه من الكبائر وما سوى ذلك فهو من الصغائر، فالنبي صلى الله عليه

وعلى آله وسلم قال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُم بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ وَقَالَ: أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ وَقَوْلُ الزُّورِ**».

وَوَرَدَ عنه أيضًا: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**» وعدها وسئل عن الكبائر فقال: «**تسع**» وعدها، ومن ثم اختلف العلماء فمنهم من قال: ما ورد إنه من الكبائر فهو كبيرة وما لم يرد فهو صغيرة، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر هل هي سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وفي رواية أخرى قال هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقال الإمام أحمد: الكبيرة لا معدودة وهي ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، فهو كبيرة، فالزنا مثلًا كبيرة والسرقة كبيرة والقذف كبيرة، من جر ثوبه خيلاء ينظر الناس إليه كبيرة، فما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة؛ فإنه من كبائر الذنوب، قال «**ابن عبد القوي في منظومته الدالية**» التي تقع في نحو أربعة عشر ألف بيت في الفقه قال:

فَمَا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنَا أَوْ تَوعُّد وأُخْرَى فَفِي الكُبْرَى عَلَى نَصِّ أحمد

(في) يعني: سمه أو أعلمه؛ لأنه يجوز أن تكون من السمة أو العلامة ففي الكبرى يعني: نصٌّ بأنه من كبائر الذنوب. (على نص أحمد).

وَزَادَ حَفِيدُ المجْدِ أَوْ جَا وَعِيدَهُ بِنَفْيِ لإِيمَانِ وَلَعْنٌ مؤبَّدِ

من هو حفيد المجد: «**شيخ الإسلام ابن تيمية**»، وزاد حفيد المجد أو جاء وعيده بنفي الإيمان إذن لا يؤمن من فعل كذا وكذا ولعن مؤبد يعني: ما ذكر فيه اللعن مثل اللعن كمن لعن والديه وما أشبه ذلك (ولشيخ الإسلام رحمه الله) كلام آخر قال فيه: ما رتب عليه عقوبة خاصة دينية، أو دنيوية من كبائر الذنوب، وما كان فيه مجرد التحريم أو مجرد النهي فهو من الصغائر ووجه ذلك أن تخفيف الذنب بالعقوبة يدل على عظمه وإلا لاكتفى بالعقوبة العامة على الذنوب. وكونه نص على عقوبة خاصة فيه يدل على عظمه وهنا الضابط الذي ذكره (شيخ الإسلام) ضابط لا بأس به، لكنه سوف يدخل فيه ذنوب كثيرة، ولكننا لم نجد فارقًا يفرق بين الكبائر والصغائر إلا بمثل ذلك، فإذا رتبت عقوبة خاصة دينية أو دنيوية أو أخروية فهو كبيرة دينية مثل أن يقال: «**والله لَا يُؤْمِنُ من لَا يَأْمَنُ جَارُه بَوَائِقَهُ**» هذه دينية ـ نفي إيمان ـ.

دنيوية: كالحد، وعقوبة أخروية: كالوعيد.

«**ثلاثٌ لَا يُكَلِّمُهُم اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ولَا يَنْظُرُ إِلَيْهِم وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» . وهذا تعريف للكبيرة بالعد أو بالحد؟ بالحد.

مسألة: الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ عدوانًا تعود على القتل يعني: لو قتل له شخص وعرف القاتل ثم ذهب يقتل هذا القاتل هذا لا يدخل في العدوان

والظلم؛ لأن من له حق القاتل اقتص بنفسه.

هل هذا عدوان وظلم؟ الجواب: لا، هذا حق له، لكنه في القتل قال ابن عيينة لا يستوفى إلا بحضرة السلطان أو نائبه؛ لأنه تأتي من المقتص الغيرة على أن يمثل بالقاتل أو ما أشبه ذلك.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما نهي عنه ينقسم إلى كبائر وصغائر؛ لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** تفاضل الناس في الإيمان وجهه: أن الإيمان يزداد بزيادة العمل كمية أو كيفية أو نوعًا.

فقد قسم الله المعاصي إلى قسمين: فكلما كان الإنسان في معصية أشد كان إيمانه أنقص وأقل فيؤخذ منه: أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص بدليل الكتاب والسنة والواقع: الكتاب قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ وقال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ وهل في الآيتين دليل على النقص؟ لأنه لا تتصور الزيادة إلا بما نقص عنها وفي السنة: قال النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازِمِ من إِحْدَاكُنَّ».

وأما الواقع: فغالب الأعمال عند أهل السنة من الإيمان والأعمال تتفاضل بالزيادة فمن يصلي عشر ركعات لا يساويه من صلى ست ركعات، وهذا ظاهر محسوس وكذلك أيضًا في القلب الإيمان يزيد وينقص في القلب يدلُّ لذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ليزيد ثباتًا وإيمانًا.

وأنت بنفسك تحس أن إيمانك بالشيء يزداد، في القلب، فإذا جاءك مخبر بالخبر وهو عندك ثقة آمنت بخبره، فإذا جاء آخر مثله وأخبرك بنفس الخبر ازداد إيمانك بلا شك، وإذا أخبرك بعكسه ضعف إيمانك الأول، الذي أخبرك به الثقة، كذلك أيضًا بالنسبة لمراقبة الله عز وجل، يجد الإنسان من نفسه أحيانًا أن قلبه حاضر بين يدي ربه، وأنه في أحلى ما يكون وألذ ما يكون، وأنه قد ذاق طعم الإيمان، حتى يتمنى أنه لا يكون إلا في هذا السرور ولا يريد الدنيا، فما يرى أحسن ولا أطيب من الساعة التي هو فيها، سواء كان في صلاة أو في قراءة قرآن أو في تدبر سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وأحيانًا تستولي عليه الغفلة، فيصلي بنفس القراءة التي قرأها بالأمس ولكن قلبه حجر ما يلين والوقت هو الوقت والمكان هو المكان، والعمل هو العمل، وأحيانًا يصلي الإنسان في آخر الليل ليلة يجد لذة عظيمة في هذه الصلاة، ويحس أنه قريب من الله عز وجل، وليلة أخرى بالعكس يرى أنه في شيء محسوس ما يذوق معنى من المعاني، أيهما أشد إيمانًا بالأمس أم باليوم؟ بالأمس أشد بكثير، حتى الصحابة قالوا: يا رسول الله إذا كنا عندك وسمعنا ما يكون فإننا كأننا

نرى الجنة رأي العين، ولكن إذا ذهبنا وعافسنا الأهل والأولاد نسينا، فقال: «لَوْ كُنْتُمْ عَلَى مَا تَكُونُونَ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَكِنْ سَاعَةً وَسَاعَةً»[1] فالإيمان يزيد بلا شك، ولكن الطاعة لا شك أنها تزيد في الإيمان بشرط أن تكون مصحوبة بعمل القلب، أما عمل الجوارح إذا لم يكن مصحوبًا بعمل القلب فإنه لا يزيد في الإيمان، وربما ينقص في الإيمان، لكن إذا كانت أعمال الجوارح مصحوبة بعمل القلب من الخوف والرهبة واحتساب الثواب، فإنه بلا شك يزداد قلبه بالطاعة، لهذا يجب النظر في هذه المسألة.

مسألة: مَنِ الذين قالوا إنه لا يزيد ولا ينقص؟

الجواب: ثلاث طوائف: المرجئة قالوا: لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأعمال الصالحة وغير الصالحة لا دخل لها في الإيمان، فالناس عندهم في الإيمان شيء واحد كالمشط، كما قال ابن القيم في النونية:

وَالنَّاسُ فِي الإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... كَالمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الأَسْنَانِ

فالناس عندهم سواء، وما الإيمان عندهم إلّا مجرد التصديق والإقرار، حتى الشيطان عندهم مؤمن لأنه مصدق، ولهذا قال ابن القيم:

واسْأَلْ أَبَا الجِنِّ اللَّعِينَ: أَتَعْرِفُ الـ ... ـخَلَّاقَ أَمْ أَصْبَحْتَ ذَا نُكْرَانِ

وأبو الجن اللعين يعرف الخلاق أم لا؟ يعرفه ويدعوه، فيقول: ربي أنظرني، ومع ذلك هو أكفر خلق الله. الطائفة الثانية التي خالفت هي الخوارج: وما أدراك ما الخوارج، أصحاب الأعمال الظاهرة وخراب القلوب الباطنة، فالخوارج يقولون: إذا فعل الإنسان كبيرة خرج من الإيمان وأبيح دمه وماله؛لأنه كافر مرتد، فعندهم أن الإيمان لا يزيد، إما أن يوجد كله وإما أن يعدم كله، إن سلم الإنسان من الكبائر والإصرار على الصغائر وقام بالواجبات والمفروضات فمعه الإيمان كامل، وإن أتى كبيرة واحدة انهدم الإيمان كله، هؤلاء هم الخوارج.

الطائفة الثالثة المعتزلة: أشبهوا الخوارج من جهة الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لكنهم لا يقولون بكفره ففاعل الكبيرة، عندهم ليس بمؤمن ولا كافر؛ لأنهم نظروا بعين عوراء، نظروا إلى أنه معه أصل الإيمان، قالوا: ذهب عنه الإيمان بالكبيرة، ولكنه معه أصل الإيمان، فلا نقول: إنه كافر، ولا نقول: إنه مؤمن، نقول في منزلة بين منزلتين، أين المنزلة؟ أين هي في القرآن والسنة؟ أحدثوها كما لو خرج رجل من مكة متجهًا إلى المدينة، ووقف في أثناء الطريق، ماذا يكون؟ ليس من أهل مكة ولا في المدينة، في منزلة بين منزلتين، لكن اتفقوا مع الخوارج في أنه يكون مخلدًا في النار، فأحكامه في الآخرة كأحكامه عند الخوارج.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٤٥٢)، وابن ماجه (٤٢٣٩).

أما أهل السنة والجماعة- نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على قولهم إلى الممات- قالوا: لا، الإيمان يزيد وينقص، والكفر درجات، والإنسان قد يكون معه خصال إيمان وخصال كفر، ولا يخرج فاعل الكبيرة من الإيمان، بل صفه بأنه إما مؤمن بإيمانه، وإما فاسق بكبيرته، أو بأنه مؤمن ناقص الإيمان، لا تعطيه الاسم المطلق، ولا تسلبه مطلق الاسم، قل: معه إيمان ناقص، أو هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وهذا هو العدل والميزان، أن يوصف الإنسان بما يقتضيه عمله من إيمان أو كفر.

٣-من فوائد الآية الكريمة: أن الصغائر تقع مكفَّرة باجتناب الكبائر، لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فإن لم يجتنب الكبائر، يؤخذ بالصغائر، لكن الكبائر والصغائر تحت المشيئة ما لم تكن كفرًا، فالفائدة أنه إذا اجتنب الكبائر جزمنا بأن الله كفر عنه الصغائر، وإذا لم يجتنب الكبائر، فهو تحت المشيئة والخطر.

٤-من فوائد الآية الكريمة: إثبات عظمة الله عز وجل، لقوله: ﴿نُكَفِّرْ﴾ و﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ لأن النون هنا: للتعظيم، وقد قال النصراني الخبيث: إن هذا يدل على تعدد الآلهة؛لأن الضمير هنا للجمع، فنحن أحق بالحق منكم، أيها الموحدون، فنقول له: إن هذا من باب التعظيم، وأنت قد طبع الله على قلبك، وغفلت عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: سعة فضل الله سبحانه وتعالى، وذلك لتكفير السيئات باجتناب كبائر الذنوب، وإلا لو جازى الناس بالعدل لعاقبهم على الصغائر وعلى الكبائر كل منها بحسبه، الكبائر عقوبتها شديدة، والصغائر دون ذلك، لكنه من فضله عز وجل جعل الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر، وهذا من أثر قوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي :«إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1].

٦-ومن فوائد الآية الكريمة: أن من كفر الله عنه السيئات فهو من أهل الجنة؛ لقوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

٧- ومن فوائدها: بيان أن الجنة هي أعلى ما يكون، بل هي من المداخل الكريمة، والكريم كل شيء بحسبه، فكرائم الأموال: محاسنها، قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[2].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]

التفسير

(لا) ناهية وجزم الفعل بها بحذف النون، و﴿مَا فَضَّلَ﴾: مفعول تتمنوا، فما هو التمني: التمني الطمع فيما يعسر نيله أو يتعذر نيله ، فقول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

هذا طمع فيما يتعذر نيله، وقول الفقير: ياليت لي مالًا فأتصدق منه، هذا الطمع فيما يتعسر نيله، وقد يطلق التمني ويراد به الرجاء، مطلق الرجاء: بأن يطمع الإنسان في أمرٍ يسهل نيله وإن كان لا يحصله لكنه يسهل نيله لو شاء الله، فقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾أي: لا تطمعوا في أمرٍ فضل الله به بعضكم على بعض، وقوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ أي: زاد ﴿بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ سواء كان ذلك في العلم، أو في المال، أو في الولد، أو في الجاه، أو في الملك، أو في غير ذلك، لا تتمنى ما فضل الله به غيرك عليك؛لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ وذلك النصيب للرجال هو: ما يعطيهم الله إياه من الثواب على الأعمال الصالحة، أما قوله: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي:من الأعمال الصالحة لهن نصيب، كل بحسب ما قدر الله له، فللرجال الجهاد، وللنساء حفظ البيوت، وهناك فرق بين الجهاد وحفظ البيوت، لكن من الذي فضل هؤلاء بهذا وهؤلاء بهذا؟ من الذي خص هؤلاء بهذا وهؤلاء بهذا؟ هو الله، إذنْ مادام الأمر إلى الله، فالله تعالى حكم عدل يعطي كل واحد من الجنسين ما يليق به، وسيأتي أيضًا بيان ما فضل الله به الرجال في قوله ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فالمهم :أن ما فضل الله به بعض الناس على بعض سواء بسبب الذكورة أو بسبب الغنى أو العلم أو الصحة، أو المال أو غير ذلك، فهو من فضل الله، فلا تتمنى ما فضل الله به غيرك عليك.

ثم قال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وفي قراءة (سلوا الله) كلتاهما قراءتان سبعيتان، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي:من الذي فَضَّل بعضكم على بعض اسألوه، وإذا سألتم الله من

فضله أعطاكم، فمثلًا: إذا رأيت شخصًا قد فضلك في المال، فلا تتمنى هذا المال الذي أعطاه الله هذا الرجل، ولكن اسأل الله من فضله، وإذا وجدت رجلًا فضلك في العلم، لا تتمنى هذا العلم الذي أعطاه الله غيرك، ولكن اسأل الله من فضله، ودع علمه يبقى له، وماله يبقى له،ففي المسألة الأولى ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ السؤال هنا سؤال عطاء أم سؤال علم؟ سؤال العطاء: سأله أي طلب منه أن يعطيه مالًا، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ وسأله: استخبره، يعني سؤال علم، يعني يريد أن يخبره، فهل هذا سؤال مال أو سؤال علم؟نقول: سؤال عطاء أي: سؤال مال، يعني: اسألوا الله أن يعطيكم فهو سؤال عطاء، وعدلنا عن قولنا سؤال مال؛لأن الإنسان قد يسأل الله غير المال، كالعلم، والجاه، والذكاء، والعقل، وما أشبه ذلك، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الجملة هذه استئنافية، والدليل على أنها استئنافية أن همزة إِنَّ كسرت، وهمزة إِنَّ تكسر في الابتداء، وعلى هذا فهي جملة استئنافية لبيان قطع التمني، أي :تمني الإنسان ما فضل الله به غيره عليه، يعني أن ما فضل الله به الغير فهو صادر عن علم بأن هذا المفضَّل أهل للتفضيل، فالرجال أهل للجهاد، وأهل لحماية الأوطان،وأهل لحماية الدين، وما أشبه ذلك، بخلاف النساء فإنهن قاصرات.

في هذه الآية فوائد كثيرة:

١- **منها:** نهي الإنسان أن يتمنى ما فضل الله به غيره عليه، لقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ وهل النهي للتحريم؟ الجواب: نعم هو للتحريم؛ لأن هذا النوع من التمني هو الحسد؛ لأنه قال: ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: مثل ما فضل الله، فلو قال: لا تتمنوا مثلًا، صار في المسألة إشكال، وصار أول الآية يناقض آخرها في قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لكن المعنى لا تتمنوا ما فضل الله به الغير يكون لكم، ويُحرم إياه الغير، وعلى هذا فنقول النهي هنا للتحريم، وهذا النوع هو الحسد، ولكن ليعلم أن تمني ما أعطاه الله الغير، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يتمنى زواله لغير أحد.

والثاني: أن يتمنى زواله لغيره أي: لغير المتمني.

والثالث: أن يتمنى زواله لنفسه.

والنوع المقصود في الآية لا شك أنه هو الثالث؛ لأنه يتمنى ما أعطى الله غيره من الفضل، ولكن الأول والثاني معلومان من أدلة أخرى، أنه يحرم على الإنسان أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، سواء تمنى أن تزول إلى شخص أو أن تزول مطلقًا، وهذا هو الحسد عند جمهور أهل العلم، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الحسد كراهة ما أعطى الله هذا الرجل من فضله، سواء تمنى زواله أم لم يتمنَ زواله، فإذا كرهت ما ينعم الله به على غيرك فهذا هو الحسد.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله سبحانه وتعالى في العطاء والمنع، حيث يفضل بعضًا على بعض، ولا شك أن هذا صادر عن حكمة، وليس مجرد اختيار، خلافًا لمن أنكر حكمة الله، وقال: إن فعله لمجرد الاختيار، قال: هو لاختيار صادر عن حكمة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الأحكام تدور مع عللها، لقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ فنصيب الرجال يليق بهم، ونصيب النساء يليق بهن.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز أن يتمنى الإنسان مثل ما فضل الله به غيره عليه، وجهه ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فنحن لا نقول لك لا تتمنى أن يعطيك الله مثل ما أعطى فلان،بل نقول لا بأس، ولكن لا تتمنى ما أعطاه الله فلان، وبينهما فرق.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الفرق بين الجنسين الرجال والنساء، وقد قيل إن الآية نزلت بسبب قول بعض النساء لما أنزل الله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ قالت بعضهن:ياليتني ذكرًا حتى يكون لي مثل الذكر ولا أنقص عنه،وسواء صح السبب أم لم يصح، فإن الآية تدل على أن بين الجنسين فرقًا خلافًا لمن يحاول أن يجعل الجنسين على حكم واحد، بل يحاول أن يفضل النساء على الرجال.

٦-**ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة فضل الله عز وجل وكرمه؛ لقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فهو سبحانه وتعالى لم يأمرنا بالسؤال إلا ليعطينا؛ لأنه لو أمرنا بالسؤال من غير أن يعطينا لكان هذا عبثًا لا فائدة منه، ولكنه عز وجل كريم، فهو الذي يتعرض لعباده ويقول: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وينبغي في السؤال أن يكون على الأدب المطلوب، وذلك بأن تسأل الله سبحانه وتعالى سؤال مفتقر لا مستغنٍ، تسأل الله تعالى سؤال من يثق بربه، وأنه قادر، لا سؤال تجربة، سؤال من يثق بالله وأنه قادر على الإعطاء، سؤال من يثق بوعد الله، وأنه يعطي السائل ما سأله، وينبغي أن يختار الإنسان الأزمان والأماكن والأحوال التي تكون سببًا في الإجابة:

مثال الأزمان: آخر الليل ،وما بين الأذان والإقامة.

ومثال الأماكن: أن يكون في الأماكن الفاضلة.

ومثال الأحوال: حال السجود، حال السفر، حال نزول المطر، فينبغي أن يختار الإنسان ما يكون أقرب إلى الإجابة.

خامسًا:أن يكون مجتنبًا للحرام؛لأن أكل الحرام حائل يمنع من قبول الدعاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له[1]، (وَأنَّى) هذه استفهام استبعاد، يعني:بعيد أن يستجاب لهذا الرجل.

سادسًا: ألا يعتدى في الدعاء،قال الله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فإن اعتدى في الدعاء بأن سأل ما لا يحل له بل بأن سأل ما يمتنع شرعًا أو قدرًا فإنه لا يجاب، فلو سأل إثمًا بأن قال والعياذ بالله: اللهم يسر له امرأةً يزني بها، أو كأس خمرٍ يشربه، فهذا لا يستجاب له؛لأنه عدوان، واستهزاء بالله عز وجل، وهذا لا يمكن قبوله ؛لأنه محرم شرعًا، ممتنع شرعًا، ممتنع قدرًا مثل أن يقول: اللهم اجعلني نبيًّا؛ لأن هذا ممتنع قدرًا بخبر الله، لا لأنه مستحيل لذاته، بل هو غير مستحيل لكن بخبر الله صار مستحيلًا، لقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ ﴾ كل هذه آداب ينبغي للإنسان أن يراعيها في الدعاء.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات عموم علم الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

٨- ومن فوائدها: الاقتناع بما حكم الله به شرعًا أو قدرًا؛لأني إذا علمت أنه صادر عن علم اقتنعت، وقلت: لولا أن المصلحة في وجود هذا الشيء ما فعله الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل إلا عن علم، فيزيدني هذا اقتناعًا بما قضاه الله شرعًا أو قدرًا.

٩- ومن فوائدها: وجوب المراقبة، مراقبة الله؛ لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلمه فسوف يراقب ربه، بلسانه وجنانه وأركانه؛ فبلسانه: لا يقول ما حرم الله،وجنانه أي: بقلبه لايعتقد شيئًا حرمه الله، أو يقول شيئًا حرمه الله بالقلب؛ لأن قول القلب هو حركته وعمله، أما أركانه:وهي جوارحه، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإيمان؛ لأن الإنسان إذا آمن حقيقة بهذا فسيراقب الله؛ لأن الله يعلمه، بل قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٨)، والترمذي (٢٩٨٩).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٣٣]

❁ التفسير ❁

قوله: (لكل): جار ومجرور متعلق بجعلنا، وهو المفعول الثاني مقدمًا، و(موالي): المفعول الأول، وقوله: (لكل) هذه من الكلمات التي لا تقع إلا مضافة لفظًا أو تقديرًا، أما لفظًا فهو كثير مثل: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ وأما تقديرًا فيقدر مضافًا إليه مناسبًا للمقام، فما هو المناسب هنا؟ هو تقدير (ولكل أحدٍ جعلنا موالي)، (لكل أحد من الذكور والإناث جعلنا موالي): أي صيرنا، وموالي: جمع مولى، والمولى يطلق على عدة معانٍ، منها الناصر؛ لأن المولى يطلق على الناصر مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ ﴾ أي :هو ناصره، ويطلق على متولي غيره، يعني:الذي يتولى على غيره مثل: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ويطلق المولى على المعتق، ويطلق على العتيق، على المعتق: لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»(١) ويطلق على العتيق لقوله ﷺ: «إِنَّ مَوْلَى القَوْمِ مِنْهُمْ»(٢) أي:عتيقهم، ويطلق على متولي الأمور من ملك أو أمير أو وزير أو ما أشبه ذلك، ويسمى ولي الأمر أيضًا، فهنا موالي والمولى هو من يتولى مالك من بعدك وهو الوارث، ودليله قوله ﷺ :«فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ و ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ أي:يلون تَرِكَتَهُ من بعده، ولهذا قال: ﴿مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ الوالدان: مبتدأ، والأقربون: معطوف عليها، وهي بيان للموالي، هذا أحد التفسيرين في الآية، وعلى هذا فيكون الوقف على قوله: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾.

القول الثاني: أن الوالدان فاعل ترك، ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٣)، ومسلم (١٥٠٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٦١).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي:جعلنا وارثين من المتروك من الوالدين والأقربين، والمعنيان متلازمان، لكن أيهما أقرب إلى اللفظ؟ يرى بعض العلماء أن الأقرب الثاني، وأن تكون الوالدان فاعل ترك، والأقربون معطوف عليه، والمعنى لكل أحد من الناس جعلنا موالي: أي وارثين من الذي ترك الوالدان والأقربون، فعلى هذا يكون الوالدان موروثين، وعلى الأول وارثين، وكما قلت لكم المعنيان متلازمان؛لأنه ما من وارث إلا وله موروث، فسواء قلت جعلنا موالي مما ترك أي: يلونهم مما ترك، وهم الوالدان والأقربون، أي: الوارثون، أو مما ترك الوالدان والأقربون وهم الموروثون، وقوله الأقربون: إنما جاءت باسم التفضيل، دون القريبون؛ لأنه يبدأ الأقارب بالأقرب فالأقرب.

لما نهى الله تعالى عن تمني ما فضل الله به بعضنا على بعض، ومن تفضيل الرجال على النساء في الميراث، بيَّن عز وجل أنه جعل لكل منا من ذكر أو أنثى موالي، والموالي جمع مولى، والمولى يطلق على معان متعددة، منها متولي الأمور، ومنها: الناصر، ومنها: المعتق، ومنها: العتيق، فهو له عدة معان، واللفظة الواحدة إذا تعددت معانيها، تسمى عند أهل العلم: بالمشترك، وقد انتقد بعض الناس ولا سيما الزنادقة، انتقدوا اللغة العربية، وقالوا: إن اللغة العربية فقيرة، بسبب الأسماء المشتركة بأن تكون معاني متعددة للفظٍ واحد، وأن العرب عجزوا أن يجعلوا لكل معنىً لفظًا مستقلًا.

نردُّ قائلين :هذا القائل جائر في حكمه؛ لأنه إذا زعم أن الاشتراك في اللفظ فقط هو إعواز في اللغة، وعجز عن إعطاء كل معنى لفظًا خاصًا به، فإنه قد أغفل شيئًا آخر ضده وهو الترادف، فإن الترادف فيه إثراء للُّغة العربية وسعة للُّغة العربية، حيث تطلق كلمتان فأكثر على معنى واحد، فالإنسان العادل ينظر إلى هذا وهذا، ثم إن في الأسماء المشتركة دليل على فطنة العرب، وذكائهم وحذقهم، حيث يفسرون كل لفظ بما يناسبه بالسياق، فالعين مثلًا تأتي في سياق ويراد بها كذا، وفي سياق آخر يراد بها شيء آخر، فهذا دليل على أن العرب عندهم حذق وفطنة قوية، بحيث يتعين المعنى في اللفظة الواحدة ذات المعاني المتعددة بحسب السياق، وهو أيضًا فتح بابًا للتأمل والتفكر، بأن الإنسان يقف أمام الكلمة قائلًا: هذه الكلمة تطلق على عدة معانٍ ،فما معناها في هذا السياق؟ فيقتضي أن يشد الإنسان ويتأمل وينظر، ولكن بعض الناس يكون مغرضًا أو سطحيًّا، فيرمي اللغة العربية بما هي بريئة منه.

إذنْ المولى يطلق على عدة معان، فما الذي يعيِّن المعنى؟ السياق، وقرائن الأحوال، هذا هو الذي يعين المعنى، فالسياق قرائن لفظية، والأحوال قرائن حالية تبين المراد، وقوله:(موالي مما ترك الوالدان والأقربون) مما ترك: هذه متعلقة بشيء محذوف، ولا يستقيم المعنى إذا جعلناها متعلقة بـ(موالي)، الشيء المحذوف مقدر بما يناسب المقام، فترك: يناسبها (إرث) قال الله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ وقال في الآية التي تليها: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ فلما قال مما ترك الوالدان، علمنا أن المقدر يرثون، مما ترك الوالدان والأقربون، ويؤيد هذا التقدير قول النبي ﷺ: «**أَلحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**»(١) إذنْ مما ترك: من بيانية أو تبعيضية، والمتعلق محذوف والتقدير يرثون.

وقوله: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ وهما: الأب والأم.

قوله: ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ وهم: ماعدا الوالدين، وإنما فسر الأقربين بمن عدا الوالدين مع أن الوالدين أقرب الناس؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، فالله جعل الموالي يرثون مما ترك الوالدان، هم الفروع، وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه كيف يرثون، إذا انفرد الذكور أو انفرد الإناث أو اجتمعوا، فإذا انفرد الإناث فيرثهم في الفرض فقط، وإذا انفرد الذكور فإرثهم في التعصيب فقط، وإذا اجتمعوا فإرثهم بالتعصيب لكن تختلف جهته، فالذكور عصبة بالنفس والإناث عصبة بالغير وهم الذكور، أي عصبة بسبب غيرهم.

قوله: ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ هذه كلمة واسعة ولم يقل: القرابات، بل قال الأقربون؛ لأن الميراث يكون للأقرب فالأقرب حتى ذوو الفروض، يفضل الأقرب على الأبعد، فالبنت مع بنت الابن لها النصف، ولبنت الابن السدس، والبنتان يسقطان بنات الابن، والأخت الشقيقة مع الأخت لأب لها النصف، والأختان الشقيقتان يسقطان الأخوات لأب، وهلم جرا، ولهذا قال: (الأقربون) أي: الأقرب فالأقرب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: عقدت وعاقدت، من المعاقدة، وهي المعاهدة، وسميت المعاهدة عقدًا؛ لأنها إبرام لميثاق بين المتعاهدين، وكانوا في الجاهلية يتعاقدون على الولاء والإرث على حسب شروط بينهم، إما أن يقول لك: أنت سدس ما ورائي أو ثلث أو ربع، حسب ما يتفقون عليه.

وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ آتوهم: أي أعطوهم، وفي اللغة العربية: أتوهم وأْتُوهم، وأَتوهم وآتوهم، فالتي بالمد بمعنى: الإعطاء، والتي بالقصر بمعنى: المجيء، والتي بمعنى الإعطاء تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فآتوهم نصيبهم، هذه نصبت مفعولين، ليس أصلهما المبتدأ والخبر وهما مفعولان، (فآتوهم) أعطوهم نصيبهم، مقدر بحسب ما يتفق المتعاقدان عليه؛ لأن هذا من الوفاء بالعهد، والوفاء بالعهد مما جاءت به الشريعة حتى إن الرسول ﷺ، حذر من خلف الوعد، وبين أنه من خصال المنافقين.

وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ الجملة خبرية مؤكدة بإن،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

وكان فعل ماضٍ تفيد اتصاف اسمها بخبرها على وجه الدوام والاستمرار فهي مسلوبة الزمان، يعني: ليست دالة على زمان مضى كما شأن الفعل الماضي، بل هي دالة على ثبوت الاتصاف بهذا الوصف أزلًا وأبدًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ شهيداً أي: رقيبًا مطلعًا على كل شيء، وهذه الجملة استئنافية، تفيد التهديد، تهديد من أخفى شيئًا مما يستحقه، الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم؛ لأنه إذا أخفاه فلن يغيب عن الله سبحانه وتعالى، بل هو على كل شيء شهيد، وهذه الآية نسخت بآيات المواريث.

فإن قيل: هل هو نسخ مقيد، أو هو نسخ مطلق؟

نقول: على قولين للعلماء، منهم من قال: إنها نسخ مقيد إذا وجد ذوي الأرحام، فإذا لم يوجد توارث المتعاقدان بما اتفقا عليه، ومنهم من قال: إنه نسخ مطلق، فلا إرث بالموالاة مطلقًا، والثاني: هو الذي عليه جمهور العلماء، والأول: عليه شيخ الإسلام رحمه الله، أمَّا من جهة إعراب الآية فالظاهر من الآية ما فيها إشكال من جهة الإعراب.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجعل لله عز وجل، وهذا من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، ثم إن الجعل الذي نسبه الله لنفسه عز وجل ينقسم إلى قسمين: جعل شرعي، وجعل كوني، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هذا جعل كوني، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وما أشبهها، كلها جعل كوني، وقوله تعالى هنا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ هذا جعل شرعي، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ هذا جعل شرعي، ولا يصح أن يكون جعلًا كونيًا؛ لأنها موجودة، وهنا منفية، إذنْ ما جعلها شرعًا ولكن جعلها قدرًا. والفرق بين الجعل الشرعي والجعل القدري كالفرق بين الإرادة الكونية والشرعية، فالجعل الشرعي محبوب إلى الله، وقد يقع من العباد وقد لا يقع، والجعل الكوني لا يتعلق بما يحبه الله، بل يكون فيما يحبه وفيما لا يحبه، وهو واقع ولابد.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن إثبات الإرث، بالنسب والسبب: بالنسب لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وبالسبب لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فإن هذا سببه، فعل الإنسان، كالزوجية فإنها سبب وليست بنسب، والإرث بالعتق، سبب وليس بنسب.

٣- **من فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الأقرب مقدم على الأبعد في باب الميراث، أخذناها من قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ وذكرنا في الشرح ما يتبين به هذا الأمر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال الشريعة الإسلامية بإيجاب الوفاء بالعهود والعقود؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: وقوع النسخ في الشريعة؛ لأن هذه الآية منسوخة، إما مطلقًا وإما نسخًا مقيدًا، وقد اختلف علماء الملة في النسخ، فأكثر الأمة على أن النسخ ثابت في الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ ولقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ الآن كان في الأول حرام، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟...﴾ إلى آخره، ولقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ وهذا صريح في النسخ، ولقول النبي ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا»[1] وقال بعض العلماء، «أبو مسلم الأصبهاني»: لا نسخ في الشريعة، وحمل النسخ على التخصيص، وقال: إن مقتضى الحكم الأول استمراره إلى يوم القيامة، فإذا ألغي فهذا تخصيص بالزمن، أي أنه صار بعد أن كان شاملًا للزمن كله، صار خاصًّا بالزمن الذي قبل النسخ.

ولكن هذا تكلف، وما الذي يجعلنا نفر من كلمة نسخ، وهي موجودة بلفظها في القرآن، وموجودة بمعناها في القرآن، وموجودة بمعناها في السنة أيضًا، ما الذي يجعلنا نفر.

وأنكر اليهود النسخ، فقالوا: لا يمكن أن الله ينسخ حكمًا بحكم؛ لأنه إن كانت المصلحة في الحكم الثاني فلماذا كان الحكم الأول؟ وإن كانت المصلحة في الحكم الأول فلماذا كان الحكم الثاني؟ وإن كان الأول قد خفي على الله، فهذا يستلزم وصف الله بالجهل، فالأول يستلزم وصف الله بالسفه والعياذ بالله؛ لأنه فعل خلاف الحكمة، والثاني يستلزم وصف الله بالجهل، فيقال له: المصلحة تختلف باختلاف الزمان والمكان والأمة، وإن كان كذلك فالله عز وجل يثبت هذا الحكم مادام فيه مصلحة للأمة، وينسخه إذا كان ليس بمصلحة، وهذا غاية الحكمة، وأنتم يا بني إسرائيل كان حِلًّا لكم اللحم، وبظلمكم حرم الله عليكم طيبات أحلت لكم، حرمها عليكم بعد أن كانت حلالًا، ثم إن شريعتكم ناسخة للشريعة التي سبقها، وإن قلتم لا نسخ أبطلتم شريعتكم، لأنها تنسخ ما قبلها، إذنْ في الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فيها إثبات النسخ.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الوفاء بالعهد، لقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

فإذا قال قائل: كيف نؤتيهم نصيبهم والمعاهدة باطلة، أي: المعاهدة هذه.

قلنا: لم تبطل إلا بعد النسخ، بعد نزول الآية، أما ما ثبت قبل ذلك، فالواجب أن يؤتَوا نصيبهم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات شهادة الله على كل شيء، وأن كل شيء مهما بعد ومهما بطن فإنه مشهود لله، ويترتب على ذلك التحذير من مخالفة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا علم أن الله شاهد عليه أمسك عن كل ما يبغض الله، وقام بما يحب الله، وهذه الأسماء التي تختم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٧)، والنسائي (٢٠٣٢).

بها الآيات، ينبغي للإنسان ألا يكون جامدًا فيفهم منها المعنى فقط، بل ينبغي أن يتربى عليها ويكون مسلكه على حسب ما تقتضيه هذه الأسماء، فمثلًا: إذا علمت أن الله علام الغيوب، ليس معناه أن تدرك بأن الله يعلم بكل شيء فقط، هذا الإدراك يستوي فيه الكافر والمسلم، حتى الكفار الذين يعرفون اللغة العربية يعرفون مثل هذا اللفظ، لكن المهم هو التربي بمقتضى هذا الوصف، وهو علم الغيب، وهذه مسألة مهمة لا يفطن لها كثير من الناس، فيقال مثلًا من فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا آمن بأن الله على كل شيء شهيد، ماذا يصنع؟ يحذر ويخاف ويتقي الله عز وجل، فإن قيل: وهل الشهيد من أسماء الله، أو من أوصافه؟ نقول: من أسماء الله.

قال الله تعالى:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤،٣٥]

التفسير

الرجال: جمع رجل وهو جمع تكسير، والرجل هو: البالغ من بني آدم من الذكور، والذكر يطلق على البالغ وغير البالغ، ولهذا جاء في الحديث: «وَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[1] مع أنه لو قال: فلأولى ذكر اكتفي به، ولو قال: فلأولى رجل لخرج بذلك الصغير فلا يكون عاصبًا، لكن جاءت كلمة ذكر ليبين أن الكبر ليس بشرط في استحقاق التعصيب، بل ولو كان دون الرجولة.

فإذا قال قائل: إذن ذكر الرجل زيادة لا معنى لها.

فالجواب: بل لها معنى وهو الإشارة إلى أنه أي: (الذكر) كان أولى بالتعصيب؛ لأنه رجل يترتب عليه مسئوليات، لا تترتب على المرأة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

قوله: ﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ قوامون: جمع قوام، وقوام صيغة مبالغة، من قائم، فلو قيل في غير القرآن: الرجال قائمون على النساء، لكان المعنى دون كلمة قوامون؛ لأن قوامون صيغة مبالغة تقتضي القوامة على النساء في كل حال.

وقوله ﴿عَلَى النِّسَاءِ﴾ جمع: نسوة، وإن شئت قل جمع امرأة لكنه من غير اللفظ؛ لأنه أحيانًا يجمع المعنى على غير لفظ المفرد، فإبل جمع بعير. ويقول: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الباء هنا للسببية، و(ما) يجوز أن تكون مصدرية ويجوز أن تكون موصولة، فإن جعلتها موصولة صار التقدير: بالذي فضل الله به بعضهم على بعض، وحينئذ نحتاج إلى عائد يعود على الموصول، فيكون العائد محذوفًا تقديره: بما فضل الله به بعضهم على بعض، وحذف العائد مشهور في اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: منه. يقول: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فَضَّلَ: زاد، فالفضل هو: الزيادة، أي: زاد بعضهم على بعض، والمزيد الرجال، والمزيد عليه: النساء، إذنْ بعضهم هنا تعود على الرجال، ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ تعود على النساء.

فإن قيل: فما الذي فضل الله به الرجال على النساء؟

نقول: بالقوى الظاهرة والباطنة؛ فالقوة الظاهرة قوة البدن، ولهذا تجد الرجل، بل تجد الذكر حتى من غير بني آدم تجده أقوى من الأنثى وأكبر عضلاتٍ وأشد شكيمةً، هذه من القوى الظاهرة، أمَّا القوى الباطنة: التحمل والصبر والشجاعة والعزم والذكاء والعقل، وما إلى ذلك، المهم أن فضل الرجال على النساء بالقوى الظاهرة والقوى الباطنة.

السبب الثاني: قال: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، وهذا تفضيل خارجي، ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ أي: الرجال، ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: على النساء، فالرجل هو المسئول عن الإنفاق على المرأة، والمرأة ضعيفة، لا تستطيع أن تكتسب، فالرجل هو المسئول.

وقوله ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من أموال الرجال، فبسبب التفضيل الجسدي وهو القوى الظاهرة والقوى الباطنة، وبسبب التفضيل الخارجي وهو الإنفاق بالمال، صار الرجل أفضل من المرأة. ﴿قَوَّامُونَ﴾ والمراد بالقيام هنا: ليس المراد القيام الذي هو الوقوف على رجليه، ولكنه قيام الولاية، فمعنى قوامون: أي بالولاية والسلطة، فيحتمل أن تكون نسبة ويحتمل أن تكون مبالغة، ويحتمل المعنيين جميعًا أنها نسبة ومبالغة، فالرجل قوَّام على المرأة، فـ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ولذلك تكون لهم الولاية، والقضاء، والإمارة، وغير ذلك مما فيه السلطة دون النساء. وهذا التفضيل باعتبار الجنس، فلا يرد علينا أنه يوجد من النساء ما هو أفضل من كثير من الرجال؛ لأننا إذا قلنا بتفضيل الجنس صارت العبرة بالعموم لا بالخصوص، كما نقول مثلًا: التابعون أفضل من تابعي التابعين، لكنَّ هذا لا يعني أن كل واحد من التابعين أفضل من كل واحد من تابعي التابعين، إذ يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من كثير من التابعين، فقوله:

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: من حيث الجملة، لا باعتبار كل فرد، ولهذا لا يورد علينا مورد فيقول: نجد رجلًا أبله لا يعلم تقابله امرأة ذكيةً فاهمةً تعلم، نقول هذا لا عبرة به؛ لأن العبرة بالجنس.

وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ هذه عطف على قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ﴾ أي: وبالذي أنفقوا من أموالهم؛ لأن المنفق على النساء هم الرجال، فالرجال هم الذين ينفقون على النساء؛ لأنهم هم الذين يكتسبون، فالزوج ينفق على زوجته ولو كانت غنية، والأب ينفق على أهله، وهو مصدر الإنفاق، فمن أجل ذلك صارت له القوامة، لتفضيله خلقة وخلقًا وعقلًا وفكرًا ولفضلهم على النساء بالإنفاق، فهم قوامون بتفضيل الله إياهم، وبفضلهم هم على النساء، وبما أنفقوا من أموالهم.

ثم قسم الله عز وجل النساء إلى قسمين: فقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: مبتدأ، وقانتات: خبره، حافظات: خبر ثانٍ، الصالحات: يعني الموصوفات بالصلاح، وهنا يمكن أن نقول: إن الصالحات صفة لموصوف محذوف، والتقدير فالنساء الصالحات، ومن هُنَّ الصالحات؟ الصالحات ضد الفاسدات، وهي التي قامت بحق الله وحق زوجها، هذه هي الصالحة، وقوله: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مديمات للصلاح؛ لأن القنوت يراد به: الدوام، وهو المراد هنا، ويحتمل أن المراد بالقانتات هنا المطيعات لله، ويكون من باب التوكيد، إذنْ ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله، وبطاعتهن لله يكنَّ طائعات لأزواجهن، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ يعني: يحفظن ما غاب عن الناس، وهو السر الذي يكون في بيت الزوج، ويكون بينها وبين زوجها أيضًا فتجد المرأة الصالحة لا يمكن أن يطلع على ما في بيتها أحد، بل إذا سئلت عن ما في بيتها قالت: نحن بخير، وانظر مثلًا إلى إحدى امرأتي إسماعيل عليه السلام، إحداهما لما سألها إبراهيم عليه السلام عن حاله، شكت وتضجرت، فقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: يغير عتبة بابه، والثانية أثنت خيرًا، فقال: إذا جاء الزوج فقولي: يمسك عتبة بابه؛ فمن النساء من تكون شكَّاية فاضحة، تحدث الناس بكل ما يكون في بيتها، بل بعضهن والعياذ بالله يتجرأن إلى أكثر من ذلك، تحدث بما يكون بينها وبين زوجها حتى في أمور السر التي لا يطلع عليها إلا الزوج، هذه ليست من الصالحات في شيء، حيث فقدت من الصلاح بمقدار ما فقدت من الحفظ. وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: بحفظ الله عز وجل، أو بالذي حفظ الله أي: أمر بحفظه، وعدم إفشائه، فهن حافظات للغيب لا يظهرن بحفظ الله لهن، ومنَّته عليهن بالحفظ أو بالذي حفظ الله: أي أمر بحفظه، والمعنيان متلازمان.

أمَّا القسم الثاني على خلاف ذلك، قال: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ اللاتي: يعني والنساء اللاتي تخافون نشوزهن، ولكن كيف نخاف

نشوزها؟ نخاف نشوزها بظهور أماراتها، والنشوز هو: الارتفاع، ومنه الأرض النشزة: أي المرتفعة، والمراد بالنشوز: تَرفُّعُ المرأة عن زوجها بحيث لا تبذل ما يجب عليها من حقوقه، أو تبذله لكن متكرِّهة متمللة، لا يأنس بها ولا يركن إليها، فالنشوز معناه الترفع عما يجب لها نحو زوجها، وذلك بألَّا تطيعه فيما تجب عليها طاعته، أو تطيعه لكن متبرمة متكرهة متمللة، لا تأتيه على ما ينبغي، هذا هو النشوز، فإذا نشزت المرأة سقطت الحقوق التي لها، من نفقة وغيرها، لأن النفقة معاوضة، إذا لم يوجد عوضها سقطت، فالنشوز داء، فهل له دواء؟ نقول: نعم، ذكر الله له دواءً على ثلاث مراحل، الأولى قال: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ الثانية: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الثالثة: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ الرابعة: لم يذكرها الله؛ لأنها مكروهة عنده، وهي: الطلاق وهذه الأخيرة مع الأسف هي أول مرحلة عند كثير من الناس، فكثير من الناس إذا خالفته زوجته في أدنى شيء طلقها، لكن المراحل الثلاث التي ذكرها الله هي المراحل الشرعية.

أولًا: الموعظة تعظها بأن تذكرها بما يلين به قلبها، بأن تذكرها بحق الزوج، وما لها من ثواب إذا قامت به، وما عليها من عقاب إذا خالفت، وتقول لها مثلًا: أنت إذا كنت مطيعة قائمة بما يجب عليك فإني سوف أقابلك بالمثل أو بأحسن، فتعظها خير الدنيا وخير الآخرة، وتخوفها من الله عز وجل، فإن امتثلت فهذا المطلوب، وإلا قال: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الهجر بمعنى: الترك، ومنه الهجرة، وهي: ترك الإنسان وطن الكفر إلى وطن الإسلام، اتركوهن في المضاجع، يعني: لا تضاجعوهن، فتكون أنت في فراش وهي في فراش، أو أنت في حجرة وهي في حجرة، فإن استقامت فهذا هو المطلوب، وإلا ننتقل إلى المرحلة الثالثة: وهي قوله: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وهذا فائدة القوامة، التي قال: ﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ اضربوهن، ولكن المقصود من الضرب هو التأديب، فتضرب ضربًا يحصل به تهديدها، ولا يحصل به تجريحها أي: جرحها، فتضرب ضربًا غير مبرح، كما قال النبي ﷺ، في حجة الوداع: «**وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فرشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيرَ مُبَرِّحٍ**»[1] فتضرب لكن ضربًا غير مبرح، ويجب أن يتقى في ضربها ما أمر باتقائه كالوجه مثلًا، فإنها لا تضرب به، وسيأتي إن شاء الله في بيان الفوائد.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ يعني: قمن بما يجب عليهن من الطاعة، فلا تبغوا عليهن سبيلًا، تبغوا بمعنى: تطلبوا عليهن سبيلًا، أي: واتركوا الماضي، فإن قوله: ﴿فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ ليس للمستقبل فقط، بل حتى للماضي اتركوه تناسوه، لا تأتوا له ببحث أو إثارة؛ لأن تذكير الماضي يؤدي إلى استمرار النشوز والمعصية، ﴿فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ كأن شيئًا لم يكن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ الجملة هنا استئنافية بالتحذير من التعالي والكبرياء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥).

على النساء، لأن الرجل إذا شعر بأنه قائم على المرأة وذو سلطة عليها إلى حد أن الشرع مكنه من ضربها في المرحلة الثالثة ربما يتعالى عليها ويتكبر، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي: فاعلموا أن علوكم على النساء فوقهم هناك ما هو أعلى منه، وهو علوُّ الله عز وجل، وكبرياء الله عز وجل، فلا تتعالوا عليهن ولا تتكبروا عليهن؛ لأن فوقكم من هو أعلى وأكبر، وهو الله عز وجل.

ثم قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وهذه المرحلة الرابعة، المرحلة الرابعة بعد المراحل الثلاث وهي: الموعظة، الهجر في المضاجع، الضرب، فإن خفنا الشقاق بمعنى: أنها لم تثمر هذه المراحل الثلاث، فحينئذٍ يوجه الخطاب للأمة، فابعثوا حكمًا، ولم يقل: (فليبعثا حكمًا)، فهنا انعزل الزوجان، وصار المجال مجال غيرهما، مجال الحاكم الشرعي الذي يمثل الأمة، وعلى هذا فيكون ابعثوا خطابًا للأمة، لكن ليس المعنى أن كل واحد في السوق وفي المسجد وفي الدكان يبعث، بل ينوب عن الأمة الحاكم الشرعي، فيكون الخطاب هنا للأمة مرادًا به من يمثلها وهو الحاكم الشرعي.

قوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ أي: أرسلوا، فالبعث بمعنى: الإرسال.

وقوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، الحَكَم: ذو الحكم النافذ، يعني المُحَكَّم، فهو أخص من الحاكم. ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ والحَكَم لابد أن يكون ذا علم، وأن يكون ذا بصيرة في الواقع، ومعلوم أنه لابد أن يكون بالغًا عاقلًا رشيدًا عالمًا بالحكم الشرعي، وعالمًا بواقع الزوجين، وما هي المشاكل، وما الذي أثار هذه المشاكل؛ لأن الحَكَمَ لابد فيه من هذه الأوصاف، أما يأتي إنسان عامي أو غشيم، ثم يريد أن يكون حكمًا بين الزوجين، هذا لا يصلح، بل لابد أن يكون هذا الحكم عالمًا بالشرع عالمًا بأحوال الزوجين ذو تعقل وتأنٍ وبصيرة، فإذا اجتمع الحكمان، فهنا تأتي النية ويكون لها تدخل، فإما أن يريد الحكم من أهل الزوج أن ينتصر الزوج، والحكم من أهل الزوجة أن تنتصر الزوجة، وفي هذه الحال لا يوفقان؛ لأن النية غير سليمة، وإما أن يكون المراد من الحكم من أهل الزوج والحكم من أهل المرأة الإصلاح بينهما، فحينئذٍ يقول الله عز وجل وهو القادر الصادق في قوله يقول: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ يعود إلى الحكمين؛ لأنهما هما اللذان يريدان أن يحكما، ونية الإصلاح تكون منهما لا من الزوجين؛ لأن الزوجين بينهما شقاق، كل منهما يريد أن ينتصر لنفسه، فالغالب أنهما لا يريدان الإصلاح، لكن الذي يريد الإصلاح هما الحكمان، وقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير في بينهما هل يعود على الزوجين اللذين خفنا الشقاق بينهما؟ أو يعود على الحكمين اللذين يدلي كل واحد منهما أنه حجة؟ فيه احتمالان: الاحتمال الأول: أن يعود إلى

الزوجين؛ لأن القضية في شأنهما، قضية الشقاق، الحكمان ينظران في شأن الزوجين، فيكون الضمير عائدًا إلى الزوجين، ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الحكمين؛ لأن الحكمين سيأتي كل واحد منهما بما يقابل الآخر، فيكون المراد ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ أي: تلتئم أقوالهما ولا يحصل بينهما نزاع، فلا ينتصر الحكم من أهل الزوج للزوج ولا الحكم من أهل الزوجة للزوجة.

فإذا قيل: لماذا لا نقول بأنه عام لهذا وهذا؟

فالجواب: أننا نقول بهذا، يوفق الله بينهما بين الحكمين فإذا اتفقا فإن الله تعالى أيضًا بمنه وكرمه يوفق بين الزوجين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أي: عالمٌ خبير، والخبرة هي: العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر والبواطن هو العلم، وعلى هذا فيكون ذكر الخبير بعد العليم من باب ذكر الخاص بعد العام، والجملة استئنافية لبيان لطف الله عز وجل فيما يجري من الحكمين؛ لأنه عز وجل عالم خبير لما يحدث بينهما من الحكم بين الزوجين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

١- فضل الرجال على النساء، وجهه أن الله جعل الرجال قوامين على النساء.

٢- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن أحكام الله عز وجل الكونية والشرعية معللة بعلل، يلزم من كونها معللة بعلل: إثبات الحكمة وأن الله تعالى حكيم.

٣- **ومن فوائدها:** التفضيل بين البشر؛ لقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فإن قال قائل: هل للمفضل عليه بأن يحتج على الله؟ فيقول يا رب لما فضلت هذا علي؟

نقول: ليس له هذا؛ لأنه يقال للمفضل عليه هل منعك الله حقك، إن كان الأمر كذلك فلك الحجة، وإلا ففضل الله يؤتيه من يشاء ولهذا لما ضرب الرسول ﷺ، مثلًا لليهود والنصارى وهذه الأمة برجل استأجر أجراء من الصباح إلى الظهر ومن الظهر إلى العصر، فأعطى كل واحد قيراطًا قيراطًا، ومن العصر إلى الغروب أعطاهم قيراطين قيراطين، فقال الأولون: لماذا نعطى على دينار ونحن أكثر عملًا، فقال هل نقصتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء. إذن لا حجة للمفضل عليه على الله عز وجل بالتفضيل، ولكن ماذا يصنع المفضل عليه، أشار الله تعالى إليه في آية سبقت قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن للمنفِق على المنفَق عليه فضلًا، تؤخذ من قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ

أَمْوَالِهِمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: كراهة سؤال الناس، كون المنفِق له فضل على المنفَق عليه يكون سؤالك إياه ذلًّا؛ لأنك إذا سألته فقد أثبت له فضلًا عليك، وإذا سألته وأعطاك، أثبت له فضلًا عليك وهذا ذل، ولهذا بايع النبي ﷺ الصحابة على ألَّا يسألوا الناس شيئًا مطلقًا حتى كان سوط أحدهم يسقط من على ظهر بعيره فينزل فيأخذه ويركب ولا يقول للناس أعطوني إياه؛ لأن سؤالك الناس ذل.

فإن قال قائل: جعل الله للرجال فضل على النساء بإنفاق المال، إذنْ الذي ينفق عليك له فضل عليك.

نقول: نعم، إذا سألت صار له فضل أم لا؟ صار له فضل، إذنْ أذللت نفسك أمامه، حيث جعلت له الفضل عليك.

٦- ومنها: أنه لا ولاية للنساء على الرجال، لا في قضاء ولا في إمارة، ولا أي شيء؛ لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فمن عكس فقد خالف سنة الله عز وجل، فمن جعل للمرأة الولاية فقد خالف سنة الله.

فإن قال قائل: أليست الأم تكون ولية على أولادها وعلى أموالهم؟

قلنا: إن هذه ولاية خاصة، وولاية طارئة بخلاف الولاية العامة، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[1].

فإن قال قائل: نجد بعض النساء تكون رئيسة للوزراء، أو رئيسة للجمهورية، تكون ملكة.

قلنا: ولكن انظر إلى حالهم لو لم تقم عليهم هذه المرأة لكانوا أصلح حالًا بلا شك، ولكانوا أفلح وأنجح، ولكن تأخروا بمقدار ما تولت عليهم هذه المرأة، وانظر مثلًا إلى: بريطانيا كانت بريطانيا أكبر دول المستعمرين استعمارًا، حتى قيل: إنها لا تغيب الشمس عن مستعمراتها، والآن تقلصت حتى صارت في المرتبة الثالثة، كل ذلك؛ لأنها تستولي عليها النساء.

٧- ومن فوائدها أيضًا: قوله ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، والمال كما هو معروف، كل ما يتمول من أعيان ومنافع وغيرها، فيؤخذ منه أن هؤلاء لا ينفقون إلا مما يتيقنوا أنه مالهم، وأنهم لا يعتدون على أموال أحد.

٨- ومن فوائدها أيضًا: أن النساء ينقسمن إلى قسمين: صالحة مطيعة لزوجها، وناشزة.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على حفظ الغيب، أي: على ما كان سرًّا بينك وبين أخيك، من أين تؤخذ؟ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن للزوج السلطة على زوجته، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التدرج في التأديب، فعظوهن واهجروهن واضربوهن.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ حيث إنه ربما لا يفيد الوعظ فينتقل إلى الهجر؛ لأنه قد يكون أكثر نتيجة.

١٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه إذا أمكن التأديب بالخطاب الديني الشرعي فإنه لا يرجع إلى التأديب بالعقوبة أو بالفعل المحسوس، حيث بدأ الله عز وجل بالموعظة التي هي تليين القلب بالشرع، فإذا لم يمكن فبالعقوبة.

١٤- **ومن فوائدها أيضًا:** الإشارة إلى أن فراش الزوج والزوجة واحد، لقوله: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ فدل ذلك على أن هجر الإنسان لفراش زوجته، لا يكون إلا عند النشوز.

١٥- **ومن فوائدها أيضًا:** تحريم نشوز المرأة على زوجها، حيث قوبل هذا النشوز بالموعظة ثم الهجر ثم الضرب.

١٦- **ومن فوائدها أيضًا:** الإشارة إلى أنه لا يجوز الهجر بالكلام؛ لقوله: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾.

لكنه يجوز في خلال ثلاثة أيام فقط، لقول النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بالكلام»[1].

١٧- **ومن فوائدها أيضًا:** بطلان قول بعض علماء التربية المعاصرين الذين يقولون: إنه لا تحصل التربية بالضرب، تؤخذ من قوله: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾

فإن قيل: وهل في السنة شاهد على ذلك أيضًا؟

نقول: نعم، هو قوله ﷺ: «اضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ»[2] وبهذا يبطل قول علماء التربية الذين قالوا: إن الضرب لا يفيد وإنما يقسي القلب.

١٨- **ومن فوائدها أيضًا:** المكافأة بالمثل؛ لقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ أنه عند الطاعة لا ينبغي للإنسان أن يبغي عليها سبيلًا.

١٩- **ومن فوائدها أيضًا:** التغاضي عما مضى، من قوله: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ يشمل الماضي والمستقبل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

(٢) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٤٠٧)، وأبو داود (٤٩٤)، والدارمي (١٤٣١)، وانظر «صحيح سنن أبي داود».

٢٠- **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أن الذي له العلو المطلق هو الله فلا تتعالَ على غيرك، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ورأى النبي ﷺ رجلًا يضرب غلامه فقال له عليه الصلاة والسلام: «يَا فُلَانٌ يَا فُلَانٌ: اللهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا العَبْدِ»، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فأعتق العبد،(1) ففي هذا إشارة إلى كل إنسان يتعالى في نفسه أن يتذكر علو الله عز وجل.

٢١- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين لله عز وجل، وهما العلي والكبير.

هل علو الله معنوي أو حسي؟ معنوي وحسي يشمل علو الذات وعلو الصفات: علو الذات وعلو الصفات يشمل القدر والقهر.

فإن قيل: ما هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة ومذهب من خالفهم؟

نقول: مذهب أهل السنة والجماعة يثبتون لله المعنيين علو الذات وعلو الصفات أمَّا من خالفهم فيقولون: إنه في كل مكان هذا واحد، وطائفة أخرى تقول: أنه ليس في مكان حتى الذين قالوا: إنه بذاته في كل مكان ينكرون علو الذات، يعني: إذنْ طائفتان متطرفتان، طائفة أثبتت أن الله في كل مكان، وطائفة نفت أن يكون الله في مكان، طائفة قالت: نقول إن الله لا فوق العالم ولا تحته ولا داخله ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا محايد، ولا نصفه بأي شيء من هذا، وهؤلاء في الحقيقة كما قيل لابن الفورك قال: بين لي الفرق بين إلهك وبين العدم؟ وهذا صحيح، هذا هو العدم، والذين قالوا: إن الله بذاته في كل مكان أيضًا لم يقدروا الله حق قدره؛ لأنهم جعلوه في أماكن القذر، وأماكن الشر، وأماكن اللغو، وفي كل مكان.

أمَّا نحن فنؤمن بأن الله تعالى عالٍ بذاته فوق جميع الخلق، وأن كل الخلق بالنسبة إليه ليس إلا كحبة خردل في كف أحدنا، وليست بشيء بالنسبة لله عز وجل.

المراد بالكبير: الكبرياء؟ أو ما هو أعم؟ يعني الكبرياء الذي هو الكبر المعنوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ وكذلك أن كل شيء بالنسبة إلى ذاته ليس بشيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب عناية ولاة الأمور بالمجتمع، من قوله: ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ الخطاب هنا قلنا: لولاة الأمور.

٢٣- **ومن فوائدها:** أن المبعوثين حكمان وليسا وكيلين، كما قاله بعض العلماء، من قوله ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا﴾ والحكم مستقل أم كيل؟ مستقل.

(1) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٥٩)، والترمذي (١٩٤٨)، وأبو داود (٥١٥٩).

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لابد أن يكون عند الحكمين علم بالشرع؛ لأن الحكم لا يمكن أن يحكم إلا بعد العلم، ولابد أن يكون لديهما أمانة وثقة دينية؛ لأن غير الثقة لا يؤمَنُ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ والحاكم ملزِم وفاصِل، فهو مخبر عن حكم الله، وملزم بما يحكم به، وفاصل بين الخصمين، فلابد أن يكون عدلًا في دينه.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الحاكم عالمًا بأحوال من يحكم فيهم، لقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾، ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ لأن الذي من أهله وأهلها أقرب إلى العلم بحالها من الرجل الأجنبي، وعلى هذا فلا ينبغي أن يولي قاضيًا على قوم لا يعرف طبائعهم، ولا يعرف لسانهم وأحوالهم فإن هذا يفوت به شيء كثير من القضاء.

٥- **من فوائد الآية الكريمة**: جواز حكم القريب لقريبه، أما حكمه عليه فلا إشكال فيه لانتفاء التهمة، وأما حكمه له فقد يكون فيه تهمة، إذنْ فما هو الشيء الذي يمكن أن تكون فيه التهمة التي تمنع من نفوذ الحكم؟ قال بعض العلماء: إن الإنسان لا يحكم لأصله ولا لفرعه ولا لزوجه؛ لأنه متهم لقوة الصلة، ففرعه بعض منه؛ لقول الرسول ﷺ: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»[1] وأصله هو بعض منه، وعلى هذا فلا يحكم لأصله ولا لفرعه، والقول الصحيح أنه يحكم لأصله وفرعه، إذا قويت الثقة ونتأكد هنا في الثقة أكثر مما نتأكد من الأجنبي أو من القريب البعيد.

٦- **من فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى حسن النية في الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وأنه يجب على الإنسان المُحكَّم أن يكون رائده الإصلاح لا غير، لا إرضاء فلان ولا فلان.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن النية الطيبة سبب لصلاح العمل، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ وعلى هذا فنأخذ فائدتين معاكستين، تحريم سوء النية في الحكم، وأن سوء النية يفضي إلى فساد الأمر؛ لأن ما حصل بشيء فات بفواته.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأمور بيد الله عز وجل حتى الأمور الجزئية؛ لقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ فيكون في هذا رد على المعتزلة والقدرية الذين يرون العباد يخلقون أفعالهم، ولا علاقة لله بها.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء من جنس العمل، وجهه أنهما لما أرادا الإصلاح أثابهما الله عز وجل بالتوفيق؛ لقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات صفتي العلم والخبرة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ والخبرة أخص من العلم؛ لأنها العلم ببواطن الأمور، وهل يستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أنه الآن ليس كذلك؟

الجواب: لا، كان ولا زال؛ لأن كان هنا المراد: بها تحقيق الصفة، فهي مسلوبة الزمان.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن لهذين الحكمين التفريق والتوفيق بين الزوجين الذين خفنا الشقاق بينهما، سواء بعوض، أو بدون عوض.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن حكمهما ملزم؛ لأن الله سماهما حكمين، والحكم قوله لازم وفصله فصل.

قال الله تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]

التفسير

قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ العبادة أي: التذلل والتضامن والخضوع والتواضع وما أشبه ذلك، وكلها تدور على الذل، ومنه قولهم طريق معبد يعني: مذللًا للسالكين، مهيئًا لهم، والمراد بعبادة الله سبحانه وتعالى: القيام بأمره. وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا: ناهية، والشرك: أن يساوي غير الله بالله، فيجعل ندًّا له، وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم، أي: لا تشركوا بالله نبيًّا ولا رسولًا ولا ملكًا ولا غيره، ثم إن النهي عن الشرك يشمل أي نوع من أنواع الشرك، وسيأتي إن شاء الله في استنباط الفوائد ما فيه الكفاية.

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ معنى لا تشركوا به: لا تساووا غيره به فيما هو من حقوقه.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ عطف حق الوالدين على حق الله عز وجل؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، وحق الرسول ﷺ، أعظم من حق الوالدين لكنه داخل في حق الله؛ لأن العبادة لا تتم إلا بإخلاص ومتابعة، والمتابعة هي: أداء حق الرسول ﷺ، والوالدين: تثنية

والد، وهما الأم والأب، ويدخل في ذلك الجد والجدة، ولكن حق الأقرب فالأقرب أولى من الأبعد.

وقوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ مصدر أحسن يحسن، وهل الجار والمجرور متعلق به؟ أو هو متعلق بمحذوف دل عليه المصدر؟ فعلى الأول يكون تقدير الكلام: وإحسانًا بالوالدين، ويكون المصدر هنا بمعنى الفعل، وعلى الثاني يكون التقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا أقرب أن يكون الجار والمجرور متعلقًا بمحذوف دل عليه المصدر الموجود؛ وذلك لأن عمل المصدر ضعيف، فلا يسبقه معموله، فالمصدر لا يعمل فيما قبله، وعلى هذا فنقول: إحسانًا مفعول مطلق عامله محذوف والتقدير أحسنوا بالوالدين إحسانًا، ومعاملة الوالدين لا تخلو من إحدى حالات ثلاثة: إساءة، أو إحسان، أو لا إساءة ولا إحسان، والمأمور به هو الإحسان، وضده الإساءة، أو لا إساءة ولا إحسان، فلابد من إحسان للوالدين.

وقوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ذي بمعنى: صاحب، والقربى بمعنى: القرابة، والدليل على أن القربى بمعنى القرابة قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: المودة في القرابة، هذا هو الصحيح، أي: بسبب القرابة، أي: لا أسألكم عليه أجرًا ولكن ودوني بسبب قرابتي منكم؛ لأنني ابنكم، فهنا (لذي القربى): أي لصاحب القرابة، فنص على الوالدين أولًا وثنى بالقرابة؛ وذلك لأنه لا قرابة لك إلا بواسطة الوالدين، فمن الذي وصلك بعمك أو بخالك أو بأخيك أو بأختك إلا الوالدان؟ فلهذا جعلت منزلة القرابة بعد منزلة الوالدين، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم وهو: من مات أبوه قبل أن يبلغ، أي: قبل أن يبلغ الولد، وإنما أمر بالإحسان إلى اليتامى؛ لانكسار قلوبهم بفقد مربيهم وهو الأب، فأما من ماتت أمه دون أبيه فليس بيتيم، والمساكين: جمع مسكين وهو المعدم من المال ويدخل فيه هنا الفقير؛ لأن الفقير والمسكين كلمتان إن ذكرتا جميعًا اختلف المعنى فيهما وإن انفصلت إحداهما عن الأخرى صارت كل واحدة بمعنى الأخرى، وسمي المعدم مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، فالإنسان الفقير ذليل، ولهذا لا يطمع أن يصل إلى المرتبة التي وصل إليها الأغنياء إلا إذا كان فيه وصف يصعد به إلى درجة الأغنياء، فمثلًا الإنسان الفقير يعرف نفسه أنه منحط الرتبة عن الأغنياء، لكن لو فرض أن هذا الإنسان الفقير شجاع مقدام، صار هذا الوصف الذي فيه يرقيه إلى أن يكون في مرتبة الأغنياء أو أكثر، فلو فرضنا أن هذا الفقير ذو علم صار في منزلة ترقّيه إلى درجة الأغنياء أو أكثر، لكن مجرد كونه آدميًا وهو فقير لا يطمع في أن ينال مرتبة الأغنياء، ولهذا وصى به الله عز وجل فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجار هو من كان قريبًا منك في منزلك، ومن المعلوم أنه يختلف قربه بحسب المسافة، ولكن القريب الجار، إما أن يكون قريبًا منك في النسب أو بعيدًا، وأشار الله تعالى إلى الصنفين، فقال ذي القربى أي: ذا القرابة، والجار الجنب: أي البعيد؛ لأن الجيم والنون والباء كلها

مادة تدل على البعد، فالمعنى: الجار البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: المعنى الجار ذي القربى أي: القريب منك في السكن، والجار الجنب البعيد في السكن، ولكن المعنى الأول أصح، والمعنى الثاني يغني عنه قوله: والجار؛ لأن الجار هو الذي قرب منك في المنزل، يعلم منه أنه كلما قرب منك في المنزل كان أقرب جوارًا. وقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ الصاحب بالجنب: يعني الذي يصاحبك في جنبك، وقد اختلف المفسرون فيه، فقيل: إنه الزوجة، وقيل: إنه صاحبك في السفر، واللفظ يحتمل المعنيين، فيحمل عليهما، فالإنسان مأمور أن يحسن بالصاحب بالجنب أي: بالزوجة، أو بالصاحب أي: في السفر؛ لأن كلًّا منهما له حق للصحبة.

وقوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ابن السبيل أي: المسافر، والسبيل: الطريق، وسمي المسافر ابن سبيل لملازمته له أي: في الطريق، كما يقال ابن الماء، لطير الماء الملازم للماء، فهناك طيور الآن دائمًا تلازم الماء، فدائمًا تحوم على البحار تلتقط ما يحصل من سمك وغيرها، فيسمى هذا الطير ابن الماء، ويسمى المسافر الذي جد به السير يسمى ابن السبيل؛ لأنه ملازم للطريق.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: أحسنوا لما ملكت أيمانكم، وكلمة ما: اسم موصول، أي: والذي ملكت أيمانكم، والاسم الموصول يفيد العموم، فيشمل ما ملكت أيماننا من الإنسان وما ملكت أيماننا من الحيوان، وكلاهما مأمور بالإحسان إليه، والإحسان إلى الإنسان أوكد من الإحسان إلى البهائم، ولهذا نجد أننا نقتل البهائم من أجل مصلحتنا، فنذبح هذه الشاة لنتفكه بها لحمًا، وعلى هذا نقول: وما ملكت الأيمان يشمل الإنسان والحيوان، ولكنه بالإنسان أوكد؛ لأن حق الإنسان أعظم من حق الحيوان.

ثم قال الله عز وجل في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ إن الله لا يحب الذي كان مختالًا فخورًا، كان هنا فعل ماضٍ لكنها مسلوبة الزمنية، والمراد: لا يحب من اتصف بالاختيال والفخر، والمختال في هيئته والفخور بلسانه، فالاختيال يكون بالفعل، والفخر يكون باللسان، فمن كان مختالًا في فعله، فإن الله لا يحبه، ومن كان فخورًا بقوله فإن الله لا يحبه أيضًا، وختم الآية بهذه الجملة؛ لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله وعن هذه الوصايا النافعة، الغالب عليه أن فيه اختيالًا وفيه فخرًا واستنكافًا واستكبارًا، فلهذا ختم الله هذه الآية المشتملة على هذه الوصايا العظيمة بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ هذه الآية كما ترون فيها بيان الحقوق، حق الله وحق غيره من الناس، وغير الناس.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** وجوب عبادة الله؛ لقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والأمر هنا للوجوب بالإجماع، ولا أحد يمكن أن يقول هذا الأمر للاستحباب.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الشرك، لقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

٣- **ومن فوائدها**، أن الشرك صغيره وكبيره خفيه وجليه كله محرم؛ لقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عام وعليه يكون الرياء حرامًا لأنه شرك، ويكون الحلف بغير الله حرامًا لأنه شرك ويكون تسوية الله بغيره حرامًا مثل: (ما لي إلا الله وأنت) وما أشبه ذلك؛ لأنه شرك، والعلماء رحمهم الله كتبوا في هذا الموضوع في الشرك وأنواعه، كتابات كثيرة، من أحسنها كتاب (التوحيد) لشيخ الإسلام «**محمد بن عبد الوهاب**» رحمه الله، فإنه بين أنواعًا كثيرة من الشرك.

٤- **ومن فوائدها**، أن الإثبات المحض لا يدل على التوحيد، والدليل لما أمر الله بالعبادة قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ وذلك أن الإنسان قد يعبد الله، لكن يعبد غيره معه، فنقول: إذا عبد مع الله غيره، فإنه لم يخلص العبادة لله، والمطلوب إخلاص العبادة له.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**، وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولكن التعبير القرآني يقول: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولم يقل: وإلى الوالدين؛ لأن المطلوب مباشرة الإنسان بالإحسان إلى والديه، لا إيصال الإحسان فقط، فلو قال: إلى الوالدين إحسانًا لكان المطلوب إيصال الإحسان فقط، ولكن نقول: المطلوب الإحسان بالوالدين حتى بمباشرة إيصال الإحسان إليهما، فيجب أن تكون محسنًا بذلك.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**، أن أعظم حقوق البشر حق الوالدين؛ لأن الله جعله في المرتبة الثانية بعد حقه، ولا يرد على هذا حق الرسول ﷺ؛ لأن حق الرسول داخل في حق الله، وجهه أن العبادة لا تتم إلا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ وإذا تحققت متابعة الرسول ﷺ، فقد أديت حقه، والرسول لا يسألنا أجرًا إنما يسألنا أن نتعبد لله بما شرع.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**، تحريم الإساءة إلى الوالدين؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، وهل نقل: من فوائدها أيضًا أنه من لم يحسن ولم يسئ فهو مقصر؟ نعم من لم يحسن ولم يسئ فهو مقصر؛ لأن الله أمر بالإحسان، وخلاف الإحسان شيئان: إساءة، وعدم الإساءة والإحسان، وهذا خلاف ما أمر الله به.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**، الأمر بالإحسان إلى القرابة، لقوله: ﴿وَبِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ وفائدة إعادة حرف الجر (بذي القربى) الإشارة إلى أن الإحسان إلى القرابة مستقل بمعنى: أنه لو فرض أن الرجل ليس له والدان، فحق القرابة ثابت، لا نقول: إن حقها مبني على حق الوالدين تابع له؛ لأن الوالدين قد يكونان ميتين، فحق القرابة باقٍ.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**، أن الأقرب فالأقرب أولى بالإحسان، أين يؤخذ من أن الله قدم الوالدين وهما أقرب القرابات، هذا وجه فقياسًا على ذلك أن نقول: من كان أقرب من بقية القرابات فهو أحق. الوجه الثاني: أن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف، والحكم هنا معلق على القرابة، فكل من كان أقرب كان حقه أوكد، فصارت الدلالة على أننا

نقدم الأقرب فالأقرب من وجهين: الوجه الأول قياسي، والوجه الثاني: معنوي، أما القياسي لأن الوالدين أقرب القرابات، والثاني: أن الحكم هنا معلق على وصف، والقاعدة: أن ما علق على وصف فإنه يقوى بقوته وينقص بنقصه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى الأيتام؛ لقوله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ والإحسان إلى الأيتام يكون بالمال ويكون بالقول ويكون بالفعل ويكون بالجاه ويكون بكل شيء.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى المساكين؛ لقوله: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ وهل نقول في المساكين كما قلنا في القربى بأن من كان أشد مسكنة كانت الوصية به أوكد؟ نعم؛ لأنه علق على وصف، وهل اليتامى أيضًا كذلك؟ لا، اليتيم لا يتنوع، اليتيم واحد، يعني: من له أربع عشرة سنة ومن له سنة واحدة هما سواء في اليتم.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى الجار، سواء كان قريبًا أم بعيدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»[1] فعلق الرسول ﷺ الإيمان يعني: كمال الإيمان على إكرام الجار، والإكرام ضد الإهانة.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى الصاحب بالجنب، والزوجات والأصحاب في السفر؛ لقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، وهل يمكن أن نقول ما قلنا فيما سبق بالأوصاف؟ نقول: نعم، لا شك، فالنساء يعني: الزوجات تختلف صحبتهن لأزواجهن، وكذلك المسافرون أصحاب السفر تختلف صحبته معك في السفر، فكل من كان أقرب بهذه الصحبة كان أحق بالإحسان.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى ابن السبيل؛ لأن الغالب أنه يكون محتاجًا، وإذا قدر انتفاء حاجته بغناه فإنه يكون غريبًا في البلاد، والغريب يحتاج إلى عناية، يحتاج من يدله على الطريق، إلى من يدله على ما فيه مصالحه، فهو في حاجة لهذا.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأمر بالإحسان إلى ما ملكت الأيمان؛ لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من آدمي أو حيوان؛ لأن كلهم لأيمانهم.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز التعبير بالبعض عن الكل؛ لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ والمراد: ما ملكتم، لكن هذا شيء معلوم.

فإن قيل: هل نأخذ من هذه الآية الكريمة، تحريم الإساءة إلى من ذكر؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

الجواب: نعم، وجهه أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فإن كان الله تعالى أمر بالإحسان إلى هؤلاء فالإساءة إلى هؤلاء محرمة، ومِنْ أشد ما يكون الإساءة إلى الوالدين، ثم ذوي القربى، ثم اليتامى، ثم المساكين، ثم الجيران، وقد قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(١) يعني: ظلمه وغشمه، فنفي الإيمان عن الشخص الذي لا يأمن جاره بوائقه، فكيف بمن أصابته بوائق جاره؟ يكون أشد، نسأل الله السلامة.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله سبحانه وتعالى بعباده، من وجوه في هذه الآية، أولًا: من جهة القيام بالحق في الوالدين والقرابات، ثانيًا: من جهة جبر النقص الذي يحصل على بعض الناس مثل المساكين واليتامى، وثالثا: أن حسن الجوار سبب للالتحام والالتئام بين الناس وعدم الكراهية والبغضاء، ولهذا يوجد في وقتنا الآن مع الأسف أن كثيرًا من الجيران لا يعرف جاره، ولا يدعوه في المناسبات، ولا يرسل إليه الهدايا، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»(٢) وهذا مع الأسف غير موجود مع أن فيه فائدة اجتماعية عظيمة، فهو من العناية بالخلق.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله أرحم بالإنسان من أولاده، تؤخذ من قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ حيث أمر الولد أن يحسن إلى والده، وهذا يدل على أن الله أرحم بالإنسان من أولاده، كما أن قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ يدل على أن الله أرحم بالإنسان من والديه، وهذا هو الواقع، كانت امرأة قد فقدت صبيها في السبي، فجاءت إلى النبي ﷺ، في المدينة تنظر في السبايا، وقد زاغ عقلها، فلما وجدت صبيها أخذته وضمته إلى صدرها، فقال الرسول ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قالوا: لا يا رسول الله، لا يمكن، قال: «اللهُ بِعِبَادِهِ أَرْحَمُ مِنْ هَذِهِ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا»(٣)، ولا يصيبنا ما يصيبنا مما يخالف الرحمة إلا بأسباب ذنوبنا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات محبة الله، ومذهب السلف وأهل السنة إثبات المحبة لله حقيقة، وأنه جل وعلا يحب، وأن محبته تتعلق بالأعمال وتتعلق بالأشخاص، وتتعلق بالأزمنة، وتتعلق بالأمكنة، فقد سئل الرسول ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟، قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»(٤)

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٧٨١٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٥)، والترمذي (١٨٣٣)، وابن ماجه (٣٣٦٢).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

وهذا تعليق المحبة بالأعمال، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ بالأشخاص المعينين بالوصف، وتكون بالأشخاص المعينين بالشخص، كقول النبي ﷺ: «إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[1] وَالخلَّة أعلى أنواع المحبة، والمحبة تكون متعلقة بالأماكن، فأحب البقاع إلى الله المساجد، وربما تكون متعلقة بالزمن مثل قوله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ»[2] فإن الزمن كان محبوبًا إلى الله فيها لأن الله يحبها، وفي هذا الاستدلال ضعف، لكن على كل حال محبة الله عز وجل تكون مقيدة بما قيده الله به، فهي ثابتة لله حقًّا.

وقد أنكرها المعطلة من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن شابههم، قالوا: لا يمكن لله أن يحب، فالمحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين، يحب الرجل زوجته يحب ابنه يحب صديقه، ولا تناسب بين الخالق والمخلوق، فكيف يحب الله الشخص كيف يحب الرسول، كيف يحب كذا، وفي القرآن، قالوا المراد بالمحبة: إرادة الثواب، أو الثواب نفسه.

ونرد قائلين: إذا قلنا إرادة الثواب، فالإرادة لا تكون إلا على شيء محبوب، يعني: إرادة الثواب لا تكون إلا على شيء محبوب، هل يريد الله أن يثيب أحدًا وهو يكرهه؟ لا يمكن، إذنْ ما دمتم أَثبَتُّم الثواب، يلزمكم أن تثبتوا المحبة، إذ لا يمكن أن تكون إرادة الثواب أو الثواب نفسه إلا على شيء محبوب لله، وأما قولكم: إن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين فقول باطل، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[3] والجبل كومة من الأحجار والأتربة وغيرها أي: جماد، ومع ذلك قال: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، وكذلك أيضًا الحيوان يحبه الإنسان وهو يحب الإنسان، فكون الإنسان يحبه واضح، فكثيرًا ما تحب مثلًا بعيرك على بعير غيرك، أو شاتك على شاة غيرك، هذا واضح، لكن هل هي تحبك وكيف؟ نقول: نعم، ومشاهد هذا، فالبعير تأتي إلى راعيها أو صاحبها من بين الناس، تأتي إليه وتدلك به وتستجديه، وقد شوهد أن الإنسان تألفه الإبل، فإذا أراد أن ينام في الليالي الباردة يجعل البعير بينه وبين الريح، وينام تحت البعير في حضنها، وأن البعير تميل عليه لتكون عليه كالغطاء، يحدثنا بذلك أهل الجمال، وهذا يدل على أنها تحبه.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٩٦٩)، والترمذي (٧٥٧)، وأبو داود (٢٤٣٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[النساء: ٣٧]

التفسير

لما قال الله تعالى في ختام آية الحقوق العشرة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ قال في ختام هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ مختالًا في هيئته، فخورًا في لسانه بقوله، والمراد بالفخور: الذي يتحدث بما هو عليه من الصفات افتخارًا على الناس لا إخبارًا بنعمة الله عز وجل، فأما إذا كان إخبارًا بنعمة الله فهو تحدث بنعمة الله وهو مشروع، بين من صفات هذا المختال الفخور قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

الذين: يجوز أن تكون بدلًا مِن ﴿مَن﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ باعتبار المعنى؛ لأن مَن مفردة اللفظ مجموعة المعنى يعني صالحة للجمع والمفرد، ولفظها من كان مختالًا فخورًا مفرد، ويجوز أن يوصف بالجمع باعتبار المعنى، فالذين يبخلون يجوز أن تكون صفة لمن، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هم ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾.

وقوله ﴿بِٱلۡبُخۡلِ﴾ فيها قراءتان: (بالبُخْلِ، وبالبَخَلِ)، ما معنى البُخْل؟ البخل هو: إمساك ما يجب بذله، من مال أو علم أو جاه أو عمل، إمساك كل ما يجب بذله من هذه الأشياء فإنه بخل، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ إِذَا ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ولم يُصَلِّ عَلَيَّ»[1] اللهم صلي وسلم وبارك عليه، هذا بخل بما يجب من عمل، وما يجب من جاه: كالشفاعة الواجبة، إذا بخل بها الإنسان فإن هذا بخل، وما يجب من مال وأعلاه الزكاة، هذا البخل بما يجب من المال، والرابع: ما يجب من العلم، هذا أيضًا بخل، وهو من أشد أنواع البخل، ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وفي الحديث «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2] فهذه أنواع البخل. خامسًا: البخل بالبدن: إذا وجب عليه في إعانة مسلم كإنقاذه من حريق أو غرق أو هدم أو غير ذلك، فلم تفعل فإنك تكون من أهل البخل، إذنْ تعريف البخل: هو منع ما يجب بذله من مال أو علم أو عمل أو جاه أو بدن،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠١)، والترمذي (٣٥٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٤٩)، وأبو داود (٣٦٥٨)، ابن ماجه (٢٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٤).

وإن شئنا أدخلنا كلمة البدن بالعمل؛ لأن حقيقة الأمر معاملة ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ يتعدى ضررهم إلى غيرهم، إذا جاءهم من يستشيرهم في أمر فيه بذل قالوا: لا ليس له داعٍ، ادخر مالك ربما تحتاجه في المستقبل، بل إذا رأوا من يريد أن ينفق وإن لم يستشرهم يأمرونه بالبخل.

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يكتمونه: يسترونه، وما آتاهم الله من فضله: يشمل ما آتاهم من فضله من المال أو ما آتاهم الله من فضله من العلم، أو غير ذلك، كل ما آتاهم الله من فضله، يسترون به، لئلا يلومهم الناس إذا بخلوا فإنهم إذا كتموا ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، لم يعلم الناس أن عندهم فضلًا يمكن أن يبذلوه، فيكتمون لئلا يلومهم الناس إذا بخلوا به.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: من عطائه وإفضاله، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أعتدنا: أي هيأنا وأعددناه لهم، والكافرون: هم الذي كفروا بالله ورسوله، والكفر أنواع كثيرة: منه أصغر ومنه أكبر، والأكبر قولي وفعلي وجحدي، وهو أنواع معروفة عند أهل العلم، ذكرها الفقهاء في باب حكم المرتد، وذكرها المتكلمون على التوحيد في أبواب التوحيد. وقوله: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: ذا إهانة، يهينهم ويذلهم؛ لأنهم كما مرت عليكم آيات كثيرة، أنهم إذا دخلوا النار أوقفوا عليها، على أعمالهم وقيل لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وفي هذا إهانة لهم مع ما هم عليه من العذاب الأليم، وهنا في هذه الآية إظهار في موقع الإضمار، وهو قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾

ولم يقل: (أعتدنا لهم)، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، منها: إرادة العموم، فإن قوله: ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يشمل هؤلاء وغيرهم، ومنها الحكم على هؤلاء بما يقتضيه هذا الوصف، والذي معنا هو وصف الكفر، فيكون هؤلاء الذين ذكرهم الله هم الكافرون، ومنها: إفادة علية الحكم المذكور لهؤلاء؛ لأن الوصف الذي علق عليه الحكم، يكون علة لذلك الحكم، ولهذا من القواعد المقررة أن الحكم إذا علق بوصف، فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** ذم البخل وهو أنواع، والبخل بما يجب شرعًا، أعظم من البخل بما يجب عرفًا، والبخل بالفضل دون البخل بالواجب، فالضيافة مثلًا تجب يومًا وليلة، البخل فيها أشد من البخل في كامل الضيافة، وهي ثلاثة أيام، فمن بخل بيوم وليلة أشد ذمًّا ممن بخل بثلاثة أيام.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين أساءوا في عملهم كانوا دعاة سوء يأمرون الناس بالبخل، وأيهما أشد؟ الأمر بالبخل أو الدعوة إلى البخل؟ الأمر بالبخل، وعلى هذا

فيكونون آمرين، ومن باب أولى داعين للبخل.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم من يكتم ما آتاه الله من فضله، والكتمان نوعان: كتمان فعلي، وكتمان قولي، الكتمان الفعلي: ألا يرى أثر نعمة الله على العبد، حيث يعطيه الله المال، فيخرج إلى الناس بلباس الفقراء ومركوب الفقراء لا تعففًا ولكن بخلًا، هذا كتمان فعلي، أمَّا الكتمان القولي: أن يتحدث عند الناس فيقول: أنا ليس عندي مال، أنا متوسط الحال، أو يزيد ويقول: أنا فقير، أو ما أشبه ذلك، هذا كتمان قولي، والآية تدل على ذم كتمان ما آتَ الله من فضله.

٤- **ومن فوائد الآية:** الثناء على الكرماء الآمرين بالكرم المظهرين للفضل، تؤخذ من أنه إذا ذم الشيء، فضده ممدوح، فالكرماء والآمرون بالكرم، والمظهرون لفضل الله، لا شك أنهم يمدحون على هذا، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ»[1].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما بنا من النعم فهو من الله؛ لقوله: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالنعم كلها من الله كما قال الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الصفات صفات كفر؛ لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات وجود النار، تؤخذ من قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ يعني: هيأنا، إذنْ فالنار وعذاب الكافرين مهيأ الآن، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، أن النار والجنة موجودة الآن، وأنهما لا تفنيان.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هذا وصف قبيح أيضًا، وعطفه على ما سبق مع أن الموصوف واحد من أجل إثبات ما سبق، والعطف يعني: عطف الصفات بعضها على بعض، ويفيد إثبات ما سبق، وأن هذا أمرًا زائدًا عليه، ومعلوم أن الصفات المتكررة لموصوف واحد، يجوز فيها وجهان في اللغة: إسقاط حرف العطف، وإثبات حرف العطف، فمن إثبات حرف العطف: قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٨١٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٨٤).

﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ هذه الآية جمعت بين الأمرين، بين حذف حرف العطف وبين إثباته، الصفة الأولى فيها: إسقاط حرف العطف ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ والصفة الثانية والثالثة: فيهما إثبات حرف العطف، مع أن الموصوف واحد، لكن التغاير هنا بين المعطوف والمعطوف عليه تغاير صفة لا تغاير ذات، ولكن حرف العطف يفيد إثبات ما سبق، فهنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ينفقون أي: يبذلون، ورئاء الناس: مفعول لأجله، أي: من أجل أن يراهم الناس فيمدحوهم على البذل، وليس ذلك من أجل التقرب إلى الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فلا يؤمنون بالله فيتقربوا إليه، ولا باليوم الآخر فيرجون ثوابه، بل هم منكرون - والعياذ بالله - لله ولليوم الآخر، وهذا من كان كفره كامنًا، أما من كان كفره ظاهرًا فإنه قد ينفق رئاء الناس ولا يصل ذلك إلى حد نفي الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وأنه منفرد بذلك الإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة وسمي باليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، فكل ما سبقه فإن بعده شيئًا، الدار الأولى البطن قبل الخروج إلى الدنيا، وبعد الخروج إلى الدنيا البرزخ ثم اليوم الآخر النهاية، ولهذا نقول إن الذي يقول عن الميت: إنه حمل إلى مثواه الأخير، نقول إن هذه كلمة خطيرة جدًّا، مضمونها إنكار البعث؛ لأنه إذا كان القبر مثواه الأخير معناه ما في بعده بعث، وهذه الكلمة يكثر ذكرها في الجرائد والمجلات وعلى ألسنة بعض من يدَّعون أنهم مثقفون، لكنها في الواقع غير صحيحة إلا لإنسان لا يؤمن بالبعث.

وقوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ هنا إشكال نحوي، وهو جر الفعل المضارع، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ والمعروف أن الجر إنما يكون في الأسماء، هل هو مجرور أو غير مجرور؟ غير مجرور، ولكنه حرك بالكسر؛ لالتقاء ساكنين، ولولا الساكن الذي بعده وهو همزة الوصل، لولا ذلك لكان مجزومًا.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إشكال آخر، لماذا لم يقل: ومن يكونُ الشيطان؛ نقول: لأن مَن شرطية، ومَن الشرطية تجزم فعلين، الأول: فعل الشرط والثاني: جوابه وجزاءه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ أيُّ شيطان هو؟ هل واحد معلوم أو المراد به الجنس؟

نقول: المراد به الجنس؛ لأن كل واحد من الناس له قرين، وقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا﴾ المراد بالشيطان: الذي هو قرين السوء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ والعياذ بالله، يقارنه دائمًا إذا عاش عن ذكر الرحمن وأعرض عن ذكر الله جاءه الشيطان، فصار يأمره بالمنكر وينهاه عن المعروف.

وقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ الجملة جملة إنشاء للذم، واقترنت بالفاء في جواب مَنْ؛ لأن الفعل جامد، وقد

قيل في ذلك نظم، أي: فيما يجب اقترانه بالفاء إذا وقع جوابًا للشرط، قيل فيه نظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وبالتنفيس

إذا وقع جواب الشرط واحدًا من هذه الجمل السبع، وجب قرنه بالفاء، وقد تحذف قليلًا، كقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُها

والتقدير: فالله يشكرها، لكن هذا قليل.

وقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ كلمة ساء تحتاج إلى فاعل، والفاعل محذوف تقديره: فساء قرينًا قرينه، وهو كذلك.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** أن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ابتلوا بإنفاق المال على وجه لا خير فيه، وهو أنهم ينفقونه رئاء الناس، على وجه لا خير فيه، بل إذا وقع تعبدًا كان شرًّا، ويترتب على هذه الفائدة أن من عدل عن المشروع ابتلي بالممنوع، انظر إلى قوم لوط لما عدلوا عن النساء ابتلوا بالذكران أتوا الذكران، شهوة، وانظر إلى البخيل الذي يبخل بالزكاة، كيف تجده يبذل وبكل سهولة ويسر يبذل ماله في غير فائدة، مثل التنزه حيث يخرج خارج البلاد الإسلامية فيستهلك من الأموال أضعافَ أضعاف ما يجب عليه بذله من الزكاة ومن النفقات الواجبة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم من ينفق ماله رئاء الناس، أي: لمراءاة الناس، وهنا نسأل: لو أنفق الإنسان علنًا ليراه الناس فيقتدون به، فهل يدخل في الآية؟ نقول: لا يدخل لأن هذا أنفقه لله، لكن جعله علانية لمصلحة الإنفاق، وفرق بين من ينفق لا لشيء إلا ليراه الناس فيمدحوه، وبين من ينفق علنًا ليقتدي به الناس، ولهذا امتدح الله الذين ينفقون أموالهم سرًّا وعلانية.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشيطان يلعب بابن آدم، فهؤلاء الذين بذلوا ما يحبون من الأموال، بذلوها في شيء لا ينفعهم، فثناء الناس على المرء في غير ما يحبه الله سينقلب بعد ذلك ذمًّا ولا بد، دليله: «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاس» ولهذا تجد الذين يراءون في الإنفاق إن حُمِدُوا يحمدون ساعتهم فقط، ثم ينقلب هذا الحمد ذمًّا، فالشيطان يلعب بالإنسان ويغره وينفخه حتى يظن أنه إذا أنفق أو عمل مراءاة للناس رفعه ذلك عند الناس.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المرائي عنده نقص في الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الذي حملهم على المراءاة ضعف إيمانهم بالله واليوم الآخر، ولو كان إيمانهم بالله واليوم الآخر قويًّا ما ابتغوا بالإنفاق إلا وجه الله واليوم الآخر.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه كافر والعياذ

بالله، ومدح من آمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه مؤمن.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الثناء على من آمن بالله واليوم الآخر، وأن الإيمان بالله واليوم الآخر من أسباب الإخلاص، واجتناب الرياء، لقوله ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله قد يبتلي العبد بمقارنة الشيطان له؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحذر من مقارنة الشيطان لك، أو من مقارنة الشيطان للإنسان.

فإن قال قائل: وأي علم أو أي شيء أصل به إلى العلم؛ لأن الشيطان كان قرينًا.

نقول: بما يأمرك به، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإذا وجدت في نفسك من يأمرك دائمًا بالمعصية والبخل والفحشاء، فهذا هو الشيطان، فعليك أن تلجأ إلى الله عز وجل؛ لأنه بذلك أمرك الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع استعاذتك ويعلم حالك ويعلم كيف يدفع الشيطان عنك.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تقبيح وذم مقارنة الشيطان للإنسان، لقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ وقد جاء في الحديث أن كل إنسان له قرين، ولكن القرين قد يسلم ويستسلم ولا يأمر بشرٍّ؛ لأن الرسول ﷺ، لما سئل ولا أنت يا رسول الله قال: «وَلَا أَنَا، وَلَكِنَّ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»(١)، بفتح أم بضم الميم؟ يقال إنه روي بالضم، فأسلمُ، وروي بالفتح: فأسلمَ، أما على رواية الضم، فالمعنى: فأنا أسلمُ منه، أي أعانني الله عليه فأنا أسلمُ منه، وأما على رواية الفتح فليس المراد: أنه أسلم ـ أي القرين ـ لله، ولكنه أسلم استسلامًا ظاهرًا، فهو استسلام لا إسلام؛ لأنه شيطان، فإذن الوجه الثاني: يكون الله تعالى أعان الرسول ﷺ، عليه حتى ذل وخضع واستسلم، فلا يأمره إلا بخير.

قد يقول قائل: ما الذي يمنع أنه أسلم حقيقة وأنه دخل في دين الإسلام؛ لأنه قال: أعانني عليه، والإعانة تقتضي محاولة إغواء الرسول، ولو كان أسلم لقال ولكنه أسلم، فلما قال أعانني عليه علمنا أنه ما زال على محاولته إغواء الرسول ولكن الله أعان الرسول عليه حتى استسلم.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٤).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]

❁ التفسير ❁

﴿وَمَاذَا﴾ استفهام، لكن هل ماذا كلها استفهام؟ أو ما: اسم استفهام، وذا: بمعنى الذي، في هذا قولان لعلماء النحو مع اتفاق الجميع أن الجملة استفهامية في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾، والمراد بالاستفهام هنا: التوبيخ، بمعنى: أي شيء عليكم إذا آمنتم؟ ويكون الجواب: لا شيء، وكما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فلو آمنوا وجربوا، فماذا يكون عليهم؟

وقوله: ﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لو هنا: شرطية وجوابها محذوف دل عليه ما قبله، وقيل إنها في مثل هذا الترتيب لا تحتاج إلى جواب، أي ما كان جوابه مذكورًا في غير محله، أي: مقدمًا فإنه لا يحتاج إلى جواب، وهذا الذي نرى أنه أصح؛ لأنه ما دام قد تقدم ما يدل عليه أصبح ذكره مُسْتَغْنِيًا عنه، وحينئذٍ لا حاجة إلى تقديره؛ لأن الأصل عدم التقدير.

وقوله: ﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ سبق الكلام على مثلها فلا حاجة إلى الإعادة، وقوله: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ لكن أنفقوا مما رزقهم الله، إخلاصًا لله لا رياء الناس، والإنفاق بمعنى: البذل، والرزق بمعنى: العطاء، لو بذلوا مما أعطاهم الله، على حسب ما يرضي الله عز وجل، وأعظم ما ينفق هو: الزكاة، وما دون ذلك فهو دونه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: بما هم عليه من كفر، وبما هم عليه لو آمنوا بالله، فالآية في الجملة هنا ترغيب وترهيب، يعني لو آمنوا بالله وصدقوا الله، لعلم الله بإيمانهم وأثابهم، ولو بقوا على كفرهم لكان الله بهم عليمًا.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** توبيخ من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، لقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإنسان يجب أن يوازن في الأمور بين النافع والضار، فينظر ماذا يترتب على إيمانه وعلى كفره، حتى يختار خير الطريقين.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، لتوبيخ من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، والتوبيخ لا يكون إلا على شيء محرم.

٤- **ومن فوائدها**: فضيلة الإنفاق؛ لقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: أن المنفق لا ينفق من كيسه، لكنه ينفق مما رزقه الله، فالفضل كل الفضل لله عز وجل.

٦- **ومن فوائدها**: أنها قد تشعر بأن من أنفق أخلف الله عليه، لقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى سيعطيهم بقدر ما أنفقوا بل أكثر، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فما معنى يخلفه؟ أي: يعطيكم خلفه، وفي الحديث «**أَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ**».

٧- **ومن فوائدها**: بيان منة الله سبحانه وتعالى على عباده بما أعطاهم، وأن العطاء عطاؤه، ويتفرع على هذه الفائدة: أن تعتمد على الله في حصول الرزق، ولكن إذا قلنا بهذا: فهل يعني ألا نفعل الأسباب التي نصل بها إلى الرزق؟ الجواب: لا، لابد أن نفعل الأسباب، لكن مع الاعتماد على الله عز وجل، قال الرسول ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(١) تغدوا في أول النهار في الغداة، خماصًا: جائعة، وتروح في آخر النهار بطانًا: شبعانة، ولم يقل كما يرزق الطير تبقى في أوكارها ويأتيها رزقها أبدًا، ولكن قال: تغدوا وتروح، إذنْ لابد من عمل، مع الاتكال على الله عز وجل.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات العلم لله عز وجل بأحوال عباده، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ويتفرع على هذه الفائدة الرغبة والرهبة، أنك إذا علمت أن الله عليم بك، خفت من مخالفته، ورجوت في موافقته، إذ لا يضيع شيء على الله عز وجل، والإيمان بعلم الله عز وجل، يكسب الإنسان مراقبة الله سبحانه وتعالى تمامًا؛ لأن أي شيء تفعله، فهو عليم بك، فهذا يحمل الإنسان على الرجاء في فعل ما يحبه الله وعلى الخوف في فعل ما يكرهه الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠]

التفسير

أصل الظلم: النقص، لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص منه شيئًا فهذا أصل الظلم، فالله لا ينقص الناس شيئًا، ولا ينقص الناس حقهم، ومن يعمل من

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده»(١/ ٣٠)،والترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).

الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا: ظلمًا بعقوبته على شيء لم يفعله، ولا غبنًا أو هضمًا أي: نقصًا من ثواب حسناته، وقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنة ذرة، والذرة يضرب بها المثل في التحقير، وإلا فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا دونها، وما جيء به على سبيل التحقير أو التكثير، فلا مفهوم له، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قيل: إن المراد بذلك التكثير، وأن الرسول لو استغفر سبع مائة ألف ما غفر لهم، وحينئذٍ لا يكون له مفهوم، كذلك مثقال ذرة: المقصود بها: المبالغة في التحقير، وما كان المقصود به المبالغة في التحقير فلا مفهوم له، وعلى هذا لو سألنا سائل هل يظلم الله دون مثقال ذرة؟ قلنا: لا.

قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ فيها قراءتان: (وإن تك حسنةٌ)، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾، ويختلف الإعراب على الوجهين، إن تك حسنةٌ تكون (كان) على هذه القراءة تامة، أي: لا تحتاج إلى خبر، والمقصود بكان تامة مجرد الدلالة على الحدوث، لا على صيرورة شيء إلى شيء آخر، وأما كان الناقصة فإنها تدل على صيرورة شيء إلى شيء آخر، كان الرجل قائمًا، يعني: بعد أن لم يكن قائمًا، يقول هنا: (وإن تك حسنةٌ)، بالرفع على أن ﴿تَكُ﴾ تامة، وبالنصب على أنها ناقصة، لكن أين اسمها إذا كانت ناقصة؟ مستتر تقديره: هي، أي: وإن تك الفعلة التي يفعلها الإنسان حسنة يضاعفها، وفي يضاعفها أيضًا قراءتان: يضعِّفْها، ويضَاعِفْها، وهي على القراءتين ساكنة الفاء؛ لأنها جواب الشرط المذكور في قوله ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ ومعنى يضعفها أو يضاعفها أي: يجزي أكثر من الحسنة، وقد دلت النصوص على أن الحسنة تكون بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعافًا كثيرة، وأن السيئة بمثلها.

وقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا معنى قوله في الحديث: إلى أضعافٍ كثيرة، يؤتي معطوفة على يضاعف؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف الياء، ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾: من عنده، ﴿أَجْرًا﴾: أي ثوابًا، ﴿عَظِيمًا﴾: ذا عظمة كثيرة، لا يتصورها الإنسان، والفائدة من ذكر من لدنه: الإشارة إلى أن هذا الأجر عظيم جدًّا؛ وذلك لأن العطاء يعظم بعظم المعطي، ونظير هذا ما علَّمه الرسول ﷺ أبا بكر قال: «**قُلْ اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا - إلى قوله - فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي**»[1]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ قراءتان، على قراءة الرفع، وإعرابها - تكون حسنةٌ - تكون فاعل لـ (تكُ) وهي تامة، وعلى قراءة النصب: خبر كان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** انتفاء الظلم عن الله عز وجل، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وهذا النفي يتضمن إثبات كمال العدل، وليس المراد: به مجرد انتفاء الظلم؛ لأن مجرد انتفاء الظلم لا يدل على كمال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى، وانتفاء الظلم المجرد لا يدل على الكمال؛ لأن انتفاء الظلم قد يكون لعدم قبول المنفي عنه لهذا الظلم، بمعنى: أنه ليس مما يقبل انتفاء الظلم أو ثبوت الظلم، فإذا نفي الظلم عما لا يقبله، فإنه لا يعد مدحًا، فإذا قلت: إن الجدار لا يظلم، فهل في هذا مدح للجدر؟ لا، لأن الجدار لا يمكن أن يظلم، فلا يكون نفي الظلم عنه مدحًا؛ لأن أصله لا يظلم، وربما يكون نفي العيب لعدم قدرة الشيء على هذا العيب، ولنجعل مثل الظلم قد يكون نفي الظلم عن شخص لا لكمال عدله، ولكن لعجزه عن الظلم، وحينئذٍ لا يكون ذلك مدحًا، بل يكون ذمًّا، فصار انتفاء الظلم عما لا يقبل الظلم ليس مدحًا ولا ذمًّا، وانتفاء الظلم عما يمكنه الظلم ولكنه عاجز، يعتبر ذمًّا، ومن ذلك قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُون بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ.

هل قوله: لا يغدرون بذمة يعني أنهم أوفياء بالذمم؟ وهل قوله: ولا يظلمون الناس حبة خردل أنهم ذوو عدل؟ لا، بل هذا تحقير لهم، فهم لا يستطيعون أن يغدروا، ولا يستطيعون أن يظلموا، وقرينة ذلك قوله (قبيلة)، فإنها للتصغير، والتصغير يدل على التحقير، ومنه قول الحماسي يهجو قومه:

وَلَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الظُّلْمِ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

هذا ظاهره المدح، ولكن المراد به: الذم، ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

ليت لي بهم: أي: بدلهم، فصار نفي الظلم عنهم وكونهم يجزون بالسوء مغفرة، وبالإساءة إحسانًا وذلك لعجزهم ليس لكمال أخلاقهم، إذنْ فقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ليس المراد به: مجرد نفي الظلم عن الله، بل المراد به إثبات كمال العدل؛ ولأنه لكمال عدله لا يظلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ وهذه القاعدة، تكون في جميع ما نفى الله عن نفسه، فكل ما نفى الله عن نفسه فإنه لا يراد به مجرد النفي، إنما يراد به إثبات كمال الضد، وأنه لكماله في ضد هذه المسألة انتفت عنه، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

أي: من تعب، لكمال قوته.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما ذكر على سبيل المبالغة، لا مفهوم له؛ لقوله ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا مفهوم لقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وأنه يظلم دون ذلك، فلا يظلم مثقال ذرة ولا دونها، لكن عادة العرب، ضرب المثل في الشيء الحقير بمثقال الذرة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات علم الله عز وجل، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ فإنه يستلزم علمه بالظلم ومن يستحقه ومن لا يستحقه، مع أن الله لا يظلم أبدًا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى يضاعف الحسنات؛ لقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ وقد بين الله هذه المضاعفة بأن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لأن الحسنات تضاعف والسيئات لا تزيد أو لا تزاد، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هذا نفي زيادة السيئات، والتضعيف للحسنات ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى يجزي على الحسنة ثوابًا أكثر من المقابلة يعني ما يقابل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، بل هناك شيء فوق هذا وهو قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٧- **ومن فوائدها**: أن الحسنة تجذب الحسنة، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذا الأجر قد يكون سببه زيادة الحسنات، بسبب الحسنة الأولى، وهذا من نعمة الله عز وجل، أن الإنسان إذا عمل العمل الصالح وفق لعملٍ آخر.

قال الله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

التفسير

لما ذكر أن الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ والاستفهام هنا للتعظيم أو للتعجب، يعني: كيف تكون الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وذلك

يوم القيامة، يأتي الله تعالى من كل أمة بشهيد، والشهيد هو: الرسول يشهد على أمته بأنه بلغ رسالة ربه، وهناك شهادة عامة: وهي شهادة هذه الأمة على من قبلها من الأمم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أمة: جاءت في القرآن الكريم لعدة معانٍ:

المعنى الأول: الطائفة، كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ المعنى الثاني: الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ المعنى الثالث: الزمن، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد زمن، ومقداره بضع سنين، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

المعنى الرابع: الدين كقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ هؤلاء المشار إليهم: أمة محمد ﷺ، جئنا بك على هؤلاء.

لما بلغ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذه الآية حين أمره رسول الله ﷺ أن يقرأ، وكان يقرأ في النساء، فقال له النبي ﷺ: «اقْرَأْ»، قال: كيف أقرأ وعليك أنزل، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ القُرْآنَ مِنْ غَيْرِي»(١) فقرأ حتى إذا بلغ هذه الآية، قال: «حَسْبُكَ» قال: فنظرت فإذا عيناه عليه الصلاة والسلام تذرفان، فالله عز وجل سوف يستشهده على أمته يوم القيامة، أنه بلغ البلاغ المبين، ولهذا استشهدهم هو عليه الصلاة والسلام، ليقرُّوا على أنفسهم بذلك، استشهدهم في حجة الوداع، حين خطبهم وقال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم، فرفع أصبعه إلى السماء وجعل ينكتها إلى الناس ويقول: «اللهُمَّ فاشْهَدْ»، ثلاث مرات، ولا شك أن الصحابة رضوان الله عنهم يمثلون الأمة كلها، فإقرارهم بأنه بلغ هو إقرار للأمة جميعًا، ونحن نشهد أنه بلغ البلاغ المبين عليه الصلاة والسلام، وأنه ترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿شَهِيدًا﴾: حال من الكاف في قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظمة هذه الشهادة، يؤخذ من الاستفهام الدال على التعظيم.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الناس يوم القيامة تقام عليهم الأشهاد، يشهدون عليهم بأنهم بلغوا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٥٠٥٥).

٣- **ومن فوائدها:** أن كل رسول يشهد على قومه؛ لأنه بلغهم، لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

الجواب: أن هذا لا يعارض ما ذكر هنا، فإنه شهد على أمته الذين باشر إبلاغهم، الذي هو عيسى عليه الصلاة والسلام، أما بعد موته فإن الأمر إلى الله عز وجل، هو الذي يتولاهم ويتولى من بعدهم.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نبينا ﷺ، سيكون شهيدًا علينا؛ لقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

فإن قال قائل: هل الذين ورثوا النبي ﷺ، وهم العلماء هل يكونون شهداء على الأمة؟

الجواب: نعم، يكونون شهداء على الأمة؛ لأنهم هم الطريق الذين بلغوا رسالة محمد ﷺ، ولهذا جاء في الحديث «أَنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاء»(١).

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[النساء:٤٢]

التفسير

هذا موقع الاستفهام والتفخيم، (يومئذٍ) يعني: يوم إذ نأتي من كل أمة بشهيد وبك شهيدًا على هؤلاء.

وقوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المودة هي: التمني، وأعلى المحبة، يعني: يحبون محبة هي أعلى المحبة، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما يجب الإيمان به والإقرار به، وعصوا الرسول، أي: خالفوا أمره، فلم يمتثلوا الأمر ولم يجتنبوا النهي؛ لأن المعصية هنا تشمل التفريط في الأوامر وكذلك فعل النواهي، وقوله: ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ الرسول هنا المراد به: الجنس وليس المراد به العهد، لأنه يشمل كل رسول.

وقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ تسوى فيها قراءتان: تُسَوَّى، وتَسَوَّى، فعلى قراءة الضم تكون

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، ابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

الأرض نائب فاعل، وعلى قراءة الفتح، تكون الأرض فاعلًا، ومعنى تسوى بهم الأرض، أي: يدفنون فيها، ولا يظهرون منها، فيكونون كأنهم جزء من الأرض ولا يحاسبون. وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ الواو حرف عطف، وجملة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ﴾: معطوفة على قوله ﴿يَوَدُّ﴾، وليست على قوله: ﴿تُسَوَّىٰ﴾؛ وذلك لأنها لو كانت عطفًا على ﴿تُسَوَّىٰ﴾ لفسد المعنى، إذ يكون المعنى: يودون أنهم لو تسوى بهم الأرض ولو لا يكتمون الله حديثًا، فيكون على هذا التقدير يكونون قد أقروا بما هم عليه، والحال أنهم لم يقروا، أي: بالعكس يود الذين كفروا لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا، يدل على أنهم كتموا الحديث، لو جعلناها معطوفة على تسوى، والواقع أنهم لم يكتموا الله شيئًا، ولهذا يودون لو تسوى بهم الأرض، والحال أنهم لا يكتمون الله حديثًا، أي: يقرون بالكفر والشرك.

وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: ما يحدثون به عن أنفسهم، بل يقرون إقرارًا كاملًا بأنهم كفروا وعصوا الرسول.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** بيان ما تؤول إليه حال الكفرة العاصين للرسول ﷺ؛ حيث يتمنون أنهم لم يخلقوا، وأن الأرض سويت بهم.

٢- **ومن فوائدها:** الحذر من معصية الرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب العمل بما في السنة، وإن لم يكن في القرآن، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾؛ لأن هناك أوامر صدرت من الرسول ﷺ، ولم تكن في القرآن فيجب العمل بها.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** شدة حسرة أولئك الكفار يوم القيامة، أنهم يتمنون أنهم لم يخلقوا وأن تسوى بهم الأرض، ويدفنون فيها، ولكن هذا لا ينفعهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الكافرين العاصين يقرون بما هم عليه، فلا يكتمون الله حديثًا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنهم لا يكتمون أيَّ حديث كان؛ لأن (حديث) نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، فهم يقرون بكل ما عملوا، ولهذا ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، فيقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

فإن قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإن هذا صريح في أنهم ينفون أن يكونوا مشركين، وهذه الآية صريحة في

أنهم لا يكتمون؟

فالجواب: أن القيامة ليست ساعة أو ساعتين حتى تتصادم الأحوال فيها، فالقيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة، فالأحوال تتغير وتتبدل، فهم أحيانًا يقولون كذا وأحيانًا يقولون كذا؛ لأنهم يريدون الخلاص، فكل وسيلة يظنونها سببًا للخلاص يسلكونها حتى وإن تناقضوا، فهم لا يكتمون الله حديثًا، ولكن إذا رأوا نجاة أهل التوحيد قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، من أجل أن تحصل لهم النجاة، ولكنها لا تحصل، إذا قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فمن الذي يفضحهم؟ إذنْ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، وكذلك الجلود، حتى إنهم يوبخون جلودهم قائلين: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، إذنْ نقول الجمع بينهما: أن أحوال القيامة تتغير، وهكذا تأتيكم أشياء تظنون فيها التعارض، مثل قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ وفي آية أخرى ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فيأتي إنسان فيقول كيف هذا؟ نقول: يوم القيامة أحواله تتغير، تسود الوجوه، ويحشرون زرقًا، وتتغير؛ لأن المدة خمسون ألف سنة، كم بيننا وبين الرسول؟ ألف وأربعمائة، هذا خمسون ألف سنة، أعاننا الله وإياكم على أهواله، المسألة ليست هينة، فتختلف الأحوال وتتغير.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء المجرمين الكافرين العاصين، يسألون عن ذنوبهم، لكن سؤال توبيخ، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ فهل هم محاسبون كحساب المؤمن؟ وهل توزن أعمالهم؟ الجواب: لا، لا يحاسبون كما يحاسب المؤمن، فالمؤمن تعرض عليه أعماله، فإذا أقر بها قال الله عز وجل له: «**سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[1] ولا يناقش؛ لأنه لو نوقش لهلك، أما هؤلاء فإنهم ينادى على رءوس الأشهاد يوم القيامة، هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في العقيدة الواسطية: إنهم لا يحاسبون حساب من توزن أعماله وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم، فلا توزن لهم أعمال لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

❁ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ إذا صدر الله الآية بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دل ذلك على اهتمام الموضوع؛ لأن النداء يفيد: الانتباه، فإذا خاطبك وناداك: يا فلان، فإنه يريد منك أن تنتبه، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه»**[1] وفي الأثر المروي عن ابن مسعود: (لو نادانا أحد من خارج السوق: يا أهل المسجد، أفلا نشرئب لندائه ونطلع ماذا يريد منا، والذي ينادينا الآن هو الله - رب العالمين، عز وجل - من فوق سماواته). ثم إن الله - تعالى - إذا صدر هذا النداء في وصف الإيمان دل ذلك على أن امتثاله إن كان أمرًا، وتصديقه إن كان خبرًا من مقتضيات الإيمان؛ لأنك لا تنادي شخصًا بوصف ثم توجه إليه الأمر أو الخبر إلا لأنه أهل لقبول هذا الأمر وتصديق هذا الخبر بما معه من هذا الوصف، ويفيد أيضًا أن مخالفة هذا نقص في الإيمان، فإذا كان أمرًا فخولف، أو خبرًا فكُذِّب فإن هذا ينافي الإيمان، ويفيد أيضًا معنىً ثالثًا، وهو ما يعرف عندهم: بالإغراء يعني تحبيب الشيء إلى الإنسان؛ لأنه إذا قيل: يا أيها الذين آمنوا، كأنه قيل: إن كنت مؤمنًا فافعل كما تقول للرجل: يا أيها الكريم قد نزل بك ضيف، يعني فأكرمه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ أي: لا تصلوا ولا تتهيئوا للصلاة والحال أنكم سكارى، ولهذا نعرب الواو في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ حالية، والجملة ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ جمع سكران، والسكران: مَنْ زال عقله على سبيل الطرب والنشوة، وبهذا يظهر الفرق بين السكران والمغمى عليه والمبنج وما أشبهه، السكران يتغطى عقله؛ لكن يجد طربًا ولذة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

ونشوة حتى يتخيل أنه ملك من الملوك، كما قال شاعر الجاهلية:

وَنَشْرَبُها فَتَتْرُكُنا مُلُوكًا

وكما وقع لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين شرب فثمل - سكر - قبل أن تحرم الخمر، فمرت به بعيران ناضحان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عنده مغنية تغنيه، فقالت: ألا يا حمزُ للشُّرُف النواءِ، فهيجته، فأخذ السيف وجب أسنمة البعيرين وبقر بطونها وأخرج أكبادها، فجاء علي إلى النبي ﷺ، يشتكي فقام النبي ﷺ إلى حمزة فلما جاء إليه وجده لم يفق بعد، فكلمه فقال له حمزة: وهل أنتم إلا عبيد أبي، إذنْ تصور أنه ملك، فرجع النبي ﷺ، وعرف أن الرجل لا يدري ما يقول فتركه، فهنا يقول: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ مَنْ السكارى؟ قلنا جمع سكران وهو: من تغطى عقله على وجه اللذة والطرب، وذلك بشرب المسكر، أما البنج فليس بمسكر، والإغماء ليس بسكر، وإن تغطى العقل. قال: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ حتى تأتي للتعليل وللغاية، ففي قوله تعالى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ هذه لا شك أنها للغاية؛ لأن بقاءهم عاكفين على العجل لا يستلزم مجيء موسى، وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ للتعليل، ولو جعلناها للغاية كان المعنى لا تنفقوا حتى ينفضوا فإذا انفضوا فأنفقوا، هذه الغاية، أما لو جعلناها للتعليل لكان المعنى: لا تنفقوا على من عند رسول الله لأجل أن ينفضوا عنه، أيهما؟ المعنى الثاني لا شك؛ لأنهم ليسوا على استعداد أنهم إذا انفضوا عن رسول الله ينفقون عليهم، إذنْ فهذه الآية التي معنا: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ إلى أن ﴿تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، أو المعنى لتعلموا ما تقولون فيها وجهان: تصلح لهذا وهذا، لا تقربوا الصلاة لتعلموا ما تقولون، لا تقربوا الصلاة إلى أن تعلموا ما تقولون، وإذا كانت صالحة للوجهين ولا منافاة بينهما، فإنها تُحمل عليهما، فنقول: السكران لا يقرب الصلاة حتى يعلم ما يقول، يعني حتى يصحو صحوًا تامًّا، ولا يقرب الصلاة لأجل أن يعلم ما يقول في صلاته وما يفعل في صلاته؟

قد يقول قائل: لكن السكران قد يدرك، نقول: يدرك لكن لا يدرك الإدراك التام، لكنَّ من خفة ما جاءه من الطرب صار يفعل شيئًا يندم عليه فيما لو صحا، ولهذا تجدهم - والعياذ بالله - يفعل الواحد بأمه؛ نشرت بعض المجلات اللبنانية منذ سنوات قديمة: أن شابًا دخل على أمه في الساعة الواحدة ليلًا فدعاها إلى نفسه، قالت: لا، فقال: إن لم تفعلي لأقتلن نفسي، فأدركتها الشفقة فمكنته من نفسها، ففجر بها، فلما أصبح أحس بما فعل، فجاء إلى أمه وقال: ماذا فعلت البارحة، قالت: لم تفعل شيئًا - خافت - قال أخبريني أو أقتل نفسي، فأدركتها الشفقة فأخبرته، فذهب إلى الحمام وأخذ معه صفحة أو جرة من البنزين وصبه على نفسه ثم أحرق بنفسه، نسأل الله العافية.

يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ يعني: ابتعدوا عن الصلاة في

حال السكر ولا تأتوها إلا وأنتم على أتم ما يكون من الإحساس واليقظة؛ وذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وبين الله، والمصلي يناجي الله - عز وجل -، يخاطبه، يحاوره، يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيقول الله: حمدني عبدي، ويقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فيقول الله: أثنى علي عبدي، ويقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيقول الله: مجدني عبدي، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله: هذا بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، ويقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فيقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[1]، فما كان هذا شأنه فإنه يجب أن يعتنى به، وأن يدخل الإنسان فيه وهو على أتم ما يكون صحوة، وأتم ما يكون يقظة، ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ والصلاة اسم جنس تشمل صلاة الفريضة وصلاة النافلة، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الجملة حالية، من فاعل تقربوا، والسكر: تغطية العقل على وجه اللذة والطرب، وخرج بقولنا: (على وجه اللذة والطرب) تغطية العقل على غير ذلك كالبنج مثلًا والإغماء، فإن ذلك لا يعدُّ سكرًا ولا يثبت له أحكام المسكر، والسُّكْرُ يكون بالشراب ويكون بالشم ويكون بالأكل، فكل ما أسكر فهو خمر لقول النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»[2].

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ لفظًا ومعنىً، وما تفعلون كذلك من باب أولى؛ لأن الذي لا يعلم القول لا يعلم الفعل، فإن القول أفهم من الفعل، وكثير من الناس لا يفهم من الفعل شيئًا، وبعض الناس يفهم من الفعل أكثر من القول، فالمهم أن قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ يعني: وما تفعلون، ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ يعني: ولا تقربوا الصلاة جنبًا، الحال هنا صارت مفردة، وفي الأول لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، فالله أعلم هل هذا من باب اختلاف التنوع في الألفاظ، أو لسبب يظهر بالتأمل. قوله ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ كلمة جنب مفردة لفظًا ولكنها صالحة للجماعة، وللواحد، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ ولم يقل: (إلا عابرَ سبيل)، إذنْ جنب: نقول: حال من فاعل تقربوا، أو معطوفة على الجملة الحالية، من فاعل تقربوا، ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: مجتازين مارين، وكيف يتفق هذا مع الصلاة؟ نقول: إن الله لم يقل لا تصلوا، قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وأماكن الصلاة المساجد، وعلى هذا يكون المعنى: ولا تقربوا أماكن الصلاة وأنتم جنبًا إلا عابري سبيل أي مارين بها مرورًا، والعبور بمعنى: التجاوز، والسبيل بمعنى: الطريق.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: للغاية، وهو غاية؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾، أما ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ فغايتها: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) واللفظ له.

﴿مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، هذا كالاستثناء من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾، ففي هذه الأحوال لا يجب الغسل، ويغني عنه التيمم.

وفي قوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾ قراءتان: الأولى بتخفيف الهمزتين: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾، والثانية: بحذف إحداهما، أي: (أَوْ جَا أَحَدٌ).

وفي قوله: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ قراءتان أيضًا، الأولى بالمد: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾، والثانية: بحذف المد، أي (لَمَسْتُمُ).

قال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: وأطلق الله المرض، فلم يقل: وأعجزكم الاغتسال، لكن يؤخذ من آيات أخرى أن المراد بالمرض: المرض الذي يؤثر عليه استعمال الماء.

وفي قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أطلق أيضًا ولم يقيد، لكن نقول: إن قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾، ﴿أَوْ﴾: هذه أَشْكَلَتْ على أهل العلم؛ لأن ظاهرها التنويع مع قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، والتنويع مُشْكِلٌ؛ لأنها ليست قسيمًا مما سبق، ولا نوعًا مما سبق.

والجواب على هذا الإشكال أن نقول: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، وهي تأتي بمعنى الواو في اللغة العربية، ومنه قول النبي ﷺ: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1] فقوله: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ» الإنزال ليس قسيمًا للتسمية، ولا نوعًا من التسمية، لكن معنى الحديث: «سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ...»

فالآية معناها - والله أعلم -: أو على سفر وجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، الغائط: المكان المطمئن من الأرض المنخفض، وعبَّر به عن الخارج المستقذر، وهو البول والغائط؛ لأنهم كانوا فيما سبق ليس عندهم حمامات، وإنما يخرج الإنسان منهم إلى البر، ويختار مكانًا مطمئنًا - أي: منخفضًا - ؛ ليقضي حاجته.

وهنا يقول: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة يقول: (أو لمستم)، وهل القراءتان بمعنى واحد؟

قيل: إن معناهما واحد، وقيل: ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾: للجماع، و(لمستم) لمجرد اللمس، ولكن الصحيح أن معناهما واحد، لكن الفرق بينهما أن اللمس من جانب واحد، والملامسة من جانبين، كالقتل:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

من جانب واحد، والمقاتلة من جانبين.

والمراد باللمس: الجماع، وإنما اخترنا ذلك؛ لأنه لو كان المراد به اللمس باليد، لكانت الآية تكرار وإهمال، أي: تكرار للحدث الأصغر، لأن المجيء من الغائط هو الحدث الأصغر، ولمس النساء باليد حدث أصغر، وفيه إهمال للحدث الأكبر، فإذا قلنا: الملامسة هي الجماع صارت الآية ذاكرةً الحدثين جميعًا الأصغر والأكبر.

وقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: اسم جنس يشمل الأحرار والعبيد، والجميلة وغير الجميلة، ويشمل الصغيرة وغير الصغيرة، أما الصغيرة التي لا يُنظر لمثلها لا يشملها.

وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾: الفاء هنا حرف عطف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾، ونفي الوجدان يدل على الطلب؛ لأنه لا يقال: لم يجد إلا لمن طلب، ويقال: طلبت فلم أجد، وأما من لم يطلب فلا يستقيم أن يقال: إنه لم يجد.

وقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، ﴿تيمموا﴾: أي اقصدوا؛ لأن التيمم في اللغة بمعنى القصد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٦٧]، وقال الشاعر:

تَيَمَّمْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ

فتيمَّمتها أي: قَصَدْتُها.

وأما الصعيد: فهو وجه الأرض، لأنه صاعد، وظاهر، وبيِّن.

أما قوله: ﴿طَيِّبًا﴾، فالطيب ضد الخبيث، وإذا كان المقصود من هذا التيمم التطهر صار الطيب هو الطهور، وإن شئت فقل: الطاهر، فالطيب هنا هو الطاهر، والصعيد هو وجه الأرض، سواءٌ كان أحجارًا أو ترابًا أو غير ذلك.

وقوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ معطوف على ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾، والوجه فيه هنا ما قلناه في الوضوء: هو من الأذن إلى الأذن عرضًا ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية طولًا.

وأما قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ فهنا أطلق الله اليد، وإذا أُطلِقَتْ فالمراد بها الكف فقط.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وهذه الجملة تعبير لما سبق من الأحكام أي: لعفوه ومغفرته شرع لكم التيمم عند عدم وجود الماء أو عند المرض.

(والعَفُوُّ) هو المتجاوز عن عباده في ترك الواجب وفعل المحرم، وعفو الله ـ عز وجل ـ عفوٌّ كامل مقرون بالقدرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩]، بخلاف عفو غيره فقد يكون العفو ناتجًا عن العجز عن الأخذ بالثأر.

وقوله: ﴿غَفُورًا﴾: (الغَفُورُ) هو الساتر للذنوب المتجاوز عنها، فإذا أُضِيفَ العفو إلى المغفرة

حصل الكمال؛ وهو أن العفو لترك الواجب والمغفرة لفعل المحرم.

الفوائد:

١- في هذه الآية من الفوائد: أهمية الصلاة والعناية بها، وجه ذلك: أن الله صدَّر الحكم المتعلق بالصلاة بالنداء؛ لاستدعاء الانتباه.

ومنها: - أي مما يدل على أنها مهمة - أن الله صدَّر الخطاب بذلك بوصف الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، فَدَلَّ ذلك على أهمية الصلاة وعلى العناية بها.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: حلُّ الخمر؛ لقوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فإن هذا رخصة للناس أن يشربوا الخمر في غير أوقات الصلاة، وهذه إحدى المراحل التي كانت في تحريم الخمر؛ لأن تحريمها كان له أربعة مراحل: الإباحة، والتعريض بتركه، والنهي عن شربه قرب وقت الصلاة، والنهي عن شربه مطلقًا، وقد أجمع المسلمون على تحريم الخمر، وصار تحريمه من الأمور الظاهرة المجمع عليها، حتى قال العلماء: إن من أنكر تحريمه فإنه كافر إلا أن يكون ناشئًا في بلد بعيد عن بلاد المسلمين، فإنه يعرف ثم بعد ذلك يبين له.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا حكم بقول السكران، لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، فإنه يدل على أن السكران لا يعلم ما يقول، وإذا كان لا يعلم ما يقول صار قوله لغوًا لا عبرة به، وهذا هو القول الراجح، وحتى لو طَلَّقَ فإنه لا يقع طلاقه، ولو أَعْتَقَ فإنه لا ينفذ العتق، ولو وقَّف لا يصح إيقافه؛ لأنه لا يعلم ما يقول.

ويترتب على هذه الفائدة: أن الإنسان إذا غضب غضبًا شديدًا حتى صار لا يعلم ما يقول فإنه لا عبرة بقوله، وكذلك لو طلَّق من شدة الغضب وهو يعلم ما يقول فلا يقع طلاقه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على حضور القلب في الصلاة لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، والقلب إذا غاب فإن الإنسان لا يعلم ما يقول، وإنما يقوله على سبيل العادة فقط، وإن رجع لنفسه لتبين له أنه لا يدري معنى ما يقول.

٥- ومن فوائد الآية: أن فيها شاهدًا على نهي النبي ﷺ عن الصلاة في حضرة الطعام أو وهو يدافعه الأخبثان[1]، ووجه ذلك: أن الصلاة في هذه الحال ينقصها العلم بما يقول المصلي.

٦- ومن فوائدها: ما ذهب عليه بعض العلماء من أن الوسواس إذا غلب على أغلب الصلاة فإنها لا تصح؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، ولكن الصحيح في هذه المسألة: أن الصلاة تصح، ودليل ذلك: أنَّ الشيطان إذا سمع النداء أدبر وله ضراط من شدة ما سمع، فإذا أقيمت الصلاة حضر وصار يقول للإنسان: اذكر كذا واذكر كذا حتى لا يدري أحدكم ما قد

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٦٠)، وأبو داود (٨٩).

صلى[1]، وهذا يدل على أن الوسواس في الصلاة لا يبطلها، لكن لا شك أنه ينقصها؛ لقوله ﷺ: «لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا».

٧- ومن فوائدها: تحريم مكث الجنب في المسجد؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، وهذا هو أصح الأقوال في هذه الآية.

ولكن يستثنى من ذلك: ما إذا توضأ الجنب، فإنه إذا توضأ يجوز له المكث في المسجد؛ لأن هذا ورد فيها آثار عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يفعلون هذا في عهد النبي ﷺ.

٨- ومن فوائدها: أن العبور ليس كالمكث، وعليه فإن الإنسان لو مرَّ عابرًا بالمسجد فإننا لا نلزمه أن يصلي تحية المسجد؛ لأنه عابر، بخلاف ما إذا مكث وجلس فإننا نقول: لا تجلس حتى تصلي ركعتين.

٩- ومن فوائدها: أن منع الجنب من دخول المسجد يزول إذا اغتسل؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾، ومعلوم أنه يجوز أيضًا بالوضوء للآثار الواردة عن الصحابة.

١٠- ومنها: الإشارة إلى القاعدة المعروفة المتفق عليها، وهي: (أَنَّ المَشَقَّةَ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ)، ووجهه: أن الله تعالى أجاز للمريض أن يتيمم.

ولكن هل يتيمم من كل مرض أم يتيمم إذا كان استعمال الماء يؤدي إلى الموت؟

من العلماء من يقول: لا يتيمم إلا إذا كان يخاف المرض أو طول المرض أو تشويه الجسم وإلا فإنه لا يتيمم.

ومنهم من قال: إنه يتيمم لكل مرض.

والصواب: أنه لا هذا ولا هذا، فيتيمم لكل مرض يخشى من استعمال الماء فيه أن يطول أو يزيد المرض أو ما أشبه ذلك.

١١- ومن فوائدها: أن المسافر إذا لم يجد الماء فإنه يتيمم ولا ينتظر حتى يجد الماء؛ لقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾.

١٢- ومنها: أنه لا يجوز التيمم في الحضر عند عدم الماء؛ لأن الله تعالى شرط للتيمم شرطين: عند عدم الماء، وعند السفر، والصحيح أنه جائز؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه تيمم في الحضر، وذلك في قصة الرجل الذي جاء وسلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى تيمم على الجدار وقال: «إِنِّي أَحْبَبْتُ أَلَّا أَذْكُرَ اللهَ إِلَّا عَلَى طُهْرٍ»[2]، وهذا نص بالإيجاز؛ ولأن العلة واحدة وهي عدم الماء، لكن ذكر السفر لأنه مظنة العدم، وكما مر علينا أن القول إذا كان أغلبيًّا فإنه لا مفهوم له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٢٢)، ومسلم (٣٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥٤) وأصل الحديث عند مسلم (٣٧٠).

١٣ـ **ومن فوائدها:** أن السفر ليس له حد معين؛ وجهه: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولم يقل: على مسافة كذا أو كذا، وهذا القول الراجح أن الحد هو أن يقع عليه اسم السفر.

١٤ـ **ومنها:** أن البول والغائط ناقضان للوضوء؛ لقوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾.

وهناك نواقض أخرى سوى ذلك:

منها: النوم إذا كان عميقًا بحيث لو أَحْدَثَ الإنسان لم يحس بنفسه، وأما النوم اليسير الذي يحس الإنسان فيه لو أحدث فإنه لا ينقض الوضوء.

ومنها: أكل لحم الإبل فإنه ناقض للوضوء، وقد ثبت ذلك من النبي ﷺ، وفيه حديثان صحيحان: حديث البراء وحديث جابر بن سمرة.

وبقي علينا ـ في نواقض الوضوء ـ أشياء فيها خلاف، مع أن النوم نفسه فيه خلاف، ومن هذه الأشياء: الخارج من غير السبيلين نجسًا كالدم، وفيه خلاف بين العلماء، والصحيح أنه لا ينقض الوضوء، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصيبهم الجراح في سبيل الله وفي غير قتال ولم يرد عن النبي ﷺ أنه أمرهم بالوضوء من ذلك، ولأن الوضوء ثبت بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يمكن أن ترتفع هذه الطهارة التي حدثت بالوضوء إلا بدليل شرعي، وليس هناك دليل على أن خروج الدم من البدن أو غيره من النجاسات من غير السبيلين ناقض للوضوء.

ومن هذه الأشياء: من الفرج، ففيه للعلماء أقوال: أنه ناقض مطلقًا، وأنه غير ناقض مطلقًا، والتفصيل هو الأظهر، وهذا هو مقتضى التعليل الذي علل به النبي ﷺ عدم النقض، لأنه قال لما سئل عن الرجل يمس ذكره في الصلاة أعليه وضوء؟ قال: «لَا؛ إِنَّمَا هُوَ بِضْعَةٌ مِنْهُ» أي: جزء منه كما لو مس بقية أعضائه.

لكن إذا مسه بشهوة فهل الوضوء واجب أو مستحب؟

فيه قولان للعلماء:

منهم من قال: إنه مستحب؛ لأن الشهوة تثير البدن، ومنهم من قال: إنه واجب، والأحوط أن يتوضأ.

ومن هذه الأشياء: مس المرء للميت، والصحيح أنه لا ينقض الوضوء.

وعلى هذا فالنواقض التي نرى أنها ناقضة والتي دلت عليها النصوص عندنا هي: البول والغائط والنوم العميق وأكل لحم الإبل، ومس الذكر بشهوة على سبيل الاحتياط.

١٥ـ **ومن فوائد الآية:** أن مجامعة النساء حَدَث، لقوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، لكن هل هو حدثٌ أصغر أو أكبر؟

نقول: هو حدث أكبر؛ كما دَلَّتْ على ذلك آية النهي؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان إذا جامع

المرأة أن يغتسل، سواء أنزل أم لم ينزل. وكان في أول الإسلام أن الرجل إذا جامع ولم ينزل فإنه يغسل ذكره وما أصاب المرأة منه ولا يجب عليه الغسل، ثم بعد هذا نُسِخَ فصار واجبًا؛ لأنه من الجماع وإن لم يحصل الإنزال، أما إذا حصل إنزال من جماع أو غير جماع فإن الغسل واجب؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا المَاءُ مِنَ المَاءِ»(١).

١٦ـ ومن فوائدها: أنه يشترط لجواز التيمم عدم الماء، أو التضرر باستعماله، فعدم الماء مأخوذ من قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، والتضرر باستعماله مأخوذ من قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾.

١٧ـ ومن فوائدها: جواز التيمم على وجه الأرض كله، من رمل أو حصى أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا﴾، ولم يقيد، وكقول النبي ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ المُسْلِمِ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ المَاءَ عَشْرَ سِنِينَ»(٢).

واختلف العلماء فيما إذا كان من غير جنس الأرض كالشجر، هل يجوز التيمم به أو لا؟

فمنهم من أجاز التيمم به، ومنهم من قال: لا يجوز إلا إذا كان متصلًا بالأرض، فأما الغصن المنكسر المرمي في الأرض فلا يُتَيَمَّمُ به، وهذا هو الأرجح، وعلى هذا فالتيمم بالجذع المتصل بالأرض جائز ويصح، والتيمم بالأرض أحوط.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل يشترط أن يكون له غبار أو لا؟

فقال بعضهم: لابد أن يكون له غبار؛ لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، و ﴿مِّنْهُ﴾ للتبعيض، وهذا يقتضي أن يكون هناك غبار يُمسح به.

ومنهم من قال: إنه لا يشترط أن يكون له غبار، واستدلوا بالآية هذه: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ ولم يقل: منه، واستدلوا بأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه لَمَّا أَرَى عمارَ بن ياسر كيف يتيمم أنه ضرب بيديه على الأرض ونفخ فيهما(٣)، ولو كان الغبار شرطًا لما نفخ، والصواب: أنه لا يشترط الغبار.

١٨ـ ومن فوائدها: أنه لابد من المسح مع القصد، وعلى هذا فلو هبَّت الريح بغبار فأصاب الإنسان ثم مسح به وجهه فهل يجزئ هذا عن التيمم؟ قال بعض العلماء: إنه يجزئ، والأحوط: أنه لا يجزئ؛ لأن الله أمر بأن يُضْرَبَ وجه الأرض ونتيمم ونمسح منه.

١٩ـ ومن فوائدها: الحكمة في التشريع؛ وجه ذلك أن الله فرَّق بين طهارة الماء وطهارة التيمم،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤٣)، وأبو داود (٢١٧).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٢٤)، أبو داود (٣٣٢)، والنسائي (٣٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٥٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

فطهارة الماء من الجنابة لَابُدَّ أن تعم جميع البدن، ومن الحدث الأصغر: لابد أن تعم الوجه واليدين والرأس والرجلين، أما طهارة التيمم فإنها لا تكون إلا في عضوين فقط وهما الوجه واليدان، ولا فرق فيها بين الطهارتين الكبرى والصغرى، والحكمة من ذلك هو أن الطهارة بالماء فيها تطهير حِسِّي واضح، والطهارة بالتيمم فيها تطهير معنوي، وهو كمال التعبد والتذلل لله ـ عز وجل ـ بحيث إن الإنسان يمسح بالتراب وجهه وكفيه وهذا دليل على كمال التعبد.

٢٠ـ ومن فوائدها: وجوب التفريق بين مسح الوجه في التيمم ومسح اليدين، فالوجه يُقَدَّم؛ ودليل ذلك قول النبي ﷺ حيث أقبل على الصفا: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، «ابْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[1]، وفي لفظ للنسائي: «ابْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[2]، وإذا كان بدأ هنا بالوجوه فإننا نبدأ به.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

منهم من قال: يُشْتَرَطُ الترتيب في التيمم مطلقًا، سواء تيمم عن حدث أصغر أو عن حدث أكبر.

ومنهم من قال: لا يُشْتَرَطُ الترتيب مطلقًا.

ومنهم من قال: إن كان عن حدث أصغر وجب الترتيب؛ لأنه هنا بدل عن طهارة يجب فيها الترتيب والبدل له حكم المبدل، وإن كان عن الغسل ـ الحدث الأكبر ـ فالغسل لا يشترط فيه الترتيب، فيكون بدله لا يشترط فيه الترتيب وهو التيمم.

والأحوط: أن يرتب، فيبدأ بالوجه ثم باليدين.

٢١ـ ومن فوائدها: أنه لا يجب في التيمم مسح الذراع، لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾، واليد عند الإطلاق هي الكف؛ ودليل ذلك: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، وقد أجمع العلماء على أن السارق أو السارقة لا تُقْطَعُ يَدُهُ إلا من مِفْصَلِ الكف.

فإن قال قائل: أفلا يجب المسح إلى المرفق قياسًا على الوضوء؟

نقول: القياس لابد فيه من مساواة الفرع للأصل، وهنا لا يمكن أن يتساوى الفرع والأصل؛ للتباين العظيم بين طهارة التيمم وطهارة الماء، فطهارة التيمم أخف بكثير من طهارة الماء.

٢٢ـ ومن فوائدها: إثبات هذين الاسمين لله ـ عز وجل ـ وهما: العفو والغفور، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢/ ٨٠).

٢٣ـ ومن فوائدها: إثبات ما دَلَّ عليه هذان الاسمان من الصفات، وهي العفو والمغفرة.

فإن قال قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ هل هذا الوصف كان لله ثم زال؟

الجواب: لا، وكلمة: ﴿كَانَ﴾ في هذا السياق وشبهه قد زالت عنها الدلالة على الزمن، وكان المراد بها تحقيق الاتصاف بما دَلّت عليه، وهذا كثير في القرآن.

٢٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المضمضة والاستنشاق ليسا واجبين في التيمم.

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٤٤ـ٤٥]

التفسير

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: الاستفهام هنا للتقرير، يعني: يقرر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك على وجه مُشاهَد يراه الرائي، والخطاب في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يحتمل أن يكون للرسول ﷺ ويحتمل أن يكون لكل من يتوجه الخطاب إليه.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ أي: أُعطُوا نصيبًا، فـ ﴿أُوتُوا۟﴾ تنصب مفعولين، المفعول الأول في هذا السياق هو الواو، والثاني هو قوله: ﴿نَصِيبًا﴾، والذي آتاهم هذا النصيب من الكتاب هو الله ـ عز وجل ـ، وهذا النصيب من الكتاب هو التوراة والإنجيل، وعلى هذا فيشمل اليهود والنصارى. لكن في اليهود أعظم؛ لأنهم هم الذين كانوا موجودين في المدينة في عهد الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: أي يطلبونها شراءً، ومن المعلوم: أن المشتري جاد في طلب السلعة، وهذا أبلغ مما لو قال: يسلكون الضلالة؛ لأن الشراء ناتج عن رغبة وطلب حتى يصل الإنسان إلى ما أراد.

فهؤلاء يشترون الضلالة بالهدى، كما قال الله ـ عز وجل ـ في آية أخرى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٧٥].

وهل هذا الشراء رابح؟ لا، فهو أكسَدُ أنواع الشراء، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ هذا باعتبار ما يختارونه لأنفسهم.

وهل شرهم قاصر على أنفسهم؟ قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾: فإنهم يريدون أن ينقلوا ضلالتهم إلى غيرهم.

وقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: هو الطريق ويعنى به الإسلام، وإذا كانت هذه إرادتهم فسوف يسعون لسوء مرادهم بكل وسيلة؛ ولهذا نجد أن الكفار أعداء المسلمين يسعون إلى إذلال المسلمين بكل وسيلة، تارةً بالدمار العسكري، وتارة بالأفكار السيئة الرذيلة، فهم يرون السلاح الذي هو أنكى فيستعملونه ولا يبالون؛ لأنهم يريدون أن نضل السبيل؛ وهذا لأنهم ضُلَّال، وكل إنسان يريد أن يكون الناس على شاكلته، هذا من وجه، والوجه الآخر: أنهم أولياء للشيطان، والشيطان قال مخاطبًا لله ـ عز وجل ـ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦ ـ ١٧].

ونصب قوله: ﴿صِرَٰطَكَ﴾، فلم يقل بصراطك ولا على صراطك، ليشمل قعوده على الصراط حتى ندخل، وقعوده في الصراط فلا نتمُّ السير.

وهؤلاء هم أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النساء:٧٦]، وإذا كانوا أولياءه فسوف يناصرونه على ما يريد من إضلال عباد الله.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: فهو أعلم بهم منا، فنحن قد يخفى علينا العدو وتخطيطاته التي يريد أن يضلنا بها، لكن الله تعالى لهم بالمرصاد، ففي قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ تسلية لنا وتهديد لأعدائنا؛ لأنه إذا كان أعلم بأعدائنا فسوف يَقِينا شرهم إذا تولينا الله، وإن تولينا عن الله سلَّط علينا هؤلاء الأعداء.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: متوليًا للأمور.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: مدافعًا ومناصرًا.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية الأولى:

أن من الناس من يُؤتى الكتاب ويرزق العلم، ولكنه لا ينتفع به، مثل هؤلاء: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ومع ذلك لم ينتفعوا به، لأنهم ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٥].

٢ـ ومن فوائد الآية: أن من لم ينتفع بعلمه فهو شبيه بهؤلاء؛ ولهذا قال سفيان بن

عيينة رَحِمَهُ اللهُ: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى)، وهذا صحيح.

٣- ومن فوائدها: أنها شاهدة لقول رسول الله ﷺ: **«القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عَلَيْكَ»**[1]، فكُتب الله التي يحملها الناس إما لهم وإما عليهم.

٤- ومنها: حب هؤلاء للضلالة والشر؛ لقوله: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

٥- ومنها: الحذر من هؤلاء؛ لأنهم مهما عملوا معنا فإنهم لا يريدون لنا الخير إطلاقًا؛ لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

والغزو بالدنيا غزو بسلاح فَتَّاك، فإرجاح الدنيا والرفاهية غزو بسلاح فتاك، فالإنسان إذا أُغدق عليه المال الذي يحبه تقتضي أن يلين مع هذا الذي أغدق عليه المال.

٦- ومنها: الثناء على الصحابة؛ لكونهم على السبيل، لأن قوله: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ يقتضي أن يكونوا على السبيل، وإلا لما حاولوا إضلالهم.

٧- ومنها: التحذير من هؤلاء اليهود أو النصارى أو غيرهم، لأنه إذا حذرنا الله ممن ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فتحذيره ممن هم عُمْي وصُمٌّ وَبُكْمٌ من باب أولى.

٨- ومن فوائد الآية الثانية: إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

٩- ومن فوائدها: كمال علم الله، ولهذا جيء بها على صيغة التفضيل: ﴿أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

١٠- ومن فوائدها: تسلية المؤمنين وتقوية عزائمهم؛ لكونه أعلم بأعدائهم وأنه ناصر لهم وولي لهم.

١١- ومن فوائدها: تهديد المشركين وتحذيرهم؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

١٢- ومن فوائدها: أنه لابد للمسلمين من أعداء، ـ وكما أثبتنا تعليقًا على الكلمة ـ فكل من كان غير مسلم على أي ملة كان فإنه عدو للمسلمين.

١٣- ومن فوائدها: الثناء على الله تعالى بالولاية التامة للعبد والنصرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وكلمة: ﴿وَلِيًّا﴾ منصوبة على أنها تمييز، ومحوّلة عن الفاعل، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ قالوا: إنها زائدة، وأن الأصل: وكفى الله وليًا وكفى الله نصيرًا.

مسألة: قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ ألا يقتضي في التفضيل المشاركة؟

الجواب: بيَّنا بطلان هذا، وقلنا: إن قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ لا يقتضي المشاركة، فعلم الله وسمعه وبصره

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠).

بينها وبين ما للمخلوق اشتراك في الأصل، لكن الخالق أكمل من المخلوق في هذا.

❁ قال الله تعالى:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء:٤٦-٤٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ﴿مِّنَ﴾: هذه للتبعيض، و ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: رجعوا عن عبادة العجل، وهم اليهود، وسمُّوا الذين هادوا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: رجعنا إليك.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: هذه الجملة لا تصح أن تكون مبتدأ؛ لأن الفعل لا يُبتدأ به، وإذا لم تصح أن تكون مبتدأ فكيف نعربها؟

نقول: إنها صفة لموصوف محذوف هو المبتدأ، والتقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقال بعض النحويين: إن ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية اسم، فتعرب على أنها مبتدأ؛ لأن تقدير ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية، أي: بعض الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ وعلى هذا فتكون ﴿مِّنَ﴾ في صورة الحرف ولكنها اسم، وتكون هي المبتدأ، وجملتها تكون هي الخبر، ولا حاجة إلى التقدير، ولها نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١]، فالتقدير: (ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق).

وكل من القولين له وجه، فالذين قالوا: إن ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية حرف، واستعمالها اسمًا إخراج لها عن موضوعها الأصلي، فنكون قد ارتكبنا مجازًا بتقديرنا إياها اسمًا، ويكون تقدير الاسم

أرجح، ويُسمى هذا إيجازًا بالحذف؛ لأن الإيجاز: إيجاز بالحذف وإيجاز بالقصر، يعني: أن تكون هناك جملة قلبية لكن لا تحتمل معانٍ كثيرة فهذا إيجاز بالقصر، أما الجملة التي بها أشياء محذوفة فهذا إيجاز بالحذف.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يصرفونه، والتحريف: التصريف، ومنه: حرف الراية عن جهة سيرها أي: صَرَفَهَا، والكلم اسم جمع وَاحِدُهُ: كلمة، قال ابن مالك في «الألفية»:

كَلَامُنَـا لَفْـظٌ مُفِيـدٌ كَاسْـتَقِمْ ... اسْـمٌ وَفِعْـلٌ ثُـمَّ حَـرْفٌ الكَلِـمْ

والمراد بالكلم هنا ـ أي: في الآية ـ ما أنزله الله تعالى على رسله من الوحي.

وقوله: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يصرفونه عما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ به؛ لأنه ما أراده الله بكلامه فهو موضوعه.

قال العلماء: التحريف نوعان: تحريف لفظي وتحريف معنوي، قد ينفرد أحدهما عن الآخر وقد يجتمعان، ثم التحريف اللفظي قد يتغير به المعنى، وقد لا يتغير، ولنضرب لكل واحد مثالًا:

مثال التحريف اللفظي المعنوي: كتحريف بعضهم قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقالوا: (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا). فهذا تحريف لفظي؛ لأنه جعل لفظ الجلالة منصوبًا بعد أن كان مرفوعًا، ومعنوي؛ لأنه تغير به المعنى؛ حيث كان دالًّا على أن المكلِّم هو موسى.

ومثال التحريف اللفظي: الذي لا يتغير به المعنى أن يقول القارئ: (الحمد لله ربَّ العالمين)، فهذا التحريف لفظي، لكنه لا يتغير به المعنى.

ومثال التحريف المعنوي مع إبقاء اللفظ على حاله: تحريف أهل التعطيل قولَ الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] بأنه استولى، فاللفظ كما هو لكنهم غيَّروا المعنى.

ثم إن هذا التحريف المعنوي سماه مُتَّبِعُوهُ تأويلًا وقالوا: التأويل صرف الكلام عن ظاهره إلى المعنى المخالف للظاهر بدليل، ولكننا نقول: هذه التسمية تمويه على السامع؛ لأن التأويل أن يصرف الكلام عن ظاهره بدليل صحيح، وأما الدليل الذي استدلوا به فهو دليل وهمي ليس له أصل من الصحة.

وعليه فنقول: إذا أوَّل الإنسان الكلم عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر فإن كان هناك دليل من كتاب أو سنة فإنه مقبول، وإن لم يكن هناك دليل فإنه غير مقبول.

فإذا قال قائل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨] أي: إذا أردت أن تقرأ القرآن. قلنا: هذا غير مقبول حتى تأتي لنا بدليل، فقال: نعم، عندي دليل وهو أن الرسول ﷺ كان يتعوذ عند إرادة القراءة لا عند إنهائها.

فنقول: هذا مقبول وعلى العين والرأس، والدليل هو فعل الرسول ﷺ.

فصار التأويل الذي هو صدق اللفظ عن ظاهره إن دل عليه دليل فهو مقبول ونسميه تفسيرًا وإن لم يدل عليه دليل فهو مرفوض ونسميه تحريفًا.

فهؤلاء الذين هادوا حرفوا الكلم عن مواضعه - بالنسبة لعيسى وبالنسبة لمحمد ﷺ، أما عيسى فادَّعُوا أنه ولد بغي ولا يصح أن يكون رسولًا؛ لأن الرسل طاهرون مُطَهَّرون، وقتلوه حكمًا لا حقيقة؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فأقروا على أنفسهم بقتله فيكون لهم حكم الذين قتلوه، أما حقيقة فالله قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

وحرفوا الكلم بالنسبة للرسول محمد ﷺ، وقالوا: ليس هذا هو الرسول المنتظر، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيظهر نبي نَتَّبعه ونغلبكم، لكن لما بُعث من بني إسماعيل وهم بنو عمه حسدوه؛ لأنهم يعرفون أنه أفضل نبي، وكانوا يظنون أنه سيكون من بني إسرائيل.

ويقول المؤرخون: إن تجمع اليهود بالمدينة إبَّان بعثة الرسول ﷺ كان بناءً على أنهم يعلمون أن مهاجره هي المدينة فقالوا: نستقبله ونؤمن به.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: وهذا غاية ما يكون من المحادَّة لله ورسله، والعصيان مخالفة الأمر أي: الخروج عن الطاعة، إن كان أمرًا فبتركه، وإن كان نهيًا فبارتكابه.

وقوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يقولون هذا للرسول ﷺ، يعني: اسمع أصمك الله حتى لا تسمع، فهم يدعون عليه بالصَّمم ويسخرون به؛ لأنهم إذا كانوا يَدْعُون عليه بالصمم فكيف يقولون: اسمع.

وقيل المعنى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ما تكرهه؛ لكن هذا بعيد عن سياق الآية وبعيد عن حال اليهود.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ما يسرك، يعني: سنقول لك ما يسوؤك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل؛ لأن فيه حذفًا.

وقوله: ﴿وَرَٰعِنَا﴾: الذي ترد على ذهنه هذه الكلمة يقول: إنها فعل أمر متصل بضمير المفعول، وفاعله مستتر وجوبًا تقديره أنت، أي: راعنا أنت نحن.

وهي من المراعاة أو الرعاية، ولكنهم يريدون الرعونة أي: الخشونة لا المراعاة أو الرعاية، فهم يريدون الرعونة وهي الجبن والخور، وهي كلمة عند اليهود باللغة العبرية بهذا المعنى، يقولون: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: أصابك الله بالرعونة، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة؛ لأن اليهود يقولونها يريدون بها سوءًا، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

وقوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ يعني: يقولون هذا الكلام ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، حيث يُظْهِرُون معنًى صحيحًا مقبولًا وهم لا يريدون المعنى الصحيح. فاللَّيُّ باللسان أي: يريد باللفظ معنى آخر خلاف المعنى الظاهر له. فـ ﴿لَيًّا﴾ أصلها (لوي)، لكن اجتمعت الواو والياء في كلمة واحدة وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواو ياءً على القاعدة.

ولكن قال: ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾، كيف كان قولهم طعنًا في الدين؟

هذا واضح، فقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، لماذا عصوا؟ لأنهم لم يرتضوا هذا الدين، وعدم ارتضائهم للدِّين مستلزم للطعن في الدين وعيبه والقدح فيه.

وذلك لأن من ارتضى شيئًا لا يمكن أن يقول إذا أمر به: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وأيضًا في الدين؛ إذ قالوا: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، فهذا طعن في الدين؛ لأنه طعن في الرسول الذي جاء به، والطعن في الرسول طعن فيما أُرسل به.

وكذلك قولهم ﴿وَرَاعِنَا﴾ إذا كانت من الرعونة، فهي أيضًا طعن في الدين، فصار الطعن في الدين من كل الكلمات السابقة.

ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ فحذف كلمة ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وجاء بـ ﴿وَانْظُرْنَا﴾ بدلًا من ﴿وَرَاعِنَا﴾ لأن هذه هي الكلمة التي أمر الله بها المؤمنين أن يقولوها بدلًا من راعنا.

فلو أنهم قالوا هكذا: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، والخيرية تشمل خيرية الدين والدنيا، وخيرية الجزاء في الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: في دينهم وفي حياتهم؛ لأن هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾: ولكن عدلوا عن هذا القول الذي هو خير؛ لأن الله لعنهم بكفرهم، أي: أبعدهم وطردهم عن رحمته بسبب كفرهم، فهم الجناة على أنفسهم، وهم الذين تسببوا في ذلك بكفرهم، وليس الله هو الذي منعهم.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: هؤلاء الذين قالوا ما قالوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ هل تعود إلى الواو أو إلى الإيمان؟

قال بعض المفسرين: إنها صالحة أن تعود إلى الإيمان وأن تعود إلى الواو، والفرق بينهما إذا قلنا: إنها عائدة للإيمان صار المعنى: فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا، وإذا قلنا: على الواو، صار المعنى: فلا يؤمنون إلا قليلًا منهم.

فالكافر منهم كافر لا إيمان معه، والمؤمن قليل، ورجح بعضهم الأول وقال: إذا قلنا: لا يؤمنون إلا قليلًا منهم لم يستقم الكلام؛ لأن الكلام كله قد قيل في بيان وصف هؤلاء، ولكن

يبقى على هذا الترجيح.

فقولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا إيمانًا قليلًا، والقليل - كما قيل - : يأتي بمعنى العدم، أي: لا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا لا ينفعهم فيكون بمنزلة العدم؛ لأن ما لا نفع فيه كالمعدوم تمامًا.

وبعض العلماء أنكر الاستثناء من الضمير في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكارًا بيّنًا.

والذي يظهر لي: أن الآية مختلفة، وأن منهم قوم يؤمنون، وهؤلاء قد يُفهمون من قوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: بعض الذين هادوا لا يقولون هذا فيكونون مؤمنين، ولا شك أن منهم من آمن وحسن إسلامه مثل عبد الله بن سلام.

في هذه الآية فوائد كثيرة منها:

١ - أن من اليهود من استقام فلم يحرف الكلم عن مواضعه، وهذا يؤخذ من التبعيض.

٢- **ومنها:** أن مُحرِّفي الكلم عن مواضعه يُشبهون اليهود في طريق استعمال الوحي.

٣- **ومنها:** عدل الله - عَزَّ وجل -؛ حيث تحدث عن اليهود بالقسط، وذكر الموصوفين بالعيب، وأُخذ من هذا - أي: من قوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ - أن منهم من لم يوصف بذلك، فلم يقل: كل الذين هادوا.

وهكذا ينبغي للإنسان إذا تحدث عن قوم في مقام التقويم أن يذكر المحسن والمسيء، أما في مقام التحذير فإنه لا يدخل الإحسان، لأن الإحسان لا يتناسب مع التحذير.

٤- **ومنها:** شدة عناد اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، يؤخذ من قوله: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فلم يمنعهم شيء عن الطاعة إلا مجرد العصيان.

٥- **ومنها:** أن من عاند من هذه الأمة وقال: أعلم أن صلاة الجماعة واجبة، ولكن لا أصلي مع الجماعة، فهو مُشبَّه باليهود الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٦- **ومنها:** شدة حقد اليهود على الرسول ﷺ؛ حيث كانوا يجاهرونه بهذه الكلمة السيئة: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

٧- **ومنها:** تعالي هؤلاء اليهود حتى على الرسول ﷺ، وذلك في قولهم: ﴿وَاسْمَعْ﴾؛ لأن كلمة (اسمع) إنما تكون غالبًا في المخاطبات من الأعلى للأدنى.

٨- **ومنها:** أن الإنسان يُحاسَبُ على ما أراد؛ لقوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، أما ما في قلوبهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

فإن قال قائل: وهل يحاسب ظاهرًا على ما أراد؟

الجواب: لا، بل على الظاهر؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ»[1]؛ ولقوله: «يَمِينُكَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

عَلَى مَا يُصدقُكَ صَاحِبُكَ لَا عَلَى مَا فِي قَلْبِكَ»(١).

٩- ومنها: أن الطعن في الدين يكون بالصريح ويكون بغير الصريح، فالصريح كأن يقول: هذا الدين يأتي لنا بالتأخر والتقهقر، والثاني ألا يكون صريحًا ولكنه من لازم القول، فهنا لا نجد الطعن على وجه صريح، ولكنه من لازم القول.

١٠- ومنها: - والعياذ بالله - أن الطعن في الدين من خصال اليهود، ومن طعن في الدين فهو مشابه لليهود.

١١- ومنها: تحريم الطعن في الدين، وأنه يجب أن يكون الدين محل احترام وتعظيم، لا محل طعن وقذف.

١٢- ومنها: عرض الحق على المستفسر عن الحق، كقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ومن نظائر ذلك: قول الله - عزَّ وجل - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠] ففتنوا أولياءه ولكنه عرض عليهم التوبة.

١٣- ومنها: أن المنكر إذا أُنكر فإنه ينبغي للمنكِر أن يضع بدله ما لا يُنكر، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وقوله: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ بدل ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وبدل ﴿وَرَٰعِنَا﴾.

وكما قال الله للمؤمنين في هذا: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

١٤- ومنها: أنه تجوز صيغة التفضيل بين شيئين لا يوجد في الطرف الآخر منه شيء، وأن قولهم: إن التفضيل بين شيئين يقتضي اشتراكهما في نفس المعنى، هذا ليس على إطلاقه، بل في غالب الأحوال كذلك، ولكن قد يخرج عن هذه القاعدة، كما في قوله تعالى هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، فهل في قولهم السابق خير؟ لا، ولا يوجد فيه استقامة أيضًا.

ومثل ذلك قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

١٥- ومنها: إثبات أصل التفاضل بين الأعمال والأقوال؛ لأن الله قال: ﴿خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، ولا شك أن التفاضل بين الأقوال السيئة والحسنة والأفعال السيئة والحسنة ثابت، ولكن الأعمال الحسنة أو السيئة تتفاضل؛ ولهذا سُئِلَ النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قِيلَ: ثُمَّ أَيْ؟ قَالَ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قِيلَ: ثُمَّ أَيْ؟ قال: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»(٢)، والسائل هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكذلك أيضًا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٥٣)، والترمذي (١٣٥٤)، وأبو داود (٣٢٥٥)، وابن ماجه (٢١٢٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»(١).

فالأعمال الصالحة تتفاضل كما أن الأعمال السيئة تتفاضل، فمنها صغائر ومنها كبائر، والكبائر منها أكبر ومنها دون ذلك وكذلك الصغائر.

فإذا قال قائل: هل يلزم من هذا زيادة الإيمان ونقصه؟

قلنا: نعم، على أصل مذهب أهل السنة والجماعة ينبني على ذلك زيادة الإيمان ونقصه؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

١٦- ومنها: أن من لُعن وطُرد من رحمة الله فإنه ينقلب عليه الحق باطلًا والباطل حقًّا، ولهذا لم يسلكوا الأحسن والخير فيما قالوا؛ لأن الله لعنهم، ويترتب على هذه القاعدة: أن العاقل لا يتعرض لما فيه لعنة الله؛ لأنه إذا فعل ذلك لُعن وطُرد، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» قالوا: يا رسول الله كيف يلعن الإنسان والديه؟ قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»(٢)؛ وعلى هذا فلا تتعرض لسب الوالدين؛ لأنك إن تعرضت لُعنت، وإذا لُعنت طُردت وأُبعدت عن رحمة الله.

١٧- ومنها: أن الكفر سبب للعن، وذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

ولكن هل ينال الإنسان من اللعنة بمقدار ما معه من الكفر -إن كان-؟

الجواب: الظاهر: نعم، وقد يقال: إن اللعن عقوبة عظيمة لا تقال إلا على فعل عظيم، وقد يقال: إن الحكم المعلق على فعل -إن وُجِدَ الفعل كاملًا- كان الحكم كاملًا، وإن وُجِد بعضه كان له بعض الحكم، وينبني على ذلك قول النبي ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»(٣). فمن فعل أحدهما فعليه جزء من اللعن، وهذا وارد، أن اللعن يتبعض كما أن الكفر يتبعض. ويحتمل أن يقال: إن اللعنة إنما هي على الكفر الأكبر. ولكن إذا رجعنا لقول النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، ولَعْنُ الوالدين لا يخرج من الملة تبين لنا أن من عمل عملًا أطلق عليه كفر فإنه ينال من اللعنة بمقدار ما حصل منه من هذا الوصف.

١٨- ومنها: إثبات الأسباب؛ وذلك في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾.

١٩- ومنها: الرد على الجبرية والرد على القدرية، وكلاهما ضالتان في القضاء والقدر، فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، والقدرية يقولون: إن الإنسان مستقل في عمله وليس لله فيه تدبير. والآية ترد عليهم جميعًا، أما على الجهمية الذين هم الجبرية فبقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، فأضاف العمل إليهم، وهم يقولون: لا يُضاف العمل إلى العامل إلا على سبيل المجاز، وإلا فالحقيقة: أنه

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) بلفظ: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه...» الحديث.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧)، والترمذي (١٠٠١)، وأحمد (٧٨٤٨).

ليس فعله؛ لأنه ليس باختياره.

وأما على القدرية فإثبات الأسباب في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، والقدرية يقولون: إن فعل الإنسان مستقل، وليس لله تعلق في ذلك إطلاقًا.

وأهل السنة يقولون: عمل الإنسان باختياره لا شك، ولكن من الذي جعله باختياره؟ إنه الله، فيكون ناتجًا عن مشيئة الله، وخالق السبب التام خالق للمُسبَّب.

٢٠ـ ومنها: أن هؤلاء اليهود يَقِلُّ فيهم الإيمان، وإن شئت فقل: يقل الإيمان فيهم بالنسبة للمؤمنين، أو الإيمان بالنسبة لهم جميعًا، حسب ما قلناه في الاستثناء وعَوْدُه على الواو أو الفعل، ولا شك أن اليهود على قوة ما جاءهم من الوحي أن فيهم العتاة، وإلا فالرسول ﷺ رأى في المنام أكثر الأمم أمة موسى بعد هذه الأمة؛ لأنه قال: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ»[1].

مسألة: أحيانًا يقول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وأحيانًا يقول: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١]، فما الفرق بينهما؟

الجواب: الفرق بينهما: أن ﴿عَن﴾ للتجاوز، أي: ينقلونه من المعنى الأصلي إلى معنى آخر، وأما ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فهي تدل على أن تحريفهم كان بعد التأمل والنظر، ولكنهم انتشلوه عن أصله إلى المعنى الآخر.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾

النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يراد به: اليهود إرادةً أَوَّلِيَّة، وثانيًا النصارى لأنهم أوتوا الكتاب، والكتاب الذي أنزله لليهود هو التوراة التي أنزلها الله على موسى، كتبها بيده ـ سبحانه وتعالى ـ وأنزلها على موسى ـ صلى الله عليه وعلى رسولنا وسلم ـ أما الكتاب الذي نزل على عيسى فهو الإنجيل.

وقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ وهو القرآن، وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأنه نزل شيئًا فشيئًا حسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ.

قال العلماء: والفرق بين نزلنا وأنزلنا: أن ﴿نَزَّلْنَا﴾ إذا اجتمعت مع (أنزلنا) صار المراد بها التفريق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فالقرآن منزل تنزيلًا على حسب ما تقتضي حكمة الله، إما أن تكون واقعًا يتحدث الله تعالى عنه، أو مشكلة يفتي الله تعالى بها، أو غير ذلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي: للذي معكم، وهو التوراة - بالنسبة لليهود - والإنجيل - بالنسبة للنصارى -.

وكيف هذا التصديق؟ التصديق له وجهان:

الوجه الأول: أنه مصدق لها أي: شاهدٌ بما جاءت به، وأنها حق، والقرآن يدل على أن الكتب السابقة المنزلة على الرسل كلها حق.

والثاني: أنه مصدق لها؛ حيث جاء على وفق ما أخبرت به، لأن هذا القرآن والرسول ﷺ قد ذُكرا في التوراة والإنجيل؛ كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ هذا تحذير وتهديد، أي: إذا تأخرنا عن الإيمان يحدث لنا هذا.

وهذا الطمس اختلف العلماء فيه: هل هو طمس معنوي أو طمس حسِّي؟

فقيل: إنه طمس معنوي؛ بحيث لا ترى الحق ولا تسمعه ولا تنتفع به، ويردها الله على أعقابها فتظل في الكفر.

وقيل: بل هو طمس حسِّي، وذلك بأن تطمس الوجوه حتى تكون كالقفا تمامًا، ثم بعد ذلك تُرد على الأدبار.

وقيل: المراد بالطمس هو طمس حسِّي، ولكن بأن تُلوى الأعناق وتكون الوجوه من الخلف، وهذا معنى قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾.

وعرفنا فيما سبق في القاعدة التفصيلية: أنه إذا كانت الآية تحتمل وجهين، لا يناقض أحدهما الآخر فإنها تحمل على الوجهين جميعًا؛ لأن كلام الله معناه واسع.

فهنا نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - هددهم بالطمس الحسِّي والطمس المعنوي.

ثم قال: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ السَّبْتِ﴾، ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ أي: نطردهم من رحمتنا، ونوقع بهم من النَّكال ما وقع لأصحاب السبت، والذي وقع لأصحاب السبت هو أنهم قيل لهم: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾، فكانوا قردة خاسئة ذليلة - والعياذ بالله -.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، فمن يرد أمر الله؟ لا أحد يرده، والأمر هنا بمعنى المأمور، يعني: كان مأمور الله - يعني: ما أمر به - ﴿مَفْعُولًا﴾، ويحتمل أن يكون الأمر هو الأمر الكوني أي: القدري، ويكون المفعول هنا بمعنى الواقع، وأيًا كان سواء قلنا: إن الأمر بمعنى المأمور، وهذا لا بُعد فيه؛ لأن الأمر مصدر، والمصدر يأتي أحيانًا بمعنى اسم المفعول؛ كقوله

تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ [الطلاق:٤] أي: وأولات المحمولين، والأحمال جمع حمل، والحمل هو الجنين في البطن، وكما في قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد: وجوب الإيمان على أهل الكتاب بالقرآن الكريم؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ﴾.

٢- ومنها: إقامة الحجة على هؤلاء الذين أوتوا الكتاب وكفروا بمحمد بأنه لا عذر لهم؛ لأنهم أوتوا الكتاب فعندهم علم؛ ولأن الذي نزل على محمد ﷺ مصدق لما معهم، فكل هذا يثبت أن محمدًا ﷺ حق، ووجب عليهم الإيمان به.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن القرآن كلام الله؛ وجه ذلك قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾.

فإن قال قائل: التنزيل الذي يضاف إلى الله قد يكون في أمر مخلوق؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]؟

الجواب: يكون بالتفصيل الآتي: وهو أن المنزل من عند الله ينقسم إلى قسمين: أعيان وأوصاف:

فالأعيان دائمًا منفصلة عن الله، فتكون مخلوقة، مثل: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، فهذه أشياء أعيان دائمًا منفصلة عن الله فتكون مخلوقة.

والقسم الثاني: أوصاف لا تقوم إلا بموصوف مثل: الكلام، والكلام صفة لا تقوم إلا بموصوف، فإذا أراد الله إنزال الكلام إليه فهو من صفاته وهي غير مخلوقة، وعلى هذا فالقرآن غير مخلوق.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عُلُوِّ الله، وجهه: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأن النزول إنما يكون من الأعلى، وأدلة علو الله - عز وجل - سبقت لنا مرارًا، وقلنا إن عُلُوَّ الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين: قسم حسي وقسم معنوي.

فالقسم المعنوي: متفق عليه بين أهل الملة حتى أهل التعطل يدَّعون أنهم يعطلون تنزيه الإله عن النقص، فالعلو المعنوي لا أحد ينكره من أهل الملة، كل أهل القبلة يقرون به، والعلو الحسيُّ الذاتي هو الذي أنكره من سوى أهل السنة والجماعة، وقالوا: إن الله ليس عالٍ بذاته بِحُجَّةٍ باطلة، وقد بينا - فيما سبق - أن العلو الذاتي قد دل عليه من الأدلة خمسة أنواع:

الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، وبينا وجه ذلك، وهو معلوم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

٥ـ ومن فوائد هذه الآية: أن القرآن الكريم مصدق للكتب السابقة، ويشهد لها بالصدق، وأنه مصدق لها، حيث جاء مطابقًا لما أخبرت به، فهو لا يتنافى معها، ولا يتنافى معها، لكن الشرائع تختلف باختلاف الأمم، حتى باختلاف الأحوال، حتى في الشريعة الإسلامية الشرائع تختلف باختلاف الأحوال؛ الفقير لا زكاة عليه، والغني عليه الزكاة، وهذا اختلاف، كيف يقال هذا الرجل اسمه زيد عليه الزكاة؛ وهذا اسمه عمرو لا زكاة عليه؟! نقول نعم؛ لأن الأول غني، والثاني فقير. فالشرائع تختلف ؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، لكن أصول الملل ثابتة، واضحة، هذا الكتاب العزيز ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وفي سورة المائدة بيَّن الله ـ تعالى ـ أنه مهيمن على ما سبق، ومعنى مهيمن: أي: مسيطر، فالهيمنة على الشيء السلطة والسيطرة، وإذا كان كذلك لزم أن يكون ناسخًا لما سبقه.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية: تهديد هؤلاء القوم ـ أعني بهم: أهل الكتاب ـ إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن بهذين الوعيدين: طمس الوجوه، وردها على أدبارها، أو أن يلعنوا كما لُعن أصحاب السبت.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحاسن التعبير في المواجهة عند المؤاخذة، فهنا قال ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ ولم يقل: وجوهكم، وكان مقتضى السياق أن يقول: من قبل أن يطمس وجوهكم؛ لأنهم هم المهددون؛ لكن أتى بها على صيغة النكرة؛ تحاسنًا للمواجهة عند المؤاخذة، هذا من جهة، من جهة أخرى قد يقال: إن المراد بالتنكير هنا: التعظيم أي: وجوهًا معظمة عندهم فتطمس، وهي وجوه زعمائهم الذين صدوهم عن سبيل الله ـ عز وجل ـ.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإحالة على المعلوم تصح، ولو بلفظ الإبهام، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾؛ لأن أصحاب السبت إذا قال قائل: ما هي اللعنة التي حلَّت بأصحاب السبت ومن هم أصحاب السبت؟ نقول: ذُكروا هنا على سبيل الإجمال؛ لأن أمرهم معلوم، وهذا يشبه ما يقول النحويون في (ألـ) التي للعهد الذهني.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يذكر نفسه بلفظ العظمة ﴿نَّطْمِسَ﴾، و ﴿نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا﴾ ؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فالمقام مقام تهديد، ولابد أن يظهر المهدِّد عظمته أمام المهدَّد وهذا في غاية البلاغة ،أي: مراعاة حال المخاطَب.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز تغيير بل استحباب أو تفضيل تغيير الأسلوب إذا اقتضت الحاجة ذلك؛ لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، ولم يقل: وكان أمرنا مفعولًا، ففي الآية

التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن ﴿وكان أمر الله مفعولًا﴾ هذا تحدث عن غائب، لكن نلعن، نطمس، وما أشبه ذلك هذا تحدث عن متكلم، ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة للتعظيم؛ لأن قول العظيم: فعل فلان كذا يعني نفسه، أبلغ من قوله: فعلت كذا.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]

التفسير

قال الله ـ عز وجل ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ تحدث الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نفسه بصيغة الغائب؛ تعظيمًا له كما كما يقول الملك لجنوده: إن الملك يأمركم أن تتجهوا إلى المكان الفلاني، فيكون هذا من باب التعظيم يعني: تحديث المتحدث عن نفسه بصيغة الغائب يعتبر تعظيم لنفسه.

وقوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ المغفرة هي: الستر مع التجاوز، ويدل لذلك ـ أي: لكون المعنى مركبًا من الستر والتجاوز ـ الاشتقاق؛ لأن المغفرة مأخوذة من المِغْفر، وهو الذي يُوضع على الرأس وهذا يتقي به السهام، وبسبب وضعه على الرأس ليتقى به السهام صار فيه ستر ووقاية.

إذنْ ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لا يتجاوز ولا يستر الإشراك به.

وقوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ﴿أَن﴾ هذه مصدرية، و﴿أَن﴾ المصدرية من الحروف الموصولة، فتُسبق وما بعدها بمصدر، ويكون التقدير على هذا: (إن الله لا يغفر شركًا به أو إشراكًا به)، وإذا حولنا هذا الفعل مع أن مصدر صار نكرةً في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم.

وقوله تعالى: ﴿يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ يشمل الإشراك في الربوبية، والإشراك في الألوهية الذي هو: الإشراك في العبادة، والثالث: الإشراك في الأسماء والصفات، فالله لا يغفره؛ لأن جانب التوحيد أعظم الجوانب حقًّا أن يوفى به، فإذا أخل به الإنسان، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغفره بخلاف المعاصي الأخرى التي دونه أو التي سوى الشرك فإن الله ـ تعالى ـ يغفرها.

ففي الربوبية: مَنْ اعتقد أن مع الله خالقًا أو معينًا فهو مشرك، أو أن لأحدٍ من الخلق شيئًا ينفرد به دون الله فهو مشرك، يعني: من قال: السماء لله والأرض لغير الله فهو مشرك، ومن قال: السماء والأرض مشتركة بين الله وغيره فهو مشرك، ومن قال: إن الله له معين في خلق السماوات

والأرض فهو مشرك، وكل هذا لا يغفره الله.

وفي العبادة: مَنْ سجد لغير الله أو نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فهو مشرك، ومن أشرك بالله في العبادة رياءً فهو مشرك، فالرياء شرك بنص الحديث؛ إذن الرياء لا يُغفر.

أما باب الصفات: فمن زعم أن لله مثيلًا في صفاته، وأن استواء الله على العرش كاستواء الإنسان على السرير، وأن نزول الله إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان من السطح إلى أسفل الدرجة، وما أشبه ذلك فهو مشرك، كل هذا لا يغفره الله.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ المراد بقوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: هل هو من الدون الذي هو الأصغر أو من الدون الذي هو السُّوى؟ إذا قلنا: ما سوى ذلك لزم أن يغفر الله شرك الجحود؛ لأنه سوى الشرك، فلو قال شخص: إن الله لم يرسل محمدًا ﷺ مثلًا فهذا ليس بشرك؛ إذن يتعين أن يكون ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما هو أصغر، من الدُّون الذي هو أقل لا من الدون الذي بمعنى سوى؛ لأننا لو فسرناه بمعنى: ما سوى ذلك لكان كفر الجحود داخلًا في الآية، والأمر وليس كذلك.

قوله: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: للذي يشاؤه، فعلى هذا يكون الشرك وما كان بمنزلته من كفر الجحود ونحوه غير مغفور، و﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فهو تحت المشيئة، ليس مغفورًا ولا مؤاخذًا به، بل هو تحت المشيئة، ثم إننا نقول: كل شيء قيده الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، فإن اقتضت الحكمة شاءه، وإن لم تقتضه فإنه لا يشاؤه؛ لأن فوات الحكمة سفهٌ، والله تعالى منزهٌ عنه، ويدل لهذا القيد: أن كل ما قيده الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وأعقبها بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فبيَّن أن مشيئة الله تابعة لعلمه وحكمته.

ثم قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ من يشرك بالله أعظم مخطئ يعني: من يشرك بالله في ربوبيته أو في عبادته أو في أسمائه وصفاته فقد افترى إثمًا عظيمًا، أي: كذب كذبًا عظيمًا أو كذب كذبًا يستحق به الإثم العظيم؛ لأن أعظم ذنب كما قال النبي ﷺ: **«أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وهُوَ خَلَقَكَ»**(1) كيف تجعل لله ندًّا وهو خلقك؟ هذا أعظم شيء ترتكبه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها: عظم الشرك، وأن الله تعالى لا يغفره؛ لأنه أعظم ذنب، فقد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦).

سُئل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أيُّ الذنب أعظَم؟ قَالَ: «أنْ تجْعَلَ لله ندًّا، وَهوَ خَلَقَكَ».

٢ـ **ومنها**: إثبات الأفعال الاختيارية لله ـ عز وجل ـ ومعلوم: أن كثيرًا من المعطلة: الأشاعرة والمعتزلة ونحوهم ينكرون أن يقوم بالله فعلٌ متعلق بإرادته؛ لأنهم يقولون: إن الأفعال المتعلقة بالإرادة حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، ولا شك أن هذا كذب، كذبٌ في التَّصور؛ لأن الشيء الحادث يمكن أن يقوم بأزلي، كما أن الشيء الحادث الذي حدث اليوم يمكن أن يقوم بمخلوق خُلق قبل خمسين سنة، فلا يلزم من حدوث الفعل أن يكون الفاعل حادثًا.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما دون الشرك تحت المشيئة؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وليس مجزومًا بمغفرته، ولا مجزومًا بالمؤاخذة عليه؛ لأنه تحت المشيئة ويتفرع على هذه الفائدة: ردُّ كلام المسوفين، الذين يفعلون ما يفعلون من المعاصي ثم يقولون: إن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، فنقول له: ما الذي أدراك أن تكون أنت ممن شاء الله أن يغفر له، هل تعلم؟! من الممكن أن تكون أنت المخاطب، يعني: لو فرضنا أن عملك المعصية يمكن أن يُغفر، لكنه ليس بمتيقَن، فالمعصية مفسدة ظاهرة حاصلة، ومغفرتها مصلحة، لكنها تحت المشيئة، قد تحصل وقد لا تحصل.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب توحيد الله، لكون الشرك لا يُغفر، ويلزم من ذلك أن يكون توحيد الله ـ تعالى ـ واجبًا وأوجب الواجبات في ذاته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، فيجب أن يوحَّد الله ـ عز وجل ـ في هذا كله.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المشرك مفترٍ على الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن هذا الكذب من أعظم الكذب؛ لقوله: ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فهو ضالٌّ في دينه وهو أيضًا مفترٍ في قوله؛ حيث افترى على الله إثمًا عظيمًا.

٧ ـ **وفي الآية الكريمة**: إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، ولكنَّا قد نبهنا في التفسير على أن كل شيء علَّقه الله بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة، واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أنه شاملٌ للشرك الأصغر والشرك الأكبر، وبذلك صرَّح شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الاختيارات»: أن الشرك لا يغفره الله، ولو كان أصغر، ولكنه يجب أن نعلم أنه ليس معنى قولنا: إن الشرك الأصغر لا يغفر، أن

صاحبه مخلد في النار، بل يعذب على قدر عمله، ثم يدخل الجنة، أما الشرك الأكبر فلا يُغفر، وصاحبه مخلد في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٤٩، ٥٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، الاستفهام هنا للتعجب والتقرير، أي: لو تتعجب من حال هؤلاء القوم، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إما لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والخطاب الموجه إليه موجه للأمة عن طريق الفرع؛ لأن الأمة فرع. وقيل: إن الخطاب موجه لكل من يتأتى خطابه، أي: لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، وأيها أعم؟ الثاني أعم، لكن القولين لا يتنافيان؛ لأنه حتى لو قلنا: إن أصل الخطاب للرسول ﷺ فخطاب الزعيم خطاب له ولمن تبعه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ جواب الاستفهام محذوف، يعني: أتحصل لهم التزكية؟ هذا المعنى؛ لأنه إذا جاء مثل هذا الكلام، فلابد أن يكون هناك جملة استفهامية إما مذكورة، وإما محذوفة.

وقوله: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ أي: ينسبونها للزكاء، وهو ضد الشقاء، والمراد بهؤلاء: كل من زكَّى نفسه، وأول من يدخل في ذلك اليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وهذه تزكية، وقالوا: ﴿يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، فزكُّوا أنفسهم في العمل والجزاء عليه، زكوا أنفسهم بالعمل حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وزكوا أنفسهم بالثواب عليه، حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وزكوا أنفسهم أيضًا من وجه آخر وهو الجزاء، قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، ومن كان مثلهم، يعني: من زكَّى نفسه فإنه آخذ بنصيب من مشابهتهم، فمن قال: أنا وليٌّ أو أنا تقيٌّ أو ما أشبه ذلك، فقد زكَّى نفسه، ولاسيما ما يحصل من بعض مشايخ الصوفية الذين يُغرون الناس، ويقولون: نحن أولياء ونحن أصفياء، وما أشبه ذلك، فهم يزكُّون أنفسهم من أجل أن يغترَّ الناس بهم.

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، ﴿بَلِ﴾ هنا للإضراب الإبطالي أم الانتقالي؟ الإبطالي؛ لأن التقدير: ألم تر إلى الذين يذكون أنفسهم أتحصل لهم التزكية؟ الجواب: لا، لا تحصل لهم التزكية، ولو كان كل من زكَّى نفسه حصلت له التزكية لكان أخبث الناس يزكي نفسه، فالآن الذين يعبدون الأوثان، ويعبدون البقر، ويعبدون الأشجار، ويعبدون أي شيء يقولون: نحن الذين على حق، فيزكون أنفسهم، لكن التزكية إلى الله، ولهذا أبطل هذه التزكية كلها، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فـ (بل) هنا: للإضراب الإبطالي، و(بل) تأتي للإضراب الإبطالي، وتأتي للإضراب الانتقالي، انظر إلى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾، هل هذا إضراب إبطالي أو انتقالي؟ انتقالي أي: ينتقل من شيء إلى آخر، والشيء الأول باقٍ، لكن ينقل بهم الحال إلى أن يصلوا إلى هذا الحد، فالحاصل: أن الإضراب يكون إبطاليًّا ويكون انتقاليًّا.

وقوله: ﴿يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ هو الذي يزكي - سبحانه وتعالى -، وهو الذي يثني، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ فأعطى الله تعالى التزكية لهؤلاء كلٌّ بحسب حاله وقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ فأعطى هؤلاء نصيبهم من الزكاة، وهؤلاء نصيبهم، ثم زكَّى الجميع بوجه عام فقال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هذه هي التزكية، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، فالله تعالى هو الذي يزكي، وكذلك رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يزكي أيضًا قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذين يَلُونَهم ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[1]، ومَنْ زكَّاه الرسول ﷺ فهو زكيٌّ؛ لأن النبي ﷺ في مثل هذه الأمور لا ينطق إلا عن وحي.

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هذا تابع للحكمة أيضًا، فكل فعلٍ مقيد بالمشيئة فهو تابع للحكمة، فيزكي - عز وجل - من كان أهلًا للزكاة، سواءٌ كان الزكاة بعد العمل أو قبل العمل، فالتزكية بعد العمل كما في الآيات السابقة، والتزكية قبل العمل أن يهب الله للإنسان العمل الصالح، فإنه كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته، فهو يعلم حيث يجعل أثر هذه الرسالة، وهي الإيمان والعمل الصالح، فتزكية الله: تزكية قبل العمل وتزكية بعد العمل، وهو - سبحانه وتعالى - يزكي من يشاء قبل العمل وبعده، وإذا قلنا: إن المشيئة تابعة للحكمة، فإنه لن يزكي إلا من كان أهلًا للزكاة، و ﴿مَن﴾: اسم موصول لفظه مفرد.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣).

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الواو للجماعة، وهنا عاد الضمير إلى ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: من زكاهم الله - عز وجل - أو لا يظلمون من زكوا أنفسهم، فلن يعاقبوا إلا على حسب أعمالهم السيئة، وسواءٌ هذا أو هذا فإن الله لا يظلم أحدًا، فلا يزيد من سيئاته ولا ينقص من حسناته، والفتيل قيل: إنه الفتيل الذي باطن النواة، و(النَّواة) فيها ثلاثة أشياء كلها مذكورة في القرآن: القِطْمِير - النقير - الفتيل، القمطير: السرب الذي عليها، والنقير: النقرة التي في ظهرها، والفتيل: الخيط الذي في باطنها، وقيل: إن الفتيل: ما تفتله بين أصابعك، إذا كنت عرقان، فإن الإنسان إذا كان عرقان وفتل هكذا طلع شيء، وكذلك إذا حكَّ صدره أو ظهره ظهر الفتيل، لكن الأول هو المشهور وهو يضرب مثلًا في القِلة.

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإنكار على من يزكي نفسه، وجه ذلك أن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام إنكاري.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** النهي عن تزكية النفس؛ لأن الله تعالى أنكر ذلك كما صرح به في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]. ومن فروع هذا قول الإنسان: أنا مؤمن، فهل يجوز للإنسان أن يقول أنا مؤمن، أم لابد أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، في هذا أقوال للعلماء:

منهم مَنْ قال: لا يجوز أن يقول أنا مؤمن إلا باستثناء؛ لأن الإنسان لا يدري بماذا يموت عليه، لأن العبارة بالعاقبة، فقد يكون الإنسان اليوم مؤمنًا، ويكون غدًا كافرًا، ولا يجوز الجزم بشيء مستقبل.

ومنهم من قال: لا يجوز أن يقول أنا مؤمن لا لهذه العلة، ولكن لأنه يلزم من قوله هذا تزكية النفس، والشهادة لنفسه بالجنة، لأنه إذا قال: أنا مؤمن، فكل مؤمن في الجنة فيلزم على هذا أنه من أهل الجنة، وهذا لا يجوز.

ومنهم من علل بعلة ثالثة وقال: إن الإيمان على وجه الإطلاق يُراد به: الإيمان المطلق المتضمن لفعل الواجبات وترك المحرمات، وفعل المستحبات وترك المكروهات، وهذا لا يمكن أن يجزم به العبد، فما أكثر المستحبات التي لا نفعلها بل والواجبات وما أكثر المكروهات التي نفعلها بل والمحرمات؛ وعلى هذا فيجب أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

وقال آخرون: لا يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن هذا شك، والشك في الإيمان كفر، إذ إن الواجب في الإيمان الجزم، والتردد فيه كفرٌ.

ولكن القول الراجح في هذه المسألة أن يقال: ما الحامل على قول الإنسان أنا مؤمن، وعليه يترتب الحكم، فإذا كان الحامل له تزكية النفس فهذا القول حرام، لأن الله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، ثم إن هذا فيه الإدلال على الله والمنة عليه، والله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ

أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فإذا كان قول المؤمن للإعجاب بالنفس فهذا لا يجوز؛ لأنه تزكية للنفس، ومنهي عنه، فيكون حرامًا، وإن كان المقصود بذلك الخبر يعني بقوله أنا مؤمن لست بكافر فهذا لا بأس به، وقد قال النبي ﷺ للقوم الذين لقيهم في طريقه إلى الحج: «مَنِ القَوْمُ؟» قالوا: المسلمون، فأقرهم النبي ﷺ على ذلك، لأنهم يريدون بذلك الخبر، فإذا قال الإنسان: أنا مؤمن أي: لست بكافر فلا بأس، ولا يلزم على ذلك اللوازم التي ذُكرت من منع قوله: أنا مؤمن.

أما إذا قال: إن شاء الله بمعنى إذا ربط الإيمان بالمشيئة، فهذا ينظر أيضًا فيه التفصيل التالي:

الأول: إن قصد به التردد فهو كفر، يعني: إذا قيل له أنت مؤمن قال: إن شاء الله، وهو متردد فهذا كفر؛ لأنه لا إيمان مع شك، بل لابد من الجزم.

الثاني: إذا كان الحامل له على ذلك أن إيمانه كان بمشيئة الله لا بحوله ولا قوته فهذا لا بأس به؛ لأن الشيء المحقَّق قد يُربط بالمشيئة إشارة إلى أنه يكون واقعًا بمشيئة الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: لتدخلنه بمشيئته؛ لأن الجملة هنا خبر مؤكد بثلاث مؤكدات، ورسول الله ﷺ لما قال له عمر ألست تقول إننا سنأتي البيت ونطوف به قال له النبي ﷺ: «أَقُلْتُ لَكَ هَذَا العَامَ؟» قال: لا، قال: «إِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ»[1]، قال ذلك في المحاورة بينه وبين عمر في مسألة الصلح - صلح الحديبية -، ومن ذلك أيضًا قول زائر المقبرة: وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، فإن اللحوق بهم مؤكد، فالموت لا أحد ينكره، لكن المراد بـ (إن شاء الله) أي: لاحقون بمشيئة الله، أي: متى شاء الله أن نلحق بكم لحقنا بكم.

الثالث: إذا كان قصده بـ (إن شاء الله) دفع التزكية، أي: دفع تزكية النفس، وأنه يخشى على نفسه إن لم يقل إن شاء الله صار في نفسه شيء من التزكية فهنا يكون قول إن شاء الله واجبًا.

الخلاصة : أن قول الإنسان: أنا مؤمن، إما أن يقرنه بالمشيئة، أو لا يقرنه، فإن لم يقرنه بالمشيئة فله حالتان:

الحالة الأولى: التزكية وهذا حرام.

الحالة الثانية: مجرد الإخبار بأنه مؤمن لا كافر، وهذا جائز.

وإذا قرنه بالمشيئة فله ثلاث حالات:

الأولى : إما أن يكون الحامل له على ذلك التردد، فهذا كفر.

الثاني : أن يكون الحامل له على ذلك بيان أن إيمانه بمشيئة الله فهذا جائز؛ لأنه حق.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٤)، وأبو داود (١٧٥٤)، والنسائي (٢٧٧١).

الثالث :أن يكون الحامل له على ذلك دفع التزكية، فهذا واجب.

وهذا هو التفصيل الذي تجتمع به الأدلة.

٣- ومن فوائد الآية: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ أن تزكية الغير لا بأس بها؛ لأن النهي أو الإنكار منصبٌّ على تزكية النفس، أما لو زكَّى غيره فإن ذلك لا بأس به.

وهنا نسأل هل يزكي غيره بمجرد المظهر أو لابد من خِبرة؟ نقول لابد من خبرة ولا يكفي أن ترى مظهر الشخص وتقول: إنه عدل ثقة، بل لابد من خبرة؛ لأنه قد لا يكون عدلًا، فقد يكون مرائيًا أو مخادعًا أو منافقًا، وربما يكون عدلًا في دينه لكن عنده سوء حفظ، فإذا زكيته فيما يتعلق بالخبر، كالشهادة مثلًا دون أن تَخبره صار ذلك شهادة بما لا تعلم.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأمر إلى الله - عز وجل - في تزكية الإنسان ورفع التزكية عنه، تُؤخذ من قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، فالحكم بالتزكية إثباتًا أو نفيًا إلى الله وحده هو الذي يزكي من يشاء.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٩، ١٠].

الجواب: أن نقول: إن كان الفاعل في قوله: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ هو الله فلا إشكال؛ لأن المزكِّي هو الله في هذا وفي هذا، وإن كان الضمير الذي هو الفاعل يعود على الإنسان، يعني: قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دساها أي: دس نفسها، فالجمع أن نسبة التزكية إلى الإنسان هنا نسبة شيء إلى سببه، لا إلى حصوله، فالإنسان يفعل الطاعة فيكون زاكيًا فمن الفاعل؟ الإنسان، فيكون المراد بالتزكية فعل سببها، وعلى هذا فلا إشكال أيضًا.

٥- من فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي بل يجب على الإنسان أن يلجأ في طلب التزكية إلى الله؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، فأنت إذا علمت أن الله هو الذي يزكي فاسأل الله ذلك، ولهذا كان من الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(١).

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الردُّ على القدرية الذين يقولون باستقلال الإنسان في عمله، يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

٧- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله عز وجل، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وأن الله - سبحانه وتعالى - له مشيئة، يدبر الأمر بحسب هذه المشيئة، ولكن هل هذه المشيئة مطلقة، يعني: يشاء ما يشاء لحكمة ولغير حكمة؟ الجواب: لا، ولكنها مشيئة مقرونة بالحكمة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، والترمذي (٣٥٧٢)، والنسائي (٥٤٥٨).

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: نفي الظلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، والظلم محرم على الله أو غير محرم؟ محرم، ومَنْ حرمه الله عليه؟ هو نفسه سبحانه، ففي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرَّمًا»(١)، وفي هذا نكتة جيدة: أن الله يفرض على نفسه ويحرم على نفسه؛ لأن الله هو الذي يدبر الأمر، قال الله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، (كتب) بمعنى: فرض، أي: فرض الله على نفسه، وهنا في الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي»، فإذا قال قائل: هل في صفات الله ما هو نفي محض، أو كل نفي في صفات الله هو متضمن لإثبات؟ الثاني، فكل نفي في صفات الله هو متضمن لإثبات.

فقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، ذلك لأن الله كامل العدل، ومن كان كامل العدل فإنه لا يظلم فتيلًا. قال أهل العلم: ولا يمكن أن يكون في صفات الله نفي محض، لا يتضمن مدحًا، وعللوا ذلك فقالوا: النفي إن لم يتضمن كمالًا فقد يكون نقصًا وقد يكون لا نقصًا ولا كمالًا.

فالأقسام ثلاثة: (نقصٌ)، و(كمالٌ)، (لا هذا ولا هذا)؛ فالنقص والذي لا هذا ولا هذا ممتنع على الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فإن قال قائل: نريد مثالًا لنفي الظلم الذي ليس فيه مدح ولا ذم.

الجواب: إذا قلت: إن الجدار لا يظلم، والخشبة لا تظلم، والسيارة لا تظلم، هذا لا يتضمن مدحًا كمالًا ولا نقصًا؛ لأنه غير قابل أن يوصف بالظلم أو عدمه، إذ إن الجدار ليس له إرادة حتى يظلم أو لا يظلم، وإذا قلت: مثِّل لنا بمثال يكون فيه نفي الظلم نقصًا؟ قلنا: قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لاَ يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلاَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

هذا الكلام لا يغدرون بذمة يعني: عندهم وفاء، ولا يظلمون الناس حبة خردل: عندهم عدل، فيقال إن الشاعر لم يقصد ذلك، وإنما قصد بيان ضعفهم وعجزهم بدليل أنه قال (قُبَيِّلة) تصغير قبيلة، وكذلك قول الحماسي:

لكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِ في شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

يعني: إذا ظلمهم أحد صبروا وغفروا وقالوا: غفر الله لك، (ومن إساءة أهل السوء إحسانًا) يعني: إذا أساء إليهم إنسان أحسنوا إليه، فإذا خرَّب عليهم المزرعة أرسلوا إليه أكياسًا من البرِّ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

فهم يجزون من سوء أهل السوء إحسانًا، من يسمع هذا الكلام يقول: هؤلاء الجماعة طيبون، لكن قال بعده:

فَلَيتَ لي بِهِم قَومًا إِذا رَكِبوا شَنّوا الإِغارَةَ فُرسانًا وَرُكبانا

يعني: ليت لي بدلًا منهم، إذنْ هم ضعفاء لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك فهذا نقص، فإذا نفى الله عن نفسه الظلم، فلا يمكن أن يكون من هذا ولا من الذي قبله، ولكنه نفي الظلم المتضمن لكمال العدل.

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ (انظر) الخطاب لمن؟ إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصح توجه الخطاب إليه، وبالمناسبة نستعيد ما سبق أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما دل الدليل على أنه خُص به فهذا خص به، مثل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، (لك) الخطاب للرسول ﷺ هل يشمل الأمة؟ الجواب: لا، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، و﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ هل يشمل الأمة؟ لا يشمل، ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، لا يشمل، وهذا واضح أنه بالرسول ﷺ بلا نزاع ولا إشكال.

القسم الثاني: ما دل الدليل على أنه عام مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، فهنا دل الدليل على أن الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ليس خاصًّا به، وجه الدلالة أن قال الله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ولم يقل - إذا طلقت -.

القسم الثالث: ما لا دليل عليه أي: على الخصوصية أو على العموم، فالعلماء اختلفوا فيه على قولين:

القول الأول: أنه عام موجه لكل من يصح توجه الخطاب إليه.

والقول الثاني: أنه خاص بالرسول ﷺ ويكون شموله للأمة من باب العموم المعنوي، لا العموم اللفظي، وذلك لأن الحكم الثابت في حق الرسول ﷺ حكم له وللأمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

إذن قوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ من أي الأقسام؟ نقول: من الثالث الذي ما فيه الدليل لا على هذا ولا على هذا، والمراد بالنظر هنا: النظر العقلي لا النظر البصري؛ لأن افتراء الكذب على الله - عز وجل - ليس مما ينظر بالعين، ولكنه مما ينظر بالعقل، وعين البصيرة، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بقوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وبقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وبقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾. فانظر كيف يفترون على الكذب، وكيف جرأتهم على الله، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: بالافتراء ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾، هذه الجملة في معنى التعجب، يعني: ما أكفر هذا الإثم

وهو الافتراء على الله؛ لأن الافتراء على الله أعظم افتراءً على مفترىً عليه، وإذا كان النبي ﷺ يقول: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، فالكذب على الله أشد وأعظم.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، (مبينًا) هنا بمعنى: بيِّنًا، وقد ذكرنا فيما سبق: أن (أبان) الرباعي يأتي لازمًا ويأتي متعديًا، فإن كان متعديًا فمعناه الإظهار فـ (أبان) أي: أظهر، وإن كان لازمًا فمعناه الوضوح؛ تقول: أبان الفجر، هذا لازم ومعناه وَضَحَ وتبيَّن، وتقول: أبان القرآن أن الكذب حرام بمعنى بيَّن وأوضح. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ من أي النوعين؟ يشمل هذا وهذا، فهو بيِّن في نفسه، مبيِّنٌ لغيره.

١ـ في هذه الآية الكريمة من الفوائد: دعوة الإنسان إلى العجب فيما يتعجب منه، وأن هذا من طرق القرآن، لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: تعظيم الكذب على الله؛ لأنه لم يأمر بالتعجب منه إلا لأنه شيء عظيم، والكذب على الله يشمل الكذب عليه في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله وفي أحكامه، وإن شئت فقل: في أحكامه الكونية والشرعية، فالكذب على الله في ذاته مثل أن يتحدث الشخص عن ذات الله ـ عز وجل ـ فأي إنسان يتحدث عن ذات الله بغير علم فهو كاذب على الله، والكذب على الله في أسمائه مثل ما فعل المعطلة في قولهم أن أسماء الله مجرد أعلام لا معنى لها، فيقول الغفور الرحيم السميع البصير العزيز الحكيم ليس لها معنى، ما هي إلا مجرد أعلام فقط لا دلالة على المسَمَّى بها ولا تحمل أي معنى، هذا كذب على الله، كيف تقولون: إنها مجرد أعلام والله عز وجل: يقول في القرآن إنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، ومقتضى هذا اللسان العربي المبين: أن اسم الفاعل يدل على أصل المعنى وثبوته أصلًا، ولا يمكن أن يقال لمن لم يضرب أنه ضارب، ولا لمن لم يسمع أنه سميع، ثم إن الله قد بيَّن أن هذا المعنى مقصود في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾، وأمثال ذلك، فهؤلاء الذين قالوا: إن الله أراد بأسمائه مجرد التسمية دون المعنى هم مفترون على الله الكذب.

كذلك في صفاته من حرَّف في صفات الله وقال: إن المراد بالاستواء: الاستيلاء، فهذا مفترٍ على الله الكذب فالله ـ عز وجل ـ يقول عن نفسه: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والقرآن بلسان عربي مبين، واستوى على كذا في اللسان العربي أي: علا واستقر عليه، فإذا قالوا: (استوى) بمعنى: (استولى) فقد كذبوا على الله، فهل أراد الله هذا؟ أبدًا، نحن نجزم أن الله لم يرده، وجزمنا؛ لأن الله قال في القرآن الكريم: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، واللسان العربي المبين لا يقتضي سوى ذلك أنه علا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣).

عليه واستقر عليه، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، يعني: صيرناه باللسان العربي لماذا؟ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمون معناه على مقتضى هذا اللسان العربي.

والذين يقولون: هذا حرام وهذا حلال بدون علم، قد افتروا على الله كذبًا؛ لأن مَنْ أدراهم أن الله حرمه أو أوجبه، ولهذا كان من ورع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ كما نقله عنه شيخ الإسلام: أنه لا يمكن أن يقول هذا حرام إلا بما نُص على تحريمه، فالميتة يقول: إنها حرام؛ لأنه حكم منصوص عليه، ونكاح الأم يقول: إنه حرام؛ لأنه منصوص عليه، أما الذي هو نهيٌ تجده يقول: أكره هذا ولا يعجبني أو أستقبحه وما أشبه ذلك. ومع هذا قد حفظ الله له هذا الطريق قال أصحاب الإمام أحمد: إذا قال الإمام أحمد: لا يعجبني فهو للتحريم، وإذا قال أكره هذا أيضًا للتحريم، فالله - سبحانه وتعالى - قد حفظه فيما يريد من الأحكام مع تورعه عن إطلاق الحرام إلا على ما كان مصرح به. فما بالك بمن يقول الآن قال: الإسلام وكذا وكذا، ومع ذلك تجده من أجهل الناس بأحكام الإسلام، ثم ينسب هذا القول الذي قاله - وهو خطأ - إلى الإسلام، وإذا تبين للناس أنه خطأ فسوف يُخطِّئُونَ الإسلام. فالحاصل: أن الافتراء على الله كذبًا يشمل الكذب عليه في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أحكامه الكونية والشرعية: الشرعية الحلال والحرام، الكونية كأن يقول: إن جزاء هذا الذنب كذا وكذا من العقوبات بلا علم، مثل أن يقول: إذا نهر الإنسان والديه تزلزل العرش، والذي يقول هذا العامة، أو إذا ركب الذكر على الذكر اهتز العرش تزلزل العرش، فأي إنسان يحكم بعقوبة معينة على ذنب بدون علم فقد افترى على الله الكذب.

٣ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: عِظَم ذنب الكذب على الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، يعني: ما أعظمه وما أكفره إذا افترى على الله الكذب أن يأثم هذا الإثم.

والإعراب لهذه الجملة: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهي ترد في القرآن كثيرًا مثل قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وهنا فاعل (كفى) في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، يكون مجرورًا دائمًا أو غالبًا، فيكون مدخول الباء هو الفاعل بزيادة الباء، ويأتي بعد ذلك الاسم منصوبًا، فيقولون: إنه تمييز، وبعضهم يعربه حالًا، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: حال كونه شهيدًا، وبعضهم يرى أنه تمييز للكفاية؛ لأن الكفاية عندما تكون في أي شيء يُميز ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وما أشبه ذلك.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، تنبيه المخاطب على ما يقتضيه أهل الباطل من الزيغ والضلال، لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عظم ما يحصل لهؤلاء من الإثم، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن إثم هؤلاء بيِّنٌ ظاهر، ووجه ظهوره وبيانه: أنه إذا كان الإنسان - بدلالة العقل - لا يمكن أن يتقوَّل على أحد شيئًا وهو من جنسه، فتقوُّله على الله من

باب أعظم وأشد، ولهذا قال الله تعالى في رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

مسألة: قلنا: إن قول الإنسان: أنا مؤمن قد يحتمل التزكية وغيرها، هل من ذلك لو كان يتكلم عن أهل البدع أو الجماعات المنحرفة فقال: يلزمون مثلًا أنهم أهل السنة والجماعة، بل نحن أهل السنة والجماعة فهل هذه تزكية؟

الجواب: ماذا كان في قلبه؟ هل مراده أن يخبر بأنه هو من أهل السنة والجماعة، أو يريد أن يتفاخر على أهل البدع، إذا كان المراد أن يجمع الناس إلى قوله فهذا خبر وليس تزكيةً.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء:٥١-٥٤]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، يقال في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كما قيل في الآية التي قبلها أن الاستفهام للإنكار والتعجيب، يعني: يتعجب من حال هؤلاء وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: أعطوا نصيبًا، و(آتى) تنصب مفعولين، الأول منهما: نائب الفاعل، وهو الواو، والثاني (نصيبًا)، وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ أي: أعطوا قسطًا، ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾، أي: الكتاب المنزل على الرسل، وهنا جملة معترضة يقول: سيرى الإنسان قسطًا من الكتاب المنزل على الرسل، فمن المراد بهؤلاء؟ المراد بهؤلاء اليهود، لأن الله آتاهم نصيبًا من الكتاب وهو التوارة، وهو المعطي علم كل شيء، ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وهذا محل التعجب، أنهم أعطوا نصيبًا من الكتاب، وقامت عليهم الحجة ومع ذلك يؤمنون بالجبت ويؤمنون بالطاغوت، والجبت: كل ما لا فائدة فيه في الدين فإنه جِبت، ومنه السِّحر، والكهانة، والطَّرْق والعيافة، وما أشبه ذلك فإن هذه كلها من الجبت.

وأما الطاغوت: فهو كل ما طغى به الإنسان فهو طاغوت، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، فأئمة الكفر ودعاة الكفر طواغيت، والشيطان طاغوت، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: (الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)(١)، يعني: أن السحر فرد من أفراد الجبت، والشيطان فرد من أفراد الطاغوت، وإلا فإن التعريف العام للشيطان ما ذكره ابن القيم رحمه الله: (كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع). ومعنى إيمانهم به: إقرارهم إياه، وعدم إنكاره.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، قال بعض المفسرين: إن (اللام) هنا بمعنى (في) أي: يقولون في شأنهم، (هؤلاء) أي: الذين كفروا (أهدى من الذين آمنوا سبيلًا).

وقيل: إن (اللام) كقولك: قلت لفلان أي: هي اللام المعدية للفعل، وأن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى (أنتم) يعني: يقول هؤلاء للذين كفروا: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلًا، وعلى هذا تكون إشارة في مقام ضمير المخاطب، لأنك إذا قلت لفلان كذا صار فلان مخاطبًا فلابد أن يُؤتى بضمير المخاطَب، و(هؤلاء): اسم إشارة ليس ضمير مخاطب، لكن قول: إنها بمعنى (أنتم) وهذا ما مشى عليه الجلالين.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد بالذين كفروا أهل مكة؛ لأن طائفةً من اليهود قابلوا أهل مكة، فقال لهم أهل مكة هذا محمد فرق بيننا وبين أبنائنا وبيننا وبين غلماننا، وبيننا وبين أزواجنا، وفرق بيننا وبين العرب، وسب آلهتنا، وسفه أحلامنا، أما نحن فإننا أهل البيت نسقي الحجيج، ونفعل كذا وكذا، فأينا أهدى أنحن أم محمد؟ فاليهود انتهزوا هذه الفرصة وقالوا: أنتم أهدى من محمد؛ لأنهم لا يريدون أن يقوم للنبي ﷺ قائم، ويحسدونه، فانتهزوا هذه الفرصة أن يسألهم قومٌ هم شيعة محمد ﷺ وقرابته، فقالوا هذا الكلام وقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا، و﴿سَبِيلًا﴾ هنا تمييز؛ لأنها وقعت بعد اسم التفضيل، والمنصوب بعد اسم التفضيل يكون تمييزًا.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا، وقالوا للكفار: أنتم خيرٌ وأنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلًا، وهذه الجملة تفيد الحصر لتعريف طرفيها المبتدأ والخبر، فالمبتدأ: (أولاء) وهو اسم إشارة معرفة، والخبر: (الذين) وهو اسم موصول معرفة. ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ـ والعياذ بالله ـ ﴿وَمَن يَلۡعَنِ

---

(١) سنده قوي: أخرجه البخاري تعليقا (٨/ ٢٥٠-فتح الباري) وقال الحافظ: «وصله عبد بن حميد في تفسيره ومسدد في مسنده وعبد الرحمن بن رستة في كتاب الإيمان كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله وإسناده قوي».

﴿اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾، ﴿مَن﴾ هنا اسم الشرط، و﴿يَلْعَنِ﴾ فعل الشرط مجزوم بها، ولكنه حُرِّك بالكسر للالتقاء الساكنين؛ والمعنى: لن تجد له من ينصره، فيقربه من رحمة الله، ويدخله فيها؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له.

يستفاد من الآية الأولى فوائد:

١ـ **منها:** التعجيب من حال هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك ينكرون ما دل عليه الكتاب.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قبح صنيعهم؛ حيث إن الله تعالى قد أعطاهم نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك قالوا للكفار: إنهم أهدى من المؤمنين، ومعلوم أن من حكم بخلاف ما يعلم فهو أقبح ممن حكم بما لا يعلم، والكل قبيح، لكن الأول أشد.

٣ـ **ومن فوائدها:** بيان حقد اليهود على المؤمنين.

٤ـ **ومن فوائدها:** أنهم يؤمنون بالجبت، ويؤمنون بالطاغوت، ولا ينكرون الجبت، ولا الطاغوت بل يقرونه.

٥ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن أصل السحر متلقىً من اليهود؛ ولهذا سحروا النبي ﷺ فإن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ بسحر عظيم، ولكن الله تعالى حمى نبيه ﷺ من أن يؤثِّر فيه ذلك التأثير الذي كانوا يريدونه.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن اليهود أهل الحسد؛ لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن محمدًا أهدى من المشركين؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكن لما امتلأت قلوبهم من حسده صاروا يفضلُّون الكفار عليه وعلى من اتبعه.

٧ـ **ومن فوائدها:** تأثير الدعاية؛ بلبس الحق بالباطل، وإلا فمن المعلوم: أن الكافر ليس فيما يذهب إليه هداية إطلاقًا، ومع ذلك قالوا: إنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلًا.

٨ ـ **ويتفرع على هذه الفائدة:** ما عليه بعض الناس اليوم من قولهم: إن الكفار أوفى بالعهد من المؤمنين، وأنهم أخلص من المؤمنين وأنصح، وما أشبه ذلك، فمن قال هذا في المسلمين فإن فيه شبهًا من اليهود، ونحن لا ننكر أن في المسلمين مَنْ خالف طريق الإسلام بعدم الصدق في القول، وعدم الوفاء بالعهد وعدم الوفاء بالوعد، وعدم النصح في العمل، ولكن كل هذه الأخلاق حذَّر منها النبي ﷺ أشد التحذير، فهي أخلاقٌ دخيلة على الشعب المسلم، وسببها ما كان عليه هؤلاء من النقص في العلم والنقص في الإيمان.

٩ـ **ومن فوائدها:** تحريم تفضيل الكفار على المؤمنين؛ لأن الله تعالى أنكره؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى آخره.

أما فوائد الآية الثانية:

١- منها: بيان أن كل مَنْ قال مثل هذا القول فإنه مستحق اللعنة؛ لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، وأحكام الله - سبحانه وتعالى - الشرعية والجزائية لا تتعلق بالأشخاص أبدًا، فإذا استحق هؤلاء اللَّعن بإيمانهم بالجبت والطاغوت، وقولهم للذين كفروا: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلًا، فمَنْ جرى مجراهم استحق ما يستحقون من العقاب.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ لعنه الله فلا ناصر له؛ لقوله: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من التعرض لِلَعْنَةِ الله؛ لأن الإنسان إذا تعرَّض للعنة الله وحقتْ عليه لن يجدَ مَنْ ينصره.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، ﴿أَمْ لَهُمْ﴾؛ الإعراب: (أم) بمعنى (بل)، والهمزة للاستفهام، ففيها إضراب عما سبق، وقيل: إنها للاستفهام فقط، لكنه خلاف مشهور عند النحويين، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ يعني: بل ألهم نصيب من الملك حيث يريدون أن يحولوا بين النبي ﷺ وبين ما أعطاه الله من النبوة التي يكون بها ملك مشارق الأرض ومغاربها، يعني: هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام وفضَّلوا طريق الكفار على طريق المؤمنين هل لهم نصيب من الملك بحيث يمنعون فضل الله - سبحانه وتعالى - على نبيِّه، ويجعلون الفضل لهؤلاء الكفار؟ يقول عز وجل: ﴿فَإِذًا﴾ يعني: لو كان لهم نصيب من الملك، قوله: ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: لا يعطون الناس، والناس مفعول أول لـ (يأتون)، و(نقيرًا) مفعول ثانٍ، والنقير: هو النقرة التي على ظهر النواة، وهو يُضرب به المثل في القلة، يعني: لو كان عند هؤلاء ملك، ولهم نصيب من الملك فإنهم لبخلهم لا يأتون الناس نقيرًا؛ لأن اليهود من أشد الناس بخلًا وأشدهم طمعًا وحرصًا على المال. إذنْ معنى الآية: هل لهؤلاء نصيب من الملك حتى يحاولوا أن يمنعوا فضل الله على رسوله وأن يجعلوا هذا الفضل لهؤلاء الكفار؟ الجواب: لا. ولو قدر أن لهم نصيب من الملك فإنهم لن يعطوا أحدًا منه شيئًا، ولهذا قال: ﴿فَإِذًا﴾ يعني: لو أعطوا نصيبًا من الملك، ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، وما فوقه من باب أولى.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء اليهود الذين أرادوا أن يحولوا بين فضل الله على رسوله وبين رسوله، وأن يرحِّلوا هذا الفضل إلى هؤلاء الكفار ليس لهم نصيب من الملك، فالملك لمن؟ لله وحده.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن اليهود من أبخل الناس؛ لقوله: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، ﴿أَمْ﴾ نقول فيه كما قلنا فيها: إنها معنى: (بل)، وهمزة للاستفهام، قوله: ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، والحسد في تعريف أكثر العلماء: تمني زوال نعمة الله على الغير سواء أردت أن تكون لك أو أن تزول إلى غير أحد، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الحسد كراهة الحاسد ما أنعم الله به على غيره)، أي: أن يكره ما أنعم الله به على غيره بحيث إذا قيل له حصل له كذا اضطرب قلبه من كراهة ما حصل لهذا الرجل، وعلى هذا فيكون ما قاله الشيخ أعم مما قاله جمهور العلماء؛ لأن ما قاله جمهور العلماء لابد أن يتمنى أن يزيل الله هذه النعمة، أما هذا فيقول مجرد كراهته لها يعتبر حسدًا، ومن المعلوم: أن من كره شيئًا فسوف يتمنى أن يزول.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: أعطاهم من فضله، والفضل الذي أُعطيَه الرسول ﷺ القرآن الكريم، أو ما هو أعم من ذلك، فالإسلام كله والشريعة كلها من الفضل الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ، وهذا من أعظم ما آتاه الله رسوله ﷺ وهو النبوة والرسالة، ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، يعني: فإن فضلنا لم يزل موجودًا ليس هذا أول فضل تفضلنا به على عباد الله، بل إن الفضل لم يزل موجودًا، حيث قال: ﴿ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، والمراد بـ (آل إبراهيم) هنا: كل مَنْ تبعه على دينه، وهو أولهم عليه الصلاة والسلام، فقد آتاهم الله الكتاب وآتاهم الحكمة، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وأكثر الأنبياء الذين قصَّهم الله علينا من ذرية إبراهيم، فأكثرهم من بني إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والواحد الوحيد في آل إبراهيم الذي من ذرية إسماعيل محمد ﷺ، ولهذا كان أكثر الأنبياء الذين قصَّ الله علينا من بني إسرائيل، لكن هذا الواحد محمد ﷺ كان على الجميع، فدينه مهيمن على جميع الأديان، ورسالته خاتمة للرسالات، وأمته باقية إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، بمعنى المكتوب، والكتب المنزلة على الأنبياء كلها تُكتب باليد، وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي الصواب، فالقرآن صواب، والتوارة صواب، والإنجيل صواب، وكل ما جاءت به الرسل فهو صواب، ولهذا قيل: إن الحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: آتينا آل إبراهيم ملكًا عظيمًا، وأبلغ مثلًا في ذلك ما أعطاه الله تعالى سليمان عليه السلام، فقد آتاه الله ملكًا عظيمًا حتى إنه قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ حتى إن الشياطين المردة يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وحتى إن الشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، (بنَّاء) يبني على ظهر البحر بالبر، (غوَّاص) يغوص في البحر؛ ليأتي بالجواهر والدراري وكل ما يكون في البحر، والقسم الثالث: (مقرَّنون في الأصفاد)؛ لأنهم عصوا أمره فقرنهم في الأصفاد وحبسهم، فهذا ملك عظيم، وكذلك أيضًا سخر الله له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب يعني: حيث

أراد، (رُخاءً) يعني: بدون اضطراب وبدون مشقة، والمعروف: أن الريح يكون في قلق ومشقة وإن لم تحمل الإنسان، فضلًا عن إذا لو قدر أن هناك ريح تحمله لكان فيها القلق والاضطراب، ولكن الله جعلها رُخاءً مع أنها عاصفة، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾، لكن مع كونها عاصفة ليس فيها قلق، ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال العلماء: إنه إذا أراد أن يتجه إلى ناحية وضع بساطًا وجلس عليه هو وحاشيته ومن أراد أن يسافر معه، ثم أمر الريح فحملته فطارت بهم، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، وهذا من قدرة الله ـ عز وجل ـ ومن جملة الملك الذي أعطيه آل إبراهيم، وهذا لا شك أنه ملك عظيم حيث يسخر له الشياطين والرياح ولما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وكان عرشها في الجنوب في اليمن، وهم في الشمال في الشام، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وكان له حد معين يقوم فيه مثل بعد ساعة أو ساعتين، وما أشبه ذلك، وقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، يعني: مدَّ الطرف ثم ردَّه آتيك به، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، وقوله: (فلما)، الفاء تدل على الترتيب والتعقيب وأنه رآه فورًا، ثم رآه مستقرًا؛ كأن له عشرات السنين ولهذا جاءت كلمة (مستقرًا) ولم يقل فلما رآه عنده، لأن (رآه عنده) يحتمل إلى الآن لم يركد بعد، لكن (مستقرًا) كأنه جاء لبضع سنين قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وهذه الكلمة ينبغي أن تكون على كل لسان إذا أنعم الله عليك نعمة فقل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ لأن كثيرًا من الناس لا تحصل لهم هذه النعمة.

فوائد الآية الكريمة:

١ـ في هذه الآية الكريمة: بيان ما كان عليه اليهود من الحسد، وفيه إنكار الحسد؛ لأن الله ساق هذه الآية في الإنكار عليهم، وما حكم الحسد، هل هو من الصغائر أو من الكبائر؟

الجواب: هو من كبائر الذنوب؛ لأنه يأكل الحسنات، وهل يفيد الحاسد شيئًا؟ لا.

وفي الحسد مفاسد منها:

أولًا: أنه من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب لا تُغفر إلا بالتوبة.

ثانيًا: أنه اعتراض على قضاء الله وقدره؛ لأن كونك تكره أن يعطي الله هذا الإنسان شيئًا هذا اعتراض على الله؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ثالثًا: أن فيه عدوانًا على المحسود، وهذا في الغالب وليس دائمًا، قد يقوم في قلب الإنسان حسد لكن لا يعتدي على هذا المحسود لا بقول ولا بفعل، ولهذا جاء في الحديث: «إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ»[1]، فالحسد قد يقوم في قلب الإنسان، ـ والإنسان بشر ـ ولكن إذا أحسست

(١) ضعيف: أخرجه عبد الرحمن بن رستة في «الإيمان» عن الحسن مرسلًا، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٥٢٧).

به في قلبك فحاول طرده عن قلبك حتى يكون نزيهًا، فإن عجزت فأقل ما يلزمك ألا تبغِي على من حسدت، يعني: لا تعتدي عليه لا بقول ولا بفعل، فمن القول: أن يُتهم المحسود اتهامات ويُتقول عليه ما لم يقل أو يُحال بينه وبين أعماله، أو يُسبُّ عند كبرائه وأمرائه، أو يُسب - أيضًا - عند أصحابه وقرنائه، أو ما أشبه ذلك، وهذا اعتداء بالقول.

أما الاعتداء بالفعل فهو: أن يعتدي عليه بيده، حتى يحول بينه وبين ما آتاه الله من فضله، مثل: أن يُغرق ماله، أو أن يحرقه حتى لا يكون عنده مال؛ لأنه حسده على كثرة المال.

رابعًا: المشابهة لليهود، وبئس الخصلة عندما يكون فيها الإنسان مشابهًا لليهود.

خامسًا: أن الحاسد يكون دائمًا في قلق؛ لأن نعم الله على غيره تترى وتتابع، كلما تجددت نعمة على غيره نبغ في قلبه الحسد، فيكون دائمًا في قلق مستمر.

سادسًا: أن الحاسد في الغالب يستحسر، ويتصور أنه عاجز أن يلحق بالمحسود، فتجده يستحسر ولا يحاول أن يصل إلى الفضائل، لكن لو أعرض عن الناس زاده الله من فضله فهو على نعمة ولو حاول أن يسعى في النعم لسلم من هذا كله.

سابعًا: من مَضَارِّ الحسد - أيضًا - أنه يُنشيء العداوة والبغضاء بين الناس؛ لأن الحاسد في الغالب لا يخلو من عدوان، والعدوان على الغير يؤدي إلى العداوة والبغضاء قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخره.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره، وأن يعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فإذا علم ذلك اطمأن ولم يعترض على ربه - سبحانه وتعالى - فيما آتاهم من فضله.

٣- ومنها: أن يعلم أن حسده لن يمنع فضل الله عن المحسود أبدًا، ولو كان يمنع فضل الله عن المحسود لكان كل إنسان يحسد غيره.

٤- ومنها: أن يتجه إلى الله - عز وجل - في سؤاله أن يعطيه مثلما أعطى هذا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

٥- ومنها: أن يذكر عواقب الحسد وشؤمه وعقوبته حتى يخشى هذا الشؤم والعقوبة فيدعه.

٦- ومنها: أن يعلم أنه من أخلاق اليهود.

المهم: إذا تأمل الإنسان في مضاره كان هذا التأمل دواءً يحتمي به عن الحسد.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن الله أنعم على هؤلاء بما ذكره في قوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إلى آخره، فلا وجه للحسد مع ما أعطاهم الله تعالى من الفضل، وهذا - أيضًا - من الدواء الذي يداوي به الإنسان الحسد، فيقول مثلًا: مالي أحسد فلانًا

وقد أعطاني الله كذا وكذا.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان ما منَّ الله به على آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك العظيم، فمثلًا التوراة والإنجيل كلها كتاب واحد، والملك العظيم مَنْ أعظم من أعطي مُلكًا من بني إسرائيل؟ سليمان ـ عليه السلام ـ، فإنه أُعطي مُلكًا عظيمًا حتى قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾؛ لعظمته.

٩ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ـ عز وجل ـ له التصرف في ملكه بما يشاء فإنه يقبض ويبسط؛ لقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

مسألة: كيف يُحلُّ الإشكال في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وعيسى ابن مريم من الذين عُبدوا من دون الله؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: ذوو خصام، وعيسى ابن مريم، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، وجاء المشركون يقولون: هذا عيسى ابن مريم أتقول: إنه حصب جهنم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، وعيسى ممن ثبت الله لهم الحسنى.

مسألة: لو حُسدَ إنسان ماذا يفعل لاتقاء هذا الحسد؟ وهل هو مأجور على هذا؟

الجواب: إذا حُسدَ إنسان بمعنى: أصيب بعين، فإنه مأجور على صبره بلا شك، وما أصابه فهو تكفير لذنوبه، ولكن ذاك الآخر يكون ظالمًا معتديًا، واختلف العلماء فيما إذا تلف شيء بسبب عينه هل يضمنه أو لا؟ والصحيح: أنه يضمنه؛ لأن حق الآدمي لا فرق فيه بين العمد وغير العمد، لكن لو أنهب عانه حتى قتله، فهل نقتله؟ بعض العلماء يقول: نقتله؛ لأن العين تقتل، وبعض العلماء يقولون: نقتله ولكن بعين عائن آخر وهذه مشكلة، وقد قالوا ـ حسب التجارب ـ: إن الإنسان إذا تحدى العائن فإنه لا يستطيع أن يصيبه، لو قال للعائن: تعالَ أنا أتحداك، فإنه لا يصيبه؛ لأن معه نفس قوية تدفع نفس الثاني.

مسألة: قول الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، مَنْ المراد بالذي عنده علم من الكتاب؟

الجواب: المراد بالذي عنده علم من الكتاب رجل مؤمن سأل الله تعالى فجاءت به الملائكة، والملائكة أقوى من الشياطين.

مسألة: هل للحسد دواء؟

الجواب: نعم، له أدوية كثيرة منها: ما أرشد إليه النبي ﷺ: «أَنَّهُ يَتَوَضَّأُ وَيَغْسِلُ مِغبانَهُ يعني: الرُّكْبة، وَمَا أَشْبَه ذَلِكَ ثُمَّ يُسْقَى المرِيضُ وَيُصَبّ عَلَى رَأْسِهِ»، ويُشفى بإذن الله على الفور، ومنها: ما هو معروف عندنا في التجارب أن تأخذ الأشياء المباشرة ويُوضَعُ في ماء ويشربه المصاب ويبرأ حالًا، ومنها: أنهم يقولون: - ولا أدري هل يصح أم لا - أن يُصلى على العائن صلاة الميت، وإذا صُليت عليه صلاة الميت ماتت عينه، ما عاد يَعِينُ أحدًا، ولكن هذا لا أدري ما تأكدت، وكان بعض من يُتهم بالعين ذات يوم نائمًا، فإذا بإخوانه الذين عنده في البيت يجتمع بعضهم إلى بعض فلما قالوا: إنهم يريدون أن يصلوا عليه صلاة الغائب، فلما قالوا: الله أكبر، قال: الله أكبر كبيرًا، وقال لهم: كيف تفعلون هذا؟ قالوا: لأن الإنسان إذا كان عائنًا ثم صُلي عليه صلاة الجنازة فإنها تبطل عينه، لكن هذا ما تأكدنا منه.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٥، ٥٦]

❁ التفسير ❁

ثم قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، ﴿منهم﴾ الضمير يعود على آل إبراهيم يعني: ليس كل آل إبراهيم تقبلوا هذا الكتاب وهذه الحكمة، وهذا الملك، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ و(من) هنا للتبعيض، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، فقسَّمهم الله تعالى إلى قسمين: والتبعيض قد يأتي في الحرف الدال عليه في كلا القسمين، وقد يأتي في أحدهما ويُحذف في القسم الثاني، مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، المعنى: فمنهم شقي ومنهم سعيد؛ لأنه لا يمكن أن يكون شقيًا وسعيدًا في آنٍ واحد، ولكنها حُذفت من القسيم الثاني، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ وقبله وآمن بالكتاب والحكمة وشكر النعمة على الملك، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، أي: صد عنه فلم يؤمن به ولم يشكر الله على هذه النعمة والملك العظيم، و(صد) هذه تُستعمل لازمةً

ومتعديةً، فاللازمة بمعنى: أنه صد عنه بنفسه، والمتعدية: أنه صد غيره عنه، وكلا الوصفين ثابتان لهؤلاء، فهم صادون عنه لأنفسهم، وهم صادون غيرهم عنه، حتى إن بني إسرائيل يدَّعون أن سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - ليس نبيًّا، ولكنه ملكٌ واسع الملك قوي الملك، قوي السلطان، وليس بنبي، وكذلك داود؛ يرون أنه ليس بنبي ولكنه ملك، والصواب: أنه من الرسل والأنبياء، ولكن الله تعالى أعطى سليمان ذلك الملك العظيم.

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ يعني: ما أعظم السعير الذي يحصل لهؤلاء في جهنم، ﴿وَكَفَىٰ﴾ سبق لنا أنها تتعدى بالباء ولكنهم يقولون: إن (الباء) زائدة لفظًا يعني: من حيث الإعراب، وأما من جهة المعنى فلها فائدة، وهي تعدية (كفى) إلى المعمول، ويقولون: إن الباء حرف جر زائد، وأن (جهنم) في هذه الآية هي الفاعل أي: كفى، وأن (سعيرًا) تمييز، والسعير بمعنى: المسعر، أو بمعنى الساعر، وكلاهما يدل على الإحراق العظيم.

فوائد الآية:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون فيما يعطيهم الله - تعالى - من نعم الدين والدنيا إلى قسمين: قسم يؤمن، وقسم يكفر، وهذا هو سنة الله، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، ولو شاء الله - تعالى - لجعل الناس أمةً واحدةً، ولكن من رحمته أن جعلهم يتفرقون حتى يعلم الله الصادق من الكاذب، وحتى يقوم عَلَمُ الجهاد، وحتى يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى يَعرف المؤمن قدر نعمة الله عليه بالإيمان، وحتى يجتهد المؤمن أن يثبته الله - عز وجل - حتى لا يكون مثل هؤلاء، والحاصل: أن الله - سبحانه وتعالى - إلى قسمين لحكم عظيمة.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الذين لم يؤمنوا به أعرضوا عنه، وصدوا الناس عنه؛ لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾، وقد ذكرنا أنها تستعمل لازمةً ومتعديةً، وأنها في هذه الآية صالحة على الوجهين.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تعظيم إحراق النار، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من صد عمّا آتاه الله من الكتاب والحكمة، فإنه يكون من حطب جهنم - والعياذ بالله -.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، وقال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهكذا طريقة القرآن مثاني يعني: إذا جاء ذكر أهل النار، جاء ذكر أهل الجنة، وإذا جاء ذكر المتقين، جاء ذكر المجرمين وهكذا، حتى يكون الإنسان سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء، وحتى لا يمل لو كان الكلام على نسق واحد.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، وكفروا بها أي: جحدوها وأنكروها، وأصل

المادة (كفر) من الستر والتغطية، ومنها سُمي الكافور، الذي هو غلاف طلع النخل، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية، فمن الكفر بالآيات الشرعية: تكذيب الرسل وعدم الالتزام بما جاءت به الرسل من الشرائع، ومن الكفر بالآيات الكونية: أن ينسب هذا الكون إلى غير الله، أو يقول: إن أحدًا أعان الله فيه، أو يقول: إن أحدًا له فيه شيء، كل هذا من التكذيب بالآيات.

ومن ذلك إنكار الكسوف أن يكون وقع إنذارًا من الله ـ عز وجل ـ وتخويفًا؛ لأن بعض الناس يقولون: إن الكسوف سببه أمر عادٍ، وليس من أجل أن يخوِّف الله به العباد، وهذا يعتبر نوع من الكفر، وليس كفرًا مخرجًا عن الملة، لكنه نوعٌ من الكفر.

وقوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، (سوف) يقول المعربون: إنها حرف تسويف يعني: تدل على تحقق وقوع الشيء لكن بعد زمن؛ لأن التسويف بمعنى التأخير، ومنه قولهم: سوَّف في التوبة، يعني: أخرها، فمعنى (سَوَّف) أي: أنهم سوف يصلون لكن بعد زمن.

وقوله: ﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: نجعلهم يصلونها حتى تحرقهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، النضج معناه: بلوغ غاية الكمال يعني: أنها إذا نضجت من الاحتراق واحترقت فإنها تبدل جلودًا غير الأولى؛ لأن الأولى احترقت وزالت، لماذا؟ ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الألم؛ لأن الجلد إذا احترق صار حائلًا دون بقية الجسم، فلا يحسُّون بالنار، لكن إذا بُدل بجلد آخر جديد حينئذٍ يحسون بحرق النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ فهم كلما نضجت جلودهم بَدَّلْنَاها، و(كلما) حرف شرط يدل على التكرار، يعني: أنهم دائمًا أبدًا كلما نضجت الجلود بُدلوا جلودًا غيرها، لهذه الحكمة وهي: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، العذاب يعني: الألم الذي يُعذبون به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، (كان) فعل ماضٍ، لكنه لا يُراد بها الزمان فهي تدل على تحقق الاتصاف بما دل عليه خبرها بدون التقيد بزمن، ولهذا يقولون: إنها مسلوبة الزمان في هذا؛ لأننا لو قلنا: إنها دالة على الزمان لكانت العزة والحكمة قد انتهت وذهبت، وقوله: ﴿عَزِيزًا﴾، (العزيز) قال العلماء: إن له ثلاثة معان: الأول: عزة القدر، والثاني: عزة القهر، والثالث: عزة الامتناع.

أما عزة القدر فمعناها: أنه ذو قدر عظيم لا يماثله شيء، أما عزة القهر فمعناها: أنها الغالب القاهر لكل ذي جبروت، وأما عزة الامتناع فمعناه: الممتنع عن كل عيب ونقص وسوء، ومنه قولهم: أرض عزاز يعني: صلبة ممتنع عن الرخاوة وكل هذه المعاني، وربما يحتمل معاني أخرى أيضًا كل ثابتة لله، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وأما (الحكيم)، فإنه مشتق من الحكمة، وهي الإحكام والإتقان، ومن الحكم وهو القضاء والفصل، والله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم ذو حكمة بالغة، وحكيم بمعنى حاكم فاصل بين عباده، ترجع الأمور كلها إليه كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، وليعلم أن حكم الله - سبحانه وتعالى - ينقسم إلى: حكم كوني قدري، وحكم شرعي ديني؛ أما الحكم الكوني القدري فمثَّلوا له بقوله - تعالى - عن أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، يريد بذلك حكمًا قدريًّا لا حكمًا شرعيًّا؛ لأن الله - تعالى - لم يمنعه شرعًا من الرجوع إلى أهله، ولكنه يريد بذلك أن يحكم له حكمًا قدريًّا، وأما الحكم الشرعي فدليله ومثاله قوله - تبارك وتعالى - في سورة الممتحنة لما ذكر ما ذكر من الأحكام قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا حكم شرعي، وقد يجتمع القسمان في آية واحدة مثل قوله - تبارك وتعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، ومثل قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾.

فالمهم: أن الحكم حكم الله - عز وجل - ينقسم إلى كوني قدري، والثاني: شرعي ديني، وذكرنا لكل واحد دليلًا ولكل واحد مثالًا، وذكرنا ما يجمع القسمين وكل ذلك موجود في القرآن.

فإن قال قائل: أيهما الذي يكون نافذًا في العبد ولابد، هل الكوني أو الشرعي؟

الجواب: الكوني القدري هذا نافذ في العباد، ولا يمكن لأحد أن يعاند فيه أو يمانع فيه، وأما الحكم الشرعي الذي يحكم الله في العباد، فمن العباد مَنْ يقبل ويقوم به، ومن العباد مَنْ لا يقبل ولا يقوم به.

الحكمة: وهي أحد المعنيين في قوله: ﴿حَكِيمًا﴾ وهي مأخوذة من الإحكام، وهو إتقان الشيء فنقول: الشيء المحكم والشيء المتقن، وفسرها بعض العلماء بأنها وضع الأشياء في مواضعها، بمعنى: أنك إذا رأيت هذا الشيء قلت لا يصلح في مكانه إلا هو، وهذه هي الحكمة، فهي حكمة في نفس الشيء، وحكمة في غاية الشيء بمعنى: أن هذا الشيء في نفسه مطابق للحكمة، والثاني: أن الغاية من الحكمة محمودة، لننظر إلى الوضوء - مثلًا - كونه على هذا الوجه يبدأ أولًا: بالوجه ثم باليدين ثم بالرأس ثم بالأذنين، ويكون في بعض الأعضاء غسل وبعضها مسح؛ هذا من الحكمة ولا شك، يعني: كونه على هذه الصورة المعينة له حكمة، ثم الغاية منه؛ وهو التطهير من الذنوب والتطهير من الأحداث تلك غاية حميدة - أيضًا - بلا شك.

إذنْ: الحكمة تكون في ذات الشيء، وفي غاية الشيء، وكل هذا ثابت في حكمة الله - عز وجل -.

وإذا قلنا: إن الحكم كوني وشرعي، والحكمة حكمة في ذات الشيء وفي الغاية منه، صار الجميع أربعة أقسام.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ إلى آخره الوعيد على من كفر بآيات الله بالنار.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من كفر ببعض الآيات فله نصيب من هذا الوعيد،

حسب كفره، وذلك بناءً على القاعدة المعروفة: أن الحكم المرتب على وصف، يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعفه.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العقوبة بالنار، ويتفرع عليها: وجوب اعتقاد ذلك؛ لأن الخبر صادر من عند الله - عز وجل - وهو أصدق القائلين: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تمام قدرة الله - عز وجل - حيث كان هذا العذاب كلما نضجت جلودهم بُدلوا جلودًا غيرها، وهذا أبد الآبدين، ومتى تنضج؟ هل هي تنضج في الحال أو تبقى مدة لتزداد آلمهم؟ نقول: هذا خبر عن غيب، والأخبار عن الغيب لا يجوز أن يتعدى أكثر مما أخبرنا به، فنقول: إذا نضجت الجلود بُدلوا جلودًا غيرها، أما هل تأخذ زمانًا كثيرًا قبل أن تنضج فهذا ليس إلينا ولا ندري، فربما تأخذ زمانًا كثيرًا، وربما تأخذ زمانًا قليلًا، لكن القاعدة في الأمور الغيبية: أن نقتصر على ما ورد، كَمية وكيفيةً وزمنًا وقدرًا، كل شيء، لا نتعدى.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإحساس إنما يكون في الظاهر، لقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾، فهي التي يقع عليها العذاب - والعياذ بالله - هذا هو الظاهر، وربما يقول قائل: إن العذاب قد يكون حتى على الداخل، لكن لما كانت الجلود هي التي تباشر النار - أعاذنا الله وإياكم منها - ذكر حالها ويستشهد لذلك بقول النبي ﷺ في أبي طالب: «إِنَّهُ فِي ضَحْضَاحٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ مِن نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[1] وغليان الدمغ أنه من شدة الحرارة، فهذا يدل على أنه كل البدن - والعياذ بالله - يناله هذه الحرارة لكن ذكر الجلود لأنها المباشرة.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وهي فائدة لغوية أن (كُلَّما) لا تعاد في جوابها، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾؛ خلافًا لأهل اللغة الأخيرة العرفية العصرية المعصورة فإنهم يقولون: كلما جاء زيد، كلما جاء عمرو، هذا غلط على اللغة العربية، فـ (كلما) حرف شرط تأتي في أول الجملة ولا تُعاد في الجواب، مع أننا نسمع هذا الكلام: كلما حصل كذا كلما حصل كذا، وهم في نظرنا من أهل اللغة، ومع ذلك يخطئون هذا الغلط الفاحش.

٧- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الحكمة لله - عز وجل - في أفعاله تُؤخذ من قوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهكذا كلما رأيت (لام التعليل) بعد حكم كوني أو شرعي، فإنها تفيد إثبات الحكمة لله - عز وجل - والعجيب: أن قومًا من أهل الملة، ومنهم الأشاعرة ينكرون الحكمة لله، ويقولون: إن أحكام الله الكونية والشرعية لمجرد المشيئة وليس لها حكمة، فأنكروا ما هو من أشرف صفات الله - عز وجل - وهي الحكمة؛ لأن ضد الحكمة: السَّفه، - وسبحان الله - عن السفه -، وإذا قررنا هذا التقرير وهو: أن كل حكم مُعلل باللام، فإنه دليل على ثبوت الحكمة صارت أدلة الحكمة لا تُحصى فهي كثيرة جدًا، وإنما أنكروا الحكمة، وقالوا: لأنه إذا فعل الحكمة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

فقد فعل لغرض، يعود عليه بالنفع، والله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن ذلك كيف زين لهم الشيطان هذا التركيب، إذا فعل لحكمة فالحكمة غرض، ومن فعل لغرض فإنه محتاج إليه، والله ـ تعالى ـ منزه عن ذلك؟

فيقال: إن الله ـ عز وجل ـ يفعل لحكمة لا نفع يعود عليه، ولكن لنفع يعود على العباد، فهو مستغنٍ عن ذلك، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، فالتطهير نفعه عائد لنا وليس لله ـ عز وجل ـ وهكذا بقية الأشياء، وإذا كان لمصلحة الغير كان ذلك دليلًا على كرمه وجوده ـ عز وجل ـ وهذا كمال وليس بنقصٍ بحال من الأحوال.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات غضب الله ـ عز وجل ـ ويُؤخذ من العذاب، فإنه عذبهم عن غضب لا عن رضًى، لكن هل الاستدلال بهذه الآية على الغضب من باب الاستدلال باللفظ أم من باب الاستدلال باللازم؟ الثاني، ولا يمكن أن يعذب مَنْ يرضى عنه.

إذنْ: كل الآيات التي فيها إثبات الوعيد فإنها تدل على الغضب؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يعذب؛ لأنه يغضب لهذا الشيء، ولكن لا يلزم ـ مثلًا ـ لمن فعل معصية واحدة أن نقول: إن الله يغضب من هذا الفعل المعين؛ لأن الفعل المعين لا نثبت له الغضب المعين إلا بدليل، وإلا لو قلنا: إن كل فعل محرم يثبت الغضب لصارت جميع المحرمات كبائر؛ لأن ما ثبت به الغضب فهو من كبائر الذنوب كما ذكر ذلك أهل العلم.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: (العزيز والحكيم)، وما تضمناه من صفة، أي: (العزة والحكمة)، ثم باجتماع الاسمين، وما تضمناه من الصفة وصفٌ زائد، وذلك لأن من له العزة والغلبة قد تأخذه العزة بالإثم، فلا يكون في تصرفه حكمة، فجمع الله بين العزة والحكمة؛ ليتبين أن عزته ـ عز وجل ـ لا تنفي الحكمة، خلافًا لما يكون من الخَلْقِ، فإن الإنسان إذا غلب وانتصر ربما يتصرف تصرفًا ينفي الحكمة.

إذنْ: يُؤخذ من الجمع بين الاسمين معنىً آخر زائدًا على ما دل عليه كل اسم على حده، وهو أن عزة الله ـ عز وجل ـ مقرونة بالحكمة، وكذلك حكمته مقرونة بالعزة.

مسألة: قول الله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، هل يعني أنا بدلناهم جلودًا جديدةً غيرها؟

الجواب: نعم، يخلق جلدًا جديدًا غير الجلد الأول الذي احترق.

مسألة: قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ إذنْ: هل تكون الأجساد يوم القيامة هي الأجساد التي عليها الآن؟

الجواب: لا، تكون أعظم وقد جاء في الحديث الصحيح: «أن ضرس الواحد منهم يكون مثل

جبل أُحد»(١) ـ والعياذ بالله ـ توسّع أبدانهم لأجل شدة العذاب.

مسألة: ماذا لو احتج علينا أحد الجبرية بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ بأن الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة سوف يملأ جهنم من الناس والجِنَّة، ويقول بأن الله كتب عليَّ النار؟

الجواب: يوم القيامة ما يحتجون بهذا، بل يقرون بالخطأ ويقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ويسألون الله الرجوع ويقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ هذا يوم القيامة، أما الحجة بهذا الكلام تكون الآن.

مسألة: إذا كانت الجلود غير الجلود الأولى، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنها التبديل هو التجديد، وذلك لما احتج عليه الجهمية فقالوا: كيف يُعذب جلودًا لم تُذنب فقال: التبديل هو التجديد؟

الجواب: ما يُستبعد أن يكون هذا معنىً صحيحًا، وقد يُستشهد له بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ معناه هي الأصل، لكن الأصل في التبديل أنه بدل عن بدل، وهذه الجلود ليست مستقلة حتى تُعذب، ويقال: إنها عُذبت بدون جريمة وهذه الجلود مثل اللباس لهؤلاء، فما قال الإمام أحمد محتمل رحمه الله.

قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء:٥٧]

التفسير

ولما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ حال أهل النار ـ أعاذنا الله وإياكم منهم ـ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، والقرآن مثاني تُثنى فيه المعاني إذا ذكر فيه أهل النار ذُكر فيه أهل الجنة، وإذا ذُكرت النار ذكرت الجنة، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، وهكذا.

وهذا هو أحد المعاني في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾.

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ومثل هذا التركيب موجود في القرآن بكثرة، يقدِّم الله الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون فيذكرون الله ويصلون ويتصدقون، ولكن ليس عندهم إيمان فلا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٥١)، والترمذي (٢٥٧٨).

ينفعهم، ولهذا يقدم الله الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبني عليه، فما هو الإيمان الذي يكثر ذكره في القرآن؟ الإيمان فسره النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، فالذين آمنوا بهذه الأصول عملوا عملاً الصالحات، قال بعض المعربين، بل بعض النحويين - أيضًا -: إن الصالحات صفة لموصوف والتقدير: الأعمال الصالحات، لماذا؟ قالوا: لأن الصالح وصف والوصف لا يُفعل، وإنما الذي يُفعل هو الموصوف.

وعندي: فلا حاجة أن نقدِّر في ذلك ما دام الأمر معلومًا.

فما هي الأعمال الصالحة؟ الأعمال الصالحة ما كانت خالصة لله، صوابًا في شريعة الله، يعني: ما كان خالصًا صوابًا، كما قال الفضيل بن عياض: (ما كان خالصًا صوابًا)، يعني: ما جمع بين الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فمَنْ عمل عملًا أشرك فيه مع الله غيره ولو يسير رياءً كان عمله غير صالح، ومَنْ أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح.

يقول: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، السين هنا للتنفيس، وأنتم ترون الآن أن أصحاب النار قيل فيهم: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾، وأن أصحاب الجنة قيل فيهم: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، فهل هذا من باب خلاف التعبير وأن معنى الحرفين واحد، قال ابن هشام كذلك أن معنى الحرفين واحد، وقيل: بل معناهما مختلف، وأن (السين) تدل على القرب، و(سوف) تدل على المَهلة، وهذا هو المعروف وهو الأصح، فإذا قيل لك ذلك فلماذا جاء الوعيد لأهل النار بـ(سوف)، ولأهل الجنة بالسين؟ الجواب على ذلك: أن أهل النار يُفسحَ لهم، لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذٍ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون، ولكن ما هي جنة الآخرة، ولكن يدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقال أيضًا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ ولا أحد أطيب حياةً من حياة المؤمنين أبدًا.

قال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك - الذين تمت لهم الدنيا على ما يريدون - ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، أي: لقاتلونا مقاتلة، يريدون أن ينالوه منا ولكن لا يحصل لهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ما يصنع أعدائي بي - لما حُبس - إن جنتي في صدري، وربما يدل على أن أهل الجنة منعَّمون أتم نعيم قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، إذا جعلنا الاستثناء متصلًا صار المعنى: أن الموتة الأولى التي ماتوها في الدنيا ذاقوها، والنعيم مستمر من الدنيا إلى الآخرة، ولكن أكثر العلماء يقولون: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، إن الاستثناء هنا منقطع، وأن التقدير لكن الموتة الأولى.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

على كل حال نقول: إنما قال (سوف) في أهل النار ليمدَّ لهم في الأجل لعلهم يرجعون، فأراهم العذاب وكأنه بعيد، لكن أهل الجنة أراهم النعيم كأنه قريب حتى ينشطوا عن العمل، وأيضًا نقول: هم في الحقيقة في الجنة، أهل السعادة في سعادة حتى في الدنيا، ولهذا قال الرسول ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»، فكل أمره خير، إن أصابته الضراء صبر مع الله ـ عز وجل ـ وصبر لله وانشرح صدره، وكما قالت رابعة العدوية لـمَّـا أصابها جرحٌ في أصبعها ـ أظن الأصبع انقطع ـ : (إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها)، فالمؤمن في الحقيقة ـ حتى وإن أصيب بالمصائب ـ يُوفق للصبر ويثيبه الله ـ عز وجل ـ على ذلك وكأنه لم يُصب، وإن أصابته السراء شكر فزيد في النعمة قال الله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

ويقول تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، المراد بالجنات هنا: ما أعده الله ـ عز وجل ـ في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يحسن هنا أن نقول: الجنات جمع جنة، وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة إذ لا ينصرف إلا إلى بساتيننا هنا في الدنيا مرة تيبس ومرةً تخضَّر ومرةً تُفسدها الرياح ومرة تستقيم، لكن إذا قلت: جنات جمع جنة وهي الدار التي أعدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمتقين والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حينئذٍ يبتهج القلب ويُسر.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كيف تجري من تحتها؟ أليس النهر لا يجري إلا من تحت وإن قلت: (من تحتها) يعني: تحت الأرض في جوف الأرض، قال العلماء: المراد بـ (من تحتها) أي: تحت أشجارها وقصورها، فهي أنهار مطردة تحت الأشجار وتحت القصور فهي من تحتها، وهذه الأنهار أصنافها أربعة: كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، هذه أربعة أنواع من الأنهار في الجنة. وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، (خالدين) حال فأين صاحبها الضمير في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ أي: الهاء، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، بين أن هذا الخلود أبدي فقال: ﴿أَبَدًا﴾، أي: أبد الأبدين لا منتهى لها.

فإذا قال قائل: كيف يعيش الإنسان وهو يرى أنه باقٍ دائمًا في هذا؟

نقول: لأن كل ساعة تتجدد له لذة ونعيم، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ في الدنيا ننتظر الموت حتى نرتحل عن هذه الدنيا، لكن في الآخرة لا تنتظر الموت فأنت دائمًا في سرور ونعيم، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فهم في نعيم دائم ـ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ـ.

ثم قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، ﴿لَّهُمْ﴾ أي: للذين آمنوا

وعملوا الصالحات، ﴿فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾، (أزواج): جمع زوج، وهي الأنثى ويطلق على الرجل أيضًا، يقال: زوج فلانة، ويقال: زوج فلان، يعني: زوجته، ولكن في الفرائض يجب أن تأتي بالتاء وفي غير الفرائض لا تأتِ بالتاء؛ لأن الإتيان بالتاء لغة رديئة أو قليلة، ﴿مُّطَهَّرَةٞ﴾ من أي شيء؟ مطهَّرة: طاهرة حسية، ومطهَّرة: طاهرة معنوية؛ فالطهارة الحسية مطهرة من البول والغائط والحيض والاستحاضة والنفاس والصُّفرة والكُدرة والعرق والرائحة المنتنة، وغير ذلك، وكل ما يستحب إزالته والتنزه عنه هي مُطهرة منه، ومطهرة ـ أيضًا ـ طهارة معنوية: وذلك بأنها خالية من كل خلق سيء لا تُغضب ولا تكره الزوج ولا تعصيه فهي مطهرة من كل خلق رذيل، ومن الأذى والقذر فالطهارة إذنْ: حسية ومعنوية.

اشتكت النساء وقالت: الرجال لهم أزواج مطهرة فما بالنا نحن، فماذا نقول لهن؟ نقول لهن: أنتن لَكُنَّ أزواج مطهرون قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[1]، ولا يكون جاره إلا الطيب، وأنتم في الآخرة كل واحدة منكن لا تريد إلا زوجها، ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾،أي: كل واحدة قاصرة طرفها على زوجها ومتنعمة به، وأنتن خير النسوة، فلا تجزعن ولكن لما كان الزوج هو الطالب ـ غالبًا ـ صار هو الذي يقال له: زوجتك فيها كذا وكذا، أما الزوجة فلا تكون طالبة إلا نادرًا.

قال تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾، الظل معروف وهو: ما تحله الشمس سواء كان فيئًا أم ظلًّا من أول النهار، وأما الظليل فهو المؤدي معناه تمامًا؛ لأن من الظل ما ليس بظليل فلو جلست تحت ظل الجدار في أيام الصيف فأنت في ظل، لكن هل هو ظليل؟ لا؛ لأن الحر يأتيك، لكن الجنة ظل ظليل، والظل في الجنة: يقول عنه العلماء: إن ذلك يكون من نور يخرج من عند العرش.

فوائد الآية:

١ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإيمان لا يتم استحقاق دخول الجنة به إلا إذا قُرن بالعمل الصالح، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولهذا يَقرن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينهما كثيرًا فمَنْ آمن وقال: إنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن لا يعمل صالحًا، فإن الجنة غير مضمونة له، ومن الأعمال ما نعلم أنه لن يدخل الجنة إذا تركها، مثل الصلاة.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا والصالح ما تضمن شيئين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، أو الإخلاص لله واتباع شريعته؛ ليكون هذا أعم، إذ إن المعنى الأول قد يتوهم واهمٌ أن المراد به الرسول محمدٌ ﷺ، ولكن المراد أعم من هذا، حتى الذين عملوا الصالحات حين كانت شرائعهم قائمة يدخلون في هذه الآية وغيرها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله - سبحانه وتعالى - وعدهم هذا الوعد المؤكد بالسين قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله - تعالى - عظم نفسه؛ لأنه أهلٌ للتعظيم في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [النساء: ٥٧] . وقد التبس على النصراني هذا التعبير الذي يأتي من قِبل الله إذا كان بهذه الصيغة فظن أن الإله متعدد، ولكن هذا من فهمه السيء، واتباعه للمتشابه فإن ذكر الواحد بصيغة الجمع فهي للتعظيم في كل لغة، والوحدانية مفهومة ومعلومة بالضرورة من الأديان وبالفطر السليمة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان ما في الجنة من النعيم؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجنة أنواع، وليست نوعًا واحدًا يُؤخذ ذلك من صيغة الجمع في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أهل الجنة مخلَّدون فيها أبدًا؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقد أجمع أهل الملة على أن نعيم الجنة دائمٌ أبدًا، وكذلك جمهور أهل السنة على أن عذاب أهل النار دائم أبدًا.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الثناء على الأزواج في الجنة سواء كُنَّ من أهل هذه الدنيا أو من الحور، لقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، ثم هنا سؤال: ﴿لَّهُمْ﴾ جمع، ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ جمع فهل يقابل الجمع بالجمع على وجه الإفراد أو الجمع بالجمع على وجه الجمع؟ بمعنى: هل لكل واحد زوجة فقط، فنقول مثلًا: لو فرضنا عشرة قلنا: لكم أزواج، هل المعنى لهؤلاء العشرة عشر زوجات فقط، أو لكل واحد عشرة، مثل هذا يختلف فيه العلماء، هل يقابل كل فرد بفرد أو يقابل كل فرد بالجميع؟

فمن العلماء من قال: يقابل كل فرد بفرد، ومنهم من قال: يقابل كل الجميع بكل فرد، ومنهم من قال: يقابل الجميع بكل فرد.

لو قلت مثلًا: أمامي رجال وقلت لكل واحد: لكم عشرة دراهم، هل المعنى أن العشرة تُوزع بينهم، أو المعنى لكل واحد عشرة على خلاف؛ فهنا: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾، هل المعنى لكل واحد أزواج، أو المعنى لكل واحد زوجة واحدة، لكن الأزواج هنا قُوبلت بالجمع في قوله: ﴿لَّهُمْ﴾ يقال: إن السنة دلت على أن الواحد له أزواج متعددة، سواء من أهل الدنيا أو ممن خلق الله في الجنة وهن الحور العين.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الثناء على هؤلاء الأزواج، وأنهن مطهَّرات من كل عيب حسيٍّ أو معنوي.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجنة ليس فيها حَرٌّ، وإنما هي ظل ظليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

١١ ـ وجملة الآية: فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما ساق بيان نعيمهم حثًّا على أن نعمل العمل الموصل إلى ذلك.

مسألة:هل يستفاد من هذه الآية أن أهل الجنة ينعَّمون في الدنيا وفي الآخرة؛ لقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾؛ لأن السين تدل على القرب؟

الجواب: ذكرنا ذلك في التفسير وأن أصحاب الجنة هم في جنة سواء في الدنيا أو الآخرة؛ لأنه لا أحد أطيب عيشًا ممن آمن بالله، وعمل صالحًا.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، هذا أبلغ في التعظيم من قول: إني آمركم؛ لأنها تدل على العظمة يعني: كأنه قال: إن الله الذي له الألوهية عليكم وله الحكم عليكم يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، والأمر: (طلب الفعل على وجه الاستعلاء بصيغة افعل أو ما ينوب منابها).

فقولنا: (طلب الفعل)، فكلمة (طلب): خرج به الخبر، وكلمة (الفعل): خرج به النهي؛ لأن النهي: طلب الكف، و(على وجه الاستعلاء) خرج به الالتماس والدعاء، وهذا يشمل ما إذا كان الآمر عاليًا حقيقةً، أو مستعلٍ ادعاءً.

مثال ذلك: عبدٌ مملوك أَسر حرًّا كريمًا فجعل يأمره افعل كذا افعل كذا، قرِّب لي كذا، ابعد عني كذا، أيهما أعلى؟ الحر لا شك، لكن هذا ادعى العلو لنفسه فاستعلى عليه، هذا هو الأمر.

وكل أمر موجه من الله للعباد، فالأصل أنه لطلب الفعل، وأنه للوجوب، لكن قد تخرج الأوامر عن غير ذلك للقرائن.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، (الأمانات): جمع أمانة، وهي كل ما ائتمن الإنسان عليه، من أمتعة ونقود وأقوال وأفعال وغير ذلك، تؤديها إلى أهلها، ومَنْ أهلها؟ الضابط في ذلك: هم الذين أُمرتَ بأدائها إليهم، فمثلًا: إذا قال لك شخص: خذ هذه الدراهم أدها إلى

فلان، فمن المؤتمن؟ صاحب الدراهم، وأهلها الذي أمرتَ أن تؤديها إليهم، يعني: فلا أؤديها إلى أحد غيره.

فتكون الأمانة بالقول، فأقول لك - مثلًا - بلِّغ سلامي فلانًا فإذا قلتَ: نعم، فقد تحملت، فلابد أن تؤدي إليه السلام، أما إن قلتَ: إن ذكرت، أو لا أتحمل فأنت بالخيار، لكن إذا قال: بلغ سلامي فلانًا فقلت: نعم أبلغه فلابد أن تبلغه؛ لأن هذه أمانة، وقد أمرك الله أن تؤديها إلى أهلها، وسيأتي - إن شاء الله - في بيان الفوائد أنواع الأمانات.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، الحكم هنا: الفصل، يعني: إذا أردتم أن تفصلوا بين الناس في مشاجرتهم فاحكموا بالعدل، ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، لم يُقيد أناسًا دون أناس فيكون عامًّا حتى لو أراد الإنسان أن يحكم بين أبيه وبين رجل أجنبي، فهو داخل في الآية، أو بين مسلم وكافر فهو داخل في الآية؛ لأن الآية عامة فقد قال: ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ فما هو العدل؟ العدل في الأصل: الاستقامة، ومنه العصا المستقيمة التي ليس فيها ميل، ولا حكمَ أعدل من حكم الله، وعلى هذا فالحكم بالعدل: أن تحكم بينهم بشريعة الله، وهذا هو الحكم العدل؛ لأننا نعلم أنه لا أحد أحسن من الله حكمًا، ولا أحد أعدل من الله فصْلًا.

فإن قال قائل: ما وجه الاتفاق بين قوله: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

نقول: لأن الأمانات المقدمة بين يدي الأحكام، فمنها - مثلًا - الشهادة، وهي تحمل الإنسان أن يخبر بحق غيره على غيره، وهذه تكون مؤداةً عند الحكام، فكانت تأدية الأمانات كالمقدمة بين يدي الحكم بين الناس.

ثم أثنى الله على هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، وفي ﴿نِعِمَّا﴾ قرآتان: ﴿نَعِمَّا﴾، و﴿نِعِمَّا﴾ وأصلها - نعم ما - لكن حصل فيها إدغام، والموعظة قال العلماء: هي ذكر الأحكام مقرونة بترغيب أو ترهيب، يعني: تذكر حكم الله - عز وجل - مقرونًا بترغيب أو بترهيب، إن كان طلبًا فإنه مقرون بالترغيب، وإن كان نهيًا فهو مقرون بالترهيب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ الجملة هذه استئنافية كالتحذير والتهديد لما سبق يعني: إن لم تفعلوا فتؤدوا الأمانات إلى أهلها وتحكموا بالناس بالعدل، فإن الله تعالى سميعٌ بأقوالكم بصيرٌ بأفعالكم، وسيعاقبكم على مخالفتكم.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عظمة الله - عز وجل - وذلك حيث عبَّر عن نفسه - تبارك وتعالى - بصيغة الغائب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، ومثل هذا التعبير قال علماء البلاغة: إنه

يدل على التعظيم.

٢ـ ومن فوائدها: وجوب حفظ الأمانات فيما تحفظ به عادة، فإذا أعطاك إنسان دراهم وجب عليك أن تحفظها فيما تحفظ به عادة، ووجه ذلك: أنه من لازِم أدائها حفظها؛ لأن مَنْ لم يحفظها لم يمكن أن يؤديها، فإذا أعطاك دراهم ووضعتها في فُرجة أو في رفٍّ وسُرقت فأنت ضامن؛ لأن هذا تفريط في الواجب، والواجب أن تحفظها في الصناديق.

وإذا أودع أحد عندك بهيمة، وتركتها للبرد أو للحر أو للجوع أو للعطش فأنت ضامن؛ لأنك فرطتَ؛ لأن الله أمرك أن تؤدي الأمانات إلى أهلها، ومن لازِم أدائها حفظها حتى تُؤدى كما أُخذتْ.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: سموُّ الدين الإسلامي حيث أمر بردِّ الأمانات، وهذا لا شك من حسن المعاملة.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على المؤتمن رد الأمانات إلى أهلها، وأهلها إما صاحبها أو مَنْ يقوم مقامه، فإذا أودعك شخص ما وديعة، ومات فمن أهلها من بعده؟ ورثته، كذلك من لو وكل من يقبضها منك وجب عليك أن تؤديها إليه أي: إلى الوكيل، ولا تقل: إني لا أعطيك؛ لأن الذي أودعني سواك.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب حفظ السر فيما يكون بينك وبين صاحبك من قول؛ لقوله: ﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾، وهو عام في أمانات الأموال وأمانات الأقوال، وأمانات الأحوال أيضًا، ولهذا ورد الوعيد الشديد فيمن تفضي إلى زوجها ويفضي إليها ثم يصبح يتحدث بما جرى بينهما، وأن هذا شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب أداء الشهادة على الشاهد كما تحملها؛ لأن الشاهد مؤتمن فيجب عليه أن يؤدي الشهادة كما تحملها من غير زيادة ولا نقص، وهل يجوز أن يؤديها بالمعنى؟ الجواب: نعم، إذا كان عالمًا بالمعنى، ولم يحذف ما يتغير به المعنى، فإنه لا بأس أن يؤديها بالمعنى.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الحكم بين الناس بالعدل، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، والعدل أنواع كثيرة، ولنضرب لهذا مثلًا بالقاضي، فالقاضي يجب عليه أن يعدل بين الخصمين في كل شيء.

أولًا: في الدخول عليه، فلا يقدم أحدًا على أحد حتى لو كان الخصم كافرًا مع مسلم، فإنه لا يقدمه عليه؛ لأن المقام مقام حُكم، والحكم تجب فيه العدالة، فضل المسلم على الكافر لا شك فيه، لكن الآن هما سواء في الحكم، وإن كان بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ قال: إنه يُقدم المسلم في الدخول، لكن في هذا القول نظر، والصواب: أنه يعدل بينهما في الدخول.

ثانيًا: في المجلس، فلا يُجلس أحدهما في مكان رفيع كالأريكة مثلًا، والثاني على الأرض، أو أحدهما على الفراش، والثاني على الأرض، لابد أن يعدل بينهما في المجلس فيكون مجلسهما سواء.

ثالثًا: لابد أن يعدل بينهما في اللحظ أي: النظر، فلا ينظر إلى أحداهما نظرًا باردًا، وإلى الثاني نظرًا حارًّا، يكاد يخرق رأسه، بل الواجب أن ينظر إليهما نظرًا سويًّا.

رابعًا: في اللفظ، فلا يكلم أحدهما بشدة، والآخر بلين.

خامسًا: بالالتفات، فلا ينظر إلى أحداهما عند مخاطبته بوجهه، والثاني ينظر إليه بخده مصعِّرًا خدَّه له.

سادسًا: في استخلاص الحجة؛ فلا يُقاطع أحدهما في حجته، والآخر يمهله.

فإذنْ: يجب عليه العدل في كل شيء يعاملهما فيه.

ومن العدل ـ أيضًا ـ: العدل بين الزوجات في كل ما يستطيع.

ومن العدل ـ أيضًا ـ: العدل بين الأولاد في كل شيء يستطيع؛ في العطايا إذا أعطى الأنثى أعطى الذكر، وإذا أعطى الذكر أعطى الأنثى، والصحيح: أنه يعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، حتى كان بعض السلف يعدل بين أولاده في القُبَل، يعني: إذا قبَّل واحدًا قبَّل الثاني، فالصبيان الصغار ترى الصبي إذا رآك قد قبَّلت الثاني يأتي ويزاحم ويُدخل خدَّه عليك، يعني: لابد أن تقبِّله، حتى في الجلوس إذا أجلست الأول على رجلك جاء الثاني يركب وجلس على الرجل الثانية، وهذه مطالبة واحتجاج، لكن نحن ما نعرف، والآن يحتج ويقول: لماذا تفعل؟ ويأخذ حقه بالقوة، فعلى كل حال فالواجب على الإنسان: أن يعدل بين أولاده.

كذلك من العدل: أن يعدل مع نفسه في معاملة غيره، فلا يريد من الناس أن يعطوه حقه كاملًا، وهو يبخس الناس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، يعني: يأخذون حقهم وافيًا، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، يعطون الحق الذي عليهم ناقصًا، وهذا ليس من العدل، لأن العدل: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لهذا شدد النبي ﷺ في هذه المسألة وقال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]، وهذه هي آداب الإسلام العظيمة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التعبير بالعدل دون المساواة، والغريب أن كثيرًا من الناس العصريين تجدهم شغوفين في التعبير بالمساواة دون العدل، ولا تكاد تجد أحدًا منهم يقول: الدين الإسلامي دين العدل، بل يقول: الدين الإسلامي دين المساواة، ولا أدري والله أعلم لماذا استُخدمت هذه الكلمة، هل هي واردة علينا من الخارج أو لا؟ لأنك إذا قلت المساواة دون

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

العدل، قالت الأنثى: أنا لابد أن أعامل كما يُعامل الرجل، وقال الرجل الساقط الذي لا خير فيه: لابد أن أُعامل كما يعامل الشريف، لكن إذا استعملنا العدل، فمعناه: أن ننزل كل إنسان منزلته.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ثناء الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما يوجهه من الأحكام إلى العباد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، وشيء أثنى الله عليه لابد أن يكون في قمة الخير.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأحكام الشرعية تُسمى موعظة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، مع أنه ليس فيها وعيد وليس فيها تهديد، وإنما فيها بيان أحكام.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: كمال حكم الله ـ عز وجل ـ وذلك بثناء الله عليه، وكونه موعظة للقلوب، ولهذا كلما ازداد الإنسان تمسكًا بطاعة الله ازداد إيمانًا ويقينًا ورغبة في الخير.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين وهما: السميع والبصير.

وهل فيها إثبات صفتيْ السمع والبصر لله؟ نعم؛ لأن القاعدة تقول: إن كل اسم لله فهو متضمن لصفة، وليس العكس فالصفة لا يشتق منها اسم لله إلا إذا تسمَّى به جل وعلا، والاسم يثبت منه صفة؛ لأن جميع أسماء الله مشتقة من المعاني التي تدل عليها، وعلى هذا، فهل نسمِّي الله بالواعظ؟ مع أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ لا نسميه بالواعظ؛ لأن أفعاله وصفاته لا يُشتق منها أسماء له، أما أسماؤه فإنها تتضمن الصفات.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]

التفسير

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، صدَّر الله هذه الآية بالنداء، وقد سبق أن تصدير الحكم بالنداء يدل على العناية به؛ لأن النداء يُطلب منه انتباه المنادى لما يُلقى إليه، وفي النداء بوصف الإيمان إشارة إلى أن ما يُذكر من مقتضيات الإيمان، يعني: ما يذكر وامتثاله من مقتضيات الإيمان، وفيه أيضًا: أن عدم القيام به نقصٌ في الإيمان؛ لأنك إذا قلت للمؤمن: يا مؤمن افعل كذا، ولم يفعل فإنه لابد أن ينقص إيمانُه؛ لأنه وجِّه إليه الخطاب باسم الإيمان أو بوصف

الإيمان، فإذا لم يمتثل هذا الخطاب نقص إيمانُه، وقد رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فارعها سمعك؛ فإما خير تُؤمر به، وإما شر تُنهَى عنه[1]، وفي هذه الآية خير نُؤمر به.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي: آمنوا بالله وبما يجب الإيمان به، وأركان الإيمان ستة: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، الطاعة: موافقة الأمر؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحظور، ولهذا أُخذت من المطاوعة وهي الانقياد، فالطاعة: هي الانقياد وموافقة الأمر بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، الرسول هو محمد ﷺ و(أل) للعهد الذهني.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، الواو حرف عطف، (أولي): معطوفة على الرسول وهي بمعنى أصحاب، و(الأمر) بمعنى الشأن، يعني: أصحاب الشأن فيكم، فمن هم أصحاب الشأن؟ قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء، والآية صالحة للمعنيين جميعًا، وعلى هذا تكون شاملة للأمراء والعلماء.

أما كون العلماء أولي أمر؛ فلأنهم يُوكل إليهم الكلام في شرع الله، وهم الذين يوجهون الناس ويبينون لهم أحكام الله الشرعية، وأما كون الأمراء أولي أمر؛ فلأنهم هم الذين يحملون الناس على شريعة الله، والشريعة تحتاج إلى أمرين: أمر سابق، وأمر لاحق.

فالأمر السابق: من شأن العلماء يبينونه ويوضحونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

وأمر لاحق: وهو من شأن الأمراء حيث يُلزمون الناس بشريعة الله، ويقيمون حدود الله على مَنْ خالف، فالكل عليه مسئولية ، وبهذا التقسيم نعرف أن مسئولية العلماء أشد من مسئولية الأمراء؛ لأن الأمراء لا يمكن أن يمشوا على شيء حتى يبينه العلماء، وعلى هذا: فشأن العلماء في الأمة الإسلامية أعظم من شأن الأمراء، ويجب على الأمراء اتباع العلماء فيما يبينونه من شريعة الله.
فـ ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، الأمر بمعنى الشأن، يعني: أصحاب الشأن وهم العلماء والأمراء، ويحتمل أن يكون المراد بالأمر: طلب الفعل ممن هو دون الآمر أو على وجه الاستعلاء، ويكون معنى (أولي الأمر) أي: الذين لهم أن يأمروا الناس، والعلماء يأمرون الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهم العلماء، والأمراء كذلك يأمرون، فالأمر هنا صالح للمعنيين: الشأن والأمر الذي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وهنا يقول: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ولم يُعِدِ الفعل، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ولم يقل جل وعلا: وأطيعوا أولي الأمر؛ لأن طاعة ولاة الأمور تابعة لطاعة الله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

ورسوله، ولهذا لو أمروا بما يخالف طاعة الله، لم يكن لهم طاعة، فطاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله.

ثم قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾، وهذا متوقع جدًّا أن يحصل نزاع بين أولي الأمر بعضهم مع بعض، وبين أولي الأمر مع عامة الناس، فالأمراء يختلفون مع العلماء، أو يختلف العلماء مع الناس، أو يختلف الناس مع الأمراء، أو ما أشبه ذلك، المهم: أن التنازع هنا غير مقيد فيشمل التنازع بين العلماء، وبين الأمراء، وبين العلماء مع الأمراء، وبين العلماء مع الناس، والأمراء مع الناس، وهذا لابد أن يقع، و﴿شَيۡءٖ﴾ هذه نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم، أي: أيُّ شيء يُتنازع فيه فإنه يُرد إلى الله والرسول.

ثم قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، لا يمكن أن يقول قائل: إننا نذهب إلى الله ـ عز وجل ـ ونتحاكم عنده، أو نرد الأشياء إليه، ولكن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، أما إلى الرسول فهو الرد إليه شخصيًّا في حياته، وإلى سنته بعد وفاته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، هذه جملة شرطية يُراد بها الإغراء والحث، أي: إن كنتم صادقين في الإيمان بالله واليوم الآخر فامتثلوا هذه الأوامر أي: طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر، والرد عند التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده وبربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، هذا يتضمن الإيمان بكل ما يكون بعد الموت؛ سواء في البرزخ، أو بعد قيام الساعة، وإنما نص الله على اليوم الآخر؛ لأنه اليوم الذي يقع فيه الجزاء، واليوم الذي يقع فيه الجزاء لابد أن يحسبَ الإنسان له حسابه خوفًا من أن يُجازى بالسوء يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾، المشار إليه كل ما سبق من طاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر، والرد إلى الله ورسوله عند التنازع، ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: في الحال والحاضر، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي: أحسن مآلًا وعاقبة، فامتثال هذه الأوامر الأربعة يحصل به الخير في الحاضر، والخير في المستقبل، وكل إنسان لا يسعى إلا لخير حاضر أو خير مستقبل؛ لأن الماضي مضى بخيره وشره، ولا يمكن إعادته.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** حسن التناسب بين الآيات في الكتاب العزيز، فإنه لما ذكر أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، ذكر ما يحصل به الخير ـ أيضًا ـ إضافة إلى ذلك وهو طاعة الله ورسوله.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب طاعة الله، وإن خالفت الهوى، وإن خالفت الواقع، أو خالفت الحال، خلافًا لمن يمتثل طاعة الله إذا وافقت الواقع ولم يجد معارضًا؛ لأن مَنْ قيد طاعة الله بهذا فهو في الحقيقة لم يطعِ الله، وإنما اتبع هواه.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب طاعة الرسول ﷺ استقلالًا، وأن طاعته

كطاعة الله؛ لقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ لأنه أعاد الفعل ولم يجعل طاعة الرسول تابعةً لطاعة الله.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، الرد على مَنْ كَفَرَ بالسُّنة وقال: لا نقبل إلا ما جاء في القرآن؛ لأن الله جعل طاعة الرسول استقلالًا، والحقيقة أن الذي يقول ذلك لم يتبع ما جاء به القرآن؛ لأن القرآن أمر بأن يُتَّبع الرسول ﷺ فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ﴾، ولم يقل: اتبعوه إن وجدتم لذلك أصلًا في القرآن، بل هو عام.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، وجوب طاعة ولاة الأمور؛ لقوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، أن طاعة ولاة الأمور من طاعة الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ أمر بذلك.

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، أنهم لو أمروا بما يخالف طاعة الله ورسوله، فلا طاعة لهم؛ لأن الله جعل طاعتهم تابعة في قوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، أن طاعة ولاة الأمور واجبة حتى وإن لم يأمر الله بذلك الشيء المعين الذي أمروا به، وهنا لابد من التقسيم، فنقول: ما أمر به ولاة الأمور على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما أمر الله به.

القسم الثاني: ما نهى الله عنه.

القسم الثالث: ما لم يرد به أمر ولا نهي.

أما ما أمر الله به فإن ولاة الأمور صارت طاعتهم واجبة من وجهين:

الوجه الأول: طاعة الله.

الوجه الثاني: طاعة ولاة الأمر.

مثال ذلك: أن يأمروا بإعلان الأذان، أو بإقامة الصلاة جماعة في المساجد، أو بأداء الزكاة، هذا واجب من هذين الوجهين السابقيْن.

الثاني: أن يأمروا بما نهى الله عنه: مثل أن يقولوا للناس افتحوا خانات الخمر، فهؤلاء في هذا لا يُطاعون فيه، أو يأمروا بقتل شخص لا يحل قتلُه، ونحن نعلم أنه لا يحل قتله، وإنما أمروا بقتله عدوانًا وظلمًا، فهنا لا طاعة لهم، أما إذا قتلوا بحق كقصاص أو رِدَّةٍ أو فساد في الأرض أو تعزيرٍ يسوغ لهم التعزير به فإن طاعتهم في ذلك واجبة، لكن إذا كنا نعلم أنه ظلم بغير حق فإننا لا نطيعه، وأيضًا أن يأمروا بإدخال حدود الأراضي على الجيران ظلمًا وعدوانًا، فإننا لا نوافقهم على

ذلك، ونعصيهم؛ لأن طاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله.

ومن ذلك قصة أمير السرية الذي أمَّره النبي ﷺ على سرية وخرج بهم وفاض بهم يومًا من الأيام، فأمرهم أن يجمعوا حطبًا فجمعوا حطبًا؛ امتثالًا لأمر الرسول ﷺ؛ لأنه أمرهم بطاعته ثم قال: أضرموا به النار، فأضرموا به النار، - إلى هنا المسألة ممكنة لا شيء فيها - ثم قال لهم: ألقوا أنفسكم في النار، فتقفوا وقالوا: نحن من النار فررنا ولم نؤمن إلا خوفًا من النار كيف نقحم أنفسنا بالنار؟! وأبوا، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ قال: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا»؛ لأنهم قتلوا أنفسهم «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ»[1] يعني: في شيء لا ينكره الشرع.

القسم الثالث: أن يأمر ولاة الأمور بما لم يتعلق به أمر ولا نهي، وهنا معترك القوم، فالمتمردون على ولاة الأمور يقولون: لا سمع ولا طاعة ائتِ بدليل على أنه واجب، والمؤمنون يقولون: سمعًا وطاعة؛ لأننا لو لم نطعهم إلا في أمر ورد فيه الشرع بعينه، لكانت الطاعة ليست لهم، بل الطاعة للأمر الشرعي، - مثلًا - لو قال إنسان: أنا لا أخضع للتنظيم في السير، مثلًا: المرور سد هذا الطريق وقيل للناس: سيروا مع الجهة الأخرى فقال: لا أخضع لهذا الأمر، ثم جعل يجادل ويقول: أين الدليل؟ هل قال الله - تعالى -: إذا قال لك المرور لا تمشِ مع هذا الخط فلا تمشِ؟ الجواب: لم يقله، لكن على سبيل العموم ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فيجب أن تمتثل، فإذا قال: ليس في هذا مصلحة، قلنا: لو جعلنا المصلحة مربوطة برأي كل واحد من الناس ما آمنا بمصلحة قط؛ لأن أهواء الناس متباينة مختلفة، فالرأي لولي الأمر قبل كل شيء، فإذا كان عندك رأي ترى أن المصلحة فيه وجب عليك من باب النصيحة أن ترفعه إلى ولي الأمر، وتقول: نحن نمتثل أمرك سمعًا وطاعة لله - عز وجل - قبل كل شيء، ولكن نرى أن المصلحة في كذا وكذا وتذكر، وحينئذٍ تكون ناصحًا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: محبة الله - عز وجل - للنظام والانضمام والانزواء تحت رعاية واحدة؛ لقوله: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾؛ لأن الناس لو لم يكن ذو أمر مطاع لصارت أمورهم فوضى، ولهذا يقول الشاعر:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُمْ ... وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادُوا

لابد من أمير ولابد من قائد وموجِّه، حتى الحيوانات العُجم لابد لها من أمير، كان منذ زمن بعيد لم ندركه، ولكن يُنقل لنا أن الطيور كانت تأتي فرقًا كثيرة يعني: تجتمع طيور كثيرة لكن لا يمكن أن تطير في جو السماء إلا بقائد يطير أمامها وتتبعه. وأيضًا الظباء وكانت موجودة هنا في الجزيرة بكثرة تأتي الجميلة،أي: الجمع من الظباء يسمى الجميلة، فتأتي هذه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

المجموعة وهي قطيع من الظباء يشاهدها الصيادون يقودها واحد والقطيع يمشي خلفها، والصيادون عندهم حكمة في الصيد؛ إذ إنهم يصيبون القائد ولا يذهبون في الأطراف وإذا أصابوا القائد تشتت الجمع، إن كانت طيورًا تشتت، وإن كانت ظباءً تشتت أو وقفت، هكذا يقولون لنا: اضرب القائد تدرك التابع.

فأقول: كل جمع لابد له من قائد، حتى إن الرسول ﷺ أمر المسافرين إذا سافروا وكانوا ثلاثة أن يؤمِّروا أحدهم(١)، حتى يكون لهم راعٍ.

مسألة: لو أمر الإمام بما يرى أنه مشروع، والرعية أو أحد من الرعية يرى أنه غير مشروع، مثل أن يأمر بصوم يوم الاستسقاء، فإن الفقهاء - رحمهم الله - يقولون: ينبغي للإمام أن يأمر الناس بالصيام يوم الاستسقاء، فهل يلزم الصوم؟

قال الفقهاء أنفسهم: لا يلزم الصوم ولا الصدقة؛ لأن هذا أمر بشريعة، والأصل في الصوم أنه ليس بواجب، والصدقة أنها ليست بواجبة، فلا يجبان بأمره، وإلا لقلنا: إن الإمام يمكن أن يشرِّع.

ثم قال: والمراد بقولنا طاعة ولي الأمر، فيما يعود إلى تنظيم الأمة، فإذا أمر بالصوم يوم الاستسقاء، وكان هذا العالم يرى أنه ليس بسنة؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر الناس حين خرج للاستسقاء أن يصوموا، فله ألا يصوم، لكن هل يعلن مخالفة ولي الأمر؟

نقول: لا يعلنه هو فيما بينه وبين الله فلا يلزمه، لكن المنابذة وإعلان المخالفة هذا أمر لا يسوغ فيه الاجتهاد وهذا خطأ، ولهذا انتُقد على مَنْ يتكلم بما يرى، أما إظهار الإمام رأيه في شيء من الموضوعات، ينتقد على من تكلم بخلافه وقال: إن هذه مسألة اجتهادية، وللإمام اجتهاده ولِيَ اجتهادي؛ لأن هذا يؤدي إلى استهانة الناس بما ينظمه ولاة الأمور، وأن يقول كل واحد: ولي الأمر مجتهد وأنا مجتهد ولكلٍّ اجتهاده، والواجب النصيحة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، أن يتكلم مع ولي الأمر الذي خالفه في اجتهاده ويبين له.

مسألة: بغض النظر عن الأمر؛ لأنه ربما يقال: الأمر بالمحرَّم قليل في بلدنا مثلًا، لكن فرض واقع معين في المحلات حيث تبيع المنكرات أو تتعامل بالمنكرات أو شيء من هذا، فما موقف المسلم تجاه ذلك، هل يحذر منها مع أن السلطة فرضتها؟

الجواب: لو أن ولي الأمر أقرَّ أمرًا منكرًا، فإنه يجب أن يبين إنكاره، لكن لا يوجه الإنكار على ولي الأمر، ولكن يحذِّر الناس منه، فالآن - مثلًا - يوجد في بعض البلاد أشياء منكرة مقرَّة من قبل ولاة الأمور ولا يجوز إقرارها، - فمثلًا - يوجد في بعض البلاد الإسلامية الآن وبعض البلاد القريبة منا بيع الخمر علانيةً في المحلات، وفي المقاهي، وفي كل مكان، هل نقول للناس: لا تحذِّروا

---

(١) سنده حسن: أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، وقال الشيخ الألباني: «سنده حسن» وانظر «الصحيحة» (١٣٢٢).

الناس منها؛ بناءً على أن ولي الأمر سمح بها؟ لا، يجب أن نحذِّر الناس منها، لكن لا يُنتقد ولي الأمر لإقراره إياها، بل تُؤدى له النصيحة.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب ردِّ الأمور المتنازَع فيها إلى الله والرسول؛ لقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم ردِّ المسائل المتنازَع فيها إلى القوانين الوضعية، أو تحكيم أهل الكفر والإلحاد؛ لقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

١٢ـ **ومن فوائدها**: تحريم التقليد مع وضوح الدليل؛ لقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وإنما قلنا: (مع وضوح الدليل)؛ لأن التقليد يجوز للضرورة إذا لم يعلم الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ولم يأمر ـ سبحانه وتعالى ـ بسؤال أهل الذكر إلا للرجوع إلى ما يقولون، وإلا لم يكن هناك فائدة من سؤال أهل الذكر.

١٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الردَّ إلى الله والرسول من مقتضيات الإيمان؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

١٤ـ **ومن فوائدها**: أن من ادَّعى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكنه لا يرد مسائل النزاع إلى الله ورسوله، فإنه كاذب، لقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾، بمنزلة التحدِّي فيكون كاذبًا فيما يدعيه، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، هذا القسم مؤكد بـ ﴿لَا﴾ التي للتنبيه، وهذه الآية فيها ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: تحكيم الرسول ﷺ، فإن حَكَّمُوْا غيره فليسوا بمؤمنين.

المرتبة الثانية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ أي: ضيقًا ولو كان على المحكوم عليه، يعني: حتى المحكوم عليه إذا وجد في نفسه حرجًا وضيقًا فليس بمؤمن، فالواجب: انتفاء الحرج والضيق وانشراح الصدر لما يحكم به الرسول ﷺ.

المرتبة الثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ أي: ينقادوا، ﴿تَسۡلِيمٗا﴾ مصدر مؤكِّد، أي: ينقادوا انقيادًا تامًّا لما يحكم به الرسول ﷺ.

فنفى الخلاف الباطن والخلاف الظاهر؛ الخلاف الباطن: أن يكون في صدرك ضيق وحرج، والظاهر: ألا تسلِّم التسليم التام، بل تُماطل ولا يكن أمرك أمر استسلام، وهنا يقول: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه كلما ازداد إيمان الإنسان بالله واليوم الآخر، ازداد رجوعه إلى الكتاب والسنة، وذلك لأن الحكم المعلَّق بشرط متضمن لوصف يَقوى بقوة ذلك

الوصف، ويَضعف بضعف ذلك الوصف.

١٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات اليوم الآخر، وأنه سيكون بعث يُجازى فيه الناس بأعمالهم، فمنْ كذب به أو شك فيه فهو كافر ولو آمن بالله - العياذ بالله -.

١٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الرجوع إلى الكتاب والسُّنة خير في الحاضر والمستقبل، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: في الحاضر، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة في المستقبل.

١٨- **ومن فوائدها**: بطلان توهم مَنْ حكَّم القوانين الوضعية، وظن أن الأمة تصلح بها، فإننا نقول: هذه القوانين الوضعية ما كان صالحًا موافقًا للكتاب والسنة فصلاحه وإصلاحه ليس بذاته ولكن بموافقته للكتاب والسنة، ولا يصح أيضًا أن نجعل هذا الحكم من الحكم القانوني الوضعي، بل هذا الحكم هو حكم الكتاب والسنة، يعني: كوننا نجد أشياء المصلِحة من القوانين منسوبة إلى وضع البشر هذا يعتبر سرقة من الشرع، وسرقة من الحكم الإلهي؛ لأن كل شيء مصلح للخلق فمبناه على كتاب الله وسنة رسوله على الشريعة.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من تحاكم إلى غير الله ورسوله فهو كافر، ولكن هل هو الكفر المخرج من الملة أو لا؟ نقول في هذا تفصيل بحسب حال الحاكم، وذلك أنه إذا رأى أن الحكم الذي تقضي به هذه القوانين خير من حكم الله ورسوله أو مثله فهو كافر؛ لأنه مكذِّب لقوله الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ولقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، وأما إذا كان لا يعتقد ذلك ومشى مع العالَم فهذا لا يكفر؛ لأن من الناس - ولاسيما العامة - من لا يدركون هذا الفرق، وهذا لا يكفر.

٢٠- **فائدة هامة**: ويبقى أن يقال: إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقوانين كبلد الكفار ومن أخذ بقوانينهم، وأنت الآن بين أمرين: إما أن يضيع حقك وإما أن تُلجأك الضرورة إلى التحاكم إلى هؤلاء، فهل يجوز لك أن تتحاكم لهؤلاء؟

قد يظهر للإنسان لأول وهلة أنه لا يجوز أن تحاكم؛ لأن هذا تحاكم إلى الطاغوت، ولكن نقول: لك أن تتحاكم لا باعتقاد أن ذلك حكمٌ ملزِم، ولكن لأجل الوصول إلى حقك الذي لا يمكن أن تصل إليه إلا عن هذه الطريق ثم إذا حكموا لك بما يوافق الشرع فخذ به؛ لأنه شرع الله وإن حكموا لك بخلاف ذلك فلا تأخذ به، وهذا هو الذي يحفظ للناس حقوقهم؛ لأن من المُشكل إذا كنت في بلد لا يحكم إلا بالقانون، وقد أشار إلى هذا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أول كتابه: «الطرق الحكمية».

فإن قال قائل: التعبير في الآية الكريمة ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ و(إن) لا تدل على وقوع الشرط،

بخلاف إذا، فإنها تدل على وقوع الشرط لكن توقته، ولهذا تجد الفرق بين أن تقول: إذا قام زيدٌ فأكرمه، أو تقول: إن قام زيد فأكرمه، الأولى تدل على أنه سيقوم، لكن أكرامه معلق بقيامه، والثاني لا تدل على أنه سيقوم، لكن إن قام، فهنا قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ معناه أن النزاع الأصل فيه أنه مرفوع فيما بيننا، وأن الأصل عدم المنازعة، لكن إن حصل النزاع ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٢١- وفي هذا فائدة نضيفها إلى الفوائد السابقة وهي: الإشارة إلى أنه لا ينبغي النزاع فيما بيننا، بل كلما أمكن درء هذا النزاع كان هو الأولى.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٠- ٦٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب، يعني: ألا تتعجب إلى هؤلاء، والخطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ يجوز أن يكون موجهًا إلى الرسول ﷺ، ويجوز أن يكون موجهًا لكل مخاطب بهذا الكتاب العزيز، وإذا دار الأمر بين هذا وهذا فالأَوْلَى أن يكون محمولًا على العموم، وعلى الأول - وهو أنه مخاطب به الرسول ﷺ - لا يعني أن الأمة لا تخاطب به؛ لأن ما خُوطب به الرسول فهو خطاب للأمة، إما عن طريق الأسوة، وإما لأنه القائد، والخطاب للقائد خطاب له ولمن يتبعه في قيدته، فهنا أمور ثلاثة:

أولًا: هل الخطاب عام للرسول وللأمة؟ قلنا: إذا لم يكن مانع فهذا هو الأصل، وهو الأصح.

ثانيًا: إذا قلنا: خاص بالرسول هل هو خاص به، وغيره من الأمة يكونون تبعًا له عن طريق الأسوة، أو أنه وجه للرسول خطابًا لا حكمًا، بمعنى: أنه لما كان هو القائد الإمام لهذه الأمة وجه إليه الخطاب، والخطاب الموجه للقائد يكون موجه له ولمن وراءه؟وهذا هو الأمر الثالث.

هذه احتمالات وأيًا كان، فالخطاب واضح أنه للعموم يعني: ألم تر أيها المخاطب إلى الذين يزعمون، فالآن هذا التقرير كله سوف يهدمه قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مما يجعلنا نقول: إن الصحيح: أنه خطاب للرسول ﷺ، لكن كلامنا الأول باقٍ على القاعدة؛ إذ إنه إذا لم يوجد مانع، فالأصل حمله على العموم، وهنا وُجد مانع وهو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ومعلوم: أنه لم ينزل إلى كل واحد منا وحي فيكون هذا خطاب للرسول ﷺ، والأمة تبع له، إما عن طريق التأسي أو لأنه للقائد، والخطاب للقائد خطابًا لمن تبعه.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾، ﴿يَزْعُمُونَ﴾ أي: يقولون، وهذه المقولة ينظر هل تكون صحيحة أو لا؟

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ كاليهود مثلًا يقولون: نحن نؤمن بما أنزل إليك يا محمد ونؤمن بالتوراة، والنصارى يقولون: نؤمن بما أنزل إليك، ونؤمن بالإنجيل والتوراة، ولكنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهذا هو محل التعجب؛ حيث يزعمون وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، والطاغوت في هذه الآية: كل ما خالف الشرع؛ لأن كل ما خالف الشرع فهو طغيان، فيريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت.

وقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أن يكفروا بالطاغوت، والآمر لهم هو الله ـ عز وجل ـ لكنه أتى بصيغة المبني للمجهول؛ ليكون هذا الأمر، وإن كان أصله من الله فهو أيضًا صادر من الرسول ومن كل مؤمن، فكل مؤمن يأمر أن يكون التحاكم إلى الله ورسوله، وأن يكفر الإنسان بالطاغوت، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: من قِبَلِ الله، ومن قِبَلِ أولياء الله ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالطاغوت.

وإنما قلنا: إنه من قِبَل الله وقِبَل أوليائه؛ لأنه نظير قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: غير الذي غضبت عليهم؛ لأن طريقة هؤلاء تُغضب الله وتغضب أولياء الله.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ إذنْ فهم تابعون للشيطان الذي يملي

عليهم التحاكم إلى الطاغوت، فالشيطان يريد أن يضلهم.

وقوله: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي: بعيدًا عن الحق؛ لأن التحاكم إلى الطاغوت يوجب للإنسان أن يبتعد عن الحق، وأن يعلِّق قلبه بهذا الطاغوت

فإذا قال قائل: ما مثاله؟

نقول: المثال: لو دُعي أحد من الناس إلى القرآن الكريم، لكن قال: نتحاكم إلى التوراة، أو نتحاكم إلى الإنجيل، أو نتحاكم إلى القانون الفلاني. نقول: كيف تزعمون أنكم تؤمنون بالله، أو يقول: نتحاكم إلى المحاكم التجارية والقوانين التجارية وهو يدعى التحاكم إلى الله ورسوله، يقول: لا ولكن نرجع إلى أعراف التجارة ولو كانت تخالف الشرع، هذا يدخل في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ القائل: أيُّ واحد من الناس.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن الكريم، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى سنته.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الضمير يعود إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل للرسول ﷺ وما أنزل من قبل، وهم المنافقون من أهل الكتاب الذين نافقوا من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: أقبلوا، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: القرآن، ولم يقل إلى القرآن إشارة إلى بيان منزلته وعلو مرتبته، وهو أنه منزَّل من عند الله؛ لأن ما نزل من عند الله تقوم به الحجة على كل أحد.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: إلى قول الرسول؛ لأنهم يُدعون إلى الحضور إلى حضرة النبي ﷺ؛ ليناقشهم ويبين لهم، و (أل) في قوله: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ للعهد الذهني؛ وذلك لأن العهود ثلاثة: ذهني، وذكري، وحضوري، فإن كانت (أل) تشير إلى شيء مذكور؛ فالعهد ذكري مثل قوله: تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فالرسول هنا موسى الذي أُرسل إلى فرعون.

وتكون للذهني: إذا كان معلومًا بالذهن كما يقول القائل لخصمه: اذهب بنا إلى القاضي، أي قاضٍ يعني؟ هو قاضي البلد المعهود، وكما في هذه الآية الكريمة.

وتكون للعهد الحضوري: مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي اليوم الحاضر،

ومن ضوابط هذه أن تأتي بعد اسم الإشارة، مثل: هذا الرجل، وهذا اليوم، وهذا الأسبوع كما أنها تأتي بعد اسم الإشارة فهي للعهد الحضوري؛ لأن اسم الإشارة يدل على شيء حاضر مشار إليه، فتكون (أل) الواقعة بعده تكون للعهد الحضوري.

إذنْ: الرسول يعني: محمدًا ﷺ، وسمِّي رسولًا؛ لأن الله أرسله وجعله واسطةً بينه وبين عباده في تبليغ شرعه، وإرسال الله إياه أكبر دليل على تزكيته، وأنه أهلٌ لتحمُّل الرسالة كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، فالنبي ﷺ جمع بين الأمانة وبين القوة في إبلاغ الرسالة، ولهذا لا أحد أقوى أمانة منه، ولا أحد أشد صبرًا منه على ما يناله من تبليغ رسالة الله - عز وجل -.

﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ الرؤية هنا عينية أي: رؤية بصر، وعلى هذا تكون ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مفعولًا به، وجملة ﴿رَأَيۡتَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾ والتاء في قول: ﴿رَأَيۡتَ﴾ للخطاب من المخاطَب؟ إما الرسول لقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ لأن السياق كله في خطاب الرسول ﷺ، ويحتمل أن تكون للعموم، لكن كونها للرسول أقرب إلى السياق.

وقوله: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ المنافقين: اسم فاعل من نافق، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع أي: جُحره، وجُحر اليربوع مبني على الخداع؛ لأن اليربوع ذكي يجعل له بابًا في جحره يدخل منه، ويجعل له بابًا من قشرة الأرض في أقصى الجُحر، فإذا زاحمه أحد من الباب المعهود المفتوح خرج من الباب الخفي فخادع، ولهذا أخذ منه كلمة منافق.

وقد قيل: إن هذه الكلمة كلمة محدثة شرعية أي: لا يعرف معناها في اللغة بهذا المعنى؛ لأن الجاهلية كفر ليس فيه إيمان، والمؤمن يكون مؤمنًا بما بقي من دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أو يكون متنصرًا كورقة بن نوفل أو ما أشبه ذلك، لكن بعد أن ظهر كفر هؤلاء أنهم يظهرون للناس أنهم مؤمنون وهم كافرون، جاءت هذه الكلمة.

وقوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ولم يقل: رأيتهم، ففيها نكتة بلاغية وهي: الإظهار في موضع الإضمار؛ لأن مقتضى السياق - وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وأنزل الرسول رأيتهم، لكن قال: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ وإذا جاء الإضمار في موضع الإظهار فإن له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: علِّيَّة الحكم؛ لأن هذا المظهر يفيد أن العلة في هذا الحكم هذه الشيء، فالعلة في صدهم أنه النفاق.

الفائدة الثانية: التسجيل على مرجع الضمير بهذا الوصف، أي: أنه لو كان متصف بهذا الوصف، وهو النفاق، لكن لو قال: رأيتهم - لم نعرف أنهم منافقين.

الفائدة الثالثة: العموم، أي: إنّه يعم هؤلاء وغيرهم من المنافقين، ولو قال: رأيتهم فقط، لم يشمل غيرهم.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ هنا يصدون نفس الفعل يصح أن يكون متعديًا، ويصح أن يكون لازمًا، فيقال: صد بنفسه، ويقال: صد غيره، هنا الذي في الآية من الأول الذي هو اللازم، أي: يعرضون عنك.

وقوله: ﴿صُدُودًا﴾ هذا مصدر مؤكد، ويجوز أن يكون مصدرًا نوعيًا، والمصدر المؤكد هو الذي يؤكد عامله لينتفي المجاز، وذلك لأن الفعل قد يراد به المجاز أي: إنه أسند إلى الفاعل مجازًا، فإذا أكد زال احتمال المجاز، ويحتمل أن يكون مصدرًا نوعيًا أي أنه صدود عظيم، وهو موصوف بوصف محذوف والتقدير: صدودًا عظيمًا، وأيهما أبلغ؟ الثاني أبلغ؛ لأنه ينتظم الأول لا العكس، وهؤلاء - والعياذ بالله - إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله من القرآن لنتحاكم إليه وإلى الرسول لنتحاكم إليه وقوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعني: رأيتهم في نفاقهم وانغماسهم في النفاق يصدون عنك صدودًا، وجملة ﴿يَصُدُّونَ﴾ حال.

وهنا قال: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ ولم يقل: يصدون عن الذي قال لهم؛ لأنه لا يهمهم من قال لهم، فالذي يهمهم هو الرسول ﷺ، فقد يصدون عن الرسول، ولكن لا يصدون عن الذي دعاهم، وربما يقابلونه بوجه طَلْقٍ حسن، لكن يصدون عن الرسول؛ لأنه لم يقل يصدون عنه أي: عن القائل، بل قال: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾؛ لأن هذا هو مرادهم.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كيف هذه تكون للتعجب، يعني: أعجب لحالهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، وهذه المصيبة هي أن يطلع على نفاقهم وعلى صدودهم وإعراضهم، فإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وتعالوا إلى الرسول وصدوا وأعرضوا ثم اطّلع على ذلك فهذه هي المصيبة، إنما كانت مصيبة بالنسبة إليهم؛ لأنهم لا يريدون أن يُطلع على عوارهم وعلى كفرهم فهم منافقون، يستترون غاية الاستتار بما يُخفون من الكفر، فإذا عُثر عليهم صار هذا العثور مصيبة عظيمة، فإذا أصابتهم هذه المصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدمته أيديهم من الكفر والنفاق، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوا إلى الرسول ﷺ. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ جملة ﴿يَحْلِفُونَ﴾ حال من الواو في جاءوا، جاءوك متلبسين في هذا الحلف، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ إن: هنا نافية، وقرينة كونها نافية أداة الاستثناء ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾، أي: ما أردنا إلا أحسانًا، وتأتي إن شرطية مثل قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، وتأتي مخففةً من الثقيلة مثل قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنهم كانوا من قبل، وقول الشاعر:

أَنَا ابْنُ أُبَاةِ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ ... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

وتأتي زائدة، مثل قول الشاعر:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ وَلَا صَـرِيفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

الرابع: أن تأتي نافية كما في هذه الآية: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ الإحسان أن ينبسطوا إلى المؤمنين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾: وإذا لقوا الذين كفروا ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ فيريدون الإحسان السيء بدون عداوة لهؤلاء ولا هؤلاء.

وقوله: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ أي: بين الناس حيث نظهر لهؤلاء أنا معهم فنوافقهم، وهؤلاء أنا معهم فنوافقهم أيضًا، وهذا غاية النفاق، يعني: ما أدرنا إلا الإحسان ألا يحصل بيننا تضارب وبين غيرنا.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾ المشار إليه هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبل، وأتى باسم الإشارة الدال على البعد لانحطاط مرتبتهم، وذلك لأن الإشارة بالبعيد قد تكون إشارة إلى البعيد الحسي كما تقول: هذا فلان، وتكون الإشارة للبعيد المعنوي أي: البعيد بُعدًا معنويًا إما علوًّا، وإما نزولًا حسب ما يقتضيه السياق، فهنا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ هذا نزول، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ علوًّا، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ هذا نزول، فجمعت الآيتان بين العلو والنزول.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ ولم يقل: علم؛ لأن علم الله فيه مستمر سابقًا وحاضرًا ولاحقًا، ولهذا أتى بالفعل المضارع الدال على الاستمرار.

وقوله: ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ما تضمره من النفاق والكفر، يعني: وأما أنتم فلا تعلمون ما في قلوبهم؛ لأنه ليس لنا إلا الظاهر، لكننا نعلمهم بالقرائن، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: إشارة ومفهومًا، وهذا يكون لأهل الفِراسة، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله كان أشد فراسة؛ حتى إن بعض الناس ليقرأ ما في قلب الإنسان من على صفحات وجهه، لذلك نقول: المنافقون لا يعلمهم إلا الله، هذا الأصل، ولكن ربما نعرفهم في لحن القول، أو بفِراسة يعطيها الله - تعالى - من يشاء من عباده.

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني: لا تُتعب نفسك معهم، ولا تعاملهم معاملة الكافرين فتقاتلهم؛ لأنهم لم يعلنوا بالعداوة، ولهذا لما استأذن النبي ﷺ في قتل منهم، قال: «لَا، يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، وهذا هو عين الحكمة؛ لأننا لو سلطنا سيوفنا على أمثال هؤلاء لقتلنا عالَمًا، وقد يكونون مؤمنين، وإذا كان الرجل المشرك الذي لحقه أسامة وأدركه بالسيف قال

له النبي ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟»، مع أن الظاهر أنه قالها تعوذًا إذا كان هذا الرجل عصم دمه بهذه الكلمة، فكيف بهؤلاء المنافقين الذين يذكرون الله ويأتون معنا ويصلون ويتصدقون، فالكفُّ عنهم هو عين الحكمة.

وقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ الموعظة هي التذكير المقرون بالترغيب والترهيب، وهي أن تذكر الإنسان بما يلزمه من فعل أو ترك مع الترغيب أو الترهيب، ترغيب فيما تأمره به وترهيب فيما تنهاه عنه.

وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم قولًا يصل إلى قرارة نفوسهم، ويحتمل أن يراد أن يكون المعنى ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنهم وحالهم ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: يبلغ قلوبهم، والمعنيان لا يتنافيان، وعلى هذا فيكونان جميعًا حقًّا، أي: قل لهم في شأنهم، وفي أنفسهم أنكم فعلتم كذا وفعلتم كذا، أو قل لهم قولًا يصل إلى النفوس وإلى قرارة القلوب.

وقوله: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: ذا بلاغة، أو بليغًا بمعنى: بالغًا غايته وكلاهما صحيح؛ لأن القول كلما كان بليغًا كان أشد تأثيرًا، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً» وكم من إنسان يعبر عن المعنى بعبارة بليغة غاية في البيان والفصاحة فيؤثِّر، ثم يأتي إنسان آخر يعبر عن هذا المعنى نفسه، ولكن لا يؤثر شيئًا؛ بسبب عدم البلاغة، ولهذا من نعمة الله على العبد أن يعطيه بلاغة وفصاحة حتى يستطيع أن يعبر عما في نفسه مؤثرًا على غيره، وضد ذلك من لم يكن بليغًا، والبلاغة صارت فنًّا مستقلًا ألَّف فيه العلماء الكتب، وهي فنٌّ لذيذ جدًّا ؛ لأنه مفيد من وجه، وله ذوق طيب من وجه آخر، وهذه الآيات نزلت في قول المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ورسوله وليسوا كذلك.

الفوائد:

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...﴾ يستفاد من هذه الآية فوائد:

١ـ **منها:** التعجب من هذه الحال الشاذة، وعلمنا ذلك من الاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لأن المراد بذلك: التعجيب يعني: أن يتعجب من حاله.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يدعي ما ليس صادقًا فيه؛ لقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بما أُنزل إلى الرسول، وما أنزل من قبله، لقوله: ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهذا يدل على أن الإيمان بما أنزل من قبله يساوي الإيمان بما أُنزل إليه، وإن كان يخالفه من حيث المنهاج والشرعة كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وإلا فأصل الأديان واحد من حيث الإيمان والمعتقدات، لكنها تختلف

من في الشرعة والمنهاج؛ لأن الله حكيم يشرع لكل أمة ما يناسبها، وما تقتضيه حالها من الصلاح والإصلاح.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: كمال الإسلام والمتمسكين به؛ لأن الإسلام يأمر الناس بالإيمان بكل ما أنزل الله، والمتمسكون به كذلك يؤمنون بكل ما أنزل الله، أما الذين اعتنقوا غير الإسلام كاليهود والنصارى لا يؤمنون بكل ما أنزل الله، أما السابقون منهم فإنما يؤمنون به إيمانًا حكميًا، يعني: يؤمنون بما تأخر عن شرائعهم إيمانًا حكميًا، فهم لم يدركوه، ولكنهم يؤمنون به، يعني: أن المؤمنين بموسى في وقته، والمؤمنين بعيسى في وقته يؤمنون بالقرآن؛ لأنهم يجدون الرسول مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، لكنه إيمانٌ حكمي، أما إيمان المسلمين بالقرآن وبالشرائع السابقة فهو إيمان حقيقي؛ لأن دين الإسلام هو المتأخر.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علو الله وهذا يؤخذ من ذكر الإنزال.

فإذا قال قائل: لم يذكر المنزِل بما أنزل إليه فقال: ﴿أُنزِلَ﴾ ولم يقل: بما أنزلنا؟ نقول: لأنه معلوم والمعلوم كالمذكور، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ لو قال قائل: من الذي خلق الإنسان؟ قلنا: الله، ما في الآية نقول: لأنه لا خالق إلا الله، وهذا معلوم كونًا.

وإنزال الوحي معلوم شرعًا؛ لأن الذي ينزل الوحي هو الله ـ عز وجل ـ، إذنْ: يستفاد من هذا: علو الله ـ عز وجل ـ، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل الصريح والفطرة، وهذا شيء معلوم ـ والحمد لله ـ.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله تحاكم إلى الطاغوت، لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

٧- ومن فوائدها: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله كفر وهذا يؤخذ من تكذيبهم دعوى الإيمان في قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما أرادوا التحاكم إلا إلى الله ورسوله.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه إذا كانت إرادة التحاكم إلى الطاغوت مخرجة من الإسلام، فالتحاكم إليه فعلًا من باب أولى، فمن كان يهوى ويريد أن يكون التحاكم إلى الطاغوت ـ وإن لم يتحاكم إليه ـ فإنه ليس بمؤمن، فكيف بمن حقق هذه الإرادة وتحاكم إلى الطاغوت فعلًا؟! ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ هذه قيود عظيمة مؤكَّدة، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم في ﴿وَرَبِّكَ﴾، وبحرف زائد لفظًا وهو ﴿لَا﴾ وهي هنا ليست نافية، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا الفعل، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا يجدوا ضيقًا فيما قضيت، والثالث: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: تسليمًا كاملًا أي: بدون تردد فالإنسان قد يجد في نفسه حرجًا من الحكم الشرعي، وقد لا يجد، لكن لا

يستسلم ويبادر، لكنه لا يؤمن حتى ينتفي عنه الحرج ويسلم تسليمًا.

٩ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أننا مأمورون بأن نكفر بالطاغوت، لقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ ولا يتم إيماننا إلا بالكفر والطاغوت؛ لقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، فلابد من الكفر بالطاغوت وإلا لم يصح الإيمان بالله.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن للشيطان إرادة وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نعم له إرادة، بل وله أمر، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فهو يريد ويأمر، فهل يمكن أن نرد هذه الإرادة وهذا الأمر؟ نعم، بالاستعاذة بالله منه؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ والنبي ﷺ لما شكا إليه الصحابة ما يجدون في نفوسهم من الخواطر الرديئة قال ﷺ: «مَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ». فهذا هو العصمة منه.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الشيطان يريد من بني آدم أن يضلوا ضلالًا بعيدًا، وليس ضلالًا قريبًا، لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ولكن هل الشيطان يأمر بالضلال البعيد في أول وهلة؟ لا، لكن بالتدرج فيأمر أولًا بالفسوق والمعاصي الصغيرة، ثم بالكبائر ثم بالكفر ـ نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منه ـ، ولهذا قال العلماء: (إن المعاصي بريد الكفر)، والبريد مسافة معينة تكون ثلاث فراسخ، وكان فيما سبق ما عندهم طائرات وما عندهم تليفونات، فكيف يوصلون الرسائل في وقت قصير؟ يجعلون مسافة بريد فيأخذ الفارس الرسائل من هذه النقطة ثم يعدو بفرسه إلى غاية البريد، وإذا بفارس آخر ينتظره فيأخذ الرسالة ويسير بها إلى بريد آخر وهكذا، حتى يصلوا إلى الغاية، وهذا وجه كونه بريدًا.

المهم: أن العلماء يقولون: إن المعاصي بريد الكفر، حيث يتدرج الشيطان مع الإنسان شيئًا فشيئًا حتى يهلكه.

أما فوائد قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾

١ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه ما في الصدور؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: أن الإنسان مؤاخذ على كسب القلب، ولا يُعارض هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»؛ لأن حديث النفس ليس فيه استقرار، يعني: أن الإنسان يحدِّث نفسه لكن لا يستقر، فإن استقر صار عملًا، ولهذا قال العلماء: للقلب عمل وللنفس حديث، فعملُ القلب: هو أن يستقر على الشيء ويأخذ به.

فما هو الذي توعد الله عليه في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؟

الجواب: هو عمل القلب، أن الإنسان يعمل بقلبه أي: يطمئن إلى الشيء الذي حدثته به نفسه.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الإعراض؛ حيث لا ينفع الكلام، لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقد ذهب بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآيات الجهاد وليس كذلك، بل آيات الجهاد في شيء، وهذه في شيء آخر، هذه في مجادلة المنافقين، والمنافقون لا يمكن أن يجاهدوا بالسلاح؛ لأنهم يظنون أنهم مسلمون، ولا يمكن أن يُجاهدوا إلا بالعلم والبيان، فإذا بينا لهم، ولكن استمروا في الجدال فإننا نعرض عنهم.

ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله: (إذا أتاك مجادل فبيِّن له السنة ولا تجادله)؛ لأنك إذا بينت له السنة جعلت الحجة عليه بين يديك، فإن جادل فإنه يجادل الله لا يجادلك أنت، فبيِّن السنة ولا تجادل بها؛ لأن الواجب على من تبينت له السُّنة أن يقبل بدون جدال.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه إذا أعرض الإنسان عن هؤلاء المنافقين وأمثالهم فإنه لا يتركهم بدون موعظة، بل يعظهم لعلهم ينتفعون؛ لقوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾، وقد سبق لنا معنى الموعظة، وهي التذكير مقرونًا بالترغيب والترهيب.

٥- ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم أن يتكلم بكلام بليغ يصل إلى النفس؛ لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه من آداب المتكلم أن يتجه إلى المخاطب؛ لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾؛ لأن كلمة ﴿لَّهُمْ﴾ تعني: أن يتوجه الإنسان القائل إلى مخاطبه فلا يتكلم وهو معرض أو يتكلم وتلقاء وجهه إلى محل آخر، بل إذا أراد أن يتكلم مع شخص في موعظة فليكن اتجاه وجهه إلى هذا الرجل؛ لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:٦٤: ٦٨]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

أولًا الإعراب: قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ هذه محلها النصب على أنها مفعول به، لكن دخلت عليها من الزائدة؛ لتأكيد العموم، فـ ﴿رَّسُولٍ﴾ هذه نقول في إعرابها إنها: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

واعلم أنك إذا قلت في حرف ما: إنه زائد فلا تعني أنه زائد من حيث المعنى، بل وزائد من حيث الإعراب، أما المعنى فإن جميع الحروف الزائدة يقولون: إنها من أدوات التوكيد، فكل حرف جر زائد، فهو من أدوات التوكيد.

ثانيًا قوله: ﴿لِيُطَاعَ﴾ اللام هذه للتعليل، وليست للعاقبة؛ لأنه ليس كل رسول يطاع، لكن الحكمة من الإرسال هو أن يطاع، فاللام هنا للتعليل.

قوله أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، ﴿إِذ﴾ ظرف لما مضى وليست ظرفًا للمستقبل، وتأتي (إذ) للتعليل لا للظرفية، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني: لأنكم ظلمتم، وتقول أتيتك إذ أتيتني وإن كان وقت الإتيان الثاني غير وقت الإتيان الأول، لكن إذ هنا تكون للتعليل..

وفي الإعراب أيضًا (لو) يقولون: إنها مختصة بالأفعال، وهنا دخلت على أن فما هو الجواب عن هذه القاعدة التي تقول: إن (لو) مختصة بالأفعال مع أنها لم تدخل على فعل؟

الجواب: أن نقول: الفعل محذوف، التقدير: ولو ثبت أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك، أما ﴿جَآءُوكَ﴾ فهي جواب (لو).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ اللام أيضًا واقعة في جواب الشرط ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

يقول الله عز وجل: إنه ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذن الله، فلم يرسل الرسل من أجل أن يُكذبوا ويؤذوا، وإن كانت العاقبة قد تكون التكذيب والإيذاء، لكن الأصل في إرسال الرسل هو طاعته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، هذا هو الأصل في خلق الجن والإنس أنهم خلقوا للعبادة لا للهو واللعب، ولكن هل هذا متحقق في كل واحدٍ من البشر وكل واحد من الجن؟

الجواب: لا.

إذنْ: هذه الآية كالآية التي في سورة الذاريات، لكن التي في سورة الذاريات تتعلق بشهادة أن لا إله إلا الله، وهذه تتعلق بشهادة أن محمدًا رسول الله، هذه في الرسالة وتلك في التوحيد، فالرسل ما أرسلوا إلا ليطاعوا، لا ليكذبوا ويؤذوا ويُقتلوا؛ لأن من الرسل من كذب وأُوذي وقتل ومن الرسل من عُبد.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنُ الله ـ تعالى ـ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وشرعي، والمراد به هنا: الشرعي ويحتمل أنه الكوني يعني: يطاع إذا أذن الله تعالى بإذنه الكوني، ومن الرسل الذين أذن الله أن يُطاعوا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولهذا فرع عليه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ يعني: لو أنهم حين ظلموا أنفسهم جاءوك، يعني: جاءوك في حال ظلم أنفسهم، وذلك لما وقع بينهم من خصومة، ولا يتحاكمون إلى غير الرسول ﷺ واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول؛ لوجدوا الله توابًا رحيمًا.

وقوله: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ يعني: حين ظلموا أنفسهم، وذلك فيما وقع بينهم من نزاع وخصومة.

وقوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوا إلى الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن المراد: جاءوك في حال حياتك، ويدل لهذا قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ لأنه بعد موته لا يمكن أن يستغفر لهم، إذ إن عمله انقطع بموته كما قال النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ».

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عما وقع منهم من ظلم، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ تأكيدًا لذلك ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وهنا في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ إظهار في موضع الإضمار، والأصل: واستغفرت لهم، لكنه أظهر في موضع الإضمار؛ تنبيهًا على أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول، وأن استغفار الرسول له مزية على غيره؛ إذ إن دعوة الرسول مستجابة، فلهذا أتى بوصف الرسالة دون الضمير الذي هو الأصل فكان في هذا المكان.

وقوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ قلنا: اللام واقعة في جواب (لو)، وأن ﴿جَآءُوكَ﴾ هي خبر أن والتقدير: ولو أنهم جاءوك حين ظلموا أنفسهم فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول.

الإعراب:

إذ: ظرف، والظرف لابد له من متعلَّق وهو متعلق بقوله: ﴿جَآءُوكَ﴾.

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفة على ﴿جَآءُوكَ﴾، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ معطوفة عليها أيضًا، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾: اللام واقعة في جواب (لو)، وعلى هذا فجواب (لو) هو قوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾.

وقوله: ﴿تَوَّابًا﴾: التواب من أسماء الله سبحانه وتعالى، وتوبة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: توبة بمعنى التوفيق إلى التوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة.

فمن الأول: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ فمعنى ﴿تَابَ﴾: وفقهم للتوبة وقدرها لهم.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فهو دليل على أن توابًا تأتي بمعنى قابل للتوبة، ومنها قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾؛ إذنْ: التواب من أسماء الله، وله معنيان: الأول: الموفِّق للتَّوبَةِ. الثاني: القَابِلُ للتَّوبَةِ.

وقوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ هي - أيضًا - من أسماء الله فمن أسماء الله الرحيم، ورحمة الله - تعالى - تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة.

أما العامة: فهي شاملة لجميع أفعال الخلق، وهي تكون للمؤمن وللكافر وللبر والفاجر، لكنها في الدنيا فقط.

وأما الخاصة: فهي الخاصة بالمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وهي تكون في الدنيا وفي الدين أيضًا.

ثم اعلم أن رحمة الله واسعة - كما أشار - ثابتة له على وجه التحديد، وليس كما يزعمون بأنها إرادة الإحسان؛ لأن أهل التعطيل لا يؤمنون بأن لله رحمة ويقولون: كل ما ورد في الرحمة فالمراد به: الإحسان أو إرادة الإحسان؛ لأنهم ظنوا أن الرحمة التي أثبتها الله لنفسه هي كرحمة المخلوق فقالوا: إن الرحمة فيها نوع عطف ورقة وهذه لا تليق بالله، فيُقال لهم: إن هذه الأوصاف أو هذه المعاني التي زعمتموها خاصة برحمة المخلوق؛ أما الخالق فهو رحيم مع قوته وقدرته، ودعواكم أن الرحمة رقة ولين وذل دعوى كاذبة، فإن قد يوجد سلطان قوي جبروت وربما يكون عنده رحمة، لكن من أجل تصورهم أن الرحمة التي أثبتها الله لنفسه هي رحمة كرحمة المخلوق أنكروا ذلك، وقالوا: لا يمكن أن يكون الله كذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الفتوى الحموية»: (كل معطل فهو ممثل) قد تستغرب هذا، كيف يعطل؟! ونقول: إنه ممثل؛ لأنه إنما عطل بناءً على التمثيل، وأنه إذا أثبت فقد مثَّل، فيكون مثَّل أولًا، وعطل ثانيًا.

مثاله: هذه الصفة أي: الرحمة، ومثال آخر الوجه فقد قالوا: لا يمكن أن يكون لله وجه؛ لأنه لو كان له وجه لزم أن يكون مماثلًا للمخلوق، وهذا مستحيل، فنقول: الآن أنت مثَّلت أولًا، وعطَّلت ثانيًا.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: إثبات الحكمة لله عز وجل في إرسال الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** ثبوت قيام الأفعال الاختيارية لله عز وجل بمعنى: أنه تتجدد له الأفعال الاختيارية حسب المفعولات، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ لأن إرسال الرسل يتجدد.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات تعليل أفعال الله، وذلك يؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن أفعال الله وأحكام الله معللة، لكن العلة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة لنا إما على سبيل العموم وإما على سبيل الخصوص، معنى قولنا إلا على سبيل العموم أي: إنها تكون مجهولة لكل البشر أو مجهولة لبعض الناس دون بعض، وإلا فنعلم أن جميع أفعال الله وأحكامه كلها معللة مربوطة بعلل وحكم وأشخاص، لكن بعضها معلوم للخلق وبعضها غير معلوم، فلو قال لنا قائل: لماذا كانت صلاة الظهر أربع لماذا لم تكن اثنتين أو ستة؟ نقول: الله أعلم لا أحد يعلم، ولو قال قائل: لماذا كان لحم الإبل ناقضًا للوضوء؟ من العلماء من يقول: الله أعلم؛ لأنه لا يدري، ويقول: هذا تعبد علينا أن نتعبد لله، وأن نتوضأ إذا أكلنا لحم الإبل ولا نسأل.

ومن العلماء من يقول: بل هذا معلل بعلة وهو ما في الإبل من القوة والشيطنة، فإذا أكل الإنسان من هذا اللحم تأثر به، فيتوضأ من أجل أن تهبط هذه القوة التي حصلت له من أكل لحم الإبل؛ ولهذا أمر الإنسان إذا غضب أن يتوضأ ليطفأ عنه حرارة الغضب؛ إذن: بعض العلماء فَهِمَ الحكمة وبعضهم لم يفهم الحكمة، وربما يختلف العلماء في العلة فالنهي عن الصلاة في المقبرة ما العلة فيه؟ قال بعض العلماء: العلة فيه خوف الشرك، وقال بعضهم غير ذلك.

فالمهم: أن جميع أفعال الله وأحكامه كلها معللة، لكن منها ما هو معلوم العلة ومنها ما لا يعلم ومنها ما يعلمه بعض الناس دون بعض.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن الحكمة الشرعية قد يختلف الحكم فيها، وهي تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ هذه الحكمة الشرعية قد تقع، ولكن قد تتخلف؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه حكمة شرعية وقد تتخلف.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الإِذْنِ لله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والإذن نوعان: شرعي وكوني، فمن الأول: قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ ولا يصح قدرًا، ومن ذلك أيضًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أذن لكم شرعًا، وأما الإذن الكوني فكثير، مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وكذلك هذه الآية.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة والاستغفار؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أنه يشرع لمن ظلم نفسه في المخاصمة والمحاكمة أن يأتي للرسول ﷺ

ليستغفر الله ويطلب من الرسول ﷺ أن يغفر له؛ وذلك لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - له الحكم وإليه التحاكم، فمن المشروع أن يأتي إلى الرسول ويستغفر الله عنده ويستغفر له الرسول ﷺ.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الإنسان إذا ظلم نفسه لا ينبغي له أن يذهب إلى قبر النبي ﷺ ليستغفر الله عنده فيستغفر له الرسول، والآية ليس فيها ذلك، لكن مع ذلك استدل بها أهل الغلو على أن الإنسان ينبغي له إذا أذنب ذنبًا أن يأتي إلى القبر النبوي فيستغفر الله ويستغفر له الرسول ﷺ، واستدلوا لذلك بقصص مكذوبة منها: أن أعرابيًّا جاء إلى قبر النبي - عليه الصلاة والسلام - وأنشد بيتين يقول فيهما:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَ مِنْ بَقَايَا يَعْقُوبَ ....

إلى آخر البيتين.

فلما نام رأى النبي ﷺ، وقال له: إن الله قد غفر لك.

هذه قصة مكذوبة، والآية تدل على بطلان هذا القول؛ لأن الآية تقول: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ و﴿إِذ﴾ للماضي، فلو قال: إذا ظلموا ربما يكون في ذلك شبهة؛ ولكنه قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾؛ ولأن قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يمنع أن يكون بعد دفنه؛ إذ إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يستغفر لهم بعد موته.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من تاب واستغفر بصدق وإخلاص فإنه قد فاز بالتوبة والرحمة؛ لقوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾، وهل يستثنى من ذلك ذنب؟ لا، مع التوبة لا يُستثنى ذنب، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، هذه آية عامة تشمل كل الذنوب، وهناك آية مفصلة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ وهذه ذكر الله فيها رءوس الذنوب العظيمة منها: ﴿لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا الشرك، ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ﴾ وذاك العدوان على النفس هو أعظم من العدوان الجسدي، ﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ وذلك عدوان على العرض، ثم أعقبها الله - تعالى - بقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾، وهل يشمل هذا المنافقين؟ نعم يشملهم للعموم، ولقوله تعالى في المنافقين خاصة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وهل يؤخذ من الآية طلب الدعاء من الغير بأن تقول: يا فلان استغفر الله لي أو يؤخذ منه انتفاع الإنسان بدعاء غيره؟

الثاني: وذلك لأنهم ليس في الآية أنهم طلبوا من الرسول أن يستغفر لهم، لكن في الآية استغفروا الله واستغفر لهم الرسول، ولم يطلب بأية طلب، ومعلوم أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره، فها هو النبي ﷺ قال لأصحابه: «**إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ - أي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - قَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، وكذلك ذكر الله عن المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وكذلك المسلمون يصلون على موتاهم ويقولون: اللهم اغفر لهم وارحمهم، وهذا محل إجماع أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره، ولكن هل يسأل غيره أن يدعو له؟

الجواب: هذا محل خلاف فمن العلماء من قال: لا بأس أن يسأل من الرجل الصالح أن يدعو له، واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ كان يأتيه الرجل ويقول: يا رسول الله ادع الله أن يغيثني فيدعو له، وربما يسأل النبي ﷺ أن يدعو له بالمغفرة فيدعو له، وبأن الصحابة رضي الله عنهم توسلوا إلى الله - تعالى - بطلب السقيا بالعباس بن عبد المطلب، وبأن النبي ﷺ أمر من أدرك أويس القَرَني أن يطلب منه الدعاء ، وبأن النبي ﷺ قال لابن عمر: لا تنسنا يا أُخي من دعائك، ولكن كل هذه ليس فيها دليل.

أما طلب الإنسان من النبي ﷺ أن يدعو له فهذا خاص به؛ ولهذا لم يُنقل أن أحدًا جاء إلى أبي بكر أو عمر أو عثمان أو عليٍّ وقال: ادع الله لي، وأما الاستسقاء بالعباس؛ فلأن عمر رضي الله عنه قال: قم يا عباس ادع الله لنا، إنما طلب بأن يدعو لعموم المسلمين، ولا حرج أن تأتي إلى إنسان نأمل فيه الخير وتقول له: ادع للمسلمين أن يغيثهم ؛ لأنك لم تدع لنفسك، وأما أويس القرني فهو خاص به؛ ولهذا نحن نعلم علم اليقين أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وفقهاء الصحابة أفضل منه، ومع ذلك لم يأمر النبي - عليه الصلاة والسلام - أحدًا أن يقول: اطلبوا من هؤلاء أن يدعوا لكم، لكن هذا خاص به فقط، وعلى هذا فالأفضل ألا نسأل من أحد أن يدعو لنا، لكن قيَّد شيخ الإسلام هذا بما إذا قصدت نفعًا خاصًّا، أما إذا قصدت نفع أخيك بثوابه على دعاءه لك، وثوابه على دعاء الملك له، فإن من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك مثله، قال: إنه إذا قصد هذا فقد قصد الخير إلى أخيه فيكون غير داخل في المسألة المذمومة.

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم في ﴿وَرَبِّكَ﴾، وبحرف زائد لفظًا وهو ﴿لَا﴾ وهي هنا ليست نافية، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذا الفعل.

وهذه الآية فيها ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: تحكيم الرسول ﷺ، فإن حكموا غيره فليسوا بمؤمنين.

المرتبة الثانية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: ضيقًا ولو كان على المحكوم عليه، يعني: حتى المحكوم عليه إذا وجد في نفسه حرجًا وضيقًا فليس بمؤمن، فالواجب: انتفاء الحرج والضيق وانشراح الصدر لما يحكم به الرسول ﷺ.

المرتبة الثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: ينقادوا، ﴿تَسْلِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد، أي: ينقادوا انقيادًا تامًّا لما يحكم به الرسول ﷺ.

فنفى الخلاف الباطن والخلاف الظاهر؛ الخلاف الباطن: أن يكون في صدرك ضيق وحرج، والظاهر: ألا تسلِّم التسليم التام، بل تُماطل ولا يكن أمرك أمر استسلام.

[ففي الآية أقسم الله بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته ﷺ، أقسم بها قسمًا مؤكدًا أنه لا يصح الإيمان إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله ﷺ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان وانحراف][(1)].

[**وفي الآية الكريمة فوائد**: أن الحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يُبطل حكم الله ليحلّ محله حكم آخر طاغوتي، بحيث يلغي الحكم بالشريعة بين الناس، ويُجعل بدله حكم آخر من وَضع البشر، كالذين يُنحّون الأحكام الشرعية في المعاملة بين الناس، ويحلون محلها القوانين الوضعية، فهذا لا شك أنه استبدال بشريعة الله - سبحانه وتعالى - غيرها، وهو كفر مُخرج عن الملَّة؛ لأن هذا جَعَلَ نفسه بمنزلة الخالِق؛ حيث شرع لعباد الله ملا لم يأذن به الله، بل ما خالَف حكم الله عز وجل، وجعله هو الحكم الفاصل بين الخلق، وقد سمَّى الله تعالى ذلك شركًا في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

القسم الثاني: أن تبقى أحكام الله عز وجل على ما هي عليه، وتكون السلطة لها، ويكون الحكم منوطًا بها، ولكن يأتي حاكم من الحُكَّام فيحكم بغير ما تقتضيه هذه الأحكام، يحكم بغير ما أنزل الله، فهذا له ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن يحكم بها يخالف شريعة الله معتقدًا أن ذلك أفضل من حكم الله وأنفع لعباد الله، أو معتقدًا أنه مماثل لحكم الله عز وجل، أو يعتقد أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا كفر، يَخْرُج به الحاكم من الملَّة؛ لأنه لم يرض بحكم الله عز وجل، ولم يجعل الله حكمًا بين عباده.

---

(١) نظرًا لتعذر سماع المادة العلمية الخاصة بشرح هذه الآية قمنا بنقل شرحها من كتاب «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ص (٢٠٦) ط. دار الريان.

الحال الثانية: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن حكم الله - تعالى - هو الأفضل والأنفع لعباده، لكنه خرج عنه، وهو يشعر بأنه عاص لله عز وجل إنما يريد الجور والظلم للمحكوم عليه، لما بينه وبينه من عداوة، فهو يحكم بغير ما أنزل الله لا كراهة لحكم الله ولا استبدالًا به، ولا اعتقادًا بأنه - أي الحكم الذي حَكَمَ به - أفضل من حكم الله أو مساوٍ له، أو أنه يجوز الحكم به، لكن من أجل الإضرار بالمحكوم عليه حكم بغير ما أنزل الله، ففي هذه الحال لا نقول: إن هذا الحاكم كافر، بل نقول: إنه ظالم معتدٍ جائر.

الحال الثالثة: أن يحكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن حكم الله - تعالى - هو الأفضل والأنفع لعباد الله، وأنه بحكمه هذا عاصٍ لله عز وجل، لكنه حكم لهوًى في نفسه، لمصلحة تعود له أو للمحكوم له، فهذا فِسْق وخروج عن طاعة الله عز وجل، وعلى هذه الأحوال الثلاث يتنزَّل قول الله - تعالى - في ثلاث آيات: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهذا ينزل على الحال الأولى، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ينزل في الحال الثانية، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] ينزل على الحال الثالثة.

وهذه المسألة من أخطر ما يكون في عصرنا هذا، فإن من الناس مَن أولع وأعجب بأنظمة غير المسلمين، حتى شُغِف بها، وربَّما قدَّمها على حكم الله ورسوله، ولم يعلم أن حكم الله ورسوله ماضٍ إلى يوم القيامة، فإن النبي ﷺ بُعِثَ إلى الخلق عامَّة إلى يوم القيامة، فلا يمكن أن يشرع لعباده إلا ما هو نافع لهم في أمور دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، فمَن زعَمَ أو توهَّم أن غير حكم الله - تعالى - في عصرنا أنفع لعباد الله من الأحكام التي ظهر شرعها في عهد النبي ﷺ فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا، فعليه أن يتوب إلى الله وأن يرجع إلى رشده، وأن يفكِّر في أمره][1].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾؛ لأنهم يكرهون ما يؤلمهم ويؤذيهم في الدنيا ولا يهمهم إذا كفوا هذا الأمر أن يكونوا طائعين أو عاصين.

وقوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يُراد به أن يقتل الإنسان نفسه، بل يراد به أن يقتل أخاه؛ لأن أخا الإنسان في منزلة نفسه، ودليل ذلك قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، ومعلوم أن الإنسان لا يلمز نفسه وإنما يلمز أخاه.

وقوله: ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ هذا - أيضًا - من الأمور المكروهة للنفوس أن يخرج الإنسان من بلده، فإن ذلك من أكره ما يكون على النفوس حيث يدع وطنه الذي عاش فيه، ويدع أملاكه ويدع الأرض التي كان يعرفها، فهذا شاق على النفس، ولو فرضنا عليهم ذلك ما انقادوا إلَّا قليل منهم،

(١) «فقه العبادات» لابن عثيمين ص (٦٠ - ٦٣).

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ وذلك لإيثارهم الدنيا على الآخرة.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ هذا استثناء والقليل يعني: ما دون النصف، والكثير: النصف فما فوق، لكن يقال لما فوق النصف: إنه أكثر، ويقال لما دونه: إنه الأقل.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ يعني: لو أن هؤلاء الذين تحاكموا إلى غير الرسول ﷺ - وأُمروا أن يتحاكموا إلى الرسول - فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم، والذي يوعظون به هو: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الحال والمآل.

وقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي: أشد إثباتًا على الحق؛ لأن الإنسان كلما ازداد طاعة لله ازداد إيمانًا ويقينًا وثباتًا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** بيان ضعف الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يتحمل كل ما أمر به إذا كان لا يلائمه، لاسيما مع ضعف الإيمان خصوصًا إذا قلنا: إن هذه الآية نزلت في المنافقين.

٢- **ومن فوائدها:** أن قتل الناس بعضهم بعضًا من أشق ما يكون على النفوس.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإخراج من الديار هو من الأشياء الشاقة على النفوس؛ لأن - الله تعالى - ضربه هنا مثلًا ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الناجي من العباد قليل؛ لقوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، ففتش في نفسك هل أنت من هؤلاء القليل أو من تكون؟ وهذا الحكم يشهد له ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن الله - سبحانه وتعالى - ينادي يوم القيامة: «يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعدَيْكَ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، فَيَقُول: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّار؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وتِسْعَةٌ وتُسْعُونَ» يعني: واحد في الألف من أهل الجنة والباقون من بني آدم من أهل النار فعظم ذلك على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الواحد؟ فقال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّكُمْ فِي أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَشَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، ففرح الصحابة بذلك وكبَّروا، وهذا يدل على أن بني آدم الأقل القليل منهم هم الذين ينجون من النار والباقون من أهل النار - نعوذ بالله منها -.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن طاعة الله - سبحانه وتعالى - سبب لكل خير؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الأحكام الشرعية مواعظ؛ ولهذا قد سمى الله القرآن موعظة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ووجه كون الأوامر والنواهي موعظة أن الإنسان يتعظ بها فيمتثل للأمر ويجتنب النهي، وكثيرٌ من الناس لا يفهم من كلمة موعظة مثلما كان مقرونًا في الترغيب أو الترهيب وهذا ليس بشرط.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تفاوت المنازل بين العباد؛ لقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الثبات على الحق يختلف، منه الشديد القوي، ومنه الضعيف، ومنه المتوسط؛ لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى عظيم ما يحصل في المستقبل، وأن الإنسان يخشى عليه من الزلل إلا أن يثبته الله؛ لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾؛ لأن التثبيت على غير مواطن الزلل لا يُذكر، إنما يذكر التثبيت في حال مواطن الزلل، ومعلوم: أن الإنسان يرد عليه في حياته شبهات، ويرد عليه شهوات فالشبهات تدك العلم وتُذهب العلم، والشهوات تدك الإرادة حتى يصبح الإنسان لا يريد إلا ما يهواه فقط، وهذه آفة، فالإنسان يحيط به شيئان: شبهة يزول بها العلم، وشهوة تزول بها الإرادة، فإذا لم يثبته الله بالعلم والإرادة الصادقة والعزيمة الجازمة فإنه يهلك.

مسألة: هل يؤخذ من هذا أن الإيمان يتفاوت؟

الجواب: نعم يؤخذ، وجه ذلك اسم التفضيل، واسم التفضيل يقتضي وجود مفضل ومفضَّل عليه، وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، أن الإيمان يتفاوت.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿إِذًا﴾ ظرف للزمن الحاضر، و(إن) للماضي، و(إذا) للمستقبل، فهذه الظروف الثلاثة، والمعنى: وإذًا لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لأثبناهم على ذلك ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

و(آتى) بالمد بمعنى: أعطى من أخوات (كسا) التي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، بخلاف ظن وأخواتها فإنها تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، مثال ذلك نقول: زيد قائم، لو أدخلت عليها (ظن) لكانت: ظننت زيدًا قائمًا، وتقول: كسوت زيدًا جبة، فلو حذفت العامل هل يستقيم أن يكون زيد مبتدأ وجبة خبر؟ لا يمكن، ولهذا يفرق بين كسا وأخواتها، وظن وأخواتها، فـ (آتى) من من باب كسا، ومفعولها الأول: الهاء في قوله: ﴿لَّآتَيْنَاهُم﴾ والمفعول الثاني: ﴿أَجْرًا﴾.

وقوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم﴾ أي: لأعطيناهم.

وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا.

وقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا.

وسمى الله الثواب الذي جعله على الأعمال أجرًا؛ ليتبين للإنسان أن هذا الثواب لابد من حصوله ، كما أنه لابد من حصول الأجر لمن استأجر بيتًا أو نحوه، فلابد أن يحصل على الأجرة، والعظيم: هنا بمعنى: الكثير، وبمعنى الشديد يعني: أنه أجر لا يمكن للإنسان أن يدرك كنهه؛

لأنه عظيم ووصف الشيء بالعظيم من العظيم يدل على عظمته.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية: دليل على أن الإنسان يُثاب ثوابًا آخر غير التثبيت الذي ذكره الله في الآية الأولى، وهو أنه ينال ثوابًا عظيمًا من عند الله عز وجل، وكل هذا من أجل الترغيب في فعل ما يُوعظ به العبد.

٢ـ وفي هذه الآية الكريمة: دليل على بطلان قول الصوفية الذين يقولون: اعبد الله لله، ولا تعبده لثواب الله، وجه الدلالة: أنه لولا كان لذكر الثواب تأثير في العمل لكان ذكره عبثًا ولغوًا، والله عز وجل لم يذكر الثواب ويرغِّب في العمل من أجل الثواب إلا ليبين أن نية الثواب لا تُضعف العمل ولا تنافي الإخلاص، وقد وصف الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم والذين معه بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، على أنه جاء في آية أخرى: المدح للذين يبتغون وجه الله فيكون هذا دليلًا على أنك إن أردت وجه الله، فإنك مُثاب وإن أردت ثواب الله فإنك مثاب أيضًا.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: عظم هذا الثواب من وجهين:

الأول: إضافته إلى الله في قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾؛ لأن عطاء العظيم عظيم.

والثاني: من قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم قال الله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿صِرَٰطًا﴾ هذه فيها قراءتان (بالسين والصاد) و(هدى) هذه أيضًا تنصب مفعولين ليس أصلها المبتدأ والخبر، المفعول الأول: (الهاء) في قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، والثاني: ﴿صِرَٰطًا﴾ وقوله: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ الهداية هنا تشمل هداية العلم والإرشاد، وهداية التوفيق والرشاد، وقد مر علينا أنه إذا عدي العامل بـ(إلى) فهو هداية الدلالة والإرشاد وإذا جُرِّدَ من حرف الجر شمل هذا وهذا، وذكرنا لهذا شواهد فمن شواهد المعدَّى بـ(إلى) قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ومن شواهد المجرَّد قوله ـ تعالى ـ في سورة الفاتحة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وهذه الآية أيضًا: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٨].

الفوائد:

١ـ ففيها من الفوائد: أن من فعل ما يوعظ به وأطاع الله ورسوله فإنه يُهدى إلى الحق، وثواب الحسنة عشر أمثالها.

٢ـ ومن فوائدها: أنك إذا أردت سعة العلم، وثبوت العلم، فعليك بطاعة الله؛ لأنه كلما اهتدى الإنسان بهداية الله، ازداد هدىً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

و قوله: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يستفاد منه: أن هناك صراطًا غير مستقيم، وما هو الصراط غير المستقيم؟ إنه سبل الكفر: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[الأنعام:١٥٣]، والسبل التي تميل بالإنسان يمينًا وشمالًا، هذه غير مستقيمة، أما صراط الله الذي هو سبيله والموصل إليه، فإنه مستقيم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:٦٩-٧١]

❁ التفسير ❁

(من) هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم بها، ودليل الجزم حذف الياء، وأصل «يطع»: يطيع، فإذا قال قائل: لماذا حذفت الياء؟ قلنا: لأنه لما جزم الفعل صار ساكنًا، والياء ساكنة، والقاعدة: أنه إذا اجتمع ساكنان، فإن كان الأول حرفًا صحيحًا كُسِرَ، وإن كان حرف علة حُذِفَ، وفي هذا يقول ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيِنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

(لَيِنًا) يعني: حرف علة، (فحذفه استحق) يعني: فاحذفه، هنا نقول: حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وبعدها ساكن فوجب حذفها، فإن قال قائل: ما بعدها ليس بساكن بل هو مكسور ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، فالجواب أن هذه الكسرة عارضة لالتقاء الساكنين.

وجواب من جملة: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وهنا نسأل لماذا اقترنت الفاء بالجواب؟ لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية فإنه يجب اقترانه بالفاء، وفي وجوب اقتران جواب الشرط بالفاء قال الشاعر:

اسميةٌ طلبيَّة وبجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وبِالتَّنْفِيس

فهنا سبعة مواضع إذا وقعت جوابًا للشرط اقترنت بالفاء.

قوله﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾فيها قراءتان ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالياء، و﴿من النبيئين﴾ بالهمزة، و(من) بيانية، فما هو المبهم الذي بين بمن؟ هو﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهي اسم موصول مبهم يحتاج إلى بيان، وصلته لا تبينه .

وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، (أولئك) تعود إلى المشار إليهم وهم الصديقين والشهداء والصالحين.

مسألة: لماذا قال (رفيقًا) مع أن المشار إليه جمع؟

الجواب: لأن التميز لابد أن يكون مفردًا، ويقول العلماء: إن (رفيق) مفرد صالح للجمع والمفرد، فتقول: هؤلاء جماعة رفيق أو رفقاء هؤلاء الجماعة، كالجنب مثلًا، لفظها مفرد ولكنها صالحة للجمع قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾، ومثل (الفُلْكِ) مفرد لكنه صالح للجمع قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ [لقمان:٣١] وأمثال هذا كثير.

ويعجبني كلمة قالها ابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو من الفقهاء ـ قال: إن الأحدب الذي ينحني كالراكع ينوي الركوع، كـ(فلك) في العربية صالحة للمفرد والجمع، وهكذا الانحناء من الرجل الأحدب صالح لئن يكون طبيعيًا أو يكون شرعيًا راكعًا، وهذا يجرنا إلى قصة الكسائي مع أبي يوسف، قيل: كان الكسائي يقول: إن الإنسان إذا أتقن علمًا إتقانًا قويًا جيدًا، فهم ما سواه من العلوم وإن لم يدرسها، هكذا قال وكان ذلك بحضرة الرشيد، فقال له أبو يوسف، ـ وأبو يوسف فقيه ـ، قال له: ما تقول فيما إذا سها الرجل في سجود السهو؟ قال الكسائي: أقول لا يسجد للسهو ثانية، قال: وهل عندك شيء من نحوك يدل على هذا؟ قال نعم، عندي أن المصغر لا يصغر، على كل حال: إن الإنسان إذا ربط العلوم بعضها ببعض ينتفع، ويكون عنده قدرة على تأليف الفكر، ولهذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يقرن من الأشياء التي تظنها بعيدة بعضها من بعض ولكنها قريبة ويجمعها في أصل واحد.

ومعنى قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الطاعة هي: موافقة الأمر، تركًا للمنهي، وفعلًا للمأمور، ولهذا نقول: إن مَنْ ترك المعصية يعتبر مطيعًا، ومَنْ فعل الواجب فهو مطيع، ولهذا قيل في الطاعة هي موافقة الأمر، أو موافقة المطاع.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ولم يقل ثم الرسول؛ لأن أمر الرسول من شرع الله، ومعلوم: أن النبي ﷺ في الشرع لا بأس أن يُقرن مع الله بالواو، لأن مَنْ جاء به فهو من شرع الله، بخلاف الأمور الكونية فإنه لا يجوز أن يُقرن مع الله إلا مقرونا بـ(ثم)، ومن فروع هذه القاعدة، قول القائل: الله ورسوله أعلم في الأمور الشرعية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٥٩]، ولم يقل ثم رسوله؛ لأن هذا إيتاء شرعي، فهو من الشرع، أما الأمور القدرية فإن النبي ﷺ لا يملك فيها شيئًا فلهذا لما قال له الرجل: ما شاء الله وشئت قال:

«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا»(١).

وقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾، (أولئك) اسم إشارة إلى جمع، مع أن الذي قبلها مفرد، لكن قالوا: إن (من وما) وأمثالها صالحة للجمع والمفرد، فهي باعتبار لفظها مفرد، وباعتبار معناها جمع، فيصح أن يعود الضمير إليها، أو الإشارة إليها، باعتبار اللفظ، وباعتبار المعنى، وقد جمع الله تعالى بين ذلك، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾[النساء:١٣] فراعى في الأول اللفظ، وفي الثاني المعنى، وفي الثالث اللفظ أيضًا.

وقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾، أُتي باسم الإشارة إشارة إلى علو مرتبتهم، ولم يقل فهؤلاء للتنبيه على علو المرتبة.

وقوله:﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: نعمة الدين والدنيا، وهي النعمة الخاصة، ونعمة الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين: نعمة عامة، ونعمة خاصة.

الأولى: النعمة العامة، وتكون للمؤمن والكافر والبرِّ والفاجر والمستقيم والفاسق، ومنها إدرار الرزق على الناس من مطر ونبات ورخاء وأمن، هذه من النعم العامة.

الثانية: النعمة الخاصة، وهي النعمة التي تكون في الدِّين وهذه خاصة بالمؤمنين، وهم أصناف أربعة كما قال الله تعالى هنا: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، و(النبيون) هنا تشمل الرسل؛ لأن كل رسول فهو نبي، فإذا قيل: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دخل فيهم بالأولى الرسل، ولا شك في هذا.

و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قيل: إنهم مَنْ أُوحِي إليهم بشرع ولم يُؤمروا بتبليغه، والرسل من أوحي إليهم بشرع وأُمروا بتبليغه، وهذا هو المشهور عند أهل العلم، وقيل: النبي مَنْ أُوحي إليه أن يتعبد بشريعة مَنْ قبله أو يأتي بها يكملها، فلابد من سبق رسول عليه، ولكن الصحيح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن النبي يُوحى إليه بالشرع ولكنه لا يُكلف أو يُلزم بتبليغه، ومن النبيين الذين لم يُرسلوا آدم، فإن آدم نبي مكلَّم، لكنه ليس برسول؛ لأنه هو أول البشر فليس هناك أمة حتى يكون رسولًا لها، ولأن الناس الذين خرجوا منه ومن حواء ـ عليهما السلام ـ كانوا قليلين لم تفتنهم الدنيا، وكانوا ينظرون إلى أبيهم فيتعبدون بعبادته، فلما انتشر الناس وكثروا أرسل الله الرسل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] وهذا يدل على: أن الناس قبل هذا لم يبعث فيهم أنبياء مبشرين ومنذرين، وإنما هم أنبياء يتعبدون

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٤٥)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

لله وتتبعهم الأمة، وهو مأخوذ من (النبأ) وهو الخبر، وقيل: من (النبوة) وهي الرفعة، أما على الأول فظاهر، لأن النبي مخبِر ومخبَر، وعلى هذا يكون لفظ النبيين بالهمز (النبيئين) على وزن (فعيل) بمعنى: مفعول وفاعل، فهو مُنْبَأ ومُنْبِئ، وأما على الياء فتحتمل أن تكون من ا لنبأ، ولكن حُذفت الهمزة تخفيفًا، أو من (النبوة) وهي الرفعة؛ لعلو منزلة الأنبياء، ولا شك أن الأنبياء هم أعلى طبقات عباد الله الصالحين الصديقين، وأما غلاة الصوفية فقالوا: إن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول، قالوا: لأن الولي له الولاية والقرب، والنبي له الإخبار مع البعد، والرسول خادم، وأنشدوا على ذلك:

مَقَامُ النُّبوةِ في بَرزَخٍ فُوَيقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِيّ

إذنْ: الولي بعيد ويلي الوليَّ النبيُّ، ثم الرسول، وليس بين النبي والرسول على زعمهم فرق إلا قليلًا، ولا شك أن هذا ضلال بيِّن ـ والعياذ بالله ـ لأننا نقول: كل رسول نبي، وكل نبي ولي، فأشرف أولياء الله الرسل والأنبياء لا شك، فأشرف الأولياء النبيون، وأشرف النبيين الرسل، فكلامهم باطل، ثم مَنْ يعنون بالأولياء؟ يعنون بهم رءوس الطواغيت، الذين هم أولياء الشيطان، الذين يريدون منهم أن يعبدوهم، وأن يجعلوهم معصومين من كل ذنب، ومن كل خطأ.

أما قوله: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: فالصديق هو الذي صدق بالحق، وقال بالصدق، بينه قوله الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الزُّمَر:٣٣]، وأفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه، لأن هذه الأمة أفضل الأمم وأبو بكر أفضل هذه الأمة، فيكون أفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، جمع شهيد، واختلف العلماء فيهم، فقيل: إن المراد بالشهداء أهل العلم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

و قيل: المراد بالشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران:١٦٩]، والصحيح أن الآية عامة، لأن العلماء شهداء، استشهدهم الله سبحانه وتعالى على الخلق، فهم يشهدون بالحق، ويشهدون على الخلق، مَنْ أعلم الناس بصدق الرسل وبشريعة الرسل؟ العلماء، فيشهدون بالحق الذي جاءت به الرسل، ويشهدون على الخلق أن الرسل بلغوهم، ثم نقول أيضًا: هذه الأمة شهداء على الناس عمومًا، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣]، ووجه ذلك: أن هذه الأمة تشهد على أن الرسل جاءوا أقوامهم بالبينات، وأن من هؤلاء الأقوام مَنْ كذب، ومنهم مَنْ آمن، وأن هؤلاء الأقوام من كفر، ومنهم من آمن، لأنه ليس بعد رسول الله ﷺ رسول، فالرسل كلهم قد سبقوا، وقد قص الله علينا من أنبائهم.

و قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، هؤلاء أدنى مرتبة ممن قبلهم، لكن من كان قبلهم فهو من الصالحين لا شك، فهو من باب عطف العام على الخاص، فليس كل صالح يكون صدِّيقًا، وليس كل صالح يكون شهيدًا وليس كل صالح يكون نبيًا أو رسولًا، لكن كل نبي، وكل صديق، وكل شهيد، فهو صالح، قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢].

إذنْ: الصلاح وصف عام، فيكون عطفه على ما سبق من باب عطف العام على الخاص، لكن فمن هو الصالح؟ الصالح ضد الفاسد، فهو المطيع لله؛ لأن الفاسد هو العاصي لله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قال العلماء: أي: لا تفسدوا فيها بالمعاصي؛ فإن المعاصي سبب للفساد في الأرض، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، وعلى هذا فالصالح هو المطيع لله، وعبر بعضهم عن ذلك بقوله: الصالح مَنْ قام بحق الله وحق العباد، وهذا بمعنى الأول، لأن المطيع لله لا بد أن يكون قائمًا بحق الله وحق العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، (حسن) فعل ماضٍ، لكنه مُشرَب معنى التعجب، فهو بمعنى: ما أحسن هؤلاء الرفقاء، وقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه هم هؤلاء الأصناف الأربعة، و(رفيقًا) قيل: إنها بمعنى رفقاء، وإنها اسم يستوى فيه الجمع والواحد، وقيل: إن رفيقا تمييز لـ(حسن)؛ لأنها بمعنى التعجب، ولكن الأول أصح، أي: حسن هؤلاء رفقاء، وأن (رفيق) صالحة للواحد وللجمع، والرفيق هو المرافق، والمرافق هو الذي ترتفق به أُنسًا، ومعونة، وانشراحًا، وما أشبه ذلك، ولهذا لا يقال رفيق إلا لمن رافقك، وزاملك، إما في عمل، وإما في سفر، وإما في غير ذلك.

مسألة: ما مدى صحة حديث: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»(١)؟

الجواب: صحيح، لكن ليس التحديث يعني: التصديق؛ لأن الرسول أمرنا بالتوقف فيما حَدَّثوا به ما لم يشهد شرعنا به، ولهذا قال العلماء: إن أخبار بني إسرائيل تنقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم شهد شرعنا بصحته، وقسم شهد شرعنا ببطلانه، وقسم لم يشهد شرعنا فيه بشيء، فالثالث يُتوقف فيه.

مسألة: هل الصالحين أرفع درجة أم المصلحين؟

الجواب: كل مصلح فهو صالح، والصالح الذي لا يُصلح فيه نقص في صلاحه؛ لأنه من كمال الصلاح الإصلاح، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٦١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٥٩)، والترمذي (٢٦٦٩).

يذكر أنهم أمروا بالمعروف قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠]، إذنْ فالمصلح أفضل؛ لأن من كمال الصلاح الإصلاح، وقد يكون الإنسان صالحًا لكنه لا يهتم بصلاح غيره فلا يكون مصلحًا، وحينئذ نقول: هو صالح ناقص الصلاح.

مسألة: بعض الناس يطلقون لفظ الشهادة على مَنْ قُتل فى معركة هل هذا صحيح؟

الجواب: أما مَنْ قُتل في المعركة وقد قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهذا شهيد، لا شك، وأما من قاتل لقضية معينة لا لتكون كلمة الله هي العليا فليس في سبيل الله، وليس شهيدًا، ولا يحل أن نسميه شهيدًا، بل حتى الذي يُقتل في المعركة لا يقال: إنه شهيد، كما بوَّب على ذلك البخاري رحمه الله، فقال: باب لا يقال فلان شهيد، وكما نهي عن ذلك عمر قال :(إنكم تقولون فلان شهيد، وفلان شهيد، وما يدريكم يعني: لعله غل، ولكن قولوا: مَنْ مات أو قتل في سبيل الله فهو شهيد)[1].

مسألة: العمليات الفدائية التي تجرى الآن في بعض البلدان هل نقول لمن قُتِل في هذه المعارك (شهيد)؟

الجواب: هذا الفدائي دخل انتحاريًا، وما يجوز هذا أبدًا، وهو قاتلٌ نفسه، ولا يجوز إلا في حال واحدة معينة، وهي ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله، إذا كان في ذلك مصلحة كبيرة لأهل الإسلام، واستدل بقصة الغلام مع الملك، الذي أراد الملك أن يقتله، فصار يرسله، مرة إلى الجبال ليُردى فيها، ومرة إلى البحر ليغرق فيه، ولكنه يرجع سالمًا، فقال للملك: إن كنت تريد أن تقتلني، فأجمع الناس، وخذ سهمًا من كنانتك، ثم ارمني به، وقل: باسم رب هذا الغلام، فإنك سوف تقتلني، ففعل الملك وجمع الناس، وأخذ سهمًا من كنانته، فرماه به، وقال: باسم رب هذا الغلام، فأدركه فقتله[2]، ماذا حصل؟ صار هؤلاء الجمع كلهم يقولون: الربُّ رب الغلام، وليس أنت، فهذه مصلحة عظيمة.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى ذكر ثلاث فوائد لمن فعل ما يُوعظ به، وهي:

الأولى: أن ذلك أحسن له فى الدنيا والآخرة.

الثانية: الأجر العظيم.

الثالثة: هداية الصراط المستقيم.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠)، والنسائي (٦/ ١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٠٥)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ١٦)، والترمذي (٣٣٤٠).

٢- **ومنها أيضًا**: ما يُستفاد من الإضافة في قوله: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾؟ التكثير والتعظيم، وجهه: أن الله عز وجل أضاف الأجر والثواب له سبحانه وتعالى ولم يبين أجره في هذه الآية فدل على أنه أجر عظيم، وهذا له نظير من السنة وهو دعاء علَّمه الرسول ﷺ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول في آخر صلاته: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»(١).

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحث على طاعة الله ورسوله، وجه ذلك ذكر الثواب؛ لأن ذكر الثواب على فعل الشيء يعني: الترغيب فيه والحث عليه.

٤- **ومن فوائدها**: أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، وجه ذلك أن مَنْ أطاع الرسول استحق الثناء كالذي أطاع الله.

٥- **ومن فوائدها**: جواز عطف الرسول على الرب عز وجل بالواو في الطاعة، وكذلك في المعصية، لأن أمر الرسول من أمر الله، لقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ولهذا نقول: ما يتعلق بالشرع فإنه لا حرج أن يعطف الإنسان الرسول على الرب عز وجل بالواو، لأن شرع الرسول هو شرع الله، مثل هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وهذا إتيان شرعي، أما في الأمور الكونية فإنه لا أحد يشارك الله تعالى في ربوبيته، فلابد أن يكون مذكورًا بحرف العطف الدال على الترتيب، ولهذا لما قال رجل للرسول ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، قُلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢).

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذين أنعم الله عليهم أربعة أصناف، النبيون، والصِّديقون، والشهداء، والصالحون، وهذه الآية تفسر آية الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالذين أنعم الله عليهم هم هؤلاء الأصناف الأربعة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي أفضل من الصديق، والصديق أفضل من الشهيد، والشهيد أفضل من الصالح؛ لأن الترتيب هنا ترتيب من الأعلى إلى الأدنى.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية**: إبطال ما ادَّعاه الفلاسفة من الصوفية وغيرهم بأن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول، وقد شرحنا هذه المسألة وبينا أن كل نبي فهو ولي، وكل رسول فهو نبي، وعلى هذا فالرسول نبي ولي وليس كل ولي نبيًّا ولا رسولًا.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الثناء على هؤلاء الأصناف الأربعة، جعلنا الله وإياكم منهم، حيث قال عز وجل: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرفقاء يختلفون، منهم رفقاء خير، ومنهم رفقاء شر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤)، و مسلم (٢٧٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

لقوله هنا: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، وقد حذر النبي ﷺ من رفقاء السوء، وقال: «مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوْءِ كَنَافِخِ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً»(١)، والكير هو الذي يستخدمه الحداد وهو جلد حيوان، يكون مغلقًا إلا الثقب الذي يكون يخرج منه الهواء، وفيه ثقب آخر يأخذ منه الهواء فعندما يضغط العامل يأخذ الهواء ويطرده إلى الأمام، وأمامه النار فالكير هذا ينفخ النار حتى يزيد من شدتها وهذا هو القديم ولا أعلم هل الحديث مثله أو لا.

إذنْ: الكِيرُ القديم: جلد يكون طرفه الذي يدخل على محل النار، يكون دقيقًا، وأعلاه يكون واسعًا، وفي أعلاه خشبتان تنفتحان، إذا جذبه فتحه، يعبئ الهواء، ثم يضمه، ثم يضغط عليه، فإذا ضغط وهو مملوء بالهواء، يذهب الهواء إلى النار، فتجد النار مشتدة اللَّهب، فنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، بخلاف الجليس الصالح فهو كحامل المسك، إما أن يبيعك وأما أن يحذيك، يعني: يعطيك بلا ثمن، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾، (ذلك) المشار إليه ما سبق من نعمة الله سبحانه وتعالى على هؤلاء الأصناف الأربعة، الذين أنعم الله عليهم نعمة في الدنيا والآخرة؛ لأن النعمة على هؤلاء الأصناف الأربعة نعمة متصلة من الدنيا إلى الآخرة، بخلاف إنعام الله على غيرهم من أشقياء عباد الله، فإنها نعمة في الدنيا خسارة في الآخرة، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ إذنْ: المشار إليه ما أنعم الله به على هؤلاء الأصناف.

وقوله: ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، (الفضل) يحتمل أن تكون صفة، أو عطف بيان لـ(ذا)، ويحتمل أن تكون خبر المبتدأ، لو جاء ضمير الفصل لَتعين أن تكون خبر المبتدأ، فالآن لنا في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون (ذلك الفضل) كلمة واحدة، يعني: الصفة والموصوف، و(من الله) جار ومجرور خبر المبتدأ.

الوجه الثاني: يجوز أن تكون (ذا) مبتدأ، و(الفضل) خبره، ويكون (من الله) حالًا في موضع نصب على الحال.

والمعنى: أن الفضل من الله لا من غيره، فهم لم يكسبوا ما كسبوا من المنزلة العالية بأنفسهم، بل بفضل من الله عز وجل، ولهذا قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي وَلَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرَكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ»(٢)، فالإنسان لا يكتسب الفضائل بنفسه، ولو وُكِلَ إلى نفسه لهان، وذَلَّ، وحُرِمَ، ولكن الفضل من الله عز وجل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، و مسلم (٢٦٢٨).

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٢)، و أبو داود (٥٠٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٨).

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ هذه صيغة بمعنى التعجب، وقيل في إعرابها: إن (كفى) فعل ماضٍ، و(الباء) حرف جر زائد، ولفظ الجلالة (الله) فاعل، يعني: وكفى اللهُ عليمًا، وعلى هذا تكون عليمًا: منصوبة على الحال، أي: حال كونه عليمًا، وصلة هذه الجملةِ بما قبلها تفيد بيان أن الله سبحانه وتعالى لم يعطِ الفضل لهؤلاء إلا عن علم، ليس هكذا جزافًا، بل الله أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الصلاح، وأعلم حيث يجعل العلم، وأعلم حيث يجعل الرشد، فهو سبحانه وتعالى يعلم المحلَّ الذي هو أهلٌ لهذا الفضل فيمنحه إياه، ويعلم من ليس بأهل فيحرمه، هذه وجه صلة الجملة بما قبلها.

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة:

أولًا: بيان نعمة الله عز وجل على هؤلاء الأصناف، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ووجهه: أن الله تفضل عليهم.

ثانيًا: أن ما يحصل للإنسان من فضل فإنما هو من الله عز وجل، لا بحوله وقوته، ولهذا أهلك الله الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:٧٨]؛ لأن الفضل بيد الله.

٢- ومن فوائد هذه الآية: الحث على توجه الإنسان إلى ربه في سؤال مطلوبه، وجهه: أنه إذا كان الفضل من الله فلا تسأل الفضل إلا مَنْ بيده الفضل.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان سعة علم الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

٤- ومن فوائدها أيضًا: تفويض الأمر إلى الله، وأن الله تعالى إذا فضل أحدًا على أحد، فاعلم أن ذلك عن علم، ليس عبثًا، ولهذا لما قال المكذبون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، ردَّ الله عليهم قائلًا لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وأنتم لستم أهلًا للرسالة.

٥- ومن فوائد هذه الآية: وهي فائدة بعيدة بعض الشيء، بيان أن جنس العرب أفضل بني آدم، بعلم الله، وجهه: أن محمدًا ﷺ أشرف عباد الله، وهو من العرب، فدل ذلك على أن الجنس العربي أفضل من الجنس غير العربي من بني آدم، وهذا شيء مُشاهد، وتدل عليه أخلاقهم، وآدابهم، وما حصل لهم من الفضل العظيم بنصرة هذا الدين، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «**اقتضاء الصراط المستقيم**» أوجهًا متعددة على أن جنس العرب أفضل من الجنس الآخر من البشر.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾، الخطاب هنا موجه للمؤمنين، وإذا صدر الله سبحانه وتعالى الخطاب بـ (ياء) النداء دل هذا على الاهتمام به، وأنه جدير بأن ينبه المخاطَب به فينادى عليه حتى ينتبه، ثم إن هذا الخطاب موجَّه إلى المؤمنين، ليدل على أن القيام به

من مقتضى الإيمان، وأن مخالفته من نواقص الإيمان، وقد تكون من نواقص الإيمان، حسب ما أمر به، قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما نقل عنه واشتهر: (إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك، يعني: استمع لها جيدًا، فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهي عنه)[1]، وصدق رحمه الله، إما خير تؤمر به، وإما شر تُنهي عنه، وإما خبر تحذَر منه، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، هذه ليس فيها أمر ولا نهي، لكن فيها التحذير من طريقة هؤلاء الأحبار والرهبان، الذين يصدون عن سبيل الله، ويأكلون أموال الناس.

وقوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ الحذر يعني: التخوف من أعدائنا الكفار، ولا عدو للمؤمن إلا الكافر، قال الله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فلا عدو حقيقة للمؤمن إلا الكافر، والكافر طبقات، الكافر المصرح بالكفر أهون من الكافر المُخفي للكفر، وهو، المنافق، ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين التي أنزلها كاملة في المنافقين، قال: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤]، ومعلوم أن جملة ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾، تفيد الحصر، لتعريف طرفيها، ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾، كأنه لا عدو للمسلمين إلا المنافق، لأن عداوته - والعياذ بالله - لا يمكن أن يطلع عليها، ولا يمكن التحرز منها.

إذنْ: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾،أي: من أعدائكم المنافقين، ومن الكافرين المصرِّحين بالكفر، ومن الفاسقين الذين يغرونكم في الوقوع في المعاصي التي دون الكفر، ومن كل أحد يصدكم عن دين الله، ومعنى أخذ الحذر، أي: من غزو هؤلاء لنا، سواء كان بالسلاح، أو كان بالفكر، أو كان بالخلق، ومعلوم الآن أن أعداء المسلمين يغزون المسلمين بكل سلاح، وينظرون السلاح المناسب للأمة، فيغزونها به إذا كان من المناسب للأمة أن يغزوها بالسلاح، ففعلوا وقاتلوا وهاجموا، وإذا كان من المناسب بالأفكار فإنهم يأتون بأفكار منحرفة إلحادية، فإذا أمكنهم ذلك فعلوا، وإذا لم يُمكَّن لهم بأن كانت الأمة على جانب كبير من الوعي والتوحيد، والارتباط بالله عز وجل، قالوا: نغزوا بطريق ثالث، وهو الخُلُق، فسلَّطوا عليها كل ما يفسد أخلاقها، من المجلات، والإذاعات، وغير ذلك، ولهذا الآن، انظر ماذا فعل الناس بواسطة المحطات الأفقية، التي تُلتقط عن طريق الدشوش، أي: عن طريق الأقمار، الأقمار مرسلة، والدش مستقبل، هذه الدشوش أو هذه الأشياء التي يبثونها، لا شك أنها - كما سمعنا ولم نشاهد والحمد لله - ولكن كما سمعنا أن فيها شرًّا عظيمًا، وهم يجعلون فيها أشياء مفيدة، لأنهم يعلمون أنها لو كانت مفسدة مائة بالمائة، ما قبلها الناس، إلا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٦٠٢).

من زاغ قلبه ـ والعياذ بالله ـ من أجل أن يضعوا الحب للصيد، فأقول: هذا الغزو الآن، غزو خلقي، وربما يكون فيه غزو فكري، وأنا أسمع أحيانًا إذاعة عالية، صافية، من أحسن ما يكون من إذاعات العالم التي نسمع، وتبث التنصير، أي: الدعوة للنصرانية، لكن الحمد الله كل شيء يدعون به وهو خير، نجد أن شريعتنا متضمنة له، وأنها لا حاجة إلى دعوتهم هذه؛ لأن الشريعة الإسلامية ـ والحمد لله ـ قد تضمنته، وأكثر مما عندهم، فأقول إن قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾، يشمل كل ما يكون سلاحًا علينا، ومعلوم أننا نأخذ لكل سلاح ما يناسبه، فالذي يناسب السلاح الخلقي: أن يُبصَّر الناس، ويُبين لهم العاقبة السيئة في دمار الأخلاق، وأنه كما قيل:

إِنَّمَا الأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

و يُبين لهم المضار في سوء الأخلاق، وفي الفواحش، وفي الأفكار: يبين للناس العقيدة السليمة، التي تصلهم بالله، وتجعل الإنسان دائمًا مع الله عز وجل، يذكر الله تعالى بقلبه، ولسانه، وجوارحه، قائمًا قاعدًا وعلى جنب، أما الغزو المسلح بالسلاح، فلا بد أن نعدَّ العدة؛ لأن الله قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فصار الحذر يختلف، قد نقول لهؤلاء القوم: تعلّموا العقيدة، والعلم النافع، وبثوه في الناس، وقد نقول لهؤلاء القوم: تخلّقوا بالأخلاق الفاضلة، واجتنبوا السفاسف، وبيِّنوا للناس عاقبة الأخلاق السيئة، وقد نقول لقوم: تعلموا السلاح، كيف يُصنع؟ وكيف يُتقبل السلاح الوارد عليكم؟ وهكذا، فالآية مطلقة، ﴿حِذْرَكُمْ﴾،أي: حذركم من كل شيء بما يناسبه.

وقوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ هذه قد يقول قائل: إنها تعين أن يكون المراد بالحذر هنا حذر السلاح، ولكنه ليس بلازم؛ لأن عطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص، وهذه قاعدة مفيدة، عطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص، فمثلًا قول جابر في الشُّفعة: (قَضَى النَّبِيُّ ﷺ بِالشُّفْعَةِ فِي كُلِّ مَا لَمْ يُقْسَمْ فَإِذَا وُقِّعَتْ الحُدُودُ وَصُرِّفَتْ الطُّرُقُ فَلَا شُفْعَةَ)(١).

إذا نظرنا إلى أول الحديث: (قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم)، قلنا: الشفعة في كل ما لم يقسم، كل شيء، فلو أبيع سيارة بيني وبين زيد على عمرو فلزيد الشفعة؛ لأن السيارة ما قسمت، أليس كذلك؟ في كل ما لم يقسم، فإذا كان بيني وبين زيد سيارة، وبعت نصيبي على عمرو، فلزيد الحق أن يأخذ هذا الذي بعت على عمرو يضمه إلى نصيبه، ولذلك سميت شفعة؛ لأنه يشفع نصيبه بنصيب شريكه، (وإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق)، هذا يقتضي أن يكون المراد بما لم يقسم الأرض؛ لأنها هي التي يكون فيها الحدود وهي التي تصرف فيها الطرق، ولهذا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٤) واللفظ له، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٦)، و أبو داود (٣٥١٤).

اختلف العلماء، هل الشفعة في كل شيء حتى في المنقولات، أو هو في العقار فقط، والصحيح العموم، لأن عطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص، مثالٌ آخر قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٢٢٨]، هذه الآية الكريمة تفيد في أولها أن جميع المطلقات ولو البوائن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، يعني: ثلاث حِيَضٍ، تعتد المرأة ثلاث حيض إذا طُلقت، لكن قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، تقتضي أن يكون المراد بالمطلقات الرجعيات دون البوائن فهل نقول إن العموم في قوله: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾ خصصه قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ وأن المراد بالمطلقات الرجعيات أو نقول:إن المطلقات عامة، وعطف المعنى على بعض أفراد العموم لا يقتضي التخصيص ؟ نعم، الثاني، ولهذا جمهور العلماء، بل حُكي إجماعًا، على أن عدة المطلقة ولو كانت بائنًا ثلاثة قروء ولو كانت بائنه، ولما كانت قاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:(أن كل امرأة مُفارَقة، لا يملك زوجها الرجعة فيها، فإن عدتها حيضة واحدة، قال: إلا المطلقة ثلاث مرات)، فعلق القول بذلك على وجود مخالف.

إن القاعدة التي قعدناها، إذا ذُكر العام ثم عُطف المعنى على بعض أفراده، فهل يكون ذلك تخصيصًا للعام أو لا؟ نقول: لا يكون، هذا هو القول الصحيح، أنه لا يكون، إذنْ ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وإن كان ظاهر السياق يقتضي أن قوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يعني: من أعدائكم الذين يعادونكم بالسلاح، لكن نقول: ذكر حكم بعض أفراد العام لا يقتضي التخصيص.

وقوله: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، (انفروا) يعني: اخرجوا للقتال في سبيل الله، وقوله ﴿ثُبَاتٍ﴾، أي: متفرقين، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين، والذي دلنا على أن (ثبات) بمعنى متفرقين قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، حيث قوبلت بهذا، ومقابل الشيء يكون على ضده في المعنى، فمعنى: ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

الفوائد:

١- **في هذه الآية من الفوائد:** فضيلة الإيمان؛ حيث استحق أهله أن يوجه إليهم الخطاب من الله عز وجل في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية:** وجوب أخذ الحذر من أعدائنا، وكل عدو يُؤخذ منه الحذر فيما يخاف منه، فالذين يغزوننا بالسلاح نأخذ الحذر منهم بالسلاح، والذين يغزوننا بالأفكار نأخذ الحذر منهم بالعلم، والذين يغزوننا بالأخلاق نأخذ الحذر منهم بالترفع عن سفاسف الأخلاق، وكل عدو يقابل بسلاحه .

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إنه ينبغي، بل يجب على الإنسان أن يكون كَيِّسًا فَطِنًا، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ»(١) كيس بيَّنها الرسول ﷺ بأن: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ» يعني: حازم، فطن عنده حذر، فإن قال قائل: هل يجوز أن تصل بنا الدرجة إلى سوء الظن بالغير ونقول: هذا من أخذ الحذر ؟ قلنا: لا يجوز أن نسيء الظن بمَنْ ظاهره العدالة، كما قال أهل العلم: (يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة)، أما من كان ظاهرة الفسق، فلنا أن نأخذ الحذر منه لئلا يخدعنا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**، وجوب النفور للجهاد في سبيل الله سواء كنا مجتمعين أو متفرقين، فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢]؟ قلنا: الجواب أن هؤلاء النافرين ينفرون سواء كانوا متفرقين أو جماعة، وعلى هذا فيكون الأمر هنا لمن نفر، حيث يؤمرون بالنفور متفرقين أو مجتمعين، أما من بقوا؛ ليتفقهوا في دين الله فهؤلاء لن ينفروا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٢، ٧٣]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ في هذه الآية لامان، اللام الأولى: (لمن)، والثانية: (ليبطئن)، فهل هما لام الابتداء ؟ الجواب: أما الأولى فهي لام الابتداء؛ لأنها وقعت في اسم إن المؤخر، وتفيد التوكيد، وأما اللام الثانية فهي موطِّئة للقسم، فقوله ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، واقعة في جواب القسم، والتقدير: وإن منكم لمن والله ليبطئن، فاللام هنا واقعة في جواب القسم، وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم﴾، الجملة شرطية وفعل الشرط فيها وجوابه ماضٍ، فهل نقول: إنه مجزوم أو نقول: إنه مبني في محل جزم؟ الثاني؛ لأن الفعل الماضي مبني، ففعل الشرط ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾، وجوابه ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾، وقوله: ﴿إِذْ لَمْ أَكُن﴾، (إذ) هنا للتعليل، وليست ظرفًا، بل هي للتعليل، يعني: حيث

---

(١) موضوع: أخرجه القضاعي في «مسنده» وانظر «الضعيفة» (٧٦٠).

لم أكن معهم شهيدًا.

وهذه الجملة قد تنازعها الشرط والقسم فهل نجعلها للقسم أو نجعلها للشرط؟ يوضح ذلك ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في قوله:

وَاحذِف لَدَى اجتِماعِ شَرطٍ وَقَسَم   جَوَابَ مَا أَخَّرتَ فَهوَ مُلتَزَم

أين المؤخر هنا ؟ الشرط، فجواب الشرط محذوف، والذي بقي جواب القسم، ولهذا قرن الجواب باللام، ولم يقع مجزومًا جوابا للشرط، وهذه قاعدة عند النحويين: أنه إذا اجتمع شرط وقسم فإنه يحذف جواب المؤخر، إما الشرط، وإما القسم، تقول: والله إن قام زيد، أيها أخر؟ الجواب، ليقومن عمرو، أو تقول: إن قام زيد والله يقم عمرو، المهم: أن المؤخر هو الذي يُحذف جوابه، وهذه القاعدة عند النحويين، يقول تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، الفضل هنا يُراد به النصرة والغنيمة، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أي: هذا المتبطئ.

أما معنى الآية يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾، (من) هذه للتبعيض، يعني: إن بعضكم ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ يعني: للذي يبطئن، ومعنى (يبطئ) أي: يدعو إلى التباطؤ، سواء دعا غيره أو دعا نفسه، فيكون قوله ليبطئن شاملا لمن يخذل غيره عن النفور للقتال، ومن يخذل نفسه ويتهاون حتى يفوت الأوان، هذا الذي بطأ يتأخر ولا يخرج للقتال، نتيجة القتال، إما أن تكون الغنيمة والغلبة والنصرة، وإما أن تكون العكس فهو إذا أصابتكم مصيبة يعني: أصابكم خذلان وهزيمة يقول: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، فيتضمن كلامه هذا الافتخار والاحتقار، افتخار بنفسه أنه لم يشهد هذه المصيبة، واحتقار لمن أُصيبوا بهذه المصيبة، وهذا غاية ما يكون من التباعد، هذا الذي يقول هذا الكلام - وهو منهم - كأن لم يكن بينه وبينهم مودة، كأنه من أبعد الناس عنهم حين افتخر بأن نجا من المصيبة التي أصابتهم واحتقر هؤلاء الذين أُصيبوا وصار كالموبِّخ لهم، أما على الجانب الآخر: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: إن أصابكم فضل نصر وغنيمة يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فيتمنى على الله الأماني بعد أن فاته الأمر، وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾، هذه فيها شاهد نحوي وهو: تخفيف (كأنَّ)، وجملة ﴿لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ في محل رفع خبر كأن واسمها ضمير الشأن، أي: الهاء في (كأنه) محذوف، وقوله: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ المودة هي خالص الحب، يعني: كأنه بعيد منكم، ليس بينكم وبينه ارتباط، وهذه الجملة زعم أكثر المفسرين بأنها جملة تعود إلى الحال الأولى وهي إذا أصابتكم مصيبة.

أما قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾، فهذا مقول القول لقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ أي: أتمنى أني معهم، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، والفعل هنا منصوب بفاء السببية على

رأي ذوي التسهيل واليسر، وهم الكوفيون، و(بأن) مضمرة بعد الفاء على رأي المقعِّدين البصريين، فالتقدير: فأن أفوز فوزًا عظيمًا، وإنما نصب الفعل بذلك؛ لأنه واقع في جواب التمني، ومعنى الآيات: أن هذا القسم من الناس الذي يبطئ نفسه ويبطئ غيره فلا يخرج إلى القتال في سبيل الله يبقى متفرجًا، إن أصابكم مصيبة افتخر، واحتقركم، لكونكم خرجتم في حال وقد خُذلتم فيها، وافتخر في كونه نجا من هذه المصيبة، وإن أصابكم فضل فحينئذ يتمنى أن يكون معهم ليفوز بالفضل، الذي هو النصر والغنيمة، وحينئذ نعرف أن هذا الرجل لا يقصد القتال في سبيل الله، وإنما يقصد الدنيا فقط، وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾، الجملة لا يخفى أنها جملة معترضة، ولكن هل محلها هذا المكان؟ الجواب قال كثير من المفسرين: إن محلها ما قبلها، والمعنى: قال: كأن لم تكن بينكم وبينه مودة قد أنعم الله عليَّ، ولكن الصحيح: أنها ليس فيها تقديم وتأخير، وأن مكانها هو مكانها، وليس شيء أفصح من كتاب الله، وأنه يقول: كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يعني: كأنه لا يريد أن يبين أن تمنيه لكونه معنا من أجل المودة التي بيننا وبينه، ولكن من أجل ما حصل من الفضل الذي هو النصر والغنيمة، وأما المودة فكأنها قُطعت حتى في هذه الحال التي فيها الفوز بالنصر ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾، والفوز في قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ لأنه يرى أن أكبر شيء هو الفوز بالدنيا فقط، والحقيقة: أن الفوز الأعظم الذي لا فوز أكبر منه هو ما ذكره الله في قوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[آل عمران:١٨٥].

وخلاصة الآيتين: أن من الناس من هو منافق لا يريد القتال في سبيل الله، وإنما يقاتل لأجل الدنيا، فإن أصابتكم مصيبة من هزيمة أو ذل، افتخر عليكم واحتقركم وقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، وأما إذا كان العكس وانتصرتم وأصابكم فضل من الله فحينئذ يتمنى أن يكون معكم، ليفوز الفوز العظيم، الذي هو غاية مناه، وهو النيل من الدنيا.

١- من فوائد الآية: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ دليل على أن التكاسل في الخير والتراجع عنه من أسباب النفاق، وهو كذلك، والتباطؤ عن الخير والتكاسل عنه ليس سببًا للنفاق فحسب، بل هو سبب للضلال والعمى - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام:١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]؛ ولهذا يجب على الإنسان متى تبين له الحق أن يأخذ به وألا يتهاون، لئلا يصيبه ما أصاب هؤلاء، بل يسارع ويعمل.

٢- ومن فوائد هذه الآية: بيان حال صنف من الناس الذين لا يريدون القتال في سبيل الله وإنما يريدون الدنيا، وأنهم إذا أصيب من كانوا بصدد الخروج معهم افتخروا في أنهم نجوا من ذلك، وإن أُصيب هؤلاء بالفضل والنصر، تمنوا أن يكونوا معهم، فيكون مرادهم الدنيا، وليس

مرادهم القتال في سبيل الله، أما الذي مراده القتال في سبيل الله، فإنه على العكس من ذلك، إذا أصيب بمصيبة فاستشهد فإنه ينتقل من حال إلى أفضل لأنهم يعلمون: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وإن أصابه فضل ونصر حمد الله عز وجل، وسأل الله المزيد من فضله، وجعل هذا عونًا على طاعته.

قال الله تعالى:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]

التفسير

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، (فاء) ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾، عاطفة، وتدل على ارتباط ما بعدها بما قبلها، والارتباط واضح؛ لأن الذي قبلها فيه ذكر من لا يريد القتال في سبيل الله، أما هذه ففيها ذكر الصنف الآخر الذي يقاتل في سبيل الله، و(اللام) في قوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾، لام الأمر، وسُكنت مع أنها مكسورة لوقوعها بعد الفاء، ولام الأمر تُكسر إذا وقعت بعد الفاء أو الواو أو ثم، مثل قوله تعالى هنا: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، بخلاف لام التعليل، التي تسمى لام (كي)، فإنه يجب أن تكون مكسورة بكل حال، مثل قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٦] يجب أن تكسرها، ولا تقل: ولْيتمتعوا؛ لأنك إذا قلت هكذا اختلف المعنى، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾، (الذين) فاعل (يقاتل)، وقوله: ﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى: يبيعون، مع أنها في لغتنا العامية بمعنى يشترون، وليست كذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[البقرة:٢٠٧]، (يشري نفسه) يعني: يبيع نفسه، إما إذا كان آخذًا فيقال: اشترى، فالمعطي شارٍ والآخذ مشترٍ.

فـ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، فيجعلون بدل الحياة الدنيا الآخرة، وهؤلاء هم الذين اغتنموا الأعمار، وهم الذين اكتسبوا في الحقيقة أن أخذوا الآخرة بالدنيا، ولم يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧].

وقوله: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ﴾ (من) هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم، وجواب الشرط قوله:

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أما ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، فهي معطوفة على فعل الشرط، ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾أي: أيُّ إنسان يقاتل في سبيل الله، وهو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا[1]، كما فسر ذلك النبي ﷺ، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، إن قتل فهو شهيد، أو غلب فهو فائز، ولا يبطل غلبه أجره، ولهذا قال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فهو غانم على كل حال، إن قُتِلَ قُتِلَ شهيدًا، وإن غلب غلب سعيدًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾، وهما: الشهادة أو النصر والغلبة، ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة:٥٢]، ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾أي: ثوابًا عظيمًا وسمَّى الله تعالى الثواب أجرًا تشبيهًا له بأجر العامل الذي يستأجره الإنسان لعمل شيء ما، ثم يعطيه أجره، والمقصود بذلك أن الله تعالى التزم بإثابة هذا العامل كما يلتزم المستأجر بإعطاء العامل أجره، ولهذا سمى الله العمل له قرضًا، مع أن الله لا يحتاج، وسَمى الثواب عليه أجرًا كأنه استأجر أجيرًا ليعطيه أجره، وقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ مَائَةَ دَرَجَةٍ» يعني: في الجنة، وهذا هو الأجر العظيم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** وجوب قتال الأعداء، لقوله ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾.

٢- **ومنها:** وجوب إخلاص النية في القتال، لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ووجه ذلك: أن المقاتلين منهم مَنْ يقاتل شجاعة، ومنهم مَنْ يقاتل حمية يعني: عصبية لقوميته أو لوطنه، ومنهم مَنْ يقاتل ليُرى مكانه أي: مراءاة، فسُئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2]، إذنْ: القتال في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، وهل المعنى ليؤمن الناس؟ الجَواب لا، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا إما بالإيمان، أي: بإيمان المقاتَلين، وإما بذلهم وبذْلهم الجزية، لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عُلُوّ همة هؤلاء المقاتِلين، وهو أنهم يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، وهذا من قوة إيمانهم، وصدق عزائمهم، وعلو همتهم؛ لأنهم يؤمنون بأن هناك آخرة، وعندهم عزيمة قوية يغلبون بها أهواءهم، وإلا فكم من إنسان يغلِّب جانب الحياة الدنيا، ويقول: درهم منقود خير من ألف درهم موعود، - والعياذ بالله -، ولا شك أن هذا يدل على عدم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

إيمانه، وإلا لو أنه مؤمن لكان هذا الموعود الذي وُعد به، وهو خير مما نُقد له، ولكان يعمل له ويعلم أنه ليس بينه وبين هذا الموعود إلا القليل من الزمن، وأن ما يحصل له من المنقود لا يساوي شيئًا بالنسبة للموعود، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، والسوط ليس بالطويل وهو خير من الدنيا كلها وما فيها، وليست دنياك أنت، أو الدنيا التي أنت في عهدها، بل الدنيا من أولها من قبل آدم آخرها، موضع سوط أحدنا فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، فالذي يعمل لهذا فهو العاقل الحازم المؤمن الصادق.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، أن المقاتِل فى سبيل الله ناجح على كل حال، لقوله ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، فهو غانم ناجح في كل حال، سواءٌ قُتل أو غَلب، فهو على أجر عظيم دائمًا.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان عظمة الرب عز وجل؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، وجه ذلك: ضمير الجمع؛ لأننا نعلم أن الله إله واحد، فكل ما أُضيف إلى الله عز وجل من ضمائر الجمع فالمراد بها التعظيم.

مسألة: إذا كان هذا المقاتل الذي يقاتل فى سبيل الله عليه حقوق للعباد فماذا يكون مصيره؟

الجواب: مصيره أن النبي ﷺ سُئل عن الشهادة فقال: «تُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ»(١)، ثم انصرف السائل فناداه فقال: «إِلَّا الدَّيْنَ أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ جِبْرِيلُ آنِفًا»، فدل هذا على أن حقوق الآدمي لا تسقط بالشهادة؛ لأن حقوق الآدمي لابد أن تُؤدى إليه، لكن ثبت عن النبي ﷺ أن مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه.

مسألة: لو أن شخصًا أراد الذهاب لمكان ما للجهاد في سبيل الله فجاء أخ وقال له: لا تذهب إلى هذه البلاد هل يعتبر هذا من التباطؤ ؟

الجواب: هذا إذا قاله على سبيل النصيحة فليس من باب التبطئة؛ أما إذا قاله يريد أن يخذله وهو يعلم أنه لو ذهب إلى ذلك المحل لاستفاد وأفاد فهو يدخل فى الآية، أحيانًا يستشيرك رجل وتعلم أنه ليس من المصلحة أن يذهب، إما لعدم الجدوى أو لأسباب أخرى، فهذا ليس من باب التبطئة، هذا من باب النصيحة، وأحيانًا تقول: لا تذهب ليس لهذا الغرض، لكن تريد أن تخذله فهذا لا يجوز.

مسألة: ما الذي يفيده قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾، من الناحية المسلكية ؟

---

(١) ضعيف: انظر «ضعيف الجامع» (٣٤٤٥).

الجواب: يساعد على الإخلاص وألّا الإنسان يعتد بنفسه، بل يعتقد أن الفضل من الله خلافًا لمن قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[القصص:٧٨].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

لما أمر الله سبحانه وتعالى بالقتال في سبيل الله، ووجه الأمر للذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، أي:يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة، وبيَّن فضل القتال في سبيل الله، وأن المقاتل فى سبيل الله سواء قتل، أو غَلب فله الأجر من عند الله، ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٧٤]، ووبّخ الله أولئك الذين يمتنعون عن القتال، فقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، (ما) هنا استفهامية، ومعناها: الإنكار، ويحتمل أن تكون للإنكار، والتعجب، يعني: أن تكون معناها الإنكار على هؤلاء الذين لم يقاتلوا، والتعجب من حالهم، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، سبق مرارًا بأن القتال فى سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا لا غير.

وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، يحتمل أن تكون معطوفة على لفظ الجلالة، أي: وفي سبيل المستضعفين، ويحتمل أن تكون معطوفة على (سبيل)، أي: وفى المستضعفين من الرجال، والمعنيان يصبَّان فى قناة واحدة، سواء قلنا: في سبيل المستضعفين، أو في المستضعفين أنفسهم، والمستضعفون من الرجال هم الذين لا يستطيعون أن يخرجوا من هذه القرية التي تسومهم سوء العذاب، ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ معطوفة على المستضعفين، أو معطوفة على الرجال، أيها أولى؟ إذا قلنا: معطوفة على الرجال صار المعنى أن النساء ينقسمن إلى قسمين: قسم مستضعف، وقسم غير مستضعف، والمراد بالآية القسم المستضعف، وإذا قلنا: معطوفة على (المستضعفين) صار النساء لا ينقسمن إلى قسمين، بل هن قسم واحد، وأن المرأة لا يلزمها أن تهاجر، ولكن المعنى الأول

أحسن؛ لأن من النساء مَنْ هاجرت ولم تبق في دار الذل والهوان، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ هذا هو الذي يمكن أن نقول: إنه معطوف على قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، وذلك لأن الولدان لا يستطيعون الهجرة، ولا يستطيعون الخروج، وهم في هذه الأماكن مظلومون، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، فواجب علينا: أن نقاتل فى سبيل الله سبحانه وتعالى، وفي هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

و قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾، (الذين) هنا صفة لكل ما سبق من المعطوف والمعطوف عليه، ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول كل واحد منهم أو يقولون على معنى الجملة، وإن لم يكن هذا القول صادرًا من كل واحد، وذلك لأن الجماعة الذين على هدف واحد، وعلى طريق واحد، يكون قول الواحد منهم قولًا للجميع قال الله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، المشار إليه القرية التي هم ساكنوها، وباقون فيها، وهي مكة؛ لأن قريشًا كانت تسوم مَنْ يسلم سوء العذاب، وقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، الظالم هنا نعت لاسم الإشارة في هذه، ولكن كيف يكون نعتًا، والمعنى قائم بغير المنعوت؟ لأنه قال: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، ولم يقل الظالمة، والجواب عن هذا أن يقال: النعت نوعان: حقيقي، وسببي، فالحقيقي: ما عاد فيه الوصف على المنعوت، كما تقول: مررت بزيد الفاضل، هنا هذا الوصف (الفاضل) عائد على زيد، والسببي: ما كان الوصف فيه عائدًا إلى غير المنعوت، لكن له به علاقة، كما لو قلت: مررت بزيد الفاضل أبوه، فهنا الفاضل لا يعود على زيد، بل يعود على أبيه، لكن له به علاقة، وارتباط، ولهذا أضيف إليه فقيل أبوه، فالضمير في (أبوه) عائد على زيد، إذنْ: هذه الآية: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ من النعت السببي، وعلى هذا فنقول: (الظالم) صفة لـ (هذه) و(أهل) فاعل لاسم الفاعل، و(الظالم) اسم فاعل، و(أهلها) أهل: مضاف، و(ها) مضاف إليه، ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، هل المراد الظلم الذي هو العدوان على حق هؤلاء المؤمنين، أو ما هو أعم كظلمهم بالشرك والعدوان أيضًا؟ الثاني، فأهل هذه القرية ظالمون في حق الله لإشراكهم به، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وهؤلاء أيضًا ظالمون بالنسبة لاعتدائهم على هؤلاء المؤمنين؛ حيث كانوا يؤذونهم ويسومونهم سوء العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، (الواو) هذه حرف عطف، ﴿وَٱجْعَل﴾، معطوفة على (أخرجنا)، يعني: ويقولون أيضًا اجعل ﴿لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾أي: اجعل لنا وليًّا يتولانا، ويتولى أمورنا، ونصيرًا ينصرنا على أعدائنا، وتأمل أن كلمة (اجعل) جاءت مرتين، لأن المقام مقام دعاء، ومقام الدعاء ينبغي فيه البسط، لأن الداعي يناجي الله عز وجل، ومناجاة الحبيب لمحبوبه كلما زادت كان ذلك أقوى في المحبة، ولهذا ترى الإنسان إذا كان يحب شخصًا يحب أن يكثر معه الكلام، وربما يجلس يتكلم معه مدة طويلة، وكأنها أقل من هذه المدة بكثير، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ والنصير هو المدافع

المانع من عدوك أن يعتدي عليك، فإذا قال قائل: أليست الولاية تأتي بمعنى النصرة؟ قلنا: بلى، ولكن كما أسلفنا قبل قليل مقام الدعاء ينبغي فيه البسط.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: جواز التوسل بالحال، لقوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، توسلوا إلى الله تعالى بذكر حال أهل هذه القرية بأنهم ظالمون لهم، وذكر الحال أن الإنسان مظلوم يوجب الرقة والعطف، واعلم أن التوسل الجائز إلى الله عز وجل يكون بأمور:

الأول: التوسل إلى الله بأسمائه، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، فتقول: يا غفور اغفر لي، ويا رحيم ارحمني، وهنا ينبغي شرعًا وعقلًا وفطرة ألا يتوسل لمطلوب إلا بالاسم المناسب له، فإذا كان يريد أن يسأل الله المغفرة يتوسل بالغفور، الرزق بالرزاق، البطش بالظالم بشديد العقاب، وما أشبه ذلك.

الثاني: التوسل إلى الله تعالى بصفاته، ومنه قوله ما جاء في الحديث المأثور: «**اللَّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»(١)، فإن هذا توسل إلى الله تعالى بصفة من صفاته، ومنه أيضًا: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي إِذَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي**»، ومنه أيضًا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**»(٢).

الثالث: التوسل إلى الله تعالى بأفعاله، والأفعال وإن كانت من الصفات لكن هي نوع آخر، كقولك: (اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)، فإن الصحيح أن الكاف هنا للتعليل، أي: لأنك صليت على إبراهيم ولا غرابة أن تأتي الكاف للتعليل، فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: لهدايته إياكم، على أحد الوجهين، وإذا قلنا: إن الكاف في قولك:(كما صليت على إبراهيم) للتعليل، زال عنا الإشكال الذي يعرضه كثير من العلماء، وهو أنه كيف يُشبَّه الصلاة على محمد ﷺ بالصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم مع أن محمدًا وآله أفضل من إبراهيم وآله، وإذا جعلناها للتشبيه، وهو لا يصح تنزلًا، فإن ذلك على قول بعض العلماء من باب ذكر الصلاة على النبي ﷺ مرتين، مرة مطلوبة، ومرة مخبرًا عنها، مطلوبة (اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، ومخبرًا عنها (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)، فإن محمدًا لا شك أنه من آل إبراهيم نسبًا، ومن آله اتباعًا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:٦٨]، فهو من آله عليه الصلاة والسلام، نسبًا، وأتباعًا، لكن ما ذكرناه أولًا أنه من باب التوسل إلى الله تعالى بأفعاله أولى.

---

(١) حسن: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٤٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٢٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٨٢)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٣٢٥٣).

الرابع: التوسل إلى الله تعالى بحال الداعي يعني: بأن يذكر الإنسان حاله لله عز وجل ويعرضها، فإن ذكر الحال التي تقتضي الحنو والعطف توسل بها، ومنه قول موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

الخامس: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالله عز وجل ورسوله، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:١٦]، وأيضًا قوله: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٣].

السادس: التوسل إلى الله عز وجل بدعاء الصالحين أن يتوسل الإنسان إلى الله بدعاء رجل صالح، مثل قول عكّاشة بن محصن :(ادع الله أن يجعلني منهم)، فقال ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»[1]، ومثل دخول الرجل الأعرابي الذي قال: (يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا)، لكن دعاء المؤمنين لمن سبقهم ليس فيه توسل.

السابع: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، كتوسل الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فإن ثلاثة آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه ثم انطبقت عليهم الصخرة، عجزوا عن إزالته، فتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، أحدهم بالبِرّ، والثاني بالعفة، والثالث بالوفاء، فانفرجت الصخرة، وخرجوا يمشون، فهذه أقسام التوسل الجائز.

أما التوسل الممنوع فضابطه: أن يُتوسل إلى الله تعالى بما ليس بوسيلة، لأن هذا نوع من الاستهزاء بالله عز وجل، والسخرية به، إذ إن الوسيلة ما يتوصل به إلى المطلوب، فإذا قدمتها بين يدي دعائك وهي ليست بوسيلة صار هذا كالاستهزاء بالله عز وجل، مثل: أن يتوسل الإنسان بنفس الشخص الصالح، كأن يقول: اللهم إني أسألك بفلان، ومن ذلك على القول الراجح الجاه، كأن يقول: اللهم إني أسألك بجاه فلان، فإن هذا التوسل حرام، لأنه توسل إلى الله بما لم يكن وسيلة، ولهذا يَحرُم على الإنسان تعليق التمائم إذا لم تكن من القرآن، لماذا؟ لأنها وسيلة غير صالحة، فكل مَنْ توسَّل إلى الله بوسيلة غير صالحة، فإن توسله حرام.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز الجهر بالسوء لمن ظلم، فتقول: فلان ظلمني، فلان أخذ مالي، وما أشبه ذلك، ولا يعد هذا من باب الغيبة، لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أيدي الكفار لها ولاية على ما تحتها، بمعنى: أن الكافر إذا كان له بلد أو مدينة، أو ما أشبه ذلك، فإن له ولاية عليها، لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، فجعلهم أهلها، ومع ذلك فليسوا بأهل في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:٣٤].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢١٦).

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز دعاء الإنسان ربه أن يخرجه من القرية الظالم أهلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وإذا كان له قدرة فليخرج، ولكن هل المراد بـ (الظالم أهلها) الذين اعتدوا علينا أو الظالم أهلها الذين اعتدوا على حق الله؟ الظاهر الأول يعني: أن الإنسان لا يجوز أن يدعو الله أن يخرجه من البلد إلا إذا كان أهلها قد ظلموه، بمنعه عن دينه، وعن إقامته، أما إذا كانوا ظالمي أنفسهم، ولكنه لا ينال المسلم منهم سوء، فإنه لا تجب الهجرة، ولا ينبغي أن يدعو الله تعالى بأن يخرج منها إلا إذا خاف على دينه

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للإنسان أن يطلب من الله تعالى وليًّا من عنده، كقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، ولا يقال: إنه لا بد أن تقول: اللهم تولني، فأنت إما أن تدعو الله بأن يتولاك، أو أن ييسر لك وليًّا، وكذلك يقال: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، واعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع، والنصير في دفع ما يضر، وأما إذا أُفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل ولي بدون نصير، فالمراد به مَنْ يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر، وإذا قيل: نصير بلا ولي فالمراد من يدفع الشر ويجلب الخير، وإذا اجتمعا صار الولي فيمن يجلب الخير والنصير فيمن يدفع الشر.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان علو همة هؤلاء، حيث قالوا: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في الولي و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في النصير، لأن الولي إذا جاء يكون من عند الله، وكذلك النصير فهذا هو الذي ينفع، أما الولي الذي لا يأتي من عند الله عز وجل، وإنما حملته الحمية والعصبية فهذا قد ينفع وقد لا ينفع.

٧ - **وفي الآية أيضًا**: التوسل بالربوبية؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ﴾، وهذا من التوسل بالصفات، وأكثر الدعاء فيه توسل بالربوبية؛ لأن الربوبية هي التي بها الملك والخلق والتدبير، وإن كانت تأتي كثيرًا بالألوهية مثل: اللهم، لكن أكثر ما تكون بالربوبية.

مسألة: هل يجوز التوسل بجاه الله والرسول ﷺ؟

الجواب: التوسل بجاه النبي ﷺ لا يجوز؛ لأنه ليس وسيلة للتوسل فلا يتوصل بها إلى المطلوب، إذ إن جاه النبي ﷺ منزلة رفيعة للرسول لا تنفعني.

أما جاه الله فلا يجوز، ما لم يرد بجاه وجهه؛ لأن هذا من باب التوسل بصفات الله عز وجل مثل قوله: ﷺ «أَعُوذُ بِالله العَظِيمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ».

مسألة: التوسل بشهادة أن لا إله إلا الله من أي أنواع التوسل؟

الجواب: التوسل بشهادة لا إله إلا الله من التوسل بالصفات.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لما وبَّخ الله سبحانه وتعالى، وتعجب من الذين لا يقاتلون في سبيل الله، بيّن أن المقاتلين ينقسمون إلى قسمين: فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والخبر: قوله ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾أي: يقاتلون الكفار، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه وشرعه، ومن أجله، وقد بيَّن النبي ﷺ القتال في سبيله بأنه قتال مَنْ يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وما عدا ذلك فليس في سبيل الله، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، هذه الجملة مكونة أيضًا من مبتدأ وخبر، المبتدأ (الذين)، والخبر جملة: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، و(الطاغوت) صيغة مبالغة من الطغيان، فالتاء بها كالتاء في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠]، فالتاء للمبالغة، وكما يقولون: فلان علَّامة، فالتاء فيها للمبالغة، وعلى هذا فيكون آخر الكلمة يعني آخر أصول الكلمة هي الواو في (الطاغوت)، وأما التاء فهي مزيدة للمبالغة، فمن هو الطاغوت؟ هنا يُعرف المعنى بذكر المقابل، فالطاغوت مقابل مَنْ يقاتل في سبيل الله، فكل مَنْ قاتل لغير سبيل الله فهو مقاتل في الطاغوت، سواء قلنا: إنه الشيطان، أو أولياء الشيطان، أو العصبية، أو غير ذلك، المهم: أننا نفهم أن المراد بسبيل الطاغوت هو ما كان لغير سبيل الله من المقابلة، وقد مر علينا قاعدة مفيدة في هذا: أن الشيء قد يُعرف بمعرفة مقابله، ومر علينا منه قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، وقوله: ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ يعني: كل ما تجاوز به الإنسان حده، فإنه طغيان وطاغوت.

وقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، (الفاء) للتفريع على ما سبق، أي: قاتلوا أيها المقاتلون في سبيل الله أولياء الشيطان، الذين اتخذوا الشيطان وليًّا، فغرَّهم وأضلهم، وهم الذين يقاتلون لا لتكون كلمة الله هي العليا، ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، لما أمر بقتال أولياء الشيطان بيَّن أنهم مغلوبون، وأن المقاتِل لأولياء الشيطان غالب، يُؤخذ هذا من التعليل من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وإذا كان ضعيفًا فإنه لا مقاومة منه للحق، وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، إذا كان كيد الشيطان ضعيفًا وهو الذي يأتي به مكرًا وخديعة، فما كان صريحًا فهو من باب أَوْلى، والشيطان له كيد، ومكائد يكيد بها للإنسان، لكنه ضعيف إذا ذُكر الله خَنَسَ، وإلا فهو يكيد حتى في غير القتال، فيكيد للإنسان في العبادات، فيأتيه أولًا من باب التهاون بالعبادة، ويهوِّنها عليه، ويقول: إذا تركتها هذه المرة تفعلها المرة الأخرى، ثم إذا همَّ بها في المرة الأخرى وسْوَسَ له أيضًا وثبطه، ويهوِّن عليه المعصية، ويقول: هذه معصية بسيطة، ولا يراك أحد، وليس عندك أحد، والله غفور رحيم، وما أشبه ذلك، فيهوِّنها عليه كيدًا ويزينها، ولكن مع ذلك فكيده ضعيف؛ لأنه لا يُقاوم الحقَّ أبدًا.

الفوائد:

١- في هذه الآية عدة فوائد منها: توبيخ من توانى عن الجهاد، لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** ذكر مَنْ يشجع القتال من الناحية النفسية؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، لأن ذكر ما يثير الإنسان ويهيجه أمر مطلوب، ولا شك أن الإنسان إذا قيل له: إن هناك رجال مستضعفين وولدانًا ونساء، لا شك أنه سوف يزداد همة وإقدامًا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكفار قد استضعفوا هؤلاء وأهانوهم.

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الدفاع على المستضعفين عند الكفار، لأن الله تعالى وبَّخ على الأمرين، على ترك القتال في سبيل الله، وعلى ترك القتال في سبيل هؤلاء المستضعفين لتخليصهم، وهذا أمر واجب على كل مسلم مع القدرة أن يفك أسيرًا مسلمًا، وأن يرفع الظلم عنه، بقدر المستطاع، لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الإيمان يحمل على الإخلاص؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويمكن أن نقيس على هذه الآية بقية الأعمال الصالحة فالذين آمنوا يتعلمون العلم لحفظ شريعة الله ونشرها بين عباد الله، والذين آمنوا يتعبدون لله تعالى بالصلاة والصدقة وغير ذلك تقربًا إلى الله وعكس ذلك الذين كفروا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على المؤمنين بالإخلاص؛ لأن الله ساق ذلك ثناء عليهم.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن مَنْ قاتل فى غير سبيل الله ففيه خصلة من خصال الكفر؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾، حتى لو كان مؤمنًا يصلي ويصوم ويزكي ويحج فقاتل حمية أو عصبية ففيه شبه من الكفار، وخصلة من خصال الكفر.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب قتال أولياء الشيطان، وتُؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فأمر تعالى بقتال أولياء الشيطان.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذكر ما يحمل على الامتثال، وتُؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقبلها أيضًا قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأن هذا فيه الحث والإغراء على مقاتلته.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار المحارَبين من أولياء الشيطان، لقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وهم أولياؤه؛ لأنهم يمتثلون لأمره ولنهيه، فإذا أمرهم بالفحشاء امتثلوا إذا نهاهم عن البرِّ امتثلوا، فبذلك صاروا له أولياء.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان ضعف الشيطان، ـ أو بعبارة أعم ـ بيان ضعف ما يعمله الشيطان بالكيد أو بغير الكيد؛ لأنه إذا كان كيده ضعيفًا فما لا يكيد به أضعف، لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يخشى أو يخاف أولياء الشيطان،

لأن أولياء الشيطان ضعفاء كما أن الشيطان الذي هو وليهم كيده ضعيف.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشيطان يكيد للإنسان، لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾، فاحذر كيده ولا يغرنك، ربما يوسوس لك في التهاون بالعبادة المطلوبة أو في غشيان العبادة الممنوعة، ويقول: الله غفور رحيم، والأمر سهل، افعل وتب، حتى يكيد لك فتقع في الشباك، فاحذر كيده.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، الاستفهام هنا تعجُّبي، يعني: اعجب لحال هؤلاء، وقوله: ﴿تَرَ﴾ يحتمل أن تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية والظاهر أنها رؤية علمية، يعني: تعجَّب من حال هؤلاء بقلبك وفكرك، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ والقائل مبهم، والظاهر: أنه النبي ﷺ، وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: امنعوها عن القتال، وذلك أن بعض الصحابة الذين كانوا في مكة لما ظلمتهم قريش، وضيِّقت عليهم قالوا: أفلا نقاتلهم؟ لماذا يحجرون علينا ويظلموننا؟ فقيل لهم: كفُّوا أيديكم لا تقاتلوهم؛ لأن القتال في غير موضعه مهلكة، فالناس في مكة مضطهدون، ومظلومون، وليس لهم شوكة، وليس لهم دولة، فالقتال هنا غير لائق إطلاقًا، فقيل لهم: كفُّوا أيديكم، أي: عن القتال، والدليل أن المراد عن القتال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:٢٤]، أي: كفَّها عن القتال، فقوله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، يعني: قوموا بالعبادات الخاصة التي ليس فيها قتال ولا جهاد، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وهذه عبادة خاصة بالإنسان لا تتعداه إلى غيره، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وهذه عبادة تتعداه إلى غيره، لكنها عبادة، فالزكاة مثلًا لا يراد بها مجرد الإحسان إلى الفقراء، أهم شيء فيها أن تتعبد لله ببذل المحبوب - وهو المال - لنيل المطلوب، ولهذا يغلط من يفهم من الزكاة أنه لا يراد بها إلا مجرد دفع مال المستحقين، هذا ليس المقصود، بل المقصود التعبد لله ببذل ما تحب، وكلنا يحب المال، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[الفجر:٢٠]، وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾،

هذه عبادة خاصة لا تتعدى الإنسان و﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هذه عبادة متعدية، والصلاة معروفة، فهي: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. أما الزكاة فهي التعبد لله ببذل جزء من المال، على وجه مخصوص معروف من السنة.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، معلوم أن (آتى) تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فالزكاة هي المفعول الأول والمفعول الثاني محذوف، وتقديره: مستحقها، أو أهلها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فلما فرض، والكتب بمعنى الفرض، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، كتب أي: فرض، ومتى فُرض الجهاد؟ فرض حين هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وكان لهم دولة، وكان لهم شوكة، عندما أُمروا بالجهاد قال الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]، وكان فرض الجهاد في السنة الثانية من الهجرة.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ ممن؟ من الذين طلبوا أن يقاتلوا وهم في مكة، فلما كُتب عليهم القتال في المدينة، تخلَّف فريق منهم، وزالت عزيمته التي كان عليها في مكة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: طائفة منهم، ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، يخشونهم أي: يخافونهم ويتقونهم، ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم لله، ولهذا نقول: إن هذا المصدر مضافٌ مفعوله، والتقدير: كخشيتهم لله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (أو) حرف عطف، لكن هل هي للشك أو للتنويع أو للإضراب؟ نقول: أما للشك فلا، لأنه لا يمكن أن الله يشك عز وجل، أما الإنسان يشك، فيقول: هذا مثل هذا أو أحسن، أم هي للتنويع؟ يعني: أن بعضهم يخشون الناس كخشية الله وبعضهم يخشون الناس أشد خشية قد يحتمل هذا،وقد تكون للإضراب والمعنى: بل أشد خشية، أو لتحقيق ما سبق وهذا يحتمل أيضًا، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]، قال العلماء: كيف (أو يزيدون)؟ هل الله لا يعلم أنهم عدد معين؟ نقول: لا شك هنا (أو) ليست للشك قطعًا، لكن بعضهم قال: إنها للإضراب، والمعنى: بل يزيدون، وبعضهم قال: إنها لتحقيق ما سبق، كما تقول: هذا مثل هذا إن لم يكن مثله فهو أعلى منه مثلًا، فيكون (أو) لتحقيق ما سبق، أما للتنويع في هذه الآية فلا يصلح؛ لأنها طائفة واحدة لا يمكن فيها التنويع؛ على كل حال (أو) في مثل هذا السياق لا يمكن أن نجعلها للشك، لأن الشك لا يمكن أن يقع في خبر الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ يعني: أعلى وأعظم خشية، واعلم أن الخشية والخوف تترادفان، بمعنى: أن إحدى الكلمتين يأتي في مكان الآخر كثيرًا، لكن قيل: إن هناك فرقًا دقيقًا بينهما، فمن الفروق: أن الخشية مبنية على علم بخلاف الخوف فقد يأتي عن وهم، لا حقيقة له،

لكن الخشية عن علم، قد يرى الإنسان شبحًا من بعيد فيظنُّه عدوًّا، فيخاف، نقول: هذا خوف وليس خشية؛ لأنه مبني على وهم، فقد يكون شجرة وليس عدوًّا، لكن إذا رأى أنه عدو وأنه متسلح حينئذٍ يخشاه، واستُدل على هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وأورد على هؤلاء قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠]، وهنا خوف، فأُجيبَ بأن قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾، يمنع أن يكون هذا الخوف وهمًا، بل هو خوف عن علم، وكذلك قيل: إن الخشية تكون من عظمة المخشي، والخوف يكون إما من عظمة المخوِّف، وإما من ضعف الخائف، وعلى هذا فإذا خاف صبي له سبع سنوات من صبي له عشر سنوات، نقول: هذا خوف وليست خشية؛ لأن الصبي الذي له عشر سنوات ضعيف لا يخشى منه، لكن لضعف الصبي الثاني الذي له سبع سنوات صار يخاف منه، ونقول: إن خشية الله عز وجل خشية لعظمة المخشي عز وجل، وكل مَنْ سوى الله فهو ضعيف بالنسبة لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥]، وقيل أيضًا: إن الخشية أشد من الخوف، واستُدل لهذا بالاشتقاق؛ لأن (الشين والياء والخاء) في جميع تصرفاتها تدل على غلظة، ومنه (شيخ) فهي تتكون من (شين ياء خاء) وهي تدل على تقدم السن، والإنسان إذا كَبِرَ وتقدم سنُّه صلب عوده، إذا أردت أن تعدله انكسر، لكن الصغير لينٌ يمكن تعدله إذا مال، ولهذا قال النبي ﷺ وهو يوصي السرايا والبعوث قال: «اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْقُوا شرخَهُم»(١) أي: شبابهم، وقال أيضًا: منه (الخَيشُ) وأصلها أيضًا: (خاء وياء وشين)، والخيش غليظ.

كل هذا يدل على أن الخشية أعظم وأشد، يقول تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، ـ سبحان الله ـ بالأمس تطلبونه والآن تعترضون عليه، وهذا يدل على ضعف الإنسان مهما بلغ في المنزلة، ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، (لم)، الاستفهام هنا إما للتعجب، وهو أليقُ بحال الصحابة، وإما لإنكار وهو بعيد بالنسبة لحال الصحابة ﷺ، ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، (لولا) بمعنى: هلا، فهي للتحقيق، ﴿أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، ولم يقولوا إلى أجل بعيد؛ لأن الدنيا كلها قريبة مهما طالت بالإنسان الحياة فإنها قريبة، وهذا يدل على جبن وخور؛ لأنه لا يلزم من فرض القتال أن يموتوا، وكم من إنسان قاتل وجالد وخاض الغمار وقطع صفوف الأعداء ولم يُقتل، ومنهم خالد بن الوليد ﷺ، كم قاتل وكم حارب، ومات على فراشه، وقال: (ها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء)، فيقال: لا يلزم من القتال أن يُقتل الإنسان، يفرض عليه الجهاد ويجاهد وينجو.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٢)، و أبو داود (٢٦٧٠)، والترمذي (١٥٨٣)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٦٣).

وقوله تعالى: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وهنا يحتمل أن يكون (قريب) من كلامهم، وأنهم لا يريدون امتداد العمر الطويل؛ لأنهم يعرفون أن الدنيا كلها قريبة، ويحتمل أن كلامهم انقطع إلى قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾، ولكن الله بيَّن أن الآجل مهما كان فهو قريب ﴿قُلْ﴾، الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: والله متاع الدنيا قليل لا بالنسبة لنوعه ولا لجنسه ولا لأمده قليل، بل كل ما في الدنيا من النعيم لا يقاس بنعيم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، حتى ما يوجد في الدنيا ويوجد له نظير في الآخرة، فالفرق بينهما عظيم كالفرق بين الدنيا والآخرة: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، فيوجد في الدنيا لحم وخمر ولبن وماء وعسل لكن هل هذا مثل الذي في الآخرة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، أيضًا قليل من جهة أمده، مهما كان فهو قليل، فالذين بقوا في كهفهم ثلاثمائة سنين،ماذا قالوا بعد إحيائهم؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، والذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وقد قال الله ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]، فمهما طال الأمد في الدنيا فإنه قليل، ولقد قال النبي ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فالآخرة خير من الدنيا، وهي اسم تفضيل، حُذفت منه همزة أفعل تخفيفًا لكثرة وروده في كلام الناس، ومثله شر، ومثله الناس، وأصله أناس، ومثله الله، التي أصلها الإله، فالعرب يحذفون أحيانًا بعض حروف الكلمة؛ لكثرة استعمالها، والآخرة خير من الدنيا في النوع والجنس والمدة، ولهذا قال في سورة سبح: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧].

وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، هذا قيد لابد منه؛ لأن الآخرة ليست خيرًا لغير المتقين بل هي شر لهم، وإنما هي خير لمن اتقى، و(اتقى) أصله من الوقاية، فأصل (اتقى) اوتقى، لكن قُلبت الواو تاء لعلة تصريفية، ثم أُدغمت الواو بالتاء، وهنا ذُكرت التقوى، واعلم أنه إذا ذُكرت التقوى وحدها شملت البرَّ، وإذا ذُكر البر وحده شمل التقوى وإذا ذكر البر والتقوى جميعًا صار البر فعل الطاعات، والتقوى ترك المحرمات فقوله تعالى:﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، البر: فعل الطاعات، والتقوى: ترك المحرمات، وهنا ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، يشمل البر والتقوى، وقوله: ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يعني: أما غير المتقي فليست خيرًا له.

وقوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، فيها قراءتان هذه القراءة، وقراءة: ﴿ولا يُظلمون فتيلًا﴾، كما سبق أن كلمة :﴿عَلَيْهِمُ﴾، فيها ثلاث قراءات في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ﴾، فيها ضم الهاء والميم، وكسر الهاء وضم الميم، وكسرهما جميعًا؛ فبالأولى تكون (عليهُمُ)، والثانية: (عليهِمُ)

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، ومسلم (١٨٨١).

الثالثة: (عليهم).

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وفي قراءة (ولا يظلمون فتيلًا)، إن كانت بالتاء فهي من جملة القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله، والمعني: قل لهم لا تظلمون فتيلًا، وإن كانت بالياء فهي من كلام الله عز وجل يعني: ولا يظلمون فتيلًا. والفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة، والنواة فيها ثلاثة أشياء، يضرب بها المثل في الحقارة وقلة الشيء: النقير والقطمير والفتيل، الفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة، والقطمير: هو الغشاء الذي يحيط بالنواة، والنقير: هو النقرة الموجودة في ظهر النواة، وهذه النقرة هي التي يخرج منها العِرقَ إذا دفنتها في الأرض وأراد الله عز وجل أن تنبت العِرقَ من هذه النقرة.

والمعني: أن جميع الناس لا يظلمون مقدار هذا الفتيل الموجود في ظهر النواة، فكلٌّ يُجازى بعمله، ولكن بقي أن يقال: كم عمر الكافر في الدنيا؟ نقول مائة سنة - مثلًا - لكن كم يبقى في النار؟ أبد الآبدين، فلو قال قائل: هذا ظلم يعني: كيف يكون الجزاء أبد الآبدين، والعمل محدد بمائة سنة أو نحو ذلك؟

نقول: لأن ظلمه وكفره استوعب جميع حياته في الدنيا، وعليها يستوعب جزاؤه جميع بقائه في الآخرة، ثم هو قد أُعذر إليه وقد بُيِّن له، فليس له عذر، والأمر ليس مبهمًا حتى يقال: إنه ظُلِم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** التعجب أو الدعوة للتعجب لما يكون المحل للتعجب؛ لأن الاستفهام للتعجيب.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يتعجل الشيء فإذا نزل به نكص عنه، وهؤلاء تعجلوا القتال فلما أُمروا به نكص بعضهم عنه، لهذا قال النبي ﷺ: **«لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ واسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاصْبِرُوا فَإِنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»**[1]، ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يتدخل في أمر يعجز عن الخروج منه، ولهذا جاء في الأثر: (لا يذل أحدكم نفسه)، قالوا: كيف يذل نفسه قال: يتكلم في أمر ثم لا يستطيع الخروج منه، هذا الأثر أو معناه، ووجه كون ذلك إذلالًا للنفس، أن الإنسان إذا شرع في الشيء ثم عجز عنه وتأخر صار عند الناس نزلت قيمته عند الناس، وقالوا: هذا رجل متسرع، هذا رجل متعجل، كيف يدخل في أمر وهو لا يعرف كيف يخرج منه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان إذا كان لا يستطيع أن يقوم بالجهاد فليحسن الأعمال أو العابدات الخاصة؛ لأنه أمر بها؛ لقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢١٦).

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن قتال الكفار فرض؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾، وهنا أسئلة يجب أن نوردها:

السؤال الأول: هل هو فرض عين أو فرض كفاية؟ نقول: الأصل أنه فرض كفاية، ويكون فرض عين على ما قال العلماء في أربعة مواضع:

الموضع الأول: إذا حضر الصف فإنه حينئذٍ يتعين على المقاتل الجهاد، فإن تولى فذلك من كبائر الذنوب؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ [الأنفال:١٦]؛ ولأن النبي ﷺ جعل التولي يوم الزحف من الموبقات[1].

الموضع الثاني: إذا حاصره العدو، فيجب عليه الدفاع؛ لأنه إذا انهزم أمام العدو صار في هذا فتنة كبيرة في الدين، والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]، أو حاصر بلده فإنه يتعين عليه أن يدافع عن البلد، ولا يستسلم بقدر ما يستطيع.

الموضع الثالث: إذا دعاه الإمام، واستنفره فإنه يجب عليه أن يستجيب؛ لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]، وهذا إنكار عليهم؛ لأنهم إذا قيل لهم: انفروا في سبيل الله اثاقلوا إلى الأرض.

الموضع الرابع: إذا احْتِيجَ إليه، مثل أن يكون عنده علم بنوع من السلاح لا يعرفه إلا هو، فهنا يتعين عليه أن يتقدم ويقاتل، فالأصل أن القتال فرض كفاية ويتعين في هذه الأمور الأربعة.

السؤال الثاني: هل القتال لإرغام الناس على الدخول في دين الله أو القتال لإعلاء كلمة الله؟

الجواب: القتال ليس لإرغام الناس أن يدخلوا في الدين القتال، لكن لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا بحيث لا يقوم أحد يضاده ويمانعه، والدليل على هذا ما رواه مسلم في «**صحيحه**» من حديث بُريدة بن حصين أن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا[2]، وفيه أنهم إذا أبوا الإسلام دعاهم إلى الجزية، فإن بذلوها كُفَّ عنهم، وهذا يدل على: أن القتال ليس لإرغام الناس على أن يسلموا؛ لأن إعطاء الجزية لا يعني الإسلام، لكن إعطاء الجزية يعني: الاستسلام وعدم المنابذة، فإذا كان الدين كله لله وهو الظاهر الغالب فقد قام الناس بالواجب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٣١)، والترمذي (١٤٠٨)، وأبو داود (٢٦١٢).

السؤال الثالث: هل هذه القتال من باب دفع الصائل بحيث لا أقتل أو لا أُقدِمُ على القتال إلا إذا تعذَّر ما دونه أو أنه ليس من هذا الباب؟

الجواب: قتال الكفار ليس من باب دفع الصائل، ولذلك نجهز على جريحهم ونتبع مدبرهم، أما قتال أهل البغي فهذا من باب دفع الصائل، ولهذا لو قامت طائفة على الإمام وقاتلهم فإنه لا يجوز الإجهاز على الجريح ولا اتباع المدبر إلا إذا علمنا أنه أدبر ليجهز نفسه من جديد؛ فحينئذٍ لنا أن نتبعه لكن دون أن نقتله، كأن نحبسه حتى لا ينشأ شره من جديد.

٥ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: ذم مَنْ خشي الناس كخشية الله أو أشد؛ لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، وعلامة ذلك أن الإنسان يترك ما أوجب الله عليه خوفًا من الناس أو يفعل المحرم خوفًا من الناس، فإن هذا مذموم، وقد يصل أحيانًا إلى الشرك بالله عز وجل، فالواجب: ألا تخشى الناس كخشية الله عز وجل؛ لأن الناس كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلُوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[1]، لكنك مأمور بفعل الأسباب التي توصلك إلى المنفعة وترك الأسباب التي توصلك إلى المضرة، أما أن يكون ذلك على حساب دينك فهذا لا يجوز.

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ذم من اعترض على أحكام الله الشرعية كما في هذه الآية: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، والكونية؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فإن هذا يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، فلا يجوز أن يعترض الإنسان على أحكام الله الشرعية ولا على أحكام الله الكونية، بل عليه أن يستسلم، أما الشرعية فمن الناس من يستسلم ومنهم مَنْ لا يستسلم، وإما الكونية فالجميع مستسلمون، قال الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥]، هذا هو السجود الكوني، والمعنى: أن كل إنسان ذليل خاضع لحكم الله الكوني لا يمكن أن يدافعه أبدًا قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]

إذنْ علينا أن نستسلم وليس لنا أن نعترض، فـ (لِمَ) ممنوعة شرعًا وقدرًا، أما (متى) فليست ممنوعة إلا إذا كان الحامل عليها التكذيب، كقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و(أين) غير ممنوعة، حيث يُستفهم بها عن محل الحكم الشرعي أو الحكم الكوني، ولا بأس بذلك، بل إن الرسول ﷺ قال لِلأَمَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»[2]، فالاستفهام يختلف، إذا كان عن الحكم فهذا ليس من

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧)، والنسائي (١٢١٨)، وأبو داود (٩٣٠).

الممنوع، وإذا كان عما يتعلق بأمور الغيب فهو ممنوع، كما قال السلف الصالح فيمن سأل عن كيفية صفات الله عز وجل.

٧ - **من فوائد الآية الكريمة**: التزهيد في الدنيا، لقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، وصدق الله ورسوله، فمتاع الدنيا قليل، اسأل من عمَّر مائة سنة مثلًا، قل له: كم تقدِّر ما مضى من عمرك؟ يقول: ليس بشيء، أنا في الوقت الذي أنا فيه كأني وُلدت الآن، وكل الذي مضى راح فهو إذنْ قليل، وكذلك ما يوجد في الدنيا من النعيم، هو أيضًا بالنسبة للآخرة قليل ليس بشيء، إن جئت مثلًا للثمار فستجدها تأتي زمنًا وتغيب زمنًا، الفواكه كذلك، والزروع كذلك، والأمطار كذلك، كلها قليل، وهذا من حكمة الله عز وجل؛ لأن الله لو أتم لنا النعمة بهذه الدنيا من كل وجه لاغتررنا بها، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يعني: على الكفر، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣ - ٣٥]، وهذا من حكمة الله ألا تكون الدنيا كاملة لئلا نغتر بها.

٨ - **من فوائد الآية الكريمة**: جواز التفضيل بين شيئين متباينين غاية التباين؛ لقوله: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ لأنه لا نسبة بين الدنيا والآخرة، لكن لما كانت الدنيا عاجلة، والنفس مولعة بحب العاجل صار التفضيل بينهما مستحسنًا، فالآخرة خير لمن اتقى ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أن أصحاب النار ليس عندهم خيرية إطلاقًا، لكن من أجل الترغيب فيها، ومن أجل أن أصحاب النار يظنون أنهم في خير.

قال الله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾، (أين): هنا اسم شرط جازم و(ما): زائدة للتوكيد، وفعل الشرط (تكونوا)، و(يدرككم) جواب الشرط، ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، (لو) هذه شرطية، وفعل الشرط فيها قوله: (كنتم)، وجواب الشرط في (لو)، قيل: إنه محذوف يدل عليه ما قبله، والتقدير: ولو كنتم في بروج مشيدة لأدرككم الموت، وقيل: إنها في مثل هذا السياق لا تحتاج إلى جواب، وهذا اختيار ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فى كتابه: «أقسام القرآن»، أنها في مثل هذا لا تحتاج إلى جواب، بل لو جيء بالجواب لكان الكلام ركيكًا ليس بليغًا، وهذا يوجد في القرآن كثيرًا بأن تجد جملة شرطية عائدة على ما سبق، أي: أن جوابها يُفهم مما سبق وحينئذٍ نقول: لا تحتاج إلى جواب، وتقدير الجواب يجعل الكلام ركيكًا، وبقية الآية الظاهر: أنه ليس فيها إشكال، إلا أن قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، (يكاد) هذه من أفعال المقاربة وتعمل عمل (كان) وأخواتها، فترفع الاسم وتنصب الخبر.

يقول الله عز وجل ردًّا على هؤلاء الذين قالوا: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، إذا كنتم تقولون ذلك من أجل أن تتمتعوا قليلًا فى الدنيا، فإنكم لن تنجوا من الموت، فـ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾، سواء كنتم في الجو، أو في البحر، أو في الأرض، أو فى بروج مشيدة، أو في دُورٍ منهارة، أو في فلاة من الأرض، أينما تكونوا، و(أين) هذه معروفة أنها للمكان، وقوله: ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾، أي: لا يخطئكم ولا تفوتونه، بل فى آية أخرى ما هو أشد وأبلغ، حيث قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، لم يقل فإنه لاحقكم بل قال: (ملاقيكم) وما ظنك بشيء إذا فررت منه لاقاك، فتكون أنت أسرع إليه مما لو كان يلحقك لا شك؛ لأنه يجتمع فرارك وملاقاته لك في آنٍ واحد، فيكون ذلك أسرع فيقول عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، وماذا بعد الموت إلا ملاقاة الله عز وجل، بالخير أو بالشر، ونحن لا ندري متى يكون الموت، وفي أي أرض، قال الله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] إذنْ: فلنستعد، ولنكن دائمًا في يقظة، حتى إذا أدركنا الموت ونحن على الحال التي يرضاها ربنا عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾، البروج: جمع بُرج وهو البناء العالي، ومنه البروج التي في السماء، وهي اثنا عشر برجًا، أشار الله إليها في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، هذه البروج تدور عليها أوقات السنة، من الربيع والصيف والخريف والشتاء فكل فصل يكون له ثلاثة بروج، وأحسن البروج وأنفعها للبدن برج الحمل الذي يكون في أول الربيع فإنه أصح ما تكون فيه الأجسام، هذا من حيث إنه برج لكن هناك أشياء تعتري الإنسان يكون فيها بدنه

صحيحًا أو يكون مريضًا، حسب الحال، لكن من حيث الزمن أحسن ما يكون فصل الربيع، فالمراد بالبروج هنا: الأبنية العالية؛ لأنها تشبه بروج السماء في علوها وارتفاعها، وأما من قال: إن المراد بذلك البروج السماوية فقد أبعد وأخطأ؛ لأن الله قال: (مشيدة)، وهذا الوصف لا يكون أبدًا للبروج السماوية بل للقصور العالية، وقوله: ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾، أي: محكمة مُتقنة، ويُضاف إلى ذلك أنها مطلية بالجص، أي: بالبياض؛ لأن البياض محبوب للنفس، واقٍ من حرِّ الشمس، فلذلك تُشاد به القصور، ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾، (الهاء) في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ، والمراد بالسيئة هنا ما يسوء، وليس المراد بها سيئة العمل بل ما يسوء الإنسان، مثل القحط والمرض والفقر وما أشبه ذلك، أي: القحط من السماء فلا تمطر، والجدب من الأرض فلا تنبت، فإذا أصابتهم سيئة قالوا: هذه من عندك، وإن أصابتهم حسنة، وهي ضدها من الخصب والغنى والصحة، قالوا: هذه من عند الله، يعني: ليس لك فضل، وفي السيئة يقولون: هذه من عند محمد فهو الذي أتى بها، - لا قربه الله منا - ويتطيرون به ﷺ، وهذا كقول بني إسرائيل لموسى: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، وكقول قوم صالح له: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧]، وكذلك قالت الأقوام لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨]، فالتَّطير كان من شأن المكذبين للرسل يقولون: إن ما أصابنا من الجدب والقحط والمرض والفقر فهو منكم، وإن أصابهم ضد ذلك مما هو حسن في نفوسهم قالوا: هذا من عند الله، قال الله سبحانه وتعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، الحسنة والسيئة من عند الله؛ لأن الله هو الذي يقدِّر ذلك، وليس من مجيء الرسل، بل مجيء الرسل لا يأتي إلا بخير، لكن هم يحتجون على الرسل بهذه الشبهات؛ لأجل أن يكذبهم الناس وينفروا منهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، هو الذي يقدِّر الخير ويقدِّر الشر، وهذا الجواب جواب سديد؛ لأنه لا يمكن أن يأتي بالمطر إلا الله، ولا يمنع المطر إلا الله، ولا يأتي بالصحة إلا الله، ولا يأتي بالمرض إلا الله عز وجل، فالكل من عند الله، ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، (ما) استفهام للتعجب، يعني: عجبًا لهؤلاء القوم، ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ أي: لا يقربون، ﴿يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يقربون من فقه الحديث، ومعرفة الأحكام، والحِكَم، حيث قالوا هذا القول الباطل، وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾، لا يقربون، معناها لا يقربون، ومعلوم أن نفي القرب نفي للمباشرة، فإذا كانوا لا يكادون يفقهون فمن باب أولى أنهم لا يفقهون إطلاقًا وليسوا قريبين من الفقه، و(حديثًا) أي: ما يُحدثون به.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أنه لا مفر من الموت مهما كان الإنسان قويًا في سلطانه وفي حصونه

فإنه لا مفر له من ذلك يُؤخذ من قوله: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية: أنه يجب على الإنسان أن يستعد للموت؛ لأنه لا مفر له منه، وإذا كان لا مفر فلنستعد له ولنعمل.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية: إسناد الإدراك إلى الموت، ويتفرع عليها أن الأسباب يصح أن يسند إليها الشيء، لكن بشرط أن يعتقد أن هذه الأسباب لا تؤثر بنفسها، وإنما هي من الله عز وجل.

٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الحصون لا تغني عن قدر الله، لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: استعمال المبالغة فى الكلام، وأن هذا من أساليب اللغة العربية، لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: حذف أو جواز حذف ما يعلم، ولا يُعد هذا خللًا فى الكلام، لقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، ويتفرع من هذه الفائدة ما يكون فى عقود البيع والإجارة والرهن والوقف وما أشبهها، فمثلًا إذا قال: وقفت هذا على فلان ولو كان غنيًّا، المعنى: ولو كان غنيًّا فهو وقف عليه، وعلى هذا فيكون الوقف ثابتًا بهذا الموقوف عليه على كل تقدير.

٧ ـ ومن فوائد هذه الآية: أنه جرت العادة أن الناس يتحصنون من الموت بالقصور العالية المحكمة، فلو كان هناك عدو يريد مداهمتك فهل تستجير منه بخيمة من الخرق أو ببناء من الخشب؟ لا ولكن ببروج عالية محكمة حتى لا ينالك منه شيء، ولهذا نجد الناس الآن صنعوا السيارات المدَّرعة وصنعوا البنايات المسلحة وتحصَّنوا عن العدو بأقوى ما يكون التحصن.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تلبيس أعداء الرسل على العامة بما يقدر الله سبحانه وتعالى من الابتلاء والامتحان، بتقدير الجدب والفقر والمرض، إذا بَعث الرسل، وهذا ليس دائمًا لكن قد يكون، فيكون لله الحكمة فيما قدره، ليبتلي العباد أيقبلون أم لا، لكن يتخذ أعداء الرسل من هذا ذريعة للتنفير من الرسل.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إقرار المكذبين للرسول ﷺ بتوحيد الربوبية، وتُؤخذ هذه من قوله: ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾، فهم يقرُّون بالله عز وجل، ويقرون بأن ما يحدث فى الكون من الله، وأن الله هو الرازق، وأنه المحيي المميت، لكن لا يقرون بلازمه وهو توحيد الألوهية.

١٠ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الحسنات والسيئات كلها من عند الله لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية والتي بعدها، وهي قوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؟

قلنا: الجمع بينهما أن لكل خطاب مكانه، فهنا يخاطب أولئك القوم الذين احتجوا بما يصيبهم من البلاء على بطلان ما جاءت به الرسل، فأراد الله تعالى أن يرد عليهم بأن الكل من

عند الله، أما الآية الثانية: فإن فيها بيان أن ما أصاب الرسول ﷺ من الحسنات فمن الله وما أصابه من السيئات فمن نفسه، نظير ذلك أن الله أبطل القول الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:١٤٨]؛ لأنهم يحتجون بالقدر على معاصيهم وشركهم، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[الأنعام:١٠٧]؛ لأن الخطاب في الآية الثانية موجه للرسول ﷺ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧]، وجَّه الخطاب إليه في قضية أبطلت حين جاءت من جهة أخرى، لأجل أن يطمئن الرسول ﷺ أن إشراكهم كان بقدر الله، فيرضى ويسلِّم بقدر الله، لكن ذلك لا يمنعه من القيام بما يجب من تبليغ الرسالة، وهذه مثلها نقول لما أراد المشركون أن يحتجوا بأن الحسنة من الله ومجرد فضل منه، وأن السيئة من الرسل أبطل الله ذلك، فأي وجه يكون مجيء الرسل سببًا للجدب والقحط والفقر والمرض، لكن ما أصاب الإنسان من الحسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه؛ لأنه هو السبب، فإضافتها إلى الناس من باب إضافة الأشياء إلى أسبابها، وإضافتها إلى الله من باب إضافة المقدور إلى مقدِّره وهو الله عز وجل.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ذم من لا فقه عنده؛ لقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، ويتفرع على ذلك مدح من وفَّقه الله للفقه في دين الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ».

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:٧٩]

❁ التفسير ❁

(ما) هذه شرطية، وجواب الشرط قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ويقال مثل ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، المراد بالحسنة هنا: ما يحصل للإنسان من الصحة والرزق وغير ذلك، فهي مجرد فضل من الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، يعني: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لولا إنعام الله وفضله ما حصل لنا هذا الخير الذي نحن فيه، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾، وهي ضد الحسنة أي: ما يسوؤك من قدر الله عز وجل، ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، يعني فأنت السبب، والخطاب في قوله﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾قيل إنه للرسول ﷺ، لأن الله قال له ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، وقيل: إن الخطاب لغيره، وهو موجه لكل من

يتأتى خطابه، حجة الأولين أن السياق يقتضي ذلك ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ثم قال ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، والسياق على نمط واحد، وحجة الآخرين قالوا: إن النبي ﷺلا يسوء إساءة تكون المصائب التي تصيبه من عنده، ولكن الأولى الأخذ بظاهر السياق، وأن ا لخطاب للرسول ﷺ، وإذا كان هذا للرسول فمَنْ دونه من باب أولى ولا شك، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، فصار القول الذي رجحناه مُؤيدًا بكلام سابق وكلام لاحق، ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، لو قال قائل: أرسلناك للناس ألا يُكتفى بها عن قوله رسولًا ؟قلنا: بلى لكن كلمة (رسولًا) أبلغ مما لو اقتصر على الفعل هذا من وجه، ومن وجه آخر أن ذكرها يفيد بأنه أهلٌ للرسالة، كما تقول لشخص: ما وكلتك في البيع بائعًا، يعني: لأنك أهلٌ للوكالة لكونك عارفًا للبيع قادرًا عليه، فيكون ذكر الرسول هنا من باب التوكيد وبيان أنه أهل للرسالة ﷺ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، (كفى) فعل ماضٍ، و(الباء) حرف جر زائد لفظًا وليس زائدًا معنى، والمعني: كفى الله تعالى شهيدًا عن كل شيء.

الفوائد:

١- في الآية الكريمة فوائد منها: بيان أن ما يصيبنا من الحسنات فهو محض فضل من الله؛ لقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ويدل لذلك أن الحسنة التي تصيبنا، إما أن تكون ابتداءً، وإما أن تكون ثوابًا، فإن كانت ابتداءً فكونها فضلًا واضح، وإن كانت ثوابًا على عمل فإن توفيقنا للعمل الذي كانت هذه الحسنة ثوابًا له من الله عز وجل، إذنْ فهي من الله سواء كانت ابتداءً أو ثوابًا .

٢- ومن فوائد هذه الآية: جواز إضافة الشيء إلى سببه، لقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

٣ - ومن فوائد هذه الآية: أنه يجب على الإنسان إذا أصابته الحسنة أن يُولِيها شكرًا لله عز وجل؛ لأنها منه تفضلًا وإحسانًا، وإذا أصابته السيئة فلينظر في نفسه حتى يحاسبها ويستعتب فترتفع السيئة، فإذا قال قائل: إذا كان الخطاب للرسول ﷺ، فهل الرسول ﷺ يفعل فعلًا يُعاقب عليه؟ الجواب: أن النبي ﷺ أمره الله أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، وهو من بني آدم وبنو آدم خطاؤون، وخيرُ الخطائين التوابون[١]، فالنبي ﷺ قد يخطئ، ولهذا قال: «**اللَّهُم اغْفِرْ جَدِّي وهَزْلِي وخَطَئِي وَعَمْدِي**»[٢]، لكن الفرق بينه وبين سائر البشر ممن أرسل إليهم أنه لابد أن يُوفَّق للاستغفار والتوبة، أما غيره فقد يُوفَّق وقد لا يُوفَّق، وبهذا نعرف أن النبي ﷺ قد يحصل منه ما يكون سببًا في إصابته بالسيئة ولكنه يزداد بذلك رفعة ودرجة عند الله سبحانه وتعالى.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥) .

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩).

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عموم رسالة النبي ﷺ لجميع البشر؛ لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾ و يتفرع على ذلك الرد على النصارى الذين زعموا أن محمدًا ﷺ رسول إلى العرب خاصة؛ لأننا نقول لهم: أنتم الآن تؤمنون بأنه رسول، وأنه من عند الله، وقد قال الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ﴾، فيلزمكم على إقراركم بأنه رسول أن تقروا بأن رسالته عامة، وإلا فقد كذبتموه، فمتى أقررتم بأنه رسول ولو إلى العرب لزمكم أن تقروا بأنه رسول إلى كافة الناس.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن النبي ﷺ أهل للرسالة وكفؤ لها وقائم بها؛ لقوله ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فهو ابتداءً: أهلٌ لها وهو، غاية. منفذ لها تمامًا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن شهادة الله له بالرسالة مغنية عن كل شهادة، لكن لمن اتقى، فما وجه شهادة الله له؟ شهد الله لنبيه ﷺ بأنه رسول حقًّا بشهادتين: شهادة قولية، وشهادة فعلية.

أما الشهادة القولية: ففي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦]، وأما الشهادة الفعلية فهو تمكينه من إبلاغ الرسالة ونصره على أعدائه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤] قال: بعض الأقاويل ولم يقل: كل الأقاويل ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٥، ٤٦] يعني: لأهلكناه؛ إذنْ فالنبي ﷺ قد شهد الله له بالرسالة شهادة قولية وفعلية، القولية .

مع هذا كله أيده الله تعالى بآيات بينات معجزات ظاهرة حسية ومعنوية، وما أحسن مراجعة ما كتبه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذا الموضوع في كتابه: «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**» فإنه ذكر في آخر الكتاب من آيات النبي ﷺ الحسية والمعنوية ما لم أره لغيره، حتى إن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب: «**البداية والنهاية**» نقله إما بلفظه أو بمعناه.

٧- **من فوائد الآيات**: منع التطير؛ لقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ .

مسألة: هل يمكن أن يكون سياق هذه الآيات في المنافقين، حتى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾

والسياق في المنافقين والذين قالوا ذلك قوم من الصحابة وهاجروا؟

الجواب: ليسوا كلهم قالوا :﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، ولكن قال الله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ فريق ليسوا كلهم قال ذلك، وأكثر المفسرين على أنها نزلت في قوم كانوا بمكة مضطهدين فطلبوا من الرسول ﷺ أن يقاتلوا فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾، وأيضًا المنافقون هل قالوا يومًا من الدهر دعونا نقاتل؟ أبدًا حتى إنه في غزوة أحد لما خرجوا رجعوا من أثناء الطريق، ولعل هؤلاء الفريق لما هاجروا إلى المدينة حصل بهم النفاق وإن كان النفاق أكثره في الخزرج والأوس.

مسألة: بعض الجرائد والمجلات تكتب أسماء البروج مثل الحمل والعقرب والدلو وما أشبه ذلك فهل هذا حرام؟

الجواب: نعم هذا محرم، وهو تطير.

قال الله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٠ - ٨٤]

التفسير

قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فيه جملتان شرطيتان:

الجملة الأولى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فمَنْ هنا شرطية، وفعل الشرط (يطع) وفيه إشكالان، الإشكال الأول أين ذهبت عين الكلمة؟ والإشكال الثاني كيف كانت مكسورة مع أن مَنْ تجزم؟ والجواب عن الإشكال الأول: أن عين الكلمة حُذفت؛ لأن لامها كانت مجزومة وعينها ساكنة، وقد قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

فالياء ساكنة والعين ساكنة فيحذف حرف اللين الياء، وأما كسر العين وهي مجزومة فمن أجل

التقاء الساكنين، والأمثلة على هذا كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[البينة:١].

فأين جواب الشرط في ﴿مَّن يُطِعِ﴾؟ الجواب قوله: ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

الجملة الثانية:قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فعل الشرط فيها ﴿تَوَلَّىٰ﴾والجواب جملة اسمية ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾جملة اسمية تتكون من: (ما والفعل) ما نافية، وأرسلناك فعل ماضٍ.

أما وجه اقتران الجواب بالفاء في الجملتين، فلأنه لا يصح أن يكون الجواب شرطًا، وإذا كان الجواب لا يصح أن يكون شرطًا وجب اقترانه بالفاء، كما قال ابن مالك في ألفيته:

واقرُن بِفَا حتمًا جَوابًا لَو جُعِل   شَرطًا لأن أو غَيرِها لَم يَنجعِل

و قد ذُكر ذلك في بيت من الشعر وهو:

اسميةٌ طلبيّة وبجامِدِ   وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وبالتَّنْفِيسِ

يقول الله عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾و(أل) في الرسول للعهد الذهني وهو محمد ﷺ؛ لأن القرآن نزل في عهد رسالته، ويصح أن نقول: إنه عام يشمل كل رسول، وعلى هذا فتكون (أل) للعموم وليست للعهد، لكن يُضعِّف هذا الاحتمال قوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فإن هذا الخطاب للنبي ﷺ وعلى هذا فالمراد بالرسول محمد ﷺ وتكون (أل) للعهد الذهني، ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، إذنْ طاعة الرسول طاعة لله عز وجل، فإذا أَمَرَنا رسول الله ﷺ بأمر فأطعناه فنحن قد أطعنا الله، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾يعني فلم يطع الرسول ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ لأن عليك البلاغ، وقد بلَّغت وحِفْظُ الناس وأعمالِهم إلى الله عز وجل.

يستفاد من هذه الآية الكريمة فوائد:

١- **منها:** أن الأصل فيما قاله الرسول ﷺ أنه شرعٌ؛ لعموم قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وينبني على ذلك، أننا لو شككنا فيما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام أو قاله هل هو شرع أو نسيان فنحمله على أنه شرع، ومن ذلك أنه قرأ سورة الزلزلة في صلاة الفجر في الركعتين، قال الراوي: فلا أدري أنسي أم كان على علم؟ فنقول: هذا الاحتمال وارد أم غير وارد ؟ لا إذا قلنا: إن الأصل أن ما فعله فهو شرع يكون هذا الاحتمال غير وارد، وإن ورد عقلًا فهو ضعيف شرعًا، نقول:الأصل أن ما فعله فهو شرع وما هو نسيان.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الاحتجاج بالسنة، وأنها كالقرآن في وجوب العمل بها، ولكن نحتاج في السنة إلى إثبات صحتها أو إلى إثبات نسبتها إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه ما دامت لم تثبت فإنها ليست من كلام الرسول ﷺ.

٣- **ويستفاد من هذه الآية:** جواز نسخ القرآن بالسنة وجواز تخصيص القرآن بالسنة، أما

الثاني فمحل اتفاق أن السنة تخصص القرآن، وأما الأول فمختلف فيه فقيل: إنها ـ أي السنة ـ لا تنسخ القرآن من وجهين:

الوجه الأول: أن ثبوت القرآن قطعي بأنه نقل بالتواتر اللفظي والمعنوي، والسنة ليست كذلك.

الثاني: أن القرآن كلام الله منقول إلينا بالتواتر اللفظي والمعنوي، أما السنة فإن الرواة قد يتصرفون فيها، فينقلونها بالمعنى وهذا كثير، لذلك قالوا: إن القرآن لا يُنسخ بالسنة.

والصواب: أن القرآن يُنسخ بالسنة إذا ثبتت عن النبي ﷺ ولكن حتى الآن لم نجد دليلًا أو لم نجد مثالًا يسلم من المعارضة، لكن من حيث النظر نقول: إن نسخ القرآن بالسنة ثابت.

٤ـ من فوائد هذه الآية: أن معصية الرسول، معصية لله، تُؤخذ بطريق المفهوم؛ لأنه إذا كانت طاعته طاعة لله، فمعصيته معصية لله عز وجل.

٥ ـ من فوائدها: إثبات رسالة النبي ﷺ من وجهين: أولًا وصفه بالرسول، وثانيًا: جَعْلُ طاعته كطاعة الله عز وجل، وهنا مسألة هل للنبي ﷺ أن يجتهد ؟ الجواب: نعم، وسنته نوعان:اجتهادية، ووحي، فمن الوحي حين سُئل عن الشهادة فقال: «**إنها تُكفِّر كُلَّ شيءٍ**»[1] ثم أتاه جبريل فقال: «**إلا الدَّينَ**» فإن قوله «**إلا الدَّينَ**» هذا بالوحي، وأما ما يقوله عليه الصلاة والسلام دون أن ينسبه إلى الله فهو وحي باعتبار إقرار الله له، كما نقول: إن النبي ﷺ إذا أقرَّ أحدًا على قول أو علمٍ صار هذا من سنته، فسنته: قول وفعل وإقرار.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تهديد من تولى وأعرض عن طاعة النبي ﷺ وسلم؛ لقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ﴾ كأنه يقول: فنحن نحفظه ونحفظ عليه أعماله.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ لا يُسأل عن إعراض أمته، وأن مَنْ أعرض من أمته فذنبه على نفسه؛ لقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العظمة لله عز وجل، وذلك حين جاء بضمير الجمع في قوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، وقد ذكر بعض العلماء أن النصارى يستدلون بمثل هذه الضمائر على تعدد الآلهة؛ لأنهم يقولون: هذه تفيد الجمع فيقال: لا غرابة أن يستدل النصارى بهذا المتشابه على باطلهم؛ لأن النصارى في قلوبهم زيغ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] والجواب على هذا أن نقول: ما لكم تشبثتم بهذه الآية المتشابهة، وتركتم الآيات المحكمة البيِّنة الظاهرة بأن الله إله واحدٌ، كما في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

---

(١) ضعيف: انظر «ضعيف الجامع» (٣٤٤٥).

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هؤلاء من المنافقين، أو فريق من المنافقين والمؤمنين يقولون: طاعة، يعني: إذا أمرتهم قالوا: طاعة لا نخالفك، ولكنهم إذا خرجوا من عند الرسول ﷺ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾،قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ والبروز معناه الظهور، يعني: إذا فارقوا المجلس وظهر فراقهم إياه، وصاروا بدلًا من أن يكونوا في الحُجرة صاروا في السوق، والمقصود من هذا: بيان أنهم إذا فارقوا المكان مفارقة تامة، ماذا يحدث؟ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ بيَّت يعني عمل ليلًا، وإنها كان عملهم ليلًا؛ لأن الليل محل الخفاء ومحل السرّ، فتجدهم يقولون عند النبي ﷺ: طاعة، لكن إذا ذهبوا إلى بيوتهم بيَّتوا غير الذي يقول النبي ﷺ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وليس كلهم ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ وغير هنا بمعني المخالفة، فإذا قال: افعلوا كذا، قالوا: طاعة، فإذا رجعوا إلى بيوتهم، قالوا: لا طاعة، يعني يبيتون المخالفة فيما يقوله الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾و الجملة هذه خبرية، تفيد أمرين:

أولًا: تهديد هؤلاء الذين يبيتون غير ما يقول الرسول ﷺ.

ثانيًا: تسلية الرسول ﷺ، وأن أمرهم لا يخفى على الله، فقد يعاجلهم بالعقوبة وقد يؤخِّر، يقول جل وعلا :﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني: لا تهتمَّ بهم، ولا تشغل بالك بهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمد عليه واعلم أنهم وإن بيَّتوا ما يبيتون فلن يضروك، حتى لو بيَّتوا أن يبطشوا بالرسول ﷺ، أو أن يردُّوا دعوته بالدعاية الباطلة، أو ما أشبه ذلك، فتوكل على الله. والتوكل على الله قال العلماء فيه: هو صدقُ الاعتماد على الله عز وجل، مع الثقة به، وفعل السبب الذي أَمَرَ به، فهي مكونة من ثلاثة معانٍ:

أولًا: صدق الاعتماد على الله.

ثانيًا: الثقة بالله عز وجل؛ لأن التوكل لا ينفع إذا لم يكن العبد واثقًا بوعد الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

ثالثًا:فعل الأسباب التي أُمِرَ بها، فمن لم يفعل الأسباب فهو ليس متوكلًا ولكنه متواكلًا، فلابد من فعل الأسباب. وقولنا: (التي أمر بها)، احترازًا من فعل الأسباب التي لا حقيقةَ لها، ولا أصلَ لها، كما يفعله المشعوذون وأصحاب التمائم غير المباحة وما أشبه ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ سبق إعراب مثل هذه الجملة عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩] وقلنا: إن الباء حرف جر زائد، وأن لفظ الجلالة في محل رفع على أنه فاعل، و(وكيلًا) إما تمييز وإما حال.

١- في هذه الآية الكريمة: يبين الله عز وجل للرسول ﷺ أن من الناس مَنْ يُؤمِنُ ظاهرًا

ويكفر باطنًا؛ لقوله ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

٢- ومن فوائد هذه الآية: التحذير من النفاق، وأن الإنسان يجب أن يكون صريحًا بيِّنًا لا يظهر للناس بوجهٍ وإذا اختفى عنهم أعطاهم وجهًا آخر، ولهذا لا تجدون أحسن من الشخص الصادق الذي لا يباهي ولا يماري ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن يكون ظاهرُه وباطنُه سواءً.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بُطلان التَّقية التي يتخذها الرافضة دينًا، من أين تُؤخذ؟ من تهديد الله عز وجل هؤلاء الذين يتظاهرون بالطاعة ويبيتون خلاف الطاعة؛ وذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الفعل لله عز وجل، لقوله: ﴿يَكْتُبُ﴾ لكن هل المراد بذلك أنه يكتبه هو بنفسه جل وعلا مباشرة، أو يأمر بالكتابة ؟ الثاني هو المراد، لكن ما فعل بأمر الآمر فهو منسوب إليه، وإلا فالذين يكتبون أعمال العباد هم الملائكة؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار:٩ - ١١]، ويصح أن ينسب الفعل إلى الآمر به شرعًا وعرفًا، ولهذا يقال: بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، ومعلوم: أن عمرو بن العاص لم يباشر البناء بنفسه ولكن أمر بها. ويقال: بنى الأمير قصره، هل هو الذي أتى باللَّبن والطين؟ لا ولكنه أمر بذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧] فالله سبحانه لم يباشر خلقها عز وجل بيده كما خلق آدم بيده، لكنه قال: كن، فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:١١] .

٥ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن المنافقين يحرصون على أن يخفوا أعمالهم، ولهذا يوقعونها ليلًا؛ لقوله ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن قول النبي ﷺ كقول الله في وجوب طاعته وترك ما نهى عنه، وجهه: أنه حذر هؤلاء الذين يبيتون غير ما يقول الرسول ﷺ.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأفعال الاختيارية التي تكون من فعل الله لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فإن قال قائل: لقد فسرتم الكتابة هنا بكتابة الملائكة قلنا: ولكن كتابة الملائكة وقعت بأمره والأمر من الصفات الاختيارية، وهذا الذي دلت عليه الآية الكريمة وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن أفعال الله أفعال اختيارية، وذهب أهل التعطيل إلى أن الله تعالى ليس له أفعال اختيارية تقوم به، وأنه لا يمكن أن يتجدد له فعل؛ لأنهم يدَّعون أنه لا يقوم الحادث إلا بالحادث، وهذا باطل، بل نقول لهم عكس ما أرادوا أن من لا يفعل ناقص ومن يفعل كامل لا شك، فالصفات الاختيارية - وهي الصفات الفعلية - لا شك أنها من كمال الله

عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] .

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العلم لله لقوله: ﴿يَكْتُبُ﴾ ولا كتابة إلا بعد علم.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإعراض عمن يئسنا من إصلاحه، لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ولكن هل هذا يعني إعراضًا مطلقًا بحيث ألا نعيد عليه الكرة مرةً ثانية؟ فالجواب لا، إنما نعرض عنه ما دمنا قد أيسنا من صلاحه.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب التوكل على الله؛ لقوله:﴿تَقُولُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: اعتمد عليه في جلب المنافع ودفع المضار، بمعنى: أنك لا ترجو حصول المنافع إلا منه، ولا دفع المضار إلا منه سبحانه وتعالى، والتوكل على الله معناه تفويض الأمر إليه، وصدق الاعتماد عليه، والثقة به سبحانه وتعالى، وهل يجوز أن يطلق هذا اللفظ على المخلوق فيقول: توكلت على فلان في شراء سيارة لي ؟ نعم، يجوز والفرق بينه وبين التوكل على الله، أن التوكل على الله تفويض مطلق، يعتقد المتوكل فيه أنه مفتقر إلى الله عز وجل، أما هذا فهو تفويض مقيد، ثم إن المتوكل يرى أن المتوكل عليه في رتبة أقل من رتبته، فهذا هو الفرق، لكن إن تحاشى الإنسان هذا القول توكلت على فلانٍ وأبدله بقوله وكلت فلانًا كان خيرًا.

١١ـ ومن فوائد الآية الكريمة: كفاية الله سبحانه وتعالى لمن توكل عليه لقوله:﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهذا كقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] وذكر بعض المفسرين على قول الله تبارك وتعالى عن يوسف أنه قال للذي نجا منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]؛ أن الله تعالى قدر أن ينسى هذا الرجل المُوصّى؛ لأن يوسف لما قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ صار فيه نوع اعتماد على هذا السيد ـ هكذا زعموا ـ والله أعلم، وقد يقال: إن الله سبحانه وتعالى قدَّر أن ينسى هذا الرجل من أجل ابتلاء يوسف حتى يتم له الصبر بأنواعه الثلاثة.

١٢ـ فائدة: قول الله ورسوله لازمه الصحيح حق؛ لأن الله تعالى عالم بما يترتب على قوله، ولكن الشرط أن يكون لازمًا صحيحًا؛ لئلا يأتي آتٍ :فيقول هذا من لازم كلام الله وليس كذلك، وأما غير الله ورسوله فلازم قوله ليس قولًا له، إلا أن يلتزمه، وذلك لأنه ربما لا يقر بأنه من لازم قوله وربما لا يكون عنى ذلك حين قال القول فإذا ذكر له هذا لازم وكان باطلًا رجع .

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾أولًا: الإعراب، (أفلا) الهمزة هنا للاستفهام، والفاء عاطفة والمعطوف عليه ما سبق.

وقيل فيها قولان: القول الأول: أن الهمزة داخلة على المحذوف والذي تقديره، أَفَضلُّوا فلا يتدبرون القرآن، أو أنه كما سبق، وعلى هذا فيكون موضع الهمزة بعد الفاء، ولكن قُدِّمتْ؛ لأن لها الصدارة، والأول أقعد والثاني أيسر، الأول أقرب للقواعد؛ لأن هناك شيء مقدر معطوف عليه،

والثاني أسهل وأيسر؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير، وربما في بعض الأحيان يصعب عليك جدًّا أن تعين هذا المحذوف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فيها (لو) الشرطية فما هو فعل الشرط فيها ؟ قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ وجواب الشرط: ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، ومن المعلوم: أن (لو) إن كان جوابها مثبتًا فإنه يُقترن باللام دائمًا أو غالبًا، كما في هذه الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة:٦٥] وقد تحذف اللام كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠]، لكنه قليل. أما إذا كان خبرها منفيًّا فإن الغالب حذف اللام، ووجهه: أن اللام تفيد التوكيد، والنفي يُضاد التوكيد، فتقول: لو جاء زيد ما جاء عمرو، ولا تقل: لما جاء عمرو، لكن قد تقترن اللام أحيانًا مع وجود النفي بها، مثل قول الشاعر:

وَلَـو نُعْطَـى الخِيَـارَ لمَـا افْتَرَقْنَـا وَلَكِـنْ لَا خِيَـارَ مَـعَ اللَّيَـالِي

الأفصح أن نقول: ما افترقنا.

يقول الله عز وجل موبخًا هؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، والهمزة هنا للتوبيخ، الاستفهام بمعنى التوبيخ، و﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ أي: يتأملون ويتفكرون وهو مأخوذ من كون الإنسان يأخذ الشيء إدبارًا وإقبالا يعني: المعاني يتدبرها ويتفهمها والقرآن على وزن فعلان، وهل هو بمعنى مفعول أو هو مصدر ؟ قيل: إنه مصدر وأنه مثل الشكران والغفران، وقيل: إنه بمعنى المفعول، وحتى لو قلنا: إنه مصدر بناءً، فهو بمعنى المفعول معنىً؛ لأن القرآن بمعنى المقروء، والمقروء هل معناها المتلوُّ أو المجموع ؟هل هو من قرأ يقرأ يعني: جمع يجمع؛ ومنه القرية؛ لأنها تجمع الناس أو من قرأ يقرأ بمعنى: تلى يتلو؟

فيه أيضًا لأهل اللغة قولان، والصحيح: أنه من هذا ومن هذا فالقرآن متلوٌّ ومجموعٌ؛ مجموع في كتبه بعضها إلى بعض، والمراد بالقرآن كلام الله عز وجل الذي أنزله على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المُعجِزُ بأسلوبه ومعناه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ اسم كان يعود على القرآن، يعني: لو كان القرآن من عند غير الله، ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضًا؛ إما في المعنى، وإما في الأسلوب أو غير ذلك، لكن اختلافًا كثيرًا ليس اختلافًا قليلًا، بل اختلاف كثير، وإذا كان من عند الله فهل يجدون فيه اختلافًا قليلًا ؟ لا، لكن قوله: ﴿اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ بيان لواقع ما كان من عند غير الله، وليس هذا قيدًا في أنه لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافًا قليلًا، إذ إنه لا اختلاف في كتاب الله عز وجل.

١- في هذه الآيات الكريمة فوائد منها: الحث على تدبر القرآن، وجه ذلك: توبيخ من لم يتدبر، وإذا كان مَنْ لا يتدبر القرآن يُوبخ، فمن يتدبره يُثْنَى عليه ويُمْدَحُ، إذنْ ففيه الحث على

تدبر القرآن.

٢- ومن فوائدها: الردُّ على مَنْ يقول: إن آيات الصفات مجهولة المعنى، وهم أهل التفويض الذين يقولون: فرضنا بالنسبة لآيات الصفات أن نتلوها فقط، وألا نتكلم في معناها؛ لأن معناها مجهول، فيقال لهم :كلمة القرآن عامة تشمل آيات الصفات وغيرها، والله تعالى وبَّخ مَنْ لم يتدبره، ولازم هذا: أن يكون للآيات معنًى؛ لأن الحثَّ على تدبر ما لا يمكن الوصول إلى معناه حثٌ على متعذر أو متعسر، وعلى هذا فيكون الحثُّ من كلام اللغو، ويُنزه عنه كلام الله عز وجل.

فإن قال قائل: إذا قلتم: إن آيات الصفات غير مجهولة المعنى وأنها معلومة فهل يلزم من ثبوت المعنى مماثلة المخلوق؟

الجواب: لا يلزم؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ففي الآية إثبات ونفي المثل، إذنْ لو كان لا يمكن إثبات إلا بإثبات المماثلة لكان في الآية تناقض ظاهر، إذنْ آيات الصفات معلومة، المعنى لكن بدون تمثيل، فإن قال قائل: وهل يمكن إثبات معنًى بدون تمثيل ؟ فالجواب نعم، ولنضرب مثلًا بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، فأهل التفويض يقولون :لا نعلم ما المراد بقوله:﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، وأهل التأويل يقولون: معناها النعمة والقدرة، وأهل السنة والجماعة يقولون: معناه اليد الحقيقية التي نظير مسماها أجزاء وأبعاض لنا، اليد مثلًا جزء منا، لكنه لا يمكن إطلاق كلمة جزء على شيء من من صفات الله؛ لأن الجزء ما يمكن انفصاله عن الكل، وبالنسبة لِيَدِ الله وَقَدَمِ الله وَعَيْنِ الله لا يمكن نؤتيها هذا المعنى، إذنْ نقول: لله يدٌ حقيقية، يطوي السماوات بيمينه، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة،قال الممثلة: كيف يمكن أن نتصور يدًا بدون مماثلة ؟ نقول: هذا أمر سهل، ألست تشاهد الآن للجمل يدًا، وتشاهد للهرِّ يدًا، يعني: تشاهد مضمون هذه الجملة ؟ الجواب: بلى، نشاهد، وهل يلزم من إثبات اليد للجمل أو للهر أن تكون اليدان متماثلتين؟ لا يلزم، بل نحن نشاهد أنها مختلفة .

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، لقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا﴾ فإن قال قائل: إننا نجد في كتاب الله ما ظاهره التعارض، فكيف يتفق مع هذه الآية ؟ نقول: إذا رأيتَ شيئًا في كتاب الله ظاهره التعارض فهذا إما لقصور في فهمك، وإما لقلة في علمك، وإما لسوء في قصدك، كم الاحتمالات ؟ ثلاثة ليس فيها تناقض لكن أنت إذا ظننت التناقض فإما لقصور فهمك، يعني: أن فهمك رديء قاصر، أو لقصور علمك، يعني: هناك علم يبين الجمع بينهما ولكنك لم يبلغك هذا العلم، وإما لسوء في قصدك؛ لأن الإنسان إذا كان قصده سيئًا فإنه لا يُوفَّق، كيف يكون قصده سيئًا؟ يريد أن يظهر بأنه متعارض، لا يريد أن يصل إلى نتيجة سليمة، وهي الجمع بين الاختلاف، ولهذا تجد المُبْتَلَى بهذا الشيء يشكل عليه آيات واضحة ليس فيها تعارض، لكن نظرًا إلى أنه يدور ويفتش لعل شيئًا من

الآيات يعارض بعضه بعضًا، تجده ـ والعياذ بالله ـ يشتبه عليه الآيات الواضحات، وممكن أن نزيد احتمالًا رابعًا وهو التقصير في الطلب، نتيجته عدم العلم، لكن إذا أضفناه على أنه سبب رابع كان جيدًا، وعلى هذا فأسباب عدم فهم القرآن أربعة. والآيات التي يوردونها متعارضة ظاهرًا لكنها لا تتعارض الحقيقة، وهي آيات متعددة، ذكرها كثير من العلماء، وألَّفوا فيها ومنهم الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «دفع إيهام الاضطراب في آي الكتاب»، وهو كتاب وسط لكنه مفيد.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ضعفُ الآدمي فيما يكتبه وأنه عُرضة أي: للاختلاف والخطأ، فإن قال قائل: هل من ذلك ما يُروى عن الأئمة رحمهم الله من أقوال متعددة في مسألة واحدة ؟ الجواب نعم، منه هذا، لكن ما يقع عن الأئمة ليس عن قصدٍ، ولكنه عن زيادة علم والإنسان بشر يزداد كل يوم علمًا، فمثلا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قد يُروى عنه في المسألة الواحدة عدةَ رواياتٍ، ونحن نعلم أنه لم يتقصد رَحِمَهُ اللهُ ذلك لكن علمه يأتي شيئًا فشيئًا، ولهذا تجد عنه في ثبوت الهلال في رمضان عدة أقوال، حتى إنهم ذكروا في مذهبه سبعة أقوال منها خمسة أقوال نصَّ عليها رَحِمَهُ اللهُ .

٥ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات أن القرآن كلام الله، وذلك من قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾، فإنه يدل على أن القرآن من عند الله عز وجل، وإذا كان من عند الله صار صفة من صفاته فهل يكون مخلوقًا ؟ لا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأنه صفة، وصفة الفاعل أو صفة الموصوف لازمة له، ليست بائنة منه، ثم لو قيل: إنه مخلوق بطل الأمر والنهي، وبطلت الشريعة، كيف ذلك ؟ إذا قلت: إنه مخلوق معناه: أن الله خلق سورة (ص) مثلًا، مثل خلق السماء، وهل السماء بها أمر ونهي؟ لا، مثلًا(بسم الله الرحمن الرحيم) هل يصح أن يكون الله خلق حروفًا على هذه الصورة؟ هذه لا تفيد شيئًا، وأيضًا قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[هود:١١٤]، وقوله:﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦] إذا قلنا: إنها مخلوقة وليس فيها أمر وليس فيها نهي،فهي حروف خُلقتْ على هذا الشكل فقط، ليس فيها أمر ولا نهي؛ ولهذا كنا نتعجبُ حينما نسمع كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أو شيخه أن القول بأن القرآن مخلوق يبطل الشريعة؛ لأنه يبطل الأمر والنهي، فنقول: كيف يُتصور هذا ؟ فتأملنا ووجدنا السبب أنه إذا كان مخلوقًا صار عبارة عن صورة كلام، خلقها الله عز وجل، ما يتعلق بها أمرٌ ولا نهيٌ، كما لو صُورت سيارة أو بناء أو ما أشبه ذلك

٦ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العندية لله، أي: أن الشيء يكون من عنده، وهو كذلك، لكن العندية قد تكون صفة، وقد تكون قُرْبَة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦] العندية هذه قرب؛ لأنهم ملائكة بائنة عن الله عز وجل، وإذا قلتَ: القرآن من عند الله فهذه عندية الصفة.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

هذه الآية إعرابيًا فيها أدوات شرط متعددة (إذا) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ فعل الشرط ﴿جَآءَهُمْ ﴾، والجواب ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ وهذا الشرط يجزم، وقال ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أيضًا فيها شرط وهو (لو) وفعل الشرط ﴿رَدُّوهُ ﴾، وجوابه: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، هذه أيضًا فيها شرط وهو(لولا) لكنها ليست من النوع الأول، وتسمى حرف امتناع لوجود، وقد تقاسمت هذه الكلمات الثلاث: (لو ولما ولولا)، الوجود والعدم، فلو حرف امتناع لامتناع، تقول: لو جاء زيدٌ لجاء عمرو إذا لم يجئ عمرو ولا زيد، و(لمَّا) حرف وجود لوجود، لما جاء زيد جاء عمرو، و(لولا) حرف امتناع لوجود :﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ﴾ إذنْ امتنع اتباع الشيطان لأجل وجود فضل الله عز وجل.

مسألة: أمَّا قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ﴾ قلتم: إن قوله ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾جواب الشرط، فأين خبر المبتدأ في قوله ﴿فَضْلُ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؟

الجواب: الخبر محذوف، والتقدير:﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ﴾موجود، كذا قال ابن مالك:

وَبعـدَ لَـولاَ غَالبًـا حَـذفُ الخَبَـر   حَتمٌ وَفِـي نَـصٍّ يَمـينٍ ذا اسـتَقَر

وقوله:﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، قوله:﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾ هذا مستثنىً من الاتباع أو من التابعين ؟ يحتمل الأمرين أي: لا شك لاتبعتم الشيطان في كل ما تفعلونه إلا قليلًا من أفعالكم، أو لاتبعتم الشيطان كلُّكم إلا قليلًا منكم.

٧- ومن فوائد هذه الآية بلاغيًا: ما يُسَّمى بالجناس يعني: المجانسة، في قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾، وهو جناس ناقص، ومعناه: اختلاف حرف في الكلمتين اللذين اتفقتا في جميع الحروف، وهما في هذه الكلمة (الراء والنون)، أما إذا قيل :

عَبَاسٌ عَبَاسٌ إذا احْتَـدمَ الْـوَغَى   وَالْفَـضْلُ فَـضْلٌ وَالرَّبِيـعُ رَبِيـعٌ

هذا جناس تام، فعباسُ علم، وعباسٌ صفة، والفضلُ علم، وفضلٌ صفة، والربيعُ علم، اسم رجل، اسمه الربيع، وربيعٌ صفة،وهو أحد الفصول الأربعة.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ يعني: إذا جاء هؤلاء شيء مما يخاف أو مما فيه الأمن أذاعوا به، يعني: نشروه على فهمهم الخاطئ لا على الصواب؛ لأنهم ليس عندهم ذات العمق في فهم كتاب الله عز وجل، وهذه نتيجة لقوله في الآيات التي قبلها: ﴿ أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فتجدهم يُذيعون الأمر من الأمن أو الخوف، مع أن الأمْنَ ليس فيه أمنٌ والخوف ليس فيه خوف، لكنهم فهموا ذلك فضلُّوا وأضلُّوا.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ والرسول هنا (أل) فيها للعهد، أي: العهد الذهني، وهو محمد ﷺ، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، أولو الأمر هنا يتعين أنهم العلماء؛ لأنهم هم أهل العلم الذين ورثوا النبي ﷺ بعد موته، والذين شاركوه في حال حياته، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قوله: ﴿لَعَلِمَهُ﴾أي: لعلم الوجهَ المراد من الأمن أو الخوف، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾أي: يستخرجونه، وأصل الاستنباط من نبط يعني: استخرج الماء، وسُمِّيَ استخراج الماء استنباطًا؛ لأنه كان يستخرجه فيها سبق الأنباط، الذين ليسوا من العرب، هم الذين يحفرون للماء حتى يصلوا إلى غايته، ولكن المراد بالاستنباط في الألفاظ هو استخراج المعاني، أي: لعلمه الذين يستخرجون المعاني التي تخفى على هؤلاء، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ صدق الله عز وجل، لولا فضلُه، أي: عطاؤه، ورحمته أي: إحسانه، فالمراد بالرحمة هنا ليست صفة الله عز وجل، بل المراد ثمرات هذه الصفة، وهو إحسانه عز وجل إلينا لولا ذلك ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، ولكن الله عز وجل يتفضَّلُ عليكم ويرحمكم فيعصمكم من الشيطان، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو على ما سلف أن قلنا: يحتمل أن يكون المراد إلا قليلًا منكم أو أن المراد من أعمالكم.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الحرص على عدم إذاعة الشيء إلا بعد التيقُّن من معناه والمعرفة به، هذا يُؤخذ من قوله إذا ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾وهذا استنكار، بل هذا إنكار عليهم، ثم أرشدهم إلى ما هو الأصوب.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما جرت به العادة أن الله عز وجل إذا نهى عن شيء بيَّن وجهًا آخر غير منهيٍّ عنه، تُؤخذ من **قوله:** ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.

وهذه قاعدة جاءت في القرآن الكريم وجاءت في السنة النبوية ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤] جاء بعدها بكلمة مباحة. أما في السنة لما جِيء إلى النبي ﷺ بتمر جيد وسأل: «من أين هذا؟» قالوا: كنا نأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال: «ردُّوهُ»، ثم أرشدهم، فقال: «**بعِ التمر الرديء بالدراهم ثم اشترِ بالدراهم تمرًا جيدًا**»، هذا معنى الحديث، إذنْ: ينبغي للإنسان المبين للناس أحكام شريعة الله إذا نهاهم عن شيء أن يفتح لهم باب الحل؛ لأنك لو رأيت إنسان يعامل معاملة ربوية، فقلت: يا أخي هذا حرام، ما يجوز ما لم تنبهه، هذا خطأ فلابد أن تفتح له باب البيع الحلال، حتى يَهُونَ عليه تركُ ما كان معتادًا له، وينتقل إلى الحلال بسهولة؛ لأن صرف الإنسان عمَّا كان يعتاده صعب جدًّا، وهكذا ينبغي لطالب العلم إذا ذكر للناس شيئًا محرمًا أن يذكر لهم ما يستغنون به عن هذا المحرم من

الشيء الحلال.

مسألة: هل يقال: إن في كلام الله بعضه أبلغ من بعض؟

الجواب: الكلام كلام الله عز وجل باعتبار المتكلم به لا يتفاضل أبدًا؛ لأنه كلام واحد، أما باعتبار معناه وأسلوبه فإنه يختلف فقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، قارن مثلًا بين سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ تجد الفرق العظيم في المعاني، كذلك في الأسلوب، أحيانًا تجد الأسلوب لينًا سهلًا، لا يُؤثر يعني: إثارة في القلب، وأحيانًا تجده كالصواعق على القلب، فهو يختلف من هذه الناحية، أما باعتبار المتكلم به فهو لا يتفاضل؛ لأنه كلام واحد.

مسألة: هل قوله تعالى: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ منسوخة بآية السيف؟

الجواب: هذا خطأ ما هو صحيح فالرسول ﷺ حتى بعد نزول آية السيف ليس حفيظًا على نفسه.

٣- ومن الفوائد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن هذه الآية تنطبق تمامًا على ما نحن فيه الآن، حيث إن كثيرًا من الناس يعلنون الأخبار على عواهنها، ولا يبالون بما ترتب عليها من خير أو شرٍّ، ولا يَزِنُون بين المصالح بعضها مع بعض، ولا بين المفاسد بعضها مع بعض، ولا بين المصالح وبين المفاسد، فيذيعون الشيء، وينشرونه بدون تحقيق ولا تمحيص، وهذا من دأب المنافقين؛ لأن الله تعالى ذكرهم في سياق الذين يقولون: ﴿طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أولي الأمر حقيقة هم العلماء؛ لقوله: ﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، وهذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] فإن أولي الأمر في هذه الآية تشمل العلماء والأمراء، ولكن العلماء في المقدمة إذ إن الأمراء منفِّذون لما يقول العلماء من شريعة الله، فالأصل إذنْ هم العلماء، والأمراء يلزمهم أن ينفِّذوا ما قاله العلماء من شريعة الله، فهم في الحقيقة تابعون للعلماء، وليس العلماء تابعين لهم، اللهم إلا أن يقدِّر الله أمرًا تنعكس به الأحوال، ويكون العلماء وراء الأمراء، فإن هذا انقلاب وعكس للحقائق، إذ إن الواجب أن يكون الأمراء خلف العلماء؛ لأن العلماء عندهم من شريعة الله ما ليس عند الأمراء؛ وذلك لأن الله تعالى بيَّن أن العلماء هم الذين يستنبطون الأحكام ولم يقل لعملوه فهنا إظهار في موضع الإضمار؛ لأن الأصل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ لعلموه، لكنه قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ فأظهر في موضع الإضمار لهذه الحكمة،

لأن هؤلاء لهم نظر بعيد عميق، كالذي يستنبط الماء، ولأن الأنباط كانوا هم الذين يتولون استنباط المياه حين كان في عهد الأمة الإسلامية الزاهر.

٥ ـ ومن فوائدها أيضًا: الرجوع إلى أولي الأمر بل إلى الرسول ﷺ في حياته وإلى سنته بعد وفاته وإلى العلماء في نشر الأخبار وإذاعتها.

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله عز وجل علينا باتباع الشريعة؛ لقوله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾.

٧ ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عز وجل في ابتغاء الفضل لا إلى غيره؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ليس أمامنا إلا سبيلان هما: **سبيل الهدى والرشاد وسبيل الضلال.**

لقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فإذنْ الحق أو الضلال، قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، وفي هذا ردٌّ على القائلين بالمنزلة بين منزلتين وهم المعتزلة.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ذم مَنْ اتبع الشيطان وأنه قد تخلَّى الله عنه، فلم يؤته من فضله الخاص؛ لقوله:

﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾، فإن قال قائل: بأي وسيلة نعلم أن هذا طريق الشيطان أو طريق الرحمن ؟ قلنا: الأمر واضح، الحق بيِّن ظاهرٌ أبلجُ، والباطل بيِّن لا يخفى على أحدٍ، ما وافق شريعة الله فهو طريق الرحمن، وما خالف شريعة الله فإنه طريق الشيطان، هذا هو الميزان .

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، الفاء عاطفة، و(قاتل) فعل أمر، والخطاب للرسول ﷺ، لقوله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ولا يظهر أن يكون الخطاب موجهًا لمن يتأتى خطابه، لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قوله: (وفي سبيل الله) متعلق بـ(قاتل). ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ في هذه الآية إشكال، ما هو؟

الإشكال من حيث الإعراب، وهو نصب نفسك، والقاعدة: الرفع على أنها نائب فاعل، هذا ما يتبادر إلى ذهن بعض الناس، كالذي قرأ: إن استثنى من حيوان يؤكل رأسُه، لكن الواقع أن الأمر ليس كذلك؛ لأن قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ نائب الفاعل مستتر، يعني: لا تكلف أنت أحدًا إلا نفسك، يعني: لا نكلفك أحدًا من الناس بل نكلفك نفسك، وعلى هذا فتكون (نفس) هنا في مقام المفعول الثاني لـ(نكلف)، والمفعول الأول هو نائب الفاعل المستتر.

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حثهم على القتال، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأسهم أي: شدتهم، و(عسى) إذا جاءت من الله عز وجل فليست للترجِّي؛ لأن الله تعالى لا يترجَّى، إذ إن الرجاء في مقابل الشيء الصعب، ولكن الله على كل شيء قدير، ولهذا قيل: عسى من الله في القرآن

واجبة، أي: واقعة حتمًا، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولكن الله عز وجل يجعلها على هذه الصيغة حتى لا يأمنَ الإنسانُ مكرَ الله عز وجل، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ: قاتل في سبيل الله حتى وإن لم يقاتل معك أحد، لا تكلف إلا نفسك، أما وظيفتك مع المؤمنين؛ فهي وظيفة التحريض على القتال، لكنك لست مكلَّفًا بهم، ولا تأثم إذا لم يقاتلوا ثم إذا قاتلت وحرضْت المؤمنين وقاتلوا فحينئذٍ يكون النصر، فَيَكُفُّ الله سبحانه وتعالى بأس الذين كفروا، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، إذنْ هذه الآية لها ارتباط بما سبق؛ لأن المقام كله مقام بيان المنافقين الذين هم أذلُّ الناس وأخذلهم عند القتال.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد كثيرة منها:** وجوب القتال في سبيل الله ؛ لقوله: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والأصل في الأمر الوجوب، وقد اختلف العلماء رحمهم الله، هل قتال المؤمنين للكافرين قتال طلب أو قتال دفاع ؟ والصواب: أنه قتال طلب، ولكنه ليس لإكراه الناس على الإيمان؛ لأن هذا لا، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] فهو من أجل أن يكون دين الله هو الأعلى، وكلمته هي العليا، فإن آمن فهو في الطبقة العليا، وإن بقي الإنسان على كفره واستسلم لحكم الله أي: لدين الله فبذل الجزية فحينئذٍ يقرُّه، لكنه في بذل الجزية يكون ذليلًا أو عزيزًا؟ يكون ذليلًا، إذنْ، لو سألَنا سائل: هل قتال الكفار قتال دفاع أو قتال طلب ؟ فالجواب: قتال طلب، لكنه ليس قتال إكراه على الإسلام؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وهذا الاستفهام للإنكار، وكذلك يقول:﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٦٥] لكنه يقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا هو المطلوب، ليكون الإسلام هو الظاهر المهيمن فمن أسلم فهو في الإسلام وفي ظله، وهو في الطبقة العليا من طبقات بني آدم، ومن لم يسلم فهو في ظلِّ الإسلام أيضًا لكن إذا بذل الجزية عن يد وهو صاغر .

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** وجوب الإخلاص؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وما عدا سبيل الله فبماذا يُوصف ؟ في سبيل الطاغوت، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، أسباب القتال أو الحوامل على القتال كثيرة، منها أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا في سبيل الله، ومنها الحمية أي:يقاتل لقوميته، وهذا في سبيل الطاغوت، المقاتل حمية في سبيل الطاغوت، اللهم إلا أن يقول: إني أقاتل حمية؛ لأن قومي مسلمون فأقاتل دفاعًا عن إسلامهم، فحينئذ يكون قاتل في سبيل الله، يقاتل، فهذا أيضًا ليس في سبيل الله، هذا في سبيل الطاغوت، ولكن كيف يقاتل شجاعة؟ الإنسان الشجاع يحب أن يقاتل، ويجد ألذَّ شيء في حياته أن يكون مقاتلًا في صف القتال، فهو قرة عينه، فحينئذٍ يقاتل شجاعة، هذا ليس في سبيل الله، يقاتل ليتخلَّص من الدنيا؛ لأنه أصابته ضائقة

فأراد أن يقاتل ليُقتل حتى يستريحَ من الدنيا، ليس في سبيل الله؛ بل هذا في سبيل الطاغوت وربما يقول: إنه قاتلٌ نفسه لو قُتل، لأنه ما أراد أن تكون كلمة الله هي العليا، لكنه بدل أن ينتحر بنفسه فيأخذ السكين ويقد بطنه، ذهب يعرِّض رقبته لسيوف الأعداء، هذا ليس في سبيل الله، يقاتل رياءً ليقال: ما أشجع الرجل، هذا ليس في سبيل الله، هذا في سبيل الطاغوت ـ والعياذ بالله ـ، وربما يكون هذا أخطرهم؛ لأنه أظهر أنه يريد التعبد لله وهو عابد لهواه، على كل حال أسباب القتال كثيرة وبواعثه كثيرة، لكن متى يكون في سبيل الله ؟ حين يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

٣ـ من فوائد هذه الآية: أنه لا يكلف أحدٌ هداية أحد، حتى الرسول ﷺ الذي هو أهدى الخلق وأعظمهم هداية لا يمكن أن يكلف هداية أحد، دليله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وعليه، فإذا دعوت إلى الله، أمرت بالمعروف، نهيت عن منكر ولم يستجب لك، فإن الله قال لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] لا تهلك نفسك، لا يكن في صدرك حرج ولا ضيق، ما دمت قمت بالواجب، فإن أزمَّة القلوب بيد الله عز وجل، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨] فكثير من الناس عنده غَيْرةٌ، ومحبة للخير، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الله، فإذا لم يُجبْ ضاق صدُره حتى اختلَّت عباداته بنفسه، وصار يهتم وينشغل بأحوال الناس عن أحوال نفسه، وهذا غلط، هذا كالنار تحرق نفسها وتضيء لغيرها، ومع ذلك قد يكون غيرُها رطْبًا لا يتأثر بها، ولا يُضيء بها.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان مراعاة نفسه، وقيادتها للحق؛ لأنه مكلَّف إياها لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أنت امرأٌ مكلف بنفسك، يجب أن تجرَّها إلى ما فيه الخير، وأن تنهاها عما فيه الشر، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[يوسف:٥٣].

٥ـ ومن فوائد هذه الآية: أن مَنْ قام بالواجب في حق نفسه فلا ينسَ إخوانه، لقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حثهم على القتال، فإن استجابوا فذلك المطلوب، وإن لم يستجيبوا فقد أبرأت ذمَّتك.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن محل التحريض للقتال أي: قتال المشركين هم المؤمنون؛ لأنه لم يقل حرِّض الناس، بل قال: حرِّض المؤمنين، فالمؤمن هو الذي ينفع فيه التحريض على القتال في سبيل الله.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه مهما بذلنا من الجهد والجهاد والإعداد فإن الأمر بيد الله؛ لقول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: بعد اجتهادك وتحريضك المؤمنين على القتال واستعدادكم وإعدادكم الأمر بيد الله، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الاستدلال لأهل السنة بأن أعمال العباد مخلوقة لله عز وجل، من أين تؤخذ؟من قوله تعالى:﴿أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ فنسب الله ذلك إليه مع أنه

يأتي بفعل المؤمنين، وأحيانًا يأتي بغير فعل المؤمنين، مثل قوله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب، قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

ولنقف عند هذه النقطة لأهميتها، إذا قلنا: إن الله تعالى خالق أفعال العبد، فما وجه ذلك؟ وجه ذلك أن نقول: أفعال العباد لا تقع إلا بأمرين، وهما:

أولًا: الإرادة.

وثانيًا: القدرة.

الإرادة في القلب والقدرة في الجوارح، الإرادة وصف للعامل وهو الإنسان، والقدرة كذلك وصف، ووصف قائم بذات، والخالق للذات هو الله بالاتفاق، وخالق الذات خالق لأوصافها، وبهذا نعرف أن أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل؛ لأنها صادرة عن إرادة جازمة وقدرة لا عجز فيها على هذا المقدور، وكلاهما وصفان في مخلوق، ووصف المخلوق يكون مخلوقًا، ويبقى النظر هل الإنسان مُجبرٌ أو مُخيرٌ ؟ نقول: مخير ليس مجبرًا، ولهذا إذا وقع الفعل عن إجبار لم يُؤاخذ به الإنسان، حتى لو كان أكفر شيء قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦]، فالإنسان إذنْ مخير لا شك، لكننا نعلم أنه لن يفعل فعلًا أو يترك شيئًا إلا بعد مشيئة الله إلا أن هذه المشيئة أعني مشيئة الله لا يمكن الاطلاع بها إلا بعد وقوع المشاء ؛ لأن مشيئة الله غيب لا ندري عنها، حتى يقع الشيء فإذا وقع الشيء علمنا أن الله شاءه، أما قبل ذلك لا نعلم، فلا يكون في ملك الله عز وجل ما لا يشاؤه أبدًا، كل ما في الكون فهو في مشيئة الله عز وجل.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الكافرين لهم بأس لهم بأس وقوة، لكنهم تحت قوة الله لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وأنت لا تنبهر بقوة الأعداء، فإنهم ليسوا عند قدرة الله شيئًا، ففرعون كان يفتخر بأن الأنهار تجري من تحته وبماذا هلك؟ بالماء الذي هو من الأنهار، وعادٌ افتخروا بقوتهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥] فأهلكوا بالريح اللطيفة السَّهلة، والأحزاب أعجبتهم كثرتُهم، وحاصروا المدينة، وأجلاهم الله تعالى بالريح، قال النبي ﷺ: «نُصِرتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(١)، كذلك أيضًا الأمم الأخرى كانت قوية شديدة أهلكها الله عز وجل، لو شاء الله عز وجل لأنزل على مصانع القنابل الذرية صواعق، رُبَّ صاعقةٍ واحدة تُدمِّر كل مصنع، لكن الله عز وجل له حكمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[محمد:٤] ثم سلَّى المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد:٤ ـ ٦] ؛ إذنْ: الله عز وجل قادر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

على كف بأس الكافرين، وإن قَوُوا، لكنه حكيم عز وجل.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله وبين الخلق، وذلك في قوله: ﴿أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، وهذا لا أقول: (جواز) الذي هو ضد (مُحَرَّم)، لكن (جواز) الذي هو ضد (المستحيل)، فيكون هذا واجبًا، وقد تعجب من بعض العلماء رحمهم الله أنهم يمتنعون من اسم التفضيل، ويحولونه إلى اسم فاعل، خوفًا من تنقُّص الله عز وجل، فيقولون: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: إن ربك هو عالم - سبحان الله - أأنت أعلم بالله من نفسه؟ الله يقول عن نفسه أعلم، وأنت تقول عالم ؟ ثم إنك أيها المسكين إذا قلت: الله عالم جعلته مع الخلق مشاركًا على وجه السَّواء، لكن إذا قلت: أعلم جعلته أعلم من الخلق ولا يمكن أن يكونوا مثله، لكن مشكلة الأمر أن الإنسان لم تكن نيته على الاستقامة الطيبة، لكن من أراد الحق تبين له طريق الحق، والأمر واضح، وعلى هذا فنقول: استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله وبين الخلق هو الواجب، فللإنسان علم والله أعلم، وللإنسان قدرة والله أقدر، وله قوة والله أقوى، وله سمع والله أسمع، وله بصر والله أبصر، وهلم جرّا، وله حياة والله أكمل حياة وهكذا.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات البأس والتنكيل لله عز وجل، وهذا أيضًا جاء بالقرآن ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾[البقرة:٦٦] ينكل الخلق أي: يحذرهم من أن يقعوا فيما يكون سببًا لعقوبتهم.

قال الله تعالى:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٥-٨٧]

التفسير

(مَنْ) هذه شرطية،وفعل الشرط (يشفعْ)؛ لأن من الشرطية تجزم فعل الشرط، وجواب الشرط الذي هو قوله:

﴿يَكُن﴾، وقوله :﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي:

حفيظًا .

في هذه الآية يقول: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ الشفاعة هي: جعْلُ الوتر شفعًا، يقال: شفع الشيء جعله شفْعًا بعد أن كان وترًا، فإذا جعلتَ الثلاثة أربعة هذا هو الشفع، والخمسةَ ستةً، لكنها في الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة أو دفعِ مضرَّةٍ، فشفاعة رسول الله ﷺ في أهل الموقف أن يُقضى بينهم من أي القسمين؟ من دفع المضرة، وفي أهل الجنة أن يدخلوها من جلب المنفعة، وهنا يقول: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ يشفع شفاعة حسنة، إما أن يكون المراد حسنة بالنسبة للمشفوع له، وإن لم تكن من الحسنات الشرعية، وإما أن تكون حسنة من الحسنات الشرعية، وكلاهما صحيح ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ أي: شرعًا، أو حسنة باعتبار المشفوع له.

وقيل: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ أي: ينضم إلى من يفعل الحسنات فيفعل مثله؛ لأنها جاءت بعد قوله: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ يعني: فمن شفع وقاتل معه فقد شفع شفاعةً حسنة فيكن له نصيب منها، والآية تحتمل المعنيين، وإذ كانت الآية تحتمل معنيين لا منافاة بينهما؛ فالواجب حملها عليهما جميعًا، لما في كلام الله عز وجل من سعة المعنى، أما إذا كان أحدهما لا يتفق مع الآخر، فالواجب طلب المرجِّح ليُؤخذ به، وقوله: ﴿حَسَنَةً﴾ الحسنة ما يحسن فعله، من قول أو فعل، ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أي: حظ وجزء مما شفع؛ لأنه أعان على الخير، على أحد الاحتمالين السابقين، أو نصر أخاه على الاحتمال الثاني، و﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ يقال فيها كما قيل في الأول، مَنْ يشفع شفاعة سيئة أي يشارك ذا سيئة في سيئته، فيكون شِفعًا له، أو المعنى يشفع لأحد شفاعة سيئة مثل أن يشفع له في الوصول إلى شيء محرم، فهذه شفاعة سيئة، وقوله: ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ الكفل هو النصيب، وإذا كان هو النصيب فلماذا غاير الله سبحانه وتعالى بين الحسنة وبين السيئة فقال في الحسنة (نصيب) وقال في السيئة (كفل) ؟ قيل :إن الكفل والنصيب فيما يسوء، والنصيب هو الحظ فيما ينفع، وقيل: إنما غاير بينهما من أجل اختلاف اللفظ ؛ لأن اختلاف اللفظ من أساليب البلاغة، حيث لا يتكرر اللفظ مع اللفظ الآخر في مكان واحد، فعلى المعنى الأول يكون الخلاف بين النصيب والكفل خلافًا معنويًا، وعلى الثاني يكون خلافًا لفظيًا، لكن المعنى الأول يردُ عليه أن الله سبحانه وتعالى سمى الأجر والثواب كفلًا في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[الحديد:٢٨]، فيترجح القول الثاني وهو أنه إنما غاير بينهما من أجل اختلاف اللفظ حتى لا يرد لفظ بواحد بسياق واحد بمعنىً واحد، قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ (كان) هذه ترد في القرآن العظيم كثيرًا مثل:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤] و﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فهل (كان) هنا يُراد بها الزمان والاتصاف بالمعنى أو الثاني فقط؟ الثاني فقط؛ لأن الله لم يزل ولا يزال موصوفًا بالسمع والبصر والمغفرة والرحمة وما أشبه ذلك، وعلى هذا فـ(كان) هنا في هذا السياق وأمثاله مسلوبة الزمن؛ لأنه لو لم تكن مسلوبة الزمن لكانت

دلالتها على أن الله متصف بهذه الصفات في زمن مضى وانقضى، وقوله:﴿مُّقِيتًا﴾ معناها: إما مقتدرًا وإما حفيظًا، فقال بعضهم: معنى المقيت الحفيظ، وقال بعضهم: معنى المقيت، وكلاهما صحيح، وقد جاءتا في اللغة العربية، ولا منافاة بينهما.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على الشَّفاعة الحسنة لقوله: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾.

٢- **ومنها:** الحث على التعاون على البر والتقوى؛ وذلك بإعطاء نصيب من المتعاونين على ما تعاونوا عليه.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الشَّفاعة السيئة.

٤- **ومن فوائدها:** أن من شارك في عمل سيء كان له نصيب منه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٠]

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بلاغة القرآن وفصاحتُه، على القول بأن الاختلاف بين النصيب والكِفْل: لفظيٌّ.

٦- **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى مُقيتٌ على كل شيء أي: مقتدر عليه، ويلزم من هذا أن يحذر الإنسان من مخالفة الله؛ لأن الله تعالى حفيظٌ عليه ومقتدرٌ عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾، (إذا) هنا شرطية لكنها غير جازمة، وفعل الشرط فيها قوله:(حُيِيتُم)، وجواب الشرط: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ﴾، و(أحسن) هنا نجد أنها دخل عليها حرف جر ولكنها لم تكن مكسورة فلماذا؟ لأنها ممنوعة من الصرف، والمانع لها من الصرف الوصفية ووزن الفعل، وقوله:﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ هذه للتنويع يعني: هذا أو هذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ هذه لا إشكال فيها.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾فما هي التحية؟ التحية هي البقاء، مأخوذة من الحياة، فمعنى (حيَّاه) أي: دعا له بالحياة والبقاء، ولهذا نقول في قول المصلي: التحيات لله، أي: جميع ألفاظ العظمة والبقاء ثابتة لله، وقوله: ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ نكرة في سياق الشرط، يعمُّ أي تحية، كل ما يدل على أن هذا تحية فإنه داخل في الآية الكريمة، وقوله: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ أي: ردُّوا هذه التحية بأحسن منها، في الكَميَّة والوصفيَّة، ﴿أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ أي: حيوا بمثلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: محاسبًا لكل أحد فكل شيء فالله حسيبه، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] وقيل معناه:حسيبًا أي: كافيًا ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] والمعنيان صحيحان.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** وجوبُ ردِّ التحية؛ لقوله: ﴿فَحَيُّوا۟﴾، والأصل في الأمر الوجوب.

٢- **ومن فوائدها:** أن ردَّ التحية يكون على وجهين: مجزئ وأفضل، المجزئ: مأخوذ من قوله ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾، والأكمل والأفضل من قوله: ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ وقدم الأحسن على المثل؛ لأنه أكمل وأفضل.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** مراعاة الإسلام للعدل؛ لقوله: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنها عامة في كل من ألقى إلينا التحية أن نحييه بمثل ما حيَّانا أو أكمل، سواء كان مسلمًا أو كافرًا، صغيرًا أو كبيرًا؛ لأن الآية عامة، ولهذا قال ﴿حُيِّيتُم﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: حياكم المسلمون، وبناء على ذلك نقول: إذا سلم علينا أهل الكتاب فقالوا السلام عليكم بلفظ صريح نقول: عليكم السلام، أما بلفظ محتمل فإننا نقول: عليكم فقط.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا يجزئ الرد في السلام إذا قال المسلّم السلام: عليك فقلت: أهلًا وسهلًا لماذا؟ لأن هذه التحية ليست مثلها ولا أحسن منها، إذ إن قول المسلّم: السلام عليكم دعاء لك بالسلامة من كل الآفات البدنية والمالية والقلبية وكل الآفات، لكن أهلًا وسهلًا ماذا تفيد ؟ ما تفيد إلا مجرد الترحيب باللسان فهي ليست مثلها وليست أحسن منها .

٦- **ومن فوائد هذه الآية:** أنه يطلب من المسلَّم عليه أن يردَّ بأكمل إما بالكَميَّة وإما بالكيفيَّة، فإذا قال: السلام عليك، فالأحسن السلام عليك ورحمة الله، الأحسن عليك السلام ورحمة الله هذا بالكمية، الكيفية، وإذا قال: السلام عليك بصوت مرتفع مسموع يدل على التواضع، فقلت: عليك السلام بصوت مثله أو أبينَ فهذا ردٌّ صحيح في الكيفية، لكن لو قال :السلام عليك بلفظ بيّن صريح رقيق ثم رددت عليه بأنفك بكلام ربما يسمع أو لا يسمع، فهذا لم يرد ولم يقم بالواجب بل هو آثم؛ لأن الله أمر بردها أو أحسن منها.

٧- **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لو حيَّاك إنسان بقوله: أهلًا وسهلًا، فقلت: أهلًا وسهلًا بك، فإن ذلك جائز، لكن يحسن؛ ولا سيما لطلبة العلم أن يبينوا لهذا الرجل أن السلام المشروع هو: (السلام عليك)، لكن هو إذا ردَّ بمثل ما قال كفى.

ثم إن للسلام آدابًا معروفة مطولة مبسوطة في كتب أهل العلم؛ ففي كتب الفقهاء ذكروا كثيرًا من آداب السلام في آخر(كتاب الجنائز) حين ذكروا السلام على المقابر تطرقوا للسلام على الأحياء، وفي كتب الآداب أيضًا شيء كثير من هذا.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل حسيب على كل شيء يعني: أنه يحاسب كل من عمل عملًا بما يقتضيه عمله على أحد القولين في حسيبًا، وعلى القول الثاني: أنه

كافٍ لكل من توكل عليه.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من عدم ردِّ التحية بمثلها أو أحسن، يُؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يعني: فاحذر أن تتعرض لمحاسبة الله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ الاسم الكريم الله مبتدأ، وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر المبتدأ، و﴿إِلَٰهَ﴾ اسم لا وخبرها محذوف، تقديره: (حقٌّ)، وهو الواقعة بعد إلا بدل من الخبر المحذوف، هذا أحسن ما قيل في إعرابها، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (اللام) واقعة في جواب قسم مقدَّر، والتقدير: والله ليجمعنكم، وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: [القسم المقدَّر واللام ونون التوكيد]، وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾هذه لا النافية للجنس اسمها: ﴿رَيْبَ﴾، وخبرها ﴿فِيهِ﴾، وهل النفي هنا بمعنى الأمر، أو بمعنى الطلب أي: لا ترتابوا فيه، أو هو خبر على ظاهره؟ فيه قولان للعلماء، والصحيح: أنه خبر على ظاهره، وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿مَنْ﴾ مبتدأ و﴿أَصْدَقُ﴾ خبر، والاستفهام هنا بمعنى النفي، أي لا أحدَ أصدق من الله حديثًا،و﴿حَدِيثًا﴾ إعرابها تمييز؛ لأنها وقعت مُبيِّنةً لاسم التفضيل، وكل ما وقع مبينًا لاسم التفضيل فهو تمييز؛ لأن التمييز يبين ما أُبهِمَ من الذوات.

يقول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذا خبر يعتبر من أصدق الأخبار، فإنه لا إله إلا الله، و(الإله) بمعنى المألوه أي: المعبود حبًّا وتعظيمًا، وقوله ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الضمير يعود على الله عز وجل، فلا معبود حقٌّ إلا الله، وكل ما عُبد من دون الله فهو باطل؛ لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، هذا المعبود من دون الله هل يُسمَّى إلهًا؟ نعم، لكنها تسمية لفظية لا حقيقيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ يعني: بدون مسميات ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠]، ولقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، ولقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فكل معبود فهو إله، لكن منه ما هو حق ومنه ما هو باطل.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أقسم الله عز وجل وهو الصادق أنه سيجمعنا إلى يوم القيامة أي: يجمع الأولين والآخرين وكلَّ ما فيه روح قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٤، ٥]، كل شيء يُبعث يوم القيامة ويُجمع، وإنما أكّد الله ذلك لسببين:

السبب الأول للتأكيد: أن فيه من ينكر هذا الجمع قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن:٧] فإن قال قائل: هذا القسم لا ينفع فيمن ينكره؛ لأن الذي

ينكر سينكر سواء أُقسِم له أم لم يُقسم، فالمُنكِر لا يفيد فيه القسم، قلنا: هذا إذا أُكِّد له الكلام وأنكر بعد التأكيد صار إنكارُه مكابرة ؛ لقيام ما يدل على تأكد هذا الشيء، هذا واحد، وجرت عادة العرب - والقرآن بلسان عربي - أنهم يؤكِّدون الحكم فيها إذا كان المخاطب منكرًا، ويقولون: إنه يجب أن يكون الكلام مؤكدًا .

السبب الثاني للتأكيد: فلأن هذا من أهمِّ الأمور وكلما كان الشيء هامًّا كان توكيده أوْكد، حتى لا يبقى في النفوس شكٌّ أو تردد، ولا شك أن من أهم الأمور إن لم أَقُلْ أهم الأمور بعد الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر؛ لأن مَنْ لم يؤمن باليوم الآخر لا يمكن أن يعمل، إذا قال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] فما الفائدة من العمل؟ فصار التوكيد هنا لسببين.

يقول تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهو اليوم الذي يُبعث فيه الناسُ، وسمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة: (الأول:) أن الناس يقومون فيه من قبورهم لله، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، (الثاني:) أنه يُقام فيه العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]، (الثالث:) أنه يقوم فيه الأشهاد قال الله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] ؛ ولهذا سُمِّي هذا اليوم يوم القيامة وله أسماء كثيرة في القرآن، يذكُره الله تعالى بها حسب ما يقتضيه السياق، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه الجملة خبرية في ظاهرها، والريب هو الشك مع القلق، لكن اختلف المفسرون هل هي خبرية محضة أو هي خبرية طلبية أي: أنها خبر بمعنى النهي، ذكرنا في ذلك قولين، والراجح: أنها خبرية محضة ؛ لأن الخبر المحض يفيد استقرار الشيء وثبوته، سواء آمن به الإنسان أم لم يؤمن، وأنه شيء مستقر ليس فيه إشكال، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ يعني: لا أحد أصدق من الله، فالاستفهام هنا بمعنى النفي، والنكتة البلاغية في كون النفي يأتي بصيغة الاستفهام هو أنه إذا أتى بصيغة الاستفهام صار مشربًا بمعنى التحدي، يعني: كأن المتكلم يتحدَّى المخاطب، يقول: بيِّن لي مَنْ أصدق من الله حديثًا، فهو متضمن للنفي لا شك ومتضمن للتحدي.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد كثيرة منها: انفراد الله تعالى بالألوهية؛ لقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهل أحد أنكر انفراد الله بالألوهية ؟ نعم، كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وهل أحد أنكر توحيد الربوبية؟ نعم فرعون أنكر توحيد الربوبية حقيقةً، وليس بلسانه فقط، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، لم ينكر عليه ولم يقل: ما علمت، وهل أحد أنكر توحيد الأسماء والصفات؟ نعم كثير ممن أنكره حتى من أهل الملة الذين ينتسبون للإسلام أنكروا توحيد الأسماء والصفات، فمنهم مَنْ عطَّل

ومنهم مَنْ مثَّل، وكلاهما يعتبر منكرًا.

٢- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الجمع يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهذا دل عليه آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩،٥٠].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات يوم القيامة ؛ لقوله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، والإيمان به أحدُ أركان الإيمان الستة لقول النبي ﷺ في جواب جبريل: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، فاليوم الآخر هو يوم القيامة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإيمان باليوم الآخر على وجهٍ لا شكَّ معه لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فيجب علينا: أن نؤمن بأن الله يجمعنا إلى يوم القيامة إيمانًا لا شكَّ معه، ولا تردُّد معه.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الكلام لله عز وجل ويُؤخذ من قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؛ لأن الصدق إنما يُوصف به الكلام، والحديث هو الكلام، وعلى هذا فيكون إثبات الكلام لله عز وجل من الكلمتين جميعًا من (أصدق)، ومن (حديثًا).

مسألة: هل الصدق مطابقة الخبر للواقع، أو مطابقة الواقع للخبر؟

الجواب: الخبر للواقع.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كلام الله تعالى وخبره صدق لا كذب فيه بوجه من الوجوه ؛ لقوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: من اسم التفضيل؛ لأن اسم التفضيل يجعل المفضَّل في قمة الوصف، وعلى هذا فليس في كلام الله سبحانه وتعالى شيء من الكذب إطلاقًا.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه وعن أمور الغيب كلِّها؛ لقوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾، فإذا أخبر الله عن نفسه بشيء، أو عن أمور غائبة بشيء وَجَبَ علينا تصديقُه.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وصف كلام الله تعالى بالحديث، لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، وهو كذلك، لكن هل الحديث يعني الخبر، أو يجوز أن يكون المراد به أنه حادث يتكلَّم الله به؟ الثاني هو المراد، فكلام الله عز وجل - باعتبار أصله - من الصفات الذاتية؛ لأنه تعالى لم يزل ولا يزال متكلِّمًا، فإن قال قائل: فهل عندكم دليلٌ على أن كلام الله حادث باعتبار آحاده ؟ قلنا: عندنا أدلة وليس دليلًا واحدًا، قال الله تبارك تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]؛ فإن (قد) للتحقيق، و(سمع) فعل ماضٍ يقتضي أن يكون المسموع سابقًا للخبر عنه، وأن الخبر عنه لاحقٌ،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومعلوم: أن المرأة إنما شكتْ إلى النبي ﷺ في أمر حادث وقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]، والآيات في هذا كثيرة، فإن قيل: إذا قلتَ بأن كلام الله حادث لزم أن يكون الله تعالى حادثًا؛ لأن الحوادث لا تكون إلا من حادثٍ، فالجواب هذا غير صحيح، فلا يلزم من قيام الحوادث بالله عز وجل أن يكون هو حادثًا، أليس الله تعالى يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، و(ثم) تفيد الترتيب، إذنْ الاستواء - وهو فعل - كان بعد خلق السماوات والأرض، فقامتْ به الأفعال الاختيارية، ولا شك أن قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل من كمال الله، أن يكون فاعلًا، متى شاء فعل ومتى شاء لم يفعل، وأما من قال: إنه يلزم من قيام الحوادث به أن يكون حادثًا فهذه قضية غير مسلَّمة ولا صحيحة والله أعلم.

٩- **فائدة**: بعض العلماء يفسر اسم التفضيل فيما يكون من صفات الله باسم الفاعل، فيقول: أعلم: بمعنى عالم، وأصدق بمعنى صادق، وأحسن: بمعنى محسِن، وهذا غلط عظيم، ونقص في مدلول الكلمة، أيهما أبلغ أن تقول: العالم وهو يشترك فيه كل الناس على حد سواء، أو أعلم بحيث لا يساويه أحد في علمه ؟ الثاني لا شك، فصادق وأصدق، صادق يشاركه كثيرٌ من الناس، أصدق لا يشاركه أحدٌ، بل إن الله قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

مسألة: إن قال قائل: ما الفرق بين المخلوق وبين الحادث ؟

الجواب: المخلوق والحادث بينهما فرق عظيم، وهو: أن الحادث قد يكون صفة وقد يكون مخلوقًا بائنًا، فكلام الله عز وجل ليس مخلوقًا بائنًا عن الله، لكنه يتكلم به، وكلامه به الآن ليس أزليًّا بل هو حادث، ولا يلزم أن تكون الصفة عين الموصوف فهي غيره لكنها قائمة به، فالطول - مثلًا - ليس هو الطويل، لكنه قائم بالطويل، والعلم غير العالم لكنه قائم به.

قال الله تعالى:

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ

يَقْتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨-٩٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ للصحابة رضي الله عنهم و(ما) اسم استفهام مبتدأ، والمراد بالاستفهام هنا الإنكار عليهم، و(لكم) جار ومجرور خبر المبتدأ، يعني أي: شيء لكم في المنافقين تختلفون فتكونون فئتين، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم بعد رجوع مَنْ رجع من المنافقين في أُحدٍ، ومعلوم أن مَنْ رجع من الجيش في أُحدٍ نحو الثلث كلهم منافقون، اختلف الصحابة فيما بعد، قال بعضهم: نقتلهم؛ لأنهم خانوا وتبين ردَّتهم، وقال آخرون: لا نقتلهم؛ لأنهم يظهرون بالإسلام، فاختلفوا وتنازعوا وصار المسلمون فئتين، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فِئَتَيْنِ﴾ خبرًا لـ(صار) المحذوفة والتقدير: فما لكم في المنافقين صرتم فئتين، أو كنتم فئتين، كلاهما صحيح، الفئة الأولى ماذا قالت؟ نقتلهم، والفئة الثانية قالت: لا نقتلهم، وفئة آخرى قالت: هؤلاء مسلمون، وفئة أخرى قالت: هؤلاء كفار منافقون، فبين الله الحكم بين الفئتين، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ والإركاس بمعنى الرد والإرجاع، لكن على وجه مذموم، فمعنى(أركسهم)أي: ردَّهم وأرجعهم على وجه مذموم، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، (الباء) للسببية، و(ما) يجوز في إعرابها أن تكون مصدرية، ويكون التقدير: أركسهم بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولةً ويكون التقدير: بما كسبوه، فإذا كان الله أركسهم بما كسبوا، فالصواب مع من قال: إنهم كافرون مرتدون، أما مسألة المقاتلة فسيأتي التفصيل فيها في الآيات.

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وهذا الاستفهام استفهام توبيخي، والإرادة هنا بمعنى: المحبة أو بمعنى المشيئة؟ كلاهما صحيح، يعني أتشاءون أن تهدوا من أضل الله؟ أو أتحبون أن تهدوا من أضل الله؟ والجواب ليس لكم ذلك؛ لأن من يرد الله أن يضله فإنه ليس له من الله من ولي ولا نصير، والاسم الكريم (الله) بالرفع على أنه فاعل، وعلى هذا فيكون (أضل) فيها ضمير محذوف هو عائد الصلة، والتقدير: مَنْ أضله الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (مَنْ) هذه شرطية، والدليل على أنها شرطية أن الفعل بعدها وقع مجزومًا، ولكنه حُرِكَ بالكسرة ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾؛ لالتقاء الساكنين، وقد قال ابن مالك في «الكافية»:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

يعني: إن كان حرف علة احذفه وإذا كان ساكنًا اكسره، وقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، هذه الجملة جواب الشرط، ولماذا اقترنت بالفاء؟ لأن الجواب لا يصح أن يكون فعلًا للشرط، ومتى

امتنع أن يكون الجواب فعلًا للشرط وجب اقترانه بالفاء، وقد جُمعت المواضع التي يقترن الجواب فيها بالفاء في قول الشاعر:

اسْــــمِيَّةٌ طَلَبِيَّــــةٌ وبِجَامِــــدِ   وَبِمَــا وَقَــدْ وَلَــنْ وبــالتَّنْفِيسِ

الشاهد من هذه السبعة: (لن) في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ وقد يقول قائل: كيف كانت بالإفراد والخطاب الذي قبلها بالجمع؟ ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ قلنا: كأنه - والله أعلم - انفصلت هذه الجملة عما قبلها، وصار المراد بها المخاطب، يعني: فلن تجد أيها المخاطب له سبيلًا، ومعنى (سبيلًا) أي: طريقًا إلى الهداية.

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** الإنكار على المؤمنين في الاختلاف في المنافقين؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، ويترتب على هذه الفائدة أن هذا يوحي بذم الاختلاف، وذم الاختلاف أمر ثابت؛ لأن هذه الأمة أُوصيت بأن تقيم الدين ولا تفرق فيه، والاختلاف تفرقٌ، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان يُركس ويُردُّ على الوجه المذموم بسبب عمله، يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب تُؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾، (الباء) للسببية.

والناس في الأسباب طرفان ووسط، فمن الناس: مَنْ أنكر تأثير الأسباب إطلاقًا، وقال: لا أثر للسبب في المسبب، حتى كابروا المعقول والمحسوس، وقالوا: لو رميتَ الزجاجة بحجر فانكسرت فإن الحجر لم يكسرها، ولكن انكسرت الزجاجة عنده لا به، لماذا؟ قالوا: لأننا لو أثبتنا تأثير الأسباب لأثبتنا خالقا مع الله - سبحان الله - وهذا القول إذا نُسب للإسلام سوف يكون مثارًا للقدح في الإسلام؛ لأن غير المسلمين يشاهدون أن الأسباب تؤثر، الطرف الثاني مَنْ يقول: إن الأسباب لها تأثير بمقتضى طبيعتها لا بأن الله سبحانه وتعالى جعل فيها القوى المؤثرة، وهؤلاء قد ضلوا وأشركوا، فجعلوا مع الله شريكًا، هؤلاء أيضًا على ضلال، والقسم الثالث مَنْ قالوا: إن للأسباب تأثيرًا بما أودع الله فيها من القوى الفاعلة، وليست هي التي تفعل، وهؤلاء هم أهل الحق وأهل الصواب، فالله تعالى هو الذي جعل الإحراق في النار فتُحرق وجعل الكسر في الحجر يقع على الزجاجة فتنكسر، والدليل على هذا أن الله تعالى قال في نار إبراهيم عليه السلام: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، وطبيعة النار الحرارة والإحراق الإهلاك، لكن قال لها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت بردًا وسلامًا عليه؛ إذنْ: الأسباب لا تؤثر بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوى الفاعلة.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأعمال قد تكون سببًا لردة الإنسان وكثرة معاصيه، السيئة تجذب السيئة، والصغائر بريد الكبائر، والكبائر بريد الكفر، وهذا واضح ﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فإذا رأيت من نفسك إركاسًا ـ والعياذ بالله ـ فانتشلها بالتوبة والاستغفار إلى الله عز وجل، وسؤال الله الثبات، ولا تتهاون، ولا تقل: إن شاء الله يقوى إيماني بعد، من الآن من حين أن تحس بالمرض، فعليك بالدواء.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية، وتؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فأثبت لهم كسبًا، والجبرية يقولون: إن الإنسان لا كسب له وعملُه مُجبر عليه.

٦ـ **ومن فوائدها:** الرد على القدرية وتؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ والقدرية يقولون: إن أفعال العباد لا علاقة لتقدير الله تعالى بها إطلاقًا، فصار في الآية ردٌّ على كلتا الطائفتين المنحرفتين المبتدعتين، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: للإنسان فعل يُنسب إليه حقيقةً، والمقدر لهذا الفعل الله عز وجل، وهذا هو المطابق للمنقول والمعقول والمحسوس.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** توبيخ أولئك المؤمنين الذين يريدون أن يهدوا من أضل الله، لقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فإن قال قائل: يشكل على هذا إشكالًا كبيرًا، الدعوة إلى الله عز وجل ومحاولة إصلاح الخلق، فإنَّ الداعي يريد أن يهتدي المدعون، والجواب عن هذا أن الله أنكر على هؤلاء الذين يشاهدون أن الله أضل هؤلاء بالنفاق ـ والعياذ بالله ـ ويحاولون أن يحكموا، ويقولون إنهم مسلمون، كما هي الفئة الثانية.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الهداية والإضلال بيد الله، ويتفرع على هذه الفائدة: ألَّا تسأل الهداية من الضلال إلا من الله عز وجل، وأن تجعل سؤالك لبعض الناس كيف أهتدي تجعله سؤالًا عن السبب والطريق، وأما الذي بيده أزمة الأمور فهو الله عز وجل، ولهذا قال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من قدر الله إضلاله فإنه لا يمكن لأحد أن يقوم بهدايته؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، فإن قيل: هذا يقتضي أن يكون للعاصي حجة على معصيته، فيقول: من يضلل الله فلن تجد له سبيلًا، فما الجواب ؟ الجواب عن هذا أن يُقال: لا حجة في هذا للعاصي إطلاقًا، وذلك لأن الإنسان لا يعرف أن الله أضله إلا بعد أن يضلَّ هو، وضلاله هو صادر عن إرادته وقدرته، فهو الفاعل وهو الذي أضل نفسه، لكن لا يعلم أن الله قدَّر عليه الضلال إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج بحجة لا يعلم بها إلا بعد وقوعها، فهذا باطل.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وإذا آمنت بذلك فلن تسأل الهداية إلا من الله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، (وَدُّوا) الفاعل هم المنافقون؛ لأن

السياق فيهم، وقوله: ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ (لو) هنا مصدرية أي: ودُّوا كفركم، فهي بمنزلة (أن)، أي: ودوا أن تكفروا كما كفروا، و(لو) تأتي لمعانٍ متعددة: تأتي (مصدرية) كما هنا، وتأتي (للتمني)، وتأتي (شرطية)،وتكون (حرف امتناع لامتناع)، وإذا أردت أن تعرف معاني الحروف فعليك بكتاب «المغني» لابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه يأتي بالكلمة ويبين معانيها.

وقوله:﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ أي: ككفرهم وعلى هذا فـ(ما) هنا مصدرية، ولا يصح أن تكون موصولة؛ لأنه المراد ودوا لو تكفرون ككفرهم، وما نوع كفر المنافقين؟ كفر المنافقين كفر غريب لأنهم﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة:١٤]، فهو كفر مستور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قِبَلِه العذاب، هم يودون أن كل الناس يفعلون هكذا مع النبي ﷺ، فيؤمنون ظاهرًا ويكفرون باطنًا، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، ما معنى ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، أي: أن قومهم كَذَبوهم في دعوى الإيمان بهم، يعني: أن قومهم قالوا: إنا مؤمنون وهم لم يؤمنوا، هذا معنى قوله:﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، وفيها القراءة السبعية: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ أي: أيقنوا أنهم مكذَّبون، ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾، قال: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ هنا (الفاء) عاطفة، وليست جوابًا لـ(لو)؛ لأن (لو) ليست شرطية، ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ أي: فتكونون معهم سواء، لا فضل لكم عليهم، وهذا بمقتضى طبيعة الإنسان أنه يود إذا سلك منهجًا أن يسلكه الناس معه، كل إنسان، لا صاحب الخير، ولا صاحب الشر، يود إذا سلك منهجًا أن يسلكه الناس، هؤلاء ودوا أن المؤمنين يكفرون كما كفروا،﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾، قال الله تعالى محذرًا عنهم وعن موالاتهم، ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يوالونكم أو توالونهم أو المعنيين؟ المعنيين،يعني لا تتخذوا منهم أولياء؛ لأنهم أعداء كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، وكذلك لا تتخذوا منهم أولياء توالونهم أنتم؛ لأن موالاة الكفار كفر، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، (حتى) هنا غاية أو علة ؟ غاية، يعني: استمروا في عداوتهم حتى يهاجروا في سبيل الله، واعلم أن حتى تكون غاية وتكون علة، ففي قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧]، هذه علة يتعين أنها علة وفي قوله: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، هذه غاية والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، اختلف في المراد بالهجرة هنا، فقيل: المراد حتى يهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فإن كانوا في بادية وجب عليهم أن يهاجروا إلى المدينة، وإن كانوا في مكة فكذلك، وقيل: المراد بالهجرة: الخروج مع النبي ﷺ للجهاد؛ لأن مَنْ خرج في الجهاد فقد ترك بلده إلى ميدان المعركة، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾أي: في الطريق الموصِلة إليه وهي دينه، واعلم أن الله سبحانه وتعالى أضاف السبيل إليه في عدة آيات مثل هذه الآية

وأشباهها كثيرٌ ومثل قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧]، أي: طريقك، وسمي سبيل الله؛ لأن الله تعالى هو الذي وضعه لعباده، وهو السبيل الذي يُوصِل إلى الله، وقد أضافه الله تعالى إلى المؤمنين في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، وإضافته إلى المؤمنين باعتبار أنهم سالكوه، فصارت إضافة السبيل، إما إلى الله، وإما إلى المؤمنين، فأما إضافتها إلى الله فلوجهين: الأول: أن الله هو الذي وضعه لعباده يسيرون عليه، والثاني: أنه موصل إلى الله عز وجل، وأما إضافته إلى المؤمنين فباعتبار أنهم سالكوه، ومثل ذلك أيضًا يقال في الصراط فإن الله أضافه إلى نفسه في قوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٥٣]، وأضافه أيضًا إلى الذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، ويقال في توجيهه ما قيل في توجيه السبيل. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: عن الهجرة في سبيل الله، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ يعني: إذا وجدتموهم خذوهم أسرى، بدليل قوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾، فالأخذ أسر والقتل إزهاق الروح، ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان وجدتموهم، سواء وجدتموهم في البر أو في بلادهم أو في غير ذلك، ما داموا لم يهاجروا في سبيل الله، وتولوا عن سبيل الله، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، هذا كرره مرة أخرى إما تمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾، وإما من باب التوكيد، وإما للأمرين جميعًا؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ هو كقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لكن هنا زاد قال: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾، والفرق بين الولي والنصير: أن النصير مَنْ يدافع عنك مَنْ يعتدي عليك، فهو ينصرك، وأما الولي فهو الذي يتولاك بالعناية، بتحصيل مطلوبك ودفع مرهوبك.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد: أن الكفار يودون بكل محبة أن يكفر المؤمنون كما كفروا لقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنهم إذا كان هذا وِدُّهم فسوف يسعون إليه بكل وسيلة، سواء كانت الوسيلة في تدمير الاقتصاد أو بالسلاح أو بنشر الأخلاق الرذيلة السافلة؛ لأن الأخلاق الرذيلة السافلة إذا انتشرت في الأمة فعليها الوداع، المهم: أننا ما دمنا نعلم أنهم يودُّون أن نكفر كما كفروا فلابد أن يسعوا لذلك بكل طريق، بالتهديد تارة وبالترغيب تارة، وبتزيين الباطل تارة، وكما نشاهد الآن أن دول الكفر تلعب لعبًا لا يُستهان به بدول المسلمين.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني آدم بطبيعتهم يتسلى بعضهم ببعض ويقوى بعضهم ببعض، لقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ ولا شك أنه إذا اشترك أحد معك فيما أصابك فإنه تشييع لك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩]، بينما في الدنيا إذا تشارك المجرمون في العذاب هان عليهم، وتقول

الخنساء في رثاء أخيها صخر:

يُذَكِّرني طُلوعُ الشَمسِ صَخرًا وَأذكُرُهُ لِكُلِّ غُروبِ شَمسِ

وَلَولا كَثرَةُ الباكينَ حَولي عَلى إِخوانِهِم لَقَتَلتُ نَفسي

وَما يَبكونَ مِثلَ أَخي وَلَكِن أُعَزّي النَفسَ عَنهُ بِالتَأَسّي

فالحاصل: أن الاشتراك في العقوبة يخففها، وهنا الاشتراك في الكفر يهون الكفر على أصحابه.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: اعتزاز الكفار بمن يدخل في دينهم؛ لقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم اتخاذ أولياء من الكفار، حتى يهاجروا في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ لم يهاجر في سبيل الله، فإن هذا دليل على عدم صدقه في إيمانه؛ لأنه متى صدق الإنسان في إيمانه فسوف يدع الغالي والرخيص من أجل الحفاظ على هذا الإيمان.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى الإخلاص، تُؤخذ من قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من تولَّى عن الهجرة في سبيل الله فإنه ليس وليًا لنا، ويجب علينا مقاتلته، لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وذلك؛ لأنه لا أيمان لهم ولا عهد لهم لكونهم تولَّوا عن دين الله ولم يهاجروا في سبيل الله.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تأكيد النهي عن اتخاذ الأولياء من الكفار؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين محالفة النبي ﷺ لخزاعة بعد صلح الحديبية؟ فالجواب: أن المراد باتخاذ الأولياء أن ينصرهم الإنسان ويناصرهم على مَنْ قاتلوه وحاربوه سواءً كان مسلمًا أو كافر، وأما مجرد أن يتخذ معهم حلفًا يتقوَّى بهم ويدفع بهم شرورًا كثيرة فهذا لا بأس به عند الحاجة إليه؛ لأن النبي ﷺ أقرَّ ذلك في صلح الحديبية.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، هذا استثناء مما سبق، من قوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ يعني: إلا قومًا وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، واستجاروا بهم، وعقدوا معهم الأحلاف، فهؤلاء ليس لهم حكم ما سبقهم؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ إلى آخره، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ والميثاق هو العهد المؤكَّد، وهو مأخوذ من الوثاق أي: الرباط

الذي يُربط به الشيء، ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ هذه معطوفة على ﴿يَصِلُونَ﴾، يعني: أو الذين جاءوكم يعني: لم يلتجئوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، ولكنهم جاءوا إليكم، وصفهم فقال: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ و(حَصِرتْ) بمعنى: ضاقت ولم تتسع للقتال، والجملة في قوله ﴿حَصِرَتْ﴾ قيل: إنها في موضع نصب على الحال وعلى تقدير (قد) أي: قد حصرت صدروهم، ﴿أَوْ يُقَاتِلُوكُمْ قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء الآن جاءوا للمسلمين لئلا يقاتلوا المسلمين مع قومهم ولكنهم لا يقاتلون قومهم مع المسلمين؛ ولهذا قال: ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ يعني: مع قومهم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ يعني: معكم، فهؤلاء قوم مسالمون، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ يعني: هؤلاء الذين جاءوكم لو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، و(لو) هذه شرطية وفعل الشرط: ﴿شَاءَ﴾، وجوابه: ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ هذه معطوفة على جواب (لو) بإعادة اللام الرابطة؛ ولهذا لو حُذفت وقيل: لسلطهم عليكم فقاتلوكم لاستقام الكلام، إذنْ: فهي اللام الأولى وأعيدت للتوكيد، وقوله: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لجعل لهم سلطانًا عليكم بالمقاتلة، وهل شاء الله ؟ لا؛ لأنهم لم يقاتلوا المسلمين، ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ قوله: (إن اعتزلوكم) فسَّرها بقوله: ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ اعتزلوكم فلم يكونوا معكم ولم يقاتلوكم، ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: السلام، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ؛ لأنهم قوم مسالمون لم يقاتلوكم ولم يقاتلوا قومهم فهؤلاء مسالمون، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ﴾ هذه جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾، ومعنى ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا يبيح لكم قتالهم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة من الفوائد:** استثناء هؤلاء الصنف من الناس ممن أُمرنا بقتالهم، وهم طائفتان: طائفة وصلوا إلى قوم بيننا وبينهم ميثاق ودخلوا فيهم، والطائفة الثانية: قدموا إلينا، فلم يقاتلوا فلم يقاتلونا مع قومهم ولم يقاتلوا قومهم معنا، فهم مسالمون.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام وفاء الإسلام بالعهد حيث حمى العهدُ مَنْ باشر عقد العهد معنا، ومَنْ لجأ إليه، يُؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ إلى آخره.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مَنْ سَالَمَنَا سَالَمْنَاه، لقوله: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾، وقد سبق لنا في الجهاد متى تكون الهدنة وهل يصح أن تزيد على عشر سنوات، وبيَّنا أن الصحيح أنه تصح الهدنة المطلقة المبنية على ضعفنا ولنا إذا قَوينا أن ننبذ إليهم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ فيُستفاد

منها الردُّ على طائفة مبتدعة زائغة؛ وهم القدرية الذين يقولون: إن فعل الإنسان مستقل به، لا علاقة لله به ودليل ذلك: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

٦- **ومن الفوائد:** في قوله تعالى: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ الرد على الجبرية، حيث نسب القتال إلى الإنسان، وهم لا ينسبون الفعل إلى الإنسان إلا على سبيل المجاز، فمتى يقول الرجل صلَّى هو صلَّى على سبيل المجاز وإلا فالحقيقة أنه أجبر على الصلاة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه إذا اعتزلنا مَنْ وصل إلينا بأمان فلم يقاتلنا، وألقى السلم وجب الكف عنه؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحاصل بمفهوم أنه لو أخذوا منا الميثاق، ولكنهم خانوا فقاتلوا فإن العهد ينتقضُ ولا يكون بيننا وبينهم عهد، يُؤخذ من مفهوم قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من ألقى السلاح وجب الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، لكن إن خيف أن إلقاءه السلاح خيانة وخداع فإنه لا عبرة بإلقائه؛ لأن العدو قد يلقي السلاح غدرًا وخيانة، وقد ينهزم أيضًا أمام جيوشنا غدرًا وخيانة، فالواجب التنبه، فإن قال قائل: أليس ما وقع من أسامة بن زيد في قتله المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله فأنَّبه النبي ﷺ ووبخه وقال: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله**»[1] مع أن الذي يظهر أنه قالها تعوذًا من القتل؟ قلنا: لابد من قرينة قوية تدل على أنه يخشى منه الغدر والخيانة، وأما مجرد الظن فلا يكفي؛ لأن الأصل العصمة بالعهد، فيبنى على هذا الأصل حتى يوجد ما يعارضه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشرع منعًا ودفعًا وإذنًا كله لله عز وجل؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهذا يدل على أن الأمر بيد الله، هو الذي يحكم ما شاء من حل وحرمة وإيجاب وغير ذلك.

مسألة: قوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ هل هذا جُعْلٌ كوني أو شرعي؟

الجواب: شرعي، والفرق بينهما: أن الشرعي: ما جعله الله شرعًا للعباد، والقدري أو الكوني: ما قضى به عليهم قدرًا، فالشرعي أيضًا مثل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، والقدري مثل: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

قال الله تعالى:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩١-٩٣]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾، (السين)، هنا للتنفيس، وأختها (سوف) للتسويف، والفرق بينهما: أن التسويف متأخر والتنفيس حاضر، وكلتاهما تفيد التقريب والثبوت والتحقيق، فمثلًا إذا قلتَ :أنت تجد زيدًا، أنتَ ستجد زيدًا، أيهما؟ الثاني أوْكد، لكن كلتاهما تفيد التوكيد والثبوت، ولكن (سوف) للتراخي و(السين) للقرب، ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ هؤلاء قسم رابع، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ ولا يمكن هذا إلا بالنفاق يأمنوكم إذا ﴿جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ [المائدة:٦١] فأَمِنُوا ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤] فأَمنُوا، فهم يريدون أن يكونوا مرضين لهؤلاء وهؤلاء ولا يمكن هذا، لا يمكن أن ترضي أولياء الله وأعداء الله في آنٍ واحد؛ لأن أولياء الله وأعداء الله كلهم أعداء، لا يمكن لعدو الله أن يوالي وليًا لله أو بالعكس، فهؤلاء ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لأنهم ليسوا مع المسلمين ظاهرًا وباطنًا ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا، أو لا ؟ ليسوا مع المسلمين ظاهرًا وباطنا، ولا مع الكفار ظاهرا لكن في الباطن هم معهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ يعني: أن مآلهم الفتنة - والعياذ بالله - والضلال، والمراد بالفتنة هنا الخروج من الإسلام، ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ يعني: ازدادوا

ركسًا وعمقًا فيها وبُعدًا عن الهدى، وهكذا كل إنسان يريد الفتنة فإنه يزداد شرًّا وإيغالًا في الفتنة، ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يعني: إن ظهرت عداوتهم لكم ولم يعتزلوكم حتى يتبينوا ويظهروا ويلقوا إليكم السلم أي: الاستسلام أو المسالمة؟ الظاهر المعنيان الظاهر، ﴿وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾ عنكم بالإيذاء ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ خذوهم أسرى واقتلوهم إماتةً، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم كما قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ [الممتحنة:٢]، أي: إن يجدوكم، ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، (أولئكم) الإشارة هنا إشارة بعيد مع قرب الذكر لبُعد منزلتهم وسفول منزلتهم؛ لأن القريب قد يشار إليه بإشارة البعيد إما لبعده نزولًا أو لبعده علوًا حسب ما يقتضيه السياق، ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حقًّا بيِّنًا وسلطة بقتالهم وأخذهم حيث، ﴿لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾.

الفوائد:

١- **هذه الآيات:** كلها في المنافقين وأشباه المنافقين؛ لأنها بدأت بهم وانتهت بهم، فهي في المنافقين وأشباههم، وخلاصتها في المعنى الإجمالي: أن الناس ينقسمون إلى أقسام: مسلمون ومعاهدون وذميون ومنافقون وكلٌّ له حكم من هذه الأقسام يليق به.

٢- **وفي الآيات الكريمة فوائد منها:** علم الله عز وجل بالغيب؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

٣- **ومنها:** إثبات الإرادة للعبد وتُؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا يمكن الجمع بين الولاية والعداوة، أن يكون الإنسان وليًّا لأولياء الله ووليًّا لأعداء الله، وهذا الشيء لا يمكن؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾، وهذا قاله في مقام الذمِّ لا في مقام المدح، فإن قال قائل: هل يمكن الجمع بين العداوة والولاية في شخص معين؟ نعم يمكن إذا كان هذا الشخص يأتي بالإيمان والتقوى من جانب، وعنده شيء من الكفر والفسوق من جانب آخرَ صار وليًّا من جانب وعدوًّا من جانب آخر هذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة في أن الإيمان والكفر قد يجتمعان، لكن ليس الإيمان المطلق ولا الكفر المطلق؛ لأن الإيمان المطلق والكفر المطلق لا يمكن أن يجتمعا، لكن مطلق الإيمان ومطلق الكفر يمكن أن يجتمعا.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الوقوع في الفتن، وأن الإنسان كلما وقع في الفتنة أُركس فيها.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجوز أن يقاتَل أمثال هؤلاء إذا لم يعتزلوا المسلمين، أي: لم يكفوا عنهم ويلقوا إليهم السلم يعني: السلام.

٧- **ومنها:** حسن بلاغة القرآن؛ حيث قال هنا: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾،

وهناك في الآية الأولى ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ لأن اختلاف الألفاظ يؤدي إلى النشاط، واتفاقها يؤدي إلى الملل غالبًا.

٨ - ومن فوائدها: أن الله سبحانه وتعالى جعل للمؤمنين على هؤلاء سلطانًا مبينًا، أي: سلطة شرعية وربما تكون أيضًا سلطة قدرية ظاهرة بيِّنة.

ثم يقول عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الإعراب: (ما كان) فعل ناقص منفي وخبره ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾، واسمه: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ على أنه مُؤول بالمصدر، أي: ما كان لمؤمن قتلُ مؤمنٍ إلا خطأً، وأما ﴿إِلَّا﴾ فهي أداة استثناء، و﴿خَطَـًٔا﴾ يحتمل أن تكون صفة لموصوف محذوف، أي: إلا قتلًا خطأً، كقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ [سبأ:١١] أي أن اعمل دروعًا سابغات، فحذف الموصوف مع بقاء الصفة وهذا كثير في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، والمؤمن هو الذي استقر الإيمان في قلبه، والإيمان شرعًا أخص من الإيمان لغةً، إذ إن الإيمان شرعًا: هو الإقرار بالقلب المتضمن للقبول والإذعان، أي: قبول الخبر وقبول الطلب والإذعان لذلك والانقياد وعدم الاستكبار، وقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ القتل: هو إزهاق الروح بأي وسيلة كانت، سواء بالسيف أو بالسهم أو بالإحراق أو بالإغراق أو بأي نوع من أنواع القتل، وقوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يعني: أنه لا يمكن أن يقتله خاطئًا بل مخطئًا، والفرق بين الخاطئ والمخطئ، أن الخاطئ هو من ارتكب الخطأ عمدًا، والمخطئ: من ارتكبه بغير عمد وبغير قصد، ويكون الخطأ إما بالقصد وإما بالآلة، أما الخطأ بالقصد، فمثل أن يرمي صيدًا رميّة قاتلة فيصيب الإنسان لم يقتله، هذا خطأ بهاذا بالقصد والخطأ بالآلة مثل أن يضربه عمدًا بسوطٍ لا يقتل مثله غالبًا، فهذا خطأ في الآلة؛ لأنه لم يظن أنها تقتله؛ ولهذا لم يكن قاصدًا لقتله،فهي عصيً يؤدَّب بها الإنسان عادة ولكن قدر الله عز وجل أن تسري هذه الجناية حتى يموت المضروب.

ثم قال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾، (من) هذه شرطية وفعل الشرط: ﴿قَتَلَ﴾، و﴿فَتَحْرِيرُ﴾، هذه جواب الشرط، وقُرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، وكلمة (تحرير) مبتدأ، والخبر محذوف والتقدير: فعليه تحرير رقبة، وتحرير الشيء هو تخليصه، والمراد من هذا التحرير تخليص الرقبة من الرق خاصة لا تخليصها من الهلاك؛ ولهذا لا يعتبر من أنقذ شخصًا محررًا له بل من حرره من الرق وخلصه منه فهو المحرر، والمراد بالرقبة هنا النفس كاملة، لكن يعبر بالرقبة عنها؛ لأن الجسد لا يمكن أن يقوم بدون رقبة، ولهذا إذا قطعت رقبته هلك، وقوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ المراد بالإيمان هنا ما يشمل الإسلام، وليس المراد بالإيمان الإيمان المطلق، بل المراد مطلق الإيمان، ولهذا لو أعتق فاسقًا، لأجزأه، ﴿وَدِيَةٌ﴾ معطوفة على (تحرير)، يعني: وعليه دية مسلمة إلى أهله، ولم يبين الله عز وجل مَنْ يسلمها، بل قال:

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بالبناء للمفعول، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ مستثنىً من قوله (دية)، يعني: وعليه دية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا أي: يتصدقوا على مَنْ وجبت عليه الدية بإسقاطها والعفو عنها فتسقط، والمراد بالتصدق هنا: العفو والإسقاط؛ لأنه ليس المراد بذل بل إسقاط، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أصلها إلا أن يتصدقوا، ولكن أُدغمت التاء بالصاد فصارت إلا أن يصّدقوا.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، ﴿فَإِن كَانَ﴾ الضمير يعود على المقتول، وهو اسم كان وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة في موضع نصب على الحال من الضمير المستتر بقوله: ﴿كَانَ﴾، يعني: والحال أنه مؤمن، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة، وعليه فيكون (تحرير) مبتدأ، والخبر محذوف والتقدير: فعليه، ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾يقول: (إن كان) الضمير يعود على المقتول، ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد، وسمِّي العهد ميثاقًا؛ لأنه بمنزلة الحبل يُوثق به المأسور، إذ إن العهد رباط بين المتعاهدين، بحيث لا يجرؤ أحدهما على الآخر، ولا يعتدي أحدهما على الآخر، وقوله: ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ يعني: هل هم كفار أو مسلمون ؟ كفار؛ لأن المؤمنين ذُكروا في الأول، ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: فعليه أي: على القاتل، دية مسلمة إلى أهله أي: أهل المقتول، والمراد بالأهل في الموضعين، المراد بالأهل الورثة، لأن الورثة هم الذين يرثون ما خلفه الميت، والدية من مخلفات الميت، وقوله: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ نقول فيها ما قلنا في الأولى، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، (من لم يجد) أي: الدية لا من لم يجد الرقبة إما أن تكون الرقاب معدومة، وإما أن يكون ثمنها معدومًا، ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾، ولم يذكر المفعول؛ ليكون ذلك أشمل وأعم، أي: فمن لم يجد الرقبة أو يجد ثمنها، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾أي :فعليه صيام.

و على فهذا فتكون (صيام) مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ يعني: يتبع بعضها بعضًا بحيث لا يفطر بينهما، وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذه مصدر لفعل محذوف، أي: يتوب بذلك توبة إلى الله، والتوبة إلى الله هي الرجوع إليه من معصيته إلى طاعته، وسيأتي أن لها شروطًا، وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾أي: أن ما شرعه الله من هذه الأحكام هي توبة منه على عبده وإلا لو شاء لشق علينا وكان الواجب بقتل الخطأ أكبر من ذلك، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (كان) هذه فعل ماضٍ ناسخ، ولفظ الجلالة اسمها، وعليمًا خبرها، و﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثانٍ، ولا يصح أن يكون صفة؛ لأن الضمير لا يوصف به، وعلى هذا فيتعين أن نعربها على أنها خبر ثان، والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فإذا أدركت مثلًا أن هذه ورقة، سُمِّي هذا علمًا؛ لأنني أدركتها على ما هي عليه إدراكًا جازمًا، وإذا

قلت: يترجح عندي أنها ورقة، فهذا ليس بعلم؛ لأنه ليس جازمًا، وإذا قلت: لا أدري ما هي، فهذا أيضًا ليس بعلم؛ لأنني لم أدركها .

وأما الحكيم: مأخوذة من الحكم والإحكام، فهو حكيم بمعنى حاكم، وبمعنى مُحكِمٌ، فالحاكم بين عباده والحاكم على عباده هو الله، وتأمل كيف قلت: الحاكم على عباده وبين عباده، الحاكم بين عباده يعني: فصل النزاع بينهم، والحاكم عليهم يعني: الذي له الحكم على العباد يحكم فيهم بما شاء، وهو أيضًا مشتق من الحِكمة، والحكمة قال العلماء: هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، فيكون اسمه (الحكيم) مشتملًا على حكم وإحكام، والحكم نوعان: والحكمة نوعان أيضًا، وإذا ضربت اثنين في اثنين صار الحاصل أربعة.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: امتناع قتل المؤمن للمؤمن عمدًا، ويُؤخذ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وإذا جاءت: (ما كان) أو (لم يكن) أو (لا ينبغي) أو (ما ينبغي) فإنها تفيد الامتناع، ولكن هل هذا الامتناع شرعي أو قدري؟ الظاهر: أنه شرعي بل يتعين؛ لأنه قدرًا يمكن أن يقتله عمدًا لا خطأ، فإذنْ: هو شرعًا لا يمكن، ولهذا يعتبر من قتل المؤمن خطأ ناقص الإيمان جدًّا، حتى إنه يصح أن ننفي عنه الإيمان، نقول: هذا ليس بمؤمن أي: ليس بمؤمن كامل الإيمان؛ لأنه إذا كانت السرقة لا ينتهب الإنسان نُهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين يرفعوها وهو مؤمن، فما بالك بمن يقتل.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المؤمن قد يقتل غير المؤمن عمدًا؛ لقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، ولكن هل هذا جائز ؟ الجواب لا، فيه تفصيل، إن كان محاربًا فقتله جائز، ثم قد يجب أو لا يجب على حسب ما يقتضيه الحال، وإن كان معاهَدًا أو مستأمِنًا أو ذميًّا فقتله حرام، نقول: ما كان له أن يقتله.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الشرع حين فرق بين الخطأ والعمد؛ لأن الخطأ لا يقع عن قصد والعمد يقع عن قصد، فالمخطئ أهل للمسامحة والعامد ليس أهلًا لها، وهذا لا شك أنه من الحكمة في الشرع، ولولا هذه الحكمة لاستوى العامد والمخطئ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تقسيم القتل إلى خطأ وغير خطأ؛ لأن استثناءه في قوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ يدل على أن هناك عمدًا.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن قتل الخطأ بنوعيه - على حسب ما فسرنا من قبل - يوجب شيئين الأول: العتق، والثاني: الدية، يُؤخذ من قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ فإن قيل: ومن قتل غير مؤمن فماذا يلزمه؟ نقول: إن الله قد بينه فيما بعد في نفس الآية .

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضيلة العتق وعلو منزلته؛ لأنه صار كفارة لهذا الذنب، وهو قتل المؤمن، وهذا يدل على فضيلته وعلو مرتبته، وأنه هام.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: نظر الشريعة إلى تحرير الرِّقاب من الرِّق، ويتفرع على هذه الفائدة: الردُّ على من أنكر على المسلمين الاسترقاق، فيقال: إن الاسترقاق جاء نَفيَّةً لأمر ضروري، ومع ذلك فإن هناك مشجعات كثيرة على على التحرير.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: اشتراط الإيمان في عتق الرقبة في القتل، لقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وهل يلحق بذلك كل رقبة كانت كفارة لمعصية؟ في هذا للعلماء قولان: فمنهم من قال باشتراط الإيمان في كل رقبة أُعتقت كفارة، ففي قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، الرقبة هنا مطلقة، فهل يشترط فيها الإيمان ؟ نعم، يرى بعض أهل العلم أنه يُشترط، ويرى آخرون أنه لا يشترط وهذا مبني على تخصيص النص بنص آخر، وقد بينا أنه إذا اتفق السبب والحكم فإنه يخصص، وإن اختلف الحكم فإنه لا يخصص مع اتفاق السبب، وإن اتفق الحكم مع اختلاف السبب فأكثر العلماء على أنه يخصص، فالسبب في تحرير الرقبة هنا هو القتل، وفي كفارة اليمين هو الحلف، فالسبب مختلف، لكن الحكم واحد وهو تحرير الرقبة، وأكثر العلماء على أنه يُقيد بالمطلق في كفارة اليمين على المقيد في كفارة القتل.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز إعتاق الذكر والأنثى في كفارة القتل، وتُؤخذ من الإطلاق في: (تحرير رقبة)، لم يقل ذكرًا ولا أنثى، فيكون مطلقًا.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لو أعتق رقبة كافرة مثل أن يعتق عبدًا لا يصلي فإنه لا يجزؤه في كفارة القتل.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تعظيم القتل، ولهذا أوجب الله به الكفارة مع أن القاعدة الشرعية أن المخطئ لا كفارة عليه، وأنه مرفوع عنه القلم: «**عُفِيَ لِأُمَّتِي عَنِ الخَطَإِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»، لكن تعظيمًا لشأن القتل صار الذي يصدر منه القتل ولو مخطئًا عليه الكفارة.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن مَنْ أعتق رقبة غير مؤمنة فإنه لا تجزؤه، وهل يشترط في هذه الرقبة السلامة من العيوب الجسدية كما اشترطت السلامة من العيب الشرعي، في هذا خلاف؛ فيرى بعض العلماء أنه لا بد أن تكون الرقبة سليمة من العيوب الضارة بالعمل؛ لأن إعتاق مَنْ فيه عيوب ضارة بالعمل يؤدي إلى أن يكون عالة على المجتمع، فمثلًا: لو كان الرجل قد قُطعت يداه وهو عبد، فعلى القول باشتراط السلامة لا يجزئ، وعلى القول بعدم الاشتراط يجزئ، وأكثر العلماء ـ فيما أظن ـ على أنه يُشترط أن يكون سليمًا من العيوب الضارة بالعمل؛ لأن إعتاق مثل هذا العبد يُوجب أن يكون العبد عالةً على الغير.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الدِّية في قتل الخطأ، ويُؤخذ من قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾.

١٤- ومن فوائدها: أنه يجب على من وجبت عليه الدية أن يوصلها إلى أهل الميت؛ لقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾

وهل تعجل أو هي على الفور؟ في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: إنها لا تؤجل إلا إذا رأى الحاكم أن في تأجيلها مصلحة؛ لأن الأصل في وجوب الدَّينِ قضاؤه على الفور، فإذا رأى الحاكم التأجيل أجَّلها، وتؤجل ثلاث سنين. وهل الدية واجبة على القاتل بالأصالة وعلى العاقلة بالتبعية، أو هي واجبة على العاقلة أصلًا ؟ في هذا خلاف أيضًا، فمن العلماء من يقول: إنها واجبة على القاتل بالأصالة، وعلى غيره بالتبعية؛ لأن القاتل هو المباشَر للقتل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وتحميل العاقلة، إنها هو من أجل إعانته ومساعدته، فإذا قدَّرنا أن هذا الرجل الذي قَتل خطأً عنده ملايين الدراهم، والعاقلة أحوالهم عادية، فإنه قد لا يكون من الحكمة أن نحمِّل العاقلة ونضيق عليها في معيشتها ثم ندع هذا القاتل الذي وقعت الجريمة منه، مع غناه وكثرة ماله، ومن العلماء من يقول: هي واجبة على العاقلة بالأصالة، وعلى هذا فلا يلزم القاتل شيء، حتى وإن كان من أغنى الناس، والعاقلة فقراء، فإنه لا يلزم بدفع شيء من الدِّية؛ لأنها واجبة على العاقلة. والظاهر لي أن نقول بالقول الوسط: إذا كان عند العاقلة قدرة ألزمناها، بمعنى: أن العاقلة ذاتُ غنىً واسع فإنا نلزمها، لما في ذلك من التعاون وإشعار القرابة بأن بعضهم لبعض ظهيرًا، وأما إذا كان العاقلة لا يستطيعون تحمل الدِّية إلا بكلفة ومشقة وفَقد بعض الحوائج والقاتل غنيٌّ فإننا نلزمه؛ لأنه هو الأصل، فإن قال قائل: ما هي الدية؟ قلنا: قد بينتها السنة، وهي: مائة من الإبل للذكر الحر، وخمسون من الإبل للأنثى الحرة، وهذا هو القول الصحيح، أن الإبل هي الأصل في الدية، وأما البقر والغنم والذهب والفضة والحُلل فإنها أقوام، يعني فإنها قيم، وإلا فالأصل هو الإبل، وهذا هو الصحيح .

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الدية تُسلَّم إلى أهل المقتول؛ لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ فمن أهله ؟ أهله هم الورثة.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز العفو عن الجاني، ولكن هذا مقيد بها إذا كان في العفو إصلاح؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فإن لم يكن فيه إصلاح فترك العفو أَولى، بل قد يجب الأخذ بالحق وترك العفو؛ لأن الإصلاح أهم من المصلحة الخاصة، العفو عن الدية مصلحة خاصة لكن الإصلاح مصلحة عامة، فإذا كان هذا الذي قتل خطأً رجلًا متهورًا، لو عفونا عنه لذهب يفعل مرة أخرى وثالثة ورابعة فإن العفو عن هذا ليس من الإصلاح، فلا ينبغي العفو.

١٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن قتل المعاهَد حرام، ووجه الدلالة أن الله أوجب في قتل مَنْ بيننا وبينهم ميثاق الدية والكفارة.

١٨ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن دية الكافر المعاهَد ليست كدية المسلم؛ لأنه قال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ﴾، و(ودية) هذه نكرة وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدل على أن الثاني غير الأول كما في قوله: تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٦]، قال ابن عباس ﷺ: (لن يغلبَ عسرٌ يسرين)، ولو كانت دية المعاهد كدية المؤمن لقال فالدية مسلمة إلى أهله يعني: التي سبقت، ولكن هذه دية أخرى، فإن قال قائل: فما هي إذن؟ نقول: اختلف فيها العلماء، منهم من قال: إن ديته ثلث دية المسلم، ومنهم من قال: إن ديته نصف دية المسلم، وهذا هو الصحيح، فمثلًا: إذا كانت دية المسلم مائة بعيرٍ فدية مَنْ بيننا وبينهم ميثاق من الكتابيين خمسون بعيرًا على النصف.

١٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: احترام الدين الإسلامي للعهود والمواثيق، ولذلك لم يهدر حق المعاهَد، الذي بيننا وبينه ميثاق، بل أوجب الدية لأهله.

٢٠ـ ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: وجوب الكفارة في قتل مَنْ بيننا وبينهم ميثاق وإن كانوا غير مسلمين، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

٢١ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الدية بالخطأ لا تجب على القاتل؛ لأنه لم يقل يسلمها بل قال: ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾، فعلى من تجب؟ تجب على العاقلة، وهم ذكور العصبة الأغنياء، ويجتهد الإمام أو القاضي في تحميل كل منهم ما يناسب حاله، فالأقرب يحمَّل أكثر من الأبعد، والغني يحمَّل أكثر من المتوسط، والفقير ليس عليه شيء؛ لأنه فقير.

٢٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

٢٣ـ ومن فوائدها: أن من لم يستطع الصيام فلا شيء عليه، لا عتق رقبة؛ لأنه لا يجد، ولا صيام؛ لأنه لا يستطيع، ولا إطعام؛ لأنه لم يذكر في الآية، ولهذا لما أراد الله عز وجل أن يكون الإطعام بدلًا عن الصيام ذكره كما في آيات الظهار، فإن قال قائل: أفلا يصح أن يقاس هذا على الظهار؟ قلنا: لا يصح وذلك لاختلاف السبب، فإن سبب الكفارة في الظهار هو الظهار، وسبب الكفارة في القتل هو القتل، وبينهما فرق، فالظهار سماه الله تعالى: ﴿مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢]، والقتل الخطأ لم يصف الله تعالى فاعله بما يقتضي قبح فعله.

٢٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن على قاتل الخطأ مع الكفارة أن يتوب؛ لقول الله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾، وحينئذٍ يرد على ذلك إشكال، وهو كيف تجب عليه التوبة والكفارة

مع أن فعله خطأ؟ نقول: لأن الخطأ قد يكون نتيجة للتساهل في عدم التحرِّي، مثلًا: من الخطأ أن يرمي صيدًا فيصيب آدميًا، نقول: هذا الرجل لو أنه تأنَّى حتى تحقق الأمر لسلم من هذا الخطأ، فلذلك لما كانت النفوس عظيمة، والعدوان عليها عظيمًا، وكان الإنسان قد يقصِّر في بعض الأحيان، أوجب الله الكفارة وأوجب التوبة، فإن قال قائل: وهل تجب الكفارة في قتل العمد؟ قلنا: لا تجب في قتل العمد؛ لأن قتل العمد أعظم من أن يكفَّر بالعتق أو بالصيام، ومن قاسه على الخطأ فقد أخطأ، وذلك للفرق بين الجناية وبين مقتضيات الجناية، فإن مقتضى العمد أن يقتل القاتل، والخطأ لا يقتل كذلك العمد الدية في مال القاتل مغلظة والخطأ على عاقلته مخففة أيضًا، فلا يمكن أن يقاس هذا على هذا مع اختلاف السبب والمقتضى.

٢٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله أحدهما: العليم، والثاني: الحكيم، ومن المعلوم: أن الله تعالى يقرن بين العليم والحكيم في مواضع كثيرة؛ ليبين أن ما يحكم به سبحانه وتعالى من الأحكام الشريعة والأحكام الكونية، فإنه صادر عن علم وحكمة، لا عن جهل وسفه، وأصل الخطأ في الحكم، إما من الجهل وإما من السفه، فإن كان عن غير علم فهو من الجهل، وإن كان عن غير حكمة فهو من السفه، ولهذا يختم الله تعالى الآيات التي تتضمن أحكامًا كثيرًا بهذين الاسمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فإن قال قائل: إذا عفا أهل الدية عنها فهل تسقط الكفارة؟ فالجواب: لا؛ لأن الكفارة حق لله، والدِّية حق للآدمي، وكذلك لو عجز الإنسان عن فصال الكفارة يعني: عجز عن إعتاق الرقبة وعجز عن صيام شهرين متتابعين، فهل تسقط الدية ؟ الجواب: لا، وذلك لأن الدية حق للآدمي فلا تسقط إذا سقط حق الله عز وجل.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]، هذه من أعظم الآيات التي جاءت في الوعيد من ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، المؤمن هنا يُراد به المسلم، يعني: يُراد به ما هو أعم من المؤمن، فالمؤمن يشمل ناقص الإيمان وكامل الإيمان، وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾، أي: متعمدًا للقتل، قاصدًا له، ولا يكون هذا إلا بتعمد الفعل بما يقتل غالبًا، يعني: أن يتعمد القتل بما يقتل غالبًا؛ كالسيف والرَّصاص والحجر الكبير والسُّم والسحر، وما أشبه ذلك، وعلى هذا فإذا لم يقصد الفعل فليس بعمْد، وإذا قصده بما لا يقتل غالبًا فليس بعمْد، لكن الأول يُسمى خطأ، والثاني يُسمى شبه عمد، شبه عمد؛ لأنه تعمد الفعل لكن بآلة لا تقتل غالبًا، فسماه العلماء شبه عمد، وقد مر علينا أن الخطأ يكون في القصد ويكون بالآلة، يقول تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ هذه الجملة جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾، جزاؤه أي: عقوبته التي يُجازى بها ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهي اسم من أسماء النار، وسميت بذلك؛ لقعرها وظلمتها ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، الخلود بمعنى: المُكث، ولكن من نعمة الله أنه لم يصف

ذلك بأنه أبدًا، بل قال: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، والغضب أبلغ من العقوبة، لأن الله إذا غضب فإنه لا يُكلم مَنْ غضب عليه، ولا يرحمه كما يرحم غيره، وينتقم منه بما يقتضيه ذنبه، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، [الزُّخرُف:٥٥] أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم، ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾أي: طرده وأبعده عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، أعده يعني: هيأه، أي: هيأ له العذاب العظيم.

وهذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾، فيها إشكال كبير جرى بين أهل السنة وأهل البدعة فيه مناظرات كثيرة؛ فقد استدل الخوارج بهذه الآية على أن صاحب الكبيرة في النار، ووجه استدلالهم بالآية مع أن الله تعالى لم يقل إنه كافر، التخليد في النار، والحكم بالتخليد يدل على أن مستحقه كافر؛ إذ لا يخلد في النار إلا الكافرون، وكان جواب أهل السنة عن هذه الشبهة، أنهم يقولون: إن الخلود هنا المكث الدائم لا الطويل.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** دليل على أن قتل المؤمن عمدًا من كبائر الذنوب، لورود الوعيد عليه، وكل ذنب كتب عليه الوعيد والعقوبة فهو من كبائر الذنوب.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لابد من القصد؛ لقوله ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾، ولكن هل يشترط في القصد أن يعلم أنه مؤمن أو إذا تعمد أن يقتل هذا الرجل وإن كان يشك هل مؤمن أو معاهَد فإنه عمد؟ هذه فيها خلاف بين العلماء، منهم مَنْ قال: إنه إذا تعمَّد فعل ما لا يجوز وأصاب مؤمنًا فهو عمد، مثل أن يرمي معاهَدًا، والمعاهد لا يجوز رميه فيصيب مؤمنًا، بل قالوا: لو رمى بعيرًا يحرم عليه رميها ثم أصاب إنسانًا فإنه يعتبر عمدًا، ولكن الصحيح في هذه المسألة: أنه إذا تعمَّد قتل شخص فأصاب من كان مثله فهو عمد، يعني: أراد أن يقتل زيدًا فأصاب عمرًا فهذا عمد، لكن لو أراد أن يقتل بعيرًا فأصاب رجلًا فليس بعمد، وذلك لظهور الفرق بين الآدمي وبين البهيمة، ولا يمكن أن يقال: قَصْدُ قتل البهيمة كقصد قتل المؤمن، فالصواب في هذه المسألة أن يقال: العمد يشمل ما إذا قصد هذا المؤمن بعينه أو قصد من كان في وصفه من المؤمنين فإنه يعتبر عمدًا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من قتل مؤمنًا غير متعمد فلا عقوبة عليه أي: لا يُعاقب بهذه العقوبة، وذلك لأن القيدَ يعتبر شرطًا في ترتُّب ما يترتب عليه.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن قاتل المؤمن عمدًا يخلَّد في النار؛ لقوله: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وقد اختلف العلماء رحمهم الله في معنى هذه الكلمة، فمنهم مَنْ قال: إن الخلود هو المُكث الطويل ولا يشترط أن يكون دائمًا، ولهذا لم تُقيد الآية بالأبدية، وعلى هذا القول لا يكون في الآية إشكال إطلاقًا، ومن العلماء مَنْ يقول: الخلود هو المُكث الدائم، وعلى هذا القول يرد على هذه الآية إشكال وهو: أن قاتل النفس عمدًا لا يخرج من الإيمان؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، مؤمن لا يخلد في النار، فقيل: إن الآية محمولة على من استحل ذلك، أي: من استحل قتل المؤمن عمدًا، لكن هذا القول ساقط، لأن مَنْ استحل قتل المؤمن عمدًا فهو كافر، سواء قتله أم لم يقتله، ولهذا لما قيل هذا التخريج للإمام أحمد تبسَّم، وقال: إذا استحل قتله فهو كافر سواء قتله أم لم يقتله، وهذا التخريج يشبهه تخريج مَنْ خرَّج أحاديث كفر تارك الصلاة على أن المراد مَنْ استحل ذلك، فإنه يقال: من استحل ترك الصلاة فهو كافر سواء ترك أم لم يترك، فحمل نصوص كفر تارك الصلاة على المستحلِّ الذي لا يعتقد فرضيتها؛ لأن فيه تحريف للنص من وجهين: الوجه الأول: صرف اللفظ عن ظاهره، والثاني: تحميل النص معنًى لا يدل عليه، فالجناية على النصوص في هذه المسألة من وجهين، وقال بعض العلماء: إن الآية على تقدير شيء محذوف، والتقدير: فهذا جزاؤه إن جازاه، وإن لم يجازه ففضل الله واسع، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ولكن هذا التخريج لا نخرج به من المأزق؛ لأن كلامنا على ما إذا ما جازاه فهل يخلد أو لا، والله عز وجل ذكر في الآية أنه سيجازيه بهذا، فيكون هذا التخريج ضعيفًا، الوجه الثالث: أن هذا الوعيد مرتب على سبب، والسبب قد يوجد له مانع يمنع من نفوذه؛ لأن الأشياء لا تتم إلا بوجود أسبابها وانتفاء موانعها، فيقال: هذا جزاؤه، ولكن إذا دلَّت النصوص على أن هناك مانعًا يمنع من الخلود الدائم قلنا: نأخذ بهذا المعنى، أرأيتم قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ثم قال:﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾، فلو كان أحد الأبوين كافرًا هل يستحق ؟ مع أن الآية ظاهر العموم، فيقال: إن نصوص الشرع يقيد بعضها ببعض، وهذا الوجه أسلمها على تقدير أن الخلود هو المكث الدائم، أما إذا قلنا: إن الخلود هو المكث الطويل، فإنه لا يرد على الآية شيء مما ذكرنا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الغضب لله عز وجل، والغضب صفة من الصفات الفعلية التي تقع بمشيئة الله تعالى، وكل صفة مرتبة على سبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها توجد بوجود ذلك السبب وتنتفي بانتفائه، ولكن هل الغضب على ظاهره؟ أي: صفة في الغاضب يترتب عليها الانتقام أو أنها شيء بائن عن الغاضب والمراد به الانتقام ؟ نقول أما السلف فيقولون: إن الغضب صفة في الغاضب يترتب عليه الانتقام، وليست هي الانتقام، ويدل لذلك أن هذا هو ظاهر اللفظ، وأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥] فلو قيل: إن الغضب هو الانتقام لكان معنى الآية فلما انتقمنا منهم انتقمنا منهم، وهذا معنى ينزه عنه كلام الله، والآية صريحة في أن الانتقام كان سببه الغضب، والسبب غير المسبب، إذنْ فالغضب صفة قائمة بالله عز وجل وليست هي الانتقام، أما أهل التعطيل والتحريف فقالوا: إن الغضب هو الانتقام أو إرادة الانتقام، ولكن أهل السنة قالوا: إننا نلزمكم بأن تقولوا بأن الغضب صفة قائمة بالله؛ لأنه لا ينتقم إلا ممن غضب عليه، فالانتقام من لوازم الغضب، وإرادة الانتقام كذلك؛ لأن الله

لم ينتقم منهم أو يرد الانتقام منهم إلا لأنهم أغضبوه، وعليه فيتعين علينا أن نؤمن بأن الله تعالى يغضب، فإن قال قائل: الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم يغلي منها دم القلب، وتنتفخ الأوداج، ويحمرُّ الوجه وينتفش الشعر، فهل تقولون بثبوت هذا لله؟ قلنا: لا، هذا غضب المخلوق، أما غضب الخالق فلا نعلم كيفيته، لكن نؤمن بأنه جل وعلا يغضب، فإن قيل: الغضب صفة نقص، بدليل أن النبي ﷺ نهى عنها حين «قال الرجل أوصني قال :«لَا تَغْضَبْ». فردد مرارًا، قال: «لَا تَغْضَبْ»[1] قلنا: هي صفة نقص بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فإنها صفة كمال؛ لأنها تدل على كمال السلطة وكمال القوة، ولهذا إذا أسأت إلى شخص أقوى منك غضب، وإن أسأت إلى شخص دونك حزن، ذاك يغضب؛ لأنه قادر على الانتقام، والثاني: يحزن ؛ لأنه عاجز عن الانتقام .

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: قوله: أن من قتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه أن يُلعن وأن يطرد عن رحمة الله؛ لقوله ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة، هل يجوز أن نلعنَ القاتل بعينه، ونقول: أنت ملعون مغضوب عليك أو لا؟ الجواب:لا، لكن نقول: أنت قاتل للمؤمن عمدًا، ومن قتل مؤمنًا عمدًا فجزاؤه جهنم إلى آخر الآية، فنفرق بين أن نحكم على هذا الرجل بأنه ملعون أو لا؛ لأنه يجوز أن يتوب فتزول اللعنة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى هيأ العذاب لمن يستحقه؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أن النار التي يُعذب بها الكافرون موجودة الآن، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ورآها النبي ﷺ في صلاة الكسوف[2].

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عظم عذاب النار؛ لقوله: ﴿عَظِيمًا﴾ والعظيم إذا استعظم الشيء صار بقدر عظمة هذا المستعظِم أي: أنه شيء عظيم عظمًا كبيرًا.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه إذا كان المؤمن المقتول ورثتُه كفار، فإنه لا دية له، أولًا: لأنه لا يمكن أن يرثوه وهم كفار؛ لأنه لا يرث الكافر المسلم، وثانيًا: لأننا لو أعطيناهم لاستعانوا به علينا.

مسألة: ما صحة قول ابن عباس رضي الله عنهما بعدم قبول توبة القاتل؟

الجواب:هو صحيح لكن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن القاتل عمدًا لا توبة له، ولكن قوله محمول على أن المراد لا توبة له باعتبار حق المقتول؛ لأن القتل عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق أولياء المقتول، وحق المقتول، أما حق الله: فلا شك أنه يسقط بالتوبة بنص القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣١١)، والترمذي (٢٠٢٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٥)، والنسائي (١٤٩٨).

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وأما حق أولياء المقتول: فيسقط بتسليم القاتل نفسه لهم؛ لأن حقهم أن يقتلوه وقد سلم نفسه، وأما حق المقتول: فالمقتول قد مات فبقي حقه؛ لأنه لا يُعلم سماحه، فيحمل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما على هذا، أنه لا توبة للقاتل باعتبار حق المقتول، وعلى أن القول الصحيح: أن له توبة حتى باعتبار حق المقتول؛ لأن الله تعالى يوفي عنه يوم القيامة، حيث تاب توبة نصوحًا.

مسألة: لو قتل شخص إنسانًا ثم مات هذا المقتول، فأولياؤه كلهم متفقون على قتله إلا طفلًا صغيرًا مثلًا فما العمل؟

الجواب: الطفل الصغير ينتظر حتى يبلغ، لكن لو سمح أحد الورثة وهو لا يرث إلا واحدًا من ألف سقط القصاص، لقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، و﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق الشرط تشمل القليل والكثير.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٤-٩٦]

❁ التفسير ❁

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾، والفائدة بتصدير الخطاب بالنداء؛ الدلالة على أهمية الشيء، ولهذا صُدر بما يقتضي التنبه، وما الفائدة من كونه يوجه النداء إلى المؤمنين ؟

أولًا: التنبيه على أن امتثال ما ذُكر سواء أمرًا أو نهيًا، من مقتضيات الإيمان؛ ولهذا خُوطب به المؤمن.

ثانيا: عدم القيام بهذه الأمور يدل على نقص في إيمان مَنْ لم يقم به.

ثالثًا: الإغراء.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا خرجتم مجاهدين في سبيل الله؛ لأن الضرب يكون في الأرض وتختلف النيات فيه كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزَّمل:٢٠]، هؤلاء التجار، أما هؤلاء قال فيهم: ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: خرجتم مجاهدين في سبيل الله، ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وهذه نزلت في قوم خرجوا للجهاد فأصابوا قومًا قالوا: أسلمنا، لكنهم لم يقولوها بهذا اللفظ، بل قالوا: صَبأنا، فظنوا أن معنى قولهم صبأنا أي: بقينا صابئين أي: غير مسلمين، فقاتلوهم[1]، فيقول عز وجل: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وفيها قراءة: ﴿فتثبتوا﴾ في الموضعين في الآية، وتُقرأ: ﴿فتثبتوا﴾، وعلى هذا فليس فيها إلا قراءتان، ليس فيها أربع قراءات، بمعنى أنك إذا قرأت الأولى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فاقرأ الثانية: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾و إذا قرأت الأولى: ﴿فتثبتوا﴾ فاقرأ الثانية: ﴿فتثبتوا﴾ ولا يجوز أن تخالف فتقرأ الأولى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ والثانية: ﴿فتثبتوا﴾ أو بالعكس، فالقراءة إذنْ: قراءتان فقط، وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾أي: اطلبوا بيان الأمر، والتَّبين نتيجة التثبت، ولهذا كانت القراءتان بمنزلة المعنيين اللَّذين يترتب أحدهما على الآخر، ما هو الذي ترتب على الآخر، التبين أو التثبت ؟ التبين؛ لأنك تتثبت أولًا؛ ليتبين لك الأمر، فيكون في الآيتين أي: في مجموعهما فائدة عظيمة: أنك تتثبت وبالتثبت يتبين الأمر، فلا تستعجل، وقد سبق لنا ذم أولئك المستعجلين في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، يقول: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: تثبتوا ولا تقدموا على فعل شيء تندمون عليه، وما أكثرَ ما يندم الإنسان إذا أقدم على شيء قبل التَّبين، حتى في خاصة نفسه، فلو أنه أراد أن يفعل فعلًا، ثم بمجرد ما طرأ على نفسه أو على قلبه فَعَلَ قبل أن يتروَّى في الأمر، وقبل أن ينظر النتائج فستجده يندم فكيف إذا كان الفعل متعلقًا بغيره، يكون أشد، كثيرًا ما يدخل الإنسان بيته فيجد الولد يصيح، اسكت يا بني يقول: ضربني أخي، ثم يأتي الأبُ ضربًا على الأخ الذي ادعى الصغير أنه ضربه، وإذا تبين الأمر وجد أن الخطأ من الصغير، نقول: تثبت لا تقدم حتى تتبين، وسبب ذلك: أن الإنسان تأخذه الغَيرة فيندفع، والغيرة إذا لم تكن مضبوطة بحدٍ من الشرع وحد من العقل أصبحت غِيرة، والغِيرة: فساد الطعام في المعدة حتى إذا تجشأ الإنسان ظهر له رائحة كريهة كأنها اللحم المنتن، فالغَيرة لا بد أن تكون مضبوطة بحد الشرع والعقل ولهذا قال: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٣٩)، والنسائي(٥٤٠٥).

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، (السلام) فيها قراءتان: (السلم) و(السلام) وقوله: ﴿لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي: مد إليكم السلام وأبلغه إياكم بأنه مسلم، فالسلام هنا بمعنى الإسلام، لا تقولوا له لست مؤمنًا، بل خذوه بظاهر حاله؛ لأن هذا هو الواجب علينا، أن نجري الأحكام في الدنيا على ظاهر الحال، لأننا لا نعلم ما في القلوب، وأما في الآخرة فالأحكام تجري ما في القلوب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق:٩]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩ ، ١٠]، ولهذا يجب على الإنسان أن يعتني بعمل القلب أكثر مما يعتني بعمل الجوارح؛ لأن عمل الجوارح قد يدخلها الهوى، قد يتصنع الإنسان بعمله للدنيا، لكسب الناس، للجاه أو للمال أو لغير هذا، لكن عمل القلب لا يمكن أن يتصنع فيه الإنسان؛ لأنه لا يقع إلا بإخلاص إذا كان صالحًا، وقوله: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كأن الله عز وجل يشير إلى التوبيخ لهؤلاء القوم الذين تعجلوا فإن منهم من يريد الغنيمة، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ لأن كل ما في الدنيا فإنه عرض أي: عارض يزول، كما هو الواقع، فالدنيا لا شك أنها عرض وأنها تزول، أو يزول الإنسان عنها، فأنت إما أن تفقد الدنيا ؛ وإما أن تفقدك الدنيا، كل إنسان إما أن يفتقر ويفقد ما عنده من الدنيا؛ وإما أن يموت فيفقده المال، ولهذا سمى الله سبحانه وتعالى متاع الدنيا بأنه، سماه عرضًا، لماذا؟ لأنه يزول فما هو الشيء الباقي؟ هو ثواب الآخرة، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ ، ١٧].

أما قوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ سبحان الله لما وبَّخهم على إرادة الغنيمة في هذه القصة التي وقعت، وعدهم بأن هناك مغانم كثيرة، كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح:٢٠]، فالله سبحانه وتعالى عنده مغانم كثيرة، وما أكثرَ المغانم التي غنمها المسلمون في غزواتهم، غنموا أموالًا كثيرة، حتى قيل: إنه يُؤتى بالدنانير وتُوضع في المسجد كأنها سُفرة من طعام، ما هي بالأكياس أو بالجيوب، تُوضع هكذا على الأرض، وكأنها تل من رمل، وغنم الناس غنائم عظيمة كثيرة في زمن الفتوحات الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كحال هؤلاء القوم كنتم من قبل، أي: كنتم أنتم كفارًا، قبل أن تكونوا مؤمنين، تجاهدون الكفار على أن تكون كلمة الله هي العليا، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، المنُّ هو العطاء بلا ثمن، أي: أعطاكم الله سبحانه وتعالى عطاء بلا ثمن إلا الشكر، والشكر في الواقع ليس ثمنا للنعمة؛ لأن الله تعالى لا ينتفع به، منْ الذي ينتفع به؟ العبد الشاكر، فإذنْ: نعمة الله عليك بالتوفيق للشكر نعمة عليك، ولو شاء الله تعالى ما شكرت، وفي هذا يقول الشاعر:

إذا كانَ شُكري نِعمَةَ الله نِعمَةً ... عَلَيَّ لَهُ في مِثلِها يَجِبُ الشُكرُ

فَكَيفَ بلوغُ الشُكرِ إِلّا بِفَضلِهِ ... وَإِن طالَتِ الأَيّامُ وَاتَّصَلَ العُمرُ

فإذا وفقك الله لخير، أي: إذا أعطاك الله خيرًا دينيًا أو دنيويًّا ثم شكرته ؛ فتوفيقك للشكر نعمة تحتاج إلى شكر، فإذا شكرت هذا التوفيق للشكر صار نعمة أخرى، وإذا شكرتها صار نعمة أخرى، إذنْ لا يمكن أن تشكر الله عز وجل ولا يمكن أن تبلغ الشكر، ولهذا كان من الأذكار الواردة عن النبي ﷺ أنه قال: «سُبحَانكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَليكَ أنتَ كَما أَثْنيتَ عَلى نَفْسِكَ»[1]، ومع ذلك يمنُّ الله علينا بالإسلام، ونسلم ويجازينا عليه ثم يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، سبحان الله!! أنت المحسن إلينا أولًا وآخرًا، وما عملنا بالنسبة للإحسان بل عملنا من إحسانك أيضًا، وهو يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠]، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان:٢٢]، سبحان الله، مَنْ الذي وفقنا لهذا السعي؟ الله عز وجل فيشكرنا على ذلك وهو الذي وفقنا له، والحقيقة: أن الإنسان مملوء من نعمة الله عز وجل، لا يمكن أن يحصي نعمة الله عز وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ولهذا قال: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، أعادها مرة أخرى للتوكيد، والتوكيد للشيء يدل على أهميته، ولهذا قال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، إشارة إلى أنكم لو تعجلتم وزعمتم أو أظهرتم للناس أنكم متريثون ؛ فإن الله لا يخفى عليه حالكم، والخبير هو العليم ببواطن الأمور. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قدم المعمول ليس لإفادة الحصر كما هي القاعدة ولكن للتهديد، أي: تهديد هؤلاء كأنه قال: إن لم أعلم شيئًا فأنا عليم بما تعملون فيكون فائدة ذلك ليس الحصر؛ لأن الله يعلم ما عمل هؤلاء وغيرهم.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة منها:

١- أهمية الحكم المذكور فيها، وجهه: التصدير بالنداء.

٢- أن امتثاله من مقتضيات الإيمان؛ لأنه صدر بتوجيه الخطاب للمؤمنين.

٣- فضيلة المؤمنين حيث يخاطبهم الله عز وجل بما شاء من أحكامه، ولا شك أن مخاطبة الله للإنسان بشخصه، أو بوصفه أنها شرف، فالناس يتدافعون عند ملوك الدنيا فإذا قال هذا الملك: كيف أصبحت يا فلان يعده شرفًا، فإذا وُجِّه الله الخطاب للمؤمنين كان ذلك شرفًا لهم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب التثبت في الأمور، حتى في الجهاد في سبيل الله لابد أن تتثب، وجه ذلك قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، وهذا فعل أمر، والأصل في الأمور الوجوب، لا سيما في مثل هذه الأمور الخطيرة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١١٠٠).

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الواجب علينا معاملة الخلق بالظاهر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، ولم يقل: لست مسلمًا؛ لأنه ألقى السلام واستسلم، لكن لا تقولوا: لست مؤمنًا، يعني: لم يدخل الإيمان في قلبك.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من هؤلاء الناس الذين يتهمون المسلمين بأن عملهم رياءٌ، فبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ إذا كره شخصًا وأُثني عليه عنده بأنه يعمل العمل الصالح قال: هذا مُراءٍ، فيكون بهذا القول وارثًا للمنافقين، لأن المنافقين هم: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إنه لا يجوز لنا أن نتعدى الظاهر الذي يبدو من الإنسان، حتى وإن وُجِدتْ قرائن تدل على خلاف ظاهره، والدليل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وقد وقع مثال تطبيقي لهذا في عهد النبي ﷺ، فإن أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه، وهو حِبُّ رسول الله ﷺ، أدرك رجلًا من المشركين، وقد لحقه بالسيف فقال الرجل لما غشيه أسامة وأدركه: (لا إله إلا الله)، ولكن أسامة قتله، ظانًّا أنه قالها خوفًا من القتل ولم يقلها من قلبه، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فجعل يقول: «**أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَيْفَ تَصْنَعُ بِـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟**» الله أكبر جعل يكرر هذا، حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت[1]، يعني: تمنيت أن يكون هذا في حال كفري حتى أسلم فيُغفر لي ما قد سلف، لأن مَنْ أسلم غفر الله ما سلف في كفره مهما كان، فأقول: إن هذا يدل على التحذير والحذر من الحكم على الناس بما يخالف الظاهر، ونحن لا نُكلف ما لا نطيق، والله لو أن الله جعل حكمنا على الناس على حسب الباطن لهلكنا، مَنْ يحقق الباطن، لا يمكن، فنحن ليس لنا إلا الظاهر.

مسألة: إذا تترس الكفار بالمسلمين ماذا يفعل المسلمين، هل يجوز الإقدام على قتلهم أو لا يجوز؟

الجواب: فيها خلاف بين العلماء بعضهم يقول: إذا لم نتوصل إلى قتل الكفار إلا بذلك فيُقتل المسلم ويكون شهيدًا، وبعضهم يقول: لا؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح، والأقرب: أن يُنظر في ذلك إلى المصلحة، قد يتترسون بعشرة وهم ألوف، وقد يتترسون بألف وهم عشرة مثلًا، فينظر للمصلحة.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: علم الله سبحانه وتعالى ببواطن الأمور بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فقد فسر النبي ﷺ الباطن بأنه الذي ليس دونه شيء يعني: فكل شيء بأمره،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

وكل شيء بعلمه، وكل شيء بسمعه، وكل شيء ببصره، فعلُوه عز وجل فوق كل شيء لا يمنع علمه بكل شيء.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تهديد الإنسان أن يعمل ما لا يرضي الله عز وجل، يعني: لا تظن أنك إذا عملت شيئًا فإنه يخفى على الله!! أبدًا، ومتى آمن الإنسان بهذا- ونسأل الله أن يجعلني وإياكم من المؤمنين به، متى آمن فإنه لن يقدم على شيء لا يرضاه الله؛ لأنه يعلم أنه يعلم بهذا، حتى في قلبه يحفظ قلبه من الانحراف والانجراف إذا علم بأن الله تعالى خبير بما يعمل، لكن هذه المسائل تحتاج إلى فطنة، وأن الإنسان يكون دائمًا مراقبًا لله سبحانه وتعالى خائفًا منه، كلما همَّ بشيء ذكر عظمة الله عز وجل وعلمه بما سيعمل حتى يمتنع، - نسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بذلك، لأننا في غفلة عن هذه الأمور يغلب الهوى على الهدى، تجد الإنسان إذا هويَ شيئا فعله، ولا يفكر أن لديه رقيبًا عتيدًا، ولا يفكر أن الله سبحانه وتعالى في تلك الساعة يعلم ما يفعل؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُو مُؤمِنٌ»[1]، يعني: لو كامل الإيمان ما زنا؛ لأنه يعلم أن الله يعلمه.

ثم قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿لَّا﴾ هذه نافية و﴿يَسْتَوِى﴾ فعل مضارع و﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ فاعل ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾، معطوفة على القاعدون، وذلك أن من الناس مَنْ تمنى على الله الأماني، فتمنى أن يكون مثل المجاهدين في سبيل الله وهو قاعد، وهذا لا يمكن، ولهذا نفى الله المساواة، فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ القاعدون عن ماذا؟ عن الجهاد، ثم قال: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾، وفي (غير) قراءتان: الرفع على أنها صفة (للقاعدون) والثاني: النصب على أنها مستثنى، وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان، فيجوز أن تُقرأ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ أو: ﴿غيرَ أولي الضرر﴾، وهذا فيما بينك وبين نفسك، أو فيما بينك وبين طلابك أهل العلم الذين يفهمون، أما عند العامة فلا تذكر لهم قراءتين؛ لأن في ذلك مفسدتين خاصة وعامة، الأولى: المفسدة الخاصة أنهم يتهمونك بالخطأ، ويقولون: نحن صلينا خلف إمام يَلحن يقول: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرَ أولي الضرر﴾، والتي بالمصحف: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾؛ إذنْ هذا إمام لا يصلح؛ لأنه يَلحن، الثاني: المفسدة العامة، أن الناس إذا قيل لهم: إنه لم يلحن، ولكنه أخذ بقراءة ثانية ربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم، كيف القرآن يختلف، القرآن - سبحان الله - يختلف، فلهذا لا ينبغي أن يقال لكل إنسان: إن في هذا قراءتين، وقال علي رضي الله عنه: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أي: بما يمكنهم معرفته من غير نفور، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟)[2]، الجواب لا، إذنْ: حدِّث الناس بما تبلغه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٧).

عقولهم، وبما يمكن أن يعرفوه، وليس معنى قوله :حدثوا الناس بما يعرفون، أن تحدثوهم بما كانوا قد عرفوا؛ لأن هذا ما فيه فائدة، الذي قد عرفوا لا حاجة للتحديث، اللهم إلا على سبيل التذكير بعد الغفلة فهذا يمكن، يقول عز وجل :﴿غير أولي الضرر﴾ وما هو الضرر الذي يسقط وجوب الجهاد ؟ بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾، هذه الأعذار الثلاثة، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾، بشرط: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١] هؤلاء هم أهل الأعذار، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾، (المجاهد) هو الذي بذل جهده أي: طاقته في إدراك ما يريد، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في شريعة الله، وهذا يشمل القصد والتحرك، (القصد) بينه الرسول ﷺ بقوله: «مَنْ قَاتَلَ لِتكونَ كلمةُ الله هِي العُليَا فَهُوَ في سَبيلِ الله»[(١)]، و(التحرك) أن يكون الجهاد على وفق الشرع، بحيث نقوم به حينما يكون فرضًا أو سنةً، ونحجم عنه حينما يكون ضرره أكثر من نفعه يعني: مثلًا لو أن الأمة الإسلامية عندها تأخُّر في السلاح وفي العُدد في العَدد أيضًا، والأمم ضدها أقوى منها سلاحًا وأكثر عددًا ؛فهل من المستحسن أن نقاتل؟ لا، ولهذا لم يوجب الله القتال على الأمة الإسلامية إلا حين كانت، مستعدة وقادرة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] إذنْ في سبيل الله يشمل معنيين، المعنى الأول: القصد، بأن يكون قصد المجاهد إقامة شريعة الله بأن تكون كلمة الله هي العليا، والمعنى الثاني: أن يكون على وفق الشريعة، لأن (في) للظرفية والمظروف هو سبيل الله، إذا قلت: الماء في الكأس، الظرف الكأس، والمظروف الجهاد في سبيل الله فلابد أن يكون في سبيل الله أي: في شرعه الذي شرعه.

وقوله: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ الباء هذه كقولك قطعت بالسكين، وضربت بالعصا فهي للتعدية، بمعنى: أنها لبيان الأداة التي حصل بها الجهاد، والجهاد يكون بالأموال ويكون بالأنفس، وقدم الله الجهاد بالأموال لسببين: السبب الأول: أنه أهون على الإنسان في الغالب من القتال بالنفس، والسبب الثاني: قد يكون نفعه أكثر؛ لأن الإنسان بنفسه يقاتل ويقتل مَنْ شاء الله، لكن إذا كان ذا مال كثير، وبذل أموالًا عظمية كم يمون من المجاهدين؟ عشرات أو مئات أو أكثر، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ذواتهم.

ثم بيَّن الله عز وجل وجه انتفاء الاستواء فقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ وهذه الدرجة لم يبينها الله عز وجل، لكن قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ يستفاد منها: أن هذه الدرجة درجة عظيمة كبيرة ليست هيِّنة، وقد ذكر النبي ﷺ أن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾،(كلًّا) قد يشكل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

علينا لماذا نُصبت؟ والسبب: أنها مفعول مقدم، و(الحسنى) مفعول ثانٍ، ولا يكون هذا من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشتغل بضمير المفعول، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و(الحسنى) هي الجنة كما فسر ذلك النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: «الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله»[1]، فالحسنى إذنْ الجنة، وهي وصف لموصوف محذوف تقديره الموعدة الحسنى، وعد الله الموعدة الحسنى، وهي اسم تفضيل يعني: لا غاية في الحسن سواها، كل ما يوجد من الحسن فهو دونها؛ لأن الحسنى اسم تفضيل، أي: أعلى ما يكون من الحسن، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الأول كان في المنزلة والثاني في الأجر في الحجم، أي: حجم الأجر والثواب، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ (درجات) هذه بدل أو عطف بيان من قوله أجرًا، ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، وقد أبهمت في الآية لكن قال الرسول ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله»، ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ أي: مغفرة للذنوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: تيسيرًا للمطلوب، وباجتماع المغفرة والرحمة يزول المرهوب ويحصل المطلوب، والرحمة فوق المغفرة؛ ولهذا تأتي المغفرة سابقة للرحمة في الغالب؛ لأنه كما يُقال: التخلية قبل التَّحلية، والمغفرة تكررت في القرآن الكريم وفي غير القرآن أيضًا، وهي مشتقة من من المِغْفَر، والمِغْفَر يُسمى الخُوذة وهي: عبارة عن شيء مثل الإناء يُلبس على الرأس، وأيضًا من الحديد، حتى يُتقى به السهام، ويُتقى به السيف، فما معنى مغفرة الذنوب؟ هو ستر الذنب والتجاوز عنه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها: نفي التساوي بين الناس، والعجب: أننا نسمع من يُدندن كثيرًا فيقول: إن دين الإسلام دين المساواة، وهذا غلط على دين الإسلام فدين الإسلام ليس دين المساواة، ولكنه دين العدل وهو إعطاء كل أحد ما يستحق؛ ولذلك تجد أكثر ما في القرآن نفي المساواة، وليس إثباتها، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام:٥٠]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:٩]، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠] وهلم جرّا، فالقول بأن الإسلام دين المساواة في الحقيقة قد ينبني عليه مبدأ خطير وهو: أولًا: تسوية الذكور مع الإناث، وأن تفضيل الذكور على الإناث يعتبر مخالفًا لدين الإسلام، ثانيًا: الاشتراكية، وتسوية الناس في الرزق، بحيث نأخذ من مال الغني نعطيه الفقير؛ لأن الدين دين المساواة، لو قالوا: الدين دين المواساة لكان صحيحًا، ولهذا تُشرع التعازي في المصائب وما أشبه ذلك.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الشريعة؛ حيث لا تساوي بين المفترقين، كما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

أنها لا تفرق بين المتساويان، فالشريعة الإسلامية من لدن حكيم خبير، ولا يمكن أن تجد فيها حُكمين متناقضين، ولا يمكن أن تجد فيها شيئين متساويين ثم يختلفان في الحكم أبدًا، بل إذا تراءى لك أن هذين الشيئين متساويان وقد اختلفا في الحكم شرعًا فأعِدِ النظر مرشة بعد أخرى حتى يتبين لك، فإن لم يتبين لك فاتهم فهمك ولا تتهم أحكام الشريعة.

٣ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن من قعد عن الجهاد لضرر، فإنه كالذي أتى بالجهاد، وذلك في قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ﴾ ﴿وَالْمُجَٰهِدُونَ﴾ ثم استثنى فقال: (غيرَ أولي الضرر) فأولوا الضرر إذنْ: هم مساوون للمجاهدين، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ في غزوة تبوك: «**إنَّ فِي المَدِينَةِ لَأَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُم قالوا: كيفَ يا رسولَ الله وَهُم في المَدِينةِ ؟ قال: «وَهُم فِي المَدِينةِ حَبَسَهُم العُذْرُ**»، وهل يقاس على ذلك كل مَنْ تخلّف عن عبادة لعذر؟ الجواب: نعم؛ ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**مَنْ مَرِضَ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا**»(١).

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: فضل الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ووجهه: أنهم أعلى درجة من القاعدين الذين لا يجاهدون.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل والدليل من الآية قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾. ويلزم من هذه الفائدة: أن تفاضل الجزاء يدل على تفاضل العامل، وأيضًا يمكن أن يستنبط منه الاستدلال به على ما ذهب إليه أهل السنة من أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو معروف، وبغير ذلك من الأسباب.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: حسن الاحتراس في كلام الله عز وجل، وجهه: أن الله لما ذكر فضل المجاهدين على القاعدين فربما يتوهم واهِمٌ نزول درجة القاعدين من المؤمنين، فأزال الله هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، وهذه طريقة القرآن، انظر إلى المثال الثاني المطابق لهذا قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، وانظر إلى المثال الثالث وقوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، الشاهد فيه قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فهذه ثلاثة أمثلة تفيد أنه من بلاغة الكلام الاحتراس بدفع ما يتوهم وقوعه.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: البشارة لعامة المؤمنين من القاعدين والمجاهدين بالحسنى؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، فهل ينبني على هذه الفائدة أن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٦)، وأحمد في «مسنده» (١٩١٨٠)، وأبو داود (٣٠٩١).

الجواب: أما على سبيل العموم فنعم، وأما على سبيل الخصوص فنتوقف على ما جاء به النص، فمثلًا: نحن نقول: الصحابة كلهم وعدهم الله الجنة المجاهد والقاعد، لكن الشخص بعينه لا يمكن أن نشهد له إلا إذا شهد له النبي ﷺ، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ أثنى عليه الناس خيرًا فإننا نشهد له بالجنة)، واستدل لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، واستدل بما ثبت بالسنة حيث مرت جنازة فأثنى عليها الحاضرون خيرًا فقال النبي ﷺ: «وَجَبَتْ»، ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شرًّا فقال: «وَجَبَتْ» فقالوا: يا رسول الله ما وجبت؟ قال: «أَمَّا الأَوَّلُ فَأَثْنَيْتُم عَلَيْهِ خَيْرًا فَوجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ»، ثم قال: «أَنْتُم شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ»[1]، فقد استدل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بأنه تجوز الشهادة لمن اتفقت الأمة على الثناء عليه، وضرب لذلك أمثلة بالأئمة المشهورين، المشهود لهم بالعدالة والإيمان والتقوى، مثل الأئمة الأربعة الإمام أحمد والشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة، وغيرهم ممن اتفقت الأمة على الثناء عليهم.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا فضل أعظم من الجنة، ويؤخذ من قوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لأن الحسنى اسم تفضيل مؤنث (أحسن).

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على الجهاد في سبيل الله، وجه الدلالة: تفضيل الله عز وجل للمجاهدين على القاعدين بالدرجة بل بالدرجات.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عظم مِنَّةِ الله سبحانه وتعالى على العباد؛ حيث جعل إثباتهم على الأعمال مثل الأجرة التي استحقها الإنسان فرضًا على المستأجر؛ لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فسماه أجرًا كأجرة الأجير، مع أن الفضل لله تعالى أولًا وآخرًا، فهو الذي وفقك للعمل، وهو الذي مَنَّ عليك بالجزاء عليه، فإن قال قائل: هل من تأييد لهذا المعنى الذي ذهبتم إليه؟ قلنا: نعم، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤] أي: كتب الرحمة على نفسه، وهو سبحانه وتعالى يُوجب على نفسه وعلى عباده ما شاء، ولا أحد يعترض عليه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظم درجات المجاهدين في سبيل الله، وجه ذلك: قوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، فأضافها إلى نفسه، ومعلوم: أن العطاء يعظم بعظم المُعطي، لو قلت مثلًا: فلان تصدق وهو من أغنى الناس ذهب بالك إلى أنه تصدق بشيء كثير، ولو قلت: فلان تصدق وهو فقير لم يذهب بالك إلا أنه تصدق بشيء قليل، ولهذا قال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، فإضافة الشيء إلى الله يدل على عظمته، ومنه قوله ﷺ في الدعاء الذي علَّمه أبا بكر رضي الله عنه يدعو به في صلاته: «فَاغْفِرْ لِي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

مَغفِرَةً مِن عِندِكَ وَارحَمنِي»(1).

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات المغفرة لله، لقوله: ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ وهل تثبت المغفرة لغير الله؟ نعم، تثبت لغير الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

١٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله، والرحمة التي أضافها الله إلى نفسه نوعان: صفة ومخلوق، يعني نوعان منها صفة لله، ومنها مخلوق من مخلوقات الله، سماه الله تعالى رحمة، فمن الأول: قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، هذه الصفة، ومن الثاني: قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨] فالمراد بالرحمة هنا ما يكون أثرًا للمطر من النبات وغير النبات، ومن ذلك أيضًا قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧] المراد بالرحمة الجنة، بدليل قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود:١٠٦] وهذه الرحمة مخلوقة، ومنه قوله في الحديث القدسي في الجنة «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(2)، فتبين بهذا أن الرحمة قسمان: مخلوقة، وصفة، فالمخلوقة من جملة المخلوقات شيء بائن من الله عز وجل لا يُنسب إليه إلا نسبة خلق وإيجاد، لكنه من آثار الرحمة التي هي الصفة، وأما الرحمة التي هي الصفة فهي صفة تابعة للذات، أي: لذات الله عز وجل.

١٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات هذين الاسمين لله وهما: الغفور الرحيم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وقد مضى تفسيرهما.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩]

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(2) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

التفسير

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ هذه (إن) المؤكِّدة واسمها، وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، حال من الهاء في قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾، ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾، إلى قوله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، الظاهر: أن خبر (إن) هو قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وما بين ذلك فهو اعتراض.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾، (توفاهم) أي: تقبضهم، والمراد بذلك: قبض أرواحهم من أبدانهم، وقوله:

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، الملائكة: هم عالم غيبي محجوبون عن العباد، لهم أوصاف معلومة في الكتاب والسنة، ما علمنا منه وجب علينا الإيمان به على ما علمنا، وما لم نعلم منه فالواجب علينا السكوت، كما هو الشأن فيما وصف الله به نفسه، قالوا: والملائكة مأخوذة من (الألوكة) وهي الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، وبناء على ذلك يكون فيها إعلال بالقلب؛ لأن ملائكة جمع مَلْأَك، وأصله مَأْلَك، لكن فيها تقديم وتأخير إعلالًا صرفيًّا حسب قواعد الصرف التي كتبها العلماء، وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهي حال أي: حال كونهم ظالمي أنفسهم؛ لكونهم بقوا في أرض يجب عليهم الهجرة منها؛ لأن بقاءهم مع وجوب الهجرة معصية وظلم لأنفسهم، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أي مكان كنتم؟ وقيل: على أي حال كنتم؟ فعلى المعنى الثاني تكون (في) بمعنى على، كما هي في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض، ويكون المراد بقوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم، بدليل قولهم في الجواب: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أما على القول بأن المراد بقوله ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، السؤال عن المكان والموضع فيكون الجواب: ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على تقدير شيء محذوف، أي: قالوا: بقينا في هذا؛ لأننا كنا مستضعفين في الأرض، وعلى كلٍّ فالمعنيان يدوران على شيء واحد، وهو أن هؤلاء بقوا في أرض تجب عليهم الهجرة منها، فتأتي الملائكة لقبض أرواحهم فيوبِّخون، فيم كنتم ؟ لماذا كنتم في هذا المكان؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ يعني: أننا نعامل معاملة الضعيف من قبل الكفار الذين استضعفونا، ولكن هذا ليس بعذر، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، وهذا الاستفهام للتقرير والتوبيخ، يعني: أن أرض الله واسعة، فلماذا لا تهاجرون؟ وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، (الفاء) سببية؛ لأنه سبقها شيء من المعاني التي تكون بعدها فاء سببية، وهو الاستفهام الذي يوجب نصب الفعل بعد فاء السببية، والبيت الجامع لهذه الأشياء التي تسبق الفعل هو:

مُرْ وَادْعُ وَانْهَ وَسَلْ وَاعْرِفْ لَحْظَهُم تَمَنَّ وَارْجُ كَذَاكَ النَّفْيُ قَدْ كَمُلْ

فإذا قلنا: الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ للتقرير والإثبات، وأن تقدير الكلام: قد كانت

أرض الله واسعة على هذا التقدير تكون (الفاء) عاطفة، والمعنى: ألم تكن أرض الله واسعة ألم تهاجروا فيها، نعم وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ يعني: أن هناك أراضي غير الأرض التي أنتم فيها مستضعفون، ﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾هاجر مأخوذة من الهجر وهو الترك، والمهاجرة ترك البلد الذي عاش فيه الإنسان إلى بلد آخر، حتى الذي يخرج من بلد مستوطن له كان ثم يستوطن بلدا آخر يقال إنه مهاجر؛ لأنه ترك بلده، لكن الهجرة شرعًا هي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وهل إذا جاء لفظٌ له معنى لغوى ومعنى شرعي في كتاب الله وسنة رسوله يُحمل على المعنى اللغوي أو الشرعي؟ يحمل على المعنى الشرعي؛ لأن حقيقة كل متكلم على حسب ما يقتضيه كلامه.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، (الفاء) عاطفة أو واقعة خبر المبتدأ لـ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وقوله: ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: مصيرهم و﴿جَهَنَّمُ﴾ اسم من أسماء النار، ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: ساءت مرجعًا ومردًا، وهذا إنشاء ذم لها؛ لأن (ساء) مثل (بئس)، فهي جملة لإنشاء الذم.

الفوائد:

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة، أن الملائكة تتوفى بني آدم؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وظاهر هذا اللفظ أنهم جَمْعٌ، فيطابق قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، أي الملائكة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، وحينئذٍ يبدو التعارض بين هذه الآية وبين آيتين أُخريين، هما قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر:٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، والجواب عن هذا، الظاهر أن يقال: نَسَبَ الله تعالى التَّوفي إليه؛ لأنه بأمره، وما وقع بأمر الملك فإنه كفعله، حتى في عامة الحديث الناس يقولون: بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط وعمرو لم يبن] وإنها أمر، وأما الجمع بين كونه ذكر في هذه الآية وأمثالها بصيغة الجمع وفي آية السجدة في صورة الإفراد ملك الموت فإما أن يقال: ملك الموت مفرد مضاف فيعم ولا ينافي الجمع؛ لأن المفرد المضاف يعم فلا ينافي الجمع، وهذا وجه ضعيف، أو يقال إن الملائكة تساعد ملك الموت كما جاء في الحديث الصحيح: أنهم يأمرون الروح فتخرج من الجسد، حتى إذا لم يبق إلا قبضها تولى قبضها ملك الموت؛ فإضافة الوفاة أو التوفي إلى الملائكة بالجمع؛ لأنهم أعوان لملك الموت، وإضافة التوفي إلى ملك الموت لأنه هو المباشر لقبض الروح، وهنا يرد إشكال، يقال: إننا نجد أنفسًا تقبض في المشرق وفي المغرب وبينهما من المسافات ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فكيف تقولون: إن ملك الموت واحد ؟ وكيف يُتصور أن واحدًا يقبض العديد من الناس في أماكن بعيدة متفرقة؟ فيقال: قد يكون المراد بملك الموت جنس الملك، أي: الملك الموكل بقبض الأرواح، وإن كان أكثر من واحد، فيكون المراد به الجنس لا العين، وهذا وجه ضعيف، ويجاب بوجه آخر: أن هذه من أمور

الغيب، والواجب علينا في أمور الغيب: أن نصدق وإن لم تدركها عقولنا، وهذا أبلغ في التسليم لخبر الله عز وجل حتى لا نتمحَّل في الجواب ونقول: إن ملك الموت يُراد به الجنس وهو أكثر من واحد، فنقول: إن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وملك الموت يقبض الأرواح وإن كانت متباعدة، وإن كانت في آنٍ واحد، وعلينا أن نصدق ونسلم.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الملائكة أجسام، تقبض الأرواح، وتخاطب وتتكلم وكلامها مفهوم، خلافًا لمن يقول: إن الملائكة هي القوى الخيِّرة، وأن الشياطين هي القوى الشريرة، فإن هذا قول باطل، يكذبه القرآن والسنة والإجماع قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١] ورسول الله ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها وله ستمائة جناح، قد سدَّ الأفق، فالصحيح الذي يجب علينا اعتقاده: أن الملائكة أجسام، وأنهم يقولون ويفعلون ويصعدون وينزلون بأمر الله عزو جل.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العبرة في الأعمال بالخواتيم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: هم وقت الوفاة ظالمون لأنفسهم فالعبرة بالخواتيم، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون خائفًا من سوء الخاتمة وأن يسأل الله سبحانه وتعالى دائمًا حسن الخاتمة وألا يموت إلا وهو مسلم، وقد أخبر النبي ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود بأن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، والمراد: ذراع بالنسبة لقرب الأجل لا بالنسبة للعمل، لكن معناه: أنه يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى عليه إلا شيء يسير فيموت، وليس المراد حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع للوصول إليه بعمله؛ لأن الحديث هذا مقيد بالحديث الآخر: «لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»(١)، وأيضًا لا يمكن أن الله سبحانه وتعالى يخذل عبدًا قام بعبادته إلى أن يبقى عليه ذراع واحد ثم يخذله فيسيء خاتمته، هذا ينافي كرم الله عز وجل ورحمة الله عز وجل، فإذا قررنا هذا التقرير بأن المعنى يكون بينها وبينه ذراع بالأجل لا بالعمل، إذنْ الأعمال بالخواتيم.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: توبيخ أولئك القوم الذين يموتون وهم ظالمون أنفسهم، توبِّخهم الملائكة: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾، وسبق لنا في التفسير معنى ذلك.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الهجرة، وأن مَنْ لم يهاجر يموت وقد ظلم نفسه، ولكن وجوب الهجرة مشروط بشروط منها القدرة لقوله في الآية الكريمة، التي بعد هذه الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، ولأن القاعدة العامة العظيمة العريضة العميقة في الشريعة الإسلامية أنه: [لَا وَاجِبَ مَعَ العَجْزِ]، هذه القاعدة من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيشترط لوجوب الهجرة:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

أولًا: القدرة.

ثانيًا: أن يكون الإنسان مغموصًا ومغمورًا، بحيث لا يستطيع أن يؤدي شعائر دينه في بلاد الكفر، فإن كان يستطيع فإنه لا تجب عليه الهجرة، بل إذا كان يستطيع أن يدعو إلى دين الله ويجد قبولًا من الناس ربما نقول: إن بقاءه واجب؛ لأن [ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب].

ثالثًا:أن يجد مكانًا خيرًا من هذا المكان الذي هو فيه، فإن كانت الدنيا كلها متساوية في أنه لا يستطيع الإنسان إظهار دينه سواء في هذا البلد أو في هذا البلد فلا يجب؛ لأن الوجوب هنا لَغْوٌ، بل لأن الإيجاب هنا لغو لا فائدة منه، كيف نقول: يجب أن تهاجر من هذا المكان إلى مكان آخر لا تستطيع فيه إظهار دينك وليس هناك فائدة إلا مجرد التعب والعناء والقلق واختلاف البلدان عليه، وما أشبه ذلك، فالشروط إذنْ ثلاثة.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الظالم يحتج بأي حجة كانت، مثل قول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والواقع: أنهم غير مستضعفين؛ لأن الملائكة قالت لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، لكن الإنسان إذا ابتلي حاول أن يدافع عن نفسه بأي حجة حتى وإن لم تكن صحيحة، وهذا نجده كثيرًا في مقام المناظرات بين العلماء في المسائل العقدية والعملية، فتجد بعض العلماء مثلًا يجيب عما هو عليه من المذهب عقديًا كان أم عمليًا بأجوبة باردة، تقول: كيف يجيب هذا العالم النِّحرير بهذا الجواب؟ مع أن أجهل الناس يدري أن هذا الجواب لا يفيد، لكن مقام الضيق والضنك يحرج الرجل فتجده يجيب بغير ما هو حق، ولو أنه رجع إلى نفسه لوجد أن إجابته غير صحيحة.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى إذا ضيَّق شيئًا وسَّع شيئًا ويُؤخذ من قوله:

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾، فالله تعالى لم يحجر عليهم، فالأرض واسعة، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٥، ٦].

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التخلُّف عن الهجرة الواجبة من كبائر الذنوب، يؤخذ من قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾. وجه الدلالة: عقوبة الآخرة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: قبح هذا المأوى الذي هو جهنم؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، فأثنى الله عليها بالذم؛ لأن ساء وحسن متضادان، (ساء) للذم، و(حسن) للمدح، هل يمكن أن يُؤخذ من الآية أن النار مظلمة مجهمة؟ نعم، يُؤخذ من قوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾، ووجه الدلالة هي الظلمة، وعلى هذا تكون جهنم اسمًا عربيًّا، وقيل: إن جهنم اسم فارسي وأصله كهنّام، لكن لما عرّب تحول إلى هذا، وقيل: إن جهنم بئر في اللغة الفارسية.

مسألة:أليس في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ردٌّ الرافضة في دعواهم بأن الصحابة

ارتدوا وكفروا إلا اثنا عشر مؤمنًا؟

الجواب:بلى؛ لأن الأصل بقاء العموم على عمومه، أما على رأي الرافضة - قبحهم الله - فكلًّا وعد الله النار إلا ما استُثني؛ لأنهم لا يستثنون إلا نفرًا قليلًا، ثلاثة عشر نفرًا أو ما أشبه ذلك، من مائة وأربعة وعشرين ألفًا.

مسألة:في قوله تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، المتبادر إلى الذهن أن الفعل يتعدى بـ(إلى) فهل هناك فرق في المعني أو لأن قو له: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ أبلغ من قوله:(تهاجروا إليها)؟

الجواب: إذا قلت: تهاجر إليها، لزم من هذا أن يكون بين البلد الذي هاجرت منه وهاجرت إليه مسافة؛ لأن الغاية لابد لها من مَغِيٍّ، وأما (فيها) فهذا يشمل أول نقطة يمكنك أن تسلم فيها من الاضطهاد في دينك ولو قريبة جدًّا.

مسألة: الذي يقول: أنا أجلس في بلاد الكفر؛ لكي ادعوهم للإسلام هل تجب عليه الهجرة ؟

الجواب: الذي يدعو ويُمكَّن من الدعوة لا يقال: إنه عاجز عن إظهار دينه فلا تجب عليه الهجرة طالما أنه يثمر في بقائه، فهو ما بقي لأجل السُّكنة والراحة، لكنه بقي لأجل الجهاد، فهو نافع.

مسألة:ما القول في تعريف الملائكة بأنهم: أجسام نورانية لطيفة يتشكلون بأشكال مختلفة بمشيئة؟

الجواب: الأحسن أن نقول: عالم غيبي، ولا شك أنهم خُلقوا من النور، لكن هل يلزم من كونهم خلقوا من النور أن يكونوا نورانيين، لهم أجنحة؟ والأجنحة لا يوجد ما يمنع أن تكون من نور لكن لا داعي إلى التكلف؛ هم عالم غيبي، لكنهم يظهرون لمن أراد الله أن يظهروا له.

مسألة:هل يُؤخذ من هذه الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الجهاد فرض كفاية؟

الجواب: نعم يُؤخذ؛ لأنهم لم يُأَثَّموا، بل بيَّن لهم أنهم تأخَّروا عن القوم المجاهدين.

مسألة:هل كانت الهجرة زمن الرسول ﷺ بالمبايعة كما في حديث النَّواس بن سَمْعانَ: (ما منعني من الهجرة إلا المسألة) مع أنه أقام في المدينة سنةً؟

الجواب:الهجرة معناها: المهاجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وكان النبي ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية ثم دَعَوا القوم فأسْلموا أُمِروا أن يتحولوا إلى دار المهاجرين؛ ليكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوْا فهم كأعراب المسلمين ليس لهم من الغنيمة أو من الفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٧]

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، هذا مستثنى من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ويحتمل أن يكون

استثناءً منقطعًا، وذلك أن المستضعفين لا يمكن أن يتوعدوا بجهنم، ومن المعلوم: أن الفرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع، أن الاستثناء المتصل: يكون المستثنى فيه بعض أفراد المستثنى منه، وهنا لا يستقيم، وكذلك لو قال قائل: إنها مستثناة من قوله: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قلنا: لا يصلح أيضًا الاستثناء متصلًا، لأن هؤلاء المستضعفين ليسوا ظالمي أنفسهم، ولهذا يترجح القول بأن الاستثناء هنا منقطع، والاستثناء المنقطع: ليس المستثنى فيه من جنس المستثنى منه، هذا من حيث المعنى، ثانيًا: أداة الاستثناء فيه بمعنى أداة الاستدراك، وأداة الاستدراك (لكن)، فتكون (إلا) بمعنى (لكن).

إذنْ: الفرق بين الاستثناء المنقطع والمتصل من وجهين:

الأول: أن المتصل يكون فيه المستثنى بعض من المستثنى منه وليس المنقطع كذلك.

الثاني: المنقطع تكون أداة الاستثناء فيه بمعنى أداة الاستدراك أي: بمعنى (لكن).

وحكم آخر: أن المستثنى إذا كان منقطعًا، وجب نصبه فيما إذا كان الكلام تامًّا منفيًّا، ومعلوم أن المستثنى المتصل إذا كان الكلام تامًّا منفيًّا يجوز فيه وجهان إعرابيان: الأول: النصب على الاستثناء، والثاني: الإتباع، وأما إذا كان منقطعًا فإنه يتعين فيه النصب، يقول تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ يعني: الذين أصابهم ا لضعف، فمستضعف بمعنى: أصابه الضعف، يقول: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، (من) هذه بيانية تبين المستضعفين، و(أل) إذا قال قائل: كيف تحتاج إلى تبيان ؟ نقول: لأن (أل) في (المستضعفين) اسم موصول، والاسم الموصول من أقسام المبهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البيِّنة:٦]، فـ(من) هنا بيانية ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾، أليس الولدان إما رجال وإما نساء؟ لا، الولدان إما ذكور وإما إناث، لكنهم صغار، و(الرجال) جمع رجل، والرجل إنما يكون إذا بلغ، (والنساء) كذلك جمع امرأة من غير الجنس، والمرأة لا تكون لا يطلق عليها امرأة إلا إذا بلغت، إذنْ: المستضعفون من الرجال، إما لمرض أو كِبَرٍ أو غير ذلك، مما لا يتمكنون معه من الهجرة، وكذلك يقال في النساء، أما الولدان، فالغالب عليهم الضعف مطلقًا؛ لأنهم كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ يعني: لا يستطيعون أن يتحيَّلوا حتى يخرجوا، ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾، فيأتون الأمر على وجه صريح، فهم لا حيلة عندهم فينفُذُون، ولا يستطيعون الخروج صراحة، فامتنع عليهم الخروج، و(الحيلة) على وزن (فعلة) من الحول لكن قُلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وإذا كانت من الحول، فالحول من التحول، وكأن المحتال يتحول من حال إلى أخرى على وجه لا يشعر به الغير، وقوله: ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ أي: طريقًا ينفذون إليه بأنفسهم فيهاجرون.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أن الدين الإسلامي دين اليسر والسهولة، وأنه مع وجود المشقة

ينتفي الحرج.

٢- ومن فوائدها: أن من الرجال البالغين مَنْ لا تجب عليهم الهجرة؛ وذلك لكونهم مستضعفين.

٣- ومن فوائد هذه الآية: أن الواجب الوصول إلى القيام بالواجب بأي حيلة تكون، لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، وهل يستدل بهذا على جواز استعمال الحِيَلِ ؟ نقول: لا، بل الحِيَلُ فيها تفصيل، ما كان تحيُّلًا على واجب فهو واجب، وما كان تحيُّلًا على محرم فهو محرم، وما كان تحيُّلًا على مباح فهو مباح، بشرط ألا يؤدي ذلك إلى اتهام المحتال وعدم الثقة بقوله أو بفعله، والاحتيال على إظهار الحق بإيهام خلاف المقصود، واجب؛ مثل صنيع سليمان عليه الصلاة والسلام في المرأتين المتنازعتين في طفل، كبرى وصغرى، قالت الكبرى: هو لي، وقالت الصغرى: هو لي، فقال: ائتوا بالسكين؛ لأشقه بينكما، فقالت الصغرى: هو لها يا نبي الله، وقالت الكبرى: شقه[1]، فهذه حيلة، لكن لإظهار الحق، أما الحيلة على المحرم بأن يحتال على الرِّبا بصورة عقد غير مقصود كمسائل العِينَة مثلًا، فهذا حرام، والحيلة على مباحَ أن يحتال على أخيه في معاملة مباحة ليتوصل إلى مقصوده بها، هذه جائزة لكن بشرط: ألا يؤدي ذلك إلى تهمة الإنسان وعدم الثقة بقوله أو بفعله، هذا إذا قلنا: إن الحيلة هي التوصل إلى ا لشيء بما يخالف ظاهره، أما إذا قلنا: إن الحيلة المراد بها الحول، وأصله حولة، يعني: لا يستطيعون قوة على الهجرة، فإنه لا يكون فيها دلالة أصلًا على التَّحيل.

٤- ومن فوائد الآية: أنه تجب الهجرة على مَنْ يقدر عليها من أي سبيل، سواء كان من السبيل السلطاني الأعظم الذي يمشي معه الناس، أو من السُّبل الأخرى، لقوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، و(سبيلًا) نكرة في سياق النفي فتعم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء :٩٩]

قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾، (الفاء) حرف عطف، و(أولاء) اسم إشارة يعود على المستضعفين، ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، جملة: (عسى) وما بعدها في محل رفع خبر أولئك و(عسى) فعل للترجي؛ وقيل: إنها تأتي للتوقع، والفرق بين الترجي والتوقع: أن الترجي رجاء ما لم يوجد سبب وقوعه لكنه ممكن، والتوقع ما يوجد سبب وقوعه فيتوقع أن يكون.

يقول تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ هل هذا من الرجاء أو من التوقع ؟ إذا نسبت (عسى) إلى الله فهي من التوقع، ولهذا قال بعض العلماء: إن عسى من الله واجبة، ولا يمكن أن تأتي للترجي، لأن الله تعالى لا يَتَرجَّى شيئًا، هو قادر على كل شيء، والرجاء إنما يكون من شخص قد يتعسر عليه أن يفعل، أما الله عز وجل فلا، وعلى هذا فتكون للتوقع، يعني: هؤلاء يتوقع أن يعفو الله عنهم، لكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

قول بعض العلماء (عسى) من الله واجبة إذا قلنا بهذا القول، فلماذا عبر بـ (عسى) التي لا تعطي الإنسان يقينًا بالوقوع؟ نقول: لئلا يغتر الإنسان فيقول أنا معفو عني ولا يهتم، بل يقال: أنت يتوقع أن يغفر الله لك مثلًا، ويتوقع أن تكون من المهتدين مثل قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨] ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة:٥٢]، وأمثلة هذا كثيرة، حتى لا يغلب الطمع على الإنسان فيأمن من مكر الله قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، والعفو هو التجاوز عن الذنب، ولكنه لا يكون ممدوحًا إلا إذا كان مع القدرة، أما إذا كان بدون قدرة فهو مذموم؛ لأنه عجز وذل، ولهذا يقال دائمًا: فلان يعفو مع القدرة؛ لأن هذا هو محل العفو المحمود في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩]، يعني: يعفو مع القدرة على المؤاخذة، فاعفوا أنتم حتى يعفو الله عنكم.

الفوائد:

١- في هذه الآية من الفوائد: عفو الله عز وجل عن هؤلاء الصنف من الناس في تركهم الهجرة.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أنه يرجى لهؤلاء أن يعفو الله عنهم؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾، فالرجاء هنا باعتبار ما يقوم في قلب المخاطب، أما باعتباره منسوبًا إلى الله فإن (عسى) كما قال بعض السلف: عسى من الله واجبة، يعني: أن الله وعدهم أن يعفو عنهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله هما:(العفو والغفور)، فالعفو هو المتجاوز عن السيئات والغفور هو الماحي لها، لكن إذا اجتمع العفو والغفور صار المراد بالعفو: ما يقابل ترك الواجب، والغفور: ما يقابل فعل المحرم، أي: عفوٌّ عن التفريط في الواجب غفورٌ عن فعل المحرم.

٤- ومن فوائد هذه الآية: إثبات الصفتين الدالي عليهما قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾، وذلك لأن كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة، وليست كل صفة متضمنة اسمًا، وبهذا عرفنا أن الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم لا بد أن يتضمن صفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، بل إن من الصفات ما ليس معنويًا أصلًا مثل: اليد والوجه والعين، فهذه صفات خبرية، ولولا إخبار الله بها ما اعتقدناها ولا علمنا بها، وهل يُشتق من قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤]، اسم من أسماء الله ونسمي الله المتكلم ؟لا؛ لأنها لم تأت المتكلم، وأيضًا: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، هل نشتق منه الصانع؟ لا.

مسألة: هل نقول بأنه تجب الهجرة من بلاد الفسق؟

الجواب: الهجرة ما تجب من بلاد الفسق، لكنه لا شك أنه أفضل وأحسن؛ لأن الفسق لا يُخرِج من الإيمان.

مسألة: قولنا: من شروط وجوب الهجرة من بلاد الكفر ألا يستطيع أن ينصر دينه أو إظهار شعائر الإسلام فما المقصود بشعائر الإسلام هنا؟

الجواب: الصلاة في جماعة ورفع الأذان بصوت عالٍ، والجمعة وشعائر العيدين وما أشبه ذلك، والأمر والنهي، أما الدعوة، فهي محل نظر قد يقال: إن من أساسيات الدين الإسلامي الدعوة إلى الله عز وجل، فإذا عجز عنها فهو عاجز وقد يقال: لا، الدعوة واجبة وهي فرض كفاية، وأيضًا ليست متعلقة بشخص الإنسان، فهي عندي محل نظر والله أعلم.

مسألة: القاعدة الأصولية التي تقول: (الأمر إذا ضاق اتسع) هل هي بهذا اللفظ صحيحة؟

الجواب:هذا التعبير خطأ، إنما يقال: (كلما تعسرت الأمور يسر الله تعالى)، كما قال الرسول ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»[1].

مسألة:ذكرنا أن الهجرة من بلاد الفسق لا تجب، إذا كان البلد إسلاميًّا، ولكن إذا كان هذا البلد ليس فيه أداء الشعائر وإذا خرج إلى بلد أهلُه كفار استطاع أن يقيم الصلاة جماعة، فما الحكم في هذا؟

الجواب:هذه أولًا نقول له: هل هذا واقع في بلاد الإسلام أنهم يغلقون المساجد، ويمنعونك أن تصلي مع الجماعة؟ على كل حال، إذا كان هذا واقعًا وصار لا يستطيع أن يقيم شعائر دينه في هذه البلاد الإسلامية، لكن يستطيع أن يقيمها في بلاد الكفر؛ فهل يهاجر أو الأولى ألَّا يهاجر؟ الأولى ألا يهاجر؛ لأن هذه الحال ربما لا تدوم، قد يغير الله الحال وهي إن شاء الله ليست دائمة ـ بإذن الله ـ نسأل الله تعالى أن يزيل عن المسلمين هذا الكابوس من ولاية الولاة الظلمة، الذين ـ والعياذ بالله ـ يصلح أن نصفهم بأنهم ملحدون، إذا كانوا يمنعون المسلمين من الصلاة، فهؤلاء لا أحد يشك في كفرهم.

ولكن على كل حال هذا لا شك أن بلاد الكفر خير له من بلاد الإسلام التي ينطبق عليها هذا الوصف، لكن أنا أقول: إنه إذا هاجر أهل الخير عن البلد ولم يبق إلا المستضعَف الذي يوافق الحكومة على ما تريد، صار الأمل ضعيفًا في عود هذه البلاد إلى حظيرة الإسلام، لكن إذا بقي هؤلاء وعالجوا الأمور بحكمة، فالغالب: أن الله يجعل لهم فرجًا.

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

قال الله تعالى:

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]

التفسير

قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ .

الإعراب:(من يهاجر) هذه جملة شرطية، فعل الشرط (يهاجر)، وجوابه (يجد)، وإذا كان فعل الشرط مضارعًا، وجوابه مضارعًا، وجب جزمهما، أما إذا كان فعل الشرط ماضيًا وجوابه مضارعًا، فإنه يجوز الرفع قال ابن مالك:

وَبَعدَ مَاضٍ رَفعَكَ الجزَا حَسَن ... وَرفعُهُ بَعدَ مُضَارِعٍ وَهَن

فيجوز مثلًا: من قام يفوز، ومن قام يفز، أما من يقم يفز ؛ صحيح، ومن يقم يفوز ؛ ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، فعل الشرط في هذه الجملة (يخرج)، وجوابه: (فقد وقع)، واقترن بالفاء؛ لأن الفعل مسبوق بقد، قال الشاعر:

اسميةٌ طلبيَّة وبجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وبِالتَّنْفِيسِ

فإذا وقع جواب الشرط أحد هذه الأشياء، وجب اقترانه بالفاء وضابطه: أنه كلما كان الجواب لا يصلح أن يلي أداة الشرط وجب اقترانه بالفاء، قال ابن مالك:

واقرُن بِفَا حَتمًا جَوَابًا لَو جُعِل ... شَرطًا لأن أو غَيرِهَا لَم يَنجعِل

هذا الضابط: كلما كان جواب الشرط لا يصح أن يلي الأداة وجب اقترانه بالفاء، والضوابط التي في البيت أيضًا تسهل عليك هذا.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ كان هذه هل تفيد الحدوث؟ المقصود تحقيق ثبوتها لله، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ سبق لنا معنى الهجرة؛ وهي أن الهجرة (لغة) بمعنى: الترك، و(شرعًا)معناها: ترك البلاد التي لا يقيم الإنسان فيها دينه إلى بلاد أخرى يقيم فيها دينه، وعبر عنه بعضهم بقوله: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، (في) للظرفية، و(سبيل الله) طريقه، وكون الهجرة في سبيل الله، تتضمن شيئين:

الإخلاص، والتزام الشريعة؛ لأن مَنْ نوى غير الله لم يكن في سبيل الله كما قال النبي ﷺ حين سُئِلَ عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية، وليرى مكانه قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»[1]، والثاني: أن تكون في شريعته، ضمن الشريعة، لا مخالفة للشريعة، إذنْ في سبيل الله إخلاصًا واتباعًا، ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، (الأرض) هنا المراد بها الجنس، يعني: أرض الله عمومًا، ﴿مُرَٰغَمًا﴾ أي: مهاجرًا يرغم به أعداءه، وبناءً على هذا تكون ﴿مُرَٰغَمًا﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: مهاجرًا مراغمًا، يعني: يراغم به أعداءه؛ لأن الإنسان إذا خرج من بلاد الكفر التي ضُيِّق عليه فيها إلى بلاد أخرى فإنه يراغم الأعداء، ومعلوم أن الصحابة ﭫ لما هاجروا إلى الحبشة ماذا صنعت قريش؟ أرسلت في إثرهم مَنْ يتكلم فيهم عند النجاشي؛ لأن هذا يراغمهم، ويعرفون أنهم إذا خرجوا ربما يكونون أمة، وهذا هو الذي وقع، ومعلومة قصة أبي بصير ﭬ حينما هاجر من مكة إلى النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، لحقه من المشركين اثنان يطلبون من النبي ﷺ أن يرده، فلما وصلا إلى النبي ﷺ سلَّمه النبي ﷺ لهم فعاد معهم إلى مكة وفي أثناء الطريق وبعد أن أمنوا منه قال لأحدهما: هذا سيف ما شاء الله فيه وظل يمدح السيف، فقال صاحب السيف: وكم ضربت به من هامة، قال له أبو بصير: أعطني إياه أراه، فأعطاه إياه فسله فضربه به، أما الصاحب الثاني فهرب إلى المدينة، فلما وصل إلى المدينة، وإذا أبو بصير في إثره، قال أبو بصير: يا رسول الله إن الله قد أوفى بعهدك أو بذمتك، سلمتني لهم، لكني نجوت، قال: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ يَجِدُ مَنْ يَنْصُرُهُ»، وعرف أبو بصير إن الرسول ﷺ سيرده إليهم فخرج من المدينة نحو الساحل، كلما أتت عِيرُ لقريش غار عليها، فسمع به أناس من أهل مكة من المستضعفين وغير المستضعفين فخرجوا إليه، فكوَّنوا جماعة فتعبت قريش من ذلك، وأرسلت إلى النبي ﷺ أنها ألغت هذا الشرط[2].

إذنْ: صار في هجرة الإنسان من بلاد الشرك مراغمًا لأهل البلد، يرغمهم، يعني: ترغم أنوفهم، والرغام كما نعرف: هو التراب، ورغم الأنف بالتراب معناه: غاية الذل، وقوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾، قد تشير إلى تجمع القوم؛ لأنه كان المتبادر أن يقال: مراغمًا عاصمًا، لكنه قال: ﴿كَثِيرًا﴾، ولعل ذلك والله أعلم إشارة إلى أنه سيجتمع إليه من يكثر بهم، وقوله: ﴿وَسَعَةً﴾، أي: سعة في الرزق، وفي الدين، في الصدر، وفي كل شيء، فلا يقول: إني غادرت بلدي فمن أين آكل وأشرب، وسعة في الدين؛ لأنه ليس له أحد يقوم بضده، ويضيق عليه في دينه، وسعة في الصدر تتسع صدورهم؛ لأنهم كانوا بالأول في بلاد الشرك مخنوقين، مضيَّقًا عليهم، والآن هم أحرار طُلقاء.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾، يقال: إن رجلًا خرج من مكة مهاجرًا، وإنه مات في التنعيم، أثناء

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٤)، والنسائي (٢٧٧١)، وأبو داود (١٧٥٤).

سفره، فقالوا: بطل أجره، وبطلت هجرته، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، كلمة(من بيته)، البيت يحوي الإنسان، والإنسان يألفه، وهو وطنه، فيخرج من هذا البيت الأليف الذي هو الوطن إلى الله ورسوله، مهاجرًا إلى الله ورسوله، ويترك مأواه ومثواه من أجل الهجرة إلى الله ورسوله، فالهجرة إلى الله بالإخلاص، وإلى رسوله بالاتباع، فيريد أن يهاجر إلى الله عز وجل ليقيم شرعه، وإلى رسوله ﷺ ليتبعه وينصره أيضًا، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: ثم يموت، كلمة (يدركه) قد تعطي أنه كالفارِّ الذي يريد أن يصل إلى مهاجره، لكن الموت لحقه فأدركه، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، (وقع) بمعنى ثبت، أي: ثبت أجره على الله عز وجل، والأجر هو الثواب، ولم يقل وقع أجره على الله ورسوله مع أن الهجرة كانت إلى الله ورسوله؛ لأن الهجرة إلى الرسول وسيلة، والغاية هي الهجرة إلى الله عز وجل، فلهذا كان الذي يثيب على الهجرة ليس الرسول بل هو الله سبحانه وتعالى، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وكلمة (الله) سبق لنا مرارًا وتكرارًا، أن أصلها (الإله)، كالناس أصلها الأناس، ومثل: هذا خير من هذا أي: هذا أخير من هذا، والعرب يحذفون الهمزة أحيانًا للتخفيف، و(الإله) على وزن (فعال) بمعنى مفعول، فالإله أي: المألوه الذي تألهه القلوب أي: تحبه وتعظمه في نفس الوقت، فبالمحبة يكون فعل المأمور، وبالتعظيم يكون ترك المحذور، خوفًا من هذا العظيم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، سبق الكلام على مثل هذه الجملة، وأنها تفيد ثبوت هذين الاسمين لله وما تضمناه من صفة، (الغفور) يتضمن المغفرة و(الرحيم) يتضمن الرحمة، وبالجمع بينهما يحصل المطلوب والنجاة من المرهوب؛ لأن المغفرة للذنوب التي يتخلى عنها الإنسان بمغفرة الله، والرحمة للأعمال الصالحة التي توصل إلى رحمة الله عز وجل.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد عظيمة منها: أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه تُؤخذ من قوله: ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، فقد خرج من الضيق فوجد السعة.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن فضل الله عز وجل على عبده أكثر من عمل عبده له، وتُؤخذ من قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

٣- من فوائد الآية الكريمة: أن من أُذل بطاعة الله صار العز له في النهاية، يؤخذ قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الشاهد أنها تشهد لقول الرسول ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»[1] وتؤخذ من قوله: ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، والسعة التفريج بعد الضيق والكرب.

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ سعى في العمل الصالح ولم يدركه اضطرارًا، فإن أجره ثابت كامل، يُؤخذ من قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وهل يُقاس على ذلك بقية الأعمال ؟ بمعنى: هل مَنْ خرج إلى المسجد يريد الصلاة فمات في أثناء الطريق يُكتب له أجر الصلاة ؟ يقال: إن الثواب لا قياس عليه، بناءً على القياس، لكن يقولون: إن ثواب الأعمال ليس فيه قياس، لجواز أن يكون تخصيص هذا العمل بهذا الثواب لحكمة لا نعلمها، لكن قال بعض أهل العلم: إن لنا شاهدًا على العموم، وهي قصة الرجل الذي مات في أثناء الطريق، وهو رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا، قتلهم عمدًا، ثم جاء إلى رجل عابد، فسأله قال له: هل لي من توبة ؟ أنا قتلت تسعًا وتسعين نفسًا عمدًا، فاستعظم العابد هذا؛ لأنه عابد يخشى الله، ويخاف عقابه، وقال: لا، ما لك توبة، قال: نُكمل بك المائة، فقتله وأتم به المائة[1]، فهذا العابد مسكين، جاهل جهلًا مركبًا، ثم دُل على عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس عمدًا، فهل من توبة؟ قال العالم: ومن يحول بينك وبين التوبة، ـ هذا من العلم فهو كله خير ـ ولكن أنت في أرض ظالم أهلها، اذهب إلى القرية الفلانية ففيها الصالحون، ـ أو كلمة نحوها ـ فذهب الرجل تائبًا إلى الله، وفي أثناء الطريق أدركه الموت، فنزلت عليه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة العذاب تريد أن تقبض روحه باعتبار سوابقه،وملائكة العذاب تريد أن تقبض روحه باعتبار سوابقه، وملائكة الرحمة تريد أن تقبض روحه باعتبار مآله، فالرجل تاب وخرج، تنازعت الملائكة، أيهما يقبض روحه؟ والله تعالى هو الذي أرسلهم عز وجل، اعتبارًا بما يحصل، ثم بعث الله إليهم ملكًا حكمًا بينهم، قال: قيسوا ما بين القريتين فإلى أيتهما كان أقرب فهو من أهلها، فقاسوا فوجدوا أنه أقرب إلى الأرض الصالحة بشبر، وقيل: إنه لما حضره الموت من شدة شوقه صار يدفع بنفسه إلى الأرض الصالحة فتقدم هذا التقدم، فتولت روحه ملائكة الرحمة، قالوا: إذا كان هذا فيمن قبلنا فنحن أفضل الأمم، إذا شرعنا في عمل صالح وأدركنا الموت فإنه يكتب لنا، وهذا ما نرجوه من الله عز وجل، وبناء على ذلك نقول: من شرع في طلب العلم يريد بذلك ما يريده المخلصون في طلب العلم من حفظ الشريعة والدفاع عنها ونفع الخلق ثم أدركه الموت فإنه يكتب له ما نواه، لأنه شرع، لكن بشرط أن يكون شروعه شروعًا حقيقيًّا يعني: عنده اجتهاد وحرص لا أن يكون المراد بذلك أن يقطع الوقت، يقول: أنا ما لي شغل بدل ما أذهب للأسواق أحضر حلقات العلم، هذا ما هو طالب علم، لأن طالب العلم الذي يفرِّغ نفسه تمامًا لطلب العلم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء:١٠١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا الصَّلَاةِ﴾

الخطاب في قوله: (إذا ضربتم) للناس جميعًا، ويدخل فيه بالأولى المؤمنون؛ لأنهم هم الذين يخاطبون بالتكاليف الشرعية، وقوله: (إذا ضربتم في الأرض) الضرب في الأرض هو السفر فيها، وسمي ضربًا؛ لأن الإنسان لا يخلو من أن يكون معه راحلة تحتاج إلى الضرب، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَبُو جَهْلٍ فَلَا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ»(١)، وحمله بعض العلماء على أنه كثير الأسفار، وقوله: (إذا ضربتم في الأرض)، لم يقيده الله عز وجل بكون هذا الضرب مشروعًا أو مباحًا أو مكروهًا أو محرمًا، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، (الجناح) يعني: الإثم، وقوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، زعم بعضهم أن (من) هنا زائدة، وأن المعنى: أن تقصروا الصلاة، وعلل هذا القول بأن صلاة السفر افترضت ركعتين فلا يصح أن يقال: إنه قصر منها، بل يقال: إنها قصرت، ولكن هذا القول ضعيف، كما سأبين إن شاء الله عند ذكر الفوائد.

وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هذا شرط للحكم الثابت بقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، فالجملة إذنْ شرطية، وجواب الشرط الصحيح أنه لا حاجة إليه؛ لأنه معلوم من السياق، وقال بعضهم: إنه محذوف دل عليه ما سبق، وقوله: ﴿أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: أن يصدكم عن دينكم، وذلك بقتالهم إياكم أو بأسباب أخرى يصدونكم بها عن الدين، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾، الجملة هنا موقعها مما قبلها أنها تعليل للحكم، وهو قصر الصلاة، قلنا: إن الضرب في الأرض هو السفر فيها، ووجه تسمية السفر ضربًا: أن المسافر يحمل العصا معه ليضرب راحلته، وقد جاء الضرب في الأرض في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزَّمل:٢٠].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى انتفاء الإثم عن قصر الصلاة إذا كان الإنسان ضاربًا في الأرض خائفًا أن يفتنه الكفار، وليبين عز وجل أن ﴿الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾، وقد سبق لنا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

الكلام على مثل هذا التعبير، وإن كان هنا يُراد بها إثبات الحكم لا حدوث الحكم؛ لأنه لو أُريد بها الحدوث لكان هذا يقتضي أن عداوتهم كانت سابقة، وليس الأمر هكذا.

الفوائد:

١- في هذه الآية من الفوائد: بيان تيسير الله عز وجل على العباد حين يُوجد السبب الذي يقتضي ذلك، وذلك بقصر الصلاة في السفر، فإن هذا لا شك أنه تيسير على العباد، وَسُهِّلت الصلاة في السفر من وجه آخر؛ وهو جواز جمع بين الصلاتين المجموعتين، وسُهِّلت من وجه ثالث؛ وهو جواز التيمم إذا لم يجد الماء، فإن قال قائل: هذا حتى في الحضر، قلنا: لكنه في السفر أيسر منه في الحضر؛ لأن في الحضر يجب على الإنسان أن يبحث بحثًا دقيقًا، أما في السفر فلا يلزمه أن يحمل الماء معه، إلا إذا كان ذلك يسيرًا جدًّا، أما أن يتكلفه بنوع من الكلفة فلا يلزم.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القصر ليس بواجب؛ لقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا﴾، هكذا استدل جمهور العلماء بهذه الآية على أن القصر ليس بواجب؛ لأن الله نفى الجناح عن القصر أو في القصر فدل ذلك على أنه ليس بواجب، لكن هذا الاستدلال فيه نظر، وجه النظر: أنه قد يُنفى الجناح أو الحرج خوفًا من توهمه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨]، فهنا نفى الجناح؛ دفعًا لتوهم بعض الصحابة أن الطواف بهما محرم؛ لأنه كان فيهما صنمان، وقال بعض أهل العلم وهم الأكثر: إن القصر ليس بواجب، ولكلٍّ دليله.

ولنتعرض بشيء قليل من المناقشة في هذا الباب، استدل القائلون بأن القصر واجب بحديث عائشة ﵂:(أن الصلاة أول ما فُرضت كانت ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ زِيدَ في صلاة الحضر وبقيتْ صلاة السفر على الفريضة الأولى)، فقالوا: إن قولها: (أول ما فرضت ركعتين) مع قولها: (على الفريضة الأولى)، يدل على أنه لا تجوز الزيادة على الركعتين في السفر كما أنه لا تجوز الزيادة على الأربع في الحضر، واستدلوا لذلك أيضًا بحديث عمر: «**صلاة السفر ركعتان**»[1]، فجزم بأن صلاة السفر ركعتان، وكذلك يُروى عن ابن عباس أنه قال: (صلاة السفر ركعتان وصلاة الحضر أربع وصلاة الخوف ركعة)، وأما الجمهور فأجابوا عن ذلك بأن معنى قول عائشة:(أُقرت على الفريضة الأولى)، أنه لم تزد، فالمراد به: نفي الزيادة لا تحريم الزيادة، ويدل لهذا: أن الصحابة ﷺ لما كان عثمان يتم في منى أنكروا عليه، ولكنهم تابعوه ومتابعتهم إياه يدل على أن القصر ليس بواجب، إذ إنه لو كان واجبًا ما صح أن يتابعوه، كما أن الإمام لو صلى خمسًا فإنه لا يُتابع ولو كان ساهيًا، فكذلك إذا صلى المسافر أربعًا، فإننا نقول: لو كان الواجب هو الركعتان ما تابعوه على ذلك، وهذا دليل واضح جدًّا على أن القصر ليس بواجب، وهو الأقرب عندي بعد أن كنت أرجح أن القصر واجب، لكن بعد التأمل

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦٣٨).

رأيت أن قول الجمهور أقرب للصواب، والله أعلم.

٣ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن قصر الصلاة ثابت في كل ما يُسمى ضربًا في الأرض، لقوله ﴿إذا ضربتم في الأرض﴾، وهذا مطلق لم يُقيد بيومين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: كل ما يسميه الناس سفرًا وضربًا في الأرض فإنه سفر، يثبت له أحكام السفر، ودليله: في الإطلاق، ودليل آخر أنه ثبت في «**صحيح مسلم**» أن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا خرج ثلاثة أميال أو فراسخ صلَّى ركعتين[1]، وقال الجمهور: بل السفر هنا مطلق لكنه مقيد قيدته السُّنة، وهو يومان قاصدان، وتقريبه بالفراسخ ستة عشر فرسخًا، يعني: أربعة بُرد، والبُرد جمع بريد، وسُميت بذلك؛ لأنها مسافات كانوا يقطعونها رسل البريد، فقد كانوا فيما سبق يجعلون مراحل للبرد، كل أربعة فراسخ بريد، والفرسخ ثلاثة أميال، يعني: كل اثني عشر ميلًا يكون بريدًا، كيف ذلك؟ يذهب الفارس من هذا المكان إلى المكان الآخر، وإذا فارس ينتظره، فيسلمه ما معه من الرسائل، إلى مثله، وإذا الفارس الثالث ينتظره، وهلم جرًّا، حتى يصلوا إلى آخر مرحلة، فيقول: لابد من أن تكون هذه المسافة وما دونها، وإن سمي سفرًا، وإن حمل له المتاع، وإن شدت له الرواحل فإنه لا يحصل فيه القصر، فيقال: أين الدليل على هذا؟ لم يَرد عن النبي ﷺ أنه حددها بل حديث أنس الذي ذكرناه آنفًا يدل على أنه يقصر في ثلاثة أميال أو فراسخ، إذا قلنا: الأعلى هل هو الفراسخ أو الأميال؟ الفراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال أين هي من ستة عشر فرسخًا ؟ فإذنْ: يرجع في ذلك إلى العُرف، لكن إذا اختلف العرف، فحينئذٍ يمكن أن نلجأ للضرورة إلى التحديد، ونقول بأنه يُحدد بالفراسخ عند الضرورة، أما إذا أمكن ضبط العرف فلا نعدل عنه، وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن هذا التحديد بالفراسخ غير صحيح بحسب الواقع؛ لأنه في عهد الرسول ﷺ ليس هناك أناس مسَّاحون يقيسون الأرض حتى بالذراع، بل حتى بالشبر، بل حتى بالأصبع، بل حتى بحبة الشعير؛ لأن الفقهاء الذين حددوا هذا حددوه إلى هذا الحد، قالوا: ستة عشر فرسخًا هي كذا وكذا وهذا كذا وكذا إلى أن وصلوا إلى شعرة وبناءً على ذلك لو كان هنا أناس نازلون، وبينهم وبين الآخرين شعرة، ولكن الأولون أقرب إلى البلد، صار الأولون غير مسافرين والذين بينهم وبينهم شعرة مسافرين، وهذا صعب أن يحقق الإنسان هذا، ويجعله حدًّا للناس، فعلى كل حال الذي نرى أن المرجع في هذا إلى العرف، وأن نطلق ما أطلقه الله، ومن المعلوم: أن العرف يختلف لو أن قومًا خرجوا في رحلة، تغدوا في البر ثم رجعوا، فإن هذا لا يسمى سفرًا ولا ضربًا في الأرض، ولو خرجوا في هذه المسافة في رحلة لكنهم أقاموا يومين أو ثلاثة لعُد ذلك سفرًا؛ لأن الناس يتأهبون له، وإن كان في العرف الآن لا يعدون النزهة سفرًا، حتى لو بقيت أيامًا، لكن هذا لا عبرة به، السفر كل ما يحمل له المزاد ويستعد له فإنه سفرًا، فإن قال قائل:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩١)، وأبو داود (١٢٠١).

الآن يوجد فنادق وسيارات وطائرات ولا يحتاج الإنسان أن يحمل متاعًا، قلنا: هذا لا عبرة به، العبرة بنفس المسافة والطريق الذي إذا أراده الإنسان استعد له، أما كون المتاع والزاد أصبح سهلًا في الأماكن، فهذا لا يمنع أن يكون سفرًا.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا أقام في سفره في مكان فإنه لا يلزمه الإتمام، بل يبقى قاصرًا؛ لأن الله أطلق، (إذا ضربتم في الأرض)، ولم يقل ما لم تمكثوا أربعة أيام أو عشرة أيام أو ما أشبه ذلك، وبناء على هذا: لو أن الإنسان سافر إلى بلد غير بلده وأقام فيها شهرًا فهو مسافر؛ وذلك لأن النصوص جاءت مطلقة غير مقيدة، وجاءت نصوص أخرى إيجابية تدل على عدم التقييد، وهي: أولًا: أن النبي ﷺ أقام عام الفتح في مكة تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة[1]، ولم يقل للناس أتموا، وأقام في تبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة، ولم يقل للناس أتموا، ثانيًا: أن الرسول ﷺ قدم مكة في حجة الوداع؛ وهي آخر سفرة سافرها في اليوم الرابع من ذي الحجة، ومكث فيها، وهو يقصر الصلاة، ولم يقل: للناس مَنْ قدم قبل اليوم الرابع فليُتِمَّ، أو من قدم قبل عشرة أيام فليتم، أو ما أشبه ذلك، فعُلم من هذا: أنه لا حد للإقامة التي تقطع حكم السفر، وهذا القول هو الذي اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ونصره بأدلة قوية ظاهرة، ذكر ذلك في أول باب صلاة الجمعة في «الفتاوى»، وفي مواضع كثيرة من كلامه، ونصره نصرًا عزيزًا وهو جدير بالنصر؛ لأن أي إنسان يقيد بأربعة أيام أو بخمسة أو بأكثر وأقل يُقال له: أين الدليل؟ لو كان هذا القيد لازمًا، لبينه الله تعالى في القرآن أو جاءت به السنة بيانًا واضحًا؛ لأن هذا مما توافرت الدواعي على نقله، ومما يحتاج الناس إليه، فكيف يُترك هملًا بلا بيان، ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة على نحو عشرين قولًا أو أكثر، ذكرها النووي رَحِمَهُ اللهُ في «شرح المهذب»، فمنهم مَنْ قال: أربعة أيام صافية، يعني: يحذف منها يوم الدخول ويوم الخروج، وهذا مذهب الشافعي، ومنهم من قال: أربعة أيام بيوم الدخول والخروج، وهذا مذهب الحنابلة، ومنهم من قال: خمسة عشر يومًا، وهذا مذهب أبي حنيفة، ومنهم من قال تسعة عشر يومًا، وهذا مذهب ابن عباس، ومنه أيضًا آراء أخرى من أراد أن يطلع عليها فليرجع إلى «شرح المهذب» فإنه قد بينها.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يجوز قصر الصلاة إلا عند الخوف، لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذا ظاهر الآية، لكن جاءت السنة تبين أن هذا ليس بشرط، يعني: أنه لا يشترط لجواز القصر الخوفُ، وذلك فيما ثبت في «صحيح مسلم» أن رجلًا قال لعمر: إن الله يقول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ونحن الآن آمنون، فقال عمر: (لقد عجبت مما عجبت منه، فسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**هَذِهِ صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٨٠)، وأبو داود (١٢٣٠)، وابن ماجه (١٠٧٦).

بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»[1])، وهذه سنة قولية تدل على أن الخوف ليس بشرط، وهناك سنة فعلية تدل على أن الخوف ليس بشرط، وهو أن النبي ﷺ قصَرَ في حجة الوداع، وهو آمن وليس هناك خوف إطلاقًا، وقال بعض العلماء: إن الآية لا تدل على أن هذا الشرط قيد؛ لأن هذا القيد جاء على الغالب، وأن الناس حين نزول الآية، أسفارهم مخوفة، وما جاء بناء على الغالب، فإنه لا يكون قيدًا، وهذا معروف في أصول الفقه، (أن القيد إذا كان بناء على الغالب فإنه لا مفهوم له)، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣]، فإن الربيبة لا يُشترط لتحريمها على زوج أمها أن تكون في حجره، لكن هذا بناء على الغالب، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣]؛ لأن هذا هو الغالب، فقالوا: إن الآية خرجت مخرج الغالب فلا مفهوم لقيدها، ـ سبحان الله!! ـ هؤلاء عكس الذين يقولون: إنه يشترط الخوف، وقال بعض العلماء: إن هذا القيد قيد للقصر من صلاة السفر، والقصر من صلاة السفر أن يجعلها واحدة، وعلى هذا فيكون المراد بقصر الخوف: أن تجعل الثنائية واحدة، واستدلوا لذلك بأنه جاء عن النبي ﷺ في صلاة الخوف أنه صلى بأصحابه ركعتين، كل طائفة صلت ركعة واحدة فقط، وانصرفوا، وإذن هذا هو أيضًا القول قول في هذه الآية فيكون المراد بقصر الصلاة هنا قصر صلاة الخوف إلى ركعة لا إلى ركعتين، وقال بعض أهل العلم وهو القول الرابع: إن القصر قصران: قصر عدد وقصر صفة، فقصر العدد: لا يشترط فيه الخوف، وقصر الصفة: يشترط فيه الخوف، قصر الصفة في صلاة الخوف مر علينا قريبًا، أنه يُفعل فيها أشياء لو فعلت في حال الأمن لأبطلت الصلاة، فخفف في هيئتها وكيفيتها، وهذا نوع من القصر، فهو قصر كيفية، وليس قصر كَمية، فهذه أقوال الناس التي تحضرني في هذه الآية، ولكن نقول:

إِذَا قَالَتْ حِذَامُ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ القَولَ مَا قَالَتْ حِذَامُ

وإذا كان النبي ﷺ قال: «**إنها صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»، ما بقي لأحد كلام، فنقول: إن الله تعالى شرط ذلك في أول الأمر، ثم سهَّل على عباده، وتصدَّق عليهم، ورفع هذا الشرط: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الخوف له أثر في تغيير الأحكام؛ لقوله، ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وهذا أمر معلوم، حتى إن الله قال: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٧، ٢٣٨]، حتى وأنت راجل تمشي أو راكب لك أن تصلي حتى وأنت تمشي وأنت راكب مادام الخوف محققًا، ثم إن الوضوء أو الغسل من الجنابة إذا خاف الإنسان على نفسه يتيمم، فالخوف له تأثير في تغيير

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٦٨٦)، والترمذي (٣٠٣٤)، والنسائي (١٤٣٣).

الأحكام الشرعية، حتى إن العلماء قالوا: لو صلى خلف الجدار، وعدوه يرقبه فإن قام رآه العدو، وإن صلى قاعدًا لم يره، فإنه يصلي قاعدًا.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حرص الكفار على فَتْنِ المؤمنين حتى في العبادات، لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن جميع الكفار أعداء لنا؛ لقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

٩- ومن فوائدها: أن عداوة الكفار لنا بينة ظاهرة؛ لأن (مبين) هنا بمعنى بيِّن واضح فإن قال قائل: كيف كانت بينة وقد اغترَّ بهم بعض الناس، وظنوا أنهم أولياء وليسوا بأعداء ؟ قلنا: إن الأعشى يعميه ضوء النهار، ولا يرى الشمس، فهؤلاء الذين يظنون أن الكفار ليسوا بأعداء لنا، لاشك أنهم قد أعماهم الله عز وجل، إما لمصالح دنيوية أو لغير ذلك، وإلا فمن تأمل أحوال الكفار وجد أنهم أعداء لنا، وأنهم يغزوننا بالسلاح ويغزوننا بالسِّلم، يعني: لا تظن أن غزو الكفار لنا بالحرب فقط، بل بالحرب والسلم، فإنهم إذا سالمونا أوفدوا علينا من أخلاقهم السافلة وعقائدهم المنحرفة ما يفسد المسلمين، ثم إنهم إذا سالمونا فإن منتجاتهم وصنائعهم تستهلك عندنا، ويتوفر لهم اقتصادنا، فهم يسلبوننا أموالنا، ويسلبوننا أخلاقنا، وربما يسلبون عقائدنا، ويُهدون إلينا أخلاقهم وأفكارهم، وبهذا نعرف أن الكافر عدو في الحرب وفي السِّلم؛ لأن الله تعالى لم يقيد ذلك في حال الحرب قال الله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

١٠- ومن فوائد الآية: التحذير من الاغترار بما يبديه الكافر من الموالاة، وجهه: أن العَالِمَ بما في الصدور والعالم بكل حال أخبرنا بأن الكافرين كانوا لنا عدوًا مبينًا، ولا أحد أعلم من الله بعباد الله.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا

أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٠٢]

التفسير

بعد أن ذكر الله - عز وجل - أن الضارب في الأرض يقصر من الصلاة إن خاف أن يفتنه الذين كفروا وبيَّن أن الكفار أعداء لنا عداوة بيِّنة ظاهرة، ذكر حكم الصلاة إذا تقابل الصَّفان؛ لأن الآية الأولى في الخوف أي: إذا خيف، أما الثانية فهي إذا تقابل الصفان فكيف تكون الصلاة؟

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، والضمير في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ يعود على الصحابة ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ أقمتها: يحتمل أن يكون المراد الإقامة التي هي الإعلام بالقيام للصلاة، ويحتمل أن المراد بالإقامة إقامة أركانها وواجباتها وشروطها وغير ذلك، وعلى الثاني يكون معنى قوله: ﴿فَأَقَمْتَ﴾ أي: أردت أن تقيم لهم الصلاة.

وقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ (الفاء) هنا رابطة جواب شرط غير جازم، وعلى هذا فلا يكون الجملة التي بعدها محلٌ من الإعراب؛ لأن جواب الشرط الذي لا يجزم ليس له محل من الإعراب، واللام في قوله: ﴿فَلْتَقُمْ﴾ للأمر وسُكِّنت لوقوعها بعد الفاء، ولام الأمر تسكَّن إذا وقعت بعد (الفاء أو الواو أو ثم)، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وفي هذه الآية: ﴿فَلْتَقُمْ﴾ وهي الحرف الثالث الذي إذا وقع قبل لام الأمر سُكِّنت لام الأمر، أما لام (كي) وهي التي للتعليل فإنها مكسورة، ولو وقعت بعد هذه الحروف الثلاثة مثل قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦] هنا لابد من كسر اللام.

وقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ (من) لبيان الجنس، والطائفة: هي الفرقة من الناس.

وقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ هذه نقول فيها مثلما قلنا في: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾.

والضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ يعود على الذين قاموا مع الرسول ﷺ، وليس مع الطائفة الأخرى، وقوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ السلاح ما يُقاتَل به؛ دفاعًا أو طلبًا، ومعلوم أنه ينقسم إلى أقسام كثيرة: ثقيل وخفيف ومتوسط، وسلاح يكون من بعيد وسلاح يكون من قريب، والآية عامة فيكون المراد: أسلحتهم التي يحتاجون إليها في الدفاع عن أنفسهم والتي لا تشغلهم عن الصلاة.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ الفاء تعود على الطائفة باعتبار المعنى؛ لأن الطائفة مفرد، لكن معناها الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلتا؛ لأن الطائفة للجمع.

وقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾ ﴿سَجَدُوا﴾ أي: أتموا صلاتهم وخصَّ

السجود؛ لأنه أفضل أركان الصلاة حيث إنه «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»(١)، والمراد بذلك: إذا أتموا صلاتهم.

وقوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: من وراء المصلين، وهنا قد يُشكل قوله: ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ مع أنه لم يبق بعد إتمام صلاتهم إلا الرسول ﷺ، لكن باعتبار ما يؤول إليه الأمر، فإن الطائفة الثانية سوف تأتي وتصلي، وفي قوله: ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ إشارة إلى أن العدو خلفهم وليس أمامهم.

وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ ونقول في اللام في قوله: ﴿وَلْتَأْتِ﴾ ما قلنا فيما سبق، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ﴾ هذه مجزومة بحذف حرف العلة وأصل، «تأت» «تأتي» بالياء، ولكن دخل عليها جازم فحُذفت الياء.

وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ أي: ثانية ﴿لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، وهنا قال: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، أما الأولى فلم يقل ذلك، بل قال: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾، فأضاف السجود إليهم وحدهم ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾ الحِذْرُ معناه: التثبت في الأمر والاستعداد له.

وقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (ود) بمعنى: أحب، لكنه قيل: إن الود هو صافي المحبة، فودَّ أعلى من أحب، وقوله: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ (لو) هذه مصدرية بمعنى أن، ولْيُعْلَم أن (لو) تأتي مصدرية كما هنا، والغالب أنها تأتي بعد وَدَّ وأحبَّ وما أشبهها، وتأتي شرطية مثل أن تقول: لو جاء زيد لأكرمته، وجوابها إن كان منفيًّا فإنه يكون بلا لام، وإن كان مثبتًا فإنه يأتي باللام، لكنه قد تقترن به اللام قليلًا إذا كان منفيًا بها، وعليه قول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِن لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي

يقول: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (تغفلون) أي: تتلهون بما أنتم فيه من الصلاة أو غيرها، ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: عليكم لقتالكم، وقوله: ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ كقولنا: ضربةَ رجل واحد، أي: يميلون عليكم جميعًا ميلة واحدة تقضي عليكم.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثم، ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ أي: تأذيًا من المطر أن تضعوا الأسلحة، ووجه ذلك: أن المطر سوف يَبلُّ الثياب ويبل السلاح ويحصل بذلك ثقل على

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٨٧٥).

المقاتِل، فإذا كان كذلك فلا حرج أن يضع السلاح، ولهذا قال: ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾.

وقوله: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أي: عاجزين عن حمل السلاح؛ لمرض من جراح أو غير ذلك.

وقوله: ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾ أي: ولا تحملوها، وقوله: ﴿أَن تَضَعُوٓاْ﴾ هذه من الذي حذف فيها حرف الجر اطرادًا، كما قال ابن مالك:

وفي أنَّ وأنْ يــطــردوا

أي: ولا جناح عليكم في وضع أسلحتكم، وعلى هذا تكون (أن) وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض.

وقوله: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ يعني: إذا وضعتم الأسلحة لأذىً من مطر أو مرض، فلا تغفلوا عن أخذ حذركم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ أي: هيّأ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي: عذابًا ذا هوان، وما هذا العذاب هل هو في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما؟ فيهما جميعًا، وهذه الآية كما شرحناها على وجه الاختصار فيها فوائد عظيمة:

الفوائد:

١ـ أولًا: توجيه الخطاب للرسول ﷺ هل يشمله والأمة أم يختص به؟ نقول: في هذا تفصيل: فتارةً يختص به، وتارةً يعمه والأمة بمقتضى اللفظ، وتارةً يعمه والأمة بمقتضى القياس والأسوة، فمن الأمثلة التي تختص به قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ١- ٤] فالخطاب هنا للرسول ﷺ ولا يشمل الأمة.

ومن الخطاب الذي يعمه و الأمة بمقتضى اللفظ والسياق قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، ولم يقل: إذا طلقت، فَصَدَّر الخطاب بالتوجيه للرسول عليه الصلاة والسلام ثم عمَّم فقال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، وهذا يعمه ويعم الأمة بمقتضى اللفظ.

وهناك خطاب خاصٌّ بالرسول، لكنه حُكمًا يعم الأمة، مثاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: ٩]، هذا خطاب خاص موجه للرسول خاصةً، لكنه يعمه والأمة.

هل يعمه والأمة بمقتضى أنه خطاب للأمة؛ لكن خُصَّ به رئيس الأمة؛ لأن العادة أن الخطابات توجَّه للرؤساء، أو أنه له وللأمة بمعنى: أن الأمة تتأسّى به فيكون من باب القياس؟

الجواب: ـ والله أعلم ـ الأول؛ لأن كونه خوطب به الرسول ﷺ؛ فلأنه زعيم الأمة، والخطابات في التوجيهات توجه إلى الزعماء.

إذنْ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا لا شك أنه خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هل هو يختص به بمعنى أن صلاة الخوف لا تشرع على هذا الوجه إلا في حياة

الرسول ﷺ وإذا كان مع الجيش؟

الجواب: قيل بذلك، وأن صلاة الخوف لا تشرع على هذا الوجه إلا في حياة الرسول ﷺ إذا كان في الجيش، لكن هذا قول ضعيف.

فإذا قال قائل: كيف يكون ضعيفًا والخطاب موجَّه للرسول؟

قلنا: إن العادة أن الخطاب موجه إلى زعيم الأمة، فإن كان الأمر هكذا فيحمل على هذا، وإلا فإنه بالقياس على حال الرسول ﷺ.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإمام مسئول عن صلاة المأموم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، كأنه يقيمها لهم، وهذا يعني: أنه يجب على الإمام أن يتبع السنة في صلاته، بينما لو كان يصلي بمفرده، فله أن يخفف وله أن يثقل حسب ما يريد، لقول النبي ﷺ: «وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُصَلِّ مَا شَاءَ»(١).

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب صلاة الجماعة على الأعيان؛ لقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾؛ لأنها لو كانت فرض كفاية لاكتُفِيَ بالطائفة الأولى، فلما أُمِرَت الطائفة الثانية بالصلاة جماعةً دل هذا على أنها واجبة على الأعيان.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله - سبحانه وتعالى - بالمجاهدين؛ حيث رحمهم ووزَّعهم إلى طائفتين، وإلا لكان المفروض أن يصلوا جميعًا، لكن من رحمته - سبحانه وتعالى - أن شرع التوزيع.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عدم مشروعية تكرار الجماعة، ووجهه: أن النبي ﷺ صلى بهم جماعة واحدة، وإلا لكان يصلي بالأولى ركعتين وبالأخرى ركعتين، ولكن يقال: إن هذه الفائدة خُرِمَت بما ثبتت به السنة من أوجه صلاة الخوف، أنه يصلي بكل طائفة ركعتين جماعة مستقلة.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب أخذ الأسلحة في الصلاة، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، **فإن قال قائل**: لعل هذا الأمر للإباحة؛ لأنه لما كان من المتوهم أن المصلي لا يحمل شيئًا يشغله أُمر بذلك، فكان هذا الأمر للإباحة، وإن شئت انتقلنا إلى أن يكون الأمر للاستحباب؛ لأن حمل ما يُشغل مع أنه مكروه في غير صلاة الخوف يدل على أن حمله في صلاة الخوف مستحب، وكلا الاحتمالين يبطلان بقوله في آخر الآية : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾، فإن هذا يدل على وجوب حمل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

السلاح، وأنه لا يُرخَّص بترك حمله إلا لسبب مرض أو أذى، وهذا هو القول الراجح: أنه يجب حمل السلاح في صلاة الخوف.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرخصة في حمل النجاسة في هذه الحال، وذلك متوقف على القول بأن الدم نجس، وأن الغالب أن الأسلحة ولاسيما بعد بدء القتال لا تخلو من دماء؛ ولهذا قال العلماء: يجوز في هذه الحال أن يحمل الإنسان سلاحًا نجسًا؛ لأن الحاجة داعية لذلك؛ لأنه تعالى أمر بحمل الأسلحة مطلقًا في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ولو كانت ملوثة بالدم.

ويتفرع عن هذه الفائدة: أن من لم يجد إلا ثوبًا نجسًا، فإنه يصلي فيه ولا إعادة عليه، ووجهه: لأنه لو لم تجز الصلاة فيها لوجب وضعها، وهذا هو القول الراجح؛ خلافًا لمن قال: من لم يجد إلا ثوبًا نجسًا فإنه يلزمه أن يصلي فيه ويعيد، وهذا قول ضعيف، ولا يمكن أن يوجب الله على عباده العبادة مرتين.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن السجود ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر به عن إتمام الصلاة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولا يعبَّر عن الكل بالجزء إلا والجزء ركن فيه لا يمكن للكل أن يصح بدونه.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضيلة السجود؛ لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾؛ لأنه خصَّه من بين سائر الأركان، وإلا فإن قبله ركوع وقيام وجلوس بين السجدتين.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يجب التشهد ولا التسليم؛ لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ فيقال: نعم هذا ظاهر الآية، لكن الشريعة يُكمِّل بعضها ببعض، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كنَّا نقول قبل أن يُفرض علينا التشهد... فصرح رضي الله عنه بأنه فريضة، والنصوص يكمل بعضها بعضًا، وعلى هذا فنقول: إن قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي: أتموا صلاتهم.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: توجيه المصلين صلاة الخوف إلى أن يكونوا من وراء المصلين ليحموا ظهورهم؛ لقوله: ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

فإن قال قائل: لماذا لا يكونوا من أمامهم ووجوههم نحو العدو؟

قلنا: هذا غلط؛ لأنهم إذا كانوا أمام المصلين، فإنهم يشوشون على المصلين، لاسيما وأن وجوههم ستكون مواجهة لوجوه المصلين، وأيضًا فإن وجوه المصلين لا حاجة إلى أن يكون هؤلاء في جهتها؛ لأنهم يرونهم، لكن هم محتاجون أن يكونوا من ورائهم حتى لا يبغتهم أحد في حال السجود أو في حال القيام أيضًا.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الآخرين يصلون جماعة يعني: الذين أرادوا أن

يتموا الصلاة يصلون جماعة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ يعني: إذا تخلفوا عن الإمام والإمام قد قام الآن إلى الثانية فإنهم يتمون جماعته، فيقال: نعم، هذا ظاهر الآية، لكنه ليس صريحًا، ولهذا فالظاهر: أنهم يتمون فرادى كلٌّ يتم لنفسه ثم يذهبون جميعًا إلى الميدان.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المشروع للإمام في صلاة الخوف إطالة الركعة الثانية، ويؤخذ ذلك من فعله ﷺ؛ لأنه إذا كانت الطائفة الأولى سوف تُنهي صلاتها ثم تذهب ثم تأتي الثانية ثم تدخل مع الإمام وينتظر حتى يقرأ الفاتحة، فسيكون الوقوف طويلًا وهو كذلك.

١٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز انفراد الإنسان عن الإمام لعذر، ووجهه: أن الطائفة الأولى انفردت وأتمت صلاتها، فإذا حصل للإنسان عذر لا يستطيع معه إتمام صلاته، فله أن ينفرد ويتم صلاته إن كان يستفيد بهذا الانفراد بحيث تكون صلاته مع الإمام أطول من صلاته إذا انفرد.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز إقامة جماعتين للحاجة في مكان واحد، ومثال الحاجة: أن يكون المسجد ضيقًا كالمساجد التي تكون في السوق المزدحم بالباعة والمشترين، فلا يسعهم أن يصلوا ولا يتمكنون من المتابعة في السوق، فنقول: لا بأس أن تصلي الجماعة الأولى ثم تأتي الجماعة الأخرى بعدها.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان يجب أن يكون حذرًا كلما دعت الحاجة إلى الحذر، ووجه ذلك: أن الله قال في الطائفة الثانية: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾، والطائفة الأولى لم يقل ذلك، وقد ذكرنا الفرق بين هذا وذاك، وهو أن الطائفة الأولى تشاغلت بالصلاة في وقت لا يمكن أن يستعد العدو لمهاجمتها، والفرق الثاني: أن الطائفة الثانية التي دخلت في الصلاة في حال عرف العدو أنهم مشتغلون بصلاتهم فرأى الفرصة للكرِّ عليهم.

١٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الطائفة الثانية أدركت جميع الصلاة بخلاف الطائفة الأولى، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، وقال في الأولى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: عدل الشريعة الإسلامية، ووجهه: أن الطائفة الأولى لَمَّا أدركت فضل تكبيرة الإحرام مع الإمام، عُوِّضت الثانية بكونها أدركت الصلاة مع الإمام، وهذا لا شك أنه من عدل الشريعة.

١٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أعداء المسلمين يتربصون بهم الدوائر ويتحينون الفرص؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾، ويؤخذ من هذا أن أعداء الإسلام قد يستغفلون أهل العلم الذين يبينون للناس فضائل الإسلام وقبائح الكفر، فإذا كانوا يستغفلون هؤلاء في حال القتال، فكذلك أيضًا في حال السِّلم

يستغفلونهم من أجل ألا يردوا عليهم ويبينوا ما هم عليه من الكفر.

١٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أعداء المسلمين يحبون الإجهاز على المسلمين بسرعة لقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾، وهذا ما صنعه الخبيث رئيس روسيا بالنسبة للشيشان، حيث أرسل جيوشًا جرارة عظيمة، وقال: إنه سوف يحسم الموقف بسرعة، فسياسة الكفار إذنْ واحدة من أول الأمر إلى آخره، يريدون القضاء على المسلمين بسرعة، ومرة واحدة؛ لأن التباطؤ يؤدي إلى فوات الفرصة عندهم، فيقولون: لا نفوِّت الفرصة.

٢٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: نفي الإثم إذا حصل أذًى بحمل السلاح ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ...﴾.

٢١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب أخذ الحذر من الكفار لقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، وهذا يشمل أخذ الحذر من الكفار اليوم؛ دخولًا في اللفظ.

٢٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تهديد الكفار بما أعد الله لهم.

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]

التفسير

قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ القضاء يراد به في اللغة الإتمام، أي: فإذا أتممتم، ويأتي القضاء بمعنى الإتمام في عدة مواضع من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي: أتمهن، أي: فإذا أتممتم الصلاة وأنهيتموها فاذكروا الله قيامًا وقعودًا ... إلخ.

(إذا) أداة شرط، وفعل الشرط: (قضى)، وجواب الشرط: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، وقُرن بالفاء؛ لأنه طلبٌ، والجملة الطلبية إذا وقعت جوابًا للشرط وجب اقترانها بالفاء.

وقوله: ﴿قِيَٰمًا﴾ حال من الفاعل في ﴿فَاذْكُرُوا﴾، يعني: حال كونكم قيامًا.

وقوله: ﴿وَقُعُودًا﴾ الواو هنا لمطلق الجمع أي: اذكروا الله في حال قيامكم وفي حال قعودكم.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ معطوفة على الحال ﴿قِيَٰمًا﴾، وعلى هذا فيكون الجار والمجرور

في موضع نصب على الحال.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يقال في هذه الجملة ما قيل في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، موضع الجملة مما قبلها أنها تعليل، وقوله: ﴿كِتَـٰبًا﴾ خبر كان و﴿مَّوْقُوتًا﴾ خبر كان ثانٍ، ولا يصح أن تكون صفةً.

يقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: إذا فرغتم منها والصلاة هنا (أل) فيها للعهد وليست للجنس، وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يشرع الذكر دبر كل صلاة، إنما يكون دبر الصلوات المكتوبة، وعلى هذا فـ (أل) للعهد الذهني، وإن شئت فقل: الذكري؛ لأن الله قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ أمر الله تعالى بذكره، وهذا مجمل لم يُبيَّن كيف يذكر، ولا بماذا يذكر، ولكن السنة بينت ذلك فهو كقوله: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يبين، والسنة بينت ذلك، فهل المراد الذكر باللسان أو بالقلب واللسان أو بالقلب فقط؟ الجواب: بالقلب واللسان، لكن من ذكر بلسانه حصل المقصود إلا إنه ناقص؛ لأن الذكر ذكر القلب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] فهذه الحال التي يذكر الله فيها ربه بعد الصلاة أنه على أي حال فليذكر الله.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ فعل من الطمأنينة، والطمأنينة هي زوال القلق، والمراد بها هنا زوال الخوف من العدو.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوها تامة كما تؤدونها قبل الخوف.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ يعني: من جملة إقامة الصلاة أن تؤدَّى في وقتها بدليل الجملة التعليلية بعد ذلك وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

الفوائد:

١ـ أفادت الآية الكريمة فوائد منها: الأمر بذكر الله بعد انتهاء الصلاة، لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين آية الجمعة، حيث قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]؟

قلنا: الجواب هو أن لكل مقام مقالًا، ففي سورة الجمعة منعهم الله من البيع بعد نداء الجمعة

حتى يُصَلُّوا، فكأن الناس محبوسون عن البيع والشراء مدة الصلاة، فكان من أهم ما يكون عندهم أن يطلق حبسهم، ولهذا قال: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، والأمر هنا ليس للوجوب ولا للاستحباب، ولكنه للإباحة كما سيأتي إن شاء الله تعالى، أما هنا فليس هناك أمر بالحضور إلى الصلاة وترك البيع والشراء فلهذا بدأ بالذكر.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يُشرع الدعاء بعد التسليم، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ﴾ ولم يقل: فادعوا الله.

فإن قال قائل: أليس من المشروع أن الإنسان إذا سلَّم استغفر ثلاثًا؟

قلنا: بلى، ولكن هذا الاستغفار استغفار لمحو ما عسى أن يكون في الصلاة من تفريط أو إخلال، فهو في الحقيقة تابع لها؛ ولهذا كان من الأفضل أن يُبادر به الإنسان قبل الذكر حتى يزيل ما في الصلاة من إخلال وتقصير.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الذكر بعد الصلاة لا يشترط أن يجلس الإنسان حتى ينهيه، بل له أن يذكر ولو كان قد انصرف، لقوله: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: على أي حال.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الذكر لا ينقص إذا قعد الإنسان من قيام أو قام من قعود أو اضطجع، وهذا هو الأصل، اللهم إلا أن يترتب على ذلك أنه إذا كان قائمًا فهو أنشط له، لكن الغالب أن القاعد أخشع؛ لأن القائم لن يقوم ويقف بل سوف يمشي.

والأَوْلى أن يذكر الله تعالى في مكانه؛ لأن هذا أقرب إلى القيام بهذا الذكر؛ لأن الغالب أن الإنسان إذا مشى وانصرف إما أن ينسى أو يلهيه أحد أو ما أشبه ذلك، لكن في مكانه هذا أفضل ولا شك.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الواجب: إذا زال الخوف أن تُعاد إقامة الصلاة على ما كانت عليه حين الأمن، لقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الصلاة فرض؛ لقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾؛ لأن كتابًا بمعنى فرضًا.

فإن قال قائل: الآية الكريمة فيها ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهل ظاهرها أن غير المؤمنين لا تجب عليهم الصلاة؟ **قلنا:** نعم، غير المؤمنين لا تجب عليهم الصلاة بمعنى أنهم لا يُطالبون بها ، بل يقال: أسلموا ثم صلوا، ولهذا لو صلى وهو باقٍ على كفره لم تقبل منه.

فإن قال قائل: هل في هذه الآية دليل على من قال: إن الكفار لا يُخاطبون بفروع الإسلام؟ **نقول:** نعم استدلوا بها لكن استدلالهم لا يتعين؛ لقوله تعالى في سورة المدثر: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٩- ٤٣]، فدل ذلك

على أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام، وهذا هو الحق، لكنهم لا يُلزمون بها وهم على كفرهم بل يُقال: أسلموا ثم صلوا.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الصلاة موقتة، لقوله: ﴿مَّوْقُوتًا﴾، وهذا مما يوجب أن يجتمع الناس عليها؛ لأنها لو كانت غير موقتة لاختلف الناس، هذا يصلي في الصباح، وهذا في الظهر، وهذا في العصر، ويصلون سبعة عشر ركعة في أي وقت شاءوا، ولكن من أجل أن يكون الناس متحدين في وقت واحد حددت الأوقات.

وهذه الآية مطلقة لم يبيَّن فيها الوقت، لكن بينته السنة تفصيلًا، وبينه القرآن بنوع من الإجمال في موضع آخر، مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فإن هذه الآية انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال بعض المفسرين: إن اللام هنا بمعنى (من) بدليل الغاية فيكون معنى الآية : من دلوك الشمس إلى غسق الليل، ودلوك الشمس هو زوالها، وغسق الليل شدة ظلامه، وأشد ما يكون الليل ظلامًا في منتصف الليل، لأن منتصف الليل أبعد ما تكون الشمس عن الأرض.

إذنْ فالآية الكريمة حددت الوقت من زوال الشمس إلى غسق الليل، لكن الله جعله وقتًا واحدًا؛ لأن هذه الأوقات الأربعة كلها متوالية، يدخل وقت العصر بخروج وقت الظهر، ووقت المغرب بخروج وقت العصر، ووقت العشاء بخروج وقت المغرب إلى منتصف الليل، فما بعد منتصف الليل ليس وقتًا، ولهذا لو أن المرأة طهرت بعد نصف الليل لم يلزمها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب بالأولى.

لكن السُّنة فصَّلت تفصيلًا زائدًا على هذا: فوقت الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر: إلى اصفرار الشمس والضرورة إلى الغروب، والمغرب: إلى مغيب الشفق الأحمر، والعشاء: إلى نصف الليل كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[1].

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الوقت مقدم على جميع الشروط، ووجهه: أن الله قال لما ذكر صلاة الخوف ثم صلاة الأمن بيـَّن أن هذا من أجل مراعاة الوقت، والأمر كذلك، أي: أن الأمر مقدم على جميع الشروط، ولهذا إذا لم تجد ماءً تيمم حتى تصلي في الوقت، وإذا لم تجد ماءً ولا ترابًا صلِّ على حسب حالك ، وإذا لم تجد ثوبًا تستر به العورة صلِّ على حسب حالك ولا تنتظر حتى تحصل على ثوب؛ لأن الوقت مقدم على كل شيء.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان لو قَدَّم الصلاة كلها أو جزءًا منها ولو يسيرًا على الوقت فإنها لا تصح، ولهذا لو كبَّر لصلاة المغرب قبل مغيب الشمس بمقدار التكبيرة فإنها لا تصح، وإن أخَّر الصلاة عن وقتها فإن كان لعذر صحَّ، ودليل ذلك قوله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦١٢)، والنسائي (٥٢٢)، وأبو داود (٣٩٦).

نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»[1]، وإن كان لغير عذر فقد اختلف العلماء في هذه المسألة، فجمهورهم على أنه يلزمه أن يصلي، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : لا يلزمه أن يصلي، بل ولا تصح الصلاة منه، وما ذهب إليه الشيخ هو الصواب، ولكننا نقول له: لا تصلِّ لا تخفيفًا عليه ولكن عقوبة له، لأنه غير مقبول منه، إذ لو قبلت الصلاة بعد وقتها ممن أخرها عن وقتها عمدًا لم يكن لتهديد فائدة ، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، وعليه: فإذا جاءنا رجلان بعد طلوع الشمس: أحدهما ترك صلا ة الفجر عمدًا، والثاني تركها نومًا لعدم من يوقظه، فيسألان: أنصلي صلاة الفجر بعد طلوع الشمس أم لا؟ نقول: أما من غلبه النوم فيصلي، وأما الثاني فلا يصلي، وهذا عقوبة للمتعمد أن الله لا يقبل منه ولو صلى ألف مرة؛ لأنه متعدٍّ لحدود الله.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٠٤]

التفسير

لما ذكر صلاة الخوف وما يترتب عليها ووجوب أخذ الحذر من أعدائنا، وأن أعداءنا لنا عداوتهم بينة، وذكر ما يتعلق بذلك في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ قال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: لا تضعفوا، و(لا) ناهية، وحذفت النون من أجل النهي، وقوله: ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ﴾ أي: في طلب القوم، والقوم هم أعداء المسلمين.

ثم بيـَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا وجه للوهن والضعف في طلبهم، فقال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ يعني: هم يطلبونكم ويريدون إيلامكم وإذا تألمتم منهم فإنهم هم أيضًا يتألمون منكم كما تتألمون منهم، وهذا فيه التسلية للمجاهدين المقاتلين، ولكن الفرق بيننا وبينهم فرق كبير أبعد مما بين السماء والأرض .

قال الله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أنتم ترجون من الله النصر الذي وُعدتم به إذا اتقيتم الله عز وجل، وترجون ثواب الآخرة، وهم لا يرجون ثواب الآخرة قطعًا، والنصر قد يرجونه وقد لا يرجونه، وإذا رجوه فإنما يريدون الانتصار عصبيةً لأوطانهم وقومهم، فصار فرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء، ولهذا لما نادى أبو سفيان يوم أحد فقال: (يوم بيوم بدر والحرب سجال) ، أجابه الصحابة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، مسلم (١٧١٨).

فقالوا: لا سواء: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

فإذا كنا نساويهم في ألم الجراح، وألم القتل، وألم فَقْدِ المال وغير ذلك، فإننا نمتاز عنهم بأننا نرجو من الله ما لا يرجون، فكيف يكونون هم أقوياء في طلبنا ونحن ضعفاء؟! هذا لا يليق.

وقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: تطمعون فيما عند الله من الثواب والنصر وهم لا يطمعون في ذلك، لأن قلوبهم خاوية من الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مثل هذا يقع في القرآن كثيرًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهل هو كان وزال أو كان ولا يزال؟ كان ولا يزال، ولهذا نقول: إن (كان) هنا مسلوبة الزمان، أي: لا تدل على المضي، وإنما تدل على تحقق الأمر ووقوعه، لا على أنه كان فزال.

وقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يخفى أن علم الله سبحانه وتعالى واسع، يشمل الماضي فلا ينسى، والمستقبل فلا يُجهل، ويشمل الخفي والجلي، ويشمل ما في حقه وحق عباده، فهو يعلم سبحانه وتعالى ما سيجري علينا غدًا، وماذا سنعمل ويعلم ما سيفعله سبحانه وتعالى هو بنفسه غدًا وما لا يفعله، فعلم الله واسع، ثم إن علم الله متعلق بالواجب والجائز - يعني الممكن - والمستحيل، ولذلك تعتبر هذه الصفة - أعني: صفة العلم - من أوسع الصفات.

فتعلقه بالواجب: كعلمه جل وعلا بذاته وأسمائه وصفاته.

وتعلقه بالممكن: هو تعلقه بما يحدث في هذا الكون؛ لأن كل الكون من باب الجائز والممكن.

وتعلقه بالمستحيل: مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فهنا حكم جل وعلا أنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسدتا، ووجود ذلك مستحيل، ومع هذا علم الله بنتائجه مع أنه مستحيل.

فإذا قال قائل: ما هو العلم؟

قلنا: هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا ولا نحتاج أن نقول مطابقًا؛ لأننا قلنا: إدراك الشيء على ما هو عليه فيغني عن كلمة مطابقًا.

فعدم الإدراك بالكلية: جهل.

وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه: جهل مركب.

وإدراك الشيء بلا جزم بل بشك: ظن أو شك أو وهم، فما غلب على الظن فهو ظن، ومقابله الوهم، وما تُردد الأمر فيه فهو شك.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾: يصلح أن تكون صفةً مشبهةً من الحكمة، وأن تكون اسم فاعل حوِّل إلى فعيل من الحُكم، فهي من باب المشترك اللفظي، والقاعدة في التفسير: أنه متى احتمل اللفظ معنيين لا يتنافيان، فإنه يحمل عليهما جميعًا، فعليه نقول: الحكيم من الحكمة ومن الحُكم.

ثم نقول: حكم الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: حكم كوني؛ وهو ما قضاه كونًا، وحكم شرعي: وهو ما قضاه شرعًا.

والحكمة تنقسم أيضًا إلى قسمين: حكمة في كون الشيء على صورته التي خلق عليها، أو على صورته التي شُرع، والحكمة الثانية: حكمة غائيَّة، بمعنى أن الغاية من هذا الشيء، وحينئذٍ يصير الأمر إلى أربعة: حكمة في الصورة والغاية في الحكم الشرعي، وحكمة في الصورة والغاية في الحكم الكوني، الجميع أربعة.

فمثلًا في سورة الممتحنة ذكر الله سبحانه وتعالى أحكامًا ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وهذا حكم شرعي، وفي سورة يوسف قال أحد إخوته: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠] هذا حكم كوني.

أما مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، و﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] وما أشبه ذلك فالظاهر: أنه شامل للحكم الكوني والشرعي.

أما الحكمة: فإن الإنسان إذا تأمَّل المخلوقات بعناية وعقل وفهم تبيَّن له أنه لا يوجد فيها شيء إلا بحكمة، حتى المصائب من الأمراض والهلاك والفتن، كلها لحكمة، لكن تحتاج إلى تدبر وتعمق ونظر، لا إلى السطحية، تجد أن الله عز وجل قدَّر هذا الشيء لحكم عظيمة، ولا أدل على هذا من قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] والأدلة على هذا كثيرة، مع أنها مصائب لكنها حِكَمٌ، وكم من إنسان نشاهده في وقتنا الحاضر تحصل له مصيبة، إما في نفسه وإما في أهله، ويكون فاسقًا ثم يعود ويهتدي.

وكذلك في الأمور الشرعية، لا ترى شيئًا شرعه الله إيجابًا أو إعدامًا إلا والحكمة في ذلك، يقول بعض أهل العلم: إن الله لم يأمر بشيء فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء فيقول العقل ليته لم ينه عنه.

وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا قال فيه: «**موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول**» صريح المعقول: يعني: العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات، للنقل الصحيح: الكتاب وما صحَّ عن النبي ﷺ، أما الأحاديث الصحيحة؛ فقد يأتي فيها ما يخالف العقل.

فإذنْ: الحكمة في حكم الله الشرعي، وفي حكم الله الكوني، وكل منهما إما أن تكون الحكمة في صورته التي عليها، أو في الغاية التي من أجلها حكم الله به.

الفوائد:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تشجيع المسلمين على جهاد الكفار؛ لقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي القوة والمتابعة في طلب الكفار، وألا يلحقنا الوهن، لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا يلحقكم الوهن في طلبهم.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن بني آدم في الأمور البشرية على حد سواء، فإذا كان الكافر يتألم فالمؤمن يتألم، حتى الأنبياء في الأمور البشرية كغيرهم من الناس، لكنهم يختلفون عنهم في الصفات المعنوية كالصبر والتحمل والإقدام والعزيمة وغير ذلك.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان إذا عمل العمل الصالح أن يكون راجيًا، لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، وهذا الرجاء عند ابتغاء القوم وطلبهم، وهكذا ينبغي للإنسان إذا وفقه الله للعبادة أن يكون راجيًا ثوابها؛ لأن من بشرى الإنسان أن يُوفَّق للعبادة، فمن وفِّق للعبادة على ما يرضي الله فهي بشرى بالقبول، كما أن من وفِّق للدعاء فهي بشرى بالإجابة، ولهذا قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهذا ربما يكون هو الفيصل في مسألة تغليب الرجاء على الخوف، فإن السالكين اختلفوا هل الأفضل للسالك إلى الله عز جل أن يقدِّم الرجاء أو يقدم الخوف أو أن يكونا سواء؟ فمنهم من أطلق أن الأفضل أن يكونا سواء كالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، قال: الخوف والرجاء بمنزلة جناحي الطائر إذا انخفض أحدهما يعلو الأخر فلابد أن يكونا سواء، وقال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحد فأيهما غلب هلك صاحبه .

ومن العلماء من قال: نقدم الرجاء؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ»(١) .

ومنهم من قال: نغلب جانب الخوف حتى يكون مبتعدًا عن محارم الله؛ لأن الذي يحملك عل ترك المحارم هو الخوف من عقوباتها وآثارها السيئة.

والذي يظهر لي أن يُقال: إذا فعل الحسنة فالأولى أن يغلِّب جانب الرجاء، وإذا همَّ بالسيئة فالأَوْلَى أن يُغلب جانب الخوف.

أما عند الموت فالأولى للإنسان أن يغلب جانب الرجاء؛ لأنه في هذه الحال يجب أن يكون عنده توبة ورجوع إلى الله عز وجل، لأنه أحوج ما يكون إلى التوبة في ذلك الوقت.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكافرين لهم رجاء، لكنه ليس كرجاء المؤمنين، ربما يؤخذ من قوله: ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والكافر قد يكون عنده توكل ولجوء إلى الله وافتقار إليه؛ ولاسيما إذا وقع في الشدة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فإذا لجأوا إلى الله وصدق لجوؤهم أنقذهم الله عز وجل، وهنا أيضًا ربما يكون عندهم في حال قتال المؤمنين رجاء؛ لاسيما إذا كانوا يعتقدون أنهم على حق، وقد يُقال: إن قوله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).

﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ليس إثباتًا لأصل الرجاء مع الاختلاف في صفته، بل هو نفي للرجاء إطلاقًا، وهذا واقع في القوم الملحدين الذين لا يؤمنون برب كالشيوعيين مثلًا، فإن هؤلاء لا يرجون الله إطلاقًا؛ لأنهم لا يعترفون به، فالآية صالحة لهذا وذاك.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله، هما: (العليم والحكيم) لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وإثبات ما تضمناه من الصفات وهي: العلم من العليم، والحكمة من الحكيم، والحكم من الحكيم أيضًا؛ لأن الحكيم ذو الحكمة والحكم.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات كمال الله عز وجل في حكمته تعالى حيث قرن بين العلم والحكمة إشارة إلى أن حكمته صادرة عن علم، وليست عن صدفة؛ لأن الإنسان قد يفعل الفعل ويكون محكمًا متقنًا، ولكن على غير علم بل صدفة، كما يقال: «رُبَّ رمية من غير رام»، لكن حكمة الله عز وجل مقرونة بالعلم، مبنية عليه.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب علينا التفويض التام فيما لا نعلم حكمته من أحكام الله، الكونية أو الشرعية، ووجه ذلك أنه عليم، فعنده من العلم ما يخفى علينا، فيخفى به وجه الحكمة بالنسبة إلينا؛ لأن حكمة الله صادرة عن علم.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّا﴾ الضمير يعود على الرب عز وجل، ولم يقل: إني تعظيمًا لشأنه جلَّ وعلا، وتعظيمًا للمتحدَّث عنه وهو إنزال الكتاب، فالتعظيم هنا لعظمة المنزِّل ولعظمة المُنَزَل.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ (نا) هنا للتعظيم ، وقوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ إليه مباشرة، وإلى الناس بواسطة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ .

وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ هو القرآن وسمي بذلك لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ. والثاني: أنه مكتوب بأيدي الملائكة البررة كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢- ١٦] الوجه الثالث: أنه مكتوب بأيدي البشر، يكتبه الناس وقد سهَّل الله لهم ذلك، فكان يكتب من عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا.

وأصل الكَتْب: من الجمع؛ لاجتماع الكلمات والحروف، ومنه الكتيبة للطائفة المجتمعة في قتال الأعداء.

وكتاب هنا بمعنى مكتوب، فهو فِعال بمعنى مفعول.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء هنا إما أن تكون للمصاحبة، وإما أن تكون للتعدية، وكلاهما صحيح، فهو نازل بحق، فليس مكذوبًا، بل نزل من عند الله حقًّا؛ وهذا لإثبات نزوله من عند الله، كذلك أيضًا هو نازلٌ بالحق، وكل ما نزل به القرآن فهو حق إن كان خبرًا فهو صدق، وإن كان حكمًا فهو عدل، فالحق وصف للقرآن في حد ذاته، وأنه صدق ومن عند الله، وفيما جاء به فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل، ثم مع ذلك إذا تدبرت القرآن جاعلًا إياه دليلًا على الحق فإنه لا بد أن يهديك للحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢]، وتيسيره شامل لتيسير لفظه ومعناه والعمل به، لكن يحتاج إلى تذكُّر.

وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ليحكم بالقرآن، فالرسول ﷺ يستدل بالقرآن كما أننا نستدل بالقرآن، وتحكم بينهم في فصل الخصومات أو في بيان أحكام أعمالهم، وقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بـ (تحكم)، أي: تحكم بالذي أراك الله.

وقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الرَّأي أو الرؤية، فيشمل ما استنبطه النبي ﷺ من القرآن وإن لم تكن دلالته صريحة باللفظ، وهذا من الرأي، أو بما أراه الله أي: بما تبين له من ألفاظ القرآن.

ويحتمل أن تكون من العلم أي: بما أعلمك فتشمل المعنيين.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ لما ذكر الله أنه أنزل عليه الكتاب بالحق، نهاه أن يكون خصيمًا للخائنين، أي: لذوي الخيانة، والخيانة هي الغدر في موضع الأمانة؛ وهي صفة ذم بكل حال، بخلاف المكر والخديعة، فإنها تكون أحيانًا مذمومة وأحيانًا محمودة، إذا كانت في موضع يحسن فيه المكر والخداع تكون محمودة وإلا فهي مذمومة، أما الخيانة فلكونها غدرًا في موضع الائتمان فهي مذمومة في كل حال، ولذلك يُوصف الله بالمكر والخداع ولا يُوصف بالخيانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ذلك بأنهم ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل فخانهم، وكان مقتضى المقابل أن يقول: فخانهم كما قال: ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾، لكن الخيانة لما كانت صفة ذم على كل حال صار الله تعالى منزهٌ عنها.

وقوله: ﴿خَصِيمًا﴾ أي: مخاصمًا.

وهل يكون عليهم خصيمًا ـ يعني ضدهم ـ؟ نعم.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية فوائد منها: بيان عظمة الرب سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿إِنَّآ﴾.

فإن قيل: هل تعظيم المتكلم نفسه صفة مدح أو صفة ذم؟ نقول: أما بالنسبة لله عز وجل فهي صفة مدح ـ لا شك ـ؛ لأنه جلَّ وعلا هو المتكبر المتعال المستحق للحمد والمدح، أما من الإنسان فهذا فيه تفصيل: قد يكون من المستحسن أن تعبر عن نفسك بصيغة التعظيم إذا كان في ذلك إهانة للأعداء وبيان لمنزلتك فإن التعظيم في هذا المكان أمر ممدوح، قال النبي ﷺ في مِشْيَةِ الخُيَلَاءِ: «إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْطِنِ»[1] ولما كانت رسل قريش تأتي إلى الرسول ﷺ في صلح الحديبية كان المغيرة بن شعبة واقفًا على رأسه ومعه السيف، وهذا تعظيم يُنهَى عنه، كان الرسول يأمر المصلين خلف من كان قاعدًا أن يصلوا قعودًا، لكن في هذا المقام فيه إغاظة الأعداء فكان ممدوحًا.

كما أنه ﷺ في تلك الحال كان إذا بصق يلقاه الصحابة ﷺ بأيديهم يمسحون بذلك وجوههم وصدورهم، ولم يكونوا يفعلون هذا في كل حال لكن إغاظة للكفار، وكانوا يقتتلون على وضوئه، وقد أثر ذلك في رسول قريش لما رجع إلى قريش قال: دخلت على الملوك وكسرى وقيصر والنجاشي فلم أر أحدًا يعظمه أصحابه مثلما يعظم أصحاب محمد محمدًا.

المهم: أن من التواضع أن يذكر الإنسان نفسه بصيغة المفرد، لكن في مقام ينبغي فيه أن يكون معظمًا لنفسه، معتدًا بشخصه فإنه ينبغي أن يذكر اللفظ الدال على التعظيم.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: علو الله عز وجل، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ والنزول لا يكون إلا من علو، والقرآن كلام الله فإذا كان القرآن نازلًا لزم أن يكون المتكلم به عاليًا.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإذا قال قائل: هذا الاستدلال ممنوع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وكل هذه مخلوقة، فلا يلزم من إنزال شيء أن يكون غير مخلوق، فالجواب أن يقال: هذه أعيان قائمة بنفسها منفصلة عن مُنْزِلها، أما القرآن فهو كلام والكلام ليس عينًا قائمة بنفسها بل هو وصف للمتكلم، فإذا كان الله أنزله لزم أن يكون الله فوق، وبهذا بطلت شبهة الجهمية والمعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: المنقبة العظيمة لمحمد ﷺ؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز كتابة القرآن، وهذا أمر متفق عليه بين الأمة، بل قد تكون كتابته واجبة، ولكن على أي وجه يكتب، هل بالحروف اللاتينية أم بالحروف العربية وبالخط الكوفي أو الخط الفارسي، أو بأي شيء؟ أحسن ما يكتب به أن يكون على الحرف العثماني

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢١٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٩): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه».

هذا أحسن ما يكون.

لكن هل يجوز أن يكتب على غير هذا الوجه بالقواعد المعروفة عن الناس، أو أن يكتبها على الخط العثماني؟ للعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يجب أن يُكتب بالخط العثماني، وإن خالف القواعد المعروفة.

الثاني: يجب أن يُكتب حسب القواعد العرفية حتى لا يَخفى على العامة؛ لأنهم لولا أنهم يتلقون الزكاة من العلماء بهذا اللفظ لنطقوا حسب الكتابة (الزكوة) وكذلك غيرها.

الثالث: التفصيل إذا كان المقصود التعليم فليكتب بالخط العرفي؛ لأنه أقرب، وإذا كان المقصود التلاوة ونحن نكتبه لقوم يعرفون تلاوته فنكتبه بالخط العثماني.

ولم نرَ أحدًا جوَّز أن يُكتب القرآن بشكل قصور أو سيارات أو مثلًا إذا كتب: (والطير) كتب بصورة طائر، والجبال بصورة جبل... إلخ. وهذا من الاستهزاء بكتاب الله أقرب منه إلى التعظيم، فالتعظيم له حدود لا بد أن يكون بالحدود الشرعية، أرأيت لو قال قائل: أنا أقدس كتاب الله العزيز وأحمله في جيبي حتى في موضع قضاء الحاجة... يقال له: هذا لا يصح؛ لأن التعظيم فيه حدود.

فالناس صاروا يعبدون الله عز وجل على غير بصيرة، ولا نظن أن الحامل لهذا امتهان للقرآن بل الحامل لهم على هذا محبة القرآن - فيما نظن - ولكنهم أخطأوا الطريق، وكم من إنسان أراد خيرًا لكنه أخطأ في المنهج والمسير الموصل لهذا الخير.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وصف القرآن بما لا يدع مجالًا للشك أن التمسك به هو الخير للأمة، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فإذا أرادت الأمة النصر والتمكين فلتكن قائمة بالقرآن الكريم؛ لأنه نزل بالحق.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العلل في أفعال الله الشرعية والكونية، وتؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأن اللام للتعليل، ولا شك أن تعليل أحكام الله عز وجل ثابتة ثبوتًا قطعيًّا لا إشكال فيه، وأنها من تمام صفاته، وقد أنكر قومٌ أن يكون فعل الله تعالى أو حكمه لحكمة، وقالوا: إن أفعال الله ما لها حكمة؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأنه يفعل لمجرد مشيئة، لكنهم أخطئوا؛ أخطئوا بما استدلوا باستدلالهم وأخطأوا بحكمهم؛ لأننا لو رفعنا الحكمة عن أفعال الله وأحكامه لكانت أحكامه وأفعاله لعبًا ولهوًا ولغوًا، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ويقول جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ويقول تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الأفعال بلا حكمة لعب ولهو وسدىً وعبث.

فاستدلالهم بالآية دليل عليهم؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يُسأل عمَّا يفعل لكمال حكمته، وقد تخفى علينا لكن هذا هو الأصل، أمَّا نحن فَنُسأَلُ.

وأما تعليلهم بأنه لو كان يفعل لحكمة لكانت أفعاله واجبة؛ لأن الحكيم يجب أن يتبع ما تقتضيه الحكمة، فنقول: وليكن هذا، لكن من الذي أوجب عليه هذه الأفعال؟ هو الله وقد قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، التزم الله بالهدى والبيان للناس، وأما الملك فقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تفويض الأمر إلى النبي ﷺ في الحكم بين الناس بما أراه الله، ويتفرع على هذه الفائدة: أن له أن يجتهد.

ثم إن لم يكن اجتهاده موافقًا للواقع فلا شيء عليه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ بِمِثْلِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْتَطِعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»(١).

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: نهيُ النبي ﷺ أن يكون مخاصمًا للخائنين، لقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، ويتفرع على ذلك: أنه لا يحل للمحامين أن يتولوا مهنة المحاماة من أجل الانتصاف لمن وكلهم بغير الحق، كما هو شأن الكثير من المحامين اليوم، تجده يحامي عن الشخص في المخاصمات لا من أجل أن يصل إلى الحق، لكن من أجل أن يكذب فيُعْطى ما شُرط له.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وهذا يُعلم بسبب نزول الآية، وسبب نزول الآية: أن رجلًا من الأنصار قيل: إنه منافق والله أعلم سرق درعًا وأخفاها، ولمَّا علم أن الناس علموا بذلك حمله ووضعه في بيت رجل آخر قيل: إنه يهودي، وقيل: إنه غير يهودي، من أجل أن يُتهم هذا الذي وجد في بيته، ولمَّا أحس قومه أن الأمر بلغ النبي ﷺ ذهبوا إليه وقالوا: إن صاحبنا لم يسرق، وإنما السارق غيره، يريدون أن يبرأه النبي ﷺ من ذلك حتى يبرأ؛ لأنهم قالوا له: إن لم تبرئه فإن الناس سوف يتكلمون فيه، لكن إذا جاءت براءته من عندك أسكتَّ الناس، فهمَّ النبي ﷺ بذلك لثقته بأصحابه وعدم ثقته باليهود ـ على قول أكثر المفسرين أن الذي وضعت في بيته هذه السرقة كان يهوديًا ـ فأنزل الله عليه هذه الآيات، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، مسلم (١٧١٣).

ومعنى خصيمًا: أي مخاصمًا له، وفعيل تأتي بمعنى مُفعل، كقول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

فالسميع هنا بمعنى المُسمِع.

قال الله تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦، ١٠٧]

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ واستغفر الله: أي: اطلب مغفرته، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، يعني: إسقاط العقوبة عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الجملة صلتها بما قبلها التعليل، أي: استغفر الله؛ لأنه جل وعلا يغفر ويرحم كل من استغفره وطلب رحمته.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن هم النبي ﷺ وميله إلى هؤلاء فيه شيء من التقصير، ولهذا قال الله له: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.

٢- **ويؤخذ منها**: أنه يجب على الحاكم أن يتأنَّى في الحكم وألا يتعجل، وليتريث؛ لاسيما مع وجود قرائن.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ يمكن أن يقع منه الذنب، وهذا هو الحق، إلا ذنبًا ينافي مقتضى الرسالة، مثل الخيانة والكذب وما أشبه ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي ﷺ لا يمكن أن يقع منه الذنب، وأن المراد بذنوبه ذنوب أمته، أو أن المراد بذلك تعليمه لتتعلم الأمة، ولكن هذا ليس بصحيح.

أما الأول: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] والقرآن منزه عن التكرار، فإذا قلنا: استغفر لذنبك أي: ذنوب أمتك لكان قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تكرارًا لا فائدة منه.

وأما كونه نبيًّا فلا يمكن أن يذنب فنقول: إن الذنب إذا تلته التوبة فقد يكون الإنسان بعدها خيرًا منه قبلها، فهذا آدم - عليه الصلاة والسلام - كان من الأنبياء، فأذنب، فصارت منزلته وحاله بعد الذنب أكمل منها قبل الذنب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، نعم النبي ﷺ معصوم من أن يُقرّ على ذنب بخلاف غيره،

بمعنى: أنه إذا أذنب فلا بد أن يستغفر بتنبيه الله له، أو بتنبهه هو، أما غيره فليست له هذه المزية، وهذا يظهر به الفرق بين الأنبياء وغيرهم.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: (الغفور والرحيم)، والغفور لزوال المكروه، أي: زوال آثام الذنوب، والرحمة حصول المطلوب، أن الله ييسر الإنسان لما تكون به رحمة الله.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ما استنبطه بعض العلماء من أنه ينبغي لمن استُفتي أن يقدِّم بين يدي فتواه الاستغفار؛ لأن الله قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، ولأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين معرفة الصواب، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣، ١٤]، فهم لم يقولوا: إن القرآن أساطير الأولين إلا لأنه حيل بينهم وبين معرفة حقيقته بسبب ذنوبهم التي رانت على قلوبهم، وهذا القول وجيه، أن الإنسان إذا أراد أن يفتي أن يقدم بين يدي فتواه الاستغفار؛ لاسيما إذا التبست عليه المسألة، واشتبه عليه الحكم، فهو يدعو بذلك، وكذلك يدعو بـ «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: (لا) ناهية، والمجادلة هي: مماراة الخصم من أجل الظهور عليه، سُميت بذلك إما من الجدل وهو فتل الحبل وإحكامه؛ لأن المجادل يحكم حجته، وإما من الجدالة وهي الأرض، وكأن المجادل يطرح خصمه على الأرض حتى لا يكون به حراك.

وعلى كل حال: فالمماراة هي المدافعة من أجل الظهور على الخصم.

والنهي عن المجادلة لا يستلزم وقوعها، فقد يُنهى الإنسان عن الشيء وإن لم يقع، لكنه قد يقع، ينهى عن شيء مُتَوَقَّع غير واقع.

فلا يلزم من النهي أن يكون النبي ﷺ قد جادل عنهم.

وقوله: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يطلبون لها الخيانة فيوقعونها فيها، وهم هؤلاء الذين قالوا: إن صاحبنا لم يسرق وإن السارق هو اليهودي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإذا كان الله تعالى لا يحب من كان خوانًا أثيمًا فإنه لا يجوز الجدال عنه أي: عن ذلك الخوَّان الأثيم؛ لأن المجادلة عنه مضادة لله عز وجل، لأنه تأييد له مع أن الله لا يحبه.

وقوله: ﴿خَوَّانًا﴾ صيغة مبالغة، فيحتمل أن تكون على بابها، وأن الله لا يحب كثير الخيانة، ويحتمل أن تكون للنسبة، فلا يلزم منه الكثرة، ويكون المعنى: إن الله لا يحب من كان ذا خيانة، وصيغة فعَّال تأتي للنسبة كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: بذي ظلم،

وليس المعنى بكثير الظلم؛ لأن الظلم منتفٍ عن الله تعالى قليله وكثيره، فالأرجح أنها للنسبة؛ أي: لا يحب من كان ذا خيانة.

وقوله: ﴿أَثِيمًا﴾ أي: مكتسبًا للإثم.

والخيانة والإثم تنطبق تمامًا على هؤلاء الذين خانوا هذا اليهودي وأثموا بالسرقة، فهم جمعوا بين أمرين: بين الإثم بالسرقة، وبين الخيانة لإلصاق هذا العمل في غيرهم.

الفوائد:

١- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة فوائد منها:** النهي عن معاونة الآثم، وهذا مطابق لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن اهتداء النبي ﷺ بتوجيه الله تعالى وإرشاده، لقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾؛ لأن هذا توجيه من الله عز وجل إلى نبيه محمد - عليه الصلاة والسلام - ألا يجادل عن هؤلاء.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخائن لغيره خائن في الحقيقة لنفسه؛ حيث أوقعها في المآثم والخيانة، فلا يظن الخائن الذي يكتسب من الخيانة ما يكتسب أنه رابح، بل هو خائن لنفسه ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(١).

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات محبة الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ فهذا نفي للمحبة؛ لأنه لما نفاها عن الخونة دلَّ على ثبوتها للأمناء، وهذا كاستدلال الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] على ثبوت رؤية الله تعالى من المؤمنين، قال: لما حجب هؤلاء الغضب ثبتت الرؤية للآخرين في حال الرضا.

والمحبة عند أهل السنة والجماعة والسلف الصالح وأئمة الهدى: هي ما نعرفه من أنفسنا، ولكن محبة الله ليست كمحبتنا نحن، بل هي محبة كسائر صفاته، الله أعلم بكيفيتها، لكن نعلم معنى المحبة، وإذا كانت المحابُّ بيننا تختلف باعتبار إضافتها وباعتبار قوتها وضعفها فالاختلاف هنا بين المخلوقات فيكون الخلاف بين المخلوق والخالق من باب أولى، ولهذا محبتنا للأشياء تختلف بحسب ما تتعلق المحبة، فأنت تحب العسل لحلاوته، وتحب صديقك لقربه منك، وتحب زوجتك لشيء آخر، وهلم جرًّا، فاختلاف المحبة بحسب متعلقاتها.

وإذا كان الله تعالى يحب محبة حقيقية، فما هي المحبة؟ المحبة هي المحبة، ولهذا قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «روضة المحبين» قال: لا يمكن أن تحدَّ المحبة بمعنى أظهر من المحبة - من لفظها -، لأنه مهما قلت: هي ميل الإنسان إلى ما يلائمه، هذا ليس من المحبة، فهذا أثرها

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤١٧)، وابن ماجه (٢٥٧٥).

ولازمها، ولذلك المعاني النفسية لا يمكن إطلاقًا أن تعرف بغير لفظها.

إذن: محبة الله عز وجل ثابتة حقيقة، ولكنها لا تُكَيَّف ولا تُمَثَّل، لا تُكَيَّف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولا تُمَثَّل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ولكن من فسَّر المحبة بالثواب فهذا محرِّف؛ لأنه فسرها باللازم؛ لأن الإثابة فرع عن المحبة، فالصواب أنها محبة حقيقية لكنها تستلزم الثواب والرضا وما أشبه ذلك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الخيانة من كبائر الذنوب؛ وذلك من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأنه إذا رُتِّب على العمل عقوبة خاصة فهو من الكبائر، وهذا أحسن ما قيل في حد الكبيرة، وذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هي كل شيء يرتَّب عليه عقوبة خاصة فهو من الكبائر، سواء كانت العقوبة لعنة، أو غضبًا، أو نفي إيمان، أو تبرؤًا منه، أو غير ذلك.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الخيانة، لكون الله تعالى نفى محبته للخائن الأثيم، والترغيب في أداء الأمانة، لأنه إذا وقع الذنب على وصف لزم أن يكون المدح في ضده.

قال الله تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٨، ١٠٩]

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهؤلاء هم الذين سرقوا، ولكنهم وضعوا السرقة في بيت آخر؛ خوفًا من العار الذي يلحقهم بالسرقة، فهم يستخفون من الناس، أن يوصفوا بالسرَّاق، لكنهم لا يستخفون من الله، والله أحق أن يُستخفى منه، والله أحق أن يُستحيا منه ويُخاف منه، أما الناس فإنهم لا يضرونك ما دام الذي بينك وبين ربك سليمًا.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قوله: (وهو معهم) الجملة هنا حال من لفظ الجلالة يعني: ولا يستخفون من الله، والحال أنه معهم، والمعية هنا أي: المصاحبة، لكن معية

كل شيء بحسبه، والأصل في معنى هذه الكلمة: هي المصاحبة لكنها تختلف ويختلف مقتضاها بحسب ما تُضاف إليه، فيقال مثلًا: المرأة مع زوجها، ويقال: القائد مع جنده، ويقال: المتاع مع حامله، ويقال: القمر معنا، ويقال أشياء كثيرة تختلف فيها المعية من موضع إلى آخر.

لكن يجمع هذه المعاني كلها مطلق المصاحبة، وتختلف مقتضياتها حسب ما تُضاف إليه.

فالله تعالى مع هؤلاء الذين بيتوا ما لا يرضى من القول ومع الذين اتقوا، والذين هم محسنون، والمعيتان تختلفان بحسب مقتضاهما ولوازمهما، والله تعالى مع محمد ﷺ في الغار، ومع موسى وهارون في الرسالة، وتختلف هذه المعية ومع المتقين والمؤمنين وما أشبه ذلك بحسب ما تُضاف إليه، فما الذي تستلزمه هذه المعية في هذه الآية؟ تستلزم المعية في هذه الآية التهديد، بالإضافة إلى الإحاطة؛ لأن المعاني الخاصة بالإضافة إلى المعنى العام وهو الإحاطة الكاملة بالخلق.

ثم هل هذه المعية حقيقة أو المراد بذلك لازمها؟ الصواب: أن المراد بها المعية الحقيقية، وأنه سبحانه وتعالى معنا لكنه في السماء، ولا منافاة بين المعنيين، من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الله تعالى جمع بين هذين المعنيين في القرآن بل في آية واحدة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، مع أنه ذكر أنه مستوٍ على العرش، ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين وصفين متناقضين أبدًا.

الوجه الثاني: أنه لا منافاة بين العلو والمعية، فإن هذا ثابت للمخلوق فيما تقوله العرب: ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر من أصغر الأجرام السماوية، ومع ذلك هو مع المسافر وغير المسافر، وهو في السماء، فإذا كان اجتماعهما - أعني: اجتماع حقيقة المعية والعلو - في حق المخلوق، فاجتماعهما في حق الخالق من باب أولى.

الوجه الثالث: أنه لو فُرض امتناع اجتماعهما في حق المخلوق فإنَّهُ لا يقتضي انتفاء اجتماعهما في حق الخالق؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فإذا كانت السموات السبع، والأرضين السبع في يده جل وعلا كالخردلة في يد أحدنا فهل يمكن أن يُقاس بالخلق؟! لا يمكن؛ إذنْ نحن نؤمن أن الله تعالى معنا حقيقة وهو في السماء، ويعلم ما في قلوبنا ويسمع ما نقول، ويرى ما نفعل، وله السلطة التامة علينا ... إلخ، وهذه كلها من مقتضيات المعية، وقد فسرها السلف أو كثير منهم بهذه المقتضيات، فقالوا: معنا بعلمه، وهذا لا ينافي أن يكون المراد بها الحقيقة؛ لأنهم يفسرونها أحيانًا باللازم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مقدمة التفسير» أن التفسير الوارد عن السلف قد يكون تفسيرًا باللازم لا بانتفاء المعنى الحقيقي.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء بيتوا ما لا يرضى من القول، يعني: صاغوه

واجتمعوا عليه ليلًا؛ لأن البيات لا يكون إلا بالليل، ولهذا في باقي الروايات أنهم جاءوا إلى الرسول ﷺ في الليل بعد أن اتفقوا على ما اتفقوا عليه من آرائهم، فيستفاد من ذلك: شدة اختفاء هؤلاء، وأنهم لا يرغبون أن يطلع أحد عليهم.

ولكن هل يؤخذ من ذلك أننا إذا أردنا أن نخفي شيئًا نصنعه ليلًا؟ ربما يؤخذ منه ذلك، لذلك في المثل السائر: (أمر قُضِي بليل).

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرضا لله عز وجل، لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

ووجهه: أن نفي الرضا عن هؤلاء يدل على ثبوته لغيرهم، إذ لو كان منتفيًا عن الجميع ما حسن أن يُنفى عن هؤلاء.

فما هو الرضا؟ الرضا الثابت لله عز وجل رضًى حقيقي وليس كناية عن إثابتهم كما قاله أهل التعطيل، بل هو رضًى اتصف الله به حقيقة، لكنه ليس كرضانا بل هو رضًى أعظم وأجلُّ، ولا يمكن أن نحيط به.

وهل أثبت الله لنفسه الرضا وأضافه لنفسه على وجه الإثبات؟ نعم، مثل ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، والله تعالى يتعلق رضاه إما بالأقوال أو الأفعال أو الأشخاص، لكن رضاه عن الأشخاص إنما هو لأفعالهم وأقوالهم التي ترضي الله عز وجل.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إحاطة الله تعالى بكل شيء، لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾، فإن قال قائل: قدم المُتعلَّق على المتعلَّق، وهذا يفيد الاختصاص؟ فالجواب على ذلك ما أشرنا إليه سابقًا بأن تقديم ذلك لا يعني الاختصاص، لكن يعني: شدة الوعيد وتعلق الحكم بهذا المقدَّم، كأن الله تعالى يقول: لو لم يكن عالمًا بشيء لكان عالمًا بعمله، والمقصود بذلك شدة وعيد هؤلاء، وإنه لا يمكن أن يخفى عن الله عز وجل.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: معية الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى أقسام: معية يُقصد بها بيان الإحاطة، أي: بيان إحاطة الله تعالى بكل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وتارة يراد بها التهديد، كما في هذه الآية: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

وتارةً يراد بها النصر والتأييد معلقة بوصف ومعلقة بشخص، مثال المعلقة بالوصف قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]،

هذه معية تقتضي النصر والتأييد، لكنها مقيدة بوصف.

ومعية تقتضي النصر والتأييد مقيدة بشخص، مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذه المعية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة، لكنها مقيدة بشخص.

وهنا نسأل: هل المراد بالمعية حقيقتها أو لازمها؟ الجواب: المراد بها حقيقتها، ولكن السلف يفسرونها دائمًا باللازم، كما قالوا: إن المعية هي العلم، فهو معهم بعلمه، لكن هذا تفسير لها ببعض مقتضياتها، فإن مقتضى المعية: العلم والسمع، والبصر والإحاطة والسلطان والقدرة، وغير ذلك، لكن هي معناها حقيقي، وما فسره السلف بها فهو تفسير باللازم، وكما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «مقدمة التفسير»: (إن السلف قد يفسرون الشيء بلازمه).

فإذا قلنا: إنها حقيقة، فهل هذا يعني أننا ذهبنا إلى ما ذهب إليه أهل الحلول الذين قالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا؟ الجواب: لا، بل نحن ننكر هذا غاية الإنكار ونقول: إنه ضلال، بل إنه كفر، وإنما نقول: إنه معنا حقيقة وهو في السماء؛ لأن الآيات بل لأن الأدلة السمعية والعقلية تدل على أن الله في السماء، ولا ينافي ذلك أن يكون معنا، لأمور ثلاثة سبق بيانها.

قال الله تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]

التفسير

(ها) للتنبيه، و(أنتم) مبتدأ، و(هؤلاء) إما منادى محذوف الأداة، والتقدير: (يا هؤلاء) وعليه فيكون قوله: ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ هو خبر المبتدأ، وإما أن تكون (هؤلاء) هي الخبر، وتكون الجملة ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: ها أنتم مجادلين عنهم في الحياة الدنيا.

والإشارة في قوله: (أنتم) إلى قوم الرجل الذي سرق درعًا واتهم به رجلًا من اليهود.

وقوله: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ وهم قد جادلوا عن رجل واحد، لكن هذا الجدال عن الرجل الواحد هو حقيقة جدال عن الجميع؛ لأن وصم السرقة لرجل من القبيلة هو وصم لجميع القبيلة، إذ يُعيَّرون بذلك، فيقال: منكم السُّرَّاق! ولهذا قال: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ والمجادلة إنما كانت عن شخص واحد.

وقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد يكون الجدل فيه الغلبة، ولو بالباطل في الحياة الدنيا؛ لأنه قد يُجادل الإنسان بالباطل ويأتي بكلام فصيح مبين يلبِّس به الحق بالباطل وينجح، لكن ﴿فَمَن

يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ و(من) هنا استفهامية بمعنى النفي أي: لا أحد يُجادل الله عنهم يوم القيامة.

والاستفهام إذا جاء في موضع النفي، فإنه يكون أبلغ من النفي المجرد، وذلك؛ لأنه يكون نفيًا مشربًا بالتحدي، كأن القائل يقول: إذا كان هذا الأمر ممكنًا فأتني به، لهذا مجيء الاستفهام في موضع النفي يكون أشد في النفي؛ لأنه مشرب بمعنى التحدي.

وقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؟ والجواب: لا أحد، ولا يستطيع أحد أن يُجادل عنهم؛ وذلك لأننا لو فرضنا أن أحدًا جادل شهدت عليه الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾؟ أي: ذا وكالة وولاية يدافع ويمنع وينصر، والجواب: لا أحد.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن المجادلة والمخاصمة في الباطل إن نفعت في الدنيا فلن تنفع في الآخرة، وذلك تؤخذ من قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس قد يتناصرون بالباطل؛ لأن هؤلاء القوم جادلوا في الباطل وهم يعلمون أن صاحبهم سرق، لقوله: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم المحاماة إذا علم المحامي أن صاحبه مبطل، ووجه ذلك: أن الله أنكر على هؤلاء أن يجادلوا عن صاحبهم، أما إذا كان المحامي يريد أن يدافع عن الحق بإثباته فهذا جائز، بل قد يكون واجبًا، كما لو وكلك شخص لا يعرف ولا يكاد يبين أن تدافع عنه فهذا لا بأس به.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اليوم الآخر، وهو يوم القيامة، لقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المجادلة يوم القيامة بالباطل لا تنفع وصاحبها مخصوم، ومن ثم يجب الحذر مما قاله النبي ﷺ في الحديث القدسي أن الله قال: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[1]. ونحن نعلم أن من كان الله خصمه فهو مخصوم بكل حال.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء، وأن من

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٢٧)،وابن ماجه (٢٤٤٢).

حاول أن يخفي عن الله شيئًا فإنه قد ظن بربه ظن السوء، ومع ذلك لن ينفعه هذا الظن؛ لقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء: ١١٠]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ أي: بغيره، أي: ما يسوء غيره، كما يدل على هذا أن الآيات كلها في سياق قصة معينة، فيكون المراد بالسوء ما يسوء الغير، كاتهام هؤلاء اليهودي بالسرقة.

وقوله: ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ يعني: بالمعاصي؛ لأن المعاصي ظلم للنفس؛ إذ إن النفس عندك أمانة يجب عليك أن ترعاها حق رعايتها، فإذا عصيت الله فقد ظلمتها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ إذن: يظلم نفسه بالمعاصي التي بينه وبين ربه، ويعمل سوءًا: يسيء به إلى غيره.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: يطلب مغفرة الله عز وجل بحاله ومقاله، أما المقال فظاهر كأن يقول: اللهم اغفر لي، وأما الحال كأن يكون آتيًا بشروط التوبة الخمسة، وهي: أن يندم ويقع في نفسه حسرة على فعل الذنب، والثالث: أن يقلع عن الذنب، والرابع: العزم على ألا يعود، والخامس: أن تكون في الوقت الذي تُقبل فيه التوبة.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست الستر فقط؛ لأن الاشتقاق يدل على أنه لا بد من ستر ووقاية، إذ إنها مأخوذة من المغفر، والمِغْفَرُ ما يُغطى به الرأس من الفولاذ ونحوه لاتقاء السهام، فيحصل به ستر ووقاية. ونقول: إنها مشتقة من المغفر؛ لأن الأصل في المعاني أنها مأخوذة من الأشياء المحسوسة، ولهذا تجد علماء اللغة يعيدون المعاني إلى الأصول المحسوسة، وأصل ذلك أن الإنسان إنما صار يتكلم تقليدًا لما يسمع حوله من صرير الرياح، وحفيف الأشجار وما أشبه ذلك - هكذا قيل -، مع ما علم الله آدم من أسماء الأشياء.

وقوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ يجد: جواب الشرط، ولذلك صارت مجزومة وحُركت بالكسر لالتقاء الساكنين، والمعنى: يجد الله غفورًا رحيمًا، والغفور هو ذو المغفرة، كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

والرحيم: هو ذو الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فأنت إذا استغفرت الله عز وجل، وتبت إليه على الوجه الذي يرضاه، فستجد الله غفورًا رحيمًا.

والرحمة تطلق على صفة الله عز وجل، وعلى آثار الصفة، أي: على الشيء المخلوق، أي: تطلق على الرحمة التي هي صفته، وعلى آثار الرحمة التي هي خلقه، أما الأول فهو الأصل، أن الرحمة صفة من صفات الله عز وجل، وأما الثاني فمنه قوله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ليس المعنى الرحمة التي هي وصفه، ومن ذلك أيضًا - على قول بعض أهل العلم -: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] يعني: النبات وما يحصل من الرزق بالماء النازل من السماء.

أما الرحمة التي هي وصفه: فإنها تنقسم عند أهل العلم إلى قسمين: عامَّة وخاصة، فالعامة: هي التي تشمل كل مخلوق، والخاصة: هي المختصة بالمؤمنين، والتي تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة، والرحمة العامة هي الرحمة لعموم الخلق في الدنيا، ولهذا نجد أن الكفار لله عليهم رحمة رزقهم وأمدهم، أعطاهم عقولًا يدركون بها - لا عقول رشد -، وهذا عام، وكل ما مر بك من ذكر اسم الرحيم، فالمراد به العام ويدخل في حكمه الخاص، أما إذا خص فهو الخاص، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه رحمة خاصة بالمؤمنين.

والعجب أن الأشاعرة أنكروا وصف الله بالرحمة، وأثبتوا له الإرادة، قالوا: لا يجوز أن نثبت لله الرحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين ولا تليق بالخالق، وهذا بناءً على أصلهم الفاسد وهو أنهم يتلقون ما يعتقدون في ربهم من عقولهم الفاسدة؛ لأن الدليل الصحيح لا يناقض العقل الصريح، فمعنى الرحيم عندهم: المنعم، أو مريد الإنعام، المنعم؛ لأن النعمة منفصلة مخلوقة، أو مريد الإنعام: لأنهم يثبتون الإرادة، وسبحان الله! انظر إلى عقلهم المتناقض يقول: الإرادة دلَّ عليها العقل بواسطة التخصيص، يعني: تخصيص بعض المخلوقات بشيء من الأشياء تدل على الإرادة، كون الآدميين على هذا الوصف، والحصان على هذا الوصف ما الذي جعل هذا على وصف وذاك على وصف؟ إرادة الله عز وجل، فقالوا: إن تخصيص المخلوقات بما اختصت به يدل على الإرادة.

والاستدلال بهذا على الإرادة استدلال خفي لا يدركه إلا طلبة العلم بعد أن يقرأوا أيضًا، ولا يثبتون الرحمة التي آثارها يعرفها الخاص والعام: الليل والنهار، والمطر، والأشجار، والأنهار والبحار، كل يعرف أن هذه من مخلوقات الله، ولذلك تجد العامي إذا أمطرت السماء يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته ولا يشك في هذا، ولكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن من أساء إلى غيره، ثم استغفر الله غفر الله له، وحينئذٍ يُشكل علينا أن العلماء قالوا: إن الدواوين ثلاثة: منها ديوان الخلق يعني: المعاملة مع الناس هذا لا يغفره الله عز وجل، ولكن ظاهر النصوص أنه إذا صحَّت التوبة غفره الله، والدليل لهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]، مع أنه ذكر القتل، فإذا تاب الإنسان من القتل توبة تمت شروطها فإن الله يغفر له. ومن شروط التوبة في القتل أن يسلِّم نفسه لأولياء المقتول، فإذا سلم نفسه لأولياء المقتول فقتلوه أو عفوًا عنه مع ندمه على ما فعل واستغفاره لربه، فإن حق المقتول يتحمله الله عنه يوم القيامة؛ لأن إيفاء المقتول حقه في هذه الصورة متعذٌّ، والقاتل الذي صحَّت توبته يقول في نفسه: لو أمكنني أن أستحل الميت لفعلت، لكني أنا الآن لا أقدر إلا أن أسلم نفسي لأولياء المقتول، فهذا يتحملَ الله عنه.

لو أن أحدًا سرق مالًا من شخص فهذا عمل سوءًا بغيره، وتاب من ذلك، فهل يتوب الله عليه؟ نعم إذا تمت شروط التوبة، ومن شروط التوبة: أن يردَّ المال لصاحبه، فإذا رده فقد تاب، وعلى هذا فنقول: ظاهر الآية هنا - وغيرها أيضًا من النصوص - أنه متى صحَّت التوبة حتى في حقوق الآدمي التي لا يستطيع أن يتخلص منها فإن الله تعالى يقبل توبته.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان تصح توبته من الذنب ولو تكرر، ونأخذ ذلك من العموم في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ﴾ وهذا عام فيمن تكرر منه ذلك أو لم يتكرر، ويدل لذلك الحديث الثابت عن النبي ﷺ أن رجلًا أذنب فاستغفر الله، فقال الله عز وجل: **«علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عاد ثانية، ثم ثالثًا، إلى أن قال الله له: فليعمل ما شاء»**[(١)]. فهذا يدل على أن التوبة تثبت، وتقع من الله عز وجل ولو تكرر الذنب، ولهذا قال العلماء أن من شروط التوبة: أن يعزم على ألا يعود، فإذا عزم على ألا يعود صحت توبته، وإذا عاد لم تبطل توبته الأولى بل توبته الأولى صحيحة وعليه أن يجدد توبته ثانية للذنب الثاني.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المعاصي ظلم للنفس، لقوله: ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ وهذا شيء ثابت مقرر في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [هود: ١٠١]، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الإنسان هو الظالم لنفسه إذا عصى الله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يكون عدوًّا لنفسه، ويؤخذ ذلك من أن العاصي يظلم نفسه، والظالم لك عدو لك، فالإنسان العاصي عدو نفسه، كما أن أقرب الناس إلى الإنسان قد يكونوا أعداء له قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فأنت احذر نفسك فإنها عدوك.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى يقبل من عبده الاستغفار إذا تمت شروطه، أي: بلسان الحال والمقال، لقوله: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فاصدق في استغفارك وستجد الله غفورًا رحيمًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١١، ١١٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ هذه جملة شرطية، فعل الشرط فيها ﴿يَكْسِبْ﴾، وجواب الشرط فيها (إنما)، والسؤال هنا لماذا اقترنت الفاء بالجواب؟

الجواب: أن يقال أن هذه تشبه الجملة الاسمية؛ لاقترانها بإنما وأصل إنما، إن: حرف توكيد دخلت عليه ما الكافة فصارت: إنما.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ يعني: لا على غيره.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فبهذه الآية يخبر الله عز وجل أن من اكتسب إثمًا فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأنه يكسبه على نفسه لا على غيره، وقوله: ﴿إِثْمًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الآثام، الكبائر والصغائر، وتعم الآثام المباشرة والآثام السببية؛ لأن الإنسان قد يباشر الإثم بنفسه، وقد يكون دالًّا عليه أو مُعينًا عليه، فيكون ذلك إثمًا أيضًا. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سبق لنا أن مثل هذا التعبير لا يدل على الحدوث وأن الله كان عليمًا حكيمًا فيما سبق، وإنما الفعل هنا مسلوب الزمان، والمقصود به تحقيق اتصافه بهذين الاسمين واتصافه بما دلَّا عليه.

الفوائد:

١- **في الآية الكريمة فوائد منها:** ذكر الله عز وجل أن الإنسان إذا كسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه؛ لأن هذا الآيات - كما مر علينا فيما سبق - نزلت في قصة الرجل الذي سرق درعًا ثم

رمى به يهوديًا فأرادوا أن يتهموا هذا اليهودي وجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتبين براءة اليهودي فيقول الله عز وجل: إذا كسب الإنسان إثمًا فإنما يكسبه على نفسه.فيستفاد من ذلك: أن الإنسان إذا كسب الإثم فإنما يكسبه على نفسه ولا يكسبه على غيره، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فإن قال قائل: أليست قد ثبت عن النبي ﷺ أن: **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[1].

الجواب: بلى؛ إذن كيف يكون عليه وزر من عمل بها وهو لم يباشر الأعمال؟

نقول: لأنه هو الذي سنَّ هذه البدعة السيئة، ولهذا ما قتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلًا منها؛ لأنه أول من سن القتل، وعلى هذا فيقال: إن الذي سن البدعة، واتبعه الناس عليها فإن سنها من عمله.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى لم يظلم أحدًا ويحمِّل غيره إثمه إلا بحق، وقد سبق مرارًا أن من ظلم الناس فإن الناس يأخذون من حسناته، حتى تفنى ثم يؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه ويطرح في النار، وهذا ليست تحميلًا للغير إثم غيره، ولكنه من باب المقاصَّة والمجازاة، فإذا لم يكن عند هذا حسنات ترد مظلمة للآخرين فإنه يؤخذ من سيئاتهم فتطرح عليه ويطرح في النار.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: العليم والحكيم؛ لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآية: إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من صفات الله: فالعليم تضمن العلم، والحكيم تضمن الحكمة والحكم؛ لأنه مر علينا أن الحكيم مشتقة من الحكم والإحكام الذي هو الحكمة، ولا حاجة إلى أن نعيد.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من علم الله وحكمته: أن من كسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه؛ لأن ذلك من الحكمة البالغة.

ثم قال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

الخطيئة والإثم من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، فالخطيئة والإثم والسوء وما أشبه ذلك معناها واحد، إذا انفرد كل كلمة عن الأخرى، أما إذا اقترنت إحداهم إلى الأخرى، فلابد أن يحمل كل واحدة على معنى؛ لأنه لا يلزم التكرار بلا فائدة، والأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة فما هي الخطيئة؟ وما هو الإثم؟

قال بعض العلماء: الخطيئة ما ارتكبه الإنسان عن غير قصد، والإثم: ما ارتكبه عن قصد، وفي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣).

هذا نظر؛ وذلك لأن الخطيئة المرتكبة عن غير قصد قد رفع الله عنها الحرج والإثم فلا تكون خطيئة، وأجيب عن ذلك: بأنه لا مانع أن يكسب خطيئة ويكون هناك مانع من العقوبة عليه، وإلا فالأصل أن من فَعَلَ الخطيئة عُوقب عليها؛ لكن هناك مانع وهو عفو الله عز وجل، وقيل الخطيئة: ما تعدى إلى الغير، والإثم: ما كان خاصًّا بالإنسان وقيل بالعكس، كل هذه الأقوال؛ دفعًا لوجود التكرار في الآية.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ الفعل لا يمكن أن يدخله القصر، فلماذا كان هذا الفعل مقصورًا؟ لأنه مجزوم بحذف حرف العلة وهي الياء.

وقوله: ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ أي: بريئًا من هذا الإثم، وذلك كَرَمْي هؤلاء الفئة لليهودي بأنه هو السارق.

وقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ أي: كذبًا، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: عقوبة بينة؛ فكلمة مبين: بمعنى: بيِّنة، لأن المبين يأتي بمعنى البين أو بمعنى المبين للشيء، إذ إن أبان وبان تستعمل لازمة كما تستعمل أبان متعدية، فتقول مثلًا: أبان لي الحجة، وهذا متعدٍّ، ويقال: أبان الفجر أي: ظهر، وهذا لازم، وعليه فكلمة مبين بمعنى: بَيِّن.

وقوله: ﴿ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾ لأنه كذب على الغير، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ لأنه جمع بين الخطيئة أو الإثم وبين رمي غيره بها، فجمع بين سيئتين، ولهذا كان إثمًا مبينًا.

١ـ **في الآية الكريمة**: تحريم رمي الغير بما فعل الإنسان من خطيئة، وجه ذلك قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فإن رمى الغير بخطيئة لم تنسب إليه من قبل، فهل يكون داخلًا في ذلك؟ يعني: أن رجلًا اتهم شخصًا بعمل خطيئة أو إثم وقال: إنه عمل الخطيئة أو الإثم، فهل نقول: إنه احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا؟ نعم، نقول ذلك؛ لكن الآية إنما خصت ذلك فيمن فعل الشيء ثم رمى به غيره، بأنها تحت القضية الواقعة، وحكاية القضية الواقعة لا يكون لها مفهوم ما دام المعنى ثابتًا في هذا ونظيره، ولا شك أن من رمى غيره بفعل الخطيئة وهو كاذب أنه محتمل للإثم والبهتان.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن السيئات تتضاعف بتعدد أوصافها لقوله: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهذا هو الواقع وهو العدل، أرأيت من قذف قريبًا له ومن قذف أجنبيًّا مثلًا؟ كلاهما قاذف، لكن ضم إلى قذف القريب قطيعة الرحم، فتكون هذه السيئة متضاعفة، فلا جرم أن يتضاعف إثمها؛ لأن الأحكام مركبة على أوصافها، وكذلك أيضًا من تصدق على بعيد، وتصدق على قريب ففعله كله صدقة، لكن صدقته على البعيد صدقة فقط، وعلى القريب صدقة وصلة، فالأعمال السيئة تتضاعف بتضاعف أوصافها، وكذلك الأعمال الصالحة تتضاعف بتضاعف أوصافها.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية**: التحذير من رمي الغير بالخطايا والآثام؛ لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء:١١٣]

التفسير

قال جل وعلا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

(لولا): شرطية، ويقال في إعرابها: حرف امتناع لوجود، ما هو الموجود، وما هو الممتنع هنا؟ الموجود: فضل الله، والممتنع: لهمت طائفة، وهناك أخت لها أو بنت عم وهي: (لو) يقال فيها: حرف امتناع لامتناع، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤] وتقول: لو جاء زيد لأكرمته، ولهما بنت عم بعيدة وهي: (لما) ويقال فيها: حرف وجود لوجود، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] فوجد الكفر لوجود المجيء، وتقول: لما جاء زيد جاء عمرو، وجد مجيء عمرو بوجود مجيء زيد، وعلى هذا فقد توزعت هذه الفروع الثلاثة: الوجود والامتناع والعدم؛ فـ (لما) حرف وجود لوجود، و(لو) حرف امتناع لامتناع، و(لولا) حرف امتناع لوجود.

وقوله: ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ الفضل: هو العطاء الزائد، والرحمة أعم؛ لأن الرحمة يكون فيها دفع المكروه وحصول المطلوب، والفضل: حصول المطلوب.

وقوله: ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾، هذا جواب لولا، فمن هذه الطائفة؟ هي التي ادَّعت أن السارق هو اليهودي واجتمعوا على ذلك حتى لبسوا على النبي، وهمُّوا أن يخذلوه، وهنا إشكال، فإن ظاهر الآية الكريمة: أنهم لم يهموا أن يضلوه، وإذا نظرنا إلى القصة وجدنا أنهم هموا؛ لأنهم جاءوا إلى الرسول ﷺ بأجمعهم وأنكروا أن يكون صاحبهم سارقًا ورموا اليهودي بالسرقة، فقد هموا وفعلوا، والجواب عن ذلك أن يُقال: هموا همًّا يحصل به إضلاله، ولكنهم لم يصلوا إلى مرادهم، وقوله: ﴿لَهَمَّت﴾ جوابًا لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾.

وقوله: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ ﴿أَن﴾ هنا مصدرية، وحذف منها حرف الجر، وتقديره في ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾، وحذف حرف الجر مع أن وأنَّ مطرد، وإذا حُذف حرف الجر نُصب المجرور، وهذه قاعدة مطردة؛ لكنه مطرد في أن وأنَّ، كما قال ابن مالك:

نَقْلًا وَفِي أَنَّ وَأَن يَطَّرِدُ مَعَ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أَن يَدُوا

أما مع غير (أن، وأنَّ) فهو سماعي أي: يُسمع عن العرب ولا يقاس عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

تَمُرُّونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُودُوا كَلَامُكُمُ عَلَيَّ إِذَنْ حَرَامُ

الشاهد في قوله: (الديار)، والأصل تمرون بالديار ولم تعودوا، لكن حذفت الباء فنصب المجرور بنزع الخافض، لكنه غير مطرد إلا في أنَّ وأن.

وقوله: ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ الإضلال معناه في الأصل يقال: ضلت الطريق بمعنى: تاهت، ولم يكن سيره على بينة، والمراد بإضلال الرسول ﷺ هنا: الذي همَّ به هؤلاء، ولكن فضل الله ورحمته تداركت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أن يحكم بأن السارق هو اليهودي، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، إذنْ لو ركنت إليهم ولو شيئًا قليلًا، ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]، فإذا تأملت هذه الآية تبين لك أيضًا من مخالفة الشرع من أجل عباد الله، وهذا هو الرسول ﷺ فلولا أن الله ثبته لركن إليهم شيئًا قليلًا، فما بالك بنا نحن؟! قالوا: يجب على الإنسان أن يتنبه لمثل هذه الآية، وأن يسأل الله دائمًا الثبات على ألا تأخذه في الله لومة لائم، ولو فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف المهات؛ لأن ذنب الرسول ﷺ ليس كذنب غيره.

يقول: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: أنهم بتحايلهم واتهامهم للغير وإرادتهم أن يَضِلَّ الرسول ﷺ لا يمكن أن يضل، فهذا لا يحصل به إلا ضلال أنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ (من) زائدة إعرابًا، زائدة معنًى، زائدة الأولى هل هي من الفعل اللازم أو من الفعل المتعدي؟: من اللازم، والثانية: من المتعدي؛ لأن معنًى زائدة أي: هي بنفسها، وزائدة معنًى أي: زائدة في المعنى.

على كل حال (من شيء): هذه من زائدة إعرابًا، وزائدة للمعنى، فما هو زيادة الإعراب؟ هو: أنه لو أنها حذفت لاستقام الكلام، لو كان في غير القرآن وقيل: وما يضرونك شيئًا لصح الكلام، وهي زائدة من حيث المعنى؛ لأن الحروف الزائدة من أدوات التوكيد فهي تؤكد المعنى، وبهذا نقول: إن ﴿شَىْءٍ﴾ هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فإذا دخلت عليهم (من) كانت نصًّا في العموم كـ (لا) النافية للجنس.

قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ يعني: لا يمكن أن يضروك بأي شيء من الأشياء؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد مَنَّ عليك بفضله ورحمته.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكتاب هو: القرآن، والحكمة: قيل في معناها وجهان: الوجه الأول: أن المراد بذلك أسرار الشريعة أي: أسرار أحكامها؛ فإن شريعة الرسول ﷺ كلها مشتملة على أسرار وحِكَمٍ عظيمة، وقيل: وهو وجه ثانٍ: المراد بالحكمة السنة.

أن تكون مبتدأً، والكافرون خبر المبتدأ، والجملة خبر للمبتدأ الأول؟ قلنا: هذا جائز، لكنه خلاف الأَوْلى؛ لأن ظاهر القرآن أن خبر ما بعدها خبر ما قبلها قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ولم يقل: هم الغالبون، فدل هذا على أن مثل هذا التركيب تكون فيه (هم) ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

الثاني: أننا إذا قلنا: إنه ضمير فصل لا محل له من الإعراب صرنا لا ننتقل إلى جملة تكون خبر المبتدأ، وصار المبتدأ والخبر جملة واحدة، والأصل في الأخبار أنها مفرد غير جملة يقول عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ إذنْ (هم) ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء: أولًا التوكيد، ثانيًا: الحصر، ثالثًا: التمييز بين الخبر وبين التابع؛ لأنه إذا جاء ضمير الفصل تعين أن ما بعده خبر وإذا لم يأت احتُمل أن يكون خبرًا وأن يكون تابعًا، فإذا قلت: زيدٌ الفاضل في الدرس، فهنا يحتمل أن الفاضل صفة فيكون المعنى: أن زيدًا الفاضل في الدرس، فإذا قلت: زيد هو الفاضل في الدرس تعين أن تكون خبرًا وحصرته في الفضل، ومحله في الدرس، على كل حال: ضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء.

وقوله: ﴿حَقًّا﴾ حقًّا هذه منصوبة، ولكن ما إعرابها؟ نقول: إعرابها مصدر مؤكدٌ لمضمون الجملة، ومضمون الجملة: أولئك هم الكافرون فأثبت الله لهم أنهم كفار حقًّا، فتأتي حقًّا مؤكدة لمضمون الجملة وذلك؛ لأن أحقية هؤلاء للكفر مفهومة من قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فإذا جاءت (حقًّا) صارت مؤكدة لمضمون الجملة، وصار عاملها محذوف وجوبًا، فلا يصلح أن يقال: أولئك هم الكافرون أُحقُّوا ذلك حقًّا لا يصح، وذلك لأنها مؤكدة لمضمون الجملة فكان مضمون الجملة كأنها الفعل المحذوف ولا يجمع بين هذا وهذا؛ ولهذا ذكر بن مالك وغيره من العلماء: أن المصدر المؤكد لمضمون جملة قبله يجب حذف عامله.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: هيَّأنا فهي بمعنى أعددنا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وهنا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا السياق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ خروج عن مقتضى السياق؛ إذ مقتضى السياق أن يقال: أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا لهم؛ لأنه متى أمكن الإتيان بالضمير فإنه لا يُؤتى بغيره، فإن ذكر الضمير أوضح في الجملة وأخصر، لكن هنا عُدِل عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالظاهر المطابق لوصفهم فما البلاغة في هذا؟ البلاغة: أن هذا إظهار في مقام الإضمار، والإظهار في مقام الإضمار له فوائد منها: قصد التعميم، ومنها: تطبيق الوصف على مرجع الضمير الذي كان من مقتضى السياق أن يُؤتى بضميره؛ فإرادة العموم، لأنه لو قال: أعتدنا لهم عذابًا مهينًا صار هذا خاصٌّ بهم، لكن أعتدنا للكافرين أي: كل الكافرين سواءٌ هؤلاء أو غيرهم، والفائدة الثانية تطبيق الوصف على مرجع الضمير الذي لولا هذا الظاهر لكان موجودًا، ومرجع الضمير لهؤلاء الذين

يقيسها عليها أو غير ذلك، فالمهم: أن الإنسان متى تبين له الحق بأي سبب فإن ذلك من نعمة الله عليه، فليحمد الله على ذلك.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحذر من أهل السوء وألَّا يغتر الإنسان بظاهر الحال، ولكن إذا لم يكن إلا ظاهر الحال فلابد أن يحكم بذلك، لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسمَعُ»(١)، لكن عليه أن يحترس، فإن الإنسان قد يغرُّ غيره بحاله؛ لقوله: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**، أن من أراد إضلال الخلق فإنه لا يضر إلا نفسه، لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنهم عموا في الواقع عن الحق، ودعوا الناس إلى الباطل فاكتسبوا إثمًا إلى آثامهم.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، عصمة الرسول ﷺ من ضرر هؤلاء أو من إضرارهم؛ لقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها**، أن القرآن الكريم مُنَزَّلٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها**، إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾، والنزول يكون من أعلى، وعلو الله عز وجل نوعان: علو معنوي وعلو ذاتي، فأما العلو المعنوي: فهو كمال أوصافه عز وجل، وهذا لا ينكره أحد ممن ينتسب إلى الإسلام، فكل من ينتسب إلى الإسلام يقر بعلو الله عز وجل علوًّا معنويًّا، والثاني: علو ذاتي وهذا يثبته السلف وأئمة الأمة، وينكره الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فماذا يقولون هم؟ انقسموا إلى قسمين: قسم منهم يقول: إن الله معنا في كل مكان فليس له مكان أعلى، إن كنا في المسجد فهو معنا، وإن كنا في البيت فهو معنا، وفي السوق فهو معنا وفي أي مكان فهو معنا، ومع فلان وفلان في أي مكان، ولا شك أن هذا ضلال مبين، هل الرب عز وجل واحد؟ نعم واحد، كيف يكون ذاتيًّا في كل مكان هذا يلزم إما التعدد، وإما التجزؤ، ويلزم منها أيضًا أن يكون الله حالًّا بالأمكنة، وهو أعظم من كل شيء قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وأما الآخرون فقالوا: إن الله تعالى لا يُوصف بأنه فوق العالم ولا تحت العالم، ولا يمين العالم، ولا شمال العالم ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم، فهو عدم، أما أهل الحق فقالوا: إن الله بذاته فوق كل شيء، ولا يمكن أن يكون في كل مكان، ولا يمكن أن نصفه بالعدم كما وصفه هؤلاء.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**، أن القرآن كلام الله، وجهه: أن الله قال: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧] ومعلوم: أن القرآن كلام، والكلام صفة المتكلم، فإذا كان الإنزال دال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

على علو الـمُنَزِّل، كان ذلك دليلًا على أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن وصف لا يمكن أن يقوم بذاته فلزم أن يكون كلام الله عز وجل.

فإن قال قائل: في هذا الاستدلال نظر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، ولا شك أن هذه الأشياء الثلاثة ليست كلام الله ففي الاستدلال نظر.

فالجواب: أن هذه الأشياء أعيان قائمة بنفسها فهي مخلوقة، وأما القرآن فهو صفة لا تقوم بنفسها؛ لأن كلام ملزم من ذلك أن يكون صفة لله وليس مخلوقًا، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، أما الأشاعرة فقالوا: هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، وكلام الله غير مخلوق؛ لأنهم يرون أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وحقيقة قولهم: أنهم فسروا الكلام بالعلم وليس بالكلام؛ لأن المعنى القائم بالنفس ليس كلامًا، بل إن الجهمية خير منهم في هذا الباب؛ لأن الجهمية يقولون: كلام الله مخلوق، وهو هذا الذي بين أيدينا وهؤلاء يقولون: هذا الذي بين أيدينا مخلوق وليس كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله، وليس هو الكلام، فصار الجهمية من هذا الوجه أحسن منهم.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضيلة الرسول ﷺ؛ حيث كان محلًّا لإنزال الكتاب عليه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١٢- ومن فوائدها: أن القرآن كتاب فعال بمعنى: مفعول: وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة الكرام البررة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ أوتي الحكمة، والحكمة قيل: إنها السنة؛ لأن السنة حكمة، ولكن هذا القول وإن كان ذهب إليه كثير من العلماء ففي النفس منه شيء؛ لأن الحكمة الكائنة في القرآن كالحكمة الكائنة في السنة، وحينئذٍ نقول: إن المراد بالحكمة: هي الأسرار التي اشتملت عليها شريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما اشتمل عليه هذا القرآن، فيكون الله تعالى قد أنزل على رسوله أحكامًا وحِكَمًا، وهذا القول عندي هو الأرجح؛ لأن التعبير عن السنة بأنها منزلة من عند الله فيه شيءٌ أيضًا؛ لأنه ليست السنن كلها واحدة، بل منها ما هو وحي، ومنها ما هو إقرار من الله للرسول ﷺ، ومنها ما قاله الرسول ﷺ، وما أقر الرسول عليه فهو من عنده.

١٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضيلة العلم؛ لأن الله امتن به على رسوله ﷺ حيث قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ولا شك أن العلم أشرف ما يُوهَبُه الإنسان بعد الإسلام، فهو خير من المال وخير من الأولاد، وخير من الأزواج، وخير من الدنيا كلها، فانظر إلى العلماء الذين نور علمهم بين أيدينا اليوم، وانظر إلى من في زمنهم من الملوك والثراء

والوجهاء .. إلى غير ذلك ذكرهم ذهب، لكن العلماء بقي ذكرهم وصاروا يدرسون للناس وهم في قبورهم، وهذه فضيلة عظيمة للعلم، فما أُعطي الإنسان بعد الإسلام خيرًا من العلم، والعجب أن العلم كما قال القائل:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدت

كلما علَّمت ازداد علمك، وكلما أمسكت العلم نقص علمك، والمال بالعكس: لولا أن الله ينزل البركة فيمن تصدق حتى لا تنقصه الصدقة لانتهى المال عن قرب.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم إلا من عند الله، لقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

فإن قال قائل: هذا يقتضي أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان جاهلًا من قبل، وهذا تَنَقُّص له، هذا ليس تنقص له، بل هو كمال له؛ لأن إعطاءه الكمال بعد النقص في هذا الباب يعتبر كمالًا، ولا شك أن الرسول ﷺ قبل أن ينزل عليه الكتاب لا شك أنه نزل من عند الله؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، فلولا أن الله تعالى مَنَّ عليه بالعلم - نسأل الله أن يَمُنَّ علينا وعليكم بالعلم النافع، فـ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أي شيء علمه؟ ما لم يكن يعلم طبعًا وليس من كل شيء، حتى الآية لا تدل على أنه علمه كل شيء، ولكن علمه ما لم يكن يعلمه من قبل، فجائز أن يكون ألف مسألة أو مليون مسألة أو عشر مسائل؛ لأنه قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، ولم يقل: علمك كل شيء؛ وبهذا نرد على هؤلاء الكاذبين الذين يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعلم الغيب، نقول: كذبتم - ورب العرش - ما يعلم الغيب، وإذا كان إذا انخنس عنه بعض أصحابه لا يدري أين ذهبوا، وهم في مكان واحد، فكيف تقولون: إنه يعلم الغيب؟ وإذا كان يدخل بيته ولا يدري ما في البيت يقول: هل عندكم من شيء؟ وإذا قالوا: ليس عندنا شيء قال: «أَلَمْ أَرَ الْبُرْمَةَ على النار»(١)، فالنبي ﷺ لا يعلم الغيب أبدًا، وقد قال الله تعالى في كتابه العظيم كلمة عامة قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، حتى الساعة فقد جاء جبريل يقول للرسول: متى الساعة؟ ماذا قال: قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» فالملائكة والرسل من البشر كلاهما لا يعلم متى تقوم الساعة.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله على رسوله صلى الله عليه وعلى آله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٧)، ومسلم (١٥٠٤).

وسلم وعظمه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وربما يتفرع من هذه الفائدة: أن أعظم فضل يتفضل الله به على العبد هو العلم، ولا شك في هذا، ثم هذه البشرى لأهل العلم، إذا علمهم الله تعالى ما علمهم، فإنهم ورثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث علمهم من شريعته ما لم يكونوا يعلمون.

قال الله تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤]

التفسير

قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أولًا: الإعراب:

﴿لَّا خَيْرَ﴾ (لا) هنا نافية للجنس واسمها خير.

و﴿خَيْرَ﴾ اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب، و﴿فِى كَثِيرٍ﴾: هو خبرها.

وقوله: ﴿مِّن﴾ هذه بدل.

قوله: ﴿مِّن﴾ يحتمل أن تكون جمع كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] نجوى هنا بمعنى: متناجين أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا هو رابعهم، ويحتمل أن تكون مصدرًا، وعلى هذا فيكون المعنى: لا خير في كثير من مناجاة من تناجون، هذا من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى فهو لا يختلف، والمعنى: أن كثيرًا ممن يتناجى من هؤلاء لا خير فيه، والقليل فيه الخير.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ (مَنْ) هل تحتاج إلى تقدير المضاف فنقول في التقدير: إلا نجوى من أو لا تحتاج؟ نقول: هذا مبني على كلمة ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾، إن قلنا: إنها مصدر احتاجت إلى التقدير، يعني: إلا نجوى من، وإن قلنا: نجوى بمعنى المتناجين، فمن هنا لا تحتاج إلى تقديم؛ لأن المعنى: لا خير في كثير من المتناجين إلا من أمر ففيهم الخير.

فما هي النجوى؟ سواء قلنا: إنها بمعنى متناجين أو أنها مصدر، فالنجوى هي: الكلام الذي يسره الإنسان إلى جليسه.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ يعني: إلا نجوى من أمر بصدقة، هذا إن قلنا أن نجوى الأولى مصدر، وإن قلنا إنها مصدر بمعنى الجمع فإننا لا نحتاج إلى تقدير يعني: إلا الذي أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، هذه ثلاثة أشياء، من أمر بصدقة أي: قال لغيره تصدق وهذه الكلمة (تصدق): إن وقعت من أعلى فهي أمر، أو من مساوٍ فهي التماس ومشورة، وهو شامل لهذا وهذا، أي سواءٌ أكان الآمر له الإمرة على من وُجِّه إليه الخطاب أو كان الآمر ليس له الإمرة، لكنه قاله على سبيل النصيحة والإشارة.

وقوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ منكرة، والتنكير يدل على الإطلاق، فيشمل القليلة والكثيرة.

وقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف: ما ليس بمنكر، وهو أعم من الصدقة؛ لأن الصدقة أجسام، والمعروف ما يتعارفه الناس وإن لم يكن صدقة مثل: الأمر بالمعروف كأن يأمر بالتسامح ويأمر بالتواصل ويأمر بالإحسان.

وقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الإصلاح: هو إزالة الفساد بين الناس مثل: أن يكون بين اثنين عداوة فيسعى شخص إلى إزالة هذه العداوة، فهذا هو الإصلاح، وهو من أفضل الأعمال المقربة إلى الله. وقوله: ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ يشمل المسلمين وغير المسلمين، فالإصلاح بين الناس خير سواء أصلحت بين مسلمين أو بين كفار أو بين المسلمين والكفار، ويؤخذ العموم من قوله: ﴿النَّاسِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الأمر بالصدقة وبالمعروف والإصلاح، ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ابتغاء: بمعنى: طلب أي: طلب أن يرضى الله عنه.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفاء) هنا سابقة لجواب (من) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه اقترن بسوف، وقد قال ابن مالك:

وَاقْرُنْ بِفَا حَتْمًا جَوَابًا لَوْ جُعِلْ   شَرْطًا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَا لَمْ يَنْجَعِلْ

يعني: ما لا يصلح أن يلي (إن) وجب أن يقرن بالفاء، وهذا ضابط ما أشار إليه بقوله: (أو غيرها) فهو تفصيل، لكن ما ذكره ابن مالك فيه فائدة وهي: الإشارة إلى وجوب اقترانه بالفاء، والسبب؛ لأنه لا يصح أن يكون فعلًا للشرط، فإذا لم يصح أن يكون فعلًا للشرط لم يصح أن يكون جوابًا، ولذلك وجب اقترانه بالفاء.

ومعنى البيت إجمالًا: أنه إذا لم يصح أن يكون الجواب فعلًا للشرط وجب اقترانه بالفاء، هذا حكمه؛ لأن ما لا يصح أن يكون شرطًا لا يصح أن يكون جوابًا فلهذا وجب أن يقترن بالفاء.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في قوله: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ قراءتان سبعيتان وهما: (نؤتيه) و(يؤتيه) أما على قراءة: (يؤتيه) فهي جارية على نسق الكلام؛ لأن قوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ فيكون: (فسوف يؤتيه) أي: الله أجرًا عظيمًا.

فمعناه: إذا كانت يؤتيه فهي على نسق الكلام؛ لأن الكلام كله في الغيب، وإذا قال: فسوف نؤتيه فقد خرج على نسق الكلام ويسمى هذا التفاتًا، وكل التفات فلابد له من فاعل على حسب السياق.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة منها: أن كثيرًا من كلام الناس ليس فيه شيء، فما هو الميزان لما فيه الخير وما ليس فيه الخير؟ الميزان ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1] هذا واحد وفي قوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[2] وفي نهيه ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال، فهذه ثلاثة أحاديث كلها تبين ما هو الخير في الكلام.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضيلة الصَّدقة، وجه ذلك: أنه إذا كان الآمر بالصدقة في أمره خير ففاعل الصدقة من باب أولى لا شك.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: حث الإنسان على الأمر بالخير والإحسان؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: فضيلة الأمر بالمعروف؛ حيث قرنه الله تعالى بالأمر بالصدقة، لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والمعروف: كل ما عرفه الشرع وأقره فهو معروف، وكل ما أنكره ونهى عنه فهو منكر.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن هذه الأمور الثلاثة فيها خير، وإن فعلها الإنسان بغير قصد ابتغاء وجه الله وجهه: أن الله تعالى لما نفى الخير في كثير من النجوى استثنى هذه الثلاثة ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يصح إطلاق الفعل على القول، يؤخذ هذا من قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، مع أن الذي حصل أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح، وهذا إن قلنا: إنها عائدة على الأمر، المفهوم بالأمر، أما إذا قلنا: إنها عائدة على الصدقة والمعروف والإصلاح، فإن هذا فعل ولا إشكال؛ لأن المشار إليه في ذلك مُخْتَلَف فيه كما ذكرناه فيما سبق.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرضا لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، وهل الرضا صفة فعلية أو صفة ذاتية؟ يقال: إنها فعلية؛ لأن كل صفة تتعلق بمشيئة الله - أي: إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها - فهي صفة فعلية، والرضا متعلق بالمشيئة؛ لأن سببه الفعل الذي يرضى به الله، والفعل الذي يرضى به الله تابع لمشيئة الله؛ لأنه من فعل العبد، وفعل العبد بمشيئة الله؛ إذن فالرضا من الصفات الفعلية، وليعلم أن الصفات الفعلية كلها باعتبار الجنس

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

صفات ذاتية، لكن أنواعها وأفرادها هي التي تحدث، أما أصلها، وهو الفعل فهو صفة ذاتية، والدليل: أن الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، لكن المتجدد هو أنواع الفعل أو آحاده فمثلًا: الاستواء على العرش مما حدث نوعه؛ لأننا لا نعلم فعلًا هو الاستواء إلا ما كان خاصًا بالعرش، وما كان خاصًا بالعرش، فإنه قطعًا حصل بعد خلق العرش، والنزول إلى السماء الدنيا هو أيضًا حادث نوعًا، وحادث آحادًا أيضًا يعني: أن الله ينزل كل ليلة فالاستواء على العرش مطلق عام يعني: ما يجدد بليلة ولا بيوم ولا بأسبوع ولا بشهر، لكن النزول يحدث كل ليلة، فتبين الآن أن صفات الأفعال أصلها ذاتيٌّ؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فَعَّالًا، وإذا قلت: ما الدليل على هذا؟ نقول: لأن الفعل كمال، ولو قلنا: إنه يأتي أو يمر عليه زمن لم يكن فاعلًا لكان هذا نقصًا من الله عز وجل؛ فإننا إذا قلنا: أتى عليه زمن لم يكن فاعلًا فلماذا؟ لأنه غير قادر، فإن قلت غير قادر فهذا شرك، وإن قلت قادر قلنا: هاتِ الدليل على التحديد؛ لأن تحديد ما لم يقم عليه الدليل يعتبر تحكمًا، فمن أي وقت صار الفعل ممكن التحقق، فلذلك نقول: إن صفات الأفعال أصلها ذاتيٌّ؛ لأن الله لم يزل، ولا يزال فَعَّالًا، أما أنواعها وآحادها فهي فعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته تبارك وتعالى.

وعند أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية ومن شابههم يقولون: إن الله ليس له رضًى، لكنهم لا ينكرون إنكار جحود، بل إنكار تأويل، فمثلًا: إذا قالوا ليس له رضًى نقول: إن نفيتم الرضا نفي إنكار فهذا تكذيب للقرآن، ومكذِّب القرآن كافر، أما إذا قالوا: لله رضى، لكن المراد بالرضا كذا، فهذا يسمى إنكار تأويل، ولا يتصفون بذلك إلا إذا كانت البدعة كبيرة لا تكفر هذا شيء آخر.

وبماذا يفسرون الرضا؟ يقولون: الرضا هو الإثابة، فيقال: إن الإثابة ليست هي الرضا؛ لأن الإثابة فعل منفصل بائن عن الله عز وجل فيثيب هؤلاء الذين ﷺ، يثيبهم بشيء منفصل بائن عن الله بالجنة، ونعيمها، بالحياة الطيبة في الدنيا، وما أشبه ذلك؛ إذن التفسير بالإثابة غلط، ونقول: إذا فسرتموه بالإثابة لزم من ذلك ثبوت الرضا، إذ لا يمكن أن يثيب إلا من رضي عنه، لا يثيب من غضب عليه أبدًا، بل يثيب من رضي عنه ومهما فروا من إنكار الرضا، فإنه سوف يكون لازمًا لهم، ومع المعاناة والتحليل فلا يمكن أن ينفلتوا منه إطلاقًا، ولهذا نجد أن أفضل المذاهب وأسهل المذاهب هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ مذهب السلف ـ الذين يقولون: ما أثبته الله لنفسه أثبتناه، وما نفاه عن نفسه نفيناه فنقول مثلًا: نحن نثبت الرضا لله عز وجل كما أثبته لنفسه، وننفي عنه المِثل كما نفاه عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وننفي التكييف أيضًا؛ لأنه لا علم لنا به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فتجد مذهب السلف سهلًا ليس فيه قلق وليس فيه تناقض، وإنما التناقض عند أهل التحريف من المعتزلة وغيرهم.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات صفة الفعل في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا ينبغي للإنسان أن يستعجل الثواب، إذ قد يؤخر الله الثواب لحكمة وهذه تؤخذ من: ﴿فَسَوْفَ﴾ الدالة على التسويف، وهي تدل على التحقيق، لكن تدل على أن الشيء ليس منتظرًا عن قريب، بل ولو على المدى البعيد، ولهذا لا تستعجل ثواب الله، بل ولا تستعجل إجابة الله بالدعاء، كما جاء في الحديث: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ: دَعَوْتُ ثُمَّ دَعَوْتُ ثُمَّ دَعَوْتُ وَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»(١) كذلك الثواب لا تستعجله، ثم إنه ينبغي للإنسان أيضًا - نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذلك - إذا عمل العمل الصالح ألَّا يستعجل ثواب الدنيا، فيكون مريدًا للدنيا، يعني مثلًا: من آمن وعمل صالحًا، قد قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، لو عملت لأجل أن يحييك الله حياة طيبة، فهذا لا شك أنه خير، لكن خير من ذلك أن تنوي ثواب الآخرة، ويأتيك ثواب الدنيا، فإن أردت ثواب الدنيا والآخرة فلا بأس؛ لأن الله لم يذكر لنا ثواب الدنيا أبدًا، ولكن لينشط الهمم ويبعث في النفوس على العمل، وإلا لكان كل ثواب ذكر الله في الدنيا يعتبر عبثًا ولغوًا، فلا حرج على الإنسان أن ينوي ثواب الدنيا والآخرة، لكن أن ينوي ثواب الدنيا فقط، فهذا لا شك أنه ناقص الإخلاص.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: عظم ثواب من فعل ذلك ابتغاء وجه الله؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن تعظيم الشيء من العظيم يدل على عظمته.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان فضل الله عز وجل على عباده؛ حيث سمي ثوابهم على العمل أجرًا بمنزلة أجرة المستأجَر، الأجير: التي لابد أن يُعطاها وهو مستحق لها، وهذه من نعمة الله أن يسمي الثواب الذي جعله على العمل أجرًا بمنزلة أجرة الأجير، مع أن الله هو الذي مَنَّ بالعمل وهو الذي مَنَّ بالثواب؛ وبهذا يزول الإشكال في مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [الحديد: ١١] وهذه الآية من المتشابه على اليهود الذين قالوا: إن الله فقير، والدليل على أنه فقير أنه طلب القرض فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فيقال: تبًّا لكم إن الله غنيٌّ عن العباد قبل أن يخلقهم، وبعد أن خلقهم، لكنه شبه العمل بالقرض من باب الإحسان، وبيان أنه سبحانه وتعالى ملتزم على أن يثيب المطيع.

فإن قال قائل: تقريرك هذا يقتضي أن يكون الله قد أوجب عليه شيئًا، والله تعالى لا يجب عليه شيء؟

فالجواب: نعم، لا يجب عليه من قِبَلِ الناس، فالناس لا يوجبون شيئًا على الله، لكن هو أوجب على نفسه، وإذا أوجب على نفسه فهو من كماله، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو الذي كتب على نفسه أن يثيب المطيع، وأن من عمل سوءًا بجهالة ثم تاب، تاب الله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

عليه، ولهذا لما قال القائل:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... كَـلَّا وَلَا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَـضْلِهِ وَهُـوَ الكَـرِيمُ الوَاسِـعُ

قال ابن القيم مثل هذا القول إلا أنه قيده ووضعه فقال:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَـضْلِهِ وَالفَـضْلُ لِلْمَنَّـانِ

فبيَّن رَحِمَهُ اللهُ ألا واجب على الله للعباد إلا ما أوجبه على نفسه، وإذا أوجب الله شيئًا على نفسه فهو من فضله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]

التفسير

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ (من) هذه شرطية، وليست موصولة؛ لأن الفعل بعدها مجزوم، فهي شرطية، وفعل الإدغام هنا جائز، ولو أدغم لقيل ومن يشاقَّ الرسول، بل قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني، والمراد به: الرسول الذي أرسل لهذه الأمة، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلق بـ ﴿يُشَاقِقِ﴾ يعني: وجدت مشاقته من بعد ما تبين له الهدى أي: تبين له الحق، وظهر، والهدى: العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن المعلوم أن النبي ﷺ بُعث بالهدى ودين الحق، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على ﴿يُشَاقِقِ﴾ يعني: يجمع بين أمرين مشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين، والمشاقة: أن يكون في شق غير شق الرسول ﷺ، فهي مأخوذة من الشق وليست من المشقة.

وقوله: ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يمكن أن نجعل ﴿غَيْرَ﴾ صفة للوجوب محذوفة أي: ويتبع سبيلًا غير سبيل المؤمنين، ويمكن أن نجعلها مفعولًا به بدون أن نقدر موصوفًا. وقوله: ﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي طريقهم، ومن المعلوم أن المؤمنين ليس لهم طريق إلى الله إلا بالشرع.

وقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ هذا جواب الشرط، ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يعني: نتخلى عنه ونجعل أمره إلى ما تولاه كقوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُه إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُه إِلَى اللهِ وَرَسُولِه، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُه إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امرأةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»[1].

ومعنى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه فلا نتولاه ونقول لك توليت، ومن تعلق شيئًا وُكِلَ إليه.

وقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي: ندخله جهنم حتى يصلاها، وصلاها أي: احتراقه بها.

وقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ الجملة هنا إنشائية للجمع أي: ما أسوأها مصيرًا، والمصير بمعنى: المرجع، هذا معنى الآية، فهذه الآية فيها التهديد والوعيد على مَنْ شاقَّ الرسول ﷺ، واتبع غير سبيل المؤمنين بأن الله يعاقبه على ذلك بعقوبتين: العقوبة الأولى: أن الله يوليه ما تولى، ويتخلى عنه.

والعقوبة الثانية: أن الله يصليه جهنم، وجهنم هي: اسم من أسماء النار.

١- ونستفيد من هذه الآية أولًا: تحريم مشاقة الرسول، وأنها من كبائر الذنوب وجهه: أنه رتب عليها العقوبة من حيث التخلي عنه، وصلاه جهنم.

فإن قال قائل: هل هذا عَلَم لكل مشاقة أو هو مقيد بحسب ما تقتضيه النصوص؟

الجواب: الثاني؛ لأن بعض أسباب المعاصي ما تكون من الذنوب، إما من الدين ولا يترتب عليها هذا التخلي، فلو أن الإنسان أراد بمعصيته مخالفة الرسول صراحة وعدم إرضائه في هذا الحكم، فهذا يكفر، لا من أجل المعصية التي فعلها، ولكن من أجل المشاقة والمخالفة، وعدم الالتزام بما جاء به الرسول.

٢- ومن فوائد هذه الآية: العذر بالجهل؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾، فلو أنكر إنسان شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ وصار يحاجُّ عليه، لكنه جاهل فإنه لا يكفر؛ لأنه معذور؛ لأن الآية صريحة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما جاء به النبي ﷺ فهو هدى ونور، ولكن كيف يتبين؟ يتبين بأن يتأمل الإنسان ما جاء به الرسول ﷺ من العبادات والأخلاق والمعاملات، وغير ذلك.

فإذا تأمله بعلم وعدل تبين له الحق، يعني: ينصف، فإنه يتبين له الحجة، ويعرف أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق.

٤- ومن فوائد هذه الآية: أنه مع التردد لا تقوم الحجة؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾، لكن على الإنسان أن يتبين، ولا يقول: لا أبحث، وهذا يرد علينا في بعض البلاد الإسلامية يكون فيها عوام

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

مشركون شركًا صريحًا ما فيه إشكال، يعبدون القبور ويستغيثون بالأموات، وغير ذلك مما يأتونه من الشرك الأكبر، ويقال لهم: إن هذا شرك لكن لا يبحثون، فهؤلاء لا يعذرون بالجهل؛ لأنهم لم يطلبوا التَّبين، وهم مفرِّطون بلا شك.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الاحتجاج بالإجماع؛ لقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه يُستدل بذلك أن سبيل المؤمنين حق، يعني: أن الأمة إذا أجمعت على شيء فإنه حق، ولا يمكن لهذه الأمة التي اختارها الله عز وجل، وجعلها هي شهيدة على الناس؛ لقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهي تشهد على أحكام أفعالهم، لا يمكن أن يقال: إن إجماعها ضلال أبدًا، بل إجماعها على الشيء حق، ولكن الذي يبقى هو تحقيق الإجماع هذه هي المشكلة؛ لأنك أحيانًا ترى من العلماء الأجلاء من ينقل الإجماع والخلاف قائم وموجود، وبعض العلماء ـ عفا الله عنهم ـ لا يقول: لا أعلم مخالفًا، لو قال كذا لكان معذورًا، لكنه يقول بالإجماع أو أجمعوا على كذا، والخلاف موجود بكثرة، ومن الغرائب أنه نُقل الإجماع على أن شهادة العبد مردودة، ونُقل إجماع آخر على أن شهادة العبد مقبولة، فلا يمكن هذا، لكن سببه هو عدم التحري والاطلاع على أقوال أهل العلم، ونضرب مثلًا من الأمثلة: بالإضافة إلى مسألة الشاهد في العدل، نقل بعض العلماء على أن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يُبِينُ المرأة، وقالوا: هذا مجمع عليه، ومن قال بأنه لا يبينها فقد خرج على الإجماع، وخالف سبيل المؤمنين، هذا الإجماع لا يمكن أن يصح لا بعد عهد عمر ولا قبل عهد عمر، أما قبل عهد عمر فلا يصح قطعًا، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الطلاق الثلاث في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفي عهد أبي بكر وسنتين من حياة عمر واحدة، يعني: الرجل إذا قال: أنت طالق أنت طالق أنت طالق فهي واحدة، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لِرُكَانَةَ ـ لما قال: إني طلقتها ثلاثة في مجلس واحد ـ: «فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ؟» قال: نعم، قال النبي ﷺ: «تِلْكَ وَاحِدَةٌ فَارْجِعْهَا»[1]، وهذا واضح أنه كرر فقال: أنت طالق أنت طالق أنت طالق، لكن سأله فقال: في مجلسٍ واحد، لأنه إذا كان في مجلسين فيحتمل أنه راجع فيما بين الطلقتين، وإذا راجع بين الطلقتين صارت الثانية واقعة، فعلى كل حال: أنا أريد أن أُمَثِّلَ أن بعض العلماء نقل الإجماع على أنها تَبِينُ بالطلاق الثلاث سواءً كان متفرقًا أو مجموعًا، ونحن نقول: هذا لا يصح؛ لأنه إذا كان في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاثة يقع واحدة فكيف يصح الإجماع؟! ولهذا قال بعض العلماء: إن الإجماع على أنها لا تقع إلَّا واحدة وأنه إجماع قديم ثابت، وهذا الذي قال ذلك أسعد بالصواب من الذي قال: إن الإجماع على أنه تبين به المرأة، لا شك على عهد الرسول، وعهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر، فالمهم: أن هذه المسائل يحتاج الإنسان فيها إلى تحرير المسألة والاطلاع الكامل، وعُرف عن بعض العلماء

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٥٥)، وانظر «الإرواء» (٢٠٦٣).

التساهل في نقل الإجماع، وعذرهم في ذلك أنهم لم يطلعوا على المخالف فتساهلوا في الأمر.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن سبيل المؤمنين طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذنْ سبيل المؤمنين هو عدم المشاقَّة، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أقوى اتباعًا لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حتى كأنه يشاهد الرسول أمامه ويتبع أثره، وإذا اتبع الإنسان هذه الطريقة حصلت له الراحة والطمأنينة وقوة الإيمان، كلما فعل شيئًا تخيَّل كأن الرسول أمامه يرشده بقوله أو بفعله، وهذه مسألة يجب علينا أن ننتبه لها، وألَّا تضيع علينا أعمالنا سُدًى؛ لأن أكثرنا عنده الاتباع المطلق ـ والحمد لله ـ، لكن الاتباع الخاص في كل فعل يفعله أو يقوله هذا يفقد منا كثيرًا، فلابد من التنبه منها.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: عقوبة من شاقَّ الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين بأنه يولى ما تولى فيضيع، وهذا هو الواقع، ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، فالذنب سبب للذنب الآخر، وكلما أذنب الإنسان ذنبًا فليتهيأ لذنب آخر عقوبة له إلَّا أن يتوب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات النار والعذاب فيها؛ لقوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، والسؤال عن هذه النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ، هل هي الآن موجودة؟

الجواب: نعم، وهي مؤبدة، وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، ولم يعرف لأحد في ذلك خلاف إلَّا أقوال شاذة لا عبرة بها؛ لأن الله صرَّح بتأبيدها في آيات ثلاث من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: ثناء الله بالذم والقدح على النار؛ لقوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وصدق الله عز وجل، فإن أسوأ مصير يصير إليه الإنسان أن يصير إلى النار.

مسألة: قاعدة العذر بالجهل ألا يشكل عليها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]؟

الجواب: لا، ما تشكل عليها؛ لأن هذه الآية من المتشابه، والآية الأخرى واضحة صريحة المعنى حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: سماعًا فينتفعون به، لكن مع ذلك لو أسمعهم سماعًا ينتفعون به، فإن ما في قلوبهم من الزيغ لا يقوون معه على الاتباع.

مسألة: هل الكفار والوثنيون الذين ينتشرون في العالم ولم تصلهم الدعوة، لا تنطبق عليهم آية الإعذار؟

الجواب: هؤلاء يقال فيهم: إن أمرهم إلى الله؛ لأن هؤلاء لا يدينون بالإسلام فيُجعلون كأهل الفترة، لكن إذا كان يدين بالإسلام، لكن عنده شيء يجهله، فهنا نقول: إنه مسلم معذور بجهله؛ لأن هناك فرقًا بين أن يدين بالكفر والشرك، وهو لا يريد الإسلام، وبين شخص آخر يقول: إنه مسلم يشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لكن عنده شك، والنتيجة بيِّنة في هذا، أما الذين لم تبلغهم الدعوة، فالصواب: أن أمرهم إلى الله، وألا نلحقهم بالمسلمين ظاهرًا، فإذا ماتوا بين أيدينا فإنا لا نصلي عليهم ولا ندفنهم معنا، أما في الآخرة فأمرهم إلى الله.

مسألة: إذا اتفقت الأمة على رأي وخالف خمسة أو عشرة هل نقول: إنهم اتبعوا غير سبيل المؤمنين، وأنه لا ينعقد الإجماع مع مخالفة هؤلاء الخمسة أو العشرة؟

الجواب: لا، لا إجماع مع مخالفة الخمسة والعشرة، بل ولا مع مخالفة الواحد والاثنين، إلا عند بعض العلماء كابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ الذي يرى أن خلاف الواحد مع الاثنين لا ينقض الإجماع، والصواب: أنه لابد من إجماع كل المجتهدين، أما العوام فلا نعتبرهم، والمقلدون لا نعتبرهم؛ لأن العلماء أجمعوا على أن المقلد ليس من العلماء، فلا يُنتبه لقوله؛ لأن المقلد نسخة من كتاب مؤلَّف في هذا المذهب.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:١١٦-١٢١]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

سبق الكلام تمامًا وكررها الله عز وجل في هذه السورة، وكان بين الآيتين ذكر قتل النفس، وقد مر علينا أن أهل العلم قالوا: إن قاتل النفس له توبة، واستدلوا لذلك بأن الله ذكر قتل النفس بين آيتين كلتاهما تدل على أن ما سوى الشرك فالله تعالى يغفره، وسبق القول في قوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، هل المراد: ما هو أقل أو ما سوى ذلك؟ إذا قلنا: ما سوى ذلك.

وما الذي يترتب على ذلك؟

فإذا قلنا: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما سواه دخل فيه الكفر الذي ليس بشرك، وإذا قلنا ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما هو أقل دخل به إلى الصغائر التي دون الشرك وخرج به الكبائر من الكفر وغيره.

المهم أن نقول: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما هو أقل؛ لأنك لو قلت ما سوى ذلك، لكان الكفر تحت المشيئة إذا لم يكن شركًا، وليس كذلك، بل المراد: ما دون الشرك.

مسألة: هل في الآية ما يدل على أن الشرك ـ ولو كان أصغر ـ لا يُغفر؟ نعم، ويؤخذ من أنك لو أولت قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إلى المصدر صار التركيب: إن الله لا يغفر شركًا به، وإذا كان كذلك فهو نكرة في سياق النفي، فيكون للعموم، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (الشرك لا يُغفر ولو كان أصغر)، وربما يستدل لذلك بقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لئن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا)، فجعل سيئة الشرك أعظم من سيئة اليمين الكاذبة.

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وفي الآية الأولى: ﴿فقد افترى إثمًا مبينًا﴾، فيؤخذ من مجموع الآيتين: أن المشرك مفترٍ ظالم؛ لأن دعواه أن لله شريكًا كذب وافتراء عظيم، وكونه يبني على هذه الدعوة أن يشرك بالله يكون هذا ضلالًا، فمجرد قوله: إن لله شريك افتراء، ثم تطبيق ذلك في عمله يعتبر ضلالًا، فيؤخذ من الآيتين الكريمتين: أن المشرك مفترٍ ظالم.

وقوله: ﴿بَعِيدًا﴾ لعظم إثمه وذنبه.

ثم قال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾

﴿إِن﴾ هنا بمعنى (ما)، وعلامة كون ﴿إِن﴾ بمعنى ما: أن تأتي بعدها إلا، وهذه العلامة على أنها تكون بمعنى ما، قال الله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ ما هذا إلا سحر، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] المعنى: ما هذا إلا ملك كريم، وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلا نذير، (فإن) تأتي بمعنى (ما) وعلامتها: أن يأتي بعدها إلا، كما أن (إن) لها معانٍ متعددة، ولا مانع أن نسوقها الآن:

فهي تأتي نافية، وتأتي مخففة من الثقيلة مثبتة عكس النافية؛ لأن المخففة من الثقيلة تفيد

التوكيد؛ إذ إنها هي إنَّ لكن خُففت فتكون للتوكيد عكس إن؛ لأنها للنفي، قال الشاعر:

وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

هو هنا يفتخر، أي: وإنَّ مالك كانت كرام المعادن.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ بمعنى: (إنَّ) واسمها يقولون: إنه ضمير الشأن محذوف، كلما جاءهم، والتقدير: و(إنه) أي: الشأن، أو وإنهم أي: القوم، يعني: بعضهم يقول: لا نقدِّر ضمير الشأن، ونقدر ضميرًا مناسبًا للسياق، فإذا كانوا جماعة، قلنا التقدير: إنهم، ولا مانع ، على كل حال هذه (إن) هي مخففة من الثقيلة، وهي على العكس من (إن) النافية؛ لأنها للإثبات، وتوكيد الإثبات بخلاف (إن) النافية، وتأتي (إن) شرطية وهي كثيرة مثل قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وتأتي زائدة: يعني: وجودها كالعدم، كقول الشاعر:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

فالشاعر يهجو هؤلاء القوم، يقول: لا أنتم ذهب ولا فضة، بل أنتم خزف، والناس معادن كما قال النبي ﷺ معدن طيب، ومعدن رديء.

إذنْ الأقسام أربعة:

١- نافية.

٢- زائدة.

٣- مخففة من الثقيلة.

٤- مؤكدة.

على كل حال نقول: (إن) هي في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ نافية أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله ـ أي سوى الله ـ إلا إناثًا.

ما معنى قوله: ﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾؟ قيل إنها أسماء هذه لأصنام وهي أسماء إناث: (اللات ـ والعزى ـ ومناة)، فهذه كلها أسماء إناث، والمؤنث دون المذكر لا في قوته ولا في مرتبته، ولا في مقامه، ولا في كل شيء، قال الله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وقيل معنى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ أي: إن يدعون إلا شيئًا مثل الإناث لا يدفع عن نفسه فكيف يدفع عن غيره؟! وعلى هذا القول يدخل في ذلك الأصنام المذكرة مثل: هُبَل مذكر، ومع ذلك يعبد من دون الله، وعلى هذا يكون هذا القول أولى بالصواب؛ لأنه أعم؛ ولأنه يدل على حقيقة هذه الأصنام، وأنها لا تدفع عن نفسها شيئًا فكيف عن غيرها.

وقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أي: وما يدعون إلا شيطانًا مريدًا، والدعاء هنا بمعنى العبادة، يعني: وما يعبدون إلا الشيطان والعبادة هنا بمعنى الطاعة أي: يطيعون الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، فالشيطان يأمرهم بالشرك فيشركون، فيكون شركهم بالشيطان شرك طاعة، وشركهم بالأصنام شرك عبادة، وقوم هذه حالهم لا خير فيهم، لا يعبدون إلا ما لا ينفعهم، ولا يأتمرون إلا بأمر الشيطان.

وقوله: ﴿شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ المريد: هو البالغ في العدوان والعتو غايته، والشياطين أقسام: منهم مَريد، ومنهم من ليس مَريدًا، ولهذا جاء في حديث تصفيد الشياطين في رمضان بعض الآثار في تصفد مردة الشياطين أي: الشياطين العتاة الأقوياء في عتوهم.

وقوله: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ الضمير يعود على الشيطان، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله عز وجل، وهل هذا خبر أو دعاء؟ يتعين أن يكون خبرًا؛ لأنه من الله، فالله تعالى يفعل، ولا يدعو به على أحد، فالله تعالى يخبر بأن الله لعنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، والآية الثانية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] فلعنة الله ولعنة اللاعنين على إبليس إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ الواو للاستئناف، ولهذا يتعين الوقوف على قوله: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: الشيطان: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، مقول القول هو: جملة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾، وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدَّر، ولام التوكيد، ونون التوكيد، وقوله: (قال) يعني: لله عز وجل: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول أتخذ، والمعنى: أتخذهم أولياء أتولاهم ويتولوني، والنصيب: الجزء من الشيء، فما هذا النصيب؟ هذا النصيب أكبر بكثير من النصب الثاني؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر: «أَنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَا آدمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيكَ، فَيَقول: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا للنَّار فَيَقولُ: يا ربِّ ومَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعمائةٌ وَتِسْعٌ وتِسْعُونَ»[1]، لكن يجب أن نعلم أن الشيطان لم يقل: لأتخذن من بني آدم، لكن قال: ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ وعبادك أعم وأشمل من بني آدم، ولهذا قال: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، وهم الذين أغواهم من بني آدم، وهم بالنسبة لبني آدم أكثر بكثير، فعليه نقول: هل المراد بالعباد هنا بنو آدم؟ إن قيل: هم بنو آدم صار من باب العام الذي يُراد به الخاص، وحينئذٍ يكون هذا النصيب المفروض أكثر بكثير من الذي سلم من الإغواء، وإذا قلنا: المراد به العباد، ما يشمل كل الخلق، فالملائكة من عباد الله كما قال الله تعالى عنهم إنهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، كذلك أيضًا متذللة لله عز وجل تذللًا شرعيًّا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

أو تذللًا قدريًا، وعلى هذا يكون النصيب المفروض بالنسبة للعباد على سبيل العموم قليلًا، لكنه بالنسبة لبني آدم كثير؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم بالنار وواحد من الألف في الجنة.

وقوله ﴿مَّفْرُوضًا﴾ الفرض بمعنى الحتم يعني: مُحتّمًا مقدّرًا، وقد أعطاه الله عز وجل ذلك، ومكّنه من إضلال بني آدم لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، ولكنه توعد من تابعه فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يتخذهم أولياء يتولاهم ويتولونه، ويضلهم أيضًا عن صراط الله عز وجل، سواء من هذه الأمة أو من غيرها، والجملة هنا مؤكدة بما أُكدت به الجملة قبلها أي: بثلاثة مؤكدات والمعنى: ولأضلنهم عن الصراط المستقيم.

وقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يعني: أعدهم بالأماني، وفعلًا وقع هذا لآدم؛ حيث قال له الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، وقال الله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فنسي آدم عليه الصلاة والسلام أن الله نهاه وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، لكن وعدهم بالأماني فقال: ﴿أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ يعني: على الشجرة التي إذا أكلتها تخلد ويصير لك الملك الذي لا يكون لأحد، فالشيطان إذن يمني بني آدم، يمنيه بعدة أماني منها: أنه يسهل عليه أمر المعصية، يقول: هذه سهلة، هذه صغيرة، تقع مكفرة بالصلوات، تقع مكفرة بالعمرة وهكذا وما علم المسكين الذي أضله الشيطان أن الصلوات والعمرة للعمرة وما أشبه ذلك مما يكفر الذنوب، لابد أن تأتي كاملة، ومن الذي أتي بكمال الصلوات؟! كذلك أيضًا يقول: هذه سهلة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ويمنيه فيقول: أنت لو فُرض أنك لو مِتَّ مصرًّا على المعصية فلك أولاد صالحون يدعون لك، وإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، وهلم جرًّا، فالمهم: أنه يُوقع الأماني على نفوسهم بأشكال كثيرة.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ هل أمرًا صريحًا مواجهة أو أمر وحي من داخل النفس؟ الثاني، وربما يتصور الشيطان بصور إنسيٍّ فيأمره أمرًا صريحًا، لكن الأصل أنه أمر داخل، يأمره أن يفعل كذا وكذا، ولهذا قال: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾، (الفاء) هذه حرف عطف، وهي معطوفة على آمر، وهي تدل على تمام الانقياد من هؤلاء.

وقوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (يبتكن) أي: يقطعن، وإعراب ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب، واللام موطئة للقسم، ويبتّك: فعل مضارع مرفوع وعلامة الرفع النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والنون للتوكيد، لماذا لم يُبنَ

الفعل مع أن به نون التوكيد؟ لأنه غير مباشر، إذنْ لابد أن تقدَّر النون المحذوفة؛ لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة: لالتقاء الساكنين، والواو: ضمير محذوف في محل رفع فاعل، والنون للتوكيد، وأصل الكلمة هذه: (فليبتكونن آذان الأنعام) حُذفت النون الأولى كراهة توالي الأمثال، ولم تُحذف نون التوكيد؛ لأنه أتي بهذه العلامة، لو حذفت لفاتت هذه العلامة، ثم حذفت الواو لما حذفت النون الأولى فالتقت النون الثانية وأولها ساكن بالواو الساكنة فيلتقي ساكنان، وابن مالك رَحِمَهُ اللهُ يقول:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

وهنا الأول لين؛ لأنه أحد حروف العلة فيُحذف.

ومعنى: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ أي: فليقطعن آذان الأنعام، وليس مجرد التقطيع داخلًا في الآية، لكنهم يقطِّعون آذان الأنعام علامة على أنها محرمة؛ لأنهم يحرِّمون ما أحل ويحلون ما حرم الله، فعندهم قواعد وضوابط معروفة، أي: قوانين وضعية ما هي شرعية، إذا أنجبت البعير كذا وكذا بطنًا يجب أن تطلق ويوضع لها العلامة ـ قطع الأذن ـ وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، لكنها مفصَّلة، وهذا هو التقطيع، وليسوا يقطعونها علامة ودليلًا على أنها ملك فلان كما لو قطعوها على أنها واصلة، بل يقطعونها اعتقادًا باطلًا أنها أصبحت حرة، لا تُركب ولا يُحمل عليها ولا يُستسقى من لبنها ولا غير ذلك، و﴿الْأَنْعَامِ﴾ جمع نَعَم، كأسباب جمع سبب، والنَّعَم: يطلق على ثلاثة أشياء: الإبل والبقر والغنم.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ هذا معطوف على ما سبق، على قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ يعني: أن الشيطان يأمر عباد الله عز وجل أن يغيِّروا خلق الله، فما المراد بخلق الله، هل المراد الفطرة التي فُطر الناس عليها فيكون المعنى: أنه يغيِّر فطرة الخلق من التوحيد إلى الشرك، ومن اليقين إلى الشك كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، أو المراد بتغيير خلق الله الوشم والوشر والنَّمص وما أشبه ذلك؟ فيه قولان للعلماء، والصواب: أنه شامل؛ بناءً على قاعدة التفسير المشهورة: أنه متى ذُكر في الآية قولان لا تضاد بينهما، والآية تحملهما وجب حملها على المعنيين جميعًا، وعلى هذا فهو يأمرهم أن يغيروا خلق الله الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها، وخلق الله التغير الحسي بالوشم والوشر وغير ذلك؛ لأن هذا أعمُّ.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي: من يجعل الشيطان وليًّا أي: يتولى الشيطان من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا، وتولى الشيطان

يكون بطاعته، فمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن فقد خسر خسرانًا مبينًا، والخسران ضد الرِّبح، بل إن الخاسر هو الذي لم يحصل ولا على رأس ماله، فهو لم يربح بل خسر.

وقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ مشتقة من أبان فهي مشتقة من فعل رباعي وأصلها (مُبْيِن)، لكن نُقلت حركة الياء للساكن الصحيح قبلها، ونُقل السكون الذي ما على قبلها إليها فصارت (مبينًا) قلت: إنها من (أبان)، وأبان يصلح أن يكون لازمًا وأن يكون متعديًا، تقول: بان الفجر، وأبان الفجر، فإذا جعلناها من اللازم صارت بمعنى بيِّن واضح، وإذا جعلناها من المتعدي، فيكون: أبان الشيء يعني: أظهره فصار المعنى: أنه خسارة تظهر ذلك فيمن خسر وتتضح.

وقوله: ﴿يَعِدُهُمْ﴾: ضمير الفاعل يعود على الشيطان، و(الهاء) ضمير المفعول يعود على العباد الذين أضلهم الشيطان، وهو يعدهم بأشياء يتمنونها ويرجونها فيتبعونه، فمثلًا يقول له: افعل هذه المعصية وتب إلى الله، افعل هذه المعصية وهي صغيرة، افعل هذه المعصية ولك كذا وكذا كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقوله: ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ يعني: ويرجيهم ويفتح أمامهم الآمال الكاذبة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهنا إظهار في موضع الإضمار، وكان مقتضى السياق أن يقول: وما يعدهم إلا غرورًا، لكنه أظهر في مقام الإضمار؛ لإظهار عداوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقوله: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا خداعًا وباطلًا.

فوائد هذه الآية:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان حقيقة الأصنام، وأنها من الجنس الضعيف؛ لقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾، وقد سبق لنا في التفسير هل المعنى أنهم يسمون الأصنام بأسماء الإناث أو أن هذه الأصنام لضعفها مثل الإناث بالنسبة للذكور؟

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عبادة الشيطان دعاء؛ لقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.

٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الطاعة تسمى دعاءً وعبادة؛ لقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الشيطان يغوي بني آدم حتى يضلهم إلى هذا الحد فيجعلهم عبادًا له.

وقد سبق لنا هل صفة مريد صفة كاشفة أو صفة مقيدة بمعنى: هل الشياطين كلهم مردة أو أنهم ينقسمون؟ ذكرنا في هذا قولين: يحتمل أن هذا صفة كاشفة، والمعنى: أن كل شيطان فهو مريد، ويحتمل أنها صفة مقيدة وأن الشياطين ينقسمون إلى مردة ودونهم.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله لعن الشيطان؛ لقوله: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من الانصياع لأوامر من لعنه الله؛ لأن هذه الجملة كالتعليل لذمِّهم حينما عبدوا الشيطان.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الشيطان أقسم بأن يتخذ من عباد الله نصيبًا مفروضًا؛ لقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

٤- ومن فوائدها: إثبات القول للشيطان، وأنه يقول، كما أنه يفعل أيضًا، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يأكل ويشرب بشماله فهو يقول ويفعل ويمني ويعد ويغُر.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا: أن نصيب الشيطان من عباد الله مفروض، أي: مقدر لابد أن يكون، وهذا كقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩].

وفوائد قوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ ... ﴾.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الشيطان أقسم قسمًا مؤكدًا، أن يضلَّ هؤلاء النصيب الذين فرضوا له، وهذا القسم له مدلوله فيتفرع عليه: أنه يجب علينا أن نحذر من وساوس الشيطان؛ لأنها كلها ضلال.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإضلال الذي يقع من الشيطان ببني آدم مصحوب بالأمنيات بمعنى: أنه يُدخل عليهم الأماني، وأنهم ينالون خيرًا، وأن المعاصي لا تضرهم، وبأن التوبة قريبة، وما أشبه ذلك.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الحذر ممن يضلك ويُدخل عليك الأماني الكاذبة؛ لأن الضلال كله شر.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم قطع آذان الأنعام إذا كانت على الوجه الذي يستعمله أهل الجاهلية، وقد سبق أنهم كانوا في الجاهلية يقطعون آذان الأنعام؛ للإشارة إلى أنها محرمة سيِّبة، فهل يقال - بناءً على ذلك -: لو أن الإنسان قطع آذان الأنعام لمصلحة دنيوية فهل يجوز أو لا؟ فالجواب: أنه يجوز؛ لأن هذا ليس من أوامر الشيطان.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشيطان يأمر بني آدم فيغيرون خلق الله؛ لقوله: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، والمراد: أن تغييرهم خلق الله تعالى عامٌّ، وقد مر علينا ذلك في التفسير وأشرنا إلى حديث عبد الله بن مسعود.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأصل في تغيير خلق الله المنع؛ لأنه من أوامر الشيطان، وقولنا: (الأصل) احترازًا من تغيير خلق الله الذي أمر الله به، كحلق العانة والشارب ونتف الإبط

وما أشبه ذلك، فإن هذا من التغير، ولكنه مأذون فيه، فلا يدخل في أوامر الشيطان؛ إذ إن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء.

مسألة: وهل من تغير خلق الله سبغ الشيب بالسواد؟

الجواب: نعم؛ لأن هذا الذي صبغ بالسواد أراد أن يعيد نفسه شابًّا فيغير خلق الله من الشيخوخة إلى الشباب، ولهذا أمر النبي ﷺ بتغيير الشيب بغير السواد، ومن تغيير خلق الله الوشم والوشر والنَّمص

مسألة: هل يدخل في تغيير خلق الله حلق اللحية؟

الجواب: يحتمل أن يقال: إنه داخل، لاسيما إذا أصرَّ الإنسان عليه، وواظب عليه، ويحتمل أن يقال: إن هذا ليس تغييرًا؛ لأن اللحية تنبت، وإذا كانت تنبت لم يُغير الخلق، لكن غالب الذين ابتُلوا بحلق اللحية يستمرون عليه، فيكون عملهم هنا محاولة لتغيير خلق الله عز وجل، وقد صرَّح بعض العلماء بأن حلق اللحية من تغيير خلق الله.

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من اتخاذ الشيطان وليًّا؛ لقوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ﴾.

فإن قال قائل: بماذا نعرف أن هذا الرجل موالٍ للشيطان أو لا؟

نقول: كل من عصى الله فهو موالٍ للشيطان لكن الولاية قد تكون عامة وقد تكون خاصة، فإذا أطاع الشيطان في الكفر والشرك كانت الولاية عامة وإذا أطاعه في معصية من المعاصي كانت خاصة، وليعلم أنه يفوت من ولاية الإنسان لربه عز وجل إذا والى الشيطان بقدر ما والى به الشيطان.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن أكثر الخلق قد خسروا؛ لأن أكثر الخلق قد اتخذوا الشيطان وليًّا من دون الله.

الفوائد في قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾

١ـ **منها:** التأكيد على التحذير من الشيطان ووعده وأمانيه فتكون الجملة الأخيرة في ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ تكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من غرور الشيطان وإدخال الأماني والرجاء؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١].

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشار إليه الذين أطاعوا الشيطان واتبعوه.

وقوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مرجعهم، وجهنم: اسم من أسماء النار وسميت بذلك ـ

والعياذ بالله -؛ لأنها قعيرة وسوداء مظلمة فهي كلها جهمة.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يجدون عنها ملاذًا ومفرًّا، بل هم خالدون فيها، وما هم عنها بمخرجين كما في آيات أخرى.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مرجع الطائعين للشيطان جهنم، وأنه لا يمكن أن يخرجوا منها، ويعود ذلك على من أطاعوه طاعة مطلقة، أما من أطاعوه في بعض المعاصي فإن مذهب أهل السنة والجماعة: أنهم لا يخلدون في النار، وإنما يعذَّبون بقدر أعمالهم ثم يخرجون من النار.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات جهنم وهي النار؛ لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن أهل جهنم لا يمكن أن ينجوا منها، والمراد بأهلها: الكفار الذين خرجوا من الإسلام إلى الكفر.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]

التفسير

مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن القرآن الكريم كان مثاني، تثنَّى فيه المعاني: فإذا جاء الوعيد جاء الوعد، وإذا جاء ذكر النار جاء ذكر الجنة، وإذا جاء ذكر المؤمنين جاء ذكر الكافرين وهلم جرًّا؛ وذلك من أجل ألا يكون الإنسان خائفًا دائمًا فيستولي عليه اليأس، ولا راجيًا دائمًا فيستولي عليه الأمن من مكر الله، فيكون بين هذا وهذا.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لا يكفي الإيمان لابد من الإيمان والعمل، والإيمان يكون بكل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصول ذلك في حديث جبريل حيث قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وأما قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالمراد بالصالحات: الأعمال؛ ولهذا قال النحويون: إن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الصالحات صفة لموصوف محذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، وحذفُ الموصوف كثير في اللغة، وفي القرآن أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعًا سابغات، والأعمال الصالحات: هي ما كان خالصًا صوابًا، فالخالص هو الخالص لله الذي ليس فيه شرك لأحد، والصواب الذي كان على شريعة الله، وبهذا ينتفي الإشراك وتنتفي البدعة، فالإشراك ينتفي بالإخلاص، والبدعة بالمتابعة، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة إلا إذا وافقت الشرع في أمور ستة وهي:

١- السبب.

٢- الجنس.

٣ - القدْر.

٤- الهيئة.

٥- الزمان.

٦- المكان.

فإذا وافق العمل الشرع في هذه الأمور الستة تحققت فيه المتابعة، وإن اختل واحد منها فلا متابعة.

أولًا: [السَّبَبُ:] فلو أن الإنسان تعبَّد لله تعالى عبادة مقرونة بسبب لم يجعله الله سببًا فلا متابعة، ومن ذلك ما يُحدث في مولد النبي ﷺ من الصلاة عليه والأذكار وغير ذلك حتى وإن كانت مباحة، فإنه ليست موافقة للشرع؛ لأن مرور الوقت الذي ولد فيه ليس سببًا لإحداث هذه العبادة، كذلك أيضًا يوجد بعض الناس إذا تجشأ قال: الحمد لله، هذا لا يصح؛ لأن التجشُّؤ ليس سببًا للحمد، وإلا لكان خروج الريح من الدبر سببًا للحمد ولم يقل به حتى العوام، إذن نقول: هذا يعتبر غير متبع فيه الرسول ﷺ، بعض الناس إذا أعطيته البخور قال: اللهم صلِّ على محمد، فجعل تبخره سببًا للصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنقول: هذا ليس فيه اتباع؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يتطيب، ولم ينقل عنه أنه كلما تطيب صلى على النبي، ومن ذلك أيضًا إذا تثاءب بعض الناس يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دلنا على ما نفعله إذا حصل التثاؤب، بأن يكظم الإنسان ما استطاع فإن لم يستطع فإنه يضع يده على فِيهِ، هذا واحد.

ثانيًا: [الجِنسُ:] وذلك بأن تكون العبادة موافقة للشرع في جنسها، فلو تعبد لله تعالى بشيء لم يتعبد الله عبادَه بجنسه فإنه لا يقبل ولا يكون من الشرع، مثاله: أن يضحي الإنسان بفرس - والفرس حلال - لم تقبل أضحيته؛ لأنه مخالف للشرع في جنسه، إذ إن الأضاحي لا تكون إلا من

بهيمة الأنعام.

الثالث: [القَدْرُ:] أي: أن يوافق العبادة في قدرها، فلو أنه صلى خمسًا في رباعية أو أربعًا في ثلاثية أو ثلاثًا في ثنائية لم تصح عبادته؛ لأنه زاد على القدْر المشروع، وكذلك لو توضأ أربع مرات فإن هذه الزيادة لا يُؤجر عليها؛ لأنه زاد عن الأمر المشروع، وكذلك لو طاف ثمانية أشواط، فالزائد ليس من الشرع فلا يثاب عليه.

الرابع: [الهَيْئَةُ:] بأن تكون على الهيئة التي وردت، فلو أن الإنسان صلى فسجد قبل أن يركع أتى بالركوع لكن بعد السجود لم تقبل لمخالفتها الشرع في هيئته، وكذلك لو توضأ منكّسًا؛ فبدأ بالرجل ثم مسح الشعر ثم غسل اليدين إلى المرفقين ثم غسل الوجه، فإن هذا الوضوء لا يصح.

الخامس: [الزَّمَانُ:] فلو أن الإنسان صلَّى قبل الوقت بدقيقة واحدة، فصلاته غير صحيحة؛ لأنها لم تكن في الوقت الذي عيَّنه الشرع، ولو ذبح الإنسان أضحيته في اليوم التاسع من ذي الحجة لم تُقبل؛ لأنها في غير الزمن الذي عيَّنه الشرع.

السادس: [المكَانُ:] فلو اعتكف في بيته بدلًا عن المسجد لم يُقبل اعتكافه؛ لأنه على غير الوجه المشروع.

إذن العمل الصالح هو الذي تُوبع فيه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا تتحقق المتابعة حتى تكون العبادة على وجه الشرع في هذه الأمور الستة.

وقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ الجملة هذه خبر المبتدأ (الذين)، والسين فيها للتحقيق والتقريب، أما التحقيق فلا إشكال ، وأما التقريب فإنه وإن كان بعيدًا فإنه لتحقق وقوعه يكون كالقريب؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فعبر بالماضي عن المستقبل؛ لتحقق وقوعه؛ لأنه يورد علينا إنسان إرادة فيقول: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ إذا قلت: إن السين للتحقيق والتقريب، فالإنسان ربما يبقى في الدنيا ثمانين سنة قبل أن يموت، نقول: المحقق كالقريب على أنه المستقبل قريب مهما بعُد، والمستقبل لاشك أنه قريب مهما بعُد، والماضي بعيد مهما قرُب.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، أحيانًا يأتي التعبير جنة مفردًا، ولا منافاة فهي جنة باعتبار الجنس، وجنات باعتبار الأنواع كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَان مِنْ فِضَّة آنِيَتُهُمَا ومَا فِيهِمَا»(١) فما هي الجنة؟ يقول بعض الناس: الجنَّة هي البستان الملتفة أشجارُه الكثيرة، وإذا عرَّفناها بهذا التعريف ربما نقلل من قيمتها أمام العامة خاصةً، فنقول: الجنات هي الدار العظيمة التي أعدها الله تعالى للمتقين التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني: ليس من تحت أرضها، بل من فوق الأرض، لكنها من تحت القصور والأشجار والماء المطرد، والنهر المطرد من تحت الأشجار والقصور يكون له منظر جميل جذاب جعلنا الله وإياكم من أهلها بمنّه وكرمه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ﴿وَعْدَ﴾ هذه مصدر عاملها مضمون الجملة السابق، فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة؛ ولهذا لا يصح أن يُذكر معه العامل أي: عامل المصدر؛ لأنه إذا ذُكر معه عامل المصدر بقي التوكيد لهذا العامل لا للجملة، والمقصود هو تأكيد الجملة، أي: أن هذا الخبر من الله عز وجل وعد؛ لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿حَقًّا﴾ قيل: إنه مصدر مؤكد للمصدر قبله أي: حق، أي أن هذا الوعد حق، وقيل: إنه مصدر لفعل محذوف، والتقدير: أُحقُّ ذلك حقًّا، والحق هو الشيء الثابت وضده الباطل، وهو الزائل والضائع سدىً، أما الحق فهو ثابت وليس بضائع، بل هو مقصود بذاته، وله ثمرته العظيمة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿وَمَنْ﴾ اسم استفهام، لكنه مشرب معنى النفي، فهو أبلغ من الاستفهام المجرد، وأبلغ من النفي المجرد، وقد ذكرنا فيما سبق أنه إذا أُشرب الاستفهام معنى النفي فإنه يكون مشربًا معنى التحدي أي: إن كنت تزعم أن أحدًا أصدق من الله قيلا فأتِ به، وقوله: ﴿أَصْدَقُ﴾ اسم تفضيل مأخوذ من الصدق، والصدق: هو الإخبار بما يوافق الواقع، وضدُّه الكذب وهو الإخبار بما يخالف الواقع.

وقوله: ﴿قِيلًا﴾ بمعنى: قولًا، وهو تمييز واقع بعد اسم التفضيل، كقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٢- **فيها من الفوائد:** أن الإيمان وحده لا يكفي، بل لابد من عمل وأن العمل وحده لا يكفي بل لا بد من إيمان ، فلا يستحق الجنة إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وإذا ذُكر ثواب الجنة مقيدًا أو معلقًا بالإيمان وحده، فالمراد بذلك: الإيمان المتضمن للعمل الصالح.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العمل لا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحًا، والصالح هو الخالص الصواب، أي: ما ابتُغي به وجه الله، وكان على شريعة الله.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نشهد لكل مؤمن عامل للصالحات بأنه يدخل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وهذا على سبيل العموم، فإننا نشهد لكل مؤمن عامل للصالحات أنه سيدخل الجنة، لكن هل نطبق الشهادة هذه على جميع ألفاظ العموم

بمعنى: أن نخص واحدًا بعينه؟

الجواب: لا، إلا من شهد الله له بذلك أو شهد له رسوله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، هذه ثلاثة:

الأول: من أخبر الله عنه بأنه من أهل الجنة.

والثاني: من أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام.

والثالث: من أجمعت الأمة على الثناء عليه، وأنه من أهل الخير وأهل الحق.

فمن الأول: أبو بكر رضي الله عنه، فإن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤- ٢١] أكثر المفسرين يقولون: هذه نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وعلى هذا تكون الآية دالة على الشهادة، وعلى الإخبار بأنه رضي الله عنه سيُجنب النار وإذا جُنب النار فسيكون من أهل الجنة، لأنه ليس هناك إلا داران.

وأما من شهد له النبي ﷺ بالجنة فكثير، فمثلًا: زوجات الرسول كلهن في الجنة؛ لأن زوجاته في الدنيا هن زوجاته في الآخرة، ومن ذلك أيضًا العشرة المبشرون: بالجنة أبو بكر وعمر، وعثمان وعلي، وسعيد وسعد بن أبي وقاص... إلخ، ومنهم ثابت بن قيس بن شماس، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، ومنهم بلال شهد له النبي ﷺ بالجنة، ومنهم عكَّاشة بن محصن فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأما ما أجمعت الأمة عليه فدليله أن النبي ﷺ مرَّت بِهِ جَنَازة فَأَثنُوا عَلَيها خَيرًا فقَال: «وَجَبت»، ثُمَّ مَرَّت بِهِ أُخرَى فأَثنوا علَيها شَرًّا فَقَال: «وَجَبتْ» قالوا: ما وَجَبَتْ يَا رَسول الله؟ قال: «أَمَّا الأَوَّلُ فأَثنيتُم عَلَيه خَيرًا فوَجبتْ لَهُ الجنَّة، وأَمَّا الثَّانِي فَأَثنَيتُمْ عليهِ شرًّا فوَجبتْ لَهُ النَّار؛ أنتم شُهَدَاءُ الله فِي أَرْضِهِ»[1].

ولكن من كان ظاهره الإيمان والعمل الصالح نقول: إن من آمن وعمل صالحًا فهو من أهل الجنة، ولا نقول هذا بعينه؛ لأننا لا نعلم ماذا يختم له ـ نسأل الله أن يختم لنا ولكم بخير ـ فهذا الرجل الذي كان مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في غزواته وكان بطلًا شجاعًا مقدامًا لا يدع للعدو شاذة ولا فاذة فقال النبي ﷺ: «هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[2] ـ وهو مجاهد ـ فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم فقال رجل من الصحابة: لألزمنه حتى أنظر ماذا تكون خاتمته، فلزمه فأصاب هذا الرجل سهمًا من العدو فجزع جزعًا شديدًا، فسل سيفه ثم وضع ذؤابته على صدره واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ـ والعياذ بالله ـ ومات، فجاء الرجل الذي لزمه إلى النبي صلى الله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

عليه وعلى آله وسلم وقال: أشهد أنك رسول الله قال: «وبما؟» قال: إن الرجل الذي قلت إنه من النار حصل له كيت وكيت، فقال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ - فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ - وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»[1] - نعوذ بالله -، لهذا لا يجوز أن نشهد لشخص بأنه في الجنة وإن كنا نرى عمله عمل أهل الجنة.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى يقول، والقول هو لفظ مسموع، فيكون الله سبحانه وتعالى يقول قولًا حقيقيًا، وهو مسموع، وإلا لما كان قولًا؛ لأن القول الذي هو قول النفس لابد أن يقيَّد كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وأما إذا أُطلق فالمراد به: القول المسموع، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يقول قولًا مسموعًا، وأنه بصوت وأنه بحرف، وهذا لا يتضمن أي نقص ولا مماثلة بل هو كمال، وهناك مذاهب ذكرها ابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلة» بلغت الثمانية مذاهب في كلام الله عز وجل، والمشهور منها مذهب الأشاعرة: أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأما ما يُسمع فهو أصوات مخلوقة خلقها الله عز وجل لتعبر عما في نفسها، وقالت الجهمية: بل كلام الله مخلوق، وإضافته إلى الله تعالى من باب التشريف وليس من باب الوصف، فقالوا: إن كلام الله كغيره من المخلوقات، فأيها خالف السنة؟ كلاهما خالف السنة، والأشاعرة أبعدُ عن السنة من المعتزلة؛ لأن الجميع اتفقوا على أن ما يُسمع فهو مخلوق، لكن المعتزلة قالوا: هو كلام الله، والأشاعرة قالوا: ليس كلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله، وكلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وعلى كلامهم يكون الكلام بمعنى العلم تمامًا، وهذا كله باطل.

٦- من فوائد هذه الآية الكريمة: وصف كلام الله تعالى بالصدق، وصف كلامه وقوله بالصدق؛ لقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، وهل يمكن أن يوصف بالكذب؟ كلا والله لا يمكن فإن قال قائل: أليس أهل البلاغة يقولون: إن الخبر هو ما احتمل الصدق والكذب؟ قلنا: بلى، لكنهم يقيدون ذلك فيقولون: ما احتمل الصدق والكذب لذاته أي: بقطع النظر عن قائله، فإن من القول ما يُقطع بالكذب، ومن القول ما يقطع بصدقه، ولا يحتمل هذا ولا هذا.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يصح أن نضع اسم التفضيل بين صفات الله تعالى وصفات الخلق، فنقول: كلام الله أصدق الكلام، وعلم الله أوسع العلوم، والله تعالى أعلم من غيره، وقد ظن بعض الناس أنك إذا قرنت الوصف باسم التفضيل فإنك قد مثلت الله، حتى ذهبوا يفسرون قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: ٥٥] بأنه عالم فيقول أعلم أي: عالم - وسبحان الله - فرُّوا من النقص، ولكنهم وقعوا في أنقص منه؛ لأن اسم التفضيل يدل على علو صفات الله، وأنها أعلى الصفات، وليس

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

فيها نقص بوجه من الوجوه، فـ (أعلم) هم يقولون: العالم، وإذا قلت عالم لم يمنع المشاركة والمساواة أليس كذلك؟ فإنك تقول: عمرو عالم، وزيد عالم، ومحمد عالم، وبكر عالم فيستوون، لكنه هذا كله يؤتى الإنسان من حيث يكون عنده عقيدة فيحاول أن يعرف النصوص إليها فيقع في الزيغ نسأل الله العافية؛ إذنْ (أعلم) في أسماء الله وصفاته على بابها حتى إن الله تعالى قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، الكل يقول : الله خير، حتى المشركون مع أصنامهم يقولون: الله خير، ذكر أن النبي ﷺ سأل الحصين أبا عمران بن حصين فقال له: «كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ؟» قال: ستة، خمسة في الأرض وواحدًا في السماء، قال: «مَنْ تعد لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قال: الذي في السماء(1)، فهم يقرون بأن الله فوق كل شيء، حتى المشركون يقرون بذلك.

قال الله تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب في قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ لهذه الأمة، ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني بذلك: اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: نحن أهل الكتاب ونحن أسبق منكم ونحن أولياء الله وأحباؤه وما إلى ذلك، يريدون أن يفضلوا أنفسهم على هذه الأمة، وهذه الأمة تقول: إن رسولنا خاتم النبيين، وأن هذه الأمة فُضلت على الناس وتريد أن تكون أفضل من بني إسرائيل من أهل الكتاب، ففصل الله بينهم وحكمهم بينهم بحكم عدل فقال: الأمر ليس بأمانيكم يا أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وليس الأمر يُعطى على حسب أمنية الشخص بأن إذا تمنى حصل له ما تمنى، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٤، ٢٥].

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ يراد به: التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للنصارى.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٩٨).

ثمَّ جاء الحكم فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ﴿مَن﴾ هذه شرطية، و﴿يَعْمَلْ﴾ فعل الشرط، و﴿يُجْزَ﴾: جواب الشرط، ﴿بِهِۦ﴾ أي: بسوءه سواءٌ منكم يا هذه الأمة أو من أهل الكتاب.

وإذا نظرنا في هذا الحكم وجدنا أنه ينطبق على أهل الكتاب أكثر مما ينطبق على هذه الأمة؛ لأن أهل الكتاب عملوا سوءًا، وذلك بتكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ﴾ معطوفة على جواب الشرط.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿مِن دُونِ﴾ أي: من سواه. ﴿وَلِيًّا﴾ يتولاه بتحسين المصالح.

وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم المساوئ والمفاسد.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن التمني لا يجدي شيئًا؛ لقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا يشهد لما يروى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ»(١).

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** العدل بين المتخاصمين حتى وإن كان أحدهما على حق والثاني على باطل، فالواجب العدل وأن يحكم لكل واحد بما يستحق وجه ذلك: نفي كون الشيء بالأماني بالنسبة للمسلمين ولليهود والنصارى، ثم إثبات أن من عمل سوءًا جُزي به، وهذا غاية العدل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التهديد لمن عمل سوءًا؛ لقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، فإن عمله لن يضيع وسوف يُجزى به، والآية مطلقة، فهل يجزى في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما؟ نقول: أما إذا كانت العقوبة في الدنيا عقوبة شرعية فإنها لا يجمع عليه بين العقوبتين، ولهذا صح عن النبي ﷺ: «أَنَّ مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ»(٢)، وأما العقوبات غير الشرعية: وهي العقوبات القدرية التي نزلها الله تعالى من مرض أو فقر أو غير ذلك فهي قد تُكفِّر السيئات ولا يبقى عليه شيءٌ في الآخرة وقد لا تكفِّر السيئات جميعًا.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز إطلاق الوعيد؛ لأن من يعمل سوءًا يجز به وعيد، ولكن الله تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾،

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

وهذا يدل على أن من عمل سوءًا قد يغفر الله له ما عدا الشرك.

فإذا قال قائل: كيف نجيب عن هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وهي خبر؟

قلنا: هذه يُراد بها التهديد وهي من باب الوعيد، والعفو عن الوعيد من باب الكرم، وهو مدح وليس ذمًّا؛ ولهذا امتدح الشاعر نفسه بقوله:

وَإِنِّـي وَإِنْ أَوْعَدْتُـهُ أَوْ وَعَدْتُـهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنجِزُ مَوْعِدِي

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان لا يُجازى بأكثر مما عمل من السوء؛ لقوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾ والباء هنا للعوض أو البدل بخلاف من عمل حسنًا فإنه يُعطى أكثر، كما في آيات أخرى.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: كمال قوة الله تعالى وسلطانه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ومثل هذه الآية قد تكررت في القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وهذا كثير؛ لأن الله سبحانه وتعالى كامل القوة وكامل السلطان، فلا أحد يمنعه ولا أحد يدفعه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المصائب في الدنيا كفَّارات؛ لأنها نوع من الجزاء، وقد أخبر النبي ﷺ أنه «مَا مِنْ غَمٍّ وَلَا هَمٍّ يُصِيبُ العَبْدَ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةُ إِذَا أَصَابَتْهُ فَإِنَّ اللهَ يُكَفِّرُ بِهَا عَنْهُ»(١).

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ (من) هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿يَعْمَلْ﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وقرنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ قلنا هي: شرطية، والشرط يفيد العموم، وأكد هذا العموم بقوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ادَّعى بعضهم أن ﴿مِنَ﴾ زائدة وقال: إن التقدير: ومن يعمل الصالحات، وهذا القول ليس بصحيح؛ لأن (من) لا تزاد إلا في نفي أو شبهه كما قال ابن مالك رحمه الله:

وَزِيـدَ فِـي نَفْـيٍ وِشِـبْهِهِ فَجَـرَّ نَكِـرَة كَمَـا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرّ

ولأن وجودها أكمل من عدمها؛ لأن (من) لبيان جنس العمل المبهم في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ فـ(من) هنا بيان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: من الأعمال الصالحات وهذا الأسلوب كثير في القرآن، أن يحذف الموصوف وتبقى الصفة وعكسه قليل، يعني: حذف الصفة قليل وحذف الموصوف كثير؛ وذلك لأن الصفة تدل على الموصوف، ولا العكس. فما هي الصالحات؟ الصالحات ما جمعت شرطين:

الشرط الأول: الإخلاص.

والثاني: المتابعة لشريعة الله، سواءٌ كان في شريعة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إن كان من هذه الأمة، أو لشريعة من شريعته باقية من الرسل السابقين.

وقوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (من) هذه بيان لمن في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، وهذا من باب التفصيل بعد الإجمال، وإلا فمن المعلوم أن (من) للعموم الشامل للذكر والأنثى.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة حالية، حال من فاعل ﴿يَعْمَلْ﴾، يعني: والحال أنه مؤمن، وهذا شرط لابد منه؛ إذ إن العمل الصالح لا ينفع مع عدم الإيمان، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا ازداد قوة في العمل الصالح.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وفي قراءة (يُدخلون)، فعلى القراءة التي معنا في المصحف تكون الجنة مفعولًا به، وعلى القراءة الأخرى: (يُدخلون) الجنة تكون مفعولًا ثانيًا ليدخلون، ونائب الفاعل في محل مفعول أول.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ هل يقال: إن هذا إظهار في موضع الإضمار ولو مشى على السياق لقال: فإنهم يدخلون الجنة؟ الجواب: نعم؛ لأن اسم الإشارة من باب الأسماء الظاهرة، فإن قال قائل: ما هي النكتة في هذا الإظهار؟ قلنا: بيان علو مرتبتهم؛ حيث أشار إليهم بإشارة البعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها -.

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ يعني: أن كل إنسان يكون في مكانه الذي يستحقه بدون نقص، والنقير: هو النُّقرة التي تكون في ظهر النواة، وفي النواة ثلاثة أشياء كلها مضرب للمثل في القلة: (الفتيل - النقير - القطمير)، أما الفتيل: فهو الحبل الذي في مجري النواة من بطنها، وأما النقير: فهي النقرة التي في ظهرها، وأما القطمير: فهو الغشاء الذي يكون عليها، وكلها يراد بها ضرب المثل، وإنما قال الله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ لئلا يظن الظانُّ أن الإنسان إذا كان في منزلة فربما ينزل من منزلته لسبب من الأسباب وليس الأمر كذلك، ونضرب لهذا مثلاً، وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

الذرية هنا المراد: من يتبعون آباءهم، وهم الصغار، هؤلاء يتبعون آباءهم إذا كانت منزلة الابن أدنى مرتبة من منزلة الأب، فإن الابن يُرقَّى إلى منزلة الأب، ولا ينزِّل الأب في مقابلة ترقية الابن يعني: ما يقال مثلًا إذا كانت المسافة عشرين درجة ينزِّل الأب عشر درجات ويصعد الابن عشر درجات، لا بل يُرفع الابن عشرين درجة ويلتحق بالأب بدون نقص الأب، فهذا - والله أعلم - هو الفائدة في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن القرآن الكريم - كما وصفه الله عز وجل - مثانٍ أي: تثنَّى فيه الأمور، فإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، إذا ذكر جزاء الكافر ذكر جزاء المؤمن وهكذا، وتأمل هذا تجده أكثر ما يكون في القرآن، والحكمة من ذلك: أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا ذكر ما أعد الله للمتقين غلب رجاؤه، وإذا ذكر ما أعد الله للكافرين غلب خوفه، والأولى أن يكون خوفه ورجاؤه واحد، وقد اختلف العلماء رحمهم الله، هل هذا في كل حال أن ي ون خوف الإنسان ورجاؤه واحدًا أو في بعض الأحوال؟ وهل هو في كل عمل أو في بعض الأعمال؟ **فمن العلماء من يقول:** إذا كان الإنسان مريضًا فالأولى أن يغلب جانب الرجاء حتى يقدم على ربه وهو يحسن الظن به؛ لقول النبي ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»(١). **ومن العلماء من يقول:** إذا همَّ بالسيئة فليغلب جانب الخوف حتى يرتدع، وإذا عمل العمل الصالح فليغلِّب جانب الرجاء أن الذي وفقه للعمل سوف يقبل منه. **نقول:** كل إنسان ونفسه فإذا رأيت من نفسك أنه غلب عليك الخوف حتى وصلت إلى اليأس من رحمة الله سواء في أمور الدين أو أمور الدنيا فحينئذٍ قوِّم نفسك وعدل نفسك، وإن رأيت أنك تغلِّب جانب الرجاء فقوِّم نفسك أيضًا؛ لأن بعض العصاة إذا قلت له: اتق الله يا أخي ارتدع عن المعصية يقول لك: الله غفور رحيم فيغلب جانب الرجاء، وهذا خطأ، ومن الناس من يكون بالعكس، لو يفعل أدنى شيء من المعاصي آيس وقنط من رحمة الله فغلب جانب الخوف.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا فرق بين الرجال والنساء فيما يستحقون من الجزاء، وجه الدلالة قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، ثم ذكر الجزاء فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، لكن من حيث العمل بينهما فرق؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبُ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»(٢). ثم فسر نقصان دينها بأنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم، أما الجزاء على العمل فهما سواء.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لابد لقبول العمل من أن يكون صالحًا لقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، فإن كان فيه شرك لم يقبل؛ لفوات الشرط وهو الإخلاص، ولهذا قال الله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشرَكَاءِ عن الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

ومن عمل عملًا مبتدعًا بإخلاص تام لكن ليس على شريعة الرسول فإنه لا يقبل منه؛ لأنه على غير الاتباع، وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»[2].

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا بد أن يكون العمل الصالح مبني على إيمان لا شك معه؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وأما من عمل الصالحات ظاهرًا، لكن قلبه غير مؤمن ـ أعاذنا الله وإياكم من ذلك ـ فإنه لن ينفعه العمل الصالح، كرجل مخلص يريد رضا الله عز وجل ويتبع الرسول ﷺ، لكنه متشكك مع إخلاصه فإنه لا يقبل منه، ولكن هنا مسألة يجب التفطن لها وهي أن القلب إذا كان خالصًا صريحًا، فإن الشيطان يُسلط عليه حتى يوقعه إما في شرك وإما في شك، وكلما كان الإنسان أصرح إيمانًا، فإن الشيطان يزيد في ضربه بسهامه وتشكيكاته وغير ذلك، فلتكن على حذر وأعرض عن هذا وانته عنه واستعذ بالله منه فإنه لا يضرك؛ ولهذا كثيرًا ما نسمع من يشتكي هذه الحال فنقول له كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اسْتَعِذْ بِالله ثُمَّ انْتَهِ» «اسْتَعِذْ بالله» هذا لجوء إلى الله، ولا يمكن أن يخلصك من الشيطان إلا الله عز وجل فاستعذ بالله وانته، هذا فيما يمكنك فعله، انته بمعنى: أعرض عن هذا ولا تفكر فيه، أنت ذاهب الآن تصلي لو سألك سائل لماذا ذهبت تصلي؟ لقلت: إيمانًا بالله وابتغاءً لفضله، ولا عندي في هذا شك؛ إذن ما يُورده الشيطان على قلبك لا تلتفت إليه ، بكل سهولة تعرف كيف تتخلص بأنك ما جئت إلى المسجد ولا توضأت ولا تركت الطعام والشراب والنكاح في صومك إلا وأنت مؤمن بالله عز وجل ومؤمن بثوابه وخائف من عقابه، بمثل هذه الأمور يمكن أن يستعين الإنسان على طرد هذه الوساوس، وإلا فإن الإنسان إذا استرسل معها ربما تهلكه، لكن الحمد لله أن الرسول ﷺ أعطانا هذا الدواء الناجي: «أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم» ثم انته، وأنظرُ إلى عملي الذي أنا فيه أُقْبِلُ على العمل إن كان عبادة فعبادة، وإن كان أمرًا دنيويًّا فأمرًا دنيويًّا، المهم: أن يتغافل عن هذا الشيء، وألَّا أسترسل معه؛ لأنك إن استرسلت معه هلكت، مع أنه وسواس لا حقيقة له، ومن ثم جاءت الآية: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فَوَطِّنْ نفسك على الإيمان، ولا يكن في قلبك شيء من الشك؛ لأنه بكل بساطة تقول النفس: لماذا توضأت؟ لماذا صليت؟ لماذا صمت؟ لماذا أديت الصدقة؟ وما أشبه ذلك.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: علو منزلة من اتصف بهذه الصفة وهو العمل الصالح مع الإيمان، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجوز لنا أن نشهد بكل من عمل صالحًا وهو مؤمن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، مسلم (١٧١٨).

أنه في الجنة؛ لأن هذا خبر من الله، والله تعالى لا يكذب.

فإن قال قائل: وهل نشهد لكل واحد بعينه؟

فالجواب: لا؛ لأن هناك فرقًا بين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، فلا نشهد لأحد بعينه إلا من شهد له رسول الله ﷺ بذلك أو شهد له الله، فإننا نؤمن بهذا نقول: فلان في الجنة، فمثلًا: أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هل يشهد أنهن في الجنة؟ نعم، لأنهن زوجاته في الآخرة فيكن معه، فنشهد لهن بالجنة، وكذلك العشرة، وثابت بن قيس بن شماس وبلال، وعبد الله بن سلام وغيرهم ، فكل من شهد له الرسول بعينه نشهد له بعينه، وأما إذا لم يشهد له بعينه ، فإننا نشهد له على سبيل العموم كذلك الكفر نفس الشيء نقول: من ذبح لغير الله فهو كافر مشرك، لكن هل تشهد لكل إنسان ذبح لغير الله بأنه مشرك؟ لا؛ لأنه قد يكون عن جهل أو عن تأويل أو ما أشبه ذلك، ففرق بين التعيين والتعميم، وبين الإطلاق والتقييد، وهذه المسألة قلَّ من يتفطن لها، يأخذ العمومات ثم يطبقها على كل فرد، وهذا غير صحيح، يمكن هذا الذي حكمنا بأنه مؤمن حسب الظاهر لنا يمكن أن يكون من أهل النار لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ - فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ - وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**». وكذلك بالعكس ربما يكون هذا الرجل ما يقتضي أن يكون كافرًا، لكنه لا يدري وهو ينتسب للإسلام ويقول: إنه مسلم يصلي ويزكي ويصوم ويحج؛ لكن عنده خصلة شرك لا يعلم عنها، هذا لا نقول: إنه من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فإنه من أهل النار، لكن هذا الرجل بعينه لا؛ لاحتمال ما ذكرت من وجود الجهل أو التأويل عنده.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: نفي الظلم عن الله لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، والله عز وجل يمكن أن يظلم قدرًا، لكن شرعًا وحكمة لا يمكن ، فيكون قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ الظلم منفيٌّ عن الله الذي بيده الجزاء، هذا النفي هل هو نفي لشيء مستحيل أو نفي لشيء ممكن؟ الثاني، إذ لو كان لشيء مستحيل لم يكن كمالًا؛ لأن انتفاء المستحيل ليس بالكمال، هو منتفٍ لكنه شيء ممكن إلا إنه لكمال عدل الله غير ممكن، وعلى هذا فهو ممكن قدرًا لو شاء الله لعذب من لا يستحق التعذيب، لكن حسب حكمة الله ورحمته يكون غير ممكن.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٥، ١٢٦]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ ﴿من﴾ هنا: اسم استفهام، والمراد به: النفي، وقد قلنا عدة مرات: أن النفي إذا جاء بصيغة الاستفهام كان أبلغ مما لو أتى بصيغة النفي الصريح؛ وذلك لأنه إذا أتى بصيغة الاستفهام صار مُشربًا معنى التحدي أي: كأن المتكلم يقول ائتني بأحسن من كذا، ائتني بأظلم ممن افترى على الله كذبا، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿دِينًا﴾ هنا منصوبة على التمييز؛ لأنها وقعت بعد اسم التفضيل، فإذا قال قائل: هي تمييز لأي شيء؟ قلنا: لكلمة ﴿أَحْسَنُ﴾؛ لأن أحسن مبهمة لا ندري إلى أي شيء تضاف، فإذا جاءت بعدها كلمة منصوبة فهي مميزة لها مبيِّنة لها، والدين هنا بمعنى: العمل، وإنما قلنا ذلك؛ لأن الدين يطلق بمعنى: الجزاء مثل قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وبمعنى: العمل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نقول إذنْ: ﴿دِينًا﴾ أي: عملًا، فالعمل الذي يبتغي عامله بذلك مقابلة يسمى دينًا.

وقوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الإسلام بمعنى: الإخلاص أي: فوَّض أمره إلى الله عز وجل، وهذا يعني الإخلاص في القصد.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية من قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾، والإحسان هنا: الموافقة للشريعة، فيكون في الآية هنا دليل على شرطيِّ العبادة وهما: الإخلاص والمتابعة، فالإخلاص: في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ والمتابعة في قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ لأن إحسان العمل هو: موافقة الشريعة.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ هذه جملة معطوفة على ما سبق للتوكيد المعنوي؛ لأن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي: الإخلاص والقيام بالشريعة، فتكون هذه الجملة كأنها مؤكِّدة لما سبق ومتضمنة له.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو: أبو الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بعده كانوا من ذريته.

وفيها قراءتان (إبراهيم، وإبراهام) أي: إبدال الياء ألفًا، وإذا أبْدلتَ الياء ألفًا لزم فتح الهاء.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يحتمل أن يكون حالًا من فاعلِ (اتبع) أو حالًا من إبراهيم، وأيهما أرجح؟ الأرجح الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ومن المعلوم أنه إذا كان إبراهيم حنيفًا وأمرنا باتباع ملته فإننا سوف نكون حنفاء.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (الواو) هنا: استئنافية ليست عاطفة، فكأنه عز وجل استأنف؛ ليبين مرتبة إبراهيم الذي أُمرنا باتباعه؛ بأن الله اتخذه خليلًا، والخليل هو: ذو المحبة الخالصة وسمي بذلك؛ لأن محبته شملت جميع جسده حتى تخللت عروقه، وفي ذلك

يقول الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلًا

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها: الحث على الإخلاص؛ لقوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

٢- ومنها: الحث على المتابعة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٣- ومن فوائدها: أنه لا أحد أحسن دينًا ممن هذا وصفه، وعلى هذا فلو قال النصارى: إنهم أحسن دينًا من المسلمين، نقول: هذا كذب؛ لأنه فُقد منهم الإخلاص والمتابعة جميعًا، فالنصارى معلوم أنهم يقولون بالتثليث وهم أيضًا لم يتبعوا شريعة الله؛ حيث كفروا بمحمد ﷺ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث أمرنا باتباعه وهذا يعني أنه إمام، ولهذا يُطلِق عليه العلماء اسم أو لقب إمام الحنفاء.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، وهذه منقبة له عظيمة، وهل اتخذ غيره؟ نعم، وهو رسول الله ﷺ؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»(١).

٦- ومن فوائدها: الإشارة إلى أن الخُلَّة أعلى رتبة من المحبة، لاختصاص إبراهيم بها ومحمد ﷺ، ولو كانت في معناها أو في مرتبتها لكانت ثابتة لجميع من يستحق المحبة، ومن المعلوم أنه لا يصح أن نقول: إن الله اتخذ المؤمنين أخلاء؛ لأن الخلة خاصة، ومن ثم نعلم خطأ من يقول: إبراهيم هو الخليل ومحمد الحبيب؛ لأن هذا تنقُّص للرسول عليه الصلاة والسلام؛ حيث أنزل مرتبته من الخلة إلى المحبة التي يشترط فيها حتى المؤمن المتقي المقسط الصابر.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أفعال الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، والاتخاذ حادث بعد وجود سببه، وهذه ما يعبر عنها أهل العلم بقيام الحوادث بالله عز وجل أي: بأنه تبارك وتعالى يفعل ما يريد متى شاء؛ خلافًا لمن قالوا: إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية، وأنه لا يتجدد له فعل لا الكلام ولا الخلق ولا غيرهما، ولا شك أن هذا قول باطل، ومضمونه نقص الله عز وجل؛ حيث لا يفعل ما يشاء متى شاء.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الجملة هذه خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، قُدم فيها الخبر؛ لفائدة الحصر، فهو لا يشركه أحد في ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢).

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فلله ما في السماوات وما في الأرض وهنا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولم يقل: من في السماوات قال بعضهم: لأن (ما) لغير العقلاء، و(من) في اللغة العربية يؤتى بها للعقلاء، أي: لذوي العقول، وغير العقلاء من المخلوقات أكثر من العقلاء، ويحتمل أنه أتى بـ(ما) ليعم ذلك الأشخاص والأوصاف؛ لأن تعيين (من) للعقلاء و(ما) لغير العقلاء إنما هو في الأعيان، لكن (ما) للأعيان والأوصاف ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حيث قال: (ما) ومعلوم أن النساء من ذوي العقول، لكن لما كانت المنكوحة لا تنكح لعينها، إنما تنكح لما قام بها من أوصاف، والأوصاف معانٍ وليست عقلًا قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهذا القول أرجح من القول الأول أعني: أن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إنما أتى بـ(ما) دون (من)؛ ليعم الأشخاص والأوصاف: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وفي بعض الآيات يقول: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والظاهر: ـ والله أعلم ـ أن هذا من باب تنوع السياق والأساليب؛ لأن المعنى لا يختلف، إذ إن المعطوف له حكم المعطوف عليه، فإذا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهي كما لو قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والتنوع في السياق جاء في القرآن كثيرًا كما يظهر للإنسان عندما يتلو القصص التي وردت في القرآن لعدة رسل يجد اختلاف التعبير كبيرًا.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ كان الله محيطًا بكل شيء ، (كان) هنا منزوعة الدلالة على الزمان؛ لأنها لو بقيت دالة على الزمان لكانت إحاطة الله بكل شيء إحاطة سابقة ماضية مع أنه لم يزل ولا يزال محيطًا بكل شيء، ولكنها تأتي هنا في مثل هذا السياق؛ لبيان ثبوت الحكم فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليس المعنى: أن الله تتجدد له المغفرة والرحمة، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليس العلم والحكمة تتجدد له وليس ماضيًا فقط، بل هذا لتوكيد اتصافه بهذا الوصف، وقوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ فكل شيء محيط به علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وتدبيرًا وغير ذلك من معانٍ ربوبيته عز وجل.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة: عموم ملك الله، وهذه تؤخذ من ﴿مَا﴾ الموصولة؛ لأن جميع الأسماء الموصولة تفيد العموم.

٢ـ ومنها: اختصاص ما في ملك السماوات والأرض لله عز وجل، يؤخذ من تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية: أن السماوات ذوات عدد، وهذا يؤخذ من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ التي هي جمع فما هذا العدد؟ هذا موجود في القرآن والسنة قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وكذلك جاءت في السنة وأجمع الناس على ذلك.

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن الأرض واحدة، لقوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل وما في الأراضين، فتكون الأرض واحدة، هذا ظاهر اللفظ، لكن هذا الظاهر، وقد بين في مواضع أن المراد بالإفراد هنا الجنس لا أي: جنس الأرض، وجاءت السنة صريحة بأن الأراضين سبع، وجاء القرآن ظاهرًا بأن الأراضين سبع، ففي السنة: «مَنِ اقتطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ من سَبْعِ أَرَاضِينَ»[1]، وفي القرآن في ظاهره ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، فالمماثلة هنا يحتمل أن تكون في الصفة، ويحتمل أن تكون في العدد، والاحتمال الأول ممتنع؛ لظهور الفرق بين السماوات والأرض فيبقى الاحتمال الثاني وهو: المماثلة في العدد.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ يترتب على هذه الفائدة فائدة مسلكية مهمة وهي: أنك إذا علمت إحاطة الله بكل شيء خفت منه وخشيته وراقبته؛ لأنه مهما كنت في أي مكان فالله محيط بك، فإذا آمنت بهذا خفت رب العالمين المحيط بكل شيء، هل ينبي على ذلك خوف الله في القلب؟ نعم؛ لأن الله محيط حتى بما في قلبك ومحيط به عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٢٧، ١٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك الإفتاء، والإفتاء هو الإخبار عن حكم شرعي، وهذا الإفتاء هو تبين للحكم وليس

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

إلزامًا به، وبهذا يكون هناك فرقٌ بين القضاء وبين الإفتاء: القضاء تَبينُ الحكم الشرعي والإلزام به؛ لأن القاضي يقول: للخصمين: الحق معك يا فلان، وهذا تبينُ الحق، فاقضه لخصمك، هذا إلزام، أما المفتي لا يستطيع أن يلزم حتى لو أفتى، لكن هل يجب أن يلتزم بما يفتي به؟ هذا فيه تفصيل:

قال العلماء رحمهم الله: إذا سأل المستفتي عالمًا مطمئنًا لقوله معتقدًا أن قوله الحق، فإنه يلزمه العمل به، ولا يستفتي غيره؛ لأن الله قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والفائدة من سؤالهم: الأخذ بما يقولون، وإلا لكان ذلك عبثًا، فلو أنك استفتيت عالمًا في قرية ليس عندك أحدٌ في نظرك أعلم منه، وفي نيتك أنك إذا وصلت إلى المدينة التي يكثر فيها العلماء سألت، في هذه الحالة أنت ملتزم بفتوى هذا العالم التزامًا مقيدًا أو مؤقتًا، فلك أن تسأل إذا وصلت إلى الموارد العزبة.

وقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، المستفتَى رسول الله والمفتي هو الله؛ لأن ما يفتي به رسول الله هو ما يفتي به الله عز وجل، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، ولم يبين الله عز وجل الاستفتاء على أي شيءٍ يقع، هل المراد يستفتونك في النساء في تزويجهن أو في التزوج منهن أو في تمكينهن من البيع والشراء أو في أي شيء؟ نقول: الآية نزلت لسبب معلوم، وهو أنه قد يكون عند الرجل امرأة يتيمة من عمه أو ما أشبه ذلك، فيظلمها ويحجزها لنفسه أو يحجزها لابنه أو ما أشبه ذلك، فيظلمها فأشكل عليهم هذا الأمر، فسألوا الرسول ﷺ ماذا نفعل؟ فأفتاهم الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يفتيكم القرآن؛ لأنه كلام الله عز وجل؛ وذلك لأن الكتاب هو الطريق الذي نتوصل به إلى معرفة فتوى الله سبحانه وتعالى إذ إن الله ليس يتكلم ويفتي، لكنه يتكلم بالقرآن وتكمن فيه الفتوى فالعطف هنا ليس عطف مغايرة تامة بأن ما في الكتاب هو الوثيقة التي تدلنا على فتوى الله عز وجل قال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بالكتاب هنا: القرآن، و(أل) فيه للعهد الذهني.

وقوله: ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، اليتيمة عنده ولا يأتيها ما كُتب لها، فيأتي الخاطب الكفء الذي يجب أن يُعطى، ولكنه يمنع فلا يأتيها ما كُتب لها ويمنع محاباةً لنفسه؛ لأنه يرغب أن ينكحها، وهنا قد ترغبون أن تنكحوهن، فأي الحرفين نقدر: (أفي أم عن) في (ترغبون) أي: في نكاحهن أم عن نكاحهن؟ نقول: الآية محتملة، وهذا من بلاغة القرآن وإيجازه؛ لأنه قد يكون راغبًا عنها فلا يريدها لكنه لا يريد أن تكون لغيره، وقد يكون راغبًا فيها فلا يريد أن تكون لغيره، فتكون الآية شاملة للأمرين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يعني: ويفتيكم الله، وما يتلى عليكم من الكتاب في المستضعفين من الولدان ما حالهم وما شأنهم وهل يأثمون بترك الهجرة مثلًا وهل يجوز ظلمهم؟ فكل ما يتعلق بشأنهم أفتى الله به وبيَّنه قال: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾

هذه الآية الظاهر أن التقدير فيها: وأوجب عليكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، واليتامى جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه، إذن قول العلماء هو: مَنْ مات أبوه قبل بلوغه ولا شك أن الضمير يعود على الولد، ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾، القسط هو: العدل من قسطَ يقسطُ قَسطًا، والمراد به العدل، وأما الإقساطُ فالمراد به: الجور؛ ولهذا إذا كانت من الثلاثية لها معنى وإذا كانت من الرباعية فلها معنى آخر؛ فأقسط أي عدل، وقسط أي جار؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقال: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل في كل شيء حتى في مخالطتكم إياهم في الطعام؛ لأن الصحابة تورَّعوا عن مخالطة اليتامى في الطعام فأباح الله لهم ذلك، فيكون هذا في كل شيء لليتامى، قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، (ما) هنا شرطية؛ بدليل قرن جوابها بالفاء، وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: يشمل أي خير سواء كان متعديًا أو ملازمًا وسواء كان خيرًا ماليًّا أو خيرًا علميًّا أو بدنيًّا أو أي خير؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، هذه جملة الجواب، واقترنت بالفاء؛ لأن الجملة اسمية، وكلما كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنه بالفاء، ولكنها قد تُحذف قليلًا على حد قول الشاعر: مَنْ يَفْعَلِ الحسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا.

والأصل: فالله يشكرها، فإن قال إنسان: إن الفاء سبقت هنا للضرورة، قلنا: لا ضرورة؛ لأن البيت لو قيل فيه: من يفعل الحسنات فاللهْ يشكرها، أي: بتسكين التاء لم يكن ضرورة، وعلى كل حال: فقد تُحذف الفاء في جواب الشرط، لكنها نادرة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ﴾، أي: عليمًا قبل وبعد أن يُفعل؛ لأن علم الله سابق على المعلوم، بخلاف علم الخلق فهو مقارن بالمخلوق، وإذا قلنا: إنه شامل، فما الجواب على قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾، و(حتى) هنا للتعليل (ولنبلونكم) يعني: لنختبرنكم لنعلم الصابرين نقول: إن علم الله ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: علم سابق الفعل، وعلم لاحق؛ فالمعنى: حتى نعلم علمًا يكون به الشيء ظاهرًا فنعلمه بعد وقوعه، وشيء آخر: أن المراد به: العلم الذي يترتب عليه الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ والعلم الذي يترتب عليه الجزاء لا يكون إلا بعد الفعل، وهذا الوجه أوضح وأرجح ويفهمه كل إنسان، أن نقول: إن علم الله نوعان: علمٌ بأن الشيء سيقع وهذا سابق، وعلمٌ بأنه وقع، وهذا الذي يترتب عليه الجزاء. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾، لم يقل: فإن الله يجازيكم كما هو المتوقع، وقال: إن ذكر العلم فيه فائدة، وهو أنه لا يضيع لكم أي خير كان؛ لأن علم الله محيط به فيكون هذا المعلوم ثابت لكم، وما هو معلوم من آيات أخرى كثيرة منها: أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الأحكام الشرعية؛

لقوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾، ولكن استفتاء الصحابة لرسول الله ﷺ استفتاء متطلبٍ للحكم ليقوم به ويعمل به، ولهذا إذا علموا بالإحكام عملوا بها، بخلاف بعض الناس اليوم يستفتي لينظر ما عند العالم، ثم إن شاء أخذ به وإن شاء استفتى عالمًا آخر، وهذا الأخير يعتبر متلاعبًا بدين الله عز وجل؛ لأنك إذا استفتيت عالمًا، فإنك قد جعلته الواسطة بينك وبين الله وجعلت ما يفتيك به هو الطريقة إلى الله عز وجل، فإن أجاز لك واتبع هواك أخذت بفتواه وإلا طلبت غيره، فهذا هو الذي يتبع هواه؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: مَنْ تتبع الرخص صار فاسقًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: اعتناء الصحابة بشأن النساء بل واعتناء الله عز وجل بشأنهم في قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾، فالمستفتي الصحابة والمفتي هو الله عز وجل، والواسطة بين المفتي والمستفي الرسول ﷺ، وهذا يدل على عناية الشرع بالنساء؛ وبناءً على هذا نعلم أن كل ما شرعه الشرع من أحكام النساء فإنه في مصلحتهم حتى وإن ظن السفهاء والأغبياء أنه هضم لحقهن وظلم لهن فإنهم خاطئون.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرجوع إلى ما في كتاب الله عز وجل، وأن ما في كتاب الله من الفتوى صادر من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأن الكتاب منزل من الله عز وجل، هو الذي تكلم به وأنزله على محمد ﷺ وأمره أن يبلغه الناس، وهو نفسه تبارك وتعالى تكفل ببيانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

٤- ومن الفوائد أيضًا: العناية بيتامى النساء، فالأول العناية بالنساء عمومًا، وهذا أخص العناية بيتامى النساء؛ لأن يتيمة النساء اجتمع في حقها الضعف من حيث الجنس؛ لأن جنس النساء أضعف من الرجال، والضعف من حيث العائلة وهو الأب، فلهذا أوصى الله بعنايتها.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جبروت أهل الجهل؛ حيث سَلَّطوا كل ظلمهم على هؤلاء اليتامى من النساء بحيث لا يأتونهن ما كتب لهن، ويتحكمون فيهن أيضًا وفي مصيرهن؛ لقوله: ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا: أن مهر المرأة مفروض لها؛ لقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾، وعلى هذا فصاحب المهر هو المرأة وليس ولي المرأة، ولو كان أباها، فالمهر إليها تقديره عددًا وتعيينه جنسًا، ولها أن تبرأ منه إذا كانت عاقلة رشيدة.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجوز للإنسان أن يتزوج موليته؛ لأن هؤلاء اليتامى تحت ولاية هؤلاء الذين يرغبون أن ينكحوهن، وهو أحق الناس بتزويجها، فإذا أراد أن يتزوجها فهل نقول: إنه لا يجوز لأنه ولي يعامل نفسه لنفسه، كما أنه لا يجوز للوكيل أن يشتري من ماله إلى موكله أو من مال موكله له؟ الجواب: لا بمعني أنه يجوز لولي اليتيمة إذا كانت تحل له أن

يتزوجها، لكن عليه تقوى الله وألّا يظلمها ولا يهضمها، ولكن كيف يعقد النكاح إذا كان هو الولي؟ يأتي بشاهدين ويقول: أُشهدكم أني زوجت نفسي ابنة عمي، بالولاية الشرعية، ولا يحتاج أن يقول: قبلت؛ لأن هذا إيجاب تضمن القبول؛ ولهذا قال النبي ﷺ لصفية: إني أعتقتك وجعلت عتقك صداقي، ولم يحتج إلى إيجاب ولا قبول؛ لأن المعنى مفهوم.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: العناية بالمستضعفين من الولدان؛ لأن المستضعَف من الولدان سواء كان لصغره أو لمرضه أو لجنونه، أو لغير ذلك من الأسباب التي صار بها ضعيفًا، فالعناية به لا شك أنها دليل على رحمة الإنسان، وقد قال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماءِ»، وقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحْمَنُ»؛ ولهذا من أكبر أسباب حصول الرحمة في القلب هو: الإشفاق على الصغار، والضحك إليهم، وإدخال السرور عليهم، فإن الإنسان يجد رقة ورحمة في قلبه، ولو بقي يدرس مجلدات لإيصال الرحمة إلى قلبه ما حصل له ذلك، وانظر إلى معاملة الرسول ﷺ للصغار؛ ففي مرة ركب على ظهره الحسن وهو ساجد يصلي بالناس وتأخّر في القيام من السجود، وأخبر الناس بعد السلام أن ابنه ارتحل، وأنه أحب أن يقضي نهمته، و(ارتحل) يعني: جعله راحلة لما رآه ساجدًا متهيئًا، فأقره النبي ﷺ[1]، مع أنه لو أحد الأئمة اليوم جاء ابنه وركبه لنفضه نفضًا، وما أنزله إنزالًا عاديًا، وهذا خطأ، وكذلك فعل مع أمامة بنت زينب حينما كانت تبكي فخرج بها ﷺ إلى المسجد وجعل يحملها في الصلاة[2]، ولما خرج الحسن والحسين وعليهم أثياب يعثران بها نزل من على المنبر وحملهم بين يديه[3]، والأمثلة على هذا كثيرة، فقد كان يقول للغلام الصغير: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»[4]، فهو يمازحه؛ ليدخل السرور عليه، ولو أننا مشينا على هذا الأداء لحصل في هذا خير كثيرٌ.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب القيام لليتامى بالقسط وهذا عام يجب على كل إنسان أن يقوم لله شهيدًا بالقسط، لكن اليتامى لهم أمر خاص يعدل بينهم؛ لأن اليتيم ليس له من يدافع عنه وربما يأكله وليُّه من حيث لا يشعر؛ فلهذا أوصي بهم.

١٠ـ من فوائد الآية الكريمة: أن كل ما عملناه من خير قليل أو كثير فإن الله يعلمه ويترتب على هذه الفائدة: الحذر من الإخلال بالواجب؛ لأنه إذا كان يعلم الخير الذي نعمله فهو يعلم أيضًا ما لا نعمله من الخير.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٣)، والنسائي (١١٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح النسائي».
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٦)، و مسلم (٥٤٣).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٤)، والترمذي (٣٧٧٤)، وأبو داود (١١٠٩)، والنسائي (١٤١٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٥٧).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

١١- وفيها أيضًا: الحث على الخير؛ لأنك إذا علمت أن الله يعلم أنه سيجازيك عليه نشطت وقويت همتك وفعلت.

مسألة: ما المراد بقوله: ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾؟

الجواب: كان بعض الأولياء يبخس حق اليتيمة التي تكون تحت ولايته فلا يعطيها ما كُتب لها.

مسألة: قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ بماذا نقدر الحرف المحذوف؟

الجواب: يحتمل أن يكون (عن)، ويحتمل أن يكون (من)، وهل يختلف المعني؟ معني (عن) فهو لا يريد أن ينكحها، ولكن لا يريد أن يأخذها غيره، ومعني (من) هو يريد أن ينكحها، ولكن يبخسها حقها فلا يعطيها مهرها الواجب لها.

مسألة: قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ معطوفة على ماذا؟

الجواب: على قوله تعالى: ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ أي: يفتيكم أن تقوموا، يعني: على أن المصدرية والعامل فيها محذوف، أي: ويأمركم أن تقوموا لليتامي بالقسط، فيكون هذا من باب عطف جملة على جملة.

مسألة: لماذا وقعت الفاء في خبر المبتدأ في قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾؟

الجواب: على أن (ما) شرطية، وإذا جعلناها موصولة، فكيف وقعت الفاء في خبر المبتدأ؟ اسم موصول يشبه اسم الشرط في العموم فأعطي حكمه من بعض الوجوه ما هو من كل وجه، فيرتبط خبره بالفاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾، (امرأة) تُعرب مبتدأ، و(إن) تدخل على الجملة الإسمية، إذا كانت مخففة، والمخففة هي التي يحل محلها إن، والتقدير: وإن خافت امرأة، وقول آخر: أنها فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، يعني: وإن خافت امرأة من بعلها نشوزًا، وما بعدها خبر؛ لأنهم يجوزون دخول الشرط على الجملة الاسمية، القول الثالث: أن امرأة فاعل مقدم، وهذا رأي الكوفيين، وعلى هذا يقول: (امرأة) فاعل (خافت) مقدمًا، ولا مانع، وأقول: إنه إذا اختلف النحويون فإننا نتبع الأسهل من أقوالهم؛ لأنه أسهل، والله سبحانه وتعالى يحب السهولة؛ إذنْ (امرأة) إن شئنا قلنا: فاعل مقدم، وإن شئنا قلنا: إنها مبتدأ، ولا مانع من أن تكون الجملة اسمية بعد أداة الشرط، قوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾، (امرأة) هذه نكرة في سياق الشرط، قد تكون عامة، والمراد: المرأة المتزوجة ﴿خَافَتْ مِن بَعْلِهَا﴾، أي: من زوجها كما قال الله تعالى يقول عن امرأة إبراهيم: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، إذنْ البعل الزوج، ﴿نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، (نشوزًا) يعني: ترفعًا عليها أو إعراضًا عنها

وأيها أشد؟ الإعراض أشد؛ لأن في النشوز يخاطبها ويتكلم معها، لكن كلامًا مستعليًا عليها مترفعًا يحتقرها، أما الإعراض فهو معرِض عنها لايكلمها ولا يعاشرها المعاشرة بالمعروف إذا خافت هذا أو هذا، ويمكن أن نقول: إن الإعراض عما يجب والنشوز فيما يمتنع، يعني: يعلو عليها فيعتدي عليها أو يعرض عنها فلا يقوم بالواجب، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾، أي: لا إثم على المرأة وبعلها، ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، وإنما نفى الجناح؛ دفعًا لتوهم المنع، فإن المرأة إذا سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة، فنفى الله الجناح في المصالحة؛ من أجل أن يصطلحا على ما يشاءان ولكن إذا لم يصطلحا بأنفسهما وطلبا طرفًا ثالثًا، فهل عليهما جناح؟ الجواب: لا، ليس عليهما جناح وتأمل الفرق بين هذا بين نشوز الزوج عن الزوجة ونشوز الزوجة عن الزوج يتبين لك الحكم.

قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، هذه جملة عامة في كل شيء، في الحقوق الزوجية وحقوق الرحم وحقوق المصاهرة وحقوق الجوار وحقوق المعاملة؛ في كل شيء الصلح خير، وهنا لم يقل: الصلح بينهما؛ لإفادة العموم يعني: أن الصلح في كل شيء خير من عدمه، ومن المعلوم: أن الصلح قد يتصور الإنسان أن فيه غضاضة عليه؛ ولهذا قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، يعني: أنه عند النزاع وطلب المصالحة تكون الأنفس شحيحة، كل نفس تريد أن يكون الصلح في جانبها وفي مصلحتها، وكأن الله يقول: دعوا هذا الشح الذي أحضرته الأنفس واطلبوا الخير في المصالحة؛ ولهذا نجد أنه إذا تعقدت الأمور بين شخصين وأردنا أن نصلح نجد أن كل واحد منهم يركب رأسه ويأبى أن يتنازل إلا بعد جُهد جهيد. ويمكن أن يرد إشكال في قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، كيف تكون الشح منصوبة وما قبلها مرفوع ؛ لأن الأنفس نائب فاعل فتكون الشح مفعولًا ثانيًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، أي: إن تحسنوا فيما بينكم في فعل المطلوب، وتتقوه بترك المحظور، فإن الله كان بما تعملون خبيرًا، وسيجازيكم على الإحسان وعلى ما اتقيتموه.

الإحسان والتقوى والبر وما أشبه ذلك إذا أفرد أحدهما عن الآخر شمل الآخر، وإن اقترنا فُسر كل منهما بما يليق به فقوله هنا: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾، الإحسان في فعل الأوامر، والتقوى في ترك النواهي، أما إذا أفرد الإحسان فإنه يشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وكذلك التقوى فإنها إذا أفردت تشمل هذا وهذا، وهو يوجد في القرآن الكريم بكثرة مثل: المسكين والفقير، إذا أُفرد أحدهم عن الأخر صار أحدهم شامل للأخر وإن قرنا صار الفقير له معنى والمسكين له معنى، فهما مما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فما هو

الإحسان؟ الإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الله، والإحسان في معاملة عباد الله، يجمع الأول قول النبي ﷺ لجبريل: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، والذي في المعاملة: ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، الكلام على الجملة الأخيرة (وليأتِ إِلَى الناس ما يحب أن يؤتى إليه) هذا في معاملة الناس، وبهذا يتحقق الإيمان، «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، أما التقوى هنا فهي تقوى محارم الله أي: تقوى المحرمات في حقوق الله وفي حقوق عباد الله، فتجتنب البغي والعدوان والكذب والشرك وغير ذلك سواء كان في حقوق الله أو في معاملة عباد الله.

قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، (ما) اسم موصول وصلته ﴿تَعْمَلُونَ﴾، واسم الموصول يفيد العموم، وعلى هذا تكون خبرة الله تعالى بكل ما نعمل من ظاهر وباطن وخير وشر وصغير وكبير؛ لأن (ما) اسم موصول يفيد العموم، وقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ قال العلماء: إن (خبيرًا) أخص من العليم إذ إن الخبير هو الخبير ببواطن الأمور، وإذا كان خبيرًا ببواطن الأمور كان عليمًا بظواهرها، والغرض من هذه الجملة التي وقعت جوابًا للشرط: حث النفوس على الإحسان والتقوى؛ لأنك إذا علمت أنه خبير بكل ما تعمل أوجب لك أن تخافه وتتقيه، وأوجب لك أن ترجوه فتحسن.

وفي هذه الجملة إشكال وهو قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، فإنه متعلق بـ (خبيرًا) أعني: بما تعملون، وقال العلماء: إن تقديم المتعلق يفيد الحصر، وإذا قلنا به في هذه الآية أوجب إشكالًا وهو أنه لا يكون خبيرًا إلا بما نعمل وما سواه فليس خبيرًا به، هذا مقتضى الحصر، فما هو السر في التقديم، هنا هل هو الحصر؟ الجواب: لا؛ لأننا نعلم أن الله يعلم عز وجل وخبير بكل شيء، لكن الحكمة في ذلك: شدة التحذير من المخالفة؛ كأنه قال: لو لم يعلم شيئًا لكان عالمًا بما تعملون، وحينئذٍ يتأكد علمه جل وعلا بما نعمل، فيكون في ذلك شدة التحذير من المخالفة وهذا هو فائدة التقديم المتعلق.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** عناية الله عز وجل بما يكون بين الزوجين وجهه: أن الله ذكر هنا نشوز الزوج وفي أول السورة نشوز الزوجة مما يدل على عناية الله تعالى بما يكون بين الزوجين؛ لأن الزوجين هما الرابطة التي تربط بين الأولاد، وتربط أيضًا بين الصهر وصهره وهي أحد النوعين في الربط، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** أن من الأزواج من ينشز على الزوجة فيترفع عليها ويعرض عنها لا يجلس إليها ولا يستأنس بها ويكلمها بأنفة؛ لقوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

٣- **ومن فوائدها**: العمل بالقرائن، ويُؤخذ من قوله: ﴿خَافَتْ﴾ ولم يقل: رأت نشوزًا بل خافت، ومن المعلوم أنها لم تخف من النشوز والإعراض إلا بوجود القرائن، والعمل بالقرائن ثابت في القرآن والسنة، فبماذا عمل شاهد يوسف؟ بالقرينة، حيث قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾، وعمل سليمان عليه الصلاة والسلام في قضائه بين المرأتين بالقرينة حين دعا بالسكين ليشق الولد نصفين، والأمثلة على هذا كثيرة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية**: أنه يجوز أن يصطلح الزوجان فيما بينهما على ما شاءا؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: اطمئنان الزوج فيما لو صالحها على إسقاط حقها أو بعضه؛ لأن الحق لها فإذا اصطلحا على أن تبقى عنده ويسقط بعض الحق فلا حرج عليه، والآية هنا فيها، ﴿أَن يُصْلِحَا﴾، وفي قراءة أخرى: ﴿أن يصَّالحا﴾، وأصل (يصَّالحا): يتصالحا، وهما قراءتان سبعيتان.

٥- **ومن فوائد هذه الآية**: أنه يجوز للزوجة عند المصالحة أن تُسقط حقها من القَسم فإذا قال لها: إنه تزوج زوجة جديدة ورغب عن القديمة وقال: إما أن تبقي عندي مع إسقاط حقك من القَسم، وإما فالطلاق فإن رضيت بذلك فإنه يجوز؛ لأن الحق لها، وهو غير مُجبر على أن تبقى عنده فيقول: إما أن تبقي عندي وترضي بإسقاط القسم وإلا طلقتك فلا يوجد مانع أن يقول لها ذلك فإن رضيت وقنعت فذلك المطلوب، وإن لم ترضَ طلقها ولا إثم عليه في ذلك، ولا يقال: إنه أجبرها على التنازل عن حقها بتهديدها بالطلاق، ووجه عدم ورود ذلك: أنه له أن يطلق بأي حال من الأحوال حتى لو كرهها بدون زوجة أخرى، فله أن يطلقها ولا مانع فإذا كان كذلك، فإنه لا إثم عليه.

٦- **ومن فوائد هذه الآية**: أنهما لو تصالحا على إسقاط حقها بعوض فقالت: أنا أُسقط حقي من القَسم ولكن بعوض فهذا يصلح مثل أن تقول: لن أسقط إلا أن تعطيني عن كل ليلة عشرة ريالات فيكون عليك في كل شهر (١٥٠) ريالًا؛ لأن هناك زوجة ثانية، وإن جاءت ثالثة نقص، إذنْ لو وافقت على أن تسقط حقها من القسم بعوض فلا بأس به، وقول بعض العلماء: إنه لا يصح بعوض؛ لأن العوض لابد أن يكون معوضُه مالًا ليس بصحيح؛ لأن الله تعالى أطلق فقال: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، وهذه فائدة التنكير في قوله: (صلحًا)؛ لأن المعنى: أي صلح كان، وهذا من بلاغة القرآن، لو قال أن يصلح بينهما ربما يقال: إن له قيود وشروط، ولكن لما قال: (صلحًا) صار هذا عامًّا، فأي شيء يتفقان عليه فلا بأس به لو رضيت فلو اصطلحا أن يقسم لها يومًا والأخرى يومين صح؛ إذنْ لا تقيدَ في هذا إلا في شيء واحد وهو ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا**»، يعني: مثلًا لو قال لها ـ والعياذ بالله ـ: اختاري إما أن أطأكِ في الدُّبر وإلا طلقتك، وهي قالت: ليس هناك مانع، هل يجوز هذا الصلح؟ لا يجوز ؛ لأنه أحلَّ حرامًا

فإذا كان يقتضي أنه يحل حرامًا، فإنه لا يجوز، ولو اصطلحا على أن يطلق زوجته الأخرى قالت: لا بأس طلِّق الأخرى، فإنه لا يجوز؛ لأنه أحل حرامًا، وفي هذا عدوان وظلم، إذنْ الصلح الذي لا يحل حرامًا ولا يحرِّم حلالًا جائز مطلقًا بلا تقيد.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية: هذه القاعدة العظيمة من الربِّ الذي هو على كل شيء قدير وهي: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾، قد يظن بعض الناس أنه إذا غض من نفسه وتنازل عن الحق أن ذلك هضم لحقه، وأن العاقبة غير حميدة، لكن الله عز وجل الذي بيده ملكوت السموات والأرض يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾، وإن شئت مثالًا على ذلك فتدبر صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين قريش، فظاهر الصلح أن فيه غضاضة عظيمة على المسلمين، ولكن تحول هذا الصلح ـ بإذن الله ـ إلى خير للمسلمين، مَنْ الذي أسقط حق إرجاع المسلم إذا جاء إلى المسلمين من الكفار؟ قريش الذي هو لها هي التي أسقطته، ومن الذي أسقط وضع الحرب بينهم عشر سنين؟ قريش؛ لأنها نقضت العهد بمعاونتها لحلفائها على حلفاء النبي ﷺ، فأنت لا تنظر للأمور في حاضرها، ولكن صدِّق بوعد الله، والعاقبة لك.

هل هنا نقول: الصلح خير فيما بين الزوجين، أو نقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ الثاني، إذنْ الصلح في جميع الأحوال خير؛ لأنه يحصل فيه سماحة النفس والمودة فلو أدى النزاع إلى التحاكم، صار في النفوس بعض الشيء، إذ إن المحكوم عليه سوف يكون في قلبه شيء على خصمه وربما على القاضي أيضًا وربما على الشهود فتنتشر العداوة، فإذا وقع الصلح انقاد الجميع عن سماحة نفس واطمئنان.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية: الإشارة إلى أن الصلح ثقيل على النفوس، لكن المؤمن يَهون عليه الثقل إذا كان يؤمن بأن الصلح خير، يُؤخذ من قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، بطبيعة الإنسان أنه لن يتنازل عمَّا يريد ولا يتغاضى عن حقه، لكن في المصالحة التي هي خير لابد من ثمن يبذل وهو: الضغط على النفس التي آثرت الشح حتى توافق على الصلح.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية: الحث على الإحسان والتقوى يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية: عموم علم الله بكل شيء حتى بما نعمل، وهل علم الله بما نعمل علمٌ سابق على عملنا أو لا؟ سابق لا شك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قلنا: بلى، والذي قال هذا هو الذي قال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾؛ إذن كيف نجمع؟ نقول: الطريقة السليمة أن تؤمن بهذا وهذا ولا تعتقد أن هناك تعارضًا بل تقول: نحن نؤمن أن الله

سبحانه وتعالى يعلم ما نعمل من قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، بل من قبل ذلك أيضًا، لكن كتابته كانت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وتؤمن بأن الله تعالى يختبرنا؛ ليعلم، لكن قد لا تطمئن النفس إلى الاستسلام المجرد، فنقول: علم الله سبحانه وتعالى الذي يكون بعد عملنا وبعد اختبارنا علمٌ يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ لأنه لا يمكن أن يُثاب العبد أو يُعاقب إلا إذا امتحن أما علم الله السابق فهو سبحانه وتعالى عالم بأنه سيمتحننا وأننا سنعمل أو نترك، لكن إذا وقع الابتلاء أو الامتحان ثم خالف الإنسان أو وافق، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب يعني: يترتب عليه الجزاء، فهذا هو العلم الذي قُيد بالابتلاء والاختبار، وفرَّق بعض العلماء بفرق آخر وقال: علم الله سبحانه وتعالى بما لم نعمل علم بأنه سيكون، وعلمه بما عملنا علمٌ بأنه كان، فتعلق العلم الأول بما يكون علم بشيء لم يقع، وتعلق العلم بما كان علم بأنه قد وقع، وهذا لا بأس، ولكن العمدة هو الأول.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التهديد يكون باللفظ ويكون بالمعني، اللفظ: أن يقول: إن فعلت كذا فعليكم كذا ، أما الذي بالمعني هو أن الله تعالى لما ذكر عموم خبرته بما نعمل فمعني هذا ألا نخالف؛ حذرًا من أن يعلم منا ما لا يرضيه، كما أن الأحكام الشرعية تُستفاد بالأمر والنهي والترغيب والترهيب، إذا جاءت الأحكام مقرونة بالترغيب، فهذا دليل على أنها مأمور بها، وإذا جاءت بالترهيب علمنا أنها منهي عنها.

ويُذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهم جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم)، فقال الأعرابي: ما هكذا الآية اقرأها فردها وقرأها كما في المرة الأولى، فقال: ما أصبت، اقرأ الآية فقرأها الثالثة أو الرابعة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال: الآن أصبت؛ لأنه عز وجل عز وحكم فقطع بعزته وقهره وغلبته وسلطانه، ولحكمته عز وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع، وهذا القول الصحيح؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: لو تاب قاطع الطريق الذي أخذ أموال الناس وقتلهم سقط عنه الحد، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لم يقل لا ترفعوا عنهم العقوبة، لكن كونه يأمرنا أن نعلم أن الله غفور رحيم يعني: أنه غفر لهؤلاء ورحمهم فتسقط عنهم العقوبة،ولكن العقوبة الخاصة بحق الله، أما العقوبة الخاصة بحق الآدمي كالقصاص وضمان المال الذي أخذوه فهذه باقية، لأن الحق باقٍ.

مسألة: كيف أحضرت الأنفس الشح؟

الجواب: لما قال: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وكان لابد أن يكون هناك غض من الحق وغضاضة على الإنسان؛ لأنه لو جاء الإنسان كل ما يريد فات على الآخر كل ما يريد، فالصلح لابد أن

يكون بين اثنين فصاعدًا، وإذا أعطيناه بعض ما يريد فقد يشح، ومعنى: (أحضرت الأنفس الشح): أي: اغلبوا أنفسكم واصطلحوا وإن طلبت النفس حقها كاملًا.

مسألة: مَنْ الذي أحضر الأنفس الشح؟

الجواب: أحضرها الله، لكن الله تعالى إذا أضاف لنفسه الشيء المذموم يأتي بصيغة اسم المفعول يعني: أحضر الله الأنفس الشح في طبيعتهم، وانظر في القرآن إلى حكاية الله قول الجن لما تكلموا عن إرادة الشر: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، قالوا: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهذا تأدب مع الله عز وجل، ومعلوم أن المريد هو الله عز وجل، وفي الرشاد قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، فأضافوه إلى الله؛ لأنه خير، يعني: لو قال الله عز وجل: وأحضر الله الأنفس الشح لاستقام الكلام، ولكن لما كان الشح أمرًا مذمومًا قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، فـ(الأنفس) نائب فاعل قائم مقام المفعول الأول، و(الشح) هو المفعول الثاني.

قال الله تعالى:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩، ١٣٠]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، (لن) هذه للنفي وللنصب فهي تنصب الفعل المضارع، وللاستقبال يعني: تجعل الفعل المضارع لمحض الاستقبال، وتقابلها (لم) فإنها تجعل الفعل المضارع للمُضي، فإذا قلت: لم يقم زيد، فهذا فيما مضى وتشترك مع (لن) في النفي، وتختلف عنها في العمل وفي نقل الفعل من الحاضر والمستقبل إلى الماضي ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾، أي: لن يكون في طاقتكم، ﴿أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، (تعدلوا) هنا فعل مضارع دخلت عليه أن المصدرية ويؤول ما بعد (أن) بمصدر؛ ليكون في هذه الآية مفعولًا لقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾ أي: لن تستطيعوا عدلًا بين النساء، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، والعدل ضد الميل ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾، لما جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾، انتفى الإشكال الوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾، فيُفسَّر ما في الآية الماضية على ألا تعدلوا العدل الممكن؛ لأن العدل غير الممكن لا يمكن أن يُكلَّف به الإنسان.

وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾، (لو) هذه شرطية، وفعل الشرط (حرصتم) فأين جواب الشرط؟ قيل: إن جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله والتقدير: ولو حرصتم فلن تستطيعوا، وقيل وهو الصواب: أن (لو، وإن) وما شابهها من أدوات الشرط في مثل هذا السياق لا تحتاج إلى جواب، بل هي كالقيد لما سبق فقط، وهذا القول هو الذي رجحه ابن القيم فيما أظن، وهو الصحيح أنه في مثل هذا لا يحتاج إلى جواب، فإذا قلت: أكرم زيدًا إن أكرمك، فلا تقل: إن جواب الشرط أكرمك محذوف دل عليه ما قبله، بل قل: لا يحتاج إلى جواب بل هذا قيد لما سبق فقط، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي: بذلتم الجهد للعدل فلم تستطيعوا، ولكن لا تميلوا كل الميل ولم يقل: فلا تميلوا الميل أي: فلا تميلوا الميل كله، وأما بعض الميل فلا حرج؛ لأنه داخل في نفي الاستطاعة، ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾، (تذروها) الضمير هنا يعود على التي مال عنها لا شك دون التي مال إليها؛ لأن التي مال إليها، قد أقبل إليها وأكرمها، لكن التي مال عنها هي التي إذا أعرض عنها الإعراض الكلي صارت كالمعلَّقة بين السماء والأرض، وهذا إشارة إلى أنها لن تستقر فإن المعلق بين السماء والأرض لا يستقر لا هو في السماء فيستقر، ولا هو في الأرض فيستقر، وهذه ستبقى معلَّقة ليست أيمة ولا متزوجة؛ لأنها ليست بالتي طُلقت فاستراحت ورزقها الله غيره، ولا هي بالمتزوجة التي تسعد بالزواج كغيرها، وإنما شبهها الله بذلك؛ تنفيرًا عن الميل الكلي الذي يجعل هذه المرأة كالمعلَّقة، قوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا ﴾، وفي الآية التي قبلها قال: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ﴾، والفرق: أن هذا له زوجتان: إحداهما مال عنها كل الميل، والثانية أقبل عليها، ومثل هذا سوف يُحدث شقاقًا بين الزوجتين، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا ﴾، إشارة إلى أنه ينبغي إن حدث بين الزوجتين شقاق وغَيرة فليصلح بينهما؛ لأن هذا أمر فطري ثم قال: ﴿وَتَتَّقُوا ﴾، يعني: تتقوا في الإصلاح بحيث لا تميلوا إلى واحدة دون الأخرى، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. أي: غفورًا لما حصل من الشقاق والميل وما أشبه ذلك، ﴿رَّحِيمًا ﴾ أي: ذو رحمة واسعة.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة منها: أن الله سبحانه وتعالى نفى الحرج عن الإنسان حتى في معاملة الغير؛ لقوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا ﴾، وهذا خبرٌ عن أمر فطري يستلزم رفع الجناح؛ لأن القاعدة الشرعية: أن ما لا يستطاع لا يُلزم به العبد.

٢- ومنها: علم الله سبحانه وتعالى بأحوال العباد ونفسياتهم؛ لقوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾، وهذا أمرٌ معلوم بالضرورة: أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء حتى ما يُوسوس به الإنسان في نفسه.

٣- ومن الفوائد: أن الإنسان يجب عليه العدل فيما يستطيع؛ لأن الله نفى الاستطاعة لرفع الحرج فيها، ومفهوم أنه إذا استطاع الإنسان فإنه يجب أن يعدل، وقد سبق ما يعدل به بين النساء وأنه يجب العدل بينهما في كل شيء يقدر عليه أما المحبة وما ينشأ عنها فهذا أمرٌ صعب فلا يُكلِّفه الإنسان.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان لا ينبغي أن يكلف نفسه ما لا يستطيع وما يشق عليها؛ لقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فكأنه قال: لا تكلفوا أنفسكم بشيء لا تستطيعونه.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم الميل الكلي بالنسبة للعدل بين الزوجات لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل في خطابه كل ما يكون فيه التنفير فيما ينفِّر منه أو الترغيب فيما يرغِّب فيه؛ لأن هذه من أسلوب الحكمة؛ لقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

٧- ومن فوائد هذه الآية: الاستعطاف في المقام الذي ينبغي فيه العطف؛ لأنه إذا تصور الإنسان أن هذه الزوجة التي مال عنها كالمعلقة بين السماء والأرض، فإن هذا يوجب العطف عليها والرَّأفة بها ورحمتها.

٨ - ومن فوائد هذه الآية: أن الصلح والتقوى سببٌ للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وهذا ظاهر؛ لأن الإصلاح خير والحسنات يذهبن السيئات؛ ولأن الإصلاح خير والحسنات يجلبن الرحمة.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما: الغفور والرحيم، فبالمغفرة يزول المكروه وبالرحمة يحصل المطلوب؛ ولهذا يَقرن الله تعالى بين الغفور والرحيم في مواضع كثيرة؛ لأن بالمغفرة يزول المكروه، وبالرحمة يحصل المطلوب كيف ذلك؟ المغفرة مغفرة الذنوب وإزالة آثارها، الرحمة حصول المطلوب والمحبوب؛ ولذلك سمى الله الجنة رحمة فقال لها : «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وهل المغفرة صفة حقيقية أو هي عبارة عن رفع المؤاخذة والعقوبة؟ الجواب: صفة حقيقة تقتضي رفع المؤاخذة والعقوبة وكذلك يقال في الرحمة: هل هي صفة حقيقة يتصف الله بها أو هي عبارة عن الإحسان والإنعام وجلب المصالح؟ الجواب: هي صفة حقيقية وأن هذا ما عليه السلف الصالح وأئمة هذه الأمة من بعدهم وأما مَنْ قال: إن الله لا يُوصف بالمغفرة ولا بالرحمة فقد ضل ضلالًا مبينًا، وحجته عقلية وهمية؛ لأنه يقول: المغفرة تقتضي الفعل، والفعل من سمات المحدَثين؛ لأنه بزعمه: لا يقوم الحدث إلا بحادث، وبزعمه: أن الرحمة لا تليق بالله؛ لأن فيها رقة وانفعال للمرحوم، وهذا لا يليق بالله عز وجل، ومعلوم: أن هذا قياس في مقابلة النص، وأنه يشبه تمامًا قياس إبليس حين خاطبه الله عز

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

جل وأمره بالسجود: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ يعني: أنا خير منه كيف أسجد، وهو دوني، فَمَنْ حكَّم العقل في مقابلة النص فإنه يشبه إبليس تمامًا وفعله من وحيه.

نحن نقول: الرحمة التي هي الرقة والانفعال للرفقة بالمخلوق إنما هي رحمة العبد، أما رحمة الله فإنها تابعة لذاته لا نستطيع أن نكيفها، وأما قوله: إن العقل لا يدل عليها فنقول: إن هذا خطأ؛ لأن العقل يدل عليها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وهذه النعم كلها من آثار رحمته، فلولا رحمة الله ما أنعم على عباده بشيء. والعجيب أنهم يستدلون على ثبوت الإرادة بأمر لا يفهمه بعض الطلبة فضلًا عن العامة، وينكرون إثبات الرحمة بالعقل مع أن العامة تفهم ذلك، فلو سألت أي عامي المطر إذا نزل وأروى الأرض وأنبت الزرع ماذا يدل هذا؟ يقول لك: يدل على رحمة الله.

وفي الإرادة يقولون: إن تخصيص المخلوقات بما تختص به دليل على الإرادة، يعني: كون الإنسان إنسانًا، وكون البعير بعيرًا، والشمس شمسًا، يدل على الإرادة وإلا لما حصل تميز بين الخلائق، نقول: هذه الدلالة نوافقكم عليها، لكنها دلالة خفية أخفى من دلالة النعم على الرحمة، لكن مَنْ لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ الضمير يعود على الزوجين، على الزوجة التي خافت من بعلها نشوزا وإعراضًا، وعلى الزوجة التي تركها زوجها كالمعلقة، ومن المعلوم: أنه لم يعرض عنها إلا لكراهة لها ولم يجعلها كالمعلقة إلا لكراهة لها، وحينئذٍ يحصل التفرق، وإذا تفرقا فإن الله سبحانه وتعالى ييسر لكل واحد منهما ما يحصل به الغنى من سعة الله، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ بماذا؟ قال بعضهم: يغني الزوج بزوجة صالحة يسعد بها، ويغني الزوجة بزوج صالح تسعد به، وقال بعضهم: يغني الله كل من سعته سواء بإبدال الزوج الأول أو بالسلوان والنسيان وأن يكون الأمر كأن لم يكن، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن السلوان وعدم ذكر أحدهما الآخر ليس إغناء، فالإغناء أن يوجد ما يستغني به الإنسان وهذا لا يكون إلا بزوج للزوجة وزوجة للزوج، وهذا وعد من الله عز وجل وعد من القادر الذي يقدر أن يبعث للمرأة زوجًا تسعد به أو للرجل زوجة يسعد بها، وهو وعد حق وصدق؛ لأن الواعد به الله الذي لا يخلف الميعاد، والذي على كل شيء قدير، لكن أحيانًا يتخلف هذا؛ لشك الإنسان وعدم ثقته وإيمانه فيحصل المعني ولا يتحقق المضمون، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، (واسِعًا) أي: ذو سعة عظيمة في جميع الصفات؛ فهو واسع في علمه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وواسع في قدرته: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وواسع في حكمته وفي سمعه وبصره وفي كل من صفاته عز وجل، وواسع في إحاطته فهو محيط بكل شيء قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

المهم: أنه جل وعلا واسع بمعني الكلمة على أوسع ما يكون، ﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذو حكمة وحُكم، فهو الذي له الحكم الكوني والشرعي، وهو الذي له الحكمة الصورية أو الغائية.

أما مسألة حكم لله عز وجل فقد قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فحكم الله نوعان: كوني وشرعي، فما قضاه في خلقه فهو كوني، وما شرعه لخلقه فهو شرعي، فقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ هذا حكم شرعي، أما قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهو حكم كوني، أما المثال لنفس الحكم بهذه المادة فقول الله تبارك وتعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، وهذا حكم شرعي، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وهذا حكم شرعي، وقال أخو يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ هذا كوني، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حكم كوني شرعي، الحكمة قد يكون الشيء حكمة في صورته التي خلقه الله عليها، وقد تكون حكمة في غاية ما ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه حكمة لبيان غاية حميدة في خلق الإنس والجن، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، هذه حكمة صورية بمعني: مكون على هذه الصورة المعينة، فارتفاع الشمس بهذا المقدار وارتفاع القمر بهذا المقدار وتعاقب الليل والنهار على هذا الوجه كله من الحكم الصورية، يعني: لو كان هذا على هذه الصورة فهو الحكمة، ولو اختلف لما أصبح هناك حكمة، وعلى هذا نقول: الصور هنا أربع: حكمة في الشرع، وحكمة في القدر، وحكمة في الصورة، وحكمة في الغاية، إذا آمنت بهذا علمت أن الله عز وجل لايمكن أن يُحدث شيئًا ولو أعظم الشر وأعظم الضرر إلا بحكمة، فهذه الحروب التي وقعت والتي تقع الآن كلها لحكمة وإذا آمنا بذلك صبرنا وانتظرنا الفرج ليحصل بإذن الله، ولا نقول: لماذا قدَّر الله هذا؟ أو نتسخط أو نقول: ليس فيه حكمة، فيجب أن نؤمن بأن ذلك لحكمة؛ لأنه قدرُ الله، وقدر الله لا شك أنه بحكمة، وكذلك في الشرع، إذا أمرنا الله بشيء أو نهانا عن شيء حتى لو كنا لا نعلم حكمته يجب أن نعلم أن له حكمة؛ لأن هذا من مقتضى اسم الله (الحكيم)، فخلق الله عز وجل الشياطين وسلطها على مَنْ شاء من عباده، وخلق الشر والأمراض والفقر كل هذا له حكمة لا شك؛ لكن اعلم أن الله لا يقدر شيئًا إلا لحكمة فنرضى ونسلم، والحقيقة: أن عدم الرضى بالقدر، يعني: الطعن في حكمة الله، وفائدة علم الإنسان بحكمة الله: أن يرضى ويسلم ويعلم أن ما شرعه الله فهو حق، وأن ما قدَّره الله فهو حق وحينئذٍ يستسلم تمامًا للقضاء والقدر.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى التفريق بين الزوجين في حال عدم التوافق، وجه ذلك: أن الله وعد على التفرق خيرًا فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وهذا هو الحق أننا إذا لم نجد سبيلًا للإصلاح بين الزوجين والوئام بينهما، فإن السبيل الوحيد هو التفريق ليسعد كل واحد منهما في حياته، وما الدليل على هذا من السنة؟ جاءت امرأة ثابت بن

قيس بن شماس رضي الله عنه، - وهو من المبشرين بالجنة، يعني: مقامه رفيع - إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس لا أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، والمراد بالكفر هنا: كفر العشير يعني: أنها لا تقوم بواجبه؛ لكراهتها له فهي تكره كرهًا عظيمًا، فقال لها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»، وهي كانت مهرها قالت: نعم يا رسول الله فقال الرسول ﷺ لثابت: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[1]، فقبلها وطلقها، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء وقال: إنه إذا قالت المرأة أنا لا أستطيع البقاء إطلاقًا وإن أبقيتموني معه أحرقت نفسي قال القاضي: يلزم الزوج الطلاق إذا ردت عليه مهره، وهذا القول ليس ببعيد عن الصواب، والله تعالى أشار في هذه الآية إلى أن التفرق أولى وأحسن؛ لأن الله وعد به خيرًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: رحمة الله عز وجل بعباده حيث إن المرأة والرجل إذا انكسرا بالفراق بينهما جبرهما الله عز وجل بالإغناء قال الله: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: سد باب اليأس من رحمة الله على الزوجين المتفرقين حيث قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقل: يغني كلًّا فقط، بل قال: (من سعته) إشارة إلى أن فضل الله واسع، وألَّا تيأس حتى لو استبعدت أن يبدلك الله بخير منها أو أن يبدلها الله بخير من زوجها ؛ لأن الله سيغنيكما من أي شيء؟ من سعته.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى واسع وحكيم؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، وهذا من حكمته.

٥- ومن فوائدها: أن هذه السعة التي وعد الله تعالى بالإغناء منها مبنية على حكمة، وكأن هذا - والله أعلم - إشارة إلى أنه لو تخلَّف هذا الموعود فإنه لن يتخلف إلا لحكمة وأحيانًا يمنع الله سبحانه وتعالى ما يحب لمصلحة عظيمة، فأحيانًا يبتليه بما يملأ قلبه غمًّا وهمًّا دائمًا، لكن لحكمة عظيمة وهي: أن ما يصيب الإنسان من هم وغم وفوات محبوب، يكفِّر الله به عنه، ونحن نعلم أن الدنيا تزول وينسى الإنسان ما حصل له، لكن يجد أجره وفائدته عند الله عز وجل؛ ولهذا لما أخبر النبي ﷺ أن الحمَّى تكفِّر الذنوب قال له أحد الصحابة: يا رسول الله ولكن إذا ابتليت بحُمَّى لا تمنعني الصلاة مع الجماعة وفعل الخير، فهل يكفر الله بها عني؟ قال: «نَعَمْ»، فسأل الله عز وجل أن يبتليه بحُمَّى، لكنها لا تمنعه لا من صلاة ولا صيام وخير لأجل أن تكفر عنه، ولكن هذا من الاجتهاد، والأولى أن تسأل الله العافية فإن العافية أوسع من العقوبة لا شك، ولكن على كل حال: إذا تخلف الموعود في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فإننا نعلم أنه تخلف لحكمة عظيمة قد يجد الإنسان ثمرتها في المستقبل، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الحكمة لله عز وجل ويتفرع على هذا فائدة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٧٣)، والنسائي (٣٤٦٣)، وابن ماجه (٢٠٥٦).

عظيمة مسلكية منهجية وهي الرضا بقضاء الله وشرع الله؛ لأنك تعلم أن هذا عن حكمة حتى لو كان فيه فوات مالك أو ولدك، فاعلم أنه لحكمة، وأنت إذا آمنت بهذا فسوف يسهل عليك كل مصيبة.

مسألة: الفاء في قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ هل فاء سببية والفعل بعدها منصوب أو فاء العطف والفعل بعدها مجزوم؟

الجواب: الصواب: الأخذ بالأول فبسبب ميلكم كل الميل تذروها كالمعلقة، يعني: مبنية على ماسبق.

مسألة: هل في حديث ثابت بن قيس بن شماس أمر الرسول ﷺ له أن يقبل الحديقة وأن يطلقها أمر إلزام؟

الجواب: نعم؛ لأن الرسول ﷺ علم أنه لن تصلح الحال بينهما فأمره أمر إلزام.

مسألة: إذا كان الزوج دميم الخلقة هل هذا سبب يكفي للتفرق؟

الجواب: نقول: إذا كان دميم الخِلقة وكانت المرأة لا تستطيع النظر إليه، أو عابت زوجها بخلق أو دين فلها سؤال الطلاق؛ ولهذا قالت أمرأة قيس: لا أعيب عليه في خُلق ولا دين.

مسألة: إذا كانت المرأة لا تريد زوجها أبدًا، ولكن أباها يريدها أن تبقى معه، فهل تسقط ولايته لها؟

الجواب: نعم، وهذا يقع كثيرًا حيث يكون الأب يريد أن تبقى ابنته مع زوجها على كل حال، وهي لا تريد نقول: ينفصل الزوجان بالرجوع إلى القاضي وتسقط ولاية الأب.

مسألة: المرأة التي عُقد عليها ولم يدخل بها زوجها، هل يجب العدل بينها وبين المرأة الثانية؟

الجواب: لا؛ لأن الله تعالى أمر بالعدل، لكن في موضع آخر قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وفي العرف: أنه إذا لم يدخل عليها فليس لها قسم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣١-١٣٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، هذه تقدم مرارًا أمثالها، وفيها: أن تقديم الخبر ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يفيد الحصر، وأنه خاص بالله عز وجل وملك السموات والأرض يشمل ما فيهما من الأعيان والمنافع وغير ذلك، وكلها ملك لله لا يشاركه فيه أحد؛ ولهذا لا يمكن لأحد أن يتصرف في شيء من السموات والأرض إلا بإذن الله عز وجل الإذن الكوني أو الإذن الشرعي يقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، لما ذكر ما يتعلق بالربوبية، وهو الملك الواسع العام ذكر ما يتعلق بالألوهية والعبادة وهي التقوى، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، الوصية: هي العهد بالشيء مع التأكيد يعني: ليس مجرد أن أقول: يا فلان افعل كذا وكذا ليس هذا وصية، بل إذا قيل: وصى فمعناها أنه عهد إليه بالشيء مع التأكيد، قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، من هم؟ قيل: اليهود والنصارى، ولكن الصحيح: أنها أعم وأن كل مَنْ أنزل الله إليه كتابًا فقد وصاه بالتقوى، ومن المعلوم: أن كل رسول معه كتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ إذن ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هنا لا تختص باليهود والنصارى، بل كل مَنْ آتاه الله الكتاب وصاه بالتقوى، ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (أن) هنا يسميها النحويون تفسيرية، وعلامتها: أن تأتي بعد فعل تضمن معنى القول دون حروفه، فإعرابها تفسيرية، وإن شئت فقل: ما حل محلها (أي) فهي تفسيرية فهنا، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: اتقوا الله، فتكون اتقوا الله، كأنها تفسير لما أوصى به الله سبحانه وتعالى مَنْ قبلنا وهذه الأمة، ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، هنا لو قال قائل: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أليس من الممكن أن يُقال: ولقد وصيناكم والذين أوتوا الكتاب من قبلكم حتى لا ينفصل الضمير؟ قلنا: بلى، لكن لما كان هؤلاء سابقين علينا كان مقتضى الترتيب الزمني أن يُقدم كما أن مَنْ سبق غيرنا في المرتبة، فإنه يقدم عليه لو أمكن اتصال الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، لقائل أن يقول: لماذا لم يكن الكلام يخرجونكم والرسول؟ لأنه لا فصل مع إمكان الوصل كما قال ابن مالك في «الألفية»:

وَفِي اخْتِيَارٍ لَا يَجِيءُ الْمُنْفَصِل ... إِذَا تَأَتَّى أَن يَجِيءَ الْمُتَّصِل

فنقول: نعم، هو في الإمكان أن يكون هكذا، لكن لقوة الغاية فهنا: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ليسوا أفضل منا، ولكنهم أسبق منا زمنًا، وفي: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، تقديم الرتبة فذكر الرسول ﷺ؛ لأنه لا يكون تابعًا لغيره فيُقال: يخرجونكم والرسول.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، هذا ما أوصى الله عز وجل به الأولين والآخرين، وهي مرت علينا أيضًا كثيرًا على أنها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بإتيان أوامره وترك نواهيه، والتقوى أحيانًا

تُضاف إلى الله كما هنا، وأحيانًا تضاف إلى المخلوقات مثل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، وأحيانًا تُضاف إلى الزمن مثل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وليست التقوى المضافة إلى غير الله كالتقوى المضافة إلى الله؛ لأن التقوى المضافة إلى الله تقوى مع عبادة وتذلل لله عز وجل، أما اتقاء النار واتقاء اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، فهذا مثل اتقائنا للسباع والذئاب وما أشبه ذلك، أي: أننا نخاف منها خوفًا طبيعيًا لا خوف عبادة ولا تقوى عبادة وفي الأثر: (اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ)، ليست هذه التقوى عبادة، فكل تقوى تضاف إلى غير الله فليست تقوى عبادة، والتقوى المضافة إلى الله تقوى عبادة بمعني: أن الإنسان يتقي مخالفة الله عز وجل محبة له وتعظيمًا له.

وقوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: لن تضروا الله فلو كفر كل الخلق فإنهم لن يضروا الله عز وجل؛ لأنه غني عنهم، وفي الحديث القدسي حديث أبي ذر المشهور أن الله تعالى قال: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(1)، إذن الطاعة تنفع صاحبها والسيئة تضر صاحبها، والرب عز وجل لا يتضرر بمعصية، ولا ينتفع بالطاعة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فهو غني عنهم أجمعين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾، مر علينا مرارًا أن (كان) في مثل هذا التركيب تفيد الثبوت والاستمرار واتصاف الموصوف بها يعني: اتصاف اسمها بالصفة المضافة إليها، كان الله غنيًّا حميدًا، ولم يزل غنيًّا حميدًا، والغني: هو مَنْ عنده غنىً يستغني به عن غيره، والحميد بمعني المحمود، فهو غني يُحمد على غناه، وهل كل غني يُحمد على غناه؟ لا، الغني البخيل كالفقير، بل أسوأ حالًا منه؛ لأن الغني البخيل يُذم والفقير لا يُذم، لكن الغني الحميد بمعني الذي ينفع غيره بغناه، هذا هو المحمود، فالله سبحانه وتعالى غني بذاته عن جميع مخلوقاته، ثم هو حميد بما يفعله بعباده من الخيرات والنعم ودفع النقم وغير ذلك. (حميد) هنا هل نجعلها بمعني حامد أو معنى محمود؟ الجواب: بمعناهما جميعًا، فإن قال إنسان: أليس هذا من استعمال المشترَك في معنيين؟

قلنا: وأي ضرر في استعمال المشترك في معنيين إذا كان لا منافاة بينهما، فالمشترك معناه: اللفظ الصالح لمعنيين على وجه الحقيقية، مثل: كلمة (عين) تطلق على الذهب، وعلى عين الماء، وعلى الجاسوس، وأيضًا العين الباصرة تُسمى عينًا حقيقة، فهل لو جاءت كلمة (عين) يمكن أن تُحمل على المعاني الثلاثة؟ لا، إذا لم يمكن أن يجتمعوا، أما إذا أمكن الجمع فتحمل عليهم جميعًا، هنا (حميد) على وزن (فعيل) وتأتي بمعني فاعل ومفعول، كـ (جريح) بمعنى مجروح وسميع بمعني سامع، وهل نستعمل (حميدًا) هنا بمعنى محمود و بمعنى حامد؟

الجواب: نعم، فإذا اعترض علينا معترض وقال: هذا من باب استعمال المشترك في معنيين، قلنا:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

وأي ضرر في ذلك إذا كان المعنيان لا يتنافيان؛ إذنْ هو (حميد) أي: محمود على صفاته الكاملة وعلى إنعامه، وعلى أفعاله الدائرة بين العدل والإحسان، وهو أيضًا (حامد) لمن يستحق الحمد من عباده؛ ولهذا يُثني الله سبحانه على مَنْ يستحقون الثناء، مثل: الأنبياء والرسل والأصفياء وما أشبه ذلك.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** عموم مُلك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** اختصاص الملك العام لله سواء كان عامًّا لشموله في الأعيان، أو لشموله في الأفعال، شموله في الأعيان يعني: كل الموجودات ملك لله، وشموله في الأفعال أنه يفعل في هذه الموجودات ما يشاء، هل يثبت مثل هذا لأحد من المخلوقين؟ لا، لا يوجد أحد عنده شمول في الموجودات، ولا في الأفعال والتصرفات؛ لأن ملكي أنا محصور لا تملكه أنت، وملكك أنت محصوز لا أملكه، ثم ملكي لما أملك، هل هو ملك لجميع التصرفات أتصرف فيه كما أشاء؟ لا، بل هو ملك محدود بتصرف محدود.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أهمية تقوى الله عز وجل؛ لأنه أوصى بها الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾، فإن قال قائل: إذا كانت التقوى هي فعل الأوامر واجتناب النواهي فما الجواب عن قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، والبر: كل ما أمر الله به؟ فالجواب: أن بعض الكلمات يكون لها معنىً إذا انفردت ومعنىً إذا اقترنت بغيرها، فالتقوى إذا انفردت تشمل البر، والبر إذا انفرد يشمل التقوى، وإذا اجتمعا صار البر فعل الأوامر، والتقوى ترك النواهي.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مخالفة التقوى لا تضر الله شيئًا؛ لقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما: (الغني والحميد) ويُستفاد منهما: إثبات صفتين من صفات الله، وهما: (الغنى والحمد)، ويُستفاد من ضم أحدهما للآخر فائدة الانضمام؛ لأن الغنى وحده كمال، والحمد وحده كمال، واجتماعهما يتولد منه كمال أعلى.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، هذا تكرار، لكنه تكرار مهم الأول: بيان غناه عز وجل عن خلقه حيث قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾، والثاني: بيان مراقبته لخلقه؛ فالآية الأخيرة تتضمن التحذير من المخالفة، والأولى تتضمن الأمر بالموافقة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾، الوكيل: هو المراقِب المتصرِّف؛ ولهذا يكون وكيل الإنسان هو المتصرف فيما وُكِّل فيه مراقبًا له، ففي هذه الآية: كمال مراقبة الله عز وجل لعباده؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾، فإن قال قائل: الوكيل أدنى رتبة من الموكل فكيف نقول: إن الله وكيل؟ قلنا: الوكيل هو الذي عادة أدنى رتبة من الموكل وهو الذي يتصرف للغير بأمر الغير، فوكيلك أدنى منك مرتبة؛ لأنه يتصرف لك بأمرك، فهو دونك، أما

الوكيل الذي بمعني: المراقِب فإن مرتبته تكون أعلى من المراقَب، والله سبحانه وتعالى يراقب كل العباد ويحصي عليهم أعمالهم، وفي الآية أيضًا: كمال مراقبة الله عز وجل، وأنها فيها الكفاية عن كل مراقبة.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ هذه الجملة شرطية، وفعل الشرط وجوابه كلاهما فعل مضارع، ولهذا جاءا مجزومين، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾، (يذهبكم) بمعني: يعدمكم حتى لا تكونوا في الوجود، وقول (أيها الناس)، صدر الله هذه الجملة بالنداء؛ للتنبيه و(الناس) هنا يشمل الكافر والمؤمن، قوله: ﴿بِآخَرِينَ﴾، بآخرين يتقون الله عز وجل ويقومون بأمره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، وهذا تهديد من الله عز وجل أن يخالف أوامره أحد، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي: على إذهابكم والإتيان بآخرين قديرًا، والقدرة وصف يتمكن به القادر من الفعل بلا عجز والقوة وصف يتمكن به من الفعل بل ضعف، والدليل على هذا أن القدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف قول الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، ولم يقل عليمًا قويًّا؛ لأن الذي يقابل العجز هو القدرة، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾، ﴿بِآخَرِينَ﴾، تعرب صفة، والموصوف قد حذف والمعنى: بقوم آخرين، ما يعلم المقصود إلا رب العباد، وهذا عليه قول ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ :

وَمَا مِنَ المَنعُوتِ وَالنَّعتِ نُقِل يَجوزُ حذفُهُ وَفِي النَّعتِ يَقِل

فالمنعوت يُحذف كثيرًا كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ ومثلها كثير، والنعت حذفه قليل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، وعلى غيره أيضًا، والتقديم هنا لا يدل على الحصر، ولكن تقديمه لتأكيد قدرته عليه، وهو محل الخصومة بين المنكِرين للقدرة وبين المثبتين للقدرة؛ فلذلك قدم المعمول للأهمية.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: إثبات المشيئة لله، وتؤخذ من قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، هل مشيئة الله مطلقة مجردة عن الحكمة، أو هي مشيئة مقرونة بالحكمة؟ الثانية، كل شيء علقه الله بالمشيئة، فالمراد: المشيئة التي تقتضيه الحكمة، والدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فدل ذلك على أن مشيئة الله مقرونة بالعلم والحكمة.

٢- ومن فوائدها: بيان قدرة الله عز وجل وأنه قادر على أن يُذهب الناس جميعًا، ويأتي بآخرين، ومن المعلوم: أن نوحًا عليه الصلاة والسلام هو الأب الثاني للبشرية؛ لأن الله تعالى أهلك قومه إلا مَنْ كانوا معه، وقد قال المؤرخون: إن الذين بقوا من البشرية كلهم أولاد لنوح، وأن أولاد

نوح وهم (سام، وحام، ويافث)، وهؤلاء الثلاثة تفرَّع منهم بنو آدم بعد أن أغرق الله أهل الأرض، فهنا أذهبَ الله أهل الأرض وأتى بآخرين، وعُمرت الأرض بساكنيها إلى أن بُعث محمد ﷺ فكان خاتم الأنبياء.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات قدرة الله على كل شيء، هل هو قادر عز وجل على إعدام الموجود؟ نعم، لأنه شيء، وهل قادر على إيجاد معدوم؟ نعم؛ لأنه شيء، كل شيء فالله قادر عليه، فهل هو قادر على أن ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير؟ نعم قادر، وقادر على أن يأتي للفصل بين العباد، وقادر على أن يتكلم، قال بعض أهل العلم: ولكن القدرة تتعلق بالشيء الممكن، أما الشيء المستحيل فلا تتعلق به القدرة، وأشكل هذا على بعض الناس، فأجاب عن ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بأن المستحيل ليس بشيء؛ لأنه لن يُوجد، ولن يعدم حتى يُقال: إنه خرج من عموم الآية، وإن كان ليس بشيء فإنه لا يدخل في العموم حتى نقول: إن هذا خطأ؛ ولهذا قال السَّفَارِينيُّ في عقيدته:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ كَذَا إِرَادَةٌ فَعِ وَاسْتَبِنْ

فالعلم هل يتعلق بالمستحيل أم لا؟ يتعلق بالمستحيل، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهذا مستحيل أن يكون فيه آلهة إلا الله، ومع ذلك علم الله تعالى بنتيجة لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، وهذا شيء مستحيل، فلو قال قائل: هل يقدر الله على أن يخلق مثل نفسه؟ قلنا: هذا مستحيل أن يخلق مثل نفسه؛ لأنه جل وعلا ليس كمثله شيء، وإذا كان لا مثل له فإنه مستحيل أن يكون كذلك؛ لأن الله تعالى خبره صادق لا يُخلف ولا يتغير.

يعبر بعض الناس يقول: (إن الله على ما يشاء قدير) فهل هذا التعبير صحيح؟ غير صحيح؛ لأنه يقيد القدرة بما يشاؤه الله وما لم يشأ هو قادر عليه، ومفهوم هذا الكلام أنه ليس بقادر، فعلى هذا نقول: هذه الكلمة أولًا: لم ترد لا في القرآن ولا في السنة، وثانيًا: أنها تُوهم معنىً فاسدًا ورتب بعض العلماء على هذا فقالوا: إنها توهم مذهب المعتزلة الذين أنكروا تعلق مشيئة الله بفعل العبد، وقالوا: إن العبد يفعل باختياره، ولا تعلق لمشيئة الله به، فيكون عز وجل غير قادر على أفعال العباد بناءً على ذلك؛ لأنه لا يشاؤه، وعلى كل حال: يجب أن نلتزم بما جاء في الكتاب والسنة ونقول: (إن الله على كل شيء قدير)، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك معنىً مستحيلًا أو غير مستحيل، فليقل: إن الله على كل شيء قدير ويصمت، لكن بيَّنا لكم؛ لأن طلبة العلم سيفهمون، لكن العامي قد لا نقول له هذا الكلام؛ لأنه لا يفهم أبدًا، ويُذكر أن الشيطان أبا الشياطين الذي يُجعل له كرسيًّا على البحر ويبث جنوده وسراياه في إيذاء الخلق، قالت له ذريته: لِمَ تفرح بموت العالم أكثر مما تفرح بموت العبَّاد؟ قال: لأن العالم يُرشد الناس ويهديهم ويدلهم ولا أتمكن من إضلاله، لكن العابد قد تنطلي عليه الأمور قالوا: كيف ذلك؟ قال: أنا

أختبره لكم فأرسل من جنوده مَنْ يقول للعابد: هل يستطيع الله أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ ففكَّر العابد وقال: ما يستطيع، فرجع المندوب وقال: إنه يقول: لا يستطيع قال: انظروا الآن كفر الرجل، فأرسله إلى العالم وقال له: هل يستطيع الله عز وجل أن يجعل السموات والأرض في بيضة؟ قال: نعم يستطيع، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فلو قال للسموات: كوني في جوف البيضة، إما أن تكبر البيضة ولا تصغر السموات والأرض، فرجع إلى شيطانه وقال له هذا الكلام، قال: انظر هذا تخلص، ولكن المسكين كفر، وهذه قصة معروفة في بعض الكتب القديمة لكني أقول: إن الله على كل شيء قدير، فالعامي يقال له هذا ولا يُقال له: القدرة تعلقت بالممكن ولا بالمستحيل ولا بالواجب وهذا هو الأَوْلَى.

مسألة: كيف نجيب على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾؟

الجواب: فيقال: المشيئة هنا معلقة بالجمع، يعني: إذا شاء جمعهم فإنه لا يمتنع عليه فالمشيئة هنا شرط في الجمع، وليس شرطًا في القدرة.

قال الله تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٣٤، ١٣٥]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

الإعراب: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، هذه جملة شرطية، فعل الشرط فيها (كان)، وجواب الشرط فيها قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصح أن يكون فعلًا للشرط وكل جواب لا يصح أن يكون فعلًا للشرط فإنه يتعين أن يقترن بالفاء كما قال ابن مالك رحمه الله:

واقرُن بِفَا حتمًا جَوابًا لَوجُعِل شَرطًا لإن أو غيرِها لَم يَنجعِل

هذا هو الضابط، وقد خص ما يشمل هذا الضابط بسبع جمل مذكورة في قوله:

اسْــــمِيَةٌ طَلَبِيَّــــةٌ وَبِجَامِــــدٍ وَبِمَــا وَقَــدْ وَبِلَــن وَبِـالتَّنفِيسِ

وقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، جملة خبرية قُدِّمَ فيها الخبر لإفادة الحصر؛ لأن من قواعد البلاغة: أن تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، واضح إعرابها.

يقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: جزاءَها ومتعها وزهرتها فقد فاته الخير الكثير؛ لأنه حُرِم ما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة؛ لهذا لم يقل: مَنْ كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها كما جاء ذلك في آية أخرى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، بل جاء الجواب على خلاف ما يتوقع السامع يعني: فكأنه لم ينل شيئًا، وهذه الآية لها شواهد كثيرة أن مَنْ أراد الدنيا فإن الدنيا والآخرة تفوته، ثم هل ينال ما أراد من الدنيا؟

الجواب: لا، لقول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، ثم مَنْ أراد الآخرة هل تفوته الدنيا؟ لا، ولهذا قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، فمن أراد الآخرة لن تفوته الدنيا، ومَنْ أراد الدنيا قد تفوته الدنيا والآخرة وإن أتته الدنيا فإنه لا يُؤتى منها كل ما يريد، هذا هو الحاصل في الإرادات، ومَنْ أراد الدنيا والآخرة معًا، فهل نقول: إنه بين درجتين أو نقول: إنه ينال ثواب الدرجة الثانية وهي إرادة الآخرة؟ نقول هنا: أيهما أغلب فيمن أراد الدنيا والآخرة؟ إذا كان الأغلب الآخرة، فإنه ينال ثواب الدنيا والآخرة وإذا كان الأغلب الدنيا فإنه ينقص من ثواب الآخرة بقدر ما نوى من الآخرة فإذا كان نوى الآخرة كلها حصل له الثواب كله أو بعضها يحصل له أقل، وقد جاءت الأحاديث شاهدة بهذا فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُه إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ»[1]، لهذا نجدَ الذين يريدون الدنيا أحيانًا يُوفقون في الدنيا ويحصل لهم مرادهم أو بعضه، وأحيانًا لا يحصل لهم ويكونوا أشد فقرًا من المسلمين.

وقوله عز وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، يعني: وقد فاته ما يريد؛ لأنه في الواقع قد يُؤتى ما يريد أو بعضه ثم لو أُوتي فإنه لم يدم بل سيموت أو يفقد ما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

أوتي، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يعني: أنه ثبت ثبوتًا أزليًا وأبديًا، وهذان الاسمان السميع والبصير وما تضمناه من صفة وهما السمع والبصر، وقد مضى علينا أن السمع المضاف إلى الله تعالى ينقسم إلى قسمين: ويتفرع من هذين القسمين أقسام كثيرة ولا نطيل ذلك بإعادة ما سبق.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية الكريمة:** ترتيب الجزاء والثواب على النية؛ لقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يصحح نيته تمامًا، وألا ينوي بعمل الآخرة إلا الآخرة، أما عمل الدنيا فهو للدنيا.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية، وذلك بإثبات الإرادة للعبد، والجبرية يقولون: إن العبد ليس له إرادة وأنه مجبر على عمله فليس له إرادة.

٣ـ **ومنها:** بيان انحطاط رتبة الدنيا عند الله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ
لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِدِ الطَّيَرَانِ

يعني: لو أن الدنيا تساوي جناح بعوضة ما سقى الله أحدًا من الكفار ولا أنعم عليهم بشيء لكفرهم لكن يتمتعون بها؛ لأنها ليست عند الله بشيء سواء تمتع بها أولياؤه أو أعداؤه، وهذا هو الواقع، فالدنيا إن لم تكن وسيلة للآخرة فلا خير فيها، حتى لو نُعِّم فيها الإنسان، فإن هذا النعيم جحيم، ولذلك تجد أشد الناس حرارة وأسىً وحزنًا وقلقًا هم أصحاب الدنيا، ولا يغرنك ما عندهم من اللباس والقصور والنعيم والسيارات وغيرها، فقلوبهم ـ والله ـ أسوأ حالًا من أفقر المسلمين؛ ولهذا قال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الذي يعطي الثواب هو الله عز وجل لقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، ويتفرع على هذه القاعدة: ألا نعتمد فيما نرجوه من ثواب الدنيا والآخرة إلا على ربنا عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده الأمور حتى قال الرسول ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَنْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ**»(١).

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآخرة ولم نقل إثبات الدنيا؛ لأننا لو قلنا إثبات الدنيا لكان هذا من باب اللغو مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، أو كقول الشاعر:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

كَأَنَّنــا وَالمــاءُ مِــنْ حَوْلِنَــا قَــومٌ جُلُــوسٌ حَــوْلَهُم مَــاءُ

أقول: هذه الآية تدل على ما ذكرنا من إثبات الآخرة وأنها آتية لابد منها، وأنها هي الغاية لكل حي؛ ولهذا يجب علينا أن نشعر بأننا نحن في هذه الدنيا كالمسافر تمامًا، بل أعجل من المسافر ولأن المسافر يسير ويمكث وينزل ينام يستريح يريح الإبل لكن الحي في الدنيا لا يستريح هو سائر ليلًا ونهارا قائمًا وقاعدًا ومضجعًا وسائرًا في كل حال فعلينا أن نشعر أنفسنا بهذا لئلا نتخذها وطنًا ومن نعمة الله على العباد جميعًا أنه لم يجعل نعم هذه الدنيا كاملة بل ينغص لئلا يتخذها الإنسان مقرًّا ووطنًا بل يعرف أنها ليست دار مقر وراحتها عناء لهذا نقول أن الآخرة هي الأهم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل هما: السميع والبصير وإثبات ما يترتب عليهما من وصف، وإثبات ما يترتب عليهما من أثر وهو أنه يسمع ويبصر يعني: ليس سميعًا بلا سمع ولا بصيرًا بلا بصر، ولا يبصر بدون أن يبصر أو ذا سمع بدون أن يسمع.

ثم قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الخطاب لكل المؤمنين، ونحن إن شاء الله تعالى منهم، فالخطاب إذن موجه إلينا وإلي غيرنا من كل مؤمن، واعلم أن تصدير الله تعالى الخطاب بالنداء يدل على أهميته؛ لأن النداء يلفت سمع السامع ويتجه إلى المنادي ماذا تريد؟ ثم اعلم أن تخصيص النداء بالمؤمنين يفيد أنهم هم الأهل لتوجيه مثل هذا الخطاب؛ لأنهم مؤمنون ينفذون أمر الله إن كان أمرًا ويتركون نهيه إن كان نهيًا ويتأدبون بخلقه إن كان خُلقًا فكانوا أهلًا لأن يُوجه الخطاب إليهم وكفي شرفًا بالإيمان أن يوجه الله الخطاب إلى المتصفين به، ويدل أيضًا تخصيص المؤمنين على أن ما ذكر من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته تنقص الإيمان.

وقوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ فعَّالين يعني: فيه صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون على سبيل النسبة أي: من ذوي القوامة ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، والقسط هو: العدل كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فالقسط هو العدل، فَأَقْسَطَ بمعنى عَدَلَ، وَقَسَطَ بمعني جَارَ؛ ولهذا جاء اسم الفاعل من الأولى على وزون مُفْعِل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وجاء اسم فاعل من الثانية على وزن فَاعِل، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ حال من فاعل قوامين ويحتمل أن تكون خبرًا ثانيًا لقوله: ﴿كُونُوا۟﴾، لكن كونها حالًا أولى ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: تشهدون بالقسط لله عز وجل، فلا يحملكم على هذا رياء ولا سُمعة ولا دنيا ولا غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الشهادة على النفس ممكنة، فاشهد على نفسك قبل أن تشهد نفسك عليك، والشهادة على النفس هي: الإقرار بأن يقول فعلت كذا وفعلت كذا.

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ يعني: حتى على الأم والأب اشهد ولكن قد تغضب الأم، ولو

غضبت؛ لأن رضا الله مقدم على رضا الوالدين، ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ مثل الإخوان والأبناء والأجداد والأعمام والأخوال والخالات والذين ليس بأقربين من باب أولى، لكن الله نص على ذلك؛ لأن النفس قد تميل فلا تشهد بالعدل .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أمر مهم يحمل على الشهادة للمشهود له أو عليه فقال: ﴿إِن يَكُنۡ﴾ أي: المشهود عليه أو المشهود له ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾؛ لأن من الناس مَنْ يشهد للغني لغناه أو للفقير لفقره أو يشهد على الغني لغناه أو على الفقير لسبب من الأسباب، فالله أمر بأن نشهد على هؤلاء ولو كان الإنسان غنيًا أو فقيرًا؛ لأن أمرهما إلى خالقهما عز وجل، ولهذا قال: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا يهمك ولا تقل: أشهد للفقير؛ لأنه فقير ومحتاج وصاحب عائلة نقول له: ولاية الله لهم خير من شهادتك. ثم قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي: هوى النفس وهو ميل الإنسان إلى ما يخالف الشرع هذا هو الهوى المذموم بأن يميل الإنسان إلى ما يخالف الشرع.

وقوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ هل المعني كراهة أن تعدلوا أو لأجل أن تعدلوا؟ ليس أحد يكره العدل، لكن لما أمر الله بالشهادة على النفس والوالدين والأقربين وبيَّن أن الله تعالى هو الذي يتولى الجميع ونهى عن اتباع الهوى قال: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ يعني: إن أردتم العدل فلا تتبعوا الهوى، وعلى هذا فيجوز أن نقول التقدير: كراهة أن تعدلوا يعني: أننا أمرناكم أو نهيناكم عن إتباع الهوى من أجل أن تعدلوا، والعدل هو: الاستقامة، والمراد به في باب الأحكام: الحكم بما دل عليه الكتاب والسنة.

وقوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾ أي: تنحرفوا في الشهادة فتزيدوا فيها أو تنقصوا منها أو تعرضوا عن الشهادة بحيث لا تؤدونها فإن الله توعّدنا بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وماذا يكون إذا كان الله بما نعمل خبيرًا؟ الجزاء، وهذا من أشد ما يكون من الوعيد؛ لأن من علم أن الله تعالى خبير بعمله فلا يتجاسر أبدًا أن يخالف أمر الله عز وجل.

الفوائد:

١- **في الآية الكريمة فوائد منها:** وجوب إقامة الشهادة؛ لقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** وجوب العدل فيها بحيث لا يزيد فيها ولا ينقص ولا يأبى أن يؤديها عند الحاجة إليها؛ لأن هذا كله داخل في قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب العدل في أداء الشهادة ومنها ما ذكر في قوله: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى الإخلاص في أداء الشهادة؛ لقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾،

فلا تظن أن الشهادة مجرد شهادة للغير أو على الغير، لا أبتغيها قربة إلى الله عز وجل مخلصًا بها لله ممتثلًا أمره بأدائها.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإقرار على من عليه حق؛ لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، فيجب على الإنسان أن يقر بالحق الذي عليه ولو كان مرًّا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإقرار من الشهادة؛ لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وذلك أن الإنسان في الواقع: إما أن يضيف الشيء إلى نفسه أو على نفسه أو لغيره على غيره هذه ثلاثة أنواع: فالأول دعوى إذا أضاف الشيء إلى نفسه قال: هذا لي أو أنا أعطيتك مائة ريال أو ما أشبه ذلك هذه دعوى تحتاج إلى بينة وطريق حكم حسب ما تقتضيه الشريعة، أو يضيف الشيء على نفسه وهذا إقرار مثل أن يقول: لفلان عليَّ كذا، أو يضيف الشيء لغيره على غيره، وهذا شهادة يشهد بالشيء لفلان على فلان وكلها تعتبر شهادة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الشهادة على الوالدين والأقربين بما يلزمهم؛ لقوله: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وعلى هذا فتقبل شهادة الولد على والديه وهل تقبل لهما؟ في هذا خلاف بين العلماء، منهم من قال: لا تقبل؛ سدًّا للباب ودفعًا للتهمة، ومنهم من فصَّل فقال: إذا عُلم أن الوالدين أهل تقى وصلاح وأنهما لن يدَّعيا ما ليس لهما، وأن الولد أيضًا على جانب كبير من التقى والأمانة فإن الشهادة للوالدين تقبل؛ لأن العلة وهي التهمة مفقودة في مثل هذه الصورة، ولكن أكثر العلماء - فيما أظن - على رد قبول شهادة الإنسان لوالديه سدًّا للباب، ولأن مقياس الأمانة وعدم الأمانة أمر يصعب.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى نهى عن المحاباة للغنى أو للفقير تؤخذ من قوله: ﴿إِن يَكُنْ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أن الله سبحانه وتعالى هو الولي على كل أحد فلا تُحابِ أحدًا لغناه أو لفقره، فالله ولي الجميع، ومنه نأخذ فقه ما يروى عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حين قيل له: ألا توصي لأولادك؟ قال: (لا أوصي لهم إن كان أولادي صالحين، فالله يتولى الصالحين وولاية الله لهم خير من ولايتي، وإن لم يكونوا صالحين فلا أُعِينُهم على فسقهم)، وهذا من فقهه رحمه الله؛ خلافًا لما يفعله الناس الآن من محاباة القريب والولد والوالد ولو كانوا من أفسق عباد الله.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم ما يسمى بالاشتراكية؛ لأن دعاة الاشتراكية - والحمد لله أن خمدت نارها - يقولون: إننا نريد أن نرحم الفقير لنأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير رحمةً به فيقال: إن الله أولى به منكم، والله عز وجل له حكمة في جعل الناس بعضهم فقير وبعضهم غني، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يسخِّر بعضهم بعضًا؛ لأنه لو كان الناس على حد سواء ما استقامت

الأمور من يبني لك بيتك إذا كان الناس كلهم أغنياء؟ ومن يبني لك بيتك إذا كان كلهم فقراء؟ لأنك ما عندك شيء تبنيه فالله عز وجل له حكمة في اختلاف الطبقات لكن مع ذلك لم يضع حق الفقير فأوجب الزكاة وأوجب دفع الضرورة وأوجب النفقة على الأقارب وأوجب النفقة على الأزواج وما أشبه ذلك، وهذا كله يسد حاجات كثير من الفقراء.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم اتباع الهوى الذي يخالف العدل؛ لقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ والهوى لا يُذم مطلقًا، ولا يُحمد مطلقًا؛ إذا كان الهوى تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ فهو محمود وإذا كان مخالفًا له فهو مذموم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ أي: كراهة أن تعدلوا.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من الجور؛ لقوله: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾، وهذا يشمل كل موضع يتعين فيه العدل فيكون مثلًا في العدل بين الأولاد في العطية وغير العطية حتى كان السلف يعدلون بين أولادهم في القُبَلِ يعني: إذا قبَّل صبيًّا قبَّل الآخر، والعدل بين الزوجات، والعدل بين الخصمين بين يدي القاضي وما أشبه ذلك.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحذير مَنْ أعرض عن إقامة الشهادة والعدل أو لوى؛ لقوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: عموم علم الله وخبرته؛ لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ لأن (ما) هذه اسم موصول تشمل كل ما يعمله بنو آدم.

١٥- ومنها: التحذير من مخالفة الله؛ لأن كل مؤمن بأن الله خبير بعمله لابد أن يتجنب ما يكون سببًا للعقاب ويتعرض لما يكون سببًا للثواب.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٦، ١٣٧]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هنا الخطاب مصدر بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيجب الانتباه له كما يُذكر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فارْعَها سمعك فإما خير تُؤمر به وإما شرٌ تُنه عنه)(١)، وقد ذكرنا فوائد تصدير الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فلا حاجة إلى تكراره؛ لأنه معلوم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قد يقول قائل: كيف يقول يا أيها الذين آمنوا ثم يقول: ﴿ءَامِنُواْ﴾، والأمر بالحاصل لهم وخطابهم بالإيمان، ثم أمرهم به هذا أمرٌ بشيء حاصل، فيقال: لا، هذا الفهم خطأ والمراد بقوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: حققوا إيمانكم واثبتوا عليه فيكون الأمر بالإيمان هنا بأمرين: الأول: تحقيق الإيمان أي: الحرص على تكميله بكل وجه، والثاني: الثبات عليه؛ لأنه كَمْ مِن مؤمن يزل ويقصر.

وقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ المراد بالرسول هنا: محمد ﷺ بدليل ما يأتي بعده، فما هو الإيمان بالله؟ الإيمان بالله: يتضمن أمورًا أربعة: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، ومن أنكر واحدًا منها فإنه لم يؤمن بالله، والإيمان بالرسول ﷺ يتضمن الإيمان بأنه رسول الله حقًا، وأنه جاء بالحق فيصدقه بما أخبر ويمتثل أمره فيما أمر، وينزجر عما نهى وزجر.

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ والمراد به هنا: القرآن، وعبر عن تنزيله بـ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه يَنزل شيئًا فشيئًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الكتاب هنا اسم جنس فـ(أل) هنا للاستغراق أي: وكل كتاب أنزل من قبل، وعبر عن الكتب السابقة بـ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنها كانت تنزل جملة واحدة، والإيمان بكتاب الله هو: أن تؤمن بأنه من عند الله حقًا وأن ما جاء فيه من أخبار فهو صدق، وما جاء به من أحكام فهو عدل، وأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها، والإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل: أن تؤمن بأن كل رسول قد أنزل الله عليه الكتاب، وتؤمن بما جاء من الكتب بالتعيين مثل: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأن تؤمن بأنه من عند الله عز وجل، وأن تؤمن بكل ما صح فيها من خبر، وقيدنا (بكل ما صح فيها من خبر)؛ لأنه دخلها التحريف والتبديل والتغيير، وأما الأحكام فلست مأمورًا باتباعها إلَّا حيث أمرك شرعُك، وقد اختلف العلماء رحمهم الله في شرع مَنْ قبلنا هل هو شرع لنا أو ليس بشرع؟ والتحقيق: أنه شرع لنا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، إلا إذا ورد شرعنا بخلافه، فإنه يكون منسوخًا،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

على أن العمل بالأحكام التي في الكتب الموجودة الآن بأيدي أهل الكتاب ليس مأمونًا؛ لأنهم حرفوا وبدَّلوا وغيَّروا.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هذه خمسة أمور من أركان الإيمان، ويبقي الإيمان بالقدر وهو مذكور في آيات أخرى، من يكفر بالله فينكر ما ثبت له من حقوق أو من أسماء وصفات فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وكذلك من يكفر بالملائكة، والملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله عز وجل؛ ليقوموا بطاعته، ورتَّب لهم وظائف كلٌّ على حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل، وهم أشرف من الجن وأقوى وأعظم؛ فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جَناح قد سدَّ الأفق، وهذا شيءٌ عظيم، والعفريت من الجن قال لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، والمَلَك جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذا أقوى وأعظم الملائكة، ومنهم من نعلمهم بأعيانهم مثل جبريل ميكائيل وإسرافيل ومالك خازن النار، ورضوان - إن صح - خازن الجنة، ومنكر ونكير - إن صح - وهما اللّذان يسألان المرء عند دفنه، أما عزرائيل فلم يصح وهو مشهور عند العامة شهرة الشمس في رابعة النهار لكن اسمه الصحيح (ملك الموت) عند العامة، وهذا الاسم عند العامة أشهر من اسم جبريل، ولكنه لم يصح عن النبي ﷺ أنه بهذا الاسم، ونؤمن أيضًا بما علمنا من أعماله وأوصافه، ونحن نعلم أن جبريل عليه السلام موكَّل بالوحي، وفيه حياة الأرواح والقلوب، وأن إسرافيل موكَّل بالنفخ في الصور، وفيه الحياة الآخرة حين يَنفُخ في الصور فتخرج الأرواح فتحل في أجسادها، وميكائيل موكَّل بالقطر والنبات، وفيه حياة الأرض، وهؤلاء الثلاثة كان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ»[1]؛ لأن كل واحد من هؤلاء الملائكة له حياة معينة، ونحن الآن في استقبال النهار، واستقبال النهار بعد النوم يعتبر حياة جديدة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾.

كذلك الإيمان بالكتب سبق بيانه، والرسل أيضًا فنؤمن برسل الله عز وجل على سبيل الإجمال، وعلى سبيل التعيين فيما علمناه بعينه وليس كل الرسل قد علمناهم؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وأيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، لكن نؤمن بهم على سبيل الإجمال، وأما المعين فنؤمن به على سبيل التعيين، وكيف نؤمن بهم؟ نؤمن بأنهم رسل الله وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله عز وجل، وأنهم مبعوثون إلى أقوامهم وأنهم أدَّوا الرسالة؛ ولهذا سنُستشهد يوم القيامة لهم وعلى أممهم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وأبو داود (٧٧٦).

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهو: يوم البعث وسمي اليوم الآخر؛ لأنه منتهى ليس بعده يوم، الدنيا ثلاث مراحل: مرحلة الأجنة، ومرحلة الحياة، ومرحلة البرزخ، والرابعة مرحلة البعث؛ ولهذا يسمى اليوم الآخر.

وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ هذا جواب شرط (من)، فقد ضل ضلالًا بعيدًا وصار في متاهات بعيدة؛ لأن هذه الأشياء أمرها ظاهر فجحدها وإنكارها ضلالٌ بعيد ومكان سحيق.

الفوائد:

١- في الآية الكريمة فوائد أولًا: وجوب الثبات على الإيمان؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخره.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا: وجوب تكميل الإيمان بناءً على قوله: ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: اثبتوا وحققوا الإيمان بإكماله.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإيمان بالله عز وجل ورسوله وكتابه؛ لقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن منزل؛ لقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وفيما يتعلق بالله عز وجل فيه أن القرآن كلام الله؛ لأنه نزل من عنده فيكون كلامه، وعلو الله عز وجل أيضًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، والتنزيل يكون من أعلى إلى أسفل.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القرآن منزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ومنتهى نزوله على قلب النبي عليه الصلاة والسلام؛ لقول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقد حلَّ في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام ووعاه وبيَّنه ولم يفته حرف واحد كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم نزل مفرَّقًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ واستشهدنا بالآية الكريمة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الإيمان بالكتب السابقة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، فلو أن أحدًا قال: أنا أؤمن بالقرآن، لكن التوراة والإنجيل لم تنزل على رسولنا فلن أؤمن بها قلنا: أنت كافر مرتد، فلابد أن تؤمن بالكتاب الذي أنزل من قبل كما أمرك الله.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم ختام الكتب، وهذه تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، ولم يقل: من بعد؛ إشارة إلى أنه لا كتاب بعد هذا القرآن الكريم، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه لا رسول بعد محمد ﷺ؛ لأنه لو ثبت أن هناك رسولًا بعده للزم أن ينزل عليه كتاب.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من الكفر؛ لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

١٠- ومن فوائدها: أنه لا يصح الإيمان المبعَّض بمعنى: أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض، لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإيمان بما ذُكر وهي خمسة أركان من أركان الإيمان الستة.

١٢- ومن فوائدها: وجوب الإيمان بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله مما يكون في اليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ليس أن تؤمن بأنه سيكون، بل أن تؤمن بكل ما يجري فيه مما جاء في الكتاب والسنة، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فجعل من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بعذاب القبر، وقوله حق؛ لأن من مات انتهى من الدنيا ودخل في اليوم الآخر.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الضلال يتفاوت، وبعضه أشد من بعض؛ لقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾؛ إذنْ هناك ضلال ليس ببعيد، فالضلال يتفاوت، والإيمان يتفاوت، والأعمال تتفاوت ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ فمثلًا: جنس الواجب أفضل من جنس المستحب، ففريضة الصلاة أفضل من نافلتها، وقراءة الفاتحة أفضل من قراءة السورة التي بعدها؛ لأن قراءة الفاتحة ركن وما بعدها غير ركن، وصيام رمضان أفضل من التطوع بصوم في أي زمن وهلم جرًّا، فجنس الفريضة أفضل من جنس النافلة، ودليل هذا قوله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»(١)، ثم أجناس الأعمال تختلف، فبعضها من أركان الإسلام، وبعضها ركن مؤكّد وبعضها دون ذلك وبعضها ليس من أركان الإسلام؛ إذنْ أعمال أهل الخير وأعمال أهل الشر كلها تتفاوت وينبني على ذلك تفاوت الإيمان وتفاوت الفسق، فيكون هذا أقوى إيمانًا وذاك أضعف، والفسق كذلك هذا أعظم فسقًا وهذا دون ذلك، ففاعل الكبيرة أعظم فسقًا من فاعل الصغيرة إذا فسق بفعلها، وهذا الأصل هو الذي عليه أهل السنة والجماعة: على أن الأعمال تتفاضل، وأن العاملين يتفاضلون سواء السَّيِّئ أو الصالح.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ فهؤلاء حصل لهم من إيمان مرتين والكفر ثلاثة، فهؤلاء دخلوا الإيمان، لكن الإيمان لم يستقر في قلوبهم فارتدوا - والعياذ بالله -؛ لأن الإيمان لم يستقر في القلب، ولو استقر الإيمان في قلوبهم ما كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ فهم تذبذبوا بعد أن كفروا أول مرة، وبعد ذلك كفروا وازدادوا كفرًا؛ لتلاعبهم بالدين فصار الكفر الأخير أشد من ما قبله؛ لأنهم متلاعبون متذبذبون فهم لا يستقرون على قرار.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ هذا خبر (إن) أي: الذين كفروا، ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾ (يكن) هنا فعل مضارع منفي، واللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ تسمى لام النفي، أو لام الجحود، وهي زائدة على قول بعض النحويين وغير زائدة على قول آخرين، فالذين قالوا إنها زائدة قالوا: التقدير لم يكن الله يغفر لهم، والذين قالوا بأنها غير زائدة قالوا: إن لم يكن الله ليغفر لهم على تقدير الإرادة يعني: لم يرد لغفرانهم وأيًا كان ففي قوله : ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ تيئيس لهم من المغفرة ـ والعياذ بالله ـ وأنهم سيبقون على كفرهم إلى يوم يلقونه.

وقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ يعني: طريقًا إلى الخير، فلا يمكن أن يهديهم سبيلا إلى الخير، وفي الآية التي في آخر السورة ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، قال ذلك في الكفر وظلموا، فهؤلاء الذين حصل لهم ذلك قد سدَّ الله عنهم باب المغفرة وباب الرحمة؛ باب المغفرة في قوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وباب الرحمة في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أن المتذبذب بين الإيمان والرِّدة يكون مآله أن يزداد كفرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ أن الإيمان لم يدخل قلبه.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من العلماء من استدل بهذه الآية على أن من تكررت ردته لم تقبل توبتُه قالوا: لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، فهل هذا الاستدلال صحيح؟ قد يقول قائل: إنه ليس بصحيح؛ لأن آخر هؤلاء أن ازدادوا كفرًا ولم يذكر الله توبتهم فإذا قارنًا هذا بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، قلنا: هذه الآية تقضي على ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قالوا: إن من تكررت ردته لا تقبل توبته؛ لأن الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وإن قال: إننا لا نقول إنها لا تقبل توبته؛ لأنه لو تاب لم تقبل، لكننا نقول: إنه بعيد أن يتوب؛ ولهذا كان أمر هؤلاء أن يزداد الإنسان كفرًا، فنحن لا نقول: إنه لو تاب لم تقبل ولكن نقول: يبعد أن يتوب بل آخر أمره أن يزداد كفرًا، وبناءً على هذا نقول: إذا ظهر من هذا الذي تكررت ردته الإيمان الصحيح والاستقامة وصلاح الحال، فإننا نقبل منه وما ذاك على الله بعزيز، وهذا هو الأصح: أن من تكررت ردته يجب أن نتأنّى في قبول توبته حتى نعرف صدق توبته وصلاحه واستقامته وأنه تاب توبة نصوحًا.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الردُّ على القدرية، والرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله وأن فعله لا ينسب إليه إلا مجازًا فالرد عليهم من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ

ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾، فأضاف الأفعال إليهم، ففيه رد على الجبرية؛ لأنهم يقولون إن العبد ليس له فعل اختياري فهو مجبر على العمل كتحرك الريشة في الرياح، فلما قيل لهم: كيف يكون ذلك والله تعالى يثيب الطائع ويعاقب العاصي، أيُّ حكمة في إثابة الطائع وعقوبة العاصي والكل منهم يفعل بغير اختياره؟! قالوا: لا نتحاج على الله، فالله يفعل ما يشاء، والظلم تصرف الفاعل في غير ملكه، والكل ملك لله فإذا تصرف في ملكه بما شاء ولو بتعذيب المطيع وتنعيم العاصي فهو ملكه ، وبناءً على ذلك نفوا الحكمة في أفعال الله وقالوا: ليس لله حكمة في أفعاله وهو يفعل لمجرد المشيئة.

وفيه ردٌّ أيضًا على القدرية؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾، فدل هذا على أن الهداية بيد الله وليس يستقل بها العبد، والقدرية يقولون: إن الإنسان مستقل بفعله ليس لله فيه مشيئة ولا خلق، وغلاتهم يقولون ولا علم ولا كتابة، فغلاتهم ينكرون جميع مراتب القدر: العلم والكتابة والمشيئة والخلق، ومقتصدوهم ينكرون مرتبتين من مراتب القدر وهما: المشيئة والخلق يقولون: الله يعلم وقد كتب ما يكون، لكن لا يشاؤه، فالإنسان مستقل بعمله، وكلا الطائفتين غاليتان مفرطتان، فالقدرية غلوا في إثبات فعل العبد وتطرفوا في إثبات خلق الله ومشيئته، والجبرية بالعكس.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان أن يحذر من التردد والتقلُّب، فإن الغالب أن مَنْ هذا حاله لا يُبارك له في عمره، ولا في عمله فهو كل يوم له رأي، وكل يوم له عمل، وهذا لا شك أنه يضيع عليه الوقت ولا يستفيد من عمره شيئًا؛ ولهذا يُذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (من بورك له في شيءٍ فليلزمه)، وهذا عام في كل شيء، في العمل حتى في السيارة إذا بورك لك فيها فالزمها، وهذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي أن يتقلَّب، وليثبت ولكن ليس معنى قولنا هذا: أنه يثبت على الباطل بعد أن يرى أنه باطل، بل الواجب إذا تبين له الحق أن يأخذ به، كما قال عمر في كتابته لأبي موسى الأشعري: (لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس أن تقضي بالحق فيه اليوم فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل).

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى إذا علم من حال العبد أنه لن يستقيم فإنه لن يغفر له ولن يهديه؛ لأن هؤلاء آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، ويترتب على هذه الفائدة التي دلت عليها هذه الآية ودل عليها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: أن الأعمال الصالحة تجلب الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة تجلب الأعمال السيئة، فإذا مَنَّ الله عليك بعمل صالح فأبشر أنه سيمُنُّ عليك بعمل آخر تتبعه إياه.

قال الله تعالى:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، ويمكن أن نجعله عامًّا لكل من يتوجه الخطاب إليه سواء الرسول ﷺ أو إلى غيره، والبشارة في الأصل هو الإخبار بما يسر قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، فالتبشير: الإخبار بما يسر فكيف قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهل العذاب الأليم يسرُّ؟ لا أجاب بعض العلماء: بأن هذا من باب التهكم بهم، وهذا يقع كثيرًا في كلام الناس إذا رأى إنسانًا متمردًا قال: له أبشر بالخيبة، أبشر بالعقوبة وما أشبه ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، فإن بعض العلماء قالوا: المراد بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ التهكم، وبعضهم قال: إنك أنت العزيز الكريم في الدنيا وهذا جزاؤك في الآخرة، أما الجواب الثاني فقالوا: إن البشارة هي الإخبار بما يتغير به الوجه من خير أو شر، وسميت بذلك؛ لأن البَشَرَةَ تتغير لكن إذا أُخبر الإنسان بما يسره استنار وجهه، وإذا أخبر بما يسوؤه أظلمَ وجهه واكفهر، وعلى هذا فلا يكون في الآية إشكال، هل قيل هذا على سبيل التهكم، أو على سبيل الحقيقة؟ على سبيل الحقيقة.

وقوله: ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: الذين نافقوا بإظهار الإسلام وإبطان الكفر مأخوذ من نافقاء اليربوع أي: جحره؛ لأن اليربوع له جحر له باب مفتوح يحفر في الأرض خندقًا، ثم يجعل في آخر الجُحر قشرة رقيقة حتى إذا أُتي من باب الجُحر سهل عليه أن يرفع هذه القشرة الرقيقة برأسه ويخرج، هذا أصل النفاق من نافقاء اليربوع، والنفاق لم يكن معروفًا قبل الإسلام ولا في أول الإسلام؛ لأن أول الإسلام ليس هناك قوة للمسلمين يخافها الناس، لكن لما صار للمسلمين شوكة وقوي المسلمون وذلك بعد انتصارهم في غزوة بدر في السنة الثانية بدأ النفاق يظهر، وقال المنافقون: إن أمره قد اشتد وظهر فلابد أن نداهنه، ولابد أن نظهر أننا معه حتى لا ينالنا بسوء، وحصل لهم ما أرادوا فإن الرسول ﷺ لم ينالهم بسوء، حتى إنه استُئذن في قتلهم فقال: «لَا، يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، لكن هذا لا ينفعهم؛ إذنْ أول ما ظهر النفاق حين قوي المسلمون بعد غزوة بدر.

وقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿بِأَنَّ﴾ متعلق بـ ﴿بَشِّرِ﴾، و﴿عَذَابًا﴾ اسم أن، وقوله: ﴿لَهُمْ﴾ خبرها مقدم، وقوله: ﴿أَلِيمًا﴾ أي: مؤلمًا فما هذا العذاب الأليم؟ سيأتي في آخر

الآيات قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

الفوائد:

١- وفي هذه الآيات الكريمة فوائد منها: أنه ينبغي لنا أن نصارح المنافقين بأن نبشرهم سواء بلفظ أبشروا أو بلفظ اعلموا بأن لهم عذابًا أليمًا حتى يرتدعوا عن نفاقهم.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المنافقين مستحقون للعذاب الأليم؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾، واللام هذه للاستحقاق.

٣- ومن فوائد هذه الآية أيضًا: أن عذابهم مؤلم موجع.

ثم بيَّن من صفاتهم ما ذكره بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه من علامات النفاق: أن الإنسان يتولى الكفار دون المؤمنين؛ لأنه يجد المؤمنين ضعفاء ليس لهم شوكة، والكفار أقوياء لهم الشوكة والسلطة، فيتخذهم أولياء يواليهم ويناصرهم ويداهنهم ولو على حساب الدِّين، كما يوجد الآن من بعض الناس بالنسبة لموالاة الكفار من دون المؤمنين، بل تجده سيفًا مسلولًا على المسلمين وتجده على الكفار ماءً باردًا يواليهم ويناصرهم، فهذا من صفات المنافقين، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أولياء لهم في جميع الأمور، أولياء في المحبة وفي النصرة والمساعدة - ولو بالقول - وفي تقويم اقتصادهم أولياء، وفي مداهنتهم وعدم التعرض لهم وما هم عليه، المهم: أن طرق الولاية كثيرة. وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أتت (من) الدالة على بعد الصلة بينه وبين المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، فهو أبلغ من قوله وبيننا وبينك حجاب، هذه أيضًا تدل على بعد الصلة بين المؤمنين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي: أيطلبون عند الكافرين العزة يعني: الغلبة والقوة والقهر، وهذا هو الذي يحصل من بعض مَنْ يتولى الكفار يطلبون منهم أن يعتزوا بهم فأبطل الله هذا الابتغاء بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ليست العزة عند الكفار، وهذا كقوله تعالى عن المنافقين أنفسهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وهذا حق، ولكن الأعز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهنا لم يقل والله الأعز ورسوله والمؤمنون؛ لأنه لو قال والله الأعز لأثبت لهم عزة، ولكنه قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ بصيغة تقتضي الحصر بتقديم الخبر؛ لأجل أن يتبين أن المنافقين لا عزة لهم، وكيف يكون لهم عزة وهم يتقون ويداهنون ويخادعون.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ هذه الكلمة حال من العزة، وهي تدل على أن هناك أنواع من العزة، وهكذا قال العلماء: إن العزة ثلاثة أنواع: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فالله تعالى وحده هو القاهر لكل شيء الغالب لكل شيء، والله وحده هو ذو القدر العظيم الذي لا يماثله شيء، والله وحده هو الذي يمتنع عليه كل نقص وكل عيب؛ ولهذا قال ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية من الفوائد: بيان صفة قبيحة من صفات المنافقين، وهي موالاة الكافرين

من دون المؤمنين؛ إذن كل من والى الكافرين من دون المؤمنين ففيه نفاق.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من ابتغى العزة من دون الله فهو ذليل؛ لقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، فإن هذا استفهام إنكار.

٣- ومن فوائدها: أن العزة لله وحده؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، فهو العزيز الذي يُعز من يشاء ويذل من يشاء.

٤- ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يقطع العلائق عن الخلائق، وأن يعلق قلبه بالله عز وجل، يبتغي منه العزة يبتغي منه النصر يبتغي منه دفع البلاء يبتغي منه تسهيل الأمور وهكذا، علق قلبك بربك.

مسألة: متى يكفر مَنْ والى أعداء الله عز وجل؟

الجواب: يكفر من والاهم إذا ناصرهم على المسلمين أو أحب انتصارهم على المسلمين أو انتصار الباطل على الحق، أما مجرد الولاية بالعهد أو الولاية بالمعاملة، فهذه لا تخرج من الإسلام، وقد لا تكون مذمومة فضلًا عن أنها مخرجة من الإسلام.

مسألة: ما حكم الذي يحزن لمصائبهم؟

الجواب: لاشك أن هذه ولاية لكن الكفر صعب، لكن ربما يأسى الإنسان لمصائبهم؛ لأنه يرى أنها تضره، إذ قد يكون علاقة الناس بهذه الدولة أقوى من علاقتهم بالدولة الأخرى وأنفع والله يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي: بانتصار الروم على الفرس.

مسألة: هل هناك فرق بين الموالاة والمداهنة، وهل هناك نوع من المداهنة يجوز؟

الجواب: الموالاة أن يناصرهم ويساعدهم ويتولاهم، والمداهنة أن يسكت عن باطلهم؛ ليسكتوا عنه، لكن ما بينه وبينهم صلة في الموالاة، والمداهنة حرام والموالاة أشد، لكن المداراة لا بأس بها إذا دعت الحاجة إليه.

مسألة: إذا كان ينبغي لنا أن نصارح المنافقين بالبشارة بالعذاب مع أن النفاق أمر قلبي كيف يكون ذلك؟

الجواب: النفاق له علامة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

مسألة: ماذا إذا كان دافع الموالاة هو غلبة الكافر على المسلم يعني: أنه القوي فيواليه ليتقي شره؟

الجواب: ما تكون هذه موالاة، هذه قد يكون هذه مداهنة أو مداراة أيضًا، ربما تكون مداراة أليس يجوز لنا أن نعطي من زكاتنا - فريضة الإسلام - أن نعطي منها الكافر اتقاءَ شرِّه؟

مسألة: بعض المسلمين يضعون أموالهم في بنوك الكفار هل هذه موالاة؟

الجواب: إذا وضعها لحاجة لا بأس لحاجته إذا لم يكن قصده مصلحة هؤلاء بل مصلحة نفسه.

مسألة: ما الفرق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر؟

الجواب: النفاق الأكبر هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر يعني: أنه كافر لم يؤمن بالله ولا برسوله، لكن يتظاهر أمام الناس بأنه مؤمن، وأما النفاق الأصغر فهو ما دون ذلك وهو النفاق العملي، والمراد بالآية النفاق الأكبر.

مسألة: هل يبقى المنافق نفاقًا أصغر مؤمنًا؟

الجواب: نعم يبقى مؤمنًا ويجتمع فيه خصلة إيمان وخصلة نفاق.

مسألة: هل ثبت في السيرة أنه كان يبشر المنافقين بالعذاب الأليم أو كان عمومًا؟

الجواب: هنا قاعدة: إذا وردت النصوص اللفظية فالأصل وقوعها عمليًّا، هذا الأصل، أما إذا قلنا: إن النصوص اللفظية لا يعمل بها إذا علمنا أنه معمول بها هذه قاعدة خطيرة فاسدة، بعض الناس يقول: النصوص اللفظية لا يُعمل بها إلا إذا علمنا أن الصحابة عملوا بها، ونحن نقول: الأصل في النصوص اللفظية أنه معمول بها فهنا لا نحتاج أن نقول: أثبتوا لنا أن الرسول كان يبشرهم، فالأصل أنه لما قال له ﴿بَشِّرْ﴾ عمل بها.

قال الله تعالى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٠، ١٤١]

التفسير

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ الفاعل هو الله عز وجل، ونزل وأنزل معناهما واحد، وقيل: نزل فيما كان جملة واحدة، وأنزل فيما كان متفرقًا، ولكن آيات الكتاب العزيز تدل على أنه لا فرق،

ولكن الذي يتدبر القرآن يدل على أنه لا فرق فإن الله تعالى يعبر عن إنزال القرآن تارة بالإنزال وتارة بالتنزيل، فإذا فصَّل في هذا مثل قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ أي: نزلناه ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فعلى حسب ما حصل.

وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ﴾ أي: في القرآن، وإذا فسرنا الكتاب بالقرآن فهذا تفسير بالمراد، وإذا فسرنا الكتاب بالمكتوب، فهذا تفسير باللفظ، فالتفسير باللفظ هو الذي يفسِّر اللفظ بما يوافق اشتقاقه، والتفسير بالمراد هو الذي يُفَسَّر اللفظ فيه بما أُريد به؛ بقطع النص عن الاشتقاق، فإذا قلت الكتاب بمعنى المكتوب، فهذا التفسير باللفظ، وإذا قلت المراد به: القرآن فهذا تفسير بالمراد، وهذا يقع كثيرًا في القرآن الكريم تارة تُفَسَّر الكلمة بمرادها وتارة تُفَسَّر بما يوافق اشتقاقها. وعلى كلٍّ الكتاب هنا فِعَال بمعنى مفعول أي: مكتوب وسمي مكتوبًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ولأنه مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا، ولأنه مكتوب بأيدي السفرة الكرام البررة.

وقوله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ أن هذه مصدرية، ويجوز أن تكون تفسيرية؛ لأن التنزيل يتضمن معنى القول دون حروفه، والتفسيرية هي التي تأتي مفسِّرة لما يتضمن معنى القول دون حروفه.

وقوله: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا﴾ الآية التي أشار الله عز وجل إليها هي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾، يعني: إذا رأيت أحدًا يقول في آيات الله بكفر أو استهزاء أو غير ذلك، فلا تقعد معه، لكن لو نسيت فلا حرج عليك إلا إذا ذكرت فلا تقعد بعد هذه الذكرى مع القوم الظالمين.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ المراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية ـ فيما يظهر ـ ولكن لا مانع أن نقول هي أيضًا في الآيات الكونية، أما الآيات الشرعية فهي: ما جاءت به الرسل من الكتب المنزلة عليهم، وأما الآيات الكونية فهي المخلوقات، فإذا رأيت أحدًا يحاول أن تكون الطبيعة هي الخالقة والمدبرة، فهذا كفر بآيات الله الكونية، أما الشرعية فيكون الكفر بها إما بالتكذيب أو بالعصيان والمخالفة، لكن العصيان والمخالفة إما أن يكون كفرًا أكبر وإما أن يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: تُتخذ هزءًا وسخرية سواء كان ذلك فيها ذاتها أو فيما جاءت به من الأحكام أو فيما أخبرت به من الحوادث مثل أن يسخر بيوم القيامة أو يسخر بآدم أو يسخر بقصص الأنبياء السابقين أو يسخر بالأحكام الشرعية كل هذا داخل في قوله: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

وقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ المراد بالقعود: المكث سواء كان ذلك خروجًا أو وقوفًا أو اضطجاعًا، وليس المراد بالقعود ما هو ضد القيام والاضطجاع.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ (حتى) هنا للغاية يعني: إلى أن يخوضوا في حديث غيره، وعبَّر بقوله: ﴿يَخُوضُوا﴾؛ لأن الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها يبعد كون

قولهم جدًّا، بل هم دائمًا في خوض ولعب، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾، لكن مع ذلك إذا كان هذا الخوض لا يخدش الدِّين فلا بأس أن يبقى معهم، وقوله: (حتى) هنا قلت إنها للغاية فهل تأتي لغير الغاية؟ نقول: نعم تأتي بغير الغاية كثيرًا فتأتي للتعليل مثل قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ هنا حتى لا تكون للغاية؛ لأن المعنى يختلف، فلو قال: لا تنفقوا حتى ينفضوا كان دلالة الآية على أنهم إن ينفضوا فأنفقوا عليهم، فـ (حتى) الغائية هي التي يحل محلها (إلى أن)، فلو قال: إلى أن ينفضوا فإذا انفضوا فأنفقوا عليهم، وهذا ليس المراد بل المعنى: لا تنفقوا لأجل أن ينفضوا، أما التي معنا فهي للغاية.

وقوله: ﴿فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي: غير الحديث الذي يكفرون فيه بآيات الله ويستهزئون بها.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ الجملة مؤكدة بـ (إن)، والمراد: إنكم إن قعدتم فأنتم مثل هؤلاء الخائضين في آيات الله.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة، والمنافق سبق أنه الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، والكافر هو المصرِّح بكفره.

١- ففي هذه الآيات الكريمة: إثبات أن القرآن منزلٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان نازلًا من عنده لزم أن يكون كلامه؛ إذ إن الكلام صفة ليس عينًا قائمة بنفسها بل هي صفة من الصفات، ويتفرع على هذا أيضًا: إثبات علو الله؛ لأنه إذا كان الكلام من عنده وهو نازل دل هذا على أن المتكلم به عالٍ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحكم معلق بالسمع؛ لقوله: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ كما عُلِّق بالبصر وكما علق بالقلب قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجب الإنكار على الكافر بآيات الله والمستهزئ بها؛ لأنه إنما نهى عن القعود معهم، ولم يأمر بالإنكار عليهم، ولكن يقال في الجواب عن هذا: إن الله تعالى إنما أراد أن يبين حكم المشاركين، ونَهْيُنا عن هذا المنكر يُفهم من نهينا عن الجلوس معهم، يعني: ألا نحضر المنكر، والصواب أن هذه الآية لا تدل على ارتفاع النهي عن هذا المنكر، وإن دلت عليه أو سكتت عنه فلدينا نصوص أخرى تدل على وجوب إنكار المنكر.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأحكام تدور مع عِلَلِها، وذلك يؤخذ من قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، فإنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها فنُهينا عن القعود معهم، ثم أُذن لنا بالجلوس معهم إذا خاضوا في حديث غيره.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المشارك لفاعل المنكر كفاعل المنكر؛ لقوله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ ونحن قلنا: المشارك، والآية لا تدل على المشارك بل تدل على أن الجالس معهم له حكم

الفاعل، فهنا نقول: إذا كان الجالس يعني: القاعد معهم له حكم الفاعل فالمشارك من باب أولى.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب مغادرة المكان الذي يُكفر فيه بآيات الله ويُسْتَهْزَأ بها، ولا يجوز للإنسان أن يبقى ويقول: أنا منكر بقلبي، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»[١]، وأنا الآن منكر بقلبي غاية الإنكار! نقول: لو صدقت في ذلك لقمت؛ إذ إن الجوارح تبع للقلب فلو كره القلب ذلك لكرهت الجوارح، وهذا لا يفيد فلابد أن تفارق وإلا كنت مثلهم، فإن قال قائل: إذن يحرم على الإنسان الجلوس مع حالق اللحية؛ لأن حلق اللحية حرام؟ فالجواب عن ذلك أنه يجب علينا أن نغادر المكان حين نراه يحلقها بالفعل، أما وقد انتهى الفعل ولم يبق إلا أثره فلا يلزمنا أن نغادر المكان الذي هو فيه، ومثله لو قال قائل: إذا شممت رائحة الدخان في إنسان وجب عليك أن تفارقه؛ لأن أثر الدخان في فمه فما الجواب؟ لا يجب، ولكن إذا رأيته يشرب الدخان فحينئذ انهه فإن نفع وإلا قمت، أما أثر المعصية فليس كفعل المعصية.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم التعاون على الإثم والعدوان وجهه: أنه إذا حُرِّم الجلوس مع فاعل المنكر، فالإعانة من باب أولى، مثل أن تهيئ له المكان وترشُّه وتطيبه وتأتي بالأواني وتصب لهم القهوة والشاي فهذا حرام من باب أولى.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن جليس الصلحاء الذين يعملون الصالحات مثله بالقياس على العكس؛ لأنه إذا وُزِرَ للجلوس مع العصاة أُجر بالجلوس مع الطائعين، وقد استعمل النبي ﷺ القياس بنفسه لما قال: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[٢] يعني: الإنسان إذا أتى زوجته فله صدقة قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ قالوا: نعم، قال: «كَذَلِكَ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»، هذا قياس على العكس وهذه مثله؛ لأن الله تعالى إذا أثَّم القاعدين مع فاعل المنكر فإن فضله أوسع وأعظم فيثيب القاعدين مع الصالحين وأهل الطاعة، وهنا تتولد فائدة وهي: الحذر من جلساء السوء والترغيب في جلساء الصلاح وهذا ما حصل من رسول الله ﷺ حيث قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ»[٣]، والمسك نوع من الطيب، وقيل: إنه يخرج من دم غزال معين وفي ذلك يقول المتنبي يمدح - أظنه سيف الدولة - :

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ونحن نقول: إن الرسول قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ» يعني:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٩)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

يعطيك مجانًا، «وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ» أي: يعطيك بعوض، «وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً» ما تُفلس من الجليس الصالح، «وَمَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ كَنَافِخِ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً»، الكير: عبارة عن جلد يُربط بعضه ببعض، ويجعل له خرطوم يدخل على مسورة تتصل بالجمر، وفي طرف هذا الجلد خشبتان تنفتحان وتنضمان إذا شدهما فتحهما فامتلأ الجلد هواء ثم ضمها ودفعه، وحينئذ يكون هواء يدخل مع المسورة على الفحم فتشتعل النار، هذا هو الكير وكانوا يستعملونه فيما سبق. هذا حامل الكير، إما أن يحرق ثيابك إذا طال الشرر، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، فيُؤخذ من الآية الكريمة معني هذا الحديث، احذر جلساء السوء، وعليك بجلساء الصلاح، فإنك لن تعدم خيرًا من جلساء الصلاح، ولن تعدم شرًّا من جلساء السوء.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن النار لصنفين من العالَم، وهما المنافقون والكافرون، وبقي صنف ثالث وهم المؤمنون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم المذكورون في أول سورة البقرة، والمستفاد من الآية الكريمة: إثبات النار وأنها واسعة وجه ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، ووجه كونها واسعة أن تسعمائة وتسعة وتسعين من بني آدم في النار والجن أيضًا لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، والظاهر أن الجن أكثر من الناس في النار؛ ولهذا قُدموا في الآية الكريمة.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فهم جماعون مناعون كذابون خداعون.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ التربص يعني: الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن، ويتربصون أي: الدوائر فهم ينتظرون الدوائر هل هي عليكم أو لكم؟ فإن كان لكم فتح من الله قالوا: نريد من هذا الفتح ونحن معكم فلا تحرمونا الغنيمة، وإن كان للكافرين نصيب ولم يكن فتح؛ لأن ما يُعطاه الكفار ليس فتحًا ولكنه محنة قالوا ـ أي للكافرين ـ: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لولا نحن لأهلككم المؤمنون، لكن نحن منعناكم واستحوذنا عليكم وصرنا درعًا لكم، وحميناكم من المؤمنين، ولولا نحن لقتلكم المؤمنون فهم يدَّعون أنهم مع المؤمنين، ويطلبون منهم الغنيمة ويدعون أنهم حماة الكفار من أجل أن يكونوا أولياء لهم.

قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الفاء للتفريع، واسم الله الكريم مبتدأ ويحكم جملته خبر فالله يحكم بينكم وبين هؤلاء المنافقين والكفار أيضًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾، والمراد بيوم القيامة: يوم البعث وسُمي بذلك لأمور، وهي: أنه يوم يقوم فيه الأشهاد

وأنه يقام فيه العدل، ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ سبحان الله، الخصم يخبر بنتيجة الحكم قبل أن يُحاكم الآن - إن شاء الله تعالى نحن الآن خاصمون للكفار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بعد أن قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أيُّ حكم أبلغ من هذا؟ يقال للخصم حاكم وليس للخصم عليك سبيل، فحَكَم للخصم قبل الحكم، لأن الأمر واضح ومتبو.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: بيان شدة عداوة المنافقين للكافرين بكونهم يتربصون بهم الدوائر وينتظرون الساعة التي يكون الضرر على المؤمنين، لكن قال الله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المنافقين لهم حظ من المغنم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ دل هذا على أن المنافق يعامل بالظاهر فيعطى ما يُعطاه المسلم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المنافقين عندهم منَّة، وفي قلوبهم أنفة إن كان فتح للمسلمين طالبوا بالغنيمة وإن كان للكفار منُّوا عليهم ﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يعني: أعطونا من النصيب.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الدعوة الكاذبة للمنافقين بأنهم الذين منعوا الكفار منهم؛ لكونهم كثَّروا سوادهم وساعدهم في الباطل وأثلجوا صدورهم بالنصر.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجزاء والحكم بين الناس لقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وهذا الحكم لا حكم بعده.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات أن الكافر ليس له سبيل على المؤمن مهما كان الأمر فليس للكافر سبيل، فلو أن المسلم أحرق نخيلهم وأمات ركوبهم، لا يأثم ما دام الكفار حربيين؛ لأن مالهم مباح أما المعصوم فهو الذمي، والثاني المعاهد، والثالث المستأمِن، فهؤلاء أموالهم محترمة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى هو الحَكَمُ بين العباد بدليل قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فالله يحكم وعلى هذا فلا حكم يوم القيامة لأحد حتى للرسول ﷺ لا يستطيع أن يحكم؛ ولهذا عند الشفاعة لا يستطيع الرسول ﷺ أن يشفع بدون أن يستأذن من الله.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ

ﵟذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًاﵞ [النساء: ١٤٢-١٤٤]

التَّفْسِيرُ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ الجملة مؤكدة بـ (إنَّ) لبيان حال هؤلاء المنافقين ومعاملتهم مع الله عز وجل، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني: والمؤمنين أيضًا، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ وبماذا يخادعون؟ بإظهار الإسلام فإن من رآهم ورأى حالهم الصلاح وصدقاتهم قال: إنهم مؤمنون، فهم يخادعون الله في هذا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ يعني: أن الله يقابل خداعهم بمخادعة من عنده، ومخادعته إياهم أنه يملي لهم حتى يستمروا على هذا فيبقون كفارًا مع شياطينهم، ومسلمين مع المؤمنين ويعصمون بهذا النفاق دماءهم وأموالهم، وهذا هو خداع الله لهم: أنه يملي لهم ليستمروا في نفاقهم ثم بالتالي يختم لهم بسوء الخاتمة. وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ أي: أيُّ صلاة كانت يقومون كسالى، والكسلان هو: الذي يكون عنده فتور وعدم نشاط على القيام بالفعل، فهم إذا قاموا قاموا كسالى تجدهم يتثاقلون الوضوء، ويتثاقلون الذهاب للمسجد، ويتثاقلون الصلاة نفسها، وذلك لعدم رغبتهم في الصلاة ووجه هذا: أن من كان راغبًا في الشيء فلابد أن يقوم إليه نشيطًا.

وقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: مع كونهم يقومون كسالى لا يُخلصون في قيامهم، وإنما يُظهرون أنفسهم بهذا المظهر ليراهم الناس فيقولون: إنهم مسلمون.

وقوله: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعني: لا يذكرون الله في صلاتهم، والمراد: أنهم لا يذكرونه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم إلا قليلًا فلا يذكرون الله بألسنتهم؛ لأنهم لا يقومون بالواجب من تكبير وتسبيح وتحيات، وغير ذلك، وكذلك لا يذكرون الله بأفعالهم فلا يطمئنون في الصلاة بل ينقرونها كنقر الغراب؛ لأنها ثقيلة عليهم وهم لا يعطونها حقها، ولا يذكرون الله بقلوبهم؛ لأن قلوبهم ساهية غافلة يؤدون الصلاة كأداء الماكينة بدون أن يشعروا بأنهم يناجون الله عز وجل؛ إذن لا يذكرون الله في الصلاة إلا قليلًا يعني: بالقلب واللسان والجوارح.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: إثبات خداع المنافقين، وأنهم قوم أهل خداع ومكر؛ ولهذا كان من صفات المنافقين أنهم إذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا حدَّثوا كَذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا؛ لأن كل هذا يتضمن الخداع.

٢- ومن فوائدها: إثبات الخداع لله عز وجل أي أنه جل وعلا يخدع من يخادعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، وهل الخداع صفة ذم أوصفة مدح؟ في ذلك تفصيل: إن كان في مقابلة من يخادع فهو صفة مدح؛ لأنه يدل على قوة المخادع، وأن عدوه لم يمكر به؛ لأنه أشد مكرًا من عدوه، وأشد خداعًا كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، أما إذا كان ليس له سبب، بل هو خداع في موضع الائتمان فهو لا يسمى خداعًا، وإنما يسمى خيانة، وهذا عيب بكل حال؛ ولهذا لا يوصف الله بالخائن إطلاقًا حتى الذين يخونون الله لا يقابلهم الله بالخيانة كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، ولم يقل: فخانهم ووجه ذلك: أن الخيانة خداع في موضع الائتمان حتى إن الرسول ﷺ قال: «لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[1]؛ لأن هذا ذنب فلا يُوصف الله به.

فإن قال قائل: هل يُوصف الله بالخداع مطلقًا فيقال: إن الله خادع أو مخادع؟

قلنا: لا يوصف إلا في مقابلة خداع أعدائه، وكذلك المكر والكيد والاستهزاء ونحوها من الصفات التي تكون مدحًا في حال دون حال، فإنه لا يجب أن يُوصف الله بها على سبيل الإطلاق، وعلى هذا فنقول: المعاني والأوصاف: إما أن تكون كمالًا محضًا فهذا يوصف الله به، وإما أن تكون ذمًّا ونقصًا محضًا، فهذا لا يوصف الله به مطلقًا، وإما أن تكون مدحًا في حال وذمًّا في حال، فهذا يوصف الله به حين يكون مدحًا ولا يوصف به حين يكون ذمًّا، وعلى هذا لو أن أحدًا وصف الله بالعجز نقول: إن هذا حرام بكل حال؛ لأن العجز صفة ذم، وكذلك لو وصفه بالخيانة فهو حرام بكل حال؛ لأن الخيانة ذم في كل حال، أما المتكلم، نقول: الكلام كمال فيوصف الله بأنه متكلم، وكذلك فعال لما يريد؛ لأن كل هذا صفة كمال.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المنافقين يصلُّون، لكن لا تقبل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، مع أن النفقة نفع متعدٍّ، ومع ذلك لا تقبل، فكيف بالعبادة التي نفعها غير متعدٍّ، فإنها من باب أولى فصلاتهم لا تقبل، لكن هم يصلون مُرَاءاةً للناس.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنهم إذا أدَّوا الصلاة مراءاة، يؤدونها بكسل وبرود وعدم نشاط.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن مَنْ أدى الصلاة على وجه الكسل ففيه شبه بالمنافقين فاحذر أن تكون مشابهًا للمنافقين، فأدِّ الصلاة بنشاط وفرح وسرور، والمؤمن حقًّا هو الذي يفرح حين يقوم بالصلاة؛ لأنه سوف يقف بين يدي الله المجيد، وإذا كان الواحد منا يفرح أنه

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤١٤)، و أبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٢٣).

سيلاقي صديقه أو خليله ويعدُّ لذلك العدة، فما بالك بلقاء الله ومناجاته؛ ولهذا إذا رأيت من نفسك كسلًا في الصلاة فاتهم نفسك، فأنت بلا شك مشارك للمنافقين في هذه الخصلة، لكن اتهم نفسك، عدِّل مسيرتك إلى الله ولا تتهاون؛ لأنه ربما يكون عندك تهاون الآن بسيط ، لكن يزداد حتى تكون الصلاة عندك أثقل شيء.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من راءى الناس بعمله الصالح ففيه شبه بالمنافقين، والرياء بابه واسع ليس في الصلاة ولا في الصدقة والصوم والحج فقط، بل بابه أوسع من هذا، حتى الإنسان إذا لبس ثيابًا رثة ليظهر للناس بمظهر الزاهد فهو مراءٍ؛ ولذلك لا تظن أن الرياء يختص بالعبادات المحضة، فقد يكون في أي شيء، فكل شيء تظهر للناس أنك تتقرب به إلى الله ليعرفه الناس فإنه رياء محبط للعمل؛ لأن الله يقول في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، فالله غني عنا ونحن مفتقرون إليه، وهو في غنىً كامل عنا، فإذا أشركنا بالله أحدًا فإنه لا يقبله منا، وهو أغنى الشركاء عن الشرك.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من مراءاة الناس، فالناس لا ينفعونك ولا يضرونك، إنما الذي يضرك وينفعك هو الله عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾، لا تهتم بالناس مدحوك أو قدحوا فيك، أهم شيء أن تنظر إلى رضا الله عز وجل وابعد بعدًا تامًّا عن الرياء، لكن هنا مسألة وهو أن الشيطان يأتي للإنسان فيقول: إن صليت فقد راءيت، وإن حسَّنت صلاتك فقد راءيت، وهو بعيد من هذا، فهل يترك تحسين الصلاة خوفًا من ذلك أو يترك العبادة خوفًا من ذلك؟ لا هذا من مثبطات الشيطان للإنسان وليشق طريقه ويستمر ويستعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا يلتفت لهذه الوساوس؛ لأن الشيطان يتمنى أن لا نعبد الله، لأنه عصى الله فيريد أن يعصي الناس ربهم أيضًا، فلا تترك العبادة من أجل هذا، ثم إن طرأ على بالك أنك تحسِّنها من أجل أن تري الناس إياك، فإن كنت طالب علم مُبْتَدِئ به فانوِ أنك تحسنها من أجل أن يقتدي الناس بك، وتكون في هذه الحال عابدًا معلمًا، فإن الرسول ﷺ كان إذا أتاه وفد يطلب منه أن يبين له كيفية الصلاة يقول: صلِّ معنا، وكان يصعد على المنبر لما بني له ويقوم يصلي عليه، ويقول: «فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتَكُمْ» وبهذا تطرد الشيطان.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ذكر الله تعالى عند المنافقين قليل وقلنا: إن الذكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فهم لا يذكرون الله إلا قليلًا حتى بالجوارح الظاهرة التي تظهر للناس لا يذكرون الله إلا قليلًا.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

٩ـ ومن فوائدها: أنك إذا رأيت من نفسك قلة في ذكر الله فإن فيك شبهًا من المنافقين؛ ولهذا وصف الله المؤمنين أولي الألباب بأنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وما يضرك إذا ذكرت الله، هل اللسان يتعب؟ ليس هناك عضو كاللسان في عدم التعب، فإذا كان كذلك فأكْثِر من ذكر الله، ويروى عن النبي ﷺ أن رجلًا أتاه وقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، وقد كبرت فقال له الرسول ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ الله»[1] يعني: أَدِمْ ذكر الله.

١٠ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المنافقين يذكرون الله، ولكن ذكرهم قليل.

ثم قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ أي: مُرددين يرددهم الشيطان مرة هنا ومرة هنا، ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: لا إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، فهم في الظاهر مسلمون، وفي الباطن كافرون، فإذا أتوا إلى الكفار قالوا: إنا معكم، وإذا أتوا المؤمنين قالوا: ﴿ألم نكن معكم﴾ فهم ـ والعياذ بالله ـ مذبذبون لا يستقرون على رأي؛ وهذا لأنهم لم يؤمنون أول مرة كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ولهذا احذر ألا تقبل الحق، فإن بان لك الحق فقل: سمعًا وطاعة وآمِن؛ خوفًا من أن يقلب فؤادك وبصرك إن لم تقبل الحق أول مرة، ومن هذا أو قريب منه ما يفعله بعض الناس الآن إذا قلت: إن الرسول أمر بكذا قالوا: إن الله أمر بكذا؟ وقال هل الأمر للوجوب؟ كأنه يقول: إن لم يكن للوجوب فلن أفعل، وهذا خطأ، إذا سمعت الله يأمر أو الرسول يأمر فقل: سمعنا وأطعنا، سواء كان للاستحباب أو للوجوب، وإنما يُسأل عن الواجب أو المستحب إذا ضيع الإنسان هذا الأمر وتأخر، فحينئذ لا حرج عليه أن يقول: هل واجب أن أقضيه فأقضيه أو غير واجب فلا إثم به في عدم القضاء، أما قبل أن تفعل فإن تمام العبودية أن تقول: سمعنا وأطعنا، ثم إن كان واجبًا فقد حصلت على أداء الواجب وإبراء الذمة، وإن لم يكن واجبًا حصلت على خير وثواب فلن تندم، لكن الندم أن تتردد وتقول هل هو واجب أو لا؟ ولا أعلم أن الصحابة ﷺ سألوا الرسول ﷺ أواجب هذا أو سنة؟ إلا في قضية واحدة في قصة بريرة[2] فإن الرسول لما أمرها أن تبقى مع زوجها مغيث فقالت: إن كنت تأمرني فسمعًا وطاعة، ولم تقل: إن كنت تأمرني على سبيل الوجوب، وإن كنت تشير عليَّ فلا حاجة لي فيه، وكانت بريرة عتقت وإذا عتقت الزوجة تُخيَّر بين البقاء مع زوجها وفسخ النكاح، فلما عُتقت خيرها الرسول ﷺ قال: «إِنْ شِئْتِ بَقَيْتِ مَعَ الزَّوْجِ وَإِنْ شِئْتِ افْسَخِي النِّكَاحَ» فاختارت الفسخ، وإنما خيرها؛ لأنها الآن ملكت نفسها ملكًا تامًّا، وكانت حين العقد مملوكة لا تتصرف في نفسها، أما

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٨٨)، والترمذي(٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٠٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٠٤)، والترمذي (١١٥٤).

الآن فقد تحررت؛ ولهذا جعل لها الخيار فاختارت نفسها، فكان زوجها يلاحقها في أسواق المدينة ويبكي يريد أن ترجع، فكان الرسول ﷺ يتعجب ويقول: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِن حُبِّ مُغِيثٍ لِبَرِيرَةَ وَبُغْضِ بَرِيرَةَ لِمُغِيثٍ؟!»، وهذا حق أن نعجب؛ لأن العادة أن القلوب شواهد - كما يقولون - تتبادل البغضاء أو المحبة، لكن - سبحان الله - فقد أبت امرأة ثابت بن قيس المشهود له بالجنة حين جاءت لرسول ﷺ تطلب المخالعة من ثابت، وقالت: إني لا أعيب عليه في خُلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام حتى أمره الرسول ﷺ أن يخالعها وترد عليه حديقته[1] وهذا من العجب.

المهم: أننا لا نعلم أن الصحابة راجعوا الرسول ﷺ في أمره وقالوا: هل هو على سبيل الإلزام يا رسول الله أو هو على سبيل التطوع، فلتكن كالصحابة، قل: سمعنا وأطعنا، واحمد الله أن الله عز وجل شرع لك هذا الأمر؛ لأنه لولا أنه شرعه لك لكان قيامك به بدعةً لا يزيدك إلا ضلالًا وبُعدًا عن الله.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ الجملة هذه شرطية، وفيها إشكال وهي أن (من) الشرطية - حسب ما نعرف - تجزم الفعل، وإشكال آخر أن الفعل لا يلحقه الكسر يعني: لا يكون مجرورًا، وهنا جاء مكسورًا، فهذان إشكالان، يعني: هو مجزوم، لكن الكسر عارض، والإشكال الثاني، يعني: ليس الكسر كسر إعراب، وإنما للتخلص من التقاء الساكنين، أما الجواب ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ فأي إنسان يكتب الله سبحانه وتعالى ضلاله فلن تجد له طريقًا للهداية، وهؤلاء المنافقون قد أضلهم الله فلن تجد لهدايتهم سبيلًا، ولكن ربما يمنُّ الله على بعضهم فيهتدي كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن حال المنافقين التردد بين الكفر والإيمان، لكن الحكم عليهم في الآخرة أنهم كفار، أما في الدنيا فعلى ظاهرهم؛ لأن الأحكام في الدنيا على الظواهر.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنك إذا رأيت نفسك مترددًا بين القبول والإنكار فاعلم أن فيك شبهًا من المنافقين؛ لأن المؤمن لا يمكن أن يكون مترددًا ولا يكون له خيار فيما قضى الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، بل لا يترددون ويقبلون وينقادون.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الطمأنينة والاستقرار أمر مطلوب؛ ولهذا نجد أشد الناس استقرارًا وطمأنينة هم المؤمنون قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من أضله الله فلن يستطيع أحد أن يهديه؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، فإن قال قائل: لماذا يضل الله فلانًا ويهدي فلانًا؟ قلنا له: هل الذي منع هدايته

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٧٣)، والنسائي (٤٣٦٣)، وابن ماجه (٢٠٥٦).

منعها ظلمًا أو عدلًا؟ الجواب: عدلًا لا شك، وتفضل على الآخر فهداه فهو لم يمنع أحدًا، ثم اعلم أنه لا يكون الإضلال إلا لسبب من العبد لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فلو أنهم آمنوا أول مرة واستقاموا على الطريق لم يضلهم الله أبدًا، وبهذا نعرف أن حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»[1]، فليس المراد أنه لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع بحسب عمله، ولكن لا يكون بينه وبين الجنة ذراع بحسب أجله، لأنه لو كان عمله يوصله الجنة إلى ألا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ما خذله الله أبدًا، لكن ليس قلبه مستقيمًا، كما جاء في الحديث الآخر: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، وهذا التأويل متعين أن نقول في قول الرسول ﷺ: «حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ» باعتبار الأجل، يعني حتى إذا قرب أجله وقارب الموت أظهر وأعلن أنه من أهل النار - والعياذ بالله -.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى اللجوء إلى الله عز وجل في طلب الهداية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، وعليه فإذا دعونا أحدًا إلى الحق ولكنه أبى وتردد فإننا نلجأ إلى الله أن يهديه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وكم من أناس كانوا أشقى القوم فصاروا أسعد القوم وعلى العكس، وما أمْرُ عمر بن الخطاب - الرجل الثاني من أتباع الرسول ﷺ - ببعيد، وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل كان حالهم عجيب قبل الإسلام كفار ويعادون للإسلام ويريدون القضاء على أهل الإسلام ويريدون أن يقتلوا النبي ﷺ وقتل الصحابة، ومع ذلك كانوا بعد هذا قادة وكانوا شجعان في نصرة الإسلام وهزيمة الكفار؛ فالله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء فإذا علم الله في قلب الإنسان خيرًا - ونسأل الله أن يجعل قلوبنا وقلوبكم هكذا - هداه إلى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ماذا بعد ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، فإذا علم الله من قلب العبد الخير وفقه له وإن ضل، فالعاقبة الهداية، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، وقوله: (سبيلًا) هذه نكرة في سياق النفي، فتعم كل سبيل، لا يمكن أن يكون سبيلًا لمن أراد الله ضلاله.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق الكلام على مثل هذا العبير وذكرنا أن تصديره بالنداء يفيد التنبيه، وأن تصديره بهذا الوصف - وصف الإيمان - يدل على أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته من نقص الإيمان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تجعلوهم أولياء؛ لأن (اتخذ) بمعني جعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، أي: جعله خليلًا له، فلا تجعلوهم أولياء تتولونهم وتثقون بهم وتناصرونهم وتعلقون آمالكم بهم من دون المؤمنين؛ لأن بعض المؤمنين يكون ضعيف الإيمان، ضعيف التوكل على الله فيعتمد على هؤلاء الكفار لقوتهم ويتولاهم، ويرى أن المؤمنين لا يبلغون مبلغهم، وهذا لا شك أنه نقص في الإيمان والتوكل، فقد سبق ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وقوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من سواهم.

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار، يعني: أتريدون باتخاذكم الكافرين من دون المؤمنين أن تصيروا لله عليكم سلطانًا مبينًا أي: حجة بينة واضحة؛ لأن كونكم مؤمنين يقتضي أن تتولوا المؤمنين، فإذا عدلتم عن هذا الواجب إلى موالاة الكفار فقد جعلتم لله عليكم سلطانًا مبينًا تستحقون به عقوبة الله.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** دليل على تحريم اتخاذ الكافرين أولياء؛ لأن الله نهى عن ذلك وحذر منه، نهى عن ذلك في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، وحذَّر منه في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا تجتمع ولايتان: ولاية الكفار وولاية المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يعني ذلك أنهم لو اتخذوهم هم والمؤمنين أولياء جاز ذلك، بل نقول: إن قوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أنكم إذا اتخذتم الكفار أولياء عدلتم عن ولاية المؤمنين.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن سبحانه وتعالى له سلطان وحجة على من خالف أمره، ويدل على هذه قوله تعالى حين ذكر السبب من إرسال الرسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وهنا لو لم يرسل الرسل صارت الحجة للناس على الله، وإذا أرسل الرسل وبُيِّنت الأحكام صارت الحجة لله على المؤمنين.

٤- **ومن الفوائد:** وجوب مولاة المؤمنين ومناصرتهم؛ لأن المؤمنين إخوة، فما أصاب أحدهم فقد أصاب الآخر، وما حصل من ضرر وجب على جميع المؤمنين إزالته حسب الحال والإمكان.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ

إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء: ١٤٥-١٤٧]

التفسير

ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، وصلة هذه الآية بالتي قبلها هو أن الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يشبهون المنافقين، والمنافقون هم الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فمن اتخذهم فقد أشبه المنافقين، والمنافقون ليس لهم حظ في الآخرة إطلاقًا؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار، فهم يحلون فيه ولا يخرجون منه، والدَّرك بمعني: المكان الأسفل الذي ليس دونه شيء، ولا يعني هذا أن غيرهم لا يدخل فيه، ولكن هم فيه يقينًا، وأما غيرهم فيحتمل أن يكونوا فيه أو فيما فوقه.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ الخطاب إما لرسول ﷺ، وإما لكل من يصح الخطاب إليه، وفي قراءة: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ بفتح الراء. والمعنى: لن تجد لهم من يمنع العذاب عنهم وينصرهم في هذه الحال.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** دليل على أن المنافقين من أهل النار؛ لقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

٢- **وفيها أيضًا:** أن النار دَرَكَاتٍ، والدرك مكان المهلك، فكل مكان أنزل مما فوقه حسب شدة العقوبة.

٣- **وفيها أيضا:** أن هؤلاء المنافقين في الدرك الأسفل منها، وهل هذا يعني: أن غيرهم لا يشاركهم فيه؟ لا، قد يشاركهم غيرهم، لكننا نجزم بأن المنافقين في الدرك الأسفل، وأما مَنْ سواهم فلا نعلم، قد يكونون فيه وقد لا يكونون.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا ناصر للمنافقين، ففي الدنيا فقد ينتصرون بسبب التمويه والخداع، لكن في الآخرة لن ينتصروا ولن يجدوا من ينصرهم؛ لقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: إلا الذين تابوا من النفاق أي: رجعوا منه إلى خالص الإيمان وصريح الإيمان وأصلحوا أعمالهم بدلًا من أن يكونوا مفسدين يكونوا مصلحين؛ لأنه سبق في سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، فإذا أصلحوا بعد أن كانوا مفسدين، هذا هو الشرط الأول، والشرط الثاني واعتصموا بالله، اعتصموا به أي: توكلوا عليه، ولم يلجئوا إلى غيره؛ لأن المنافقين من ديدنهم الرجوع إلى الكفار وتعظيمهم والاعتصام بهم، فهنا يعتصمون بالله بدلًا من الاعتصام بالكافرين.

وقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ يعني: أخلصوا عبادتهم لله عز وجل فلم يجعلوا مع الله شريكًا

فيها، وقد سبق أن من صفات المنافقين أنهم كانوا يراءون الناس، فإذا أزالوا هذه الخصلة وأخلصوا لله قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلن يصلوا إلى درجة المؤمنين ومنزلة المؤمنين إلا بهذه **الأوصاف الأربعة**: التوبة من النفاق، والإصلاح، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، وماذا لهم؟ قال الله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لم يقل: وسوف يؤتيهم؛ ليشملهم وغيرهم، وليكونوا هم ضمن المؤمنين، ولن يستحقوا هذا الوعد على انفرادهم بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١ـ في هذه الآية فوائد منها: أن المنافق تقبل توبتُه، لكن لن يكون مع المؤمنين حتى يتصف بالصفات الأربع، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء، فقال بعض العلماء: لن تقبل توبة المنافق؛ لأنه لم يبدُ منه الإسلام قصدًا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، فإذا قالوا: إنهم آمنوا وتركوا النفاق، فهذا ما كانوا يقولونه في الأول وينكرون النفاق، وعلى هذا فلا تقبل توبتهم، بل يُقتلون وأمرهم إلى الله، إذا كانوا صادقين فالله عز وجل يوم القيامة يجزيهم بصدقهم، وأما إذا كانوا كاذبين فلهم النار، لكننا نحن في الدنيا لا نقبل توبتهم، ولكن الصحيح: أن توبتهم مقبولة إلا أنه يتُحرى فيها ما لا يتحرى فيمن كفره صريح؛ لأن من كفره صريح يصرِّح إما كافر وإما مؤمن ولا يُظهر أنه مؤمن وهو كافر، لكن البلاء هو المنافق؛ ولهذا لابد أن نتحرى.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لابد لمن أفسد أن يصلح مقابل إفساده، ولا تكفي التوبة المجردة فلابد من إصلاح ما أفسد، وبناءً على ذلك قال بعض العلماء: إن المبتدع لا توبة له؛ لأنه أفسد أممًا تابعوه على بدعته، فمن يُصلح هذه الأمم؟ وعلى هذا فلا توبة له، ولكن الصحيح: أن له توبة وأن إصلاحه ما يفسد أن يعلن الرجوع عما كان عليه من الفساد وأن يدعو إلى الإصلاح، ولهذا يقال: إن أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ لما تاب من الاعتزال قام يوم الجمعة على الكرسي ووضع عمامته وقال: (أما بعد فمن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فلان)، ثم صرح برجوعه عن الاعتزال وصار يرد على المعتزلة، فمثل هذا الرجل الذي كان مبتدعًا معتزليًا توبته مقبولة؛ لأنه أصلح ما أفسده، ولهذا كان خطر البدعة عظيمًا لما يحصل فيه من الفساد.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من كان معتصمًا بغير الله، فإن من تحقيق توبته أن يعدل عن الاعتصام بغير الله إلى الاعتصام بالله؛ لأن الداء يداوى بالدواء المقابل، فالاعتصام بغير الله شرك فيُداوى بالاعتصام بالله عز وجل، ولكل داءٍ دواء يناسبه.

٤ـ ومنها أيضًا: أن من تمام التوبة إخلاص المشرك؛ لقوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ والمنافقون عندهم إشراك؛ لأنهم يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من اتصف بهذه الصفات فإنه يكون مع المؤمنين، ولو

كان قبل ذلك منافقًا؛ لأن هذه الصفات تنتشله من النفاق إلى الإيمان، فهذه معية المؤمنين، ولا شك أنها منزلة عالية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: وعد المؤمنين بما هو أصدق الوعود وهو قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثوابًا وسمَّى الله الثواب أجرًا؛ تفضلًا منه كأنه بمنزلة أجرة الأجير التي لابد أن يُعطى إياها، وهذا التزامٌ من الله سبحانه وتعالى التزم به على نفسه أن يثيب المؤمنين بالأجر العظيم، وهذا الأجر العظيم يكون في الدنيا ويكون في الآخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (ما) هنا استفهامية يعني: أي شيء يفعله الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، أي: أنكم إذا شكرتم الله عز وجل على نعمه وقمتم بطاعته وآمنتم، فإن الله لن يعذبكم؛ لأنكم لا تستحقون العذاب حسب وعده، فأي شيء يفعله الله بكم إذا قمتم بشكره والإيمان به.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: شاكرًا لمن يستحق الشكر من عباده القائمين بأمره، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾

وقوله: ﴿عَلِيمًا﴾ أي: عليمًا بمن يستحق الشكر من عباده، وهم الذين قاموا بطاعته.

١- في هذه الآية من الفوائد منها: أن الله سبحانه وتعالى غني عن عذاب الخلق إذا قاموا بالشكر والإيمان.

٢- ومن فوائدها: أن من لم يشكر الله أو لم يؤمن به فإنه عرضة للانتقام والعذاب؛ لأن الله سبحانه وتعالى نفى العذاب لمن شكر وآمن، وهذا يدل على أن من لم يشكر ويؤمن فإنه معرض لعقابه، وهذا هو الواقع قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: الشاكر والعليم، فإذا قال قائل: كيف يشكر الله عباده؟ قلنا: بأن يثيبهم على ما عملوا أكثر مما عملوا ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨، ١٤٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ لا يخفى أن هذه الجملة جملة خبرية منفية، والجهر بالسوء معناه أن يقول فلان ظلمني، فلان أخذ حقي، وفلان جحده، وما أشبه ذلك، فالله لا يحب هذا إلا من ظُلم بأخذ حقِّه أو العدوان عليه فإن محبة الله لا تنتفي بحقه مثال المظلوم: لو أن إنسانًا آذاه جاره، فصار يتكلم عند الحاكم أو الأمير أو عند من يستطيع أن يزيل مظلمته ويجهر بهذا السوء، وليس المراد بالجهر أن يصوت بين الناس، المراد أن يبينه لغيره، فإن هذا مظلوم فله أن يقول ذلك، ومن هذا قصة الجار الذي كان يؤذي جاره فأمره النبي ﷺ أن يخرج متاعه عن بيته فيمر الناس به فيقولون ما هذا؟ فيقول: آذاني جاري، فصار في هذا فضيحة للجار بالفعل، ومن الجهر بالسوء ممن ظُلم أن يسبَّك إنسان أمامك ويقول: أنت بخيل، أو أنت جبان، أو أنت سفيهٌ وما أشبه ذلك، فلك أن ترد عليه بمثل ما وصفك به من العيب فتقول: السفيه أنت، والجبان أنت، والبخيل أنت كما قال بدون زيادة؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، ولقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولقول النبي ﷺ: «المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِئِ مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ»[1]، كل هذه النصوص تدل على أنه يجوز الجهر بالقول ممن كان مظلومًا، ومن ذلك ما يُفضيه الإنسان إلى صديقه ورفيقه في شكاية الحال كما لو كان الإنسان ظلمه شخص وجاء إلى صديقه يتحدث ويقول: فلان فعل بي كذا، وفعل بي كذا، ومن ذلك أيضًا: الزوجة تشكو ما يحصل من زوجها إلى أخواتها أو إلى أمها وما أشبه ذلك؛ لأن كل هؤلاء مظلومون، وقد استثنى الله تعالى من ظُلم، ومن ذلك إذا قال: لعنك الله فقل: لعنك الله أنت؛ لأن هذا اعتداء بمثل ما اعتدى عليك.

وعلى هذا نقول: إن الجهر بالسوء من القول إذا كان من مظلوم فإن محبة الله لا تنتفي عنه،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٣٥).

وهذا من نعمة الله عز وجل ورفع الحرج عن الأمة؛ لأن الله لو كان لا يحب الجهر بالسوء من القول حتى من المظلوم لصار في هذا حرج؛ لأن المظلوم يكاد يتشقق صدره حتى يتحدث عما في صدره من الظَّلامة فيخف عليه الأمر.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي: سميعًا لأقوالكم، عليمًا بما في قلوبكم، فاحذروا أن تقولوا ما لا يرضاه، وأن تخفوا ما في صدوركم ما لا يرضاه.

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: إثبات المحبة لله أي: أن الله يحب، ووجه الدلالة: أننا استدللنا على الإثبات من النفي؛ لأن هذا النفي خُصَّ بحال معين فيكون دليلًا على أن ما سوى ذلك تثبت به المحبة، ومحبة الله ـ عز وجل ـ للعبد هي غاية ما يتمناه الإنسان، وأكمل مراتب الإنسان؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ولم يكن الجواب على ما يُتوقع من أن يقال: فاتبعوني تصدُقوا في دعواكم، بل قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وهذا هو الغاية، ومحبة الله عز وجل تُنال بهذا الشرط، وهو شرط يسير لمن يسره الله عليه ـ نسأل الله أن ييسره لنا ولكم ـ وهو اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا في العقيدة، وفي القول وفي الفعل، فإذا حققت ذلك فإن محبة الله سوف تنالك.

أنكر قومٌ محبة الله كالأشاعرة ـ نسأل الله أن يعفو عن الأموات منهم وأن يهدي الأحياء ـ وقالوا: إن الله لا يحب، لكن إنكارهم إيَّاها ليس إنكار جحود، إذ لو كان إنكار جحودٍ لكفروا؛ لأنه تكذيب لما أثبته الله لنفسه، لكنه إنكار تأويل قصدوا به تنزيه الله، لكن ضلوا فقالوا: إن المحبة لا تقع إلا بين متجانسين، والله عز وجل مباين لخلقه، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ إذنْ ما معنى المحبة التي جاءت في الكتاب والسنة؟ قالوا: إن المحبة هي الإحسان ففسروها بأمر بائن منفصل عن الله، أو هي إرادة الإحسان؛ لأن الإرادة عندهم ثابتة لله عز وجل فيُقال لهم: هل الإحسان إلا ثمرة المحبة؟ وهل إرادة الإحسان إلا ثمرة المحبة؟ أي: أن الله لا يحسن لمن لا يحب إلا على سبيل الاستدراج؛ ولهذا إذا رأيت الله ينعم على العبد مع إقامته على معاصيه فاعلم أن ذلك استدراج له قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ إذنْ عقيدتنا: أن الله عز وجل يحب، وأن محبته أعلى المراتب وأفضل المنازل.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حسْنُ الإسلام وأن الإسلام يدعو إلى التراضي وعدم الجهر بالسوء، وألا تفضح أحدًا بسوئه؛ ولهذا كانت الغيبة من كبائر الذنوب وهي: ذكرُك أخاك بما يكره.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: عدالة الإسلام، وجه ذلك: أنه رُخِّص للمظلوم أن يجهر بالقول، لكن بحسب مظلمته لا يزيد، فإن زاد فكما قال النبي ﷺ: «عَلَى الْبَادِئِ مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ».

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، أن الدين الإسلامي لا يكبت النفوس، بل يوسع لها ويشرح الصدور ويُدخل السرور؛ ولهذا نُهيَ الإنسان أن يتعرض لما فيه الغم والهمّ والوساوس والأوهام حتى إن النبي ﷺ قال ـ في الذي يشك هل خرج منه ريح أو لا ـ: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»، والمعنى: حتى يتيقن يقينًا مثل الشمس، أما مجرد التخيُّل أنه خرج من بطنه شيء أو من دُبره شيء أو من قُبُلِه شيء فهذا يجب أن يُطرح؛ لئلا يقع الإنسان في تذبذب وتردد، فالدين الإسلامي يريد منك أن تكون دائمًا في سرور ومبسوطًا، وجه ذلك من هذه الآية: أن الله رخَّص للمظلوم أن يجهر بالسوء بقدر مظلمته؛ لأن ذلك تنفيسًا عن نفسه بلا شك.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**، إثبات هذين الاسمين لله عز وجل وهما: السميع والعليم، أما السميع فقال: العلماء: إنه ينقسم إلى قسمين: سمعٌ بمعنى إدراك المسموع، وسمعٌ بمعنى الاستجابة، والسمع الذي بمعنى إدراك المسموع يتنوع أيضًا، فتارة يُراد به: بيان إحاطة الله تعالى بكل مسموع، وتارة يُراد به: التأييد والنصر، وتارة يُراد به: التهديد على حسب ما تقتضيه الحال والسياق، فمن الأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذه المرأة كانت في حجرة النبي ﷺ في الأرض والرب عز وجل في السماء فوق عرشه وتقول عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات لقد كنت في الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها والله عز وجل يقول: قد سمع الله قول التي تجادل ويسمع تحاوركما)، هذا سمع يُراد به بيان إحاطة الله بكل مسموع، وتارة يُراد به التأييد والنصر مثل قول الله تبارك وتعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يعني: فأُؤيِّدُكما وأنصركما، وقد يُراد بذلك في هذه الآية التهديد أيضًا لفرعون، وأما الذي للتهديد مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وهم اليهود، فقال الله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾، هذا لا شك أن المقصود به التهديد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، فهو مسموع مكتوب، وستكون القراءة يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك، يقول: خذ هذا الكتاب اقرأه حاسب نفسك.

القسم الثاني من أقسام السمع: سمع الاستجابة: أن الله يستجيب، وذلك فيما إذا أضيف إلى الدعاء أو نحو ذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: لمجيبه، وليس المراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يسمع الله دعاءه فقط؛ لأن سماع الدعاء لا شك أنه كمال وأن تعالى مدرك لكل مسموع، لكن المقصود من دعاء الداعي الاستجابة، فيكون معنى سميع الدعاء أي: مستجيب الدعاء، قالوا: ومن ذلك قول المصلي: (سمع الله لمن حمدَه) أي: استجاب؛ وهذا حق، ويؤيد ذلك أنه عُدي باللام،

ولو كان المراد إدراك الحمد أو إدراك قول الحامد لقال: سمع الله من حمده.

أما العليم فهذه أوسع شيء، فعلم الله جل وعلا محيط بكل شيء، محيط بالظاهر والباطن، وبالماضي والمستقبل، بل بالواجب والممكن والمستحيل؛ ولهذا لا شيء أعم من العلم، فالعلم شامل جدًّا فهو يتعلق بالماضي والمستقبل، ومن ذلك قول موسى عليه الصلاة والسلام حين سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾، ـ سبحان الله ـ لا يضل جهلًا ولا ينسى ذكرًا، بل هو جل وعلا عالم بكل شيء ولا ينسى الماضي، بينما العالم سوى الله أَهْلٌ للنسيان، كذلك الله عز وجل محيطٌ بالظاهر والباطن قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، ولا شيء أخفى من هذا، ما توسوس به نفسك وتحدثك به نفسك، فالله تعالى يعلم به، وأما الظاهر فظاهر علم الله به، وكذلك أيضًا علم الله محيط بالواجب والممكن والمستحيل، أما المستحيل فكقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، هذا خبر عن علم، ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون في السموات والأرض آلهة سوى الله، فذلك مستحيل غاية الاستحالة، فهذا خبر عن مستحيل صادر عن علم، أما العلم بالواجب فعلمه تعالى عن نفسه وبما له من الأسماء والصفات، فإن هذا من العلم بالواجب، وهو أعلم بنفسه من غيره، وأما تعلقه بالممكن فعلمه بما يحدث في الكون من غير ما يتعلق بالله عز وجل فهو ممكن؛ لأن الكون كله حادث بعد أن لم يكن، «كَانَ اللهُ تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» وفي لفظ: «وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»، فكل الكون حادث، وهو قابل للزوال؛ لأن كل حادث قابل للزوال بدليل عدمه قبل وجوده، وكلمة (قابل) ليس معناها أن كل موجود فانٍ؛ لكنه قابل للفناء، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يَرِدَ علينا الرُّوح، فالروح مخلوقة بعد العدم، لكنها باقية لا تفنى، والولدان والحور في الجنة مخلوقة ولكنها لا تفنى بل تبقى أبد الآبدين، والجنة أيضًا مخلوقة وتبقى أبد الآبدين، والنار مخلوقة وتبقى أبد الآبدين؛ ولهذا نقول: كل موجود قابل للزوال لا أنه زائل؛ لأن من المخلوقات ما لا يزول لكن كونه حادثًا بعد أن لم يكن دليل على أنه من أقسام الممكن القابل للعدم والوجود، ووجه ذلك: أنه لو لم يكن قابلًا للوجود لم يوجد، ولو لم يكن قابلًا للعدم لم يُعدم أولًا، المهم: أن علم الله تعالى محيط بكل شيء، وإيمانًا بعلم الله ليس أن نؤمن بهذه الصفة العظيمة الواسعة الشاملة، لكن المهم أن نحذر من أن يعلم في قلوبنا ما لا يرضاه عنا أو يعلم من أفعالنا ما لا يرضاه عنا أو من أقوالنا ما لا يرضاه عنا أو مما نترك ما لا يرضاه عنا، هذا هو المهم؛ ولهذا يجب أن يركِّز طالب العلم على الفوائد المسلكية التي تُستفاد من أسماء الله وصفاته لا على أقسامها وتقسيمها وعمومها وشمولها، أهم شيء أن تُعدِّل من منهجك ومسلكك؛ ولهذا قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اعبدوه بمقتضى هذه الأسماء وقال النبي ﷺ: «إِنَّ

لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، ومن إحصائها: التعبد لله بمقتضاها ـ وفقنا الله وإياكم لذلك ـ.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا﴾ هذه الجملة شرطية، وجواب الشرط قيل: إنه محذوف، وقيل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، وأن هذه الجملة وإن كان ظاهر الحال أنها لا رابطة بينها وبين الشرط، لكنها تدل عليه.

قال: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تظهروا، وعرفنا أن الإبداء بمعنى: الإظهار من ذكر مقابله وهو قوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وهذه القاعدة موجودة في التفسير: أنه ربما يخفى عليك معنى بعض الكلمات فانظر إلى ما يقابلها، كقوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾، فلو أن أحدًا سألك ما معنى: ﴿ثُبَاتٍ﴾ لعرفت معناها من ذكر معادله وهو قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾، فيكون معنى ثُبَاتٍ أي: فُرَادَى؛ إنْ تظهروا خيرًا أو تخفوه فلن تعدموا أجره فسوف تؤجرون عليه؛ لأن الخير مطلوب ونافع سواء كان مُبدى أو مُخفى في مقابل ذلك: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾، العفو هو: الإبراء من التبرئة، فالمعنى: تعفوا عن سوء أي: تبرئوا من أساء إليكم من تبعات سوئه.

وقوله: ﴿عَن سُوٓءٍ﴾ أي: عما يسوء من قولٍ أو فعل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: أنه ذو عفوٍ مع القدرة على الانتقام ممن أساء، فإذا كان الله تعالى عافيًا عمن أساء مع القدرة فأنتم من باب أولى أن تعفوا؛ لأنكم ليس لديكم من القدرة على الانتصار للنفس والانتقام من المجرم كالذي عند الله عز وجل.

١ـ نستفيد من هذه الآية فوائد أولًا: أن الخير خير سواء أُبدي أو أُخفي، فإن قيل: أيهما أفضل الإبداء أو الإخفاء؟ فقد يقول قائل: الإخفاء أفضل، وقد يعارض قوله بكون الله تعالى بدأ بالإظهار فقال: ﴿إِن تُبْدُوا﴾ وإنما يُبدأ بالأهم فالأهم، ولكن ذلك راجع إلى المصلحة، فإن كانت المصلحة في الإظهار أظهر مثل أن يكون رجلًا ذا أسوة إذا أظهر ما عنده من الخير تأسى به الناس وفعلوا فعله فهذا طيب سواء كان ذلك على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص بأن يتصدق على شخص معين حتى يراه الناس أنه يتصدق عليه فيقتدوا به؛ لأن كثيرًا من الناس الآن لا يتصدق على أحد إلا إذا علم أن الجهة الفولانية تصدقت عليه كجمعية البر الخيرية مثلًا؛ إذن الإبداء والإخفاء يرجع إلى المصلحة فإن لم تظهر المصلحة الراجحة في الإبداء فالإخفاء أفضل؛ لقول النبي ﷺ فيمن يظلهم الله بظله: **«رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»[1].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإحسان إلى الغير إما بإعطاء الخير ظاهرًا أو خفيًّا، وإما بدفع السوء وذلك بالعفو عنه كقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾، فالعفو عن السوء خير ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فيستفاد من ذلك فضيلة العفو عن السوء، ولكن هل نقول إن العفو أفضل مطلقًا أو تبع المصلحة؟ الثاني تبع المصلحة، ولهذا قيد الله العفو في مكان آخر بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فإذا كان في العفو إصلاح فهو أفضل، وإن كان في العفو إفسادٌ، فالانتصار أفضل، فمثلًا: إذا كان هذا الرجل شريرًا لو عفونا عنه لازداد في شره واعتدائه على الناس فهنا الانتصار أفضل؛ أولًا: لإعطاء النفس حظها ،لأن النفس تحب أن تنتصر، وثانيًا: لكفِّ شرِّه عن الناس فيكون هنا الانتصار أفضل، وأما إذا تساوى الأمران فلا شك أن العفو أفضل؛ أولًا: لما فيه من الإحسان إلى المسيء، وثانيًا: لأن الله تعالى يحب العافين عن الناس.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنك إن عفوت عن الخلق عفوًا في محله فأبشر بعفو الله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، فمتى عفوتم عفا الله عنكم، وهذا له شواهد كثيرة في الشريعة منها: قول الرسول ﷺ: «وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[2]، ومنها: «مَنْ كَانَ العَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ»[3]، ومنها: «الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ»، والشواهد لهذا كثيرة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: فضل الله سبحانه وتعالى بالعفو عن حقه حتى إنه جل وعلا يغفر لمن لا يشرك به شيئًا مجانًا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حتى وإن عظمت المصائب أو عظمت الذنوب فإن الله يغفرها - إن شاء - فضلًا منه.

٥- ومنها: أن عفو الله تعالى أكمل أنواع العفو؛ لأنه عفوٌ مع القدرة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، ويتولد من الجمع بين العفو والقدرة صفة كمال، وهو أن الله سبحانه وتعالى عافٍ مع القدرة على الانتقام، وهذا هو العفو الحقيقي، أما العفو مع العجز عن الانتقام فليس بعفو، فلو أن أحدًا اعتدى عليك وهو أقوى منك بدنًا وأضخم منك جسمًا ففكرت وقلت: إن أخذت بحقي فأخشى أن يزيد في الضرب والعدوان، لكن يسامحه الله، كيف يكون هذا عفوًا؟! هذا عفو مع العجز فإن كان فيه احتمال أن يأخذ بحقه فله أجر بقدر هذا الاحتمال، وإن لم يكن فيه احتمال فليس له أجر، اللهم إلَّا أن يكون بإدخال السرور على المعتدي فيما لو ارتدع عن العدوان وفكَّر فإذا هو يشعر أن المعتدَى عليه كان قد سامح فيطمئن قلبه، وهنا قد يؤجر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٤٢٥)، وأبو داود (١٤٥٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠).

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: (العفوُّ) بتشديد الواو، و(القدير)، فيدلان على إثبات صفة العفو والقدرة؛ لأن القاعدة في الأسماء والصفات: أن كل اسم متضمنٌ لصفة لا العكس.

❁ **قال الله تعالى**:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والكفر بالله ورسله أن يكفر الإنسان بما يجب الإيمان به سواء كان كفرًا بوجود الله أو كفرًا بربوبيته؛ بأن ادعى أن معه ربًّا؛ أو كفرًا بألوهيته بأن عبد معه غيره، أو كفرًا بأسمائه وصفاته بأن أنكرها وجحدها، فالمهم أن الكفر بالله هو جحد ما يجب الإيمان به في جانب الله، ورسله، كذلك جحد ما يجب نحوهم.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هنا لم يقل: إن الذين يؤمنون بالله يكفرون بالرسل؛ لأنهم إذا كفروا بالبعض كفروا بالجميع ويريدون بإيمانهم أن يفرقوا بين الله ورسله، فيؤمنون بالله ويكفرون بالرسل أو يؤمنون بالرسل بعضهم دون بعض كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾، وهذا كثير فمثلًا: النصارى يدَّعون أنهم يؤمنون بالله أليس كذلك؟ يدعون أنهم يؤمنون بعيسى وموسى ومن سبقهما، لكن يكفرون بمحمد ﷺ وهو أفضل الرسل ففرقوا بين الله ورسله، آمنوا بالله وكفروا بالرسل، وفرقوا كذلك بين الرسل فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا يوصلهم إلى الله يظنون أنهم بهذا العمل سلكوا طريقًا حسنًا يوصلهم إلى الله عز وجل، لكنهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ أولاء مبتدأ، وهم ضمير فصل، فإن قال قائل: أفلا يجوز

أن تكون مبتدأ، والكافرون خبر المبتدأ، والجملة خبر للمبتدأ الأول؟ قلنا: هذا جائز، لكنه خلاف الأَوْلى؛ لأن ظاهر القرآن أن خبر ما بعدها خبر ما قبلها قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ولم يقل: هم الغالبون، فدل هذا على أن مثل هذا التركيب تكون فيه (هم) ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

الثاني: أننا إذا قلنا: إنه ضمير فصل لا محل له من الإعراب صرنا لا ننتقل إلى جملة تكون خبر المبتدأ، وصار المبتدأ والخبر جملة واحدة، والأصل في الأخبار أنها مفرد غير جملة يقول عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ إذنْ (هم) ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء: أولًا التوكيد، ثانيًا: الحصر، ثالثًا: التمييز بين الخبر وبين التابع؛ لأنه إذا جاء ضمير الفصل تعين أن ما بعده خبر وإذا لم يأت احتُمل أن يكون خبرًا وأن يكون تابعًا، فإذا قلت: زيدٌ الفاضل في الدرس، فهنا يحتمل أن الفاضل صفة فيكون المعنى: أن زيدًا الفاضل في الدرس، فإذا قلت: زيد هو الفاضل في الدرس تعين أن تكون خبرًا وحصرته في الفضل، ومحله في الدرس، على كل حال: ضمير الفصل يفيد ثلاثة أشياء.

وقوله: ﴿حَقًّا﴾ حقًّا هذه منصوبة، ولكن ما إعرابها؟ نقول: إعرابها مصدر مؤكدٌ لمضمون الجملة، ومضمون الجملة: أولئك هم الكافرون فأثبت الله لهم أنهم كفار حقًّا، فتأتي حقًّا مؤكدة لمضمون الجملة وذلك؛ لأن أحقية هؤلاء للكفر مفهومة من قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فإذا جاءت (حقًّا) صارت مؤكدة لمضمون الجملة، وصار عاملها محذوف وجوبًا، فلا يصلح أن يقال: أولئك هم الكافرون أُحُقُّوا ذلك حقًّا لا يصح، وذلك لأنها مؤكدة لمضمون الجملة فكان مضمون الجملة كأنها الفعل المحذوف ولا يجمع بين هذا وهذا؛ ولهذا ذكر بن مالك وغيره من العلماء: أن المصدر المؤكد لمضمون جملة قبله يجب حذف عامله.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: هيَّأنا فهي بمعنى أعددنا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وهنا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا السياق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ خروج عن مقتضى السياق؛ إذ مقتضى السياق أن يقال: أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا لهم؛ لأنه متى أمكن الإتيان بالضمير فإنه لا يُؤْتى بغيره، فإن ذكر الضمير أوضح في الجملة وأخصر، لكن هنا عُدِل عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالظاهر المطابق لوصفهم فما البلاغة في هذا؟ البلاغة: أن هذا إظهار في مقام الإضمار، والإظهار في مقام الإضمار له فوائد منها: قصد التعميم، ومنها: تطبيق الوصف على مرجع الضمير الذي كان من مقتضى السياق أن يُؤتى بضميره؛ فإرادة العموم، لأنه لو قال: أعتدنا لهم عذابًا مهينًا صار هذا خاصٌّ بهم، لكن أعتدنا للكافرين أي: كل الكافرين سواءٌ هؤلاء أو غيرهم، والفائدة الثانية تطبيق الوصف على مرجع الضمير الذي لولا هذا الظاهر لكان موجودًا، ومرجع الضمير لهؤلاء الذين

قالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لم يقل: عدوٌ له الذي هو مقتضى السياق لهاتين الفائدتين، والفائدة الثالثة هي مراعاة فواصل الآيات.

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفر ببعض الرسل كفر بالجميع، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: غلبة الهوى على كثير من الناس؛ لأن هؤلاء الذين يفرقون بين الله ورسله أو يؤمنون ببعض الرسل دون بعض لا يحمل على ذلك إلا الهوى، فاليهود يقولون: لا نؤمن بغير موسى والنصارى يقولون: لا نؤمن بغير عيسى؛ لمجرد الهوى.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفر ببعض الرسل كفرٌ بالجميع، ويدل لهذا أيضًا قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مع أن نوحًا أول الرسل، ومع ذلك جعل تكذيب قومه له تكذيبًا لجميع الرسل؛ لأن التكفير بالرسول كأنه تكفير بالجنس أي: بجنس الرسالة، وإلا فما الفرق بين محمد وعيسى وموسى وإدريس ونوح.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء المفرِّقين يقولون: نتخذ بين ذلك سبيلًا يعني: لنرضي هؤلاء وهؤلاء، وهذا لا ينجيهم من عذاب الله ولا ينجيهم من الكفر.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ذم تلك الطريقة أي: الإيمان بالبعض دون البعض، وأن هذا منهجٌ قبيح، فيتفرع على هذا: ذمُّ أهل الكلام الذين أرادوا أن يجمعوا بين الدليل السمعي والعقلي في صفات الله وقالوا: إنا أخذنا بهذا وهذا من أجل التوفيق بين الأدلة، وهم خالفوا الأدلة كلها فهم أرادوا الجمع بين دليل السمع والعقل، ولكنهم في الحقيقة خالفوا السمع والعقل كما هو معروف من مناظراتهم والرد عليهم.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وعيد الكفار بالعذاب المهين.

٨ ـ ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنهم إنما فرقوا بين الرسل استكبارًا وهوىً فأعد لهم العذاب الذي يهينهم ويخذلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

٩ـ ومن فوائدها: أن الإظهار في موضع الإضمار لا يُعد تطويلًا بل به فائدة، وجه ذلك: أن الضمير أخصر من الظاهر فلا يقول قائل: إن الإتيان بالظاهر في موضع الضمير تطويل وزيادة بلا فائدة بل نقول: بل هو فائدة وقد ذكرنا ـ فيما سبق ـ أن من فوائد الإظهار في موضع الإضمار قصد العموم، وتطبيق الوصف على أولئك الذين يعود الضمير عليهم لو كان موجودًا وهناك فائدة ثالثة وهي: بيان عليَّة الحكم فمثلًا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لو قال: أعتدنا لهم، لم يتبين لنا لماذا أعد لهم هذا العذاب، لكن إذا قال: للكافرين كأن هذا الوصف يفيد العلية أي: أن العلة في إعداد العذاب المهين لهم هو الكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لما ذكر الله عز وجل حال الذين يؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض ذكر حال الذين يجمعون في الإيمان بين الجميع، والقرآن هكذا إذا ذكر حالًا ذكر ما يضاده، فإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة؛ لأنه مثانٍ تُثنى فيه المعاني، فيؤتى بهذا ثم بهذا؛ ولأن التنويع مما يشد النفس والذهن إلى ما يُتلى أو ما يُسمع، ولأجل أن يكون سير الإنسان إلى الله عز وجل بين طرفي النقيض: الإفراط والتفريط؛ لأن الإنسان لو غلَّب جانب الرجاء لحصل له الأمن من مكر الله، ولو غلَّب جانب الخوف لحصل له القنوط من رحمة الله واليأس.

يقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والإيمان بالله سبق عدة مرات ماذا يتضمن، والإيمان بالرسل كذلك، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام يعني: الإيمان بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله عز وجل، وأما الإيمان بشرائعهم فإن الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ نسخت جميع الشرائع، لكننا نؤمن بأن شرائعهم من عند الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: في أصل الإيمان لا في العمل، فنؤمن بالجميع وأنهم حق كلهم ورسالتهم حق من عند الله، وأما العمل فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ووجه ذلك: أن أصل الإيمان شيءٌ واحد وهو الإيمان بالواحد القهار عز وجل، وأما الشرائع فإنها تختلف باختلاف الناس وأحوالهم، والعموم والخصوص؛ فلهذا جعل الله لكلٍّ شِرعةً ومِنهاجًا، حتى الشريعة الإسلامية في أول أمرها ليست كالشريعة الإسلامية في آخر الأمر، ففي أول الأمر ليس هناك صوم ولا زكاة ولا حج، ثم فُرضت الصلاة والصوم والحج والزكاة؛ لأن الله عز وجل يشرع الشرائع حسب ما يليق بأحوال الناس.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أتى باسم الإشارة هنا؛ تعظيمًا لهم، وجاءت بصيغة البعيد؛ لعلو منزلتهم، وقوله: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ سوف والسين تتناوبان على الفعل المضارع كثيرًا، لكن هناك فرقًا بينهما: السين للتحقيق والتقريب، وسوف للتحقيق مع البعد، فهذا الفرق بينهما، فهل إيتاء أجورهم كانت بعيدًا؟ الجواب: هو بعيد قريب، أما من جهة امتداده وأن الله تعالى يجازيهم شيئًا فشيئًا، ثم يأتي الجزاء الأوفى في يوم القيامة فهو لا شك أنه بعيد، وأما كون كل آتٍ قريب فهو قريب كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

وقوله: ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم، وسمَّى الله ثواب الأعمال أجورًا؛ تكرمًا منه وفضلًا عز وجل، كأنه استأجر هؤلاء على عملٍ عملوه ثم أعطاهم أجرهم، كالإنسان يستأجر أناسًا يبنون له بنيانًا فإذا بنوه أعطاهم أجورهم، وهذا يعني: أن الله عز وجل التزم وألزم نفسه سبحانه وتعالى بأن يثيب هؤلاء، ولا مانع من أن يكون الله تعالى ألزم نفسه بما شاء كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقد قال الأول:

مَــا لِلْعِبَــادِ عَلَيْــهِ حَــقٌّ وَاجِــبٌ كَــلَّا وَلَا عَمَــلٌ لَدَيْــهِ ضَــائِعُ
إِنْ عُــذِّبُوا فَبِعَدْلِــهِ أَوْ نُعِّمُــوا فَبِفَــضْلِهِ وَهُــوَ الكَــرِيمُ الوَاسِــعُ

هذا قاله الأول، ولكن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قيَّد هذا فقال:

مَــا لِلْعِبَــادِ عَلَيْــهِ حَــقٌّ وَاجِــبٌ هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

فجعل عليه حقًّا واجبًا، لكن هو الذي أوجبه.

إِنْ عُــذِّبُوا فَبِعَدْلِــهِ أَوْ نُعِّمُــوا فَبِفَــضْلِهِ وَالْفَــضْلُ لِلــرَّحْمَنِ

أو قال: لِلْمَنَّانِ.

فالحاصل: أن الله تعالى سمى الثواب أجرًا؛ تكرمًا منه وفضلًا، كأن العاملين لأنفسهم عاملون له، إذا انتهى عملهم أوفاهم أجورهم. ولم يبين هنا مقدار الأجر، لكنه بينه في مواضع كثيرة في القرآن، وكذلك بينه الرسول ﷺ في السنة: أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لما كان هؤلاء المؤمنون بالله ورسله، والذين لم يفرقوا بين أحد منهم، كادوا يخطئون ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾، ولما كان هذا الإيمان المطابق من فضله ورحمته أردف المغفرة بالرحمة، فهؤلاء لابد أن يقصروا ولا أحد إلا يقصِّر، فختم الآية بالمغفرة، ثم هذا الإيمان الذي حصل لهم ليس بكسب أيديهم ولا من عمل أيديهم، ولكنه من رحمة الله عز وجل، فلذلك نَاسب أن تُختم الآية بالغفور الرحيم.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن القرآن الكريم مثانٍ، إذا ذكر شيئًا ذكر ضده للوجوه التي ذكرناها في الشرح.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا: أنه لابد أن نؤمن بالله وجميع الرسل، ولكن كيف الإيمان، وبمَنْ نؤمن؟ أما الإيمان فكيفيته: أن نؤمن بأصل الرسالة وأنهم رسل الحق من عند الله عز وجل، وأما الشرائع فتختلف؛ لقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وأما مَنْ يُؤمَن به: فيجب علينا أن نؤمن بكل من ذكر الله في القرآن باسمه وعينه؛ لأنه معين لنا، وما لم يعيَّن فنؤمن به إجمالًا؛ لأننا نؤمن أن من الرسل من لم يقصصهم الله علينا فنؤمن بهم إجمالًا.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز أن نفرق بين أحدٍ منهم، وذلك في أصل الإيمان، وهل نفرق بينهم في الفضل ونقول: هذا الرسول أفضل من هذا الرسول؟ نعم يجب علينا أن نفاضل بينهم؛ لأن الله تعالى أخبر بذلك في كتابه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وعلى هذا ما سبب التفضل وهل هو توقيفي أو نظري عقلي؟ سبب التفضيل ما حباهم الله به من المناقب والفضائل وكثرة الأتباع وما أشبه ذلك، أمَّا هل هو توقيفي أو عقلي نظري؟ فنقول: هو توقيفي، لكننا

إذا علمنا أن الله فضَّل هذا الرسول على ذاك، إما أن نعلم السبب ويتضح، وإما ألا نعلم؛ ولهذا قال العلماء: إن أولي العزم من الرسل خمسة أولهم محمد ﷺ وفضله الله على غيره؛ لما له من المناقب العظيمة التي لم يدركها أحد، والفضائل التي خصه الله بها والأتباع الذين لا يوجد مثلهم في جميع أتباع الرسل، بل هم ضعفا أتباع الرسل كلهم؛ لأن الرسول أخبر بأن الجنة اثنا عشر صفًّا ثمانية منها من هذه الأمة، وهذا يعني أن هذه الأمة تعدل جميع الأمم وتزيد الضعف، ثم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذان الرسولان الكريمان هما خليلا الرحمن، ولم تثبت الخُلَّة ـ فيما نعلم ـ لأحد سواهما، ثم موسى عليه السلام؛ لأنه كابد من المشقة مع فرعون ومع بني إسرائيل ما لم يتبين لنا في رسولٍ سواه، بقي عندنا عيسى ونوح فأيهما أفضل؟ منهم من قال: إن نوحًا أفضل؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام بقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وحصل منهم من السخرية به والاستهزاء به ما هو معلوم في القرآن والسنة، وعيسى كابد بني إسرائيل، وبنو إسرائيل هم أشد الناس عتوًّا وطغيانًا كما يظهر ذلك فيمن تدبر القرآن والسنة، فحصل مشقة إلى حد أن بني إسرائيل جعلوا أمه زانية وجعلوا عيسى ولد زنا ـ والعياذ بالله، قاتلهم الله ـ فحصل له عليه الصلاة والسلام من المضايق، وحصل له من المناقب والكرامات ما لم نعلم أنه حصل لنوح، ولو قال قائل: إما أن نجعلهما على حدٍّ سواء، وإما أن نتوقف لكان هذا خيرًا؛ لأنه ليس هناك أشياء تميز تمامًا أيهما أفضل، المهم: أن إيماننا بالرسل يدخل فيه الإيمان بما حباهم الله تعالى به من الفضائل، وأن نفضِّل بعضهم على بعض، وهذا لا يضر، ولكن إذا أدى هذا التفضيل إلى خصومة ونزاع واحتقار رسولنا إذا فضلناه على رسول الآخرين، فإنه يجب التوقف والسكوت؛ حتى إن الرسول ﷺ قال: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، مع أن يونس عليه الصلاة والسلام خرج مغاضبًا من قومه قبل أن يؤذن له بالخروج، ولهذا نجوا لما آمنوا حين جاءهم العذاب؛ لأن نبيهم لم يبق فيهم فأنجاهم الله، فالمهم: أنه لو قدر أننا نريد أن نفاضل بين محمد وموسى، وعند اليهود لو فضلنا محمدًا لذهبوا يفضلون موسى ويحتقرون محمدًا فحينئذٍ يجب الكفُّ.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله وعد هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم الأجور؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** تمام منة الله سبحانه وتعالى على العباد حيث سمى الثواب أجرًا، ومن المعلوم: أن الأجر ثابت لزومًا للمستأجر، ومن أوجب هذا الأجر؟ أوجبه الله على نفسه، وهذا يدل على تمام فضل الله عز وجل ومنته، أما كيف هذه الأجور؟ فإن الله تعالى بين في كتابه وكذلك السنة أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويختلف الأجر باختلاف الأشخاص واختلاف النيات واختلاف المتابعة، أما اختلافه باختلاف الأشخاص فكما قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا

نَصِيفَهُ»(١)، هذا لأنهم أصحابه، فهذا باعتبار الأشخاص، وكذلك أخبر النبي ﷺ عن أيام الصبر أن للعامل فيهن أجر خمسين من الصحابة، والمراد: أن ما يلحقه من المشقة في العمل يقابل خمسين مرة من أعمال الصحابة؛ لأن الصحابة كلهم مؤمنون، وكلهم مستقيمون لكن أيام الصبر كل الناس على خلاف هذا الرجل الذي قام بطاعة الله غريب بينهم، ومن المعلوم أنه إذا كان غريبًا بينهم فسوف تشق عليه العبادة، فمن أجل ذلك صار للعامل فيهن أجر خمسين واحد من الصحابة، وهذا لا يعني الفضل المطلق على الصحابة؛ لأن هؤلاء فاقوا الصحابة في مشقة العمل فقط، أما الفضل المطلق فهو للصحابة، ويكون أيضًا بحسب الإخلاص أي: الأجر، فمن كان أخلص لله كان أكثر ثوابًا حتى إن الله قال في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢)، وكذلك يختلف باختلاف المتابعة فمن كان للرسول ﷺ أتبع كان أجره أكثر حتى قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله: الغفور والرحيم؛ فالغفور في مقابل الذنوب، والرحيم في مقابل الثواب والحسنات؛ لأن المغفرة تتعلق بالذنب والرحمة تتعلق بحصول المطلوب من الثواب والأجور.

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٥٣]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ﴾، وفي قراءة: ﴿أَنْ تُنْزِلَ﴾، ومعناهما واحد، والخطاب في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ لرسول ﷺ وهو من الخطابات الموجهة إليه على وجه الخصوص فلا يتناول أمته، والخطاب الموجه إلى الرسول ﷺ إما أن يدل الدليل على أنه له وللأمة، وهذا واضح أنه يكون له وللأمة، وإما أن يدل الدليل على أنه خاص به، فهذا أيضًا واضح على أنه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

خاص به، وإما ألا يكون هناك قرينة تدل على هذا ولا على هذا، فالأصل أنه له وأمته تبع له فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، هنا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولهذا قال ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ولم يقل: لك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، هذا يدل على أنه له ولأمته، ومثل هذه الآية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهذا له فقط، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أيضًا له فقط، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ له فقط.

وقوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهل الكتاب هم: اليهود والنصارى، ولكن اليهود كانوا في المدينة أكثر من النصارى بكثير فيوجد نصارى لا شك لكن اليهود كانوا أكثر، وسبب كثرتهم في المدينة أنهم قرأوا في التوراة أنه سيُبعث نبي ويكون خاتم الأنبياء وشريعة خاتمة الشرائع، وأنه مهاجر إلى المدينة فجاءوا من فلسطين؛ لأن بني إسرائيل كان محلهم فلسطين فجاءوا من فلسطين إلى المدينة ينتظرون بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ويقولون للمشركين: سيُبعث نبي ونكون أتباعًا له ونغلبكم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، فهذا هو السبب أنه وجدت ثلاث قبائل من اليهود في المدينة، فأهل الكتاب هنا من حيث الأصل يشمل اليهود والنصارى، لكن أكثر ما يكون في المدينة اليهود.

وقوله: ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا السؤال هل هو للتحدي أو لإقامة البينة ـ كما يدعون أنه ليس برسول ـ؛ لأن الكتب السابقة كانت تنزل من السماء لاسيما التوراة، فإن الله كتب لموسى في الألواح من كل شيء وأنزلها عليه، فكأنهم يقولون: إما أن تأتي بكتاب من السماء فنصدقك، وإما أن تكون كموسى ينزل عليه الكتاب من السماء فتكون نبي، فالآية تحتمل هذا وهذا، أما قريش فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني: أنه لا يمكن أن يكون ملك بصورة الملائكة ثم يخاطب البشر، فلو أن الله أنزل ملكًا إلى البشر لجعله بصورة البشر.

وقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعني: فلا تعجب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، وعلى هذا فهي تكون فقط جملة معطوفة على مقدَّر دل عليه السياق، والمعنى: إذا سألوا هذا فلا تستغرب ولا تستكبر هذا السؤال فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ما الذي سألوه؟

قال الله عنهم: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ـ والعياذ بالله ـ وهؤلاء هم القوم السبعون الذين اختارهم موسى للقاء ربه قال الله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾، فجاءوا لميقات الله وسمعوا الله عز وجل بآذانهم يكلم موسى، ومع ذلك لم يصدقوا وقالوا: أرنا الله جهرة، وإلا فلست بصادق وهذا الذي نسمع ليس كلام الله، فأخذتهم الصاعقة وماتوا في آن واحد، ولكن

موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يحييهم وقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾، فأحياهم الله ثم صاروا في بني إسرائيل، والحاصل في هؤلاء أنهم قالوا قولًا أعظم مما طُلب من الرسول فقالوا: أرنا الله جهرة، يعني: ننظره بأعيننا، وهذا شيء مستحيل؛ لأنه حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يرون الله في الدنيا فكيف هؤلاء القوم العتاة المعاندين؟!

فيقول عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: أنهم صُعقوا فهلكوا بسبب ظلمهم، و(الباء) هنا سببية فما هو ظلمهم؟ أنهم اعتدوا بالدعاء فقالوا: أرنا الله جهرة، وهذا عدوان عظيم لا بالنسبة لموسى ولكن بالنسبة للرب عز وجل، فإن مثل هذا لا يمكن أبدًا، ومن دعا بما لا يمكن فقد اعتدى في الدعاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (اتخذوا) المفعول الثاني محذوف أي: إلههم، و(ثم) ترتيب ذكر، يعني: أضف إلى هذا الأمر المنكر منكرًا آخر وهو اتخاذهم العجل إلهًا وما هذا العجل؟ هو عجل جماد اصطنعوه لا حيوانًا، فقد استعاروا حليًا ثم صنعوه على هيكل عجل، وجعلوا داخله مجوف وجعلوا له ثقبًا في رأسه وفتحة في دُبُرِهِ فيوجهونه إلى الريح مستدبرًا إياها فتدخل الريح في هذا المجوف من الثقب الواسع وتخرج من ثقب ضيق أمامي، وبطبيعة الحال سوف يكون لها صوت له خوار كخوار العجل، وقوم العجل هؤلاء ثيران قال لهم السامري: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ يعني: أن موسى ضل وضاع عن الإله؛ لأنه كان قد واعده ربه ثلاثين ليلة فأتمها الله بعشر حتى صارت أربعين فقال: موسى يبحث عن الإله وهو قد ضاع، وهذا هو الإله فاتخذوا هذا العجل الذي صنعوه بأيديهم إلهًا يعبدونه ونصحهم هارون وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فماذا كان الجواب؟ ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾، ونعرف أن موسى لم يضل إلهه وأن له إله سوى هذا فبقوا على عبادة العجل، وهذا أيضًا منكر عظيم حيث جعلوا مع الله إلهًا آخر صنعوه بأيديهم ثم صاروا كالصبيان تدخل الريح من الدُّبر وتخرج من الفم ويظنون أن هذا خواره وإذا كان إله يخور فما الفائدة منه؟!! ولكن هذا يدل على سفه عقولهم، وأنهم على حد كبير من الضلال.

وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يعني: الآيات البينات، والبينات يعني: الظاهرات التي ليس فيها إشكال؛ لأن موسى آتاه الله تسع آيات بينات واضحة جلية يغني عنها آية واحدة، حيث كان يلقي عصاه ـ وهي عصى جماد كانت معه يهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى كالدفاع عن نفسه وما أشبه ذلك ـ فتنقلب في الحال ثعبانًا مبينًا، وهذه من أعظم الآيات، ثم إنها ليست حية وهمية تخيلية ـ كما هو في صنيع السحرة ـ بل هي حية حقيقة تتحرك وتأكل وتبلع بإذن الله عز وجل، فهم ملأوا الدنيا من السحرة وملأوا الدنيا حبالًا وعصيًا وصار يُخيل إلى موسى أنها تسعى حتى أوجس في نفسه خيفة، فألقى هذا العصا وبدأت تلتهم هذه الحبال والعصيّ ـ وسبحان الله ـ في لحظة تذوب هذه الحبال

والعصي ثم تبتلع أخرى، يعني: خلاف المعتاد، فالمعتاد أن الطعام يدخل الجوف ويبقى مدة ويتحول إلى دم ثم تخرج الفضلات، لكن هذه ـ بإذن الله ـ تبلع، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه يخرج سريعًا منصهرًا خالصًا، وهذا من آيات الله عز وجل، ومع ذلك جاءتهم البينات وشاهدوها لكن اتخذوا العجل إلهًا.

وقوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ عفا الله عنهم؛ لأنهم أُمروا بالتوبة ـ لكنها توبة شديدة منَّ الله علينا مع شرف هذه الأمة الإسلامية المحمدية برفعها ـ وهي أن يقتلوا أنفسهم، وهو ليس معناه أن يقتل كل واحد نفسه لا، بل يقتل بعضهم بعضًا، لكن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة، وأُدخلت عليهم الظلمة وأخذوا خناجر وسكاكين وجعل الواحد منهم يقتل من والى ولو كان أباه وأمه، فلما علم الله منهم صدق رجوعهم إلى الله وامتثال الأمر؛ لأن كون الإنسان يؤمر بأن يقتل قومه، فهذا من أشد ما يكون على النفوس، فلما انقضوا وذلوا إلى هذا النوع من التوبة فرفع الله عنهم ذلك وعفا عنهم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: أعطيناه سلطانًا مبينًا، والسلطان في كل موضع بحسبه، فسلطان الأنبياء هي: آياتهم؛ لأنها حجة قوية يتسلطون بها على من أنكر، فهذا السلطان الذي أوتي موسى وهي الحجج والبراهين الدالة، حتى إن الله عز وجل كتب له في التوراة من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء، والعموم هنا أي: لكل شيء يحتاجه بنو إسرائيل كما في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَم زمانهم وليس على كل العالمين حتى الأمة هذه فقوله في التوراة: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاجه بنو إسرائيل في عهدهم، لكن هذا الكتاب المبين الذي قال الله فيه: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، هذا يعم كل شيء؛ لأنه كتاب للأمة إلى يوم القيامة، فلابد أن يكون قد أتى بما تحتاجه الأمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ من أبان، ولكن هل هو أبان اللازم أم أبان المتعدي صالح لهما؟ لأن كلمة أبان هي كلمة رباعية فتكون لازمة كما يقال: أبان الصبح، فهذه لازمة يعني: بان، وتكون متعدية كما تقول: أبان لي هذا الرجل ما أشكل عليَّ، فهل السلطان الذي آتاه الله موسى مظهر للحق أو هو بيِّنٌ بنفسه؟ قلنا: كلاهما، وهذا مبني على القول الراجح وهو جواز استعمال المشترك في معنيين، والمشترك: ما تعدد معناه واتحد لفظه يعني: لفظ واحد يصلح لمعنيين فأكثر، مثل كلمة (العين) فتكون للعين الباصرة، وتكون للذهب، وتكون للشمس وتكون للماء الجاري، فهل يمكن أن يُستعمل المشترك في جميع المعاني التي يصلح لها؟ نقول: يمكن لكن لابد من قرينة، ولابد ألا يتنافى المعنيان، فقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال العلماء: عسعس كلمة تصلح للإقبال والإدبار أي: إذا أقبل وإذا أدبر، فهل يصلح أن نقول: إن عسعس هنا بمعني أقبل وأدبر؟ لا يصح؛ لأنهما يتنافيان حيث يقسم الله تعالى بالليل حين إقباله، وذلك عند غروب الشمس، ويقسم بالليل حين إدباره وذلك عند طلوع الشمس؛ إذن ﴿مبينًا﴾ هنا ما دامت صالحة للمتعدي

واللازم فهي من المشترك، ويجوز أن أستعملها في المعنيين؛ لعدم التنافي بينهما.

١ـ من فوائد الآية الكريمة: دليل على تعنت بني إسرائيل أو على تعنت أهل الكتاب وهذان اللفظان هما المطابقان للقرآن، وكلما أمكن أن تأتي باللفظ الذي هو لفظ القرآن والمطابق له فهو أولى.

٢ـ ومن الفوائد: دفاع الله تعالى عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه سلَّاه بقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ وإلا فمن المعلوم أن الرسول ﷺ إذا طلب منه أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتابًا من السماء وهم أهل كتاب، أن هذا سيكون في قلبه حرج منه؛ لأن أهل الكتاب معروفون عند الجاهلين بالعلم مما في أيديهم من الكتب، فإذا قالوا: أنزل علينا كتابًا من السماء، ولكنه لم يفعل لابد أن يكون في قلبه شيء وأنه سوف يلحقه من الغم والهم ما يلحقه، فدافع الله عنه وقال له: لا تتعجب ولا تستكبر هذا السؤال فقد سألوا موسى أكبر منه.

٣ـ ومن الفوائد: أن بني إسرائيل كما آذوا موسى آذوا محمدًا ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، وأهل الكتاب آذوا الرسول محمدًا ﷺ وهمُّوا بقتله كما في قصة بني النَّضير، وكذلك قتلوا قواه؛ حيث أهدوا إليه في خيبر شاة فيها سمٌّ، ولكن لَفَظَهَا إلا أنها أثرت في قوته ﷺ لما فيها من ألم حتى قال في مرضه: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي، وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ مِنِّي»؛ ولهذا ذهب بعض التابعين ـ وأظنه الزُّهري ـ إلى أن محمدًا ﷺ من النبيين الذين قتلتهم بنو إسرائيل.

٤ـ ومن الفوائد: أن سؤال الإنسان أن يرى الله جهرة من أكبر العدوان؛ لقوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، وهل يؤخذ منه أنه يمتنع أن يرى أحد ربه؟ نعم الظاهر أنه يؤخذ منه؛ لأن الله قال: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ لأنه لو كان يمكن لكان، لكنه لا يمكن أن يُرى الله في الدنيا، ويدل لهذا أن موسى ﷺ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، لكن قوله ليس كقول هؤلاء: أرنا الله جهرة، فبينهما فرق؛ سأل موسى الرؤية شوقًا إلى الله عز وجل ومحبة لرؤيته، لكن بنو إسرائيل قالوا ذلك تحديًا وعنادًا واستكبارًا، وقد قال الله له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ثم ضرب الله مثلًا فقال: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ على ما هو عليه ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ ماذا صار؟ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فاندك وصار كالرمال، فلما رأى موسى هذا الأمر العظيم خرَّ صعقا أي: أغمي عليه ولما فاق قال: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لم أسأل هذا إنكارًا أو جحودًا، فأنا أول المؤمنين، لكن أتوب إليك مما سألت؛ لأن هذا السؤال لا يجوز ومحمد ﷺ هل رأى الله؟ لا لم يرَ الله على كل الأقوال لأن النبي ﷺ سُئل: هل رأيت ربك؟ قال: «رَأَيْتُ نُورًا»، وفي رواية: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟» يعني: كيف أراه وتوجد حجب عظيمة من النور قال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ

وَجْهِهِ»[١] أي: بهاؤه وعظمته، «مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» والمعنى: لأحرقت سبحات وجهه كل شيء؛ لأن بصره ينتهي إلى كل شيء، فمن هذه العظمة كيف يمكن لنا أو لأحد في الدنيا أن يرى الله؟! لا يمكن فالرسول ﷺ لم ير ربه على كل الأقوال أولًا: من قوله هو نفسه قال: «أَنَّى أَرَاهُ؟»[٢] وفي لفظ آخر: «رَأَيْتُ نُورًا» يعني: نورًا حجب الرؤية، وعائشة أنكرت ذلك وقالت: (من زعم أن محمدًا قد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)[٣]، أما الرؤية التي أثبتها ابن عباس فهي رؤية القلب التي قويت حتى صار كالوشاح وهذا الأقرب من قول ابن عباس؛ لأن ابن عباس أفقه من أن يظن أن محمدًا يرى الله عز وجل وهذا تعليل ابن تيمية.

والخلاصة: أن هذه الآية فيها إشارة إلى أنه لا يمكن رؤية الله في الدنيا، والآية الأخيرة التي في سورة الأعراف صريحة.

٥- من فوائد هذه الآية الكريمة: تعنت بني إسرائيل وعنادهم حيث كانوا يسمعون كلام الله، ولكنهم قالوا لنبيهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

٦- ومن الفوائد: أن الذنب كلما عَظُمَ كان أسرع للعقوبة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، والفاء تدل على الترتيب والتعقيب؛ ولهذا أخذتهم الصاعقة في الحال فماتوا جميعًا.

٧- ومن الفوائد: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى حيث أهلكهم جميعًا وهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، ففي يوم القيامة عند قيام الساعة يُنفخ في الصور فيصعق كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله في لحظة واحدة وينفخ فيه أخرى فيقوم الناس من قبورهم في لحظة واحدة.

٨ - ومن الفوائد: إثبات السبب وأن له أثرًا في حصول المسببات؛ لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، فإن الباء للسببية، وهذه المسألة ذكر بعض العلماء أن عليها من كتاب الله ألف دليل وهي إثبات الأسباب وتعليل الأحكام.

٩- ومن فوائدها: أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا؛ لقوله: ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، وليس أخذ الله إياهم مجرد مشيئة، ولكن لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٠- ومن الفوائد: بيان سفه بني إسرائيل وأنهم مع عنادهم واستكبارهم أهل سفه، وذلك بعبادتهم العجل واتخاذهم إياه إلهًا؛ لقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨)، والترمذي (٣٢٨٢).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣٤)، و مسلم (١٧٧).

١١- ومن فوائدها: أنهم اتخذوا ذلك عن علم فليس لهم عذر؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، ومعلوم أن المذنب بعد العلم أشد من المذنب عن غير علم، بل إن المذنب عن غير علم لا أثر لذنبه على القول الراجح.

١٢- ومن فوائد أيضًا: أن ما جاءت به الرسل فهو حجة ظاهرة لا تخفى إلا على من أعمى الله قلبه كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

١٣- ومن الفوائد: بيان شمول عفو الله حيث قال: ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ﴾.

١٤- ومن فوائدها: عظمة الرب عز وجل، وذلك بعود الضمير إلى الله تعالى في صيغة الجمع فإن قوله: ﴿فَعَفَوۡنَا﴾ لا شك أنه للتعظيم وليس للتعدد كما زعم النصراني الخبيث، فإن النصراني يقول: الآلهة متعددة وهذا موجود في القرآن قال الله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وقال أيضًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾وما أشبه ذلك فيقال له: إن هذا للتعظيم وأنت من الذين في قلوبهم زيغ تتبع المتشابه وإلا فعندك آيات محكمات ظاهرات مثل قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولكن هذا الذي في قلبه زيغ هو الذي يتبع المتشابه.

١٥- ومن الفوائد: أن الله تعالى أعطى موسى حججًا بينة لا تقع على أحد؛ لقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ هذا هو ظاهر الآية، وإن كان بعضهم قال: سلطانًا على بني إسرائيل، لكن الصواب ما ذكرنا أن السلطان يعني: الحجج الظاهرة البينة، وقد مضى علينا أن الله آتاهم تسع آيات بينات قال جل وعلا: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ هذه خمس بعدها العصا واليد، وبعدها ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ هذه تسع، وهذه الآيات سلطان وتبيان وحجة، وأرسلنا عليهم الطوفان يعني: الغرق فأغرق الثمار قبل أن تخرج، والجراد أكلها بعد أن خرجت، والقمل أفسدها بعد أن خزنت، والضفادع أفسدت الماء، والدم الصحيح: أنه النزيف الذي يخرج به فائدة الغذاء.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا (١٥٤) فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٥٤، ١٥٥]

التفسير

قال تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ (رفعنا) الضمير يعود إلى الرب عز وجل، لكنه جاء بصيغة الجمع؛ تعظيمًا.

وقوله: ﴿فَوْقَهُمُ﴾ أي: فوق بني إسرائيل، والطور: الجبل المعروف وهو جبل عظيم كبير رفعه الله تعالى حينما تقاعسوا عن تنفيذ الأوامر فصار الجبل فوقهم كأنه ظلة حتى ظنوا أنه واقع عليهم، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ فآمنوا إيمان إكراه في الحقيقة؛ لأنهم هددوا بالموت والهلاك، فإيمانهم إيمان اضطرار؛ ولهذا لما سجدوا قال المفسرون: كانوا ينظرون إلى الجبل وهم سجود، وإلى الآن يقولون: أن اليهود يسجدون على طرف الجباه ما هي استقامة كأنما ينظرون إلى شيء يخافون أن يقع عليهم.

وقوله: ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي: رفعًا مصحوبًا بالميثاق؛ لأن الله تعالى أمرهم عند رفعه أن يأخذوا الكتاب بقوة، والميثاق هو العهد المؤكد.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: باب بيت المقدس، و ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ساجدين لله عز وجل؛ شكرًا لله تعالى على النعمة؛ لأن الله تعالى أمرهم أن يذهبوا إلى هذه القرية وأن يقاتلوا أهلها ولكنهم قالوا: إن فيها قومًا جبارين، والقصة مبسوطة في سورة المائدة، وبعد أن حصل عليهم التيه أربعين سنة أذن الله لهم بدخول القرية وقيل لهم: ادخلوا الباب سجدًا أي: حال كونكم ساجدين لله عز وجل، وهل المراد بالسجود حقيقته أو المراد بالسجود الذل والخضوع كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الظاهر الأول، ولكن لم يفعلوا ودخلوا على إستاهم، والإست هي الدُّبر، والمعنى: أنهم دخلوا يزحفون -والعياذ بالله-؛ استكبارًا وقيل: إنهم دخلوا على أقفائهم، وقيل لهم: قولوا حطة، ولكنهم لم يقولوا حطة، بل قالوا: حنطة، فهؤلاء القوم لا يريدون إلا أن يأكلوا ويشربوا فقط كالبهائم.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾، وفي قراءة: ﴿لَا تَعَدُّوا فِي السَّبْتِ﴾ والتعدي والعدو بمعنىً واحد، لكن اختلف اللفظ، والمعنى: لا تعدوا في السبت بصيد الحيتان، وقد حُرمت عليكم، وكان اليهود قد حرم الله عليهم أن يصيدوا الحوت في يوم السبت؛ ابتلاء وامتحانًا فصارت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعًا يعني: شارعة طافية على سطح الماء وبكثرة، وكان اليهود -كما هو معروف من سيرتهم- أهل طمع وجشع فغرهم ذلك وقالوا: ما الطريق إلى أخذ هذه الحيتان التي تأتي يوم السبت شُرَّعًا وفي غير يوم السبت لا تأتي؟ فاحتالوا على ذلك بأن وضعوا شبكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتتساقط فيها، ثم يأتون يوم الأحد فيأخذونها فالفعل هنا ظاهره الإباحة؛ لأنهم ما تعدَّوا في السبت لكن المقصود منه انتهاك حرمة الصيد في يوم السبت؛ ولهذا

قيل لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فقُلبوا قرودًا؛ لأن القرد أشبه ما يكون من الإنسان، وهم بفعلهم هذا يشبه أن يكون حلالًا؛ لأنهم لم يصيدوه مباشرة يوم السبت، هل لما قيل لهم: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ امتثلوا؟ لا بل اعتدوا يوم السبت على وجه الحيل والمكر والخداع، ومن استحل المحرم بالحيلة فهو أعظم إثمًا ممن هو استحله بصراحة؛ لأنه إذا استحله بالحيلة يكون قد جمع بين مفسدتين: المفسدة الأولى: استحلال المحرم، والمفسدة الثانية: الخداع والتحايل على رب العالمين الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولهذا كان الذين يتحايلون على الرِّبا أعظم إثمًا من الذين يأكلون الربا على وجه صريح؛ لأنهم متحايلون يخادعون الله فيجمعون بين مفسدة الربا، والخداع، ولأن المتحايلين يرون أنهم على صواب فلا يكادون ينزعون عنه، والذي يأتي الشيء صريحًا ويعرف أنه أخطأ، فربما تلومه نفسه في يوم من الأيام حتى ينزجر.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا قويًّا على أن يقوموا بما أُمروا به، ولكنهم لم يقوموا بذلك ونقضوا العهد ولم يبالوا وكفروا بنعمة الله.

ثم أعقب الله ذلك بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ (الفاء) عاطفة و(الباء) تجر، و(ما) زائدة إعرابًا ولكنها زائدة معنىً؛ لأن كل حرف زائد إعرابًا فإنه يفيد التوكيد، والتوكيد لا شك زيادة في المعنى، وعلى هذا نعرب (ما) زائدة و(نقض) اسم مجرور بالباء؛ لأنه لو حُذفت (ما) لصار التركيب: فبنقضهم ميثاقهم، فأين متعلق الجار والمجرور بما نقضهم ميثاقهم؟ كلام الله يفسر بعضه بعضًا ففي سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، وعلى هذا فيكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف يفسره القرآن الكريم نفسه.

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أي: فبنقضهم ميثاقهم، وما نقض الميثاق؟ نقض الميثاق المخالفة فيه كأن يكون بينك وبين آخر عهد ثم تخالف، هذا هو نقض الميثاق، وهؤلاء خالفوا ما أُمروا به ولم يقوموا به فنقضوا الميثاق.

وقوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الكونية أم الشرعية؟ الظاهر: العموم يعني: وبكفرهم بآيات الله وذلك حين كفروا بموسى واقترحوا عليه أن اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، وغير ذلك مما يعرف من سيرة هؤلاء القوم، ومن أراد أن يعرف شيئًا من سيرتهم فليعد إلى كتاب «إغاثة اللهفان» لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فإنه بيَّن معايبهم ومخازيهم.

وقوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لفظ (قتلهم) فيه ثلاث قراءات: الأولى: قَتْلِهُمُ الأنبياء بضم الهاء والميم، والقراءة الثانية: كسر الهاء وضم الميم، القراءة الثالثة: كسر الهاء والميم، وكلها قراءات سبعية يجوز للقارئ أن يقرأ بها، ولكن إنما يحسن ذلك لطالب العلم، أما العامي فلا يسمح بقراءة

غير التي في مصحفه؛ لأنك لو أسمعته قراءة أخرى لهان القرآن في قلبه أو لغلّطك وقال: إن هذا يتخبط بكتاب الله عز وجل كما أنكر عمر رضي الله عنه على هشام بن الحكم حين قرأ الآية في سورة الفرقان على خلاف ما كان يقرأها عمر حتى تنازعا إلى النبي ﷺ، فالعوام إذا قرأت لهم بخلاف ما في أيديهم لا شك أنهم سوف ينكرون عليك إنكارًا عظيمًا، وإن كنت على حق، ثم لو قدرنا أنهم وثقوا بك فسوف يهون القرآن في نفوسهم، والإنسان يجب عليه أن يجعل تعظيم القرآن في قلوب الله أعلى كل شيء ولا يعظِّم سوى الله عز وجل.

وقوله ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ الأنبياء جمع نبي، فإن كان نبيء بالهمزة فيقال: الجمع أنبئاء، وإن كانت بالياء فيقال: الأنبياء وكلتاهما قراءتان.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ هذا بيان للواقع وليس قيد احتراز؛ لأنه لا يمكن قتل النبي بحق، لكنه بيان للواقع وأن قتل النبي ليس بحق، والقيد الذي لبيان الواقع يفيد العلية يعني: كأنه قال: وقتلهم الأنبياء؛ لأن قتل الأنبياء بغير حق.

وقولهم ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ أي: إذا دُعوا إلى الحق قالوا: قلوبنا غلف، والغُلف جمع أغلف، والأغلف: هو المغلَّف الذي عليه غلاف لا يصل إليه شيء فهم يقولون هكذا، وهذا كقول قريش: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وقريش أعظم لأنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾، وبني إسرائيل قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ وقريش زادت فقالت: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ فلا نسمع، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فلا نرى، فأهل قريش سدوا جميع الطُّرق فالقلوب لا تفهم والآذان لا تسمع، والعينان لا تُبصر مع أن الحق أبلج وأوضح ما يكون.

قال الله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ (بل) هنا للإضراب الإبطالي يعني: بل ليس في قلوبهم غلف إلى آخره... ولكن طُبع عليها بكفرهم؛ لأن الأصل والفطرة ودين الإسلام ما يرد عليها مما لا يوصل الحق إلى القلب فهو وارد وليس أصليًّا فيها، فكأن الله كذبهم بأن القلوب ليست غلفًا، ولكن طبع عليها بعد أن كانت على الفطرة بكفرهم، ومعنى ذلك: أنه جعل عليه طابعًا والشيء المختوم يجعل عليه طابعًا، وقوله: ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ (الباء) للسببية أي: بسبب كفرهم طُبع على قلوبهم فلا يصل إليها الخير؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ اختلف العلماء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فقيل: إن المعنى: لا يؤمنون أبدًا، وأن مثل هذا التعبير جارٍ في لسان العرب يعني: لا يؤمن إلا قليل فهو نفي للكل، وقيل المعنى: إلا قليلًا منهم فيكون الاستثناء من الواقع فلا يؤمنون إلا قليلًا منهم، وعلى هذا فينقسمون إلى قسمين: مؤمن وهو الأقل، وكافر وهو الأكثر، وقيل: إن ﴿قَلِيلٗا﴾ تعود على الإيمان أي: لا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا، ثم هل المعنى: إلا ضعيفًا أو إلا قليلًا في الزمن بمعنى: أن أكثر وقتهم الكفر، وقد ينقدح الإيمان في قلوبهم، ولكن سرعان ما ينطفئ؛ لأنه

ليس على أساس؟ كل هذا محتمل، والسياق لا ينافيه، فيقال: إن منهم المؤمنين وإن منهم الكافرين، والكافرون أكثر، ثم المؤمنون هل هم مستقرون على الإيمان مستمرون عليه؟ لا، ثم هل إيمانهم إيمان قوي راسخ؟ والراجح: لا، وعلى هذا فالآية صالحة لجميع هذه الاحتمالات.

الفوائد:

١- في هذه الآية: بيان قدرة الرب عز وجل، وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يرفع هذا الجبل العظيم؟! ثم من الذي يستطيع أن يرفعه فوق رؤوسهم ليس عليهم حتى يموتوا ولا رفعًا بعيدًا؛ حتى يؤمنوا، ولكنه فوق الرؤوس قريبًا.

٢- ومن الفوائد: أن إيمان بني إسرائيل عن إكراه؛ لأن أي قادر يقول سأسقط عليك حجارة إن لم تؤمن فإذا آمن ماذا يكون إيمانه؟ على إكراه، وعليه يكون إيمانه ضعيفًا مهزوزًا إذا زال الإكراه ربما يرجع إلى الكفر.

٣- ومن الفوائد: أنه يشرع عند فتح البلاد صلاة الفتح؛ لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ يمكن أن يؤخذ هذا على أساس شرع من قبلنا؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه، وقد قيل: إن شرعنا ورد بوفاقه فإن النبي ﷺ لما فتح مكة صلى ثمان رَكَعَاتٍ[1] ضحىً في بيت أم هانئ فقال فريق: إن هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: إنها صلاة الفتح؛ لأنه ليس من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أن يصلي صلاة الضحى ثمان ركعات، فتكون هذه صلاة الفتح، وأخذ بها بعض الخلفاء فكانوا إذا فتحوا المدينة صلوا صلاة الفتح، وما أقرب هذا القول من الصواب أن صلاة النبي ﷺ الضحى حين فتح مكة كانت صلاة الفتح؛ شكرًا لله عز وجل على ما أنعم به من الفتح ولاسيما إذا كان الفتح فتحًا لعاصمة، فإن بني إسرائيل فتحوا بيت المقدس وهو عاصمة، ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فتح أم القرى - مكة - وهي عاصمة القرى كلها.

٤- ومن الفوائد: أن لله تعالى أن يحرِّم الحلال في زمن ويحله في زمن آخر؛ لأنه حرم عليهم الصيد يوم السبت.

٥- ومن الفوائد: أن اليهود أهل مكر وخديعة؛ حيث اعتدوا في يوم السبت.

٦- ومن فوائدها: أن المتحايل على المحرم ولو بما صورته الإباحة يعتبر واقعًا فيه كيف ذلك؟ لقوله: ﴿لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، فاعتدوا فيه بهذه الحيلة، إذنْ فمن تحايل على محرم بصورة المباح فهو واقع في المحرم بل وزيادة.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يظهر الفرق التام بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل فهذه الأمة حرم الله عليها الصيد في حال الإحرام لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٠٤)، و مسلم (٣٣٦).

ثم ابتلاهم بإرسال الصيد عليهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾، فالطائر يناله الرمح والزاحف تناله اليد، الزاحف مثل الأرانب والغزلان وما أشبه ذلك يناله الإنسان بيده، والطائر يناله الرمح دون السهم، وهذا ابتلاء قال الله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فماذا كان من الصحابة؟ تجنبوا الأمر مع أنه سهل عليهم، لكن هذه الأمة أمة (سمعنا وأطعنا).

٨ - ومن الفوائد: أن من تحيل على ما حرَّم الله من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود، سواء كان في البيع أو في الشراء أو في ما أحل الله من الطعام أو حرم أو في النكاح؛ ولهذا سمى النبي ﷺ المحلل: «التَّيْسَ الْمُسْتَعَارَ»(١).

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله جل وعلا لم يعذب عباده إلا بعد أن قامت عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا قويًّا بينه وبين الخلق ثم هم ينقضون عهدهم فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب الشرعية، وكذلك إثبات الأسباب القدرية من باب أولى؛ لقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، و(الباء) للسببية، وإثبات الأسباب المؤثرة في مسبباتها من مقتضى حكمة الله عز وجل؛ لأن الشيء لو وقع صُدفة لكان سفهًا، لكن إذا وقع الشيء مربوطًا بسبب دل ذلك على الحكمة والإتقان؛ لأن الذي يفعل الشيء اعتباطًا بدون سبب موجب له لا يعد حكيمًا، لكن الذي يفعل الشيء لأسباب ولمؤثرات فيه فهذا هو الحكيم، والله عز وجل قد ربط المسببات بالأسباب، ولكن يجب أن نعلم أنه لقصورنا ونقصنا قد نعلم السبب وقد لا نعلم، والناس في الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم فرَّط وقسم أفرط وقسم توسط، وخير الأمور الوسط؛ قسم فرط وقال: إنه لا أثر للأسباب إطلاقًا حتى النار التي تحرق الورق ليس لها أثر فيه، واحتراق الورق لم يكن بالنار، ولكن عند النار واحتجوا لذلك بأنك لو أثبت أن لها سبب تأثير في المسبب لأشركت بالله حتى قالوا: أي إنسان يثبت سببًا فهو مشرك في الربوبية، وقسم أفرط وجاوز الحد وقال: إن الأسباب مؤثرات بطبيعتها ولا يمكن أن تتخلف الأسباب، وهؤلاء أخطئوا أيضًا.

والقسم الثالث قالوا: إن الأسباب مؤثرة لا بنفسها ولكن بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة وهؤلاء هم أهل الحق سواء كان السبب قدريًّا أو كان السبب شرعيًّا، ولذلك نجد بعض الأشياء المشروعة لها أسباب وموانع مثل: الإرث له سبب وله مانع، فربما يكون أبوك الذي يرث مالك كله إذا انفرد به لا يرث شيئًا مع وجود السبب؛ لوجود المانع؛ إذن السبب هو المؤثر الذي جعل الأبوة سببًا

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (١٩٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٩٦).

للإرث وجعل القتل مانعًا من الإرث، وكذلك أيضًا الأسباب القدرية فهذه النار محرقة لأن الله جعل فيها قوة الإحراق، ولما أُلقي فيها إبراهيم قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فانتفى الإحراق مع أنه سبب مؤثر بأمر الله، ولكن لم تعص لما قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليه قال أهل العلم: إن الله تعالى لو قال: كوني بردًا فقط لَهَلَكَ إبراهيم من البرد، لكن قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾؛ لئلا تهلكه بالبرد، فكانت بردًا وسلامًا عليه؛ إذن نحن نقول: إن الأسباب مؤثرة بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة لا بنفسها، وحينئذ لم نشرك وإنما قلنا بما تقتضيه ربوبية الله وحكمة الله، وهذا هو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نقض الميثاق سبب للعنة الله عز وجل.

١٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء احتجوا على قدر الله بشرعه حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، فأبطل الله ذلك، ويترتب على هذا أن كل من احتج بالقدر على الشرع فحجته داحضة، وقد أبطل الله هذا في قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة مقبولة ما أذاقهم الله بأسه، فإن قال قائل: أليس الله تعالى قد قال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فكيف ينفي احتجاجهم بأن شركهم بمشيئة الله ثم يثبت أن شركهم بمشيئة الله؟

الجواب عن هذا أن يقال: إن الله تعالى قال ذلك لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ تسليةً له وليس إقرارًا لهم على شركهم؛ ليسلي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى يتبين له أن شركهم هذا بمشيئة الله الكونية، وهنا ليس إشراكهم من جهة الفاعل ولكن من جهتهم وبإرادتهم، وأما قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فقصدهم بهذا الاحتجاج بالقدر على الشرع؛ ليستمروا على ما هم عليه من الباطل وفرق بين هذا وهذا.

١٣- **ومن الفوائد:** أن الكفر بآيات الله سبب في اللعن كنقض العهد والميثاق، ولكن يقال: إن نقض العهد والميثاق منه ما يصل إلى حد الكفر، ومنه ما دون ذلك، أما الكفر في مثل هذا السياق فالمراد به: الكفر الأكبر المُخرج من الملة.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآيات لله، وآيات الله تعالى نوعان: آيات كونية وشرعية، فالكونية أن جميع المخلوقات دالة على خالقها عز وجل، وعلى قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وغير ذلك مما يتعلق بهذه المخلوقات، والآيات الشرعية هي ما أنزله الله على رسله من الوحي؛ لأنك لو تدبرتها وجدت أنه لا يمكن لأي بشر أن يأتي بمثلها، وليس المراد الإعجاز اللفظي بل الإعجاز المعنوي، أما الإعجاز اللفظي فقالوا: إنه لم يثبت إلا في القرآن - فالله أعلم - لكن الآيات الشرعية التي جاء بها الرسول هي من آيات الله، ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها،

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى المكذبين الرسولَ بالآيات الكونية، والآيات الشرعية فقال تعالى في الآيات الكونية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فما يقدر أحد على خلق شيء، وقال في الآيات الشرعية: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، فلا يمكن هذا، ولو كان بعضهم لبعضٍ مساعدًا ومعينًا.

فآيات الله سبحانه وتعالى لا يكفر بها إلا المكابر، وإلا فإنه لا يمكن لأي إنسان إلا أن يقر حتى أعتى من نعلمه من أهل الأرض فقد كان مستيقنًا بالحق وهو فرعون، وقومه كذلك كانوا مستيقنين، ولكن جحدوا وقومه؛ ظلمًا وعُلوًّا وموسى عليه السلام يخاطب فرعون فيقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، هل قال فرعون: ما علمت أبدًا؟ لا بل سكت ولم يتكلم؛ لأن هذه آيات واضحة.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: عتو بني إسرائيل، حيث اعتدوا على من أتوا بشرع يهدون الناس به فقتلوا الأنبياء بغير حق، بل قتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس ولو كانوا غير أنبياء، فكل من يأمر بالقسط من الناس فإن بني إسرائيل يريدون قتله والذي يقدرون على قتله يقتلونه؛ لأنهم يريدون الفساد في الأرض.

١٦- ومن الفوائد: أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق؛ لأن هذا بيان الواقع وليس قيدًا احترازيًا، وهو كثير في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، والله لا يدعو لما يميت أبدًا لا يدعو إلا لما فيه الحياة.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى يطبع على القلب بالكفر بمعنى أن الإنسان إذا كفر ولم يعرف فيه الخير طَبع الله على قلبه، كقوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وهذا يقتضي احتجاجًا بالقدر ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وهناك أيضًا آية تبين هذا أعظم بيان، أن مَنْ زاغ عن الحق فهو السبب وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فلا يمكن لأحد أن يزيغ إلا وهو السبب في زيغ نفسه.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من طَبَعَ الله على قلبه فإنه لا يؤمن إلا قليلًا يعني: إلا إيمانًا قليلًا لا يقوى به على الاستقامة، وقد سبق لنا أن قليلًا هذه فيها ثلاثة احتمالات وأن الآية تعم الجميع؛ لأن لدينا قاعدة في التفسير ينبغي ألا تغيب عن أفهامنا: أنه متى احتملت الآية أكثر من معنىً بدون أن يكون هناك تناقض فإنها تحمل على كل المعاني.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦-١٥٨]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ هذا هو الراجح، وإن كان فيها خلاف عند بعض أهل العلم، لكن هذا أرجح ما يكون، وبكفرهم هذا توكيد على أنهم كفروا كفرًا أكبر أُكِّد بهذا التكرار قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ومريم: هي بنت عمران وأخت هارون، وهنا إشكال كيف تكون أختًا لهارون وبين هارون وبينها سنين طويلة؟! أورد هذا على الرسول ﷺ فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهم» وأن هارون أخو مريم ليس هو هارون أخو موسى لكن كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، حتى وصل إلى هارون أخي مريم بنت عمران، وقد وصفها الله تعالى بأنها أحصنت فرجها وأنها أبعد ما يكون عن البغي مع أن بني إسرائيل قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ هذا نفي يمدحون لكنهم لا يمدحون بذلك أباها وأمها بأن أباها ليس امرأ سوء، وأمها ليست بغيًّا، فالمراد به: رميها بالزنا كأنهم يقولون: من أين جاء لك هذا والأم طاهرة والأب بعيد عن السوء؟ ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن القذف بتولية يجب به الحد، فلو تنازع شخصان قال أحدهم للآخر: الحمد لله أنا محصن الفرج عفيف ما زنيت، فالمعنى: أنه بالعكس؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يجب أن يحد، لأن هذا التعريض أشد.

وقوله: ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حيث قالوا: إنها كانت بغيًّا، ويلزم من ذلك أن يكون عيسى عليه السلام أحد الأنبياء أولي العزم من ولد الزنا ـ والعياذ بالله ـ وهذا بهتان عظيم، ونظير ذلك ما وقع من المنافقين في عائشة في قصة الإفك قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضًا مما ادعاه اليهود - بنو إسرائيل - حيث قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم، فذكروه باللقب والاسم والكنية؛ فالمسيح لقب والاسم عيسى، وابن مريم: الكنية؛ حتى لا يقع اشتباه فيه، وهذا من باب التوكيد - توكيد العين والشخص - بأنه هو المراد، أما ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فقد اختلف المفسرون فيها هل هذا من قولهم أم من قول الله؟ فقال بعض أهل العلم: إنه من قول الله يعني: لما قال هؤلاء: المسيح عيسى بن مريم وهم لا يقرون بأنه رسول؛ إذ لو كان رسولًا ما قتلوه، لكن الله تعالى كأنه يقول: إنه لا يستحق أن يقتل؛ لأنه رسول. وقال بعض المفسرين: إن هذا من كلامهم، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم يعني: الذي يزعم أنه رسول الله، وأن هذا كقول قريش للرسول ﷺ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كيف نُزل عليه الذكر وتقولون إنه مجنون؟! لكن هذا من باب التهكم، وعلى كل حال: القرآن عظيم فجاء بهذه الصيغة من أجل أن يدير الإنسان فكره في كل ناحية يتأمل أيها أحق، ويمكن أن يقال: قاله الله تعالى تعظيمًا وتكريمًا لعيسى عليه الصلاة والسلام، وقالوه استهزاءً وتهكمًا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ القتل موجود فهم قالوا: إنا قتلنا المسيح، لكن أين الصلب؟ يقول العلماء: هذا من باب حذف المعلوم بالسياق كأنهم قالوا: قتلنا وصلبنا،

لكن قوى ذكرهم اكتفاء بما سيذكر في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، وهم قالوا: إن قتلناه وصلبناه، والصَّلب: أن توضع خشبة على طول جسد المصلوب ويوضع على حذاء عضديه عارضة، ثم يوقف ويشد على هذه الخشبة، وتربط يداه على العارضتين، ولذلك لسفههم وضلالهم وقلة عقولهم اتخذوا الصليب الذي صُلب عليه نبيهم إلهًا، وعلى الأقل مقدسًا مع أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا إذا رأوا الصليب كسروه وأوقدوا عليه النار، لكنهم سفهاء وضُلّال لا يميزون بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: ألقي شبهه على شخص آخر فقتلوا هذا الشخص وصلبوه وقالوا: قتلنا المسيح، وقد اتفق جميع الذين كانوا حاضرين معه على أنه رُفع كما قال الله عز وجل، ونحن لسنا بحاجة لشهادة أحد، بل بشهادة الله عز وجل من الذي شبه؟ قيل: إن الذي شبه هو نفس الذي دل اليهود عن عيسى؛ لأن اليهود كانوا يبحثون عن عيسى وعيسى كما تعلمون كان يسيح في الأرض هو وأمه؛ خوفًا على نفسه من اليهود فقيل لهم: إنه كان في البيت الفلاني فأرسلوا أُمَّةً لقتله، وكان دليلهم واحد منهم فلما وصلوا إلى البيت الذي كان فيه وأصحابه أحد عشر نفرًا أو إثنا عشر، دخل الذي يدل عليه ليتأكد فلما دخل ألقى الله عليه شبه عيسى - سبحان الله - فدخل اليهود فأمسكوه، وقالوا: عيسى عيسى!! فقال: أنا صاحبكم قالوا: أنت عيسى فقتلوه وصلبوه، أما عيسى عليه الصلاة والسلام فيقال: إن الله فتح له كوة في الجدار وخرج من غير

الباب، ورفعه الله إليه وقيل: إن الذي شُبِّه رجل من قوم عيسى قال عيسى لقومه الثلاثة عشر نفرًا: من يصبر على القتل فيلقي الله عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فقام شاب منهم فقال: أنا فكأنهم استصغروه فأعادها مرة ثانية وثالثة فقال: أنا، قال: أنت ذاك فألقى الله شبهه عليه ونجا عيسى[1]، وهذا الشاب هو الذي دخل اليهود عليه فقتلوه وصلبوه، يقول عز وجل: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، أما عيسى فيذكر الله أنه رفعه إليه.

فقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ فقيل: إنه عيسى، وقال بعضهم: إنه ليس عيسى، كأن الشبه ليس تامًّا، ففيه ملامح عيسى، وفيه ملامح غيره ولذلك اختلفوا، فمنهم من قال: قتلنا عيسى، ومنهم من قال: لم نقتله؛ لأن الشبه لا يقتضي المماثلة، ولعلهم لقوة انفعالهم لم يتأنوا كثيرًا فألقى الشبه على واحد منهم أو على من في البيت فقتلوه ثم بعد قتله تنازعوا هل حقيقة أنهم قتلوا عيسى أو لا؟ فاختلفوا فيه، وهؤلاء الذين اختلفوا لم يختلفوا عن علم، ولكن عن شك، منهم من قال: قتلناه، ومنهم من قال: لم نقتله وصار هذا في النهاية اختلافًا دينيًّا، فمن النصارى من قال: إنهم قتلوه، ومنهم من أنكر وقال: إن الذي قتلنا الشبه شبه عيسى والجسد ليس جسده، وهم اليهود، فمنهم من قال كذا ومنهم من قال كذا، والنصارى أيضًا اتبعوهم في اختلافهم.

يقول عز وجل: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفى الله عنهم أن يكونوا عالمين ووجه ذلك: أن العلم إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع إدراكًا جازمًا، وهؤلاء لم يصلوا إلى هذا الحد، بل نعلم أنهم لا يعلمون هذا؛ لأنهم ما قتلوه وما صلبوه، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ و(ما) هنا نافية وهل هي حجازية أم تميم ية أم حجازية لم تكمل شروطها؟ حجازية لم تكمل شروطها، وما الذي لم يكتمل من الشروط؟ عدم الترتيب بين اسمها وخبرها، وابن مالك يقول رَحِمَهُ اللهُ في «الألفية»:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ ... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ

أي: علم، وهنا الترتيب مختلف فلو قلت: ما زيد قائمًا كنت حجازيًّا، ولو قلت: ما زيدٌ قائمٌ كنت تميميًّا، وقال الشاعر يصف معشوقته:

وَمُهَفْهَفِ الأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسِبْ ... فَأَجَابَ مَا قَتْلُ المُحِبِّ حَرَامُ

إذن (ما) هنا تميمية، ولو كانت حجازية لقال: ما قتل المحب حرامًا، لكن لا تعمل عمل ليس عند الحجازيين إلا مع الترتيب وبقاء النفي، وهنا لا ترتيب وكذلك نعرب (ما) نافية و(لهم) جار ومجرور خبر مقدم و(علم) مبتدأ مؤخر، لكن دخل عليه حرف الجر الزائد إعرابًا الزائد معنىً؛ لأن الحروف الزائدة إعرابًا تفيد تقوية الكلام ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (إلَّا) هنا أداة استثناء، لكن

---

(١) انظر «تفسير ابن جرير الطبري» (٩/ ٣٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤٩).

الاستثناء منقطع، وعلامة الاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، ونحن نعلم جميعًا أن اتباع الظن ليس علمًا، وعلى هذا فلا يكون الاستثناء هنا متصلًا، بل هو منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس علمًا فيكون المستثنى الآن من غير جنس المستثنى منه، ويكون منقطعًا وتُقدر (إلا) في الاستثناء المنقطع بـ (لكن) يعني: مالهم به من علم، لكن اتباع الظن، والظن هو الراجح من أحد احتمالين أو احتمالات إذا كان الأمر يحتمل شيئًا فأكثر ترجح أحد، فالراجح يسمى ظنًّا والمرجوح يسمى وهمًا، وإن تساوى الأمران فهو شك، وهذا عند الأصوليين، أما عند الفقهاء فالشك: ما يقابل اليقين فيشمل الوهم والظن والشك؛ ولهذا قالوا: إذا تيقن الطهارة وشك في الحدث فهو على طهارته، ومعنى الشك في الحدث يشمل الظن والوهم والشك، لكن الأصوليين -رحمهم الله- قسَّموا ما لا يكون علمًا إلى هذه الأقسام: ظن وشك ووهم؛ وحينئذ لا علم عندهم، والاستثناء المنقطع في القرآن كثير مثل قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾، فهنا إلا للاستثناء المنقطع؛ لأن انتفاء السيطرة على هؤلاء يشمل من كفر، ومن كان غير كافر، ولهذا أتت الفاء في الجواب، والتقدير: لست عليهم بمسيطر لكن من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر.

وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (ما) نافية، و ﴿قَتَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿يَقِينًا﴾ قيل: إنها مصدر في موضع الحال من الواو في ﴿قَتَلُوهُ﴾ أي: وما قتلوه متيقنين، ولكنهم في شك منه فهنا تتناسب الآية مع قوله: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾، وعلى هذا تكون ﴿يَقِينًا﴾ مصدرًا في موضع الحال، وعاملها قتلوا، وصاحبها الواو أي: وما قتلوه متيقنين، وقالوا: إن ﴿يَقِينًا﴾ مؤكدة للنفي أي: ما قتلوه أقول ذلك يقينًا، ولا يصح أن تكون تأكيدًا للمنفي يعني: ما قتلوه قتلا يقينًا بل قتلًا ظنيًّا، إذن هي إما مصدر في موضع الحال من فاعل قتلوا، والمعنى: ما قتلوه متيقنين، ولكنهم في شك أو أنها تأكيد النفي أي: وما قتلوه أنفي ذلك يقينًا أو أقول ذلك يقينًا، وعلى القاعدة: التي مرت علينا في التفسير أنه إذا احتمل الكلام معنيين فأكثر لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما حُمل على المعنيين جميعًا، وعلى هذا فنقول كلمة ﴿يَقِينًا﴾ لها معنيان: المعنى الأول: ما قتلوه متيقنين، والمعنى الثاني ما قتلوه أنفي ذلك.

وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (بل) هذه حرف إضراب، وهل هذا إضراب إبطالي أو انتقالي؟ إبطالي وعلامة الإضراب الإبطالي: أن يكون مبطلًا لما سبقه وعلامة الانتقالي: ألا يكون مبطلًا لما سبقه، ولكن ينتقل من حال إلى حال، مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، فهذه انتقالية، ولكن هنا الإضراب إبطالي، ﴿بَل﴾ لم يصدقوا في دعواهم ﴿رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: رفعه الله تعالى إليه حيًّا إما من الكوة في البيت أو من الباب -الله أعلم- كل ذلك ممكن، وكل ذلك بقدرة الله عز وجل، وهو في السماء الثانية، دليل ذلك أن النبي ﷺ حين عُرج به وجد في

الأولى آدم والثانية عيسى ويحيى ووجد في الثالثة يوسف، ووجد في الرابعة إدريس، ووجد في الخامسة هارون ووجد في السادسة موسى، ووجد في السابعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أعلى هؤلاء منزلة عند الله عز وجل؛ ولهذا كان في السماء السابعة، وآدم في السماء الدنيا ليقرب من بنيه فإن بنيه كانوا في الأرض وأقرب السموات للأرض السماء الدنيا، وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ إذن رفعه الله إلى السماء الثانية مع ابن خالته يحيى لكن يحيى ليس مرفوعًا في حال حياته، إنما هو مرفوع بعد مماته.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزًا أي: ذا عزة، والعزة قال العلماء: إنها ثلاثة أقسام: عزة القهر وعزة القدر وعزة الامتناع، عزة القهر هي أن الله سبحانه وتعالى غالب غير مغلوب وفي ذلك يقول الشاعر الجاهلي:

أَيْــنَ الْمفَــرُ وَالْإِلَــهُ الطَّالِــبُ وَالْأَشْـرَمُ المغْلُـوبُ لَـيْسَ الغَالِـبُ

ومن أمثلة ظهور الغلبة في العزة قول الله تبارك وتعالى ردًّا على قول المنافقين ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، العزة هنا أظهر معانيها الغلبة؛ لأنه في مقابلة هؤلاء المنافقين، وعزة القدر أي: أنه ذو قدر عظيم لا نظير له، وعزة الامتناع أي: أنه يمتنع عليه النقص، وأخذوا هذا من قول العرب: أرض عزاز أي: صلبة قوية.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ أي: ذو حكمة، والحكمة هي إحكام الشيء وإتقانه ووضعه موضعه بحيث لا يقول عاقل: ليته لم يكون هنا، وقد نتوسع في المعني ونقول: إن الحكيم مشتقة من الحكمة والحكم، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهو الحكيم أي: الحاكم في عباده وبين عباده الحاكم؛ في عباده أي: يشرع ما شاء فيهم بأمره ونهيه، وهو الحاكم بينهم بشرعه في الدنيا وبجزائه في الآخرة ويكون من الحكمة وهي إتقان الشيء ووضعه في موضعه، ولا شك أنه سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة في شرعه وفي قدره، ولهذا نقول: الحكمة شرعية وقدرية.وختم الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ لأن هؤلاء اليهود جاءوا مغالبين يريدون أن يقتلوا رسولًا من رسل الله عز وجل فناسب أن يختم الآية بالعزة والحكمة، وهي هنا في الحكم أظهر منها في الحكمة يعني: هو الحاكم عز وجل، ولذلك منع هؤلاء من إفسادهم وقتلهم النبي.

الفوائد:

١- يؤخذ من هذه الآية: إثبات السبب؛ لقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن الكفر سبب للشر والفساد واللعن والإبعاد عن رحمة الله عز وجل؛ لأنه متعلق بمحذوف كما قلنا في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أن اليهود رموا مريم ببهتان عظيم حيث قالوا: إنها زانية، وإن عيسى ابن زنا، ولكن هل نقول: إنهم كفروا برميهم إياها؟ أما من قذفها بذلك بعد أن برَّأها الله من ذلك فهو كافر لا لقذفه، ولكن لتكذيبه تبرئة الله سبحانه وتعالى إياها، وعلى هذا يكون كفره من باب كفر الجحود؛ لأنه أنكر ما أثبته الله عز وجل والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، فشهد الله له بإحصان الفرج، وعليه فمَنْ رماها بها رماها به اليهود فإنه كافر مكذب لله عز وجل، وليس هذا من أجل قذفها لكن يكفر الآن من أجل أن قذفها تكذيب لله عز وجل.

فائدة متفرعة من الحكم السابق: لو قذف أحد من الناس زوجة النبي ﷺ عائشة بها برَّأها الله منه يكون كافرًا؟ نعم يكون كافرًا من وجهين: الوجه الأول: تكذيب خبر الله عز وجل، وأول ما ذكر الله القصة ذكر الإفك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ مما يدل على أن هذه القضية من أصلها وفصلها كذب، فمن رمى أم المؤمنين عائشة بها برأها الله منه فإنه كافر مكذب لله عز وجل، وأيضًا من وجه آخر: أنه دنس فراش النبي ﷺ، وإذا كانت أم المؤمنين عائشة - وحاشها أن تكون تعرف ما رُميت به - زانية - والعياذ بالله - فهي خبيثة، والخبيثات للخبيثين؛ ولهذا يلزم أن يكون طعنًا في الرسول ﷺ، زيادة على ذلك أنه طعن في حكمة الله أن يجعل هذه المرأة الزانية فراشًا لأفضل البشر عنده - نعوذ بالله - طعن في حكمة الله هل من الحكمة أن يجعل وليَّه وصفيَّه وخليله محمدًا ﷺ يفترش امرأة زانية؟!! ليس من الحكمة فهؤلاء الذين يرمونها بها برأها الله منه هم كفرة لا شك، نشهد بالله أنهم كفرة وليس من الإسلام في شيء؛ لأنهم كذبوا الله ورسوله؛ ولأنهم دنَّسوا فراش النبي ﷺ، ولأنهم طعنوا في حكمة الله، ولا إشكال في هذا، ولو قُذفت غير أم المؤمنين عائشة من زوجات الرسول ﷺ اللاتي مِتْنَ وهن في حباله أو مات عنهن، فالصحيح: أنه يكفر، لا نقول: لأنه تكذيب لله؛ لأن الله ما برَّأ واحدة منهن، لكن لأنه دنس فراش النبي ﷺ، وطعن في حكمة الله عز وجل؛ ولهذا كان القول الراجح: أن من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فإنه كافر يباح دمه وماله إلا أن يتوب، فإذا تاب ينظر الإمام هل يرفع عنه القتل؛ لأنه تاب أو لا، فحد هذا يرجع إلى رأي الإمام.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن رمي المحصنات بهتان عظيم؛ ولهذا أوجب الله فيه حدًّا قدره ثمانون جلدة، حتى لو شهد أحد بأن فلانة أو فلانًا زنا، وأنه شاهد ذَكَرَ هذا الرجل في فرجها، نقول: الآن عليك ثمانون جلدة ولو كان من أصدق الناس ولو كان من أذكى الناس نقول: عليك ثمانون جلدة وإن قال: معي شاهد آخر نقول: هاته فإن شهد نجلده أيضًا ثمانين جلدة، فإن قال: معي ثالث نجلده أيضًا ثمانين جلدة، كل هذا حماية للأعراض والأنساب، يعني: جلد القاذف ليس حماية لعرض المقذوف فقط، بل وللأنساب أيضًا؛ لأنه لو ثبت زناه اختلط

نسب الزاني بنسب الزوج، فنسب هذا الولد؛ لهذا أو لهذا تضيع الأنساب؛ ولهذا كان من الواجب أن يقام على القاذف الحد، وأيضًا لا يكفي أن يُقام عليه الحد، بل لا تقبل له شهادته أبدًا، ولو شهد بما يساوي فلسًا، لقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، فأكَّد النفي بالتأبيد فإذا شهد وهو من أعدل الناس قلنا: لا نقبل؛ لأن هذا أمر الله، والعقوبة الثالثة: خروجه عن العدالة؛ لقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وبناءً على ذلك فكل عمل دينيٍّ أو دنيوي يُشترط فيه العدالة، فإنه لا يتولاه أبدًا، لكن الله استثنى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا الاستثناء يعود إلى الجملة الأخيرة بالاتفاق، وهو ارتفاع الفسق عنه إذا تاب ولا يعود للأولى بالاتفاق، وهي قوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، واختلف العلماء هل يعود للثانية وهي: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أو لا؟ على قولين، وينبغي أن يرجع في ذلك إلى اجتهاد الحاكم القاضي.

فوائد الآية الثانية:

١- من فوائد الآية: أن اليهود باءوا بإثم قتل المسيح؛ أخذًا لهم بإقرارهم؛ لأن الله جعل الإقرار شهادة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، ولهذا نقول: اليهود قتلوا المسيح - وما قتلوه - كيف ذلك؟ قتلوه حكمًا ولم يقتلوه واقعًا قتلوه حكمًا؛ لأنهم أقروا بأنهم قتلوه ولم يقتلوه في الحقيقة.

٢- ومن الفوائد: أن اليهود إما أن يكونوا قد أقروا بأنه رسول وقالوا: رسول الله؛ ليعلنوا على أنفسهم أنهم فعلوا ذلك عنادًا، أو أن رسول الله هذه من كلام الله كما سبق ذكر القولين فيها من أقوال المفسرين.

٣- ومن الفوائد: نسبة الإنسان إذا لم يكون له أبٌ إلى أمه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: وهي فائدة نحوية أن الإنسان إذا اشتهر بلقبه فلا بأس أن يقدم على الاسم العلم ؛ لأنه قدم المسيح وإلا فالأصل أن يقدم الاسم في الأول ثم اللقب ثم الكنية، لكن إذا اشتهر به فإنه يقدم اللقب مثل أن تقول: الإمام أحمد بن حنبل أو أحمد بن حنبل الإمام؟ الأول لأنه مشتهر به.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول؛ لقوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾، وهو آخر نبي بعث وبعده محمد ﷺ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾، وثبت عن النبي ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى أحد من الرسل[1]، وبه نعرف كذب الأخبار التي قالت أن خالد بن سنان وهو من العرب كان رسولًا[2] فنقول:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) انظر «الضعيفة» (٢٨١).

ليس بين عيسى ومحمد أحد من الرسل.

٦- **ومن الفوائد:** شرف عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه رسول الله وكفى بالإنسان شرفًا أن يكون رسولًا لله، كما كفى به شرفًا أن يكون عبدًا لله، لكن الرسالة أخص من العبودية.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يُقتل ولم يصلب خلافًا لليهود، والذي قال: إنه لم يقتل ولم يصلب هو الله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** سفاهة النصارى: وقلة تمييزهم؛ حيث كانوا يعبدون الصليب ويعظمونه، ولو كانوا عقلاء؛ لكسروا الصليب الذي صُلب عليه نبيهم، ثم يذهبون إلى تقديسه فلو أخذنا بظاهر الحال لقلنا: هذا دليل على بغضهم لعيسى؛ حيث قدسوا ما عُذب به وهو الصليب، لكن هم يدَّعون أن هذا تعظيم لعيسى عليه الصلاة والسلام.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله عز وجل؛ حيث قلب الرجل إلى مشابهة عيسى سواء قلنا إنه أحد القاعدين في البيت أو إنه اليهودي الذي دلهم على مكان عيسى، فهو دليل على تمام قدرة الله عز وجل.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إذا قلنا: إن المقتول الرجل الذي دل اليهود أن فيه تأييدًا للمثل القائل: من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فإن هذا الرجل جاء ليدل اليهود ليقتلوا عيسى فقتلوه هو.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن اليهود اختلفوا بعد أن قتلوا عيسى - بزعمهم - هل قتلوه أم لا؟

١٢- **ومن فوائدها:** أنهم تكلموا بهذا بلا علم، وهذا الاختلاف كله لا علم فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حتى كل المختلفين ليس لهم به علم، وإنما هو الظن.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كما ينتفي العلم عن النصارى؛ لأنهم ضلال، فقد انتفى العلم عن اليهود في هذه المسألة ولم يدركوها حقًا.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى ذم مَنْ اتبع الظن؛ وجهه: أن الله نفى عنهم العلم أولًا، ونفي العلم يقتضي ثبوت الجهل، والجهل مذموم فاتباع الظن أيضًا مذموم، ولكن بيَّن الله تعالى في سورة الحجرات أن الظن بعضه غير مذموم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني: ولا تجتنبوا بعض الظن ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، يعني: وبعضه ليس بإثم، فما هو الفرق؟ الظن المبني على قرائن قوية ليست أوهام أو تخيلات، هذا ليس بإثم، والظن الذي لا أصل له، ولكن إذا ظن الإنسان بأخيه سوءًا فهل الأولى أن يحقق أو أن يتجاهل الأمر؟ إن قيل الأول فهو خطأ، وإن قيل الثاني فهو خطأ أي: يكون ذلك على حسب الحال، قد يكون من

المصلحة أن نبحث حتى نصل إلى اليقين، إما نفي أو إثبات، وقد يكون من المصلحة أن نتجاهل ونتغاضى، فإذا كان الأمر بينك وبين هذا الرجل، فالتجاهل أحسن يعني: لو نقل إليك إنسان كلامًا فيك من شخص فالأولى أن تتجاهل هذا؛ لأنه لا يقع في قلبك شيء عليه فضلًا أنه ربما تذهب إليه وتتنازع معه؛ ولهذا جاء في حديث رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَا يُخْبِرُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[1]، والحديث فيه ما فيه من حيث السند، لكن معناه جيد إلا إذا دعت الحاجة إلى إخبار الإنسان، مثل: أن نعرف أن بين هذا الرجل وبين هذا صداقة ويفضي إليه بسره، والثاني ينقل الكلام كالمنخل تمامًا لا يمسك الماء، فهذا يجب أن تنصحه، وإذا أخبرت عن حاله هذا ليس نميمة بل هو نصيحة.

المهم: أن الظن الآن ينقسم إلى قسمين بعضه له قرائن قوية فهنا ينتفي عنه الإثم، وقسم آخر ليس له قرائن قوية فظنه إثم..

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: انتفاء قتل عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه لم يقتل يقينًا؛ لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ على أحد الاحتمالين أن اليقين عائد هنا إلى نفي القتل، فإن قال قائل: ما الذي أحوج القضية إلى أن يكون فيها هذا التأكيد في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ألسنا نحن نؤمن بكلمة واحدة من ربنا عز وجل؟ بلى ولكن الذي أوجب هذا أن اليهود لهم دعاية قوية فيما يذهبون إليه، فمن أجل هذه الدعاية القوية قوبلوا بهذه التأكيدات التي تدل على أن اليهود لم يقتلوا عيسى، وهذا من رحمة الله ومن حكمة الله، أما كونه من رحمته؛ فلئلا يعلق في قلوب المسلمين شيءٌ من هذه الدعاية، وأما كونه من حكمة الله فلأجل أن يتبين الأمر كما هو حتى لا يكون ملتبسًا.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين ادَّعوا قتله لم يتيقنوا مِنْ قتله، بل هم في شك منه بناءً على أن ﴿يَقِينًا﴾ مصدر في موضع حال من فاعل قتلوا يعني: وما قتلوه متيقنين، بل هم في شك من ذلك والله أعلم.

١٧- من فوائد هذه الآية الكريمة: إبطال ما ادَّعاه هؤلاء من قتل عيسى عليه الصلاة والسلام حيث نفى الله قتله ثم بيَّن أنه مرفوع إليه.

١٨- ومن فوائدها: إثبات علو الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، وإلى للغاية فدل ذلك على أن المرفوع إليه عالٍ، والأدلة على علو الله تعالى بذاته كثيرة لا تحصى من القرآن والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة وقد تكرر هذا كثيرًا وبيناه، والحمد لله.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٢٢).

١٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حيٌّ؛ لقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وهذا يقتضي رفعه بجسده كما عُرج بالنبي ﷺ بجسده إلى السموات.

٢٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين لله عز وجل وهما: العزيز والحكيم، العزيز المتصف بالعزة، والحكيم المتصف بالحُكم والحكمة؛ لأنها من حَكَمَ وأَحْكَمَ، وسبق أن قلنا: إن عزة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع فهي ثلاثة معانٍ.

٢١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الحكمة لله عز وجل وهو أنه لا يحكم بشيء إلا لحكمة، ولا يفعل شيئًا إلا لحكمة، وهذه الحكمة قد تكون معلومة للناس وقد تكون غير معلومة.

٢٢- ومن فوائدها: وجوب اقتناع الإنسان بحكم الله ورضاه بقدره، فوجوب اقتناعه بحكم الله؛ لأنه إذا آمن أنه لحكمة وجب عليه أن يقتنع به؛ ولهذا كان السلف الصالح لا يقنعون النفوس عند الإشكال إلا بالنصوص كما فعلت عائشة رضي الله عنها حين سئلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[1]، وأما الرضا بقضائه المراد: أن يرضى الإنسان بقضاء الله لا بالمقضي؛ لأن المقضي فيه تفصيل، لكن القضاء من حيث هو قضاء الله يجب عليه أن يرضى به، وهذا من تمام توحيد الربوبية.

٢٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الحكم لله عز وجل، فالحكم لله كونًا وشرعًا، أما الحكم الكوني فنافذ على كل أحد مسلم وكافر ومؤمن وفاجر، كل أحد خاضع للحكم الكوني، وأما الحكم الشرعي فمن الناس من خضع له، ومن الناس من لم يخضع له فالمؤمنون خاضعون له والكافرون لم يخضعوا له.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٥٩-١٦١]

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢١)، ومسلم (٣٣٥).

التفسير

قال عز وجل ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ (إن) هنا نافية أي: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، و(إن) تأتي في اللغة العربية على وجوه متنوعة: فتأتي نافية كما في هذه الآية وأمثلتها كثيرة، وغالب إتيانها نافية إذا أتت بعدها (إلا) مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فإن تكون هنا نافية وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: إن زيد لقائم، فهي مخففة من الثقيلة، وتأتي شرطية مثل: إن قام زيد قام عمرو.

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بهم: اليهود والنصارى، وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ هذا مستثنى من محذوف، والتقدير: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف دل عليه السياق، وتقدير الخبر المحذوف: أحد، وأهل الكتاب سُموا بذلك؛ لأن لهم كتبًا حية وإن كانت محرفة وهي التوراة عند اليهود، والإنجيل عند النصارى، ولا يُعلم كتاب بقي إلى بعثة الرسول ﷺ مما جاءت به الرسل إلا التوراة والإنجيل، وقيل: إن المجوس لهم كتاب أنزل أو لهم شبهه، ولكن الصحيح خلاف ذلك أنه لا يوجد كتاب بقي إلى بعثة الرسول إلا التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ نجد الفعل هنا مفتوحًا (لَيُؤْمِنَنَّ) مع أننا لا نشاهد أداة نصب فهو مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد المباشرة. فقوله: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: إيمان قبول وإذعان وليس مجرد التصديق؛ لأن مجرد التصديق لا يسمى إيمانًا؛ ولهذا لا يقبل إيمان أبي طالب مع أنه مصدق، بل لابد من قبول ما آمن به الإنسان والإذعان له

وقوله: ﴿بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ (به) أي: بعيسى عليه الصلاة والسلام، و﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الضمير يعود على عيسى، وقيل يعود على الرجل الذي من أهل الكتاب يعني: ما من أحد من أهل الكتاب إلا أذا حضره الكتاب آمن بعيسى، أو المعنى: ما من أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى إلا آمن بعيسى، وكلا المعنيين صحيح والثاني أظهر أن الضمير يعود على عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن عيسى سوف ينزل في آخر الزمان، وسوف يكسر الصليب ويقتل الخنزير ولا يقبل إلا الإسلام حتى الجزية لا يقبلها.

وهذا الإيمان يكون حين يرى أهل الكتاب الحق، فإذا رأى الكتابي الحق سواء كان بنزول الموت أو كان ذلك بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه يقبل، ولكن هذا الإيمان يكون كالإيمان الاضطراري؛ لأنهم لما كانوا في اختيارهم لم يؤمنوا بعيسى، بل كفروا به.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (يوم) هذه ظرف عامله يكون، والمعنى: أن عيسى

بن مريم عليه الصلاة والسلام يكون شهيدًا عليهم يوم القيامة. معنى الآية الكريمة: أنه لا يوجد أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل أن يموت عيسى، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: ما من أحد أدرك عيسى إلا آمن به قبل أن يموت، وعلى القول الثاني أن الضمير يعود على الواحد من أهل الكتاب فالمعنى: أنه ما من إنسان من أهل الكتاب يحضره الموت إلا آمن بعيسى حتى اليهود الذين كانوا ينكرون إثباته يؤمنون به، وذلك مذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾، فيوم القيامة سيشهد عيسى بن مريم على قومه أنه لم يقل لهم إلا ما أمر الله به: أن اعبدوا الله ربي وربكم.

١- في هذه الآية فوائد كثيرة منها: أن الكتابي قد يؤمن إيمان اضطرار، إما عند موته، وإما إذا نزل عيسى، ولكن هل ينفع هذا الإيمان؟ النصوص تدل على أن الإيمان الاضطراري لا ينفع، وأن الإيمان إذا حضر الأجل لا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، ولكن الإيمان الاضطراري في غير هذه الحال قد يرسخ في قلب المرء، فقد يؤمن أولًا؛ خوفًا من السيد ثم يرسخ الإيمان في قلبه ويثبت، ويكون إيمانًا حقيقيًّا يثاب عليه وينجو به من النار.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الموت للبشر كلهم حتى الأنبياء يموتون قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

لو قال قائل: إذا كان عيسى قد رُفع حيًّا، فما القول في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؟

الجواب: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فيه أقوال:

الأول: أن المراد بالوفاة: النوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، والمعنى: أن الله تعالى لما أراد أن يرفعه ألقى عليه النوم حتى لا ينزعج بهذا الرفع.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك كما قيل: توفى فلان حقه أي: استوفاه وقبضه.

والقول الثالث: أن الآية ليست على الترتيب الذكري، وأن المعنى: إني رافعك إليَّ ومتوفيك، فيكون الترتيب هنا من باب الترتيب الذكري لا المعنى، وهذه كلها أجوبة صحيحة، وأظهرها الأول أن المراد بالوفاة النوم؛ بأن الله تعالى ألقى عليه النوم حتى يكون

عند رفعه غير منزعج ولا متأثر.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الموت ثابت للرسل ومَنْ دونهم من باب أولى، وقد ذكرنا الأدلة على هذا.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وقد بينا فيما سبق لماذا سُمي هذا اليوم يوم القيامة؛ وذلك لقيام الناس من قبورهم لله عز وجل، ودليله قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يشهدون على أممهم؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وهذا عامٌّ في كل الرسل، لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، وهل يكون العلماء الذين هم ورثة الأنبياء شهداء؟ الجواب: نعم، فإن العلماء يشهدون على الأمم ببلوغ الرسالة إليهم، ويشهدون للرسل بأنهم بلَّغوا؛ ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء.

٦ـ **ومن الفوائد**: أنه يمكن للناس يوم القيامة أن يتكلموا ويستشهدوا ويناجوا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أجابه فقال: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ (الفاء) عاطفة على ما سبق، و(الباء) هنا للسببية، والظلم في الأصل النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، وأما في الشرع فهو التعدي سواء كان بنقص واجب أو فعل محرم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني بهم قوم موسى حين قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا، ومع رجوعهم وامتثالهم أمر الله ظلموا أنفسهم.

وقوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾ هذا الفعل هو العامل في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ يعني: الجار والمجرور في قوله: (بظلم) متعلق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾، والتحريم في اللغة المنع، ومنه حريم البئر وهو ما حولها يمنع من إحياء ما حوله، ومنه سُمي النساء حريمًا؛ لاحتجابهن والمنع من التعدي عليهن.

وقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: أطعمة طيبات، فهي صفة لموصوف محذوف، والطيب ضد الخبيث، والخبيث له إطلاقات متعددة: تارة يُراد به الشيء النجس، وتارة يُراد به الشيء الرديء، وتارة يُراد به المحرم مطلقًا.

وقوله: ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: كانت في الأول حلالًا وهي باقية على طيبها، لكن حُرمت

عليهم بسبب ظلمهم، والمُحِلّ هو الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده الأمر.

وقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الواو) حرف عطف، و(صد) مصدر يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي، ويحتمل أن يكون من الفعل اللازم، وذلك لأن (صدَّ) تكون فعلًا لازمًا، وتكون متعديًا فيقال: صد الرجل عن كذا بمعنى أعرض، وصد غيره عن كذا بمعنى صرفه عنه، وهنا يجوز فيها الأمران: فهم قد صدوا بأنفسهم عن سبيل الله كثيرًا، وصدوا غيرهم أيضًا لما عندهم من الكتاب الذي يشوهون به ويموهون به على الناس ويقولون: إن محمدًا ﷺ ليس هو المبعوث المنتظر وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المراد بسبيل الله: شرعه الذي شرعه لعباده وسُمي سبيل الله؛ لأنه طريق موصل إلى الله عز وجل، ولأن الله تعالى هو الذي وضعه للعباد، فلم يشرعه أحد سواه، فأُضيف إلى الله تعالى باعتبارين: الأول: أنه مُوصل إليه كما تقول مثلًا: هذا طريق المدينة وهذا طريق مكة، والثاني: أن الله هو الذي وضعه لعباده وشَرَعه لهم مع أنه يضاف أحيانًا لسالكيه، كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فهنا أضاف السبيل إلى المؤمنين باعتبار أنهم سالكوه، وعلى هذا فإذا أضيف السبيل إلى الله كان باعتبارين، وإذا أضيف إلى العباد صار باعتبار واحد.

وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ يختلف إعرابها باختلاف كلمة (صد) فإن كانت لازمة فهي صفة لمصدر محذوف أي: صدودًا كثيرًا، وإن كانت متعدية فهي مفعول لـ (صد)، وإن شئت فقل: صفة مفعول (صد) المحذوف أي: خلقًا كثيرًا، وهم في الواقع جديرون بالوصفين، فإنهم صدوا بأنفسهم وصدوا غيرهم.

وقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ هذا هو الوصف الثالث وهو: أخذهم الربا، ولم يقل: أكل؛ لأن الأخذ أعم، قد يأخذ الإنسان الربا ولا يأكله، يستعمله في اللباس ما أشبه ذلك، وقد يأخذه للأكل، تارة يعبر بالأكل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، وتارة يعبر بالأخذ وهو أعم، لكن التعبير بالأكل أشد؛ لأن ممارسة الآكل للربا أشد من ممارسة غير الآكل؛ إذ إن الآخذ قد يستعمل الربا وينفقه في أمور أخرى غير الآكل.

وقوله: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ معناه لغة: الزيادة وفي الشرع: الزيادة في أشياء معينة بيَّنها النبي ﷺ في ستة أشياء: الذهب والفضة والشعير والبر والتمر والملح، ودليلها قوله ﷺ: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالفِضَّةُ بِالفِضَّةِ وَالبُرُّ بِالبُرِّ وَالمِلْحُ بِالمِلْحِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ يَدًا بِيَدٍ سَواءً بِسَواءٍ»، هل يُلحق بهذه الست غيرها؟ سبق لنا أن العلماء اختلفوا فيها، أما أهل الظاهر فقالوا: لا يُلحق بها غيره؛ لأنهم مانعون القياس، وأما القياسيون اختلفوا فمنهم من قال: لا يلحق بها غيرها واقتصر على ما جاء به النص كابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: يُقتصر على ما جاء به النص، مع أنه من أهل

القياس والمعاني، لكنه قال: إن العلماء اختلفوا في العلة واضطربوا وليس هناك نص بيِّن يجب المصير إليه، فإذا اختلفوا فهم كاختلاف المأمومين على الإمام في الزيادة أو النقص في الصلاة، والمعروف أنه إذا اختلف المأموم على الإمام في الزيادة والنقص سقطت أقوالهم ولا يأخذ الإمام بقول الزيادة ولا بقول النقص، فيقول: لما اختلف العلماء - رحمهم الله - في علة الربا في هذه الأشياء الستة بطلت العلة ورجعنا إلى القول بأنه يقتصر على ما جاء به النص، والقول الثاني عند أصحاب القياس: أن العلة معقولة ويمكن أن يُلحق بهذه الأشياء الستة ما كان مثلها، ثم اختلفوا في المماثلة هل هي الطعم أو الكيل أو الكيل والادخار؟ ولهذا كانت أقوال العلماء في هذه المسألة أقوالًا مضطربة لا تكاد تأتي على شيءٍ تطمئن إليه كثيرًا.

ونحن نقول: الربا الذي حرمه الله ورسوله سواء كان ذلك على طريق الأثر، أو عن طريق النظر والقياس.

وقوله: ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ الواو هنا للحال يعني: والحال أنهم قد نهوا عنه وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة، لكنهم أخذوه، والناهي عنه هو الله ورسوله. والوصف الرابع قوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني: أنهم استولوا على أموال الناس بالباطل، والمراد بالأكل هنا: الاستيلاء سواء استولوا فأكلوا أو لبسوا أو عمروا أو فعلوا أي شيء.

وقوله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل: كل ما خالف الشرع سواء أخذوه عن طريق الغش أو عن طريق الكذب أو عن طريق الجهل في المبيعات أو عن طريق كتم الحق أو ادَّعوا ما ليس لهم، المهم: أن المراد بالباطل كل ما أُخذ بغير حق.

إذنْ قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على ما سبق، ويكون العامل هو: ﴿حَرَّمْنَا﴾ يعني: وحرمنا عليهم طيبات ما أحل لهم بصدهم عن سبيل الله كثيرًا وأخذهم الربا إلى آخره، ويحتمل أن يكون العامل محذوفًا، والتقدير: وعذبناهم بصدهم عن سبيل الله كثيرًا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، يدل عليه قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يخبر الله في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء اليهود الذين ظلموا أنفسهم حرَّم الله عليهم بعض الطيبات، لا كل الطيبات بدليل قوله: ﴿طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي نكرة لا تفيد العموم، بل هي للإطلاق فما الذي حُرِّم عليهم؟

قال الله تعالى مبينًا ذلك في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، فحرم الله عليهم من أجناس الحيوان كلَّ ذي ظفر، والمراد بكل ذي ظفر: كل ما رجلاه أو قدماه غير مشقوقة، يعني: الذي لم تشق رجله يسمى ذا الظفر: مثل الإبل والنعام

وما أشبه ذلك، فالذي ليس له أصابع ولا شق قدمه يسمى ذا الظفر، وعلى هذا فالإبل محرمة على بني إسرائيل.

ثم بيَّن عز وجل أنه أعد للكفرين منهم عذابًا أليمًا، وهنا تجدون الإظهار في موضع الإضمار حيث لم يقل: وأعتدنا لهم، بل قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقد سبق أن للإظهار في موضع الإضمار فوائد منها: الإشارة إلى علة الحكم، والإشارة إلى عموم الحكم لكل من اتصف بهذا الوصف، والتسجيل عليهم بما يرتضيه هذا الوصف أي: أنهم بذلك صاروا كفارًا، لكن هنا لا يستقيم هذا المعنى؛ لأنه قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ فجعلهم قسمين: قسم كافر وقسم غير كافر، وأيضًا تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا خرج عن الأسلوب فإنه لابد أن ينتبه الإنسان، ومن ذلك الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أو العكس، فهذا يقتضي انتباه المخاطب وهو أسلوب من الأساليب العربية، وبيَّن الله عز وجل أن هذا العذاب الذي أعدَّه لهم أليمًا أي: مؤلمًا، وفعيل تأتي بمعنى: مُفعِل ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

فمعنى السميع هنا أي: المسمِع.

١- في هذه الآية فوائد كثيرة منها: إثبات الأسباب، وأن الله تعالى قد يشرع الشيء لسبب؛ لقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، ومن ذلك أن الله شدد على بني إسرائيل الذين أُمروا بذبح البقرة حين قال لهم نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلو أنهم ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم وحصل المقصود، لكن شددوا فشدد الله عليهم، وإثبات الأسباب انقسم الناس فيه إلى طرفين ووسط، منهم من أنكر الأسباب مطلقًا وقال: إثبات الأسباب يقتضي إثبات خالق مع الله، ومنهم من أثبت الأسباب على أنها فاعلة بطبيعتها، ومنهم من أثبت الأسباب على أنها فاعلة بما أودع الله فيها من القوى الموجبة للمسببات، وهذا القول هو القول الوسط الذي دل عليه المنقول والمعقول، فأي دعوى لخالق مع الله إذا قال: إن الله خلق هذا الشيء ليكون سببًا للشيء الفلاني؟ وأي دعوى تصح لإنكار تأثير الأسباب في مسبباتها؟ ولهذا هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فأثبتوا الأسباب على أن الذي خلقها وأوجدها هو الله عز وجل، ولذلك قد تتخلف المسببات بإذن الله كما تخلف إحراق النار لإبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أنها نارٌ عظيمة محرقة حتى قيل: إنهم لم يستطيعوا أن يقربوا منها، بل رموه إليها بالمنجنيق من بعيد، ومع ذلك صارت عليه بردًا وسلامًا، وهذا يدل على أن السبب لا يؤثر بنفسه، بل بإرادة الله عز وجل، وهو أيضًا من حكمة الله عز وجل أن جعل لكل شيء سببًا.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الظلم سببٌ لحرمان الخير، وهذا لقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾، والظلم سببٌ لحرمان الخير الشرعي والقدري، ألم تعلموا أن الرسول ﷺ خرج ذات يوم ليخبر أصحابه بأن الليلة ليلة القدر فتلاحى رجلان من الأنصار أو من غيرهم فرفعت ونُسِّيها عليه الصلاة والسلام، وهذا حرمان لأمر شرعي وهو أن من قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، لكن حُرم الناس هذا الخير بسبب الظلم وهو التلاحي والتخاصم والتنازع؛ ولهذا لا يُغفر في ليلة القدر للمتشاحنين الذين بينهم شحناء، كما تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فيُغفر لكل أحد إلا من بينه وبين أخيه شحناء فيقال: انظرا هذين حتى يصطلحا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى قد يحرم بالظلم تحريمًا قدريًّا، لكن الذي حصل لبني إسرائيل تحريمٌ شرعي، لقوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾، فهذا تحريم شرعي، لكن قد يحرم الإنسان تحريمًا قدريًّا مع حل الشيء له شرعًا فيُصاب مثلًا بمرض فيقول له الأطباء: اترك الأكلة الفولانية بسبب ظلمه، فالإنسان مثلًا قد يتهور ويسرف في الإنفاق، والإسراف في الإنفاق أكلًا وشربًا ولبسًا حرام؛ لقوله: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، فقد يسرف الإنسان فيحرم من هذا الخير الذي أسرف فيه قدرًا لا شرعًا لكن بأن يصاب بمرض، لا يتلاءم معه أن يأكل كل شيء أو أن يلبس كل شيء وهذا ما نسميه تحريمًا قدريًّا.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الأمر إلى الله تعالى تحليلًا وتحريمًا؛ لقوله: ﴿حَرَّمۡنَا﴾، وقوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ فالتحليل والتحريم ليس إلينا ولا لأحد من الناس بل إلى الله ورسوله، فالتحريم إلى الله وإلى رسوله والتحليل كذلك والإيجاب كذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الطيبات نفسها قد تكون ممنوعة شرعًا، وقد تكون الطيبات ممنوعة على هذا الإنسان شرعًا حتى بعد كمال الدين، يقول شيخ الإسلام: إن الطعام حرام على الإنسان إذا كان يتأذى به لو أكل أو خاف التخمة فإنه يكون حرامًا عليه، يعني مثلًا: إنسان ملأ بطنه من الطعام، لكن الطعام كان شهيًّا ولذيذًا فجعل يأكل ويأكل حتى وصل إلى الحلقوم فهذا يتأذى لا شك وربما يحصل عليه ضرر، إما حاضرًا أو مستقبلًا، يقول شيخ الإسلام: إنه يحرم عليه أن يأكل، وكذلك إذا خاف التخمة، وذلك بتغير المعدة ونتنها وإن لم يكن من أجل الأذية، لأنه أحيانًا بعض الأطعمة لا يتلاءم مع أطعمة أخرى فتجد الإنسان يأكل هذا على هذا وتتغير معدته، ويحصل لها نتن ورائحة كريهة هذا أيضًا نقول: إنه حرامٌ عليه أن يأكل؛ لأن الله إنما أباح الأكل والشرب من أجل تقويم البدن، فإذا عاد ذلك إلى الضرر صار حرامًا.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير من الصد عن سبيل الله سواءٌ كان صادًّا

بنفسه أو صادًّا لغيره؛ لقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

٧- ومن فوائدها: أن الصدَّ لا يتقيد بصيغة معينة، بل كل ما فيه صد عن سبيل الله سواءٌ بالتخذيل أو بالإرجاف أو بالإيعاد أو بالوعد أو بغير ذلك فإنه داخل في الآية تحذيرًا منه، وربما يكون الصد عن سبيل الله بالتخذيل فيأتي إلى إنسان ويقول له: يا فلان لا تكلف نفسك بالدعوة والموعظة ونصح الناس إنك تدعو الموتى، ولقد أسمعت لو ناديت حيًّا، مع أن المنصوح عنده همة ونشاط وعزيمة فيأتي هذا ويُخَذِّلُه، فهذا قد صدَّ عن سبيل الله، لكن إذا علم أن هذا الشخص ربما يتكلم بما لا يعلم فهل تخذيله عن الكلام من الصد عن سبيل الله أو من حماية سبيل الله؟ الثاني، يعني ربما يأتي إنسان عنده إقدام وعنده شجاعة ويحب أن يدعو بكل شيء، لكن لا علم عنده فهذا لا حرج عليك إذا قلت له: إنه لا ينبغي ولا تكلف نفسك ولا تتعب نفسك سواءٌ أضفت هذا إلى الناس فلن يقبلوا منه أو أضفت هذا إلى أنه ليس عنده علم فيقع في حرج، فهذا لا بأس به، بل هذا من حماية سبيل الله وليس من الصد عن سبيل الله.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ذكر الوصف الذي يكون أشد في الذم، وإن كان لا مفهوم له؛ لقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، فهذا غاية الذم، لكن لو أنهم صدوا قليلًا لكان لهم نصيب من الإثم، إنما الغاية هي الكثرة.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المتعاطين بالربا من هذه الأمة يشبهون اليهود؛ لقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أخذ الربا محرم سواءٌ كان للأكل أو للشرب أو للبس أو للاقتناء أو لأي غرض كان؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحجة لا تقوم إلا بعد بلوغهم، وأن من فعل شيئًا لا يدري عن حكمه فهو غير مؤاخذ به؛ لقوله: ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾، وعلى هذا فلو تعامل الإنسان بمعاملة ربوية وهو لا يدري أنها من الربا يعني: أنه يعرف الربا عمومًا لكن لا يدري أن هذه المعاملة المعينة من الربا ثم علم بعد ذلك هل نقول إن ما أخذه من الربا حرام؟ لا، نقول ليس حرامًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهو لم يعلم أنه منهيٌّ عنه، لكن إذا كان يعلم أنه منهي عنه وأخذه ثم تاب فهل نقول ردَّه على من أخذته منه؟ الجواب: لا لأننا لو قلنا رده على من أخذته منه لكن له أي: للمردود عليه الغل مرتين لكن نقول: تصدق به، لا تدخله في ملكك ولا ترده إلى المرابي الذي كان عالمًا بأن الربا، حرام، لكنه سولت له نفسه فأعطاك الربا، فإذا كان المرابي مأخوذًا منه الربا وتاب فهل يلزمه أن يتصدق بمقدار ما أعطى من الربا؟ لا، لأنه المعطي للربا مظلوم في الواقع، فإذا تاب إلى الله عز وجل فإننا نقول: لا يلزمك أن تتصدق بمقدار ما دفعت من الربا؛ لأن الكلام فيمن أخذ الربا.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم أكل أموال الناس بالباطل؛ لقوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، وقد ذكرنا أن الباطل ما ليس بحق، وبناءً على ذلك: لو أن الإنسان أكل مال حربه فهل يكون ممن أكل أموال الناس بالباطل؟ لا؛ لأن الحربي مباح الدم والمال، وعلى هذا فلو تلصص جماعة ليس لهم شوكة على بلاد الكفار الحربية وأخذوا أموالًا فهي لهم ولا شيء عليهم في ذلك؛ لأن أموال الكافر الحربي مباحةٌ للمسلمين، وإن أخذ مال ذميٍّ أو معاهد أو مستأمَن بغير حق، فقد أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن هؤلاء الثلاثة معصومون، وأموالهم محترمة وأنفسهم محترمة.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الوعيد الشديد على من اتصفوا بهذه الصفات: الظلم، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، والصدُّ عن سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٤- ومن فوائدها: إثبات عدل الله عز وجل؛ حيث ذكر هذه الصفات، وذكر أن الذي عُدَّ له العذاب الأليم هو الكافر من هؤلاء.

قال الله تعالى:

﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]

التفسير

ثم قال الله عز وجل استدراكًا على ما مضى من وصف هؤلاء الذين هادوا بما ذكر قال: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾. فـ (لكن) هنا: حرف استدراك على ما مضى من أوصافهم، والراسخون اسم فاعل من رسخ إذا ثبت ومنه رسوخ الشجرة، ورسوخ أساس البنيان وما أشبه ذلك؛ لأنه يثبت ولا يتزعزع.

قوله: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ المراد بالعلم هنا: العلم الشرعي فـ (أل) للعهد الذهني؛ لأن الرسوخ في غير العلم الشرعي لا يُمْدَح صاحبه ولا يُذَمُّ بل هو على حسب ما يؤدي إليه ذلك الرسوخ.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين هادوا، ونمثل لهذا بعبد الله بن سلام فإنه كان حبرًا من أحبار اليهود وآمن بمحمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ﴾ هي عطف على قوله: ﴿الرَّاسِخُونَ﴾، لكن هل المراد بذلك

الراسخون في العلم، الذين أثمر علمهم الإيمان فتكون من باب عطف الصفة على الصفة، وعطف الصفة على الصفة جائز في اللغة العربية كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾، أو أن المؤمنين هنا غير الراسخين في العلم، والمراد بهم المؤمنون من المهاجرين والأنصار، أي: من هذه الأمة، فيكون العطف من باب عطف المتباينين المتغايرين؟ ذكروا في هذا قولين، ولا يبعد أن يكون القولان كلاهما صحيح.

وقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن، والمنزِل له: هو الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، فالمنزِل: هو الله عز وجل، والمنزَل إليه: محمد ﷺ، والنازل هو القرآن، إذن (ما) اسم موصول يعود على القرآن.

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب السابقة، فيؤمنون بأن الله أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزَّبور على داود، والصحف على إبراهيم، وكذلك على موسى.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، المراد بالمقيمين هنا: الذين يأتون بها على وجه الاستقامة والتمام بأن يأتوا بها تامة الشروط، والأركان والواجبات، ويكملونها بالمستحبات والمراد بالصلاة هنا: عموم الصلوات فيشمل الفرائض، والنوافل.

وفي الآية إشكال من حيث الإعراب حيث جاءت المقيمين بالياء بين مرفوعات؛ مرفوع سابق ومرفوع لاحق، فأشكل على بعض الناس كيف جاءت هذه الكلمة بين المرفوعات على أنها بالياء؟ فقيل: إن قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: والمؤمنين بـ (المقيمين الصلاة) والمراد بهم: الملائكة؛ لأن النبي ﷺ أخبر أنه ما في السماء موضع أربع أصابع إلا وفيه ملكٌ قائم لله أو راكع أو ساجد[1]، فكأنه قال: والمؤمنين بالملائكة، وقيل: إن المقيمين هنا وصف عام يشمل كل من أقام الصلاة من الملائكة وغيرهم، وأنه نص على المقيمين الصلاة؛ لأهميتها ولأنها آكد أفعال البدن من العبادات، فعلى هذا تكون منصوبة لا مجرورة ونُصبت على المدح أي: أمدح المقيمين الصلاة، فعاملها إذن محذوف، والتقدير: وأمدح المقيمين الصلاة، وإنما جاء القطع حيث نصبت بفعل محذوف؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: معنوية وهي بيان العناية بإقامة الصلاة.

والفائدة الثانية: الانتباه، وذلك لأن الكلام إذا كان على نسق واحد، فإن الإنسان لا ينسجم معه ولا يكون هناك شيءٌ يوجب وقوفه، لكن إذا اختلف تَوَقَّفَ وسَأَلَ: لماذا جاءت هذه الكلمة على هذا الوجه مخالفةً لغيرها من الكلمات؟ إذن ففيه فائدتان إحداهما معنوية، والثانية لفظية، المعنوية: هي أن في ذلك إشارةً إلى أهمية الصلاة والعناية بها، والثانية اللفظية: هي مراعاة الانتباه

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

أي: أن الإنسان إذا اختلف اللفظ فسوف يتوقف وينتبه، وهذا بلا شك خير ممن قال: إن هذا غلط من الكُتَّاب كما قال بعضهم ـ والعياذ بالله ـ : إن الذين كتبوا المصحف أخطئوا فقالوا: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾، وأنها على قراءة ابن مسعود: (وَالْمُقِيمُونَ) وهي الصواب، لكن هذا لا يستقيم إطلاقًا، كيف يمكن للأمة الإسلامية أن يبقى الغلط في القرآن الكريم ولا يُغيَّر؟ وكيف يلتئم هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، والحقيقة: أن الغالط هو القائل بها وأنه أبى أن يرجع وأخطأ خطأ عظيمًا، بل الفائدة كما قلت لكم إذن: يبقى النظر هل نقول: إن (المقيمين) بالجر، والمعنى: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، أو أنها منصوبة على تقدير فعل محذوف؟ نقول: الثاني أَوْلَى وإن كان الأول فيه احتمال، لكن الثاني هو الراجح، والحكمة من ذلك ـ أي: من القطع ـ ما ذكرنا لكم لفظية ومعنوية.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: أنها مستأنفة، وأن الخبر قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقيل: إنها معطوفة على ما سبق؛ لقوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: والمؤتون الزكاة، لكن الأقرب أنها مستأنفة؛ لوجود الفاصل بينها وبين المعطوف عليه وهو قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أي: المعطون والزكاة أي: النصيب المقدَّر للأموال الزكوية وعلى هذا فالمراد بذلك: زكاة المال وقيل: المقصود بذلك زكاة البدن؛ لقول الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] والمراد بذلك: زكاة البدن، لكن الأول أقرب إلى الصواب، لأن الله تعالى يقرن دائمًا بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

والزكاة مال فرضه الله تعالى في أموال معينة تُؤخذ من الأغنياء وتردُّ على الفقراء.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، الإيمان بالله ليس هو التصديق فقط؛ لأن مجرد التصديق لا يُسمى إيمانًا؛ ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمنًا مع كونه مصدقًا للرسول عليه الصلاة والسلام، بل الإيمان هو: الإقرار التام المستلزم للقبول والإذعان، فلابد من إقرار القلب الإقرار التام، ولابد من القبول، أي: قبول ما جاءت به الشريعة، ولابد من الإذعان حتى يتم الإيمان، والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وبربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وتفرده بذلك، وهذا قد مضى كثيرًا مشروحًا مُبينًا، الإيمان باليوم الآخر، واليوم الآخر هو: يوم القيامة، ووصف بالآخر؛ لأنه لا يوم بعده فهو آخر مراحل الإنسان؛ لأن الإنسان له أربع مراحل: المرحلة الأولى: في بطن أمه، والثانية: في الدنيا، والثالثة: في البرزخ، والرابعة: يوم القيامة؛ ولهذا يُسمى اليوم الآخر.

وليس الآخر هو البرزخ الذي بين الحياة والموت كما يُفهم من تعبير بعض الناس حين يصف الميت بأنه انتقل إلى مثواه الأخير، فإن هذا ليس بصحيح، بل المثوى الأخير هو يوم القيامة إما الجنة وإما النار، والإيمان باليوم الآخر لا يتضمن أن تؤمن بأن الناس سيُبعثون فقط، بل له

علاقات أو متعلقات كثيرة حددها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في قوله: (يدخل في الإيمان باليوم الآخر كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت كفتنة القبر وعذاب القبر ونعيم القبر)، وما أشبه ذلك، فإنه يدخل في الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الموت آخِر ما للإنسان في الدنيا، فإن من مات قامت قيامته، والإيمان باليوم الآخر يتضمن استقامة الإنسان على دين الله؛ لأنه يخاف اليوم الآخر، ويرجو اليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، فهو يخاف اليوم الآخر فيتجنب المعصية، ويرجو اليوم الآخر فيقوم بالطاعة؛ ولهذا يقرن الله تبارك وتعالى دائمًا بين الإيمان به وبين الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل على الاستقامةأو على تمام الاستقامة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فيها قراءتان (سيؤتيهم، وسنؤتيهم) سيؤتيهم جارٍ على نسق الكلام؛ لأن نسق الكلام كله للغائب، وأما القراءة بالنون ففيها انتقالٌ من الغَيْبَةِ إلى الحضور إلى المتكلم، والانتقال ويسمى الالتفات له فائدة وهي: تنبيه المخاطَب لما سيأتي بعد؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام، فلابد أن يتوقف الإنسان ما هو السبب الذي تغير به الكلام؟ وحينئذ يتنبه للمعنى أكثر، أما عن الفوائد الأخرى التي تتفرع عن الالتفات، فكل مقام يذكر له ما يناسبه فهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ يكون تكفلًا صريحًا من الله عز وجل بأنه سيؤتيهم أجرًا عظيمًا، وفي التكفل الصريح وإضافة الشيء إلى النفس أبلغ من إضافته إلى الغائب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ أي: سنعطيهم ثوابًا عظيمًا ذا عظمة، واعلم أن العظيم إذا عظَّم الشيء فإنه يكون فوق ما يتصور؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

الفوائد:

١- **في الآية الكريمة فوائد منها:** تمام عدل الله عز وجل، وأنه إذا حكم بحكم عام يختص أفراده بخلاف ذلك الحكم، فلابد أن يذكره، نأخذ هذا من كلمة (لكن) الاستدراكية بعد أن حكم عليهم بما حكم من ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ﴾، قال: ﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ﴾، وهذا تمام العدل، أن يذكر الخير والشر سواء كان ذلك الخير والشر بالنسبة للطائفة، أو كان ذلك الخير والشر بالنسبة للواحد، فمَنْ أراد تقويم شخص، فالواجب عليه أن يذكر محاسنه ومساوئه، أما من أراد أن يبطل ما يقوله من باطل فهنا لا يلزم أن يذكر المحاسن؛ لأن ذكر المحاسن في مقام الرد عليه يرفع الرد عليه والتنفير منه ويوجب العطف عليه، فهنا يفرق بين شخص يريد أن يقوِّمَ شخصًا، فهنا لابد أن يذكر المعايب والمحاسن، وبين إنسان يريد أن يرد على شخص باطله، فليذكر الباطل، ولا يذكر المحاسن؛ لأنه لو ذكر المحاسن ضعف جانب الرد عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة الرسوخ في العلم والرسوخ يعني: الثبوت والاستقرار وذلك؛ لأن العلم علمان: علم راسب بمعنى أنه على السطح أيُّ ريح تزعزه، وهذا ما يكون عند كثير من الطلبة حيث يجمع العلوم دفعة واحدة، فيكون كالطبيب العام ليس له اختصاص في شيء، وبعض الطلبة يركز ويحرص، فهذا الذي يدرك العلم ويكون عنده قدرة وملكة حتى إن بعض العلماء زعم أن من نبغ في فن من الفنون كان مدركًا لجميع الفنون ولا يخفى ما ذكر من محاجَّة أبي يوسف مع الكسائي حين تناظرا عند الرشيد، وكان الكسائي يزعم أن كل من أتقن علمًا إتقانًا تامًّا أمكنه أن يدرك جميع العلوم فقال له أبو يوسف: ما تقول فيمن سها في سجود السهو؟ قال: أقول لا سجود عليه، قال: من أين أخذت هذا من علمك؟ - والكسائي معروف بعلم النحو - قال: أخذته من علمي حيث إن القاعدة عندي تقول: إن المصغر لا يُصغر، وسجود السهو - على زعمه - مصغر فلا يُصغر، على كل حال: هذه القصة - الله أعلم - هل هي مصنوعة أم حقيقية؟ ولكنها غير صحيحة ما في شك أنها غير صحيحة، إنما قصدي أن أقول: إن الرسوخ في العلم هو العلم ومن ثَمَّ كنت أقول دائمًا لطلاب العلم: احرصوا على قواعد العلم وضوابط العلم؛ وذلك لأن الجزئيات لا حصر لها، كل يوم يخرج الناس معاملة جديدة أو حدث جديد في العبادات لا يمكن للإنسان أن يحكم عليها حكمًا صحيحًا إلا إذا كان عنده قواعد وأصول يُلحق هذه الجزئيات بأصولها وقواعدها، أما من يأخذ العلم مسألة مسألة، فهو كالذي يلقط الجراد من الصحراء يتعب ولم يملأ الكيس، لكن الإنسان الذي يحرص على القواعد هذا الذي بإذن الله يدرك العلم.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العلم سببٌ للإيمان؛ لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ولا شك أنه كلما ازداد الإنسان علمًا ازداد إيمانًا وبصيرة بتوفيق الله عز وجل، فعليك بالعلم واحذر الشبهات والجدال، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أوتي قومٌ الجدلَ إلا ضلوا)؛ ولهذا نجد أن أهدى الناس طريقًا، وأقلهم تكلفًا هم الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الجدال عندهم قليل، ولا يلجئون إليه إلا عند الضرورة، أما كون الإنسان كلما فهم مسألة يذهب يورد عليها في قلبه أو على غيره ما لا يكون واردًا، فهذا من التكلف والتنطع وهو سببٌ للحرمان.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة** أن من أهل الكتاب مَنْ هو راسخٌ في العلم مؤمنٌ بالله؛ لقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا يمكن أن يتم الإيمان إلا بالإيمان بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فكل إنسان يدَّعي أنه مؤمن ولا يؤمن بما أنزل على محمد، فإنه كافر وكاذبٌ في دعواه؛ لأن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ناسخٌ لجميع الأديان.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة** إثبات رسالة الرسول ﷺ ونأخذها من الكاف في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن القرآن كلام الله، والكلام صفة للمتكلم فيقتضي أن يكون الله هو الذي تكلم به.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لابد من الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل من قبله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ ولهذا جاءت الآية في سورة البقرة ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه لا نبي بعد محمد ﷺ وهذه تؤخذ من قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾، ولم يقل: من بعده وهذا هو الواقع، لكن الآية فيها الإشارة وليس فيها التصريح.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله تعالى نصَّ عليهما من بين سائر الأعمال وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قرينان في كتاب الله، ولولا حديث أبي هريرة في مانع الزكاة، وأنه يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار[1]؛ لقلنا إن تارك الزكاة كافر، كما قلنا ذلك في تارك الصلاة، لكن ليس لنا أن نكفر من دلت النصوص على عدم كفره، كما ليس لنا أن نتهيب الكفر فيمن دلت النصوص على كفره؛ لأننا متعبَّدون بقول الله ورسوله.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، ونصَّ على الإيمان بهذا مع أنه داخلٌ في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ لأهميته؛ لأن مدار الإيمان كله على الإيمان بالله؛ لأننا نؤمن بأن الرسل رسل الله والكتب كتب الله والملائكة عباد الله وهكذا، فالركيزة الأولى كلها هي: الإيمان بالله عز وجل وما بعده فيعتبر فروعًا أو جهات متعددة من الإيمان بالله.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اليوم الآخر، وقد سبق الكلام عليه.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وعد الله سبحانه وتعالى مَنْ اتصف بهذه الصفات أنه سيؤتيه أجرًا عظيمًا لا يتصور عظمته؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: علو مرتبة هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، يؤخذ من الإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولم يقل: هؤلاء ولم يقل: فإننا سنؤتيهم بل قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والإشارة إلى المشار إليه بالبعد تدل على علو مرتبته كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، مع أنه بين أيدينا لكن لعلو مرتبته أُشير إليه بإشارة البعيد، نسأل الله تعالى يجعلنا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٨٧).

وإياكم من الراسخين في العلم المؤمنين بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾

﴿إِنَّا﴾ الضمير يعود على الله عز وجل، وكان بصيغة الجمع للتعظيم، وقوله: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ الوحي هو: الإعلام بسرعة وخفاء والمراد به هنا: إعلام الله تعالى أنبيائه ورسله بشرعه الذي يتعبد به عباده هذا هو الوحي: أن يُعْلِمَ الله أحدًا من أنبيائه أو رسله بالشرع الذي يتعبد به عباده، وقد ذكر الله عز وجل في سورة الشورى أنه ثلاثة أقسام فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

وقوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾، (ما) هنا تحتمل أن تكون موصولة، وإذا كان كذلك، فلابد من عائد محذوف والتقدير: كالذي أوحيناه إلى نوح ويحتمل - وهو الأقرب - أن تكون مصدرية أي: كإيحائنا وهذا أولى؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير أي: كإيحائنا إلى نوح ونوح هو أول الرسل عليهم الصلاة والسلام كما جاء ذلك مصرحًا به في حديث الشفاعة؛ ولهذا قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ والمراد بالنبيين هنا: النبيون الذين أرسلوا إلى أقوامهم، وقد جعل الله النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم ونوح كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، وبهذا نعرف أنه لا رسول قبل نوح عليه الصلاة والسلام، وإن ما ذكره المؤرخون من أن إدريس قبل نوح فهو قول خطأ، والصواب أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل فيما يظهر.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، وإبراهيم هنا فيها قراءتان: (إبراهام) و(إبراهيم) وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان يجوز أن يقرأ بهما الإنسان ولكن - كما أسلفنا - لا يجوز أن يقرأ الإنسان بين العامة بقراءة خارجة عما في أيديهم من المصاحف؛ لأن ذلك يكون سببًا

للفتنة.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾، وهو ابن إبراهيم الأكبر ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ وهو ابنه الثاني ﴿وَيَعْقُوبَ﴾، وهو ابن إسحاق وإنما نص عليه مع أنه الابن؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا من ذرية يعقوب؛ إذن إسماعيل وإسحاق أخوان، وإسماعيل عمُّ يعقوب

وقوله: ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل: الأسباط المراد بهم: قبائل بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وقيل: إن المراد بالأسباط هم أولاد يعقوب، فعلى الأول يكون من باب ذكر العام وإرادته الخاص؛ لأن الأسباط كلهم ليسوا أنبياء، وإنما الأنبياء فيهم، وعلى الثاني لا إشكال.

وقوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ هو آخر أنبياء بني إسرائيل، ليس بينه وبين محمد ﷺ رسول ولا نبي أيضًا.

قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو من بني إسرائيل. ﴿وَيُونُسَ﴾ كذلك، ﴿وَهَٰرُونَ﴾ كذلك أيضًا من بني إسرائيل، ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، داود هو أبو سليمان والزبور هو: الكتاب الذي أعطاه الله تعالى داود ونص عليه؛ لأن فيه فوائد مرققة للقلوب؛ ولأن داود عليه الصلاة والسلام كان يترنم به فتسمعه الطير فتسبح معه وكذلك الجبال.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، من الرسل الذين لم يذكروا في هذه الآية: يونس، شعيب، هود، صالح، لوط، يوسف.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ لأن الله تعالى لم يقص على الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من كانوا حول جزيرة العرب، أما من كانوا بعيدين كالذين في أمريكا وأقصى آسيا، وما أشبه ذلك فلم يذكروا؛ لأن المقصود من ذكر الأنبياء هو الاعتبار وإذا لم يكن هناك قرب في الأحاديث، وفي المكان، فإن الاعتبار يكون في ذلك قليل.

قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل و﴿مُوسَىٰ﴾ مُكلَّم وهو مفعول به و﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لمعنى الفعل الذي قبله، أي: كلم تكليمًا وإنما أخَّر ذكر موسى؛ لما ذكر من خصائصه وهو الكلام، كما أخَّر ذكر داود بعد سليمان مع أنه أبوه، من أجل النص على الزبور الذي أتى الله تعالى داود، والترتيب بين الأنبياء في الذكر يكون؛ لأسباب بلاغية لفظية أو معنوية حسب ما يتبين من السياق.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد كثيرة منها،** أن أول الرسل نوح؛ لقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا هو الحق ليس قبله رسول، أما النبوة فكانت قبل نوح، فإن آدم عليه الصلاة والسلام كان

نبيًّا؛ لأنه يتعبد لله عز وجل، ولا يمكن أن يتعبد لله إلا بوحي من الله، وبثبوت الوحي له يكون نبيًّا، ولكنه لم يرسل إلى أولاده؛ لأنه في ذلك الوقت لا حاجة للرسل؛ إذ إن الناس كانوا على ملة واحدة كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: كان الناس أمة واحدة على الحق وعلى الدين القويم، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، لكن في عهد آدم لا اختلاف، ولهذا كان نبيًّا ولم يكن رسولًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أن الوحي إلى جميع الأنبياء الرسل كان من جنس واحد؛ لقوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾، ولكن هل الموحَى به يتفق؟ نقول: يتفق في أشياء، ويختلف في أشياء، فالتوحيد اتفق عليه الرسل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، هذا متفق عليه أما الشرائع والمنهاج، فإن الأمم تختلف؛ لأن الله يشرع لكل أمة ما يناسب حالها كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، فالشرائع والمنهاج يختلف، أما الأصل فهو متفق كل الرسل اتفقوا على التوحيد ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ إذن كما أوحينا إلى نوح والذين من بعده هذا في أصل الوحي وما اتفقت فيه الشرائع وهو التوحيد أما المنهاج والشرائع، فلكل أمة بحسبها.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بطلان قول بعض المؤرخين أن إدريس كان قبل نوح؛ لأن هذا قول باطل يبطله القرآن الكريم.

٤- ومن فوائد هذه الآية: الإيحاء إلى هؤلاء الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلى آخره.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى قص أنباء بعض الرسل، ولم يقص أنباء آخرين، والحكمة من ذلك: أن الأنبياء البعيدين عن منطقة رسالة محمد ﷺ لم يقص الله علينا من أنبائهم ولكن لو قال قائل: هل لكل أمة رسول؟ الجواب: نعم، لا شك في هذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ ولقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله كلَّم موسى كلامًا حقيقيًّا، لقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، والذين أنكروا أن يكون الله كلّمه سلكوا مسلكين: منهم من حرّف الآية لفظًا؛ ليتغير المعنى، ومنهم من حرَّفها معنىً وأبقى اللفظ على ما هو عليه، فمنهم من قال: إن صواب القراءة: وكلّم اللهَ موسى تكليمًا، فجعل المتكلم مَنْ؟ موسى، وهذا تحريف لفظي يتغير به المعنى وهذا لا شك أنه جناية على الله عز وجل وعلى كلامه وهو أيضًا باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ

﴿مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ إذ لا يمكن لأحد أن يقول هنا أن المتكلم موسى؛ لأن الهاء في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ ضمير مفعول، ولا يمكن أن تكون ضمير الفاعل، ومنهم من قال: كلَّم الله موسى تكليمًا، من الكَلْم وهو الجرح كما في قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ»(١) يُكلَم بمعنى: يُجرح فقالوا: كلّم الله موسى تكليمًا أي: جرَّحه بمخالب الحكمة، وهذا تحريف ـ والعياذ بالله ـ يعني: جعلوا هذا من باب الاستعارة، وهذا أيضًا باطل، بل الصواب: أن الله تعالى كلَّم موسى تكليمًا واضحًا بحرف وصوت يسمعه موسى، وأن كلامه إياه كان على الوجهين الأول: المناجاة والثاني: المناداة، قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، والنداء يكون للبعيد والمناجاة تكون للقريب ومن المعروف أن البعيد يحتاج إلى صوت أعلى والقريب يحتاج إلى الصوت المنخفض.

قال الله تعالى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٥،١٦٦]

التفسير

ثم قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ رسلًا جمع رسول بمعنى: المرسل والظاهر أنها حال من قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ حال كونهم رسلًا مبشرين ومنذرين وكانت حالًا؛ لأنها بمعنى المشتق إذ إن رسلًا بمعنى: مرسلين.

قوله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البشارة: الإخبار بما يسر، والإنذار: التخويف مما يخاف منه، وذلك أن الشرائع التي جاء بها الرسل: أوامر ونواهٍ فما الذي يناسب الأوامر؟ البشارة يبشر أن العامل لهذا العمل بالثواب والذي يناسب الإنذار: النواهي فينذر الإنسان من الوقوع فيها؛ ولهذا كانت أنواع التكليف اثنين الأول: أمر والثاني: نهي، فالذي يليق بالأمر: البشارة والذي يليق بالنهي: الإنذار هذا هو ما جاءت به الرسل حتى محمد عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ اللام هنا في قوله: ﴿لِئَلَّا﴾ اللام للتعليل أي: للأجل أن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. الحجة: ما يحتج به الغير على آخر؛ لدفع الملامة عنه ورفع العقوبة عنه هذه هي الحجة يعني:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٣٣)، ومسلم (١٨٧٦).

الدليل أو البيِّنة ما أشبه ذلك قوله: ﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعد إرسال الرسل؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام يبينون للناس بيانًا تامًّا لا يحتاج معه إلى إيضاح كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وبعد البيان ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فلابد من البيان على رسول قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فبعزته أرسل الرسل وجعل النصر لهم في الدنيا والآخرة؛ ولحكمته شرع الشرائع وأحكمها، وأكملها.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** بيان حال الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنها لا تخلو من بشارة وإنذار

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان الدَّاعي إلى الله أن يعامل الناس كما تعامل الرسل أقوامها فتارة يبشر، وتارة ينذر؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائمًا أدخل الناس في الإرجاء وإن سلك سبيل الإنذار دائمًا أدخلَ الناس في القنوط واليأس؛ ولذلك يجب أن يكون الإنسان حكيمًا يراعي أحوال الناس فمتى انهمكوا في أمر محرم فهل هنا الأولى أن يسلك سبيل البشارة فيقع الناس في الأمن من مكر الله أو الإنذار؟ الإنذار ويشدد فإن لم ينفع بهم الوعي الديني فالراجع إلى السلطان، ولهذا كان من سياسة عمر ﷺ أنه يستعمل الرد السلطاني إذا لم يصلح الناس بدونه؛ ولهذا لما ورد الأمر في قتل شارب الخمر في الرابعة إذا لم يرتدع. قال شيخ الإسلام: إن هذا الحكم ثابت إذا لم ينته الناس بدونه

٣- **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات التعليل في أفعال الله و كذلك في أحكامه الشرعية يعني: إثبات التعليل لأحكام الله القدرية كما هو ثابت في الأحكام من أين يؤخذ؟ من لام التعليل وهذا ثابت بأدلة كثيرة أَوْصَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى ٱلْفِ على أن أفعال الله وأحكامه مؤلفة ولو لم يكن من ذلك إلا اسم الله الحكيم لكان هذا كافٍ فكل ما فعله من الحكمة وكل ما شرعه فلحكمة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى يحب الإحذار من الناس؛ لأنه أرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة.

٥- **ومن فوائدها:** الفائدة العظيمة الكبرى وهي العذر بالجهل حتى في أصول الدين؛ لأن الرسل يأتون بالأصول والفروع فإذا كان الإنسان جاهلًا لم يأته رسول فله حجة على الله ولا يمكن أن تثبت له الحجة على الله إلا إذا كان معذورًا؛ لأنه لو لم يكن معذورًا فلا حجة له وهذا الأصل هو الذي دل عليه الكتاب والسنة ولكن قد يكون الإنسان مفرط فلا يعذر بجهل كما لو ألقي إليه دينًا إسلاميًّا إلهيًّا لكنه لم يبحث عن هذا الدين وأعرض واستكبر فهنا نقول: إنه لا يعذر لماذا؟ لتفريطه وعدم بحثه والإنسان إذا كان يريد أن يذهب إلى قرية من القرى وسلك سبيلًا ثم قيل له: هذا لا يوصلك إلى القرية فسوف يمتنع ويسأل أين الطريق إلى هذه القرية؛ ولهذا نقول:

العذر بالجهل ليس على اتفاق من كل وجه لكن بشرط أن لا يكون مفرط في التعلم فإن كان مفرطًا فلا عذر له كيف التفريط؟ أن يذكر له أن الدين خلاف ما هو عليه ولكنه يقول: إنا وجدنا أباءنا على أمة ولم أبحث كما يقول بعض الهوام أو العوام؟ العوام هوام كان يقول بعض الهوام: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم اعمل ما تريد ولا تسأل إن سألت قالوا: حرام.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان رحمة الله تعالى بعباده حيث أرسل إليهم الرسل يعلمونهم ويرشدونهم ويهدونهم إلى دين الله، ولولا الرحمة ما أرسل إليهم لوكلهم إلى العهد السابق الذي أخذه عليهم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهو العزيز والحكيم.

ثم قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ كلمة ﴿لَّٰكِنِ﴾ حرف استدرك لكن الله يشهد فلماذا جاء حرف الاستدراك في هذا الموضع؟ لأن النبي ﷺ له من يكذبه ويقول: إنك لم ترسل كما أرسلت الرسل فقال: لكن الله يشهد بما أنزل إليك؛ خلافًا لمن كذبه وقال: إنه لم ينزل إليه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو: القرآن وشهادته سبحانه وتعالى لنبيه نوعان: شهادة قولية كما في هذه الآية، وشهادة فعلية وهي تمكينه في الأرض، ونصره على عدوه، وإظهار الآيات التي تُعجز البشر على يده ﷺ فإن هذه شهادة فعلية.

إذنْ شهادة الله تعالى لنبيه بالحق تنقسم إلى قسمن شهادة قولية، كما في هذه الآية، وشهادة فعلية وذلك بما أعطاه الله عز وجل من الآيات والتمكين في الأرض

وقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ يعني أنه: نزل بعلم من الله عز وجل، أو أنزله بمعلومه أي: بما علم سبحانه وتعالى أنه مصلح للخلق والعباد، وكلا المعنيين صحيح ولا يتنافيان، فيجب حمل الآية على المعنيين بناءً على القاعدة السابقة أنه إذا احتمل الدليل لمعنيين على السواء ولا منافاة بينهما وجب حمله عليهما جميعًا.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ الملائكة تشهد أيضًا أن الله أنزل على محمد ﷺ قرآنًا كان به رسولًا، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هل المراد بالملائكة هنا ملك واحد وهو جبريل؛ لأنه نزل بالقرآن أو العموم؟ يجب أن نعلم أنه إذا جاء اللفظ عامًّا، الواجب حمله على عمومه إلا بدلالة قوية تدل على أنه أريد به الخصوص سواء كان دلالة شرعية أو عقلية، ومن العلوم لنا جميعًا: أن النبي ﷺ لما عُرج به كان جبريل يستفتح فيقال: مَنْ معك؟ فيقول: محمد، فيقال: أأُرسل إليه؟ فيقول: نعم فتعلم الملائكة بهذا أنه أوحي إليه عليه الصلاة والسلام.

والملائكة هم: عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور وجعل لهم عباداتٍ كما اقتضتها الحكمة، وجعل بعضهم أفضل من بعض، وتقدم الكلام عليهم كثيرًا فلا حاجة للإعادة.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ شهيدًا حال أي: كفى الله شاهدًا عز وجل والباء هنا قالوا: إنها زائدة لتزيين اللفظ، والأصل كفى الله شاهدًا، لكن إذا جاء شاهدٌ آخر وثالث ازداد الأمر قوة، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فالشهادة له بالوحدانية صارت من أطراف ثلاث: الرب عز وجل والثاني الملائكة والثالث أولو العلم، أما الشهادة بالرسالة فلم يذكر إلا طرفين الله والملائكة؛ لأن أولي العلم لا يكونون أولي علم إلا بعد ثبوت الرسالة، فهم تابعون في الواقع، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٨- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: إثبات الشهادة لله من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، ومن قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وهو سبحانه وتعالى شاهد على كل أعمال الخلق على كل ما يحدث في السموات والأرض، بل على ما لا يحدث لو حدث كيف كان قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، مع أنه لم يتكلم به لكنه يعلم بذلك.

٩- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أن القرآن كلام الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وهذا يدل على أنه كلام الله، وبهذا استدل أهل السنة والجماعة على أن القرآن كلام الله.

فإن قال قائل: إن الله تعالى يذكر الإنزال في أشياء ليست كلام الله مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؟

الجواب: أن ما ذكر هنا أعيان قائمة بنفسها، وأما الكلام فهو معنى لا يقوم إلا بذات، وعلى هذا تبين أن القرآن كلام الله عز وجل، واستدل العلماء أيضًا بهذه الآية وأمثالها على أن الله تعالى في العلو؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو كذلك فإنه تعالى فوق كل شيء والأدلة على هذا متواترة ـ ولله الحمد ـ وقد سبق بيانها كثيرًا، ولكن الغريب في مخالفتنا للناس في هذا الموضوع تبين لنا أن كثيرًا من المسلمين لا يؤمنون بعلو الله ويقولون: إن الله بذاته في كل مكان وذلك؛ لأن علماءهم يقررون لهم هذا.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن إنزال الله للقرآن كان بعلمه، فلا يتطرق إليه أيُّ خلل؛ لأنه يعلم متى نزل؟ وبماذا نزل؟ وعلى من نزل؟ لا يمكن أن يتطرق اختلاف أو ادعاء نقص أو ادعاء زيادة؛ لأن الله أنزله بعلمه أي: أن إنزاله مقرون بعلم الله، مَنْ ادعى أن فيه زيادة أو نقصًا، فقد رمى الله بالجهل؛ لأن الله أنزله بعلمه، وكذلك نزل القرآن بما يعلم سبحانه وتعالى بأنه مصلحة للخلق.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الملائكة، وأن الملائكة ذات عقول؛ خلافًا لمن قال: إنهم لا عقول لهم.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عناية الله سبحانه وتعالى برسوله وبما أوحاه إليه حيث

ذكر أن الله يشهد به، وكذلك الملائكة وكثرة سياق الأدلة على الشيء تدل على العناية به.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن شهادة الله في الواقع كافية عن كل شهادة لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٧-١٦٩]

التفسير

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: الأول (إن) والثاني ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بالله، والكفر في الأصل الستر، ومنه الكُفُرَّى وهو طلع النخل؛ لأنه يستر ما في جوفه.

وقوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لها وجهان الوجه الأول: أعرضوا عن سبيل الله، وعلى هذا تكون لازمة أي: تكون (صدَّ) فعلًا لازمًا، والثاني: صدوا غيرهم أي: حملوهم على الإعراض، وعلى هذا فتكون متعدية والمفعول به محذوف أي: وصدوا غيرهم عن سبيل الله، فالآية إذنْ محتملة للوجهين، وكلاهما لا يناقض الآخر، فتكون محمولة عليهما جميعًا، والكفار لا شك أنهم صادُّون بأنفسهم صادُّون لغيرهم، إن كانوا من دعاة الكفر فصدُّهم واضح، وإن لم يكونوا من دعاة الكفر فإن الناس يهتدون بهم فيصدون عن سبيل الله كما صد هؤلاء؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»(١)، إذنْ صد الكفار لغيرهم يكون بالقول، ويكون بالفعل متى يكون بالقول؟ إذا كانوا دعاة للكفر، كلما رأوا شخصًا يريد الهداية ذهبوا إليه يصدونه، ويكون بالفعل إذا كانوا يفعلون، ولكن لا يدعون الناس إلا أن الناس إذا رأوهم اقتدوا بهم، ولاسيما إذا كانوا من أشراف الناس ووجهائهم، فإن الناس عادةً يتبعونهم.

وقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ السبيل بمعنى: الطريق وأضافه الله إليه؛ لأنه تبارك وتعالى هو الذي شرعه لعباده فأضيف إليه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

واعلم أن الطريق والسبيل والصراط تارةً يضاف إلى الله، وتارة إلى غير الله؛ فيضاف إلى الله باعتبار أن الله هو الذي شرعه للعباد، ويضاف إلى غيره باعتبار السالكين قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾، فأضاف السبيل إلى المؤمنين، وفي هذه الآية أضافه إلى الله؛ لأنه هو الذي شر عه، ولأنه يوصل إلى الله فمن سلكه وصل إلى الله عز وجل كما تقول: سبيل مكة من هنا؛ لأنك إذا سلكته أوصلك إليها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ضلوا الضلال بمعني: التيه أي تاهوا عن الحق.

قوله: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وذلك؛ لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ووصف بأنه بعيد؛ لأن هذا الضلال - والعياذ بالله - ضلال عن شيء بيِّن، فإن الحق منار وعَلَمٌ يهتدي به كل ضال، فإن ضلَّ عنه أناس كان ضلالهم بعيدًا؛ لقوة الدليل.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أن الله يخبر عز وجل، وخبره هو الصادق: بأن الذين جمعوا بين هذين الوصفين قد ضلوا ضلالًا بعيدًا وهما: الكفر والصد عن سبيل الله.

٢- **ومن فوائدها:** تأكيد الخبر ولو كان ابتدائيًا إذا دعت الحاجة إليه وقد قال علماء البلاغة: إن الأصل في الخبر أن يبقى غير مؤكد فتقول: محمد مجتهد، ويحسن توكيده عند تردد المخاطب، ويجب توكيده عند إنكار المخاطب، فمثلًا إذا قلنا: محمد قائم نخاطب رجلًا ساذجًا لا يعرف عنه شيئًا فهذا لا يحتاج إلى توكيد؛ وذلك لأن المخاطب سوف يقبل الخبر وإذا كنا نخاطب شخصًا مترددًا فماذا يحصل؟ أن نؤكده حتى يرتدع عنه التردد، وإذا كنا نخاطب منكِرًا أو بحكم المنكر، فإننا نؤكد وجوبه، وتتعدد أداة التوكيد بحسب قوة الإنكار فهنا أكد الله الخبر؛ لأن الموضوع إذا كان ذا أهمية فمن المستحسن أن يُؤكد.

٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من آمن واستقام على سبيل الله ودعا الناس إليه فهو على الهدى، نعرف ذلك من المخالفة والضد فإنه إذا ثبت الحكم لشيء ثبت نقيضه لضده.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الضلال ينقسم إلى ضلال قريب وضلال بعيد، وهكذا أيضًا المعاصي تنقسم إلى كبائر وصغائر كما هو معروف.

ثم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨].

هذه الآية كالآية الأولى فيها التوكيد لهذا الحكم، لكن فيها التصريح بالظلم فبأي شيء ظلموا؟ ظلموا بالاستمرار على الكفر؛ لأن الإنسان إذا استمر على الكفر فقد ظلم نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، والظلم في الأصل بمعني: النقص؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾.

أي: لم تنقص وسُمي المعتدي ظالمًا؛ لأنه نقص من حق المعتدَى عليه، فاعتدى عليه وهنا ظلموا مَنْ؟ هل ظلموا غيرهم أم ظلموا أنفسهم؟ كلاهما، يعني: حصل أنهم ظلموا أنفسهم وغيرهم حيث دلّوا غيرهم على طرق الكفر.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ﴾ تسمى عند علماء النحو لام الجحود، و لام النفي، وعلامتها أن تقع بعد (ما كان)، أو ما (لم يكن)، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ اللام لام الجحود؛ لأنها وقعت بعد ما كان، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أيضًا تسمى لام الجحود؛ لأنها وقعت بعد لم يكن ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، والمعنى: أنه لا يوفقهم لتوبة حتى يغفر لهم وليس المعنى لم يكن الله: ليغفر لهم إذا تابوا، فإن الله سبحانه وتعالى يتوب على من تاب مهما كان عمله، لكن المراد: أنه لا يوفقهم حتى يغفر لهم، والمغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه، فسرناها بهذين المعنيين؛ لأنها مأخوذة من المغفر، وهو يوضع على الرأس عند القتال وقاية للرأس نفسها، وفيه المعنيان جميعًا وهما: الستر والوقاية، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح أن الله عز وجل يغفر يوم القيامة لعبده المؤمن ويقرره بذنوبه فيقول: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ يعني: لا يوفقهم، فالهداية هنا هداية توفيق.

وقوله: ﴿طَرِيقًا﴾ أي: مسلكًا يسيرون عليه إلا طريقًا واحدًا وهو طريق جهنم؛ لقوله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهو من أسماء النار.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ خالدين أي: ماكثين فيها أبدًا أي: باستمرار، والأبد هو الاستمرار في المستقبل والآمد: هو الاستمرار إلى حد معين غير مؤبد.

وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: كان خلودهم في النار على وجه الأبد يسيرًا على الله عز وجل، مع أنه يستلزم أن تبقى النار بما فيها من السعير، والعذاب وأنواع العقوبات ومع هذا فإنه يسيرٌ على الله عز وجل، فالإنسان لو أراد أن يوقد تنورًا يحتاج إلى عمل ووقود وجهد وملاحظة، لكن النار وهي أعظم شيء بالحرارة إذا بقيت على وجه الأبد، فإن هذا أمرٌ يسير على الله عز وجل وليس بصعب عليه.

الفوائد:

١ـ **يستفاد من الآيتين:** أن من اتصف بهذين الوصفين الكفر والظلم فإنه مسدود باب التوفيق؛ لقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

٢ـ **ويستفاد منه:** إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل يعني: أنه يفعل ما يشاء بإرادته متى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

شاء؛ لقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، والمغفرة فعلٌ اختياريٌّ، وهذا الذي عليه السلف الصالح وأهل السنة، وأنكر ذلك أهل التعطيل كالأشاعرة والمعتزلة وقالوا: لا يمكن أن يقوم بالله تعالى فعلٌ اختياري يتجدد ويحدث، وعللوا ذلك بعلل واهية قالوا: إن الحادث لا يقوم إلا بحادث ولو أثبتنا لله تعالى أفعالًا يحدثها متى شاء لازِمٌ من ذلك أن يكون الله حادثًا، ولا شك أن هذا قياس باطل؛ لأنه مصادم للنص فالآيات الكثيرة التي لا تحصر كلها تدل على أن الله يفعل ما يشاء متى شاء قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي لا تكاد تحصر الدالة على أن الله تعالى يفعل ما يشاء متى شاء، فهذا القياس باطل لمصادمته النص، وأيضًا هو خطأ وذلك أننا نحن ونحن محدثون تقوم بنا أفعال متجددة ليست بلازمة لنا منذ خُلِقْنَا، ولا يلزم من حدوث هذه الأفعال أن نكون لم نحدث إلا عند حدوثها، بل حدوثنا سابق عليها، كذلك الرب عز وجل وجوده أبدي أزلي، ولا يمنع من ذلك أن يكون يحدِث ما يشاء من أفعاله وأحكامه وأقواله.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكافر لا يوفق للهدى؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ فإن قال قائل: أليس يوجد أناس من الكفرة الماردين المارقين المضادين للدعوة الإلهية من هداهم الله؟ فالجواب: بلى، ولكن لا مانع أن نخصص العام، فيكون هذا العموم مخصوص بمن أراد الله هدايته، فمن أراد الله هدايته فإنه قد يهدى، ولو كان قد كفر وظلم، إذ من المعلوم إن من الصحابة رضي الله عنهم من كان كافر ظالمًا، ومع ذلك أسلموا وكانوا رؤساء في الإسلام ولهم مقام صدق.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن للنار طريقًا، وللجنة طريقًا فما هو طريق النار؟ طريق النار يتلخص في مخالفة أمر الله ورسوله؛ تركًا للمأمور وفعلًا للمحظور ، وموافقة أمر الله ورسوله هو طريق الجنة.

٥ - ومن الفوائد: إثبات الخلود الأبدي؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، والخلود الأبدي يتضمن أبدية المكان الذي يكون فيه الخلود، وعلى هذا فيكون في الآية دليل واضح على أبدية النار، وقد جاء ذكر الأبدية في هذه الآية وفي أية أخرى في سورة الأحزاب، وفي آية ثالثة في سورة الجن، وهي معلومة، وبناءً على ذلك لا قول لأحد بعد قول الله ورسوله مهما كان من العلم، ما دام هناك آيات صريحة، فإننا لا نركن إلى قول أحد كائنًا من كان؛ لأن خبر الله صدق صادر عن علم مراد به البيان التام، فلا يمكن أبدًا أن يتخلف مدلوله حتى لو قيل: إن فلانًا يقول بكذا وفلانًا يقول بكذا نقول: لا قول لأحد بعد قول الله ورسوله.

٦- ومن الفوائد: أن كل شيء وإن صعب فهو يسير على الله عز وجل؛ لكمال قوته وقدرته وسلطانه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الخطاب هنا لعموم الناس مع أن السورة مدنية، والغالب في السور المدنية أن يكون الخطاب فيها للمؤمنين؛ لأن القرآن نزل وسط أمة مؤمنة، لكن قد يأتي الخطاب بالعموم؛ لقرائن وذلك أن الخطاب سوف ينتقل من هذا العموم إلى مخاطبة أهل الكتاب، وأهل الكتاب ليسوا من المؤمنين ولهذا قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ الرسول هو: محمد ﷺ؛ لأن (أل) هنا للعهد الذهني؛ إذ لا رسول مع محمد ﷺ نظير ذلك أن تقول: جاء الأمير وليس في البلد إلا أمير واحد، كلهم ينصرف ذهنهم إلى هذا الأمير أمير البلد، كذلك أيضًا قد جاءكم الرسول هو محمد ﷺ، وقد ذكر العلماء أن العهود ثلاثة: عهد حضوري وعهد ذكري وعهد ذهني؛ فما تعين بالذهن فـ (أل) فيه للعهد الذهني، وما تعين بالذكر فـ (أل) فيه للعهد الذكري، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أيُّ العسرين يقصد؟نقول: العسر الثاني هو الأول؛ ولهذا قال ابن عباس: (لَنْ يغلب عسر يسرين)، وتكون للعهد الحضوري كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ وكقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، ولها ضابط أعني: (أل) التي للعهد الحضوري، وهي التي تأتي بعد اسم الإشارة فإنها للعهد الحضوري؛ وذلك لأن اسم الإشارة يدل على القرب فإذا قلت: هذا الرجل فـ (أل) هنا للعهد الحضوري؛ لأن المشار إليه يكون قريبًا.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء هنا تكون للمصاحبة والتعدية أي: مُصاحِبٌ الحق، فما جاء به فهو حق أو بالحق يعني: أنه رسول من عند الله حقًّا، فالآية تحتمل هذا وهذا، وليس بينهما منافاة وعلى هذا فنقول: إن المراد بها المعنيان جميعًا أي: أنه جاء بالحق ولم يأت بالباطل، وأنه رسول الحق ليس بكاذب عليه الصلاة والسلام، والحق ضد الباطل وأصله الثبوت، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ثبتت ولزمت فالأصل أن هذه الكلمة تفيد معنى الثبوت، والحق ثابت والباطل زائل كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ (من) هنا للابتداء أي: أن الحق جاء من عند الله وتأملْ قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، حيث إن فيها إشارة إلى أنه يجب عليكم أن تقبلوا هذا الرسول؛ لأنه جاء من ربكم الذي هو مالِكُكُم والمدبر لأموركم فيجب عليكم أن تقبلوا ما جاء به هذا الرسول؛ لأنه من ربكم.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ (الفاء) للتفريع أي: فيتفرع على ذلك وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وبما جاء به.

وقوله: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ هذه منصوبة على أنها خبر (يكن) المحذوفة، والتقدير: فآمنوا يكن خيرًا لكم من الكفر، ولاشك أن الإيمان خيرٌ من الكفر؛ لأن الإيمان به سعادة الدنيا والآخرة، والكفر به خسارة الدنيا والآخرة؛ لقول الله تبارك وتعالى في الكفر: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وفي الإيمان: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ أي: بالرسول ﷺ وبما جاء به، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: فهو غني عنكم؛ لأن له ما في السموات والأرض، ومن جملة ما يملكه هؤلاء الكافرون؛ إذنْ كأنه قال: إن تكفروا فإن الله غني عنك؛ لأن له ما في السموات والأرض.

وقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هنا يتكلم النحويون ويقولون: لماذا أخبر بـ (ما) التي يعبر به عن غير العاقل دون من التي يُعبر بها عن العاقل؟ الجواب: قالوا لأن غير العاقل أكثر من العاقل، وقد يقول قائل: إن في هذا نظر؛ لأن من جملة العقلاء الملائكة لا شك وهم عدد لا يحصيهم إلا الله، فيجيب هؤلاء ويقولون: الملائكة لهم أمكنة كل واحد قد شغل مكانه والأمكنة التي في السموات والأرض أكثر من الملائكة، وعلى هذا فيكون غير العاقل في السموات والأرض أكثر، وهذا ليس ببعيد أن يقال أنه غُلِّب غير العاقل؛ لأنه الأكثر.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ختم الآية بالعلم والحكمة؛ إشارة إلى أن كفر هؤلاء الذين كفروا بالرسول ﷺ كان عن علم من الله وعن حكمة من الله، أما كونه على علم؛ فلأنه في ملكه، ولن يكون في ملكه ما لا يعلمه، وأما كونه عن حكمة؛ فلأنه لا تقوم أحوال العباد، ولا شئون العباد إلا بهدف التقسيم أن يكون بعضهم مؤمنًا وبعضهم كافرًا، لولا هذا الانقسام ما قام علم الجهاد، ولا تميز المؤمن من الكافر، ولا صار للمؤمن مزية يتميز بها عن الكافر، ولا حصل للنار ملؤها، وقد تكفل الله لها بذلك، فمن حكمة الله أن يكون في الناس مؤمن وكافر.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة فوائد منها: بيان أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله حقًّا؛ لقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: عموم رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فإن قال قائل: أفلا يمكن أن يراد بالناس الخصوص كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾؟ فالجواب: أن الأصل في العموم إضافة العموم.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إلزام قبول ما جاء به الرسول عقلًا كما لازم شرعًا، وجه ذلك قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ ﴾، فإذا كان من ربنا فربنا وهو مالكنا وخالقنا والمتصرف فينا كما يشاء فأوجب علينا قبوله.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام حق، وهل يصح أن نقول طالما أن ما جاء به الرسول حق فإن كل ما يُنسب للرسول حق؟ فالجواب: لا؛ لأن فيهماينسب لرسول من أحاديث ضعيفة وموضوعة، لكن كل ما جاء به الرسول حق.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، بالإضافة إلى قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ ﴾، وربوبية الله سبحانه وتعالى عامة وخاصة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، والخاصة كقوله: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ والأمثلة على هذا كثيرة.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن إرسال الرسل من مقتضى الربوبية؛ لأنه تصرُّف في الخلق وفعل من أفعال الله، وكل ما كان كذلك فهو داخل تحت مضمون الربوبية.

٧ـ ومن الفوائد: وجوب الإيمان بالحق ممن جاء به؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ ﴾، وهل هذه قاعدة في كل مَنْ جاء بالحق أنه يجب علينا أن نؤمن بما جاء به؟ الجواب: نعم الحق يُقْبَلُ من أي إنسان من كل من جاء به، وذا كان الذي جاء به ممن عُرِفَ بالباطل فيُقبل منه الحق أيضًا، ولذلك مثال في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾، والسكوت عن أحد الشقين مع إنكار الآخر يدل على الإقرار بالثاني الذي لم يُنكر.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإيمان كله خير، خير في الدنيا وخير في الآخرة حتى في المعيشة ـ وإن كانت ضنكًا ـ فهي عند المؤمن خير؛ لأن المؤمن كما وصفه النبي ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الله تعالى عباده بالإيمان به وإثابتهم على ذلك ليس لافتقاره إليهم، بل هو غني عنهم؛ لقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: عموم ملك الله؛ لقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فكل ما في السموات والأرض فهو لله عز وجل.

فإن قال قائل: أليس لنا أملاك يختص بها كل واحد منها؟

الجواب: بلى، لكن ملكنا لما نملكه ليس على سبيل الإطلاق؛ ولهذا لا يحل أن نفعل في أموالنا ما نشاء، بل لا نفعل بها إلا ما أذن الله لنا به، لو أراد الإنسان أن يحرق ماله هل له ذلك؟ لا إذن الملك خاص فالملك المطلق الشامل لله رب العالمين وما يضاف إلينا ملكًا فإنه ملك قاصر مربوط بما أمر الله به.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجمع في السموات، وذلك لقوله أيضًا: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، أما الأرض فهي تأتي دائمًا في القرآن مفردة لكن في السنة جاءت مجموعة، فقال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ بِهِ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله هما: العليم والحكيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقد مر علينا كثيرًا أن علم الله تعالى واسع شامل؛ حيث يعلم كل شيء في السماء أو في الأرض، وإيماننا بذلك يوجب لنا أن نحذر من مخالفته؛ لأننا إذا خالفناه فهو عالمٌ بنا وهو أبلغ من السميع والبصير، فالسميع إذا آمنا بمقتضاه حذرنا مما يقال، والبصير إذا عملنا بمقتضاه حذرنا مما يرى، لكن العليم إذا آمنا به حذرنا مما يقال أو يُرى أو يفعل أو يترك؛ لأن الله تعالى عليم به، وأما الحكيم فهو مشتق من الحُكم والحكمة، فلله الحكم، وله الحكمة البالغة والحكم نوعان: كوني وشرعي فما كُلف به العباد فهو حكم شرعي، ومن انفرد به الله عز وجل فهو حكم كوني، ثم كل منهما لا يصدر إلا لحكمة؛ إذن فالحكمة كونية وشرعية، ثم الحكمة تكون على الصورة المعينة، وعلى الغاية المرادة؛ ولهذا نقول:

الحكمة غائية وصورية أي: على الصورة المعينة حكمة، فإيجاب الواجب حكمة والإثابة عليه حكمة، الأول صوري والثاني غائي .

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾[النساء: ١٧١-١٧٢]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾

قوله هنا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عام أريد به الخاص، والمراد به: النصارى؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر حال اليهود فيما سبق من قوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ إلى آخر الآيات، وما قبلها أيضًا.

ثم خاطب أهل الكتاب الذين هم النصارى فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، والغلو هو: الزيادة، فالزيادة في الشيء تُسَمَّى غلوًّا وتسمى إفراطًا، وضدها التفريط والتقصير.

وقوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: فيما تدينون الله به؛ وذلك أنهم اعتقدوا أن المسيح هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو قالوا: إن المسيح وأمه إلهان وقالوا: إن المسيح ابن الله، كل هذه الأقوال يرونها دينًا، فقال الله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: فيما تدينون الله به.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾أي: لا تقولوا على الله تعالى فيما تصفون به إلا الحق أي: الشيء الثابت المقبول عقلًا وفطرة ونقلًا، وضده الباطل، فمن قال: إن المسيح ابن الله فقد قال على الله غير الحق، ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة فقد قال على الله غير الحق، ومن قال: إن المسيح وأمه إلهان فقد قال على الله غير الحق.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ هذه الجملة إبطال لقولهم: إن المسيح ابن الله، وإن

المسيح وأمه إلهان، وأن الله ثالث ثلاثة وما أشبه ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عندنا أربع كلمات: المسيح، وعيسى، وابن مريم، ورسول الله، فلابد من إعرابها أما قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ فهو مبتدأ، وأما قوله: ﴿عِيسَى﴾ فهو: عطف بيان، وأما قوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو: صفة، وأما قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو خبر، وهذه الجملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملة تدل على الحصر، فيكون التركيب ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول الله يعني: وليس جزءًا من الله ولا إله، والمسيح: لقب لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ فهو يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله عز وجل، بخلاف المسيح الدجال فإنما سمي بالمسيح؛ لأنه ممسوح العين أي: أعورها، وقول: ﴿عِيسَى﴾ هو: العَلَم، فإن قال قائل: كيف قدم اللقب على العَلَم واللقب وصف والعَلَم ذات؟ قلنا: اللقب إذا اشتهر به الملقَّب صار بمنزلة العَلَم، بل أظهر في تعين الملقب من العَلَم؛ ولهذا تقول: الإمام أحمد مثلًا، فتقدم اللقب؛ لأنه بلقبه أظهر وأبين.

وقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هي مريم بنت عمران ونُسِبَ إليها؛ لأنه ليس له أب، وإلا فمن المعلوم: أن من له أب شرعي فإنه يجب أن ينسب إليه لا إلى أمه، وقولنا: أب شرعي؛ احترازًا ممن له أب قدري لا شرعي، وهو ما حصل بالزنا ـ والعياذ بالله ـ فإن هذا له أب قدري وهو الزاني، لكن الزاني ليس أبًا شرعيًّا.

وقوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: مرسلٌ من الله عز وجل، وليس ربًّا ولا جزءً من رب ولكن رسول الله حقًّا.

وقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (الواو) حرف عطف، ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾، معطوف على رسول الله أي: كلمة الله فهو الكائن بكلمة الله، وليس هو الكلمة؛ لأن الكلمة وصف للمتكلم لا شيء بائن منه، وعلى هذا فيكون معنى ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أي: الكائن بكلمته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إلى مريم بأن قال لها: احملي مثلًا أو كلمة نحوها ـ نعوذ بالله أن نقول على الله ما لم يقله ـ لكن هذا معنى كون كلمة تصل إلى مريم عن طريق جبريل كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، فأضاف الله النفخ إليه؛ لأنه فعل رسوله الذي أرسله لينفخ فيه في فرجها، وإضافة النفخ إلى الله مع أنه كان من جبريل كإضافة القراءة إلى الله مع أنه كان من جبريل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، فالذي يقرأه جبريل، والنبي ﷺ يتبعه.

وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ألقاها إلى مريم بنت عمران، وموسى بن عمران هل هما أخوان؟

الجواب: أُوْرِدَ هذا الإشكال على النبي ﷺ فقال: «إِنَّهُم كَانُوا يُسَمُّوْنَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ» يعني: موسى بن عمران وأيضًا مريم بنت عمران، فعمران أبو موسى، ولا نعلم أنه نبي لكنه أبو نبي، فكان هذا الاسم شائعًا لبني إسرائيل فسمي أبو مريم عمران.

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هل معناها أنه ريح منه، وهو ما حصل بالنفخ من جبريل، أو أنه روح منه أي: أنها روحه مخلوقة من الله عز وجل، أو الأمران؟ الأمران؛ لأنهما لا يتنافيان، فإن جبريل نفخ في فرجها، والنفخ ريح وكذلك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام جسد نُفخت فيه الروح فصار إنسانًا؛ ولهذا سماه الله تعالى روحًا يغلب على دينه المسالك الروحية والرهبانية وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ (من) هنا ليست للتبعيض قطعًا، وقد استدل بها النصراني على أن عيسى جزء من الله وجعل (من) للتبعيض؛ وذلك لأنه زائغ والزائغون هم الذين يتبعون ما تشابه من الأدلة؛ ابتغاء الفتنة، فهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وذكر أن نصرانيًّا استدل بها على أن عيسى جزء من الله، وقال: إن قرآنكم يدل على ما قلنا: إن عيسى جزء من الله وكان عنده أحد العلماء فتلى هذه الآية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فقال للنصراني: إذنْ السموات والأرض وما فيهما جزء من الله فحار النصراني، وعرف أنه على ضلال ثم أسلم؛ لأنه تبيَّن له الحق، فـ(من) هنا ليست للتبعيض، ولكنها للابتداء أي: إنها من عند الله عز وجل وروح منه.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الضمير يعود إلى أهل الكتاب الذين يراد بهم النصارى، أي: آمنوا بالله ورسله عيسى وموسى ومحمد - جميع الرسل - لا تقولوا: لا نؤمن إلا بعيسى؛ لأن محمّدًا ليس هو الذي بشر به بل آمنوا بالله ورسله كلهم من أولهم إلى آخرهم، والإيمان في اللغة اشتُهر بأنه التصديق، ولكن الصحيح أنه ليس التصديق وأنه الإقرار، ولهذا يُعدى بالباء فيقال: آمن بكذا أي: أقر به إقرار مؤمن مصدق، وقد ذكر هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الإيمان» بأن من فسره بالتصديق فليس بصواب، لكن قد يضم المعنى التصديق ثم يتعدى باللام مثل قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هنا بمعنى: الانقياد أي: فانقاد له لوطٌ ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ جملة ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ فعل مضارع أو نقول: إنها جملة مكونة من فعل مضارع وفاعل، والقول هو النطق باللسان، وهنا كلمة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ هل وقع عليها الفعل؟ لا، لأن القول لا ينصب إلا جملة أو شبه جملة، فلا ينصب الاسم المفرد إلا على لغة بعض العرب الذين يجعلون القول كالظن فينصبون به المفرد، وعلى هذا فنقول: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ ليست مفعولًا (لتقولوا) ولكنها خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: ولا تقولوا الله ثلاثة وكانوا يقولون بالتثليث كما ذكر الله عنهم ذلك في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

وقوله: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ أي: انتهوا عن قول ثلاثة فنهى أولًا ثم أمر ثانيًا.

وقوله: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ﴿خَيْرًا﴾ هذه هي خبر يكن المحذوف، والتقدير: انتهوا يكن خيرًا لكم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا دفعٌ لقول: إن الله ثالث ثلاثة، و﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر فالجملة فيها حصر الإلوهية بالله عز وجل.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ سبحان بمعنى: تنزيه، وهي اسم مصدر، وفعلها سبح، والمصدر من تسبيح واسم المصدر سبحان، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائمًا، كلما جاءت سبحان تكون منصوبة على أنها مفعول مطلق وعاملها محذوف وجوبًا، ولا يجمع بينها وبين عاملها.

وقوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ﴾ (أن) هذه مصدرية، وقد حُذف حرف الجر منها للعلم به أي: تنزيهًا له عن أن يكون له ولد، وإنما هو منزهٌ عن الولد جل وعلا لأمور متعددة:

أولًا: لأنه مالك كل شيء، والمالك لابد أن يكون المملوك مباينًا له في كل الأحوال.

ثانيًا: أنه ليس له زوجة، والابن إنما يكون غالبًا لمن له زوجة، كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾.

ثالثاً: أيضًا: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء أي: بقاء النوع باستمرار النَّسل، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك؛ لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعًا: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شئونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾، فعلى كل حال هو منزَّه أن يكون له ولد، وما قدر الله حق قدره من قال له ولد.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا كالدليل على أنه منزه عن الولد؛ لأن ما في السموات والأرض ملك له، والولد لابد أن يكون كوالده من أنه لابد أن يكون له قسط في الملك؛ لأنه سوف يرث والده إذا مات مثلًا، والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض، و(مَا) هنا للعموم أي: كل ما في السموات من ذوات وأحوال وأمور فهي لله عز وجل وكذلك ما في الأرض.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال المعربون: إن (الباء) هنا زائدة والتقدير: وكفى الله، ﴿وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا على كل شيء، فلا يحتاج إلى ابن يساعده أو يعينه في حفظ الملك.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: النهي عن الغلو في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ وإذا نهى الله أمة عن شيء وقصه علينا فهو عبرة لنا يعني:

أننا منهيون عنه، ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى المَسِيحَ ابنَ مَرْيَم»[1] أي: لا تغلو فيَّ.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الغلو في الدين كالنقص منه، فكما أن الإنسان منهي عن النقص في دينه هو أيضًا منهيٌّ عن الغلو.

٣- ومن فوائد الآية: أنه لا يجوز لنا أن نغلوا في ديننا سواءٌ ما يتعلق برسولنا ﷺ أو بأعمالنا، وعلى هذا فمن أحب النبي ﷺ أكثر من محبة الله فهو غالٍ فيه عليه الصلاة والسلام، ومن نزله منزلة الرب وأنه يتصرف في الكون فإنه غالٍ فيه، ومن زعم أن غيره ممن هو دونه يتصرف فى الكون فهو غالٍ فيه فالغلو إذنْ: مجاوزة الحد في كل شيء.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم القول على الله إلا بالحق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو الشيء الثابت، ويتفرع من هذه الفائدة: تحريم تحريف آيات الصفات وأحاديثها؛ لأن الذي يحرفها لم يقل على الله الحق، بل قال عليه الباطل، فآيات الصفات مثل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ قال قائل: ليس المراد باليدين اليد الحقيقية، بل المراد النعمة والقدرة وما أشبه ذلك، نقول: هذا قال على الله غير الحق، لأنه قال ما لا يريده الله عز وجل.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن المسيح عليه الصلاة والسلام لا يستحق من أمر الربوبية شيء وهذه تؤخذ من قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

٦- ومن فوائدها: جواز نسبة الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وعيسى ابن مريم ليس له أب كما هو معلوم للجميع، وإذا كان الولد ولد زنا قلنا: إنه ليس له أب شرعي فإلى من ينسب؟ إلى أمه يبقى عندنا إشكال هو ينسب إلى أمه حقيقة لا شك فيها، لكن عند المناداة عندما نضع له اسمًا يشتهر به بين الناس وينادى به، هل نحن ننسبه إلى أمه فيكون بذلك نشر عارها وكسر قلبه أو نضع له اسمًا ننسبه إلى من هو حقيقة منسوب إليه فنقول مثلًا عبد الله بن عبد الكريم؟ الثاني أَوْلى، نحن إذا قلنا هو عبد الله بن عبد الكريم هل أخطأنا؛ لأن الزاني عبد لله عز وجل وإن كان زانيًا فهو عبد لله، فلنسميه بهذا الاسم؛ لأنه لو سميناه منسوبًا إلى أمه؛ لكان كل إنسان يسمع سيقول لماذا؟ ثم يلحق العار هذا الرجل وذريته ويبقى وصمة عارٍ في تاريخهم إلى ما شاء الله، ومن جهة الأحكام الشرعية، فلا شك أننا لا نرتب عليه أحكام الأبوة؛ ولهذا لو مات ابن الزنا من يرثه؟ أمه ترثه فرضًا وتعصيبًا، فلهذا نقول: يوضع له اسم ينسب إليه، ولا يخالف الواقع.

٧- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات رسالة عيسى بن مريم؛ لقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا يجب علينا أن نؤمن بأن عيسى رسول ليس له حق في الربوبية بأي حال من الأحوال.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة في قوله تعالى:** إطلاق السبب على مسببه لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، فإن عيسى ليس هو الكلمة نفسها، لكنه خُلق بالكلمة فأطلق السبب وأريد المسبب.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام من أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ لأنه أضافه إلى نفسه فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والإضافة للتخصيص والتكريم.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام روح من الله قال تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني: أنه من جملة الأرواح التي خلقها الله عز وجل، ولكن أضيف إلى الله عز وجل من باب التكريم والتشريف، واعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: نوع معنًى لا يقوم إلا بغيره وهذا يكون من صفاته مثل: علم الله قدرة الله سمع الله كلام الله وما أشبه ذلك، هذه معانٍ إذا أُضيفت إلى الله فهي من صفاته وليست بمخلوقة، ونوعٌ آخر يضاف إلى الله، لكنه بائن منه منفصل عنه، وهذا يكون مخلوقًا، لكن أضيف لله من باب التشريف والتكريم ومنه قوله هنا: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ فأضاف الناقة إليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ كل هذه أعيان قائمة بنفسها، فإضافتها إلى الله إضافة تشريف وتكريم.

وإذا كان الشيء ليس بمعنًى، ولكنه مضاف إلى الله وهو بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء مثل: يد الله فهذا أيضًا يلحق بكونه من الصفات؛ لأنه ليس منفصلًا بائنًا عن الله عز وجل فيكون من صفاته.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الإيمان بالله ورسله كلهم أجمعين من نوح إلى محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وقد سبق لنا مرارًا ما يتضمنه الإيمان بالله عز وجل، فلا حاجة للتكرار، وكذلك ما يتضمن الإيمان بالرسل.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن التثليث؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾، يعني: أنه يحرم أن يقول الإنسان: إن الله ثالث ثلاثة: وهذا من الشرك فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فلا يقول قائل: لماذا اقتصر على النهي فقط؟ نقول: نعم اقتصر على النهي، ولو كان هو شركًا؛ لأن الشرك منهي عنه.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من تاب من التثليث وانتهى عنه تاب الله عليه؛ لقوله: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، فدل هذا على أن من تاب فهو خير وهذا يستلزم قبول التوبة.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** انفراد الله تعالى بالإلوهية وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أيضًا دليل آخر وهو الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ﴾ فهذه دلت على الحصر وهو أن الله تعالى هو الإله وحده لكن قوله: ﴿وَٰحِدٌ﴾ يكون زيادة تأكيد.

١٥- من فوائد الآية الكريمة: تنزيه الله أن يكون له ولد يعني: أنه منزه عن أن يكون له ولد تؤخذ من قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؛ تنزيهًا له.

ووجه كون اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى عيبًا ونقصًا؛ لأنه يستلزم أن يكون محتاجًا إليه وأن يكون باقيًا له إذا هلك الأب.

١٦- من فوائد الآية الكريمة: انفراد الله تعالى بالملك ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ووجه ذلك أنه قدم ما حقّه التأخير وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

١٧- من فوائد الآية الكريمة: إثبات أن السموات والأرض عدد، وذلك بصيغة الجمع في قوله: ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾، وقد بيّن ذلك في أي آية أخرى حيث قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، والأرض لم تجمع في القرآن، ولكن جاءت السنة في ذلك صريحة في مثل قوله ﷺ: «طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

١٨- ومن فوائدها: إثبات إن الله يوكل ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾.

في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ هذا يوجب للإنسان صدق الاعتماد على الله عز وجل وأن يعتمد على الله وحده، لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فاجعل اعتمادك على الله فإنه كافيك، ولو أننا صدقنا في ذلك لكان الله حسبنا، ومن كان الله حسبه تم له أمره قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، فأنت توكل على الله فإن صدقت التوكل على الله، فإن الله حسبك وكافيك يسهل لك أمرك، وهذا وعد من الله عز وجل ما هو من زيد ولا من عمرو، وجاء عن النبي ﷺ: «لَوْ تَوَكَّلْتُم عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٢)، فالطير تغدوا من أوكارها خِماصًا جائعة قد مضى عليها الليل ونفد ما في بطونها، ولكنها متوكلة على الله عز وجل تعرف ربها وتعتمد عليه ولا ترجع إلا وهي ممتلئة بطونها، فلو أننا توكلنا على الله حق التوكل لكفانا، لكن ينقصنا ذلك كثيرًا وجود الأسباب المادية تجد أكثر الناس يعتمد عليها وينسى المسبب عز وجل.

وقال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ المسيح هو: ابن مريم الذي اتخذه هؤلاء إلهًا بينما المسيح نفسه لن يستنكف عن عبادة الله، بل هو عليه الصلاة والسلام يطلب الوسيلة إلى الله في القرب لديه، قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يعني: يطلبون الوسيلة التي تقربهم إلى الله عز وجل،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

وأولئك يدعونه.

وهنا يقول: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ بمعنى: لن يأبى أنفة وعلوًّا.

وقوله: ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: عبدًا شرعيًا؛ لأن الكوني ما أحد يستنكف حتى أفجر عباد الله لن يستنكف أن يكون عبدًا لله بالعبودية القدرية؛ لقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: ولن يستنكف الملائكة المقربون، والملائكة هم: عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعل غذاءهم التسبيح؛ ولهذا كانوا صُمْدًا لا يأكلون ولا يشربون.

وقوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: إلى الله، وإذا كان الملائكة المقربون لا يستنكفون عن عبادته، فغيرهم من باب أولى وقوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ هل هي صفة كاشفة أو صفة قيد؟ يحتمل أن يكون ذلك صفة كاشفة؛ لأن الملائكة مقربون إلى الله عز وجل، ويحتمل أن يكون قيدًا، وعلى هذا الاحتمال يكون فيهم المقربون وفيهم من ليس بمقرب، فالله أعلم.

فإن قال قائل: ما المناسبة في ذكر الملائكة عند ذكر عيسى؟

قلنا: المناسبة أن من الناس من جعل الملائكة أولادًا لله كما أن منهم من جعل المسيح ابنًا لله عز وجل فهذه مناسبة، يعني: أن الملائكة الذين اتخذتموهم أولادًا لله لن يستنكفوا أن يكونوا عبادًا لله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ الجملة هنا شرطية (ومن) أداة شرط(يستنكف) فعل الشرط، وجواب الشرط ﴿وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، وقرن بالفاء؛ لأنه صدر بالسين، وإذا صدر الجواب بالسين وسوف، فإنه يتعين أن يربط بالفاء، وقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: عبادة الله شرعًا ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فيتعالى ويترفع ويأبى أن يخضع للأوامر والنواهي ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ المستنكف المستكبر والمتعبد المتذلل كلهم سيحشرون إليه، وعلى هذا فالضمير في قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يعود على الجميع.

قوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ روعي في فعل الشرط لفظ الشرط،وله علاقة بمَنْ يبدو فاعله مفرد ،(فسيحشرهم) الجواب روعي فيه المعنى وأيضًا روعي فيه المعنى بالمعنى الأعم، لأن قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ يشمل المستنكف وغير المستنكف،وعلى هذا فيكون فيه العموم أوسع.

فإذا قال قائل: هل يجوز في اللغة العربية أن يتعدد مصدر الضمير فمرة يعود بالإفراد ومرة يعود بالجمع؟

قلنا: نعم هذا موجود في اللغة العربية بشرط أن يكون اللفظ أي: مرجع الضمير صالحًا للإفراد والجمع،فإذا كان صالحًا للإفراد والجمع جاز أن يعود الضمير عليه بالإفراد وأن يعود عليه بالجمع،وأن يتنوع، قال الله تعالى في آخر سورة الطلاق: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ

جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ في هذه الآية عاد الضمير أولًا باعتبار اللفظ ثم باعتبار المعنى ثم باعتبار اللفظ.

والحكمة من ذلك: التنبيه على أن مثل هذه الكلمات للعموم يعني: مَنْ سواء كانت شرطية أو موصولة، نستفيد من كون الذي يرجع إليه مرة يكون بالإفراد ومرة يكون بالجمع.

وقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ أي: سيجمعهم، وذلك يوم القيامة، فإن الله سبحانه وتعالى يجمع الأولين والآخرين في مكان واحد لا بناء ولا جبال ولا أشجار ولا هضاب ولا رمال، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر؛ لأنهم على أرضٍ مسطحة تُمد مد الأديم كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، وهي الآن غير ممدودة، الآن مبسوطة وليست ممدودة الآن هي مطوية قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، لكن إذا كان يوم القيامة صارت ممدودة قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ كما جاء في الحديث «تُمَدُّ مَدَّ الأَدِيمِ» أي: مد الجلد؛ ولهذا يسمعهم الداعي إذا دعى بأولهم سمع آخرهم يعني: ما في انحناء يمنع وصول الصوت أو جبال أو أشجار، وأيضًا ينفذهم البصر فيراهم كلهم ليس فيه انحناء حتى يغيب بعضهم عن البصر، بل يشاهدون جميعًا كل الخلائق يجمعون يوم القيامة في هذا الصعيد كما قال الله تعالى ردًّا على الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، الأولون والآخرون كلهم يجمعون في هذا المكان، زدْ على ذلك أن الوحوش والبهائم كلها تحشر مع الناس فيا له من مشهد عظيم، فهذا المشهد يجب أن نتذكره دائمًا قيامًا وقعودًا، وإذا تذكره الإنسان فإنه قد يقول يومًا من الأيام: ليتني شجرة تعرض كما قال ذلك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وإن الإنسان أحيانًا ليمر بالعصفور أو القط فيقول: يا ليتني مثله يخشى من الذنب، وإن من المعلوم أن بني آدم إذا قدر الله للإنسان السعادة فهو أفضل منها بكثير قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، لكن من يضمن لنفسه أنه سالم من هذا الموقف العظيم من هذا اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ ولو ضمن الإنسان هذا لقال: الإنسان الحمد لله الذي خلقني مع أن الله محمود على كل حال، لكن الإنسان يخشى من الذنوب فيقول: إن الخلائق كلها سوف تحشر إلى الله عز وجل ويجازى كل إنسان بما عمل.

ولو أنكر الإنسان هذا الذنب ما الذي يشهد عليه؟ نفس البدن أعضاؤه، وكل الجلد يشهد بما مس من عملٍ سيء وبما تصبب عرقًا من شهوة باطلة، وغير ذلك إذا شئت قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ـ اللهم نجنا من ذلك اليوم ـ، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ

جَمِيعًا ﴾ ثم ذكر نتيجة هؤلاء وهؤلاء.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآيات فوائد منها: أنه لا يمكن للمسيح عيسى ابن مريم الذي جعله الناس إلهًا أن يستنكف عن عبادة الله، ويتفرع على هذه الفائدة: أن العبد لا يصح أن يكون ربًّا أو معبودًا؛ لأنه هو نفسه عابد مربوب.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الاستطراد في ذكر من يشارك الشيء وإن لم يكن له ذكر؛ لقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ لأننا ذكرنا في التفسير أن الملائكة ذكرت إلى جانب المسيح لأن من الناس من يعبد الملائكة ويدعي أنها بنات الله.

٣ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الملائكة مقربون إن قلنا: إن الصفة صفة كاشفة، أو أن الملائكة ينقسمون إلى قسمين: مقربين وغير مقربين إذا قلنا إنها قيد.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وعيد من استنكف عن عبادة الله واستكبر؛ لقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ثم فصَّل.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الاستنكاف غير الاستكبار، الاستنكاف بالقلب بأن نقول: الإنسان معه أنفة وكبرياء قلبية عن عبادة الله، والاستكبار أن يدع العبادة ويستكبر عنها ويحتقر العبادة ويحتقر الرسول؛ لقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات البعث؛ لقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

٧ـ ومن فوائدها أيضًا: أنه عامٌّ لكل أحد، لابد لكل حي من البعث سواء كان من بني آدم أو غير بني آدم حتى البهائم والوحوش تُحشر يوم القيامة.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٣ - ١٧٥]

التفسير

في هذه الآية والتي بعدها التفصيل، والتفصيل بعد الإجمال من أساليب البلاغة العربية، ولاشك أن القرآن من أعلى ألوان البلاغة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ (أما) هنا: شرطية وتفيد مع الشرط التفصيل، أما: قولنا شرطية؛ فلأن لها زوائد وهو قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾، وأما كونها تفصيلية؛ فلأنه فصَّل بها المؤمنون والذين استنكفوا واستكبروا.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: يعطيهم أجورهم وافية كاملة، وقد جاء في القرآن والسنة بيان كيفية هذه الأجور، وأن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. يعني: زائدة على أجورهم، فيستحق الإنسان الحسنة بعشر أمثالها تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ استنكفوا بقلوبهم، واستكبروا بجوارحهم عن عبادة الله.

وقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: عقوبة، و﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى: مؤلم وكلمة ﴿عَذَابًا﴾ يسميها النحويون من حيث الإعراب مصدر؛ لأن المفعول المطلق هو الذي لا يكون كالفعل أو كالعامل، هذا المفعول المطلق أما إذا كان من العامل، فإنه يسمى مصدر، والمصدر له عدة أغراض منها التوكيد كما هنا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فصار التوكيد من جهة أنه عاد بلفظه العامل، وهو أيضًا توطئة لما بعده حيث وُصف بأنه عظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الولي أي: من يتولاهم إذا عذبهم الله ولانصيرًا يمنع عنهم عذاب الله، فليس لهم دافع ولا رافع من عقوبة الله عز وجل، فالدافع من الولي، والدافع النصير هو الله.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: دليل على المجازاة، وأن الإنسان يُجازَى بقدر عمله، ولكن حسب ما وعد الله عز وجل.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣- ومن فوائدها: أنها ربما تُشعر بأن العمل الصالح لن يكون مقبولًا إلا بالإيمان؛ لأنه قدَّم ذِكْرَ الإيمان والأصل أن ما قُدم فهو الأسبق، وهذا أمر دلت عليه السنة، بل دلَّ عليه القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، فلابد من

الإيمان السابق على العمل الصالح، هل يمكن أن يستدل بهذا على أن العمل الصالح لا يدخل في الإيمان؛ لأن الأصلَ في العقل التغاير؟ نعم، قد يستدل به مَنْ يستدل على أن الإيمان ليس العمل الصالح، ولكن نقول: قد دل الكتاب والسنة على أن العمل من الإيمان قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ قال أهل التفسير أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، والصلاة عمل، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[1]، وربما يقال: إنه إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح صار المراد بالإيمان: عمل القلب وقول القلب، وبالعمل الصالح عمل الجوارح وقول اللسان، فيكون هذا من باب ما يفترق عند الاجتماع ويجتمع عند الافتراق.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على الجبرية، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فأضاف العمل إليهم والجبرية يقولون: إن الإنسان لا يعمل، ولا يضاف إليه العمل إلا مجازًا، وأن عمله ليس باختياره ولا بقصده.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان مِنَّة الله عز وجل؛ حيث سمى الثواب أجرًا كأنه استأجر أجراء يعملون ويأجرهم مع أن ذلك فائدة، فالعمل لمن؟ للعامل نفسه بينما الأجراء في غير المعاملة مع الله يكون العمل لمن دفع الأجر، أما هذا فالعمل للإنسان، ومع ذلك يأجره الله عز وجل.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن ثواب الأعمال الصالحة يزيد على ما قدره الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْـلِهِۦ﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: أن المستنكفين المستكبرين جزاؤهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًـا أَلِيمًا﴾، وهل يدخل في هذا أهل المعاصي؟ إن قلت: نعم لازم أن يقع بهم العذاب على كل حال، وإن قلت: لا فهو أقرب؛ لأن المؤمنين يستحقون العذاب، لكن لا يعذبون إلا ما شاء الله، إما بمغفرة من الله أو بشفاعة أو بدعاء ممن لهم أو ما أشبه ذلك.

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من أراده الله بسوء فإنه لا مردَّ له ولا عاصم منه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ويترتب على هذا: أن المشركين لن ينتفعوا بآلهتهم مهما كانوا، بل إن الله قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: جميعًا العابد والمعبود.

ثم قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخطاب هنا لكل الناس؛ لأن رسالة النبي ﷺ عامة لا تختص بقوم دون قوم، فالناس كلهم مخاطبون بشريعة النبي ﷺ، حتى اليهود والنصارى يخاطبون بذلك.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ الجملة هنا مؤكدة بمؤكد واحد وهي قد.

وقوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ البرهان: هو الدليل، والمراد هو: الآيات التي جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظم آيات جاء بها النبي ﷺ هي القرآن الكريم الذي بقي آية للرسول ﷺ إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الربوبية هنا ربوبية بمعنى الأخص؛ لأن كونه عز وجل يمنُّ علينا بالآيات البينات القاطعة، لا شك أن هذا من مقتضى الربوبية الخاصة، فالله سبحانه وتعالى رب الجميع لكن هناك ربوبية خاصة يمنُّ الله بها على من يشاء من عباده.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أنزلنا إليكم نورًا يعني به: القرآن، والنور ضد الظلمة، وهل هو نور معنويّ أو حسيّ؟ هو نور معنوي لا شك؛ لأنه يستنير به القلب والوجه والقبر والبعث؛ فالقرآن كله نور، لكنه يحتاج إلى تأمل وتدبر لمعانيه وعمل به.

وقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ ذكرت أنها تصلح أن تكون بمعني: بيّن أو مُظهر وذلك؛ لأنها مشتقة من أبان، وأبان تصلح متعدية ولازمة فتقول: أبان لي الطريق، وحينئذ تكون متعدية، وأبان الفجر بمعني: طلع هذه لازمة، على هذا فكلمة ﴿مُّبِينًا﴾ تصلح أن تفسرها: مبينًا لغيره، وبأنه مبينًا لنفسه، وهل يتنافى المعنيان؟ الجواب: لا، وقد مر علينا قاعدة مهمة أصيلة: أنه متى كانت النصوص من القرآن والسنة تحتمل معنيين لا مرجح لأحدهما عن الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حمل النص على المعنيين جميعًا.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن القرآن الكريم نازل لجميع الأرض؛ لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ويترتب على هذا عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على من لا يعرف اللغة العربية أن يتعلمها؛ ليتوصل إلى الاستفادة من القرآن؛ لقوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ومن المعلوم أن تلاوته على رجل أعجمي صعب، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم لا يعرفونه ولا يتذوقون طعمه.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: باب الربوبية وأن إرسال الرسل، وإنزال الكتب بمقتضى ربوبية؛ لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ـ ومن فوائدها: أن القرآن الكريم نور، ولكن لا يتذوق ذلك ولا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين: الأول: هو التدبر، والثاني: التذكر دليل هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾

لأي غرض؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه واحدة، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فَمَنْ تدبَّر الآيات وسلم من الهوى وسلم من تحليل الأدلة واتعظ بما فيها فإنه سيجد نورًا عظيمًا في قلبه ويكشف له من العلوم ما لا يكشف لغيره.

٥- ومن فوائد الآية: أن القرآن الكريم فيه بيان كل شيء؛ لأن النور لابد أن تستبين به الأشياء كالنهار إذا طلع بانت به الأشياء وكالمصباح إذا أسرجته فإنه لابد أن يبين به ما كان خافيًا، فالقرآن تبيان لكل شيء، ولكن قد يخفى البيان؛ إما لقلة الإيمان، وإما لقلة العلم، وإما لقلة الفهم، وإما لسوء القصد، وإلا فإن القرآن بيِّن ونور لكل أحد، لكن قد يكون عند الإنسان ضعف إيمان بمعنى: أنه لا يثق أن القرآن فيه تبيان كل شيء أو يكون قاصر علم ليس عنده أداء يتمكن به من استخراج الأحكام من الأدلة، ومن ثم صرنا محتاجين إلى تعلم أصول الفقه، وإما أن يكون لسوء الفهم فالإنسان قد يكون عنده علم وعنده تدبر ولكن ما يفهم! فالناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا تجد بعض الناس يريد أن يستنبط من الآية أو الحديث فوائد كثيرة لا يستنبط من ذلك إلا قليلًا بالنسبة له، وذلك فالله يؤتيه من يشاء؛ ولهذا لما سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل خصَّكم النبي ﷺ بشيء يعني: أوصى إليكم؟ قال: (لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله أحدًا في كتابه وما في هذه الصحيفة قالوا: ما فيها؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر)(1)، فالشاهد من هذا الأثر قوله: «فهمًا يؤتيه الله من يشاء»، وأنت إذا تأملت كلام العلماء رحمهم الله وجدت الفرق العظيم بينهم في الفهم تجد هذا العالم يشرح ثم يستنبط منها عشرين فائدة وآخر يشرحه ولا يستنبط إلا خمس أو أربع فوائد، وكذلك في الآيات، الرابع: سوء القصد فيكون الإنسان عنده علم واقتناع وفهم، لكن قصده سيء يطالع الكتاب ويطالع السُّنة من أجل أن ينتصر لقوله، وإن كان يعلم أنه باطل وهذا سيءٌ القصد، هذا يُحرم من الوصول إلى المقصود.

قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥].

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ هذه جمعت بين الإيمان والتوكل آمنوا به واعتصموا به، ولم يلجئوا لأحد سواه، بل جعلوه هو حمايتهم عز وجل وبه عصمتهم لا يعتصمون بأحد سوى الله ولا يعتمدون ويتوكلون إلا على الله.

وقوله: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ السين في قوله: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ﴾ السين يُراد بها شيئان الأول: التحقيق، والثاني: القرب، أما التحقيق فواضح، وأما القرب فما أقرب ما بين الإنسان وبين الآخرة وما هذا إلا أن تخرج الروح من جسده ثم يكون في عالم الآخرة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: يدخل في الإيمان باليوم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٣٧٠).

الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت.

وقوله: ﴿رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ كلمة ﴿رَحْمَةٍ﴾ يصح أن تكون صفة لله، ويصح أن تكون مخلوقًا لله فأيهما المراد هنا؟ الرحمة المخلوقة؛ لأن الرحمة الصفة لا يمكن أن يدخل الناس فيها، لكن الرحمة المخلوقة هي التي يمكن أن يدخل الناس فيها؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ ومن هنا ليست للتبعيض ولكنها للابتداء أي: رحمة كائنة منه.

وقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: زائد على الرحمة أو على الأصح زائد على ما يعطون من الثواب والأجور.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ وذكر الله تعالى للذين آمنوا وأسلموا له ذكر ثمرتين عظيمتين: الثمرة الأولى: من كلام الله الرحمة والفضل والثانية: أن يهديهم إليه صراطًا مستقيمًا أي: يدلهم، وهذا يدل على أن الإيمان والاعتصام بالله سببٌ لزيادة العلم، ودلت عليه نصوصٌ أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

وقوله: ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فيها قراءتان الأولى بالسين، والثانية بالصاد؛ لأن السين والصاد تتناوبان في حكم مخرجيهما، والصراط هو: الطريق الواسع السهل، وأصل ذلك من قولهم: صرط اللقمة إذا ابتلعها بسرعة وصرطها كلما نضجت.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: غير معوج، والاعوجاج تارة يكون اعوجاجًا طلوعًا ونزولًا، وتارة يكون اعوجاجًا يمينًا وشمالًا، أما صراط الله عز وجل فإنه مستقيم ليس فيه يمين ولا شمال وليس فيه طلوع ولا نزول بل هو سهل.

الفوائد:

١- **في هذه الآيات فوائد منها:** فضيلة الإيمان بالله والتوكل عليه، ووجه ذلك أنه وعدهم بأنه يدخلهم في رحمة منه.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من آمن واعتصم بالله فإنه سوف ينال الرحمة العاجلة والآجلة؛ لقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، والسين تدل على القرب وبيَّنا وجه ذلك في التفسير وأن أَنْعَمَ الناس بالًا وأشدهم انشراحًا في الصدور هم المؤمنون المعتصمون بالله.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الرحمة تُطلق على الصفة من صفات الله وعلى ما كان من آثارها، وهذه الآية من إطلاق آثار الصفة، والرحمة هنا هل هي رحمة الله أو هي الرحمة التي من آثاره؟ هي من آثاره، لماذا لم تكن الرحمة التي هي صفته، هل هناك دليل على أن الرحمة تطلق على ما كان من آثار الرحمة؟ نعم، ما ثبت في الصحيح من قول الله تعالى في الجنة: «أنتِ

رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١).

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان فضل الله عز وجل على هؤلاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به؛ لقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** أن من آمن بالله واعتصم به، فإن إيمانه واعتصامه سبب للهداية؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن الصراط الهادي إلى الله عز وجل مستقيم لا اعوجاج فيه،

هل الاستقامة هنا استقامة الدنيا فقط، أو الدنيا والآخرة؟ الجواب: العموم فدين الله تعالى صراط مستقيم دنيا وآخرة.

قال الله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الاستفتاء هو: طلب الإفتاء، والإفتاء هو طلب الإخبار عن حكم شرعي أو غير شرعي، كأن يستفتي الإنسان في أمور دنيوية، (والفاعل) في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الصحابة، (والكاف) في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يعني: الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ مجيبًا لهم ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، وقوله: ﴿فِي الْكَلَالَةِ﴾ متعلقه على ما رجحناه بـ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ؛ لأننا قلنا: لا مانع من أن يتسلط عاملان على معمول واحد كما هو مذهب الكوفيين، أما على رأي البصريين فيقولون: إن ﴿فِي الْكَلَالَةِ﴾ متعلق بـ ﴿يُفْتِيكُمْ﴾.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ والاستفتاء عن الكلالة بينه الله تعالى بذكر المسألة التي تتضمنها، وأصل الكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما أحاط بالشيء، ولهذا يقول في تفسيرها: بالحواشي؛ لأن قرابات الإنسان ثلاث شعب: شعبة منه، وشعبة أصل له، وشعبة من آبائه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

وأجداده؛ فالشعبة التي منه تسمى الفروع، والشعبة التي هو منها الأصول، والشعبة التي من آبائه وأجداده هي الحواشي، وعلى هذا نقول المراد بالكلالة الحواشي أي: الأخ وأبناؤه، والعم وأبناؤه سواء كان عمك أو عم أبيك أو عم جدك هؤلاء هم الكلالة، ولهذا فسرها الصِّديق رضي الله عنه فيما ذكروا عنه: أنها من لا ولد له ولا والد.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ﴾ (إن) شرطية، وأدوات الشرط لا تدخل إلا على الأفعال وهنا دخلت على اسم ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ﴾ فهل هذا ينفى القاعدة التي ذكرها النحاة، وأن إن الشرطية بل كل الشرط لا يدخل إلا على الأفعال أم هذا موضع خلاف؟ هذا موضع خلاف، فعلى رأي من يرى أن الشرط لا يدخل إلا على الأفعال يقول: إن امرؤ هذا فاعل لفعل محذوف، والتقدير: إن هلك امرؤ، ولكن هناك قول آخر هو: أن أدوات الشرط تدخل على الأسماء لورود ذلك كثيرًا في اللغة العربية ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾، والأمثلة كثيرة في ذلك إذنْ: لا مانع من أن تدخل أدوات الشرط على الأسماء على رأيهم، ورأي ثالث يقول: إن الذي يلي (إن الشرطية) يكون معمولًا للفعل الذي بعدها، إن كان فاعل سواء كان الفعل مقدمًا، وإن كان نائب فاعل فهو نائب فاعل مقدم، وإن كان منصوبًا فهو مفعول مقدم ولا مانع ، وعلى هذا فإن اختلف النحاة في شيء فإنه يتبع الأيسر.

فقوله: ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ﴾ أي: مات.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لا ذكور ولا إناث؛ لأن ﴿وَلَدٌ﴾ نكرة في سياق النفي فهي تعم، ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أخت شقيقة أو لأب، والدليل: أن الأخت من الأب ذكرها الله في أول السورة فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ يعني: أخت من أم ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾؛ إذنْ أخت شقيقة أو لأب، والولد مفقود يعني: لايوجد فرع أي الولد.

وقوله: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ يتعين ألا يكون معها ذكور من الأصول؛ لأنها لو كان معها ذكور من الأصول لم ترث النصف، إذ من شرط إرث الأخت الشقيقة أو لأب النصف ألا يوجد أصل من الذكور وارث، فصار هنا لا ولد ولا والد من الذكور، لا ولد يؤخذ من قوله تعالى: ﴿هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، ولا والد من كون فرد الأخت هنا النصف؛ لأنه لو كان هناك والد من الذكور لم ترث النصف.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: يرثها أخوها إذا كانت ليس لها ولد لا ذكر ولا أنثى، بأن ماتت امرأة عن أخيها الشقيق فقط، أو امرأة عن أخيها من أب فقط، وليس لها ولد يقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾، وهنا يثبت مشكلة نسب كيف قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ

يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ مع أنه لو كان لها زوج لم يرث إلا ما بقي من فرض الزوج؟ قلنا: هذا الكلام باعتبار الكلالة، وهم الذين يرثون بالقرائن بقطع النظر الذي يكون به الزوجية.

والكلالة لا تتعلق إلا بالأقارب، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ يعني: إن كان لها زوج فهو يرث ما بقي بعد الزوج وإن لم يكن لها زوج فإنه يرث، إذا قال قائل: ربما يكون لها أم ماذا يرث أخوها؟ يرث بعد فرض الأم لماذا؟ ممكن أن نجيب على هذا بأن نقول: إن الله سبحانه وتعالى ذكر هنا من يرث بالتعصيب؛ ولهذا لم يقدِّر له نصيب، بل قال: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ تعود على الأختين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ يعني: ليس معهما ذكر ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ولم يقدر الله عز وجل؛ لأنه إذا كان مع الأخوات إخوة ورثن بالتعصيب، فذكر الله هنا الإخوة الإناث الخلص الواحدة الإناث الخلص مع التعدد الإناث مع الذكور؛ وذلك لأنه لا يمكن أن تخرج القسمة عن هذه الأقسام الثلاثة، إما أنثى واحدة، أو إناث متعددات، أو مختلط ذكور وإناث، فالواحدة لها النصف، والثنتان فأكثر الثلثان، وإذا كان رجالًا ونساء فبالتعصيب للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخت الشقيقة ترث النصف بشروط: ألا يوجد فرع وارث، هذه مأخوذة من قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، الشرط الثاني: ألا يوجد أصل من الذكور وارث وهذه مأخوذة من قوله: ﴿فَلَهَا نِصْفُ﴾، ومن قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أيضًا؛ لأنها لو كان هناك أصل ورثت النصف، الشرط الثالث: الانفراد، والشرط الرابع: عدم المعصِّب وبهذه الشروط ترث الأخت الشقيقة النصف، أما الأخت لأب فإنها تزيد شرطًا واحدًا وهو: ألا يوجد أحد من الأشقاء الذكور أو الإناث.

ثم قال الله عز وجل: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي: يظهر الحق بينًا لكم أن تضلوا قال العلماء: معناه: لئلا تضلوا، وقيل التقدير: كراهة أن تضلوا؛ لأن الله تعالى يريد أن يهدينا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ وعلم الله سبحانه وتعالى عام بكل شيء ماضيًا كان أو حاضرًا أو مستقبلًا، وسواءٌ كان متعلق بفعله أو بفعل عباده، هو بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن علمه عز وجل أنه أفتانا فيما أشكل علينا.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد كثيرة منها: حرص الصحابة رضي الله عنهم في معرفة الحق؛ لقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ وما أكثر ما استفتوه، وما أكثر ما سألوا؛ ليصلوا إلى الحق.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ قد يشكل عليه بعض الشيء فيفتي الله به،

لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ ولم يقل: فافتهم.

٣- ومن فوائدها، إطلاق الإفتاء على الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾، وهذا فعل من الأفعال، وإن كان قولًا فهل يجوز أن نشتق ذلك اسما لله فنقول: المفتي؟ لا، لكن يجوز أن نشتق منه وصفًا؛ لأن الوصف أوسع وأعم.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة، أن ترتيب الآيات توقيفي وجه ذلك أن هذه الآية لها صلة بآيات المواريث التي في أول السورة، ولو كان اجتهاديًا؛ لكان من مقتضى الاجتهاد أن تُرفق مع آيات المواريث وأن تذكر هناك لكن لما كان ترتيب القرآن توقيفيًا أي: في آياته صار محلها هنا، ونظير ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾، هاتان الآيتان ذُكرتا في سياق آيات العدد؛ لأن ترتيب الآيات من عند الله عز وجل أو من عند النبي ﷺ وليس اجتهادًا.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة، أنه إذا هلك هالك لا ولد له وله أخت ولا أب له فلها النصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾، فإن كان له فرع يعني: ولد، نظرنا إن كان الولد ذكرًا سقطت الأخت وإن كان أنثى أخذت فرضها والباقي للأخت مثال الأول: لو هلك هالك عن أخت شقيقة وابن فالمال للابن ولا شيء للأخت، ولو هلك عن أخت شقيقة وابن ابن كذلك المال لابن الابن وليست للأخت الشقيقة شيء؛ لأن أبناء الأبناء وإن نزلوا بمنزلة الأبناء، ولو هلك هالك عن أخت وأب، تسقط بوجود ذكر من الأصول، ولو هلك هالك عن أخت وجد، يجب أن نسأل عن الجد هل هو من قِبَل الأم أو لا، فإن كان من قِبَل الأم فإنها ترث النصف؛ لأن الجد من قِبَل الأم من ذوي الأرحام، وإن كان من قبل الأب كأب الأب، فهذا موضع خلاف بين العلماء، والراجح المقطوع به: أنها تسقط مع وجود الجد، وإنه لا ميراث لها مع الجد.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة، أنه لو ماتت امرأة عن أخيها الشقيق أو لأب فالمال له؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾، فإذا هلكت امرأة عن أخ شقيق فقط فالمال كله له، وأيضًا عن ابن أخ شقيق، فالمال له، أما عن بنت أخ شقيق فليس لها شيء؛ لأنها من ذوي الأرحام، وإذا هلك عن ابن أخ شقيق وبنت أخ شقيق فالمال لابن الأخ الشقيق، والبنت ليس لها شيء؛ لأنها من ذوي الأرحام.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة، أن الأختين فأكثر لهما الثلثان؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، فإذا هلك عن أختين شقيقتين وزوج،أي: امرأة هلكت عن أختين شقيقتين وزوج لهذا الزوج النصف وميراثهما الثلثان؛ لأن النصف والثلثان لا يمكن يقول العلماء أنها تعالج المسألة وكيفية ذلك أن تقول: المسألة هنا نسبية للزوج النصف ثلاثة وللأختين شقيقتين

ثلثان، فيصبح هناك أربعة فتعود إلى سبعة، ويكون الزوج بدل أن يكون له ثلاثة ونصف من سبعة لم يكن له إلا ثلاثة من سبعة، ومسألة العول أخذ بها عمر رضي الله عنه بمشورة الصحابة ولم يخالف فيها إلا قليل من الناس.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الميراث يدخل في ملك الوارث شاء أم أبى وهذه تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ﴾، واللام للتنبيه.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرقيق لا يرث، تؤخذ من اللام التي للتنبيه؛ إذ إن العبد المملوك لا يرث؛ لأنه لا يملك، فالعبد المملوك لسيده؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ بَاعَ عَبْدًا لَهُ مَالٌ فَمَالُه لِلَّذِي بَاعَه إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ المُبْتَاعُ**»[1]، ولأنه لو ورثنا الأخ من أخته إذا كان رقيقًا لكان في حقيقة الأمر أننا ورثنا سيده وهو أجنبي منها.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: تفضيل الذكر على الأنثى بالتعصيب؛ لقوله: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فإن قال قائل: ما هي الحكمة؟ قلنا: فضَّل الذكورة على الأنوثة؛ ولأن الذكر عليه متطلبات في الحياة من نكاح وإنفاق على الغير، وغير ذلك. فإن قال قائل: يرد عليكم هذا في الأخوة للأم فإنهم سواء، نقول: لأنهما لا يرثان بالتعصيب وإنما يرثان بالفرض.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الفرض قد يزيد بزيادة المفروض له، والدليل: أن الواحدة لها النصف وللثنتين الثلثان، لكن هناك فرض لا يزيد بزيادة المفروض له وهو أربعة أنواع:

الأول: فرض الزوجة، فالزوجة واحدة أو متعددة لا تزيد عن فرضها.

الثاني: الجدات لو واحدة لها السدس، ولو متعددات فلهن الثلث.

الثالث: الأخوات إذا ورثن السدس.

الرابع: بنات الابن إذا ورثن السدس.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا كل ما نحتاج إليه؛ لقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وحذف المفعول؛ لأجل العموم.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على أهل التفويض في صفات الله عز وجل الذين يقولون: إننا لا نعلم معاني صفات الله عز وجل؛ لأنه إذا لم نعلم لزم من ذلك ألَّا بيَان في القرآن والله عز وجل يقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾؛ ولأن الضلال في باب الصفات أعظم من الضلال في باب الأحكام؛ لأن الضلال في باب الصفات يتعلق بالخالق عز وجل بالمعبود،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

والضلال في الأحكام يتعلق بالعبادة وبينهما فرق.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على العلم، الرجوع إلى كتاب الله عز وجل؛ لأننا لا نعلم بيان الله عز وجل إلا عن طريق الكتاب والسنة، وكل إنسان يفر من الضلال بيده البيان والهدى فنقول: فمقتضى ذلك: أن نحرص على اتباع الكتاب والسنة.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: عموم علم الله عز وجل بكل شيء لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

تم بحمد الله تفسير سورة النساء

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عاصم عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

الدروس العلمية العامة

في

العلم والدعوة والتربية

مجموعة محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة المائدة

اعتنى به

أشرف بن كمال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

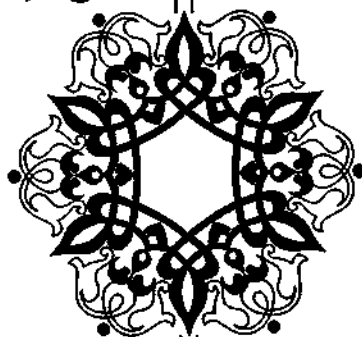

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

تفسير سورة المائدة

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]

❁ التفسير ❁

سورة المائدة مَدَنِيَّة[(١)]، وهي من آخر ما نزل من القرآن، ولذلك قال العلماء: ما كان فيها من حلال فأحلوه، وما كان فيها من حرام فحرموه[(٢)]، ولم يأتِ فيه حكم يكون منسوخًا، بل كل الأحكام التي فيها محكمة.

وهي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة، وكل ما نزل بعد الهجرة فإنه مدني، وإن نزل بمكة، وإلا ففيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذا نزل في عرفة والنبي ﷺ واقف بها[(٣)].

والبسملة سبق الكلام عليها، وأنها آية من كتاب الله مستقلة ليست من السورة التي قبلها ولا بعدها، يؤتى بها عند بدء كل سورة سوى سورة براءة، وأنها متعلقة بمحذوف، ويقدر هذا المحذوف فعلًا متأخرًا، مناسبًا للموضوع الذي تقدمته هذه البسملة، وهذا أحسن ما قيل في

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٠).

(٢) روى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٥٥٨٨) عن جبير بن نفير قال: دخلت على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال: قلت: نعم، قالت: فإنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: القرآن)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، ورواه أيضًا النسائي في «الكبرى» (١١١٣٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٩٦٣)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٧٥٦).

(٣) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

متعلَّق البسملة، وعليه فإذا كنت تريد أن تقرأ، تقول إن الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: بسم الله أقرأ، وإذا كنت تريد أن تتوضأ يكون تقديره: بسم الله أتوضأ، وإذا كنت تريد أن تذبح مذكّاة تقول: بسم الله أذبح.

يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ واعلم أنه إذا صُدِّر الكلام بهذه الجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإنه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أرعها سمعك - يعني انتبه لها - فإما خيرٌ تُؤمر به، وإما شرٌّ تُنْهَى عنه، وإما خبر يكون فيه مصلحة لك»[1]، مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ وما أشبه ذلك.

واعلم أيضًا أنه إذا صُدِّر الكلام بها فإنه يدل على أن ما بعدها من مقتضيات الإيمان تصديقًا به إن كان خبرًا، وعملًا به إن كان طلبًا، وأن مخالفة ذلك نقص في الإيمان.

واعلم أيضًا: أن الله تعالى يُصَدِّر الخطاب بها إغراء للمخاطب؛ لأنه إذا قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنه يقول إن إيمانكم يحملكم على أن تلتزموا بكذا وكذا حسب السياق.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾، أوفوا بها؛ أي: ائتوا بها وافية، كاملة، من غير نقص، وقد بين الله تعالى الوعيد على مَن يستوفي العقود تامة ولا يوفيها تامة في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ إذن ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أي: اءتوا بها كاملة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾، ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ وما أشبه ذلك.

والعقود جمع عقد، وهو ما أبرمه الإنسان مع غيره. وضد العقد الحل، تقول عقدت الحبل، وحللت الحبل.

فالعقود إذن ما أبرمه الإنسان مع غيره، وهي أنواع كثيرة: منها البيع، والإجارة، والرهن، والوقف، والنكاح، وغير ذلك.

وقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ هذا عام، أي عقد فإنه يجب الوفاء به، ولكن لابد أن يُقَيَّد بما جاءت به الشريعة، وهو ألا يكون العقد محرمًا، فإن كان العقد محرمًا فإن النصوص تدل على عدم الوفاء به، بل على تحريم الوفاء به؛ لقول النبي ﷺ «مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ»[2]، وإن كان مائة شرط.

مسألة: هل يدخل في الوفاء بالشروط شروط النكاح؟

الجواب: نعم، بل قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ الشُّرُوطِ أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الفُرُوجَ»[3].

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١/ ٢١١).

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٠)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البخاري (٢٥٧٢)، ومسلم (١٤١٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

مسألة: فإذا اشترطت المرأة ألا يتزوج عليها فهل يصح الشرط؟

الجواب: يصح، ولكن إذا اشترطت الزوجة أن يطلق زوجته التي معه لا يصح، والفرق ظاهر، لأن الثاني فيه عدوان على الزوجة الأولى، والأول لا عدوان فيه على أحد، فالأول فيه أن يمتنع الزوج عمّا أباح الله له لكن باختياره إذا رضي، ولكن لو صمم أن يتزوج وتزوج فماذا نقول؟ نقول لها الخيار: إن شاءت بقيت معه وإن شاءت فسخت النكاح[1].

ملحوظة: إذا تنازع المتعاقدان في وجود شرط أو عدمه فالأصل عدم وجود الشرط، أما إذا تنازعا في صحة الشرط فالأصل صحته.

مسألة: هل الأمر بالوفاء بالعقود يشمل الأمر بما شُرط فيها؟

الجواب: نعم؛ لأن شروط العقد أوصاف في العقد؛ لأن الأمر بالوفاء بالعقد يشمل الأمر بأصله ووصفه.

مثال: رجل باع بيتا، واشترط على المشتري أن يسكنه سنة، هل يجب على المشتري أن يمكن البائع من ذلك؟

الجواب: نعم، يجب ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ فالأمر للوجوب.

مثال: رجل باع أمة واشترط على المشتري أن يطأها لمدة سنة أو حتى يتزوج؟

الجواب: هذا الشرط لا يجوز؛ لأنه شرط ليس في كتاب الله وما كان ليس في كتاب الله فهو باطل؛ ووجه كونه ليس في كتاب الله أن هذه الأمة قد خرجت عن ملكه بمقتضى عقد البيع، ومن ثم فلا يجوز له وطؤها لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩ - ٣١] وهذه قد خرجت عن ملكه.

مسألة: رجل باع أمة واشترط أن تخدمه سنة؟

الجواب: يجوز له ذلك؛ لأنه يجوز أن تُستأجر الأمة للخدمة، وهو باعها واستثنى منفعتها،

---

(١) مسألة: امرأة اشترطت على زوجها عند العقد عليها ألا يتزوج عليها وأخرى اشترطت على زوجها عند العقد أن يطلق زوجته السابقة، أيها الذي يصح؟

الجواب: الشرط الأول هو الصحيح، أما الشرط الثاني فباطل، وذلك لقوله ﷺ: «لَا تَسْأَلِ الْـمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَكفَأَ مَا فِي إِنَائِهَا» أو قال: «صَحْفَتِهَا»؛ ولأن في ذلك عدوان.

مثال: امرأة تزوجها رجل واشترطت عليه أنها إن جاز لها المقام مع أهله وإلا فلها الفسخ؟

الجواب: القاعدة في الشروط هي الصحة ما لم يوجد دليل على فسادها، وهنا لا يوجد دليل فإذا لم يجز لها المقام عند أهله فلها الفسخ، ولكن في مثل هذه الحال ينبغي أن يجعل الباب مفتوحًا بعض الشيء، فنقول: لها الفسخ أو المطالبة أن تسكن في مكان وحدها.

فللإنسان أن يبيع الإنسان شيئًا ويستثني منفعته، وشاهد ذلك من السنة حين باع جابر جمله على رسول الله ﷺ واستثنى حمله إلى المدينة(١).

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، هذا فعل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله، وفاعله معلوم ليس مجهولًا؛ لأن الفاعل هنا هو الله عز وجل؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦]؛ فالمُحِلّ هنا هو الله. وقوله ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البهيمة ما لا ينطق، كلُّ حيوان لا ينطق فهو بهيمة، وذلك لأن ما ينطق به يكون مُبهمًا لا يُعرف، فهو بهيمة.

وقوله: ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ المراد بها ثلاثة أنواع: الإبل، والبقر، والغنم، فإضافة البهيمة إلى الأنعام من باب إضافة الشيء إلى جنسه كما تقول خاتم حديد، وباب خشب، وما أشبه ذلك. كأنه قال: البهيمة من الأنعام.

وبهيمة الأنعام: وهي الإبل وعندما نقول هي الإبل والبقر والغنم فنحن نفسِّر الأنعام وليس البهيمة.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأن بهيمة الأنعام مفرد مضاف، فهو عام لكل شيء من بهيمة الأنعام، والمراد بذلك: ما سيأتي في الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣] هذا الذي يتلى عليكم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ويحتمل أن تكون حالًا، وهي الأقرب؛ لأنها مضافة لاسم الفاعل، يعني أحلت لكم حال كونكم غير محلي الصيد وأنتم وحرم.

وقوله: ﴿مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ أي: مستبيحيه وذلك بصيده، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جملة حالية، والحُرُم جمع حَرَام، وهو مَن تَلَبَّس بالإحرام؛ لحجٍّ أو عمرة، أو دَخَل في حَرم، وإن لم يكن مُحرِمًا، والحرم في مكة معروف بحدوده، وفي المدينة كذلك أيضا؛ لكن المدينة ليست كمكة في التحريم، بل هي أقل كما سيذكر -إن شاء الله-.

والمراد بالصيد: كل الصيد، كل حيوان حلال بري مأكول اللحم متوحش أصلي، ويدخل في

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٩)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

ذلك الغزال، والظباء، الضب، والحمام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، الجملة كالتعليل لما قبلها، لما ذكر عز وجل الإحلال والتحريم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وهذا الحكم يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي فكل ما يريده الله عز وجل فإنه يحكم به؛ لأنه لا راد لحكمه إن شاء حلل هذا وحرم هذا، وإن شاء أوجب هذا ورخّص في هذا ، وكذلك أيضًا إن شاء حكم على عباده بالغنى والأمن، وإن شاء حكم بضد ذلك. فالأحكام الشرعية والكونية كلها بإرادة الله ولا أحد يعترض على حكم الله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يعني: ما الحكم إلا لله، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ المقصود هنا بالإرادة هي الإرادة الكونية باعتبار كون الحكم كونيًّا، والشرعية باعتبار كون الحكم شرعيًّا، وحينئذٍ لابد أن نفرِّق بين الإرادتين الكونية والشرعية، والفرق بينهما أن الكونية بمعنى المشيئة، فتتعلق فيما يحبه الله وما لا يحبه الله، ويقع فيها ما أراد بكل حال، وأما الشرعية فهي التي بمعنى المحبة، فمعنى يريد أي: يحب، وتتعلق فيما يحبه الله فقط، وقد يقع فيها المراد وقد لا يقع، فهذا هو الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية، وكل ما يقع فهو مراد كوني[1].

الفوائد:

في الآية الكريمة فوائد منها:

١- فضيلة الإيمان، وذلك من توجيه الخطاب ـ خطاب الله عز وجل ـ إلى المؤمنين.

٢- **ومنها:** أهمية ما يُذكر بعد هذا النداء؛ لأنه يفرق في الكلام بين أن تقول: (افعل كذا)، أو أن تقول: (يا فلان افعل كذا) فالثاني أوقع؛ لأنك ناديته حتى ينتبه لك، ففيه أهمية ما ذكر بعد هذا النداء.

٣- **ومنها:** وجوب الوفاء بالعقود؛ لقوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾، والأصل في الأمر الوجوب لاسيما إذا كان متعلقًا بحق الآخرين، والعقد متعلق بحق الآخرين لأنه إبرام شيء بينك وبين الآخر، إذن الأمر بالوفاء للوجوب.

---

(١) مسألة: إيمان أبي بكر هل هو من المراد كونًا أم شرعًا؟

الجواب: وقع بالإرادتين الشرعية والكونية، وكل ما وقع فهو مراد كونًا.

مسألة: كفر أبي لهب واقع بأي الإرادتين؟

الجواب: إرادة كونية، لأن الله لا يريد الكفر شرعًا، ولكن قد يريده لحكمة بالغة.

مسألة: إيمان أبي طالب مراد كونًا أو شرعًا؟

الجواب: مراد شرعًا، فهو لم يقع والله يريده شرعًا؛ لأن الإرادة الشرعية لا تستلزم الوقوع، ولو أراده كونًا لوقع.

٤- ومنها: أن جميع العقود حلال، ووجه ذلك أن الله أمر بالوفاء بها، والله تعالى لا يأمر بالوفاء بالفحشاء. ولكن هذا ليس على عمومه إذ يستثنى منها ما حرمه الشرع كبيع الغرر، وحبل الحبلة، والبيع بالربا، والقمار، وما أشبه ذلك.

٥- ومنها: أن العقود تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل بلفظ أو إشارة أو كتاب. وتؤخذ هذه الفائدة من أنه سبحانه وتعالى أطلق العقد، فكل ما صار عقدًا بين الناس فهو عقد. ويتفرع على هذا المسائل كثير منها جواز البيع بالمعاطاة.

والمعاطاة: أن يأتي إنسان إلى الخباز، ويكون مكتوب فيه إعلان الخبزة بريال فيضع الريال في مكان المخصص ويأخذ الخبزة، فهذا بيع بالمعاطاة، ما فيه قول، ما فيه بيع ولا شراء، ولكنه بالمعاطاة، وقد عرف الناس أنه عقد.

ومن ذلك أيضًا الركوب في الحافلات، يجد الحافلة بابها مفتوح فيدخل ويسلم الأجرة للذي عند الباب، ولا يعقد الإجارة بصيغة، وهذا أيضًا إجارة بالمعاطاة.

ومن ذلك أيضًا: أن النكاح ينعقد بما دل عليه، وأنه لا يحتاج إلى لفظ (زوجتك). فإذا قال: ملكتك بنتي فقال: قبلت يصح العقد؛ لأن هذا هو المعروف، وقد جاء في حديث الواهبة نفسها عند البخاري لفظ: «مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[(١)].

٧ - ومن فوائد هذه الآية: وجوب الوفاء بالشروط المُشْتَرَطَة في العقد.

ومعناه: أنه إذا عقد رجلان بينهما عقد بيع أو غيره واشترطا شروطًا. فالأصل وجوب الوفاء بالشرط. وذلك لأن قوله: ﴿بِٱلۡعُقُودِ﴾ يشمل الوفاء بالعقد نفسه، وبأوصافه التي هي شروطه؛ لأن الشروط في العقد في الحقيقة أوصاف للعقد، والأمر بالوفاء بالعقد أمر بالوفاء به وبما يتضمنه من الأوصاف.

فإذا اشترط المتعاقدان شروطًا، وحصل نزاع هل يصح هذا الشرط؟ نعم يصح هذا الشرط حتى يقيم المانع دليلًا على المنع؛ وعلى هذا فإننا نُجْرِي الناس على معاملاتهم، حتى نتأكد أنها فيها مخالفة للشرع.

فالأصل إذن في المعاملات أن تُجرى على ما هي عليه حتى يقوم دليل على أنها محرَّمة.

ويدخل في ذلك الوفاء بالعهود؛ لأن العهد عقد، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤]، ويدخل في ذلك الوعد، كأن تقول لفلان: سأمرُّ عليك في الساعة الفلانية؛ فيجب عليك أن تفي بالوعد؛ لأن الوعد عهد؛ ولأن إخلاف الوعد من صفات

(١) رواه البخاري (٤٧٤٢)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

المنافقين والرسول عليه الصلاة والسلام لمَّا قال إن المنافق: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»[1]، لا يريد أن يوصل إلى أفهامنا هذه الخصلة من خصال المنافقين ولكن يريد منا أن نتجنبها ونحتاطها. ولهذا كان الراجح أن الوفاء بالوعد واجب، وأنه لا يجوز للإنسان أن يخلف الوعد إلا بعذر شرعي.

والعجب أن بعض المغرورين بأخلاق الأمم الكافرة، يقول لصاحبه إذا واعده إنه (وعد إنجليزي) مع أن الكفار من أبعد الناس عن الوفاء بالوعد، وكان على هذا أن يقول: إنه (وعد المؤمن)؛ لأن المؤمن هو الذي لا يخلف الوعد إلا لعذر شرعي.

٨- ومنها: أن جميع بهائم الأنعام حلال لقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. وغير بهيمة الأنعام نقول إنها حلال لكن لا بهذه الآية؛ بل بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وعلى هذا فإذا شككنا في هذا الحيوان الزاحف أو الطائر: هل هو حلال أم حرام؟ فالأصل أنه حلال، ومن حرمه نقول له: هاتِ الدليل وإلا فإنه حلال.

إذا شككنا في الحلال: هل ذُكِّي ذَكَاةً شرعية أم لا؟ فالأصل عدم الذكاة الشرعية؛ لأن الذكاة فعلٌ لابد من تحقق وجوده، فإذا وجدنا مثلًا عُضوًا من شاة، ولا ندري: هل هو مذكى أم غير مذكى؟ فنقول: إنه لا يحل؛ لأن الأصل عدم التذكية ما لم يوجد ظاهر يغلب على هذا الأصل، إن وجد ظاهر يغلب على هذا الأصل فإننا نأخذ به، فلو وجدنا رِجل شاة عند بيت من بيوت المسلمين، فنحن لا نعلم هل ذكيت أم لا - فالأصل عدم الحِلّ -؟ لكن هنا الظاهر يغلب على الأصل، وهو أن وجودها بين بيوت المسلمين يدل على أنها مُذَكَّاة فيكون هذا الظاهر غالبًا أو مُغَلَّبًا على الأصل.

ولهذا **قال العلماء رحمهم الله:** لَو وَجَدَ الإنسان شاةً مُذَكَّاة في بلد أكثر أهله ممن تحل ذبيحته فهي حلال، مع أن فيه احتمالًا أن الذي ذبحها غير من تحل ذبيحته، لكن يغلب الظاهر لقوته.

٩- ومنها: الإحالة على مذكور ما سيذكر في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا إحالة على ما سيذكر. وقد استعمل العلماء رحمهم الله هذا في مؤلفاتهم. وأكثر مَن رأيناه يستعمله (ابن حجر) - ابن حجر ما أكثر إحالته! - ومع ذلك أحيانًا كان ينسى أن يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٠- ومنها: أن الأصل في بهيمة الأنعام الحِلُّ، كما قررناه قبل قليل، ووجه ذلك: الاستثناء من هذا الحكم، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا﴾، وقد قال العلماء رحمهم الله: إن الاستثناء معيار العموم[2]، ومعيار يعني: ميزان، يعني إذا وجدت شيئًا فيه استثناء؛ فاعلم أن هذا الحكم عام؛ لأنه لما أُخرج هذا الفرد من أفراده، علم أن الحكم شامل لجميع الأفراد.

١١- ومنها: أنه لا يحل الصيد للمُحْرِم لقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ولا لمن كان في

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) التحبير شرح التحرير (٥/ ٢٣١٨)، وشرح الكوكب المنير (٣/ ١٠٤).

الحرم؛ لأن من كان في الحرم فقد دخل في جو محرَّم فيه الصيد؛ فيحرم عليه الصيد، لكن لو صاده صيدًا حلالًا، يعني: أنهر الدم، وسمَّى الله وقتله هل يحل أو لا يحل؟ لا يحل لأنه قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾، فدل ذلك على أنهم إذا قتلوه فهو حرام فلا يحل لهم أن يحللوه لأنفسهم.

ولذلك عبر الله عن صيد الصيد بالقتل، فقال تعالى في آية أخرى؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥]، ومعلوم أنه لا يريد أن يُقتل بغير الصيد الشرعي؛ لأن القتل بغير الصيد الشرعي منهيٌّ عنه سواء كان الإنسان مُحرمًا أم غير مُحْرِم، لكن لما كان صيد الصيد في حال الإحرام حرامًا صار هذا الصيد بمنزلة القتل فيكون المصيد حرامًا.

١٢- **ومنها أيضًا**: تعظيم الإحرام، وأنه يحرم على المحرم الصيد لئلا ينساب وراء الصيد، فينسى الإحرام. إذ من المعلوم الآن في أهل الصيد، أنهم شغوفون به، وأنه يأخذ بِلُبِّهم وعقولهم، حتى إنك ترى الصائد يلحق الصيد، والحصى يدمي قدمه والشوك يخرقها، ومع ذلك لا يبالي، فلو أُحِل الصيد للمحرم لتلهَّى به عن الإحرام وغفل.

١٣- **ومنها أيضًا**: إثبات الحكم لله؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

١٤- **ومنها أيضًا**: إثبات الإرادة لله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

١٥- **ومنها أيضًا**: الإشارة إلى أنه لا يحل لإنسان أن يعترض على الأحكام الشرعية، وذلك لأن الله ختم الآية لما ذكر أنواعًا من الأحكام بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

التفسير

نقول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ما قلناه في الآية الأولى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تنتهكوا حرماتها، والشعائر جمع شعيرة، وهي العبادات الكِبَار، كالحج والعمرة ونحو ذلك، وذلك لأن الأحكام الشرعية شعائر وغير

شعائر، فالأحكام الكبيرة تسمى شعائر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، والشهر هنا المراد به الجنس وليس المراد به الواحد، والشهر الحرام: هو شهور أربعة بيَّنها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، وبيَّن النبي ﷺ(١) أعيان هذه الأشهر، بأنها: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، والمحرم، والرابع رجب - رجب مُضَر الذي بين جُمَادى وشعبان، وهذه الأشهر الحرم، يعني لا تحلُّوها بالمعاصي، ولا تحلُّوها بالقتال أيضًا؛ لأن القتال في الأشهر الحرم حرام، حتى الكفار لا يحل أن نبدأهم بالقتال في الأشهر الحرم إلا دفاعًا عن النفس، أو إذا كان امتدادًا لقتال سابق. وهذه المسألة سيأتي بيان حكمها واختلاف العلماء فيها.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ يعني: ولا تحلوا الهدي، والمراد بالهدي ما يُهدى إلى الحرم من إبل أو بقر أو غنم، وإحلاله أن يذبحه قبل أن يبلغ محله، فلو أن الإنسان ساق الهدي من الميقات من ذي الحُلَيْفَةِ، ثم أراد أن يذبحه أو ينحره قبل الوصول إلى مكة كان هذا حرامًا لا يحل، ولهذا قال: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، والقلائد جمع قُلادة، والمراد بالقلائد: ما تُقَلَّد به أعناق الهَدي وكان من عادتهم أن يجعلوا في عنق كل واحدة قلادة، إشارة إلى أنها هدي فيُحْتَرَم، ويجعل في هذه القلادة - أي يعلِّق فيها - النِّعال البالية، وأطراف الأسقية (القِرَبِ) وما أشبه ذلك، إشارة إلى أن هذه للفقراء، فمن حين أن يرى الإنسان هذه الشاة أو هذا البعير وعليها هذه القلادة يعرف أنها هدي فيحترمها ولا يضيرها بشيء.

ويحتمل أن يقال: إن القلائد أعم من ذلك، وأن المراد ولا ما تقلدتموه من وعود وعهود وغيرها، ولكن السياق يدل على المعنى الأول يعني: قلائد الهدي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ يعني ولا تحلوا أيضًا ﴿ءَآمِّينَ﴾، بمعنى: قاصدين، ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وهو الكعبة، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾، وسماه الله بيتًا لأنه بيت، إذ إنه حجرة ذات أركان وسقف، فهي بيت، ووصفها الله بالحرام لما لها من الحرمة والتعظيم، ولهذا كان ما حولها محترمًا، حتى الأشجار محترمة في الحرم، مع أن الأشجار جماد، ولكن ليس كل ما في الحرم محترمًا، فالحصى والتراب غير محترم، ولهذا لك أن تكسِّر الحصى ولك أن تنقل التراب إلى خارج الحرم بخلاف الأشجار، ولكن الأشجار التي لا تنمو كالتي قد

(١) فقد روى البخاري (٣٠٢٥) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان).

يبست، وكأغصان انكسرت، ليست حرامًا.

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ جملة ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من قوله: ﴿ءَآمِّينَ﴾ أما البيت الحرام فهي مفعول به لـ﴿ءَآمِّينَ﴾. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون.

وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ والفضل هنا يشمل الفضل الدنيوي، والفضل الأخروي، دليل ذلك قوله تبارك وتعالى لما ذكر أحكام الحج قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] وهذا فضل الدنيا يشير به إلى من أتى إلى الحج يبيع ويشتري أو يكاري إبله أو سيارته أو ما أشبه ذلك وهنا قوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعم الفضلين فضل الدنيا وفضل الآخرة، وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ أي رضًى من الله عز وجل وفيها قراءتان، ضم الراء، وكسرها، ﴿رُضوانًا﴾، و﴿رِضوانًا﴾ ورضوانًا أي من ربهم، أو أعم من ذلك، ولكن الأصل الأصيل أنهم يريدون الفضل من الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: وإذا حللتم من الإحرام فاصطادوا، والمراد بالإحلال هنا الإحلال الأول، الذي يحصل برمي جمرة العقبة يوم العيد والحلق أو التقصير، هذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾، وليس المراد إذا حللتم من كل الإحرام، كما جاء ذلك في السنة أن من رمى وحلق حل له كل شيء إلا النساء[1].

وقوله: ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أصلها (فاصتادوا) ولكن لعلة تصريفية[2] قُلبت التاء طاءً، والمعنى: صيدوا الصيد، ولكنه لم يقل: فصيدوا لأن الصيد يحتاج إلى عمل وحركة وافتعال، وإن شئت فقل: وانفعال أيضًا. وسيأتينا إن شاء الله أيضًا هل الأمر هنا للإباحة أو لرفع النهي وينظر في حكم الاصطياد الأصلي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ وفي قراءة ﴿شَنْآنُ﴾ بسكون النون وفي قراءة: ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ فالشنآن هو البغض، والمراد بالقوم هنا - وإن كان نكرة لكنه معلوم - أهل مكة، أي: لا يحملكم بغضهم إن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا.

وهذه إشارة إلى أنهم سوف يصدون عن المسجد الحرام، لكن إن صدوكم فلا تعتدوا، أنها على قراءة ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ فتكون الجملة تعليلًا، أي: لا يحملنكم بغضهم من أجل صدهم إياكم أن تعتدوا.

إذن يختلف المعنى باختلاف القراءتين، فبكسر الهمزة إخبار عما يتوقع، وعلى قراءة فتح الهمزة إخبار عما وقع، فيكون المعنى الأول: ولا يحملكم بغض هؤلاء إن صدوكم عن المسجد الحرام أن

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٤١٥٢)، والدارقطني (٢٦٦٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) هذه العلة هي: قرب المخرج بين التاء والطاء ومثلها: (اضطررتم) فهي منقلبة عن (اضتررتم).

تعتدوا، وعلى الثانية: ولا يحملكم بغض قوم لكونهم صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .

و﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ أي: صرفوكم، وهذا ينطبق تمامًا على ما فعلته قريش في غزوة الحديبية، فإنها صدت النبي ﷺ، وأحلت شعائر الله، وأحلت الشهر الحرام، والهدي والقلائد، كل ما نهى الله عنه في الآية هذه انتهكتها قريش، وصدوا أولى الناس بالبيت عن بيت الله عز وجل.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: ذي الحرمة والتعظيم.

ولا شك أن هذا المسجد له حرمة وعظمة، فهو أول بيت وضع للناس ليتعبدوا الله تعالى عنده هو المسجد الحرام، وهو الذي يجب على كل مسلم فرض عين - لا يتم إسلامه إلا به - أن يؤمه بحج بالإجماع، أو بحج وعمرة على خلاف بين العلماء رحمهم الله في وجوب العمرة، ووصف بالمسجد إما أن يقال: إن جميع الأرض مسجد وأولى أرض تتصل بذلك هي هذه البقعة، أو يقال: إن المراد بالمسجد الحرام هو مسجد الكعبة الذي اتخذ مسجدًا، لأنهم صدوهم عن الوصول إليه، وما حول المسجد فهو تابع له، والأصل هو المسجد، ولهذا أجمع العلماء رحمهم الله على ركنية الطواف في العمرة والحج، فطواف الإفاضة وطواف العمرة مجمع على أنه ركن وأنه لا يصح الحج إلا به، ولا العمرة إلا به.

وقوله: ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ هذه متعلقة بقوله: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يعني: لا يحملكم على العدوان، و﴿أَن﴾ في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، وتقديره: (على أن تعتدوا)، أي لا يحملكم هذا على العدوان.

ثم قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ تعاونوا تفاعلوا، ولا يكون هذا إلا من جانبين فإذا قلت: أَعِنْ صاحبك، كان طلب الإعانة من جانب واحد، لكن إذا قلت: تعاونوا، صار المعنى: لِيُعِنْ كل واحد أخاه على البر وهو فعل الطاعات، والتقوى : وهو ترك المحرمات.

فإذا استعانك أخوك على عبادة من العبادات فأعنه، لتشاركه في الأجر، فإذا قال لك: قرِّب لي ماء الوضوء، فقرِّب، أو قال لك: اشترِ لي ثوبًا أستر به عورتي في الصلاة، فاشترِ، أو قال لك: دلني على اتجاه القبلة، فدله عليها، بل وإن لم يستعنك فأعنه أيضًا، كذلك التقوى؛ تعاونوا على التقوى، وذلك بترك المحرمات فإذا استعانك إنسان على تكسير مزمار أو إراقة خمر أو إتلاف كتب بدع، فأعنه، وهلم جرًّا.

وقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الإثم هو المعاصي المتعلقة بحق الله عز وجل، والعدوان المعاصي المتعلقة بحق العباد، وإذا وجد إحداهما منفصلة عن الأخرى صارت شاملة لها، يعني: لو أُطلق الإثم صار شاملًا للعدوان على الناس، ولو أُطلق العدوان صار شاملًا للإثم؛ لأن العدوان على حق الله عز وجل إثم.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لما ذكر هذه الأوامر والنواهي أمر بتقواه عز وجل، أي: اتقوا الله أن

تخالفوا أمره أو أن تقعوا في نهيه.

والتقوى فُسرت بعدة تفاسير، وأحسنها أن يقال: إن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وينقص من التقوى بقدر ما نقص من ذلك، فالإنسان الذي عنده معاصٍ ومآثم لكنها لا تخرجه من الإسلام نقول: إن تقواه ناقصة.

وقد كان بعض السلف إذا قيل له: اتق الله ارتعد وربما سقط من مخافة الله عز وجل، وأدركنا من الناس من هذه حاله، أي أنك إذا قلت له: اتق الله اضطرب واحمرَّ وجهه وخشع، وبالعكس الآن إذا قلت لأحدهم: اتق الله، قال لك: وما الخطأ فيما أفعل؟! مع أنه منتهك لحرمة الله عز وجل.

فالواجب على العبد تقوى الله عز وجل امتثالًا لأمره تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الجملة صلتها بما قبلها أنها وعيد لمن لم يتق الله، والعقاب والمعاقبة تعني: المؤاخذة على الذنب.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** تحريم تحليل الشعائر، لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن إحلال شعائر الله وما ذكر في الآية نقص في الإيمان، لقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن امتثال ما ذكر في الآية من مقتضيات الإيمان التي يزيد بها الإيمان.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعظيم الشعائر؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، والمضاف يَشْرُف ويعظُم بحسب المضاف إليه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم إحلال الشهر الحرام بالقتال، وكذلك أيضًا بالمعاصي سوى القتال، فإن المعاصي في الأشهر الحرم أعظم من المعاصي في غيرها.

والقتال في الشهر الحرام اختلف فيه العلماء[1]: فمنهم من يقول إنه منسوخ، ومنهم من يقول: إنه محكم وليس بمنسوخ، فالقائلون بأنه منسوخ يقولون: إن الرسول عليه الصلاة والسلام قاتل في الشهر الحرام، فإنه بعد فتح مكة في رمضان خرج إلى هوازن وثقيف وقاتلهم في ذي القَعدة، وكذلك كانت غزوة تبوك في الشهر الحرام في مُحَرَّم، وهذا يدل على أن القتال في الشهر الحرام نُسِخَ تحريمه، ولكن الصحيح أنه باقٍ وأنه لا يجوز القتال في الشهر الحرام ابتداءً، أما إذا كان دفاعًا أو كان

(١) راجع «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٥/ ٥٢- ٥٣).

امتدادًا لغزوة سابقة فإن ذلك جائز، وعليه تحمل قصة هوازن وتبوك؛ لأن النبي ﷺ إنما غزاهم لأنه قيل له: إنهم قد جمعوا له فلا بد من الدفاع.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم إحلال الهدي واحترامه، لقوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: العمل بالقرائن، لأن القلائد قرينة على أن هذا هدي، والعمل بالقرائن جاءت به السنة، بل أشار إليه القرآن، قال الله تبارك تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٨،٧٩]، كذلك أيضًا سليمان عليه السلام عندما تنازعت المرأتان عنده في الولد الباقي وهو للصغرى، وطلب سكينًا يشقه بين المرأتين نصفين، فوافقت الكبرى وامتنعت الصغرى، فحكم به للصغرى؛ لأن كونها امتنعت من أن يُشق يدل على أنها هي الأم لشفقتها، وكذلك شاهد يوسف قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] وكذلك السنة جاءت بالعمل بالقرائن؛ فإن النبي ﷺ لما فتح خيبر، وطلب مال حيي بن أخطب قال له سلام بن مشكم: إنه فني، فقال: كيف يفنى، العهد قريب والمال كثير؟! ثم أمر الزبير بن العوام أن يمسه بعذاب، فلما أحس بالعذاب دلَّ على المال[1]. فحكم النبي ﷺ على أنه لابد من مال لأن العهد قريب والمال كثير.

ولا بد من العمل بالقرائن، ولكن بشرط ألا تكون مجرد تهمة، فإن كانت مجرد تهمة ليس لها أصل فإنه لا يجوز؛ لأن الأصل البراءة والسلامة.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب احترام الحجاج والعمّار؛ لقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، وهو يفيد أن العدوان عليهم أشد من العدوان على غيرهم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى الإخلاص لقاصد المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

ومن قصد البيت لغير هذا الغرض، بأن قصد البيت لزيارة قريب أو لتجارة يدخل ولا شك في هذا، ولكن ذُكِرَ ذلك بناءً على الأغلب، والقيد المبني على الأغلب يقول أهل الأصول: إنه لا مفهوم له، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ ليس قيدًا ولكنه بناء على الأغلب كقوله تعالى في بنات الزوجات: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣] فإن ابنة الزوجة تحرُم على الزوج إذا دخل بها وإن لم تكن في حجره، ولكن ذكر الحجور بناء على الغالب.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يعمل العبادة لطلب الأجر والرضا من الله، وأن هذا من أعلى المقامات، خلافًا للصوفية الذين يقولون: اعبدوا الله لله، فإن عبدتموه لثوابه فعبادتكم ناقصة!! نقول لهم: قاتلكم الله، أليس الله تعالى امتدح محمدًا ﷺ وأصحابه في قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]؟! ولا شك أن محمدًا ﷺ وأصحابه هم أعلى الناس مقامًا. لكن هؤلاء لقصورهم ظنوا أنك لابد أن تعبد الله لله فقط - نسأل الله العافية - وهذا خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى منة الله عز وجل على هؤلاء الذين قصدوا البيت الحرام، ويفهم هذا من إضافة الربوبية إليهم في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ففي ذلك دليل على عناية الله تعالى بهم، لأن الربوبية عامة وخاصة، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨] فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربوبية عامة، و﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ربوبية خاصة، إذن الله تبارك وتعالى أضاف الربوبية إليهم إشارة إلى عنايته بهم عز وجل، ومن ذلك أن وفقهم للحضور إلى المسجد الحرام.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرضا لله عز وجل وأنه من أكبر غايات المؤمنين، بل هو أكبر غاياتهم.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ صفة من صفات الله عز وجل.

والرضا من صفات الله عز وجل التي يثبتها أهل السنة والجماعة على وجه الحقيقة، يقولون: إن الله يرضى ويكره ويغضب، ورضاه من صفات كماله عز وجل، وهو سبب للثواب، إذا رضي الله عن العبد أثابه.

وحمل أهل التعطيل الرضوان على أنه الثواب، وقالوا: إنه مجاز عن الثواب، عُبِّر به لأنه سببه، فهو من التعبير بالسبب عن المُسَبَّب. فيقال: ما المانع؟ أثبت الله لنفسه الرضا في القرآن، وأثبته له النبي ﷺ في السنة: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا...»[1]، والنصوص في ذلك كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة، وقرينة إجماعهم أنهم لم يرد عنهم ما يخالف ذلك وهم يقرؤون الكتاب والسنة، ولم يرد عن واحد منهم أنه فسَّر الرضا بالثواب، وهذا طريق ينبغي أن يتفطن له الإنسان؛ لأنه قد يقول القائل: ما الدليل على أن السلف أجمعوا على أن الرضا على معناه الحقيقي؟ نقول: الدليل هو أنهم يتلون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بهذا اللفظ ولم يرد عنهم حرف واحد يدل على أنه غير مراد.

والرضا من الصفات الفعلية؛ **لأن كل صفة لله تكون لسبب فهي من الصفات الفعلية،** إذ إن كونها تقع لسبب يدل على أنها كانت بمشيئة الله، فالرضا صفة فعلية، والغضب صفة فعلية، والنزول صفة فعلية ... إلخ، فالقاعدة: أن كل صفة من صفات الله تكون لسبب فهي صفة فعلية؛

(١) رواه مسلم (١٧١٥)، وأحمد في «مسنده» (٨٧٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لأنها قبل وجود السبب غير موجودة.

وهذا هو القول الذي ندين الله به، وهو أن الله يرضى، ويغضب، ويكره، ويحب حقيقة لا مجازًا.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي: من الإحرام، ﴿فَاصْطَادُوا﴾ وهذا كالمستثنى من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وقوله: ﴿فَاصْطَادُوا﴾ يستفاد من هذه الجملة أن الإنسان إذا حلَّ فإنه يحل له الصيد، وقد بينت السنة أن المراد بالحل: بعضه؛ لأنه إذا تحلل التحلل الأول جاز له الصيد، وجاز له جميع محظورات الإحرام إلا النساء، وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ يكون فيه نوع من الإجمال وبينته السنة.

وقد بينت السنة أنَّ لحل الصيد شروطًا معروفة في كتب أهل العلم، فإن قال قائل: ذكرت أن الاصطياد بعد الحل مباح مع أنه أمر، كيف يكون ذلك؟ نقول: لأنه إذا ورد الأمر بعد النهي فإنه للإباحة، هذا الذي عليه أكثر الأصوليين، وقيل: إن الأمر بعد النهي رفع للنهي، والفرق بين القولين: أننا إذا قلنا: إنه للإباحة صار الشيء الذي أُمر به مباحًا فقط، وإذا قلنا: إنه رفع للنهي عاد حكم الشيء الذي نُهي عنه إلى ما كان عليه قبل النهي، ولكل من القولين وجه.

أما الذين قالوا: إن الأمر بعد النهي للإباحة قالوا: إنه لما ورد النهي على الإباحة نسخها نهائيًا حتى ولو كان النهي عن شيء مستحب، ثم يرد الأمر بعد النهي فيكون معناه الإباحة.

وأما الذين قالوا: إن الأمر بعد النهي رفع للنهي، فقالوا: إنه لما ورد النهي عن الشيء صار منهيًا عنه، فإذا رُفع النهي وجب أن يبقى المنهي عنه على ما كان عليه من قبل.

فهل نقول: يسن لكل إنسان حَلَّ من إحرامه أن يأخذ البندق من أجل أن يصيد الصيد؟ لا أحد يقول بهذا، لكن يُباح له.

أما قوله تعالى في الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠] فهذا الأمر يكون للاستحباب؛ لأن طلب الرزق أمر مستحب، وعلى القول الثاني الذي يقول إن الأمر بعد النهي للإباحة: يكون مباحًا، والأقرب أنه لرفع النهي.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا يجوز الاعتداء على الغير ولو كان الإنسان مبغضًا له، ولو كان قد صده عن الطاعة، فأما إذا عامله بمثل ما عامله به فهذا لا بأس به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير من اتباع الهوى وحمل النفس على العدوان عند العداوة والبغضاء، لأن العادة والطبيعة أن الإنسان إذا أبغض شخصًا، فإنه يعامله بالعدوان والشدة، لأن نفسه تحمله على هذا، فحذَّر الله عز وجل من ذلك.

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى ما وقع من قريش في غزوة الحديبية؛ لقوله: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وسواء كانت القراءة بكسر الهمزة أو بفتحها، فإن كانت بفتحها: فلا إشكال فيما سبق، وإن كانت بالكسر: ففيها إشكال، لأن المائدة نزلت بعد الحديبية، ولكن يكون المعنى: إن تكرر صدهم عن المسجد الحرام على الفرض والتقدير؛ لأن قراءة الفتح ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ تكون أن هنا للتعليل يعني: لا يحملكم بغضهم من أجل صدكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، لكن الذي فيه إشكال (إن صدوكم) فيقال: هذا شرط والشرط يكون للمستقبل، فيقال في الجواب عن ذلك: إن معنى الآية: إن تكرر صدهم إياكم، أو إن فُرض أن يصدوكم فلا تعتدوا.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات حرمة المسجد الحرام، لقوله: ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ واستدل بعض العلماء بقوله: ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن قول النبي ﷺ في تضعيف الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف[1] يشمل جميع حدود الحرم وكل ما دخل في حدوده، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر:

أولًا: أننا لا نسلم أن المراد بالمسجد الحرام هنا ما كان داخل حدود الحرم، لأننا لو سُئلنا: ماذا أراد رسول الله ﷺ ومن معه: هل أرادوا أن يدخلوا إلى حدود الحرم فقط، أو أن يصلوا إلى مسجد الكعبة؟ الثاني بلا شك، فيكون المعنى أنه ذكر أعلى ما يصدونهم عنه؛ وهو الوصول إلى المسجد الذي فيه الكعبة.

ثانيًا: أن نقول: ما دام هنا دليل صريح واضح عن الرسول ﷺ أن المراد بما فيه التضعيف هو مسجد الكعبة كما في صحيح مسلم: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِيْ هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا مَسْجِدَ الْكَعْبَةِ**»[2] وما دام عندنا شيء صريح في هذا، فلا حاجة إلى أن نتأوّل النصوص على ما فهمناه.

١٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب التعاون على البر والتقوى، لقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهل هذا متوقف على استعانة الغير بك، أو مطلقًا؟ الآية عامة سواء طلب منك المعونة أم لا فيجب عليك أن تعين على البر والتقوى.

١٩ - **ومنها**: الحث على البر والتقوى، لأنه إذا أُمر بالتعاون عليه فالأمر به من باب أولى.

٢٠ - **ومنها**: النهي عن التعاون على الإثم والعدوان، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وسواء طلب منك المعونة أو لا فلا تعن على الإثم والعدوان.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٤٠٦)، وأحمد في مسنده (١٤٧٣٥) من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٣٨).

(٢) صحيح مسلم (١٣٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن المعونة على الإثم والعدوان أن يُؤَجِّر الإنسان بيته لغرض محرم.

وكذلك من المعونة على الإثم والعدوان أن يبيع التلفاز على من يستعمله في المحرمات.

وهذا قاعدة عامة ولها فروع كثيرة جدًّا.

٢١ - ومنها: وجوب تقوى الله وأن مخالفة ما ذكر مناقض لتقوى الله؛ لقوله بعد أن أمر بها أمر به ونهى عما نهى عنه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٢٢ - ومنها: شدة عقاب الله عز وجل والتحذير من مخالفته، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

۞ قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ هذا بيان لقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله ﴿حُرِّمَتْ﴾ هذا فعل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله، والفاعل: الله عز وجل، فحُذِفَ الفاعل للعلم به.

فإن قال قائل: قال الله هنا: ﴿حُرِّمَتْ﴾ وفي سورة البقرة والنحل قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣] و[النحل: ١١٥] فنسب التحريم إلى الله صراحة فلماذا اختلف التعبير؟

والجواب له أكثر من وجه:

الوجه الأول: أن بلاغة القرآن لا يمكن أن يدركها كل الناس؛ لأنه كلام الله عز وجل، والله تعالى لا نحيط به علمًا لا في ذاته ولا في صفاته.

فبلاغة القرآن أعظم من أن تدركها عقولنا، وعلى هذا الجواب يجب الإمساك عن مثل هذه

الأمور، ونقول: إن الله عز وجل عبَّر هناك بـ﴿حَرَّمَ﴾ فأضاف الفعل إلى نفسه، وعبر هنا بـ﴿حُرِّمَ﴾ وهذا أمر فوق عقولنا، وبذلك يمسك كل مؤمن عن محاولة التكلف .

أما الوجه الثاني: فيمكن أن يقال هناك قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾؛ لأنه بصيغة الحصر في أمور أربعة فكأنه قال: ما حرم إلا هذا خلافًا لما حرمتم أنتم في الجاهلية، قال تعالى عن محرماتهم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣] فقال ما حرم إلَّا هذا إظهارًا لفضله عز وجل وأنه ما حرم على الناس إلا أربعة أصناف فقط، وليس بطيب هذا الذي حرمه الله.

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾: الميتة هنا (أل) لبيان الحقيقة، يعني: كل ميتة فهي حرام، والميتة: هي ما مات حتف أنفه أو ذُكِّيَ على وجه غير شرعي، يعني: بدون فعل فاعل، أو بفعل فاعل ولكن لا على الوجه الشرعي. فمثلًا: إذا مرضت البهيمة وماتت، يقال: هذه ماتت حتف أنفها، وإذا دَقَّ عنقها شخص، فهذه ذكاة غير شرعية.

والمستثنى من الميتة ميتة البحر، فإنها ليست بحرام لقول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة:٩٦]، قال عبد الله بن عباس: (صيده ما أُخِذَ حيًّا وطعامه ما أُخذ ميتًا) [(١)]، وفي حديث عبد الله بن عمر: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا المَيْتَتَانِ الجَرَادُ وَالْـحُوتُ»[(٢)] ويستثنى الجراد كما في حديث ابن عمر، والجراد ليس بحريًّا؛ فهو لا يعيش إلا في البر، ولكن ميتته حلال، أولًا: لأن الإلزام بتذكيته إلزام بما لا يمكن، فمن يستطيع أن يمسك كل جرادة ويذبحها؟! ثانيًا: أنه ليس فيها دمٌ يحتاج إلى استخراجه؛ فلذلك أُحلت.

مسألة: هل يلزم من تحريم الميتة أن تكون نجسة؟

الجواب: لا يلزم، لكن هناك دليل على نجاستها وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٥٤] يعني: ما ذُكِر.

وقوله ﴿وَالدَّمُ﴾ الدم هنا مطلق، و(ال) فيه لبيان الحقيقة، ولكنه قُيِّد في سورة الأنعام بالدم المسفوح، واحترازًا من الدم الذي يبقى في العروق بعد التذكية فإنه ليس بحرام، فالحرام هو الدم المسفوح الذي يخرج عند الذكاة، أو يخرج عند فصد العرق أو ما أشبه ذلك.

وكانوا في الجاهلية يأكلون الميتات ولا يبالون بها، ويقولون: كيف تحرمون ما قتل الله ولا تحرمون ما قتلتموه؟ يعني: بالذكاة، وكانوا أيضًا يأكلون الدم المسفوح، حيث يفصد الإنسان عرق ناقته ويمصه فحرَّمه الله عَزَّ وجل، ونقيد ذلك بالدم المسفوح وعلى هذا فالكبد لا تحرم

---

(١) الدر المنثور (٣/ ١٩٨).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٢١٨)، وأحمد في «مسنده» (٥٧٢٣) من حديث ابن عمر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٠).

والطِّحال لا تحرم والكُلى لا تحرم، والدم الذي يكون في القلب لا يحرم، لأنَّ الدم قيده الله بالمسفوح، وكذلك الدم الذي يبقى في العروق لا يحرم[1].

وقوله: ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ والخنزير معروف أنه حيوان خبيث من شأنه أن يأكل القاذورات، والحشرات وما أشبهها، وهو أيضًا معروف بعدم الغَيْرة، والذي يتغذى به يكتسب من طبيعته، ولهذا نهى النبي ﷺ عن كل ذي نابٍ من السباع[2] وكل ذي مخلب من الطير[3]؛ لأن ذوات الأنياب والمخالب من طبيعتها الاعتداء، وأن تفترس غيرها فلذلك نهى عنها لكي لا يتأثر الإنسان بغذائه منها، وكذلك أيضًا لحم الخنزير.

الرابع قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ الإهلال في الأصل رفع الصوت، والمراد به هنا: ما ذكر اسم غير الله عليه، مثل أن يقول باسم المسيح، باسم عزير، باسم الرئيس الفلاني، باسم الولي الفلاني، باسم النبي، باسم جبريل، بأي اسم، إذا ذُبح على غير اسم الله فإنه حرام.

وقوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي: المنخنقة في نفسها، والمخنوقة بفعل فاعل، المنخنقة بنفسها: مثل أن تجر الحبل ـ القلادة ـ التي برقبتها ثم تضيق عليها حتى تنخنق، أو أن تدخل رأسها بين غصنين من أغصان الشجرة ثم تعجز عن إخراجها فتنخنق، والصحيح أنه يشمل المختنقة والمنخنقة، المختنقة بفعل فاعل، يعني: لو أن إنسانًا أمسكها، وضم رقبتها حتى ماتت، فالصحيح أنها تدخل في المنخنقة وإن كانت تسمى مختنقة، فهو شامل لهذا وهذا، إذن المنخنقة هي الميتة بالخنق سواء بفعل نفسها أو بفعل فاعل.

وقوله: ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾، من الوقذ: وهو الضرب الشديد حتى تموت، فقد يأتي إنسان مثلًا ويضرب البهيمة ضربًا شديدًا فتموت إمَّا بعصًى وإما بحجر وإما بحبل أو بغير ذلك، فهذه أيضًا لا تحل لأنها موقوذة.

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الساقطة من عالٍ، سواء كان عاليًا من فوق أو عاليًا من أسفل، فالمتردية من جبل متردية من فوق. والمتردية من فم البئر إلى أسفله متردية من أسفل، والمتردية حرام؛ لأنها تموت بغير ذكاة شرعية.

وقوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ النطيحة فعلية بمعنى مفعولة، أي: منطوحة، وهي التي تناطحت مع أختها حتى قتلتها؛ لأن هذا الموت ليس بفعل فاعل ممن تصح ذكاته.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾الذئب، والكلب، والأسد وما أشبه ذلك، فالمراد بالسبع هنا: كل ما يعتدي على البهائم، ويأكلها وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ إذا قيل: كيف ما أكل السبع

---

(١) الدم المسفوح الذي من غير الإنسان نجس، أما دم الإنسان فليس بنجس.

(٢) رواه البخاري (٥٤٤٤)، ومسلم (١٩٣٢) من حديث «أبي ثعلبة الخشني» رضي الله تعالى عنه.

(٣) رواه مسلم (١٩٣٤)، وأبو داود (٣٨٠٣)، والنسائي (٤٣٤٨)، وابن ماجه (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يستخرج من بطنه؟ يقال: المعنى: ما قتله ليأكله أو ما شرع في أكله، إلَّا ما ذكيتم.

فعد الله عز وجل من المحرمات: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، هذه تسع، والعاشر: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، فهل الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يعود على التسع كلها أو على بعضها، على بعضها قطعًا، لأن الميتة لا يمكن أن تذكى؛ لأنها قد ماتت وانتهت، ولحم الخنزير كذلك لا يمكن أن تُحله الذكاة، وما أهل لغير الله به لا يمكن أن تحله الذكاة، اللهم إلَّا أن يدركه الإنسان قبل موته من غير الذي ذكر اسم الله عليه مثل أن يسمع إنسانًا يذبح شاةً يقول باسم المسيح، ثم ذَكَّاها وانصرف، وأدركنا ذكاته قبل أن يموت، فهذا يدخل في الآية، لكن إذا كان قد قطع الأوداج فإنه يعتبر في حكم الميت فلا يمكن أن تأتي عليه الذكاة بعد.

إذن يبتدي ما في الاستثناء من قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾، وهي خمس النطيحة: ربما تدركها قبل أن تموت والمتردية كذلك، وما أكل السبع كذلك، والموقوذة: كذلك يمكن أن تدركها قبل أن تموت.

فإذا قال قائل: بماذا تكون تذكية هذه الأشياء التي أصابها سبب الموت؟

نقول: التذكية تكون بقطع الحلقوم والمريء، أو بقطع الودجين، أو بقطع ثلاثة من أربعة، أو بقطع الأربعة على خلاف بين العلماء، وأرجح الأقوال أن التذكية تحصل بقطع الودجين. هذا أرجح الأقوال وأن من كمالها قطع حلقوم المريء أيضًا.

والودجان: هما العرقان الغليظان المحيطان بالحلقوم، ويختلف تسميتها بحسب البلدان ولكن في لغة القرآن تسمى بالوردان قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] على كل حال إذا أدركها، وقطع أوداجها قبل أن تموت فهذه التذكية.

لكن ما علامة الموت؟(١) هل لابد أن تتحرك بيدها أو رجلها أو عينها، أو أذنها، أو ذنبها، أو لا تشترط الحركة؟

أكثر العلماء يقول: لابد أن تتحرك؛ لأنك إذا ذبحتها ولم تتحرك فهذا معناه أنها ماتت.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : علامة الحياة أن يخرج منها الدم السائل المسفوح الحارُّ الأحمر، لأن الحيوان إذا مات انقلب دمه إلى أسود وانتقل من الحرارة إلى البرودة وأيضًا يتجلط فإنه لا يسيل كما يسيل عند ذبحه، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ : إنه إذا خرج منها الدم الأحمر الحار الذي يسيل فإنها تحل سواء تحركت أم لم تتحرك، لأنها قد لا تتحرك لشدة ما نزل بها، يكون قد أغمى عليها مثلًا فلا تتحرك لا بعينها ولا برجليها ولا بِذَنَبِهَا.

---

(١) راجع «الشرح الممتع» (١٥/ ١٠٢ و ١٠٣).

وما ذهب إليه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هو الصحيح.

والعاشر: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يعني: ما ذبح على الأصنام، وكانوا يذبحون على الأصنام تقربًا لها، وهذا شرك، وهذا غير قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ؛ لأن الأول ما ذكر اسم غير الله عليه، سواء كان أمام الصنم أو غائبًا عن الصنم، أما هذا ما ذبح على الصنم، يكون الصنم بين يديه ويذبح لهذا الصنم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ يعني: وحُرِّم عليكم أن تستقسموا بالأزلام. ووجه الصلة بين هذه المسألة وما قبلها ظاهر، لأن الاستقسام بالأزلام يريد به المُسْتَقسِم أن يصل إلى ما هو خير له، وكذلك هنا في المطعومات يريد أن يتناول ما هو خير له.

والاستقسام: هو طلب القسم؛ يعني طلب ما يقسم الله لك، فهو يشبه في الدين الإسلامي الاستخارة، وكانوا في الجاهلية إذا أراد أحدهم الأمر ولم يتبين له وجه الصواب استقسم بالأزلام (جمع زَلَم، وهي الأقداح) ويُستقسم بثلاثة قِداح، فيُكتب على الأول افعل، والثاني لا تفعل، والثالث لا شيء، ثم يضعها في كيس أو نحوه ثم يخلط بينها، ثم يخرج واحدة منها فإن خرج افعل فعل، وإن خرج لا تفعل لم يفعل، وإن خرج الثالث أعاد، وهم إنما يجعلون الثالث الذي ليس فيه افعل أو لا تفعل من أجل أن يطول الاستقسام؛ لأنه لو كان شيئين لخرج في أول مرة، لكن يجعلون الثالث لأجل أن يتأخر الاستقسام لعلهم يرجحون شيئًا على الآخر.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ هل المشار إليه كل ما سبق أو إلى الاستقسام بالأزلام؟ القاعدة: أنه إذا أمكن أن يعود اسم الإشارة أو الضمير إلى كل ما سبق فهو محمول عليه.

وقوله: ﴿فِسْقٌ﴾ الفسق: معناه الخروج عن الطاعة، ومنه قولهم فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها كذلك الخارج عن الطاعة فاسق فهو خارج عمَّا يجب أن يكون عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ (أل) هنا للعهد الحضوري[1] يعني: اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾، يعني: يئسوا من أن يغيروه، أو يبدلوه، لأن الدين الإسلامي هو الدين الذي انتشر وبان وظهر.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أنه لا داعي من الخشية الآن ما دام دينكم قد ظهر ويئس هؤلاء الكفار من أن يقضوا عليه فلا تخشوهم واخشوني.

---

(١) (أل) التي للعهد الحضوري: هي التي تعني وقتك الآن، ومن ضوابطها أن كل (أل) بعد اسم الإشارة للحضور، هذا الرجل، هذا المكان، هذا المسجد فهي للعهد الحضوري. و(أل) التي للعهد الذهني، هي ما عُهِدَ للذهن مثل أن تقول: ذهبت مع خصمي إلى القاضي، ومعلوم المراد بالقاضي الذي يحكم بين الناس، وأما العهد الذكري فأن تكون (أل) تشير إلى شيء مذكور، مثل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

والخشية: هي الخوف الناتج عن علم ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] أي: أهل العلم، والفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية تكون عن علم، والخوف لا يلزم أن يكون عن علم. ثانيًا: أن الخشية تكون من عِظَم المخشي وإن كان الخاشي قويًّا، لكن المخشي يكون أقوى منه، والخوف لا يدل على عظم المَخُوف وإنما يدل على ضعف الخائف، وهذا فرق واضح. فالطفل الذي له أربع سنين يخاف من الطفل الذي له ثمان سنوات مع أن الثاني ضعيف، لكن الذي يخشى من ملك أو صاحب سلطان قوي هذا يُقال إنه خاشٍ.

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (أل) هنا: للعهد الحضوري أيضًا، أي: اليوم الحاضر، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: جعلته كاملًا، وليس المعنى أنني أتممت شرائعه؛ لأنه نزل بعد هذه الآية شيء من الشرائع، وقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: ما تدينون الله به من العبادة، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ التي هي إكمال الدين، وهي أكبر النعم، ومعنى إتمامها أنها ليس فيها نقص، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ رضيت لكم الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ دينًا تدينون الله به فلا تتخذوا دينًا سواه.

ثم قال بعد أن ذكر هذه النعم العظيمة علينا عودًا على ما ابتدأ الآية: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ اضطر بمعنى: أصابته الضرورة، وأصلها (اضتر) فقلبت التاء طاءً لعلة تصريفية معروفة في علم الصرف، وفيها قراءتان: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، على كسر الساكن عند التقاء الساكنين، و(فمنُ اضطر) بالضم لمناسبة الضمة لضم الطاء.

وقوله: ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ المخمصة: المجاعة، وفي حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُوْنَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا» أي: تذهب في الصباح خماصًا أي: جائعة، «وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١) إذن مخمصة أي: مجاعة.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مايل لإثم ولا مريد له، لكن للضرورة أكل من هذه المحرمات، فإن الله غفور رحيم فيغفر له. وهذا - أعني قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ - يُفسِّر قوله في الآيتين السابقتين.

وقوله تعالى: ﴿ٱضْطُرَّ﴾ هنا أجاز الضرورة، يعني: أنه إن لم يأكل مات وهلك، ولا يحل المحرَّم للضرورة إلا بشرطين:

أولهما: ألَّا يوجد ما يدفع به الضرورة إلا هذا، لأنه إن وجد لم يضطر.

والثاني: أن تزول ضرورته به، وإنما اشترطنا هذا لكي لا يقول قائل: إذن يجوز التداوي بالمحرم. نقول: لا يجوز التداوي بالمحرم؛ لأنه أولًا: غير مُلجأ لذلك، إذ قد يزول مرضه بدواء

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد في مسنده (٢٠٥) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).

آخر، وقد يزول مرضه بدون دواء، فكم من إنسان وصل إلى أدنى حالة ثم يقوم ماشيًا بإذن الله عز وجل! والثاني: أن ضرورته لا تزول بهذا الدواء؛ لأنه قد يتداوى الإنسان ولا يُشفى، بخلاف من أكل المحرَّم للجوع، فإن الإنسان إن لم يجد مثلًا إلا الميتة، فهو الآن لا يمكن أن تزول ضرورته إلَّا بأكله وإذا أكله زالت ضرورته.

والفرق بين الحاجة والضرورة: أن الحاجة من باب الكماليات، والضرورة من باب دفع الضرر، مثلًا: إنسان عليه ثوبٌ يقيه البرد، ولو خلعه لضره البرد، ولكنه يحصل به نوع من التأذي لأنه ليس كاملًا؛ فلبس عليه ثوبًا آخر، فالثوب بالنسبة له ضرورة، لكن لو لبس عليه آخر لدفع التأذي فقط لا لدفع الضرر، نقول هذا حاجة، والفرق بينهما ظاهر، أنه لا يبيح للمحرمات إلا الضرورة، وأما المكروهات فتبيحها الحاجة.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير مريد لهذه المحرمات، بل ألجأته الضرورة لها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾: أي معتدٍ، يريد الإثم، فهو غير باغٍ لأكل الميتة بغير ضرورة، ولا عاد أي: بالزيادة على الضرورة، فإن الله غفور رحيم.

وبعضهم قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ البغاة: هم الذين يخرجون على الإمام، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا عاصٍ في سفره، ولهذا قال بعض العلماء: إنه لو كان عاصيًا في سفره وإن اضطر وإن مات لا يأكل من الميتة، لأن شرطه أن يكون السفر مباحًا، والصحيح خلاف ذلك.

وختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يفهم من ذلك أن الله يغفر له ويرحمه، فهو غفر له الذنب بتناول هذا المحرم، ورحمه بإباحته له.

ومن أمثلة هذه الآية قوله تعالى في قُطَّاع الطريق: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤].

ويروى أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (والله غفور رحيم) فقال الأعرابي للقارئ: أخطأت اقرأ فأعادها على ما قرأها أولًا، ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال: أعدها ما هكذا، فقال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: الآن أصبت، ووجه ذلك أنه عز وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع، وهذا صحيح.

الفوائد:

١ - **وهذه الآية بها فوائد منها:** تحريم ما ذُكر من أنواع البهائم.

٢- **ومنها:** حكمة الله عز وجل فيما أحل لنا من الحلال. وما حرم علينا من الحرام؛ لأنه ثبت - طِبًّا - أن هذه الأشياء المحرمة ضارَّة، ولأجل ضررها حرَّمها الله.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الميتة إلَّا ما استثني، وتحريم الدم إلا ما استثني.

٤ - **ومنها**: تحريم لحم الخنزير، ويلحق بذلك شحمه بالإجماع، حتى عند الظاهرية يقولون: إن لحم الخنزير حرام؛ لأن اللحم عند الإطلاق يشمل جميعَ أجزاء البهيمة، أما لو هناك لحم وشحم؛ فإنه يُفَرَّق بينهما، فإذا قيل: لحم الإبل، لحم الضأن، لحم البقر، لحم الخنزير، صار شاملًا للجميع، ننطلق من هذه الفائدة إلى فائدة أخرى، وهي أن لحم الإبل ينقض الوضوء سواء كان اللحم الأحمر أو اللحم الأبيض، أو أي جزء من أجزاء البدن، وهذا هو القول الراجح أن لحم الإبل ينقض الوضوء، سواء كان من اللحم الأحمر أو من اللحم الأبيض أو من الأمعاء أو من الكرش، أو من غيرها[1].

٥ - **ومنها**: تعظيم خطورة الشرك وأنه يؤثِّر حتى على المأكولات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

٦ - **ومنها**: تحريم ما أُهل لغير الله به سواء أُهِلَّ باسم مَلَك، أو نَبي، أو رئيس، أو وطن، أو غير ذلك، لعموم قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

٧ - **ومنها**: تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

٨ - **ومنها**: أن ما أُدرِكَ حيًّا من هذه الأشياء التي لم تمت، فإنه يكون حلالًا لقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾، وسبق لنا في التفسير متى يُدرَك، وبيَّنَّا أن القول الراجح أنه إذا خرج منه الدم الأحمر السيال فهو حي.

٩ - **ومنها**: تأثير النية في العمل، لقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي: للأصنام فإنه يكون حرامًا حتى لو ذكر اسم الله عليه، وذلك لتأثير النية، وأن النية تؤثر حتى في حل الأشياء وتحريمها.

١٠ - **ومنها**: تحريم الاستقسام بالأزلام ويدخل في ذلك أيضًا الاستقسام بغيرها؛ لأنه مبني على وَهْمٍ وليس على حقيقة، لكن الله أبدل العباد بالاستخارة، وأما الاستقسام بأي شيء فإنه لا يجوز.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الاستقسام بالأزلام فسق، والغرض من ذلك التنفير منه.

١٢ - **ومنها**: أن من استقسم بالأزلام[2] سقطت ولايته وإمامته وعدالته؛ لأن الفاسق تسقط ولايته، ولا يؤم، ولا يكون عدلًا فكل من تشترط فيه العدالة فإن من استقسم بالأزلام لا يتولاه،

---

(١) راجع «الشرح الممتع» (١/ ٢٩٨- ٣٠٨).

(٢) مسألة: الاستقسام بالأزلام ما صلته بالتطير؟

الجواب: التطير يحدث بغير إرادة الإنسان، والاستقسام بالأزلام بفعل الإنسان، التطير مثلًا إذا رأى طيرًا اتجه عند طيرانه إلى جهة ما تَطَيَّر وعزم على الفعل أو تركه، لكن الاستقسام يكون من فعله هو نفسه.

لكن الإمامة على الوجه الراجح لا بأس أن يُصلى خلف إمام فاسق، إنما عندما نريد أن نُقدِّم من يصلي لا نقدم إنسانًا فاسقًا. لكن مع الفرض أنه تقدم، جمعك الحضور بين رجل حالق اللحية ورجل آخر غير حالق اللحية، وأنت أيضًا غير حالق اللحية، فتقدم الحالق، هل من الحكمة أن تقول: تأخر؟ الجواب: لا لما في ذلك من الشر ومن الفساد، إلَّا إذا علمت أنك إذا فعلت فإنه سوف يتوب ويقلع، وإلَّا فلا تفعل. صلِّ وراءه وَفِسْقُهُ على نفسه.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المشركين أيسوا من تغيير الناس عن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ ونظير هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيْرَةِ العَرَب»[1] وذكرنا على هذا إشكالًا وهو أن الشرك وقع؛ فيقال: إن هذا خبر عمَّا كان في نفوس هؤلاء الكفار ولا يلزم أن يقع ما كان في نفوسهم بل قد تتغير الحال.

١٤ - **ومنها:** تحريم خشية الكفار التي يترتب عليها المداهنة في دين الله لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

١٥ - **ومنها:** بيان نعمة الله على هذه الأمة ـ وله الحمد والمنة ـ بإكمال الدين؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

١٦ - **ومنها:** شرف ذلك اليوم الذي أُكمِل فيه الدين؛ لأنه لولا ذلك لم يكن لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فائدة؛ لكن فيه الإشارة إلى شرف ذلك اليوم، ولكن هل نُشرف ذلك اليوم بما لم يشرفه الله؟ لا، ولكن نقتصر على ما جاء من شرفه. ولهذا لما قال أحد اليهود لعمر بن الخطاب: (إن الله أنزل آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا) وتلا الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ فقال عمر: (إني أعلم متى نزلت على رسول الله ﷺ) وذكر أنها نزلت في يوم الجمعة في يوم عرفة[2]، ولكن لا نعظم ذلك اليوم بأكثر مما جاء، وإنما قلت ذلك درءًا لقول من قال: إنه ينبغي أن نُشِرِّف اليوم الذي وُلد فيه الرسول – عليه الصلاة والسلام – لأن النبي ﷺ لما سئل عن صيام يوم الإثنين قال: «ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدتُّ فِيهِ، وَبُعِثْتُ فِيهِ، أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ»[3]. قال: فكونه نص على أنه ولد فيه يدل على أن له شرف، فيقال: الشرف يُتَلَقَّى من الشرع، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يذكر شرف اليوم الذي ولد فيه في وقت من الشهر، بل ذكر شرفه في وقت من الأسبوع، وهناك فرق بين هذا وهذا، ثانيًا: أن هذا الشرف الذي يُعطى لهذا اليوم الذي أنزل فيه القرآن على الرسول وولد فيه هو الصوم فقط، هكذا جاءت السنة، وما سوى ذلك فلا، فلو أن أحدًا أراد أن يكثر الصلاة في يوم

(١) رواه مسلم (٢٨١٢) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم (١١٦٢)، وأحمد في مسنده (٢٢٥٩٠) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

الإثنين بناء على أنه اليوم الذي ولد فيه الرسول وبعث فيه لقلنا: هذا خطأ.

١٧ - **ومنها أيضًا:** أنَّ تمسكنا بالدين يجب أن نكون فخورين به، لقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فأضافه الله إلينا لنفخر به ونعتز به ونتدافع عنه، ولكن بالنسبة لحال الناس اليوم فإنَّ كثيرًا من المسلمين يستحي أن يقول إنه مسلم. وهذا ذلٌّ عظيم.

١٨ - **ومنها:** أن الله عز وجل تفضل على عباده بإتمام النعمة لقوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ ويتفرع على ذلك أن الله عز وجل يثني على نفسه بما أنعم به، من أجل أن يتحبب لعباده بنعمه، ولهذا جاء في الحديث: «أَحِبُّوْا اللهَ لِمَا يَغْذُوْكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ»[1]، وهذا هو الموافق للفطرة، فإنَّ أي إنسان يحسن إليك فإنك سوف تحبه ـ وهذا وهو مخلوق مثلك ـ فكيف بالخالق عز وجل؟!

١٩ - **ومنها:** أن ما خالف ما جاءت به الشريعة فهو غير مرضيٍّ عند الله ولا مقبول لقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، وهذا يشمل الدين كله فروعًا وأصولًا، فمثلًا: هل رضي الله لعباده الكفر؟ لا. هل رضي لعباده أن يبتدعوا في دينه ما ليس منه؟ لا. فهذه الكلمة (رضيت لكم الإسلام دينًا) يعني: بأصوله وفروعه وجملته وجزئه.

٢٠ - **ومنها:** رحمة الله بعباده حيث أباح لهم المحرم عند الضرورة، وهناك آية تعتبر قاعدة في جميع المحرمات؛ وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ وهذا الآية أعم، لأن الآية التي في سورة المائدة: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى ما ذكر ليأكل منها، وأما ما أشرت إليه في قوله: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ فهو عامٌّ شامل.

بقي أن يُقال: لو اضطر الإنسان إلى شرب الخمر للعطش أيشربه؟ نقول: إن اندفعت ضرورته بذلك فنعم، لكن العلماء يقولون: إنه لا يمكن أن تندفع ضرورته بشرب الخمر، لأنه لا يزيده إلا حرقانًا وعطشًا، ولذلك إذا اضطر إلى دفع لقمة غصَّ بها وعنده كأس من الخمر؛ فهنا يجوز أن يشرب ما يدفع به اللقمة؛ لأنها هنا تندفع الضرورة بها.

٢١ - **ومنها:** إعمال النية وتأثيرها في الأعمال، لقوله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾.

٢٢ - **ومنها:** أنه يجب التحرز في انتهاك المحرَّم وألَّا تغلبه نفسه وهواه حتى يتجانف أي: يميل إلى الإثم بل عليه أن يتحرى.

وهل يؤخذ من الآية الكريمة أنه لا يجوز أن يأكل من الميتة وما ذكر إلَّا بقدر ما يسد الرمق، أو له أن يشبع؟ الأول، إلا إذا علم أنه لن يجد ما يأكله وليس معه ما يحمل الميتة فيه، فحينئذٍ يضطر إلى أن يشبع ويحمل معه في معدته معها سقاؤها وحذاؤها، ولكن إذا كان يعلم أنه سيصل إلى ما يأكله قبل أن تدركه الضرورة مرةً أخرى فلا يجوز أن يأكل أكثر من ضرورته.

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٧١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

٢٣ - ومنها: أخذ الأحكام من أسماء الله عز وجل وذلك لأن أسماء الله؛ ولاسيما المتعدية لابد أن يكون لها أثر، وهو ما أشرنا إليه سابقًا؛ أن الاسم المتعدي لا يتم الإيمان به إلا بإثباته اسمًا من أسماء الله، واثبات ما تَضَمَّنَهُ من صفة، وإثبات الأثر، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والعلماء رحمهم الله يأخذون الأحكام من مثل هذا التعبير، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤] يعني: إذا تاب قُطَّاع الطريق من قبل أن تقدروا عليهم سقط عنهم الحد.

٢٤ - ومنها أيضًا: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: الغفور، والرحيم، وإثبات ما تضمَّنَّاه من صفة وما تضمناه من أثر؛ لأنَّ الغفور يتعدى وكذلك الرحيم.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ الفاعل: هم الصحابة، والصحابة لا يسألون الرسول ﷺ إلا عن شيء فيه منفعة لهم إما في الدين أو في الدنيا وأيضًا هو مُشكل عليهم، وقد ذكر الله تعالى في القرآن حوالي اثني عشر موضعًا من سؤال الصحابة له ﷺ، فهل أجابهم الرسول؟ الآية تدل على أنه لم يجبهم بدليل أن الله قال له: ﴿قُلْ﴾ أي في جوابهم: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

واعلم أن السؤال تارة يُراد به سؤال المال، وتارة يُراد به الاستفهام، فإن أُريد به سؤال المال نصبَ مفعولين، وإذا أريد به الاستفهام نصب مفعولًا واحدًا، ثم عُدِّي إلى الثاني بعن.

فإذا أردت أن تسأل رجلًا درهمًا تقول: أسألك درهمًا. ومنه قول الله تعالى: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ»(١) أي: من يسألني شيئًا، فالمفعول الثاني محذوف لدلالة السياق عليه، وإذا أردت أن تسأل عن ضالَّةٍ ضاعت لك تقول: أسألك عن ضالتي، وتقول: سألني فلان عن المسألة الفلانية فيتعدى إلى المفعول الثاني بـ(عن).

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]؟ قلنا: الجواب

---

(١) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عن ذلك مُختلَفٌ فيه عند العلماء فمن قال: إن الفعل إذا تعدى إلى ما لا يتعدى به فإنه يُضَمَّن معنًى يناسب الحرف الذي تعدَّى به، ومنهم من قال: إن الحرف يُفسَّر بالحرف المناسب للفعل. وهنا اختلف النحويون: هل يُفسَّر الحرف بما يُناسِب الفعل، أم يُفسَّر الفعل بما يناسب الحرف؟

فقول الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] الذي يناسب (يشرب) الحرف «منها» كما قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩] لكن جاءت الآية ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ على القول بأن الحرف يكون بالمعنى المناسب للفعل نقول: إن الباء في قوله «بها» بمعنى «من»، وعلى القول الثاني: نلتمس معنًى يناسب الباء والفعل الذي يناسب الباء أن نقول: إن «يشرب» تَضَمَّن معنى «يَرْوَى» وحينئذٍ يكون التقدير: يروى بها عباد الله. والمعنى الثاني أبلغ؛ لأن الرِّي يستلزم الشرب، ولا عكس، وحينئذٍ يكون التجوُّز بالفعل لا بالحرف، وهذا مذهب نحاة البصرة، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «مقدمة التفسير».

وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١] من قال: إن التجوز بالحرف يقول «الباء» هنا بمعنى «عن»، ومن قال التجوز بالفعل قال: سأل هنا ضُمِّن معنى الجواب (سأل سائل فأجيب بعذاب واقع) وهذا أصح كما قلت.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾، السؤال هنا سؤال علم لا مال، وذا: هنا بمعنى (الذي) قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمِثْلُ مَاذَا بَعْدَ مَا اسْتِفْهَامِ ... أَوْ مَنْ إِذَا لَمْ تُلْغَ فِي الكَلَامِ

أي: مثل صيغ العموم الموصولة ذا بعد ما استفهام، أي: بعد ما الاستفهامية.

ما الذي أحل لهم؟ ونائب الفاعل يعود على المحلِّل؛ وهو الله عز وجل.

وقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي: أحل لكم الأطعمة الطيبات قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ومعنى الآيتين ـ والله أعلم ـ: أن كل ما أحله الله فهو طيب، وكل ما حرمه فهو خبيث، وليس كلُّ خبيث يكون حرامًا بدليل أن النبي ﷺ وصف الثُّوم بأنها شجرة خبيثة، ولم يحرمها[1].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ يعني: وأحل لكم ما صاده ما علَّمتم من الجوارح، والجوارح: جمع جارحة، وهي الكاسرة.

وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: معلمين لهن تعلمونهن مما علمكم الله، ويحتمل أن يكون ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي: جارحين يعني أن هذه الكواسر تجرح ما أمسكت.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أي: الجوارح ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في كيفية الصيد، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا

(١) رواه مسلم (٥٦٥)، وأحمد في «مسنده» (١١٦٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني على وجه الإباحة، فالأمر هنا للإباحة وفي قوله: ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ (من) هنا بيانية وليست تبعيضية، و﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لكم على الرأي بتضمين الحرف معنى الفعل. وهنا نقول فيها ما سبق ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: مما أمسكن مضمومًا عليكم، أو محملًا عليكم، أو ما أشبه ذلك على القول بتضمين الفعل معنى الحرف.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ متى عند الأكل أم عند إرسال الجارحة؟ السُّنة دلت على أنه يسمي إذا أرسل الجارحة، والقرآن دلَّ على أنه يسمي إذا أمسكه وأراد أن يأكله يسمي فتكون التسمية على الأكل وعلى الإرسال.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ(إن) والغرض منها: التخويف من جتناب التقوى، أن من لم يتق الله فسيعاقب، والله تعالى سريع الحساب، أي: أن الله تعالى سيحاسبكم على أعمالكم وهو سريع الحساب، وهذا يتضمن سرعة التنفيذ من وجه، وسرعة الوقت من وجه آخر، أما سرعة الوقت فما أسرع الدنيا تمضي سريعًا وإذا بالإنسان قد انتهى عمره.

أما سرعة التنفيذ: فإن الله تعالى يحاسب الخلائق يوم القيامة ـ على كثرتهم ـ في نصف يوم، لقول الله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

الفوائد:

١ - **في الآية فوائد عديدة منها:** حرص الصحابة ﷺ على العلم؛ لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ومن هنا نعرف أن ما لم يسأل الصحابة عنه مما يرد السؤال عنه في عصرنا من أمور الغيب فالسؤال عنه بدعة، لأننا نعلم أنه لو كان هناك خير في العلم به لألهم الله الصحابة أن يسألوا عنه حتى يتبين الأمر.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإحلال والتحريم ليس إلى العباد، بل هو إلى الله، وقد حذرنا الله عز وجل من أن نحلل أو نحرم بأهوائنا، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن رسول الله ﷺ لا يستقل بالتحليل أو التحريم، ووجه ذلك: أن الرسول ﷺ لم يجبهم ولكن الله تعالى أجابهم، وقد صَرَّح الرسول ﷺ بذلك حيث قال للصحابة: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ**[١] **فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسَاجِدَنَا**» فذهب الصحابة يقولون: حُرِّمَت حُرِّمَت! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ الله وَلَكِنِّي**

(١) قال أهل اللغة: الخبيث في كلام العرب المكروه من قول أو فعل أو مال أو طعام أو شراب أو شخص.

أَكْرَهُ رِيحَهَا»[(١)].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كل ما أحله الله تعالى فهو طيبٌ نافع للبدن ونافع للقلب ونافع للفرد ونافع للمجتمع، لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، ونأخذ بالمفهوم أن كل ما حرم الله فهو خبيث.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إحلال ما اقتنصته الجوارح، وكل جارح يمكن أن يؤكل ما صاده لكن بشرط أن يكون مُعَلَّمًا، وأكثر ما يقبل التعليم الكلاب، ثم الصقور، فإذا كان من الكلاب فلابد من ثلاثة شروط: أن يسترسل إذا أُرسل يعني: إذا رأيت الصيد وأرسلته يسترسل، وينزجر إذا زُجر يعني: إذا زجرته ليقف وقف، لأنه لو تجاوز وأنت أمرته أن يقف فمعناه أنه صاد لنفسه، وإذا أمسك لم يأكل، فإذا أكل فهو دليل على أنه أمسك على نفسه، والله أعلم[(٢)].

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من الحيوان ما يقبل التعليم، لقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضيلة العلم؛ لأن الله تعالى فرَّق بين صيد ما ليس بمعلَّم وما كان معلمًا، فأحل الثاني ولم يحل الأول، وهذا يدل على فضل التعليم حتى في الحيوانات.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب ذكر اسم الله تعالى عند إرسال الجارح، لقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وهذا على أحد الاحتمالات في الآية، لأنَّ هناك احتمال آخر، وهو أن المعنى: اذكروا اسم الله عليه عند أكله، ومعنى ثالث: وهو اذكروا اسم الله عليه إذا أدركتموه حيًّا قبل أن يقتله الجارح، وكل هذه محتملة في الآية فتحمل عليها جميعًا.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بركة ذكر اسم الله، وشواهد هذا كثيرة منها: حِلُّ الذبيحة، وحِلُّ الصيد، وتمام الطهارة في الوضوء، وأن البركة تنزل في الطعام، وأن الحَمْل يُوقَى إساءة الجن والشياطين[(٣)]، المهم أن بركة اسم الله تعالى لها فوائد كثيرة.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ظاهرها إباحة ما صاده الجارح سواء جرح أم لم يجرح، وهذا مبني على أن المراد بالجوارح: الكواسر، أمَّا إذا قلنا: إن الجوارح جمع جارح وهو الذي يجرح الشيء فحينئذٍ لابد من أن يُنْهِر الدم ويتبين ذلك بالمثال، مثلًا: لو جاء الكلب بالصيد

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) راجع «الشرح الممتع» (١٥/ ١٠٦).

(٣) لما روى البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد لم يضره).

مخنوقًا ليس فيه أي جرح ولم يخرج منه أي دم، فهل يباح أم لا؟ إن قلنا: إن المراد بالجوارح الكواسر فهو مباح، وإذا قلنا: إن المراد بالجوارح الجارحات اللاتي يجرحن الجلد ويخرج منه الدم فإنه لا يباح، والمسألة فيها خلاف بين العلماء، منهم من يقول: إنه يشترط أن يجرح، فإن لم يجرح فلا يحل، واستدل هؤلاء بعموم قوله ﷺ: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ**[1] **وذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ فَكُلْهُ**»[2]، ومنهم من قال: إن الجوارح هن الكواسر وأن كل ما أمسكنه على صاحبهن فإنه حلال سواء جرح أم لم يجرح، ولا شك أن الاحتياط تركه لكن التحريم فيه نظر، يعني: الاحتياط إذا جاء الكلب لك بصيد لم يجرح أن تتركه، ولكن كوننا نجزم بالتحريم فلا؛ لعموم قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: قطع ما يوجب الإعجاب بالنفس، لأن قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه إسناد التعليم إلى البشر، فقد يزهو الإنسان بنفسه ويغتر ويعجب، فلهذا قال الله عز وجل: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى أن علمَكَ الذي تعلِّمُهُ إياهن مصدره من عند الله عز وجل.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن العلم لا يختص بالعلوم الشرعية وحدها، فالعلم هنا يختص بتعليم الجوارح كيفية الصيد، فهنا دليل على أن العلم يختص بما يقتضيه السياق، وكل شيء بحسبه.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: سعة رحمة الله عز وجل، حيث أباح لنا ما ذكيناه بأيدينا وما ذكيناه بواسطة الجوارح، وهذا لا شك أنه من توسيع الله لنا في الرزق.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المشقة تجلب التيسير؛ لأنه لما كان يشق على الإنسان أن يصطاد الصيد بنفسه في كل وقت وحين، ربما يكون مثلًا في جبال أو في سهول أو في أودية لا يستطيع أن يصيد بنفسه رُخِّص له أن يصيد بجارحه، فهذا من توسعة الله سبحانه وتعالى على عباده في أسباب الرزق.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب ذكر اسم الله تعالى ومنه عند إرسال الصيد، فإن نسي فإنها لا تحل؛ لعموم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، ولأن النبي ﷺ جعل ذكر اسم الله شرطًا، والشرط لا يسقط بالسهو، وهذا هو القول الراجح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو مقتضى الأدلة، وقال بعض العلماء: إن التسمية تسقط بالسهو لعموم قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فقال الله: قد فعلت.

---

(١) أي سال وجرى.

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

لكننا نقول: إن هذا الذي لم يذكر اسم الله على الصَيد أو على الذبيحة إذا نسي هو معذور ولا شك ولا يؤاخذ، ولو تعمد ترك التسمية وذبح أو صاد كان بذلك آثمًا لأنه إضاعة للمال، ونوع من الاستهزاء بآيات الله، ولكن النظر الآن ليس في الذابح والصائد بل النظر الآن في الآكل، نقول لمن أراد أن يأكل من هذا الصيد الذي لم يذكر اسم الله عليه: هذا الصيد لم يذكر اسم الله عليه، وقد نهيت أن تأكل، فإن أكل ناسيًا فلا شيء عليه؛ لأن المسألة هنا لها جهتان: جهة الصائد والذابح، وجهة الآكل، وكلاهما لا يؤاخذ بالنسيان، لكن إذا كان الذابح أو الصائد ناسيًا فإنه لا يؤاخذ ثم يتوجه المنع إلى الآكل، ويقال له: لا تأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه.

وزَعْمُ مَن زَعَم أن المراد بها لم يذكر اسم الله عليه الميتة، زَعمٌ خاطئ؛ لأن الله تبارك وتعالى ذكر تحريم الميتة صريحًا فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ولو أراد الله تعالى ذلك لقال: ولا تأكلوا الميتة، وعلى هذا فما اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هو القول الحق.

لكن ذكر ابن جرير في «تفسيره» الإجماع المنعقد على أن متروك التسمية نسيانًا حلال وتعقبه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ، وقال: إن ابن جرير ممن لا يَعتَد بقول الواحد والاثنين في نقل الإجماع، وكلاهما عليه العلماء، والصواب: أن الإجماع لابد ألا يوجد مخالف، فإن وجد مخالف ولو واحد من الفقهاء المجتهدين فلا إجماع[1].

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب تقوى الله عز وجل، لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١٧ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن من أكل ما لم يحله الله فهو غير متقٍ لله.

١٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الحساب لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

١٩ - **ومنها أيضًا:** أن الله تعالى سريع الحساب، ومن ذلك ما ذكرناه في التفسير أن المراد بها سرعة لقاء الله عز وجل بالموت، وسرعة فصل الله بين العباد وذلك يوم القيامة فإن الله يفصل بين الناس ويحاسبهم في نصف يوم، بدليل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

وسرعة الحساب من صفات الله الفعلية؛ لأن المحاسبة فعل يتعلق بمشيئته، وعلى هذا يكون فيه إثبات الصفات الفعلية.

(١) راجع «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٢٦).

قال الله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٥]

التفسير

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ قوله ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ يحتمل المراد بذلك ما سوى الزمن الماضي، أو اليوم الحاضر الذي هو اليوم المعين، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ أحلها الله عز وجل ، فحُذِفَ الفاعل للعلم به كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]، والمحلِّل والمحرِّم هو الله وهو معلوم، ولذلك حذف الفاعل في الخلق وهو أمر كوني، وفي الشرع وهو في الحلال والحرام، وعلى هذا فمن كان معلومًا بالتحليل أو التحريم أو الإيجاد والإعدام فلا حرج أن يحذف ويبنى الفعل على ما لم يسمَّ فاعله.

وقوله: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ الطيبات هي ضد الخبيث، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠] فما هو ميزان الطيب؟ المرجع في ذلك إلى ما جاء في الشريعة فما أحلته الشريعة فهو طيب، وما حرَّمته فهو خبيث.

فإن قال قائل: ما الأصل في الأطعمة؟

الأصل: هو الحل، فإذا ادَّعى مدع أن هذا الشيء حرام من طائر أو زاحف أو غيرهما طالبناه بالدليل، وما أحله الله فهو طيب ولا شك.

وقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني: اليهود والنصارى، وليس المراد كل ما يَطْعَمُون من حبٍّ وتمر، بل المراد كل ما يطعمون من لحم، ثم أيضًا ليس المراد كل ما يطعمون من لحم إذا كان لا تشترط له الذكاة، لأن ما لا تشترط له الذكاة حلالٌ بدون فعلهم، والحبوب والثمار حلال بدون فعلهم، فليس من طعامهم الخاص، ولا يمكن أن الله تعالى يقول طعام الذين أوتوا الكتاب والمراد به هذا الطعام الذي لكل أحد.

ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما طعامهم بذبائحهم، وعليه فيكون المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب هو ذبائحهم ـ وهم اليهود والنصارى ـ وظاهر الآية الكريمة أنه لا فرق بين أن يكونوا بدلوا وحرفوا أم التزموا بشرائعهم، للعموم ولأن هذه الآية في نفس السورة التي حكى الله عنهم أنهم

يقولون: إن الله ثالث ثلاثة.

وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أي: ما ذبحتموه ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فهنا أنواع: طعام لا يتوقف حله على فعل آدمي، فهذا حلٌّ للجميع، حلال متوقف على ذبح الإنسان: فإن ذبحناه كان حلالًا لهم، وإن ذبحوه كان حلالًا لنا.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: وأحل لكم المحصنات، فعليه تكون معطوفة على قوله: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ والمحصنات من المؤمنات هن الحرائر حلال لنا، ويحتمل أن المراد بذلك العفيفات، فأما الأول فيؤيده قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ [النساء:٢٥] فإن المراد بالمحصنات هنا الحرائر بلا إشكال.

أما الثاني أن المراد بهن العفيفات فيؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور:٢٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور:٤] فالمراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا.

ولكن الذي يبدو أن المراد بالمحصنات هنا الحرائر، والآية محتملة وليس فيها ما يدل على هذا ولا ذلك.

وأما المملوكات فلا يحل للإنسان أن يتزوجهن إلَّا بشروط سبقت في سورة النساء.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ المحصنات فيها قراءتان: كسر الصاد وفتح الصاد، (المحصِنَاتُ) على أنها اسم فاعل، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ على أنها اسم مفعول، والمحصنات أي: الحرائر أو العفيفات على خلاف، ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لكن بشرط ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥] اشترط إيتاء الأجور، وهي المهور التي تُبذَل عِوضًا عن الاستمتاع بالمرأة.

ولهذا سَمَّاها الله تعالى أجرًا؛ لأن الأجر ما يؤخذ في مقابلة عوض.

وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أعطيتموهن، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أجور هؤلاء المحصنات وهنَّ المهور. ﴿مُحْصِنِينَ﴾ حالٌ من الواو في قوله: ﴿آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يعني: حال كونكم محصنين؛ أي: طالبين الإحصان - إحصان فرج المرأة، وفرج الرجل - لأن الزواج يحصل فيه إحصان فرج الزوج والزوجة. ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: غير معلنين بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: مختفين بالزنا.

وعلى هذا فيكون الوطء ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان حلالًا بالصَّداق.

والثاني: ما كان علنًا بالعهر والفجور.

والثالث: ما كان خفيًّا بالعهر والفجور.

فالأول من هذه الأقسام هو الذي يحل وهو الذي يتزوجها محصنًا غير مسافح ولا متخذ أخدان، وقوله: ﴿أَخْدَانٍ﴾، أي: أصدقاء، والخدن يطلق على الصديق من رجل أو امرأة، ولهذا قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥] وهنا قال: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ فَدَلَّ ذلك على أن الخِدن يكون في الرجال ويكون في النساء.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ هل الإيمان شيء يُكفر به ولا يكفر به أو الإيمان ضد الكفر؟ الإيمان ضد الكفر ، لكن المراد بالإيمان هنا أي بمقتضيات الإيمان من التزام الشريعة، لأن الله عز وجل ذكر هنا محللات ومحرمات، فمن أخذ بها وقام بها فهو مؤمن ومن لم يأخذ بها فليس بمؤمن، إذن قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بما يقتضيه الإيمان، من الالتزام بأحكام الإسلام: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي: بطل وتلف وذهب، و(عمل) مفرد مضاف فيشمل كل الأعمال؛ لأن الردة تحبط الأعمال، إلا أنه يُشترط أن يموت الإنسان على ردته ـ والعياذ بالله ـ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ذكر الله تعالى أنه خاسر في الآخرة، لأن ظهور خسرانه في ذلك الوقت، وإلا فهو في الحقيقة خاسر في الدنيا والآخرة قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥]، وقال تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٧].

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن الإحلال والتحريم إلى الله عز وجل ليس إلى أحد أن يحلل أو يحرم؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ﴾ وهذا بإجماع المسلمين حتى إن الله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وقد مضى علينا ما يبين حكم التحليل والتحريم وقلنا: الأصل في العبادات التحريم والمنع إلا بدليل، والأصل في غيرها الحل.

والكلام في هذا الموضوع وما الأصل في الأشياء قبل الشرع، وما أشبه ذلك كله كلام ليس فيه فائدة إلا تسويد ما ابيض من الصحف فقط، لأنه كلام جدلي لا فائدة منه؛ لأن لدينا من كتاب الله وسنة رسوله ما يغني عن كل المباحث التي ذكروها وأطالوا فيها.

نقول هناك قاعدتان مهمتان: الأصل في العبادات المنع أصلًا ووصفًا إلا بدليل، والأصل في غير العبادات مطلقًا من عادات ومعاملات وأعيان ومنافع وغيرها، الحِلُّ إلَّا ما دَلَّ الدليل على التحريم والدليل على ذلك سبق ذكره.

٢- **ومنها:** أن كل ما أحله الله فهو طيب، ولكن هذا الطيب هل هو حلال لكل أحد؟

الجواب: إن تَضَمَّنَ ضررًا على بعض الناس كان حرامًا وإن كان طيبًا. فإذا قيل للشخص مثلًا: إنك إذا أكلت هذا النوع من الطعام فإنه يضرك، وصار في حقه حرامًا، لا لأنه خبيث ولكن لأنه ضارٌّ لهذا الشخص المعين.

٣- **ومنها**: أن طعام اليهود والنصارى حلال لنا، لقوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾.

وهل غيرهم كذلك؟ الجواب: لا، وأخطأ من قال: إن قوله ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ لقب، بل نقول: إنه وصف، والوصف يُخرج ما سواه مما لم يتصف به، فمثلًا: الذين أوتوا الكتاب إذا حَلَّلناها إلى اسم مفعول نقول: (وطعام المؤتَون الكتاب)، وبذلك تصبح صفة مشتقة، فلا تكون لقبًا كما قيل، لأن اللقب معروف أنه ليس له مفهوم، فمثلًا إذا قلت لك: أكرم زيدًا فليس معناه ألا تكرم غيره، لكن إذا قلت أكرم المجتهد، فهذا وصف يخرج من ليس بمجتهد.

ومن العلماء ـ ولاسيما المتأخرون ـ من قال: إن الذين أوتوا الكتاب لقب وليست بوصف، من أجل أن يتذرعوا إلى حِلِّ طعام غير اليهود والنصارى؛ لأن اللقب ـ كما هو معروف عند الأصوليين ـ ليس له مفهوم.

٤- **ومنها**: حِلُّ طعام الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى.

٥- **ومنها أيضًا**: أن مَن سُواهم لا تحل ذبيحتهم، كالمجوس، والوثنيين، والشيوعيين، والمشركين، وما أشبههم، ونأخذ هذه الفائدة من مفهوم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

٦- **ومنها**: حكمة الله عز وجل في تحليل طعام الذين أوتوا الكتاب؛ لأن الذين أوتوا الكتاب عندهم علم سماويٌّ، فهم من أقرب الناس إلى قبول الشريعة الإسلامية، ولا شك أن أحوال أهل الكتاب تغيرت بعد نزول القرآن الكريم تغيرًا كبيرًا، فصار بين المسلمين واليهود وبين المسلمين والنصارى حروب عظيمة طاحنة، أدَّت إلى استكبار هؤلاء اليهود والنصارى وعدم قبولهم لما جاء به الرسول ﷺ.

٧- **ومنها**: أن ما عده أهل الكتاب ذكيًا فهو ذكي، لأنه إذا عدوه ذكيًا صار طعامًا، والمراد بالذكي هنا أي: المذكّى فما عدوه ذكيًا فهو طعام لهم، وبناءً على ذلك يحل من طعامهم ما ذكروا اسم غير الله عليه، أعني لو قال نصراني باسم المسيح، ولو قال يهودي باسم العزير أو ما أشبه ذلك فالذبيحة حلال؛ لأنهم يعتقدون هذا طعامهم، والله عز وجل أطلق فقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، ومن ذلك أيضًا أن ما عدوه ذكيًا من الموقوذ فهو حلال، والموقوذ الذي قُتل بغير إنهار الدم، بالصعق وشبهه، فإنه حلال، لأن الله تعالى قال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، فإن ما عدوه طعامًا مذكّى يأكلونه، فإنه حلال.

فإذا قال قائل: هل ذهب إلى هذا أحد؟

نقول: أما ما ذكروا عليه اسم المسيح فقد ذهب إليه بعض السلف من الصحابة وغير

الصحابة، وقالوا: إن هذا لا يعود إلى ذات المذكى أو إلى خبثه إنما يعود إلى القصد ونحن لا يهمنا قصدهم، وأما الثاني: وهو إذا كان المُذكَّى عندهم ما مات ولو بخنق، فقالوا: إن الآية مطلقة، لكن ما علمنا أن أحدًا من السلف قال به، إلا أن المتأخرين الذين قالوا به، فقد قالوا: إذا كان السلف - يعني بعض السلف - أجازوا ما ذكر غير اسم الله عليه، فهذا مثله؛ لأن النبي ﷺ جعل ذكر اسم الله على الذبيحة وإنهار الدم قرينين في حكم واحد فقال: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ فَكُلْهُ»[1].

لكن جمهور العلماء يقولون: إن هذا الإطلاق في طعام الذين أوتوا الكتاب، يجب أن يُقيَّد، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨]، ويقيد أيضا بقول الرسول ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ فَكُلْه»، وإذا كان هذان القيدان مُقَيدان لإطلاق حل ذبيحة المسلم فتقييدهما لحل ذبيحة غير المسلم من باب أولى، إذا كان المسلم لو خنق الشاة مثلًا، صارت حرامًا فكذلك الكتابي؛ إذ لا يمكن أن تكون مقتولة الكتابي أفضل من مقتولة المسلم، وهذا هو الذي عليه جمهور العلماء، وهو الصحيح ، فالصحيح أن قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ - وإن كان مطلقًا - فإنه يجب أن يقيد بما ورد من تقييد ذلك، بذكر اسم الله على الذبيحة وإنهار الدم.

ولكن إذا أتتنا ذبيحة من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ ونحن لا ندري أَذُكِرَ اسم الله عليها أم لا؟ أخنقها ثم قطع رقبتها أم لا؟ فالأصل الحلُّ؛ لما ثَبَتَ في صحيح البخاري[2]، عن عائشة رضي الله عنها أن قومًا أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم، لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا أَنْتُم وَكُلُوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بكفر، يعني: أسلموا قريبًا، والمسلم قريبًا قد يخفى عليه كثير من أحكام الإسلام، ومع ذلك قال: «سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا».

قال صاحب «المنتقى»[3] رَحِمَهُ اللهُ : يؤخذ من هذا أن كل فعل صدر من أهله فالأصل فيه الحل ولا تنقِّبْ، يعني: لو كُلِّفا أن ننقِّب لكان حتى الذي يأتينا في أسواقنا مما ذبحه المسلمون يجب أن نسأل هل الذابح سمى أو لا، هل قطع الأوداج أو لا، هل هو يصلي أو لا، وما أشبه ذلك، ولو أننا كُلِّفنا أن ننقب لكان الرجل إذا باع علينا الثوب قلنا له من أين ملكته؟ لاحتمال أن يكون سرقه فإذا قال ملكته من فلان، نذهب إلى فلان ونقول له: من أين ملكته؟ إلى أن نصل إلى الشجرة التي نُسج منها، وهذا شيء لا يمكن أن يطاق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح البخاري (١٩٥٢).

(٣) مجد الدين بن تيمية جد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، وقد شرح كتاب «المنتقى» الإمام العلامة الشوكاني في كتابه القيم: «نيل الأوطار».

على كل حال: الأصل في الفعل الواقع من أهله هو الحل.

لو ادَّعى مدعٍ أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب: ما طبخوه من خبز ومرق وما أشبه ذلك. فهل هذا يقبل؟ لا يقبل؛ لأن هذا حِلٌّ من أهل الكتاب ومن غيرهم بالإجماع، حتى لو أن مجوسيًّا صنع لنا خبزًا نأكله، وذلك أن المُحَلَّلات تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما لا يشترط لحلِّه فعل فاعل، وهذا حلال من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، مثل السمك فهذا حلال سواء كانت طعام أهل الكتاب أو غير أهل الكتاب، وهذا لا إشكال فيه.

القسم الثاني: ما يشترط لحله فعل فاعل، وهذا حرام من غير أهل الكتاب، وذكرت ذلك من أجل أن يصحح ما قلنا إنه ثلاثة أقسام، والحقيقة أنه قسمان.

فالإشكال في الطعام الذي يشترط لحله فعل الفاعل وهو الحيوان الذي يحتاج إلى ذكاة. وهذا هو المراد بالآية.

٨- ومنها: أنه لا بأس أن نُطعم أهل الكتاب ويطعمونا، وهذا في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وحينئذٍ نسأل: هل تجوز المُهاداة بيننا وبين أهل الكتاب؟ الجواب: نعم يجوز، فإن النبي ﷺ قَبِلَ هديتهم كما أهدت إليه المرأة في خيبر الشاة المسمومة، لأن هذه المرأة سألت: أي شيء يُعجب محمدًا؟ قالوا: يعجبه من الشاة ذراعها، فملأت الذراع بالسُّم، وأهدتها للرسول عليه الصلاة والسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، فأكله ومن معه، من الذين أكلوا معه من مات، أما هو عليه الصلاة والسلام فإنه تأثَّرت لهواته، ولكن بإذن الله لم يُؤثر فيه السم شيئًا، لكنه قال في مرض موته كما روته عنه عائشة: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي وَهَذا أَوَانُ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ مِنِّي»[1] والأبهر: عرق معروف إذا انقطع هلك الإنسان، ولهذا قال الزهري وغيره: إن رسول الله ﷺ مات شهيدًا بقتل اليهود.

وكون طعامهم حلًّا لنا وطعامنا حلًّا لهم، يدل على جواز المهاداة بيننا وبين أهل الكتاب؛ ولاسيما إذا رجونا منهم الإسلام، أو إذا أردنا أن نبين لهم أن الإسلام دين السلام، وأن الإسلام ما أنزله الله عز وجل ليَفْرض على الناس أن يُسلموا، إنما فرض الله عز وجل على البشر أن تكون كلمته هي العليا، سواء بإسلام أو بجزية، ولذلك لو أن الكافر قال: إنه يبذل الجزية ويبقى على دينه، وافقناه ولم نحمله على الإسلام، وتسليم الجزية يكون إذا كنا ـ نحن المسلمين ـ لنا الكلمة، ولكن ليس كحالنا اليوم، فحالنا اليوم على العكس من ذلك، إذ إن الكلمة العليا لغيرنا؛ لأننا ما قمنا بدين الله حق القيام، فلو قمنا بدين الله حق القيام لكان دين الله لابد أن يظهر على جميع الأديان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] لكن مَن منَّا ـ إلَّا من شاء الله ـ يريد ذلك؟! أكثر الناس الآن ـ أعني بهم المسلمين أيضًا

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٥٦٢٩).

ـ على خلاف ذلك، في بلاد المسلمين شرك، لو كان الرسول ﷺ حيًّا لقاتلهم عليه، وفيه غلو في قوم صالحين أو غير صالحين. على كل حال: دين الإسلام هو دين السلام في الواقع، لكنه مع ذلك دين العزم، والقوة، والحذر من الأعداء وكيدهم ومكرهم وخيانتهم.

٩- ومنها: حل المحصنات من أهل الكتاب، كحل المحصنات من المسلمين، لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذا في الحقيقة قد يقول قائل: لا محل له، لأن هذا أمر معلوم، لكنه سبحانه وتعالى أرد الله أن يبين أنه كما حلت لنا المحصنات من المؤمنات حلت لنا المحصنات من أهل الكتاب؛ لأن المحصنات من المؤمنات حلهن معروف في سورة النساء وهي قبل هذه السورة صريحة بذلك لكن أراد سبحانه وتعالى ـ والله أعلم ـ أن يبين أن حل المحصنات المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب سواء في الحل، ولكن لا يلزم بتساويهن في الحل، أن يتساوين في الإقدام عليهن، فقد يكون الشيء حلالًا ولكن نقول: الأفضل ألَّا تقدم عليه، وإن كنَّ حلالًا فالأفضل ألَّا تقدم عليهن.

والمراد بالمحصنات ـ على الراجح ـ الحرائر، أما العفيفات: فإنه يأتي في سورة النور أن الزاني لا ينكح إلَّا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك .

١٠- ومنها: علوُّ مرتبة المؤمن وإن لم يكن عالمًا، لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فقدم المؤمنات على المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، مع أن أهل الكتاب قد يكون عندهم علم والمؤمن قد لا يكون عنده علم.

١١- ومنها: اشتراط المهر في حل المرأة، لقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذه المسألة اختلف فيها العلماء، ولها صور:

الصورة الأولى: أن يتزوج الرجل المرأة بشرط ألَّا مهر لها، فلا يصح العقد بظاهر الآية الكريمة وظاهر الآية الكريمة في سورة النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ [النساء:٢٤] يعني: ليس مجانًا، بل لابد من المهر، وفي هذه الآية الكريمة هنا: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذا القول هو الراجح، أنه إذا تزوج امرأة بشرط ألا مهر لها، فالنكاح باطل، ووجه ذلك أنه إذا تزوجها بشرط ألا مهر لها صار هذا النكاح هبة، ونكاح الهبة لا يجوز إلَّا للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]

وقال بعض العلماء: النكاح صحيح والشرط فاسد، وحينئذٍ يجب لها مهر المثل، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن الأدلة تمنعه.

الصورة الثانية: تزوجها وسكت، ولم يذكر مهرًا، فالنكاح صحيح بنص القرآن، ولكن لها مهر المثل، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦].

هذه نقول: إذا دخل بها فلها مهر المثل، وإن طلقها قبل الدخول فلها المتعة بقدر يسر زوجها وعسره.

والفرق بين هذه الصورة والأولى أن الأولى: اشترط عدم المهر، والثانية: سكت.

والصورة الثالثة: أن يتزوجها بشرط المهر. فهذه جائزة، وشرط المهر ما هو إلا تأكيد لمقتضى العقد. وهل يُشترط إذا شرط المهر أن يعين؟ لا يشترط أن يعين، إن عيَّنه فلها ما عين، وإن لم يعيِّنه فلها مهر المثل.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المهر بمنزلة الأجرة لقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، وحينئذٍ يرد إشكال: يُقال يشترط فيها معرفة العِوَض والمُعَوَّض وعلمهما، وهنا العِوَض يجوز أن يكون مجهولًا، وهو المهر الذي لا يُسمى، والمعوَّض كذلك؛ فالمعوَّض هي منفعة المرأة إلى الموت أو الطلاق، وهذا أمر مجهول، قد تبقى مع زوجها عشرين سنة أو ثلاثين سنة أو مائة سنة، وقد تموت في أسبوعها الأول، وقد يطلقها في أسبوعها الأول، ومهر الأولى والثانية سواء.

قد يتزوج امرأة بمهر بألف ريال وبقيت معه مائة سنة، وامرأة أخرى تزوجها بمائة ريال وماتت بعد مائة يوم، فرق بين هذا وهذا، ولكن إذا قال قائل: كيف تقولون إنه بمنزلة الأجرة مع هذا الاختلاف العظيم؟

قلنا: نظرًا لتَطَلُّب الشرع للنكاح لكثرة الأُمَّةِ وتحصين الفروج والمصالح العظيمة؛ خُفِّف فيه، ولو قلنا: يُشترط العلم بهذا وهذا، صار في ذلك مشقة عظيمة، وصارت النساء تختلف في مقدار المهر، وعدنا إلى مسألة أخرى ممنوعة في الشرع وهي «نكاح المتعة»[1].

ولو قلنا: المراد بمعرفة العِوَض والمعوَّض، هو كَمُّ مدة النكاح، كما لو استأجرت امرأة خادمة، تقول: كم مدة الخدمة؟ ولأجل هذه المصالح العظيمة عفا الشرع عن مقدار المدة والعِوَض - والعوض معروف -.

١٣ - **ومنها أيضًا**: أن المقصود الأعظم من النكاح هو الإحصان، لقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ

---

(١) هذا صحيح فنكاح المتعة حرام بإجماع المسلمين لما ورد في تحريمها من أدلة صحيحة من القرآن والسُّنة - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦] فكل فرج سوى ذلك باطل.

وفي السُّنة: فقد حرم النبي ﷺ نكاح المتعة إلى يوم القيامة، فهو كان حلالًا وحُرِّمَ، ومع الدليل تبطل كل الاحتمالات.

مُسَٰفِحِينَ ﴾.

١٤- ومنها أيضًا: الإشارة إلى أنه ينبغي إعلان النكاح، لقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾، فلا بد أن يكون النكاح معلنًا ظاهرًا، وهل يكفي في إعلانه أن يقع بشهود، أو لابد من إظهاره وإعلانه؟ الجواب: الثاني على القول الراجح، ولكن إذا كان هناك شهود مع السر والكتمان، فإن اشتُرط الكتمان فهو غير صحيح، ولابد من إعادته وإعلانه، وإن لم يشترط، ففيه خلاف فبعض العلماء يقول: لا يصح، وبعضهم يقول: يصح، ولكن العلماء كلهم متفقون على أن إعلان النكاح أفضل وأبعد عن التهمة، وأبعد عن اتخاذ الأخدان.

١٥- ومنها أيضًا: أن الاستمتاع بالنساء ينقسم إلى أقسام: تحصين، وسفاح، واتخاذ أخدان.

والفرق بينهما: الأول: عقد شرعي، والثاني: زنًى معلن. والثالث: زنًى سريّ.

١٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا قَصَد المسافحة أو اتخاذ الخِدن، فإنه لا يكون نكاحًا صحيحًا قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ وقد استدل علماء السنة بذلك على بطلان نكاح المتعة، لأن نكاح المتعة إن أُعلن فهو سفاح، لأن الرجل ما قصده إلَّا أن يستمتع فقط، ما قصد إحصان الفرج، بل هي مجرد لذة يقذفها في فرج هذه المرأة وينتهي، وإن كان مخفى فهو من جنس اتخاذ الأخدان، وهذا القول بإجماع أهل السنة على أن نكاح المتعة حرام، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1]، وهذا يدل على أنه لا يمكن نسخه، لأن قوله عليه الصلاة والسلام: «حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، خبر يتضمن حكمًا مغيًّا بيوم القيامة، وإذا كان خبرًا يتضمن حكمًا مغيًّا بيوم القيامة فإنه لا يمكن نسخه، وذلك لأن النسخ هو رفع الحكم، وما كان غايته يوم القيامة فإنه لا يمكن أن يُرفع.

١٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن بدن الكافر طاهر، لأنه لابد أن يلامس الطعام، وفي النكاح أيضًا لابد أن يكون مع الزوج وزوجته ما يقتضي التنجيس لو كانت نجسة.

١٨ - وفيها أيضًا: دليل على أن آنيتهم طاهرة وهو كذلك، إلا ما عُلم نجاستها فهي نجسة.

١٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإماء من أهل الكتاب لا يُبَحْنَ للمسلم ولو خاف العنت؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

فإن قال قائل: إذن كل المؤمنات كذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

قلنا: نعم لولا آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [النساء:٢٥] لقلنا بذلك. ولكن الجارية المسلمة تحل للمسلم عند الضرورة على حسب ما سبق في سورة النساء.

---

(١) صحيح: انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠١٠).

٢٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأعمال داخلة في الإيمان؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ والمذكور في هذه الآية أعمال، فدل ذلك على أن الأعمال داخلة في الإيمان، وهذا هو ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أن الأعمال من الإيمان[1]، وله دليل من الكتاب والسنة، فمن القرآن قال الله - تبارك وتعالى - حين ذكر توجيه الناس إلى المسجد الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ قال المفسرون: أي صلاتكم إلى بيت المقدس[2].

وأما من السنة: فقال رسول الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً: أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» وهذا قول، «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**» وهذا فعل «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[3] وهذا انفعال نفسي من أثر القلب، وهو من أعمال القلوب، فدل هذا على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لكن إذا قُرنت الأعمال بالإيمان صارت الأعمال علانية، والإيمان في القلب مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢١ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن من كفر بالإيمان فقد حبط عمله، أن العمل قد يحبط بعد أن يعمله الإنسان، وذكرنا التفصيل في هذا، وأن الرِّدة لا تحبط الأعمال إلا إذا مات الإنسان على ذلك.

٢٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الآخرة.

٢٣ - **ومنها**: أن الناس في الآخرة ما بين خاسر ورابح، لقوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ فدل هذا على أن الآخرة فيها رابح وفيها خاسر.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]

(١) «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» (٣/ ٧٧٨)، «تيسير العزيز الحميد» (ص٤١٨).
(٢) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٥٧)، و«الدر المنثور» (١/ ٣٤٤).
(٣) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

۞ التَّفْسِيرُ ۞

الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عليه.

قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم الصلاة ولا يشترط أن يقوم الإنسان على قدميه، بل متى أراد وإن كان قاعدًا فإنه يلزمه ما أمر الله به.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الصلاة (عبادة معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم)، هكذا قال العلماء في تعريفها. إنها عبادة معلومة، ولم يذكروا كيفيتها لأنها يعلمها الخاص والعام.

وقولهم: «مفتتحة بالتكبير» هذا وصف يخرج ما عدا الصلاة؛ لأن جميع العبادات التي سوى الصلاة ما فيها افتتاح بالتكبير، وقولهم: «مختتمة بالتسليم» أيضًا تخرج ما يُبتدأ بالتكبير ولا يختتم بالتسليم كالطواف بالبيت على أن ابتداء الطواف بالتكبير ليس بركن لكنه من المندوبات، لكنه يخرج بقولنا: «مختتمة بالتسليم».

وهذا مما يدل على أن الحديث المرويَّ مرفوعًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في الطواف بالبيت لا يصح مرفوعًا إنما هو عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، وهو لا يصح طردًا ولا عكسًا، ولهذا كان القول الراجح: أن الطواف بالبيت لا تشترط له الطهارة؛ لأنه لا يدخل في الصلاة، ولا يمكن أن يُدخل في هذه الآية؛ لأنه ليس بصلاة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذا قال قائل: الصلاة في اللغة الدعاء ويكون المراد: إذا قمتم إلى الدعاء؟ قلنا: لا يصح، ما ثبت أنه نُقِل عن معناه اللغوي إلى معنى شرعي، فإنَّهُ إذا ورد على لسان الشارع يحمل على الحقيقة الشرعية يعني على المعنى الشرعي، ولهذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَا يَقْبَلُ الله صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»[2] هل نقول: المعنى لا يقبل الله دعاء أحدكم؟ لا أحد يقول بذلك، مع أن الصلاة في اللغة الدعاء، ولكن نقول: الحقائق اللغوية إذا نقلت إلى حقائق شرعية وجب أن تحمل على الحقائق الشرعية في لسان الشارع.

وقوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الغسل معروف؛ وهو إمرار الماء جريًا على العضو، وقولنا: (جريًا) احترازًا من المسح على العضو، والوجوه: جمع وجه وهو معروف، وإنما سُمِّي وجهًا؛ لأنه تحصل به المواجهة، وهو وجه أيضًا من ناحية أنه وجه القلب، فالإنسان يُعرَف ما في قلبه مما يظهر على وجهه، ولهذا إذا سُرَّ الإنسان استنار وجهه، وإذا غُمَّ انقبض وجهه، فهو تحصل به المواجهة الحسية، وهو وجه للقلب حقيقة لأنه ينبئ عمّا في القلب.

---

(١) وهو قوله :(الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام)، واختلف في وقفه ورفعه، انظر «إرواء الغليل» (١٢١).

(٢) رواه البخاري (١٣٥)، ومسلم (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحدَّه العلماء بأنه عَرْضًا من الأذن إلى الأذن، فالبياض الذي يكون بين العارض والأذن يعتبر من الوجه، وأما طولًا : فإنه من منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية.

وهذا الضابط «**من منحنى الجبهة**» أقرب من قول بعضهم: «**من منابت شعر الرأس**»، لأنك إذا قلت (من منابت شعر الرأس) لزم أن تقول المعتاد ليخرج الأقرع والأنزل؛ لأن بعض الناس ينزل منابت شعره إلى الجبهة وبعض الناس ترتفع في الناصية، لكن إذا جعلنا الضابط هو منحنى الجبهة صار ذلك أدق من وجه، وأيضًا هو المطابق للواقع، لأن الذي يواجه الناس عند اللقاء هو ما دون المنحنى، أما ما وراءه فهو مواجه للسماء.

مسترسل اللحية هل يكون من الوجه أم لا؟ من أهل العلم من قال: إن اللحية من الوجه، وعلى هذا فإذا كان للإنسان لحية طويلة فإنه داخل في الوجه، وقال بعض العلماء: إن المسترسل من اللحية ليس من الوجه، وذلك لأنه في حكم المنفصل، لأن هناك أشياء في جسد الإنسان في حكم المنفصل وهي: الشعر، والظفر، والسن، هذه في حكم المنفصل، ونقول: إنه ما دام ذلك في حكم المنفصل فإنه لا يدخل في حد الوجه، ولكن الصحيح أنه يدخل في حد الوجه، لأنه تحصل به المواجهة، ولأنه قد روي عن النبي في حديث إسناده حسن أنه كان يخلل لحيته في الوضوء.

فإذا قال قائل: هذا فعل والفعل لا يدل على الوجوب، قلنا: هو لا يدل على الوجوب في الأصل، لكن إذا وقع الفعل مبينًا لمنطوق صار له حكم ذلك المنطوق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أيدي: جمع يد، هنا قيَّد اليد بأنها إلى المرافق، فيجب أن تَغْسِل اليد من أطراف الأصابع إلى المرفق، والمرفق: هو مفصل العضد من الذراع، وسُمِّي مرفقًا؛ لأن الإنسان يرتفق به، أي: يتكئ عليه.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ قال العلماء: ﴿إِلَى﴾ هنا بمعنى: (مع) وإنما أوَّلوها إلى مَعَ؛ لأن النبي ﷺ ثَبتَ عنه أنه إذا توضأ غسل مِرفقيه، فتكون السنة مُبينة للقرآن، فالذي بيَّن أن منتهى الغاية هنا باقٍ هي السنة.

وقوله: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ المسح: هو إمرار اليد على الممسوح، لكن من المعلوم أن المراد امسحوها بالماء ـ امسحوا الرءوس بالماء ـ ولهذا زعم بعض العلماء أن في الآية قلبًا، وأن المعنى: امسحوا رءوسكم بالماء، ونحن نقول: إن الباء هنا ليست لتعدية الفعل بالباء، ولكنها مفيدة لمعنى زائد على المسح وهو الإلصاق، والاستيعاب أيضًا، وإن كانت دلالة المسح على الإلصاق واضحة كذلك الاستيعاب، لأن الباء تدل على الاستيعاب، ولهذا قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ تدل على وجوب استيعاب البيت بالطواف؛ لأن الباء للاستيعاب.

وقوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ الرأس: ما ترأَّس، وهو العضو المترئس على البدن كله، وهو ما بين مفصل المخ والرقبة، وعلى هذا فالرقبة لا تدخل في الرأس، لأنها عضو مستقل، ثم إذا أخرجت

من الرأس الوجه بقي ما سوى الوجه مما ترأس، ويدخل في ذلك الأذنان، أولًا: لأن الاشتقاق يدل على دخولها، وثانيًا: أنه ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يمسح بأذنيه[1].

قال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ في (أرجلكم) قراءتان سبعيتان صحيحتان الأولى: (أرجلَكم) بالفتح، والثانية: (أرجلِكم) بالكسر، فعلى القراءة الأولى تكون أرجلكم معطوفة على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، لأنه إذا تعددت المعطوفات فالمعطوف عليه ما يلي العامل وهو الأول، وأما على قراءة الجرِّ، ففيها إشكال عند بعض العلماء: منهم من قال إنها جُرَّت على سبيل المجاورة[2]، أي أنه قد تتبع الكلمة ما جاورها في الإعراب، ومثّلوا لذلك بقول العرب: (هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ)، وهنا جُرَّت كلمة خرب مع أن الخرب هو الجحر، ولكنهم قالوا: إنها جُرَّت كلمة خربٍ على سبيل المجاورة، ولكن هذا التعليل عليل، إلَّا أنه دأب كثير من النحويين، إذا عجزوا عن توجيه الإعراب ذكروا علة قد تكون مستكرهة، ولهذا يقولون: (إن علل النحويين كجحور اليرابيع).

وذهب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ إلى مذهب جيد، قال: إن الله قال: أرجلَكم وأرجلِكم لأن للرجل حالين: حال: تكون فيها مكشوفة ففرضها الغسل، وحال: تكون فيها مستورة ففرضها المسح.

وقوله عز وجل: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الكعبان هما العظمان الناتئان في أسفل الساق، وهما معروفان.

وبعد أن انتهى الكلام على الوضوء الذي سببه الحدث الأصغر قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ في الآية إشكال: أن المخاطب جماعة والخبر في صيغة إفراد لم يقل: (إن كنتم جنبين) بل قال: جنبًا. جوابه سهل: أن كلمة (جُنُب) في اللغة الفصحى يستوي فيها المفرد والجماعة والاثنين والواحد، وإن كان قد ورد في لغة ضعيفة جمعها على جنبين، لكن اللغة المشهورة الفصحى أن كلمة جنب تطلق على الواحد والجماعة.

والجنب: هو من أنزل منيًّا، وألحقت السنة به من جَامَع وإن لم ينزل، لقول النبي ﷺ: «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شعَبِهَا الأَرْبَعِ ثُمَّ جَهَدَهَا فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ»[3].

وقوله: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ الطاء أصلها التاء لكن قلبت التاء طاءً، ولم يُبين جَلَّ وعلا كيف نتطهر، لكن الصيغة تدل على التعميم، لم يقل : طَهِّروا جزءًا من أبدانكم، أو عضوًا من أعضائكم بل قال: (اطهروا) وهذا شامل لكل البدن، وله صفتان كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد.

(١) مصنف عبد الرزاق (٢١).
(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ١٠٢)، وشرح قطر الندى (ص٢٨٦).
(٣) رواه البخاري (٢٨٧)، ومسلم (٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبهذا انتهى الكلام على مُوجب الحدث الأكبر في كلمتين، وموجب الحدث الأصغر في كلمات متعددة ووجه ذلك أن الأعضاء في مُوجب الحدث الأصغر متعددة، وأما في الحدث الأكبر فالعضو واحد فقط وهو البدن كله، ولهذا ليس فيه ترتيب كما سنذكر إن شاء الله.

انتهى الكلام على الطهارتين الصغرى والكبرى بالماء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من هنا انتقل الكلام إلى الطهارة الأخرى وهي الطهارة بالتراب، فأول الآية الطهارة بالماء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ كلمة ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾ جمع مريض، والمريض هو من اعتلت صحته، والمراد: وإن كنتم مرضى وتضررتم بالماء، فإذا قال إنسان لماذا قيدت والله أطلق؟ قلنا: لأن الحكمة تقتضي ذلك، لأن المريض الذي لا يتضرر بالماء بل ربما يكون الماء صحةً له ينشط به وليس به حاجة إلى أن يعدل عن الماء إلى التراب.

وقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: في سفر، والسفر كلُّ ما خرج به الإنسان عن محل إقامته، ولذلك سمي سفرًا؛ لأن الإنسان يسفر ويخرج من القيد أو من الحد الذي هو بلده إلى مكان آخر.

وهل السفر محدود أو غير محدود؟ سيذكر ذلك في الفوائد إن شاء الله.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ (أو) هنا بمعنى الواو، أي: وجاء أحد منكم من الغائط.

فإذا قال قائل: هل لما ادعيتم دليل أي: إتيان أو بمعنى الواو؟

قلنا: نعم، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الهم والغم: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ» «أَوْ» هنا بمعنى: الواو؛ لأن ما أنزله في كتابه قد سمَّى به نفسه، «أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»[1] ولا يستقيم المعنى إلا بجعل (أو) بمعنى الواو.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ أي أحد من ذكر أو أنثى، صغير أو كبير ممن يقوم للصلاة.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا - أي: العرب - ينتابون هذا المكان - أي الهابط من الأرض - لقضاء الحاجة، ليستتروا به عن الناس، فليس في البيوت كُنف ولا مراحيض، فإذا أراد الإنسان أن يقضي حاجته يخرج إلى المكان الهابط ليقضي حاجته فيه، ليستتر بذلك عن الناس، وعلى هذا يكون الغائط هنا شاملًا لمن قضى حاجته من البول أو من

(١) صحيح: انظر السلسلة الصحيحة (١٩٩).

العَذرة. ولا يختص هذا بمن قضى حاجته من العذرة ما دمنا فسرنا الغائط بالمكان المنخفض من الأرض.

وقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة: ﴿أو لمستم النساء﴾ لامستم فعل مبني للمفاعلة بحيث يكون الفعل واقعًا من الطرفين - الرجل والمرأة - ولا يصدق هذا إلا بالجماع، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله: هل المراد بالملامسة هنا الجس باليد أو المراد الجماع؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد به: الجماع، وليس الجس باليد.

فإن قال قائل: إن فيها قراءة صحيحة سبعية ﴿أو لمستم﴾ واللمس دون الملامسة، وهو نصٌّ ظاهرٌ في أن المراد به الجس باليد فلماذا لا تقولون: إن المراد به مس المرأة؟

قلنا: لا نقول به؛ لأن القراءة الثانية تشير إلى أن المراد به الجماع ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ﴾، وهذا من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى لو حملناها على أن المراد بذلك المس باليد لكان الله تعالى ذكر مُوجِبين للطهارة من جنس واحد مع أنه في الطهارة بالماء ذكر مُوجِبين من جنسين، فإذا قلنا: إن (لمستم) بمعنى لمس اليد يكون في الآية ذكر مُوجِبين من جنس واحد وإهمال آخر لابد منه، وهذا ترجيح من حيث المعنى.

وقوله: ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ هن الإناث، وليس المقصود كل امرأة بل كل امرأة تُجامع، وأما من لا تجامع فإنها ليست محل شهوة، لكن لو فرض أن أحدًا سُلِّط على بنت صغيرة وجامعها فإنه يدخل في الآية.

وقوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ - أي: ماء تتطهرون به طهارة صغرى وطهارة كبرى، ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ تيمموا أي: اقصدوا، فالتيمم في اللغة أي: القصد، ومنه قول الشاعر[1]:

تَيَمَّمْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ

فمعنى تيممتها أي: قصدتها، وأذرعات: هي بلدة بالشام، وأهلها بيثرب أي بالمدينة.

وقوله: ﴿صَعِيدًا﴾ الصعيد كل ما تصاعد على وجه الأرض من رمل أو جبل أو أودية أو غير ذلك.

وقوله: ﴿طَيِّبًا﴾ أي: طاهرًا، لأن طيب كل شيء بحسبه، فالطيب من الحيوان ما حلَّ أكله،

---

(١) هو امرؤ القيس، الشاعر الجاهلي المعروف.

والطيب من الأعمال: ما كان مرضيًّا عند الله عز وجل، وكل موضع يفسر الطيب بما يناسبه، فقوله هنا طيبًا: أي طاهرًا.

وقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ (امسحوا بوجوهكم) يعني: من هذا الصعيد، والمسح الإمرار باليد على الوجه، والمسح باليد: إمرار إحدى اليدين على الأخرى.

وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ قيل إن (من) للتبعيض، وعلى هذا فلا بد أن يعلق باليد شيء من هذا التراب، وقيل: إن من للابتداء أي: مسحًا يكون ابتداؤه من هذا الصعيد.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ما نافية، ويريد هنا إرادة شرعية، أي ما يحب الله عز وجل، وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ اللام هنا زائدة لأن التقدير: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج .

ويمكن أن نقول: إن اللام هنا على أصلها ليست زائدة، ونقدر الكلام: ما يريد الله لأن يجعل عليكم، أي: ما يريد الله لذلك.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ أي: ليصيِّر عليكم.

وقوله: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ (من) هنا زائدة إعرابًا، ولكنها لها معنى وهو تأكيد النفي وعمومه، والحرج هو الضيق، أي أن الله عز وجل لم يرد أن يجعل علينا بما فرض علينا من الوضوء والغسل والتيمم شيئًا يضيق علينا ولكن ـ وهذا استدراك ـ يريد ليطهركم، ونقول في ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ما قلنا في ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ وقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: طهارة حسية ظاهرة ، وطهارة معنوية.

أما الوضوء والغسل بالماء فالطهارة فيهما حسية ومعنوية، أما الحسية: فإنها ظاهرة في كون الإنسان يغسل هذه الأعضاء أو يغسل البدن كله، فينظفه، وأما المعنوية؛ فلأن في الوضوء تكفير السيئات، ومحو الخطيئات.

وأما التيمم فإنه طهارة معنوية، وذلك بأن فيه كمال التعبد لله عز وجل؛ حيث إن الإنسان يَتَيَمَّم هذا الصعيد ويمسح به وجهه ويديه.

وقوله هنا: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ﴾ أي: ويريد أيضًا أن يتم نعمته عليكم، أي: بما شرعه لكم من العبادات، إذ لو لا أن الله شرع لنا هذه العبادات لكان فعلنا لها بدعة تبعدنا عن الله عز وجل، لكنه شرعها لتكون عبادة له نتقرب بها إلى الله ونتذلل بها عند الله عز وجل.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل هنا للتعليل وليست للترجي، لأن الرجاء طلب ما فيه عسر، أما والله عز وجل لا يتأتى في حقه ذلك؛ لأن كل شيء سهل عليه، فتكون هنا للتعليل، وهي تأتي كثيرًا في القرآن بهذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] أي: تشكرون الله عز وجل على نعمه، والشكر يكون في

القلب، ويكون في اللسان، ويكون في الجوارح.

وعلى هذا قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المحَجَّبَا[1]

معنى البيت: أن نعماءكم عليّ ملكتم بها يدي ولساني والضمير المحجبا؛ فنعماؤكم أفادتكم مني هذه الثلاثة فملكتموها.

الشكر بالقلب: أن يعترف الإنسان بقلبه بأن هذه النعمة من الله عز وجل، ويحب الله عز وجل لذلك؛ أي لكونه أنعم، ولهذا جاء في الحديث: «**أَحِبُّوْا الله لِمَا يَغْذُوْكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَم**»[2].

والشكر باللسان: الثناء على الله به؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١]، ومن ذلك أي من الشكر باللسان القيام باللسان بكل قول يقرِّب إلى الله عز وجل.

والشكر بالجوارح: أن يقوم الإنسان بما يلزمه نحو هذه النعمة، فمثلًا: إذا كانت مالًا فقيامه بشكرها أن يؤدي زكاتها إلى أهلها، وكذلك أيضًا إذا كانت عملًا آخر يحتاج إلى حركة بالجوارح فلابد من أن يقوم بهذه الحركة.

فالشكر إذن محله القلب واللسان والجوارح.

فإذا قال قائل: أيهما أعم الحمد أم الشكر؟

قلنا: بينهما عموم وخصوص وجهيٌّ، ومعنى وجهي: أي أن أحدهما أعم من الآخر من وجه وأخص من الآخر، فباعتبار السبب الأخص الشكر؛ لأن سببه النعمة، وأما الحمد فسببه النعمة وكمال المحمود، حتى وإن لم يُنعم، ولهذا نحن إذا حمدنا الله عز وجل، فإنا نحمده على كمال صفاته وعلى كمال إنعامه وإحسانه، وأما المتعلّق فالشكر أعم؛ لأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، والحمد إنما يكون باللسان فقط.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أهمية الوضوء للصلاة، وإن شئت فقل: أهمية الطهارة للصلاة، بوضوء أو غسل أو تيمم. وجه الأهمية أن الله صدر الخطاب بالنداء، لأن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته. فإنك تجد الفرق بين أن تتحدث حديثًا مرسلًا هكذا، وبين أن توجه الخطاب إلى المخاطَب، تقول يا فلان افعل كذا أو اترك كذا وما أشبه ذلك.

٢- **ومن فوائدها**: أن هذه الطهارة من مقتضيات الإيمان، كأنه قال: يا أيها الذين آمنوا

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٢٧٤).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٣٧٨٩)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨١)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨) من حديث ابن عباس ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

لإيمانكم افعلوا كذا وكذا.

٣- **ومن فوائدها**: أن الإيمان يزيد بالطهارة، وضوءًا كانت أو غسلًا أو تيممًا، لأنها إذا كانت من مقتضياته لزم أن يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإخلال بها مُنافٍ لكمال الإيمان، يعني: لو صليت بدون وضوء أو غسل أو تيمم، فإن ذلك ينقص من إيمانك، لأنك خوطبت بصفة الإيمان على أن تقوم بهذا، لكن هل ينافي أصل الإيمان؟ جمهور العلماء على أنه لا ينافي أصل الإيمان، وأن من صلّى محدثًا لم يكفر، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن من صلى محدثًا كفر؛ لأنه مستهزئ بآيات الله عز وجل، وعلى هذا يكون عدم القيام بها منافيًا لأصل الإيمان[1].

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: مشروعية الوضوء أو الغسل أو التيمم عند كل صلاة حتى ولو كنت على طهارة، فمثلًا: لو توضأت لصلاة الظهر وجاء وقت العصر وأنت على طهارتك، نقول الأفضل أن تتوضأ لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ و(أل) هذه للعموم، ولم أعلم أحدًا من الناس قال: إنه يشرع إذا قام لكل صلاة موالية للأخرى ـ كما لو كان يصلي الليل ركعتين، ركعتين ـ ذهب وتوضأ، ولكن فيما بين الأوقات نعم، ولكن ذهب كثير من العلماء أنه إذا دخل في وقت الصلاة أخرى أن يجدد الوضوء ولو كان على طهارة.

وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الوضوء لكل صلاة، ولكن هذا ضعيف؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه صلى الصلوات الخمسة بطهور واحد، ولأنه أمر المستحاضة أن تتوضأ لكل صلاة[2]، فدلَّ هذا على أن هذا الحكم خاصٌّ بالمستحاضة، أعني: وجوب الوضوء لكل صلاة.

٦- **ومن فوائد هذه الآية**: أن الطهارة لا تجب إلا للصلاة، وعلى هذا فلا تجب لقراءة القرآن ولا تجب لمس المصحف، ولا تجب للطواف ولا تجب للسعي، ولا لغيرها من الأعمال الصالحة، ولا شك أن هذا هو الأصل، وأن من ادعى أن غير الصلاة يجب الوضوء له، فإنه عليه الدليل، وإلا فالأصل أنه لا يجب إلا للصلاة.

مسألة: هل يشترط لَمسِّ المصحف الطهارة أم لا؟

الجواب: مَسُّ المصحف اختلف فيه العلماء: هل تجب له الطاهرة أم لا، فمنهم من قال: إن الطهارة واجبة لمسِّ المصحف واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] واستدل آخرون بقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه لعمرو بن حزم: «أَلَّا يَمَسَّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»[3].

---

(١) راجع «الموسوعة الفقهية» (٤٣/ ٣٢٠).

(٢) رواه البخاري (٢٢٦)، ومسلم (٣٣٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح: رواه مالك في «الموطأ» (٤٦٩)، والدارمي (٢٢٦٦)، والطبراني في «الصغير» (١١٦٢)،

فأما استدلال الأولين بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فإنه لا يستقيم، لأن الضمير في قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ ضمير مفعول به يعود إلى الكتاب المكنون، واقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]، فالضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الكتاب المكنون، وأيضًا يقول: (مطهَّرون) ولم يقل إلا المتطهرون، وفرق بين المطهَّر والمُتَطَهِّر، فالمطهرون: هم الملائكة، وأما حديث عمرو بن حزم فإن من لا يستدل بالمرسل لا يراه حجَّة، والحديث مرسل مشهور، فما دام مرسلًا، فالمرسل من القسم الضعيف فلا نُثْبِتُ به حكمًا نلزم به عباد الله، فلا يستقيم الدليل.

ومن رأى أن هذا الحديث المرسل بعينه حجةٌ لتلقي الأمة له بالقبول في الزكاة والديات وغيرها، قال: إنه يكون حجة، وإذا كان حجة فقال بعض العلماء: حتى ولو ثبت واحتججنا به فيما جاء به من الأحكام، فإن قوله: «إِلَّا طَاهِر» فيحتمل أن المراد بالطاهر المؤمن ويحتمل أن يراد به المتوضئ، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

وعلى هذا فلا تجب الطهارة لمس المصحف، فنقول في رد هذا: إذا وجد الاحتمال فقد بطل الاستدلال هذا إذا تساوى الاحتمالان، فليس أحدهما بأولى من الآخر، وأما مع رجحان أحد الاحتمالين فالواجب الأخذ بالراجح، ولو أننا جعلنا لكل نص يحتمل وجهين دلالته ساقطة لضاعت علينا أحكام كثيرة وأدلة كثيرة.

فنقول: أيهما أرجح أن يراد بالطاهر المؤمن أو أن يراد بالطاهر المتوضئ؟ الثاني أرجح؛ لأننا لم نعهد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يُعبِّر عن المؤمن بالطاهر، لأن وصف المؤمن أحب إلى النفوس، وأقوى في الثناء من وصف الطاهر، قد يقول قائل: هذا الظاهر الذي قلتم يعارضه أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ذكر ذلك في الكتاب الذي كتبه لعمرو بن حزم وقد بعثه إلى اليمن. فهذه قرينة على أن المراد بالطاهر المؤمن؛ لأنه متوجه إلى قوم كفار يدعوهم للإسلام، وهذا لا شك أنه مؤثر في الاستدلال ولكن كون الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستعمل قط كلمة طاهر تعبيرًا عن المؤمن يضعِّف هذا الوجه، فالذي يظهر أن مس المصحف لا يجوز إلا بوضوء، هذا هو الظاهر بقي علينا الطواف.

إذا قال قائل: أين الدليل على أن الطواف يُشترط له الطهارة؟ نقول: الدليل قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام) [1] وهذا الحديث روي مرفوعًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وروي موقوفًا على ابن عباس، فرواية المرفوع ضعيفة، يعني: لا نقول تعارض رفع ووقف؛ فيجب الأخذ بالرفع، لأن الرافع معه زيادة العلم، ولأنه كثيرًا ما يعبر

والدارقطني (٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٨٠).

(١) سبق تخريجه.

الراوي عما رواه مرفوعًا بقولٍ من عنده فيظن سامعه أنه موقوفٌ عليه، لأنَّ كلام الرسول عليه الصلاة والسلام لا يتناقض، ولا يخالف الواقع وهذا متناقض، لا يصح طردًا ولا عكسًا، فلننظر إذا قلنا: إنه صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام، نقول: يجب التكبير عند الدخول فيه، والتسليم عند الانتهاء منه، وقول سبحان ربي الأعلى فيه وسبحان ربي العظيم والاتجاه إلى القبلة ـ الكعبة ـ وألا يأكل فيه ولا يشرب، وهلم جرًّا. فنجد أنه يخالف الصلاة في أكثر مما يوافقها، وهل يمكن أن يرد عن المعصوم كلام تكون المخالفة فيه أكثر من الموافقة؟

الجواب: لا يمكن أن يرد، ولهذا ليس في هذا دليل على أن الطواف تشترط له الطهارة. وهنا النظر في الاستدلال وفي الدليل جميعًا، لأننا لا نقبل مثال الحكم العام، الذي تتوافر الدواعي على نقله ويحتاج الناس إليه في كل وقت وحين، لا يمكن أن نقبله وهو بهذا الثبوت الهش، فلابد أن يكون قد تواتر أو اشتهر على الأقل، وثانيًا: أنه لا يمكن أن يكون مرفوعًا لكونه متناقضًا؛ إذنْ لا تشترط له الطهارة.

فلو قال قائل: دعونا من هذا الحديث، أليس الطائف إذا طاف فلابد أن يصلي، فهل تقولون: إن الطائف يصلي بلا وضوء؟

الجواب: لا نقول ذلك، بل نقول: يطوف ولا يصلي، وليست الصلاة بعد الطواف شرطًا في صحته، فنقول: إن كان الأمر قريبًا ذهب وتوضأ وصلى، وإن كان لا يجد ماءً إلا بعيدًا فإن الصلاة تسقط عنه.

فإذا قال قائل: إن النبي ﷺ ـ بلا شك ـ طاف متطهرًا، وصلى ركعتين خلف المقام، وقال: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[1]، قلنا: هذا الحديث «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» ليس على عمومه بالإجماع، وما أكثر المسائل التي كان يفعلها الرسول وكانت على سبيل الاستحباب، فنحن نقول: المستحب ـ لا شك ـ أن يطوف على طهارة، ولا إشكال في ذلك.

أما أن نقول: إن الطهارة شرط في الطواف، وأن من طاف مُحدِثًا فطوافه غير صحيح، حتى ولو لزم من ذلك مشقة عظيمة، كما لو كان الطواف بغير طهارة طواف الإفاضة، ثم قدم إلى بلده، وقلنا: إن حجك لم يتم، ويقع ذلك كثيرًا ـ أعني عدم الطهارة في هذه الأعصار ـ، لأن الزحام يكون شديدًا، ومدة الطواف تكون طويلة، وربما يُحدِث الإنسان في أثناء ذلك، فهل نقول: اخرج وتوضأ، ثم بعدما توضأ ورجع أحدث بعد ذلك ثم يرجع فيتوضأ، هذا فيه مشقة شديدة.

على كل حال: الذي نرى في هذه المسألة أنه لا يشترط للطواف وضوء، وهذا الذي اخترناه هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[2].

---

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٧٨٨٢).

(٢) الشرح الممتع (٧/ ١٠١).

ويكفينا أن نستدل بهذه الآية، ونقول: أي عمل تشترط له الطهارة فعليك بالدليل.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الغسل في الوجه؛ لقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾، ويتفرع من ذلك أنه لو مسح وجهه مسحًا لم يصح لقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾.

٨- **ومن فوائد هذه الآية**: وجوب استيعاب الوجه بالغسل، فلابد أن يغسل كل الوجه، لقوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾.

٩- **ومن فوائد هذه الآية**: أنه لا يجب غسل شيءٍ من الرأس، خلافًا لما ذهب إليه بعض الأصوليين، وقال: يجب أن يغسل جزءًا من الرأس؛ لأنه لا يتحقق أنه غسل جميع الوجه إلا بغسل جزءٍ من الرأس، ويجب أن يمسح بعض الوجه، لأنه لا يتحقق أنه مسح الرأس كله إلا بمسح بعض الوجه، فيكون عندنا جزء من البدن تجب فيه طهارتان مسح وغسل، وهذا خلاف ظاهر القرآن، وهو في الحقيقة نوع من التنطع، فيقال: حد الوجه معروف وما زاد عن الوجه، فليس بواجب أن يُغسل.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب غسل الأيدي من أطراف الأصابع إلى المرافق، لقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

١١- **ومن فوائد الآية**: أنه إذا أراد غسل اليد بدأ من أطراف الأصابع؛ لأن (إلى) تفيد الغاية، فإذا كان المرفق هو الغاية، لزم أن تكون أطراف الأصابع هي البداية، لكن هذا فيه شيء من النظر، لأن الذي يقال فيه البداية والنهاية إذا جاءت من وإلى، وأما إذا حددت النهاية فقط وسُكت عن البداية، فإنه لا يدل على أن الأفضل البداية من الجانب الآخر، بل نقول: هذا تحديد للنهاية فقط، لأنه لابد من أن يحدد النهاية، مهما كان ابتداؤنا من الأول من الأطراف أو من الوسط، فلا يظهر أنه من المشروع أن تبدأ بغسل أطراف الأصابع ثم تأتي إلى المرفق، بل يُقال: الغسل ينتهي بهذا والبدء من حيث شئت.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن اليد عند الإطلاق هي الكف فقط، ووجه الدلالة: أن الله قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ ولو كانت اليد عند الإطلاق إلى المرافق لكان هذا القيد لا فائدة فيه. ولنا دليل في هذا: يد السارق تقطع من مفصل الكف؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] ولا يجوز أن يتجاوز مفصل الكف، وكذلك في التيمم إنما يُطَهِّر الكفَّ فقط ولا يتجاوز إلى المرفق، وهذا أمر واضح، إذن نستفيد من هذا أن اليد إذا أُطلقت فهي الكف فقط، وإن قيدت فهي بما قيدت به.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب مسح الرأس، لقوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾، ووجوب استيعاب الرأس بالمسح؛ لأن الباء للاستيعاب، ولم تأتِ في اللغة العربية للتبعيض إطلاقًا.

قال ابن برهان: من ادعى أن الباء للتبعيض فقد قال عن أهل اللغة بما لا يعرفون.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لو غسل الرأس بدلًا عن المسح، فإنه لا يجزئ؛ لأن الله أمر بالمسح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وعلى هذا فلو أدلى برأسه وصب الماء عليها وعمَّ جميع الرأس فإنه لا يجزئه، وقال بعض العلماء: إنه يجزئ مع الكراهة، مستدلًا بنظر لا بأثر، النظر: يقول إنه وجب مسح الرأس تخفيفًا على العباد، فإذا أراد الإنسان أن يأخذ بما هو أكمل، فلا حرج عليه، كما شُرِع للصائم أن يفطر عند غروب الشمس، ولو أراد الوصال فله أن يواصل إلى السحر، وبعض العلماء يقول: له أن يواصل اليومين والثلاثة، ولكن هذا القول فيه نظر ـ أعني القول بإجزاء الغسل بدل المسح ـ لأن حديث عائشة: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» يقتضي رده، أي: رد الغسل بدل المسح، ولأن هذا من باب التنطع في الدين، وقد قال النبي ﷺ: «هَلَكَ المتنطِّعُوْن»(٢).

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب غسل الرِّجل؛ لقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، وهي معطوفة على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أي: واغسلوا أرجلكم، هذا على قراءة النصب، أما على قراءة الجر، فقد قال بعض العلماء: إنه يجزئ المسح، أي: مسح القدم، فاستدلوا بهذه الآية على جواز الاقتصار على مسح الرجلين، أخذًا بالقراءة الثانية (وأرجلِكم) ـ قراءة الكسر ـ، وقالوا: إن الإنسان يغسل رِجْلَهُ مرة ويمسحها مرة أخرى، يغسلها بناءً على قراءة النصب، ويمسحها على قراءة الجر، وهذا ـ لولا السنَّة ـ لكان له نوع من الوجاهة، ولكن السنة تأبى ذلك، فإن النبي ﷺ كان يغسل قدميه ولم يرد حرف عنه ﷺ أنه كان يمسحها، بل إن النبي ﷺ لما رأى بعض أصحابه قد غسل رجليه بما ليس بغسل نادى بأعلى صوته: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»(٣)، فَدَلَّ ذلك على وجوب غسل القدم، إذن كيف ننزِّل الآية؟ ننزِّل الآية إما من جهة الإعراب، على ما سبق أن بعض أهل العربية قال: إنها مجرورة للمجاورة. وأن محلها حقيقة النصب، أو ننزلها على أن الرجل لها حالان، حال تكون مستورة: فالفرض المسح، وحال تكون مكشوفة: فالفرض الغسل، ولهذا لم يأتِ مثله في اليدين؛ لأن اليدين ما فيهما مسح، حتى إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام لما كانت عليه الجُبَّة الشامية، وصعب عليه أن يخرج يده من الكم، أخرج الكم من اليد، وأخرج يده من أسفل الجبة، وغسلها -عليه الصلاة والسلام- كما هو ثابت في الصحيح(٤)، إذن نأخذ من القراءتين: وجوب غسل الرِّجل إذا كانت مكشوفة، ومسحها إذا كانت مستورة، فيكون فيها

(١) رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥١٧١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠)، وأبوداود (٤٦٠٨)، وأحمد في مسنده (٣٦٥٥) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٤) صحيح البخاري (٥٤٦٣)، ومسلم (٢٧٤) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

إشارة إلى المسح على الخفين، وبناءً على ذلك هل الأفضل للابس الخفين أن يخلعهما ويغسل قدميه، أو أن يمسحهما؟

الثاني هو الأفضل ويدل له أن المغيرة بن شعبة هَمَّ أن يخلع خُفيَّ النبي عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: «دَعْهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ»(١)، فمسح عليهما.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب غسل الرِّجل إلى الكعب، لقوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، فهل نقول: إن الرِّجْلَ أو القدم إذا أطلق يكون لما دون الكعبين كما قلنا في اليدين؟

الجواب: نعم، وذلك أن الرِّجل عند الإطلاق حدُّها مفصل العقب ـ كما هو معلوم ـ أن قُطَّاع الطريق الذين تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف يُقطَعُون من مفصل العقب، ويبقى العقب غير مقطوع، وهنا إذا قلنا: إن الرجل إلى الكعبين دخل العقب، لأن الكعبين هما في العظمان الناتئان في أسفل الساق، وذهبت الرافضة إلى أن الكعبين هما العظمان الناتئان على ظهر القدم، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : (وقد خالفوا أهل السنة في تطهير الرجل من وجوه ثلاثة الوجه الأول: أنهم جعلوا حد التطهير إلى العظم الناتئ على ظهر القدم، الوجه الثاني: هو المسح دون الغسل، الوجه الثالث: أنهم أنكروا المسح على الخفين قالوا: لا يجوز المسح على الخفين) .

والعجيب أنهم أنكروا ذلك مع أن من جملة رواة المسح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إمام الأئمة عندهم، ومع ذلك خالفوه، على كل حال لسنا الآن في موضع نقاش مع هذا الرأي ولكن نقول: إن الكعبين هما العظمان الناتئان في أسفل الساق(٢).

١٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الترتيب، بين الأعضاء في الوضوء. ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ﴾ جواب للشرط، والجواب للشرط يكونُ مرتبًا في ذاته كما هو مرتبٌ على فعل الشرط: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾، فقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ

(١) هو نفسه الحديث السابق.

(٢) الرسول ﷺ منع عائشة من الطواف، لكن هل عائشة وصفية عليهما الوضوء أم عليهما الحيض، والحائض لا يرخص لها في البقاء في المسجد، ولهذا إذا اضطرت الحائض إلى أن تطوف، قلنا لها: طوفي ولكن تلجمي، حتى لا يتلوث المسجد بالدم، وطوفي للضرورة.

مسألة: يقولون إن رسول الله كان يذكر الله على كل أحيانه؟ ويستلزم من ذلك عند مس المصحف؟

الجواب: ذكر الله هنا عام، وهذا العموم إن سلمنا أن القرآن يدخل في مطلق الذكر، إن هذا العموم دل الدليل على أن القرآن لابد أن يمسه الإنسان وهو طاهر، ولكن المسألة ليست قراءة القرآن، المسألة هي مس المصحف، والرسول ﷺ يقرأ القرآن بلا مصحف، فالكلام هنا على مسألتين.

ولهذا نقول لمن ليس على وضوء: إذا أردت أن تقرأ من المصحف، فاجعل بينك وبينه حائلًا واقرأ.

وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مرتب على قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾، فإذا كان كذلك لزم أن يكون هذا الفعل المرتب على شيءٍ هو نفسه مرتبًا، هذا وجه.

الوجه الآخر: أن الله أدخل الممسوح بين المغسولات، ولا نعلم لهذا فائدة إلَّا الترتيب، وهو أن يكون تطهير الرأس في محله أي: بين غسل اليدين وغسل الرجلين، وهذا مأخوذ من الآية نفسها.

أما من السنة فقد قال النبي ﷺ حين أقبل على الصفا بعد الطواف وأراد السعي قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ الله بِهِ»[1] وفي لفظٍ غير صحيح قال: «ابدؤوا»[2] بلفظ الأمر، وهذا يدل على أن ما بدأ الله به، فهو أحق بالتقديم، وعلى هذا يكون دليل الترتيب من وجهين في الآية، ومن دليل منفصل من السنة.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الموالاة، وجهه: أن غسل هذه الأعضاء جاء مرتبًا على الشرط فلابد أن يكون أجزاء هذا الفعل المرتب على الشرط متوالية؛ لأن الشرط يعقبه المشروط، هذا وجه الدلالة من الآية.

أما من حيث النظر فيقال: إن الوضوءَ عبادة واحدة فإذا جَزَّأه لم يظهر كونه عبادة واحدة، لأنه لو غسل يده في الساعة الأولى وغسل وجهه في الساعة الثانية ومسح رأسه في الساعة الثالثة وغسل رجليه في الساعة الرابعة فإنه لا يتبين أن هذا عبادة واحدة، إذن لابد من الموالاة، ولكن كيف نَحُد الموالاة؟ من العلماء من قال: إننا لا نحدها بحد، ونقول: ما جرى العرف فيه أنه منفصل فقد فاتت فيه الموالاة، ومن لم يجرِ العرف أنه منفصل فهو متصل.

وحَدَّه بعض العلماء بحد آخر قد يكون أكثر انضباطًا، قال: حد الموالاة (ألا يجف العضو قبل غسل الذي بعده بزمن معتدل) وهذا هو المشهور من المذهب، وبناءً على ذلك لو أنه يبس العضو قبل أن يغسل الثاني في زمن معتدل لانقطعت الموالاة، وإذا انقطعت الموالاة وجب إعادة الوضوء من الأول.

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) قال العلامة الألباني رحمه الله تعالى في حجة النبي ﷺ (ص٥٨): (وأما الرواية الأخرى بلفظ: «ابدؤوا» بصيغة الأمر التي عند الدارقطني وغيره فهي شاذة ولذلك رغبت عنها قال العلامة ابن دقيق العيد في «الإلمام» (ق ٦/ ٢) بعد أن ذكر الرواية الأولى: «أبدأ» والثانية: «نبدأ»: والأكثرون في الرواية على هذا والمخرج للحديث واحد، ونقله عنه الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٢١٤) كما يأتي: مخرج الحديث واحد وقد اجتمع مالك وسفيان ويحيى بن سعيد القطان على رواية نبدأ «بالنون التي للجمع» قال الحافظ: «وهم أحفظ من الباقين».

يتفرع عن هذا والذي قبله، لو أنه توضأ مُنكِّسًا فبدأ بالرجلين ثم الرأس ثم الوجه، السؤال: هل يصح الوضوء أم لا؟

الجواب: إن كان عبثًا فغير صحيح، لا يصح أي عضو من الأعضاء، بل قد يكون خطرًا على دين المرء أن يعبث بشريعة الله، وإن كان نسيانًا أو جهلًا صح غسل الوجه فقط، ثم يُطَهِّر ما بعده هذا بالترتيب؛ لأنه إذا كان عابثًا فقد عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله فيكون مردودًا كله، وإن كان جاهلًا أو ناسيًا فإنه معفو عنه، وحينئذ نقول كأنك ابتدأت من الآن فغسلت الوجه فأكمل الباقي.

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة: غسل البدن كاملًا من الجنابة؛ لقوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

٢١- ومن فوائدها: أنه لا يُشترط في الغسل ترتيب، وأن الغسل لو بدأ من أسفل بدنه، أو من وسط بدنه، أو من أعلى بدنه، وعممه بالماء، كان ذلك مُجزيًا، لأن الله تعالى قال اطَّهروا، ولم يفصل، وقال بعض الناس: بل يجب الغسل كما اغتسل النبي ﷺ، وقال: إن هذه الآية مجملة بينتها السنة النبوية، وعلى هذا فلابد أن يكون الاغتسال كاغتسال النبي ﷺ، وهذا كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ فبين الرسول ﷺ كيف إقامتها، وقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1]، ولكن هذا ضعيف، والصواب: أنه لا يشترط فيه الترتيب، ويدل لذلك أنه ثبت في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي لم يره النبي ﷺ يصلي بعد أن انتهى من صلاته؛ فسأله: «**لِمَاذَا لَمْ تُصَلِّ؟**»، قال: أصابتني جنابة، ولا ماء، يعني: ليس عندي ماء أغتسل به، فقال: «**عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ**»، ثم بعد ذلك جيء بالماء، وانتهى الناس من الشرب وسقي إبلهم، ثم قال النبي ﷺ حين بقي بقية قال لهذا الرجل: «**خُذْ هَذَا فَأَفْرِغْهُ عَلَى نَفْسِكَ**»[2] فأخذه الرجل واغتسل، ووجه الدلالة أن النبي ﷺ لم يذكر له كيف يغتسل، قال: «**أَفْرِغْهُ عَلَى نَفْسِكَ**» وعلى هذا يكون هذا الحديث موافقًا لظاهر القرآن وهو أن الواجب في الغسل أن يعمَّ الماء البدن على أي كيفية كانت، لكن لا شك أن اتباع السنة أولى.

فإن قال قائل: إذا انغمس الرجل في بركة، أو في بحر، ناويًا رفع الحدث من الجنابة، ثم خرج، فهل هذا يكفي؟

نقول: نعم يكفي، ولكن لابد من المضمضة والاستنشاق.

٢٢ - ومن فوائد هذه الآية: أنه لا تُشترط الموالاة في الغسل، فيجوز أن يغسل بعض بدنه

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥)، والشافعي في «مسنده» (٢٢٨)، والدارمي (١٢٥٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦٥٨)، والدارقطني (١) من حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣٣٧)، ومسلم (٦٨٢) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

في أول النهار، وبعض بدنه في آخر النهار، لأنه يصدق عليه أنه اطَّهَّر، وليس كالوضوء الذي رُتِّب على شرط؛ فصار لابد فيه من الموالاة، وهذا هو المشهور من المذهب، ولكن الراجح أنه لابد من الموالاة، وأنه لو غسل بعض جسده ثم ترك الباقي حتى نشف، فإنه لابد أن يعيد ما غسله أولًا، والتعليل: أنَّ هذه عبادة واحدة، فلابد من أن تتوالى أجزاؤها.

٢٣ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن غُسل الجنابة تُستباحُ به الصلاة، وأنه لا يجب الوضوءُ معه، ووجه الدلالة أن الله قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ولم يذكر وضوءًا حتى لو لم ينو إلا رفع الحدث الأكبر فإنه يجزئه، لعموم الآية، ولا شك أن المُغتسل إما أن ينوي رفع الحدثين أو ينوي رفع الحدث أو ينوي استباحة الصلاة. فإن نوى رفع الحدثين أجزأه ولا إشكال؛ لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]، وإن نوى استباحة الصلاة. أجزأه أيضا، وإن نوى استباحة الصلاة فلا شك أنه يرتفع الحدث الأصغر والأكبر، وجهه أن الصلاة لا تستباح إلا بذلك، وإن نوى رفع الحدث الأكبر فقط، فمن العلماء من قال: إنه لا يُجزئ عن الحدث الأصغر، ومنهم من قال: إنه يُجزئ وهو الراجح؛ لأن الله لم يذكر سوى ذلك.

٢٤ - **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: أن المرض من أسباب جواز التيمم؛ لقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ يعني: فتيمموا ولكن الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾، فظاهر الآية أن المريض لا يتيمَّم إلا إذا عُدِمَ الماء، فإما أن نأخذ بظاهر الآية ونقول: المريض لا يتيمم إلا إذا عَدِمَ الماء، وحينئذٍ يبقى التقييد بالمرض لا فائدة فيه ؛ لأن من لم يجد الماء يباح له التيمم سواء كان مريضًا أو غير مريض، فيقال ـ في الجواب والله أعلم ـ : إن قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يدل على أن المراد المريض الذي يلحقه الحرج من استعمال الماء، وأما التقييد بعدم وجود الماء فهو للمسافر، لأن المسافر لا يشق عليه استعمال الماء إذا وجده، ولا يلحقه حرج به، فيكون التيمم للمسافر مشروطًا بعدم وجود الماء، ويكون التيمم للمريض مشروطًا بوجود الحرج لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾.

٢٥ - **ومنها**: أن الدين يسر سواء من أصل المشروعات الشرعية أو إذا طرأ مُوجِب، سواء كان من أصل المشروعات أو إذا وُجد سبب للرخصة؛ لأن المشقة تجلب التيسير لكنها لا تُسقِط الواجب إلا في حدود الشرع.

٢٦ - **ومنها**: أنه لا يجب التَّطهُّر بغير الماء، يعني: لو كان مع الإنسان نبيذ أو شاي مثلًا أو لبن، فإنه لا يتطهر به فإنَّه لا يجب عليه؛ لأن الله جعل آية الطهارة في الماء فقط.

- **ومنها**: أن الماء ما دام يُطلق عليه اسم الماء فإنه مطهر ولو تغير بشيء طاهر؛ لعموم الآية: ﴿فَلَمْ

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تَجِـدُواْ مَآءً﴾ وجاءت ماء نكرة في سياق النفي، فما دام اسم الماء باقيًا فإنه يجب التطهر به ولو مع التغيُّر.

٢٨ - **ومنها**: وجوب طلب الماء، لقوله: ﴿فَلَمۡ تَجِـدُواْ مَآءً﴾ قال العلماء: ولا يُقال لم يجد إلا لمن طلب، فيقول: طلبت فلم أجد، أما الإنسان القاعد ويقول: لم أجد فهذا غير صحيح ولكن كيف يكون هذا الطلب؟ هل يجب عليه أن يطلب الماء من مسافات بعيدة، أو بقدر ما لا يكون فيه مشقة؟ الجواب: الثاني، يعني يجب عليه أن يطلب الماء من الأماكن القريبة منه التي لا يلحقه حرج بطلب الماء فيها.

فإن قال قائل: لو كان في أرض ولا يعلم أن حوله ماء ثم وجد الماء بعد الصلاة قريبًا منه، أيعيد أم لا؟

نقول: إذا كان يعلم أنه لا ماء فيها وأن الماء حدث من بُعدٍ، كأرضٍ مثلًا حُفر فيها ارتوازي بعد خبرته، فهذا لا يعيد لأنه جاهل.

أما إذا كان لم يطلب ثم وجد الماء بعد صلاته فهذا عليه الإعادة؛ وذلك لأنه مُفرِّط حيث لم يطلب والله عز وجل يقول: ﴿فَلَمۡ تَجِـدُواْ مَآءً﴾.

٢٩ - **ومنها**: جواز التيمم على ظهر الأرض أيًا كان، لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا﴾ سواء كان الصعيد رمليًّا أو حجريًّا، أو سَبِخة، أو يابسًا، أو رَطبًا ـ يعني نَدِيًّا ـ، المهم أن يسمى صعيدًا.

٣٠ - **ومنها**: أنه لا يَنقُض الوضوء إلا الغائط، سواء ببول أو بعذرة، لقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ ولم يذكر سوى ذلك، ولهذا لم يُجمِع العلماء على نواقض الوضوء إلَّا على هذا، أي ما خرج من السبيلين القُبُل أو الدُّبر، وما عدا ذلك ففيه خلاف، كل النواقض ما عدا هذا فيها خلاف.

وعليه فنقول القرآن دلَّ على ناقض واحد من نواقض الوضوء وهو الخارج من السبيلين من بول أو غائط، والبقية تحتاج إلى دليل، فإن وُجد دليل من السنة أخذنا به، وإن لم يوجد فالأصل بقاء الوضوء؛ لأن الإنسان توضأ بمقتضى دليل شرعي، وارتفع حدثه بمقتضى دليل شرعي فلا يمكن أن ننقض هذا إلا بدليل شرعي.

فلننظر من العلماء من قال: في الآية دليل على أن مس المرأة ينقُض الوضوء، لقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفي قراءة: ﴿أو لَمَسۡتُم﴾، ولكن سبق بالتفسير أن قلنا: إن القول الراجح أن المراد بالملامسة: الجماع[1]، وبيَّنا وجه ذلك فيما سبق، أثرًا ونظرًا.

نتظر الآن إلى بقية النواقض: الخارج من السبيلين عرفنا أنه ناقض من نواقض الوضوء، وأما

(١) انظر «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٢٣ و ٢٢٤)، و«الدر المنثور» (٢/ ٥٥٠).

الخارج من بقية البدن لا ينقض الوضوء، كالدم وما تفرع منه، والقيء والعَرَقُ والريح وما أشبه ذلك كل هذا لا ينقض الوضوء، فإن ادعى أحدٌ أن شيئًا من هذا ينقض الوضوء، قلنا: هاتِ الدليل، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يُصابون بالجراح وكانوا يقيئون ومع ذلك ـ ولشدة دعاء الحاجة إلى بيانه ـ لم يرد عن النبي ﷺ على وجه يثبت أن ذلك ناقض الوضوء، وعلى هذا فلا ناقض.

الثالث: ملامسة النساء من تقبيل أو مباشرة أو غير ذلك سوى الجماع، ليس في السنة ما يدل على أنه ناقض للوضوء، إلا إذا خرج شيء هذا يكون الناقض للخارج. وعلى هذا فلو أن إنسانًا قبَّل زوجته وهو على وضوء ولم يخرج منه شيء، فوضوؤه باقٍ بحاله.

الرابع: النوم، النوم أيضًا فيه خلاف، فيه خلاف يبلغ ثمانية أقوال. هل ينقض أو لا ينقض؟ والصحيح أنه ناقض، ولكن بشرط أن يكون مظنة الحدث، وهو النوم المستغرق، الذي لو أحدث الإنسان فيه لم يُحس بنفسه، وأما النوم اليسير الذي يتراءى للإنسان الأحلام ولكنه صاحٍ، لو أحدث لأحس، فهذا لا ينقض الوضوء، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ينتظرون العشاء الآخرة حتى تخفق رءوسهم ثم يصلون ولا يتوضئون، وأمر النبي ﷺ من نعس في صلاته أن ينصرف؛ لأنه لا يدري أيدعو لنفسه أم يدعو عليها ـ أو كما قال ﷺ ـ. فَدَلَّ ذلك على أن النوم اليسير لا ينقض الوضوء.

ولكن ما هو النوم اليسير؟

النوم اليسير: هو الذي لو أحدث الإنسان حال نومه لأحس بنفسه، ولا فرق بين أن يكون مضطجعًا أو متكئًا أو جالسًا أو قائمًا أو راكعًا.

الخامس: أكل لحم الجزور: فيه خلاف، والنقض فيه من مفردات الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، والأئمة الثلاثة كلهم على خلافه، لكن الرجوع إلى الدليل هو الحاكم.

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ» وأنه سُئِل النبي ﷺ: «أَنَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الإِبْلِ؟» قال: «نَعَم»، وسئل عن الوضوء من لحوم الغنم قال: «إن شئتم»[1]. وهذا يدل على وجوب الوضوء من لحم الإبل. والدليل أنه خَيَّر بين الوضوء وتركه في أكل لحم الغنم، وقال في لحم الإبل: «نَعَم تَوَضَّأْ»، فإذا خَيَّر في لحم الغنم دلَّ على أن لحم الإبل لا خيار فيه وأنه لابد أن يُتوضأ منه، ولا فرق بين أن يكون نيئًا أو مطبوخًا.

فإذا قال قائل: إنه قد ورد عن النبي – عليه الصلاة والسلام– فيما رواه أهل السنن من حديث جابر رضي الله عنه، أن آخر الأمرين من رسول الله ﷺ هو ترك الوضوء مما مَسَّت النار[2]. و(ما) اسم

---

(١) رواه مسلم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٩٢)، والنسائي (١٨٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١١٣٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٨٥).

موصول يشمل لحم الإبل وغيره، فالجواب: أن هذا عام ولحم الإبل خاص ومعلوم أن الخاص يقضي على العام، وإنما قال جابر ذلك؛ لأن النبي ﷺ أمر أولًا أن يَتوضأ الإنسان إذا أكل ما مَسَّتْهُ النار حتى الخبزة إذا أكلها يتوضأ منها، ثم بعد ذلك نُسِخَ هذا الأمر وصار الوضوء مما مست النار ليس بواجب.

الخامس: مس الفرج: ومس الفرج فيه خلاف بين العلماء، واختلفت فيه الأحاديث، ففي بعضها الأمر بالوضوء، وفي بعضها ألا وضوء منه، وعلل النبي ﷺ عدم الوضوء منه بأنه بَضْعَةٌ منك، لَّما سئل عن الرجل يمس الذكر هل عليه الوضوء؟ قال: «لا، إنما هو بَضْعةٌ مِنْكَ»[1] والبضعة يعني: الجزء، ومعلوم أن الإنسان إذا مسَّ جزءًا منه لا ينتقض وضوؤه، لو مس رأسه أو رجله، فكذلك إذا مسَّ ذكره، فكلها أعضاء، وهذا التعليل تعليل بعلة ثابتة لا يمكن أن تتغير، لأنه لا يمكن أن يكون ذكر الإنسان غير بضعة منه، فهو لا يتغير، وإذا كانت العلة لا يمكن أن تتغير صار الحكم لا يمكن أن يتغير.

ثم إن العلة هنا خبر من الرسول ﷺ وهي علة منصوصة بلفظ الخبر، والخبر لا يمكن أن يتخلف، وعلى هذا فلا وضوء من مسِّ الذكر، لكن قد ورد عن النبي ﷺ من حديث آخر، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ»[2] وهذا عام، فيقال: هذا الحديث عام وإن شئت فقل: مطلق، وإذا كان وجب أن يُحمل على معنى لا ينافي الحديث الأول وهو: إذا مس الإنسان ذكره كما يَمس بقية أعضائه فإنه لا وضوء عليه؛ لأنه بضعة منه، أما إذا مسَّ للمعنى الذي يختص بالذكر وهو الشهوة فعليه الوضوء، لأنه في هذه الحال ليس مسُّه كمسِّ بضعة من الإنسان بل مسه المسّ الذي يختص بالذكر وهو الشهوة؛ ولأنه مظنة الحدث؛ لأن الإنسان قد يمذي بدون أن يشعر بذلك، فألحقت المظنة باليقين.

وعليه فيكون الراجح في هذه المسألة: أن من مسَّ ذكره لشهوة انتقض وضوؤه ووجب عليه الوضوء، ومن مسه لغير شهوة فلا وضوء عليه، وهذا أعدل الأقوال وفيه الجمع بين الأقوال أيضًا، لأنك لو قلت: لا وضوء وافقت قول من يقول: لا وضوء فيه مطلقًا، وإن قلت فيه بالوضوء وافقت قول من يقول: إن فيه الوضوء مطلقًا، ولكن هذا التفصيل هو التحصيل.

السادس: تغسيل الميت: لا دليل عليه، وحديثه ضعيف ولا دليل على أنه ناقض للوضوء، وعلى هذا فلا يكون ناقضًا للوضوء، حتى لو قلنا: إن الميت له عورة فإنه لا ينتقض وضوء غاسله.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٦٥)، وأحمد في مسنده (١٦٣٢٩) من حديث طلق بن علي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣٢٠).

(٢) صحيح: رواه أبوداود (١٨١)، والترمذي (٨٢)، والنسائي (٤٤٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣٣٤) من حديث بسرة بنت صفوان رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٥٤).

وكذلك حمل الجنازة غير ناقض للوضوء ولا أظن أحدًا قال به.

سابعًا: **الردة**: الردة في الواقع تحبط الأعمال كلها، ولكن الله اشترط في حبوط العمل بها أن يموت الإنسان على الكفر، لكن إذا قلنا بأنه يجب على من أسلم أن يغتسل صار الوضوء واجبًا من هذه الناحية ووجوب الاغتسال لمن أسلم فيه خلاف أيضًا، وربما يُذْكَر في مكان آخر.

٣١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن التيممَ جائز في الحدث الأصغر، وفي الحدث الأكبر؛ لأن الآية واضحة: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ ذكر الله التيمم بعد الوضوء وبعد الغسل من الجنابة، فيكون في ذلك دليل على أن مَن عليه غسل الجنابة إذا لم يجد الماء فإنه يتيمم ويصلي وهذه المسألة صار فيها خلاف قديم، حتى إن عمر رضي الله عنه أنكر على عمار بن ياسر الإفتاء بجواز التيمم للجنب، وكان يرى - أي عمر - أن من عليه جنابة ينتظر حتى يصل إلى الماء ثم يغتسل، ولكن عمار بن ياسر رضي الله عنه ذكَّره أن النبي ﷺ بعثه هو وعمر في حاجة، وأن عمار بن ياسر أجنب فتمرغ في الصعيد كما تتمرغ الدابة؛ ظنًّا منه رضي الله عنه أن طهارة التيمم كطهارة الماء، ومعلوم أن الجنب يجب عليه في طهارة الماء أن يعم بدنه، فظن أن الطهارة بالتراب كذلك، فتمرغ في التراب ثم لمَّا قدم إلى النبي ﷺ أخبره، فأخبره النبي ﷺ أنه يكفيه أن يمسح وجهه ويديه[1]، ثم قال عمار: (يا أمير المؤمنين، إن شئت ألا أحدث به لما أوجب الله عليَّ من طاعتك فعلت)، قال: (لا نوليك ما توليت) - يعني فحدث به - فجعل يحدِّث به.

ثم إن الأمة أجمعت بعد ذلك على أن التيمم يكون في الجنابة ويكون في الحدث الأصغر.

مسألة: إذا كان المريض لا يستطيع أن يغتسل فهل يلزمه الوضوء؟ وإذا كان أيضًا عادم الماء وهو عليه جنابة ولم يجد إلا ماء يكفي لوضوئه فهل يتوضأ؟

الجواب: الظاهر نعم، لأنه لا شك أن الوضوء يخفف الجنابة، ولهذا قال النبي ﷺ في الرجل ينام وهو جنب، قال: «نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ»[2]، وكان أيضًا الجنب إذا أراد الجلوس في المسجد يتوضأ.

٣٢ - من فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أنه ينبغي لقاضي الحاجة أن يستتر، حتى يتوارى عن الناس، ووجهه قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾، فإن هذا هو سنة الصحابة رضي الله عنهم وفي حياة نبيهم ﷺ فيكون هذا دليلًا على أن من هديهم الاستتار عن الأعين، ولا شك أنه من كمال الأدب، ولكن ليس كون الإنسان أمام الناس إذا كان قد ستر عورته ليس هذا من الأمور المذمومة؛ لأنه فعله من هو أشد الناس حياءً، محمد رسول الله ﷺ حين أتى سباطة[3] قوم فبال

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠)، ومسلم (٣٦٨).

(٢) وهذا من فعل النبي ﷺ كما رواه البخاري (٢٨٤)، ومسلم (٣٠٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) السباطة هي ملقى القمامة والتراب ونحوهما تكون بفناء الدور مرفقا لأهلها قال الخطابي ويكون ذلك في

فيها[1] ﷺ قائمًا وكان حذيفة حوله.

٣٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الشرع في التطهير؛ حيث كان الاقتصار على أربعة أعضاء في الحدث الأصغر، لأن هذه الأعضاء هي غالبًا أدوات العمل، وآلات العمل، فالبطش باليد، والمشي بالرجل، والبصر والشم والكلام في الوجه، والسمع والتخيُّل والتفكير في الرأس، فشرع تطهير هذه الأعضاء الأربع، أما في الجنابة فشُرع أن يطهِّر الإنسان جميع بدنه، وذلك لأن الجنابة تخلخل البدن كله، ولهذا يَضْعُف الإنسان إذا حصلت منه الجنابة ويُؤمَرُ إذا أراد أن يعود أن يغتسل، فإن لم يمكن فليتوضأ، ويدل لهذا ـ أعني أن الجنابة تؤثر على جميع البدن ـ أن الرجل إذا زنا وهو محصَن فإنه يُرجَم بالحجارة حتى يموت من أجل أن يذوق جميع بدنه ألم العقوبة كما ذاق لذة الشهوة المحرَّمة.

٣٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التكنية عمَّا يُستقبح ذكره، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾، وقوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٣٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن التيمم جائز بجميع ما على الأرض سواء كان رملًا أم ترابًا أم حجرًا أم غير ذلك.

فإن قال قائل: ننازع في هذه الفائدة لقوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ و(من) تقتضي التبعيض ولا يمكن أن يعلق باليد شيء من الأرض إلا إذا كانت ترابية؟

قلنا: هذا الإيراد وارد لا شك وهو دليل من يقول إنه لابد أن يكون التيمم بأرض لها تراب، وأما التيمم على ما لا تراب فيه ولا غبار فيه فإنه لا يصح، لكن الجواب على هذا الإيراد هو أنه قد عُلِم بالضرورة أن الرسول ﷺ كان يسافر الأسفار الطويلة في أيام الشتاء وأيام الصيف وفي أسفاره يمر بالرمال، ويمر بالأرض المطورة ولم ينقل عنه أنه كان يحمل ترابًا معه ولا أنه كان لا يتيمم على مثل هذه الأراضي، وبهذا اندفع هذا الاعتراض، وسبق لنا أن قلنا في التفسير: إن (من) هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون للابتداء.

٣٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لابد أن يكون الصعيد الذي يتيمم منه طيبًا وهو الطاهر ضد النجس، ولكن ليس هناك صعيدٌ يكون نجسًا، بل لابد أن يكون مُتَنجِّسًا والمتنجس كالنجس، وعلى هذا فلا يصح التيمم على أرض متنجسة، لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

٣٧ - ومن فوائدها: وجوب استيعاب الوجه بالمسح في التيمم، لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ ومن ثم يجب أن ننبه بعض العامة الذين إذا تيمموا مسحوا الأنف وما حوله وتركوا الباقي فيقال:

الغالب سهلًا منثالًا يجد فيه البول ولا يرتد على البائل، قال ابن الأثير: وإضافتها إلى القوم إضافة تخصيص لا ملك لأنها كانت مواتًا مباحة.

(١) رواه البخاري (٢٢٢)، ومسلم (٢٧٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

هذا لا شك أنه لا يجزئ؛ لأن الآية صريحة في قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: كلها.

٣٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن اليد عند الإطلاق لا يدخل فيها الذراع؛ لقوله: ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ ووجه الدلالة: أن الله لما أراد تجاوز الكف قيّده، وذلك في طهارة الوضوء بالماء حيث قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾.

٣٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الترتيب في التيمم بين الوجه واليدين، فيبدأ أولًا بالوجه ثم باليدين، وهذا الترتيب مطابق لترتيب الوضوء.

فإن قال قائل: الواو لا تقتضي الترتيب بل هي لمطلق الجمع؟

قلنا: لكن تقتضيه بالقرينة، والقرينة هنا: أن الله تعالى بدأ بالوجه وقد قال النبي ﷺ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ الله بِهِ»[1].

٤٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: انتفاء الحرج في هذا الدين الإسلامي؛ لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من مشقة، فالدين الإسلامي - والحمد لله - كله مبنيٌّ على اليسر، وليس اليسر منوطًا بهوى كل إنسان؛ لأنه لو كان منوطًا بهوى كل إنسان لكان بعض الناس يشق عليه أن يقوم ليُصلي الفجر في الشتاء، ولكن المعنى أن كل ما شرعه الله فهو مُيسَّر ليس فيه مشقة.

٤١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ فأثبت الله تعالى لنفسه الإرادة بنفي إرادة الحرج وإثبات إرادة التطهير.

٤٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنّا إذا قلنا: إن الحرج منفي فهل معنى ذلك أن المشروع يرتفع بالكلية، أو يخفف فيه إمّا بذاته أو بالانتقال إلى بدله؟ الجواب: تارة ينتفي الحرج برفع المشروع بالكلية، وتارة بتخفيفه، وتارة بفعل بدله.

فهذه ثلاثة أقسام: إما أن يرتفع التكليف بهذا الشيء الذي فيه الحرج بالكلية، وإما أن يخفف، وإما أن يجعل له بدلًا.

فمثلًا: في كفّارة القتل إذا عجز الإنسان عن صيام شهرين متتابعين تسقط عنه، تُعفى بالكلية.

وفي القيام في الصلاة إذا عجز الإنسان عنه يُخفَّف فيصلي قاعدًا إذا لم يستطع أن يصلي قائمًا.

الثالث: أن يكون إلى بدل فالإنسان العاجز عن الصيام عجزًا مستمرًا لا يلزمه أن يصوم، لكن عليه البدل وهو إطعام مسكين عن كل يوم، فصار الأمر - والحمد لله - واسعًا.

وبناءً على هذه القاعدة التي أخذناها من كلام ربنا عز وجل نقول: إن من عجز عن الكفارات - أيًّا كانت الكفارة - وقت الوجوب فإنها تسقط عنه.

---

(١) سبق تخريجه.

وأما قول بعض العلماء: إنه لا يسقط عنه الكفارة عند العجز إلا كفارة الجماع في الحيض وكفارة الجماع في نهار رمضان فهذا الحصر لا دليل عليه، والصواب: أن جميع الكفارات إذا كان حين وجوبها الإنسان عاجزًا عنها فإنها تسقط، كما قلنا في الزكاة أنه إذا كان فقيرًا فإنه لا زكاة عليه ولو اغتنى هل نقول اقضِ عن السنوات التي مرت بعد التكليف؟ لا نقول بهذا.

٤٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سعة رحمة الله عز وجل؛ حيث نفى الحرج عن عباده. ولكن لو سَأَلَنا سائل: أليس يوجد في بني إسرائيل شيء من الحرج في عباداتهم؟ قلنا: بلى، ولكن ذلك بسببهم، فهم الذين تسببوا في ذلك قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء:١٦٠].

٤٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا: شرعية.

٤٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التيمم مطهِّر وليس بمبيح.

يرى بعض أهل العلم رحمهم الله أن التيمم يبيح ما كان محظورًا بدون الماء، يعني: يبيح الصلاة بدون ماء؛ لأن الأصل أن الصلاة بدون ماء حرام لكن إذا عُدِمَ الماء أو خِيف الضرر باستعماله وتيمم أبيحت الصلاة، فيرى بعض العلماء أن طهارة التيمم استباحة لما كان محظورًا، وبناءً على هذا لو تيمم لقراءة القرآن لم يُصلِّ نافلة؛ لأنَّ النافلة أعلى من قراءة القرآن، وإن شِئْتَ فقل: لأن وجوب الطهارة للنافلة أقوى من وجوب الطهارة لقراءة القرآن، بل الوضوء لقراءة القرآن سنة وليس بواجب ومس المصحف هو الذي تجب له الطهارة، ولو نوى صلاة نافلة لم يصلِّ بذلك فرضًا؛ لأن الفرض أعلى من النافلة، ولو خرج الوقت وهو على طهارته بَطُل تيممه؛ لأن الضرورة تقدر بقدرها وهذا الرجل لم يتيمم إلا للصلاة الحاضرة، والصلاة الحاضرة تنتهي بخروج وقتها.

ولكن هذا القول ضعيف، والصواب: أن التيمُّمَ مطهر، ودلالة ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن كتاب الله: فبعد أن ذكر الضوء، والغسل، والتيمم قال: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وقال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»(١) والطَّهور - بالفتح - ما تحصل به الطهارة، وعلى هذا فيكون التيمم مُطَهِّرًا رافعًا للحدث.

فإذا تيمم لقراءة القرآن يصلي به النافلة؛ لأنه قد تطهَّر، وإذا تَيَمَّمَ لصلاة النافلة يصلي به الفريضة، وإذا تيمم للصلاة وخرج وقتها يصلي به الصلاة الأخرى ما دام لم يَنتَقِض وضوؤه، وهلم جرًّا، وإذا تيمم عن الجنابة أول مرة كفاه فلا يتيمم بعد ذلك إلَّا عن الحدث الأصغر فقط؛ لأنه حين تيمم للجنابة، تطهَّر منها وارتفعت الجنابة، فلا حاجة إلى أن نقول: أعد التيمم من الجنابة كلما دخل وقت الصلاة، لأن الله تعالى سمى ذلك تطهيرًا، ولأن النبي ﷺ سمى الأرض طهورًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

بقي أن يقال: هل إذا قلنا إنه مطهر؟ هل هو مطهر طهارة مُقَيَّدة لوجود الماء، أو طهارة مطلقة بمعنى أنه لو وجد الماء فهو على طهارته، فلا يجب عليه استعمال الماء؟

الجواب: الأول، وعلى هذا إذا تيمَّمَ للجنابة، ثم وجد الماء وجب عليه الغسل، والدليل على هذا قصة الرجل الذي رآه النبي ﷺ بعد صلاة الفجر أو إحدى الصلوات فقال: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تُصَلِّيَ؟» فقال: أصابتني جنابة ولا ماء، قال: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّه يَكْفِيكَ»[1]، ثم جاء الماء بعد ذلك، فأمره أن يغتسل، مع أن الرجل تيمم وصلى، فأمره أن يغتسل.

الدليل الثاني: الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليتق الله وليمسه بشرته، إذن عندنا دليلان.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : إن الإجماع منعقد على ذلك، يعني: أن العلماء أجمعوا بأن من تيمم لعدم الماء، ثم وجد الماء فلا بد أن يتطهر به.

حينئذٍ تكون القاعدة (بأنه مطهر) فيها شيء من الاستثناء، ولكن هذا الاستثناء دَلَّ عليه النص والإجماع. ومعلوم أننا لا نقدم على النص شيئًا، لأننا قلنا: إنه مطهر بالنص، فإذا وجد الماء وقلنا لابد من استعماله فإنما قلنا ذلك بالنص، ونحن لا محيد لنا عما دَلَّ عليه الكتاب والسنة.

رجل تيمم لعدم الماء لصلاة الفجر، وبقي إلى العشاء، أيعيد التيمم عند وقت كل صلاة؟ ينبني على الخلاف، فإذا قلنا: إنَّهُ مطهر فلا يعيد، وإذا قلنا: إنه غير مطهر يعيد التيمم كلما خرج وقت الصلاة.

٤٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان لو تيمم ولبس خُفَّيه فهل يمسح عليهما؟

نقول: إن التيمم لا يتعلق به طهارة القدم ـ القدم ليس له دخل في التيمم ـ وقد قال النبي ﷺ للمغيرة «دَعْهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُما طَاهِرَتَيْنِ»[2] فدل هذا على أنه لا يُمسح خف إلا في طهارة تشمل القدمين، فالتعليل أن القدم لا تتعلق به طهارة التيمم، وحديث المغيرة يقول: «أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ».

إذن إذا كان الإنسان في البرِّ وليس عنده ماء، ولبس الخفين على غير طهارة، وجاء وقت الصلاة وتيمم هل نقول له اخلع الخفين؟ لا، لأن القدمين لا تتعلق بالتيمم.

٤٧ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الحكمة في شرع الله، وذلك في قوله:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا الذي دَلَّ عليه الكتاب والسنة من وجوه لا تُحصى، أن الله سبحانه وتعالى حكيم في كل ما يخلق وفي كل ما يشرع ويتفرع على هذه الفائدة: الاستسلام لقضاء الله الشرعي والكوني، ما دمت تعتقد أن هذا الحكم مبنيٌّ على حكمة سوف تستسلم. وتقول: ما دام لحكمة فإنَّا راضون، وكذلك لحكم الله الكوني إذا أراد الله الجدب، أو الفقر، أو المرض، أو كثرة الموت فإننا نعلم أن هذا لحكمة وليس عبثًا ولا لمجرد مشيئة بل هو لحكمة، وحينئذٍ نستسلم للقضاء الكوني والقضاء الشرعي.

ومن أهل البدع من نفى الحكمة، وقال: إن الله تعالى لا يفعل لحكمة ولا يشاء لحكمة، إنما هو مجرد مشيئة، ويأتي بشبهات، منها حديث عائشة رضي الله عنها: «**كُنَّا يُصيبُنَا ذَلِكَ - يعني الحَيْضُ - فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ**»(١)، ولكن يُقال: إن الأمر الشرعي عند المؤمنين حكمة، يعني: بمجرد أن نعرف أن الله شرعه نؤمن أنه لحكمة، فعائشة رضي الله عنها فوضت الحكمة إلى الله عز وجل؛ لأن هذا ما يؤمرون به، وكفى بذلك حكمة.

٤٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الطهارة بأقسامها الثلاثة الغسل والوضوء والتيمم، نعمة من الله عز وجل على العباد، لقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، ولا شك أنها نعمة ومن رأى فضائل الوضوء وما يكفر من الذنوب عرف نعمة الله عز وجل بهذا، وكذلك الغسل من الجنابة؛ ولاسيما في أيام الشتاء وأيام المشقة.

٤٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إذا قال قائل: ما هو الشكر؟ نقول: إن النبي ﷺ بينه في قوله: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ فَقَالَ تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ **وقال الله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾»(٢)، إذن: فالشكر هو العمل الصالح، ولا شك أن تفسير كلام الرسول ﷺ وكلام الله بعضه ببعض، أولى من أن نلتمس تفسيرات أخرى، لكن ذكرنا فيما سبق أن الشكر محله القلب واللسان والجوارح، ولا يكون إلَّا في مقابلة نعمة، وأما الحمد: فهو إما أن يكون في مقابلة نعمة، أو على كمال صفات المحمود. ويكون بالجوارح واللسان.

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، وأبوداود (٢٦٣)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥١٥٢) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٣٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⁽٧⁾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧، ٨]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنما أمر الله تعالى أن نذكر النعمة من أجل أن نعرف فضله علينا، حتى يسهل علينا الانقياد لطاعته؛ لأن أي إنسان فإنه بمقتضى فطرته وطبيعته لابد أن ينقاد لمن أحسن إليه، فيقول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: تذكروها.

وقوله: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ يعني: العهد الذي عاهدتم به وهو قوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فإن قول المؤمن: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني: التزامه بكل الشريعة، بدون تفريق بين ما يكون مما يهواه قلبه أو مما لا يهواه، وقوله: ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: ما يقال، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: فيما يأمر وينهى، فيتضمن تصديق الخبر وامتثال الأمر واجتناب النهي.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتق وقاية منه جل وعلا، وذلك بفعل أوامره وترك نواهيه على علم وبصيرة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة هذه تعليل تتضمن التهديد، يعني: لابد أن تكون التقوى مبنية على صلاح القلب، وليست مجرد قول باللسان، بل لابد أن تكون تقوى الإنسان في قلبه وجوارحه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بصاحبة الصدور، وصاحبة الصدور هي: القلوب.

واعلم أن كلمة (ذات) تطلق في اللغة العربية على عدة معانٍ، منها أنها تطلق على الاسم الموصول في لغة طيِّئ كما قال ابن مالك:

وكالتي أيضًا لديهن ذات[1]

فلغة طيِّئ يقولون في: (جاءت المرأة التي أطاعت الله)، يقولون: جاءت المرأة ذات أطاعت الله. فهي عندهم بمعنى: التي.

---

(١) شرح ابن عقيل (١/ ١٤٦).

وتطلق على الجهة مثل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] أي: الجهة أو الصلة التي بينكم، وتطلق بمعنى: صاحبة، يعني: ذات الصدور صاحبة الصدور، ولا تطلق على النفس إلا في اصطلاح المتكلمين فإنهم يطلقون الذات على النفس، أي: على ما يقابل الصفة، ولهذا توجد في كلام الذين يتكلمون في العقائد، لأنهم كثيرًا ما يقولون الذات والصفات، يعبرون بالذات عن النفس، كقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨] وإذا أردنا أن نفسره على حسب اصطلاح المتكلمين، نقول نفسه أي: ذاته، وليست نفس الله عز وجل صفة سوى الذات بل هي الذات نفسها، كقول بعض أهل العقائد: (ونثبت لله نفسًا) قد يفهم منها بعض الناس، أن النفس صفة زائدة على الذات وليست كذلك، ولكن يريدون أننا نصف الله بالنفس فقط، ولكنها ليس هي صفة مستقلة بل هي الذات نفسها، فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، كقوله تمامًا: يحذركم الله الله، فالله عز وجل له نفس، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] يعني: ما عندك وما عندي فليتنبه لهذا؛ لأن بعض الناس إذا قرأ في كتب العقائد: (نثبت لله نفسًا)، يظن ذلك أنها صفة زائدة على الذات وليست كذلك.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من المشروع أن يذكر الإنسان نعمة الله، وهل ذلك من الواجب أم من المستحب؟ في ذلك تفصيل: إن أدى عدم ذكرها إلى نسيان الواجب كان ذكرها واجبًا، مثل أن يرى نفسه قد شطحت وأُبعِدَتْ عن فعل المأمور وترك المحظور، فليذكرها نعمة الله، يقول مثلًا: اذكري أيتها النفس نعمة الله عليك في العافية وفي الصحة وفي إرسال الرسل وإنزال الكتب وفي بيان الحق وما أشبه ذلك.

٢- **ومنها:** إثبات أن لله تعالى علينا نعمة، وهو أمر لا يحتاج إلى برهان، ولكن هل النعمة تكون للمؤمن والكافر أم للمؤمن وحده؟ نقول: أما النعمة العامة التي يشترك فيها البهائم والإنسان فهي للمؤمن والكافر، فالكافر يتمتع بنعمة الأكل كما تتمتع البهيمة، وأما النعمة الخاصة التي هي نعمة الله تعالى على العبد بالإيمان والعلم فهذه خاصة للمؤمن، فإذا سألك سائل: هل لله على الكافر نعمة؟ فقل: في ذلك تفصيل، أما النعمة العامة فنعم قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، وأما الخاصة، فإنه لا يدخل فيها الكافر؛ لأنها خاصة بالمؤمنين.

٣- **ومنها:** أنه يجب على الإنسان أن يذكر الميثاق الذي واثق الله عليه؛ وهو العهد بالسمع والطاعة. فإذا قال قائل: نحن لا نذكر هذا الميثاق. قلنا: إن الميثاق يكون عقده بالقول ويكون بالفعل، أما القول فإننا لا نستحضره، حتى لو صح حديث (أن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأخذ عليهم العهد والميثاق)، وأما الفعل فنعم هو ثابت، وذلك بما فطر الله عليه الإنسان من

التوحيد والاعتراف بالله عز وجل، وكذلك أيضًا بما أعطاه من العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، وبين والصدق والكذب. وهذا ميثاق بالفعل، يعني: أنت لا تستحضر أنك عاهدت الله عز وجل بالقول، ولكن بما أعطاك من العقل والفطرة إذنْ صار ذلك عهدًا.

٤- **ومنها:** أن السمع المجرد لا يغني شيئًا، لابد أن يكون سمعًا واستجابة؛ فأما مجرد السمع فلا، وذلك لقوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، نفى الله عز وجل عنهم السمع؛ لأنهم لم يأتوا بفائدة السمع؛ وهي الطاعة، فعلى هذا لا يكفي مجرد السماع بل السماع حجة على العبد، فعليه عند السماع أن يمتثل.

٥- **ومنها:** فضيلة التقوى وأنها مبنية على تذكُّر العهد والميثاق، لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وقد قلنا إن أجمع كلمة في معنى التقوى هي: (اتخاذ وقاية من عذاب الله تعالى، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، على علم وبصيرة).

٦- **ومنها:** تهديد من خرج عن التقوى بقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٧- **ومنها:** أن التقوى محلها القلب لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني: فاجعلوا مدار التقوى على القلوب. ولهذا قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1] نسأل الله أن يُصلح قلوبنا جميعًا.

٨ - **ومنها:** عموم علم الله، وأنه شامل لما ظهر وبطن ووجه الدلالة من الآية: عموم العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فأخبرنا أنه كان عالمًا بالظاهر والباطن.

ثم قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

أولًا في الآية قراءتان من ﴿شَنَـَٔانُ﴾: قراءة بالسكون ﴿شنْئان﴾ وقراءة الفتح ﴿شَنَـَٔانُ﴾، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن سبب قراءة السكون هو التخفيف؛ لأن ﴿شنْئان﴾ فيها شيء من الثقل لتوالي الحركتين، فإذا كانت ﴿شَنَـَٔانُ﴾ صار ذلك أخف، على كل حال التعليل هذا تعليل لما وقع لا لما سيقع، بمعنى ليس لنا أن نتصرف ونختار اللفظ الأسهل على اللسان، لكن نعلل ما وقع من قراءة، وذلك لأن القراءة توقيفية، فعلى هذا نقول فيها: ﴿شنْئان﴾ و﴿شَنَـَٔانُ﴾.

يقول عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وسبق لنا مرارًا بيان هذه الصياغة وبيان ما يترتب عليها.

وقوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ كونوا: أمر بأن نكون، وهذا أمر شرعي،

---

(١) رواه البارى (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﵁.

﴿قَوَّٰمِينَ﴾ أي: ذوي قيام، وإنما قلت ذلك لئلا يُقال: إن الأمر في كثرة القيام وليس في القيام أصله، فنقول: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ هنا التشديد فيها للنسبة، وليست للكثرة، ويحتمل أن يجعلها للكثرة لاختبار كثرة المخاطبين، فإذا كانوا أمةً، فقام واحد بهذا وواحد بهذا صار المجموع كثيرًا، فصار قوامًا، على كل حال إن جعلت فَعَّالًا للكثرة فهي باعتبار المجموع إذا كان كل واحد قائمًا بالقسط وهم أمة صَحَّ أن يقال: قوامين، وإن جعلتها للمبالغة فهي للنسبة، أي: كونوا ذوي قيام.

وقوله: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ اللام هنا إشارة إلى الإخلاص، أي: اجعلوا قيامكم بالقسط أي: بالعدل لله عز وجل لا تخشوا في ذلك أحدًا ولا تحابوا بذلك أحدا.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ شهداء نقول في إعرابها، يجوز أن تكون حالًا من فاعل قوامين، أي: قوامين حال كونكم شهداء، ويجوز أن تكون خبرًا ثانيًا لكان؛ لأن تعدد الخبر جائز، قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] كم خبر هنا؟ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ أربعة.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ جمع شهيد أو جمع شاهد، المعنى: أنكم إذا شهدتم فاشهدوا بالعدل، بالقسط أي: بالعدل، وقد جاء في الحديث: «المُقْسِطُوْنَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ لا يجرمنكم أي: لا يحملنكم، ﴿شَنَـَٔانُ﴾ أي: بُغْضُ، ﴿قَوْمٍ﴾: هم الجماعة من الناس، فإذا قيل: قوم وذكر معهم النساء فالقوم للرجال، والنساء للإناث، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ وإذا ذُكر قوم وحدها صار شاملًا للرجال والنساء، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩] يعني: الذكور والإناث.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ولا: هنا نافية، وتعدلوا: فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون، والمصدر المؤول (أَلَّا تَعْدِلُوا) في محل جر على تقدير (عدم العدل)، أي: لا يحملكم بغضهم على عدم العدل وهو الجورُ، ثم قال: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ حتى فيمن تبغض ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ أي: قولوا بالعدل، والعدل: هو إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، هذا هو العدل، والعدل مفهوم من الفعلِ الذي هو ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾؛ لأن مرجع الضمير، قد يكون منصوصًا عليه بلفظه، وقد يكون بلفظٍ دالٍّ عليه، هنا دل على أن الفعل مشتق من العدل فيكون (هو) أي: العدل الذي أُمرتم به ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ولم يقل هو التقوى بل قال: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ وذلك لأن العدل قد يحمل عليه مخافة الله فيكون تقوى، وقد تحمل عليه محبة الثناء عند الناس فلا يكون

(١) رواه الحميدي في مسنده (٥٨٨)، وأحمد في مسنده (٦٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

تقوى، ولهذا جاء في الآية الكريمة: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بعد أن أمر أن نكون قوامين، ونهى أن يحملنا البغض على ترك العدل، ثم أمر بالعدل وبعدها قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذا كالطابع على ما سبق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الجملة هذه نقول فيها مثلما قلنا فيما سبق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، يعني: إنها جملة تتضمن التهديد بمخالفة التقوى، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ قالوا: إن الخبير أدق من العليم، لأنها من الخُبْر وهو العلم ببواطن الأمر، ولذلك سُمِّي الزَّرَّاع خبيرًا، وسميت المزارعة مُخابرة، لأنه يَدُس الحب في الأرض فيختفي. فالخبير هو العليم بخفايا الأمور، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي تعملونه من قولٍ أو فعلٍ. وفائدة ذكر الله لهذا هو أن نستقيم على أمره؛ لأننا لو خالفنا أمره لكان عالـمًا بنا سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** وجوب الإخلاص لله عز وجل في الشهادة لقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، واعلم أنك إذا كنت مخلصًا له في الشهادة فإنك لن تحابي قريبًا، ولا صديقًا، ولن يحملك بغضك لشخص على ألَّا تشهد له ما دمت مخلصًا لله تعالى في الشهادة.

٢ – **ومنها:** أن الواجب على الإنسان أن يشهد بالقسط وبالعدل، حتى ولو كان المشهود عليه قريبك: أباك أو أخاك أو عمك؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، ولا يعد شهادة الإنسان على أبيه وأمه عقوقًا، بل هو بر لأنك إذا شهدت عليهما منعتهما من الظلم وقد جعل النبي ﷺ منع الظالم من ظلمه نصرًا للظالم فقال: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فقالوا: يا رسول الله هذا المظلوم فكيف ننصر الظالم؟! قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

٣- **ومنها:** وجوب الشهادة بالقسط ولو كنت كارهًا؛ لأن بعض الناس قد يحمله كراهة الشخص أو كراهة أن يتضرر الشخص، على كتمان الشهادة، فتجده مع نفسه في صراع، هل يشهد أو لا يشهد؟ فالواجب: ألا يحملك قرب قريب أو بغض بعيد على ألَّا تشهد، بل اشهد بالعدل.

٤- **ومنها:** أن تعبير القرآن الكريم بالعدل يدل على بطلان قول من يقول: إن الدين الإسلامي دين المساواة، هذا على إطلاقه فيه نظر؛ لأنهم يريدون بهذا ألَّا يفرقوا بين الرجل والمرأة، ويريدون بهذا أيضًا ألَّا يُفَرِّقوا بين المسلم والكافر، ويريدون بهذا ألا يفرقوا بين البر والفاجر والله تعالى قد أنكر هذا إنكارًا عظيمًا قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس:٣٥، ٣٦] ما هذا

(١) رواه البخاري (٢٣١٢)، والترمذي (٢٢٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

الحكم؟! ما الذي حملكم عليه كيف تحكمون الحكم؟! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:٩] وإذا تدبرت القرآن وجدت نفي المساواة في أكثر من موضع، وأن الذي في القرآن هو العدل، وهو إعطاء كل ذي حقٍّ ما يستحقه، ولذلك العبارة السليمة أن تقول: الدين الإسلامي دين العدل، وهو الذي أمر به الله فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠].

نعم إذا اتفق الناس في الحقوق صَحَّ أن نقول: إنه دين مساواة، وإذا اجتمعوا في سبب الحكم وغاياته حينئذٍ نقول: إنه دين مساواة، فإذا سرق الشريف وسرق الوضيع، هنا نقول: لا بأس أنه لا يفرق بين الشريف والوضيع وأنه يُسوي بينهما؛ لأن التسوية هنا عدل. وعلى هذا فنقول: إذا كانت المساواة هي العدل فنعم، أما المساواة التي يرمي إليها هؤلاء فهذا ليس بصحيح.

فالدين يفرق تمامًا في كل موطنٍ تكون الحكمة فيه هي التفريق. لهذا يجب على طلبة العلم إذا رأوا بعض كتب المحدثين المعاصرين يقولون: الدين الإسلامي دين مساواة، قل قف من قال هذا؟ هات آية واحدة في إثبات التسوية، وأنا آتي لك بآيات كثيرة تنفي التسوية، لكن بدلًا من أن تقول هكذا، هات التي ترد على القلب وأورد الماء البارد على الكبد العطشان، وهي العدل.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وأن العدل أقرب للتقوى، وهو صريح.

٦ - **ومنها**: أن الأعمال الصالحة منها ما يبعد عن التقوى ومنها ما يقرب، وينبني على ذلك تفاضل الأعمال، وتفاضل الأعمال قد دَلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل، وأن الأعمال تتفاوت، والعمال يتفاوتون أيضًا، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠] مع أنهم كلهم صحابة لكن لا يستوون.

حتى قال النبي ﷺ لخالد بن الوليد حين حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ما حصل قال: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مِثْلَ مُدِّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»**[1] هذا يكون بين صحابي وآخر، فكيف بمن بعدهم.

كذلك أيضًا اختلاف الأعمال قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥] وهلم جرًّا، فالأعمال تتفاضل، وأقول: يلزم من تفاضل العمل تفاضل العامل.

وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن الأعمال تتفاضل، والعمال يتفاضلون، والإيمان يزيد وينقص.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضيلة التقوى، انظر كيف يكرر الله عز وجل

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

التقوى في آيات كثيرة! لأنها في الحقيقة عليها مدار الإسلام، إذا اتقى الإنسان ربه فسوف يقوم بدين الله تعالى على ما يرضي الله .

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد من خالف تقوى الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة علم الله، وأنه سبحانه وتعالى عالم ببواطن الأمور، وقد قال الله عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وَفَسَّر النبي ﷺ الباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، فما دون الله شيء، فكل شيء يراه، وكل شيء يعلمه، وكل شيء يقدر عليه، وكل شيء في قبضته، وهذا قريب من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن خبرة الله شاملة للعمل، واعلم بأنه إذا قيل العمل فإنه يشمل القول والفعل. فالقول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح، ولكن يطلق الفعل غالبًا على عمل الجوارح فقط، أما العمل فيطلق على هذا وهذا، ولهذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العقيدة الواسطية» ـ تلك العقيدة المباركة ـ قال: إن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب اللسان، وعمل القلب اللسان والجوارح، فجعل للقلب عملًا وله قولًا، وهو كذلك، فقول القلب: هو إقراره، وتصديقه، وإيمانه، وفعله: رجاؤه، وخوفه، وتوكُّله، وما أشبه ذلك، فهو فيه نوع حركة قلبية.

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٩ - ١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾:

وعد: يقال: وعد ويقال أوعد، أوعد في الشر، ووعد في الخير، وبنوا عليه قول الشاعر:

وَإِنِّـــي وَإِنْ أَوْعَدْتُـــهُ أَوْ وَعَدْتُـــهُ لمخْلِـفُ إِيعَـادِي وَمُنجِـزٌ مَوْعِـدِيْ[١]

فقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ لأنها في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لكن هذا الذي قاله بعض أهل العلم قد يُنازع فيه، لأن الله تعالى ذكر الوعد في العقوبة، فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهذا مما يدل على أن الوعد يأتي في الخير ويأتي في الشر.

فإن قيل: ألا يحمل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ على السخرية والاستهزاء مثل قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؟ قلنا: إنه جاء في القرآن لفظ (وعد) في الخير والشر مطرد، وليس في القرآن (أوعد)، وإلا لكان يحمل على السخرية والاستهزاء هنا.

وقوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: بما يجب الإيمان به، وبيَّن النبي ﷺ أن الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره[٢].

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، فالصالحات إذن صفة لمحذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، ويكون العمل صالحًا إذا تضمن أمرين: الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لشريعة الله سواء كان من أمة محمد أو من الأمم السابقة.

والأدلة على ذلك كثيرة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُه إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ...»[٣] والنصوص في ذلك كثيرة، أما المتابعة، فلأن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٤] أي عمل ليس عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على صاحبه.

ولا تتحقق المتابعة إلَّا إذا وافق العملُ الشريعةَ في أمور ستة:

الأول: السبب.

الثاني: الجنس.

الثالث: الكيفية (أو النوع).

الرابع: القدر.

الخامس: المكان.

---

(١) الكشكول (١/ ١٥٤).

(٢) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، وأحمد في «مسنده» (١٩١) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

السادس: الزمان.

فمن تعبَّد لله عبادةً علَّقها بسبب لم يجعله الله ورسوله سببًا فالعبادة باطلة وهي بدعة مردودة، ومثال ذلك: أن يقول المرء كلما لبس ثوبًا: اللهم صلِّ على محمد، فقيل له لماذا؟ فقال: أتذكر لبس النبي ﷺ للثوب فأصلي عليه. فنقول له هذه العبادة بدعة؛ لأنها لم ترد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه.

ولابد أن يكون أيضًا موافقًا للشرع في جنس العبادة، فإن تعبد لله بما لم يشرع جنسه فالعبادة مردودة عليه، ومثال ذلك أن يضحي بفرس بدلًا عن البقرة مثلًا، نقول هذه الأضحية غير مقبولة لأنها ليست من جنس ما شرع الله ورسوله، فلا تقبل.

وأما الكيفية: وهو أخص من الجنس فمن تعبد لله عز وجل بعبادة لم يُشرع نوعها فإنها لا تقبل، كما لو أحدث أذكارًا مشروعة من حيث الجنس لكنها على نوع آخر فإنها لا تقبل لقول الرسول ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١). وكما لو سجد قبل الركوع فإنها لا تقبل لمخالفة الشريعة في كيفيتها.

كذلك أيضًا القَدْر، لو تعبد لله تعالى بعبادة زائدة أو ناقصة لم تقبل منه، فلو صلى الظهر ثلاثًا لم تقبل، ولو صلَّاها خمسًا لم تقبل لمخالفة الشريعة في العدد.

والخامس: المكان: فلو اعتكف الإنسان في بيته بدلًا عن المسجد وانقطع للعبادة في البيت فإنها لا تقبل؛ لأنها غير موافقة للشرع في المكان.

وفي الزمان: لو صام الإنسان في غير رمضان عن رمضان لم تقبل؛ لأنه في غير الزمن المشروع، وكذلك لو وقف بعرفة في غير يوم عرفة، أو رمى الجمرات في غير موسم الحج، أو ما أشبه ذلك.

إذن العمل الصالح: هو ما وافق الشريعة في هذه الأمور الستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان.

يقول عز وجل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهذا في مقابل الذنوب، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: في مقابل الحسنات. فالسيئات تُغفر، والحسنات يُثابون عليها هذا الثواب العظيم.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، ووجه ذلك ما ترتب عليه من الثواب؛ لأن كل عمل رُتِّبَ عليه ثواب، فإنه فاضل مأمور به.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان وحده لا يكفي، بل لابد من عمل، ولهذا نجد

(١) سبق تخريجه.

الكثير من الناس يركزون على العقيدة، يقولون: عقيدتنا سليمة والحمد لله، ولا يتعرضون للعمل، وهذا قصور، بل لابد مع العقيدة من عمل صالح.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المغفرة لله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وقد كررنا القول في معنى المغفرة وأنها ستر الذنب والتجاوز عنه، فإن قال قائل: المغفرة هنا مطلقة لم يقل من الله؟ فالجواب: هي مطلقة لكن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥] وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة في دين الإسلام، أن الذي بيده المغفرة والرحمة هو الله عز وجل.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تفضل الله عز وجل على عباده حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر، كأن العامل أجير، إذا وفى العمل أعطي أجره، مع أن المنة لله عز وجل أولًا وآخرًا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظم ثواب المؤمنين العاملين الأعمال الصالحات؛ حيث عظمه الله عز وجل، وتعظيمه للشيء يدل على أنه عظيم عظمة لا يتخيلها الإنسان ولا يتصورها، وهو كذلك.

ولما كان هذا القرآن مثاني كما وصفه الله به: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ فإن الله عز وجل لما ذكر ثواب المؤمنين العاملين للصالحات ثنّى بذكر من يقابلهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كفروا في مقابل الأعمال الصالحات، (كذبوا): في مقابل الإيمان، فكذبوا بما يجب التصديق به ، وكفروا بما يجب العمل به، فهم لم يستقيموا على الأمر ولا على الخبر، قابلوا الخبر بالتكذيب، وقابلوا العمل بالكفر.

والمراد بالآيات هنا هل هي الآيات الشرعية أو الكونية؟ كلاهما، فمن أنكر ربوبية الله وخلقه للمخلوقات وتصرفه في الكون فهذا مكذب بالآيات الكونية، ومن أقر بذلك لكنه لم يقم بطاعة الله فقد كفر وكذب بالآيات الشرعية.

وآيات الله تعالى كونية وشرعية، فالكونية تشمل هذا الكون بما فيه من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار، وغير ذلك من المخلوقات العظيمة التي بعضها لا تحيط به كبرًا، وبعضها لا تحيط به صغرًا، إنك أحيانًا تكتشف كتابًا فتجد في طياته حشرات صغيرة جدًّا جدًّا، لا تكاد تراها بالعين، وهذه مخلوقة لله، يرزقها الله عز وجل، ويعلم مستقرها ومستودعها، ولا يخفى عليه أمرها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦].

والآيات الشرعية: هي ما جاءت به الرسل، وكانت آيات دالة على الله عز وجل، لأن البشر لا يمكن أن يأتوا بمثلها، من يأتي بشريعة تصلح للبشر في كل زمان ومكان بالنسبة للشريعة المحمدية؟ لا أحد، وكذلك الشرائع بالنسبة للأمم السابقة هي ملائمة تمامًا لأحوالهم وأزمانهم

وأماكنهم، فلا أحد يستطيع أن يأتي بمثل هذه الآيات الشرعية.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: مبتدأ أول، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والرابط: الإشارة.

ومعنى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: أهل الجحيم الملازمون لها، والجحيم هي: النار أعاذنا الله وإياكم منها، وسميت بذلك لقعرها وسوادها.

الفوائد:

١ - **وفي الآية فوائد منها:** أن القرآن الكريم مثاني، إذا ذكر أهل العمل الصالح، ذكر أهل العمل السيِّئ، وفائدة ذلك ألا يغلب جانب الرجاء أو جانب الخوف، وذلك لأن الإنسان إذا لم يكن أمامه إلا أوصاف المؤمنين وجزاء المؤمنين، فإن ذلك قد يحمله على الرجاء، وينسى الخوف، وإذا لم يكن أمامه إلا أوصاف الكافرين وعقوبتهم فقد يستولي عليه الخوف، والقنوط من رحمة الله، فلهذا كان الله تعالى يذكر هذا إلى جنب هذا حتى لا يستولي القنوط من رحمة الله عند ذكر ما يخوف، أو الأمن من مكر الله عند ذكر ما يرجي.

فإن قال قائل: أيهما أفضل للعامل: أن يغلِّب جانب الخوف أو أن يغلب جانب الرجاء؟

فالجواب: أن أحسن الأقوال في هذا أنه عند العمل الصالح يغلب جانب الرجاء، وعند الهم بالسيئة يغلبُ جانب الخوف؛ لأنه إذا عمل العمل الصالح وغلب جانب الرجاء أحسن الظن بالله، وأن الله تعالى سيقبل عمله ويثيبه عليه، فينشط على العمل ويحتسب الأجر على الله، وعند الهمِّ بالمعصية لو غلب جانب الرجاء لقالت له نفسه: إن الله غفور رحيم، وهذه المعصية سهلة، وأنت إذا فعلتها فتُبْ، فباب التوبة مفتوح، لكن إذا غلب جانب الخوف، وخاف ألَّا يوفَّق للتوبة وأن يزيغ قلبه حينئذٍ يكف عن المعصية، فأحسن الأقوال في ذلك أن ينظر الإنسان إلى حاله: فعندما يفعل الطاعات يغلب جانب الرجاء، وعندما يهمُّ بالمعصية يغلب جانب الخوف.

فإن قال قائل: ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] فبيَّن الله تعالى أن من أوصاف هؤلاء السادة أنهم إذا أتوا ما يؤتون فقلوبهم وجلة يخافون ألا يقبل منهم، كما جاء ذلك في تفسيرهم؟

قلنا: نعم هو كذلك، وهذا إذا خاف الإنسان أن يُعجب بعمله، فيجب أن يخاف، وأما إذا كان بريئًا من ذلك وهو يعلم أن هذا العمل الصالح بمعونة الله، فليحسن الظن بالله عز وجل، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكفر قد يصحبه التكذيب وقد لا يصحبه، ولهذا أحيانًا يذكر الله الكفر فقط مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وأحيانًا يذكر التكذيب فقط، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر:٣٢] وأحيانًا يقرن بينهما؛ وذلك لأن كلًّا منهما قد يكون وحده موجبًا للخلود في النار، فإذا اجتمعا جميعًا صار ذلك أشد وأعظم والعياذ بالله.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن على الإنسان أن يكون مستسلمًا استسلامًا تامًّا لآيات الله، مصدقًا بأخبارها، منفذًا لأحكامها، لأن الله توعد المكذبين بالآيات الكافرين بها بأنهم أصحاب الجحيم، وقد ذكر الله عز وجل في سورة النساء قسمًا مؤكدًا أنهم لا يؤمنون إلا بشروط، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه واحدة، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ هذه الثانية، ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] هذا ثلاثة.

فمن حكَّم غير الله ورسوله فليس بمؤمن، ومن حكَّم الله ورسوله ولكنه لم ينشرح صدره بما حكم الله به ورسوله، فليس بمؤمن، فلهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥]، ومن لم يجد حرجًا لكن صار يتكاسل ويتهاون في التسليم فإنه لم يؤمن، ثم قد يكون انتفاء الإيمان عنه انتفاءً كاملًا وقد يكون انتفاءً جزئيًّا حسب ما قام في قلبه وعمله.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكافرين والمكذبين مخلدون في النار؛ لقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وكلما جاءت أصحاب فالمراد بها الملازمة الدائمة، كقول النبي ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»**[1].

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تقدم.

وقوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله أن نذكر نعمته لا من أجل مجرد الذكر والخبر، ولكن للقيام بشكر هذه النعمة؛ لأن مجرد ذكر النعمة لا يكفي، ولا بد أن يكون ذلك شكرًا لله عز وجل، فإن كان شكرًا بأن كان الإنسان يتحدث بنعمة الله ثناءً على الله فهذا من الشكر.

وقوله: ﴿إِذْ هَمَّ﴾ هذا متعلق بقوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فتكون في موضع نصب على الحال.

وقوله: ﴿هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ القوم هم: المشركون، وقد همُّوا بقتل النبي

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في مسنده (٨١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ، وهموا أيضًا بأن يقاتلوه في مكة، ولكن الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤]، وقال في سورة النساء: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠] في عدة وقائع يهمُّ الكفار بأن يبسطوا أيديهم إلى الرسول ﷺ وأصحابه ولكن الله تعالى يكف أيديهم ويسلم الرسول وأصحابه.

قال: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ولم يستطيعوا أن ينالوكم بسوء، وهذه نعمة عظيمة أن يهم عدوك بشيء ثم يحجزه الله عنك، ولقد قال الله عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩]، وقال فيها: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمر سبحانه بذكر النعمة والتقوى، والتقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: وليتوكل المؤمنون على الله، ونعلم أن قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ (يتوكل) فهي مقدمة عليها لإفادة الحصر والفاء زيدت لتحسين اللفظ، وإلا لو قيل: (وعلى الله ليتوكل) لصح الكلام.

وقوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ اللام لام الأمر، وأصلها مكسورة، لكنها تسكن إذا سبقها (الفاء والواو وثم)، والتوكُّل: أحسن ما قيل فيه: إنه صدق الاعتماد على الله، في جلب المنافع، ودفع المضار، ثقة به تبارك وتعالى وتفويضًا إليه، هذا هو التوكل على الله.

وبهذا يظهر الفرق بين توكل الإنسان على العبد وتوكله على الرب، فتوكل الإنسان على الرب تفويض مطلق، فيعتقد الإنسان أن الله تعالى هو الذي له الحكم فيه، وله السلطة عليه، وتوكله على شخص بحيث يوكله أن يشتري له حاجة ليس كذلك، ليس تفويضًا إليه، ولكنه وكله؛ لأنه يعتقد أنه دونه في المرتبة. لكن مع ذلك لا ينبغي للإنسان أن يقول: توكلت على فلان في شراء كذا وكذا، بل يقول: وكلت فلانًا، لئلا يستعمل اللفظ الذي لا يطلق إلا لله في حق العبد.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...إلخ.

الفوائد:

١ - **وفي هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أنه يجب على الإنسان أن يذكر نعمة الله عليه في جلب المنافع ودفع المضار، وتؤخذ من أمر الله بذكر نعمه لكفِّ أيدي الأعداء عنا.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كف الأذى والضرر من النعم، وهو كذلك، وكثير من الناس يظنون أن النعم هي: الإيجاد، ولكن هذا قصور، النعمة: إما إيجاد معدوم وإما كف موجود، ولهذا يشكر الله عز وجل على هذا وهذا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب تقوى الله عز وجل عند ذكر النعم، حتى لا يطغى

الإنسان ويرتفع ويغتر بنفسه في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب التوكل على الله عز وجل، لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إخلاص التوكل لله سبحانه وتعالى، وذلك من تقديم المعمول، والقاعدة عند البلاغيين: (أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر).

فإن قال قائل: هل التوكل يمنع فعل الأسباب؟

فالجواب: لا بل التوكل لا يتم إلا بفعل الأسباب، وأضرب لذلك مثلًا بسيد المتوكلين محمد ﷺ، ومع ذلك كان يتوقى الحر، ويتوقى البرد، ويلبس الدروع في الحرب، ولبس في أحد درعين ﷺ، كل ذلك توقيًا للسهام، ففعل الأسباب النافعة الحقيقية لا ينافي التوكل بل هو من تمام التوكل، ولهذا؛ **لو قال قائل**: أنا لن أسعى في طلب الرزق، يرزقني الذي رزق الثعابين في جُحُورِهَا، أنا أتوكل على الله.

قلنا: هذا عجز وكسل، التوكل على الله التفويض إذا لم تستطع الأسباب، إذا عجز الإنسان عن الأسباب ليس عنده إلا التفويض، ولهذا تجد الكفار إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين، ففوضوا الأمر إلى الله، وكذلك الإنسان إذا ألم به شيء لا يستطيع دفعه تجده ليس له حول ولا قوة، أما مع القدرة على فعل الأسباب فإنه لابد من فعلها، فلو أن الإنسان يريد أن يسافر إلى مكة للحج وقلنا له: خذ معك نفقة، فقال: ما أحتاج أنا متوكل على الله ، نقول له: هذا عجز وتوانٍ وكسل، إذا كنت متوكلًا على الحقيقة فافعل السبب، خذ معك ما يكفيك للنفقة ، أو أجر نفسك على أحد تكون معهم ويكفونك المؤونة وما أشبه ذلك.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التوكل من الإيمان؛ لقوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فوجه الأمر إلى المؤمنين؛ لأنهم هم أهل التوكل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ترك التوكل على الله نقص في الإيمان، ولكن هل ينافي كمال الإيمان أم ينافي أصل الإيمان؟ نقول: فيه تفصيل: فمن توكل على نبي ميت ـ وكل الأنبياء أموات إلا عيسى عليه السلام فإنه في السماء حيٌّ ـ فهذا ينافي أصل الإيمان، ومن اعتمد على سبب معلوم وهو سبب شرعي أو قدري، فذلك لا ينافي الإيمان ولكن لا تجعل عمدتك هذا السبب بل اجعله سببًا والمسبب هو الله عز وجل، ولهذا نجد أن الأسباب كثيرًا ما تتخلف مسبباتها؛ لأن الأمر بيد الله عز وجل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: اللام وقد والقسم المقدر لأن تقدير الكلام: والله لقد، وهذه قاعدة: أنه كلَّما جاء مثل هذا التعبير فهو مؤكد بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد، مثل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: عهدهم والسياق هنا سياق غائي.

وقال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلُّم، ولو كان الكلام على نسق واحد لقال: (وبعث).

وقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: جعلنا منهم اثني عشر رقيبًا، و﴿اثْنَيْ عَشَرَ﴾ يعرب الجزء الأول منها بحسب العوامل ففي الرفع بالألف، وفي النصب والجر بالياء؛ لأنه ملحق بالمثنى، وإنما قلنا: إنه ملحق بالمثنى ولم نجعله مثنى في الحقيقة؛ لأنه ليس له مفرد، إذ إن اثنا ليس مفردها (اثن) بل مفردها واحد، ولهذا يعربونه على أنه ملحق بالمثنى، ويكون إعرابه بالألف رفعًا وبالياء نصبًا وجرًّا، ولكنه لا يضاف إلى عشر، بل يقال: اثنا مركب مع عشر، وعشر مبنية على الفتح لا محل لها من الإعراب.

و﴿نَقِيبًا﴾: تمييز، وكلما جاءتك كلمة تفسر العدد وهي المعدود فأعربها على أنها تمييز.

وعلى هذا يقول صاحب «الألفية»:

اسْمٌ بِمَعْنَى مِنْ مُبِينٌ نَكِرَة ... يُنْصَبُ تَمييزًا بِمَا قَدْ فَسَّرَه[1]

(نقيبًا) فعيل بمعنى فاعل، وناقب بمعنى منقِّب، ومنقب يعني مفتش، وهم العُرفاء؛ لأن

(١) شرح ابن عقيل (٢/ ٢٨٦).

العريف يفتش عمن جُعِلَ عرِّيفًا عليه، وأصل التنقيب التفتيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [ق:٣٦] أي: فتشوا فيها.

جعل الله منهم اثني عشر نقيبًا عرفاء على قومهم، كل سبط عليه عريف؛ لأنهم اثنا عشر سبطًا، وهذا من عناية الله عز وجل بهم، أن جعل عليهم العرفاء من أجل أن يوجهونهم ويؤدبونهم، وقال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصر والتأييد، وهذه المعية خاصة، وسنتكلم عليها عند ذكر الفوائد.

وقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: أتيتم بها مستقيمة، والصلاة معروفة: هي التعبد لله تعالى بذات الأقوال والأفعال المعلومة المفتتحة بالتكبير، المختتمة بالتسليم، هذا هو الأصل، وعلى هذا فصلوات النصارى واليهود الآن صلوات محرَّفة، فهم كما حرفوا التوراة بالتأويل حرفوا أيضًا في الأفعال.

وقوله: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ آتيتم بمعنى: أعطيتم، والزكاة: مال واجب في أموال مخصوصة، وقوله: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ أي: إلى مستحقيها، ولهذا نقول إن (آتى) تنصب مفعولين: الأول الزكاة، والثاني محذوف، أي: آتيتم الزكاة أهلها، والزكاة هي المال وسميت زكاة؛ لأنها تزكي أخلاق باذلها، بمعنى: تنميها، فإن بذل المال ينمي الأخلاق ولا شك، وإذا أردت أن ينشرح صدرك فأكثر من النفقة ولكن بدون إسراف.

وقوله: ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: أقررتم إقرارًا مستلزمًا للقبول والإذعان، هذا معنى الإيمان، فمجرد الإقرار لا يعتبر إيمانًا، ولو كان مجرد الإقرار إيمانًا لكان أبو طالب مؤمنًا؛ لأنه مقرٌّ برسالة النبي ﷺ، و(رسل) جمع رسول وهم الذين أرسلهم الله تعالى إلى بني إسرائيل، وأكثر الأنبياء الذين قُصُّوا علينا من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم؛ لأن التعزير يعني: النصرة، وأصله من التقوية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] أي: الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أقرضتم الله أي: بذلتم المال محتسبين الأجر من عنده؛ لأن المقرِض يعطي القرض على أنه سوف يُرد إليه عوضه، فالإقراض لله يعني: احتساب الثواب منه، كأنك بذلت الشيء ابتغاء مرضاته لتنال بذلك الثواب.

فإن قال قائل: أقرضتم مع قوله: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ هل هو من باب عطف المتغايرين أو من باب عطف العام على الخاص أم ماذا؟

نقول: يرى بعض العلماء أنه من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الزكاة حقيقة من إقراض الله، إذا أداها الإنسان محتسبًا ثوابها فهي من إقراض الله، ويكون ذكره الإقراض وهو أعم من

الزكاة بعد ذكر الزكاة ليشمل الزكاة وغيرها، وقيل المراد بالإقراض هنا: الصدقة، أي: ما زاد على الزكاة، وعلى هذا يكون العطف عليه من باب عطف المتغايرين.

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض الحسن ما كان خالصًا لله على وفق شريعة الله، وقد بيَّن الرسول ﷺ الإحسان في عبادة الخالق أنه تمام الإيمان والمراقبة، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

وقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ هذا جواب لقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ وهل هو جواب للشرط الذي هو ﴿إن﴾ أو جواب للقسم المقدر المدلول عليه باللام في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾؟ الثاني، وهو جواب القسم، ولهذا لم يقترن بالفاء، ولو كان جوابًا للشرط لاقترن بالفاء، وفي هذا يقول ابن مالك:

وَاحْذِف لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزِمْ(٢)

فالذي أُخِّر هنا الشرط، إذن الذي حذف هو جواب الشرط.

وقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أجعلها مكفَّرة بالحسنات التي فعلتم، إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وتعزيرهم، إقراض الله قرضًا حسنًا، فالسيئات تكفَّر بهذه الحسنات.

وقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ وإذا جمعت بينها وبين أُكفِّر صار بها النجاة من المرهوب، وحصول المطلوب، النجاة من المرهوب في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ لأنها إذا كفِّرت لم نعاقب عليها، وحصول المطلوب: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وبالتتبع والاستقراء نجد أن أغلب ما يكون تقديم النجاة من النار - المرهوب - ليرد المطلوب على محل خالٍ مما يُرهب، فتكون التصفية قبل التحلية، يعني: صفِّ الشيء قبل أن تُحليه، اكنس المكان قبل أن تفرشه.

تأمل الآن القرآن والسنة تجد أن النفي غالبًا يكون مقدمًا على الإثبات، (لا إله إلا الله) كلمة الإخلاص، قدم فيه النفي على الإثبات ليرد الإثبات على مكان خالٍ من الشوائب.

﴿جَنَّٰتٍ﴾ المراد بها: جنة المأوى، وهي تذكر أحيانًا مفردة، وأحيانًا مجموعة، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد:٢١] جاءت مفردة، فإفرادها باعتبار الجنس، وجمعها باعتبار النوع؛ لأن الجنة أنواع، وقد ذكر الله تعالى في آخر سورة الرحمن أربعة أنواع: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] والأوليان أشرف، وابن القيم في

(١) سبق تخريجه.

(٢) شرح ابن عقيل (٤/ ٤٣).

«النونية» بيّن أن الفروق عشرة.

فقوله: ﴿تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ لو أننا فسرنا جنات بما نفسر به جنات في الدنيا وقلنا الجنات: بساتين كثيرة الأشجار، كثيرة الثمار، لم يذهب الذهن بعيدًا، ولاستُقِلَّ نعيم الآخرة، لكن إذا قلنا: الجنة هي الدار التي أعدها الله لأوليائه ـ اللهم اجعلنا منهم ـ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر[1]، كان الثاني أشد هزًّا للمشاعر؛ ولهذا قد نعتب على بعض الناس أن يفسر جنة المأوى بأنها البستان الكثير الأشجار، وأنها سميت بذلك؛ لأن أشجارها ملتف بعضها إلى بعض فهي تستر من فيها، نقول: هذا لا شك أنه يقلل من تخيل الجنة وأنها شيء عظيم.

وقوله: ﴿تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ معلوم أنه ليس المراد من تحت أرضها، لأن النهر إذا جرى من تحت الأرض أي فائدة فيه؟! ولهذا لا ننتفع بالأنهار الجوفية، ولكن من تحتها قال العلماء: من تحت قصورها وأشجارها، وما أحسن اضطراب الأنهر تحت الأشجار الظليلة والقصور الفخمة العظيمة لها منظر لا يتصوره الإنسان.

وهذه الأنهار ليست كأنهار الدنيا، أنواعها أربع: ﴿أَنۡهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٍ﴾ يعني: لا يمكن أن يتغير، وأنهار الدنيا تتغير، ﴿وَأَنۡهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ بل هو من أحسن ما يكون مذاقًا، ﴿وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [محمد:١٥] وقد نفى الله عنها الغول فقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٌ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٧]، ﴿وَأَنۡهَـٰرٌ مِّنۡ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥] نقي ليس فيه شيء مما يكون في عسل الدنيا.

هذه أنهار أربعة تجري جريانًا، ثم إن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في «النونية» أن هذه الأنهار تجري بغير أخدود، فقال:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ   سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الْفَيَضَانِ[2]

النهر يجري ما له أخدود تمنعه يمينًا ولا يسارًا، ولا حفر له على سطح مكان، ومع هذا لا يجري إلا حيث شاء صاحبه يصرفه كيف شاء، ليس هناك عمال ولا عوامل، وإنما هي إرادات، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧١].

إذن هنا ميثاق بين متعاقدين، عمل يسير في مقابل ثواب كثير، يقول: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ﴾ ومن هنا شرطية، جوابها: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾ أي: فمن كفر بعد هذا الميثاق ولم يقم بما واثق الله عليه فقد ضل سواء السبيل، والضلال بمعنى: الضياع والتيه، يعني: تاه عن

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) متن القصيدة النونية (ص٣٢٦).

الصراط المستقيم، وسواء السبيل أي: مستقيمه الموصل إلى المراد.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد كثيرة منها:** تذكير هذه الأمة وتذكير بني إسرائيل بما أخذ الله عليهم من الميثاق، أما تذكير بني إسرائيل فالأمر فيه واضح في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، وأما تذكير الأمة الإسلامية، فلأَنَّهُ ليس بين البشر وبين الخالق عهد يتضمن المحاباة، إلا تفضلًا من الله عز وجل إذا قمنا بما أوجب علينا فلنا الأجر مرتين حسب ما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ .

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذكر الله نفسه بالغيبة تعظيمًا وتكبيرًا له جل وعلا، تؤخذ هذه من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ ما قال: ولقد أخذنا، وهذا كما يقول الملك لجنوده: إن الملك يأمركم أن تفعلوا كذا، ما يقول: إني آمركم، ونظير هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من أساليب البلاغة الانتقال من أسلوب إلى آخر لتنبيه المخاطب، تؤخذ من قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ ولا شك أن تغير الأسلوب يوجب الانتباه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الله تعالى خلق أعمال العباد، لقوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ، لأن النقباء مفتشون، وإذا كان الله هو الباعث لهم لزم أن تكون أفعالهم مخلوقة لله، ففيها الرد على القدرية، وربما نأخذ من قوله: ﴿نَقِيبًا﴾ الرد على الجبرية؛ لأن المنقب ينقب باختياره، وهذا يدل على أن الإنسان غير مجبور. وهذا مقرر ـ والحمد لله ـ عدة مرات، أن نصوص الكتاب والسنة تدل على بطلان قول القدرية، وبطلان قول الجبرية.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للناس أن يتخذوا نقباء، يرجعون إليهم في أمورهم عند النزاع يكونون مُصْلِحِين، وعند الإشكال يكونون موضحين، وما أشبه ذلك، ولهذا أمر النبي ﷺ إذا كانوا ثلاثة في سفر أن يؤمروا أحدهم من أجل أن يوجههم ويدبر شئونهم، ولا يكن الأمر فوضى.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** منة الله على بني إسرائيل بأنه ناصرهم، تؤخذ من قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ، واعلم أن الله تعالى وصف نفسه بالمعية في عدة آيات، فمرة ذكرها عامة، ومرة ذكرها خاصة بوصف، ومرة ذكرها خاصة بشخص، وكلها حق، فالعامة مقتضاها الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسلطانًا وتدبيرًا، وملكًا وغير ذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

ومن ذكرها مقيدة بوصف مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، لكن هذه تقتضي مع الإحاطة العامة النصر والتأييد والدفاع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

الثالث: مقيدة بشخص: مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦]، ومثل قول النبي ﷺ - فيما حكاه الله عنه - لصاحبه أبي بكر ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠].

هذه المعية هل هي حقيقة أو هي مجاز عن العلم والإحاطة والنصرة والتأييد وما أشبه ذلك؟ الجواب: الأول، كسائر الصفات، أنها حقيقة وأنها تقتضي في كل موضع ما يناسبها.

لكن إذا قلنا: إنها حقيقة، هل تنافي ما ذكر من علو الله؟

الجواب: لا، فهو معنا وهو على عرشه، وليس معنا أنه في الأرض، كلا ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزُّمَر:٦٧] ومن كان هذا شأنه كيف يمكن أن يتصور عاقل فضلًا عن مؤمن أن يكون معنا في أماكننا، لكن هو معنا وهو عالٍ ولا مانع؛ لأن الله بكل شيء محيط، حتى أن الرسول ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا[1]، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَه أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». فنحن نؤمن بهذا، ولكن ليس معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى في نفس المكان؛ لأنك لو قلت هكذا لكنت ممن عمل بالنصوص ونظر إليها نظر الأعور، أي من جانب واحد، ولهذا لما نظرت الجهمية إلى هذا من جانب واحد قالوا: إن الله معنا في نفس المكان، في كل مكان، لكنهم غفلوا عن العلوِّ، ونحن نقول: إن الله معنا حقيقة وعلى عرشه حقيقة، ولا منافاة.

فإذا قال قائل: هل يتصور العقل أن الشيء يطلق عليه أنه معك وهو بعيد عنك؟

قلنا: نعم، أولًا أنه يتصور في الأمور المخلوقة، فالقمر يقول المسافرون: إنه معنا، والنجم يقولون: إنه معنا، والشمس يقولون: معنا، وأمكنة هذه الأشياء في السماء، فالعرب تقول: القمر معنا والقطب معنا والجدي معنا، يقولون هكذا، ويعبرون عن هذا على أنه حقيقة، ومحله في السماء، ولا يعد ذلك تناقضًا. ثم على فرض أنه تناقض في المخلوق، وأنه لا تجتمع المعية في الحقيقة والعلوّ في الحقيقة فهل يقاس الخالق بالمخلوق؟! لا يقاس، فنقول: نثبت لله ما أثبته لنفسه من علوِّه ومعيته، ونعلم أنه لا تناقض، بل هو عالٍ ومعنا، ولا منافاة.

إذن الجواب على هذا: نقول: ليس بينهما تناقض للوجوه التالية:

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

أولًا: أن الله جمع لنفسه بينهما، وما جمع الله بينه في كتابه فليس فيه تناقض، إذ لو كان لما صدق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

كل شيئين جمع الله بينهما فاعلم أنه لا تناقض بينهما.

ثانيًا: لا تناقض ولا منافاة بين المعية حقيقة والعلو حقيقة أبدًا، لأننا نحس في الواقع المشاهد المتفق عليه عند علماء اللغة أنه يقال للشيء أنه معنا وهو في مكانه في السماء بعيدًا عنا.

ثالثًا: على فرض أن هذا ممتنع في المخلوق فليس يمتنع في الخالق، لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوّه. وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة المباركة؛ ألا وهي «**العقيدة الواسطية**».

وبه أيضًا نسلم من إلزام أهل التأويل لأهل السنة حيث يقولون: أنتم تنكرون علينا التأويل وأنتم تؤولون، لأنك إذا قرأت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] كل هذه الضمائر تعود إلى الله، ما الذي يخرج المعية عن هذا؟ إذا كان ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: الله، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي: الله، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾: أي: الله، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أي الله، لكن يجب ـ كما قال شيخ الإسلام ـ أن يُصان هذا الفهم عن الظنون الكاذبة، مثل أن يعتقد الإنسان أنه معنا أي: في مكاننا، أو أنه على السماء أي أن السماء تقله، أو أنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صارت السموات الأخرى تظله، هذا يجب أن يُصان عنه؛ لأن الله تعالى في العلو وعلوه من لازم ذاته، وهو من الصفات الذاتية التي لا ينفك عنها، كما لا ينفك عن سمعه وبصره.

لكن ورد عن السلف رحمهم الله ـ عن كثير منهم ـ أنهم فسروا المعية بالعلم، وهذا تفسير باللازم، لأن من لازم من كان معك أن يكون عالمًا بك، ولا شك أن هذا التفسير صحيح غير منكر، والتفسير باللازم تفسير صحيح، لكنه ليس هو المطابق، لأن الدلالة ثلاثة أنواع: (دلالة تضمن، ودلالة مطابقة، ودلالة التزام)، وهذا من دلالة الالتزام، واضطروا إلى ذلك من أجل الرد على أولئك الجهمية الذين كانوا يقولون: إن الله معنا في نفس المكان، ولهذا قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «**إن الله معنا بعلمه ولا نقول كما قال هؤلاء الجهمية إنه معنا ههنا ـ يعني في الأرض ـ**» فتبين بذلك لماذا صارت أكثر عبارات السلف أن المعية يعني: العلم، ونحن نقول: هذا التفسير صحيح غير منكر؛ لأنه تفسير باللازم، والتفسير باللازم قد استعمله السلف في كثير من الآيات ولا يعد هذا خروجًا عمَّا تقتضيه الآية، لكن التفسير الذي يُنكر على الإنسان أن يؤول تأويلًا مخالفًا للفظ بأنواع الدلالات الثلاث وهي المطابقة والتضمن والالتزام.

المعية الخاصة بالوصف: كثيرة في القرآن في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، هذه الآية إذا آمن بها الإنسان سوف تحمله على ثقته بنفسه، لكن ثقته بنفسه لا لأنه

قوي قادر، ولكن لأن الله معه، فإذا اتقى الإنسان رَبَّهُ تقوى حقيقية فإنه سوف يحصل له النصر والتأييد وإن الله يدافع عن الذين آمنوا.

لكن الذي ينقصنا في الحقيقة هو التقوى، ولذلك نجد أننا فاشلون في كل المعارك التي خُضْنَاهَا مع إخوان القردة والخنازير، وهم اليهود، ونجد أن الإخوة الذين كان عندهم - فيما يظهر لنا والعلم عند الله - تقوى وقوة، نجد أنهم غلبوا من كانوا أكبر دولة فيما سبق.

يقولون في الشيشان كان الروس أذل من الكلاب، حتى إنهم لما أمر قوادهم وضباطهم وجيوشهم أن تتجمع كانوا يتجمعون وينحدرون من رؤوس الجبال، ويجتمعون، يقول واحد ويقسم بالله إن سبعمائة آلية للحرب يقودها الروس، يقول إن الشيشان قال: لا يمكن أن تسير من حولنا إلا والعلم المكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فصاروا يقودونهم بلا إله إلا الله محمد رسول الله، وهؤلاء أذل ما يكون، والذي قُتل منهم يقولون سبعين ألفًا من الروس، ما كنا نظن هذا، فأقول: إن الإنسان إذا وثق بنفسه بما معه من تقوى الله والإحسان بعبادة الله، فليبشر بأن الله معه وأن الله ناصره.

ثم لِيُعلَم أن النصر ليس من الضروري أن يُنصر الإنسان في حياته، بل إذا نُصِر ما يدعو إليه بعد موته فهو انتصار له لا شك، ولهذا نحن نؤمن بأن انتصار الصحابة بفتح مشارق الأرض ومغاربها انتصار للرسول ﷺ يعني: حتى لو فرض أن من قام بالدعوة إلى الله مخلصًا لله متبعًا لشريعة الله، فمات أو قتل ولكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده فهو في الحقيقة انتصار له. فيصدق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

أما المعية بشخص فهي أعظم وأعظم، فقول الرسول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أبلغ من القول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وذلك لأن بها تعيين للشخص، وهكذا مع موسى وهارون ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء لو أوفوا بعهد الله لأوفى الله لهم بعهده، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ويؤخذ من قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنَّ الصلاة والزكاة مفروضة على الأمم السابقة، ولكن لا يلزم من كونها مفروضة على من قبلنا أن تكون مماثلةً لما وجب علينا في الكيفية والوقت والمقدار. وهذا كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فالتشبيه

هنا للفرض شَبَّهَ الفرض بالفرض ولا يلزم أن يكون صيامهم كصيامنا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الحج كان مشروعًا في الأمم السابقة. فهذه الأركان العظيمة - أركان الإسلام - مشروعة عند كل أمة.

٣ - **ومنها**: أنه يجب على بني إسرائيل الإيمان بجميع الرسل وعلى رأسهم محمد ﷺ؛ لأن الله لم يتكفل لهم بهذا الثواب إلا إذا آمنوا برسله لقوله: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾، ومن المعلوم أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنه لم يسبق رسول قبل نوح، لكن لما كذبوا نوحًا عليه السلام صار تكذيبهم له، تكذيبًا لجميع الرسل.

٤ - **ومنها**: وجوب نُصرة الرسل؛ لقوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، ونُصرتهم في حياتهم أن نكون معهم في الجهاد والدفاع وغير ذلك، ونصرتهم بعد وفاتهم أن ينصروا شرائعهم ويقيموها بين الناس، فواجب علينا نحن الآن أن ننصرَ شريعة محمد ﷺ.

٥ - **ومنها**: بيان فضل الله عز وجل على العباد، حيث كان يعطيهم الرزق ثم يقول: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ وهو المعطي أولًا، والمثيب ثانيًا، لقوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾. وقد ذكرنا الحكمة في التعبير عن الإنفاق في سبيل الله بالقرض.

كأن الله جعل الإنفاق في سبيله في منزلة القرض الذي يلزم المستقرض أن يؤديه.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لابد أن تكون الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الله حسنة، وتؤخذ من قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ليخرج النقص عن الواجب، والإسراف في البذل؛ لأن الإسراف ليس حسنًا، والنقص ليس حسنًا.

٧ - **ومنها**: أن الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وقول النبي ﷺ: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1].

٨ - **ومنها**: أنه يُبدأ في النجاة من المرهوب قبل بيان حصول المطلوب لقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ وهو شاهد لما اشتهر عند العلماء أن التخلية قبل التحلية، يعني: إزالة الشوائب والعوائق قبل أن يحصل المطلوب.

٩ - **ومنها**: أن الجنة ليست واحدة؛ لقوله: ﴿جَنَّاتٍ﴾، هذا إذا قلنا إن هذا الجمع عائد على جنات لا على من دخلها؛ لأن هناك احتمال أن يكون عائدًا على من دخلها وأن كل واحد له جنة وإن كانت الجنة واحدة لكن تعددت باعتبار داخليها، فنقول هذا مُحتمِل، لكن القرآن دل على أنها جنات مجموعة، نفس الجنات، ففي سورة الرحمن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ وقال: ﴿وَمِن

---

(١) حسن: رواه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣٩٢) من حديث أبي ذر ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾.

١٠ - **ومنها**: أنَّ نعيم الجنة نعيم للنفس والقلب والسمع والبصر، وكل شيء، وذلك حينما ذكر أن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار وهذا لا شك أنه يطرب السمع فصوت جريان النهر يطرب السمع، ولهذا تجد الإنسان يقف عند الشلالات متمتعًا بالاستماع إليها، وكذلك النظر أيضًا، وكذلك القلب والنفس تستريح.

١١ - **ومنها**: أن في الجنة أنهارًا لا نهرٌ واحد، وتؤخذ من قوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع نهر وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ أنواعها في سورة القتال سورة (محمد)، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ .

فإن قال قائل: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ فذكر نهرًا واحدًا وهنا ذكر أنهارًا؟

الجواب: أن الإفراد هنا للجنس فلا ينافي التعدد.

١٢ - **ومنها**: وعيد من كفر بعد الميثاق، والنداء عليه بالضلال البيِّن، لقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٣ - **ومنها**: أن المؤمن يسير على سواء السبيل أي: وسطها، دون حافتيها، ووجه ذلك: أنه إذا ثبت في حكم الكافر ضلال السبيل؛ فضده يثبت فيه ضد حكمه؛ لأنه إذا تضادت الأعمال تضادت الجزاءات.

١٤ - **ومنها**: التنبيه على أن الغالب أن الوسط - وسط السبيل، والطريق - هو الحق؛ لأن سوى بمعنى: وسط، لقوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسطها أو مستقرها، وهذا هو الغالب، أن ما تطرف إلى اليمين أو إلى اليسار، فهو ضلال، ولذلك جاء في الحديث: «دِيْنُ الله بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْـجَافِي عَنْهُ»[1].

❁ **قال الله تعالى**:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ

---

(١) رواه الدارمي (٢١٦)، وقال حسين أسد: إسناده ضعيف المبارك بن فضالة يدلس ويسوي وقد عنعن.

مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٣، ١٤]

۞ التفسير ۞

قال الله تبارك وتعالى بعد أن ذكر تذكير هؤلاء بالميثاق الذي أُخِذَ عليهم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾.

الفاء: عاطفة، والعطف بالفاء يفيد الترتيب، وإذا كان عطف فعل على فعل فإنه يفيد السببية مع الترتيب، فإذا قلت: جاء زيد فعمرو، هذا للترتيب المحض، لأن العطف هنا عطف مفرد على مفرد، وإذا جاء جملةً على جملة فإنه قد يفيد الترتيب مع السببية وهو الغالب، مثل أن تقول: كفر فلان فكان في النار، وآمن فلان فكان في الجنة، أي: بسببه، وأحيانا تكون لمجرد الترتيب كما في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ [الأعراف:٤] فهنا أهلكناها بعد مجيء البأس، هنا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ هذه الفاء عاطفة تفيد الترتيب والسببية مع أن الباء التي بعدها تفيد أيضًا السببية.

قوله: ﴿فَبِمَا﴾ الفاء سببية، والباء حرف جر، و(ما) زائدة وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبنقضهم ميثاقهم. فـ(ما) هنا زائدة للتوكيد.

و(ما) تأتي زائدة، وتأتي مصدرية، وتأتي موصولة، وتأتي شرطية، وقد جمع بعضهم معانيها في بيت واحد.

مَحامِلُ (مَا) عشرٌ إذا رُمْتَ عَدَّها ... فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِنَ الشِّعْرِ

سَتَفْهَمُ شَرطَ الوَصْلِ فاعْجَب ... لنُكرِها بكفٍّ ونفي زِيد تعظيم مصدر

على كل حال من جملة ما نفهم من المعاني، أن (ما) الموجودة في الآية هي زائدة، والفائدة منها التوكيد، وهكذا جميع حروف الزيادة العاملة وغير العاملة تفيد التوكيد.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ النقض: ضد العقد؛ أي: حلهم الميثاق، وقوله: ﴿مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: الذي واثقهم الله عليه وهو قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فهؤلاء نقضوا الميثاق، فبسببه ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ واللعن:

هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فكانوا والعياذ بالله مطرودين مبعدين عن رحمة الله، لا ينالهم الله برحمة، ومن لعنه الله لعنه اللاعنون، كما قال عبد الله بن مسعود: (وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ أَوْ مَنْ لَعَنَه رَسُوْلُ الله) [1]، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، وفي قراءة (قسية)، قاسية: اسم فاعل، وقسية: صفة مشبهة، والصفة المشبهة أغلظ، لأنها وصف ملازم.

كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ:

كَطَاهِرِ الْقَلْبِ جَمِيلِ الظَّاهِرِ

إذن قاسية وقسية قراءتان؛ فالمعنى أن الأمرين كلاهما حاصل، فهي قسية وهذا وصفها، وقاسية عند وجود ما يوجب لين القلب فيقسو والعياذ بالله، فهي قسية وصفًا وقاسية فعلًا، كما قلنا في قراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿مَلِكِ﴾، حين نجمع القراءتين فيكون المعنى أنه ملك ذو تصرف، أي: ملك مالك، بعض ملوك الدنيا يكون ملكًا غير مالك، وكثير من الناس يكون مالك غير ملك، كلٌ يملك مالا لكننا لسنا ملوكًا.

قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ هذا أيضًا من ضلالهم - والعياذ بالله - ونقضهم العهد ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يحرفون كلم الله عز وجل و(الكلم) اسم وهي جمع كلمة، والجمع كلمات، لكن كلم: اسم جمع.

وأصل التحريف: التغيير، تغيير الشيء عن وجهه، ولهذا تقول: انحرفت الدابة يعني: تغير مسيرها، كذلك انحرفت السفينة، يعني: تغير اتجاهها، إذن ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ أي: يغيرون الكلم عن مواضعه، وتغيير الكلم عن مواضعه عندهم نوعان: تغيير في اللفظ، وتغيير في المعنى، من تغييرهم في اللفظ أنهم لما قيل لهم: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [الأعراف:١٦١] ماذا قالوا؟ حنطة، ما قالوا: حطة يعني: حط ذنوبنا ولكن قالوا: حنطة يعني: أعطنا طعامًا، ولما وجب على الزاني المحصَن أن يرجم، حرفوا هذا وقالوا إن هذا في الوضعاء وليس في الشرفاء، وصاروا يرجمون الوضعاء ولكنهم لا يرجمون الشرفاء. وهذا تحريف؛ لأنهم حملوا النصوص على غير ما أراد الله بها. إذن التحريف من هؤلاء يشمل التحريف اللفظي والمعنوي.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أي: عن المواضع التي أرادها الله به.

وقوله: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ نسوا : تحتمل معنيين: نسوا أي: تركوا، ونسوا أي: بعد الذكر، فالأول: نسيانٌ عملي، والثاني: نسيانٌ علمي فهل المراد الأول أم الثاني؟ كلاهما نَسُوْا أي: تركوا عن عمد، ونسوا أيضًا: أي تركوا عن عدم علم، أي: نسوا العلم الذي كانوا يعلمونه من قبل، فالنسيان إذن، نسيان عملي ونسيان علمي.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٠٤)، ومسلم (٢١٢٥).

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على تقسيم النسيان إلى هذا؟ قلنا: الدليل على ذلك قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فهذا نسيان علمي، وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] هذا نسيان عملي.

وقوله: ﴿حَظًّا﴾ أي: نصيبًا، والحظ قد يكون بالخير وقد يكون بالشر، فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٣٥] هذا حظ محمود، وإذا قيل: فلان حظه من اليوم الآخر النار، فهذا مذموم.

وقوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: من الوحي الذي نزل عليهم ليتذكروا به، فهم نسوا حظًّا من التوراة، لأن الكلام الآن عن اليهود، تركوه عمدًا، نتيجة تحريفهم الكلم عن مواضعه، أو نَسُوهُ بمعنى: أنهم نسوه بعد العلم، وذلك أن كُتُبَهُم تَلفَتْ، ولما تلفت صاروا يتخبطون فيها ويكتبون فيها ما أرادوا، فهذا هو وجه النسيان الذي هو ضد الذكر، والنسيان الذي هو ضد العمل.

وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ هل المعنى: لا تزال أيها المخاطب، أو لا تزال أيها الرسول؟ الأول، أي: لا تزال أيها الإنسان؛ لأنه لم يتقدم للرسول ﷺ ذكر، أي: لا تزال أيها الإنسان أو أيها المتأمل في حالهم تَطَّلِعُ على خائنة منهم، كلمة ﴿خَآئِنَةٍ﴾ يحتمل أن تكون مصدرًا، ويحتمل أن تكون اسم فاعل، فإن كانت مصدرًا فالمعنى: لا تزال تطلع على خيانة منهم، وإن كانت اسم فاعل فالمعنى: لا تزال تطلع على طائفة خائنة منهم، فتكون وصفًا لموصوف محذوف، أما كونها اسم فاعل، فلا إشكال فيه؛ لأن اسم الفاعل يأتي على وزن فاعل، لكن كيف تكون مصدرًا، وهل يأتي في المصادر ما هو على فاعل؟ قلنا: نعم يأتي، كلمة العافية في قولنا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ»[1] هذا مصدر بمعنى: أسألك أن تعافيني عافيتك، العاقبة كذلك مصدر، فاللغة العربية واسعة.

فعلى هذا نقول: كلمة (خائن) في الآية الكريمة يحتمل أن تكون مصدر كالعاقبة والعافية، ويحتمل أن تكون اسم فاعل، وعلى هذا يحتاج إلى تقدير موصول، إما أن يُقال التقدير على (طائفة خائنة)، أو على (نفس خائنة)، ويمكن أن تكون اسم فاعل على أن التاء فيها للمبالغة وأن الأصل: على خائن منهم ولكن التاء للمبالغة كما يقال في داع: داعية، وذلك لأن من اليهود من طبيعته الخيانة، فيصدق عليه أن التاء فيه في قوله: ﴿خَآئِنَةٍ﴾ للمبالغة، وهذا من سعة معاني القرآن الكريم، أنَّك تجد اللفظة الواحدة تحتمل معاني كثيرة.

والقاعدة: أن ما احتمل أكثر من معنى ولا مُرَجِّح ولا تضاد فإنه يحمل على كل واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، إلَّا قليلًا من اليهود فإنهم سالمون من هذه الأوصاف

(١) رواه مسلم (٢٧١٢)، وأحمد في مسنده (٤٧٨٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والعيوب، مثل عبد الله بن سلام ﵁، وهو عالم من علماء اليهود وحَبْرٌ من أحبارهم، وليس فيه شيء من هذه الأوصاف.

من حين قدم النبي ﷺ إلى المدينة آمن به واتبعه وشهد له بالحق، وله أمثال.

فمنهم من هو سالم من هذه الأوصاف والعيوب والأوصاف الذميمة، ولكنه قليل، ولهذا قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هل المقصود بالعفو العفو عن القليل الذين لا خيانة فيهم أم عن جميعهم؟

الجواب: قيل: إِنَّهُ يعود على أقرب مذكور، وهو القليل، يعني: فاعفُ عن هؤلاء القليل الذين تقدم منهم الأذى والعداوة لرسالتك، ثم زالت أوصافهم السيئة فاعفُ عمَّا مضى، فيكون المراد: اعفُ عَمَّـا مضى من سيئاتهم. وعلى هذا المعنى لا إشكال في الآية إطلاقًا.

إذا قلنا: اعفُ عنهم عن مجموعهم، مع اتصافهم بهذه الأوصاف، وخيانتهم، يبقى في ذلك إشكال، وهو أن النبي ﷺ قاتل اليهود بأمر الله، قال الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]، فكيف الجمع؟

ذهب كثير من المفسرين، إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، أي: بالآيات التي تأمر بقتالهم، وما أكثر الناس الذي إذا أعياهم الجمع بين النصوص، قالوا: هذا منسوخ، فيكون كثير من الشريعة منسوخًا، مع أن النسخ، يقول بعض العلماء المحققين: لا يتجاوز عشرة أحكام، وعلى كل حال نحن نقول إن بعض العلماء قال: إن هذه الآية منسوخة، وفي هذا إشكال أن تكون منسوخة.

أولًا: لأننا لا نعلم التاريخ، ومن المعلوم أن من شرط النسخ العلم بالتاريخ حتى نعرف أن هذا بعد هذا فيكون ناسخًا له، ثانيًا: من شرط النسخ أيضًا أَلَّا يمكن الجمع، فإذا أمكن الجمع فلا نسخ، لأنه إذا أمكن الجمع وقلت هذا منسوخ فإن هذا إلغاء للنص الآخر، وإلغاء النص الآخر ليس هينًا، يعني: أن تقول هذا بطل حكمه، وهو ثابت في القرآن والسنة ليس بهين، ولذلك لا يجوز الإقدام على دعوى النسخ إلَّا بدليل لا مفر منه، وأما متى أمكن الجمع فإنَّ القول بالنسخ محرَّم.

ثانيًا: أن سورة المائدة من آخر ما نزل، حتى قال بعض أهل العلم: إنه لا نسخ فيها، وأن جميع الأحكام الموجودة فيها محكمة لا منسوخة وهذا مشهور عند أهل العلم.

إذن دعوى النسخ غير صحيحة.

يبقى معنا الآن الجمع، والجمع جمع بعض العلماء بين هذا وبين الأمر بالقتال، أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سمح عن الذين خانوا وعن الذين نابذوه، أي: خفف عنهم العقوبة فلم يقتلهم عليه الصلاة والسلام، فبنو قينقاع، وبنو النضير، هل قتلهم الرسول ﷺ؟ لم يقتلهم، مع أنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ، وهذا نوع من العفو والصفح.

وبنو قريظة أيضًا عفا عنهم في الواقع؛ لأنه أنزلهم على حكم من رضوا حكمه، أنزلهم على حكم سعد بن معاذ، الذي اختاروه هم. وهذا نوع من العفو، وإلا كان الرسول وضع فيهم السيف، لأنهم خانوا النبي ﷺ، وألَّبوا الأحزاب عليه، ومع هذا أنزلهم على حكم «سعد بن معاذ» الذي رَضُوْهُ. وهذا نوع من العفو.

فتكون الآية الآن محكمة، ويكون المراد بالعفو، ليس العفو الكامل، الذي يقتضي عدم عقوبتهم بأي عقوبة، ولكنه عفو جزئي، ولا شك أن هذا خير من القول بالنسخ، بل القول بالنسخ مع إمكان الجمع محرم؛ لأنه يعني إبطال النص الذي ادُّعي أنه منسوخ.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ العفو: عدم المؤاخذة، والصفح: الإعراض عن الذنب بحيث لا يذكر؛ لأنك قد تعفو عن الإنسان ولكن تذكر ذنبه أحيانًا؛ لأن أصل الصفح معناه: تولية صفحة العنق، وهذا يقتضي أن الإنسان أدبر وترك الموضوع كأنه لم يكن، هذا تدرُّج من الأدنى إلى الأعلى، ولا يلزم من العفو الصفح، ولكن في الغالب أنه يلزم من الصفح العفو، مثال ذلك: رجل أساء إليك فعفوت عنه ولم تقتص منه، هذا عفو، فإن أعرضت ولم تتكلم فيما جرى منه أبدًا، فإن هذا يسمى صفحًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا كالتعليل لما سبق، أي: إنما أمرناك بالعفو والصفح؛ لأن الله يحب المحسنين، وفيه أيضًا: أنه إذا كان الله يحب ذلك فلا تتأخر في العمل به.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب، تؤخذ من (الفاء والباء) في أول الآية، لأنهما دَالَّا على السببية.

٢- **ومنها:** أنَّ نقض الميثاق سبب للعنة الله عز وجل، لقوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾.

٣- **ومنها:** أن اللعن عقوبة؛ لأن الله تعالى عاقب به من نقض الميثاق.

مسألة: هل يجوز لنا أن نلعن من لعنه الله ورسوله؟

الجواب: نعم يجوز لنا أن نلعن من لعنه الله ورسوله، لكن على سبيل العموم إذا جاءت اللعنة على سبيل العموم، وعلى سبيل الخصوص إذا جاءت اللعنة على سبيل الخصوص، فمثلًا: نقول

لعن الله المعتدين، لعن الله الظالمين وما أشبه ذلك، لكننا لا نخص شخصًا معينًا، حتى ولو كان من الظالمين، لأننا لا ندري بماذا يختم لهذا الرجل، فقد يختم له بالخير، حتى ولو كان كافرًا ومات على الكفر فإننا لا نلعنه؛ لأن هذا من باب سب الأموات، وقد أفضوا إلى ما قدموا، ولا فائدة من ذلك؛ لأنه إذا كان قد استحق اللعنة فهو ملعون. سواء لعنته أم لم تلعنه. وإن لم يكن يستحق اللعنة، بؤت بالإثم.

٤- **ومنها**: أنه كلَّما عصى الإنسان ربه، قسا قلبه؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، عكس ذلك أن نقول: كلما أطاع الإنسان ربه لان قلبه، وما أكثر الذين يريدون أن تلين قلوبهم ويسألون عن الدواء لقسوة القلب، فنقول: الدواء لقسوة القلب كثرة طاعة الله عز وجل.

٥- **ومنها**: أن للقلوب أحوالًا: قسوة ولين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٢٣].

٦- **ومنها**: أن المعاصي سبب لقلة الفهم - فهم كلام الله عز وجل - أو للعدوان في فهمه لقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ وتحريف الكلم عن مواضعه إما أن يكون سببه الجهل، وفقد العلم، وإمَّا أن يكون سببه الاستكبار والعدوان، وعلى كلِّ الجملة معطوفة على ما سبق، أو إنها حال من قوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ يعني: حالَ كونهم يحرِّفون الكلم عن مواضعه. المهم أن المعاصي سببٌ لعدم الأخذ بالنصوص، وسبب لتحريفها.

٧- **ومنها**: أن المعاصي سبب لنسيان ما ذُكِّر به الإنسان، وقد ذكرنا أن النسيان نوعان: نسيان علم ونسيان عمل. وهذا كله لا شك سبب، أما كون المعاصي سببًا لنسيان العلم، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، فإذا كانت الهداية سبب لزيادة العلم، فالمعصية سببٌ لنقصانه. أما كون المعاصي سببًا لنسيان الترك. فلقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، يعني: إن تولوا وأعرضوا فاعلم أن سبب ذلك هو أنهم أذنبوا، فأراد الله تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.

٨- **ومنها**: أن هؤلاء قد أقيمت عليهم الحجة، ولكنهم تركوا العمل بعد إقامة الحجة، لقوله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾.

٩- **ومنها**: أن قسوة القلب، وتحريف الكلم عن مواضعه، ونسيان ما ذُكِّر به الإنسان، من خصال اليهود، وإذا كانت من خصالهم فالواجب على الإنسان أن يبتعد عنها وأن يفر منها فراره من الأسد.

١٠- **ومنها**: أن خيانة اليهود لا تزال باقية، لقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وقد

سبق تفسير كلمة خائنة، ومَنْ تدبر تاريخهم عرف أنهم على ما وصفهم الله، لا يزالون خونة، وأنه لا يوثق منهم بوعد؛ إذ إنَّهم خونة.

إذا رأوا قوة في مقابلهم ضعفوا أمامها، وإن رأوا ضعفًا قووا أمامه، فهم يتبعون مصالحهم. ولا يبالون بوفاء الوعد أو عدم وفائه، لأنهم لا يزالون خونة.

١١- ومنها: أن من اليهود من طُهِّر من ذلك؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وهذا هو الواقع، فإن من اليهود من آمن برسول الله ﷺ، وشهد له بالحق وحَسُن إسلامه. وكان داعيةً لقومه.

١٢- ومنها: حسن معاملة الإسلام لعدوه، وذلك حين أمر الله بالعفو عنهم والصفح. ولاسيما إذا ظهر النصر لنا. فحينئذٍ يأتي دور العفو؛ لأن العفو الحقيقي الذي يُمدح عليه صاحبه هو العفو مع القدرة، أما العفو مع العجز فهذا ليس بعفو، ولا يحمد عليه الإنسان.

١٣- ومنها: إثبات المحبة لله؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومحبة الله - عز وجل - ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع السلف، والذوق المحسوس، فإن الإنسان يحس بمحبة الله عز وجل أي بأنه يحب الله ويعمل بطاعته، وكذلك أيضًا إذا أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، صار لله وليًّا وذاق طعم الإيمان.

١٤- ومنها: أن عدم المؤاخذة على الذنب من الإحسان، لقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فدل هذا على أن عدم المؤاخذة على الذنب يعتبر إحسانًا، وكثير من الناس لا يفهم من الإحسان إلا الشيء الإيجابي، يعني: الإعطاء، والصدقة، والهدية، والتبرع، وهو ليس كذلك.

الإحسان. يتضمن شيئين: إما إيصال المطلوب، وإما العفو عن مرهوب.

١٥- ومنها: الحثُّ على الإحسان، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد مر علينا أن الإحسان ينقسم إلى قسمين: إحسان في عبادة الخالق، وإحسان في معاملة المخلوق. فالإحسان في عبادة الخالق. بينه الرسول ﷺ في قوله: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١). والإحسان في معاملة المخلوق: هو أن تبذل له المعروف، وألَّا تعتدي عليه بما ليس بالمألوف، ومنهم من قال: الإحسان: بذل ندى وكف الأذى. وهذا بمعنى ما قلنا، ويدل على أن كف الأذى يعتبر من الإحسان هذه الآية.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ﴾ يعني: أخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ولم يقل من النصارى بل قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾،

---

(١) سبق تخريجه.

مع أنه في الآية الأخرى يثبت الله لهم هذا الوصف ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ [البقرة:٦٢]، وفائدتها إقامة الحجة عليهم، حيث يدَّعون أنهم نصارى وأنهم أهل نصر للحق، ومع ذلك نسوا حظًّا مما ذكروا به.

وقوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ إذن أخذ الله الميثاق من اليهود، وأخذ الله الميثاق من النصارى. وكذلك من هذه الأمة فإن الله تعالى أخذ منا الميثاق، كما قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧]، وقد أخذ الله الميثاق على بني آدم كلِّهم، أن يؤمنوا به وبرسله ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، أخذ الله الميثاق عن الذين قالوا إنا نصارى، فنسوا حظًّا مما ذكروا به.

﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ نسوا: أي تركوا، وهذا نسيان العمل، وهل يمكن أن يكون نسيان علم؟ لا يمكن، إن قلنا إن بني إسرائيل قد سقطت عنهم المؤاخذة بالنسيان، لأنه إذا كان سقطت عنهم المؤاخذة فإنهم لا يعاقبون. لكن إذا قلنا: إن عدم المؤاخذة في النسيان خاص بهذه الأمة، ثم إن قوله: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يتناول نسيان العلم، ونسيان العمل، ولا شك أن نسيان العمل أشد من نسيان العلم حتى على القول بأنهم يؤاخذون بنسيان العلم. وقوله ﴿حَظًّا﴾ أي: نصيبًا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ولم يذكر الله تعالى لهؤلاء النصارى ما ذكر لليهود؛ لأنه ذكر لليهود بأنه لعنهم وجعل قلوبهم قاسية وابتُلوا بتحريف الكلم عن مواضعه، ونسوا حظًّا مما ذكروا به، أما هؤلاء فيقول: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾، هذا هو العقاب، يقول عز وجل: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ أي: ألقيناها بينهم لكنه عبَّر بالإغراء، كأن كل واحد قد أُغرِيَ بالآخر من شدة العداوة بينهم، العداوة بالقول والفعل، والبغضاء في القلب، يعني: فلا موالاة بينهم ولا مودة. بل العداوة ـ التي هي ضد الولاية ـ والبغضاء ـ التي هي ضد المودة ـ إلى يوم القيامة. حتى إلى وقتنا هذا، فالنصارى مختلفون متعادون، ويضلل بعضهم بعضًا، ويكفِّر بعضهم بعضًا.

فإن قال قائل: نحن الآن نجد أن النصارى متفقون.

نقول: هذا الاتفاق، اتفاق ظاهري، وإلا ففي قلوبهم من العداوة والبغضاء ما لا يعلمه إلا الله.

ثم إنهم متفقون على عدو ثالث، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] فهم متفقون على عدو ثالث، وإلا فهم فيما بينهم مختلفون، وقلوبهم متنافرة، واعتداءاتهم ظاهرة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ نقول: العداوة الآن، والبغضاء بين النصارى، وبين طوائفهم لا شك أنها موجودة؛ لأن خبر الله صدق، وقد قال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

لكن ما نشاهده من الاتفاق الظاهري، فإنه مخالف لما في الباطن، ثم إن اتفاقهم الآن الظاهري ضد عدو للجميع، وليس هذا بغريب في مسائل الدنيا وسياستها.

ويوم القيامة مر علينا أنه اليوم الذي يبعث فيه الناس، وأنه سُمِّي بذلك الاسم لأمور ثلاثة:

الأول: أن الناس يقومون فيه لله رب العالمين.

الثاني: أنه يُقام فيه الأشهاد.

الثالث: أنه يُقام فيه العدل.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ سوف للتحقيق، لكنها تدل على التراخي، وأختها السين للتحقيق، لكنها تدل على الفورية، فإذا قلت: سيقوم زيد، فالمعنى أن يقوم الآن، وإذا قلت (سوف يقوم) يكون المعنى فيما بعد، لكن كلتاهما يدل على التحقيق، وأن الأمر محقق ولا بد من وقوعه، وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، أي: يخبرهم بما كانوا يصنعون، وإخباره سبحانه وتعالى بأنه ينبئهم تهديد؛ لأنه سبحانه إذا نبأهم بما صنعوا فما بعد ذلك إلا الجزاء بما يستحقون.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾، يعني: بما كانوا يعملونه من نسيان الحظ مما ذكروا به.

فوائد الآية:

١- **منها**: إقامة الحجة على الخصم بما يدعيه. لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢]، لأننا ذكرنا أن الحكمة من قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ دون قوله: ﴿إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾، فإقامة الحجة عليهم بما ادعوه، هم يدعون أنهم نصارى، ومع ذلك نسوا حظًّا مما ذكروا به.

٢- **ومنها**: أن الله سبحانه وتعالى، لم يُغفل أمةً من الميثاق الذي أخذه عليهم، لما ذكرنا أنه أخذ على اليهود وأخذ على النصارى، وأخذ على هذه أمة، وأخذ على جميع بني آدم.

٣- **ومنها**: أن إضاعة حق الله من أسباب إلقاء العداوة والبغضاء بين الناس، بمعنى أنك متى وجدت عداوة وبغضاء بين الناس فهذا بسبب إعراضهم عن دين الله؛ لقوله: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ والفاء للسببية.

٤- **ومنها**: أن العكس يكون بالعكس بمعنى: أن الناس إذا قاموا بطاعة الله واتفقوا عليها فإن الله يظهر بينهم المودة والمحبة والولاية.

٥- **ومنها**: التفريق بين العداوة والبغضاء، والعدواة ضدها الولاية والبغضاء ضدها المحبة،

وهناك فرق بين حبيب ليس وليًّا وبين حبيب هو ولي، وبين بغيض ليس عدوًّا، وبغيض هو عدو، لأن البغيض قد يعتدي عليك فيكون بذلك بغيضًا عدوًّا، وقد لا يعتدي عليك لكن يكرهك مثلًا فلا يكون عدوًّا.

٦- **ومنها:** إثبات يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وهو آتٍ لا محالة، لقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧].

٧- **ومنها:** تهديد هؤلاء النصارى، الذين نسوا حظًّا مما ذكروا به، وذلك في قوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

٨- **ومنها:** إثبات علم الله، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ لأنه لا إنباء إلا بعد علم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية، لقوله: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، فأضاف الفعل إليهم، والأصل أن الفعل إذا أضيف إلى أحد فإنه قائم به، مختار له، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله حتى في الحركات الإرادية يقولون هو مجبر، حتى لو أراد الإنسان أن يأكل أو يشرب يقولون: هو مجبر على ذلك، ولا شك أن قولهم هذا يخالف المحسوس والمعقول والمنقول.

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى، وإذا كان كذلك، فإن المراد بالكتاب هنا الجنس، وهو التوراة والإنجيل، وأضافهم الله تعالى إلى الكتاب، وسماهم أهلًا له؛ لإقامة الحجة عليهم ونفي العذر كأنه قال: يا أهل الكتاب أنتم أهل كتاب وعندكم علم، وعندكم معرفة. قد جاءكم رسولنا وأنتم تعرفون هذا الرسول كما تعرفون أبناءكم.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ يريد به محمدًا ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ الجملة حال من رسول، أي: حال كونه يظهر لكم كثيرًا مما كنتم تُخفون من الكتاب، والبعض الآخر يعفو عنه، فيبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب مما تقوم به الحجة عليكم، ويعفو عن كثير مما لا تدعو الحاجة إلى ذكره، ومن تدبر القرآن وجد فيه أخبارًا كثيرة عن بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١]، فهذا دأب أهل الكتاب.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يبين لكم حكمه؛ لأن الحاجة تدعو إليه، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، أي: يتركه ولا يذكره؛ لأنه لا حاجة لذكره.

ثم قال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾ ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ﴾ النور هل المراد به محمد ﷺ، أم المراد ما يحصل من الكتاب والسنة من الهُدى؟ المراد الثاني، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَكِتَٰبٌ﴾ معطوفًا على ﴿نُورٌ﴾ من باب عطف المُقتضِي على المُقتضَى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا﴾ فمحمد ﷺ أتى بالنور الذي هو الهدى الساطع اللامع الذي لا ظلمة معه.

وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ هو القرآن، وسمي كتابًا لأمور ثلاث:

أولًا: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

ثانيًا: أن مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ثالثًا: أنه مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وفعال بمعنى مفعول، كما جاء ذلك كثيرًا في اللغة العربية مثل فراش وبناء، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هل المراد مبين لغيره أو بيِّن بنفسه؟ المراد كلاهما، وذلك لأن (أبان) الرباعي، يُستعمل لازمًا ويُستعمل متعديًا. فتقول: أبان الصبحُ بمعنى بان، وتقول فلان أبان الحق، بمعنى أظهره، وإذا كانت الكلمة تُستعمل في معنيين فإنها تحمل عليهما، على الشرطين اللَّذين ذكرناهما

سابقًا: وهما ألا يتنافيان، وأن تكون تحتملها على السواء، وهنا الكلمة تحتمل هذا وهذا، مع أن بعضها لازم لبعض، فإنه إذا كان مبينًا لغيره فهو بين لنفسه.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ يهدي به: الباء هنا للسببية، والهداية هنا إن كان المراد به: بدلالته فالهداية هنا هداية دلالة، وإن كان المراد بذلك بقوله: ﴿بِهِ﴾ أي: باتباعه، فالهداية هداية توفيق ودلالة أيضًا.

وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ (مَن) مفعول أول، و﴿سُبُلَ﴾ مفعول ثان، و﴿رِضْوَانَهُ﴾ مفعول لـ ﴿اتَّبَعَ﴾، إذنْ المهدي هو مُتبع الرضوان، والذي هُدِيَ إليه هي سبل السلام، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي: تطلبه وابتغاه ورأى ما يرضي الله فقام به، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾، ولم يقل سبيل السلام، مع أن التعبير الغالب أنه يعبِّر عن طريق الإسلام بالإفراد، وعن طرق الضلال بالجمع، لكن هنا لما قال: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، تعين أن يكون المراد بالسبل هنا شرائع الإسلام، لأنه إذا كان متبعًا لرضوان الله فقد اهتدى وأسلم وآمن، لكن الإسلام له شرائع، وله سبل؛ فلهذا قال: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ وإضافة السبل إلى السلام من باب إضافة الشيء إلى مُسبَّبه أي: السبل التي يحصل بها السلام من النار، والسلام من الزيغ، والسلام من الشبهات، ويذكر هنا كل معنى تحتمله كلمة السلام، ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ أي الله عز وجل، والمراد بقوله: ﴿يُخْرِجُهُم﴾: مَن اتبع رضوانه وعاد إلي ﴿مَنِ﴾ بلفظ الجمع مراعاة لمعناها، لأن ﴿مَنِ﴾ لفظها مفرد، ومعناها قد يراد به الجمع، فصح أن يعود الضمير إليها مجموعًا، وهذه قاعدة في مَن سواء كانت اسمًا موصولًا أو اسم شرط، ويجوز أن تعيد الضمير إليها بلفظ الجمع باعتبار المعنى، وبلفظ الإفراد باعتبار اللفظ، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾، تجد أن الله تعالى أعاد الضمير إليها مرة بلفظ الجمع ومرة بلفظ الإفراد، وعاد مرة ثانية بلفظ الإفراد. ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ إفراد، ﴿يُدْخِلْهُ﴾ إفراد ﴿خَالِدِينَ﴾ جمع، ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ﴾ إفراد.

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وهنا المراد بالظلمات، ظلمات الجهل والشرك، والمعاصي، والفسوق، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ الإذن هنا المراد به الإذن القدري، والإذن القدري بمعنى المشيئة وبمعنى الإرادة، ويقابله الإذن الشرعي، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، معلوم أن الله أذن لهم قدرًا، لكنه لم يأذن لهم شرعًا، ومن الإذن الشرعي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾، ومن الإذن القدري هذه الآية: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فالإذن نوعان: إذن قدري، وإذن شرعي.

والفرق بينها:

أولًا: أن الإذن الشرعي لا يكون إلا فيما يرضاه الله عز وجل، والإذن القدري يكون فيما يرضاه وفيما لا يرضاه.

ثانيًا: أن الإذن الشرعي قد يقع وقد لا يقع. إذ إن الناس قد يمتثلون وقد لا يتمثلون. وأما ما أذن فيه قدرًا فلا بد من وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الهداية إذا تعدت (بإلى) فهي هداية دلالة، وعلى هذا فمعنى يهديهم إلى صراط مستقيم، يعني: يدلهم إليه. وهذا يعني فتح أبواب العلم لهم حتى يعلموا ما لم يكونوا يعلمونه من قبل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد عديدة منها:** خطابه لليهود والنصارى بـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقد يقول قائل: في هذا إكرام لهم وإعزاز لهم أن سماهم أهل الكتاب.

والجواب عن ذلك أن نقول: سماهم أهل الكتاب لا إكراما لهم، ولكن إقامة للحجة عليهم؛ لأن أهل الكتاب هم الذين يجب عليهم أن يكونوا أول عامل به، كما قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١].

إذنْ فالذين يطنطنون الآن ويريدون أن يُقَرِّبوا بين الأديان، ويقولون: إن الله سماهم أهل الكتاب، زعمًا منهم أو إيهامًا منهم أن ذلك من باب التكريم لهم، والرضى بما هم عليه. نقول: إن الله لم يخاطبهم بذلك تكريمًا لهم، وكيف يكون ذلك تكريمًا لهم والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠]؟! لكنه ناداهم بهذا الوصف، إقامةً للحجة عليهم، وأن تصرفهم أبعد ما يكون عن العقل؛ لأن أهل الكتاب يجب أن يكونوا أول من آمن به.

٢- **ومنها:** رفع شأن النبي ﷺ وذلك بقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾، فإن إضافة رسالته إلى الله، لا شك أنها شرف، وكل ما يضاف إلى الله فهو شرف، حتى الجماد لو أضيف إلى الله كان ذلك شرفًا له قال تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

٣- **ومنها:** أن محمدًا رسول الله ﷺ مرسل إلى أهل الكتاب؛ لقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، حتى أقسم النبي ﷺ أنه لا

يسمع به يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا أن كان من أصحاب النار[1]، فهو مرسل إليهم بالقرآن والسنة وإجماع المسلمين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن محمدًا رسول الله مبيِّن، فهو عليه الصلاة والسلام سراج منير، مبين للخلق، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، والتبيين الذي ذكره الله هنا يشمل تبيين اللفظ وتبيين المعنى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

٥ - **ومنها:** أن أهل الكتاب، أهل كتمان للعلم؛ لقوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٦ - **ومنها:** أن من كتم العلم من هذه الأمة ففيه شَبَهٌ باليهود والنصارى؛ لأن هذا هو دأبهم فمن كتم علمًا فقد شابههم في أقبح خصلة - والعياذ بالله -، وهي كتمان ما جاءهم من العلم.

٧ - **ومنها:** أن رسول الله ﷺ سكت عن أشياء من معايب أهل الكتاب لم يبينها لهم، فإذا قال قائل لماذا لم يبينها ويفضحهم؟

قلنا: فضيحتهم فيما بيَّن كافية، والسكوت عما لم يبين؛ لأن المصلحة تقتضي ذلك، وقد يكون في ذلك نوع من تأليف قلوبهم.

٨ - **ومنها:** أن ما جاء به محمد رسول الله ﷺ كله نور، إن تأملت أخباره استنرت به، وأحكامه كذلك، وهو نور في الطريق، يستنير به الإنسان في طريقه إلى الله عز وجل، وفي طريقه إلى معاملة عباد الله. وهو أيضًا نورٌ في القلب، فكل من تمسك بشريعة النبي ﷺ ازداد نورًا في القلب، وفراسة، واستنباطًا للأحكام الشرعية. وغير ذلك، وهو أيضا نور في الوجه؛ لأن المتمسك بشريعة النبي ﷺ لابد أن يؤثر ذلك عليه في مقاله وحاله وفعاله فيستنير وجهه، ولهذا تجد العلماء الربانيين، لهم في وجوههم نور يكاد يكون محسوسًا، أما المعنوي فمعلوم، حتى لو كان العالم الرباني جلده غير أبيض، فإنه يستنير وجهه. والنور شيء واللون شيء آخر، وهو أيضًا نور في القبر، فإن الإنسان إذا كان مؤمنًا ـ جعلنا الله منهم ـ يفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه من روح الجنة ونعيمها، وهو أيضًا نور يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢]، إذن فكلمة (نور) شاملة عامة في كل ما يمكن أن يكون فيه ظلمة، فالدين الإسلامي ينيره.

٩ - **ومنها:** أن القرآن مكتوب، وقد ذكرنا أنه مكتوب في المصاحف التي بين أيدينا، وفي اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة.

---

(١) سبق تخريجه.

١٠ - **ومنها،** أن القرآن الكريم مبين للأشياء، وأوضح ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وكلمة ﴿مُبِينٌ﴾ ذكرنا في التفسير أنه يصح أن تكون متعدية أو لازمة، فإن كانت لازمة فالمعنى أنه بيِّن بنفسه، وإن كانت متعدية فالمعنى أنه مبين لغيره، والقرآن لا شك أن بيانه بنفسه وإبانته لغيره هو وصفه.

إذا كان مبينًا وتبيينًا لكل شيء؛ ألا يتفرع عن هذا، أنه لا يليق بنا أن نعرض عن تدبره؟! بلى ويجب علينا أن نتدبره، وأول ما يرد علينا من المسائل نطلبها في كتاب الله. فإن عجزنا عن استبيانها في كتاب الله، ففي سنة رسول الله ﷺ، وسنة رسول الله ﷺ مُبيِّنةٌ للقرآن بأمر الله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فإذا لم يكن في القرآن ولا في السنة، وعجزنا عن إدراك الحكم الشرعي فيهما حينئذٍ إما أن نسأل أهل الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وإما أن نتوقف، وإن كان الإنسان أهلًا للاجتهاد فلا حرج عليه أن يجتهد، كالإنسان الذي لا يعرف القِبْلَة بنفسه، ولا أخبره بها ثقة فعليه أن يجتهد ويتحرى.

١١ - **ومنها،** أن الهداية بيد الله؛ لقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ ولهذا أدلة كثيرة، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾، والآيات في هذا كثيرة، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وإذا كانت من الله تفرع عن ذلك:

أولًا: ألَّا نسأل الهداية إلا من الله، وأن نلح على الله عز وجل بالهداية.

ثانيًا: أن نعلم أن أفعالنا لا نستقلُّ بها، بل هي بتوفيق الله فيكون فيها ردٌّ على القدرية، فإذا كان الله يهدي فمعناها أن لأفعالنا علاقة في هداية الله فيكون في ذلك رد على القدرية القائلين بأن الإنسان مستقلٌّ بنفسه وبعمله وبمشيئته وبقدرته.

مسألة: هل في الآية موافقة للجبرية؟

الجواب: ليس فيه موافقة: ففي قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أضاف الاتباع إليه؛ خلافًا للجبرية الذين يقولون إن الإنسان لا يُنسب إليه فعل.

١٢- **ومنها،** أنه كلما اتبع الإنسان ما يُرضي الله ازداد معرفة بشريعة الله، لقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، ومن أعرض عن رضوان الله، فإنه لا يُهدى سبل الله؛ لأنه ليس أهلًا للهداية، فعلى هذا نقول لأي طالب علم: أتريد أن يهديك الله ويرزقك علمًا؟

سيقول: نعم، نقول: عليك باتباع رضوان الله، فكلما رأيت شيئًا يرضي الله فافعله، وكلما رأيت شيئًا يُغْضِبُ الله فاجتنبه.

١٣ - ومنها: إثبات الرضا لله؛ لقوله: ﴿رِضْوَانَهُۥ﴾، والرضا صفة فعلية من صفات الله عز وجل، تتعلق بمشيئته ولها سبب، وسببها عمل العبد بتوفيق الله، وكل صفة من صفات الله يكون لها سبب فإنها من الصفات الفعلية، وذلك لأن السبب واقع بمشيئة الله، والصفة التابعة له تكون تابعة بمشيئة الله، فالرضا والغضب والفرح والضحك والعجب وما أشبهها كلها من الصفات الفعلية.

ورضا الله عز وجل غير رضا المخلوق؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] هذا دليل أثري، وأما الدليل العقلي: أنه إذا كانت ذات الرب عز وجل لا تماثل ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته، لأن القول في الصفات فرعٌ عن القول في الذات.

هذا ما عليه أهل السنة، وقالوا ليس لنا أن نتحكم في كلام الله ورسوله، بمقتضى أفهامنا ولا أقول عقولنا، لأن عقولنا تقتضي التبعية للكتاب والسنة، وهؤلاء المعطلة كما قال شيخ الإسلام: (أوتوا فهومًا وما أوتوا علومًا) [1]، عندهم فهم، ولكن ما عندهم علم. ولا عندهم عقل، (وأوتوا ذكاءً، وما أوتوا زكاءً)، أما أهل السنة فيؤمنون بهذه الصفات ويؤمنون بأنها لا تماثل صفات المخلوق، وأهل التعطيل يقولون: لا، لا نؤمن بها؛ لأن هذه صفات نقص. والرضا صفة نقص، والمحبة صفة نقص، والغضب صفة نقص. فيجب أن نفسرها بلازمها، أو نسكت ونقول: لا نعلم معناها، فهم لا يتجاوزون أحد الطريقين: إما أن يعطلوا وإما أن يفوِّضوا ـ التفويض المعنوي وليس الكيفي ـ.

وفي ذلك يقول صاحب «الخلاصة»:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا ... فَوِّضْهُ أَوْ أَوِّلْ وَرُمْ تَنْزِيهَا

والواقع أن هذا ما نزَّه الله، بل على العكس؛ نحن نقول: الرضا صفة ثابتة لله عز وجل، تستلزم الإثابة والإكرام، هم يقولون: لا، الرضا هو الإثابة والإكرام، وعُبِّر عنه بسببه الملازم له، فنقول: يا ويل الإنسان أن يسمع كلام الله يقول عن نفسه إنه يرضى، وهم يقولون: لا يرضى، إنه ليس له رضًى وليس له غضب وليس له فرح، كيف لا يكون وهو الذي أخبر عنه نفسه؟! ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] كيف يصف نفسه بما ليس متصفًا به؟! وهو الذي يقول لعباده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٩).

﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وهل هذا إلا إلغاز أن يتكلم بكلام سبحانه وتعالى وهو خلافه؟! هذا إلغاز وتعمية، ولو أن المعطل فكَّر قليلًا، لوجد أن تعطيله من أكبر العدوان في حق الله عز وجل.

نحن نقول: الإثابة ناتجة عن الرضا وهي دليل عقلي على الرضا، لأن من أثابك يدل على أنه راضٍ عنك، فسبحان الله تجد أن أهل الباطل سواء كان في المسائل العملية أم العلمية متناقضين، وعلى هذا فالقاعدة الأصيلة الرصينة: أن تثبت ما أثبته الله لنفسه في القرآن والسنة هذا أولًا. وثانيًا: أن تنفي عنه مماثلة المخلوقين، وبذلك تَسْلَم، أما أن تؤول ـ والحقيقة أما أن تحرف ـ فهذا ضلال.

ومن الضلال أن تفوِّض بأن تقول: لا أدري الرضا ما هو، أو تقول: أنا أقرأ القرآن ولا أتكلم في شيء هذا أيضا شرٌّ عظيم حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : (إن مذهب المفوضة من شر أقوال أهل البدع والإلحاد) وصدق رَحِمَهُ اللهُ ، فإنك إذا تأملت قول المفوضة، عرفت أنه كفر وإلحاد.

كيف يُنزِّل الله علينا قرآنًا، أشرف ما فيه أن نعلم بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، ثم لا نجد سبيلًا إلى فهم المعنى، ونجعلها عندنا بمنزلة ألف باء تاء ... إلخ. وكيف يليق برجل مؤمن أن يقول ما قصَّه الله علينا عن فرعون وهامان وقارون معلوم محض، وما قص علينا عن نفسه غير معلوم؟! أي فائدة لنا في القرآن، ما دام ليس معلومًا؟! فإننا بذلك لن نستفيد منه، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي: إلا القراءة، معناه أنه ليس لنا حظ ولا نصيب إلا مجرد قراءة.

على كل حال عقيدتنا هذه: أن نؤمن بكل ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو السنة من غير تمثيل، وبذلك نسلم في عقيدتنا.

١٤ - **ومنها**، أن طرق السلامة كثيرة ومتعددة، لقوله ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ فمثلًا أركان الإسلام خمسة، كل واحد سبيل، وأبواب الجنة ثمانية، وكل باب له أناس مختصون به، إذنْ هناك سبل وهناك أبواب، والمراد بذلك الشرائع، وأما الإسلام جملة فهو سبيل واحد.

١٥ - **ومنها**، أن من سلك طريق الشريعة فقد سلم، يؤخذ هذا من قوله: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ سلم بكل معنى الكلمة، سلم في عقيدته، وفي أعماله، وفي جزائه، لأنه سيؤدي به هذا المسلك إلى دار السلام التي يدعو الله إليها في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥].

١٦ - **ومنها**، الردُّ على القدرية الذين يقولون: إن الله لا علاقة له بأفعال العباد؛ فالآية صريحة:

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

١٧ - **ومنها**: أن المعاصي ظلمات، والكفر والشرك أعظمها ظلمًا. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، والافتراء على الله كذبًا من أعظمها ظلمًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصف:٧]، ومنع المساجد أن يُذكر فيها اسم الله، من أعظمها ظلمًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، المهم: أن المعاصي كلها من الظلمات، والجهل أيضًا ظلمة؛ لأنه يُعَمِّي على الإنسان الطريق ولا يدري أين يذهب؟ وأين يرجع؟ وكيف يعمل؟ وكذلك أيضًا من الظلم - ظلم العباد - العدوان عليهم في أموالهم أو أبدانهم، أو أعراضهم.

١٨ - **ومنها**: أن الشريعة نور، وهي كذلك لا شك، ولا يحس بذلك إلا من آتاه الله تعالى إيمانًا ويقينًا كاملًا. كلما كمل الإيمان إزداد الإنسان نورًا وتبين له نور الشريعة.

١٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الإذن لله عز وجل، الذي هو الإرادة، وهو نوعان: إذن شرعي وإذن كوني، فالإذن الشرعي ما شرعه الله عز وجل، فكل ما شرعه الله فقد أَذِنَ فيه شرعًا، ولا يلزم من الإذن الشرعي وقوع ما أَذِن الله به، والإذن القدري أو الكوني هو ما أراده الله عز وجل وهذا الإذن لابد أن يقع؛ لأنه إرادة الله سبحانه وتعالى، فهنا بإذنه: الإذن القدري؛ لأن إخراجهم من الظلمات إلى النور يتعلق بالربوبية بالقدر.

٢٠ - **ومنها**: أنه كلما تمسك الإنسان بشريعة الله هداه الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهذا له شواهد كثيرة في القرآن. أن المعاصي سببٌ للزيغ، وأن الطاعة والامتثال سبب للهداية والرشد، وهذا له أمثلة كثيرة في القرآن ولا حاجة إلى استيعابها. لأنها تمر كثيرة.

٢١ - **ومنها**: أن الطُّرق منها المستقيم ومنها المعوجُّ، فطريق الله تعالى مستقيم، وما سواه من الطرق فإنه معوج ليس فيه قيام ولا يوصِّل إلى نتيجة؛ لأنه معوج.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا يخفى أن الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي: اللام، وقد، والقسم المقدر؛ لأن قوله ﴿لَقَدْ﴾ يقدر بقولك: والله لقد.

إذا قال قائل: ما الذي أعلمكم أن هناك شيئًا محذوفًا وهو القسم؟

نقول: أعلمنا ذلك ربنا عز وجل، لأن الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، واللسان العربي كلما جاءت مثل هذه الصيغة فهي مُقدَّرة بقسم، وعلى هذا فيكون الذي دلنا على ذلك هو كلام الله عز وجل.

قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هؤلاء هم النصارى بنص القرآن: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ (هو) ضمير فصل وهو يفيد ثلاثة أشياء: الأول: الحصر، الثاني: التوكيد، والثالث: التمييز بين الصفة والخبر، وهذا الأخير أحيانًا يُستغنى عنه ويعرف الخبر بدونه، لكن يؤتى به، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠] فهنا ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل لأن ما بعدها جاء منصوبًا وإلا كان مرفوعًا، ونحن لا نحتاج إليه من حيث التمييز بين الصفة وبين الخبر، لأن الضمائر لا تُنعت ولا يُنعت بها، وهنا لا يمكن أن تكون ﴿الْغَالِبِينَ﴾ نعت للواو من وجهين، وهما أولًا: للقاعدة التي ذكرنا وهي أن الضمائر لا تنعت ولا يُنعت بها، والثاني: أن ﴿الْغَالِبِينَ﴾ منصوبة والواو مرفوعة، ولا يمكن أن تكون نعتًا لها.

هنا قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكدوا تأكيدًا بهذا الضمير أنه المسيح بن مريم، ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون ـ فكيف يكون الله هو المسيح ابن مريم، وابن مريم مخلوق وليس بخالق والخالق هو الله، فكيف يكون الخالق عين المخلوق؟! هذا مستحيل عقلًا كما هو مستحيل شرعًا، هم أيضًا قالوا: إن المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله.

وقوله: ﴿الْمَسِيحُ﴾ بمعنى الماسح، والمسيح الدجال بمعنى الممسوح. المسيح هنا بمعنى الماسح، قال العلماء: لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ بإذن الله. قال الله على لسانه: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩] فسُمِّي مسيحًا، أما المسيح الدجال، بمعنى ممسوح، لأن عينه ممسوحة حيث إنه أعور، وأما من استحب من العلماء رحمهم الله وعفا عنهم أن يقال في المسيح الدجال: المسيخ ـ بالخاء المعجمة ـ لأنه ممسوخ، وفي عيسى بن مريم المسيح، هذا خطأ، لأن النبي ﷺ علَّم أمته أن يقولوا: «أَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَعَذَابِ القَبْرِ،

وَمِنْ فِتْنَةِ المحْيَا والمَمَات، وَمِنْ فِتْنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ»[1] فهو ﷺ أعلم منهم بذلك ومع ذلك سماه المسيح.

وقوله ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أضافه إلى أمه، لأنه ليس له أبٌ، وسيأتينا في الفوائد إن شاء الله، أن من ليس له أب يضاف إلى أمه. ومريم ابنت عمران، أخت هارون، ولكن ليس هارون النبي، لأنهم كانوا يُسَمَّون بأسماء أنبيائهم، وإلا فبينها وبينه زمن بعيد.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد لهؤلاء، ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هذه حجة دامغة، من يملك من الله إن أراد أن يهلكه، إذنْ فالمسيح ابن مريم مربوب، مقدور عليه، يقدر الله على أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعًا، فكيف يكون هو الله عز وجل؟! هذا لا يمكن.

والدليل على ذلك: أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حاول اليهود أن يقتلوه، وبالفعل دخلوا وقتلوا من ألقى الله شبهه عليه. وقالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم.

وقوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ﴿يَمْلِكُ﴾ بمعنى يمنع أي: من يمنع شيئًا أراده الله ـ إن أراده ـ الإرادة الكونية القدرية أن يهلك المسيح ابن مريم، أي: يتلفه بعد ما كان موجودًا، المسيح ابن مريم الذين قلتم إنه هو الله، وأمه أيضًا التي أتت به، فيهلك الفرع والأصل، فالله تعالى لو أراد أن يهلك المسيح عيسى الذي زعمتم أنه الله، وأصله الذي هي أمه، ومَنْ في الأرض جميعًا لا يملك أن يمنع الله، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل:٦١]، والقادر على أن يبعثهم بكلمة واحدة كلهم يوم القيامة قادر على أن يهلكهم بكلمة واحدة، ولا أحد يرده، ولا أحد يملك منه شيئًا.

وقوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ هذه حال من المسيح وأمه ومن في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: يهلكهم كلهم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل ما في السموات والأرض، كل ما نشاهده فهو مملوك لله، وإذا كان مملوكًا لله، تعذر أن يكون هو الله، فاستدل الله عز وجل على أن المسيح ليس الله بأمرين:

الأول: أن المسيح لا يملك أن يدفع شيئًا عن نفسه لو أراد الله أن يهلكه.

الثاني: أن كل شيء في السماء والأرض ملك لله، فكيف يكون عيسى هو الله. وكيف يكون المملوك مالكًا؛ هذا مناقض للعقل والفطرة.

والسموات سبع، والأرض سبع، السموات بنص القرآن سبع ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

---

(١) رواه البخاري (٧٩٨)، ومسلم (٥٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، لكن الأرض ليس في القرآن تصريح بأنها سبع ولكن في القرآن ما يدل على أنها سبع، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، لو أردنا أن نقول: المماثلة في الوصف المماثلة في الكِبَرِ المماثلة في العظم، لكذبني الله؛ إذ لا يُقارن بين السماء والأرض، إذنْ امتنعت الكيفية وتعينت الكمية فيكون المراد بقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد، وجاءت السنة صريحة في أنها سبع أرضين، كما في قوله ﷺ: «مَن اقْتَطَعَ مِنَ الأَرْضِ شِبْرًا بِغَيْرِ حَقٍّ طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِين»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين السماء والأرض، فلو قال قائل: لماذا جعل الله تعالى ما بين السماء والأرض عديلًا للسماء والأرض؟

قلنا: لأن بين السماء والأرض من الآيات العظيمة ما جاز أن يكون قسيمًا للسموات والأرض وعديلًا لها، ولهذا جاء القرآن الكريم كثيرًا ما يقرن بين السماء والأرض.

ثم قال عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، هذا دليل ثابت، لأن النصارى البلهاء الضُّلَّال، قالوا: الله هو المسيح بن مريم؛ لأنه خلق بدون أب، وافتدى بنفسه جميع الخلق على زعمهم، أن الخلق كانوا مستحقين للعذاب والعقوبة وأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام افتدى الخلق بنفسه، وصبر على القتل وعلى الصَّلب، فاستحق أن يكون إلهًا لهم.

يقول عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وإذا كان يخلق ما يشاء فمن الذي يحجر عليه أن يخلق شخصًا من أُمٍّ بلا أب؟! فهو يخلق ما يشاء. خلق الله آدم بلا أم ولا أب. وخلق حواء من أب دون أم، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق بقية البشر من أم وأب، إن الله على كل شيء قدير.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبقدرته خلق عيسى من أم بلا أب.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** التصريح والتأكيد بكفر من قال: إن الله هو المسيح بن مريم، وهم النصارى، فما بقي شك في أن النصارى كفار. ومن قال: إنهم غير كفار وإنهم مؤمنون فإنه كافر - إن علم ما جاء في القرآن والسنة من كفرهم -؛ لأن لازم قوله هذا تكذيب الله ورسوله.

وما أدري أيداهنون النصارى، من أجل أنهم أقوياء ماديًّا، وينسون من أقدرهم على هذه المادة؟ فكيف يخشونهم ولا يخشون الله؟! كيف يداهنونهم ويبسطون لهم الأرض ويفرشون لهم الورود، ويقولون: أنتم مؤمنون بالله واليوم الآخر وأنتم على دين ونحن على دين، واليهود على دين، وكأن الخلاف الذي بيننا وبين النصارى كالخلاف الذي بين أحمد بن حنبل ومحمد بن

(١) رواه مسلم (١٦١٠)، وأحمد في مسنده (٩٥٧٩).

إدريس! وهذه راجفة على بعض الناس حتى إنه راج أنه لا يجوز قتل المرتد؛ لأن هناك اختيار يختار الإنسان من دينه ما يشاء، ولا إكراه الدين، فهذا انقلاب ـ نسأل الله العافية ـ وهذا أشد من التفسخ الخلقي، لأن هذا يعود على العقيدة وعلى ألا نتبرأ منهم، والله تعالى يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

بل نكفِّرهم ونقول فيهم ما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1] ونقول: إن آمنوا بمثل ما آمنا به فقد اهتدوا، وإلا فهم على ضلال، لكننا في الحقيقة لا نستطيع الآن أن نقاتلهم، لأسباب كثيرة. منها: أننا ليس عندنا حصيلة إيمانية توجب أن نقاتلهم، فالإيمان ضعيف في عامة المسلمين، ثانيًا: ليس عندنا حصيلة استقامة على دين الله ـ على العبادات ـ أين من يصوم النهار ويقوم بالليل؟ كثير من المسلمين لا يصلون الصلاة في وقتها، وكثير من المسلمين لا يصلون الصلاة أبدًا ولا يعرفون كيف يتوضئون!! الثالث: أنه ليس عندنا غَيْرة دينية بمعنى أننا نقاتلهم من أجل الدين، كثير ممن يقاتلونهم يقاتلونهم من أجل الأرض. أو لآثار حسية كآثار الجاهلية، لا يقاتلونهم من أجل أن يقيموا دين الله على أرض الله، وتأمل هذا تجده واضحًا، وهناك أسباب أخرى تظهر للمتأمل. لكن لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نداهنهم في دين الله؛ لأنهم يودون لو ندهن فيدهنون قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، لكن يأبى الله عز وجل إن شاء الله تعالى أن نداهنهم في دين الله أبدًا.

نسالمهم ما دمنا ضعفاء، وإلى أن يأذن الله لنا بالقوة، ويأذن لهم بالضعف، وأما مسألة الدين فلا يمكن إطلاقًا أن نبيع ديننا لهم ولا لغيرهم، ولا يحل لنا هذا.

لكن مع الأسف أنه وجد الآن من يحطمون الدين باسم الدين، فيقولون: الدين الإسلامي دين التسامح، دين المحبة... إلخ، وهذا ليس بصحيح، فالتسامح يكون مع من؟ مع إخواننا المسلمين، أما غيرهم فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣]، لكن من مد إلينا يد المسالمة مددنا إليه يد المسالمة إذا كنا عاجزين عن المقاومة، لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، أما الدين فلا نرضى أن يُصاب بشيء أبدًا، بل نقول: دين الإسلام دين خاص يمتاز عن غيره، لأنه يؤمن بجميع الأديان أنها حق من عند الله لكنها منسوخة بالإسلام.

---

(١) سبق تخريجه.

بعض الناس الجهال، يقولون: إن اليهود يؤمنون بموسى والنصارى يؤمنون بعيسى وموسى أيضًا، ثم يقول كلٌّ يؤمن بنبيه، نقول: اقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١] أكد الله كفرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، هؤلاء النصارى واليهود الآن يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فاليهود يدعون أنهم مؤمنون بموسى والنصارى يدعون أنهم مؤمنون بعيسى. ويكفرون بمحمد ﷺ الذي قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ يخاطب الأنبياء ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فإذا كان أنبيائهم قد أُخذ عليهم العهد أن يؤمنوا بمحمد ﷺ فهم من باب أولى، ومع ذلك يكفرون بمحمد ﷺ ويقولون نحن مؤمنون، ثم نقول لهم: أنتم في الحقيقة ما آمنتم بالرسل؛ لأن محمدًا ﷺ موجود في التوراة والإنجيل مكتوبًا عندهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

بل قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠] ومع ذلك كفروا. فكيف نقول هؤلاء مؤمنون؟! ثم نقول: إن الله تعالى حكم على كل إنسان كفر برسول أنه كافر بجميع الرسل حتى بمن لم يأتِ من الرسل فهو كافر به. قال الله تعالى في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] وقوم نوح ما بعث إليهم رسولًا قبل نوح ومع ذلك قال الله: إنهم كذبوا المرسلين، فهؤلاء الذين يدَّعون أنهم مؤمنون بموسى وبعيسى، نقول: أنتم اليوم كافرون بموسى وعيسى، كافرون الكفر العام والخاص، أما العام: فكل من كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل، أما الخاص: فإن رسلكم جاءت كتبهم صريحة بأن محمدًا رسول الله حقًّا، وعرفتموه كما تعرفون أبناءكم.

فيجب علينا أن نقاوم هذا الفكر الباطل مقاومة تامة بقدر ما نستطيع، هذا جهاد ليس بالسيف ولكنه جهاد بالفكر والرأي، ولا يجوز السكوت عنه إطلاقًا.

فالحاصل: أن هذه الآية الكريمة كفَّر الله تعالى فيها كفرًا مؤكَّدًا من قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الثناء على عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. بكون الله وصفه بأنه المسيح، والمسيح علم لقب، أما اسمه العلم بلا لقب فهو عيسى.

٣ - **ومنها**: جواز انتساب الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب، يتضح ذلك في قوله: ﴿ٱلْمَسِيحُ

ﵟٱبۡنُ مَرۡيَمَﵞ وأخذ المحققون من أهل العلم، أن من ليس له أب فإن عصبته أمه إذا لم يكن له عصبة؛ لأنه نُسب إليها وجعلت بمنزلة الأب. أما إن كان له عصبة فأمه تأخذ فرضها والباقي لعصبته. فإذا كان هناك ابن لامرأة ليس له أب، فإما أنه ولد زنا أو أن أباه نفاه والتعن لنفيه، ثم تزوج وجاءه أبناء، فأمه هنا ليس لها إلا فرضها وهو السدس والعاصب هنا أبناؤه، أما لو مات هذا الابن عن أمه وإخوانه من أمه، فإخوانه من أمه يأخذون فرضهم، إن كان واحدًا فالسدس، وإن كانوا أكثر فالثلث، وأمه تأخذ الفرض والباقي تعصيبًا؛ لأنها بمنزلة الأب.

وهذا القول هو الراجح: أن من ليس له أب، فعصبته أمه.

فإن قال قائل: إذا كان للإنسان أب فهل يجوز أن يُنسب إلى أمه؟

الجواب: إن كان المراد الانتساب المطلق فهذا لا يجوز. وإن كان الانتساب بأنه اشتهر بها، لكنه معروف أنه ولد فلان، فهذا لا بأس به. فمثلًا عبد الله بن بُحينة، وبُحينة اسم أمه، واسم أبيه مالك، ومع ذلك يُطلق عليه هذا الاسم، كما نقول أيضًا في الانتساب إلى الجد: إذا كان للجد شُهْرة والانتساب إليه يعد شرفًا، دون أن ينقطع الانتساب إلى الأب، فلا بأس بذلك، ومنه قول النبي ﷺ عام حنين: **«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِبْ»**[1] صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن عبد المطلب أشهر من عبد الله في قومه وهو سيد معروف، فلا بأس، لكن بشرط ألا يُنسى الأب، أما إذا نُسي فلا يجوز؛ لأنه يترتب على هذا مسائل حُكْمية.

٤ - **ومنها**، شدة الردِّ على النصارى؛ حيث قال الله عز وجل: ﵟٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥﵞ، وهذا المسيح الذي يرونه إلهًا يقول الله عز وجل: إنه لو أراد أن يهلكه لما استطاع أحد أن يمنعه، وهذا لا شك أن فيه صدمة قوية على النصارى أن يُقال في معبودهم وإلههم: إن الله تعالى قادر على أن يهلكه وإذا أراد أن يهلكه فلا يملك أحد منعه.

٥ - **ومنها**، أنه إذا أراد الله شيئًا فإن الشرف والجاه والرئاسة - ولو في الدين - لا تمنع مما أراد الله، لأن المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك يقول الله عز وجل: ﵟقُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاﵞ.

٦ - **ومنها**، أن نساء أهل الكتاب ولو كانوا كفارًا لكنهم منتسبون إلى أهل الكتاب حلال، خلافًا لمن قال من العلماء: إنهم بعد أن بدلوا وغيَّروا وأشركوا فنساؤهم حرام، والصواب: أن نساءهم حلال ولو كانوا قد بدلوا وغيروا وكفروا وأشركوا، كطعامهم.

(١) رواه البخاري (٢٧٧٢)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء ﷺ.

٧ - **ومنها:** الردُّ على أهل الباطل بالأدلة السمعية والعقلية؛ لأن الله رد عليهم بأدلة سمعية عقلية.

٨ - **ومنها:** بيان كمال سلطان الله عز وجل، وأنه لا أحد يمنعه مما أراد؛ لقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٩ - **ومنها:** أنه عند المناظرة ينبغي أن تبدأ بأول ما يحتج به المناظر، وأنه على خلاف ما ناظر عليه، وجهه: أن الله بدأ بذكر إهلاك المسيح وأمه الذي يعتقد هؤلاء أنه إله.

١٠ - **ومنها:** عموم ملك الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١١ - **ومنها:** اختصاص هذا الملك بالله، لقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾، ووجه الدلالة: أنه قدَّم الخبر، ومن القواعد المقررة عند أهل البلاغة، وأهل الأصول:أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

فإن قال قائل: إن الله قد أضاف الملك إلى غيره في غير ما آية من كتابه فما الجمع؟

قلنا: إن من أضاف الله إليه الملك فإنه مُلك قاصر من جميع الوجوه. مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور:٦١]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور:٣٣] والآيات في هذا متعددة. فيقال: الـمُلْكُ المضاف إلى المخلوق ليس كملك الله عز وجل، بل هو ملك قاصر، لا يشمل كل مملوك، وهو أيضًا قاصر في التصرف فيه؛ إذ إن الإنسان لا يملك التصرف كما يشاء فيما هو ملكه، فلو أراد الإنسان أن يتلف ماله، وقال هذا ملكي وأنا لي أن أتلفه، قلنا: حرام عليك ليس لك أن تتلفه، لأن الشرع نهى عن إضاعة المال، ولو أراد أن يعتدي على ملك غيره، لقلنا: لا يمكن، لأن ملكك مقصور، وبهذا نعرف أن الملك التام هو ملك الله عز وجل.

١٢ - **ومنها:** الإشارة إلى أن ما بين السماء والأرض فهو خلق عظيم، حتى جعله الله تبارك وتعالى قسيمًا للسموات والأرض، ودليله قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

١٣ - **ومنها:** أن الله تعالى له المشيئة المطلقة، لقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وقد فسر الله تعالى هذا في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] وهذا من جملة كمال ملكه وتمام خلقه.

١٤ - **ومنها:** أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأنه إذا كان الله مالك للسموات والأرض وما بينهما

وهو خالق ما يشاء، فالإنسان مما في السموات والأرض فتكون أفعاله مخلوقة لله.

١٥ - **ومنها**: بيان عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والقدرة أن يفعل الفاعل ما أراد بدون عجز، وثَم شيئان: قدرة وقوة وبينهما فرق، فالقوة: تكون من ذوي الإدراك وغيرهم، فيقال: الحديد قوي، ويقال: فلان قوي، وأما القدرة فلا تقال إلا فيمن له إدراك، إذ لا يقال عن الحديد مثلًا إنه قدير، ثانيًا: أن القدرة ضدها العجز، والقوة ضدها الضعف، وهي من هذه الناحية أخص من القدر، لأنه ليس كل قادر قويًّا، قد يكون الإنسان يقدر على أن يحمل هذا الشيء فوق ظهره، لكن مع التعب والمشقة. هذا نقول: إنه قادر ولا نقول إنه قوي. وإذا أخذه بسهولة ولم يتعب منه قلنا: إنه قوي. ويلزم من قوته أن يكون قادرًا.

١٦ - **ومنها**: الدليل على أن القدرة تتعلق بكل شيء فهو على كل شيء قدير من إيجاد المعدوم وإعدام الموجود وتغيير الشيء وتحويله إلى شيء آخر، والهداية والإضلال وغير ذلك. كل شيء فهو قادر عليه، ويتفرع من القدرة على الشيء أن يكون عالمًا به، لأنه لا يمكن أن يفعل شيئًا مع القدرة إلا وهو عالم به. فتكون هذه الصفة متضمنة لصفة العلم، ومعلوم أنها متضمنة لصفة الوجود ومتضمنة لصفة الكمال، لأن بعض الصفات يستلزم صفات أخرى.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٨-١٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ اليهود أتباع موسى الذين يدعون أنهم متبعون له، والنصارى أتباع عيسى الذين يدعون أنهم متبعون له. قالوا عن أنفسهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ولا يريدون أنهم أبناء الله بنوة الولادة، لأنه ما ادعى أحد منهم بذلك، غاية ما هنالك أن اليهود قالوا: عزير بن الله والنصارى قالوا: المسيح بن الله، لكن الأبناء

هنا من باب المبالغة في المحبة والمودة أي أننا كأبنائه في مودته لنا وشفقته علينا وإكرامنا وإعزازنا وما أشبه ذلك.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَأَحِبَّتُوُهُ﴾ من باب عطف الصفة الأعم على الصفة الأخص، وإن كان بعض المفسرين قالوا: من باب عطف المرادف على مرادفه، لأن المرادف للأبناء هم الأحبة، لكن ما ذكرناه أولى، لأن الأصل في المتعاطفين هو التغاير، والتغاير إما في الذوات وإما في الأوصاف، فإذا قلنا أبناء الله يعني كأبنائه في الشفقة والحنو والإعزاز وما إلى ذلك، قلنا: إن أحباءه من باب عطف المعنى الأعم على المعنى الأخص.

قال الله تعالى مُفندًا دعواهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، فهنا أبطل الحجة قبل أن يذكر الرد، وهكذا ينبغي في المناظرة أن تُبطل حجة الخصم، ثم يؤتى بما يثبت خلاف قوله، وهنا قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ وهذا يتضمن الشيئين السَّابقين بما ينافي أن يكونوا أحبة وأبناءً:

الأول من جهة البنوة: أنهم أذنبوا، والأصل في الابن ألا يكون مذنبًا في جانب والده، بل يكون سميعًا ومطيعًا له، لا عاصيًا مُذنبًا.

الثاني من جهة الأبوة: التعذيب، والتعذيب منافٍ لدعواهم أن الله أبٌ لهم، أو أنه حبيبهم، لأن العادة أن المحب يعفو ويصفح عن حبيبه إذا اعتدى أو أذنب أو ما أشبه ذلك.

فهنا نقض الله تعالى دعواهم ثم احتج عليهم بعد أن أبطل حجتهم فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، وبل هنا للإضراب الإبطالي. والبشر هم بنو آدم، وسُمُّوا بشرًا لأن أبشارهم بادية بخلاف بقية المخلوقات فغالبها أن أبشارها غير بادية.

وبنو آدم أبشارهم بادية لحكمة عظيمة، ولذلك تجدهم مفتقدين إلى اللباس، شتاءً وصيفًا، وحياءً وخجلًا، فأراد الله عز وجل أن يجعل أبشارهم بادية حتى يعرفوا أنهم مضطرون إلى ستر هذه العورة، وإلى فعل ما يقوون به أنفسهم من الأذى، إشارة إلى أنه كما أنهم مستحقون لهذا حسًّا فهم مستحقون له أيضًا معنًى، فليلبسوا لباس التقوى حتى يتقوا به النار كما يلبسون لباس الجلود حتى يتقوا بها من الأذى، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: من سائر المخلوقات.

ثم قال عز وجل: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يغفر لمن يشاء أن يغفر له، فيوفقه لفعل أسباب المغفرة، وإنما قلنا ذلك؛ لأن لدينا قاعدة مهمة وهي: أن كل فعل قرنه الله بالمشيئة فلا بد أن يكون موافقًا للحكمة، لأن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة، ترجح شيئًا على شيء بدون سبب، وعلى هذا فقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: من اقتضت حكمته أن يغفر له، وهو التائب من الذنب. وكذلك من منَّ الله عليه بالمغفرة بدون توبة وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من شاء أن يعذبه بأن فعل ما يقتضي التعذيب، وليس الأمر مجرد مشيئة، لأن الله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، ظلمًا بزيادة السيئات، وهضمًا بنقص الحسنات. وعلى هذا فيكون التعذيب المقرون بالمشيئة مقيدًا بما إذا اقتضت حكمة الله أنْ يُعذِّبَهُ، ومن ذلك أنتم أيها اليهود والنصارى فقد شاء الله تعالى أن يعذبكم، وفعلًا عذَّبكم بذنوبكم لأنكم عصيتموه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا تقدم الكلام عليه في الآية التي قبلها. لكن اختلف ختم الآيتين، فهناك قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن المقام مقام رد على الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم. وأما هنا فالمقام مقام تهديد ووعيد، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع لا إلى غيره. وإنما قلنا: (لا إلى غيره) من أجل تقديم الخبر وتقديم الخبر يفيد الحصر، فليست المسألة مسألة دعوى أنكم أبناء الله وأحباؤه، ولكن المسألة مسألة عمل إما سيء وإما حسن.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** كذب اليهود والنصارى في دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

٢- **ومنها:** أن اليهود والنصارى يقرون بثبوت المحبة لله، فيقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾، وقد أنكر جماعة من هذه الأمة صفة المحبة لله، وقالوا: إن الله لا يُحِب ولا يُحَب. وفسروا المحبة التي أثبتها الله لنفسه بما لا يدل عليه ظاهر لفظه فقالوا: المحبة هي الثواب أو إرادة الثواب، وفسروها بأحد المعنيين؛ لأن مذهبهم أن الإرادة الثابتة لله، وأن الثواب شيء منفصل عن الله فهو من جملة المفعولات وليس من جملة الصفات، وهؤلاء هم الأشاعرة، يقولون: ليس هناك محبة بين الله وبين عباده، وإنما المحبة هي الثواب أو إرادة الثواب.

٣- **ومنها:** أن اليهود يدَّعون ما يقتضي أن يكونوا خيرًا من هذه الأمة، وجهه: أنهم قالوا ذلك في معرض الرد على رسالة النبي ﷺ، فكأنهم قالوا: نحن أحق بالرسالة منكم أيها العرب، لأننا نحن أبناء الله وأحباؤه.

٤- **ومنها:** الإشارة إلى ما اشتهر عند بني إسرائيل، أنهم شعب الله المختار، ويرون أنهم أفضل العالمين، وأفضل من العرب الذين منهم ظهر الإسلام وبهم ظهر.

٥- **ومنها:** إنكار الله تعالى عليهم هذه الدعوى من وجهين: الوجه الأول رد ما ادعوه، والثاني إثبات ما لا يمكن معه هذه الدعوى.

٦- **ومنها**: أنه ينبغي في المناظرة أن تبطل حجة خصمك، ثم تأتي بما يثبت قولك، ولهذا تجد العلماءالذين يذكرون أقوال العلماء - أي: اختلافهم - يذكرون أولًا الرد على القول المقابل لأقوالهم، ثم ما يثبت أقوالهم، وهذا كله مبني على القاعدة المعروفة وهي: التخلية قبل التحلية.

٧- **ومنها**: أن عذاب الله لليهود والنصارى لم ينقطع، ولن ينقطع، لقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾، لم يقل: فلم عذبكم؟ ليُستفاد من ذلك أن تعذيب الله لهم مستمر؛ لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار.

واليهود معذبون مشردون خاصة، وذلك لأنهم بدعواهم البنوة والمحبة أعظم من دعوى النصارى، وهم إن شاء الله سيعذبون العذاب الأخير على يد المسلمين، وذلك حينما يقتتلون مع المسلمين، فيقتلهم المسلمون حتى إن اليهودي يختبئ وراء الشجرة فتنادي الشجرة المسلم: هذا يهودي فاقتله.

٨ - **ومنها**: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِذُنُوبِكُم﴾.

٩ - **ومنها**: الاحتراز عما يُوهم الرافضة، حيث قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، ولم يقل ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ فقط؛ لأنه لو قالها بدون قرنها ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ لأوهم أن الله تعالى يعذب بغير ذنب.

١٠ - **ومنها**: من قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ بل هنا فسرناها أنها للإضراب الإبطالي، فيستفاد منها أن هؤلاء الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه هم من البشر، والبشر عند الله سواء، وأكرمهم عنده أتقاهم.

١١ - **ومنها**: إثبات خلق الله عز وجل للبشر وهذا أمر قد يقول قائل: إنه لا حاجة إليه؛ لأنه أمر معلوم، ولكن الله تعالى قال: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فتبين أن هؤلاء مخلوقون وأنهم كغيرهم من البشر.

١٢ - **ومنها**: إثبات المغفرة والتعذيب من الله عز وجل لمن شاء، ولكن هل هذا مجرد مشيئة إن شاء غفر وإن شاء عذب، أو لابد من سبب؟

الجواب: الثاني، لابد من سبب. وقد تبين لنا قاعدة مهمة: أن كل فعل علقه الله بالمشيئة، فإنه تابع للحكمة. إذ أن ليس لله مشيئة مطلقة، بل هي مقرونة بحكمته تبارك وتعالى. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

١٣ - ومنها إثبات المشيئة لله والمشيئة بمعنى الإرادة الكونية، واعلم أنه ليس فيها انقسام، يعني لا تُقسَّم إلى مشيئة كونية ومشيئة شرعية، بخلاف الإرادة، فالمشيئة شيءٌ واحد، وهي الإرادة الكونية.

١٤ - **ومنها**: اختصاص الله عز وجل بالملك وأنه لا مالك معه، ويؤخذ هذا من قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ووجه ذلك الخبر. فهذا يبين انفراد الله تعالى بالملك.

فإن قال قائل: إن الله أثبت لعباده ملكًا كقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣]وما أشبه ذلك، قلنا: لا سواء بين الملكين فملك الله تعالى عامٌّ تام، وملك الآدمي قاصر ناقص، ولهذا لا يملك الإنسان أن يتلف ماله مع أنه ماله، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله كله، قلنا له: لا يمكن، ولحجرنا عليه ومنعناه؛ لأنه خلاف ما أمر الله به بل هو ما نهى الله عنه.

١٥ - **ومنها**: أن بين السموات والأرض من المخلوقات العظيمة ما اقتضى أن يكون مقابلًا ومعادلًا للسموات والأرض، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾.

١٦ - **ومنها**: أن مرجع الخلائق إلى الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾، يعني المرجع.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾، في هذه الصفحة الواحدة ـ أي: من المصحف الشريف ـ نداء لأهل الكتاب مرتين: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ والمراد بهم اليهود والنصارى، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ جملة حالية حال من رسول، يعني حال كونه يبين لكم أي يوضح ويفصِّل، ولم يذكر الله تبارك وتعالى ما المُبيَّن ليكون أعم، لأن حذف المفعول يفيد العموم، وهذه قاعدة معروفة في اللغة العربية أن الحذف يفيد العموم.

ولكن هنا أي شيء يُبين؟

الجواب: يبين كل ما يحتاج الناس إلى بيانه، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٨٩].

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ يعني: حال كون البيان على فترة من الرسل، أي مدة من الزمن لم يأتِ فيها رسول، وهذه المدة ليس لنا كبير فائدة في معرفتها على التحديد. لكن نعرف أنها مدة طويلة تقدر بنحو ٦٠٠ سنة بين عيسى وبين محمد ﷺ؛ لأن آخر الأنبياء الذين بعثوا إلى الناس هو عيسى عليه السلام ومن بعده محمد ﷺ فليس بينهما نبي.

ولهذا ما يذكر في بعض التواريخ أن خالد بن سنان، وفلان وفلان أنبياء وأنهم بُعثوا بعد عيسى فهذا كله ليس بصحيح؛ لأن النبي ﷺ قد أخبر بأنه ليس بينه وبين عيسى نبي[1]، ويدل لذلك أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فلم يأت أحد بعد عيسى إلا محمد رسول الله ﷺ.

وإنما نص على هذه الفترة ليتبين أن الناس في أشد الحاجة إلى بعثة الرسول، وهذا هو الواقع،

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض، فمقتَهم عربهم وعجمهم، أي: أبغضهم وكرههم، لأنهم ليسوا على دين، إلا بقايا من أهل الكتاب ـ بقايا قليلة ـ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ بقي قليل، وهذا القليل أيضًا يحتاج إلى رسول، فلهذا نص على الفترة وهي المدة الطويلة التي بلغت نحو ستمائة سنة، ليتبين شدة حاجة الناس إلى بعثة الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا، فأن وما دخلت عليه هنا في موضع التعليل، يعني: أرسلناه إليكم؛ لئلا تحتجوا فتقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وذلك لطول المدة لم يأتهم رسل، ولا أنبياء، فيحتجون ويقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

وقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ هذه (من) يعربها المعربون على أنها زائدة لفظًا، لكنها تزيد في المعنى التوكيد، وهذه قاعدة معروفة عند البلاغيين: أن جميع الحروف الزائدة تفيد التوكيد، وأصل الكلام: ما جاءنا بشير ولا نذير، لكن إذا دخلت (من) صارت أدل على النفي مما لو لم تدخل، ولهذا يقولون : إن النفي قد يكون نصًا في التعميم إذا كان الحرف النافي هو (لا)، أو اقترن بحرف الجر الزائد سواء كان (من) أو (الباء)، هنا يقول: ﴿مِنۢ بَشِيرٍ﴾ قلنا: إن (من) زائدة من حيث الإعراب. وإعراب ﴿بَشِيرٍ﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد؛ لأن حرف الجر أداة لفظية، فلا بد أن يكون تأثيرها في اللفظ أكثر من تأثير المعنى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، من بشير يبشر بالخير، ونذير يخوف من الشر.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعني: فالآن لا حجة لكم، قد جاءكم بشير ونذير، وهو رسول الله محمد ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ختم هذه الآية بالقدرة إشارة إلى أنه تبارك وتعالى، قادر على أن يبعث الرسل وعلى ألا يبعث الرسل، وأن الأمر كله بيده تبارك وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي أن ينادَى المخاطَب بالوصف الذي يقتضي أن يقوم بما وُجِّه إليه؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا موجود في اللغة العربية، إن كنت تخاطب مؤمنًا تقول: (يا أيها المؤمن)، وإن كنت تخاطب رجلًا تقول: (يا أيها الرجل)، كأنك تذكر له ما كان ينبغي من أجله أن يستمع إليك ويمتثل ما توجهه إليه، وفي ذلك فوائد ـ يعني في كوننا نوجه الخطاب بالنداء بالوصف الذي يقتضي أن يمتثل ـ:

أولًا: توبيخ هذا الرجل إذا خالف، لأنه لا ينبغي أن يخالف وهو متصف بهذه الصفة.

ثانيًا: حثه على الموافقة، باعتبار هذا الوصف الذي اتصف به، ولهذا نجد أن الرسول ﷺ يقول

دائما: «لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»(١) أو «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»(٢).

ثالثًا: إقامة اللوم عليه من الآخرين.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن محمدًا رسول الله ﷺ مرسلٌ إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لقوله ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني: إليكم.

٣ - **ومنها**: أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام من هؤلاء - أي: اليهود والنصارى - كفار، لأنهم كفروا بالرسول الذي أُرسل إليهم، أما قولهم بأنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، فنقول: هذا لا يكفي، فلابد أن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٤ - **ومنها**: الثناء على رسول الله ﷺ بكونه مرسلًا من عند الله؛ لقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾.

٥- **ومنها**: إقامة الحجة على الأمة، حيث إن هذا رسول الله فهو حجة عليه الصلاة والسلام، بمجرد أن شهد الله أنه رسوله، كان ذلك حجة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦].

٦- **ومنها**: أنه لا حظ للرسول عليه الصلاة والسلام في شيء من الربوبية، ووجه ذلك أنه رسول، والرسول لا يمكن أن يكون شريكًا للمرسِلِ فيما يختص به.

٧- **ومنها**: أن النبي ﷺ مبيِّن للخلق، وأنه ليس فيما جاء به شيء من الغموض والإلغاز؛ لقوله ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

٨ - **ومنها**: الرد على هؤلاء المفوِّضة في أسماء الله وصفاته، الذين يقولون: إننا لا نعلم شيئًا من معاني أسماء الله وصفاته، وأن وظيفتنا أن نقرأ ولا نفسِّر، وهذا القول من أعظم الأقوال وأشدها فسادًا، حتى إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قال: (إنه من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)(٣).

ومن المؤسف أن كثيرًا من الناس - بل حتى من العلماء - من يظن أن هذا هو مذهب السلف، ويقولون: إن مذهب السلف التفويض، وهم في الحقيقة لم يعرفوا مذهب السلف؛ لأن مذهب السلف التفويض في الكيفية؛ لأن العقل يعجز عن إدراكها والشرع لم يَرِد بها، وأما المعنى فإنهم يؤمنون به، ويثبتونه، ويقربونه، ويفصِّلون فيه ما يحتاج إلى تفصيل. وهذا أمر معلوم من كتبهم.

٩ - **ومنها**: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كما هو مبين للعرب فهو مبين لبني إسرائيل - لأهل الكتاب -.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ١١٥).

فإن قال قائل: كيف يبين لهم ولغته تخالف لغتهم، فإن لغة اليهود حتى الذين في المدينة في عهد الرسول مخالفة للغة العربية؟

نقول: عن طريق الترجمة؛ ولهذا لم ينتشر الإسلام في البلاد الأعجمية إلا بواسطة الترجمة.

١٠ - **ومنها**: أنه إذا احتجنا إلى معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة فإن ذلك كان من صفات النبي ﷺ، أنه يبين للناس بأي وسيلة، وعلى هذا فمن تعلم اللغة غير العربية من أجل الدعوة إلى الله، كان مُثابًا على ذلك؛ لأنها وسيلة لتبليغ الشريعة ونشرها.

١١ - **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ كانت على فترة من الرسل، إذ ليس بينه وبين عيسى رسول؛ لقوله ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

١٢ - **ومنها**: أنه كلما طال زمن الرسالة، صار الناس أشد حاجةً إلى الرسول، ولهذا جعل الله ذلك منة عظمى على أهل الكتاب، حيث جاءهم على فترة. ومعلوم أن هذا يكون أيضًا في الواقع المحسوس؛ فالإنسان الذي يشرب الماء على عطش أشد شوقًا من وحاجة من الإنسان الذي يشربه على ريٍّ.

١٣ - **ومنها**: إثبات الرسالات السابقة للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، والظاهر لي: أن هذا يشير إلى أن الرسول ﷺ هو آخر الأنبياء؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، يعني: وليس بعده رسول، وهذا هو الذي صرح الله به في كتابه بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وتأمل قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقل: خاتم المرسلين مع أنه قال ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، لأنه قد يكون الإنسان نبيًّا ولا يكون رسولًا، ومحمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء.

١٤ - **ومنها**: رحمة الله بالخلق حيث أرسل الرسل، لئلا تقوم الحجة على الله وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾، وفي هذا دليل على: أن من لم تبلغه الرسالة فإنه معذور، وهو ظاهر في قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾.

١٥ - **ومنها**: أنه لا حجة للإنسان بالقَدَر على مخالفة الرسل، ووجه الدلالة: أنهم لو كان لهم حق لم يرتفع بإرسال الرسل.

١٦ - **ومنها**: أن الرسالات منحصرة في شيئين لا ثالث لهما: وهي البشارة والإنذار، لأن الناس ينقسمون بالنسبة للرسالات إلى قسمين: مطيع فله البشارة، وعاص فله الإنذار.

١٧ - **ومنها**: قوة حجة هؤلاء لو لم يبعث لهم رسول؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَشِيرٖ﴾ فـ﴿مِنۢ﴾ هنا للتوكيد، فكأنهم يؤكدون أنه لم يأتهم بشير ولا نذير.

١٨ - **ومنها**: تأكيد الكلام التأكيد المعنوي، ولست أقصد تأكيد النحويين، فالنحويون

يقولون: التوكيد نوعان: توكيد معنوي وتوكيد لفظي. فما كان بتكرار اللفظ فهو لفظي وما كان بالأدوات المعروفة فهو معنوي، لكن لا أريد هذا، ولكن أريد أن المعنى قد يؤكد بجملة كاملة، وهو قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

١٩ - **ومنها**: أنه متى احتيج إلى التوكيد فلا عيب في التكرار، ولهذا كان من آداب الخطبة أن الإنسان يكرر في المواضع الهامة، وأنه لا يعد هذا عِيًّا ولا يعد زيادة.

٢٠ - **ومنها**: أن رسالة النبي ﷺ مشتملة على هذين الأصلين في الرسالات وهما: البشارة والإنذار، لقوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

٢١ - **ومنها**: إثبات قدرة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢٢ - **ومنها**: أنه لا يُستثنى من قدرة الله تعالى شيء، لأن كل شيء فالله قدير عليه. وأما قول بعضهم كصاحب «الجلالين»: [خَصَّ العقل بذاته فليس عليه بقادر] فهذا خطأ، إلا أنه على قاعدة منكري الأفعال الاختيارية يرون أنه صواب.

ففي هذه الأمة مَن يقولون: إن الله عز وجل لا تقوم به الأفعال الاختيارية، وهذا لا ينبغي؛ لأن النزول إلى السماء الدنيا ممنوع عندهم، والاستواء على العرش ممنوع، والضحك ممنوع، والإتيان يوم القيامة ممنوع، إذن عندهم كل الأفعال الاختيارية التي يفعلها بمشيئته فإنه ممنوع منها، فإذا قلنا: لماذا ممنوع؟ قالوا: لأنه مستحيل، والمستحيل على اسمه لا تتعلق به القدرة، كالجمع بين النقيضين، فيقال لهم: هذا خطأ، بل من الأشياء ما لا يمكن أن يتصف الله بها، كالنوم مثلًا، فمستحيل أن الله ينام ومستحيل أن يأكل ويشرب.

فلو قال قائل: هل الله يقدر على أن يأكل ويشرب وينام؟

قلنا: إن هذا الكلام لا يليق به إطلاقًا، لأنه مستحيل. لكن هل يستطيع أن ينزل إلى السماء الدنيا، ويأتي للفصل بين العباد، ويستوي على العرش ويضحك ويعجب، ممكن لأن هذا لا ينافي كماله، بخلاف النوم والأكل والشرب فهذا ينافي كماله.

٢٣- **ومنها**: أن ينبغي أن يُختم الكلام بما يناسب المقام، ووجهه: أن مخالفة أهل الكتاب للرسول عليه الصلاة والسلام، تعني أنهم مُعَرَّضون للعقوبة، والله غير عاجز على عقوبتهم لكمال قدرته.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾، (إذ) هذه ظرف، ومن القواعد المقررة عند النحويين: أن كل ظرف أو جار ومجرور، فلابد أن يكون له متعلَّق؛ لأنه لا يقع إلا معمولًا أو معمولًا فيه، إن كان ظرفًا فهو معمول فيه وإن كان جارًا ومجرورًا فإنه في محل المفعول به، فيكون معمولًا فيه.

إذنْ لابد لكل جار ومجرور أو ظرف من متعلق، وهذا المتعلق هو العامل في الواقع.

وجه ذلك أن نقول: إنه لابد من متعلق، لأن الظرف مفعولٌ فيه فلابد من فعل يقع فيه. والجار والمجرور في محل المفعول به، فيكون هنا: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ إذ هذه تحتاج إلى عامل، أرى أن جميع المعربين في القرآن الكريم كلما جاءت (إذ) غالبًا يقدمون لها (اذكُر إذ قال)، وهنا هل نقول: إن متعلق إذ اذكر، فيكون هنا الخطاب موجهًا إلى الرسول، أو أن المراد اذكروا أي: يا أهل الكتاب. نقول: يحتمل هذا وهذا. فإن كان الثاني فمعناه أن الله سبحانه وتعالى بنفسه يذكرهم، وإن كان الأول فمعناه أنه أمر رسوله أن يذكرهم، ومؤدى المعنيين واحد.

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وهم بنو إسرائيل، وناداهم مناداة البعيد، قال أهل البلاغة: وهذا يدل على إعراضهم وصدودهم وعلى بلاهتهم. ولا شك أن بني إسرائيل من أشد الناس عتوًّا حتى على نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام. فلذلك قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والنعمة هي الإفضال والإحسان، والمراد: اذكروا هذه النعمة لتقوموا بشكرها، ثم بيَّن هذه النعمة فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ (إذ) هذه متعلقة بـ ﴿نِعْمَةَ﴾، لأنها بمعنى إنعام، أي: اذكروا إنعام الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء.

وقوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ﴾ (في) هذه للظرفية، وينبغي أن نجعلها على معناها وألا نجعلها بمعنى (من) فتكون: منكم أنبياء، لكن نقول فيكم، لأن النبي يكون من ثقة قومه، ومن أشراف قومه، وهي كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ فيها قراءتان (أنبئاء) و﴿أَنۢبِيَآءَ﴾، وكلاهما قراءتان صحيحتان؛ لأنهما سبعيتان، وهل المراد هنا بالأنبياء الرسل، أم الأنبياء الذين دون

الرسل؟ يحتمل هذا وهذا، لأن فيهم رسلًا وفيهم أنبياء بلا رسالة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي: صيركم ملوكًا، وتأمل الفرق، بين الأنبياء والملوك، الأنبياء قال: (فيكم)، والملوك قال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، فهل معنى العبارة الثانية كالأولى ولكنه جعل المُلك عامًّا؛ لأن أيَّ واحد منهم يمكن أن يكون ملكًا بخلاف النبوة فإنها من عند الله، ولهذا قال: ﴿فِيكُمْ أَنبِيَآءَ﴾ ولم يقل جعلكم أنبياء، أو يقال: جعلكم ملوكًا والملوكية هنا اعتبارية، أي باعتبار كونكم خدمًا أذلاء لآل فرعون، أصبحتم اليوم أحرارًا تملكون أنفسكم ولا أحد يُقيدكم فيما تريدون؟ الجواب: يحتمل هذا وهذا أي: يحتمل أن يكون المعنى: ﴿جَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي: جعل فيكم الملوك، ولكنه في النبوة قال: ﴿فِيكُمْ أَنبِيَآءَ﴾ لأنه ليس كل أحد يستطيع أن يكون نبيًّا، بخلاف الملك، فإنه ربما يكون أي واحد ملكًا، أو أن المراد بالمُلكية هنا المُلكية النسبية يعني: باعتبار أنكم كنتم أذلاء وخدمًا لآل فرعون، أصبحتم الآن مالكين لأنفسكم، ولا شك أن هذا وهذا حصل.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آتاكم) بمعنى أعطاكم، والفرق بين أتاكم وآتاكم، أن أتاكم بمعنى جاءكم، وآتاكم بمعنى أعطاكم، ولهذا الثانية تنصب مفعولين، لكن ليس أصلها المبتدأ والخبر، فالمفعول الأول في هذه الآية الكاف والثاني ﴿مَّا﴾، يعني: الذي لم يؤتِ أحدًا من العالمين.

وقوله: ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ أصلها لم يؤته، لكن حُذف العائد الذي يعود على اسم الموصول، والأصل ما لم يُؤْتِهِ أحدًا من العالمين، وعلى هذا فتكون ﴿أَحَدًا﴾ مفعولًا ثانيًا، ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من العالمين الذين سبقوكم والذين في وقتكم، وهنا تأمل أن موسى عليه السلام لم يقل: (ما لن يؤتيَ)، بل قال ﴿مَّا لَمْ﴾، والفرق أن قوله: (ما لن يؤتيَ) صار قوم موسى أفضل الناس إلى يوم القيامة، ولن يعطى أحد مثلهم، ولكن قوله: (ما لم يؤتِ) يعني في الماضي؛ لأن الله تعالى آتي هذه الأمة - أمة محمد عليه الصلاة والسلام - والحمد لله ما لم يؤتِ بني إسرائيل ولا غيرها.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أنه ينبغي للداعية أن يُذَكِّر من يوجه إليهم الخطاب بنعم الله عليهم؛ لأن تذكيرهم بالنعم يوجب لهم محبة الله، ولهذا جاء في الأثر: (أَحِبُّوا الله لِما يَغْذُوكُم بِهِ مِنَ النِّعَمِ)[1].

٢- **ومنها:** أنه كلما أنعم الله على عبده نعمة وجب عليه من السمع والطاعة ما لم يجب على

---

(١) سبق تخريجه.

غيره.

٣- **ومنها**: الإشارة إلى أن وجود الأنبياء بين الناس من أكبر النعم؛ لأن الله قدَّم ذلك على المُلك، فقال: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، ولاشك أن حاجة الناس إلى ذلك أعظم من حاجتهم إلى الملك. وإن كانوا يحتاجون إلى هذا وهذا.

٤- **ومنها**: تقديم مقام العلماء على الأمراء، ووجهه: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ﴾، والعلماء ورثة الأنبياء، وجعلكم ملوكًا والأمراء من هذا القسم، إما من الملوك أو من ورثتهم، أو من نوابهم أو ما أشبه ذلك.

٥- **ومنها**: أن مَنْ رزقه الله علمًا فقد أنعم عليه بنعمة عظيمة تحتاج إلى التذكُّر، لأن نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ذكَّرهم بهذه النعمة، والإنسان يعرف ذلك بنفسه، لأنه لو قَدَّر نفسه جاهلًا، لا يدري كيف يتوضأ ولا كيف يصلي ولا ما الواجب في الوضوء ولا ما الواجب في الصلاة، ولا ما مبطلات الوضوء، ولا ما مبطلات الصلاة، لكان كالأعمى يسير بلا هُدًى، فإذا مَنَّ الله عليك بتعلم هذه الأشياء فهي نعمة عظيمة لا يقابلها نعمة، لاسيما وأن هذه الأمة ـ والحمد لله ـ تَشْرُف بأنها وارثة لأفضل الأنبياء محمد ﷺ، والعلماء من هذه الأمة يشعرون بهذا، أنهم وارثون محمدًا ﷺ.

٦- **ومنها**: أن فكَّ الحَجْرِ عن المحجور عليه من نعم الله؛ لأنه يصبح حرًّا.

٧- **ومنها**: أنه ينبغي للإنسان أن يُذَكِّر تذكيرًا خاصًّا بما أنعم الله به على الشخص ـ نعمة خاصة ـ وذلك لقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لو قال قائل: قد يؤدي إلى أن يُعجَب المخاطب بنفسه ويقول: أنا من أنا؟

قلنا: إذا خيف هذا الشيء مُنع، ولكل مقام مقال، أما إذا كان ذكر هذا الشيء يستلزم أن يقوم بأمر الله فليذكر، ولذلك فالناس يوم القيامة يتوسلون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بما خَصَّهم الله به من المناقب والكرامات.

۞ قال الله تعالى:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ
وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ
فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٦]

التفسير

قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يتضمن شيئين: الشيء الأول: أن فيه شيئًا من استبلاههم، وأنهم لم يتفطنوا ولم يستمعوا لأي خطاب إلَّا إذا ورد بالنداء وبلفظ القومية، والثاني أيضًا: أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ استعطافًا لهم، لأنه فرق بين أن يكون المخاطب من قومك أو من غير قومك.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ كلمة ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ لم يقل قاتلوا حتى تدخلوا بل قال ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ﴾، ثم قوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أيضًا فيها بشارة بأنهم سوف يَغْلِبون، ففي هاتين الجملتين بشارتان، الأولى: ادخلوا الأرض، والثانية: التي كتب الله لكم. والكتابة هنا هي الكتابة القدرية، لأن الكتابة تتنوع إلى نوعين: كتابة شرعية، مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]، وكتابة قدرية: كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، و قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فالكتابة هنا قدرية، ولو كانت شرعية لتعدت بـ(على) ولقال: كتب عليكم، ولا يستقيم المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾، أي: لا ترجعوا بعد أن كنتم مُقبلين على القتال، ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾؛ لأن النكوص على الدبر والرجوع هزيمة وذل، ولهذا نُهِيَ نهيًا شديدًا عن التولي يوم الزحف[1]، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ والانقلاب يُشعر بخيبة الأمل، ولهذا قال: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خاسرين حال من الواو في قوله: تنقلبوا.

فماذا كان الجواب؟ كان الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ انظر للخطاب (يا موسى)، ولم يقولوا: يا نبي الله، ولا رسول الله، قالوا يا موسى وهذا لا شك أنه جفاء في المخاطبة، أن يخاطبوا نبيهم باسمه، ولهذا نهى الله هذه الأمة أن يخاطبوا الرسول ﷺ باسمه في

(١) كما جاء في حديث: «اجتَنِبُوا السَّبعَ الموبِقَاتِ» وقال من ضمنها: «التَّولي يوْمَ الزَّحفِ».

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ على أحد التفسيرين في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]؛ لأن بعض العلماء يقول: المعنى لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا، وإن كانت الآية تشمل هذا المعنى وتشمل المعنى الثاني وهو أنه إذا دعاكم، لا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم بعضًا، إن شئتم أجبتم وإن شئتم لم تجيبوا، بل يجب عليكم أن تجيبوا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

هنا قالوا يا موسى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فذكروا علة تدل على جُبنهم وخَوَرهم وضعف عزيمتهم بل عدم عزيمتهم. ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ والجبار: هو العاتي الكبير الجسم الطويل، مأخوذ من قولهم في اللغة العربية: نخلة جبارة، والنخلة الجبارة هي النخلة القوية العالية، وإلى الآن هذا المعنى موجود يُقال: (فلان عنده بستان جَبَّارٌ نخلُهُ) يعني: قويٌّ عالٍ لا يتناول الإنسان ثمره بيده.

إذنْ ﴿جَبَّارِينَ﴾ أي: عُتاة الأخلاق، أقوياء الأجسام، لا نستطيع أن نقاتلهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾، سبحان الله هذا قول صبيان، فمن يقاتلون إذا لم يكن فيها أحد؟ لا شيء، وهذا مما يدل على سفاهة بني إسرائيل، ولقد أكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، وتأمل قولهم ﴿إِن يَخْرُجُواْ﴾، لم يقولوا فإذا خرجوا، كأنهم يستبعدون خروجهم، لأن (إن) الشرطية تتميز عن إذا بأن (إن) يكون فعل الشرط فيها حاصلًا وغير حاصل، بل قد يكون من الأشياء المستحيلة، لكن (إذا) تدل على وقوع الشرط لكن المُوقَّت حصول الشرط.

فأنت إذا قلت: إن قام زيد قمت، تجد الفرق بينها وبين قوله، إذا قام زيد قمت، أليس كذلك؟، لأن إذا قام معناها أنه سيقوم. لكن لا أقوم إلا إذا قام، فهو شرط للتوقيت ـ توقيت القيام ـ لكن إن قام زيد قمت، شرط لحصول القيام، وقد يحصل وقد لا يحصل، وقد يكون من المستحيل أن يحصل، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، هذا في حق الله، وفي حق الرسول ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكلا الأمرين ممتنعان غاية الامتناع، لا الأول وهو أن يكون للرحمن ولد ولا الثاني وهو أن يشرك رسول الله ﷺ الداعي إلى الله وإلى التوحيد.

إذن هم يقولون: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ يعني: كأنهم مستبعدون غاية الاستبعاد أن يخرجوا منها ولذلك ابتُلوا بالتيه كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ وهو الضياع وعدم الاهتداء إلى هذا المكان.

وتأمل أيضا قولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ يعني يؤكدون دخولهم إذا خرج

هؤلاء، وإذا خرج هؤلاء هل يحتاج إلى أن يؤكد الدخول؟! لكن - سبحان الله - من تأمل حال هذه الأمة الغضبية وجد أنهم في غاية السفاهة في العقول، كما أنهم في غاية الضلال في الدين، ومن رأى مزيد بيان في هذا الأمر فليرجع في هذا الأمر إلى كتاب «إغاثة اللهفان»[1]. فإنه تكلم عن خصائص الملل بما لا مزيد عليه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ ﴿رَجُلَانِ﴾ نكرة و﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يجب أن تكون صفة لرجلان؛

لأن النكرة ما يأتي بعدها من الجملة وشبهها، يكون صفة لها، و(يخافون) هذه صلة الموصول، ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، أنعم جملة فعلية، محلها من الإعراب صفة لرجلان، ويجوز أن تكون حالًا منها؛ لأنها نكرة خصصت، والنكرة إذا خصصت جاز وقوع الحال منها.

لكن قد يقول قائل: أليس الأنسب في التركيب أن يقال: (قال رجلان أنعم الله عليهما من الذين يخافون)؟

الجواب: لا، لأن ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ إن قُدِّرَ أنها حال فالوصف التابع أولى بالموالاة، لأن الحال تابعة لموصوفها معنًى مفارقة له إعرابًا. بخلاف الصفة التي هي النعت.

فنقول أولًا: هذه إن جعلناها حالًا فالأنسب أن تأتي متأخرة عن الوصف المباشر.

ثانيًا: أن ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ شبه جملة، فهي في حكم المفرد، وأنعم جملة، والنعت بالمفرد أولى بالموالاة من النعت الجملة، فلهذا كانت الفصاحة تقتضي تقديم ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ إن الله سبحانه وتعالى لم يبين مَنْ هذين الرجلين، وليس لنا في معرفة عينهما ضرورة، المهم ماذا قالا؟ أم أن نعرف من هما فلو كان هذا من الأمر الذي تنبني عليه العقيدة لكان الله بينه إما في القرآن، أو على لسان رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، يخافون من؟ يخافون الله، ولهذا نقول: إن مفعول ﴿يَخَافُونَ﴾ محذوف، تقديره: الله، وقوله ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بماذا أنعم؟ أنعم الله عليهما بأمور:

أولًا: خوف الله عز وجل، وهو من أكبر النعم، وخوف الله يستلزم اجتناب محارم الله، والقيام بطاعته.

ثانيًا: أنعم الله عليهما بقوة النفس، لأنهما الآن يقابلان الأمة، فقوم موسى كلهم قالوا له: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ هذا الرجلان قابلا الأمة كلها، مما يدل على الشجاعة والعزيمة الصادقة. وهذه لا

(١) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ.

شك أنها نعمة إذا وفَّق الله للعبد قوةً وشجاعةً وعدم مبالاة بالكثرة؛ لأن الكثرة ليست بشيء أمام الحق.

ثالثًا: أنعم الله عليهما بحصافة الرأي؛ لأن كل من قرأ البشائر التي ذكرها موسى عليه الصلاة السلام لا شك أنه سوف يُقدِم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾، والثانية: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾. إذن أنعم الله عليهم من هذه الوجوه الثلاثة وقد يكون أكثر من هذا.

يقول: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أولًا: ادخلوا الأرض المقدسة ما معنى المقدسة؟ قال العلماء: معناها المطهرة، أي: المطهرة من الشرك، لأن هذه الأرض كانت أرض الأنبياء، وقال العلماء: إن هذه الأرض هي أرض الشام، التي تشمل في العصر الحاضر: سوريا وفلسطين والأردن ولبنان، أي: أرض الشام كلها. هذه الأرض المقدسة؛ لأنها كانت أرض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام(١).

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: سيروا إليهم، ولا تُشْعروهم بأنكم سائرون، لكن ائتوهم بغتة، بدون أن يكون هناك سابق علم؛ لأنه ما من قوم قُوتلوا في ديارهم، إلا ذَلُّوا، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه حين أراد أن يجاهد أهل مكة ويفتح مكة، أن يعمي الأخبار عنهم، حتى يَبْغتَهَا، ولهذا قالوا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: لا تنذروهم، ولا تخبروهم أنكم قادمون عليهم. و(أل) في قوله ﴿ٱلۡبَابَ﴾ للعهد الذهني أي: باب المدينة، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾، أي: إذا دخلتم الباب فإنكم ستغلبون ولن يغلبوكم، وهذا إرشاد وتوجيه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ لما أمر هؤلاء الرجلان هؤلاء القوم أن يعملوا الأسباب النافعة، أرشدوهم إلى ألا يعتمدوا على أنفسهم بل يتوكلون على الله فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، والجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بقوله (توكلوا)، والفاء مزيدة لتحسين اللفظ،

---

(١) مسألة: اليهود يقولون: إن أرض الشام هي أرضهم أصلًا. فما الرد على هذا؟

الجواب: نعم هي مكتوبة لهم في زمنهم، لأنهم عباد الله الصالحون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أما بعد أن كفروا وصار الإيمان بأمة بمحمد، فهي مكتوبة لأمة محمد، وكلام الله يُصدِّق بعضه بعضًا، ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، وهم بعد أن كفروا بمحمد ليسوا صالحين. نقول: إن موسى يخاطب قومه في عهده آمنوا به وصدقوا رسالته، ولذلك لما تخلف الصلاح - ونذكر ذلك بمرارة - في هذه الأمة، صار هذا التسليط من اليهود على هذا الجزء من الأرض.

مسألة: تحجيم قضية الصراع مع اليهود على أنها صراع على الأرض وليس صراعًا عقديًا.

الجواب: هذا من فوات الصلاح، لأن الواجب علينا أن نقاتل اليهود ومن غير اليهود ممن كفروا بالله لا على أساس الأرض ولكن على أساس العقيدة؛ ولهذا صاروا هم أقوى لقتالهم عن عقيدة، فيجب تعديل النية وإصلاح الأمر قبل كل شيء. فإذا عُدِّلَت النية وأُصْلِحَ العمل حصل الخير الكثير.

ولهذا لو قيل: وعلى الله توكلوا لصح، ولا يصح هنا أن نجعلها عاطفة، لأننا لو جعلناها عاطفة والواو عاطفة لما استقام الكلام، ولكن يقال: إنها زيدت لتحسين اللفظ.

وقوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، ما هو التوكل؟

التوكل: كما قال العلماء: إنه صدق الاعتماد على الله، أي أن يعتمد الإنسان على ربه اعتمادًا صادقًا مع الثقة به، وحسن الظن وفعل الأسباب. فإذا اجتمعت هذه الأوصاف الأربعة، فهذا هو حقيقة التوكل، فمن اعتمد على الله لكنه عنده شك فإنه ليس بمتوكل حقيقة، كذلك أيضًا لو أنه اعتمد على الله ولكنه لم يثق تلك الثقة، إما لما يعلم من ذنوبه، وإما لما يعلم من قصور الأسباب، أو لغير ذلك فإنه لم يصدق التوكل، والثالث: حسن الظن، وحسن الظن في التوكل أن يظن الإنسان بربه تبارك وتعالى أنه حسبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وقوله (مع فعل الأسباب)؛ لأن هذا لابد منه؛ إذ إن الله تعالى يقدر الشيء بسببه، وهذا من تمام حكمته، انظر إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، فلابد من سعي، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ فلابد من فعل الأسباب، ولكن بشرط أن تكون الأسباب شرعية، إما منصوصًا عليها من الكتاب والسنة، وإما معلومة بالتجارب التي يشهد له القَدَر.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا شرط في إخلاص التوكل على الله عز وجل، إذ لا يتوكل على الله تمام التوكل إلا من كان عنده إيمان بما وعد الله به في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

وبعد هذه المشورة وهذا التوجيه الحسن النافع، انظر الجواب، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وهذا النفي، نفي لفعلهم الشرعي، يعني: لا يمكن أن ندخلها ما داموا فيها، وإذا ذهبوا عنها دخلوها، وهذه عقلية بني إسرائيل.

ثم قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فمن رب موسى؟ قال بعض المفسرين ربه هو هارون، لأن الرب يُطلق على السيد، وهارون أكبر من موسى، والأكبر من الأخوين يكون سيدًا للأصغر منهما. ولكن هذا بعيد.

والظاهر: أنهم أرادوا بالرب رب العالمين عز وجل، لأن موسى يدعوهم إلى الله وإلى ربهم تبارك وتعالى،

فكأنهم من عجرفتهم وكبريائهم وغطرستهم، يقولون: ما دام لك رب فاذهب أنت وربك فقاتلا.

فأرادوا من الله أن ينزل الميدان - قاتلهم الله - ويقاتل مع موسى، ومع ذلك ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ها هنا في المكان القريب، هنا في مكاننا لن نتعداه، وسنبقى متفرجين عليك أنت وربك، ولا يخفى ما في هذا الكلام من الغطرسة والعجرفة والجفاء - والعياذ بالله -.

فماذا قال موسى؟ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ يخاطب ربه - رب العالمين - ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ يعني: لا أملك أمرًا إلا أمر نفسي وأخي، ويقصد بأخيه هارون، ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، سأل الله تعالى أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، فيكون هو وأخوه في جانب، والفاسقون في جانب آخر، فماذا كانت إجابة الله؟ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على بني إسرائيل، الذين أُمروا بالقتال، محرمة عليهم تحريمًا قدريًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ تحريمًا قدريًّا؛ لأن التحريم قد يكون شرعيًّا كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، وهنا أيضًا في هذه الآية ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تحريمًا قدريًّا، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ هلالية؛ لأن التوقيت بالهلال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، والأصل: أنه ليس ببعيد التوقيت بالهلال، حتى إن اليهود لما صاموا يوم عاشوراء صامه النبي ﷺ وقال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: يضيعون - وسبحان الله - المسافة بين مصر وأرض الشام حوالي شهر، هم بقوا أربعين سنة لم يهتدوا إلى الطريق في هذه المساحة القليلة من الأرض، لأن الله تعالى أعماهم، فحُرموا هذا الخير، وهو دخول الأرض المقدسة، حُرموا إياه من أجل هذا العناد وهذا العتو، يتيهون في الأرض فلا يهتدون سبيلًا.

ولكن لماذا خُصَّ التيه بأربعين سنة؟

الجواب الأول: أن مثل هذه الأمور القدرية أو الشرعية المحددة بعدد، لا يمكن أن يكون الإنسان عالمًا بحكمتها؛ لأن هذه ليس للعقل فيها مجال، وقد مرَّ علينا كثير من هذا، أن المحدد شرعًا أو قدرًا ليس للعقل فيه مجال، إلا أشياء يسيرة من الأمور القدرية.

الجواب الثاني: قال بعض العلماء: إنهم تاهوا أربعين سنة، وهي مدة طويلة يمكن أن ينشأ جيلٌ جديد، على غير ما كان عليه هؤلاء المعاندون، وهذا من الناحية النظرية ليس ببعيد، لكن قد يُعترض عليه بسؤال: هل المدة هذه كافية؟ الجواب: نعم، كافية، فإن الشعوب قد تتحول مع قوة الداعي وضعف المانع إلى عادات وأخلاق في أقل من أربعين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ﴿فَلَا تَأْسَ﴾، أي: لا تحزن، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لا تحزنوا، أي فلا تحزن على القوم الفاسقين مما عاقبهم الله به؛ لأنهم أهل لهذه العقوبة.

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الفوائد:

١ - **في الآيات فوائد منها:** فضيلة أرض الشام؛ لقوله: ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وسبق أن معنى المقدسة أي: المطهرة من الأوثان والشرك؛ لأنها بلاد الأنبياء ويدل لفضيلتها قول الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

٢- **ومنها:** أن الله تعالى كتب أرض الشام لبني إسرائيل، لقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

٣- **ومنها:** أنه ينبغي للداعية أن يذكر ما يهيج النفوس ويغريها بالقبول، لأنه هنا ذكر أن الأرض مقدسة وأن الله كتبها لهم، والثالث قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وكأن هذه بشارة بأنهم سوف ينتصرون، وسوف يدخلون الأرض. فكانت البشارة من وجوه ثلاثة.

٤- **ومنها:** أن الكتابة نوعان: شرعية وقدرية، والآية فيها كتابة قدرية، والكتابة القدرية تأتي غالبًا مقرونة باللام، والكتابة الشرعية تأتي غالبًا مقرونة بعلى، هذا غالبًا لا دائمًا. بدليل قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ والكتابة هنا قدرية بلا إشكال.

٥- **ومنها:** أن بني إسرائيل أحقُّ بأرض الشام من غيرهم، لقوله: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وهي مكتوبة لهم حين كانوا مؤمنين. فهي كُتبت لهم، لا لأنهم بنو إسرائيل، بل لأنهم مؤمنون. ولا شك أنهم في عهد موسى هم أفضل أهل الأرض، وقد الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، إذنْ فقول بني إسرائيل إن هذه أرض الميعاد، نقول: إن شاء الله هي أرض ميعاد هلاككم. أما أنها أرض لكم مكتوبة شرعًا أو قدرًا فلا، قدرًا ممكن، لكن شرعًا ليس لهم فيها حق إطلاقًا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فكما أن الله أورث بني إسرائيل بلاد فرعون وأرضه لأنهم كانوا مسلمين، فكذلك المسلمون المؤمنون بمحمد ﷺ يرثون بني إسرائيل.

٦- **ومنها:** أن الأمور لا تتم إلا بوجود المصالح وانتفاء المفاسد، لقوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولذلك نجد الشرع أوامر ونواهي، لأنها لا تتم العبادة إلا بأن يُرْغِم الإنسانُ نفسه على فعل الطاعات، وعلى الكفِّ عن المعاصي والمحرمات. فالشرع تجده كله فيه فعل وترك، حتى يتم الامتحان والاختبار.

مثال ذلك الصوم: فيه ترك للمحبوب، والزكاة: بذل للمحبوب، وهذا الذي يكون به تمام الامتحان.

٧- **ومنها:** أن الكفر ردة ـ ردة عن الاستقامة ـ لقوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ فالمرتد إذن متأخِّر، والإيمان تقدم، ولهذا نقول لهؤلاء الذي يريدون للأمة الإسلامية أن ترجع إلى الوراء وهو عندهم تقدُّم أخطأتم، هم يرون أن رجوع الناس إلى زمن السلف الصالح تأخرًا، ونقول لهم:

مخالفة طريق السلف الصالح هو التأخر، لأنه يسمى في القرآن ردة، أو ارتداد على الدبر، لكن موافقة السلف الصالح هو التقدم حقيقة، ولكنا نحتاج إلى عزيمة وقوة وتطبيق.

٨- ومنها: أن الارتداد على العقب سببٌ للخسارة ـ خسارة الدنيا والآخرة ـ قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، وإنما قلت: إن الردة على الأدبار سببٌ للخسران، لأن الفاء في قوله: ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ فاء السببية، ولهذا نصب الفعل بعدها لوقوعه بعد النهي.

٩- ومنها: أنه ينبغي للإنسان الداعي إلى الله أن يَذْكُر عواقب السيئات من أجل تنفير النفوس، صحيح أن الدعوة إلى الله تعالى تحصل بأن نقول: هذا حلال وهذا حرام وهذا واجب، لكن إذا ذكر الترغيب والترهيب كان ذلك حفزٌ للنفوس على الامتثال، وهنا قال موسى لقومه: ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

١٠- ومنها: أن ذكر العقوبة الدنيوية من أجل ردع الناس عن المعاصي لا ينافي الإخلاص، ولهذا كان الرسل يقولون هذا يحذرون أقوامهم، كما أن ذكر العواقب الحسنى من أجل الحث على فعل الطاعة لا ينافي الإخلاص. ألم تر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي عُمرِهِ ويُبْسَط له في رزقه فليصل رحمه»[1]. أليس هذا أمرًا دنيويًّا ومع ذلك ذكره النبي عليه الصلاة والسلام وسيلة إلى فعل الطاعة، وهي صلة الرحم؟! وقول بعض الناس: (إن الإخلاص حقيقة أن تعبد الله لا لثواب الله) هذا خطأ مخالف لهدي النبي عليه الصلاة والسلام، اقرأ قول الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، فهؤلاء يبتغون الفضل والرضوان، لكن القول الذي أشرت إليه هو قول بعض الصوفية، يقولون: إنك إذا لاحقت الثواب فقد أشركت في العبادة ـ نسأل الله العافية ـ.

فالله عز وجل يرشدنا إلى هذا ويبين أن هذا طريق الرسول وأصحابه، وأنت تقول: إن هذا من الإشراك، صحيح أن من أراد الدنيا بعمل الآخرة عنده نوع من الإشراك، لكن إذا جعل نصيبه من الدنيا عونًا له على طاعة الله هذا ليس فيه إشراك إطلاقًا، وانظر إلى الفواحش، الزنا مثلًا: له عقوبة من أجل أن يرتدع الناس عنه ويخشى إن زنا أن يُجلد أو يُرجم، وكذلك قطع اليد في السرقة نفس الشيء، من أجل أن يهاب الناس السرقة، ولا يُقدمون عليها، لا يقال يكفي الوازع الإيماني، لأننا لو قلنا يكفي الوازع الإيماني لوجب أن نعطل جميع الحدود، ولكن نقول: الوازع الإيماني لا شك هو الأصل لكن الرادع السلطاني مقوٍّ لهذا الأصل.

١١- ومنها: بيان جفاء بني إسرائيل، وذلك أن موسى كان يخاطبهم بـ(يا قوم) بهذا التلطف وهم يقولون يا موسى، لم يقولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله، وهذا من جفائهم وغلظ طبائعهم.

(١) رواه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

١٢- ومنها: سوء ظن بني إسرائيل بالله، وذلك أن نبيهم عليه الصلاة والسلام وعدهم بأن الله كتب لهم الأرض المقدسة، ولكنهم اعتمدوا على الأمر المادي فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وهذا يدل على سوء ظنهم بربهم سبحانه وتعالى.

١٣- ومنها: بيان جُبن بني إسرائيل ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ وهذا غاية ما يكون من الجبن؛ لأنه مَن الذي يقول: لا أدخل البلدة أو القرية أو المدينة إذا خرج منها أهلها؟ الجبان! وهم يقولون: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ وهذا يدل على غاية الجبن فيهم.

١٤- ومنها: تأكيد الجبن مرة ثانية: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

١٥- ومنها: أنه قد يكون في القوم المتكبرين والمعارضين، ومن فيه الخير والفلاح والإصلاح؛ لقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

١٦- ومنها: وقوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ فيه أيضًا التوكيد على دخولهم إذا خرج منها هؤلاء القوم الجبارون، ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، وهذا لا يحتاج إلى توكيد، لكن يدل على بلاهتهم؛ لأن كل إنسان يعرف أنه متى خلت البلاد من عدوها وخرجوا منها فالدخول لا يحتاج إلى تأكيد، فمن ينكر أن يدخل الإنسان إذا خلا بلد وعدوه منها.

١٧- ومنها: أن الخوف من الله مما يحمل العبد على طاعة الله؛ لأنه قال: ﴿يَخَافُونَ﴾، ولا شك أن الخوف مما يحمل على الطاعة، كما أن الرجاء أيضًا مما يحمل على الطاعة، لكن الغالب أن الخوف يحمل على عدم المخالفة في الوقوع في النهي، والرجاء يحمل على الموافقة في الطاعات وفي الأوامر.

١٨- ومنها: أن الخوف من الله عز وجل من النعم، ولا شك أنه من نعمة الله على العبد أن يُنعم الله عليه بالخوف منه، لقوله: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾.

١٩- ومنها: أنه ينبغي لمن أراد غزو بلد، أن يُعَمِّي الأخبار عن أهلها، لقول هذين الرجلين الناصحَيْن: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾، يعني: ولا يعلمون بكم حتى تدخلوا الباب. وقد ذكرنا لذلك شاهدًا في فتح مكة حيث إن النبي ﷺ سأل الله أن يعمي عن قريش الأخبار، حتى يبغتها في بلادها.

٢٠- ومنها: أن من غُزي في عقر داره، فهو ذليل، وفي المثل المشهور: «ما غُزِيَ قوم في عقر دارهم إلا ذلوا». يؤخذ من قوله: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾، وأهل البلد مغلوبون.

٢١- ومنها: أن الدخول على البلدة لا يكون بتسور الجدر، وإنما من الباب، ولهذا لما حاصر الصحابة رضي الله عنهم حديقة مسيلمة الكذاب، ما تسوروا الجدران، بل فتحوا الباب ثم دخلوا، وكان البراء بن مالك رضي الله عنه مشهورًا بالشجاعة والقوة، وطلب منهم أن يرموه من وراء السور؛ من

أجل أن يفتح لهم الباب. ففعلوا فدخل وفتح لهم الباب ودخل الناس هذه الحديقة وحصل النصر.

٢٢- **ومنها**: أن التوكل على الله من أسباب النصر، لقول هذين الرجلين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

٢٣- ومنها ألا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى السبب الحسي؛ لقوله بعد أن وجههم إلى أن يدخلوا عليهم الباب: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، ويشهد لهذا المعنى المأخوذ من هذه الآية، قول النبي ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بالله وَلَا تَعْجِزْ**»[1] «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» وهذا بفعل ما تستطيع من الأسباب، «**وَاسْتَعِنْ بالله**»، يعني: لا تعتمد على نفسك، اطلب العون من الله عز وجل حتى يحصل المراد.

٢٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب إفراد الله تعالى بالتوكل، لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ وهذا فيه تفصيل: وذلك أن التوكل المطلق الذي فيه تفويض المتوكِّل أمره إلى المتوكَّل عليه هذا لا يجوز إلا لله، والمتوكل على الله بهذا المعنى يشعر بأنه بحاجة وافتقار إلى الله عز وجل، وأما التوكل ـ وهو الاعتماد الجزئي الذي لا يشعر المتوكل أنه مفوض أمره إلى هذا وأنه ـ أي المتوكل عليه ـ هو الذي يمكن أن يقضي حاجته، فهذا لا بأس به، ولذلك جاءت السنة بجواز توكيل الغير والاعتماد عليه فيما وكِّل فيه، فمثلًا: يا فلان اشترِ لي كذا وكذا ، فأنت اعتمد عليه، ولكن هذا اعتماد معونة، فأنت الآن تشعر أن هذا الرجل لست مفتقرًا إليه، لو شئت لعزلته وهو أيضًا يمكن ألا يأتي بمرادك، قد يعتريه مرض وقد يُمنع منه إلى آخره، لكن توكُّل العبد على الله عز وجل يشعر الإنسان أنه في حاجة إلى الله وأنه قد فوض أمره إلى الله عز وجل، ومن ثَمَّ لا يمكن أن نقول: إن التوكل على غير الله شرك؛ بسبب الفرق العظيم بين هذا وهذا، لكن قد يتوكل الإنسان ويعتمد الإنسان على من يُنفق عليه مثلًا، الابن يعتمد على أبيه في حصول النفقة. فهنا المسألة دقيقة جدًّا، كذلك الموظف يعتمد على وظيفته، إن أشعرت نفسك بأن هذا سبب محض وأن الذي جعله سببًا هو الله وأن الله قادر على أن يمنع وجود هذا السبب، وجعلت الأمر كله إلى الله عز وجل فإن ذلك لا ينافي التوكل لا أصلًا ولا كمالًا.

وأما إذا اعتمدت عليه، وعلقت قلبك به فإن هذا بلا شك نوعٌ من الشرك، إن نسيت الله بالكلية والعياذ بالله، وجعلت هذا هو الذي يجلب لك الأمور بنفسه، فهذا أكبر وإلا كان أصغر.

ومن ذلك ما يقع كثيرًا للمرضى، أنه يعتمد على الطبيب اعتمادًا كليًّا، حتى إنه يشعر في نفسه أن الشفاء كان منه، وهذا خطر عظيم، أما إذا اعتمدت على الطبيب على أنه سبب والمسبِّب هو الله

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٦١)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عز وجل، وأن الله تعالى إن قَدَّر لك الشفاء فهو الذي شفاك، وإلا فالطبيب لن ينفعك وغاية ما هنالك أنني أذهب إلى الطبيب كما أوقد النار لطهي الطعام مثلًا، فهذا لا بأس به، ولا بد أن يكون في القلب شيء من التعلق بمن ينفعه. لكن يجب أن نجعل الأول والآخر هو الله عز وجل.

٢٥ - ومنها: أن إفراد الله بالتوكل من الإيمان، لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وأن نقص التوكل نقص في الإيمان، لأن ما رُتِّب على شيء ازداد بزيادته ونقص بنقصه.

٢٦ - ومنها: في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ في هذه الآية ما ذكرنا في الآية قبلها جفاء بني إسرائيل حيث يخاطبون نبيهم باسمه العَلَم دون وصفه بالرسالة والنبوة.

٢٧ - ومنها: إصرارُ بني إسرائيل على المعصية، وعلى الجُبن وعلى الخَور، لقولهم: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، وهذا واضح أنهم مصرون على معصية نبيهم الذي قال: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾.

٢٨ - ومنها: الغطرسة العظيمة في بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، حتى قولهم (فاذهب) وصيغتها بهذه الصيغة كأنهم آمرون لموسى، أيضًا فيها استعلاء واستكبار، يعني ما رجوا رجاء، وقالوا مثلًا: ألا تذهب يا رسول الله أو يا نبي الله، أو ما أشبه ذلك؟! ثم هناك وجه ثالث في هذه الغطرسة قولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولن نذهب معك، فلم يقولوا مثلًا: إننا ردف لك نحميك من ظهرك، وما أشبه ذلك، ففيها أيضًا كمال الغطرسة من بني إسرائيل.

٢٩ - ومنها: في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾: أن موسى عليه الصلاة والسلام أيس من بني إسرائيل حين عاندوا هذا العناد، وعبروا هذا التعبير، بقوله: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

وقارن بينهم - أي بين بني إسرائيل - وبين صحابة النبي ﷺ حيث كانوا يبتدرون أمره ويتسابقون إليه، تجد الفرق العظيم بين هذه الأمة - والحمد لله - والأمم السابقة.

٣٠ - ومنها: أن موسى عليه الصلاة والسلام له الكلمة على هارون؛ لقوله ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أما كون أيهما أكبر هارون أم موسى، فهذا يحتاج إلى دليل صحيح، لكن موسى عليه الصلاة والسلام كان له الإمرة على هارون.

٣١ - ومنها: جواز دعاء الإنسان ربه عز وجل أن يفصل بينه وبين أهل الفسوق والفجور، لقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فهل يتفرع من هذه الفائدة جواز هجران الفسقة؟ لأن الهجر مفارقة.

الجواب: يمكن أن يؤخذ من هذه الآية، ولكن نقول السنة دلت على أن الهجر إن كان فيه

مصلحة فافعله وإلا فلا تفعله.

٣٢ - **ومنها**: أن التخلي عن الجهاد في سبيل الله من الفسق؛ لقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

٣٣ - **ومن فوائدها**: الأخذ بالأكثر؛ لأن من بني إسرائيل - قوم موسى - من كانوا على الحق، الرجلان اللذان قالوا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾، ليسا بفاسقين، لكن باعتبار الأكثر، صح أن يوصف الفسق على وجه العموم، وقد يقال: إن الفاسقين هنا عام أريد به الخاص وأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن في باله إطلاقًا أن يدخل الرجلان، وعلى هذا فالوصف هنا خاص بالذين قالوا ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾.

٣٤ - **ومنها**: استجابة الدعاء، لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾، واستجابة الله للدعاء تضمن عدة صفات: منها الاستجابة، ومنها العلم، ومنها السمع، ومنها القدرة، كل هذه ثابتة بالاستجابة؛ لأنه لو لم يسمع، لم يستجب، ولو لم يعلم ما يريد الداعي لم يستجب ولو لم يقدر لم يستجب أيضًا.

٣٥ - **ومنها**: أن التحريم يطلق على المَنع القَدَرِي؛ لقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لأننا نعلم أن الله لم يرد أنه حرم عليهم دخولها شرعًا، لكن قدرًا، يعني أن التحريم يكون كونيًّا ويكون شرعيًّا، وقد ضربنا لذلك أمثلة أثناء الكلام على تفسير الآية.

فمن التحريم القدري الكوني قوله في موسى: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص:١٢] وهذا تحريم قدري، ومن التحريم الشرعي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ [الأنعام:١٤٦].

٣٦ - **ومنها**: إرشاد الإنسان، ألا يحزن على الفاسق، لأنه إذا بذل جهده فيما يجب من الدعوة، فإن هداية الخلق ليست إليه بل هي إلى الله، فلا يحزن؛ ولهذا قال الله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، والآيات في هذا متعددة، فالإنسان إذا بذل الجهد بقدر المستطاع فلا ينبغي أن يحزن، ويشتغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه ولا يأسَ على القوم الفاسقين. وكثير من الناس يكون عنده غَيْرةٌ، فتجده يشتغل بمعاصي غيره وعيوب غيره وينسى نفسه، وهذا خطأ، لأن أهم شيء عليك نفسك، عَدِّلها، ثم اسع في إصلاح الآخرين.

قال الله تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠]

التفسير

قوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأمره سبحانه وتعالى أن يتلو عليهم هذا النبأ لأهميته، وإلا فمن المعلوم أن جميع القرآن قد أُمر النبي ﷺ أن يبلغه وأن يبين لهم هذا القرآن لفظًا ومعنىً كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وقوله ﴿نَبَأَ﴾ النبأ بمعنى: الخبر وقيل: إن النبأ إنما يكون في الأمر الهام، والخبر يكون من الهام وغيره.

وقوله: ﴿ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ هذان الابنان من صلبه، وإلا فجميع البشر بنو آدم، لكن هذان ابناه من صلبه أحدهما: اسمه (هابيل) والثاني اسمه (قابيل).

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الثابت، واعلم أن الحق يُوصف به الخبر، ويوصف به الحكم فإن كان الخبر فهو الصدق، وإن كان الحكم فهو العدل كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الصدق الثابت الذي لا اختلاف فيه.

وقوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ هذه متعلقة بـ ﴿نَبَأَ﴾ أي: نبئهم حين قربا قربانًا، وهو في محل حال من النبأ يعني: هذه الحال هما قربا قربانًا، ولم يبين الله عز وجل هل هو ذهب أو فضة أو طعام أو بهائم لم يبينه الله، ولو كان في بيانه مصلحة لبينه الله -عز وجل-، وعلى هذا فلا حاجة إلى أن نتكلف في البحث عن ماهية هذا القربان، وهذه قاعدة ينبغي أن تبني عليها جميع الأقوال فيما تسير عليه في التفسير؛ لأن ما أبهمه الله فهو مبهم ولا حاجة أن نتكلف هذا الشيء الذي أبهمه الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ولو كان في بيان هذا المبهم فائدة لبيّنه الله عز وجل.

وقوله: ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ المراد به: ما يتقرب به إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ والمتقبِّل هو: الله عز وجل، وأُبْهِم للعلم به كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، فإن الخالق هو الله بلا شك وأُبهم للعلم به.

وقوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ الذي تقبل منه هو: هابيل، ولكن كيف علمنا أن ما قدمه هابيل هو الذي تقبل منه ؟ذلك إما أن يكون ـ كما ذُكِر عمن سبق ـ أنهم إذا غنموا الغنائم يجمعونها ليقربوها إلى الله فتنزل نار من السماء فإن كان فيها غلول فإن النار لا تنزل، وعلى هذه فيكون علامة القبول: أن الله عز وجل أنزل نارًا على هذا القربان فأحرقته، ويحتمل أننا علمنا ذلك بأمارات أخرى: أما عن سبب عدم التقبل من الآخر أنه ليس عنده تقوى لله عز وجل كما سيأتي من تعليق، فهو ظالم لنفسه إما بهذا القربان الذي قربه يعني: أنه غصبه أو سرقه أو تملَّكه بغير طريق شرعي، وإما بمعاصٍ كثيرة تمنع من قبول العمل الصالح، فقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ القاتل هو الذي لم يتقبل منه وهو: قابيل و قال ذلك؛ حسدًا لأخيه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، لأن الله تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني: أن الله لايتقبل إلا من المتقين، ولهذا: قال بعض السلف: لوأعلم أن الله تقبل مني عملًا صالحًا واحدًا لافتخرت بذلك وفرحت به؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، والجملة هنا حصرية، وطريق الحصر فيها «إنما» والمعنى: لا يتقبل الله إلا من المتقين، والتقي: هو الذي قام بطاعة الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، ولم يقل ذلك افتخارًا بتقواه ولا إعجابًا بنفسه، ولكن حضًّا لأخيه على أن يكون من المتقين، وبيانًا أن الله تعالى إنما يتقبل لحكمة ويمنع لحكمة.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية فوائد منها: أهمية هذه القصة، ووجه ذلك: أن الله أمر نبيَّه ﷺ أن يتلوها علينا أمرًا خاصًّا بقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾.

٢ـ ومنها: أنه ينبغي لنا أن نعرف أخبار من سبق لاسيما فيما فيه مصلحة؛ لأن الله إنما أمر نبيه ﷺ بذلك من أجل أن نعلم بها، ونأخذ منها العبر، وكلما كان الشيء أشد كان الإيمان به أقوى، فمثلًا ينبغي لنا بل يتأكد علينا أن نعرف سيرة النبي ﷺ منذ وُلد إلى أن توفي، ولاسيما سيرته بعد أن أكرمه الله عز وجل بالرسالة حتى نعرف أحواله وأخلاقه وعباداته ودعوته وأعماله حتى نتأسى به، ولا شك أن معرفة سيرة النبي ﷺ مما تزيد الإنسان إيمانًا ومحبة له وتقوي.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية: أن ما أخبر الله به فهو حق؛ لقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، ولا يقال: إن هذا قيد وأنه قد يكون ما يتلوه النبي ﷺ غير حق، بل هذا بيان من الله أن جميع ما أخبر به ﷺ فهو حق.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه قد يشترك الرجلان في عمل ويكون بينهما من

صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم[1]، ومع ذلك حصل من شرهم ما لا يعلمه إلا الله، وآخر الأمة كأولها، فالخروج على الأئمة لا شك أنه مفسدة عظيمة، وإذا قال قائل: الحكام بغير ما أنزل الله لا شك أنهم على مضرة عظيمة، لكن الواجب أن يدرأ أشد المفسدتين بأخفهما؛ فإذا جرت الدماء يصعب جدًّا إيقافها، لكن ربما يكون مع المران والمجالسة والمناصحة يمكن لكن الدماء يصعب جدًّا أن تُحقن بعد أن أريقت.

فلهذا أقول: إن المسألة خطيرة، وإن الواجب على الإنسان أن يدرس ما قاله أهل العلم في هذه المسألة دراسة خالية من العاطفة، فكلنا يجب أن تكون كلمة الله هي العليا والله تعالى يعلم ذلك، وكلنا يجب أن ينتشر الشرع في الأمة، لكن نعلم خطورة الوضع فيما إذا قيل: إن هذا الحاكم كافر وهذا الحاكم كافر، وليس عندنا فيه من الله برهان.

فإذا وجدنا كفرًا بواحًا صريحًا واضحًا عندنا فيه من الله برهان، حتى نطبق البرهان على الواقع ويتبين أنه كفر، فهل يسوغ لنا أن نقضي على الإيمان؟ يعني: لو قلنا: إنه يسوغ لابد من شروط أهمها:أن يكون لنا القدرة على إزاحته فأما أن نخرج عليه وليس بأيدينا إلا مشاعيب الإبل وسكاكين المطابخ وهو معه الدبابات والطائرات، هل يليق هذا؟ لا وليس من الحكمة ولا من الشريعة.

هل أُمِر المسلمون وهم مضطهدون في مكة أن يقاتلوا؟

الجواب: ما أُمِروا أن يقاتلوا؛ لأنهم لا طاقة لهم بذلك.

فإذا قَدَّرنا أن هذا الحاكم كافر كفرًا بواحًا عندنا من الله فيه برهان كالشمس ورأيناه يسجد للصنم فهل نخرج عليه؟

لا نخرج ونحن ليس لنا قدرة، صحيح لنا طرق ونستعين بأهل الخير على إزاحته، لكن مسألة الخروج هذه لا تجوز إلا بشرط: أن يكون لدينا القدرة على إزاحته.

فأين القدرة الآن من هؤلاء الذين يخرجون فئات وفئات ثم يحصل من الشر العظيم ما هو معلوم؟ ثم إن هذه الفئات أيضًا لا تتسلط على الحكومة نفسها بل تتسلط على الشعب المسكين الأعزل الذي لا حول له ولا قوة فيقتلون النساء والصبيان ويدمرون البلدان بحجة أنهم يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا وهم بهذا الفعل ما حصلوا على المقصود وما أثمروا وما أنتجوا، إنما كان فسادًا عظيمًا؛ لذلك كانت هذه المسألة من أخطر ما يكون في وقتنا الحاضر، فيجب التثبت في هذا الأمر، والتأني والنظر بالحكمة وإذا أراد الله أمرًا كان.

(١) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الثاني: أن يكون عالمًا بمخالفة هذا الحكم لحكم الله.

الثالث: أن يجعله بديلًا عن حكم الله.

الرابع: ألا يرضى بحكم الله.

فإذا تمت هذه الشروط صار حينئذٍ خارجًا عن الملة، فإن قيل: أفلا يمكن أن نقول إنه خارج عن الملة بهذا كالقول الأول؟

قلنا: حتى لو قلنا: إنه خارج عن الملة بهذا فإن الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر بجميعه كما لو أن الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم كفر بالجميع.

إذنْ الحكم بغير ما أنزل الله وهو لا يعلم حكم الله فإنه لا يكفر؛ لأنه من شرط الحكم بالكفر أن يكون الإنسان عالمًا به، فكيف إذا حكم بتأويل ممن حرف الكلم عن مواضعه من علماء السوء وعلماء الدولة فيكون هذا أشد عذرًا لهم وأبعد للتكفير.

وإذا قيل: هو يعلم عن حكم الله وهو راضٍ بحكم الله، لكنه يرى أنه لا يصلح لهذا الوقت مثلًا؟

قلنا: هذا كفر؛ لأن الشريعة الإسلامية باقية إلى يوم القيامة، فإن الذي شرعها عالم - سبحانه وتعالى - بما يصلح للخلق وعالم أن محمدًا خاتم النبيين، ولابد أن تكون شريعته صالحة لكل زمان ومكان إلى آخر الدنيا.

لكن يجب أن نعلم أولًا أنه قد يُلبس على بعض الحكام، وأنا أتكلم عن حكامنا الآن وحكام الأمة الإسلامية الآن كثير منهم جاهل بأحكام الشريعة، لا يعرف عن أحكام الشريعة شيئًا فيأتيه قرناء السوء ويقولون: هذا يحتمل التأويل ويحتمل كذا وكذا ثم يرددون العبارة المشهورة القيِّمة: الشريعة الإسلامية جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد فيترآى له أن هذا الشيء صالح، ثم يقولون للولاة: اجعلوه سنة واجعلوه نظامًا، مع أن الإنسان قاصر النظر قد يبدو له في هذه الحال أنه صالح، لكن عواقبه فاسدة، فمتى علمنا أن الله حرم هذا الشيء أو أوجب هذا الشيء علمنا أن النتائج المثمرة في الواجب معلومة، ولكنها قد تكون مجهولة هنا وكذلك المفاسد التي فيما حرم الله قد تكون مجهولة لنا في الحاضر ولكنها تعلم في ميعادها، وهذه مسألة خطيرة للغاية؛ لأن من الناس من يُقدِم على التكفير مع انتفاء شروطه ويحصل بذلك شرٌّ كثير، تمرد على الحكام وتضليل للعامة، وفوضى في المجتمع، ودماء تُراق بغير حق.

واسأل من سلفك من الأمة ماذا حصل من الخوارج الذين كفَّروا معاوية ثم كفروا عليًّا رضي الله عنهما وهم يقومون الليل ويتلون القرآن، وأخبر النبي ﷺ أن الصحابة - وهم الصحابة - يحقر أحدهم

معنويًّا، ولكن اعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله إما أن يكون لطمع وإما أن يكون لكفر بما أنزل الله، وإما أن يكون لعدوان وظلم على الغير.

الأول: إن كان لطمع فإنه فاسق كقاضٍ تنازع عنده رجلان فأعطاه أحدهما رشوة فحكم بغير ما أنزل الله؛ طلبًا للرشوة والطمع فهذا نقول: إنه فاسق.

الثاني: رجل تخاصم إليه رجلان وكان بينه وبين أحدهما عداوة فحكم عليه والحق معه نقول: هذا ظالم معتدٍ ليس له غرض بالحكم عليه، ولكنه يريد أن ينتقم منه؛ لأنه يكرهه أو بينهما تشاحن.

الثالث: أن يحكم بغير ما أنزل الله كراهة لما أنزل الله أو اعتقادًا منه أن ما حكم به خير من حكم الله عز وجل أو أنه مخير بين أن يحكم بما أنزل الله أو أن يحكم بغير ما أنزل الله فهذا يكون كافرًا خارجًا عن الإسلام؛ لأن كره الإسلام أو الظن أن غيره أحسن منه أو أن غيره مثله والله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] أي: لا أحد أحسن من الله حكمًا فإذا حكم وهو يعتقد مثل حكم الله فقد كذب ما تدل عليه الآية وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، وإذا اعتقد أنه خير منه فهو أشر وأقبح من الذي قال أنه مساوٍ له.

مسألة: الفرق بين الخشية والخوف؟

الجواب: هناك ثلاثة فروق:

الفرق الأول: الخشية مع العلم، والخوف قد لا يكون.

الفرق الثاني: الخشية تكون لعظمة المخشي، وأما الخوف لضعف الخائف أو يكون المخوف منه قويًّا.

الفرق الثالث: أن الخشية أكمل من الخوف.

مسألة: هل المعنى ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيما حكموا فيه أو الكافرون هم الخارجون عن الملة؟

الجواب: هذه محل خلاف، فمن العلماء من قال: أولئك هم الكافرون بما حكموا به لقول النبي ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحُ عَلَى المَيِّتِ»[1] مع أن هذا لا يُخرج من الإسلام فعليه يكون المعنى: هم الكافرون بما حكموا به فقط لا الخارجون عن الملة، وقيل: هم الكافرون أي: الموصوفون بالكفر المخرج عن الملة، لكن الأدلة دلت على أن هذا مشروط بقيود أو أنه مقيد بشروط:

الأول: أن يكون الحاكم عالمًا بحكم الله.

---

(١) رواه مسلم (٦٧)، وأحمد في «مسنده» (١٠٤٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نسمي هؤلاء العلماء بعلماء الدولة يعني: يرون ما تريده الدولة فيصرفون الناس إليه - نسأل الله العافية -.

لكن العلماء الربانيون الذين استحفظهم الله على كتابه لا يمكن أن يسلكوا هذا المسلك. فالعلماء ثلاثة أصناف: عالم ملة، وعالم أمة، وعالم دولة، أيهم أحسن؟ الأول: وهو عالم الملة.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم خشية الناس من إطاعة شريعة الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، واعلم أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم سببًا لكون الإنسان يخشى الناس دون الله فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] فالشيطان يأتي مثلًا إلى ضعاف الدين وإلى ضعاف الهمة والحزم ويقول: لا تفعل هذا فإذا فعلت تقوم عليك الأمم تنكر عليك فيخاف، والمؤمن حقًا لا يخاف ويقول: ما دمت على بصيرة وعلى دين فأنا لا أخاف إلا الله عز وجل ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

١٢- من فوائد الآية الكريمة: أن المنحرف عن الدين وعن نشر العلم ينحرف لأحد سببين:

السبب الأول: خشية الناس.

السبب الثاني: الطمع في الدنيا، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فلو أنك تأملت أسباب الانحراف - أعني: انحراف العلماء - وجدته يدور على هذين الشيئين: إما الخوف من الناس، وإما طلب الدنيا والرئاسة والمال وما أشبه ذلك.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون؛ لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ واختلف العلماء - رحمهم الله - هل المراد بهذا العموم أو الخصوص؟ يعني: أن المراد بهذا: اليهود فقط؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله أو المراد العموم؟

الجواب: منهم من قال: المراد بهذه الآية اليهود؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله فهم كافرون، ومنهم من قال: إنها عامة، والصحيح: أنها من حيث الحكم عامة حتى لو نزلت لفظًا على اليهود؛ لأن السياق في ذمهم فإننا نقول: إذا ثبت هذا الحكم في اليهود ثبت في غير اليهود من باب العموم المعنوي الذي هو القياس يعني: الآن ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إن قلنا هذا عام يراد به الخاص وأن المراد بهذا اليهود قلنا: هذا دلالة الآية لفظًا، لكن إذا قلنا بالعموم بقطع النظر عن السياق صارت الآية تدل لفظًا على الشمول لليهود وغير اليهود.

وعلى القول أنها للخصوص نقول: يلحق بذلك من لم يحكم بما أنزل الله من غير اليهود إلحاقًا

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الثناء على أهل العلم وأنهم هم حفظة شريعة الله؛ لقوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وهذا أمر لا شك فيه أن العلماء هم حفظة شريعة الله، وهم ورثة الأنبياء وهم الذين يلزمهم الدعوة إلى الله على بصيرة ونشر شريعة الله.

٩- ومن فوائدها: أن كتب الله عز وجل هي أصل العلوم التي يدعو بها من حفظها من عباد الله؛ لقوله: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وعليه فتكون التوراة لا شك من الكتب التي يجب علينا أن نؤمن بها.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العلماء شهداء على شريعة الله موثقون مؤتمنون هذا هو الأصل، لكن قد يخرجون عن الأصل وهو الشهادة على شريعة الله عز وجل التي ينشرونها بين الناس، لكن هل كل عالم كذلك؟ لا؛ ولهذا نقول العلماء ثلاثة أصناف: عالم ملة، وعالم أمة، وعالم دولة.

عالم الملة: هو الذي يحرص على حفظ الملة ونشرها بين الناس والدعوة إليها وهذا هو العالم الحقيقي.

وعالم الأمة: الذي يرى ما يصلح للناس فيفتيهم به ولو خالف الشرع؛ لأنه يريد أن يصلح في هذه الأمة ولا يبالي.

وعالم دولة: هو الذي يرى ما تريده الدولة فيدعو إليه ويحكم به ويحاول أن يلوي أعناق النصوص إلي ما تريده الدولة.

وقد ظهرت دعوى قبل سنوات إلى الاشتراكية بسبب تأثير الشيوعيِّن على بعض البلاد العربية، فظهرت دعوى الاشتراكية وتأميم الممتلكات وصار بعض العلماء يحاولون أن يجدوا لهذا المنهج شيئًا يؤيده من القرآن والسنة، فصاروا يأتون بالآيات والأحاديث البعيدة عن مرادهم، ليثبتوا هذا حتى سمعنا من يقول: إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨] يعني: أنتم والعبيد الذين تملكونهم سواء، وهذا لا شك أنه تحريف؛ لأن معنى الآية أن الله ضرب لنا مثلًا من أنفسنا، هل السيد يرضى أن يشاركه عبده في خصائصه وحقوقه؟ الجواب بالطبع لا ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بناء على أنهم شركاء لهم ولا يمكن أن تقروا بهم، وكذلك الرب عز وجل هل يرضى أن يكون أحد من خلقه شريكًا له؟ لا يرضى كما أنكم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في الرزق. واستدلوا أيضًا بحديث «النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ»[1]، وما أشبه ذلك.

---

(١) ضعيف: انظر «الإرواء» (١٥٥٢).

هُمُ ﴾ كانوا الواو اسم كان و﴿ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ خبرها.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة فوائد منها: ثبوت إنزال الله تعالى للتوراة؛ لقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾.

٢ـ ومنها: شرف التوراة؛ حيث إن الله تعالى أنزلها من عنده، ولكن المراد بالتوراة التي هنا: التي لم تُغير ولم تُبدل.

٣ـ ومنها: أن في التوراة هدى ونور لقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾، أمّا في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالقرآن كله هدى وكله نور قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤]، وهذا التعبير بينه وبين التعبير القرآني بالنسبة للقرآن الكريم فرق عظيم؛ لأن هذه جعل فيها هدى ونورًا، والقرآن جعله هو الهدى والنور في هذه الآية.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن التوراة أصل للأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى؛ لقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾، وعلى هذا فالشرائع التي أتت من بعد التوراة تعتبر تكميلًا للتوراة وتحقيقًا للعمل بها، ومن ثَم نقول هل الإنجيل داخل في ذلك؟ نقول نعم الإنجيل مكمل للتوراة؛ لأن عيسى ﷺ قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:٥٠].

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز وصف الأنبياء بالإسلام؛ لقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾، والمراد هنا: الاستسلام الظاهر والباطن؛ لأن هناك إسلامًا ظاهريًّا فقط كما في قول الله تعالى في قصة لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥ ـ ٣٦]، فجعل الذين فيها في البيت جعلهم من المسلمين، ومن المعلوم أن امرأة لوط ليست مسلمة بل هي كافرة، لكنها قد خانت زوجها فأظهرت الإسلام ولهذا قال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم:١٠]، ليس بفعل الفاحشة ولكن بإخفاء الكفر عنها.

المهم: أن الإسلام قد يُطلق على من أظهر الإسلام، وإن كان قلبه منطويًا على الكفر، لكن إسلام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على عكس ذلك فإسلام الأنبياء هو استسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا عذر لليهود في الخروج عن شريعة الله؛ لأن الله تعالى قَيَّد لهم الأنبياء الكثيرين يحكمون لهم بالتوراة، لكنهم عاندوا وكفروا.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل العلم ورثة الأنبياء في إظهار حكم الله والدعوة إلى الشريعة؛ لقوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ .

وقوله: ﴿ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ أي: جُعلوا حفاظًا عليه.

وقوله: ﴿مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ والمراد به: التوراة؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ وأضيفت التوراة إلى الله؛ لأنه سبحانه وتعالى كتبها بيده، وهذا هو المشهور عند العلماء سلفًا وخلفًا.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: على الذين استحفظوا ﴿شُهَدَآءَ﴾ لأن العلماء يشهدون بأن هذه شريعة الله وينشرونها بين عباد الله، فكانوا شهداء على الخلق ببلوغ الرسالة إليهم.

ثم قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: لا تخافوهم وتخضعوا لهم واخشوا الله، وهذا كالإشارة إلى كونهم إذا زنا فيهم الشريف تركوه وإذا زنا فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: لا تستبدلوا آيات الله بالثمن القليل فما هو هذا الثمن القليل؟ هذا الثمن القليل: إما الجاه وإما الرشوة، فهم يحكمون بغير شريعة الله؛ طلبًا لبقاء سيادتهم أو من أجل مال يُبذل إليهم رشوة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والثمن القليل إذنْ إما رتبة وجاه وشرف وإما مال بالرشوة، ووصفه الله بأنه قليل؛ لأن جميع ما في الدنيا مهما بلغ فهو قليل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: أن أيَّ إنسان لم يحكم بما أنزل الله من يهود ونصارى وغيرهم ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (أولاء) المبتدأ، و(هم) ضمير فصل جاء؛ لإفادة الحصر والتوكيد؛ لأنهم قالوا: إن ضمير الفصل له ثلاث فوائد:

الأولى: إفادة الحصر.

الثانية: التوكيد.

الثالثة: الفرق بين الخبر والصفة.

ولهذا سُمي ضمير فصل، ويظهر هذا في المثال إذا قلت: (زيد الفاضل) وعبرت تعبيرًا آخر (زيد هو الفاضل)، أيهما أبلغ في إثبات الفضل لزيد؟ الثاني؛ لأن الضمير هو يعني: لا غير، فيفيد الحصر ويفيد التوكيد أيضًا ويفيد الفرق بين الخبر والصفة؛ لأنك إذا قلت: (زيد الفاضل) يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد ويترقب المخاطب الخبر، (زيد الفاضل) ماذا شأنه؟ يتوقع الإنسان الخبر فإذا جاءت (زيد هو الفاضل) لم يحتمل أن تكون الفاضل صفة بل هي خبر، وهل ضمير الغائب له محل من الإعراب؟ ليس له محل من الإعراب، بل هو حرف في صورة ضمير، وليس له محل من الإعراب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠] الغالبين وليست الغالبون مما يدل على أنه ليس له محل من الإعراب؛ إذ لو كان له محل من الإعراب لكان مبتدأ والغالبون خبر، لكن هو ليس له محل من الإعراب ولهذا نقول: ﴿إِن كَانُوا۟

الرسل عليهم الصلاة والسلام أعلى مراتب الخلق وعلى أنهم أتوا بالأنباء والأخبار، فيكون القولان متفقين في المعنى، وإنما قلنا إن الرسل وكذلك الأنبياء أعلى مراتب الخلق، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني: الإسلام التام الذي هو إسلام القلب وإسلام اللسان وإسلام الجوارح يعني: الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا ولا تعجب أن يُوصَف الأنبياء بالإسلام؛ لأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم أقوى الناس استسلامًا لله عز وجل؛ قال الله تبارك وتعالى عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

فإسلام الأنبياء متضمن للإيمان وذلك؛ لأنه بإسلام القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ متعلقة بـ(يحكم) يعني: يحكم هؤلاء الرسل لليهود ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بمعنى: رجعوا وذلك في توبتهم من عبادة العجل، فإن هذا رجوع إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قيل: إن الربانيين والأحبار العطف فيهما من باب عطف الصفات، وأن الربانيين هم الأحبار وقيل: بينهما فرق وهو أن الرباني هو الذي أتم العبادة لله وربى الناس عليها ولم يصل إلى درجة الحبر بالنسبة للعلم، والأحبار هم الذين وصلوا إلى غاية كبيرة من العلم.

فالحبر واسع العلم، لأنه يتفق في الاشتقاق مع البحر، لكن هو ليس الاشتقاق التام الذي يتساوى فيه المشتق والمشتق منه في الحروف والترتيب، هذا يتساوى فيه المشتق من المشتق منه في الحروف دون الترتيب؛ لأن (حبر)، (بحر) كل واحد منهما حروفها ثلاثة متفقة، وعلى هذا يكون الحبر هو الذي عنده علم واسع والرباني من دونه ولكنه يربي الناس على عبادة الله عز وجل ويربيهم أيضًا على العلم.

وقد قيل في غير هذه الآية: إن الرباني هو العالم الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره[1]؛ لأن هذا ولا شك أنه من الحكمة وأنه أقرب وسيلة إلى حصول العلم أن يُربي الطالب بصغار العلم قبل كباره.

وقوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ يعني: يحكمون بما استُحفظوا من كتاب الله، أي: بما جُعلوا حفاظًا عليه يعني: أول من يحفظ الدين ويقوم بحفظه والزود عنه هم العلماء الأحبار، والربانيون ولذلك قال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ أي: بسبب ما استُحفظوا من كتاب الله.

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عُتو اليهود وأنهم بعد أن يتبين لهم الحق يتولون، نأخذه من قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾؛ لأن ثم تدل على الترتيب والتراخي.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من طلب الفتوى تتبعًا للرخصة فليس بمؤمن لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لكن هل ينتفي عنه أصل الإيمان أو كمال الإيمان؟ الظاهر الثاني وأنه ينتفي عنه كمال الإيمان.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٥]

التفسير

قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ معلوم أنها للجماعة ضمير جمع، لكنها إذا أضيفت إلى الله فالمراد بها: التعظيم قطعًا؛ لأن الله سبحانه إله واحد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال الله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: منهاجًا فالله تعالى أنزلها على موسى، لكنه جل وعلا كتبها بيده بألواح نزلت من السماء على موسى - عليه السلام - وجاء بها مكتوبة بالألواح.

وقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الهدى: العلم، والنور: آثار هذا العلم، وذلك أن الإنسان كلما ازداد علمًا ازداد نورًا وبصيرة في دين الله - عز وجل -.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: بالتوراة وما فيها من الهدى والنور ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ ومن قراءة (النبيئون) فعلى هذه القراءة يكون مفردها نبيئًا، وتكون مشتقة من النبأ بمعنى: الخبر، وعلى قراءة حذف الهمزة قيل: أنها مشتقة من النَّبوة، وهو الشيء المرتفع وذلك لارتفاع منزلة النبيين، وقيل: إنها من النبأ ولكن سُهلت الهمزة فصارت ياء، فصار النبي النبيون، والكل متفقون على أن

فقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا نفى الله عز وجل أن يكون هؤلاء مؤمنين وأتى بحرف الجر الزائد، وقد ذكر علماء البلاغة، أن جميع الحروف الزائدة تفيد التوكيد، وعليه فتكون الباء هنا وإن كانت زائدة إعرابًا، فهي زائدةٌ معنىً وهو التوكيد، فإذا قلت: ما زيد قائمًا، وما زيد بقائم فالثانية أوكد.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** العجب من هؤلاء اليهود الذين يُحكِّمون النبي ﷺ؛ طلبًا للرخصة وعندهم التوراة.

٢- **ومن فوائدها:** أن من استفتى عالمًا طلبًا للرخصة ففيه شبه من اليهود، ولهذا قال العلماء: يحرم الاستفتاء طلبًا للرخصة وقالوا: من تتبع الرخص فقد تزندق.

وصفة تتبع الرخص أنه إذا أفتاك عالم ولم تُرِدْ فتواه ذهبت إلى عالم آخر ليفتيك بما يناسبك، وهذا ولا شك أن المستفتي إنما أراد اتباع الهوى دون الهدى؛ لأنه لما أُتي بما يرى هو أنه الحق، كيف يرى أنه الحق؟ لأنه لم يستفتِ هذا العالم إلا وهو يعتقد أن فتواه حق وشريعة فلما لم يوافق ما يهواه ذهب يستفتي آخر فصارت حاله تنادي بأنه لا يريد الهدى وإنما يريد الهوى، فلو أن الإنسان استفتى عالمًا في مكان في بلدة لا يرى عالمًا أحسن منه، لكن هو من نيته أنه لو حصل له أن يستفتي من هو أعلم فَعَلَ فهنا نقول: لا بأس أن يأخذ بقوله، وإذا ظفر بعالم أوثق منه عنده فليستفته ويكون هذا بمنزلة استعمال التراب عن الماء عند العجز عنه، وبمنزلة أكل الميتة عند العجز عن أكل المزكاة، وعليه فيفرق بين شخصين سألا عالمًا ثم استفتيا غيره أحدهما سأل هذا العالم؛ لأنه لا يرى في بلده من هو أعلم منه وفي نيته أنه إذا ظفر بمن هو أوثق سأله فاستفتاء هذا للعالم الثاني ما حكمه؟ جائز.

والثاني استفتى العالم الذي ببلده على أن فتواه هي الحق، لكنه تثاقلها ثم استفتى عالمًا آخر لعله يجد رخصة هذا لا يجوز اثنان عملهما واحد، لكن حكمهما مختلف.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تناقض اليهود؛ وذلك بطلبهم الحق مع أن أداة الحق عندهم حَكَّموا الرسول مع أن التوراة فيها حكم الله أي: فيها ما يعتقدون أنه حكم الله.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأحكام التي في التوراة هي حكم الله، ولكن متى هذا؟ قبل أن تُبدَّل وتُغير ويخفى منها ما يُخفى قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩٢].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَكَيْفَ﴾ هنا: اسم استفهام، والمراد به: التعجب يعني: اعجب كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، وهم يدَّعون أنهم مؤمنون بها، فإن هذا من التناقض، فإذا كان لديهم كتاب يهتدون به، ويدَّعون أنه هو كتابهم وشريعتهم ودينهم فكيف يتحاكمون إلى غيره؟! هذا مما يوجب الشبهة في تحكيمهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم ما أرادوا الحق، فلو أرادوا الحق لرجعوا إلى الكتاب الذي عندهم؛ لأنهم يعتقدون أنه حق؛ إذنْ المسألة الآن مسألة اشتباه، وأنهم لم يريدوا حقيقة التحكيم وهذا هو الواقع؛ لأنهم لما زنا منهم الزانيان أتوا إلى الرسول ﷺ يريدون أن يوافقهم فيما أحدثوه في عقوبة هذه الفاحشة، فأمر النبي ﷺ برجم الزانيين، ثم أنكروا ذلك وقالوا: هذا خلاف ما عندنا، وقالوا: عندنا أن نسود وجوه الزانيين ونطوف بهما في الأسواق خزيًا وعارًا، فأخبرهم عبد الله بن سلام أو غيره بأن التوراة تنص على أن الزانيين يُرجمان، فقال: ائتوا بالتوراة، فأتوا بها وجعل القارئ يقرأ ووضع يده على آية الرجم فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك؛ لأن عبد الله بن سلام من أحبار اليهود، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم توافق ما حكم به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَقَامَ حُكْمَكَ بَعْدَ أَنْ أَمَاتُوهُ» أو «مَنْ أَحْيَا حُكْمَكَ بَعْدَ أَنْ أَمَاتُوهُ»[1]، فالله عز وجل يعجب الرسول ﷺ يقول: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني: بعد أن حكموك وحكمت تولوا وأبوا حتى إذا جيء بالتوراة فإذا هي مطابقة تمامًا لحكم النبي ﷺ.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه التحكيم.

وقوله: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ما هؤلاء بالمؤمنين وأتى (بأولى) مقرونة بالكاف الدالة على بُعد المشار إليه، وهذا لدنو منزلتهم وليس لعلوها، يعني: ما هؤلاء المنحطون الذين نزلوا إلى أسفل السافلين بالمؤمنين، فهم لا آمنوا بالتوراة ولا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

---

(١) رواه مسلم (١٧٠٠)، وأبوداود (٤٤٤٨)، وابن ماجه (٢٥٥٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٥٤٨) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

كذا، فهذا ليس بكافر، ففرق بين إنكار المحبة تأويلًا وإنكارها تكذيبًا وجحودًا، وهؤلاء هم الأشاعرة ومن ورائهم المعتزلة.

وجميع المتأولين يقولون: إن الله لا يحب؛ لأن المحبة لا تكون إلا بين شيئين متناسبين، هذا واحد؛ ولأن المحبة تتجدد؛ لأنها معلقة بأوصاف وأسباب والله تعالى منزه عن الحوادث؛ إذنْ ما معنى المحبة؟ قالوا: معناها الثواب، ولم يعلم المساكين أنه يلزم من إثبات الثواب إثبات المحبة، إذ لا يمكن ثواب بلا محبة، فهم وإن فروا من إثباتها لفظًا فإنها تلزمهم التزامًا أو إلزامًا، المهم: أنهم يقولون: إن المحبة بمعنى المثوبة، وإن قيل لهم: إن الله سبحانه يقول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] قالوا: نعم يحبهم أي: يثيبهم، ويحبونه أي: يفعلون ما يثيبهم عليه، ولكن هذا لا شك أنه مخالف لظاهر اللفظ، ومخالف لإجماع السلف، فما من السلف أحد قال: إن المحبة بمعنى الثواب.

فإذا قال قائل: وهل عندكم نص من كل واحد من السلف أن المحبة بمعناها الحقيقي؟

قلنا: لا، لكن كون هذه النصوص ترد عليهم، ولم يرد عنهم تفسير بخلاف ظاهرها يدل على أنهم أجمعوا على إثباتها، ولا حاجة أن يُنقل إجماعهم على كل مثل بعينه، لكن ما دامت نصوص الكتاب والسنة ترد عليهم ولم يأتِ عن أحد منهم ولا حرف واحد أنهم أوَّلوها بخلاف ظاهرها، فهذا يدل على أنهم مجمعون على إثباتها.

أما قولهم: إن هذا يلزم أن تقوم الحوادث بالله عز وجل فنقول: وليكن،فنحن نؤمن بأن الله تعالى يفعل ما يشاء، وأن صفاته منها ما يتجدد ومنها ما لا يتجدد بمعنى: منها ما يحدث بأسبابه، ومنها ما لا يحدثه بأسبابه، فالعلم ـ مثلًا ـ أزليٌّ أبديٌّ، لكن المحبة ليست كذلك إذا كان الله يحب هذا العبد محبته متى كانت؟ بعد وجود أسباب المحبة، فمحبته لهذا العبد المعين حادثة ولا مانع، وقيام الأفعال الاختيارية به من كمال صفاته ولا شك.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات تفاضل محبة الله عز وجل، وجه الدلالة: أن المحبة هنا علقت بوصف، وما هو؟ لأن مقسطين من الإقساط، وإذا كانت كذلك فإن المعلَّق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فلو قلت: أكرم المجتهد من الطلبة، فإن إكرامك يزيد بزيادة اجتهادك، وينقص بنقصه؛ إذنْ إثبات كون الله يحب المقسطين يدل على تفاضل محبة الله عز وجل وإنه يحب أحدًا أكثر من أحد، ويحب أحدًا ولا يحب أحدًا.

١٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على الإقساط ـ أي: على العدل ـ وجه ذلك يعني: كون الله يخبر أنه يحب المقسطين يتضمن الحث على هذا، وهذا ليس مجرد خبر، بل هو خبر يراد به الحث والإغراء على العدل.

نقل الكذب؛ لأن الله أكد بيان أن هذا الوصف القبيح من اليهود.

٣ـ ومنها: أن من اتصف بذلك ففيه شبه من اليهود.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الوصف القبيح أيضًا وهو: أكل المال بالباطل؛ لقوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، والله عز وجل ما ذكر هذا الوصف إلا لنحذره.

٥ـ ومنها: أن من اكتسب المال الحرام ففيه شبه باليهود، فآكلو الربا مشابهون لليهود، آكلو الأموال بالغش مشابهون باليهود، آكلو الأموال بالحلف الكاذب مشابهون لليهود، فكل من اكتسب مالًا بطريق محرَّم فهو مشابه لليهود، فالراشي، والمرتشي مشابه لليهود.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ مخيَّر بين أن يحكم بين اليهود أو ألَّا يحكم، لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ و(أو) هنا: للتخيير.

فإن قال قائل: هل التخيير على إطلاقه؟

فالجواب: لا، بل هو مقيد بالمصلحة، والقاعدة عندنا: أن التخيير إذا كان للتيسير على المكلَّف فهو للتشهي يفعل ما شاء، وإذا كان للمصلحة وجب اتباع المصلحة.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مَنْ أعرض عن شيء بأمر الله فإن ذلك لا يضره؛ لقوله: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ يعني: فلم تحكم ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾، ولكن هل انتفاء الضرر يجب أن يكون في الحال أو هو في المستقبل بمعنى: أنه ربما يتضرر لأول وهلة ثم تكون العاقبة له؟ الجواب: الثاني؛ لأن الإنسان قد يتضرر لأول وهلة، ثم تكون العاقبة له، وحينئذٍ يكون كأن لم يتضرر.

٨ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب الحكم بين الناس بالعدل؛ لقوله: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يعني: إن أردت أن تحكم كما خيَّرناك فاحكم بينهم بالقسط.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يجوز للإنسان أن يراعي في حكمه قريبًا ولا صديقًا ولا غنيًّا ولا فقيرًا؛ لقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وهذا يعني أن ينظر إلى القضية من حيث أنها قضية، لا من حيث أنها قضية فلان بن فلان.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات المحبة لله عز وجل ـ أي: أن الله يحب ـ ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وهل هذه المحبة مجاز عن الثواب أو هي محبة حقيقة؟ يتعين الثاني.

ومن أهل التأويل من قال: إن الله تعالى لا يحب، قال ذلك تأويلًا لا تكذيبًا، يعني: هو لم يقل: إن الله لا يحب؛ بل قال: إنه يحب، لكن معنى المحبة كذا، ويجب أن تفرقوا بين الطريقين، الذي يقول: إن الله لا يحب هذا كافر؛ لأنه مكذب للقرآن والذي يقول: إنه يحب، لكن معنى المحبة

عن الله عز وجل بالقرآن والأحاديث القدسية، والأذية ثابتة، ومن المعلوم: أنه لا يلزم من الأذية الضرر، بدليل أن الإنسان إذا جلس إلى جنبه رجل آكل بصلًا يتأذى به، لكن لا يضره.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النفي بـ (لم) فيعم أي شيء، لا يضروك لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ يعني: إذا اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بالقسط والقسط هو: العدل، حتى لو كان الحكم لكافر على مسلم، فلابد أن يُحكَم بالعدل، حتى إن العلماء - رحمهم الله - قالوا: يجب أن يعدل بين الخصمين ولو بين مسلم وكافر في اللفظ واللحظ والجلوس والتقديم وكل شيء؛ لأن هذا حكم يجب أن يُعدل فيه، وعبد الله بن رواحة ﷺ لما بعثه النبي ﷺ ليخبس على اليهود الثمار فجمعه وقال: (إني جئتكم من أحب الناس إلى يعني: الرسول ﷺ، وإنكم لأبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ﷺ، وما حبي له وبغضي لكم بموجب ألا أعدل فيكم)، وإلا من المعلوم أن النفس بالطبيعة البشرية تميل مع من تحب وعلى من تبغض، لكن يقول: لا يمكن ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[2]، وعدل فيهم ﷺ.

وفي قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حث على العدل في كل شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ في كل شيء، يعني: العادلين، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ عَنْ يَمِينِ الله عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا عَلَيْهِ»[3]، إذن المقسِط: العادل، والقاسط الجائر، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، لكن المقسط هو العادل.

الفوائد:

١- في الآية فوائد كثيرة منها: تأكيد كون هؤلاء اليهود سمّاعين للكذب؛ لقوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ فإن قال قائل: يرد على قولك تأكيد القاعدة المعروفة أنه: إذا دار الكلام بين التأسيس والتأكيد حُمل على التأسيس، قلنا: نعم هذا وارد، لكن له جواب، والجواب: أننا إذا قلنا: إنه للتأسيس صارت الجملة الأولى دالة على معنى واحد، والثانية على معنى واحد، وإذا قلنا: للتوكيد صار كل منهما دالًّا على معنيين، فمن ثم يترجح أن يكون ذلك للتأكيد.

٢- من فوائد الآية الكريمة: التحذير من هذا الوصف القبيح، وهو الاستماع للكذب أو

كان السب في الحقيقة لي؛ لأني أنا المدبر المتصرف والأمر كله بيدي أي بإرادتي وقدرتي.

(١) رواه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥١٩٩)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

(٣) رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩)، والحميدي في «مسنده» (٥٨٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٣٥)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٩٢) من حديث عبدالله بن عمرو ﷺ.

اكتسبه الإنسان بالمحرم فهو سحت.

وسمي سُحتًا؛ لأنه لا بركة فيه، فهو مسحوت البركة وهو أيضًا يسحت المال الآخر فالسُّحت إذنْ وصف في نفسه ووصف في غيره، أما كونه وصفًا لنفسه، لأنه هو نفسه لا بركة فيه كما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه فيمن كسب مالًا محرمًا (أنه إن أنفقه لن يُبَارك له فيه وإن تصدق به لن يُقبل منه وإن خلفه كان زاده إلى النار).

وقوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يعني: لتحكم بينهم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام وأمته مثله قال الله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، لكن الفاعل في قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ هل المراد به أهل الذمة أو المعاهدون أم كل كافر أم كل مؤمن أم ماذا؟

نقول: أما المؤمن فلا يجوز الإعراض عن الحكم بين المسلمين خصوصًا من وُكِلَ إليه ذلك الأمر مثل القضاة، فلا يجوز لأي قاضٍ إذا ترافع إليه خصمان أن يتعدى، بل يجب أن يحكم بينهما، والحَكَمُ الذي ليس بقاضٍ له أن يحكم وله ألا يحكم، لكن لو استُفتي يجب أن يفتي بشرع الله، أما التحكيم فهو بالخيار إن شاء قَبِل وإن شاء لم يقبل، مثل أن يكون نزاع بين قريبين فيقولان: لا نريد أن نصل إلى القاضي، ولكن نحكِّم فلانًا فلا يلزمه أن يحكم، لكن لا شك أنه يتأكد عليه أن يحكم لما في ذلك من فضِّ النزاع وبيان حكم الله عز وجل، ولكن لا يحكم حتى يستوثق من الجميع.

أما غير المسلمين فالصواب أن الإنسان مُخيَّرٌ إن شاء حكم وإن شاء لم يحكم سواء كانوا ذميين تحت حكمنا أو معاهدين منفصلين عنا أو حربيين، والحربي غالبًا لا يمكن أن يأتي؛ لأنه إذا أتى قُتل؛ لأنه مباح الدم.

وقوله: ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ﴿أَوۡ﴾ هنا نقول إنها للتنويع أو للتخيير؟ نقول: إنها للتخيير، وهذه للتخيير، وإذا كانت للتخيير هل هو تخيير تشهٍ أو مصلحة؟ نقول: هي تخيير مصلحة.

وقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، إن تعرض عنهم ولا تحكم بينهم فإنهم لن يضروك، لكن قد يؤذونك، والأذية لا يلزم منها الضرر، بدليل أن الله سبحانه وتعالى أثبت أن بني آدم يؤذونه ونفى أن يضره أحد فقال جل وعلا: «يَا عِبَادِي إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي..» [1]، وكذلك في القرآن: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [محمد:٣٢]، فالأذيَّة ثبتت في القرآن والأحاديث القدسيَّة، فقال الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي [2] ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهرَ [3]..» [1]، فالضرر منفيٌّ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) ينسب إلي ما من شأنه أن يؤذي ويسيء.

(٣) بسبب ما يصيبه فيه من أمور وأنا المدبر لكل ما يحصل لكم وتنسبونه إلى الدهر، فإذا سببتم الدهر لما يجري فيه

٢٠ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائمًا أن يطهر قلبه، وأن يعتني بأعمال القلب، واعتناء المرء بأعمال القلب يجب أن يكون أشد من اعتنائه بعمل الجسد؛ لأن عمل الجسد في الواقع يقع من كل إنسان من مؤمن ومنافق، لكن عمل القلب هو المهم ـ نسأل الله أن يصلح قلوبنا جميعًا ـ.

٢١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بشارة النبي ﷺ بأن هؤلاء القوم لهم الذل والعار في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

٢٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الوعيد لهؤلاء لعلهم يرجعون، فإن الوعيد على المعصية من أسباب العدول عنها بحيث لا يقدم عليها وإذا أقدم استعتب وتاب.

٢٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات أن لبني آدم دارين هما: الدنيا والآخرة، الدنيا يكون عذابها إما من الله، وإما من عباد الله قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة:١٤]، هذا على أيدي الرسول وأصحابه وقد يكون من الله عز وجل كما لو ابتلوا بالأمراض والقهر والقحط والجدب وغير ذلك.

وعذاب الآخرة من الله الواحد القهار فلا أحد يستطيع أن يعذب أحدًا في الآخرة ولا أن يثيبه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هم سماعون، وذكر سماعون للكذب هنا للتوكيد والتوطئة في قوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ فهؤلاء جمعوا بين أمرين: بين فساد القول وفساد الغذاء فهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ يقبلونه ويتحدثون به ويأخذونه مُسلَّمًا.

وقوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ أي: للمال الحرام، وفيها قراءتان: للسحْت ـ بسكون الحاء ـ وللسحُت بضم الحاء مثل: نَهْر ونَهَر.

السُّحت: كل مال محرم يدخل فيه الرشوة وهي شائعة في اليهود، ويدخل فيه الربا وهو أيضًا شائع في اليهود ويدخل فيه الغش والخيانة، والقاعدة هي أن السحت كل مال محرم يعني: كل مال

إرادة شرعية: وهي التي بمعنى المحبة.

وإرادة كونية: وهي التي بمعنى المشيئة.

فهنا ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ إرادة كونية أي: من يشأ الله فتنته، وفي قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧]، هذه إرادة شرعية؛ لأنه لو كانت إرادة قدرية لتاب الله على جميع الناس، لكنها إرادة شرعية بمعنى: أن الله يحب أن يتوب عليكم.

إذنْ الفرق بين الإرادتين من حيث حقيقتيهما: أن الإرادة الشرعية بمعنى: المحبة، والإرادة الكونية بمعنى: المشيئة؛ فالإرادة الكونية: لابد من وقوع مراد الله بها، والإرادة الشرعية: قد تقع وقد لا تقع.

والفرق الثاني: أن الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله وما لا يحبه الله والإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله.

فإذا قال قائل: هل الله يريد الكفر؟ قلنا: فيه تفصيل: بالإرادة الكونية نعم، بالإرادة الشرعية لا، وبه نعرف ضلال من يقول: كل ما وقع فهو محفوف إلى الله ـ وهذا غلط ـ لأننا لو أخذنا بهذا فيلزم أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان وهو عز وجل لا يحب هذا ولا يحب الفساد.

ولو قال قائل: الإيمان هل هو مراد الله شرعًا أو كونًا؟ فالجواب: إن وقع فهو مراده شرعًا وكونًا، وإن لم يقع فهو مراده شرعًا.

١٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يملك أن يغيِّر مراد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

١٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المدار في الصلاح والفساد على القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

١٨ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان المستدل أن ينظر إلى النصوص من جميع الجوانب، وذلك إذا نظرت إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾لقلت: إن إرادة الله تعالى لتطهير القلب مجرد مشيئة، لكن إذا قيَّدتها بالنصوص الأخرى عرفت أن عدم إرادة الله تطهير قلوب هؤلاء؛ لأنهم ليسوا أهلًا لذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وكما يتضح هذا جليًّا في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

١٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنها شاهد واضح لقول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]

---

(١) سبق تخريجه.

الله استوى على العرش لكن معنى استوى استولى هذا محرف تحريفًا معنويًّا والذي قرأ: (وكلم اللهَ موسى تكليمًا)، هذا محرِّف تحريفًا لفظيًّا ومعنويًّا؛ لأنه إذا قرأ (كلم اللهَ موسى) صار الكلام من موسى، وهذا تحريف معنوي نصب لفظ الجلالة فهو تحريف لفظي والذي يقول: الحمدِ لله ربَّ العالمين محرفًا تحريفًا لفظيًّا لأن المعنى لا يختلف لكن اللفظ يختلف.

وكل أنواع التحريف المعنوي واللفظي محرم.

ثم إن تعمَّد الشيء مع علمه بمراد الله ورسوله، فهذا قد يصل إلى الكفر والعياذ بالله؛ لأنه قال على الله مع أنه يعلم أن الحق فيه كذا.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن التحريف المذموم هو الذي يقع بعد معرفة الإنسان الحق؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، وفي الآية الأخرى ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦] فهم يريدون أن يزيلوا الكلم عن مواضعه، أما الإنسان الذي تأوَّل بتأويل سائغ فإنه لا يذم ولا يعد فعله تحريفًا يأثم به، وإن كنا قد نعده تحريفًا نأثم به إذا وافقناه ونحن نعلم على غير الصواب.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من حرَّف الكلم عن مواضعه من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود فيقتضي الحذر من التحريف للكلم عن مواضعه؛ لئلا يقع الإنسان في مشابهة اليهود.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن اليهود لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾.

١٣- ومن فوائدها: ذم أولئك الذين لا يقبلون من الحق إلَّا ما وافق أهواءهم، وإذا لم يوافق أهواءهم ذهبوا يتطلبون الرخص من هذه الأمة، فإن كثيرًا من الناس على هذا المنوال إذا أُفْتِيَ بما تطمئن إليه نفسه قَبِلَه وإلا ذهب يطلب آخرين يفتونه بما يشتهي فهذا نقول: إن فيه شبهًا من اليهود.

١٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: شدة كراهة أحبار اليهود للحق؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ لم يقل فلا تأخذوه قال: ﴿فَٱحۡذَرُواْ﴾ وهذا أشد وقعًا من قولهم فلا تأخذوه ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ وكان مقتضى المقابلة أن يقولوا وإن لم تؤتوه فلا تأخذوه، ولكنهم قالوا: فاحذروا وهو أشد وقعًا من قول: لا تأخذوه.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات إرادة الله عز وجل وأنها شاملة حتى لإرادة الإنسان؛ لقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾، واعلم أن الإرادة تنقسم إلى قسمين:

ولكن إذا قال قائل: ألسنا مأمورون أن نأخذ الناس بظواهرهم؟

فالجواب: بلى نحن مأمورون بهذا، لكن من تبيَّن نفاقه فإننا نعامله بما تقتضيه حاله كما لو كان معلنًا للنفاق، فهذا لا نسكت عنه، أما من لم يعلن بنفاقه فإننا ليس لنا إلا الظاهر والباطن إذا ظهر، كما أننا لو رأينا رجلاً كافرًا فلنعامله معاملة الكافر ولا نقول: لا نكفره بعينه كما اشتبه على بعض الطلبة الآن يقولون إذا رأيت الذي لا يصلي فلا تكفره بعينه، وكذلك الذي يسجد للصنم لا تكفره بعينه؛ لأن هذا ربما يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان فيقال: هذا غلط عظيم نحن نحكم بالظاهر فإذا وجدنا شخصًا لا يصلي قلنا: هذا كافر بملء أفواهنا، وإذا رأيناه يسجد لصنم قلنا: هذا كافر ونعين ونلزمه بأحكام الإسلام، فإن لم يفعل قتلناه، أما في أمر الآخرة فنعم لا نشهد لأحد معين لا بجنة ولا بنار إلا من شهد له النبي ﷺ أو جاء ذلك في القرآن.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من اليهود من هو سمَّاع للكذب نقَّال للكذب بمعنى: أنهم يصدقون الكذب ولا يتحرون فيه ويقبلونه، وأيضًا ينقلون الكذب وهذا شيء مشاهد وينبني على هذه الفائدة: أن من كان هذه حاله ففيه شبه من اليهود، فالذي يقبل الكذب ويتحدث به ويأخذه مُسَلَّمًا فهو مشابه لليهود، والذي ينقل الكذب كذلك مشابه لليهود، فمن كذَّب أو صدَّق بالكذب فإنه مشابه لليهود ولا شك، وهذا يقتضي الحذر من هذا الخُلق الذميم.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** تعاظم اليهود يعني: أحبارهم واستكبارهم عن الحضور إلى النبي ﷺ وكأنهم يظنون أنهم إذا حضروا فهذا ذل وصغار، لكن الله أذلهم وأصغرهم والحمد لله؛ لعدم إيمانهم بالنبي ﷺ.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان هذا الوصف الذميم لليهود وهو تحريف الكلم، والمراد بالكلم هنا: الوحي الذي جاءت به الرسل حتى التوراة والقرآن وغيرها قال العلماء: والتحريف نوعان:

الأول: التحريف المعنوي والقائلون به كثير.

الثاني: التحريف اللفظي والقائلون به قليل.

أما الأول فهو أن يصرف كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلى غير ما أراد الله ورسوله، سواء في الأمور العقدية أو في الأحكام الفقهية إذا صرف النص عما يريده الله ورسوله فإنه محرف للكلم.

الثاني: التحريف اللفظي وهو أيضًا محرم، ولكنه قليل؛ وذلك لأن المحرف تحريفًا لفظيًّا إن كان لا يتغير به المعنى فلن نقيم عليه؛ لأنه لا يستفيد ولكن سوف يظهر ناس عليه حتى العامي يرد عليه.

وإن كان يتغير به المعنى فقد جمع بين التحريف المعنوي والتحريف اللفظي فالذي يقول: إن

ذلك، وإنها ذكر القلوب؛ لأن القلوب هي محل الصلاح أو الفساد قال النبي ـ ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

وقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذل وعار، وذلهم وعارهم إما من جهة اليهود فبقتالهم والغلبة عليهم، وقد حصل ـ والحمد لله ـ ذلك، فإن قبائل اليهود الذين في المدينة كلهم منهم من قُتِل ومنهم من جُلي فهذا خزي في الدنيا. والمنافقون خزيهم أن الله سبحانه وتعالى بيَّنهم وكشف عوارهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، وكان النبي ﷺ قد علم أسماء أناس من المنافقين وأخبر بهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ولهذا يقال: إنه صاحب السر.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار ـ نسأل الله أن يجيرنا وإياكم منها ـ والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

الفوائد:

١ـ **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** الشهادة لمحمد ﷺ أنه رسول الله لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

٢ـ **ومنها:** تعظيم الله عز وجل لرسوله؛ لأن صيغة النداء على هذا الوجه من علامات التعظيم، كما تقول: يا أيها الملك، يا أيها الأمير، يا أيها الكريم وما أشبه ذلك، فهذه الصيغة من النداء تفيد التعظيم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تقوية النبي ﷺ أي: تقوية قلبه وتثبيته لقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: لا يهمنك أمرهم، فإن عاقبتهم: أن لهم في الدنيا خزيًا، ولهم في الآخرة عذابًا عظيمًا.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس يختلفون في الكفر، فمنهم من يسارع فيه بخطى حثيثة، ومنهم من هو دون ذلك؛ لأنهم قسم ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: هناك أناس لا يسارعون فيه، فالداعي إلى كفر، هذا مسارع فيه وغير الداع غير مسارع، لكن الداعية مسارع فيه فهو أصح.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن المدار في الإيمان على القلب؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، فالإيمان باللسان ليس إيمانًا حتى يكون مبنيًا على إيمان القلب وإلا فإنه لا ينفع الصالحين.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإيمان محله القلب؛ لقوله: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾،

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الجواب: الأَوْلى العموم سواء يحرفون الكلم من التوراة ويحرفون الكلم من القرآن.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يعينوا لهم حكمًا معينًا يعينون لهؤلاء القوم الذين ينقلون إليهم الأخبار شيئًا معينًا حكمًا معينًا فيقولون: إن أوتيتم هذا من محمد ﷺ فخذوه واقبلوه.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يعني: احذروا أن تقبلوه، فصار الآن هؤلاء الأحبار الذين يُنقل إليهم الأخبار من الرسول ﷺ هؤلاء يقولون: اعرضوا هذا على محمد فإن أعطاكم إياه فخذوه وإلَّا فاحذروا.

وضرب المفسرين لهذا مثلاً بقصة الرجم[1] كان الرجم ـ أعني رجم الزاني ـ محكومًا به في التوراة، وكانت بنو إسرائيل ترجم من زنا فلما كثُر الزنا في أشرافهم صعب عليهم أن يرجموا أشرافهم فقالوا: لا نرجم ولكننا نحمم الوجه أي: نسوده ونركب الزَّانِيَيْنِ على حمار، كل واحد منهما مستدبر الآخر ونطوف بهما في الأسواق فقط ولا نرجم، فقدر الله ـ عز وجل ـ أن يزني منهم أي: من اليهود رجل وامرأة فرفعوا الأمر إلى النبي ﷺ وقال أحبارهم: إن آتاكم محمد هذا بتحميم الوجه والطواف في البلد فخذوه وإن لم يعطكم وأمر بالرجم فاحذروا، وهذا مثال وليس حصرًا لمعنى الآية، بل المراد أن الأحبار لعامتهم أحكامًا ويقولون: إن حكم بها محمد فاقبلوها وإن لم يحكم بها فاحذروا. وتحريفهم الكلم هنا تحريف معنوي بمعنى: أنهم جعلوا الرجم منسوخًا، وأنه لايجب العمل به وسيأتي إن شاء الله في الفوائد أن التحريف ينقسم إلى قسمين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي: إضلاله، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وهذا تزكية للرسول ﷺ يعني: أن الله إذا أراد فتنة أحد فإنه لا يستطيع أحد من الخلق أن يرد هذه الإرادة، بل لابد وأن تقع، لكن هل إرادة الله لفتنة أحد من الناس مبنية على غير حكمة؟ لا، بل هي مبنية على حكمة، والحكمة ذكرت في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]؛ إذنْ هم السبب فلما علم الله عز وجل أنهم ليس في قلوبهم خير أزاغها الله كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠].

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ المشار إليهم هؤلاء اليهود الذين لا يقبلون من الحق إلا ما وافق أهواءهم، والإشارة بما يدل على البعد ليس لرفع شأنهم، ولكن لإبعادهم عن الثناء وأن يكونوا على حق.

وقوله: ﴿لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من أي شيء؟ من الشك والشرك والإلحاد وغير

(١) رواه البخاري (٦٤٣٣)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر ﵄.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ (من) هنا بيان للموصول الأول الذي هو ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ متعلقة بـ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قالوا بأفواههم آمنا ولم تؤمن قلوبهم، وهذا الوصف ينطبق تمامًا على المنافقين كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة:٨]، وهؤلاء في الكفر كاليهود والنصارى كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر:١١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ بيّن الله تعالى أحوال اليهود الذين هادوا، وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا إليك من المعصية إلى الطاعة ويسمَّون الذين هادوا ويسمون اليهود، أما التسمية الأولى فلقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أما الثانية فنسبة إلى أبيهم يهوذا.

يقول عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قابلون للكذب من أحبارهم الذين يقولون: إن محمدًا ليس نبيًّا، وهذا من أكذب ما يقولون، بل هو أكذب شيء بعد الكذب على الله عز وجل.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ تحتمل معنيين، المعنى الأول: أنهم سماعون للكذب ممن أتوك وممن لم يأتوك، فهم يستجيبون للكذب من أي إنسان سواء كان يأتي إليك أو لا يأتي.

فالمعنى: سماعون لكذبهم فيكون الله عز وجل ذكر أن هؤلاء الذين هادوا يسمعون للكذب مطلقًا ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوا إلى الرسول - ﷺ - وقيل الاحتمال الثاني في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يسمعون منك لكي يوصلوه إلى قوم آخرين، فكأنهم واسطة بين الرسول ﷺ، وبين من ينقلون إليه الخبر يعني: سماعون لك من أجل قوم آخرين ليوصلون ما تقوله إليهم فإذا أوصلوه إلى هؤلاء القوم الآخرين حرفوه وبدلوه وغيّروه.

ولهذا قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ يعني: أن القوم الآخرين وهم أحبار اليهود الذين ينقل إليهم العامة ما يسمعونه من النبي ﷺ هؤلاء يحرفون الكلم من بعد مواضعه، والتحريف بمعنى: التغيير أي: يغيرونه عن وجهه فيقولون عن المراد كذا المراد كذا على خلاف ما أراد الله ورسوله.

وهل المراد أنهم يحرفون الكلم من التوراة أو الكذب من التوراة وغيرها؟

التفسير

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ المراد بالرسول هنا: محمد ﷺ وفي قوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ قراءتان يَحْزنكَ، يُحْزِنْك وكلاهما سبعيتان صحيحتان، أي: لا يجعلك تحزن من قول هؤلاء ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يسارعون فيه أي: يتسابقون فيه.

والكفر في اللغة: الستر[1]، ومنه سمي الكافور أو الكُفرَّى الذي هو وعاء طلع النخل؛ لأنه يستر الطلع الذي في جوفه، والمراد بالكفر هنا: الكفر بالله - عز وجل - والكفر بالله يدور على شيئين: إما الجحود وإما الاستكبار.

أما الجحود والإنكار يعني: التكذيب، وإما الاستكبار مع الإقرار.

فكفر إبليس من الاستكبار؛ لأنه مؤمن ولكنه مستكبر - والعياذ بالله - وكفر قريش الذين قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ كفر إنكار وتكذيب.

قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء:٢١] بعض الناس يصل وهذا يفسد به المعنى؛ لأن جملة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ مستقلة عن الذي قبلها ومعناها: أم لهم آلهة من الأرض أهم ينشرون؟ يعني: أهذه الآلهة تحيي الأموات؟ فتكون الجملة هنا مستأنفة، وهي استفهامية أيضًا حُذف منها حرف الاستفهام؛ لإبطال دعوى هؤلاء لآلهتهم التي يعبدونها.

كذلك أيضًا بعض الناس يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣] فيقف ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾، وهذا لا يجوز؛ لأنه إذا قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ ثم استأنف فسد المعنى تمامًا.

أما قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] فلا بأس أن تقف عند قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾؛ لأنها رأس آية والله تعالى أعلم بكتابه، فإذا كانت رأس آية قف ولا مانع ولو تعلق ما بعدها بما قبلها، ثم قد يكون فيه فائدة في الوقوف إذا قرأت ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وسكت فالذي يسمع يقول كيف هذا؟ فيتنبه فتجده متشوقًا لما يأتي بعدها فإذا قرأت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ برد قلبه وانشرح صدره فيكون في جعل هذه رأس آية فيكون في هذا الفائدة.

كذلك أيضًا من جهة التحزيب للقرآن، شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ انتقد التحزيب الموجود، في بعض الأحيان تجد أن الحزب يقف على آية ما بعدها متعلق بها كتعلق الروح بالجسد، لكن مكتوب مثلاً حزب ثلاثة أرباع حزب وما أشبه ذلك. يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ما هكذا حسبوها الصحابة، الصحابة يحزبون ولكنهم يراعون المعنى فإذا كان باقٍ على تمام المعنى سطرًا أو سطرين أخَّروا التحزيب وهذا الصحيح.

في بعض الأحزاب تتعجب كيف هذا آخر الربع؟ وما بعده متعلق به تعلقًا واضحًا. هذا بعض من الكلام على شيء من قواعد التفسير وقد ألفنا كتاب صغير في قواعد التفسير موجود في المعاهد يدرس فمن شاء فليرجع إليه.

(١) لسان العرب (٥/ ١٤٤).

فتحمل على الجميع ولا مانع.
مثال آخر قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] يرى بعض العلماء المراد بالقروء: الأطهار، ويرى بعض آخر أن المراد بالقروء: الحيض، وهذان المعنيان لا يمكن أن تحمل الآية عليهما جميعًا؛ لأنهما متنافيان؛ إذنْ لابد من مرجِّح خارجي، والمرجح الخارجي إما من السنة أو من كلام العرب أو من غير ذلك، المهم لابد من مرجح. إذا رجعنا إلى المرجح الخارجي وجدنا أن النبي ﷺ أطلق الإقراء على الحِيَض فقال للمستحاضة: «اجلِسِي قَدرَ مَا تَحبِسُكِ أَقرَاؤكِ» أَوْ كلمة نحوها، فهنا نقول المراد بالقروء: الحيض، ويتعين ذلك؛ لدلالة السنة عليها، وهذه قاعدة مفيدة لطالب العلم أنه متى احتملت الآية معنيين فأكثر ولا مرجح لأحدهما ولا منافاة بينهما فإنها تحمل عليهما جميعًا.

القاعدة الرابعة في التفسير:

هل يجوز للإنسان أن يفسر القرآن برأيه أو لا يجوز؟
الجواب: لا يجوز، ومعنى تفسيره بالرأي أن تحمله على ما تعتقد فتجعل القرآن تابعًا لرأيك وعقيدتك، وهذا يقع كثيرًا في أهل الأهواء؛ يحملون القرآن على ما يعتقدون فيكونون قد قالوا في القرآن برأيهم، وهذه آفة قلَّ من يسلم منها، حتى الفقهاء رحمهم الله تجدهم إذا مر بهم النص وهو خلاف ما يرونه يحاولون أن ينسبوه إلى ما يريدون وهذا لا يجوز، هذا يعني أن الإنسان جعل نفسه مشرِّعًا مع الله، فالله يريد كذا وهو يحمله على غيره وهذا من أعظم المحرمات: تحريف الكلم عن مواضعه، نعم لو فُرِض أنه لو حملته على غير ظاهره بدليل من القرآن أو السنة فلا بأس، لكن لمجرد أنك تعتقد خلاف ما يدل عليه الظاهر، هذا لا يجوز أبدًا ولا يحل وهو من تحريف الكلم عن مواضعه ومن اتخاذ الإنسان نفسه مشرعًا مع الله، وهذا تجدونه كثيرًا عند الفقهاء - رحمهم الله - في بعض المسائل تجد أن الإنسان يحرِّف الدليل تحريفًا ظاهرًا من أجل أنه يعتقد خلاف ما يدل عليه ولهذا أمثلة:
مثلاً: يرى الفقهاء رحمهم الله أن الرجل لا يجوز أن يتطهر بفضل طَهور المرأة، ويجوز للمرأة أن تتطهر بفضل طَهور الرجل، ثم يستدلون بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لَا يَتَوَضَّأُ الرَّجُلُ بِطَهُورِ المَرْأَةِ وَلَا المَرْأَةُ بِطَهُورِ الرَّجُلِ وَلْيَغْتَرِفَا جَمِيعًا».
ماذا نقول الآن؟ هذا تناقض، كيف يستدل بهذا الحديث على منع تطهر الرجل بفضل طهور المرأة، وجواز تطهر المرأة بفضل طهور الرجل مع أن الحديث واحد، الذي يحمل على هذا هو اعتقادهم أن هذا هو الصواب وكذلك حديث عائشة المشهور: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»، هذا الحديث حمله بعض الفقهاء على أن المراد به النذر وقال: إن المرء إذا مات وعليه صيام فرض رمضان أو كفارة فإنه لا يصام عنه، ولكن الذي حملهم على صرف الحديث عن عمومه هو اعتقادهم أن الفرائض مكلف بها الإنسان بنفسه ولا أحد يصوم عن أحد ولا يصلي أحد عن أحد فانظر كيف حملوا الحديث على مسائل نادرة الوقوع، وصرفوه عن مسائل كثيرة الوقوع، أيهما أكثر أن يموت الإنسان عن صيام رمضان أو عن صيام نذر؟
الأول لا شك وهذا خطأ في الاستدلال، وفي «اقتضاء الصراط المستقيم» أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ نبه على هذا أنه لا يجوز أن تُحمل النصوص على المسائل النادرة وتترك المسائل الكثيرة الوقوع.
ويتعلق بالقرآن وتفسيره مراعاة المعاني فإن بعض الناس يقف موقفًا لا يتلائم مع المعنى وهذه مسألة تحتاج إلى فهم الإنسان، لا إلى الرموز الموجودة في المطبوعات؛ لأن بعض الرموز خطأ واضح لكن ترجع إلى فهم الإنسان، أضرب لكم مثلاً:

أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»؛ إذنْ تفسر القوة بأنها الرمي أي: تعلُّم الرمي، والرمي في كل زمان ومكان بحسبه، كان الناس في الأول يرمون بالنبال وما أشبه ذلك، ثم صاروا يرمون بالبارود بالبنادق والرصاص ثم صاروا الآن يرمون بالصواريخ قريبة المدى وبعيدة المدى، والرمي الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام يشمل أي رمي يكون حسب أساليب الحرب التي في وقتها.

كذلك لو قال لك قائل: ما هو يوم الدين؟

فننظر القرآن فسره قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩] يعني: إذنْ يوم الدين هو اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل ولا يقضي أحد لأحد منفعة وأمثال هذا كثير؛ إذنْ نفسر القرآن بالقرآن أولاً ثم بالسنة ثانيًا، ثم أقوال الصحابة لاسيما المعتنون بالتفسير ثم بأقوال التابعين الذين أخذوا التفسير من الصحابة كمجاهد، ولا يعني هذا أننا إذا وجدنا الآية تحتمل معانٍ أخرى غير ما ذكر أن نقتصر على ما ذكر؛ لأن كلام الله تعالى أوسع من أن يحاط به. البشر قد يفهمون معنى ونحن نفهم معنًى آخر للآية، لكن إن كان يضاد ما قاله الصحابة والتابعون فإننا لا نقبله أما إذا كان لا يضاده فلا مانع أن نقول: إن الآية واسعة تشمل هذا وهذا؛ لأن كلام الله واسع.

القاعدة الثالثة:

قد تكون الآية محتملة لوجهين أو أكثر فماذا نصنع؟

نقول: إذا كان أحد هذه المعاني أظهر وجب حملها على هذا الأظهر، يجب أن تحمل على الأظهر لاسيما إذا كان الأخفى يعارض الظاهر، فإننا نأخذ بالظاهر، فمثلاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] تحتمل معنيين: أحدهما أظهر من الثاني، المعنى الأول: أن المراد باليدين: هما اليدان الحقيقيتان اللتان يأخذ الله بهما ويقبض، والمعنى الثاني: القوة لكن هذا المعنى الثاني بالنسبة للأول ضعيف جدًّا فنقول لا يمكن أن نحملها على المعنى الثاني؛ لأن المعنى الأول أظهر والله عز وجل لا يمكن أن يخاطب عباده بما هو أظهر ويريد الأخفى هذا مستحيل؛ لأن الله قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] ويقول الله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، فلا يمكن أن نحمل كلام الله عز وجل على معنىً أخفى مع وجود الأظهر، بل يتعين أن نأخذ بالأظهر.

أما إذا كان المعنيان محتملان يعني: أنه صالح لهذا ولهذا فحينئذ إن كان المعنيان لا يتعارضان وجب فهم الآية على المعنيين جميعًا ولا مانع، وإن كانا يتنافيان وجب أن نرجح من الخارج؛ لأن اللفظ الذي بين أيدينا ليس فيه الترجيح فنحتاج إلى مرجح من الخارج.

مثال الأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨]، قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال أحدهم: معناه أقبل وقال بعضهم: معناه أدبر وكلاهما صائب في السياق وفي اللغة العربية، فنقول في ذلك: تحمل على المعنيين جميعًا ولا مانع؛ لأن كلام الله تعالى واسع.

ومثل: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] هل معناه هو الذي سيُسجر ويكون نارًا يوم القيامة، أو المسجور المملوء أو المسجور الممنوع عن الفيضان عن الأرض؟ هذه أقوال، وليس فيها قول ينافي الآخر، ولا يوجد قول ظاهر في أحدها دون الآخر، بل الآية صالحة للجميع وحينئذ نقول: المسجور الذي سيسجر كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦]، والمسجور المملوء كما تقول العرب: تركتها مسجورة أي: مملوءة، والمسجور الممنوع، كما يقال: سجرت الدابة بالقيد أي: منعتها من الشرود، فالآية صالحة للجميع

التفاسير، لكنه في مسألة العقيدة سيِّء يجب الحذر منه حتى قال بعضهم: إنه لا يُطَّلع على ما في كتابه هذا من الاعتزال إلا بالمناقيش يعني: أنه خفي كما أن الشوكة لا تخرج إلا بالنقاش، فلا يمكن أن يخرج الإنسان اعتزاليات صاحب الكشاف إلا بالمناقيش، وضرب لهذا مثلاً قال إنه قال: ـ عفا الله عنا وعنه ـ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] قال: أي فوز أعظم من أن يُزحزح الإنسان من النار ويُدخل الجنة، الكلام هذا هل أحد يشعر بأن فيه انحرافًا؟ قد لا يشعر بأن فيه انحرافًا، لكن إذا علمنا أن الرجل ذكي وأنه يغلف المعاني فيما يخفى على كثير من الناس فهو يريد بهذا أن ينكر الرؤية رؤية الله عز وجل؛ لأن رؤية الله عز وجل أعظم فوزًا من أن يدخل الإنسان الجنة ويزحزح عن النار، لكن الرجل ذكي، فمثل هذه العبارة يقرأها الإنسان على أنها عبارة سليمة ليس فيها شيء، ولكن ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبله العذاب.

إذنْ على أي التفسير نعتمد؟ نقول: أولاً إن التفاسير الأثرية التي تفسر القرآن بالأثر عن الصحابة وعن كبار التابعين هي أولى ما يلتفت إليه، وعلى رأسها تفسير ابن جرير الطبري، لكن عنده آفة وهو أنه يطلق التفسير عن الصحابة وعن التابعين بأسانيد بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف، وكأنه رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يجمع ما روي فإما أن المنية أدركته قبل تمحيصه، وإما أنه يريد أن يَكِلَ هذا إلى القارئ؛ ولهذا إذا مر عليك شيء مشكل من تفسير القرآن بالأثر في ابن جرير أو غيره فارجع إلى السند فربما توجد فيه آفة توجب رد ما رُوي عن ابن عباس أو عن مجاهد أو غيرهما.

ومن خير ما نرى من التفاسير تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فهو تفسير أثري نظري، لكنه أحيانًا يتغاضى عن الكلام عن بعض الإسرائيليات أو بعض القصص، وهذه لا شك أنها آفة، لكن كما قلت: متى أنكر قلبك شيئًا من هذا فارجع إلى الأسانيد أو إلى أصل المتن أو المرجع قد يكون عن بني إسرائيل وهو من الأشياء التي رُخِّص فيها قال الرسول ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»، لكن التفسير جيد.

أما تفسير المتأخرين منها بعض التفاسير تجد الكلام الطويل العريض على الآية، ثم إذا أردت أن تحصل منه شيئًا ما وجدت شيئًا فهو قشط هش فائدته قليلة اللهم إلا النادر.

وعلى كل حال: طالب العلم يستطيع أن يميز بين الغث والثمين، لكن هنا مسألة أحب أن أنبه عليها إني أريد أولاً فهم القرآن بأنفسكم، اقرأ الآية وتدبر معناها، ثم سيكون لديك شيء من المعنى بعد ذلك ارجع إلى أقوال المفسرين؛ لأن تعويد الإنسان نفسه على أخذ المعاني، أو بعبارة ثانية على تفسير القرآن بنفسه يكسبه فهمًا كثيرًا؛ لأنه امتثال لأمر الله؛ لقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] لكن لا تجزم إذا كان الأمر ليس بواضح إلا بعد مراجعة كتب التفاسير.

ومن المفسرين من ينحى منحى آخر كالمسائل الفقهية مثل القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فإنه ينحى هذا المنحى تجد بتفسيره مسائل كثيرة من مسائل الفقه، وهذا طيب ويفيد طالب العلم.

القاعدة الثانية في التفسير:

قال العلماء: يرجع أولًا إلى تفسير القرآن بالقرآن، وهذا كثير، ثم إلى تفسيره بالسُّنة ثم إلى تفسيره بأقوال فقهاء الصحابة ولاسيما من كان لهم عناية بتفسير القرآن كابن عباس وابن مسعود، ثم إلى كبار التابعين الذين تلقوا التفسير عن الصحابة.

فمثلاً إذا قال لك قائل: ما هي القوة التي ذكرت في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] ننظر في القرآن ما نجد تفسيرًا لها، لكن نجدها في السنة قال الرسول ﷺ: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»،

فالجواب: نعم له مشيئة في أفعال العباد، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كررها مرتين؛ ليبين أن فعلهم بمشيئة الله عز وجل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات القدرة لله عز وجل على كل شيء؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهل يستثنى من هذا شيء؟ أبدًا لا يستثنى شيء فهو قادر على كل شيء.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١] (١)

---

(١) عند تعرض الشيخ رحمه الله لتفسير هذه الآية الكريمات تحدث عن بعض قواعد التفسير، ولقد نقلناه بنصه في موضعه في هذا الهامش؛ وذلك حرصًا منا على إفادة القارئ، فقال: إننا نحب أن نلقي شيئًا من الأضواء على ما يتعلق بقواعد تفسير كتاب الله عز وجل فنقول:

أولاً: معرفة تفسير كتاب الله فرض إما فرض كفاية وإما فرض عين، وعلى هذا فمن قام بتفسير كتاب الله العظيم فإنه قد قام بفريضة من فرائض الله - عز وجل - ووجه كون التفسير فرضًا أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ومن المعلوم أن الله تعالى لم ينزل علينا القرآن لمجرد أن نتعبد بلفظه بل لنعرف معناه ونطبقه عملاً وعلمًا، وإلا لكانت فائدته قليلة لو كان المقصود مجرد أن نتعبد لله بتلاوته، وقد كان الصحابة ﷺ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فإذا قال قائل: إلى أي شيء نرجع في التفسير، فكتب التفسير كثيرة وتناولها للقرآن على وجوه متنوعة فإلى أيها نرجع؟ نقول: أهم شيء ملاحظ في هذا ما يتعلق بالعقيدة، وعلى هذا فلنحذر من كل من ينحى منحى أهل التعطيل في صفات الله عز وجل وأسمائه، فإذا عرف أن هذا التفسير لهؤلاء القوم فلنحذره حتى وإن كان فيه فوائد من اللغة العربية أو الفقهية، لكن يجب أن نحذره في مقام العقيدة لكي لا نزل؛ ولنضرب بهذا مثلاً:

«الكشاف» للزمخشري لا شك في أنه تفسير جيد في تحرير المعاني وفيما يرمي إلى البلاغة، وأن كل من كانوا بعده ممن ينهجون هذا المنهج كلهم عيال عليه حتى إنك لترى العبارة - عبارة الزمخشري - بنصها في هذه

ﵟثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗﵞ [الروم:٥٤]، لكن القدرة ضدها العجز فما الفرق بينهما؟

الفرق بينهما: أن القدرة لا تكون إلا من ذي إرادة، والقوة تكون من ذي الإرادة وغيره، فالإنسان يقال: قادر ويقال قوي، والجدار يقال: قوي ولا يقال قادر؛ لأن القدرة لا تكون إلا من ذي إرادة ﵟوَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌﵞ.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة من الفوائد: تقرير عموم ملك الله عز وجل لقوله: ﵟأَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِﵞ.

٢ـ ومن فوائدها: أن الملك العام بالسموات والأرض خاص لله، دليله تقديم الخبر في قوله: ﵟلَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِﵞ.

قال علماء البلاغة: وتقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر والاختصاص.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن ملك السموات والأرض لله لا يشاركه فيه أحد، قال الله تعالى: ﵟوَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍﵞ [فاطر:١٣]، وقال الله تعالى: ﵟلَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖﵞ [سبأ:٢٢].

فإذا قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة واختصاص ملك السموات والأرض لله، وبين قول الله تعالى: ﵟأَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓﵞ [النور:٦١]، ﵟأَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡﵞ [النساء:٣] وما أشبه ذلك من إثبات الملك للمخلوق؟

فالجواب: أن ملك الله عز وجل عام يتصرف كما يشاء، وفي كل شيء، أما ملك الإنسان فخاص ومقيد أيضًا لا يتصرف الإنسان في ملكه كما يشاء، فهو ممنوع من الربا ممنوع من الغش ممنوع من المعاوضة المجهولة، بل ممنوع من أن يسرف في ماله؛ فالملك إذنْ فاصل تصرفًا وعينًا، حتى الأعيان ما يملك الإنسان منها كل شيء، فملكه خاص، لكن ملك الله عز وجل عام فيه الأعيان والتصرف فيها؛ ولذلك ليس لنا الحق أن نتصرف فيما ملَّكنا الله إلا بإذنه.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العقوبة والمغفرة لله عز وجل؛ وذلك لكمال سلطانه، لكن أجزم أنه لن يعذب أحدًا إلا بذنب يستحق العذاب عليه.

٥ـ ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﵟيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُﵞ، ولا شك أن الله عز وجل له المشيئة التامة يقول المسلمون كلهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فإن قال قائل: مشيئة الله في أفعاله واضحة يعني: كونه ينزل المطر وينبت النبات ويخلق السموات والأرض ويحيي ويميت هذا واضح، لكن هل له مشيئة في أفعال العباد؟

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة:٤٠]

التفسير

قوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ الخطاب لكل من يصح توجه الخطاب إليه؛ لأننا نرى أن خطاب المفرد في القرآن الكريم يشمل كل من يتأتى الخطاب أو نقول: كل من يصح توجيه الخطاب إليه إلا إذا دل دليل أنه خاص بالرسول ﷺ فيكون خاصًا به.

فمثلاً: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] هذا خاص، لكن إذا جاء من غير أن يكون هناك دليل على أنه خاص بالرسول، فإن القرآن يخاطب كل الناس فإنه يحمل على أنه موجه إلى كل من يصح توجيه الخطاب إليه، وقد ذكرنا فيما سبق الخلاف في هذا هل هو موجه الخطاب إلى الرسول أولاً ثم لغيره ثانية أو لغيره ثانية ثم لغيره تأسيًا أو لكل من يصح منه الخطاب؟ وهذا هو الأولى.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأتى بهذه الآية في مكانها اللائق؛ لأن ما سبق في إقامة حدود فلعل النفس تقول لماذا هذه الشدة لماذا هذه الغلظة؟ فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، والاستفهام هنا للتقريب، وإذا كان له ملك السموات والأرض فإنه يحكم بها شاء ويفعل ما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ في هذه الآية قُدِّم التعذيب على المغفرة وفي آية أخرى قدمت المغفرة على التعذيب، والمناسبة واضحة؛ لأن هنا الكلام على الحدود والعقوبات فناسب أن يقدم التعذيب على المغفرة.

فقوله عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ لا تظن أن الله إذا قال: يفعل ما يشاء يحكم ما يشاء ويحكم ما يريد فلا تظن أن الأمر على غير حكمة، بل يعذب من يشاء إذا اقتضت الحكمة تعذيبه ويغفر لمن يشاء إذا اقتضت الحكمة أن يغفر الله له، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ختم بها الآية، ومن قدرته عز وجل أن أمر بعقوبة الجناة على الوجه المذكور.

القدرة: هي فعل الشيء بدون عجز، والله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء بدون عجز، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

والقوة ضدها الضعف قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً

والشمس بخصائصها والقمر بخصائصه، وهذا يدل على إرادته؛ لأنه لولا الإرادة لكانت المخلوقات كلها ذلك، لكنهم يقولون: التخصيص يدل على الإرادة.

فنقول: دلالة التخصيص على الإرادة دلالة خفية ما كان الإنسان يعرفها حتى طلاب العلم مايعرفونها إلا إذا قرءوها، لكن دلالة النعم على الرحمة واضحة، فكل يعرف أن من رحمة الله أنه جعل الليل والنهار وجعل الأمطار والأنهار وغير ذلك، يعرفها الخاص والعام، العجيب: أن نقول: إن الرحمة لا نثبتها؛ لانتفاء دلالة العقل عليها والإرادة نثبتها لدلالة العقل عليها فيقال: - سبحان الله - أيهما أَبْيَنُ دلالة العقل على الرحمة أم على الإرادة؟ على الرحمة ولا شك.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** حث الإنسان على التوبة، حتى لو ظلم؛ لقوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ والله تعالى لم يقل هذا لمجرد الخبر، بل لأجل الحث على التوبة.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** أن التائب من الظلم مهما كان حتى من الشرك إذا تاب وأصلح فإن الله يتوب عليه، وإنما قلنا ذلك؛ لأن الظلم يشمل الشرك كما قال الله تعالى عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

٣- **ومن فوائد هذه الآية العظيمة:** أن فعل المعاصي وترك الواجبات ظلم؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾، وهذا واضح أن النفس عند الإنسان أمانة يجب أن يفعل لها ما هو الأصلح والأنفع، فإذا خالف فهو ظالم خائن للأمانة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لابد في التوبة من الإصلاح لقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، ولكن هل الإصلاح شرط للتوبة في جميع الأعمال أو شرط لذلك العمل الذي وقع فيه الظلم؟ الثاني ولهذا نقول: الصحيح أنه يجوز أن يتوب من ذنب مع الإصرار على غيره، ولا يستحق أن يسمى تائبًا على وجه الإطلاق، بل يقيد إنه تائب من كذا، إذنْ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ما فسد بظلمه، وإن لم يكن أصلح جميع أحواله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد توبة الله على من تاب وأصلح لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بلاغة القرآن الكريم؛ حيث يختم الأحكام بما يناسبها من أسماء الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عز وجل: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يغطي به المقاتل رأسه ليتقي به السهام، وإذا جاء مثلاً المغفر وجدت أنه حصل به شيئان: الستر والوقاية؛ إذنْ الغفور معناه: الساتر لذنوب عباده الواقي لهم من عذابه، وما أكثر الذنوب لو أن الله تعالى أَطْلَعَ الناس على ذنوبنا لكان كما قال القحطاني - رَحِمَهُ اللهُ في «النونية» -:

وَالله لَـوْ عَلِمُـوا قَبِـيحَ سَـرِيرَتِي لَأَبَـى الـسَّلامَ عَلَـيَّ مَـنْ يَلْقَـانِي

يعني: لو أن الله سبحانه كشف الذنوب لكان الإنسان يُهجَرُ، لكن من لطفه عز وجل أنه يسترها، وفي النهاية لا يعاقب عليها كما جاء في الحديث الصحيح: «يُدْني المؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِن رَبِّه عزَّ وجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عليه كَنفه فَيُقرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِف؟ فيقولُ: أي رَبِّ أَعْرِفُ قالَ: فَإِنِّي قَد سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[1] أي: أَقِيكَ عذابها وعقوبتها مع سترها.

وقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالغة قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]، والرحمة صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل في القرآن والسنة وإجماع السلف. وقد أنكرها أهل التعطيل الذين حكموا على الله بعقولهم؛ لأن من أصول عقيدتهم أن تلقى الصفات من العقول، فما اقتضى العقل نفيه وجب نفيه، وما اقتضى إثباته وجب إثباته وما لم يقتض نفيا ولا إثباتًا توقفوا فيه. ويدخلوا في الأمر الثاني أنه ينقسم إلى قسمين: بعضهم توقف فيه وأكثرهم نفاه، قالوا: لابد من دليل إيجاب على ثبوته.

وأنت ترى أن هذا الأصل خبيث يستلزم تكذيب ما جاء في القرآن وإثبات ما لم يأت في القرآن؛ لأنهم قالوا: إذا أثبت العقل شيئًا أثبتناه يعني: سواء مثبت بالكتاب والسنة أو لا، وإذا نفى شيئًا نفيناه، هذا في عقولهم.

فهم يتصرفون هذا التصرف، ولا شك أنه خبث، أما مذاهبهم القاعدة الحديثة لو تؤملتْ لوجدتَ أن بها خطرًا عظيمًا، ولولا أنهم يعذرون لأنهم قالوا ذلك تأويلاً لكان أمرهم خطيرًا جدًّا.

أما نحن فنؤمن بأن الله تعالى رحيم.وهم لا ينكرون الرحمة إنكار تكذيب لكنهم ينكرونها إنكار تأويل، ولذلك لم يكفروا، ولو أنهم أنكروها إنكار تكذيب لكفروا؛ لأن هذا تكذيب للخبر، لكنهم ينكرونها إنكار تأويل ويقولون: إن الرحمة: هي الثواب أو إرادة الثواب، أما الثواب فمعلوم أنه شيء منفصل عن الله عز وجل مخلوق بائن، وإرادة الثواب صفة لذات الله، لكنهم يقرون بالإرادة فيثبتون الإرادة التي هي إحدى الصفات السبع، وعجبًا أنهم يثبتون الإرادة بطريق خطأ وينكرون الرحمة مع أن طريقها واضح، فهم يقولون: نحن نثبت أن الله يريد بها التخصيص. يعني: كونه خص الإنسان على هذا الوجه يعني: مستطيل القامة يريد بعقل وما أشبه ذلك، وخصص البعير بخصائصها

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»(١).

فالمعاصي تكتب فإذا أصلح فإن الله يتوب عليه، والإصلاح في تحقيق التوبة والعمل الصالح.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته، واعلم أن لله تبارك وتعالى على عبده توبتين

التوبة الأولى: التوفيق للتوبة.

والتوبة الثانية: قبولها من التائب.

فمن الأول قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨] قبل أن يتوبوا أم بعد؟ قبل؛ بدليل قوله: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، هذه توبة التوفيق أن الله يوفق إنسانًا إلى التوبة فيتوب إلى الله عز وجل.

وأما قبول التوبة فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، وأيضًا هذه الآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته.

وهل يصح في هذا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أن تكون بمعنى: يوفقه للتوبة؟ لا، لقوله: ﴿فَمَن تَابَ﴾ فهو الآن قد وُفِّق، فالله يتوب عليه من هذا الظلم الكبير.

فقوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ وذلك في تدارك الواجب إن أمكن تداركه، وبالإقلاع عن المحرم فلا يستمر عليه، هذا هو الإصلاح ولابد منه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والجملة هنا جملة مؤكدة بـ (إن)؛ من أجل طمأنينة العبد التائب؛ لأن توبته لن تذهب سُدى.

وقوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذان اسمان كريمان من أسماء الله مقترنان كثيرًا في القرآن؛ لأن بالأول زوال المكروه وبالثاني يكون المحبوب.

فالأول: غفور يعني: للذنوب، والثاني رحيم يعني: يوصل الخير إلى عباده. فهل الغفور هنا اسم فاعل أو صفة مشبهة أو صيغة مبالغة؟

نقول ـ والله أعلم ـ أنها صيغة مبالغة. وليست اسم فاعل، فاسم الفاعل في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

وجاءت بصيغة المبالغة؛ لكثرة غفران الله سبحانه لعباده ولكثرة من غُفِر لهم، فما أكثر ما غفر الله ذنوبنا بما شرع به من أسباب المغفرة وما أكثر الذين غُفِرت ذنوبهم فلهذا جاء هذا الاسم بصيغة المبالغة، فما هي المغفرة؟ المغفرة هي: محو الذنب والتجاوز عنه، وإنما قلنا بهذا من أجل أن نطابق الوصف المعنوي للوصف الحسي؛ لأنهم يقولون: إنها مشتقة من المغفَر، والمِغْفَر هو ما

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (١٠٥٢)، والنسائي (١٣٦٩)، وأحمد في «مسنده» (١٥٥٣٧) من حديث أبي الجعد الضمري ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٨٨).

يسرف في القتل؛ لأن ولي المقتول ظلمًا قد تأخذه الحمية والغضب فيسرف في القتل فنهاه الله عن ذلك وجعل الأمر قصاصًا.

قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٩] (من) هذه شرطية وهي عامة تعم السارق وغير السارق، فكل إنسان يتوب من بعد ظلمه ويصلح فإن الله يتوب عليه.

فهل يدخل فيها السارق أم لا ؟ يدخل من باب أولى؛ لأنها في سياق الحكم على السارق، فإذا تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه.

والفائدة من ذكرها بعد ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ هو أن السارق قد تقطع يده والحد هنا يكفر ما سبق من ذنب، ولكنه في قرارة نفسه يريد أن يسرق إذا سنحت له الفرصة، فهل يتوب الله عليه في هذه الحال؟ لا؛ لأنه لم يتب فلابد أن يتوب فلا يقال: إنه قد ثبت عن النبي ـ ﷺ ـ: أن من فعل شيئًا من هذه القاذورات وضاقت به الدنيا فإنه كفارة له[1]. يعني: الحدود كفارة كما يدل عليه أيضًا ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ وهي فائدة أن الحدود كفارة؛ لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

فنقول: الآية الثالثة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ هي فيمن تاب من بعد إقامة الحد عليه (القطع)، والقطع يكفر ما مضى، لكن إذا كان في نية هذا السارق أنه إذا تسنى له السرقة سرق، فهل يتوب الله عليه؟ لا؛ لأنه لم يتب إلى الله، ومثله من قُتِل قصاصًا فلو كان في قلبه قبل الفَعْلَة التي فعلها وأنه لو تسنى له أن يقتل أحدًا قتله فإن القصاص لا يكفر عنه، لأن هذا فيما بينه وبين الله وهو لم يتب فيما بينه وبين الله.

فلو قال قائل: هل الآية تعارض الحديث في أن الحدود كفارة؟ الجواب: لا.

الحدود كفارة لما سبق ومضى، وأما ما يبقى في قلبه من إرادة المعصية فإنه لم يتب.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ الظالم: من ظلم النفس وظلم غيره؛ لأن المعصية إذا تعدت إلى الغير ففيها ظلمان: ظلم النفس، وظلم الغير.

وإن كانت خاصة بالإنسان ففيها ظلم واحد وهو ظلم النفس، وعجبًا للإنسان المسكين وهو يُقْدِمُ على المعصية وهو يعلم أنه بذلك ظالمًا لنفسه، ولو أن أحدًا أراد أن يظلمه لكان يدافع عن نفسه ويمنعها الظلم، فكيف لا يدافع عن نفسه بنفسه ولكن الهوى يعيقه.

المهم أن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ يشمل ظلم نفسه وظلم غيره.

وقوله ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: أصلح ما فسد بظلمه؛ لأن الظلم يفسد القلب كما قال النبي ﷺ: «مَنْ

---

(١) سبق تخريجه.

فصار الحكيم مشتق من الحكم والأحكام الذي هو الحكم، والحكم نوعان: كوني، وشرعي، إذنْ الحكمة: صورية وغائية، أي: أن وجود الشيء على هذه الصورة المعينة حكمة، والغاية منه حكمة.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حسن الختام في الآيات الكريمة وأنها مطابقة تمامًا للأحكام التي خُتمت بها، فالعزة يعني الغلبة، ولا شك أن إيجاب قطع الأيدي يدل على العزة وعلى الغلبة وكمال السلطة؛ لأن فيه الحكمة أيضًا، ولأن فيها حكمًا صارمًا، وفيها أيضًا حكمتان: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلذلك كانت من الجملة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مطابقة تمامًا لما ذُكر في الآية الكريمة من قطع يد السارق وبيان الحكمة من ذلك، ورأيت في كتاب السيوطي «الإتقان» أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والله غفور رحيم، فاستنكر عليه هذا وقال: أعد الآية فأعادها في المرة الثانية باللفظ الأول (والله غفور رحيم) ثم قال: أعدها فأعادها مرتين أو ثلاثة ثم أعادها على الصواب فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: الآن أصبت؛ لأنه عز وحكم فقطع ولو غفر ورحم ما قطع.

فهذا واضح أن الله سبحانه وتعالى لو قال: والله غفور رحيم ما ناسب القطع، بل هذا يناسب التوبة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أما القطع فإنه يناسب الحكمة والعزة.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على كل ناعق يقول: إن قطع الأيدي وحشية، وأن ذلك يستلزم أن يكون نصف الشعب أشل ليس له إلا يد واحدة مأخوذة من قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فيقال: بل هذه عين الحكمة وعين الصواب؛ لأنه لو تُرِكَ الناس لحصلت الفوضى وابتزاز الأموال والسطو على الآمنين فكان قطع اليد ولا شك إنما هو الحكمة.

وانظر إلى الشعوب التي تطبق تلك الحدود الشرعية كيف تقل فيها الجريمة وعلى العكس الشعوب التي لا تطبقها، وهذا كقول القائل: إن قتل القاتل يعني كثرة إزهاق النفوس، وهذا أيضًا مصادم تمامًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، فالقصاص هو الحياة؛ لأن من همَّ بالقتل، ثم ذكر أنه سيقتل امتنع وكفَّ عن القتل، ثم إن المقتول ظلمًا لابد أن يقتل قاتله لقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:٣٣] سلطانًا شرعيًا؛ لأن لهم القصاص وسلطانًا قدريًا؛ لأن الله تعالى يُمكِّن من العثور على هذا القاتل حتى يقتل، وهذا الشيء مشاهد دائمًا يقتل القاتل ويهرب وإذا به يأتي بقدر الله عز وجل، وهذا داخل في قوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: قدريًا وشرعيًا، وكأن الأمر حاصل ولابد ولذلك قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣] لأنه يقال: لابد أن يقتل الولي المقتول ظلمًا، ولكن لا

الجواب: لا، لأن من الناس من لم يحكم بما أنزل الله، ولم يمتثل أمر الله، فلا يلزم من الحكم الشرعي أن يقع؛ لأنه شرع، والشرع قد يخالَف وقد يوافق، أما الحكمة فهي وضع الشيء في مواضعه على حد قول بعض السلف: (إن الله يأمر بشيء فيقول العقل ليته لم يأمر به ولم ينه عن شيء فيقول العقل ليته لم ينه عنه).

وأنت إذا تأملت أحكام الله الكونية وأحكامه الشرعية وجدت أنها في مواضعها، فإن أدرك ذلك عقلك فذلك مطلوب، وإن لم يدركه فسلم الأمر لمن له الحكمة فذلك مطلوب.

فنجد الشرائع مطابقة للحكمة تمامًا، فالطهارة ـ والصلاة ـ والزكاة ـ والحج ـ وبر الوالدين... وما أشبه ذلك كلها مطابقة للحكمة ونجد أيضًا الأحكام الكونية مطابقة للحكمة قال الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١] لماذا؟ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فالفساد الذي يكون في البر أو في البحر هو فساد، لكنه لحكمة عظيمة وهي أن يرجع الناس إلى دينهم ويكفوا عما كسبت أيديهم من المعاصي وهلم جرًّا.

يعني: أحكام الله الشرعية والكونية كلها مطابقة للحكمة، ولكن لا يلزم من كونها مطابقة للحكمة أن يفهم الحكمة كل أحد بعينه، فقد تخفى على كثير من الناس، وقد تخفى على بعض الناس دون بعض وما خفي عليك فكِلْهُ إلى عَالِمٍ.

فلما سألت المرأة عائشة رضي الله عنها ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت عائشة: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) [1]، إذنْ مجرد أن هذا الشيء محكومًا من قِبَل الله شرعًا فإننا نعلم إنما الحكمة مجرد كون الشيء يقع لأحكام الله الكونية فإن كنا لا نعرف ما مصلحته فإننا نعرف أنه لحكمة، فعلينا أن نستسلم وألا نعارض وألا نقول كيف؟ أو لمَ؟ لأن ذلك فيه اعتراض، اللهم إلا رجلاً يريد أن يسأل عن الحكمة حتى يطمئن قلبه وحتى يعرف من صفات الله.

الحكمة قالوا: إنها نوعان: حكمة صورية، وحكمة غاية.

فالصورية: أن يكون الشيء على هذه الصورة، وكونه على هذه الصورة هذا حكمة، فكون الصلوات خمسًا وفي أوقات مختلفة هذه حكمة كونها تتقطع على المسلم هذه حكمة لا صلاة الليل ولا صلاة النهار صلاة النهار وترها المغرب وصلاة الليل وترها النافلة المعروفة هذه حكمة، وكون هذه الأمور المشروعة لغاية أيضًا حكمة، وهكذا أيضًا المخلوقات هي على وضعها حكمة، والغاية التي تصل إليها هذه المخلوقات لا شك أنها حكمة.

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، وأبوداود (٢٦٣)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٦٣١)، وأحمد في «مسنده» (٢٥١٥٢) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأوجبها؛ لأن ذلك عين الرحمة، إذ لولا الحدود لفشت بين الناس المعاصي، لكن الحدود تردعهم إذا لم يردعهم الإيمان، ولهذا يقولون: إذا خلا الإنسان من الوازع الديني فإنه يكره بالرادع السلطاني.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**:إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما: العزيز والحكيم، وما أكثر ما يقترنان في القرآن الحكيم؛ لأن بهما تمام السلطة وكمالها، والعزيز يعني: أنه ذو العزة، والعزة ـ كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لها ثلاثة معانٍ:

الأول: العزة بمعنى: الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. ومنها قول الشاعر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

والثاني: العزة تعني: أن الله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص، وهذه مأخوذة من الأرض العزاز أي: الصلبة التي لا تُنال إلا بقوة ومعاول كبيرة، وذاك من معناها.

والثالث: العزة تعني: أن له الكمال وحده.

أما (الحكيم) فإنه مشتق من معنيين:

المعنى الأول: الحكم، والمعنى الثاني: الحكمة؛ لأن هذه المادة: (الحاء والكاف والميم) تدل على هذا الحُكم، وعلى الحِكْمة.

فأما الحكم فإن حكم الله تعالى نوعان:

النوع الأول: الحكم القدري.

النوع الثاني: الحكم الشرعي.

مثال الأول: قول الله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] يعني: يقدِّر، هذا حكم كوني، والحكم الكوني لابد من وقوعه، إذا حكم الله تعالى بالشيء كونًا فلابد أن يقع.

أما الحكم الشرعي: فمثاله قول تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] يعني: حكمًا شرعيًّا.

وأما قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فالظاهر: أنها شاملة، وإن كان السياق يقتضي أن المراد به الحكم الشرعي، لكننا نقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠] يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، الحكم الكوني ذكرنا أنه لابد من وقوعه، أما الحكم الشرعي إذا حكم الله على أحد بشيء شرعًا فهل يلزم منه الوقوع؟

اليمنى، يعني: لو سرق عشرين مرة قبل أن نقطعه لا نقطع إلا يدًا واحدة، فإن قطعناها أول مرة، ثم سرق ثانية فإنها تُقطع رجله اليسرى لا اليمنى؛ لقوله تعالى في المحاربين: ﴿تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، فتكون اليد اليمنى والقدم اليسرى؛ لئلا يتعطل جانب كامل منه عن المنفعة.

على كل حال: الذي يظهر أننا لا نتعدى حد المحاربين فنقطع اليد اليمنى فإن عاد فرجله اليسرى فقط.

٥ـ من فوائد الآية الكريمة: الحكمة في وجوب قطع يد السارق؛ لقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

٦ـ ومن فوائدها: أن العقوبة من جنس العمل، وإن شئت فقل: الجزاء من جنس العمل؛ لأنه لما سرق ـ والغالب أن الأخذ والإغصاب باليمين ـ قطعت يده.

فإن قال قائل: يلزم على قولكم بقطع الآلة التي سرق بها أن توجبوا قطع ذَكَر الزاني فماذا نقول؟ الجواب على كل حال: الزاني ذكرنا أن له عقوبة خاصة، والسارق له عقوبة خاصة، لكن حتى أيضًا من الحكمة المعقولة هذا الدليل سمعي، لكن بالدليل العقلي الضرر الذي يترتب على قطع الذكر ليس كالضرر الذي يترتب على قطع اليد؛ ولأنه لم يرد أن الله تعالى أمر بقطع ذكر الزاني، بل أوجب الجلد والتغريب لغير المحصن والرجم للمحصن.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ وجه آخر معلوم وهو: لو أن السارق والسارقة مجبرين ماصح أن يعاقبا؛ لأن المجبَر لا حكم لفعله، حتى المجبر على الكفر إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان فإنه لا يكفر.

فالمهم: أن في الآية ردًّا على الجبرية، وما أكثر الردود على أهل البدع ـ والحمد لله ـ؛ لأن السارق لو حاول أن يجري عملية لتردَّ يدُه، هل يُمَكَّن من هذا؟ لا يُمَكَّن؛ لأن المفروض قطعها.

أما لو كان قصاصًا فاقتُص منه، ثم أراد أن يجري عملية لردها فلا نمنعه بخلاف السرقة، فالسرقة الشارع قَصَدَ إتلاف هذه اليد، والقصاص المقصود منه أن تُقطع يد الجاني كما قطع يد المجني عليه، وهذا ولو أن المجني عليه فُرض أنه رد يده وعادت سليمة مائة بالمائة لا يقطع الجاني.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الحكمة من إنزال الحدود؛ لقوله تعالى: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والنكال هنا يفيد الغير كما في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:٦٦]، فإن من علم أن يده ستُقطع بالسرقة سوف ينكل عنها.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى مع كمال رحمته ورأفته فإنه شرع الحدود

كما جاءت الآية باليمنى فقط،

واليسرى ما وردت؛ ولأننا إذا قطعنا اليسرى فوَّتنا عليه منفعة كلتيهما، وهذا لا يمكن، كما يقال: عين الأعور لا تفقأ بعين الصحيح يعني: رجل أعور عنده العين اليمنى فقط، وفقأ العين اليمنى لسليم هل تفقأ عينه؟

المشهور من المذهب: لا، لا نفقأها؛ لأننا لو فقأنا عينه فوتنا عليه البصر كله وهو لم يفوت البصر على المجني عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾، وعين الأعور تؤدي البصر كله فلا مساواة.

فإذا لم يكن للسارق إلا يد يسرى فإنها لا تقطع؛ لأن ذلك يفوت عليه منفعة اليدين، ولذلك أمر الله تعالى في قطَّاع الطريق أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لكن لا تتعطل يداه جميعًا.

فمنهم من يقول: لاتقطع اليد اليسرى، ومنهم من يقول: تقطع فإذا فوتنا فهو الذي جنى على نفسه؛ لأننا إنما قطعناها لأنه هو الذي سرق فجنى على نفسه، والمسألة تتقاذف فيها الأدلة.

مسألة: إذا لم يكن له يدان هل نقطع الرجل؟

الجواب: لا؛ لأنه ليس بالجنس.

وإذا كانت اليد اليمنى شلاء هل نقطعها؟ نعم تقطع لأن الآية عامة، ولا نقول: إننا لا نقطعها ونقطع اليد السليمة بل نقطع الشلاء.

مسألة: هل يجب علينا عند القطع أن نفعل ما يمنع نزيف الدم أو نتركه ينزف الدم ويموت؟

الجواب: الأول، فيجب أن نفعل ما يمنع نزيف الدم وألا نجعله يموت؛ لأن المقصود قطع اليد.

مسألة: هل يجب أو يلزم أن نبنج هذا السارق عند قطع يده؟

الجواب: يجوز أن نبنجه؛ لأنه يحصل القطع على البنج وعدمه بخلاف القصاص، فلو أن رجلاً قطع يد إنسان وحكمنا بالقصاص وقال: بنِّج يدي، فإننا لا نبنجه، بل نذيقه الألم كما أذاق هو ألم المجني عليه، وهذا فرق واضح.

فيما سبق كانوا يحبسون الدم بأن يأتوا بزيت يغلونه على النار، فإذا قطعت اليد غمسوا طرف الذراع بهذا الزيت، وإذا انغمس تسددت أفواه الجروح، لكن في ظني الآن أن الطب ترقى، وأنه يمكن إيقاف الدم بدون هذه العملية، والواجب أن نسلك أسهل ما يكون لإيقاف الدم؛ لأن المقصود هو إتلاف اليد وقد حصل، فإذا وجدنا طريقًا نوقف به الدم غير هذه الطريقة التي ذكرت فإننا نستعملها.

فإذا سرق مرة ثانية هل نقطع اليد اليمنى؟ نقول: إذا كان قبل القطع، فإنه لا تقطع إلا اليد

الكف فتقطع من مفصل الكف من الرسغ والكوع .

فإن قال قائل: كيف تقطع في ربع دينار وهي لو قطعت عمدًا لكان فيها خمسمائة دينار؟ يعني: لو إنسان جنى على أخيه وقطع يده قلنا: عليك خمسمائة دينار، والسارق يسرق ربع دينار وتقطع يده؟ ولهذا أورد التشكيك في هذه المسألة أبو العلاء المعري(١) فقال:

يَدٌ بِخَمسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ فُدِيَتْ   مَا بَالُها قُطِعَتْ فِي رُبعِ دِينَارِ

فهو يقول: في هذا تناقض، ووجه التناقض عنده أنه كيف يد بخمس مائة دينار وتقطع و تهدر في ربع دينار فهذا تناقض؛ لأنه إذا كانت تساوي خمسمائة دينار فلا تقطع إلا بسرقة خمسمائة دينار. وإذا كانت تقطع في ربع دينار صارت ديتها ربع دينار، وإلا ففي هذا تناقض.

لكنهم ردوا عليه فقالوا(٢):

قُلْ لِلْمَعَرِّي عَارٌ أَيُّمَا عَار   شَهْمُ الفَتَى وَهْوَ عَنْ ثَوْبِ التُّقَى عَارِ

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ هَكَذَا فُدِيَتْ   لَكِنَّهَا قُطِعَتْ فِي رُبعِ دِينَارِ

حِمَايَةُ النَّفْسِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصهَا   حِمَايَةُ المَالِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ البَارِي

هنا تجد الجواب هنا واضحًا يعني: إنما ديتها خمسمائة دينار، حماية للنفوس حتى لا يجترئ أحد على قطع أيدي الناس، وقطعت في ربع دينار حماية للأموال حتى لا يجترئ أحد على السرقة، وهذا الجواب واضح ومعقول، وهناك جواب آخر يشبه أن يكون أدبيًّا، وهو :فلما خانت هانت ولما كانت أمينة كانت ثمينة.

بماذا خانت؟ بالسرقة؛ فلما خانت هانت فقيمتها ربع دينار، ولما كانت أمينة كانت ثمينة، أي: كانت قيمتها خمسمائة دينار.

وعلى كل حال: هذه أجوبة لهؤلاء الذين يوردون مثل هذه الشُّبه وإلا فإننا نعلم علم اليقين أن الله لا يفرق بين شيئين إلا وبينهما فرق أوجب التفريق في الحكم.

مسألة: إذا قُدِّر أن السارق ليس له يد يمنى، فهل تقطع اليسرى أم لا؟

الجواب: فيها خلاف بين العلماء منهم من يقول: لا تقطع؛ لأن الله إنما نص على اليمنى فقط

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي المعري. شاعر وفيلسوف، ولد ومات في معرة النعمان، كان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره.وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، وهو من بيت كبير في بلده، توفى سنة (٤٤٩هـ).

(٢) القائل هو علم الدين السخاوى رحمه الله تعالى.

بشهادة رجلين؛ ولهذا اعلموا أنه لا مدخل للنساء في الحدود، ولو شهد أربعمائة امرأة على رجل أنه زنا فإنه لا يُقام عليه الحد. وكذلك في السرقة، وكذلك في بقية الحدود، فلا مدخل للنساء في الحدود؛ لأن شهادة الحدود للرجال فقط.

إذنْ لابد من ثبوت السرقة وتثبت بشاهدين أو بإقرار السارق، لكن هل يشترط تكرار الإقرار أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء، فمنهم من يقول: يجب أن يكرر الإقرار مرتين كل مرة بإزاء شاهد؛ لأنه لابد أن يقر مرتين، وإلا لم تثبت السرقة.

وقال بعض أهل العلم: تثبت السرقة بالإقرار مرة؛ لأنه شهد على نفسه ولا عذر لمن أقر، فتثبت السرقة بإقراره مرة، وإذا أقر سواء قلنا: مرتين أو مرة فهل له أن يرجع؟ يعني: هل يقبل رجوعه بحيث لا نقيم عليه الحد؟

الجواب: أكثر الفقهاء يقولون: نعم يقبل رجوعه عن الإقرار، وعلى هذا لا يقطع، لكن يُؤخذ في حق الآدمي بضمه للمال، أما القطع فلا، إذا رجع عن إقراره.

وقال بعض العلماء: لا يرجع إذا أقر عند الحاكم أي: القاضي.

والصحيح في هذا التفصيل: أنه إذا وجدت قرائن تدل على صحة إقراره فإنه لا يقبل الرجوع، أما إذا لم توجد قرائن فإنه يقبل رجوعه، ويكون الأمر بينه وبين ربه، فلو قال السارق إنه سرق، قلنا: كيف سرقت؟ قال: أتيت في الليل وكسرتُ الباب وكسرتُ الصندوق وأخذت المال، وهذا البيت هو الذي سرقته ووصفه تمامًا ثم رجع هل يقبل مثل هذا؟ لا يمكن أن يقبل ولو أنه قبل مثل هذا الرجوع عن الإقرار؛ لتعطلت الحدود، بل قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (لو قُبل رجوع المقر في الحد ما أقيم حد في الدنيا)؛ لأن كل إنسان يمكنه أن يقر ثم يرجع لاسيما إذا لُقن وقيل له ارجع ما عليك، بعد أن أمر القاضي بقطع يده وأحضرت السكين وأحضر الزيت؛ لتحسم يده وحضر رجال التنفيذ فقال: أنا رجعت عن إقراري - فهذا شبه تلاعب - فنقول: هذا لا يقبل؛ لأنه وجدت قرائن تدل على أن إقراره حق، وليس عن تلاعب أو إكراه بل هو الذي دل الناس على مكان السرقة وعلى كيفية السرقة، ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يقبل رجوعه عن إقراره.

إذنْ يشترط ثبوت السرقة، والدليل هو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ إذ لا يطلق عليهما سارق وسارقة إلا بثبوتها.

٤- من فوائد الآية الكريمة: وجوب قطع يد السارق والسارقة أي: اليد اليمنى - كما فسر ذلك قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، فتقطع اليد اليمنى بربع دينار، وتقطع مما يصدُق عليه أنه يد؛ لأن ما زاد على اليد مشكوك فيه، وما يصدق عليه أنه اليد هو

الحد، وأما إذا كانت غير قوية وبعيدة فلا ينبغي أن تعطل الحدود من أجل أن يكون له حق من مليون مليون مليون هذا تعطيل للحدود.

ومن الشبه: إذا كان الناس في عام مجاعة، وهذه المجاعة عامة للناس وكانوا في شدة وجوع، فإنه لا قطع؛ لوجود الشبهة وهي اقترانها بالسارق؛ إذنْ السرقة ولو كان صاحب المال حاضرًا أوجبنا عليه أن ينزل له، أما إذا كان الجوع خاصة فهذا لا يمنع من القطع؛ لأن هناك فرق بين هذا وهذا؛ لأن كل إنسان يمكن أن يقول: كنت سارقًا مثل ما يقول الناس: إنه جائع، لكن المجاعة العامة هي التي تمنع القطع فقط.

كذلك قال أهل العلم: لا يقطع في بلاد الكفر، فالغزاة مثلًا في بلاد الكفر لا يقطعون؛ لأنه لو قطع لكان في ذلك تنفير عن الإسلام وربما يهرب هذا الرجل إلى بلاده ويبقى عندهم، وهذه مفسدة عظيمة.

ولكن هل يسقط عنه القطع دائمًا أو يؤجل؟ يؤجل.

ومثل ذلك أيضًا ما وقع الآن في بعض الدول التي تحررت من الكفر ودخلت في الإسلام، فلو قيل لهم: لابد من إقامة الحدود فيثور عليهم أولًا الشعب، ثم الدول، فهل لنا الحق أن نؤجل ذلك حتى يتقوى الجانب الإسلامي؟

نقول: نعم، بدليل أن الحدود إنما جاءت في الشريعة الإسلامية متأخرة؛ حتى يتمكن الناس من قبولها، ثم إن المقصود بالحد إصلاح الخلق، فإذا كان يترتب على إقامته مفسدة أعظم فليؤجل.

مسألة: إذا وجب الحد على حامل سرقت هل يقام عليها الحد؟

الجواب: لا، بل يؤجل؛ لأن القطع يخشى منه على الجنين، والجنين بريء ليست عليه جناية.

مسألة: لو سرق إنسان من مال أبيه هل يقام عليه الحد؟

الجواب: العوام يقولون: السارق من السارق كالسارق من أبيه، والمعنى: أنه لا يقطع السارق من أبيه؛ لأنه له حق في مال أبيه وهو الإنفاق عليه إذا كان محتاجًا، والزوج مع الزوجة كذلك؛ لأن هذا فيه شبهة، وجرت العادة أن الزوجين يتبسط أحدهما للآخر.

إذنْ لابد لإقامة الحد من انتفاء الشبهة، ولكن كما قلت: إن هناك شبهة قريبة وشبهة بعيدة.

مسألة: هل يشترط وجود سرقة لقطع اليد يعني: لو ادُّعي على شخص أنه سارق هل نقول: لا يقام عليه الحد حتى تكون هناك سرقة؟

الجواب: نعم؛ لأن الله عز و جل قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾، ولا يقع عليه وصف سرقة إلا إذا ثبت، وبدون ثبوت لا يطلق عليه أنه سارق وتثبت السرقة بشهادة رجلين عدلين، فإن شهد رجل وامرأتان لم يقم الحد، لكن يثبت المال؛ لأن المال يثبت بشهادة رجل وامرأتين، والحد لا يثبت إلا

ومعنى بحرز أي: مما يُحفظ فيه عادة، فإن سرق بغير حرز فهذا لا تقطع يده؛ فالدراهم مثلًا تُحفظ في الجيوب وفي الصناديق ويقفل عليها وتراقب، فلو جعل الإنسان دراهم ودنانير على عتبة الباب أو في مرابض الغنم فسُرقت فقد سرقت من غير حرز، فإذا قلنا: إن الحرزَ شرطٌ قلنا: لا قَطْعَ لهذا الذي سرق من الدراهم من غير حرز، وهذا يحتاج إلى دليل؛ إذ لو خَالَفَنَا مخالف وقال: لابد أن تقطع يده؛ لأنه سرق فما هو المانع؟

نقول: المانع هو أن كلمة السرقة تعني: أَخْذ المال على وجه الاختفاء، وأن الذي جعل المال في غير حرزه هو الذي فرط فلا يُقطع.

إذنْ لابد أن تكون السرقة من حرز المال بما جرت العادة بحفظه، وهذا يختلف باختلاف الأموال ويختلف باختلاف الأحوال، فأحوال الخوف والفوضى ليست كأحوال الأمن والاستقرار، ويختلف أيضًا باختلاف السلطان هل هو قوي أو ضعيف، وهل هو عادل أو جائر؟ فإذا كان السلطان قويًا فهنا لا يتكلف في أحراز الأموال تكلفًا شديدًا؛ لأن قوة السلطان تمنع من السرقة، وإذا كان ضعيفًا كان بالعكس، لكن إذا كان عادلًا أو إذا كان جائرًا أيهما أشد حرزًا للأموال؟ إن كان عادلاً فسوف يقضي على هذا بقطع اليد، وعلى هذا بعدم قطع اليد، فلا شك أن العادل الناس يأمنون في عهده من الجائر. أيضًا يختلف الحرز باختلاف أحوال الناس من الإيمان وضعف الإيمان، فإذا كان عند الناس إيمان كان الحرز يسهل، وإذا لم يكن عندهم إيمان كان لابد من التحرز الشديد، كذلك يختلف الحرز في إقامة هذا الحد أي: قطع يد السارق، فإذا كانت تقطع يد السارق فإن الإنسان لم يتكلف الحرز؛ لأنه يعرف أن السراق لم يفعلوا، وإذا كانت لا تقطع ويحكم عليه بالحبس أسبوعًا أو شهرًا أو شهرين أو سنة أو سنتين، فإنه يجب التشديد في الحرز.

المهم: أن الحرز يختلف باعتبارات متعددة، لكن لابد من سقوط القطع؛ لأن السرقة من الحرز.

و يشترط أيضًا أن يكون المسروق مالًا محترمًا، فلو سرق الإنسان آلة لهوٍ، فإن آلة اللهو ليست محترمة ولا قيمة لها شرعًا، فهل إذا سرق آلة لهو تساوي خمسة آلاف أو عشرة آلاف تقطع؟ لا، لأنه مال غير محترم من أصله، فإن كان غير محترم في وصفه مثل أن يسرق أحدهم كتاب عليه صورة أسد وما أشبه ذلك، فهذا غير محترم بوصفه؛ لأن الصورة يجب طمسها فهل يقطع أو لا؟ نقول: يقطع باعتبار الأصل؛ لأنه مال محترم وهو الذي له قيمة شرعًا، فإن غير المحترم لا يقطع به فإنه ليس بمال شرعي ولا يتقوم وليس له قيمة.

ويشترط أيضًا: انتفاء الشبهة بألا يكون للسارق شبهة، فلو سرق من بيت المال فإنه لا تقطع يده؛ لأن له شبهة، إذ إن له حق في بيت المال؛ لأن كل واحد له حق في بيت المال.

وقد توقف العلماء - رحمهم الله - في مسألة الشبهة، ومنها هذه المسألة لوأنه سرق الحر من بيت المال فإنه لا يقطع؛ لأن له فيه شبهة، والصواب: أنه لو كانت الشبهة قوية فنعم فبذلك يرفع عنه

﴿أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: الآن أصبت؛ لأن الله سبحانه وتعالى عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع. فانظر لذكاء هذا الأعرابي؛ لأن ختام الآية في الغالب يكون مناسبًا لبدايتها.

ولا يرد على هذه قول الله تبارك وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، ولم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأنه ذكر العذاب، فكأنه قال: أنت عزيز فيمن تعذِّب، وحكيم فيمن تثيب، ولا يقع الثواب والعقاب إلا بصادع من العزة والحكمة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: وجوب قطع يد السارق والسارقة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾.

٢- ومن فوائدها: أن قطع أيديهما مخاطب به جميع الأمة؛ لقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟﴾، والخطاب للأمة كلها، لكن الأمة في الواقع تتمركز في ولاة أمورها؛ لأنهم هم الذين يراعون مصالحها، فإذا حصل تقصير من ولاة الأمور وجب على الأمة أن ينبهوهم إلى ذلك.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ظاهرها وجوب قطع أيديهما لأي سرقة قليلة كانت أو كثيرة، وسواء كانت من حرز، أو من غير حرز، وسواء كانت ممن له شبهة في الأخذ أو لا، والسنة قد بينت هذا الأمر،حيث قيدت هذا العموم وحددت ما إذا كان نصابًا تقطع فيه اليد، والنصاب هو: ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساويهما من المتاع، وهل الأصل ربع دينار أم ربع دينار وثلاثة دراهم؟

الجواب: في هذا خلاف بين أهل العلم، ويظهر أثر الخلاف فيمن لو سرق متاعًا قيمته ثلاثة دراهم، ولكنه لا يساوي ربع دينار، فإذا قلنا: كليهما أصل، فقد سرق نصابًا، وإذا قلنا: إن الأصل ربع دينار فإنه لم يسرق نصابًا.

والصحيح: أن النصاب ربع دينار؛ لأن ثلاثة الدراهم في عهد الرسول ﷺ كانت تساوي ربع دينار بدليل الديات حيث كان تقديرها ألف مثقال ذهب، واثنى عشر ألف درهم فضة، فكانت الدراهم الثلاثة تساوي ربع دينار.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم[1]، لكن الثلاثة دراهم في ذلك العهد تساوي ربع دينار، فالصواب المعتبر: أن ربع دينار تقطع به اليد.

الثاني: الحرز، الآية ليس فيها ذكر الحرز، والحرز بمعنى: أن يسرق السارق بما يُحرز به عادةً،

---

(١) رواه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (١٦٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عبد الله بن مسعود كان يقرؤها: (فاقطعوا أيمانهما) [1]، وهذه القراءة إن كانت ثابتة عن النبي ﷺ بلفظها فهي قرآن، وإن كانت تفسيرًا من ابن عباس عن ابن مسعود رضي الله عنهما فهو صحابي جليل عالم بالتفسير، والأقرب أنها قراءة؛ لأن النبي ﷺ حثَّ على أن نقرأ بقراءة ابن أم عبد وهو عبد الله بن مسعود فتعينت الجهة اليمنى.

أما عن التفسير الثاني: الحد هل هو الكف أو المرفق أو المنكب؟

نقول: اليد إذا أطلقت فالمراد بها: الكف كما في قول الله تبارك وتعالى في التيمم: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، و(من) هنا الحد للكف، بدليل السنة الصريحة في هذا؛ ولهذا لما أراد الله سبحانه وتعالى الزيادة على الكف قال في آية الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾؛ إذنْ تعيَّن أن المراد باليد: اليد اليمنى وأن الحد فقط من مقطع الكف.

وقوله: ﴿جَزَآءً﴾ هذه منصوبة على أنها مفعول لأجله أي: لأجل مجازاتها على فعلهما.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ أي: بما كسبا الجريمة والمعصية والعدوان، وهذا المعنى يبين أن المراد باليد: اليمين؛ لأن الغالب أن الإنسان يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه، والغالب أيضًا أن اليمين أقرب للإنسان.

وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاة لهما على ما كسبا من المال الذي بُني على ظلم.

وقوله: ﴿نَكَٰلًا﴾ أيضًا مفعول لأجله أي: تنكيلًا لهما أيضًا أن يعودا إلى مثله، فإن أي إنسان مهما بلغ من الطمع في المال، إذا علم أن يده سوف تقطع فإنه سوف ينكل عن السرقة؛ خوفًا من القصاص، وأصل النَّكال: القيد الذي تتقيد به يد الدابة فيمنعها من الهرب، كذلك النكال يمنع السُّراق من أن يسرقوا فذكر الله تعالى حكمتين.

الحكمة الأولى: مجازاة هؤلاء السراق على فعلهم؛ لقوله:﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾.

والثانية: منع اعتياد السرقة منهم ومن غيرهم، وذلك في قوله: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم الآية باسمين عظيمين من أسمائه: أولهما: (العزيز) الدال على العزة والغلبة والقهر، والثاني: (الحكيم) الدال على نفوذ الحكم والحكمة، فهو مقرون بالحكمة؛ لأن ﴿حَكِيمٌ﴾ مشتق من الحكم والحكمة، فالله تعالى له الحكم التام، وله الحكمة في ذلك.

فائدة: يذكر أن أعرابيًا كان يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (والله غفور رحيم)، فمر عليه أعرابي بدوي قال له: قراءتك هذه غير صواب، فقال: اقرأ فقال: والله غفور رحيم، قال: اقرأ، فقرأها الثالثة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «الكبرى» (١٧٠٢٤)، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٢٤٢٩).

وعلا حينما بدأ بالسارق قبل السارقة، وفي باب الزنا ذكر الزانية قبل الزاني، والحكمة في ذلك: أن السرقة مبناها على القوة والجَلَد والنشاط، والرجال أخف من النساء في هذا فبدأ بهم، ولذلك نجد السُّراق من الرجال أكثر منهم في النساء، أمَّا الزنا فسلع البغايا ـ والعياذ بالله ـ فبدأ بالزانية؛ لأنه في النساء أكثر كما هو مُشاهد.

وقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ الخطاب في الآية للأمة جميعًا، لكن المقصود بالذات والعين هو الإمام أو نائبه، لكن المسئولية على الجميع.

بمعنى: لو تهاون الإمام ـ مثلًا ـ وجب على الأمة أن تطالب بقطع يد السارق كما سنذكره إن شاء الله في الفوائد.

قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ وهنا جمعت مع أن المقصود أن يقطع من كل منهما يد واحدة فكيف نجمع؟ فهل المعنى أن نقطع الأربع أيد أم ماذا؟

نقول: لا نقطع الأربع أيدٍ، إنما يُقطع من السارق والسارقة يدان اثنتان، لكن الأصل في اللغة العربية أنه إذا أضيف المثنى إلى ما يفيد التعدد فإنه يُجمع؛ كراهة أن تجتمع فيما هو كالكلمة الواحدة؛ لأن المضاف والمضاف إليه كأنهما كلمة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، مع أن الواحد له قلب واحد كما قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤]، لكن الأفضل في اللغة العربية هو أن يكون المضاف مجموعًا إذا أضيف إلى مثنى؛ كراهة اجتماع اثنين فيما هو كالكلمة الواحدة، ويظن التثنية وهذا قد ورد بالجمع في القرآن، ويجوز الإفراد: فاقطعوا يدهم إلا إذا كان يترتب على ذلك اختلاف فإنه يجب أن يكون الجزء الأول من المضاف والمضاف إليه على حسب الواقع، فمثلًا إذا قلت: اشتريت من الرجلين عبدهم، هنا إذا كان العبد عبدًا واحدًا يجب أن تقول: عبدهما؛ لأن العبد مشترك بينهما، وإذا كنت اشتريت من كل واحد عبدًا تقول: عبدين، لكن لو اشتريت من كل واحد مثلًا عبدين فتكون اشتريت أربعة تقول: عبيدهما يتعين هذا؛ لئلا يختلف المعنى، أما إذا كان المعنى واضحًا فإنه إذا أضيف ما يفيد التعدد إلى ما يفيد التعدد فإنه يصير مجموعًا.

وفي قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ استفساران من حيث الحد يعني: حد اليد، ومن حيث الجهة، أمَّا من حيث حد اليد يعني: هل نقطع الكف أو نقطع إلى المرفق أو إلى المنكب؛ لأن هذا كله يسمى يدًا؛ لأن اليد من المنكب إلى الأصابع، فهل نقطع من المنكب أو من المرفق أو من الكف؟ هذه واحدة.

ثانيًا: الجهة: أي الجهتين اليمين أو الشمال؟

نقول: المراد: قطع اليد اليمنى، والحدُّ هو: الكف، لكن ما الذي جعلنا نعين اليد اليمنى؟ لأن

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ لغة: اسم مشتق من السَّرقة، والاسم المشتق المحلى بـ(أل) يقول العلماء: إنه للعموم؛ ولهذا نقول: إن (أل) من الأسماء الموصولة، وصلتها الصفة الصريحة.

والسارق قال العلماء في الاصطلاح: (هو الذي يأخذ المال على وجه الاختفاء من مالكه أو نائب مالكه) [1].

فقولنا: (الذي يأخذ المال) خرج به من أخذ ما ليس بمال كما لو أخذ خمرًا، فإن هذا ليس بسارق اصطلاحًا؛ لأن الخمر ليس بمال، وخرج به من أخذ حرًّا، يعني: سرق صبيًّا من بيت أهله، فهذا ليس بسارق اصطلاحًا؛ لأنه ليس بمال، ويدخل فيه لو سرق عبدًا ـ ولو كان كبيرًا ـ فإنه يعتبر سارقًا؛ لأن العبد مال مملوك لسيده.

وقولنا: (مِنْ مَالِكِهِ)، احترازًا مما لو أخذه من غير مالكه، كما لو كان من غاصب يعني: أن رجلًا غصب مالًا وسرقه سارق ـ أي: سرق هذا المال المغصوب ـ فإنه لا يعد سارقًا اصطلاحًا، وإن كان يُعد سارقًا لغة، لكن اصطلاحًا ليس بسارق؛ لأنه ـ أي المال ـ أُخِذ من شخص لا حرمة له؛ إذ إنه وضع يده عليه بغير حق.

وقولنا: (أَوْ نَائِبِهِ) يعني: نائب المالك؛ إذ قد يكون الوكيل أو الوصي أو الناظر وما أشبه ذلك، المهم: أنه لو أخذ المال من نائب المالك فهو سارق، وعلى هذا فالذي يسرق من الدكاكين التي فيها أموال للغير يُحرِّج عليها صاحب الدكان هل يعتبر سارقًا ـ مع أن هذا المال الذي في الدكان الذي ليس لصاحب الدكان بل هو يبيع للناس ـ؟ نقول: نعم؛ لأنه نائب على هذا المال فإذا قال السارق: أنا لم أسرق المال من المالك، قلنا: لكنك سرقته من نائب المالك.

وقولنا: (عَلَى وَجْهِ الاخْتِفَاءِ) إخراجًا مما لو أخذه جهرًا فإنه لا يُعد سارقًا بل يعد غاصبًا؛ لأن هذا غير مختف، لكن هذا منتهب أو مغتصب.

مسألة: إنسان مثلاً وقف عند الدكان وكلم صاحبه، وقال له: عندك الأشياء الفلانية؟ قال: نعم، قال: أرنيها، فالتفت صاحب الدكان وأتى بها فقال: لا، ما أريد هذه إنما أريد ما في طرف الدكان فذهب صاحب الدكان ليأتي بالسلعة وقام هذا بسرقة بعض المال هل يعتبر سارقًا؟

الجواب: هذه القضية تختلف؛ لأن التفريط من صاحب المال، كيف تذهب وتأتي بالسلعة من أقصى الدكان، وعندك شخص لا تدري عن أمانته، فأنت الذي فرطت.

وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ الأنثى يقام عليها الحد كما يُقام على السارق، وهنا نجد مراد الله جل

---

(١) «الشرح الممتع» (١٤/ ٣٢٤).

بِمُخْرَجِينَ ﴾، وإذا كانوا لا يخرجون وهم خالدون فيها أبدًا؛ دل هذا ولابد على أن النار باقية أبدًا، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة وحُكي إجماعًا، لكن ذُكِر عن طوائف يسيرة جدًّا أن النار تفنى بمن فيها، ولكنه قول ضعيف بل هو في الحقيقة قول باطل؛ لمخالفته لصريح القرآن؛ لأن الله تعالى ذكر التعبير نصًّا صريحًا، مثل قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ كلمة ﴿مَا﴾، حجازية؛ وذلك لأن الباء عملت كخبر عملًا لفظيًّا، ونعرف ذلك من لغة القرآن ـ لغة قريش ـ وهذه طريقة القرآن قال الله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ ولم يقل (بشرٌ)، فعلى هذا نقول: هذه حجازية، والخلاف بين التميمية والحجازية ليس في المعنى، ولكن في العمل.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ بل هم باقون فيها، وعلى هذا فالباء هنا حرف جر زائد أي: زائد إعرابًا لا معنى، بل له معنى وهو التوكيد؛ لأن جميع حروف الزيادة ـ كما قال أهل البلاغة ـ تفيد التوكيد.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ـ نسأل الله العافية ـ أي: لهم عذاب مقيم ثابت دائم.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها: أن أهل النار يحبون بكل قلوبهم أن يخرجوا هذا على الوجه الأول الذي قلنا: إن معنى ﴿يُرِيدُونَ﴾: يحبون، ولكن لن يحصل لهم ذلك.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: على المعنى الثاني أن النار يحملهم لهيبها حتى يكونوا في مكان يطمعون أن يخرجوا منها، وهذا على اعتبار أن الإرادة بمعنى: المشيئة.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل النار الذين هم أهلها لا يمكن أن يخرجوا منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، وهذا خبر من الله عز وجل، وخبر الله حق.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن عذاب أهل النار مقيم يعني: ثابت فإنهم لن يُخَفَّف عنهم، بل قالوا لخزنة النار: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، يريدون أن يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب، ما قالوا: كل العذاب فيقولون لهم موبخين: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٥٠] أي: في ضياع فلا ينفع، ثم يدعون الله عز وجل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، وهم في أشد الضرورة إلى الخروج فيقول الله عز وجل لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] أي: كونوا أذلة خاسئين ولا تكلمون، فما بعد هذا الذل والإهانة شيء ـ نسأل الله أن يقينا وإياكم عذاب النار ـ.

ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٥- ومنها، أن الافتداء بعد فوات الأوان لا يجدي؛ لقوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، وهذا كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨]؛ لأنه قد فات الأوان على ذلك وحلّ العذاب.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عذاب الكفار عذاب مخزٍ - والعياذ بالله - و هو ليس بمهلك؛ لأنهم لا يموتون ولا يحيون حتى إنهم يتمنون الموت، ولكن لا يحصلون عليه، فيقولون: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرُف:٧٧]، وهذا دعاء منهم أن يقضي الله عليهم فيميتهم، ولكن يُقال لهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٧].

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الذين قالوا: إن أهل النار يتأقلمون فيها ولا يحسون بألم ولا بعذاب، وإلا ما بقوا موجودين؛ لأن حرارة النار - أعاذنا الله وإياكم منها - أعظم من نار الدنيا بتسع وستين جزءًا، فيقال: إن الله عز وجل يعذبهم، لكنه يبدل جلودهم كلما نضج الجلد بُدِّل جلد آخر؛ ليذوقوا العذاب.

فإن قال قائل: أليس في ذلك ظلم لهؤلاء؛ لأن هذه عقوبة عظيمة؟

فيُقال له: لا؛ لأنهم أُنذروا وبُيِّن لهم وتُوعدوا هذا العذاب وأَتوا الذنوب من قِبَل أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، وإنما أوردت هذا؛ لأن بعض القائلين يقول: بأن النار تفنى، وهو قول شاذ منكر، وهم يقولون: إن حكمة الله تعالى ورحمته تأبى أن يُعذِّب هؤلاء أبد الآبدين؛ لأن وجودهم في الدنيا كان قليلًا لا يُذكر فيقال: إنه قد قامت عليهم الحجة أنهم أمضوا أيامهم كلها بدون إيمان ولا طاعة، فتكون آخرتهم كلها ليس فيها ثواب ولا راحة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧] الإرادة هنا: يحتمل أن يكون معناها هنا: المحبة؛ لأن الإرادة تأتي بمعاني المحبة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ومعلوم أن هذه الإرادة بمعنى: المحبة؛ إذ لو كانت إرادة كونية لتاب الله على جميع الناس، فمعنى ﴿يُرِيدُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: يحبون أن يخرجوا من النار ولكن أنّى لهم ذلك، ويحتمل أن المعنى: أنهم يُخدعون بأن النار ترفعهم حتى يكونوا قريبين من أبوابها ثم يردُّون إلى أسفلها - والعياذ بالله - كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج:٢٢]، فالآية تحتمل المعنيين المعنى الأول: أنها بمعنى المحبة أي يحبون ذلك، ولكن لا يحصل لهم، والمعنى الثاني: أنه يرفعهم لهيب النار حتى يصلوا إلى مكان يطمعون فيه أن يخرجوا من النار ويريدون الخروج، لكن يُردُّون إليها.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ يعني: بل هم فيها باقون كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا

التفسير

لما بيّن الله تبارك وتعالى أمر عباده المؤمنين أن يتقوا الله ويبتغوا إليه الوسيلة ويجاهدوا في سبيله، وبيَّن عاقبة هذا بأنه الفلاح بين عاقبة من لم يقم بذلك من الكفار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذه تحتاج إلى خبر وخبرها جملة الشرط ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾، و ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ تحتاج إلى جواب الشرط وجوابها قوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، والجملة من الشرط والجواب هي خبر إن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ ﴿لَوْ﴾ هذه شرطية، و(لو) الشرطية لا تدخل إلا على جملة فعلية، فأين الجملة الفعلية؟ فالذي بعدها (أن) المفتوحة وهي نائبة مناب مخبر. يقال في الجواب: إن فعل الشرط محذوف، والتقدير: لو ثبت أن لهم مافي الأرض جميعًا... إلى آخره.

وقوله: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ما: اسم موصول يفيد العموم أي: جميع ما في الأرض من معادن وأشجار وبحار وأنهار وحيوان وآدمي، وكل شيء في الأرض، ومثله معه إضافة.

وقوله: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليبذلوه فداء عما يكون من العذاب.

وقوله: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تقبل الله منهم ذلك؛ لأنهم قد حقت عليهم كلمة الله، وحق عليهم العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ هنا بمعنى: مؤلم.

ففي هذه الآية يخبر الله عز وجل أن الكفار لن ينجوا من العذاب مهما بذلوا من الفداء، فعذابهم أليم أي: مؤلم، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

الفوائد:

١- في الآية من الفوائد: شدة عذاب الكفار.

٢- ومنها: أنهم لن يستطيعوا أن يفتدوا بما يمكن أن يملكوا من هذا العذاب.

٣- ومنها: أن الله سبحانه وتعالى أراد منهم ما هو أيسر من ذلك، وهم في زمن الإمكان في الدنيا، ولكنهم أبوا إلا الشرك، فيتحسرون في الآخرة ويتمنون أن يجدوا فداءً ولم يجدوا.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ

سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فعدل عن هذه الثلاثة وقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ[1] هِيَ العُلْيَا[2] فَذَلِكَ فِي سَبِيْلِ اللهِ»[3]، وقضى على هذه الأسئلة الثلاثة.

أما الأول: فالذي يقاتل شجاعة ليس في سبيل الله، ومعنى الشجاعة أن يقاتل رجل شجاع يحب القتال، فهذا يوافق طبيعته وغريزته، هذا ليس في سبيل الله.

الثاني: الذي يقاتل حمية لقومه ولعصبيته، ومن هؤلاء عرفنا ـ مع الأسف ـ قتال المسلمين لليهود باسم العروبة ولو قوتلوا باسم الإسلام لخرج من بينهم الرجس وهم النصارى، ولدخل فيهم أمم لا تحصى من المسلمين العجم من الروم والفرس والبربر والهنود وغيرهم من الأمم التي لا يحصيها إلا الله، ولحُقِّق النصر بإذن الله، وهذا إذا قام هؤلاء المقاتلون المسلمون بما يلزمهم من طاعة الله عز وجل وعدم الإعجاب بالنفس.

الثالث: الذي يقاتل رياء ـ والعياذ بالله ـ وهذا أخطرهم الذي يقاتل من أجل أن يقال: فلان جريء وشجاع، أو يقاتل من أجل أن يقال: فلان يقاتل في سبيل الله وكلاهما باطل؛ فالذي يقاتل لأجل أن يقولوا: فلان جريء هو أول من تسعر بهم النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ نسأل الله العافية ـ؛ إذنْ لابد أن تكون النية خالصة لله فهو يقاتل؛ لتكون كلمة الله هي العليا؛ لأن الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا يمكن أن يفرط بما أوجب الله عليه؛ لأنه يريد الله ولا يريد غيره، فهو يبحث عن الفوز بطاعة الله فلا يمكن أن يفرط في طاعة الله.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦-٣٩]

---

(١) كلمة التوحيد ودعوة الإسلام.

(٢) العالية فوق كل ملة ومذهب.

(٣) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

فالزكاة أفضل من صدقة التطوع، والصوم الواجب أفضل من النفل، والحج الواجب أفضل من النفل هذا باعتبار الجنس، ويتفاضل أيضًا باعتبار نوعه، فمثلًا الصلاة على وقتها أحب الأعمال إلى الله كما سأل ابن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا[1]» قلت: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قلت: ثم أي؟ قال: «الجِهَادُ فِي سَبِيْلِ الله»[2].

إذن الأعمال فيما بينها تتفاضل من حيث الأجناس وأنواع هذه الأجناس ومناط معرفة الفاضل هو الكتاب والسنة.

مسألة: إن قال قائل: مَنِ الأفضل في هذين الرجلين: رجل يفعل العبادة في انقياد و انشراح صدر وقبول، وآخر يفعلها بمشقة شديدة وبمجاهدة نفسه عليها؟

الجواب: الأول أفضل مقامًا وأعلى منزلة، والثاني يُؤجر على مشقة المجاهدة أكثر من ذلك، لكن لا يمكن أن ينال درجة الأول ومقام الأول.

ويشبه هذا أن الرسول ﷺ أخبر الصحابة من ورائهم أيام الصبر للعامل فيهن أجر خمسين من الصحابة، لكن هذا الأجر الذي كان من أجل مشقة العبادة عليه لا يجعله ينال مرتبة الصحابة، وهذه نكتة في العلم ينبغي لطالب العلم أن يتفطن لها.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الجهاد في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، ولكن هذا العمل - أعني: الجهاد في سبيل الله - كغيره من الواجبات لابد أن يكون له شروط من أهمها:

الأول: القدرة: بأن يكون الإنسان مكافئًا للعدو بالعدد والعُدة، وإلا فمن المعلوم أنه من السفه والهلع: أن يتقدم الإنسان ليقاتل عددًا أكثر منه، وقوة أكبر من قوته، ولهذا لم يوجب الله عز وجل الجهاد إلا حين قامت الأمة الإسلامية، ولم يوجب المصابرة إلا مع الضعف فقط، فإن زادوا عن الضعف مع اتفاق العدد فإنه لا يجب المصابرة المهم لابد من القدرة على الجهاد للجهاد في سبيل الله.

الثاني: أنه لابد للمجاهدين من إمام يكونون تحت إمرته يأتمون به ويأتمرون لأمره؛ حتى لا يكونوا أحزابًا وطوائف يقتل بعضهم بعضًا عند النصر، وكيف يمكن أن يقوم الجهاد مع تفرق الأحزاب؟! هذا لا يجوز.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾، فأضافه إلى نفسه عز وجل إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون جهاده في سبيل الله، فحين

---

(١) في أول وقتها.

(٢) رواه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الله ممن وقف بعرفة أو على الصفا أو على المروة أو الطواف بالبيت.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ابذلوا الجهد في إعلاء كلمته؛ لأن الجهاد في سبيل الله: أن يقاتل الإنسان؛ لتكون كلمة الله هي العليا، والمراد بـ ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ هنا: دينه؛ لأنه هو الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ هذا أمر سيحين إن شاء الله تفصيله في استنباط الفوائد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لعل هنا للتعليل أي: لأجل أن تفلحوا، والفلاح: كلمة جامعة لحصول المطلوب وانتفاء المكروه، فهي من أجمع الكلمات العربية.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** بلاغة في غاية الروعة؛ حيث تتنوع فيها العبارات بالنداء تارة، والأمر تارة، والحث، والعرض تارة أخرى.

٢- **ومن الفوائد:** أن تستعمل ما يكون به التنبيه في الأمور الهامة، ووجهه: أنه قدم هذه الأوامر الثلاثة المهمة بالنداء.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإيمان يحمل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه؛ وذلك لأنه وجَّه النداء إلى المؤمنين، ولاشك أن الإيمان يحمل الإنسان على فعل الأوامر واجتناب النواهي، فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كلما كان أشد امتثالًا للأمر وأبعد عن النهي، وهذا الشيء مجرب، حتى الإنسان نفسه أحيانًا يجد قلبه في قوة الإيمان فتجده يرغب في الطاعة ويحب أن يستمر فيها، وأحيانًا يفتر ويكسل فتجد الطاعات تثقل عليه وكلما كان أقوى إيمانًا كان أشد امتثالًا لأمر الله.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فالتقوى واجبة، وقد ذُكِرت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة: أمرًا بها، وثناء على أهلها، وبيانًا لجزائها.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب طلب القرب إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا الوسيلة إليه.

٦- **ومن فوائدها:** وجوب تعلم الدين؛ لأنه بأي وسيلة نطلب القربى إليه إلا بالعلم؟! وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما كانت العبادة تُقَرِّب إلى الله أكثر كان الاهتمام بها أكثر؛ لأن الحكم يدور مع علته، فإذا حزت الطريق إلى الله فإنه من المعلوم أن ما يكون أقرب أو أشد تقربًا فهو أولى، ومنه نأخذ: أن الأعمال تتفاضل بعضها أفضل من بعض، وهذا أمر قررته الشريعة فجنس الواجب أفضل من جنس التطوع، يعني: الصلوات المفروضة أفضل من النافلة،

و قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من العذاب، وذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي على علم؛ لأن الإنسان قد يفعل شيئًا مأمورًا به، لكن على غير علم، أو يترك شيئًا منهيًا عنه على غير علم، فلابد من العلم؛ ليكون ذلك من خشية الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقد فسر بعض العلماء التقوى بأنها: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله[1]، والنور هو العلم؛ ولهذا نقول: أجمع ما قيل في تعريفها أنها: امتثال لأمر الله واجتناب نواهيه على علم؛ حتى يحصل له الخشية لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

مسألة: أيهما أفضل أن نقول: اتقوا الله نفسه أو اتقوا عذاب الله؟

الجواب: الأول: هو الصحيح؛ لأن الله قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]فحذرنا الله تعالى من نفسه عز وجل، وإنما حذرنا منها؛ لأنه قال لنا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، وهذا خبر أخبرنا به هو عز وجل وقال لنبيه ﷺ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] إذنْ يحذرنا الله نفسه أن يعاقبنا على مخالفته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا إليه الوسيلة، و﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مفعول ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟﴾ يعني: اطلبوا الوسيلة إليه.

والوسيلة هي: التقرب إلى الله ـ كما فسرها كثير من المفسرين بأنها ابتغاء القربى إليه ـ والمعني: اطلبوا ما يقربكم إليه، فإذنْ الله يأمر أن نطلب ما يقربنا إليه، و هو امتثال أمره واجتناب نهيه؛ طلبًا للقرب منه.

وليست الوسيلة ما هو معروف عند المتأخرين بأن يتخذ الإنسان وسائل في دعائه أو نحو ذلك، بل المراد بـ ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ التقرب إليه كما بيَّنَّا، لكن بعض المحرفين قال: المراد بالوسيلة: الولي أو النبي أو جاه النبي أو جاه الولي، وهذا تحريف لكلام الله وإنما الوسيلة هي الشيء الموصِّل إلى الله وإلى التقرب إليه عز وجل، مثال ذلك الصلاة فهى تقرب إلى الله كما قال ﷺ «وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[2]، ولا يوجد هذا الوصف - وهو القرب إلى الله- على هذا الوجه إلا في الصلاة، لكن الإنسان يتصدق فيتقرب إلى الله بالصدقة و يصوم فيتقرب إلى الله بالصيام و يحج فيتقرب إلى الله بالحج، لكن لا يوجد مثل الصلاة قربة إلى تعالى، فهى أقرب إلى

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٥٦)، و«الزهد الكبير» (ص٣٥١).

(٢) رواه مسلم (٤٨٢)، وأبوداود (٨٧٥)، والنسائي (١١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٩٤٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إذنْ نقول في هؤلاء إذا تابوا أنه يسقط عنهم الحد؟

لأن هذا حد وليس قتلًا للرِّدة، والحد قد فعلوا ما يوجبه، والرِّدة الذي يوجبها هو الشرك، وقد زال بالإسلام فلا يرد على هذا لا من المحاربين ولا في غيرهم من ذوي الحدود.

قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النساء: ٣٥]

التفسير

هذه الآية الكريمة فيها: نداء و ثلاثة أمور وعلة وغاية.

أما النداء ففي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، وقد رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فارعها سمعك) [1]، وذكرنا من قبل أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على أهميته، ثم إن توجيه النداء إلى المؤمنين يدل على امتثال هذا من الإيمان وأن مخالفته نقص في الإيمان، وأنه ينبغي إغراء الشخص المخاطَب بما يحمله على الامتثال، يعني: في الخطاب ينبغي أن تغري الشخص بما يحمله على الامتثال فتقول مثلًا: يا أيها الكريم أكرم الضيف، فإذا ناديته يا أيها الكريم فسوف يكون ذلك دافعًا على إكرام الضيف.

إذنْ نقول أولًا: تقديم الخطاب بالنداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاثة ضوابط:

أولًا: أن الامتثال من مقتضيات الإيمان.

ثانيًا: أن المخالفة نقص في الإيمان.

ثالثًا: إغراء المخاطَب بهذا الوصف على الفعل؛ لأن وصف الإنسان بالشيء الذي يحمله على الفعل والامتثال، لا شك أنه يغريه ويزيده نشاطًا .

وقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تأتي في كثير من الآيات، والإيمان فسره النبي ﷺ أبين تفسر حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان فقال ﷺ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»**[2]، وعلى هذا فيكون ﴿آمَنُوا﴾ هنا يعني: بما يجب الإيمانَ به وهي أركان الإيمان الستة.

---

(١) «الزهد» لابن حنبل (ص١٥٨)، و«الزهد» لابن المبارك (ص١٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، و يؤخذ منها أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا؛ لقوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولهذا قال النبي ﷺ في المتلاعنين: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ»(١).

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء المجرمين مع عظم جرمهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحد، ويؤخذ سقوط الحد عنهم من قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: فإذا علمتم ذلك فاغفروا لهم.

وهل هذا على إطلاقه بمعنى: أنه يعفى عنهم حتى فيما يتعلق بحقوق الآدميين من نفس أو جرح أو عضو أو مال أو هو خاص بحقوق الله؟ الثاني؛ لأن من المتعين أن حقوق الآدمي لابد من وفائها.

وعلى هذا: فإذا كان هؤلاء الذين تابوا ووضعوا السلاح وظهر صدقهم قد قتلوا أحدًا هل نقتلهم أو لا؟

الجواب: إذا طلب أولياء المقتول أن يُقتلوا قتلوا؛ لأن حق الآدمي له، لكن لو لم يتوبوا أتينا بهم ثم قال أولياء المقتول: نحن قد عفونا هل يسقط؟ لا؛ لأنه حد القتل وهم لم يتوبوا، أما إذا تابوا انتقل الحد إلى حق آدمي إذا عفوا فلا بأس.

وهل يُلحق بذلك سائر الحدود كحد الزنا والسرقة، وما أشبه ذلك؟

الجواب:نعم، يلحق به؛ لأن التوبة إذا أسقطت هذا الحد العظيم في الجُرم العظيم فما دونه من باب أولى، فالسارق مثلاً إذا تاب إلى الله وأتى بمال من السوق ورده إلى صاحبه فإننا لا نقطع يده؛ لأنه تاب إلى الله قبل أن يقبض عليه.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنهم إذا تابوا بعد القدرة فإنه لا تُقبل توبتهم، وهنا يرد علينا إشكال، وهو ما جرى في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنه حين لحق المشرك فلما أدركه قال: لا إله إلا الله فقتله أسامة، والذي يظهر أن هذا المشرك قال: لا إله إلا الله؛ تعوذًا من القتل فلما جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره بالخبر قال: «قَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قال: نعم يارسول الله قتلته؛ لأنه قالها تعوذًا من القتل - لأنه لو كان صادقًا لأسلم قبل أن يُهدَّد بقتله - فجعل النبي ﷺ يردد: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَمَاذَا تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟»(٢)، حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم من قبل؛ لأنه إذا فعل هذا وهو مشرك ثم تاب تاب الله عليه. فكيف

(١) رواه مسلم (١٤٩٣)، وأبوداود (٢٢٥٦)، والترمذي (١٢٠٢)، والنسائي (٣٤٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (٤٠٢١)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

الحدود التقويم تقويم الناس، فإذا كان من الممكن أن يُقَوَّموا بدون القتل والصَّلب قُوِّموا لكن هذا لا تُؤْمَن فيه الخيانة فيقول: هذا يستحق القتل والصلب، وتأتيه القضية نفسها في وقت آخر فيقول: لا يستحق القتل والصلب، لأن الثاني شريف والأول وضيع.

فمن قال بالتخيير وأن هذه لابد منه بحسب الجريمة فقوله: أقرب إلى الصواب من جهة الضبط.

ومن قال بأن ﴿أَوْ﴾ للتخيير، وإن الإمام يخير فقوله أولى من حيث إن الحدود؛ لتقويم الخلق، فإذا أمكن التقويم بما هو أقل وجب الاقتصار عليه.

فإن قال قائل: فهل وقع مثل هذا في عهد الرسول ﷺ؟

نقول: نعم قد وقع: فقد قدم أناس من جهينة أو عُرينة أو عكل أو من هؤلاء، وقدموا المدينة فاستوخموها وأُصيبوا بشيء من الحُمَّى فأمرهم النبي ﷺ أن يلحقوا بإبل الصدقة ويشربوا أبوالها وألبانها ففعلوا فشربوا من أبوال الإبل وألبانها وزالت عنهم الحمى، فبدَّلوا نعمة الرسول ﷺ كفرًا فسمَّروا عين الراعي وسمروا أي: أحموْا حديدًا مثل المخيط وكحَّلوا بها العين - والعياذ بالله - وهذا التعذيب شنيع، ثم قتلوا الراعي واستاقوا الإبل، فأرسل النبي ﷺ في إثرهم وجيء بهم بعد أن ارتفع النهار فأمر بهم ﷺ أن تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن تسمَّر أعينهم بالمسامير[1]؛ لأنهم فعلوا ذلك، والقصاص واجب وأقاموا في الحرَّة يستغيثون حتى إن الواحد منهم يأكل الثرى من العطش، ولكن الرسول ﷺ تركهم ولم يحسمهم يعني: ما حسم الدماء حتى لا يحصل النزيف، تركهم يستغيثون ولا يُغاثون؛ لأن الرحمة تقتضي هذا، والرحمة بالناس عمومًا تقتضي أن يعامل المجرم بما يمنع الإجرام.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن قطَّاع الطريق يُجمع لهم بين العقوبة في الدنيا والآخرة، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، مع أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنَ القَاذُورَاتِ - يَعْنِي القَبَائِح - وحُدَّ عَلَيْهَا فَإِنَّ الحَدَّ يَكُونُ كَفَّارَةً»[2] لكن لجرم هؤلاء لم يكن الحد كفارة لهم، بل لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥٦)، والنسائي (٣٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وفي هذا المعنى حديث البخاري (٤٦١٢) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال (أتبايعونني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا - وقرأ آية النساء وأكثر لفظ سليمان قرأ الآية - فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب منها شيئًا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له). تابعه عبد الرزاق عن معمر في الآية.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن عقوبة هؤلاء المفسدين قتل أو صلب أو تقطيع الأيدي أو الأرجل من خلاف أو النفي من الأرض.

و ﴿أَوۡ﴾ في هذه الآية هل هي للتنويع أو للتخيير؟ في هذا قولان للعلماء:

ومنهم من قال: إن ﴿أَوۡ﴾ هنا للتخيير وأن للإمام يخير بين هذه العقوبات ولكن يجب عليه أن يفعل الأصلح، فإذا كان الأصلح أن يقتلوا أو يصلبوا؛ لأن ذلك أعظم هيبة في قلوب المجرمين فوجب عليه أن يقتل أو يصلب وإذا كان المجرمون يرتدعون بدون ذلك، فإنه لا يعدل إلى الأعلى في العقوبة.

ومنهم من قال: إن ﴿أَوۡ﴾ للتنويع وليست للتخيير وأن هذه العقوبات تختلف بحسب الجرائم ووزعوها كما يلي:

قالوا: من قتل وأخذ المال يقتل ويصلب إذْ جمع بين الأمرين قتل الناس وأخذ أموالهم، فإنه يقتل ويصلب؛ لأنه فعل جريمتين، ومن قتل ولم يأخذ مالًا فإنه يقتل ولا يصلب، ومن أخذ مالًا ولم يقتل انتقل به إلى العقوبة الثانية وهي الثالثة حسب سياق الآية، لكنها الثانية حسب تقسيم العلماء وهي أن تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، حتى وإن سرقوا عند بعض العلماء ما لا يبلغ النصاب ـ يعني: نصاب السرقة ـ مثل أن يكون مال الرجل أقل من نصاب السرقة وخرج عليه هؤلاء القطاع بالسلاح وقالوا: أعطنا ما معك فأخذوه قهرًا وهو لا يبلغ ربع دينار فإنه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وقال بعض العلماء: أنه لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إلا إذا أخذوا ما يُقطع بمثله السارق وهو ربع دينار.

و النفي من الأرض: بأن ينفيه الإمام من بقعته التي هو فيها إلى أرض أخرى؛ لأنه إذا تغيَّر عن المكان والجو ربما يستقيم ويتوب.

وقيل معنى النفي من الأرض: أن يحبس حتى لا يتجول في الأرض التي كان يتجول فيها؛ لأنه إذا حبس في بيت أو في حجرة صدق عليه أنه نفي من الأرض التي كان بالأمس فيها في الهواء الطلق لا يخاف أحدًا.

والصحيح: أن المراد بالنفي من الأرض طرده من الأرض إلا إذا كنا نخشى إن طردناه من أرضه أن يرتكب الجريمة في الأرض الأخرى فحينئذ ليس له إلا الحبس.

ولهذا قال العلماء الذين يجعلون أمر النفي هذا: فيمن أخاف الطريق ولم يأخذ المال ولم يقتل النفس؛ لأننا إذا نفيناه كفينا الناس شره، وإذا حبسناه على الطريق الثاني لم نكفِ الناس شره.

ونقول: إن القول الثاني أفضل؛ لأن الخيانة مأمونة فيه، والأول أنسب؛ لأن المقصود من

لهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من هذه العقوبة الصارمة.

وقوله: ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: ذل وعار.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيُجمع لهم بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، وذلك لعظم جرمهم وشناعته وبشاعته وعدوانهم على عباد الله.

ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ مستثنى مما سبق، ﴿تَابُوا﴾ أي: رجعوا إلى الله، وكفُّوا عن سعيهم في الأرض فسادًا وعن محاربة الله ورسوله، وهنا لابد من أن تمضي مدة نعرف بها صحةَ توبتهم يعني: يضعوا السلاح ويكفوا عن الإيذاء وتظهر عليهم علامة التوبة والصدق.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: تابوا من ذات أنفسهم فوضعوا السلاح وكفُّوا عن قطع الطريق.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فاغفروا لهم وارحموهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى بمغفرته ورحمته يرفع عنهم العقوبة.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها: بيان عقوبة المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فسادًا، وقلنا: إن المفسرين قالوا: إن المراد بهذا قطاع الطريق الذين يعرضون للناس بالسلاح في الصحراء أو في البنيان.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: شدة المحاربة لله ورسوله، وأن الإنسان إذا حارب الله ورسوله فإنه يُخشَى عليه، وذلك لعظم العقوبة، فإن عظم العقوبة يدل على عظم الجريمة.

ومن المحاربين لله ورسوله أَكَلَةُ الربا كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: عظم محاربة النبي عليه الصلاة والسلام سواء كان بالسلاح الحسي أو بالسلاح المعنوي، هو رد دعوته والاستكبار عنها.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تبارك وتعالى يريد من عباده أن تطهر الأرض من الفساد؛ ولذلك عاقب الذين يسعون في الأرض فسادًا بهذا العقاب العظيم وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قال أهل العلم: الفساد في الأرض بعد إصلاحها يعني: المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، ولكن كما قلنا في الآية التي قبلها: إن من الفساد في الأرض ما لا يؤدي إلى هذه العقوبة على حسب النصوص.

يردون الله في أمره فيفعلون ما نهى عنه ويتركون ما أمر به على وجه الاستكبار والعناد، وهذه محاربة لله، أما محاربة الرسل قد تكون تشمل الحرب بالسلاح والحرب بالرفض لما دعوا إليه، لكن بالنسبة لله عز وجل لا تشمل الحرب السلاح؛ لأن هذا غير واقع ولا يمكن أن يقع.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يفسدون في الأرض على وجه الإسراع؛ لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ والسعي بمعنى: الإسراع أي أنهم يُسرعون إلى الفساد في الأرض؛ وذلك بالتسلط على الناس وأخذ الأموال وقتل النفوس.

ولهذا قال العلماء: إن هذه الآية نزلت في المحاربين الذين هم: قطاع الطريق، وقطاع الطريق قوم يعترضون الناس في الصحراء على الطرقات، فإذا مر بهم أحد قتلوه وأخذوا ماله أو أخذوا ماله وتركوه، أو أخافوه وروعوه، المهم: أن جولاتهم تختلف، لكنهم يعرضون للناس ويغصبون منهم المال، وربما يقتلونهم، وهذا يوجد في البلاد التي تزعزع أمنها.

ومن الإفساد في الأرض السطو على البيوت الآمنة وقتل أهلها أو السرقة منها، أو ما أشبه ذلك مما يكون فيه تحزُّبات واجتماعات وفِرق تؤذي الناس بخلاف السارق الواحد، هذا له حكم خاص لكن هؤلاء الذين يخربون ويكوِّنون فئات وجماعات يروع سطوهم على الناس في البنيان أو في الصحراء.

وقوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ أنْ وما دخلت عليه خبر ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ أي: جزاؤهم التقتيل، وهنا قال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ بالتشديد، ولم يقل أنْ يُقتَلُوا كأنه - والله أعلم - إشارة إلى شناعة قتلهم وإلى تعددهم أيضًا؛ لأنه لو تعدد المحل أو تعدد الفعل صح أن تأتي الصيغة بما يدل على الكثرة، وفيها إذا قلنا: الجماعة كثيرة صار هذا المتعدد المحل كأن نقتله قتلًا ذريعًا ينزجر به غيره.

وقوله: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ يعني: يُصلبون، وهل المراد الصلب بعد القتل فيكون جمع بين الأمرين أو هو صلب فقط دون قتل؟ ظاهر الآية الثاني أن يصلب حتى يفتضح لمن فعل مثل جنايته، ثم بعد ذلك ينظر ولي الأمر فيه بما يراه مناسبًا، لكن المعروف أن الصلب يكون بعد القتل.

وقوله: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ تقطَّع الأيدي والأرجل من خلاف، والظاهر هنا أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

و يكون قطع اليد من مفصل الكف من الذراع، ويكون القطع من الرجل من مفصل القدم من العقب؛ لأن الرِّجل لها قدم، ولها عقب، والعقب يسمى العرقوب، والعرقوب لا يقطع إنما يقطع من مفصل القدم من العقب من العرقوب.

وقوله: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يطرد منها ويبعدوا عنها، والمقصود بالأرض هنا أي: التي سعوا فيها فسادًا حتى يكون ذلك أبعد لهم عن مواطن الفساد وأنكى

النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويقدحون في الرسل ويؤذون نبيهم الخاص الذي أرسل إليهم وهو موسى عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.

١٧- ومنها: العلم بشراسة بني إسرائيل، وأنهم أهل الغدر والاستكبار والتكذيب، وما زالوا إلى يومنا هذا على هذا الوصف.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا دعت الحاجة إلى تأكيد الخبر فإن الفصاحة تدعو إلى توكيد الخبر، والمقام يدعو إلى توكيد الخبر، وإن كان المخبر من أهل الصدق؛ حتى يطمئن المخاطب فإن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أكد بمؤكدين وهما: إن واللام.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ (إنما) أداة حصر، والحصر يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فإذا قلت: لا قائم إلا زيد أثبت القيام لزيد ونفيته عمن سواه، وإذا قلت: إنما القائم زيد أثبت القيام لزيد ونفيته عمن سواه، واعلم أن (إنما) يليها المحصور فإذا قلت: إنما القائم زيد حصرت القيام في زيد، لكن لو قلت: إنما زيد الشجاع حصرت زيد في الشجاعة؛ لأنها أبرز أخلاقه.

وقوله: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿يُحَارِبُونَ﴾ فعل يدل على المشاركة؛ لأن (فاعل) تدل دائمًا على المشاركة، وقد لا تدل عليها.

فقول القائل: قاتَل وشاتَم وضارَب وما أشبهها كلها تدل على المشاركة، فالغالب في هذا الفعل أنه دال على المشاركة، فمعنى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ أي: يتصدون لحرب الله عز وجل؛ لأنهم

أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وفي قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ[1] مَسَاجِدَ اللهِ»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦] وما أشبه ذلك: هذه الإضافة تفيد التشريف وعلو المقام، ولا شك أن الرسل أفضل أجناس البشر.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسل أرسلوا بالآيات البينات التي تدل على صحة رسالاتهم، وذلك لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

١٣- ومن فوائدها: الإعذار وإقامة الحجة؛ حيث جعل مع كل رسول آية بيِّنة يؤمن على مثلها البشر حتى لا يقول الناس: من قال إن هذا رسول فأين البينة على أنه رسول؟ فجاء بالآيات البينات لإقامة الحجة.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور لقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾، وهذا لإقامة الحجة عليهم والنصوص في هذا واضحة قال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥].

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لابد أن يكون الرسول مبيِّنًا لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فإنه يشمل الآيات الدالة على صدقه ويشمل الشرائع التي جاء بها وأنها دين الله، والأمر كذلك، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخف على عباده ما يكلفهم به فإن رحمته وحكمته تأبى ذلك؛ ولهذا قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] والله تعالى قد بيَّن للخلق وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤]، ومن هنا نأخذ أهمية الترجمة، وأنه على المسلمين أن يترجموا الشريعة إلى لغة من يخاطبونهم بها حتى تتم؛ لأنك لو أتيت عند قوم عجم وتكلمت عندهم بأبلغ وأفصح الكلام العربي ما استفادوا من هذا شيئًا؛ لأنهم لا يدرون ما تقول، وعليه: فمن أراد أن يذهب إلى قوم يدعوهم إلى الله فلابد أن يتعلم لغتهم حتى يتمكن من دعوتهم، أو يجد شخصًا يترجم يكون عالمًا باللغتين الأصلية والفرعية، ويكون له إلمام بموضوع الترجمة يعني: موضوع ما يترجمه فإذا كان مثلًا يريد أن يترجم عن التوحيد فلابد أن يكون عنده إلمام بذلك؛ لئلا يفهم الأمر على خلافه.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل مع الرسل المبينين لم يهتدوا، بل كثير منهم بعد هذا البيان وبعد هؤلاء الرسل مشركون متجاوزون للحد، ومن ذلك أنهم كانوا يقتلون

(١) جمع أمة، وهي المرأة المملوكة والمراد النساء مطلقا فهن مملوكات لله تعالى من شأنهن أن يقمن بعبادته ويلزمن طاعته ويدخلن بيوته.

(٢) رواه البخاري (٨٥٨)، ومسلم (٤٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

به، أما ماسبق من قولنا: الحرية والملك فإن هناك خلافًا في قتل الحر بالعبد، والصواب: قتل الحر بالعبد؛ لعموم الأدلة الدالة على أن النفس بالنفس والحديث الوارد «**لَا يُقْتَلُ حُرٌّ بِعَبْدٍ**»[1] ضعيف، وقد جاء في حديث سمرة عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ**»[2].

فإذا كان الإنسان يُقتل بعبده وهو ملكه فقَتْله بعبد غيره من باب أولى فالصواب: أن يقتل الحر بالعبد والمالك بالمملوك، لكن بشرط أن يكون القتل عمدًا عدوانًا واضحًا.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الفساد في الأرض مبيح إلى قتل النفس لقوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومن ذلك قطع الطرق يعني: هؤلاء الذين يعترضون الناس في الطرقات ويغتصبون أموالهم وربما يقتلونهم فهؤلاء مفسدون في الأرض، وكذلك من المفسدين في الأرض في الوقت الحاضر هؤلاء الذين يأتون بالمخدِّرات ويجلبونها إلى البلاد الإسلامية فهم مفسدون في الأرض لا شك، فإن قالوا مثلًا: نحن لا نجبر الناس على أن يشتروا قلنا: لكن وضعتم الأمر أمامهم فأنتم مروِّجون وجالبون ولن يندفع شرُّكم إلا بالقتل، وكل إنسان لا يندفع شره إلا بالقتل من هؤلاء المفسدين فإنه يُقتل.

٧ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أن الفساد في الأرض يبيح قتل النفس، ولكنه مقيد بالأدلة الأخرى الدالة على أنه ليس كل فساد يبيح قتل النفس وعليه فمن العلماء من يبيح القتل مطلقًا، ومن يبيح دونه ويحمل هذه الآية على النصوص الدالة على التفصيل.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن إنقاذ المعصوم كإنقاذ جميع المعصومين؛ اعتبارًا بالجنس، فمن أنقذ المعصوم من الهلكة فكأنما أنقذ الناس جميعًا ـ باعتبار الجنس ـ كما أنه لو كذَّب رسولًا فكأنه كذب جميع الرسل.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، وذلك باعتبار الجنس؛ لأن استحلال الواحد كاستحلال الجنس إذا لم يكن هناك سبب يبيح دمه.

١٠ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على العباد، وذلك بإرسال الرسل بالبينات.

١١ـ **ومن فوائدها**: تشريف مقام الرسل، وذلك بإضافتهم إلى الله ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾، فكل شيء نسبه الله إلى نفسه عز وجل يفيد التشريف؛ ولهذا قال العلماء في قوله: ﴿وَمَنْ

---

(١) ضعيف: رواه الدارمي (٢٣٥٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٥٧٢٤) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٦٣).

(٢) ضعيف: رواه أبوداود (٤٥١٥)، والترمذي (١٤١٤)، والنسائي (٤٧٣٦)، وابن ماجه (٢٦٦٣) وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٦) من حديث سمرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٤٩).

مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧].

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى ضاعف العقوبة على كل من قتل نفسًا بغير نفس أو بغير حق وجعله كالذي قتل الناس جميعًا.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز تخصيص معين في الحكم وإن كان عامًّا لكونه أكثر الناس عملًا به ووجهه: أن الله خص هذه الكتابة على بني إسرائيل؛ لأنهم أكثر من انتهكوا حرمات الله عز وجل.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: قتل النفس بالنفس؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، لكن لابد من شروط القصاص منها: ألا يكون القاتل أعلى من المقتول في الدين والحرية والملك، وقد سبق شرحه فهل يُقتل اليهودي بالنصراني؟ نعم؛ لأن الكفر ملة واحدة وبالمجوسي أيضًا.

ومنها: ـ أي من شروط القصاص ـ انتفاء الولادة بألا يكون القاتل والدًا للمقتول، فإن كان والدًا له فإنه لا يقتل به وذلك لوجهين:

الأول: ما جاء في الحديث «لَا يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ»[1].

الثاني: لأن الوالد هو الأصل في وجود الولد؛ إذ لولاه لم يوجد الولد فلا ينبغي أن يكون الفرع سببًا لانعدام الأصل لكن يقتل الولد بأبيه، وذهب بعض العلماء إلى أن الوالد يقتل بولده إذا كان قتله عمدًا وعدوانًا واضحًا وهذا هو القول الراجح، بل هو المتعين لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وكذلك جاءت السنة «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ»[2] وما ذُكِر من منع قتل الوالد بالولد من الأدلة فهي ضعيفة أولًا الحديث: «لَا يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ» حديث ضعيف؛ وثانيًا: على تقدير صحته يحمل على ما إذا كان هناك شبهة وذلك أنه يندر جدًّا أن يتعمد الوالد قتل ولده وعلى هذا لما كان الخطأ محل ظن بالنسبة لقتل الوالد لولده ارتفع حكم القصاص، وذلك إن صح الحديث أما إذا لم يصح فقد كفينا، وأما التعليل بأن الوالد هو سبب وجود الولد فيقال: إن سببه هو الولد فهو السبب في قتل نفسه ثم نقول: إن قتل الوالد لولده من أعظم الخطايا، فالله أخبر أن من أعظم الذنوب أن يقتل الوالد ولده خشية أن يأكل معه، فكيف نجازي هذا الوالد بأن نرفع عنه القصاص؛ إذن الصواب بلا شك أن الوالد يقتل بولده سواء كان الوالد هو الأم أو الأب.

الثالث: أن نعلم أنه عمد فإن كان شبهة كأن ضربه بآلة لا تقتل غالبًا فإننا لا نقتله حتى لو مات بها، فلو ضربه بعصا سوط مثلًا ثم هلك لا يقتل به؛ لأن العصا لا تقتل غالبًا ولهذا لا يقتل

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٦٦١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٢١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وكما ذكر الله تعالى أنه ينزل من السماء ماء ليحيي به الأرض بعد موتها والآيات في ذلك كثيرة، والنصوص كثيرة وإثبات الحكمة لله هو غاية التنزيه عن النقص والعيب؛ خلافًا لمن قالوا: لا يجوز إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لأنك لو أثبت العلة لله لجعلت الله يفعل بغرض، والغرض ممنوع وسبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض، نقول: هذه من العبارات الباطلة إلا أن من يسمعها لأول مرة يُقر بها، فهذه العبارة لو سمعها العامي لبكى؛ لأنها مزوقة، ومزخرفة فسبحان من تنزه عن الأبعاض والأعراض والأغراض.

فماذا يعني بالأبعاض؟ الوجه واليد والعين والقدم والساق، ولا يمكن أن يكون له مثل ذلك؛ لأن هذه أبعاض.

وليس له أفعال؛ لأن الفعل عرض كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وما أشبه ذلك، نقول: سبحان الله نفوا كل ما اتصف به عز وجل بما يليق به، ومن أعظم ما يليق به وهي الحكمة بأن تكون أفعاله وأحكامه الشرعية مبنية على الحكمة، فالحكمة ليست من النقص في شيء.

فإذا قال قائل: إذا جعلتم الحكمة مثبتة له وهي من صفات الكمال فقد أوجبتم على الله ما تقتضيه الحكمة وجعلتم الله تعالى يجب عليه فعل وتشريع أو تحريم هذا الشيء؛ لأن الحكمة تقتضيه وحينئذ تكونوا أوجبتم على الله تعالى فعل أشياء وهو منزه عن ذلك.

نقول: هذا خطأ، فكل الذي شرعه الله شرعه بحكمه، ولسنا نحن الذين أوجبناه على الله أن يفعله، ولسنا نحن الذين جعلنا هذا الشيء لهذه الحكمة المعينة، وإذا كان الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الرحمة أفلا يوجب على نفسه أن يفعل الشيء إذا اقتضته الحكمة؟ لأن هذا مقتضى هذا الوصف، فنحن لم نوجب على الله بعقولنا شيئًا؛ لأن عقولنا أقصر وأنقص من أن تدرك أن هذه هي الحكمة وأنه يجب الحكم لهذه الحكمة، بل ما دام أن الله أوجبها أو حرمها علمنا أن ذلك لحكمة.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تعظيم الله لنفسه جل وعلا بقوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، وقد استدل النصارى بهذه العبارة، وهي إضافة الشيء إلى الله تعالى بنون التعظيم أو بضمير الجمع على باطلهم بأن الله ثالث ثلاثة ولا غرابة في ذلك أن الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون المتشابه أما نحن فنقول أن الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

ونقول ما قاله الله تعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ

بإضافة رسالتهم إليه سبحانه وتعالى، وقد تأتي الرسالة مضافة إلى المرسَل إليهم مثل: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، ولا مضادة ولا تناقض بينهما، فهم رسل الله ورسل إلى خلق الله، لأنهم يبلغون رسالات الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه صفة لموصوف محذوف والتقدير: بالآيات البينات أي: الواضحات الظاهرات التي لا يأتي بها إلا رسول من عند الله، وقد جعل الله عز وجل آيات الرسل مناسبة لعصرهم كما ذكر أهل العلم في كون موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالعصا وباليد؛ لأنه في عهده انتشر السحر فأتى بآيات لا يمكن للسحرة أن يعارضوها.

وعيسى عليه الصلاة والسلام أتى في زمن ترقى فيه الطب، فأتى بآيات لا يمكن للطب أن يعارضها وهي: إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه والأبرص.

ومحمد ﷺ بعث في قوم قويت فيهم البلاغة وانتشرت، وصاروا يتفاخرون بها، فجعل الله أعظم آياته عليه الصلاة والسلام في هذا القرآن الكريم الذي لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، بل ولا الجن قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم بعد هذه البينات الواضحات التي أتت قال الله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة:٣٢].

قوله: ﴿مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ أي: بعد إتيانهم الرسل بالآيات البينات الواضحات يكون كثير منهم مسرفين في الأرض، وإعراب ﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾: خبر إن، واللام هنا لم تمنع عمل ما بعدها فيما قبلها يعني: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق بـ ﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾؛ لأن اللام هنا مزحلقة، والأصل: أن تقع قبل إن، لكنه كره العرب أن يجتمع مؤكدان في محل واحد فزحلقوا -كما يقولون- اللام حتى وضعوها في الخبر، والإسراف هو: تجاوز الحد بتعدي حدود الله عز وجل وانتهاك حرماته، وعدم المبالاة في تكذيب الرسل وقتلهم.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها: إثبات العلة للأحكام الشرعية في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ﴾، وهذه من أقوى صيغ التعليل، وإثبات العلة، وهي الحكمة لا شك في أنها من كمال الله عز وجل أن الله لا يشرع شيئًا إلا لحكمة ولايقدِّر شيئًا إلا لحكمة، وأما ما يقال: إنه لا يجوز إثبات الحكمة لله، وأن الله يفعل لمجرد المشيئة ويشرع لمجرد المشيئة، فإن هذا قول باطل من نحو ألف وجه كما ذكره بعض العلماء، ثم إنه تَنَقُّص لله عز وجل أن تكون أفعاله وأحكامه الشرعية مبنية على غير حكمة، وقد عبر الله تعالى في آيات متعددة: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ

وقيل: المعنى كأنما قتل الناس جميعًا؛ لأنه إذا قتل نفسًا قُتل بها ولو قتل عشرًا قتل بهم، ولو قتل الناس جميعًا قُتل بهم بمعنى: أنه لن يخرج عن القتل ولو قتل الناس جميعًا أو قتل بعضهم، فيكون المعنى: أن عقوبة القاتل في القصاص لا فرق فيها بين أن يقتل واحدًا أو يقتل جميع الناس.

وقيل: إن من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا هذا في المؤمن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ [النساء:٩٣]، ولا أعظم من هذا الجزاء لو قتل نفسًا فكذلك لو قتل الناس جميعًا فكذلك هذا أعظم جزاء ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

لكن المعنى الأول هو أظهر المعاني: أن من قتل نفسًا عمدًا بغير نفس وإفساد في الأرض فكأنما يقتلها مستحلًا للقتل، ثم إذا استحل القتل بنفس واحدة فكأنما استحله في جميع الناس.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: من أنقذها من الموت، وليس المعنى أنه نفخ فيها الروح؛ لأن ذلك لا يكون إلا لله عز وجل، لكن المراد: من أنقذها من القتل، وهذا يشمل أشياء:

أولًا: لو همَّ الإنسان بقتل شخص وطوَّعت له نفسه قتل أخيه، ثم استيقظ ورأى أن هذا حرام، ثم كفَّ عن هذا الأمر يكون هذا أحيا النفس بعد أن طوَّعت له نفسه قتله فتراجع.

ثانيًا: الدفع دفع الصائل الذي يريد أن يقتل شخصًا فيدفع فيكون هنا أحيا نفسًا أنقذها من القتل.

ثالثًا: مثل كأن يكون شخص في هلكة أو غرق أو هدم فيأتي شخص آخر فينقذه، فهذا أحيا نفسًا يكون كالذي أحيا الناس جميعًا، في الثواب الذي يُثاب عليه أو في حسن نيته في إنقاذ هذه النفس المعصومة فيكون كأنما أنقذ الناس جميعًا؛ لأن طويته الحسنة، ونيته نية الرحمة فإذا رحم واحدًا من الخلق كأنما رحم الناس جميعًا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ و خصَّ الله عز وجل بني إسرائيل؛ لأنهم أكثر الناس قتلًا للأنبياء، و خصهم بذلك أيضًا؛ لكثرة العدوان فيهم فإذا قال قائل: فهل كثرة الإحياء موجودة فيهم؟

قلنا: لا، لكن؛ لأنه قد يذكر الشيء مع مقابله لتمام التفصيل.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ الجملة هنا مؤكدة باللام، وقد، والقسم المقدر، وهذه الصيغة لها أمثلة كثيرة في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ أي: الذين أرسلهم الله عز وجل، فأضاف الرسل إليه؛ لأنه الذي أرسلهم وربما نقول: تشريفًا لهم؛ لأن الرسول يشرف بشرف مرسله، فالله سبحانه وتعالى شرَّفهم

وقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ هذا القيد على الحكم السابق؛ لأن القتل قد يكون بحق، وقد يكون بغير حق؛ فالقتل قد يكون بالقصاص فيكون قتل بحق، والقصاص ليس على إطلاقه بمعنى: أننا نقتل نفسًا بنفس، بل لابد من شروط لمن يريد القصاص منها: ألا يكون القاتل أعلى من المقتول في الدِّين والرق والملك، وهذا الشرط لابد منه، فلا يكون القاتل أعلى من المقتول في هذه الأمور الثلاثة: الدين والحرية والملك، فإن كان أعلى منه فإنه لا يُقتص منه، مثاله: كافر قتله مسلم هذا لا نسميه قصاصًا؛ لأنه أعلى منه، وقد ثبت عن النبي ﷺ قصاصًا: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[1]، ومثال الحرية والرق: أن يقتل شخص حر رجلًا آخر رقيقًا هذا أيضاً لا يقتل؛ لأن هذا حر، وهذا عبد، فالقاتل أعلى فلا يقتل به[2].

ومثال الملك: أن يكون للمكاتَب عبد مملوك اشتراه ليتجر به، ثم قتله فهنا كلاهما عبد؛ لأن المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم، فهل يقتل هذا المكاتب بهذا الرقيق؟

الجواب: لا، لأن كليهما عبد، لكن هذا مالك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الله تبارك وتعالى أطلق الفساد، والمراد بالفساد هنا: الفساد الذي تعم مفسدته لا الفساد الخاص، فلو أن شخصًا أحرق بستان آخر فهذا فساد، لكنه لا يقتل بذلك ؛لأنه المراد بالفساد :الفساد العام، ومثاله: قُطَّاع الطرق الذين يعرضون للناس على الشوارع وعلى الطرق ويغصبون منهم المال مجاهدة و بقوة السلاح، هؤلاء لا شك أنهم مفسدون في الأرض، ومن ذلك عند كثير من العلماء: شارب الخمر إذا جُلد ثم شرب ثم جلد ثم شرب ثم جلد ولم ينته يقتل، ومن ذلك اللصوص الصائدون.

المهم: أن الفساد العام يقتل صاحبه؛ لأنه أفسد في الأرض .

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ كأن هنا للتشبيه، و ما وجه الشبه؟

قيل: إن هذا للمستحل قتل النفس بغير نفس، والمستحل لقتل نفس محرمة كأنما قتل جميع الناس؛ لأن المراد الجنس، كما قلنا في الذي يكذب رسولًا هو مكذب لجميع الرسل، فهذا الذي قتل فلانًا لاستحلاله قتله وهو معصوم يكون كالذي قتل الناس جميعًا؛ إذ إنه استحل أصل جنس النفس المعصومة، فيكون كقاتل الناس جميعًا .

وقيل: إن المعنى مَنْ قتل نفسًا ممن يكون في قتله فتنة كقتل السلطان، وما أشبه ذلك؛ لأنه إذا قتل السلطان صارت الفتنة وصار الناس يقتل بعضهم بعضًا ويكون هذا قتل نفسًا كأنما قتل الناس جميعًا.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٢)، والنسائي (٤٧٤٤)، وابن ماجه (٢٦٥٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) سيأتي بعد قليل أن الشيخ رحمه الله اختار أن الحر يقتل بعبده، وبعبد غيره كذلك.

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ومسألة منزلة بين المنزلتين هذه بدعة، نقول: الخوارج أشجع من المعتزلة؛ لأنهم صرحوا بما يقتضيه الدليل - على زعمهم -، وصرحوا بأنه كافر وأما المعتزلة فأتوا بهذه الحيلة أنه لا يكفر، لكنه في منزلة بين المنزلتين، وكلا القولين خطأ.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إظهار الندم الشديد من هذا الذي قتل أخاه لقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾، وأصل ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ ياويلتي، وهي كلمة تحسُّر، ونأخذ من هذه الفائدة فائدة أخرى وهي: أن فاعل المعصية إذا لم يتب منها فإنه يُجازى بالخسران والندم وضيق النفس.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إقرار هذا الإنسان القاتل بما اقتضته الحاجة مع ما في ذلك من لومه وقدحه، كقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾

٩- ومن فوائد هذه الآية: أن هذا القاتل أصبح من النادمين على قتل أخيه، وعلى عجزه أن يكون عارفًا كيف يواري سوأة أخيه فجمع ندمه للأمرين جميعًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿مِنْ﴾ هنا للتعليل، و﴿أَجْلِ﴾ بمعنى: سبب، أي: من سبب ذلك.

وقوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: الكتابة الشرعية على بني إسرائيل، وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق.

وقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، والمشار إليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَتَبْنَا﴾ أي: لما جرى من قصة ابني آدم؛ وذلك لأن ابن آدم الذي قتل أخاه كان أول من سن القتل في البشرية، وكان عليه لكل نفس تُقتل بغير حق كفل من وزره، ويكون قتله لهذه النفس كأنما قتل الناس جميعًا؛ لأن وزر كل نفس مقتولة بغير حق يكون عليه منها.

هل الميزة لشيء معين يقتضي التمييز المطلق؟

الجواب: لا؛ لأن القاعدة تقول: إذا امتاز أحد بشيء فإنه لا يقتضي التمييز المطلق عليه، ومن ذلك ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام: «أَنَّـه يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَيَّامٌ الصَّبْرُ لِلعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنَ الصَّحَابَةِ»[1]، فهل يقال: إن هؤلاء الذين يكونون في هذه الأيام أفضل من الصحابة على سبيل الإطلاق؟ لا، كذلك نجد أن الرسول ﷺ يفضل بعض الصحابة على بعض في قضية معينة فلا يلزم من ذلك التفضيل المطلق كقوله ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[2]، فأعطاها علي بن أبي طالب وهذا لايقتضي أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر وأمثال هذا كثير، فيجب أن نعرف الفرق بين الفضل المطلق والفضل المعين.

فهل نقول: إن الغربان أفضل من بني آدم؟ لا، وإن كان للغربان فضل في حيثية مواراة الأموات، لكن هذا لا يقتضي التفضيل.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى ييسر للإنسان إذا ضاقت به الأرض ما لم يطرأ له على بال، فإن هذا الرجل ضاقت عليه الأرض فماذا يصنع بأخيه الذي قتله؟ ففرَّج الله عنه ببعث الغراب.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الواجب في الدفن ما تواري به السوأة أي: يغطى به الجسم، لكن العلماء - رحمهم الله - زادوا شرطًا لابد منه وهو أن يكون الدفن مواريًا للسوأة ومانعًا للسباع والرائحة أي: أن يمنع السباع أن تدخل إلى القبر، ويمنع الرائحة ألا تخرج من القبر، فلو أن إنسانًا حفر حفرة يسيرة ثم وارى عليه التراب، لكنه يسهل على السباع فتحه ويخرج رائحته منها بسهولة، فإن هذا لا يجوز بل لابد من تعميق القبر على وجه يمنع السباع والرائحة، وكلما كان أعمق في الأرض فهو أحسن.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن بدن الميت كله عورة؛ لأن القبر يواري البدن كله.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القتل العمد لا يُخرج من الإيمان؛ لقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، ولقوله في هذه الآية: ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾، وهذا هو الحق أن القتل العمد لايخرج من الإيمان خلافًا لطائفتين مبتدعتين زائغتين وهما: الخوارج والمعتزلة، فالمعتزلة قالوا: إن القاتل عمدًا يخرج من الإيمان، لكن لا يدخل في الكفر، بل هو في منزلة بين المنزلتين هذا حكمه في الدنيا، أما في الآخرة فإنه مخلد في النار.

أما الخوارج فقالوا: إنه يكفر؛ لأنه ليس هناك إلا كافر ومؤمن كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

---

(١) صحيح: انظر السلسلة الصحيحة (٤٩٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٧)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وقوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ أي: ليجعله يرى بعينه، ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ أي: كيف يغطي ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: عورته؛ لأن الميت كله عورة؛ ولهذا أمر النبي ﷺ أَنْ يُكَفَّن الـمَيِّتُ كله ولا يظهر منهُ شيء إلا من كان مُحرِمًا من الرجالِ فَإِنَّهُ يَجِب أَنْ يُكْشَفَ رَأْسُهُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ(١)»(٢).

قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ الويل هو: الثبور والتعب والإعياء، ويقال في كل حالٍ يقع فيها الندم، وأصل ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ يا ويلي، لكن قلبت الياء ألفًا من أجل النفس عند الصياح، كأنه يقول: يا ويلتى اصبري فإني نادم.

وقوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ يعني: كيف أعجز أن أكون مثل هذا الغراب؛ لأن بني آدم أفهم من الحيوانات، وهذا فرق؛ لأنه عجز أن يساوي أو يماثل الغراب.

وقوله: ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قوله: فأواري منصوبة هنا؛ لأنها جواب الاستفهام لـ ﴿أَعَجَزْتُ﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية عدة فوائد منها: أن أفعال الحيوان غير الإنسان مخلوقة لله وبإرادته؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾، فهل أفعال البشر مخلوقة لله وهي بإرادته؟

الجواب: نعم، أفعالنا لله وبإرادة الله عز وجل، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة؛ خلافًا للقدرية والمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ولكن مع ذلك نقول: إن فعل الإنسان يقع باختياره وإرادته فللإنسان اختيار وإرادة؛ خلافًا للجبرية الذين قالوا: إن الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار.

فأهل السنة والجماعة - ولله الحمد - وفقهم الله عز وجل في الأخذ بالنصوص من جميع الجوانب وأما المعتزلة أخذوا بنصوص والجبرية أخذوا بنصوصٍ، فصاروا ينظرون إلى النصوص نظر الأعور الذي ينظر بعين واحدة، أما أهل السنة - والحمد لله جعلني الله وإياكم منهم - فإنهم ينظرون إلى النصوص بالعينين جميعًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الحيوانات قد تكون مرشدة للبشر، فهنا في هذه القصة الغراب أرشد ابن آدم إلى أن يحفر لأخيه ويدفنه، وصار ذلك سنة البشر إلى يومنا هذا إلا من ضل عن الصراط المستقيم كالذين يحرقون موتاهم ويرمونهم في اليم، وماأشبه ذلك، ولكن

(١) لا تضعوا له خماراً وهو غطاء الرأس.
(٢) رواه البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (١٢٠٦) من حديث ابن عباس ﷺ.

والسنة قد يراد به الكفر الأصغر، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ[1] فُسُوقٌ[2] وَقِتَالُهُ كُفْرٌ[3]»[4].

٣- وفي الآية الكريمة: أن القتال لم يخرج الطائفتين المقتتلتين من أخوة الإيمان، وهذا دليل على أن القاتل لا يكفر، وبه يُعرف الرد على أن كل كفر أطلقه الله، فالأصل فيه الكفر المخرج عن الملة إلا بدليل، والحقيقة: أن الأمر بالعكس أن كل كفر أطلقه الله فهو كفر دون كفر إلا بدليل يدل على أنه كفر أكبر.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذا الرجل الذي قتل أخاه وظن أنه ربح الميدان؛ بحيث إذا لم يكن له خصم صار من الخاسرين.

٥- **ويستفاد منها:** أن كل إنسان حسد أخاه وحاول أن يحول بينه وبين التوفيق، فإن الخسارة ستعود على الحاسد.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ﴾ يعني: أرسل، والغراب هو الطائر المعروف ولو قيل: لما اختاره الله عز وجل من سائر الطيور؟ لقلنا: إن مثل هذه المسائل لا يمكن تعليلها ولا يمكن الإلمام بها.

وقوله: ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر المفسرون أن غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فبحث القاتل في الأرض ثم دفن الغراب، ولكن ظاهر الآية خلاف ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾، ولم يقل غرابين، والظاهر أن الغراب إنها أرى هذا كيف يبحث في الأرض من أجل أن يدفن أخاه، وكأن هذا القاتل لقوة ما وقع في نفسه كأنه ذهب عنه الأمر، فبعث الله الغراب ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يحرثها حتى يري هذا القاتل ماذا يصنع في أخيه.

(١) شتمه والتكلم في عرضه بما يعيبه ويؤذيه.
(٢) فجور وخروج عن الحق.
(٣) أي إن استحله. والمراد: إثبات ضرر المعصية مع وجود الإيمان.
(٤) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

أما القاتل إذا تاب يتوب الله عليه حتى في حق المقتول فلا يعاقب على القتل؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، وأما إذا مات غير تائب فحق المقتول لابد أن يُؤخذ منه، وحق الله داخل في مشيئته، فالقاتل غير مأمونٍ له أن ينجو من النار، بل هو تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء لم يغفر له، فهذا في الجزاء الأخروي، أما الدنيوي وهي الديَّة فلابد من استيفائها لورثة المقتول سواء تاب أم لم يتب.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الظلم من أسباب دخول النار، سواء كان الظلم في حق الله أو في حق المخلوق؛ لقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويحتمل أن يقال: الظالمين هنا عام أريدَ به الخاص، وهو من ظلم مثل هذا الظلم وهو قتل النفس؛ لأن الظالم قد لا يستحق دخول النار، ولكن الأول أصح؛ لعموم الآية ولأن كل ظالم جزاؤه دخول النار إلا أن يعفو الله عنه كما في آية الشرك.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ﴾ أي: سهلت له أن يقتل أخاه مع أن أخاه وعظه هذه الموعظة، لكن - والعياذ بالله - لم تنفعه فطوعت له نفسه أي: للقاتل، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾؛ لأن نفسه سهلت عليه القتل، ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: فصار من الخاسرين؛ لأن الأصل في معنى الإصباح أن يكون في أول النهار، لكن قد يعبر بالإصباح على مجرد الصيرورة مثلما تقول: فلان أصبح حزينًا على هذه المصيبة، وربما تكون أصابته في وسط النهار.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: الحذر من النفس الأمَّارة بالسوء؛ لأنها قد تُطوع للإنسان أقبح المعاصي فيجب على الإنسان أن يكون حازمًا بالنسبة لنفسه ويقظًا فلا يطاوعها في معصية الله.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن قتل النفس لا يُخرج من الإيمان لقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾، فالله تعالى وصفه بالأخوة بعد أن بيّن أنه قتله، وإلا قد يقول قائل: إنه قبل أن يقتله لا يترتب عليه إثم القاتل، وما سولته نفسه له فتبقى الأخوة، لكن الله تعالى ذكر الأخوة بعد أن تم القتل، ودليلٌ على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة:١٧٨].

إذنْ قتال المؤمن لا يوجب الكفر فلا يخرجه من الإيمان والأخوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠]، وبهذا التقرير نعرف أن الكفر في الكتاب

خلق البشر أن للعبد إرادة، فيكون في هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة وإنما يفعل الشيء قهرًا وجبرًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من أُريد قتله ولم يدافع؛ خوفًا من الإثم فإنه لا حرج عليه، ولكن كيف يكون الخوف من الإثم؟ نقول: لأنه ربما يقتل الصائم فيتعجل؛ لأن الواجب من الصائم أن يدافع مدافعة الأخ ضد الأخ، فإن رجع عن قوله بالتهديد لم يضرب، وإن رجع بالضرب اليسير لم يضرب كثيرًا، وإن رجع بالضرب الكثير لم يقتل، وإن لم يندفع إلا بالقتل، فالحكم أنه يقتل إلا أن العلماء رحمهم الله قالوا: ما لم يخف أن يبادره بالقتل، فإن خاف أن يبادره بالقتل فلا بأس أن يقتله لأول ضربه يعني: مثل لو كان هذا الصائم معه سلاح أشهره على صاحبه، وصاحبه يخاف أن يطلقه عليه فيقتله؛ فحينئذ لاحرج أن تبادره بالقتل؛ لأن هذا ربما لا يعطيك فرصة؛ لأن تدفعه بيدك مثلاً أو تطيح به أو ما أشبه ذلك، وحينئذ لا بأس أن تبادره بالقتل.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القتل سبب لدخول النار؛ لقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وهل هو مخلد فيها أبدًا؟

نقول: اختلفت الأمة في ذلك فمنهم من قال: أنه مخلد فيها أبدًا وهم الخوارج والمعتزلة، لكن الفرق بينهما أن الخوارج كفَّروه، وأما المعتزلة فلم يكفِّروه بل قالوا: إنه في منزلة بين منزلتين، والذي عليه أهل السنة والجماعة أنه يدخل النار ولا يخلد فيها.

ولكن هل يدخل النار قطعًا أو هو داخل في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؟ المشهور من مذهب أهل السنة: أنه داخل تحت المشيئة فإن تاب القاتل توبة نصوحًا[1] فإنه يدخل في ذلك، بمعنى أن الله لايعاقبه على حق المقتول؛ لعموم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ -٧٠]، ومعنى الآية:أنه إذا تاب توبة نصوحًا فإن الله تعالى يتحمل عنه ولا يعذبه وهذا في غير الحق المالي؛ لأنه حق للآدمي؛ ولهذا صرح الفقهاء رحمهم الله: أن قاطع الطريق إذا تاب قُبلت توبته ورُفع عنه الحد، لكن لا يسقط عنه ما كان حقًّا للآدمي من أمور الدنيا.

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤١/ ٣٠ و ٣١).

الصحابة أن يدافعوا عنه فأبى؛ لأنهم لو دافعوا واشتبكوا مع هؤلاء الخوارج حصل إراقة دماء كثيرة، وهذا هو الأصح أن يقال: إن الإنسان يجب عليه أن يدافع عن نفسه بقدر ما يستطيع ولو أدَّى ذلك إلى قتل صاحبه فلا إثم عليه؛ إذ إنه لم يندفع إلا بالقتل، أما في حال الفتنة الذي يترتب على المدافعة بالقتل ما هو أكثر ضررًا فيجب الاستسلام درءًا للمفسدة.

٢- وفي هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها: أن الإنسان ينبغي له إذا امتنع عن شيء محرَّم أن يبين لصاحبه أنه ما امتنع عن عجز أو خوف، ولكن يبين له المعنى الذي من أجله امتنع كما في قوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ونظير هذا أن النبي ﷺ قال في الصائم: «إِذَا امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ»[1] أي: يبين له أنه لم يقاتله عجزًا ولا ضعفًا ولكن لأجل الصيام الذي يُنْهى فيه الإنسان عن المقاتلة أثناءه؛ لأن الخوف من الله من أقوى الأسباب الرادعة عن معصيته؛ لقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولا شك في أن الخوف من الله هو أقوى رادع عن مخالفته، كما أن الرجاء من أقوى الأسباب الموجبة لطاعته والرغبة فيما عنده.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات عموم ربوبية الله عز وجل لقوله: ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ فيها قراءتان: (إِنِّيَ أُرِيدُ) والقراءة التي معنا: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾، والإرادة: هي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، لكن المعنى هنا: أن ترجع بإثمي وإثمك، أما الرجوع بإثمه فواضح، لكن كيف يرجع بإثم أخيه؟ نقول: عدم قتال أخيه له سلامة من الإثم، فكأن أخاه القاتل حمل إثمه بسبب سلامته من قتله، فيكون المراد بالإثم أي: الذي يمكن أن يكون على المقتول فيبوء به القاتل، وليس المعنى أن القاتل يكون عليه إثمان: إثم للمقتول لو قتله، وإثم لقتله إياه، فالظاهر أن المعنى: ﴿أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: أن سلامته من الإثم كأن الآخر تحمله عنه وَبَاءَ به.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «فتكون» معطوفة على «أن تبوء» أي: فتكون من أصحاب النار؛ لأنك قتلت نفسًا بغير حق ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: كونك من أصحاب النار هذا ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الحق حق الآدمي، ثم إن كان ظلمه عظيمًا فإنه يكون من أصحاب النار ويخلد فيها.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ إثبات الإرادة للعبد وأن هذا معلوم منذ

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٥)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الترغيب في التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ليس حرج على الإنسان أن يُخبر عن نفسه بوصف محمود إذا لم يقصد الفخر، وإنما لقصد قول هذا الذي تُقُبِّل منه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فإن هذه الجملة تصلح لأن يكون القائل بها مفتخِرًا بنفسه، وتصلح لأن يكون القائل بها يريد أن يرغب للتقوى وأيها أقرب بالنسبة لهذا المقام؟ الثاني أقرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ بسطتها أي: مددتها مدًّا تصلَ به إليَّ، ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾ اللام للتعليل أي: لأجل أن تقتلني ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، والمعنى: أنني لا أقتلك وهو صريح في هذا، ولكن هل هذا يتضمن ألا أُدافع عن نفسي، فيكون المراد: ما أنا بمدافع عن نفسي، بل سأستسلم ؟ لا المعنى: ما أنا بقاصد قتلك.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقالها عندما قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾؛ حتى لا يتوهم أخوه أنه عاجز عن ذلك، فبيَّن أنه ليس بعاجز وإنما يخاف الله رب العالمين، أي: خالقي ومالكي ومدبر أموري.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كل ما سوى الله فهو: عَالَم، وإنما سُمُّوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم، ففي المخلوقات كلها آية تدل على وحدانية الله عز وجل كما لملكه وسلطانه وغير ذلك مما تقتضيه الربوبية .

الفوائد:

١- في هذه الآية: أن الرجل الذي هُدِّد بالقتل امتنع عن قتل صاحبه، فهل يؤخذ منه أنه ينبغي إن أراد إنسان أن يقتلك أن تستسلم؟ إذا قلنا أنه يحتمل فيكون قوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي: سأستسلم، لكن المعنى بالمدافعة أي: سأدافع لكن مدافعة لا تصل إلى حد القتل، و على كل حال: سواء كان الاحتمال الأول هو المراد، فإن شريعتنا وردت بخلاف ذلك؛ لأن النبي ﷺ أمر من أراده على نفسه أن يقاتله، ومن أراده على ماله أن يقاتله ومن أراده على أهله أن يقاتله، وبيَّن أن المقاتل المدافع إذا قُتِل فهو شهيد[1] وأن الآخر الصائل إذا قتل فهو في النار؛ لأنه أراد قتل صاحبه.

ولكن العلماء رحمهم الله بينوا أن هذا بالنسبة للشريعة الإسلامية يختلف باختلاف المصلحة؛ ففي حال الفتنة ينبغي الاستسلام، وفي حال الأمن تجب المدافعة، وهذا هو الصحيح؛ لأنه في حال الفتنة ربما يترتب على القتل بالمدافعة إراقة دماء كثيرة؛ ولهذا استسلم عثمان رضي الله عنه للقتَلَةِ وطَلَبَ

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٤٨)، ومسلم (١٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

الفرق كما بين السماء والأرض، إما في رد عمل الثاني، وإما في زيادة ثواب الأول، وإن لم يُحرم الثاني من الثواب، وفي هذه القصة أن الثاني حُرم من الثواب، المهم: أنه قد يعمل الرجلان عملًا واحدًا - فيما يظهر - ولكن يكون بينهما من الثواب كما بين السماء والأرض.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى له الحُكم في القبول والرد فيتقبل أو لايتقبل، ولكن من المعلوم: أن الله تعالى جعل للقبول ميزانًا وجعل للرد ميزانًا، فمتى كانت العبادة خالصة لله موافقة لشريعته فهي مقبولة، ومتى كان العمل ليس على الوجه الشرعي فإنه غير مقبول كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فمن وفِّق للدعاء فليبشر بالإجابة، ومن وفِّق للعمل فليبشر بالثواب ولولا هذا الرجاء من الإنسان في الله عز وجل ما نشط في العمل.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن التقوى سبب لقبول العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، لكن هل المراد تقبل الأعمال فقط أو تقبل الآمال والدعاء؟ العموم، وذلك لأنه من كان اتقى لله كان أقرب لإجابة دعائه و قبول عمله.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن غير المتقي لا يقبل منه، لكن هل المراد لا يُقْبل منه في المخالفة أو العموم؟ نقول: أما في نفس العبادة التي وقعت فيها المخالفة فلا شك أنها لا تقبل؛ لأن الله لا يقبل عملًا مبنيًّا على معصية، فلا يقبله فلو غصب شيئًا وتصدَّق به فإنه لا يُقبل منه؛ لأن المعصية وقعت في نفس ما عمله الإنسان لربه عز وجل، ولو صلى الإنسان صلاة لا تجوز، كأن تكون في وقت النهي فإنها لا تُقبل؛ لأن صلاته إياها في هذا الوقت معصية، فكيف يتقرب إلى الله بمعصية؟!

أما إذا كانت التقوى مختلة فقد يُحرم الإنسان الإجابة بسبب عمله السيء، وقد يُجاب ويتقبل منه العمل الصالح ثم تكون المواجهة في الآخرة أيهما يرجح الحسنات أو السيئات؟

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله موصوف بصفات الأفعال؛ لقوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾، ولقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة أن الله عز و جل موصوف بصفات الأفعال[1]: كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والكلام وغير ذلك، لكن اعلم أنها صفات أزلية، والذي يحدث هو المفعولات، والفعل المقارن للمفعول، وأما أصل الفعل فهو صفة أزلية؛ لأن الله عز وجل لم يزل ولا يزال له كل صفات الكمال في أفعاله لكن مفعولاته هى المحدثة و غير معلومة لنا إلا ما علمنا الله إياها.

---

(١) انظر «إتحاف الجماعة» (٣/ ٣١٩)، و«معارج القبول» (١/ ١٢٩).

قال الله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]

التفسير

قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ أي: فرضنا، والكتابة نوعان: كتابة شرعية، وكتابة كونية قدرية فما تعلق بالأمر والنهي الذي يفعله المكلَّف فهي كتابة شرعية، وما تعلق بالخلق والتقدير فهي كتابة قدرية.

فمن الأول هذه الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٤].

وقال في الكتابة القدرية: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١]

وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] والأمثلة كثيرة.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي: في التوراة، والنص على التوراة يتضمن توفيق هؤلاء اليهود الذين يقولون: إنهم يقبلون التوراة لكنهم لا يطبقونها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥].

وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني: أن من قَتَل نفسًا قُتِل بها، وكلمة (نفس) لفظ عام في الموضعين: القاتل والمقتول، فلننظر هل شريعتنا على هذا أو تختلف؟

الأصل أنها على هذا، والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ[1] مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي[2] وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ[3]، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ[4] لِلْجَمَاعَةِ»[5]، هذا لفظ الحديث، وهذا لفظ الآية التي حكاها الله عز وجل عن التوراة أن النفس بالنفس؛ إذنْ فالأصل أن من قَتَل نفسًا قُتِل بها.

فلننظر : شاب مسلم قتل طفلًا مسلمًا يُقتَل به أو لا؟ نعم يُقتل به نفسًا بنفس.

ولو قتل رجل امرأة، يُقتل بها.

---

(١) لا يباح قتله.

(٢) الثيب: من سبق له زواج ذكرا أم أنثى فيباح دمه إذا زنى.

(٣) تُزْهَقُ نفس القاتل عمدًا بغير حق بمقابلة النفس التي أزهقها.

(٤) التارك: المبتعد وهو المرتد.

(٥) رواه البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ولو قتل عاقل مجنونًا، يقتل به، وكذلك لو قتل كافر مسلمًا، يقتل به؛ لأن الآية التي معنا تقتضي أن يقتل به والحديث كذلك.

ولو والد قتل ولده، يقتل به، والعكس.

ولو حر قتل عبدًا، يُقتل به.

ولو قتل سيد مملوكًا، يُقتل به.

فالأصل: أن تقتل النفس بالنفس، فهل هذا العموم خُصِّص؟ نقول: نعم خُصِّص، فإذا لم يثبت التخصيص في مسألة ما فالأصل العموم.

فلننظر مثلًا الكافر يقتل بالمسلم، كافر قتل مسلمًا يقتل به، أما مسلم قتل كافرًا فلا يقتل به ما الذي أخرجه من العموم؟

أخرجه من العموم ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[1]، والتعليل: أن المسلم طاهر عبدٌ لله حقيقة، والكافر نجس متمرد مستكذب، والمسلم من أولياء الله، والكافر من أعداء الله، فكيف يكون هذا نِدًّا لهذا أو بدلًا عنه، فإذنْ عندنا منقول ومعقول في أن المسلم لا يقتل بالكافر.

هل يقتل الرجل بالأنثى؟ نعم يقتل، لأن الآية عامة فيقتل الرجل بالأنثى.

فإذا قال إنسان: الرجل أشرف من المرأة، وبه يقوم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والأحكام وهم القضاة والولاة «لَنْ يُفْلِحَ[2] قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً[3]»[4]، كيف تكون المرأة كفئًا للرجل فيقتل بها؟

نقول: عندنا عموم وعندنا أيضًا دليل خاص وهو: «أَنَّ جَارِيَةً مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ عَلَيْهَا أَوْضَاحٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَقَتَلَهَا يَهُودِي فَرَضَّ رَأْسَهَا بَيْنَ حَجَرَيْنِ وَأُدْرِكَتْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ فَقِيلَ لَهَا: مَنْ فَعَلَ بِكِ هَذَا؟ فُلَانٌ فُلَانٌ حَتَّى لَقُوا اليَهُودِيَّ فَأَشَارَتْ أَنَّهُ يَعْنِي: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا فَأَخَذُوا اليَهُودِيَّ فَاعْتَرَفَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالعَدْلِ فَرُضَّ[5] رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ قَصَاصًا»[6]، فهنا قُتِل رجل بامرأة.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٢)، والنسائي (٤٧٤٤)، وابن ماجه (٢٦٥٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) لا يظفرون بالخير ولا يبلغون ما فيه النفع لأمتهم.

(٣) جعلوا لها ولاية عامة من رئاسة أو وزارة أو إدارة أو قضاء.

(٤) رواه البخاري (٤١٦٣)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤١٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٥) أي: دق.

(٦) رواه البخاري (٢٢٨٢)، وأحمد في «مسنده» (١٣٠٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

فإذا قال قائل: الرجل ناقص عن هذه المرأة بالدين فنقصه جعله يكون مكافئًا لها؟

قلنا: هذا لا أثر له؛ لأن بالدين إذا كان القاتل هو الأدنى لا يؤثر شيئًا؛ إذ إن المسلم إذا قتله الكافر قُتل الكافر.

مسألة: هل إذا قتل عاقل مجنونًا يقتل به، مع أنه أراح الناس منه؟

الجواب: نعم، يُقتل للعموم.

إذا قتل والد ولده يُقتل حتى يوجد دليل، طلبنا دليلًا ما وجدنا دليلًا صحيحًا وحديث «لَا يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ»[1] ليس له إسناد مستقيم، والتعليل بأن الوالد لا يقتل بالولد؛ لأن الوالد سببًا لوجود الولد فلا ينبغي للولد أن يكون سببًا في إعدامه، فهذا التعليل عليل بل هو تعليل ميت، لأنه من كان السبب في إعدامه؟ الوالد هو الذي قتل؛ ولهذا لو قيل: إن قتل الوالد بالولد أولى من قتل الأجنبي بأجنبي؛ لأن قتل الوالد لولده ارتكاب شيء منهي عنه بخصوصه في القرآن ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾ [الأنعام:١٥١]. ثانيًا: قتل الوالد لولده من أكبر قطيعة للرحم وهذه جناية.

ومع ذلك نقول: لا قصاص فإذا تبين أن المخصص لا يصح نقلًا ولا يصح عقلًا وجب أن يكون الحكم عامًّا حتى في قتل الوالد لولده.

وولد قتل والده يُقتل ولا إشكال؛ لأن قتله لوالده من أكبر العقوق فلا ينبغي أن يسامح فيه ويقتل.

ولو قتل مملوك سيده يُقتل به أو لا؟ يقتل به.

وسيد قتل عبده، يقتل به؛ لعموم النفس بالنفس، ولأنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ «مَنْ قَتَلَ عَبْدَه قَتَلْنَاهُ»[2].

وإذا قتل الحر عبد غيره، قُتل به؛ لأنه إذا قُتل بعبده الذي هو يملكه فقتله بعبد غيره من باب أولى.

إذنْ لم يصح الآن في تخصيص هذه الآية إلا أنه لا يقتل مسلم بكافر والباقي على عمومه، ومن ادعى إخراج شيء من هذا العموم قلنا: ائتنا بالدليل الذي يقنع، وحينئذ نقول: آمنا بالله، والشريعة يكمِّل بعضها بعضًا، فما عمم فيها في مكان وخص في مكان أخذنا به.

مسألة: هل يقتل الصغير بالكبير والكبير بالصغير؟

الجواب: لو أن صغيرًا دون البلوغ قتل كبيرًا لا يقتل؛ لأنه مرفوع عنه القلم؛ ولأنه ليس له

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٦٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٢١٤).

(٢) ضعيف: رواه أبوداود (٤٥١٥)، والترمذي (١٤١٤)، والنسائي (٤٧٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٤٩).

قصد صحيح، وكذلك يقال في المجنون إذا قتل عاقلًا أنه لا يقتل.

وقوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ يعني: أنه من قلع عين شخص قلعنا عينه أي: عين بعين.

مسألة: رجل قلع عين شخصٍ ضعيف النظر، والقالع نظره قوي هل تقلع عينه؟

الجواب: نعم، تقلع عينه كما لو قتل الصحيح مريضًا فيقتل به.

مسألة: رجل سليم العين قلع عين شخص العوراء؟ لا تقلع؛ لأنها لا تبصر فهي فاقدة المنفعة ميتة.

مسألة: رجل أعور قلع عين سليم اليمنى وله - أي للأعور - يمنى تقلع أو لا تقلع؟

الجواب: العلماء مختلفون في هذا منهم من قال: تقلع عين الأعور وأخذ بالعموم ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ وهذا الرجل الأعور الذي ليس له إلا عين يمنى قلع عين رجل سليم العينين اليمنى فتقلع.

فإذا قال قائل: إنكم إذا قلعتم عينه الباقية صار أعمى.

نقول: من الذي جعله يتعدى على هذا الرجل ويقلع عينه، هو الذي جنى عليه.

وقال بعض العلماء: إنه لا تقلع عينه؛ لأن ذلك يفوت عليه منفعة فلا يوجد لها نظير في البدن وهو الإبصار، لكن بعضهم قال: الدِّية كلها.

فالأعور الآن لما قلع عين الصحيح اليمنى وهو له عين يمنى، نقول: لا نقلع عين الأعور، لكن تلزمه الدية كاملة عن عين الصحيح العينين مع أن العين نصف الدية، لكن هنا تلزمه الدية كاملة؛ لأن إفقاع عينه عوضًا عن إبصار كاملٍ بالنسبة للأعور والإبصار الكامل فيه دية كاملة، وبعضهم يقول: ليس فيها إلا نصف الدية مطلقًا.

والذي يظهر أن الصواب أحد أمرين: إما أن تقلع عينه ويقال: أنت الذي جنيت على نفسك، وإما ألا تقلع، ولكن يلزم الآخر دية كاملة فيضاعف عليه الغُرم.

ونقول: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ لابد من اتفاقهما اليمنى باليمنى واليسرى باليسرى وكذلك نقول بالنسبة للأذن اليمنى باليمنى واليسرى باليسرى.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ الأنف له قصبة من العظام وله أرنبةٌ من العظام الرقيقة فهل المراد العظام الرقيقة أم كل الأنف؟

الجواب: بعض العلماء يقول: كل الأنف إذا قص الأنف من عند الجبهة قصصنا أنفه، وبعضهم يقول: لا يمكن أن يكون أنف بأنف إلا إذا كان القطع من الجانب اللَّين من الأنف؛ لأنه هو الذي يمكن الاستنفاع منه؛ لأنه حد فاصل بيِّن ويسمى هذا مارنًا أي: مارن الأنف وهو ما لَان منه.

لكن القول الراجح الأول: أنه يقتص من الأنف من حيث كان الموضع لاسيما في وقتنا الحاضر والطب الآن متقدم ولا يمكن أن يكون فيه حيرة يعني: الذين قالوا لا يقتص من العظم قالوا: نخشى أن يكون فيه حيز يبقي العظم متشرزم ولا يكون القصاص التام نقول: الآن الحمد لله في وقتنا الحاضر الطب متقدم يمكن أن يقتص بالشعرة.

إذا قلنا: فهل المعتبر المساحة أو النسبة؟ إذا قلنا: المساحة وكان أنف المجني عليه أنفه كبير والجاني أنفه صغير، إذا قلنا بالمساحة وقطع نصف أنفه الكبير يقابل أنف الثاني بالكامل وربما زيادة أيضًا فهذه بالمساحة أو بالنسبة؟ بالنسبة إذنْ العبرة بالنسبة.

مسألة: نجد بعض الناس يكون عنده مشم يشم الروائح الطيبة والخبيثة وآخر لا فهل إذا قطع الرجل الذي يشم أنف الذي لا يشم هل نقطع أنفه أو لا؟

الجواب: يقطع؛ لأن الآية عامة ﴿وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ﴾؛ ولأن الشم ليس في نفس هذه. وكلنا يدري أن الشم بالمخ، ولهذا نجد ناسًا قطعت أنوفهم بحربة أو آفة أو غير ذلك وهم يشمون وأناس أنوفهم سليمة، ومع ذلك فهم لا يشمون؛ إذنْ الأنف الأشم وغيره سواء.

وقوله: ﴿وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ﴾ الأذن أيضًا تقطع بالأذن سواءً كانت صماء أو غير صماء؛ لأن السمع ليس في نفس الغضارف هذه، لكنه من الداخل، فإذا قطع شخص أذن آخر فإنه يقطع به.

فإذا كانت أُذُنُ المقطوع لا تتحرك وأذن القاطع تتحرك هل يقطع؟ تقطع أذن القاطع وإن تحركت وعلى كل حال يقطع، وهناك أناس يحركون آذانهم تحريكًا كبيرًا ما هو صغير، لكن أكثر الناس لا يستطيعون؛ لأن هذه الحركة غير مقصودة والفائدة منها قليلة. وإلا لقلنا: إن هذه مثل الشلاء والسليمة على أن الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قالوا: إن الشَّلاء في الأذن والأنف لا يؤثر؛ لأن الأنف والأذن الصورة ولو كان هناك شلل.

وقوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ الباء هنا لا شك أنها بدل أو عِوَض فلابد أن يكون السن المخلوع مماثلًا لسن الجاني.

فمثلًا هل تقلع الثنية بالرباعية؟ لا؛ لعدم اتفاقهما، ولأن الباء للبدل أو للعوض، فلا يمكن أن تكون الرباعية بدلًا عن الثنية أو العكس، فإذا قلع بعض السن يعني: كسر بعض السن هل يقتص منه؟ نعم يقتص منه ويقدر بالنسبة إذا كان الجاني قد بَرَد سنَّ المجني عليه حتى ذهب نصفه نبرد سن الجاني حتى يذهب نصفه.

فإذا قال الجاني: يا قوم ارأفوا بي قصوا السن بدلًا عن البرد هل نطيعه؟

لا نطيعه؛ لأنه كما آلم المجني عليه فإننا نؤلمه.

وقوله: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إذ إن المفهوم منها أن الجروح قصاص فيما يمكن الاقتصاص

منه، والفقهاء ـ رحمهم الله ـ يقولون: لا يمكن القصاص من جرح إلا من جرح ينتهي إلى عظم والجرح الذي لا ينتهي إلى عظم لا يمكن القصاص منه فمثلًا الجرح في الرأس حتى يصل إلى عظم الرأس ممكن أو لا؟ يمكن.

والجرح في الساق حتى يصل إلى عظم يمكن، وفي الفخذ كذلك، وفي الظَّهر كذلك على الأضلاع كذلك وكله في الوقت الحاضر ممكن؛ لأن الأطباء عندهم من الحرص ما يمكن أن يضمدوا الجرحى بكل دقة، وإذا كان الله عز وجل لم يبين موضع الجروح، بل قال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فنقول: متى ثبت إمكان القصاص في أي جرح وفي أي موضع فإنه واجب.

وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[1] يعني: من بذلَه عن طيب نفسٍ، ومكَّن المجنيَّ عليه أو أولياءه من أن يستوفوا حقهم؛ فهو كفارة له عن جنايته التي جناها.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ عام، كل من لم يحكم بما أنزل الله فإنه ظالم، وهنا ذكر الله وصف الظلم في هذا المقام؛ لأن المقام في مقاصة؛ دفع ظلم بعدل، وقد يكون هذا العدل ظلمًا، فإن المقتصَّ الذي قد جُنيَ عليه ربما يغار ويكون في قلبه حقد، فتعدى ما حدِّدَ له، فلهذا قال: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهل نقول: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلا يوجد أحد ظالم إلا هؤلاء بناءً على أن ضمير الفصل يفيد الحصر؟

الجواب: لا هذا حصر نسبي أي: هؤلاء هم الظالمون في عدم تطبيق ما ذكر في الآية وإلا فإن الكافرين هم الظالمون، والمفتري على الله كذبًا ظالم وهو أظلم الناس.

مسألة: وهل الظلم هنا ظلم الكُفر، أو ظلم دون ظلمٍ؟

الجواب: فيه خلاف بين العلماء؛ منهم من قال: إنه ظلم الكفر، ومنهم من قال: إنه ظلمٌ دون ظلم؛ يعني: ظلمٌ دون الكُفر، وهو مبنيٌّ على أنَّ الأوصاف الثلاثة التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ لمن لم يحكم بما أنزل الله؛ هل هي أوصافٌ لموصوف واحد، أو أوصاف لموصوفين ذوي عدد؟

فمن العلماء من قال: إنها أوصاف لموصوفٍ واحد؛ لأن كل كافر ظالم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكل كافر فاسقٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، وعلى هذا فالكافر نُسَمِّيه ظالمًا، ونُسَمِّيه فاسقًا، وكل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافرٌ مطلقًا، لكن هذا القول ضعيف.

[والصواب: أنَّ مَن لم يحكم بما أنزل الله ينقسِم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) لقد نقلنا تفسير بقية الآية من شرح صحيح البخاري للعلامة ابن عثيمين ص(٢٦٧ـ ٢٦٩) المجلد الثامن، طبعتنا؛ وذلك لتعذر سماع هذه المادة من مصادرها.

الأول: مَن استبدَلَ حكم الله بغيره؛ فهذا كافرٌ، ومن هذا: مَن يضَع القوانين الوضعيَّة للحكم بها بين الناس بدلًا عن الأحكام الشرعية؛ فهذا كافرٌ، حتى لو صلَّى وصام، فإنَّه كافرٌ؛ لأن شريعة الله لا تتبعَّض، مَن كفَرَ ببعضها وآمن ببعضها فهو كافرٌ بالجميع، قال الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

الثاني: أن يحكم بغير ما أنزل الله لا استبدالًا عن شرع الله بغيره؛ ولكن لأنَّه ظالم يُحبُّ العدوان، فيحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه صاحبُ ظلم وعدوان، يعرفُ أنَّ هذا حرام، وهو مُقتنِع أنَّه حرام، ولكن يحكم به عدوانًا وظلمًا؛ فهذا لا يكفُرُ ولكنَّه ظالم

القسم الثالث: أن يحكم بغير ما أنزل الله لا ظلمًا وحُبًّا للعداون، ولكن هوًى في نفسِهِ، كأن يتخاصمَ عنده رجلان أحدهما صديقٌ له أو قريبٌ له، فيحكم له بغير ما أنزل الله، لا محبةً للعدوان على المحكوم عليه وظلمه، ولكن محبَّة لصاحبه أو صديقه أو قريبه؛ فهذا نصِفُه بأنَّه فاسقٌ لخروجه عن حكم الله.

وليُعلَم أنَّ القسم الأول الذي قلنا: إنَّه كافرٌ مَن حكَمَ به، فلابُدَّ أن نُقيم عليه الحُجَّة، ونقول: إنَّ هذا مُخالفٌ لشريعة الله، وذلك؛ لأنَّ كثيرًا من حُكَّام المسلمين اليوم - إن لم نقُل: أكثرَهم - يجهلون بالأحكام الشرعية، ويكون عندهم بِطانةُ سوءٍ تُمَوِّهُ عليهم وتخدعُهُم، وتقول: هذا لا يُنافي الشرع، أو يقولون: إنَّ باب المُعاملات يرجِعُ إلى رأي الحاكم واجتهاده، لقول النبي ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»[1]، وما أشبه ذلك من التمويهات، فيأتي الحاكمُ الذي له السُّلْطة فيضَع هذا القانون بناءً على فتوى المُفتي الذي غرَّه.

وأنا أذكُر ذلك أنه لَمَّا بدأت الاشتراكية في الدول العربية تظهر، وهي: مبدأٌ مبنيٌّ على الظلم، وقد أفلَسَت - ولله الحمد - وأفلَسَ من قرَّرها، وانهَدَمَت إلى يوم القيامة - إن شاء الله تعالى - لَمَّا بدأت هذه الفكرة صار بعض العلماء الذين يُشارُ إليهم أنَّهم علماء، ولكنَّهم علماء دولة، وعلماء الدولة علماء سوء في الغالب؛ لأن العلماء ثلاثة:

علماء دولة، وعلماء أُمَّة، وعلماء مِلَّة، صاروا يستنتجون من الآيات الكريمة، ومن الأحاديث ما يُعزِّزون به هذا المبدأ، فيتَّبِعون ما تشابه من القرآن، يقولون: الله قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨] (أنتم فيه سواء)؛ أي: فيما رزقناكم، لا فضل لأحدكم على الآخر.

وقالوا: إنَّ النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: «النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: المَاءُ، وَالكَلَأُ،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤١/ ٢٣٦٣).

وَالنَّارُ»(١)، وأنَّه قال: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ أَرْضٍ فَلْيَزْرَعْهَا أَوْ لِيَمْنَحْهَا»(٢)، وأتوا بنصوصٍ مُتشابهة.

فقد يأتي الحاكم بناءً على ما عنده من الجهل ويُصدِّقُ هؤلاء العلماء، فيضَعُ القانون بناءً على فتوى هؤلاء العلماء، وحينئذٍ ربما يكون معذورًا، ولكن إذا بُيِّنَ له الحقُّ، وقيل: هذا تلبيسٌ من هؤلاء، وليس عندهم علمٌ، وكلُّ ما احتجُّوا به فهو حُجَّةٌ عليهم؛ لأن شيخ الإسلام - رحمةُ الله عليه - قعَّدَ قاعدةً مُفيدة؛ حيث قال: (كلُّ نصٍّ صحيحٍ يَستدلُّ به مُبطِلٌ على باطله؛ فهو حُجَّةٌ عليه، وليس له). اهـ.

وقال: أنا مُستعِدٌّ لأن أُثبِتَ هذا، ذكَرَ هذا في مُقدِّمة كتابه «العقل والنقل» الذي يُسمَّى: «دَرْءُ تعارُضِ العقل والنقل».

ووجه ما قاله - رَحِمَهُ اللَّهُ -: أنَّ الذي يستدِلُّ بنصٍّ صحيحٍ على باطلٍ لابُدَّ أن يكون في هذا النصِّ ما يُشِيرُ إلى الحكم، والحكم الذي يدُلُّ عليه النَّصُّ لا يمكِنُ أن يكون باطلًا؛ إذنْ فلابُدَّ أن يكون صحيحًا مُنقلِبًا على مَن احتجَّ به.

الخُلاصة: أنَّ الأوصاف الثلاثة التي في آية المائدة، وهي من آخر ما نزل، وليس فيها منسوخ، وسورة المائدة ليس فيها شيءٌ منسوخٌ أبدًا، وصَفَ الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بهذه الأوصاف الثلاثة، والصحيح أنَّها تتنزَّل على أحوالٍ، وليست أوصافًا لموصوفٍ واحدٍ](٣).

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن الله فرض على اليهود القصاص؛ لقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾، لكن إذا قال قائل: كيف نقول ذلك وقد فسرنا قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ بأنه المجني عليه يعفو عن الجاني نقول: نعم فرض الله عليهم القصاص أو العفو مجانًا، فهذه الأمة رخص الله لها في القصاص والعفو مجانًا وأخذ الدية والمصالحة كل هذا - والحمد لله - من سعة شريعة هذه الأمة، وقد ذكروا - أي: ذكر بعض العلماء - أن اليهود يُفرض عليهم القصاص والنصارى بالعكس العفو فرض عليهم حتى قيل: إن من أصول شريعتهم أنه من ضربك على الخد الأيمن فأدر له الخد الأيسر. ولا شك أن هذا فيه نوع من الإذلال، لكن على كل حال لا ندري عن صحة هذه المقالة شيئًا والله أعلم.

لكن يقال: إن اليهود يُفرض عليهم القصاص بخلاف النصارى والعلة واضحة؛ لأن اليهود عتاة طغاة بغاة فلا يليق بهم إلا أن يُقتل القاتل حتى يكون ذلك نكالًا.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٤٠)، ومسلم (٨٩/ ١٥٣٦).
(٣) انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن عثيمين الجزء السابع ص (٢٦٧- ٢٦٩) طبعتنا.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: قبح ما فعله بني النضير مع بني قريظة، فبني النضير يرون أنهم أشراف اليهود، ولذلك إذا قتل النضريُّ قرظيًا فإنه لا يقتل به وإذا قتل القرظيُّ نضريًا فإنه يقتل به، ـ سبحان الله ـ كلهم يهود لكن يقولون هذا الأشرف والأفضل، وإذا قتل النضري قرظيًّا فله نصف الدية إذا لم يقتص وإذا كان العكس فله الدية كاملة هكذا ذكر المفسرون في هذا الموضع.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن القصاص ثابت في النفوس ولو اختلف الناس في السن والطول والقصر والعلم والعقل والذكاء وغير ذلك، وهذا يؤخذ من العموم، ولهذا لو أن رجلًا شابًّا عالمًا كريمًا حسيبًا قتل طفلًا في المهد فإنه يُقتل به؛ لأنه لا عبرة في الاختلاف في هذه الأشياء ولذكر العموم.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جريان القصاص في الأعين؛ لقوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾.

وجريان القصاص بين الآناف؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾.

وجريان القصاص في الآذان؛ لقوله: ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾.

وجريان القصاص بالسن بين الأسنان، كم هذه الأعضاء؟ أربعة، بقي أعضاء منها اليدان والرجلان واللسان وغيرها من الأعضاء، فهل الحكم فيها كالحكم في هذه؟

الجواب: نعم الحكم فيها كالحكم في هذه بالقياس الجلي الواضح؛ وإنما ذكر الله تعالى هذه الأعضاء: العين، والأنف، والأذن، والسِّن لعلهم ـ يعني: اليهود ـ يخالفون في القصاص في هذه الأشياء فنص عليها؛ لوقوع المخالفة فيها.

أقول: لعل ولا أجزم بهذا؛ لأن الله أعلم بما أراد في كتابه.

لكن نعلم أن ما سواها من الأعضاء يكون مثلها، فمثلًا الإصبع بالإصبع يؤخذ الخنصر بالخنصر والإبهام بالإبهام وما بينهما كذلك، والقدم بالقدم، والكف بالكف، والذراع بالذراع، وهلم جرًّا.

لكن هل يشترط أن يكون القطع من مفصل أو لا يشترط؟

الجواب: في هذا خلاف بين العلماء؛ منهم من قال: لابد أن يكون القطع من مفصل وإذا لم يكن من مفصل فلا قصاص مطلقًا، يعني مثلًا: الذراع مفصله المرفق من جهة العضد والكف من جهة اليد، فإذا قطع الإنسان الذراع من النصف، يعني: الجاني قطع الذراع من النصف فالقطع الآن ليس من المفصل، فعلى قول من اشترط أن يكون القطع من المفصل لا يقطع حتى لو قال المجني عليه: اقطعوا لهذا الرجل من الكف وأنا مسامح في الزائد لا يقطع؛ لعدم توفر الشرط

حتى لو قال: اقطعوا من الكف وأعطوني أجر الزائد، نقول: لا يقطع. ولكن الصواب أن يقال: بل يقطع لوجوب القصاص، لكن بشرط أن يمكن القصاص.

وهذا القصاص هل يكون بالنسبة أو بالمساحة؟ يكون بالنسبة فقد يكون المجني عليه ذراعه طويلة ولو أخذناها بالمساحة فلابد أن نأخذ كل ذراع الجاني، ولكن إذا كان القطع من النصف فلنأخذ النصف وإذا كان من الثلث، قلنا: خذ الثلث هذا هو القول الراجح.

مسائل متفرقة:

أ- إذا قطع ذكر إنسان يقطع ذكره أو لا؟ يقطع ذكره.

ب - إذا قُدِّر أن المقطوع ذكره كان عقيمًا والقاطع سليمًا هل يقطع أو لا؟ يقطع نظيره

جـ - لو أن شخصًا قطع أذن أصمٍّ وهو يسمع - أي: القاطع - فإنه يقطع أذنه؛ لأنه نفس العضو هو العضو والعقم شيء زائل بخلاف الأشل والصحيح مثلًا لو قطع يدًا شلاء وهو سليم اليد فإنها لا تقطع؛ لفوات المنفعة في الأول وهي أمر مهم.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن جميع الجروح إذا أمكن القصاص منها فالحكم ثابت بالقصاص؛ لعموم قوله: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وكان السابقون من العلماء يقولون: إنه لا يمكن القصاص من الجروح إلا إذا انتهى الجرح إلى العظم، وهذا هو منتهى العلم في ذاك الوقت؛ لكن في وقتنا الحاضر يمكن أن يقتص من الجرح فيما دون الشعرة ،أي: في أي موضع كان، فإذا أمكن القصاص وجب القصاص وهذا هو العدل ودليلنا في هذا قوله تعالى في الآية العظيمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

مسألة: غير الجروح هل يقتص فيها كاللطمة والضرب بالعصا وما أشبه ذلك؟

الجواب: اختلف العلماء: منهم من قال: إن اللاطم لا يُلطم لكن يُؤْخذ منه الحق العام ويكون أمره إلى ولي الأمر يقدم ما يراه مانعًا من العدوان وعللوا ذلك: بأنه لا يمكن القصاص في اللطم؛ لأن ربطها بالشدة والقوة أو بالعكس صعب جدًّا، وأيضًا ربما يكون المجني عليه يده كبيرة وذلك يده صغيرة، وهذا لما ضرب المجني عليه أصابت الضربة نصف خده، والثاني يده كبيرة إذا ضربه تحيط بكل الخد فيختلف الحكم فلا يمكن القصاص، لكن بعض العلماء يقول: إن القصاص ممكن؛ لأن مثل اللطمة والضربة وما أشبه ذلك، الإنسان لا يريد أن يتشفى بما يصيبه من الألم وإنما يريد أن يتشفى بما يصيبه من الإذلال والإهانة، ولا شك أن في اللطمة إذلالًا فيقول: أنا ما همتني اللطمة غاية ما هنالك أنه تفرق الدم ثم رجع؛ لأن الدم من شدة الضربة يتفرق ثم يرجع، لكن يهمني أنه أذلني فأنا أريد أن أذله.

على كل حال: في هذه الحالة ينبغي أن يقال: إنه يرجع إلى قول القاضي، والقاضي إذا رأى إهانة

للمعتدى عليه ولو بضربة خفيفة كنوع من التشفي فليفعل.

مسألة: كذلك أيضًا بالنسبة للضرب بالعصا هل يقتص منها؟

الجواب: نقول: أما بالعصا التي ضربه بها فهذا يمكن، ولكن يبقى النظر في شدة الضربة، وأما أنه يضربه بسوط دقيق ثم يأتي بخشبة يريد أن يقتص، فهذا لا يمكن، يبقى النظر إذا ضربه بمثل ما ضربه به، فهل يمكن القصاص أو لا يمكن؟

ينبني هذا على ما سبق أنه ليس المهم أن يضربه بما يؤذيه أو ما أشبه ذلك المهم أن يذله.

يمكن أن نتعرض أيضًا لمسألة الثوب، فلو شق ثوب إنسان هل يقتص منه بشق ثوبه؟ هذه فيها خلاف أيضًا بين العلماء منهم من يقول: لا إذا شق ثوبه ضمنه إما بالمثل وإما بالقيمة إن أتلفه حتى لا يستفاد منه؛ فبالمثل إلا على المذهب، وإن شقه شقًّا يمكن الانتفاع منه مع وجوده فإنه يُقوم الذين قالوا بالقصاص في مثل اللطمة والضربة وشق الثوب استدلوا بالعموم في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦].

والذين منعوا قالوا: هذا لا يمكن فيه القصاص؛ لأنه صعب التقدير، وإذا قلنا بالقول الراجح: أنه يجوز أن يشق ثوبه كما شق ثوبه فهنا سؤالان:

السؤال الأول: إذا اختلف الثوبان أحدهما جديد والثاني قديم أو كلاهما جديد وأحدهما من النوع الجيد والآخر من النوع الرديء هل يفعل؟

الجواب: يرجع إلى ما ذكرنا وهو هل الذي طلب القصاص أراد المعاوضة أو أراد إذلال الذي شق ثوبه؟ الغالب أنه الثاني وبناءً على ذلك نقول: له أن يشق ثوبه ولو كان ثوب الجاني أغلى من ثوب المجني عليه قدرًا ووضعًا.

السؤال الثاني: إذا قلنا بذلك فهل يُقَدَّر بالمساحة أو بالنسبة؟ وما الفرق بين النسبة والمساحة؟

يعني: لو كان الجاني ثوبه طويل والمجني عليه ثوبه قصير وشق منه مقدار أصبع، الذي ثوبه قصير الأصبع يأخذ منه مساحة وذاك يكون قليلًا.

إذنْ نقول: لابد أن تكون بالنسبة؛ لأننا لو قلنا بالمساحة لن نتمكن من المماثلة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على تسليم الجاني نفسه للمجني عليه أو إن كان بالقتل وأن ذلك يكون كفارة له؛ لقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾.

فإن قال قائل: هو صار كفارة له باعتبار حق أولياء المقتول فما الحكم بالنسبة لحق المقتول الذي قطع عليه القاتل حياته؟

الجواب: إذا علم الله من صدق توبة القاتل فإن الله يتحمل عنه حق المقتول فيرضيه.

٧- ومن فوائدها: الحث على العفو عن الجاني؛ لقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٩- ومن فوائدها: أن من لم يعلم حكم الله فحكم جهلًا منه، فليس بظالم، لكن يقال: يجب عليه إذا علم أن يرجع إلى الحق ويحكم بما أنزل الله.

فإن قال قائل: هل بين هذا الوصف ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وبين قوله في الآية السابقة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعارض بمعنى: أنهما متباينتان أو هما مدلولهما واحد؟

فالجواب: أن من العلماء من قال: إنهما متباينتان ومنهم من قال: إن مدلولهما واحد؛ فمن قال: إنهما متباينتان قال في الأولى: إذا كان هدف الحاكم بغير ما أنزل الله: العدول عن ما أنزل الله وأن غيره خير منه للإنسانية فهذا كافر، وسواء حكم أو لم يحكم، ولكن هذا من الدليل على ما في قلبه.

وأما من حكم وهو: يعتقد أن حكم الله هو الحق وأنه أنسب للعباد من حكم الطاغوت ولكنه أراد أن يتعدى على المحكوم عليه لعداوة بينه وبينه فهذا ظالم.

أما من قال: إنهما متفقتان ولا تباين بينهما، فيقول: إن الكافر ظالم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فعلى هذا فالوصفان متفقان على موصوف واحد لكن الأول أظهر، وأن لكل وصف محلًا خاصًّا.

قال الله تعالى:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٦، ٤٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي: أرسلنا عيسى ابن مريم قافيًا لمن سبقه أي: متبعًا لمن سبقه. مأخوذ من القفا؛ لأن المتبع لآثار مَنْ سبقه يمشي في قفاه.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الرسل السابقين.

وقوله: ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل وليس بينه وبين النبي ﷺ رسول؛ ولهذا جعله قافيًا لمن سبقه، ونسب إلى أمه؛ لأنه ليس له أب.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من عيسى يعني: حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، وتصديقه لما بين يديه من التوراة لها معنيان:

المعنى الأول: أنه يصدق التوراة ويقول: إنها الحق.

المعنى الثاني: أنه يصدق خبرها؛ حيث كان عيسى ابن مريم - عليه الصلاة السلام - مذكورًا فيها وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهي: الكتاب الذي أنزله الله على موسى - عليه السلام -.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: أعطيناه الإنجيل زائدًا على تصديق ما بين يديه من التوراة.

فتكون شريعة عيسى مكونة من شريعة التوراة وشريعة الإنجيل؛ ولهذا لا يعتبر الإنجيل كتابًا مستقلًا، بل هو تابع للتوراة ليس فيه من الأحكام إلا شيء قليل، لكن غالبه مواعظ وقصص وعبر.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي: في الإنجيل ﴿هُدًى﴾ أي: علم ﴿وَنُورٌ﴾ أي: أثر نافع يستنير به القلب.

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ومصدقًا هذه عائدة على الإنجيل والأولى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عائدة على عيسى، فيكون عيسى مصدقًا لِما بين يديه من التوراة، وكذلك الكتاب الذي نزل عليه وهو الإنجيل.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعل الله سبحانه وتعالى هذا الإنجيل هدى وموعظة؛ ولهذا أكثر ما فيه المواعظ والعبر والقصص، أما الأحكام فغالبها مستمدة من التوراة.

وقوله: ﴿وَهُدًى﴾ هو: العلم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: ما تتعظ به القلوب وهو: الإخبار المقرون بالترغيب والترهيب، فكل خبر قُرِنَ بالترغيب والترهيب فهو موعظة.

كما كان الصحابة يقولون: وعظنا الرسول ﷺ موعظةً وَجِلَتْ منها القلوب وذرفت منها العيون[1].

وقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا الله عز وجل وتقوى الله تعالى هي: امتثال أمره واجتناب نهيه، وسُميت تقوى؛ لأن الإنسان يتقي بها عذاب الله تعالى.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها: أن عيسى - عليه السلام - آخر الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٢).

ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وليس بعده أحد يقفوه إلا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي - عليه الصلاة والسلام -.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من ليس له أب ينسب إلى أمه؛ لأن الله تعالى نسب عيسى ابن مريم إلى أمه؛ لأنه ليس له أب.

فإن قال قائل: ما مثال الذي ليس له أب؟

قلنا: له أمثلة:

منها: أن يزني رجل بامرأة فتأتي له بالولد فهنا الولد ليس للزاني لقول النبي ﷺ **«الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ ولِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»**[1]، فلا ينسب إلى الزاني ولا يرث منه ولا يرثه الزاني ولا يتحمل عنه العقل ولا غير ذلك. المهم أن هذا ليس له أب.

ومنها: أن يلاعن الرجل امرأته باتهامه إياها بالزنا وينتفي من ولدها، فيقول: ليس الولد مني فحينئذ يكون له أم وليس له أب.

واختلف العلماء - رحمهم الله - فيما لو استلحق الزاني الولد المخلوق من مائه وليس له معارض هل يُلحق به أو لا؟ منهم من قال: إنه لا يُلحق به لعموم قول النبي ﷺ **«الوَلَدُ للفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»** ومنهم من قال: يُلحق به إذا لم يكن له منازع؛ لأنه ولده قدرًا وليس له منازع شرعًا فيلحق به شرعًا كما هو منه قدرًا وهذا هو القول الراجح: وأن الزاني إذا استلحق بالولد الذي خلق من مائه وليس له منازع فإنه يُلحق به.

ولا ينافي هذا قول النبي - ﷺ - **«الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»**؛ لأن الحديث صريح بأن هناك نزاعًا بين صاحب الفراش والزاني؛ ولهذا قال: **«الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»**.

مسألة: فإذا كانت امرأة بكرًا زنا بها رجل هل هناك فراش؟

الجواب: لا ليس هناك فراش، وإذا لم يكن هناك فراش واستلحق الولد الزاني فإنه لا مانع من إلحاقه به، لكن جمهور العلماء على أن ولد الزنا لا يلحق به ولو استلحقه، واستدلوا بعموم قوله ﷺ: **« وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ »**.

والقول الثاني: أنه لو استلحقه الزاني ولا معارض له فإنه يلحقه وأجيب عن هذا الحديث بأن ظاهره أنه عند التنازع يكون الولد للفراش وللعاهر الحجر.

٣- من فوائد الآية الكريمة: أن الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضًا؛ لقوله:

(١) رواه البخاري (٦٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٤ـ ومن فوائدها: ثبوت نزول التوراة وأنها حق؛ لأنه شهد بها أحد الرسل أولي العزم بأنها حق.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أُنزل عليه الكتاب وهو الإنجيل وهو صريح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣ـ٤]

فإن قال قائل: هل الإنجيل الموجود الآن بأيدي النصارى هو الإنجيل الذي نزل على عيسى؟

فالجواب: لا فيه وفيه؛ لأن النصارى وكذا اليهود وهم أخبث من النصارى في الجرأة على الله؛ قد حرفوا التوراة والإنجيل كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١].

وعلى هذا فيجب التحري بالنسبة للتوراة الموجودة في أيدي اليهود اليوم والإنجيل الموجود بيد النصارى اليوم أي: يجب التحرز منهما، بل يقال: ليس كل ما فيهما فهو حق ففيهما ما هو محرف، وفيهما ما هو منقوص وفيهما ربما ما هو مزيد.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن في الإنجيل هدىً ونورًا؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، ومن الهدى والنور الذي فيه أن فيه وصف النبي ـ ﷺ ـ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وأن عيسى ـ عليه الصلاة السلام ـ بشَّر بمحمد ﷺ فهذا من الهدى والنور.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية: أن الكتب الإلهية يصدق بعضها بعضًا؛ لقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٨ـ ومن فوائدها: التنويه بعظمة التوراة وصدرها وشرفها؛ لأنه ذُكر في هذه الآية أن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة وأن الإنجيل أيضًا مصدق لما بين يديه من التوراة.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن في الإنجيل من العلم والموعظة ما ينتفع به المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على التقوى وأنها سبب لكل خير ولكل علم؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولا شك أن التقوى هي أساس العمل؛ لأن من لا يتق الله لا يعمل، فمن اتقى الله عمل بما أمر الله بحسب ما عنده من التقوى.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٧].

في قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ قراءتان: الأولى ما هو مثبت وهو سكون اللام وسكون الميم، والقراءة

الثانية: فتح اللام وفتح الميم والتقدير: (ولَيحكمَ)، فعلى القراءة الأولى تكون اللام لام الأمر، وعلى القراءة الثانية: تكون اللام لام التعليل التي نعبر عنها أحيانًا بلام كي، ولننظر إلى الإعراب على الوجهين ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ تكون أمرًا من الله عز وجل بأن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ولكن هذا الأمر هل هو مقول لقول محذوف أي: وقلنا أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه أو أنه أمر ابتداء؟ قيل هذا وهذا ومتى دار الأمر بين التقدير وعدمه فالأولى عدم التقدير.

أما على القراءة الثانية (ولَيحكمَ) فتكون تعليلًا لقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ يعني: مصدقًا لما بين يديه من التوراة وَلَيحكُمَ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه.

والحكم هو بيان الحكم والإلزام به يعني بمعنى القضاء، فالقضاء: بيان للحكم وإلزام به والفتوى: بيان للحكم بدون إلزام.

وقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أي: بالذي أنزل الله فيه من الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ نقول فيها كما قلنا في الآيتين السابقتين إلا أنه هنا قال: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فهل الفسق هنا فسق معصية أو فسق كفر؟ لأن الفسق قد يكون فسق كفر أو فسق معصية هذا على حسب الحال، والتفصيل الذي فصلناه سابقًا، فهو ينزل عليه هذه الآيات، فمن حكم بغير ما أنزل الله عادلًا عن حكم الله زاعمًا أنه مساويًا لحكم الله أو أنفع فهذا كافر، ومن حكم بغير ما أنزل الله للعدوان على المحكوم عليه فهذا ظالم، ومن حكم بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه فهذا فاسق.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها: أنه يجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله.

٢- من فوائدها: أنه يجب على أهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ووجه ذلك: أن مما أنزل في الإنجيل صفة محمد ﷺ وقد بَشَّر عيسى به فقال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] فلو قال النصارى اليوم: أننا مؤمنون بالإنجيل، قلنا لهم: لم تؤمنوا لأنكم لو آمنتم بالإنجيل لآمنتم بمحمد ﷺ، إذ هو مكتوب عندكم في التوراة والإنجيل يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر.. إلخ. وأيضًا قد بشركم به نبيكم عيسى عليه السلام.

فإن قالوا: إن الذي بشرنا به اسمه أحمد؟ قلنا: هذا اسم آخر لمحمد ﷺ فاسمه أحمد ومحمد، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الصف:٦] أي: جاء بني إسرائيل بالبينات الدالة على صدقه وعلى تصديق عيسى ببشارته ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وكلمة جاء في اللسان العربي المبين تفيد الماضي فيكون الرسول الذي بشر به عيسى قد جاء، وهل أحد جاء قبل محمد؟ لا، هم ادعوا

أن أحدًا جاء قبل محمد اسمه أحمد؟ إنما قالوا: ننتظر أن يجيء أحمد فنقول: هذا الذي قلتم غير صحيح؛ لأنه جاءهم وليس بمنتظَر.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنجيل منزَّل من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ وهو صريح جدًّا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وعلى هذا فيكون الإنجيل من كلام الله؛ لأنه نزل من عنده وهو كلام مُوحى، والكلام إذا أُضيف إلى المتكلم فهو كلامه.

٤ـ ومن فوائد الآية: إثبات العلو علو الله عز وجل يؤخذ من قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾، والنزول لا يكون إلا من أعلى.

والأدلة على علو الله ـ عز وجل ـ الذاتي أكثر من أن تحصى وأصولها خمسة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

أما الكتاب: وهو القرآن فمملوء بعدة أوجه، والسنة كذلك القولية والفعلية والإقرارية؛ أما القولية فالرسول ﷺ يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[1] ويقول: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ**»[2]، وأما الإقرارية فقد سأل الجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ فأقرها، بل قال: «**إِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[3].

وأما الفعلية فإنه ﷺ إذا دعا ربه يرفع يديه إلى السماء[4].

ولما استشهد ربه على أمته أنه بلَّغ في يوم عرفة جعل يقول: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس[5].

وأما الإجماع: أنه لم يُنقل حرف واحد لا بسند صحيح ولا ضعيف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة أنهم قالوا: إن الله تعالى ليس في السماء أبدًا.

ولو قال قائل: ولم يوجد عنهم أن الله في السماء؟ قلنا: هذا مكابرة هم يقرءون القرآن وفيه ذكر العلو، هل ورد أن أحدًا منهم خالف ذلك؛ إذنْ فهم مجموعون عليه، وهذا طريق واضح للإجماع ما منهم أحد فسَّر آيات العلو بخلاف ما يدل عليه في ظاهرها.

---

(١) صحيح مسلم (٧٧٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: رواه أبوداود (٣٨٩٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٠٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٧٤) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

(٣) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٨١٣) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

(٤) فكان يرفع يديه ﷺ في دعاء الاستسقاء، كما عند البخاري (٩٨٤)، ومسلم (٨٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

أما العقل: فكل إنسان يعلم أن المنزلة العليا خير من المنزلة السفلى وأن علو المكان خير من أسفل المكان فالعلو صفة كمال فيجب أن يكون ثابتًا لله عز وجل.

وأما الفطرة: فاسأل عوام العجائز إذا أردن أن يدعون الله أين تتجه؟

إلى السماء حتى العجوز العامية بفطرتها تشهد بأن الله في السماء.

وعلى هذا فإن هذه الأدلة الدالة على علو الله عز وجل تفند قول من يقول: إن الله ليس في جهة أو يقول: إن الله في كل مكان وكلا القولين ضلال.

٥- من فوائد الآية الكريمة: أن من لم يحكم بما أنزل الله فإنه فاسق، وهذه آخر الآيات الثلاثة فأولها: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وثانيها: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وثالثها هذه الآية ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فهل هذه أوصاف موصوفة لواحد؟

الجواب: فيه خلاف بين العلماء :

منهم من قال: إنها موصوفة لموصوف واحد؛ لأن الكافر يصدق عليه أنه ظالم والظالم يصدق عليه أنه فاسق، فالكافر نسميه ظالمًا فاسقًا.

ومنهم من يقول: إن اختلافها على اختلاف الأحوال، فهذا حكم بغير ما أنزل الله فنقول هو كافر، والثاني نقول: هو ظالم، والثالث نقول: إنه فاسق، وهذا هو الأرجح وجه ذلك: أن الأصل في الكلام التأسيس لا التوكيد ،فإن كان كذلك فينبغي أن نقول: كل وصف يتنزل على حال من الأحوال، فمن حكم بغير ما أنزل الله على أن ما حكم به هو السنة والطريق التي يمشي عليها نابذًا حكم الله وراء ظهره، فهذا كافر، ومن حكم بغير ما أنزل الله لعدوان على المحكوم عليه أو على غيره فهو ظالم، ومن حكم بغير ما أنزل الله لهوىً في نفسه؛ ليتوصل إلى غرض يرى أنه مطلوب فهذا فاسق. فتكون الآيات منزلة على اختلاف الأحوال.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

التَفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هذا آخر الكتب وأفضلها وأشرفها وأعمها وأنفعها وهو القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ والمراد بالكتاب: القرآن فهو مكتوب في اللوح المحفوظ مكتوب بأيدي الملائكة السفرة ومكتوب في المصاحف التي بين أيدينا وسمي بذلك؛ لأنه جمعت فيه الأحكام الشرعية والأخبار الصادقة والقصص النافعة، وأصله الكَتْب ومنه الكتيبة لطائفة مجتمعة من الجيش.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الكتاب أي: حال كونه متلبسًا بالحق فيكون ما جاء به القرآن متضمن للحق هذا وجه من معناه.

والوجه الثاني: أنه حق من عند الله عز وجل فتكون الباء للتعدية في أنزلنا يعني: أنزلناه إنزالًا حقًّا، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والذي بين يديه من الكتاب ليس التوراة والإنجيل فقط، بل هما أقرب الكتب إليه، لكن جميع الكتب قد صدقها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، فهو مصدق لكل ما سبقه من الكتب؛ ولهذا لا يأتي بعده كتاب.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ وهي - أي: ﴿مُصَدِّقًا﴾ - حال من الكتاب فيكون الكتاب هو المهيمن ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما بين يديه من الكتاب.

ومعنى الهيمنة: قيل معناها: الشاهد أي: شاهد عليه، وهذا فيه نظر؛ لأن شاهدًا يغني عنها ﴿مُصَدِّقًا﴾.

وقيل الهيمنة بمعنى: السيطرة والحكم أي أنه حاكم على ما سبقه من الكتب مسيطر عليها ناسخ لها، وهذا المعنى أصح؛ لأن القرآن مهيمن على كل الكتب السابقة؛ إذن ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الصواب أنه: مسيطر وحاكم وناسخ لما سبق؛ ولهذا جاء بعده قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: فبناءً على ذلك احكم بينهم - أي: بين أهل الكتاب وبين المسلمين - ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المراد به: القرآن فإذا تحاكموا إلينا حكمنا بينهم بالقرآن؛ لأن القرآن مهيمن مسيطر على ما سبقه يُعَارِض ولا يُعَارَض فيَحْكُم ولا يُحْكَم عليه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ هذا القول موجه من الله عز وجل إلى الرسول ﷺ مع أننا نعلم علم اليقين أنه لن يفعل ذلك، لكن ليعتبر الناس أنه لو كان محمد رسول الله ﷺ ينهاه ربه مرسله عن اتباع أهواءهم عما جاءه من الحق فكيف بغيره؟

وقال: ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: شريعتهم أو نحوها؛ لأنهم على هوى وليسوا على هدىً فكفرهم

بما جاء به محمد ﷺ هوى ليس عن عقل ولا عن شرع.

وقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير: عادلًا عما جاءك من الحق، وهذا أحسن من أن يُقدَّر بمعرضًا عما جاءك؛ لأن تقديره بمعرضًا فيه شيء من الشدة، لكن عادلًا أخف، والمعنى واحد لكن ينبغي استعمال الألفاظ المناسبة.

إذنْ ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ نقول هو متعلق بمحذوف والتقدير: عادلًا عما جاءك من الحق ولم يقل: عما جاءك أو عما نزل بل قال: من الحق؛ ليتبين أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يمكن العدول عنه إلى غيره.

وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قوله: ﴿لِكُلٍّ﴾ يقول النحويون: التنوين هنا تنوين عِوَض ما التقدير؟ لكل أمة أو لكل واحد المهم التنوين عوض عن كلمة محذوفة.

ومعنى: ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا.

وقوله: ﴿شِرْعَةً﴾ الشرعة: ما يُشرع وأصلها شرعة الماء، والمنهاج: ما ينهج وأصله الطريق، فكل أمة لها شرعة تناسب أحوالها ومكانها وزمانها.

وقوله: ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ تسلكه هذه الأمة إما الكفر وإما الإيمان، فكل أمة هكذا.

فشرائع اليهود والنصارى مناسبة لحالهم وزمانهم ومكانهم.

وشريعة محمد ﷺ مناسبة لكل أمة في كل زمان وفي كل مكان فيكون قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بعد توحيد الشرعة والمنهاج يكون من باب إفحام الخصم أي: أن هؤلاء الذين يقولون: إن شريعة محمد غير مقبولة؛ لأنها تخالف شرائعنا وغير صحيحة؛ لأنها تخالف شرائعنا نقول: أنتم لكم شرائع خاصة مناسبة وأمة محمد لها شرائع خاصة مناسبة، وأنتم الآن تعتبرون من أمة محمد باعتبار الدعوة.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ سبحانه وتعالى؛ لأن بيده الأمر، فلو شاء الله لجعل الشرائع واحدة يكفر بها من يكفر ويؤمن بها من يؤمن ولكنه سبحانه وتعالى له الحكمة فيما شرع، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يبلو بمعنى: يختبر، ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع سواء كانت سهلة ميسرة أو كانت صعبة مشددة.

فالأول: يبتلى به هل يشكر أو لا يشكر؟ والثاني: يبتلي هل يصبر أو لا يصبر؟ لأننا نعلم أن الشرائع مختلفة في يسرها وعسرها فالشرائع الميسرة نبتلي بها بالشكر هل يشكر هؤلاء الذين يُسِّر عليهم أم لا؟ أما المشددة فيبتلى بها بالصبر هل يصبرون على هذه الشرائع ويقومون بها أم لا؟ ولهذا قال: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع.

وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: بادئوها بالسبق إليها، و ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ جمع خير، والمراد بها:

كل ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فإنه خير؛ ولهذا ما من نبي بعثه الله إلا وقد دل أمته على الخير وحذرها من الشر.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ - الله أكبر - المرجع إلى الله سبحانه وتعالى فكل الخلائق مرجعها إلى الله، وهل المراد المرجع في الدنيا أو في الدنيا والآخرة؟

الجواب: في الدنيا والآخرة مرجعنا إلى الله في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن مرجعنا إلى الله فهو الذي يحكم بيننا، وهو الذي يحكم علينا ويحكم فينا، أما في الآخرة فكذلك يفصل بيننا يوم القيامة فريق في الجنة وفريق في السعير.

وفي قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه فائدة بلاغية: وهي الحصر، وذلك بتقديم الخبر؛ لأن القاعدة عندنا: أنه إذا قُدِّمَ ما حقه التأخير كان دليلًا على الحصر.

يقول: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(ينبئ) بمعنى: يخبر.

وهل النبأ والخبر معناهما مترادف أو بينهما فرق دقيق؟

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: إنه ليس في اللغة شيء مترادف - يعني مائة بالمائة - بل لابد من فرق وإلا لكانت اللغة العربية شيء من الحشو، لابد من فرق حتى أسد، وضرغام، وغضنفر، وما أشبه ذلك وإن كان مدلولها واحدًا، لكن لابد وأن يكون كل واحد منها مشتملًا على معنى دقيق يفرِّق بينه وبين الآخر.

هنا النبأ هو الإخبار قيل: إن الإخبار يشمل ما كان هامًّا وما لم يكن هامًّا والنبأ لا يكون إلا في الأمور الهامة، قال الله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

فالنبأ يكون في الأمور الهامة العظيمة والخبر يكون في أي شيء.

فيكون الخبر على هذا أعم.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: بالذي كنتم تختلفون فيه، وحينئذ يحصل الفصل من العدل - عز وجل - ويتبين مَنْ على حق ومَنْ ليس على حق.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات أن القرآن كلام الله من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علو الله عز وجل، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾ والإنزال لا يكون إلا من أعلى.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على القرآن، وأن القرآن حق ونازل بالحق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** المنقبة العظيمة للرسول ﷺ، يؤخذ من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن مصدق لجميع الكتب ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تصديقه لما بين يديه ذكرنا أنه على وجهين: يعني حاكمًا بصدق الكتب التي نزلت سابقًا، ومصدقًا لما أخبرت به من نزول القرآن.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جميع ما في القرآن حق إن كان خبرًا فهو صدق، وإن كان قصصًا فهو نافع، وإن كان أحكامًا فهو عدل.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن ناسخ لما قبله من الكتب؛ لقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

٨- **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب الحكم بما أنزل الله في القرآن إذا تحاكم إلينا أهل الكتاب لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وهذا الخطاب للنبي ﷺ لكن يشمل الأمة.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم من الكفار؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أن مخالفة أهل الكتاب لما جاء به محمد ﷺ لم تُبنَ على دليل صحيح، ولا على عقل رجيح، وإنما بُنيت على هوى طاغ، لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمن نهى عن شيء قبيح أن يبين قبحه وأن ينقل الناس إلى ما هو خير منه؛ لقوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فكأنه قال: لا تتبع أهواءهم واتبع ما جاءك من الحق.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على المسلمين أن تكون لهم شخصية قائمة؛ لا يتابعوا الناس فيكونوا أذنابًا لأعداء الله، بل يجب أن تكون لهم شخصية قائمة في عزة الإسلام؛ لقوله ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما جاء الرسول ﷺ فهو حق.

١٤- **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى نَوَّع الشرائع بحسب الأمم؛ لقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾، وسبق لنا في التفسير أن المصالح تختلف باختلاف أحوال الناس، وباختلاف أزمنتهم وباختلاف أمكنتهم، وهل هذا يكون بالنسبة للشريعة الإسلامية بأن يكون الله جعل لكل حال حكمًا؟

أشرنا في التفسير إلى ذلك وقلنا: حتى في الشريعة الإسلامية تختلف أحكامها بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال، وذكرنا لذلك أمثلة: «صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى

جنب»[1]، أدِّ الزكاة إن كان عندك مال زكوي وإلا فلا شيء عليك، حج البيت إن استطعت وإلا فلا شيء عليك، صم إن استطعت وإن عجزت عجزًا مستمرًا فأطعم، وهلم جرًّا، فتجد أن الشريعة الإسلامية نفسها تختلف باختلاف الأحوال.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس يختلفون في المنهج في استقبال هذه الشرائع؛ لقوله ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عموم قدرة الله - جل وعلا - وأن بيده الأمور الشرعية والكونية؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: على ملة واحدة لكنه سبحانه وتعالى له الحكمة من بعد فيما قدَّر وشرَّع.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: الردُّ على القدرية؛ لأنه لو جعلهم أمة واحدة يعني: على دين واحد، فهذا يقتضي أن يكون تدينهم لله بمشيئته، وليس هذا من عدل الله.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشرائع ابتلاء من الله - سبحانه وتعالى - أي: اختبار وليست ابتلاء من البلاء بل هي اختبار لقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فالشرائع للابتلاء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] فتبين بهذا أن شرائع الله وأحكام الله القدرية كلها ابتلاء.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على السبق إلى الخير؛ لقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: خذوا بها أيكم أسرع.

فإن قال قائل: المسابقة في الخيرات ألا تستوجب الحسد بمعنى: أن يكره الإنسان أن يسبقه أحد؟

فالجواب: لا لأن كراهة أن يسبقك أحد لا تستلزم أن نكره إذا مَنَّ الله على أحد فسبق، والحسد أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على الغير.

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المرجع إلى الله - تبارك وتعالى - شرعًا وقدرًا، لقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، فالمرجع إلى الله شرعًا هو الذي يحكم بيننا، وقدرًا فإن الأمر كما قال الله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

٢١- ومن فوائد الآية الكريمة: عموم علم الله - تبارك وتعالى - بأفعال العباد، لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

فإن قال قائل: وهل الحكم للكافرين على المؤمنين أو للمؤمنين على الكافرين؟

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٦)، وأبوداود (٩٥٢)، والترمذي (٣٧٢)، وابن ماجه (١٢٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٩٨٣٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

فالجواب: الثاني للمؤمنين على الكافرين؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، وهذا من غرائب الحكومة أن يُبيِّن للخصم أنه غالب قبل التحاكم، لكن هذا له حكمة وهو: أن ينضم الخصم إلى الطرف الثاني، فالكفار والمؤمنون خصماء، ومَنْ الغالب؟ المؤمنون، هنا بيَّن الله أنه سيكون الفصل ويغلب المؤمنون: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بيَّن ذلك حتى للكافر أن ينضم إلى صف المؤمنين، لأنه إذا تبين له أنه خصم وأن الجولة والمعركة للمؤمن فسوف ينضم.

٢٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لابد لبني آدم من الاختلاف، وهذا هو الواقع، وقد دلت عليه آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن:٢]، فلابد من الاختلاف، والمرجع عند الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ لقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩].

قال الله تعالى:

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: وأنزلنا إليك الكتاب؛ لتحكم بينهم بما أنزل الله ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم﴾ معطوفة على قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم﴾ الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي ﴿وَأَنِ﴾ قراءتان: الضم، والكسر، (وأنُ احكم)، (وأنِ احكم) وكلاهما قراءتان سبعيتان.

احكم بينهم إذا تنازعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولا تحكم بينهم بما عندك وقد سبق: أن بني النضير يرون لهم الفضل على بني قريظة حتى إنهم في الدِّيَات يجعلون بني قريظة على النصف من بني النضير، ويقولون: إنه لو قتل النضريُّ قرظيًّا فإنه لا يقتل وإن قتل القرظيُّ نضريًّا فإنه يقتل، يتحاكمون إلى النبي ﷺ في هذا وأمثاله ويريدون منه أن يحكم به ولكن الله ـ تعالى ـ نهاه عن ذلك لقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ لأن ما أخبروه من هذا الأصل الباطل هوى النفس، وإلا فحكم الله بين الخلق سواء.

وقوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ يعني: كن معهم على حذر وتخوُّف ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾.

في إعراب ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن تكون بدل اشتمال من الهاء في قوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ والتقدير واحذرهم فتنتهم، ومعروف أن البدل ينقسم إلى خمسة أقسام: (الخامس) البدل اللفظي، فيكون التقدير على هذا: احذرهم فتنتهم؛ لأن ﴿أَن﴾ وما دخلت عليه في تأويل المصدر.

والوجه الثاني: أن تكون ﴿أَن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب برفع الخافض والتقدير: واحذرهم من أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، وكلا الوجهين في الإعراب معناهما واحد، ومعنى ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ أي: يصدوك. والفتنة بمعنى: الصد وهي جاءت في القرآن مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠] ﴿فَتَنُواْ﴾ بمعنى: صدوا.

وقوله: ﴿عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ وإذا كان التحذير عن بعض فعن الجميع من باب أولى.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: عن حكمك بما أنزل الله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، وهذه الإرادة إرادة كونية بمعنى المشيئة، ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ أي: يُلحق بهم المصيبة بالإعراض ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ لا بكلها، وبعض الذنوب مثل ما ذكرنا قبل قليل: أن بني النضير يحكمون بالجور بينهم وبين بني قريظة، و﴿ذُنُوبِهِمۡ﴾ والذنب هو: ما خالف الإنسان به ربه فهو ذنب سواء كان بترك واجب أو بفعل محرم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ هذه الجملة كالتسلية للرسول ﷺ؛ لئلا يهتم بأن كثيرًا من الناس فاسقون، لكن اللام في قوله: ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ للتوكيد، و(فاسقون) بمعنى: خارجون عن طاعة الله مأخوذة من الاشتقاق من قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من كِنِّهَا.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: وجوب الحكم بما أنزل الله عند تحاكم أهل الكتاب إلينا؛ لقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، حتى وإن كان عندهم قوانين تخالف الحكم الشرعي فإننا لا نرجع إليها، حتى وإن أقاموا الدنيا ضدنا فإننا لا نهتم بهم ما دمنا على صراط مستقيم، فإن الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧].

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: النهي عن اتباع أهواء الكافرين أيًا كانت، لكن إذا قال قائل: إذا كان ما ذكروه مطابقًا للشريعة فهل نتركه؛ لأنهم يفعلونه أو نأخذ به؛ لأنه شريعة؟

الجواب: الثاني ولا شك، من ذلك وهو مَثَل عجيب: بعض الناس لما سمع قول الرسول ﷺ:

«خَالِفُوا المَجُوسَ وَالْمُشْرِكِينَ وَاعْفُوا اللُّحَى وَحُفُّوا الشَّوَارِبَ»[1] قالوا: إن أحبار اليهود والنصارى الآن مطلقون لحاهم فكان مقتضى الحديث أن نحلق اللحى؛ لأنهم يعفون لحاهم، فيقال الجواب: إنهم الآن يطلقون لحاهم وفقًا للفطرة لا تقليدًا لنا، وإذا كانوا يطلقونها وفقًا للفطرة فإننا نطلقها؛ وفقًا للفطرة واتباعًا للسنة والشريعة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الحذر من اليهود والنصارى وغيرهم؛ لقوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن من أكبر غايات اليهود والنصارى أن يفتنوا المسلمين عما أنزل الله عليهم، وإذا كان الله قد تكلم بهذا في عهد الرسول، فالأمر في عهدنا أشد؛ لأنهم الآن يرون أنهم أقوى منا في المادة الحسية، فيكون حرصهم على صدنا عن سبيل الله أشد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنهم إذا كان هذا الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي الذي أعطاه الله - عز وجل - من القوة والعزيمة في دين الله ما لم يعط غيره فما بالك بغيره وما بالك من كان في زمننا الآن فيجب الحذر، واسمع إلى قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٣، ٧٤]، لو فعلت صرت أنت خليلهم وصديقهم فتكون النتيجة: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء:٧٥]، والمخاطب رسول الله ﷺ، فما بالك بمن دونه يكون الحذر منهم أشد وأشد.

يعني لولا أن الله ثبته - وأسأل الله لنا ولكم الثبات - لكان يركن إليهم شيئًا قليلًا ولو ركن إليهم شيئًا قليلًا: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الذنوب لها آثارٌ سيئة من أعظمها: التولي عن دين الله وعما أنزل الله، فالإنسان كلما عصى الله ابتعد عن قبول الوحي والشريعة؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾، لهذا قال بعض السلف: (مَنْ حُرِمَ قيامَ الليل فإن ذلك لذنب أصابه)، فإذا رأيت من نفسك إعراضًا عن شيء من دين الله فاعلم أن هناك ذنبًا انبنى عليه هذا الإعراض، والآية صريحة في ذلك: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ فاستغفر الله للنتيجة والسبب.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كثيرًا من الناس خارجون عن دين الله بالفسوق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾، وهل المراد بالناس هنا أهل الكتاب أو العموم؟ إن قلنا:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إنهم أهل الكتاب فُكَّ الإشكال، وإن قلنا: العموم صار هناك إشكالًا؛ لأن أكثر الناس فاسقون فسقًا موجب لدخول النار ودليل ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ: أن الله يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» واحد من الألف في الجنة ـ جعلنا الله وإياكم من هذا الواحد ـ فحزن الصحابة لذلك فقال النبي ﷺ: «إِنَّكُم في أُمَّتَيْنِ مِنْ قَبْلِكُم مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ»، ثم قال لهم: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَشَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]، فكبروا بذلك فرحًا ـ اللهم لك الحمد ـ ولذلك أكثر أهل الجنة هم صالحو هذه الأمة، حتى إنه جاء في «السنن» أو في «المسند» (أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا منهم ثمانون من هذه الأمة) [2]، فتكون النسبة الثلثين.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحذر الشديد من موافقة الكفار، وليت أمة الإسلام اليوم تنتبه لهذا الأمر حتى لا تلهث وراء المادة ووراء أهل المادة، فلو اجتمعت الأمة الإسلامية اليوم على هذا المنهاج لسادت العالم، لكنها عندها ضعف الشخصية وضعف الإيمان فانحدرت إلى هذا الحد ـ فنسأل الله تعالى أن يعلي كلمته ويعز دينه إنه على كل شيء قدير.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتعجيب، يعني: أن الله ـ تعالى ـ أنكر عليهم ذلك وأراد منا أن نتعجب من هذا الذي يبغونه، والفاء هنا وقعت بعد أداة الاستفهام، ومن المعلوم: أن أداة الاستفهام لها أصل من الكلام وهنا لا نجد شيئًا بين الهمزة والفاء، فكيف يتوجه العطف بالفاء على شيء ليس بموجود؟ في هذا رأيان للنحويين:

الرأي الأول: أنه كلما جاء حرف العطف بعد الهمزة فإن هناك جملة مقدرة تناسب السياق، وهذا جيد من جهة، لكنه صعب من جهة أخرى، إذ إنه يصعب على الإنسان أن يعرف ما الذي يُقدر وأحيانًا يشق عليه ذلك كثيرًا أو تعجز أن تُقدر شيئًا مناسبًا.

الرأي الثاني: أن الفاء مزحلقة عن مكانها وأن أصلها قبل الهمزة وعلى هذا فتكون الجملة التي دخلت عليها همزة الاستفهام معطوفة على الجملة السابقة والتقدير (فأحكم الجاهلية)، وهذا ولا شك أنه أسهل لطالب العلم ولأن الأصل عدم الحذف، صحيح أنها مخالفة للأصل من حيث أن حرف العطف يسبق عن مكانه لكنه أسهل أن الإنسان تبرأ ذمته إذا قال: إن هذه الجملة معطوفة على ما سبق.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أضاف الله الحكم إلى الجاهلية، فما المراد به؟

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢) منن حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٢٨٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٩٩٠) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٦٤٤).

هل المراد أحكام أهل الجاهلية سواء تحريم بعض المحللات أو ما أشبه ذلك أو أن المراد الحكم الموصوف بأنه جاهل؟

نقول: كلا المعنيين حق، لكن الثاني أعم؛ لأنه يشمل كل حكم مبني على جهل سواء كان من أحكام أهل الجاهلية الذين هم العرب أو من أحكام آخرين، وعلى هذا فيكون المعنى: أفحكم الجهل، والجهل هو: عدم العلم، وكل ما خالف الحق الذي هو حكم الله فهو جهل أو جهالة إن كان عن غير علم فهو جهل، وإن كان عن علم ولكن خالف الحق متعمدًا فهو جهالة.

وقوله: ﴿يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون، ولا يخفى أن (حكم) منصوب وعامله ﴿يَبْغُونَ﴾ فهو مفعول مقدم ليبغون يعني: أيطلبون حكم الجاهلية، وقدم المعمول لإفادة الحصر، يعني: أن هؤلاء لا يريدون إلا حكم الجاهلية المبني على الجهل أو الجهالة؛ لأن القاعدة عندنا: أن تقديم ما حقه التأخير مفيدٌ للحصر.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام لكن هذا الاستفهام بمعنى النفي إذ إن معناه: لا أحسن من الله حكمًا، ولكن يأتي النفي بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ، إذ إن النفي إذا جيء بصيغة الاستفهام فإنه يكون مُشْرَبًا بالتحدي - يعني: كأنه يتحدى كأن المتكلم يتحدى - يقول: أروني حكمًا أحسن من حكم الله، فلهذا نقول: إذا جاء النفي في صيغة الاستفهام فإنه أبلغ من النفي المجرد إذ إنه يتضمن النفي والتحدي.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾؟ (الجواب): لا أحد أحسن من الله حكمًا، لأن حكمه - جل وعلا - مبني على علم بما ينفع العباد ومبني على رحمة بما ينفع العباد، لا يمكن أن يحكم على عباده - تبارك وتعالى - بشيء يكون ضررًا أو عاقبته ضررًا؛ لأن حكمه صادر عن علم وحكمة ورحمة.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يوقنون بالله وبأسمائه وصفاته وبما تقتضيه هذه الأسماء والصفات، هؤلاء لا يرون حكمًا أحسن من حكم الله، أما من عنده ضعف في اليقين فإنه قد يرى أحكام أحسن من حكم الله؛ ولهذا كان الخلفاء الراشدون لا يتعدون حكم الله أبدًا حتى إن الواحد منهم يُخاطِب الخليفة إذا زلَّ عن حكم الله خطأ خاطبه وأخبره بالحق، لذلك نقول: إن تبين حُسْنِ حكم الله إنما يكون للموقنين، أما ضعاف اليقين فإنهم لا يرون أن حكم الله أحسن الأحكام، بل ربما يعتقدون أن حكم الله قد مضى عليه الدهر واختلفت الأمة واحتاجت إلى حكم جديد، وهؤلاء كأنهم يقولون بلسان الحال: إن محمدًا ليس بخاتم النبيين، إنما الإصلاح يكون بهذه القوانين التي وضعها جهَّال أو كفَّار أو أتباع لهؤلاء، وإلا لا يمكن أن شخصًا يكون موقنًا بالله - عز وجل - وبما له من الأسماء والصفات والأفعال والأحكام أن يرى أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن حكم الله أحسن الأحكام؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ويترتب على هذا أن الإنسان إذا آمن أن حكم الله أحسن الأحكام استسلم لحكم الله ورضي به تمامًا سواء علم الحكمة أو لم يعلم وهذا حق: أي إنسان يرى أن حكم أحد هو أحسن الأحكام فسوف ينقاد له ولا يعارض ولا يمانع.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن حكم الله وإن تراءى لبعض الناس أنه ليس بصالح وأنه يعيق التقدم الاقتصادي أو الاجتماعي أو غير ذلك فإنه يكون خاطئًا؛ لأن العبرة بالنهاية.

قد يتراءى للإنسان أن هذا الحكم لا يصلح الآن، لكن في النهاية لا شك أنه هو الصالح وأن علينا أن نصبر وستكون العاقبة حميدة، مثلًا الآن كثير من الناس يَرون أنه لا بأس بالتعامل بالربا؛ لأنه على زعمهم ينمي الاقتصاد من الآخذ والمعطي فنقول: هذا وإن تراءى لكم، لكن عليه مفاسد خطيرة، وانظروا إلى الدول التي تفعل هذا ماذا كان حالها؟ تجد أن فيها طبقات متباينة غاية التباين، هذا من أفقر الناس ربما يأكل التراب من الجوع والثرى من العطش والآخر مثرىً ثراءً زائفًا كله - أعني: هذا الاختلاف العظيم في الطبقات - بسبب التعامل المحرم.

لكن لو أن الناس مشوا على ما سنَّه النبي ﷺ لأمته لكان الاقتصاد متوازنًا؛ تجد أن الغني لا يثري ثراءً فاحشًا ويعطي الفقير من الزكاة وتكون الحال بين الغني والفقير متقاربة لا يطغى أحد على أحد، لكن إذا سلَّطنا الشح على المعاملات واستبحنا كل شيء لابد أن يكون هناك طبقات متميزة وإذا وجدت طبقة متميزة فَسَدَ المجتمع أمنيًّا وودّيًا تجد الغني يمقت الفقير ويزدريه ويحتقره، والفقير يكره الغني؛ لأنه يرى أنه قد ابتز ماله وأنه تعاظم عليه لاسيما إذا كان لا يؤدي الزكاة.

إذنْ القاعدة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾؟ لا أحد أبدًا.

مسألة: الموافق لأحكام الشريعة في هذه القوانين هل نصفه بأنه أحسن الأحكام؟

الجواب: لا، نقول: هذا حكم الله، ما نقول: هذا حكم القانون؛ لأن حكم الله متقدم على القانون فنصف الأحكام المتطابقة في الشريعة بأنها حكم الله وأنه لا أحد أحسن منه، ولا نجعل المدح منصبًّا على القانون؛ لأننا لو جعلنا المدح منصبًّا على القانون لاغتر الناس بذلك وقبلوا أحكام القوانين على كل حال، لكن نقول: هذا هو حكم الشرع فالكذب في القانون عند الدول ممقوت ولا يرونه شيئًا، وفي الشرع أيضًا ممقوت حتى إن الرسول ﷺ جعل الكذب من صفات

المنافقين وقال: «إِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا»[1]. والصدق يحث عليه الشرع والقوانين أيضًا تحث عليه، وهنا يجب أن يكون المدح لا للقانون ولكن للشرع.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يجوز للإنسان أن يعارض أحكام الشرع بعقله هذا في العمليات الفقهية، وفي العقديات العلمية من باب أولى؛ لأن إذا كان لا يجوز للإنسان أن يعارض الشرع في الأمور العملية التي يدخلها القياس، فالأمور العلمية الخبرية من باب أولى؛ لأن الخبر ليس للعقل فيه مجال إلا على سبيل العموم ممكن.

وبناءً على ذلك يتبين خطأ هؤلاء القوم الذين عطلوا صفات الله - عز وجل - من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أخطأوا خطأ عظيمًا؛ لأن الله إذا أخبر عن نفسه بشيء فمعنى ذلك أنه حكم، حكم لنفسه بأن مستحق لكذا وأخبر عباده به، فيجب علينا أن نقبله على ظاهره بدون أن نتعرض لتحريفه.

وأولئك القوم الذين حكموا على الله بعقولهم وقالوا: هذا لا يقبله العقل فلا نقبله ولو جاء به الشرع. ماذا يقولون في الآيات؟ يؤولونها ويحرفونها وهم لو ردوها صراحة لكانوا كفارًا يعني: لو قالوا: إن الله لم يستوِ على العرش مثلًا كفروا، لكن إذا قالوا: هو استوى على العرش، لكن معنى الاستواء كذا فهذا تأويل وينظر فيه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يعرف حُسْن أحكام الله إلا مَنْ عنده يقين، وكلما كان أشد يقينًا كان بيان حُسْن أحكام الله عنده أكثر وأشد، وإذا شئت أن تعرف هذا فانظر إلى العلماء المحققين كيف يستنبطون من الأحكام الشرعية ما تقتنع به العقول؛ لأنهم موقنون بأن حكم الله أحسن الأحكام فيفتح الله عليهم.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الردُّ على من قال: إن في الأحكام الشرعية من معاملات خاصة ما خرج عن القياس مثل باب السَّلم وباب الإجارة وما أشبه ذلك.

فنقول: ليس في الأحكام الشرعية ما يخرج عن القياس المراد بالقياس يعني: العقل والنظر، بل كل الأحكام الشرعية موافقة للقياس، ولكن الله يفتح على من يشاء من عباده، وبعض الناس يفهم الموافقة، وبعض الناس لا يفهم.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]

التفسير

الخطاب الآن مُصَدَّر بالنداء فلماذا صُدِّر بالنداء؟

أولًا: لتنبيه المخاطب؛ لأنك إذا أتيت بكلام مرسل قد يحصل من المخاطَب غفلة، لكن إذا ناديته صار في ذلك تنبيه له فَصُدِّر الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية به ثم وجِّه هذا النداء إلى الذين آمنوا للإغراء والحث؛ لأنه كلما كان الإنسان مؤمنًا كان أقبل للحق ووجه الخطاب للمؤمنين؛ إغراء به وحثًّا عليه كما تقول للرجل: يا أيها الكريم عند بيتك ضيف، تحثه لكرمه؛ لأنه كريم تحثه على أن يكرم هذا الضيف.

ثانيًا: توجيهه للمؤمنين إشارة إلى أن مقتضى الإيمان: العمل بما دل عليه الخطاب، فالخطاب الذي في الآية هو النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

ثالثًا: أن مخالفة مقتضى الخطاب منافٍ للإيمان.

وهل هو منافٍ للإيمان أصلًا أو كمالًا؟

هذا على حسب ما يقتضيه السياق قد يكون منافيًا للإيمان أصلًا وقد يكون منافيًا للإيمان كمالًا.

وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ اليهود الذين يدَّعون أنهم أتباع موسى والنصارى الذين يدَّعون أنهم أتباع عيسى، وكلهم ليسوا أتباعًا لا لموسى ولا لعيسى بعد بعثة الرسول ﷺ؛ لأن مَنْ كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميع الرسل شاء أم أبى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أن قوم نوح ما أدركوا من الرسل إلا واحدًا ومع ذلك قال: كذبوا المرسلين؛ لأن من كذَّب رسولًا فقد كذَّب جنس الرسالة فيكون هؤلاء الذين كذبوا نوحًا مكذبين إلى آخر الرسل محمد ﷺ؛ إذنْ اليهود مكذبون لجميع الرسل كافرون بجميع الرسل وكذلك النصارى.

اليهود سُمُّوا بذلك؛ إما نسبة لأبيهم يهوذا أو إنه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النحل:١١٨] أي: رجعوا.

أما النصارى فقيل إنه من النصرة؛ لأن عيسى عليه السلام قال: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢].

وإما نسبة إلى البلد المعروفة في فلسطين اسمها (الناصرة)؛ لأن عيسى كان هناك ـ فالله أعلم ـ ويجوز أن نقول بهذا وهذا ولا منافاة.

وقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: تتولونهم لكن ما معنى التولي؟

التولي بمعنى: المناصرة والمعاونة لا فيما يعود إلينا، بل فيما يعود إليهم مثل أن يحاربوا من حارب هؤلاء اليهود يعني: إذا حارب اليهود أحد حاربه المسلمون، وإذا حارب النصارى أحد حاربه المسلمون وهكذا.

مسألة: وهل يقال منها المحبة؟

الجواب: المحبة ولا شك أنها وسيلة إلى المناصرة؛ لأن من أحب أحدًا نصره، لكن المحبة الطبيعية لا تتدخل في هذا؛ ولهذا أباح الله للمسلمين أن يتزوجوا من اليهود والنصارى، ومن المعلوم أن الزوج مع الزوجة لابد أن يكون بينهما محبة كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ، فالجملة استئنافية وهي مع كونها استئنافية كالتعليل لما قبلها يعني: أنهم هم يتولون بعضهم بعضًا فلا يليق بكم أن تتولوهم، وهذا بالنسبة لكونهم ضد المسلمين يعني: هم مجتمعون على معاداة المسلمين، لكن فيما بينهم ليس بعضهم أولياء بعض بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣].

فهم يكفر بعضهم بعضًا لكن بالنسبة للمسلمين متعاونون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وهذا الذي ذكره الله ـ عز وجل ـ موجود إلى يومنا هذا الآن تجد الدولة النصرانية تساعد الدولة اليهودية علنًا وبكل صراحة ووقاحة ولا يبالون، ومن هنا نعلم أنه يجب علينا ـ نحن المسلمون ـ أن نتخذهم أعداء كما نهانا الله عز وجل أن نتخذهم أولياء.

وهذه الجملة كالتعليل للنهي يعني: لا يليق بكم أن تتولوهم؛ لأن هؤلاء بعضهم أولياء بعض فلا يليق بكم أيها المسلمون أن تكونوا أولياء لهم.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ هذا تحذير شديد ووعيد شديد على أن من تولاهم فإنه منهم، لكن هل هو منهم في الظاهر؟ نعم هو منهم في الظاهر لا شك بسبب المعاونة والمناصرة، لكن هل يكون منهم في الباطن؟

نقول: يمكن قد تكون هذه المناصرة والمعاونة تؤدي إلى المحبة ثم إلى اتباع الملة؛ لأن الذنوب يجر بعضها بعضًا. أما الظاهر فالأمر ظاهر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:١٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا

مِنۡهُمۡ﴾ [المجادلة:١٤].

يعني: في الباطن لكن في الظاهر هم مع اليهود، والمراد بهم: المنافقون في الآية السابقة آنفًا.

فقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ بالظاهر وربما يؤدي ذلك إلى الباطن ومشاركتهم في عقائدهم وفي أعمالهم وأخلاقهم.

وهنا قد يرد إشكال نحوي وهو قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ والمعروف أن (مَنْ) الشرطية تجزم الفعل وهنا نجد أن الفعل مفتوحًا، نقول: إن الفعل مجزوم بحذف حرف العلة؛ لأن الأصل: (يتولاهم).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجملة هنا استئنافية بلا شك، وهي كالتعليل لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ كأنه قال: من يتولهم منكم فإنه ظالم والنتيجة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والظلم في الأصل: النقص ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣] معنى ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم﴾ لم تنقص، والظالم ناقص؛ لأنه لم يأتِ بما يجب عليه، فهو باخس نفسه حقها.

إذنْ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الناقصين أنفسهم حظها وذلك بإقحامها في المعاصي إما بترك الواجبات، وإما بفعل المحرمات.

وقوله ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (أل) إذا اقترنت بمشتق فهي اسم موصول.

يقول ابن مالك:

وصفة صريحة صلة أل

كلما اتصلت (أل) بمشتق باسم فاعل أو اسم مفعول فإنها تكون اسمًا موصولًا لا حرفًا؛ إذنْ (أل) هنا اسم موصول.

وعندنا قاعدة: أن الأسماء الموصولة تفيد العموم، وعلى هذا فيكون ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: كل ظالم فإن الله تعالى لا يهديه، والهداية المذكورة هنا هداية التوفيق، أما هداية البيان فهي ثابتة لكل أحد حتى الكفار فقد هداهم الله عز وجل، اقرأ قول الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:١-٣] يعني: هو قد هداه الله السبيل فبيَّنها له سواء كان شاكرًا أو كفورًا، واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

إذنْ ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هداية توفيق، وليست هداية بيان.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** بيان أهمية تجنب اتخاذ الأولياء من اليهود والنصارى ووجه ذلك: أن الله صدر الخطاب بالنداء.

٢- **ومن فوائدها:** أن اجتناب اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من مقتضيات الإيمان.

٣- **ومن فوائدها:** أن اتخاذهم أولياء يوجب نقص الإيمان وربما زوال كل الإيمان أي: وربما يوجب محو الإيمان وزواله كله.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض.

وهل المراد الملة الواحدة أو كلتا الملتين؟ هذا عموم يدل لذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النصراني يرث من اليهودي واليهودي يرث من النصراني؛ لقوله: ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والإرث مبني على الولاية؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا**[(١)] **فَمَا بَقِيَ**[(٢)] **فَلِأَوْلَى**[(٣)] **رَجُلٍ ذَكَرٍ**»[(٤)]، وإلى هذا ذهب كثير من العلماء وقال: إن الكفر ملة واحدة فيرث الكفار بعضهم من بعض.

ولعل قائل يقول: إن أهل الكتاب يرث بعضهم بعضًا؛ لأنهم يشتركون في أنهم أهل الكتاب بخلاف المجوسي مع الكتابي.

والقول في المسألة: أنه لا يرث اليهودي من النصراني ولا النصراني من اليهودي وهذا القول أصح الأقوال لقول النبي ﷺ: «**لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى**»[(٥)]. ولا شك أن اليهود على ملة والنصارى على ملة.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن النصارى واليهود والكفار كلهم بعضهم أولياء بعض في مضادة المسلمين يعني: إذا كان هذا بين اليهود والنصارى وبعضهم يضلل بعضًا ويقول: ليس على شيء من الدين، فما بالك بغيرهم وإذا كان كذلك يتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب على المسلمين الحذر من أعدائهم وأن يَدَعُوا الخلافات بينهم حتى يكونوا يدًا واحدة على أعدائهم الذين يسابقون بالعداوة.

---

(١) أعطوا الأنصباء المقدرة في كتاب الله تعالى لأصحابها المستحقين لها.

(٢) فما زاد من التركة عن أصحاب الفروض.

(٣) لأقرب وارث من العصبات.

(٤) رواه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٢١٠٨)، وابن ماجه (٢٧٣١)، وأحمد في «مسنده» (٦٨٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦١٣).

٧- ومن فوائدها: التحذير من موالاة اليهود والنصارى؛ لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وهل هذا يدل على أن توليهم من كبار الذنوب؟ نعم؛ لأن كونهم منهم كالبراءة منهم فهو في قول الرسول ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[1]، إذنْ اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من كبائر الذنوب.

والولاية كما قلنا: المناصرة، لكن هل يدخل في ذلك أن يستعين بهم الإنسان على شيء خاص مثل أن يكون هناك مهندس يهودي أو نصراني نستعين به على أحكام البناء أو أحكام الماكينة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، لأن هنا وإن استعنت به أشعر بأني أعلى منه وأنه عندي بمنزلة الأجير، ومع ذلك فمتى أمكن أن يتخذ الإنسان عاملًا من المسلمين فهو أولى بلا شك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، وقال الله تعالى:﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ولأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنكر على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن يتخذ كاتبًا نصرانيًّا، حتى إنه لما لما قُدِّمَ على عمر رضي الله عنه كتابة هذا النصراني أعجبته كثيرًا- يعني كتابة جيدة وحسابات منضبطة تمامًا- فقال لأبي موسى: هات كاتبًا، قال: يا أمير المؤمنين إنه لا يفهم فغضب فقال: من هذا؟ قال: هذا نصراني قال: كيف تأمنه وقد خونه الله؟! وأنكر عليه كثيرًا وألح عليه أبو موسى قال: هذا جيد، قال له: مات النصراني والسلام[2].

يعني: افرض أنه الآن مات ماذا تكون حالك الآن وهو سيموت إن عاجلًا أو آجلًا؟ فانظر كيف كان الخليفة الراشد يحذر من أن يولى غير المسلمين أحوال المسلمين يعني: لا يجب أن نجعلهم - مثلًا - أمناء على بيت المال أو أمناء على أشياء تتعلق بعموم المسلمين، هذه خيانة ولا شك؛ لأنه كيف يُجْعَل هذا الذي خوَّنه الله عز وجل أمينًا على أحوال المسلمين؟ أما شيء خاص فهذا لا بأس به؛ لأن الصحابة اتخذوا خدمًا من غير المسلمين، لكن شيء عام فهذا لا يجوز بأي حال من الأحوال؛ لأنه مهما تظاهر الكافر بالنصح لك فاعلم أنه عدو.

مسألة: وهل من الموالاة أن نستعين بهم على أعدائنا؟

الجواب: لا، إذا احتجنا إليهم نستعين بهم بشرط أن نأمن خيانتهم لأن النبي ﷺ كان له حلفاء حين عقد الصلح مع المشركين مَنْ حلفاؤه؟ حلفاؤه خزاعة كانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام حتى إن قريشًا لما اعتدوا على خزاعة وهم كفار اعتبر النبي ﷺ ذلك نقضًا للعهد وهم كفار، وغزا قريشًا، فالمهم: أن الاستعانة بهم إذا دعت الحاجة إليها جائزة بشرط أن نأمن خيانتهم، فإن لم نأمن فإنه لا يجوز.

---

(١) رواه مسلم (١٠١)، وابن ماجه (٢٢٢٤)، والحميدي في «مسنده» (١٠٣٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣١٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٣).

مسألة: وهل من الموالاة موادتهم؟

الجواب: نعم، من موالاتهم موادتهم - أعني طلب مودتهم - حتى تكون المودة متبادلة؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولم يقل: (يودون) فتكون الموادة بين الطرفين؛ لأن الوادَّ لابد أن يبذل ما تكون به المودة وإذا بذل ما تكون به المودة فهذا المبذول لا يريد أن يذهب هباءً، لابد أن يكون على حساب شيء ما لذلك نقول: موادتهم حرام لا تحل قال الله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

مسألة: هل من الموالاة أن نحبهم إذا فعلوا شيئًا نافعًا للعباد؟

الجواب: على كل حال نحب فعلهم لا شك إذا فعلوا ما فيه مصلحة البشرية، فلابد أن نحب فعلهم؛ لأنه خير ومصلحة، أما أن نحبهم هم فهذا فيه نظر يعني: نحبهم لأجل فعل هذا الخير ليس على سبيل العموم، فهذا فيه نظر. لكن ما فعلوه من الخير لا يمكن أن ننكره وأن نقول: ما فعلوا شيئًا، بل نحب ما فعلوا من الخير هم الآن مع الأسف الشديد يصنعون لنا طائرات نحبهم على صناعة الطائرات؟ لا، لا نحبهم هم بل نحب فعلهم؛ لأن صنع الطائرات نحبه ونود أن يزيدونا من الطائرات الجيدة، لكن أن نحبهم هم فلا مع أننا نعلم أنهم إذا فعلوا ذلك فإنما يريدون مصلحتهم، لكن ما دام فيها خير نحب فعلهم.

مسألة: هل من موادتهم أن نبيع ونشتري معهم؟

الجواب: هذا لا يعتبر من موالاتهم؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام اشترى منهم والرسول عليه الصلاة والسلام أعبد الناس لله، مع أنهم سيكسبون، لكن هذا الشيء لا يتعلق بالمودة ولا بالمحبة، وإنما يفعله الإنسان لمصلحته.

وعلى هذا فمعاملة الشركات - شركات الكفر - لا تعتبر من الموالاة وإن كسبوا هم؛ لأننا أيضًا لن نعاملهم ولن نشتري منهم إلا لمصلحتنا.

مسألة: هل من موالاتهم أن نضيفهم إذا استضافونا - أي: لو نزل بك كافر وأكرمته إكرام الضيف هل تحسن إليه أو لا -؟

الجواب: لا، لأن الله قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وهذا إحسان ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا عدل، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة:٨ - ٩].

وهذا ظاهر الحكمة إذا كانوا يقاتلوننا في ديننا ويخرجوننا من ديارنا ويظاهرون علينا فليس من الحكمة أن نتولاهم في أي حال من الأحوال.

مسألة: هل من موالاتهم أن نشاركهم في أفراحهم؟

الجواب: أما ما يتعلق بالعبادة والشعائر الدينية فلا شك أن في مشاركتهم في هذه الأفراح نوع من الموالاة والمناصرة؛ لأنك إذا شاركتهم في هذه الأعياد كأنها تقول: إنكم على حق وهذا لا يجوز. أما المشاركة في أفراح أخرى ككافر ولِدَ له ولد فجعل له وليمة ودعاك فلا بأس أن تذهب إذا لم يكن في ذلك فتنة له يعني: يقول أنا أدعو كبار المسلمين ويأتون إليَّ، أما إذا لم يحصل وكانت المسألة بسيطة، فليس هذا من الموالاة ولا من المناصرة.

مسألة: لو أكرمت جارًا لك وهو كافر هل يكون من الموالاة؟

الجواب: لا، هذا ليس من الموالاة لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»[1]، ثم إن إكرامك إياه ربما يكون سببًا لدخوله الإسلام.

من هنا نعرف أن كلمة موالاة التي نهى الله عنها هي موالاتهم بالمناصرة والمعاونة وما يعود عليهم بالنفع، فهذا حرام، إلا إذا عاوناهم ونصرناهم على من هو أشد إيذاء للمسلمين منهم فهذا لا بأس.

٨ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن من تولاهم فهو منهم ويتفرع على هذا: التحذير الشديد من توليهم.

مسألة: هل من توليهم التشبه بهم؟

الجواب: نعم، والدليل قول النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[2]، ولأن التشبه بهم يعطيهم فرحًا وسرورًا، ويرون أنهم مستعلون على غيرهم؛ لأن غيرهم صار مقلدًا لهم آخذًا ما يتحلون به من أخلاق أو غيرها.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من الظلم؛ لكون الله تعالى لا يهدي الظالم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين من هداهم الله من أهل الشرك، والشرك ظلم عظيم، ومع ذلك في عهد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مَنْ كان يعبد الأصنام وهداه الله ؟

الجواب: نقول: هذه الآية مقيدة بآيات أخرى، والمراد بهم: الذين حقت عليهم كلمة الله؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦ ـ ٩٧]، فتكون هذه الآية المطلقة أو العامة مقيَّدة بمن حقت عليهم كلمة الله، فهذا لا

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٤٨) من حديث أبي شريح العدوي الخزاعي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أبوداود (٤٠٣١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٠١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

يمكن أن يهديه أحد يقول تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على القدرية، يؤخذ من قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن في ذلك دلالة واضحة على أن أمر العباد بيد الله عز وجل ـ نسأل الله لنا ولكم الهداية ـ فليس الإنسان مستقلًا بنفسه أبدًا، ومدبر في الأمور الاختيارية والأمور غير الاختيارية، كما أن الإنسان ليس بيده أن يكون صحيحًا من مرض أو يمرض من صحة، فكذلك ليس بيده أن يكون مهتديًا بعد ضلالة، إنما أمره بيد الله عز وجل، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال الله تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٢ ـ ٥٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ﴿ فَتَرَى ﴾ الخطاب هنا هو إما للرسول عليه الصلاة والسلام، وإما له ولمن يصح خطابهم وتوجيه الخطاب عليهم.

أي: فترى أيها الإنسان أو فترى أيها النبي ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: يسارعون في موالاتهم ومهادنتهم وموادتهم؛ ولهذا لم يقل: في موالاتهم ليفيد العموم.

وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في كل ما يكون سببًا لقوتهم وعزتهم، ولم يقل: يسارعون في موالاتهم؛ لأن هذا أعم يعني: في موالاتهم ومودتهم.

فمَنْ الذين في قلوبهم مرض؟

المرض أنواع: وأمراض القلوب أنواع كأمراض الأبدان تمامًا؛ فأمراض البدن أنواع منها: أمراض عضوية وأمراض عامة وأمراض حمى وأمراض رعشة.

أما أمراض القلوب فكذلك متنوعة، لكنها تدور على شيئين: إما شبهة وإما شهوة، فكل أمراض القلوب لا تخرج عن هذين الأمرين:

الأول: [مرض الشبهة:] حيث يلتبس عليه الحق - والعياذ بالله - بالباطل ولا يهتدي للحق وهذا مرض شبهة سببه الجهل؛ ولذلك يجب على كل إنسان أن يزيل عنه هذا المرض بتعلم الشريعة.

والثاني: [مرض الشهوة:] أي: مرض الإرادة والتشهي بحيث أنه لا يريد الحق مع علمه به، وهذا أخبث من الأول؛ لأن الأول يُرجى صلاحه إذا تعلم، لكن هذا لا يرجى صلاحه وإلا أن يشاء الله؛ لأن هذا يعلم الحق ولكنه لم يعمل به وهذا أشد، ولكن اعلم أن المرض أنواع ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، أي: مرض شهوة في حب النساء والتردد بأصوات النساء المحرم استماعها وما أشبه ذلك.

وأما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤ - ١٢٥]. فقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شك ونفاق، وهؤلاء لا يزدادون بالآيات إلا ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ - أجارنا الله وإياكم من ذلك نسأل الله لنا ولكم الثبات -.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقولون بألسنتهم بعضهم لبعض وبقلوبهم أيضًا، ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ أي: نخاف ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: نائبة من نوائب الدهر فنوالي هؤلاء؛ ليكون لنا عندهم يد نحتمي بها.

يقول الله عز وجل: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ﴾ عسى من أفعال الترجي لكنها بالنسبة لله عز وجل - أي: بفعله سبحانه وتعالى - لا يمكن أن نقول: إنها للترجي؛ لأن الترجي هو تمني ما يصعب حصوله بعض الشيء، والله عز وجل لا يصعب عليه شيء، ولهذا قال بعض المفسرين - وأظنه ابن عباس -: (عسى) من الله واجبة أي: بمعنى حقًّا سيقع، لكنه سبحانه وتعالى يأتي بها مثل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩] وما أشبه ذلك من أجل أن يتعلق القلب رجاءً بالله عز وجل؛ لأنه لو أُخبر بأن هذا سيكون لاعتمد على هذا الخبر الصادق وأنه سيكون، لكن إذا قيل: ﴿فَعَسَى﴾ صار القلب متعلقًا برجاء الله تعالى.

وقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ﴾ الفتح المراد به: النصر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩] يعني: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وقيل: المراد بالفتح: فتح مكة ولكن الصواب الأول يعني: أن المراد به النصر وذلك من أجل أن يعم فتح مكة وغيرها.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ الأمر من عنده يعني: الشأن من عنده؛ وذلك لبيان مخاف هؤلاء ﴿الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم: المنافقون فيفضحهم وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى أيما فضيحة في القرآن الكريم سورة التوبة وفي سورة الحشر وغيرهما وبيَّن مخافيهم.

إذنْ الأمر هو الشأن لكن ما المراد به؟

المراد به: فضيحة هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لأن هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يأتون للمسلمين ويقولون: نحن مسلمون ويتظاهرون بالإسلام ولكن ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ كلمة﴿فَيُصْبِحُواْ﴾ هنا تعني: سيؤول أمرهم إلى هذا سواء أدركوا ذلك في المساء أو أدركوه في الصباح، وهذا تعبير لغوي سائغ يقال: أصبح فلان نادمًا ويكون ندمه بالليل أو في المساء، فيعبر أحيانًا بالإصباح عن حصول الشيء في أي وقت كان وقال: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: ما أخفوه في أنفسهم عن المؤمنين؛ لأنهم يخفون عن المؤمنين أنهم يسارعون في هؤلاء، ولكن الله سبحانه وتعالى فضحهم على ما أسروا في أنفسهم.

وقوله: ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر يصبح؛ ولهذا جاءت بالياء، والندم: انفعال نفسي على ما بَدَرَ من المرء مما يقبح فعله أو قوله، وكل إنسان منا يحس بنفسه على معنى الندم؛ لأنه انفعال نفسي يحدث بالتأثر على ما مضى مما يقبح فعله أو قوله؛ ولهذا من شروط التوبة الندم.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: يبين الله سبحانه وتعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المنافقون يسارعون في موادتهم.

٢- ويستفاد منها فوائد منها: أن كل من يسارع في مودة الكافرين وفي مناصرتهم ففي قلبه مرض، وينبني على ذلك أن هذا المرض ربما يتضاعف حتى يصل إلى الكفر والعياذ بالله.

٣- ومن فوائدها: التحذير الشديد من موالاة هؤلاء الكفار والمسارعة فيهم.

٤- ومن فوائدها: أن من سارع فيهم ففي قلبه مرض.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ضعف توكل المنافقين على الله، وأنهم إنما يتوكلون على الأمور المادية التي يظنون فيها المصلحة؛ لقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾.

٦- ومن فوائدها: أن من أشار على ولاة الأمور بالمسارعة في موالاة الكفار وفي مناصرتهم، فإن فيه شبهًا من هؤلاء المنافقين، وقد تكلم الشيخ «**محمد رشيد رضا**» في تفسيره على هذه الآية كلامًا جيدًا في أن ولاة المسلمين - ويريد بذلك ولاة المسلمين في المكان الذي هو فيه الذين استعمرهم الكفار - يسارعون في مودة الكفار ومناصرتهم.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: بَشارة المؤمنين بأن الفتح والنصر سيكون لهم؛ لقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

٨ـ ومن فوائدها: أن المنافق لابد وأن يفضحه الله؛ لقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وهذا مشاهد قال الحسن: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)، فلابد أن تظهر صفات المنافق إلا أن يتوب إلى الله.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تنبيه المنافقين مما سيقع بهم من الندم على ما أسروا في أنفسهم؛ لقوله: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وفي هذه الآية ثلاث قراءات: (ويقولُ)، (ويقولَ) وفيها قراءة ثالثة (ويقلُ) بدون الواو وهذه من غرائب القراءات أن يحذف حرف من القرآن في إحدى القراءات ومر علينا مثلها في البقرة قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٥ـ١١٦] فيها قراءة (إن الله واسع عليم * قالُ اتخذ الله ولدًا) بسقوط الواو.

المهم: أن هذه الكلمة فيها ثلاث قراءات بالرفع والنصب مع ثبوت الواو وبالرفع مع حذف الواو.

وقوله: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب يعني: اعجبوا أيها الناس لهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾، ولا شك أن المنافقين يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم مع المؤمنين قال الله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:١٤]، وقال أيضًا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١].

إذنْ الاستفهام هنا للتعجيب يعني: اعجب أيها الإنسان من هؤلاء الذين يقولون: إننا معكم كيف كانت حالهم؟! ﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: حلفوا به والإقسام والحلف واليمين معناها واحد وهو: تأكيد الشيء بذكر معظم وصيغة مخصوصة هذا هو القسم وهي (الواو والباء والتاء) هذه حروف القسم تقول: والله وتقول: بالله وتقول: تالله.

إذنْ لابد من أن يكون هناك تأكيد ولابد أن يكون المحلوف به معظمًا ولابد أن يكون بهذه الصيغة.

توجد أشياء تكون بمعنى اليمين ولكنها ليست يمينًا كالحلف بالطلاق والحلف بالنذر والحلف بقول الله عمدًا، وما أشبه هذه ليست يمينًا اصطلاحًا وإن كان معناها معنى اليمين.

إذنْ ﴿أَقْسَمُواْ﴾ أي: حلفوا والإقسام والحلف واليمين معناها: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ يعني: أبلغ ما يكون من الأيمان، وهذا إما أن يكون بالصيغة وإما بقرنه بالشهادة وإما بقرنه بالدعاء على الحالف وما أشبه ذلك، فمثلًا إذا قال: أشهد بالله مقسمًا به أن كذا كذا وكذا، هذا مؤكد بالشهادة، وإذا قال: والله إني لفاعل كذا وكذا هذا مؤكد بالصيغة،

وهؤلاء يقسمون أقوى وأشد ما يكون من الإقسام ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: مع المؤمنين ولكنهم ليسوا معهم.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ قالوا: إنه يحتمل أن يكون من جملة القول، ويحتمل أن يكون استئنافًا من عند الله يعني: إن قلنا إنه من جملة القول صار كالبيان لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ يعني كأنه قال: وما هم معكم؛ لأنهم حبطت أعمالهم ولا تحبط إلا بالكفر، والكافر ليس مع المؤمن قطعًا. وقيل: إنها من عند الله يعني: أن الله أخبر المؤمنين بأن هؤلاء حبطت أعمالهم، حتى وإن تظاهروا بالإسلام فأعمالهم حابطة، وحبوط الشيء بمعنى: ذهابه سدىً لا يُنتفع به ولا يعتد به.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ العمل هنا يشمل القول والفعل والاعتقاد إذا أُطْلق، وإذا قرن العمل بالقول كان المراد به عمل الجوارح.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ قلنا: إن أصبح هنا بمعنى: صار، والمعنى: أنهم بعملهم هذا صاروا خاسرين، فعندهم الندم -كما سبق في الآية الأولى- وعندهم الخسران والعياذ بالله وأنهم لم يربحوا ولن يربحوا مع أن المنافقين يعتقدون أنهم مفلحون، وأنهم مصلحون وأنهم هم الذين أرادوا الإحسان والتوفيق، ولكنهم في الحقيقة هم المفسدون ولا إحسان ولا توفيق بل هم الخاسرون.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجوز للمرء أن يُجري الكلام على سبيل التعجيب فيمن يستحق العجب منه، ولا يعد ذلك من باب الغيبة؛ لأن الله تعالى ذكر هذا عن المؤمنين ولم ينكره عليهم بل ذكره كالمادح لهم.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: كذب المنافقين وأنهم يروِّجون باطلهم ونفاقهم بالأيمان؛ ولهذا قال بعض الناس: إذا رأيت الذي يكثر الأيمان على ما لا يحتاج إلى الأيمان فاعلم أنه كاذب؛ لأنه يريد أن يروج كذبه بكثرة الأيمان وإلا فالصادق لا يحتاج إلى كثرة أيمان، بل ولا يحتاج إلى يمين أصلًا؛ لأنه واثق من نفسه إلا إذا كان المخاطب منكرًا أو شاكًّا فقد يؤكده.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المنافقين يقسمون بالله ويظهرون تعظيم الله كما أنهم يذكرون الله ويصلون ويتصدقون، لكن كل هذا لا ينفعهم؛ لعدم الإيمان في قلوبهم أجارنا الله وإياكم من ذلك.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عمل المنافق حابط؛ لقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ولا يمكن أن ينفعه عمله، هل تنفعه الصدقة إذا تصدق؟ لا تنفعه ففي الآخرة قطعًا لا تنفعه أما في الدنيا فقد يثاب عليها بالبركة في ماله وكثرته لينفع غيره، لكن في الآخرة قطعًا لا ينتفع بها.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المنافق خاسر مهما جنى من الربح فإنه خاسر ووجه ذلك: إن فضحه الله في الدنيا تبين وخسر وصار مكروهًا عند الناس، وإن لم يفضحه الله في الدنيا ففي الآخرة، فحينئذ لا يكون منتفعًا بدنياه؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ سبق لنا الكلام على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما فائدة تصدير الخطاب بالنداء ثم بوصف الإيمان.

وقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ فيها قراءتان (يرتدد) بفك الإدغام و(يرتد) بالإدغام.

أما على قراءة (يرتدد) فهي مجزومة بمَنْ الشرطية والجزم ظاهر، لكن ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ نقول: لما أدغمت الدال بالأخرى حركت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين.

وقوله: ﴿عَن دِينِهِ﴾ يعني: عن عمله الذي يدين الله به وهو: العبادة.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الفاء رابطة للجواب أي: جواب الشرط لأن هذا أحد المواضع السبعة التي يجب اقترانها بالفاء إذا وقعت جوابًا للشرط، والبقية مذكورة في بيت شعري:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

هذه السبعة مواضع إذا وقعت جوابًا للشرط سواء كان الشرط جازمًا أو غير جازم فلابد أن تقترن بالفاء ولا تحذف إلا قليلًا، ولاسيما عند ضرورة الشعر كما في قول الشاعر[1]:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهُ

والواجب أن يقال: فالله؛ لأنها جمل اسمية.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ قالوا: إن سوف والسين تتفقان في دلالتهما على التأكيد، لكنهما تختلفان بأن السين تدل على الفورية وسوف تدل على الإمهال.

وقوله: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يعني: بقوم من غير المرتدين.

وما هو الارتداد؟ الارتداد عن الدين ينحصر في شيئين: إما الجحود وإما الاستكبار لو قرأت جميع ما ذكره الفقهاء في كتاب المرتد لوجدته لا يخرج عن هذين الأمرين وهما الجحد والاستكبار، الجحد يعني: التكذيب بالأخبار، والاستكبار أي: عن الامتثال، فكل الردة تعود على هذين الأمرين وما يذكر من التفاصيل فهي تشقيق لهذه الجملة وتفريع عنها.

ثم ذكر أوصافًا فلنعددها ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) منسوب إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ ستة أوصاف يعني: إن ارتددتم فلن تضروا الله شيئًا ولن تضروا الإسلام شيئًا، بل إن الله سيأتي بقوم هذه صفاتهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فما معنى المحبة؟ المحبة هي: المحبة، ولا يمكن أن تعرفها بأوضح من لفظها، وهكذا جميع الأشياء الانفعالية لا يمكن أن تعرفها بأحسن من لفظها لو قلت ما هو الغضب؟ الغضب هو: الغضب.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكتاب المنسوب إليه وهو «روضة المحبين» ذكر للمحبة أسماء كثيرة وتعريفات كثيرة، ولكنه قال: كلها لا تصح كلها تفسير لها بلوازمها أو آثارها أو ما أشبه ذلك، فـ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لكن يجب أن نعلم أن محبة الله تخالف محبة الإنسان في أسبابها وآثارها وكيفيتها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أنهم لا يستكبرون على المؤمنين ولا يترفعون عليهم، بل يتقاومون لهم ويذلون لهم أي: يتواضعون كما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

ولهذا عُديت ﴿أَذِلَّةٍ﴾ بعلى دون اللام؛ لأنه لم يقل: أذلة للمؤمنين بل أذلة عليهم يعني: ذوي شفقة عليهم وحنان عليهم دون استعلاء واستكبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أقوياء يأخذون الكافرين بالقوة والعزة والافتخار فيما هم عليه من الدين.

وقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهاد هو: بذل الجهد لإدراك الشيء، والمراد به هنا: بذل الجهد لقتال الأعداء ثم إن كان لإعلاء كلمة الله فهو جهاد في سبيل الله وقد بين النبي ﷺ الجهاد في سبيل الله: بأنه الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لأن يعلو هو، فقد سئل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

وسبيل الله: طريقه الموصل إليه، وقد أضافه الله إلى نفسه وأضافه إلى غيره فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وأضاف الله السبيل إليه في آيات كثيرة ولا منافاة، فإن الله أضاف السبيل إليه لوجهين:

الأول: لأنه هو الذي شرعه وفتح طريقًا إليه.

والثاني: لأنه موصل إليه كما تقول: هذا سبيل مكة يعني: طريق مكة الموصل إليها.

أما إضافته إلى المؤمنين؛ فلأنهم سالكوه فهو يضاف إلى الله باعتبار وإلى المؤمنين باعتبار، فلما

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

اختلفت الجهة لم يكن هناك تناقض.

وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ اللَّوم هو: يعني الإنسان لا يخاف إذا جاهد في سبيل الله وصار عزيزًا على الكافرين ذليلًا على المؤمنين لا يهمه أن يلام أو لا يلام لأنه يريد هدفًا آخر لا يريد أن يكون محمودًا عند الناس ولا مذمومًا عندهم إنما يريد مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ يعني: أي لومة من أي لائم أخذنا كلمة لومة من قوله: ﴿لَوْمَةَ﴾ وهي واحدة لائم نكرة يشمل كل من يلومه سواء كان من الأقارب أو الأباعد أو الأصحاب أو غيرهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ذلك أي: المشار إليه الاتصاف بهذه الأوصاف ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي: عطاءه ورزقه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، ولكن كلما قرأت شيئًا معلقًا بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة ولابد، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] فلا يشاء شيئًا إلا وهو يعلم أن الحكمة في مشيئته حتى يفعله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَٰسِعٌ﴾ أي: في فضله ،لكن في كل صفاته أعم.

والقاعدة تقول: إذا جاءك معنىً يكون أعم فخذ به إذا كان النص يحتمله سواء في الكتاب أو السنة، فإذ قلنا: واسع في جميع الصفات لكن ذلك أعم قلنا: واسع في فضله وعطائه والأخذ بالأعم أولى؛ لأنه يدخل فيه الأخص.

وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم، والعلم واسع أم لا؟ واسع كما قال تعالى: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية من الفوائد: الإشارة إلى أن من المؤمنين من سيرتد؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ هكذا قال كثير من المفسرين: إن هذا إشارة إلى أنه سيكون من المؤمنين من يرتد، ولكن في نفسي من هذا شيء؛ لأنه قد يكون المراد بالآية: التحذير من الردة بقطع النظر هل تقع أو لا تقع، أما كونها واقعة فهذا لا شك فيه.

قال العلماء: وقعت ردة إحدى عشر طائفة: ثلاث في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسبع في عهد أبي بكر، وواحدة في عهد عمر من طوائف العرب، ففي عهد الرسول ﷺ ظهر مسيلمة والأسد العنسي وصاحب غسان، وفي عهد أبي بكر ظهر سبع طوائف كلهم ارتدوا، ولكن الله سبحانه وتعالى دحرهم ـ والحمد لله ـ ولم تقم لهم قائمة وعُرِفَ كذبهم وردتهم.

المهم من الفائدة وهي: أن الآية تشير إلى أنه سيكون من المؤمنين من يرتد وهذا كثير من

المفسرين المتأخرين والمتقدمين، ولكنه لا يظهر لي إذ قد يكون المراد بذلك: التحذير كقوله تعالى: ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤].

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله غني عن العباد فلو ارتد قوم جاء الله بقوم آخرين كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المرتدين مبغضون عند الله وهذه تؤخذ من ﴿فَسَوْفَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى إذا أذهب أقوامًا أتى بآخرين خير منهم.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات أفعال الله الاختيارية يعني: التي يفعلها باختياره، وتؤخذ هذه من قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى﴾ وسوف للمستقبل، وإنما ذكرتُ ذلك؛ لأن كثيرًا من المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ينكرون أن تقوم الأفعال الاختيارية بالله وأنه لايوجد شيء من صفات الله إلا وهو أزلي أما شيء حادث فلا، ويقولون: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، وهذا لا شك أنه خطأ، بل كون أفعاله حادثة تدل على كمال الله سبحانه؛ وأنه فعال لما يريد فإذا قلنا: إنه ليس يفعل فلا شك أن هذا تعطيل محض وتنقص لله - عز وجل -.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات المحبة من الله ولله، من الله في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ولله في قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وهذه الآية جمعت بين محبة الله لعباده الصالحين، ومحبة العباد الصالحين لله.

ويوجد في القرآن آيات كثيرة تدل على إثبات المحبة من الله لعباده الصالحين المستحقين لها، وهي عندنا - معشر أهل السنة - الذين نأخذ بما أخذ به السلف الصالح محبة حقيقية تليق بالله عز وجل، وعند آخرين ليست محبة حقيقية، بل يحرفونها إما بالثواب وإما بإرادة الثواب، إما بالثواب عند من لا يثبت الصفات السبع ويثبتون الثواب؛ لأن الثواب منفصل مخلوق، لكن لا يجعلون المحبة صفة قائمة بالله، أو إرادة الثواب عند من يثبت الصفات السبع كالأشاعرة؛ ولهذا الأشاعرة تجدهم يفسرونها إما بإرادة الثواب وإما بالثواب؛ لكنهم متناقضون في الواقع، فإن الله لا يثيبه إلا وقد أحب عمله وأثابه عليه لكنهم متناقضون وهكذا جميع الأقوال الباطلة تجدونها متناقضة.

والدليل على تناقضهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]؛ ولهذا من أكبر الأدلة على ضعف القول أو بطلانه أن يكون متناقضًا، فإذا رأيت قولًا متناقضًا فاعلم أنه ضعيف لا يمكن أن يكون حقًا، إذنْ نحن نؤمن بالله وأن الله عز وجل يُحِبُّ ويُحَبُّ، وأن المحبة التي يجدها الإنسان في قلبه لله عز وجل لا تساويها أي محبة، فالإنسان يُحِبُّ

ولده ويحب أباه وأمه ويحب أهله ويحب أصدقاءه لكن المحبة لله غير هذا بل هي نوع آخر يجد الإنسان فيها لذة وراحة لا يعرفها من فقدها ـ والعياذ بالله ـ فهي محبة عظيمة لا تشبه تعلق الإنسان بغير الله عز وجل.

إذنْ الآية فيها ردٌّ على الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وكل من لا يثبت الأفعال الاختيارية لله كالمحبة.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على من كان ذليلًا على المؤمنين، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتواضع، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عز وجل، وعكس ذلك بأن يترفع الإنسان على إخوانه المؤمنين ليس محمودًا عند الله، بل ولا عند الخلق، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازددت تواضعًا، وكلما ازداد علمك ازددت تواضعًا أيضًا.

لكن بعض الناس ـ نسأل الله ألا نكون منهم ـ إذا ازداد علمه انتفخ وتكبر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه وصار إذا كلمه الناس يتجاهل ويقول: ماذا تقول؟ وهو يدري ماذا قال وقد ملأ سمعه كلامه، لكن هذا من باب الاستكبار فهو يسأله سخرية، وهذا لا شك أنه نقص عظيم؛ لأنه يجب عليك كلما كثُر علمك أن يكثر تواضعك.

٨ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على عزة النفس وقوة الشخصية أمام الكفار فعلينا أن نكون أعزة عليهم، نرى في أنفسنا العلو عليهم والظهور عليهم لا بذواتنا ولكن بما معنا من الدين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾ [التوبة:٣٣]، أي: يظهر الدين لا الرسول، فيجب علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نعرف قيمتنا في المجتمع، وأننا أحق الناس بالبقاء على الأرض وأحق الناس برزق الله، وأحق الناس أن نعلو عليهم، هكذا إذا كان لنا شخصية إسلامية، لكن لضعف الإيمان وضعف التوكل على الله عز وجل صرنا أذنابًا لغيرنا أعزة على قومنا أذلة أمام الكافرين. نسأل الله أن يهيئ لهذه الأمة أمر رشد يُعز فيها أهل الطاعة ويُذل فيه أهل المعصية.

٩ـ من فوائد الآية الكريمة: فضيلة الجهاد في سبيل الله؛ لقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ـ ومن فوائدها: الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الجهاد وهو القتال يحمل عليه عدة أسباب، لكن الجهاد المحمود هو الجهاد في سبيل الله.

فإن قال قائل: ما هو الجهاد في سبيل الله؟ قلنا: فسره النبي ﷺ بأنه: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ**»[1].

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان ألَّا تأخذه في الله لومة لائم ما دام

(١) سبق تخريجه.

على الحق؛ لأنه لابد لكل عابد من عدو كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، وأتباع الأنبياء كذلك لابد أن يكون لهم أعداء من المجرمين، ولكن الآية ختمت بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]؛ انظر لماذا ختم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؟ لأن هؤلاء الأعداء إما أن يضلوا الناس بالفكر والتشكيك وما أشبه ذلك فقطع طمعهم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾، وإما أن يحاول صد الناس بالقوة فقابل ذلك بقوله: ﴿وَنَصِيرًا﴾ إذنْ لابد من الملامة، فكل إنسان يتمسك بالشريعة لابد من ملامة يلومه أكثر الناس؛ لأن بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون في النار وواحد في الجنة.

هل يدخل في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أن الإنسان يتهور ولا يستعمل الحكمة أو ولابد من استعمال الحكمة؟ الثاني لابد من استعمال الحكمة؛ لأن التهور يحصل منه انعكاس المقصود؛ ولهذا كان النبي ﷺ يدع ما يمكن أن يقال؛ خوفًا من المفاسد وما يمكن أن يُفْعَل خوفًا من المفاسد، حتى إنه ليسبه الرجلُ لسوء خلقه ودينه ـ أي: الرجل ـ فإذا دخل عليه لقاه بوجه منشرح كل ذلك من أجل أنه مشرّع؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

١٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصفات العظيمة من فضل الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد:٢١].

١٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن كل من سعى لفعل الخير فإن الله يجود عليه؛ لأن قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ليس لمشيئة مطلقة بل لمشيئة مقيدة بالحكمة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] فمن كان أهلًا للرسالة أرسله، كذلك الله أعلم حيث يجعل آثار هذه الرسالة وأتباع هذه الرسالة فمن كان أهلًا لذلك أعطاه ومن لم يكن أهلًا حرمه. اقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وكذلك قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

١٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات المشيئة لله عز وجل فيما يتعلق بفعلها؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، وهذا الذي عليه السلف الصالح وعليه أهل السنة والجماعة وأئمة المسلمين أن لله مشيئة في أفعال الخلق كما أن له مشيئة في أفعاله جل وعلا قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨ـ٢٩]، ولهذا دائمًا الإنسان يريد أن يفعل شيئًا، وإذا به يعدل عنه دون أي سبب ظاهر، ولكنها مشيئة الله عز وجل.

قيل لأعرابي: بما عرفت ربك؟ قال بنقض العزائم وترك الهمم.

معناه: أن الإنسان قد يعزم على الشيء ثم إذا به ينتقض عزمه وترك الهمم يتجه إلى شيء معين، فإذا به يتركه بدون سبب ظاهر، لكنها مشيئة الله، ومشيئة الله عز وجل لأفعال العباد من كمال ربوبيته حتى لا يكون في ملكه ما لا يريد؛ لأن الذين يقولون: إن الإنسان مقيد بمشيئته وليس لله

مشيئة في فعله يلزمهم أن يقولوا: إن في ملك الله ما لا يريد.

١٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان سعة الله عز وجل في كل شيء؛ في الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسلطانًا ورحمة وغير ذلك، فالله واسع في كل شيء سبحانه وتعالى.

١٦ـ ومن فوائدها: إثبات العلم لله عز وجل؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ والعلم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه، فمن لم يدرك الشيء فهو جاهل، ونوع جهله بسيط، ومن أدركه على خلاف ما هو عليه فهو جاهل ونوع جهله مركب؛ لأنه لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

١٧ـ وفي هذه الآية من الفوائد: إثبات هذين الاسمين لله عز وجل: ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وعلى هذا لك أن تدعو الله بذلك تقول: اللهم يا واسع وسِّع علي في الرزق، اللهم يا عليم اختر لي ما فيه صلاحي وما أشبه ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨١] واعلم أن جميع أسماء الله مشتقة يعني: دالة على معنى ليس في أسماء الله اسم جامد لا يدل على معنى أبدًا حتى اسم الله، فـ «الله» مشتق خلافًا لمن قال: إنه جامد؛ لأنه مشتق من الألوهية والألوهية مصدر يدل على معنى، فكل أسماء الله دالة على معنى ولو لم نقل: إنها دالة على معنى لم تكن حسنى؛ لأن الجامد ما فيه ثمرة.

إذنْ كل أسماء الله الأصل حسنى، لكن هل كل أسماء الله مشتقة؟

الجواب: نعم، ولذلك نقول كل اسم لابد أن يكون متضمنًا لصفة، وليس كل صفة مشتق منها اسم، وبعض الصفات لا يمكن أن تشتق لها اسم مثل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠] لا يمكن أن تثبت لله اسم (ماكر)؛ لأن هذا وصف، والوصف يتقيد بما قُيِّد به.

١٨ - ومن فوائدها: أن الردة هنا لم يذكر الله ما يتعقب عليها من عقوبة في الدنيا بل قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والردة ذكرنا أنها هي: الخروج عن الإسلام وتدور على شيئين: التكذيب والاستكبار، وهنا نقول:

أولًا: هل كل ردَّة يمكن التوبة منها؟

الجواب: نعم، كل ردة يمكن التوبة منها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، ولقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨] يعني: لا يشركون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا يعتدون على الأنفس ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ لا يعتدون على الأعراض ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]

إذنْ القول الراجح: أن كل إنسان أذنب ذنبًا مَهْمَا عَظُم ثم تاب إلى الله توبة نصوحًا فإن توبته مقبولة، لكن استثنى بعض العلماء من هذا مسائل:

المسألة الأولى: [صَاحِبُ البِدْعَةِ:] قالوا المبتدع ولو تاب لا تقبل توبته، ولكن يقال: أين الدليل على خروجه من الملة؟ قالوا: لأن مفسدته متعدية.

فنقول في الجواب عن هذا: هذه المفسدة المتعدية يمكن إصلاحها بأن يقول هذا المبتدع إنه رجع عن بدعته، وأن الصواب كذا وكذا مثل ما جرى كما يقال «**لأبي الحسن الأشعري**» رَحِمَهُ اللهُ فأبو الحسن الأشعري كان في الأول معتزليًّا جلدًا ما يلين وبقي على ذلك مدة طويلة من الزمن ثم تاب وأعلن توبته في المسجد الجامع وخلع عمامته وقال: من كان يعرفني فهو يعرفني ومن كان لا يعرفني فأنا فلان، ثم أنكر إنكارًا شديدًا على المعتزلة فهذه توبة، وربما يكون أجره على إنكار البدعة أعظم من عقوبته على هذه البدعة مع أن العقوبة انمحت بالتوبة، كذلك أيضًا لابد من تحقيق توبة المبتدع من أن يكتب ما يُخفض بدعته حتى يكون صادقًا في توبته.

فإن قال قائل: أرأيت لو أن الذين أخذوا ببدعته أبوا أن يرجعوا برجوعه فهل يأثم بإثم بقية هؤلاء؟

فالجواب: لا يأثم؛ لأنه أدى ما يجب عليه من التوبة وبيَّن الحق وإذا أصر هؤلاء على باطلهم فهم على باطلهم.

المسألة الثانية: [مَنْ سَبَّ اللهَ:] هل تقبل توبته أو لا تقبل؟

الجواب: في هذا خلاف بين العلماء، فمن العلماء من قال: من سب الله لا تقبل توبته وذلك؛ لأن ردته عظيمة جدًّا فهذا قد سب رب العالمين جل وعلا فلا تقبل توبته؛ لعظم جرمه بهذه الردة، ولكن هذا التعليل في مقابلة النصوص، والتعليل في مقابل النصوص مرفوض، فالخيار بمقابلة النص إذنْ هذا مرفوض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فدلت الآية على أن من الكفار مَنْ يسب الله عز وجل إذا سُبَّت آلهتهم.

ثم يقال إن الله تعالى قال في المنافقين: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٤ ـ ٦٥] يعني: نتحدث حديثًا لا نقصد معناه نتحدث حديث الركب لنقطع به الطريق فقال الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥ ـ ٦٦]. وهذا نص صريح بأن المستهزئ بالله أو آياته أو رسوله كافر.

لكنه قال عز وجل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٦]، وهذا يدل على أنه قد يكون منهم طائفة يعفو عنهم ولا يمكن أن يُعفى عنها إلا بتوبة وعلى هذا، فالقول الراجح: أن من سب الله ورسوله ثم تاب فإن توبته مقبولة هذا من سب الله.

المسألة الثالثة: [مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ثُمَّ تَابَ:] هذا تقبل توبته، لكن يُقتل مرتدًّا أو مسلمًا؟ يُقتل مسلمًا؛ لأن هذا حق آدمي وهو الرسول ﷺ فلابد أن نثأر له ونقتل من سبه، أما من سب الله فالله عز وجل قد أخبرنا عن نفسه أنه يتوب عليه أما الرسول عليه الصلاة والسلام هل يتوب على من سبه؟

الجواب: ما ندري، ولهذا هناك أناس سبوا الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته وعفا عنهم؛ لأن الحق حق لما تابوا عفا عنهم، والحق حقه، أما بعد موته فإن الحق علينا نحن أتباعه لابد أن نثأر لرسولنا ﷺ ونقتل من سبه ماذا يكون له إذا قُتِل؟ ينتقل من الدنيا إلى الآخرة بصفته مسلمًا والذي لا يموت اليوم يموت غدًا، لكننا إذا أخذنا بالثأر للرسول عليه الصلاة والسلام كان هذا من أدنى الواجبات علينا.

المسألة الرابعة: [السَّاحِرُ وحُكْمُهُ:] الذي يكفر بسحره؛ لأن السحر نوعان نوع يكفر به الساحر ونوع لا يكفر به، أما الذي لا يكفر به الساحر فإنه يُقتل حدًّا كما جاء ذلك عن الصحابة وكفًّا لفساده؛ لأنه من الساعين في الأرض فسادًا؛ وقد قال الله - تبارك وتعالى - ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، ولا أحد يشك في إفساد السحرة في الأرض فيُقتلون كفًّا لشرهم وردعًا لغيرهم، والساحر هو الذي يستعين بالشياطين ومردة الجن على إيذاء عباد الله بأن يضع سحرًا يستهوي به الشيطان أو مردة الجن حتى يسكن في جسم الإنسان، ويأبوا أن يخرجوا منه إلا بحل السحر، فهذا يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] وهذه ملائكة من ملائكة الله أنزل الله عليهم علم السحر وهم ملائكة، لكن لا من أجل أن يجعلوه مهنة، لكن من أجل الاختبار؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، فهذا يُقتَل كفرًا وردَّة.

لكن إذا تاب فهل تقبل توبته؟ في هذا خلاف بين العلماء.

منهم من قال: لا تقبل ومنهم من قال: تقبل، والأسعد بالدليل من قال: تقبل فنقبل توبتهم ونرفع عنهم القتل ونجعلهم من إخواننا، لكن لابد أن يكون هناك دليل على استقامته وصلاح حاله ولا يكفي مجرد أن يقول: تبت.

المسألة الخامسة: [المُنافِقُ وَحُكْمُهُ:] فالمنافق نفاق كفر هو كافر بلا شك ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، والنفاق من شر خصال بني آدم، المنافق إذا علمنا نفاقه يقينًا لا مجرد وهم وبلا قرائن؛ لأن مجرد الوهم بلا قرائن لا يجوز أن نتهم أحدًا بالنفاق، فإننا لم نؤمر أن ننفض عن صدور الناس وبطونهم، لكن إذا علمنا يقينًا رأينا هذا الرجل يذهب إلى مجتمعات اليهود والنصارى والملحدين ويقول: إنه معهم، ويأتي للمسلمين يتملق ويقول: إنه مسلم هذا ظاهر النفاق نحكم عليه بالنفاق.

وهل يُقتَل أو لا يُقتَل؟ يُقتَل؛ لأن هذا معلوم النفاق، لكن المنافقين في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - رفع عنهم القتل لسبب وهو ألَّا يُنفِّرَ الناس عن الإسلام والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ولهذا قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(١)، وهو يعلمهم عليه الصلاة والسلام، لكن خوفًا من تنفير الناس عن الإسلام فامتنع لهذه المصلحة العظيمة أن يقتلهم، ولكن إذا تاب المنافق فهل تقبل توبته؟

المذهب لا تقبل توبته؛ لأن الرجل من الأصل يقول: إنه لم يكفر ويقول: إنه مسلم فإذا قلنا: أنت منافق قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وستجدوني في الصف الأول في كل الصلوات. فيقولون: إنه لا يُقتل.

قال السفاريني رَحِمَهُ اللهُ:

بِأَنَّــهُ لَــمْ يَبْــدُ مِــن إِيمَانِــهِ إِلَّا الَّــذِي أَذَاعَ مِــنْ لِسَــانِهِ

فلا نقتله لأن الأصل يقول إنه مسلم، ولكن الصحيح: أن توبته مقبولة إذا دلت القرائن على صدقه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ [النساء:١٤٥ - ١٤٦].

هذه شروط التوبة للمنافق؛ لأن المسألة غير هينة فهذا الرجل يبدي إيمانه، وتلك شروط ثقيلة جدًّا؛ لأنهم لا يظهرون إلا الإسلام فإذا تيقَّنَّا ذلك فالله يقول: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ومنهم - هؤلاء المنافقون - الذين تابوا يقول: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦].

فإذا قال قائل: هل يستتاب المرتد أو لا؟

فالجواب: أما الذين لا تقبل توبتهم - على رأي من يقول: إنها لا تقبل - فلا يحتاج إلى استتابة؛ لأنه لا تقبل توبتهم ولو تابوا ما قبلت.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

وأما الذين تقبل توبتهم ومنهم الأصناف الذين ذكرنا على القول الراجح فإن هذا يرجع إلى قول الإمام، وهذا الرأي الراجح؛ لأن النصوص في هذا بعضها فيها قتل المرتد بدون استتابة وبعضها فيه قتل المرتد باستتابة، فيُرجع في ذلك إلى رأي الإمام أو نائبه في الحكم والقضاء، فإذا رأوا أن يستتاب استتيب، وإذا رأوا ألا يستتاب لم يستتب.

فإن قال قائل: إذا كانت الاستتابة حق له فلماذا تمنعونه منها؟

قلنا: ليست حقًّا مطلقًا بل هي حق إذا دعت المصلحة إليها، وإذا كانت المصلحة في عدم الاستتابة، فالحق العام للمسلمين ومنعهم من التلاعب في الدين أهم من حق هذا الرجل الخاص.

إذا قال قائل: إذا ارتدت طائفة من الناس أو قبيلة من القبائل فهل يجوز قتالهم؟

الجواب: يجب قتالهم؛ لأن هذا هو الذي أجمع عليه الصحابة بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيجب أن نقاتلهم، ولكن بشرط أن يكون لدينا قوة نستطيع بها المقاتلة، فإن لم يكن لدينا قوة، فإن الله لم يوجب القتال على المسلمين في مكة؛ لعدم القوة، ومن المعلوم أنه من التهور الذي لا يأمر به الشرع ولا يقتضيه العقل أن يقاتل الإنسان الجحافل المسلحة بالأسلحة المتطورة، وليس معه إلا سكاكين المطبخ، هذا ليس من الحكمة ولا يمكن أن تقتضيه الشريعة ولا يرتضيه العقل حتى يكون لديك قوة ثم حينئذ قاتل.

فإن قال قائل: أليس أبو بكر رضي الله عنه أرسل جيش أسامة مع حاجته إليهم في الردة في قتال أهل الردة؟

فالجواب: بلى، لكن يجاب عن هذا بأمرين:

الأمر الأول: أن جيش أسامة عقد رايته محمد رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال أبو بكر: والله لا أحل راية عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام[1].

الأمر الثاني: أن في ذلك إظهار لعزة المسلمين وقوتهم؛ ولهذا لما رأى العرب المرتدون أن أهل المدينة صاروا يبعثون الجيوش إلى الشام قالوا: هؤلاء عندهم قوة وقدرة فتراجع بعضهم فصار في التأسي برسول الله ﷺ بركة عظيمة تغني عن القتال أشهر؛ ولهذا ما يدلنا على أن التمسك بالإسلام له بركته العظيمة، قد لا يشعر بها الإنسان إلا بعد مدة.

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٣٣٣).

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥، ٥٦]

التفسير

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ هذه الصيغة تفيد الحصر؛ لأنها بمنزلة قوله: (ما وليكم إلا الله ورسوله) يعني: فلا تتولوا اليهود والنصارى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ونِعْمَ الوليان رب العالمين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ لأن الذين آمنوا بعضهم أولياء بعض كما قال الله تعالى في سورة براءة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، وهكذا يجب أن يكون المؤمنون بعضهم أولياء بعض؛ لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وما ظنك برجل وليه الله ورسوله والمؤمنون لا يستطيع أحد أن يهزمه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ هذا صفة لقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهم جمعوا بين الإيمان وهو العقيدة وبين إقامة الصلاة، والثاني: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ وهي: المال المقدَّر في الأموال الزكوية أي: يأتونها أهلها المستحقين لها.

وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ الجملة هذه هل هي جملة حالية أي: هم يؤتون الزكاة وهم راكعون في الصلاة أو أنها استئنافية؟

الجواب: هي استئنافية، ثم هذا القول بأنها استئنافية هل المراد به الركوع الذي هو جزء من الصلاة وهو انحناء الظهر؛ تعظيمًا لله عز وجل أو المراد الخضوع لشريعة الله؟

الثاني، ولهذا قال الشاعر(١):

وَلا تُهِينَ الفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ ... تَركَعَ يَومًا وَالدهرُ قَدْ رَفَعَهُ

وهذا أكبر شاهد على أنه يبنى الفعل المضارع على الفتح ولو حذفت نون التوكيد وأصل تهين (لا تهينن).

وتركع يعني: تخضع يعني: لا تنظر للحاضر وانظر للمستقبل، فقد يكون يوم من الأيام أنت اليوم غني وهذا فقير ربما يكون يوم من الأيام يكون هذا غني وأنت فقير.

---

(١) هذا البيت منسوب إلى الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي. شاعر جاهلي قديم، أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين، فقال: بكل واد بنو سعد (يعني: قومه).

إذنْ الجملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ جملة مستأنفة وليست جملة حالية، والمراد بالركوع هنا: الخضوع للشريعة والذل لها.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: فضل المؤمنين الفضل الذي لا شيء فوقه؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثلاثة أشياء الله والرسول والذين آمنوا.

فإن قال قائل: ولاية الله عز وجل صالحة لكل زمان ومكان، لكن كيف ولاية الرسول؟

الجواب: أن ما كان في حياته، فالولاية ظاهرة واضحة، وأما بعد وفاته فإن تمسكنا سنته من توليه لنا؛ لأننا نُنْصَر بها ونُعَان بها فكأنه عليه الصلاة والسلام معنا يناصرنا ويعاوننا. فأما الذين آمنوا فواضح أن المؤمنين لايزالون ظاهرين الحق حتى يأتي أمر الله.

٢- من فوائد هذه الآية الكريمة: فضيلة من تولى الله ورسوله والذين آمنوا.

٣- ومن فوائدها: فضيلة الصلاة؛ لأن الصلاة دائمًا في المقدمة ولا شك أن الصلاة أفضل العبادات بعد التوحيد والشهادة بالرسالة ولهذا فرضت من الله إلى الرسول بدون واسطة، وفرضت على الرسول في أعلى مكان وصل إليه البشر، وفرضت على الرسول في أشرف ليلة كانت له، وفُرضت على الرسول خمسين صلاة، وكونها خمسين صلاة يدل على أن الله يحبها؛ لأن خمسين صلاة تستوعب أكثر الوقت ولكن الله بمنِّه وكرمه جعلها خمسًا لكنها كأنها خمسون فهي خمس بالفعل وخمسون في الميزان.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أيضًا: أن مرتبة الزكاة في دين الإسلام بعد مرتبة الصلاة وهكذا في الآية الكريمة، وفي الأحاديث النبوية تأتي الزكاة بعد الصلاة.

فإن قال قائل: «الزكاة والصيام» الصيام أشق على الإنسان من الزكاة فلماذا لا يُقَدَّم؟

قلنا: أولًا: لا نُسلم بهذا؛ لأن حب الإنسان للمال حب شديد كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ [العاديات:٨] يعني: لحب المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] وربما يسهل على الإنسان أن يصوم عشرة أيام ولا يؤدي عشرة دراهم هذه واحدة.

ثانيًا: الزكاة فيها منفعة متعدية فهي نفع للإسلام ونفع للمسلمين، فإن من أصناف الزكاة سبيل الله، وهذا نفع للإسلام ومن أصناف الزكاة الفقراء والمساكين والغارمون وهؤلاء منفعة للمسلمين، فمنفعة الزكاة متعدية والصيام غير متعدٍ؛ فلذلك ـ والله أعلم بحكمته سبحانه وتعالى ـ صارت الزكاة تلي الصلاة.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لابد أن يقترن بهذه الأعمال الصالحة الذل والخضوع لله عز وجل يعني: يشعر الإنسان أنه يتعبد لله خاضع له، وهذا يفوت كثيرًا من الناس

أكثر الناس يؤدي الصلاة على أنها مفروضة عليه فقط، لكن لا يشعر أنه متعبد لله بذلك وكذلك يقال في الزكاة.

من أين أخذنا أنه ينبغي التنبه لذلك؟ من قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، والعجب أن الرافضة قالوا: إنه لم يعمل بهذه الآية إلا علي بن أبي طالب وقالوا: إنه أدى الصدقة وهو راكع وجعلوا هذا من مناقبه وحاشاه رضي الله عنه أن يكون ذلك من فعله؛ لأن الحركة في الصلاة غير محمودة، فكيف إذا ركع وجاء الفقراء وقال لهم: خذ خذ، هذا ما هو منقبة بل هذا مسلبة. لكن الرافضة لا يفهمون وعندهم سفه، كما قالوا في مدحه: إنه يصلي بين المغرب والعشاء ألف ركعة مَنْ يصلي ألف ركعة بين المغرب والعشاء؟! فلو أن الإنسان يريد أن يفعل هكذا أو هكذا ـ يعني: يرقص رقصًا ـ ما تمكن من ألف ركعة، لكن جعلوا هذا من مناقبه وهو في الحقيقة من مسالبه، ونحن نشهد أنه لن يفعل هذا ولم يفعل لا هذه ولا هذه، ولا نشك أن عليًا رضي الله عنه له من المناقب والفضائل ما اختص به من بين الخلفاء، وله من الفضائل والمناقب ما شاركه فيه الخلفاء.

فعليٌّ له مناقب، والخلفاء لهم مناقب يشتركون في بعضها وينفرد بعضهم عن الآخر ببعضها، لكن الفضل المطلق على هذا الترتيب أبو بكر ـ وعمر ـ وعثمان ـ وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

فمثلًا: قرابة علي من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يشاركه فيها لا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان، كون الرسول يزوج علي بن أبي طالب من ابنته فاطمة يشاركه عثمان بل هو أولى؛ لأن عثمان رضي الله عنه لما ماتت بنت الرسول أولًا زوجه الثانية فقد تزوج ابنتين للرسول عليه الصلاة والسلام، ثم إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعلن في آخر حياته إعلانًا لا يمكن أن يحصل لغير أبي بكر قال وهو على المنبر ويبلغ قوله كل الأمة: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِي وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ» مَنْ حصل على هذا؟!!

وقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ لَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُه»[1] وهذا لم يحصل لأحد وقد خلَّفه في الصلاة وخلفه في الحج.

وخلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك في أهله وقال له لما قال: يا رسول الله أتجعلني في النساء والضعفاء؟ قال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّه لَا نَبِيَ بَعْدِي»[2] وهذه المنقبة ما حصلت لأبي بكر وكان خليفته في أهله كما قال موسى لهارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِى﴾ [الأعراف:١٤٢].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (مَنْ) شرطية يعني: أي إنسان يتولى

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٥٠٣)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

هؤلاء الثلاثة: ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يتخذهم أولياء يتولاهم بالمحبة والمودة والنصرة وجميع ما تقتضيه الولاية.

فإن قال قائل: مَنْ يتول الله؟ هل لله حاجة في أن يتولاه؟

فالجواب: نعم الله ليس بحاجة إلى أن نتولاه، لكن الدين بحاجة إلى أن يتولاه أهله ومن تولى دين الله فقد تولى الله كما قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، من المعلوم أن الله عز وجل لا يحتاج إلى ناصر، لكن ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تنصروا دينه ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام يحتاج إلى من يتولاه في حياته ويتولاه ويتولى سنته ويدافع عنها بعد وفاته فتولي الرسول ﷺ يكون بمعنى: تولى سنته ونصرها كما قلنا إن تولي الله أن يتولى دينه ونصرة دينه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتولينا للمؤمنين إلى يوم القيامة يعني: لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق حتى تقوم الساعة يعني: حتى يقرب قيام الساعة؛ لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.

وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لم يقل عز وجل: فإنه الغالب - عز وجل - قال ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ ليكون دالًّا على شيئين:

الأول: أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا فهو من حزب الله.

الثاني: إرادة العموم أن حزب الله لابد أن يكون غالبًا؛ لأن دين الله لابد أن يكون غالبًا، فالمتمسك بدين الله هو من حزب الله وهو غالب ولابد، لكن الغلبة قد تكون في حال الحياة وقد تكون بعد الموت؛ ولهذا نجد الأئمة الذي لم يقدَّر لهم أن يظهروا ظهورًا كاملًا في حياتهم ظهروا ظهورًا كاملًا بعد وفاتهم؛ فالإمام أحمد وابن تيمية وغيرهما من العلماء والأئمة لحقهم من الإهانة من ولاة السوء ما لحقهم وكانت الغلبة لهم، إما في الحياة وإما بعد الموت.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على تولي الله ورسوله والمؤمنين، ويتفرع على ذلك - أو هو حقيقة بمعنى التولي - أن يكون الإنسان دائمًا مرتبطًا بهؤلاء الثلاثة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسبيل المؤمنين ولهذا قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] فكن دائمًا مرتبطًا بهذه الثلاثة.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الثناء الكامل على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، وأن

توليهم من أسباب الغلبة، أما تولي الله فهو شأن فوق ذلك.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن لله تعالى حزبًا، وحزبه الذي يخالف حربه، لأن الله له حزب وله حرب، فمن أقام على شريعته فهو حزبه، ومن خالف شريعته فهو حربه، لكن فيما نُص على أنه حرب لله عز وجل كالربا وقطع الطريق وما أشبه ذلك.

فإن قال قائل: أيمكن أن يستدل بهذه الآية مَنْ أقاموا الأحزاب في بلادهم؟

فالجواب: لا يمكن؛ لأن المفروض أن المسلمين حزب واحد لا يتفرقون، بل هم إذا تفرقوا فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فبرَّأ النبي ﷺ منهم قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فإذا كان هذا شأن من فرقوا دينهم وكل واحد يقول: الدين معي فكيف يقال: إن إقامة الأحزاب في الدين الإسلامي جائزة؟! لأن الله قال: ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ نقول: كل المسلمين حزب الله عز وجل، وما خالف خرج عن هذه الحزبية لكن لا يعني ذلك أن نقول: إنه لابد أن تقام الأحزاب في الدين الإسلامي. ولذلك انظر الآن الأمة.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]

۞ التفسير ۞

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدأ الله هذه الآية بالنداء، وقد بينا فوائد هذا التصدير البلاغي فيما سبق، وتحدثنا عن الإيمان وعرفنا أركانه كما جاء في حديث جبريل وغيره، وعرفنا شرف كون النداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومنزلة المؤمنين العظيمة بمخاطبة الله لهم، وتحدثنا عن واجب المؤمن حينما يسمع هذا النداء، كما قيل: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارعها أذنك، فهو إما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه. وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ بمعنى: لا تصيروا وهي تنصب مفعولين المفعول الأول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: لا تتخذوهم أولياء، ونظيره في الآية السابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ﴾ أي: صيروه، والدين بمعنى: العمل هنا، وقد جاء لفظ (الدين)

في القرآن الكريم يراد به الجزاء ويراد به العمل الذي يُجازى عليه.

مثال الأول قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني: يوم الجزاء.

ومثاله أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الإنفطار: ١٧-١٨].

ويأتي بمعنى العمل كثيرًا مثل قول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

ومثل هذه الآية أي: العمل الذي تدينون الله به وترجون عوضه من الله، ومنه الدَّيْن في المعاملات والاشتقاق واحد، فالدَّيْن في المعاملات دفع الشيء بانتظار عوضه.

وقوله: ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يعني: جعلوه محل استهزاء يسخرون به بألسنتهم واعتقدوا بقلوبهم أنه لعب، واللعب هو الذي ليس له هدف وليس له فائدة فقالوا: لماذا يأتي الإنسان إلى المسجد ويتحرك قائمًا وقاعدًا وساجدًا وما أشبه ذلك؟! قالوا: هذا لعب ليس هذا بِدِينٍ ويسخرون به.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني بهم: اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ بيان للواقع وليس تقييدًا؛ لأن لم يؤتَ أحد الكتاب معنا ولا بعدنا، وإنما كل الذين أوتوا الكتاب كانوا قبلنا، ولكن المراد به هنا: كما هي طريقة القرآن اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ قلنا فيها قراءتان يعني: ولا تتخذوا الكفار أولياء سواء اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا هذا على قراءة النصب.

على قراءة الجر يعني: لا تتخذوا الكفار الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا.

وكل من القراءتين مفيدة جدًّا فهنا نقول: إذا جعلناها بالجر تفيد أن الكفار سوى الكتابيين ممن اتخذوا ديننا هزوًا ولعبًا.

وعلى قراءة النصب تفيد أن نتجنب الكفار وألا نتولاهم مطلقًا، لكن فيها إشارة على قراءة الجر إلى أن الكفار غير الكتابيين يتخذون ديننا هزوًا ولعبًا فيجتمع فيهم السخرية منا واعتقاد أن ديننا لعب والكفر.

وقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي أي: منصور تناصرونهم وتعينونهم وتتقربون إليهم وما أشبه ذلك مما يقتضي أن يكونوا أولياء لنا لا أعداء.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتخذوا وقاية من عذابه، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ تقربًا إليه تبارك وتعالى، ولهذا قال بعضهم في تعريف التقوى: (أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله)، فجمع هنا بين العمل والإخلاص والعلم.

(وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله) [1]؛ ولهذا نقول: إذا اتخذنا وقاية لفعل الأوامر فلابد من ملاحظة الإخلاص؛ لأن إذا لم يكن الإخلاص لم تكن طاعة.

وقوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِن﴾ الشرطية هذه من باب التحدي يعني: إن كنتم صادقين في إيمانكم فاتقوا الله؛ لأن الصادق في إيمانه لابد أن يتقي الله أن يتجنب محارمه أن يقوم بأوامره، فإن لم يفعل فإيمانه ناقص ضعيف.

هل إن الشرطية هنا لها علاقة بما قبلها بحيث نقدر جواب الشرط ما قبلها؟

نقدر فنقول: و اتقوا الله إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله، وهل يستقيم الكلام هكذا أو لا يستقيم؟

يستقيم إذنْ فهي موصولة بما قبلها، وأحيانًا تأتي إن الشرطية غير موصولة بما قبلها مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩]

هذه إن الشرطية ليست متعلقة بما قبلها، لأنه ينعكس المعنى.

لو قلنا: ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإن لم تعلموا فليس خيرًا لكم، فهذا لا يستقيم؛ ولهذا في الآية الثانية ينبغي للإنسان أن يقف قبل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأنه لو وصل حرم من أنه خير إن كنا نعلم، وإن لم نعلم فليس بخير مع أنه خير على كل حال، لكن معنى هذا: إن كنتم من ذوي العلم فافهموا هذا، هذا معناه إجمالًا.

على كل حال الآية التي معنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نقول: هذا الشرط متعلق بما قبله أي: إن كنتم مؤمنين حقًّا فاتقوا الله؛ لأن الإيمان حقًّا يحمل على التقوى.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفار أولياء فتكون هذه أعم من الآية السابقة ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾، لأنه ضم إليهم في هذه الآية الكفار.

٢- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الإغراء التام عن اتخاذهم أولياء، وذلك بإثارة الحمية والغيرة في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يعني: أي إنسان يشعر بأن شخصًا يسخر به في دينه ويقول: هذا الدين لعب لا فائدة منه لا شك أنه سيثور.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إظهار هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والكفار عداوتهم للإسلام، وأن عداوتهم ظاهرة؛ حيث كانوا يسخرون بأهله المتمسكين به.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العلم قد يكون وبالًا على صاحبه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، فإن هؤلاء أُعطوا العلم وَوُصِفَ لهم الرسول عليه الصلاة

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٥٦).

والسلام في التوراة والإنجيل وصفًا يجعلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم ينفعهم هذا العلم.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على التقوى التي من جملتها: البعد عن اتخاذ هؤلاء أولياء؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٦- ومن فوائدها: أن الإيمان الحقيقي مقتضٍ للتقوى؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائل: هل التقوى خاصة بالله؟

نقول: أما تقوى العبادة فإنها خاصة بالله ولا يجوز أن يُتَّقَى شيء على وجه التعبد إلا الله عز وجل. وأما تقوى ما يُخْشَى منه فهذه تكون لله ولغيره ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، فمعلوم أن هذه ليست تقوى عبادة يعني: لم يأمرنا الله عز وجل أن نعبد اليوم بالتقوى، لكن هذا اتقاء ما يُخْشَى منه.

ويقال: (اتقِ شرَّ من أحسنت إليه) هل تقوى عبادة؟ لا، يعني: احذر واخشَ وليست هذه تقوى عبادة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥٨ - ٦٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ مبينًا حال هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، وكذلك الكفار ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ أي: دعوتم الناس إليها بالصفة المعروفة.

ولما قَدِم النبي ﷺ المدينة وصار للأمة دولة إسلامية ومجتمع كبير تشاوروا فيما بينهم كيف يجمعون الناس إلى الصلاة فمنهم من اقترح أن توقد نيران إذا دخل الوقت يُعْلَم بها دخول الوقت، ورُفِضَ هذا الاقتراح؛ لأن هذا من عادة المجوس، ولأن هذه النيران في النهار لا تفيد شيئًا، أُقْتُرِحَ ناقوسًا فَرُفِضَ هذا الاقتراح؛ لأن هذا من علامة صلاة النصارى، واقترح بوقًا ينفخ ويكون له صوت فرُدَّ هذا الاقتراح؛ لأنه من شعائر دين اليهود.

ويسَّر الله عز وجل أحد الصحابة وهو عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه رأى في المنام رجلًا معه ناقوسًا أو بوقًا فقال له: أتبيع هذا؟ قال: لأي شيء؟ قال: لأُعْلِمَ به للصلاة، فقال: ألا أدلك على خير من هذا؟ ثم أَسْمَعه الأذان كله فلما أصبح غدا على النبي ﷺ وأخبره وقال: «إِنَّهَا لَرُؤْيَةُ حَقٍّ» وأقرها النبي ﷺ وأمر عبد الله بن زيد أن ينقله إلى بلال وعلل ذلك فقال: «إِنَّهُ كَانَ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»(1)، ولم يقل: له أعطه ويسكت؛ لأنه لو سكت لكان في قلب عبد الله بن زيد شيء إذ إنه هو الذي رآه فكان أولى الناس بالقيام به، لكن من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يبين حكمة الشيء حتى يطمئن القلب، فبين أنه أندى صوتًا منه فنادى به، ونعم النداء تعظيم لله عز وجل شهادة له بالتوحيد وشهادة للرسول بالرسالة، ودعوة للصلاة، ودعوة للفلاح وختام بالتعظيم والتوحيد فأي دعوة أحسن من هذه؟! لا شيء فهي دعوة عظيمة؛ ولهذا يقول يجيب المؤذن: «اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ(2)»(3)، حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام جعلها من شعار البلاد الإسلامية فكان إذا نزل بقوم انتظر فإذا أذنوا ترك قتالهم؛ لأن الأذان من شعائر الإسلام الظاهرة التي لا يجوز للمسلمين أن يدعوها ولا يجوز لغير المسلمين أن يهجموا على بلد يُؤَذَّن فيها، وربما يكون هذا هو علامة كون الدار دار إسلام: أن يُعلن فيها الأذان لأن الرسول ﷺ إذا سمع الأذان كفَّ عنهم وعلم أن بلادهم بلاد إسلام، ويكون هذا هو الفيصل في معنى دار الإسلام.

قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: بالأذان.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كلمة عامة تشمل الجمعة والفرائض الخمس.

وهل نقول وغيرها؟ الجواب: لا، لا نقول وغيرها.

إذنْ هو عام أُرِيد به الخاص وهو ليس العام الذي خُصِّص؛ لأن العام الذي خُصِّص أُرِيد عمومه أولًا ثم ورد عليه التخصيص ثانية، والعام المراد به الخاص لم يُرِد عمومه أصلًا وعلى هذا فنقول: الصلاة هنا عام أُرِيد به الخاص.

فصلاة الاستسقاء لا يؤذن لها مع أنه يُجتمع لها، وصلاة العيدين لا يؤذن لها مع أنه يجتمع لها، وصلاة الكسوف لا يؤذن له مع أنه يجتمع لها، وصلاة قيام الليل في رمضان لا يؤذن لها مع أنه

(1) حسن: رواه أبوداود (٤٩٩)، وابن ماجه (٧٠٦)، وأحمد في «مسنده» (١٦٥٢٥) من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٢٤٦).

(2) المراد ألفاظ الأذان يدعى بها إلى عبادة الله تعالى ووصفت بالتمام وهو الكمال لأنها دعوة التوحيد المحكمة التي لا يدخلها نقص بشرك أو نسخ أو تغيير أو تبديل.

(3) رواه البخاري (٥٨٩)، وأبوداود (٥٢٩)، والترمذي (٢١١)، والنسائي (٦٨٠)، وأحمد في «مسنده» (١٤٨٥٩) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه .

يجتمع لها.

لكن الكسوف اختص بدعوة خاصة حتى لا يلحق بالفرائض التي تتكرر كل يوم وذلك بأن يقال: الصلاة جامعة؛ لأنه يأتي بغتة والناس غافلون.

إذنْ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويقصد بذلك ستُّ صلوات هي الصلوات الخمس والجمعة.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: جعلوا يسخرون ويستهزئون.

و﴿هُزُوًا﴾ فيها ثلاث قراءات: (هُزُوًا) بضم الزاي إذا كانت بالواو، (هُزْءًا) بسكون الزاي والهمزة، (هُزُءًا) بضم الزاي والهمزة. وسبق معنا الفرق بين الهزؤ واللعب.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ذلك المشار إليه: قولهم أو اتخاذهم.

وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس لهم عقول ـ أي: عقول راشدة مدركة ـ، والفرق بينهما العقول المدركة هي: العقول التي يترتب عليها التكليف، وهو الوصف الذي تجدونه في كتب الفقهاء من شروط الصلاة ـ مثلًا ـ كالتمييز والعقل ـ فهذا عقل الإدراك ـ لكن عقل الإرشاد هو: الذي انتفى عن كل كافر، فكل كافر ليس عاقلًا عقل إرشاد، هو عنده ذكاء، وعنده إدراك للأمور ويعرف من الواقع ما لا يعرفه كثير من المسلمين، لكنه ليس بعاقل؛ لكفره بالله عز وجل، والعقل يهدي إلى الحق؛ إذنْ قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ليس لهم عقل إرشاد، ولو عقلوا لعظَّموا هذه الصلاة العظيمة التي لا نعلم أن في دين الإسلام شيء أعظم منها ما عدا التوحيد والرسالة؛ لأنها اختصت بخصائص عظيمة، ولا يخفى على كثير أنها فرضت من الله عز وجل إلى رسوله بدون واسطة، ولم تفرض على الرسول وهو في الأرض، بل في أعلى مكان يصله البشر، وأيضًا لم تفرض عليه بهذا القدر الكمي بل فرضت خمسين صلاة تستوعب كثيرًا من الوقت إن لم يكن أكثر وقت اليقظة، وهذا يدل على محبة الله تبارك وتعالى لها ولما كان الله يحبها كانت قرة عين الرسول ﷺ قال النبي ـ ﷺ ـ: **«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»**[1]

هذه الصلاة العظيمة هل يمكن لأي عاقل ـ عقل إرشاد ـ أن يتخذها هزوًا ولعبًا؟ أبدًا، بل يتخذها مكان التعظيم والاحترام؛ لأن الإنسان إذا جاء يصلي فمن يناجي؟ ومن يقف بين يديه؟ يقف بين يدي الله ويناجي الله وليس بينه وبينه أحد يقول: الحمد لله رب العالمين فيقول **«حَمِدَنِي عَبْدِي»**[2]، ثم يأتي برياض من العبادات من قرآن، وتكبير، وتعظيم لله، وانحناء لله، وسجود لله ـ

---

(١) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣١٥) من حديث أنس ﷺ، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، وأبوداود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجه (٣٧٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يعني روضة عظيمة من رياض الصلاة فكيف يمكن لعاقل أن يتخذها هزوًا ولعبًا ـ والله لو قيل: إن الإنسان منا له الآن مقابلة مع الملك أو الرئيس ماذا يفعل؟ يتأهب ويتجمل ويتطيب ويتخذ لذلك عدة واستعدادًا، فكيف إذا كان يريد أن يقف بين يدي الله عز وجل الذي هو أحب الأشياء إليه؟ سيكون لهذا تأثير عظيم لو كنا نعقل، لكن العقل ـ عقل الإرشاد ـ عندنا قليل، بل كثير من المسلمين اليوم ـ ونسأل الله أن يعفو عنا وعنهم ـ يأتون إلى الصلاة ويقيمون الصلاة جسمًا لا روحًا ولا تتسلط عليه الشياطين بالهواجس إلا إذا دخل في الصلاة، ثم إذا سلَّم من الصلاة فكأنه سحاب استدبرته الريح، كل الهواجس هذه تذهب عنه، فلذلك كان الذين يتخذون الصلاة هزوًا ولعبًا، لا شك أنهم قوم لا يعقلون والذين يعظمونها وينزلونها منزلتها هم أهل العقل والرشاد.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة: بيان لشدة وقع الصلاة على أعدائنا الكفار واليهود والنصارى وجه ذلك: أنه لما ذكر في الآية التي قبلها أنهم يتخذون ديننا لهوًا أو لعبًا خص الصلاة بعدها، وتخصيص الشيء من العموم يدل على العناية به وعلى شرفه على العموم.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: مشروعية النداء للصلاة؛ لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وكما قلنا النداء يعني به: الأذان.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن النداء للصلاة أمر معروف بالضرورة من الدين؛ لقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فكأن هذا أمر معلوم مفروغ منه.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية: أنه إذا كان النداء للصلاة مشروعًا كان عبادة يتقرب به المنادي إلى الله، فالأذان من أفضل الأعمال حتى إن الله خص للمؤذنين بخصيصة يوم القيامة ليست لغيرهم **«كانوا أطول الناس أعناقًا[1]»[2]**، فرفع الله رؤوسهم برفع أعناقهم لرفعهم ذكره بين العباد، فهم يختصون بهذه الخصيصة التي لا يشاركهم فيها غيرهم.

فإن قال قائل: أهو أفضل أم الإمامة؟

فالجواب: أنه ـ أي: الأذان ـ أفضل من الإمامة لأن النصوص الواردة فيه أكثر من النصوص الواردة في الإمامة من حيث الفضل.

فإن قال قائل: إذا كان أفضل من الإمامة فلماذا لم يؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يؤذن

---

(١) جمع عُنُق واختلف السلف والخلف في معناه فقيل معناه أكثر الناس تشوفا إلى رحمة الله تعالى لأن المتشوف يطيل عنقه إلى ما يتطلع إليه فمعناه كثرة ما يرونه من الثواب وقال النضر بن شميل إذا ألجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم لئلا ينالهم ذلك الكرب والعرق.

(٢) رواه مسلم (٣٨٧)، وابن ماجه (٧٢٥) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي؟

قلنا: بانشغالهم بما هو أهم ونحن لا نريد الآن المفاضلة بين الأذان وغيره من سائر العبادات بل بين الأذان والإمامة، ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين لو ألزموا أنفسهم بالأذان لكانوا يبقون مراقبين للأوقات مدة طويلة، وفي ذلك الوقت ليست الساعة في جيب الإنسان يخرجها ويعرف أن الوقت حضر وليس هناك مَنْ يرقب الشمس ويعرف هل الآن ستزول أو لا تزول أو زالت أو لم تزل فهم مشتغلون بما هو أهم من التفرغ للأذان.

فإن قال قائل: أفلا يمكنهم أن يوكلوا من يراقب لهم الأوقات فإذا دخلت جاءوا؟

قلنا: هذا يسقط عنهم عناء كثيرًا من الأذان الذي ربما يحصل الفضل من أجل هذا المعنى فيفوت المقصود.

فالحاصل: أن القول الراجح من أقوال العلماء أن الأذان أفضل من الإمامة.

فإذا قال قائل: غير المؤذنين أفلا يكون لهم حق؟

قلنا: بلى، لهم حق ـ والحمد لله ـ وهو مشروعية متابعة المؤذن يعني: أنه شُرِع لنا أن نقول مثل ما يقول المؤذن حتى لا يمتاز عنا بعمل ليس لنا منه حظ، وهذا من نعمة الله ورحمته وحكمته أنه لم يحرم غير المؤذنين من شيء من أجل الأذان، فنحن مأمورون بمتابعة المؤذن أن نقول مثلما يقول، إلا في حي على الصلاة وحي على الفلاح لا نقول هذا لو قلنا مثله لكننا ندعوه، وهو الآن يقول: حي على الصلاة، فإذا قلنا: حي على الصلاة تعارض النداءان، لكنا نقول ما يدل على أننا نقول سمعًا وطاعة وهو: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكأننا قلنا: سمعًا وطاعة، ونسأل الله أن يعيننا؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

فإن قال قائل: إذا ثبت أن الأذان عبادة فما تقولون في بعض الناس الذين ثبَّطهم الهوى وصاروا يجعلون مسجلًا عند مكبرات الصوت فإذا جاء وقت الأذان فتحوا المكبر؟

نقول: هذا خطأ وغلط عظيم وتفويت خير على الأمة، وهذا ليس مؤذنًا، لكنه حاكيًا لصوت مؤذن سابق، ولذلك يؤذن أو يجعل المسجل بصوت إنسان قد مات فليس هذا عبادة.

وفي رأيي لا يُحْسِن به أداء الفريضة إذا لم يكن مؤذن آخر يُسمع في هذا المكان؛ لأن هذا مجرد صوت ليس رجلًا متعبدًا يقوم لله متعبدًا بهذا الأذان، فهو مجرد صوت كما لو جعلنا جرس الساعة إذا سُمع معناه أنه دخل الوقت، وهذه نقطة ينبغي لنا أن نعرفها أن الدين الإسلامي عبادة ذات جسد وروح، ليس مجرد طقوس تُسمع أو حركات تفعل، بل هو عبادة، فالأذان عبادة إذنْ يجب أن يكون عبادة.

ولو أراد أن يقيس قائس على هذا وقال: ننقل بالشريط صلاة إمام حسن القراءة حسن

الصوت ونجعل الشريط أمام المصلين ونجعله يصلي بهم هل هذا يصلح أو لا يصلح؟

نقول: بالاتفاق لا يصلح ولا إشكال مع أنه سيقول: الله أكبر تكبيرة الإحرام على أحسن ما سيكون والقراءة على أحسن ما سيكون، وعندما يركع يقول الله أكبر للركوع ويرفع صوته قليلًا سبحان الله العظيم؛ لأنه ما يرى، لكن يقول بدل من أنهم لا يرونني أرفع صوتي بالتعظيم سبحان الله العظيم، وهكذا لا أحد يقول هذا يصلح، فالأذان مثلًا حذو القذة بالقذة؛ لأننا لا نريد مجرد صوت نعلم به دخول الوقت.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تعظيم الصلاة حيث يُنادى لها، وحتى يعلم الناس دخول وقتها فيصلوا ويحضروا إن كانوا ممن يجب عليهم الحضور للجماعة.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القيام للصلاة دليل على كمال العقل، وأن من لم يهتم بها فإن ذلك دليل على نقص عقله لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، فتكون إقامة الصلاة من تمام العقول والتهاون بها من نقص العقول كما أنه نقص دين.

ثم قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام يعني: قل لهم أي: ناظرهم جادلهم، وأهل الكتاب المراد: اليهود والنصارى.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ (هل) هنا استفهامية، والمراد بها النفي؛ لأننا ذكرنا إذا جاء الاستثناء بعد الاستفهام فهو للنفي، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ أي: ما تنقمون منا إلا كذا، وهو نظير قوله تعالى في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بماذا تعيبونا بأي شيء إلا بهذا وهل هذا عيب، أي: الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل هل هو عيب؟ ليس بعيب فكأنه قال: أنتم لا تعيبون علينا شيئًا هو عيب، بل تعيبون علينا شيئًا هو كمال وهو الإيمان بالله، وما أنزل إلينا، ومثل هذا الأسلوب يسميه علماء البلاغة: تأكيد المدح بما يشبه الذم، ولا بأس أن نقول: إن تأكيد المدح بما يشبه الذم له صورتان:

الصورة الأولى: (نفي وإثبات) تنفى صفة الذم ويؤتى بعدها صفة المدح بصفة مدح مثبتة، لكن الأول تُنفى صفة العيب ويؤتى بعدها بإثبات صفة كمال فهذا يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم.

قال الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ نَزِيلَهُم ... يُعَابُ بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ وَالوَطَنِ[1]

---

(١) «خزانة الأدب» (٢/ ٣٩٩).

يعني: أن فيهم نسيان عن الأحبة والوطن هذا عيب أو مدح؟ مدح، لكن في الأول: (ولا عيب فيهم غير أن) هذه عندما تسمعها تترقب الذم.

وكذلك قول الشاعر[1]:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ | بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

الأول يمدحهم بالكرم، والثاني بالشجاعة هذا ليس فيهم عيب، لكن إن ينزل عليهم ضيف ينسى كل شيء لإكرامهم الضيف واحتفائهم به.

وكذلك الآخر لا عيب فيهم غير أن سيوفهم يعني: ليس فيهم أي جبن وليس فيهم عيب إلا أن سيوفهم قد تسلمت من القرع للكتائب من شجاعتهم، هذه الصورة من صور تأكيد المدح بما يشبه الذم.

الصورة الثانية: أن يؤتى بصفة مدح ويستثنى بعدها صفة مدح.

تقول: هذا الرجل عالم إلا أنه شجاع، هذا مدح أم ذم؟

مدح فهو عالم إلا أنه وكان المتوقع أن يأتي بعدها بصفة ذم، فإذا به يقول: إلا أنه شجاع، هذا أيضًا من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا مدح إذنْ الخطاب لهؤلاء نقول لهم: إنكم لا تنقمون منا إلا هذا، وهذا ليس مما يقتضي أن تنقموا منا.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو: القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ وهو: التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم والزبور وغير ذلك، نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على كل رسول، هل هذا يُنقم من الإنسان؟ لا ما يمكن، لكن هؤلاء نحن ننقم منهم أنهم لم يؤمنوا بما أنزل إلينا بل نقول: إنهم لم يؤمنوا بما أنزل إليهم أيضًا، فأهل الكتاب الآن لا يؤمنون بما أنزل إلينا وحقيقة هم لم يؤمنوا بما أنزل إليهم؛ لأنهم لو آمنوا بما أنزل إليهم لآمنوا بما أنزل إلينا؛ إذ إن ما أنزل إلينا مصدق لما أنزل إليهم، لكن هم يكذبون هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ الصواب الذي قد يكون متعينًا أنها معطوفة على ﴿بِٱللَّهِ﴾ يعني:

---

(١) هو النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. كان حظياً عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب منه النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمناً. ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه. شعره كثير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو. عاش عمراً طويلاً.

إلا أن آمنا بأن أكثركم فاسقون؛ لأن أكثركم فاسقون أي: خارجون عن طاعة الله بالكفر.

قد يقول قائل: إذا حملتها على هذا المعنى فهم ينقمون؛ لأنهم لا يريدون أن أكثرهم فاسقون فينقمون منا أن نؤمن أن أكثرهم فاسقون؟ فيقال: هذا لا نستحق أن ينقموا منا به؛ لأننا لم نقل وأنكم فاسقون بل نقول: وأن أكثركم فاسقون وهذا هو العدل؛ لأن منهم من كان مؤمنًا وآمن فعلًا مثل النجاشي من النصارى وعبد الله بن سلام من اليهود، لكن أكثرهم فاسقون.

فهذا عدل كأنه قال: ما تنقمون منا إلا أن قمنا بما يجب لله وما يجب في عباد الله، ما الذي يجب لله؟ الإيمان به وبما أنزل.

وما يجب لعباد الله؟ العدل بأن نعطي كل إنسان ما يستحق.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحدي هؤلاء الذين ينقمون من أهل الخير خيرهم لقوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا ليس في محل نقض أو كراهة.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذه الأمة لها فضل ومزية على الأمم السابقة؛ لأنها تؤمن بالله وما أنزل إليها وما أنزل من قبل وهذا لا يوجد في أمم آخرين لا يوجد إلا في هذه الأمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولا يمكن أن نكون شهداء على الناس إلا إذا كانوا سبقونا؛ حتى نعلم ما حصل لهم؛ إذنْ يستفاد من هذا: فضيلة هذه الأمة لكونها تؤمن بالله وما أنزل إليها وما أنزل من قبل.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمؤمن أن يكون صريحًا فلا يداهن؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ وهذه مقابلة صريحة.

٤- **ومن الفوائد أيضًا:** الاحتراز الذي يراعى فيه العدل؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ ولم يقل: وأنكم فاسقون فلو كنا نؤمن بأنهم فاسقون كلهم لكان هذا محل نقض، لكننا لا نقول إلا أن أكثرهم فاسقون.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الفسق يراد به: الكفر، وهذا واضح حتى في القرآن في غير هذه الآية ما يدل على أن الفسق يراد به الكفر ويراد به الخروج عن الطاعة فيما دون الكفر كقوله تبارك وتعالى في سورة السجدة: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ [السجدة:١٨] فالمراد بالفاسق هنا: الكافر؛ لقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة:٢٠]، والذي يكذب بالنار ففسقه كفر.

والفسق الذي لا يُخرج من الملة مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ

فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]

إذنْ المراد بهذه الآية: ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أن الفسق هو: الكفر؛ لأنهم كذبوا محمدًا ﷺ.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾

قوله: ﴿قُلۡ﴾ يعني: يا محمد، ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ يا أهل الكتاب أي: أخبركم بالأمر العظيم؛ لأن النبأ يراد به: الشيء العظيم كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص:٦٧] وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ:١ ـ ٢] بخلاف الخبر، فالخبر قد يكون بأمور تافهة، لكن النبأ لا يكون إلا في أمور هامة ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ؛ لأن أحد اشتقاقاته من النَّبْوَة وهي بمعنى: الارتفاع.

وقوله: ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه صلاة المسلمين الذي اتخذها هؤلاء هزوًا ولعبًا وقالوا: ما هذا العمل؟! ما هذا اللعب؟! ـ يستهزئون ـ، ومعلوم: أن الاستهزاء بالعمل يستلزم استهزاء بالعامل.

فقال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ و﴿مَثُوبَةً﴾ أي: عاقبة وهي منصوبة على التمييز؛ لأنها مفسرة لما أبهم من التفضيل في قوله: ﴿بِشَرّٖ﴾؛ لأن أصل الشر (أشر) فعل تفضيل، والاسم المنصوب بعد اسم التفضيل المفسر له يسمى عندهم تمييز مثل أن تقول: محمد أكثر منك علمًا فـ (علمًا) هنا تمييز؛ لأنه مفسر للمبهم من اسم التفضيل.

إذنْ ﴿مَثُوبَةً﴾ نعربها على أنها تمييز، والمثوبة بمعنى: العاقبة؛ لأنها من ثاب يثوب إذا رجع فهي بمعنى العاقبة والمآل.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا هو المهم، المهم هو المنزلة عند الله عز وجل لا عند الخلق، فإذا كانت منزلتك عالية عند الله وخير فهذا هو المهم، وهذا هو المطلوب، واعلم أنه متى كنت في منزلة عالية عند الله فسوف تكون في منزلة عالية عند الخلق والعكس بالعكس؛ ولهذا جاء في الحديث «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ فِي سَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُئُونَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ فِي سَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسِ»(١).

وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَن﴾ هذه اسم موصول، وهي خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو من لعنه الله هذا هو شر مثوبة عند الله وهو من حصلت عليه هذه النكبات العظيمة، و﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده عن رحمته وهم اليهود والنصارى ـ لعنهم الله ـ قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة:٧٨] وقال النبي ﷺ:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٦) من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠١٠).

«لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى»[1]، فهم ملعونون مطرودون من رحمة الله كما لُعِن إبليس، لكن هم يُرجى أن يؤمنوا، أما إبليس فلن يؤمن، وهذا هو الفرق وإلا فهم ملعونون مطرودون عن رحمة الله.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ و غضب الرب عز وجل أشد من لعنته؛ لأن الطرد والإبعاد عن رحمته قد يصحبه غضب، وقد لا يصحبه فيكون المقصود حرمان هذا الإنسان من الجنة، وإن لم يكن غضب، ويدل على أن الغضب أشد: قوله تبارك وتعالى في آية اللعان، واللِّعان سببه أن الرجل يرمي زوجته بالزنا، ومعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يرمي زوجته بالزنا إلا وهو صادق؛ لأن هذا يدنس فراشه، ومن ثَمَّ قامت الشهادات مقام الشهود وغير الزوج فلو رمى امرأة بالزنا قلنا: إما أن تأتي بأربعة شهود وإلا حد في ظهرك، والزوج ما يحتاج أن نقول له ذلك نقول: لاعن إذا لم تقر الزوجة تلاعنا فيُؤْتى بالرجل ويقال: أشهد أربعة مرات أن المرأة هذه زنت فيقول: أشهد وفي الخامسة يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَ﴾، والضمير هنا يجب أن يكون ضمير متكلم عندما يتكلم به الزوج، لكن هذا من باب تحاشي الإضافة لغير المتكلم؛ لأن اللعن ما هي على المتكلم إنما اللعنة على الزوج.

لأن اللعن مبني على المتكلم، فاللعن على الزوج؛ ولهذا يقول: وإن لعنة الله عليَّ، فيشهد أربع مرات أن الزوجة زنت، وفي الخامسة يقول: و﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وهي تشهد برد كلام الزوج أربع مرات أنه كاذب، وفي الخامسة وتشهد ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ومعلوم أن كذبها أي: ـ الزوجة ـ أشد من كذب الزوج، لأن الزوج أقرب منها إلى الصدق، وهي ربما تفعل هذا ـ يعني تشهد على أنه كاذب ـ لدرء السمعة السيئة عنها وعن قومها، لكن الزوج لا يجدي من وراء هذا شيئًا، ولهذا كان الغضب في جانبها، واللعن في جانب الزوج، ومنه عرفنا أن الغضب أشد من اللعن.

وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ إذنْ اليهود: مغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق ولم يعملوا به، والآية تدل على أن النصارى مغضوب عليهم أيضًا، لتكذيبهم لرسول الله ﷺ، ولا فرق بينهم وبين اليهود، بل هم أخبث من اليهود بالنسبة للمسلمين، والحروب الصليبية خير دليل على ذلك والتي إذا قرأها الإنسان عرف شدة عداوة النصارى للمسلمين.

وهم الآن في وقتنا الحاضر عونًا لليهود يناصرونهم، ويدافعون عنهم، ولا تفتيش على أسلحتهم، ولا إنكار على فعائلهم، وهذا شيء لا يخفى على العُميان فضلًا عن المبصرين، إذنْ

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ينطبق في هذه الآية على اليهود والنصارى؛ لأن اليهود ما اتبعوا الرسول وهم يعلمون أنه على الحق، والنصارى بعدهم ما اتبعوا الرسول بل عدلوا عن الحق وأنكروه، فيكونون جميعًا تحت هذه المظلة ـ مظلة الغضب ـ.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وسبب جعل هؤلاء قردة هو أنهم تحايلوا على صيد الحيتان المحرمة عليهم صيدها في يوم السبت، فتحايلوا عليه؛ ليلتقطوها يوم الأحد.

يقول العلماء: يضعون شباكًا في يوم الجمعة ويوم السبت ـ سبحان الله ـ ابتلاهم الله بأن تأتي الحيتان شُرعًا عليهم طافية من كثرتها، لكن لا يجوز أن يصطادوا؛ لأنه محرم عليهم، فكأنهم عجزوا عن تحمل هذا الحكم. فماذا فعلوا؟ تحيَّلوا فوضعوا الشباك يوم الجمعة حتى تأتي الحيتان يوم السبت في الشبك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، هنا هذا الفعل ظاهره الإباحة؛ لأنهم لم يصطادوا يوم السبت واصطادوا يوم الأحد، فلما كانت هذه الفعلة المحرمة شبيهة بالحلال مسخهم الله ـ عز وجل ـ قردة؛ لأنه شبيه بالإنسان؛ فالجزاء من جنس العمل.

مسألة: هل هم صاروا قردة معنىً أم حسًّا؟

الجواب: صاروا قردة حسًّا، هذا الذي علمته من المفسرين وهو ظاهر القرآن، وإن كان بعض المعاصرين ذهب إلى أنهم كانوا قردة معنىً، أي: صاروا مثل القرود ليس عندهم أفكار بني آدم، ولا عقول بني آدم، لكن يقال الأصل هو الحقيقة،والله على كل شيء قدير، فالذي خلق الإنسان على هذا الوصف قادر على أن يقلبه على وصف آخر، ولهذا قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥] فصاروا قردة، لكن هل بقوا؟

الجواب: لا، لأن المقصود من كونهم قردة أن يكونوا عبرة ونكالًا، ولا يلزم من هذا أن تتسلسل الذرية، قال أهل العلم: إنه لا نسل لمن مُسخوا حيوانًا.

مسألة: هل في القرآن أن بني إسرائيل صاروا خنازير؟

الجواب: نعم، إذ حكى الله عنهم أنهم صاروا خنازير ولعل ـ والله أعلم ـ هؤلاء الذين قُلِبُوا قردة وخنازير لعل حيالهم كانت على الزنا؛ لأن المعروف أن الخنازير ليس لها غيرة إطلاقًا، فكل الحيوان غير الخنزير يغار لأحد يقترب من إناثه إلا إذا كان غائبًا، لكن الخنزير ينزل عن أنثاه ويقول لصاحبه: اصعد، نعم يقولون: ليس له غيرة، وهذه من حكمة الله عز وجل أن حرم الخنزير؛ لأنه ليس له غيرة.

المهم علينا أن نؤمن بأن الله جعل من أهل الكتاب قردة وخنازير.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عبد الطاغوت فيها قراءتان الأولى: ﴿عَبَدَ الطاغوت﴾ على أن عبد فعل ماضٍ والطاغوت مفعول به، وعلى هذا فتكون معطوفة على صلة الموصول وهو قوله: ﴿مَن

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾. إذنْ ﴿وَعَبَدَ﴾ فعل ماضٍ فيها ضمير مستتر يعود على ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، والطاغوت مفعول به.

فقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عبده عبادة بركوع وسجود وطاعة، والمراد بالطاغوت ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف من أجمع التعاريف قال: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالإنسان قد يتجاوز الحد في عبادة أحد غير الله فهذا المعبود طاغوت، فكل إنسان يتجاوز الحد في اتباع غير شريعة الله فقد اتخذ طاغوتًا، وكل إنسان يتجاوز حده في طاعة سلطان أو أمير فقد اتخذه طاغوتًا.

إذنْ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ لأن أصل الطاغوت من الطغيان.

فإن قال قائل: هذا المعبود كيف نسميه طاغوتًا، وهذا المتبوع كيف نسميه طاغوتًا وهذا المطاع كيف نسميه طاغوتًا؟

قلنا: الطاغوت هنا بمعنى الطغيان، والطغيان ليس وصفًا للمفعول به هو وصف للفاعل أي: للعابد الذي عبد غير الله أو رفع غير الله ندًّا لله، أو اتبع غير رسول الله في معصية الله ـ عز وجل ـ

أما القراءة الثانية: (وعَبُدَ) عَبُدَ الطاغوت لكن تكون على هذه القراءة الطاغوت بالجر على أن (عَبُدَ) اسم مفرد كما يقال: (السَبْعُ) و(السَبُعُ). فيقال: (العَبْدُ) و(العَبُدُ) فهما لغتان، وعلى هذا على هذه القراءة نقول: (عَبُدَ الطَّاغُوتِ)، وتكون معطوفة على القردة؛ أي: وجعل منهم عبد الطاغوت، وأهل الكتاب عبدوا الطاغوت باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فإن الله قال عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١].

قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ: يا رسول الله لسنا نعبدهم فبيَّن له أن طاعتهم في معصية الله هي عبادتهم[1].

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الجملة هذه أحسن ما يكون في تقرير أن هؤلاء شر من المسلمين في المكانة؛ ولهذا لم تأت جوابًا من الرسول، بل جاءت جوابًا من الله عز وجل أول الآية: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾؟ يقول القائل: نعم نَبِّئْنَا هذا كلام صائب لكن هنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بهذا الكلام اللعنة والغضب والمسخ، والرابع: عبادة الطاغوت

(١) صحيح: انظر «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٣).

﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ممن؟! من المؤمنين بالله الذين آمنوا بالله وما أنزل إليهم وما أنزل من قبل شر مكانًا؛ وذلك لأن هؤلاء مكانهم النار ـ والعياذ بالله ـ وأولئك المؤمنون مأواهم الجنة.

فإن قال قائل: المعروف أن اسم التفضيل يشترك فيه المفضل والمفضل عليه في أصل المعنى فهل في الجنة شر؟

الجواب: لا، ليس فيها شر لكن هذا كقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**خَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**» مع أن الآخر ما فيه شر «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا**»(1) وعكسه مثل قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] مع أن أصحاب النار ليس عندهم خير ولا حسن مقيل، فمثل هذا التفضيل يقول علماء البلاغة: هو تفضيل ليس للطرف الآخر منه شيء سواء كان في خير أو في شر.

وقوله: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هل المراد بالمكان ما يقابل الزمان أو المراد بالمكان المكانة والمنزلة أو الأمران؟!الأمران، فهم مكانهم شر؛ لأنه النار ومكانة شر؛ لأنهم الأرذلون.

وقوله: ﴿وَأَضَلُّ﴾ هذه معطوفة على ﴿شَرٌّ﴾ يعني: وأولئك أضل عن سواء السبيل.

الفوائد:

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: عرض الخطاب بصيغة الاستفهام؛ لأن ذلك أمكن للنفس وأحفظ للقلب ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾. ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢٢١]. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:١٠٣].

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء اليهود الذين سخروا من النبي ﷺ وأصحابه هم شر مكانًا، وأضل عن سواء السبيل، لما اتصفوا به من الصفات المذكورة ﷺ.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العبرة في المنزلة عند الله؛ لقوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾.

ويتفرع على هذا: أنه ينبغي لنا ألا ننظر إلى منزلتنا عند الناس وأن ننظر إلى منزلتنا عند الله ـ عز وجل ـ وإذا خصصنا ذلك كفانا الله مئونة الناس.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن اسم التفضيل قد يقع فيما لا يشتركان في أصل المعنى أو يقع بين شيئين لا يشتركان في أصل المعنى؛ لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾؛ لأن النار هي أشر من ذلك؛ إذ الجنة ليست شر أصلًا، وكذلك في الخير: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان:٢٤] ولا خير في مستقر أهل النار.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أولئك اليهود بل أهل الكتاب عمومًا وصِمُوا بهذه الصفات الأربع: اللعنة والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

---

(١) **صحيح:** رواه مسلم (٤٤٠)، وأبوداود (٨٢٠)، وابن ماجه (١٠٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الغضب لله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، وفي سورة الفاتحة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، والغضب صفة من صفات ذاته عز وجل، لكنه من الصفات الفعلية وكونها نُسبت لذاته؛ لئلا يقول قائل: إن الغضب هو الانتقام، والانتقام شيء منفصل عن ذات الله وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الغضب صفة من صفات الله ثابت لله حقيقة بلا تحريف، وفسره أهل التحريف بأن المراد به: الانتقام، أو إرادة الانتقام، فمن أثبت الإرادة قال: المراد به إرادة الانتقام، ومن لم يثبتها قال: المراد به الانتقام، ولكن هذا التفسير مردود:

أولًا: لمخالفته ظاهر الخبر، والأصل في الأخبار أن تؤخذ على ظاهرها إلا بدليل صحيح.

ثانيًا: أنه مخالف لما عليه السلف، فلم يأت عن الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة حرف واحد يفسر الغضب بالانتقام أو إرادته، وسكوتهم عن تفسيره بما يخالف الظاهر دليل على إجماعهم على أن المراد به ظاهره، فيكون تفسيره بالانتقام أو إرادته مخالفًا لإجماع السلف.

ثالثًا: أنه يكذِّبه القرآن يعني: يبطل هذا التفسير القرآن الكريم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥]. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾: أي: أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ومعلوم أن الجزاء غير الشرط ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾ جواب الشرط و﴿ءَاسَفُونَا﴾ فعل الشرط، وجواب الشرط يخالف الشرط بلا شك فهذه الآية الكريمة ترد عليهم بهذا التفسير.

الرابع: أننا إذا تنزلنا معهم وقلنا: إنه الإرادة إرادة الانتقام أو الانتقام، فإن لازم ذلك أن يكون هناك غضب؛ لأن إرادة الانتقام أو الانتقام نفسه لا يكون إلا عن فعل شيء لا يرضاه المنتقم، وهذا يكون نتيجة للغضب فهو لابد أن يلزمه إثبات الغضب لله عز وجل، وهنا عبارة يذكرها بعض المحققين يقولون: إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذه العبارة فيها حق وباطل، أما الحق فقولهم: طريقة السلف أسلم، وأما الباطل فقولهم: طريقة الخلف أعلم وأحكم، لأن هذه الجملة الأخيرة تناقض الأولى تمامًا؛ لأنه كيف تكون السلامة مع الجهل، أو السفه؛ لأنه ضد العلم الجهل وضد الحكمة السفه، فكيف يمكن أن يكون هناك سلامة بدون علم وحكمة، فمتى كانت طريقة السلف أسلم لزم أن تكون أعلم وأحكم، ويدل على هذا أن السلف - والحمد لله - مملوءة كتبهم بتفسير آيات الصفات وأحاديثها ولم يأت عنهم كلمة واحدة يقولون: لا نعرف معنى الآية أو معنى الحديث أبدًا، بل كانوا يقولون: المعنى معلوم والكيف مجهول، ويقولون: أمروها كما جاءت بلا كَيْفٍ، فطريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: قدرة الله عز وجل على مسخ الإنسان قردًا وخنزيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، وهل هذا الجعل جعل كوني أو جعل قدري؟!

الجواب: القدري والكوني واحد، والكوني أوسع كقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ [البقرة:٦٥]، هذا أمر كوني وليس أمرًا شرعيًّا.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ألا يستعصي على الإنسان طلب الشيء من الله عز وجل ما دام ليس في طلبه عدوان، ولنضرب بهذا مثلًا برجل مريض بمرض السرطان بعض الناس يقولون: مرض السرطان مرض لا يجبر، لكن بعض الناس ييأس ويقول: كيف أدعو الله أن يبرئني من هذا المرض، والعادة أنه لا يُبرأ منه، وهذا غلط عظيم؛ لأن الذي أوجد المرض قادر على رفعه والذي خلقك ولم تكن شيئًا قادرًا على أن يعيدك كما كنت؛ ولهذا لما قال زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨]، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]، فلا تيأس، والله على كل شيء قدير.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الله تعالى في العقوبة حيث يجعل الجزاء من جنس العمل، وعندما قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عوقبوا بغل اليد، فالجزاء دائمًا يكون من جنس العمل الجزء بالجزء والكل بالكل سواء في الثواب أو في العقاب، ففي الحديث عن النبي ﷺ «مَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى الفَرْجَ بِالفَرْجِ»، وهذا في الثواب، أما في العقاب فقد قال النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»(١)؛ لأن التفريط حصل في الأعقاب.

فقد توضأ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على عجل فكانوا يمسحون أقدامهم ولا يسبغون، فقال النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»، وكذلك قال النبي ﷺ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ»(٢)، فهنا الجزاء كان جزئيًا على قدر المخالفة، وهنا الحكمة في جعلهم قردة وخنازير سبق أن قلنا: إن القرد أقرب ما يكون للإنسان، والحيلة التي فعلوها، أقرب للإباحة ولكنها محرمة.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن كل من عبد غير الله فقد عبد الطاغوت يعني: عبادة الطاغوت.

فإن قال قائل: هل يشمل هذا ما جاء في الحديث: «تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ»(٣).

قلنا: نعم، إذا جعلوا المال هو أكبر همه، فإن هذا نوع من العبادة.

فإن قال قائل: على هذا التقدير يكون عيسى عليه السلام طاغوتًا ـ نسأل الله العافية ـ؟

(١) رواه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٥٤٥٠)، والنسائي (٥٣٣١)، وأحمد في «مسنده» (٩٣٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٢٧٣٠)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجواب: لا، لأن معنى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: عبد عبادة الطاغوت يعني: الطغيان، فالطغيان الآن يعود على العابد، ولما أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨ - ٩٩].

قال المشركون للرسول - عليه الصلاة والسلام -: إذن عيسى بن مريم في النار؛ لأنه ممن عُبد من دون الله، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وبيَّن أن تمثيلهم بعيسى ما هو إلا جدل قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من اتصفوا بهذه الصفات فهم شر الناس مكانًا؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

١٢- ومن فوائدها: أن من اتصف بهذه الصفات فهو أيضًا أضل الناس سبيلًا؛ لقوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦١ - ٦٣]

التفسير

ثم يبدأ في وصف جديد فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الصفات: جاءوكم أي: للنبي ﷺ وأصحابه، والفاعل منافقو اليهود. يأتون النبي ﷺ ويقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لكن بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾.

قوله: ﴿دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ﴾ أيضًا هنا قالوا: إنها للملابسة والمصاحبة يعني: متلبسين بالكفر.

وقوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالكفر متلبسين فهم عند الدخول، وعند الخروج على الكفر،

حتى لو قالوا: آمنا فإن قلوبهم لم تؤمن وإنهم منافقون، ومع ذلك كانوا يتناصحون فيما بينهم؛ حتى قال بعضهم يناصح بعضًا مع المسلمين: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٢ـ٧٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أعلم منكم بما كانوا يكتمون أي: يخفون من الكفر، واسم التفضيل هنا على بابه وهكذا كلما جاء هذا الوقف في هذه الصيغة فهو على بابه، وقد غلط من فسره باسم الفاعل حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ قال: والله عليم أو عالم لم يمنع عنه الإشارة، لكن إذا قال: أعلم منع المشاركة، فهو أعلم ما من أحد مثله؛ لكن هم فروا من شيء فوقعوا في شر منه قالوا: إذا قلت أعلم فإن القاعدة: أن اسم التفضيل يدل على اشتراك المفضل والمفضل عليه في الصفة.

فنقول: نعم، لا شك أن الرب عز وجل والمخلوق مشتركان في أصل الصفة وهي العلم، فلابد من هذا إثبات العلم للمخلوق جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر:٩].

لكن الذي يمتنع أن تجعل علم المخلوق كعلم الخالق، أما أن يشتركا في أصل الصفة فهذا لابد منه، حتى الحياة، حتى القدرة، حتى السمع، حتى البصر، لابد من الاشتراك في أصل ما. فنقول: أنتم منعتم من أن يكون اسم التفضيل على بابه؛ خوفًا من الإشتراك في أصل ما؛ لكن إذا قلتم عالم أو عليم سويتم بين الخالق والمخلوق؛ لأن المخلوق يطلق عليه (عليم)، فلهذا لا يمكن أن تجد إنسانًا خرج عن مدلولات النصوص من الكتاب والسنة إلا وقع في شرٍّ مما حذره.

الفوائد:

١ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من المنافقين؛ لأن الله لم يقص علينا قصصهم أو حالهم إلا لنحذر لا لنعلم فقط.

٢ـ ومن فوائدها: إثبات علم الله تبارك وتعالى بما في القلوب؛ لقوله ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾، فإثبات العلم لما في القلوب هذه صفة الله عز وجل.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر؛ لأن الله لم يخبرنا إلا لنحذر، ولو أننا بقينا على ما يبدو لنا لكان هؤلاء مؤمنين حسب ما يقولون، لكن الله أخبرنا بهذا لنحذرهم.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحذير المرء من أن يبطن في قلبه ما يخالف لسانه وهذه المسألة يجب علينا أن نعالج أنفسنا منها.

فاحذر أن تضمر في قلبك ما يخالف ما تنطق به بلسانك أو تفعله بجوارحك، يجب أن تصفي قلبك أولًا، وتطهر القلب، ثم بعد ذلك تبني أعمالك على هذه التصفية.

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢].

قوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾: الخطاب للرسول ﷺ، والظاهر أن المراد بالرؤية هنا: البصرية، ويجوز أن تكون عينية ويكون ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول أول، و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ مفعول ثانٍ.

وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين يأتون إليكم يقولون: إنهم مؤمنون يسارعون في الإثم يعني: يتسابقون إليه أيهم أسرع، و﴿ٱلْإِثْمِ﴾: فيما يتعلق بحق الله عز وجل، و﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: فيما يتعلق بحق الآدميين.

ومنهم من فسر الإثم بالكذب، والعدوان بالظلم؛ ولكننا إذا قلنا الإثم فيما يتعلق بحق الله، والعدوان فيما يتعلق بحق الآدميين كان أعم وأشمل.

وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ يسارعون في أكلهم السحت ويتسابقون إليه.

وما هو السحت؟

السُّحت: كل كسب محرم فهو سحت، فيدخل في ذلك الربا، ويدخل في ذلك الرشوة، ويدخل في ذلك الغش، وكل كسب محرم فهو داخل لفظ السحت.

ووصف بهذا الوصف المُنَفِّر لوجهين:

الوجه الأول: أنه لا بركة فيه.

الوجه الثاني: أنه سبب لسَحت المال الموجود فهو شرٌّ في نفسه شرٌّ في غيره، ولذلك إذا دخل الحرام على إنسان نزعت البركة من ماله، واشتد طلبه للمال يبتلى بالشح.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اللام هذه في جواب القسم، والتقدير: (والله لبئس ما كانوا يصنعون).

وقوله: ﴿لَبِئْسَ﴾ بئس تعمل عمل ليس وهي تعمل على أن ما بعد فاعل والمخصوص محذوف أي: (لبئس ما كانوا يعملون عملًا) يعني: أن عملهم مذموم يصلح عليه هذا الوصف (بئس ما كانوا يعملون) ما الذي عملوا؟

المسارعة في الإثم، والمسارعة في العدوان، وأكل السحت. وهذه الأمور الثلاثة مستحقة للذم.

مسألة: ما هو الفرق بين المخصوص بالفعل وفاعله؟

الجواب: المخصوص هو المخصوص بالذم أو المدح والفاعل الذي قام به الفعل، والمخصوص يكون مبتدأ والفاعل يكون في ضمن الجملة.

فمثلًا نقول: نعم الرجل زيد أو بئس الرجل زيد، فالفاعل الرجل، والمخصوص زيد.

ولهذا نعرب زيد: مبتدأ مؤخر، ونعم الرجل: الجملة خبر مقدم.

الفاعل (ما) أي: لبئس الذي يعملون، وإن شئت فاجعلها مصدرية ويكون الفاعل مصدرًا أي: لبئس عملهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣].

قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا فهي أداة تحريض ومثلها مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور:١٣] أي: هلَّا جاءوا، فلولا بمعنى هلَّا.

وقوله: ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الربانيون: المربون، والأحبار: العلماء الكبار. جمع (حَبر) أو (حِبر)، وهو في الاشتقاق مع البحر موافق له؛ (فالباء، والحاء، والراء) في البحر تفيد الحَبر؛ ولهذا لا يطلق الحبر إلا على العالم الواسع العلم.

الربانيون إذن: المربون سواء كانوا علماء كبار أو غير علماء، والأحبار هم: العلماء الكبار.

وقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: أن الله عز وجل حذر الربانيين والأحبار على نهي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، فما هو الإثم الذي يقولون به؟ أعظمه وأشده أنهم ينكرون رسالة النبي ﷺ وأعظم من ذلك أنهم يقولون: إن عُزيرًا ابن الله والمسيح ابن الله.

من القائل عُزيرٌ ابن الله؟ اليهود، والمسيح ابن الله؟ النصارى.

هذا قول الإثم، كذلك يقولون الكذب، كما مر علينا أنهم يقولون لعوامهم قولًا يكذبون به الرسول ويستمعون له الكذب.

وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ يعني: أكل المال المحرم سواء بالرشوة أو بالربا أو غير ذلك.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يقال في إعرابها ما قد قيل في الجملة التي قبلها؛ لكن الفاعل في ﴿يَصْنَعُونَ﴾ هنا ليس عائد على ما تعود عليه (الواو) في ﴿يَعْمَلُونَ﴾ الأولى، لأن (الواو) هنا عائدة إلى الربانيين والأحبار.

والصنع والفعل بينهما خصوص وعموم مطلق، لأن الصنع إنما يكون فعل بترتيب وإعداد للقول أو للفعل، بخلاف الفعل المجرد، وذلك أن هؤلاء الربانيين والأحبار يسمعون ما يسمعون من كتمان الحق وعدم الأمر به. ويريدون أن يبقوا وجهاء في قومهم، لأن الشيطان يقول لهم: إن نهيتموهم صرتم إعداء لهم ولم تحصل لكم الرئاسة، فلذلك تجدهم يعملون هذا العمل عن ترتيب

وعن سياسة كما يقولون.

الفوائد:

١- **في الآية فوائد منها:** أن من أوصاف هؤلاء اليهود أنهم يسارعون في هذه الأمور الثلاثة: (الإثم والعدوان وأكل السحت).

٢- **ومن فوائدها:** أن من سارع في الإثم، والعدوان، وأكل السحت ففيه شبه من اليهود.

٣- **ومن فوائدها:** أن هذا العمل عمل مذموم يستحق عليه فاعله أن يُذم؛ لقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** تحريم قول الإثم وتحريم العدوان وتحريم أكل السحت؛ لأن الله تعالى ذم هذا العمل وقدح فيه.

فإن قال قائل: الآية الكريمة عبَّرت بالأكل، أرأيت لو كانوا لا يأكلون السحت لكن يستعملونه في اللباس والفرش والمساكن والنكاح، فهل يدخلون في أكلهم السحت؟

الجواب: نعم لا شك؛ لكنه عبَّر بالأكل؛ لأنه هو الغالب؛ ولأنه أعلى ما يمكن أن ينتفع به الإنسان بالمال، لأنه يغذي البدن، لكن اللباس لا يغذي البدن، بل يقي البدن، كذلك المساكن والنكاح، لكن الذي يغذي البدن وينميه هو الأكل فعبَّر به لهذا الوجه.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الكسب المحرم وجهه: أن الله سماه سُحتًا، فاحذر أن تخسر الدنيا والآخرة لأكل الحرام.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا حرج أن نذم الأفعال المكروهة بقطع النظر عن فاعليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

٧- **أما الآية التي بعدها ففيها فوائد منها:** عظم مسئولية المربين والعلماء، لقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ فجعل الله اللوم على الربانيين والأحبار؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من نهي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الواجب على العلماء والمربين النهي عن المحرم، لكن هل عليهم أن يهدوا الناس؟ لا، لقول الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ولقول الله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، ولقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠]. فالإنسان إذا نهى أبرأ ذمته سواء امتثل من نهاه أم لم يمتثل.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سوء صنع هؤلاء العلماء والربانيين؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

١٠- ومن فوائدها: أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق بقطع النظر عن مكانتهم الشخصية، حتى لو فرض أنهم أهينوا أو أذلوا بسبب ذلك فالعاقبة لهم، قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اليهود: هم الذين يدَّعون أنهم أتباع موسى - عليه الصلاة والسلام - وسموا بذلك - اليهود - قيل: من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: من الهود وهو الرجوع.

وقيل: إنه نسبة إلى أبيه يهودا، ولكنها عُربت فصارت يهود، وأيًّا كان، فالمراد بهم: من ينتسبون إلى موسى - عليه الصلاة والسلام -.

قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أولًا: قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ ولم يقولوا: (يدا) بالألف؛ لأنهم يريدون أن ينقصوا صفة الله عز وجل في ذاتها وفي تصرفاتها.

أما في ذاتها: فمعلوم أن ذا اليدين أكمل من ذي اليد الواحدة.

وأما في تصرفاتها: فقولهم إنها ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أي: محبوسة عن الإنفاق، وذلك أن اليد إما أن تكون مغلولة مضمومة إلى العنق بحيث لا تنبسط؛ حتى تعطي، وإما أن تكون مبسوطة تعطي، ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]. أي: محبوسة عن الإنفاق كما قالوا أيضًا في وصف آخر: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١] فوصفوا الله مرة بالبخل ومرة بالفقر - عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة - لأنهم أهل مال، وأهل طمع، ويريدون أن يغدق الله عليهم المال على حسب ما يريدون قالوا: هذا بخل الله أو فقر منه.

وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، (فغلت

أيديهم)، وهذا خبر وليس دعاءً؛ لأنه صادر من عند الله عز وجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يخبر ولا يدعو فأخبر أن أيديهم غلت أي: حُبست عن الإنفاق، ولهذا نقول: إن أشد الناس بخلًا هم اليهود من جميع الأمم، ولا يمكن لليهودي أن يبذل دينارًا إلا وهو يريد أن يعود عليه بدينارين، أو فلسًا إلا وهو يريد أن يعود عليه بفلسين لا تفكر في أيدي هؤلاء؛ لأنهم قد غلت أيديهم.

وقوله: ﴿وَلُعِنُوا۟﴾ أي: طردوا عن رحمة الله وأبعدوا عنها بسبب هذا القول، ولهذا قال: ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾، والباء هنا واضح جدًّا أنها للسببية، وأما (ما) فيحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة، فإن كانت مصدرية فالتقدير: (ولعنوا بقولهم)، وإن كانت موصولة فالتقدير: (ولعنوا بما قالوه)، ولو جاء الضمير في (قالوه) لتعين أن تكون اسمًا موصولًا، لكنه حذف، على كل حال سواء جعلناها مصدرية أو موصولة فإنها تفيد أن هذه العقوبة التي حلت بهم بسبب قولهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطالي أي شيء يبطل قولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؟ فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ ولم يقل (يده)؛ لأن له يدين اثنتين سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ يعني: غير مقبوضتين فضلًا أن تكون مغلولتين.

وقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، ﴿يُنفِقُ﴾ يعني: يعطي المال ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: على أي كيفية شاءها إن شاء بسط وإن شاء قبض، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، فقد يعطي، وقد يمنع على حسب ما تقتضيه الحكمة وليس على ما يريده الإنسان، ولهذا قد يريد الإنسان كسبًا كثيرًا بعمل من الأعمال، ولكنه يُخذل، وقد يعمل عملًا يسيرًا لا يظن أنه يكسب فيه كثيرًا ويكسب فيه شيئًا كثيرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (زاد) هنا تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، المفعول الأول ﴿كَثِيرًا﴾ والثاني ﴿طُغْيَٰنًا﴾، وأما قوله: ﴿مَّآ أُنزِلَ﴾ فـ ﴿مَّآ﴾ هنا فاعل يزيد ﴿مَّآ أُنزِلَ﴾ إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يزيد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ وليس كلهم، ﴿طُغْيَٰنًا﴾ على عباد الله وفي حق الله، ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله عز وجل.

(اللام) في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي واو القسم، اللام التي للتوكيد، ونون التوكيد، وإنما أكَّد الله ذلك لأهميته؛ ولئلا ينكر منكر أن يكون النازل شفاءً لما في الصدور وهو القرآن يزيد هؤلاء ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، لكن لا تعجب.

إذنْ الطغيان في حق الله وحق العباد ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: بما أنزل على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم ينتفعوا بما أُنزل على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ يحتمل أن تكون (الواو) استئنافية، وأن تكون معطوفة على قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ومعنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ أي: وضعنا بينهم ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

(العدو): ضد الولي، والبغيض ضد الحبيب، أي: أن الله سبحانه وتعالى ألقى بينهم البغضاء في القلوب والمعاداة في الأبدان والأقوال، لا أحد ينصر أحدًا، ولا أحد يوالي أحدًا ولا أحد يحب أحدًا؛ لأن ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: إلى آخر الدنيا، واليهود بعضهم عدوّ لبعض وبعضهم بغيض لبعض، يعني: الله سبحانه وتعالى أخبر بأنه ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وخبره حق ووعده صدق.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ﴿كُلَّمَا﴾: هذه شرطية، وفعل الشرط فيها ﴿أَوْقَدُوا﴾ والجواب ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: كلما أرادوا الحرب وأوقدوا نارها، فإن الله يطفئُها ولم تقوم لهم قائمة، بل هم مخذولون، ويدل لهذا قول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢] قال العلماء: الحبل من الله (الإسلام)، والحبل من الناس (العهد والميثاق)، وقيل: الحبل من الناس (المساعدة)، والسبب الذي يعزُون به لأن الحبل يطلق على السبب كما في قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣] أي: بدينه الذي هو سبب للسعادة.

إذنْ نقول: إن الله سبحانه وتعالى بيّن أن هؤلاء اليهود ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي: لم ينالوا بها مرادهم، وليس المعنى أنها لم تقم الحرب، بل تقوم الحرب وقد قامت بينهم وبين المسلمين في عدة وقائع، لكن النتيجة أن الله يطفئُها ولا يحقق لهم ما يريدون من إيقادهم هذه النار لعدوهم.

وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ أي: يلقون فيها الفساد، وعبَّر بالسعي إشارة إلى المسارعة في هذا، ولهذا كان اليهود أفسد أهل الأرض في الأرض لما لهم من الوقائع، ومن أراد أن يطَّلع على شيء من ذلك فليراجع كتاب «**إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لم يقل: لا يحبهم؛ لإفادة العموم - عموم المعنى - وبيان العلة.

فمثلًا: لا يحب المفسدين من اليهود ولا من غير اليهود.

أيضًا يفيد أن الله لا يحب هؤلاء؛ لأنهم مفسدون فيكون هنا أعم، فكل مفسد فإن الله لا يحبه.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان عدوان اليهود وأنهم يفرقون بالعدوان والاعتداء حتى في حق الخالق عز وجل؛ لقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

٢- **وفيها أيضًا:** أن اليهود يقرون بصفات الله عز وجل الحقيقية؛ لأنه لا يقال يد أحد مغلولة إلا لمن له يد، فيكون إقرار اليهود بالصفات الخبرية أحسن من إنكارهم، وإن كان اليهود ليس لهم دين؛ لكن يجب أن يقبل الحق من أي إنسان.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى حرص اليهود على المال، وجه الدلالة: أنه لا يحملهم على هذا القول إلا الجشع والطمع.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عن البخل، وجه ذلك: أن الله عاقبهم على هذه المقالة، ولا يعاقب تبارك وتعالى إلا على شيء محرم.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى بخل اليهود؛ لقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقد سبق أن هذا خبر وليس دعاء.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن اليهود ابتلوا بهذين الأمرين: البخل واللعنة، فهم أبعد الناس عن رحمة الله أو من أبعد الناس على رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ ولم يبين الله سبحانه وتعالى من اللاعن لإفادة العموم أن الله يلعنهم ويلعنهم اللاعنون، وهذا كقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم لإفادة العموم، وأن هؤلاء مغضوب عليهم من قِبل الله ومن قِبل أولياء الله.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب لقوله ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ يعني: أن الله سبحانه وتعالى لم يغل أيديهم ويلعنهم إلا بسبب قولهم، والأسباب نوعان: حسية وشرعية، وكلاهما سبب.

من الأسباب الشرعية: أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، والكفر سبب لدخول النار.

من الأسباب الحسية: ما نجده في الكون، كون النار محرقة، والصقيع مجمد للماء، وما أشبه ذلك هذه أسباب حسية.

مسألة: وهل الأسباب مؤثرة بنفسها؟

الجواب: لا؛ لكنها مؤثرة بإرادة الله عز وجل بما أودع فيها من القوى المؤثرة، وهذا القول هو الذي تدل عليه دلالات الكتاب والسنة، وأما من قال: إنه لا تأثير لها، فقد قال قولًا منكرًا، أما الأول الذي يقول: إنها لا تؤثر هذا قال قولًا يضحك منه السفهاء، فيقول مثلًا: إذا أكل الإنسان إذا جاع ثم شبع ليس سبب شبعه الأكل، لكن حصل الشبع عند الأكل نقول: وما سبب الشبع؟!

وإذا وضعت ورقة في النار واحترقت فالنار لم تحرقها إنما احترقت عند النار.

ولو ضربت زجاجة بحجر فانكسرت، فالحجر لم يكسرها بل انكسرت عنده لا به، هذا شيء أدنى صبي يعرف أن هذا غلط.

والذين قالوا: مؤثرة بطبيعتها أشركوا بالله أثبتوا خالقًا مع الله. وهؤلاء نرد عليهم بأن الله خالق كل شيء وبأن الله قد يغير حقائق هذه الأشياء. ومن ذلك: أن الله قد قال للنار التي أضرمت وكانت سعيرًا عظيمًا ليلقى فيها إبراهيم - عليه السلام - وألقي فيها قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩] وكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم - عليه السلام - هذا يدل على أن الأسباب لا تؤثر بذاتها إنما تؤثر بما أودع الله فيها من القوى وإلا فقد يوجد موانع حتى الأسباب الشرعية قد توجد لها موانع؛ سبب الإرث، القرابة مثلًا، وإذا كان قريبًا مخالفًا لقريب في الدين لم يرثه.

فالمهم أن نقول: من أثبت أن الأسباب تؤثر بذاتها فهو مشرك، ومن نفى تأثيرها مطلقًا فهو سفيه، بقي أن نقول: تؤثر بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة التي قد تتخلف بإرادة الله ومشيئته.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ فإن قوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ يفيد فحوى الخطاب، وقوة الخطاب أنهم إنما عوقبوا بمثل ما فعلوا.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اليدين لله عز وجل؛ لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها**: أنهما اثنتان لا زيادة فيهما ولا نقص فيهما؛ لأن المحصور بعدد يتعين ألا يزيد عليه ولا ينقص.

فمثلًا عنده دراهم يحتمل ثلاثة وعشرة وألف، لكن ثلاثة دراهم لا يحتمل زيادة ولا نقص، فكل شيء محصور بعدد يقتضي ألَّا يزيد عليه ولا ينقص.

إذنْ الله عز وجل له يدان اثنتان، وهذا ما أجمع عليه السلف بدلالة القرآن والسنة عليه.

فإن قال قائل: ألم يقل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١]؟ ألم يقل الله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]؟

فالجواب: بلى في الآية الأولى ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ لا يراد بها اليد الحقيقية، بل المراد ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما عملنا لكن العرب يطلقون اليد على الفاعل. انظر إلى قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء:٦٢] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]

ومعلوم أن كسبنا لا يختص باليد بل يكون باليد والرجل واللسان والعين والأنف والفرج والقلب، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

فالتعبيرات الموجود في كلام العرب تكون في القرآن، ولذلك لو أن المراد باليد هنا حقيقة اليد

دون الفاعل لكانت الإبل أشرف منا؛ لأننا خلقنا بالكلمة إلا آدم خلقه الله بيده، والإبل على التقدير أن المراد أنها خلقت باليد.

أما المفرد فلا ينافي التعدد؛ لأن من القواعد المعروفة أن المفرد المضاف يعم ما يقتضيه مدلوله فمثلًا: لوقال رجل: امرأتي طالق وعنده امرأتان طلقت المرأتان إلا إذا أراد واحدة، ولو قال: عبدي حر وعنده أعبد عتق الأعبد كلهم إلا بالنية، فعليه أن المفرد لا يناسب تثنية؛ لأنه مضاف فيعم، والجمع لا يناسب تثنية، لأنه ليس المراد به حقيقة اليد، بل المراد به الذات، يعني: مما عمله الله عز وجل، ولكنه جمع ﴿أَيْدِينَآ﴾ للتناسب بين المضاف والمضاف إليه فإن (نا) موضوعة للجمع أو للتعظيم فجمعت الأيدي؛ تعظيمًا لها وتفخيمًا ولمراعاة المضاف إليه بحيث يتناسب الكلام بعضه مع بعض.

المهم: أن نثبت أن لله يدين، وهنا أسأل هل هما حقيقيتان أم لا؟

الجواب: نعم هما حقيقيتان يدان حقيقيتان، ومن فسرهما بالقوة فقد قال على الله ما لا يعلم بل حمل النص على خلافه، ولذلك تقول: كل محرك للنص عن ظاهره فقد ارتكب خطيئتين:

الأولى: صرفه عن المراد به.

والثانية: إثبات معنى لم يثبت.

إذنْ المراد اليدان الحقيقيتان.

مسألة: هل هاتان اليدان تناسبان أيدي المخلوقين؟

الجواب: لا يمكن؛ لأن كل صفة ظاهرها التمثيل، وأقول: ظاهرها باعتبار الظاهر السطحي، فإنه مردود في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

مسألة: هل اليد هذه تأخذ وتقبض وتغل أو لا؟

الجواب: نعم؛ لأن ذلك وردت به السنة، بل ورد به القرآن، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

مسألة: هل هاتان اليدان توصفان بأنها يمينًا وشمالًا؟

الجواب: فيها قولان:

ـ منهم من قال: لا، وأنكر لفظ الشمال الوارد في صحيح مسلم.

ـ ومنهم من قال: بلى، وكل منهم له شبهة؛ لكن الصواب أنها تثبت، وأن معنى قول النبي ﷺ: «اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِين»[1] يعني: اليُمن والبركة والتساوي، لأن المخلوق الذي له

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٣٦٨)، وأبويعلى في «مسنده» (٦٥٨٠)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٤٦٦٢).

يمين ويسار أو يمين وشمال تختلف اليمين والشمال؛ تختلف بالقوة حتى بالقوة الجسمية،ولكن لا تختلف يدا الله عز وجل وأريد التثنية؛ فكلتاهما يمين وهذا هو الصحيح، فإننا نثبت الشمال لله؛ لكن لا على أنها ناقصة عن اليمين بل كلتاهما يمين.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: كثرة عطاء الله وجوده؛ لقوله: ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا يمكن أن تقبضا بالنسبة للعطاء بل هما ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يَدُ الله مَلْأَى سَحَّاء اللَّيْل والنَّهار لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ».

ملأى: يعني: مملوءة من الخير والجود والبركة.

سحاء: كثيرة العطاء، الليل والنهار ظرف.

يعني: يعطي ليلًا ونهارًا لا يغيضها نفقة يعني لا ينقصها ما أنفق وأعطى سبحانه وتعالى، ثم ضرب مثلًا فقال: «أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ»[1]. الجواب: نعم رأينا لكن ما يخفيه فإنهم لم يروا ما في يمينه أي: لم ينقص ما في يمينه تبارك وتعالى. إذنْ يد الله مبسوطة ملأى سحاء الليل والنهار.

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عطاء الله ومنعه تابع لمشيئته؛ لقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فهذا يعطيه أموالًا كثيرًا، وهذا يعطيه صحة كبيرة وعطاءً كبيرًا وهذا بالعكس وهذا وسط، في جميع ما ينفقه الله عز وجل من العطاء المعنوي والعطاء الحسي، ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ويجب أن يكون لديك قاعدة: أن كل شيء قرنه الله بالمشيئة فإنه مقيد بالحكمة.

يعني: ليس مشيئة مجردة كما ذهب إليه بعض الجهمية الذين يقولون: إن الله يفعل الشيء لمجرد المشيئة، وليس لحكمة؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل أي: لا يقال لماذا فعل كذا؟ بل نقول: كل شيء مقرون بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة.

الدليل: أن الله وصف نفسه بأنه حكيم وأنه أحكم الحاكمين، ومعلوم أن الحكيم لا يصدر عنه فعل إلا الحكمة.

ثانيًا: أن الله قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩ ـ ٣٠].

ففيها: إشارة إلى أن مشيئته تابعة لحكمته، وعلى هذا: إذا وقع شيء في الدنيا من الحوادث الأرضية والسماوية، واستنكرته أنت وقلت: لما يقع؟ فهنا يجب أن تقول لذهنك الذي فرض هذا السؤال:لحكمة؛ لكن لا يلزم أن نحيط بحِكَمِ الله عز وجل، كما أن جميع صفاته لا نحيط بها فكذلك حكمته، فقد تكون هناك حكمة خفية ما تعلم إلا بعد زمان؛ لكن يجب عليك أن تؤمن

(١) رواه البخاري (٦٩٧٦)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بأن كل شيء فعله الله عز وجل لحكمة لا يمكن أن يكون لعبًا، ولا لهوًا.

إذا عرفت هذا وعرفت أن مشيئته مقرونة بالحكمة فلا تقل لماذا كان هذا السيد في قومه فقيرًا؟ ولماذا كان لكع بن لكع غنيًّا؟ لا تقل هذا؛ لأننا نعلم أن هذا العطاء أو هذا المنع من الله عز وجل وأنه مقرون بالحكمة.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من الناس من لا تزيده الآيات إلا طغيانًا وكفرًا؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ولا تعجب، القرآن ذكر الله في آخر سورة التوبة أنه إذا نزل انقسم الناس إلى قسمين فمنهم من يقول: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، ولا تعجب أن يكون شيء واحد لقوم دواء ولقوم داء؛ فإن هذا كما هو في المعقولات هو أيضًا في المحسوسات، أرأيتم المصاب بمرض، يمنعه الأطباء مثلًا من أكل التمر؛لأنه إذا أكله مرض وآخر إذا أكله صح، مع أن التمر واحد، الدهن بعض الناس ينهى عنه، وأشياء كثيرة، فلا تعجب إذا كان في المعقولات ما يزيد أقوامًا وينقص آخرين.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناد اليهود، وأنهم لا يمكن أن يخضعوا لما نزل من القرآن، لكون ما يزيدهم ما نزل على محمد إلا طغيانًا وكفرًا.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الإنصاف والعدل في حكم الله عز وجل؛ لأنه قال: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ ولم يقل (أكثرهم) ولم يقل (كلهم)؛ ولهذا يجب على الإنسان إذا رأى من قوم انحرافًا من بعضهم ألا يُجري الحكم على الجميع، بل يقول: كثير أو بعض أو منهم أو ما أشبه ذلك، لأنه لو عم مع وجود استقامة في الآخرين لكان ظالمًا من وجه، وكاذبًا من وجه آخر، ولهذا تجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾، ولم يقل أكثر ولا الجميع.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي - ﷺ - حق، لقوله: ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فكان النبي - عليه الصلاة والسلام - منزل عليه فهو رسول الله حقًا.

١٦- ومن فوائد هذه الآية من الفوائد: إثبات أن المحبة ثابتة لله، أن الله يحب وهي محبة حقيقية أثبتها أهل السنه والجماعة على قاعدة معروفة وهي: وجوب إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله، وأن الله يحب وهل هو يُحَبُّ؟

الجواب: نعم، وقد صرح الله بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالله تعالى يُحَبُّ على ما له من صفات الكمال وعلى ما له من أفعال الإحسان والإنعام، ولهذا جاء في الأثر: (أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم)، والإنسان لو أن أحدًا من الناس أحسن إليه

لأحبه لإحسانه فكيف بالخالق الذي أوجده وأمده وأعده فهو أولى أن يكون محبوبًا، أما كونه يُحِبُّ فنعم جاء ذلك في القرآن الكريم، وكذلك في السنه النبوية، محبة الله تارة تضاف للعمل، تارة للزمان، تارة للمكان، تارة للعامل، كل ذلك جاء: «أَحَبُّ البِقَاعِ إِلَى الله مَسَاجِدُهِ»[1]، «مَا مِن أَيَّامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرَةِ»[2] يعني: عشر ذي الحجة. «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»[3]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

والآيات في هذا كثيرة ومتنوعة وهل محبة الله هي ثواب الله أو إرادة ثوابه أو هي صفة زائدة على ذلك؟

الجواب: الثالث خلافًا لمن فسر المحبة بالثواب أو بإرادة الثواب ممن ينكرون قيام المحبة بالله عز وجل، ولا شك أن هؤلاء ضالون، لأنهم حتى إذا قلنا: إنها الثواب يلزم من الثواب المحبة؛ لأن الله لا يثيب إلا من يحب، حتى لو فسرناها بإرادة الثواب لزم لها المحبة أيضًا؛ لأن الله لا يريد أن يثيب أحدًا إلا حيث يحبه.

١٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وهكذا كل شيء نفى الله محبته فإنه حرام، فالفساد في الأرض حرام، ولكن بماذا يكون الفساد في الأرض، هل هو بهدم البيوت وتخريب الأنهار وما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، الفساد في الأرض هو المعاصي،ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، لكن هدم البيوت بغير حق من المعاصي، فيكون من الفساد في الأرض من هذه الناحية، وعلى هذا فنقول: كل من عصى الله فقد أخذ معولًا يخرب به الأرض.

١٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشيء إذا ثبت لوصف ثبت ضده لضد ذلك الوصف.

فعلى هذا نقول: إذا كان الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإنه يحب المصلحين، ولا شك أن الله يحب المصلحين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨]، وقال تعالى في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠] فالصلح خير ويحبه الله عز وجل، ويرغب فيه ويحث عباده عليه، والإصلاح كذلك خير والإصلاح أنواع متعددة، والناس بالنسبة للأرض على ثلاثة أقسام: أولًا: صالح،

---

(١) رواه مسلم (٦٧١)، وابن خزيمة في صحيحه (١٢٩٣)، وابن حبان في صحيحه (١٦٠٠)، والبيهقي في الكبرى (٤٧٦٣) بلفظ (أحب البلاد) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٢٦)، وأبوداود في سننه (٢٤٣٨)، وابن ماجه (١٧٢٧)، وأحمد في مسنده (١٩٦٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ثانيًا: صالح مصلح، ثالثًا: فاسد مفسد، وإن شئت أضفت رابعًا: فاسد غير مفسد حتى تتم الأقسام.

لكن يلزم من الفاسد أن يكون مفسدًا ولذلك نقتصر على ثلاثة أقسام: فنقول إن الناس بالنسبة للأرض ثلاثة أقسام:

١- صالح لكنه لا ينفع إلا نفسه وهذا يكون في كثير من العباد. كثير من العباد صالح لنفسه؛ لكنه لا يحاول أن يصلح غيره، يرى المنكر أمام عينه لا ينهى عنه، يرى التفريط في المعروف أمام عينيه لا يأمر به، وهكذا، هذا نقول: إنه صالح لنفسه، وإن كان أيضًا صلاحه فيه نقص؛ لأن تمام الصلاح أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٢- صالح مصلح، وهذا خير الأقسام، وهو صالح لنفسه ومصلح لغيره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] لم يقل: صالحون، فلابد من أن يقوم في الأرض مصلح.

٣- الفاسد مفسد في الأرض حتى لو فرض أنه لم يدع إلى فساده وإلى معصيته فإنه مفسد؛ لأنه سبب لفساد الأرض.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن نزل من عند الله؛ لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وإذا ثبت هذا لزم عليه أمران عظيمان:

الأول: أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن ليس ذاتًا قائمة بنفسها، ولكنه وصف لا يقوم إلا بموصوف أو إلا بمتصف به، وعلى هذا فيفيد هذا الفائدة العظيمة أن القرآن كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه سلف الأمة والأئمة وجرت فيه المحن على الإمام أحمد وغيره من علماء السنة، فمن الناس من قال: إن القرآن ليس كلام الله بل هو مخلوق من جملة المخلوقات، ولا شك أن هذا القول يستلزم منه بطلان الشريعة تمامًا؛ لأننا إذا قلنا: إنه ليس كلام الله لزم أن يكون إذا كُتِبَ مجرد نقوش، وزخارف خلقها الله تعالى على هذا الوصف، وإن سُمِعَ فهو مجرد أصوات تسمع لا تدل على شيء كما يُسمع الرعد وهبوب الرياح، وغيره، ولذلك نقول: إنه يستلزم على القول بأن القرآن مخلوق بطلان الشريعة تمامًا بطلان الأمر والنهي؛ لأنه لا أمر ولا نهي، فهو شيء مخلوق على هذا الوصف على هذه الصفة فقط لا يدل على أمر لا تقل لابد كذلك شيء مخلوق على هذه الحروف كما تنقش الباب مثلًا، إن سمع فهو صوت - مجرد صوت - كما نسمع الآن أصوات الرعد وأصوات الرياح والأشجار إلى غير ذلك.

فحينئذ لا أمر ولا نهي ولا خبر، وهذا واضح جدًّا لكنه من أَعْمَى الله قلبه لا يعرف أن هذا لازم.

الثاني: علو الله عز وجل؛ لأنه إذا كان القرآن كلام الله، وهو صفة من صفاته، وهو نازل لزم أن يكون المتصف به عاليًا وإلا فلا معنى للنزول، فيكون فيه دليلٌ على إثبات علو الله عز وجل، والناس في هذه الصفة على ثلاثة أقسام:

ـ قسم قال: إن الله لا يجوز أن يوصف لا بالعلو ولا بالسفول ولا يجوز أن نقول: إنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، وهذا تعطيل محض، ولو قيل لأحد: صف العدم ما وصفه بأدق من هذا الوصف الذي وصفوا به الرب عز وجل.

ـ وقسم قال: إن الله تعالى في كل مكان ولا يجوز أن نقول إنه في العلو وكيف يجوز أن نقول في العلو وهو قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨] وأشبه ذلك من آيات الله عز وجل؛ فلا يجوز أبدًا أن نقول إن الله عال بنفسه، بل العلو الذي أثبت لله علو المعنى، وأما المكان فهو في كل مكان، وهؤلاء عمومية الجهمية يقولون: إنه في كل مكان، والعجب أن عليه كثيرًا من الناس الذين نتصل بهم في المسجد الحرام ويسألون من غير السعوديين، السعوديون لا يعرفون هذا القول، أكثر العامة لا يعرفون هذا القول، ويقولون: إن الذي يقرر علينا علماؤنا أن الله في كل مكان، ولا شك أن هذا قول إذا تأمله إنسان وجده في غاية البطلان لمخالفته القرآن والسنة والعقل والفطرة والإجماع وهل يمكن أن يرضى أحد أن يجعل الخالق عز وجل في الحشوش والأماكن القذرة؟! لا يمكن، ولازم قولهم أن يكون كذلك في كل مكان.

أما القسم الثالث أثبت علو الله حقًا ـ الذي نسأل الله أن يميتنا عليه ويبعثنا عليه ـ فهو أن الله تعالى بذاته فوق كل شيء؛ لكنه محيط بالخلق فكأنه معهم في أمكنتهم، ولا مانع أن نقول: هو فوق كل شيء وهو معنا؛ لكن ليس في مكاننا، ولهذا أمثلة:

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ مثالًا في «الواسطية» ومثالًا في «الحموية» قال إن العرب يقولون: ما زلنا نسير والنجم معًا.

وفي «الواسطية» ما زلنا نسير والقمر معًا، وهذا أسلوب عربي واضح، وكل واحد يخاطب به هذا الخطاب أو يتكلم به لا يمكن أن يعتقد بأن القمر في الأرض ولا بأن النجم في الأرض، وإذا كان هذا مخلوق من المخلوقات يحيط بنا وهو معنا وهو فوق فما بالك بالخالق؟

الذي حدث عنه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة فما بالك بالخالق سبحانه وتعالى.

فعلى كل حال: نحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء حقًا، أما صفاته فما أحد من المسلمين فيما نعلم ينكر علو الصفات كلهم يقولون: إنه كامل الصفات؛ لكن يبقى النظر هل

كلهم يثبتون كل ما ورد من الصفات؟ لا؛ لكن من أثبت لهم صفة الكمال فيقولون: إنه عال بهذه الصفات الكاملة.

٢٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، فإن هذه الربوبية خاصة تقتضي العناية التامة والأقوى والأشد، واعلم أن الربوبية نوعان: عامة وخاصة اجتمعا في قوله تعالى عن السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] فالعامة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل من سوى الله فهو عالم، وعلى هذا يكون ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: برب الخلق كلهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هذه خاصة، كما أن العبودية كذلك عامة وخاصة، فالعبودية الكونية عامة، ومنها قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] كل من في السموات في العبودية الكونية عبد لله هل أحد يستطيع أن يمنع المرض إذا قدره الله عليه؟ أبدًا. وهل أحد يستطيع أن يرد ملك الموت إذا جاء لقبض روحه؟ أبدًا؛ ولهذا تحدى الله هؤلاء فقال لهم: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٣ـ٨٧].

ما يمكن للخلق كلهم أن يردوا هذه الروح ما استطاعوا.

إذنْ فالكل عبدٌ لله بهذا المعنى أي: بالعبودية الكونية، أما القسم الثاني: العبودية الخاصة، فهي العبودية الشرعية التي منها قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

٢١ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى ألقى العداوة والبغضاء بين اليهود؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ وهذا كلام حق صدق ليس عندنا فيه شك، وما نحسبه نحن من اجتماعهم فعلى خلاف الواقع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. لا تظن أنهم متفقون أبدًا، ولذلك هم أحزاب شتى الآن، وحتى داخل الحزب متفرق؛ لأنهم لا يمكن أن يجتمعوا وقد ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء؛ لكن لا يمنع أن العدوين إذا كان لهما عدو ثالث اجتمعا عليه؛ لمقابلة العدو الثالث، فاجتماعهم الآن ليس لأنهم متحابون متآلفون أبدًا ولا يمكن أن نصدق والله تعالى يقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لكنهم اجتمعوا لهدف واحد ومصلحة واحدة ضد عدو واحد للجميع، وهذا الاجتماع لا شك أنه اجتماع ظاهري فقط مقصود لغيره وليس مقصودًا لذاته.

٢٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العداوة والبغضاء سوف تستمر؛ لكن إذا آمنوا تزول بلا شك ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ للأنصار: «كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي

وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي»(١) والأنصار كما هو معروف كانت بينهم عداوات وبغضاء في الجاهلية.

٢٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات يوم القيامة وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، وسمي بذلك لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين.

والوجه الثاني: أنه يُقام فيه العدل كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [يس:٥٤]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧].

والثالث: أنه يُقام فيه الأشهاد وتستشهد الرسل ثم الأمم ثم الجلود والأعضاء، ويتبين الأمر وينكشف ويظهر ما في الصدور؛ فلذلك سُمي يوم القيامة، وهناك قيام الصورة لكنها لا تراد في هذه الآية، وهي موت الإنسان، فإن كل من مات فقد قامت قيامته؛ لأنه انتهى من الدنيا ودخل عالم الآخرة.

٢٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: البشرى التامة للمسلمين بأن اليهود لن تقوم لهم قائمة الحروب؛ لأنهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، ولم ينالوا بها مقصودهم، وإن كانوا قد ينالون بعض الشيء لكنهم لن ينالوا المقصود الذي يريدونه لإشعال نار الحرب.

٢٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل لقوله: ﴿أَطْفَأَهَا﴾ وأطفأها متى يكون؟ بعد إيقادها، وهذا فعل متجدد، وفيه رد واضح على الذين منعوا قيام الأفعال الاختيارية بالله، وقالوا: إن الله لا يمكن أن يأتي ولا يستوي على العرش، ولا يتكلم بإرادته ومشيئته بل كلامه معنىً يقال بنفسه لا يتعلق بإرادته ولا يفرح ولا يغضب ... إلخ. فكل صفة تتجدد فهي عندهم لاغية، منتفية عن الله، لكن حجتهم واهية جدًّا وواضحة عند الله يقولون: إن الأفعال الاختيارية التي تتجدد لا تقوم إلا بحادث بناءً على قاعدة غير قائمة يقولون: الحادث لا يقوم إلا الحادث، من أين لهم هذا؟ الحادث يقوم بالحادث وهو قديم، وحوادث أفعالنا نحن حادثة قائمة بحادث؛ لكن حوادث الباري جل وعلا حادثة لكنها قائمة بأزلي ليس بحادث.

٢٦ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: محبة اليهود للفساد في الأرض، وسعيهم في ذلك سعيًا حثيثًا؛ لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾، ومن شاهد الواقع الآن عرف أن الآية منطبقة تمامًا على يهود الوقت الحاضر بأنهم يسعون ببعض الإفساد لكل ما يستطيعون إن استطاعوا بأنفسهم أو بعبيدهم الذين هم عبيد لهم.

ولهذا نقول: اليهود الآن عابد ومعبود، اليهود؛ لأنهم يسخرون الدول الكبرى أن تفعل ما فيه

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم ﷺ.

مصلحتهم، وهم أيضًا أذناب للدول الكبرى؛ لأن الدول الكبرى آمنة منهم وتريد أن تبقيهم في كل مكان لا من أجل أن يفسدوا في الأرض، فهم يسعون في الأرض فسادًا في كل وقت ـ نسأل الله تعالى أن يكبتهم ويخيبهم ـ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٦]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، والكتاب المشار إليه هو: التوراة والإنجيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. وقوله: ﴿آمَنُوا﴾ أي: بالقلوب ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أي: بالأفعال، وذلك إذا جُمِعَ بين الإيمان والتقوى، فيكون الإيمان بالقلب والتقوى بالجوارح، والإيمان سرٌّ والتقوى علانية، أما إذا أُطلِق أحدهما فإنه يدخل فيه الآخر ضمنًا.

وقوله: ﴿آمَنُوا﴾ أي: بما يجب الإيمان به، ومن الإيمان: الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، ومعروف بأوصافه فهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

هل أحد يجهل ابنه؟ لا، وقد علَّقه الله عز وجل معرفته بمعرفة الأبناء؛ لأن تعلق الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت، فتكون معرفته للابن أبلغ من معرفته للبنت؛ ولأن الابن يعيش معه في تجارته، وفي حراسته، فهو يخبر ظاهره وباطنه؛ لكن البنت محلها البيت، ولا يخبرها تمامًا إلا أمها، فهم يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لم يؤمنوا به. فيكون الإيمان عندهم منتفيًا؛ لأنهم ما آمنوا، حتى لو قالوا: إنهم مؤمنون بموسى إن كانوا يهودًا، أو بعيسى إن كانوا نصارى فهم كاذبون.

وأما عن التقوى: فهي اجتناب ما حرم الله، والقيام بما أمر، وهذا في العلانية بالجوارح والأفعال؛ لأن التقوى هي اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره.

وقوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾: هذه جواب (لو)، وجواب (لو) يلحقه اللام كثيرًا، وقد تحذف، وقد اجتمع ذلك في آخر سورة الواقعة في قول الله تعالى في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] فأثبت اللام في الأول ولم يثبتها في الثاني.

أما إذا كان في جوابها «ما» النافية فإنها لا تُقرن بها إلا نادرًا، وأما ما اشتهر عند الفقهاء، وعند كثير من الناس وهو قرن اللام بـ (ما) فهو لغة ولكنها قليلة، والأصح أن تقول: لولا كذا ما حصل كذا، ولا بأس أن نقول: لما حصل كذا.

إذن إلحاق اللام بجواب «لو» في الإثبات والنفي بـ (ما) متقابلان، لكن الأفصح في الإثبات والأكثر على الأصح اللام، والأكثر في النفي حذف اللام، ومنه قول الشاعر في إثبات اللام في حالة النفي «بما» وهو يعد من قبيل الندرة :

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي[1]

الشاهد قوله: (لما افترقنا) وهو جواب لو نعطى منفي ومع ذلك لحقه اللام وهذا قليل.

وقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطيئاتهم . يعني: معاصيهم سواءٌ أكانت بترك واجب أو بفعل محرم؛ لأن الإيمان والتقوى يكفِّران السيئات.

وقوله: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا ثواب الآخرة فانتفى عنهم ما يكرهون بتكفير السيئات وحصل ما يحبون بإدخالهم جنات النعيم.

وقوله ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ «جنات» جمع جنة، وجمعت؛ لأنها أنواع، وقد ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع لها، والجنة في الأصل: هي البستان الذي كثرت أشجاره حتى صارت تغطي أرضه؛ لأن الأصل في هذه المادة (ج، ن) أي: الاستتار والخفاء، ومنه سمي الجن جنًّا، والبستان كثير الأشجار جنة.

وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف:٣٢]؛ لكن لا ينبغي أن تقول مثل هذا القول عند العامة؛ لأنك لو قلت: إن الأصل في الجنة: البستان كثير الأشجار، لتنقصت عظمة الجنة في نفوسهم، ولكننا نفسر الجنة التي في القرآن بأنها: الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ لأن هذا يبقي هيبتها في النفوس وقوة الرغبة فيها.

وقوله: ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نعيم البدن ونعيم القلب ففيها ينعم الإنسان بكل أنواع النعم.

---

(١) ينسب هذا البيت إلى ابن زاكور: محمد بن قاسم بن محمد بن الواحد بن زاكور الفاسي أبو عبد الله. أديب فاس في عصره، مولده ووفاته فيها. توفى سنة (١١٢٠هـ).

فنعيم القلب لا يمكن أن يلحقه هَمٌّ، ولا غم، ولا حزن بل هو في نعيم دائم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١].

والنضرة: تكون في الوجه كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢].

والسرور:يكون في القلب، فما بالك بنعيم يكون فيه النضرة التي تبهج الناظر في الوجه، والسرور الذي ليس فيه حزن، ولا هم، ولا غم في القلب. اللهم اجعلنا من هؤلاء الذين يدخلون جنة النعيم.

مسألة: لو أن إنسانًا يريد أن يتنعم بهذا النعيم إلا أنه يقع في المعاصي لكنه مع ذلك يجاهد إلا أنه لا يجد عنده قوة أو قدرة على الإقلاع؟

الجواب: هذه المشكلة تحل وتزول إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. فإذا عرفت أنك قمت بما استطعت كأنما قمت بالكمال كله، فأبشر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]؛ لكن احذر الذي يدخل على الإنسان في هذه المسألة هو التأويل أحيانًا.

فقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

الفوائد:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التائب من الذنب يثاب بثوابين: ثواب الدنيا وثواب الآخرة. ثواب الآخرة لقوله: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وثواب في الدنيا في قوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أفعال الله سبحانه وتعالى الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ لأن هذا التكفير يكون بعد إيمانهم وتقواهم، وهذا هو الذي عليه السلف الصالح، وأئمة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل يفعل ما يشاء في أي وقت شاء وعلى أي كيفية، وأما من قال: إن الأفعال الاختيارية لا يمكن أن تنسب إلى الله؛ لأنها حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، فقوله مردود.

أولًا: لأنه قياس باطل لمصادمته للنص.

والثاني: لأنه قياس غير صحيح.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الجزاء يكون بالنجاة من المرهوب، وحصول المطلوب يشير للأول قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

وإلى الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، فالأول به النجاة من المرهوب، والثاني به حصول المطلوب.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجنات فيها النعيم المطلق الذي يشمل نعيم البدن، ونعيم الروح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]. فقال العلماء: النضرة في الوجه، والسرور في القلب.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة: كمال عدل الله عز وجل، وأنه يتوب على كل من تاب إليه مهما كان حاله من قبل.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾

هذا أمر فوق الإيمان والتقوى، وهو إقامة التوراة والإنجيل، وذلك بتصديق أخبارهما وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما. والتوراة هي الكتاب المنزل على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، وهذا يشمل الصنفين من أهل الكتاب يعني: اليهود والنصارى، فكل منهما يجب عليه إقامة التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو القرآن الكريم، وقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِم﴾ يدل على أن هؤلاء ملزمون بالإيمان بالقرآن وإقامته.

وأما قول بعض العلماء: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يشمل حتى الكتب السابقة ففيه نظر؛ لأن الكتب السابقة نزلت على مَنْ قبلهم، لكنهم مكلفون بالإيمان بها أيضًا.

وقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ هذا جواب الشرط، أداته (لو)، وقد سبق البحث في أن (لو) الشرطية تختص بالأفعال وأن النحويين قدروا في مثل هذا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ فعلًا وهو: ولو ثبت أنهم أقاموا التوراة أو لو حصل أنهم أقاموا التوراة.

وقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ هذه تشمل عدة أشياء:

أولًا: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾، وذلك بنزول الأمطار من السماء التي تكون سببًا للإنبات الذي يأكلونه.

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: نبات الأرض، فيكون الله تعالى ذكر سبب الإنبات والنبات، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] هذا وجه ويدخل في الآية.

وقيل المعنى في: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعني: من ثمار الأشجار؛ لأن الأشجار تكون عالية

فوقهم فيأكلون من ثمارها.

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: من الزروع ونحوها التي تكون في الأرض وليس لها ساق. فيكون الله تعالى بيَّن أنهم سيبارك لهم في الأشجار والزروع.

وقيل المعنى: لأكلوا من كل وجه كما نقول: هذا الرجل في نعمة من هامه إلى إبهامه، والمراد أن النعمة تغمره، وعلى كل حال فالآية تشمل كل هذا، وهذا وكل هذه الأوجه يصح أن تفسر به الآية.

وقد سبق لنا قاعدة في هذه المسألة وهي: أن الآية إذا احتملت معنيين فأكثر على السواء ولا منافاة بينهما، فإنها تُحمل عليهما جميعًا، وهكذا الأحاديث أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ هنا نجد أن الله تعالى قسمهم إلى قسمين:

القسم الأول: الأمة بمعنى: الطائفة.

وأمة في اللغة العربية لها معانٍ متعددة، فتكون بمعنى: طائفة كما في هذه الآية، وتكون بمعنى: الدين مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢]، وتكون بمعنى: الزمن كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، وتكون بمعنى: الإمام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠].

ومجيئها بمعنى الدين كقوله تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على ملة، وهذا أوضح من تمثيلنا بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ لأنه يحتمل أن تكون الأمة بمعنى: طائفة، وعلى كل حال الأمة في القرآن جاءت على أربعة معان: الأول: الطائفة، والثاني: الدين، والثالث: الزمن، والرابع: الإمامة.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة، ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي: قائمة بالواجب لا تزيد ولا تنقص.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كثير منهم سيِّءٌ غير مقتصد بل هم مفرطة؛ ولهذا وافق العمل المشار إليه بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

فجملة ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ تبين المعنى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: غير مقتصد بل مسيء في عمله فساء ما كانوا يعملون، وعليه فيكون ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ليس خبر كثير بل خبرها محذوف، أي: كثير منهم سيء العمل لم يقتصد فساء ما يعملون.

بقي قسم ثالث خص الله به هذه الأمة وهو السابق بالخيرات كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢] فكأن بني إسرائيل السابق بالخيرات منهم قليل بحيث لا يقام له وزن ولا

يذكر في التقسيم، ولكن لا شك أن فيهم سابق بالخيرات فمنهم من أدرك الإسلام فأسلم وهذا سابق بالخيرات؛ لكن لما كان السابق بالخيرات قليلًا في بني إسرائيل لم يجر له ذكر، لأن الذكر إنما يكون لمن كان له شأن في التقسيم قال الله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها: أن إقامة الشريعة في كل زمان سبب لكل خير؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

٢- ومنها: أن من أقام الشريعة جُوزي بأمرين: جزاءً في الدنيا وجزاءً في الآخرة.

٣- ومنها: أنه يجوز ترغيب النفوس البشرية في فعل الطاعات بما يذكر من ثواب الدنيا، وعلى هذا فلو أن الإنسان عمل عملًا صالحًا يريد أن ينال حسن الدنيا والآخرة فإنه لا يُلام؛ لأنه لو كان هناك لوم ما ذكر الله سبحانه وتعالى ما يحصل من ثواب الدنيا، وسيبقى ذكره شبيهًا باللغو، ومثل ذلك المحارم - يعني: المحرمات - تجد أن الله جعل لها روادع تردع عنها حتى لا يفعلها الإنسان، فتجد الرجل قد يترك الزنا مثلًا خوفًا من العقوبة، ولولا هذا لما كان من العقوبة فائدة، فعلى كل حال نقول: إن الإنسان إذا قام بقلبه إرادة الدنيا، لكن لا على أنها هي الباعث للعمل فلا حرج عليه.

أليس الإنسان يقرأ الأوراد؛ ليتحصن بها من شرور الإنس والجن؟ وقد يغيب عن باله أنه يريد أن يتقرب إلى الله بالتلاوة، وإنما يريد التحصن؛ لأن النفوس البشرية ضعيفة تحتاج إلى أمر مادي يساعدها على فعل الخيرات، ويدل لهذا الأصل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - في بعض المغازي يجعل سلب القتيل لمن قتله تشفيعًا له، وهذا ردٌّ على قول بعض الناس الذين يقولون: إنه لا يجوز للإنسان أن يريد بعمل الآخرة شيئًا من الدنيا وهذا غير صحيح، فقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] يعني: نعطيه في الدنيا والآخرة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على بني إسرائيل - أهل الكتاب - أن يقيموا القرآن كما يجب أن يقيموا التوراة والإنجيل؛ لقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ولهذا نقول لأهل الكتاب الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر: إنكم إن لم تؤمنوا بالرسول ﷺ ما نفعكم ذلك الإيمان؛ لأنكم لم تتموا إيمانكم.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن كلام الله؛ لقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ووجه ذلك: أن القرآن صفة؛ لأنه كلام، والكلام لابد له من متكلم، والصفة لابد لها من موصوف،

وإذا كان لابد للقرآن من متكلم به فمن الذي تكلم به إلا الله عز وجل.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات علو الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ لأنه إذا كان القرآن صفة الله نازل منه لزم أن يكون الله تعالى عاليًا، وهذا ـ ولله الحمد ـ عند من أنار الله بصيرتهم، ولم تستحوذهم الشياطين وكان على الفطرة التي فطره الله عليها؛ لأنه أمر لا يحتاج إلى بيان؛ لأنه أمر فطري، ومع ذلك فإن المنكرين لعلو الله انقسموا إلى قسمين:

قسم قال: إن الله تعالى في كل مكان في السماء والأرض هو نفسه بذاته في كل مكان.

وقسم آخر قالوا: لا يجوز أن يوصف بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، ولا منفصل عن العالم ولا متصل بالعالم.

فالأولون: غلوا في إثبات صفة من الصفات وهي المعية.

والآخرون: غلوا بما يدعونه تنزيهًا للرب عز وجل.

إذن نأخذ من هذا: أنه يجب علينا أن نؤمن بعلو الله عز وجل.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إقامة الدليل على أهل الكتاب أنهم يلزمهم أن يؤمنوا بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ فإن لازم كونه ربًّا لهم أن يقوموا بأمره، ويلتزموا بحكمه؛ لأنه رب، والرب لابد له من مربوب، فهو سبحانه وتعالى السيد والإنسان عبد، فلابد أن يقوموا بمقتضى هذه العبودية فيؤمنوا بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن نِعَم الله عز وجل التي في الأرض منها ما هو عالٍ ومنها ما هو نازل؛ لقوله: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ وهذا شيء مشابه، بل منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي، فالمعادن التي في الأرض نِعَم خفية، والأشياء الظاهرة على وجه الأرض نِعَم ظاهرة.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: انقسام أهل الكتاب إلى قسمين:

قسم: مقتصد قائم بالواجب تارك للمحرم لكن ليس عنده سبق بالخيرات.

والقسم آخر: سيء مسيء لعمله إما بترك الواجبات وإما بفعل المحرمات؛ لقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان منقبة عظيمة لهذه الأمة: وهي أن هذه الأمة قسمها الله إلى ثلاثة أقسم: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

أما أهل الكتاب فلم يقسموا إلا قسمين:

مقتصد ومسيء العمل. ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لننظر إلى النداء والوصف الذي وجه إليه النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تقدم كثيرًا أن تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وصفه ﷺ بالرسالة إشارة إلى أن هذا الوصف مقتضاه وإن لم يؤمر بالإبلاغ أن يكون مبلغًا؛ لأنه رسول، ويعني: به محمدًا ﷺ.

وعلى هذا فـ(أل) هنا للعهد الذهني، أما في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦] فـ(أل) للعهد الذكري.

وقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ﴿بَلِّغْ﴾: أي: اجعله بالغًا بمعنى: أن تؤديه إلى مَنْ أُرسلت إليهم من الجن والإنس منذ بُعِثَ إلى يوم القيامة، وعلى هذا فيكون تبليغه إما مباشرًا كالذين رأوه وسمعوا منه، وإما بواسطة من خلفه في أمته علمًا ودعوة وهم: العلماء، فالرسول بلغ البلاغ المبين -عليه الصلاة والسلام- و﴿مَآ﴾: اسم موصول، واسم الموصول يفيد العموم، أي: جميع ما أنزل إليك.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى أن كونه مربوبًا لله عز وجل يستلزم منه أن يبلِّغ، ثم إن ربوبية الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام ربوبية خاصة، وقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ والذي أنزل إليه من ربه هو القرآن كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وتبليغ الرسول -عليه الصلاة والسلام- يشمل تبليغ اللفظ وتبليغ المعنى، ولذلك تجد بعض الآيات يفسرها النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- إذا كانت مجملة أو غامضة فهو يفسرها بقوله ويفسرها بفعله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ هذا كلام شديد الوقوع على النفس ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: تبلغ كل ما أنزل إليك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ حتى فيما بلغته مما كتمته فإنه لا يكون بلاغًا؛ لأن جحد بعضهم ما أنزل كجحد الكل؛ لأن الإيمان لا يتبعض، فلا يمكن أن تؤمن بشيء وتنكر شيئًا.

إذنْ لابد أن تبلغ جميع ما أنزل، ولهذا بلغ -عليه الصلاة والسلام- كل ما أنزل حتى بما كان فيه

لوم عليه - عليه الصلاة والسلام - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]، هذه الآية فيها لوم عظيم فلو قيلت لواحد منا لثار من الغضب؛ لكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لابد أن يبلغ كل ما أنزل إليه حتى فيما كان فيه اللوم عليه، ولهذا قالت عائشة: (لو كان محمدًا كاتمًا شيئًا مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾)[1].

وقوله عز وجل: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: رسالة ربك وأضاف الرسالة إليه سبحانه؛ لأنه المرسِل، وقد تضاف الرسالة إلى الرسول ويقال: هذه رسالة محمد؛ لأنه مبلغها، فتضاف إلى الله باعتباره المرسِل وإلى الرسول باعتباره المبلِّغ.

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: إن أردت أن تخفي شيئًا خوفًا من الناس، فلا تخف فإن الله يعصمك من الناس أي: يمنعك من الناس أن يضروك بشيء، وهذا هو الذي حصل - والحمد لله -، وإلا فما أكثر الذين يريدون قتله - عليه الصلاة والسلام - أول ما قدم المدينة كان يخاف حتى قالت عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ في ليلة من الليالي لم ينم وسهر وقال: «اللَّهُمَّ ابْعَثْ لَنَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِكَ يَحْرُسُنَا» أو كلامًا مثل هذا، فما أن فرغ من دعائه إلا وفارس يحمل سلاحًا فقال: «مَنْ هَذَا؟» قال: سعد بن مالك، يعني: سعد بن أبي وقاص، فقال ﷺ: «مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ؟» قال: خفت عليك يا رسول الله فأتيت أحرسك - سبحان الله - بعثه الله عز وجل إليه فصار يحرسه[2]، وفي بعض الروايات ولكن ليست في الصحيحين أن حذيفة أيضًا جاء معه فحرساه لكنَّ النبي - عليه الصلاة والسلام - لما نزلت هذه الآية أمرهم أن يتفرقوا؛ لأن الله عز وجل التزم بأن يعصمه من الناس، ومعلوم أن الله إذا التزم بمثل هذا فإنه محروس أكثر من حراسة بني آدم ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يصلح شأنهم حتى لا يصلوا إلى ما يريدون.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يمكنهم مما يريدون من قتل النبي ﷺ، ويحتمل أن المعنى لا يهديهم هداية دين ويكون ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين طبع الله عليهم بالكفر والموت عليهم فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قراءتان بالإفراد والجمع:

---

(١) رواه مسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٢٠٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٠٣٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٢٧٢٩)، ومسلم (٢٤١٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ـ أما على قراءة الإفراد فلا إشكال فيها.

ـ وأما على قراءة الجمع فلماذا جمعت والرسالة واحدة؟ نقول: جمعت باعتبار الشرائع التي جاءت بها هذه الرسالة؛ لأنها جاءت بأعمال وأقوال واعتقادات، أعمال قلوب، وأعمال جوارح، فجاءت بفعل وبشرع، وكل نوع منهم يعتبر رسالة، فصح الجمع.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية الكريمة فوائد منها: إثبات رسالة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: منقبة عظيمة للرسول ﷺ حيث كان رسولًا لله عز وجل، وهي منقبة؛ حيث إن الرسول يكرم بإكرام مرسله وإذا كان مرسله ذا شأن كان رسوله ذا شأن، وذلك له شرف لشرف مرسله.

إذن. في نداء الله ـ عز وجل ـ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذا الوصف منقبة عظيمة وشرف كبير له، وإذا كان وصف العبودية شرفًا فوصف الرسالة أشد؛ لأن الرسالة متضمنة للعبودية وزيادة.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبلغ كل ما أنزل إليه وقد حصل هذا، وشهدت له الأمة بذلك ولله الحمد، ففي أكبر مجتمع اجتمع فيه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأمته يوم عرفة قال لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم وقالها ثلاث مرات: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» وهم يقولون: نعم. فيُشهد الله: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، وشهادة قدر هذه الأمة ينسحب إلى بقية الأمة إلى يوم القيامة، بأنه ﷺ بلَّغ الرسالة بتمامها وكمالها.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الرافضة الذين يقولون: إن ثلث القرآن لم يبلغ وأنه مكتوم فنقول كل القرآن مبلغ والحمد لله ولم يبق شيء، وقد ذكر ذلك المفسرون ـ رحمهم الله ـ، وقالوا: هذا فيه رد على الرافضة، لأن الرافضة يعتقدون أن ما بين أيدينا من القرآن ليس هو القرآن وأن محمدًا كتم بعضه ـ والعياذ بالله ـ أو من بعده كتمه أيضًا.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن القرآن كلام الله؛ لقوله: ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ وفيه أيضًا: إثبات العلو وسبق قليلًا.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٧ـ ومن فوائدها: أن النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ لو كتم شيئًا مما أنزل إليه لم يكن أدى حقه سبحانه

---

(١) رواه البخاري (١٦٥٥)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: وجوب إبلاغ الشريعة على أهل العلم وجه ذلك: أن «**العلماء ورثة الأنبياء**»(١)، وإذا كانوا ورثة الأنبياء وجب عليهم أن يقوموا بحق الابن فيبلغوا ما علموا من شريعة الله وجوبًا إما بالقول، وإما بالفعل، وإما بالكتابة، وإما بالإشارة أي: بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل على الرسول ﷺ ومن ثَمَّ يجب أن تذكروا أنه قد تجب السنن على طالب العلم، لأن هذا من إبلاغ الرسالة يعني: لو أن إنسانًا طالب علم معتبرًا عند الناس قام يصلي وترك رفع اليدين مثلًا عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع منه وعند قيامه للتشهد الأول أو ركع ركوعًا على وجه غير مشروع لعددته آثمًا؛ لأن هذا الفعل الذي أخل به أضل بالسنة فيه فيكون حجة، للناس ولقالوا: لو كان هذا مشروعًا ما تركه فلان، كذلك الأفعال التي تكون مكروهة في حق غيره فقد تكون في حقه محرمة.

كما أنه يجب أيضًا على طالب العلم أن يفعل ما يعتقد الناس ما هو حرام من أجل أن يعرفوا أنه ليس بحرام، لأن بعض الناس يقول: أي حركة في الصلاة تبطل الصلاة، فنقول: إذا وجد سبب الحركة يعني :المسبب الذي يبيحها فليفعله ولا بأس حتى يبين للناس؛ لكن في هذه الحال إذا خاف أن يخفي ذلك يبيِّن بالقول أنه فعل ذلك لحاجة وأن الحركة في الصلاة إذا كانت لحاجة فلا بأس بها وما أشبه ذلك.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: شدة تأكيد الله عز وجل على إبلاغ شريعته بهذه الجملة: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ﴾ وهي شديدة جدًّا مما يدل على أن الله عز وجل لا يرضى لعباده أن يتركوا شريعته غير مبلَّغة.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كتم شيء من الشريعة ككتم جميعها؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، وهذا من فوائد القراءة الثانية: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ لأنه قد يقول قائل: وبلغ الرسالة فيما بلغ، فإذا قال: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ شمل الذي بلغ والذي لم يبلغ، فهذه من فوائد القراءة الثانية.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عناية الله تعالى بالرسول ﷺ في عصمته من الناس؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهل هذه مطلقة أو مقيدة بما يحصل به البلاغ يعني: يعصمك من الناس حتى تبلغ الرسالة؟ إن نظرنا إلى ظاهر الآية قلنا: إنها مطلقة ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وإن نظرنا إلى أن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فقد أهديت إليه شاة مسمومة في غزوة خيبر وأكل منها وأثرت في لهواته وكان أثرها مشاهد وفي مرض موته أخبر أن أكلة خيبر

(١) سبق تخريجه.

ما زالت تعاوده وقال: «وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ[1] الأَبْهَرِ[2] مِنِّي»[3] والأبهر: عرق في الظهر متصل بالقلب إذا انقطع هلك الإنسان فهذا يدل على أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - مات بسبب السم الذي حصل من هذه المرأة اليهودية، وقد قيل: إنها أسلمت، فإذا كان كذلك يجب أن تقيد الآية ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ حتى تبلغ الرسالة وفعلًا بلغ الرسالة وأنزل الله على رسوله نعيًا في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

والحديث - حديث الشاة - ذكره البخاري تعليقًا جازمًا به، والحديث المعلق عند البخاري يكون صحيحًا عنده ما عند كل أحد عنده، وقد ذكره معلقًا بصياغة الجزم.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن القلوب بيد الله عز وجل وأن أفعال الخلق تابعة لإرادة الله وهذه تؤخذ من قوله: ﴿يَعْصِمُكَ﴾؛ لأن عصمة الرسول من الناس تنقسم إلى قسمين:

١- إما عدم الإرادة بأن يصرف الله القلوب عن قتله.

٢- وإما بعدم القدرة فقد يحاول الفاعل ولكنه يعدل، وهذا حصل في قصة بني النضير لما جاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - يستنصرهم أو يستعين بهم كادوا له فقالوا: اجلس حتى نأتي إليك ثم انبعث واحد منهم بطبق الرحاء من أجل أن يلقيه على الرسول ﷺ وهو جالس فأخبره جبريل بهذا فقام ودخل المدينة وهذا عصمة من عدم القدرة فهم قد أرادوا لكن لم يستطيعوا.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكافرين وإن كادوا لأولياء الله فإن الله سبحانه وتعالى لا يهديهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا على تفسير أن المراد بالهداية دلالاتهم على تنفيذ ما يريدون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦] يعني: كيدًا أعظم من كيدهم، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] أما على الاحتمال الثاني: أنه لا يهديهم هداية شرع فيكون فيه دليل على أن من قضى الله عليه بالكفر فإنه لا يستطيع أحد أن يهديه؛ لأن الله ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

١٤- وفيها أيضًا من فوائد الآية: أن من علم الله تعالى منه الكفر فإنه لا يُهدى ولا يوفق فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

(١) قَرُبَ انقطاعه.
(٢) عِرْق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان.
(٣) رواه البخاري (٤١٦٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

❁ قال الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٨ - ٧١]

❁ التفسير ❁

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأهل الكتاب هم: اليهود والنصارى وهم يدَّعون أنهم على حق، وأنهم يقيمون الشرائع ومع ذلك فبعضهم يقول: إن بعضهم ليس على شيء، فالله تبارك وتعالى يقول عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [البقرة:١١٣]، وكل منهم نفى أن يكون صاحبه على شيء إطلاقًا، أما الله سبحانه وتعالى فهو حكم عدل فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: من الدين، فلم يكونوا على شيء من الدين؛ لأن دينهم الذي هم عليه باطل حتى يقيموا التوراة والإنجيل إذن لستم على شيء من الدين؛ لأن دينهم الذي يدَّعون أنه حق هو باطل، والباطل عدم وليس بشيء.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا بعدية يعني: إلى أن ﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أو تأتوا بها قائمة فاعلين أوامرها تاركين نواهيها مصدقين بأخبارها هذا معنى إقامتها يعني تكون على ثلاثة أمور:

أولًا: قيام الأوامر، والثاني: ترك النواهي، والثالث: تصديق الأخبار.

هذا إقامة التوراة بإزاء اليهود، والإنجيل بإزاء النصارى. ومعلوم أن اليهود لو أقاموا التوراة لآمنوا بعيسى، وأن اليهود والنصارى لو أقاموا التوراة والإنجيل لآمنوا بمحمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ

﴿تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: وتقيموا ما أنزل إليكم من ربكم وهو: القرآن؛ لأن ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ﴾ وإذا قلنا: إن المراد ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التوراة والإنجيل صار كل شيء للكفار، وإذا ظهر لنا في الكلام بين التكرار وبين التأسيس فالواضح حمله على التأسيس ولنبايع فنقول: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: بذلك القرآن؛ فإن قال قائل: القرآن نزل على محمد، قلنا: نعم على محمد، وهم من أمة محمد لكنهم من أمة الدعوة كما قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1] قال: من هذه الأمة ويشير إلى أمته - عليه الصلاة والسلام - والمراد: أمة الدعوة.

فليكن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المراد به: القرآن، فإذا اعترض معترض بما ذكرنا يجاب بما أجبنا به.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في قول: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أنه يلزمهم أن يقيموا لأنه نزل من عند الرب، والرب هو الخالق المالك المدبر، فإذا كان الله هو ربكم لزمكم أن تقيموا ما أنزل إليكم منه؛ لأنه ربكم وسيدكم إلهكم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ هل النبي ﷺ إذا أمره الله تعالى أن يقول قولًا هل نقول: إنه قاله؟

نقول: نعم ولا شك؛ لأنه إن لم يقله لم يبلغ رسالة ربه.

إذن هو قال لهم ذلك وأعلن لهم هذا أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن.

قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ انظر للإعتراض: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ يعني: ليسوا كلهم بل بعضهم زاده القرآن إيمانًا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]؛ لكن كثيرًا منهم يزداد طغيانًا وكفرًا - والعياذ بالله -.

وإعراب قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ فاللام هنا واقعة في جواب القسم المقدر والتقدير (والله ليزيدن) والنون للتوكيد، وعلى هذا تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، والنون.

وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ﴾، ﴿مَّآ﴾: هذه فاعل (يزيدن) ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فلماذا يزيدهم ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾؟ لأنهم كلما كذبوا بآية أو

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٨١٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عصوا آية ازدادوا بذلك ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فهم كلما نزلت آية ازدادوا طغيانًا وازدادوا كفرًا - نسأل الله العافية - ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

لا شك أن الرسول ﷺ يحزن وييأس إذا لم يؤخذ بأمر الله؛ لأنه الرسول يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله فهو يأس حتى أن الله قال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. يعني: مهلكًا نفسك، لا تهتم وأدِّ ما عليك وهو إبلاغ الرسالة والباقي على الله ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تحزن على هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك ولم يتبعوا رسالتك، وهذا لا شك أنه تسلية للرسول ﷺ في كونه يحزن إذا لم تجب رسالته ﷺ.

الفوائد:

١- في هذه الآية من الفوائد: بيان أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء وعلى هذا فإذا زعموا أنهم مؤمنون قلنا لهم: كذبتم ولستم على شيء إلا إذا أقمتم التوراة والإنجيل، وفي هذا من فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن يعلن براءته من هذا الشرك ويبين أنه ليس على شيء؛ لقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

٢- ومن فوائد هذه الآية: إعطاء كل ذي حق حقه؛ لأنه خاطبهم بأهل الكتاب مع أنهم حقيقة ليسوا بأهلٍ له إذ إن أهل الكتاب هم الذين يقومون به كما تقول: يا أهل القرآن يعني: الذين يقومون به، فالوصف إذا أعطي لصاحبه فهو عدل.

كما أن فيه فائدة ثانية: هي أنه لكونهم من أهل الكتاب يلزمهم أن يقيموه.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا تتم إقامة التوراة والإنجيل إلا بإقامة القرآن اشترط ثلاثة أشياء: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فمن ادَّعى أنه مقيم للتوراة وهو كافر بالإنجيل قلنا: هذا زعم باطل ودعوة باطلة، ومن ادَّعى أنه مؤمن بالإنجيل ولم يؤمن بالقرآن قلنا: هذه دعوة باطلة.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: شرف القرآن لكونه نازل من عند الله.

٤- ومن فوائدها: أنه كلام الله، ووجهه: أن القرآن ليس عينًا قائمة بنفسها حتى تقول إنه مخلوق، بل هو وصف يقوم بالمتكلم به وإذا كان وصفًا لزم أن يكون منزلًا غير مخلوق، أما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] فهنا نقول: الأزواج مخلوقة؛ لأن الأزواج

أعيان مخلوقة بنفسها وكذلك يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] أي: أن الحديد عين قائمة بنفسها لا يمكن أن تكون وصفًا لله، أما القرآن فهو كلام، والكلام لابد أن يقوم من متكلم منزل غير مخلوق كما قال ذلك السلف رحمهم الله.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ والإنزال إنما يكون بعلو.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يلزم مَنْ أقر بالربوبية أن يقر بالألوهية والشريعة؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: من ربكم الذي لا تنكرون ربوبيته.

٧ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات إضافة ربوبية الله للكافرين، لكن هذه الإضافة ليست إضافة التشريع ولكنها إضافة إقامة حجة فأنت مثلًا إذا قلت: إن الله رب محمد ﷺ فهذه إضافة تشريع لكن بالنسبة للكفار إضافة لبيان إقامة الحجة عليهم.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن كثيرًا من أهل الكتاب لا يزدادون بالقرآن إلا طغيانًا وكفرًا إما بالتكذيب وإما بالعصيان.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: العدل في كلام الله وعدم المجادلة؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ ولم يقل كلهم؛ لأن الواضح أن بعضهم يزداد بالقرآن إيمانًا.

١٠ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز توكيد الكلام بما يثبت صدقه، وإن كان في الأصل صدقًا، لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ مع أن خبر الله ـ وإن لم يكن مؤكدًا ـ فهو صدق بلا شك؛ لكن ما وجه تأكيده هنا؟

وجهه: أنه قد يُسْتَغْرَبُ أن يكون هذا في القرآن الذي هو هدى للناس لا يزيد هؤلاء إلا طغيانًا وكفرًا، فلما كان هذا محل استغراب أكده الله عز وجل؛ لأن تأكيد الكلام لابد ـ إن كان صادرًا من صادق ـ أن يكون له سبب وإلا كان هذا التوكيد لغوًا.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القرآن الكريم قد يزيد سامعه طغيانًا وكفرًا، وقد يزيده إيمانًا وذلًا لله؛ لقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ فإنه يفهمنا أن بعضهم لا يزيدهم طغيانًا وكفرًا بل لا يزيدهم إلا إيمانًا وهذا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

١٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفر يزيد وينقص وجهه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وعليه فيكون هذا شاهدًا مقيدًا لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كفرٌ دون كفر) أي: إذا كان يزيد وينقص فلابد أن يكون الأعلى فوق الأدنى فيكون هناك كفر دون كفر.

هل يمكن أن نقول: وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؟ نعم، ربما نقول هذا؛ لأنه إذا كان الكفر يزيد وينقص فإن الإيمان - فلابد أن يكون مثله - يزيد وينقص، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص سواء بالأقوال أو بالأفعال أو باليقين، هذه الفائدة قاعدة (الإيمان يزيد بالأقوال) فإنه من ذكر الله ألف مرة ليس كمن ذكر الله مائة مرة مثلًا أيهما الأول؟ كذلك بالإفعال ليس من صلى مائة ركعة كمن صلى مائتي ركعة، كذلك في اليقين يختلف الإنسان فيه، فالإنسان نفسه أحيانًا يكون في حالة صفاء وفي حالة فراغ ويكون قلبه خاليًا من كل شيء سوى الله فيجد لذة عظيمة في الإيمان وقوة عظيمة حتى كأنه يشاهد الله عز وجل ولهذا قال النبي ﷺ في الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1] ويدل لهذا أن اليقين يزيد وينقص، أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]. وهذا هو إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - يقول: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وهذا مشاهد، وليس الخبر كالمعاينة فلو أخبرك إنسان من أوثق الناس عندك ومعه مثله أو أكثر فإن يقينك بهذا الخبر ليس بيقينك به إذا شاهدته.

إذن الإيمان يزيد وينقص، وإذا كان يزيد وينقص فيجب علينا أن نلاحظ إيماننا هل زاد أو نقص، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن غير نفسه.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله بمحمد ﷺ؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فإن هذه الربوبية للتشريف والتعظيم وبيان أنه ﷺ لا يمكن أن يزيد فيما أنزل عليه ولا ينقص؛ لأنه من ربه الذي اعتنى به أتم اعتناء.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تسلية النبي ﷺ ألا ييأس على القوم الكافرين حتى إن الله تعالى بيّن له في آية أخرى أن ما حصل منهم واقع بمشيئة الله من أجل أن يطمئن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧]، فإذا كان شركهم بمشيئة الله فإن الرسول ﷺ لا شك سوف يغضب لكن لا يمنعه من الدعوة إلى الله، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فإن قال قائل: وهل هذا أيضًا يوجه إلى الداعي إلى الله؟ بمعنى أنه لو جاء أحد يشكو إليَّ ويقول: أنا نصحت هؤلاء القوم ولكنهم لم يأخذوا بنصيحتي بل كابروا واستهزأوا وسخروا هل لك أن تقول: يا أخي لا تأس، ولا تحزن، ولا يضيق صدرك أو لا؟

نقول: نعم، أقول هكذا حتى أُفرّج عنه وأفسح له ولا يقنط فلذلك لا ينبغي للإنسان إذا جاءه أحد من دعاة الخير أو من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يشكو إليه أن يوسع له في ذلك

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويفسح له ويقول: لا تأس على هؤلاء؛ لكن بعض الناس إذا جاءه أحد يشكو الناس يقول: هؤلاء ما الذي يقدرهم إلا الله ـ ونسأل الله العافية أن يحيط بنا غضب أو نقمة ـ، ثم يدخل عليه حزنًا على حزن، وهذا غلط؛ لأن الداعي إلى الله إذا قام بما يجب عليه ما وراء ذلك فهو إلى الله عز وجل.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: إيمانًا حقيقيًا وليس كما قال بعضهم: إيمان نفاق؛ لأنه لا يمكن أن يعبر عن المنافق بالمؤمن ما دام على نفاق، أما قبل المنافقين كان يكون آمن ثم كفر كما قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون:٣]؛ لكن يعبر عن المنافق حال نفاقه بالإسلام ويمكن أن يعبر عنه بالإسلام، لكن بالإيمان لا يمكن؛ ولهذا ضعف قول الذي قال: إن المراد بالذين آمنوا أي: آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم وهذا لا يمكن أن يقع التعبير به في القرآن الكريم أبدًا.

لكن الذي حملهم على هذا أنه قال عز وجل: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٢٦] فقال: كيف نقول: أن الذين آمنوا ما آمنوا منهم، يكون هذا تكرار، لكن يمكن أن نقول من آمن اسم مشترك فيكون باعتبار الذين هادوا والنصارى والصابئين أي: من دخل الإيمان وباعتبار الذين آمنوا أي: من ثبت على إيمانه؛ لأن الإنسان قد يؤمن ثم يكفر ـ نسأل الله العافية ـ هذا وجه.

والوجه الثاني: أن نقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه إن واسمها أما خبرها فمحذوف دل عليه ما بعده والتقدير: (إن الذين آمنوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مبتدأ وتكون الواو للاستئناف أو معطوفة على محل إن واسمها، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ تكون مبتدأ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني بذلك: اليهود ومعنى ﴿هَادُواْ﴾: رجعوا؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: رجعنا إليك وتبنا.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أصل الصابئ هو: الذي خالف دين آبائه وأجداده يعني: خرج عن دين قومه فما المراد بهم هنا؟

قيل: إنهم فرقة من اليهود وعلى هذا يكون عطفها على الذين هادوا من باب عطف الخاص على العام، وقيل: إنهم فرقة من النصارى وعلى هذا يكون عطف النصارى عليهم من باب عطف العام على الخاص، وقيل: ـ وهو الأظهر ـ إنهم فرقة مستقلة؛ لأن الله ذكرها على وجه الاستقلال، فالصابئون على دين مخالف لدين اليهود والنصارى ولعلهم أخذوا من هذا الدين وهذا الدين

وركَّبوا دينًا لهم،و﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ معطوف على ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ ولا إشكال في إعرابها على الوجه الذي ذكرناه وهو أن ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ مبتدأ فتكون عطفت على مبتدأ فترفع.

لكن يرد علينا أنها ذكرت في آية أخرى (بالصابئين) في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج:١٧].
فيقال: الفرق ظاهر؛ لأن الآية الأخيرة ليس فيها ذكر الإيمان فيما بعد لما فيها من ذكر عموم الأجناس من كافر ومسلم فتكون ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ معطوفة على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على اسم إن والخبر يأتي بعد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ﴾ فهو يفصل بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾.

فلا تكون نظيرًا لهذه الآية، ولهذا لم تكن نظيرًا لها لم يكن إعرابها كإعرابها.

وقوله: ﴿وَالنَّصَارَى﴾ يطلق على الذين ناصروا عيسى - عليه السلام - قيل: إنها مأخوذة من النصرة وقيل: إنها مأخوذة من الناصرة وهي اسم بلدة وفي كل منهما شيء من الإشكال؛ لأن النصارى لا تتطابق في التفسير لا مع النصرة ولا مع الناصرة.

لكنه لا شك أن المراد بهم بالاتفاق هم: الذين تابعوا عيسى - عليه الصلاة والسلام -.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إعراب: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ هل نقول: إنها شرطية أو نقول: إنها اسم موصول في ذلك قولان:

أحدهما: أنها شرطية، وعلى هذا فيكون جواب الشرط ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وتكون جملة الشرط خبر المبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ اسمًا موصولًا فتكون بدلًا أو عطف بيان لما سبقها، ويكون محلها في الإعراب محل ما سبق، وعلى هذا فيكون الخبر قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وربطت بالفاء؛ لأن ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اسم موصول وهو يشبه الشرط في العموم؛ لأن ﴿وَالَّذِينَ﴾ هذه اسم موصول يشبه الشرط في العموم.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ محل ﴿آمَنَ﴾ من الإعراب؟ إن قلنا: (من) شرطية فمحلها الجزم على مذهب الشرط، وإذا قلنا: إنها اسم موصول فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

إذا قال قائل: ما العائد على التقدير على منهج الشرط أو اسم موصول، وقد ذكر في آية أخرى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٦٢] وفي الآية الأخرى ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فلابد من الإيمان بالله والإيمان بالله يستلزم الإيمان بكتبه ورسله وملائكته وقدره واليوم الآخر؟

الحكمة من ذلك أن الأركان الأربعة أجملت تحت الإيمان بالله وهذا خاص؛ لأن الإيمان باليوم

الآخر هو الذي يحمل الإنسان على العمل، إذا كان الإنسان في شك من اليوم الآخر ـ والعياذ بالله ـ لا يعمل ماذا يرجو وماذا يخاف، فلا يمكن الإيمان حقيقة إلا بالإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان به هو الذي يحمل على القيام بشريعة الله، الإيمان بالله عز وجل إما أن يتضمن الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هو: يوم القيامة، والآخر يعني: الذي لا يوم بعده؛ لأن نهاية المطاف للخلق هو اليوم الآخر إما إلى الجنة أو إلى النار جعلنا الله وإياكم في الجنة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت كل ما أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت فهو داخل في الإيمان باليوم الآخر.

ففصة القبر، وعذاب القبر، نعيم القبر، وكذلك ما يكون بعد قيام الساعة من الحساب والميزان والصراط والحوض والكتب والشفاعة وغير ذلك.

وقوله:﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعني: عمل عملًا صالحًا والعمل الصالح هو ما جمع شرطين: الإخلاص لله عز وجل، والثاني: المتابعة للرسول ﷺ ،وإن شئت فقل: الإخلاص والمتابعة لشريعته حتى يكون أعم فيشمل الذين آمنوا بالرسل السابقين واتبعوا شرائعهم فيقال: العمل الصالح ما جمع بين أمرين: الإخلاص لله والمتابعة للرسول الذي تكون شريعته قائمة، فالعمل الصالح ضده العمل الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ عَلَيْهِ رَدٌّ»(١)، وهذا القصد فيه المتابعة، وقال فيما يرويه عن ربه أنه تعالى قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢) وهذا القصد فيه الإخلاص.

واعلم أن الإخلاص ليس بالأمر الهين فالإخلاص هو أصعب ما يكون حتى إن بعض السلف يقول: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله مما يعلم ويستغفره لما لا يعلم، فالشرك أخفى من دبيب النمل على الصخرة السوداء، لذلك يجب على الإنسان أن يكون دائمًا غاسلًا قلبه من أدران الشرك ويتفقده حتى لا يقع فيه.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أولًا في الإعراب ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع مع أن (لا) في مقام النافية للجنس والمعروف أن (لا) النافية للجنس تنصب الاسم وترفع الخبر، فهنا نقول: إن (لا) ترفع؛ لأنها كررت وإذا كررت ألغيت فنقول: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ لا: نافية ولا نقول للجنس نقول: ليس عليه خوف أي: من المستقبل؛ لأنهم آمنون مطمئنون كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تبنى على ما مضى؛ لأن ما مضى كله قد استوعبوه بطاعة الله فلا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم رضوا بعاقبته وثوابه، ولا يخافون من المستقبل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الفوائد:

١- **في هذه الآية من الفوائد:** أن من اليهود والنصارى والصابئين منهم من هو مؤمن بالله واليوم الآخر؛ لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فمثلًا اليهود الذين آمنوا بموسى حين كانت الشريعة القائمة يدخلون في كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر، والنصارى الذين آمنوا بعيسى حين كانت الشريعة قائمة كذلك وآمن المؤمنين بمحمد ﷺ كذلك.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ثواب الله عز وجل لا ينبني على حسب ولا نسب، وإنما ينبني على الإيمان والعمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

٣- **ومن فوائد هذه الآية:** أنه من مستلزمات التعبير أن نعبر عن اليهود باليهود وعن النصارى بالنصارى لكن صار القسيسون من النصارى يلقبون أنفسهم بالمسيحيين؛ ليلبسوا على ما هم عليه من الباطل ثوب الحق؛ لأنهم إذا انتسبوا إلى المسيح انتسبوا إلى دينه ولكن المسيح بريء منهم؛ لأنهم لم يقبلوا بَشارته ولم يصدقوا بها ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي أخذ الله على النبيين الميثاق أنهم يؤمنون به وينصرونه.

فوصفهم الحقيقي ولقبهم الحقيقي هو: النصارى، وما زال أهل العلم الذين يكتبون في التاريخ من المسلمين وغير المسلمين يسمونهم بالنصارى حتى عظمت كلمة النصارى واستولت على كثير من البلاد الإسلامية وسموا أنفسهم بالمسيحيين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما يكون بعد الموت؛ فسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه من أحوال اليوم الآخر ونعيم القبر وعذابه كذلك وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلًا كذلك، فكل ما أخبر به ﷺ مما يكون بعد الموت فإنه داخل في الإيمان باليوم الآخر.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان وحده لا يكفي؛ لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، فلو أن إنسانًا كان مؤمنًا بالله وباليوم الآخر وبالملائكة والكتاب والنبيين والقدر، ولكن ليس عنده عمل صالح فإن عليه خوف وله حزن؛ لأن الله لم ينزع خوفه وحزنه إلا

عمن آمن وعمل صالحًا.

فإن قال قائل: على هذا التقرير هل ترون أن ترك العمل الصالح أي عمل يكون يكفر به الإنسان؟

فالجواب: لا، لأن التكفير شيء والخوف من الذنوب والحزن على ما فات شيء آخر، ولا نطلق الكفر إلا على من كفره الله ورسوله؛ لأن التكفير فقه شرعي يترتب عليه أمور عظيمة، والأحكام الشرعية لا تُتلقى إلا من الشرع، فلا يجوز أن نصف أحدًا بأنه كافر دون أن يكون كافرًا بمقتضى دلالة الكتاب والسنة ولا أن نسقط عنه الكفر إذا كان الكتاب والسنة يقتضي كفره، ولكن يبقى النظر إذا جاء إطلاق الكفر في القرآن والسنة، فهل نحمله على الكفر الأكبر أو على الأصغر؟ فالجواب: الواجب أن نحمله على الكفر الأصغر وهذا هو الواجب؛ لأن الأصل بقاء إسلام المسلم فلا نخرجه من دائرة الإسلام إلا بيقين؛ لأن اليقين لا يرفع إلا بيقين ولا يمكن أن يُزال اليقين بالشك، فإذا جاء في القرآن والسنة إطلاق الكفر على عاملٍ عمل كذا وكذا وشككنا هل يراد الكفر المخرج من الملة أو الكفر الأصغر، فالواجب أن نحمله على الكفر الأصغر لماذا؟

لأن الأصل بقاء الإسلام حتى نتيقن أنه خرج من الإسلام، ولأن التعبير بالكفر في مواطن كثيرة يتيقن به الإنسان أنه الكفر الأصغر بدلالة القرآن والسنة مثال ذلك: قول النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1].

إذا قال قائل: إذن من قاتل المؤمنين فهو كافر؛ لأن النبي ﷺ يقول: «قِتَالُهُ كُفْرٌ» نقول: ليس بصحيح؛ لأن الله قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩ - ١٠]

ولو كان المقاتل كافرًا كفرًا أكبر لم يكن أخًا لنا، وكذلك قال في الفساق فيمن قتل المؤمن قال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] أي: أخيه القاتل مع أن قتل المسلم كفر، فيقال: هذا يدل على أن إطلاق الكفر لا يقتضي الخروج من الإسلام، وكذلك «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفْرٌ: النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ والطَّعْنُ فِي النَّسَبِ»[2]، وأمثال هذا كثير وعلى هذا فنقول: الكفر حكم شرعي لا يجوز إطلاقه إلا على من أطلقه الله ورسوله عليه.

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) سبق تخريجه.

ثم إن الكفر نوعان: أكبر وأصغر، فإذا علمنا أن هذا من الكفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة قلنا: إنه الأكبر (هو كفر أكبر) وإذا لم نعلم وجب حمله على الكفر الأصغر؛ لأن الإسلام متيقن والكفر مع الاحتمال ليس بالمتيقن؛ ولأنه لا يمكن أن نستبيح دم المسلم إلا بنص صريح واضح.

فإذا قال قائل: إذا ثبت أن هذا كفر فهل نحكم به على الشخص المعين أو لا؟

نقول: نعم نحكم به على الشخص المعين إذا كان المشهور بالتكفير، فإننا نحكم عليه بأنه كافر بأدلة، فلو أن رجلًا لا يصلي أبدًا قلنا: هذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة بالأدلة المعروفة ولا تخفى على كثير منكم.

فإذا قال قائل: وهل نكفره بعينه؟

قلنا: نعم نكفره بعينه وندعوه إلى الصلاة فإن صلى ارتفع عنه الكفر والقتل وإن لم يصل قتل كافرًا بعينه.

وكذلك لو رأينا شخصًا يسجد لصنم، والسجود للأصنام كفر أكبر مخرج عن الملة نحكم عليه بعينه؛ لأنه كافر ونستبيح دمه وماله فنحكم عليه بعينه أنه كافر ونستتيبه على القول الراجح، وإذا تاب فرفعنا عليه القتل ووصف الكفر وإلا قتلناه كافرًا وهلم جرًّا.

وأما ظن بعض الناس أنه لا يكفر أحدًا بعينه إلا إذا جاء في القرآن والسنة أنه كافر بعينه هذا غلط عظيم؛ لأن أخذنا بهذا القول ما يبقي أحد كافر، نعم لا نحكم له بالنار إلا إذا عين في الكتاب والسنة، وهناك فرق بين الحكم بالكفر وبين الشهادة له بالنار، فإننا لا نشهد فلو شهدنا بأنه كافر لا نقول: إنه في النار بعينه، لكن نقول: هذا كافر وكل كافر في النار هذا صحيح.

وأهل السنة والسلف أنكروا الشهادة لمعين بألقاب النفس والثناء ولم يُنكر التعميم، خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: (إنكم تقولون فلان شهيد، وفلان شهيد، ولعله حمل بعيره ـ يعني ذنوبه ـ لا تقولوا شهيد ولكن قولوا: من قُتل في سبيل الله فهو شهيد) فيجب أن نعلم الفرق بين الحكم بالكفر وبين الشهادة بالنار.

وذكرنا أن الذي يحكم بالكفر المعين إذا كان مشروط بالتكفير شروط التكفير لابد فيها من معرفتها:

أولًا: أن يكون الإنسان قاصدًا لما قال أو فعل، فإن لم يكن قاصدًا فلا شيء عليه في جميع الأشياء، الألفاظ التي يغلب عليها الإنسان لا حكم لها لا في الكفر ولا في العتق ولا في الوقف ولا غيره فإنها لا حكم لها؛ لأن النبي ﷺ قال: «لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ[(١)]»[(١)] وقال الله عز وجل: ﴿لَا

(١) فسره بعضهم بالغضب وهو موافق لما في «الجامع» «غلق إذا غضب غضبًا شديدًا». لكن غالب أهل الغريب فسروه بالاكراه. وقالوا كأن المكره أغلق عليه الباب حتى يفعل.

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٥].

فلا بد من القصد بناءً على ذلك فلو أكره الإنسان على الكفر فإنه لا يكفر بنص القرآن: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦].

ولو أن إنسانًا قال كلمة الكفر من شدة الغضب فإنه لا يكفر؛ لعدم القصد وما قصد أن يتكلم بهذا، ولو أن إنسانًا قال كلمة الكفر من شدة الفرح عكس الأول فإنه لا يكفر، لأنه مبهور ولم يقصد والحديث بهذا صريح في قصة الرجل الذي أضل عنه راحلته وعليها طعامه وشرابه حتى آيس منها فنام تحت شجرة فإذا بالناقة قد حضرت فأخذ بزمامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح[٢] وليس عليه شيء كلامه هذا لا يترتب عليه شيء؛ لأنه عن غير قصد لكن مع الفرح الشديد أخطأ.

ومن ذلك أيضًا الخطأ في التأويل: فلو أن إنسانًا فعل ما يكفر تأويلًا وظنًّا منه أن هذا هو الحق فإنه لا يكفر؛ لأنه لم يقصد الكفر وإنما فعل هذا الشيء أو قال هذا الشيء بناءً على أنه حق وحلال، ولو علم أنه كفر لكان أشد الناس نفورًا منه ويشهد على ذلك: قصة الرجل الذي كان مشفقًا على نفسه فأمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويلقوه في اليم وقال: والله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

فهذا إنما قال هذا الشيء؛ خوفًا من عقاب الله، وظنًّا منه أنه لو بعثه الله لعذبه عذابًا شديدًا، فجمعه الله عز وجل وسأله: لماذا فعلت؟ قال: يارب فعلت هذا خوفًا منك، فغفر له ـ اللهم لك الحمد ـ غفر له لأنه إنما فعل هذا خوفًا من عقاب الله عز وجل فظن أن هذا لا يضر.

ومنهم على بعض التفاسير فعل ذي النون ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء:٨٧] وألا نضيق عليه أكبر من الضيق الذي حصل له، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا شك أن هذا ما قاله إلا عن تأويل أو ما ظنه إلا عن تأويل.

وبها وعليها بنى الإمام أحمد رحمه الله في إحدى روايتيه: (أن الخوارج ليسوا كفارًا)؛ لأنهم استباحوا دماء المسلمين بتأويل، هم يرون أنهم يتقربون إلى الله بقتل المسلمين؛ لأنهم يرون أن المسلمين ليسوا على حق فهم متأولة، ومن العلماء من أطلق كفرهم بناءً على الأحاديث الواردة فيهم، والآخرون قالوا: هذا في خوارج معينين الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وليس كل

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٤٠٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

خارجي يكون كافرًا.

ومنها الجاهل: الجاهل غير قاصد للمخالفة؛ فالجاهل الذي يسجد لصنم ظنًّا منه أنه ليس حرامًا؛ لأنه عاش في بلد الكفر وكان حديث الإسلام فظن أن هذا لا يضر فهل نقول: إنه كافر لأنه مشرك أو لا؟

الجواب: لا نقول هذا حتى نعلِّمه أن هذا شرك فإذا أصر على ذلك وقال: إنه وجد آباءه على ذلك صار كافرًا.

و(الزنا) حرام بإجماع المسلمين فلو أنكر أحدًا تحريمه؛ لأنه لم يعرف الإسلام لأنه أسلم حديثًا فإنه لا يكفر؛ لأنه لابد من العلم وهذا تدل عليه أحاديث كثيرة وآيات كثيرة وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] ومَنِ الظالم؟ الظالم الذي يقع في المخالفة عن قصد وعلم، وأما من فعل عن جهل أو خطأ في تأويل أو غيره فليس بظالم، فلابد من مراعاة هذه الأشياء لئلا تزل القدم فتكفر من لم يكفر الله ورسوله وإذا كفرت من لم يكفره الله ورسوله فالكفر عليك - نسأل الله العافية - كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ يَا عَدوَّ الله وَلَيْسَ كَذَلِكَ، عَادَ عَلَيْهِ» أي: رجع عليه، عكس ذلك من لا نكفره بترك الأعمال أبدًا حتى ما جاء به الشرع لا يقر به فيقولون: إنه لا كفر إلا في الاعتقاد فقط، وأما الأعمال فليس فيها كفر (يزني، يسرق، يقتل، يترك الصلاة، يترك الزكاة، يترك الحج هو لا يكفر) وهذا خطأ، ودائمًا الحق يكون بين طرفي نقيض، إما إفراط وإما تفريط والواجب علينا أن نتعبد لله عز وجل بما نذكر من أحكامه وبما نفعل من شريعته، فلا نذكر في أحكامه ما لم يذكره إذا كان الله يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦].

فكيف بالذي يقول: هذا كفر وهذا إسلام؟! هذا أشد؛ لأن الكفر يترتب عليه أحكام عظيمة يترتب عليه أن هذا الذي حكم بكفره دمه حلال وماله حلال ولا يبقى معه زوجة ولا يدفن مع المسلمين وإذا كان إمامًا يجب الخروج عليه وما أشبه ذلك من الأمور العظيمة فالكفر ليس مجرد كلمة تقال لكن المسألة خطيرة جدًّا، ثم مع ذلك هؤلاء الذين يكفرون من لا يكفره الله ورسوله هم يكفرون بقتالهم المسلمين، فقتالهم المسلمين كفر كما جاء في الحديث الصحيح[1]، وإذا قلنا: إنه كفر أصغر كما تدل عليه آية الحجرات قلنا: ولكن يحتمل أن تنجاب به المعاصي والكبائر حتى يكفر كفرًا أكبر.

---

(١) سبق تخريجه.

فالمهم: أن هذه المسائل يجب علينا ألا نتقدم بين يدي الله ورسوله، وألا نكفِّر من لا يكفره الله ورسوله وألا نسلم من كفره الله ورسوله، والأمر إلى الله ما إلى العلماء ولا إلى الشيخ الفلاني أو غيره.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾

قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاث توكيدات وهي: القسم المقدر، واللام، وقد، والضمير في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ يعود على الله عز وجل، وجاء بهذه الصيغة تعظيمًا لنفسه تبارك وتعالى؛ لأنه أعظم العظماء.

وقوله ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الميثاق هو: العهد الثقيل كأنه وثق به المعاهَد، وقد بيَّن الله في هذه السورة ما هو العهد الذي أخذه عليهم وما هو العهد الذي لهم عند الله فقال الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة:١٢]

هذا العهد الذي أخذ عليهم: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خمس مواثيق في هذا الميثاق أخذها الله تعالى على بني إسرائيل، وجعل لهم عهدًا على الله ما هو؟ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ منهم من كان من أولي العزم كموسى وعيسى، ومنهم من دون ذلك، قد قال بعض العلماء: أن العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل هو ما فطر الله الخلق عليه من توحيده تبارك وتعالى فيقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة:١٢] بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ بالرسالة للجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، ولم يبين الله تعالى عددهم؛ لأن المهم الجنس وليس العدد فماذا كان موقفهم من الرسل؟

قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ زعم بعض العلماء أن في الآية حذف والتقدير: وأرسلنا إليهم رسلنا فعصوا.

وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾

قوله: ﴿كُلَّمَا﴾: أداة شرط وهي مع كونها شرطية تفيد التكرار انظر إلى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠] تفيد التكرار والشرطية يعني: أنهم لا يمشون إلا إذا أضاء لهم وكلما أضاء لهم مشوا فيه هنا كلما جاءهم رسول فريقًا كذبوا.

بعض المفسرين زعم أن في الآية حذف والتقدير: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم

عصوا فريقًا كذبوا...)، وإذا لم يكن هناك حاجة للتقدير فإن تقديره زيادة لا محل لها.

إذن. فلا حاجة للتقدير بل نقول: (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا من الرسل وقتلوا فريقًا من الرسل).

وقوله: ﴿جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ أي: بما لا تريد أنفسهم وتميل إليه لم يستجيبوا بل كان رد فعلهم كما يقول: إما القتل وإما التكذيب.

و﴿فَرِيقًا﴾ هنا مفعول مقدم لكذبوا وجملة كذبوا (جواب الشرط) جواب ﴿كُلَّمَا﴾ أي: (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا) ولم يقل كذبوه؛ لأن منهم من كذب ونجا من القتل، ومنهم من قتل ولن يقتل إلا بعد أن يكذب، ولم يذكر الله تعالى فريقًا ثالثًا وذلك لقلته وهو الإيمان به؛ يعني: وفريقًا يؤمنون به لكنه قليل والقليل لا يعتبر، ولهذا يهمل ذكره دائمًا.

والتكذيب هو رد الخبر الصادق، فإذا قال فلان قام زيد فقلت لم يقم هذا تكذيب؛ لأنك رددت خبره.

وقوله: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ القتل معروف وأتى في القتل بكلمة يقتلون إشارة إلى استمرار قتلهم للأنبياء؛ لأن الفعل المضارع يدل على الاستمرار والماضي يدل على الماضي والانتهاء وربما يكون في هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنهم لا يزالون يقتلون الأنبياء حتى آخرهم وهو محمد ﷺ.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية فوائد منها: تأكيد الكلام بالقسم وغيره من المؤكدات ولو كان المخبر به صادقًا، تؤخذ هذه الفائدة من قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فأكد الله تعالى كلامه بالقسم واللام وإذا قال قائل: أليس الله أصدق القائلين بلا توكيد؟

فالجواب: بلى لكن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هو البلاغة، فإذا كان كذلك فالقرآن أبلغ كلام، فإذا اقتضى الحال أن يؤكد الكلام أكد، وهنا الحال تقتضي التوكيد؛ لتكون الحجة على بني إسرائيل، لأن الله تعالى أخذ منهم الميثاق وانقسموا إلى فريقين.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل ولم يقتصر على ذلك، إذا قلنا: إن المراد بالميثاق: الفطرة، بل أرسل إليهم الرسل تأييدًا للفطرة، ويتفرع على هذه الفائدة: رحمة الله تبارك وتعالى بعباده وأنه لم يكلهم سبحانه وتعالى إلى ما علموه بفطرتهم بل أرسل إليهم رسلًا لتؤكد ذلك.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الله تعالى بإرسال الرسل أفرادًا وجماعات في قوله ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ فبنو إسرائيل فيهم رسل متعددة فمثلًا إبراهيم ولوط كانا في زمن واحد ويوسف وأبوه في زمن واحد، ويعقوب وإسحق في زمن واحد لكن ببعثة النبي ﷺ لا

يمكن أن يكون فيه نبيان أو رسولان؛ لأنه خاتم الأنبياء ﷺ.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: نقض بني إسرائيل العهد وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وحينئذ لم يقوموا بالعهد.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير مما فعلت بنو إسرائيل من تكذيب الرسل والعدوان عليهم؛ لأن الله لم يقص علينا قصص الأنبياء وقوهم لنعلمها تاريخيًا فقط، بل لنعتبر بها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل لم تؤمن إلا بما وافق هواها؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

٧- ومن فوائدها: أن المتكلمين الذين بنوا أصول عقيدتهم على العقل كالمعتزلة والجهمية والأشعرية وأمثالهم فيهم شبه من اليهود، فإنهم إذا أتاهم النص فيما لا يرون كذبوه إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلًا أو حرَّفوه إن لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ لأنهم يرون مصدر ما أخبر الله به على نفسه العقل، فإذا جاء النص بما لا يهوون حسب عقولهم كذبوه وأنكروه إن استطاعوا التكذيب.

ومن الذي ادَّعى أنه كذب أخبار الآحاد الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما يقولون: أخبار الآحاد لا يمكن أن تثبت بها عقيدة؛ لأنها يحتمل خبر واحد والخبر الواحد يحتمل الظن، والظن لا يمكن أن تبنى عليه عقيدة.

فإذن يرد أكثر الأحاديث الواردة في الصحيحين؛ لأن أكثرها أخبار آحاد ثم نقول: لهم هل تقبلون خبر الواحد في الأحكام كالأوامر والنواهي فيقولون: نعم، نقول: قبولكم ذلك مع أن الخبر يدل على وجوب أو تحريم أو كراهة أو استحباب، وهذا لابد منه بمعنى لابد أن تصلي وأنت تعتقد أنها فريضة واجبة وهذه عقيدة لكن هذه عقيدة فيما فرض على الإنسان أو فيما طُولب به الإنسان، وتلك عقيدة لما أثبت الله لنفسه، وعليه فنقول: حتى أخبار الأحكام تستلزم العقيدة إذ إن كل حكم لابد أن يعتقد الوجوب أو الاستحباب أو الكراهة أو التحريم. المهم: أن المتكلمين الذين ردوا ما لا ترتضيه عقولهم يشبهون بني إسرائيل الذين إذا جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا.

٨ - ومن فوائد الآية أيضًا: الحذر من هوى النفس وأن هوى النفس، قد يؤدي إلى الهلاك وإلى فعل ما يقبح شرعًا وعقلًا.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن بني إسرائيل فريقًا منهم كذبوا الرسل وفريقًا يقتلون الرسل ولا يبالون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ﴿وَحَسِبُوا﴾ بمعنى: ظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ

فِتۡنَةٞ﴾ فيها قراءتان:

القراءة الأولى: ضم النون، والثانية: فتح النون.

فعلى قراءة الضم تكون (أن) مخففة من الثقيلة، ويكون اسمها ضمير محذوف وجملة ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ في محل رفع خبرها.

وعلى قراءة النصب تكون (أن) مصدرية و (لا) نافية، و ﴿تَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، فهنا سلط العامل على ما بعده مع الفصل بـ (لا) الناهية.

حينئذ ينبغي لنا أن نبين أن (أن) إذا كان ما قبلها عِلمًا فإنه يجب الرفع، وإذا كان ما قبلها يفيد الظن ففي هذا وجهان، وإذا ما كان قبلها ليس علمًا ولا ظنًا وجب النصب.

إذا كان الظن تقول: علمت ألا يكون كذا وتكون (أن) هنا مخففة من الثقيلة، إذا كان ظن جاز فيها وجهان. في الآية الكريمة: ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ ظن ولذلك جاز وجهان النصب والرفع ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حسبوا ألا يكون من جراء فعلهم هذا وهو التكذيب والقتل ألا تكون فتنة أي: ألا يفتن بتصديق الإيذاء عليهم فاستمروا في طغيانهم.

وقوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عموا عن الحق فلا يرون، وصموا عنه فلا يسمعونه.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد أن أراهم شيئًا من العذاب ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ثم رجعوا، لكن لم يرجعوا كلهم بل بعضهم انتفى في هذه الفتنة التي تاب الله عليهم بعدها وبعضهم استمر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.

فصار بنو إسرائيل أولًا: عموا وصموا جميعًا، ثم تاب الله عليهم، ثم رجعوا لكن ليسوا كلهم؛ ولكن البعض ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، والذين لم يعموا ولم يصموا قليل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قال بعض العلماء: إن هذا هو ما ذكره الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هذا بعد التوبة ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ﴾ [الإسراء: ٤ - ٧] لكن سياق الآية بالنسبة له لا يفيد؛ لأنها ليست في هذا السؤال، فالذي في سياق السورة أنهم قاتلوا وكذبوا وظنوا ألا يكون لها أثر، ولكن كان لها أثر ولكن ما هذا الأثر؟ لا ندري - الله أعلم - بعد هذا الأثر ما الذي حصل منهم ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ فهذه الفتنة أي: عموا عن الحكم وصموا عنه، وليس المراد عمت أعينهم الباصرة وآذانهم السامعة، ثم تاب الله عليهم، ووفقهم

للهداية، ثم عموا وصموا بعد ذلك كثير منهم، وليس بلازم أن نعرف ما أبهمه الله في القرآن قد يكون فيه مصلحة والمقصود معرفة القصة من حيث هي.

وقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ قال بعض الناس: إنها فاعل عمي وصم وأن (الواو) في عموا وصموا حرف دال على الجمع فقط فهو في قوله (عليكم) (عليهم)، فهو حرف دال على الجمع، وهو خلاف المشروع من لغة العرب، ويعبر عن هذه اللغة بـ (أكلوني البراغيث) وقيل: إن (الواو) فاعل في ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وأن (كثير) بدل من الواو (بدل بعض من كل) وهذا هو الأقرب: إن الله تعالى عمم أولًا ثم أبدل من هذا التعميم بأنهم كثير، وحينئذ نقول: إن القرآن الكريم لم يكن على لغة (أكلوني البراغيث).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ البصير هنا تشمل معنيين: المعنى الأول: البصير بالعين، والثاني البصير بالعلم، وقد اجتمع المعنيان في حق الله تبارك وتعالى فهو بصير بما يعملون فيراه ولا يخفى عليه وبصير بما يعملون بعلمه؛ لأن المعمول قد يكون ذا جسد فيُرى أو غير جسد فلا يرى وكلاهما يعلم.

إذن: نقول ﴿بَصِيرٌ﴾ يشمل معنيين بصير بمعنى: الرؤية، بصير بمعنى: العلم والثاني أعم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** أن من غباوة بني إسرائيل أنهم يظنون ألا تقع فتنة مع كونهم يقتلون الرسل ويكذبون فريقًا منهم، وهذا يدل على الغباوة وعلى أن قلوبهم قد طُبع عليها - والعياذ بالله - فلا تميز بين الأشياء.

٢- **ومن فوائدها:** التحذير من الأمن من مكر الله، وأن ذلك من خُلُقِ اليهود أن يأمن الإنسان من مكر الله، ويظن أنه بمعصيته لا يعقبها عقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى قد يتوب على المرء بعد عماه وصممه والآية توافق ذلك.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** رأفة الله تعالى بعباده وأنه يتوب على من تاب وإن شئت فقل: يتوب على من يشاء من عباده؛ تفضلًا منه وكرمًا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان بعد التوبة ورفع الفتنة عنه قد لا يشكر هذه النعمة ويعود إلى عماه وصممه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣].

٦- **ومن فوائدها:** الحذر من بطر النعمة في العود إلى الفسوق والكفران؛ لأن الله هددهم

بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان عموم علم الله عز وجل بكل عمل؛ لأن كلمة (ما) في ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ موصولة تفيد العموم.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، ولام التوكيد، وقد.

وأكد الله ذلك جريًا على عادة اللسان العربي في تأكيد ما يستحق التأكيد، وإلا فخبر الله عز وجل حق ثم إن هذا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ﴾ ليس خبرًا مجردًا، بل هو خبر وحكم، وحتى لو أننا قلنا: إنه حكم عليهم بالكفر فهو مؤكد بألا يعارض معارض فيقول ليس هذا بكفر، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ من هؤلاء؟

هؤلاء النصارى الذين لم يناصروا عيسى ولم يكونوا من حواريه وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ـ نسأل الله العافية ـ.

والشبهة التي أحدثها الشيطان لهم أنه خُلق بلا أب، والعجب أنهم يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم ثم يقولون إن عيسى ابن مريم ولد بغي.

فيقذفون أمه من وجه، وينزهون أمه ويعلونها من وجه آخر ـ حسب زعمهم ـ هذا من زعمهم.

قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كلمة ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١ـ التأكيد، ٢ـ الحصر، ٣ـ والفصل بين الخبر والصفة.

الخبر عن اسمه يبن كون ما بعد هو خبر أو صفة، هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد أن هؤلاء أكدوا أن الله هو المسيح، ويفيد حصر الله عز وجل بالمسيح وأنه لا يتعداه ويفيد أن المسيح خبر لعيسى وليس صفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح وصف لرجل من أولياء الله (عيسى ابن مريم) والرجل الذي من أعداء الله (الدجال) وقد سماه النبي ﷺ مسيحًا حيث أمرنا أن نستعيذ بالله من فتنة المسيح الدجال، وأما كياسة بعضهم يعني بطلب الكيِّس وقولهم: (إن الدجال يسمى المسيخ) بالخاء فهو باطل لأن أعلم الناس به سماه المسيح ولا معنى أن يوصف هذا بالمسيح وهذا بالمسيخ لكن يختلف الممسوخ، عيسى ابن مريم كان لا يمسح ذا عاهة إلا برأ ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] والمسيح الدجال ممسوح العينين، أعور العين خبيث المنظر، ففرق بين هذا، وهذا وكلاهما مسيح مشتق من المسح.

وقوله: ﴿مَرْيَمَ﴾ هي ابنة عمران ونسب ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أمه؛ لأنه ليس له أب، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى جبريل أن ينفخ في فرج مريم روحًا فنفخ فيها روحًا وهو عيسى ـ عليه السلام ـ

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أنها حال وبناءً على هذا الوجه يتعين تقدير: (قد)، ويكون المعنى (لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم) وقد قال المسيح: يا بني إسرائيل يعني كذبهم.

الوجه الثاني: أن الواو للعطف ويكون قوله: (قال) معطوف على ﴿كَفَرَ﴾ فتكون هذه الجملة مؤكدة في ثلاثة مؤكدات؛ لأنها معطوفة على جملة مؤكدة بثلاثة توكيدات، ويكون المعنى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ولقد قال المسيح عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم)

والتقدير الأول أبلغ؛ لأن المسيح الذي وصف بأنه الله رد على هؤلاء الذين وصفوه كفروا وبيَّن لهم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبد وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

فقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ نداء إشارة إلى بلاهتهم وغفلتهم وأنهم لا يُخاطبون إلا بالنداء ولا ينتهون أو يستأمرون إلا به ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾: فعل أمر من العبادة، والعبادة تطلق على شيئين: الأول: فعل العابد، والثاني: مفعول العابد.

فعلى الأول: فعل العابد نقول: إنها التذلل لله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وعلى الثاني: نقول: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فمثلًا أن نقول: إن فعل المصلي عبادة، ويسمح أن نقول: إن الصلاة عبادة وأصلها من قولهم طريق معبَّد أي: مذلل ميسر مسهل مسخر.

يعني مثلًا: الطريق المسفلت يسمى طريقًا معبَّدًا، والطريق الذي لم يسفلت ولم يُوطأ يسمى ليس طريقًا معبدًا.

وفي قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ الأليق أن نجعل العبادة فعل العابد أو بمعنى مفعوله؟ هي أقرب هنا لفعل العابد ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ذكر العبادة ثم ذكر الربوبية إشارة إلى أن الربوبية تستلزم الألوهية أي أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقر لله عز وجل بالربوبية لزمه أن يقر بالعبادة؛ لأن الرب يجب أن يكون معبودًا؛ لأن له الأمر وله الحكم، فإذا كان كذلك يجب أن يعبد بما شرع.

وقوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ بدأ بنفسه - عليه الصلاة والسلام - ليعترف بأنه عبد مربوب وليس ربًّا كما يقولون، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ﴾ كلمة الله أصلها الإله، لكن حُذفت الهمزة؛ لكثرة الاستعمال، كما حذفت الهمزة في الناس من الأناس، و كما حذفت الهمزة في شر من أشر وفي خير من أخير.

وقوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ الرب: هو الخالق المالك المدبِّر، الذي له السلطان.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ بأن يعبد غير الله.

وقوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: منعه منها؛ لأن التحريم بمعنى المنع ومنه مكة حرام، والمدينة حرام، ومنه حريم البئر أي: ما قرب منها لمنع الناس بتملكه فحرَّم: بمعنى منع فيكون: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: دخولها، والجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه - جعلني الله وإياكم منهم - فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وماذا يكون إذا ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾؟ قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: الذي يأوي إليه كما يأوي الإنسان إلى منزله ﴿ٱلنَّارُ﴾ وهي الدار التي أعدها الله لأعدائه التي ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. فقد جمعوا بين القوة والامتثال فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يبتعدون عنه كل ما أمروا به فهم قادرون عليه، ثم مع ذلك ليسوا قادرين عليه على وجه الضعف، بل هم غلاظ شداد - أجارنا الله وإياكم منها -.

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أشار - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ إن كانت هذه الجملة من قول عيسى، وإن كانت من قول الله فهي بيان

استحقاقهم لدخول النار، وأنهم إنما استُوقدوا في النار لكونهم ظلمة بشركهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وفي قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمكن أن نقول: إنه إظهار في موضع الإضمار؟ أي: بمعنى أنه لو في غير القرآن لقيل: (إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما لهم من أنصار)، يمكن أن يقال هذا، لكن أظهر في موضع الإضمار من أجل أن ينطبق على هؤلاء وصف الظلم أي: أنهم ظلمة ومن أجل التعميم أي أن النار ليست لهؤلاء فقط بل لكل ظالم.

وقوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: من مانعين العذاب عنهم؛ لأن الناصر هو الذي يمنع العدو عنك ويساعدك عليه.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** نص صريح في كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم؛ لقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** توكيد الحكم بما يدفع الشك؛ لقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ فإن الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: (القسم، واللام، وقد).

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أحكام القرآن يؤتى بها غالبًا بحكم عام، بمعنى لو شاء الله لقال: (لقد كفر النصارى) لكنه قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا كفر إلا بعد قيام الحجة بناء على أن (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حالية يعني: أنهم كفروا وقد بيَّنَ لهم الأمر ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن إقرار الإنسان على غيره غير مقبول؛ لأنهم ادعوا أن الله هو المسيح، وعيسى ابن مريم أنكر ذلك وقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فأنا لست إلهًا تعبدونني بل أنا وأنتم على حد سواء كلنا مربوبين لله عز وجل.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** المنقبة والشرف العظيم للرسل - عليهم السلام - حيث أنكر عيسى أن يكون هو الله في هذه الجملة العظيمة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، وهذا مقام الرسل وأتباعهم الذين لا يريدون العلو في الأرض ولا في السماء وانظر إلى قول الرسول ﷺ حين قيل له: (ما شاء الله وشئت) هل أقر هذا؟ لا أنكر وقال: «**أَجَعَلْتَنِي لله**

نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1]، وهكذا أتباع الرسل عليهم السلام لا يريدون من الناس أن ينزلوهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله عز وجل، بل إن أتباع الرسل كلما أنعم الله عليهم بالاتباع ازدادوا تواضعًا للخلق وتواضعًا للحق.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب العبادة أي أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يأمرون بعبادة الله في كل ملة؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إقامة الحجة على أهل الشرك؛ حيث أشركوا بالله مع أنه ربهم وأن الأصنام ليس لها شأن في الربوبية إطلاقًا فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر بل هم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢١].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال الملزم للخصم وأنه ينبغي للإنسان عند المجادلة أن يتبع أوضح الأدلة وأشدها إلزامًا للقصد؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ لم يقل: (ما لكم من إله غيره) قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ إلزامًا لهم بعبادته؛ لأنهم يقرون له بالربوبية، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ إلزامًا لهم بالعبودية؛ لأن الله هو الذي خلقهم وهو الذي يحكم فيهم ويحكم بينهم.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا حَظَّ لعيسى في الألوهية والربوبية؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا في الألوهية، و ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ هذا في الربوبية لا هو ولا غيره من الرسل ولا غيره من الناس.

وبهذا نعرف ضلال أولئك القوم الذين يدَّعون أن أولياءهم هم الذين يدبرون الكون، وهم الذين يصرفونه وأنهم على ضلال مبين - نسأل الله العافية -.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الشرك موجب للخلود في النار؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا مأوى للخلق إلا أحد أمرين: إما الجنة وإما النار، ما هناك شيء وسط.

كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس بعد الإيمان إلا الكفر ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وفي الجزاء منهم شقي وسعيد ما فيه ثالث.

فإن قال قائل: ماذا تقولون فيما جاء في القرآن الكريم من أصحاب الأعراف؟

(١) صحيح: انظر «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

الجواب: نقول أن أصحاب الأعراف يحبسون في مكان مطل لأهل النار ومبصر لأهل الجنة، يحبسون على حسب ما تقتضيه حكمة الله ومآلهم إلى الجنة كما قال عز وجل: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:٤٦] فصار هؤلاء - أعني أصحاب الأعراف - مآلهم إلى الجنة فليس للخلق إلا داران فقط (النار أو الجنة)، ولهذا قال السفاريني في عقيدته:

وَكُلُّ إِنْسَانٍ وَكُلُّ جِنَّة ... فِي دَارِ نَارٍ أَوْ نَعِيمِ جَنَّة

١٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن التحريم يكون شرعيًا ويكون قدريًا.

فقولنا: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التحريم يكون قدريًا فيكون وجهه ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يعني: تحريمًا قدريًا لا شرعيًا؛ لأنه ليس فيه اختيار للإنسان، وعلى وجه التحريم الشرعي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥].

١٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجنة وإثبات النار؛ لقوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

١٥ - ومن فوائدها: أن المثوى الأخير للخلق إما الجنة وإما النار، وأما القبور فليست هي المثوى الأخير، بل هي زيارة يمكث فيها الناس ما شاء الله حتى تقوم الساعة.

١٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الشرك ظلم عظيم؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وقد جاء ذلك صريحًا في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

١٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الظالمين لا ناصر لهم؛ لقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقوله:(من) هنا كما يعرف أهل اللغة العربية حرف جر زيد لإفادة العموم والتوكيد.

فإن قال قائل: كيف يستقيم هذا النهي المؤكد مع أن الكفار قد انتصروا والمشركين قد نصروا؟

فالجواب: أن هذا النصر مؤقت وليبتلي الله به المؤمنين وليس نصرًا دائمًا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦] وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، ولا يمكن أن يتناصر الكفار من كثرة عددهم يوم القيامة، وحينئذ فلا إشكال؛ لأن النصر الذي يحصل لهم نصر مؤقت يريد الله به أن يمتحن المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ هؤلاء طائفة أخرى من النصارى: النصارى الأول في الآية السابقة ماذا قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني: أن

المسيح ابن مريم والله رب العالمين واحد، هؤلاء أيضًا قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ من هؤلاء الثلاثة؟

ذكرهم الله في هذه السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] إذا كان إلهين من دون الله والله، فصاروا ثلاثة.

إذن (ثالث ثلاثة) هم: ١ـ الله، ٢ـ المسيح، ٣ـ أمه.

هؤلاء هم الثلاثة فسر ذلك القرآن؛ والقرآن يفسر بعضه بعضًا، وأما ما قيل إنه: الابن، والأب، وروح القدس، ففيه نظر أي لم يفسره القرآن، ولكن قد يكون منهم من المتأخرين أن هؤلاء هم الثلاثة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الوقوف على ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ متعين؛ لأنه لو وصل لكان قوله: (وما من إله إلا إله واحد) من قول هؤلاء الكفار.

وهذه بمعنى لا إله إلا الله لكن تختلف عنها في الإعراب نقول (ما) نافية، و(من) حرف جر زائد إعرابًا مفيد معنى، و﴿إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضم المقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء، ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

أبطل الله هذا القول أي قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهذا خبر مِنْ أخبر المخبرين خبر مؤكد بماذا؟ بحرف الجر الزائد وبالحصر ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ولا يمكن أن يكون أكثر من إله!! قال الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] هذه آية، وكذلك أيضًا في آية أخرى في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] أي: إذا انفرد كل إله بما خلق أي: كل إله يزعم أن الألوهية له لابد أن يقع بينهم قتال، وإذا وقع بينهم قتال علا بعضهم على بعض أحيانًا يعلو هذا وأحيانًا يعلو هذا، ومن المعلوم أن العالي هو المستحق أن يكون إلهًا وحده وأن المعلُو عليه لا يستحق أن يكون إلهًا.

فلا يمكن أبدًا أن تكون آلهة متعددة لو تعددت لفسدت الدنيا كلها ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ مؤكد، أكد تلك الوحدانية بقوله: ﴿وَٰحِدٌ﴾ وهو الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الإعراب: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾ إن: شرطية لا إشكال فيها.

و﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: هو جواب الشرط لكنه مشكل، وإذا قلنا: إنه جواب الشرط فهو مشكل لأن جواب الشرط لا يأتي بهذه الصيغة؛ لكنه جواب قسم، وجواب القسم مقدر مع لامه أيضًا،

والتقدير: (ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسهم عذاب أليم)؛ لأن كلمة ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ لا يصح أن تكون جوابًا للشرط لوجود اللام في أسلوب القسم ووجود التوكيد في ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هل هذا يتناسب مع قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾، ثم بقوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾؟ لا؛ لأن المعنى: (ليمسن الذين استمروا على الكفر) منهم عذاب أليم، وأما من تاب فيتوب الله عليه.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ قولهم تعدد الآلهة وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ أي: ليصيبن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: الذين استمروا على الكفر.

وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾، و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، وهو مؤلم ـ أعني عذاب الكافرين ـ نفسيًا وجسديًا.

فإنهم يوبخون التوبيخ الأليم حتى إنه ليقال للواحد منهم تهكمًا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]. وهذا لا شك أنه أعظم إهانة فهو يعذب ويصب من فوق رأسه الحميم، هذه إهانة، وعذاب عظيم.

ويقول الله لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] هذا عذاب يقطع القلوب، أما العذاب الجسدي فلا تسأل عنه قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] إذا استغاثوا واشتد طلبهم للماء يغاثون بماء كالمهل يشوي وجههم قبل أن يقع في الأمعاء فإن وقع في الأمعاء قطَّع أمعاءهم ـ نسأل الله العافية ـ

إذن، فهو مؤلم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] إذن. فهو أليم ألم قلب وألم جسم.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية فوائد منها: أن من قال بتعدد الآلهة فهو كافر؛ لأنه مكذب للسمع والعقل والقلب.

مكذب للسمع لأن الأدلة لا تحصى في إثبات ذلك.

ومكذب للعقل؛ لأنه لو تعددت الآلهة لفسد التدبير ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ولا يمكن أن تستقيم الحال مع تعدد المسئولية.

إذن لو كان المسئولون عن الجماعة متعددين، هل يستقيم الأمر إلى أين نذهب إلى فلان أم إلى فلان أو فلان ثم هل ستتحد كلمتهم؟ لا، هذا دليل عقلي. قال الله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] ولا بد.

والآن الكون كله مستقيم لا يتقادم ولا يتناقص مما يدل على أن مُدَبِّره واحد سبحانه وتعالى. نقول هذا عن يقين، إنه ليس لأننا عشنا في دائرة التوحيد، لكن لأننا نثق بأنه لا يمكن أن تتعدد الآلهة.

فالفطرة: أن كل إنسان مولود على الفطرة كما قال عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠]. فتعدد الآلهة باطل بالسمع والعقل والقلب.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات أنه لا إله إلا الله، فإن قال قائل: أليست توجد آلهة سوى الله بتسمية الله لها، قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وقال الله لنبيه ﷺ :﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وآيات متعددة تدل على وجود آلهة، وكيف يستقيم هذا ما هذا الحصر العظيم ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٦٢]؟

الجواب: نقول كل هذه الآلهة باطلة لا تغني شيئًا ولهذا نقول: ما من إله إلا هو موصوف بصفة محذوفة والتقدير:(وما من إله حق إلا الله)، وحينئذ يزول الإشكال، ويدل على هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج:٦٢].

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فتح باب التوبة لكل من أساء وإن عظمت إساءته؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فالله تعالى حكى عنهم الكفر ومع ذلك عرض عليهم أن ينتهوا عما يقولون، فيستفاد منه كرم الله عز وجل وجوده وإحسانه، وأنه يعرض على أعدائه أن ينتهوا عما وصفوه به حتى لا يصيبهم العذاب الأليم.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات عدل الله، وهو أنه لا يعذب إلا من استمر على كفره ومعصيته.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير البليغ عن الاستمرار على الكفر والشرك وأن من استمر عليه فله العذاب الأليم.

ثم قال عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ الاستفهام هنا ليس استفهام استخبار أو استعلام؛ لأن الله تعالى يعلم لكن قيل: إنه (للعرض) وقيل: إنه (للتوبيخ) فمن العلماء من قال: إن الاستفهام للتوبيخ أي أن الله يوبخهم على عدم التوبة وللشفقة، ومنهم من قال: إن الله يعرض عليهم، فهو للعرض كما تقول للشفقة ألا تزورنا، والأليق بكرم الله وجوده أن تكون للعرض أي: أن الله تعالى عرض عليهم التوبة فحينئذ يكون الاستفهام للعرض.

في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ معروف أن الهمزة لها الصدارة، وهنا جاءت الفاء عاطفة، فكيف يستقيم الكلام؛ لأنه إذا جاءت الفاء العاطفة فهذا يعني أن الجملة التي بعدها معطوفة على ما قبلها، وهذا فيه إشكال؛ لأن الاستفهام له الصدارة، اختلف النحويون في هذا منهم من قال: إن همزة الاستفهام داخلة على جملة، والفاء عاطفة على تلك الجملة التي هي مدخول الهمزة، وحينئذ يكون الاستفهام له الصدارة. بماذا نقدر هذه الجملة؟

يقول: باعتبار السياق، انظر المناسب للسياق وقدره وكل سياق له ما يناسبه فمثلًا: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ كيف نقدر؟ التقدير: (استكبروا فلا يتوبون إلى الله) على القول بأنها للتوبيخ؛ لكن على القول بأنها للعرض يقدر فعل يدل على جوده الله وكرمه، مثلًا: (أغفِلُوا عن كرم الله وجوده فلا يتوبون؟).

وقال بعض النحويين: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وأن الأصل أن الفاء مقدمة على الهمزة والتقدير: (فألا يتوبون)، وتكون الهمزة هنا في صدر جملتها المعطوفة على ما سبق، وهذا لا شك أنه أهون على الإنسان إن جاء التقدير؛ لأنه قد يصعب على الإنسان أن يقدر جملة مناسبة للسياق أو تكون الهمزة للاستفهام ومحلها بعد الفاء والفاء مزحلقة من مكانها.

قوله: ﴿يَتُوبُونَ﴾ أي: يرجعون، لأن تاب، وثاب، وأناب، وما أشبهها، كلها معانيها متقاربة فـ (يتوبون إلى الله) أي: يرجعون إلى الله، من معصيته إلى طاعته، من الشرك إلى التوحيد، من التعطيل إلى الإثبات وهلم جرًّا.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي: يسألونه المغفرة، فما هي المغفرة؟ أحسن ما قيل فيها: أنها ستر الذنب والتجاوز عنه، لأنها مشتقة من المِغْفر وهو الذي يوضع على الرأس؛ لاتقاء السهام عند القتال، والمغفر فيه ستر ووقاية، ولا ينبغي أن نقول: إن المغفرة هي ستر الذنب فقط بل هي ستر مع عفو، ووقاية من العذاب، وربما يؤيد هذا الاشتقاق أنه مشتق من المغفر، وربما يؤيد ما ثبت بالحديث الصحيح: أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن فيقابله بذنوبه فإذا أقرَّ بها قال الله عز وجل: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَسْتُرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الجملة معطوفة على ما سبق لكنها تفيد أنه عز وجل أهل لأن يُستَغْفَرَ، وأنه إذا استُغْفِرَ غفر فإنه غفور رحيم، ودائمًا يجمع الله عز وجل بهذين الاسمين الكريمين؛ لأن بالأول يزول المرهوب، وتغفر الذنوب، وبالثاني يحصل المطلوب؛ لأن الرحمة جلب الخير والإحسان.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: الحث على التوبة إلى الله عز وجل، وتوبيخ من لم يتب والتوبة هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، والمعصية لها أنواع، ذكر بعض أهل العلم أن التوبة لها شروط وهي خمسة:

١- الإخلاص.

٢- الندم.

٣- الإقلاع.

٤- العزم على ألا يعود.

٥- أن تكون في وقت تقبل فيه التوبة.

أولًا - الإخلاص: ألا يكون الإنسان حامله على التوبة مراءاة الناس أو الحصول على شرف أو جاه أو ما أشبه ذلك، وإنما يحمله على التوبة مخافة الله عز وجل ورجاء ما عنده.

ثانيًا - الندم: الندم على ما فعل من المعصية، فإن قال قائل: الندم انفعال والانفعال ليس فعلًا فكيف يكون اجتهاديًا بحيث نشترطه على التائب؟

نقول: المراد بالندم: ذاته بمعنى: ألا يكون عنده فعل المعصية وعدمه سواء، بل تجده حزينًا فيتمنى ألا يفعل، وإلا لو قلت لك مثلًا: انته، ما تقبل قولي، وإن قلت لك افرح، ما تقدر أن تفرح إلا بوجود سبب يقتضي ذلك.

ولهذا اعترض بعض العلماء على هذا الشرط وقالوا: هذا شرط لا يمكن إدراكه؛ لأنه انفعال النفس كالغضب والفرح والحزن، فيقال لا، هو يمكن بمعنى: أنه لا يستوي عنده فعل المعصية وعدمه.

ثالثًا - الإقلاع عن المعصية: لأن من قال إنه تائب وهو مُصر على المعصية فهو كالمستهزئ بالله عز وجل.

كيف تقول: أتوب إليك يارب، وأنت تبادر بالمعصية؟! هذا غير صحيح، لابد أن تقلع فإذا كانت المعصية في أخذ مال غصبًا أو سرقة أو جحدًا فلابد من إعادته إلى صاحبه وإلا فهو كاذب في توبته.

وإذا كانت التوبة من الغيبة فلابد أن يقلع عنها وأن يبتعد عن المجالس المأمورة بها، وإلا فهو كاذب.

مثلًا: لو قدرنا أنه يلزم لإقلاعه أن يستعمل بعض ما كان عاصيًا به، قلنا: لا بأس وضربوا له مثلًا برجل قد غصب أرضًا ثم ندم وتاب وهو الآن في وسطه ويريد أن يخرج الجرافات

والحفارات وغيره فهو في هذه الحال في وسط الأرض لابد أن يستعملها لابد أن تمشي عليها الحفارات والجرافات وغيرها فنقول: إن عمله الآن معصية؟ نقول: لا، هذا ليس معصية بل هذا طاعة، لأنه يستعمل هذا ليتخلص منه، ولذلك تجد الواحد منا يستنجي ويمس النجاسة بيده ولا نقول: إنك آثم ولا إنك فاعل مكروهًا بل تقول: إنه مأجور ومثاب على ذلك، مع أنه باشر النجاسة بيده لكن ليتخلص منها، كذلك لو أن الإنسان تطيب في الإحرام - والطيب في الإحرام حرام - ثم تاب وندم وأراد أن يزيله بغسله، فلابد أن يمسه بيده فمسه بيده فيكون الآن طاعة؛ لأنه للتخلص من هذه المعصية.

رابعًا - العزم: العزم على ألا يعود في المستقبل، وليس المعنى ألا يعود في المستقبل، بل المراد العزم على ألا يعود فإن عاد يومًا من الدهر لم تقبل توبته الأولى ما دام حين التوبة عازمًا على ألا يعود؛ لأن الإنسان بشر، قد تسوِّل له نفسه بعد التوبة أن يعود إلى المعصية، فإذا عاد فإن توبته الأولى لا تقبل، ولا نقول: بشرط ألا يعود.

خامسًا - أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة: وذلك بأن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس لابد أن ترجع من حيث غربت، فإذا رجعت من حيث غربت آمن الناس كلهم؛ لأنهم حينئذ يؤمنون بأن لها ربًّا يدبرها، لأنها خرجت عن المعلوم، خرجت عن العادة، فيؤمن الناس، لكنه لا ينفعهم إيمانهم إلا من آمن من قبل ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وكذلك التوبة لا تقبل إذا حضر الأجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨]، فإذا حضر الأجل وشاهد الإنسان الغيب أي: ما كان غائبًا، وما كان ينفعه من قبل إذا شاهده، وآمن ما ينفع ولا تقبل التوبة.

فإن قال قائل: ألم يعرض النبي ﷺ التوبة على عمه في سياق الموت؟ قلنا: بلى؛ لكن الرسول ﷺ عرض عليه ذلك وقال له: «قُلْ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»(١) يعني: أنه لم يجزم أنها تنفعه، بل قال: «أُحَاجُّ لَكَ»، والمحاجَّة قد تنفع، وقد لا تنفع.

فإن قال قائل: هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

الجواب: في هذا خلاف بين العلماء:

فمنهم من قال: لا تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لأن التوبة هي: الرجوع إلى

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧١)، والنسائي (٢٠٣٥).

الله، وهذا رجع رجوعًا مجزَّءًا فلا ينفعه.

ومنهم من فصل وقال: إذا كانت التوبة من ذنب مصر على جنسه فإنها لا تقبل، كما لو تاب من النظر إلى النساء، ولكنه مصر على غمز النساء فهنا لا تقبل التوبة؛ لأنه مصر على جنس الذنب، فالجنس واحد وإن كانت الألفاظ مختلفة أو الأنواع مختلفة.

ومنهم من قال: تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره لكنه لا يستحق أن يوصف بأنه تائب على الإطلاق، بل نقول: هو تائب من كذا فيستحق توبة مقيدة، فلا يُعطى الوصف المطلق ولا يسلب مطلق الوصف بل يقال: إنه تائب من كذا، وهذا هو أعدل الأقوال؛ لأن هذا فيه عدل، إذ لا يمكن أن ننفي عنه التوبة مطلقًا ولا يمكن أن نثبتها له مطلقًا، بل نقول: هذا تائب، لكنه لم ينج من العذاب؛ لأنه مصر على معصية أخرى فسيُعاقب عليها.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: عرضُ الله تبارك وتعالى على هؤلاء الكافرين أن يستغفروه أي: يطلبوا المغفرة، وطلب المغفرة له وجهان:

الأول: أن يسأل الله المغفرة بالصيغة فيقول: أستغفر الله، اللهم اغفر لي، وما أشبه ذلك.

الثاني: أن يفعل ما يكون سببًا لمغفرة الذنوب فمن فعل شيئًا هو سبب لمغفرة الذنوب فقد استغفر، مثال ذلك: «**من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»(١).

هذا الرجل ما قال: اللهم اغفر لي خطاياي ولكنه فعل ما يكون سببًا للمغفرة وعلى هذا فالاستغفار له جهتان:

الجهة الأولى: أن يسأل الله المغفرة بصيغة المغفرة: اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله، وما أشبه ذلك.

الجهة الثانية: أن يسأل السبب الذي تكون به المغفرة وهو أنواع متعددة، فمثلًا إذا توضأ الإنسان فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث بها نفسه غُفر له ما تقدم من ذنبه.

وكذلك: «الْجُمُعَةُ لِلْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»(٢) وأمثلة كثيرة.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٢)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٧١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٥ - ٧٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾

الإعراب: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من المعروف أن القرآن نزل بلسان قريش؛ لأن لسان قريش أفصح لسان العرب، وأن (ما) عندهم تعمل عمل ليس كقوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]، لكنها هنا لم تعمل من خطاب النفي ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ وهي إن دخل النفي أُهملت وهي لم تعمل عمل ليس فإذا قلت: ما محمد قائمًا، فهذا صحيح، وما محمد إلا قائم صحيح، ما محمد إلا قائمًا خطأ؛ لأنه إذا انتقل النفي وجب إهمالها.

قوله: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو ابن مريم بنت عمران وسمي مسيحًا؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ بإذن الله، وأما المسيح الدَّجال يسمى مسيحًا؛ لأنه ممسوح العين أعور وقيل: لأنه يمسح الأرض بالسير عليها؛ لأنه يسير فيها كالسحاب استدبرته الريح.

وقوله: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس إلهًا كما زعم هؤلاء بل هو رسول مرسل من قبل الله عز وجل.

وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: مضت من قبله الرسل، فليس بذكر من البشر؛ لأن الرسل سبقوا فهو مثلهم.

وقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: أمه من الصدِّيقات أي: الصادقة في القول والعقيدة المصدِّقة

لمن قامت الأدلة على كفره، لأن الصدِّيق هو الصادق المصدِّق قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] هذا هو الصدِّيق، فأمه ﷺ صدِّيقة، وهي من النساء الكُمَّل التي قال فيها النبي ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ» وذكر منهن «مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ»[1].

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، ﴿كَانَا﴾ الضمير يعود على المسيح وأمه، فهما محتاجان إلى الطعام لرعايتهما ومفتقران إليه، فلا يصح أن يكونا إلهين، لأن الإله مستغنٍ عن غيره، كما قال الله تعالى في وصف نفسه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ انظر أيها المخالف أو يكون الخطاب للنبي ﷺ انظر كيف نبين الأمر، أي: انظر كيفيته، ولهذا نقول: إن ﴿كَيْفَ﴾ هنا مفعول ﴿ٱنظُرْ﴾ وليست اسم استفهام بل هي مفعول مطلق أي: انظر كيفية تبيين الآيات لهم أي: لبني إسرائيل الذين ادَّعوا أن عيسى وأمه إلهان.

وقوله: ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: العلامات الواضحة الدالة على أنهما لا يصلحان أن يكونا إلهين لأنهما كانا يأكلان الطعام؛ ولأن عيسى رسول قد خلت من قبله الرسل، ولا يصلح أن يكون إلهًا وهو مرسل من قبل الإله.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف أي: ثم انظر نظرة أخرى كيف يؤفكون أي: يصرفون عن الحق مع وضوحه وجلائه، وكل هذا في تقرير التوحيد - توحيد الله تعالى - في ألوهيته وربوبيته، وإبطال ما عليه هؤلاء النصارى.

الفوائد:

١- في هذه الآية فوائد منها، أن الإنسان ينسب إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فنسبه إلى أمه، وهل إذا نسب إلى أمه إذا لم يكن له أب هل تهبه ميراثها؟

الجواب: نعم، هذا القول الراجح ترثه ميراث أب. مثال ذلك امرأة زنى بها رجل - والعياذ بالله - وولد الزنى يكون له أم وليس له أب فإذا ماتت عنه، فهل تهبه ميراث أب؟ نقول فيما لو مات هذا الولد عن أمه وعن أخيه فإن الميراث يكون لأمه أو ترثه ميراث أم ميراث عصبة؟

في هذا قولان للعلماء والصحيح: أنها ترثه ميراث أب، وعلى هذا ففي المثال الذي ذكرنا: يكون ميراث هذا الولد لأمه وليس لإخوته من أمه؛ لأنه ليس له عصبة إلا من جهة أمه، أما من

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» (٣٢٣٠)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

جهة أبيه ليس له ميراث حتى يكون له عصبة من جهة الأب.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المسيح ابن مريم رسول من رسل الله عز وجل، لقوله: ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الوصف الذي ينحصر فيه عيسى ابن مريم ولا وصف له سواه أنه رسول، ولا يمكن أن يكون الرسول إلهًا؛ لأنه مستعبد من جهة مرسله ومكلفٌ من جهة مرسل.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الرسل يموتون؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، وهو إشارة إلى أن عيسى سيموت كما مات غيره.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الرسل لا يصلحون أن يكونوا آلهة، وجه ذلك: أن الإله لا يموت والرسل يموتون.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على مريم عليها السلام؛ لقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ فهي إذن من الطبقة الثانية من طبقات البشر.

٧ـ ومن فوائدها: الرد الواضح على اليهود الذين ادَّعوا أن مريم بغي ـ قاتلهم الله ـ لأن البغي لا يمكن أن تكون صدِّيقة؛ فإن البغي من كبائر الذنوب.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بحال من يتحدث عنه على ما لا يمكن أن نتخذ به مع وجود هذه الحال وهو قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، فهذا استدلال بحالهما على أنهما لا يصلحان أن يكونا إلهين.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن الإله وهو الله عز وجل لا يحتاج إلى الطعام في قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

ومن فوائد الاستدلال الأوضح الأجلى الأوضح دون الأخفى: أن أكلهما الطعام أمر لا يمكن أن يُعارض، لكن لو جيء بأدلة عقلية أخرى ربما يكون فيها جدل؛ لكن الاستدلال بالمحسوس أبلغ من الاستدلال بالمعقول؛ لأن المعقول يمكن فيه الجدل لكن المحسوس لا يمكن فيه الجدل.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على الاعتبار والنظر؛ لقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، والأمر بالنظر جاء في عدة مواضع بالقرآن الكريم، وجاء بخصوص مأمور فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] والأمثلة كثيرة.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على أهل التفويض في أسماء الله وصفاته، لأن أهل التفويض يقولون: إن كل النصوص القرآنية والنبوية في أسماء الله وصفاته مجهولة المعنى لا تُعلم، حتى إن النبي ﷺ يقول الحديث وهو لا يعلم عن معناه، ولهذا سموا أهل التجهيل، وإذا

قرأت بعض كتب العلماء تجدهم يقولون في أهل التفويض: إنهم أهل السنة، فيقولون: أهل السنة قسمان:

١ـ مفوضة.

٢ـ ومؤولة.

فالمفوضة: هم الذين يقولون نحن لا نعلم شيئًا من معاني آيات الصفات وأحاديثها، وهذا مثل السلف عندهم.

والمؤولة: أي الذين يحرفون نصوص الكتاب والسنة، ولكنهم أخطؤوا خطأً عظيمًا من وجهين:

الوجه الأول: دعواهم أن أهل التأويل من أهل السنة، وكيف يكونون من أهل السنة وهم يحرفون الكلم عن الله عز وجل؟! وكيف يكونون من أهل السنة وهم على النقيض من عقيدة أهل السنة؟ فلا ينبغي أبدًا أن نسويهم بأهل السنة اللهم إلا في مقابل الرافضة، ثم قال للرافضة: (سنة، وشيعة).

الشيعة: المظاهرة.

والسنة: من يخالفهم بالاعتقاد وإن تخالفوا فيما بينهم، فالصواب أن نقول: أهل السنة هم الذين تمسكوا بها واجتمعوا عليها، واتبعوا السلفية.

الوجه الثاني: وقولهم: إن أهل السنة يفوضون أو إن السلف يفوضون المعاني، فهذا كذب واضح، والسلف لا يفوضون المعاني بل يقرونها، ويقررونها، وإنما يفوضون الكيفية، لأن هذا هو العقل؛ لكن المعاني لا يفوضونها بل يقررونها، ويبينونها، وهذا شيء معلوم، فلو سألت أي واحد من السلف أو أي واحد من أتباع السلف، ما معنى استوى على العرش، فقال: معناه علا على العرش، وهذا تفسير المعنى؛ لكن إذا سألته كيف استوى؟ قال: الله أعلم، لا أدري.

ومن المعلوم أن أهل التعطيل ـ كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ـ من شر أهل البدع والإلحاد، لأنهم يلزم على كلامهم لوازم فاحشة جدًّا، يلزم أن الرسل لا يعلمون معاني ما نزل عليهم، ومنها أن الرسل لا يعلمون معاني ما يقولون، ولا أحد لا يعلم معاني ما يقول إلا أنه فاسقًا أو مجنونًا، ومنها: أنه فتح بابًا لأهل الإلحاد في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] يقول في الله ما أدري معاني هذا الاسم ولا أعرف معانيه.

جاء أهل الإلحاد، وقالوا: تنحى عن البشر، نحن الذين نعرف، ثم يؤولونها بل يحرفونها على ما يريدون، لذلك فتحوا باب الإلحاد على مصراعيه، فمن ثم يقول شأن لا من القرآن ولا من السنة

لأنها غير معلومة، ثم لا حول لا قوة إلا بالله جعلوها غير معلومة في جملة الرسالة.

وخلاصتها: معرفة الله بأسمائه وصفاته.

إذنْ الخلاصة أن مذهب أهل التفويض مذهب باطل، ومن نسبه إلى السلف فقد أخطأ، فالتفويض عند السلف وأتباعهم في تبيينه ولا سبيل للعقل؛ لأننا نعلم معنى النزول إلى السماء الدنيا؛ لكن لا نعلم الكيفية.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** العجب من هؤلاء الذين بُينت لهم الآيات ثم صرفوا عن الحق - والعياذ بالله - ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن هؤلاء أخذوا عن الحق بعد أن تبينوا، بدليل كلمة ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن بعد أن تبينت لك الآيات وتبين لهم أيضًا يؤفكون عن الحق ويُصرفون عنه.

عندنا الآن ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿كَيْفَ﴾: معناهما يختلف؛ لأن ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ نظر تعجب وإنكار، وأما ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ فهو نظر تدبر وإرخاء.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد أو قل أيها المخاطب لكل من يعبد من دون الله أحدًا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي من سواه، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يملك أن يدفع الضر عنكم ولا أن يجلب لكم النفع، وقيل المعنى: ما لا يملك لكم ضرًّا لو عصيتموه ولا نفعًا لو أطعتموه.

فعلى التفسير الأول: يكون في الآية حذف وهو ما يملك لكم دفع الضر، والقاعدة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف أو لا يكون فما أثره؟ عدم الحذف.

وعلى هذا فيكون: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ أي: لو عصيتموه وخالفتموه، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ لو أطعتموه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقولون، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تعملون من قول وفعل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** الإنكار على عابدي الأوثان؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ للإنكار.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، وهذا مسلَّم به، وينبني على هذه الفائدة: ضلال أولئك الذين يعبدون الأصنام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن

دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥] أي: لا يسمعونه وإذا وقف الناس كلهم له أعداء. فهم لا ينفعونه في الدنيا ولا في الآخرة بل يعادونه.

فإن قال قائل: إنه قد يدعو الإنسان الصنم في كشف ضر فيكشف الضر أو في جلب نفع فيأتي النفع، والقرآن صريح في أن جميع الأصنام لا تنفع ولا تضر.

فالجواب: أن هذا من الابتلاء، وأنه يحصل عند دعائها لا بدعائها، فإننا نؤمن يقينًا بأنها لا يمكن أن تستجيب إلى يوم القيامة، ولو جُعلت إلى يوم القيامة ما استجابت؛ لكن قد يحصل ذلك عند الدعاء لا به؛ حيث يكون الله عز وجل قد دبَّر حصول هذا الشيء في هذا الوقت المعين الذي كان فيه الدعاء، وليس بالدعاء، ولنعلم بهذا يقينًا أن الله يقول: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، وفي هذا الذي ذكرناه الحذر، أي: أن يحذر الإنسان من تيسير أسباب المعصية له، فالإنسان قد يبتلى بذلك فيقع فيها ما شاء الله، ولهذا كان مَنْ تيسرت له أسباب المعصية ولكنه تركها لله، كان أعظم أجرًا ممن لم تتيسر له.

انظر إلى الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله(١) فهذا المدعوُّ شاب دعته امرأة ـ وهو شاب فيه الشهوة ـ وليس عندهما أيُّ أحد، ولا يطلع عليهما أحد؛ لأنه لم يذكر مانعًا إلا أنه يخاف الله، وهذا يدل على أن جميع الأمور متيسرة له، لكن لما ترك هذا لله أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

المهم: أنه لو لبَّس عليه أولئك القوم الذين يعبدون من دون الله ويدعونه لحصول المقصود، فالجواب: أن هذا لم يحصل بالدعاء قطعًا، وإنما حصل عند الدعاء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الضرر والنفع من الله عز وجل؛ لأنه أنكر أن يكون الضرر والنفع لهذه الأصنام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهو كذلك.

قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»(٢).

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله عز وجل، وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لكن سميعٌ بسمع أو بغير سمع؟ بسمع، والدليل على أن له سمعًا من هذا الاسم؛ لأن

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٧)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، والبيهقي في الشعب (١٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

أسماء الله لها معانٍ مشتقة من معانيها.

فسمع الله عز وجل ينقسم إلى قسمين:

١- قسم في معنى أنت رأيته مسموعًا.

٢- وقسم بمعنى: الاستجابة.

الأول: ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم يُراد به التهديد.

٢- قسم يُراد به الإحاطة، أي: بيان الإحاطة.

٣- وقسم يُراد به النصر والتأييد.

أما الأول: ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] هذا تهديد.

وأما الثاني: الذي يراد به بيان إحاطة الله عز وجل بكل شيء، فمثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وأما الذي يُراد به النصر والتأييد: فمثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

أما الذي بمعنى الاستجابة: فمثل قول المصلي: (سمع الله لمن حمده) يعني: استجاب؛ ولذلك عُدي باللام ولم يتعد بنفسه؛ لأن السمع الذي بمعنى: الإدراك يتعدى بنفسه تقول: سمعت صوته.

وأما الذي بمعنى الاستجابة فيتعدى باللام تقول: سمعت لفلان أي: استجبت له ومنها في قوله (سمع الله لمن حمده)، مثل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] فمن أي نوع هذا؟

منهما معًا: فهو سميع الدعاء يسمع الصوت، وهو أيضًا مجيب الدعاء فيشمل الأمرين.

أما ﴿الْعَلِيمُ﴾ فما أعمَّه من اسم! ﴿الْعَلِيمُ﴾ إن لم يكن الأعم في أسماء الله فهو من أعمِّها؛ لأن العلم يتعلق بالأمور الممكنة وغير الممكنة، والواجبة،أي: في كل شيء.

فعلم الله يتعلق بكل شيء، يعلم عز وجل الشيء المستحيل بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. هذا شيء مستحيل ومع ذلك علم الله سبحانه وتعالى نتيجته، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ويعلم سبحانه وتعالى الممكن، وهو ما يتعلق بأفعال العباد، فكل أفعال العباد من القسم الممكن والله تعالى يعلمه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب:٥١]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، فكل علم يتعلق بالمخلوق فهو علم بالممكن؛ لأن المخلوق من قسم الممكن، إذ لو

كان مستحيلًا ما وجد، ولو واجدًا ما أوجد.

ويعلم جل وعلا ما يتعلق بالواجب، وهو علمه تبارك وتعالى عن نفسه، فعلمه عن نفسه علم بالواجب، ولهذا قال العلماء: إن العلم هو أعم صفات الله عز وجل.

لكن هل العلم يتعلق بمشيئته أو هو صفة لازمة؟

هو صفة لازمة، ولهذا لما قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَالعِلْمُ وَالكَلَامُ قَدْ تَعَلَّقَا بِكُلِّ شَيْءٍ يَا خَلِيلِي .....

يقول: العلم والكلام قد تعلقا بكل شيء يتعلق حتى بالمستحيل لكن العلم من جهة أنه صفة لازمة أعم من الكلام.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]

قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: قل يا محمد: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يا أصحاب الكتاب والمراد بهم: (اليهود والنصارى) وبالكتاب (التوراة والإنجيل) والمراد بالكتاب هنا الجنس و (أل) هنا للعهد، أي: الكتاب المعهود الذي يعرض.

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ و(الغلو): مجاوزة الحد، ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ في عبادتكم، وقوله: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: غلوًا غير الحق، والوصف هنا ليس للغير؛ لأن الغلو كله ليس بحق، لكنه بيان للواقع، ويسمي العلماء مثل هذا: القيد الذي لبيان الواقع سمة ثابتة وقوله: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ والحق ما وافق الشرع، والباطل ما خالف الشرع.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ﴾ الأهواء جمع هوى، والمراد بالهوى هنا: ما خالف الشرع في الواقع، لأن الأعمال إما هوى وإما هدى من وافق الشرع فهو هدى، وما خالفه فهو هوى.

وقوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ يشير إلى علمائهم ورهبانهم الذين حاربوا دين الله، ﴿فضلوا وأضلوا﴾.

يقول تعالى: اتبعوا ما أنزل إليكم ولا تتبعوا أهواء هؤلاء القوم الذين ضلوا من قبل.

وقوله: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يعني: مع كونهم ضالين بأنفسهم كانوا أئمة في الضلال، ﴿فأضلوا كثيرًا﴾ أي: كثيرًا من الناس فصاروا ـ والعياذ بالله ـ ضالين لأنفسهم مضلين لغيرهم عكس الصالحين المصلحين أو المهتدين الهادين.

وقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا عرض للعباد للتوضيح والإيضاح. فيقال: ﴿ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ وأيضًا ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن مستقيم السبيل، والسواء: يطلق على معان كثيرة منها الاستقامة لكن المعنى هنا: عن السبيل المستقيم، فهو في ذات العبارة

صفة إلى موصوفها.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** أمر النبي ﷺ أمرًا خاصًّا أن يقول هذا القول، وقد بيَّنا في عدة مواضع أن النبي ﷺ مأمور أن يبلغ القرآن كله؛ لكن أحيانًا يوجه إليه الخطاب في تبليغ شيء معين؛ للاعتناء به.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل الكتاب عندهم غلو وهو واضح، فالنصارى يقولون: المسيح ابن الله واليهود يقولون: إن عزيرًا ابن الله، وهم أيضًا يُؤلِّـهون أحبارهم ورهبانهم ويتخذونهم آلهة من دون الله.

٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه إذا نهى أهل الكتاب عن الغلو، والغلو في ذاته مفسدة، فكذلك ينهى غيرهم؛ ولهذا حذَّر النبي ﷺ من الغلو في الدين ومن الغلو في النفس فكان - عليه الصلاة والسلام - ينهى عن الغلو في الدِّين، فنهى الذين قالوا: إنا نصوم ولا نفطر ونقوم ولا ننام ولا نتزوج النساء ولا نأكل اللحم[1]، فقال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَ فِي الدِّينِ»، وسمَّى المتعمقين في الدين: المتنطعين ووصفهم بغير ذلك من الأوصاف، والغالب أن الغالي مثل هذا - نسأل الله العافية -؛ لأن الغلو خلاف القدرة، ويكون الغالي قلبه خالٍ من الإيمان، ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج أن الصحابي يحقر صلاته إلى صلاتهم[2]، ولكن! إيمانهم لا يجاوز حناجرهم - والعياذ بالله - فالغالب أن الغالي هنا تجد قلبه مشغولًا إما عن الناس وأفعال الناس وينتقدهم، ويعترض عليهم؛ لكنه خالٍ من معرفة الله حق المعرفة، ومن الوصول إليه ، فاحذر هذه المغالاة، وكن مستقيمًا بين الغلو والتفريط.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الغلو خلاف الحق؛ لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن اتباع أهواء الضالين؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الذي يحمل الإنسان على الضلال هو الهوى وإلا لو كان الإنسان يقول بالعدل ويحكم بالقسط ما ضل عن الصراط المستقيم؛ لكن يغلبه هواه حتى يضل؛ ولهذا قال: ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ ثم بيَّن ضلالهم ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الإمامة في الضلال؛ لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على الجبرية الذين قالوا: إن سيئات الإنسان لا تنسب إليه وأنه مجبور عليها ويبين هذا أنه قال: (ضلوا وأضلوا).

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَأَضَلُّوا﴾، فإن هذا الإضلال يكون عن سبب يزين لهم الباطل حتى تصرف له الأهواء.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الضالين المضلين جمعوا بين سوءين:

الأول: ضلال لأنفسهم.

والثاني: إضلال لغيرهم.

وهل يمكن أن يقتصر الإنسان على واحد منهم كإضلال نفسه فقط؟ نعم يمكن، لكنه إذا كان إمامًا في قومه صار ضلاله دعوة لغيره.

إذن يمكن أن يكون الإنسان ضالًا غير مضل، ولا يمكن أن يكون مضلًا غير ضال، لأننا نقول مجرد أنه يضل الناس هذا يعتبر أنه مضل.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الدين الصحيح هو بين الغالي والجافي عنه كقوله: ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن قيم السبيل، ووسط السبيل العدل الذي ليس بالغلو ولا بالتفريط.

ثم قال عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨].

قوله: ﴿لُعِنَ﴾ مبني للمجهول أو إن شئت قلت: مبني لما لم يسمَّ فاعله وهذا هو الأدق، لأنك لو قلت: مبني للمجهول لأشكل علينا قول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، فإن الفعل لم يسمَّ فاعله، لكنه معلوم.

إذنْ التعبير بقوله: فعل ماضٍ مبني لما لم يسمَّ فاعله أولى من مبني للمجهول، فأما اللعن إذا كان مبنيًّا لما لم يسمَّ فاعله فما الذي لَعن؟ الله، الملائكة والناس أجمعين ليشملهم كلهم فإن أولياء الله يلعنونهم.

فالناس الذين يتخذون من دون الله أولياء يُلعنون كما قال الله في أهل النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم: الذين لم يثبتوا على الدين الذي خُلِّفوا به، فمثلًا بنو إسرائيل قبل بعثة عيسى دينهم هو دين موسى، فإذا خالفوه فقد كفروا، والنصارى بعد بعثة عيسى وقبل بعثة محمد رسول الله ﷺ دينهم النصرانية فمن خالفها فهو كافر.

قال: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، ﴿دَاوُۥدَ﴾ من الأنبياء لا شك لكنه أعطي النبوة وشيئًا من الملك ولكن الملك الأتم لابنه سليمان، ﴿دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المشار إليه اللعن، الذي دل عليه الفعل لُعن وهنا عاد الضمير على ما اشتق منه الفعل أي: ذلك اللعن ﴿بِمَا عَصَوا﴾، وقوله: ﴿بِمَا عَصَوا﴾ الباء هنا للسببية و(ما) مصدرية أي: بعصيانهم، والمعصية خلاف الطاعة والطاعة موافقة الآمر باجتناب ما نهى عنه وفعل ما أمر به.

وقوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ معطوف على ﴿عَصَوا﴾ أي على صلة الموصول أي: بعصيانهم واعتدائهم. فقد اعتدوا على الخالق عز وجل فقالوا في حقه ما لم يلق به واعتدوا أيضًا على المخلوق فقتل بعضهم بعضًا.

فإذا قال قائل: أليس الاعتداء من المعصية؟

فالجواب: بلى هو من المعصية؛ ولكن قد يُخص بعض الأفراد بالذكر لأهميته والعناية به أو لكونه أشد أو أقبح.

ثم بيَّن ذلك العدوان والمعصية بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا ينهي بعضهم بعضًا؛ لأن المفاعلة تدل على الاشتراك من الجانبين والنهي: هو طلب الكف على وجه الاستعلاء، وعلى هذا فلو أمر العبد سيده بأمر أو نهاه عن شيء لم يكن آمرًا ولا ناهيًا، لأنه طلب الكف على وجه الاستعلاء، اللهم إلا أن يدعي العبد أنه أعلى من سيده فهذه دعوى؛ لأنه قد يتخيل أنه أعلى من سيده فيوجه إليه الأمر والنهي.

وقوله: ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾ المنكر: هو ما أنكره الشرع من تفريط في واجب أو انتهاك لمحرم هذا هو المنكر، والمنكر من العرف أو إلى الشرع؛ لأن الناس قد ينكرون ما ليس بمنكر وقد يقرون ما هو منكر، فالمرجع إذنْ إلى الشريعة لا إلى عرف الناس.

وقوله: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كيف يقول: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؟

لأن المفعول لا يتوجه إليه النهي، إذ إنه تمَّ وفُعل لكن النهي في الآية عن الاستمرار في منكر فعلوه، لأن المنكر الذي فُعل لا يمكن أن يرد عليه نهي.

إذا قام إنسان هل أقل له لا تقم؟ لا: إن قلت لا تقم فالمعنى: لا تستمر في القيام.

إذن: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: الاستمرار في منكر فعلوه.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: اللام هنا موجهة للقسم المقدر يعني: والله لبئس،

وبئس: فعل ماض، لكنه إنشاء واقع؛ إذ إنه فعل يدل على الذم، ونعم: تدل على إنشاء المدح.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿مَا﴾: فاعل وهي اسم موصول، و﴿كَانُوا﴾ صلة الموصول والعائد على الموصول محذوف والتقدير: (لبئس ما كانوا يفعلونه).

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** لعنة الكافرين من بني إسرائيل، لقوله: ﴿لُعِنَ﴾ واللعن معروف وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله عز وجل وعدم التوفيق.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من بني إسرائيل من هو كافر ومنهم من هو مؤمن لقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذا هو الواقع، لأن منهم مؤمنين كالحواريين بالنسبة لعيسى - عليه الصلاة والسلام - وكالقوم الذين اختارهم موسى وهم سبعون رجلًا وغير ذلك.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الذي لعن بني إسرائيل رسولان كريمان لُعنوا على لسانهما وهما: (داوود، وعيسى ابن مريم).

داوود: من أنبياء بني إسرائيل لكنه ليس من آخرهم، وآخرهم عيسى ابن مريم ليكون لعنهم من أول الرسالات وفي آخر الرسالات.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، فالباء هنا للسببية وسبق تقرير هذا وبيان اختلاف الناس في الأسباب، وبينا أن الأسباب نوعان: نفسية وشرعية.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العدوان على الغير أشد من مجرد المعصية مع أنه من المعاصي؛ لقوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئًا وأنه لا يعاقب أحدًا إلا بعقوبة لقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية التي بعدها:** إحكام بني إسرائيل عن النهي عن المنكر في قوله الثاني: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن ترك التناهي عن المنكر سبب في لعنة الله وطرده وإبعاده - والعياذ بالله -.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئًا وأنه لا يعاقب أحدًا بعقوبة إلا بذنب؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية التي بعدها:** إحجام بني إسرائيل عن النهي عن المنكر؛ لقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩].

١١ - **ومن فوائدها:** أن ترك التناهي عن المنكر سبب للعنة الله وطرده وإبعاده الفاعل ذلك عن رحمته ـ والعياذ بالله ـ واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى شروط وهي:

الشرط الأول: العلم بأن هذا معروف يُؤمَر به وهذا منكر يُنهى عنه، فلا يجوز الأمر بما لا يُعلم أنه مأمور به، ولا النهي عن منكر لا يُعْلَم أنه منهيٌّ عنه؛ لما في ذلك من الافتراء على الله ، وصد عباد الله عما أَحَلَّ الله لهم أو منعهم عما أحل الله لهم.

الشرط الثاني: أن يُعلم وقوع هذا المنكر من الشخص المعين، يعني: الشيء قد يكون منكرًا عند شخص وغير منكر عند آخر فالمسافر يأكل سرًّا وجهرًا في نهار رمضان، والمقيم لا يأكل، فالأكل مُنكَر في نهار رمضان عند المقيم وهو غير مُنكَر على المسافر، فلا بد أن يعلم الآمر والناهي أن هذا الشخص بعينه وقع في المخالفة، ومع الاحتمال يجب الاستفسار، دليله أن النبي ﷺ رأى رجلًا دخل المسجد وجلس وهو يخطب الناس ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له: «أَصَلَّيْتَ؟» قال: لا ، قال: «قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا» فلم ينهه عن المنكر الذي هو الجلوس قبل الصلاة حتى علم أنه لم يُصلِّ[1].

الشرط الثالث: أَلَّا يتحول المنكر إلى ما هو أنكر منه، فإن تحول إلى ما هو أنكر منه وجب الكف عن النهي ؛ لأنك إذا نهيت وأنت تعلم أنه سيتحول إلى ما هو أنكر، فمعنى ذلك أنك فعلت فعلًا زائدًا عن المنكر الأول، والزائد عن المنكر الأول منكر، يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فترك سب آلهة المشركين منكر؛ لأن الواجب سبُّ الآلهة والتحذير منها ـ والتنفير عنها لكن إذا لزم منه ما هو أشد في الإنكار منه وجب الكف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ﴾، فلو رأينا شخصًا يشرب الدخان أمامنا لكن نعلم أننا لو نهيناه عن شرب الدخان لذهب يسرق أموال الناس ويؤذي الناس ويضايقهم، فهل ننكر عليه شرب الدخان أم لا؟ لا ننكر، وكذلك لو علمنا ـ أو غلب على ظننا ـ لو نهيناه عن شرب الدخان لذهب إلى رفقة يشربون الخمر فإننا لا ننهاه؛ دفعًا لأعلى المفسدتين بأدناهما.

الشرط الرابع: اختلف العلماء فيه وهو هل يلزم أن يكون الآمر فاعلًا لما يأمر به والناهي تاركًا لما ينهى عنه؟ والصواب: أن هذا ليس بشرط؛ لأننا لو قلنا لمن يفعل المنكر لا تنه عنه لزم بذلك أن نأمره بمنكرين: ترك الإنكار وفعل المنكر الذي يمارسه بل نقول: مُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر وإن كنت تفعل ما تنهى عنه أو تترك ما تأمر به، وربما يكون أمره ونهيه سببًا لالتزامه واستقامته؛ حيث إنه يوبِّخ نفسه ويقول: سبحان الله أنهى الناس عن المنكر وأفعله فيستقيم.

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» (٨٨٨) من حديث جابر بن عبد الله قال: جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة فقال: «أصليت يا فلان؟» قال لا، قال: «قم فاركع ركعتين»، ورواه مسلم (٨٧٥).

وأما قول الشاعر:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فمراده أن تجمع بين الأمرين (لا تنه وتأتي مثله) وحتى لا يقال: إنه غير مُسلِّم، فالإنسان الذي يفعل المنكر ويرى المنكر يجب عليه شيئان: الأول: ترك المنكر ، والثاني: النهي عنه، فإذا تعذر الشيء الأول لا نقول يتعذر الثاني، فالصواب: أنه يجب على الإنسان أن يأمر بالمعروف وإن كان لا يفعله وأن ينهى عن المنكر وإن كان يفعله، ولكن هذا سيكون يوم القيامة أشد عذابًا؛ لأن حاله كحال المستهزئ بالله ـ عز وجل ـ وأحكام الشريعة.

كيف تأمر بشيء لا تفعله وكيف تنهى عن شيء وأنت تفعله؟! ما هذا إلا نوع من الاستهزاء والسخرية ولذلك كان أشد عذابًا حيث أخبر النبي ﷺ: أَنَّهُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ حَتَّى تَنْدَلِقَ أَقْطَابُ بَطْنِهِ ـ والأقطاب هي الأمعاء ـ فَيَدُورُ عَلَيْهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ عَلَى رَحَاهُ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا بِكَ أَلَسْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى؛ وَلَكِنِي آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُم عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ[1] أو كما قال النبي ﷺ ـ فَيُفْضَح هذه الفضيحة ـ والعياذ بالله ـ وليُعْلَم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير تغيير المنكر ولهذا جاءت النصوص مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجاء التغيير مقيدًا بالاستطاعة، حيث قال النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»[2] لأن هذا ـ يعني التغيير ـ لابد أن يكون من ذي سلطة كولي الأمر ـ مثلًا ـ أو نوابه، وكذلك الرجل في أهله يستطيع أن يغير المنكر بيده.

مسألة: هل يجب عليَّ أن أنكر على شخص رأيته يمش إلى جانبه امرأة؟

الجواب: لا أنكر حتى أعلم أن المرأة أجنبية منه.

وكيف الوصول إلى العلم؟ بسؤاله فيقول هذه أمي أو أختي أو زوجتي.

إذن نقول: إن كيفية الأمر والنهي تنبني على حال الشخص فالمعاند ليس كالجاهل الأصلي، فالجاهل الأصلي نعامله باللطف واللين حتى يقبل الحكم، والمعاند أو المهاجر هذا له حكم آخر يدل لهذا أيضًا وقائع وقعت في عهد النبي ﷺ منها: قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فإن النبي ﷺ كلم الرجل بلطفٍ وقال: «إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا يَصْلُحُ فيها شَيءٌ مِنَ القَذَرِ وَالأَذَى»[3]، ومنها

---

(١) رواه صحيح البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) رواه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (٤٠١٣)، وأحمد في «مسنده» (١١٠٨٨).

(٣) انظر «مسند أحمد» (١٣٠٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٠١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٠٣٢).

قصة معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة مرتين فدعاه النبي ﷺ وأخبره «أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»[1]، ولما رأى ﷺ في يد رجل خاتمًا من ذهب، فنزعه النبي ﷺ من يده ثم رماه ولم يتكلم معه ولما انصرف النبي ﷺ قيل له: خذ خاتمك، قال: لا والله لا آخذ خاتمًا رمى به النبي ﷺ[2]؛ لأن هذا ليس له عذر فلكل مقام مقال.

مسألة: هل هناك فرق بين الأمر والنهي والتغيير؟

الجواب: نعم بينهما فرق، فالتغيير إنما يكون لمن له سلطة وولاية ولا يُتاح لكل أحد من الناس؛ لأنه لو فُتح لكل أحد من الناس لكانت المسألة فوضى ولكان كل إنسان يرى أن هذا منكر ولو كان الفاعل لا يراه منكرًا يقوم ويغيره بيده، فالتغيير لمن له ولاية وسلطة فالأمير في بلده له ولاية وسلطة، والإنسان في بيته له ولاية وسلطة، لكن في الشارع عليه الأمر والنهي فقط، أما الإلزام بمأمور به أو التغيير لمنكر هذا ليس بيده لما يحدث من الفوضى ولهذا قيد النبي ﷺ باب التغيير بالاستطاعة قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ»[3] لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقيد بالاستطاعة بل جاء مطلقًا؛ لأنه يكون ممن له ولاية وممن ليس له ولاية.

مسألة: فالدعوة إلى الله هل هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو هي شيء آخر؟

الجواب: هي شيء آخر، لأن الدعوة واجبة بكل حال، سواء رأيت منكرًا أو لم تر، وسواء رأيت تفريطًا في واجب أو لم تر ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] بدأ بالدعوة والخير ثم ثنى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فصارت المراتب الآن ثلاثة:

الأول: الدعوة إلى الخير وبيان المعروف وبيان المنكر.

والثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المرتبة الثالثة: تغيير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثيرًا من الناس لا يلتفتون لهذا الفرق ويظن أن الدعوة والأمر والنهي والتغيير كلها سواء.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

(٢) رواه مسلم (٢٠٩١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢١٧٥) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سبق تخريجه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ﴿ تَرَىٰ ﴾: يحتمل أن تكون الرؤية قلبية ويحتمل أن تكون الرؤية بصرية؛ لأن تولى الكافرين يُشاهَد بالعين ويعلم بالقلب.

ثم هل الخطاب موجهًا للنبي ﷺ والذين في زمنه أو لكل إنسان؟

الجواب: الظاهر العموم وهكذا ينبغي أن نسلك طريق العموم في جميع الخطابات القرآنية؛ لأن القرآن نزل للأمة إلى قيام الساعة إلا إذا منع منه مانع فيجب أن نقتصر على ما دلَّ عليه.

وقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء الذين لُعنوا من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: يتخذونهم أولياء يوالونهم بالنصرة والمعونة والمساعدة، ومن هؤلاء اليهود من ساعد قريشًا عام غزوة الأحزاب فقد وَالوهُم ضد المسلمين.

وقيل: المراد بالذين كفروا الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بألسنتهم وهم المنافقون؛ لأن المنافقين مع اليهود في المدينة على خطٍّ واحد يتولونهم ويساعدونهم ويمكرون بالنبي ﷺ كما يمكر المنافقون، ولو قيل: إن الآية عامة لكان أولى؛ بناء على القاعدة التي تقررت: أنه إذا كانت الآية أو الحديث يدل على معنيين على السواء ولا ينافي أحدهما مع الآخر فالواجب حمله على المعنيين؛ توسيعًا للمعاني الشرعية وتبرئة للذمة؛ لأننا لو اقتصرنا على أحد المعنيين والله ورسوله أراد المعنيين فقد أخطأنا في طلب المراد.

وقوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هل المراد كفروا ظاهرًا وباطنًا أو كفروا باطنًا وآمنوا ظاهرًا أو الأمران؟ الأمران جميعًا.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠] يعني: لبئس الذي قدمت لهم أنفسهم سخط الله عليهم، يعني: أن سخط الله عليهم بئس ما قدموه لأنفسهم وإنما قدموا سخط الله لأنفسهم؛ لأنهم فعلوا ما يوجب سخطه، فكأنهم قدموا لأنفسهم سخط الله

عليهم، والسخط والغضب معناهما متقارب وهما وصفان ثابتان لله - عز وجل - على وجه الحقيقة وهما غير الانتقام وغير إرادة الانتقام بل هما شيء سابق لإرادة الانتقام وسابق للانتقام، بالنسبة لنا السخط حالة تعتري الإنسان عند وجود ما يثيره من قول أو فعل وتجد الإنسان ينفعل ويختل تفكيره حتى إنه ليفعل ما لا تُحمد عقباه.

والسخط يكون فيه انتقام من الساخط، وقد يعفو الله - عز وجل - عن المسخوط عليه إذا اقتضت حكمته ورحمته ذلك.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ هذه الجملة فيها نوع من التوكيد وذلك لوجود الضمير وإلا لو قيل: (وفي العذاب خالدون) لاستقام الكلام، لكن من أجل التوكيد جاءت كلمة (هم)، والخالد هو الماكث مُكثًا طويلًا هذا في الأصل، وقد يراد به المكث الدائم حسب الأدلة والسياق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** أن بني إسرائيل قد يتولون الكفار ممن كفرهم صريح أو خفي فهم يوالون الكفار والمنافقين - والعياذ بالله - على رسول الله ﷺ وقد لا يكون بعضهم إلى بعض قريبًا ومستحقًّا للولاية.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من موالاة الكافرين.

وموالاة الكافرين أنواع كثيرة: منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما هو دون ذلك، فالموالاة التامة كفر بمعنى أن يكون معهم على الخطأ والصواب، وعلى المسلم وغير المسلم وعلى دين الإسلام وغيره هذا لا شك أنه كفر، وتوليهم في بعض الأمور كالمعاقدة معهم في أمور اقتصادية - مثلًا - أو تجارية أو عمل خياطة أو زراعة هذا لا يؤدي إلى الكفر؛ لأنه قد يعمله وقلبه منكر ومبغض له، بخلاف الذي يقول: إنه معهم على الخطأ والصواب، فهذا لا شك أنه كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ و﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ أيضًا.

٤ - **ومنها:** الاستدلال بالأمور الحسية يعني: أن إقامة الدليل الحسي مما جاء في القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فإن هذا يحتمل الرؤية العلمية والرؤية البصرية.

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات سخط الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ومذهب أهل السنة والجماعة المتلقى من طريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين هو إثبات هذه الصفة لله - عز وجل - وأنه يسخط ويغضب ويحب ويكره ويُبغض ويمقت إلى غير ذلك مما أثبته الله لنفسه، فمذهب السلف الصالح أننا نثبت هذا لله حقيقة، ولكن في علمنا ويقيننا أن ذلك

لا يماثل صفات المخلوقين؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولو أننا حرَّفنا وقلنا: السخط هو الانتقام لافترينا على الله كذبًا؛ لأنه يقال لمن قال ذلك أين دليلك على أن الله أراد هذا؟! ونحن متعبدون بظاهر اللفظ والقرآن عربي ويناسب اللغة العربية ولو صرفناه عن ظاهره لافترينا على الله الكذب، وما موقف الإنسان من ربه يوم القيامة إذا اعتقد هذا الاعتقاد ـ أعني اعتقاد أن السخط هو إرادة الانتقام أو الانتقام ـ فالصواب في هذا المتعين والواجب على المؤمن الذي يريد إنقاذ نفسه: أن يجري آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها.

فإذا قال قائل: إن ظاهرها التمثيل.

قلنا: ليس كذلك ولا يمكن أن يكون ظاهرها التمثيل؛ لأن التمثيل أمر باطن ولا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله شيئًا باطنًا بأي حال من الأحوال.

فإذا قال: هذا هو الظاهر وأصرَّ على ذلك.

قلنا: أين الدليل على أن هذا هو الظاهر؟ قال: إن العقل يمنع أن يكون السخط لله والغضب لله، قلنا: عقل من؟ والعقل لا مجال له في الأمور الغيبية إطلاقًا وإنما واجب العقل في الأمور الغيبية هو التسليم والتصديق؛ لأننا أقل من أن ندرك ما أخفاه الله علينا، وإذا كان الله تعالى ينكر على مَنْ يسألون عن الروح حيث قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] فما كان أعظم من الروح فهو أولى بالخفاء علينا، ولهذا ضرب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «**العقيدة الواسطية**» مثلًا بالروح فقال: روح الإنسان مجهولة أم معلومة؟ مجهولة لا يُعلم من أي عنصر هي ولا يُعلم كيفية الروح إلا ما جاء في الشريعة فقط من أن الروح تُقبض وتُجعل في كفن عند الموت وتحنط ويُصعد بها إلى السماء وما عدا ذلك ليس لنا من العلم شيئًا، فإذا كان هذا في شيء مخلوق أي: أننا لا ندركه مع أنه شيء مخلوق فما بالك بالخالق المخالف لجميع الأشياء الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فالواجب على مَنْ أراد النجاة لنفسه أن يقول في كل ما أخبر الله به ورسوله: سمعنا وصدقنا وآمنا، لكن على أساس أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ ﴾ الضمير يعود على اليهود الذين تحدث الله عنهم أي: ولو كانوا أولًا: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: حق الإيمان، والإيمان مع الكفر بالرسل لا يُسمى إيمانًا حتى لو قال: أؤمن بالله وأن الله حي عليم قادر مدبر للأشياء فإن ذلك لا يعد إيمانًا مع الكفر.

وقوله: ﴿وَٱلنَّبِىِّ ﴾ (أل) هنا للعهد الذِّهني وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي: القرآن، والمنزِلُ له هو الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ هذا جواب (لو)، أي: ما اتخذوا الذين كفروا أولياء، وهنا لم يقترن جواب لو باللام؛ لأنه نفي واللام للتوكيد والإثبات ولا يتناسب هذا وهذا ولذلك كان الأكثر في جواب (لو) الشرطية إذا كان مثبتًا أن يقترن باللام وإذا كان منفيًّا أن يتجرد من اللام.

فإذا قلت: لو زرتني أكرمتك صح، أو لو زرتني لأكرمتك صح، والأكثر الثاني.

وقد اجتمع النوعان في سورة الواقعة فقال الله - تبارك وتعالى - في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] لجعلناه، وقال في الماء: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠] فحذف اللام.

أما إذا كان جواب (لو) منفيًّا بـ(ما) فإن الأكثر تجرده من اللام، قال الله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] ولم تكن لما عبدناهم ووجه: ذلك أنه لا يتناسب التوكيد باللام مع الاقتران بـ(ما)، لكن مع ذلك تأتي في اللغة العربية كما في قول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي[1]

المعنى: لو كان الخيار بأيدينا ما افترقنا ولكن تأبى الليالي إلا أن نفترق.

في هذه الآية: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ جري على الأكثر والمعنى: ما صيروهم أولياء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله، والمراد بالفسق هنا الفسق الأكبر المخرج عن الملة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أن اتخاذ الكافرين أولياء منافٍ للإيمان بالله ورسوله والكتاب؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن النبي يُطلق على الرسول وفي هذه السورة الرسول والنبي كلاهما للرسول محمد ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] وهنا يقول: ﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾.

وفي القرآن الكريم أكثر ما ذكر الرسل بوصف النبوة فقد قال الله في سورة مريم: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن مُنزَّل على محمد ﷺ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ وهذا الإنزال معتنًى به أكمل عناية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] وإذا

---

(١) القائل هو: ابن زاكور، محمد بن قاسم بن محمد بن الواحد بن زاكور الفاسي أبو عبد الله. أديب فاس في عصره، مولده ووفاته فيها. وله ديوان شعر أسماه الروض الأريض، اختار منه عبد الله كنون الحسني مجموعة منها أسماه «المنتخب من شعر ابن زاكور»، توفى سنة (١١٢٠ هـ).

تأملت قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتبين لك عظمة هذا القرآن وأن العالمين ملزمون بقبوله؛ لأنه نازل من ربهم.

ثم تأمل قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] والروح هو جبريل؛ لأنه موكَّل بالوحي الذي به حياة القلوب فهو أمين مؤتَمن، لا يمكن أن يزيد فيه ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر ـ عليه الصلاة والسلام ـ

أين وعاء هذا المنَزَّل قال الله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] والشيء إذا حل في القلب لا بد أن يؤثر على البدن لقول النبي ﷺ : «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ثبوت علو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ ومعلوم أن المنزِّل هو الله ـ تبارك وتعالى ـ والتعبير بالإنزال يدل على علو المنزِّل، وعلو الله ثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع ثبوتًا لا شك فيه.

أما الكتاب فالآيات في ذلك كثيرة متنوعة الدلالة، «السنة» كذلك فقد اجتمع فيه ـ أي: في العلو ـ الدلالة القولية والفعلية والإقرارية.

أما الإقرارية فإنه ﷺ عندما سأل الجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» فقالت: في السماء فقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٢).

والفعلية: أن النبي ﷺ كان يُشْهِد الله إقرار الأمة بأنه بلغ فيرفع أصبعه إلى السماء ويقول: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

وأما القول فلا يحصى.

وأما دلالة العقل على علو الله : فكل إنسان عاقل يعرف أن العلو صفة كمال سواء كان معنويًا أو حسيًا ، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] والعقل يدل على أنه يجب أن يكون للمعبود المثل الأعلى.

أما الفطرة: فحدث ولا حرج فالنساء والأطفال الذين لم يدرسوا يشهدون بفطرهم أن الله تعالى فوق وأنه عالي ولا يمكن أن يزيغ عن هذه الفطرة إلا من أزاغ الله قلبه ـ والعياذ بالله ـ.

والإجماع ـ إجماع المسلمين ـ قبل أن يحصل هذا الخلاف فإنه ما من واحد منهم قال: الله ليس في السماء أبدًا لا تصريحًا ولا تلميحًا، وكما قال شيخ الإسلام: هذا كتاب الله من أوله إلى آخره وهذه سنة رسول الله ﷺ وهذه الآثار عن الصحابة ليس فيها حرف واحد يدل على أن الله في كل مكان

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد في «مسنده» (١٧٩٧٤) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

أبدًا، ولكن ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، والعجب أن كثيرًا من المسلمين - إن لم يكن أكثرهم - يؤمنون أن الله في كل مكان - نسأل الله العافية - ولا أدري كيف يستسيغ الإنسان أن يقول: إن الله في كل مكان وهو يعرف أنه سوف يدخل بيت الخلاء، فهل يمكن لإنسان عنده ذرة من عقل أن يؤمن بأن الله في المِرْحَاض؟ لا والله لكن كما قال الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] فلا يهتدون - نسأل الله العافية - فالواجب نشر العقيدة الصحيحة حول هذا الموضوع الهام، وأنا أخشى إن لقي الإنسان ربَّه على هذه العقيدة ألا يتولاه الله ولا يكلمه الله؛ لأنها عقيدة من أبطل العقائد - والعياذ بالله - ومع ذلك هي الشائعة عند كثير من المسلمين كما أحسسنا به في دروس الحرم، حتى إن الواحد إذا سُئِلَ أين الله؟ بسرعة يقول: في كل مكان كأنه شيء ثابت عنده، لكن يجب على طلاب العلم أن يعتنوا بهذه المسائل.

ونحن في «نَجْد» - والحمد لله - لا نعرف هذه العقيدة ولا يمكن أن يدور في فكر أي إنسان أن الله في كل مكان، لكن البلاد التي أُشربت عقيدة الضلال - والعياذ بالله - وصاروا يضعونها في الكتب ويتعلمونها صغارًا ويشيخون عليها كبارًا هم الذين تأثروا بهذا، فعلينا أن نعتني بهذه المسألة وبغيرها من المسائل التي شاعت في العالم الإسلامي وهي خلاف الصواب.

الفوائد:

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال بالمحسوس على المعقول وإن شئت فقل: بالمشاهد على الخفي وجه ذلك: أن الإيمان بالقلب ولا أحد يعلم عن الإيمان في القلب لكن آثاره تدل عليه، ما هو الأثر الذي دلنا أنهم لم يؤمنوا؟ وذلك تولي الكفار واتخاذهم أولياء.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الفسق يطلق على الكفر؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقد قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠] في مقابل الذين آمنوا، وإذا جاء الفسق في مقابل الإيمان والوعيد في مقابل الوعد فالمراد به الكفر.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب الاحتراز عند الكلام بمعنى ألا تعمم فتقول مثلًا: كل أهل هذه البلدة فسقة أو كلهم فجار، فلا تعمم؛ لأنك لا تدري ولهذا اسمع إلى عالم الخفيات جل وعلا يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فإياك والتعميم فتقع في المحظور أو في الكذب.

قال الله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا

سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٦]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم المقدر الذي دلت عليه اللام في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ ويسمى النحاة هذه اللام موطئة للقسم، وباللام، وبالنون، والخطاب فيها إما للرسول ﷺ وعلى هذا يكون الحديث عن اليهود والمشركين والنصارى في هذه الآية الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، وإما أن يكون الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب فتكون هذه الأوصاف عامة في هؤلاء إلى يوم القيامة، فالآية محتملة، ومع ذلك حتى لو قلنا بالعموم فليست تعم كل يهودي بعينه وكل مشرك بعينه وكل نصراني بعينه، لكن هذا الحكم على سبيل العموم، والأحكام تأتي دائمًا على سبيل العموم كما تقول: الرجال خير من النساء، يعني: هذا الجنس خير من هذا الجنس، ويوجد في النساء من هن خير من كثير من الرجال ويوجد في الرجال من هو شر من كثير من النساء.

إذنْ الخطاب يحتمل أن يكون للرسول ﷺ وعلى هذا فيختص الحكم بهؤلاء الذين في عهد الرسول ﷺ.

ويحتمل العموم، ويكون المراد الجنس وليس كل فرد.

وقوله: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ يحتمل في ﴿أَشَدَّ﴾ أن تكون مفعولًا ثانيًا مقدمًا ويحتمل أن تكون هي المفعول الأول؛ فعلى الأول يكون التقدير: لتجدن اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا وإذا جعلناه ثانيًا صارت مقدمة.

ويحتمل أن تكون أشد هي المفعول الأول ويكون المراد الإخبار عن أشد الناس عداوة، ويحتمل أن تكون ﴿أَشَدَّ﴾ مفعولًا ثانيًا ، ويكون المراد الإخبار عن هاتين الطائفتين اليهود والنصارى بأنهم أشد الناس عداوة، فأيهما أعظم أن نجعل ﴿أَشَدَّ﴾ هي المفعول الأول واليهود والذين أشركوا هي المفعول الثاني أو العكس؟ الأول أعظَم يعني: لو سألت عن أشد الناس

عداوة لوجدتهم اليهود والذين أشركوا.

إذنْ نقول: ﴿أَشَدَّ﴾ هي المفعول الأول وهي في محل المبتدأ؛ لأن وجد تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر.

وحينئذ يكون معناه: الإخبار عن أشد الناس عداوة.

وإذا جعلنا أشد مفعولًا ثانيًا مقدمًا صار المعنى الإخبار عن اليهود والذين أشركوا أنهم أشد الناس عداوة، لكن المعنى الأول أشد وأعظم.

وقوله: ﴿عَدَاوَةً﴾ العداوة ضد الولاية، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] أي: صديق مخلص.

إذنْ العداوة ضد الولاية.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بذلك: المؤمنين الذين في عهد الرسول ﷺ إذا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ، وإذا جعلناه للعموم فالمراد: بالذين آمنوا في كل وقت.

وقوله: ﴿الْيَهُودَ﴾ هم الذين يدعون أنهم أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ ويقولون: نحن شعب الله المختار ويحتقرون ما سواهم من الشعوب وقد عُرِفوا بالاستكبار والتعالي والتعجرف حتى على رسولهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسُمُّوا يهودًا قيل: إنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء: ٤٦] وقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقيل: إنه اسم لجدهم وأن اسمه يهوذا لكن مع التعريب صارت الذال دالًا وأيًّا كان فهم معرفون، أنهم طائفة من بني اسرائيل يدعون أنهم متبعون لموسى.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧] من العرب وغيرهم، فهذان الصنفان من بني آدم هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

أما اليهود فوجه عداوتهم أنهم حسدوا العرب لكون الرسالة العامة الخالدة فيهم وكان اليهود من قبل يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيبعث نبي ونحن نتبعه وننتصر عليكم ولما بُعث النبي محمد ﷺ من العرب حسدوهم وأنكروا ذلك، أما الذين أشركوا فهم المشركون وصاروا أشد الناس عداوة؛ لأنهم ضد التوحيد، والمؤمنون موحدون والمشرك يبغض الموحد ويكرهه ويراه أشد الناس عداوة له.

ثم قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ نقول فيها ما قلنا في الأولى، وهنا قال: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ ولم يقل أشدهم مودة، يعني: ما توجد مودة لكنهم قريبون، قال في اليهود: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ لكن في هؤلاء قال: ﴿أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ ونقول في (أقرب) ما قلنا في ﴿أَشَدَّ﴾ إعرابًا ومعلوم أن القرب ليس هو الوصول فهم ليس عندهم مودة للمؤمنين لكنهم أقرب من غيرهم مودة، ولو كان عندهم مودة

لقال: أشد الناس مودة وما أشبه ذلك.

والمودة من الود وهو خالص المحبة، ومن أسماء الله تعالى الودود بمعنى الوادّ وبمعنى المودود.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ ولاسيما في عهد النبي ﷺ، فالنصارى في عهد الرسول قريبون من المؤمنين ولذلك أسلم منهم خلق كثير وممن أسلم ملك الحبشة رَحِمَهُ اللهُ فإنه آمن بالرسول وآوى المهاجرين من أصحابه إيواء يُشكر عليه ـ ونسأل الله أن يثيبه عليه أجزل الثواب ـ فهو آمن حتى وصفه النبي ﷺ بأنه أخ للصحابة وأنه صالح وحين توفى قال: «**إِنَّهُ تُوُفِّيَ اليَوْمَ أَخٌ لَكُمْ صَالِحٌ**»[1] فوصفه بالإخوة والصلاح رَحِمَهُ اللهُ.

وكذلك أسلم من النصارى الكثير؛ لأن النصارى أقرب عهدًا بالرسالة من اليهود فإنه ليس بين نبيهم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونبينا محمد ﷺ رسول.

والنصارى أي: الأنصار هذا أحسن ما يقال في تفسيره؛ لأنه يؤيده قوله في سورة الصف: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] ثم علل الله ذلك بعلل.

فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كون النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ هذه خمسة أشياء.

إذنْ فسبب كونهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا.

السبب الأول: قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ القسيس هو العالم الكبير، والعالم عنده معرفة يعرف الحق ويعمل به لاسيما أن التوراة والإنجيل فيهما وصف الرسول وصفًا مطابقًا تمامًا، لما كان عليه النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] كل هذه الصفات موجودة عندهم في التوراة والإنجيل، فهم عندهم علم.

وقوله: ﴿وَرُهْبَانًا﴾ الرهبان هم العُبَّاد؛ لأن النصارى فرضوا على أنفسهم رهبانية لم تُفرض عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] يعني: ما فرضناها عليهم لكن هم يبتغون رضوان الله، يريدون بذلك رضوان الله وهي غير مكتوبة عليهم.

---

(١) روى ابن ماجه في سننه (١٥٣٧) من حديث حذيفة بن أسيد: أن النبي ﷺ خرج بهم فقال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» قالوا من هو؟ قال: «النجاشي»، وهكذا رواه أحمد في مسنده (١٥٠٠٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٤٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٤٨).

نظيرهم عندنا في الإسلام الصوفية عندهم رهبانية ابتدعوها ما فرضها الله عليهم، لكن هم يبتغون بذلك رضوان الله، ولو رجعوا لأنفسهم لعلموا أن رضوان الله لا يكون إلا بالاتباع لا في الابتداع.

والسبب الثاني: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ليس عندهم استكبار، والمشركون عندهم استكبار قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] والهمزة هنا للاستفهام وللاحتقار، ويقول: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وهم يعلمون ـ والله ـ أن أعظم من في القريتين ومن في الأرض كلها هو محمد ﷺ لكنه العناد والاستكبار، ولما جمعهم ودعاهم إلى الله قالوا: تبًّا لك ألهذا جمعتنا[1]؟!

فاليهود حدِّث ولا حرج في الاستكبار حتى قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] هذا استكبار واضح، فإننا قاعدون على الأرض وعلى الكراسي الفرش وأنتما اذهبا أنت وربك فقاتلا، وليس بعد هذا الاستكبار شيء، إذا كان هذا قولهم لنبيهم فما بالك لنبي بُعِثَ من العرب.

والسبب الثالث: قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ نقل المؤرخون والمفسرون أيضًا: أن الذين هاجروا إلى الحبشة لما قرأوا القرآن على النجاشي ومن حوله جعلوا يبكون قال الله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[2] يعني: امتلأت، يقال: فاض الإناء إذا امتلأ وخرج الماء من حافتيه، فأعينهم قامت ترقرق من الدمع وتفيض.

وقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وقالوا: هذا الذي نزل على عيسى، فعرفوا أن هذا هو الحق، كما قال ورقة بن نوفل للرسول ﷺ حين أخبره أنه نزل عليه الحق قال: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى[3]، فهم عرفوا الحق وبكوا.

والسبب الرابع: أنهم ليس عندهم استكبار بل يسلمون للحق من حين أن عرفوه ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهذا إقرار بالربوبية لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وبدين الله لقولهم: ﴿آمَنَّا﴾.

وقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ الفاء هذه للسببية أي: لسبب إقرارنا بالرب وإيماننا به اكتبنا مع الشاهدين، والذي يسأل الله أن يكتبه مع الشاهدين هل يمكن أن يستكبر عن دين الشاهدين؟ لا يمكن، هم يسألون هذا ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ والعلماء الشاهدون هم محمد ﷺ وأمته ـ

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٩٢)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٤٢ و ٣٦٦٤٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٤٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣)، ومسلم (١٦٠).

والحمد لله -؛ لأن الله يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني: عدلًا خيارًا فلا أحد من الأمم أعدل من هذه الأمة ، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] فنحن نشهد على الناس والرسول ﷺ يشهد عليهم - أنه بلغنا وأنه أقررنا بتبليغه.

إذنْ ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ يعني: مع النبي والمؤمنين، وكانوا شهداء؛ لأنهم هم آخر الأمم فكل الأمم ماضية سابقة، هل الأمة الأولى تشهد على من بعدها؟ لا، ما تشهد ولذلك لو سُئلنا من الأمة الشاهدة؟ لقلنا: أمة محمد ﷺ؛ لأنها آخر الأمم تعرف ما جرى على الأمم وتشهد به.

ثم قال: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا ﴾ هذا الحديث يحتمل أن يكون حديث نفسي بمعنى أن الواحد منهم يقول : كيف لا أؤمن والحق واضح ويحتمل أنه دفع لِلَوْمٍ وجه إليهم يعني: قيل لهم: لماذا تؤمنوا بمحمد؟ فقالوا: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ ﴾، هل يمكن أن يكون لهذا وهذا؟ يمكن أن يكون بعضهم يصارح نفسه ونفسه تحدثه لماذا تؤمن؟ فيقول: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ ﴾ ويحتمل أنه إذا ألقى أحد إليهم لومًا وقال: كيف تؤمنون؟ يقولون: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ ﴾ يعني: أي شيء يصدنا ويمنعنا أن ﴿نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا يدل على كمال عقلهم.

قال: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ سبحان الله - تعبير المؤمن - والقوم الصالحون يشمل من كان صالحًا من هذه الأمة ومن كان صالحًا من غيرها، في الأول قالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ مع هذه الأمة، في الثاني وهو الطمع في دخول الجنة قالوا: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ لأن الجنة دار لهذه الأمة وللصالحين أيضًا ولذلك قالوا: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولا فرق بين التعبيرين الأول: سألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين، والثاني: أن يدخلهم في الصالحين فقالوا: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يعني: يدخلنا الجنة؛ لأن الجنة تكون للصالحين من هذه الأمة وغيرها.

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

قوله: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ﴾ أي: فأعطاهم ثوابًا والثواب مكافأة العامل على عمله قال الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٦].

وقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ ﴾ أي: بسبب قولهم وهو ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ.. ﴾ إلخ.

وقوله: ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ الباء للسببية ويحتمل أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة فإن جعلناها مصدرية صار التقدير أثابهم الله بقولهم وإذا جعلناها اسمًا موصولًا صار التقدير: أثابهم الله بالذي قالوا، وحينئذٍ لابد من حال يعود إلى اسم الموصول وهو هنا محذوف والتقدير بما قالوه.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جنات هنا جمع جنة، والله تعالى يعبر عنها أحيانًا

بالجنة مفردة وأحيانًا بجنات، فأما إذا عبر عنها بالجنة مفردة، فالمراد بها الجنس وإذا عبر عنها بالجمع فالمراد بها أنواعها ومعلوم أن الله ذكر في سورة الرحمن أربعة أنواع: جنتان وجنتان وفي الحديث: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهما وَمَا فِيهِما وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1].

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إذا أردنا المعنى اللغوي قلنا: الجنات هي البساتين والأشجار وسميت بذلك؛ لأن أشجارها تجن أرضها أي: تسترها لكثرتها وانتشارها، لكن هذا التفسير لو فُسِّر للعامة لهبطت قيمة الجنة عندهم وتصوروا أنها من جنس بساتين الدنيا؛ ولهذا نقول في تفسيرها: إنها الدار التي أعدها الله لأوليائه وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[2] حتى يعرف الإنسان أن هذه الجنة ليس لها نظير.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها وليس المراد من تحت أرضها؛ لأن من تحت أرضها لا يُستفاد منه لكن من تحت أشجارها وقصورها، والأنهار جمع نهر وهي أنواع أربعة أيضًا فُسرت في سورة محمد في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] هذه الأنهار خلقها الله - عز وجل - من غير ما خلقها في الأرض، فالماء في الأرض يخرج بحفر الآبار أو بالأمطار والسيول لكن في الجنة ليس هذا، وإنما أنهار تجري بغير حفر سواقٍ بل بقدرة الله - عز وجل - ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لبن ليس من بقر ولا من إبل ولا من غنم بل هي أنهار خلقها الله - عز وجل - هكذا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ ليس عصير عنب ولا شعير ولا غير ذلك بل هو مخلوق هكذا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ ليس من نحل، ولكن عسل خلقه الله - عز وجل - وصار أنهارًا تجري في الجنة، هذه أربعة أنهار. مما ذكره الله لنا.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الخالد هو الباقي، والأصل في الخلود البقاء الدائم قد يُؤكد أحيانًا بكلمة أبدًا وقد لا يراد به الدائم بقرينة.

إذن الخلود في الأصل البقاء الدائم قد يؤكد بالأبدية، وقد لا يراد به الأبدية، فأما ما يؤكد بالأبدية فهو كثير في القرآن في أهل الجنة وفي أهل النار وأما ما لا يراد به التأبيد بدليل آخر فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] فهنا خالدًا ليس المراد التأبيد؛ لأن القتل عمدًا لا يخرج من الإيمان، اللهم إلا من استحله، فمن استحله فهو كافر باستحلاله لا بقتله؛ لأن من

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠) من حديث عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» (٣٠٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». فاقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ورواه مسلم (٢٨٢٤).

استحل قتل المؤمن فهو كافر سواء قتل أو لم يقتل، المهم أن معنى ذلك الخلود الذي هو البقاء الدائم قد يؤكد بالأبدية وقد لا يراد به الأبد بدليل، وذلك المشار إليه ما أثابهم الله به من الجنات.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: مكافأتهم على عملهم، والمحسن يعمُّ من أحسن في عبادة الله ومن أحسن إلى عباد الله، أما الإحسان في عبادة الله فقد فسره النبي ﷺ في قوله: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] فجعل للإحسان مرتبتين:

الأولى: أن يعبد الله كأنه يراه وهذه عبادة رغبة؛ لأن الشيء الذي ترغب فيه وتطلبه فإنك تحسن فيه، فإن لم تكن تراه يعني: إن لم تصل إلى هذه الحال فإنه يراك أي: اعبده خوفًا منه وهربًا من عقابه، فجعل النبي ﷺ للإنسان هاتين المرتبتين، أما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل المعروف لهم بالمال والبدن والجاه وغير ذلك فمن أعطاك درهمًا فهو محسن، ومن ضحك في وجهك وأدخل السرور عليك فهو محسن، ومن شفع لك في أمر فهو محسن.

إذنْ الإحسان يكون في عبادة الله ويكون في معاملة عباد الله، ولما ذكر الله تبارك وتعالى جزاء هؤلاء المحسنين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر ثواب المحسنين ذكر جزاء المسيئين، وإذا ذكر جزاء المسيئين ذكر ثواب المحسنين، ليبقى الإنسان بين الرغبة والرهبة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفروا بالأمر فلم يكونوا في طاعة وكانوا في معصية ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بالخبر فلم يصدقوا ، فمن أنكر البعث، فَمِنْ أي القسمين هو؟ مكذب، لكنه كافر، ومن لم يصل فهو كافر.

فإذا قال قائل: هل نقول: إنه لا بد أن يجتمع الكفر والتكذيب؟

فالجواب: لا، إذا وجد الكفر ثبت الجزاء، وإذا وجد التكذيب ثبت الجزاء، ولذلك لو قال قائل: الصلوات الخمس غير مفروضة ولا أصدق أنها مفروضة ولكنه يصلي لا تفوته الصلاة أبدًا، فنقول فيه: كافر، فيقول: لا أنا مكذب فالجمع بينهما ليس بشرط بل إذا وجد أحدهما ثبت الحكم.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية، فمن ادعى أن مع الله خالقًا فهو مكذب للآيات الكونية، ومن أقر بالخالق لكن لم يقبل شريعته فهو مكذب للآيات الشرعية، وقد يوجد من يكذب بهما جميعًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن كذب ببعض وصدق ببعض فهو كافر، فإن الله يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥١].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ اسم الإشارة هنا للبعد لكن البعد قد يكون بعد سفولة وقد يكون بُعد علوٍّ، فإذا كان البعد مشارًا به إلى عالي المرتبة فهو يعد علوًّا مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] وهو بين أيدينا الآن ليس بعيدًا لكن لمرتبته وشرفه أشار إليه بالبعيد، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] أشار إليهم إشارة البعد لعلو منزلتهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المائدة: ١٠] بُعد سفولة.

وقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ اعلم أن الله إذا ذكر أصحاب الجحيم فهذا للكفار الخُلَّص؛ لأن الصاحب هو الملازم ولا يلزم الجحيم ـ يعني: النار ـ إلا من كان لا يدخل الجنة ، فالذين كفروا ويكذبون بآيات الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن أشد الناس عداوة للذين آمنوا هم اليهود والذين أشركوا، والمراد بهم الجنس ونعني بذلك أنه قد يوجد من اليهود من لا يكون أشد عداوة وكذلك من المشركين، فنجد ـ مثلًا ـ: أبا طالب مشركًا ومع ذلك كان يود النبي ﷺ لكن الجنس أن المشركين واليهود هم أشد الناس عداوة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن عداوة هؤلاء ظاهرة لقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لكن اعلم أن الظهور والبطون أمران نسبيان بمعنى أن بعض الناس يظهر له ما يخفى على الآخر، وبعض الناس يخفى عليهم ما يظهر للآخر لكن من سبر الأمر ونظر باعتبار تبين له ذلك وقد يقول قائل: لا نجد هذا، نقول: إذا لم تجد فهذا لبلادتك؛ لأنك بليد لا تعرف.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن غير المسلمين يختلفون في العداوة للمسلمين وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَشَدَّ﴾، وأشد اسم تفضيل يدل على أن هؤلاء الأعداء يختلفون وهذا هو الواقع، لكن بماذا نعرف الأشد؟ نعرفه بالآثار، إذا تظاهروا علينا وتحالفوا ضدنا وما أشبه ذلك عرفنا أنهم أعداء.

٤ - **ومن الفوائد**: أن أقرب الناس مودة للمؤمنين هم النصارى، وقد بينا في التفسير السبب في ذلك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كل حكم له سبب، وهذا مهم أن كل حكم قدري أو شرعي فله سبب لكن من الأسباب ما يُعْلَم ومن الأسباب ما لا يُعلَم، فإن الله تعالى لم يطلعنا على كل شيء، هذا يؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلخ.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حسن تعليم الله -عز وجل- في كتابه العزيز؛ لأنه إذا ذكر الحكم أحيانًا ذكر العلة فهنا ذكر حكمًا قدريًا وهي قرب النصارى من مودة المسلمين وذكر الله له علة، وذكر له أحكامًا شرعية مقرونة بالحكم مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أي: هذا المطعوم وغلط من قال: إنه عائد على لحم الخنزير؛ لأننا إذا أعدنا آخر الكلام إلى أوله فأوله يقول: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ﴾ أي: ذلك المطعوم ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي: المطعوم، وليس عائدًا على لحم الخنزير.

المهم: أن من حسن تعليم الله -عز وجل- أنه إذا ذكر الحكم ذكر العلة سواء كان الحكم قدريًا أو كان شرعيًا. وكذلك السنة أحيانًا تذكر العلة فإن النبي ﷺ أمر أبا طلحة أن ينادي في الناس: إن الله ورسوله ينهاكم عن أكل لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس[1].

٧ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن قرب مودة النصارى للمؤمنين له أسباب:

أولًا: أن منهم قسيسين ورهبانًا يبين هذا: أن العلم النافع ينفع حتى لغير المسلمين وأن العبادة ترقق القلب. أما الأول فيؤخذ من قوله: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾، وأما الثاني فيؤخذ من قوله: ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ لأن الرهبنة سالكوها يريدون وجه الله فليس مستكبرًا لكنه طالب وجه الله فهو إذا تبين له يكون من أقرب الناس إلى العمل به.

٨ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن بني آدم ينقسمون إلى علماء وعباد، لكن هل يمكن أن يكونوا علماءَ عُبَّادًا؟ نعم وبكثرة لكن من الناس من يغلب عليه العلم ومن الناس من يغلب عليه العبادة، فالذين يتصفون بالعلم والعبادة منهم من يغلب عليه جانب العلم فتجده دائمًا في بحث وتحقيق

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٧٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ومنهم من يغلب عليه العبادة ولهذا يوجد في تراجم العلماء - رحمهم الله - أنهم إذا ترجموا لبعض العلماء قالوا: وكان كثير العبادة، فأيهما أفضل في العالم أن يكون كثير العبادة أو كثير المراجعة؟

كثير المراجعة لا شك أفضل لكن يجب على كثير المراجعة أن يراجع قلبه إذا وجد منه قسوة فيشتغل بالعبادة قليلًا؛ لأنه أحيانًا مع كثرة المطالعة والمراجعة والمناقشة يكون الإنسان كأنه بطل بين صفين يعني: لا يلتفت إلى الصلاة والتهجد وما أشبه ذلك فإذا رأيت من نفسك أنك ابتعدت عن العبادة فارجع حتى لا تنسى العبادة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من أسباب قبول الحق والمودة للمؤمنين التواضع؛ لقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وأن الاستكبار سبب لرد الحق أما التواضع فهو سبب لقبول الحق؛ لأن الإنسان لا يرى نفسه معصومًا عن الخطأ، فإذا بان له الحق اتبعه ولهذا كان في كتاب عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (لا يمنعك قضاء قضيته اليوم أن ترجع إلى الحق غدًا)[(١)]، بمعنى أنك تتبع الحق أينما كان فتكون مطواعًا للحق ذليلًا أمام الحق، وهل هذا الذل أمام الحق يوجب للإنسان أن يكون ذليلًا بين الناس؟ لا، من تواضع لله رفعه ووفقه للحق، وعلامة ذلك أنك إذا بان لك الحق اتبعته فورًا بدون تردد، فإن ترددت أو جادلت فهو خطر عليك عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولذلك إذا بان لك الحق لا تجادل ولا تحاول أن تبرر رأيك على خطأ وقال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] فاختلط عندهم الحق بالباطل لما كذبوا بالحق إذا جاءهم.

فإذا كنت طالب علم ربما يخالفك من الناس بمقتضى الدليل فإذا أردت أن تفرض رأيك فهذا غلط كبير بل اتبع الحق أينما كان يتبعك الناس أينما كنت؛ لأن الناس يطلبون الحق فإذا رأوا منك أنه إذا تبين لك الحق رجعت رجعوا.

إذنْ التواضع للحق هو في الحقيقة علو كما قال النبي ﷺ: «وَمَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ»[(٢)] وضد ذلك الاستكبار - والعياذ بالله - فإنه يوجب أن يقبل الحق ولا يتبع الحق.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

١٠ - **من فوائد الآية الكريمة**: فضيلة هؤلاء القوم الذين يؤمنون بالرسول أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟

(١) رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٠/ ١٥٠) برقم (٢٠٣٢٤).

(٢) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٦١٦٢).

مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾، ولا شك أن فيضها من الدمع دليل على الإيمان والتصديق والتأثر؛ لأنه كلما آمن الإنسان فإنه يزداد خشوعًا. فالآن إذا ذكرت آبائك وأبنائك وإخوانك وأصدقائك الذين ماتوا ربما تبكي أكثر مما لو ذكرت شيئًا آخر يُؤمَن به، فالإيمان كلما قوي صار المؤمن كأنه يشاهد الشيء بعينه فيزداد إيمانًا وخشوعًا وبكاءً.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية:** قوله: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أن القرآن نزل من عند الله؛ لأن هذا مبني لما لم يسم فاعله؛ لأن فاعله معلوم فيستفاد منه أن القرآن كلام الله تكلم الله به حقيقة على وجه مسموع سمعه جبريل وهو أمين قوي نزل به على قلب الرسول فوعاه وعقله حتى قال له ربه - عز وجل - ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧] وما يتفرق أبدًا بل هو مجموع لك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يعني: قرأه جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩] سبحان الله التزامات عظيمة من الله - عز وجل - مما يدل على عناية الله - تبارك وتعالى - به ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ نبينه للناس لفظًا ومعنًى، فنقول: لا يمكن أن يوجد في كتاب الله شيءٌ لا يعرف الناس معناه إن خفي عن بعضهم علمه آخرون.

١٢ - **ومنها أيضًا:** التمييز للرسول - عليه الصلاة والسلام -، لقوله: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأن (أل) هنا للعهد الذهني يعني: الرسول معلوم مفهوم لا يخفى على أحد.

١٣ - **ومن فوائدها:** إثبات رسالة النبي ﷺ وهو رسول الله حقًّا أرسله الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على مَنْ بكى لسماع القرآن ولكن اعلم أن البكاء نوعان: بكاء متكلف مصطنع فهذا لا يفيد وبكاءٌ آخر من لين القلب هذا هو المفيد؛ لأنه صادر من القلب عن الإيمان.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن تأثر هؤلاء إنما كان بسبب معرفتهم الحق؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والإنسان كلما علم الحق ازداد إيمانه به.

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على هؤلاء الذين آمنوا بما أُنزل على الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأنهم يعلنون الإيمان حيث يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ لا يخفون إيمانهم؛ لأنهم مؤمنون، فالمؤمن حقًّا يعلن إيمانه لا سيما إذا كانوا قسيسين ورهبانًا؛ لأنهم قدوة للناس.

١٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** اعتراف الأمم بأن هذه الأمة - أي الأمة الخاتمة - هي الشاهدة على الأمم؛ لقوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ والشاهدون هم أمة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - متحدثًا عن النسخ في القرآن(١).

(١) هل يمكن النسخ في القرآن أو لا يمكن؟ يقال: الصحيح أنه يمكن وأنه واقع وهذا هو ما عليه جمهور أهل العلم وينكر ذلك من ينكره كاليهود مثلًا قالوا: لا يمكن نسخ الشرائع؛ لأننا لو جوزنا النسخ لجوزنا البُداء على الله أي أنه يبدو له المصلحة بعد أن كانت خفية عليه فيحكم بالشيء ثم بعد ذلك يعدل عنه؛ لأنه لم يبن عن قواعد حكم به أولًا، ومعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يصف ربه - عز وجل - بالجهل ثم البداء، ولكن الله - عز وجل - رد عليهم فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] فبيَّن أن النسخ واضح ومن أجل إنكارهم النسخ أنكروا نبوة عيسى ونبوة محمد ﷺ وقالوا: شريعته نسخت شريعة التوراة وهذا لا يجوز.
أما المسلمون فمجمعون على جواز النسخ عقلًا ووقوعه شرعًا إلا أن أبا مسلم الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لا نسخ في القرآن وحمل النسخ الذي ثبت في القرآن على التخصيص مثال ذلك: أوجب الله على المسلمين في الجهاد أن الواحد يقابل عشرة ثم نسخ ذلك وقال: (الآن خفف الله عليكم)، وهذا واضح أن هذا نسخ وكذلك في الحديث: «قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا»، وهذا نسخ واضح إذنْ ثبت النسخ في القرآن والسنة، ولكن ادعى رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا تخصيص وليس بنسخ ووجه قوله: بأن الحكم المنسوخ كان عامًّا في جميع الأزمان وفي جميع الأحوال ثم نسخ فخرج بالنسخ الزمن الذي تبقى وقال هذا التخصيص، وبناء على هذا التوجيه يكون الخلاف بينه وبين جمهور الأمة خلافًا لفظيًّا لا فائدة منه ما دمنا متفقين على أنه يمكن على هذا الحكم العام لكل زمان ولكل مكان وفي كل أمة وفي كل حال يجوز أن يُلغى في وقت من الأوقات فهذا هو المقصود سَمِّه تخصيصًا أو سَمِّه نسخًا ثم يقال: ما الفائدة من أن نتحاشى كلمة نسخ والله تعالى في القرآن يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، أما وقوعه شرعًا فلا شك فيه لكن كيف؟ أو يجوز عقلًا ألا يجوز أن يرد ما أورده اليهود بأن الله بدا له من بعد ما كان خفيًّا عنه أن الحكم المنسوخ لا يستقيم؟ فالجواب: لا، الأحكام تثبت بحسب أحوال الأمم فقد يكون الوجوب - مثلًا - مصلحة للأمة في وقت وغير مصلحة في وقت آخر.
وقد يكون النسخ ابتلاء للمكلف يبتلي الله - عز وجل - المكلف هل يمتثل أو لا يمتثل ثم يأتي النسخ؛ لأن بعض الناس قد لا يقبل النسخ كالذين ارتدوا حينما حُولت القبلة وقالوا: كيف أمس نتجه إلى بيت المقدس والآن نتجه إلى الكعبة لا يمكن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ويقضي هذا الحكمة فإذا كان تغيير الحكم ونسخه له حِكَم فذلك، لأنه - سبحانه وتعالى - يشرع لعباده من الأحكام ما تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، أرأيت لو كلفت ولدك بعمل ثم رأيت هذا العمل شاقًّا عليه فهل من المصلحة أن تبقيه في هذا العمل الشاق أو أن تنقله إلى عمل آخر؟ تنقله إلى عمل آخر هذا مقتضى العقل فحينئذٍ يبطل ما ادعاه اليهود من أنه يلزم منه البداء على الله أي: الظهور بعد الخفية إذنْ النسخ جائز عقلًا وواقع شرعًا ثم إن النسخ يكون على ثلاثة وجوه:

١- نسخ الحكم مع بقاء اللفظ.
٢- ونسخ اللفظ مع بقاء الحكم.
٣- ونسخهما جميعًا.

الأول: نسخ الحكم مع بقاء اللفظ وهذا كثير مثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩] هذا نسخ للقبلة الأولى واللفظ باقٍ؛ لأنه قال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ [البقرة: ١٤٤] ومثل قوله تعالى في الصوم: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهنا يرد سؤال ما الفائدة من نسخ الحكم مع بقاء اللفظ لماذا لم ينسخ اللفظ؟ لأن العمل باللفظ انتهى.

فيقال: الفائدة بالنسبة للقرآن أولًا: زيادة الأجر بالتلاوة وكذلك تذكير العباد بنعمة الله عليهم حيث نقلهم من الأشق إلى الأخف أو بالعكس أو بالمماثل لكن المهم التذكير بنعمته.

القسم الثاني: نسخ اللفظ مع بقاء الحكم (عكس الأول) مثاله: آية الرجم، آية الرجم كانت قرآنًا يُتلى، يقول عمر ﷺ قرأناها ووعيناها ورجم النبي ﷺ ورجمنا بعده. فهي كانت موجودة في القرآن أما لفظها فغير موجود، ما في القرآن أن الثيب يرجم إذا زنى إذنْ لفظ المنسوخ ولفظ الناسخ غير موجود ولكن الذي جاء في القرآن قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وهذا في المحصن وأما الثيب فجاء في السنة فهنا لا يوجد لفظ آية الرجم في القرآن. فما هو لفظ الآية؟ ورد أن لفظها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم»، ولكن هذا لا يصح لأن هذا اللفظ لا يطابق الحكم؛ لأن الحكم منوط بالثيوبة ليس بالشيوخة، وعمر ﷺ يقول: وإن الرجم حق ثابت في كتاب الله على من زنى إذا أحصن وكانت البينة أو الاعتراف أو الحبَلُ، فقوله: إنها حق ثابت في القرآن على من زنى إذا أحصن، ما قال: إذا شاخ قال: إذا أحصن، فيتبين أن لفظ الآية المنسوخة ليست كما روي ولذلك لو زنى الشيخ وهو بِكْرٌ لم يُرجم ولو زنى الشاب وهو ثيب يرجم إذنْ الآية غير معلومة اللفظ لكن لفظها دال على ما ذكره عمر ﷺ.

فإن قال قائل: ما الحكمة من أن ينسخ اللفظ ويبقى الحكم؟

قلنا: لأننا ذكرنا أن بقاء اللفظ فيه فائدة وهي التلاوة، لكن هنا الفائدة ـ والله أعلم ـ أنه يتبين فضل هذه الأمة على من سبقها، فاليهود حاولوا إخفاء آية الرجم مع أنها موجودة في التوراة لكنهم تركوا العمل بها وسبب ترك العمل بها أنه كثر الزنا في أشرافهم وشق عليهم أن يرجموا أشرافهم فأحدثوا حكمًا جائرًا ليس منه الرجم.

لكن هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ عملت بحكم لا يوجد نصه فأظهرت الحكم مع خفاء الدليل، واليهود على العكس أبطلوا الحكم مع وجود الدليل هذا ما تبين من الحكمة، وقد يقال: إن هناك فائدة أخرى وهي بشاعة الجريمة؛ لأن زنا الثيب لا شك أنه أبشع وأقبح من الشاب، ولذلك كانت عقوبته

الرجم بخلاف غير المحصن، هذا الأخير يتردد الإنسان في أن هذا هو الحكمة؛ لأنه سيكون هذا مراد الله ـ عز وجل ـ وهذا صعب؛ لأن الله تعالى ذكر ما هو أبشع من هذا وهو إتيان الذكر قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] لكن المعنى الأول وهو بيان فضل هذه الأمة على من سبقها واضح.

القسم الثالث: نسخ اللفظ والحكم. ومثال ذلك هو حديث عائشة في الرضاع قالت: «كان فيما أُنزل عشرُ رَضَعَات مُشْبِعَاتٍ يُحَرِّمْنَ فَنُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ» والآن لا نجد عشر رضعات لا في القرآن ولا في الحكم، فالعشر رضعات العمل بها منسوخ إلى خمس، والخمس منسوخة لفظًا لا حكمًا، والعشر منسوخة لفظًا وحكمًا.

تقسيم آخر للنسخ: النسخ تارة ينسخ إلى أثقل وتارة ينسخ إلى أخف وتارة ينسخ إلى مساوٍ.

الأول: تارة ينسخ إلى أثقل مثال ذلك: الصوم أول ما فُرض كان الناس مخيرين بين أن يصوم الانسان أو يفطر ثبت ذلك في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع «كنا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء صام، ومن شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين، حتى أنزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾» [صحيح مسلم (٢٧٤٢) من حديث سلمة بن الأكوع.] فأيهما أثقل؟ تعيين الصوم؛ لأن المخيَّر يشاء هذا أو هذا فإذا تعين الصوم صار أثقل.

الثاني: أن ينسخ إلى أخف، مثاله: آية المصابرة قال الله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ... ﴾ هذه نسخت إلى أخف، ومما نسخ إلى أخف الصلوات الخمس نسخت من خمسين إلى خمس [صحيح البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه].

الثالث: أن ينسخ الحكم النسخ إلى مساوٍ: مثاله بالنسبة لفعل المكلف لا فرق بين هذا وهذا كنسخ استقبال بيت المقدس باستقبال الكعبة، فهنا الفعل بالنسبة للمكلف واحد، والإنسان لا فرق عنده أن يتجه يمينًا أو شمالًا، فلننظر:

إذا نسخ من أخف إلى أشد ففيه فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة الأجر؛ لأن العمل إذا شق على المكلَّف لا بفعل نفسه واختياره فله أجر ويزيد أجره ـ وهذا قيد ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة: «أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبُكِ» [صحيح مسلم (١٢١١)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٣٠١٥)، وأحمد في مسنده (٢٤٢٠٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٢٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها] يعني: على قدر المشقة، أما ما كان بفعل المكلف واختياره فهو إلى الإثم أقرب منه إلى الأجر.

مثال الأول: إنسان قام يتوضأ في البرد وليس عنده إلا ماء باردًا وليس عنده ما يسخن به فتوضأ بالماء البارد فهذا فيه مشقة.

آخر قام يتوضأ وعنده ماء ساخن وماء بارد فإذا توضأ بالماء البارد أيكون أفضل أم أن يتوضأ بالماء الساخن؟ فإذا توضأ بالماء البارد ـ باختياره ـ فهو إلى الإثم أقرب منه إلى السلامة؛ لأن هذا باختياره إذن النسخ في الأخف إلى الأشد فيه زيادة الأجر.

وفيه أيضًا: بيان حكمة التشريع؛ حيث يتبين للإنسان أن التشريع في هذه الشريعة الإسلامية يأتي

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

١٨ - من فوائد هذه الآية: دفع اللوم عن الإنسان يعني: الإنسان ينبغي أن يدفع اللوم عن نفسه ولا يبقى عرضةً لعباد الله يفعلون به ما يشاءون فيه، ولهذا الدفع من السنة شاهد فإن النبي ﷺ لما جاء يقلب إحدى زوجاته ـ وهي صفية ـ رضي الله عنها بعد أن بقيت عنده قام يقلبها فمر به رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله ﷺ ومعه أهله فسلَّما وسارا بسرعة فقال لهما: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» فقالوا: سبحان الله ما يمكن أن يقع في قلوبنا شيء فقال لهما: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شيئًا أو قال شرًّا»[1].

١٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: على الوجه الثاني في قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ حمل

بالتدريج حتى لا يصطدم الناس بالشريعة الكاملة، وانظر إلى تحريم الخمر، فقد جاء على درجات، درجة التعريض ودرجة فيها التحريم لوقت معين، ودرجة محرمة نهائية.

التعريض: أي: تحريم الخمر بالتعريض قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فهنا لما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ العاقل لا يفعل.

أما التحريم في وقت معين فذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فهنا حرم شرب الخمر في وقت قريب من الصلاة.

لأنه لو شرب في وقت قريب من الصلاة لزم أن يأتي الصلاة وهو سكران.

التحريم النهائي: لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

إذنْ يتبين بذلك حكمة التشريع في الشريعة الإسلامية، هل هذه الحكمة باقية إلى الآن بمعنى لو رأينا شخصًا يشرب الخمر هل لنا أن نقول اترك الخمر بالتدريج أو نقول الآن؟ نقول: إذا أمكن الثاني فلا بأس لكن قد لا يمكن فإذا قلنا له بالتدريج وكذلك شرب الدخان بالتدريج فهذا لا بأس به إذا لم يكن إلا ذلك؛ لأنه إذا تعذر الكمال دفعة واحدة أخذنا في الوصول إليه شيئًا فشيئًا.

القسم الثالث: المساوي مثل الاتجاه من بيت المقدس إلى الكعبة، قد يقول قائل: ما الفائدة من ذلك؟ نقول: الفائدة ـ ولا يمكن أن يكون هذا النسخ إلا لسبب ـ فمثلًا أيهما أشرف الكعبة أو بيت المقدس؟ لا شك أن الكعبة أفضل لكن لو فرضنا أنه لا فرق بينهما إطلاقًا فإن فائدته امتحان المكلَّف واختباره هل هو تابع لشريعة الله أو تابع هواه فيقول: لماذا نتحول إلى هذا وهما سواء أنا سأفعل ما أشاء.

ففائدة النسخ إلى المماثل اختبار المكلف هل يكون منقادًا تمامًا لشريعة الله أو هو متبع لهواه.

والحكمة من النسخ من الأشد إلى الأخف واضحة جدًّا وهي التخفيف على الأمة.

(١) رواه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي النضيرية رضي الله عنها.

النفس عند الوسواس على الإيمان والعمل الصالح يعني: إذا رأيت من نفسك فتورًا فقوِّ عزيمتها؛ لأننا ذكرنا في قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ احتمالين.

٢٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة،** أن ما جاء به الرسول حق بشهادة من سبق من الأمم؛ لقوله: ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وهل يعتد بشهادة الأمم السابقة؟

الجواب: نعم، يعتد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

٢١ - **ومن فوائدها،** أن الإنسان لا ينبغي أن يعجب بعمله فيشهد لنفسه أنه من أهل الجنة؛ لقوله ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا﴾ ولم يجزموا بذلك، ولهذا مهما عملت من عمل صالح مبني على الإيمان لا تزكِّ نفسك، فلعل في القلب شيء موجود لا تشعر به - أعاذنا الله وإياكم من النفاق - قال الرسول ﷺ: «وَأَنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[1] يمكن أن نأخذ من هذا: أنه لا يمكن أن نشهد لأحد بالجنة لكونه مؤمنًا عمل صالحًا، وهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة ألا نشهد لأحد بالجنة إلا من شهد له الرسول ﷺ.

٢٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة،** أنه ينبغي اختيار الرفيق الصالح؛ لقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا أمر دلت عليه السنة دلالة قوية فإن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجليسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المسْكِ إِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْه وإمَّا أَنْ تجدَ مِنْهُ رَائِحَة طيبة»[2].

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٣ - **في هذه الآية فوائد منها،** بيان فضل الله - عز وجل -؛ حيث أتى بهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم بهذا الجزاء العظيم.

٢٤ - ومن فوئدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا قَالُوا﴾.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة وأمثالها وقول النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ»[3]. فهذا الحديث نفى أن يدخل أحد الجنة بعمله مع أن النصوص كثيرة في أن العمل يَدْخُلُ الإنسان به الجنة؟.

فالجواب: أن يقال: الباء تكون للسببية أحيانًا وتكون للعِوضِ أحيانًا فإذا قلت: بِعْتُ عليك هذا الثوب بدرهم فالباء للعوض ولا يمكن أن تكون للسببية، وإذا قلت: أكرمتك بما أكرمتني، فهي للسببية.

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٥٢١٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث تكون الباء للعوض فقوله: «لَا يَدْخُلُ الجنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» يعني: لا يمكن أن يكون العمل كالدرهم بالنسبة للثوب في البيع؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لو أراد أن يحاسبنا على أعمالنا لكانت نعمة واحدة من نعمه تغلب أعمالنا كلها، بل إن توفيقنا للعمل الصالح نعمة تحتاج إلى شكر؛ فإذن لا يمكن أن يكون دخولنا الجنة ـ أسأل الله أن يدخلني وإياكم إياها ـ عوضًا عن العمل، لكن يكون سببًا وبهذا الجمع يزول الإشكال، واعلم أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين نصوص الكتاب والسنة أبدًا، فإما ألَّا يكون تعارض، وإما أن يكون تعارض بحسب فهم المستَدِلِّ، أما أن يوجد تعارض بين كلام الله بعضه ببعض أو بين كلام الله وما صح من سنة الرسول أو بين سنة الرسول بعضها مع بعض فهذا مستحيل.

٢٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجنة وأنها أنواع؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

٢٦ - **ومن فوائدها:** أن الجنة ذات أنهار مختلفة تحت هذه القصور والأشجار ولا يمكن للإنسان أن يتصور ذلك المنظر العظيم البهيج أبدًا؛ لأن الجنة فوق ما ندركه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وهذا في القرآن. وكما قال تعالى: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالحين مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١) وهذا في الحديث القدسي.

٢٧ - **ومن فوائد الآية:** أن الأنهار في الجنة أنواع؛ للجمع في قوله: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقد مر علينا في التفسير أنواعه.

٢٨ - **ومن فوائدها:** أن نعيم الجنة دائم؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وقد قررنا أن الخلود هو المكث الدائم إلا بدليل.

٢٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على الإحسان؛ لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان كما يكون في عبادة الله يكون إلى عباد الله قال النبي ﷺ: «ولَا تحقِرَنَّ مِنَ المعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ»(٢).

٣٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو هذا الجزاء؛ لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ حيث أشار إليه بإشارة البعيد.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣١ - من فوائدها: أن الكفر والتكذيب بآيات الله من أسباب دخول النار والخلود فيها؛ لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣٢ - **ومن فوائدها:** بيان أن هذا القرآن الكريم مثانٍ تثنى فيه المعاني والأحوال حتى لا يملَّ

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٦)، والترمذي (١٨٣٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥٥٩) عن أبي ذر رضي الله عنه.

القارئ وحتى يكون الإنسان في سيره إلى ربه بين الخوف والرجاء قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

٢٣ - **ومن فوائدها**: أنه ينبغي للإنسان الواعظ للناس ألا تكون موعظته بالترغيب دائمًا أو الترهيب دائمًا؛ لأنه إن أدام الترغيب أوقعهم في الأمن من مكر الله، وإن أدام الترهيب أوقعهم في القنوط من رحمة الله - فالواعظ في الحقيقة كالطبيب إن أعطى جرعة زائدة هلك المريض وإن نقص لم يبرأ منه، فلابد أن يكون الإنسان مراعي الأحوال لا يكتفي بالترغيب دائمًا ولا بالترهيب دائمًا، وإذا قلنا بهذه القاعدة تبين لنا أن من الناس من الأولى في حقه الترغيب ومنهم من الأولى في حقه الترهيب، فإذا رأيت شخصًا مقبلًا على طاعة الله حريصًا عليها فهنا الأولى الترغيب حتى نحضه على الطاعة ونؤمله القَبول، وإذا رأيت أحدًا بالعكس متهاونًا بالطاعة مُصرًّا على المعصية فهنا جانب الترهيب أولى، ومع ذلك نعرض عليه التوبة ونرغِّبه في قبولها.

٢٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذا الاسم للنار وهو الجحيم ولها أسماء متعددة وأسماؤها تعتبر أوصافًا لها فجهنم والنار والحريق وما أشبه ذلك كلها أسماء تعتبر أوصافًا.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

هذه أربع جمل: الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتوجيه الخطاب بالنداء يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم انتباه المخاطب وتخصيص الخطاب بوصف الإيمان يدل أن ما سيذكر من أوصاف الإيمان وأن مخالفته نقص في الإيمان ثم إن فيه إغراء بالامتثال؛ لأنك إذا وصفت شخصًا بوصف لتأمره أو تنهاه فهذا من باب الإغراء لهذا الوصف ولذلك تقول لشخص: أنت رجل كيف تفعل كذا وكذا، فقولك: أنت رجل يعني: مقتضى الرجولة ألا تفعل، وتقول: يا فلان أنت كريم وهذا سائل يعني: فأعطه.

الجملة الثانية: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ هذه ناهية أي: لا تجعلوه حرامًا، وتحريم ما

أحل الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

خبر، وإنشاء، وامتناع.

فالخبر أن يقول: الضأن حرام هذا نقول له: إنك كاذب؛ لأن الضأن حلال وهو قال إنه حرام كذبًا.

والإنشاء: أن يحرم ما أحل الله كما فعل أهل الجاهلية في السائبة والوصيلة الحام، وقالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] هذا التحريم إنشاء يعني: أراد أن يحكم بأن هذا الشيء حرام على جميع الناس هذا هو الذي يراد بالآية الكريمة.

والثالث: الامتناع، يعني: أن يقصد الامتناع لا يقصد أنه حرام ولا قصد بذلك إنشاء الحكم عليه بالتحريم ولا قَصَدَ الخبر وإنما قَصَدَ الامتناع فهذا حكمه حكم اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]. إذا قال: هذا الخبز عليَّ حرام يريد الامتناع ما قصد أن الحكم حرام في شرع الله ولا أن يخبر أنها حرام، لكن أراد أن يمتنع فهذا حكمه حكم اليمين.

الدليل قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢].

هذه ثلاثة أقسام في التحريم: إخبار، وإنشاء، وامتناع.

والمراد في الآية هنا الإنشاء، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأنه طيب؛ ولأنه حلال فكيف تحرمونه؟!

الجملة الثانية قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تجاوزوا حدودكم؛ لأن الإنسان له حد فكونه يحرِّم ويحلِّل، هذا اعتداء قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ هذه الجملة الرابعة، أخبر - عز وجل - أنه لا يحب المعتدين، أي: لا يحب المعتدين في حقه ولا في حق عباده؛ لأن الله هو العدل وهو أحكم الحاكمين فلا يحبُّ أن يعتدي أحد لا في حقه ولا في حق العباد.

وقوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (كلوا) فعل أمر وهو في معناه مشترك بين الإباحة وبين الوجوب والندب، فمن توقفت حياته على الأكل لكن لا ضرورة فأَكْلُه مستحب، ومن كان لا يحتاج فالأمر للإباحة.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: مما أعطاكم، ﴿حَلَالًا﴾ أي: حال كونه حلالًا أي: محللًا فهو مصدر بمعنى اسم مفعول ﴿طَيِّبًا﴾ أي: لا خبيثًا.

وهل الوصف هنا وصف ملازم يعني: أن كل حلال طيب أو المعنى حلالًا طيبًا في كسبه، أو

المعنى حلال في ذاته طيب في كسبه؟

الثاني أولى؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام مؤسسًا أو مؤكِّدًا فحمله على أن يكون مؤسّسًا أولى فنقول: ﴿حَلَٰلًا﴾ أحله الله ﴿طَيِّبًا﴾ أي: من حيث الكسب.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: الزموا تقوى الله عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ هذا من باب الحث على التقوى، يعني: ما دمتم مؤمنون بالله عز وجل فاتقوا الله، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ جملة إسمية تدل على الثبوت يعني: أنه قد تقرر عندكم الإيمان بالله فإذا كان كذلك فاتقوا الله.

الفوائد:

١ - **في هاتين الآيتين فوائد منها**: النهي عن تحريم طيبات ما أحل الله؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وهذا التحريم يعم الأقسام الثلاثة التي ذكرناها، لكن بعضها أشد من بعض فالتحريم الإنشائي أشدها؛ لأنه شارك الله في حكمه، والتحريم الخبري محرم؛ لأنه كذب، والتحريم الامتناعي محرم؛ لأن الله نهى عنه؛ ولأن الله عاتب نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؛ ولأن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

٢ - **ومن فوائدها**: النهي عن العدوان يعني: الاعتداء في حق الله وفي حق العباد.

٣ - **ومنها**: الإشارة إلى أن تحريم ما أحل الله من باب العدوان؛ لأنه قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾. وقال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ وهو إشارة إلى أن هذا من باب العدوان.

وأيها أشد أن يحرم الحلال أو أن يحلل الحرام؟ أن يحرم الحلال؛ لأن تحريم الحلال تضييق على عباد الله بدون علم، وتحليل الحرام ـ إن قدر أنه حرام بناء على الأصل فالأصل في الأشياء الحل إلا الشرائع فالأصل فيها الحظر.

٤ - **ومن فوائدها**: الإشارة إلى منة الله تعالى على عباده بما أحل لهم؛ لقوله: ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ولو شاء الله ـ عز وجل ـ لحرم علينا طيبات كما حرم ذلك على بني إسرائيل حيث قال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠] يعني: بسبب ظلمهم وعصيانهم حرم الله عليهم الطيبات، وتحريم الطيبات الشرعي بسبب الظلم مثله التحريم القدري بسبب الظلم، فإن الإنسان قد يُحرَمُ الطيبات تحريمًا قدريًّا لمعصيته مثل: أن يكون رجلًا إذا أكل لحمًا تأثر ومرض هذا يعني أنه يجب عليه أن يجتنب أكل اللحم وهذا تحريم قدري، وإنسان عنده السكر إذا أكل الحلو ازداد عليه السكر وآلمه فيجتنب السكر هذا تحريم قدري.

(١) رواه البخاري (٢٥٣٣)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فلا يكون التحريم بسبب المعاصي هو التحريم الشرعي فقط بل حتى القدري.

ومن التحريم القدري أن يمنع الله نبات الأرض بسبب المعاصي كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

فإن قال قائل: هذا نفي وليس بإثبات؟

قلنا: نفيه محبة المعتدين يدل على ثبوت أصل المحبة ولو كان لا يحب مطلقًا لم يكن لنفي محبته للمعتدين فائدة؛ لأنه أصلًا لا يحب. والذين يقولون: إن الله لا يحب لم ينكروا المحبة لكن حرفوها؛ ففي الآية رد على منكري محبة الله ـ عز وجل ـ مثل الأشاعرة الذين هم أقرب أهل التعطيل لأهل السنة ينكرون محبة الله ويقولون: الله لا يحب أحدًا حتى الرسول نقول: أليس الرسول قال: «اللَّهُمَّ اتَّخِذْنِي خَلِيلًا»(1)؟ قالوا: بلى لكن المعنى الثواب؛ لأن المحبة هي الثواب، أو إرادة الثواب، وفسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة، والحقيقة ـ نسأل الله لهم العافية أن يهدي أحياءهم ـ أنهم حُرِمُوا لذة محبة الله عز وجل. فالإنسان إذا شعر أن الله يحبه يفرح ويزداد في محبة الطاعات وكراهة المعاصي؛ لأنه يعلم أن الله ـ عز وجل ـ يحبه من فوق سبع سماوات، وإذا كان المعنى يثيبه فهو يثيب أي واحد من العباد، فحرموا لذة محبة الله؛ لأنهم أنكروها، إذنْ المهم أن في الآية إثبات المحبة وإذا قال قائل: ما وجه إثباتها؟ قلنا: لأن نفيها عن المعتدين يدل على ثبوت أصلها؛ إذ لو لم يكن أصلها ثابتًا لم يكن هناك فائدة من نفيها عن المعتدين.

وهذا نظير استدلال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ على رؤية الله بنفي الرؤيا عن الفجار حيث قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال: لو كانت الخلائق كلها محجوبة عن الله لم يكن في نفي الرؤيا عن الفجار فائدة، فنفي الرؤيا عن الفجار دليل على إثباتها للأبرار.

٦ - **ومن فوائد الآية التي تليها:** أمر الإنسان بالأكل مما رزقه الله، وضده عدم الأكل، وعدم الأكل مما رزق الله ثلاثة أقسام:

الأول: أن يترك الأكل مع خوف الهلاك إذا لم يأكل فهنا ترك الأكل حرام؛ لأنه يجب على الإنسان أن ينقذ نفسه وبهذا نعرف سفه أولئك الذين يضربون عن الطعام في عقولهم وضلالهم في دينهم، بعضهم يُضرب عن الطعام حتى يُحمل إلى المستشفى كالميت فهذا حرام لا شك فيه.

الثاني: إذا كان ليس هناك ضرورة للأكل لكنه يحتاج للأكل لتقوية البدن فهنا الأكل مستحب؛ لأنه لو ترك لم يهلك؛ لأنه في حاجة.

الثالث: أن يترك الأكل تنزهًا فهذا يُنهى عنه ويقال: كُلْ مما أباحَ الله لك.

---

(١) «صحيح مسلم» (٥٣٢)، وابن ماجه (١٤١)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢٥).

مسألة: بعض الناس لا يأكل من طيب الطعام تزهدًا وورعًا فماذا نقول عنه؟

نقول: هذا خطأ، لأن أفضل الخلق محمدًا ﷺ كان يختار الطيب من الطعام؛ أليسوا قد جاءوا له بالتمر الطيب بدلًا من التمر الرديء؟! ومع ذلك ما نهاهم ولم يقل: لما أتيتم بالطيب بل أرشدهم إلى أن يأتوا بالطيب لكن بطريق مباح فتنزه بعض الناس عن الطيبات تورعًا نقول له: أنت الآن مجانب الورع؛ لأن الورع اتباع الشرع؛ والزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، واتباع الشرع مما ينفع في الآخرة فأنت الآن لا زاهد ولا وَرِع، نعم فلو فُرِض أن الإنسان بصفة خاصة يجد من نفسه أنه لو اختار الطيبات لحصل الأشر والبطر فهنا قد نقول: اترك الطيبات؛ لئلا تصاب بالأشر والبطر لكن نعالجه قبل ذلك بعلاج آخر نقول: لا يجوز أن يحملك التمتع بنعم الله على الأشر والبطر فإن عجزت وأبيت إلا أن يحملك نقول اتركه؛ لأنه حقيقة أن بعض الناس إذا لبس ثياب الزينة انتفخ وصار فيه علو واستكبار هذا نقول له: اترك هذا بينما يقول أنا لا أتكبر أنا عجزت، نأمره أولًا ألا يتكبر فإذا قال: أنا أعجز نقول: اترك هذه إلى مَنْ لا يتكبر إذا لبسها، ولكن هذا علاج خاص، كما أننا نعالج الإنسان الذي يتأثر بأكل الطيبات من حجة أخرى فنقول: اتركها ودعها لمن لا يتأثر بها.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان أن يكون مأكله طيبًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فالكسب الحرام وإن كان في ذاته حلالًا، يعني مثلًا: كسب دراهم الأصل فيها أن اكتسابها حلال، فإذا كسبها من حرام قلنا: يحرم عليك أن تأكل منها؛ لأنها ليست طيبة ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ فِي طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ**»(١) قوله: (في طيب) يعني: طيب في كسبه وفي ذاته «**فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ هَذِهِ الصَّدَقَةَ**».

أما إذا كان المال محرمًا لكسبه فإن الكاسب إذا اكتسبه بطريق مباح فإنه يجوز، وهذه القاعدة دل عليها أن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود ـ وهم معروفون بأكل الربا والسُّحت والرِّشوة ـ لأنه يأكل بطريق مباح إما بالإذن بحيث أُذِنَ له بذلك أو أُهْدِيَ إليه، إلا إذا علمت أن هذا المال هو عين مال رجل آخر كالسارق إذا سرق شاةً وذبحها لك ضيافةً، فهنا لا يجوز أن تأكلها؛ لأن هذا محرم بعينه بحيث أن هذا الكاسب لم يملك هذه العين فلا يجوز أن تأكلها، لكن لو دعاك إلى وليمة من عُرِف بأن ماله كله حرام اكتسبه عن طريق الربا أو عن طريق الحِيلة فهل لك أن تأكل منه؟

نعم لي أن آكل منه إلا إذا علمت أنني إذا امتنعت من إجابة دعوته وأكل طعامه صار ذلك سببًا لتوبته؛ فحينئذٍ لا يجوز أن أجيبه ولا يجوز أن آكل من طعامه؛ لأنه إذا رأى الناس قد هجروه فلا يجيبون دعوته، ولا يأكلون طعامه لا شك أن هذا سيؤثر عليه إلا أن يكون قلبه ميتًا.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان بالله ـ عز وجل ـ مستلزم لتقواه؛ لقوله:

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ أي: لإيمانكم يلزمكم التقوى فالإيمان الحقيقي مستلزم للتقوى فَمَنْ قال: إنه مؤمن ولكنه لم يتق الله فهو إما فاقد الإيمان بالكلية وإما ناقص الإيمان.

فإن قال قائل: إنه يفعل المعاصي وإذا قيل له: يا فلان اتق الله لا تعص الله قام بضرب على صدره ويقول التقوى ههنا ماذا نقول له؟

نقول: هذا كلام الرسول ﷺ لا شك فيه وليس عندنا شك فيه ولكن لو اتقى ما ههنا لَاتَّقَتْ اليدُ وَالرجلُ وَالعينُ وَاللسانُ؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا إِنَّ فِي الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1] فلو كان ههنا تقوى لظهر ذلك على جوارحه.

قال الله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

التفسير

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾ أي: لا يعاقبكم ولا يحاسبكم، ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ اللغو هو: ما لم يُقصَد، بدليل قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾.

وقد ذكرنا أن من طرق التفسير أن تقابل الكلمة إذا كانت خفية بشيء واضح فيتبين معناها بما قوبل به، وذكرنا على هذا مثالًا وهو قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] فإن ﴿ثُبَاتٍ﴾ لا يُفهم معناها بسرعة لكن إذا قابلناها بالمقابل وهو قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ تبين أن معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: فرادى متفرقين.

وهنا قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ إذن اللغو هو: الذي لا يُقصد بأن يجري على اللسان بدون قصد وهذا يقع كثيرًا، يقول لك صاحبك: أتريد أن تذهب إلى فلان؟ تقول: لا، والله لا أريد الذهاب إليه. أو يقول: اذهب وسلم على فلان تقول: لا والله لا أذهب على سبيل اللغو لا القصد.

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فهذا اسمه اللغو لا يترتب عليه حكم؛ ولأن هذا أيضًا من الأشياء التي قد يشق تجنبها.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ جمع يمين وهو: الحلف.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ أي: بالذي عقدتم، وفي هذه الكلمة ثلاثة قراءات التي معنا، و(عاقدتم)، و(عَقَدتُّم) والمعنى واحد أي: بما نويتم عقده من الأيمان.

وقوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ فكفارته إذا حلفتم وحنثتم يعني: أن في الآية شيئًا محذوفًا فتصير: فكفارته إن حنثتم فيه أي: التي تكفره ولا يقع فيه مؤاخذة ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ وأطلق الله الإطعام فيرجع في ذلك إلى العرف؛ لأن لدينا قاعدة وهي: أن ما جاء مطلقًا في الكتاب والسنة فإنه يحمل على العرف.

وقوله: ﴿مَسَٰكِينَ﴾ جميع مسكين وهو: الذي لا يجد كفايته وسمي مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه؛ لأن العادة أن الغنيَّ يكون نشيطًا له شخصية يقابل الناس ويتكلم معهم ويأخذ منهم ويرد، والغالب على الفقير العكس فلذلك سمي الفقير مسكينًا.

قوله: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ أي: لا من أجوده ولا أردئه.

قوله: ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾ وتختلف الكِسْوة باختلاف الأزمان والبلدان والأحوال؛ ولذلك ترون في مواسم الحج والعمرة اختلافًا كبيرًا من كسوة الناس فيرجع في هذا إلى العرف، ففي بلدنا هذه الكسوة عبارة عن قميص وسروال وغترة، وإذا نقص شيء من ذلك فالكسوة ناقصة.

وفي الكسوة لم يقيد من أوسط ما تكسون فيؤخذ مما يُعَد كسوة.

وقوله: ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي: عتقها، وسمي العتق تحريرًا؛ لأن الرقيق يتحرر به من الملك - ملك سيده له - الذي يفرض عليه أن يكون عبدًا مطيعًا، وفي الآية الترقي من الأسهل إلى الأشد؛ لأنك لو نظرت في الغالب لوجدت أن الإطعام أسهل من الكسوة وأن الكسوة أسهل من العتق أي: تحرير الرقبة.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي: فمن لم يجد الإطعام أو الكسوة أو العتق أو وجد ولكنه لم يجد من يطعمهم أو يكسوهم أو يعتقهم كأن يكون المجتمع كله أغنياء لا يوجد فيهم فقير ولم يوجد أرقة يمكن إعتاقهم فإنه يعدل إلى الرابع من أصناف الكفارة وهي: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ وهذه مطلقة لم يقيدها الله تعالى بالتتابع، والصيام إذا أطلق فهو لا يشترط فيه التتابع ودليل ذلك: أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يكون الصوم متتابعًا قيده كما في آية الظهار فقال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ وكما في آية القتل قال: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، فإذا أطلق فإنه لا يجب فيه التتابع، لكن قد ورد في قراءة عبد الله بن مسعود اشتراط التتابع فقرأ رضي الله عنه: (فصيام ثلاثة أيام متتابعة)، وعلى هذا تكون قراءة عبد الله بن مسعود مقيدة لهذه القراءة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ ذلك المشار إليه هذه أي: الأربعة كفَّارات وهي: إطعام عشرة

مسكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة، أو صيام ثلاثة أيام على حسب ما جاء في الآية من ترتيب وتصوير.

وقوله: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ يعني: إذا حَلَفْتُم وحنثتم أما إذا لم تحنثوا، فإنه لا شيء عليكم.

فإذا حلف الإنسان أن يفعل شيئًا ولم يفعله فلا شيء عليه أو ألا يفعل شيء ففعله فلا شيء عليه.

وقوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ لها ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: احفظوها من الحنث أي: حافظوا على ألا تحنثوا.

الثاني: أي لا تكثروا الحلف ولا تجعلوها رخيصة فلا تحلفوا إلا إذا دعت الحاجة أو الضرورة لذلك.

الثالث: احفظوها بأ لا تدعوا الكفَّارة عليكم، وهذه المعاني الثلاثة لا يناقض بعضها بعضًا فتكون الآية شاملة لها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ كذلك أي: مثل ذلك البيان وعليه فتكون الكاف مفعولًا مطلقًا؛ لأنه أضيف إلى المصدر أي: مثل ذلك البيان يبين الله لكم آياته، والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية؛ لأن السياق يدل عليها ولا شك أن الله بَيَّنَ لنا الآيات الشرعية والآيات الكونية، ففي مخلوقاته آيات عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعل للتعليل أي: لأجل أن تشكروا الله - عز وجل - على بيان الآيات، والشكر هو: القيام بطاعة المنعِم، هذا أجمع ما قيل فيه، ويشتمل القيام بطاعة المنعم فيما يقال والقيام بطاعة المنعم فيما يُفعل والقيام بطاعة المنعم فيما يُعتقد فيكون محل الشكر ثلاثة: القلب واللسان والجوارح.

وعلى هذا فقول الشاعر:

أَفَادتكُمْ النَّعْمَاءُ مني ثَلَاثَــــةً ... يدي ولسـاني وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَـا

هذه هي أوسع آية فيما يتعلق بالأيمان وإلا فقد جاء في سورة البقرة ما يشابهها مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] لكن هذه الآية مفصلة.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية: سعة تيسير الله وعفوه؛ حيث نفى المؤاخذة عن اللغو بالأيمان؛ وذلك لكثرة تكرارها ومشقة التحرز منها، وهذا دليل على أن المراد بها: الأيمان التي لا تقصد

والتي تكون باللسان فقط، وقال بعض أهل العلم: من اللغو في الأيمان أن يحلف على شيء ماضٍ يظنه واقعًا ولم يقع مثل أن يقول: والله لقد قدم فلان من البلد أمس بناءً على أنه رأى رجلًا يشبهه فظنه إياه فأقسم أنه قدم ولم يقدم لكن الصواب خلاف ذلك؛ لأن هذا ليس من اللغو؛ لأن هذا خاص بالعقد حيث حلف وأقسم بالله لم يأت الرجل قال: والله لقد رأيته لكن هذا مما لا حنث فيه؛ لأن الرجل حلف على ما في ظنه وهو واقع؛ ولهذا التعليل لا يفرق على القول الصحيح بين الماضي والمستقبل، المستقبل مثل أن يقول: والله ليقدمن زيد غدًا، بناء على ما سمعه من الأخبار أو ما سمعه من زيد نفسه أنه سيقدم غدًا فقال: والله ليقدمن زيد غدًا، فمضى الغد ولم يقدم فهذا لا حنث عليه مع أنه عاقد حالف لكن نقول: الرجل حلف على ما في ظنه وهو يقول: لا أزال أظن هذا حتى وإن انتهى الغد ولم يأت فأنا على ظني وكون الواقع يصير على خلاف ظني هذا ليس بيدي وليس من فعلي ولا من تصرفي، ولذلك لو قال: والله ليقدمن زيد غدًا بناء على أنه سيلزمه بقدوم ولم يقدم فإنه يحنث.

إذن القول الراجح: أن اليمين الذي يحلفها على ظنه ليست من لغو اليمين وإنما لغو اليمين ما لا يقصد.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العبرة على ما في القلوب، وهذا كقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1] ونبني عليه مسائل كثيرة في الأيمان والطلاق والبيوع والأوقاف وغير ذلك؛ والدليل على أن العبرة ما في القلوب قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ وفي سورة البقرة: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا حنث في اليمين إلا إذا كانت منعقدة، قال العلماء: منعقدة وهي: التي يقصد عقدها على أن المستقبل ممكن، فإذا لم يقم العقد فهي لغو، وإذا عقدها على ماضٍ فإنه لا يخلو من ثلاثة أقسام:

الأول: إما أن يعقدها على أمر ماضٍ متيقن فهذا لا شيء عليه، لكنه لا ينبغي عند للحاجة مثل أن يقول: والله لقد نزل المطر أمسِ على بلدي وهو يعلم أنه نزل فهذا جائز لكن الأولى ألا يفعل إلا الحاجة.

الثاني: أنه يحصل عقدها على ماضٍ يعلم أنه كاذب فهذه حرام مثل أن يقول: والله صليت أمس بالمسجد الحرام، وهو لم يُصلِّ فهذا لا شك أنه آثم؛ لأنه جمع بين إثمين الإثم الأول: الكذب، والإثم الثاني: الاستهانة بيمين الله عز وجل، واليمين - كما نعلم جميعًا - هي: تأكيد الشيء باسم معظم، لكن هل هذه يمين غموس أو أن يمين الغموس ما تتضمن أكل المال بالباطل أو الاعتداء على الغير؟

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المذهب: الأول أن كل يمين كاذبة على ماضٍ فهي يمين غموس، ولا شك أن اليمين على أمر ماضٍ وهو يعلم أنه كاذب أنها محرمة وأشد من لو أنه أخبر بدون علم، لكن الذي يظهر أن اليمين الغموس هي التي يحلف بها الإنسان فاجرًا؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم يعلم به.

مثاله: أن يدَّعِي على شخص بأنَ في ذمته له ألف ريال ويقيم شاهد زور فيحلف فيُحكم له بالمال، فهذه اليمين نسميها يمين الغموس؛ لأنه اقتطع به مال امرئ مسلم، أو ينكر بها على مال امرئ مسلم، مثل أن يُدعى عليه بألف ريال ويقول: ليس لك عندي شيء ويحلف على هذا فهذه يمين الغموس.

فالراجح: أن اليمين الغموس هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم.

القسم الثالث من الحلف على الماضي: أن يحلف على ما يظنه واقعًا وليس بواقع فهذه يسميها فقهاؤنا ـ رحمهم الله ـ: لغو اليمين يعني: يجعلونها من لغو اليمين والصحيح أنها ليست من لغو اليمين وإنما هي من اليمين التي ظنَّ فيها؛ لأنه حلف على ظنه وهو لا يزال على ظنه ولكن مع ذلك الأولى ألا يحلف على شيء بناءً على الظن إلا إذا دعتِ الحاجة لذلك.

قلنا: التي انعقدت على أمر مستقبل فهو ممكن، وضد الممكن المستحيل، هذا إذا انعقد عليها اليمين؛ لأنه إذا كان على إيجاده ماذا نقول له؟ نقول: هذا غير ممكن فيحنث في الحال فتلزمه الكفارة؛ لأنه لا يمكن أن يوجده، وإن كان على عدمه فهو ليس فيه كفارة؛ لأن هذا هو الواقع.

وقال بعض أهل العلم: الحلف على المستحيل لا كفارة فيه مطلقًا؛ لأن كونه يحلف على شيء يستحيل وجوده فهذا لغو فلا حنث فيه.

هل يشترط أن يكون باختياره أي أنه يحلف مختارًا؟

الجواب: نعم يشترط أن يكون حلفه اختيارًا فإن أُكرِهَ على اليمين لم تنعقد اليمين، ولكن هنا مسألة: لو أكره على اليمين فحلف قاصدًا اليمين؛ لأنه لو أكره وحلف إما أن يقصد باليمين دفع الإكراه، أو يقصد اليمين لكنه مكره عليه، هاتان مسألتان: أحيانًا يحلف؛ ليدفع الإكراه عن نفسه ويتخلص من عدوان المكرِه، وأحيانًا يحلف يقصد اليمين لكن حمله عليها الإكراه، أما إذا قصد دفع الإكراه فلا شك أنه لا حنث عليه؛ لأنه لم يقصد اليمين إنما قصد الخلاف من هذا الإكراه. أما إذا حلف يقصد اليمين ذاته لكن أُلجِئَ إليه فهذا فيه اختلاف والصواب: أنه كالأول لا سيما إذا وقع من شخص عاميّ، فالعامي إذا أكره على الشيء فعله ولا يخطر بباله أنه بدافع الإكراه أو لأنه أُكره عليه، يعني هذه إن وقعت فإنها تقع لطالب علم يفهم، فالصواب: أن المكره لا تنعقد يمينه سواء نوى بذلك دفع الإكراه أو عقد اليمين للإكراه.

هل يشترط أن يكون مكلفًا أو لا يشترط؟

الصواب: أنه يشترط أن يكون مكلفًا؛ لأن غير المكلف لا يلزمه شيء لا بأصل الشرع ولا

بإلزام نفسه ولهذا لا ينعقد منه النذر. وقد قال النبي ﷺ: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ»[1].

فلو حلف مَنْ له عشر سنوات ألا يشتري شيئًا معينًا فبلغ واشتراه هل يحنث أو لا ؟ لا، لأن يمينه غير منعقدة.

إذنْ: اليمين لا تنعقد من غير العاقل البالغ؛ لأنه غير مكلف.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما أشرنا إليه أولًا وهو اعتبار النية والقصد وهذا ينبني عليه مسائل من أهمها ما يقع كثيرًا أن يطلق الرجل زوجته بناءً على أنها تكلم الرجال في الهاتف ثم يتبين أنها تكلم أقاربها محارمها فهنا الطلاق لا يقع.

يحلف الرجل ألا يقدم هذا البلد؛ لأنه يعتقد أن أميره ظالم فيقول مالي وللأمير الظالم ثم يتبين أن أميره ليس بظالم فهل عليه شيء؟ لا، لأنه حلف على أن نية هذا الوصف هو الذي يمنعه من دخول البلد وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي الحلف بالله إلا إذا كان خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ والكفارة لا تكون إلا في مقابلة ذنب أو ما يشبهه؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن كفارة اليمين على التخيير في أشياء ثلاثة: إطعام المساكين وكسوتهم وعتق الرقبة، هذا على التخيير فإن لم يجد ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وما اشتهر عند العوام من أن كفارة اليمين هي الصيام فخطأ، وينبغي لطلبة العلم أن يبينوا للناس أن الصيام لا يجوز إلا لمن لا يقدر على أحد الأوصاف الثلاثة التي قبله.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإطعام مطلقًا لا يشترط فيه التمييز؛ لأن الله لم يقل فللمساكين فلو قال فللمساكين لكانت الفاء للتمييز كما قال في الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠] لكن هنا قال ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ فإذا كان إطعام عشرة فما يحصل به الإطعام كافٍ فلو غدَّى المساكين أو عشَّاهم أجزأه بلا شك؛ لأنه يصدق عليه صدقًا تامًّا أنه أطعمهم، فإن أعطاهم شيئًا يطعمونه بأنفسهم أي: يصنعونه بأنفسهم فهل يجزئ أو لا؟ الظاهر : أنه يجزئ؛ لأنه إذا أعطاهم ـ مثلًا ـ ما يكفيهم من حَبٍّ ولحم وما أشبه ذلك مما يطعم به فإنه يصدق عليه أنه أطعم عشرة مساكين.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لو أطعم من يأكل الطعام ولو كان أطفالًا صغارًا يجزئه؛ لقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ فإذا كان المسكين صغيرًا لا يأكل الطعام فهذا لا يُجزئه، لأن هذا خلاف ظاهر اللفظ.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣٤٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٧٣٨) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١٣).

فإذا قال قائل: إذا لم أجد عشرة مساكين ولم أجد في البلد إلا خمسة فهل أعدل إلى الصيام أو أكرر على الخمسة؟ فيه احتمال؛ لأن قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعود على ما سبق والذي سبق أي: لم يجد عشرة، ويحتمل أن يقال: ما دام وجد مساكين فإنه يكرر عليهم الإطعام فإذا وجد خمسة يكرر مرتين.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى له حكمة فيما يشرع لعباده؛ لأنك لو قارنت بين إطعام عشرة مساكين وكسوتهم وعتق الرقبة لوجدت الفرق كبيرًا لكن لله حكمة فيما يشرع، فلا يمكن أن يعتذر المعتذر ويقول : لماذا لم يكونوا عشرين؟ لماذا لم يكونوا ثلاثة؟ كالصيام مثلًا؛ لأن هذا هو حكم الله ـ عز وجل ـ وهذا من الأمور التعبدية يعني: تقدير من يُعطون من الكفارات أمر تعبدي لا مدخل للعقل فيه كعدد الصلوات.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الواجب على الإنسان يكون الوسط، فالزكاة مثلًا على صاحب الغنم الواجب الوسط، والزكاة في الثمار الواجب الوسط، ويتفرع على هذه الفائدة العظيمة عدالة الإسلام؛ لأن الوسط ليس فيه حيد لا على من يجب عليه ولا على من يجب له، وهذا لا شك أنه من العدالة.

فإن قال قائل: أرأيتم إن أطعمهم من أعلى ما يكون أيجوز أو لا ؟ يجوز؛ لأن هذا أكمل.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإنفاق على الأهل؛ لقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ يعني: كان هذا أمر مقرر أن الرجل يطعم أهله وهذا لا شك فيه أنه يجب على الرجل أن ينفق على أهله قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

والكسوة مطلقة أيضًا كالإطعام فما سمي كسوة حصل به الإجزاء وهذا يختلف باختلاف الأماكن والأزمان والأحوال.

هل يمكن أن يكون هناك مناسبة بين الكسوتين الظاهرة والباطنة؛ لأن في الإطعام كسوة الباطن وفي الكسوة كسوة الظاهر، يمكن أن نقول هذا؛ لأن الله قال لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] الجوع من عُري الباطن والعرى: عُري الظاهر، قال: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] والظمأ: حرارة الباطن ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: حرارة الظاهر.

وقد يتبادر إلى الأذهان الضعيفة أن يكون القول ألا تجوع فيها ولا تظمأ ولا تعرى ولا تضحى؛ لأن العُري يكشف البدن للشمس والكسوة تستره لكن البلاغة العظيمة بما جاء به القرآن.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لابد من إطعام هذا العدد أي: عشرة وكسوتهم

فلو كرر الطعام على واحد عشرة أيام لم يجزئ؛ لأنه نص على العدد فيجب اتباع ما نص الله عليه.

هذا، وقد قال العلماء ـ رحمهم الله : إنه قد يعين المدفوع إليه دون المدفوع كما في هذه الآية، المطعَمُون عشرة، والإطعام، والمقيد، ما يقال إنه طاعم.

وقد يقيد المعطَى المدفوع دون المدفوع إليه كما في زكاة الفطر من رمضان فإن المدفوع المقيد صاع من طعام والمدفوع إليه لم يقيد؛ ولهذا يجوز أن تعطي صاعًا من صدقة الفطر لعدة فقراء، ويجوز أن تعطيه فطرًا للواحد.

والقسم الثالث: أن يقيد المعطى والمدفوع إليه، كما في السنة فإن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة ـ رضي الله عنه : «أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ»[1] فقيَّد المعطَى يعني: المدفوع والمدفوع إليه.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كفارة اليمين لا تعطى للمؤلَّفة قلوبهم، ولا تعطى للغارمين وإنما هي إطعام للمساكين كما نقول ذلك أيضًا في زكاة الفطر فإنها لا تُعْطَى إلا للفقراء فقط.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تمام عدل الله ـ عز وجل ـ في إيجاب الأوسط؛ لأنه لو أوجب الأكمل والأعلى لكان في هذا ضرر على الحالف ولو أوجب الأدنى لكان فيه ضرر على المدفوع إليه.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الكسوة مطلقة لم تخصص بشيء معين أو بعدد معين يعني: لم يقيد المدفوع.

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إشارة إلى أن الحنث في اليمين أمره عظيم؛ ولهذا لا يكفره إلا عتق الرقبة التي يحصل بها عتق المعتق من النار لكن الله تعالى بحلمه ورحمته خفف عن العباد، دليل ذلك قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

١٧ - ومن فوائد هذه الآية العظيمة: أن تقدير العبادات فنية ونوعًا وكيفية موكولٌ إلى الشرع ولذلك لا يتساوى إطعام عشرة مساكين مع صيام ثلاثة أيام، ولو نظرنا إلى كفارة الظهار لكان الواجب صيام شهرين متتاليين فمن لم يجد فإطعام ستين مسكينًا، فجاء الإطعام كل مسكينٍ صيام يوم، لكن هنا يختلف الوضع، ولعل السبب ـ والله أعلم ـ أنه في كفارة الظهار الإطعام بدلٌ عن الصيام يعني: من لم يستطيع الصيام أطعم وإن كان بدلًا عن الصيام فالحكم أن صوم كل يوم يطعم عنه مسكينًا كما في العاجز عن الصيام عجزًا لمرض لا يُرجى شفائه أو زواله فإنه يطعم عن كل يوم مسكينًا، أما في كفارة اليمين فليس الأمر كذلك؛ لأن الأمر فيه على التخيير، فكل من

(١) رواه البخاري (١٧٢١)، ومسلم (١٢٠١) من حديث كعب بن عجرة الأنصاري رضي الله عنه.

خصال الكفارة نوع مستقل بنفسه.

الإطعام في كفارة الظهار بدل عن الصوم، فالصوم يكون شهرين والغالب أن يكون ستين يومًا فكان بدلها إطعام ستين مسكينًا، كما في رمضان إذا عجز إنسانٌ عن الصوم عجزًا مستمرًا فإنه يطعم عن كل يوم مسكينًا؛ لأن الإطعام بدل عن الصيام.

وفي كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام لكن كل واحد مستقل بنفسه أليس كذلك؟ بلى، لما كان كل واحد مستقل بنفسه صار كل واحد خاصًّا بوصف يناسبه حسب حكمة الله - عز وجل - فدية الأذى إطعام ستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام؛ لأن صيام ثلاثة أيام ليس بدل عن إطعام ستة مساكين، وإطعام ستة مساكين ليس بدلًا عن الصيام، إذ إن الإنسان مخير بين هذا وهذا، فكل واحد منهما مستقل بنفسه يعني: قسم مستقل بنفسه، هذا ما ظهر لنا والله أعلم بما شرع.

١٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: دفع توهم العوام من أن كفارة اليمين صيام ثلاثة أيام؛ ولهذا تجد بعضهم يقول: أنا لا أستطيع صيام ثلاثة أيام، فيمنعه صيام ثلاثة أيام من الحلف فيقال: إن الأصل أن الواجب إطعام عشرة مساكين.

فإن قال قائل: هل يجوز أن نلزم الغني بصيام ثلاثة أيام؛ لأنها أشق عليه من الإطعام؟ قلنا: لا يجوز هذا ولذلك غلط بعض العلماء الذين أوجبوا على أحد الملوك في كفارة الظهار عليه أن يصوم شهرين متتابعين.

وقال: إن هذا أشق عليه من تحرير رقبة؛ لأنه سلطان أمير يستطيع أن يعتق عشر رقاب لكن صيام شهرين متتابعين أشق عليه فيقال: هذا غلط؛ لأن هذا مخالف للنص - والله سبحانه وتعالى يحب أن تعتق العبيد فيتبع ما أمر به الله عز وجل.

١٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المشروع احترام اليمين وحفظها، ولكن جاءت السنة بالتفصيل في هذا فقال النبي ﷺ: «**إِنِّي وَاللهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**»[1] وعلى هذا نقول: الحنث في اليمين ينقسم إلى أقسام:

تارة يجب الحنث، وتارة يحرم الحنث، وتارة يُسنُّ، وتارة يُكره. فإذا حلف الإنسان ألا يصلي مع الجماعة فالحنث واجب يعني: يجب أن يصلي وَيُكَفِّر، وإذا حلف شَقيٌّ أن يشرب الخمر فالحنث واجب نقول: يجب ألا تشرب وتكفر عن يمينك لكن الفرق بينه وبين الأول أن ذاك في ترك الواجب وهذا في فعل المحرم وإذا حلف ألا يزور قريبه - وصلة الرحم واجبة - فالحنث واجب فيجب أن يزور قريبه ويكفر عن يمينه.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٤)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وإذا حلف على فعل محرم فالحنث واجب، مثاله: حلف أن يشرب الخمر، وإن حلف ألا يشرب الخمر فالحنث حرام؛ لأنه لو شرب الخمر لكان فعلًا محرمًا، ولو حلف شخص ألا يأكل بصلًا فالحنث مكروه؛ لأن أكل البصر مكروه لمن أراد أن يصلي، وإذا حلف ألا يصلي راتبة الفجر فالحنث مستحب نقول: صل وكفِّرْ.

القاعدة إذنْ: أنه يسن الحنث في اليمين إذا كان خيرًا كما قال النبي ﷺ وقد يجب الحنث وقد يحرم، والأصل أن الحنث جائز ولكن عدم الحنث أولى، لقوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

٢٠ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن لعباده من الآيات كل ما يحتاجون إليه؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾.

٢١ - **ومن فوائدها**: أنه يجب علينا شكر الله تعالى على بيان الآيات، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢ - **ومن فوائدها**: محبة الله تعالى للشكر حيث بيَّن الآيات؛ من أجل الشكر.

٢٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن العلم من نعم الله التي يجب علينا شكرها؛ لأن بيان الآيات به يعلم الإنسان آيات الله فإذا كان الله يبينها لنشكره عليها دل ذلك على أن العلم بالشريعة وبآيات الله نعمة يجب على الإنسان أن يشكرها لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها**: تعليل أحكام الله ـ عز وجل ـ وأنها مقرونة بالحكمة؛ لأن لعل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للتعليل، والتعليل يفيد الحكمة فجميع أحكام الله وأفعال الله كلها بحكمة لكن منها ما يُعلَم ومنها ما لا يُعلَم.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

❁ التفسير ❁

هذه الآية جمعت بين الخبر والطلب، الخبر قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾

والطلب قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

في هذه الآية يبدأ الله الخطاب بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقد تكرر هذا الخطاب وبينَّا أن بدء

الخطاب بالنداء يدل على أهميته والعناية به، ثم إن البدء بهذا الوصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدل على أن العمل به تصديقًا أو امتثالًا من مقتضى الإيمان، وكذلك أيضًا يدل على أن مخالفته أو الشك فيه أو تكذيبه منافٍ للإيمان إما لأصله أو لكماله.

ثالثًا: أن في هذا إغراء للمخاطب كأنه يقول: إن كنت مؤمنًا فاستمع وامتثل وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أطلق الله ـ عز وجل ـ الإيمان ولم يذكر ما يؤْمَنَ به؛ لأن ذلك معلوم وقد سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ (إنما) أداة حصر والحصر إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه هذا هو الأصل، وقد يراد به تحقيق الحكم في المذكور ولا يلزم أن ينفى عما سواه كما سيتبين ـ إن شاء الله ـ في التفسير.

والخمر قال فيها النبي ﷺ: «إنه المُسكِر» وكل ما أسكر فهو خمر، ولا نقول: كل ما أذهب العقل فهو خمر أو كل ما أذهب الإحساس فهو خمر بل نقول: الخمر ما غطَّى العقل على وجه اللذة والطرب؛ لأن الذين يشربون الخمر يجدون راحة ونشوة وطربًا؛ وعلى هذا فالبنج ليس بخمر وإن كان يفقد الإحساس لكنه لا يجد فيه الإنسان النشوة والطرب ومع ذلك لا يستعمل البنج إلا للحاجة والضرورة.

وقوله: ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ هو أخذ المال على وجه المغالبة وسمي ميسرًا؛ لتيسر الحصول عليه مثاله: المراهنة والقمار مثل أن يقول: نعمل عملًا سويًّا ونجعل العوض ـ مثلًا ـ عشرة آلاف ريال فمن غَلَبَ أخذ العشرة ومن غُلِب أُخذت منه العشرة، إذنْ المسالة الآن غرامة وجهالة فيسمى هذا ميسرًا لما فيه من المغامرة والغرر والمخاطرة ، وقد كان هذا معروفًا عند العرب وكذلك في أول الإسلام ولكنه ـ والحمد لله ـ حُرِّمَ.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ هي: ما ينصب ليُعْبَدَ من دون الله.

وقوله: ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ هي: ما يُستقسم به أي: يطلب به الإنسان ما قُسِم له وكانوا يستعملون هذا في الجاهلية، حيث يضعون أقداحهم فيها افعل أو لا تفعل، والقدح الثالث ليس فيه شيء ثم يخلطونها جميعًا ويقول القائل: خذ منها دون أن تعلم تُجعل في كيس أو نحوه ثم يقال: أدخل يدك وأخرج قِدحًا إن خرج افْعَلْ فيفعلُ، وإن خرج لا تفعل لم يفعل إن خرج المهمل: أعاد مرة أخرى هذا العمل كانوا يستعملونه في الجاهلية وهو مبني على أوهام لا حقيقة له ولذلك حرمه الله ـ عز وجل ـ.

---

(١) سبق تخريجه.

وقوله: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الرجس: النجس لكن يكون الرجس نجسًا حسيًّا ويكون معنويًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] المراد بالرجس هنا الرجس المعنوي، وقد يكون حِسِّيًّا أي: نجس نجاسة حسية كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

أما هذه الآية نوع الرجس فيها من الرجس المعنوي؛ لأنه وصف أنه من عمل الشيطان، فقوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ صفة للرجس وليس خبرًا ثانيًا؛ لأننا إذا جعلناها خبرًا ثانيًا صار المعنى أن هذه الأربعة: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس وأنها من عمل الشيطان، وإذا جعلناها وصفًا للرجس صار المعنى: أنه رجس معنوي وليس رجسًا حسيًّا وهذا هو الصواب.

وقوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يعني: هذا العمل من عمل الشيطان، وأضافه إلى الشيطان؛ لأنه هو الذي أوصى به وأمر به الإنسان، والشيطان قيل: إنه مشتق من شَطَنَ إذا بَعُدَ؛ لبعده عن رحمة الله؛ لأن الله لعنه وطرده وأبعده عن رحمته، وقيل إنه من شاط أي: غضب والغضب دائمًا يكون التصرف فيه أعوج، والأول أصح، والدليل على هذا أنه مصروف فنقول شيطانٌ، ولو كان من شاط لكان فيه زيادة الألف والنون فيكون غير مصروف.

وقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي: ابتعدوا عنه، وكونوا في جانب وهو في جانب.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لعل للتعليل أي: لأجل أن تصلوا إلى الفلاح، والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، فهو يجمع أمرين: الفوز بالمطلوب أي: حصول مطلوب الإنسان، والنجاة من المرهوب وهو كثير في القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الجملة فيها حصر أداته ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما يريد الشيطان إلا ذلك وهو: ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ ..﴾.

وقوله: ﴿يُرِيدُ﴾ بمعنى: يحب وإذا أحب سيفعل.

وقوله: ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ العداوة ضد الولاية والبغضاء ضد المحبة، ففي البغضاء تنفر القلوب وفي العداوة تنفر الأبدان بعضها من بعض فلا يتولى أحدهما الآخر.

وأيهما النافذ عن الثاني؟ العداوة؛ لأنه يبغض أولًا ثم يعادي ثانيًا.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ (في) هنا للسببية وتأتي (في) للسببية في اللغة العربية في مواضع

كثيرة ومنها قول النبي ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حبَسَتْهَا»[1] أي: بسبب حبسها هرة، وليس المعنى أنها دخلت في جوف الهرة بل المعنى: أنها عُذِّبَتْ بسببها.

وقوله: ﴿ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ وجه كونه يوقع في العداوة والبغضاء: أن صاحب الخمر ـ والعياذ بالله ـ إذا شرب الخمر صار كالمجنون وربما يقتل أو يسرق أو يزني وبذلك تحصل العداوة والبغضاء، والميسر أيضًا وجه العداوة والبغضاء فيه: أن الميسر أخذ المال على وجه المغالبة ـ والمال محبوب إلى النفوس ـ فإذا أخذ هذا الإنسان منك مالًا كثيرًا من أجل أن غلبك في شيء لا يساوي حتى ربع المال الذي أخذه منك فإنه سيبقى في قلبك بغضاء وتنتج العداوة.

وقوله: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني: يريد الشيطان أن يصدكم عن ذكر الله، والصدُّ عن ذكر الله يكون باللسان وبالجوارح وبالقلب هذا ما يريد الشيطان منا أن يصدنا عن ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح، فتجد الإنسان إذا هَمَّ أن يقوم يصلي يثبطه الشيطان ويسوِّل له ويأتيه التثاؤب ثم يترك، وإذا أراد أن يذكر الله ويقرأ القرآن فكذلك تجده نشيطًا في شيء من الأشياء فإذا أمسك بالمصحف ـ مثلًا ـ ليقرأ أتاه الكسل، فإذا عجز الشيطان عن الإنسان أن يصده عن القول والفعل أتاه من ناحية ثانية وهي الصد بالقلب أي: يصد قلبه عن ذكر الله وهذه هي الفاجعة العظيمة؛ لأن القلب إذا غفل عن ذكر الله فإنه يضيع على الإنسان أمور دينه ودنياه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ ولهذا يجب على الإنسان أن يتابع نفسه في هذه الناحية هل هو إذا جلس يقرأ القرآن قلبه يكون حاضرًا؟ وهل إذا ذكر الله يكون قلبه حاضرًا؟ وهل هو إذا صلى يكون قلبه حاضرًا أم هو غافل؟

إنه إذا كان غافلًا عن ذكر الله أي: غافل القلب واللسان والجوارح فقد فَقَدَ روح العبادة حقيقة، ولذلك نجد الإنسان إذا غفل في صلاته خرج منها بقلب كما دخل فيها بقلب ـ يعني: بنفس القلب ـ لا يزداد نورًا ولا إيمانًا ولا كراهة للفحشاء والمنكر وقد أخبر الله تعالى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فلماذا لا يجد الإنسان إذا خرج من الصلاة كراهة للفحشاء والمنكر؟ لأنه إنما صلى صلاة جسد فقط لا صلاة قلب وهذه نقطة ـ نسأل الله أن يعيننا عليها ـ وأكثر الناس اليوم مبتلون بها ويسألون دائمًا كيف يتخلصون منها، لكن الخلاص منها سهل وهو أن تحاول أن تحضر القلب في الصلاة من أولها إلى آخرها ، فالإنسان يجب أن يعود نفسه هذا حتى يجد لذة العبادة.

وقوله: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: أن الشيطان يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، وخص الصلاة بالذكر معيدًا حرف الجر إشارة إلى شرفها وعظمها، يعني: أعاد حرف الجر دون أن يكون الكلام: ويصدكم عن ذكر الله والصلاة بل قال: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إشارة إلى أهميتها فالتنصيص عليها وهي

(١) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

من ذكر الله دليل على شرفها وإعادة العامل وهي معطوفة دليل آخر على شرفها وأنها جديرة بأن تكون قسمًا مستقلًا بنفسه.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الإغراء، ـ أي: الإغراء بالانتهاء ـ فهو أبلغ من قوله فانتهوا، يعني: بعد هذا البيان والإيضاح هل تنتهون؟ الجواب: نعم ننتهي؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه حين نزلت الآية: (انتهينا انتهينا).

الفوائد:

١ - في هذه الآيتين الكريمتين فوائد منها: أهمية الحكم وهو اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ووجه ذلك: تصدير الآية بالنداء.

٢ - **ومنها:** أن اجتناب هذه الأشياء الأربعة من مقتضيات الإيمان وأن الوقوع فيها من نواقص الإيمان.

٣ - **ومنها:** تحريم الخمر من أي شيء كانت سواء من العنب أو من الرطب أو من الشعير أو من البر أو من أي شيء؛ لعموم الآية، والقول بأنه لا يحرم إلا خمر العنب فهو قول ضعيف أولًا؛ لأن الآية مطلقة بل هي عامة فيها (أل) الداخلة على المفرد، وقد بين النبي ﷺ أَنَّ الخَمْرَ كُلُّ مُسْكِرٍ[1].

٤ - **ومنها:** أن الخمر قليله وكثيره حرام للعموم، ولكن إذا كان الشراب لم يأتِ منه الإسكار ولو أكثرت لحصل الإسكار فهل يحرم؟ الجواب: نعم لقول النبي ﷺ: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»[2] ولأن تناول اليسير الذي لا يسكر ذريعة إلى تناول الكثير الذي يُسكر فإن الإنسان إذا شرب هذا الشراب اللذيذ وهو لا يسكره فإن ذلك يتعدى إلى أن يزداد منه فيسكر.

وهل إذا كان هذا الشراب يسكر من شربه ولا يسكر من أدمن عليه كما يوجد الآن في الذين يدمنون على الخمر ـ نسأل الله العافية ـ لا تسكرهم فهل يحرم عليهم أو لا يحرم؟ يحرم؛ لأنه إذا كان القليل الذي لا يسكر يحرم فهذا مثله، وعدم الاسكار في هذا باعتبار شخص معين لا باعتبار قوة هذا الشراب فإن هذا الشراب فيه قوة مسكرة ولا شك، فيكون حرامًا على من أسكره وعلى من لم يسكره.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز النبيذ إذا لم يصل إلى حد الإسكار، والنبيذ هو الماء ينبذ فيه العنب أو الرطب لمدة يوم أو يومين فيكتسب الماء طعم هذا الذي نُبذ فيه دون أن

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٠٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) حسن صحيح: رواه أبوداود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، والنسائي (٥٦٠٧) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٥٣٠).

يُسكر فهل هو حلال أم حرام؟

الجواب: حلال؛ لأن المحرم الخمر وهذا لا يُسكر، أما لو طالت مدته وزاد عن ثلاثة أيام فما دام لم يُسكر فإنه حلال، لكن ينبغي إذا أتى عليه ثلاثة أيام ولاسيما في أيام الحر والمناطق الحارة ألا يشربه؛ لأن الإسكار فيه قد يكون خفيًّا ولكن علامة المسكر أنه يرتفع؛ لأن فيه الزبد والزبد يرفع من مستواه ـ هذا علامة المسكر.

والخلاصة: أن النبيذ حلال؛ لأنه لا يسكر لكن إذا كان في زمن أو مكان يغلب على الظن أنه وصل إلى حد الإسكار فالورع اتقاؤه ويُعطى الحيوان أو ما أشبهه.

٦ - **ومنها:** تحريم الميسر قليله وكثيره للعموم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ حتى وإن كانت المغالبة قرشًا واحدًا، ولو يسيرًا؛ لأننا نقول: قليل الميسر الذي لا يضر بهال الإنسان ولا يهتم به كقليل الخمر الذي إذا كان قليلًا لم يسكر وإذا كان كثيرًا أسكر، ولا شك أن المغالبة إذا كانت في شيء يسير تجر إلى المغالبة في شيء كثير؛ ولا شك في هذا، ويستثنى من ذلك ما مصلحته أعلى من مفسدته وذلك في ثلاثة أشياء بينَّها النبي ﷺ فقال: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ، أو خُفٍّ، أَوْ حَافِرٍ»[(١)] والسبَق ـ بفتح الباء ـ هو العِوَض المأخوذ على السبق، والنصل: السهام، والخف: البعير، والحافر: الفرس.

قال أهل العلم: وإنها استثنى النبي ﷺ ذلك؛ لأن بها يقوم الجهاد في سبيل الله الذي به إعلاء كلمة الله وهذه مصلحة عظيمة، فالناس إذا علموا أنهم إذا استبقوا في هذه الأشياء رخص لهم في أخذ العوض عليها سوف يكثرون المسابقة؛ لأنه سيحصل عليها شيء.

لو قال قائل: لو أن الناس عدلوا عن هذه الأشياء الثلاثة في الجهاد إلى وسائل أخرى فهل يبقى الحكم فيها أم ينتقل إلى الوسائل الأخرى؟

فالجواب: تعارض هنا اللفظ والمعنى، فمن نظر إلى اللفظ قال: يبقى الحكم فيها وإن لم تستعمل في الحرب، ومن نظر إلى المعنى قال: إنها إذا كانت لا تستعمل في الحرب فلا فرق بينها وبين الأشياء الأخرى وهذا هو الأقرب، إلا أن الرسول أخبر أنه في آخر الزمان تبطل وسائل الحرب ويعود الناس إلى السهام ـ هذه واحدة ـ.

ثانيًا: أن الرسول أخبر أن الخيل في نواصيها الخير.

فإذا قدرنا أن الناس لا يستعملون هذه الأشياء الثلاثة في الحرب فقد انتفت العلة فينتفي الحكم وتكون المغالبة فيها كالمغالبة في غيرها.

وهي إذا انتقلت لابد أن ينتقل الناس إلى شيء آخر، فهل تجوز المسابقة بعوض في هذا الشيء

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٥٧٤)، والترمذي (١٧٠٠)، والنسائي (٣٥٨٥)، وابن ماجه (٢٨٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في «صحيح الجامع» (٧٤٩٨).

الآخر الذي حل محل هذه المذكورات؟ الجواب: نعم لا شك في هذا وعليه فالوسائل الحديثة في الحرب تجوز المغالبة فيها للعوض؛ لأنها قائمة مقام هذه الأشياء الثلاثة.

يشبه هذه من بعض الوجوه أن زكاة الفطر جاء فيها ذكر التمر والشعير والزبيب والأقط وقد أخبر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذا هو طعامهم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام قال: كنا نخرجها على عهد رسول الله ﷺ صاعًا من طعام ـ وكان طعامنا يومئذ التمر والشعير والزبيب والأقط ـ فلو أن الناس عدلوا عن الشعير وصاروا لا يقتاتونه فهل يبطل الحكم فيه أو لا؟ نقول: من كان لفظيًّا قال: لا يبطل؛ لأنه نص عليه في الحديث، ومن كان معنويًّا قال: إنه يبطل والصحيح أنه يبطل وأنه إذا صار الشعير غير قوت فلا يبقى في الحكم؛ لأن السنة واضحة في هذا أي أنه لابد أن يكون طعامًا، مثل قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **«خرج النبي ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين»**[1] الآن لدينا مثالان: الفطر، وهذا المسابقة في الثلاثة.

أما عن المسابقة في العلم فنحن نعلم أن الدين الإسلامي قام الجهاد فيه باللسان والسلاح فهل تجوز المغالبة في العلم الشرعي بعوض أو لا تجوز؟ المشهور من المذهب أنها لا تجوز وقالوا: إن النبي ﷺ حصر وقال: **«لا سبَق إلا»** وهذا حصر، والذين يذهبون إلى اعتبار المعاني يقولون: تجوز المناظرة والمغالبة في العلوم الشرعية وربما استدلوا بقصة أبي بكر رضي الله عنه مع قريش في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣] فمن الذي غلب الروم؟ الفرس، والفرس قوم مشركون ويميل إلى جانبهم المشركون من قريش، والروم أهل كتاب يميل إليهم المؤمنون ويفرحون بانتصارهم على الفرس مع أنهم كفار، لكنهم أقرب إلى المؤمنين من الفرس في ذلك الزمان، لقوة الفرس في ذلك الوقت قال المشركون: لا يمكن أن يغلب الروم الفرس وقال أبو بكر بل يمكن، لأن أبو بكر يصدق القرآن وهم لا يصدقون فضربوا أجلًا عشر سنين إن غلبت الفرس في هذه العشر فالسبَق على أبي بكر، وإن غلبت الروم فالسبَق على قريش، فأقر النبي ﷺ هذه المغالبة؛ لأنها علم شرعي فيه تصديق للقرآن وعدم تصديق، واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ على أن المغالبة في العلم بالسبَق جائزة، لكن بشرط أن تكون المغالبة بقصد الوصول إلى الحكم الشرعي.

أما إذا كانت المغالبة من أجل أن يكتسب هذا مالًا من أخيه فلا تجوز؛ لأن هؤلاء لم يريدوا الدين بل أرادوا المال والدنيا، وبعض الناس استغل هذه المسألة أو هذا القول على إطلاقه ولكن لابد من التقييد أن يكون القصد بالمغالبة الوصول إلى الحق، لا الوصول إلى المال.

---

(١) حسن: رواه أبوداود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٢٧).

والعلوم غير الشرعية كعلم النحو - مثلًا - تجوز المغالبة فيه؟ الظاهر: لا لأن النحو وإن قلنا: إنه شرعي فإنما يكون شرعيًّا إذا كان المقصود به الوصول إلى معرفة الكتاب والسنة ولهذا نقول: علوم العربية وسيلة ما هي مقصودة لذاتها أما الفيزياء والكيماء والجغرافيا لا تجوز المغالبة فيها.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، وهذا يعم كل من يُعَدُّ صنمًا من أي مادة كان؛ لأن الآية مطلقة، وقد أبدل الله تعالى عبادة الأصنام بعبادة الرحمن؛ لأن الإنسان بطبيعته لابد له من شيء يأوي إليه في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره فأبدل الله تعالى التعلق بالأصنام بالتعلق بالله - عز وجل.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم الاستقسام بالأزلام وهو صريح، ومثل ذلك: ما يسمونه بحظك ونصيبك فهي إن لم تدخل في هذا تدخل في الميسر فهي محرمة، وهل مثلها أن يستقسم بالنجوم؟ فيقال مثلًا فلان هذا ولد في ساعة سعيدة وحياته سعيدة، هذا ولد في نجم الدبران فحياته تعيسة وما أشبه ذلك؟

الجواب: نعم يدخل في هذا بل هو نوع من الشرك؛ لأن إثبات سبب لم يجعله الله سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا من الشرك، وقد أبدل الله - والحمد لله - هذه الأزلام بصلاة الاستخارة، فإذا أشكل عليك أمر من الأمور تريد أن تفعله أَخَيرٌ هو لك أم شر فعليك بالاستخارة بأن تصلي ركعتين من غير الفريضة ثم إذا سلمت تدعو الله تعالى بالدعاء المعروف: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ .... إلخ**»[1].

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير البالغ من هذه الأفعال الأربعة لقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإن هذا يقتضي التنفير التام لوصفها رجسًا ثم لوصف هذا الرجس بأنه من عمل الشيطان.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، لقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

١١ - **ومن فوائدها**: أن اجتناب هذه الأشياء الأربعة سبب للفلاح، وكل إنسان منا يريد الفلاح فليأت أسبابه وفي ذلك قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات تعليل الأحكام الشرعية، يعني: أن الأحكام الشرعية لها غايات حميدة وهي الحكمة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ومن قوله أيضًا: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن طريقة القرآن الكريم في بيان العلل تارة يتقدم بداية

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٠٩)، وأبوداود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (١٣٨٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

العلة وتارة يتأخر يعني: إذا ذكر الله الحكم وذكر له علة فتارة يذكر العلة قبل ثم يبني عليها الحكم وتارة يذكر الحكم ثم يأتي بالعلة حسب ما تقتضيه الحال وقرائن السياق، فهنا ذكر العلة قبل الحكم، فما هي العلة؟ قال الله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ قدم العلة فقال: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفائدة تقديم العلة هو أن الحكم يأتي إلى النفس وقد اطمأنت وترقبت الحكم، اطمأنت إلى الحكم وترقبته؛ لأنه من المعلوم أن العاقل إذا ذكرت له العلة فسوف يعمل بمقتضى هذه العلة فقوله: ﴿هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟﴾ لمجرد ما يسمع الإنسان ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟﴾ سوف يأتي إليه الحكم ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾ وهو قد ترقبه، وهذا أيضًا ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ في حين أن تأتي العلة ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يكون الإنسان مترقبًا لحكم النهي، وتارة تكون العلة بعد الحكم كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾، وذلك؛ لأن الميتة والدم ولحم الخنزير تنفر منه الطباع فقدَّم الحكم؛ لأن النفوس السليمة تترقب هذا الحكم وربما تتجنبه بدون حكم شرعي ثم تأتي العلة مطابقة لما تقتضيه الفطرة.

١٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أعمال الشيطان التي يأمر بها رجس لقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ثم هل نقول: إن في الآية دليل على نجاسة الخمر؛ لأن الرجس هو النجس كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾؟

الجواب: بعض العلماء استدل بهذه الآية على نجاسة الخمر ولكن عند التأمل في الآية الكريمة لا تجد فيها دليلًا على نجاسة الخمر من وجهين:

والوجه الأول: أنه قال: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ﴾ فهو رجس عملي والرجس العملي هو الرجس المعنوي كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

الوجه الثاني: أن الميسر والأنصاب والأزلام ليست رجسًا حسيًّا، والخبر عن هذه الأربعة واحد، الخمر مبتدأ وعطف عليه الثلاثة ثم جاء الخبر ﴿رِجْسٌ﴾ فأين الدليل على أن هذه الأشياء الأربعة مختلفة في الحكم؟ فيقال في الثلاثة رجس عملي ويقال في الأول رجس حسي.

فإن قال قائل: دلالة الاقتران ضعيفة ولا يعمل بها؟

فالجواب: أن الأصل في الاقتران أن يكون الحكم واحدًا في الجميع إلا بدليل مثال ذلك: قال أبو حنيفة: إن الخيل حرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. فقرنها بالبغال والحمير فتكون حرامًا، ولا شك أن الصواب معه؛ لأن الأصل في الاقتران التوافق في الحكم؛ لكن الخيل لها دليل يخرجها وهو ما رواه البخاري من حديث أسماء بنت أبي

بكر رضي الله عنهما قالت: (نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا وأكلناه)[1] وهذا يخرج الخيل عن حكم البغال والحمير.

وهنا في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾ ليس عندنا دليل أنه يخرج الخمر عن حكم ما قرن معها وهي الميسر والأنصاب والأزلام، وعلى هذا فلا دلالة في الآية على نجاسة الخمر نجاسة حسية.

فإذا قال قائل: وهل في السنة ما يدل على ذلك؟

فالجواب: ليس في السنة ما يدل على هذا، وأما حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إنا في أرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم قال: «لَا تَأْكُلُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ لَمْ تَجِدُوا غَيْرَهَا فَاغْسِلُوهَا وَكُلُوا فِيهَا» [2]ما الجواب عن هذا الحديث؟ نقول: هذا الحديث استدل به من يرى نجاسة الخمر نجاسة حسية ولكن لا دليل فيه - في الواقع -؛ لأن هذا الحديث إنما نهاهم الرسول عن الأكل فيها إلا بعد الغسل وشرط آخر ألا يجدوا غيرها، ومراده بلا شك في هذا الابتعاد عن مخالطتهم والأكل في أوانيهم بدليل أنه لو كانت العلة النجاسة لكان غسلها يكفي في جواز الأكل فيها يعني: لا يشترط أن لا يجد غيرها، ولكن النبي ﷺ أراد منا ألا نختلط بأهل الكتاب وأن نبتعد عنهم وألا نستعير منهم؛ لئلا يمنوا علينا بذلك.

ثانيًا: نقول: ما وجه أن هذا دليل على نجاسة الخمر؟ قالوا: لأن آنيتهم يكون الخمر فيها؛ لأنهم يستحلون الخمر، فنقول: ويكون فيها خنزير؛ لأنهم يستحلون الخنزير، وما الذي أدرانا أن النبي ﷺ راعى الخمر دون الخنزير أو راعى الخنزير دون الخمر أو راعى الأمرين جميعًا؟ لا دليل، والذي يتبين لنا أن العلة في ذلك ألا نختلط بهم وألا نأكل في آنيتهم، إذنْ لا دليل في هذا الحديث.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ سُئِلَ عن الخمر تتخذ خلًا قال: «لا» [3] يعني إذا تخمر الشراب فهل يجوز أن نحبسه ليكون خلًا أو أن نضيف إليه مادة تجعله خلًا قال: «لا» قلنا: لا دليل على النجاسة هذا دليل على أنه لا يجوز أن يبقى الخمر عنده بل يريقه؛ لئلا تدعوه نفسه إلى تناوله وهو واضح وليس فيه الإشارة إلى النجاسة بأي حال من الأحوال؛ إذنْ من ادعى نجاسة الخمر نجاسة حسية فليأت بالدليل وإلا فلا يمكن أن يلزم عباد الله بغسل الأواني من الخمر أو بغسل الثياب إذا أصابها أو بغسل الأبدان ولا يمكن أبدًا أن نبطل صلاة عباد الله إذا كان في أثوابهم بقع من الخمر أو في أجسادهم إلا بدليل، فالمسألة ليست لفظية فقط نجس أو غير نجس ولكن المسألة يترتب عليها أشياء فلابد أن يكون عندنا برهان من الله - عز وجل - يمكننا أن نلزم عباد الله بشيء

---

(١) رواه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٩٤٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥١٦١)، ومسلم (١٩٣٠) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٩٨٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠٩٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

يقتضيه النص.

إذن نقول: الأصل عدم النجاسة، ومطلق التحريم لا يقتضي النجاسة بدليل أن السم والمأكولات الضارة حرام وليست نجسة، هذا دليل مأخوذ من القاعدة المعروفة وهي: أن الأصل براءة الذمة، ثم نقول: لدينا دليل إيجاب غير الدليل الأصلي الذي هو النفي أو العدم على أنها طاهرة وأن نجاستها معنوية، الدليل ـ: أن الصحابة رضي الله عنهم لما حُرمت الخمر خرجوا بها إلى الأسواق وأراقوها ولو كانت نجسة ما أراقوها في الأسواق؛ لأنه لا يجوز أن يراق في أسواق المسلمين شيءٌ نجس كما لا يجوز البول والغائط.

وأجاب القائلون بالنجاسة بناء على الأصل وإلا فالأصل عدم النجاسة لكن قالوا: أواني الخمر ليست بكثيرة بحيث تسيل منها الطرقات يعني: لم تبلغ كثرة تسيل منها الطرقات فنقول: سبحان الله هل هذه الأواني التي كان يستعملها الصحابة قبل التحريم أهي أكثر أو نقطة من بول؟ هي أكثر لا شك ونحن لا نقول: إن سكك المدينة صارت أنهارًا تجري من الخمر ما نقول بهذا.

ولو قالوا: ما الذي أدراكم أنهم أراقوها في الأسواق لعلهم أراقوها في حافات السوق الذي ليس مجتمعًا للناس، فنقول: هذا خلاف الإطلاق، أراقوها في الأسواق ولم يقل أراقوها في جوانب الأسواق، وكون الشيء في الجانب شيء زائد على الإطلاق فيحتاج إلى دليل أنهم أراقوها في جوانب الأسواق، ثم هل نقول عن الصحابة: إنهم لما أراقوها غسلوا الأواني؟ لم يذكر ذلك ولو كانت نجسة لغسلوا الأواني ولنقلت هذا الأمة.

دليل آخر: ما ثبت في صحيح مسلم [1] أن رجلًا أتى براوية من الخمر ـ والراوية: قربة كبيرة كان يدخرها للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فجاء إلى الرسول ﷺ وأهداها له ولم يعلم أنها حرمت فقال النبي ﷺ: «إِنَّهَا حُرِّمَتْ».

ومعلوم أن الإنسان لا يجوز أن يقبل هدية محرمة سواء كانت محرمة لعينها أو لكسبها إذا علم صاحبها الذي أُخذَت منه، فكلمه أحد الصحابة سرًّا وقال له: بعها فقال النبي ﷺ: «بِمَ سَرَرْتَهُ؟» إنما استفهم عن المسارة مع أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل رجلين يتساران ماذا قلتما؟ لكن المقام يقتضي السؤال ولعل النبي ﷺ سمع طرف الحديث فقال: «بم سررته؟» قال: قلت: بعها فقال: «إِنَّ اللهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَ ثَمَنَهُ» أو كما قال ﷺ ففتح الرجل فم الراوية وأراق الخمر في حضرة النبي ﷺ ولم يأمره النبي ﷺ بغسلها.

فلو كان الخمر نجسًا أيسكت النبي ﷺ على أن يقول لهذا الرجل اغسل الراوية؟ لا يسكت

---

(١) «صحيح مسلم» (١٥٧٩).

أبدًا؛ لأن هذا الرجل لا يدري أنها حُرمت كيف يدري أنها نجسة، فإذنْ يتبين أن الخمر نجاستها نجاسة معنوية وهذا وإن لم يقل به إلا قليل من الأمة فالجماعة مع الدليل.

والجمهور على أنه نجس نجاسة حسية لكنه الأدلة الآن واضحة أن نجاسته نجاسة معنوية.

ينبني على هذا: الأشياء التي بها الكحول الآن مثل السبرتو، وكذلك أيضًا ما يدهن به الجروح وما أشبه ذلك هل تكون نجسة أو طاهرة؟ طاهرة؛ لأنه إذا كان الأصل ـ وهو الخمر ـ طاهرًا على ما تبين لنا من القرآن والسنة فكذلك ما كان فيه شيء مثله فمن باب أولى أن يكون طاهرًا.

فإن قيل: فهل تبيحون بأن يتطيب الإنسان بهذا الطيب أو يتدهن بهذه الدهونات؟

نقول: أما عند الحاجة فنبيحها وليس عندنا فيه ـ والحمد لله ـ إشكال، يعني: مثل أن يحتاج الجرح إلى مسح بالسبرتو أو غيره من أجل سهولة ضربه بالإبرة هذا لا شك أنه جائز؛ لأن الحكم المشتبه تبيحه الحاجة ولو كان أصله التحريم، فإن لم يكن محتاجًا وإنما يتطيب به فهل هذا حرام أو لا؟ ننظر قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ هل المراد: اجتناب شربه المؤدي إلى المفسدة أو الاجتناب مطلقًا؟ نقول: إذا كان الله يقول: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ ثم يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ... إلخ﴾ علمنا أن الأمر بالاجتناب هو اجتناب الشرب لا شك في هذا، أما اجتناب غير الشرب فهذا محل اشتباه والورع ألا يفعل الإنسان إلا لحاجة، ألا يتدهن بهذه الأشياء إلا لحاجة كالتعقيم للجرح وما أشبه ذلك.

فإن قال قائل: إذا كان في هذه الأطياب نسبة ولكنها ضئيلة ٥ ٪ مثلًا فهل يؤثر؟ فالجواب: لا يؤثر إلا ما أثر في المخلوط معها، وأما إذا لم يؤثر فليس بحرام بدليل رجل عنده إناء من ماء وسقطت فيه نجاسة لكن لم تغيره ماذا يكون هذا الماء؟ يكون طهورًا؛ لأنه غير مؤثر فعلى هذا نقول: إذا كانت النسبة ضئيلة حتى في هذه الأطياب فإنه لا شك أنها مباحة؛ لأن النسبة الضئيلة لا تؤثر.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بعباده الذين خلقهم لعبادته؛ حيث حذرهم من كل ما فيه ضرر وبين لهم نتائج؛ لقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ .... إلخ﴾.

١٦ - ففي هذه الآية الكريمة: إثبات الإرادة للشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولا شك أن له إرادة أرأيتم قول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [الأعراف: ١١] وجادل ربه عن إرادة، إذنْ الشيطان له إرادة.

١٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: سوء إرادة الشيطان ببني آدم وهو أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء التي توجب التفرق.

١٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن تفرق الأمة من مرادات الشيطان؛ لأن العداوة

والبغضاء تؤدي إلى التفرق ولا شك فيكون كل ما يؤدي إلى الفرقة من مرادات الشيطان.

١٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: القاعدة التي أشرنا إليها الآن: أن كل ما يؤدي إلى الفرقة فهو من مرادات الشيطان فيدخل في هذا آلاف المسائل: البيع على بيع المسلم يوجب البغضاء والفرقة، والاستئجار على استئجاره، والخطبة على خطبته، وما أشبه ذلك، فكل ما يؤدي إلى الفرقة فإنه من مرادات الشيطان.

٢٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: كراهة الله تعالى للعداوة والبغضاء بين المسلمين؛ لأن هذا تحذير ليس بعده تحذير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ ...﴾.

وهذا واضح؛ لأن الله تعالى أمر بالاجتماع ونهى عن التفرق فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. [الأنفال: ٤٦]

والدليلان الأصلان الكتاب والسنة مملوءان بهذا أي: بطلب الاجتماع والنهي عن التفرق.

فهل يدخل في ذلك طلبة العلم؟ نعم من باب أولى، لكن مع الأسف أن طلبة العلم إذا اختلفوا في أمر اجتهادي صار بعضهم لبعض عدوًا إلا من شاء الله وصار يتكلم في حق أخيه بلا حذر فيكون ظالمًا لنفسه أولًا وظالمًا لأخيه ثانيًا وظالمًا لعباد الله الذين ينتفعون من أخيه؛ لأنه إذا سقطت هيبته وقيمته في أعينهم لم ينتفعوا بعمله فيكون هذا ظالمًا لنفسه وظالمًا لأخيه وظالمًا لكل من ينتفع بعلم أخيه، ولذلك يجب التنبيه لهذا وأن تعتقد أن من خالفك في أمر اجتهادي فقد وافقك في الحقيقة؛ لأن كليكما يريد الحق فهو يرى أن الحق في هذا وأنت ترى الحق في خلافه فمن منكما رسول في الآخرة يجب علينا اتباعه؟ لا أحد، إذنْ هو محق في اتباع ما ظن أن الدليل يدل عليه وأنت محق في اتباع ما ظننت أن الدليل يدل عليه، ولتكن القلوب نزيهة.

هنا نقطة يجب أن نشير إليها وهي: هل يجوز التداوي بالخمر شربًا؟

الجواب: قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: لا يجوز التداوي بها حتى للعطش، وعللوا ذلك أن الإنسان إذا شرب الخمر للعطش لا تزيده إلا عطشًا، ويرى بعض العلماء أنه يجوز للعطش، ولا يسلم أنها للعطش، لكن إذا غص باللقمة وليس عنده إلا أكياس خمر، غص إما أن يموت ويختنق أو يشرب الكأس ماذا يصنع هل يستعمله؟ نعم يستعمله للضرورة؛ لأن الله قال ـ سبحانه وتعالى ـ في آية عامه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] وهذه أعم من

قوله لما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير حين قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

٢١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأسباب، ووجه ذلك: أن الله تعالى أخبر أن الخمر والميسر سبب للعداوة والبغضاء فهذا لا شك فيه ولا أحد ينكره إلا السفيه فكل يعلم أن من غُمِسَ في البحر فإنه يغرق وأن من أُلقي في النار فإنه يحترق، فأما الذين أنكروا الأسباب فزعموا أنهم بإنكارهم ينزهون الله تعالى عن الشريك فغلوا في التنزيه، وأما الذين أثبتوا الأسباب على أنها فاعلة فهؤلاء أشرك من هؤلاء -، أما أهل الحق فقالوا: إن الأسباب لها أثر ولكن من الذي جعل لها تأثيرًا؟ هو الله فتأثير الأسباب ليس بنفسها ولكن بما أودع الله تعالى فيها من المؤثرات ويدل لهذا أنه توجد أسباب موجبة للشيء بإيجاب الله إياه، ومع ذلك قد يرتفع هذا الإيجاب، ومن ذلك: النار محرقة ولما ألقي فيها إبراهيم قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا فانتفى الأمران وانتفت الحرارة فصارت بردًا وسلامًا ولو كانت الأسباب مؤثرة بنفسها لاحترق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كذلك الرجل الذي يقطعه الدجال جزلتين ثم يقول له: قم، فيقوم، ونحن نعلم أن الدجال لم يكن هو السبب في إحيائه بل ذلك من الله - عز وجل -؛ ولهذا إذا قتله الثالثة لم يستطع أن يقتله لا يسلطه الله عليه بعد ذلك.

إذنْ نقول: الأسباب لها تأثير ولكن لا بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة، والأدلة في هذا شرعًا وعقلًا وواقعًا لا تُحصى.

٢٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كل ما صد عن ذكر الله فهو من أوامر الشيطان - وذكر الله تبارك وتعالى سبق لنا أنه يكون بالقلب واللسان والجوارح - فكل ما صدك عن ذكر الله في هذه الأشياء فهو من أوامر الشيطان وإرادته.

٢٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة الصلاة لتخصيصها للذكر من بين ذكر الله - عز وجل - وهذا يدل على شرفها وفضلها على غيرها كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] والروح هو جبريل وهو من الملائكة، لكن خصه الله تعالى بالذكر لشرفه.

٢٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحذر من صد الشيطان إيانا عن الصلاة، إما أن نتلهى عنها بأمرنا أو بأولادنا أو بلَغْونَا أو بجدنا أو بأي شيء، وإما أن نفعلها بأبداننا دون قلوبنا فاحذر أن يصدك الشيطان عن الصلاة.

٢٥ - **ومن فوائدها**: أنه كلما وقع في قلبك التكاسل عن الصلاة فاعلم أنه من الشيطان ومراد الشيطان.

٢٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تأكيد النهي عن الخمر والميسر؛ لقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، ووجه التأكيد أنه أتى بصيغة الاستفهام أي: فهل بعد هذا البيان تنتهون أم تستمرون؟! وكان جواب الصحابة: انتهينا انتهينا.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٢-٩٣].

❁ التفسير ❁

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (أطيعوا) فعل أمر من الإطاعة وهي: الانقياد، والمراد بالانقياد هنا: فعل الأوامر واجتناب النواهي، وعليه فإذا قال الإنسان: ما المراد بطاعة الله؟ نقول: فعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الخطاب لا شك أنه للأمة فتكون (أل) في الرسول هنا للعهد الذهني يعني: أطيعوا الرسول محمدًا ﷺ الذي أرسله الله ـ عز وجل.

فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الله أرسله؟

نقول: الدليل على أن الله أرسله ما أيده به من المعجزات التي أعظمها القرآن الكريم ثم ما يُشاهد من الآيات الحسية التي لا يقدر بشر أن يأتي بها لا الرسول ولا غيره وهي آيات واضحة على رسالته وهي أكثر من أن تحصى، ومن أراد المزيد من ذلك فعليه بمراجعة كتاب: «**الجواب الصحيح**» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فقد عقد فصلًا مفيدًا جدًّا في آيات النبي ﷺ، ومن أراد المزيد أيضًا فعليه بما ذكره الحافظ ابن كثير في «**البداية والنهاية**» في آخر سيرة الرسول ﷺ فقد ذكر كثيرًا من الآيات في السماء وفي الأرض في الإنسان وفي الحيوان ولا حاجة أن نذكر شيئًا كثيرًا منها لكنها موجودة ـ والحمد لله ـ وينبغي لنا أن نحرص على معرفة هذه الآيات؛ لأن الإنسان بشر والشيطان حريص قد يهاجم القلب ويضعف الإيمان بالرسول ﷺ، لكن إذا راجع الآيات ازداد بذلك إيمانًا فعليكم بها.

وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ورسوله، يعني: احذروا المعصية، ولم يأمرنا الله بشيء إلا لمصلحتنا ولم ينهانا عن شيء إلا لمضرتنا.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن طاعة الله وعن طاعة رسول الله فإنكم لن تضروا الله

ولا الرسول شيئًا، أما كون الإنسان لا يضر الله بمعصيته فأمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[1] كذلك المتولي لا يضر النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ولا يُلام على معصية غيره كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]، فهم لن يضروا الرسول بمعصية الله؛ لأنه بلغ وأدى الأمانة ونصح الأمة.

ولهذا قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا أمر بالعلم، ومعلوم أنه يجب أن نعلم أن كل ما أخبر الله به عن نفسه وعن غيره لكن هذا علم خاص.

قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ يعني: التبليغ، وأصل التبليغ من بلغ الشيء كذا أي: وصل إليه فيكون المعنى عليه أن يوصل الوحي الذي أوحاه الله إليه إلى المرسل إليهم هذه وظيفته ليس له أكثر من هذه الوظيفة.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من (أبان) المتعدية وليست من (أبان) اللازمة، أبان اللازمة مثل أن تقول: أبان الصبح كما تقول: بان الصبح، أبان المتعدية تتعدى للمفعول به، فهنا نقول: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من أبان المتعدي ويعني: البلاغ الذي أبان الحق، وذلك لفصاحته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحلاوة كلامه ووصوله إلى القلب حينما يصل إلى الأذن واقتناع النفس به، ولهذه الأوصاف كان بلاغ النبي ﷺ مبينًا بما يبلغه ﷺ.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** مناسبة لما قبلها وهي: أن الله تعالى لما أمر بالانتهاء واجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أمر بطاعته عمومًا وحذَّر من مخالفته.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

٣ - **ومن فوائدها:** أن طاعة النبي ﷺ مستقلة بمعنى: أنه إذا أمر النبي ﷺ بشيء لا نقول: هل يوجد في القرآن هذا الأمر أو لا يوجد، بل طاعته مستقلة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ يمتاز عن غيره بالرسالة ولا يمتاز عن غيره بأنه رب يفعل ما يشاء بل هو نفسه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الرسالة من أفضل الأوصاف التي يتصف بها العبد؛ لقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، ولا شك أن الرسول يفضل ويشرف بحسب منزلة من أرسله، فلو جاء رسول من عند رجل شريف فهل يكون في النفوس كرسول جاء من عامة الناس؟ لا، بل يكون في نفوسنا لهذا الرسول بمقدار ما يستحقه من منزلة من أرسله، فعليه تكون الرسالة فخرًا لمن أُرسِل.

مسألة: هل مقام النبوة أفضل أو مقام الرسالة؟

الجواب: مقام الرسالة؛ لأن الرسول نال مقام النبوة ومقام الرسالة، مقام النبوة بما أوحي إليه ومقام الرسالة بما كُلف بتبليغه فيكون أشرف، خلافًا لأهل الباطل الذين يقولون: أفضل بني آدم: الولي ثم النبي ثم الرسول معللين بأن الرسول خادم والنبي من النبوة وهي: العلو والانتفاع والولي من الولاية وهي أخص.

ويقول شاعرهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ ... فُوَيقَ الرَّسُول وَدون الْوَلِيِّ

فويق الرسول يعني: ليس هناك فرق بيِّن بالنسبة للولي فالنبي دون الولي ولقد ضل ضلالًا مبينًا؛ لأن النبي ولي، والرسول ولي ونبي ورسول، لكن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من معصية الله ورسوله؛ لقوله: ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ وكلمة احذروا التي حُذف مفعولها أشد وقعًا من احذروا إذا ذُكر المفعول؛ لأنها أبلغ في التخويف؛ لأن المتكلم اقتصر عليها دون متعلقاتها.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأصل في أوامر الله ورسوله الوجوب؛ لأن التحذير لا يكون إلا من شيء يأثم به الإنسان فإن ما لا إثم فيه لا يكون الحذر منه، وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل أصول الفقه فمنهم من يقول: الأصل في الأمر الوجوب، ومنهم من يقول: الأصل فيه الندب، ومنهم من يقول: أمَّا في الآداب فهو للندب وأما في العبادات التي هي حق الله فهو للوجوب.

والمسألة مبسوطة في أصول الفقه، لكن الشيء الذي يهمنا هو أن الإنسان إذا سمع ما أمر الله به ورسوله لا يتردد فيقول: هل الأمر للوجوب أو للاستحباب؟ هذه عبارة منتقدة، والأصل أن الأمر الموجه من خالقك أو رسوله الذي أرسله إليك أن يكون ملزِمًا ولم يعهد من الصحابة أن الرسول ﷺ إذا أمرهم بأمر قالوا: يا رسول الله هل هذا واجب علينا أو مستحب؟ أبدًا وخير لنا أن نقتفي آثارهم ، فلو أن الإنسان تورط في المخالفة فإن السؤال عن الأمر هل هو للوجوب أو الاستحباب وقد يكون وجيهًا كيف ذلك؟ إذا كان واجبًا وجب عليه أن يمتنع عنه فورًا ويتوب إلى الله من ذلك وأما إذا لم يكن واجبًا فلا بأس لكن كلامنا

على أول ما يرد عليك فلا تتردد افعل ما استطعت.

أما إذا جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام فإنك مخير كما أمر النبي ﷺ بريرة أن ترجع إلى زوجها وكانت بريرة عتقت وزوجها رقيق فلما عُتقت ملكت نفسها فخيرها النبي ﷺ: إن شئت أن تبقى مع مغيث فأبقى وإن شئت ألا تبقي فلا تبقى، قالت: لا أريد البقاء معه، فحزن مغيث عليها وجعل يبكي وراءها في أسواق المدينة يريد أن ترجع إليه فقال النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ حُبِّ مُغَيثٍ لِبرِيرَةَ وَبُغْضِ بَرِيرَةَ لُمغيث؟»(١) لأن الغالب أن القلوب إذا تعارفت تعارفت من الجانبين، فأمرها أن ترجع إليه قالت له: يا رسول الله إن كان أمرًا فسمعًا وطاعة ولم تقل: إن كان أمرًا على سبيل الوجوب وإن كانت مشورة فلا رغبة لي فيه قال: بل مشورة.

هذا صرح فيه عليه الصلاة والسلام بأن الأمر ليس للوجوب بل للمشورة.

ولما قال: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الحجَّ فَحُجُّوا» قام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله أفي كل عام؟ قال: «لا»(٢).

فالحاصل: أن نقول: إن الأُصل في الأمر الوجوب وأن تفعل ما تُؤمر به ولا تتردد؛ لأن المسألة خطيرة لو ترددت.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] أعاذنا الله وإياكم من هذا. وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] متقلب غير مستقر؛ لأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم فاقبل الحق ولا تتردد ولا تقل واجب أو مستحب، لكن كما قلت: إذا تورطت في شيء فلا بأس.

٩ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن تولي الناس عما يدعو إليه النبي ﷺ لا يضره؛ لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ﴾.

ويتفرع على ذلك: أن الداعية إلى الله في وقتنا وفيما قبلنا لا يضره أن لا يقبل الناس منه؛ لأنه أدى الواجب، وينبغي أن يُفرِّح نفسه بأنه أدى الواجب وألا يحزن بعدم قبولهم دعوته؛ لأن الله تعالى قال للرسول: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، لكن ربما نقول: يحزن لعدم قبول الشريعة لا لعدم قبولهم منه والفرق بين هذا وهذا واضح.

١٠ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ لا يستطيع أن يهدي أحدًا؛ لأنه بلَّغ البلاغ المبين ومع ذلك حصلت المخالفة والتولي.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين ففيه إبطال لقول أهل التفويض فيما يختص بأسماء الله وصفاته الذين قالوا: إن الرسول ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين، ولا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٩) من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧)، والنسائي (٢٦١٩)، وأحمد في «مُسنده» (١٠٦١٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

يعرف ما قال وإنما ألقى كلامًا للناس كأنه حروف هجائية أو ألغاز.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن بلاغ الرسول ﷺ بلاغ مبين لا عيَّ فيه ولا تعقيد ولا إشكال بل هو بيِّن بنفسه ومبين لغيره؛ لقوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الرجوع إلى قول النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وأنه عليه الصلاة والسلام قام بالواجب فعلينا نحن أن نقوم بالواجب.

هل يمكن أن نأخذ منه: أن مَنْ لم تبلغه الرسالة فهو معذور؟ نعم يمكن أن نأخذ منه أن من لم تبلغه الرسالة فهو معذور، أو بلغته على وجه مشوش فإنه معذور. ولكن الثاني الذي بلغته على وجه مشوش يكون واجبًا عليه أن يطلب الوصف الصحيح لهذه الرسالة التي بلغته وألا يسكت ويقول: الأمر لا يهمني ولا يلزمني بل يجب أن يبحث، أما إذا كان الأمر لم يعلم به إطلاقًا فهذا لم تقم عليه الحجة فهو معذور، فلو رأينا رجلًا لم يسمع عن الشرع شيئًا ـ عن الإسلام ـ؛ لأنه في الكهوف والأدغال والجبال يرعى الغنم ويحلب الإبل ولا يعلم شيئًا فهل نقول: إن هذا معذور أو غير معذور؟ معذور بلا شك، ولكن إذا ذُكر له أن هناك رسالة وجب عليه أن يبحث وحينئذ نقول: إن هذا الذي بلغه ترتفع به الحجة؛ لأن الواجب أن يسأل.

في الآية الكريمة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ هل يمكن أن تتعارض طاعة الله ورسوله؟ لا يمكن أن تتعارض طاعة الرسول بالنصوص الواردة عنه، فإذا رأينا حديثًا يناقض ما في القرآن فإننا نحكم برده وإن لم نعرف سنده بل وإن عرفنا سنده فإننا نقول: هذا منكر إذا خالف القرآن، وإن كان هذا نأخذ أنه يستحيل أن يتناقض من الكتاب والسنة.

من ذلك: ما يذكر عن النبي ﷺ في لحوم البقر أنها داء وفي ألبانها أنها دواء أو شفاء، هذا بدون أن ننظر إلى سنده نحكم أنه باطل ولا شك، لو كان لحومها داءً هل يمكن أن يحلها الله لعباده؟ لا يمكن أبدًا، لو كان لحمها داء ما أحلها الله للعباد أبدًا؛ لأن الله لا يُحل للعباد ما كان ضررًا عليهم، حتى لو قال قائل: يمكن أن نحمل هذا الحديث على أكل لحم البقر بدون طبخ هل يصح هذا؟ لا، لأن أكله بدون طبخ ناسخ ولا يمكن أن نحمل حديثًا على شيء ناسخ، والشيء بالشيء يُذكر.

ومنه: حديث عائشة رضي الله عنها: (مَنْ مَاتَ وَعَلَيه صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ).

بعض العلماء يقول: من مات وعليه صيام نذر صام عنه وليه، أما صيام الفرض كصيام رمضان والكفارة فلا يُصام عن الميت، فيقال: ـ سبحان الله ـ أنتم صححوا الحديث ثم نأخذ بمرادكم، صيام النذر بالنسبة لصيام الفرض والكفارة كثير أَمْ نَادِر؟ نادر فكيف تحملون الحديث على شيء نادر وتتركون الشيء الكثير؛ ولهذا كان القول الراجح أن من مات وعليه صيام سواء كان واجبًا بالنذر أو بغيره فإنه يصام عنه.

ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة: ٩٣] ليس أداة نفي وهي فعل ماض جامد، والجامد عند النحويين هو الذي لا يتصرف، والجمود قد يكون جمودًا كليًّا وقد يكون جمودًا جزئيًا بحيث يمتنع التصريف فيه من وجه دون آخر، وهنا الجمود كلي لا يمكن أن تتغير ليس وهي للنفي.

وقوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم وهذا شامل للدين كله؛ لأن الدين كله إيمان وعمل.

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات لا يمكن أن تكون بهذا الوصف إلا إذا كانت موافقة للشريعة، لقول النبي ﷺ: «مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهُوَ بَاطِلٌ»[1] يعني: فاسد، فالأعمال الصالحة هي ما وافقت الشريعة ولا يمكن أن يطلق عليها صالحة إلا إذا وافقت الشريعة في أمور ستة وهي:

الأول: السبب.

والثاني: الجنس.

والثالث: القَدْر.

الرابع: الكيفية.

الخامس: الزمان.

السادس: المكان.

فإذا خالف الأعمال الشريعة في واحد من هذه الستة فليست صالحة ولا مقبولة؛ هذه شروط الموافقة للشريعة.

أولًا: السبب، فلو أحدث الإنسان سببًا يتعبد لله تعالى بمقتضاه وليس شرعيًّا فعمله مردود، ونضرب لهذا مثلًا: لو أن الإنسان إذا تجشأ قال: الحمد لله هنا أحدث عبادة لله ـ عز وجل ـ وهي الحمد بسبب وهو الجشاء فهل جاءت الشريعة بأن الجشاء سبب للحمد؟ لا، إذنْ لا يُقبل منه؛ لأنه تعبد لله بما لم يشرعه.

الثاني: الجنس، من المعلوم أن الأضاحي تكون من بهيمة الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم، فلو ضحى الإنسان بفرس لم يقبل منه؛ لأنه مخالف للشريعة في الجنس، ولو ضحى بنعامة لم يقبل منه، ولو ضحى بحمامة لم يقبل منه؛ لأنه مخالف للشريعة في الجنس، وإن كان الشرع قد أوجب في الحمامة إذا قتلها محرم شاة لكن لم يأت الشرع بأن يضحي الإنسان بحمامة، وبه نعرف خطأ من قال: إنه يجوز التضحية بالدجاج والديكة؛ لأن النبي ﷺ قال: في الرجل

---

(١) رواه البخاري (٢٠٤٧)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

يغتسل في بيته ويخرج للمسجد يوم الجمعة في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة[1] هل هذا يدل على أن الدجاجة يتقرب بها؟ والجواب على هذا أن معناه أنه تقرب إلى الله بالصدقة بها لا بذبحها ولا شك أن الإنسان لو ذبح دجاجة وتصدق بها على الفقراء أنها تجزئه، إذنْ لا بد من موافقة العمل للشريعة في الجنس.

الثالث: القدْرُ، لو تعبد الإنسان لله ـ عز وجل ـ بصلاة ثابتة جعلها وقال: إنه يتقرب إلى الله تعالى بهذه الصلاة بارتفاع الشمس في الضحى، لا لأنها صلاة ضحى، بل أراد أن يجعلها صلاة ثابتة مع الخمس فإنها لا تقبل؛ لأنه زاد صلاة لم ينزل الله بها من سلطان.

ولو أنه صلى الظهر خمس ركعات لم تقبل؛ لأنه خالف الشريعة في القدر.

الرابع: الكيفية، فلو تعبد لله بالوضوء توضأ وضوء كاملًا على الأعضاء كلها لكنه بدأ بالرجلين ثم الرأس ثم الوجه ثم اليد لم تقبل العبادة؛ لأنه مخالف للشريعة في كيفيتها، وكذلك لو سجد قبل أن يركع لم تقبل الصلاة؛ لأنها مخالفة للشريعة في الكيفية.

الخامس: الزمان، لو أن الإنسان ضحى في عيد الفطر كما يضحي في عيد الأضحى لم تقبل؛ لأنه خالف الشريعة في الزمان.

السادس: المكان، لو أن الإنسان اعتكف في رمضان في بيته أو امرأة في مصلاها الذي في البيت لم يقبل؛ لأنه مخالف للشرع في المكان.

بقي أن يُقال: وهل يأثم الإنسان لو تعبد لله فيما يخالف الشريعة في واحد من هذه؟

فالجواب: يأثم؛ لقول النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[2].

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الصالحات وصف لموصوف محذوف والتقدير الأعمال الصالحات.

وقوله: ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وهذا هو المنفي فليس على المؤمن الذي يعمل الصالحات ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم.

وقوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ أعم من (فيما أكلوا) فيشمل الأكل والشرب أي: قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ يعم كل ما له طعم في الفم من مأكول ومشروب لكن بشروط، ليس عليهم جناح فيما طعموا بشروط:

---

(١) رواه البخاري (٨٤١)، ومسلم (٨٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وابن ماجه (٤٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣٥).

الشرط الأول: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ والثاني: ﴿وَءَامَنُوا﴾ والثالث: ﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ والرابع: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ والخامس: ﴿وَءَامَنُوا﴾ والسادس ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ والسابع ﴿وَأَحْسَنُوا﴾.

هذه قيود سبعة وليست متكررة بل كل واحد له معنًى.

وقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ يعني: يتقون ما حرم عليهم من الطعوم وليست التقوى العامة، لكن المعنى إذا ما اتقوا ما حُرم عليهم من الطعوم.

وقوله: ﴿وَءَامَنُوا﴾ أي: آمنوا بالله؛ لأن الإيمان لا شك في أنه أصل في قبول الأعمال.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ هذا شرط أي: عملوا الصالحات فيما يأكلون من المباحات فلم يستعينوا بها على محرم فإن استعانوا بها على محرم وهي مباحة صارت حرامًا؛ لأن الله اشترط أن يعملوا بها الصالحات.

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ ثم تدل على أنه نوع آخر غير الأول؛ لأن العطف ولا سيما بـ(ثم) الدالة على المهلة والترتيب تدل على أن الثاني غير الأول فيكون معنى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا﴾ أي: ثم استمروا على تقواهم ما حرم عليهم من المطعوم.

وقوله: ﴿وَءَامَنُوا﴾ أي: استمروا على إيمانهم، والأمر بالإيمان يصح مرادًا به الثبوت عليه والاستمرار فيه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ هذه هي التقوى العامة أي: اتقوا جميع المحرمات وأحسنوا بفعل جميع الطاعات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه الآية يمكن أن نحملها على حالين: الحال الأولى: حال من يذهب إلى التقشف ويخشى من الترفه المباح فيتجنب الفواكه واللحم المندى والشيء اللذيذ؛ تعبدًا لله، والمحمل الآخر: فيمن توفوا قبل نزول الخمر فهم شربوا الخمر وهي حلال لكن حين شربهم إياها كانت حلالًا؛ لأن الله تعالى لم يحرمها بتاتًا إلا بعد موتهم وإن كانت قد نزلت آيات تُعرِّض بالتحريم وتقيد الحنث كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] وفي قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] وهؤلاء أشكل على الصحابة حالهم لما نزلت آية تحريم الخمر، فأنزل الله هذه الآية أنهم ليس عليهم جناح؛ لأنهم لم ينتهكوا محارم الله بل هم مؤمنون متقون محسنون إذنْ تحمل على الوجهين:

الأول: على من شرب الخمر قبل تحريمها، وأيضًا لو قلنا: وقبل أن يعلم بتحريمها فهذا لا شك أنه ليس عليه جناح.

الثاني: مَنْ تورعوا عما أحل الله لهم؛ خوفًا من الإثم فيقال لهم: ليس عليكم جناح فيما طعمتم إذا تمت هذه الشروط.

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحبة لو أردنا أن نحدها لم نستطع فلا يستطيع الإنسان أن يَحُدَّ المحبة أبدًا، وهي شيء في حياتنا اليومية وفي داخل البيت وخارج البيت ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يحدها، لأن تعريف المعروف يزيده جهالة أو يزيده جهلًا، ولذلك لما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «روضة المحبين» تعريف المحبة قال: هذه الأمور الطبيعية لا يمكن تعريفها.

ما تستطيع أن تُعرِّف المحبة ولا الكراهة ولا البغضاء ولا الخوف ولا الفرح؛ لأن هذه الأمور كامنة في النفس في كل إنسان يعرفها، وعليها علامات ولا شك فلو قلت: المحبة: أن تميل للشيء الذي ينفعك أو تدفع به ضررًا هذا أفضل معنى ولو قلت: المحبة: أن ترى الرجل قد استنار وجهه تصح، إذنْ المحبة معلومة وتعريف المعروف يزيده جهالة.

الفوائد:

١ - في الآية فوائد منها: نفي الجناح في المطعومات من مأكول ومشروب بهذه الشروط.

٢ - **ومن فوائدها:** أن على الكفار جناح بما طعموا ووجه ذلك؛ لأنهم غير مؤمنين فالكافر إذا رفع لقمة إلى فمه أو شرب كأسًا من ماء فإنه محاسب عليه وعليه إثم فيه، ويؤيد هذا قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وهل هي لغير المؤمنين في الحياة الدنيا؟ أما قدرًا فنعم، وأما شرعًا فلا، ولهذا قال: ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولغير المؤمنين غير خالصة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** القيود الشديدة في نفي الإثم عمن أكل أو شرب في مأكوله ومشروبه، وقد ذكرت التقوى ثلاث مرات، والإيمان مرتين والإحسان مرة، وهذه أمور شديدة عظيمة فاحذر - أخي المسلم - أن يكون في مطعومك عليك إثم؛ لأنك لم تُتِمّ هذه القيود - أسأل الله لنا ولكم أن يعيننا عليها -.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن من أكل حلالًا بكسب حرام فعليه الإثم؛ لأنه لم يتق الله في كسبه ولابد أن يتقي الله، فهل يكون غير الكافر كالكافر في هذا الإثم؟ نقول: أما إذا كان الشيء المحرم معينًا، فهذا يكون الآكل كالكافر مثل أن يعرف أن هذه الأشياء الذي ذبحها إكرامًا لي قد سرقها من فلان هذا حرام عليه أن يأكله، أما إذا كان هذا الإنسان يتعامل بالربا برضا صاحبه المرابي فإنه لا بأس أن تأكل من ماله إلا إذا إذا كان امتناعك عنه يؤدي إلى توبته فهنا امتنع، أما إذا كان كله على حد سواء فكل ولا حرج عليك، ويدل لهذا أن رسول الله ﷺ **أكل من مال اليهود واشترى من مال اليهود** مع أنهم معروفون بأكل السحت والربا ولم يتقوا، ولم يقل لأي واحد هل كسبتها بالربا، وبناءً على ذلك إذا مات ميت ونحن نعرف أنه يتعامل بالربا فهل يلزم الورثة أن يبحثوا كيف كسب ذلك؟ لا يلزمهم والإثم عليه وحده، إلا إذا علمنا أن هذا هو عين مال الغير

فيجب علينا أن نرده إليه؛ لأننا علمنا أنه ليس ملكه، فإذا شككت هل هو ملكه وأخذه بطريق شرعي أو سرقه فما الأصل؟ الأصل أنه له ولا يلزمنا أن نقول لكل من أهدى إلينا هدية: من أين أمن حلال أم من طريق محرم؟ ولو كنا مكلفين بهذا لَشَقَّ علينا مشقة عظيمة ولكن ـ الحمد لله ـ أن الأمور بظاهرها.

مثال ذلك: سأل قوم النبي ﷺ عن أناس يأتونهم بلحم وهم حديثو عهد بالكفر أسلموا قريبًا ولا يدري المهدي إليه اللحم أذُكِرَ اسم الله عليه أم لا؟ فقال لهم: «سَمُّوا أَنْتُم وَكُلُوا»(١)؛ لأن الأصل الحِلُّ حتى يتبين التحريم.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والتقوى وأنها سبب لطيب المطعم وحل المطعم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإحسان إلى الخلق والإحسان في عبادة الخالق، فالاحسان تجاه الخلق أن تبذل مالك وتبذل خدمتك ومنفعتك البدنية والإحسان في عبادة الخالق فسره أعلم الناس بمعناه وهو النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٢).

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات أن الله يحب؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الصفة كسائر الصفات يجب على العبد أن يصدق ربه بها وأن يحمل كلام ربه على ظاهره وعلى ما تقتضيه اللغة العربية؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] يعني: صيرناه باللغة العربية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] يعني: نعقل هذا القرآن ونفهمه، وعليه فيجب أن نؤمن بأن الله يحب، ولو فسرناه بغير ظاهره، لكنا معتدين على النص من وجهين:

الوجه الأول: صرفه عن ظاهره، والوجه الثاني: إثبات معنًى على خلاف الظاهر وهذا جناية على النصوص، وتحريف الكلم عن مواضعه، فمن هم مسلمون ولا شك في إسلامهم يفسرون المحبة بأنها: الثواب أي: يثيب المحسنين ونقول: عفا الله عمن مات ويهدي الله من بقي، وهذا التفسير تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن الإثابة شيء والمحبة شيء آخر وإن كانت المحبة يلزم منها الثواب لا يمكن أن نقدر شيئًا بالتزامه إلا بدليل، ثم أيهما أبلغ بالحث على الإحسان أن يكون معنى الآية: والله يثيب المحسنين أو أن نقول: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؟ الثاني بلا شك، ولهذا لما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولم يقل: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني واصدقوا في دعواكم بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ لأن محبة الله هي

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣١٧٤)، والدارمي (١٩٧٦)، وابن ماجه (٢٥٧٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٥١٨).

(٢) سبق تخريجه.

المطلوب - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أحبابه -.

فلذلك نقول أيضًا في تفسيرها بالثواب نقص في دلالتها ومضمونها؛ لأن النفس لا تتشجع إذا كانت بمعنى الثواب. فالمحبة على ظاهرها ولا يجوز صرفها عن ظاهرها.

فإن قال قائل: فهل تضربون هذه القاعدة في كل النصوص؟

فالجواب: نعم يجب علينا أن نضربها في جميع النصوص؛ لأن الصحابة أجمعوا على ذلك ما منهم أحد يفسر القرآن بخلاف ظاهره أبدًا، فعلينا فيما يتعلق بصفات الله أن نؤمن بها لكن على أساس مهم ذكره الله - عز وجل - في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ كل شيء أثبتهُ لله فعلى هذه القاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وبهذا نسلم من اعتراضات كثيرة، ومن ذلك: أنه يصعب الآن السؤال عن هل نثبت لله مللًا أم لا؛ احتجاجًا بقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**؟»[1] فيقال: إن من هو خير منك ممن سبقك من هذه الأمة وخير هذه الأمة لم يسألوا الرسول ﷺ ذلك أبدًا فعرفوا المعنى وأبقوا النص كما هو عليه.

هل الحديث صريح في أن الله يمل؟ ليس بصريح، لكن سياقه افعلوا من العمل ما تطيقون يعني: تحملوا منه ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، يعني: لا يمل من ثوابكم حتى تملوا من العمل - هذا معناه - وهو واضح فإن كان يدل على ثبوت الملل لله فالملل كسائر الصفات ملل يليق بالله لا يماثل مللَ المخلوق، لأن ملل المخلوق تعب وإعياء وضيق نفس، لكن لا يُثبت هذا لله - عز وجل - أبدًا، مثل الغضب فقد أثبت الله لنفسه غضبًا وهذا في القرآن.

فلو قال قائل: الغضب غليان جميع البدن لطلب الانتقام وهو يحمل الغاضب على التصرف السيء حتى إنه يقتل ويطلِّق النساء ويعتق العبيد ويوقف الأملاك فهل غضب الله الذي نثبته حقًّا كغضب المخلوق؟

الجواب: لا إن الله تعالى إذا غضب لن يفعل إلا الحكمة وغضبه دليل على قوته - عز وجل -؛ لأن الغضب لا يصدر إلا من قادر على الانتقام لأن العاجز لا يمكن أن يغضب، لكن صاحب السلطان هو الذي يغضب وينتقم، فالغضب إذنْ صفة حميدة لكن بشرط ألا تخرج الغاضب عن شعوره، لذلك نقول: إن الله يغضب لكن ليس كغضب المخلوق الذي يخرج عن شعوره حتى يتصرف تصرفًا لا يليق.

وأنت إذا أثبت لله ما أثبته لنفسه وتأدبت مع الله بحيث لا تتجاوز ما ذكره الله - عز وجل - وأثبت هذا على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فإنك تسلم في عقيدتك وفكرك والتشويش الذي يوقعه الشيطان في القلب، أما إذا كنت تتحرك بهذه النصوص يمينًا وشمالًا

---

(١) رواه البخاري (١١٠٠)، ومسلم (٧٨٢) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فأنت على شفا جرف هار.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحث على الإحسان للخلق وعلى الإحسان في عبادة الخالق؛ لأن الله حين يخبرنا أنه يحب المحسنين يريد منا؟ أن نسعد؛ لننال هذه المرتبة العظيمة وهي محبة الله - أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أحبابه -.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٤، ٩٥]

التفسير

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ أُثر عن ابن مسعود رضي الله عنه في مثل هذا التعبير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقال رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإما خير تُؤمر به وإما شر تُنهى عنه: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الجملة خبرية ومؤكدة بمؤكدات ثلاثة وهي: اللام ونون التوكيد والقسم المقدر.

ومعنى ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: ليختبرنكم، ولماذا يكون الاختبار؟ قال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

وقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ الذي تصطادونه وهو محرم عليكم في حال الإحرام.

وقوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي: تصيدونه باليد وتصيدونه بالرماح، وهذا على اختلاف حال الصيد فما كان زاحفًا صاروا ينالونه بأيديهم وما كان طائرًا ينالونه برماحهم؛ لأن الطائر أعلى والطيران أسرع من الزحف، لكن مع ذلك يكون الطائر هادئًا في طيرانه؛ لأن الذي يمسكه في جو السماء هو الله - عز وجل - فهو قادر - عز وجل - على أن يهبطه إلى قرب الأرض وأن يجعل طيرانه هادئًا، وقلنا: إن الابتلاء هو الاختبار بأي شيء قال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾: اللام للتعليل، ويعلم أي: يدرك عز وجل ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من يخاف الله.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لها معنيان: المعنى الأول: يخافه وهو - سبحانه وتعالى - غائب عن نظره، كقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(1) والمعنى الثاني: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حاله غيابه عن الناس مثل أن يكون في البيت أو في ظل شجرة أو من وراء نسمة أو نحو ذلك.

إذنْ: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لها معنيان: الأول: أنه يخاف ربه مع غيبته - تبارك وتعالى - عنه؛ إذ إنه لا يرى ربه لكنه عرفه بآياته، والثاني: بالغيب أي: بغيبته عن الناس؛ لأن من الناس من يُظهر مخافة الله ظاهرًا ولكنه باطنًا لا يخاف الله - عز وجل - والذي يُمدح من يخاف الله بالغيب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن اعتدى على محارم الله - عز وجل - بعد أن بيَّن الله له الحكم، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: عذاب مؤلم في الدنيا وفي الآخرة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان امتحان الله - تعالى - لعباده بتيسير أسباب المعصية لهم ليعلم من يخافه بالغيب ومن لا يخافه إلا بالعلانية. ووجهه من الآية ظاهر وهو قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الصحابة رضي الله عنهم الذين هم مقدمو هذه الأمة، وذلك بخوفهم من الله وعدم تحيلهم على محارم الله وعدم انتهاكهم لحرماته، فإن هذا الصيد الذي ابتُلوا به وقع فعلًا؛ لأن الله أخبر بأنه سيفعل وفعلٍ - عز وجل -، (لكن لم يُذكر عن واحد منهم أنه أخذ صيدًا واحدًا، بل خافوا الله - عز وجل - وعظَّموا محارمه وهذا فضل عظيم لهذه الأمة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذه الأمة تفضُلُ سائر الأمم وعلى رأسهم الأمة اليهودية؛ لأن الأمة اليهودية ابتلاهم الله - عز وجل - بنحو هذا ولكنهم تحيلوا على محارم الله، فابتلاهم الله تعالى بالصيد، - الصيد البحري وليس الصيد البري - فحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فاحتالوا على ذلك وجعلوا شباكًا في يوم الجمعة ليأخذون السمك يوم الأحد فابتلاهم الله - عز وجل - بكون الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعًا - أي: على خط الماء من كثرتها - فتحيلوا هذه الحيلة، فقال الله لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ وكانوا قردة - والعياذ بالله - كل أهل القرية أصبحوا يتعاووا كما يتعاوى القردة؛ لأنهم تحيلوا على محارم الله بما ظاهره الإباحة فقلبهم الله تعالى إلى حيوان أقرب ما يكون شكلًا إلى الإنسان.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن يتنبه الإنسان لنفسه إذا يُسرَت له أسباب المعصية وألا يتدرج به الشيطان؛ لأن الإنسان قد تُيسر له أسباب المعصية ولا يدري عن نفسه ثم ينغمس حتى

(1) سبق تخريجه.

يقع في المحظور فليحذر الإنسان من تيسير أسباب المعصية له أن يقع في المحظور، ولهذا كان الإنسان إذا ابتلي بتيسير المعصية له وتركها لله عوضه الله تعالى خيرًا منها، وانظر إلى يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد يسرَّ الله له أسباب المعصية تيسيرًا لا نظير له ـ فيما نعلم ـ كان مملوكًا لعزيز مصر وكان له امرأة يُروى أنها كانت من أجمل النساء؛ لأنها امرأة العزيز وأعجبها يوسف وأحبته حبًّا شديدًا حتى وصل إلى شغاف القلب ـ يعني: قاع القلب ـ وفي يوم من الأيام سولت لها نفسها أن تدعوه إلى فعل الفاحشة فدعته وغلَّقت الأبواب والأبواب، جمع باب أقلها ثلاثة في حجرة من وراء حجرة من وراء حجرة والأبواب مغلقة وليس عندها أحد فدعته وتوعدته أنه إن لم يفعل فسيسجن وأهانته حيث قالت: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] فدعا ربه وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] وليس أن الجمع يعني أن مع المرأة أحد ولكن يريد الجنس، فإن هذه التي فتنته ربما يفتنه غيرها فأراد أن يكون دعاؤه عامًا ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤] يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُسرت له أسباب المعصية، بل أكثر من ذلك، فقد هُدِّدَ بأن يُهان ويسجن إن لم يفعل، ومع ذلك لجأ إلى الله ـ عز وجل ـ وفي هذه الضرورة استجاب الله دعاءه.

وفي السبعة الذين يظلهم الله في ظله قال الرسول ﷺ: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[1] لم يذكر أي معنى سوى خوف الله ـ عز وجل ـ بالغيب؛ أنه ليس عنده أحد؛ لأنه لو عنده أحد لقال: إني أخاف أن يشهد فلان أو فلان، فالمهم أنه يجب أن ينتبه الإنسان لنفسه سواء في البيت أو الشارع أو في أي شيء وإذا يُسِّرت لك أسباب المعصية فاعلم أن ذلك امتحان من الله.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الصيد في حال الإحرام محرم؛ لقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من اعتدى بعد ما تبين له الحكم فله عذاب أليم أي: مؤلم.

٧ - **ومن فوائدها**: أن من كان جاهلًا فإنه لا إثم عليه إذا فعل المعصية؛ لقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: إثبات علم الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لقوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، والله تعالى علمه محيط بكل شيء.

فإن قال قائل: هذه الآية سياقها يدل على تجدد العلم لله ـ عز وجل ـ؛ لأنه قال: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ

(١) رواه البخاري (١٣٥٧)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِشَيْءٍ﴾، ثم قال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ﴾ وهو جل وعلا عالم بذلك قبل أن يخلق هذا وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وهذا إشكال واقع يشكل على كثير من الناس، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أليس الله قد علم؟!

الجواب: بلى قد علم لكن الجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن علم الله بالشيء قبل وقوعه علم بأنه سيقع وعلمه بعد وقوعه علم بأنه واقع، وفرق بين كون الشيء معلومًا قبل أن يقع ومعلومًا بعد أن يقع.

فإن قال قائل: هذا مُسَلَّم به في علم الإنسان فإن الإنسان إذا علم أن الشيء سيقع غدًا فهذا علم، لكن إذا وقع صار علمه الثاني أقوى من علمه الأول؛ لأن علمه الأول علم يقين وعلمه الثاني عين اليقين، ومعلوم أن الإنسان يتجدد علمه تارة ويقوى علمه تارة ويضعف تارة، لكن علم الله واحد.

فالجواب: نحن لا نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا كان علمه واقعًا ازداد علمه بذلك بل هو عالم به لكن عالم به أنه واقع لا أنه سيقع؛ لأن العلم الأول لا يترتب عليه جزاء بالنسبة للعبد والعلم الثاني يترتب عليه الجزاء.

أما الوجه الثاني فنقول: علم السابق لما وقع علم بأنه سيقع ولكنه لا يترتب على هذا العلم أي ثواب أو عقاب، متى يترتب الثواب والعقاب؟ إذا علم العبد، فيكون علمه الثاني الذي بعد وقوع الشيء علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب ويتعين الجواب بهذا؛ لئلا يظن الجاهل أن علم الله يتجدد ونحن نعلم أن علم ربنا ـ عز وجل ـ لم يزل ولا يزال موجودًا.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على من يخاف الله بالغيب ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ؛ لأن كثيرًا من الناس يخاف الله لكن يقل خوفه إذا لم يكن حوله أحد، وإذا علم عِلْمَنَا به ازداد خوفه ـ يعني: أصل الخوف عنده ـ فيكون إذا كان عنده أحد ازداد خوفه من فعل المعصية خوفًا من عقاب الله وخوفًا من ملامة الناس، وهذا وإن كان محمودًا لكنه ضعيف الخوف من الله ويخشى عليه أن يُداهن الناس ويراقبهم فيقع في الرياء فيجب أن يكون خوفك من الله واحدًا في السر وفي العلانية.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ لما ذكر أنه سبحانه وتعالى سيبتليهم ذكر الحكم فقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ و﴿لَا﴾ هنا ناهية وعلامة كونها ناهية حذف النون.

وقوله: ﴿ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ (أل) لبيان الحقيقة، فما هو الصيد المحرم؟ العلماء ولا سيما أهل الفقه ـ رحمهم الله ـ وجدوا رابطًا لهذا فقالوا: إنه الحيوان البري المأكول والعبرة بكون أصله بريًّا المتوحش طبعًا، فهو الحيوان البري المأكول المتوحش طبعًا؛ الحيوان هذا جنس، والبري ضده

البحري، والمأكول ضده الحرام، والمتوحش طبعًا ضده المتأسلم وهو الحيوان الأليف الذي يألف الإنسان ـ هذا هو الصيد ـ وعلى هذا فحيوان البحر لا يدخل في النهي؛ لأنه ليس مرادًا بهذه الآية وإن كان صيدًا ولكنه بحري، ولقد قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وهذه الآية صريحة فصل الله فيها وبيَّن.

فنقول: إن المحرِمَ إذا ذبح دجاجة فإنه ليس عليه إثم؛ لأن الدجاج من الإنسي ليس من المتوحش ولو ذبح خروفًا فلا بأس مع أنه صيد بري مأكول لكنه ليس متوحشًا والعبرة بالطبع بالأصل ولا عبرة بالوصف الطارئ، فلو توحش أو استأنس وحشي فالعبرة بالأصل؛ ولهذا لو أن إنسانًا ربَّى أرنبًا فهل يجوز إذا أحرم أن يذبحها؟ لا، لأن العبرة بأصلها أن تكون متوحشة في الأصل والتأهل طارئ عليها، ولو أن دجاجة توحشت وصارت تطير مع الطيور فهي حلال أو غير حلال؟ حلال؛ لأن أصلها أنها غير متأهلة فالعبرة إذنْ بالأصل.

النهي هنا لئلا يجر طلب الصيد المُحرِم عن نسكه فينشغل قلبه؛ لأنه لا أشد من لهو الصيد، فالإنسان المبتلى بلهو الصيد لا يقر له قرار حتى يتابع الصيد؛ ولهذا نسمع عن أهل الصيد أن الواحد منهم يتعب في الخروج إلى طلب الصيد ويسحقه الظمأ والجوع والشوك وحرارة الأرض وبرودة الشتاء لكنه لا يبالي؛ لأن قلبه مشغول وإذا كان الله قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لأن انشغال الحاج كانشغاله في الصيد أشد لهوًا.

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الجملة شرطية، و(من) اسم شرط وأسماء الشرط تفيد العموم يعني: أي إنسان قتله منكم متعمدًا فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم، وعلى ذلك فقوله: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف والتقدير: فعليه جزاء، و﴿مِّثْلُ﴾ عطف بيان لقوله: (جزاء)، ولا يمكن أن نجعلها نعتًا؛ لأن ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ معرفة حيث أضيفت إلى الاسم الموصول، و(جزاء) نكرة ولا تنعت النكرة بالمعرفة لكن نجعلها عطف بيان، وعطف البيان قريب من الصفة لكنه لا يشترط فيه ما يُشترط في النعت.

والمعنى: فالجزاء يكون مماثلًا له والمراد بالمماثلة هنا المقاربة في الخِلْقَة؛ لأن التماثل بين الصيد وبين النعم من كل وجه مستحيل لكن المراد بذلك التقارب في الخِلْقَة.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ هي ثلاثة أشياء: الإبل والبقر والغنم وتسمى بهيمة الأنعام.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الجزاء أي: بهذا المِثْلِ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ﴿ذَوَا﴾ مثنى وهي مضافة إلى ﴿عَدْلٍ﴾ أي: صاحبا عدل منكم، والعدل هو الاستقامة في الدين والمروءة ـ هذا العدل ـ فمعنى ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: ذوا استقامة في الدين والمروءة أما في الدين ففسرها الفقهاء ـ رحمهم الله ـ بأن يأتي بالفرائض ولا يفعل كبيرة ولا يصرُّ على صغيرة ـ هذه الاستقامة في الدين ـ

أمَّا الاستقامة في المروءة ألا يفعل ما يشينه عند الناس وأن يفعل ما يجمله عندهم يعني: يفعل الجميل ويدع المشين وهذا الأخير يختلف باختلاف الأحوال والبلدان والأزمان، قد يكون فعل شيء في بلد لا يخلو من مروءة وقد يكون في بلد آخر يخلو من المروءة والعبرة بأعراف الناس المستقيمة ولا عبرة للهمج الذين حق عليهم قول النبي ﷺ: «**إِنَّ مما أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(١) هنا المراد ذوي المروءة الحميدة.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين فلابد أن يكون الحكم من المؤمنين ويحتمل أن يكون الخطاب للصحابة رضي الله عنهم فيرجع في ذلك إلى حكمه وسيأتي ذلك في الفوائد ـ إن شاء الله ـ.

وقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ﴿هَدْيًا﴾ حال يعني: حال كون هذا الجزاء هديًا و﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلًا إلى الحرم وليس المراد إلى جوف الكعبة بإجماع المسلمين.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا للتخيير كلما جاءت أو في كتاب الله فهي للتخيير وإن جاءت لغير التخيير فإن الله يبينها ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بيان للكفارة أنها طعام للمساكين وفي قراءة (كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ) بالإضافة، والكفارة معقودة من الكَفْر بمعنى الستر وهي الفدية التي تستر الذنب حتى لا يكون له أثر على الإنسان لا في قلبه ولا في وجهه ولا في قومه.

وقوله: ﴿مَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين والمراد به الفقير ويقال: فقير والمراد به المسكين، وذلك أن الفقير والمسكين من الكلمات التي إذا اجتمعت تفارقت وإذا افترقت اجتمعت أي أنه إذا ذكر أحدهما حمل عليه الآخر وإن اجتمعا عُرِّف كل واحد منها بمعنى منفرد، فمثلًا هنا المسكين هو الفقير، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] المساكين غير الفقراء.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ ولم يبين الله ـ عز وجل ـ أن الطعام مماثل للصيد؛ وذلك لتعدد المنافع؛ لأن الطعام إما بُر أو شعير أو تمر أو ما أشبه ذلك، فلا يمكن أن يماثل الحمامة أو النعامة أو الظبي أو ما أشبه ذلك بخلاف ما إذا كان منه نَعَمٌ فإنه يمكن أن يماثله.

ولم يبين الله ـ عز وجل ـ مقدار هذا الطعام ـ وسيأتي إن شاء الله بيانه في الفوائد ـ.

وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ ﴿عَدْلُ﴾ أي: يعادل وذلك إشارة والإشارة تكون إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور وهو الطعام فيكون المعنى أو عدل الطعام صيام.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٦)، والطيالسي في «مسنده» (٦٢١)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠١٤٩)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٣١) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ اللام هذه للتعليل و(يذوق) فعل مضارع فاعله ضمير مستتر جوازًا تقديره هو؛ لأنه يعود على (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾ و(مَنْ): اسم موصول لفظه مفرد ومعناه صالح للمفرد والجمع ويبين ذلك الضمير الذي يرجع إليه، وعليه فنقول: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾ واحد أم جماعة؟ واحد، ﴿لِيَذُوقَ﴾ أي: القاتل ﴿وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: عاقبة أمره الثقيلة؛ لأن الوبال أصله الشيء الثقيل والمراد به هنا العاقبة الثقيلة، ومن المعلوم: أن الإنسان إذا أُلزم بهذا الجزاء مثلما قتل من النعم أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا، فإن ذلك يشق عليه حسب حاله.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: وبال شأنه وحاله.

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: تجاوز الله عن قتلكم الصيد وذلك لأنه كان قبل التحريم فلا يُؤاخذ به العبد، وهذا نظير قول الله فيمن ماتوا قبل تغيير القبلة وكانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال تعالى في حقهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم تجاه بيت المقدس.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: عاد بعد ما تبين له الحكم، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: فإن الله ينتقم منه، والانتقام الأخذ بالعقوبة وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ذو عزة والعزة هي القهر والغلبة، والانتقام هو أخذ الجاني بما فعل، و﴿ذُو﴾ خبر ثانٍ للفظ الجلالة والخبر الأول: ﴿عَزِيزٌ﴾.

الفوائد:

١ - في هذه الآية فوائد كثيرة منها: تحريم قتل الصيد حال الإحرام أو في الحرم؛ لقوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن قتله منافٍ لكمال الإيمان، وجه ذلك: أن الله تعالى وجه الخطاب بهذا النهي إلى المؤمنين.

٣ - **ومنها:** أن اجتناب قتل الصيد من مقتضيات الإيمان.

٤ - **ومنها:** أن ترك قتل الصيد يزيد في الإيمان؛ لأنه إذا كان قتله ينقص الإيمان فترك قتله يزيد فيه. وهنا نقول: من ترك المعصية هل يثاب عليها ويزداد بها إيمانًا؟ الجواب: هنا لابد من التفصيل:

الأول: أن يتركها لله ـ عز وجل ـ بعد أن هَمَّ بها أو زُينت له بوساوس شياطين الإنس أو الجن وهذا يثاب عليها؛ لأنه تركها لله ـ عز وجل ـ وإخلاصه لله بتركها طاعة يُثاب عليها.

القسم الثاني: أن يتركها رغمًا عنه لا لله ولا لعجزه عنها فهذا لا له ولا عليه كإنسان هَمَّ بمعصية وتأهب لها لكنه تركها لماذا؟ قال: والله أبت نفسي وما أردت، فهذا لا له ولا عليه، لا له؛

لأنه لم يحدث إخلاصًا، ولا عليه؛ لأنه لم يفعلها.

القسم الثالث: من أراد المعصية وفعلها فعلًا لكنه عجز، فهذا يكتب له وزر فاعلها؛ ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[1]، هذه أقسام ترك المعاصي.

٥ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما صاده المُحْرِمُ ميتة لا يحل أكله لا له ولا لغيره سواء قتله بالسهم أو أنكسه وذبحه فإنه ميتة.

وجه الدلالة: أن الله عبر عن صيده بقتله، ومعلوم أن القتل ليس ذكاة فيدل هذا على أن من قتله المحرم من الطيور فهو ميتة. هذا ما قتله المحرم، أمَّا ما صاده المحل فهل يحرم على المحرم؟ الجواب: الصحيح أن في هذا تفصيل وأنه إن صاده للمحرم فهو حرام على المحرم، وإن صاده لنفسه أو لغيره من غير المحرمين فهو حلال للمحرم، وعلى هذا تدل الأدلة ففي حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه كان في غزوة الحديبية فكان غير محرم فرأى حمارًا وحشيًّا فطلب من أصحابه أن يناولوه بالرمح فأَبَوا عليه ثم صاد الحمار وجاء به إليهم فأباحه النبي ﷺ مع أنهم محرمون لكنه لم يصده لهم إنما صاده لنفسه ويوزعه إلى من شاء، وهذا ظاهر أنه لم يصده لهم؛ لأنهم لما طلب منهم الرمح أَبَوا عليه ومقتضى الطبيعة أن مثل هذه القضية لا يمكن أن يريده لهم وهم الذين امتنعوا أن يساعدوه، أما الثاني وهو إذا طلب الصيد للمحرم فحديث الصعب ابن جثامة رضي الله عنه نزل به النبي ﷺ ضيفًا وكان رجلًا راميًا وسبَّاقًا فأخذ الرمح وذهب يصيد فجاء بحمار وحشي فرده النبي ﷺ عليه فلما رأى ما في وجهه قال له: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ»[2] يعني: محرمون.

الأول: حديث أبي قتادة أحله النبي ﷺ لهم، والثاني: امتنع منه؛ ولأن الصعب إنما صاده لأجل النبي ﷺ؛ إكرامًا له؛ لأنه ضيفه ويؤيد هذا التفصيل حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «صَيْدُ البَرِّ حَلَالٌ لَكُمْ» يعني: المحرمين «مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ»[3].

ما صِيد للمحرم حرام عليه فهل يحرم على غيره من المحرمين أو المحلين؟ لا؛ لأن الذي صاده حلال وصيد الحلال حلال، فلو صاد الإنسان صيدًا مثل أن يصيد غزالًا وهو محلٌّ يريد أن يهديها

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) رواه البخاري (١٧٢٩)، ومسلم (١١٩٣) من حديث الصعب بن جثامة الليثي رضي الله عنه.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (١٨٥١)، والترمذي (٨٤٦)، والنسائي (٢٨٢٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله تعالى (٤٦٦٦).

لآخر محرم فهي حرام على المحرم لكن هناك أناس آخرون تحل لهم أم لا؟ تحل لهم وتحل للمحرمين من باب أولى.

إذنْ نأخذ أن اصطياد المحرم حرام يعني: ما صاده المحرم فهو حرام، يؤخذ هذا من قوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء إنما يلزم المتعمد؛ لقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ فلو أخطأ بأن وجه الرمي إلى شجرة فإذا فوقها طير فأصابه فوقع الطير فليس عليه جزاء؛ لأنه ليس متعمدًا وإذا لم يكن متعمدًا فإن مفهوم الآية الكريمة: أنه لا جزاء عليه ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، ولو كان ناسيًا أنه محرم أو ناسيًا أن قتل الصيد حرام فقتله، فهل عليه جزاء؟ نقول: ليس عليه جزاء، لكونه ناسيًا وقد قيَّد الله ذلك بقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾، ويدل لهذا عمومات الأدلة الدالة على أن الجاهل والناسي ليس عليها إثم ولا فدية ولا كفارة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله: قد فعلت، ولقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وهذه القاعدة: أنه لا مؤاخذة مع الجهل والنسيان، وكذلك الإكراه قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية ولا يخرج منها أي شيء إلا بدليل وهذا الذي قررناه هو الضابط الذي تدل عليه الأدلة العامة والخاصة.

وقال بعض أهل العلم: إن المخطئ والناسي يرتفع عنهما الإثم، ولكن عليه ضمان، وعللوا ذلك بتعليل عليل:

أولًا: بقضاء بعض الصحابة ﷺ في النعامة بدنة والحمامة شاة وما أشبه ذلك ولم يستثنوا - هذه واحدة -.

ثانيًا: أن ما سبيله الإتلاف يستوي فيه العلم والذكر وضدهما بدليل أن الإنسان لو أتلف مالًا لشخص يظنه مال نفسه، فهل عليه إثم؟ لا ولكنه عليه ضمان لا شك وكذلك لو أتلفه ناسيًا فعليه ضمان ولا إشكال في هذا، ولكن هذا التعليل عليل:

أما الأول: وهو قضاء بعض الصحابة ﷺ فالصحابة إنما بيَّنوا الواجب في قتل الصيد بقطع النظر هل هذا القاتل عليه جزاء أم لا؟ لأن هذا يحتاج إلى تحرير وسؤال ومناقشة هل هو عالم أو جاهل؟ وهل هو ذاكر أو ناسٍ، وحينئذ لا دليل فيما أطلقه الصحابة، إنما يريدون بيان الواجب فقط.

وأما الثاني: وهو أن الإتلاف يستوي فيه العمد والسهو والجهل، فهذا حق ولكنه يختلف في

حق الآدمي الذي حقه مبني على المشاهدة، ولئلا يتلاعب الناس بالحقوق، فلو قلنا: إن من أتلف مال شخص جاهلًا ليس عليه ضمان؛ لتلاعب الناس بعضهم ببعض قد يُتلف مال هذا أو يُحرق مال هذا ويقول: أنا ما علمت ويحصل بهذا ضرر عظيم فصار تضمين من أتلف مال آدمي جاهلًا أو ناسيًا؛ لأن حق الآدمي مبني على المشاهدة؛ ولأننا لو لم نُضَمِّنه لكان في ذلك فتح لأكل أموال الناس بالباطل، ونهب الناس بعضهم أموال بعض، أما حق الله فهو مبني على المسامحة والمياسرة والدين يسر.

إذنْ الصواب: أن من قتل صيدًا جاهلًا أو ناسيًا أو مخطئًا فليس عليه جزاء، أما الصيد نفسه فهو أصلًا ميتة لا يُؤكل لكن الكلام على الجزاء.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تعظيم الإحرام وتعظيم الحَرَمِ، أما تعظيم الإحرام فإن منع المحرم من الصيد يعني: احترام النُّسُكِ وعدم اللهو وعدم الترف؛ لأنه لو أبيح للمحرم أن يصطاد لتلهى عن النسك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] كل هذا لأجل أن يتفرغ الإنسان قلبًا وقالبًا لما هو متلبس به من النسك، وأما تعظيم حرم مكة فظاهر أيضًا أن في الآية دليلًا على تعظيمه وحرمته؛ لأن الحرم آمن كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] هذا البلد آمن في الآدميين وفي الحيوان وفي الأشجار، ولذلك يحرم صيده ويحرم قطع شجره ويحرم القتال فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]، ولأن النبي ﷺ أعلن عام فتح مكة أنه لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، وأجاب عليه الصلاة والسلام عن كونه أحلها بأنها إنما أُحلت لهم ساعة من نهار؛ لأن إحلالها يتضمن مصلحة كبرى أعظم من انتهاك حرمتها في تلك الساعة، ولأنه يؤدي إلى احترامها؛ لأن هناك فرقًا بين أن تكون بلاد كفر أو بلاد إسلام ولا طريق لكون هذه بلاد إسلام في ذلك الوقت إلا بالقتال فالقتال أُحِل للضرورة ولهذا قال ﷺ: «**وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ**»وقال: «**إِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ فَقُولوا: إِنَّ الله أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكَ**»[1]جواب صريح ولله تعالى أن يأذن لمن شاء من خلقه.

---

(١)رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الواجب في قتل الصيد يعني: في الجزاء واحد من أمور ثلاثة: إما المثل وإما إطعام مساكين وإما صيام يعادل ذلك على التخيير.

قاعدة: كلما وجدت (أو) في القرآن فهي على التخيير كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] وكقوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، في هذه الآية: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، فهو للتخيير، فيخير الإنسان الذي قتل الصيد بين أن يُهدي مثله إلى الحرم أو يطعم مساكين ولم يذكر الله تعالى مقدار هذا الطعام فهل نقول في: ﴿كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ إن أقل الجمع ثلاثة وإنه لو أطعم ثلاثة مساكين كفى أو نقول: ما دامت المسألة معادلة فلابد أن يكون هذا الطعام معادلًا إما للصيد نفسه وإما لمثل الصيد؟ الاحتمال الأول وهو أن يكون طعام ثلاثة مساكين هذا غير صحيح، بقي عندنا أن يُعَادل بالصيد أو بمثل الصيد وهذا اختلف فيه العلماء فقيل: إنه يُقَوَّم الصيد بما يساوي من طعام ثم يُطعِم هذا الطعام للمساكين، وقيل: إنه يُقَوَّم بالمثل ويُشترى بقيمته طعام يُطعِم المساكين، أيهما أحب للفقراء؟

هذا يختلف أحيانًا يكون المثل أغلى وأحيانًا يكون الصيد أغلى، والنعام مثلًا كم تساوي أحيانًا ترتفع قيمتها حتى تكون أغلى من قيمة البدنة عشر مرات وأحيانًا تكون رخيصة وقيمة البدنة أغلى منها، فالعلماء رحمهم الله منهم من جنح إلى أن الذي يُقَوَّم الصيد ومنهم من قال: بل الذي يُقَوَّم المثل، ولو ذهب ذاهب وقال:ينظر الأحب للمساكين فإن كان الأحب تقويم المثل قومناه، وإن كان تقويم الصيد قومناه فلو ذهب ذاهب هذا المذهب لكان مذهبًا جيدًا وله نظير وهو: عروض التجارة في الزكاة تُقَوَّمُ بالدراهم أو بالدنانير بالأحظ للفقراء إن كان الأحظ أن تُقَوَّمَ بالدنانير قوَّمناها بالدنانير وإن كان الأحظ أن تقوم بالدراهم قومناها بالدراهم فلو قيل في هذه المسألة أن ينظر إلى الأحظ للمساكين؛ لأن الطعام طعامهم فما كان أحظ عُمِل به وكان له وجه، لكن هذا وجه يقابل وجهًا آخر وهو أن الأصل براءة الذمة فلا تكلف القاتل أكثر مما يجب عليه، وعلى هذا التقدير ينظر إلى الأقل وإن كان تقويم الصيد أقل أُخذ به وإن كان تقويم المثل أقل أُخذ به.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: ومن قواعد التفسير[1]:.

---

(١) قاعدة المكي والمدني نسبة إلى مكة وإلى المدينة وهنا يتبادر إلى الذهن أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، ولكن المشهور عند أهل العلم: أن المكي ما نزل قبل الهجرة وأن المدني ما نزل بعد الهجرة حتى لو كان في مكة، هذا الذي عليه الجمهور وهو ألطف من أن نقول: إن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة؛ لأن هناك قسم ثالث وهو أن بعض الآيات نزلت في السفر لا في مكة ولا في المدينة وأيضًا انضباط هذا صعب أن نقول: هذه الآية نزلت بمكة وهذه الآية نزلت بالمدينة، ووجه صعوبته أنه ليس ترتيب القرآن الكريم على حسب النزول وإذا لم يكن على حسب النزول صعب تمييزه فما ذهب إليه الجمهور هو الصواب: أن المكي ما نزل قبل الهجرة ولو نزل في المدينة أو في أي مكان. وقولنا (ولو نزل) يعني: على فرض وإلا فمن المعلوم أن النبي ﷺ ما ذهب إلى المدينة إلا بعد الهجرة، وأن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو نزل في مكة أو في أي مكان.

ثانيًا: نرى في بعض الأحيان أن بعض العلماء - رحمهم الله - يقول: هذه السورة مكية إلا آية كذا وكذا، وهذه السورة مدنية إلا آية كذا وكذا، وهذا الاستثناء يحتاج إلى دليل، أما مجرد أنه اشتُهر فهذا لا يحسب؛ لأنه مرسل.

إذنْ لا بد من سَنَدٍ من الراوي إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإلا فلا يقبل، فالأصل أن جميع آيات السور المكية مكية وآيات السور المدنية مدنية، إلا أن يكون هناك دليل صريح فحينئذٍ نوافق عليه ثم إن الغالب في الآيات المكية التحدث عن التوحيد وعن البعث؛ لأن المقام يقتضيه فقد نزل في قوم ينكرون التوحيد وينكرون البعث؛ ولهذا يوجد في الآيات المكية أكثر ما يكون هو هذا، وفي الآيات المدنية أكثر ما يكون في فروع الدين والمعاملات وما أشبه هذا؛ لأن الناس قد ثبت ورسخ في قلوبهم الإيمان بالبعث والتوحيد وبقيت شرائع الإسلام الأخرى فلذلك كانت السور المدنية تتحدث عن هذا.

وهناك أيضًا أمر آخر وهو أننا نجد قصة موسى عليه السلام تكررت كثيرًا في القرآن أكثر من غيرها على وجه الاختصار أحيانًا وعلى وجه البسط أحيانًا وذلك؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلمه الله عز وجل أنه سوف يرتحل إلى المدنية والمدينة فيها أناس من اليهود واليهود أهل كِبْرٍ وغطرسة فكان من الحكمة قصة موسى جملة وتفصيلًا بسطًا واختصارًا حتى يكون على أُهبة الاستعداد لما سيواجه من هؤلاء اليهود، وحتى يكون ما ذكر في القرآن الكريم مطابق تمامًا لصحيح التوراة فيشهد علماء بني إسرائيل على أن القرآن حق كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

أيضًا جميع الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم كلهم من الجزيرة وما حولها؛ لأن هذا هو الذي يعرفه العرب ويتداولونه بينهم، أما في أمريكا وفي أقصى آسيا وما أشبه ذلك فإنه لم يأتِ عنهم ذكر على وجه التفصيل لكننا نعلم أن الله بعث إليهم رسلًا كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، لكن الله لم يقصُّه علينا؛ لأنه قَصَّ علينا ما كان الناس يعرفونه ويتداولونه حتى يميز الصحيح من غير الصحيح وحتى تكون الأخبار المتداولة مؤيدة لما في القرآن والقرآن مؤيد لها.

أيضًا بالنسبة لما يهمنا من العلم عن المكي والمدني هو أن نعرف أن البلاغة تقتضي أن نخاطب الناس بما تقتضيه أحوالهم ففي المكي نجد أن الآيات شديدة قوية؛ لأنها تخاطب أناسًا أشداء أقوياء بُلَغَاءَ فُصحاء ونجد أن الآيات المدنية في غالبها سهلة لينة؛ لأنها تخاطب أناسًا قد لصق في قلوبهم الإيمان ولا يحتاجون إلى شدة وهذا ظاهر فسورة القمر مثلًا تجد كيف كانت آياتها عظيمة تزلزل القلب في الواقع لمن تأملها جيدًا؛ لأنها تتحدث عن قوم عُتاة مستكبرين فكانت الآيات مناسبة تمامًا لما يقتضي الحال هذا هو غاية البلاغة، أما هل تُنسخ الآيات المكية بالمدَنيّة ؟ نعم قد تنسخ؛ لأن كونها مدنية وقد قررنا أن المدني ما نزل بعد الهجرة إذا كان فيه حكم مخالف لما

٩ - **من فوائد الآية الكريمة**: وجوب المماثلة في جزاء الصيد، لكن بماذا تكون المماثلة هل هو في الحجم أو في الشبه أو بماذا؟ المماثلة تكون في الشبه، ولكن لا تلزم المطابقة حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا: بعض الصحابة قالوا: إن الحمامة فيها شاة.

فإن قال قائل: بماذا تشبه الشاة وكيف تكون مثل الحمامة والحمامة تطير والشاة لا تطير؟

قلنا: الشاة تختلف عن الحمامة بأنها ذات أربع أرجل وهذه ذات رجلين، المهم: وجه المماثلة أنها تشبه الحمامة في الشرب ـ شرب الماء ـ، فالحمامة تَعُب الماء والشاة تَعُب الماء يعني: ما هي تشرب بعضًا بعضًا، نجد أن الدجاجة مثلًا تشرب جرعة جرعة لا تَعُبُّ الماء، فالمماثلة تكون أحيانًا في شيء يسير.

فإن قال قائل: قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هل هذا يختلف باختلاف الزمان بمعنى: أن نجعل في كل سَنَةٍ حُكامًا يحكمون في المثل أم ماذا؟ نقول: إن العلماء رحمهم الله قالوا: ما حكمت به الصحابة فإنه لا يُغَيَّر، ومن باب أولى ما حكم به الرسول ﷺ لا يغير أبدًا؛ لأن الصحابة أقرب إلى فهم القرآن الكريم من غيرهم ولأنهم يعيشون في الجزيرة يعرفون المشابهة فقولهم أحق بالاتباع من غيرهم، وعلى هذا فما حكم به الصحابة لا يغيَّر حتى لو جاء متحذلق وقال هذا الجزاء ليس مثل الصيد، فإننا لا نقبله مهما بلغ في الصدق، وما حكم الرسول ﷺ من باب أولى فإنه عليه الصلاة والسلام جعل في الضَّبُعِ شاة، وعليه فتكون الشاة مماثلة للضبع، وإن استدلوا بهذا الحديث على أن الضبع حلال وأنها من الصيد وبهذا استدل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ على حل الضبع، وأما ما لم تحكم به الصحابة فهل يُردُّ إلى أقرب شيء حكمت به الصحابة ونقول مثلًا: إن هذا الصيد الذي لم تحكم به الصحابة مماثلًا للصيد الذي حكمت به الصحابة أو قريبًا له؛ لأن فيه ما حكمت به الصحابة أو نستأنف حكمًا جديدًا؟ الجواب: الأول لأن ما يشبه ما قضت به الصحابة يكون مقيسًا عليه، والقياس أولى من حكم متجدد؛ لأنه قد يتجدد حكم يخالف تمامًا ما قضت به الصحابة، أما ما لم يشبه ما قضت به الصحابة فإنه يُرجع فيه إلى قول فُهم جديدًا من حَكَمَين ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فماذا يستلزم الحكم؟ يستلزم الخبرة بأن يكونا هذان الحكمان ممن لهم خبرة بمعرفة الطيور وما يقاربها أو يشابهها من النَّعم، والثاني: أن يكون عندهما أمانة بحيث لا يحكمون لشخص بهذا المثل ولشخص آخر بخلافه، فلابد أن يكونوا أمناء خبراء وذلك بناءً على القاعدة المعروفة التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] القوي يعني: ذو الخبرة أو القادرعلى العمل وقوة كل شيء بحسبه، وقال الجني لسليمان ـ عفريت من الجن ـ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٣٩] أي: عرش ملكة سبأ ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، فهذان الركنان في كل عمل، القوة والأمانة.

في الآيات المكية ولم يمكن الجمع قلنا: السور المدنية ناسخة للسور المكية ـ والله أعلم ـ.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لابد من العدالة في الحكَمين؛ لقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، والأمانة التي ذكرناها جزء من العدالة.

فإن قال قائل: وهل يصح أن يكون القاتل أحد الحكمين مثل أن يكون هذا القاتل عنده خبره وعنده علم وقال: أرى أن هذا الصيد يماثل هذا النوع من النعم فهل يقبل قوله مع واحد آخر؟

نقول: فيه اختلاف ولابد من توبته، أما إذا لم يتب فمن المعلوم أنه ليس من ذوي العدالة فلا يُقبل، لكن إذا علمنا أن الرجل ندم وتأثّر وتاب إلى الله وقال: أنا عندي معرفة، فمن العلماء من قال: يقبل قوله، ومنهم من قال: لا يقبل قوله؛ لأنه متهم فهو في الحقيقة يحكم لنفسه فلا يُقبل.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن جزاء الصيد لابد أن يصل إلى الحَرَمِ؛ لقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، فلو قُدِّر أن إنسانًا أَحْرَمَ من ذي الحُلَيْفَةِ وقتل صيدًا في بَدْر فإنه يجب عليه أن يوصل هذا الصيد إلى مكة بخلاف غيره من المحظورات، فإن غيره من المحظورات يكون في المكان الذي حصل فيه فعل المحظور بدليل أن النبي ﷺ أمر كعب بن عُجرة أن يفدي عن حلق رأسه في مكانه وليس في مكة، وعلى هذا فيقال: جميع محظورات الإحرام يجوز أن يفدي عنها في مكانه إلا الصيد فإنه يجب أن يكون في مكة ولو كان قتله خارج الحرم.

فإن قال قائل: هل يجوز أن ننقل فدية غير جزاء الصيد إلى مكة؟

قال العلماء رحمهم الله: إنه يجوز أن يُنقل إلى مكة؛ لأن هذه الفدية إنما وجبت لشيء يتعلق بالإحرام، فيجوز أن يؤخر الفدية إلى أن يصل إلى مكة، وليس كالزكاة تفرَّق في مكانها، ثم إن الغالب أن إيصاله إلى مكة أشق على الإنسان من أن لو هداه في مكانه وهذا صحيح يعني من وجبت عليه فدية محظور فله أن يفديها في مكانه وله أن ينقلها إلى مكة.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن للإنسان أن يعدل عن جزاء الصيد من النعم إلى الكَفَّارَة في إطعام المساكين؛ لقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ هذا على التخيير؛ لأن (أو) كلما جاءت في القرآن في الأحكام الشرعية فهي للتخيير.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الفِداء كفارة للذنب وستر له في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء المساكين لا يُختارون بعدد معين بل له أن يطعم كل ثلاثة أو عشرة أو عشرين أو ثلاثين؛ لأن الله تعالى عفوٌّ، أمّا كفارة المساكين فأقلهم ثلاثة.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للإنسان أن ينتقل في جزاء الصيد عن المثل أو الإطعام إلى الصيام؛ لقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، ولكن كيف المعادلة؟

قيل: المعادلة أن يصوم عن كل نصف صاع يومًا، واستدل هؤلاء العلماء بأن النبي ﷺ قال

لكعب بن عجرة: «صم ثلاثة أيام» بدل إطعامِ سِت مساكين، فإطعام ست مساكين لكل مسكين نصف صاع[1].

وقال بعض أهل العلم: بل يقدَّر الطعام ثم يوزع على كل مسكين مُد، وإذا كان الطعام كثيرًا لزم أن تكون أيام الصيام لذلك، إذا قدرنا مثلًا أن الطعام قُدر بخمسين صاع وقلنا: إن المسكين يُطعم بمد، لكن بعض أهل العلم قال: إنه لا يتجاوز الصيام ستين يومًا؛ لأن أعلى ما ورد في الكفارة للصيام شهرين وهي ستين يومًا، أما أن نلزمه بأن يصوم ستة أشهر وما أشبه ذلك فهذا يحتاج إلى دليل فيقول: إننا نقدر الصيام لكننا لا نتجاوز أكثر الكفارات وهي ستين يومًا، والمسألة لم تنضبط عندي كثيرًا.

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز التعزير بالمال؛ لأن هذا القاتل أُلزم بهذه الفدية قال الله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، فهو نوع من التعزير، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء رحمهم الله فمنهم من قال: إنه لا تعزير في المال إلا فيما جاءت به الشريعة فقط فكاتم الضالةُ يضاعف عليه العقوبة، فما ورد به النص أخذنا به وما لم يرد به النص فإننا لا نعزر بمال؛ لأن المال إذا عزرنا به فقد أخذنا أموال الناس بغير حق، وأموال الناس محترمة ولكن الصواب المقطوع به ولا شك: أنه يجوز التعزير بالمال فإننا نقول: ألستم تجيزون التعزير بالضرب؟ فالجواب: بلى، فهل الضرب محرم أو غير محرم؟

محرم فليس التعزير بالمال أشد من التعزير بالضرب، فقد تكون إهانة الإنسان أمام الناس أشد عليه من آلاف الدراهم، فالصواب أنه يجوز التعزر بالمال ويجوز التعزير بالضرب ويجوز بالحبس ويجوز بعزله عن وظيفته ويجوز بتحقيره بين الناس؛ لأن المفروض هو تعزيره، لكن لا يجوز التعزير بقطع عضو من أعضائه فهذا حرام لا يجوز؛ لأن قطع العضو لا يستخدم وهو جناية على الناس واضحة.

١٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة عفو الله عز وجل؛ لقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

١٨ - **ومن فوائدها:** أن من فعل محظورًا قبل العلم فإنه لا إثم عليه ولا كفارة ، نأخذ هذه الفائدة من الآية في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ فما سلف فعله من الصحابة قبل نزول الحكم فهو أصلًا لم يُحرم، وأما إذا كان الإنسان جاهلًا فقد فعله قبل نزول الحكم ويكون هذا المانع من العلم خاص به.

فهناك فرق بين شخص فعل محظورًا لم يحرَّم وشخص آخر فعل محظورًا قد حرم ولكنه جاهل فالصورتان لا شك أنهما مختلفتان لكن يقال: لماذا عفا الله عن الجاهل؟

---

(١) رواه البخاري (٤٢٤٥)، ومسلم (١٢٠١).

لأنه ما أنزل به حكمًا، فالصواب: أن جميع الشرائع لا تلزم مع الجهل، لكن ربما يكون الإنسان قد فرط وقصر في الطلب بمعنى أنه لو قيل له: إن هذا واجب أو إن هذا حرام فقصر في طلب الحق وصار كما يقال عند العوام الذين يستدلون بالقرآن إذا كان موافقًا لهواهم: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وهذا توجيه للقرآن في غير محله، فالصحيح على كل حال: أن الجاهل معذور لا يأثم ولا تلزمه الكفارة.

فإن قال قائل: وهل ينطبق هذا على قصة الرجل الذي جامع زوجته في رمضان وأتى يستفتي النبي ﷺ[1] فإنه لا يدري ماذا عليه؟

فالجواب: أن هذا الرجل ليس عالمًا بالحكم لكنه جاهل بما يترتب على الحكم والجهل بما يترتب على الحكم ليس بعبرة؛ لأن الفاعل قد انتهك المحظور عن علم فليس له عذر وعليه فيفرق بين الجهل بالحكم والجهل بما يترتب على الحكم، ومثل ذلك لو أن رجلًا يعلم أن الزنا حرام فزنا وهو ثيب فما حده؟ الرجم فقال: لو علم أن حده الرجم، ما زنا فنقول: لا عذر له؛ لأن الجهل بما يترتب ليس بعذر، فأنت إن فعلت الزنا متأكدًا أنه حرام وتعلم أنه حرام فلا عذر لك؛ ولهذا لو سألك سائل: ما تقول فيمن زنا وهو جاهل أتقيم عليه الحد أم لا؟ إن قلت: لا أخطأت، وإن قلت: نعم أخطأت، فأقول: إن كان جاهلًا بالحكم فلا يقام عليه الحد وإن كان جاهلًا بالعقوبة أُقيم عليه الحد.

١٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العفو لله عز وجل ومن أسمائه تعالى العفو، وفي الدعاء المشهور الذي ذكره النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة حين سألته: أرأيت يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[2] أي: تحب العفو منك لعبادك، والعفو من عبادك لإخوانهم، والعفو هو عدم المؤاخذة على الذنب، والأكثر أن العفو في ترك الواجب والمغفرة في فعل المحرم.

٢٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: تهديد من عاد إلى قتل الصيد بعد نهيه؛ لقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

٢١ - ومن فوائدها: إثبات اسم العزيز لله عز وجل، والعزيز بمعنى الغالب الذي لا يغلبه أحد، والعزيز بمعنى الذي يمتنع عليه النقص بأي وجه من الوجوه، والعزيز هو ذو العزة التي تضفي على من اتصف بها قدرة وسلطانًا وغير ذلك.

٢٢ - ومن فوائد الآية: أن الله تعالى ذو انتقام لكن من المجرمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ

---

(١) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٤٢٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٢٣).

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]؛ ولهذا لا يوصف الله بالانتقام مطلقًا ولا يسمي بالمنتقم؛ لأن الله تعالى قيد الانتقام بالمجرمين فنقيد ما قيده الله عز وجل، وهنا كلمة ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا تدل على أنه وصف مطلقًا لله بل ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني: صاحب الانتقام فقط لكن من المجرمين.

قال الله تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٦- ٩٨]

التفسير

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ لما بيَّن الله سبحانه وتعالى في الآيات الماضية حكم صيد البر للمحرم ذكر حكم صيد البحر فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ والمُحِلّ هو الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده التحليل والتحريم والإيجاب، وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين في شتى البلاد بدليل قوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: السائرين المسافرين يتزوَّدونه في أمتعتهم.

وقوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ ﴿صَيْدُ﴾ بمعنى: مصيد وهو ما أُخِذ حيًّا، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما يُطْعَم بدون صيد وهو ما يلفظه البحر من السمك والحوت فيكون على هذا كل ما في البحر حلالًا كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ في الفوائد.

وقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿مَتَٰعًا﴾ مفعول لأجله أي: من أجل أن تتمتعوا به، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أخرى أنه مسخر البحر لنأكل منه لحمًا طريًّا وكما هو مشاهد الآن أن لحم البحر من أطيب اللحوم.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ المحرِّم هو الله عز وجل.

وقوله: ﴿صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ هل المراد بصيد البر مصيده أو المراد أن تصيدوه؟ الثاني هو المراد؛ لأن المصيد فيه تفصيل كما سبق، يعني: حرم عليكم أن تصيدوا صيد البر، وهذا المعنى يحتاج إلى تقدير والتقدير: صيدكم صيد البر؛ لأن البر لا يُصاد فلابد من تقدير، أما إذا قلنا: إن الصيد بمعنى المصيد فإنه لا حاجة إلى التقدير ويكون معنى صيد البر يعني: ما صِيدَ فيه، وقد مر

علينا أن الصيد المحرم كل حيوان بري حلال متوحش.

وقوله: ﴿مَادُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: حال كونهم محرمين حتى تحلوا.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهذا أعم ما قيل في تفسير التقوى: أنها اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿الَّذِي﴾ صفة للاسم الكريم وهو الله، و﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ صلة الموصول، وقُدِمَ الجار والمجرور على عامله لإفادة الحصر ولتناسب رءوس الآيات ففي ذلك فائدة معنوية وفائدة لفظية، الفائدة المعنوية الحصر، والفائدة اللفظية: مناسبة رءوس الآيات.

ومعنى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمعون إليه وذلك يوم القيامة فإن الناس يحشرون إلى الله تبارك وتعالى كما جاء ذلك في السنة مبينًا.

الفوائد:

١ - في هذا الآية فوائد منها: حِلُّ صيد البحر للمحلِّين والمحرمين وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لو وجِد ماء فيه سمك داخل حدود الحرم فإنه يكون حلالًا؛ لعموم قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وهذا هو القول الراجح، وقال بعض أهل العلم: بل هو حرام وفيه الجزاء؛ لأنه في مكان آمنٍ، وقال آخرون: هو حرام لكن لا جزاء فيه، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنه حلال.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جميع حيوان البحر حلال يؤخذ من الإضافة في قوله: ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، والإضافة تقتضي العموم فيشمل كل ما في البحر من سمك وحيتان صغير وكبير مشابه للإنسان أو مشابه للذئاب، مشابه للخنزير أو أي شيء؛ لأنه عام ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن جميع ما في البحر مما يُطعم من سمك وأشجار وغيرها حلال؛ لعموم قوله: ﴿وَطَعَامُهُ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله عز وجل في حل صيد البحر دون صيد البر؛ لأن الأول تناوله سهل ولا يلهو به الإنسان كما يلهو به في صيد البر ثم هو صيد خفي في باطن المياه فلا يكون كالصيد الظاهر على سطح الأرض.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى جواز إدخار لحم البحر تؤخذ هذه من قوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعني: السائرين في السفر وهل مثل ذلك لحم صيد البر يعني في غير الإحرام؟

الجواب: نعم، لكن يُشترط في ذلك ألا يصل إلى حد الضرر فإن وصل إلى حد الضرر بأن أنتن وقبحت رائحته وخيف على الإنسان منه صار إما مكروهًا وإما حرامًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم صيد البر على المحرمين؛ لقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ وعرفنا هل المراد مصيده أو صيده؟ فإن كان المراد صيده فالأمر ظاهر ولا إشكال فيه أنه يحرم على المحرم أن يصيد صيد البر، لكن إذا قلنا: المراد المصيد فهل نأخذ بعموم الآية ونقول: إن المصيد من البر حرام على المحرم سواء صاده هو أو صيد لأجله أو صاده حلال لغيره، وقد عرفنا الخلاف في هذا، أن بعض العلماء يقول: إن المحرم لا يجوز أن يأكل من صيد البر سواء صِيد له أو صِيد لغيره أو صاده بنفسه وبينا فيما سبق أن القول الراجح من أقوال العلماء: أنه إن صاده محرم فهو حرام وإن صيد له فهو حرام وإن صاده مُحِلٌّ لنفسه فهو حلال للمحرم وهذا هو القول الراجح الذي تجتمع فيه الأدلة.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يحل صيد البر لمن تحلل التحلل الأول، وجه ذلك أن من حل التحلل الأول لم يزل محرمًا فهو باقٍ عليه من مناسك الإحرام أن يسعى، هذا ما ذهب إليه بعض أهل العلم وقال: إنه لا يحل الصيد بعد التحلل الأول كما لا يحل النساء، ولكن قد دلت السنة على أنه إذا تحلل التحلل الأول حل له كل شيء إلا النساء بقي أن يقال: الذي يحل التحلل الأول سيكون في مِنى ومِنى من الحرم، فهل يجوز للمحرم في هذا المكان أن يصيد؟ الجواب: لا، لا يحل له ذلك؛ لأنه في الحرم وصيد الحرم حرام على المحل وعلى المحرم لكن لو فُرِض أن هذا المحرم خرج إلى عرفة وعرفة من الحل فهل يجوز أن يصيد أو لا؟ ينبني على الخلاف من قال: إن الصيد لا يحل عند التحلل الأول قال: لا يحل أن يصيد، ومن قال: إنه يحل له كل شيء إلا النساء - وهو القول الراجح - قال: له أن يصيد.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب تقوى الله تعالى، والحذر من مخالفته فيما فرضه من هذه الأحكام؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من عقوبة اليوم الآخر؛ لقوله: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

١١ - **ومن فوائدها**: إثبات اليوم الآخر الذي يكون فيه الحشر إلى الله عز وجل لقوله: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها**: أن الحشر إلى الله لا إلى غيره فهو يتولى عقاب عباده أو إثابتهم وهو نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ هذه أربعة أشياء جعلها الله تعالى قيامًا للناس، أولًا: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ هذا الجعل هل هو جعل شرعي أو جعل كوني أو هما جميعًا؟ الظاهر الثالث: أن الله جعل

ذلك كونًا وشرعًا، وقوله: ﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ الكعبة في الأصل هو البناء المربع لكن قوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ خرج به كل مربع سوى الكعبة المشرفة، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ وصفًا مخرجًا لغيره وليس بيانًا أو بدلًا بل هو وصف مخرج لغيره من الكعبات، وقوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: ذو الحرمة وحرمة مكة أمر معروف.

وقوله: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ وفي قراءة (قيمًا للناس)، أي: تقوم به مصالح دينهم ودنياهم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥] أي: تقوم به مصالح الدين والدنيا.

إذنْ الكعبة جعلها الله تعالى قيامًا للناس تقوم بها مصالح دينهم ودنياهم، أما مصالح الدين فظاهرة من حج وعمرة بما فيهما من الأنساك، وأما مصالح الدنيا فقد قال الله مرشدًا إليها: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧]، ثم إن هذه الكعبة يجبى إليها ثمرات كل شيء رزقًا من عند الله ـ عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: وجعل الشهر الحرام قيامًا للناس، وهل المراد به الجنس أو شهر واحد؟ المراد الجنس فيشمل الأشهر الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وإنما جعل الله الأشهر الحرام قيامًا للناس؛ لأنهم يأمنون فيها حيث إن القتال فيها محرم حتى في الجاهلية لا يمكن أن يكون القتال في هذه الأشهر الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أما الثلاثة الأولى فلأنها أشهر الحج يعني: الأشهر التي يسافر الناس فيها إلى مكة ويرجعون منها، فيسافرون في ذي القعدة ويرجعون في المحرم، ومن المعلوم أن المحرم ليس من أشهر الحج لكن بدل شوال لكنه من حرمات الحج إذ إن الناس يسافرون في ذي القعدة للحج ويرجعون في شهر محرم؛ ولهذا كانوا في الجاهلية لا يمكن أن يعتدي أحد على أحد في هذه الأشهر أبدًا حتى لو وجد قاتل أبيه لم يقتله، ورجب هذا أيضًا شهر معظم في الجاهلية كالأشهر الثلاثة لا يمكن القتال فيه فيأمن الناس في هذه الأشهر وتقوم مصالحهم يسافرون ويرجعون إلى بلادهم لا أحد يتعرض لهم.

الثالث: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ جعله الله قيامًا للناس في دينهم ودنياهم: أما في دينهم فبالثواب الذي ينالونه من الله عز وجل، وأما في دنياهم فبالبيع والشراء والأكل والانتفاع بالجلود وما أشبه ذلك، فالهدى إذن قيام للناس.

وقوله: ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ فيها قولان: القول الأول: أنهم كانوا في الجاهلية إذا حج الإنسان أو اعتمر صنع قلادة من لحاء الشجر من الشمر أو غيره يُتَقَلَّد بها ليُعلم أنه حاج فيُحترم ـ عجائب وعادات غريبة ـ أي: إذا حج أو اعتمر صنع قلادة يتقللدها إذا رآه أحد قال: هذا حاج أو معتمر، والقول الثاني: أن المراد بالقلائد ما يُقلد الهدى؛ لأن الهدي يقلد في رقبته بها يشعر أنه هدى وهو

آذان القِرب، والنعال الحَلقة البالية تعلق في أعناق الهدي إشارة إلى أنه هدي فيُحترم، حتى قال بعضهم: إن الرجل في الجاهلية يأكل الحطب من الجوع ولا يمكن أن يذبح أو ينحر هذا الهدي؛ لأن عليه علامة وهي القلائد. والقلائد تكون في الغنم وتكون في الإبل وتكون في البقر وتُقلَّدُ الإبل بالأشعاص وهو شق سنامها حتى يسيل الدم فيعرف الناس أن هذه من الهدي ، هل هذه كلها جعلها الله تعالى قيامًا للناس؟ فلننظر إلى الإعراب: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا﴾ أين مفعول جعل الأول؟ الكعبة، والثاني: قيامًا، وقوله: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ معطوف على الكعبة وعلى هذا فيكون المفعول الثاني في المعطوفات مقدرًا أي: الشهر الحرام قيامًا والهدي قيامًا أو القلائد قيامًا للناس.

مرَّ علينا أن السمك والحيتان الميتة حلال، فمن أين يؤخذ؟ من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾ وجه الدلالة قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أي: ما وجد ميتًا هكذا جاء عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم[1].

وقوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ استنبطنا منها أنه يجوز إدخار اللحم وأكله بعد الزحام فإن قيل: هل هذا مقيد بشيء؟ نقول: ما لم يكن مضرًّا.

من أين نأخذ أنه يحرم؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فهذه الآية تدل على هذا.

فإن قال قائل: هذه الآية تدل على أن الشيء الذي يؤدي إلى الهلاك هو الحرام، وما دون القتل فلا يدخل في الآية؟

نقول: الآية وإن كانت تدل على أن المنهي عنه هو القتل لكن استدل بها عمرو بن العاص رضي الله عنه على جواز التيمم بخوف البرد فأقره النبي ﷺ على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجعل يعني: جعلنا ذلك لا عن جهل بل هو عن علم؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقد جعل الله ذلك عن علم بما في هذه الأربعة من المصالح فجعلها الله قيامًا للناس وإنما ذكر الله عز وجل هذا من أجل أن يطمئن الناس أن الله جعلها قيامًا، وهذا الجعل صادر عن علم الله عز وجل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧] (ما): من صيغ العموم فيشمل كل ما في السموات وما في الأرض، والسموات: جمع سماء وعددها سبعة ثبت ذلك بالقرآن والسنة قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] والسنة مشهورة في هذا، وقوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جاءت بالإفراد لكن عددها سبع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ

---

(١) انظر «مصنف ابن أبي شيبة» (١٩٧٦٥).

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] من المعلوم أن المثلية هنا لا يمكن أن تكون في الحجم والسعة وما أشبه ذلك للفرق العظيم بين السماء والأرض، لكن المثلية في العدد بدليل ما جاء في السنة «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»(1) إذنْ الأرض المراد بها: الجنس فيشمل الأرضين السبع.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: لتعلموا أيضًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عز وجل لا يخفى عليه شيء، وعلم الله تبارك وتعالى من صفاته الذاتية فهو عالم بما يكون إلى يوم القيامة وبما وراء يوم القيامة وهو لم يزل عليمًا بذلك من الأزل لا يطرأ على علمه نسيان ولا يسبقه جهل سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد كثيرة منها:** أن الله تعالى عظم هذه الكعبة المشرفة؛ حيث جعلها قيامًا للناس تقوم بها أمور دينهم ودنياهم.

٢ - **ومنها:** أن لله سبحانه وتعالى أن يفضل ما شاء من خلقه، وهذا أمر معلوم وله أمثلة في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال الله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] فلله سبحانه وتعالى أن يفضل من يشاء من خلقه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكعبة حرام أي: محترمة معظمة؛ ولهذا كان ما حولها حرامًا لا يقتل صيده ولا يقطع شجره.

٤ - **ومن الفوائد:** رحمة الله تبارك وتعالى بالخلق؛ حيث يجعل لهم من مخلوقاته ما تقوم به مصالح دينهم ودنياهم.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعظيم الأشهر الحرم وأنها قيام للناس، وتعظيمها جاء في القرآن والسنة قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وكذلك جاء في السنة كما قال النبي ﷺ مقررًا ذلك: «إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم وَأَعْرَاضَكُم عَلَيْكُم حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»(2).

---

(1) رواه مسلم (١٦١٠)، والطيالسي في «مسنده» (٢٣٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٨) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٢١٨).

فإن قال قائل: هل يحرم فيها القتال؟ فالجواب: أن العلماء اختلفوا في هذا فمنهم من قال: إن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ، ومنهم من قال: إنه محكم فالأول عليه الجمهور أنه منسوخ؛ لعموم الأدلة الدالة على قتال المشركين بدون تقدير، والثاني: هو الراجح أن الأشهر الحرام القتال فيها ممنوع وما جاء عامًّا أو مطلقًا في النصوص الأخرى فهو كغيره من العمومات والمطلَقَاتِ يكون مقيدًا بما دل عليه الكتاب والسنة من تحريم القتال في الأشهر الحرم.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قاتل في الأشهر الحرم في «غزوة حنين»؟

فالجواب: بلى، لكن هذا كان امتدادًا لفتح مكة لم يكن في الأشهر الحرم بل كان في رمضان وعلى هذا فنقول: إذا اعتدى الكفار علينا في الأشهر الحرم قلنا: نقاتلهم ولو في الأشهر الحرم؛ لأن قتالنا هذا دفاعًا، والإنسان يجب عليه أن يدافع عن نفسه في أي مكان وأي زمان حتى مثلًا في مكة القتال فيها حرام إلى يوم القيامة، لكن لو قوتل أهل مكة أو قاتلنا أحد من غير أهلنا في مكة فإننا نقاتله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١] إذنْ نقول: إذا ابتدأ العدو بقتالنا في الأشهر الحرم فلنا أن نقاتله، ثم هل هذا على سبيل الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة؟ ينظر فيه لكن الكلام على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم باقٍ إلا إذا كان امتدادًا لغزو قبل أو ابتداء أعدائنا بالقتال.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تعظيم الهدي والترغيب فيه؛ لقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ يعني: أن الله جعله قيامًا للناس.

ولكن هل الهدي مربوط بالنسك أم يجوز أن يهدي الإنسان للبيت وإن لم يكن نسكًا؟

الجواب: الثاني أنه يجوز للإنسان أن يبعث الهدي إلى مكة وإن كان في بلده كما كان النبي ﷺ يفعل.

فإن قال قائل: وهل الهدى يُسن سَوْقه في العمرة كالحج؟ فالجواب: نعم يُسن كما فعل النبي ﷺ في غزوة الحديبية أنه ساق الهدى في العمرة.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: مشروعية القلائد؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، ووجه ذلك: أن فيها إظهارًا لشعائر الله عز وجل؛ لأن كل من رأى هذه النعم المقلَّدة عرف أنها هدي فعظمها واحترمها.

٨ - **ومن فوائدها**: إثبات الحكمة في أحكام الله عز وجل؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ واللام هنا للتعليل، ومن أسماء الله تبارك وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، أي الذي يضع الأشياء في مواضعها ويتفرع على هذه الفائدة العظيمة أن نؤمن أن كل ما شرعه الله أو فعله الله فهو لحكمة وحينئذ لا يلزمنا أن نبحث عن الحكمة ولا نفترض حكمة بعيدة قد تكون غير مراد الله عز وجل إن تبينت لنا الحكمة بسهولة فلا شك أن هذا من نعمة الله ويزيد الإنسان طمأنينة، وإن لم تتبين فإننا نعلم أنها لحكمة،

لكن عقولنا قاصرة عن إدراك الله في كل ما شرع.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحثُّ على معرفة صفات الله عز وجل؛ لقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فينبغي لك أن تبحث عن صفات الله تبارك وتعالى سواء الصفات التي ليس لها أسماء والصفات التي تضمنها الأسماء، فابحث؛ لأنك كلما ازددت معرفة بالله وأسمائه وصفاته ازددت يقينًا.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من مخالفة الله عز وجل ووجهه: إثبات العلم قال الله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧]؛ لأن كل إنسان يهمُّ بمعصية سواء كانت بترك واجب أو فعل محرم فإذا أيقن أن الله عالم به فإنه يخاف ويمسك.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عموم علم الله تعالى لما في السموات والأرض يؤخذ من اسم الموصول في قوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن الأسماء الموصولة تفيد العموم.

١١ - **ومن فوائدها:** أن السموات ذات عدد لكن كم هذا العدد؟ بُيِّن في أدلة أخرى أنها سبع سموات.

١٢ - **ومن فوائدها:** تكرار الثناء على الله عز وجل؛ لأن الله كرر عموم علمه به وذلك في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثم أكّد العموم بما هو أعم بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لأن هذا يعم ما في السموات وما في الأرض مما يكون بعد فناء السماء والأرض.

واعلم أن صفة العلم من أعم الصفات إن لم تكن أعم الصفات؛ لأن العلم يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والسابق واللاحق فهي أعم ما يكون من الصفات فمِنْ تعلقها بالمستحيل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهل يمكن أن يكون فيها آلهة إلا الله؟ لا يمكن ومع ذلك أخبرنا الله بنتيجة هذا لو فُرِض ذلك وأنها - أي السموات والأرض - تفسدا.

ومِنْ تعلق العلم بالواجب: كل ما أخبر الله به عن نفسه من صفات الكمال فهو علم بالواجب؛ لأنه يجب لله صفات الكمال.

وتعلقها بالممكن: كل ما أخبر الله به عن مخلوقاته فهو من باب تعلقها بالممكن.

ثم قال الله عز وجل لما ذكر عموم علمه بعد هذه الأحكام العظيمة: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ اعلموا أي: علمًا يحصل به الامتثال، فيجب علينا أن نعلم؛ لأن الله أمرنا بذلك وبأي شيء نعلم؟ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: المؤاخذة بالذنب وسميت المؤاخذة بالذنب عقابًا؛ لأنها تعقبه، و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: قويًا كمًّا وكيفًا أو كيفًا فقط؟ كمًّا لا يمكن؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] لكن كيفًا هو الصحيح،

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: قوي العقاب إذا عاقب المذنب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: واعلموا أيضًا أنه مع شدة عقابه غفور للذنوب رحيم بعباده جل وعلا لا يكلفهم ما يشق عليهم وإذا أخلوا به فهو يرحمهم عز وجل بالعفو.

ما الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؟ الفرق أن آية ﴿نَبِّئْ...﴾ أمر من الله للرسول أن يُنبئ الخلق وقُدِّم الوصف بالمغفرة والرحمة على العذاب الأليم؛ لأن المقصود الإخبار عن صفة الله عز وجل فَقُدِّم الجانب الذي فيه اللطف والإحسان، وهذه ذكرت عقب أحكام عظيمة قد يخل بها المرء فَقُدِّم فيها جانب التهديد.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** وجوب العلم عن يقين؛ لقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى شديد العقاب لمن خالف أمره سواء بفعل ما حرم أو بترك ما أوجب.

فإن قال قائل: ظاهر هذه الآية أن الله سيعاقب من خالف أمره على كل حال؟

فالجواب: أنك إذا قرأت آخرها تبين لك أنه في مقابل ذلك هو غفور رحيم ثم قرنها بالآيات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات العقاب وهي: مؤاخذة المذنب بما يستحقه من عقوبة.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين وهما: الغفور الرحيم، الغفور أي: ذو المغفرة كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والرحيم يعني: ذا الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

فنثبت هذين الاسمين لله - عز وجل - ونثبت ما دلا عليه من الصفات وهي المغفرة في غفور، والرحمة في الرحيم، وهل نثبت الأثر يعني: الحكم المترتب على هذه الصفة؟ الجواب: نعم، فإنه يغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء.

ما الذي يترتب على هذين الاسمين والإيمان بهما؟ يترتب على ذلك أن يتعرض الإنسان لمغفرة الله عز وجل بفعل الأسباب التي توجبه ويتعرض للرحمة بفعل الأسباب التي تحصل بها الرحمة، عكس ما يظن بعض العوام، فبعض العوام إذا نهيته عن معصية قال: (الله غفور رحيم)، فيظن أن هذا من باب تهوين المخالفة على العبد، وليس كذلك بل هذا حث للعبد أن يفعل ما به المغفرة والرحمة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الجمع بين أسماء الله تبارك وتعالى التي ينتج من الجمع بينهما وصف زائد على الوصف الذي تفيده بدون اجتماع فمثلًا إذا قلنا: إنه غفور رحيم

صار المعنى: أنه غفور للذنوب ورحيم بحصول المطلوب في الطاعات؛ ولهذا كانت المعصية الواحدة بواحدة والطاعات الواحدة بعشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٩-١٠١].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ ما نافية ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ خبر مقدم و﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ مبتدأ مؤخر.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني، فَمَنْ المعهود ذهنًا بأنه الرسول بالنسبة لهذه الأمة؟ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ والرسول بمعنى: المرسَل.

وقوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: بلاغ الرسالة، وأما هداية الخلق فليست على الرسول ﷺ، عليه أن يُبَلِّغ وإذا بَلَّغ انتهت وظيفته، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما تعلنون ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: تخفون، فأعمالكم ليست إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس مسئولًا عنها، وإنما الذي يحاسبكم عليها هو الله الذي يعلم ما تبدون ما تكتمون، وهذا الحصر في قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ حصر إضافي؛ لأن النبي ﷺ عليه واجبات أخرى عليه الصلاة والصيام والصدقة، والحج، والجهاد وغير ذلك لكن ما عليه بالنسبة لكم إلا البلاغ يعني: إلا أن يبلغكم وليس عليه هداكم فالهداية بيد الله، إذنْ هذا الحصر إضافي، وما معنى إضافي؟ أي: بالإضافة إلى ما يجب لكم عليه، ما على الرسول لكم إلا البلاغ، أما الهداية فهي إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ هذا الذي يتفرع عليه الحساب ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما تظهرونه من الأعمال القولية والفعلية، فقد علمها قبل أن تكون وبعد أن كانت.

وقوله: ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: ما تخفون في نفوسكم، وذلك الأعمال القلبية بل أشد من الأعمال القلبية وهي ما يوسوس به القلب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] وهذا يعني أن حسابهم على الله عز وجل لا على الرسول ﷺ.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب إبلاغ الوحي على رسول الله ﷺ؛ لأن ﴿عَلَى﴾ ظاهرة في الوجوب في قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه ليس على النبي ﷺ أن يجبر الناس على أن يسلموا، ويؤيد هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** تحذير المُبَلَّغِينَ من المخالفة؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فإن إخباره بعلمه بعد أن قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ فيه التهديد والوعيد على مَنْ خالف.

٥ - **ومنها:** سعة علم الله وعمومه؛ لقوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، وهذا عام للأمة كلها، و(ما) اسم موصول يشمل القليل والكثير.

٦ - **ومنها:** أن أعمال العباد تنقسم إلى قسمين: قسم يبدو للناس وقسم لا يبدو لهم؛ لقوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

فإن قال قائل: هل الأفضل للإنسان أن يبدي ما عمل أو أن يكتم ما عمل؟

قلنا: كل ذلك خير؛ لأن الله مدح الذين ينفقون أموالهم سرًّا وعلانية ولكن أيهما أفضل؟ ينظر للمصالح إن كانت المصلحة في الإعلان أعلن وذلك كإنسان يُقتدى به ويُتأسَّى به فالأفضل أن يُعلن حتى يتأسى الناس به ويعرفوا أن هذا حق ويكون بذلك إمامًا لمن تبعه، وإذا كان الإخفاء خيرًا فالإخفاء أفضل كما لو تصدق الإنسان على شخص متعفف لا يحب أن يُطلع عليه فهنا الإخفاء أفضل، وإن تساوى الأمران والغالب أنهما لا يتساويان من كل وجه، لكن على فرض أنهما يتساويان من كل وجه فالإسرار أفضل؛ لأنه أدل على الإخلاص وأقرب إلى الإخلاص.

٧ - **ومن فوائدها:** الردُّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة وهذا مأخوذ من قوله: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فالإنسان يريد أن يبدي ويريد أن يكتم وهذا إثبات الإرادة للعبد، أما الجبرية فهم قوم يقولون: إن الإنسان غير مخير بل مجبر ويستدلون بآيات منها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] قالوا: إنه نفى أن يكون للعبد خيرة، فشبهتهم قوية ولكنه ولا شك أن هذه الشبهة باطلة؛ لأن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يعني: في فعله عز وجل يعني مثلًا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يريدون أن يختاروا هم من يكون رسولًا فقال الله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فيكون معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: الخيرة فيما يفعله الله عز وجل أما بالنسبة لأفعالهم فلهم الخيرة، والدليل على هذا آيات كثيرة منها خصال الكفَّارة مثلًا في كفارة اليمين ثلاث منها على التخيير ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ

أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾، وغير ذلك من الأدلة.

٨ - **ومن فوائدها:** أن أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء إذا بلَّغوا برئت ذمتهم، ولكن هل يجب عليهم التبليغ على كل حال أو إذا كانت الفائدة أو ماذا؟ نقول: الأصل أنه واجب في كل حال التبليغ ـ هذا هو الأصل ـ؛ لقوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي» أمر «وَلَوْ آيَةً» [1]، لكن قد لا يجب التبليغ ويجوز أن يكتم العلم إلى وقت ما إذا رأى في ذلك مصلحة كما فعل معاذ بن جبل رضي الله عنه حين لم يبلغ قول النبي ﷺ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [2].

فلم يبلغها إلا عند موته تأثمًا، وإلا فالأصل وجوب الإبلاغ، أما إذا سُئل الإنسان عن العلم فإذا كان السائل مسترشدًا وجب أن يبلغه، وأما إذا كان ممتحنًا فإن الإنسان بالخيار إن شاء بلغ وإن شاء منع؛ لأن هذا السائل غير مسترشد لا يريد العلم بل يريد أن يمتحن هذا المسئول فهو بالخيار، وهل الأفضل أن يبلغ أو الأفضل ألا يبلغ؟ في هذا تفصيل: إن كان هذا السائل إذا تُرِك صار في ذلك إذلال له وخزي فليتركه وإن كان إذا تُرِكَ ازداد شره وطغى طغيانه فإنه يجب أن يُبلَّغ ويُبيَّن له ضلاله، فالمسألة يرجع فيها إلى المصالح، فإن قلت: ما هو ميزان المصالح؟ قلنا: كل إنسان مسئول عن نفسه وكل قضية لها حكم، ولهذا يمر علينا أحيانًا في الإجابات عن بعض الأدلة أن نقول فيها: إنها قضية عين كل إنسان حسب ما يرى والله حسيبه.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ أي: قل يا محمد، وتخصيص الحكم (بقل) يدل على العناية به وذلك؛ لأن النبي ﷺ كان مأمورًا أن يقول جميع القرآن، أن يقوله للناس ويبلغه، لكن إذا نُصَّ على شيء معين دل هذا على أحقيته فهو كالتخصيص بعد التعميم فيفيد العناية، أي: قل يا محمد لكل من يصح خطابه ويدرك خطابك: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ صدق الله لا يستوي الخبيث والطيب من الأشخاص والأعمال والأعيان لا يمكن أن يستوي هذا وهذا، فهل تستوي الصلاة والسجود للصنم؟ لا تستوي ـ هذا من الأعمال ـ.

أما من الأعيان: فهل يستوي الشراب الطيب المستخلص من ثمرات طيبة والخمر؟ لا يستوي.

وبالنسبة للأشخاص: هل يستوي المؤمن الطيب والكافر الخبيث؟ لا يستوي وهلم جرًّا، إذنْ الخبيث والطيب من كل شيء من الأشخاص والأعيان والأقوال والأفعال، وهل يستوي ذكر الله والغيبة؟ لا، إذنْ هذا عام.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٤)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ الخطاب هنا ليس للرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن الرسول لا يعجبه كثرة الخبيث، لكن لو أعجبك أيها المخاطب أي: قل للإنسان: لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها المخاطب كثرة الخبيث؛ لأننا نعلم يقينًا أن الرسول ﷺ لا يعجبه كثرة الخبيث، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي: بلغ منك موضع الإعجاب.

وهذا إذا طبقته في بني آدم فأيها أكثر الخبيث أو الطيب؟ الخبيث من بني آدم أكثر كذلك لو أعجبك كثرة الخبيث لقوته وإنتاجه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فالخبيث باطل والله يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] هذه كلمات قوية ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: نرمي بشدة ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يُصيب دماغه ولا يفلته ولا يبقى لحظة عين؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ والفاء للترتيب والتعقيب، و(إذا) فجائية تدل على مفاجئة الزهوق وأنه يكاد أن يكون الزهوق قبل أن يُدمغ، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ولكن السيف بضاربه، يعني: الحق لابد أن يكون حامله قوي في ذات الله لا يهمه أحد في ذات الله وحينئذ يدحض الباطل ويقوم الحق.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الفاء أي: فبناءً على ذلك وعلى كثرة الخبيث اتقوا الله ولا يعجبنكم كثرة الخبيث وبتقوى الله يحصل المطلوب ويزول المرهوب.

وقوله: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا أولي العقول أي: يا أصحاب العقول والمراد بالعقول: ذوات الرشد وحسن التصرف وليس عقل الإدراك، قد يكون عند الكافر من عقل الإدراك أكثر مما عند المؤمن، لكن عقل الرشد منفي عن الكافر مطلقًا ليس عنده عقل رشد؛ لأنه لو كان عنده عقل رشد لآمن ولم يكفر لكن ليس عنده عقل.

إذنْ يا أصحاب العقول، أي: العقول الراشدة التي تعرف ما ينفعها فتقوم به وما يضرها فتجتنبه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لتفلحوا فلعل هنا للتعليل، أين المُعَلل؟ تقوى الله يعني: لأجل أن تفلحوا إذا اتقيتم الله عز وجل والفلاح كلمة جامعة للفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب - هذا هو الفلاح.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا يستوي الخبيث والطيب عند الله عز وجل ولا عند أصحاب العقول وهذا في مراتبهم عند الله وعند ذوي العقول، أما فيما يعملون من أمور الدنيا فإنه قد يكون الخبيث أكثر من الطيب عملًا - كما هو مشاهد الآن -، فإن الدول الكافرة أقدم من الدول المسلمة فيما يتعلق بأمور الدنيا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يَعتَبر بالكثرة، وإنما يعتبر بالكيف لا بالكم؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه إذا اجتمع قوم للشورى، ثم تنازعوا في شيء، فإننا نعتبر من أقرب إلى الصواب إذا كان الفرق كثيرًا نعتبر من هو أقرب للصواب، فإن تساووا فهنا نعتبر الأكثر؛ لأن المقصود هو الحق فإذا علمنا أن هؤلاء القلة في جانبهم الحق من حيث العلم والثقة والأمانة والمعرفة فإنهم يُقدمون على الأكثر، لكن إذا تساووا اعتبرنا الأكثر؛ لأنه لا سبيل لنا إلى الترجيح إلا هذا.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوصف بالخُبْثِ والطيب يكون في الأعيان ويكون في الأعمال، فالمؤمن طيب في ذاته وعلمه والكافر خبيث نجس في ذاته وعمله لكن نجاسته في ذاته ليست نجاسة حسية كنجاسة البغل والحمار ولكنها نجاسة معنوية.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الإنسان قد يُعجب بما هو ليس محلًّا للإعجاب؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب تقوى الله عز وجل، وأن من تقوى الله ألا يُعجب الإنسان بالخبيث ولو كَثُر؛ لأنه ذكر الأمر بالتقوى بعد قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أن الذين يُخاطبون بالتقوى وبمثل هذه الأحكام العظيمة هم أصحاب الرسول؛ لقوله: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والمراد بالعقول هنا: عقول الرشد لا عقول الإدراك.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التقوى سبب للفلاح؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وسبق معنى الفلاح.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

الخطاب في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه مرارًا فلا حاجة لإعادته وقوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ﴿أَشْيَاءَ﴾ هنا ممنوعة من الصرف وعلل الصرفيون كونها ممنوعة من الصرف أن الهمزة فيها للتأنيث وليست أصلية، لكن فيها إعلال بالتقديم والتأخير لحروفها حيث قُدمت الهمزة الوسطى إلى أولها فصارت أشياء، ولذلك لو أردت أن تزنها فوزنها (فعلاء).

وقوله: ﴿إِنْ تُبْدَ لَكُمْ﴾ يعني: إن يُبْدَ لكم الجواب عنها فإنه ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ أي: يسؤكم الجواب وهذا يشمل كل ما سكت الشرع عنه، ثم صار في السؤال عنه سببًا في المشقة على الناس واستيائهم مما حصل، ومن ذلك ما كان بعض المسلمين يسألون النبي ﷺ الرجل منهم يسأل: من أبي؟ وأين أبي؟ وما أشبه ذلك، فإن هذا من الأمور التي يجب السكوت عنها؛ لأنه لو أن رجلًا قال للرسول

عليه الصلاة والسلام من أبي؟ فقال: أبوك فلان غير أبيه لكان في هذا فضيحة له ولأبيه ولأمه فالسكوت عنه هو الأَوْلَى، كذلك إذا قال أين أبي؟ فإذا قال الرسول ﷺ أبوك في النار أساءه بلا شك، وكان هذا أيضًا فيه إساءة إلى الأب، كذلك في الأشياء الواجبة، مثلًا الأقرع بن حابس لما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ»[1] قال: أفي كل عام؟ هذا السؤال غير وجيه؛ لأن النبي ﷺ لو قال: نعم لوجبت ولشق ذلك على المسلمين أفرادًا وجماعات، أفرادًا؛ لأن الإنسان إذا فُرض عليه أن يحج كل عام يشق عليه، وجماعات لو أن الأمة الإسلامية لو قيل لها من قدر منكم أن يحج فيحج كل عام ما هي الأرض التي تسعهم ما تسعهم الأرض؛ فلهذا كان السؤال في غير وجهه. فما أعظم الجُرْم ممن سأل عن شيء لم يحرم وحُرِّمَ من أجل مسألته أو لم يجب فوجب من أجل مسألته.

فقوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: يظهر لكم جوابها ﴿تَسُؤْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ يعني: إن سألتم عنها في زمن الوحي الذي ينزل فيه القرآن تبدلكم، من يبديها؟ يبديها الله على لسان رسوله ﷺ الذي وجه السؤال إليه.

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ يعني: عفا الله عما سكت عنه؛ ولهذا جاء في الحديث: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»[2].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفور للذنوب حليم في العقوبة فلا يعاجل عباده بالعقوبة كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** أنه مما ينافي كمال الإيمان أن يسأل الإنسان عن شيء لم يُكَلَّف به؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾، وهل يشمل هذا زمن الوحي والذي بعده أم هذا خاص بزمن الوحي الذي يمكن أن يثبت فيه التحريم أو الإيجاب؟ الثاني في زمن الوحي، أما فيما بعد الوحي فلا بد أن يسأل الإنسان عن دينه فلذلك نقول: إن ما يفعله بعض العوام إذا قيل له: هذا حرام هذا واجب اسأل العلماء قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ هذا حرام، حرام من وجهين: الوجه الأول: أنه امتنع عن السؤال مع وجود مقتضيه، والثاني: أنه نزل الآية على غير تنزيلها على غير ما أراد الله.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يسوؤه ما شرعه الله عز وجل من

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٣٨٠٠)، والترمذي (١٧٢٦)، وابن ماجه (٣٣٦٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٥٦).

إيجاب وتحريم، لكن المؤمن وإن كره ذلك بطبيعته لا يكرهه من حيث كونه شرعًا لله عز وجل؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ما المكروه هل هو القتال أو فرضية القتال؟ القتال دون فرضيته، المؤمن يرضى بكل ما فرض الله وبكل ما أوجب وبكل ما حرم ومنع لكنه قد يكرهه من جهة مشقته وتعبه وما أشبه ذلك.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أي سؤال يرد في عهد الرسول ﷺ فلابد أن يُجاب عنه؛ لقوله: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ ولذلك توجد في القرآن الكريم أسئلة كثيرة موجهة للرسول عليه الصلاة والسلام فيجيب الله عنها، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فلابد أن يُجاب؛ لقوله: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، لكن إذا قال قائل: أليس النبي ﷺ يُسئل أحيانًا فلا يجيب؟ قلنا: بلى، لكنه لا يجيب؛ لأنه لم ينزل عليه فيه وحي ولو نزل عليه فيه وحي لأجاب.

٤ - ومن فوائدها: أن ما سكت الله عنه فهو عفو؛ لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

نضرب لهذا مثلًا: يسأل كثير من النساء عن حكم إزالة الشعر من الساقين أو الذراعين هل هو حرام أو حلال؟ لننظر: الشعور تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم نُهي عن إزالته، وقسم أمر بإزالته، وقسم مسكوت عنه.

مما أُمِر بإزالته: ما جاء في الفطرة، وما نهي عن إزالته: اللحية، ومما سكت عنه بقية الشعور، فهل نقول: إنها مما سُكت عنه فتكون حلالًا أو نقول: الأصل في تغيير خلق الله أنه حرام فتكون حرامًا؟ الجواب: الأول أنه مما سكت عنه ولو شاء الله عز وجل لأنزل فيه قرآنًا أو تكلم فيه النبي ﷺ.

كذلك الحشرات وما شابهها ثلاث أقسام: قسم أمر بقتله وقسم نُهي عن قتله، وقسم مسكوت عنه، مما أمر بقتله: العقرب والحية والكلب العقور، ومما نُهي عن قتله: النملة والنحلة والهدهد، ومما سكت عنه البقية، فهل نقول: إن البقية يجوز قتلها بدون إيذاء أو نقول: لا الأصل أنه حيوان خلقه الله عز وجل ليُستدل به على قدرته وسعة علمه ورحمته؛ ولأنها تسبح بحمد الله فلا تقتل إلا إذا كان فيه أذية؟ في هذا ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن تقتل هذه الحشرات إذا كان منها أذية، فإن لم يكن منها أذية فيكره أن نقتلها؛ لأنها تسبح بحمد الله؛ ولأن فيها آية من آيات الله وهي أن الإنسان كلما تأملها عرف بذلك سعة علمه الله ورزقه ورحمته فيكون فيها مصلحة للعباد فلا تُقتل ولكن على وجه الكراهة.

القول الثاني: أن ذلك مباح؛ لأنه مما سكت الله ورسوله عنه، وما سكت الله عنه فهو عفو.

والثالث: التحريم فإذا لم يكن منها أذية كان قتلها مجرد عبث وفيه أيضًا تعويد النفس على

العدوان، هذا إذا لم تؤذ، أما إذا كانت مؤذية فلا شك في جواز قتلها، ولكن الأفضل أن يدافعها بما هو أهون، فمثلًا إذا دخلت الحية في جحر وهذه مما أمرنا بقتلها وصار إما بالماء تغرقها أو بالنار تحرقها أيهما أولى؟ الماء، هذه الحشرات أيضًا التي لم نؤمر ولم ننه عن قتلها نقول فيها: إذا كان فيها نوع أذية فإن أمكن أن تطردها بدون قتل فهو أولى، وإذا لم يكن إلا بالقتل فاقتلها ولا حرج عليك.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن منزل من الله قال: ﴿يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ﴾ ما ذكر الفاعل لكنه حُذف للعلم به؛ لأن المنزل للقرآن هو الله عز وجل.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ مبلغ عن الله؛ لقوله: ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ لأن المبدي للبشر مباشرة الرسول ﷺ.

٧ - **ومن فوائدها**: البناء على الأصل في براءة الذمة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾، فالأصل عدم شغل الذمة بإيجاب أو تحريم.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين لله عز وجل وهما: الغفور والحليم فهو غفور للذنوب حليم عند العقوبة فلا يعاجل، وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

قال الله تعالى:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٢-١٠٤].

التفسير

لما نهى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة أن يسألوا عن أشياء سكت الله عنها وأنهم إذا سألوا عنها فلابد أن تُبين لهم حين نزول القرآن؛ لئلا يبقى المسلمون في حيرة من دينهم، ولئلا يكون في الدين نقص، وبيَّن عز وجل أن مثل هذه المسائل قد سألها قوم من قبل هذه الأمة، ولكن لم يقوموا بما أُوجبوا به.

ومثل ذلك ما جاء في قصة البقرة حين قُتِل قتيل من بني إسرائيل وشكُّوا فيمن قتله فأمرهم نبيهم موسى ﷺ أن يذبحوا بقرة فظنوه يمزح عليهم وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ

أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] يعني: من المعتدين وليس من الجهل الذي هو ضد العلم كما في قوله تبارك وتعالى في الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] يعني: ولن اعتدى فأسخر بكم، ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ [البقرة: ٦٨] يعني: كبيرة في السن ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ هذا سؤال ليس له داعٍ، فهم طُلِبَ منهم أن يذبحوا أي بقرة تكون ويحصل الامتثال بذلك؛ لأن البقرة معلومة الجنس، وأما كونها معلومة اللون أو معلومة السن أو معلومة الفعل فليس بلازم، ثم انتقلوا إلى سؤال آخر: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة: ٦٩] - سبحان الله - هل طلب منهم لونًا معينًا؟ لا ولكن بيَّن ذلك ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ ليس هناك إلا الأصفر ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ في جسمها ولحمها وسمنها وهيكلها، هل اقتصروا على هذا؟ لا، ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ لكن هم بقر ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] وهل يتشابه البقر بعد الوصف الأول والثاني؟ لا يتشابه ومع ذلك قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فلم يجزموا بالهداية ولا أظنهم ـ والله أعلم ـ ذكروا ذلك تبركًا، ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] أربعة أوصاف وبهذا فقد شدد عليهم ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٧١] الآن! وقبل ذلك ما جاء بالحق؟! ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١] وما قاربوا أن يفعلوا لكن رأوا أنهم لابد أن يذبحوها، هذا من التعنت، يعني: لو أنهم ذبحوا البقرة من أول الأمر لانتهى الموضوع ولم يكن إشكال.

والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن والسنة لمن تدبرها أن الذين سألوا سؤال التعنت ابتلوا ـ والعياذ بالله ـ بالاستكبار.

وقوله: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ أصبح هنا مجردة عن الزمان فهي بمعنى: صاروا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣] تصبح، هل في الصباح أو في أي وقت من الزمن؟ في أي وقت لكن مثل هذا يعبر به في اللغة العربية مجردًا عن إرادة الزمان الذي هو الإصباح.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ (أصبح) بينها وبين (كان) نسب وهو أنها أختها يعني: أنها تعمل عملها، والأخوة تصدق بأدنى سبب، فتكون الواو اسمها، و﴿كَٰفِرِينَ ﴾ خبرها.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** ضرب الأمثال بالأمم السابقين حتى تقتنع بألا ينبغي لنا أن نسأل؛ لأن غيرنا سأل وكفر.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن مَنْ قبلنا كانوا يسألون ولكن يهلكون بالسؤال، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح عمن سبقنا: «إِنَّمَا أُهْلِكَ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُم كَثْرَةُ مَسَائِلِهِم وَاخْتِلَافُهُم عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١) يسألون ثم يختلفون عليهم لا يوافقونهم.

٣ - **ومن فوائدها**: أن الإنسان لا ينبغي أن يتعرض لما قد يكون محنة عليه؛ ولهذا جاء في الحديث أن يتعرض الإنسان لشيء لا يستطيعه هذا من البلاء والذل، وربما يؤخذ من هذا منهاجًا حسنًا في كل شيء، مثال ذلك: لو أن رجلًا ماله قليل وبنى له بيتًا وصار يمكن أن يستغني بفراش يجلس عليه وشيء ينام عليه ووسادة يتكئ عليها، لكنه أراد أن يفعل ما يفعله الأغنياء من أن يملأ البيت كله بفراش وأن يأتي بفرش فخمة وما أشبه ذلك، نقول: لا تتعب نفسك فإن هذا من الإشقاق على النفس وأن يلحق الإنسان دَين في ذمته فيعجز، وفي الأمثال العامية: (مُدَّ رِجْلِكَ قَدْرَ لِحَافِكَ)؛ لأنك لو مددتها مستطيلة واللحاف قصير برزت فأصابها البرد.

ثم قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾

﴿مَا﴾ نافية، والجعل هنا بمعنى: الشرع أي: ما شرع الله، واعلم أن ﴿جَعَلَ﴾ تأتي بمعنى: خلق، وبمعنى: صيَّر، وبمعنى: شرع، فتأتي بمعنى خلق مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] و﴿جَعَلَ﴾ التي بمعنى خلق لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد وتأتي بمعنى صيَّر وهذه تتعدى إلى مفعولين.

مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١]، والأمثلة في هذا كثيرة، وبهذا نعرف ضلال الجهمية الذين استدلوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] حيث قالوا: جعلناه أي: خلقناه، فيقال: هذا دليل على نقمتهم وعدم معرفتهم للغة العربية؛ لأن جعل إذا تعدت إلى مفعولين فإنها لا تكون بمعنى خلق أبدًا بل تكون بمعنى صَيَّر.

القسم الثالث: تأتي بمعنى شرع كما في هذه الآية، وهنا يتعين أن تكون بمعنى شرع ولا يجوز أبدًا أن نجعلها بمعنى صير أو خلق؛ لأن الأمر واضح في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فعليه نقول في: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع الله.

وقوله: ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ ﴿مِنۢ﴾ هذه زائدة للتوكيد - توكيد النفي -؛ ولهذا نقول عند إعرابها: ﴿مِنۢ﴾ حرف جر زائد زائد، كيف زائد زائد هل زائد الثانية توكيد للأولى؟ لا ولكنه زائد في الإعراب يعني: أنه لو حُذِف لاستقام الكلام، وزائدة أي: زائدة المعنى؛ لأن كل شيء في القرآن لا يمكن أن يُزاد بلا معنى إطلاقًا؛ إذ إن زيادة الكلمة أو الحرف بدون معنى لغو والقرآن منزه عن هذا، إذنْ هي زائدة إعرابًا زائدة للمعنى؛ إذنْ ما هو الذي زادته في هذا السياق؟ توكيد النفي.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام: هذه أسماء لها مصطلحات مختلفة عند العرب خلاصتها: أنها إما أن تكون لآلهتهم وإما أن يُحرِّموها أكلًا وركوبًا وانتفاعًا في لبنها وأصوافها وأوبارها وهم على اختلاف بينهم حتى تكون بحيرة إلخ، لكن علامة البحيرة عندهم: أن تُشق أذنها شقًّا واسعًا مأخوذة من البحر، والبحر واسع، متى يشقونها؟ لهم اصطلاح في هذا: إذا ولدت كذا وإذا ولدت كذا المهم أنها اصطلاحات مختلفة.

وقوله: ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ السائبة هي: التي تُترك سائبة أي: متروكة مسيبة، وهذا أيضًا متى تُسيب؟ عندهم في ذلك اصطلاح يختلف، لكن في النهاية أنها تُسيب ويحرمون ركوبها والانتفاع بها وألبانها.

وقوله: ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ الوصيلة هي: البكر تلد بَطْنَيْنِ على التوالي كلاهما أنثى فيكون هذه وصلت أنثى بأنثى فتُحرَّم أو تُجعل للآلهة.

وقوله: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ هو اسم منقوص محذوف الياء، والحامي من الحمى وهو الذي حمى ظهره فلا يغتل؛ إذنْ هو: الجمل ويختلفون فيه متى يكون حاميًا؟

بعضهم قال: إذا أنجب عشر أولاد وبعضهم قال خلاف ذلك، المهم أن هذه أوصاف لأزواج من الأنعام الإبل والبقر والغنم متى حصلت حُرِّمَت هذه البهيمة أو جعلوها للأصنام.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معطوفة على ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ حيث يقولون: هذه مُحرمة وهذه مُحللة؛ افتراءً على الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أكثر هؤلاء الكفار لا يعقلون؛ لأنهم همج رعاع تابعون لأكابرهم فأكثرهم لا يعقلون، يعني: ليس لهم عقل يرشدهم، مع أنه ذكر من أوصاف الكفار في آيات أخرى أنهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] لكن هنا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن هنا إمام ومقلد، مَنْ الأئمة عندهم؟ أئمة الكفر الذين يحرمون ويحللون بأفواههم والعوام يتبعون ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قيل لهؤلاء الأكثر ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: تعالوا إلى القرآن لنتحاكم إليه ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أيضًا لنتحاكم إليه ليكون التحاكم إليه وهذا في حياته يُؤتى إليه شخصيًّا، و﴿قَالُوا۟﴾ في جواب ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟﴾ [النساء:٦١].

وقوله: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ حسبنا أي: كافينا ما وجدنا عليه آباءنا يعني: وليس لنا حاجة أن نتحاكم إلى القرآن ولا إلى الرسول؛ لأنه لدينا ما يكفينا وهو ما كان عليه آباؤنا.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: أيقولون هذا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا

عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون؟! وهذا في غاية التوبيخ أن يتبعوا آباءهم، وآباؤهم ليسوا على علم، فَهُم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني: شيئًا من شريعة الله وإلا فهم يعلمون كيف يأكلون ويشربون وكيف يجيئون ويذهبون لكن لا يعلمون شيئًا من شريعة الله ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الطريق الذي يوصلهم إلى الله عز وجل فنفى عنهم العلم والعمل ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا نفي العلم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ نفى العمل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** إطلاق الجعل على التشريع؛ لقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾.

٢ - **ومنها:** بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية في تحريم هذه الأنعام الموصوفة بهذه الصفات: البَحِيرَة والسائبة والوصيلة والحام.

٣ - **ومن فوائدها:** الإنكار على الكفار حيث شرعوا هذه الشريعة وحرموا هذه الأشياء الأربعة.

٤ - **ومنها:** أن كل من أتى بشريعة ليست من عند الله فإنه يصدق أن نقول: إنه افترى على الله الكذب، لكن من اجتهد من هذه الأمة وبذل الوسع للوصول إلى الحق وحكم بغير الصواب فإنه لا يقال: إنه افترى على الله كذبًا بل يقال: إنه اجتهد فأخطأ فله أجر واحد وهذا - والحمد لله - من سعة فضل الله عز وجل.

٥ - **ومنها:** خطر الإفتاء وأن الإنسان قد يفتي بالشيء فيكون ممن افترى على الله كذبًا، وقد كان السلف رحمهم الله إذا استفتى أحدهم يقول: لا أفتي حتى أنظر، الصراط بين يدي فهل أنجو منه أو لا أنجو، وكذلك الإجابة هل ينجو منها أو لا ينجو، والله إن هذا لدليل على تعظيم الله تعالى وهيبته في القلب ألا يُقدِم الإنسان حتى يعلم أنه سينجو من العبور على الصراط ولا شك أن الفتوى أمرها عظيم وخطرها عظيم وما أشد زلة العالم وجدال المنافق بها - نسأل الله العافية -.

٦ - **ومن فوائد الآية:** ذم هؤلاء الذين يقولون بلا علم بأنهم قد فقدوا عقولهم؛ لقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وصدق الله عز وجل كل إنسان يقدِم على الفتوى بالتحليل أو التحريم أو الإيجاب بدون علم فهو غير عاقل وإن ظن أنه صار إمامًا فإنه غير عاقل وسيفضحه الله عز وجل إما في الدنيا وإما في الآخرة، يعني: قد يمهل الله له فيكون إمامًا في وقت ما لغفلة الناس وعدم العلماء ولكنَّ النتيجة سيكون مخبولًا - والعياذ بالله -؛ لأن كل من ابتغى الإمامة في غير دين الله فإنه مخبول.

٧ - **ومن فوائدها:** أن التحري في الإفتاء من العقل، ولقد كان السلف الصالح يتدافعون الإفتاء ويؤجلون المستفتي حتى إنهم ذكروا أن قومًا أتَوْا من خراسان - من المشرق إلى المدينة يستفتون الإمام مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة فقال: أنظروني وبقوا خمسة عشر يومًا ينتظرون الفتوى

وفي النهاية قال: ليس عندي علم قالوا: سبحان الله إمام دار الهجرة ليس عنده علم ونحن أتينا من بلاد بعيدة وبقينا في انتظار هذه الفتوى وتقول ما عندي علم؟! قال: نعم ما عندي علم اذهبوا إلى قومكم وقولوا إن مالكًا يقول: ليس عندي علم - وهو الإمام - لكن الإنسان يعرف أنه سيقف بين يدي الله عز وجل وسيسأله لماذا حكمت في عبادي بما لم تعلم أنه حكمي أو يغلب على ظنك أنه حكمي؟ إذا كنت من أهل الاجتهاد، فالمسألة خطيرة - أسأل الله أن يهديني وإياكم - الإنسان لولا أنه يقول: لعلي أكون إمامًا في الخير لقال: ليتني لم أرزق هذا العلم، لكن نقول: نرجو من الله التوفيق للصواب وأن نكون أئمة في دين الله وندخل في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٨ - ويستفاد منها: أن هؤلاء العوام يوجهون ويُرشَدُون ويُدْعَون إلى الكتاب والسُّنة، وأبهم القائل إما لكثرة القائلين وإما لاختلاف مراتبهم؛ لأن كثرة القائلين توجب أن الإنسان ينصاع ويأتي، والمرتبة العليا أيضًا توجب أن ينصاع ويأتي.

٩ - **ومن فوائدها:** إثبات أن الله تعالى أنزل الكتاب - القرآن -، ويتفرع على هذه الفائدة: أن القرآن كلام الله.

فإذا قال قائل: لا يلزم من كون الله أنزله أن يكون كلامه؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ويقول ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فهل تجعلون الحديد من صفات الله أو الماء النازل من السماء؟ نقول: لا نقول هذا، يقول: إذنْ القرآن مخلوق كما خُلق الحديد وكما خُلق الماء النازل من السماء، وهذا تمويه من أهل الباطل؛ لأن أهل الباطل يتبعون المتشابه فنقول لهم: هل الكلام عين قائمة بنفسها جسم أو غير جسم قائم بنفسه؛ أو لابد لكل كلام من مُتكلم؟ الثاني لا شك؛ لأن الكلام وصف لابد أن يكون لموصوف، إذنْ إذا أضاف الله إنزال القرآن لنفسه علمنا أنه كلامه؛ لأن القرآن كلام فيكون في هذا دليل واضح على أن القرآن كلام الله.

١٠ - **ومنها:** دليل على علو الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عز وجل أبين وأظهر من أن تقام عليه الأدلة، ولكن السلف وأهل السنة والجماعة اجتهدوا في تقرير الأدلة؛ لأن هناك من يجادل في علو الله عز وجل وإذا وجد مجادل فلا بد أن يكون له مقابل وإلا لضاعت الشريعة فنقول: العلو أبين من أن يحتاج إلى تكثيف الأدلة، لكن لما كان في الأمة الإسلامية من ينكر العلو فلابد أن نأتي بالأدلة من كل وجه.

ومن أدلة العلو: القرآن فهو مملوء بالأدلة على علو الله عز وجل العلو الذاتي والسنة كذلك مملوءة وعلى جميع وجوهها القول والفعل والإقرار، وإجماع الصحابة موجود ما منهم أحد قال: إن الله ليس في السماء، وهم يقرأون القرآن ويسمعون السنة ما أحد منهم قال: إن الله ليس في السماء، وعلى هذا فيكونوا مجمعين على ما دل عليه الكتاب والسنة وهذا الطريق به نعرف إجماع

الصحابة أن القرآن يتلونه والسنة يسمعونها ولم يرد عنهم ما يخالفها فإذنْ هم قائلون به فإذا طالبك إنسان بإجماع الصحابة في مثل هذه الأمور فقل: إنهم يقرأون القرآن ويسمعون السنة ويشاهدون فعل رسول الله ﷺ ولم يرد عنهم أنهم خالفوا ذلك إذنْ هم مقرون لهذا؛ لأنهم أعرف الناس بالقرآن والسنة.

والعقل أيضًا دليل على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأن كل إنسان يعلم أن العلو صفة كمال وليس في ذلك إشكال وأن السفل صفة نقص والرب عز وجل يجب له الكمال من كل وجه، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢] فمن تعبده لا يسمع ولا يبصر حالك ولا يغني عنك شيئًا.

الفطرة هل تحتاج إلى دليل؟ لا يحتاج كل إنسان يؤمن بالله عز وجل وأنه حي موجود فإنه لا يمكن أن يتصور إلا أنه في السماء، لو أتيت العجائز اللاتي لم يقرأن ما كُتب حول الموضوع وقلت: أين الله؟ تقول: في السماء، حتى الجارية التي أعتقها معاوية بن الحكم رضي الله عنه لما سألها النبي ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟»[1] قالت: في السماء، فأي حكم يكون أثبت من حكم دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

١١- ومن فوائد الآية: وجوب الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة؛ لأن الله أنكر على هؤلاء الذين قالوا: ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

١٢- ومن فوائد الآية: أن من تعصب لقوله والتزمه وأصر عليه مع وجود الكتاب والسنة ففيه شبه من هؤلاء الكفار؛ لأنه إذا قيل له: تعالَ إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قال: حسبي إمامي فيكون فيه شبه من هؤلاء الكفار.

وقد أنكر قوم التقليد إنكارًا عظيمًا وقابلهم آخرون فأوجبوه وقالوا: إن باب الاجتهاد قد سُدَّ من زمان ولا مناص للأمة الإسلامية الآن من التقليد فصاروا طرفي نقيض قسم ينكر إنكارًا عظيمًا ويقول: التقليد شرك والتقليد دأب المشركين ولا يمكن أبدًا إلا أن يعرف الإنسان الحق بنفسه، وقسم آخر بالعكس قال ما قيل في المذهب هو الحق ولو بان لك بالكتاب والسنة أنه غير صحيح فالزم المذهب ولا تخرج عنه وقد أدركنا هذا، وأدركنا من يقول المرجع: الاقناع والمقنع وإياك أن تخرج عما فيها حتى وشَوْا ببعض الناس إلى السلطان حين ذكروا ما هو الراجح من الأقوال وقالوا: هذا خارج عن المذهب وهذا ولا شك أنه خطأ عظيم، ومن اعتقد أن أحدًا من العلماء - وإن كبر بل ومن الصحابة - يجب التزام قوله عزيمة ورخصة تحليلًا وتحريمًا فإنه ضال مبتدع يُستتاب فإن تاب وإلا أدبه الحاكم بما يرى أنه يردعه عن ذلك.

وقسم توسط في التقليد والاجتهاد وقالوا: من أمكنه الاجتهاد ومعرفة الحق بنفسه لا يحل له

---

(١) سبق تخريجه.

أن يقلد ومن لا يمكنه فله أن يقلد واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] ولم يأمر الله بالسؤال إلا للرجوع إلى قوله وإلا لكان سؤالهم لغوًا لا فائدة فيه وبقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وبأن الله تعالى أباح التيمم عند عدم الماء، وبأن الله أباح الميتة عند الضرورة، إذا لم يجد الإنسان إلا ميتة فإما أن يأكلها فيبقى أو لا يأكلها فيهلك فيجب أن تأكلها وجوبًا فإن لم تفعل فأنت آثم، وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (اجعل التقليد كالميتة لا تحل إلا عند الضرورة).

١٣- **ومن فوائدها:** حسن الجدال في القرآن الكريم؛ حيث أقام الحجة على هؤلاء الذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بأن آباءهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون فهم ظالمون في علمهم وفي عملهم.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٥ - ١٠٨]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرر علينا كثيرًا وعرفنا - والحمد لله - ما يترتب على هذا الخطاب ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: الزموا

أنفسكم بالإصلاح ، ولهذا (على) تعتبر نائبة مناب اسم الفعل أي: الزموا أنفسكم بإصلاحها وطلب الهدى لها.

وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ لأن الناس قد يقولون: إذا كان هناك فسقة أو كفار فإننا نخشى على أنفسنا من هذا، فبين الله عز وجل أن ذلك لا يضرنا إذا أصلحنا أنفسنا، وهذا كما جاء في الحديث: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا هَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِ»[1].

وقوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ يعني: إذا استقمتم على صراط الله، ومن الهداية أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر بقدر الاستطاعة فليس في الآية دليل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن من أعظم الهداية وأتمها أن يأمر الإنسان بالمعروف وينهى عن المنكر.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: إلى الله مرجعكم أيها المؤمنون وكذلك غير المؤمنين فالمرجع إلى الله عز وجل، ويوم القيامة يفصل الله بين الخلائق، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنباءً يترتب عليه الثواب أو العقاب.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ استيقظ ذات ليلة محمرًّا وجهه يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَيْلٌ للعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقتَرَبَ قَالَ: فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالإِبْهَامِ» قالوا: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَم إِذَا كَثُرَ الخبَثُ»[2] قلنا: هذا لا يعارض الآية؛ لأنه إذا هلك الصالحون بسبب الفتنة التي حصلت من هؤلاء فإن ذلك لا يضرهم؛ لأن الهلاك مصير كل شيء لكنه لا يتضرر في دينه كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وبهذا الوجه يتبين ألا معارضة بين هذه الآية وبين ما جاء في الحديث.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان وأن أهله أهل لِأَنْ توجه إليهم الخطابات؛ لقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن إصلاح النفس والعناية بها من مقتضيات الإيمان فعليك نفسك اعتنِ بها وأصلحها ما استطعت.

٣ - **ومنها:** أن ضلال من يضل لا يترتب عليه ضرر المهتدي، يعني: الضرر المعين الشخصي،

(١) رواه أبوداود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٨٥) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

وأما الضرر العام: وهي العقوبة العامة فهذه قد تكون وقد لا تكون أيضًا، أليس الله تعالى إذا أخذ الأمم السابقة ينجي النبي ومن معه؟ بلى، إذنْ ليس من الضروري أن الله تعالى إذا أخذ المجرم بالعقوبة أن تشمل حتى المؤمن ولكن قد تكون.

٤ - **ومن فوائدها:** انقسام الناس إلى ضالٍّ ومهتدٍ؛ لقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، والضلال له سبب والهداية لها سبب، فسبب الضلال: الإعراض عن دين الله وعما جاءت به الرسل، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ومن أسباب الهداية: الإقبال على الله عز وجل وعلى ما جاءت به الرسل.

٥ - **ومن فوائدها:** أن المؤمنين إذا لم يهتدوا فقد يُسَلَّط عليهم أعداؤهم فيضروهم؛ لأن الله اشترط الهداية لعدم الضرر فإذا لم يهتد المؤمنون فيوشك أن يسلط الله تعالى عليهم الأعداء فيضرونهم في أموالهم أو أهليهم أو أوطانهم.

٦ - **ومن فوائدها:** أن المرجع إلى الله عز وجل لا إلى غيره وجه الدلالة لقولنا: (لا إلى غيره) تقديم ما حقه التأخير، لأن ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ مقدم، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص فالمرجع إلى الله عز وجل، وهل المراد بالمرجع المرجع يوم القيامة أو المرجع حتى في الدنيا بأننا عند النزاع نتحاكم إلى الله ورسوله؟

الجواب: المراد هذا وهذا فالمرجع إلى الله عز وجل لكن قد يقوي أن المرجع هو المراد به يوم القيامة قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** الإيمان بالبعث؛ لقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم﴾ والإيمان بالبعث أحد أركان الإيمان الستة فمن أنكره أوْ شَكَّ فيه فهو كافر يعني: يجب عليك أن تؤمن إيمانًا قاطعًا بأن الناس سيُبعثون ويحاسبون.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن كل إنسان يُبْعث صغيرًا كان أو كبيرًا وذلك بتأكيد هذا بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، ولكن هل من سقط من بطن أمه قبل أن تنفخ فيه الروح يبعث يوم القيامة؟ الجواب: لا يبعث؛ لأنه لم يكن إنسانًا، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فبيَّن جل وعلا أن الخلق بعد نفخ الروح غير الأول وأن الأول عبارة عن قطعة لحم.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن كل شيء قد أُحصي على الإنسان، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ و(ما) للعموم هنا فكل شيء فهو مكتوب، لكن هل يُمحى بعد كَتْبِهِ؟ الجواب: نعم يُمحى بعد كتبه، لكن القرار كما في اللوح المحفوظ، أما الأعمال اليومية التي تتكرر فإنها قد تثبت وقد تُمحى؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقول النبي ﷺ: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، لكن ما استقر في اللوح المحفوظ فإنه لا تغيير فيه؛ لأنه انتهى.

١٠- **ومن فوائدها:** أنه لا يُحاسب الإنسان على حديث النفس، هذا يؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحديث النفس ليس عملًا ودليل ذلك قول النبي: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[2] ولكن إذا رَكَنَ الإنسان إلى حديث النفس واطمأن إليه واعتقده فحينئذٍ يكون قد عمل عملًا قلبيًّا وليس جوارحيًّا.

١١- **ومن فوائدها:** إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦].

هذه الآية لها قصة: سافر رجلان كافران مع رجل مسلم ثم حضرته الوفاة وليس معه مسلم فأشهدهما على وصيته فهل تقبل شهادة هذين الرجلين أو لا تقبل؟

نقول: الحكم في هذه الآية والمسألة مسألة ضرورة؛ لأنه لا يوجد مسلم فإذا لم يوجد مسلم اضطررنا إلى قبول شهادة الكافر وللآية سبب مذكور.

قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: إذا مرضتم مرض الموت وليس المراد: حضور الأجل بالفعل؛ لأنه إذا حضر الأجل بالفعل فقد لا يُحسب لقول الإنسان.

وقوله: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ متعلق بشهادة؛ لأن الشهادة مصدر تعمل عمل الفعل فيصح أن يتعلق بها الظرف والجار والمجرور يعني: شهادة حين الوصية إذا حضر أحدكم الموت اثنان.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: صاحبا عدل، ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون فالخطاب هنا، للمؤمنين عمومًا، وهذا لا إشكال فيه أن يشهد الإنسان على وصيته اثنان ذوا عدل.

وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ثم ذكر الله الصورة التي دعت بعد ذلك الضرورة إلى إشهاد من ليس بمسلم وكلمة ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ تشمل كل ملل الكفر وإن كانت القضية وردت في اثنين من الكتابين من أهل الكتاب لكن العبرة بعموم اللفظ، ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يعني: سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة:١٠٦] هل هي للتخيير أو للتنويع؟ هي: للتنويع، أي: آخران من غيركم إن لم يوجد ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وهذا كقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾

---

(١) حسن: انظر «صحيح الجامع» (٩٧).

(٢) رواه البخاري (٢٣٩١)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يعني: أيقنتم أنكم ميتون لكون المرض مرضًا مخوفًا لا يرجى بُرئه.

وقوله: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ هذا كالتفصيل لقوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ يعني: عند آداء الشهادة ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ أي: الآخران من غيركم، والمراد بالحبس: الإيقاف، أي: توقفونها.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: بعد صلاة العصر؛ لأن الصلاة ـ صلاة العصر ـ هي أفضل الصلوات وهي الصلاة الوسطى وآخر النهار أقرب لإجابة الدعاء من أول النهار لاسيما إذا كان ذلك في يوم الجمعة ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: صلاة العصر.

فإذا قال قائل: لماذا جعلتم (أل) للعهد الذهني ولم تجعلوها للجنس فتقولون: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أيُّ صلاة؟ قلنا: لأن النبي ﷺ حبس الرجلين الشاهدين من بعد صلاة العصر، فتكون السنة هي التي عينت هذه الصلاة.

وقوله: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: يحلفان به ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ يعني: شككتم في شهادتها ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ أي: لا نشتري بهذا اليمين ثمنًا ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ المشهود له ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: صاحب قرابة، وحاصل هذا القسم أنهما يقسمان بأننا على حق وشهادتنا حق ولا يمكن أن نشهد بالباطل لأجل شيء من الدنيا ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على ﴿فَيُقۡسِمَانِ﴾ أي: ونحن لا نكتم شهادة الله أي: الشهادة التي حمَّلنا الله إياها على ما حصلت به الوصية.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ يعني: إن كتمنا شهادة الله لمن الآثمين، فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين وهما: (إن واللام)، ومعنى من الآثمين أي: من الواقعين في الإثم، وإنما يقولان ذلك زيادة في التوكيد أنهما شهدا بحق.

ثم قال: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ يعني: إن تبين أنهما استحقا إثمًا وذلك بشهادة الزور أي: تبين أن شهادتهما زور وكذب ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ يعني: في الشهادة ليرد شهادتهما؛ لكن من أين هذان الآخران؟ يقول: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾؛ لأن الشهادة بالوصية تستلزم أن يؤخذ من نصيب الورثة لمن أوصى له فيكون ما شهد به الأولان مستحق على هؤلاء الورثة، وقوله: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ يعني: هما الأوليان، أي: أولى الناس بإرث هذا الذي شُهد على وصيته، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: الشاهدان اللذان هما من ورثة الموصي ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ اللام في قوله: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾ واقعة في جواب القسم، وشهادتهما: هي نفس هذه الوصية، وشهادة الأولين إثبات الوصية، وإذا كانت أحق لزم أن تبطل شهادة الشاهدين الأولين وهما - كما قررنا أولًا - ليسا مسلمين بل هما من غير المسلمين، وقوله: ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ يعني: ما اعتدينا في الاعتراف وإبطال الشهادة ﴿إنا إذًا﴾ يعني: إن اعتدينا ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن شهادتهما استلزمت شيئين: الشيء الأول: القدح في شهادة الشاهدين الأولين والثاني: الظلم أي: ظلم الموصى لهم، فلذلك قال: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: ذلك المذكور أقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني: على الوجه الصحيح، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ يعني: الذين شهدوا أولًا إذا علموا أنه لابد أن يتعقبهم الورثة من يتعقبهم فإنهم سوف يحرصون غاية الحرص أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ﴿أَوْ﴾ إذا لم يأتوا بالشهادة على وجهها ﴿يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: أيمان الورثة ﴿بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: أيمان الشهداء ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أمر الله أن نتقيه بالتزام أحكامه وأكد هذا بقوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: اسمعوا ما أقول لكم وآمركم به وهو تقوى الله عز وجل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الفاسقين أي: الخارجين عن طاعته وهذا سيأتي في الفوائد أنه وعيد شديد أن الفاسق عرضة لئلا يهديه الله عز وجل، هذا هو معنى الآية الكريمة ويحسن أن نقرأ القصة حتى يتبين أكثر.

قال ابن كثير[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ : اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل: إنه منسوخ، يعني: شهادة الكافر وسيأتينا إن شاء الله تعالى في الفوائد أن بعض العلماء قال: إنها منسوخة لكن ليس بصحيح، لأن سورة المائدة يقولون: إنها ليس فيها شيء منسوخ؛ لأنها من آخر ما نزل.

ثم قال: (رواه العوفي عن ابن عباس وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم: إنها منسوخة وقال آخرون ـ وهم الأكثرون ـ فيما قاله ابن جرير: بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان)، وهذا هو الصواب وقد ذكرنا: أنه لا نسخ في سورة المائدة فهي كلها محكمة على أنه أي إنسان يدعي على أي نص من القرآن والسنة أنه منسوخ فعليه الدليل، ثم قال: (فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ فقيل تقديره: شهادة اثنين حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين) يعني: إذا كان الذي قال لابد من تقدير قالوت إنه لا يمكن أن تكون الجثة خبر للمعنى والشهادة معنى واثنان شخصان فقالوا: إنها على تقدير مضاف شهادة اثنين أو أن يشهد اثنان، والصحيح: أنه لا حاجة لهذا وأنه إذا فُهم المعنى فهو المقصود؛ ولهذا يقولون: الليلة الهلال فيخبرون بالظرف عن الجثة فالمعنى مفهوم ولا حاجة أن يقدر الليلة طلوع الهلال فالصواب أنه لا تقدير فالآية معناها واضح.

ثم قال: (وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين قاله الجمهور، قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: من المسلمين . رواه ابن أبي حاتم ثم قال: روى عن عبيدة وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد ، ويحيى بن يعمر، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٣٠ - ١٣٤/ ٣) ط. الصفا.

قال ابن جرير : وقال آخرون: عني ذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من أهل الموصى وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما)، لا شك أن القول الأول متعين؛ لأنه يخاطب المؤمنين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يخاطب المؤمنين وليس يخاطب أهل الذي وقعت فيهم القضية.

(وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سعيد بن عون حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين ، يعني: أهل الكتاب).

قوله: يعني: أهل الكتاب فيه نظر - فالصواب: أنه شامل لأهل الكتاب وغيرهم؛ لأن كل من ليس بمسلم فهو من غيرنا.

ثم قال: (وروى عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة وأبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك، وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ها هنا ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير قبيلة الموصي وقد روى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله ، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهذان الشرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر وأن يكون وصية كما صرح بذلك شريح القاضي، وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ولا تجوز في سفر إلا في وصية، ثم رواه عن ابن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال شريح فذكر مثله، وقد روى مثله عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضًا)، ولا يضر أن ينفرد الإمام أحمد بالمسألة إذا كان معه الدليل؛ لأن من كان معه الدليل فهو جماعة وإن كان واحدًا، وغالب ما انفرد به الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتتبع هو الصواب، وليس كل ما انفرد به بل غالب ما انفرد به هو الصواب.

ثم قال: (وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو داود حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري قال: مضت السنة أنه لا يجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر إنما هي في المسلمين، وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك في أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير وفي هذا نظر ـ والله أعلم -.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين:

أحدهما: أن يوصي إليهما كما قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية قال: هذا رجل مسافر ومعه مال فأدركه قدره فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء[1].

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال: لأنا لا نعلم حكمًا يُحلَّف فيه الشاهد وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره فإذا قامت قرائن الريبة حُلِّف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يعني: صلاة العصر وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي عن ابن عباس: يعني: صلاة أهل دينهما، وروي عن عبد الرزاق عن أيوب عن ابن سيرين عن عُبيدة وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد.

والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خانا أو غلَّا فيحلفان بالله ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ أي: بأيماننا قاله: مقاتل بن حيان ﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريبًا لنا لا نحابيه ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أضافها الله إليه تشريفًا لها وتعظيمًا لأمرها.

وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ مجرورًا على القسم رواها ابن جرير عن الشعبي وحكى عن بعضهم أنه قرأ: ﴿ولا نكتم شاهدةً الله﴾، والقراءة الأولى هي المشهورة.

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي: إن فعلنا شيئًا من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلَّا شيئًا من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٢٨)، والترمذي (٣٠٦٠)، وأبوداود (٣٦٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ [المائدة:١٠٧] هذه قراءة الجمهور: ﴿استُحق عليهم الأوليان﴾، وروي عن علي وأبي والحسن البصري أنهم قرأوها: ﴿استَحَق عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَان﴾.

وروى الحاكم في المستدرك من طريق إسحاق بن محمد الفروي عن سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقرأ بعضهم - ومنهم ابن عباس -: ﴿من الذين استحق عليهم الأوَّلين﴾ وقرأ الحسن: ﴿من الذين استحق عليهم الأوَّلان﴾ حكاه ابن جرير.

فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولى مَنْ يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾ أي: لقولنا: إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المقدمة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما.

وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهرت لوث في جانب القاتل فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مُقرر في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة[1] بمثل ما دلت عليه الآية الكريمة فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا الحسين بن زياد حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن أبي النضر عن باذان ـ يعني: أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب ـ عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتينا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له: بُدَيْل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يُبلِّغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي بن بداء فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا إليه فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فنزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء،

---

(١) «سنن الترمذي» (٣٠٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعف إسناده العلامة الألباني رحمه الله تعالى.

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شُعيب الحراني عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق فذكره عنده فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلف فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء. ثم قال: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي يُكنَّى: أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ثم قال: ولا نعرف لأبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ.

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه.

حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جُبير عن أبيه عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قَدِمَ بتركته فقدوا جامًا من فضة مخوصًا بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ووجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم وفيهم نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾، وكذا رواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يحيى بن آدم به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وهو حديث ابن أبي زائدة.

ومحمد بن أبي القاسم الكوفي قيل: إنه صالح الحديث، وقد ذكرهذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم: عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مُرسلة مجاهد والحسن والضحاك وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضًا ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب حدثني هُشيم أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المسلمين يُشْهِدُهُ على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب قال: فقدما الكوفة فأتيا الأشعري - يعني: أبا موسى الأشعري رضي الله عنه - فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيَّرا وإنها لوصية الرجل وتركته قال: فأمضى شهادتهما[1].

ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي داود الطيالسي عن شعبة عن مغيرة الأزرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى بدقوقا.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٠٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠٤١٣) وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح الإسناد، إن كان الشعبي سمعه من أبي موسى.

وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري.

فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك: قصة تميم وعدي بن بداء، قد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري كان في سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ـ والله أعلم ـ.

وقال أسباط عن السدي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وما عليه قال: هذا في الحضر ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ في السفر ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان فذلك قول الله ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾، قال عبد الله بن عباس: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخونوهما فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت: إنهما لا يباليان صلاة العصر ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشتري به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذنْ لمن الآثمين أن صاحبهم بهذا أوصى وإن هذه لتركته فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجُزْ لكم شهادة وعَاقِبتكما فإذا قال لهما ذلك فإن ذلك ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالا في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ قالا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته فإن صدقهما الورثة. قبلوا قولهما وإن اتهموهما حلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خُنَّا ولا غيرنا.

وقال علي بي أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا فإن اطلع الأولياء على أن الكافريْن كذبا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: أن شهادة الكافريْن باطلة وإنا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافريْن كذبا ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء فحلفا بالله: أن شهادة الكافريْن باطلة وإنا لم نعتد فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء وهكذا روى العوفي عن ابن عباس رواهما ابن جرير وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم وهو مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين، واستريب بها أقرب إلى إقامتها الشهادة على الوجه المُرضي.

وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أن يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن رُدتْ اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: وأطيعوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته ومتابعة شرعية. اهـ. كلامه.

أفاض الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية؛ لأن هذه الآية فيها إشكالات لكنه وجَّه حل جميع هذه الإشكالات، فيها إشكال من جهة الإعراب ومن جهة السياق ولكن الله عز وجل يتكلم بما شاء كيف شاء حتى يعرف الناس أن هذا القرآن الكريم مناسب لمقتضى الحاجة والقضية معقدة حكمًا وإعرابًا وغير ذلك لكن ـ الحمد لله ـ بمثل هذا التفسير يزول الإشكال.

خلاصة المعنى: أنه إذا سافر الإنسان وليس حوله مسلمين ليس حوله إلا كفار وأراد أن يوصي فليستشهد شاهدين اثنين على الوصية فإذا وصلوا إلى البلاد الإسلامية أدلوا بالشهادة وقُبِلَت الشهادة بدون أي شيء إلا إذا حصل ارتياب فإذا حصل ارتياب حينئذ نستعمل القسم نحبسهما من بعد الصلاة ونجعلهما يقسمان بالله أنهما صادقان وأنهما لم يشتريا بشهادتهما شيئًا من الدنيا، ويخوفان أن ترد أيمان بعد أيمانهم؛ لأن أولياء الموروث إذا أقسموا رُدَّت شهادة الشاهدين، ومعلوم أنه إذا حُكم برد شهادتهما صار ذلك عارًا عليهما وخزيًا فربما إن لم يخافا من الله خافا من العار والخزي؛ ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾.

هذا مجمل معنى الآية الكريمة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: جواز شهادة الكافر للضرورة، ولكن هل تخصص الضرورة في هذه الصورة أم في كل ضرورة؟ أولًا: في أصل المسألة وهي شهادة الكفر فيها قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن شهادة الكافر لا تقبل وهذا مبني على أن هذا الحكم منسوخ فلا تقبل، وهذا القول مردود بأن النسخ يحتاج إلى دليل وأن سورة المائدة قال فيها كثير من العلماء: ليس فيها نسخ؛ لأنها من آخر ما نزل فليطرح هذا القول، والعجب أن الذي قال بهذا القول أكثر العلماء وأن القول بشهادة الكافر هو قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وما أكثر ما ينفرد بالشيء فيكون قوله هو الصواب كقوله في مثل كفر تارك الصلاة فقد انفرد بهذا القول لكن حقيق له أن ينفرد؛ لأن معه الكتاب والسنة والصحابة.

وعلى القول بقبول شهادة الكافر هل يختص هذا بهذه الصورة الواقعة، بمعنى أنه يشترط أن

يكون الشاهدين كتابيين؛ لأن الشاهدين في هذه القصة كانا من النصارى فهل يشترط أن يكون الشاهدين كتابيين أو لا يشترط؟ المشهور من المذهب أنه يشترط فيهما أن يكونا كتابيين ولا يصح؛ لأن ظاهر الآية يخالف ذلك وأن الآية عامة في كل كافر، وهل يختص ذلك بالوصية أم بكل شيء؟ هذا أيضًا محل اختلاف وسبب القول باختصاص الوصية أن هذه خارجة عن قواعد الشهادة والخارج عن القواعد أن يختصر فيه على ما خرج فقط يعني على ما ورد فقط، وسيأتي إن شاء الله - على القول الراجح - أنه يجوز شهادة غير الكتابيين وأنه يجوز الشهادة في الوصية وغيرها وفي السفر وغيره، وهذا قد يقع الآن عندنا، فكثير من المستشفيات القائمون على العلاج نصارى فإذا حضر الموت أحد هؤلاء المرضى وأشهد من عنده من الأطباء فهذا حكمه كذلك.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنه ينبغي الإشهاد على الوصية؛ لقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ وظاهر الآية الكريمة أنه لا بد من رجلين؛ لقوله ﴿ٱثۡنَانِ﴾ واثنان عدد للمذكر فهل هذه الآية على ظاهرها؟

الجواب: أن يقال هذه الآية تُقَيَّدُ بآية سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لأن الأموال وما يُحسب من الأموال يكفي في إثباته واحد من أمور ثلاثة يعني: إذا لم يُقر المدعى عليه يكفي في إثباته واحد من أمور ثلاثة: شهادة الرجلين ، أو شهادة رجل وامرأتين، أو شهادة رجل ويمين المدعي ، هذه بيانات المال وما يتعلق به المال، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَانِ﴾ هذا مبني على الأكمل يعني: أن الأكمل في الشهادة على الوصية أن يكون الشاهدان رجلين.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز الوصية عند حضور الموت؛ لقوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وهذا مقيد بما إذا لم يتغير تمييز الموصي فإن تغير تمييز الموصي فلا حاجة لقوله، يعني: لو عند مرضه صار كلامه غير مرتب فإنه لا عبرة لهذا الكلام وهذا معروف من قواعد الشريعة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أنه يشترط في الإشهاد أن يكون الشاهدان ذوي عدل؛ لقوله: ﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ﴾ وسبق لنا تعريف العدالة ولكن إذا لم يوجد عدل ووجد فاسق مأمون فهل يقوم مقام العدل؟ اشترط بعض أهل العلم أن ذلك يقوم مقام العدل وأن اشتراط العدالة إنما يكون عند التحمل بمعنى: أنك إذا أردت أن تُشهد فلا تُشهِد إلا عدلين، أما عند أداء الشهادة فالضرورات لها أحكام إذا لم نجد من يشهد إلا هذين الفاسقين لكنهما في الأمانة موثقان فإننا نقبل شهادتهما. وهذا الأخير هو الصواب: أن العدالة شرط مع الإمكان وأنه إذا لم يمكن فإنه تقبل شهادة الفاسق بشرط أن يكون ثقة، وكم من إنسان يكون فاسقًا في عبادته ولكنه أمين في شهادته وعلم أننا لو اتبعنا اشتراط العدالة في أداء الشهادة معتبرين الشروط التي ذكرها الفقهاء في العدالة فإن كثيرًا من الحقوق سوف تضيع؛ لأن كثيرًا من الناس ليس على الاستقامة التي ذكرها الفقهاء رحمهم الله.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز شهادة الكافر إذا عُدِم المسلم؛ لقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهل يختص هذا بالكتابيين أم بكل كافر؟ ظاهر الآية لكل كافر؛ لقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ سواء كان يهوديًا أو نصرانيًا أو شيوعيًا أي كافر، لقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن شهادة الكافر لا تقبل مطلقًا وأجاب بأن هذه الآية منسوخة؛ لأن الله تعالى اشترط عدالة الشهود والكافر ليس بعدل.

والقول الثاني: أن شهادة الكافر جائزة بشرط أن يكون كتابيًا أو تكون عند الضرورة فاشترط الشرطين الأول: الضرورة؛ بألا يوجد مسلم، والثاني: أن يكون الشاهدان كتابيين وهؤلاء احتجوا باشتراط الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقيدوا ذلك بالكتابيين؛ لأن القضية التي وردت فيها الآية كان الشاهدان من أهل الكتاب وقالوا في تقرير الاحتجاج: إن عدم اشتراط الإسلام لهذه الصورة فرع عن الأصل وما خرج عن الأصل وجب اختصاصه لما ورد فيه فقط، ولا شك أن الجواب على هؤلاء سهل، نقول: الآية الكريمة عامة والعبرة بعموم اللفظ ولذلك إذا أراد الله تخصيص الحكم بأهل الكتاب قيده، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فأما أن نقيد ما أطلقه فهذا ليس بصواب وهذه قاعدة يجب على طالب العلم أن يسلكها، كل أمر ورد مطلقًا في الكتاب والسنة فلا يجوز إضافة قيد إليه أبدًا؛ لأنه إذا فعل فقد ضيق ما وَسَّعَهُ الله وجعل نفسه مُشرعًا ومُستدركًا على الحكم الشرعي وهذا خطير، فالقاعدة إذنْ: أن كل ما أطلقه الله ورسوله فالواجب ابقاؤه على الإطلاق ولا يحل أن يضيق إليه قيدًا إلا بدليل لابد من اتباعه وحينئذ نقول: الصواب: أنه يجوز أن يشهد اثنان على الوصية عند عدم المسلم سواء كانا كتابيين أو غيرهم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو مرتبة المسلم على الكافر وهذا لا إشكال فيه، ووجه ذلك: أن شهادة الكافر لا تقبل إلا إذا لم يوجد المسلم وهذا يدل على أن المسلم أعلى مرتبة ومنزلة من غير المسلم، فإن قال قائل: فهمنا أن شهادة الكافر فيما يتعلق بأمور المسلمين لا تجوز إلا عند الضرورة فهل تقبلوا شهادة الكفار بعضهم على بعضهم؟ الجواب: نعم سواء كان للضرورة أو لغير ضرورة، شهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة بشرط أن يكون عدلًا في دينه كما اشترطنا في استشهاد المسلم أن يكون عدلًا.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السفر يطلق عليه الضرب في الأرض؛ لقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والقرآن الكريم تارة يذكر السفر بلفظه وتارة يُكني عنه بالضرب في الأرض كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [المائدة: ٥] هذا لفظ للسفر ولم يقل: أو ضربتم في الأرض، وقال تعالى في الصيام: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إطلاق الضرب في الأرض ولم يقيد بمسافة القصر أو أكثر أو أقل.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا أراد الشاهدان من غير المسلمين أداء الشهادة فإنهما يحبسان من بعد الصلاة يعني: يوقفان من بعد الصلاة وذلك لانتفاء التهمة؛ لأن الصلاة مُعظَّمة والإنسان يخاف أن يشهد بالباطل بعد هذه الصلاة التي ذكرها الله، ولكن هل هذا مشروط بالارتياب في شهادتهما أو نقول: إنهما يحبسان على كل حال ليظهر الفرق بين أداء الشهادة للمسلم وأداء الشهادة من غير المسلم؟ الآية فيها احتمالات؛ ولأن قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ قيدًا في قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، ويحتمل أن تكون قيدًا في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، فعلى الاحتمال الأول: يكون حبسهما واجب، وعلى الثاني: لا يكون حبسهما واجبًا إلا إذا ارتبنا منهم.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يُحلَف بغير الله؛ لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ فلو أقسم بغير الله حتى ولو بمن يُعظم عندهم كالمسيح - مثلًا - فإنها لا تقبل ولا يعتد بها.

١١ - **ومن فوائد الآية:** أن قَسمهما لا يلزم إلا عند الارتياب في شهادتهما، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، فهل يؤخذ من هذا أن للقاضي أن يُحلِّف الشاهدين عند الارتياب في شهادتهما؟ نقول: نعم له ذلك، ولا يقول قائل: إنما ورد ذلك في ارتيابنا في الكفار.

لو قال قائل: إن هذا وارد في ارتيابنا في الكفار؟ فالجواب نقول: إن الحكم يدور مع علته؛ لأننا لم نُحلِّفهما بالله إلا عند ارتيابنا لا لكونهما من الكفار، إذنْ للقاضي أن يُحلِّف الشهود إذا ارتاب في شهادتهم، وهل للقاضي أن يفرق الشهود أيضًا عند الارتياب بأن يخلو بكل واحد منهما ويسأله سؤالًا تفصيليًّا حتى إذا اختلفا علم أن شهادتهما غير صحيحة؟

الجواب: نعم له ذلك، وهل له أن يُوري فيظهر لهما خلاف ما يريد لاستظهار الحق؟ الجواب: نعم، ويدل لذلك قصة سليمان مع المرأتين اللتين خرجتا لحاجة لهما ثم أكل الذئب ولد إحداهما فتخاصمتا إلى داود فقضى للكبرى ثم تحاصما إلى سليمان فطلب سكينًا قال: يريد أن يشق الولد نصفين ويعطي الكبرى نصفه والصغرى نصفه، فالكبرى وافقت على هذا الحل؛ لأنها ليس في قلبها رحمة له وولدها قد أكله الذئب فمات فليكن هذا تبعًا له والصغرى قالت: يا نبي الله هو لها فتنازلت عن دعواها لشفقتها ورحمتها وليس معنى قولها: هو لها أنه عبد لها بل هو لها يعني: أنه قد تنازلت عن الدعوى فقضى به سليمان للصغرى، فإذا ارتاب القاضي في شهادة الشهود فلا بأس أن يوري في الحكم من أجل استظهار الحق.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن يكون الإقسام على هذا: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا

قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾، فهل يكتفي بالمعنى أو لا بد من هذا اللفظ بعينه؟

الصواب: أنه يكفي المعنى؛ لأن هذا اللفظ لا يُتَعَبَّد به حتى نقول: لا يمكن أن يغير، فيعبر الله عز وجل عن المعنى بهذا اللفظ، إذنْ فالمرجع إلى المعنى .

١٣- **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن للقرابة تأثيرًا في الميت لقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، وهذا شيء فطري معروف، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كتمان الشهادة إثم؛ لقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾.

وقد قرر الله هذا بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ولا شك أن الشهادة إذا كتمها الإنسان لزم من ذلك إخفاء حق واجب لشخص وإضافة باطل للشخص الآخر، فمثلًا إذا استشهده شخص بأن في ذمته فلان له كذا وكذا وكتمه ما الذي يحصل؟ إخفاء الحق وإضافة الباطل إلى من لا يشهد عليه.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ردُّ اليمين على المدعي، لقوله: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ كيف يرد اليمين على المدعي؟ ادعى زيد على عمرو مائة درهم فطلبنا البينة من زيد فقال: لا بينة عندي ولكن اطلب يمين المدعى عليه فإذا حلف المدعى عليه انتهت القضية؛ لأنه بريء بمعنى: لو أن المدعي - فيما بعد - علم ببينة له لم يعلمها من قبل فإنه على دعواه ولكن انتهت الخصومة، لو قال المدعي: إذا نكل عن اليمين احكم عليه؛ لأن الخصومة انتهت وأنه لا يطالبه بشيء فرأى القاضي أن يرد اليمين على المدعي فهنا لا بأس؛ لأنه قد يكون المُنكِر صادق ولكنه يحتاج إلى إثبات زيادة فيرده عليه وهذا القول مشهور أنه يجوز أن ترد اليمين على المدعي كما في هذه الآية.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز تنكيل مَنْ عليه الحق عن القضية والتدقيق فيها حتى يُعثر على حق فيها؛ لقوله: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ﴾ والعثار لا يكون إلا بعد التحري.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشاهدين إذا غيرًا في الشهادة بزيادة أو نقص أو تبديل فهما آثمان؛ لقوله: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾، وذلك لكون الشهادة غير صحيحة؛ لأن هذا إثم.

١٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يقام عند العثور أن الشاهدين كاذبان اثنان ممن استحقا عليهم، والقضية معروفة في الوصية، فيقوم اثنان ممن استحق عليهم ويكون الاثنان هما

الأوليان يعني: المستحقان لإرث الميت، والكلام في الآيتين عن الوصية.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الإرث يكون للأولى فالأولى، يؤخذ هذا من قوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ وقد جاء الحديث مقررًا ذلك وهو قول النبي ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(١).

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المدعى عليه لا يبطل ببطلان الشهادة التي تبين أن فيها شيء من الخلل؛ لقوله: ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ بهذا اللفظ ولم يقل بعده: إن شهادتك كونها أحق من شهادتنا يستلزم أن تكون مردودة؛ لأن القول قول المدعى عليه.

٢١- ومن فوائد الآية: أنه إذا احتيج في الشهادة أو في القسم إلى إثبات ونفي فلابد من ذكر إثبات ونفي كقولهما - يعني الأوليين - ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ هذا إثبات ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ هذا نفي، فإذا احتيج إلى ذلك فلابد من ذكر النفي والإثبات حتى تكون الشهادة صالحة.

٢٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن رد الأوليين لشهادة الشاهدين أعظم اعتداءً من تغيير الشهادة من الشاهدين ووجه ذلك: إذا تغيرت شهادة الشاهدين قال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ وهنا قال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وسبق التفسير وبيان وجه الضرر والفرق بينهما.

٢٣- ومن فوائد الآية: أنه كلما كان الشيء أقرب إلى استنتاج الصواب والحق في الشهادة فهو أولى أن يُتَّبع؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، لأن الإنسان إذا فهم أن وراءه أناسًا سيقومون على رد شهادته والإقسام على بطلانها فلا بد أن يتحرى الصدق فيما شهد به.

٢٤- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب تقوى الله والسمع والطاعة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ومعنى اسمعوا هنا: استجيبوا كما سبق في الشرح.

٢٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله عز وجل أخبر بأنه لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن طاعته وخبره هذا صدق لكن يُشكل على هذا أن الواقع أن الله قد يهدي الفاسقين ويهدي الكافرين فكيف نجمع بين الواقع وهذا الخبر الصادق؟ الجمع نقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] أي: الذين كتب الله عليهم الفسق؛ وأما من كتب أن يؤمن فيؤمن ولابد، ولكن الفائدة من هذا إطلاق قول الله: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إشارة إلى أن عدم هداية الله للفاسقين بأنهم اختاروا الفسق كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] نسأل الله لنا ولكن الهداية وأن يعيذنا من أنفسنا والشيطان.

(١) رواه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

كلمة ﴿يَوْمَ﴾ ظرف والظرف والجار والمجرور لابد لهما من عامل ويُسمى هذا العامل متعلَّق، ولهذا قال ناظم القواعد:

لَابُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بِفِعَلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

يعني: اسم فاعل واسم مفعول وما أشبهه، فعلى هذا يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوبة وعامله محذوف؛ لأنه ليس بين أيدينا عامل يمكن أن نحيل العمل عليه فنقول: العامل محذوف والتقدير: (اذكر يوم).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هنا مضافة إلى الجملة الفعلية التي فعلها مضارع فهي إذنْ منصوبة وليست مبنية؛ لأنها أُضيفت إلى فعل معرب وهي لا تُبنى إلا إذا أُضيفت إلى فعل مبني.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ الاسم الكريم فاعل وبعضهم يقول: لفظ[1] الجلالة فاعل وبعضهم يقول: الله فاعل، لكن الأولى أن يقال: الاسم الكريم أو لفظ الجلالة حتى لا يقع الشيء على نفس ذات الله عز وجل بل على الاسم، فهو فاعل و﴿الرُّسُلَ﴾ مفعول به ﴿فَيَقُولُ﴾ معطوفة على ﴿يَجْمَعُ﴾؛ ولهذا صارت مرفوعة، ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون (ماذا) كلمة واحدة على أنها استفهام، ويحتمل أن تكون ﴿ما﴾ اسم استفهام و﴿ذا﴾ بمعنى: الذي كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في «الألفية»:

وَمِثْلُ مَا ذَا بَعْدَ مَا اسْتِفْهَام أَوْ مَنْ إِذَا لَمْ تُلْغَ فِي الْكَلَام

فإن قلنا: إن ﴿مَاذَا﴾ كلمة واحدة صارت اسم استفهام، وإذا قلنا (ما) اسم استفهام وذا بمعنى الذي صارت ما اسم استفهام مبتدأ و(ذا) اسم موصول خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿أُجِبْتُمْ﴾ مبني لما لم يُسمَّ فاعله ويقال: مبني للمفعول ويقال: مبني للمجهول ويقال: مبني لما لم يُسمَّ فاعله والأخير هو الأولى؛ لأنه قد يُبنى على هذه الصيغة وفاعله معروف لكنه لم يُسمَّ كقول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] لا يمكن أن تقول خُلق فعل ماضٍ مبني للمجهول؛ لأن الخالق معلوم ولهذا عبر ابن مالك في الألفية بقوله: ما لم يُسمَّ فاعله ـ وهذا أحسن ـ.

وقوله: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ هذه جواب قوله: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.

---

(١) الأصوب أن نقول: اسم الجلالة.

وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ لا نافية للجنس وهي تعمل عمل إن، لكن اسمها يكون مبنيًّا معها إذا كان مفردًا، والمفرد ينافي الجنس ما ليس مضافًا ولا شبيهًا بالمضاف، وعلى هذا فيكون ﴿عِلْمَ﴾ مبني على الفتح، ﴿لَنَآ﴾ جار ومجرور خبر.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ جملة استئنافية تبين أنهم وصلوا العلم إلى عالمه هو الله تبارك وتعالى ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمع غيب، وإن: تنصب الاسم وترفع الخبر، و(الكاف) اسمها و(علام) خبرها وهو مضاف إلى ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾.

أما معنى الآية: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني: اذكر هذا اليوم العظيم وذلك في يوم القيامة حيث يجمعهم ولا يجب علينا أن نسأل على أي كيفية أو في أي وقت، هل هو في أول يوم القيامة أو في آخره أو ماذا؟ يجب علينا في مثل هذه المسائل الغيبية أن نقف حيث وقف النص؛ لأنه ليس للعقل في هذا مدخل، ولا ندري أيكون أول ما يبعث الناس في أثناء اليوم أو في آخر اليوم وعلينا أن نذكر هذا الجمع.

وقوله: ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ جمع رسول فيشمل الرسل من أولهم إلى آخرهم وأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ يعني: ماذا أجابكم الذين أرسلناكم إليهم؟ وهذا كقوله في المرسَلِ إليهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وعلى هذا فيكون الله عز وجل يسأل الرسل ويسأل المرسَلَ إليهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أما سؤال الذين أرسل إليهم أن يقال لهم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وسؤال المرسلين أن يقال لهم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ وهذا السؤال هل هو للاستعلام؟ فالجواب: لا؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هل هو للتوبيخ أي: توبيخ المرسل إليهم كقوله تعالى: :﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] الموءودة ما لها ذنب وتسأل بأي ذنب قتلت؛ توبيخًا لقاتليها، فيكون ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ المقصود به توبيخ المرسل إليهم وهذا لا شك أنه الصواب، وأما الاستعلام فغير وارد.

وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ لا شك أن الإنسان يُشكل عليه هذا النفي وهو نفي مطلق عام؛ لأنه بلا النافية للجنس فكيف لايكون عند المرسلين علم؟ الجواب على هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يقال:

لا علم لنا بما حدث بعدنا كقول النبي ﷺ في الواردين على الحوض حين يوردون فَيُرَدُّونَ عنه فيقول: «أُصَيْحَابِي» فيقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك[1] فيكون لا علم لنا أي: فيما حدث

---

(١) رواه البخاري (٤٣٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعدنا، وهذا حق لا علم لهم.

والوجه الثاني: لا علم لنا بما في بواطن الذين أجابوا؛ لأن من الذين أجابوا الرسل من كانوا منافقين لا يعلم الرسل ما في قلوبهم وهذا أيضًا وجه قوي، فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون ما في قلوب الذين يظهرون اتباعهم، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] والمعرفة في لحن القول مبنية على قرينة ليس على شيء مخصوص مقطوع به.

والوجه الثالث: لا علم لنا إلا ما علمتنا وأنت تعلم بماذا أُجِبْنَا؛ لأنك علام الغيوب وهذا وإن كان له وجه لكن ليس بالقوي، فأحسن لو يقال: إنه لا علم لنا بما حدث بعدنا أو علم بما في بواطن القلوب.

واحتمال رابع: هو أنهم قالوا: لا علم لنا تأدبًا مع الله عز وجل كما يقول التلميذ لأستاذه: ليس عندي علم تأدبًا معه وإن كان عنده علم، وكان ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ يميل إلى هذا القول أن المعنى تأدبًا مع الله؛ لأنهم يعلمون أن الله لا يسألهم استعلامًا؛ لأنه عالم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ﴿أَنتَ﴾ هنا هل نقول: إنها توكيد للكاف في ﴿إِنَّكَ﴾، أو نقول: هي ضمير فصل لا محل لها من الإعراب، أو نقول: إنها مبتدأ وخبره ﴿عَلَّٰمُ﴾؟ كل هذا محتمل، وأوجه الإعراب كثيرة ولهذا يقولون: إن حجج النحويين ما نافقاء اليرابيع، والنافقة بحر اليربوع، واليربوع ذكي يحفر له جُحرًا في الأرض، ويمضي فيه ثم يحفر في آخره إلى فوق حتى إذا لم يبق إلا قشرة رقيقة فإذا سد عليه أحد الباب فبالنافقة يسهل الخروج منها، فكذلك النحويين: كلما حججتهم من جهة وتقول: هذا ما يصح، أتوا من وجه آخر ولو كان الاحتمال بعيدًا، ولذلك لا يُغلَب النحوي القوي في النحو أبدًا؛ لأنه كلما أتيت عليه بحجة يستطيع أن يأتي لك بما يسوِّغ قوله.

فنقول: كلمة ﴿أَنتَ﴾ إما أن تكون ضميرًا منفصلًا، أو توكيدًا للكاف، أو مبتدأ.

وقوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ هذه نسبة ومبالغة في الواقع، يعني: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ علام الغيوب يعني: أنه ذو علم بالغ للغيوب، والغيوب: جمع غيب وهو: ما يخفى على الخلق،فالله جل وعلا علام الغيوب ، ما من غائبة في السموات والأرض إلا في كتاب مبين يعلم حتى ما لم يكن لو كان كيف يكون، ليس يعلم الموجود ولكنه غائب عن الخلق فحسب بل يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون جل وعلا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** أنه يجب على الإنسان أن يتذكر هذا اليوم العظيم لينظر بما أجابت به الرسل وهو يوم القيامة حين يُجمع الرسل ويُسألون.

٢ - **ومنها:** تمام قدرة الله تبارك وتعالى وذلك بجمعه الرسل في ذلك الموقف العظيم الذي

يختلط فيه الآدميون والوحوش والسباع والإبل وغيرهم فيجمع الله الرسل - سبحانه وتعالى - بقدرته وإذنه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الرسل عليهم الصلاة والسلام حيث إن الله تعالى يعتني بهم هذا الاعتناء حتى إنه يسألهم يوم القيامة في هذا المشهد العظيم ماذا أجيبوا تكريمًا لهم وإظهارًا أنهم بلغوا الرسالة.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات القول لله عز وجل؛ لقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ وإثبات القول لله قد امتلأ به القرآن وامتلأت به السنة وصار إثبات القول لله من الأمور القطعية اليقينية، وهي أن الله سبحانه وتعالى يقول.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه يقول بحرف وصوت وجه الدلالة: أن مقول القول هو قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، وهذه حروف، وجه الدلالة على الصوت أنه يخاطب الرسل فلابد أن يكون خطابه مسموعًا لهم وإلا لم يكن له فائدة، وهذا الذي قررناه في إثبات القول لله عز وجل وإنه بحرف وصوت هو الذي أجمع عليه أهل السنة وأئمتهم ومقلدوهم، ومن قال سوى ذلك فهو مبتدع ضال، من قال: إن الله لا يوصف بالقول وإن الذي يضاف إليه من الأقوال عبارة عن أصوات مخلوقة خلقها الله عز وجل لتعبر عما في نفسه فهذا القول من أبطل الأقوال، وقد أبطله شيخ الإسلام في رسالة تسمى «التسعينية» من تسعين وجهًا رَحِمَهُ اللَّهُ وهو جدير بالإبطال؛ لأنه قول متناقض فاسد، والمشكل أن هذا عليه كثير من الناس اليوم؛ لأنه مذهب الأشعرية السائد بين الكثير من أئمة المسلمين مع أنه باطل ولا يمكن أن يصدقه من كان على الفطرة السليمة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تأدب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع الله عز وجل حيث قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ هذا وجه، والوجه الثاني: أنهم علموا قدر أنفسهم وأنهم لا يعلمون الغيب، والوجه الثالث: أنهم علموا أن الأمم بعدهم لا يعلمون عنها شيئًا حسب الاحتمالات التي ذكرناها في وجه قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الغيب لله عز وجل لقول الرسل عليهم الصلاة والسلام وهذا القول إجماع منهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ يعني: لا ريب فيمن ادعى علم الغيب أنه: كافر؛ لأنه مكذب للقرآن الكريم ولما أجمع عليه المسلمون، ومن قال: سيحصل في يوم كذا كذا وكذا فهو كافر، والكهنة يخبرون عن مغيبات المستقبل لكنهم لهم أناس من الجن يستمعون الوحي ويسترقونه ويلقونه إلى الكاهن ويضيف الكاهن إليه كذبات كثيرة ويصدق بكلمة واحدة وهذا لا ينافي القول بأن الله وحده هو علام الغيوب؛ لأن الله تعالى قال في هؤلاء الذين يسترقون السمع: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ فاستثنى الله - عز وجل -: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الحجر: ١٨].

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]

التفسير

نقول في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ كما قلنا في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ أي أن: ﴿إِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر.

وقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا نداء وصف أو عطف بيان، وعيسى: منادى مبني على الضم؛ لأنه عَلَم وكل عَلَم يُنادى وهو غير مضاف فإنه يُبنى على الضم في محل نصب، فتقول: يا زيدُ ولا تقل يا زيدًا، وأما قوله: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ فهو وصف أو عطف بيان ونُصِبَ؛ لأنه مضاف، و﴿مَرْيَمَ﴾: اسم أمه نُسِب إليها؛ لأنه لا أب له؛ لأنه خُلق من أم دون أب.

وقوله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ هذه مقول القول ثم فصَّل ذلك قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هذه ﴿إِذْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿نِعْمَتِى﴾ ونعمة مفعول اذكر، وقوله: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ الفاعل مستتر تقديره أنا، والفاعل إذا كان تقديره أنا أو نحن أو أنت كان مستترًا وجوبًا، وإذا كان تقديره هو أو هي فإنه مستتر جوازًا إلا في بعض المسائل مثل فعل التعجب فإن تقدير الفاعل فيه هو ومع ذلك مستتر وجوبًا، وقوله: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ متعلق بـ ﴿أَيَّدتُّكَ﴾.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ هذا بيان النعمة أو جملة استئنافية، وقوله: ﴿تُكَلِّمُ﴾ الفاعل مستتر تقديره أنت ،والناس مفعول به، ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي: حال كونك في المهد، و﴿وَكَهْلًا﴾ وحال كونك كهلًا.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ يعني: واذكر نعمتي عليك أيضًا إذ علمتك، فتكون الواو حرف العطف و﴿إِذْ﴾ معطوفة على الأولى، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وعلم تنصب مفعولين: المفعول الأول: الكاف، والثاني:الكتاب، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوفة عليه ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ معطوفة عليه، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ معطوفة على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ فهو من نعمة الله عليك فهي

إذْ في محل نصب، ﴿تَخْلُقُ﴾ أي: أنت ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ الكاف اسم بمعنى: مثل أي: مثل هيئة الطير وهو مضاف - وإن كان حرفًا - إلى هيئة، وهيئة مضافة إلى الطير، ﴿بِإِذْنِي﴾ متعلق بتخلق، ﴿فَتَنفُخُ﴾ معطوفة على تخلق ﴿فِيهَا﴾ أي: في هذه المخلوقة التي خلقتها ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ ﴿طَيْرًا﴾ خبر تكون واسمها مستتر جوازًا ﴿بِإِذْنِي﴾ متعلقه بـ (تكون) ﴿وَتُبْرِئُ﴾ معطوفة على تخلق، يعني: وإذ تبرئ الأكمه والأبرص وتبرئ: فعل مضارع فاعله ضمير مستتر وجوبًا تقديره (أنت).

وقوله: ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ مفعول به متحفظ عليه، و﴿بِإِذْنِي﴾ متعلق بتبرئ، و﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ نقول في إعرابها كما قلنا في إعراب ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوفة على إذ الأولى و﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ يعني: اذكر نعمتي عليك إذ كففت عنك و﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مفعول ﴿كَفَفْتُ﴾، وعنك متعلقة بـ ﴿كَفَفْتُ﴾، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلقة بـ ﴿كَفَفْتُ﴾ أيضا، وبالبينات صفة لموصوف محذوف والتقدير بالآيات البينات، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني اسرائيل ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جملة في محل نصب مقول القول وإن نافية، وهذا مبتدأ، وإلا آداة حصر، و﴿سِحْرٌ﴾ خبر المبتدأ ، و﴿مُّبِينٌ﴾ صفته.

يقول الله عز وجل مُذكّرًا عيسى عليه الصلاة والسلام بهذه النعم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وعيسى هو ابن مريم وهو من بني اسرائيل ومن ذرية إبراهيم كما قال عز وجل: ﴿ومن ذريته اسماعيل واسحاق... الخ﴾.

أما المعنى فقوله: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: اذكر النعمة التي أنعمت بها عليك وعلى والدتك، أما نعمته عليه فذكرها وعدَّ منها ما عدَّ؛ وأما نعمته على الأم فإنه يسر لها وهيأ لها المكان الذي تضع فيه حملها وجعل عندها رطبًا جنيًّا ونهرًا على قول في معنى سريًّا، ومن نعمته أيضًا على أمه أنه أنطق عيسى في المهد؛ ليبين براءة أمه لما اتهمها فيه اليهود الذين قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

يعني: وأنتِ كيف صرتِ على هذا الحال؟

وقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: قويتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل عليه السلام يؤيده في كل ما يحتاج فيه إلى تأييد ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ هذه من نعمة الله عليه أنه يكلم الناس في المهد أي: وهو صغير يحمل باليد، والعادة أن هذا لا يتكلم ﴿وَكَهْلًا﴾ أي: كبيرًا، والكهل قيل: ما بين الثلاثين إلى الخمسين وقيل: ما بين الثلاثين والأربعين، وإنما ذكر الله تكليمه في المهد وتكليمه حين كان كهلًا، ليبين أن كلامه حين كان في المهد ككلامه حين كان كهلًا لا يختلف والمعروف أن الصغير لا يتكلم ولو تكلم لم يكن كلامه ككلام الكبير لا في الأداء ولا في الترتيب

ولا في المعنى، لكن كلام عيسى حين كان في المهد ككلامه حين كان كهلًا، ولذلك لو قال قائل: ما الفائدة من قوله ﴿وَكَهْلًا﴾؛ لأن كلام الإنسان في حال الكهولة أمر معلوم؟ قلنا: ليبين أن كلامه حين كان كهلًا ككلامه حين كان في المهد.

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ الكتاب قيل: إنه الكتابة يعني: ليس المراد الكتاب المنزل بدليل قوله: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ فيكون الكتاب بمعنى: الكتابة.

وقوله: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي: العلم والفهم والعقل الراجح حيث ينزل الأشياء في منازلها؛ لأنه أحد رسله الكرام، فالحكمة إذنْ هي العلم والفهم والرشد أي: تنزيل الأشياء في منازلها ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ التوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى ، والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى وهو فرع على التوراة؛ لأن الأصل هو التوراة، لكن الإنجيل قد جاء فيه بعض الأشياء التي لم تكن في التوراة كما قال عز وجل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ أيضًا هذه من نعم الله عليكَ يعني: تصنع من الطين شيئًا ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي: فيما صنعت من هذه الهيئة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ وفي قراءة ﴿طائرًا﴾ ﴿بِإِذْنِي﴾ يعني: يخلق شكل طائر مثل شكل حمامة فينفخ فيها نفخة واحدة فتكون طيرًا حيًّا، والقراءة الثانية ﴿طائرًا﴾ أي: أنها تطير بالفعل وهذا لا أحد يقدر عليه إلا الله عز وجل أو من أَذِنَ له بذلك ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ تبرئ: أي تشفي الأكمه من مرضه، والأكمه أحسن ما قيل فيه: إنه الذي وُلِد بلا بصر إما لأن الأشكال لم تنفتح - وهذا واقع - يعني: وقع ما نقول في زماننا - فأشكالهم منطبقة غير منفتحة، أو أن المعنى: الأعشى الذي يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار أو بالعكس ولكن المعنى الأول أبلغ في الآية أن يكون خُلِق بلا بصر فيبرئه بإذن الله .

وقوله: ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ فمعروف، وأما قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ ذكرها لبيان أن هذه الآية العظيمة لم تكن إلا بإذن الله، وفي سورة (آل عمران) كرر الإذن مرتين، لكن في (آل عمران) من الذي قال ذلك، هل الله خاطب عيسى أم عيسى خاطب قومه؟ الجواب: عيسى خاطب قومه.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: من قبورهم، فيقف على القبر ويقول: يا فلان اخرج فيخرج بإذن الله - عز وجل - في آية (آل عمران) يقول: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فإذا جمعت هذه إلى هذه صار عيسى عليه السلام يحي الميت قبل أن يدفن ويحيه بعد أن يُدفن.

والنعمة الأخيرة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ أي: صرفتهم عنك؛ لأنهم أرادوا قتلك، وقصة الصلب مشهورة فإنهم اجتمعوا على قتله ثم انتخبوا بعضهم لذلك فألقى الله الشبه على واحد منهم ورُفع عيسى عليه السلام، وهذا الذي أُلقِي عليه الشبه يصيح: لَسْتُ عيسى، لكنهم كذبوه فقالوا: أنت عيسى فقتلوه وصلبوه، فادَّعى بنو اسرائيل أنهم قتلوا عيسى وصلبوه

ولكن الله كذبهم فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧] بل هو حي باقٍ وسينزل في آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: حين جئتهم بالبينات أرادوا قتلك بعد أن ظهر الأمر وتبين وأتيت بآيات بينة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا: إن عيسى سحرنا كيف يبرئ الأكمه؟ وكيف يخلق شيئًا من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائرًا؟ ما هذا إلا سحر وكذبوه، وهكذا المكذبون للرسل كلهم يقولون: إن الرسل سَحَرَةٌ؛ لأن الرسل تأتي بآيات لا يستطيعها البشر فيموهون على العامة ويقولون: إنهم سحرونا، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] وهذه الآية عامة في كل الرسل حيث قيل لهم: هذا ساحر أو مجنون.

وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن واضح؛ لأن أبان تستعمل متعدية ولازمة فيقال: أبان الفجر أي: طلع، ويقال: أَبَان الْأَمْرَ أي: وَضَّحَهُ، وهي على حسب السياق تارة تكون بمعنى أبان وتارة تكون بمعنى بان، وهنا مأخوذة من بان أي: هذا السحر بيِّن ظاهر.

الفوائد:

١ - في الآية فوائد منها: تذكير هذه الأمة بما جرى للأمم السابقة قبلهم لأنبيائهم ومن أرسل إليهم؛ لأن ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ متعلقة بمحذوف والتقدير اذكر.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات أن الله تعالى يتكلم ويقول بحرف وصوت؛ لأن مقول القول هو: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ....﴾ وهذه حروف، والقول لا يوجه إلا لمن يسمعه ولو كان قول الله ما قام بنفسه لم يصح أن يقول: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ وفي هذا رد على الأشاعرة الذين قالوا: إن قول الله وكلام الله هو المعنى القائم بالنفس وليس هو المسموع، والمسموع أصوات يخلقها الله عز وجل تعبر عما في نفسه وهذا القول باطل من أوجه كثيرة كتب عنها شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه عن هذه الأمة خيرًا - رسالة تسمى «التسعينية» أبطل هذا القول من تسعين وجهًا وهو جدير بأن يبطل ويطرح؛ لأنه متناقض، والعجب أنهم هم والمعتزلة اتفقوا على أن ما في المصحف مخلوق لكن المعتزلة قالوا: هو كلام الله وهؤلاء قالوا: هو عبارة عن كلام الله فكان المعتزلة والجهمية من هذا الوجه أسعد منهم بالصواب مع أنهم كلهم خطأ؛ لأن الأشاعرة يقولون: الذي في المصحف هذا ليس كلام الله بل عبارة عنه، وهؤلاء يقولون: كلام الله مخلوق، وهم يقولون عبارة عن كلام الله وهو مخلوق، فمن تدبر هذا القول وجده في غاية البطلان.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان تذكير الله تعالى عباده بنعمه عليهم، وهذا جاء في القرآن في غير موضع مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩] أحيانًا تكون عامة مثل هذه الآية، وأحيانًا تكون خاصة مثل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ

﴿قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] وإنما يُذكِّر الله العباد بالنعمة من أجل وجوب شكره؛ لأن وجوب شكر الـمُنعِمِ ثابت سمعًا وعقلًا، أما السمع ففي القرآن مملوء ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ وما أشبه ذلك، وأما عقلًا فإنه ليس من المروءة أن تقابل النعمة بالإساءة والكفر فشكر المنعم إذنْ واجب سمعًا وعقلًا، وسبب التذكير بالنعم هو: القيام بالشكر.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز نسبة الإنسان إلى أمه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهل يمكن أن يكون للإنسان أم بلا أب؟ الجواب: نعم وذلك فيما إذا نفى الزوج الولد عن نفسه فإنه ينتفي عنه، وكذلك ولد الزنا إذا لم يستلحقه الزاني فإنه له أم وليس له أب فإذا استلحقه الزاني فالمسألة فيها خلاف معروف وجمهور العلماء أنه لا يلحقُهُ لقول النبي ﷺ: «وَلِلْعَاهِرِ الحجَرُ»(١) ولكن الولد إذا كانت نسبته إلى أمه توجب التساؤلات وأن ينكر قلبه وأن يُساء إلى أمه فهل يعدل عن هذا؟

الجواب: نعم يعدل عن هذا؛ لأن نسبته إلى أمه إن لم يكن له أب على سبيل الإباحة والجواز، فإذا كان يستلزم ما يؤذي صاحبه فإنه يعدل عنه إلى نسبته إلى آخر، إلى مَنْ؟ نقول: ننسبه إلى اسم يصح لكل إنسان مثل عبد الله عبد الرحمن، عبد الكريم، عبد اللطيف، وما أشبه ذلك، فعلى هذا نقول: الأصل فيمن ليس له أب أن يُنسب إلى أمه، فإن خُشي من ذلك مضرة أو إيذاء نُسب إلى من يصح أن ينطبق على كل أحد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عليهم الشكر كما يجب على من أُرسلوا إليهم؛ لأن الله أمر عيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى أمه ونقول: نعم يجب وهم - أي الأنبياء - أشد الناس قيامًا بشكر النعم فقد كان إمامهم محمد ﷺ يقوم بالليل حتى تتورم قدماه وتُدمى فيقال: يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»(٢).

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد؛ لقوله: ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ ولا شك أنها نعمة على الولد كما هي نعمة على الوالد، والنعمة على الولد هل نعمة على الوالد من باب المساواة أو الأَوْلَى؟ الجواب: من باب الأولى؛ لأن الولد بَضْعَةٌ من أبيه كما قال النبي ﷺ في فاطمة رضي الله عنها: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا»(٣) فنعمة الله على الولد هي في الحقيقة نعمة على الوالد.

---

(١) رواه البخاري (١٩٤٨)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٢) رواه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٤٩٣٢)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى يؤيد البشر بالملائكة؛ لقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: هذه المزية لجبريل عليه السلام أنه يؤيد الأنبياء والرسل.

٩ - **ومن فوائدها**: اللقب الفاضل لجبريل وهو روح القدس فإن القدس بمعنى: الطهارة والنزاهة من كل عيب، فهو - أي جبريل - عليه السلام ذو مِرَّةٍ أي: ذو هيئة حسنة وهو قوي كما قال عز وجل: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] وله مكانة عند الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، واليهود يبغضون جبريل والمسلمون يحبون جبريل؛ لأن جبريل موكل بالوحي؛ لينزل به وفيه حياة الأمة وأولئك يكرهون جبريل ويقولون: إنه ينزل بالعذاب، ولكنه نزل بالعذاب على من يستحقه.

١٠- **ومن فوائدها**: هذه الآية العظيمة التي أعطاها الله لعيسى وهو أنه يكلم الناس في المهد وكهلًا على السواء أي: أنه يتكلم بكلام بليغ عجيب مع أنه في المهد وعادةً الأطفال لا يتكلمون في المهد إنما يلفظون ألفاظًا لا تُفهَم لكن هذا من آيات الله عز وجل.

١١- **ومن فوائدها**: أنه على طالب العلم أن يشكر الله على نعمته عليه؛ حيث خصه بالعلم الذي حُرِمَهُ كثير من الناس وإذا مَنَّ الله عليه مع العلم بالعبادة والدعوة إلى الله صارت نعمة فوق نعمة فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل؟! قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] والإنسان إذا شعر بالإنعام عليه بالعلم والعبادة والدعوة فإنه يزداد فرحًا وسرورًا ومصابرة وصبرًا على ما هو عليه من طلب العلم وازدياد العبادة وقوة الدعوة إلى الله عز وجل مأخوذة من قوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ...﴾.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: التنصيص على الحكمة وهي: معرفة أحكام الشريعة وغاياتها وثمارتها فإن معرفة ذلك لا شك أنه يزيد الإيمان وأنه يزيد الإنسان بصيرة بشعائر الله وأنها - أي الشرائع - من لدن حكيم عليم ولهذا نقول: لا يمكن أن يكون في طريق المعقول ما يخالف صحيح المنقول ـ هذه قاعدة ـ: (لا يمكن أن يوجد في طريق المعقول ما ينافي صحيح المنقول)، فإن وجدت ما ينافي فاعلم أن الأمر لا يخلو من أحد أمرين ولا بد: إما أن عقلك ليس بصحيح ـ يعني: فيه شبهات ـ أو باختفاء الحق عليه أو شهوات انطمس بها ـ نسأل الله العافية ـ، وإما أن يكون النص غير صحيح فيكون مثلًا حديثًا ضعيفًا أو مكذوبًا على النبي ﷺ أو ما أشبه ذلك، أما أن يكون هناك عقل صحيح خالٍ من الشبهات والشهوات ونقل صحيح فلا يمكن أن يتناقضا أبدًا.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التوراة والإنجيل كتابان من عند الله عز وجل

وسبق أن قلنا: إن عطفها على الكتاب من باب عطف الخاص على العام إذا لم نقل أن المراد بالكتاب: الكتابة.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى وعلى إدخال الروح في الجماد وذلك يؤخذ من قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾.

١٥- **ومن فوائدها:** إطلاق لفظ الخلق على ما صنعه المخلوق، فمثلًا: لو صنعت بابًا تقول خلقت بابًا، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله في الحديث الصحيح للمعبودين قال لهم: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1].

فإن قال قائل: إذا أثبت صفة الخلق للمخلوق فأي فرق بين خلق الخالق وخلق المخلوق؟

فالجواب: الفرق عظيم جدًّا، خلق الخالق إيجاد من عدم على ما يريده الله عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] ، وخلق المخلوق تحويل مخلوق الله إلى صفة المخلوق وإلا فالأصل من الله عز وجل، هل يمكن لأحد أن يجعل من الحجر ذهبًا؟ لا يمكن لكن يمكن أن يجعل من الذهب حُليًا وأن يجعل منه على شكل حيوان كما جعلت بنو اسرائيل الحلي الذي أخذوه من آل فرعون عجلًا، فافترق الخلق المنسوب للخالق والخلق المنسوب للمخلوق، خلق المخلوق يعني: تحويل الشيء من شيء إلى آخر، أما خلق الخالق فهو إيجاد من عدم وهذا لا يستطيع أحد أن يفعله.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله عز وجل جعل لعيسى آية تعجز علماء الطب الذي اشتهر في حياته، فقد قيل: إن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام اشتهر في وقته الطب وترقى ترقيًا عظيمًا فجاء عيسى بآيات لا يستطيع الأطباء أن يقوموا بها، كما أن السحر في عهد موسى كان منتشرًا فجاء موسى بآيات تبطل سحرهم، وكما أن البلاغة في العرب كانت منتشرة في عهد الرسول ﷺ فجاء الله عز وجل بكتاب أعجزهم.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه سبحانه وتعالى يختار من الآيات أشدها إعجازًا فإنه لم يمنَّ على عيسى بأن يخلق أرنبة أو قطة بل طائرًا؛ لأن الطيران في الجو أبلغ من المشي على الأرض فاختار الله له أن يخلق طائرًا يعني: على صورة الطير.

١٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النفخ له تأثير في الأجساد؛ لأنه نفخ في الطير الذي صنعه فصار طائرًا كما في قراءة أخرى، فلما نفخ فيه صار حيوانًا من الطيور ثم طار لتحقق أنه دخل فيه الروح، ومن ثَمَّ جاءت القراءة على المريض عن طريق النفخ، والنفخ - كما نعلم جميعًا - يتضمن نفخًا وريقًا وهذا مؤثر بإذن الله عز وجل؛ ولهذا لو أن القارئ صار يقرأ ويأخذ بأصبعه

(١) رواه البخاري (٣٠٥٢)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

من ريقه ويضمد به مكان الألم أو يضمد به المريض فلا أظنه ينفع فإذنْ لابد من نفخ مع ريق.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: ما أعطاه الله تعالى لعيسى من الآيات في إبراء الأكمه وهو الذي خلق بلا عين ولا بصر، وهذا دليل على قدرة الله، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه يبرئه سبحانه ما دون أن يحتاج إلى علاج وإلى انتظار، فالظاهر أنه يبرئه كما جرى من النبي ﷺ في عين أبي قتادة رضي الله عنه حين جُرحت في أُحُدٍ وبرزت على خده فأُتي به إلى النبي ﷺ فأخذ العين وردها في مكانها وعادت كما كانت ـ سبحان الله العظيم ـ هذه قدرة ما يبلغها الأطباء، فالظاهر أن إبراء الأكمه والأبرص يكون في الحال بدون معالجة وتردد.

٢٠- ومن فوائد الآية الكريمة: هذه الآيات العظيمة لعيسى أنه يخرج الموتى من القبور؛ لقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ وهذه لا يقدر عليها أحد، أما هل يبقى الميت إذا خرج أم لا؟ فهذا ليس لنا فيه كلام ولا ينبغي أن نتكلم فيه؛ لأن الآية حصلت بإخراجه من قبره، أما أن يبقى ويعيش مع الناس أو يموت بعد أن خرج وعرف الناس ثم يدفن فهذا ليس لنا في معرفته مصلحة وليس لنا أن نسأل عنه؛ لأن الآية حاصلة بدونه.

٢١- ومن فوائدها: أن في هذه الآية دليل على أنه لا يمكن لأي بشر مهما أوتي أن يحصل له مراده إلا بإذن الله عز وجل لأن كل كلمة أيدها الله تعالى بإذنه لئلا يدعي مدعٍ أن الخلق لهم استقلال في أفعالهم، فيكون في هذه الفائدة متفرعًا الرد على القدرية، والقدرية هم الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله ليس لله فيه إرادة فالإنسان يأكل ويشرب ويدخل ويخرج ويتحرك ويسكن بإرادة تامة ليس لله فيها تعلق وهذا يعني: إثبات خالق مع الله عز وجل أو إثبات موجد للحوادث مع الله عز وجل؛ ولهذا سميت القدرية مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون: إن الحوادث الكونية لها خالقان ظلمة ونور، وهؤلاء يقولون: إن الحوادث في الكون لها موجدان كل واحد مستقل عن الآخر فأفعال العباد يستقل بها العباد، حتى إن بعضهم يقول: إن الله لا يعلم من أفعال العباد إلا ما وقع، وأما ما لم يقع فلا يعلمه الله عز وجل فوصف الله تبارك وتعالى بالجهل فيما هو في ملكه ـ سبحانه وتعالى ـ.

٢٢- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات إذن الله وليُعْلَم أن الإذن المضاف إلى الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: إذن كوني قدري، وإذن شرعي تعبدي.

مثال الإذن الكوني في هذه الآية: ﴿بِإِذْنِي﴾، ومثال الإذن الشرعي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] شرعًا، وقدرًا قد أُذن فيه فإنه مكَّن لهؤلاء أن يشرعوا لأقوامهم ما لم يأذن به الله، ومكَّن الأقوام أن يتعبدوا بهذه الشريعة، لكن ليس شرعًا فالإذن الذي يُضاف إلى الله عز وجل ينقسم إلى كوني وشرعي.

والفائدة من معرفة الإذنين أن نؤمن أن ما أذن الله به قدرًا فلابد من وقوعه وما لم يأذن به فلا

يمكن وقوعه، أما شرعًا فما أذن الله به شرعًا فقد يقع ولا يقع، وما لم يأذن فيه فقد يقع وقد لا يقع.

٢٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن كف الأذى عن الناس من نعمة الله عليه؛ ولهذا امتن الله على المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] فكلما كان الإنسان أشد إيمانًا بالله عز وجل دافع الله عنه، وتسليط بعض الناس عليه بالإيذاء فما هو إلا كتسليط المرض على الرسل والأنبياء من باب رفعة الدرجات، وإلا لا شك أن هناك أئمة من هذه الأمة أُوذُوا أشد الإيذاء، فالرسل عليهم الصلاة والسلام يُؤْذَون كما قال عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فصبروا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا لكن هذا من باب رفعة الدرجات. وتؤخذ هذه الفائدة: إن الله يدافع عن المؤمنين من قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾.

٢٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تشجيع الداعي إلى الله عز وجل الذي يأتي بالبينات فإنه عرضة للإيذاء؛ لقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فكل إنسان يدعو إلى الله ويأتي بالبراهين والأدلة لابد أن يُسلط عليه من يُسلط لكن الله عز وجل بقوته وقدرته يكفه عنه ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٢٥- ومن فوائد الآية الكريمة: تمرد بني إسرائيل الذين كفروا؛ حيث ادعوا أن هذا سحر، بل حصروا حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾ يعني: ولا يمكن أن يكون حقًا.

٢٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن السحر قد يُخْفَى أو أن السحر قد يخفى سببه قالوا: عيسى كيف يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله كيف يكون ذلك؟ هذا سحر، لو أن أحدًا وقف على جثة هامدة فقال: قومي فقامت ماذا نقول؟ نقول: هذا سحر كيف يقوم الميت، فهم لبَّسوا على عباد الله - والعياذ بالله - وقالوا في آيات الأنبياء: إنها سحر مبين.

٢٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المؤمنين يتبين لهم الحق ويعلمون أنه حق؛ لأن مثل هذا القول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إنما يصدر من أهل الكفر، أما المؤمن فيؤمن بالآيات ويزيد إيمانه بها.

٢٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من الرسل جاء بالآيات البينات يعني: الواضحات التي لا تُشكل على أحد، بل أخبر النبي ﷺ: «أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ الله إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ»(١)، ولولا هذا لكان الناس معذورين ألا يصدقوا يعني: لولا الآيات مع الرسل عليهم الصلاة والسلام لكان الناس معهم عذر ألا يصدقوا وعليه يكون قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] يكون مقيدًا بأنهم قد أوتوا آيات يؤمن على مثلها البشر، وآيات الأنبياء أنواع كثيرة يجمعها أنها معنوية وحسية، وقد ذكر شيخ الإسلام فصلًا قيمًا جدًا في آخر كتابه

(١) شرح السنة (٣٦١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ذكر فيه آيات النبي ﷺ وقال إنها نوعان: معنوية وحسية، والحسية آفاقية وأرضية، ووضح توضيحًا كاملًا، وأن أعظم آياته هذا القرآن العظيم الذي كان آية في وقته وإلى ما بعده إلى يوم القيامة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ» أو كلمة نحوها «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]؛ لأن القرآن بقي وآيات الأنبياء انتهت في حياتهم فقط، ما لبس أقوامهم أن حرَّفوا الكتب من بعدهم، سواءً أهل التوراة أو أهل الإنجيل.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١١- ١١٤].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ (إذ) على حسب ما مر علينا مفعول لفعل محذوف؛ التقدير: واذكر إذ، وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي﴾ ﴿أَنْ﴾ هنا تفسيرية؛ لأنها إذا وقعت بعد فعل تضمن معنى القول دون حروفه سُميت تفسيرية، والوحي فعل متضمن لمعنى القول دون حروفه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فـ (أن) هنا يعربها أهل النحو على أنها تفسيرية.

وقوله: ﴿وَبِرَسُولِي﴾ أعاد حرف الجر وهو معطوف على قوله: ﴿بِي﴾؛ لأنه إذا عطف على ضمير متصل فإنه يؤتى بحرف الجر الذي كان في المعطوف عليه، هذا هو الأشهر في اللغة العربية وربما يخرج الكلام عن الأصل مثل قوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: ١] على قراءة، والقراءة المشهورة ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾، ومثل قوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ولم يقل

(١) رواه البخاري (٤٦٩٦)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبالمسجد، وإلا فالأصل إذا عُطف على ضمير متصل فإنه يعاد حرف الجر ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا جواب ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى﴾، ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يجوز في مثل هذا - أي ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ - أن تضعف النون أو لا تضعف، إن ضعفت فلابد من الإتيان بالضمير بأننا، وإن لم تضعف أُدغمت النون بنون الضمر فصارت بأنّا وقد جاء ذلك في القرآن.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ هذه أيضًا جملة استئنافية، عامل (إذ) محذوف والتقدير: اذكروا إذ قال الحواريون ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ (عيسى) منادى وهو في مثل هذا يبنى على الضم في محل نصب، ولكن جاءت (ابن) وهي صفة أو عطف بيان منصوبة ولم تتبع موصوفها؛ لأنها مضافة ولهذا نقول: يا زيدُ بنَ عبد الله، ولا تقل يا زيدُ ابنِ عبد الله؛ لأن هذا لو سلط على العامل المضاف لنصبه؛ إذنْ العامل لو سلط عليه مباشرة لنصبه، فكيف والعامل لم يسلط عليه إلا بواسطة المعطوف عليه عطف بيان أو بدل.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فيها قراءتان، قراءة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وقراءة: ﴿هل تستطيع ربك﴾، وكلاهما سبعية، أما ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فهي فعل وفاعل، وأما ﴿هل تستطيع ربك﴾ فهي فعل وفاعل مستقل ومفعول به، والفاعل مستتر في ﴿هل تستطيع﴾ يعود على عيسى.

وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قوله: من السماء جار ومجرور وصفة لمائدة، وذلك لأن الجار والمجرور والفعل إذا أتى بعد النكرة فهو صفة، وإن أتى بعد المعرفة فهو حال.

وقوله: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه متعلقة بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأن الإيمان يحصل على التقوى وهو شرط في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أما المعنى: فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ أوحيت هنا هل هو الوحي الشرعي أو هو الوحي الكوني الإلهامي؟ في هذا قولان للعلماء: فمنهم من قال: إنه وحي شرعي يعني: أوحيت إليهم بواسطة عيسى، وإلا فمن المعلوم أن الوحي الشرعي لا يكون إلا للأنبياء والرسل لكن أوحيت إليهم شرعًا بواسطة نبيهم عيسى عليه الصلاة والسلام، أما إذا كان وحيًا كونيًا فالمراد به الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أوحينا وحي إلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وهذا وحي إلهام وهو وحي كوني؛ لأنه متعلق بالخلق.

فإن قال قائل: ألا يمكن أن نحمل الآية على المعنيين جميعًا فيكون الله أوحى إلى نبيهم عيسى أن يبلغهم ذلك وألهمهم قبوله؟

فالجواب: بلى، يمكن أن يحمل المعنى عليهما جميعًا.

وقوله: ﴿ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ الحواريون هم الخلَّص من الأصحاب، وقد قال النبي ﷺ: «لِكُلِّ نبي

حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»[1] رضي الله عنه والحواريون هم الخلَّص من الأصحاب، وتأمل كيف كان هؤلاء الخلَّص من أصحابه وماذا صنعوا بعد ذلك وهم الخلَّص، فاقرن هؤلاء الخلَّص بالخلَّص من هذه الأمة تجد الفرق العظيم، كما لو قارنت الخلص من قوم موسى لوجدت الفرق العظيم بينهم وبين الخلص من هذه الأمة مما يدلك على فضل هذا الأمة التي اختارها الله تعالى لاتباع هذا الرسول الكريم ﷺ.

وقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ الإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته، يعني: تضمنت أربعة أشياء، فالإيمان بوجوده ضد أولئك الشيوعيون الذين يقولون: ليس هناك رب وإنما هي طبائع تتفاعل وينتج بعضها بعضًا وإلا فلا رب - والعياذ بالله؛ لأنه قد خُتم على قلوبهم - نسأل الله العافية -، والإيمان بربوبيته رد على من يقولون: إن الله له مُعينٌ في الخلق أو له شريك لذلك نفى الله ذلك في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

والإيمان بألوهيته: المراد به انفراده بالألوهية ردًا على الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر يعبدونه كما يعبدون الله كمشركي قريش، والإيمان بأسمائه وصفاته رد على طائفتين: المعطلة والممثلة، فالممثلة أشركوا بالله فقالوا مثلًا: إن لله وجهًا كوجوهنا وله يد كأيدينا، وله عين كأعيننا وما أشبه هذا وهؤلاء مشركون. والمعطلة الذين نفوا اليد والقدم والوجه والعين والاستواء وما أشبه ذلك مما يعطلون، فلهم نصيب من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فإن كانوا لا يعطلون الألوهية لكنهم يعطلون الأسماء والصفات فمن آمن بربٍّ لا يُوصف بسمع ولا حكمة ولا قوة ولا استواء هل آمن بربه حقيقة؟ لا، إذنْ الإيمان بالله عز وجل يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، الإيمان بأسمائه وصفاته، والمراد الانفراد بهذه الأشياء.

وقوله: ﴿وَبِرَسُولِى﴾ أي: عيسى عليه الصلاة والسلام والإيمان برسول واحد يتضمن الإيمان بجميع الرسل؛ لأن التكذيب لرسول واحد تكذيب لجميع الرسل، ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وهل أحد أُرسل قبل نوح؟ لا، ليس هناك رسول قبل نوح ومع ذلك قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه؛ إذا كُذِّب بواحد فقد كُذِّب بالجنس كله، فإذا آمنوا بعيسى فقد آمنوا بجميع الرسل ومنهم محمد ﷺ؛ لأن عيسى بشَّر به.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قالوا بألسنتهم آمنا ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ قالوا لمن لله أو لعيسى؟ إذا كان عيسى هو الذي أمرهم فيكون لعيسى ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ فأقرُّوا

(١) رواه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

واستَشهدوا وإذا أقر الإنسان واستَشهد صار استشهاده غيره مانعًا له من الإنكار فيما بعد؛ لأن الإنسان قد يقرُّ في نفسه، لكن إذا لم يكن عنده من يشهد عليه ربما ينكر، لكن هم أقروا بألسنتهم واستشهدوا عيسى إذا كان هو المراد بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: لعيسى، أما إذا كان المراد أنهم قالوا لله عز وجل فإن المستشهد هنا هو الله سبحانه وتعالى وقوله: ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: منقادون لله عز وجل ولا انقياد إلا بإيمان أن الله آمر وناهي، واعلم أن الإسلام إذا أُطلق شمل الإيمان، والإيمان إذا أُطلق شمل الإسلام وإذا اجتمعا صار الإسلام علانية والإيمان سرًّا يعني: الإسلام يكون في الأعمال الظاهرة من أقوال وأفعال وأعمال جوارح، والإيمان يعني: الأعمال الباطنة من اعتقادات القلوب من حب وخوف ورجاء وغير ذلك.

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ يعني: اذكر يا محمد ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ المنتخَبُون من قوم عيسى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ انظر لهذا الخطاب الجاف لم يقولوا يا رسول الله بل قالوا: يا عيسى ابن مريم ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ هذا فيه إشكال عظيم، لأن شكهم في قدرة الله يستلزم الكفر؛ ولهذا أشكل على أهل العلم كيف يقولون هذا وهم الحواريون؟ فنقول في الجواب عن هذا: إما أن تُحمل الاستطاعة على الإرادة وهذا سائغ في كلام العرب تقول لصاحبك: يا فلان هل تستطيع أن تمشي معي؟ لكن المراد هل تريد أن تمشي معي، فتكون ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي: هل يريد وليس عندهم شك في كونه عز وجل قادرًا.

أو يقال جواب آخر: هم يؤمنون بالقدرة العامة، لكن قد يحصل عند الإنسان شك في القدرة الخاصة كحال الرجل الذي قال لأهله وكان مسرفًا على نفسه: «إذا أنا مِتُّ فحرِّقُوني ثم ذروني في اليم - يعني: في البحر - فو الله لو قدر الله عليَّ ليُعذِّبَني عَذابًا لم يُعذِّبه أحدًا من العالمين»[1] فالرجل خائف وليس عنده شك بأن الله قادر لكن على سبيل العموم، أما على هذا الفعل بعينه فإنه يقول: لعله إذا ألقي في اليم لا يقدر الله عليه، فصار الجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن تكون الاستطاعة بمعنى القدرة.

الوجه الثاني: أن يكون عنده الإيمان بقدرة الله بكل شيء، لكن التفصيل قد يتردد الإنسان فيه في حصوله ويحتاج إلى زيادة طمأنينة، انظر إلى زكريا، لما بشره الله سبحانه وتعالى بأنه سيهبه ولدًا ماذا قال؟ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨]، قال الله له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩]، ومع هذا طلب آية على تحقق ما بُشر به.

هناك رأي آخر - الثالث - يقول: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ الاستطاعة ليس من الاستطاعة التي هي

(١) رواه البخاري (٣٢٩١)، ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ضد العجز؛ بل هي من الاستطاعة التي هي الإطاعة، يعني: هل يطيعك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة أو لا يطيعك؟، وهذا القول يرجع إلى المعنى الأول وهو الإرادة؛ لأن الإطاعة بمعنى يطيعك فالمعنى: هل إذا سألت ربك يطيعك؟ فتكون الاستطاعة هنا ليست من باب القدرة؛ لكن من باب الإطاعة وهي الانقياد.

وقوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: امتنعوا عن هذا الطلب، وعن هذا السؤال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: مؤمنين بقدره راضين بقضائه إن أغناكم أغناكم، وإن أعدمكم أعدمكم، وأن المؤمن حقًّا والمتقي حقًّا يرضى بقضاء وقدر الله ولا يسأل عن أشياء تكون خارجة عن نطاق العادة، هذا على قراءة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

أما على قراءة ﴿هل تستطيع ربك﴾ فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة؟ فتكون الاستطاعة هنا عائدة إلى عيسى يعني: هل تستطيع أن تسأل ربك أو تستحي فلا تسأل؟ وعلى هذه القراءة ليس هناك إشكال - والحمد لله - على القراءة الأولى، وهذه هي الوجوه التي يجاب بها عن الإشكال.

وقوله: ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة تطلق أحيانًا على الطعام، والأصل أنها تطلق على الكرسي الذي يكون عليه الطعام؛ لكن قد تطلق على الطعام، فهنا المراد - والله أعلم - الأمران جميعًا يعني: الكرسي وعليه الطعام.

وقوله: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من فوق ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: أخبروه بالسبب من وراء هذا السؤال العجيب.

وقوله: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ نحن جياع هم جياع، وهو يشبه - من بعض الوجوه وإن كان هو أحسن منها - ما قاله قوم موسى له: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١] لكن هؤلاء طلبوا شيئًا ينزل من السماء، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ تطمئن يعني: تستقر، ولا يكون بها قلق ولا ريب. هذا هو الغرض الثاني، أما الثالث: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ هو قال لهم: إنه رسول الله، فإذا جاء بآية بينة صَدَقَهُم وإن لم يأتِ فلم يَصْدُقْهُم، لكن كيف يقولون: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ وهم قد صدقوه؟ هذا إشكال.

والجواب: إما أن المعنى ونزداد علمًا أن قد صدقتنا ولا شك أنه كلما وجد في الآيات الدالة على صدق القائل ازداد علمًا، أو يكون بعضهم عنده تردد والعلم ينفي الشك والتردد، لكن أيهما أولى الإحسان بهم ظنًّا فنقول: (نعلم) أي نزداد علمًا أو نقول: لعل بعضهم عنده تردد والأول أحسن.

وقوله: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي أخبرتنا بالصدق، يقال: صدق بمعنى أخبره بالصدق، ويقال: صدق بمعنى أنه أتى بها وعده به كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] بمعنى أتى بها وعد به، ويقال صدق يعني: أخبره

بالصدق وإن لم يأتِ ما أخبره به كقوله ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ الكَذُوبُ»(١).

وقوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ هذا هو الأمر الرابع يعني: نشهده بأعيننا من غير أن نخبر عنه وليس الخبر كالمعاينة.

الفوائد:

١ - في هذين الآيتين فوائد منها: إثبات وحي الله عز وجل لقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ ووحي الله ينقسم إلى قسمين: وحي شرع، ووحي إلهام، فالأول يتعلق بالشرع، والثاني يتعلق بالكون، وقد ذكرنا الأمثلة بالتفصيل.

٢ - **ومن فوائدها:** أن عيسى عليه السلام له حواريون يعني: أصحاب ذو صفاء في مودتهم، اذكر آخر سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] وكما في الحديث: «لِكُلِّ نَبِي حَوَارِيٌّ وإِنَّ حوارِيِّي الزُّبَيْرُ» هذه منقبة للزبير ولا شك، ولكن عن أبي بكر قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»(٢).

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان بالله لا يتم إلا بالإيمان برسله؛ لقوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ وقد بيَّن النبي ﷺ أن الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وهذه الأركان لابد منها في الإيمان فمن نقص منها واحدًا لم يكن مؤمنًا.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** استجابة الحواريين بما أُوحي إليهم به؛ حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية:** جواز حذف المعلوم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ولم يقولوا بك وبرسولك؛ لأن هذا معلوم، فالمطلق يُحمل على المقيد إذا كان معلومًا، فإذا عقد الإنسان عقدًا وشرط عند الإيجار شروطًا وقال الآخر: قبلت، قال بعتك هذا البيت على أن أسكن فيه سنة قال: قبلت البيع فهل يسقط الشرط؟ نعم يسقط.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** جواز استثبات الشيء بالإشهاد عليه؛ لقوله: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ»(٣) هذا من أذكار الصباح والمساء على خلاف في ثبوت الحديث.

---

(١) رواه البخاري (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٧)، ومسلم (٢٣٨٣).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود (٥٠٦٩)، والترمذي (٣٥٠١)، والنسائي (٩٨٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٢٩).

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن الإيمان هو الإسلام؛ لقوله: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقولوا مؤمنون فدل هذا على أن الإيمان هو الإسلام، وقد ذهب إلى هذا جماعة من أهل العلم وقالوا: لا فرق بين الإيمان والإسلام واستدلوا بمثل هذه الآية واستدلوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] ولكن هذا القول على إطلاقه فيه نظر، والصواب: أن الإسلام إذا أُفرد دخل فيه الإيمان؛ وإذا ذكر مع الإيمان صار له معنى آخر، ويدل لهذا التفصيل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] يعني: لم يدخل لكن قريبًا يدخل؛ لأن (لما) تفيد النفي مع قرب وقوع المنفي، إذن كيف نُخرج هذه الآية؟ نُخرجها بأنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام فيكون الإيمان في القلوب والإسلام في الجوارح؛ يعني: أنهم آمنوا وانقادوا انقيادًا تامًّا لأوامر الله ورسوله.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٨ - **من فوائد هذه الآية**: أن الحواريون مع كونهم خلصًا عندهم شيء من الجفاء؛ لقولهم: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

فإن قال قائل: لعل شريعتهم تبيح لهم أن ينادوا نبيهم باسمه بخلاف هذه الشريعة فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؟

قلنا: وليكن ذلك لكن هل من الأدب أن يدعو عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام باسمه مع أنهم يريدون أن يدعو الله لهم أن ينزل هذه المائدة أو الأليق ما داموا يريدونه أن يسأل الله أن ينادوه بوصفه بالنبوة والرسالة؛ لأنه أقرب إلى إجابتهم؟ الجواب: الثاني بلا شك، على كل حال هذا الخطاب لا شك أن فيه شيء من الجفاء.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء الحواريين يريدون من الآيات ما يملأ بطونهم، الدليل أن أول ما بدأوا بدأوا بالأكل ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فيشبه قول اليهود لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١] ماذا فعلوا؟ دخلوا على أدبارهم يقولون: حنطة، أُمِرُوا أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ يعني: اغفر عنا ذنوبنا؛ لكن همهم في شيء ثانٍ وهو ملء البطن.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن وقوع الشيء يعطي يقينًا أكثر من الخبر به، ومنه قوله النبي ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١)؛ ولهذا أمثلة منها: قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] نأخذ هذا من

---

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده (١٨٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٧٣).

قوله: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آيات الأنبياء يزداد بها تصديقًا؛ لقوله: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: أخبرتنا بالصدق.

١٢- ومنها: ثبوت الخبر بالتواتر وكثرة المخبرين؛ لقوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ويمكن أن يُستدل بهذا أيضًا على أن الصحابة ﷺ قولهم حق وحجة؛ لأنهم شاهدوا النبي ﷺ، وشاهدوا آياته، وأيقنوا بها أكثر من غيرهم، وفهموها أكثر من غيرها.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الإعراب:

قوله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ (الله) منادى مبني على الضم في محل نصب، (رب) بدل أو عطف بيان؛ وإن شئت فاجعله نعتًا ولكنه صار منصوبًا؛ لأنه مضاف، وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ هذه الجملة صفة لمائدة، و﴿عِيدًا﴾ خبر ﴿تَكُونُ﴾ واسمها مستتر، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من قوله: ﴿لَنَا﴾ لكنه بإعادة العامل؛ لأن قوله: ﴿لَنَا﴾ يشمل الأول والآخر لكن أتى بالتفصيل بقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ معطوفة على ﴿عِيدًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الجملة تدل على أن الله تبارك وتعالى موصوف بهذا الوصف.

وقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ فعل أمر لكن هل يقال في الأمر الموجه إلى الله: إنه فعل أمر؟ لا يقال؛ تأدبًا مع الله ولكنه يقال: فعل طلب أو فعل سؤال وما أشبه ذلك.

أما المعنى:

فقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: قال عيسى ابن مريم مستجيبًا لطلب هؤلاء الحواريين سائلًا الله عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء، والسماء يحتمل أن تكون من العلو أو يحتمل أن تكون من السماء ذاتها وهي السقف المرفوع كما سيأتي.

وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: نتذكرها كلما جاء وقتها؛ لأن عيد اسم لما يعود ويتكرر، ومنه الأعياد الشرعية: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع.

وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أولهم الذين كانوا في عهد عيسى، وآخرهم الذين كانوا من بعدهم، ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ أي: علامة على قدرتك وعلى سمعك وعلمك وآية على صدق عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن هؤلاء طلبوا الآية ليعلموا أن عيسى قد صَدَقَهم، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا؛ لأن ارزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم منه، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يعني: أخيرهم من جهة الكيف والكم فلا أحد أكرم من الله ولا أحد أجود من الله عز وجل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يستطيعون أن يأتوا بكل ما يُطلب منهم وأنهم كغيرهم مفتقرون إلى الله يسألونه ويلجئون إليه .

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي للإنسان في حال الدعاء أن يذكر هذين المعنيين الألوهية والربوبية؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ لأن هذا نوع من التوسل حيث يتوسل الإنسان بألوهية الله عز وجل وربوبيته.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام أجاب الحواريين على وجه الأمانة التامة؛ لأنه قال: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما قالوا هم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه المائدة تكون عيدًا للنصارى كلما جاء زمانها فهو عيد لهم، فإذا قال قائل: هل هذا يقتضي أن نقول: إنه كلما مر وقت المناسبات فإننا نجعله عيدًا؟ فالجواب: لا؛ لأن هذه الأشياء ليس فيها قياس، وهي كانت عيدًا لطلب نبيهم عليه الصلاة والسلام.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه ما جاء على خلاف المعهود كان خارقًا للعادة فهو آية لقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ ووجه هذا: أنه لم يُعهد أن المائدة تنزل من السماء عيانًا نشاهدها فيكون نزولها - لاسيما أنه بطلب بعد اقتراح - آيةً ودليلًا على صدق من تكلم بالرسالة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عيسى ابن مريم مفتقر إلى الله تعالى؛ وإلى عطائه فينبني على هذه الفائدة بطلان دعوى النصارى بأنه إله.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ـ تبارك وتعالى ـ خير الرازقين وهذا فرع من قاعدة عامة؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فكل وصف كمال فلله منه آية.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إطلاق الرزق على غير الله عز وجل بمعنى: أنه يصح أن نصف غير الله بأنه رازق؛ لأن الرزق بمعنى العطاء، ولكن الرزق الأكمل والأولى هو رزق الله ـ تبارك وتعالى ـ.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ في قراءة (مُنْزِلها)، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعد إنزالها، وبُنِيَتْ بعد على الضم؛ لأنه حذف المضاف إليه ونوى معناه، وقبل وبعد إذا حذف المضاف إليه ونُوِّنَ معناه بني على الضم، وإذا حذف ونُوِّنَ رفعه أعرب لكن بدون تنوين، وإذا حذف ولم ينوى لفظه أُعرِب لكن بتنوين فمثلًا إذا قلت: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] هنا حذف المضاف إليه ونوى معناه، وفي قول الشاعر:

فَسَاغَ لِي الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا أَكَادُ أَغُصُّ بِالْمَاءِ الحَمِيمِ

هذا لم يُنْوَ لفظه ولا معناه، وإذا قلت: سأزورك من قبلِ ومن بعدِ مجيء فلان الأولى: حذف المضاف إليه ونوى لفظه، والثاني: وجد المضاف إليه، فصار إما أن يحذف المضاف إليه، وإما أن يذكر في قبل وبعد وأخواتها، إن وجد المضاف إليه منها يعربان بلا تنوين، وإذا حذفنا ونوى رفعه فهما يعربان بلا تنوين أيضًا، وإن حذف ونوى معناه فهما مبنيان على الضم، وإن حذف ولم يُنْوَ لفظه ولا معناه فهما معربان منونان، فالأحوال إذنْ أربعة.

قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ من أي الأحوال؟ حذف المضاف إليه ونوى معناه ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ الفاء صادقة للجواب، جواب الشرط في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ وإنها ارتبطت بالفاء؛ لأن الجملة اسمية وكلما وقعت جملة الشرط اسمية وجب قرنها بالفاء أو بإذا الفجائية، ﴿فَإِنِّي﴾ فيها قراءتان: (فإنِّي) و (فإنِّيَ) أما على السكون فالياء مبنية على السكون، وأما على الفتح فهي مبنية على الفتح؛ لأنها ضمير المتكلم، ﴿عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير يعود في قوله ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ وأعني بذلك الهاء يعود إلى العذاب يعني: لا أعذب أحدًا مثل هذا العذاب، ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، أعذب نصبت مفعولين هل أصلهما المبتدأ أو الخبر أو لا؟ لا؛ لأن لو حذفت العامل وجعلت ضمير المفعول به في أعذبه جعلته ضمير رفع لم يصح لو قلت هو أحد ما يصح؛ لأن الضمير يعود على العذاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وفي قراءة (مُنْزِلها) فهل هذا للحال أو للمستقبل يعني: هل إن الله عز وجل وعد بإنزالها وأنزلها أو هو وعد ولم يتحقق؛ لأن الله اشترط شرطًا ولم يلتزمه بنو اسرائيل؟ في ذلك قولان للعلماء: فمنهم من قال: إن الله أنزلها؛ لأن وعده الحق وهو لا يخلف الميعاد. وقد قال تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم توَّعد من كفر بعد إنزال هذه الآية، وقال بعضهم: إنه لم ينزلها؛ لأن الله اشترط قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ ولما رأوا هذا الشرط الثقيل الذي يصعب أن يُحقق عدلوا عن طلبهم فلم تنزل المائدة، وهؤلاء أيَّدوا أمرهم بأن النصارى لا يعرفون عن علة تلك المائدة شيئًا في كتبهم وقالوا: إنها لو نزلت لكانت عيدًا لأولهم وآخرهم؛ كما طلب عيسى عليه الصلاة والسلام ولمَّا لم يكن عندهم علم بهذه المائدة؛ علمنا أنهم لم يقلبوا الشرط

الذي اشترطه الله فلم ينزلها، والآية في الحقيقة محتملة يعني: لا يستطيع الإنسان أن يجزم بهذا ولا بهذا، فإن قال قائل: لماذا لم نجزم بأنها لم تنزل؛ لأنها لم توجد في كتبهم فالجواب عن هذا سهل: أن لعلها في جملة ما نُسي وتُرك من دين النصارى فلم يكن عندهم علم منها - والله أعلم - أنزلت أم لم تنزل، ومتى احتملت الآية معنيين على السواء ولا مرجح فإن كانا لا يتنافيان حملت عليهما جميعًا؛ وإن كانا يتنافيان فالتوقف، وهنا - فيما أرى - أن الآية محتملة نزلت أم لم تنزل؟

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات كلام الله عز وجل لقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

٢ - **ومن هذه الفوائد:** أن كلامه - سبحانه وتعالى - بحرف وصوت؛ لأنه تعالى قال قولًا وصل إليهم ولا يمكن أن يصل إليهم إلا بصوت. وأن كلام الله بحرف بل بحروف متتابعة؛ لأن الله قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ﴾ وهذه حروف متتابعة لا إشكال فيها.

٣ - **من فوائد الآية:** إثبات أفعال الله الاختيارية بمعنى: أنه عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء اختيارًا بلا مكره؛ لأن هذا الكلام المرتب بالحروف قول ومن جهة إحداثه هو فعل، ومن جهة أنه كلام هو قول.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** خطر طلب الآيات من الأمم وأنه إذا ثبتت الآيات أو إذا جاءت الآيات المطلوبة فقد عرضوا أنفسهم للهلاك، وقد ذكر أهل العلم - رحمهم الله -: أنه متى طلبت الأمة آية معينة وحصلت لهم؛ حق عليهم العذاب، فإن قال قائل: هذه قاعدة تنتقض بما تواتر عن انشقاق القمر أن قريشًا طلبت من النبي ﷺ آية فأرهم انشقاق القمر؟ [1] فالجواب: أن قريشًا لم يطلبوا آية معينة وإنما طلبوا آية فقط، والنبي ﷺ هو الذي عينها أراهم انشقاق القمر.

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات أن العذاب له أعلى وله أدنى؛ لقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فهذا دليل على أن العذاب يتفاوت من شخص إلى آخر، وتفاوت العذاب أسبابه كثيرة منها: قلة الداعي إلى الذنب؛ فإن قلة الداعي إلى الذنب توجب شدة العقوبة عليه، وانظر إلى قول النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيهِم وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَهُم: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ» [2].

الشاهد على هذا: النوع الأول والثاني وهما: أشيمط زانٍ يعني: رجلًا شمته الشيب وهذا يدل على ضعف قوته في طلب النكاح وصغره بقوله أشيمط تحقيرًا له، إذْ زنا الشيخ أعظم عقوبة من زنا

(١) رواه البخاري (٣٤٣٧)، ومسلم (٢٨٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) صحيح: انظر صحيح الجامع (٣٠٧٢).

الشاب؛ لأن الدَّاعي في الشيخ أقل، عائل مستكبر، عائل يعني: فقير مستكبر، الفقير يجب أن يعرف نفسه وقدره فكيف مستكبر، الاستكبار من الغني أهون بلا شك، ومتوقَّع كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق، ٦، ٧] أي: استغنى عن غيره، وهذا عائل فيستكبر فلذلك اشتدت عقوبته، فكلما قوى السبب في طلب المعصية صارت العقوبة عليها أهون، وكلما ضعف السبب صارت العقوبة عليها أشد، هنا بيَّن الله عز وجل أنه لا يعذبه أحدًا من العالمين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كفر من رأوا الآيات ليس ككفر من لم يروها، فالأعظم: الأول من رأى الآيات؛ لأن من رأى الآيات فقد رآها بعين اليقين، ومن نقلت إليه فقد علمها علم اليقين أي: بواسطة.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]

التفسير

مقول القول هو قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ إذنْ فالجملة في محل نصب، واعلم أن مقول القول لا يكون إلا جملة، إلا إذا أجري مجرى الظن فإنه قد يُسَلَّط على المفرد وإلا فلا يكون إلا جملة. وهذه الجملة هي: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

في قوله: ﴿ءَأَنتَ﴾ قراءتان: (آأنت) بمد الهمزة الثانية، وبالقصر ﴿ءَأَنتَ﴾، ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ﴾ فيها قراءتان (أميْ)، (أميَ)، واتخذ تنصب مفعولين: الأول في هذه الآية هو الياء في قوله: ﴿ٱتَّخِذُونِى﴾ والثاني: قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك، فهو منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل واجب الحذف؛ ولهذا لا تجد الفعل مع استفهام أبدًا، وإنما قلنا إنه مفعول مطلق؛ لأن المصدر تسبيح وكل لفظ يكون بمعنى المصدر مع استفهامٍ أبدًا ولكنه لا يشتمل على حروفه يسمى مفعولًا مطلقًا، ويسمى اسم مصدر.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ الباء في قوله: ﴿بِحَقٍّ﴾ الباء حرف جر زائد، ومعنى زائد أي: إعرابًا إذ لا شيء في القرآن زائدًا معنًا ولكنها زائدة إعرابًا، وأما معنى فإن لها معنىً عظيمًا وهو التوكيد، وقوله: ﴿بِحَقٍّ﴾ خبر ليس واسمها مُستتر يعود على ما.

وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ هذه جملة شرطية فعل الشرط كنت، والتاء فاعل، ﴿فَقَدْ

عَلِمْتَهُۥ﴾ جواب الشرط، واقترنت بالفاء لأن الشرط صُدِّر بقد.

ثم قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ الإعراب واضح.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الجملة استئنافية تفيد عموم علم الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني: اذكر يا محمد لهؤلاء القوم هذا الذي صدر من عيسى عليه الصلاة والسلام بل من الله إلى عيسى ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا القول يقوله يوم القيامة، ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهام هنا لا شك أنه لا يراد به الاستعلام؛ لأن الله تعالى يعلم ولكن المراد به التوبيخ، توبيخ من قالوا إن عيسى وأمه إلهين، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] هي لم تفعل شيئًا تُسئل توبيخًا لمن فعلوا، فهنا ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، توبيخ من جعل عيسى وأمه إلهين من دون الله.

يقول علماء البلاغة : هناك فرق بين أن تقول: أأنت قلت وبين أن تقول: أقلت، قالوا إنه إذا وقع المستفهم عنه بعد همزة الاستفهام مصدرًا باسم فالمطلوب به التعيين تعيين الفاعل، وإذا جاء الفعل بعد الهمزة فالمقصود به تعيين الفعل، إذا قلت: أقام زيد تستفهم عن أي شيء؟ عن فعله الحالي يعني: هل قام أم قاعد، وقلت: أزيد القائم تعيين الفاعل، فهنا: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ تعيين الفاعل، ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾ أي: اجعلوني ﴿وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي معبودين، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من سوى الله عز وجل.

كان جواب عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك أنزهك عما لا يليق بك، ولا يليق بالله أن يكون له شريك في العبادة كما أنه ليس له شريك في الملك. واعلم أن تنزيه الله تعالى يكون عن شيئين: الأول: النقص، والثاني: مشابهة المخلوقين، ومشابهة المخلوقين وإن كانت نقصًا فينبغي أن يسطع عليها بعينه.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما يكون لي يعني: لا يمكن ؛ فنفي القول في مثل هذا يعني: أنه مستحيل، ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ يعني: للناس ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ يعني: ليس من حق عيسى أن يقول للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؛ بل إن رسالته إنما كانت من أجل النهي عن الشرك وإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذه الجملة تدل على أن عيسى ـ عليه السلام ـ يعلم أنه لو صدر منه ذلك لعلمه الله، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد أن هذا تنديد للذين يعبدون عيسى؛ لأنه لو قال للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله لعلمه الله ولم يُمَكِّنْهُ من هذه الدعوى .

وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ...﴾ النفس هنا بمعنى الذات يعني: في نفس تعلمه وما في نفسك لا أعلمه والفرق ظاهر؛ لأن الله هو الخالق وعيسى

مخلوق، والخالق يعلم مخلوقه والمخلوق لا يعلم عن خالقه إلا ما أخبره به، وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ هذه الجملة استئنافية لتوكيد مضمون ما سبق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** إثبات القول لله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ وفي القرآن إثبات القول، وإثبات الكلام، وإثبات النداء، وإثبات المناجاة وكل هذا يدل على أن الله يتكلم بكلام حقيقة بحرف وصوت ـ وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ وهو الذي نعتقده وندين لله به وهو الواجب على كل مؤمن.

٢ - **من هذه الفوائد:** أن قول الله بحرف وصوت؛ أما كونه بحرف فلأن الكلمات التي جاءت بعد القول حروف، وأما كونها بصوت؛ فلأن الله تعالى يخاطب به عيسى، وعيسى يرد عليه مما يدل على أنه كلام مسموع فهو بصوت ـ هاتان فائدتان عظيمتان.

٣ - **ومن فوائد الآية:** توبيخ الذين اتخذوا عيسى إلهًا وأمه لقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنه سبق أن المراد من هذا الاستفهام هو توبيخ الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بُعد الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الشرك لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وهذا أمر مُسَلَّم؛ لأن أصل بعثة الرسل من أجل تحقيق التوحيد.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** تنزيه الله ـ تبارك وتعالى - أن يكون له شريك لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ لأننا قلنا: سبحانك بمعنى: تنزيهًا لك من كل ما لا يليق بك. والمقام الآن في اتخاذ شريك فيكون معناه تنزيه الله عن كل شريك.

٦ - **ومن فوائد الآية:** اعتراف عيسى ـ عليه السلام ـ بما لا يستحق في قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وهكذا إخوانه من الرسل، فإن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت قال له: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(١).

فكل الرسل يعرفون قدر أنفسهم فلا يمكن أن يُقروا ما لا يستحقون.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الألوهية حق خاص لله لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وإذا كان الرسل، بل خاصة الرسل ليس لهم حق في الألوهية فمن دونهم من باب أولى فلا أحد يستحق أن يكون إلهًا ولا أحد يستحق أن نعبده من دون الله عز وجل.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى يعلم ما يصدر من الإنسان من قول لقوله: ﴿إِن كُنتُ

(١) حسن: انظر «سنن ابن ماجه» (٢١١٧)، و«مسند أحمد» (١٨٤٢) من حديث ابن عباس ﷺ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٥).

قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: تأدُّب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع ربهم - جل وعلا - لقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وإذا كنت علمته فإنه صادر عن علمٍ ما عندك يا رب، وعن قضائك وقدرك ولا يخفى عليك.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: إطلاق النفس على الذَّات؛ بل إن بعض العلماء يقول: إطلاق الذات على النفس غلط؛ وأن أصل الذات بمعنى: صاحب فلا تقال إلا مضافة كما قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] أي: صاحبة البروج، وإن إطلاق الذات على النفس من الكلمات المحدثة وقد صرح بها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: (إنها ليست من كلام العرب العرباء، أي إطلاق الذات على النفس، وإنما يعبر عن الذات بالنفس بمعنى أن ذات الرجل هي نفسه، ولكن الاختلاف شيء آخر واللغة العربية الفصحى شيء آخر، إذنْ معنى قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي: ما في ذاتك، وليست النفس شيئًا زائدًا على الذات، يعني: ليست كالعلم والسمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك، وقول بعض أهل العلم: أثبتت الله لنفسه نفسًا فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ من باب التجاوز والتسامح وإلا فنفس الله هي ذات الله عز وجل.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علم الله بما في نفس الإنسان لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] فالله عز وجل يعلم ما في قلبك ، احذر أن يكون في قلبك ما يخالف أمر الله عز وجل، ومنها نأخذ فائدة أخرى وهي: وجوب الخشوع في الصلاة؛ لأنك إذا غفلت وفكرتَ في غير ما يتعلق بالصلاة فقد أعرضت عن الله عز وجل هكذا قرره بعض أهل العلم، ولكن في مسألة وجوب الخشوع في الصلاة فيها نظر؛ لأن النبي ﷺ أخبر أنه: **إِذَا أُقِيمَتُ الصَّلَاةُ وَلى ٱلشيطان وله ضراط، فإذا انتهت الإقامة جاء إلى المصلي وجعل يحدثه حتى يقول اذكر كذا في يوم كذا فلا يدري كم صلى ثلاثًا أم أربعًا.**

وقد يقال: إن النبي ﷺ أخبر عن الواقع ولا يلزم من الإخبار عن الواقع أن يكون الواقع جائزًا، كما أخبر أننا نركب سنن من كان قبلنا اليهود والنصارى، ومع ذلك لا يحل لنا هذا، وكما أخبر أن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا وحدها ومع ذلك لا يحل للظعينة أن تسافر بلا محرم، لكن الذي يظهر لي أن إيجاب الخشوع في الصلاة فيه مشقة يعني: كون الإنسان لا يُوسوس بشيء فيه مشقة شديدة.

١٢ - ومن فوائد الآية: أننا لا نعلم ما عند الله عزَّ وجلَّ فلا نعلم ما في نفسه مما يقدره - جل وعلا - ويريده، ولا نعلم عن إرادة الله إلا بوقوع المراد، يعني: نحن لا نعلم أن الله أراد أن تمطر حتى ينزل المطر، ولا نعلم أن الله تعالى كتب أن حروبًا تقع بين الناس إلا إذا وقعت هذه الحروب، فإذا وقعت علمنا أن الله أرادها إذ لا يكون في ملكه إلا ما يريد.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات علم الله تعالى بالغيب لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ومعنى علام الغيوب أي: أنك موصوف بهذا وليس المراد الكثرة بل المراد المبالغة في تأكيد هذا الوصف بقطع النظر عن إفراده فإنها لا تحصى.

وقد ذكر بعض العلماء أن كل ما جاء بصيغة المبالغة في حق الله فليس معناه الكثرة وإنما معناه الكمال، لكن من تأمل يجد أنه يأتي لهذا وهذا.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من ادعى علم الغيب فقد ادعى أنه شريك لله، ووجه الدلالة أنه أتى بضمير فصل ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وضمير الفصل يدل على الحصر يعني: أنت لا غيرك علام الغيوب، وليعلم أن الغيب نوعان: غيب نسبي، وغيب مطلق، فالغيب الذي اختص الله به هو الغيب المطلق.

وأما الغيب النسبي الذي يعلمه فلان دون فلان فهذا يشترك فيه من قدره وهو الله عز وجل ومن وقع منه.

❁ قال الله تعالى:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: للناس ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أنْ هذه تفصيلية؛ لأنها وقعت بعد ما تضمَّن معنى القول دون حروف وهو أمرتني، قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ربي هذه بدل أوصفة للفظ الجلالة وقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إعرابها واضح ليس فيه إشكال إلا قوله: ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ فإن دام تعمل عمل كان إذا سبقت بها المصدرية الظرفية، أما إذا سبقت بها النافية فليست من أخوات كان، فإذا قلت: ما دمت قائمًا يعني: لم أقم قيامًا دائمًا فهذه نافية، وإذا قلت: لا أجلس ما دمت قائمًا فهذه مصدرية ظرفية.

الجملة الأخيرة إثبات والجملة الأولى نفي. وهي هنا مصدرية ظرفية، فعليه تكون التاء اسمها والجار والمجرور خبرها. قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ليس فيها إشكال في الإعراب.

يقول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ يعني: إلا الذي أمرتني

به، وما هو؟ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ وأتى بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ قبل أن يقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ليبين عليه الصلاة والسلام أنه رسول مبلغ مأمور فبدأ بما يدل على الرسالة وأنه مأمور قبل أن يذكر ما أرسل به.

وقوله: ﴿أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ يعني: كلفتني بإبلاغه أمرًا منك ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ العبادة تطلق على معنيين: المعنى الأول: التَّعبُّد، والمعنى الثاني: المتعبد به، فإذا قلت: الصلاة عبادة فالمراد بذلك المتعبد به، وإذا قلت: صلى هذا الرجل لعبادة الله عز وجل فالمراد تَعَبُّدُه هو.

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ من أجل أن يبرهن لهم أنه ليس برب، قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يعني: كنت أشهد عليهم بما هم عليه من التوحيد والإخلاص ما دمت فيهم يعني: مدة دوامي فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ أي: قبضتني، يقال: توفى الرجل حقه أي: قبضه، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنت المراقب الذي تحفظ أعمالهم وتشهدها وتعلمها، قوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذا تعيين بعد التخصيص يعني: أنت على كل شيء شهيد من أفعالهم وغيرها.

الفوائد:

١ - ففي الآية فوائد منها: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام مكلفون بالرسالة أمرًا من الله، لقوله: ﴿مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ وهذا له شواهد من القرآن كثيرة مثل قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حسن أدب الرسل مع الله عز وجل حيث قال: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ ووجه ذلك: أنه يُشعر بأن عيسى رسول مأمور مُكلَّف بالأمر.

٣ - **ومن فوائدها:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام أُمِر أن يبلغ الناس بأنه عَبْدٌ وأن الله تعالى رب، لقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ والرب مقابله العبد.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أنه لَا حَقَّ لعيسى في الألوهية ولا في الربوبية لقوله: ﴿رَبِّى﴾ ومن ليس له ربوبية ليس له ألوهية، فإن قال قائل: أليس يحي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص؟ فالجواب: بلى، ولكن بإذن الله.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام شهداء على أمتهم ما داموا فيهم، لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ومع ذلك هم شهداء على ما يرون أو يسمعون وليسوا شهداء على غائب بعيد لا يرونه ولا يسمعونه؛ لأن الرسل لا يعلمون الغيب.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد توفاه الله ، لقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ وقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] فأثبت أنه متوفيه، وقد اختلف العلماء - رحمهم الله - في هذه الوفاة، القول الأوَّل: إنها بمعنى القبر ولا يلزم

منها نوم ولا موت، والتوفي بمعنى القبض وارد في اللغة العربية إذ يقال: توفى الرجل حقه أي قبضه، وعلى هذا المعنى فلا إشكال في الآية إطلاقًا، والقول الثاني: إنه موت حقيقي وهؤلاء أنكروا نزول عيسى في آخر الزمان وقالوا: إنه مات كما مات الأنبياء وهذا قول باطل يبطله ظاهر القرآن وصحيح السنة، القول الثالث: أن المراد بالوفاة النوم وهو أن الله تعالى ألقى عليه النوم ثم رفعه إلى السماء، هذا القول له وجهة نظر لكنه ليس ظاهرًا كثيرًا؛ فإن صح هذا التفسير دَلَّ ذلك على أنَّ محمدًا ﷺ أقوى جأشًا من عيسى، لأن محمدًا ﷺ عرج به إلى السماء في حال اليقظة وشاهد من آيات الله ما شاهد، وعيسى ألقى الله عليه النوم ثم رفعه؛ لأنه سوف يشاهد مخلوقات عجيبة عظيمة والمسافة بعيدة، إذنْ عندنا ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها وفاة موت وهذا ضعيف.

والثاني: أنها وفاة نوم وهذا له وجهة نظر.

والثالث: أنها بمعنى القبض؛ لأن النوم أمر زائد على القبض ويحتاج لثبوته إلى دليل واضح، والثالث الذي بمعنى القبض لا إشكال فيه.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إحاطة علم الله - تبارك وتعالى - ورقابته، لقوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإن قال قائل: إن الله قال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] والمراد الملك فكيف نجمع بين الآيتين؟ فالجواب: أن الله رقيب عليهم بملائكته كقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧] فإن كثيرًا من العلماء يقول: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ أي بملائكتنا ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وليس المراد قرب نفسه - تبارك وتعالى - بخلاف قول النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِيْ تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ رَاحِلَتِهِ أَوْ قَالَ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» [1] وفرق بين المعنيين بأن قوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ يعني: إلى الإنسان عامةً، ومعلوم أن قرب الله للعبد خاص بعابده أو داعيه، فالقرب ليس كالمعية ينقسم إلى قسمين، بل القرب خاص لمن يعبده أو يذكره، أما من يعبده فكقول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» [2] وأما داعيه كقول النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوْا عَلَى أَنْفُسِكُم فَإِنَّكُم لَا تَدْعُوْنَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا وَإِنَّمَا تَدْعُوْنَ سَمِيْعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِيْ تَدْعُوْنَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ».

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات أن الله شهيد على كل شيء لقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ وهذا يستلزم فائدة أخرى وهي: أنه يجب على العبد كمال مراقبة الله - تبارك وتعالى -

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٦١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٨٠) عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب رحمه الله: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه مسلم (٤٨٢)، وأبوداود (٨٧٥)، والنسائي (١١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حيث لا يفقده عند أمره ولا يجده عند نهيه؛ لأن الله رقيب عليك فلابد أن تتحاشى هذه الرقابة وألا يفقدك الله تعالى حيث أمرك ولا يجدك على ما نهاك.

قال الله تعالى:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]

التفسير

قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بمعنى: أن تُقدِّر لهم ما يستحقون أن يعذبوا عليه فإنهم عبادك، وليس المراد أن يعذبهم بدون جُرم فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن ذلك غاية التنزيه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لكن المعنى: إن تعذبهم بأن تُقدِّر عليهم ذنبًا يكون سببًا للعذاب فإنهم عبادك، ومع ذلك نقول: إن الله لن يقدر لهم ذنوبًا يستحقون عليها العذاب إلا إذا علم ما في قلوبهم من الإعراض وعدم قبول الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] فالذنوب سبب للإعراض ـ والعياذ بالله ـ فقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، إذنْ كلمة ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ لابد لها من مقدمات: الأولى: فعل ما يستحقون عليه العذاب، ثانيًا: أنهم يقدر لهم ما يستحقون عليه العذاب؛ لأنهم أهل لذلك إذنْ الله تعالى وعد ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٨] لكن الذنب ذنب العبد.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، هذه المراد بها العبادة الكونية لا الشرعية؛ لأن العبد الذي هو عبد بالعبودية الشرعية لا يستحق أن يُعذب لكن مراده العبودية الكونية؛ لأن الله تعالى يفعل ما يشاء قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الجملة لا يخفى أنها جواب الشرط واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية إذا وقعت جوابًا للشرط سواء كانت جازمًا أم غير جازم فإنها تقرن بالفاء، وقد نظم بعضهم الجملة التي ترتبط بالفاء إذا وقعت جوابًا للشرط في قوله:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

هنا جملة اسمية قُدِمَت بإن فاقترنت بالفاء قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، يعني: إن قدرت لهم أسباب المغفرة فغفرت لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، العزيز الغالب.

قالوا: العزة ثلاثة أنواع: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وعزة الشرف التي يعبر عنها

بعضهم بعزة القَدْر، أما عِزة الغلبة فظاهرة مثل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٤] وهذا واضح أن المراد بها الغلبة، عزة الامتناع قالوا معناه أن الله عز وجل أعظم من أن يناله ما يكون عيبًا أو نقصًا، يعني: يمتنع عليه النقص رجعوا في ذلك إلى الاشتقاق قالوا: لأنه يقال: أرض عزاز أي خشنة لا تؤثر فيها المعاول لامتناعها وشدتها، الثالث: عزة الشرف يعني: أنه عز وجل ذو قدر عظيم وشرف عظيم، كما تقول لصديقك: أنت عزيز عليَّ أي: أنت ذو قدر عظيم عندي، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الحكيم مشتق من حكم وأحكم، فإن كانت من حكم كفعيل بمعنى فاعل، وإن كانت من أحكم ففعيل بمعنى مُحكِم.

إتيان فعيل بمعنى كثير، كسميع بمعنى سامع، وبصير بمعنى مُبْصِر، وهكذا؛ لكن فعيل بمعنى مفعل قليل في اللغة العربية لكنه ثابت، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هجُوع

معنى السميع: المسمع، إذنْ الحكيم مأخوذة من الحكم والإحكام، فإذا كانت من الحكم فهي بمعنى: حاكم، وإن كانت من الإحكام فهي بمعنى مُحكم. والمحكم هو الذي من الحكمة.

قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا كلام عيسى لله عز وجل يوم القيامة، وسبق لنا أن معنى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: تُقَدِّر لهم عملًا يعذبون عليه فهم عبادك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي تهيئ لهم أسباب المغفرة فإنك أنت العزيز الحكيم.

وسبق لنا أن العزيز له ثلاثة معاني: عزة القهر والغلبة، وعزة الشرف والقدر، وعزة الامتناع أي: أنه يمتنع عليه كل نقص وعيب، وهذا الأخير مأخوذ من قولهم: أرض عزاز أي قوية وصلبة.

الحكيم من حكم وأحكم، حكم بمعنى: حاكم هو الحاكم في كل شيء، أحكم أي أتقن كل شيء كما قال عزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

يبقى لنا شرح هذه الكلمة العظيمة: أولًا: لابد أن نعلم أن هذا وصف الله عز وجل أن له الحكم فهو الحاكم قدرًا وشرعًا ودنيا وأخرى، وأن نعلم أن له الحكمة في كل ما يفعله؛ كل ما يحكم به من أمور كونية وأمور شرعيَّة، وإذا علمنا هذا استسلمنا تمامًا للأحكام الشرعية والأحكام القدرية، لا نقول مثلًا إذا قدر الله عزَّ وجل وباءًا أو قدر زلازلًا أو ما أشبه ذلك لا نقول هذا عبثًا بل نقل هذا لحكمة. الحكمة تكون في ذات الشيء، وتكون في غايات الشيء، وتكون في الشرع وتكون في القدر فالأقسام إذنْ أربعة: الحكمة في ذات الشيء بمعنى: يقدر هذا الشيء إن كان قدريًّا على وجه مناسب تمامًا، انظر في المخلوقات تجد كونها على هذا الوجه الذي خلقت عليه موافقًا تمامًا للحكمة، واسأل أهل التشريح للأجساد البشرية وغير البشرية اسألهم

كيف ركَّب الله عزَّ وجل هذه الأبدان على أبدع ما يكون وأدق ما يكون كم في الإنسان من معامل في جسمه، معامل عظيمة، انظر للطعام يدخل متنوعًا ويخرج نوعًا واحدًا، انظر إلى الطعام يدخل على وجه الصعوبة أو الليونة ويخرج على مستوى واحد كل هذا بسبب المعامل، ثم هذه المعامل - سبحان الله - تباشر العالم لا تتأخر، فالمعدة حين يصل إليها الطعام تبدأ في الشغل والإفرازات عليها من المرارة أو غيرها شيء عجيب، كون الإنسان خلق على هذا الوجه، عدله الله وجعله سويًّا ليس كالأنعام مناسب تمامًا لما خُلِقَ له العبد من كونه مخلوقًا للطاعة والعبادة؛ حتى يتمكن من القيام والقعود والركوع والسجود وغيرها مما قد يكلفه الله به، وكذلك أيضًا الحكمة في ذات الأمور الشرعية - حكمة عظيمة - الصلاة هي صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل إنه يناجي ربه قائمًا بقرابة وإنه يبتهل إليه في سجوده وإنه يخشع له بقلبه، فكونه على هذا الوجه حكمة، أما الغايات فالغايات أيضًا حكمة، الغايات مثلًا فيما يقدره الله قدرًا، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟﴾ والغاية من تلك العقوبة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهذه غاية بعد غاية: مع أن الإنسان لو تصور الأمر في أول وهلة لقال الفساد فساد كيف يكون؟ فنقول: إن له غاية حميدة، المصالح لها غايات حميدة أيضًا هي في نفسها حميدة، ومنها: الشكر على النِّعم؛ لأن الله تعالى يبتلي بالخير والشر إذا صبر الإنسان على الشر فهي غاية حميدة، وإذا شكر على الخير فهي غاية حميدة، كذلك المخلوقات - نحن نتكلم عن الشريعة - أيضًا المخلوقات لها غاية إذا رأيت الشمس تطلع كل يوم من غير المطلع الذي بالأمس، وبين مطلعها اليوم ومطلعها بالأمس مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجل؛ لأن مع هذا البعد العظيم الذي مثل الشعرة تجد مساحته أعوامًا، ونحن نقول: إن المساحة يسيرة ما هي إلا شعرة انحرفت الشمس عنها وهي ليست كذلك، مسافات عظيمة جدًّا كل يوم وترجع في نفس اليوم للمصالح العظيمة، الناس تختلف مصالحهم في الشتاء عنها في الصيف، في الخريف عنها في الربيع الشمس أيضًا في نبت الأشجار وتدفئة الجو لها - سبحان الله - شيء ما نتصوره، انظر إلى أفق الجو تجد ونحن في أشد الصيف تجده باردًا جدًّا لأن أضواء الشمس ليس لها ما يعكسها؛ إذ هي تنعكس على الأرض ثم تولد حرارة، لكن في الجو ما في شيء يعكسها تخرقه خرقًا وتمضي إلى الأرض، فلكل مخلوق غاية ولكل مشروع غاية حميدة.

فالحكمة إذنْ تكون في المقدور يعني: كونه على ذات المقدور كونه على هذا الوجه حكمة، وتأمل: من الشرائع ما تجدها صلاح للبدن والقلب، صوم، صلاة، زكاة، حج، توحيد وإخلاص، مصلحة للبدن، أنشط ما يكون الإنسان وأفرح ما يكون إذا استصفى قلبه بالإخلاص لله عزَّ وجل ولذلك يمر على الإنسان أحيانًا وهو في العبادة يمر عليه حال يقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم فهو كاف، المهم أن الحكمة تكون على هذه الوجوه الأربعة: حكمة في

المخلوق، حكمة في المشروع نفسه، حكمة في الغاية من المخلوق، حكمة في الغاية من المشروع.

الغريب أن هذه الحكمة العظيمة أنكرها الأشاعرة والجهمية وقالوا: إن الله يفعل ليس لحكمة؛ لأن الحكمة غرض والله منزه عن الأغراض والأعراض والأبعاض، فَنَزَّهَ عن الأغراض ليس حكمة فهو يفعل هكذا مجرد مشيئة، عن الأعراض ليس له صفات لا يضحك ولا يغضب، وعن الأبعاض ليس له وجه ولا له عين ولا له يد، لكن نقول: إن هذا باطل، والله تعالى منزه عن النقص، أما الحكمة فليست غرضًا ينتفع بها هو، إنما ينتفع بها الخلق تظهر آثار رحمته، وآثار حكمته في خلقه حتى يعبدوه وإلا فالله غني عنهم، لو أن أهل الأرض كلهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم لا يُنْقِص الله شيئًا، قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] عن العالمين كلهم، لا تنفعه طاعه ولا تضره المعصية، لكن تظهر آثار رحمته وحكمته وسلطانه وقوته، وقد جاءت الشرائع بكل هذا.

فليست الحكمة غرضًا ينتفع به الحكيم بالنسبة لله عز وجل أو يدفع به ضررًا عنه.

أما قولهم: منزه عن الأعراض يعني: أنه لا ينزل ولا يضحك ولا يفرح ولا يحب ولا يكره فنقول هذا يعني: إبطال ما وصف الله به نفسه، وهذا الإبطال هو بمنزلة الجحد، لأنهم ينكرون أشياء واضحة المعنى، فهي كالذي اشترى فرسًا قال اشتريت خبزًا هل نصدق هذا؟ لا نصدق تحريفاتهم للنصوص مثل من قال: اشتريت خبزًا يريد اشتريت فرسًا لكنهم لا يصرحون بالنفي بأن يقولوا إن الله لا يغضب ولكنهم يقولون يغضب لكن المراد بغضبه الانتقام أو إرادة الانتقام.

يقولون: مُنَزَّهٌ عن الأبعاض يعني: لا يوجد لله وجه ولا عين ولا يد ولا قدم ولا ساق فنقول: سبحان الله أأنتم أعلم أم الله؟ فإذا قالوا الله أعلم نقول: فهل يحدث الله تعالى بالكذب؟ قالوا: لا، لا يمكن أن يكذب وهو أصدق القائلين قلنا إذنْ كيف تقولون ليس له يد حقيقية، ليس له وجه حقيقي، فالحاصل أننا نقول: إن نفي الحكمة يعني: أن أفعال الله تعالى كلها سفه، لأنه إذا انتفت الحكمة حلَّ العبث ضدها، إذنْ لا يعقل أن فاعلًا يفعل ما ليس له فيه حكمة إلا وله ضدها.

إذنْ الآية هذه تفيد الحكمة على أوجهها الأربعة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن عيسى ـ عليه السلام ـ وهو أحد أولو العزم من الرسل يفوِّض الأمر إلى الله حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ و﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهكذا يجب علينا نحن أن نفوِّض الأمر إلى الله عز وجل فيما يفعله ولا نعترض عليه، فالله يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لا يُسئل لكمال حكمته وهم يسئلون؛ لأنهم عابدون لله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تسليم الأنبياء وتفويض أمرهم إلى الله عز وجل لأن هذا من عيسى عليه الصلاة والسلام وهو أحد الأنبياء أولو العزم.

٣ - **ومن فوائدها**: إطلاق العبودية على من استحق التعذيب.

والعبودية نوعان: خاصة وعامة، والخاصة نوعان: أخص وأعم، العامة هي: عبودية القدر يعني: عبودية التكوين هذه عامة لكل أحد، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ولا يشذ عن هذه العبودية أحد ولا يمكن أن يعارض هذه العبودية أحد الكل لله خاضع، لا يستطيع الفرد من عباد الله أن يمنع قدر الله فيه، وهذه عامة للمسلم والكافر والبر والفاجر، والثانية: خاصة وهي العبودية للشرع، أن يتذلَّل الإنسان لشريعة الله عز وجل وهذه خاصة بمعنى أسلم وجهه لله فيخرج منها الكافر فليس عبد الله بهذا المعنى، هذه العبودية الخاصة تنقسم إلى أعم وأخص، أخص هذه العبودية الخاصة هي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] والأمثلة كثيرة، وقال في نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] هذه أخصُّ أنواع العبودية وهي عبودية الرسالة؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام مُكلَّفون بأمر زائد على ما كُلِّف به المرسل إليهم بتبليغ الرسالة والصبر عليها والدعوة إلى الله.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن لله تعالى أن يعذب ويرحم وإن شئت فقل أن يعذب ويغفر لتطابق الآية، ولكن ليس هذا على ظاهره بل نقول: أن يعذب من يستحق التعذيب؛ لأن الله لا يعذب أحدًا لا يستحق التعذيب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حكمة الله عز وجل في جعل الخلق ينقسمون إلى قسمين: معذب ومغفور له، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ولولا هذا الانقسام ما ظهر فضل الإيمان، ولا شُرع الجهاد، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا أرسلت الرسل، لكن حكمة الله اقتضت أن يكون الناس قسمين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المغفرة ـ أي مغفرة الله ـ لمن شاء من عباده لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقد مر علينا معنى المغفرة وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه، نأخذ هذا من اشتقاق هذه الكلمة من المِغْفَر وهو الذي يتقي به السهام يوضع على الرأس فهو ساتر وواقي.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين الكريمين : العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمناه من صفة وهي: العزة والحكمة، واعلم أن الأسماء الكريمة قد تدل على معاني أخرى لا يدل عليها اللفظ الاشتقاقي لكن تكون من اللوازم كالخالق مثلًا، الخالق من أسماء الله، الخلاق من أسماء الله تدل على صفة الخلق وتدل على صفات أخرى لازمات لذلك وهي العلم

والقدرة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] وبهذا نعرف أن الصفات أكثر من الأسماء، وجه هذا أن كل اسم لابد أن يتضمن صفة أو أكثر وليس كل صفة يُشتق منها اسم، فلهذا نقول: صفات الله التي بلغتنا أكثر من أسمائه فإن قال قائل: الإنسان إذا قرأ هذه الآية يتوقع أن يكون ختامها فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأن أنت العزيز الحكيم جواب إن تغفر لهم، والمناسب أن يكون إنك أنت الغفور الرحيم فالجواب: قيل إن الآية وإن كانت مركبة من شرطيتين فهما بمعنى واحد، الآية الآن فيها شرطيتان ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ وجوابها ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، و﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ جوابها ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لكنها في الحقيقة كشرط واحد، فيكون تعذيب الظالمين بظلمهم، والمغفرة لمن يستحق المغفرة مبني على العزة التي بها يعذب الكافرين، وعلى الحكمة التي بها يغفر لمن يستحقون المغفرة، ومن وجه آخر: تقسيم الناس إلى هذا اقتضته الحكمة والعزة وكان هذا هو المناسب، هذا أقرب ما يكون ـ والله أعلم بمراده ـ.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]

❁ التفسير ❁

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ في هذه الآيات كلها إثبات القول عز وجل وأنه مسموع وأنه بحرف؛ لأن مقول القول حروف، والله يخاطب من يخاطب به فيكون مسموعًا فيكون في هذا رد على القائلين إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه وهو مذهب الأشاعرة المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري.

قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ المشار إليه يوم القيامة. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. و﴿يَوْمُ﴾ خبر المبتدأ ولهذا جاء مرفوعًا، وليس ظرفًا إذ لو كان ظرفًا لكان منصوبًا لكن فيه قراءة سبعية بالنصب «هذا يومَ» وعلى هذه القراءة يكون هذا الواقع ينفع يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الصدق يكون بالقول وبالعمل يعني: بالفعل وبالاعتقاد، أما الصدق بالقول فهو مطابقة الخبر للواقع ـ هذا صدق بالقول ـ، وأما الصدق بالاعتقاد بأن يكون اعتقاده مُطابقًا لقوله، مثاله: قول القائل لا إله إلا الله هذا خبر صدق، لكن هل يصدقه

القلب بمعنى: هل القلب يؤمن بأنه لا إله إلا الله أو لا؟ إن كان يؤمن بقلبه اجتمع في حقه صدق القول وصدق الاعتقاد، صدق الفعل أن يكون الفعل مُتَّبِعًا فيه الشريعة ومطابقًا لما في القلب، وعلى هذا فالمبتدع ليس صادقًا والمنافق ليس صادق؛ لأن فعله ليس ينطبق مع ما في قلبه، والمبتدع ليس صادقًا؛ لأنه لو كان صادقًا الإيمان ما خرج عن شريعة الرحمن، والصِّدِّيقيَّة مرتبة هي أعلى المراتب بعد النبوة ـ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله في الفوائد ـ.

قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم وهذا يقتضي الاختصاص أي لهم دون غيرهم ﴿جَنَّتٌ تَجْرِى﴾ الجنات جمع جنة وهي: الدار التي أعدَّها الله عزَّ وجلَّ للمتقين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، تأتي في القرآن مفردة ومجموعة ومثناة، أما في الإفراد فباعتبار الجنس فتشمل كل ما كان من الجنات، وأما الجمع فاعتبار الأنواع لأنها درجات متعددة أعد الله للمجاهدين في سبيله مائة درجة ،وأما التثنية فباعتبار الجنس وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الجريان المعروف، والأنهار جمع نهر وهو الماء هذا ما نعرفه في الدنيا لكن في الجنة أنهار أصنافها أربعة : ذكرها الله تعالى في سورة القتال فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] هذا في الشراب، والمأكل، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥] في عدم مسئولية عما أكلوا أو تركوا ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يعني: ليس من فوقها، فالمعنى ليس من تحت السقف، بل قوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت هذه الأشجار والقصور والخيام، وجريان هذه الأنهار كما جاء في السنة بدون أخدود وبدون حفر تجري على السطح لا تحتاج إلى أخدود تُقَوَّم ولا إلى حفر تحفر، وإنما تجري حسب رغبة الساكنين يصرفها الإنسان كما يشاء.

قوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الخلود هو المكث الطويل فإن أكد بالأبدية صار أبديًا.

وقيل: إن الخلود هو المكث الدائم ما لم يقم دليل على أنه مؤقت، وعلى كل حال فإن أكد بالأبدية انقطع بالقول بأنه خلود طويل؛ لأنه أكد بالأبدية.

قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قاموا به من طاعته وتمام الرضا إذا دخلوا الجنة فإن الله تعالى يسألهم ماذا يريدون؟ فيعدون عليه نعمه عليهم فيقول: «إِنَّ لَكُم أَنْ أُحِلَّ عَلَيْكُم رِضْوَانِي فَلَا أَغْضَبُ عَليكم بَعْدَهُ أَبَدًا» وهذا الرضوان الدائم الكامل، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لما وفقهم له من الأعمال الصالحة في الدنيا، ولما أثابهم عليه في الآخرة فإن المؤمن لا شك مسرور بطاعة الله راضي بها فرح بها.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك المشار إليه ما ذكره الله عزَّ وجل من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها والرضا، وأشار إليه بإشارة البعد وذلك لعلو مرتبته وارتفاعها، وإلا فالذكر

قريب لكن أشار إليه لعلو مرتبته فإنه فوز لا نظير له، الفوز العظيم يقال: هذا الرجل إذا غلب، غلب غلبة مرضية، ولكن هذا لا يكون إلا بالنجاة من المرهوب وحصول المطلوب، والعظيم أي ذو العظمة البالغة التي ليس لها نظير.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات القول لله عز وجل لقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن قول الله بحروف وليس المعنى القائم بنفسه؛ لأن مقول القول حروف، ومنها: أن قول الله بصوت مسموع؛ لأن كل هذا في سياق المحاورة مع عيسى عليه الصلاة والسلام ثم اعلم أن القول عند الإطلاق لا يراد به إلا اللفظ المسموع، لا يمكن أن يراد بالقول عند الإطلاق المعنى القائم بنفسه أبدًا، بل إذا أريد به المعنى القائم بنفسه قُيد كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

٣ - **ومن فوائد الآية:** الفائدة العظيمة في الصدق؛ لأن الإنسان في يوم القايمة أحوج ما يكون إلى ما ينفعه، والصدق يوم القيامة ينفع.

٤ - **ومن فوائدها:** الحث على الصدق والترغيب فيه؛ لأن ذكر كونه نافعًا في هذا الوقت الحرج يدل على الترغيب فيه والحث عليه، وقد حث عليه النبي ﷺ في قوله: «عَلَيْكُم بالصِّدقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِندَ الله صِدِّيقًا» (١) والصديقية أعلى مراتب البشر بعد النبوة، ويكفيك اقتناعًا بفائدته وثمرته ما حصل للثلاثة الذين خُلِّفوا أي: خلف أمرهم ولم يقضِ فيه بشيء حتى جاء الوحي، وهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، هؤلاء الثلاثة تخلَّفوا عن غزوة تبوك، ولما رجع النبي ﷺ منها جاء المعذرون يعتذرون للرسول ﷺ وقد أخبر الله عنهم قبل وصول النبي إلى المدينة وقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤- ٩٦] أما الثلاثة فصدقوا وأخبروا بالصدق وأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم آيات تتلى في الصلاة، وخارج الصلاة،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأحمد في «مسنده» (٣٦٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ويُثاب على قراءتها، وحثَّ على أن نكون مثلهم فقال بعد ذكر الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الثواب بالجنة لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ وهذا أمر معتقدي عند جميع الطوائف المسلمة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا الثواب يختص به الصادقون، ووجه ذلك تقديم الخبر على المبتدأ يدل على الحصر.

٧ - **ومن فوائد الآية:** وصف الجنات بأنهار تجري من تحت الأشجار والقصور وما أجملها من منظر! وما ألذه من مخبر! ـ اللهم اجعلنا من أصحابها ـ.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن أهل الجنة مُخلَّدون فيها أبدًا لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهي الآن موجودة في السموات قال الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والإعداد يكون مهيئًا لأهلها والنبي ﷺ دخلها حين عُرِجَ به ورأى فيها ما رأى، ومثلت له حين قام يصلي صلاة الكسوف هي والنار.

٩ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات رضا الله عز وجل لقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ والرضا صفة فعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بالمشيئة فهي فعلية، وهل هي حقيقة، أو هي كناية عن إرادة الثواب، أو هي الثواب نفسه؟ فيها قولان: القول الأول: إنها حقيقية وهذا القول هو الذي يجب اتباعه؛ لأنه ظاهر الكتاب، والواجب إجراء الكتاب على ظاهره بدون تحريف.

فإن قال قائل: الرضا معنى يقوم بالنفس يوقى ويضعف ويزول ويبقى قلنا وما المانع أن نثبت هذه لله وقد اثبته لنفسه، لكن نعلم أن رضاه ليس كرضا المخلوق الذي يزول لأدنى سبب، أو يوجد لأدنى سبب بل له أسبابه المقتضيه له، وله ما يزيله على وجه يختص بالله عزَّ وجل لأن لدينا قاعدة عامة وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أهل التحريف قالوا: إن الله لا يمكن يرضى، الرضا صفة عارضة والله تعالى منزه عن الصفات العارضة؛ لأن الصفات العارضة صفات حادثة والحادث لا يكون إلا بمحدث، وكل هذه تعليلات وهمية لا عقلية، منكرة بدلالة الكتاب والسنة على ثبوت ذلك، ولهذا ـ أي لكونهم لا يعتقدون الرضا الحقيقي ـ قالوا: معنى الرضا إرادة الثواب ولم يقولوا: إنه الثواب؛ لأنهم يثبتون الإرادة، تعرفون أن الأشعرِّية يثبتون سَبْع صفات، الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام فقالوا: الرضا إرادة الثواب، ومنهم من يقول من الذين لا يثبتون الإرادة يقول: إن الرضا هو الثواب، والثواب كما نعلم شيء منفصل عن الله مخلوق يكون بكلمة الله عزَّ وجل ولا شك أن هذا تحريف ، وكما تعلمون مما ذكرنا في الحديث: أن الرضا الذي يعطيه الله لأهل الجنة أعظم وأكمل من كل ما يجدوه في الجنة من نعيم فكيف نفسره بما هو أدنى، ونقول هو الثواب أو إرادة الثواب.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** رضا أهل الصدق عن الله عز وجل وهذا فيه شيء من

الإشكال، هل للإنسان أن يرضى عن الله أو لا يرضى أو الواجب الرضا بقضاء الله مطلقًا؟ الواجب رضا الإنسان عن ربه مطلقًا لابد أن يقول: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، فهل نقول: إن هذا من باب المشاكلة في اللفظ لَّما قال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قال: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أو نقول: إن الرضا هنا ليس المراد ما يقابل الغضب؛ لأنه إذا ثبت الرِّضا، ثبت الرِّضا، وإذا لم يثبت فهذه الكراهة والسخط والغضب أو عدم الرضا بدون كراهة ولا سخط ولا غضب، فلا يلزم من هذا أن نقول إن الإنسان له خيار بين أن يرضى بقضاء الله وقدره وألَّا يرضى ، بل نقول: إن الواجب أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره؛ لأن هذا من تمام الرِّضا بالله ربًّا لكن رضاهم عنه إما أن يكون من باب مقابلة اللفظ بمثله، وإما أن المراد برضاهم أنهم استبشروا بذلك ولم يبغوا عنه حِوَلًا كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

١١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الفوز حقيقة ليست بالربح، الدينار والجاه والرئاسة، الربح العظيم أو الفوز العظيم هو فوز الإنسان بجنات النعيم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ثم قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لله وحده، واستفدنا وحده من تقديم الخبر أي: لله وحده لا غير ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهن كما يشاء ولا يشاركه أحد في ملكه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جَمَعَ السموات؛ لأن عددها سبع، وأفرد الأرض باعتبار الجنس وإلا فإن الأراضين سبع، ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ ما هنا اسم موصول وعبر بها التي يُعبر بها عن غير العاقل، قيل: لأن أكثر ما في السموات والأرض من غير العقلاء، ولهذا قال: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ وقيل: بل عبر بها لأنها تشمل الأعيان والأحوال فكأنه قال: وما فيهن من أعيان وأحوال، ومَنْ إنما يُعبر بها في العاقل لتعيين الشخص نفسه، وهذه فائدة لا تكاد تجدها عند كثير من النحويين، لكن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائع الفوائد» أشار إليها، إن مَنْ للعاقل إذا قُصِد التعيين يعني: عينه أما إذا قُصِد عموم الأعيان والأحوال فإنه يؤتى بما، وأبين مثال لذلك قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل مَنْ ، لكن لو قال قائل لشخص: تزوج منْ شئت من بناتي ، فمن هنا جاءت من أجل التعيين، وهذا معنى لطيف أنه إذا قصد بها ما يشمل الأعيان والأحوال فإنها أفصح من الإتيان بمن وقوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات العظيمة، واسمع إلى قول النبي ﷺ:

«أَطَّتْ السَّمَاءُ وحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ»(١) أطت يعني: صار لها صوت كصرير الرحل عند ثقل الحمل، البعير لو حملت عليها فإن رحلها يكون له صوت يسمى أطيط.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مع كل ملكه قدرته أيضًا عامة على كل شيء ما من موجود إلا وهو قادر على إعدامه، وما من معدوم إلا وهو قادر على إيجاده، ولا يستثنى من هذا شيء، هو قادر على كل شيء، وأخطأ صاحب الجلالين حيث قال عن هذه الآية: وخص العقل ذاته فليس عليه اعتقاد، فإن هذا قول منكر لكن هذا مقتضى مذهبه حيث ينفي أن تقوم الأفعال الإختيارية بالله، يعني: عنده أن الله لا ينزل ولا يستوي على العرش، ولا يضحك، ولا يفرح، ومن المعلوم أن الأفعال الاختيارية تكون بمشيئته هو قادر على إيجادها وإعدامها، بل قوله هذا منكر مبني على عقيدة فاسدة، ونحن نقول: إن الله على كل شيء قدير ولا تستثني يفعل ما يشاء عز وجل.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر ما جرى بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ـ وأن عيسى تبرَّأ مِمَّا يدَّعيه النصارى فيه بيَّن الله أن له ملك السموات والأرض، وأن عيسى لا يخرج عن كونه عبدًا لا هو ولا غيره؛ ولأنهم لا يملكون شيئًا مما في السموات والأرض، فيستفاد من هذا: اختصاص ملك السموات والأرض وما فيهن لله عز وجل وجه الاختصاص تقديم الخبر، والقاعدة أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، سواء كان هذا الذي حقه التأخير خبرًا أو مقولًا أو غير ذلك مما حقه التأخير.

١٣- من فوائد هذه الآية الكريمة: عموم ملك الله للسموات والأرض يؤخذ من الإضافة ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمفرد المضاف يفيد العموم، واسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فإن نعمة مفرد ويحتاج إلى عدد لو أخذنا بظاهره، لكنه نعمة واحدة، لكن لما كان المفرد المضاف يفيد العموم صح أن يقول: لا تحصوها، ولهذا لو قال الإنسان: عبدي حر، وعنده أعبد من يعتقه؟ الجميع إلا إن كان له نية في عبد خاص، ولو قال: زوجتي طالق وعنده أربعة تطلق الزوجات كلهن ما لم ينوي واحدة لأن المفرد المضاف يفيد العموم.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن السموات جمع وقد بيَّن الله عزَّ وجل في كتاب أنها سبع سموات فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وهي طباقًا كما قال الله تعالى عنها: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] أي: متطابقة بعضها فوق بعض، وبينها مسافات كما دل على ذلك حديث المعراج (٢) حيث كان جبريل يصعد بالنبي ﷺ سماء بعد سماء كُلَّما أتى سماء استفتح واستفهم أهلها من هذا من معك هل هو رسول؟

---

(١) صحيح: انظر صحيح الجامع (١٠٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس ﷺ.

وعلينا أن نؤمن بهذا، وأن ننكر قول هؤلاء الفلاسفة الذين يقولون: ليس هناك شيء، ليس هناك سموات وإنما هي مجرات ونجوم وما أشبه ذلك وفضاء لا نهاية له فإن هذا كذب؛ لأنه ثابت بما جاء في الكتاب والسنة وليسوا أعلم من الله بخلق الله عز وجل.

١٥- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان الحكمة من إفراد الأرض وجمع السموات، الأرض أفردها الله -عز وجل- في كل موطن يذكرها وإن كان في القرآن إشارة إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ولعل من فائدة ذلك وحكمته أن الإنسان إذا ملك ظاهر الأرض ملك، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِين»(١). يعني: يملك القرار إلى آخر الأرض السابعة أخذوا القرار من هذا أنهم كما يملكون القرار نملك الهواء إلى السماء، لو أراد أحد أن يبني على فحت بيته يسمونه رَسْمًا، لو أراد أن يبني على فناء جاره شرفة فإنه يمنعه حتى لو كانت عارية، لو أن أشجارهم امتدت أغصانها إلى فناء جاره طالَبَه بقطعها أو ليِّها إذا أمكن إذنْ الهواء إلى أين؟ إلى السَّماء، القرار إلى الأرض السَّابعة؛ وأنها كلها أرض وافدة عبَّرَ الله عنها بالإفراد.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن السموات والأرض فيهما أُناس ومثلنا وهذا أمر معلوم، السماء فيها الملائكة، والأرض فيها الإنس والجن والشياطين، كذلك أيضًا هناك غير ما فيه حياة كالجبال، السُّحُبْ، النجوم كلها ثابت مُلكها لله عز وجل.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: عموم قدرة الله عزَّ وجلَّ على كل شيء لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ وهذه الصفة مطلقة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ وهل هو قدير على ما لا يشاء؟ نعم قدير على ما لا يشاء، فإذا شاءه وقع، وبها نعرف خطأ من يُعبِّر من الناس ويقول: إنه على ما يشاء قدير لا يجوز هذا، لأنك إذا قلت على ما يشاء قدير وقدمت أيضًا المعمول خصصت قدرته بما يشاء فيما لا يشاء وهذا غلط هو قادر على ما يشاء وما لا يشاء.

لكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال بعض المتأخرين: وإذا قلت وهو على ما يشاء قدير فقد وافقت القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يشاء أفعال العبد وإذا كان لا يشائها لم يكن له قدرة عليها.

فالجملة هذه أيضًا ترعى إلى قول مبتدع قول القدرية، فإذا سمعت أحدًا يقول إنه على ما يشاء قدير قل له : قدير على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء، وليس من الحق أن تقيد ما أطلقه الله من الصفات، التي أطلقها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.

فإذا قال قائل: إذا قَرَّرتُم هذا فكيف تجيبون عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[الشورى: ٢٩] قلنا: المشيئة هنا عائدة على الجمع يعني: إذا شاء جمعهم فهو قدير لا يعجز عنهم خلافًا لمن يقولوا لا يقدر على جمعهم وأنكروا البعث ويكون التقييد بالمشيئة هنا للجمع لا للقدرة.

فإن قال قائل: ماذا تقولون في الرجل الذي يدخل الجنة آخر من يدخلها إذا قال الله له هذا لك قال الله تعالى: إني على ما أشاء قادر؟ نقول: نعم هنا المشيئة قيدة بفعل معين، يعني: كأن الله يقول: إن شئته فأنا قادر عليه، مثل قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ والمهم أنه ليس لنا أن نقيد ما أطلقه الله عز وجل. بل نقول: إن الله على كل شيء قدير[1].

تم بحمد الله تفسير سورة المائدة

(١) تفسير الآية الأخيرة ليس موجودًا في المادة المسموعة لدينا.

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة النور

اعتنى به

أشرف بن كمال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير
سورة الأنعام
سورة الكهف   سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنةُ الطَبْـع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقمُ الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقمُ الطَبعَة : الأولى

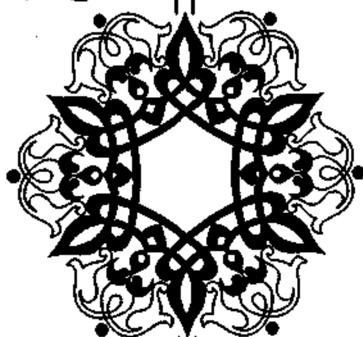

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جُمهُورِيَة مِصرَ العَرَبيَة - القَاهِرَة - عَين شَمس

١٤ شارع ١٣٦ مِن شارع مَسجد الوَطَنيَة - خَلف سنترال النزهَة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأنعام

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]

❁ التفسير ❁

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، سبق أن شرحنا الكلام على البسملة، ثم نعيده على سبيل الاختصار: فقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ذكرنا أن هذا الاسم العظيم هو أصل الأسماء ولا يسمى به سوى الله عز وجل.

أما قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فالرحمن مشتق من الرحمة، ولكنه على صيغة فَعْلَان، وهذه الصيغة تدل على السعة والامتداد؛ فيكون معناه أنه ذو رحمة واسعة؛ ولهذا فسرها بعضهم بأن الرحمن ذو الرحمة العامة، ولكن الصواب أنه ذو الرحمة الواسعة يرحم من شاء عز وجل، فهي أدل على الوصف منها على الفعل؛ أي: أدل على وصف الله منها على الفعل.

أما ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهي صيغة مبالغة من الرحمن، لكنها أدل على الفعل منها على الوصف فسبقت الرحمن، لأنها وصف، وأدركت الرحيم؛ لأنها فعل، فهو رحمن يرحم عز وجل، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه بالمؤمنين رحيمًا، والمراد: الرحمة الخاصة.

إذن الرحمن تدل على الوصف، والرحيم تدل على الفعل، أي على أنه يرحم.

وقد قسَّم العلماء رحمهم الله الرحمة إلى قسمين:

١- عامة.

٢- خاصة.

فأما العامة: فهي الشاملة لجميع الخلق: (المؤمن والكافر، البر والفاجر، الصغير والكبير، البهيم والعاقل).

فكل الخلق تحت رحمة الله عز وجل، لا يشذ أحد عن هذه الرحمة العامة.

وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تختص بالمؤمنين فهي رحمة خاصة به.

والفرق بينهما أن الرحمة الخاصة تتصل برحمة الآخرة؛ فيكون لله عز وجل على المؤمنين رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة.

أما الرحمة العامة: فلا أثر لها إلا في الدنيا؛ ولذلك: الكُفَّار في الآخرة يعاملون بالعدل، لا يعاملون بالرحمة.

والبهائم وغير العاقل كذلك يعاملون بالعدل؛ لأن الله يقضي بينهم، ثم يأمرهن أن يكن ترابًا فيكن ترابًا ولا نعيم لها، فالرحمة إذن نوعان أو قسمان: عامة: تشمل جميع الخلق، وخاصة تتصل بالمؤمنين.

والفرق بينهما أن العامة إنما تكون في الدنيا فقط، والخاصة تكون في الدنيا والآخرة، فاللهم ارحمنا برحمتك!

وذكر هذين الاسمين الكريمين في البسملة التي تتقدم فعل العبد وقوله؛ إشارة إلى أن الله إذا لم يرحمك فلن تستفيد لا من هذا الفعل ولا من هذا القول؛ ولهذا قال النبي ﷺ وعلى آله: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (أل) هنا للاستغراق، إذن فالحمد من كل وجه ثابت لله عز وجل، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إما للاختصاص وإما للاستحقاق، ولا تنافي بين المعنين وعلى هذا تكون للاستحقاق والاختصاص؛ لأن (أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعموم، ولا أحد يستحق الحمد على العموم إلا الله عز وجل فتكون اللام للاستحقاق وللاختصاص أيضًا.

ولكن ما هو الحمد؟ الحمد كثيرًا من الناس من يعرفه بالثناء على الجميل الاختياري، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن الثناء يكون تكرار الحمد، والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي».

وهذا يدل على أن الثناء هو تكرار الوصف الكامل، والاشتقاق يدل عليه؛ لأن الثناء من الثني: وهو إعادة الشيء أو رد الشيء بعضه إلى بعض.

وأما قولهم: على الجميل الاختياري، فهو أيضًا بالنسبة إلى الله عز وجل غير صحيح؛ لأن الله يحمد على ما يفعله عز وجل، وهو يختار ما يشاء ويحمد على كمال صفاته اللازمة التي لا تتعدى إلها فهو محمود على كمال حياته ومحمود على كمال قيوميته، فالأول وصف لازم، والثاني وصف متعدٍّ، وهو لازم أيضًا كما سبق تفسيره.

إذن الصواب: أن حمد الله يكون على أفعاله التي يختارها وعلى صفاته الكاملة اللازمة له.

فبماذا نعرفه إذن؟

نقول: الحمد وصف المحمود بالكمال حبًّا وتعظيمًا، فالحمد وصف المحمود بالكمال اللازم والمتعدي حبًّا وتعظيمًا؛ لأن الوصف بالكمال فقط ناقص في حق الله، فقد تصف شخصًا ما بالكمال لا محبة له لكن رجاء لما سيجازيك به، وقد تمدحه لا على سبيل المحبة والتعظيم ولكن خوفًا من شره.

فالحمد إذن لابد أن يقيد بأنه على وجه المحبة والتعظيم، فإن لم يكن على وجه المحبة والتعظيم فهو مدح، وانظر إلى عمق اللغة العربية كيف فرقت بين حمد ومدح مع تساويهما في الحروف نوعًا وعددًا!

فالحروف ثلاثة ـ هذا العدد ـ والنوع هو نفس الحروف [ح ـ م ـ د] لكن اختلاف الترتيب في الحروف [حمد، ومدح] ولاختلافهما في الترتيب اختلف معناهما، والنسبة بينهما الخصوص والعموم، فكل حمد مدح وليس كل مدح حمدًا؛ لأن الحمد ـ كما قلنا ـ لا بد أن يكون على وجه المحبة والتعظيم، ولا مدح بخلاف ذلك، فقد يمدح الرجل سلطانًا أو وزيرًا أو ما أشبه ذلك لا محبة له ولا تعظيمًا له، ولكن يرجو نواله، أو يخاف منه، أما حمد الله عز وجل أو الحمد فلا.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الفروق بينهما في كتابه: «بدائع الفوائد» الذي حثنا شيخنا عليه حين الطلب وقال: إنه كتاب عظيم، وهو كذلك، ويشبهه من بعض الوجوه «صيد الخاطر» لابن الجوزي، لكن من حيث العمق والمعنى والفائدة لا سواء ولا مقارنة، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ بين بيانًا واضحًا الفروق بين الحمد والمدح، وبحث هذا المبحث حتى أنضجه طبخًا، وقال: إن شيخنا ـ يعني: ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان إذا بحث في مثل هذه الأمور أتى بالعجب العجاب رحمه الله، ولكنه كما قيل:

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّي عَنْكَ مَشْغُوْلُ

فينشغل الإنسان، وليس عنده التفرغ لأن يتكلم في مثل هذه الأمور، بل يتكلم بما هو أعظم.

إذنْ فالحمد هو وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم لله، وقلنا: اللام للاستحقاق والاختصاص، ولا أحد يستحق الحمد كاملًا من كل وجه إلا الله عز وجل، وهذا الحمد المتبوع خاص بالله عز وجل، فهو جل وعلا المستحق لأن يحمد والحمد الكامل مختص به.

أما ﴿اللَّهِ﴾ فهي علم على الله عز وجل، والتعبير بها أحسن من التعبير بغيرها.

لكن نجد بعض الناس الآن يعبر فيقول قال الحق كذا وكذا، وهذا صحيح فإن الله هو الحق المبين، لكن اجعل عبارتك على عبارة السلف؛ فهم يقولون: قال الله، أو قال ربنا، أما قول القائل الحق أوكد للإنسان؛ لأجل فتح الأذهان؛ حيث يقول السامع: من هذا الحق؟ لكن نقول: قال الله التي بُنِيَتْ عليها الألوهية والعبادة أحسن، ولكن لا بأس أن نقول: قال ربنا، أو قال ربكم، كما

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لأصحابه أحيانًا: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ مُشتقة من الإله؛ لا مشتقة من الألوهية، وأَلِه بمعنى: تعَبَّد وليست بمعنى تحَيَّر كما زعمه البعض؛ لأن الإنسان إذا قال: الله فليس هناك تحير، لأنه سيجدُ ربًّا معينًا، فلا حيرة فيه.

إذنْ يكون أصلها الإله، لكن حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وقالوا: إن نظيرها الناس وأصلها الأناس، ومثلها كلمة خير وشر وأصلهما أخير وأشير، إذن الله أصله الإله وهي من أَلِهَ له أو تعبد له.

فإن قيل: هل هو مشتق أو جامد؟

نقول: الصواب أنه مشتق، وأنه لا يوجد اسم من أسماء الله، ولا من أسماء الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا من أسماء القرآن يكون جامدًا أبدًا؛ لأن الجامد معناه ألَّا معنى له إلا الدلالة على المعين فقط؛ لأن العلم كما قال ابن مالك:

اسْمٌ يُعَيِّنُ المُسَمَّى مُطْلَقَا عَلَمُهُ كَجَعْفَرٍ وَخِرْنِقَا

فلو قلنا: إن أسماء الله أو أسماء الرسول أو أسماء الكتاب العزيز جامدة، فمعناه أنها لا تدل إلا على تعيين المسمى فقط، ولكن نقول: هي مشتقة تدل على تعيين المسمى وعلى المعنى الذي اشتقت منه.

إذن الله مشتقة من الإله؛ بمعنى التعبد لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ وصف للفظ الجلالة.

وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ أي: أوجدها على تقدير محكم؛ لأن الأصل في الخلق لغةً هو التقدير، كما قال الشاعر:

فَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يفري: يعني يفصل، تفري ما خلقت: يعني ما قدرت ولا يمنعك أحد.

فالخلق إذن هو الإيجاد على وجه التقدير المحكم.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعول خلق، ولا مانع أن نقول: إنها مفعول خلافًا لمن قال: إنه لا يصح أن تكون مفعولًا؛ لأن المفعول لابد أن يرد الفعل عليه وهو موجود، وخلق السماوات والأرض ورد عليها قبل أن تُقسم، ولكن هذا تكلف والصواب الذي عليه أكثر المعربين أن السماوات مفعول به.

و ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: من سَمَى يَسْمُو إذا علا، وقد بيَّن رب العالمين أنها سبعٌ، وأنها طباق، وأنها شداد، وأنها مبنية بأيد؛ أي: بقوة.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوفة على السماوات وهي لفظ مفرد؛ لأنه لا يمنع التعدد إذا ثبت أنها

متعددة، ولو لم يثبت أنها متعددة نقول: بأنها واحدة، هذا مقتضى اللفظ، لكن نقول: إن المراد بها الجنس، وحينئذٍ لا ينافي التعدد، وهي متعددة بدلالة ظاهر القرآن وصريح السنة.

أما ظاهر القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: في العدد.

ولا يمكن أن يقول قائل: إن هذا من العظمة لهن في الكيفية والصفة، ما أحد يقول بهذا؛ لأن الفرق بين السماء والأرض واضح، فيتعين أن يكون المراد: العدد، وهو كذلك.

أما السنة فصريحة، قال النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ» فالمراد بالأرض الجنس، ولا يُنافي هذا التعدد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (جعل): بمعنى خلق، ولكن إذا كانت جعل بمعنى خلق، فما هي الحكمة في أن عُبِّر عن الخلق بالجَعْل؟

قيل: إن الحكمة هي: التضمن في العبارة، يعني: تغيير العبارة أو اللفظ مع اتحاد المعنى أحيانًا يكون من البلاغة، وقيل: إن الحكمة من ذلك أن النور لا يمكن أن يقوم إلا بغيره، أي: نور الشمس لا يمكن أن يتبين إلا أن يكون هناك جسم قابل له؛ ولذلك ما بيننا وبين الشمس ظلمة ليس هناك نور؛ لأن النور لا يمكن أن يظهر أثره إلا أن يكون مقابلًا بجسم.

إذن الآن الفرق موجود بين أن تقابل الشمس جسمًا قابلًا للحرارة وجسمًا غير قابل، وجسمًا قابلًا لنصاعة البياض وجسمًا غير قابل؛ لأن النور لا يمكن أن يكون قائمًا بنفسه، ولا يتبين إلا إذا كان منقلسًا على الجسم فهذا هو الحكمة من قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾.

وهناك حكمة أخرى هي: أن الظلمات والنور تكون حسِّية ومعنوية؛ فظلمة الليل حسية، وظلمة الجهل معنوية.

كذلك النور؛ فنور النهار يكون حسيًّا، ونور العلم والإيمان معنويًّا، ومن نور العلم والإيمان استنارة القلب بكلام الله عز وجل، وكلام الله تعالى غير مخلوق مع أن القرآن يسمى نورًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فلذلك عبَّر الله عز وجل بالجعل؛ لأنه يتعلق بالمخلوق وغير المخلوق.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف معروف ويفيد العطف والتراخي وإن شئت فقل: يفيد الترتيب والتراخي؛ فيكون معنى الآية: ثم مع ظهور هذا الأمر ـ وهو خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ـ الذين كفروا بربهم يعدلون؛ مع ظهور الآيات، ولا شك أن كفر الكافرين مع ظهور الآيات أشد في اللوم والتوبيخ ممن ليسوا كذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ هل نجعلها متعلقة بكفروا، أو

نجعلها متعلقة بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾؟ يحتمل الاثنان فمحتمل أن تكون كفروا بربهم يعدلون أي يعدلون به غيره، ويحتمل أن تكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منفصلة عن قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ويكون الذين كفروا يعدلون بربهم؛ أي: يجعلون غير الله معادلًا لله تبارك وتعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ثم بعد هذه الآيات العظيمة الظاهرة البينة الذين كفروا يعدلون بربهم أي: يعدلون به غيره؛ أي: يجعلونه عديلًا له وندًّا له.

في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هل الجار والمجرور ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾ أو بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾؟

الجواب: الأولى أي: أن يكون متعلقًا بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ لأن هذا هو المعنى المطابق، أما الذين كفروا فمعروف أن المراد: كفروا بربهم، وإنما قدم على عامله مراعاة لفواصل الآيات؛ لأن الفواصل إذا جاءت متناسقة فإن ذلك يكون ألذ على السمع وأقبل للنفس، وأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخي؛ ليدل على أنه بعد أن تأملوا ونظروا، وعلموا؛ كفروا - والعياذ بالله - وعدلوا به غيره، فجعلوا له أندادًا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة من الفوائد:** ثناء الله على نفسه، بل حمد الله تعالى نفسه على أن خلق السماوات والأرض، وهذا حمد عند ابتداء الخلق - أي خلق السماوات والأرض - وهناك حمد آخر عند انتهاء الخلق، كما في آخر سورة الزمر حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. قيل: أي: قاله كل العالم: الحمد لله رب العالمين.

وحمد نفسه تبارك وتعالى على تنزُّهه من كل عيب ونقص وكبريائه وعظمته فقال تعالى: أي: قاله كل العالم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].

وحمد نفسه تبارك وتعالى على تنزُّه من كل عيب ونقص وكبريائه وعظمته فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وحمد نفسه تبارك وتعالى على إنزال القرآن الكريم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١، ٢]، فالله تعالى يحمد نفسه عند الأمور العظيمة؛ لأن هذه الأمور العظيمة توجب للعبد المتأمل أن يحمد الله عز وجل على كمال صفاته، وعلى كمال إفضاله وإنعامه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن خالق السماوات والأرض هو الله عز وجل، ولا أحد ادعى أنه خلق السماوات والأرض، والمشركون لو سُئلوا عن خالق السماوات والأرض

لقالوا: الله.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن السماوات مخلوقة وليست أزلية؛ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فيكون في ذلك رد على الفلاسفة الذين قالوا بقدم هذا العالم وأنه أزلي، فإن قولهم هذا مردود بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن السماوات جمع؛ لأنها جمعت، وعددها سبع سماوات بنص القرآن.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التفريق بين ذكر السماوات والأرض؛ حيث ذكر السماوات جمعًا، والأرض مفردة؛ وذلك لأن السماوات أعظم من الأرض بل أعظم بكثير، لا من جهة ارتفاعها ولا سعتها ولا شيء من هذا، بل لأن ما في السماوات هو أعظم مما في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

٦ - **ومن فوائد هذا الآية الكريمة**: أنه قد يعبر بالمفرد ويراد به الجنس فيعم ما كان زائدًا على المفرد؛ لقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ .

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: ما قد يؤخذ منها؛ أن من ملك ظاهر الأرض فقد ملك أسفلها، حتى لا يقال: إنه ليس لك إلا أرض واحدة، فلا تملك الأرض التي تحكمها.

وقد قرر هذا العلماء رحمهم الله فقالوا: إن مالك الأرض يملكها إلى الأرض السابعة وعلى هذا دل الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ».

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التعبير المختلف بين خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فإن لقائل أن يقول: لماذا اختلف التعبير، هل هو مجرد اختلاف لفظ، أو هناك فرق؟

نقول: جعل: تأتي بمعنى خلق بلا شك، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فدل ذلك على أن (خلق وجعل) معناهما واحد، وعلى هذا فيكون المراد التفريق هنا لمجرد اختلاف اللفظ فقط.

وقيل: بينهما فرق، فالخلق إنشاء لذات المخلوق وأصل المخلوق، والظلمات وصف في المخلوق، وكذلك النور؛ ولهذا لا تجد للنور جسمًا يشاهد أبدًا، انظر إلى النور لا يظهر إلا على سطح، أما في الفضاء فلا يظهر النور، وما نشاهده أحيانًا من السهم الأبيض إذا ضربنا بشيء له هوة من الضوء ليس هنا بنور، لكنه انعكاس ذرات صغيرة في الفضاء وليس هو النور، بل هو انعكاس.

فلما كان النور والظلمات ليسا شيئًا محسوسًا وإنما يظهران في غيرهما؛ عبر عنهما بكلمة (جعل)، وهذا لا شك أنه أبلغ من أن نقول: إنه ليس بينهما فرق، وإنما اختلف اللفظ فقط.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: ما يحصل من جمع الظلمات وإفراد النور، قيل: إن النور أفرد؛ لأنه شيء واحد، والظلمات جمعت؛ لأنها تختلف اختلاف الجُرم، أي: الجرم الذي حصل فيه الظلمة، فمثلًا لو كان معك زجاجة مشمَّعة وجعلتها بين اللمبة وبين الأرض صار بها الظلمة لكنها خفيفة، وإذا جعلت شيئًا ثقيلًا صارت ظلمة سوداء بينة؛ ولذلك جمعت الظلمات من حيث إن الظلمة تختلف بحسب الجسم الذي أوجدها، أو الذي وجدت به، فجمعت.

وقيل: لأن الظلمات هي الأصل، والنور طارئ عليها، والظلمات معروف أنها تختلف، فمثلًا الظلمات في وقت تكون السماء فيه ملبدة بالغيوم ليس كما إذا كانت السماء صحوًا، والظلمات في قاع البحر ليست كالظلمات في سطح البحر، وهلمَّ جرًّا.

هذا إذا ما قلنا: إن المراد بالظلمات والنور ما كان حسيًّا منهما، أما إذا قلنا: - وهو الصحيح كما قررناه - إنه يشمل الظلمات الحسية والمعنوية وكذلك النور الحسي والمعنوي، فالأمر ظاهر؛ لأن شُعب الكفر كثيرة، والإيمان شيء واحد وفروعه مجرد فروع، وإلا فالأصل ثابت؛ وأن صراط الله تعالى واحد والطرق الأخرى متعددة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية**: سفه الكفار، وأنه لا عقول لهم، وجهه: أنه بعد ظهور هذه الآيات العظيمة عدلوا بالله عز وجل، أي: جعلوا له عديلًا وندًّا، وهذا يدل على سفههم وإن كانوا أذكياء.

ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وبأن الله تعالى دائمًا ينعى على الكفار فقدهم العقل فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] والآيات في هذا كثيرة.

وهذا هو الحق أن الكفار ليسوا عقلاء والمراد بنفي العقل هنا نفي عقل التصرف وليس عقل الإدراك؛ فهم عقلاء من جهة الإدراك؛ ولهذا تلزمهم الطاعات ويلزمهم الإسلام، لكنهم ليسوا عقلاء من حيث التصرف، بل هم سفهاء.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن المتكلمين: إنهم أوتوا فهومًا ولم يؤتوا علومًا، وأوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً، وهم عندهم فهم لكن ما عندهم علم - يعني: بالشريعة - وعندهم إدراك لكن ما عندهم عقل.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ربوبية الله تعالى عامة للمؤمن والكافر، وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فجعل الله سبحانه وتعالى نفسه رَبًّا لهؤلاء، ولا

إشكال فيها.

هذه هي الربوبية العامة، لكن هناك ربوبية خاصة في المؤمنين تقتضي الكلاءة والعناية والحفظ والتربية، وقد اجتمع النوعان في قول سحرة فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فالأولى عامة والثانية خاصة.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]

التفسير

إن الله عزَّ وجلَّ لما ذكر خلق السماوات والأرض ثنى بخلقنا نحن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ والطين هو التراب المبلول بالماء أو المخلوط بالماء وهو معروف وذلك بخلق أصلنا، وهو آدم، أما الإنسان فقد خلق من ماء مهين أي: من النطفة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾، أي: قدَّر أجلًا انقضى وانتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ ﴿مُّسَمًّى﴾ يعني معلوم عند الله، وهنا الأفضل أن تقف ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ ولا تَصِلْ؛ لأن الوصل قد يُشعر بالتناقض، وجهه: أن الأول مصروف، قال تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾ والثاني مرفوع ﴿وَأَجَلٞ﴾.

والحكم أيضًا مختلف كما سيتبين إن شاء الله في الفوائد.

وقوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ أي: عند الله وهو قيام الساعة، فإن هذا مما يختص الله به عز وجل، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فهذا عند الله لا يعلمه أحد، ولا أحد يعلم عن انقضائه، أما الأجل الأول فنحن نعرف انقضائه، فإذا وجدنا الرجل أنشأه الله ثم أماته؛ فقد انقضى الأجل أي: قضى الله أجله وعرفناه، لكن الأجل المسمى المعلوم عند الله عز وجل يختص الله بعلمه.

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن عرفتم أنكم خلقتم من طين، وأن الآجال تنقضي بعلم منكم، وأجل آخر غير معلوم بعد كل هذا ﴿تَمۡتَرُونَ﴾، والامتراء: هو الشك؛ أي: تشكُّون في البعث.

فانظر الآن كيف ذكرت الآية الأولى شرك هؤلاء بربهم يعني: الكفار ثم ذكر نوعًا آخر وهو الكفر باليوم الآخر؛ لأن الشك مما يجب فيه اليقين كفر.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن ابن آدم حادث بعد أن لم يكن، تؤخذ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، فمن عمره عشرون سنة هو قبل إحدى وعشرين لم يكن شيئًا مذكورًا فأوجده الله، ففيه دليل على حدوث بني آدم، وأنهم مخلوقون من العدم.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة الإشارة إلى أصل بني آدم وأنهم من الطين، والطين من الأرض؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

فإن قال قائل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]؟

الجواب: الجمع بينهما سهل؛ وذلك أن أصل بني آدم تراب، صُب عليه الماء فصار طينًا، بقي زمنًا مدة طويلة فصار صلصالًا له صوت إذا ضربته بأصبعك، فلا خلاف ولا تناقض، واعلم أنه لا يمكن أن يقع التناقض بين دليلين قطعيين أبدًا؛ لأنه لو وجد تعارض بينهما لم يكونا قطعيين؛ لأن معنى القطعية أن غيره لا يمكن، فلا يمكن التعارض بين دليلين قطعيين أبدًا؛ لا في القرآن ولا في السنة، ولا فيما بين القرآن والسنة، ولا بين الأدلة العقلية والنقلية، فهذا لا يمكن؛ لأنه لو تصورنا هذا فأحدهما قطعًا غير صحيح؛ إذ إن الدليلين القطعيين النسبة بينهما التناقض، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلابد من وجود أحدهما، ولا يمكن أن يجتمعا ولا أن يرتفعا، فإذا تراءى لك التعارض بين دليلين قطعيين؛ فاعلم أن الخطأ عند فهمك، وأنه يمكن الجمع بينهما، وإما أن يكون أحدهما ليس قطعيًّا، ويكون الحكم في قطعه.

أما إذا كانا ظنيين فيمكن - أي: يمكن التعارض - وحينئذ ينظر للترجيح.

فإذا كان في القرآن ما ظاهره التعارض على وجهٍ قطعي فاعلم أن هذا لا يمكن أبدًا، فإما أن تكون الدلالة غير قطعية، وإما أن يكون الحكم منسوخًا، أما أن يبقى الحكم والدلالة قطعية في الآيتين مثلًا فإن ذلك لا يمكن.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحكم لله عز وجل وحده؛ لقوله: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، ولا أحد يغيِّر في هذه الآجال.

٤ - ومن فوائدها: أن من مات مقتولًا فقد مات بأجله الذي قدره الله له؛ لأن الله قضى، فلا يقال: لولا أنه قتل لم يمت، هذا مستحيل؛ لأن الله قضى عليه أن يموت بالقتل، فهو مقتول بأجل.

فلو قال قائل: لولا أن هذا الرجل قتل مثلًا الساعة الثانية عشرة من النهار لأمكن أن يتردَّى حتى الساعة الواحدة؛ ماذا نقول؟

نقول: لا يمكن أبدًا؛ لأن الله قضى هكذا فلابد أن يقع، فكل ميت ميتٌ بأجل مقدر له، ما

يتقدم ولا يتأخر، لكن السبب قد يتقدم ويتأخر بحسب نظر الإنسان، كما أن طول العمر لصلة الرحم أيضًا مقضيٌّ، لا يمكن أن نقول: لو كان هذا عاقًّا لمات قبل أن يموت إذ كان واصلًا؛ لأنا قلنا: إن الله قدر أن يكون واصلًا وأن يتأخر عمره، فإذا قضى الله أجلًا لا يمكن أن يتغير.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأجل المعلوم عند الله ـ الذي هو الساعة ـ لا أحد يصل إلى العلم به، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، حتى إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سأله جبريل ـ وجبريل أفضل الملائكة ومحمد أفضل البشر ـ عن الساعة فقال: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» فإذا كان هذان الرسولان الكريمان لا يعلمان متى الساعة؛ فَمَنْ دونهما من باب أولى.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: النداء بالبلاهة والغفلة لأولئك القوم الذي عرفوا أصلهم ومنشأهم فيمترون بما هو لأجل مسمى عند الله وهو يوم القيامة.

فإن قيل: في سورة الجاثية احتج الذين ينكرون البعث وقال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، فماذا تقولون في هذه الدعوى؟

نقول: إنها غير صحيحة؛ لأن الذين أخبروا بالقيامة ما قالوا: الآن يبعثون، حيث لم يأت الوقت بعد، لكن هذا من باب التشفيق الذي يقصد به إذلال الخلق.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿اللَّهُ﴾: علم على الرب عز وجل، لا يكون لغيره وهذا متفق عليه بين المسلمين، وهو علم مشتق من الألوهية، وأصله (الإله)، واعلم أن جميع أسماء الله مشتقة وليس فيها اسم جامد لله عز وجل أبدًا.

وقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلقة بالاسم؛ لأننا قلنا: إن هذا الاسم مشتق، والمشتق يجوز التعلق به حيث قال ناظم القواعد ـ قواعد الجمل ـ:

لَابُدَّ فِي الْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

إذن: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلقة بلفظ الجلالة؛ لأنه مشتق والمشتق يجوز تعلق الجار والمجرور به، ولكن ما معنى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟

نقول: المعنى: أنه على السماوات، وليس المراد أنه فيها، وأنها محيطة به؛ لأن هذا مستحيل والله

تعالى أكبر من كل شيء، أو نقول: إن المراد المعنى وليس الذات، والمعنى بأنه مألوه في السماوات، يتأله إليه أهل السماوات.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ الواو حرف عطف، والأرض معطوفة على السماوات فيكون المعنى: الله في السماوات وفي الأرض؛ أي: مألوه في السماوات وفي الأرض، فتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وعلى هذا التفسير لا إشكال في هذا الكلام أن الله تعالى إله في السماوات وفي الأرض أيضًا.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الآية فيها وقف على أسهل المواقف؛ وهذا على جعل الله علمًا على الذات دون المتعبد لله، يعني معناها: أن الله في السماوات كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦]، ثم استأنف فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فتكون ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلقة بما بعدها في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

أما على الوجه الأول فمعنى الآية ظاهر: أن الله مألوه في السماوات ومألوه في الأرض، كما أنه خالق السماوات والأرض فهو مألوه في السماوات والأرض ويراد بذلك إثبات الألوهية في السماوات والأرض كما ثبتت الربوبية؛ لأن الخلق من مقدرات الربوبية، وهذا لا إشكال فيه.

أو المناسبة على القول الثاني: أن المعنى أن الله ذاته في السماوات؛ فتكون المناسبة أنه ليس كونه بالسماوات مع بُعدها الشاسع بمانع عن علمه بكم وأنتم في الأرض، فهو في السماوات ومع ذلك في الأرض يعلم سركم وجهركم.

إذنْ فالمعنى الأول: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أن ألوهيته ثابتة في السماوات وفي الأرض؛ بمعنى أن من في السماوات يتألَّهون، ومن في الأرض يتألهون، نظيرها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

والمعنى الثاني: يقول: إن الله - نفسه - في السماوات؛ أي: عليها، ومع ذلك يعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس بُعده بمانع من علم السر والجهر منكم في الأرض، إذن المعنى الثاني ما فيه ذكر للألوهية لكن فيه ذكر للإحاطة؛ أي: إحاطة الله بنا عز وجل وإن كان في السماوات.

وهذا يفسره قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١].

التحاور الذي وقع كان مكانه الأرض، والله تعالى في السماء، فتكون هذه الآية - آية النساء - كالتفسير لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أي: نفسه.

والإسرار نوعان:

١- إسرار في النفس.

٢- والإسرار مع الغير.

فمثلًا: إذا حدث الإنسان نفسه بشيء في نفسه؛ هذا إسرار مع النفس، وإذا حدث غيره سرًّا لا يسمعه من بجانبه؛ فهذا إسرار مع الغير.

ولهذا نسمي القراءة في الظهر والعصر مثلًا سرية، مع أن الإنسان ينطق ويسمع نفسه ومع ذلك نسميه سرًّا، ونسمي ما حدث به الإنسان نفسه سرًّا؛ إذنْ فالسر يشمل المعنيين جميعًا، فالله عز وجل يعلم ما نُسِرُّه في نفوسنا ولا نظهره لأحد، وما نخبر به الغير على وجه خفي لا يسمع الآخرون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهۡرَكُمۡ﴾ أي: ما تجهرون به وتعلنونه.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ يعني: يعلم كسبكم من خير وشر، ودين ودنيا، وعلم وغيره، فكل ما يكسب الإنسان فالله عالم به جل وعلا لا يخفى عليه، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

مسألة: غالبًا ما يقال: إن الله موجود في كل مكان، والقائلون يستشهدون بمثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧]، وبقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ سَاجِدٌ»؛ بمثل هذه الأدلة يقولون: إن الله موجود في كل مكان فكيف نرد عليهم؟

الجواب: أولًا نقول: أنتم الآن اتبعتم المتشابه، يعني أن في الآيات احتمالًا لما قالوا، فهو متشابه. وتركتم الآيات المحكمات في أن الله تعالى بائن من خلقه، أي: فوقهم فأنتم من القسم الثاني: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذا قالوا مثلًا: نحتج بهذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾، نقول: هي مثل قول الإنسان: (فلان أمير في مكة والمدينة) يعني: أن إمرته ثابتة في مكة والمدينة، وليس المعنى أن هو نفسه في مكة والمدينة؛ لأن هذا مستحيل.

إذنْ ألوهية الله في السماوات وفي الأرض، وليس هو في السماوات ولا في الأرض، أما المعية نقول: إنها لا تتنافى مع العلو، حتى المخلوقات لا تتنافى مع العلو، وفي اللغة العربية يقولون: (ما زلنا نسير والقمر معنا)، (أو ما زلنا نسير والقطب معنا) وهو كلام سائر رائج، فيكون معنى أن الله معنا: أنه مطَّلع علينا وإن كان بعيدًا، فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في حق المخلوق فجمعهما في حق الخالق من باب أولى.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ألوهية الله ثابتة في السماوات والأرض، يألهه من في السماوات ومن في الأرض؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تبارك وتعالى يعلم السر والجهر، أي يعلم ما يسر به الإنسان وما يجهر به، والإسرار تارة يكون إسرارًا في النفس، وتارة يكون إسرارًا مع الغير بصفة

خاصة، والجهر: هو الإعلان الذي لا يخفى، إذنْ فالله يعلم السر سواء مع النفس أو مع الغير بصفة خاصة ويعلم الجهر.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عموم علم الله تبارك وتعالى؛ لأن قوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾ يشمل كل أحد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومنها ما يترتب على إيماننا بأن الله يعلم السر والجهر، فمع إيماننا بهذا يقتضي ألَّا نخالف أمر الله عز وجل؛ بترك واجب أو فعل مصيبة؛ لأننا نعلم أن الله تعالى يعلمه، ولو لم يثمر العلم هذه الثمرة الجليلة، لكان علمنا لا فائدة منه، وانتبه لهذه المسألة: ألا وهي أن كثيرًا من الناس لا يعتني بالفوائد المسلكية المترتبة على أسماء الله وصفاته، وهذا أمر لابد منه؛ لأن هذا هو الثمرة.

فإذا علمت أن الله يعلم سرك وجهرك استحييتَ منه، فلم تترك ما وجب ولم تفعل ما يحرم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: علم الله تبارك وتعالى بما نكسب؛ أي: بما نكسبه من الأعمال؛ سواء كان كسبًا دنيويًّا أو كسبًا أُخرويًّا، فإن الله تعالى يعلمه ولا يخفى عليه، ويترتب على هذه الفائدة ألَّا نكسب شيئًا حرَّمه الله علينا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]

التفسير

(ما) نافية، وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من: زائدة إعرابًا، وليست زائدة معنى؛ لأن لها معنى وهو توكيد النفي، فإنها تحوِّل النفي الذي يحتمل العموم والخصوص إلى كونه للعموم فقط، فهي تحوِّل الجملة المنفية إلى نص في العموم، مثل لا النافية للجنس، فإنها نص في العموم فكيف نعربها إذا قلنا: إن ﴿مِّنْ﴾ زائدة إعرابًا؟

نقول: ﴿مِّنْ﴾ حرف جر زائد إعرابًا.

و﴿ءَايَةٍ﴾ فاعل (تأتي) مرفوع بضمة مقدَّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فإن (من) زائدة إعرابًا، و﴿بَشِيرٍ﴾ فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الآية هي العلامة، لكنها أخص من العلامة، لكونها نصًّا في الدلالة، والعلامة قد تكون أقل من ذلك، ولكن الآية نص في أنها علامة على ما جاءت من أجله.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

١- كونية.

٢- وشرعية.

وقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ هنا لبيان الجنس وليست كالأولى، فهي لبيان الجنس لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأن الآية قد تكون من عند الله وقد تكون من عند غيره، لكن هنا من آيات ربهم.

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبرهم؛ لأن الربوبية تشمل هذه المعاني الثلاثة، وهي: (الخالق والمالك والمدبر) هذا الذي تقتضيه الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذه إثبات للنفي؛ يعني: ما تأتيهم إلا كانوا عنها معرضين، أي: معرضين عند تدبرها وعما تدل عليه، فكأنهم لم يروا الآيات، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

إذن معرضين عنها بوجوههم أو بقلوبهم، فالجميع يشمل هذا وهذا.

وقد يقال له: انظر آية الله؛ فيعرض ولا ينظر، وقد يرى ولكن يعرض عن التأمل في القلب؛ لأنه ـ والعياذ بالله ـ محجوب عن الخير فلا يجب أن يصل إليه.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** بيان عتوِّ هؤلاء المكذبين، وجه ذلك: أنه لا تأتيهم أي آية إلا كانوا عنها معرضين، وقد طلبت قريش من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم آية فأراهم انشقاق القمر، حيث أشار إلى القمر فانفلق فلقتين وشاهده الناس وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر: ١]، وهو انشقاق حسِّي.

والمراد بالقمر: القمر المشاهد المعروف، وقد أنكر الفلاسفة وعلماء الفلك أن القمر انشق وقالوا: لا يمكن؛ لأن الأجرام السماوية لا يمكن فيها التفكك، فهل نقبل قولهم ونرد الأحاديث الصحيحة المشهورة المستفيضة أو نرد قولهم؟ نقول: الواجب على المؤمن الثاني: أن يرد كل قول يخالف الكتاب والسنة مهما كان قائله.

فكيف نقول مستحيل أن تتغير الأجرام السماوية والذي يغيرها الله عز وجل خالقها الذي يفعل ما يشاء.

وهو انشقاق حسيٌّ للقمر المعلوم الحسي، وليس كما قال علماء الفلك وحرَّفوا من أجله الكتاب والسنة وقالوا: إن أخبار الانشقاق أخبار أحادية تحتمل التأويل أو الرد؛ حيث قالوا: أما القرآن: فمعنى:

﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: بان نور النبوة، وهذا غلط، فإن قال قائل: قريش رأت هذه الآية، والله سبحانه وتعالى قضى في أن من أوتوا الآية التي يطلبونها ولم يؤمنوا أهلكهم، فكيف لم يهلك الله قريشًا؟

الجواب عن هذا: أن الذين يُهلكون هم الذين يطلبون آية معينة، فإذا أوتوا بها ثم كفروا بها أهلكهم الله؛ لأنهم يكونون متحدين لله عز وجل، وأما من يطلب آية عامة وتعين من قبل الله؛ فهؤلاء لا يُهلكون.

ويحتمل وجهًا آخر: بأن نقول: إن هذا العموم يجوز أن يخصص فيكون الله سبحانه وتعالى لم يهلكهم؛ لأن الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاءه ملك الجبال يقول له: إن شئت أطبقت الأخشبين عليهم وهما الجبلان العظيمان من حيطان مكة، ولكن النبي ﷺ قال: «أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، ويكون عدم إهلاك قريش لما يعلمه جل وعلا من أن هؤلاء سيكون من أصلابهم المخلصون لله المجاهدون في سبيل الله، وقد وقع بلا شك، فإما أن يكون الجواب الأول، وإما أن يكون الجواب ما ذكرناه[1].

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى حكيم رحيم؛ وذلك لكونه يأتي بالآيات للخلق، فإن هذا من الحكمة الواضحة؛ لأنه ليس من المعقول أن يأتي رجل ويقول للناس إنه رسول ويستبيح دماء من لم يؤمن به وأموالهم وذرياتهم ونسائهم بدون أن يكون هناك آية تدل على صدقه؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ - يعني بعثه الله - إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ» هذا من جهة الحكمة، ومن جهة الرحمة؛ أن الله رحم الخلق بكونه إذا أرسل إليهم الرسل آتاهم الآيات الدالة على صدقهم، ولو شاء لأرسل الرسل بدون آيات ثم من كذب أخذه، لكن تأبى حكمته ورحمته أن يرسل رسلًا بلا آية.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الربوبية للكفار؛ لقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الربوبية العامة.

وربوبية الله عز وجل تنقسم إلى عامة وخاصة: فربوبيته لأوليائه خاصة، ولأعدائه وأوليائه جميعًا عامة، بإزاء ذلك العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة.

العامة: كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

والخاصة: مثل قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] والأمثلة كثيرة.

٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: خطر الإعراض عن الآيات، وأنه يُخشى على من أعرض عن الآيات ألَّا يهتدي لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ويدل لهذا - أي لخطر

(١) ويحتمل أن يكون عدم إهلاكهم؛ لأن الله قال للرسول ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، والله أعلم.

الإعراض عن الآيات - قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وذلك بأن يجعلها نصب عينيه، فإذا كان يمشي على طريق معين وجاءت النصوص دالة على خلاف فإن بعض الناس قد يتلكأ ويحاول أن يحرف النصوص التي تخالف طريقه وهذا خطر عظيم، بل الواجب على المؤمن أن يستسلم للنصوص من حين أن تأتيه كما كان الصحابة ﷺ يفعلون هذا، فبمجرد ما يأمر الرسول بشيء يفعلونه، ومجرد ما ينهى عن شيء يتركونه، فكون الإنسان يتلكأ أول ما يأتيه الحق فهذا خطر عظيم.

والآية واضحة في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الفاء عاطفة، و(قد): تفيد التحقيق في الفعل الماضي وهو الأغلب، وفي الفعل المضارع الأغلب أنها تفيد التقليل لقولهم: (قد يجود البخيل، وقد يصدق الكاذب)، لكنها قد تأتي للتوكيد حتى في المضارع، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٣] فقد هنا: للتوكيد بلا شك، لكنها تفيد الاستمرار؛ أي: قد يعلم هذا في الحاضر والمستقبل، قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ هنا للتحقيق.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ (الحق) ما جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فكله حق؛ لأنه من عند الله، والحق : هو الشيء الثابت إن كان خبرًا فبوقوعه، وإن كان حكمًا فبثبوته، وضده الباطل.

ففي الأخبار الباطل فيها الكذب، وفي الأحكام الباطل فيها ما خالف الشريعة، أما هنا: ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نقول: الحق ما جاءت به الرسل من أخبار صادقة وأحكام عادلة.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ﴿لَمَّا﴾ بمعنى حين؛ أي: حين جاءهم، واعلم أن لَمَّا لها معانٍ:

فتأتي بمعنى حين فتكون ظرفية كما في الآية، وتأتي شرطية فتشارك (إن) في الشرط مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٦٧] فهي شرطية، وتأتي بمعنى (إلا)، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] يعني: إلا عليها حافظ، وتأتي نافية

تجزم الفعل المضارع، كما في قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، بمعنى: لم، لكنها تفيد قرب مدخولها، وليست لم للنفي المطلق، أما (لَمَّا) فإنها للنفي، لكنها تفيد قرب مدخولها، تقول مثلًا: (فلانٌ لم يقم)، وتقول: (لَمَّا يقم فلان) هذا نفي، يعني: إلى الآن ما قام لكنه سيقوم عن قرب.

وفي الآية الكريمة التي نقرؤها الآن: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ ماذا نُعربها؟

نقول: ظرف بمعنى (في)، وفي هذه الحال تكون مبنية؛ لأنها حرف في الواقع، غير مشابهة للحرف، وأصل البناء هو مشابهة الاسم للحرف، لكن هذه نفسها حرف، فتكون ظرفًا لكنها مبنية على السكون في محل نصب بمعنى حين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ﴾ ﴿فَسَوۡفَ﴾ الفاء عاطفة، ويحتمل أن تكون للسببية أيضًا.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: سوف يأتيهم المخبَر الذي أُخبروا به، والأنباء أتتهم من قبل، لكن المراد: يأتيهم عقوبة الأنباء التي كانوا يستهزءون بها.

وقوله: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: يتخذونه هزوًا ولعبًا وضحكًا، وكما نعلم جميعًا أن الكفار يتخذون الدين هزوًا وأنهم يتخذون أهل الدين هزوًا أيضًا، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يشمل استهزاءهم بالدين، واستهزاءهم بالرسل وبأتباعهم، بل وبالله عز وجل.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]

(١)

قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المراد بالسماء هنا: المطر، وعُبر عنه بالسماء؛ لأنه ينزل من السماء،

---

(١) يلاحظ أن بداية تفسير الآية غير واضح في المادة المسموعة لدينا.

و﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من السماء؛ أي: حال كونه مدرارًا يجود عليهم كلما احتاجت أرضهم إلى الماء نزل الماء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ ﴿الْأَنْهَارَ﴾: يحتمل أنها أنهار الثلوج التي تتسرب من قمم الجبال، ويحتمل أنها الأودية التي تكون من المطر، وسواء هذا أو هذا، فلا شك أن الأرض ستكون خصبة، وستأكل منها أنعامهم وأنفسهم.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أتلفناهم بذنوبهم، والباء هنا للسببية؛ أي: بسبب ذنوبهم، والذنوب بمعنى المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، قوله: ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: خلقنا من جديد من بعدهم قومًا آخرين، فهل القوم الآخرون عصوا أم أطاعوا؟ نقول: منهم من عصى ومنهم من أطاع، ولكن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** تهديد المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة؛ وجه ذلك: أن الله قرر أنهم قد رأوا الأمم التي أهلكت من قبل.

٢ - **ومن فوائدها:** الاستدلال بالأعلى على الأدنى؛ وجه ذلك: أنهم لما كانوا أقوى من هؤلاء أرسل الله عليهم السماء مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم، ومع ذلك أهلكهم، فمن دونهم من باب أولى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى وغيرته؛ حيث أهلك أولئك القوم مع ما عندهم من القوة والنعمة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يحل من النعم والدفاع عن النِّقم فإنه من الله عز وجل، كقوله: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الذنوب من أسباب الهلاك، ولكن هل المراد الهلاك الحسي؛ بمعنى أن يموت الناس أو ينتقم بالأموال أو ما أشبه ذلك، أو يشمل الهلاك الحسِّي والمعنوي الذي هو موت القلوب؟

الجواب: يعم كليهما، يعني: يشمل هذا وهذا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]، فجعل تولِّيهم من أسباب الذنوب.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام قدرة الله تبارك وتعالى وسلطانه، حيث يُهلك

أقوامًا ويُنشيء آخرين؛ لأن الأمر أمره عز وجل والملك ملكه، والسلطان سلطانه، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء من إهلاك وإنشاء.

❁ ثم قال تعالى مبينًا عتو هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ فقال:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:٧]

❁ التفسير ❁

(لو) هنا شرطية، بدليل وجود فعل الشرط وجواب الشرط، وفعل الشرط ﴿نَزَّلْنَا﴾، وجواب الشرط: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ يعني: كتابًا عاديًّا يدركه الناس.

وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعني: لم يتخيلوه من بُعد، بل هو بين أيديهم يلمسونه نازلًا من السماء إلى الرسول ﷺ، وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: إذا قال قائل: وهل هناك لمس بغير اليد؟

فالجواب: نعم؛ لأن الإنسان يمس بقدمه، ويمس بلسانه، ويمس بكل أجزاء جلده، وإن شئت فقل: إن اللمس يكون باليد، لكن ذكرت اليد هنا من باب التوكيد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ومعلومٌ أن الطائر لا يطير إلا بجناحه.

وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، هذا الجواب: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، هنا إظهار في موضع الإضمار، هو ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولم يَقُل: لقالوا؛ إشارة إلى شيئين:

الشيء الأول: التسجيل على هؤلاء بالكفر، يعني: الحكم عليهم بالكفر.

الثاني: أن من قال مثل قولهم فهو كافر، ففيه فائدتان: فائدة متعدية، وفائدة لازمة.

الفائدة اللازمة: هي الحكم عليهم بالكفر.

والمتعدية: أن من قال قولهم فهو كافر.

وقوله تعالى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، بدليل قوله: ﴿إِلَّا﴾، وهي إذا أتت بعدها إلا فهي للنفي، وقد تكون للنفي وإن لم تأتِ بعدها إلا، لكن إذا أتت بعدها إلا فهي للنفي.

(إنْ) تأتي نافية كما هناك، وتأتي شرطية مثل: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وتأتي مخففة من الثقيلة، كقوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعني: أصل إن هذان لساحران؛ أصلها: إنَّ هذان لساحران، وتأتي زائدة كما في قول الشاعر:

بنــي غُدَانَــةَ مــا إنْ أنــتمْ ذهــبُ وَلَا صَـرِيفٌ وَلَكِـن أَنْتُمُ الخَـزَفُ

التقدير: ما أنتم ذهب، لكنها جاءت هنا زائدة، وهذا ليس بغريب بل هـذا ممـا يـدل عـلى أن اللغة العربية واسعة، خلافًا لمن قال: إنها ضيقة؛ لأن معانيها أكثر من ألفاظها.

نقول: كون الحرف الواحد أو الكلمة الواحدة تأتي بمعنى متعدد، هذا يدل على مرونة اللغة العربية، لا على قلة مواردها، ولا شك أنه إذا كانت اللغة مرنة؛ كان ذلك أوسع للمتخاطبين بها وأيسر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾، المشار إليه الكتاب في القرطاس.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، السِّحر: كل شيء خفي يسمى سحرًا، مأخوذ من السَّحَر الذي هو آخر الليل، والغالب أن آخر الليل يكون خفيًا، والناس لا يخرجون من بيوتهم، فيكون هناك خفاء في الأمور التي تحدث، لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن عُقَدْ ورُقى وأدوية تصدر من الساحر بواسطة الشياطين، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] يعني: ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل، ثم قال تعالى: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ هذان اسمان للملكين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢].

ولذلك كثيرًا ما يكون السحر مرتبطًا بالجن، حتى إنه يتكلم الجني ويقول: إني أنا لا أستطيع أن أخرج لأني مسحور لكن إذا أراد الله عز وجل عُثر على السحر وأُتلِف، ثم برئ المريض.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّن ظاهر؛ وذلك لأن (بانَ) و(أَبَانَ) يأتيان بمعنًى واحد، تقول: (بانَ الصُّبح، وأَبَانَ الصُّبح) (أَبَانَ): رباعي، و(بَانَ) ثلاثي.

(بَانَ) يقال: بيِّن، و(أَبَان) يقال مبين، على أن (أَبَانَ) تأتي متعدية لا بمعنى (بَانَ)، مثل أن تقول: (أَبَانَ الحق ـ أَبَانَ الأمر لي) بمعنى أظهره.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية:** بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وجه ذلك: أن الله ذكر أنه لو نزل عليهم كتابًا في قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا: هذا سحر.

وجه هذا الاستنتاج ـ مع أنه قد لا يكون من اللائق أن أقول استنتاج ـ أنه ذكره الله عنهم؛ لأنه أتاهم من الآيات ما يؤمن على مثله البشر

ومع ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، فعلم الله من حالهم أنهم لو وصلت بهم الحال إلى هذا؛ أي: كتاب في قرطاس كلما عهدوه ولمسوه بأيديهم قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣]

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الكتاب إذا كان في القرطاس؛ فهو أبين وأظهر، وإلا يمكن أن يُكتب على غير قرطاس في اللوح من الخشب، وفي اللوح من العظام، وفي اللوح من الأحجار، وفي اللوح من جريد النَّخل كما كان في أول الأمر، لكن القرطاس أثبت وأبيَن وأسهل.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ لأن من أعظم الآيات أن ينزل الكتاب ويشاهدونه في قرطاس ويلمسونه ثم ينكرون، ويفسر هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر:٤ - ٦] وهنا انتبه، تقف على: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ولا تَصِلْ؛ لأنك لو وصلت فسد المعنى. صار المعنى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦]، هذه واحدة، وفي الآية التي بعدها: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ قِفْ، لا تصل؛ لأنك لو وصلت ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ صار قوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ من قولهم، وليس كذلك، لكن وازدجر معطوفة على قالوا؛ أي: قالوا مجنون وازدجروه.

ومثل هذه الأشياء بواقع عقلنا يجب على الإنسان أن ينتبه لها؛ لأن القرآن الكريم ليس كالكلام الذي نكتبه نحن أو نقوله، نحن نحاول أن يكون الكلام نسقًا واحدًا، لكن في القرآن ـ سبحان الله ـ وهو من إعجازه أنك ترى أحيانًا كلمة ليس بينها وبين الأخرى صلة؛ من أجل أن ينتبه المخاطب أو القارئ ويتأمل ويتفكر، وهذه نقطة لا يُحس بها كثير من الناس، تجده يقرأ قراءة مرسلة ولا ينتبه للمواقف، ونحن تعلَّمنا هذا من شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، حيث كان يقف بنا في رمضان فتراه يقف، ويقف المواقف اللائقة فتعجب كيف هذا؟ وكنا في الأول نقرؤها، نقرأ قرآنًا مرسلًا ولا نلتفت للمعنى، حتى إن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤، ٥] هل تقف على ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾؟ نعم تقف؛ لأن الله جعلها موقفًا.

فإذا قلت ـ سبحان الله ـ إذا قلت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، كيف؟

قال الشاعر الملحد:

مَا قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلأُلِى سَكِرُوا ... بَلْ قَالَ رَبُّكَ: وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَا

نقول: نعم قاله ولكن هو ملحد، ما قرأ آخر الآية؛ أي: الآية الثانية.

الوقف على: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فيه فائدة قد لا تظهر لبعض الناس؛ لأنه إذا سمع القارئ يقرأ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ثم وقف تجده يُشوِّش، كيف ويل للمصلين؟ ثم تأتي: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فتكون كأنها الغيث نزل على أرض يابسة، وهذا هو السر في أن الأولى اتباع الآيات إذا أمكن، فتقف على كل آية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه يَنْبغي الإظهار في موضع الإضمار إذا دعت الحاجة؛ لقوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذا يقع كثيرًا في القرآن الكريم - يعني في آيات متعددة - مثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨] ما قال عدو له، مع أن الآية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وذلك لمراعاة فواصل الآيات، فانظر كيف كان الإظهار في موضع الإضمار!

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: مكابرة أولئك المشركين الذين يكذبون النبي ﷺ يصرفهم من حق إلى باطل؛ الحق أنه قرآن من عند الله وهم ينسبونه إلى السِّحر، هذا السحر الذي قالوه، هل هو في بلاغة القرآن وفصاحة القرآن وبيان القرآن؛ أو في كونه أتى بكتاب نزل من السماء فَموَّه على أبصارهم؟

الظاهر: أنه يشمل الأمرين، يقولون: هذا ما هو حقيقة يا محمد، سحرتنا، أو يقولون: إنه لبيانه وفصاحته سحرهم، وأيًّا كان فالجاحد - والعياذ بالله - يتشبث بكل شيء.

٦ - **ومن فوائدها**: علم الله تبارك وتعالى بما سيكون لو كان؛ لأنه علم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نزل عليهم كتاب في قرطاس.

٧ - **ومنها**: تأكيد المعلوم بالمحسوس، وإن شئت فقل: المعقول بالمحسوس؛ لقوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾؛ لأن هذا تأكيد بشيء محسوس ينظر أنه في قرطاس ويُلمس باليد.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية**: الإظهار في موضع الإضمار؛ لقوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وكان يقتضي السياق أن يقول: (لقالوا) لكنه أظهر في موضع الإضمار.

والإظهار في موضع الإضمار له فوائد منها:

الحكم على مرجع الضمير بما يقتضيه الوصف الظاهر، أين الوصف الظاهر معنا؟ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومرجع الضمير - لو كان ضميرًا - أولئك المكذبون.

- **الفائدة الثانية**: القياس؛ بمعنى: أن كل من قال قولهم فهو كافر؛ لأن الله لو قال: (لقالوا) ما

استفدنا أن من قال مثل قولهم يكون كافرًا بالنص، فإذا كان ظاهرًا هذا الوصف قسنا عليه كل ما مثله، أو كل ما اتصف بهذا الوصف.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن للسحر تأثير، فهل التأثير يكون بقلب الحقائق، أو بالتخييل على الحواس؟

الجواب: الثاني: وإلا فإنه لا يقلب الحقائق، فالعصا والحبال التي ألقاها سحرة فرعون لم تنقلب حيَّات، ولكن خُيِّل للرائين أنها حيَّات، وإلا فهي على حقيقتها عصى وحبال، وبهذا نجمع بين قول من قال: إنه لا يؤثر وقول من قال: إنه يؤثر، فيقال: إن تأثيره بقلب الحقائق فهذا لا يمكن؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وأما تأثيره بالتخييل فإنه يمكن؛ لأن التخيل في الواقع مرض في الإدراك، والمرض ينتج من السحر؛ لأن السحرة أيضًا أحيانًا يسحرون الإنسان حتى يكون مريضًا أو يختل ذهنه، أو ما أشبه ذلك.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٨، ٩]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلَّا أنزل عليه ملك ليكون ذلك مصدقًا له، وهذا الاقتراح اقتراح متعنت، وإلا فقد جاء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بآيات واضحة، ولا أعظم من أنهم لما طلبوا آية أراهم انشقاق القمر؛ حيث انشق القمر نصفين، وشاهدوه، وهذا تغيير في الأفلاك، فلم يقبلوا الآيات، لكن قولهم هذا من باب التعنت والتحدي والإعجاز.

وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ والملك واحد الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، يعني: لو أنزلنا ملكًا لانتهى الأمر بنزول العقاب بهم؛ لأن الأمم السابقة إذا اقترحت آية معينة، ثم أعطوا الآية المعينة التي طلبوها، ثم لم يؤمنوا أخذوا بالعقاب بدون إمهال.

ولم تؤخذ قريش بآية انشقاق القمر؛ لأنها لم تطلب هذه الآية المعينة، بل قالوا: يا محمد أرنا آية فأراهم انشقاق القمر، هكذا قال أهل العلم، أما إذا اقترح المكذبون للرسل آية معينة ثم جاءت ولم يؤمنوا نزل بهم العذاب.

وقوله تعالى: ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: لقضي شأن هؤلاء، وذلك بإهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: ثم لا يُمهلون، بل يُعاجلون بالعقوبة ـ والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا﴾ يعني: لو جعلنا الرسول ملكًا ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، حتى لو فرض أننا جعلناه ملكًا، فلابد أن نجعله بشرًا؛ لأنه لا يتلاءم الملك مع البشر؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾[الإسراء:٩٥]، لكن ليس بالأرض إلا بشرًا، ولا يمكن أن نرسل إليهم ملائكة؛ لأن ذلك لا يناسبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، وحينئذٍ يبقى الإشكال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ أي: خلطنا عليهم الأمر كما خلطوه على أنفسهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تعنُّت المكذبين للمرسلين، وطلبهم آيات مع أن الآيات كانت موجودة، لكنهم متعنتون.

٢ ـ **ومنها:** أنهم يؤمنون بالملائكة ـ أعني: المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أنهم يعلمون أن الملائكة في السماء، فهي مقرُّهم ومسكنهم، والدليل: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾.

٤ ـ و من فوائد هذه الآية: أن الملك آية من آيات الله عز وجل إذا نزل مساعدًا للبشر؛ لأنهم هم أقروا بأنه آية تدل على صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٥ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى يردُّ على المعاندين بمثل ما عاندوا به، ويحذرهم من اقتراح الآيات؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

٦ ـ **ومنها:** ما أشرنا إليه أن المكذبين للرسل إذا اقترحوا آية معينة ولم يؤمنوا بها؛ عُجِّلت لهم العقوبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى لو أراد أن ينزل ملكًا لم ينزل ملكًا بصورته الملكية، ولجعله رجلًا من أجل التناسب، أي: تناسب المرسَل والمرسل إليه.

٢ ـ **ومنها:** حكمة الله تبارك وتعالى في إرسال الرسل من البشر من أجل الركون إليهم وقبولهم، بل إن الله تبارك وتعالى يجعل الرسل من أوساط الأقوام وأشرافهم وأفاضلهم؛ حتى يحتموا بهم، وهذا لا يضر أن يجعل الله تبارك وتعالى للرسل من يحميهم من أقوامهم، ويدل لذلك قوم شعيب له: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ [هود:٩١] مما يدل على أن الإنسان إذا كان من القوم

صار له شأن كبير وهيبة، ويدل لعكس هذا قول لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود:٨٠]؛ يعني: إلى قوم يكونون عمادًا لي.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حسن المحاجة في القرآن الكريم، وهو أنه لو جاء الأمر على اقتراح هؤلاء لم يكن على ما اقترحوا؛ أي: لم يكن ملكًا؛ لأجل المناسبة؛ إذن لا بد من تناسب الرسول والمرسل إليه، فإذا كان رجلًا عاد اللبس والاقتراح الذي اقترحوه بقوله: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام:١٠]

❁ التَفْسِير ❁

قوله: ﴿وَلَقَدِ﴾ (اللام) هنا موطئة للقسم، ومؤكدة له و(قد) للتحقيق، وهذا يردُ في القرآن كثيرًا، وعلى هذا فالجملة تكون مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١- قسم مقدر.

٢- والثاني (اللام)

٣- والثالث (قد).

وقوله: ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: أي سُخر، بدليل قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ سخروا منهم وقالوا: (هذا رجل)، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ [هود:٣٨]؛ فقال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود:٣٨].

وقوله: ﴿بِرُسُلٖ﴾ نكرة في سياق الإثبات، لا تدل على العموم؛ أي: لا تدل على أن جميع الرسل سُخر بهم، بل برسل.

واعلم أن النكرة في سياق الإثبات لا تدل على العموم إلا إذا قام الدليل على هذا، فإنها تكون للعموم مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار:٥]، ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير:١٤]. فهنا ﴿نَفۡسٞ﴾ نكرة في سياق الإثبات، لكنها للعموم؛ إذ معنى الآية: علمت كل نفس.

وقوله: ﴿بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: في الزمن.

وقوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي: نزل بهم.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: عقوبة ما كانوا به يستهزءون، أو جزاء ما كانوا به يستهزءون، وإنما عبر الله تعالى عن الجزاء بالفصل للإشارة إلى سببه من وجه؛ وليُعلم أن الجزاء بقدر العمل من وجه آخر، فالعقوبة سببها العمل الذي استحق به العامل أن يعاقب، فأطلق على العقوبة نفس العمل الذي هو السبب.

ثانيًا: إذا كان الإنسان يُجازى على عمله نفس العمل، فهذا يعني أن الجزاء والعقوبة بقدر العمل؛ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **في الآية الكريمة فوائد منها**: توكيد الجملة بأنواع المؤكدات، فإذا قال قائل: أليس خبر الله تعالى صدقًا سواء اقترن بالقسم وأدوات التوكيد أم لا؟

الجواب: بلى، لكن القرآن الكريم جاء باللسان العربي، واللسان العربي يستخدم التأكيد إذا اقتضت الحال ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله إذا أخبر بخبر - وإن لم يؤكد - فهو حق وصدق كما نشاهد الشمس، لكن القرآن جاء بلسان عربي مبين، هذه واحدة.

ثانيًا: تأكيد الله لهم بالقسم يدل على أهميته، وأنه من الأمور التي لابد أن يقبلها الإنسان ويصدِّق بها.

ثالثًا: أنه قد يُراد به دفع إنكار من أنكر مدلول الخبر، ككون الله عز وجل يؤكد قيام الساعة من مؤكدات كثيرة لرد إنكار المكذبين.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ليس بغريب أن يستهزئ المشركون بالنبي ﷺ؛ لأن هذا كالسابق من الأمم السابقة جزاء المكذبين للرسول؛ بأنواع متعددة فقد قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] كأنهم يقولون: محمد لا يستحق هذا، وكما في قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] والاستفهام هنا: للتحقيق؛ يعني: من هذا الرجل الذي يذكر آلهتكم بالسوء، ليس بشيء وليس له قيمة؟! ومنها وصفه إياه بأنه مجنون مخرف وما أشبه ذلك.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية**: عناية الله تبارك وتعالى بنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ حيث ينزل عليه من القرآن ما يُسَلِّيه به، وجهه أن ذكر هذا - أعني استهزاء الأمم السابقة برسلها؛ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن كونه يعلم بأن الأمم السابقة كذبت رسلها يهون عليه الأمر، وهذا واضح، فإن الإنسان يتسلى بالمصائب إذا أصابت رجلًا غيره وتهون عليه مصيبته، وقد أشار الله إلى هذا بقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩] مع أنه لو كانت الدنيا وصلت الناس للعذاب لهان عليهم ونفعهم وحملهم على الصبر لكن في القيامة لا ينفع.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تهديد المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم،من أين تؤخذ من قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: فاحذروا أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم المستهزءون به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد، انتبهوا! هل يمكن أن تؤخذ من الآية أو لا؟ الواقع: أنه ليس بواضح، ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية الإنسان بما مضى، ولا يمنع لو كان ممكنًا أن يوجد رسل آخرون بعد الرسول صلى الله عيه وسلم، إذْ ليست هناك أدلة على هذا.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن السخرية والاستهزاء بالرسل موجب للعقاب؛ لقوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم هل هذا العقاب عقاب على كفر أو على فسوق؟ الجواب: الأول على كفر، فكل من سخر بالرسل أو استهزئ بهم فهو كافر؛ لا إشكال في هذا.

ولكن هل تقبل توبتهم؟ الجواب: نعم تُقبل توبتهم؛ لعموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

ودليل عقلي: أن سب النبي إنما كان كفرًا لنبوته لا لشخصيته، والنبوة والعمل بالشريعة التي جاءت بها من حقوق الله في الواقع، وحقوق الله تُقبل فيها التوبة بالاتفاق، فالصحيح أن من سخر بالنبي أو استهزئ به فإنه إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا ارتفع عنه واستُرد، وصار مسلمًا وارتفع عنه القتل.

لكن إذا سَب الرسول، فهل إذا تاب وقبلنا توبته ارتفع عنه القتل أو لا؟

هناك خلاف، فمن العلماء من قال: إنها تُقبل توبته؛ وذلك لأن سبَّ الرسول ليس سبًّا شخصيًّا وإنما السبُّ منصبٌّ على ماذا؟ على النبوة والرسالة، والنبوة والرسالة من حق الله فتقبل، فلا يُقتل ما دمنا قبلنا توبته، واختلف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله أنها تقبل توبته ولكنه يُقتل حدًّا؛ وعلل ذلك بأن سبَّ النبي عليه الصلاة والسلام عدوان على شخصه وعلى رسالته؛ فعلى رسالته نقول: تقبل التوبة، وأما على شخصه فلا بد أن نثأر لنبينا ﷺ ونأخذ بالثأر ونقتله، فيتحتم قتل سابّ الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإن قبلنا توبة الساب.

فإن قيل: إذنْ ما الفائدة إذا قلنا: تقبل توبته ويُقتل؟

نقول: الفائدة:أنه يُقتل مسلمًا يغسَّل ويكفَّن ويُصلى عليه ويبدو أقاربه المسلمون، ويبقى على حكم الإسلام، بخلاف ما إذا قلنا إنه مرتد، فلا يكون له هذا الحكم.

فإن قال قائل: أليس قد ورد أن من سبّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته وتاب

وقبل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم توبته؟

فالجواب: بلى؛ لأن الحق له، فإذا عفى عنه فله الحق، هذا من جهة.

من جهة أخرى: ترغيبًا له في التوبة، رُفع عنه القتل.

من جهة ثالثة: أنه إذا تاب فسيكون من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين استُئذن في قتل المنافقين: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، أما بعد موته فكل هذه العلل منتفية، فيجب على أمته أن يقتلوا من سبه عليه الصلاة والسلام.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المعاصي سبب للعقوبة، لقوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأن العقوبة بقدر العمل؛ ولذلك عُبر به عنها، وهذا من عدل الله عز وجل أن العقوبة بقدر العمل، أما المثوبة فالحسنة بعشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقوله: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: (في) بمعنى: على، وإنما أتت (في) بمعنى: (على) لبيان أنه ينبغي أن يكون السير عميقًا كأنما يسيرون في أجواف الأرض.

وهل السير هنا بالقلوب أو بالأقدام؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا، فالسير بالقلوب: أن يتأمل الإنسان ما جرى للأمم السابقة بما صح من تاريخها، وأصح تاريخ للأمم السابقة ما جاء في القرآن أو صحَّت به السنة، أو بأقدامهم؛ أي: سيروا في الأرض بأقدامكم بأن ينظروا آثار المكذِّبين المهلكين، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧، ١٣٨] فصار السير هنا يشمل السير بالقلب، والسير بالقدم لأجل الاعتبار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ انظرو بأعينكم أو ببصائركم يعني: بأبصاركم أو بصائركم، فإذا قلنا: السير بالقلب فالمراد: انظروا بالبصائر، وإذا قلنا بالقدم فالمراد: بالبصر، وينبني على ما سبق.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، (كيف) هذه خبر كان مقدم، ويتعين أن يكون مقدمًا؛ لأنه اسم استفهام واسم الاستفهام له صدر الكلام؛ لأنه هو المقصود بالجملة وإذا كان المقصود بالجملة كان حقه أن يقدم؛ ولهذا إذا قلت: (أين زيدٌ؟) تعين أن تكون أين خبرًا مقدمًا، ولا يجوز أن نقول: زيد أين، فكيف : في محل نصب خبر كان مقدم.

وعاقبة: اسمها مؤخر باعتبار تقديم الخبر وإلا فهو في مكانه.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، كانت أسوأ عاقبة والعياذ بالله؛ حيث دمَّرهم الله عز وجل، وجعلهم مثلًا للآخرين يعتبرون بهم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** الأمر بالسير في الأرض للاعتبار، سواء كان بالبصائر أو بالبصر أو بالأبصار؛ لقوله: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويتفرع من هذه الفائدة أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة، ولكن من أي مصدر؟ نقول: من القرآن وصحيح السنة؛ لأن من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة عن الأمم السابقة ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، والعبرة بالصحيح، وما أكثر الأحاديث التي فيها الأخبار عن الأمم السابقة.

٢ - **ومن فوائد هذا الآية الكريمة:** فضل الاعتبار وأنه أمر مطلوب؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وسواء كان الاعتبار بمن انتقم الله منهم أو بمن أثابهم؛ إن كان بمن انتقم الله فالإنسان يحذر، وإن كان ممن أثابهم فالإنسان يرغب، وفي هذه الآية أي الاعتبارين؟ بمن انتقم الله منهم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الآثار تدل على المؤثر، وهذا أمر معلوم بالحس والواقع.

سُئِل أعرابيٌّ: بم عرفت ربك؟ قال: الأثر يدل على المسير - يعني: على السير - والبعر تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. ألا تدل على السميع البصير؟!

الجواب: بلى والله، تدل على السميع البصير؛ فالآثار تدل على المؤثر.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عقوبة المكذب، والتكذيب أحد شِقي ما يحصل به الكفر؛ لأن الكفر يحصل بأمرين: إما بالتكذيب وإما بالاستكبار، مع أن التكذيب فرع عن الاستكبار؛ لأنه ما كذب إلا لأنه يرى أنه فوق المرسل.

فإن قال قائل: يُشكل عليه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن دخول ديار المعذبين أو المهلكين.

فالجواب: أنه عليه الصلاة والسلام لم ينهَ عنها مطلقًا، بل نهى عن أن ندخل فرحين بَطِرين معجبين بالآثار وما أشبه ذلك. أما أن ندخل معتبرين باكين خائفين فلا؛ ولهذا قال: «**لَا تَدْخُلُوا**

عَلَى هَؤلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»، فهناك فرق بين إنسان يدخل هذه الديار ليعتبر ويخاف ويبكي وإنسان آخر يدخلها للبطر والأشر والنزهة والإعجاب بالآثار؛ الأول: محمود، والثاني: مذموم، وبذلك يزول الإشكال.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:١٢]

❁ التَفسِير ❁

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: اسأل هؤلاء المكذبين المنكرين لتوحيد الألوهية: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ألزيد أو لعمر أو لفلان أو لفلان؟

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال بنفسه، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾.

وهنا نقول: هل الجواب من الله أو من الرسول؟

الجواب: من الرسول بأمر الله، وعلى هذا يكون الجواب جواب الله عز وجل؛ لأن الله أمر الرسول أن يقول هكذا: ﴿قال لله﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ﴿كَتَبَ﴾ بمعنى: أوجب؛ لأن الكتابة بمعنى الإيجاب، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]؛ فـ (كُتِبَ) بمعنى فُرض وأوجب.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٣] أي: فريضة موقّتة.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾: أي: على ذاته، ونفس الله هي ذاته وليست صدفة بل هي الذات، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وليس المعنى يحذِّركم صفة هي نفسه، بل المعنى يحذركم الله إياه؛ أي: ذات الله عز وجل، فليست صفة بل هي الذات، ومعنى ﴿يحذركم نفسه﴾ أي: يحذركم الله من عقابه؛ لأنه جل وعلا أمرنا أن نعلم علمًا مهمًّا فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٩٨]؛ فأمرنا أن نعلم هذا العلم المهم الذي فيه الترغيب والترهيب.

وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا تحذير، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا الترغيب،

فأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نعلم عن أفعاله وصفاته؛ تحذيرًا وترغيبًا.

وهنا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ لأن المقام مقام تهديد وعقوبة؛ حيث يخاطب الله تعالى المشركين المكذبين.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ يعني: أن يرحم عباده عز وجل، فرض هذا على نفسه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» فرحمة الله بالعباد فرضها الله على نفسه، ولسنا الذين فرضناها عليه بل هو الذي فرضها على نفسه.

فإن قال قائل: إننا نجد من الناس من أصابه البؤس والبلى، وفقد المال، وفقد الأولاد، وهو في غاية البؤس، فأين الرحمة؟

فالجواب: كل ما أصاب الإنسان من شيء من بَلاء وهو مؤمن فإنه رحمة؛ لأنه إن صَبر أُثِيبَ ثواب الصابرين، وإذا احتسب أثيب ثواب الشاكرين، فهو خير له، وكم من أناس لو أنهم رُزقوا صحة ومالًا وأولادًا لبطلوا وأفسدهم الغنى، وكم من أناس بالعكس، فكل شيء يصيب المؤمن والحمد لله فهو رحمة وكفارة له، حتى ولو أن الإنسان فزع من شيء قابله كُتب له بذلك أجر فاللهم لك الحمد!

حتى جاء في الحديث لو أن إنسانًا فقد شيئًا في جيبه مثلًا ثم فزع، خاف أن يكون ضاع مثلًا فله أجر، إلى هذا الحد؟!

إذن هذه رحمة، وما أحسن قول رابعة العدوية: (إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها).

والآلام والبؤس والتعب والهم والغم في الدنيا كله يزول، إما أن يزول إلى ضده، وإما أن يصل بصاحبه إلى الهلاك، ولابد أن يزول لكن الأجر باق، فإذا قال قائل: فماذا عن الكافر؟

فالجواب: أن نقول: إن الكافر هو الذي فوَّت الرحمة على نفسه، مع أن لله عليه رحمة؛ بما يسَّره له من الأكل والشرب والنكاح والمسكن، وما أشبه ذلك.

وقال تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾، هذه أيضًا جملة مؤكدة بـالقسم المقدر - واللام الواقعة في جواب القسم - ونون التوكيد.

والتقدير: والله ليجمعنكم، الخطاب للخلق، أي: ليجمعنكم أيها الناس كلكم، كما قال عز وجل: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] الله أكبر، نُجمع مع آباءنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا إلى آدم، كلنا نُجمع، وكذلك ذرياتنا؛ الأولون والآخرون مجموعون كلهم إلى يوم القيامة.

ولما شَبَّه المكذبون بالبعث بقولهم: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الدخان:٣٦] قيل لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الجاثية:٢٦].

أنتم ما قيل لكم أنكم الآن تُبعثون، حتى تحتجُّوا وتقولوا هاتوا آباءنا، بل قيل لكم: إنكم

مجموعون ليوم القيامة لا ريب فيه.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هو اليوم الآخر، وسمي بهذا لأمور ثلاثة ـ هذا الذي علمناه والله أعلم إن كان وراءها شيء ـ وهي:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهذا القيام قيام عظيم فكل العالم بصيحة واحدة يُحضرون جميعًا، لا يتخلف أحد، وهذا قيام عظيم جدًّا جدًّا، حتى الذي أكلته السباع، والذي أحرقته النار، والذي أغرقه الماء ـ لابد أن يحضروا.

والثاني: سُمي أيضًا بالقيامة؛ لأنه يقام فيه العدل، ويُقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

الثالث: تُقام فيه الأشهاد الذين يشهدون، فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكون شهيدًا على هذه الأمة؛ فلهذه الأمور الثلاثة سُمي يوم القيامة.

فإذا قيل: ما هو الدليل؟

قلنا: أما الأول: فدليله قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

وأما الثاني: فقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي: لليوم الذي يُقام فيه العدل.

وأما الثالث: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذا نفي يُراد به تأكيد الإثبات السابق، والإثبات وهو ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: جمعًا مؤكدًا لا ريب فيه، والنفي هنا ليس نفيًا محضًا، بل لكمال الإثبات أو لبيان كمال الإثبات أنه أمر لا ريب فيه، وعلى هذا التقدير يكون النفي على بابه وقيل: إن النفي بمعنى النهي؛ أي: لا ترتاب فيه، والأول أبلغ؛ لأنه إذا قيل: لا ريب فيه، فإذا ارتاب إنسان فلِخلل في عقله؛ لأن ما نفي فيه الريب مطلقًا لا يمكن أن يرتاب فيه عاقل، فشأنها للنفي على بابها أبلغ وأولى.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ مبتدأ والخبر يكون محذوفًا، والتقدير: الذين خسروا أنفسهم خاسرون.

كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:١٥] من؟ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥] فيكون المعنى: الذين خسروا أنفسهم هم الخاسرون حقًّا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توكيد أو بيان للسبب الذي كان به الخسران، ويحتمل أن تكون جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء لأن ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول، وهو مفيد للعموم،

والاسم الموصول يشبه الشرط في عمومه فكان اقتران الفاء في خبرهم.

الفوائد:

١ - في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن جميع من في السماوات والأرض لله عز وجل، بدليل: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾.

فإن قال قائل: كيف أخذتم العموم مع أن (من) للعاقل، و(ما) لغير العاقل؟

فالجواب: أن هذين الاسمين يتناوبان؛ بمعنى: أن أحدهما يقع مكان الآخر، والدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة:١]، وفي آية أخرى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران:٨٣] وهذا يدل على أن (من وما) يتناوبان.

وإن كان الأكثر استعمالًا أن (ما) في غير العاقل، و(من) في العاقل، وعليه فنقول: إن (من) هنا تشمل العاقل وغير العاقل، أو نقول: من للعاقل، لكن عبر به - أي بالعاقل - لأنه إذا كان الله تعالى يملك العاقل وهو مختار مريد فغيره من باب أولى.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات السماوات والأرض، وهنا متكرر كثيرًا علينا، ومعلوم أن السماوات سبع والأراضين سبع.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أننا متى آمنا بهذا، وأن من في السماوات والأرض لله؛ فإننا لن نلجأ إلا لله ولن نخاف إلا من الله عز وجل؛ لأنه مالك من في السماوات والأرض وليتنا نتوكل على الله حق توكله؛ لأننا لو توكلنا على الله حق توكله لكان الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، تغدو خماصًا: أي تطير في أول النهار وهي جائعة، وترجع في آخر النهار وهي ممتلئة البطون، سبحان الله!

وهذا شيء مشاهد، تجد الطيور في أول الصباح تطير في الجو وقد أعطاها الله تعالى قوة النظر؛ من رحمة الله عز وجل تنظر للحَب وهي في جوِّ السماء فتنزل عليه، وتنظر للحبة الصغيرة التي لا يدركها الإنسان إلا بالمشقة وهي تنظر لها بسهولة، وتجد أنها تأخذ الحبة الصغيرة جدًّا في وسط القطيفة المفروشة من بين الخمل الذي فيها، لكن الله عز وجل أعطاها قوة بصر حتى تعيش.

المهم: أنك متى علمت أن من في السماوات والأرض لله فإنك ستتوكل عليه وتخافه وترجوه.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز إجابة السائل نفسه إذا كان الأمر واضحًا؛ لقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ مع أنه أمره أن يسأل ثم أمره أن يجيب، فإذا كان الأمر واضحًا لا نزاع فيه فأجب أنت؛ لأن المسئول قد يمنعه من الإجابة استكباره وكبريائه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لله تعالى أن يكتب على نفسه ما شاء؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فإذا قال قائل: كيف يكون الشيء لازمًا على الله؟

فالجواب: أن الله ألزم نفسه به، وله أن يفعل ما يشاء، فنحن لا نلزم الله بشيء، لكن الله له أن

يلزم نفسه بشيء، فكتابة الله على نفسه الرحمة لا تنافي كماله، بل هي من كماله عز وجل أن يفرض على نفسه الرحمة، لكن نحن لا يسَع لنا على الله حق إلا ما أوجبه على نفسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «**النونية**»:

مَـا للعِبَـادِ عليـهِ حَـقٌّ واجـبٌ هُوَ أوْجَـبَ الأجْـرَ العَظِـيمَ الشَّانِ

هو أوجب، وليس نحن.

إن عُـذِّبُوا فَبِعَدلِـهِ، أوْ نُعِّمُـوا فَبِفَـضْلِهِ، والفَـضْلُ للمَنَّـانِ

لأن الذنب ذنبهم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله يعبر عنه بالنفس؛ لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، ولها نظائر:

قال الله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وليست نفس الله كنفس الإنسان، والإنسان يطلق على نفسه نفسًا وله نفس، قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فهنا يتوفى الأنفس يعني: الروح التي في البدن، وليست الجسم؛ لأنه عند الموت الجسم ما يُقبض فهو باقٍ في الأرض ويتولاه أهل الأرض، والذي يُقبض هو الروح.

فالإنسان له نفس وهي الروح، ويعبر عن ذاته بالنفس فيقول: (كلمتك بنفسي) وتقول: (جاء الرجل نفسه)، أما الله عز وجل فليس له نفس، بل نفسه هي ذاته عز وجل.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثباتُ البعث؛ لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧].

٨ ـ **ومن فوائدها**: تأكيد الشيء بالقسم وغيره من المؤكدات إذا دعت الحاجة إليه، لكن متى تدعو الحاجة؟

نقول: تدعو الحاجة في مواطن منها: إذا كان المخاطب منكرًا فهنا يجب أن يؤكد الكلام، يجب حسب البلاغة.

ومنها: إذا كان الأمر بعيدًا مستغربًا فإنه يؤكد، لكن ليس كالأول؛ لأن الأول يؤكد وجوبًا، وهذا يؤكد له استحبابًا؛ يعني: توكيده أحسن من عدمه ونقول استحسانًا، فكلما دعت الحاجة إلى توكيد الكلام أُكِّد، ولا يُعد هذا تطويلًا ولا إخلالًا بالبلاغة.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: حكمة الله عز وجل في جمع الأولين والآخرين؛ حتى

يكون هذا اليوم يومًا مشهودًا، كما قال عز وجل: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[البروج:٢، ٣] أي يشهده الأولون والآخرون، فنحن سوف نشاهد هابيل وقابيل، ونشاهد آخر واحد من هذه الأمة، فكل العالم سيكون مشهودًا بل كل شيء سيكون مشهودًا؛ الجن، والبهائم، والوحوش، وكل شيء، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فوق الأرض.

لو تصوَّر الإنسان هذا اليوم لرأى مشهدًا عظيمًا عظيمًا، ما يستطيع أن يدركه الآن، لكن نفهم معناه ولا ندرك حقيقته، فحقيقته أبلغ مما نتصوره. اللهم اجعله علينا يسيرًا!

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تسمية يوم البعث بيوم القيامة للوجوه التي ذكرناها في التفسير.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا ريب في هذا اليوم شرعًا وعقلًا؛ شرعًا لأن الله أخبر به وأكده وضرب له الأمثال، وعقلًا لأنه ليس من المعقول أن الله تعالى يوجد هذه الخليقة ويأمرها وينهاها ويرسل إليها الرسل وتُستباح الأنفس والأموال والذرية في القتال في سبيل الله، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبلعهم فقط، فهذا ينافي الحكمة؛ فالعقل يوجب أن يكون هناك بعث، حتى وإن لم يكن نص. فكيف والنصوص كثيرة!!

ومن رحمة الله عز وجل - وله الحمد والفضل والمنَّة - أنه يكثر من إثبات يوم القيامة ويضرب له الأمثال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يجعل الإنسان حقيقة على الإيمان؛ إذ لولا اعتقاد المؤمن أنه سيُبعث ويجازى إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ما عمل أبدًا، ولصار صراط الأمة ما عُدِّل للسلب والنهب والأخذ والعدوان.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن هؤلاء المكذبين خسروا أنفسهم يعني: كأن لم يوجدوا على الأرض؛ لأنهم لم يستفيدوا من حياتهم؛ ولذلك لما لم يستفيدوا من الحياة الدنيا لم يستفيدوا من الحياة الآخرة، فكانوا مخلدين في نار جهنم والعياذ بالله.

١٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه من الفصاحة أن يُذكر السبب بعد المُسبَّب، فإذا جعلنا جملة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا، وجه ذلك: أن سبب خسرانهم هو عدم الإيمان، فأخر السبب وقدم المُسبِّب، هذا إذا جعلنا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا لقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، أما إذا جعلناها جملة مستقلَّة لله فلا تأتي هذه الفائدة؛ لأنها على الترتيب.

قال الله تعالى:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام:١٣]

التَفسِير

قوله: ﴿وَلَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله عز وجل.

وقوله: ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (سكن) يصح أن تكون من السكنى، ويصح أن تكون من السكون الذي هو ضد الحركة، فإن كانت من السكون بقي أن يقال: وأين المتحرك؟ لأن الأشياء إما ساكنة وإما متحركة وهنا قال الله: ﴿مَا سَكَنَ﴾ والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: إن هذا من باب الاستغناء بذكر أحد الضدين عن الآخر، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾[النحل:٨١].

السرابيل: تقي الحر والبرد، لكن ذكر الحر والبأس؛ لأن اللباسين متفقان، هذا يلبس عند حرارة الجو، والثاني يلبس عند حرارة القتال، فقال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾.

المهم: أنه استغنى بضيق الحرِّ عن ضيق البرد.

أما إذا جعلناها من السُكنى، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ فالمعنى: أن له كل شيء؛ لأن كل المخلوقات ساكنة في مقابرها، إذن اللفظ صالح لهذا وهذا، فهل نستعمله بالمعنيين؟ نقول: نعم، بشرط ألا يقع بينهما منافاة، فإن وقع بينهما منافاة، أُخذ بما يُرجحه الدليل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، تأمَّل قوله: ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تجد أنه عامٌّ في الزمان، والتي قبلها: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عامٌّ في المكان، فذكر الله تبارك وتعالى عموم المكان وعموم الزمان؛ عموم المكان لقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾، عموم الزمان؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ذكر السمع لكل صوت، والعليم لكل حال، ولا بأس أن نُعيد أقسام السمع التي وصف الله بها نفسه وهم قسمان:

١- سمع إجابة.

٢- سمع صوتي.

أما سمع الإجابة: ففي مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[إبراهيم:٣٩] هذا يشمل سمع الإجابة وسمع الصوت، ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده).

وأما سمع الصوت فهو أنواع:

النوع الأول: المقصود به التأييد والنصر.

والثاني: المراد به التهديد.

والثالث: المراد به الإحاطة.

مثال الأول: الذي يقصد به التأييد قول الله تبارك وتعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦].

ومثال الثاني: المراد به التهديد قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠] نقول: بلى.

ومثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة العظيمة: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ اختصاص الله تبارك وتعالى بأنه يملك كل شيء، وجه الاختصاص: تقديم الخبر (وله)؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ولهذا قلنا إن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[الفاتحة:٥] توحيد خالص بمعنى: لا نعبد إلا إياك، وكذلك نقول في ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥].

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن السكون والحركة بيد الله عز وجل؛ لأن مالك من يسكن ويتحرك هو مالك للحركة والسكون، فيكون في هذا دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وهذا هو مذهب السلف وأهل السنة، وهو وسط بين مذهب الجبرية والقدرية.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين (السميع، والعليم)، وإثبات ما تضمناه من صفة؛ صفة السمع في السميع والعلم في العليم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الأنعام:١٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿أَتَّخِذُ﴾ هذه تنصب مفعولين؛ المفعول الأول: (غير) مقدمًا، والثاني: ﴿وَلِيّٗا﴾، ولو أردنا أن نرتب حسب العمل لكانت الآية: قل أتخذ غير الله وليًا.

المهم: أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقول معلنًا: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استنصر به ويتولى أمري وأتولى شرعه، والاستفهام هنا للنفي.

وقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما على غير مثال سبق، والسماوات والأرض: تقدم الكلام عليهما مرارًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، هو - أي: الله عز وجل - يُطعم، أي: ما من طاعمٍ يطعم إلا والله الذي أطعمه يسوق له الطعام ولولا ذلك ما وصل إليه الطعام.

قال الله عز وجل مبينًا هذا: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣، ٦٤] الجواب: بل أنت يا ربنا، ثم قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٥ - ٦٧] ولو جعله الله حطامًا ما طعمنا، ثم ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨، ٦٩] الجواب: بل أنت يا ربنا. وهذا هو الزرع: الطعام، والماء: الشراب، ثم ما يَصلُح به الطعام والشراب وهو الطبخ والطهي الذي يكون بالنار، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧١، ٧٢].

إذنْ الذي يُطعم هو الله عز وجل، ثم لو شاء الله تعالى ما طعمنا حتى لو وجد الطعام، ولو شاء الله لم يخلق لنا أفواهًا ولا أمعاءً ولا معدات فلا نطعم.

إذنْ ﴿يُطْعِمُ﴾ أي: يوجد الطعام من مأكول ومشروب وما يصلح به الطعام والشراب، وكذلك توجد الآلات في بني آدم التي تقبل الطعام وتستنفع به، لكن ذكر بعض أهل العلم رحمهم الله: أنه لن يصل إليك الطعام إلا بعد أن يعمل به أكثر من ثلاث مائة واحد؛ لأنها تبدأ من الحرث والسقي وتصريف الماء وغير ذلك، والشراء والطحن، والعجن وغير ذلك، تجد أشياء كثيرة لا يصل إليك الطعام إلا بعد أن يتجاوز هذه الأشياء.

وقوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ إذنْ غيره محتاج إليه، وهو لا يحتاج لأحد، فهو لا يُطعم لغناه عن كل أحد، ثم هو جل وعلا لا يطعم؛ لأنه أحد صمد ولو طَعِم لكان محتاجًا للطعام وهذا مستحيل على الله عز وجل، وهو يُطعم ولا يَطْعَم.

وقوله تعالى: إعلان آخر - ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، الأمر الأول بتحقيق توحيد الربوبية، والثاني بتحقيق توحيد العبادة، ﴿قُلْ﴾ أي: للناس معلنًا ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أول من أسلم من هذه الأمة لا من جميع الأمم، ومعنى ﴿أَسْلَمَ﴾ هنا أي: استسلم لله ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإسلام يطلق على هذا، وإذا كان الإسلام بمعنى هذا دخل فيه الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوفة على قوله: ﴿قُلْ﴾

يعني: قل هذا ولا تكونن من المشركين، بل أخلص العبادة والإسلام لله عز وجل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** أمر الله النبي ﷺ أن يُعلن أنه لن يتخذ وليًّا من دون الله وهذا واجب عليه؛ لأنه رسول وإمام مقتدى به، فلابد أن يعلن تحقيق الربوبية.

٢ - **ومن فوائدها:** ألَّا يلجأ العبد إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله هو الولي، ثم ولاية الله عز وجل ولاية مبنية على الحمد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الشورى:٢٨].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله وحده خالق السماوات والأرض على غير مثال؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى لم يخلق سماوات وأراضين من قبل ثم أعادها مرة أخرى، بل هي على ما هي عليه.

٤ - **ومن فوائد الآية:** تمام قدرة الله تبارك وتعالى، حيث فطر السماوات والأرض، وبقيت السماوات والأرض على حسب ما أراد الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨]، ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[يس:٣٩] فلم تختلف.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله تبارك وتعالى هو المُطعِم، ولا مُطعِم سواه.

ونبني على هذه الفائدة: ألَّا نسأل أحدًا طعامًا إلا الله تبارك وتعالى، ونستغفر الله ونتوب إليه.

ولو أننا تمسكنا بهذا مع التوكل على الله والاستعانة به، لكان رزقنا مضمونًا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، لكن غلبت علينا الأمور المادية الحسية فصار الإنسان - مع الأسف - يعتمد على الأسباب أكثر مما يعتمد على المسبب عز وجل، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»، أي: تذهب في أول النهار جائعة، وتروح بطانًا أي: ترجع في آخر النهار مملوءة البطن.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى لا يُطعمه أحد؛ لعدم حاجته إلى الطعام وعدم حاجته إلى غيره، فهو لا يُطعَم؛ لأنه لا يحتاج للطعام، ولو يُطعم لما احتاج إلى أحد أيضًا؛ لأنه لا يحتاج إلى غيره، فهو غني عن كل من سواه وكل من سواه مفتقر إليه.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب إعلان النبي ﷺ عن نفسه أنه أول من أسلم؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: من هذه الأمة، وهذا هو الذي صار.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم محتاج إلى الإسلام وليس له حق في الربوبية، كما صرح بذلك هو عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا عشيرته الأقربين وجعل يناديهم بأسمائهم يا فلان بن فلان إلى أن وصل إلى ابنته فاطمة فقال: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: صحة النهي عما لا يمكن أن يقع؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فشرك النبي ﷺ لا يمكن أن يقع شرعًا ومع ذلك نُهي عنه.

إذا قال قائل: ما هي الحكمة مع أنه لا يمكن أن يقع؟

قلنا: الحكمة - فيما نعلمه - وجهان:

الوجه الأول: دعوته إلى الثبات على الإخلاص حتى لا يشرك في المستقبل.

والثاني: تطمين أمته إذا نهوا عن الشرك أن ذلك ليس بالمستنكر وليس به بأس؛ لأنه أُمر إمامهم ﷺ ألَّا يكون من المشركين.

مسألة: هل يؤخذ من هذا أننا نقول للشخص: أنت مشرك إذا فعل ما يكون به مشركًا؟

الجواب: نعم يمكن أن نقول هذا، وهو على حسب الحال، إن كنا نظن أنه إذا قلنا: أنت مشرك أخذته الحميَّة الجاهلية واستكبروا واستنكر؛ فإننا لا نخاطبه بهذا الأسلوب، وإن كان نعلم أنه ممن يتقي الله وأنه إذا قلنا: هذا شرك فإن فعلت فأنت مشرك، وإن قلت فأنت مشرك؛ أخذه خوف الله عز وجل فأبعد عن ذلك إبعادًا كاملًا، فإننا لا بأس أن نقول له: إنك مشرك على حسب ما يقتضيه الحال.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأنعام:١٥]

التفسير

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿قُلْ﴾ أي لهؤلاء وغيرهم معلنًا هذا الإعلان المهم، وفي قوله: ﴿إِنِّي﴾ قراءتان:

(إِنِّيَ)، و(إِنِّيْ) وهما سبعيتان. أيضًا: أعلن أنك إن عصيت الله فإنك ستُعَذَّب، لكن كلمة ﴿عَذَابَ﴾ مفعول؟ ﴿أَخَافُ﴾ أم ﴿عَصَيْتُ﴾؟

الجواب: ﴿أَخَافُ﴾؛ يعني: إني أخاف عذاب يوم عظيم إن عصيت ربي.

إذنْ فما هو اليوم العظيم؟

نقول: اليوم العظيم هو يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه يجب على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يعلن الجزاء يوم القيامة وأنه يخاف إن عصى ربه.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن المعاصي سبب للعذاب، ولكن المعاصي على نوعين:

١- معاصٍ لا يغفرها الله، وهي الشرك.

٢- ومعاصٍ تدخل تحت مشيئة الله، وهي الكبائر.

وهناك معاصٍ أخرى تكفرها الأعمال الصالحة وهي الصغائر.

هذا فيما يتعلق بينك وبين الله عز وجل، أما حقوق الآدميين فلابد من إصالهم حقهم، إما باستحباب منهم في الدنيا، وإما بأعمال صالحة تؤخذ من أعمال هذه الظالم.

وسبق لنا أن قلنا: إن الإنسان إذا تاب من ذنب فيه جناية على غيره هل يسقط حق الغير أو لا؟ ذكرنا أن ظاهر النصوص أنه يسقط إذا كان غير مال، كالذي يزني: بامرأة إنسان ثم يتوب فإن الله يتوب عليه.

قال الله تعالى:

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦]

التفسير

قوله: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ فيها أيضًا قراءتان: ﴿من يَصْرِف﴾، و﴿مَّن يُصْرَفْ﴾.

وقوله: ﴿عَنْهُ﴾ يعني: عنه العذاب، ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي: رَحِمَهُ اللهُ عز وجل، والضمير في قوله: ﴿رَحِمَهُۥ﴾ قد يقول قائل: كيف نعرف أنه عاد إلى الله عز وجل؟ فيقال: لأنه تقدم ذكره ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾. يعني: يصرف عنه ربي هذا العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، أو يُصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه أي: ربي.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، المشار إليه: ذلك يعني الصرف المفهوم من قوله: ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ هذه هي خبر المبتدأ، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ صفة لقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية دليل على:** أن الفوز الحقيقي هو الذي يحصل بصرف الله العذاب عن الإنسان يوم القيامة؛ لأن الفوز لبيان الحقيقة التي هي الفوز الأعظم؛ لأن غير هذا الفوز فوز زائل، حتى من وُفق في الدنيا فإن فوزه ناقص إلا أن يكون فوزه في الدنيا سببًا للأعمال الصالحة التي يفوز بها في الآخرة، فذلك الفوز المبين: أي: البيِّن، وهي اسم فاعل من (أَبَانَ)، وأبانَ يصح أن تكون لازمة ويصح أن تكون متعدية، فإذا قلت: (أبان المعلم للطالب معنى الكتاب) هذه

متعدية، وإذا قلت: (أبان الصبح) بمعنى انجلى، فهذه لازمة، إذنْ المبين هنا بمعنى: البيِّن.

٢ ـ **وفي الآية فوائد منها:** فوز من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة.

٣ ـ **ومنها:** إثبات الرحمة لله عز وجل بلفظ الفعل، لقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

ورحمة الله تبارك وتعالى من الصفات الذاتية الفعلية، فباعتبار المفهوم تكون فعلية، وباعتبار كونها وصفًا ثابتًا لله تكون من الصفات الذاتية.

والرحمة يكون بها حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فإذا قال قائل: هل رحمة الله حقيقية أو هي عبارة عن الثواب أو إرادة الثواب؟

فالجواب: هي حقيقية، ولكنها ليست كرحمة المخلوق التي يكون فيها نوع من الضعف، ولكنها رحمة الخالق الذي هو فوق عباده عز وجل، وقد أنكر قوم الرحمة وقالوا: إن الله لا يوصف برحمة حقيقية؛ لأنها تدل على الرقة واللين وهذا لا يليق بالله عز وجل، فإذا قلنا لهم، فسروها لنا؛ قالوا: الرحمة هنا عبارة عن آثار الرحمة وهي إما الإرادة، وإما الثواب، فالفعل هو الذي حصل برحمة الله.

فإذا قيل لهم: ما الذي حملكم على صرف الكلام عن ظاهره؟ قالوا: لأن الرحمة على الوجه الذي ذكرنا تدل على الضعف.

فنقول لهم: هذه الرحمة التي ادعيتم أنها تدل على الضعف إنما هي رحمة المخلوق، أما رحمة الخالق فإنها لا تدل على الضعف هنا بوجه من الوجوه، بل تدل على كمال فضله وكرمه عز وجل، ثم إن لنا أن ننازعكم في دعواكم أن اللين والرقة يدل على الضعف، فكم من ذي سلطان قوي يكون رحيمًا، وهو ذو سلطان قوي يستطيع أن يبطش برعيته كما يشاء، ويكون رحيمًا بمن يستحق الرحمة.

فتمنع أولًا دعوة، ثم لو سلمنا جدلًا بأن الرحمة تدل على اللين والرقة فهذه رحمة المخلوق.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الفوز الحقيقيَّ البيِّن الظاهر هو: الفوز من نجاة العذاب يوم القيامة .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم ذلك!.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى مسليًا رسوله ﷺ ومبينًا له ومقويًا عزمته:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]

❁ التفسير ❁

الضُّر هنا يشمل: الضر في البدن والعقل والمال، وكل ما يكون به الضرر على الإنسان، وكلمة

(ضر) كما تشاهدون نكرة في سياق الشرط والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، أيُّ ضر يمسسك الله به يعني: يصيبك فلا كاشف له؛ أي: لا مزيل له إلا الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

والخير هنا المراد به: ضد الضرر من الصحة والعقل والمال والأهل والأمن وشرح الصدر وغير ذلك، فهو على كل شيء قدير، قادر على أن يزيل الضرر الذي أصابك إلى خير[1].

الفوائد:

١ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا علم مضمون هذه الآية فسوف يعتمد في أموره كلها على الله.

٢ - **ومنها:** تقوية النبي ﷺ في الدعوة إلى الله، وأنه مهما حاول هؤلاء أن يصيبوه بضرر؛ فإنهم لا يملكون ذلك إذا لم يكن الله أرادَه.

٣ - **ومنها:** الحث على الصبر؛ لأنك إذا علمت أن الذي أصابك بالضُّر هو الله، فلابد أن تصبر لأنك عبده يفعل بك ما شاء فتصبر على ما يصيبك من الضرر.

٤ - **ومنها:** قوة رجاء العبد بالله عزَّ وجلَّ إذا أصابه الضرر أن يزول عنه وجه ذلك قوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكم من أضرارٍ حدثت للإنسان حتى أوصلت إلى اليأس والقنوط فكشفها الله عزَّ وجلَّ.

وكم من إنسان أُصِيبَ بمرض حتى وصل إلى حافة القبر ثم شفاه الله عزَّ وجلَّ.

وكم من إنسان أُصِيبَ بالفقر حتى وصل إلى ألّا يجد قوت يومه ولا عياله، ثم أغناه الله.

وكم من إنسان كان وحيدًا فرزقه الله، وهلم جرًّا؛ لأن الله على كل شيء قدير.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام سلطان الله عزَّ وجلَّ وأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف كما يشاء بعباده؛ لقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ بكذا ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ بكذا.

٦ - **ومنها:** عموم قدرة الله؛ لقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقابل القدرة : العجز، وهنا صفتان متشابهتان أو متقاربتان (القوة ـ القدرة) والفرق بينهما يحصل بالتعري:

القدرة: التمكن من الفعل بلا عجز، والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف، والدليل قول الله تبارك وتعالى في القدرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا

(١) هذا ما تيسر من سماع لتفسير الآية.

قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، والدليل في القوة قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم:٥٤].

أيهما أكمل، أو أيهما أعم؟

نقول: أما القوة فهي أعم؛ لأنها تكون في ذي الشعور وغيره، في الشعور يعني في الإرادة وغيره، فنقول: (فلان قوي)، وتقول: (الحديد قوي).

وأما القدرة: فإنها لا تكون إلا من ذي الإرادة، إذ لا يصح أن تقول: الباب قادر؛ لأنه ليس له إرادة.

أيهما أكمل؟ القوة أكمل؛ لأنه يلزم من وجود القوة القدرة ولا عكس، ونضرب مثلاً لهذا: رجل قيل له: احمل هذا الحجر، فحمله لكن حمله بمشقة، بماذا نصف هذا الرجل؟

الجواب: نصفه بأنه قادر غير قوي.

وإنسان آخر قلنا له: احمل هذا الحجر، أراد أن يحمله فعجز، نقول هذا عاجز غير قادر.

ورجل ثالث قلنا له: احمل هذا الحجر، فأخذه وكأنه ريشة، هذا قوي، وهو قادر من باب أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كل شيء فالله قادر عليه، كل شيء حتى وإن بَعُدَ في ذهنك فالله قادر عليه؛ ولهذا نبه الله تبارك وتعالى زكريا عليه السلام حين قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم:٨] قال تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٩] فالذي خلقك من قبل ولم تك شيئًا قادر على أن يخلق لك ولدًا.

وهذا قياس أولوية واضح، أو على الأقل قياس شيء واضح؛ فالقادر على العدم قادر على الإيجاد، والقادر على الإيجاد قادر على العدم، إذنْ لا تستكثر أن تسأل الله تبارك وتعالى شيئًا لا تكون فيه معتديًا في الدعاء ولو كان في نظرك بعيدًا؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ

﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٨-١٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ هو: الضمير يعود على الله عزَّ وجلَّ، ومرجعه ما ثبت من الآية، وقوله: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ القهر هو الغلب مع السلطان؛ يعني السلطة؛ لأن الغالب المطلق قد لا يكون له سلطة، لكن قهر الله عزَّ وجلَّ غلبة مع سلطة تامة.

وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ هل المراد بالفوقية: المكانة أو فوقية المكان أو هما جميعًا؟! الجواب: هما جميعًا؛ فوقية المكان وفوقية المكانة، وعليه فيكون المعنى: هو القاهر فوق عباده - من حيث المعنى - لا يمكن أن تغلبه قوة، ومن حيث المكان أنه فوق كل شيء.

وقوله: ﴿عِبَادِهِۦ﴾: (عباده) جمع عبد، والمراد به هنا: العبودية العامة التي تشمل المؤمن والكافر، لأن العبودية ثلاثة أقسام:

١ - عامة. ٢ - خاصة. ٣ - أخص.

العامة: هذه العبودية: أن جميع المخلوقات كلها ذليلة أمام الله عزَّ وجلَّ فهي عابدة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

الخاصة: هي عبودية المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

الأخص: هي عبودية الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، فهنا ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ المقصود بها: العبودية العامة.

واعلم أن الخاصة تدخل في العامة؛ بمعنى أنهم عباد الله أي: العبودية القدرية، والعبودية الشرعية.

إذنْ: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ المراد: عبودية القدر، كل خاضع لله عزَّ وجلَّ، لو كان من أقسى عباد الله فهو عبد لله، ففرعون مثلًا عبد لله بالمعنى العام، وموسى عبد لله بالمعنى العام والخاص.

فالعبودية الشرعية: خاصة، والعبودية القدرية الكونية: عامة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الحكيم تصح أن تكون بمعنى: (مُحكِم)، ومن الشواهد على مجيء

فعيل بمعنى مُفعِل، قول الشاعر[1]:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

فسميع هنا بمعنى: مُسمِع.

وحكيم أيضًا بمعنى: حاكم، إذنْ هي مشتقة من الحكمة ومن الحُكْم، والدليل على هذا - أي على أنها من الحكم - قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وأما من الحكمة: فكما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] والجواب: بلى.

إذنْ (الحكيم): مُشتقة من الإحكام والحُكم، فإذا كانت مشتقة من الإحكام فهي بمعنى: مُحكِم وإذا كانت من الحكم فهي بمعنى: حاكم.

والله تبارك وتعالى موصوف بهذا وهذا، ثم اعلم أن الحكم: كوني وشرعي.

من الكوني قول الله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠] أي يُقدِّر لي، هذا حكم قدري، وأما الشرعي: فمنه قول الله تبارك وتعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

إذنْ الحكم نوعان: كوني وشرعي.

فإن قال قائل: ما الفرق بينهما؟

قلنا: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن الحكم القدري لا بد أن يقع، إذا حكم الله تعالى بشيء حُكمًا قدريًّا فلا بد أن يقع، فإن حكم سبحانه وتعالى بالخوف فلا بد أن يقع الخوف، وإن حكم بالجدب فلا بد أن يقع الجدب، وإن حكم بالرخاء فلا بد أن يقع الرخاء، وهلم جرًّا.

أما الحكم الشرعي: إذا حكم بشيء فقد ينفذ وقد لا يُنفذ، فإذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة:١٧٣] فهل نقول: إن هذه الآية تدل على أنه لا يمكن أن يأكل الميتة أحد؟ الجواب: لا، قد يأكل وقد لا يأكل.

الفرق الثاني: أن الحكم الشرعي سواء كان إيجابًا أو تحريمًا لا يكون إلا فيما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكن أن يأمر الله عباده بما يكرهه، ولا أن ينهاهم عما يحبه، أما الحكم الكوني: فيكون فيما يحبه

---

(١) ينسب هذا البيت إلى: عمرو الزبيدي، عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبير، فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ، ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية.

ويرضاه، وفيما يكرهه ويسخطه سبحانه وتعالى.

والحكمة نوعان:

حكمة صورية: وهي أن يكون الشيء على هذه الصورة المعينة.

وحكمة أخرى غائية: أن يكون هذا الشيء لغاية محمودة.

فإذا تأملت المخلوقات كلها وجدت أنها في غاية الحكمة؛ فالشمس والقمر والنجوم، والرياح والأمطار، وهلم جرا. كلها من غاية الحكمة، وإذا ما نظرت للغاية منها: وجدتها غاية حميدة مطابقة للحكمة، كذلك أيضًا الشرع، إذا تأملت الشرائع وجدت كون هذا الشيء على صورة معينة: حكمة، وكونه لغاية حميدة: حكمة.

ففي الزكاة مثلًا: نجد الزروع ما سُقي بمؤونة كان فيها نصف العشر، وما سقي بلا مؤونة كان فيها العشر، لماذا الاختلاف؟ لأن الواقع يقتضي ذلك، ما سقي بمؤونة، أي: تعب عليه صاحبه وأنفق مالًا كثيرًا في استخراج الماء، أما الآخر لم يفعل، كذلك إذا تأملت الحكمة في الزكاة أيضًا وجدت أن المال القليل لا تجب فيه الزكاة؛ لأنه لا يحتمل المواساة بخلاف الكثير، ووجدت ما يشق فيه إخراج الزكاة ما لا تجب به إخراج الزكاة كالثياب، والمراكب، والبيوت وما أشبه ذلك.

ما الحكمة من الزكاة؟

الآن عرفنا أن الزكاة على صورة معينة: حكمة، لكن ما الحكمة من الزكاة؟ الجواب: قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] هذا أفضل شيء، تطهِّرهم من الذنوب؛ لأن الصدقة تُذهب الخطيئة.

تزكيهم بها: أي تزكي أخلاقهم ودينهم، تزكي دينهم؛ لأنه يجعلك تبذل كل ما يحبه الله عزَّ وجلَّ، ولا يمكن أن يبذل الإنسان محبوبًا إلا لما هو أحب، كذلك تزكي أخلاقهم بالكرم والسخاء والرخاء.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أسباب انشراح الصدر: الصدقة والبذل، وهذا معنى خفيٌّ، كلما كان الإنسان أشد بذلًا للمال كان أوسع صدرًا، لا سيما إذا كان يؤمن بأنه يقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنه يكفِّر سيئاته، وما أشبه ذلك.

فالحكم: كوني وشرعي.

والإحكام: صوري وغائي.

وتكون الحكمة أيضًا في المشروعات وفي المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿الْخَبِيرُ﴾: الخبير يعني ذا الخبرة، قال أهل العلم والخبرة: هي العلم ببواطن الأمور، وهي مشتقة من (خبير الزرع) الذي يدفن في الأرض ويكون خفيًّا؛ ولهذا يمر عليهم

الحديث أن النبي ﷺ نَهَى عَنْ الـمُخَابَرَةِ(١)، يعني المزارعة التي تشتمل على الفرق.

إذنْ الخبير يعني العليم ببواطن الأمور جل وعلا، حتى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] الذي يحدِّث به نفسه يعلمه الله عزَّ وجلَّ؛ قبل أن يحدث به الإنسان وقبل أن يعلم به إخوانه.

إذنْ الخبرة هي: العلم ببواطن الأمور، فبالتالي لزم من اسمه الخبير أن يكون عليمًا، وقرن الله تعالى هنا بين الحكيم والخبير، ليعلم الناس أن حكمة الله عزَّ وجلَّ عن خبرة وعلم ببواطن الأمور، وعلى هذا فقد تكون خفية على كثير من الناس؛ لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيرًا.

ففي قرن هذين الاسمين فائدة: وهي أن الخبرة قد تكون خفية لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ.

ومن ثم قلنا: إن جميع أوامر الشرع ونواهيه حكمة، ولا حاجة أن نعرف العلة؛ لأننا نعلم أن الله حكيم عزَّ وجلَّ، وأنه ما شرع إلا الحكمة.

وما موقفنا من الأوامر والنواهي إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

إن تيسَّر لنا معرفة الحكمة فهذا منَّة من الله عزَّ وجلَّ ومساعدة ومعونة من الله؛ حتى يطمئن القلب ويقوى الإيمان، وإن لم تتبين فالمؤمن يكفيه أن هذا حكم الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك ربما تكون العبادة التي تخفى حكمتها أبلغ من التعبُّد؛ لأن الشيء إذا علمت علته قد يكون عقلك يأمرك به، لكن إذا كنت لا تعرف العلة فإن تذلُّلك لله به وعبادتك إياه أبلغ في التذلل.

مثلًا: رمي الجمرات؛ حصًى تأخذها من الأرض وترمي بها في مكان معين، الإنسان قد يعلم العلة وقد لا يعلم، أكبر علة فيها: أنها ذكر لله عزَّ وجلَّ، كما جاء في الحديث: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبِالصَّفَا وَالْـمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْـجِمَارِ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ الله»(٢).

فهنا كمال التعبد، إنسان عاقل مؤمن فاهم ذكي، يأخذ حصوات ويرميها في مكان معين، ولولا أنه مشروع لقيل: إنه عبث، لكنه في وقته ومكانه مشروع؛ لأن فيه كمال التعبُّد والتذلل لله، وأن المؤمن عليه أن يقول: سمعنا وأطعنا، مع أن فيه ذكرًا لله في القلب وهو كمال التذلل والتعبُّد، وفيه ذكرًا الله باللسان؛ لأنه يُشرع في كل حصاة ترميها أن تقول: (الله أكبر).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ قيل: إن هذا الآية لها سبب، وهو أن المشركين قالوا للنبي ﷺ من يشهد لك بأنك حق، اليهود والنصارى أنكروا، فمن يشهد لك؟ فأنزل الله هذه الآية، وسواء كان هذا هو السبب أو لم يكن هذا هو السبب لأن في قلوب المشركين - لا شك - أن الشيطان يلقي في قلوبهم ويقول: محمد ما عنده من الآيات، إنما هو من الشعر.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨١)، ومسلم (١٥٣٦/ ٨١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: رواه أبوداود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وأحمد في مسنده (٢٤٣٩٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٥٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي شيء؟ الجواب واضح؛ ولهذا أمر الله نبيه أن يجيب قبل أن يجيب هؤلاء؛ لئلا يكابروا ويعاندوا، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وكان يتبادر أن يكون الله جوابًا لهم لو قالوا: مَنْ الشاهد؟ لكن الرسول يسألهم يقول: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ربما يكابرون ويقولون: لا شاهد لك، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

وإعراب هذه الآية فيها أوجه:

الوجه الأول: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: أن يكون الاسم الكريم مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: قل الله أكبر شهادة، وعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو شهيد بيني وبينكم.

الوجه الثاني: أن الاسم الكريم خبر لمحذوف تقديره: هو الله، وعلى هذا التقدير: يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ يجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: أن تكون خبرًا ثانيًا للمبتدأ المحذوف، ويكون التقدير هو الله شهيد خبر ثانٍ.

الوجه الثاني: أن تقول: شهيد خبر المبتدأ المحذوف، يعني هو الله هو شهيد بيني وبينكم.

هذه هي أوجه الإعراب، يتوقف عليها الوقوف، نقف على كلمة؛ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ نقف على هذا.

وفيه وجه آخر منفصل عن هذه الوجوه:

أن يكون الاسم الكريم مبتدأ خبره شهيد ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وإذا كان الله شهيدًا بينه وبين أعدائه؛ فما الأكبر من الله؟ لا أحد أكبر، كل هذه الأوجه مهما تنوعت لا تعدو أن يكون المعنى: الله أكبر شهادة من كل شيء، ولا شك في هذا.

وبماذا شهد الله للرسول عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: شهد الله للرسول ﷺ بصدقه في اللفظ وفي الفعل؛ اللفظ قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون:١] فهذه شهادة قولية من الله على أن رسول الله ﷺ حق، أما الفعل: فالآيات التي يظهرها الله، هذه شهادة فعلية من الله: التمكين له في الأرض، تمكينه من أن يضرب الأعناق ويسبي الأموال والذرية، تمكينه من أن يتلو القرآن على الناس ويقول هذا كلام الله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] شهادة الله الفعلية كثيرة، شهد الله لرسوله ﷺ بأنه حق.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أوحي: أبهم الفاعل لأنه معروف، فالموحِي هو الله عزَّ وجلَّ، والوحي في اللغة العربية في الأصل: الإعلام بسرعة وخفاء، أن تُعلم صاحبك بسرعة، تعطيه كلمات يفهمها بسرعة وخفاء؛ لئلا يطَّلع عليها أحد.

فأصله السر، أصل الوحي السر، لكنه في الاصطلاح: هو عبارة عن تكليم الله عزَّ وجلَّ بواسطة أو بغير واسطة لأحد من عباده بشريعة يبلغها الناس، هذا هو الوحي.

وسمي بذلك لأن الوحي خفي، فتارة يكون في روع الرسول ﷺ، وتارة يكون في تكليم الله للرسول من وراء حجاب، وتارة يكون في إرسال رسول يرسله الله عزَّ وجلَّ فيوحي من عنده ما يشاء.

وقوله: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ القرآن: مصدر كالغفران والشكران، وهل هذا المصدر بمعنى اسم المفعول أو بمعنى اسم الفاعل؟ فالمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل ويأتي بمعنى اسم المفعول، تقول: هذا عدل رضي؛ أي: عادلٌ راضٍ، وفي الحديث: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي مردود، فهل هنا هذا المصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعنى اسم المفعول؟

الجواب: يكون لهما جميعًا؛ فهو بمعنى اسم الفاعل أي: قارئ؛ لأنه جامع آياته وكلماته وما يحتاج الناس إليه، وبمعنى مفعول، أي: مقروء، وكلا الوصفين ثابت للقرآن الكريم.

وقوله تعالى:(﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ اللام هنا متعلقة بـ(أوحي) أي: أوحي إلي لأكون منذرًا، وهذا هو الحكم من الوحي، أن الله سبحانه وتعالى يوحي للرسول لينذر به، وإذا أورث الله تبارك وتعالى رجلًا هذا الوحي فإنما أورثه الله لينذر ويقول الحق كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (من) هذه اسم موصول معطوف على كاف ينذر، يعني وأُنذر من بلغ، والفاعل يعود على القرآن، والمعنى: ومن بلغه القرآن ـ بأي واسطة ـ فقد أُنذر.

ولكن من بلغه القرآن بغير اللغة العربية ولم يفهم منه شيء؛ فلا تقوم عليه الحجة، ومن بلغه باللغة العربية وهو لا يفهمها فإنه لا تقوم عليه الحجة، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣] جعلناه: يعني صيرناه باللغة العربية.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فمن بلغه هذا القرآن فكأنما خاطبه النبي ﷺ إلى يوم القيامة، لأنه قال: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، وهو استفهام داخل على جملة مؤكدة بـ (إن) و(اللام) فهي كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠] همزة داخلة على جملة مؤكدة بـ(إن) و(اللام)، قوله: ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ يؤكد أنهم شهدوا أن مع الله آلهة أخرى، وينكر عليهم هذه الشهادة؛ لأن هذه أكذب شهادة، ولقد قال هؤلاء: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿وَٱنطَلَقَ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (٢٥١٧١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

﴿ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ [ص:٦] أي الأشراف ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ دعوا هذه الدعوة لا تغرنكم ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦، ٧] وقوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ يعني فإن شهدتم فأنا بريء منكم، لا أشهد أن مع الله آلهة أخرى، ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كرر الأمر بالقول لأهمية الموضوع، فأمر أولًا: بنفي شهادتهم ثم أمر ثانيًا: بإثبات شهادته أن الله إله واحد.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، ﴿بَرِىٓءٌ﴾ البراءة بمعنى: الخلو، ومنه: أبرأ الرجل غريمه أي: أخلاه من الدين الذي عليه، فمعنى بريء مما تشركون أي: أني خليٌّ مما تشركون فأنبذه ولا أقر به، وقوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني: كل ما يشركون به.

فإن قال قائل: هل هو بريء من عيسى؟ الجواب: أن نقول: إن عيسى ـ عليه السلام ـ لا يتبرأ منه الرسول عليه الصلاة والسلام، وبناء على هذا فإما أن نجعل (ما) مصدرية ويكون المعنى بريئًا من شرككم، وإما أن نجعلها موصولة ويستثنى من ذلك من يعبد من دون الله وهو صالح، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠] لما نزلت هذه الآية احتج المشركون على النبي ﷺ وقالوا: إذن عيسى من أهل النار؛ لأنه يعبد من دون الله.

فأنزل الله ردًّا لهذه الشبهة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] فبيَّن أن عيسى عليه السلام مستثنى من [البراءة منه].

وهنا كذلك نقول: فصار المخرج أحد أمرين: إما أن نجعل (ما) مصدرية فيكون المعنى: بريء من شرككم أو نجعلها موصولة، ويستثنى من ذلك من جعل شريكًا مع الله وهو لا يرضى بذلك من الأنبياء والملائكة والصالحين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾:

١ - إثبات اسم القاهر لله عزَّ وجلَّ؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ وجاءت بصيغة أخرى (القهار) كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فيستفاد من إثبات الاسم إثبات الصفة، وهي القهر؛ لأن كل أسماء الله كلها دالة على معنى واحد أو أكثر؛ لأنها أسماء وأوصاف، فهي باعتبار تعيين الذات أسماء، وباعتبار دلالتها على المعنى أوصاف.

ولهذا نقول: أسماء الله عزَّ وجلَّ ليست كأسماء بني آدم مثلًا، فإن بني آدم قد يُسَمَّى الإنسان باسم وهو أبعد الناس عن وصفه، بخلاف أسماء الله.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات الفوقية لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وكما سبق أنها فوقية مكان وفوقية مكانة، أما فوقية المكانة فما أحد من المسلمين ينازع فيها، وهو الفوقية المعنوية، أما فوقية المكان: فقد تنازع المسلمون فيها على طرفين ووسط:

الطرف الأول: يقول: إن الله سبحانه وتعالى في كل مكان، في السماء، وفي الأرض، وفي الأسواق، وفي المساجد، وفي المدارس، وفي كل مكان، ولا يخفى ما يلزم على هذا القول الباطل من اللوازم الفاسدة ـ كمخالفة النصوص، ومخالفة الفِطَر، ومخالفة العقول ـ من وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله.

الطرف الآخر: على العكس من هذا قال: لا يجوز أبدًا أن نثبت أن الله بمكان؛ لا فوق ولا تحت، ولا في اليمين، ولا في الشمال، ومعلوم أن هذا القول يعني العدم، فإذا قلت: إن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل ولا منفصل، فهذا هو العدم تمامًا؛ ولهذا قال محمود بن سبكتكين رَحِمَهُ اللهُ وهو من أقوى الأمراء والسلاطين في المشرق ـ قال لمحمد بن فورك لما سأله عن الله وقال: إنه لا نقول فوق ولا تحت ... إلخ. قال: بيِّن لي الفرق بين إلهك والعدم[1]؟! أو كلمة نحوها، وصدق رحمه الله.

الوسط: الذي هدى الله إليه سلف الأمة، وأهل السنة ـ أن الله تعالى في مكان فوق كل شيء، لكن ليس معنى ذلك أنه في مكان يحيط به؛ كالمسجد مثلًا: يحيط بمن فيه، بل في مكان فوق فضاء؛ لأن ما فوق المخلوقات عدم، ما فوقها شيء حتى نقول إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته، فهو فضاء عدم، والله تعالى فوق كل شيء، وهذه الفوقية ـ فوقية المكان ـ دلَّ عليها الكتاب والسنة، من الكتاب قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [المُلك:١٦] وقوله سبحانه وتعالى في الآيات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ومن السنة: قوله ﷺ للجارية لما سألها أين الله فقالت: في السماء، فقال: «اعتقها فإنها مؤمنة»[2]، ومن السنة الفعلية عندما كان النبي ﷺ في حجة الوداع كان يقول: «اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ»[3] يرفع أصبعه إلى السماء ثم ينكتها إلى الناس، يردُّها إليهم.

كذلك أيضًا من أدلة علو الله الدليل العقلي: وهو أن العلو أفضل من السفل، وهو صفة كمال، والله تعالى موصوف بصفة الكمال، فلزم أن يكون عاليًا، ولأن ضد العلو السفل لأنهما متقابلان؛ فإذا انعدم علوه لزم ثبوت سفوله، وهذا مستحيل على الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٢١٠).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨)، وأحمد في مسنده (٢٣٨١٣) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٣)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

كما أن الإنسان كلما دعا يجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، ما قال: يا الله إلا يجد قلبه يرتفع إلى السماء وبدون أي دراسة، وبدون أي تعليم، فهو دليل فطري.

حتى قيل: إن البهائم تقر بذلك، وفي الحديث الضعيف: أن سليمان بن داود عليهما السلام خرج مرة يستسقي ـ أي يطلب نزول المطر ـ فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول: اللهم إنا خلق من خلقك فلا تمنع عنا رزقك، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

هذا الأثر ضعيف، لكن لا يُستبعد أن البهائم العجمى تعترف بعلو الله عزَّ وجلَّ، فتبين الآن أن دلالة الأدلة كلها؛ الكتاب والسنة والعقل والفطرة، وهناك إجماع على هذا ـ متفق على علو الله تبارك وتعالى علو مكانة، وليس فيه أي نقص.

وأما تدجيل المنكرين على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والصحابة والنبي والصحابة بأنه يلزم من ذلك أن يكون جسمًا.

فنقول: إذا لزم هذا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليكن، وما يضرنا إذا لزم، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى له ذات مخالفة لذوات المخلوقين من كل وجه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

حتى في الوجود والحدوث مخالفة، فإن الله لم يزل ولا يزال موجودًا، بخلاف غيره من المخلوقات، فهو حادث بعد أن لم يكن.

لكن إياك أن تتصور هذه الذات العلية؛ لأنك لا تستطيع أن تتصورها بصورة مطابقة إطلاقًا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات العبودية لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وهذه العبودية: العبودية الكونية، كل الخلق عباد الله عزَّ وجلَّ يفعل فيهم ما يشاء، ولا يصح لأي واحد ـ بر أو فاجر، مؤمن أو كافر ـ أن يستعصي على ربه عزَّ وجلَّ من هذه الناحية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات اسم الله، بل إثبات اسمي الله: (الحكيم)، و(الخبير)، وما تضمناه من صفات.

فالذي تضمنه الحكيم صفتان: الإحكام، والحُكم، وإن شئت فقل: الحكمة والحكم.

وقد سبق في التفسير أن الحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، قال بعضهم: (إن الشرع ما أمر بأمر فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينهَ عنه)؛ لأن أوامر الشرع ونواهيه مطابقة تمامًا للحكمة.

كذلك الأمور الكونية كلها مطابقة للحكمة كما سبق في التفسير.

وبالنسبة للحكم أيضًا حكم الله نوعان: شرعي وقدري، أو إن شئت قل كوني، وهي أيضًا

موافقة للحكمة، وذكرنا أن الحكمة في التفسير نوعان: حكمة غاية وحكمة صورة، الغاية أن كل ما قضاه الله كونًا أو شرعًا فإنه على وفق الحكمة، والغاية منه حكمة أيضًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات وصف الخبرة لله عزَّ وجلَّ وهي: العلم ببواطن الأمور، ويترتب على إيماننا بهذا : أولًا: أن نستسلم لحكم الله الشرعي كما أننا مستسلمون بحكمه القدري، وألا نكلف أنفسنا بالاطلاع على الحكمة فيما لا تدركه العقول، بل نؤمن ونسلم، وكذلك يقال في الأحكام القدرية: نؤمن بالله ونسلم لقضائه؛ إذن يستلزم من جهة المنهج والمسلك أن الإنسان يرضي بحكم الشرع، لا يقول: ليته لم يحرم أو ليته لم يوجد، وكذلك القدر يستسلم له.

٦ - وكذلك من الفوائد المسلكية أو المنهجية: أنك تستلزم أو تلتزم بأحكام الله الشرعية؛ لأن الحكم له والحكمة فيما شرع، فلا مناص لك عن أحكام الله الشرعية، وهل هذا يمنع من أن نسأل عن الحكمة؟ الجواب: لا يمنع، لكن بشرط أن نستسلم تمامًا قبل معرفة الحكمة، أما ألا نستسلم إلا إذا عرفنا الحكمة فهذا غلط عظيم.

وبالنسبة للخبير، متى علمت أن الله سبحانه وتعالى خبير بكل شيء يقع منك فإنك سوف تخاف من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، وسوف ترغب للقيام بأمر الله؛ لأنك تعلم أنك لم تعمل عملًا إلا علم الله بك، وهذه نتيجة مهمة جدًّا. فمن يترك الزنا مثلًا في مكان لا يطلع عليه إلا الله، وبدون معارضة من المرأة، والنفس تدعو لذلك، ومن يترك هذا في مثل هذه الحال إلا مؤمن يعلم أن الله يراقبه! وتأمل في قصة يوسف عليه السلام؛ دعته سيدته إلى نفسها في مكان خالٍ ولا يمكن الوصول إليه؛ لأنها غلقت الأبواب وهي امرأة العزيز، ستكون على جانب كبير من الجمال أو التجمل، ولما همت به وهم بها رأى برهان الله عزَّ وجلَّ، أي: ما في قلبه من الإيمان فانصرف عنها وتركها خوفًا من الله تبارك وتعالى، وقال الله في ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] أي: كان الأمر كذلك.

وتأمل قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: منهم: «رَجُلٌ دَعَتْهُ[1] امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ[2]»[3] فالمهم أنك متى آمنت بعلم الله عزَّ وجلَّ بجميع

(١) أي دعته إلى الزنا بها، هذا هو الصواب في معناه. وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا، والثاني: أنه يحتمل أنها دعته لنكاحها فخاف العجز عن القيام بحقها أو أن الخوف من الله تعالى شغله عن لذات الدنيا وشهواتها.

(٢) وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال لاسيما وهي داعية إلى نفسها، طالبة لذلك قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى - وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال - من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله، وذات المنصب، هي: ذات الحسب والنسب الشريف.

(٣) رواه البخاري (٦٦٠، ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحوالك وبما في قلبك فإنك لن تخالفه فتعصيه، كيف تخالف الله عزَّ وجلَّ وتعصيه وهو يعلم؟ هذا لا يقع إلا ممن أزاغ الله قلبه - نسأل الله العافية.

الفوائد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إطلاق اسم الشيء على الله لقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾؛ لأن اسم الاستفهام إذا أضيف إلى كلمة صارت هذه الكلمة صادقة على جواب الاستفهام، وهنا جواب الاستفهام لفظ الجلالة (الله)، فيكون الله تعالى (شيء) يعني: يصدق أن نسميه شيئًا، وقد قال البخاري رحمه الله: وقد سمى الله نفسه شيئًا، ولكن يجب أن نعلم أنه يخبر بكلمة شيء عن الله، ولكن لا يسمى به، دليل هذا أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وكلمة شيء لا تدل على هذا المعنى، فيخبر بها عنه ولكنه لا يسمى بها؛ إذن يخبر عن الله بأنه شيء ولكن لا يسمى به.

مسألة: وهل يطلق على القرآن بأنه شيء؟

الجواب: نعم، هو شيء لا شك، قالت الجهمية: إذا أطلقتم على القرآن بأنه شيء فقد أقررتم بأنه مخلوق؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] والجواب على هذا أن نقول: القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ وكلام الله وصفه، ووصف الخالق غير مخلوق؛ لأن الوصف تابع للذات، فكما أن الذات غير مخلوقة فكذلك الوصف، ثم لا يمنع أن يكون المراد ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] أن يكون المراد بهذا العموم المخصوص أي: خالق كل شيء من المخلوقات، والعموم قد يراد به الخصوص كما في قول الله تعالى عن ريح عاد ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥] ومعلوم أنها لم تدمر السماء ولا الأرض، بل ولا المساكن كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن شهادة الله أكبر شهادة، لأنها مبنية على علم ويقين، وعدل، والخلل في الشهادة أن تكون مبنية على ظن أو على جهل، أو على جور؛ لأن الشاهد إما أن يبني على أشياء ظنية أو يشهد عن جهل تام، أو يشهد عن جور، فكل هذا يخل بالشهادة.

وشهادة الله عزَّ وجلَّ منزهة عن هذا فهي صادرة عن علم يقيني، وعن عدل، لا يمكن أن يجير في الشهادة جل وعلا، ولا يمكن أن يشهد إلا عن علم؛ إذن هو أكبر شهادة، يدل لذلك القرآن قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦] يكفي لشهادة الله، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤] ﴿بَعْضَ﴾ هذه مضافة للأقاويل، يعني: قولًا من أقاويل كثيرة، يعني مثلًا: أوحينا إليه ألف قول فتقوّل واحدًا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] كلام الله عزَّ وجلَّ، فهل قطع من الرسول ﷺ الوتين؟ الجواب: لا بل بقي حيًّا إلى الأجل المحتوم له، ونصره الله، فدل هذا على أنه حق ﷺ، وشهادة الله التي ذكرنا في التفسير أنها نوعان: قولية وفعلية، فالقولية: كما سبق ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٦] والفعلية: نصره إياه وتمكينه إياه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تبارك وتعالى حاكم بين النبي ﷺ وخصومه لقوله ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: وهل يُطلَق الشاهد على الحاكم؟

فالجواب: نعم، اقرأ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٢٧] (شهد شاهد) يعني: حكم حاكم، يعني: ما شهد، إذ إنه يقول إن كان وإن كان لكنه حاكم هنا.

نقول: الحاكم في الواقع شاهد من وجوه ثلاث: الوجه الأول: أنه يشهد بأن الحكم كذا وكذا، الوجه الثاني: أنه يشهد على المحكوم عليه بأن الحق عليه، الوجه الثالث: أنه يشهد للمحكوم له بأن الحق له فالحكم متضمن للشهادة بلا شك، فيصح أن يطلق على الحاكم أنه شاهد.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هذا القرآن موحًى إلى الرسول ﷺ كله، ما فيه ولا كلمة ولا حرف غير موحى إليه، وأبهم الفاعل فمن قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾؛ لأنه معلوم؛ لأن الرسول ﷺ أُمر أن يقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ:٥٠].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عظمة هذا القرآن حيث أوحي من الله إلى رسوله ﷺ ولا شك في هذا.

وآثار تعظيمه وعظمته كثيرة، منها: أنه لا يقرؤه جنب حتى يغتسل، ومنها: لا يمسه المحدث حتى يتوضأ، ومنها: أنه لا يجوز أن تدخل به في الأماكن القذرة، ومنها: أنه لا تجوز إهانته، بأن يوضع بين القدمين مثلًا، ومنها: أنه لا يسافر به إلى العدو إذا كان يخشى عليه من الإهانة، ومنها: أنه لا يجوز بيع المصحف، نعم، بعض العلماء يقول: لا يجوز بيعه، وعللوا ذلك بأن ذلك ابتذال له حتى قال ابن عمر رضي الله عنهما: (وددت أن الأيدي تُقطع في بيعه) (١)؛ لأنه واجب على من يستغني عنه أن يهديه إلى غيره.

فالمهم: أن تعظيم القرآن واجب، وله صور، ذكرنا منها ما شاء الله .

(١) ضعيف: انظر إرواء الغليل (١٢٩٩).

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القرآن الكريم كافٍ في الإنذار، لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فمن لم يتعظ بالقرآن فلا وعظه الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ ولكن هل من بلغه القرآن وهو لا يعرف اللغة العربية هل يقال إنه قامت عليه الحجة؟ الجواب: لا، والدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

٨ - **ومنها**: أنه يجب على علماء المسلمين أن يبلغوا القرآن كل أحد؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولكن من لم يكن لسانه عربيًّا فإنه يبلغ معنى القرآن بلسانه ثم يعطي القرآن فيقرأه باللفظ العربي، ولهذا نرى بعض الذين لا ينطقون العربية يقرءون القرآن بالعربية وهم لا يعرفون معناها، وهذه من آيات الله أن الله تعالى يسَّر القرآن لهم حتى كانوا ينطقون به بالعربي، مع أنك لو أعطيتهم قطعة من سطرين فقط لا يستطيعون قراءتها، لكن هذا من آيات الله، وربما نقول أنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧].

هناك أيضًا مسألة أخرى:

إذا بلغ القرآن قومًا يعرفون اللغة العربية كأن عاشوا في أحضان أئمة الضلال ولا يدرون عنه شيئًا؛ إذ أن أئمة الضلال عندهم هم المبلغون عن الله ورسوله فهل هؤلاء معذورون أو غير معذورين؟

الذي أرى أنهم معذورون، لكن إذا نُبهوا للحق فلا بد أن يبحثوا عنه، فإن أصروا مع التنبيه، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، فهم كفار، وهذا هو الذي تجتمع به الأدلة عندي، أنه إن بقوا على جهلهم ولم ينبهوا للحق فهم معذورون، وإلا فهم غير معذورين وهذا فيمن يدين بدين الإسلام، وأما من عرف أنه على غير الإسلام يتبع أئمته أئمة الضلال وهو يعرف أنه غير مسلم كالنصارى مثلًا واليهود فهؤلاء كفرهم ظاهر حتى هم أنفسهم يعرفون أنهم من أمة الكفر ولا ينتسبون للإسلام.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإنكار على من يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، الإنكار الشديد لقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ وتأمل كيف أتت الجملة مؤكدة حتى لا يستطيعوا أن ينكروا ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ يعني: أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، وأنا أنكر عليكم، قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، والجملة التي دخل عليها الاستفهام مؤكدة بإن واللام حتى لا ينكروا، يعني: أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى وأنكر عليكم.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: سفه أولئك المشركين الذين يشهدون أن مع الله آلهة

أخرى ولو سُئِلُوا عنها: أتخلقُ شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا من سفههم أن يعبدوا من لا يخلق.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب التبرؤ من أهل الباطل وما هم عليه، لقوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ يعني: أؤكد أنكم تشهدون ولكن أنا لا أشهد، وهذا واجب أن يتبرأ الإنسان من كل ما يُعْبَد من دون الله، فإن لم يشهد ببطلان وآلهة سوى الله فإنه لم يخلص ولم يوحد إذ أن التوحيد مبني على النفي والإثبات.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب البراءة مما عليه المشركون لقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، يجب أن يتبرأ الإنسان مما يشرك به هؤلاء من المعبودات أو من عملهم الشركي، ولا تجوز المداهنة في هذا، ولا تجوز الموافقة، بل تجب البراءة.

والعجب أن بعض الناس يداهن هؤلاء الكفار ويقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] يعني: فنحن مؤمنون بعيسى نقوله أمام النصارى، وأمام اليهود نحن مؤمنون بموسى، المسألة ما هي الإيمان بموسى وعيسى، ونحن نؤمن بهذا، المسألة الكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، هؤلاء الكافرون بمحمد فهم غير مؤمنين لا بموسى ولا بعيسى، وقد سبق لنا أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل، واستدللنا لذلك بقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، الذين: مبتدأ، ويعرفونه: خبر الجملة، والمقصود بهم: اليهود والنصارى؛ لأنهم آخر أمة كان عندها أصل كتابها فهم الذين أوتوا الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: يعرفون هذا الكتاب، ويحتمل أن يكون المراد: النبي ﷺ، والثاني أقرب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فإن الأبناء بشر،

والنبي ﷺ بشر يعني أن الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى يعرفون النبي ﷺ كما يعرف الرجل ابنه، وخص الأبناء؛ لأن تعلق الرجل بالأبناء أكثر من تعلقه بالبنات، فتكون معرفته للأبناء أكثر من معرفته بالبنات، هذا وجه، وجه آخر: أن النبي ﷺ ذكر فهو من الأبناء يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين خسروا أنفسهم، ويحتمل أن تكون (الذين) مبتدأ وخبره جملة. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء دخلت على الخبر لمشابهة المبتدأ الشرط في العموم؛ لأن الاسم الموصول يشبه الشرط في العموم ويكون تقدير الكلام بدون الفاء: الذين خسروا أنفسهم هم لا يؤمنون ومدى الاحتمالين واحد والمعنى: أن الذين خسروا أنفسهم هم الذين لا يؤمنون أي: الذين اختاروا الخسارة هم الذين لا يؤمنون ومنهم الذين آتاهم الله الكتاب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحجة قائمة على اليهود والنصارى في صحة بعثة النبي ﷺ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] فإن قال قائل: هذا كلام الله عزَّ وجلَّ فهل له من دليل؟ قلنا: سبحان الله أن يطلب الدليل على صدق خبر الله، خبر الله تعالى هو الدليل ومدلوله هو المدلول ولا حاجة أن نقول: هل هناك شاهد يدل على أن الذين أوتوا الكتاب يعرفون محمدًا كما يعرفون أبناءهم؟ لأن كلام الله أقوى شاهد ولكن مع ذلك لا مانع أن نقيم الحجة عليهم من كتبهم، فقد قال الله تعالى في سورة الأعراف عن النبي ﷺ إنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ومكتوبًا وصفه عليه الصلاة والسلام يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم يعرفون هذا تمامًا، وقد نقل الشيخ السيد محمد رشيد رضا في تفسيره: النصوص من الإنجيل على هذا القول، بل على إقامة الحُجة عليهم وأن هذا مكتوب عندهم في كتبهم.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي أن يُضرب المثل بأقرب شيء مطابق للمثل لقوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لأن هذا أقرب إلى التصوّر وإلى الصدق.

٣ - **ومنها:** المنة والتوبيخ على اليهود والنصارى، كيف هذا؟ المنة: أن الله آتاهم الكتاب وبيَّن لهم وصف النبي ﷺ الذي سيرسل للناس كافة، وهذه نعمة أن يُبيِّن الله للعبد طريق الهُدى.

والتوبيخ: أنهم كانوا كافرين به مع نُصوعِ الدليل، فتكون الآية جامعة بين بيان المنة عليهم من الله وتوبيخهم على الكفر بمحمد ﷺ.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من لم يؤمن فقد خسر نفسه لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهل خسر أهله؟ نعم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ

ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥] خسروا أيضًا (عمرهم) أعمارهم خسروها، مضت في غير فائدة؛ لأن شخصًا مآله نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ بعد أن عُمِّر في الدنيا ما عُمِّر قد خسر وقته وزمنه، كما قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١]

❁ التفسير ❁

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

(من): اسم استفهام، والمراد به النفي أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وإذا جاء بصيغة الاستفهام صار أبلغ، لماذا؟ لأنه يكون مشربًا معنى التحدي، كأن المتكلم يقول: بيِّن لي إن كنت صادقًا أنَّ أحدًا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، فيكون مجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ في النفي، والظلم في الأصل النقص، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص، لكنه تعدى إلى نقص الإنسان فيما يجب عليه من فعل الأوامر وترك النواهي، فإنه نقص حق نفسه بذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، افترى: بمعنى اختلق على الله الكذب؛ لأن الكذب على الله عزَّ وجلَّ أعظم الكذب، ويليه الكذب على الرسول ﷺ كما قال ﷺ: «إنَّ كَذِبًا عليَّ ليس كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدِكُم[1]»[2] بل هو أعظم، يلي ذلك الكذب على علماء الشريعة، إذا كذب عليهم بأنهم أُفتوا بكذا فهذا كذب؛ لأنه كذب على الشرع، إذ إن علماء الشريعة هم الذين يبلِّغون الشريعة، فإذا كذب عليهم فقد كذب على الشرع.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أو هنا للتنويع يعني: افترى أو كذب، وإن جمع بين الأمرين صار أشد، إذا طبقنا هذه الآية على واقع المشركين من قريش نجد أنها منطبقة عليهم تمامًا، فقد افتروا على الله الكذب بأن أشركوا معه ما لم ينزِّل به سلطانًا افتروا على الله الكذب فقالوا: هذا حلال وهذا حرام، قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ

---

(١) فهو كذب في التشريع وأثره عام على الأمة فإثمه أكبر وعقابه أشد.

(٢) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام:١٣٩] هم أيضًا كذَّبوا بآيات الله كذبوا بالآيات الشرعيَّة التي جاءت على لسان محمد ﷺ، أما الآيات الكونية فهم لا يكذبون بها.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢]، أليس انتفاء الإيمان قبل الخسران؟ كيف قدم الخسران على ترتب الحكم؟ نتيجة عليه يعني: الذين قضى الله أنهم خاسرون فلن يؤمنوا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته فهذان صنفان: الأول: كذب على الله، والثاني: كذَّب آيات الله، لا أحد أظلم منهم، ومن جمع بينهما فهو أشد.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال: إن لله ولدًا، هذا افترى على الله كذبًا، أو قال: إن لله شريكًا، هذا افترى على الله كذبًا، أو قال: هذا الكون لم يخلقه الله، افترى على الله كذبًا، إذ قال خلقته الطبيعة أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: كَذَّب بالآيات الدالة على أن الله حق - الكونية والشرعية كليهما - التكذيب بالآيات الكونية أن ينفي كون الله عزَّ وجلَّ خلقه أو ينفي أن الله تعالى انفرد بخلقها.

والشرعيَّة: أن ينفي إرسال الرسل بما جاءت به من الوحي.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٥]؛ لأنَّ هذا الحكم على من افترى على الله كذبًا، أو كذب بآياته، ولكن لم (يقل): إنهم بل أظهر في موضع الإضمار للعموم ليعمهم وغيرهم، والفلاح هو: النجاح وحصول المطلوب، فالظالم لن ينجح ولن يفلح.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظلم يختلف، بعضه أشد من بعض، وذلك لأن المعاصي تختلف، بعضها أعظم من بعض، هناك كبائر وهناك صغائر، والكبائر نفسها تختلف، ففيها أكبر الكبائر، وما دونها، والصغائر كذلك تختلف، فمن أين نعرف أن الذنوب أو الأعمال المحرمة تختلف لاختلاف الظلم؛ لأن كل فعل محرم أو ترك واجب ظلم، وإذا كان يتفاوت لزم من ذلك تفاوت الأعمال.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من أن يفتري الإنسان على الله كذبًا؛ لأنه بيَّن أنه في المرتبة العليا من الظلم ومن ذلك أي: الافتراء على الله كذبًا: أن يكذب الإنسان على ربه عزَّ وجلَّ في مدلول آياته فيقول: أراد الله بكذا كذا وكذا، هذا كذب على الله.

ومن ذلك أن يفتري على الله كذبًا في أحكامه، فيقول: هذا حلال وهذا حرام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦] وعلى هذا فمن قال المراد بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] استولى على

العرش، يدخل في الآية؛ لأنه افترى على الله كذبًا، ومن قال هذا الشيء حرام وهو حلال، فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: هذا حلال وهو حرام فقد افترى على الله كذبًا، فالقاعدة إذنْ في الافتراء على الله كذبًا: أن يحرف آياته إلى معانٍ لا يريدها الله عزَّ وجلَّ، أو يقول بأحكام لم يحكم الله بها.

ومن ذلك: التكفير، إذا قال هذا كفر وليس بكفر فقد افترى على الله كذبًا؛ لأن التكفير حكم شرعي، يستدل عليه بالكتاب والسنة، ليس التكفير إلى الناس، من شاء كفر ومن شاء لم يكفر، بل التكفير إلى الله ورسوله فمن كفره الله ورسوله وجب علينا أن نكفره ومن نفى الله ورسوله الكفر عنه وجب علينا أن ننفي عنه الكفر، فإن قال قائل: هناك إطلاقات في بعض الأحكام بالكفر يعني: يطلق عليها الكفر، فكيف نعرف أنه كفر أكبر أو أصغر؟ نعرف ذلك بقواعد الشريعة العامة، وينزل الحكم بالكفر على هذه القواعد، وبذلك يتبين أنه أكبر أو أصغر، ولما كان تكفير ولاة الأمور من أشد الأشياء خطرًا منع النبي ﷺ من الخروج عليهم إلا أن نرى كفرًا بواحًا ظاهرًا بيِّنًا عندنا فيه من الله برهان [(٢)].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عظم ظلم من كذب بآيات الله؛ لأنه دخل في الطبقة العليا من الظلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

٤ - **ومنها:** أنه لا يحكم بظلمه أو بكونه في المرتبة العليا إلا إذا تبينت له الآيات، ثم كذب بآيات الله، قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥] فإذا بيَّن لهم ما يتقون، حكم بضلالهم سبحانه وتعالى، وإلا فهم في عذر.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب التصديق بكل آيات الله الكونيّة والشرعيّة، وجه ذلك أن (آيات) مضافة، والجمع إذا أضيف يفيد العموم، ويتفرع على هذه الفائدة: أن من آمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بالجميع، فلا يعد مؤمنًا؛ لأنه يوجد بعض الناس يؤمن ويصدق بما يرى عقله أنه حق ويكذب بما يرى أنه ليس بحق أو يؤمن بما يرى أنه مناسب ويكفر بضد ذلك، وهؤلاء بيَّن الله حكمهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١] وقال تعالى منكرًا على بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥] وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أن من كفر برسول واحد فهو كافر بالجميع، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] مع أن قوم نوح هم أول من أرسلت إليهم الرسل، لا يمكن لإنسان أن يجزِّئ الشريعة، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض؛ لأننا نعلم أن مثل هذا متبع لهواه فقط.

---

(١) نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل.

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: نفي الفلاح عن الظالم أي: لا يمكن أن يحصل له مقصوده بل بالعكس، فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية الكريمة وبين نصوص أخرى تدل على أن هذا الفعل أظلم شيء مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤] وهنا يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي(١)»(٢) في المصورين، فكيف نجمع بين هذه النصوص؟

الجواب: من أحد وجهين: إما أن نقول: اشتركت هذه الأشياء في المرتبة العليا من الظلم، فكلها في مقام الأظلمية، وإما أن يقال: إن الأظلمية أظلمية نسبية، فمثلًا هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ من الذين يفترون على غيرهم كذبًا، الوجه الأخير: أن نقول إن هذه أظلمية نسبية، المعنى: أن الذين يفترون على غيرهم الكذب أقل ظلمًا ممن افترى على الله الكذب، ولذلك جاء الاستفهام من أظلم ممن افترى على الله؟ لا أحد، يعني: افترى مثلًا زيد على فلان، هذا حرام ولا شك، لكن أظلم شيء أن يفتري على الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤] هذه أظلمية نسبية، يعني: أي إنسان يمنع الناس من حق لهم، فمن أظلم ممن منع حقهم في المساجد، يعني: مثلًا قد تمنع هذا الرجل أن يدخل المدرسة، لكن هل هذا أشد أو منعه من دخول المسجد؟ الثاني.

قد تمنعه من دخول السوق، هذا ظلم، لكن أيهما أظلم، هذا أو من منع مساجد الله؟ الثاني، في مسألة التصوير: «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي» أي: الذين يُقَلِّدون غيرهم في التصوير إذا كان على وجه الظلم، فمن أظلم ممن ذهب يخلق كخلق الله؟ لا أحد، هذا وجه،

الوجه الأول: أن كلها اشتركت في الأظلمية، أي: في المرتبة العُلْيا من الظلم، أيضًا إشكال آخر إنه لا يفلح الظالمون، ذكرنا أن الظالم لن يفلح، وهذه الفائدة تتضمن بشرى للمظلومين أن الظالم لن يفلح، فيبشر المظلومون بالنصر، ويبشر من ظلم بأخذ ماله أو جحد ماله بأن هذا الظالم لن يفلح، لكن لو قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية والواقع؟ لأننا نرى أن الظالم قد يفلح؟ الجمع بينها وبين الواقع أن يُقال: الفلاح نوعان: فلاح مطلق هذا لا يمكن للظالم أبدًا، ودليل هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي(٣) لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ(٤)»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ(٥) أَخْذُ

---

(١) يصنع ويقدر كخلقي في الصورة.

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ليمهل.

(٤) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.

(٥) أي كما ذكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب.

رَبِّكَ[1] إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ[2] وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3] [هود:١٠٢] فلا بد أن يخسر الظالم طالت الدنيا أم قصرت، هذا الفلاح المطلق لا يمكن، مطلق الفلاح بمعنى: أن يفلح في زمن معين أو مكان معين أو قضية معينة فهذا يمكن أن يقع ولا يخالف الآية؛ لأن الله تعالى قد يعطي الظالم فلاحًا حتى يغتر بهذا الفلاح فيتمادى في طغيانه ثم يقصم الله ظهره، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في سورة آل عمران: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] يمحصهم بكفارات الذنوب، على ما حصل من هزيمة، ويمحصهم ألا يعودوا للمعصية مرة ثانية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كيف يمحق الكافرين وهم منتصرون؟ لأن الكافر إذا انتصر تجرَّأ وافتخر واعتز، فالظالم قد يفلح لكن فلاحًا مقيدًا لحكم أو لحكمة لا نعلمها نحن ولكن يعلمها الله عزَّ وجلَّ، وما موقفنا إذا سلَّط الظالم علينا؟ موقفنا أن نصبر وألا نيأس، وأن ننتظر الفرج من فاطر السموات، فإن الصبر مفتاح الفرج كما قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»[4].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الظلم وأن عاقبته الخسارة والدمار لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أعاذنا الله وإيَّاكم من الظلم وجعلنا من المفلحين المتقين المحسنين.

سؤال: أحيانًا يقع من بعض الناس خاصة طلبة العلم ممن هم ملتزمون ويريدون إظهار غَيْرَتِهِم على الإسلام كيف يتكلمون عن ولاة الأمور ويظهرون أنهم على خلل، وأنهم يتمنون زوالهم، وما أشبه ذلك من هذه الأمور التي مما درسنا تخالف الأدلة وتخالف أيضًا مقتضى العقل، فما هو الموقف السليم لطلبة العلم؟ لأنهم أيضًا يتكلمون عن طلبة العلم وبعضهم يقرهم، بل قد يشجعهم، ما هو الواجب على طالب العلم في هذا الموقف؟

الواجب على طالب العلم أن يُبيِّن ما يقتضيه الدليل من السمع والطاعة لولاة الأمور إلا إذا أمر بمعصية، وما تقتضيه الأدلة عن وجوب الكف عن مساوئهم، ومن أراد النصيحة فطريقها مفتوح.

مسألة: هل يجوز أن نخبر بمعنى الآية؟

الجواب: لا يجوز خاصة القرآن، القرآن أنت إذا أخبرت بمعنى آية فقد شهدت على الله أنه أراد هذا، هذه صعبة.

سبحانه وتعالى: ما يطابق المناصرة، مناصرة الكفار حتى تكون ناقدة لما هم بصدده؟

---

(١) إهلاكه وعذابه.

(٢) أخذ أهلها.

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٤) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٣٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) من حديث ابن عباس ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).

المناصرة: أن يناصرهم على الكفر هذه مناصرة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢]

❁ التفسير ❁

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم: ظرف، والمعروف أن الظرف والجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، كما قال ناظم القواعد[1]:

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

وَاسْتَثْنِ كُلَّ زَائِدٍ لَهُ عَمَلْ كَالْبَا وَمِنْ وَالْكَافِ أَيْضًا وَلَعَل

إذنْ أين متعلق (يوم) : محذوف، والتقدير: اذكر يوم نحشرهم اذكر لهم، ويجوز أن نقول: اذكر في نفسك حتى تتسلَّ بهذه الذكرى ويهون عليك أمرهم.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم ﴿جَمِيعًا﴾: لا يفلت منهم أحد ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ نقول للذين أشركوا أي: بالله عزَّ وجلَّ في الدنيا ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والتبكيت وإلا فمن المعلوم أنهم لم يأتوا، لكن توبيخًا لهم وتبكيتًا لهم، وتنديمًا لهم أنهم لن ينتفعوا بهم شركائكم أي: ما أشركتم بهم في الله عزَّ وجلَّ، ونعلم أن المشركين كانوا أنواعًا، وأصنافًا، منهم من يشرك مع الله حجرًا أو شجرًا، أو قمرًا أو نجمًا، المهم أنهم مختلفون فيقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهة، والإله ينفع من تألهه فأين هو؟

الجواب: بينَّه الله عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد هذا السؤال ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الفتنة هنا بمعنى الحجة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أقسموا بالله أنهم لم يكونوا مشركين، وهل هم صادقون في هذا القسم؟! لا، ولهذا قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ انظر أيها المخاطب كيف كذبوا على أنفسهم، وهنا إشكال: كيف كذبوا على أنفسهم وأمرنا أن ننظر والنظر هنا نظر اعتبار لكن كيف يقول كذبوا على أنفسهم والأمر لم يأتِ بعد؛ لأن

(١) هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري، في «ملحة الإعراب»، ت: ٥١٦ هـ.

هذا يكون يوم القيامة؟

والجواب: أن هذا على حكاية الحال، والله عزَّ وجلَّ دائمًا يجري الأشياء المستقبلة حتى يتصورها الإنسان وكأنها واقعة، وإنما يكون ذلك؛ لأن الشيء المستقبل المحقق يكون كالواقع تمامًا، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، مع أنه ما أتى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ فيكون التعبير بالماضي على حكاية الحال، حتى يتصور الإنسان وكأن الشيء بين يديه.

كذبوا على أنفسهم بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ثم قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ (ضلَّ) بمعنى ضاع كالرجل الذي ضاع عنه المال فلم يجده هؤلاء، ضاعت عنهم الآلهة فلم يجدوها وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يفترونه من دعواهم أن هذه آلهة مع الله، فإن هذا من أعظم الافتراء كما سبق فيما قبل آيتين، نعود إلى القراءات في هذه الآية ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ القراءات: (ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا) والقراءة التي في المصحف ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ الخلاف في الفعل وفي اسم كان وفي خبر كان، الفعل: بدل (تكن) (يكن)، لماذا؟ لأن اسم كان على هذه القراءة مذكر وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ لأن المعنى: لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا. الثاني: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ يعني: والله يا رب ما كنا مشركين، هذا الاختلاف في القراءات لا يضر؛ لأنه فيما سبق في العهد الأول كانوا لا يحركون الكلمات ولا الحروف ولا يعجمونها يعني: لا يجعلون نقطة ولا نقطتين لا فوق ولا تحت، فتكون القراءتان في الرسم واحدة، إنما تختلف في النطق وفي الإعجام والإعراب بعد أن أُعجم القرآن وأُعرب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي ﷺ حيث ذكر له قول المكذبين له.

٢ - **ومن فوائدها:** التحذير من الشرك؛ لأن المشرك سوف يوبَّخ في يومٍ لا يستطيع الخلاص فيه.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة يوم الحشر.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الحشر عام شامل لا يخرج عنه أحد لا مؤمن ولا كافر ولا بر ولا فاجر، حيث أكَّده الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿جميعًا﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ قد ينازع منازع ويقول: إن القائل هم الملائكة وأضاف الله قولهم إلى نفسه لأنهم رسله القائمون بأمره فهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨] مع أن القارئ جبريل، نقول: هذا وارد بلا شك، أنه يحتمل أن يكون الذي يقول لهؤلاء المشركين ملائكة، وأضاف الله ذلك إليه؛ لأنهم يقومون بأمره، ولكن ما هو ظاهر القرآن؟ أن القائل هو الله عزَّ وجلَّ، وإذا كان هذا ظاهر القرآن فليس لنا مندوحة عنه؛ لأن الله سوف يحاسبنا يوم القيامة فيقول الكلام ثم نقول:

فكيف يصرف بأن المراد الملائكة، ولا يصرف الملائكة إلا بدليل؟! فالواجب الأخذ بظاهر القرآن ما لم يوجد دليل، فإذا وجد دليل ينقل الكلام عن ظاهره فعلى العين والرأس، المهم في ذلك إثبات أن الله يقول.

فإن قال قائل: أيقول بالحروف المسموعة المعقولة أو بحروف أخرى؟

الجواب: الأول بلا شك، فإن قال قائل: وهل يشبه صوته صوت المخلوقين؟ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولأن الله عزَّ وجلَّ إذا تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة وصعق الملائكة، ومثل هذا لا يقع في كلام الآدميين أبدًا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: توبيخ أولئك المشركين حيث يقال لهم في هذا المجمع العظيم: أين شركاؤكم؟

٧ - **ومن فوائدها**: أن هذه الآية تدل على أن الأصنام لا تنفع عابديها؛ لأنها لا تنصرهم في هذا الموقف، بل قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] تحصبون بها في وسطها، ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٩] هذه الآية فرح بها المشركون وانتهزوا الفرصة وقالوا: هذا محمد يقول إن المعبودات في النار، وعيسى معبود، فيقتضي أن يكون عيسى في النار، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أولئك العابدين لهذه الأصنام ليس عندهم حجة ولا برهان، وإنما هي مجرد دعوى، تؤخذ من قوله: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ والزعم في الغالب يكون في قوله لا دليل له.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

❁ التفسير ❁(١)

الفوائد:

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أولئك القوم فتنوا بهذا الجواب واستحسنوه وظنوه

---

(١) تفسير هاتين الآيتين غير واضح سماعًا في المادة العلمية التي بين أيدينا.

مفيدًا وهو ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة: أن الإنسان قد يفتن بالشيء فيرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، فاسلم من هذه الفتنة وحاسب نفسك عليها واستعذ بالله أن تكون من أهلها.

٢ - **ومن فوائدها:** إقرار هؤلاء المشركين بألوهية الله وربوبيته، بألوهيته في قوله: ﴿وَٱللَّهِ﴾ وربوبيته في قولهم: ﴿رَبِّنَا﴾ لكن هل ينفع هذا في ذلك الوقت؟ ما ينفع، بل لا ينفعهم لو أنهم وحدوا الله حين نزل بهم الموت، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما افتروه من الشريك لله عزَّ وجلَّ سوف يضل عنهم مع شدة طلبهم له، كما تضل الضالة عن صاحبها، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة وهم يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] صرَّح الله في هذه الآية أنهم لا يكتمون حديثًا، وهنا كتموا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ؟

فالجواب: أولًا: يجب أن نعلم ونؤمن ونتيقن أنه لا تناقض في القرآن أبدًا، التناقض في فهم الإنسان لقصوره، أما القرآن فلا تناقض فيه ولا يمكن أن يتناقض وقد ألف العلماء ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة العظيمة مؤلفات، ومنها: تأليف الشيخ محمد الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المفسر والأصولي المشهور: (دفع إيهام الاضطراب في آي الكتاب) لا يمكن أبدًا التناقض، فإن رأيت تناقضًا فالخلل من عندك، إما لقصور في الفهم أو تقصير في الطلب، أو سوء نية، تريد أن تبحث عن الأشياء التي ظاهرها التعارض لتطعن في القرآن أو قصور في العلم وإلا فلا تناقض هنا نقول: يوم القيامة خمسون ألف سنة وللناس فيه أحوال، ففي حال ينكرون أنهم مشركون وفي حال يقرون إذا رأوا أن أهل التوحيد نجوا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإذا خُتِم على أفواههم وشهدت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون حينئذ أقروا؛ لأنه لا يمكن أن ينكروا مع وجود الشهود من أنفسهم.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام:٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ﴿مَّن﴾ هذه تبعيضية، وعلامتها أن يحل محلها بعض، أي: بعضهم الذي يستمع إليك، ويستمع هنا: جاءت بصيغة الإفراد مراعاة للفظ (من)؛ لأن (من) الموصولة يجوز أن يُراعى معناها وأن يراعى لفظها، فإذا روعي معناها جعل العائد عليها حسب ما يراد به المعنى، وإذا روعي اللفظ صار مفردًا.

وقوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من يحضر ويستمع لقراءتك ولكن لا ينتفعون، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ جعلنا أي: صيَّرنا على قلوبهم أكنة، والأكنة جمع كنان، كزمام وأزمة، وهو ما يغطي الشيء ويستره، وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: إرادة أن يفقهوه، فهو على تقدير مضاف أي: إرادة أن يفقهوه يعني: لا نريد أن يفقهوه وإن شئت فقل: كراهة أن يفقهوه، وبعضهم قال: إنه على تقدير لا، والمعنى: ألا يفقهوه والمعنى واحد، لكن كوننا نفسرها بـ (كراهة) أولى من كوننا نفسرها بـ (لا)؛ لأننا إذا فسرناها (بلا) فسرنا المثبت بالمنفي وهذا بعيد وإذا فسرناها (بكراهة) فهذا مطرد، مثل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦] أي: كراهة أن تضلوا، وقوله: ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ الفقه في اللغة: الفهم، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] أي: لا تفهمونه والمعنى: أن الله جعل على قلوبهم سِترًا واقيًا من فقههم له فلا يصل معناه إلى قلوبهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦] أي: وجعلنا في آذانهم وقرًا، أي: حملًا وصممًا بحيث لا ينتفعون بما سمعوا، ومن لا ينتفع بما سمع فهو كمن لم يسمع، فنفى الله عزَّ وجلَّ عنهم الفقه ومحله القلب، والسمع، ومحله الأذن، وقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذا كقوله تبارك: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] يعني: لم يفهمها ولم يفقهها، وإنما يظنها أساطير سالفة ليست ذات معنًى مصلح للخلق.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إن يروا بأبصارهم أو يروا بقلوبهم كل آية؛ فإنهم لا يؤمنون بها، والآية هي: العلامة الدالة على صدق النبي ﷺ، كما قال عزَّ وجلَّ في سورة القمر: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، نسأل الله الهداية، الإنسان إذا طبع على قلبه ـ نعوذ بالله ـ لا يؤمن بأي آية تأتيه الآيات بها مثل الشمس، ولكن لا يؤمن؛ لأن القلب مغلق عليه، لا يصل إليه الهدى، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، فهنا نفى الله عنهم الفقه ومحله القلب، والسمع ومحله الأذن، والإيمان بالآيات ومحله القلب مع مشاهدة العين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا للغاية، ويحتمل أن تكون: للابتداء، والفرق بينهما: أننا إذا جعلناها للغاية صار ما قبلها مغيًّا بها أي: أنهم لا ينتفعون بالآيات حتى

إنهم إذا جاءوك جادلوك، ويحتمل أن تكون: ابتدائية، والابتدائية هي: مثل الواو الاستئنافية.
﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ المجادلة هي: المخاصمة، وسميت مجادلة؛ لأن كل واحد من الخصمين يجدل الحجة لتقوم على صاحبه، مأخوذة من جدل الحبل، وهو فتله حتى يشتد ويقوى فهم يجادلون النبي ﷺ بما يوردون عليه من الشبهات، ولكن الله تعالى يجيب عنه، قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الواو في قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ أي: حال كونهم مجادلين لك.

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هذا جواب إذا، ولم تجزم؛ لأن إذا الشرطية ليست جازمة، تقول: إذا قدم زيد يقدم عمرو ولا تجزم، وأما قول الشاعر:

وَإِذَا تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ فَتَحَمَّلِ ....

فهذا يعتبر شاذًّا لا يعتد به.

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني: ما هذا، ويدل على أنّ (إنْ) هنا نافية أنه أتى بعدها إلا، وإذا أتى بعدها إلا فهي نافية، وقد تأتي نافية بدون إلا، وهي - أعني ﴿إِنْ﴾ - لها معانٍ: تأتي شرطية، وتأتي نافية، وتأتي زائدة، وتأتي مخففة من الثقيلة، أربع معاني، تأتي شرطية، وهذا كثير ومثاله قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة:٥٠]، وتأتي نافية ومثاله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، أي ما هذا إلا قول البشر، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثاله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم:٥١]، الرابعة الزائدة، ومثاله قول الشاعر:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ وَلَا صَـرِيْفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

وقوله: ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أساطير جمع أسطورة، والأسطورة: ما يتحدث الناس به في المجالس من أجل قتل الوقت، ليس لها معانٍ، وتسمى عند العامة السالفة، ما لها معنى لكن يريد بها الإنسان أن يزيل عنه الملل وقتل الوقت.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي السابقين.

الفوائد:

١ - **من فوائدها:** أنه ليس كل مستمع ينتفع، لقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٤٢]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ آنفًا لا يدرون ماذا قال.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الاستماع بلا انتفاع، وأن هذا دأب الكفار، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان إذا استمع أن يتأمل ويتفكر في (مستمعه) لا سيما إذا كان الكتاب والسنة، حتى يعرف معناه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الفقه مَحِلّه القلب لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء:٤٦] فإن قال قائل: ما سبب هذه الأكنة التي تحجب الحق عن القلب، فالجواب: أن سببها المعاصي كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣ - ١٤] فالمعاصي تحول بين الإنسان وبين الفقه في دين الله، ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي لمن استفتي أن يستغفر الله قبل الإجابة حتى يمحو الاستغفار ما كان على القلب من الرين، واستدل بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦] وهذا استنباط جيد لا سيما إذا اشتبهت عليك المسألة وحيل بينك وبين معرفة الصواب فيها، فعليك بالاستغفار والدعاء.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن عدم الانتفاع بالسماع كالصمم تمامًا، لقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بل صاحب الصمم معذور، والذي لا ينتفع بما سمع غير معذور؛ لأن صاحب الصمم لم يسمع هذا من آفة حلت به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء الكفار لا ينتفعون بما سمعوا ولا ينتفعون بما شاهدوا لقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف:١٤٦] والآيات نوعان: آيات قدرية، وآيات شرعية، فمن الآيات القدرية: ما يحدثه الله عزَّ وجلَّ في الكون، كانشقاق القمر، وهبوب الرياح التي أرسلها الله عزَّ جلَّ على الأحزاب، وكذلك نزول المطر، وامتناع المطر، أشياء كثيرة لا تحصى، ثم الشمس والقمر والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، كلها من آيات الله الكونية، وأما آيات الله الشرعية فهي الوحي، إذا تأملت الوحي وأشرفه القرآن عرفت ما فيه من الآيات العظيمة في الأخبار والأحكام، فالمؤمن ينتفع وغير المؤمن لا ينتفع حتى قال الله عزَّ جلَّ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] لا يصدقون بأنه عذاب، ومن ذلك ما يحدث في زمننا الآن العواصف والقواصم والفيضانات والزلازل هي عند قوم من الأمور الطبيعية التي لا تدل على التهديد والتخويف وذلك من رين القلوب نسأل الله العافية، ومن مشابهة الكفار في أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله عزَّ وجلَّ يرسل الآيات تأييدًا للرسل وتخويفًا لمخالفيهم كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩] فالآيات التي يرسلها الله عزَّ وجلَّ هي تأييد للرسول وتخويف لمخالفيهم، ولكن كما قلنا إن هؤلاء المخالفين لا ينتفعون بالآيات فلا يؤمنون بها.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفار يجادلون المسلمين، يجادلون النبي ﷺ ويجادلون من اتبع النبي، لكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ولكن ليبشر صاحب الحق الذي هو أهله أن النصر له لقول الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨] لكن هذا يحتاج إلى أمرين: إلى نيَّة صادقة، وإلى علم يدفع به شبهة المحتج ولا يجوز للإنسان أن يدخل مع صاحب باطل يجادله وليس عنده علم؛ لأنه لو فعل لكانت الهزيمة على الحق، فلا تدخل مع شخص في مجادلة إلا وأنت تعرف كيف تصيبه مع إحسان النية، أما أن تدخل بمجادلة مع شخص ذي بيان فصيح وشبه قوية فلا تدخل، لأنك إن فعلت هزمت وصارت هزيمتك هزيمة للحق الذي تجادل عنه.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدل، لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فتعلم يا أخي طرق الجدل من أجل أن تجادل بها لنصرة الحق، وربما يتفرع على هذا ما بثَّه بعض الناس من قولهم: إنه لا حاجة إلى أن يراجع جدل المتكلمين من الأشعرية والمعتزلة وأشباههم؛ لأن زمانهم انقضى، فإن هذا توهم واضح، وذلك لأمور منها:

أولًا: أن هؤلاء لم ينته زمنهم، ما زالوا موجودين: معتزلة، جهمية، أشعرية، خوارج، شيعة، موجودون.

ثانيًا: أن طرق الجدل مع هؤلاء تفيد في مجادلة آخرين؛ لأنها تفتح للإنسان أبواب الجدل ويعرف كيف يقضي على صاحبه بما يجادل به، ثم إننا بالنسبة لبلادنا هنا في السعودية كنا لا نعرف عن هذه الطوائف شيئًا كثيرًا، لكن بما أننا اندمجنا مع الناس فذهبنا إليهم وأتوا إلينا وجد هذا الشيء، وجد شيء من البدع وإلا كان الناس لا يعرفون شيئًا من هذا إلا من طالع الكفر، لذلك نقول: إن مطالعة الجدل مع المتكلمين فيه فائدة بلا شك، ولكن احذر أن تطالع وأنت ضعيف في العلم؛ لأنك لو فعلت لضللت، لا بد أن يكون عندك حماية تحمي بها نفسك.

٩ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المجادل بالباطل يلجأ إلى المكابرة أو إلى التهديد إذا كان له سوء نية، والمكابرة في هذه الآية ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه مكابرة؛ لأن دعواهم أن هذه أساطير الأولين مكابرة بلا شك، وكل أحد يعرف أن القرآن الكريم ليس قول البشر فضلًا أن يكون أساطير الأولين، أما اللجوء إلى القوة فانظر إلى مجادلة فرعون وموسى حيث قال له فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩] فلجأ إلى القوة والإرهاب، وتأمل قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل لأسجننك، إشارة إلى أنه يريد أن يظهر بمظهر القوة الذي يسجن الناس وعنده مساجين فيهدد موسى بأنه سيكون منهم.

١٠ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر، لقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأظهر في موضع الإضمار وكان مقتضى السياق أن يقول (حتى إذا

جاءوك يجادلونك يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين)، والإظهار في موضع الإضمار من فوائده: أن هذا المظهر إذا كان معنى من المعاني فإنه يكون شاملًا محيطًا بكل ما ينطبق عليه. فمن جادل بالباطل لإدحاض الحق فهو كافر، ثم إما أن يكون كافرًا كفرًا أصغر أو كفرًا أكبر.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]

❁ التَّفسِير ❁

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: (هم) الضمير يعود على الكفار المجادلين.

﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: عما جئت به من الوحي.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبعدوه، وقدم النهي على النأي مع أنه كان المتوقع أن يبدأ بالنأي الذي هو فعلهم بأنفسهم دون فعلهم بغيرهم، إشارة إلى شدة كراهتهم لما جاء به الرسول ﷺ حتى أنهم يبدأون بنهي الناس قبل أن يبتعدوا عنه.

وقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ (إن) هنا بمعنى ما، أي ما يهلكون إلا أنفسهم، كما في آية أخرى قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:١١٣] فمجادلتهم ونهيهم الناس لا يضر النبي ﷺ شيئًا، وإنما هو هلاك أنفسهم، وهل المراد هنا: الهلاك الحسي أو المعنوي؟ الجواب: المعنوي؛ لأن هذا الكافر المجادل لا يموت بجداله بل يبقى، لكنه حقيقة من الناحية المعنوية قد هلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يشعر هؤلاء بأنهم بهذا النهي عما جاء به الرسول ﷺ والبعد عنه لا يشعرون أنهم بذلك أهلكوا أنفسهم ولذلك تجدهم يفتخرون بما هم عليه من الكفر، حتى إن أبا سفيان قال في يوم أحد: اعلُ هُبَل، يفتخر بالصنم الذي يعبده، ويقول: إنه علا على محمد ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: «أَجِيبُوْا» قالوا: بماذا نجيب؟ قال: «قُوْلُوْا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1] فالشاهد أن هؤلاء الكفار المجادلين لا يشعرون أنهم على ضلال ـ نسأل الله العافية ـ وهذا غاية ما يكون من الابتلاء، أن يرى الإنسان أنه على حق مع أنه على باطل، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنَا اتِبَاعَهُ، وَأَرِنَا البَاطِلَ بَاطِلًا وارْزُقْنَا اجْتِنَابَه، وَلَا تَجْعَلْه مُلْتَبِسًا عَلَيْنَا فَنَضِلّ».

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣)، والطيالسي في مسنده (٧٢٥)، وأحمد في مسنده (١٨٦١٦) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة:
أن هؤلاء جمعوا بين الضلال والإضلال، وهذا أشد ما يكون من العدوان والظلم.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن كل من حاول إبطال الحق وإبعاد الناس عنه فإنما جَنَى على نفسه، لقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حتى لو برقت له الدنيا وظهر له النصر الظاهري، فإنه في الحقيقة هالك، من ذلك مثلًا: أبو سفيان قال في غزوة أحد: اعلُ هبل، وقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فافتخر وشمخ بأنفه، ولكن هل هذا الأمر سيبقى أو ستكون العاقبة عليه؟! الثاني هو المتعين سواء في الدنيا أو في الآخرة.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من سلوك الإنسان سُبُلَ الهلاك وهو لا يشعر، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨].

ولكن إذا قال قائل: ما الذي يدل الإنسان على كونه على صواب أم لا؟

الجواب: أن يرجع إلى الكتاب والسنة وإلى هدي السلف الصالح، ومن هديهم يعرف أنه على صواب أو على خطأ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]

❁ التفسير ❁

أولًا: (لو) شرطية، وهي حرف وجود لامتناع، ننظر (لو ترى) لرأيت، الجواب محذوف، تقديره: لو ترى إذ وقفوا على النار لرأيت أمرًا فظيعًا عظيمًا جسيمًا، فالجواب محذوف.

إذا قلت: لو جاء زيد لجاء عمرو، هنا حرف امتناع لامتناع، لو قلت: لما جاء زيد جاء عمرو، هذا حرف وجود لوجود، ولو قلت: لولا زيد لجاء عمرو، امتناع لوجود، إذنْ تقاسمت هذه الثلاث؛ الوجود والعدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه، أي: لو ترى أيها الرائي إذ وقفوا على النار وقفوا عليها: أي أوقفتهم الملائكة؛ لأنهم هم أنفسهم لا يريدون النار، لكن يوقفون عليها اضطرارًا، توقفهم الملائكة كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ

نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:١٣]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [المُلك:٨].

وقوله: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ والنار هي الدار التي أعدها الله عزَّ وجلَّ للكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١].

فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ قالوا بألسنتهم أو بقلوبهم، الأصل أن القول باللسان بصوت وحرف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾ (يا) هذه للتنبيه وليس حرف نداء، وإنما قلنا ذلك لأن (ليت) حرف، لا يصح أن يُنادى.

هذا هو الأسهل والأقرب، وقيل إن (يا) حرف نداء والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب ما يقتضيه السياق، فهنا يقدر بقول: يا ربنا ليتنا نرد، لكن ما قلناه أولًا أصح؛ لأنه أيسر ولا يحتاج إلى تقدير، وإذا دار الكلام بين أن يكون فيه شيء مقدر أو لا، فإننا نأخذ بالثاني؛ لأنه الأصوب.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ ليت: للتمنى، والتمني يكون في المُحال وفي الصعب، في المحال كقول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ[1]

هذا محال، وفي العسير قول الشاعر[2]:

قَالَتْ أَلَا لَيْتَمَا هَذَا الحَمَامُ لَنَا إِلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفَهُ فَقَدْ

هذا عسير، وكقول الفقير: (ليت لي مالًا فأتصدق منه) هذا ليس بمحال، لكنه عسير.

هنا (يا ليتنا) تمني محال؛ لأنه لا يمكن أن يُرد إلى الدنيا، مع أنهم لو ردوا لكان الأمر خلاف ما قالوه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ هذه داخلة في ضمن التمني، وقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك في ضمن التمني.

تمنوا ثلاثة أشياء:

الأول: الرد إلى الدنيا.

الثاني: ألا يكذبوا بآيات الله.

الثالث: أن يكونوا من المؤمنين.

ولهذا جاءت ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ بالنصب؛ لأن الواو هنا واو المعية، فالثاني مع الأول.

---

(١) ينسب هذا البيت إلى أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، أبو إسحاق.

(٢) ينسب هذا البيت إلى النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة.

وكذلك ﴿وَنَكُونَ﴾ جاءت بالنصب لأن الواو واو المعية، فالثاني مع الأول.

تمنَّوا هذا كله - ثلاثة أشياء - ولكنهم كاذبون فيما قالوا، لذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾:

قلنا في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ قراءتان: قراءة بالرفع، وقراءة بالنصب، فعلى قراءة النصب تكون الواو واو المعية، يعني: أنهم تمنوا أن يُردوا ولا يكذبوا بآيات الله، وعلى قراءة الرفع تكون داخلة في قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: نقول فقول: والمعنى: يقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا. فتكون الواو عاطفة على الجملة السابقة؛ فقالوا لا نكذب بآيات ربنا، والأول أبلغ، وهو قراءة النصب.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** شدة ندم الكافرين إذا وُقِفوا على نار جهنم، لكونهم يتمنون أمرًا لا يمكن أن يكون.

٢ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات النار؛ وهي الدار التي أعدَّها الله عزَّ وجلَّ للكافرين، وقد جاء في الكتاب والسنة من أصناف العذاب فيها ما هو معلوم لكثير من الناس.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات القول للناس بعد البعث، وأن الإنسان بعد البعث يقول ويفعل كما يقول في الدنيا ويفعل.

٤ - **ومن هذه الفوائد:** إقرار هؤلاء بآيات الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** إقرارهم بأنهم ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم تمنوا أن يكونوا مؤمنين، ولكن هذا لا ينفع؛ إذ قد انتهى كل شيء.

٦ - **ومنها:** جواز حذف المعلوم، والمعنى: جوازه لغة، وفي هذا يقول ابن مالك رحمه الله:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ عِنْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا[1]

وحذف ما يعلم جائز ليس في المبتدأ والخبر فقط، بل في المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، وفي كل كلام، فما هو المقدر؟ الجواب: لرأيت أمرًا عظيمًا.

(١) شرح ابن عقيل (١/ ٢٤٣)، البيت رقم (١٣٦) من الألفية.

قال الله تعالى:

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام:٢٨،٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾:

﴿بَلْ﴾ إضراب لإبطال ما سبق من قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل لن يؤمنوا ولو ردُّوا، ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل.

فما الذي يخفونه من قبل؟ هل هو تصديق الرسل بما جاءوا به ولكن يجحدون؟ أو ما كانوا يخفون من قبل من الكفر الذي كانوا يكتمونه؟ فعلى الأول: يكون السياق في الكافرين، وعلى الثاني: يكون السياق في المنافقين.

فهل ممكن أن نقول: إن الآية شاملة للمعنيين؟

الجواب: نعم؛ لأنه لا منافاة، لكن يُشْكِلُ على كونها في المنافقين أن السورة مكيَّة؛ لأن سورة الأنعام مكيَّة، نزلت في مكة جملة واحدة، فكيف يكون فيها إشارة للمنافقين؟

والجواب عن هذا الإشكال، أن لا إشكال؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عما يكون يوم القيامة، ويوم القيامة قد حصل النفاق، أليس كذلك؟

وأيضًا يذكر الله المنافقين في السور المكيَّة تحسُّبًا لما يقع واستعدادًا له، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] وهي مكيَّة، وعليه فلا إشكال. وتكون الآية شاملة للمعنيين والقرآن الكريم عظيم، تأتي فيه الآيات والجمل والكلمات تحتمل معاني متعددة، لكن القرآن لعظمته يتسع لكل هذه المعاني، ما لم يكن بعضها منافيًا لبعض، فإن كان بعضها منافيًا لبعض، طلب الترجيح.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾: أي: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبل

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ يعني: إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، إذنْ قولهم كذب، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: من تكذيب الرسل ومن النفاق، وإنهم لكاذبون في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

الفوائد:

١- **في الآية الكريمة:** أنه تظهر الحقائق يوم القيامة وتبين، واقرأ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة يس حيث قال في آخر السورة عند ذكر نفخ الصور: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، أو يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

فيتبين الأمر جليًّا في ذلك الوقت، ولكنه لا ينفع من لم يؤمن به في حياته.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعلُّق علم الله بالمستحيل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

فإذا قال قائل: هذا ليس بمستحيل؛ لأن الله قادر على أن يعيدهم إلى الدنيا، فيقال: إنه مستحيل حسب وعد الله عزَّ وجلَّ، فإن الله قد قضى أن الناس لا يرجعون إلى الدنيا؛ ولهذا إذا تمنى الشهداء ـ الذين قتلوا في سبيل الله ـ تمنوا أن يرجعوا إلى الدنيا فيقتلوا مرة ثانية كما فعل عبد الله بن حرام حين قال له الله عزَّ وجلَّ: «تَمَنَّ» قال: أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: «**إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُم إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ**»[(١)] هذا قضاء كوني قدري، فيكون مستحيلًا؛ أي: حسب وعد الله، كالظلم بالنسبة لله عزَّ وجلَّ مستحيل، حسب وعد الله عزَّ وجلَّ، لكنه قادر على أن يظلم، فهناك شيء مستحيل لذاته وشيء مستحيل لغيره.

إذن قوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ فيها دليل على تعلق علم الله تعالى بالمستحيل.

فإذا قال إنسان: وهل يمكن أن يستحيل الشيء ولذاته ويعلمه الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: نعم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا مستحيل عقلًا، لا يمكن، ومع ذلك علم الله عزَّ وجلَّ أنه لو كان في السموات والأرض آلهة سوى الله لفسدتا، إذنْ علم الله متعلق بالمستحيل، ومتعلق بالممكن، مثل: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] ومتعلق بالواجب مثل: علم الله تبارك وتعالى بما له من الصفات الكاملة؛ ولهذا نقول: أوسع الصفات في صفات الله عزَّ وجلَّ هو: العلم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكافرين لا يستندمون من الكذب حتى في الآخرة، وكذلك المنافقون؛ لأن الله تعالى كذَّبهم وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد الشيء إذا دعت الحاجة إليه؛ إما لأهميته، وإما لكون المخاطب مترددًا فيه، أو لغير ذلك من الأسباب.

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (١٩٠) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٨).

المهم: أن من الفصاحة والبلاغة أن يؤكد الخبر إذا دعت الحاجة إلى تأكيده.

التأكيد في الآية في أي جملة؟ الجواب: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فهنا مؤكد بـ (إنَّ) و(اللام).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: المنكرون للبعث، ﴿إِنْ هِيَ﴾: أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا؛ لأن ما في حياة أخرى، ما في إلا الحياة الدنيا، ثم أكَّدوا هذه الجملة بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وهذا إنكار صريح للبعث، مع أن البعث قد دل عليه الكتاب والسنة والعقل والإجماع، وسيأتي في الفوائد.

قوله تعالى: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ هل هي من الدُّنوّ ـ رتبة ومنزلة ـ أو من الدُّنوّ وقتًا وزمنًا؟ أو منهما جميعًا؟

فهي بالنسبة للآخرة قبل الآخرة، وقد تكون دنيا، وهي بالنسبة للمرتبة أيضًا دنيا، دون الآخرة.

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]؟ ولهذا تجد في الدنيا سرورًا دائمًا أبدًا؛ يعني: سرورًا للبدن، سرورًا للقلب، هذا لا تجده؛ أي: نعيمًا للبدن والقلب لا يمكن دائمًا، فإما نعيم في البدن، وهو الرفاهية التي يدعو إليها الناس الآن، فهذا نعيم بدن، لكنه يولد في القلب حسرة عظيمة وضيق صدر.

وإما نعيم في القلب، وهذا للمؤمنين كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] ولكن مع ذلك لا بد للإنسان من وجود ما يُسَرُّ به، وما لا يُسَرُّ به، فلا يمكن أن تجد من الدنيا شيئًا كاملًا من كل وجه؛ ولهذا انطبق الوصف تمامًا عليها، نسأل الله أن يرزقنا وإيَّاكم الزهادة فيها والرغبة في الآخرة!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: بمخرجين من القبور، وليس عندهم دليل على هذا الإنكار إلا مجرد الأهواء والمكابرة، وإلا ما المانع؟! وقد أقام الله الدلائل العقلية والحِسِّيَّة والشرعية على وجوب البعث أو على إنكار البعث، وأنه ليس بمنكر، لكن هم ـ والعياذ بالله ـ أنكروا هذا، ومن أجل إنكارهم له لم يعملوا للآخرة، عملهم كله للدنيا ـ نسأل الله السلامة.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكافرين ينكرون البعث، لأن قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معطوف على النَّسب، وقد صرَّح الله عزَّ وجلَّ بهذا في قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى دنوِّ الحياة الدنيا، وأنها ليست بتلك الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها وينسى الآخرة، لقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ وقد جاء في الحديث:

«لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ[1] لَمْ يَسْقِ اللهُ مِنْهَا[2] كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ[3]»[4] وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله:

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَبُّ ذَا الكُفْرَانِ
لَكِنَّهَا والله أَحْقَرُ عِنْدَهُ مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ[5]

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن إنكار هؤلاء للبعث إنكار مكابرة، نأخذها من أنه لو صدق ما قالوا؛ لأصبح خلق الخلق عبثًا لا فائدة منه، أمم تحيا وتموت وتتقاتل وتتناحر، ثم لا يكون بعث يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، هذا غير ممكن.

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٣٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هذا موقف آخر، والخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ إما للنبي ﷺ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾: أي: حين وقفوا على ربهم، وفي الآية التي سبقت قد يقول قائل: كيف عبَّر عن المستقبل بالماضي ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾ ولم يقل: (إذ يقفون)؟ فيقال: الشيء المحقق يعبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] فيكون هذا تصوير للحال المستقبلة، كأنها شيء حاضر ماضٍ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، وإنما أضاف ربوبيته إليهم مع أنهم من أراذل عباد الله إشارة إلى أنه عزَّ وجلَّ هو الخالق المالك المقدِّر لهم، فكان عليهم أن يقوموا بعبادته، فيكون إضافة الربوبية إليهم للإشارة إلى أن السلطان له عليهم عزَّ وجلَّ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ولا برسله ولا

---

(١) هو مثل للقِلّة والحقارة. والمعنى أنه لو كان لها أدنى قدر.
(٢) أي من مياه الدنيا.
(٣) أي يمتع الكافر منها أدنى تمتع، فإن الكافر عدو الله والعدو لا يعطى شيئًا مما له قدر عند المعطي، فمن حقارتها عنده لا يعطيها لأوليائه.
(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٠)، والحاكم في المستدرك (٧٨٤٧) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢).
(٥) متن القصيدة النونية (ص٣٠٨).

عملوا لهذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ ﴿قَالَ﴾: جملة استئنافية لبيان ما حصل عند الوقوف، ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ الحق المشار إليه البعث الذي كانوا ينكرونه، وفي هذه الجملة حرف جر زائد: (الباء) في قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾.

زيادة الحروف: يقول أهل العلم في البلاغة: إنها تدل على التوكيد، فعلى هذا تكون هذه الجملة مؤكدة بالباء الزائدة إعرابًا.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الثابت الذي لا مرية فيه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فأجابوا بالجواب مع الإقسام، وكانوا في الأول يقولون: لا نُبعث، وهنا أقسموا على أن هذا البعث حق، ولكن لو سألهم سائل: هل ينفعهم هذا الإقسام؟ لا ينفعهم؛ لأن الدار الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل.

وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ الواو هذه حرف قسم، والقسم كما مر كثيرًا هو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بأداة مخصوصة وهو (الواو، والباء، والتاء).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني: قال الله عزَّ وجلَّ لما أقروا بأن هذا هو الحق، تبين أن إنكارهم الأول كان كفرًا بإقرارهم، وقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الأمر هنا للإهانة وليس للتكريم؛ لأنه لا أحد يُكرَّم بالعذاب، لكنه الإهانة، وأطلق الذوق على العذاب لتحقُّق وقوعه، فإن ذوق الإنسان الشيء يعني أنه تيقنه تمامًا، فلو قلت لك مثلًا: (في جيبي لك تفاحة)؟ تُصدِّق، فإذا رأيتها ازداد يقينك، فإذا أكلتها إزداد أكثر، ويسمى الأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، وعليه فيقدَّر ما بعدها للمصدر، ويكون التقدير: بكونكم تكفرون، أي تكفرون باليوم الآخر وبمن أخبركم بأنه الآخر وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبمن أرسلهم.

أين جواب لو؟ محذوف تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا، وحذفه جائز، ولكن هل حذفه جائز على مستوى الطرفين، أو حذفه أبلغ؟ الجواب : الثاني، من أجل أن يذهب الذهن كل مذهب؛ لأنه لو ذكر الجواب تحدث بها ذكر، لكن إذا حذف صار الإنسان يتصور هذا الشيء المحذوف شيئًا عظيمًا أكثر مما يوصف، فيكون حذف مثل هذا الشيء من باب البلاغة، إلا أنه مطابق لمقتضى الحال.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ربوبية الله عزَّ وجلَّ لهؤلاء الكفار، لقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لله ملائكة يأتون بالناس إليه عزَّ وجلَّ، بدليل قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ ولم

يقل: (إذ وَقَفُوا)، فهم يؤتى بهم ويقفون.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات القول لله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: أن قول الله بالحرف والصوت؛ الحرف: لأن ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ حرف، وبالصوت: لأنهم سمعوا وأجابوا فقالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن هذا القسم منهم يشعر بشدة الندم على إنكارهم الأول، فكأنهم كذبوا أنفسهم تكذيبًا مقرونًا بالقسم، ولا يخفى أن مثل هذا لا يخرج إلا من قلب متحسِّر، ولكن فات الأوان.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وإثبات الأسباب هو المطابق للواقع، واعلم أن الناس من أمة محمد ﷺ في إثبات الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: من أنكر الأسباب نهائيًا، وقال: إن الأشياء تأتي بمجرد الصُّدفة، وبمجرد أن الله خلقها.

الثاني: ومنهم من أثبت الأسباب على أنها مؤثِّرة بذاتها، وهؤلاء هم الماديون الذين يعتقدون أن الكون يتفاعل بنفسه، وأن ينتسبوا للأمة مثل بعض الفلاسفة أو المتفلسفة.

الثالث: من أثبت الأسباب، لكن بما أَوْدَعَ الله فيها من القوة لا بنفسها، تؤثر بما وضع الله فيها من القوة لا بنفسها، وهذا القول هو الوسط الـمُتَعيِّن، ولذلك نجد أن الأشياء تتغير مسبباتُها بتقدير الله عزَّ وجلَّ.

فالنار التي أوقدت لإبراهيم ماذا كانت؟ كانت بردًا وسلامًا، مع أننا لو رجعنا إلى السبب نفسه لكانت محرقة، لكن هي لا تكون محرقة له إلا بإرادة الله عزَّ وجلَّ، ونجد أن الله تبارك وتعالى يُحدث أشياء لا نعلم أسبابها، مما يدل على أن السبب ليس هو الفاعل ولكن الفاعل هو الله، ولكنه لحكمته جعل لكل شيء سببًا.

٦ - **ومن فوائد الآية أيضًا**: حذف ما كان معلومًا، كالآية التي قبلها.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا

سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣١، ٣٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ ﴿قَدْ﴾، والحروف المؤكِّدة كثيرة، منها ما يسبق، ومنها ما يتأخر، فاللام في قولك: (إن زيدًا لقائم) هذه مؤكدة لكنها متأخرة.

وقد ذكرها علماء أهل البلاغة حينما تكلموا عن الخبر وأقسامه وأنه: (ابتدائي - طلبي - إنكاري) تكلموا على حروف التوكيد، فمن أراد استيعابها فليرجع إليها.

هذه آية مبتدأة بمؤكد واحد وهي: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

خسروا ماذا؟ أطلق الله عزَّ وجلَّ الخسارة، فلم يقل خسروا أنفسهم، ولا أهليهم، ولا شيئًا، فيكون ذلك خُسرانًا مطلقًا.

وصدق الله عزَّ وجلَّ، فما أخسر الذين كذبوا بلقاء الله؛ لأن هؤلاء لن يعملوا للقاء الله ويكون وجودهم في الدنيا خسرانًا لا فائدة منه، بل فيه مضرَّة؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مع كفره بالله عزَّ وجلَّ شرٌّ من كونه لم يوجد أصلًا، وشرٌّ من وجود البهائم؛ لأن البهائم توجد في الدنيا ثم تفنى ثم تبعث يوم القيامة ولا حساب عليها، وهذا عليه حساب؛ ولهذا تمنَّى بعض الصحابة رضي الله عنهم - ومنهم عمر بن الخطاب - أنه شجرة تعضد - أي تُقطع - وقال: (وددت أن أخرج منها - أي من الدنيا - كفافًا لا علي ولا لي)(١) هذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما بالك بمن دونه؟!

فكل من لم يعمُر أوقاته بطاعة الله عزَّ وجلَّ فإنه خسران، فاته الربح.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: باللقاء معه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] لا بد أن هذا الذي أمرك ونهاك، وأرسل إليك الرسل، وأعطاك العقل لا بد أن تلاقيه فيحاسبك، والمراد: أنهم كذبوا بالبعث الذي يكون فيه لقاء الله.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى: هذه ابتدائية تفيد فصل ما بعدها عما قبلها، ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهي ساعة القيامة، وقد يراد بالساعة: ساعة فراقهم الدنيا؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: من غير احتساب لها، والساعة الكبرى تكون بغتة، تأتي الناس

(١) رواه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

والإنسان قد جهز حوض إبله ليسقيها فلا يتمكن، وقد رفع اللقمة إلى فمه فلا يتمكن، والرجلان قد نشرا الثوب بينهما ليبيعه أحدهما إلى الآخر فلا يتمكن من إتمام العقد، تأتي بغتة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قالوا: جواب (إذا)، (يا): هنا لا يمكن أن نجعلها للنداء؛ لأن الحسرة لا تُنادى، والحسرة هي الندم على الشيء الذي فات، وعليه تكون (يا) للتنبيه، كأنهم قالوا: ما أعظم حسرتنا! وقيل: إن (يا) للنداء، وأن الحسرة تُخَيَّل كأنها شيء عاقل يتوجَّه إليه النداء، وعلى هذا القول يكون المعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، والمعنى لا يختلف بين هذا وهذا؛ غاية ما هنالك التقدير وعدم التقدير.

والحسرة: هي الندم والتحسر على شيء فائت.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ التفريط: هو التقصير، و﴿فِيهَا﴾: الضمير يعود على الساعة، أي: فرطنا في الاستعداد لها؛ لأنهم أضاعوا أعمارهم بما لا فائدة فيه، بل بما فيه مضرَّة أحيانًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ يعني: يوم القيامة يحملون أوزارهم على ظهورهم، أي: جزاء أعمالهم، على ظهورهم.

والله تعالى دائمًا يعبر عن الجزاء بالعمل، وذلك لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن يُصلح الإنسان عمله.

الفائدة الثانية: أن يُعلم أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن الجزاء على العمل دائرٌ بين أمرين لا ثالث لهما: الأول: الفضل، والثاني: العدل.

ولا ظلم، فإن كان العمل حسنات فبالفضل، وإن كان سيئات فبالعدل، وربما يكون بالفضل حيث يعفو الله عنه عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: جزاء الأعمال على ظهورهم حملًا حقيقيًّا، هذا هو الواجب أن نحمل الآيات على ظاهرها.

ولو قال قائل: كيف يحمل الجزاء على الظهر؟!

قلنا: يوم القيامة لا يُقاس بأيام الدنيا؛ لأن الحال تختلف اختلافًا عظيمًا، فمن الجائز الممكن أن الله تعالى يخلق هذه الجزاءات حتى تكون أجسامًا تُحمل على الظهور، وما المانع؟!

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] ولا يجوز أبدًا أن نقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا؛ لأنك إذا قرأت القرآن وعلمت ما جاء في السنة من أحوال يوم القيامة تجزم أنه ليس هناك اتفاق، ولا يمكن أن يقاس بعضها على بعض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى: بئس، و﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح وتنبيه، وربما نقول في هذا الموضع زيادة أخرى وهي: التحذير من الأعمال السيئة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: هنا ﴿مَا﴾: إن جعلتها اسمًا موصولًا احتجت إلى العائد، وإن جعلتها مصدرية لم تحتج إلى عائد، فما هو التقدير إذا جعلناها اسمًا موصولًا؟

التقدير يكون ألا ساء ما يزرونه.

أما إذا جعلناها مصدرية: فلا تحتاج إلى ضمير ولكن تحتاج إلى سبب، بمعنى: إلى تحويل الفعل مصدرًا، وعليه يكون التقدير: ألا ساء وزرهم، ولكن المعنى لا يختلف: وهو أن الله تعالى ذم هذا الذي يحملونه على ظهورهم من الأوزار.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان خسران الكافرين المكذِّبين بالبعث، وأنهم مهما ظنوا أنهم ربحوا فهم خاسرون، ولكن متى يعلمون أنهم خاسرون؟ إذا جاء الأجل، أما الآن فهم في سكرة لا يدرون؛ ولهذا لو انتصروا اقتصاديًّا أو عسكريًا أو فكريًّا لظنوا أنهم رابحون، ولكنهم خاسرون.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بلقاء الله، بدليل ثبوت الخُسران لمن كذب به، ومعلوم أنه لا يحل لإنسان أن يوقع نفسه في الخسران.

مسألة: هل من لقاء الله عزَّ وجلَّ النظر إليه؟

الجواب: استدل بعض العلماء رحمهم الله على النظر إلى الله عزَّ وجلَّ بهذه الآية، وبقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] وقالوا: إن اللقاء لا يكون إلا مواجهة.

وعلى هذا فيكون في الآية دليل على ثبوت رؤية الله عزَّ وجلَّ، وثبوت رؤية الله ثابتة بالنصِّ والإجماع - النصِّ القرآني والنبوي - والإجماع من الصحابة رضي الله عنهم وأئمة الهدى من بعدهم:

ومن أدلة النظر إلى الله في القرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، ولو قال قائل: إن المقصود هنا ناظرة إلى ثواب ربها، قلنا له لو أراد الله ذلك لقاله، فكونه عزَّ وجلَّ يريد ثواب الله ثم يأتي ويقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ هذا تعمية على الخلق، وليس بيانًا، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، ويقول تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، ثم ما الدليل على إقحام هذه الكلمة في القرآن؟!

ومن السنة قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»(١)، وهذا التشبيه للتحقيق، أي: كما أنكم في أماكنكم المتباعدة ترون القمر ليلة البدر بدون إلتئام بعضكم إلى بعض، فإنكم سترون الله عزَّ وجلَّ، ولما سأل أبو رزين العقيلي النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، كيف

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

يحاسبنا الله في يوم واحد ونحن جميع وهو واحد؟! قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ آلَاءِ الله، تَرَى الْقَمَرَ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ فِي مَكَانِهِ وَهُوَ وَاحِدٌ وَأَنْتُم جَمَاعَةٌ». فهذا حديث يدل على ثبوت رؤية الله بالعين.

والإجماع: قد أجمع الصحابة والتابعون على رؤية الله سبحانه وتعالى، واستُدِل على هذا الإجماع بأن الصحابة قرءوا القرآن وسمعوا الأحاديث من الرسول ﷺ، ولم يأتِ عن أحد منهم أنه قال بخلاف ظاهرها، فيكون هذا إجماع منهم إجماعًا سكوتيًّا إقراريًّا، وهذه حجة لا إشكال فيها، وهاتِ واحدًا من الخلفاء الراشدين أو غيرهم من الصحابة يقول أن الرؤية لما أعد الله لهم من الجنة والثواب وليس رؤية الله، ما تقدر على ذلك. وأئمة الهدى من بعدهم تبعوهم.

وعلى كل حالٍ الآية التي معنا هنا استدل بها بعض العلماء على ثبوت رؤية الله سبحانه وتعالى محتجًّا بأن الملاقاة لا بد أن تكون مواجهة، فإن صحَّ هذا الاستدلال وإلا فنحن في غنًى عنه، إذْ إذا صح هذا الاستدلال فالمراد بلقاء الله البعث بعد الموت؛ لأن الكافر لن يرى الله سبحانه وتعالى، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الساعة تأتي بغتة، سواء كانت الساعة الكبرى أو الساعة الصغرى، ألم تكن الساعة الصغرى تأتي بغتة؟! بلى، تأتي الزلازل بغتة، تأتي العواصف والقواصف بغتة، وقد حذَّر الله عزَّ وجلَّ من هذا فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٧] لا يفكرون في عذاب فيأتيهم وهم نائمون. ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٨] لاهون ما فكروا أن يأتيهم العذاب، فيأتيهم العذاب، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩] بما أنعم عليهم من الأمن والرغد والرَّخاء، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** شدة تحسُّر هؤلاء الذين كذَّبوا بلقاء الله، وإقرارهم على أنفسهم بأنهم فرَّطوا، ولكن هذا لا ينفعهم فقد انتهى العمل، شيء فات لا يمكن رده، ولهذا أقروا بأنهم مفرطون.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل الأوزار يحملون أوزارهم على ظهورهم يوم القيامة حقيقة لا مجازًا؛ لأن هذا هو الواجب أن نجري النصوص القرآنية والنبوية على ظاهرها، فإذا قال قائل: كيف يحملونها؟ فالجواب: أن هذا سؤال في غير محله؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأعمال محل الثناء والقدح، لقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هذا قدح، ومحل الثناء مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

إذا ثبت القدح في العمل أو المدح، فهل يستلزم المدح في العامل أو القدح له؟ نعم، هذا هو الأصل، لا سيما في أمور الدنيا، فإنه ليس لنا إلا الظاهر، أما أمور الآخرة فعند الله، ولهذا لو أننا رأينا شخصًا يسجد لصنم قلنا كافر، مع أنه يحتمل أن يكون جاهلًا، لكن نقول: كافر، فإن استقام ووحد الله، ارتفع عنه هذا الوصف، وإلا فهو باقٍ.

وليعلم أن بعض الناس توسعوا في مسألة التعيين والتعميم، حتى إن بعضهم شك: هل يجوز لمن سجد للصنم أنه كافر؟! نقول: قل ولا تبالي، هل يجوز أن نقول لمن ترك الصلاة أنه كافر؟ نقول: قل ولا تبالي، إذا لم تقل فمتى يكون كفر ومتى يكون شرك، نعم إذا وجد مانع من التكفير فحينئذ يكون لكل شيء حكمه، وأما الأصل فإننا نحكم على كل من فعل ما يُكفِّر أو قال ما يُكفِّر بأنه كافر بعينه حتى نقيم عليه الحجة، فإن ادعى مانعًا نظرنا هل هذا صحيح أو غير صحيح، ونحكم لكل قضية بما تقتضيه الحال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ما نافية، والحياة مبتدأ وما بعد إلا هو الخبر، وهذا طريق من طرق الحصر، وهو أقوى طرق الحصر، أعني: النفي والإثبات، والحياة الدنيا هي حياتنا هذه، ووصفت بالدنيا لوجهين: الأول: دنو زمنها، والوجه الثاني: دنو مرتبتها، أما الأول فظاهر، فإن الدنيا قبل الآخرة، وأما الثاني فظاهر أيضًا لمن كان ذا عقل، فإن هذه الدنيا دنية ليس فيها خير وغاية ما فيها أن ينعم البدن دون القلب، فأهل الدنيا محرومون من نعيم القلب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] فالحياة الطيبة لما جمع بين هذين الوصفين: الأول العمل الصالح، والثاني : الإيمان.

حتى إن النبي ﷺ قال فيما رواه الإمام أحمد عن المستورد بن شداد: «لَمَوْضِعُ سَوْطَ أَحَدِكُم فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) من الدنيا كلها من أوَّلها إلى آخرها وما فيها، وهو موضع سوط، فكيف والإنسان في الجنة ـ اللهم اجعلنا منهم ـ ينظر إلى أقصى ملكه كما ينظر إلى أدناه مسيرة ألفي عام؟!

وقوله: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لعب بالأبدان، ولهو بالقلوب، كل عمل الدنيا لعب، وكل عمل الدنيا لهو، لكنه لهوٌ بشيء عن شيء، لهو بأعمال الدنيا عن أعمال الآخرة، لعب بالنسبة إلى أنه لا يحصل فاعله على شيء، فأدنى ما يقال أنه ليس له ولا عليه في هذا العمل، مع أنه قد يكون عليه، فإذا كان لا له ولا عليه فهل هو جد أم لعب؟ لعب ولا شك، وهكذا نقول في معنى قوله لعب:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢٨٤٩) من حديث سهل بن سعد ﷺ، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

إذا قال قائل: كيف يكون لعبًا وأهل الدنيا عندهم جد وعزيمة ونشاط في أعمالهم؟! قلنا: لكنه بالنسبة للثواب والأجر لعب لا خير فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتفيد التوكيد، والدار الآخرة فيها قراءتان، هذه القراءة: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، والثانية: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾ بالإضافة، الدار الآخرة هي عديلة الدنيا وضرة الدنيا، وهي ما يكون بعد البعث وسماها الله آخرة؛ لأنها آخر المراحل، فإن بني آدم لهم أربع مراحل: المرحلة الأولى: في بطون الأمهات، والثانية: في هذه الحياة، والثالثة: في البرزخ بين البعث والممات، والرابعة: في البعث بعد الممات إذا قامت الساعة، ولذلك سميت آخرة.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾: من المعلوم أن سياق الكلام يقتضي أنها خير من الدنيا ولعبها ولهوها وحذف المفضل عليه للعلم به، ومن قواعد البلاغة: أن المعلوم الذي لا يُحتاج إلى تكلف في تقديره حذفه أولى مما في ذلك من الاختصار، وقد يكون الأمر بالعكس، حين تقتضي البلاغة أن يُبسط في القول.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله عزَّ وجلَّ، وتقوى الله علينا كثيرًا، ويجمعها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي على علم وبصيرة، وبعضهم يتفنن في تعريفها، كقول بعضهم[1]:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيْرَهَا وَكَبِيْرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيْرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وبعضهم يقول: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله[2].

لكن الأول أجمع، وأوضح لأنه يعرف به اشتقاق التقوى.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، والمعنى: اعقلوا هذه الحقيقة، واعرفوا قدر

(١) وهو ابن المُعتَز، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس. الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم.آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضى بالله)، وبايعوه للخلافة، فأقام يوماً وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٥٦)، والقائل هو طلق بن حبيب.

الدنيا وقدر الآخرة، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد لا عقل التكليف، لأن هؤلاء يعقلون لكنها عقول ليست عقول رشد.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية:** التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وفي ذلك أنه وصف الدنيا بما ذكرنا، ووصف الآخرة بما ذكرنا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الدنيا كلها لعب ولهو، لعب في الجوارح، ولهو في القلوب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا حال للدُّنيا سوى ذلك، ووجه الدلالة: الحصر ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

٤ - **ومن هذه الفوائد:** أن الدار الآخرة خير للمتقين، للذين يتقون، خير من الدنيا، وعلى هذا فما يصيبهم في الدنيا من الأذى في الله عزَّ وجلَّ أو في أمراض تصيبهم أو فقد حبيب أو ما أشبه ذلك فإنه في الآخرة ينسى وكأنه لم يكن؛ لأن الدار الآخرة تمحو كل شيء سبق، كأن لم يكن.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات الدار الآخرة؛ لأن إثبات وصفها يدل على وجود أصلها.

٦ - **ومن هذه الفوائد:** أن الآخرة خير لهؤلاء المتَّصفين بالتقوى، ولغيرهم ليست خيرًا بل هي شر، ولهذا جاء في الحديث أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهي بالنسبة للمؤمن سجن؛ لأنه لو نسب نعيم الدنيا كلها إلى الآخرة لم يكن شيئًا، أما الكافر فهي جنته؛ لأنه في الدنيا كان في أهله مسرورًا، لكن في الآخرة على العكس من ذلك، وقد سبق أن ذكرنا ما جرى للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ وكان رئيس القضاة في مصر ومر به يهودي زيَّات فقير وابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تجره الخيول على العربة؛ لأنه كان قاضي القضاة في مصر، فاستوقفه هذا اليهوديّ وقال له: كيف تكون أنت في هذه الحال وأنا في هذه الحال والحديث عندكم: «**إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**(١)»(٢) فأجابه على البديهة قال: (ما المؤمن فيه من النعيم بالنسبة للآخرة إلا سجن، وما الشقاء الذي أنت فيه بالنسبة للآخرة إلا جنة) فعلم اليهودي الحقيقة وأسلم.

ذكر الله تعالى في تفضيل الآخرة على الدنيا ثلاث آيات، الآية الأولى: تتعلق بشخص معين،

---

(١) معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من المنغصات وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد.

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد في مسنده (٨٢٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثانية: معين بوصف، والثالثة: إطلاق، فالأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضُّحى:٤] وهو الرسول ﷺ، والمعينة بوصف: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، والمطلقة قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧].

❁ قال الله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٣،٣٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ قد للتحقيق، لكن قال النحويون: إنها مع الماضي للتحقيق، ومع المضارع للتقليل، هذا هو الغالب، للتحقيق كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق:٤]، وفي المضارع يقولون: إنها للتقليل، ومنه قولهم: (قد يجود البخيل)، فقد هنا للتقليل، لكنها وردت في القرآن مقرونة بالمضارع وهي للتحقيق، مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾، ولها أمثلة فهل نقول: إنها للتقليل أو نقول: إنها للتحقيق؟ الجواب: للتحقيق ولا شك، لكن عبَّر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى أن الله عزَّ وجلَّ علم ويعلم ما يكون، فتكون دالة على الاستمرار، بخلاف علم الماضي فإنها دالة على شيء مضى وانتهى، لكن إذا كان الشيء مستمرًّا جاءت بلفظ المضارع.

والثانية: ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ مع أنها واقعة بعد العلم، وإذا وقعت بعد العلم وجب أن تكون مفتوحة الهمزة، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٥] لماذا كسرت الهمزة هنا؟ كسرت لوجود لام التوكيد، وإذا وجدت لام التوكيد وجب كسر إن على كل حال، إذا اقترن خبرها أو اسمها باللام وجب أن تكسر على كل حال، لولا اللام لكان سياق الآية (قد نعلم أنه يحزنك) لكن اللام تكسر الهمزة.

وفيها قراءتان: (لَيُحْزِنُكَ)، و(لَيَحْزُنُكَ) الأولى: من الرباعي من أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ، ليحزُنك من الثلاثي: حزنه يحزنه، والحزن ضد السرور، وهو معنى قائم بالنفس يستلزم الانكسار والندم.

ما الذي يقولون؟ يقولون قولًا منكرًا عظيمًا، يقولون: لله البنات، يقولون: نعبد الأصنام لتقرِّبنا إلى الله عزَّ وجلَّ، يقولون على الرسول عليه الصلاة والسلام إنه ساحر، إنه مجنون، إنه كاهن، فكل ما يقولونه مما ينافي التوحيد والرسالة لا شك أنه يحزن النبي ﷺ.

وهل هذا انتصار لنفسه أو حزن لله عز وجل؟ الثاني بلا شك، قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، يقولها: عالم السر وأخفى - عزَّ وجلَّ - الذي يعلم ما في القلوب، قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ يعني: في قلوبهم، وأما بألسنتهم فإنهم يقولون: إنه ساحر كذاب، لكن في قلوبهم يعلمون أنه صادق، أنه أمين، وكانوا يسمُّونه قبل الرسالة : الأمين، ويَرْضَوْنَه، ويُحَكِّمُوْنَه، لكن لما جاء بالحق أنكروه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ المراد بالظالمين: المكذِّبين للرَّسول ﷺ فهو ظلم كفري، قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وقُدِّم عليه لإفادة الحصر، ولتناسب رؤوس الآيات؛ لأن تناسب رؤوس الآيات من البلاغة بلا شك، ولهذا تأمَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] فقدم هارون مع أن موسى مقدم في جميع المواضع، لكن من أجل تناسب رؤوس الآيات، ففيها إذن فائدتان: معنوية ولفظية، المعنوية : هي إفادة الحصر، كأن المعنى: ولكن الظالمين لا يجحدون إلا بآيات الله؛ لأنهم يعترفون بأشياء كثيرة، إلا آيات الله عزَّ وجلَّ فإنهم لا يعترفون بها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات علم الله عزَّ وجلَّ بكل ما يقوله هؤلاء المكذِّبون، لقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ .

٢ - **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ وتقوية روحه المعنوية، فإن في هذه الآية من تسليته وتقوية روحه المعنوية ما هو ظاهر، وهكذا ينبغي للإنسان أن يسلِّي أخاه بما يقع لمثله حتى يهون عليه الأمر؛ لأن الإنسان بطبيعته إذا وجد مشاركًا هان عليه الأمر.

ألم تر قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩] في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب هان عليهم، لكن في الآخرة لن ينفعهم.

وانظر إلى قول المرأة (الخنساء):

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِيْنَ حَوْلِيْ   عَلَى إِخْوَانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ   أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّيْ

فإذا ذكر الله عزَّ وجلَّ لنبيه ما يسليه ويقوي معنويته ويذهب عنه الحزن، فإن هذا من فضل الله عليه تبارك وتعالى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، وأنه يحزنه إعراض الناس عن دين الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** علم الله تعالى بما في القلوب في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، ونظير هذه الآية قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] ﴿ظُلْمًا﴾ هذه مفعول لأجله عامله قوله :

(وجحدوا) أي جحدوا بذلك ظلمًا، ﴿وَعُلُوًّا﴾.

وانظر إلى قول موسى ـ عليه السلام ـ وهو يجادل فرعون، يقول له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] قال: قد علمت، ولم يكذبه فرعون في هذه المحاورة، ما قال: لم أعلم، بينما لما كان يشرح لقومه يقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، والظاهر لي ـ والله أعلم ـ أن فرعون لم يقل لموسى إنني لا أعلم خوفًا من نزول العقوبة العاجلة، أو خوفًا من أن ينزل كتاب يكذبه، على كل حال فقد أقرّ، وطريق إقراره السكوت.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغي للدعاة أن يتسلَّوْا برسول الله ﷺ، فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين، ويقولوا في أنفسهم وفي ألسنتهم: إن الله تعالى عالم ما تقولون وسيجازيكم.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجحد بآيات الله كفر ولو استيقنها الإنسان، ما دام جحدها وإن كان مؤمنًا بها في قلبه؛ لأن أحكام الدنيا تُجرى على الظاهر، فنحن نكفر من أظهر الكفر وإن كان مؤمنًا بقلبه، ونسكت عمن أظهر الإسلام ولو كان كافرًا بقلبه؛ لأن هذا أحكام الدنيا التي أوجبها الله عزَّ وجلَّ إذ إننا لا نعلم ما في قلوب الناس، ومن ثم أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد حيث قتل المشرك بعد أن قال: لا إله إلا الله، واحتج أسامة بأنه قالها تعوُّذًا أي: خوفًا من القتل لا عن يقين، فقال له النبي ﷺ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ**[1]»[2] فأمور الدنيا على الظاهر، لكن في الآخرة ـ نسأل الله أن يستر علينا ـ على الباطن، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

إذا قيل: هل هنا وصف آخر يكفر به الإنسان؟

فالجواب: نعم، بالاستكبار، فالردة لها أصلان فقط: الجحود، والثاني: الاستكبار، الجحود ولو عمل ولم يستكبر ظاهرًا فإنه يكفر، كما لو قال: الصلاة خمس مفروضة لكني أفعلها تورعًا واحتياطًا نقول: إنه كافر لأنه جحد، والاستكبار: أن يستكبر عن فعل ما تركه كفر، على أن الإنسان لو ترك الطاعة استكبارًا حتى ولو كانت نافلة فإننا في شك من إيمانه؛ لأن جنس الاستكبار علوٌّ على الله عزَّ وجلَّ وعلى أوامره ونواهيه، فيخشى إذا ترك المسنون استكبارًا

---

(١) معناه: إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه فأنكر عليه من العمل بما ظهر باللسان وقال أفلا شققت عن قلبه لتنظر هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب.

(٢) رواه مسلم (٢٦٩)، وأبوداود (٢٦٤٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

واستنكافًا أن يكون كافرًا، لا إذا تركه عمدًا متهاونًا به، وهنا فرق يعرفه الإنسان من نفسه، فرق بين شخص يقول: أنا لا أصلي الراتبة استكبارًا، وآخر يقول: أنا لا أصلي الراتبة لأنها لا تجب علي؛ فالثاني: لا يكفر ولا يفسق، وأما الأول: فإن الإنسان يكون في شك من إيمانه.

ثم سلَّاه الله عزَّ وجلَّ بطريقة أخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وما أكثرهم! حتى إن النبي ﷺ رأى في المنام أن النبي لا يتبعه إلا رجلان أو رجل واحد، والنبي ليس معه أحد، نوح عليه السلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يذكرهم بآيات الله، ويجهر لهم بالدعوة ويُسِرُّ بها، ولكن لم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وهو صابر ألف سنة على الأذى والسُّخرية، وهو يصنع السفينة: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] وتأمل (ملأ) والملأ الأشراف، وسخرية الأشراف غير سخرية آحاد الناس، فهي أشد في قمع الإنسان واستهانته.

كذبوا وأوذوا، ﴿فَصَبَرُوا﴾ أي: تحملوا الرسالة وأدوها على ما فيها من مصادمات وأذى، ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ ﴿وَأُوذُوا﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على كذبوا يعني: صبروا على ما كذبوا، وعلى ما أوذوا، ويحتمل أن تكون معطوفة على كذبت، يعني: ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا، والمعنيان لا يختلفان كثيرًا.

أوذوا بالقول والفعل، حتى إن بعضهم قتل، يسخرون بهم خلقة وخلقًا وغير ذلك، حتى إنَّ اليهود قالوا لموسى إنه رجل آدر، أي: كبير الخصيتين، وهذا عيب عند الناس، وكان موسى عليه السلام لا يبدي عورته فلما كان ذات يوم خلع ثوبه، ليغتسل ووضعه على حجر، هرب الحجر بثوبه، فجعل يسعى وراءه يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، لكن الحجر لم يقف إلا في الملأ من بني إسرائيل، حتى شاهدوا أن موسى بريء مما قيل فيه، فأظهر الله كذبهم علنًا[1].

المهم: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أوذوا إيذاءً لا يصبر عليه إلا أمثالهم، وقد قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] بل لما ذكر أنه أنزل عليه الكتاب قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤] لم يقل: فاشكر نعمة الله، إشارة إلى أنه سيناله ما يناله من الأذى من أجل هذا الكتاب الذي نزل عليه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ حتى هذه للغاية، أن الله تبارك وتعالى نصره؛ لأن الله أخذ على نفسه أن ينصر رُسُلَه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] ولا ينافي هذا ما يحصل لبعض الأنبياء من عدم النصر وذلك لأنا نقول: هؤلاء الذين لم ينصروا إما ألا يكونوا أمروا بالقتال أصلًا حتى يكون نصر، وإما أن نقول: إن النصر نوعان: نصر عاجل للنبي يجده في حياته، ونصر آجل لدعوته يكون له انتصار من بعده، وآجل أيضًا يكون في الآخرة.

---

(١) كما رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد يستطيع أن يبدل كلمات الله عزَّ وجلَّ، لا يبدل كلمات الله إلا الله وحده، كما أنه لا مبدل لحكمه فلا مبدل لكلماته، وكلماته هي وحيه الذي أنزله على رسله، وكذلك هي كلماته القدرية التي يكون بها النصر لأنبيائه والخذلان لأعدائه ولا يرد على هذا ما جاء به النسخ؛ لأن مبدل الحكم المنسوخ هو الله، والآية تدل على أن لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله تبارك وتعالى فله أن يبدل، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام وقد، والخطاب للنبي ﷺ، أي لقد جاءك أيها الرسول من نبأ المرسلين، أي: من النبأ الذي يأتيهم وهو الوحي، هذا المعنى هو المتبادر، المعنى الثاني: لقد جاءك من قصصهم وأخبارهم كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] وعلى هذا فتكون للآية معنيان: المعنى الأول: أنه قد جاءك من أنباء الوحي الذي آتى الرسل من قبل، والمعنى الثاني: أنه قد جاءتك أخبارهم وتبيَّن لك ما حصل للرُّسُل من أتباعهم وما حصل لأتباعهم.

الفوائد:

١ - **من هذه الفوائد:** بيان أن تكليف الأنبياء ليس وليد عهدهم بل هو سابق، لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟﴾ فإن قال قائل: ما الحكمة في إرسال الرسل مع تكذيبهم؟ فالجواب: أن هذا لإقامة الحجة على المكذبين؛ لأن هؤلاء المكذبين لو لم يأتهم رسول لقالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه:١٣٤] لو لم يأتهم رسول لكان لهم حجة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عتوّ بعض بني آدم حيث تأتيهم الآيات فيكذبون؛ لأنه ما من رسول بعثه الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا أمر لا بد منه. فإذا كذب الرسل مع هذه الآيات صار هذا دليلًا على عظم عتوّ هؤلاء المكذبين.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تسلية الله لنبيه ﷺ؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره قد أصابه ما أصابه هان عليه الأمر، وقد ذكرنا أمثلة لذلك، من القرآن ومن كلام العرب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بالصبر على ما كذبوا وعلى ما أوذوا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجب علينا أن نتأسَّى وأن نتسلَّى أيضًا بما جرى للرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنصبر على أذى من يقوم أمام دعوتنا، نصبر والعاقبة للمتقين لقوله: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أعداء الرسل لا يقتصرون على مجرد التكذيب، بل يؤذون الرسل وأتباعهم، والأذيَّة قد تكون جسديَّة، وقد تكون مالية، وقد تكون فكريَّة، وقد تكون عسكرية، أنواع متعددة، والكافر يرى أقرب وسيلة تحصل بها الأذية للمسلم، لا شك في هذا، ولو حصل له أن يبيد الأمم الإسلامية في ليلة بين عشية وضحاها لفعل ذلك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن فرج الله عزَّ وجلَّ يأتي مع شدة الكرب، كلما اشتد الكرب فاعلم أنه دنا الفرج، ويؤيد ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦] فجعل الله مقابل العسر الواحد يسرين، وقال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»[1]، وهذا كلام الله وكلام رسوله، حق وصدق. لكن النفوس قد تبوء بالفشل فلا تصبر.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ألا يُرجى النصر إلا من عند الله، لقوله: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ لم يقل: حتى نصرهم فلان أو فلان، وإذا علمنا أن النصر لا يكون إلا من عند الله فممن نطلب النصر؟ من الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا اختصر النبي ﷺ في عريش له يوم بدر يناشد ربه تبارك وتعالى النصر حتى نصره الله والحمد لله.

فلا تطلب النصر إلَّا من الله، حتى في المجادلة العلميَّة، لا تطلب النصر من فلان يوفقك أو لا يوفقك، اطلب النصر من الله إذا كنت وصلت إلى الحق فاطلب من الله أن ينصرك، أو اطلب من الله أن يهديك الصراط المستقيم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا مبدل لكلمات الله، أي: لا أحد يبدلها، إذا قدر الله النصر لا أحد يمنعه، وإذا قدر الخذلان لا أحد يمنعه، أما الكلمات الكونية فعدم المبدل لها ظاهر، الكلمات الكونية لا بد أن تقع، كن فيكون، قال الله تعالى كن لنزول المطر، لا أحد يمنعه، قال لامتناع المطر يمتنع، لا أحد ينزله، فالكلمات الكونية مفروغ منها أنه لا أحد يستطيع أن يبدِّلها.

أما الكلمات الشرعيَّة: فمن الناس من يبدلها، لكن تبديله هذا باطل، والباطل لا وجود له شرعًا، وهل هناك من بدل الكلمات الشرعية أم لا؟ نعم، في الأمم السابقة وفي هذه الأمة، لكن هل هذا التبديل غيَّر من خصائص هذه الكلمات؟ أبدًا لا يستطيعون مهما حاولوا، هم لو بدلوها ظاهرًا فما بدلوا فإنه باطل والباطل لا حكم لوجوده.

(١) تقدم تخريجه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: قوة عظمة الله وسلطانه عزَّ وجلَّ، حيث إنه لا مبدِّل لكلماته، وغير الله عزَّ وجلَّ مهما بلغ من السلطان والقدرة والقوة والجنود فإن كلماته تبدل.

فإن قال قائل: ما تقولون في النسخ؟ أليس فيه تبديل؟!

بلى؛ فيه تبديل، لكن مَن بدله؟ الله عزَّ وجلَّ، وكلماته الناسخة لا مبدل لها، يعني: لا يمكن أن نلغي الناسخ؛ لأنها كلمات الله عزَّ وجلَّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥].

١١- **ومن فوائد الآية أيضًا**: إثبات أن الله يتكلم، وهذا قد ملئ منه القرآن وقد جاءت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] مؤكدة ذلك؛ لأن تكليمًا مصدر مؤكِّد، والمصدر المؤكِّد ينفي احتمال المجاز.

وكلمات الله عزَّ وجلَّ بحروف أم بدون حروف؟ بحروف، وإلا لم تكن كلامًا، وكذلك هي بصوت، يتكلم الله بصوت مسموع، ولا يمكن أن يكون الكلام معنىً قائمًا في النفس؛ لأن هذا المعنى القائم في النفس لا يسمى كلامًا، بل يسمى حديث نفس، فالكلام ما نطق به اللسان وليس ما حل في الجنان، ولهذا إذا أراد الله عزَّ وجلَّ حديث النفس عبَّر عنه كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨].

وخالف في الكلام طوائف مرت علينا في كتاب النونية، من أبينها وأبرزها:

الأول: مذهب المعتزلة: يقولون: إن كلام الله أصواتٌ مخلوقة، خلق الله أصواتًا كما خلق أصوات الرعد والصواعق، فهي مخلوقة تمامًا بائنة عن الله، وإنما نسبت إلى الله تشريفًا لها كما في قوله: (ناقة الله) و(بيت الله) و(مساجد الله) وما أشبه ذلك.

الطائفة الثانية: الأشاعرة: الذين يدعون أنهم هم الذين جادلوا المعتزلة، قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، لا يُسمع وليس له صوت ولا حروف، ولكنه خلق أصواتًا وحروفًا لتعبِّر عما في نفسه.

إذن هل هناك فرق بين مذهبهم ومذهب المعتزلة؟! لا فرق، كما قاله بعض علمائهم أنه لا فرق بينه وبين المعتزلة؛ لأننا متفقون على أن ما في هذا المصحف مخلوق، لكن المعتزلة قالوا هو مخلوق حقيقة، وهو كلام الله حقيقة، وهؤلاء الأشعرية قالوا: ليس كلام الله حقيقة، كلام الله هو الكلام القائم بنفسه وهذا عبارة عن كلام الله.

فأيهم أقرب إلى الصواب من حيث القواعد؟

المعتزلة أقرب إلى الصواب.

أما أهل الحق ـ السلف وأتباعهم ـ من الأئمة فقالوا: إن الله عزَّ وجلَّ يتكلم بكلام مسموع بحرف مرتب، ولا يعقل الكلام إلا على هذا الوجه.

فإذا قال قائل: هل كل ما خلقه الله قليلًا أو كثيرًا يكون بكلمة كن؟

الجواب: ظاهر النصوص هكذا، كل ما خلقه الله يقول له كن، ولهذا كانت كلمات الله لا نفاد لها ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩] ويحتمل أنه عزَّ وجلَّ قال: (كن) في أول الأمر وصار المخاطب يقوم بما أمر به، كما قال للوح المحفوظ: «**اكتب ما هو كائن**»(١) فكتب ما هو كائن.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات رسالة النبي ﷺ كما ثبتت رسالات من قبله، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تأكيد رسالة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وذلك بالقسم واللام وقد.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن الكريم يراعَى فيه فواصل الآيات، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠] ومراعاة الفواصل ظاهر في القرآن الكريم، انظر إلى سورة طه، انظر إلى سورة اقتربت الساعة، حتى قال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣] ودسر جمع دسار وهو المسمار، كل ذلك لأجل أن تتناسب السورة في فواصل الآيات، وذلك لأن هذا من البلاغة؛ ولأن هذا مما تصغي له الأسماع؛ ولأن ذلك مما تطرب له القلوب، فهذه ثلاث فوائد لتناسب الآيات الكريمة.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن محمدًا خاتم الرسل، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: الذين أرسلوا، فإن صحَّ أخذ هذه الفائدة من الآية وإلا فكونه خاتم النبيين أمر مجمع عليه، ونصَّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] اللهم صلِّ وسلم عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥]

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد في مسنده (٢٢٧٥٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: لا شك أنَّ ﴿كَانَ﴾ تحتاج إلى اسم وخبر، وكبر تحتاج إلى فاعل، فهل نقول: إن كان اسمها ضمير الشأن مستتر، وكبر عليك إعراضهم خبرها؟ أو نقول: إن إعراضهم تنازع فيه كان تطلبه اسمًا، وكبر تطلبه فاعلًا؟ يحتمل هذه وهذا لكن الأول أوجه، يعني: فإن كان الشأن في هذا الأمر أنه كبر عليك إعراضهم، أي عظم عليك إعراضهم وذلك بما كان في نفسك من الحزن والأسى فحاول أن يهتدوا على يدك.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ يعني: فافعل، ولكن ليس عليك إلا الصبر.

وهذه الجملة قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أتى بعدها جملة شرطية أخرى ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ وهذا من تداخل الجملتين الشرطيتين، فتكون الجملة الثانية في محل جزم جواب الجملة الأولى، وهذا يوجد في القرآن وفي كلام العرب، أما في القرآن فهذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] هذا شرط داخل شرط.

ومنه في قول العرب:

إن تستغيثوا بنا إن تُذعروا تجدوا[1]

فعل الشرط الأول ثم الثاني، قَيْدٌ فيه و(تجدوا) هي جواب الشرط.

المهم: قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ هذه الجملة الأولى شرطيَّة، والثانية: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جواب الجملة الثانية محذوف والتقدير (فافعل) ولن يمكنك ذلك، فإذا كان لا يمكنك؛ فإنه لا يمكنك أن تأتي بالآيات التي اقترحوها وإذا كان لا يمكنك فلا تحزن عليهم؛ لأن الإنسان لا يحزن إلا على شيء يمكنه أن يفعله ولم يفعله.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عَظُم عليك، وشُقَّ عليك، ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي: قدرت على ﴿أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تطلب نفقًا في الأرض، والنفق هو: السرداب الذي يحفر في الأرض ويدخل الإنسان فيه ليصل إلى أعماق الأرض، فتأتيهم بآية، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مصعدًا تصعد به إلى الجو فتأتيهم بآية، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ لهم النزول والارتفاع، لا يستطيع أن ينزل في نفق في الأرض فيستخرج الآيات، ولا أن يصعد إلى السماء فيأتي بالآيات، وهذا المعنى واضح. فإذا كان لا يمكنك هذا وهو معلوم للجميع، فإنه لا يمكنك أن تأتي بما اقترحوه من الآيات، كما قال

---

(١) خزانة الأدب (١١/ ٣٨٢).

الله عزَّ وجلَّ في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ لو شرطية، فعل الشرط ﴿شَآءَ﴾ جوابه: (لجمع) لكن أين المفعول في شاء؟ هل نقدره مطابقًا للفظ الجواب، أو نقدره بمعنى آخر؟ قدره بعضهم بقوله: ولو شاء الله هدايتهم لجمعهم على الهدى، وقدره آخرون بقوله: ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم على الهدى، والأنسب الثاني، أن نقدر المحذوف مطابقًا للموجود، وجمعهم على الهدى أعظم من مجرد الهداية؛ لأنهم قد يهتدون ولا يجتمعون، وهذا ينبغي أن نطرده في كل ما كان متشابهًا مثل قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣] ماذا نقدر؟ ولو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا، فتقدير الشيء مطابقًا للموجود أولى من تقدير شيء غير مطابق ولا نعلم هل الله أراده أم لا، فما بين أيدينا هو المتعين.

إذن ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم؛ لأن القلوب بيد الله عزَّ وجلَّ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨] أي: على دين الإسلام، ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] لأن الأمر كله بيده عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نهي مؤكد بنون التوكيد، يعني: ينهاه الله عزَّ وجلَّ نهيًا مؤكدًا ألا يكونن من الجاهلين، والجهل نوعان: جهل سفاهة، وجهل انتفاء علم، والمراد الثاني بلا شك.

مثال الجهل الذي هو السفاهة: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] أي: بسفاهة. وليس المراد بالجهالة انتفاء العلم؛ لأن انتفاء العلم يرتفع به الحرج والإثم.

إذن فلا تكونن من الجاهلين بأي شيء؟ أي: من الذين لا يعلمون سنن الله عزَّ وجلَّ في خلقه.

فإن قال قائل: هل يلزم من نهيه تبارك وتعالى نبيه عن أن يكون من الجاهلين أن يكون النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فَعَلَ فِعْلَ الجاهلين؟

الجواب: لا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] فلا يلزم من هذا الشرط أن يقع المشروط.

إذن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: من ذوي الجهل الذين لا يعرفون سنن الله في خلقه، فأنت يا محمد لست جاهلًا حتى يكبر عليك إعراضهم وحتى تحزن لعدم إيمانهم؛ لأن ذلك من

حكمة الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قد عظم عليه إعراض المدعوين إلى الإسلام، وهذا رغبة في هداية عباد الله، وهذا من تمام نصحه للأمة عليه الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس، بل يكون كبيرًا في نفسه، لكن لا تعصبًا لما هو عليه ولكن من أجل مصلحة الآخرين.

إذا رأينا مثلًا رجلًا عالمًا عابدًا كريمًا لكنه في الأسماء والصفات على غير ما يرام، فهل يشق علينا هذا أو لا يشق؟ لا شك أنه يشق علينا، وإذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه وقلنا: سبحان الله كيف يكون هذا الرجل الفاضل على عقيدة غير سليمة؟! نرحمه لأنه محروم. لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع، فإننا نجادله فإن رجع إلى الحق فهذا المطلوب، وإن لم يرجع فإننا نفعل به كما قال الشافعي رحمه الله: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام).

رجل زانٍ زنى وهو من علية القوم ومن أهل الخير، إذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه ورققنا له، كيف يصدر الزنا من هذا؟ لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع: أقمنا عليه الحد ولا نرأف به، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢] ما قال في قدر الله، قال: ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث ـ وإن كان فيه نظر ـ: «أَقِيلُوا لِذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم إِلَّا الحُدُودَ»[1].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى قد يُبيِّن الشيء المستحيل بضرب مثل له دون أن يذكره بعينه، وجهه أن الله قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام:٣٥] يعني: فافعل، بدلًا من أن يقول: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإنهم لن يؤمنوا؛ لأن هذا هو المتوقع، لكن الله تعالى ضرب مثلًا حتى يكون مقنعًا للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ولغيره أيضًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نقول: الملاجئ قسمان: إما نفق في الأرض وإما صعود في السماء، هل يستقيم هذا؟ أو نقول: طلب الشواهد قد يكون من الأرض وقد يكون من السماء، طلب الشواهد بالصحة، صحة ما يقوله الإنسان، الظاهر أن الثاني أولى؛ لأن الله إنما قال له ذلك لا من أجل أن يلجأ ولكن من أجل أن يأتي بما يشهد له، ولهذا قال: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٧٥)، وأحمد في مسنده (٢٥٥١٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا بد لكل نبي من آية، وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ، أرأيتم لو جاء رجل في غير هذه الأمة وادَّعى أنه رسول، وقال أنا رسول، ومنهجي كذا وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني، بدون أي آية، هل يكون هذا من الحكمة أم لا؟ ليس من الحكمة، ومن كذبه فهو مأجور، وإلا لكان كل كاذب دجَّال يدَّعي أنه نبي أو ربما يدَّعي أنه رب.

إذن الآيات فيها نصر للرسل ورحمة بالمرسل إليهم، حتى يؤمنوا عن يقين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الهداية والضلالة بيد الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي: المشيئة، أن الله تعالى قد شاء جميع العباد، ومراتب القدر مرت علينا كثيرًا، وهي أربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، مجموعة في قول الشاعر:

عِلْمٌ كتابةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وهْوَ إِيْجَادٌ وَتَكْوِينُ

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حكمة الله عزَّ وجلَّ في جعل الناس صنفين: مؤمنين وكافرين، وهذا أمر لا بد منه؛ لأنه لولا الكفر لم يعرف قدر الإيمان، ولولا الإيمان لم يعرف قبح الكفر، كما أنه لولا الحلو ما عرف المر، وهذا واضح، يعني: إذا لم يكن هناك أشياء مضادة ما عُرف قدر الأشياء المحمودة.

ثم إنه لولا اختلاف الناس في الإيمان والكفر ما قامت راية الجهاد؛ لأنهم كلهم إما مؤمنون وإما كافرون، فمن يُجاهَد؟! لولا هذا الاختلاف ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس سيكونون كلهم إما على مُنكَر وإما على معروف، لولا هذا الاختلاف ما قامت الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين كلهم لم يحتاجوا إلى دعوة، وإن كانوا كافرين ما دعوا، إذن من الحكمة أن الله جعل الخلق صنفين.

لكن قد يقول قائل: إذا كان أحد الناس من الصنف الآخر الكافر أفلا يكون في هذا ظلم له؟ وهذا قد يرد على النفس ما دمنا نقول: إن الكفر بمشيئة الله، وأن الله عزَّ وجلَّ بحكمته قسم الناس إلى قسمين أفلا يقول الكافر: إن هذا ظلم لي؟!

فالجواب: لا كما قال بعض أهل السنة وهو يجادل معتزليًّا لما قال: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليَّ بالشقاء، فهل أساء إليَّ أم لم يسئ إليَّ؟

فقال له السنيُّ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ ويجيب معناهما واحد، والجملة فيها حصر، طريقه: إنما، يعني: ما يستجيب لدعوتك يا محمد إلا الذين يسمعون، والمراد بالسماع هنا: سماع الانقياد والقبول، وليس سماع الإدراك؛ لأن سماع الإدراك يدخل فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ويدل على ذلك ـ أي على التفريق بين سماع القبول والإذعان وسماع الإدراك ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] أي لا يستجيبون وينقادون.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الذين إعرابها: فاعل، ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ هذه جملة مستأنَفَة لا يصح أن تعطف على ما سبق، والموتى: جمع ميت، وهل المراد موتى القلوب أو موتى الأجساد؟ في ذلك قولان للعلماء:

بعضهم قال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: موتى القلوب وهم الكفار، يبعثهم الله فيجازيهم، وبعضهم قال: الموتى موتى الأجساد، يبعثهم الله ردًّا على الذين ينكرون البعث.

وإذا كانت الآية تحتمل معنيين ليس أحدهما أظهر من الآخر ولا منافاة بينهما، فالقاعدة أن تحمل عليهما جميعًا، فالموتى من هؤلاء الكفار سيبعثهم الله ويجازيهم، والموتى موتى الأجساد الذين فارقت أرواحهم أجسادهم سوف يبعثهم الله، فيكون في الآية تهديد ووعيد ورد على من ينكرون البعث.

وقوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يخرجهم من قبورهم يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ثم بعد البعث يُرجعون إلى الله عزَّ وجلَّ ويكون أمرهم إلى الله تعالى، وفي ذلك الوقت ليس هناك مخاصم ولا مجادل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** حصر الاستجابة لدعوة الرسل بالذين يسمعون سماع القبول والإذعان.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كُلَّما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله صارت استجابته أقوى، مأخوذ من القاعدة المعروفة: (أن ما عُلِّق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب هذا

الوصف الذي عُلِّق عليه الحكم)، ومثال ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] فكلما كان أقوى كان أخير، وأنفع، وكذلك الأمانة، كلما كان آمن فهو أخير، وهذه القاعدة مفيدة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث وهو - أعني الإيمان بالبعث - أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل حينما قال: «**أخبرني عن الإيمان**». قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

٤ - **ومن هذه الفوائد:** أن هؤلاء الكفار بمنزلة الموتى، وذلك لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون، كما أن الميت لا ينتفع بما يسمع، فكذلك هؤلاء الكفار.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد أولئك الكفار الذين لا يسمعون بأن الله سيبعثهم ثم يجازيهم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** قدرة الله عزَّ وجلَّ الكاملة، وذلك بالبعث، والبعث الذي يكون ليس يأتي كالإحياء شيئًا فشيئًا، فتجد البشر وغير البشر يخرج صغيرًا ثم ينمو حتى يتكامل، البعث يبعثون كلهم في لحظة واحدة، اقرأ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤] ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المرجع في النهاية إلى الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا الرجوع فيه حصر، طريقه تقديم المعمول في قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفائدة هذا التقديم - أعني تقديم المعمول في هذه الآية - لفظية ومعنوية:

أما المعنوية: فهي إفادة الحصر وأنه لا مرجع إلا إلى الله.

وأما اللفظية: فلتتناسب رءوس الآيات؛ لأن تناسب رءوس الآيات من البلاغة، انظر إلى سورة طه، كلها آخرها الألف إلا قليلًا، لما جاء ذكر موسى وهارون قُدِّم هارون على موسى لتتناسب الآيات، وإلا فمن المعلوم أن موسى أفضل من هارون.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٣٧]

التفسير

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المعاندون المكذبون للرسول، المتعنتون، قوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهم يريدون بذلك الآيات التي اقترحوها، مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء:٩٣] ومع ذلك يقولون: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣] وغير ذلك من الآيات التي اقترحوها.

ولكن من حكمة الله عزَّ وجلَّ أنه قطع هذا الباب وسدَّه، أعني: باب الاقتراح على الله عزَّ وجلَّ، فإنما الآيات عند الله سبحانه وتعالى، هو الذي يأتي بها وليس اقتراح الخلق، والخلق إذا اقترحوا آية معينة ثم أتوا بها فلم يؤمنوا هلكوا، هذه سنة الله عزَّ وجلَّ، ولا يرد على هذا أن قريشًا قالوا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أرنا آية يا محمد فأشار إلى القمر فانشق نصفين(١)، قال أهل العلم: إنما لم يهلكوا؛ لأنهم لم يقترحوا آية معينة، ولو اقترحوا آية معينة ثم جاءت ولم يؤمنوا لهلكوا، هكذا قرر أهل العلم رحمهم الله.

وقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ آية: أي: علامة تدل على صدقه وصحة رسالته.

وهنا نقف لنبين أن بعض العلماء وما أكثرهم! يعبرون عن آيات الرسل بالمعجزات، وهذا نقص عظيم؛ لأننا لو سَّميناها المعجزات لورد علينا ما يفعله السحرة، فإن السحرة يفعلون ما يعجز عنه البشر، لكن آية تحدد المعنى وهو: العلامة على صدقه وصحة رسالته، ولذلك لا تجد في القرآن أن الله عبَّر عن آيات الرسل بالمعجزات، أبدًا، إنما يعبر عنها بالآيات.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون بذلك: الله عزَّ وجلَّ، وفي هذا التعبير تكبُّر وتعالٍ، حيث قالوا: من ربه، ولم يقولوا: من الله، كأنهم في شق والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع الله في شق آخر، ما قالوا: من ربنا، ولا: من الله.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ليس بعاجز على أن ينزل آية، بل هو قادر، لما طلب الحواريون من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء، هل قدر الله عليها؟ نعم، قدر الله عليها - على قول من يقول إنها نزلت -، وكذلك آيات الرسل الحِسِّية والمعنويَّة، كلها من عند الله، فهو قادر على أن ينزلها عليهم، لكنه لا يريد أن يأتي بما يطلبه هؤلاء؛ لأنه لو جاءت الآيات حسب الاقتراح لكان كل واحد يقترح ما يرى أنه آية، وقد يقترح ما يرى أنه آية وليس بآية، لذلك نقول:

---

(١) تقدم تخريجه.

الآيات عند الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ ولكنه سبحانه لا يريد، وإذا لم يرد لم يكن.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١] أي لا يعلمون أن الله عزَّ وجلَّ هو الذي ينزل الآيات، وهو قادر على أن يأتي بآية، وقادر على ألا يأتي بآية، فهم جهلة، ولو كان عندهم علم لعلموا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يمكن أن يأتي بآية، بل الذي يأتي بها هو الله.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تعنت هؤلاء المكذبين حيث احتجوا بهذا، أن الله لا يُنَزِّل عليهم آية، ولكن هل هذه الدعوة حق أو باطل؟ والله إنها باطل، آيات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشاهدة معلومة، من آياته العظيمة: هذا القرآن الذي جعل كبار قريش يتسللون لِوَاذًا في الليل ليستمعوا قراءة النَّبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأنها سحرت ألبابهم، وأعجبتهم إعجابًا كثيرًا، لكنهم معاندون.

كذلك آيات كثيرة حِسيَّة مثل ما حصل لعمه أبي طالب من البركات في أهله وماله بسبب حضانته للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذلك أيضًا صد أعدائه عنه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩]، والآيات كثيرة يعرفونها لكنهم مستكبرون.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** استكبار هؤلاء وترفعهم حيث قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ لم يقولوا: من ربنا، ولم يقولوا: من الله، كأنهم في جانب والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم والله في جانب آخر.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** انتصار الله عزَّ وجلَّ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث يدافع عنه، لما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لا شك أن هذا يوجب ضغطًا على الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم فالله تعالى يجيب عنه انتصارًا له: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات قدرة الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ وهذه القدرة قدرة كاملة، لا يلحقها شيء من العجز، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] فلكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء؛ لأن العجز عن الشيء سببه إما الجهل وإما الضعف، فالله عليم قدير.

وهذه القدرة تتعلق بكل شيء، فهو على كل شيء قدير، ولا تبحث كما بحث المتكلمون، المتعمقون، المتنطعون، هل تتعلق بالممكن والواجب والمستحيل، أو بالممكن والواجب فقط دون المستحيل، هذا كلام فارغ، الله عزَّ وجلَّ أطلق قدرته ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هناك عبارة لبعضهم يقولون: خصَّ العقلَ ذاتَهُ فَلَيْسِ عليها بِقَادِر!! وهذا كلام باطل، يعني: إن العقل دلَّ على أن الله لا يقدر على نفسه، وهذا يعني: تعطيل الله عزَّ وجلَّ عن كل فعل، يعني: ما يقدر أن يفعل أي شيء فيما يتعلق بنفسه، ونحن نقول: إن الله على كل شيء قدير، فإذا قال قائل: هل تقول إن الله يقدر على أن يهلك نفسه؟

فالجواب: إن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه الكمال من كل وجه، والهلاك نقص، فلا يمكن، وهذا السؤال غير وارد، ولكن المتكلمين يوردونه حتى يصلوا إلى أن القدرة لا تتعلق بالمستحيل، يذكر أن الشيطان يضع كرسيه على البحر، ويرسل جنوده، يضلون الناس، فإذا مات العابد لم يكترث بذلك، وإذا مات العالم فإنه يفرح فرحًا عظيمًا، فقال له جنوده: كيف تفرح هذا الفرح بموت العالم، والعابد لا تكترث به؟! قال: لأن العالم أضر علي من العابد، العابد إذا مات لم يفقده إلا نفسه، والعالم تفقده الأمة، العالم إذا اهتدى هدى الله به الأمة، والعابد في مسجده، وإن شئتم ضربت لكم مثلًا.. ويقال إنه أرسل إلى العابد وقال له يا فلان: هل يستطيع الله عزَّ وجلَّ أن يجعل السموات والأرض كلها في بيضة؟ العابد قال: لا. وذهب إلى العالم فقال له: هل يقدر الله أن يجعل السموات والأرض في بيضة؟ قال: نعم، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون! فجاء المندوب وهو يقول: انظروا إلى هذا العابد كفر وهو لا يعلم، أنكر قدرة الله عزَّ وجلَّ، وذاك العالم آمن قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

على كل حال: قصدي من هذه المسائل أن التعمق فيها خطأ، أثبت ما أثبته الله لنفسه، وهو أن الله على كل شيء قدير، وأعرض عما سوى ذلك.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أفعال الله عزَّ وجلَّ مقرونة بمشيئته، بمعنى: أن ما لم يشأه لم يكن وإن كان قادرًا عليه، لقوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ ولكنه لم يشأ.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أكثر هؤلاء المنكرين المكذبين لا يعلمون حقيقة الأمر؛ لأنهم لم يتفكروا، ولو تفكروا لعلموا، لكنهم معرضون.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]

التفسير

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ المراد بالدابة: كل ما يدب

على الأرض، بأرجل متعددة، أو أربع، أو ثنتين، أو يزحف على بطنه، أي: دابة في الأرض، وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ فذكر المخلوقات الأرضية والمخلوقات الهوائية، التي تسبح في الجو، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ إلا أمم أمثالكم.

الطيور على اختلاف أنواعها، وكذلك الدواب على الأرض باختلاف أنواعها كلها أمم مثلنا، تختلف في أجناسها وألوانها، وقدراتها، وأرزاقها، ولغاتها، كما أننا كذلك.

وقوله: ﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ هذا من باب التوكيد؛ لأنه من المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه كما إذا قلت: يمشي برجليه، أو ينظر بعينيه، أو يسمع بأذنيه، وما أشبه ذلك فهو من باب التوكيد، وأما دعوى بعضهم أن هذا قيد تخرج به الطائرات، فإن الطائرات تطير لكن ليس بجناحين فهذا خطأ؛ لأنه شيئًا لم يكن معروفًا في ذلك الوقت لا يصح الاحتراز منه؛ لأنه غير وارد أصلًا، فالصواب أن قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من باب التوكيد.

على أني أقول: إن الطائرة مركبة على الطير، فيها جناح يمين ويسار يمنعها من التأرجح، فيها أيضًا هواء، والطير يطير بالهواء، وفيها أيضًا انخفاض العجل عند النزول وارتفاع عند الطلوع، المهم أن الذي سمعنا وقرأنا ورأينا في الصورة أن هذه الطائرات مركبة على حسب الطيور.

وقوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ هذه الأمم ـ سبحان الله ـ متنوعة، متفرقة، مختلفة في الأحجام والألوان، والقوى، وفي كل شيء. أيضًا مختلفة في اللغات والألسن، هل تعرف البقرة ما تقول به الهرة من الصوت؟! لا تعرف، وكذلك العكس، لكن البقرة تعرف لغة البقرة، وهرة مع هرة تعرف، وتأمل ـ سبحان الله ـ تجد الهرة لها أصوات مختلفة، إذا كانت تريد الفحل فلها صوت خاص، إذا كانت تريد أن تدعو أولادها الصغار لها صوت خاص، قد تدخل على المكان ثم تنعق لأطفالها فإذا هم مجتمعون عليها ـ سبحان الله ـ كذلك غيرها مثلها، كل واحد من هذه الأمم لا يعرف لغة الأمم الأخرين، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أعطى كل نوع من هذه الأمم هداية يهتدي بها كيف يعيش، ويُقال: إن أذكى ما يكون النمل، أعطاه الله ذكاءً عجيبًا، هو من الحيوان الذي ينظر إلى المستقبل، فإذا جاء وقت الحب جمع الحب في جحوره، وماذا يصنع؟ يأكل رأس الحب من أجل ألا تنبت؛ لأنها لو نبتت فسدت عليه، ثم إذا جاءت الأمطار ووصل المطر إلى الحب خرج به من مكانه، ينشره لئلا يفسد، ولاتقاء رائحته، وهذا مُشاهد ـ سبحان الله ـ.

وسأل سائل يقول: هل يجوز إذا رأيت هذا الحب الذي يخرجه النمل أن آخذه؟

الجواب: هل نقول: يجوز أخذه عند الضرورة فقط؛ لأن حرمة الآدمي أعظم من حرمة النمل، ثم نقول أيضًا: يجوز، إذا كان النمل يمكن أن يتغذى بغيره؛ لأن النمل في أيام الشتاء ما تخرج، تبقى في جحرها، فهي محتاجة، فنقول: الذي أراه في هذه المسألة: إذا كان الآدمي مضطرًا لذلك فهو مقدم، وإذا لم يكن مضطرًّا نظرنا: إذا كان يمكن أن تجلب طعامًا غيره فلا بأس أن يأخذه،

وإلا فيبقيه له، لأني أخشى أن يكون هذا من جنس حبس الهرة التي دخلت النار امرأة بها، لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[1].

نظير ذلك أيضًا: وجدت مع هرة لحم جاءت بها من الجيران، هل لك أن تأخذه من هذه الهرة؟ يؤخذ من الهرة ويرد إلى صاحبه، لاسيما إذا كانت دجاجة وهي حية، أنقذها وأعطها للجيران.

المهم أن هذه الدواب أمم أمثالكم ولها عجائب، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «مفتاح دار السعادة» العجب العجاب من هذه الأمم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ فرطنا يعني: أهملنا، والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، وليس الكتاب العزيز، الكتاب العزيز قال الله فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] فالمراد بالكتاب هنا: اللوح المحفوظ، يعني: ما أهمل الله شيئًا إلا كتبه في اللوح المحفوظ.

ولا يشكل عليك أن تقول: كيف يكتب كل شيء حتى أصناف الدواب؛ لأننا نقول: الواجب على الإنسان أن يؤمن بما أخبر الله به سواء أدركه عقله أم لم يدركه، ولو كان الإنسان لا يؤمن إلا بما أدركه عقله لم يكن مؤمنًا حقًّا، فكل ما أخبر الله به من هذا وغيره فالواجب علينا أن نؤمن به ولا نعترض ولا نورد سواء أدركناه بعقولنا أم لم ندركه.

على أنه وجد الآن من صنع البشر أشياء صغيرة تحتمل كلمات كثيرة جدًّا وهي من صنع البشر، هذه الأقراص المدمجة تحمل كثيرًا جدًّا من الكلمات، وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (مِنْ) هذه: زائدة للتوكيد، وليعلم أنه ليس في كتاب الله تعالى شيء زائد لغير معنى أبدًا؛ لأن القرآن لفظ ومعنى، لكن قولنا زائد بمعنى الزيادة الإعرابية، يعني: زائد إعرابًا، أما معنى فلا.

يعني: كل شيء، فإن الله تعالى كتبه في هذا اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ سبحان الله، يعني : ثم بعد أن تنتهي الدنيا إلى ربهم - الذي خلقهم عزَّ وجلَّ وكتبهم في اللوح المحفوظ - يحشرون أي: يجمعون.

ولا تتعجب أيضًا تقول: كيف تحشر هذه الدواب والسباع والبهائم والطيور وغيرها، لا تستغرب، الواجب عليك أن تصدق، والمسألة فوق ما يطيقه العقل، كلهم يحشرون إلى الله، كلهم يقتص للمجني عليه من الجاني، حتى الشاة التي ليس لها قرون تقتص من الشاة التي لها قرون إذا نطحتها في الدنيا - سبحان الله - كمال العدل، ولهذا يظهر يوم القيامة من تمام عدل الله عزَّ وجلَّ ورحمته وغضبه أيضًا ما لم يكن سابقًا، حتى يظهر تمام العدل بين الخلائق جميعًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يجمعون بعد الحياة.

---

(١) رواه البخاري (٣٣١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ما من حيوان يدبُّ على الأرض أو يطير في السماء إلا وهو مكتوب عند الله عزَّ وجلَّ.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربي، بمعنى: أنه جرى على ما ينطق به العرب في لغتهم، فإذا كان من عادة العرب مثلًا أن يؤكدوا شيئًا - بما يزيده قوة - جاء به القرآن.

ولذلك تجدون في القرآن الكريم كثيرًا من الإقسامات على الشيء ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق:١] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج:١] وما أشبه ذلك، هل هذا لشك فيما أخبر الله به؟ لا؛ لأن الله تعالى صادق سواء أقسم أم لا، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فجرى في التعبير على ما كان العرب يعبرون به.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فهو بالنسبة لعظمة الله عزَّ وجلَّ كالنملة، أمم أمثالكم، إذن لا ترتفع، ولا تتعالى، ما أنت إلا مثل هذه الدواب، بالنسبة لعظمة الله عزَّ وجلَّ، وإن كان الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠] لم يُفضِّل بني آدم على كل ما خلق الله بل على كثير مما خلق الله، وما يتوهمه بعض الناس من أن بني آدم هم أعظم المخلوقات فخطأ، لماذا؟ لقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ما قال على ما خلقنا!

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله عزَّ وجلَّ لم يهمل شيئًا في اللوح المحفوظ، كل شيء كتبه، لقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ولأن الله تعالى أمر القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[1].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مآل هذه المخلوقات الطائرة والزاحفة إلى الله عزَّ وجلَّ، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ الجملة هذه معطوفة عطف جمل، قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) تقدم تخريجه.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي قالوا: إنها كذب، ولم يصدقوا بها، جاءوا للآيات الكونية وقالوا: هذه سحر، كما قال فرعون حين رأي آيات موسى قال: هذه سحر، وكما قال الله عزَّ وجلَّ عن قريش: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢] فكذبوا بالآيات الكونية.

وكذبوا كذلك بالآيات الشرعية، ووصفوا الرسل بالكذبة، بالشعراء، بالكهنة، بالمجانين، بالمسحورين، وما أشبه ذلك، وهذا التكذيب بالآيات الشرعية.

هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ثلاث أحوال لهم:

الأولى: صمٌ في آذانهم لا يسمعون الكتاب سماع انتفاع، فانسد طريق الحق عنهم من جهة السماع.

الثانية: بكم جمع أبكم وهو الذي لا ينطق، فلا ينطقون بالحق، ولكنهم ينطقون بالباطل.

الثالثة: في الظلمات لا يبصرون، الظلمات محيطة بهم من كل جانب؛ لأن في تدل على الظرفية، والظرف محيط بمظروفه، فانسدت عليهم أبواب العلم والمعرفة: السمع، والبصر، والنطق - والعياذ بالله -.

وفي هذا قال الله عزَّ وجلَّ في سورة البقرة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وقوله: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ الجملة شرطية، فعل الشرط: يشأ، وجوابه: يضلله، أي: من يشأ الله إضلاله يضلله؛ لأن الأمر أمره عزَّ وجلَّ، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض عليه، ولا يسأل عما يفعل، فنسأل الله أن يهدينا فيمن هدى.

﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ فيعمى عن الحق ولا يصل إليه، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونقدر هنا: ومن يشأ هدايته، ﴿يَجْعَلْهُ﴾ أي: يصيره ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي على طريق مستقيم لا عوج فيه، وهو الإسلام .

الفوائد:

١ - **من هذه الفوائد**: بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من شاء الله هدايته اهتدى، ومن شاء إضلاله ضل، ويتفرع على هذه الفائدة: أن يلجأ الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله.

فإن قال قائل: هل هذه المشيئة مشيئة مجردة، بمعنى: أنه من شاء أن يهديه هداه، ومن شاء أن يضله أضله، بدون أي حكمة أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: الثاني، أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله تبارك

وتعالى وأحكام الله كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله: قال الله تعالى في المواريث: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]، وقال تعالى في الأمور القدرية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠] فلا مشيئة مجردة في أفعال الله ولا في أحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة.

ولكن: هل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

الجواب: قد تكون معلومة، وهذا ـ والحمد لله ـ هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لكل الناس، لا يحيطون بالله علمًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الصراط المستقيم هو دين الإسلام، لا اعوجاج فيه ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، مستقيم، ويضاف إلى ذلك: ولا تناقض فيه، لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيمًا، إذا قال قائل: هل للإنسان حجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟ فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله عزَّ وجلَّ، وفضل الله يؤتيه من يشاء، وأيضًا الإضلال لا بد أن يكون مبنيًا على حال العبد، لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ولقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩] فالحاصل أن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد أن يكون الإضلال من جرَّاء فعل العبد.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ﴾: أي: يا محمد، وإن شئت فقل: إن الخطاب عامٌّ لكل من يصح خطابه، ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ قال بعض العلماء: أرأيت بمعنى: أخبرني، والتاء للخطاب فاعل، والكاف للخطاب توكيدًا وليس لها محل من الأعراب، والميم علامة الجمع، وأرأيت تحتاج إلى مفعول أول ومفعول ثاني، لأن الرؤية هنا علمية، قالوا: المفعول الأول: محذوف، والمفعول الثاني: الجملة الاستفهامية: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في محل نصب، وهذا المحذوف يقدر بما يناسب الحال، فيكون التقدير هنا: (أرأيتكم حالكم عند الشدة) أغير الله تدعون؟ من غير الله تدعون عند الشدة؟ الجواب: لا ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤١]، إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا وقعوا في الشدة عرفوا الله.

والعجب أن المشركين إذا وقعوا في الشدة دعوا الله، وأن بعض طوائف هذه الأمة إذا وقعوا في الشدة دعوا غير الله، دعوا عبد القادر الجيلاني، دعوا علي بن أبي طالب، دعوا الحسين، وما أشبه ذلك، فصار حال المشركين خيرًا من حال هؤلاء.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أن غير الله يجيبكم، ولكن إذا كانوا يدعون الله عن الشدة صاروا كاذبين في دعواهم أن هذه الآلهة تنجيهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي، إبطال أنهم يدعون غير الله، وإياه: مفعول مقدم لتدعون، وتقديم المعمول يفيد الحصر، المعنى: بل لا تدعون إلا الله، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ يكشف بمعنى: يزيل، كما تكشف المستور فتزيل ستره حتى يبدو ويظهر، ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما دعوتم به إلى الله عزَّ وجلَّ، أي: يكشف الدعاء الذي أنهيتموه إلى الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ وإنما قال: إن شاء لِئلَّا يطمع هؤلاء في كشف الكربة، فإذا لم تكشف احتجوا على الله، فإذا قال إن شاء، صارت المسألة تحت مشيئة الله، قد يشاء الله عزَّ وجلَّ كشف هذه الكربة، وقد لا يشاء حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (تنسون) بمعنى: تذهلون عنه، لشدة ما وقع بكم، تنسى كل شيء، وقيل: إن النسيان هنا بمعنى: الترك، أي: أنهم يدعون الله عزَّ وجلَّ بحضور قلب، وذكر، وهما متلازمان في الظاهر؛ لأن الإنسان عند الدهشة ينسى معبوداته؛ ولأنه أيضًا عند الشدة يعتقد أن معبوداته هؤلاء لا ينفعون، فهي صالحة للأمرين، وفسرها كثير من المفسرين بأن النسيان هنا بمعنى الترك، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤] وقال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] والنسيان المضاف إلى الله هو الترك في مثل هذا، أما في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فالمراد بالنسيان هنا: أن يغيب عنه ما كان ذاكرًا له من قبل، لكننا نريد النسيان المثبت لله يجب أن يكون بمعنى: الترك لا بمعنى الذهول عن المعلوم، أما المنفي عن الله فهو الذي يكون بمعنى الذهول عن المعلوم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: تقرير الإنسان بما لا يمكنه دفعه، أن يُقرر بشيء يُقِرُّ به لا يمكنه دفعه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾؛ لأنهم في هذه الحال لا يدعون إلا الله، فإذا كان كذلك، فلماذا يُخلصون في الشدة، ويشركون في الرخاء؟!

وقوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المراد: أن الله قد لا يُعذِّب هؤلاء المكذبين ويؤخِّر ذلك إلى قيام الساعة، يعني: لا بد إما أن يصيبهم العذاب في الدنيا وإما أن يصيبهم في يوم القيامة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء المكذبين عند الضرَّاء لا يلجئون إلا إلى الله، لقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، بل ويعلم عزَّ وجلَّ أنه سيكفر إذا نجا؛ لأن الله ينجيه من الكرب وهو يعلم أنهم إذا نجوا سوف يشركون، لكن وقوعهم في الشدة تقتضي رحمة الله عزَّ وجلَّ أن يجيب دعاءهم.

ومثل ذلك المظلوم، فإن الله يجيب دعوته ولو كان كافرًا، فهذان صنفان تجاب دعوتهما: المضطر، والثاني: المظلوم، يجيب الله تعالى دعوته، أما المضطر فلأن رحمة الله سبقت غضبه، فيحمي المضطر ويجيب دعوته، وأما المظلوم: فلكمال عدل الله عزَّ وجلَّ أن يجيب المظلوم انتصارًا له على الظالم.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يصرف السوء إلا الله عزَّ وجلَّ، ويتفرَّع على هذا أنه إذا أصابك السوء فلا تلجأ إلا إلى الله عزَّ وجلَّ.

وهل هذا اللجوء فطري أم هو شرعي عقلي؟

الظاهر: الثاني؛ لأن بعض الذين يصيبهم الضُرّ لا يلجئون إلى الله، كالرافضة مثلًا إذا أصابهم الضر يلجئون إلى أئمتهم، علي بن أبي طالب أو الحسين أو غيرهما من أئمتهم، ونحن لا ننكر أن لأئمتهم الحقيقيين درجة عند الله عزَّ وجلَّ على حسب عملهم، ولكننا ننكر أن يدعى هؤلاء من دون الله عزَّ وجلَّ.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحذر من ممارسة السيئات، فإن الإنسان ربما يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ ثم يعود، ولهذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتنسون هنا بمعنى: تتركون يعني: أن الآلهة التي كنتم تشركون بها تتركونها، وقد ذكرنا في التفسير أن المعنى يحتمل الترك أو الذهول لشدة ما نزل بهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ما أكثر ما يرد في القرآن الكريم مثل هذا التعبير، لقد قال أهل العلم: واللام موطئة للقسم يعني: أنها تمهد للقسم فيكون قبلها قسم مقدر، واللام موطئة للقسم مؤكدة له، وقد مؤكدة أيضًا، فيكون في هذا مؤكدات ثلاثة.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: أرسلنا رسلًا إلى أمم من قبلك، وأمم جمع أمة، والأمة في القرآن الكريم ترد على معانٍ متعددة، ترد بمعنى: الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا، وترد بمعنى: الوقت، مثل قول الله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد زمن، وترد بمعنى: الطائفة كما هنا، أي: طائفة وشعب، وما أشبه ذلك.

وهل ترد بغير هذا؟ ترد بمعنى رابع وهو: الدين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٢] أي: على ملة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لأن كل الأمم التي أرسلت إليها الرسل كلها قبل الرسول ﷺ؛ لأنه خاتمهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أخذناهم بالبأساء، الفاء: عاطفة، وهل هي عاطفة على إرسال الرسل بمعنى: أن الرسل أرسلوا ليؤخذ هؤلاء بالبأساء والضراء؟ لا، لكن في الآية حذفًا تقديره: فكذبوا أو كفروا أو ما أشبه ذلك، وهذا يُسمى إيجاز حذف؛ لأن الإيجاز عند البلاغيين نوعان: إيجاز قَصْر: وهو أن تكون الكلمات القليلة تحمل معاني كثيرة، وإيجاز حذف: وهو أن يكون في الكلام القليل شيء محذوف يدل عليه السياق، وهنا لا شك أن في هذا الكلام شيئًا محذوفًا والتقدير: (فكذبوا).

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ البأساء: يعني الشدة، والضراء: التضرر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ لعل هنا: للتعليل، أي لأجل أن يتضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكن هل حصل هذا؟

❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ ولولا هنا بمعنى: (هلَّا) يعني: فهلا إذ جاءهم البأس تضرعوا، الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صَلُبت ولم تَلِنْ، وبقوا على ما هم عليه، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ زين بمعنى: حَسَّنَ لهم ما كانوا يعملون يعني: من المعاصي والكفر والشرك، ولم يقتصر على تهوين الأمر في قلوبهم، بل زينه لهم، وزين لهم السيئات، والشيطان المراد به: الجنس، وليس المراد: شيطانًا واحدًا معينًا بل الجنس، كما تقول: الإنسان يراد به الجنس.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿نَسُوا۟﴾ بمعنى: تركوا، وأعرضوا عما ذكروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني: من نعيم الدنيا، فتح الله لهم أبواب كل شيء من نعيم الدنيا، من الرزق والأمن والرخاء وغير ذلك من أنواع الترف.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: فرح بطر ومرح، ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي: بما أعطوا مما فتح الله عليهم ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذناهم بالعذاب، ﴿بَغْتَةً﴾ أي: شيئًا مباغتًا لم يطرأ لهم على بال لأنهم انغمسوا في الترف ونسوا العذاب.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ إذا هذه: فجائية، والمعنى: فاجأهم الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

فوائد الآيات الثلاث:

١ - **من فوائد الآية الأولى:** إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل، وهذا كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومن تمام الحجة بإرسال الرسل أن الرسل أتوا بلسان قومهم أي: بلغة قومهم الذين أرسلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحجة، فيتفرع على هذا أنه لا تقوم الحجة بمجرد البلاغ حتى يفهمها المرسل إليهم، وإلا فما الفائدة؟ إلا أنه يجب على من بلغه ولم يفهم أن يبحث، وهذه النقطة الأخيرة ربما تكون سدًّا لعذرهم، إذا قالوا: ما فهمنا، نقول: يجب عليكم أن تبحثوا، لكن أحيانًا يتعذر البحث لكونهم لا يجدون من يثقون به فيبقون جاهلين.

٢ - **ومن فوائدها:** رحمة الله تبارك وتعالى بالخلق، حيث أرسل إليهم الرسل لإقامة الحجة ولبيان المحجة أي: الطريق، فلولا الرسل ما عرفنا، لولا أن النبي ﷺ بين لنا كيف نتوضأ ما عرفنا، كيف نصلي، ما عرفنا ... إلخ، فإرسال الرسل من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومن فوائدها:** حذف السبب وذكر المُسبَّب والنتيجة ليكون ذلك أشد وقعًا وهيبة في قلب المخاطب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم﴾ ولم يذكر التكذيب، حتى يكون أشد ويبحث الذهن: لماذا أخذوا؟

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يبتلي بالبأساء والضراء لكن لحكمة، لا لمجرد إلحاق الضرر بالخلق، ما هي الحكمة؟ بيَّنها في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وإلا فإن الله لا يمكن أن يريد مجرد الإضرار، بل كل ما ضر الناس من تقديرات الله فالمراد به مصلحة الخلق.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الأخذ قد يكون بالبأساء وقد يكون بالضراء، قد يكون بالشدة التي يتأذى بها الإنسان بدون ضرر، وقد يكون بالضرر، فمثلًا: الخوف والجوع وما أشبه ذلك هذا شدة، المرض المباشر للشخص: هذا ضرر، فالأخذ إما هذا وإما هذا.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في أفعال الله، تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، وثبوت الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وفي شرعه أمر معلوم لكل ذي عقل؛ لأن كون الأفعال والأحكام تصدر عن حكمة يدل على كمال الفاعل والمشرِّع، ولكن هل كل فعل أو حكم جاء من عند الله يكون معلومًا لنا حكمته؟ الجواب: لا؛ لأن عقولنا أقصر من أن تحيط بحكمة الله عزَّ وجلَّ، لكن نعلم علم اليقين أن ذلك لحكمة، ولهذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة: ما بال الحائض تقضي الصوم

ولا تقضي الصلاة؟ ما ذهبت تعلل فتقول الصوم لا يأتي في السنة إلا مرة وقضاؤه سهل، والصلاة تأتي في اليوم والليلة خمس مرات فقضاؤها صعب، والصوم لا نظير له في السنة، يقوم مقامه، والصلاة لها نظير، إذا لم تصلِّ اليوم صلت غدًا... إلخ. ما قالت هذا، بل قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[1]. فجعلت مجرد الحكمة هو أمر رسول الله ﷺ بذلك، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يؤمن بأن جميع أفعال الله وجميع شرائعه كلها لحكمة، لكن قد نعلم وقد لا نعلم.

الفقهاء رحمهم الله يعبرون عن الشيء الذي لا تُعلم حكمته بأنه تعبُّدي، بمعنى أنه ليس علينا إلا أن نتعبد به لا أن نعلم حكمته، وأحيانًا يقولون على الشيء تعبدي وهو معلوم الحكمة، وأحيانًا يكون القول صوابًا.

ومن هذه الأمة من أنكر الحكمة وقال: إن الله عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة ويحكم ما يشاء بمجرد المشيئة!! وهذا غلط، ونقص، قالوا: لأنه لو فعل لحكمة لكان ذلك لغرض، وكونه يفعل لغرض نقص، ولهذا من عباراتهم الفاسدة الحسنة منظرًا أو مسمعًا: إن الله مُنَزَّه عن الأعراض، والأبعاض، والأغراض!! أما الأعراض: فمرادهم بذلك ما يعرض للفعال من فعل أو ترك أو نحو ذلك، ولهذا ينكرون الاستواء على العرش، وينكرون النزول إلى السماء الدنيا، والأبعاض: يقصدون بها الوجه واليدين وما أشبهها، والأغراض: يريدون بها الحكمة، فيقولون: لو كانت أفعاله لحكمة أو شرائعه لحكمة لكان له غرض، والله تعالى مُنَزَّه عن الأغراض، والجواب عن هذا سهل: هل الغرض الذي تتطلبه الحكمة هل هو لمصلحة الله أو لمصلحة الخلق؟ الثانية قطعًا، وإلا فإن الله يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر:٧] فهذه الحكمة التي تضمنها الفعل أو الشرع أو الحكم هذه لمصلحة الخلق، وحينئذ تكون كمالًا.

٧ - **ومن فوائد الآية الثانية:** وجوب التضرع إلى الله عزَّ وجلَّ، والتضرع: بمعنى اللجوء والإنابة إلى الله تعالى والقيام بما يجب له من عقيدة أو قول أو عمل.

٨ - **ومن فوائدها:** بيان شدة قسوة هؤلاء المعذَّبين، أنهم لما جاءهم العذاب ليتضرعوا صار أمرهم العكس، بل زاد ذلك قسوة لقلوبهم، وكان الذي ينبغي أن يتضرعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا قد يقع من الإنسان، ألَّا تزيده البأساء والضراء إلا قسوة في القلب، وسخطًا على الله عزَّ وجلَّ والعياذ بالله، وشعورًا بما لا ينبغي فإن بعض الناس إذا ابتلوا ببلاء قالوا: لماذا يظلمني؟ لماذا يصيبني بما لم يصب به غيري؟! ثم يقسو قلبه، والعياذ بالله، ومن ثم وجب الصبر على من أصيب

---

(١) رواه البخاري (٣٢١) ومسلم (٣٣٥)، وأبو داود (٢٦٣)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٦٣١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

بمصيبة، حتى لا يقسو قلبه، فيقال: أنت عبد لله، أليس كذلك؟ والعبد خاضع لفعل السيد، والله عزَّ وجلَّ يفعل بعبده ما يشاء، كما أنه يفعل مثلًا في السماء ما يشاء، وفي الأرض ما يشاء، وفي الرياح ما يشاء، كذلك أنت، أنت خلق من المخلوقات، يفعل بك ما يشاء، لكن عليك الصبر عند الضراء والشكر عند السراء.

ومع ذلك ـ والحمد لله ـ الضراء التي تصيب الإنسان تكون تكفيرًا لسيئاته، وما أكثر السيئات، أي شيء يصيبك حتى الشوكة إذا أصابتك فإنها تكفر السيئات[1]، فإن احتسبت أثبت ثواب الصابرين، فلم يفرط الله تبارك وتعالى بشيء فيما ينفع الخلق.

٩ - ومن فوائدها: إثبات قسوة القلب بعد لينه، لقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكما في آية البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٧٤] فقسوة القلب تحدث، ولين القلب يحدث أيضًا، فكلاهما حدثان، والواجب على الإنسان أن يلاحظ دائمًا قلبه، ألين هو أم لا؟ أمخبت إلى الله أم لا؟ أمخلص لله أم لا؟ الأعمال الظاهرة كل إنسان يستطيع أن يأتي بها على أحسن وجه، حتى المنافق يمكن أن يأتي بالصلاة على أحسن وجه، يمكن أن يتصدق، لكن أعمال القلوب هي والله الصعبة، حرر قلبك من رق المعاصي حتى تتحرر.

فإذا قال قائل: ما دواء قسوة القلب؟

وهذا سؤال يرد كثيرًا من بعض المستقيمين الذين من الله عليهم بالاستقامة ثم يحصل لهم هزة فيقسو القلب، **فالجواب:** أن من أسباب إزالة القسوة:

أولًا: كثرة قراءة القرآن بتدبر، وأن تشعر وأنت تقرأ أن هذا كلام الله عزَّ وجلَّ، لا كلام البشر، كلام الله خالق السموات والأرض، وحينئذ تعظم هذا الكلام وتنتفع به.

ثانيًا: كثرة الذكر، ذكر الله عزَّ وجلَّ، أكثر من ذكر الله، وذكر الله عزَّ وجلَّ ليس فيه صعوبة؛ لأن الذي يتحرك هو اللسان والشفتان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

ثالثًا: مصاحبة الأخيار، فإن مصاحبة الأخيار تكسب الإنسان خيرًا كثيرًا، وفي الحديث: «**أن الجليس الصالح كحامل المسك إما أن يحذيك ـ يعطيك تبرعًا ـ وإما أن يبيعك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة**»[2]، فاحرص على مصاحبة الأخيار، ولكن انتفع بهم وانفعهم؛ لأنه ما من أحد معصوم.

رابعًا: رحمة الصغار، لاسيما اليتامى، فإنها توجب رقة القلب، وجرب تجد، ولقد قال النبي

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﵄.

(٢) رواه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى ﵁.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ[1] يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2].

وهناك أسباب أخرى تظهر للمتأمل في دواء قسوة القلب، أسأل الله تعالى أن يلين قلوبنا جميعًا لذكره، ولطاعته إنه على كل شيء قدير.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات قسوة القلب وهي صلابته وعدم لينه للحق، لقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن الشيطان يزيِّن لبني آدم سوء العمل، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الله تبارك وتعالى قد يسلط على العبد مَن هو عدو له، ولا يعد هذا ظلمًا من الله عزَّ وجلَّ، كلا؛ لأن الله قد بين لنا هذا العدو وحذَّرنا من اتباع خطواته، فلا عذر لنا.

١٣- **ومن فوائدها:** أن الرجل إذا سلط عليه الشيطان صار السيء في نظره حسنًا وصار الحسن سيئًا، لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ومن المعلوم أنهم يعملون بالمعاصي.

١٤- **ومن فوائد الآية الثالثة:** أن الله تعالى عجل لهم العقوبة، لكن على وجه الاستدراج لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

١٥- **ومن فوائدها:** أن يحذر الإنسان عقوبة الله عزَّ وجلَّ، إذا منَّ الله عليه بتيسير أمور الدنيا من مأكل ومشرب ونكاح ومركب ومسكن، فلا يغترّ بهذا؛ لأنه قد يكون استدراجًا، ولهذا قال بعض السلف: (إذا رأيت الله عزَّ وجلَّ ينعم على الإنسان مع تماديه في العصيان، فاعلم أن ذلك استدراج)، وصدقوا، فلا تغترَّ أيها الإنسان، فقد تبتلى بالنعم كما تبتلى بالنقم، وقد تكون البلوى بالنعم أشد من البلوى بالنقم.

١٦- **ومن فوائدها:** أن الذي بيده الرخاء والشدة هو الله، لقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

١٧- **ومن فوائدها:** أنه يجب الحذر من الفرح الذي هو فرح البطر بنعم الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي فرح بطر، أما إذا فرح الإنسان بما يسره من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة فرح سرور وانبساط بنعمة الله فإن هذا لا بأس به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) قال الطيبي: أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر، والناطق والبهم، والوحوش والطير انتهى.

(٢) صحيح: رواه أبوداود (٤٩٤١)، و الترمذي (١٩٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١٧٦٨٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٣٥).

﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨].

١٨- ومن فوائدها: أن الإنسان قد يأتيه العذاب بغتة، فبينا هو في نعيمه وسروره في الدنيا منغمسًا في معاصي الله، إذا بالعذاب يأتيه بغتة، وسواء كان هذا العذاب عامًّا شاملًا، أو كان خاصًّا، قد يُبتلى بمرض، أو بحوادث تكسِّره وتحطمه، أو بموت عاجل، ولهذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: أخذ بغتة أي مباغت، والمباغت: هو الشيء الذي لا يتوقعه الإنسان فيقع في غير توقع له.

١٩- ومن فوائدها: أن هذا الأخذ الذي توعد الله به عزَّ وجلَّ أخذ مُدمِّر، لقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير.

قال الله تعالى:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥]

التفسير

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُطِعَ﴾ الفاء عاطفة، وتدل على الترتيب والتعقيب، قطع دابر القوم أي: هلكوا عن آخرهم؛ لأنه إذا قطع الدابر وهو الآخر، فما سبقه من باب أولى، ولم يفصح جل وعلا بالقاطع لأنه معلوم، وهو الله عزَّ وجلَّ، لكنه تبارك وتعالى في الأمور التي تسوء يأتي بها بصيغة ما لم يسمَّ فاعله، وهو كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] الجن يؤمنون بأن مريد الشر هو الله عزَّ وجلَّ، يعرفون أن الشر والخير بيد الله عزَّ وجلَّ، هو الذي يدبر، لكن كرهوا أن يضيفوا الشر إلى الله فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠].

الفوائد:

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأن هذه العقوبة مرتبة على قوم اتصفوا بالظلم، فيكون الظلم سببًا للعقوبة، وهذا من كمال الله تبارك وتعالى، أن تكون أفعاله لحكمة، وأحكامه الشرعية لحكمة.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الظلم سبب للعقوبة والهلاك، لأن الحكم إذا علق على وصف صار ذلك الوصف علة له، يزداد الحكم قوة بقوته، وينقص بنقصه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله محمود على قطع دابر الظالمين، وهو كذلك محمود على جلب النعم وعلى دفع النقم، والظالم إذا أهلكه الله فإن ذلك من تمام عدله ورحمته، لأنه يكون نكالًا لما بين يديه وما خلفه، أما المعنى فلا إشكال فيه.

والمراد بالذين ظلموا: الكفار، لأن كل إنسان كافر هو ظالم في حق نفسه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧] وهو بحق الله معتد، حيث لم يقم بالحق الواجب عليه.

قال الله تعالى:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: قل يا محمد: أخبروني: إن أخذ الله سمعكم بحيث لا تسمعون الكلام، وأبصاركم بحيث لا ترون الأفعال، وختم على قلوبكم بحيث لا يكون لديكم وعي ولا عقل، من إله غير الله يأتيكم به؟! سيكون جوابهم : لا أحد، لأنهم يقرون ويعترفون بربوبية الله عزَّ وجلَّ وبما يترتب عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ﴾ أي: نظر اعتبار وبصيرة، ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نوعها، والآيات: جمع آية وهي العلامة التي يحصل بها الطمأنينة لاشتمالها على الدليل، يعني: أن الآية ليست مجرد علامة، بل هي العلامة التي تكون دليلًا على الشيء، فهي أخص من مطلق العلامة.

ومعنى ﴿نُصَرِّفُ﴾: ننوع الآيات، الشمس والقمر، ليل، نهار، رخاء، شدة، حر، برد... إلخ، آيات منوعة.

وقوله: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ أي: ينصرفون عن الحق وعن الآيات، وتأمل قوله: ﴿ثُمَّ﴾ الدال على التراخي، يعني: ثم بعد أن بان لهم الأمر واتضح ﴿هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ أي: لا ينتفعون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تحدي هؤلاء الذين أشركوا بالله بهذه المسألة اليسيرة، وهي أن الله إذا أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم من يأتيهم بها؟

الجواب: لا ينصرف هذا إلا لله عزَّ وجلَّ، وهذا تحدٍ لهم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان إذا أصيب في سمعه أو بصره أو قلبه أو سائر جسده فليلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه لا أحد ينفعه إلا الله.

فإن قال قائل: إذن لا نذهب إلى الأطباء، ولا إلى الرقاة، ولا نستعمل الأدوية.

فالجواب: لا، بل اذهب إلى الأطباء، واستعمل الأدوية، واذهب إلى القراء، ولكن الذين

يسترقون تنقص درجتهم بالنسبة إلى الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[1]، فالإنسان مأمور بفعل الأسباب، بل جاء الأمر بالتداوي، ألَّا نتداوى بحرام.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: خطورة انسداد هذه الأمور الثلاثة، وهي: السمع بحيث لا يسمع الآيات، والبصر بحيث لا يراها، والقلب بحيث لا يعيها، فعلى الإنسان أن يراعي هذه الأمور الثلاثة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: رحمة الله عزَّ وجلَّ حيث صرَّف الآيات للعباد، ولو شاء لتركها، لترك التصريف، وجعل الناس يتخبطون عشوائيًا، لكن من نعمة الله أن الله يري الآيات ويصرِّفُها وينوِّعُها، فهذا من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

يعني: إذا لم يؤمن بهذه الآية آمن بالآية الأخرى وحصل المقصود، وكم من إنسان تفوته آيات كثيرة لا يعتبر بها، ثم يصاب بآية واحدة فيعتبر، حتى إن بعض المستقيمين حكوا لي عن أنفسهم أنهم كانوا منزلقين في الشهوات، والتلهي، فلما مات قريبهم استقاموا، كل الآيات السابقة لم ينتفعوا بها، لكن لما مات القريب استقاموا وعرفوا أن مآلهم كمآل هذا، فعادوا إلى الله عزَّ وجلَّ.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التشنيع على هؤلاء الذين صُرِفَت لهم الآيات فأعرضوا، لقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: ينصرفون عنها ولا يعتبرون بها، فيكون فيه الحذر من تولي الإنسان بعد ظهور الآيات، لأنه إذا تولى بعد ظهور الآيات صار من قسم المغضوب عليهم، لأنه عَلِمَ الحق لكنه تمرد عليه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ يعني: أخبروني - وسبق القول في إعراب هذه الجملة - ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أي: عقوبة الله، ﴿بَغْتَةً﴾ كما لو أتتكم وأنتم نيام، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ كما لو أتتكم وأنتم أيقاظ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، الأول: ﴿بَغْتَةً﴾، والثاني: ﴿جَهْرَةً﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: إن أتتكم، فهل أنتم مظلومون إذا أتاكم عذاب الله على الوجهين؟ الجواب: لا، فالجملة في قوله: (هل يهلك إلا القوم الظالمون؟) تقرير لأخذ العذاب وأنهم لم يؤخذوا ظلمًا بل لعملهم السيئ.

وفي هذه الآية تحذير من نزول العذاب إما بغتة وإما جهرة، فلا يأمن الإنسان إذا كان عاصيًا أن ينزل به العذاب.

ولكن هل العذاب هو عقوبة الجسد؟

لا، فعقوبة الجسد لا شك أنها عذاب، لكن أكبر من ذلك الإعراض عن دين الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن المعاصي بريد الكفر، ينزلها الإنسان مرحلة مرحلة كما ينزل البريد المسافة مرحلة مرحلة حتى يصل إلى الكفر والعياذ بالله.

وهو كذلك ظاهر، لأن المعاصي تقسي القلب، وتسوده، وتوبسه، حتى يُصبح ميتًا، وتحل الكارثة، ولكن الحمد لله جعل الله لكل داءٍ دواء، المعصية قارنها بالتوبة، وإذا تبت فالتوبة تهدم ما قبلها، تكون كأنك لم تذنب، بل إن الإنسان إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا ربما تكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل المعصية، انظر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فارتفعت منزلته حين تاب من المعصية.

وهذا شيء مشاهد، لأن الإنسان إذا بقي مستمرًا على حاله في طاعة الله بقي قلبه لا يتحرك، يفعل العبادات وكأنها غريزة، فإذا أذنب خجل من الله عزَّ وجلَّ، واستحيا منه، وأخبت إليه، وصار يتذكر هذا الذنب في كل لحظة، ولهذا قال بعض السلف: إن المعصية بالنسبة للفاسق كَذُبَابٍ وقع على أنفه فطرده، فهي خفيفة عنده، وأما أهل القلوب الحية فالمعصية كأنها جبل يخاف منها[1] حتى يتوب إلى الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، فهل بمعنى: ما، وقد ذكرنا فيما سبق أن الاستفهام إذا كان بمعنى النفي صار أشد من النفي المجرد، لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأن المتكلم يقول للمخاطب: أثبت لي هذا الشيء، فيكون الاستفهام بمعنى النفي أشد من النفي المجرد.

الظلم ينقسم إلى قسمين:

ظلم في حق الله، وظلم في حق العباد.

أما الظلم في حق الله: فدواؤه التوبة، مهما عظم، حتى لو كان شركًا بالله تبارك وتعالى، بل حتى

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

لو كان سبًّا لله على القول الراجح، فإنه يزول بالتوبة.

حق الآدمي: لا يزول إلا برده إليه أو استحلاله منه، وإلا مهما كان الإنسان إذا تاب وأخلص لله وندم، فإنه لا يكفيه حتى يرده، بل إن رد المظالم لأهلها من شروط التوبة.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]

التفسير

(ما) نافية و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والإرسال هو: تحميل الغير إبلاغ رسالة ممن أرسله، ولهذا كان القول الراجح في المسألة أن الرسل أوحي إليهم بالشرع وأمروا بتبليغه.

وقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين لمن اتبعهم بالخير، بالجنة، ومنذرين من خالفهم بالنار، هذه وظيفتهم، والبشارة: هي الإخبار بما يسر، والإنذار: هو التخويف بما يسوء.

فإذا قال قائل: كيف تقول إن البشارة بما يسر، مع أن الله تعالى جعلها إخبارًا بما يسوء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]؟

فالجواب: أن الإنذار يؤثر في البشر كما يؤثر التبشير، وأصل التسمية تبشيرًا لأنه تتأثر به البشرة، فتجد الرجل يستنير وجهه وينشرح صدره.

أو يقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] على سبيل التهكم، حيث جعل الإنذار بلفظ البشارة، ونظير هذا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] ﴿ذُقْ﴾ أمر إهانة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال بعض المفسرين: إن هذا من باب التهكم به، حتى يزداد غمًّا إلى غم.

وقيل المعنى: إنك أنت العزيز الكريم في الدنيا، وليس في الآخرة إلا الإهانة.

قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لماذا حصر هذا في البشارة والإنذار؟ حتى لا يدعي مدعٍ أن وظيفة الرسل تتعلق بالربوبية، وأن لهم نصيبًا من تدبير الخلق، وهذا واضح، فالرسل ليس لهم إلا أن يبشروا الناس وينذروهم فقط، أما أن يهدوهم أو يرزقوهم، أو يدفعوا

عنهم السوء فليس من وظائفهم.

والتفريق بين الرسول والنبي: أن النبي من النبأ وهو الخبر، أُخْبِر بالوحي ولكن لم يكلف بتبليغه، وإنما يتعبد به هو نفسه، ومن اتبعه فعلى هدى، لكن الرسول مكلف أن يبلغ ما أُرْسِلَ به، وهذا الذي عليه جمهور العلماء وهو ظاهر، لأن آدم نبي وليس مكملًا لشريعة من قبله، بل شريعته مستقلة، فدل هذا على أن القول بأن النبي هو من تعبد بشريعة من سبقه: قول ضعيف، وأن قول الجمهور أصح.

وقوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ فمن آمن بقلبه، وأصلح العمل فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وآمن: مطلق لم يقيد بشيء، إلا أن النصوص قيدت ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وكما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في جوابه لجبريل لما سأل عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: أصلح العمل، وإصلاح العمل لا يتم إلا بأمرين:

الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فمن أشرك مع الله في العبادة فإنه لم يصلح العمل حتى ولو كان الشرك أصغر، لقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

الثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فمن لم يتابع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في العبادة فعبادته غير صحيحة، وهو غير مصلح، حتى لو خشع، ورق قلبه، ودمعت عينه، فإن ذلك لا ينفعه، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣) أي مردود عليه.

والمتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في الأمور الستة التي مرت علينا كثيرًا، وهي: الموافقة في السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لما مضى، فلا يحزنون على ما مضى من الدنيا لأنهم استغرقوها في طاعة الله، ولا يخافون العذاب لأنهم ناجون من العذاب.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:٣٦] هذا القسم الثاني من الذين أرسل إليهم الرسل.

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، وابن حبان في صحيحه (١٧٣) من حديث عبدالله بن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأبو يعلى في مسنده (٦٥٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

فالقسم الأول: الذي آمن وأصلح.

والثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ردوها ولم يقبلوها، ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يمسهم أي: يصيبهم إصابة مباشرة، كمس الجسم للجسم، ﴿الْعَذَابُ﴾ أي عقوبة الله عزَّ وجلَّ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بما كانوا يخرجون عن طاعة الله، والباء هنا للسببية، وما مصدرية، وَيُقَدَّرُ الكلام (بكونهم يفسقون).

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** منة الله عزَّ وجلَّ بإرسال الرسل، ولا بد من إرسال الرسل، يعني أن حكمة الله عزَّ وجلَّ تقضي بإرسال الرسل، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلى الرسل، كان الناس أمة واحدة على دين واحد، فلما كَثُرُوا تفرقوا واختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رسالة الرسل تتضمن هذين الشيئين وهما: البشارة والإنذار، وتكون البشارة لمن أطاع، واتبع الرسل، والإنذار: لمن كذب بالعقوبة، بمعنى ينذر بعقوبة الله عزَّ وجلَّ.

يتفرع على هذا فائدة أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لم يأتوا بمجرد الأحكام، أي: بمجرد أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، بل قرنوا ذلك بالبشارة والإنذار، لأن البشارة تحمل الإنسان على فعل المأمور، لأنك إذا بشرته بأنه سيحصل على كنز في المكان الفلاني تجده يسابق إليه، ويفعل ما يوصله إليه، الإنذار: يحصل به البعد عن المعاصي، وعلى هذا تترتب دعوة الرسل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس انقسموا في تقبل وقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن ومكذب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله عزَّ وجلَّ في انقسام الناس بالنسبة لقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن عمل صالحًا، ومكذب، وهذا من الحكمة، بل ومن الرحمة.. لماذا؟ لأنه لو لم يكن كفرٌ لم يُعْرَف قدر الإسلام، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يروى عنه: إنه لا ينقض الإسلام عروة عروة إلا من لم يعرف الكفر. فمن عرف الكفر لا يمكن أن ينقض الإسلام.

فمن رحمة الله وحكمة الله أن ينقسم الناس إلى قسمين، لولا هذا الانقسام لما حصل جهاد ولا أُمِرَ بالمعروف ولا نُهِيَ عن المنكر، ولا امتحان واختبار، لأن الناس كلهم على وتيرة واحدة، لكن إذا انقسموا إلى مؤمن وكافر حصل الامتحان والاختبار، للمؤمن والكافر، فلا تظن أن الله عزَّ وجلَّ إذا أزاغ قلوب الكافرين لا تظن أن في ذلك لغوًا، بل هو عين الحكمة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من جمع بين هذين الوصفين: الإيمان والإصلاح

فليبشر، أنه لا خوف عليه ولا حزن عليه، لقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].

فإن قال قائل: أليس المؤمنين المصلحين ينالهم خوف من الأعداء؟

فالجواب: بلى، ينالهم خوف من الأعداء، لكن ليس هذا هو الخوف المنفي في الآية، لأن هذا الخوف بعده أمنٌ ومع قوة الإيمان لا يرى المؤمن أن في هذا خوفًا، ولهذا نجد الصحابة رضي الله عنهم في جهادهم وقتالهم مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبعده أيضًا هم بأنفسهم يتلقون الموت بكل رحب وسعة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تشجيع الإنسان على الإيمان والعمل الصالح والحث على ذلك بذكر عاقبة هذا المؤمن المصلح، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان وحده لا يكفي، لا بد من إصلاح، ولكن هل نقول: إن مجرد الإفساد أو مجرد ترك العمل الصالح يكون الإنسان كافرًا؟ نقول: نحن لا نستطيع أن نحكم على شخص بأنه كافر أو مؤمن إلا بدليل من الكتاب والسنة، ولذلك نعتب على أولئك الذين يرددون الأسئلة: هل الأعمال شرط في كمال الإيمان أو شرط في أصل الإيمان؟ أو ما أشبه ذلك من العبارات. نقول: كل هذا لا حاجة إليه، لأن لدينا أدلة واضحة كفر من القرآن والسنة، إيمان من القرآن والسنة، وإذا دار الأمر بين أن يكون هذا الرجل كافرًا أو مؤمنًا وهو من المسلمين فالأصل بقاء إسلامه، ولا يحل لنا أن نكفره، هل يمكن أن نجعل الأبيض أسود أو الأسود أبيض؟ لا يمكن، كذلك الأحكام الشرعية، ما لنا حق أن نكفر أحدًا إلا بدليل، ولا نقول إن هذا مؤمن إلا بدليل، وبهذا نستريح من الخوض واللعب في آراء الناس وعقول الناس.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** القول بالمفهوم وهو أن من آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن لم يكن كذلك فعليه الخوف والحزن.

٩ - ومن فوائد الآية التي بعدها: أن التكذيب بآيات الله سبب للعقوبة، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

ولتعلم أن الآيات ـ آيات الله عزَّ وجلَّ ـ تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية، الآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من شرائع الله، لأنك لو تأملت هذه الأحكام سواء في الأمة الإسلامية أو في الأمم السابقة لوجدتها مطابقة تمامًا للحكمة والمصلحة، وأنه لو اجتمع كل أهل الأرض على أن يأتوا بمثل ذلك ما أتوا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] فلا تظن أن أي نظام أو قانون يصلح من الخلق ما تصلحه الشريعة الإسلامية، ولذلك ظل أولئك القوم الذين ذهبوا إلى تحكيم القوانين الوضعية التي وضعها بشر، هذا البشر الذي وضعها: أهو معرض للخطأ أم لا؟ معرض للخطأ. ثانيًا: أهو محيط بجميع مصالح الخلق في جميع أقطار الدنيا؟ لا. أهو محيط بمصالح الخلق في جميع الأزمان المقبلة؟

لا، الأمر تتغير، إذن؛ فلا يجوز الاعتماد على هذه القوانين، يجب أن تؤخذ القوانين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأن الله تعالى أعلم بالخلق حالِـهم ومستقبلِهم، ولأنه أرحم بالخلق، ولأنه أحكم الحاكمين، وهذه الآيات الشرعية.

أما الآيات القدرية: الليل والنهار، والشمس، والقمر، إحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك، كيف يكون التكذيب بهذا وهذا؟

نقول: أما التكذيب بالشرائع فهو إما أن يكذب الأخبار فيقول: هذا غير صحيح، ما يدخل العقل ولا يمكن، وإما بتحريف النصوص، يحرف النص، مثل قول بعضهم: المراد باستوى: استولى، والمراد باليد: القدرة، أو القوة، أو النعمة، وما أشبه ذلك.

الثالث: الاستكبار عنها، لا يعمل بها.

أما آيات الله الكونية: فإما أن ينسبها لغير الله كما يفعل السببيون، الملحدون، الذين ينسبون الأشياء لأسبابها المحضة، ويرون أن السبب فاعل بنفسه، أو يقول: هي من الله ومعه غيره، هذا أيضًا تكذيب بآيات الله الكونية لأنه شرك، أو يقول: هي لله وحده لكن له معين، فهذا أيضًا كفر بالآيات الكونية.

فصارت الآيات الكونية هي المخلوقات كلها، والشرعية ما جاءت به الرسل من الوحي.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذبين سيصيبهم العذاب مباشرة، لقوله: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وإن أفلتوا من العذاب في الدنيا لن يفلتوا منه في الآخرة.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ الباء للسببية، وإثبات الأسباب دل عليه العقل، والسمع، ولا ينكره إلا أحمق، والقرآن مملوء من هذا، وقد قيل إن في القرآن أكثر من ألف دليل يدل على إثبات الأسباب، وهذا حقيقة، نفس القرآن سبب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦].

وقد انقسم الناس في الأسباب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جعلها مؤثرة بنفسها، وأنه متى وجد السبب لزم وجود المسبب، وهؤلاء هم الطبائعيون، الذين لا يعترفون بالله عزَّ وجلَّ، ولا يخفى حُكْمُهُم، أنهم كفرة.

القسم الثاني: أنكر الأسباب، أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها، وقال إن هذه الأسباب مجرد علامات فقط، وأن المسبب حصل عند السبب لا بالسبب، وهؤلاء ضلوا سمعًا وعقلًا، حتى لو أنه إنسان رمى زجاجة بحجر، ثم تكسَّرت فيقول: إن الحجر ما كسر الزجاجة، ما يجوز نقول كسر الزجاجة، لو قلت هذا لكنت مشركًا! لكن لو قلت هذا لكنت موحدًا في الواقع، مثبتًا لله الحكمة، هل يمكن لو تأتي صبيًا والصبي ضرب الزجاجة وكسرها هل يمكن أن يقول هذا: ما كسرتها؟!! حصل

كسر عند فعلي وليس بفعلي؟! هذا ما يمكن. ولكن أناس كبار ذوي عقول ـ عقول إدراك لا عقول رشد ـ يقولون الأسباب ما تؤثر، وإنما حصل الشيء عند السبب لا بالسبب.

القسم الثالث: أثبتوا الأسباب، لكن جعلوا تأثيرها في مسبباتها بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة، وجعلوا الخالق أولًا وآخرًا هو الله عزَّ وجلَّ، قالوا: لو شاء الله لم تؤثر هذه الأسباب، فمثلًا: النار محرقة ـ ولا إشكال ـ ولما أُلقِيَ فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال الله لها: كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، فكانت بردًا وسلامًا. هل أثر هذا السبب في مسببه؟ لا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩] وهذا القول هو المتعين، ولا أقول الراجح فقط، بل هو المتعين، وما سواه فهو ضلال باطل.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الفسق يطلق على الكفر، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم كفار لا إشكال، فالتكذيب بالآيات كفر.

واقرأ قول الله تعالى في تنزيل السجدة، ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠] الفسق هنا: كفر، وقد يطلق الفسق على ما دون الكفر، وهذا هو المراد من كلام الفقهاء رحمهم الله، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجُرات:٧] فهنا الفسوق ما دون الكفر، يتعين، ووجه التعين: العطف على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: تمام عدل الله عزَّ وجلَّ، حيث إنه لم يعذب هؤلاء إلا لأنهم استحقوا العذاب بفسقهم، جزاء وفاقًا.

فإن قال قائل: جاء في الحديث الصحيح أن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم[1].

فالجواب: لا إشكال في هذا، يعني أنه لو وقع تعذيب أهل الأرض والسموات لكان هذا العذاب مستحق عليهم، وهو غير ظالم لهم، وليس المعنى: أنه لو عذبهم بدون جرم لم يكن ظالمًا، لأن تعذيبهم بغير جرم قد أحاله الله عزَّ وجلَّ ومنع منه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، لكن لو عذبهم لكانوا مستحقين للعذاب، وبهذا يزول الإشكال في هذا الحديث.

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في مسنده (٢١٦٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أمر من الله إليه، أي: إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا أمر لإبلاغ خاص، وإلا فكل القرآن قد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يبلغه، لكن تأتي بعض الأحكام مصدرة بـ ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أهميتها، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم:٣١] والأمثلة على هذا كثيرة، فيكون في هذا الحكم المذكور وصية خاصة بإبلاغه، وإلا فكل القرآن قد أُمِرَ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يبلغه، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ الخطاب في قوله ﴿لَكُمْ﴾ للمشركين، المكذبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذه مقول القول، أي: لا أقول عندي خزائن الله، أي: خزائن رزقه فأرزقكم، وأحرم من أشاء، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يعني: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب.

والغيب: ما غاب، وهو نوعان: غيب نسبي، وهذا قد يعلم، فمثلًا: الشارع الآن فيه أناس، أنا لا أعلمهم، والذي يشاهدهم يعلمهم، هذا غيب نسبي، وغيب مطلق حقيقي: وهو ما غاب عن الناس كلهم، فهذا لا يعلمه أحد، كالعلم بما سيحدث في المستقبل، هذا لا يمكن أن يعلمه أحد لا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا غيره.

إذن الغيب كل ما غاب، وهو نوعان: نسبي وحقيقي، فالنسبي: ما غاب عن بعض الناس دون بعض، والحقيقي: ما غاب عن جميع الناس.

والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب لا النسبي ولا الحقيقي، لكن في النسبي ما شاهده علم به، ولذلك لما انخنس منه أبو هريرة رضي الله عنه وكان جنبًا، قال له أين كنت[1]؟ فهو لا يعلم. وكذلك لما دخل بيته وطلب الطعام وأتوا إليه بتمر فطلب اللحم، فقال: ألم أر البرمة على

(١) كما رواه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النار، وهو لم يجزم بأن فيها لحم، مع أنها عنده في البيت، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب.

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ خاطبهم مخاطبة غير الأولى، يعني كرر المخاطبة، لأن المقام هنا ـ وهو نفي أن يكون ملكًا ـ أبلغ وأشد، والإتيان بكاف الخطاب يدل على شدة توجيه الخطاب إلى المخاطب، ولهذا في سورة الكهف قول الخضر لموسى في الأول قال: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف:٧٢] وفي الثانية قال: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف:٧٥].

قوله: ﴿إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ واحد من الملائكة، إذن هو بشر من بني آدم، ثم ذكر الله تعالى وظيفته التي يقولها: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ ﴿إِنۡ﴾ بمعنى ما، فهي نافية.

و(إِنْ) في اللغة العربية لها معانٍ حسب السياق، فتأتي نافية، وتأتي: شرطية، مثالها: (إن اجتهدت نجحت)، وتأتي مخففة من الثقيلة، مثل: و﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢] أي: إنهم كانوا. وتأتي زائدة لا معنى لها إلا التوكيد، كقول الشاعر:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمْ ذَهَـبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الْخزَفُ

والصريف: الفضة.

والشاهد في قوله: (مَا إِنْ أَنْتُمْ ذَهَبٌ) فإن زائدة، ولهذا لو قال الشاعر: (ما أنتم ذهب) صحّ، والذي يعين هذه المعاني السياق، فدل ذلك على أن الألفاظ يتعين معناها بالسياق، وهو ما يؤيد قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ألَّا مجاز في اللغة، لأن الكلمة يتعين معناها بالسياق، حتى وإن استعملت لمعنى آخر في غير هذا السياق.

كذلك يعين المعنى القرينة الحالية، لأن السياق قرينة لفظية، والقرينة الحالية: أن يدل حال المتحدث عنه على المعنى، مثل قوله: (وإن مالك كانت كرام المعادن) هنا لا يمكن أن تكون نافية، لأنه كان يفتخر بقومه، فيتعين أن تكون مخففة من الثقيلة.

وقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ يعني: إلا ما أوحاه الله إليَّ، والوحي هو إعلام الله تبارك وتعالى لأحد أنبيائه بالشرع، وسمي ذلك من الإيحاء وهو السر والإخفاء، لأن الوحي يقع خفيًّا ما كل أحد يدري عنه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ لم يبين الموحِي، وذلك للعلم به، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ [سبأ:٥٠] فالموحي هو الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ هذه وظيفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذه ما لا يختص بها، ولا تقع منه، ﴿قُلۡ﴾ يعني: يا محمد بعد أن تبين هذا ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ هل بمعنى: ما، وجاءت أداة الاستفهام بمعنى النفي لأنها مشربة معنى التحدي، يعني: لا يستوي الأعمى والبصير، ولو كنتم صادقين فبينوا لي، الأعمى: صفة مشبهة، والبصير: من يبصر، ومن

المعلوم أنه لا أحد يقول إن الأعمى والبصير سواء، فما المراد بالأعمى هنا، وما المراد بالبصير؟ المراد بالأعمى الكافر، كما قال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨] والمراد بالبصير: المؤمن، بصير من البصيرة، وبصير من البصر.

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، يعني: أبعد هذا تعرضون فلا تتفكرون!

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**، منها: أنه يجب على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يعلن للأمة ما أمره الله به ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾.

٢ - **ومنها**، أن ما صدر بـ ﴿ قُلْ ﴾ بالنسبة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان ذلك دليلًا على أهميته، وأن الله تعالى أوصى نبيه أن يبلغه خاصة مما يدل على العناية به.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يملك خزائن الله عزَّ وجلَّ أي خزائن الرزق، ولذلك يعيش صلى الله عليه وعلى آله وسلم الشهرين والثلاثة لا يوقد في بيته نار[1]، ولو كان عنده خزائن الله لأدركها، مع أنه لو شاء لدعا ربه أن يحقق له ما يريد، لكنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم خُيِّر بين أن يكون عبدًا نبيًّا أو ملكًا نبيًّا فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه إذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يملك خزائن الله، فإنه لا يجوز أن يُطلب الرزق من الرسول مباشرة، لأنه لو طلب الرزق من الرسول مباشرة لكان هذا شركًا وتجاوزًا لما هو عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما السؤال في حياته، فله تفاصيل ليس هذا موضع ذكرها، وقد يعطي وقد لا يعطي، كما منع الأشعريين حين طلبوا رواحل يجاهدون عليها قال: لا أجد ما أحملكم عليه.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب، لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾.

فإن قال قائل: أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يحدث عن أشياء مستقبلة؟ فالجواب: بلى ولكن بوحي من الله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى يعلم الغيب، ولهذا نقول: كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أمور المستقبل فهي بوحي خاص من الله عزَّ وجلَّ، وحينئذ لا ينافي ما أخبر به من أمور الغيب بما أخبر به تبارك وتعالى في هذه الآية، لأن علمه بالمستقبل بما أوحى الله إليه ليس علمًا ذاتيًّا أدركه بنفسه، ولكنه علم من عند الله عزَّ وجلَّ، كما أن الإنسان يرى الرؤيا الصالحة في المنام وينتفع بها في المستقبل، «**والرؤيا الصالحة جزء من ست**

---

(١) كما رواه البيهقي في الكبرى (١٣٠٩٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأربعين جزءًا من النبوة»[1].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد الصريح على من قالوا: إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعلم الغيب، ثم لبسوا وشبهوا بما أخبر به من المغيبات التي أوحى الله إليه بها، فيقال: الأصل أنه لا يعلم الغيب، وإذا جاء شيء تحدث به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن المستقبل فإننا نعلم أن هذا بوحي خاص من الله تبارك وتعالى.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشرٌ كغيره لا يعلم الغيب، ينسى كما ننسى، ويلحقه الجوع والظمأ والبرد والحر، كل الخصائص البشرية تلحق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الملك قد يتصور بصورة إنسان لقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لأنه لولا أنه يمكن تصوره بصورة إنسان ما احتيج إلى النفي، إذا أنه معلوم بدون نفي، وهذا هو الواقع، وقد جاء جبريل عليه السلام في صورة البشر.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١] فإن الملائكة لا يمكن أن ينزلوا ليكونوا رسلًا إلى البشر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال عبودية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا يزيد ولا ينقص، حتى ولو كان الذي نزل إليه على شخصيته عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يمكن أن يدعه، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧] كلمات عظيمة يوجهها الله عزَّ وجلَّ إلى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولو كان كاتمًا شيئًا مما أوحاه الله إليه لكتم هذا، لأنه شيء عظيم، أو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشرائع توقيفية، لا يجوز لأحد أن يبتدع منها شيئًا، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأحقاف:٩] ولهذا قرر أهل العلم أن الأصل في العبادات المنع والحظر، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتعبد لله تعالى بشيء إلا ما أذن الله فيه شرعًا، وهذا حق، مستند إلى آيات متعددة وإلى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

مسألة: هل لو أن أحدًا استحسن شيئًا يتعبد لله به، هل يكون حسنًا؟

الجواب: لا يكون حسنًا أبدًا وبذلك يبطل تقسيم من قسم البدعة إلى نوعين: ضلالة وحسنة، أو إلى خمسة أنواع، فإن هذا باطل لا شك فيه، لأن أعلم الخلق بشريعة الله، وأفصح الخلق وأنصح الخلق محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١) كل بصيغة العموم، التي هي أعم صيغ العموم، (كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) وهذا العموم المحكم لا يخرج منه شيء، ولا يرد على هذا ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جمع الناس في رمضان على أبي بن كعب وتميم الداري، وكان الناس بعد أن امتنع النبي ﷺ من إقامة قيام رمضان بهم جماعة صاروا يقومون أفرادًا أو الرجل مع الثاني أو الرجل مع اثنين وما أشبه ذلك ويحدث التشويش، خرج عمر - رضي الله عنه - ذات ليلة وهم على هذا فأمر أُبيّ بن كعب وَتَمِيمًا الداري أن يقومَا بالناس بإحدى عشرة ركعة، ففعلا، وقاما بالناس بإحدى عشرة ركعة، ثم خرج مرة أخرى ورآهم على هذه الحال فقال: «**نِعْمَت البدعة هذه**»(٢) فسماها بدعة، وأثنى عليها.

هذا الأثر استدل به جميع أهل البدع على استساغة بدعهم، ونحن نجيبهم بعدة أمور:

الأمر الأول: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين، الذين بدعتهم إن حصلت صارت بدعة سنة، فهل أنتم أيها الخلف المتخلف كعمر؟ لا، إذن لو صح أنها بدعة شرعية لكان عمر ممن يُقتدى بهم، وسنته متبعة بأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الثاني: أنها بدعة نسبية، باعتبار هجرها من عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أن أقامها عمر، فهذه بدعة نسبية، ولا يصح أن نقول أنها بدعة لغوية، لأن البدعة اللغوية لا بد ألا تكون مسبوقة، لكن نقول إنها بدعة نسبية باعتبار أنها هجرت من عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مارًّا بعهد أبي بكر ثم أول خلافة عمر.

الثالث: هذه البدعة لها أصل وسنة، وهو أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بأصحابه في قيام رمضان ثلاث ليالٍ وتخلف في الرابعة وقال : إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها(٣)، هذه العلة التي تأخر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إقامتها جماعة هل هي باقية في عهد عمر؟ الجواب: لا، والحكم يدور مع علته، وهذه العلة في عهد عمر لا يمكن أن تكون، فبطل تشبث أهل البدع بمثل هذه الكلمة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فإن قال قائل: ابتُدِعت أشياء أقرها المسلمون كجمع القرآن على مصحف واحد، وكتبويب

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد في مسنده (١٧١٨٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في الجامع (١٣٥٣).

(٢) رواه البخاري (٢٠١٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٧٧٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٧٨).

(٣) رواه البخاري (٢٠١٢)، ومسلم (٧٦١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

الأحاديث، وكبناء المدارس، وأشياء كثيرة.. ما تقول في هذا؟

أقول: هذه ليست مقصودة لذاتها، بل هي مقصودة لغيرها، فجمع الناس على مصحف واحد لئلا تتفرق الأمة، لو كان الناس يقرءون بالمصاحف التي في عهد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لتمزقت الأمة تمزقًا عظيمًا، ولقالت النصارى إذا كان عندنا أربعة أناجيل أو خمسة فعندكم عشرات، فلهذا كان توحيد المصحف مقصودًا لغيره، وهو جمع كلمة المسلمين وعدم تنازعهم، كذلك أيضًا تبويب الأحاديث أو جمعها على المسانيد، هو أيضًا مقصود لغيره، حتى يتيسر على المسلمين أصول السنة، أرأيتم لو لم تبوب على الأبواب ولا على المسانيد، لكان الإنسان إذا أراد مسألة أن يقرأ كل حديث ورد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا يخفى ما في هذا من التعب العظيم، ولا ما في هذا أيضًا من تعطل الشريعة، فكان هذا مقصودًا لغيره.

أتى أناس وقالوا: محاريب المساجد هذه بدعة، لا بد أن تهدمها، ولو أن الإنسان أوصى أن يُبنى له مسجد ويبنى فيه محراب لبطلت الوصية، لأن المحاريب نهى عنها الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله محذرًا: «إياكم ومذابح النصارى» أو كلمة نحوها، فما الجواب؟

الجواب: أن نقول:

أولًا: إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قيَّد فقال «ومذابح النصارى» فإذا كان المحراب على غير الشكل النصراني فلا بأس به، هذا إن صح الحديث، مع أن الحديث فيه مقال.

ثانيًا: أن نقول: إذا انتفى أن تكون هذه المحاريب كمحاريب النصارى بقي أن يُقال: هل فيها مصلحة أو لا؟

الجواب:

أولًا: فيها مصلحة فهي تغني عن صف كامل، إذا كان المسجد ضيقًا ثم دخل الإمام في المحراب أغنى عن صف كامل؛ لأن مكانه الذي يفترض أن يكون فيه لولا المحراب لكان صفًا كاملًا.

ثانيًا: الدلالة على القبلة، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: يُستدل على القبلة بالمحاريب الإسلامية، وهذا أمر مُشاهد، لو كانت المساجد كحجرة مقفلة ليس فيها إلا الزوايا الأربعة، ما عرفنا القبلة.

إذن فيها مصلحة، فإذا كان فيها مصلحة فكيف نقول إنها بدعة محرمة يجب هدمها.

فإذا قال قائل: يمكن أن يُستعاض عنها بالتلوين أو بوضع بلاط يخالف بلاط المسجد.

قلنا: ما الذي يحوجنا إلى هذا ونحن نقول: فيها غير هذه الفائدة وهي التوسعة على المصلين إذا ضاق المسجد.

بقي أن يُقال: إن بعض الناس يكتب على المحراب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل

عمران:٣٧] يحرفون الكلم عن مواضعه، هل هذا المحراب هو الذي دخل عليها زكريا فيه؟! لا، ثم إن المحراب في اللغة القديمة مكان العبادة، سواء محراب أو حجرة أو أي شيء، فأخطأ هؤلاء من وجهين:

الوجه الأول: أنه ليس المراد بالمحراب في الآية محراب القبلة.

والوجه الثاني: أن زكريا ما دخل عليها المحراب، ما دخل على مريم، لكنَّ الجهل فاضح، فمثل هذا يجب على وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد أن تتبع المساجد التي كتب فيها هذا وتطمسه، كيف يحرف كلام الله في قبلة المسلمين؟ وهل يلزمنا أن كل ما حدث لا بد أن يكون له شاهد من القرآن؟! أبدًا لا يلزم.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: كمال تعبد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لله، لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

١٣- ومنها: إثبات وحي الله له، لقوله: ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وأنواع الوحي مذكورة في قول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١].

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يمكن أن يستويا، لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾ ووجهه: أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي مشرب معنى التحدي.

١٥- ومنها: أنه كما أنه لا يستوي الأعمى والبصير حسًّا فلا يستوي الأعمى والبصير معنًى، الأعمى والبصير معنًى لا يستويان، فالجاهل أعمى، والعالم بصير.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التفكر لقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٧- ومنها: ذم من لا يتفكر، لأن الاستفهام هنا للتوبيخ، ولكن هل التفكر في أي شيء؟ التفكر في الأمور على حسب الواقع، لا يتخيل أشياء لا تمت للواقع بصلة، ولا يتفكر في أشياء لا يمكنه الوصول إليها، فإذا أراد أحد أن يتفكر في ذات الله عز وجل فإنه لا يجوز، لأنه لا يمكن الوصول إليه، ولو أراد أن يتفكر في كيفية الوصول إلى السماء الدنيا فلا يجوز، لأن ذلك لا يمكن الوصول إليه، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فإذا كان البصر الذي هو يدرك الأشياء إدراكًا حسيًّا لا يمكن أن يدرك الله عزَّ وجلَّ، فالفكر من باب أولى.

إذن نتفكر في الأمور الواقعة، في آيات الله عزَّ وجلَّ الكونية والشرعية، فالآيات الكونية: هي المخلوقات وما أبدع الله فيها من الحكم والأسرار العظيمة، والآيات الشرعية: هي الأحكام الشرعية التي شرعها الله للعباد وجعلها صالحة لكل زمان ومكان، يعني إذا طبقت الشريعة فهي

صالحة لكل زمان ومكان، لا يمكن أن تُدَمَّر، وهنا نقف لنذكر مَن توسل بهذه العبارة إلى تكييف الشريعة حسب الواقع، لأن هذا غلط عظيم، والواجب تكييف الواقع حسب الشريعة، وإذا كُيِّفَ الواقع حسب الشريعة صلحت الأمور أما أن نكيف الشريعة على الواقع ويكون لنا في كل زمان شريعة أو في كل مكان شريعة، أو في كل أمة شريعة فهذا يعني أن الشريعة تُبَدَّل وتُعَدَّل وتدخلها الأهواء، وهذا شيء ممتنع.

كذلك أيضًا تفكر في أسمائه وصفاته، تفكر في الاسم ماذا يدل عليه من الصفة، سواء كانت الدلالة دلالة تضمن أو دلالة مطابقة، أو دلالة التزام.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، والإنذار: إعلام بالشيء على وجه التخويف. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يؤمنون بالبعث، ويخافون من اليوم الذي يبعثون فيه، كما قال عزَّ وجلَّ في الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا يتولاهم أحد من دون الله عزَّ وجلَّ، ولا يشفع لهم أحد من دون الله، فالولي: أن يتولاه أحد بدون شفاعة، يعني: هو يقوم بكشف الضُّر عنهم أو جلب النفع لهم، والشفاعة: أن يتوسط لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، لأن الشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

فشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأهل الموقف: أن يُقضى بينهم: من نوع دفع الضرر؛ لأن الناس يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من نوع جلب النفع.

ومثاله في الواقع: لو أن إنسانًا شفع لشخص إلى مدير أن يوظفه في عمله، فهذا من جلب النفع، ولو شفع في شخص إلى مدير من أجل أن يرفع عنه التعزير سواء بالمال أو بالحبس فهذا من

باب دفع الضرر.

هؤلاء الذين أمر الله أن ينذر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالقرآن إياهم يقول: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل: للتعليل، يعني: لأجل أن يتقوا، ويتقون من؟ يتقون الله عزَّ وجلَّ، أو يتقون اليوم الذي يحشرون فيه إلى الله، وهما متلازمان.

والتقوى: مأخوذة من الوقاية، وتتكرر كثيرًا في القرآن الكريم، ومعناها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتصديق أخباره على علم وبصيرة.

ومنهم من قال: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله[1].

وبعضهم قال:

خلِّ الذنوب صغيـ ـرها وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإنذار بالقرآن، ويتفرع من هذا: أن خير ما يُنذر به هو القرآن، يعني هو أبلغ المواعظ في الإنذار، لكن كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينتفع بالإنذار بالقرآن إلا الذين يؤمنون باليوم الآخر، لقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الحشر إلى الله عزَّ وجلَّ، وهذا يكون يوم القيامة، حيث يُحْشَر الخلائق إلى ربها عزَّ وجلَّ، ليقضي بينهم قضاءً دائرًا بين العدل والفضل، العدل للكفار، والفضل للمؤمنين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يمنع من الله، لقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

---

(١) القائل هو طلق بن حبيب.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الشفاعة، لأنه لولا وجودها ما صح نفيها.

والشفاعة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى: ليقضى بين الناس هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يعتذر أولو العزم عنها، وتستقر للرسول ﷺ، ولم ينكرها أحد من طوائف الملة، يقرون بها.

النوع الثاني: الشفاعة في أهل الكبائر من المؤمنين: وهذه تنازع فيها طائفتان من أهل الملة، حسب انتسابهم وهم: الخوارج والمعتزلة، لأن هاتين الطائفتين يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار والعياذ بالله، وإذا كان الله قد قضى عليه أن يخلد في النار فإن الشفاعة لا تنفعه.

وهناك شفاعة أخرى ليس هذا موضع ذكرها.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلل والأسباب لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهذا أمر شرحناه كثيرًا فلا حاجة إلى الإعادة، وكل إنسان يعرف أن الأمور لها أسباب ولها علل.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]

❁ التفسير ❁

هذه الآية تحتاج إلى الإعراب، فقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾ لا ناهية، والفعل مجزوم بها، ولكنه حرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

﴿شَيْءٍ﴾ مبتدأ لكن دخل عليه حرف الجر الزائد فعمل به لفظًا لا محلًّا، ولهذا نُعرب ﴿مِّن﴾ حرف جر زائد إعرابًا و﴿شَيْءٍ﴾: مبتدأ، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ الفاء للسببية، والفعل بعدها منصوب بها على رأي الكوفيين، وبأن مضمرة بعدها على رأي البصريين، ولكن هل هي جواب للنهي أو للنفي؟

الجواب: للنفي، يعني: ليس من حسابك عليهم من شيء، ولا من حسابهم عليك من شيء

فتطردهم، لماذا تطردهم؟!

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاء للسببية، وتكون فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية على رأي البصريين، أو بها على رأي الكوفيين، وهي جواب لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ يعني: لا تطردهم فتكون من الظالمين.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ الطرد معناه: الإبعاد، يعني: لا تبعدهم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يدعون: الدعاء ينقسم إلى: دعاء مسألة ودعاء عبادة، دعاء مسألة: أن يقولوا: يا ربنا اغفر، ودعاء العبادة: أن يقوموا بعبادة الله عزَّ وجلَّ من صلاة وغيرها.

فإذا قال قائل: ما وجه كون العابد داعيًا؟ فالجواب: لدليل الأثر، ودليل النظر، أما الأثر فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] فجعل الله الدعاء عبادة، وأما كون العبادة دعاءً، لأن العابد لو سئل: لماذا تعبد الله فقال: أرجو ثوابه وأخاف عقابه، إذن فهو دعاء بلسان الحال لا بلسان المقال، على أن كثيرًا من العبادات لا تخلو من دعاء صريح.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الباء هنا بمعنى: (في) وتأتي الباء بمعنى (في) كثيرًا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧، ١٣٨]، فهل هناك من حكمة أن تأتي الباء بمعنى (في)؟

اعلم أن القرآن الكريم لا يمكن أن يعدل عن الشيء المتعارف لغة إلا لسبب، السبب هنا أن الباء التي هي للظرفية أشربت معنى الاستيعاب، لأن الباء تأتي للاستيعاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦] وكما في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩] أي أنهم قد استوعبوا الغداة والعشي بالدعاء، والغداة: أول النهار، والعشي: آخر النهار.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من الفاعل في (يدعون)، المعنى: أنهم مخلصين لله لا يريدون بذلك رياء ولا سمعة.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: أن حسابك ليس عليهم، وحسابهم ليس عليك، وإذا كان كذلك فلماذا تطردهم؟ دعهم يحضرون مجالسك، وينتفعون بها، ليس عليك من حسابهم من شيء ولا من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ هذا مبني على قوله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هذه العبارة تلطف في مخاطبة النبي صلى الله عليه وعلى

آله وسلم حيث لم يقل: (فتكون ظالمًا) وهذا فيه شيء من التسلية، أن هناك من هو ظالم، والظالمون كثيرون، ومعلوم أن كون الإنسان مع عالم يشاركونه في الوصف أهون من كونه ينفرد بذلك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم طرد المؤمنين الصالحين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على أولئك القوم الذين يحضرون جلسات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما ذكر الله عزَّ وجلَّ، أنهم يدعون الله بالغداة والعشي، مع الإخلاص لله عزَّ وجلَّ.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات وجه الله عزَّ وجلَّ، في قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ والوجه صفة لله عزَّ وجلَّ، صفة حقيقية، يجب علينا أن نؤمن بذلك، ولكن على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وأما من فسر ذلك بأن المراد بالوجه: الثواب، فقد أخطأ، لأن ذلك مخالف لظاهر اللفظ ومخالف لإجماع السلف، ثم إن الله قال في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] جعله وصفًا للوجه، فهل يمكن أن يقول قائل: إن الثواب موصوف بأنه ذو الجلال والإكرام؟ الجواب: لا، وتأمل هذا مع قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] فجعلها بالجر صفة لربك، ولم تكن بالرفع صفة للاسم مع أن أسماء الله عزَّ وجلَّ لها من الجلالة والتعظيم ما لها، ولكن ـ نسأل الله العافية ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وسبحان الله! ما أدري كيف يلاقي الإنسان ربه يوم القيامة إذا كان الله تعالى قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات ثم يقول: لا وجه لك يا رب، بل المراد بوجهك: الثواب، لا أدري كيف يستطيع الإنسان أن يجيب الله عزَّ وجلَّ؟

والمسألة ليست جدلًا دنيويًا ومخالفة دنيوية، المسألة عقيدة يجب على الإنسان أن يتهيأ للجواب عنها يوم القيامة، الإنسان قد يتخلص في الدنيا بالمجادلة والمغالبة، لكن عند الله لا ينفع، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء:١٠٩]، هؤلاء نقول لهم: أنتم إذا غلبتم في الجدل في الدنيا لكن هل تغلبون الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة؟! لا والله لا تَغْلِبون.

المسألة خطيرة، وفي ظني أن هؤلاء المحرفين لمثل هذه الآيات عند تلاوتها وتحريفها ينسون أنهم سيقابلون الله عزَّ وجلَّ، وإلا لو كانوا على ذكر ما ذهبوا فإنهم يُحرفون الكلم عن مواضعه في

أعظم الأشياء.

إذا كانت آيات الأحكام وأحاديث الأحكام تجرى على ظاهرها وهي أحكام، وليس للعقل فيها مجال، فكيف لا تجرى هذه الأخبار العظيمة على ظاهرها وهي تتعلق بالله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل إنسان لا يحاسب عن الآخر لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وهذا العموم مقيد بها إذا لم يفرط الإنسان في حق أخيه فإن فرَّط جوزي على ذلك.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجب على الإنسان إذا رأى نائمًا وقد ضاق الوقت عن الصلاة، يجب أن يعلمه، أن يوقظه، مع أن النائم معذور ليس عليه إثم، لكن أنت أيها اليقظان يجب أن توقظه وتعلمه، ولو لم تفعل صار عليك من حسابه، لأنك تركت الواجب.

وكذلك قال العلماء: يجب على من رأى شخصًا يريد أن يتوضأ بماء نجس أن يعلمه، ويجب على من رأى في ثوب أخيه بقعة نجسة أن ينبهه عليها، لقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال عدل الله عزَّ وجلَّ، لأنه خاطب نبيه بهذا الخطاب القوي، من أجل قوم من أصحابه، هو - أي النبي ﷺ - عند الله أعظم جاهًا وأعلى منزلة، لكن الله عزَّ وجلَّ حَكَمٌ عَدْلٌ، يقضي بالحق سبحانه وتعالى.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن منع الإنسان حقه ظلم، وإن لم يكن عدوان - يعني بضرب أو احتيال - لكن إذا منعه حقه فإنه ظالم، لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَطْلُ[1] الغَنِيِّ[2] ظُلْمٌ»[3] مع أن هذا لم يأخذ من مال الفقير مثلًا، لكن مماطلته يعني: منع حقه، فكل من منع صاحبَ حقٍ حقَّه فهو ظالم له، كما لو اعتدى بأخذ شيء من ماله.

(١) المطل التسويف وعدم القضاء.

(٢) المتمكن من قضاء ما عليه.

(٣) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أضللنا بعضهم ببعض، ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ يعني: أن الأغنياء لا يؤمنون - فتنة -، ولكن لماذا لا يؤمنون؟ الجواب: يقولون: كيف يسبقنا إلى الإيمان هؤلاء، فنحن لا نؤمن. وهذه فتنة قد تقع من الإنسان أن يقول شيئًا ابتدأه فلان! أنا لا أشارك فيه. أو شيئًا عمله فأنا لا أعمل فيه.

ولهذا قال: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل، المعنى: فتنا بعضهم ببعض فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، والاستفهام هنا للتحقير، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١].

قال الله عزَّ وجلَّ ردًّا عليهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يعني: هو قد علم أن هؤلاء يشكرون الله بما أنعم الله عليهم، وأما أنتم فلا، فهو ردٌّ عليهم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أن الله سبحانه وتعالى يفتن بعض الناس ببعض، فيضل بعض الناس بسبب الآخر، وهذا واقع، تجد مثلًا يفتح باب مساهمة في الخير، فيسبق فلان مثلًا، فيقول الآخرون: شيئًا تدخل فيه فلان لا نوافق ولا يمكن أن يسبقونا...!

وصلة الآية بالتي قبلها واضحة جدًّا؛ لأن الذين يأتون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ويجلسون إليه فقراء، وأما الملأ فلا يجلسون؛ لأنهم يحتقرون هؤلاء ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار الكافرين بأن الإيمان والإسلام منة من الله تعالى، لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

٣ - **ومنها:** أن أعداء المؤمنين يأتون بكل أسلوب للتنفير عن المؤمنين لقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وهذا مشاهد في كل شيء، الرسل عليهم الصلاة والسلام هل ذَكَر أعداؤهم ما يُنفر عنهم من الأوصاف؟ نعم، اقرأ الآية العامة الجامعة الشاملة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

كذلك أيضًا أهل التعطيل مع أهل السنة والجماعة، يصفهم أهل التعطيل بأوصاف تنفر عنهم، يقولون: هذا مُجَسِّم؛ لأنه أثبت الصفات، فيقولون: هذا تجسيد؛ حتى ينفر الناس من هذا، وأهل الكلام يقولون: هؤلاء (حشوية)، ما عندهم فهم ولا عندهم معنى، ولا عندهم عقول، حشوية يعني: لا خير فيهم، ويسمونهم: (نوابت) جمع نابتة وهي التي ينبت في الزرع من ذات الأوراق التي لا خير فيها.

على كل حال: ألقاب السوء لأهل الخير من أهل الشر لا تزال موجودة، ولكن هل يصمد صاحب الخير أمام هذه الألقاب أو ينهزم؟

الواجب: أن يثبت ولا ينهزم، لأنه إذا انهزم ليس انهزامًا لشخصه، بل هو انهزام للحق الذي كان عليه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تقرير علم الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أن الله عالم بمن هو شاكر، وهل المعنى بمن هو شاكر أي بمن هو شاكر الآن أو بمن سيشكر أو بالجميع؟ الجواب: بالجميع.

قوله: ﴿أَعْلَمَ﴾ مجرورة بالفتح للوصفية ووزن الفعل أي ممنوع من الصرف.

وقوله: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ أكمل من التعبير بـ (عالم) فأعلم: اسم تفضيل وعالم ليس اسم تفضيل، والذي يمنع التساوي قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] لم يقل (سبح اسم ربك العالي)، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] ما قال: (الله عالم)، الله يصف نفسه بالأكمل وأنتم تنزلونه؟!

فإذا قالوا: إنك إذا قلت أعلم فإنك قارنت بينه وبين العالمين الآخرين وفضلته عليهم؟ قلت: نعم، وأنتم إذا قلتم عالم وصفتموه بما يوصف به الآخرون بدون تفضيل! فانظر كيف صار تحريفهم حجة عليهم.

٥ - **ومنها**: أن في هذه الآية دلالة على رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وتصلح أن نجعلها من الأدلة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى، لأن أفضل شيء وأطيب شيء لأهل الجنة أن ينظروا إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، اللهم اجعلنا ممن ينظر إليك.

ولهذا يجب التنبه من بعض الأذكياء المصنفين، قال الزمخشري صاحب «**الكشاف**» ـ وهو جيد في اللغة والبيان وجيد في البلاغة وكل من بعده كلهم عيال عليه يأخذون كلامه ـ قال في

قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فقال: أي فوز أعظم من هذا!

هذا الكلام إذا قرأه القارئ العادي لا يجد فيه شيء، لكن يريد إنكار رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لأن رؤية الله أعظم من هذا الفوز، لكنه رجل ذكي، قال: أي فوز أعظم من هذا! نقول: أعظم من هذا أن يرى الإنسان ربه عزَّ وجلَّ، رؤية حقيقية.

وهذا ما قام بتفسيره الشيخ ابن عثيمين

في سورة الأنعام فيما لدينا من مادة علمية

تم - بحمد الله - تفسير سورة الأنعام

ويليها - إن شاء الله - تفسير سورة الكهف

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

سورة الكهف مكيَّة، واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها [١ – ٨]، وآية رقم [٢٨] ومن [١٠٧ – ١١٠] على أنها مدنية، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها، وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

والمكِّي ما نزل قبل الهجرة والمدنِيُّ ما نزَل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة: من الآية٣] فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع.

قال الله تعالى:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾[الكهف:١-٣]

التفسير

قوله تعالى:(الْحَمْدُ) :هو وصفُ المحمود بالكمال محبةً وتعظيمًا، وبقولنا: محبةً وتعظيمًا خرج المدح؛ لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم، بل قد يَمدح الإنسان شخصًا لا يساوي شيئًا ولكن لرجاء منفعة أو دفع مضرة، أما الحمد فإنه وصف بالكمال مع المحبة والتعظيم.

(لله): هذا اسم عَلَم على الله مُختَصٌّ به لا يوصف به غيره، وهو عَلَمٌ على الذات المقدَّسة تبارك وتعالى.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جملة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ هل هي خبرٌ أراد الله أن يُخبر عباده

بأنه محمود؟ أو هي إنشاءٌ وتوجيهٌ على أنّنا نحمدُ الله على هذا؟ أو الجميع؟.

الجواب: الجميع، فهو خبرٌ من الله عن نفسه، وهو إرشادٌ لنا أن نَحمدَ الله على ذلك.

﴿عَبْدِهِ﴾: يعني مُحَمَّدًا، وَصَفَهُ تعالى بالعبودية؛ لأنه أعبَدُ البَشَر لله . وقد وصَفَه تعالى بالعبودية في حالات ثلاث:

١ - حالِ إنزال القرآن عليه كما في هذه الآية.

٢ - في حالِ الدفاع عنهُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:٢٣].

٣ - وفي حالِ الإسراءِ به، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الاسراء:١].

يعني: في أشرف مقاماتِ النبي ﷺ وَصفهُ الله بأنه عبدٌ، ونِعمَ الوصفُ أن يكون الإنسانُ عبدًا لله، حتى قال العاشق في معشوقته:

لَا تَـدْعُني إلَّا بِيَا عَبـدَها ... فَإنَّـه أَشْـرَفُ أَسْـمَائي

﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، سُمّي كتابًا؛ لأنه يُكتب، أو لأنهُ جامع؛ لأن الكَتْب بمعنى: الجَمْع، ولهذا يقالُ: الكتيبةُ يعني المجموعةُ من الخيل، والقرآن صالح لهذا وهذا،فهو مكتوبٌ وهو أيضًا جامع.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ :لم يجعل لهذا القرآن عوجًا بل هو مستقيم؛ ولهذا قال:

﴿قَيِّمًا﴾،وقيمًا حال من قوله: (الكتاب)، يعني: حالَ كونه قَيِّمًا. فإن قال قائل: «لماذا لم نجعلها صفة؛ **لأن الكتابَ منصوبٌ وَقيِّمًا منصوب؟**».

فالجواب: أن قيمًا نَكِرة والكتاب معرفة، ولا يمكن أن توصف المعرفة بالنَّكِرَة، ومعنى ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا غايةَ الاستقامة، وهنا ذَكَرَ نَفْيَ العيبِ أولًا ثم إثباتَ الكمال ثانيًا. وهكذا ينبغي أن تُخلِي المكان من الأذى ثم تَضع الكمال؛ ولهذا يقال: «**التخلية قبل التحلية**»، يعني قبل أن تُحلِّيَ الشيء أخلِ المكان عمَّا ينافي التحلي ثم حَلِّه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾.

تنبيه. وهو أنه يجب الوقوف على قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾؛لأنك لو وصلت لصار في الكلام تناقضٌ، إذ يوهمُ أن المعنى لم يكن له عوج قَيِّم.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من إنْزال القرآن في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

الضمير في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿عَبْدِهِ﴾، ويحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿الْكِتَابَ﴾، وكلاهما صحيح، فالكتاب نَزل على الرسول ﷺ لأجل أن يُنذِر به، والكتاب نفسُه

مُنذِر، ينذر الناس.

﴿بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾: أي من قِبَلِ الله، والبأس هو العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾[الأعراف: من الآية٤]، يعني عذابنا، والإنذار: هو الإخبار بما يُخَوِّف.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ التبشير: الإخبار بما يسر، وهنا نجد أنه حُذِف المَفعول في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وذكر المفعول في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، فكيف نقدر المفعول بـ«ينذر»؟.

الجواب: نُقدِّره في مقابل من يُبَشَّر، وهم المؤمنون فيكون تقديره «الكافرين»، وهذه فائدة من فوائد علم التفسير: أنّ الشيء يعرَف بذكر قبيله المقابل له، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾[النساء: ٧١] . ﴿ثُبَاتٍ﴾: يعني «متفرقين» والدليل ذكر المقابل له ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يفيد أنه لا بدَّ مع الإيمان من العمل الصالح، فلا يكفي الإيمان وحده بل لا بد من عمل صالح.؛ ولهذا قيل لبعض السلف: «**أليس مِفتاحُ الجنَّة لا إله إلَّا الله؟**»[1] يعني: فمن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكن هل يفتحُ المفتاحُ بلا أسنان؟!!

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي ﷺ ما يجب الإيمان به لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه**»[2].

﴿يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: يعني: يعملون الأعمال الصالحات، ومتى يكون العمل صالحًا؟

الجواب: لا يمكن أن يكون صالحًا إلَّا إذا تضمن شيئين:

١ -الإخلاص لله تعالى: بألَّا يقصد الإنسان في عمله سوى وجه الله والدار الآخرة.

٢ -المتابعة لشريعة الله: ألَّا يخرج عن شريعة الله سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره.

ومن المعلوم أن الشرائع بعد بِعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ.

وضد الإخلاص: الشرك، والاتباع ضده الابتداع، إذًا البدعة لا تقبل مهما ازدانت في قلب صاحبها، ومهما كان فيها من الخشوع، ومهما كان فيها من ترقيق القلب؛ لأنها ليست موافقة للتشريع؛ ولهذا نقول: كُل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة، بل هي ضلالة كما قال النبي ﷺ، فمن عمل عملًا على وفق الشريعة ظاهرًا لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد

(١) إسناده حسن: أخرجه البخاري (٥/ ٧٦) تعليقًا، ووصله في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٦)، وقال الحافظ في «المطالب العالية» (١/ ١٠٦): «هذا إسناد حسن موقوف» والقائل هو: وهب بن منبه.

(٢)صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الإخلاص، ومن عمل عملًا خالصًا على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل، إذًا لا بد من أمرين: إخلاص لله، واتباع لرسول الله ﷺ وإلَّا لم يكن صالحًا، ثم بيَّن تعالى ما يُبَشَّر به المؤمنون فقال:

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[الكهف:٣]، ﴿أَجْرًا﴾: أي ثوابًا، وسمى الله ثواب الأعمال أجرًا؛ لأنها في مقابلة العمل، وهذا من عدله جلَّ وعلا أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائعَ أجرًا؛ حتى يطمئن الإنسان لضمان هذا الثواب؛ لأنه معروف أن الأجير إذا قام بعمله فإنه يستحق الأجر.

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾ جاء في آية أخرى ما هو أعلى من هذا الوصف وهو قوله تعالى:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: من الآية٢٦] وجاء في آية أخرى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[الرحمن: ٦٠] فهل نأخذ بما يقتضي التساوي أو بما يقتضي الأكمل؟.

الجواب: بما يقتضي الأكمل، فنقول: ﴿حَسَنًا﴾ أي هو أحسن شيء ولا شك في هذا، فإن ثواب الجنة لا يعادله ثواب.

وقوله: ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي باقين فيه أبدًا، إلى ما لا نهاية، فلا مرض، ولا موت، ولا جوع، ولا عطش، ولا حر، ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه.

واعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنَّة موجودة - الآن - وأنها مؤبدة، وأن النار موجودة - الآن - وأنها مؤبدة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

١ - في سورة النساء، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[النساء:١٦٨-١٦٩].

٢ - في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[الأحزاب:٦٤-٦٥].

٣ - في سورة الجن في قوله تعالى:﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: من الآية٢٣].

وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل: وليس كل خلاف جاء معتبرًا إلَّا خلافًا له حظٌّ من النَّظرِ، وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له، كيف يقول الخالق العليم: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ثم يقال: لا أبدية؟ هذا غريب، من أغرب ما يكون، فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن؛ لأن الله ذكر في الجنة ﴿أُعِدَّتْ﴾ وفي النار ﴿أُعِدَّتْ﴾. وثانيًا: أنهما مؤبدتان لا تفنَيان لا هما ولا من فيهما كما سمعتم.

قال الله تعالى:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف:٤،٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ كالإيضاح لما أبهم في الآية السابقة، فيه إنذار لمثل النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، ولليهود الذين قالوا: العُزير ابن الله، وللمشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

والعزير ليس بنبي ،ولكنه رجل صالح.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو بالقول، ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول، أو ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بالولد ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، فإذا انتفى العلم ما بقي إلّا الجهل.

﴿وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ﴾ الذين قالوا مثل قولهم، ليس لهم في ذلك علم، ليسَ هناك إلّا أوهام ظنوها حقائق وهي ليست علومًا.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: قد يُشكل على طالب العلم نَصْبُ ﴿كَلِمَةً﴾.

والجواب﴿كَلِمَةً﴾ :تمييز، والفاعل محذوف، والتقدير «كبرت مقالتهم كلمةً» تخرج من أفواههم: أي عَظُمت؛ لأنها عظيمة - والعياذ بالله -، كما قال تعالى:﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٠-٩٣] . يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يكون له ولد.

فإن قال قائل: أليس الله يقول:﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[الزخرف:٨١].

الجواب: نعم. ولكن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط؛ لأننا نفهم من آيات أخرى أنه لا يمكن أن يكون، وهذا كقوله تعالى للرسول ﷺ:﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[يونس: من الآية٩٤] وهو ﷺ لا يمكن أن يَشك، ولكن على فرض الأمر الذي لا يقع، كقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء:٢٢] . فإنه لا يمكن أن يكون فيهما آلهة سوى الله، فتبين بهذا أن التعليق بالشرط لا يدل على إمكان المشروط، بل قد يكون مستحيلًا غاية الاستحالة.

قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ هل لنا أن نستفيد من قوله: ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أن هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأنهم لا يستيقنون أن لله ولدًا؛ لأن أي عاقل لا يمكن أن يقول إن لله

ولدًا، فكيف يمكن أن يكون لله ولدٌ، وهذا الولد من البشر نراه مثلنا يأكل ويشرب ويلبس، ويلحقه الجوع والعطش والحر والبرد، كيف يكون ولدٌ لله تعالى؟ هذا غير ممكن؛ ولذلك قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، «إن» بمعنى: «ما» ومن علامات «إن» النافية أن يقع بعدها «إلَّا» ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي ما يقول هؤلاء إلَّا كذبًا. والكذب: هو الخبر المخالف للواقع، والصدق: هو الخبر المطابق للواقع، فإذا قال قائل: «قَدِمَ فلانٌ اليوم» وهو لم يَقدُم، فهذا كذب سَواءٌ علم أم لم يعلم، ودليل ذلك قصة سُبَيْعَةَ الأسلمِيَّةِ رضي الله عنها حينما مات عنها زوجها وهي حامل فوضعت بعد موته بليالٍ، ثم خلعت ثياب الحداد، ولبست الثياب الجميلة تريد أن تُخطَب، فدخل عليها أبو السنابل فقال لها: «ما أنت بناكح حتى يأتي عليك أربعةُ أشهر وعشر»؛ لأنها وضعت بعد موت زوجها بنحو أربعين ليلة أو أقل أو أكثر، فلبست ثياب الإحداد، ثم أتت الرسول ﷺ وأخبرته بالخبر فقال لها: «كذب أبو السنابل»(1)، مع أن الرجل ما تعمد الكذب، يظن أنها تعتدُ بأطول الأجلين، فإن بقيت حاملًا بعد أربعةِ أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تضع، وإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر بقيت في الإحداد حتى تتم لها أربعةُ أشهر وعشر، تعتد أطول الأجلين، ولكن السنَّة بينت أن الحامل عِدَّتُها وضع الحمل ولو دون أربعةِ أشهر، فالشاهد أن النبي ﷺ أطلق على قول أبي السنابل «كَذب» مع أنه لم يتعمد.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: مهلكٌ نفسَك؛ لأنه كان ﷺ إذا لم يجيبوه حَزِنَ حُزنًا شديدًا، وضاق صدره حتى يكادَ يَهلك، فسلَّاه الله وبيّن له أنه ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، وإنما عليه البلاغ وقد بلَّغ.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾: أي: باتباع آثارهم، لعلَّهم يرجعون بعد عدم إجابتهم وإعراضهم.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن.

﴿أَسَفًا﴾: مفعول لأجله، العامل فيه: ﴿بَٰخِعٌ﴾ المعنى أنه لعلك باخع نفسك من الأسف إذا

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٤٧).

لم يؤمنوا بهذا، مع أن الرسول ﷺ ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾[الرعد: ٤٠]، وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ، وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحزن الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١ - نوع يحزن؛ لأنه لم يُقبل.

٢ - ونوع يحزن؛ لأن الحق لم يُقبل.

والثاني هو الممدوح؛ لأن الأول إذا دعا فإنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان: أنا أحزن؛ لأنه لم يُقبل قولي؛ لأنه الحق، ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به، فهل يكون محمودًا أو يكونُ غير محمود؟.

الجواب: يكون محمودًا، لكنه ليس كالآخرَ الذي ليس له همٌّ إلَّا قَبول الحق، سَواء جاء من قِبَله أو جاء من قبل غيره.

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف:٧]

❁ التفسير ❁

إذا تأملت القرآن تجد أنه غالبًا يقدم الشرع على الخلق، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾[الرحمن: ١-٣] ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴾، وتأمل الآيات في هذا المعنى تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به؛ لأن المخلوقات إنما سُخِّرت للقيام بطاعة الله، قال الله تبارك وتعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذريات:٥٦]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: من الآية٢٩] إذًا المهم القيام بطاعة الله، وتأمل هذه النكتة حتى يتبين لك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنياإنما هو للقيام بشريعة الله .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾: أي صَيَّرنا، وجعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر، فإن تعدَّت لمفعولٍ واحدٍ فإنها بمعنى «خلق»، مثل قوله تعالى:﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[الأنعام: من الآية١]وإن تعدَّت لمفعولين فهي بمعنى صَيَّر، مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف:٣]: أي صيَّرناه بلغة العرب،وإنما نبَّهتُ على ذلك؛ لأن الجهمية يقولون: إنَّ الجعلَ بمعنى: الخلق في جميع المواضع، ويقولون: معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: خلقناه، ولكن هذا غلط في فهم اللغة العربية.

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ هنا جعل بمعنى: صَيَّر فالمفعول الأول «ما» والمفعول الثاني «زينة» أي أنَّ ما على الأرض جعله الله زينة للأرض، وذلك لاختبار الناس. هل يتعلقون بهذه الزينة أم يتعلقون بالخالق؟ الناس ينقسمون إلى قسمين، منهم من يتعلق بالزينة، ومنهم من يتعلق بالخالق، واسمع إلى قوله تعالى مبينًا هذا الأمر: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

إذًا جعل الله الزينة لاختبار العباد، سَواءٌ أكانت هذه الزينة فيما خلقه الله وأوجده، أم مما صنعه الآدمي، فالقصور الفخمة المزخرفة زينة ولا شك، ولكنها من صنع الآدمي، والأرض بجبالها وأنهارها ونباتها وإذا أنزل الله الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه زينة من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾: أي نختبرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الضمير يعود على الخلق، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: «**أكثر عملًا**»؛ لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر، وعلى هذا لو صلى الإنسان أربع ركعات ولكنْ على يقين ضعيف أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية فأيهما أحسن؟ الثاني - بلا شك - أحسن وأفضل؛ لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصًا ومتابعة.

في بعض العبادات الأفضل التخفيف كركعتي الفجر مثلًا، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها في قراءة القرآن وفي الركوع والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل؛ ولهذا ينبغي لنا إذا رأينا عاميًّا يطيل في ركعتي الفجر أن نسأله: «**هل هاتان الركعتان ركعتا الفجر أو تحية المسجد؟**». فإن كانت تحية المسجد فشأنه، وإن كانت ركعتي الفجر قلنا: لا، الأفضل أن تخفف، وفي الصيام رخَّص ﷺ لأمته أن يواصلوا إلى السَّحَر، وندبهم إلى أن يفطروا من حين غروب الشمس، فصام رجلان، أحدهما امتد صومه إلى السحور، والثاني أفطر من حين غابت الشمس، فأيهما أفضل؟ الثاني أفضل بلا شك، والأول وإن كان لا ينهى عنه فإنه جائز ولكنه غير مشروع، فانتبه لهذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولذلك تجد النبي ﷺ يفعل من العبادات ما كان أحسن: يحث على اتباع الجنائز وتمر به الجنائز ولا يتبعها، يحث على أن نصوم يومًا ونُفطِر يومًا ومع ذلك هو لا يفعل هذا، بل كان أحيانًا يطيل الصوم حتى يقال: لا يفطر، وبالعكس يفطر حتى يقال: لا يصوم، كل هذا يتبع ما كان أرضى لله وأصلح لقلبه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾[الكهف:٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صَعِيدٗا﴾ هذه الأرض بزينتها، بقصورها وأشجارها ونباتها، سوف يجعلها الله تعالى ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ أي: خاليًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾[طه:١٠٥]، أي نسفًا عظيمًا ولهذا جاء مُنكّرًا: أي نسفًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]، وبلحظة: كن فيكون! إذًا هذه الأرض يا أخي لا يَتعلَّق قلبك بها فهي زائلة، هي ستصير كأن لم تكن كما قال: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾[يونس: من الآية٢٤].

وتأمل الجملة الآن: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ فيها مُؤكّدان، «إنَّ» و«اللام»، ثم إنها جاءت بالجملة الاسمية الدالة على القدرة المستمرة، إذا قامت القيامة أين القصور؟ لا قصور، لا جبال، لا أشجار، الأرض كأنها حجر واحد أملس، ما فيها نبات ولا بناء ولا أشجار ولا غير ذلك، سيحولها الله تعالى ﴿جُرُزًا﴾ خالية من زينتها التي كانت عليها.

❁ قال الله تعالى:

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[الكهف:٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ «أم» هنا منقطعة، فهي بمعنى: «بل»، و﴿حَسِبۡتَ﴾ بمعنى: ظننتَ، هنا أتى بـ«أم» المنقطعة التي تتضمن الاستفهام من أجل شد النَّفس إلى الاستماع إلى القصة ؛لأنها حقيقة عَجب، هذه القصة عجب.

(الْكَهْفِ): الغار في الجبل.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: بمعنى المرقوم: أي المكتوب؛ لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتُهم من أولها إلى آخرها.

﴿كَانُواْ﴾ أي: أصحاب الكهف والرقيم.

﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: من آيات الله الكونية.

﴿عَجَبًا﴾: أي محل تعجُّب واستغراب؛ لأن هؤلاء سبعةٌ معهم كلب كرهوا ما عليه أهل بلدهم من الشرك، فخرجوا متَّجهين إلى الله يريدون أن ينجوا بأنفسهم مما كان عليه أهل بلدهم،

فلجأوا إلى هذا الغار، وكان من حسن حظهم أن هذا الغار له باب لا يتَّجه للمشرق ولا للمغرب، سبحان الله! توفيق؛ لأنه لو اتجه إلى المشرق لأكلتهم الشمس عند الشروق، ولو اتجه إلى المغرب لأكلتهم عند الغروب. كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الكهف: ١٧] وسيأتينا إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف:١٠]

التفسير

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾:من هنا بدأت القصة، وعلى هذا يكون﴿إِذْ أَوَى﴾متعلقًا بمحذوف تقديره: «اذكر إذ أوى الفتية»، وكان كفار قريش قد سألوا النبي ﷺ عن قصتهم وهو - عليه الصلاة والسلام - لم يقرأ الكتب، قال - تعالى عنه -:﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت:٤٨]. فوعدهم فأنجز الله له الوعد.

و﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب الكامل القوة والعزيمة.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أي لجأوا إليه من قومهم فارين منهم خوفًا أن يصيبهم ما أصاب قومهم من الشرك والكفر بالبعث، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾:لجأوا إلى الله.

﴿ءَاتِنَا﴾: أعطنا.

﴿لَّدُنكَ﴾: أي من عندك.

﴿رَحْمَةً﴾ أي: رحمة ترحمنا بها، وهذا كقول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه حين قال أبو بكر لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعاءًا أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي قَالَ: قُلْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْت فَاغْفِر لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: ﴿وَهَيِّئْ﴾اجعل لنا، وتهيئة الشيء أن يُعد ليكون صالحًا للعمل به.

﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:الرشد: ضد الغيّ، أي اجعل شأننا موافقًا للصواب.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٥).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[الكهف:١١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: أي أنمناهم نومة عميقة. والنوم نوعان:

١ - خفيف: وهذا لا يمنع السماع، ولهذا إذا نمت فأول ما يأتيك النوم تسمع مَن حولك.

٢ - عميق: إذا نمت النوم العميق لا تسمع مَن حولك.

ولهذا قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: أي بحيث لا يسمعون.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: أي معدودة، وسيأتي بيانها في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[الكهف:٢٥].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[الكهف:١٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: وذلك بإيقاظهم من النوم. وسمى الله الاستيقاظ من النوم بعثًا؛ لأن النوم وفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٦٠] قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر:٤٢] فالنوم وفاة.

وقوله: ﴿بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾: قد يقع فيه إشكال؟ هو: هل الله لا يعلم قبل ذلك؟

الجواب: لا، واعلم أن هذه العبارة يراد بها شيئان:

١ - علم رؤية وظهور ومشاهدة، أي: لنرى، ومعلوم أن علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأن علم الله بالشيء قبل وقوعه علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه علمٌ بأنه وقع.

٢ - أن العلم الذي يترتب عليه الجزاء هو المراد، أي لنعلم علمًا يترتب عليه الجزاء، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[محمد: من الآية٣١] . قبل أن يبتلينا

قد علم من هو المطيع ومن هو العاصي، ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب، فصار المعنى لنعلم علم ظهور ومشاهدة، وليس علم الظهور والمشاهدة كعلم ما سيكون، والثاني علمًا يترتب عليه الجزاء.

أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله فلا فرق بين ما علم أنه يقع وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق، لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمعَايَنَةِ».

﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قوله: ﴿الْحِزْبَيْنِ﴾ يعني: الطائفتين.

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾: يعني أبلغ إحصاءً، وليست فعلًا ماضيًا بل اسم تفضيل فصار المعنى: أي الحزبين أضبط لما لبثوا أمدًا، أي: المدة التي لبثوها؛ لأنهم تنازعوا أمرهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف: من الآية١٩]وقال آخرون:﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف: من الآية١٩]. ثم الناس من بعدهم اختلفوا كم لبثوا.

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف:١٣]

التفسير

نِعمَ القائل صدقًا وعلمًا وبيانًا وإيضاحًا؛ لأن كلام الله - تبارك وتعالى - متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة أربعة أشياء. كلامه عن علم، وكلامه أيضًا عن صدق، وكلامه في غاية الفصاحة، وإرادته في هذا الكلام خير إرادة، يريد بها يتكلم به أن يهدي عباده.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قصُّ الله أكمل القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١ - علم.

٢ - عن صدق.

٣ - صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله إلَّا من أضل الله قلبه، وقال: هذا أساطير الأولين.

٤ - وبأحسن إرادة لم يرد الله تعالى بها يقص علينا أن نضل ،ولا بها حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل.

وقوله: ﴿نَحْنُ﴾: إذا قال قائل أليس الله واحدًا؟

فالجواب: واحد لا شك، لكن لا شك أنه جلَّ وعلا أعظم العظماء، والأسلوب العربي إذا أسند الواحدُ إلى نفسه صيغة الجمع فهو يعني أنه عظيم، ومعلوم أنه لا أحد أعظم من الله تعالى؛ ولهذا تجد الملوك أو الرؤساء إذا أرادوا أن يُصدروا المراسم يقولون: «نحن فلان بن فلان نأمر بكذا وكذا». إذًا كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي نقرأه عليك ونحدثك به ﴿نَبَأَهُم﴾ أي: خبرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق المطابق للواقع.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: فتية شباب ولكن عندهم قوة العزيمة وقوة البدن وقوة الإيمان.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: زادهم الله هدى؛ لأن الله تعالى يزيد الذين يهتدون هدى، وكلما ازددت عملًا بعلمك زادك الله هدى أي زادك الله علمًا.

قال الله تعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف:١٤]

التفسير

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي ثبتناها وقويناها وجعلنا لها رِباطًا؛ لأن جميع قومهم على ضدهم، ومخالفة القوم تحتاج إلى تثبيت لا سيما أنهم شباب، والشاب ربما يؤثر فيه أبوه ويقول له: «اكفر»، ولكن الله ربط على قلوبهم فثبتهم، - اللهم ثبتنا يا رب -.

﴿إِذْ قَامُوا﴾: يعني في قومهم معلنين بالتوحيد متبرئين مما كان عليه هؤلاء الأقوام.

﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾: وليس رب فلان وفلان بل هو رب السموات والأرض، فهو مالك وخالق ومدبِّر السموات والأرض؛ لأن الرَّب الذي هو اسم من أسماء الله معناه الخالق المالك المدبر، ولم يبالوا بأحد فهم كسحرة فرعون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه:٧٢].

والدنيا كلها قاضية منتهية طالت بك أم قصرت، ولا بد لكل إنسان من أحد أمرين: إما الهَرَم وإما الموت، ونهاية الهرم الموت أيضًا؛ ولهذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصةً لذَّاتُــه بادِّكَــارِ المــوْتِ والهــرَمِ

الإنسان كلما تذكر أنه سيموت طالت حياته أم قصرت فإنه لا يطيب العيش له، ولكن من

نعمة الله أن الناس ينسَون هذا الأمر، ولكنَّ هؤلاء الناسين منهم من ينسى هذا الأمر باشتغاله بطاعة الله، ومنهم من ينساه بانشغاله بالدنيا.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: السمواتِ السبعِ والأرضُ كذلك سبعٌ كما جاءت بذلك النصوص، ولا حاجة لذكرها؛ لأنها معلومة والحمد لله.

﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾: لن ندعو دعاء مسألة أم دعاء عبادة إلهٍ سواه، فأقروا بالربوبيَّة وأقرُّوا بالألوهية، الربوبية قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والألوهية قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي سواه.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ :الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: «اللام» و«قد» و«القسم الذي دلَّت عليه اللام».

وقوله: ﴿إِذًا﴾ أي: لو دعونا إلهًا سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا مائلًا وموغلًا بالكفر، وصدقوا، لو أنهم دعوا غير الله إلهًا لقالوا هذا القول المائل الموغل بالكفر - والعياذ بالله -.

۞ قال الله تعالى:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[الكهف:١٥]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يشيرون إلى وجهة نظرهم في انعزالهم عن قومهم، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي صيَّروا آلهة من دون الله، عبدوها من دون الله.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ يعني: هلَّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها. فالمطلوب منهم شيئان:

١ - أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢ - أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل.

﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾: السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾[يونس: من الآية٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ

مُشْرِكُونَ﴾[النحل:١٠٠] وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة؛ ولهذا قالوا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء للتفريع، مَن: استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، واعلم أن الاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَبًا معنى التحدي؛ لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي، لو قلت: «ما قام زيد»، ما فيه تحدٍ، لكن لو قلت: «من أظلم ممن افترى على الله كذبًا» فهذا تحدي، كأنك تقول: أخبرني أو أوجد لي أحدًا أظلم ممن افترى على الله كذبًا.

فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: أي من أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا في نسبة الشريك إليه وغير ذلك، كل من افترى على الله كذبًا فلا أحد أظلم منه، أنت لو كذبت على شخص لكان هذا ظلمًا، وعلى شخص أعلى منه لكان هذا ظلمًا أعلى من الأول، فإذا افتريت كذبًا على الله صار لا ظلم فوق هذا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن قال قائل: «نجد أن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[البقرة: من الآية١١٤]. وأظلم تدل على اسم التفضيل، فكيف الجمع؟». نقول: إن الجمع هو أنها اسم تفضيل في نفس المعنى الذي وردت به، فمثلًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: لا أحد أظلم منعًا ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي الكذب، أي الكذب أظلم؟ الكذب على الله، فتكون الأظلمية هنا بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه ليست أظلمية مطلقة؛ لأنها لو كانت أظلمية مُطلَقه لكان فيه نوع من التناقض، لكن لو قال قائل: «ألا يمكن أن تقول: إنها اشتركت في الأظلمية؟ يعني: هذا أظلم شيء وهذه أظلم شيء»؟.

فالجواب: لا يمكن؛ لأنه لا يمكن أن تقرن بين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وبين من افترى على الله كذبًا، فإن الثاني أعظم، فلا يمكن أن يشتركا في الأظلمية، وحينئذٍ يتعين المعنى الأول، أن تكون الأظلمية بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[الكهف:١٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ هذا من قول الفتية،

يعني: قال بعضهم لبعض: ما دمتم اعتزلتم قومكم وما يعبدون إلَّا الله.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون استثناء من قوله: ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ وعلى هذا يكون هؤلاء القوم يعبدون الله ويعبدون غيره، والفتية اعتزلوهم وما يعبدون إلَّا الله، ويحتمل أن تكون «إلَّا» منقطعة فيكون المعنى أن هؤلاء القوم لا يعبدون الله. ويكون المعنى: «**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون مطلقًا**» ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لكنِ الله لم تعتزلوه ولكنكم آمنتم به، ويحتمل أن تكون استثناء متصلًا على سبيل الاحتياط، يعني: أن هؤلاء الفتية قالوا: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يخشون أن يكون أحد من أقوامهم يعبد الله، و«ال» في الكهف تحتمل أن تكون للعهد، وكأنه كهف ألفوا أن يأووا إليه، أو أن المراد بها الكمال، أي إلى الكهف الكامل الذي يمنعكم من قومكم، أما الأول فيحتاج إلى دليل أن هؤلاء الفتية كانوا يذهبون إلى كهف معين يأوون إليه، وأما الثاني فوجهه أنه إنما يطلبون كهفًا يمنعهم ويحميهم، فتكون «ال» لبيان الكمال، أي إلى كهف يمنعكم ويحميكم من عدوكم.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ يعني: أنكم إذا فعلتم ذلك فإن الله سييسر لكم الأمر؛ لأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وهنا سؤال في قوله: ﴿ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ الفاء، يتبادر للذهن أنها في جواب الشرط، والمعروف أن «إذ» ليست للشرط وإنما الذي للشرط هو «إذا» أو «إذ» إذا اقترنت بـ«ما»، فإذ لم تقترن بـ«ما» فليست للشرط

والجواب عن ذلك أن يقال: إما أنها ضُمِّنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها ﴿ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، أو أن «الفاء» للتفريع وليست واقعة في جواب الشرط، والمعنى: فحينئذ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ فأووا إلى الكهف.

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾: أي: يهيئ لكم من شأنكم ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ أي: مكانًا ترتفقون به.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾[الكهف:١٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ في قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ قراءتان: ﴿تَزَّاور﴾ بتشديد الزاي وأصلها تتزاور، و﴿تَزَٰوَرُ﴾ بتخفيف الزاي، والمراد بذلك أنها

تميل: ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾، تصور كيف يكون الكهف الآن إذا كانت تزاور عنه ذات اليمين؟ يكون وجه الكهف إلى الشمال. ولهذا قال بعضهم: إن وجه الكهف إلى «بنات نعش» النجوم المعروفة في السماء، يعرفها أهل البر.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: تكون على شمال الغار.

وقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ قيل: المعنى تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر؛ لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام.

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: الضمير يعود على هؤلاء الفتية، هذه الفجوة يعني: الشيء الداخل، يعني: ليسوا على باب الكهف مباشرة، بل في مكان داخل؛ لأن ذلك أحفظ لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ دليل على أن الشمس هي التي تتحرك، وهي التي بتحركها يكون الطلوع والغروب خلافًا لما يقوله الناس اليوم من أن الذي يدور هو الأرض، وأما الشمس فهي ثابتة، فنحن لدينا شيء من كلام الله، الواجب علينا أن نجريه على ظاهره وألا نتزحزح عن هذا الظاهر إلَّا بدليل بَيِّن، فإذا ثبت لدينا بالدليل القاطع أن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض فحينئذ يجب أن نؤول الآيات إلى المعنى المطابق للواقع، فنقول: إذا طلعت في رأي العين وإذا غربت في رأي العين، تزاور في رأي العين، تقرض في رأي العين، أما قبل أن يتبين لنا بالدليل القاطع أن الشمس ثابتة والأرض هي التي تدور وبدورانها يختلف الليل والنهار فإننا لا نقبل هذا أبدًا، علينا أن نقول: إنَّ الشمس هي التي بدورانها يكون الليل والنهار؛ لأن الله أضاف الأفعال إليها، والنبي ﷺ حينما غربت الشمس قال لأبي ذر: «أتدري أين تذهب؟»[1] فأسند الذَّهاب إليها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله تعالى أعلم بخلقه، ولا نقبل حدْسًا ولا ظنًا، ولكن لو تيقنا يقينًا أن الشمس ثابتة في مكانها وأن الأرض تدور حولها، ويكون الليل والنهار، فحينئذ تأويل الآيات واجب حتى لا يخالف القرآن الشيء المقطوع به.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الضمير يعود على حال هؤلاء الفتية:

١ - خروجهم من قومهم.

٢ - إيواؤهم لهذا الغار.

٣ - تيسير الله لهم غارًا مناسبًا.

لا شك أن هذا من آيات الله الدالة على حكمته ورحمته، هل نعتبر أن هذا كرامة؟.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

الجواب: نعم نعتبره كرامة ولا شك.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿مَن يَهْدِ﴾: «من» شرطية والدليل على أنها شرطية حذف الياء مِن يهدي، والجواب: «فهو المهتدِ» و«المهتد» أصلها «المهتدي» بالياء لكن حذفت الياء تخفيفًا كما حذفت في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩].

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾: أي يُقدِّر أن يكون ضالًا.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾: أي من يتولاه ويرشده إلى الصواب، وفي هذا الخبر من الله تنبيه إلى أننا لا نسألُ الهداية إلَّا من الله، وأننا لا نجزع إذا رأينا من هو ضال؛ لأن الإضلال بيد الله، فنحن نؤمن بالقدر ولا نَسخطُ الإضلال الواقع من الله، لكن يجب علينا أن نُرشد هؤلاء الضالين، فهنا شرع وقدَر، القدر يجب عليك أن ترضى به على كل حال، والمقدور فيه تفصيل، والمشروع يجب أن ترضى به على كل حال، فنحن نرضى أن الله جعل الناس على قسمين: مهتد وضال، ولكن يجب علينا مع ذلك أن نسعى في هداية الخلق.

قال الله تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[الكهف: ١٨].

التَفْسِير

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أيها الرائي: إذا رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾؛ لأنه ليس عليهم علامة النوم، فالنائم يكون مسترخيًا، وهؤلاء كأنهم أيقاظ، ولذلك يُفرِّق الإنسان بين رجل نائم ورجل مضطجع لَمّا يراه، حتى لو أن المضطجع أراد أن يتناوم ويخدع صاحبه لعرف أنه ليس بنائم.

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾: جمع راقد.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: يعني: مرة يكونون على اليمين ومرة على الشمال، ولم يذكر الله الظهر ولا البطن، لأن النوم على اليمين وعلى الشمال هو الأكمل.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾: فيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، ووجه الدلالة أن الله أضاف تقلبهم إليه، فلو أنّ النائم قال في نومه: «امرأتي طالق» أو «في ذمتي لفلان ألف ريال» لم يثبت؛ لأنه لا قصد له ولا إرادة له؛ لا في القول؛ ولا في الفعل، والحكمة من تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال: بعض العلماء قال لئلَّا تأكل الأرض الجانب الذي يكون ملاصقًا لها، ولكن الصحيح أن الحكمة

ليست هذه، الحكمة من أجل توازن الدم في الجسد؛ لأن الدم يسير في الجسد، فإذا كان في جانب واحد أوشك أن ينحَرِم منه الجانب الأعلى، ولكن الله بحكمته جعلهم يتقلبون.

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ يعني كأنه- والله أعلم- لم ينم.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾: أي جالس على بطنه وقد مدَّ ذراعيه.

﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾: وهو فتحة الكهف أو فِناء الكهف يعني: إما أن يكون على الفتحة، وإما أن يكون إلى جنب الكهف في فِنائه ليحرسهم، وفي هذا دليل على جواز اتخاذ الكلب للحراسة، حراسة الآدميين، أما حراسة الماشية فقد جاءت به السنّة، وحراسة الحرث جاءت به السنة كذلك . حراسة الآدمي من باب أولى؛ لأنه إذا جاز اتخاذ الكلب لحراسة الماشية والحرث أو للصيد الذي هو كمال فاتخاذه لحراسة البيت من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: لو اطّلعت أيها الرائي عليهم لولّيت منهم فرارًا، رهبة ينْزِلها الله في قلب من يراهم، حتى لا يحاول أحد أن يدنو منهم، ولهذا قال: مع أنهم لم يلحقوه، لكنه خائف منهم.

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ملئت: لم يُملأ قلبُه فقط، بل كلُّه، وهذا يدل على شدة الخوف الذي يحصل لمن رآهم.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: كما فعلنا بهم من هذه العناية من تيسير الكهف لهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، بعثهم الله، أي مثل هذا الفعل بعثناهم، فعلنا بهم فعلًا آخر-، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ كما جرت به العادة أن الناس إذا ناموا يتساءلون إذا قاموا، من الناس من يقول: ماذا رأيت في منامك:ومن الناس من يقول: لعلَّ نومك لذيذ أو ما أشبه ذلك ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾: ليس المعنى أنهم بعثوا للتساؤل ولكن بعثوا فتساءلوا. فاللام جاءت للعاقبة لا للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: من

الآية٨]، اللام ليست للتعليل أبدًا، ولا يمكن أن تكون للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكنهم التقطوه فكان لهم عدوًا وحزنًا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: كما جرت العادة، أي: كم مدة لبثتم؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾: أي كاملًا.

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: أي بعض اليوم؛ ذلك لأنهم دخلوا في أول النهار وبُعثوا من النوم في آخر النهار، فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ إن كان هذا هو اليوم الثاني أو ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إن كان هذا هو اليوم الأول، وهذا مما يدل على عمق نومهم.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: أي قال بعضهم لبعض، وكأن هؤلاء القائلين قد شعروا بأن النومة طويلة ولكن لا يستطيعون أن يُحدِّدوا، أمَّا الأولون فحددوا بناءً على الظاهر، وأما الآخرون فلم يحددوا بناءً على الواقع؛ لأن الإنسان يفرق بين النوم اليسير والنوم الكثير، ثم قال بعضهم لبعض: ﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ الوَرِق: هو الفضة كما جاء في الحديث: «وفي الرِّقةِ رُبْع العُشْر» كان معهم دراهم من الفضة.

﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ تضمن هذا:

أولًا: جواز التوكيل في الشراء، والتوكيل في الشراء جائز، وفي البيع جائز أيضًا، فإن الرسول وكَّل أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه دينارًا، وقال: «اشْتَرِ أُضْحِيَةً»، فاشترى شاتين بالدينار ثم باع إحداهما بدينار فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي ﷺ أن يبارك الله له في بيعه، فكان لو اشترى ترابًا لربح فيه .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز تصرف الفضولي، أي يجوز للإنسان أن يتصرف بمال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويأتي برزق.

ثانيًا: في هذا - أيضًا - دليل أنه لا بأس على الإنسان أن يطلب أطيب الطعام لقولهم: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾.

ثالثًا: فيه دليل أيضًا على ضعف قول الفقهاء: إنه لا يصح الوصف بالأفعل، أي لا يجوز أن أصف المبيع بأنه أطيب كل شيء، فلا تقول: «**أبيع عليك برًّا أفضل ما يكون**»؛ لأنه ما من طيِّب إلَّا وفوقه أطيب منه، ولكن يقال: هذا يرجع إلى العرف، فأطيب: يعني في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، وهل من السنّة ما يشهد لطلب الأزكى من الطعام؟ نعم، وذلك أن النبي ﷺ أقرَّ الصحابة الذين باعوا التمر الرديء بتمر جيد ليطعم النبي ﷺ منه، ولم ينههم عن هذا، وما قال: هذا تَرَفُّه، اتركوا طلب الأطيب، فالإنسان قد فتح الله له في أن يختار الأطيب من الطعام أو الشراب أو المساكن أو الثياب أو المراكب، ما دام الله قد أعطاه القدرة على ذلك فلا يُلام.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ :يعني يشتري ويأتي به، فجمعوا بالتوكيل بين الشراء والإحضار.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ :أي يتعامل بخفية لئلَّا يُشْعَر بهم فيؤذَون، وهذا يعني: أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلَّا قليلًا. ثم علَّلوا هذا؛ أي: الأمر بالتطلف والنهي عن الإشعار بقولهم:

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]

❁ التفسير ❁

أي أنهم لا بد أنهم يقتلونكم أو يردونكم على أعقابكم بعد إيمانكم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا عدتم في ملَّتهم أبدًا، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة إلَّا الوسائل المحرمة؛ فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: مثل بعثهم من نومهم، فإن الله أعثر عليهم يعني: أطلع عليهم قومهم.

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أطلع الله عليهم قومهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إما أن المعنى بقيام الساعة الذي كان ينكره هؤلاء، أو؛ لأن الله تعالى يُنجي المؤمنين من الكفار؛ لأن هؤلاء السبعة نجوا من أمة عظيمة تقاتلهم وتنهاهم عن التوحيد.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ :أي قيام الساعة. ﴿السَّاعَةَ﴾ أي: لا شك، واقعة لا محالة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ :متعلقة بأعثرنا، أعثرنا عليهم حتى تنازعوا أمرهم بينهم، تنازعوا فيها بينهم

ماذا نفعل بهم؟ أنتركهم أم ماذا نصنع بهم؟.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: يعني: ابنوا عليهم بنيانًا حتى يكون أثرًا من الآثار وحماية لهم.

﴿فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾: يعني توقفوا في أمرهم كيف يَبقَونَ ثلاث مائة سنة وتسع سنين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغيرون أيضًا.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾: وهم أمراؤهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ بدلًا من أن نبني بنيانًا نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي لنجعلن عليهم مسجدًا نتخذه مصلى، والظاهر أنهم فعلوا؛ لأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة.

هذا الفعل، اتخاذ المساجد على القبور، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت: «لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِمِ مَسَاجِدَ» يُحذِّر ما صنعوا[1].

❁ ثم قال مبينًا اختلاف الناس في عددهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢]

❁ التفسير ❁

سيقولون ثلاثة، أربعة، خمسة، كيف يمكن أن يكون قولان لغائب واحد؟ هذا يخرج على وجهين:

الوجه الأول: أن المعنى: سيقول بعضهم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول البعض الآخر: خمسة سادسهم كلبهم، ويقول البعض الثالث: سبعة وثامنهم كلبهم.

والوجه الثاني: أن المعنى: أنهم سيترددون؛ مرة يقولون: ثلاثة، ومرة يقولون: خمسة، ومرة يقولون: سبعة. وكلاهما محتمل ولا يتنافيان، فتجدُهم أحيانًا يقولون: كذا، وأحيانًا يقولون: كذا؛ حسب ما يكون في أذهانهم.

قال الله تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ قاله في الذين قالوا: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كلا القولين قال الله تعالى: إنهم قالوه ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي راجمين بالغيب،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

وليس عندهم يقين.

﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقل: رجمًا بالغيب، بل سكت، وهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث صار الثالث صوابًا، نظيره قول الله - تبارك وتعالى - في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ صحيح، وهنا لما قال: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ في القولين الأولين، وسكت عن الثالث دل على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ يعني إذا حصل نزاع فقل للناس: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وهل أعلمنا الله بعدتهم؟.

الجواب: نعم؛ أعلمنا بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم، يعني: فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين: بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما يعلمهم قبل إعلام الله أنهم سبعة وثامنهم كلبهم إلَّا قليل.

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) أي: في شأنهم، في زمانهم، في مكانهم، في مآلهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا يصل إلى القلب؛ لأنه إذا وصل الجدال إلى القلب اشتد المجادل، وغضب وانتفخت أوداجه وتأثر، لكن لما لم يكن للجدال فيهم كبير فائدة قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ يعني: إلَّا مراءً على اللسان لا يصل إلى القلب، ويؤخذ من هذا أن ما لا فائدة للجدال فيه لا ينبغي للإنسان أن يتعب قلبه في الجدال به، وهذا يقع كثيرًا؛ أحيانًا يحتمي بعض الناس إذا جودل في شيء لا فائدة فيه، فنقول: «**يا أخي لا تتعب، اجعل جدالك ظاهرًا على اللسان فقط لا يصل إلى القلب فتحتمي وتغضب**»، وهذا يدل على أن ما لا خير فيه فلا ينبغي التعمق فيه، وهذا كثير، وأكثر ما يوجد في علم الكلام، فإن علماء الكلام الذين خاضوا في التوحيد وفي العقيدة يأتون بأشياء لا فائدة منها، مثل قولهم: «**تسلسل الحوادث في الأزل وفي المستقبل**» وما شابه ذلك من الكلام الذي لا داعيَ له، وهم يكتبون الصفحات في تحرير هذه المسألة نفيًا أو إثباتًا مع أنه لا طائل تحتها، فالشيء الذي ليس فيه فائدة لا تتعب نفسك فيه، وإذا رأيت من صاحبك المجادلة فقل له: «**تأمل الموضوع**» وسدَّ الباب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: ولا تستفت في أهل الكهف.

﴿مِّنْهُمْ﴾ :أي من الناس سواءٌ من أهل الكتاب أم من غيرهم أحدًا عن حالهم وزمانهم ومكانهم، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يستفتي من ليس أهلًا للإفتاء، حتى وإن زعم أن

عنده علمًا فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلًا.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[الكهف:٢٣، ٢٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ الخطاب هنا للرسول ﷺ كالخطاب الذي قبله ﴿لِشَاْىْءٍ﴾ أي في شيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ذكروا أن قريشًا أرسلت إلى اليهود في المدينة وقالوا: إن رجلًا بعث فينا يقول: إنه نبي، فقالوا: اسألوه عن ثلاثة أشياء:

١ - عن فتية خرجوا من مدينتهم ولجأوا إلى غار، ما شأنهم؟

٢ - وعن رجل مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها.

٣ - وعن الروح ثلاثة أشياء؛ فسألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف، فقال: «أُخْبِرُكُم غَدًا»، فتوقف الوحي نحو خمسة عشر يومًا، لم ينْزل عليه الوحي، والنبي ﷺ لا يدري عن قصص السابقين كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨]. ولكن الله اختبره، فأمسك الوحي خمسة عشر يومًا، كما ابتلى سليمان - عليه الصلاة والسلام - لما قال: «لَأَطُوفَنَّ اللَيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله»، فقال له الملك: «قل: إن شاء الله»[1]. فلم يقل وطاف على تسعين امرأة يجامعهن، وما الذي حصل؟ أتت واحدة منهن بشق إنسان، حتى يُرِيَ الله عباده أن الأمر أمره وأن الإنسان مهما بلغ في المرتبة عند الله تعالى الوجاهة؛ فإنه لا مفر له من أمر الله.

مكث الوحي خمسة عشر يومًا، ومن المعلوم أن النبي ﷺ سيلحقه الغم والهم لئلَّا يتخذ هؤلاء القوم مِن تأخرِ إخباره بذلك وسيلةً إلى تكذيبه، والحقيقة أن هذا ليس وسيلة للتكذيب، يعني قد يقولون: وعدَنا محمد بأن يخبرنا غدًا ولم يفعل فأين الوحي الذي يدّعي أنه ينْزِل عليه؟ ولكن نقول: إنَّ تأخر الوحي وتأخر إخبار النبي ﷺ بذلك يدل على صدقه؛ لأنه لو كان كاذبًا لصنع قصة فيما بين ليلة وضحاها، وقال: هذه قصتهم، فتأخر الوحي والنبي ﷺ لم يخبرهم يدل على كمال صدقه - عليه الصلاة والسلام -.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إلَّا قولًا مقرونًا بمشيئة الله، فقرْنُ ذلك بمشيئة الله

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٥٢٤٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٦٥٤).

يستفيد منه الإنسان فائدتين عظيمتين:

إحداهما: أن الله ييسر الأمر له حيث فوضه إليه جلَّ وعلا.

والثانية: إن لم يفعل لم يحنث.

فيستفاد من قوله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ أنه لو قال: سأفعل هذا على سبيل الخبر لا على سبيل الجزم بوقوع الفعل، فإن ذلك لا يلزمه أن يأتي بالمشيئة، يعني: لو قال لك صاحبك: «هل تمر عليَّ غدًا؟» فقلت: «نعم» ولم تقل: إن شاء الله فلا بأس؛ لأن هذا خبر عما في نفسكَ، وما كان في نفسك فقد شاءه الله فلا داعي لتعليقه بالمشيئة، أما إن أردت أنه سيقع ولا بد فقل: إن شاء الله، وجه ذلك أن الأول خبر عمّا في قلبك، والذي في قلبك حاضر الآن، وأما أنك ستفعل في المستقبل فهذا خبر عن شيء لم يكن ولا تدري هل يكون أو لا يكون، انتبهوا لهذا الفرق؛ إذا قال الإنسان: سأسافر غدًا، فإن كان يخبر عمّا في قلبه فلا يحتاج أن يقول: إن شاء الله؛ لأنه خبر عن شيء واقع، أما إذا كان يريد بقوله: سأسافر، أنني سأنشئ السفر وأسافر فعلًا، فهنا لا بد أن يقول: إن شاء الله، ولهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ولم تكن إني سأفعل، بل قال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فلا تقل لشيء مستقبل إني فاعله إلّا أن يكون مقرونًا بمشيئة الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يعني: اذكر أمر ربِّك بأن تقول: «إن شاء الله» إذا نسيت أن تقولها؛ لأن الإنسان قد ينسى وإذا نسي فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: من الآية٢٨٦] وقال النبي ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا».

فالمشيئة إذا نسيها الإنسان فإنه يقولها إذا ذكرها، ولكن هل تنفعه، بمعنى: أنه لو حنِث في يمينه فهل تسقط عنه الكفارة إذا كان قالها متأخرًا؟ من العلماء من قال: إنها تنفعه حتى لو لم يذكر الله إلّا بعد يوم أو يومين أو سنة أو سنتين؛ لأن الله أطلق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومن العلماء من قال: لا تنفعه إلّا إذا ذكر في زمن قريب بحيث ينبني الاستثناء على المستثنى منه، وهذا الذي عليه جمهور العلماء، فمثلًا إذا قلت: والله لأفعلن هذا ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم ذكرت بعد عشرة أيام فقلت: إن شاء الله، ثم لم تفعل بناء على أن من قال: إن شاء الله لم يحنَث، فمن العلماء من قال: ينفعه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، ومنهم من قال: لا ينفعه؛ لأن الكلام لم ينبنِ بعضه على بعض، إذًا ما الفائدة من أمر الله أن نذكره إذا نسينا؟ قال: الفائدة هو ارتفاع الإثم؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإذا نسيت فقلها إذا ذكرت، لكن هل تنفعك فلا تحنث أم يرتفع عنك الإثم دون حكم اليمين؟ الظاهر: الثاني؛ أن يرتفع الإثم، وأما الحنْث فإنه يحنَث لو خالف؛ لأن الاستثناء بالنسبة للحِنْث لا ينبغي إلّا أن يكون متصلًا، ثم الاتصال هل يقال: إن الاتصال معناه: أن يكون الكلام متواصلًا بعضه مع بعض أو أن الاتصال ما دام بالمجلس؟.

الجواب: فيه خلاف، بعضهم يقول: ما دام في المجلس فهو متصل، وإذا قام عن المجلس فقد انقطع، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا»[1] فجعل التفرق فاصلًا، ومنهم من قال: العبرة باتصال الكلام بعضه مع بعض، والظاهر والله أعلم أنه إذا كان في مجلسه، ولم يذكر كلامًا يقطع ما بين الكلامين فإنه ينفعه الاستثناء فلا يحنث.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ «عسى» بمعنى: الرجاء إذا وقعت من المخلوق، فإن كانت من الخالق فهي للوقوع، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٩٨، ٩٩]، نقول: عسى هنا واقعة، وقال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة: ١٨]. أما من الإنسان فهي للرجاء، كقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ﴾ هذه للرجاء.

﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾: أي يدلني إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي هداية وتوفيقًا، وقد فعل الله، فهداه في شأن أصحاب الكهف للرشد.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[الكهف:٢٥]

❁ التَفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿لَبِثُوا﴾ يعني: أصحاب الكهف ﴿فِى كَهْفِهِمْ﴾ الذي اختاروه لأنفسهم وناموا فيه.

﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾: تكتب اصطلاحًا ثلاثمائة مربوطة: ثلاث مربوطة بمائة، وتكتب مائة بالألف، لكن هذه الألف لا يُنطَق بها، وبعضهم يكتب ثلاث وحدها ومئة وحدها، وهذه قاعدة صحيحة.

وقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ ﴿مِا۟ئَةٍ﴾ بالتنوين و﴿سِنِينَ﴾ تمييز مبين لثلاث مائة؛ لأنه لولا كلمة سنين لكنا لا ندري هل ثلاث مائة يوم أو ثلاث مائة أسبوع أو ثلاث مائة سنة؟، فلما قال: ﴿سِنِينَ﴾ بيَّن ذلك.

﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ ازدادوا على الثلاث مائة تسع سنين، فكان مكثُهم ثلاث مائة وتسع سنين، قد يقول قائل: «لماذا لم يقل: مائة وتسع سنين؟».

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

فالجواب: هذا بمعنى هذا، لكن القرآن العظيم أبلغ كتاب، فمن أجل تناسب رءوس الآيات قال: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم: بأن السنين الثلاثمائة بالشمسية وازدادوا تسعًا بالقمرية، فإنه لا يمكن أن نشهد على الله بأنه أراد هذا، من الذي يشهد على الله أنه أراد هذا المعنى؟ حتى لو وافق أن ثلاث مائة سنين شمسية هي ثلاث مائة وتسع سنين بالقمرية فلا يمكن أن نشهد على الله بهذا؛ لأن الحساب عند الله تعالى واحد، وما هي العلامات التي يكون بها الحساب عند الله؟.

الجواب: هي الأهلَّة، ولهذا نقول: إن القول: بأن ثلاث مائة سنين« شمسية، »وازدادوا تسعًا« قمرية» قول ضعيف.

أولًا: لا يمكن أن نشهد على الله أنه أراد هذا.

ثانيًا: أن عدة الشهور والسنوات عند الله بالأهلة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٨٩] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس: ٥].

قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ قوله: ﴿قُلِ﴾ أي: قل يا محمد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، وهذه الجملة تمسك بها من يقول: إنَّ قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ﴾[الكهف: ٢٥] هي من قول الذين يتحدثون عن مكث أهل الكهف بالكهف وهم اليهود الذين يَدَّعون أن التوراة تدل على هذا، وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿وَلَبِثُواْ﴾ مفعولًا لقول محذوف والتقدير: «**وقالوا: لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا**»، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ ولكن هذا القول وإن قال به بعض المفسرين فالصواب خلافه وأن قوله: ﴿لَبِثُواْ﴾ من قول الله، ويكون قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ من باب التوكيد أي: توكيد الجملة أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، والمعنى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ وقد أعلَمَنا أنهم لبثوا ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾، وما دام الله أعلم بما لبثوا فلا قول لأحد بعده.

قال الله: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما غاب في السموات والأرض، أو له علم

غيب السموات والأرض، وكلا المعنيين حق، والسموات جمع سماء، وهي سبع كما هو معروف، والأرض هي - أيضًا - سبع أرَضين، فلا يعلم الغيب - علم غيب السموات والأرض - إلَّا الله، فلهذا من ادعى علم الغيب فهو كافر، والمراد بالغيب المستقبل، أما الموجود أو الماضي فمن ادعى علمهما فليس بكافر؛ لأن هذا الشيء قد حصل وعلمه من علمه من الناس، لكن غيب المستقبل لا يكون إلَّا لله وحده، ولهذا من أتى كاهنًا يخبره عن المستقبل وصدَّقه فهو كافر بالله ؛ لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل: من الآية٦٥]، أما ما كان واقعًا؛ فإنه من المعلوم أنه غيب بالنسبة لقوم وشهادة بالنسبة لآخرين.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ :هذا يسميه النحويون فعل تعَجُّب.

﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ :بمعنى ما أبصره.

﴿وَأَسْمِعْ﴾ :بمعنى ما أسمعه، وهو أعلى ما يكون من الوصف، والله - تبارك وتعالى - يبصر كل شيء، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، ويبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، وكذلك في السمع، يسمع كل شيء، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم الجهر﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧] . تقول عائشة في قصة المجادلة التي ظاهر منها زوجها، وجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ وكانت عائشة في الحجرة، والحجرة صغيرة كما هو معروف، وكان الرسول يحاور المرأة وعائشة يخفى عليها بعض الحديث، والله يقول:﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١] . تقول عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها»(١)، والله فوق كل شيء، ومع ذلك سمع قولها ومحاورتها للرسول ﷺ، وفيه الإيمان بأن الله تعالى ذو بصر نافذ لا يغيب عنه شيء وذو سمع ثاقب لا يخفى عليه شيء، والإيمان بذلك يقتضي للإنسان ألا يُري ربَّه ما يكرهه ولا يُسمعه ما يكرهه؛ لأنك إن عملت أي عمل رآه، وإن قلت أي قول سمعه، وهذا يوجب أن تخشى الله وألا تفعل فعلًا يكرهه ولا تقول قولًا يكرهه الله، لكن الإيمان ضعيف، فتجد الإنسان عندما يريد أن يقول أو أن يفعل؛ لا يخطر بباله أن الله يسمعه أو يراه إلَّا إذا نُبِّه، والغفلة كثيرة، فيجب علينا جميعًا أن ننتبه لهذه القضية العظيمة.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ قوله: ﴿مَا لَهُم﴾ هل الضمير يعود على أصحاب الكهف أو على من هم في السموات والأرض؟.

الجواب: الثاني هو المتعين، يعني: ليس لأحد ولي من دون الله، حتى الكفار وليهم الله وحتى

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

المؤمنون وليهم الله قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: من الآية٦١] ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[الأنعام: من الآية٦٢]. والله ولي كُلِّ أحد، وهذه هي الولاية العامة، أليس الله تعالى يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية، ويتولى المؤمنين - أيضًا - بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة: من الآية٢٥٧]، والولاية الخاصة تستلزم عناية خاصة، أن الله يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم، فيعلمهم أولًا ويخرجهم ثانيًا بالتوفيق.

إعراب الجملة هذه: ﴿مَا﴾ نافية، و﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، و﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مبتدأ مؤخر دخل على هذه الكلمة حرف الجر الزائد؛ لأنك لو حذفت ﴿مِن﴾ وقلت: «ما لهم من دونه وليٌّ» لاستقام الكلام، لكن جاءت ﴿مِن﴾ من أجل التوكيد والتنصيص على العموم، يعني: لا يمكن أن يوجد لأهل السموات والأرض ولي سوى الله.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى: من الآية١٠]، والحكم كوني وشرعي، فالخلق والتدبير حكم كوني، والحكم بين الناس بالأوامر والنواهي حكم شرعي، وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يشمل النوعين. فلا أحد يشرك الله في حكمه لا الكوني ولا الشرعي، وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي، وأنه ليس لنا أن نُشَرِّع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات، وأما من قال: إن لنا أن نُشَرِّع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل؛ لأنه على قولهم لنا: أن نجوز الربا ولنا أن نجوز الميسر وأن نجوز كل ما فيه الكسب ولو كان باطلا، فالشرع صالح في كل زمان ومكان ولن يُصلحَ آخر هذه الأمة إلَّا ما أصلح أولها، الحكم الكوني لا أحد يُشرك الله فيه ولا أحد يدعي هذا، هل يستطيع أحد أن يُنَزِّل الغيث؟! وهل يستطيع أحد أن يُمسك السموات والأرض أن تزولا؟! ولكن الحكم الشرعي هو محل اختلاف البشر ودعوى بعضهم أن لهم أن يشرعوا للناس ما يرون أنه مناسب.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾[الكهف:٢٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ هذا كالنتيجة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ يعني: إذا كان لا يشرك في حكمه أحدًا فاتْلُ ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾.

فقوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، أمّا التلاوة اللفظية فظاهر، تقول: «فلان تلا علي سورة الفاتحة»، والتلاوة الحكمية العملية أن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به فقد تلوتَه أي تَبعتَه، ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [فاطر: من الآية٢٩] يشمل التلاوة اللفظية والحكمية، والخطاب في قوله: ﴿ وَٱتْلُ ﴾ للرسول ﷺ، ولكن اعلم أن الخطاب للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به، فهو خاص به.

الثاني: ما دلَّ الدليل أنه للعموم، فهو للعموم.

الثالث: ما يحتمل الأمرين، فقيل: إنه عام، وقيل: إنه خاص، وتتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقدوتها.

فمثال الأول الذي دلَّ الدليل على أنه خاص به، قوله - تبارك وتعالى -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح:١].

فهذا - لا شك - أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾[الضحى:٦]، فهو خاص به ﷺ.

ومثال الثاني الذي دلَّ الدليل على أنه عام قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾[الطلاق: من الآية١]، فقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ ﴾ للجماعة؛ وهم الأمة، لكن الله نادى زعيمها ورسولها؛ لأنهم تابعون له فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾، إذًا الخطاب يشمل النبي ﷺ وجميع الأمة، ومثال ما يحتمل الأمرين هذه الآية: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، لكن قد يقول قائل: إن هذه الآية فيها قرينة قد تدل على أنه خاص به كما سنذكره - إن شاء الله -، ولكن الأمثلة على هذا كثيرة، والصواب أن الخطاب للأمة، ولكن وُجِّه لزعيمها وأسوتها؛ لأن الخطابات إنما توجه للرؤساء والمتبوعين.

وقوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ هو القرآن، وفي إضافة الرب إلى الرسول - عليه

الصلاة والسلام - دليل على أن ما أوحاه الله إلى رسوله من تمام عنايته به.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يعني: لا أحد يستطيع أن يبدل كلماته، لا الكونية ولا الشرعية، أما الكونية فواضح، لا أحد يستطيع أن يُبَدِّلها، فإذا قال الله تعالى: ﴿كن﴾ في أمر كوني فلا يستطيع أحد أن يبدله، أما الشرعية فلا أحد يستطيع شرعًا أن يبدلها. والنفي هنا ليس نفيًا للوجود، ولكن النفي هنا للإمكان الشرعي، فلا أحد يستطيع شرعًا أن يبدل كلمات الله الشرعية، فالواجب على الجميع أن يستسلموا لله، فلو قال قائل: وجدنا من يبدل كلام الله! فإن الله أشار إلى هذا في قوله في الأعراب، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح: من الآية١٥]. قلنا: هذا تبديل شرعي، والتبديل الشرعي قد يقع من البشر فيحرفون الكلام عن مواضعه، ويفسرون كلام الله بما لا يريده الله، ومن ذلك جميع المعطِّلة لصفات الله أو لبعضها ممن بدلوا كلام الله.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ يعني: لن تجد أيها النبي من دون الله ملتحدًا، أي أحدًا تميل إليه أو تلجأ إليه؛ لأن الالتحاد من اللحد وهو الميل، يعني: لو أرادك أحد بسوء ما وجدت أحدًا يمنعك دون الله، إذًا عندما يصيب الإنسان شيء يتضرر به أو يخاف منه يلتجئ إلى الله، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[الجن:٢٢]

قال الله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي احبسها مع هؤلاء الذين يدعون الله دعاء مسألة ودعاء عبادة، اجلس إليهم وقوِّ عزائمهم.

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أي أول النهار، وقوله: ﴿وَٱلْعَشِىِّ﴾ آخر النهار.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ مخلصين لله يريدون وجهه ولا يريدون شيئًا من الدنيا، يعني: أنهم يفعلون ذلك لله وحده لا لأحدٍ سواه.

وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧] . وقال

النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»[1]، وأجمع سلف الأمة وأئمتها على ثبوت الوجه لله .

ولكن هل يكون هذا الوجه مماثلًا لأوجه المخلوقين؟.

الجواب: لا يمكن أن يكون وجه الله مماثلًا لأوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: من الآية١١]. وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، أي شبيهًا ونظيرًا، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: من الآية٢٢].وهكذا كل ما وصف الله به نَفْسَهُ فالواجب علينا أن نجريه على ظاهره، ولكن بدون تمثيل، فإن قال قائل: إذا أثبتَّ لله وجهًا لزم من ذلك التمثيل، ونحمل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١]، يعني إلَّا في ما أثبته كالوجه واليدين؟.

فالجواب: أن هذا مكابرة؛ لأننا نعلم حسًا وعقلًا أن كل مضاف إلى شيء فإنه يناسب ذلك الشيء، أليس للإنسان وجه، وللجَمَلِ وجه، وللحصان وجه وللفيل وجه؟ بلى، وهل هذه الأوجه متماثلة؟ لا؛ أبدًا! بل تناسب ما أضيفت إليه، بل إن الوقت والزمن له وجه، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾[آل عمران: من الآية٧٢]، فأثبت أن للزمن وجهًا، فهل يمكن لأحد أن يقول: إن وجه النهار مثل وجه الإنسان؟.

الجواب: لا يمكن، إذًا ما أضافه الله لنفسه من الوجه لا يمكن أن يكون مماثلًا لأوجه المخلوقين؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف . فإن قال قائل: إنه قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[2]، فما الجواب؟

فالجواب: من أحد وجهين:

الوجه الأول: إما أن يقال: لا يلزم من كونه على صورته أن يكون مماثلًا له، والدليل أن النبي ﷺ أخبر بأن أوَّل زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر[3]، ونحن نعلم أنه ليس هناك مماثلة بين هؤلاء والقمر، لكن على صورة القمر من حيث العموم إضاءةً وابتهاجًا ونورًا.

الوجه الثاني: أن يقال: «على صورته» أي على الصورة التي اختارها الله، فإضافة صورة الآدمي إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[البقرة: من الآية١١٤]، ومن المعلوم أن الله ليس يصلي في المساجد، لكن أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم وعلى أنها إنما بنيت لطاعة الله، وكقول صالح لقومه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[الشمس: ١٣]، ومن المعلوم أن هذه الناقة ليست لله كما تكون للآدمي يركبها؛ لكن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٨)، والترمذي (٣٠٦٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) واللفظ له.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨٣٤).

أضيفت إلى الله على سبيل التشريف والتعظيم، فيكون «خلق آدم على صورته» أو «على صورة الرحمن» يعني: على الصورة التي اختارها من بين سائر المخلوقات، قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦، ٧].

أي: الذي جعلك جَعْلًا كهذا، وهذا يشمل اعتدال القامة واعتدال الخلقة، ففهمنا الآن - والحمد لله - أن الله تعالى له وجه حقيقي وأنه لا يشبه أوجه المخلوقين. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ إشارة للإخلاص، فعليك أخي المسلم بالإخلاص حتى تنتفع بالعمل.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: لا تتجاوز عيناك عن هؤلاء السادة الكرام تريد زينة الحياة الدنيا، بل اجعل نظرك إليهم دائمًا وصحبتك لهم دائمًا، وفي قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة إلى أنَّ الرسول ﷺ لو فارقهم لمصلحة دينية لم يدخل هذا في النهي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني عن ذكره إيَّانا أو عن الذكر الذي أنزلناه، فعلى الأول يكون المراد الإنسان الذي يذكر الله بلسانه دون قلبه، وعلى الثاني يكون المراد الرجل الذي أغفل الله قلبه عن القرآن، فلم يرفع به رأسًا ولم ير في مخالفته بأسًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما تهواه نفسه.

﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ﴾ أي: شأنه ﴿فُرُطٗا﴾ أي: منفرطًا عليه، ضائعًا، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرطا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئًا، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.

قال الله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ. أي: قلها معلنًا ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ لا من غيره، فلا تطلبوا الحق من طريق غير طريق الله؛ لأن الحق من عند الله.

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ للتهديد وليس للإباحة بل هو للتهديد كما يهدد الإنسان غيره فيقول: «إن كنت صادقًا فافعل كذا»، ويدل عليه قوله تعالى

بعده: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، يعني: من كفر فله النار قد أعدت، وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد به الكافرون، والدليل على هذا قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾، فإن قال قائل: «هل الكفر يسمى ظلمًا؟».

فالجواب: نعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، ولا أحد أظلم ممن كفر بالله أو جعل معه شريكًا، وهو الذي خلقه وأمده وأعده.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أي: بأهل النار ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: ما حولها، يعني: أن النار قد أحاطت بهم فلا يمكن أن يفروا عنها يمينًا ولا شمالًا.

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني: أن أهل النار إذا عَطشوا عَطشًا شديدًا وذلك بأكل الزَّقوم أو بغير ذلك أغيثوا بهذا الماء ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ يكون كعَكَر الزيت يعني تَفَلَهُ الخاثر في أسفله أو ما أشبه ذلك مما له منظر كريه، ولا تقبله النفوس كما قال تعالى:﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[إبراهيم: ١٦، ١٧]، أي: كالصديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه.

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قَرُبَ منها شَواها وتساقطت - والعياذ بالله - من شدة فيح هذا الماء، وإذا وصل إلى أمعائهم قطعها كما قال جلَّ وعلا:﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[محمد: من الآية١٥]، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعاد كالجلود﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[النساء: من الآية٥٦]، الله أكبر، سبحان القادر على كل شيء، وبلحظة يكون هذا الشيء متتابعًا، كلما نَضِجت بُدِّلوا، وكلما تقطَّعت الأمعاء فإنها توصل بسرعة.

قوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا قدح وذم لهذا الشراب، و«بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم.

قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وقبح مرتفقها والارتفاق بها. والمرتفق ما يرتفق به الإنسان، قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، ففي الجنة﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:من الآية٣١]،وفي النار ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: من الآية٢٩].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف:٣٠]

التفسير

هذا من أسلوب القرآن، فإن الله إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من معنى قوله:

﴿مَثَانِيَ﴾ [الزمر: من الآية٢٣] أي: تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعًا بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قد سبق الكلام في معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولم يقل: «إنَّا لا نضيع أجرهم»، ولكن قال تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، هذا من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي أن تكون رءوس الآية متوافقة ومتطابقة؛ لأنه لو قال: «إنَّا لا نضيع أجرهم» لاختلفت رءوس الآيات.

وبماذا يكون الإحسان في العمل؟ يكون بأمرين:

١ - الإخلاص لله.

٢ - المتابعة لرسول الله ﷺ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الحث على إحسان العمل.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ المشار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿جَنَّاتُ﴾: جمع جنة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(عَدْنٍ): بمعنى: الإقامة، أي جنات إقامة لا يبغون عنها حِوَلا أي تحولًا عنها، ومن تمام النعيم أن كل واحد منهم لا يرى أن أحدًا أنعم منه، ومن تمام الشقاء لأهل النار أن كل واحد منهم لا يرى أحدًا أشد منه عذابًا، ولكن هؤلاء- أهل الجنة- لا يرون أن أحدًا أنعم منهم؛ لأنهم لو رأَوْا ذلك لتنغص نعيمهم حيث يتصورون أنهم أقل.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الأنهار جمع نهر، وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى في سورة محمد، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وهنا قال: ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾، وفي آية أخرى قال:

﴿تَحْتِهِمُ﴾ وفي ثالثة: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، وفي رابعة: ﴿تَحْتَهَا﴾ والمعنى واحد؛ لأنهم إذا كانت الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها فهي تجري تحت سكانها.

قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي الجنات.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾: قال بعضهم: إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الانسان: من الآية٢١]، فـ ﴿مِن﴾ زائدة. ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن ﴿مِن﴾ لا تزاد في الإثبات كما قال ابن مالك في الألفية:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَرّ   نَكِرَة كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَر

وعلى هذا فإما أن تكون للتبعيض: أي يحلون فيها بعض أساور، أي: يحلى كل واحد منهم شيئًا من هذه الأساور، وحينئذٍ لا يكون إشكال، وإما أن تكون «للبيان» أي: بيان ما يحلون، وهو أساور وليس قلائد أو خُروصا مثلًا، وأما قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانية، أي: لبيان الأساور أنها من ذهب، ولكن لا تحسبوا أن الذهب الذي في الجنة كالذهب الذي في الدنيا، فإنه يختلف اختلافًا عظيمًا، قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، ولو كان كذهب الدنيا لكان العين رأته.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، السندس: ما رَقَّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه.

وقوله: ﴿خُضْرًا﴾ خصَّها باللون الأخضر؛ لأنه أشد ما يكون راحة للعين ففيه جمال وفيه راحة للعين.

قال تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ حال من قوله تبارك وتعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ﴾ أي: حال كونهم متكئين فيها، والاتكاء يدل على راحة النفس وعلى الطمأنينة.

قوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، والأريكة نوع من المرتفق الذي يرتفق فيه، وقيل: إن الأريكة سرير في الخيمة الصغيرة المغطاة بالثياب الجميلة تشبه ما يسمونه بالكوخ.

قال الله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ هذا مدح لهذه الجنة وما فيها من نعيم، ففيها الثناء على هذه الجنة بأمرين: بأنها ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾، وأنها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يعني: اجعل وصيِّر.

(لَهُم) أي: للكفار؛ قريش وغيرهم.

(مَثَلًا) مفعول اضرب، وبيَّن المثل بقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ وعلى هذا يكون «رجلين» عطف بيان وتفصيل للمثل.

قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أغلب ما في الجنتين العنب، وأطراف الجنتين النخيل وما بينهما زرع، ففيهما الفاكهة والغذاء من الحب وثمر النخل.

❁ قال الله تعالى:

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:٣٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ ولم يقل: آتتا أُكُلَها؛ لأنه يجوز مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى في كلتا، وقد اجتمع ذلك في قول الشاعر:

كِلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الجرْيُ بَيْنَهُمَا ... قَدْ أَقْلَعَا وَكِلا أَنْفيْهِمَا رَابِي

يشير إلى فرسين تسابقا فيقول: كلاهما، أي كلا الفرسين، «حين جد الجري بينهما» أي: المسابقة، «قد أقلعا» أي: توقفا عن المجاراة، و«رابي» أي منتفخ، فقد قال: «قد أقلعا» ولم يقل: «قد أقلع»، وقال: «رابي» ولم يقل: «رابيان»، ففي البيت مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، وهنا آتت أُكُلَها مراعاةً للفظ.

قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ كان خلال الجنتين نهر من الماء يجري بقوة، فكان في الجنتين كلُّ مقومات الحياة: أعناب، ونخيل، وزرع، ثم بينهما هذا النهر المطَّرِد.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف:٣٤]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: أن أحد الرجلين كان له ثمر، كأن له ثمرًا زائدًا على الجنتين أو ثمرًا كثيرًا من الجنتين.

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ وهما يتجاذبان الكلام.

قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ افتخر عليه بشيئين:

١ - بكثرة المال ٢ - العشيرة والقبيلة. فافتخر عليه بالغنى والحسب، يقول ذلك افتخارًا وليس تحدثًا بنعمة الله بدليل العقوبة التي حصلت عليه.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف:٣٥-٣٦]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ ذكرت بلفظ الإفراد مع أنه قال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ فإما أن يقال: إن المراد بالمفرد الجنس، وإما أن يراد إحدى الجنتين، وتكون العظمى هي التي دخلها.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هذه جملة حالية يعني: الحال أنه ظالم لنفسه، وبماذا ظلم نفسه؟ ظلم نفسه بالكفر كما سيتبين.

قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ يعني: ما أظن أن تفنى وتزول أبدًا، أعجب بها وبما فيها من قوة وحسن المنظر، وغير ذلك حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فأنكر البعث؛ لأنه إذا كانت جنته لا تبيد فهو يقول: لا بعث وإنما هو متاع الحياة الدنيا.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾: يعني: على فرض أن تقوم الساعة وأرد إلى الله.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾: أي: مرجعًا، فكأنه يقول: بما أن الله أنعم عليَّ بالدنيا، فلا بد أن ينعم عليَّ بالآخرة، وهذا قياس فاسد؛ لأنه لا يلزم من التنعيم في الدنيا أن ينعم الإنسان في الآخرة، ولا من كون الإنسان لا يُنَعَّم في الدنيا ألا يُنَعَّم في الآخرة، لا تلازم بين هذا وهذا، بل إن الكفار يُنعمون في الدنيا وتُعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ولكنهم في الآخرة يُعذَّبون. وهذا كقوله - تبارك وتعالى - في سورة فُصِّلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠].

هذا مثل هذا.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يناقشه في الكلام.

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ذكره بأصله.

والهمزة في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ للإنكار.

أما قوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ فلأن آدم أبا البشر خُلق من تراب.

وأما ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ فلأن بني آدم خُلِقوا من نطفة، والمعنى: أنَّ الذي ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ قادر على البعث الذي أنت تُنكره.

وقوله: ﴿سَوَّىٰكَ﴾ أي: عدَّلك وصيَّرك رجلًا، وهذا الاستفهام للإنكار بلا شك، ثم يمكن أن نجعله للتعجب أيضًا.

الجواب: يمكن أن يكون للإنكار وللتعجب - أيضًا - يعني: كيف تكفر ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾! ويستفاد من هذا أن منكر البعث كافر ولا شك في هذا كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]

❁ **قال الله تعالى:**

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[الكهف:٣٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصلها «لكن أنا» وحذفت الهمزة تخفيفًا وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت لكنَّا، وتكتب بالألف خطًّا وأما التلاوة ففيها قراءتان إحداهما بالألف وصلًا ووقفًا، والثانية بالألف وقفًا وبحذفها وصلًا.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أي هو الله ربي مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وعلى هذا فتكون ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، يعني: الشأن أن الله تعالى: ربي.

﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾: وهذا كقول ابن آدم لأخيه قابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يعني: أنت كفرت ولكني أنا أعتز بإيماني وأؤمن بالله.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾[الكهف:٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ﴾ يعني: هلَّا ﴿إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: حين دخولك إيَّاها ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حتى تجعل الأمر مفوضًا إلى الله.

وقوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيها وجهان:

١ - أنَّ ﴿مَا﴾: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «هذا ما شاء الله».

٢ - أنَّ ﴿مَا﴾: شرطية و﴿شَآءَ﴾ فعل الشرط وجوابه محذوف والتقدير: «ما شاء الله كان».

وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: لا قوة لأحد على شيء إلَّا بالله، وهذا يعني تفويض القوة لله، يعني فهو الذي له القوة مطلقًا، القوة جميعًا، فهذه الجنة ما صارت بقوتك أنت ولا بمشيئتك أنت ولكن بمشيئة الله وقوته، وينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء من ماله أن يقول: «ما شاء الله لا قوة إلَّا بالله» حتى يفوض الأمر إلى الله لا إلى حوله وقوته، وقد جاء في الأثر أن من قال ذلك في شيء يعجبه من ماله فإنه لن يرى فيه مكروهًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾.

(إن): شرطية، وفعل الشرط ترى، والنون للوقاية، والياء محذوفة للتخفيف، والأصل «ترني».

(أنا) :ضمير فصل لا محلَّ له من الإعراب.

﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: إن احتقرتني لكوني أقل منك مالًا وأقل منك ولدًا ولست مثلك في عزَّة النفر.

قال الله تعالى:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[الكهف:٤٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ هذه الجملة هي جواب الشرط. وهل هي للترجي أم للتوقع؟

الجواب: فيها احتمالان:

الأول: أنها للترجي، وأن هذا دعا أن يؤتيه الله خيرًا من جنته وأن ينْزل عليها حسبانًا من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال،وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر أمر الله، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به، هذا إذا جعلنا عسى للترجي.

الثاني: أن تكون عسى للتوقع، والمعنى: أنك إن كنت ترى هذا فإنه يُتوقع أن الله تعالى يُزيل عني ما عبتني به ويزيل عنك ما تفتخر به، وأيًا كان فالأمر وقع إما استجابة لدعائه وإما تحقيقًا لتوقعه.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ :والمراد بالحسبان هنا ما يدمرها من صواعق أو غيرها.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خصَّ السماء؛ لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، يعني: لو نفرض أنه جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾: أي: تصبح لا نبات فيها.

﴿زَلَقًا﴾: يعني: قد غمرتها المياه.

قال الله تعالى:

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[الكهف:٤١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ فلا يوجد فيها ماء.

و﴿غَوْرًا﴾ بمعنى: غائر فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، فدعا دعوة يكون فيها زوال هذه الجنة إمَّا بماء يغرقها حتى تصبح ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، وإما بغور لا سُقيا معه لقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ وكلا الأمرين تدمير وخراب. فالفيضانات تدمر المحصول، وغور الماء حتى لا يستطيع أن يطلبه لبعده في قاع الأرض - أيضًا - يدمر المحصول، فماذا كان بعد هذا الدعاء أو هذا التوقع؟

قال الله تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: بثمر صاحب الجنتين فهلكت الجنتان.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: من الندم، وذلك أن الإنسان إذا ندم يقلب كفيه على ما قد حصل.

﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: وهذا يدل على أنه أنفق فيها شيئًا كثيرًا.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: هامدة على عروشها. و﴿عُرُوشِهَا﴾ جمع عرش أو عريش وهو ما يوضع لتمدد عليه أغصان الأعناب وغيرها.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ولكن الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع من سمع القصة، أما من وقعت عليه فلا ينفعه الندم؛ لأنه قد فات الأوان.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[الكهف:٤٣]

❁ التفسير ❁

فالذي كان يفتخر به ويقول: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾لم تمنعه فِئَتُهُ من عقوبة الله،ولم ينتصر هو بنفسه؛ لأنه - والعياذ بالله - كفر وحاور المؤمن فعوقب بهذه العقوبة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾[الكهف:٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ ﴾ فيها قراءتان:

١ - الوِلاية .

٢ - الوَلاية.

فالوَلاية: بمعنى: النُّصرة، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ ﴾[الأنفال: من الآية٧٢] والوِلاية: بمعنى الملك والسلطة، فيوم القيامة لا نصرة ولا ملك إلَّا ﴿لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾، وإذا كان ليس هناك انتصار ولا سلطان إلا لله فإن جميع من دونه لا يفيد صاحبه شيئًا.

﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾، (هو) الضمير يعود على الله، ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ من غيره، إذا أثاب عن العمل فهو ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾؛ لأن غير الله إن أثاب فإنه يثيب على العمل بمثله، وإن زاد فإنه يزيد شيئًا يسيرًا أما الله فإنه يثيب العمل بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كذلك هو ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ جلَّ وعلا؛ لأن من كان عاقبته نصر الله وتَوَلِّيهُ فلا شك أن هذا خير من كل ما سواه، جميع العواقب التي تكون للإنسان على يد البشر تزول، لكن العاقبة التي عند الله لا تزول.

إنَّ هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني: هل هذا الشيء واقع أو أنه شيء مُقدَّر؟

الجواب: من العلماء من قال: إنه مثل تقديري كقوله تبارك وتعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[النحل:٧٦]، وكقوله:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ

مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر:٢٩]، وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلًا تقديريًا وليس واقعيًا. ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه، والثاني لم يكن مثله.

❁ ثم ضرب الله تعالى مثلًا آخر فقال:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يعني: أن الرِّياض صارت مختلطة بأنواع النبات المتنوع بأزهاره وأوراقه وأشجاره كما يشاهد في وقت الربيع كيف تكون الأرض، - سبحان الله -، كأنه وَشْيٌ من أحسن الوشْيات، إذا اختلط من كل نوع ومن كل جنس.

﴿فَأَصْبَحَ ﴾: يعني: هذا النبات المختلف المتنوع.

﴿هَشِيمًا ﴾: هامدًا.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾: أي: تحمله، فهذا هو ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾. الآن الدنيا تزدهر للإنسان وتزهو له، إذا بها تخمد بموته أو فَقدها، لا بد من هذا، إما أن يموت الإنسان أو أن يفقد الدنيا. هذا مثل موافق تمامًا، وقد ضرب الله تعالى هذا النوع من الأمثال في عدة سور من القرآن الكريم حتى لا نغتر بالدنيا ولا نتمسك بها، والعجب أننا مغترون بها ومتمسكون بها مع أن أكدارها وهمومها وغمومها أكثر بكثير من صفوها وراحتها والشاعر الذي قال:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُساءُ وَيومٌ نُسَرّْ

لا يريد كما يظهر لنا المعادلة، لكن معناه: أنه ما من سرور إلَّا ومعه مساءة، وما من مساءة إلَّا ومعها سرور، لكن صفوها أقل بكثير من أكدارها، حتى المنعمون بها ليسوا مطمئنين بها كما قال الشاعر الآخر:

لا طِيبَ للعيشِ مَا دَامت مُنغَّصَةً ... لذَّاتُه بادِّكَار المـوْتِ والهـرَمِ

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ما وجد فهو قادر على إعدامه، وما عُدِم فهو قادر

على إيجاده، وليس بين الإيجاد والعدم إلَّا كلمة ﴿كن﴾، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢] . وفي قوله: ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ مبالغة في القدرة.

❁ ثم قال الله تعالى مقارنًا بين ما يبقى وما لا يبقى:

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[الكهف:٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ﴾ من أي نوع سواء كان من العروض أو النقود أو الآدميين أو البهائم.

﴿وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولا ينفع الإنسان في الآخرة إلَّا ما قدَّم منها، وذكر البنين دون البنات؛ لأنه جرت العادة أنهم لا يفتخرون إلَّا بالبنين، والبنات في الجاهلية مهينات بأعظم المهانة كما قال الله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾[النحل:٥٨]، أي: صار وجهه مسودًا وقلبه ممتلئًا غيظًا.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: يعني: يختبئ منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، ثم يُقدِّرُ في نفسه ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾[النحل: من الآية٥٩]. بقيَ قسم ثالث وهو أن يُمسِكَهُ على عِزٍّ وهذا عندهم غير ممكن، ليس عندهم إلَّا أحد أمرين:

١ - إما أن يمسكه على هون.

٢ - يَدُسه في التراب، أي يدفنه فيه وهذا هو الوأد، قال الله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: أن الإنسان يتجمل به يعني يتجمل أنَّ عنده أولادًا، قدر نفسك أنك صاحب قِرى يعني: أنك مضياف وعندك شباب عشرة يستقبلون الضيوف، تجد أن هذا في غاية ما يكون من السرور، هذه من الزينة، كذلك قدر نفسك أنك تسير على فرس وحولك هؤلاء الشباب يَحُفُّونك من اليمين ومن الشمال ومن الخلف ومن الأمام، تجد شيئًا عظيمًا من الزينة، ولكن هناك شيء خير من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي: الأعمال الصالحات من أقوال وأفعال، ومنها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها الصدقات والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، هذه الباقيات الصالحات.

﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أي: أجرًا ومثوبة.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: خير ما يُؤمِّله الإنسان؛ لأن هذه الباقيات الصالحات هي كما وصفها الله بباقيات، أما الدنيا فهي فانية وزائلة.

۞۞۞

۞ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي: اذكر لهم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ وعلى هذا فإن ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف عامِلُهُ محذوف والتقدير اذكر ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: اذكر للناس هذه الحال، وهذا المشهد العظيم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ وقد بين الله في آية أخرى أنه يسيرها فتكون سرابًا ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠] وتكون كالعهن المنفوش: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [القارعة:٥]، وذلك بأن الله تعالى يدُك الأرض وتصبح الجبال كثيبًا مهيلًا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل:١٤] ثم تتطاير في الجو، هذا معنى نُسَيِّرُ، ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله - تبارك وتعالى - في سورة النمل: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨] . بعض الناس قال: إنَّ هذه الآية تعني دوران الأرض، فإنك ترى الجبال فتظنها ثابتة ولكنها تسير، وهذا خطأ وتَقُول على الله تعالى بلا علم؛ لأن سياق الآية يأبى ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٧- ٨٩] . فالآية واضحة أنها يوم القيامة، وأما زعم هذا الرجل القائل بذلك بأن يوم القيامة تكون الأمور حقائق وهنا يقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ فلا حسبان في الآخرة، فهذا خطأ أيضًا؛ لأنه إذا كان الله أثبت هذا فيجب أن نؤمن به ولا نحرفه بعقولنا، ثم إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢] . فإذا قلنا: إن زلزلة الساعة هي قيامها، فقد بيَّن الله أن الناس يراهم الرائي فيظنهم سكارى

وما هم بسكارى، وعلى كل حال فإن الواجب علينا جميعًا أن نجري الآيات على ظاهرها وأن نعرف السياق؛ لأنه يعين المعنى، فكم من جملة في سياق يكون لها معنى ولو كانت في غير هذا السياق لكان لها معنى آخر، ولكنها في هذا السياق يكون لها المعنى المناسب لهذا السياق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة؛ لأنها تكون قاعًا وصفصفًا، وهي الآن ليست بارزة؛ لأنها مكورة، وأكثرها غير بارز، ثم إن البارز لنا أيضًا كثير منه مختفٍ بالجبال، فيوم القيامة لا جبال ولا أرض كروية بل تمد الأرض مدَّ الأديم، قال الله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٣]، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدل على أن الأرض الآن غير ممدودة.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: الناس، بل إن الوحوش تحشر كما قال الله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]

بل جميع الدواب - أيضًا - كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]. فكلُّ شيء يحشر، ولهذا يقول الله هنا: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: الناس، وفي الآية الأخرى ﴿ٱلْوُحُوشُ﴾ وفي الأخيرة جميع الدواب.

وقوله: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: نترك، ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ كل الناس يحشرون، إن مات في البر حشر، في البحر حشر، في أي مكان، لا بد أن يحشر يوم القيامة ويجمع.

قال الله تعالى:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٤٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟﴾ أي: عرض الناس ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: على الله.

﴿صَفًّا﴾ أي: حال كونهم صفًا بمعنى: صفوفًا، فيحاسبهم الله، أما المؤمن فإنه يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول له: عملت كذا وعملت كذا فيقر فيقول له أكرم الأكرمين: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم»(١) يغفر الله له يوم القيامة، ولا يعاقبه عليها وفي الدنيا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٦٨).

يسترها، فكم من ذنوب لنا اقترفناها في الخفاء؟ كثيرة، سواء كانت عملية في الجوارح الظاهرة أو عملية من عمل القلوب، فسوء الظن موجود،و الحسد موجود، إرادة السوء للمسلم موجودة، وهو مستور عليه. وأعمال أخرى من أعمال الجوارح ولكن الله يسترها على العبد، إننا نؤمِّل - إن شاء الله - أن الذي سترها علينا في الدنيا أن يغفرها لنا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم ذلك. وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام وقد والقسم المقدر، يعني: والله لقد جئتمونا ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ليس معكم مال ولا ثياب ولا غير ذلك، بل ما فقد منهم يرد إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح أنهم يحشرون يوم القيامة «حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[1] و«غُرْلا» جمع أغرل وهو: الذي لم يختن، إذًا سوف يعرضون على الله صفا ويقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ويقال أيضًا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا إضراب انتقال، فهم يوبخون ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فلا مفر لكم ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فلا مال لكم ولا أهل، ويوبخون - أيضًا - على إنكارهم البعث فيقال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، وهذا الزعم تبين بطلانه، فهو باطل.

قال الله تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: وزِّع بين الناس، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الإنسان ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما كتب فيه؛ لأنهم يعلمون ما قدموه لأنفسهم، وهذا يشبه قول الله تعالى عن اليهود الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٨٠]، فتُحُدوا وقيل لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:٩٤]، قال الله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[البقرة: من الآية٩٥] يعني: يعرفون أنهم إذا ماتوا عُذِّبوا، ومن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

كان يعلم أنه إذا مات عُذب فلن يتمنى الموت أبدًا، فهؤلاء مشفقون مما في كتاب الله، يعني: يعلمون أنه مُحتوٍ على الفضائح والسيئات العظيمة.

ويقولون إذا علموا: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ .

(يا) حرف نداء ﴿ويلتنا﴾ وهي الهلاك ولكن كيف تنادى؟

الجواب: إما أن «يا» للتنبيه فقط؛ لأن النداء يتضمن الدعاء والتنبيه، وإما أن نقول: إنهم جعلوا ويلتهم بمنْزلة العاقل الذي يوجه إليه النداء، ويكون التقدير: «يا ويلتنا احضري»! لكن المعنى الأول أقرب؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ ولأنه أبلغ.

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ)أي شيء لهذا الكتاب؟.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾: يعني: أثبتها عددًا، كأنهم يتضجرون من هذا، ولكن هذا لا ينفعهم.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ :أي وجدوا ثواب ما عملوا.

﴿حَاضِرٗا﴾: لم يغب منه شيء وعبَّر الله تعالى بالعمل عن الثواب؛لأنه مثلُه بلا زيادة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ وذلك لكمال عدله فلا يزيد على مسيء سيئة واحدة، ولا ينقص من محسن حسنة واحدة، قال تعالى:﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[طه:١١٢] . وهذه الآية ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾من الصفات المنفية عن الله، وأكثر الوارد في الصفات الصفات المثبتة كالحياة والعلم والقدرة. وأما ذكر الصفات المنفية فقليل بالنسبة للصفات المثبتة، ولا يتم الإيمان بالصفات المنفية إلَّا بأمرين:

الأول: نفي الصفة المنفية.

والثاني: إثبات كمال ضدها.

فالنفي الذي لم يتضمن كمالًا لا يمكن أن يكون في صفات الله . بل لا بد في كل نفي نفاه الله عن نفسه أن يكون متضمنًا لإثبات كمال الضد، والنفي إن لم يتضمن كمالًا فقد يكون لعدم قابليته، أي قابلية الموصوف له، وإذا لم يتضمن كمالًا فقد يكون لعجز الموصوف، وإذا كان نفيًا محضًا فهو عدمٌ لا كمال فيه، والله تعالى له الصفات الكاملة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الأكمل.

قلنا: إذا لم يتضمن النفي كمالًا فقد يكون لعدم قابليته، كيف ذلك؟ ألسنا نقول: إن الجدار لا يظلِم؟ بلى، هل هذا كمال للجدار؟ لا؛ لأن الجدار لا يقبل أن يوصف بالظلم، ولا يوصف بالعدل، فليس نفي الظلم عن الجدار كمالًا، وقد يكون النفي إذا لم يتضمن كمالًا نقصًا لعجز الموصوف به عنه، لو أنك وصفت شخصًا بأنه لا يظلم بكونه لا يجازي السيئة بمثلها؛ لأنه رجل ضعيف لا يقدر على الانتصار لنفسه لم يكن هذا مدحًا له.

فالخلاصة أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه وهو نفي فإنه يجب أن نعتقد مع انتفائه ثبوتَ كمال ضده، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأحقاف:٣٣]، فعلى هذه القاعدة نفى الله «العي» وهو العجز؛ لثبوت كمال ضد العجز وهو القدرة، إذًا نؤمن أن الله له قدرة لا يلحقها عجز، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [قٓ:٣٨]، أي: من تعب وإعياء وذلك لكمال قدرته جلَّ وعلا.

قلنا: إن الله لا يظلم أحدًا وذلك لكمال عدله، لكن الجهمية قالوا: «لا يظلم» لعدم إمكان الظلم في حقه، وليس لأنه قادر على أن يظلم ولكنه لا يظلم، قالوا: لأن الخلق كلَّهم خلق الله، ملك لله، فإذا كانوا ملكًا لله فإنه إذا عذَّب محسنًا فقد عذب ملكه، وليس ذلك ظلمًا؛ لأنه يفعل في ملكه ما يشاء، ولكن قولهم: هذا باطل؛ لأنه إذا كان الله قد وعد المحسنين بالثواب والمسيئين بالعذاب، ثم أحسن المحسن فعذبه وأساء المسيء فأثابه فأقل ما يقال فيه: إنه- وحاشاه- أخلف وعده. هذا أقل ما يقال، وهذا ولا شك منافٍ للعدل وللصدق، فنقول لهم: إنَّ الله قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»(١)، وهذا يدل على أنه قادر عليه، لكن حرَّمه على نفسه لكمال عدله جلَّ وعلا، إذًا نحن نقول: لا يظلم الله أحدًا لكمال عدله، لا لأن الظلم غير ممكن في حقه كما قالت الجهمية.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف:٥٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ «إذ» هذه تأتي كثيرًا في القرآن، والمُعربون يقولون: إنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكرْ إذْ يعني: اذكر هذا للأمة حتى تعتبر به ويتبين به فضيلة بني آدم عند الله.

وقوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ هم عالم غيبي خلقهم الله من نور. كما أعلمنا النبي ﷺ أن الله خلقهم من نور . وأعلمنا الله تعالى في القرآن أنه خلق الجنَّ من نار، وأنه خلق البشر من طين، إذًا المخلوقات

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه(٤٢٥٧).

التي نعلمها هي: الملائكة من نور، والجن من نار، والإنسان من طين، فالملائكة إذًا عالم غيبي والإيمان بهم أحد أركان الإيمان، والملائكة على خلاف الشياطين كما يتبين من الآية، وهم أقدر من الشياطين وأطهر من الشياطين، ولهم من النفوذ ما ليس للشياطين، فالشياطين لا يمكن أن يَلِجُوا إلى السماء، بل من حاول أُتبع بالشهاب المحرق، والملائكة يصعدون فيها، فهم يصعدون بأرواح بني آدم إلى أن تصل إلى الله، وهم - أيضًا - قد ملأوا السموات، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إيمانًا لا شك فيه، وأنهم عالم غيبي، لكن قد يكونون من العالم المحسوس بقدرة الله كما كان جبريل، فقد رآه النبي ﷺ مرتين له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق وهو واحد،وهذا يدل على عظمة خِلقته، وعظمة خِلقة جبريل تدل على عظمة الخالق - جلَّ وعلا - وأحيانًا يأتي جبريل الذي هذا وصفه وهذا خلقه على صورة إنسان، ولكن ليس تقلبه هكذا بقدرته هو، ولكن بقدرة خالقه - جلَّ وعلا -، والله أعطاه القدرة على التقلب والتكيف بقدرة الله - جلَّ وعلا -.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قال بعضهم: سجود تحية، وليس سجودًا على الجبهة، قالوا ذلك فرارًا من كونه سجودًا على الجبهة؛ لأن السجود على الجبهة لا يصح إلا لله، ولكن الذي يجب علينا أن نأخذ الكلام على ظاهره ونقول: الأصل أنه سجود على الجبهة، وإذا كان امتثالًا لأمر الله لم يكن شركًا كما أن قتل النفس بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالًا لأمر الله كان طاعة من الطاعات، فإن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - أُمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله وشرع في تنفيذ الذبح، ولا يخفى ما في ذبح الابن من قطيعة الرحم، لكن لما كان هذا امتثالًا لأمر الله صار طاعة، ولما تحقق مراد الله تعالى من الابتلاء نسخ الأمر ورفع الحرج، إذًا فالسجود لآدم لولا أمر الله لكان شركًا، لكن لما كان بأمر الله كان طاعة لله.

وآدم: هو أبو البشر، خلقه الله من طين وخلقه بيده، قال أهل العلم: لم يخلق الله شيئًا بيده إلا آدم وجنة عدن، فإنه خلقها بيده وكتب التوراة بيده - جل وعلا -، فهذه ثلاثة أشياء كلها كانت بيد الله، أما غيرُ آدم فيخلق «بكلمة» (كن) فيكون، وهو نبي، وليس برسول؛ لأن أول رسول أرسل إلى البشرية هو نوح - عليه الصلاة والسلام -، أرسله الله لما اختلف الناس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة: من الآية٢١٣]، أي: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول رسول نوحٌ - عليه الصلاة والسلام - وآدم نبي مُكلَّم، فإذا قال قائل: كيف يكون نبيًا ولا يكون رسولًا؟.

الجواب: يكون نبيًا ولا يكون رسولًا؛ لأنه لم يكن هناك داع إلى الرسالة، فالناس كانوا على ملة واحدة والبشر لم ينتشروا بعد كثيرًا، ولم يفتتنوا في الدنيا كثيرًا، نفر قليل، فكانوا يستنون بأبيهم ويعملون عمله، ولما انتشرت الأمة وكثرت واختلفوا أرسل الله الرسل.

﴿ٱسْجُدُوٓا۟﴾: امتثالًا لأمر الله ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: لم يسجد. وإبليس هو الشيطان ولم يسجد، بَيَّنَ الله

سبب ذلك في قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: فالجملة استئنافية لبيان حال إبليس أنه كان من الجن أي: من هذا الصنف ،وإلا فهو أبوهم.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعة الله تعالى في أمره، وأصل الفسوق الخروج، ومنه قولهم: فسقت التمرة إذا انفرجت وانفتحت.

فإذا قال قائل: إن ظاهر القرآن أن إبليس كان من الملائكة؟.

فالجواب: لا، ليس ظاهر القرآن؛ لأنه قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ثم ذكر أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، نعم القرآن يدل على أن الأمر توجه إلى إبليس كما قد توجه إلى الملائكة، ولكن لماذا؟ قال العلماء: إنه كان - أي: إبليس - يأتي إلى الملائكة ويجتمع إليهم، فوجه الخطاب إلى هذا المجتمع من الملائكة الذين خُلقوا من النور، ومن الشيطان الذي خُلق من النار، فرجع الملائكة إلى أصلهم والشيطان إلى أصله، وهو الاستكبار والإباء والمجادلة بالباطل؛ لأنه أبى واستكبر وجادل، ماذا قال لله؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فكيف تأمرني أن أسجد لواحد أنا خير منه؟ ثم علل بعلة هي عليه قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢]. وهذا عليه، فإن المخلوق من الطين أحسن من المخلوق من النار، المخلوق من النار خلق من نار محرقة ملتهبة فيها علامة الطيش، تجد اللهب فيها يروح يمينًا وشمالًا، ما لها قاعدة مستقرة، ولقد ذكر ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» فروقًا كثيرة بين الطين وبين النار، ثم على فرض أنه خلق من النار وكان خيرًا من آدم،أليس الأجدر به أن يمتثل أمر الخالق؟ بلى، لكنه أبى واستكبر.

قال الله لما بين حال الشيطان: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾: الخطاب يعود لمن اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله فعبدوا الشيطان وتركوا عبادة الرحمن، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠] ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦١].

قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: من ولدوا منه، سُئل بعض السلف - سأله ناس من المتعمقين - فقالوا: هل للشيطان زوجة؟ قال: إني لم أحضر العقد، وهذا السؤال لا داعي له، نحن نؤمن بأن له ذرية أما من زوجة أو من غير زوجة ما ندري، أليس الله قد خلق حواء من آدم؟ بلى، فيجوز أن الله خلق ذرية إبليس منه كما خلق حواء من آدم.

وهذه المسائل - مسائل الغيب - لا ينبغي للإنسان أن يورد عليها شيئًا يزيد على ما جاء في النص؛ لأن هذه الأمور فوق مستوانا، نحن نؤمن بأن لإبليس ذرية، ولكن هل يلزمنا أن نؤمن بأن له زوجة؟

الجواب: لا يلزمنا.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾: أي: تتولونهم وتأخذون بأمرهم من دون الله ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ هذا محط الإنكار، يعني كيف تتخذون هؤلاء أولياء وهم لكم أعداء؟ هذا من السفه ونقص العقل ونقص التصرف أن يتخذ الإنسان عدوه وليًا.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس هذا البدل بدلًا لهم، وما هو البدل الخير؟.

الجواب: أن يتخذوا الله وليًا لا الشيطان.

وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾: يمكن أن نقول إنها بمعنى الكافرين؛ لأنهم هم الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء على وجه الإطلاق، ويمكن أن نقول: إنها تعم الكافرين ومن كان ظُلمهم دون ظلم الكفر، فإن لهم من ولاية الشيطان بقدر ما أعرضوا به عن ولاية الرحمن.

قال الله تعالى:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف:٥١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يعني: أن هؤلاء الذين اتخذهم الناس أولياء من دون الله ليس لهم حق الكون والتدبير، فالله - - ما أشهدهم خلق السموات والأرض؛ لأن السموات والأرض مخلوقتان قبل الشياطين.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما أشهدت بعضهم خلق بعض، فكيف تتخذونهم أولياء وهم لا شاركوا في الخلق ولا خلقوا شيئًا،بل ولا شاهدوه، وفي هذه الجملة دليل على أن كل من تكلم في شيء من أمر السموات والأرض بدون دليل شرعي أو حسي فإنه لا يُقبل قوله، فلو قال: إن السموات تكونت من كذا والأرض تكونت من كذا وبعضهم يقول: الأرض قطعة من الشمس، وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا دليل على صحته.

فإننا نقول له: إن الله ما أشهدك خلق السموات والأرض، ولن نقبل منك أيَّ شيء من هذا إلاَّ إذا وجدنا دليلًا حسيًا لا مناص لنا منه، حينئذٍ نأخذ به؛ لأن القرآن لا يعارض الأشياء المحسوسة.

﴿وَمَا كُنتُ﴾ الضمير في ﴿كُنتُ﴾ يعود إلى الله.

﴿كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أنصارًا ينصرون ديني؛ لأن المضل يصرف الناس عن الدين، فكيف يتخذ الله المضلين عضدًا، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تتخذ

المضلين عضدًا تنتصر بهم؛ لأنهم لن ينفعوك بل سيضرونك، إذًا لا تعتمد على السفهاء ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة؛ لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله لم يتخذ المضلين عضدًا فنحن كذلك لا يليق بنا أن نتخذ المضلين عضدًا؛ لأنهم لا خير فيهم، وفي هذا نهي عن بطانة السوء وعن مرافقة أهل السوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾[الكهف:٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي: اذكر يوم يقول: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ فينادونهم ولا يستجيبون لهم، وهذا يكون يوم القيامة، يقال لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم أولياء شفعاء.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾: فهذه الأصنام لا تنفع أهلها بل تُلقى هي وعابدوها في النار، قال الله:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨]

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾: الموبق هو مكان الهلاك، يعني: أننا جعلنا بينهم حائلًا مهلكًا حيث لا يمكن أن يذهبوا إلى شركائهم، ولا أن يأتي شركاؤهم إليهم، أرأيت لو كان بينك وبين صاحبك خندق من نار، هل يمكن أن تذهب إليه لتنصره؟ أو أن يأتي إليك لينصرك؟

الجواب: لا يمكن، هؤلاء يجعل الله بينهم يوم القيامة ﴿مَّوْبِقًا ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ المجرمون يعني: الكافرين، كما قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[السجدة:٢٢]. ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي: أيقنوا: ﴿مُّوَاقِعُوهَا ﴾ والظن يأتي

بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾[البقرة: ٤٦]، أي: يوقنون أنهم ملاقوا الله، وإلَّا فالظن الذي هو ترجيح أحد الأمرين المشكوك فيهما لا يكفي في الإيمان.

﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ يعني: لم يجدوا مكانًا ينصرفون عنها إليه، وهذه الجملة معطوفة على (رأى) وليست داخلة تحت قوله ظنوا؛ لأنه لو كان داخلًا في الظن لقال: «ولن»، يعني: أنهم لما رأوْها وظنوا أنهم مواقعوها لم يجدوا عنها مصرفًا أي: مكانًا ينصرفون إليه لينجوا به منها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[الكهف:٥٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صَرَّفۡنَا﴾ يعني: نوعنا، تصريف الشيء يعني:تنويعه كما قال تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾[البقرة: ١٦٤]، أي: تنويعها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، إذًا ﴿صَرَّفۡنَا﴾ أي: نوعنا في هذا القرآن من كل مثل، وهكذا الواقع، فكلام الله صدق، أمثال القرآن تجدها متنوعة فتارة لإثبات البعث، وتارة لإثبات وحدانية الله، وتارة لبيان حال الدنيا، وتارة لبيان حال الآخرة، وتارة تكون مطولة، وتارة مختصرة، فهي أنواع، كل نوع في مكانه من البلاغة والفصاحة.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أي: من كل جنس وصنف، فهذا مثل لكذا وهذا مثل لكذا، لماذا؟

الجواب: من أجل أن يتذكر الناس ويتعظوا ويعقلوها. ولكن يوجد من الناس من لا يتعظ بهذه الأمثلة، بل على العكس، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، بعض المفسرين يقول: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يعني: الكافر، ولكن في هذا نظر؛ لأنه لا دليل على تخصيصه بالكافر، بل نقول: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ من حيث الإنسانية.

﴿شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾: يعني: أكثر ما عنده، ولكن من حيث الإيمان فالمؤمن لا يكون مجادلًا، بل يكون مستسلمًا للحق ولا يجادل فيه، ولهذا قال عبد الله بن مسعود: «**مَا أُوتِيَ قَوْمٌ الجدَلَ إِلَّا ضَلُّوا**» وتدبر حال الصحابة تجد أنهم مستسلمون غاية الاستسلام لما جاءت به الشريعة، ولا يجادلون ولا يقولون لم؟ ولما قال الرسول ﷺ: «**تَوَضَّؤوا مِنْ لُحُومِ الإِبلِ وَلَا توضؤوا مِنْ لُحُومِ الغَنَمِ**»[1] هل قال الصحابة «لِمَ»؟ بل قالوا: سمعنا وأطعنا، ما جادلوا، وكذلك في بقية الأوامر، لكن الإنسان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٦٠)، وابن ماجه(٤٩٥).

من حيث هو إنسان أكثر شيء عنده الجدل. إذًا إذا مر بك مثل هذا في القرآن الكريم ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ فلا تحمله على الكافر إلا إذا كان السياق يُعَيِّنُ ذلك، فإذا كان السياق يراد به ذلك صار هذا عامًّا يراد به الخاص، لكن إذا لم يكن في السياق ما يعين ذلك فاجعله للعموم، اجعله إنسانًا بوصف الإنسانية، والإنسانية إذا غلب عليها الإيمان اضمحل مقتضاها المخالف للفطرة.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ هذا وقع في قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب وزوجته فاطمة حين جاء إليهما ذات ليلة ووجدهما نائمين فقال: «أَلَا تُصَلِّيَان»؟ قال علي: «إِنَّ أَنفُسَنا بيد الله وَلَوْ شَاءَ لَأَيْقَظَنَا»، فانصرف الرسول ﷺ وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1]، ولا شك أن الرسول ﷺ يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول - عليه الصلاة والسلام - قال في الفريضة: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»[2] فعذر الناسي والنائم وهو يعلم ﷺ ذلك، ولكنه يريد أن يَحُثَّهُما، وأراد علي أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ يعني: ما منع الناس عن الإيمان والاستغفار نقص البيان، فقد ذكر الله أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، وكان الواجب على الإنسان إذا ضربت له الأمثال أن يؤمن، لكنه ما منعهم من الإيمان نقصٌ في البيان، فالأمر والحمد لله بين واضح أتى بها النبي ﷺ بيضاء نقية لكنه العناد.

ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما ينتظرون إلَّا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلًا.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ يعني: يطلبون مغفرته، فالمؤمن كثير الاستغفار لربه، والكافر إذا آمن لا بد أن يستغفر الله مما وقع فيه من الذنوب، فإذا آمن واستغفر زال عنه ما كان من الذنوب، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٧)، و مسلم (٧٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٤)، و مسلم (٥٩٧).

مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال:٣٨]

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ يعني: مقابلة ومعاينة ومباشرة، وما هي سنة الأولين؟

الجواب: هي أخذهم بالعذاب العام، لكن لم يأخذ الله هذه الأمة بعذاب شامل؛ لأن النبي ﷺ دعا ربه ألا يهلك أمَّته بسنة بعامة فأجاب الله دعاءه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾[الكهف:٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ هذه وظيفة الرسل ،ما نرسل المرسلين من أولهم نوح إلى آخرهم محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم - إلَّا لهذين الأمرين: مبشرين ومنذرين، يعني: ولم نرسلهم من أجل أن يجبروا الناس على الإيمان بل هم مبشرون ومنذرون، يبشرون المؤمنين وينذرون الكافرين.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ منصوبة على الحال من المرسلين، يعني: إلَّا حال كونهم مبشرين ومنذرين.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ :المجادلة هي المخاصمة، وسميت المخاصمة مجادلة؛ لأن كل واحد يَجْدُلُ حجته للآخر، والجَدْل: هو فتل الحبل حتى يشتد ويقوى، هذا أصل المجادلة، إذًا يجادل أي: يخاصم، والمخاصمة بالباطل باطلة، مثال ذلك في الرسل يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾[التغابن: من الآية٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾[المؤمنون: من الآية٢٤]، ويجادلون في البعث فيقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾[يس: ٧٨]، ويجادلون في الآلهة يقولون: إذا كان المشركون وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، فعيسى من حصب جهنم، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل الله مجادلتهم بعيسى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾[الانبياء: من الآية١٠١]، ومنهم عيسى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الانبياء: من الآية١٠١] ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيبًا من هذه الآية، يعني: أن فيه نصيبًا من الكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فإذا قال قائل: «الشبهات التي يوردها من يوردها من الناس كيف يقال إنها باطل وهي شبهة؟».

فالجواب: إذا كان غرضهم منها أن يُدحضوا الحق، مثل الذين ينكرون حقيقة استواء الله على العرش ويقولون: إنه لو استوى على العرش لكان «جسمًا»، فهؤلاء جادلوا بالباطل من أجل أن يدحضوا الحق الذي أثبته الله لنفسه، وأما مسألة أن الله «جسم» أو غير «جسم» فهذا شيء آخر، المهم أنهم أتوا بهذه الكلمة من أجل إدحاض الحق، ونحن لا ننكر عليهم مسألة أنه «جسم أو غير جسم»، ننكر أنهم أنكروا حقيقة الاستواء، وأما مسألة أنه «جسم أو غير جسم» فهذا مبحث آخر، وهو أننا لا نثبت اللفظ «جسم» ولا ننكره، أما المعنى فنقول: إن الله تعالى حق قائم بذاته، موصوف بصفاته ،يفعل ما يشاء، يستوي على عرشه، وينزل إلى السماء الدنيا، وينْزِل ليفصل بين العباد، ويعجب ويفرح ويضحك، المهم أنه كلما رأيت شخصًا يجادل يريد أن يدحض الحق، فله نصيب من هذه الآية.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي: صيروا. ﴿ءَايَٰتِي﴾ يعني: القرآن.

﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾: أي: ما أنذروا به من العذاب اتخذوها ﴿هُزُوٗا﴾ مثال ذلك أن الكفار استهزءوا لما أخبر الله عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤]، يعني: في قعره، فصاروا يضحكون، كيف تخرج في أصل الجحيم، وهي شجرة أبعد ما يكون عن النار، النار حارة جافة والشجرة رطبة، فجعلوا يستهزئون ويقولون: هذا من هذيان محمد ﷺ، فاتخذوا ما أنذروا به هزوًا والله قال: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الصافات:٦٦] ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٤-٥٥]، يملأون بطونهم من هذه الزَّقوم ملئًا تامًا ثم تحترق من العطش، فماذا يسقون؟ يسقون ماءً حارًا: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾، أي: على ما في بطونهم ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾، ومع ذلك يشربون شربًا ليس عاديًا بالنسبة إلى البشر، ولكنه شرب الإبل الهيم «العطاش» هذه الشجرة التي يهزءون بها هي التي يملأون بها بطونهم في جهنم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف:٥٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: ذكره الواعظ بآيات ربه الكونية، كأخذه الأمم المكذبين، أو الشرعية كالقرآن.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ :ولم يقبلها، أي: لا أحد أظلم منه، فإن قيل: ما الجمع بين هذه الآية، وبين الآية التي في أول السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[الأنعام:٢١] ونحوها؟

فالجواب: بأحد وجهين:

الأول: أن الأفضلية باعتبار ما شاركه في أصل المعنى، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يعني: من أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها من الذين يُذَكَّرون فيُعرِضون، قد يذكر الإنسان فيعرض، لكن أشد ما يكون أن يذكر بآيات الله ثم يعرض عنها، وفي افتراء الكذب قد يفتري الإنسان الكذب على فلان وفلان، وأعظم ما يكون الافتراء عليه هو الله، وأنت إذا أخذت بهذه القاعدة سلمت من إشكال كبير.

الثاني: وقيل: إن «أظلم» و«أظلم» يشتركان في الأظلمية ويتساويان فيها بالنسبة لغيرهما، وفيه نظر؛ لأنه لا يمكن أن نقول: إنّ من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها أنه يساوي من افترى على الله كذبًا، أو من منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه يساوي من كذب على الله، ونحو ذلك.

قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: الكونية والشرعية؛ الكونية أن يقال له: إن كسوف الشمس والقمر يخوف الله بهما عباده فيعرض عنها ويقول: أبدًا خسوف القمر طبيعي، وكسوف الشمس طبيعي، ولا إنذار ولا نذير، وهذا إعراض، أما الآيات الشرعية فكثير من يذكر بآيات الله ويعرض عنها.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: يعني: نسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق؛ لأن الإنسان - والعياذ بالله - كلما أوغل في المعاصي ازداد بعدًا عن الإقبال على الحق كما قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: من الآية٥]، ولذلك يجب أن يُعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب - والعياذ بالله -، فالإنسان إذا عوقب بهلاك حبيب أو فقد محبوب من المال، فهذه عقوبة لا شك، لكن إذا عوقب بانسلاخ القلب فهذه العقوبة أشد ما يكون. يقول ابن القيم : والله ما خوفي الذنوب، فإنها لعلى طريق العفو والغفران وإنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي، والقرآن هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات، وربما تزيد العبد إيمانًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صيرنا.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: قلوب من ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ﴾، وأعيد ضمير الجمع على مفرد باعتبار المعنى؛ لأن «مَن» سواء كان اسمًا موصولًا أو شرطية يجوز في عود الضمير إليها أن يعود على لفظها فيكون مفردًا أو يعود على معناها فيكون مجموعًا أو مثنى حسب السياق، فإذا قلت: «يعجبني من قام» فهنا عاد على اللفظ، وإذا قلت: «يعجبني من قاما» فهنا يعود على المعنى، وكذلك لو قلت: «يعجبني من قاموا»، وقد يراعى اللفظ مرة والمعنى مرة أخرى، وتعود الضمائر

لمراعاة الأمرين في سياق واحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فهنا روعي اللفظ، وفي قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ روعي اللفظ أيضًا، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ روعي فيها المعنى، وفي قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ روعي اللفظ، كل هذا جاء في سياق واحد: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: من الآية ١١]، فروعي اللفظ أولًا ثم المعنى ثانيًا ثم اللفظ ثالثًا.

﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية تمنعهم من ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أن يفقهوا القرآن فلا يفهمونه، وفي هذا الحث على فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن ويتعلم معناه، كما كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صممًا. تأمل - والعياذ بالله - القلوب عليها غِطاء فلا تفقه، والآذان عليها صمم فلا تسمع، فلا يسمعون الحق ولا يفهمونه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ يعني: لو أرشدتهم يا محمد إلى الهدى.

﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا﴾ أي: ما دامت قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرٌ لن يهتدوا، فمن أين يأتي الهدى، والآذان لا تسمع الحق والقلوب لا تنقاد للحق - والعياذ بالله - فإن قال قائل: هل في هذا تيئيس للرسول ﷺ من أنه وإن دعا لا يقبل منه أو فيه تسلية له؟.

فالجواب: في هذا تسلية له، وأنهم إذا لم يقبلوا الحق فلا عليك منهم ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ هذا فيه تسلية للرسول ﷺ من وجه آخر؛ لأن النبي ﷺ يمكن أن يقول: لماذا لم يعاجلوا بالعقوبة؟ كيف يكذبونني وأنا رسول الله ولم يعاقبهم؟! ولكن بَيَّن الله له أنه هو ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الذي يستر الذنوب ويتجاوز عنها.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: صاحب الرحمة الذي يلطف بالمذنب. ولهذا قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: لو أراد الله أن يؤاخذ الناس بما كسبوا لعجل لهم العذاب، وقد بين الله هذا العذاب في آيات أخرى فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا

تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾[فاطر:٤٥] أي: لأهلكهم في الحال.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ «بل» هذه للإضراب الإبطالي، يعني: بل لن يسلموا من العذاب إذا أُخر عنهم، لهم موعد ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي: مكانًا يؤولون إليه، وهذا يوم القيامة، ويحتمل أن يكون ما يحصل للكفار من القتل على أيدي المؤمنين كما قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:-١٤-١٥]، إذًا يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل، والأخذ في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف:٥٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أي: قرى الأمم السابقين، وقد يقول قائل :هنا إشكال فإن القرى جماد، والجماد لا يعود عليه الضمير بصيغة الجمع، يعني أنك لا تقول مثلًا: «هذه البيوت عمرناهم» ولكن تقول: «هذه البيوت عمرناها»، فلماذا قال: «أهلكناهم»؟

فالجواب: قال هذا؛ لأن الذي يهلك هم أهل القرى، وفي هذا دليل واضح على أن القرى قد يراد بها أهلها، وقد يراد بها البناء المجتمع، فالقرية أو القرى تارة يراد بها أهلها وتارة يراد بها المساكن المجتمعة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص:٥٩]، فالمراد بالقرى هنا أهلها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[العنكبوت: من الآية٣١]والمراد بالقرية هنا المساكن المجتمعة.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾: المراد بالظلم هنا الكفر، أي: حين كفروا. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ يعني: جعلنا لإهلاكهم موعدًا، والله يفعل ما يشاء، إن شاء عجَّل العقوبة وإن شاء أخَّر، لكن إذا جاء الموعد لا يتأخر، ولهذا قال نوح - عليه الصلاة والسلام - لقومه: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[نوح:٤]، فهو أجل معين عند الله في الوقت الذي تقتضيه حكمته.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾[الكهف:٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾ مفعول لفعل محذوف والتقدير: «اذكر إذ قال»، يعني: واذكر إذ قال موسى لفتاه؛ أي: غلامه يوشع بن نون، وكان موسى - عليه الصلاة والسلام - ابن عمران قام يخطب يومًا في بني إسرائيل فقام أحدهم وقال: هل على وجه الأرض أعلم منك؟ قال موسى: «لا»، وذلك بناء على ظنه أنه لا أحد أعلم منه، فعتب الله عليه في ذلك، لماذا لم يكل العلم إلى الله؟ فقال الله: إنَّ لي عبدًا أعلم منك وإنَّه في مجمع البحرين، وذكر له علامة وهي أن تفقد الحوت، فاصطحب حوتًا معه في مِكْتَل، وسار هو وفتاه يوشع بن نون جاء ذلك في البخاري لينظر من هذا الذي هو أعلم منه ثم ليتعلم منه أيضًا، كان الحوت في المكتل، فلما استيقظا مع السرعة لم يفتشا في المكتل، وخرج الحوت بأمر الله من المكتل ودخل في البحر.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال، والخبر محذوف والتقدير: «لا أزال أسير».

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قيل: إنه مكان الله أعلم به، لكن موسى يعلم، وقيل: إنه ملتقى البحر الأحمر مع البحر الأبيض، وكان فيما سبق بينهما أرض، حتى فتحت القناة وهذا ليس ببعيد، وسبب ذلك أن الله أوحى إليه أن عبدًا في مجمع البحرين أعلم منك.

﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾: أو هنا للتنويع، يعني: إما أن أبلغ مجمع البحرين أو أمضي في السير حقبًا أي: دهورًا طويلة، وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: «إلَّا» أي: حتى أبلغ مجمع البحرين إلَّا أن ﴿أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أي: دهورًا طويلة قبل أن أبلغه، لكن الوجه الأول أسد، فتهيئًا لذلك وسارا، وسبب قوله هذا أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن عبدًا لنا هو أعلم منك عند مجمع البحرين، فسار موسى إليه طلبًا للعلم.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[الكهف:٦١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: موسى وفتاه.

(مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) أي: بين البحرين.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: أضاف الفعل إليهما مع أن الناسي هو الفتى وليس موسى، ولكن القوم إذا كانوا في شأن واحد وفي عمل واحد، نسب فعل الواحد منهم أو القائل منهم إلى الجميع، ولهذا يخاطب الله بني إسرائيل في عهد الرسول ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: من الآية٥٥]، مع أنهم ما قالوا هذا؛ لكن قاله أجدادهم.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: نسيان ذهول وليس نسيان ترك، وهذا من حكمة الله، أن الله أنساهما ذلك لحكمة، وهذا الحوت قد جعله الله علامة لموسى، أنك متى فقدت الحوت فثَم الخضر، وهذا الحوت كان في مِكْتَل وكانا يقتاتان منه، ولما وصلا إلى مكان ما ناما فيه عند صخرة، فلما استيقظا وإذا الحوت ليس موجودًا، لكنه أي: الفتى لم يتفقد المكتل ونسي شأنه وأمره، هذا الحوت - سبحان الله - خرج من المكتل، ودخل في البحر وجعل يسير في البحر، والبحر ينحاز عنه.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: اتخذ الحوت طريقه في البحر.

﴿سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب، والسرب هو السرداب يعني أنه يشق الماء ولا يتلاءم الماء، وهذا من آيات الله، وإلا فقد جرت العادة أن الحوت إذا انغمر في البحر يتلاءم البحر عليه، لكن هذا الحوت من آيات الله، أولًا: أنه قد مات، وأنهما يقتاتان منه، ثم صار حيًا ودخل البحر ثانيًا: أنه صار طريقه على هذا الوجه، وهذا من آيات الله - تبارك وتعالى -.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾[الكهف:٦٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ الفاعل موسى وفتاه ﴿جَاوَزَا﴾ يعني: تعديا ذلك المكان، قال

موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾: وكان ذلك؛ لأن الغداء هو الطعام الذي يؤكل في الغداة.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: تعبًا.

وقوله: ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ ليس المراد من حين ابتداء السفر، ولكن من حين ما فارقا الصخرة، ولذلك طلب الغداء، قال أهل العلم: وهذا من آيات الله فقد سارا قبل ذلك مسافة طويلة ولم يتعبا، ولما جاوزا المكان الذي فيه الخضر تعبا سريعًا من أجل ألا يتماديا في البعد عن المكان.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:٦٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: قال الفتى لموسى:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي :ما حصل حين لجأنا إلى الصخرة، والمراد بالاستفهام التعجب أو تعجيب موسى.

(فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) يعني: نسيت أن أتفقده أو أسعى في شأنه أو أذكره لك، وإلا فالحوت معروف كان في المكتل.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ قوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ هذه بدل من الهاء في «أنسانيه»، يعني: ما أنساني ذكره إلا الشيطان.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: اتخذ الفتى أو موسى سبيل الحوت في البحر.

﴿عَجَبًا﴾ يعني: محل عجب، وهو محل عجب، ماء سيال يمر به هذا الحوت، ويكون طريقه سربًا، فكان هذا الطريق للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، ولنا أيضًا عجبًا؛ لأن الماء عادة يتلاءم على ما يمر به لكن هذا الحوت - بإذن الله - لم يتلاءم الماء عليه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: قال موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا

نَبْغِ﴾ أي: ما كنا نطلب؛ لأن الله أخبره بأنه إذا فقد الحوت، فذاك محل اتفاقه مع الخضر.

(فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) يعني: رجعا بعد أن أخذا مسافة تعبا فيها، إرتدا على آثارهما، يعني: يقصان أثرهما؛ لئلا يضيع عنهما المحل الذي كانا قد أويا إليه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الخضر كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هل هو عبدٌ من عباد الله الصالحين أو من الأولياء الذين لهم كرامات أو من الأنبياء الموحى إليهم؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كراماتٍ؛ ليبين الله بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علمًا وأنه يفوته من العلم شيء كثير.

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أن الله – جلَّ وعلا – جعله من أوليائه برحمته إياه.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعني: علمًا لا يطَّلِع عليه الناس، وهو علم الغيب في هذه القصة المعينة وليس علم نبوة، ولكنه علم خاص؛ لأن هذا العلم الذي اطَّلع عليه الخضر لا يمكن إدراكه وليس شيئًا مبنيًا على المحسوس، فيبنى المستقبل على الحاضر، بل شيئًا من الغائب، فأطلعه الله تعالى على معلومات لا يطَّلع عليها البشر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[الكهف:٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: قال موسى للخضر: هل أتبعك؟ وهذا عرض لطيف وتواضع، وتأمّل هذا الأدب من موسى – عليه الصلاة والسلام – مع أن موسى أفضل منه، ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب: ٦٩]، ومع ذلك يتلطف معه؛ لأنه سوف يأخذ منه علمًا لا يعلمه موسى، وفي هذا دليل أنَّ على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله

بالإكرام، ثم بين موسى أنه لا يريد أن يَتَّبِعَه ليأكل من أكله أو يشرب من شربه، ولكن ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ولا شك أن الخضر سيفرح بمن يأخذ عنه العلم، وكل إنسان أعطاه الله علمًا ينبغي أن يفرح أن يؤخذ منه هذا العلم؛ لأن العلم الذي يُؤخذ من الإنسان في حياته ينتفع به بعد وفاته، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[الكهف:٦٧، ٦٨]

❁ التفسير ❁

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾: وبيّن له عذره في قوله هذا، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، وأين الدليل للخضر أن موسى لم يحط بذلك خُبرا؟.

الجواب: لأنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا يدل على أنه لا علم له فيما عند الخضر.

فماذا قال موسى؟

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف:٦٩]

❁ التفسير ❁

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ هذا الذي قاله موسى قاله فيما يعتقده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، لكنه علَّقه بمشيئة الله لئلَّا يكون ذلك اعتزازًا بنفسه وإعجابًا بها.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو كقول إسماعيل بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: من الآية١٠٢]، وموسى قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، - وأيضًا - أصبر على ما تفعل وأمتثل ما به تأمر ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

أَمْرًا﴾، وعده بشيئين:

١ - الصبر على ما يفعل.

٢ - الائتمار بما يأمر، والانتهاء عما ينهى.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:٧٠]

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ ومعلوم أنه سيتبعه.

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أي: عن شيء مما أفعله.

﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: (حَتَّى) هنا للغاية، يعني: إلى أن ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألَّا يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكرًا، وهذا من آداب المتعلم ألَّا يتعجل في الرد حتى يتبين الأمر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ
جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا
تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[الكهف:٧١-٧٣]

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ الفاعل موسى والخضر، وسكت عن الفتى، فهل الفتى تأخر عن الركوب في السفينة، أم أنه ركب ولكن لما كان تابعًا لم يكن له ذكر؟.

الجواب: الذي يظهر - والله أعلم - أنه كان تابعًا، لكن لم يكن له تعلق بالمسألة، والأصل هو موسى، طوي ذكره وهو أيضًا تابع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ مرَّت سفينة، وهما يمشيان على شاطئ البحر فركبا فيها.

﴿خَرَقَهَا﴾ أي: الخضر بقلع إحدى خشبها الذي يدخل منه الماء، فقال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذا إنكار من موسى على الخضر مع أنه قال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾

لكنه لم يصبر؛ لأن هذه مشكلتها عظيمة، سفينة في البحر يخرقها فتغرق! واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليل، ولكنها للعاقبة، يعني: أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلَّا لا شك أن موسى لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضًا أنه يدري أنه لا يريد أن يغرق أهلها؛ لأنه لو أراد أن يغرق أهلها لكان أول من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة، ولام العاقبة ترد في غير موضع في القرآن، مثل قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] لو سألنا أي إنسان: هل آل فرعون التقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا؟.

الجواب: أبدًا، ولكن هذه للعاقبة.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ يعني: شيئًا عظيمًا، يعني: كان موسى شديدًا قويًا في ذات الله، فقد أنكر عليه، وبين أن فعله ستكون عاقبته الإغراق، وزاده توبيخًا في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

١ - اللام.

٢ - قد.

٣ - القسم المقدر الذي تدل عليه اللام، والإمر بكسر الهمزة الشيء العظيم، ومنه قول أبي سفيان لهرقل لما سأله عن الرسول ﷺ وبين له حاله وصفاته وما كان من أخلاقه، فلما انصرف مع قومه، قال أبو سفيان: «لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشَة إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر»[1]، يعني بابن أبي كبشة: الرسول ﷺ. و: «أَمِرَ أمرُه» يعني عَظُم أمره.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢].

فاعتذر موسى:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:٧٣].

وسبب نسيان موسى؛ أن الأمر عظيم اندهش له: أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، وهذه توجب أن الإنسان ينسى ما سبق من شدة وقع ذلك في النفس.

وقوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: بنسياني، ولهذا نقول في إعراب «ما»: إنها مصدرية، أي: بنسياني ذلك وهو قولي: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يعني: لا تثقل علي وتعسر علي الأمور؛ وكأن هذا والله أعلم توطئة لما يأتي بعده.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[الكهف:٧٤]

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد أن أرست السفينة على الميناء. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ ولم يقل: «قتله»، وفي السفينة قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ ولم يقل: «فخرقها»، يعني: كأن شيئًا حصل قبل القتل فقتله.

(غُلامًا) الغلام هو الصغير، ولم يصبر موسى. ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ وفي قراءة «زاكية»؛ لأنه غلام صغير، والغلام الصغير تكتب له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، إذًا فهو زكي؛ لأنه صغير ولا تكتب عليه السيئات.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني: أنه لم يقتل أحدًا حتى تقتله، ولكن لو أنه قتل هل يُقتل أو لا؟.

الجواب: في شريعتنا لا يقتل؛ لأنه غير مُكلَّف ولا عَمْد له، على أنه يحتمل أن يكون هذا الغلام بالغاً وسمي بالغلام لقرب بلوغه وحينئذٍ يزول الإشكال.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾: هذه العبارة أشد من العبارة الأولى. في الأولى قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، ولكن هنا قال: ﴿نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا عظيمًا، والفرق بين هذا وهذا، أن خرق السفينة قد يكون به الغرق وقد لا يكون وهذا هو الذي حصل، لم تغرق السفينة، أما قتل النفس فهو منكر حادث ما فيه احتمال.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:٧٥]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾: هنا فيها لوم أشد على موسى، في الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ وفي الثانية قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ يعني: كأنك لم تفهم ولن تفهم، ولذلك كان الناس يفرقون بين الجملتين، فلو أنك كلمت شخصًا بشيء وخالفك فتقول في الأول: «ألم أقل إنك»، وفي الثاني تقول: «ألم أقل لك» يعني: أن الخطاب ورد عليك ورودًا لا خفاء فيه، ومع ذلك خالفت، فكان قول الخضر لموسى في الثانية أشد: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾، فقال له موسى لما رأى أنه لا عذر له:

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: امنعني من صحبتك، وفي قول موسى:

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾: إشارة إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - يرى أنه أعلى منه منزلة وإلَّا لقال: «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا أُصَاحِبُكَ».

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يعني: أنك وصلت إلى حال تعذر فيها؛ لأنه أنكر عليه مرتين مع أن موسى التزم ألَّا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ولم يعين الله القرية فلا حاجة إلى أن نبحث عن هذه القرية، بل نقول: قرية أبهمها الله فنبهمها.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: طلبا من أهلها طعامًا.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولا شك أن هذا خلاف الكرم، وهو نقص في الإيمان؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»(١).

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) أي: أنه مائل يريد أن يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟

فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجماد إرادة، فها هو «أُحُد» قال عنه النبي ﷺ إنه: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»(٢) والمحبة وصف زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجماد إرادة فلا وجه له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٤٥).

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: أقامه الخضر، لكن كيف أقامه؟ الله أعلم، قد يكون أقامه بيده، وأن الله أعطاه قوة فاستقام الجدار، وقد يكون بناه البناء المعتاد، المهم أنه أقامه، ولم يبين الله تعالى طول الجدار ولا مسافته ولا نوعه فلا حاجة أن نتكلف معرفة ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ولم ينكر عليه أن يبنيه ولا قال: كيف تبنيه وقد أبوا أن يضيفونا؟! بل قال: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ وهذا لا شك أنه أسلوب رقيق فيه عرض لطيف ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي عِوَضًا عن بنائه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: انتهى ما بيني وبينك فلا صحبة. ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك عن قُربٍ قبل المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وإنما قلنا: «سأخبرك عن قرب»؛ لأن السين تدل على القرب بخلاف سوف، وهي أيضًا تفيد مع القرب التحقيق. ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسيره وبيان وجهه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٧٩، ٨٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ «ال» في السفينة هي للعهد الذكري أي: السفينة التي خرقتها.

﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: أنهم يطلبون الرزق فيها إما بتأجيرها، أو صيد السمك عليها، ونحوه وهم مساكين جمع، والجمع أقله ثلاثة، وليس ضروريًا أن نعرف عددهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ يعني: أن أجعل فيها عيبًا، لماذا؟

قال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها؛ لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، ومنه يؤخذ فائدة عظيمة وهي إتلاف بعض الشيء لإصلاح باقيه، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيبًا في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء - رحمهم الله - أن الوقف إذا دَمَر وخرب فلا بأس أن يباع بعضه ويصرف ثمنه في إصلاح باقيه، ثم بين الخضر حال الغلام فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿مُؤْمِنَيْنِ﴾ أي: وهو كافر.

﴿فَخَشِينَآ﴾ أي: خفنا، والخشية في الأصل خوف مع علم، وأتي بضمير الجمع للتعظيم.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ يعني: يحملهما على الطغيان والكفر، إما من محبتهما إياه، أو لغير ذلك من الأسباب، وإلا فإن الغالب أن الوالد يؤثّر على ولده ولكن قد يؤثر الولد على الوالد، كما أن الغالب أن الزوج يؤثر على زوجته، ولكن قد تؤثر الزوجة على زوجها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: يعني: أنّا إذا قتلناه؛ فإن الله خير وأبقى؛ نؤمل منه تعالى ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي: في الدين، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: في الصلة، يعني: أنه أراد أن الله يتفضل عليهما بمن هو أزكى منه في الدين، وأوصل في صلة الرحم، ويؤخذ من ذلك أنه يقتل الكافر خوفًا من أن ينشر كفره في الناس.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ﴾ يعني: صغيرين.

﴿يَتِيمَيْنِ﴾: قد مات أبوهما.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: القرية التي أتياها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أي: كان تحت الجدار مال مدفون لهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: فكان من شكر الله لهذا الأب الصالح أن يكون رءوفًا بأبنائه، وهذا من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله الأبناء.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أراد الله ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: أن يبلغا ويكبرا حتى يصلا إلى سن الرشد، وهو أربعون سنة عند كثير من العلماء، وهنا ما قال: «فأردنا» ولا قال: «فأردت»، بل قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لأن بقاء الغلامين حتى يبلغا أشدهما ليس للخضر فيه أي قدرة، لكن الخشية - خشية أن يرهق الغلام أبويه بالكفر تقع من الخضر وكذلك إرادة عيب السفينة.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾: حتى لا يبقى تحت الجدار، ولو أن الجدار انهدم لظهر الكنْز وأخذه الناس.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: هذه مفعول لأجله، والعامل فيه أراد، يعني: أراد الله ذلك رحمة منه جلَّ وعلا.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني: ما فعلت هذا الشيء عن عقل مني أو ذكاء مني ،ولكنه بإلهام من الله وتوفيق؛ لأن هذا الشيء فوق ما يدركه العقل البشري.

﴿أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: ذلك تفسيره الذي وعدتك به﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾[الكهف: من الآية٧٨]. أي: تفسيره، ويحتمل أن يكون التأويل هنا في الثاني العاقبة، يعني: ذلك عاقبة ما لم تستطع عليه صبرًا؛ لأن التأويل يراد به العاقبة ويراد به التفسير.

﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾وفي الأول قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع﴾؛لأن «استطاع واسطاع ويستطيع ويسطيع» كل منها لغة عربية صحيحة.

وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله تعالى - في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن) فوائد جمة عظيمة في هذه القصة لا تجدها في كتاب آخر فينبغي لطالب العلم أن يراجعها؛ لأنها مفيدة جدًا.

وبهذا انتهت قصة موسى مع الخضر.

ثم ذكر الله تعالى قصة أخرى سألوا عنها رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - .

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ سواء من يهود أو من قريش أو من غيرهم.

﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي: صاحب القرنين، وكان له ذكر في التاريخ، وقد قال اليهود لقريش: اسألوا محمدًا عن هذا الرجل؛ فإن أخبركم عنه فهو نبي، ولماذا سمي بذي القرنين؟ قيل: معناه ذي الملك الواسع من المشرق والمغرب، فإن المشرق قرن والمغرب قرن، كما قال النبي ﷺ عن المشرق: «حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»(١)، فيكون هذا كناية عن سعة ملكه، وقيل: ذي القرنين لقوته، ولذلك يعرف أن الفحل من الضأن الذي له قرون يكون أشد وأقوى، وقيل: لأنه كان على رأسه قرنان كتاج الملوك، والحقيقة أن القرآن العظيم لم يبين سبب تسميته بذي القرنين، لكن أقرب ما يكون للقرآن العظيم «المالك للمشرق والمغرب»، وهو مناسب تمامًا؛ حيث قال النبي ﷺ عن الشمس إنها: «تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»(٢).

﴿قُلْ﴾ لمن سألك: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ وليس كل ذكره بل ذكرًا منه، ثم قصَّ الله القصة:

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي: شيئًا يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ لا يعم كل شيء؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن «كل شيء» بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عن ملكة اليمن سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السموات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦١٢)، والنسائي (٥٢٢)، وأبو داود (٣٩٦).

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومعلوم أنها ما دَمَّرت كل شيء، فالمساكن ما دُمِّرت كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: من الآية٢٥].

قال الله تعالى:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: تبع السبب الموصل لمقصوده فإنه كان حازمًا، انتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب؛ لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك انتفع ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وجال في الأرض.

قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ من المعلوم أن المراد هو المكان الذي تغرب الشمس فيه، وهو البحر؛ لأن السائر إلى المغرب سوف يصطدم بالبحر والشمس إذا رآها الرائي وجدها تغرب فيه.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ هي: أرض البحر ﴿حَمِئَةٍ﴾ مسودة من الماء؛ لأن الماء إذا مكث طويلًا في الأرض صارت سوداء، ومعلوم أنها تغرب في هذه العين الحمئة حسب رؤية الإنسان، وإلَّا فهي أكبر من الأرض، وأكبر من هذه العين الحمئة، وهي تدور على الأرض، لكن لا حرج أن الإنسان يخبر عن الشيء الذي تراه عيناه بحسب ما رآه.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند العين الحمئة وهو البحر ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يعني: أن الله خيره بين أن يعذبهم بالقتل أو بغير القتل أو يحسن إليهم؛ وذلك لأن ذا القرنين ملك عاقل، ملك عادل، ويدل لعقله ودينه ما ذكره الله عنه في الآية التالية.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف:٨٧-٨٨]

❁ التفسير ❁

حكمٌ عدل: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ وذلك بالشرك؛ لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر - والله أعلم - هنا أن المراد به الشرك؛ لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾

يقول: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ العذاب الذي يكون تعزيرًا، وعذاب التعزير يرجع إلى رأي الحاكم، إما بالقتل أو بغيره.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ لأن العقوبات لا تطهر الكافرين، فالمسلم تطهره العقوبات، أما الكافر فلا، فإنه يعذب في الدنيا وفي الآخرة - نعوذ بالله من ذلك - .

قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ ينكره المُعَذَّب بفتح الذال، ولكنه بالنسبة لله تعالى ليس بنكر، بل هو حق وعدل، لكنه ينكره المُعَذَّب ويرى أنه شديد.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: المؤمن العامل للصالحات له جزاء عند الله ﴿الْحُسْنَى﴾ وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: من الآية٢٦]، فسرها النبي ﷺ بأن: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة. والزيادة هي النظر إلى وجه الله .

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: سنقول له قولًا يسرًا لا صعوبة فيه، فوعد الظالم بأمرين: أنه يعذبه، وأنه يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا، والمؤمن وعده بأمرين: بأن له ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأنه يعامله بما فيه اليسر والسهولة، لكن تأمل في حال المشرك بدأ بتعذيبه ثم ثنى بتعذيب الله، والمؤمن بدأ بثواب الله أولًا ثم بالمعاملة باليسر ثانيًا، والفرق ظاهر؛ لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنة لا شك أنه أفضل وأحب إليه من أن يقال له قول يُسر، وأما الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة وأيسر منه فبدأ به، وأيضًا فالكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر من عذاب الآخرة؛ لأنه لا يؤمن بالثاني.

❁ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[الكهف: ٨٩-٩٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾أي: موضع طلوعها، أتبع أولًا السبب إلى المغرب ووصل إلى نهاية الأرض اليابسة مما يمكنه أن يصل إليه ثم عاد إلى المشرق؛ لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»[1] دون الشمال والجنوب؛ لأن الشمال والجنوب أقصاه من الشمال، وأقصاه من الجنوب كله ثلج ليس فيه سكان، فالسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وجدها تطلع على قوم ليس عندهم بناء، ولا أشجار ظليلة ولا دور ولا قصور، وبعض العلماء بالغ حتى قال: وليس عليهم ثياب؛ لأن الثياب فيها نوع من الستر. المهم أن الشمس تحرقهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[الكهف: ٩١-٩٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: الأمر كذلك على حقيقته.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: قد علمنا علم اليقين بما عنده من وسائل الملك وامتداده، أي: بكل ما لديه من ذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٢-٩٣].

قوله تعالى: ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: سار واتخذ سببًا يصل به إلى مراده.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾: السدين هما جبلان عظيمان يحولان بين الجهة الشرقية من شرق

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

آسية، والجهة الغربية، وهما جبلان عظيمان بينهما منفذ ينفذ منه الناس.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: لا بينهما ولا وراءهما.

﴿قَوْمًا﴾ قيل: إنهم الأتراك.

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيها قراءتان: «لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلًا» و«لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» والفرق بينهما ظاهر: لا ﴿يَفْقَهُونَ﴾ يعني هم، لا «يُفْقِهُونَ» أي: غيرهم، يعني: هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ وحينئذٍ يقع إشكال كيف يكونوا ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ثم ينقل عنهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح فصيح: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾؟.

والجواب عن هذا سهل جدًّا، وهو أن ذا القرنين أعطاه الله تعالى ملكًا عظيمًا، وعنده من المترجمين ما يُعرف به ما يريد، وما يَعرف به ما يريد غيره، على أنه قد يكون الله قد ألهمه لغة الناس الذين استولى عليهم كلِّهم، المهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، نادَوه بلقبه تعظيمًا له.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: يأجوج ومأجوج هاتان قبيلتان من بني آدم كما صح ذلك عن النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ لما حدَّث الصحابة بأن الله يأمر آدم يوم القيامة فيقول:

«يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ» [فاشتد ذلك عليهم] قالوا: يا رسول الله، وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ...» (١) إلخ الحديث.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

وبهذا نعرف خطأ من قال: إنهم ليسوا على شكل الآدميين وأن بعضهم في غاية ما يكون من القِصَر، وبعضهم في غاية ما يكون من الطول، وأن بعضهم له أذن يفترشها، وأذن يلتحف بها وما أشبه ذلك، كل هذا من خرافات بني إسرائيل، ولا يجوز أن نصدقه، بل يقال: إنهم من بني آدم، لكن قد يختلفون كما يختلف الناس في البيئات، فتجد أهل خط الاستواء بيئتهم غير بيئة الشماليين، فكل له بيئة، الشرقيون الآن يختلفون عن أهل وسط الكرة الأرضية، فهذا ربما يختلفون فيه، أما أن يختلفوا اختلافًا فادحًا كما يذكر، فهذا ليس بصحيح.

﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: الإفساد في الأرض يعم كل ما كان غير صالح، وغير أصلح، يفسدونها في القتل، وفي النهب، وفي الانحراف، وفي الشرك، وفي كل شيء، المهم أنهم يحتاجون إلى أحد يحميهم من هؤلاء.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يعني: حاجزًا يمنع من حضورهم إلينا، فعرضوا عليه أن يعطوه شيئًا، وهذا اجتهاد في غير محله، لكنهم خافوا أن يقول: لا، ولا يمكنهم بعد ذلك، وإلَّا هذا الاجتهاد: كيف يقولون لهذا الملك الذي فتح مشارق الأرض ومغاربها: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ هذا لا يقال إلَّا لشخصٍ لا يستطيع. لكنهم قالوا ذلك خوفًا من أن يرد طلبهم، يريدون أن يقيموا عليه الحجة بأنهم أرادوا أن يعطوه شيئًا يحميهم به من هؤلاء، قال في الجواب:

قال الله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ، يعني: الذي مكَّني فيه ربي من الملك والمال والخدم، وكل شيء، خير من هذا الخرج الذي تعرضونه عليَّ، وهذا كقول سليمان - عليه الصلاة والسلام - في هدية ملكة سبأ، قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: من الآية٣٦] وهذا من اعتراف الإنسان بنعم ربه التي لا يحتاج معها إلى أحد.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بقوة بدنية لا بقوة مالية؛ لأنه عنده من الأموال الشيء العظيم.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يعني: أكبر مما سألوا، هم سألوا سدًا، ولكنه قال: ردمًا، يعني: أشد من السد، فطلب منهم:

❁ قال الله تعالى:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾[الكهف:٩٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ الزُّبَر يعني: القطع من الحديد، فجمعوا الحديد وجعلوه يساوي الجبال، وهذا يدل على القوة العظيمة في ذلك الوقت، يعني: أرتال من الحديد، تجمع حتى تساوي الجبال الشاهقة العظيمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ يعني جانبي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ يعني: انفخوا على هذا الحديد، وليس المراد بأفواهكم؛ لأن هذا لا يمكن، ولكن انفخوا بالآلات والمعدات التي عنده؛ لأن الله أعطاه ملكًا عظيمًا، فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ والحديد معروف أنه إذا أوقد عليه في النار يكون نارًا، تكون القطعة كأنها جمرة، بل هي أشد من الجمرة، ثم طلب أن يؤتوه قطرًا يفرغه عليه، والقطر هو النحاس المذاب كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ [سبأ: من الآية١٢]، يعني: النحاس أرسله الله تعالى لسليمان، بعد أن كان معدنًا قاسيًا يحتاج إلى إخراج بالمعاول ثم صَهْر بالنار، أسال الله له عين القطر كأنها ماء - سبحان الله -.

قال ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ فأفرغ عليه القطر - النحاس - فاشتبك النحاس مع قطع الحديد فكان قويًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾[الكهف:٩٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ و«ما استطاعوا» معناهما واحد، وسبق في قصة موسى مع الخضر ﴿مَا لَمۡ تَسۡتَطِع﴾ و﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع﴾. ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ يعني: أن يصعدوا عليه؛ لأنه عالٍ؛ ولأن الظاهر أنه أملس، فهم لا يستطيعون أن يصعدوا عليه.

﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ لم تأتِ التاء في الفعل الأول (اسطاعوا) وأتت فيه ثانيًا، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أيهما أشق أن يصعدوا الجبل أو أن يَنقبوا هذا الحديد؟.

الجواب: الثاني أصعب ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾؛ لأنه حديد ممسوك بالنحاس،

فصاروا لا يستطيعون ظهوره لعلوه وملاسته فيما يظهر، ولم يستطيعوا له نقبًا لصلابته وقوته، إذًا صار سدًا منيعًا وكفى الله شر هؤلاء المفسدين وهم يأجوج ومأجوج.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[الكهف:٩٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ قالها ذو القرنين وانظر إلى عباد الله الصالحين، كيف لا يسندون ما يعملونه إلى أنفسهم، ولكنهم يسندونه إلى الله وإلى فضله، ولهذا لما قالت النملة حين أقبل سليمان بجنوده على وادي النمل، قامت خطيبة فصيحة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل:١٨-١٩]، أيضًا ذو القرنين قال:

﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾: وليس بحولي ولا قوتي، ولكنه رحمة به ورحمة بالذين طلبوا منه السد، أن حصل هذا الردم المنيع.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني: بخروج هؤلاء المفسدين.

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ يعني: جعل هذا السد دكًا، أي: منهدمًا تمامًا وسواه بالأرض، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا[1]. يعني: شيء يسير لكن ما ظهر فيه الشق لا بد أن يتوسع.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾: فما هو هذا الوعد؟.

الجواب: الوعد هو أن الله يخرجهم في آخر الزمان، وذلك بعد خروج الدجال وقتله يخرج الله هؤلاء، يخرجهم في عالم كثير مثل الجراد أو أكثر «فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ» ثم «يُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ» في جبل الطور، ويلحقهم مشقة ويرغبون إلى الله تعالى في هلاك هؤلاء، «فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[2] يصبحون في ليلة واحدة على كثرتهم، ميتين مِيتة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، وأبو داود (٤٣٢١).

رجل واحد، حتى تنتن الأرض من رائحتهم، فيرسل الله تعالى أمطارًا تحملهم إلى البحر أو يرسل اللهُ طيورًا فَتَحْمِلُهُمْ إلى البحر، والله على كل شيء قدير، وهذه الأشياء نؤمن بها كما أخبر بها النبي ﷺ، أما كيف تصل الحال إلى ذلك، فهذا أمره إلى الله.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ يعني: وعد الله تعالى في خروجهم كان ﴿حَقًّا﴾ أي: لا بد أن يقع كل ما وعد الله بشيء فلا بد أن يقع؛ لأن عدم الوفاء بالوعد، إما أن يكون عن عجز، أو إما أن يكون عن كذب، والله منَزَّهٌ عنهما جميعًا عن العجز، وعن الكذب، فهو لا يخلف الميعاد لكمال قدرته، وكمال صدقه.

قال الله تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: إذا خرجوا صار «يموج بعضهم في بعض»، ثم اختلفوا في معنى «يموج بعضهم في بعض» هل معناه أنهم يموجون مع الناس، أو يموج بعضهم في بعض يتدافعون عند الخروج من السد؟ وإذا كان أحد من العلماء يقول:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني: بعد السد، صاروا هم بأنفسهم يموج بعضهم في بعض، فإن كان أحدٌ يقول بهذا، فهو أقرب إلى سياق الآية، لكن الذي رأيته أنهم يموج بعضهم في بعض يعني :إذا خرجوا، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذْ يريد الله خروجهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١)، هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث، ينفخ في الصور نفختين. الأولى: فَزَعٌ وصعق، ولا يمكن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وأبو داود (٧٧٦).

الآن أن ندرك عظمة هذا النفخ، نفخ تفزع الخلائق منه وتصعق بعد ذلك، كلهم يموتون إلَّا من شاء الله، لشدة هذا النفخ وشدة وقعه، ما يمكن أن نتصور؛ لأن الناس يفزعون، بل فزع من في السموات ومن في الأرض، ثم يصعقون - الله أكبر -. شيء عظيم كلما يتصوره الإنسان، يقشعر جلده من عظمته وهوله.

النفخة الثانية: يقول الله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨] .

النفخة الثانية: يقوم الناس من قبورهم أحياء ينظرون، ماذا حدث؟! لأن الأجسام في القبور، يُنْزِل الله تعالى عليها مطرًا عظيمًا ثم تنمو في داخل الأرض، حتى إذا تكاملت الأجسام تكاملها التام نفخ في الصور نفخة البعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: من الآية٦٨].

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي: جمعنا الخلائق ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي: جمعًا عظيمًا، فهذا الجمع يشمَل: الإنس، والجن، والملائكة، والوحوش، وجميع الدواب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨] كل الخلائق، حتى الملائكة - ملائكة السماء - كما قال الله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] . يا له من مشهد عظيم، الله أكبر.

قال الله تعالى:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[الكهف:١٠٠]

التفسير

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي: عرضناها لهم فتكون أمامهم - اللّهم أجرنا منها -.

﴿جَهَنَّمَ﴾ :اسم من أسماء النار.

﴿عَرْضًا﴾ يعني: عرضًا عظيمًا، ولذلك نُكِّر يعني: عرضًا عظيمًا تتساقط منه القلوب، ومن الحكم في إخبار الله بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف من هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق :

كلنا مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله فتصور هذا وتصور أنه ليس بينك وبينه إلَّا أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذ ينتهي كل شيء.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾[الكهف:١٠١،١٠٢]

❁ التَفسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ هؤلاء الكافرون كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، لا ينظرون إلى ذكر الله، وقد ذكر الله تعالى فيما سبق - في نفس السورة - أنَّ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾[الكهف: من الآية٥٧] فالقلوب، والأبصار، والأسماع كلها مغلقة.

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ هل المراد لا يريدون؟ كقوله تعالى:﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[المائدة: من الآية١١٢]، أي: هل يريد؟ أو المعنى أنهم لا يستطيعون ﴿سَمۡعًا﴾ أي سمع الإجابة، وليس سمع الإدراك؟.

الجواب: يحتمل المَعْنيَيْن جميعًا، وكلاهما حق.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ [الكهف:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي: أفظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ من هم عباده؟.

الجواب: كل شيء فهو عبد لله:﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]. ومن الذي اتُّخِذَ وليًا من دون الله، أي: عُبد من دون الله؟.

الجواب: عبدت الملائكة، عبدت الرسل، وعبدت الشمس، وعبد القمر، وعبدت الأشجار، وعبدت الأحجار، وعبدت البقر! نسأل الله العافية، الشيطان يأتي ابن آدم من كل طريق.

﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني:أربابًا يدعونهم ويستغيثون بهم وينسون ولاية الله ، يعني: أيظن هؤلاء الذين فعلوا ذلك أنهم يُنصرون؟

الجواب: لا، لا يُنصرون، ومن ظن ذلك فهو مُخَبَّل في عقله.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ يعني: أن الله هيأ النار ﴿نُزُلٗا﴾ للكافرين، ومعنى النُّزُل ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ويحتمل أن يكون بمعنى المنْزِل، وكلاهما صحيح، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾[الكهف:١٠٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد للأمة كلها: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

الجواب: نعم.

نريد أن نُخبَرَ عن الأخسرين أعمالًا، حتى نتجنب عمل هؤلاء، ونكون من الرابحين، وقد بين الله تعالى في سورة العصر أن كل إنسان خاسر، إلَّا من اتصف بأربع صفات:

١ - الذين آمنوا.

٢ - وعملوا الصالحات.

٣ - وتواصوا بالحق.

٤ - وتواصوا بالصبر.

وهنا يقول:

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: ضاع سعيهم وبَطل في الحياة الدنيا لكنهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فَغُطي عليهم الحق - والعياذ بالله - وظنوا وهم على باطل أن الباطل هو الحق، وهذا كثير، فاليهود مثلًا يظنون أنهم على حق، والنصارى يظنون أنهم على حق، والشيوعيون يظنون أنهم على حق، كل واحد منهم يظن أنه على حق، ولذلك مكثوا على ما هم عليه، ومنهم من يعلم أنه ليس على حق، لكنه - والعياذ بالله - لاستكباره واستعلائه أصر على ما هو عليه.

❁ قال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف:١٠٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الكونية أو الشرعية؟.

الظاهر كلتاهما، لكن الذين كذبوا الرسول ﷺ،كذبوا بالآيات الشرعية، ولم يكذبوا بالآيات الكونية، والدليل أن الله تعالى أخبر أنهم إذا سُئلوا: من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله، ولا أحد منهم يدعي أن هنالك خالقًا آخر مع الله، لكنهم كذبوا بالآيات الشرعية، كذبوا الرسول ﷺ؛ كذبوا بما جاء به، فهم داخلون في الآية.

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أي: كذبوا بلقاء الله، ومتى يكون لقاء الله؟.

الجواب: يكون يوم القيامة، فهؤلاء كذبوا بيوم القيامة وجادلوا، وأُروا الآيات ولكنهم أصروا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾ [يس:٧٧-٧٨] يكذبنا فيه فقال: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨] تحدًّ! من يحييها؟ رميم لا فيها حياة ولا شيء؟.

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ومن الذي أنشأها أوّل مرة؟

الجواب: هو الله، والإعادة أهون من الابتداء كما قال الله :﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: من الآية٢٧]هذا دليل، إذًا الدليل على إمكان البعث، وإحياء العظام وهي رميم:

١ - أن الله تعالى ابتدأها، ولما قال زكريا حين بُشِّر بالولد وكان قد بلغ في الكِبَر عتيا، إن امرأته عاقر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩]، فالذي خلقك من قبل، وأنت لم تكن شيئًا قادر على أن يجعل لك ولدًا.

٢- ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: من الآية٧٩]وإذا كان الله بكل خلق عليمًا، فإنه لن يتعذر عليه أن يخلق ما يشاء، من الذي يمنعه إذا كان عليمًا بكل خلق؟.

الجواب: لا أحد يمنعه.

٣ - ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠] شجر أخضر يخرج منه نار، فالشجر الأخضر يضرب بالزند ثم ينقدح نارًا، وكان العرب يعرفون هذا، فالذي

يخرج هذه النار، وهي حارة يابسة من غصن رطب بارد، يعني: متضادان غاية التضاد، قادر على أن يخلق الإنسان، أو أن يعيد خلق العظام وهي رميم، ثم حقق هذه النار بقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

٤ - ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس:٨١].

الجواب: بلى، قال الله تعالى:﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر:٥٧] فالذي خلق السموات والأرض بِكِبَرِهَا، وعظمها قادر على أن يعيد جزءًا من لا شيء بالنسبة للأرض، من أنت يا ابن آدم بالنسبة للأرض؟ لا شيء، أنت خلقت منها، أنت بعض يسير منها، فالذي قدر على خلق السموات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم، قال الله تعالى مجيبًا نفسه:﴿بَلَىٰ﴾[يس: من الآية٨١].

٥ - ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يس: من الآية٨١] الخلَّاق صيغة مبالغة، وإن شئت فاجعلها نسبة، يعني: أنه موصوف بالخلق أزلًا وأبدًا، وهو تأكيد لقوله قبل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٩].

٦ - ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]لا يحتاج إلى عمال ولا بنَّائين ولا أحد؛ ولهذا قال :﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

كلمة واحدة.

٧ - ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[يس:٨٣].

كل شيء فبيده ملكوته يتصرف كما يشاء، فنسأله أن يهدينا صراطه المستقيم.

٨ - ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس: ٨٣] فهذا هو الدليل الثامن. وإنما كان دليلًا؛ لأنه لولا رجوعنا إلى الله لكان وجودنا عبثًا، وهذا ينافي الحكمة، فتأمل سياق هذه الأدلة الثمانية في هذا القول الموجز، ومع ذلك ينكرون لقاء الله.

في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إلزام لهم بالإيمان؛ لأنه كونه ربهم يجب أن يطيعوه وأن يؤمنوا به، لكن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعني: بَطَلَت ولم ينتفعوا بها، حتى لو أن الكافر أحسن وأصلح الطرق وبنى الرُّبط، وتصدق على الفقراء فإن ذلك لا ينفعه، إن أراد الله أن يثيبه عجل الله له الثواب في الدنيا، أما في الآخرة فلا نصيب له، - نعوذ بالله نسأل الله الحماية والعافية -، لأن أعماله حبطت، ولكن هل يحبط العمل بمجرد الردة أم لا بد من شرط؟.

الجواب: لا بد من شرط، وهو أن يموت على ردته، قال الله تعالى:﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[البقرة: من الآية٢١٧].

أما لو ارتد، ثم مَنَّ الله عليه بالرجوع إلى الإسلام، فإنه يعود عليه عمله الصالح السابق للردة.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ يعني: أنه لا قدر لهم عندنا ولا ميزان، وهو كناية عن سقوط

مرتبتهم عند الله .

وقيل: إن المعنى أننا لا نزنهم؛ لأن الوزن إنما يحتاج إليه لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات، والكافر ليس له عمل حتى يوزن، ولكن الصحيح أن الأعمال توزن كلها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[القارعة:٦-١١]. فيقام الوزن؛ لإظهار الحجة عليه، والمسألة هذه فيها خلاف.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[الكهف:١٠٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ذلك المذكور من أنه لا يقام لهم الوزن وأن أعمالهم تكون حابطة.

﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾: الباء للسببية و(ما) مصدرية وتقدير الكلام: بكفرهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ معطوفة على ﴿كَفَرُوا۟﴾ أي: بما كفروا واتخذوا، فهم - والعياذ بالله - كفروا وتعدى كفرهم إلى غيرهم، صاروا يستهزئون بالآيات، ويستهزئون بالرسل، ولم يقتصروا على كفرهم بالله.

﴿هُزُوًا﴾ أي: محلَّ هُزُؤٍ، يسخرون منهم، ولهذا قال الله للرسول ﷺ:﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[الأنبياء: من الآية٣٦]:﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان: من الآية٤١] والاستفهام هنا لا يخفى أنه للتحقير، أهذا الرسول!﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان: من الآية٤٢]. - أعوذ بالله -؛ يفتخرون أنهم صبروا على آلهتهم وانتصروا لها. ثم ذكر ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف:١٠٧]

التفسير

بدلًا ما كانت جهنم نزلًا للكافرين، صارت جنات الفردوس نزلًا للمؤمنين، لكن بشرطين:

١ - الإيمان.

٢ - العمل الصالح. والإيمان محله القلب، والعمل الصالح محله الجوارح، وقد يراد به - أيضًا - عمل القلب، كالتوكل والخوف والإنابة والمحبة، وما أشبه ذلك.

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هي التي كانت خالصة لله، وموافقة لشريعة الله.

ولا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلَّا بهذا، الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك؛ فعمله غير صالح، ومن ابتدع فعمله غير صالح، ويكون مردودًا عليهما، ودليل ذلك قوله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وقال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢). أي: مردود عليه، فصار العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله، أو لرسول الله؟.

الجواب: لشريعة الله أحسن، إلَّا إذا أريد بالمتابعة لرسول الله، الجنس، دون محمد ﷺ فنعم؛ لأن المؤمنين من قوم موسى وقوم عيسى يدخلون في هذا.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ هل المراد بالكينونة هنا الكينونة الماضية، أو المراد تحقيق كونها نزلًا لهم؟ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟ نقول: الأمران واقعان، فكانت في علم الله نزلًا لهم، وكانت نزلًا لهم على وجه التحقيق؛ لأن «كان» قد يسلب منها معنى الزمان، ويكون المراد بها التحقيق.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾: هل هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ أو لأن الفردوس هي أعلى الجنَّات، والجنَّات الأُخرى تحته؟

الجواب: الظاهر الثاني؛ لأنه ليس جميع المؤمنين الذين عملوا الصالحات ليسوا كلهم في الفردوس، بل هم في جنات الفردوس، والفردوس قال النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(٣) أعلى الجنة ووسط الجنة معناه أن الجنة مثل القبَّة، وفيه أيضًا وصف رابع: ومنه تفجر أنهار الجنة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

قال الله تعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ولا نزاع في هذا بين أهل السنة.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يطلبون عنها بدلًا، ﴿حِوَلًا﴾ أي: تحولًا؛ لأن كل واحد راضٍ بما هو فيه من النعم، وكل واحد لا يرى أن أحدًا أكمل منه، وهذا من تمام النعيم، أنت مثلًا لو نزلت قصرًا منيفًا فيه من كل ما يبهج النفس، ولكنك ترى قصر فلان أعظم منه، هل يكمل سرورك؟.

الجواب: من يريد الدنيا لا يكمل سروره؛ لأنه يرى أن غيره خير منه، لكن في الجنة، وإن كان الناس درجات، لكن النازل منهم - وليس فيهم نازل - يرى أنه لا أحد أنعم منه، عكس أهل النار، أهل النار يرى الواحد منهم أنه لا أحد أشد منه، وأنه أشدهم عذابًا.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ يعني: لو قيل للواحد: هل ترغب أن نجعلك في مكان آخر غير مكانك لقال: «لا»، وهذا من نعمة الله على الإنسان أن يقنع الإنسان بما أعطاه الله وأن يطمئن ولا يقلق.

قال الله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي: يا محمد: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ يعني: حبرًا يكتب به ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ قبل أن تنفد كلمات الله ؛ لأنه المدبر لكل الأمور، وبكلمة ﴿كُن﴾ لا نَفاد لكلامه بل إن في الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾، أي: لو كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] . لَنَفِد البحر وتكسرت الأقلام وكلمات الله - جلَّ وعلا - باقية.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ يعني: زيادة، فإن كلمات الله لا تنفد، وفي هذا نص صريح على إثبات كلام الله، وكلمات الله كونية، وشرعية، أما الشرعية فهو ما أوحاه إلى رسله، وأما الكونية فهي ما قضى به قَدَرهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وكل شيء بإرادته، إذًا فهو يقول لكل شيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ومن الكلمات الشرعية ما أوحاه إلى من دون

الرسل، كالكلمات التي أوحاها إلى آدم، فإن آدم - عليه الصلاة والسلام -، نبي وليس برسول، وقد أمره الله ونهاه، والأمر والنهي كلمات شرعية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ يعني: أعلن للملأ أنك لست ملكًا، وأنك من جنس البشر ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وذِكر المثلية لتحقيق البشرية، أي: أنه بشر لا يتعدى البشرية، ولذلك كان - عليه الصلاة والسلام - يغضب كما يغضب الناس، وكان ﷺ يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاها الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وكان له ظِلٌّ كما يكون للناس.

أمّا من زعم أن الرسول ﷺ نُورَاني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك، فإن الرسول ﷺ كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضًا، ولو كان الرسول ﷺ ليس له ظل، لنقل هذا نقلًا متواترًا؛ لأنه من آيات الله إذًا الرسول ﷺ بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول ﷺ أن يجلب للناس نفعًا أو ضرًا؟

الجواب: لا، كما أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾[الجن:٢١]، ومن العجب أن أقوامًا لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول ﷺ أكثر مما يتعلقون بالله، إذا ذكر الرسول ﷺ اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله كأن لم يُذكر! حتى إن بعضهم يؤثر أن يحلف بالرسول ﷺ دون أن يحلف بالله، وحتى إن بعضهم يرى أن زيارة قبر الرسول ﷺ، أفضل من زيارة الكعبة، ولقد شاهدت أناسًا حُجِزوا عن المدينة في أيام الحج لقرب وقت الحج؛ لأنه إذا قرب وقت الحج منعوهم من الذهاب إلى المدينة، لئلّا يفوتهم الحج، يبكي! يقول: أنا منعت من الأنوار، ومنعت من كذا وكذا، ويعدد ما نسيته الآن، فيقال له: أنت لماذا جئت؟ قال: جئت لمشاهدة الأنوار،كأنه ما جاء إلا لزيارة المدينة، ونسي أنه جاء ليؤدي فريضة الحج، وسبب ذلك الجهل؛ وأن العلماء لا يبينون للعامة، وإلّا فالعامي عنده عاطفة جياشة لو أنه أخبر بالحق لرجع إليه.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذه هي الميزة للرسول ﷺ، أنه يوحى إليه، وغيره لا يوحى إليه، إلّا إخوانه من

المرسلين - عليهم الصلاة والسلام -.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: هذه الجملة حصر، كأنه قال: لا إله إلا واحد، واستفدنا أنها للحصر من «إنَّما»؛ لأن كلمة «إنما» من أدوات الحصر، تقول: «إنما زيد قائم» يعني: ليس له وصف غير القيام، وتقول: «إنما العلم بالتعلم» وليس هناك طريق للعلم إلَّا بالتعلم.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يُأمِّل أن يلقى الله ويؤمن بذلك.

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾: دعوة يسيرة سهلة، أتريد أن تلقى ربك وقلبك مملوء بالرجاء؟ إذا كان كذلك.

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾. كل إنسان عاقل يرجو لقاء الله ولقاء الله - ليس ببعيد، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥]. قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ بمعنى قولهم: «كل آتٍ قريب».

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ إذا قال قائل: ألستم قررتم أن العمل الصالح لا بد فيه من إخلاص ومتابعة؟ قلنا: بلى، لكنه لما كان الإخلاص ذا أهمية عظيمة ذكره تخصيصًا بعد دخوله ضمن قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾.

وتأمل قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ ليتبين لك أنه - جلَّ وعلا - حقيق بأن لا يشرَك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات، إننا نقول بقلوبنا وألسنتنا: «ربنا الله» ونسأل الله تعالى الاستقامة حتى ندخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

والحمد لله الذي وفقنا لإكمال هذه السورة، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تم - بحمد الله - تفسير سورة الكهف

ويليها - إن شاء الله - تفسير سورة النور

تفسير سورة النور

تفسير سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ قال الله تعالى:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ② الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١-٣]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(1)

قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾

قوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾: الخطابُ للمؤمنين عمومًا، ومن المعلوم أنَّ الذي يُقِيمُه هو الإمام، لكن وُجِّه الخطاب لجميع الناس؛ لأنَّهم مسئولون عن إقامة الحُدود، فإنَّ إقامة الحُدود فرض كفاية.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾: الرأفة: الرحمة بِرقَّة.

وقوله: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾؛ أي: في الحَدِّ؛ لأنَّ إقامة الحُدود من الدين، كما صرَّح عمر رضي الله عنه بأنَّ الرَّجْمَ فريضة في كتاب الله.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وهذا شرطٌ؛ فمَن كان مؤمنًا فلْيَفعل هذا، وهو من باب ما يُسمُّونه بالإغراء، كما تقول للإنسان: إن كنتَ رجُلًا فافعَل، إن كنتَ كريمًا فأكرِمِ الضيف، وما أشبه ذلك.

---

(1) قال العلامة السعدي: أي: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أحكامًا جليلة، وأوامر وزواجر، وحكمًا عظيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها. (نقلنا تفسير هذه الآية من تفسير السعدي لتعذر وجود المادة العلمية الخاصة بها لدينا).

وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: اللام للأمر، وهو للوجوب، ولابُدَّ أن يشهَدَ العذابَ طائفةٌ من المؤمنين، والطائفة أقلُّها ثلاثةٌ.

وقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ اختلف العلماء فيها؛ هل المراد لا ينكِح؛ أي: لا يطأ إلا زانيةً أو مُشرِكة، فيكون المعنى: الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ أو مُشرِكة، أو المُراد بالنكاح: عقدُ النِّكاح حقيقةً، وهذا هو الصحيح؛ والمعنى: أنَّه لا يتزوَّج إلا زانيةً أو مُشرِكة؛ وكيف ذلك؟

لأنَّه إذا كان زانيًا حَرُمَ على العفيفة أن تتزوَّج به، فإذا تزوَّجَت؛ فإمَّا أن تكون عالمةً بالحُكم، راضيةً به، ولكنَّها عصَت، فتكون زانية؛ لأنَّها أباحَت فرجَها بغيرِ عقدٍ صحيحٍ.

وإما أن تكون غير راضيةٍ بالحُكم؛ بل اختارَت حكمًا غير حُكم الله، فتكون مُشرِكة، هذا هو توجيه الآية، وهو توجيهٌ واضحٌ.

وكذلك الأخرى قال: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾: فالزانية لا يجوز أن تتزوَّج حتى تتوب، فإن تزوَّجها شخصٌ وهو راضٍ بحُكم الله، وعالمٌ أنَّه حرامٌ؛ فهو زانٍ.

وإن تزوَّجها غير راضٍ بحُكم الله؛ فهو مُشرِك.

وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الزاني أو نكاح الزانية ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، والذي حرَّمه هو الله عزَّ وجلَّ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤، ٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ يعني: من الرجال.

وقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ هذا حكم، والحكم الثاني: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، والحكم الثالث: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الاستثناء هنا يعود إلى الجملة الأخيرة بالإجماع، ولا يعود إلى الجملة الأولى بالإجماع.

فما هي الجملة الأولى؟ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

واختلفوا هل يعود إلى الجملة الثانية أو لا، على قولَين:

فمنهم مَن قال: إنَّ القاذِف لا تُقبَلُ شهادتُه أبدًا ولو تاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾، فيكون مردود الشهادة، ولو تاب.

ومنهم مَن قال: إنَّه إذا تابَ قُبِلَتْ شهادتُه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يُفيدُ أنَّه بالتوبة يسقُطُ عنهم الإثم؛ لأنَّ ختمَ الآية بالمغفرة والرحمة يدلُّ على: أنَّ هؤلاء قد غُفِر لهم ورُحِموا.

ونستفيدُ منها: أنَّ الآية إذا خُتِمَت بمِثْلِ هذا؛ فإنَّها تقتضي العهد، ومن ذلك قوله تعالى في الذين يسْعَونَ في الأرض فسادًا: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، فنأخُذ من هذا: أنَّ مَن تابَ من قَطْعِ الطريق قبل القُدرة عليه، فإنَّه يُغفَر له.

والاستنباطُ من ختام الآيات يعرفُه الفُصَحاء، وإن كانوا ليسوا بطلبة علم، كما ذكَر السيوطي في «الإتقان» عن رجلٍ قرأ قول الله تعالى: ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسَبَا نكالًا من الله والله غفورٌ رحيمٌ﴾، فقال له أعرابيٌّ حولَه: أعِدِ الآية، فأعادَها وقال: ﴿نكالًا من الله والله غفورٌ رحيمٌ﴾، قال: أعِدْها، فأعادَها مرَّتَين أو ثلاثًا، ثم قال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال: الآن، عزَّ وحَكَمَ فقَطع، ولو غفر ورَحِمَ ما قَطع[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ أي: أن يشهد أحدهم أربع شهادات، وخبر المبتدأ الذي

(1) نظرًا لتعذر سماع المادة العلمية الخاصة بتفسير هذه الآيات [٢-٥] قمنا بنقل تفسيرها من شرح صحيح البخاري لابن عثيمين الجزء السابع ط. مكتبة الطبري (ص ٢٠٦-٢٠٧)، (٢٣٤، ٢٣٥).

هو (شهادته) محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [تدفع عنه حد القذف]، أي: يدفع عنه حد القذف.

إذن (شهادة) مبتدأ، و(أربع) نائب مناب المصدر، وعامله شهادة. والخبر محذوف تقديره يدفع عنه حد القذف، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ لم يذكر القراءة الثانية وهي قراءة الرفع (وشهادةٌ أحدهم أربع شهادات بالله)، وعلى قراءة الرفع نقول: (شهادة) مبتدأ، وخبره ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾.

وقوله: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ بالله يعني: لابد أن يقول: أشهد بالله، متعلقة بالشهادات، ما يكفي أن يقول: أشهد أن امرأته كذا وكذا بل لابد أن يقول: أشهد بالله لتتضمن الشهادة شهادةً وقَسَمًا، ولهذا أُجيبت بجواب القسم، وجواب القسم هو: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

إذنْ لابد أن يشهد شهادة بالله لتكون شهادة مقرونة بالقسم، والدليل على هذا: أنه أُجيب بما يجاب به القسم وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فهذه الجملة الخبرية مؤكَّدة بالشهادة، والقسم، وإنَّ، واللام، وهذه أربع مُؤكِّدات، وتُكرَّر أربع مرات فيزيد تأكيدٌ من وراء تأكيد، فإخباره عن زوجته بأنها زنت مُؤَكَّد بهذه الأربعة.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الصادق: هو المُخْبِرُ بما يطابق الواقع.

وقوله: [فيما رمى به زوجته من الزنا] يعني: لابد أن يقول هذا أو معناه، إما أن يقول: فيما رميتُها به من الزنا، أو فيما قذفتها به من الزنا، أو ما أبدى هذا المعنى، المهم: لا يكفي أن يقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين؛ والسبب لأنه قد ينوى به الصادقين في غير هذه القضية، وظاهر القرآن الكريم أنه يُجزئ؛ لأن الله ما قال: (فيما رميتها به من الزنا لمن الصادقين)، ويكون هذا - وإنه لمن الصادقين في قول آخر - ما ينفعه هنا؛ لأنه كما جاء في الحديث: «**يَمِينُكَ عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ**»(١). فأنت وإن نويت خلاف ذلك فأنت إنما استُشْهِدتَ على ما رميتها به من الزنا، فسواء ذكرته أم لم تذكره لا يختلف الحكم.

ولهذا القرآن لم يقيده بذلك بناءً على أن المقام يعينه، وأن نيته خلاف ذلك لا تنفعه؛ لأن اليمين عَلَى مَا يُصَدِّقُكَ بِهِ صَاحِبُكَ يعني: خصمك.

لكن لو أنه قال ذلك، أو هي طلبت ذلك مثلًا، أو الحاكم طلب منه ذلك، فإنه أولى؛ لأجل أن يطمئن الإنسان أكثر، يعني لو طلب القاضي منه ذلك لأن القاضي مثلًا خاف أنه يتأول وإن كان تأوله لا ينفعه فإنه إذا أمره يُجيبه على هذا الشيء.

مسألة: لو قال: أشهد بالله إني لصادق هل يجزئ، أو لابد أن يقول: لمن الصادقين؟

الجواب: الفقهاء يقولون: لابد أن يقول باللفظ، وفي نفسي من ذلك شيء؛ لأن هذه ليست ألفاظ ذِكْر يتعبد الإنسان بها إنما هي ألفاظ يحصل بها إثبات ما شَهِدَ به، ولا شك أن الأولى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٥٣)، والترمذي (١٣٥٤)، وأبو داود (٣٢٥٥)، وابن ماجه (٢١٢٠).

والأحرى والأبرأ أن يقول ذلك بلفظ القرآن؛ لكن لو قال: إني لصادق فالظاهر أنه يُجزئ، لأن المقصود بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إثبات الصدق أو الشهادة بالله على صدقه.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ أي: يدفع عنها العذاب، فالرجل إذا قذف زوجته بالزنا وأتى بشهود أربعة يشهدون بأن هذه المرأة زنت ورأوا ذَكَرَ الزاني في فرجها، لا يحتاج إلى لعان؛ لأن الله إنما ذكر هذا فيمن لم يكن له شاهد إلا نفسه.

ثانيًا: إذا شهد على ما رماها به أربع شهادات وأقرَّت بذلك انتهى الأمر أيضًا، وأقيم عليها الحد، وإذا لم تُقِر بذلك فإنها حينئذٍ تُلاعِن.

وقوله: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الخامسة: مبتدأ، و﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾: خبره في تأويل مصدر، وقوله: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ اللعنة: هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وقوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذا شرطٌ في الدعاء على نفسه باللعنة، يعني: إن كان كاذبًا فلعنة الله عليه يعني: وإن كان صادقًا فلا لعنة، وقوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما رمى به زوجته من الزنا فإنه مستحق للعنة الله التي هي الطرد والإبعاد.

ومناسبة ذكر اللعنة هنا في مقابل كذبه؛ لأنه في الحقيقة يتضمن كلامه إبعاد زوجته واتهامها بما هي بريئة منه، فلذلك جاء بذكر اللعنة بخلاف المرأة فإنها تأتي بأمر آخر كما سيذكر ـ إن شاء الله ـ.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يدفع عنها العذاب أي: حد الزنا الذي ثبت بشهادته، نحن قلنا: إذا رمى الرجل زوجته بالزنا فلا يخلو من ثلاث حالات: إما أن يقيم بيِّنة فهنا يقام عليها الحدُّ بالبيِّنة، وإما أن تُقر فيقام عليها الحد بالإقرار، وإما أن تُنكِر، وفي حال إنكارها يُطلب اللعان فإذا شهد الرجل أربع شهادات بالله أقيم عليها الحد، لكن لها أن تدفع هذا الحد بشهادات تنقض شهادة الرجل.

إذن العذاب في قوله: ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ المراد به: حد الزنا.

وأما قول فقهائنا ـ رحمهم الله ـ: إن المراد بالعذاب: الحبس، فهذا قول ضعيف جدًّا؛ لأنه لا ذكر للحبس في الآية، بل إن الآية صريحة في أن الذي يندفع هو العذاب، والعذاب هو: حد القذف، بدليل قوله فيما سبق: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذن يتعين أن المراد بالعذاب هو حد الزنا.

أما قول الفقهاء ـ رحمهم الله ـ: إن العذاب الحبس حتى تقرَّ أو تلاعن، فهذا قول لا دليل عليه وهو ضعيف جدًّا.

إذن إذا أنكرت المرأة، فنقول للرجل: اشهد على ما قلت أربع شهادات بالله إنك لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليك إن كان من الكاذبين، فإذا شهد ثبت عليها حد الزنا: الرجم إن كانت محصنة، والجلد مع التغريب إن كانت غير محصنة.

مسألة: فإن قال قائل: لا يمكن أن تكون غير محصنة؛ لأن هذا زوج يتهم زوجته.

الجواب: لكن يمكن أن يعقد عليها ولا يجامعها فتكون غير محصنة.

ولها بعد أن ثبت الحد عليها بشهادة الزوج أن تُسقِطَ الحدَّ، بشهادات تقابل شهادات الزوج؛ لهذا يقول الله -عز وجل-: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ أي: شهادتها ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، مقابل قوله: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ يعني: وتشهد الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في ذلك، في مقابل أن لعنة الله عليه ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لكن لماذا اختير لها الغضب دون اللعنة؟

فالغضب أشد من اللعنة، الغضب - والعياذ بالله - يلزم منه اللعنة وزيادة، بخلاف اللعنة فهي طرد وإبعاد عن الرحمة لكن هذا طرد وإبعاد مع غضب، فهو أشد، وإنما اختير لها ذلك لسببين:

السبب الأول: أن رمي الزوج إياها بالزنا أقرب إلى الصدق من إنكارها؛ لأنه يبعد أن الزوج يرمي زوجته بالزنا - بعيد جدًّا - إلا إذا تيقن ذلك، لكن إنكارها هي أمر مُتَوَقَّع؛ لأنها تدرأ عن نفسها عار الفاحشة، وكذلك عن أهلها مثلما قالت المرأة: «لا أفضح قومي سائر اليوم».

فعلى كل حال نقول: الغضب أشد من اللعنة واختير للمرأة؛ لأن رمي الزوج إياها بالزنا أقرب إلى الصدق والواقع من إنكارها، فكان إنكارُها أعظم؛ لذلك رُتِّب عليه إن كان صادقًا أن يغضب الله عليها.

السبب الثاني: أنها تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإذا كان من الصادقين فقد أنكرته هي وحادت عن الحق مع علمها به، إذا قالت: ﴿غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وصار صادقًا صار معناه أنها خالفت الحق مع علمها به؛ لأن الفرض أنه صادق ولو صار صادقًا وهي تنكر والفعل مفعول مخفي، وهي تقول: لا، ما هو صحيح، وهو صادق في أنه صحيح فما الذي يناسبها؟ صارت عالمة الحق فأنكرته، ومَنْ علِمَ الحق ورده فجزاؤه أشد، جزاؤه الغضب، ولهذا في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْ هم المغضوب عليهم؟ الذين علموا الحق فأنكروه مثل اليهود، والضالون: الذين لم يقولوا بالحق لجهلهم به.

مسألة: فإن قال قائل: ألا يطلقها؟

الجواب: لكن هو لا يطلقها لو كان يريد الطلاق ما احتاج إلى أن يرميها بل طلقها وانتهى الأمر. أصلًا ما يمكن يقدم الإنسان على رمي زوجته بالزنا لمجرد تهمة أبدًا، إلا شيء رآه لا يمكن أن يصبر عليه؛ لأن هذا عار عليه، ولهذا - كما سيأتينا إن شاء الله في حديث الإفك - ما يمكن للإنسان العفيف أن يبتليه الله بامرأة تزني ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور:

٢٦] ولهذا هو نفسه يجد من العار أن يُشْهر عند الناس أن امرأته زانية، لكن هي تجد من نفسها أن من العار أن تُقِرَّ على نفسها بالزنا فهي تحاول أن تنكر.

مسألة: فإن كان هناك ولد من هذا الزنا ؟

الجواب: إذا حصل هذا الشيء منها يجب عليه أن يستبرئها بحيضة فإن قُدِّرَ الحمل والولد ـ يعني لما استبرأها ما حاضت حملت ـ فالولد له؛ لأن النبي ﷺ يقول: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»(١) حتى لو فرضنا أنه حصل تقدير له من هذا الزاني فهو ولد الرجل؛ لأن الولد للفراش. إلا إذا لاعن على هذا الولد انتهى الموضوع.

واللعان لنفي الولد فيه خلاف، المذهب: ما يجوز أن يلاعن لنفي الولد، لابد أن يقذفها أولًا بالزنا ثم يلاعن وينفي الولد، والصحيح: أنه يجوز أن يلاعن لنفي الولد فقط، كأن يقول: ما أقول زنت لكن هذا الولد ليس مني وألاعن على ذلك، ويقول في اللعان: أشهد بالله ـ ويشهد أربع مرات ـ أنه لمن الصادقين في أن الولد ليس له، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

مسألة: فإن قال قائل: كيف ينفي الولد ولا يقذفها بالزنا ؟

الجواب: قد تكون مكرهة ما زنت، أو مشتبه فيها مثلًا؛ لأن مسألة أنها تزني صعبة، ولهذا أوجب الله فيها الحد، وهذا الرجل لو نفى ولده ما وجب عليه الحد، لا هي ولا هو، لا هي أن نقول هذا الولد يكون زنا، ولا هو أيضًا نقول هذا العمل يكون قذفًا، نعم لو فرضنا على القول الصحيح أنه إذا حملت وليس لها زوج فإنها تُحَدّ إلا إذا ادعت شبهة، لكن لو أن لها زوجًا لا يمكن أن نؤذيها، يحتمل أن يكون من زوجها.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

قال المؤلف: [﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالستر في ذلك، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ بقبوله التوبة في ذلك وغيره، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به في ذلك وغيره لبين الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها].

قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾ هذه شرطية، ويسمونها حرف امتناع لوجود، يعني: أنها منعت شيئًا لوجود شيء، هنا ننظر ما هو الذي امتنع لوجود شيء؟ الذي امتنع هو الجواب المحذوف جواب (لولا) المحذوف وهو ما قدره المؤلف بقوله: [لبين الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها] هذا هو الذي امتنع لوجود فضل الله ورحمته.

فالحاصل أن الذي منع جواب (لولا) في هذه الآية هو فضل الله ورحمته، وأما ﴿فَضْلُ﴾ فهو مبتدأ وخبره محذوف؛ لأن (لولا) يُحذف بعدها الخبر وجوبًا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبَعْدُ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ حَتْمٌ ....

يعني لازم.

فهنا (لولا) إذنْ تحتاج إلى جواب، وجوابها مقدر، وتحتاج إلى خبر للمبتدأ وهو محذوف أيضًا، ويحذف وجوبًا بعد (لولا) غالبًا كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الفضل من آثار الرحمة في الحقيقة؛ لكن الرحمة تكون فيما يضطر إليه العبد وزيادة، وتكون في الزيادة أيضًا، والفضل في الزيادة فقط فيكون عطف الرحمة هنا على الفضل من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الفضل من آثار الرحمة لكنه أخص منها حيث إنه زائد على ما يحتاج إليه العبد ويُضطر إليه، وأما الرحمة فتكون فيما يحتاج إليه العبد وفيما زاد على ذلك.

وقول المؤلف: [بالستر في ذلك] هذا بناءً على خصوص الآية للمتلاعنين، والصواب أن الآية عامة - يعني: لولا فضل الله ورحمته عليكم في هذا وغيره ليس في الستر وحده لحصل لكم ما لم يحصل لكم الآن، فالصواب إبقاء الآية على عمومها؛ وأنه لولا هذا الفضل والرحمة من الله ما حصل لنا الذي حصل من هذا التيسير وهذا التشريع الحكيم.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ معطوف على فضل، يعني: ولولا أيضًا أن الله ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿تَوَّابٌ﴾: سبق لنا أن التواب: كثير التوبة وأن توبة الله على عباده تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: التوفيق للتوبة، والثاني: قبول التوبة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨] وتطلق التوبة من العبد إلى الله، وهي من العبد إلى الله بمعنى الرجوع من معصيته إلى طاعته، فالعبد توَّاب والله توَّاب، لكن فرقٌ بين تواب التي يوصف بها الله، وتواب التي يوصف بها العبد، فتواب التي يوصف بها الله معناها: المُوَفِّق للتوبة القابل لها، وتواب التي يوصف بها العبد: معناها الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ سبق لنا أنها مشتقة من الحُكْمِ والحِكْمَة فتكون بمعنى: حَاكِم وبمعنى مُحْكِم، والحكم لله سبحانه وتعالى ينقسم إلى: كوني، وشرعي.

والحكمة تكون في الحكم الكوني، وتكون كذلك في الحكم الشرعي، فمحل الحكمة الحُكْمَان - يعني: الحكم الكوني، والحكم الشرعي.

والحكمة أيضًا - كما سبق - تكون حكمة في الإيجاد، وحكمة في الصورة، وحكمة في الغاية، يعني حكمة الله ليست هي غايات الأمور، لكن في الإيجاد وفي الصورة وفي الغاية.

يعني: أن الله لا يوجد شيئًا إلا لحكمة، ثم إيجاده على صورة معينة حكمة أخرى، ثم الغاية من هذا الإيجاد حكمة ثالثة، إذنْ فحكمة الله سبحانه وتعالى تتعلق بالإيجاد وبالصورة والغاية.

فمثلًا: إيجاد الشمس هذا لحكمة، وهو حكمة إيجاده، كونها على هذه الصورة المعينة، وبهذه الحرارة وبهذه المسافة عن الأرض وبهذا السير المعين هذه اسمها حكمة في الصورة، والغاية منها هي مصالح الخلق وهذه أيضًا حكمة.

إيجاد الإنسان حكمة، وكونه على هذه الوجه من الصورة حكمة، والغاية من إيجاده حكمة، وهكذا في الأمور الكونية والشرعية؛ فإن تشريع الشرائع حكمة، وكونها على هذا الوجه المعين حكمة، والغاية منها ـ وهو إصلاح الخلق ـ حكمة أيضًا.

فالحاصل إذن: أن حكمة الله سبحانه وتعالى تكون في الإيجاد والصورة والغاية.

والحكيم قلنا إن معناها: حاكم ومحكم أي متقن، أي ذو حكمة، فالمحكم أي ذو الحكمة، والحكمة ـ كما ذكرنا ـ تكون في الشرع وفي القدر؛ لأنها تكون في الحكمين، وتكون في الإيجاد، والصورة، والغاية.

جواب (لولا) في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ يقول المعلق رَحِمَهُ اللهُ : [لبيّن الحق في ذلك وعاجل بالعقوبة من يستحقها].

لكن المؤلف قَصَرَ هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ على قصة المتلاعنين، يعني: لو لا أن الله تفضل علينا ورحمنا؛ لبين الحق في ذلك، أي بين كذب الزوج إن كان كاذبًا وكذب المرأة إن كانت هي الكاذبة، وعاجل بالعقوبة من يستحقها من أحدهما؛ لأن أحدهما كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لما تلاعنا قال: «اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا أَحَدٌ تَائِبٌ؟»[1] يعني: يُعرِّض لهما بالتوبة، ويَعْرِض عليهما التوبة فهل أحد يتوب؟!

فالمعلِّق رَحِمَهُ اللهُ يرى أن هذه الآية خاصة بقصة المتلاعنين، والصواب: أنها عامة فيها وفي غيرها؛ لأن الله لم يقيدها قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما قال في ذلك. ثم العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إذن يكون الجواب المقدر غير ما قدره المفسر، نقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ما حصل لكم هذه المصالح وانتفت عنكم تلك المفاسد؛ لأن هذا عام أعم مما قاله المؤلف.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآيات**: الحكمة في تشريع الله؛ لأن هذه الآية مستثناة في الحكم من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٠٧)، والترمذي (٣١٧٩)، وأبو داود (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٢٠٦٧).

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

لو هذه الآية بقيت على ما هي عليه لوجب أن يجلد الزوج، الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ في هذا الحكمة في التشريع حيث خصَّ الأزواج بهذا الحكم من حكم الذين يرمون المحصنات، هذا النوع من التخصيص منفصل، فهذه الآية خصصت عموم قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾؛ لأنه لو بقيت الآية تلك على عمومها، لكان الزوج إذا قذف زوجته يثبت له الأحكام الثلاثة السابقة، لكن الزوج انفرد عن غيره بهذا الحكم، فإذنْ هذه الآية أو تخصيص الأزواج من عموم قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ هذا خُصص بمخصِّص منفصل؛ لأنه نص مستقل.

ما هي الحكمة من تخصيص الأزواج بهذا الحكم دون غيرهم من القذفة؟

الحكمة هي أن الزوج لا يمكن أن يقذف زوجته بالزنا إلَّا والأمر كما قال؛ لأن زنا زوجته عار عليه؛ لأنها هي حرثه، فإذا قذفها بالزنا أصبح الأمر شديدًا وعظيمًا، إذ أ ن هذا يوجب التشكك في أولاده عند الناس، ويوجب العار عليه حيث يقال: هذا الرجل ديوث كان يقر الفاحشة في أهله؛ لأن النفوس قد تقول: هذه ليست أول مرة!! وما أشبه ذلك، إذ إن الزنا عادة لا يأتي علنًا بل يأتي سرًّا، والسر لا يظهر في أول مرة، فلهذا لما كان زنا الزوجة عارًا على الزوج، صار لا يمكن أن يقذف زوجته بالزنا إلا والأمر كما ذكر، ولهذا خُصَّ من بين سائر القاذفين بهذا الحكم؛ لأن قذفه يعتبر شهادة.

٢ - **ومن الفوائد:** أنه لا يصح اللعان إذا قذف أجنبية ثم تزوجها، يعني: لو قذف امرأة أجنبية ثم تزوجها فلا لعان، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فلو قذف امرأة أجنبية ثم تزوجها فلا لعان بينهما وإنما يُحد للقذف.

٣ - **ومن فوائدها:** عموم الآية ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ يشمل ما قبل الدخول وما بعد الدخول، فلو عقد على امرأة ثم رماها بالزنا أُجري بينهما اللعان، لأنها زوجته.

٤ - **وفيها أيضًا:** أن رمي غير الزوجة ولو الأم أو البنت أو الأخت ممن يلحقهم عاره ليس كقذف الزوجة، بمعنى أن الرجل لو قذف أقرب الناس إليه بالزنا طُبِّق عليه أحكام القاذفين الثلاثة السابقة بخلاف الزوج، ووجه ذلك ما سبق من الإشارة إلى الحكمة.

٥ - **ومن الفوائد أيضًا:** أن البدل يُجعل له حكم المبدل منه، فلما كانت البينة على الزنا أربعة شهود، وكان الزوج إذا قذف زوجته بالزنا يعتبر شاهدًا، والتعدد الشخصي في حقه ممتنع، جُعِل التعدد في نفس الشهادة، ويكون هذا تقريرًا للقاعدة المشهورة والمعروفة: (**أن البدل له حكم المبدل منه**)، فلما كانت شهادة الزوج على زوجته بالزنا بمنزلة شهادة رجل، صار تكرارها بمنزلة تكرار الرجال وتعدد الشهود.

٦ - **وفيها أيضًا من الفوائد:** تعظيم هذا الأمر بحيث لا يكتفي فيه بالشهادة المجردة، بل لابد من شهادة مقرونة بيمين، فيقول: أشهد بالله.

٧ - **وفيها أيضًا:** وجوب قرن هذه الشهادة المعقدة باليمين في الخامسة باللعنة بالنسبة للزوج، وبالغضب بالنسبة للزوجة.

٨ - **ومن الفوائد أيضًا:** أنه يجب أن يبدأ الزوج باللعان؛ والدليل: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾ ولا يتم العذاب عليها إلا إذا شهد الزوج، هذا من جهة الدليل.

ومن جهة النظر: أن الزوج مُدَّعٍ في الحقيقة والذي يُبْدَأُ به هو المُدَّعِي، وهو الذي يُطلب منه إثبات الدعوى، هو الذي يقال له: هات بينة، فإذا لم يوجد بينة رجعنا إلى المنكر أي إلى الـمُدَّعَى عليه.

فعلى كلِ حال فيه من الفوائد أنه يجب البداءة بشهادات الزوج، والدليل من الآية أنه قال: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ولا يتم العذاب إلا بشهادات الزوج، هذا من جهة الدليل، ومن جهة النظر: أن الزوج بمنزلة المدعي، والـمُدَّعِي يُطلب منه أولًا إثبات ما ادعاه.

٩ - **ومن فوائدها:** أنه لابد أن نؤكد الشهادة بـ (إن)، و(اللام) مع اليمين السابقة لقوله: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلو قال: أشهد بالله بأني صادق فإنه لا يكفي، لابد أن يأتي باللام؛ لأن اللام تفيد زيادة تأكيد وتقوية، فلابد من الإتيان بها.

وفيه دليل على جواز الدعاء معلقًا بالشرط، يؤخذ من قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهي تقول: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقد جاء مثله أو قريب منه في الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ... إلخ**»(١)، وكما جاء الشرط مفيدًا في دعاء الخالق جاء مفيدًا أيضًا في الشرع - يعني في الأحكام الشرعية - مثل ما قال النبي ﷺ لضباعة بنت الزبير لما قالت: يا رسول الله إني أريد أن أَحُجَّ وأجدني شاكية قال: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي، فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ**»(٢).

فكما يجوز الشرط في دعاء المسألة، يجوز الشرط أيضًا في دعاء العبادة، كما في حديث ضباعة بنت الزبير، وهذا يشهد لرؤية رآها شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنه رأى النبي ﷺ، وكان يُشْكِلُ عليه جنائز تقدم عليه، ويشكل عليه أنهم مسلمون، فرأى النبي ﷺ ذات ليلة: فسأله عن أشياء من جملتها: عن الرجل يُقَدَّم إلى الإمام ليصلي عليه وهو يشك في إسلامه، فقال له النبي ﷺ: (عليك بالشرط يا أحمد)، ومعنى الشرط مثل: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه؛ لأن هذا حقيقة أحيانًا يشك الإنسان في إسلام الجنازة المقدمة، فيقول: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٨٢)، والترمذي (٤٨٠)، وأبو داود (١٥٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

له وارحمه، وهذا جائز وشاهده هذه الآية وحديث الاستخارة هذا في دعاء المسألة، وفي دعاء العبادة حديث ضُبَاعَة بنت الزُّبير: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي، فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ».

١٠- وفيه دليل على: ثبوت الحد على المرأة بلعان الزوج، إلا إذا أنكرت ولاعنت، يؤخذ من قوله: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ والعذاب هو الحد، والدليل على أن العذاب هو الحد قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما من فسَّر العذاب بالحبس، بأنها تحبس حتى تُقر أو تلاعن فهذا قول لا دليل عليه، ولا معول عليه.

إذن يثبت الحد على المرأة بلعان الزوج كما تدل عليه الآية، وكذا يثبت بالبينة إذا أتى بها وهذا مفهوم من الآية السابقة ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، ويثبت بأمر ثالث وهو إقرار المرأة إذا أقرت.

إذا أنكرت المرأة وقالت: أبدًا هو كاذب حينئذ نقول: لاعني، أجيبيه على شهاداته فإذا أجابته على شهاداته سقط عنها العذاب، وإن لم تُجبه أُقِيم عليها الحد.

في هذا أيضًا دليل على الحكمة في اللعان، حيث خص الرجل باللعنة ـ بالدعاء على نفسه باللعنة ـ، والمرأة بالدعاء على نفسها بالغضب، وهذا سبقت الإشارة إليه.

يعني كون الزوج يلعن نفسه إن كذب كأن في اتهامه إياها بالزنا إبعادًا لها عن العفة وعن نفسه وأولاده، فناسب أن يدعو على نفسه باللعن الذي هو الطرد والإبعاد، وبالنسبة لها؛ لأنه إن كان صادقًا قد علمت الحق وأنكرته وهذا عقوبته الغضب فكل من علم الحق ورده فعقوبته الغضب.

الثاني: أن الزوج مظنة دعواه الصدق؛ لأن هذا يلحق به العار وهي أقرب للكذب؛ لأنها تريد أن تدفع عن نفسها وعن أهلها العار. فلذلك خصت بالغضب.

إذنْ يؤخذ من هذا الحكمة في المغايرة بين الزوج والزوجة فيما يدعو أحدهما به على نفسه فالمرأة بالغضب، والزوج باللعنة.

لو أنه عكس وقال الزوج: غضب الله عليه، والزوجة: لعنة الله عليها، فلا يصلح، حتى قال العلماء: لو أبدل الغضب بالسَّخَط أو أبدل اللعنة بالطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإنه لا يصح اتباعًا للفظ، وهذا في الحقيقة محل نظر؛ لأن السخط قد يكون بينه وبين الغضب فرق، لكن الطرد والإبعاد عن رحمة الله هو معنى اللعنة، إلا أنه مع ذلك نقول: إنه لا ينبغي العدول عما جاء به القرآن.

١١- وفيها أيضًا: بيان فضل الله ورحمته على عباده بالشرع والقَدَر لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فإنَّ هذا يتعلق بالشرع وبالقَدَر.

أما بالشرع: فلولا الله تفضل علينا ورحمنا وشرع للأزواج ما شرع من اللعان، لكان الزوج يقع في حرج عظيم؛ لأنه إن تكلم يقام عليه حد القذف، وإن سكت سكت على أمر عظيم، لكن من رحمة الله أن الله شرع اللعان، وهذا فضل ورحمة في الشرع.

كذلك في القدر: بالنسبة لقضية المتلاعنين ـ وهو ما أشار إليه المؤلف ـ: أنه لولا أن الله سبحانه

وتعالى يحب الستر لفضح المرأة، وأظهر آية تدل على صدق الزوج أو بالعكس إذا كان الزوج كاذبًا لكن من رحمة الله - أن الله سبحانه تعالى - يستر على عباده في الدنيا مثل هذه الأمور، ثم يجازيهم عليها في الآخرة.

مسألة: في هذه الآية ما ذكر حكم قذف الرجل لو عَيَّنَه الزوج لو قال: زنا بها فلان، فهل يُحَدُّ لقذف فلان لأنه ليس زوجه - طبعًا - أو نقول من اللعان لأن الزنا هنا واحد، والله تعالى جعل شهادات الزوج بمنزلة إقامة البينة لكن بالنسبة للزوجة لا بالنسبة لمن قذفها به، وفي السنة من قذفها به يسلم من الحد ولا يصل له حق في إقامة حد القذف على الزوجة، أو نقول: هذا القذف يوجب اللِّعان بالنسبة للزوجة ويوجب الحد بالنسبة للأجنبي؟

الجواب: في الحديث أن هلال بن أُمَيَّة قذف امرأته بشريك بن سحماء[1] فعيَّن الرجل الذي زنا بها، ولم يَحُدُّه النبي ﷺ حَد القذف، ولهذا الصحيح من أقوال أهل العلم: أنه لا يُحد بقذف الرجل ولو عينه، لكن لا ينبغي مثل هذا؛ لأجل ألَّا يدنس عرضه، فالأولى أن يقول: إنها زنت ولا يعَيِّن، لكن لو عَيَّن فإنَّ السنة تدل على أنه لا يُحَدُّ للرجل، السبب في ذلك هو أن الأصل هنا هل المقصود قذف الزوج للرجل الأجنبي أم الزوجة؟ الزوجة، وما عَيَّن الرجل إلا لزيادة إثبات قذف الزوجة يعني: ما قال فلان زنى بامرأتي وأراد أن يدنس الرجل هذا، هو في الحقيقة المسألة للتخلص من زوجته، فهذه - والله أعلم - الحكمة في أنه لن يُحد، لكن مَنْ راعى المعنى كانت الآية السابقة تدل على أن الرمي بالزنا يوجب الحد، وهذه الآية تدل على أن رمي المرأة بالزنا يوجب اللِّعان، فتبقى الآية هناك بالنسبة للأجنبي على عمومها وهذه بالنسبة للزوجة على خصوصها.

لكن السنة في الحقيقة هي الفاصلة، والنبي ﷺ ما حَدَّ الرجل الذي قذف امرأته بشريك بن سحماء، لكن الذين يقولون يُحد يجيبون عن هذا يقولون: من قال إن شريك بن سحماء لم يطالب بحقه وحد القذف لا يجب إلا بالمطالبة.

لكننا نقول ردًّا على هذا: مسألة كون الحد بالقذف لا يجب إلا بالمطالبة محل نظر، لأن عموم الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ لا تُقَيِّد ذلك بالمطالبة، وكون هذا حقًّا خاصًّا للمقذوف محل نظر وغير مُسَلَّم به؛ لأن تدنيس أعراض المسلمين ليس حقًّا شخصيًّا في الواقع، يتعلق بعموم المسلم على إسلامه، وإنما يتعلق بعموم المجتمع الإسلامي وإفساد له، ولهذا أنا أميل إلى أن حدَّ القذف يجب وإن لم يُطالِب به المقذوف، المهم أن يثبت حتى لو أن المقذوف لا يريد أن يدافع عن عرضه وسكت، نقول: إن المسلمين هم الذين يدافعون عن عرضه ويقام الحد عليه.

١٢- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب والموانع من قوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ لأن هذه الآية فيها مانع وفيها سبب، فالسبب الذنوب وما يترتب عليها من الأخطاء، والمانع الذي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٧١)، والترمذي (٣١٧٦)، وأبو داود (٢٢٥٥).

يمنع من العقوبة هو فضل الله ورحمته.

١٣- **ومن فوائدها:** إثبات (التَّوَّاب) اسمًا من أسماء الله لقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وإثبات (الحكيم) اسمًا من أسمائه تعالى، والحكيم - كما أشرنا إليه أولًا - يتضمن معنى الحكم والحكمة، والحكم: كوني وشرعي، والحكمة: في الإيجاد والصورة، والغاية، وهذه الأشياء الثلاثة في الحكمة في الحكم القدري والحكم الشرعي.

مسألة: هل ينتفي الولد عن الزوج باللعان أم لا ينتفي؟

الجواب: إن نفاه في لعانه انتفى وإلا فهو ولده.

إذن لابد أن يُصَرح بنفيه، وإلا فهو ولده؛ لأن «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» كما قال النبي ﷺ: «وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»[1]، فإذا سكت عن الولد فهو ولده وإن نفاه انتفى.

فإن نفاه؛ فليس له أبٌ شرعًا، أما قدرًا فله أب، ويُنْسب إلى أمه، وترثه أمه ميراث أم وأب، ينبني على ذلك صورة: لو مات هذا الولد عن أمه التي ولدته وعن إخوته لأمه، كيف يكون الميراث؟

إذا قلنا: إن الأم أم وأب حجبتهم الأم، وصار الميراث لها وليس لإخوته شيء، يصير لها السدس على أنها أم، والباقي لها تعصيبًا على أنها أبٌ، وهذا هو الصحيح لحديث: «تَحُوزُ المَرْأَةُ ثَلَاثَةَ مَوَارِيثَ: شَقِيقَهَا، وَعَتِيقَهَا، وَوَلَدَهَا الذِي لَاعَنَتْ عَلَيهِ»[2]، في المذهب يقولون: إنها ترثُه ميراث أم فقط ويكون العاصب له عصبة أمه، وعلى هذا فيكون للأم هنا السدس، والباقي لإخوته من أمه؛ لأنهم هم عصبة الأم أبناؤها فيكون الباقي لهم.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]

التفسير

قال المؤلف: [﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعة من المؤمنين قالت: حسان بن ثابت، وعبد الله بن أُبي، ومسطح، وحمنة بنت جحش].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٠)، والترمذي (٢١١٥)، وأبو داود (٢٩٠٦)، وابن ماجه (٢٧٤٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٥٧٦).

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ و(أل) هنا للعهد الذهني، يعني: الذي هو معلوم عندهم ومفهوم.

وقوله: ﴿بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: [أسوأ الكذب] كما قال المؤلف، ونَعَم هذا أسوأ كذبٍ يكون مثل هذا الكذب الذي جاء به هؤلاء، لما يتضمنه من القدح في أمهات المؤمنين وبالتالي في النبي ﷺ كما يتبين من الآيات في سياقها.

وقوله: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: جماعة، وقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ الخطاب للمؤمنين، وكونه من المؤمنين يدل على أنهم لم يخرجوا عن الإيمان بهذا القذف؛ لأنه صدر قبل أن يتبين الحكم في هذا، وإلا فمن قذف واحدةً من أزواج النبي ﷺ عائشة أو غيرها، فهو كافر مرتد يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِل، وَعَدُّ المؤلف عبد الله بن أُبي من هؤلاء العصبة على أساس أن عبد الله بن أُبَيّ كان يتظاهر بالإسلام ولكنه في الحقيقة منافق، ثم إن عبد الله بن أُبَيّ ليس يُصرح في هذا بالقذف، وإنما هو خبيث يجمعه ويُشيعه بين الناس بلفظ ليس فيه تصريح، ومع هذا هو الذي تولى كبره - كما سيأتي -.

إنما نقول الخطاب في قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ للمؤمنين، ولا شك أن مثل حسان بن ثابت رضي الله عنه ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش لا شك أن مثل هؤلاء مؤمنون، وأنهم لم يخرجوا من الإيمان بما فعلوا؛ لأنه قبل تَبَيُّن الحكم، لكن الذي يُشكل عليه أن يُعدَّ منهم عبد الله بن أُبَيّ، وإيضاح هذا الإشكال بأن يقال: إن عبد الله بن أُبَيّ يتظاهر بأنه مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:١٤] وهو في الحقيقة من المنافقين، فعدُّه منهم باعتبار الظاهر لا باعتبار الحقيقة والواقع.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ أي: لا تظنوه أيها المؤمنون غير العصبة ﴿شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

أولًا: الله تعالى يقول: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ﴾ فنهى أن نظن بأن هذا الإفك شر لنا قبل أن يُثبت أنه خير لماذا؟ لأنه لا شك أنه حين وقع هذا الإفك أن المؤمنين أصابهم ما أصابهم من الأذى وظنوا أن ذلك شرّ، فأراد الله تعالى أن ينتزع هذا الظن من نفوسهم قبل أن يبين حكمه قال: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾، لأن هذا أول ما ينبغي معالجته بالنسبة إلى هذا الإفك فهو انتزاع ما يظنه بعض المؤمنين أن هذا الإفك شرٌّ، ثم بعد هذا الانتزاع تأتي المعالجة، يقولون: إن التخلية قبل التحلية، يعني تخلية الشيء من القبح والتشويه قبل أن يُحلى بالشيء الجميل؛ ولهذا نهى الله أن نحسب هذا شرًّا حتى يقتلع هذا من نفوسنا أولًا، ثم تكون مُستعدةً للتحلية ولإثبات ما يُثْبَت ويُتَحَدث عنه في شأن هذا الإفك.

وتبين بهذا أنه ينبغي عند معالجة الأشياء أن نزيل أولًا الأذى لنفتح الطريق أمام الخير حتى يلج ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ وفيه أيضًا: أن نقول: ينبغي أن يؤتى بأهم شيء، وأهم شيء في هذا الأمر أن يُزال ما في النفوس من ظن أن يكون هذا الإفك شرًّا للنبي ﷺ ولآل أبي بكروبالمؤمنين

عمومًا، لأن حقيقة الأمر لو وقع هذا - وحاشا لله أن يقع - لكان هذا شرًّا بالنسبة لآل أبي بكر وبالنسبة لنبي الله ﷺ، ولهذا ما يمكن للمؤمنين حقًّا أن يظنوا هذا الظن.

وأجلَّاء المؤمنين من الصحابة أنكروا ذلك وقالوا: لا يمكن أن يكون، وممن أنكره أسامة بن زيد رضي الله عنه، وغيره أنكروا هذا أن يكون، ولكن بعض الناس لكثرة الترويج والإشاعات، والشيطان أيضًا ينفث في قلوبهم حصل منهم بعض الشك، والصحابة المؤمنون انقسموا في هذا إلى ثلاثة أقسام: قسم حصل منه ما حصل من الانحراف في هذا الأمر، وقسم منهم أنكر ذلك إنكارًا بالغًا، وقال: هذا لا يمكن، والقسم الثالث: توقف وشَكٌّ في الأمر.

لكن الأجلَّاء من الصحابة والمعظم منهم أنكروا ذلك كما ذكره أهل العلم.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

أولًا: كيف لا نحسبه شرًّا؟ نحن نؤمن بذلك؛ لأن الله قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ وإن كان الإنسان قد يظن بادئ ذي بَدء بأنه شرّ، وهذا الشيء معروف، واحد يقذف أهلك أمر تعرف أنه شر موجه إليك هذا أمر مُسَلَّم به، فلما قال الله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ انتهت المشكلة هذه وقضي عليها بنهي الله عز وجل، العليم بما سيكون بأنه ليس بشر.

بقي أن يقال: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونحن نؤمن بهذا أيضًا وأنه خيرٌ لنا، لكن ما هو الخير الذي ظهر في هذا الإفك؟

نقول: الخير الذي ظهر في هذا الإفك خير ليس له نظير، حيث:

أولًا: ظهرت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ونزاهتها، ظهورًا لا يعادله شيء؛ شهد الله لها بالبراءة من فوق عرشه تبارك وتعالى.

ثانيًا: ظهر بذلك نقاءُ وطُهرُ فراش النبي ﷺ، وأنه لا يمكن لفراش النبي ﷺ أن يتدنس بهذا.

ثالثًا: من الخير: الأجر العظيم الذي ترتب على ما أصاب المؤمنين في هذه الحادثة من الأذى والمشقة والجهد الجهيد، حتى أنه من حكمة الله عز وجل أن الوحي انقطع شهرًا كاملًا، ما نزل على النبي ﷺ وحي؛ لأجل أن يتمحص المؤمن من المنافق، ولأجل أن يشتد اشتياق المؤمنين إلى بيان الله سبحانه وتعالى في هذه القضية العظيمة الهامة، ولأجل أن يزداد أجرهم في هذه المدة.

ثم إن فيها أيضًا من الخير: رفعة شأن النبي ﷺ، وهذا فوق قولنا نزاهة فراشه وطهارته، وكون الله سبحانه وتعالى بنفسه يدافع عنه.

ثم فيه أيضًا من الخير: تأديب المؤمنين وعظتهم بما ينبغي أن يكونوا عليه من عدم إطلاق القول والتجرُّؤ على أعراض الأعفَّاء إلى غير ذلك مما سيتبين - إن شاء الله - في أثناء هذه القصة العظيمة.

[قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يأجركم الله تعالى به، ويظهر الله براءة عائشة رضي الله عنها ومن

جاء معها منه وهو صفوان فإنها قالت: كنت مع النبي ﷺ...إلخ].

هذا أيضًا من الخير لصفوان بن المُعَطِّل رضي الله عنه أنه إذا أنزل الله براءة عائشة من ذلك وكان هو الذي رماه المنافقون بها نفهم من ذلك براءة صفوان رضي الله عنه.

[قالت عائشة رضي الله عنها: كنت مع النبي ﷺ في غزوة بعدما أُنْزِل الحجاب][1] وهذه الغزوة تسمى غزوة المُرَيْسِيع وغزوة بني المُصْطَلِق، ولم يبين المؤلف متى كانت هذه الغزوة لكنه يتبين لنا متى كانت، كانت بعدما أنزل الحجاب، والحجاب نزل سنة ست من الهجرة.

وعلى هذا فتكون هذه الغزوة في السنة السادسة في آخرها أو في السابعة، وأما قول بعض المؤرخين أنها في الخامسة أو في الرابعة فهذا وهم منهم، والصحيح أنها كانت في السادسة في آخرها؛ لأنها صرحت بأنها بعدما أنزل الحجاب، والنبي ﷺ أيضًا استشار زينب في شأنها، وزينب نزلت آية الحجاب عند زواج النبي ﷺ بها.

تقول رضي الله عنها: [ففرغ منها ورجع ودنا من المدينة، وآذن بالرحيل ليلة، فمشيت وقضيت شأني وأقبلت إلى الرحل فإذا عقْدي قد انقطع ـ وهو بكسر المهملة: القِلَادة ـ فرجعت ألتمسه وحملوا هودجي ـ هو ما تركب فيه ـ على بعيري يحسبونني فيه وكانت النساء خفافًا إنما يأكلن العُلْقة ـ هو بضم المهملة وسكون اللام: من الطعام ـ أي القليل ـ][2].

تحدثت عائشة رضي الله عنها عن قصة الإفك تقول: إنه لما رجع النبي ﷺ من هذه الغزوة في ليلة من الليالي أُذِنَ بالرحيل، فذهبت تقضي حاجتها كشأن الإنسان إذا أراد أن يركب أو أراد أن ينام أو ما أشبه ذلك يفرغ نفسه، ذهبت تقضي حاجتها يعني: تتبول أو تتغوط، فلما رجعت وإذا العِقد قد انقطع، فرجعت تلتمسه وقد ذكر المؤرخون: أن هذا العقد كان عارية عندها لأختها أسماء، فذهبت تلتمسه ـ تطلبه ـ فوجدت العقد، فلما وجدته رجعت إلى مكانها، فإذا القوم قد حملوا هودجها، وما ظنوا أنها ليست فيه؛ لأنها كما قالت رضي الله عنها: كانت النساء خفافًا ما كان اللحم قد بان عليهن؛ لأنهن إنما يأكلن العُلْقة من الطعام يعني: القليل.

ثم إن الهودج الذي حمله ليس رجلًا واحدًا أو اثنين حتى يميزوا خفته، إنما حمله جماعة، والعادة أن الجماعة لا يحسون بثقل الشيء ما يهمهم، لذلك حملوه على أنها فيه، وساروا، فلما رجعت ولم تجدهم، عرفت أن القوم سيفقدونها وسيرجعون إليها، وهذا أمر معروف، هي من ذكائها وعقلها ما ذهبت يمينًا ولا شمالًا، ما قالت ألحقهم أبحث عنهم بقيت في مكانها، ومن العجيب أنها من طمأنينتها ورباطة جأشها أنها نامت في هذا المكان، ولما نامت كان صفوان بن المعطل رضي الله عنه في أخريات القوم، وكان كثير النوم وثقيل النوم أيضًا، فلما استيقظ لحق القوم، فلما أقدم على مكانهم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

وجد سواد شخص، فأوى إليه وحصل ما حصل.

يقول: [ووجدت عقدي وجئت بعدما ساروا، فجلست في المنزل الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فغلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان قد عَرَّس من وراء الجيش فادَّلَج ـ هما بتشديد الراء والدال أي: نزل من آخر الليل للاستراحة ـ فسار منه (أي من مكانه) فأصبح في منزله (أي في منزل الجيش) فرأى سوادَ إنسانٍ نائم ـ أي شخصه ـ فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ـ أي قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ فخمَّرت وجهي بجلبابي ـ أي غطيته بالملاءة ـ والله ما كلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، ووطئ على يدها فركبتُها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين.... إلخ][(١)].

فهو رضي الله عنه لما رأى سواد الشخص أقبل إليه، فلما أقبل وإذا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نائمة ولم تغطِّ وجهها؛ لأن ما حولها أحد، فعرفها رضي الله عنه وكان قد رآها قبل الحجاب فعرفها، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أناخ بعيره ووطئ على ركبته حتى ركبت ولم يكلمها بكلمة، وإنما استرجع رضي الله عنه خوفًا مما وقع تَوَقُّع أمرًا فوقع؛ لأن امرأة في فلاةٍ من الأرض وَحدَهَا ويأتي بها رجل متأخر عن الجيش وهي متأخرة عنه، هذا لا شك أنه بليَّة وابتلاء من الله عز وجل، ولهذا رأى أنه مصيبة رضي الله عنه فاسترجع، ولكن لعفته وتعظيمه للنبي ﷺ وتعظيمه أم المؤمنين رضي الله عنها ما كلمها ولا بكلمة حتى ما قال: اركبي، ولا قال: ما الذي خلفك، ولا قال: لا بأس عليك، ما تكلم بكلمة إطلاقًا؛ احترامًا لفراش النبي ﷺ، وإكرامًا له، وإنما أناخ البعير ووطئ على ركبته حتى ركبت رضي الله عنها، فذهب يقود بها حتى أتى الجيش، أتاهم متى؟

يقول: [موغرين في نحر الظهيرة ـ أي من أوغر ـ واقعين في مكان وغر من شدة الحر] هذا معنى الوغر شدة الحر، حتى عندنا الآن في اللغة العامية يقولون: والله اليوم حر واغر يعني شديد الحر.

يقول: [فهلك من هلك فيّ، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول. ا.هـ قولها، رواه الشيخان][(٢)].

لَمَّا حصل الذي حصل وجد عبد الله بن أُبَيّ ونظراؤه من المنافقين متنفسًا يتنفسون منه الصعداء للقدح في النبي ﷺ، فجعلوا يتكلمون: ما الذي جاء به، ما الذي خلَّفه، ما الذي خلَّف عائشة؟ ثم صاروا ينشرون الحديث، ويذيعونه ويزحلقونه حتى شاع الخبر وانتشر، والنبي عليه الصلاة والسلام تألم ولابد أن يتألم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

تألم في الحقيقة من وجهين:

أولًا: أن عائشة رضي الله عنها فراشه، وأحب نسائه إليه وهو يحبها وهي تحبه.

والشيء الثاني: أنها ابنة أعز الناس إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكيف يقع هذا الأمر وكيف يكون؟!

ولذلك ضاقت على النبي ﷺ الضائقة، حتى إنه مع شدة صبره ومع فهمه لأهله، ونزاهتهم، وبُعدهم عما رُموا به، حتى أنه دخل عليه شيء مما دخل، فصار يستشير بعض أصحابه: هل يفارق عائشة أولا يفارقها؟ منهم من يشير عليه بعدم المفارقة، ويقول: أهلك يا رسول الله ما نعلم إلا خيرًا، ومنهم من أشار عليه بالمفارقة لما رأى من تأذِّيه ﷺ، وقال: إنه إذا فارقها يستريح، وممن أشار بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي ﷺ؛ لأنه قريب النبي ﷺ، ورأى من النبي ﷺ مشقة عظيمة وأذىً كثيرًا فقال: لعله إذا طلقها يستريح ويطمئن.

لكن كبار الصحابة رضي الله عنهم قالوا: هذا أمر لا يمكن، وممن أشار عليه أسامة بن زيد بأن يمسكها ولا يطلقها.

على كل حال بقي الأمر هكذا في زعزعة وقلق وشدة إلى تمام الشهر.

عائشة رضي الله عنها ما كانت تعلم فيما يخوض فيه الناس ولا تدري عن شيء؛ لأنها كانت مريضة وكانت في بيت والدها، ولا علمت بشيء إلا في آخر الأمر، حين خرجت تقضي حاجتها فعثرت، فقالت لها أمُّها أم رومان: تعس مسطح(١)؛ لأن أمها أيضًا ما في قلبها إلا ما حصل، وإنما خصت مسطح بن أثاثة من بين الذين قالوا ما قالوا؛ لأنه كان ابن خالة أبي بكر قريبًا منه، كان المفروض أن مثله يدافع عن هذه القضية لقرابته، لكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا، لما قالت: تعس مسطح! استغربت عائشة رضي الله عنها أن أم رومان تقول في مسطح ما تقول مع أنه ابن خالة أبي بكر! فسألت: ما الأمر؟ فأخبرتها بالأمر، وقالت: إن الناس يقولون في هذا الأمر منذ كذا وكذا.

فازداد ألمها ألمًا، ومرضها مرضًا، حتى جعلت تبكي ما تنام رضي الله عنها، وحُقَّ لها أن تفعل هذا لأن الأمر عظيم، فجاء النبي - عليه الصلاة والسلام - ذات يوم إليهم وتقول: إنها أيضًا قد استنكرت من النبي ﷺ؛ لأنها كانت تعتاد منه لين الجانب والتحري عنها في السؤال إذا مرضت ودخل عليها يسأل ويتحرى، أما في هذه المرة ما كان يتحدث بل يقول: «كَيْفَ تِيكُمْ؟»(٢) ويجلس قليلًا ثم يخرج.

في يوم من الأيام كان قد جاء وقال: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» على العادة، فبينا هو جالس إذ نزل عليه الوحي والفَرَج من الله عز وجل، ببراءة عائشة رضي الله عنها، فلما سُرِّيَ عنه، وإذا به يضحك - عليه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

الصلاة والسلام ـ فقال لها: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ»! فقالت: منك أو من الله؟ قال: «بَلْ مِنَ اللهِ» فقالت: الحمد لله(١)، ثم انتهت قصة الإفك.

ولكن حصل ما حصل فيها من هذا البلاء العظيم.

[يقول الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي عليه ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ في ذلك]

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي من هؤلاء العصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ قال المؤلف: [أي: عليه] فتكون اللام بمعنى (على) هذا ما رآه المؤلف، أن اللام بمعنى على، وإذا كانت مضمنةً معنى على فلماذا عُدِل عنها إلى اللام؟ لتفيد الاستحقاق، وأنهم مستحقون لما عليهم من الإثم، فاللام إذن للاستحقاق، أي لبيان أن هؤلاء العصبة الذين ارتكبوا ما ارتكبوا مستحقين لما عليهم من الإثم.

وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ﴾ في هذا العدل من الله عز وجل في المجازاة على السيئة، وأن الإنسان لا يُحمَّل إلا ما اكتسب لا زيادة.

وفيه أيضًا دليل على أن هذه المسألة ليسوا مشتركين في إثم واحد، بل كل واحد له إثمه الكامل فيما اشترك فيه من هذه القضية.

[وقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: تحمَّل معظمه فبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو عبد الله بن أُبي ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار في الآخرة].

قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أتى بالجملة على هذه الصفة للمبالغة ما قال: ولمن تولى كبره منهم بل قال: ﴿وَٱلَّذِى﴾ جعلها في الحقيقة جملتين في جملة لأن (الذي) مبتدأ و (له) خبر مقدم و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مبتدأ ثانٍ، فكأن الجملة صارت جملتان لبيان الأهمية والتأكيد والإشارة إلى أن توليه لهذا الشيء أمر عظيم.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ تولى الشيء بمعنى: احتفى به، وأولاه عنايته، وقوله: ﴿كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظمه فكِبْرُ الشيء بمعنى: معظمه، يعني: ابتدأ به وصار يغذِّيه وينمِّيه، ويذكره في المجالس، ويُوغر الصدور به وهو عبد الله بن أُبَيّ، وهو جدير بمثل هذه الخِسَّة؛ لأنه منافق بل هو رأس المنافقين، وهو يتمنى أن يقع مثل هذا الأمر؛ ليجد فيه منفذًا للطعن بالنبي ﷺ وبفراشه وبخاصة أصحابه ـ لعنه الله ـ.

يقول: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معنى العذاب: العقوبة، وعظيم بمعنى: عظيم في قدره وعظيم في نوعه وجنسه وعظيم في أمده؛ فإنه ـ والعياذ بالله ـ في الدرك الأسفل من النار، لا يوجد أحد من أهل النار أسفل من المنافقين، ورأس المنافقين في هذه الأمة هو عبد الله بن أُبي، فيكون أسفل مَنْ في الدرك الأسفل من النار، ولذلك عَظُم عذابه ـ والعياذ بالله ـ في شكله ومدته وفي قدره، فهذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٤٤٥).

الذي ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

مسألة: هل حُدَّ هؤلاء الذين تكلموا؟

الجواب: ما حدَّ النبي ﷺ منهم إلا المؤمنين فقط، وهم: حسان بن ثابت رضي الله عنه، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش وهي أخت زينب بنت جحش، وزينب زوجة الرسول ﷺ على أنها ضرة عائشة رضي الله عنها لما سألها الرسول ﷺ عن عائشة أثنت عليها خيرًا، وأختها هلكت فيمن هلك، فحدَّهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حد القذف ثمانين جلدة.

وأما المنافقين فما حدَّهم النبي ﷺ لم يحدهم إما لأن الحد تطهير وكفارة والمنافقون ليسوا أهلًا للتطهير ولا للكفارة، وهذا تعليل واضح من حيث المعنى، لكن من حيث الواقع قد يكون غير واضح لأن المنافقين يُظهرون أنهم مسلمون، فكان ينبغي أن تُجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، وتترك سرائرهم إلى الله عز وجل.

وقال آخرون: إنما لم يحدَّهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنهم ما كانوا يُصَرِّحون لم يقولوا: إن صفوان فعل بعائشة مثلًا ولكنهم كانوا يجمعون الحديث ويصيغونه بعبارات تعطي هذا المعنى، لكن بدون تصريح ومعلوم أن من لم يصرح بالزنا ما يُحد بالقذف، ولذلك لم يحدهم النبي ﷺ.

ويجوز أن يكون الرسول ﷺ ترك حدهم لهذا ولغيره، قد يكون مثلًا ترك حد عبد الله بن أُبَيّ؛ لأنه رأس المنافقين، وكان زعيمًا في قومه، فيخشى أن يكون بذلك فتنة كبيرة، وحد القذف على القول بأنه للآدمي يجوز إسقاطه إذا أسقطه من هو له.

لكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن السبب في ذلك أن المنافقين كعادتهم، المنافق يروغ ولا يستطيع أن يُصَرِّح، وآلته الخداع في كل شيء، فتجدهم لا يصرحون ولكنهم يحومون حول الشيء حتى يملئوا قلوب الناس منه، ولهذا الصحابة الذين هم صرحاء صرحوا بما ظنوه، وإن كان ظنًّا باطلًا، لكن على حال هم ظنوا هذا فصرحوا به، فحدهم النبي ﷺ حد القذف.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]

❁ التفسير ❁

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يقول المؤلف:

[﴿لَّوْلَآ﴾ هلَّا ﴿إِذْ﴾ حين ﴿سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: ظن بعضهم ببعض

﴿خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب بيِّن].

يقول الشارح: ﴿لَّوْلَآ﴾ بمعنى: هلَّا، فهي أداة تحضيض، وفيها شيء من التوبيخ؛ حيث ظنوا أمرًا لا ينبغي أن يكون يعني: (هلَّا إذ سمعتموه) أي: سمعتم هذا الخبر الذي فشا ولا أصل له.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ يقول المؤلف: [فيه التفات عن الخطاب] يعني إلى الظاهر ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مقتضى السياق أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرًا، لكنه قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فالتفت من الخطاب إلى الظاهر، يعني من ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر، وقد مر علينا سابقًا أن للالتفات فائدتين على الأقل هما:

الفائدة الأولى: التنبيه.

والفائدة الثانية: يعينها السياق.

فالالتفات على كل حال الفائدة المتيقنة هي التنبيه؛ لأن مجرى الخطاب إذا اختلف يقتضي أن ينتبه الإنسان، ولهذا كان بعض الخطباء يغيِّر الأسلوب من خبر إلى إنشاء أو من إنشاء إلى خبر، ومن استفهام إلى إخبار وإثبات وما أشبه ذلك، حتى في الصوت والإلقاء تجده يغيِّر؛ لأجل أن ينتبه؛ لأن الناس إذا خوطبوا على وتيرة واحدة في الخطاب سهوا؛ لكن إذا تغير الأسلوب أو كيفية الأداء يحصل بذلك الانتباه.

والفائدة الثانية: يعيِّنها السياق، والفائدة الثانية هنا: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: ظننتم إشارة إلى أن ظنهم هذا يُخْرِجُهُم من الإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما ظنوا إلا الخير ولم يقل ظننتم خيرًا؛ لأن في ظنهم هذا الظن خرجوا من الإيمان، ولكن ليس خروجًا مطلقًا إلا بعد نزول الآيات.

الفائدة الثالثة بعد فائدة التنبيه: أنه كان ينبغي عليهم أن يظنوا هذا الظن لأنهم مؤمنون، هم يقولون: أنهم مؤمنون وهم مؤمنون حقًّا، فكان ينبغي عليهم ما داموا مؤمنين أن يظنوا خيرًا.

فعندنا الآن هم ظنوا ما ظنوا فكانوا بذلك غير مؤمنين إذ المؤمنون لا يظنون إلا خيرًا.

ثانيًا: كان ينبغي عليهم لإيمانهم أن يظنوا خيرًا.

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ لأن الواقع أن القضية بين ذكر وأنثى، صفوان بن المعطل وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، فهي من الجنسين ولذلك قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ نص على الجنسين؛ لأن القضية أو التهمة في الجنسين جميعًا، في صفوان، وهو من المؤمنين، وفي عائشة وهي من المؤمنات، ولهذا قال: ﴿﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم بمنزلة صفوان ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ اللاتي هن بمنزلة عائشة.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ المراد ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ أنفسهم هم يعني: بأعينهم أو المراد ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ بعائشة وصفوان والنبي ﷺ وجعلهم الله أنفسًا؛ لأن المؤمنين كلهم كنفس

واحدة كما في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]؟

الجواب: الأخير، واضح أن المراد ظنوا أي بعضهم ببعض كما قال المؤلف، أي: ظنوا بأنفسهم أي: بهؤلاء المتهمين كذبًا وزورًا خيرًا؛ لأنهم من أنفسهم يعرفونهم ويعرفون أحوالهم، وهم إخوانهم في الإيمان، أو أن المعنى الذي أشرنا إليه بأنفسهم هم، يعني: يظنون خيرًا بأنفسهم وكأنهم لو اتُّهِمُوا بهذا الأمر وهم يعرفون أنفسهم يظنُّون بأنفسهم خيرًا وبراءة، يعني: كما أنه لا تهمون أنفسكم لو قيل فيكم ذلك، فالواجب كذلك أن تظنوا بعائشة وصفوان ﵄.

التفسير الآن بالأنفس يراد بها نفس الظانّ، والمعنى: أي يظنون بأنفسهم خيرًا أي بأن هذا الأمر لو كان أمرًا متهمين به، لكانوا يعرفون أنفسهم، ولا يمكن أن يصدقوا بهذا الأمر؛ لأنهم يعرفون أنهم نزيهون منه وبريئون منه.

على كل حال المعنيان محتملان، وكلاهما له وجه صحيح، فعائشة وصفوان من أَنْفُسِ المؤمنين لأن المؤمن مع أخيه كنفس واحدة، والذي يظن بأم المؤمنين وصفوان خلاف ما ينبغي، كأنما ظن بنفسه، يعني: فكما أنك تعرف نفسك ولا تظن فيها مثل هذا الظن، فكذلك يجب أن تعرف أم المؤمنين وصفوان، فلا تظن فيهما إلا ما تظن بنفسك. يعني: كما أنك لا تظن بنفسك إلا خيرًا كذلك لا تظن بأم المؤمنين وصفوان ﵄ إلا خيرًا.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ معطوفة على ﴿ظَنَّ﴾ أي: ظن المؤمنون وقالوا، وفي هذا أنه يجب على المؤمن إبطال الباطل بقلبه وبلسانه، ما يكفي أنك تعتقد أن هذا ما هو صحيح، بل يجب أن تُبَيِّنَ بطلان هذا الشيء؛ لأن الذي يعتقد هذا الأمر غير صحيح ويسكت يكون موقفه سلبي في الواقع، لكن الواجب أن يبطل الباطل، ولهذا قال: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ ثم قال: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ لابد من ظن وقول، ما يكفي إنك تعتقد أن ما قيل في عائشة وصفوان ﵄ إنه إفك، بل يجب أن تقول لأجل أن نقابل هذا الباطل بالإبطال، فلا بد أن نظن الخير، ونبطل الباطل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ إذنْ معطوفة على ﴿ظَنَّ﴾ فهي داخلة في التحذير، أي أن الله يقول: الواجب أن نظن الخير وأن نبطل الباطل.

ومن فوائد الالتفات أيضًا: أنك إذا تحدثت لصاحبك بصيغة الغائب صار ألطف وأهون وإذا أتيت بعد ذلك بصيغة الخطاب صار أبلغ سواء كان ذلك مدحًا أم ثناء، فمن الثناء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢ - ٤]، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] فأثنى المصلي على الله بالأول بصيغة الغائب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم بصيغة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ المخاطب؛ كأنه بعد الثناء صار حاضرًا بين يدي ربه، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

إذنْ الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب فائدته: للتنبيه وقوة التوبيخ؛ لأن الخطاب أبلغ.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:١ - ٣]، في الأول ﴿عَبَسَ﴾ للغائب، ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ كأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يخاطب النبي ﷺ بهذا اللفظ: عبستَ وتولَّيت بل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ حتى تبين، ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ هذه مثلها.

المهم: أنه إذا انتُقِل من صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب فله فائدة التنبيه، وزيادة فائدة أخرى تستفاد من السياق[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: أنه يرويه بعضكم عن بعض، تلقَّى الشيء بمعنى: استقبله، وأخذه فهم يتلقونه بألسنتهم، ويقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم.

الفرق بين: (تقولون بأفواهكم)، و(تتلقونه بألسنتكم) هو: التلقي: أخذه من الغير، فالتلقي لاستقبال الكلام، وتقولون بأفواهكم، ذلك لإلقاء الكلام إلى الغير، وفيه إشارة إلى أن هذا القول لا يصل إلى القلب وإنما هو مجرد كلام باللسان، وذلك لتشكك كثير من الصحابة في هذا الخبر، وسبق أن جمهورهم وفضلاءهم أنكروه من أول الأمر.

قول المؤلف: [وحذف من الفعل إحدى التاءين] أصله (إذ تتلقونه بألسنتكم)، ولا يمكن أن نقول: إن تلقى هنا فعل ماض، مثل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] ممكن أن يقال فيها: فعل ماض لكنها فعل مضارع هي أصلًا (تتلظى)، ولا يمكن هنا أن نقول (تلقى) فعلًا ماضيًا؛ لأن الفعل الماضي لا تأتي فيه الواو والنون، تأتي فيه الواو (تلقوا) لكن لا تأتي النون؛ لأن النون من الأفعال الخمسة المضارعة، وهنا فيها نون، فإذنْ هنا لا تجوز أن تكون فعلًا ماضيًا فيقينًا أنه حذف منها إحدى التائين.

ثم قال المؤلف: [وإذ منصوب بمسكم أو أفضتم] فيكون (لمسكم إذ تلقونه)، أو (أفضتم إذ تلقونه)، ويستفاد من كلام المؤلف: أن (إذ) هنا: اسم، وقد مر علينا أن كثيرًا من المُعربين يجعلون إذ التعليلية حرفًا لا اسمًا؛ لأن المعنى من أجل كذا.

قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في هذا من التوبيخ ما فيه، أن يقول الإنسان

---

(١) يلاحظ أن تفسير الآيتين: (١٣، ١٤) غير موجود.

بفمه ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ جمع فاه ـ وهو الفم ـ تقول بفمك ما ليس لك به علم.

مسألة: إذا قال قائل: أليس القول بالفم؟! لماذا قال: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ مع أن القول لا يكون إلا بالفم؟

الجواب: لأنه مجرد كلام باللسان وبالفم، ولكنه لم يستقر في القلب؛ لأنه ليس عن علم، وقد يقال: إن هذا من باب التأكيد، كما في قوله: (مشى برجله إلى فلان) تحقيقًا للمشي، يعني: أنه قول محقق تقولونه قولًا صريحًا وليس ذلك ظنًّا في النفس، فإن القول يطلق على الظن، ومثله أيضًا: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨] معلوم أن الطائر ما يطير إلا بجناحيه.

فعلى كل حال نقول: إن قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ إما أن يراد به تحقيق القول، وأنه ليس مجرد ظن أو تخيل، بل يقولونه صراحة بأفواههم، وإما أن يُقال: إن هذا القول على مجرد الفم فقط، ولا يصل إلى قرارة النفس؛ لأنهم وإن كانوا يقولونه لكن كأنهم يستبعدونه مستريبون في حقيقته.

وقوله: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ما أكثر ما يقع هذا من الناس! يفيد ولابد أن الإنسان لا يقول قولًا إلا وله به علم، ما يكفي أن تقول قولًا لمجرد الظن، ولا لمجرد الوهم أو التخيل، لا تقل ـ خصوصًا في الأمور الخطيرة ـ إلا فيما لك به علم، ولهذا قال الله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني: لا تتبعه، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] يعني: فأنت مسئول عن سمعك وبصرك وقلبك الذي هو محل الظن والاعتقاد.

إذنْ لا تقل ما ليس لك به علم، لا تتبع ما ليس لك به علم، فلابد من أن يكون الإنسان على علم، وهذه تربية من الله عز وجل تفيد أن الإنسان يتثبت فيما يقول؛ ليكون قوله معتبرًا، وليسلم من إثم القول بلا علم لاسيما إذا كان القول على الله فإنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، أو كان القول في مثل هذه الأمور الخطيرة التي فيها القدح بالنبي ﷺ وآل بيته، وأصحابه، وبالتالي القدح في الدين؛ لأنه إذا قُدِح في الرسول الذي جاء به فهو قدح في نفس الدين الذي أتى به الرسول المقدوح فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ يعني: لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الإثم، في هذه الجملة من تعظيم هذا الأمر ما فيه، يعني: تحسبون أن القول في هذا الأمر هينًا وأنها كلمات تُقال وتنقل لكنه عند الله عظيم، ويتعاظم كلما كان الإنسان المقذوف فيه أبعد عما قيل فيه.

ولهذا قذف المحصن فيه الحد، وقذف غير المحصن فيه التعزير، يعني: لو قذف أحد إنسانًا متهمًا بالزنا وليس عفيفًا عُزِّر فقط، ولو قذف إنسانًا معروفًا بالعفَّة وجب فيه الحد كاملًا، ولهذا قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ قلنا: إنه يتعاظم بحسب حال المقذوف المتكلم فيه.

وكذلك إذا لم يكن الكلام قذفًا يكون أعظم بحسب حال القول، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١] فأعظم الكذب الكذب على الله، ثم على رسوله ﷺ، وهكذا يتعاظم الكذب بحسب من نمي إليه الكلام.

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]

التفسير

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ﴾ هو للتعجب هنا، ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ﴾ كذب ﴿عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَا﴾: بمعنى: هلَّا وهي للتحضيض المُشْرَب بالتوبيخ، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الضمير يعود على الإفك، ﴿قُلْتُم﴾ هذه جواب لولا، ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يقول المؤلف: [ما ينبغي] ﴿لَنَا﴾، واعلم أن كلمة ﴿مَّا يَكُونُ﴾ وكلمة [ما ينبغي] تأتي للشيء الممتنع، عندما نعبر في كتب الفقه: (ولا ينبغي أن يفعل كذا وكذا) المراد: أن ذلك ليس بمستحب فقط؛ لكن عندما تأتي (ما ينبغي) في كلام الله وكلام الرسول ﷺ إنما يراد بها: الممتنع غاية الامتناع الذي لا يصح ولا يليق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] يعني: يمتنع غاية الامتناع ولا يليق ولا يصح، وكما في قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[1]. بمعنى: أنه ممتنع ولا يليق ولا يصح أن ينام سبحانه وتعالى؛ لكمال حياته.

على كل حال: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ يعني: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا ولا يصح منا أن نتكلم بهذا؛ لأنه لا يمكن أن يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر واقعًا من أهل النبي ﷺ، ويمتنع حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل؛ لما في ذلك من الأمر الذي لا يليق بحكمة الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ لخطورة الأمر وعظمه.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [هو للتعجب هنا]، هذا ليس بصحيح أنه للتعجب، ولكنه للتنزيه البالغ يعني: ننزهك يا ربنا أن يقع هذا من أهل بيت رسولك ﷺ، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يعني: تنزيهًا لك عما لا يليق بك، ومنه أن يقع مثل هذا من أهل النبي ﷺ، فكلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ في هذا الموضع من أحسن ما يكون، بل هي أحسن ما يكون في الحقيقة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥).

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ لماذا؟ لأن ذلك ينافي تنزيهك، ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: سبحانك أن يقع هذا من أهل بيت نبيك ﷺ، وليس للتعجب أنهم يتعجبون مما قيل، لا، بل إنهم ينزهون الله سبحانه وتعالى عما نُسب إلى أهله، يعني: تنزيهًا لك يا رب أن يقع مثل هذا في بيت رسولك ﷺ؛ فهذا التنزيه في هذا المقام من أحسن ما يكون بل هو أحسن ما يكون، ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ كذب ﴿عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ أي: كذب؛ لأنه خلاف ما تقتضيه حكمة الله عز وجل، ﴿عَظِيمٌ﴾ لماذا وُصِفَ بالعِظَم؟

لأنه في آل بيته ﷺ، أيُّ بهتان أعظم من بهتان يكون فيه القدح في النبي ﷺ وأهل بيته وأصحابه!! لو كان هذا قذف لفلان أو لفلان صار عظيمًا، لكن ليس كعظم هذا، ليس كعظم ما نُسب لأهل الرسول ﷺ فلذلك وُصف بالعِظَم.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينهاكم ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الوعظ يقول المؤلف: [ينهاكم] الله أن تعودوا، والأمر والنهي موعظة ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فجعل الأمر موعظة؛ لأن الإنسان يتعظ به.

هكذا هنا: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحذركم بالموعظة، والتحذير متضمن للنهي، وعلى هذا فيجب أن نعرف أن قول المؤلف: [ينهاكم] ليس تفسيرًا لها بمقتضى اللفظ ولكن بما يدل عليه المعنى، وإلا فالموعظة التحذير بما يليّن القلب تخويفًا أو ترهيبًا، فمعنى ﴿يَعِظُكُمُ﴾ أي: يحذركم الله سبحانه وتعالى ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ يعني: من أن ﴿تَعُودُوا۟﴾ ترجعوا لمثله أبدًا يعني: ما دمتم أحياء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هل هي شرط للموعظة ليعظكم، أو جملة مستقلة والتقدير (إن كنتم مؤمنين فاتعظوا بذلك)؟

يقول المؤلف: [﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تتعظون بذلك] هذه الجملة في الحقيقة إن قلت إنها شرط في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ فإنه يجب أن نؤوِّل الموعظة هنا بالموعظة النافعة لا بمجرد ذكر الموعظة؛ لأن الموعظة لا تنفع إلا بشرط الإيمان، وأما إذا قلنا: إن الموعظة بيان ما يتعظ به المرء، فليس الإيمان

شرط في ذلك، فإن موعظة الله مُلقاة لكل أحد، سواء كان مؤمنًا أم غير مؤمن، ولكن لا ينتفع بها إلا المؤمن، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ هذا عام، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فالحاصل أن نقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كانت قيدًا في قوله: ﴿يَعِظُكُمُ﴾ فالمراد بالموعظة: الموعظة النافعة فإنها هي التي تنفع المؤمن، وإن كانت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستقلة عما قبلها أو نقول: وإن كانت الموعظة إلقاء ما به الوعظ للناس سواء انتفعوا أم لم ينتفعوا فإن قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستقلة، وجوابها محذوف، أي: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاتعظوا بما وعظكم الله به.

وفيه إشارة إلى أنه لا ينتفع بالموعظة إلا المؤمنون على كلا الاحتمالين، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: [في الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يأمر به وينهى عنه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيه].

﴿وَيُبَيِّنُ﴾ بمعنى: يُظهر و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ بمعنى: العلامات الدالة عليه سبحانه وتعالى، وقد مر علينا أن الآيات تنقسم إلى: آيات كونية وهي: ما خلقه الله في الكون وقدّره وهذه ظاهرة للمؤمنين وغيرهم، حتى المؤمنين يعرفون إن هذه آيات ما يستطيع البشر أن يفعل مثلها، وآيات شرعية: لا تتبين وتظهر إلا للمؤمنين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]. فالآيات الشرعية التي تضمنها وحي منزل على رسله لا يستفيد منها إلا المؤمن، أما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فإنه يزداد بها رجسًا إلى رجسه، ويموت على كفره، الآيات الكونية حتى غير المؤمنين بالله سبحانه وتعالى ـ يعني غير المنقادين والمذعنين لشرائعه - يؤمنون بأن مثل هذه الأمور لا يمكن لبشر أن يأتي بها على اختلاف مشاربهم.

لهذا نقول: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يظهرها، حتى تتبين، ولا فرق في ذلك بين الآيات الكونية والآيات الشرعية، ولهذا لما خَسفَت الشمس في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيتين مِنْ آيَاتِ الله»(١)، حتى خسوفهما من آيات الله لو أن البشر كلهم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤٢)، ومسلم (٩١٤).

اجتمعوا على أن يكسفوا الشمس لا يستطيعون، فإذنْ هو من آيات الله؛ لأن الآية معناها: هو ما يدل على ما كانت آية له، بمعنى: أنها لا يمكن أن يأتي بها أحد سوى من كانت آية له.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ قال المؤلف: [في الأمر والنهي] كأنه حملها على الآيات الشرعية والحقيقة أنها شاملة للآيات الشرعية والآيات الكونية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم واسع شامل فيما يتعلق بفعله، وفيما يتعلق بفعل المخلوقين، فالله سبحانه وتعالى عليم بما كان وما سيكون من فعله ومن فعل المخلوقين، ﴿حَكِيمٌ﴾ سبق لنا أنها مشتقة من الحُكم والحِكْمَة، وسبق لنا: أن الحكمة تكون أولًا في الشرع والقَدَر، فكل ما شرعه الله فإنه مطابق للحكمة، وفي القدر كل ما خلقه الله مطابق للحكمة، محلها إذنْ الشرع والقَدَر.

أما عن الحكمة نفسها فهي على ثلاثة أشياء: في الإيجاد، والصورة، والغاية.

فإيجاد الشيء: حكمة، لولا أن الحكمة في وجوده ما وجد.

وكونه على هذا الشكل المعين أو بهذه الصورة المعينة هو أيضًا: حكمة.

والغاية منه أيضًا حكمة، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

إذا ضربنا (٢×٣) كم تكون؟ الشرع والقدر وكل منهما إما في الإيجاد أو في الصورة أو في الغاية تكون الجميع (٦)، أما الحكم فإنه ينقسم أيضًا إلى قسمين: كوني وشرعي.

مثال الحكم الشرعي: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]

مثال الحكم الكوني: قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

إذا كان الحكم كونيًا أو شرعيًا كليهما مطابق للحكمة فهل يلزم أن نعرف هذه الحكمة أم لا يلزم؟ لا يلزم، لكن يجب علينا أن نؤمن أنه ما من شيء أوجده الله أو شرعه إلا وله حكمة، لكننا لقصورنا يخفى علينا كثير من هذه الحِكم.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩]

التفسير

قوله: [﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ باللسان] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قلنا: إن مثل هذا الترتيب كونه يأتي بالجملة على جملتين يفيد ذلك التأكيد.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ...لَهُمْ﴾ ما قال: إن للذين يحبون أن تشيع الفاحشة عذاب، بل جعلها جملتين صغرى وكبرى، فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه كبرى، وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الصغرى، وسميت صغرى؛ لأنها قائمة مقام الاسم المفرد إذ هي خبر، والأصل في الخبر أن يكون مفردًا.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى: اسم إن فهي في محل مبتدأ، ﴿يُحِبُّونَ﴾: صلة الموصول، ﴿أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾: مفعول يحبون، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر إن.

إذن هذه الجملة نقول: تضمنت جملتين صغرى وكبرى، الكبرى المجموع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الجملة الكبرى، والصغرى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسميناها صغرى وإن كانت مكونةً من مبتدأوخبر؛ لأنها خبر فهي في مقام المفرد؛ لأن الأصل في الخبر أن يكون مفردًا، تقول مثلًا: (الطالب فاهمٌ)، ففاهمٌ خبر مبتدأ مفرد.

تقول: (الطالب له فهمٌ) صارت الآن جملة، والجميع جملتان: كبرى وهو مجموعها، وصغرى وهو الجملة التي صارت خبرًا، والله أعلم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الذين اسم من الأسماء الموصولة، والمعروف في علم الأصول أن اسم الموصول يفيد العموم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يكون عامًّا، وقوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾، ﴿تَشِيعَ﴾: بمعنى تنتشر وتظهر، وقول المؤلف: [باللسان] هذا تفسيرٌ للشيوع يعني: تشيع بالقول، وتُظْهَر ويتداولها الناس، ولكن الأظهر أنها أعم من الشيوع باللسان؛ وأنها تشيع بالفعل بحيث يشاهدهم الناس، وبالقول بحيث يُشاع عنهم ذلك، فهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة سواء يحبون أن تشيع بالقول - كما أشار إليه المؤلف باللسان -، أو يحبون أن تشيع بالفعل بمعنى: أن يظهر أمرهم ويتبين ويُرَوْنَ ويُشَاهَدُون.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هذه جملة صغرى يعني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ التي اسم

إن وهي في محل المبتدأ و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة خبرية خبر إن، وهذه تفيد التوكيد أوكد مما لو قيل: إن للذين يحبون أن تشيع الفاحشة عذابًا أليمًا ـ مثلًا ـ هذا أبلغ؛ لأنها تكون جملتين، تكون كأنهما مكررتان.

وقول المؤلف: [بنسبتها إليهم] هذا بناءً على أن المراد بالشيوع: شيوع اللسان، والأصح أنه أعم أي: بنسبتها إليهم فيما يقال فيه، أو برؤيتها منهم فيما فعلوا.

وقول المؤلف: [وهم العصبة] هذا ليس بصحيح؛ لأنه أراد أن يُفَسِّر العام بالخاص؛ لأن ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ هل هو خاص بالعصبة الذين جاءوا بالإفك أو عام في كل أحد؟ عام في كل أحد إلى يوم القيامة، حتى مثلًا من أحب أن تشيع الفاحشة في المؤمنين في زمنه فهو داخل في هذه الآية، وتخصيص الآية بشيء لا دليل عليه هذا لا يجوز.

وقد قال أهل العلم: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

لكن يجب أن نعرف أن صورة السبب قطعية الدخول، يعني: إذا ورد لفظ عام لسبب خاص فإن السبب الذي وردت من أجله قطعي الدخول في هذا العام، وغيره من أفراد العموم ليس قطعيًّا ولكنه ظاهر فيه، وبيان ذلك أن دلالة العام على فرد من أفراده دلالة ظنية، يعني: ليست قطعًا، إذ يجوز أن يكون بعض الأفراد قد خُصِّصَ بحكمٍ يخالفُ هذا العموم، ولهذا نقول: دلالة اللفظ العام على عمومه ظنية، وذلك لاحتمال أن يكون بعض أفراده قد خصص إلا صورة السبب يعني: الصورة التي هي سبب هذا العموم فهي قطعية الدخول؛ لأنه ما يمكن أن نخرجها عن العموم وهو وارد من أجلها.

فمثلًا لو قال قائل: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ...﴾ [المجادلة:٢] لو قال: إنه لا يدخل فيها أوس بن الصامت الذي ظاهر من زوجته وهو سبب النزول ماذا نقول له؟ نقول: هذا غير صحيح قطعًا هو داخل.

لو قال قائل: إن الرجل الذي رآه النبي ﷺ قد ظُلِّلَ عليه والناس حوله وهو صائم في السفر فقال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ»(١) لو قال قائل: هذا الرجل لا يدخل في هذا الحديث نقول: غير صحيح ولا يمكن؛ لأن الصورة التي هي سبب العموم قطعية الدخول غيرها ما هو قطعي لكن ظني.

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فسر هذا العموم بالخاص، وهذا لا يجوز، إذا وُجِدَ لفظ عام يجب الأخذ بعمومه وإن كانت دلالته على جميع أفراده ـ كما سبق ـ ظنية لكن يجب الأخذ بعمومه حتى يَرِد دليل على التخصيص، فنقول: هذه الآية العامة في العصبة وغيرهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

[﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: بحد القذف ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي: بالنار لحق الله].

قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من العذاب ما ذكره المؤلف، وقد يكون عذابٌ أشد، لكن المتبادر لنا أن العذاب الأليم في الدنيا هو العقوبة، وعذاب ـ كما أشرنا إليه سابقًا ـ معناه عقوبة، أليم بمعنى: مؤلم، وأما عذاب الآخرة فهو عند الله أيضًا.

وقول المؤلف: [بحد القذف ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار لحق الله] هذا يُشْكِل عليه أنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ أن: «مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ شَيْئًا، وَعُوقِبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ»(١) ولهذا قالوا: إن الحدود كفارة لأصحابها، الحدود كحد الزنا وحد السرقة وغيرها كفارة لأصحابها إذ أن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين، فعلى هذا نقول: إن الآية هذه فيمن يحب أن تشيع الفاحشة، لا فيمن أشاعها؛ لأنه إذا كانت فيمن يحب أن تشيع الفاحشة ولكن هو ما أشاعها فما عليه حد في الدنيا، مجرد محبة الإنسان لشيوع الفاحشة في المؤمنين ليس بقذف؛ فلا يقام عليه الحد، لكن يُعَزَّر أو يُعاقب بما يسميه أهل العلم التعزير، تعزير يردعه وأمثاله عن هذا العمل، وأما عذاب الآخرة فيقال: إن هذا ما دام الأمر ليس بحد فقد لا يعزَّر وحينئذ يكون العذاب عليه في الآخرة، وأما من أُقيم عليه الحد لمعصية من المعاصي فإنه يكون كفارة له كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

إذا كان هذا الوعيد فيمن يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين فكيف يكون حال من أشاع الفاحشة؟!

الذي يُشيع أشد من الذي يحب أن تشيع؛ لأن الذي يُشيع يحب ويفعل، إذ ما فعل الشيء إلا لمحبته لشيوعه فيكون قد أحب وفعل، والذي أحب قد لا يفعل ومع ذلك له عذاب أليم.

ثم قال الله تعالى: [﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ انتفاءها عنهم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها العصبة بما قلتم من الإفك ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ وجودها فيهم].

والحدود فرائض لابد من إقامتها، والتعزير: من العلماء من يرى أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام إذا رأى أنه لا يقام لا يقيمه. فإذا فرضنا أن الإمام اجتهد، سواء أخطأ في اجتهاده أو أصاب، ولم يُقِم الحد عليه، هذا معناه أنه يُعاقب في الآخرة ولابد، والحديث عام على عمومه، والآية كذلك ظاهرها أنه يُجمع له بين الأمرين، والحديث يدل على أن الحدود كفَّارة لأصحابها، لذا فالتوفيق هو أن نقول: إذا فاته عذاب الدنيا أصيب بعذاب الآخرة.

إذا عُزِّر لمحبته للفحشاء فلا يعذب في الآخرة؛ لأن الله لا يجمع بين عقوبتين على العبد بذنب واحد، لكن إذا فاته التعذير، إما لكونه اجتهد الحاكم، أو لكونه أخفى نفسه أو ما أشبه ذلك، يبقى عذاب الآخرة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

مسألة: هل يصح العفو عمَّن وقعت منه هذه الفاحشة؟

الجواب: هذا يتعلق بالمصلحة إذا كان هذا الذي وقعت منه الفاحشة رجلًا معروفًا بالعفة وبالصلاح، وأن الأمر بدر منه هكذا هفوة، فإنه لا ينبغي أن يُرفع إلى الإمام ويشهر، بل يُستر عليه ويُنصح، وإذا كان الرجل معروفًا بالشر والفساد، كان من الواجب أن يُبيَّن أمره، ويُظْهَر ويُشْهَر.

ومثل ذلك أيضًا مسألة العفو، العفو عن الجناة هل هو أولى من الأخذ بالحق أو الأخذ بالحق أولى من العفو؟

ينبني على هذا التفصيل: إذا كان في العفو صلاح فالعفو أفضل، وإلا فالأخذ بالحق أفضل، وكل الآيات التي تندب إلى العفو مقيدة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فقيَّد الله تعالى العفو بالإصلاح.

وأيضًا من الناحية المعنوية أن يُقال: العفو إحسان والإصلاح واجب، وإذا تعارض الواجب والإحسان، فيُقدم الواجب، فعلى هذا إذا تعارض إصلاح الخلق أو العفو عن هذا المجرم نقول: إن الإصلاح أولى، هذا المجرم لو عفوت عنه ذهب يفعل إجرامًا بغيرك، وإذا عفا ذهب يفعل إجرامًا آخر وهكذا، فنقول: لا ينبغي العفو هنا إن لم نقل بتحريمه.

وعلى هذا يتنزل فعل بعض الناس الآن، بعض الناس إذا صدمه إنسان مثلًا، أو سرق منه مالًا، أو قتل له نفس تجده يبادر بالعفو، وهذا خطأ عظيم؛ هذا يجب أن يُبَيَّنْ للناس أن الواجب النظر: هل الرجل الذي تهور وصدم هذا الآدمي أو هذه البهيمة أو هذا المال وأفسده هل هو إنسان متهور شرير، فإنه لا ينبغي العفو عنه؟ وهل أيضًا من المصلحة أن نعفو عنه أو ربما إذا عفونا أصبح الناس لا يبالون بهذا الشيء، يعني: لو أن كل من جرى منه مثل هذا الأمر عُزِّر وحبس وغُرِّم المال ما كان الناس على هذا الوجه الذي ترونه الآن.

لكن مع الأسف بعض الإخوان تأخذه العاطفة، ويأخذه الزهد في الدنيا أمام الصدمة العظيمة التي أصابته، ثم عندما يصاب في المصيبة الفادحة ترخص الدنيا كلها عنده، ويقول: إذا راح عزيزي هذا الذي هو عليَّ عزيز لا يهمني الدنيا كلها صارت عندي لاشيء ثم بسرعة يصفح، هذا خطأ، والواجب التعقُّل.

ولهذا في الحقيقة أن الأخذ بالعاطفة دون عقل من شيم النساء، وليس من شيم الرجال، ولا من شيم أيضًا أهل الإصلاح؛ فإن الواجب في هذه الأمور أن يُنْظَر ما هو الأصلح بالنسبة لهذا الشخص الخاص وبالنسبة للعموم.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٠]

التفسير

[﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم لعاجلكم بالعقوبة]

كرر الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾؛ لأن المقام كله مقام عظيم ففي الأول ـ الآية التي قبل الإفك ـ القذف وهو أمر عظيم وتدنيس لأعراض المسلمين فلولا فضل الله على المسلمين ورحمته بإقامة الحدود التي تردعهم وتمنعهم لحصل ما حصل وكذلك ذَكَر ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ في قصة الإفك، فقد مرت علينا ثلاث مرات.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: هي الرحمة المتضمنة للرقة البالغة يعني: أنها أخص من الرحمة المطلقة، فهي رحمة وزيادة. ولهذا قال: ﴿رَّحِيمٌ﴾ فجمع بين الأخص من حيث المعنى والأعم، الرحمة أعم من الرأفة كل رأفة فهي رحمة ولا عكس؛ لأنها ـ أي الرأفة ـ رحمة من نوع خاص، تقتضي زيادة في الرحمة وعناية بها، والرحيم سبق أنه من أسماء الله سبحانه وتعالى، وقد قسم العلماء الرحمة إلى قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي الشاملة لكل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر وإنسان وبهيمة، ولهذا لو قال لك قائل: هل الكافر مرحوم أم لا؟ نقول: بالمعنى العام مرحوم لولا رحمة الله ما أكل ولا شرب ولا اكتسى، ولا تزوَّج، ولا ولد له ...إلخ.

أما الرحمة الخاصة: فهي الخاصة بالمؤمنين التي تتضمن سعادة الدنيا والآخرة، وأما العامة فهي سعادة في الدنيا فقط.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: طرق تزيينه] الخطوات: جمع خطوة - وهي عبارة عن المسافة التي بين القدمين في المشي - والمراد بـ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: طرقه فعبَّر بالخطوة عن الطريق؛ لأن الطريق أثر الخُطَا.

وقول المؤلف: [طرق تزيينه] نعم هو هكذا الشيطان جميع طرقه مكروهة إلى النفوس، لكنه يزينها للإنسان، حتى يدخل فيها.

وطرق الشيطان من حيث المعنى العام: هي التكذيب والاستكبار، هذه هي الطرق العامة للشيطان، فالشيطان مكذب ومستكبر، من أدلة استكباره: أنه أبى أن يسجد لآدم، وتكذيبه: أنه ادَّعى أنه خير من آدم، فإن هذا يقتضي أنه كذَّب بكون آدم خيرًا منه، فهذه الطريق طريق الشيطان على سبيل العموم.

التكذيب يقابل الأخبار، والاستكبار يُقَابل التكليف: الأوامر والنواهي.

وإذا تأملت جميع المعاصي وجدتها لا تخرج عن هذين الأمرين إما تكذيب وإما استكبار، فهو - أي الشيطان - طرقه مبنية على هذين الأمرين: التكذيب فيما يتعلق بالأخبار، والاستكبار فيما يتعلق بالتكليف من الأوامر والنواهي.

عندما نأتي للتفصيل مثلًا: البخل من خطوات الشيطان؛ لأنه يأمر به، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] قال كثير من أهل العلم: إن المراد بالفحشاء هنا: البخل؛ لأن الآية في سياق الإنفاق، وإن كان الأصلح أنها أعم.

الأكل بالشمال والشرب بالشمال من خطواته أيضًا؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن: «**الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»(١) وعلى هذا فالأكل بالشمال والشرب بالشمال يكون حرامًا؛ لأن الله نهى عن اتباع خطوات الشيطان، والنبي ﷺ أيضًا نهى أن يأكل الإنسان بشماله ويشرب بشماله، ومن ثَم نأخذ خطر تهاون الناس اليوم بهذه المسألة لأن كثيرًا من الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - يأكلون بالشمال ويشربون بالشمال، ويزعمون أن هذا تَقَدُّم ومدنية، والسبب هو الشعور بالنقص؛ لأن الإنسان - مع الأسف - متى شَعر بنقصِهِ فإنه لابد أن يقلد من يرى أنه أكمل منه.

فهؤلاء المغرورين ظنوا أن غيرهم من الأمم الكافرة أرقى منهم، وأشد تقدمًا، وصحيح أنهم أرقى مِنَّا في الصناعة وفي أمور الدنيا، لكن في الأخلاق والآداب التي أرشدنا إليها الإسلام ليسوا أرقى منا، إلا أنه بالنظر إلى حال المسلمين اليوم لا شك أن عندهم من الآداب الإسلامية التي يطبقونها لا عن قصد، ولكن لمجرد أنها أخلاق فاضلة، لا تَعَبُّد لله خير منا، ومع الأسف أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٢٠)، والترمذي (١٧٩٩)، وأبو داود (٣٧٧٩).

المسلم الذي أُمر بتطبيق هذه الآداب والأخلاق هو الذي تقاعس عنها، مع أن المسلم إذا طبقها يكون متصلًا بهذه الأخلاق الفاضلة، وهذه لا شك أنها نبل وشرف، وزيادة على ذلك يكون مأجورًا؛ لأنه يفعلها امتثالًا لأمر الله ورسوله.

أولئك إذا فعلوها لا يُؤْجَرون إنما يفعلونها؛ لأنها أخلاق فاضلة فهم مثلًا عندهم صدق في المعاملة وعندهم بيان وعدم غشٍ، وعندهم وفاء بالوعد، كل هذه من الصفات التي أمر الإسلام بها، كثير من المسلمين الآن متخلٍّ عن هذه الصفات، لكن إذا اتصف بها المسلم يكون محمودًا عليها، ويكون مأجورًا عليها أيضًا؛ لأنه يفعلها امتثالًا.

إذنْ خطوات الشيطان: طرقه التي يسير عليها، والتي هي منهج سلوكه وذلك دائرٌ على أمرين هما: التكذيب والاستكبار.

وقد تكون خطوات الشيطان مبينة مخصوصة ـ كما قلنا في مسألة الأكل بالشمال والشرب بالشمال ـ.

قال المؤلف: [﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي المتبع ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي القبيح ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ شرعًا باتباعها]

قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، (مَنْ): اسم شرط، و(مَنْ) الشرطية تحتاج إلى: شرط وجزاء، يعني فعل شرط وجواب شرط.

ففعل الشرط: ﴿يَتَّبِعْ﴾، وجواب الشرط: الجملة ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

عندنا الآن ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ وعندنا ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على أيهما؟

إن نظرنا إلى أصل الجملة والموضوع قلنا: إنه يعود إلى الشيطان؛ لأن جواب الشرط يعود على ما يعود عليه فعل الشرط، وإذا نظرنا إلى السياق وإلى أقرب مذكور قلنا: إنه يعود إلى الشيطان.

فصار المعنى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقع في الفحشاء والمنكر، تصير جملة دالة على جواب الشرط وليست هي جواب الشرط، أما على ما سلكه المؤلف ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ تكون هي بعينها جواب الشرط.

إذا قلنا: الضمير عائد على ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ فإنه أي: المتبع ـ كما قال المؤلف ـ فالجملة هي جواب الشرط ويرجِّح هذا التقدير أن الأصل أن المذكور جواب الشرط، وأن الضمير في جوابه يعود على ما يعود إليه فعل الشرط ـ هذا الأصل ـ، وأما على الرأي الثاني: فإنه يقول: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يقول: فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر ويكون هذا دالًا على الجواب.

ويؤيد هذا الرأي أن السياق في النهي عن اتباع خطوات الشيطان، فكأنه يقول: من يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وهذا أظهر من وجهين: لأن السياق يدل عليه ـ هذا وجه ـ ولأن المُتَّبع لخطوات الشيطان قد لا يأمر بالفحشاء

والمنكر، قد يفعل الفحشاء والمنكر ولكن لا يأمر بها فليس بلازم من اتبع خطوات الشيطان أن يأمر بالفحشاء والمنكر، نعم من اتبعه اتباعًا مطلقًا لزم أن يأمر بالفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

فعلى كل حال: الأرجح أن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ﴾ عائد إلى الشيطان لا إلى المتبع يرجحه أمران:

أولًا: دلالة السياق عليه؛ لأن الله نهى عن اتباع خطوات الشيطان، ثم ذكر ما يؤيد هذا النهي من التحذير، حيث بيّن أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، وهذا كل عاقل إذا علم أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر هل يُسَوِّغ لنفسه أن يتبع خطواته؟ الجواب: لا.

الوجه الثاني مما يؤيد ذلك: أن الذي يتبع خطوات الشيطان قد لا يأمر بالفحشاء والمنكر، قد يتبعه ذلك بنفسه، ولكن لا يأمر به، وكثير من أهل الضلال تجدهم ضالين بأنفسهم، لكن ما عندهم دعوة لما هم عليه، وإن كان نجد أيضًا أن كثير من أهل الضلال عندهم دعوة يأمرون بالفحشاء والمنكر أي: بما هم عليه.

فالصحيح إذنْ: أن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يعود على الشيطان وإذا قلنا بأنه يعود على الشيطان يبقى النظر أين جواب الشرط؟ الجواب: محذوف تدل عليه هذه الجملة وتقديره (ومن يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر)؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فمن اتبعه وقع فيها والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]

التفسير

[﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين، قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ورجَّعَ إلى مسطح ما كان ينفقه عليه[1]].

قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ هذا عرض لكن بمعنى التحضيض، يعني: يحضنا أن نحب هذا الشيء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٤٤٥).

لكننا ليس المقصود أن نحب هذا الشيء فقط بل أن نسعى في أسبابه؛ لأن من أحب شيئًا سعى في أسباب الحصول عليه، قد يدَّعِي كل واحد يقول: أنا أحب أن يُغفر لي ومع ذلك هو منهمك في المعاصي؛ من ترك الواجب وفعل المحرم، وهو يقول: أنا أحب أن يُغفر لي.

فإن محبته ليست صادقة؛ لأن من أحب شيئًا سعى في الوصول إليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني: فإذا كنتم تحبون ذلك فاعفوا واصفحوا عن غيركم؛ فإن من عفا وصفح عن غيره غفر الله له.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغفور: مأخوذٌ من المغفرة وهي: ستر الذنب مع التجاوز عنه، وليست مطلق الستر، بل ستر مع التجاوز، أما الستر بدون تجاوز فليس بمغفرة، وإنما قلنا: إنها الستر مع التجاوز؛ لأن التجاوز هو الذي به الوقاية من العذاب، وأصل ذلك من (المِغْفَر) فإن المغفر يستر الرأس ويقيه.

ويدل على أن المغفرة هي الستر مع الوقاية: أنه جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يومَ الْقِيَامَةِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِهَا قَالَ اللهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

فدل ذلك على أن المغفرة غير الستر، وإلا لكانت المغفرة في الدنيا من قبل، فالمغفرة شيء والستر شيء آخر، لكن كل مغفرة تتضمن الستر، وليس كل ستر يتضمن المغفرة؛ لأن من غَفَر لك ولم يعاقبك معناه أنه ستر عليك إذ لو عاقبك لفضحك.

يقول المؤلف: إن أبا بكر رضي الله عنه رجَّع ـ بالتشديد والتخفيف ـ، قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣] بمعنى: ردَّك؛ لأن فعل (رجع) في الحقيقة يُستعمل متعديًا ولازمًا، فإذا قلت رَجَعَت من كذا فهذا لازم، وإذا قلت: رَجَعْتُ إلى فلان ما استعرته منه صارت الآن متعدية.

﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأن هذا نزل في أبي بكر مع مسطح بن أثاثة ابن خالته، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣]

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي: بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: العفائف ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش بأن لا يقع في قلوبهن فعلها ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾].

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الرمي: هو القذف بالزنا وسُمِّيَ رميًا؛ لأنه يشبه الرمي بالحجارة من حيث إيلامه للمقذوف.

وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ تقدَّم أن المراد بهن: العفائف عن الزنا، وأن المُحْصَن في القرآن يطلق ويراد به عدة معانٍ منها هذه: العفيفات عن الزنا، ومنها: ذوات الأزواج، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٢٤]، ومنها: الحرائر ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥] أي: الحرائر.

وذكرنا أيضًا على هذا الكلام أن الألفاظ المشتركة التي تطلق على معانٍ متعددة يُعَيِّن المراد منها السياق، فالسياق هو المعين للمراد.

قوله: ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ يقول: [عن الفواحش بألَّا يقع في قلوبهن فعلها] وهذا القيد ليس بشرط، يعني: ليس بشرط أن تكون المَرْمِيَّة ممن هي غافلة، هكذا قال بعض أهل العلم، بدليل أن من قَذَف محصنةً بالزنا وجب عليه حد القذف وإن لم تكن غافلة، ولكنَّ الأصل في القيد أنه مُعْتَبَر، وأن مفهوم المخالفة غير داخل فيه، فمن قال: إن هذا القيد لا يعتبر مثلًا، وإنما زدناه بناءً على الغالب أو ما أشبه ذلك، لنا أن نطالبه بالدليل نقول: هات دليل على أن هذا القيد لبيان الغالب، وأنه ليس بمقصود، وإلا فالأصل أن نقول: يراد بها ما يخالف محترزاتها يعني: يراد بها أن ما يخالفها يكون مخالفًا لها في الحقيقة.

وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ بعض العلماء يقول: إن الغافلات هذه قيد لبيان الواقع، وليست مقصودة، بمعنى: أن من رمى محصنة فعليه هذه اللعنة وإن لم تكن غافلة، ودليله قال: لأن من قذف محصنةً وجب عليه حد القذف وإن لم تكن غافلة. والغافلة التي لا يأتي في ذهنها هذا الأمر الذي رميت به، وهو أبلغ من كونها لم تفعله ولم تتهم به، الغافلة أبلغ ممن لا تُتَّهم به؛ لأنها قد لا تتهم به، ولكن قد يرد في قلبها هذا الشيء إلا أنها لا تفعله، فالغافلات أكمل حالًا من مجرد المحصنات، فيقول هذا القائل ـ الذي ذهب إلى أن الغافلات قيد لبيان الواقع وأنه لا مفهوم له يؤيد رأيه هذا -: بأن المحصنة إذا قُذِفَت وجب على قاذفها الحد، وإن لم تكن غافلة.

نقول له ردًّا على كلامه وتقريره ـ: ادعاؤك أن الغافلات قَيْدٌ أغلبي، وأنه لا مفهوم له، واستدلالك على ذلك بأن رمي المحصنة بالقذف يوجب الحد وإن لم تكن غافلة هذا غير مُسَلَّم به؛ لأن الأصل في القيد الاعتبار، وأنه يُخْرِج ما عداه بمفهوم المخالفة، هذا هو الأصل: أن القيود التي

ترد في القرآن أو في السنة الأصل فيها أنها: قيود تُخْرِج محترزاتها من هذا الحكم، فمثلًا عندما نقول: إن الغافلات قَيْدٌ أغلبي لا يُخرج محترزه هذا خلاف الأصل وعلى مُدَّعيه الدليل.

هو استدل على ذلك بأن قذف المحصنة يوجب الحد وإن لم تكن غافلة، وهذا صحيح، المرأة المحصنة التي لا تتهم بالزنا إذا قذفها القاذف وجب عليه الحد وإن لم تكن غافلة، إننا نرد هذا الاستدلال أو هذا التقييد الذي قيد به قوله بأن الحكم مُخْتَلِف فهناك حدَّ القذف، وهنا اللعنة: ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ فمن قذف محصنة استحق حد القذف، لكن اللعنة إنما تكون على من قذف محصنة غافلة، هذا هو الأصل، ولذلك نؤيد أن الغافلات قيدٌ اعتباريٌّ لا أغلبي، وأن الحكم ـ الذي هو اللعن في الدنيا والآخرة ـ لا يكون إلا لمن قذف محصنة غافلة.

أما من قال: إن المراد بهذه الآية عائشة ﵂ مثلًا، وأنها غافلة عن هذا الأمر، فهذا صحيح عائشة غافلة، لكننا أيضًا نرد قوله بأن الآية عامة، فهذا أيضًا مثل الأول: حمل العام على الخصوص يحتاج إلى دليل، فمن ادعاه فعليه الدليل وإلا وجب الأخذ بالعموم.

إذا قال قائل: لماذا قَدَّم الله الوصف بالإحصان على الإيمان، مع أن الإيمان أعظم وهو الأصل فلماذا قدمه؟

نقول: وجه تقديمه هنا واضح؛ لأن الرمي بالزنا يَنْقُض الإحصان وينافيه، فبدأ بالوصف الذي يَنْقُض ما رميت به وهو الإحصان؛ لأن المؤمنة قد تكون مؤمنة وليست مُحْصَنَة، لكن المُحْصَنَة التي هي أبعد شيء عما رميت به ليست هي مؤمنة فقط؛ بل ومحصنة أيضًا، فعلى هذا نقول وجه تقديم المحصنة على المؤمنة مع أن الإيمان أكمل وأولى بالاعتبار أن المسألة في رد قولٍ يتعلق بالإحصان، فناسب أن يُذكر ما يتعلق به من الحكم وهو وصف الإحصان قبل وصف الإيمان.

وقوله: ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ الجملة محلها من الإعراب: خبر إن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ﴾، ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هنا ما قال لعنهم الله، قال: ﴿لُعِنُواْ﴾ لأجل أن يشمل ذلك لعنة الله وغيره مثل قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩] يعني: أن الله يلعنهم وكذلك اللاعنون يلعنونهم.

وبناء الفعل للمجهول من فوائده: العموم، مثل قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ـ٧] ما قال: غير مَن غَضِبت عليهم مثلما قال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله، والغضب من الله ومن غيره، كل من استكبر عن الحق فإنه مغضوب عليه لا من قِبَل الله فحسب لكن من قِبَل الله وغيره، فاللعنة أيضًا هنا من قِبَل الله وغيره ولذلك بُنيت للمجهول: ﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

اللعنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله هذا بالنسبة للعنة الله، فهم ـ والعياذ بالله ـ مُطردون عن رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الدنيا والآخرة، وبالنسبة لغير الله يُلعَنُون في الدنيا بحيث يُسَبُّون،

ويُقْدَحُ فيهم، ويُبْعَد عن الاختلاط بهم، تجد الناس يبتعدون عنهم؛ لأنهم ممقوتون، محذورون، كل يحذر منهم ويخاف أن يتهموه بها اتهموا به فلان وفلانة.

هذه الآية: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ هل المحصنين الغافلين مثلهم؟

نعم، بالإجماع أن المحصنين مثل المحصنات.

إذنْ ما وجه ذكر هذا للنساء دون الرجال ما داموا مشتركين في الحكم؟

لأن كثرة القذف في النساء أكثر من الرجال، يعني: كون المرأة تُقْذَف وتتهم بالزنا أكثر من الرجال لذلك ذُكرت هي، والرجل مثلها بالاتفاق.

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]

التفسير

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾، قال: [﴿يَوْمَ﴾ ناصبه الاستقرار الذي تعلق به لهم] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ﴾ ما جعلها المؤلف متعلقة بلعنوا، جعلها متعلقة لهم بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور؛ لأن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم (لهم): خبر مقدم، و﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ، و﴿عَظِيمٌ﴾: صفة.

فالجار والمجرور إِذَا صارا خبر المبتدأ، يقولون: إنه يجوز أن تجعله متعلقًا بفعل ويجوز أن تجعله متعلقًا باسم فاعل.

قال ابن مالك:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ ... نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوْ اسْتَقَرّ

فهنا نقول: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ استقر لهم عذاب أليم نجعل الخبر جملة، أو كائن لهم نجعلها اسم فاعل، وأيًّا كان فإن كائن يصح أن يتعلق به الظرف، واستقر أيضًا يصح أن يتعلق به الظرف، وعلى هذا فنقول: العذاب العظيم يكون لهم متى؟ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾... إلخ.

إذن كلمة ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، ناصِبُهُ المقدر الذي تعلق به الجار والمجرور سواء قدرته مُستقِر أو قدرته استقرَّ، فـ ﴿يَوْمَ﴾ هذه متعلقة بما تعلق به الجار والمجرور في (لهم) سواء قدرته مستقر أو قدرته استقر.

[﴿تَشْهَدُ﴾ بالفوقانية والتحتانية] تشهد، ويشهد [﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من قول وفعل، وهو يوم القيامة].

يعني: اليوم الذي تشهد فيه هذه الجوارح هو يوم القيامة.

قوله: [﴿تَشْهَدُ﴾ بالفوقانية والتحتانية] يعني: أن فيها قراءتين (تشهد، يشهد)؛ وذلك لأن (ألسنة) جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، تقول: قال الرجال، وقالت الرجال.

﴿تَشْهَدُ﴾ مؤنث أم مذكر؟ مؤنث، ويشهد مذكر فكلاهما جائز.

وقوله: ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ جمع لسان، ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ جمع يد، ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ جمع رجل ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال المؤلف: [من قول وفعل] استفدنا من كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فائدة عظيمة وهو: أن العمل يشمل القول والفعل، بخلاف الفعل، ولهذا نجعل القول قسيمه الفعل، ما نقول: قول وعمل، إذا أردت أن تحرر تمامًا تقول: قول، وفعل، ويجوز قول وعمل لكن على سبيل التجوز.

إذنْ فهمنا أن العمل يطلق على القول وعلى الفعل. بل قال أهل السنة والجماعة في بحثهم في الإيمان: إن العمل يشمل عمل اللسان وهو: القول، وعمل الجوارح وهو: الفعل، وعمل القلب أيضًا، مثل: خوفه ورجائه ومحبته وما أشبه ذلك ـ يعني حركة القلب ـ الحركة القلبية.

فصار إذنْ العمل إذا قيل: يشمل القول والفعل، وإذا أردت أن تُقَسِّم تقول: قول، وفعل.

إذا سمعت، أو جاءك عبارة فيها: (قول وعمل) فاعلم أن هذا من باب التجوز، تجوَّز بالعمل عن الفعل، وإلا فالأصل أن الفعل قسيم القول، لا أن العمل قسيم القول.

إذا قلت: عمل يشمل القول والفعل، ولو قلت: فعل يختص بالفعل وهو عمل الجوارح والقول عمل اللسان فالعمل يشمل: قول اللسان وفعل الجوارح، لكن فعل: يختص بفعل الجوارح فقط.

قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ اللسان يشهد على الإنسان كيف يشهد؟ يقول لهذا القاذف للمحصنة الغافلة المؤمنة يقول: إنك قذفتها لسانه نفسه يقول: إنك قذفتها، مع أن العمل عمل اللسان ومع ذلك يشهد اللسان على صاحبه بهذا القول الذي هو القذف.

﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ أيضًا تشهد عليهم ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تشهد عليهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الأعضاء تشهد على الإنسان يوم القيامة، وكذلك ذكر أن الجلود تشهد أيضًا، وأنه يحصل محاورة بين الإنسان وبين جلده: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت:٢١].

وفي هذه الآية إثبات ذلك، وإثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، والدليل قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا بزيادة ولا بنقص.

وفيها أيضًا تمام قدرة الله عز وجل، حيث أن هذه الأعضاء تنطق، مع أن النطق في العادة باللسان، لكن يكون في كل شيء إذا أراد الله سبحانه وتعالى، ولهذا تقول الجلود: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي

أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

مسألة: قد يقول قائل: لماذا ختم الله على أفواههم وجعل أعضاءهم تتكلم، كما أنه توجد آيات تدل على كلامهم بأفواههم؟

الجواب: المراد بالختم على الأفواه بحيث لا ينكرون ولا ينافي أن تشهد بالآية، ثم تأتي بها يضاد مرادها، أو يقال: القيامة مواقف؛ لأن القيامة خمسين ألف سنة فتارة كذا، وتارة كذا، مثل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٤٢] يعني: كل شيء يخبروه، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] وهذا جحود فكيف نجمع بين الآيتين؟ أن نقول: إن القيامة مواقف وهكذا جمع بعض العلماء بين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه:١٠٢] وقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦] فهنا سواد وهنا الزرقة منهم من قال: إن هذا باعتبار مواقف القيامة، ومنهم من قال: إن الزرقة في العيون والسواد في الوجوه، ومنهم من قال: إن الناس يختلفون الكفار منهم أزرق ومنهم أسود.

على كل حال: إنما قصدي أن أهل العلم رحمهم الله لجأوا إلى الجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض يوم القيامة بأن القيامة ليست ساعة واحدة حتى تتعارض فيها الآيات، يوم القيامة خمسين ألف سنة تختلف الأحوال فيه.

مسألة: قد يقول قائل: هل أسكت الله اللسان؛ لأنه يدافع عنهم، أم ماذا؟

الجواب: لا يدافع عنهم ولكن يشهد بخلافهم يصير اللسان لسانين لسان شاهد وناطق للجوارح وهو مقصود هذه الآية، ولسان آخر منكر وهو الموافق لمراد صاحبه. فيصير كأنه لو أنكر الإنسان باللسان الذي يتابعه في ضلالته. والحكمة هنا ـ والله أعلم ـ من ذكر اللسان؛ لأن القذف إنما حصل به ولهذا قدمه على الأيدي والأرجل.

وفي هذه الآية: إثبات البعث وإثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل والدليل قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ تشهد بما كانوا يعملون لا بزيادة ولا بنقص.

وفيها أيضًا:

تمام قدرة الله عز وجل، حيث أن هذه الأعضاء تنطق مع أن النطق في العادة باللسان، لكن يكون في كل شيء إذا أراد الله سبحانه وتعالى، ولهذا تقول الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت:٢١].

وفي هذا دليل على عظم القذف للمحصنات الغافلات المؤمنات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه

من الكبائر فقال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»[1] وذكر منهم: «قَذْفَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ».

وفي هذا دليل على تمام غيرة الله عز وجل، وأنه جل وعلا غيور، وقد جاء في الحديث الصحيح: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»[2]، وكذلك قصة سعد بن عُبادة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:٤] كأن سعدًا رضي الله عنه استشكل: كيف أن الرجل يجد على زوجته رجلًا، ثم يذهب يطلب أربعة شهود لا يأتيه وإلا قد فرغ، وقال رضي الله عنه للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: والله لأضربنه بالسيف غير مُصَفَّح ـ يعني: أضربه بالسيف بحده حتى أقتله ـ فقال النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَالله إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي»[3].

ويدلك على هذا كيف أوجب الله على هؤلاء القاذفين أوجب لهم أن يُلْعَنُوا في الدنيا والآخرة وأن لهم عذابًا عظيمًا، ولهذا جاء الشرع بما أراده سعد بن عُبادة رضي الله عنه، فإن الإنسان لو وجد ـ والعياذ بالله ـ إنسانًا على امرأته فله قتله، له أن يقتله سواء كان هذا الفاعل مُحْصَن أو غير محصن ولا يحتاج أيضًا إلى مدافعة، ما يحتاج أن نقول إذا عجز عن انكفافه فله قتله، بل له قتله مباشرة؛ لأن هذا ليس من باب دفع الصائل، ولكنه من باب الغيرة على محارمه، ولهذا وقعت القصة في عهد عمر رضي الله عنه واختصموا إليه وأقروا بأن هذا المقتول يعني: (ما أنكروا ادِّعاء الزوج) بأنه وجده على امرأته؛ لأنه قال: يا أمير المؤمنين أنا ما ضربت إلا فَخِذَي امرأتي فإن كان بينهما أحد فقد قتلته، فأخذ عمر رضي الله عنه بالسيف وقال له: إن عادوا فعد، ولم ينكر عليه هذا الفعل؛ لأن هذا الإنسان ما يتحمل أن يجد إنسان ينتهك محارمه لهذا الحد حتى يقتله.

فعلى كل حال: في هذه الآية إثبات الغيرة لله عز وجل ووجه هذا أنه سبحانه وتعالى حمى أعراض عباده المؤمنين المحصَنين الغافلين بهذه العقوبة العظيمة وهي: اللعن في الدنيا والآخرة.

هل يستفاد من الآية جواز لعن القاذف للمحصنة الغافلة المؤمنة لقوله: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أو هذا بيان لواقع الأمر أن الناس يلعنونهم، ويكرهونهم، ويبعدوهم عن مجالسهم؟

الحقيقة أن الآية محتملة مثل قوله ﷺ: «اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: البَرَازَ فِي المَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ»[4] ورواية مسلم: «اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ» قالوا: وما اللاعنان؟ قال: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).
(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦٢).

النَّاسِ أَو ظِلِّهِمْ»(١)، فَسَمَّى ذلك لَعْنًا.

فهل المعنى: أن هؤلاء الناس الذين يفعلون هذا الفعل ينفر الناس منهم ويبعدونهم، ويتخلون عن أخلاقهم، أو يجوز أن نلعنهم نقول: اللهم العن من تخلى في طريق الناس أو ظلهم، وهنا نقول: اللهم العن من قذف مُحصَنة غافلةً مؤمنةً؟

الظاهر أن الأمر يتناول هذا وهذا، يتناول الأمر الواقع المنزل أنهم بالفعل يبعدون عنهم ويبعدونهم عن مجالسهم؛ وأنه يجوز للإنسان أن يلعن من قذف محصنة غافلة مؤمنة؛ لأن الله لعنه، فالدعاء عليه باللعن من باب تحقيق ما أخبر الله به.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: يجازيهم جزاءه الواجب عليهم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ حيث حقق لهم جزاءه الذي كانوا يشكُّون فيه ومنهم عبد الله بن أُبَيّ، والمحصنات هنا أزواج النبي ﷺ لم يَذْكُر في قذفهنّ توبة، ومن ذكر في قذفهن ـ أول السورة ـ التوبة غيرهن].

يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾ بمعنى: يعطيهم وافيًا، تقول: وفَّيته حقه أي: أعطيته إياه وافٍ.

وقوله: ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: جزاءهم والدِّين كما أسلفنا كثيرًا يطلق على العمل وعلى جزاء العمل، فَمِن إطلاق الدين على العمل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] المراد هنا: العمل أو الجزاء؟ العمل الذي تدينون الله به، ومثل قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] المراد: الجزاء، فالدين إذنْ يطلق ويراد به العمل والجزاء على العمل.

ومنه قولهم: (كما تدين تدان) يعني: كما تعمل تجازى.

قوله: ﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ دينهم أي: جزاء عملهم، وقوله: ﴿الْحَقَّ﴾ بمعنى: العدل؛ وذلك لأن الحق إن قيل في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن قيل: في مقابلة الحكم سواء كان الحكم تشريعيًّا أو جزائيًّا فمعناه: العدل؛ هنا قيل في مقابلة الحكم الجزائي وعليه فيكون المراد بالحق يعني: العدل الذي ليس فيه ظلم ولا جَور، وهكذا جزاء الله سبحانه وتعالى يكون دائمًا حقًّا يعني:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩)، وأبو داود (٢٥).

عدلًا ليس فيه جور.

أليس جزاء الله تعالى بالحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة؟ هل ينافي هذا الآية أم لا؟

الجواب: لا ينافيها؛ لأن هذا عدل وزيادة كون الله يُثيبُ العامل أكثر من عمله هذا عدل وزيادة، لكن كون الإنسان الذي يجازي غيره على عمل سيئ فيعاقبه بأكثر مما يستحق هذا جَور، فالله تعالى منزه عن هذا؛ لأنه جور، لكن الأول فضل من الله، والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ في هذه الجملة مُؤَكِّدان: وإن شئنا قلنا ثلاثة مؤكدات. أنَّ، وضمير الفصل، هذان اثنان، والمؤكد الثالث أن الجملة مكونة من مبتدأ وخبر كلاهما معرفة، وكون المبتدأ والخبر معرفة هذا يفيد التوكيد والحصر أيضًا.

إذنْ فالله تعالى هو الحق مؤكد بهذه المؤكدات الثلاثة.

وما معنى كون الله حقًّا؟

وجه الأحقية لله عز وجل من وجوه ثلاثة:

أولًا: بوجوده فإن وجوده حق وهو أحق الأشياء، ولهذا جميع الفطر السليمة تشهد به، وكذلك العقول الصريحة - يعني: الخالصة عن الشبهات والشهوات ـ تشهد به.

ثانيًا: وكذلك أيضًا ما يصدر عنه فهو الحق، ما يصدر عنه من خبر أو حكم فما أخبر به فهو الحق وما حكم به فهو حق سواء كانت أحكامًا تشريعية ـ وهو ما شرعه للعباد ـ أو جزائية ـ وهو ما يجازي به العباد.

المعنى الثالث: ما يستحقه أيضًا فهو حق يعني: كون الله يختص بأشياء لا يشاركه فيها غيره هذا أيضًا حق ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

إذنْ الحق في جانب الله تعالى يكون على الوجوه التالية: الوجود، والاستحقاق، وما يصدر عنه.

فوجوده حق وما يستحقه من الأمور حق يعني: من كمال الصفات، والعبادة وغير ذلك والثالث: ما صدر عنه تبارك وتعالى فهو حق من خبر أو حكم، والحكم كما أسلفنا سواء كان جزائيًّا أو تشريعيًّا، ونقول: أو قدريًّا؛ لأن الأحكام القدرية أيضًا تعتبر حكم مثل ما قلنا: إن الحكم قسمين: كوني، وقدري وفي الحقيقة أنه لابد أن يضاف: أن ما يصدر عنه من أحكام جزائية أو قدرية أو تشريعية فهي حق.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ من أَبانَ يعني: من الفعل الرباعي، وأبان بمعنى: أظهر أم بمعنى: ظهر؟

أبان الفعل الرباعي هذا قالوا: إنه يستعمل متعديًا ولازمًا، يستعمل لازمًا بمعنى (بانْ)، ومتعديًا بمعنى (بانَ) أي: ظهر.

قوله: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ هل المعنى البيّن الأحقية، أو المعني الذي أبان لخلقه أنه حق، أم كلاهما؟ الواقع أن الله تعالى بيّن الأحقية، وقد أبان لعباده كونه حقًا.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] ما معنى مبين هل هي بمعنى: بيّن أم مبين بمعنى: مُظهِر؟

القرآن بيّن مُبِين، لكن المُبِين هنا أظهر لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

في قوله تعالى: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] مبين هنا بمعنى: بيّن.

والحاصل أن كلمة مبين تستعمل من المتعدي واللازم؛ لأن هي أصلًا فعل رباعي أبان تستعمل لازمًا ومتعديًا فإن كان لازمًا فهي بمعنى بيّن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وإن كانت من المتعدي فهي بمعنى: مُظهِر للشيء مُبيِّنه، أَبَنْتَه بمعنى: أَظْهَرْتَه حتى بان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] أي: مُظهر لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، وكذلك أيضًا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] بمعنى: مُظهِر، وإن كان باللازم أنه إذا كان مُظهرًا فهو ظاهر في نفسه فالمبين بمعنى: مظهر لابد أن يكون بيّنًا في نفسه وإلا لما أظهره.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ هذه الآية ننزلها على المبين اللازم والمتعدي؛ لأن الله تعالى بيّن الأحقية ومبين ذلك لعباده.

كيف أبان لعباده أنه الحق؟

أولًا: بما ركب فيهم من الفطر السليمة والعقول؛ ولهذا دائمًا يُحيل الله سبحانه وتعالى هذه الأمور إلى العقل فيقول: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] دليل على أن العقل مرجع، لكن المراد بالعقل: العقل السليم الذي ليس فيه شبهات وليس فيه شهوات، وأما العقل الذي استولت عليه الشبهات أو الشهوات فهذا عقل فاسد.

أيضًا أبان الحق تبارك وتعالى بغير العقل، بالفطرة فإن الفطرة السليمة تشهد بالحق وأبان العقل بالوحي الذي أرسل به الرسل، فتكون إبانة الله تعالى للحق بهذه الطرق الثلاثة: العقل، والفطرة، والوحي.

كل هذه الطرق الثلاث يتبين بها الحق، ولذلك يضرب الله الأمثال للناس؛ لأجل أنهم يعتبرون المورد، والمصدر، مورد المثل ومضربه فيعتبرون بهذا على هذا والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور: ٢٦-٢٩]

التفسير

قال العلامة السعدي:

[﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء -خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي؟!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها.

ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالًا، ولا لشك وشبهة مجالًا، فقال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلًا، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.

[ثم][1] يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك

---

(١) من وضعنا نحن.

عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناسًا، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل»؟

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان.

وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من احترازات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لفظ عام في كل بيت ليس ملكًا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية][1].

(١) نقلنا تفسير هذه الآيات: (٢٦ ـ ٢٩) من تفسير العلامة السعدي؛ لعدم توفر المادة العلمية لدينا في مصادرنا.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]

❁ التفسير ❁

أولًا: الكلام على قوله: ﴿يَغُضُّوا﴾ ما جازمها؟

ثلاثة أقوال: إما أنها مجزومة باللام المقدرة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليغضوا من أبصارهم، وذكرنا لذلك شاهدًا وهو: محمد تفد نفسك كل نفس، يعني: لتفد.

أو جواب للأمر الموجود وهو ﴿قُل﴾ وأوردنا على ذلك ما يُضَعِّفه وهو: أن مجرد القول لا يلزم منه الغض، اللهم إلا على فرض أن المؤمن لابد إذا قيل له أن يغض غض.

الوجه الثالث: أنه جواب لأمر مقدر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ غضوا من أبصاركم يغضوا من أبصارهم، غضوا يغضوا. والغض معناه: القصر أو النقص.

قوله: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ المؤلف يرى أنها زائدة، والصحيح أنها للتبعيض وليست زائدة.

والذي يُضعف ما ذهب إليه المؤلف ثلاثة أوجه:

أولًا: المشهور أن (مِنْ) لا تزاد إلا في النفي والشدة وهذه في الإثبات.

ثانيًا: إن غض البصر ليس واجبًا دائمًا؛ بل هو جائز لماذا كان جائزًا وحفظ الفرج كله واجب؟ قالوا: لأن غض البصر من باب سد الذرائع، تحريم إطلاق البصر من باب سد الذرائع ولذلك يجوز إذا كانت المصلحة في فعله بخلاف حفظ الفرج.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ

وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ الكلام فيها كالكلام في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: على رأي المؤلف أن المراد بالزينة: (إلا ما ظهر منها) المراد بالمستثنى هنا: الوجه والكفان.

القول الثاني: من اللباس الذي لابد من ظهوره.

تفسير المؤلف للزينة بأنها الزينة الخِلْقِية التي زَيَّن الله بها البدن غير صحيح، والسبب أن المراد بالزينة ـ على الصحيح ـ الزينة الخارجية وهي: ما تتزين به المرأة وليس الزينة الخلقية التي خلق الله المرأة عليها، والدليل: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ [الأعراف:٣٢] وفي آخر هذه الآية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل:٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف:٤٦] كل من تأمل الزينة وجدها في الزينة الخارجية، لا فيما زين الله به المرأة، وعلى هذا يكون الاستثناء عائدًا على ما يبدو من الثياب الذي لابد من ظهوره؛ وذلك لأنها لو حُرِّم عليها حتى الثياب التي تبدو ولابد من ظهورها لوجب عليها أن تبقى بالبيت إذ لا يمكن تطبيق هذا الأمر إلا بذلك وهذا أمر لم يكلف الله به.

إذنْ تبين أن قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن الراجح فيه: ما ظهر من اللباس يعني: الشيء الذي لابد من ظهوره، وظهوره ضروري هذا مباح، ويدل على ذلك أيضًا: أن الزينة لا تُستعمل إلا فيما يَتَزَيَّن به الإنسان من لباس وغيره، ويؤيده أيضًا ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ ﴾ ولو كان المراد الوجه والكفين لقال: إلا ما أُظهر مثلًا؛ لأنه ما يظهر إلا إذا أُظهر.

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ ضرب بالشيء على الشيء بمعنى ألقاه عليه، لكن مع الإلصاق، بمعنى: ألقاه عليه لاصقًا به، ومنه ضربت بيدي على يدي أو على فخذي أو ما أشبه ذلك، هذا معنى الضرب على الجيوب، ﴿بِخُمُرِهِنَّ ﴾ جمع خمار وهو ما تُغَطِّي به المرأةُ رأسها ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ جمع جَيْب، وهو طَوْقُ الثوب يُسمى جيب، ولا يزال الناس إلى الآن يسمونه بهذا الاسم.

أوجب الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ اللام لام الأمر، والسكون في قوله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ ليس سكون إعراب ولكنه سكون بناء؛ لأن الفعل متصل بنون النسوة ويكون مبنيًّا على السكون مهما كان الأمر.

هنا أمر الله سبحانه وتعالى أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها، ولزم من ذلك أن ينزل من رأسها إلى الجيب، فهل المراد بضرب الخمار على الجيب أن يكون من تحت الوجه بحيث يبقى الوجه مكشوفًا والجيب مستورًا، أو أن المعنى أن تضرب بالخمار على الجيب مارًّا بالوجه؟ لأن هذا هو الأقرب الخمار ينزل من الأعلى يعني من فوق الرأس، ثم الجيب إذا وجب ستره فالوجه من باب أولى.

وكان النساء في الجاهلية - على حسب ما قاله بعض المفسرين - كانت - إحداهن - تسدل الخمار من وراءها ولا يقرب وجهها ولا جيبها، ولهذا أمر الله النساء أن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ، وعند من يرى أن المراد بالزينة الوجه والكفان يقول: تضرب بخمارها على جيبها من أسفل فتغطي الجيب وتكشف الوجه، مع أن الوجه أعظم فتنة من الجيب.

قوله: [﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: يسترن الرؤوس والأعناق والصدور بالمقانع] المقانع جمع مِقْنِعَة وهي: ما تُقَنَّع به المرأة يعني: ما نسميه عندنا الآن الغترة.

[﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جمع بعل، أي: زوج...إلخ]

قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فاستثنى من الزينة، وهنا قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستثنى من يُبْدَى له الزينة، هناك استثنى الزينة المبداة وهنا استثنى من تُبْدَى له الزينة، وبينهما فرق، الآن لو أخذنا بظاهر الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قلنا: المراد بالزينة: هي الزينة الأولى فتصير: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولا يبدين هذه الزينة أيضًا ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وحينئذ نكون قد خصصنا عموم ما سبق من الآية.

عندنا الآن نهي عن إبداء الزينة في موضعين استُثْنِي من الموضع الأول الزينة، ومن الموضع الثاني: مَن يُبْدَى له الزينة، فهل نجعل الاستثناءين يَنْصَبَّان على عمل واحد ونقول: لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها لبعولتهن...إلخ. وحينئذ يكون غير هؤلاء الذين استثنوا يَحْرُم إبداء الزينة لهم مطلقًا الظاهرة والخفية؟ الجواب: هذا احتمال.

والاحتمال الآخر: أن نقول: إن الزينة زينتان: زينةٌ ظاهرة تُبْدَى لكل أحد، وزينة خفية لا تبدى إلا لهؤلاء، وعلى هذا مشى المؤلف، على أن هذه الزينة غير الزينة الأولى، فالزينة الأولى: عامة؛ فأبيح منها ما ظهر لكل أحد، والثانية: هذه ليست عامة، بل المراد بها: الخفية التي لا تظهر، أو التي ليس من الضروري أن تظهر.

هذه الزينة يقول المؤلف: [وهي ما عدا الوجه والكفين] بناء على تفسير قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين، لكن الصحيح أن المراد الخفية: هي التي ليست من الضرورة أن تظهر

يعني: الثياب الداخلية - كما يقول العامة - هذه لا تبدى إلا للمذكورين ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾... إلخ.

البعولة جمع بعل وهو: الزوج.

وقوله: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهذا يشمل الأب الأدنى ومن فوقه كالأجداد، واعلم أن باب التحريم غير باب الإرث، باب الإرث: الأبوة والبنوة لا تشمل إلا مَن يتصلون إليك بطريق الأب، يعني: بطريق الذكورة، فابن البنت مثلًا وأب الأم لا علاقة لهم بالإرث، لكن في باب التحريم - النكاح وما يتصل به - يشمل الآباء من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم، يعني: لا فرق بين من بينك وبينه أنثى ومن ليس بينك وبينه أنثى.

هناك في باب الأصول والفروع في الإرث الذي بينه وبينه أنثى من الآباء لا يرث، لكن هنا الذي بينك وبينه أنثى والذي ليس بينك وبينه أنثى على حد سواء، وعليه فنقول: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يشمل الأب الأدنى والجد من قِبَل الأب ومن قِبَل الأم.

وقوله: ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ نفس الشيء آباء البعولة يجوز للمرأة أن تبدي لهم الزينة الخفية كما تبدي الزينة الظاهرة لكل أحد، وآباء البعولة هنا يشمل أب الزوج وجده من قِبَلِ الأب ومن قِبَل الأم، ولهذا كان أبا الزوج مَحْرَمًا للزوجة وإن علا، يعني: لزوجة ابنه وإن نزل سواء تزوجها ودخل بها، أو تزوجها وطلقها قبل الدخول، أو مات عنها، فإن آباءهم محارم لهن.

وقوله: ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ الابن هنا نقول فيه ما قلناه في الأب، يعني: أنه لا فرق بين الابن للصُلْب الذي يتصل بالإنسان بطريق الذكورة، والابن الذي يتصل بطريق الأنوثة، فابن البنت مثلًا يدخل في الأبناء، ومثله أيضًا أبناء بعولتهن، ابن الزوج يجوز للزوجة أن تبدي له الزينة الخفية.

ابن بنت الزوج كذلك، وعلى هذا يكون جميع من تفرع عن الزوج من ذكور وإناث وإن نزلوا يكونون محارم لزوجة جدهم، إلا أنه في هذه المسألة يُشترط الدخول بالمرأة، لأنهم من الربائب، والربائب لابد من الدخول، فلو أن رجلًا تزوج امرأة عقد عليها ثم طلقها أو مات عنها قبل الدخول لم يكن أولاده محارمَ لها؛ لأن من شرط ذلك الدخول كما قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣].

وقوله: ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أشقاء أو لأب أو لأم، ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وإن نزلوا، فالعمة يجوز أن تبدي لابن أخيها ما يخفى من زينتها؛ لأنه من محارمها، ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ويكن لهم خالات، إذنْ فالخالة يجوز أن تبدي لابن أختها ما يخفى من زينتها؛ لأنه من محارمها.

مسألة: هل بقي أحد من الأقارب محارم ولم يُذكر في هذه الآية؟

الجواب: نعم، بقي الأعمام ما ذكروا في هذه الآية، والأخوال ما ذكروا في هذه الآية، مع أنهم

من المحارم، والآية صريحة استثناء ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ فعلى هذا العم والخال لا يجوز للمرأة أن تبدي لهم الزينة الخفية؛ لأن الآية حصرت ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ لهؤلاء، وعلى هذا ليس كل مَحْرَم يجوز أن تبدى له الزينة لماذا؟

قالوا: لأن إبداء الزينة للعم والخال يُخْشَى منه أن يصف ذلك لابنه؛ لأن ابن العم يجوز أن يتزوج بنت عمه، وابن الخال يجوز أن يتزوج بنت عمته، فلذلك قالوا: لا تُبْدَى الزينة للعم والخال وإن كانا من المحارم، وفي هذا دلالة بَيِّنة على أنه ليس المراد بالزينة هنا: كما قال المؤلف ما عدا الوجه والكفين؛ لأن الوجه والكفين يجوز إبداؤها للعم والخال؛ لأنهما من المحارم، ولكن هذه الزينة زينة اللباس الخفية وعلى هذا فلا يجوز للمرأة أن تتجمل عند عمها أو خالها.

مسألة: كذلك الرضاع ما ذكر هنا، هل حكمهم حكم المذكورين هنا أم لا؟

الجواب: معلوم أن ما يحرم من الرضاع يحرم من النسب لكن هو ليس من باب التحريم، ولهذا أُسْقِطَ العم والخال وهما حرام، فالمسألة ليست من باب التحريم.

العم هل يجوز له أن ينظر من المرأة ما ينظر إليه الأخ ـ من حيث المحرمية لا من حيث الزينة ـ؟!

حقيقة الأمر أن مسألة إبداء الزينة غير مسألة المحرمية، إذا كان العم والخال ما ذكروا مع أنهما من المحارم دلَّ ذلك على أن مسألة إبداء الزينة غير المحرمية؛ لأن المسألة هنا حسَّاسة جدًّا في الحقيقة، ولذلك الأخوة من الرضاع عند الناس كلهم أنه يجوز للمرأة أن تتجمل لهم وتتبهّى لهم مع أن المسألة خطيرة جدًّا في الحقيقة، وكم من أناس ـ والعياذ بالله ـ فجروا بأخواتهم من الرضاعة!! لأن الصلة ليست صلة رحم ونسب، بل صلة رضاع، فهي أضعف من صلة النسب والرحم؛ لذلك يحصل من بعض الناس الذين لا يخافون من الله من تحرُّك الشهوة، والتمتع بالنظر إلى أخواتهم أو خالاتهم من الرضاع ما هو معلوم، لذلك كره بعض العلماء للمرأة أن تبدي زينتها لمحارمها من الرضاع وقال: إن ذلك فيه خطر، ولهذا لم يتعرض الله سبحانه وتعالى للرضاعة إطلاقًا أبدًا وليس هذا من باب التحريم، وإذا كان من التحريم يقول النبي ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١)، فالمسألة هنا إبداء زينة، وقد عُلِمَ الآن بحسب هذا الحصر أنها ليست لها علاقة بمسألة المحرمية، ويدل على ذلك أنه استثنى أشياء ما هم محارم مثل ما ملكت أيمانهم والتابعين من غير أولي الإربة، والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، فدل ذلك على أن هذه المسألة ليس لها علاقة بمسألة المحرمية، وإنما هي مسألة مستقلة تعود إلى أمر حسَّاس دقيق؛ لأن كل الاستثناءات المذكورة كلها استثناءات في حماية الأعراض وتطهير النفوس وإبعادها عن الدنس، ولذلك تجد فيها احترازات بالغة الأهمية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

فالذي يظهر لي من سياق الآية: أنه يجب إبقاءها على عمومها، وعلى خصوصها أيضًا؛ وأن ما استُثْنِيَ فيها فله حكم الاستثناء، وما لم يذكر فيها فهو باق على النهي ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والباقي باقٍ على النهي.

قد يقول قائل: إذا كان بني الأخ وبني الأخت يجوز إبداء الزينة لهم؛ لأنها عمتهم أو خالتهم فلماذا لا يكون العكس؟ لأن عمها وخالها إما تكون بنت أخته أو بنت أخيه، العم تكون بنت أخيه والخال تكون هي بنت أخته، فإذا كان يجوز لها إبداء الزينة لابن أخيها ولابن أختها أفلا يجوز العكس لأن الصلة واحدة؟

نقول: لا؛ لأن ابن أخيها، وابن أختها تشعر هي بأن لها العلو عليهم؛ لأنها عمة أو خالة فهم يحترمونها وليست هي التي تحترمهم، لكن مسألة العم والخال يشعران بعلو مرتبتهما على بنت أخيهما وبنت أختهما، فهي تحترمهما وهما لا يحترمانها، فلذلك يكون القياس هنا غير وجيه، والآية ما فيها مجال للقياس أبدًا؛ لأن فيها تفصيل بالعين إلا فلان، وفلان، وفلان، ما هي قواعد عامة.

أما المحرمية: فيجوز أن تُبْدِي له الوجه والكفين وما يظهر غالبًا، لكن مسألة الثياب؛ لأننا رجَّحنا أن الغالب في الزينة ما هي الزينة الخلقية التي خلق الله المرأة عليها إنما المراد بالزينة: اللباس فنقول: الزينة الخفية التي جرت العادة بأن المرأة لا تظهر بها إلا في حالات معينة ما تُبْدَى لهؤلاء العم والخال.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ اختلف المفسرون فيها فمنهم من قال: إن الإضافة للنوع ومنهم من قال: إن الإضافة للجنس.

الذين قالوا: إن الإضافة للنوع قالوا: المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات؛ لأنه قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالمراد بنسائهن أي: ما كان من نوعهن فالإضافة من باب إضافة الشيء إلى نوعه يعني: نساء المؤمنات.

وبعضهم قال: من باب إضافة الجنس يعني: أنه أضيف النساء إليهن باعتبار الجنس يعني: أو النساء اللاتي من جنسهن يعني: نساء.

فعلى القول الأول: لا يجوز للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها للكافرة؛ لأنها ليست من نوعها، ولأنها ـ في الحقيقة ـ الكافرة غير مؤتمنة قد تغري بها الفساق والكفار إذا رأتها تتجمل وتتبهَّى وتبدي زينتها.

والقول الثاني: أن المراد بنسائهن: الجنس يعني: النساء اللاتي من جنسهن، وعليه فيجوز للمرأة أن تبدي ما خفي من زينتها لجميع النساء، من مؤمنات وغير مؤمنات، وهذا هو الأقرب،

واحتمال أن هذه المرأة الكافرة تغري بها الفساق والكفار هذا وارد، لكن هذا الاحتمال أيضًا وارد في المسلمات، فإن المسلمة غير المؤمنة ربما يحصل منها ذلك، وهذه المسائل في الحقيقة دقيقة جدًّا، وقد ترد حتى مع النساء بعضهن البعض، ولذلك المساحقة بين النساء موجودة؛ لأن المرأة تعشق المرأة وتتعلق بها كما يتعلق الرجل بالمرأة، ويحصل منها هذا الفعل المحرم.

وقوله: [﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيجوز له نظره إلا ما دون السرة والركبة فيحرم نظره لغير الأزواج] المؤلف يسير على أن المراد بالزينة هنا: ما زيَّن الله به المرأة يقول: هؤلاء الذين استثنوا ما ملكت أيمانهن يعني: العبيد، وكذلك الإماء اللاتي ملكهن النساء، ولابد أن يكون المُلك تامًّا، فإن كان لها عبد مشترك فإنه لا يجوز لها إبداء الزينة له؛ لأنه لا يقال ملكته وإنما ملكت بعضه، ولهذا لا يجوز للرجل أن يتسرى الأمة المشتركة، إذا كانت أمة مشتركة بينه وبين شخص ما يجوزأن يتسرى بها؛ لأنها ليست ملكه، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تبدي شيئًا من زينتها الخفية لمملوك بينها وبين غيرها؛ لأنه لا يصدق عليه أنه ملكها بل إنه مشترك.

يقول: [فيجوز لهم نظره، إلا ما بين السرة والركبة فيحرم نظره].

المؤلف سائر - على ما أشرنا إليه سابقًا - أن المراد بالزينة ما زين الله به المرأة ويقول: إن هؤلاء المستثنين يجوز للمرأة أن تبدي لهم ما دون السرة والركبة، يجوز للمرأة أن تبدي للأخوة وابن أخيها وابن أختها وأب زوجها يجوز تبدي صدرها وبطنها وثدييها وكل شيء، ما عدا ما بين السرة والركبة، لكن هذا فيه نظر، وفيه فتنة عظيمة، لو قلنا بجواز هذا لحصل به فتنة كبيرة جدًّا، امرأة مثلًا شابة زوجة ابنه تأتي إليه بهذه المثابة، ولنفرض أيضًا أنه هو رجل شاب هذا ما أحد يقوله.

لكن مع هذا لاحظوا بشرط أن تُؤمَن الفتنة، يعني: حتى على رأي المؤلف لابد من أمن الفتنة؛ فإن لم تؤمن الفتنة حَرُم، لكن حتى وإذا أمنت الفتنة فإن هذا فتح باب لها بلا شك، ولهذا الصحيح في المسألة - بقطع النظر - عن كون هذا المراد بالآية أو غير المراد بالآية - الصحيح أنه لا يجوز للمرأة أن تكشف للمحارم إلا ما جرت العادة به فقط؛ لأن ما جرت العادة به لا يُحتشم منه ولا يُبَالَى به، في عرفنا الآن تُخْرِج الكف، والذراع، والساق، والرأس، والرقبة كل هذا يخرج عادة للمحارم، ولهذا لو زاد على هذا الأمر لوجدت الناس يُنكرونه.

على كل حال: الصحيح في هذه المسالة أن يرجع إلى ما جرت به العادة، إلا في الشيء الذي لا يمكن كشفه إلا بفتنة متوقعة، أو لازمة فهذا لا يجوز.

إذنْ يبقى النظر في غير المحارم ممن تُبْتَلَى بهم المرأة مثل: إخوة الزوج، إذا كان الإنسان عنده في البيت أخ، وكل أخ من الأخوين له زوجة، على المشهور من المذهب أنه لا يجوز أن تبدي لا كف ولا وجه ولا قدم ولا غيره؛ وأن هذا الرجل مثل الرجل الذي في السوق، ولو أخذنا بهذا في

الحقيقة للحَقِّ الناس حرج كبير، نقول للمرأة إذا ظهر أخو زوجك لابد أن لا يظهر منك ولا ظفر ولا شعرة هذا في الحقيقة فيه مشقة وحرج؛ ولهذا الصحيح في هذه المسألة أن مسألة الكف والقدم مما يشق التحرز منه لا بأس به، أما الوجه فلا يجوز؛ لأن التحرز منه ممكن بخلاف الكف والرجل، وهذه امرأة تعمل في البيت تكنس وتفرش كيف تحرز من أخي زوجها؟!

لهذا نقول: إن ما يشق التحرز منه من إظهار القدم والكف فالصحيح أنه لا بأس به، وقد مشى على ذلك بعض فقهاء الحنابلة، وقال في «**الإنصاف**»: إنه ما يسع الناس العمل إلا بهذا، وهذا صحيح.

يقول في التفسير: [وخرج بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ الكافرات فلا يجوز للمسلمات الكشف لهن، وشمل ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ العبيد].

قوله: [خرج وشمل]، خرج بنسائهن الكافرات، بناءً على أن الإضافة نوعية لا جنسية، وأن المراد بنسائهن: أي المسلمات.

وأما على القول الثاني: أن المراد بالنساء أنه من باب إضافة الجنس إلى جنسه، يعني: الذين من جنسكم وهن النساء فلا تخرج الكافرات، بل يشمل المؤمنات والكافرات.

وقد ذكروا أن الصحابة ﵃ لما فتحوا الأمصار كان فيها قوابل من الكافرات، فأقرهن الصحابة على ذلك، وهذا مما يدل على أن المراد بنسائهن النساء دون المسلمات، ليس بقيد المسلمات، نعم إن خيف منها ضرر فهذا شيء آخر، وخوف الضرر حتى في المسلمة.

وقوله: [وشمل ما ملكت أيمانهن العبيد] أي في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ شمل العبيد.

مسألة: وهل يراد به غير العبيد؟

نقول: نعم، على القول بأن المراد بنسائهن: المسلمات فإن ما ملكت أيمانهن يشمل الأَمَة الكافرة وبذلك يجوز إبداء الزينة لها وإن لم تكن من نسائهن؛ لأنها مملوكة، أما إذا قلت: بنسائهن أي: جميع النساء فإن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يختص بالذكور فقط، لأن النساء معروفات من قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، لكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اضطُر أن يقول ذلك لهذا السبب.

على أنه من أهل العلم من قصر قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ على النساء الكافرات فقط، وقال: إن العبد لا يجوز لسيدته إبداء الزينة له، وإنما المراد بـ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ لأجل أن تدخل الأمة المملوكة إذا كانت كافرة؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، ودخلت في ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

لكن الصحيح أن نساءهن - كما أشرنا إليه سابقًا - المراد به: الجنس، وأن جميع النساء من مسلمات وكافرات يجوز إبداء الزينة لهن، إلا إذا خشي المحظور، فإذا خشي المحظور فهذا لو كانت

مسلمة كما نهى النبي ﷺ: «أَنْ تَنْعَتَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا»(١) يعني: تقول مثلًا: فلانة هذه كذا وكذا وتصفها حتى كأنه يشاهدها؛ لأن الرسول ﷺ نهى المرأة أن تنعت المرأة لزوجها على هذا الوجه.

فإذا خُشي المحظور فهذا شيء آخر، لكن هذه الأشياء بدون المحظور.

قال: [﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾ في فضول الطعام ﴿غَيْرِ﴾ بالجر صفة، والنصب استثناء ﴿أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ أصحاب الحاجة إلى النساء] أصحاب تفسير (لأولي) و(الإربة): الحاجة إلى النساء [﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ بأن لم ينتشر ذكر كل].

قوله تعالى: ﴿التَّابِعِينَ﴾ يقول المؤلف: في [فضول الطعام]، ﴿التَّابِعِينَ﴾ المراد بهم: الخدم وشبههم الذين يتبعون أهل البيت، أو التابعين أيضًا الذين يأتون إلى الناس ليأكلوا من فضول طعامهم وإن لم يكونوا خدمًا لهم، فهو شامل لهؤلاء وهؤلاء، فالتابع: هو الذي يتبع أهل البيت إما لكونه خادمًا عندهم، وإما لكونه يتلقى فضول الطعام منهم، لكن التابعين يجوز إبداء الزينة لهم بشرط ألا يكون لهم (إربة) يعني: حاجة في النساء، وقول المؤلف: [بأن لم ينتشر ذكر كل] ليس هذا هو العلامة ليس العلامة أن لا ينتشر ذَكَرُه بل العلامة: أن لا يُعرف منه ميل إلى النساء؛ لأن من الناس من يميل إلى النساء وإن كان ذَكَرُه لا ينتشر، فالعلامة أن لا يوجد منه ميل إلى النساء إطلاقًا لا عند قيام ذكره ولا عند عدم قيامه، الكلام على أنه لا يشتهي النساء ولا يميل إليهن.

هذا كالمرأة، لمشقة التحرز منه أباح الله تعالى للنساء أن يبدين زينتهن له.

وخلاصة القول: التابع هو الذي يتبع أهل البيت لتلقي فضول طعامهم، إما لكونه خادمًا فيهم أو غير خادم، لكن اشترط الله سبحانه وتعالى في التابع أن لا يكون له إربة في النساء.

وما معنى إربة؟ يعني: حاجة وهل العلامة ما ذكره المؤلف؟ لا ليس ما ذكره المؤلف هو العلامة بل العلامة أن يُعلم أنه لا يميل إلى النساء ولا يرغب بهن، والغالب أنه لا يقوم ذكره لكنه ليس بلازم، قد يكون الإنسان ممن يميل إلى النساء ويحبهم لكن لا يقوم ذكره لذلك الصحيح في هذه المسألة: أننا نعلم عدم حاجته وبعدم ميله إلى النساء .

ولهذا كان في بيوت آل النبي ﷺ رجل مخنث يعني: من غير أولي الإربة، ما كانوا يعلمون به، حتى إنه في يوم من الأيام قال لرجل من محارم إحدى زوجات النبي عليه الصلاة والسلام: (إِذَا فَتَحْتُمُ الطَّائِفَ فَعَلَيْكُمْ بِابْنَةِ غَيْلَانَ؛ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ)(٢)، هذا الذي يصف المرأة هذا الوصف يدل على أنه يميل إلى النساء، فمنعه النبي ﷺ من الدخول على أهل بيته؛ لأنه تبين أنه

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٠)، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبو داود (٢١٥٠س).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٣٥)، ومسلم (٢١٨٠).

يميل إلى النساء، فإذا وُجِد أن هذا التابع يصف النساء ويصف جمالهن وما أشبه ذلك، عُلم أنه صاحب حاجة وأما مسألة قيام الذكر هذا ما هو العلامة.

[قال: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ بمعنى: الأطفال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ أي: يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجماع، فيجوز أن يُبدين لهم ما عدا ما بين السرة والركبة].

قوله: ﴿ٱلطِّفْلِ﴾ يقول المؤلف: بمعنى: الأطفال فهي اسم جنس بمعنى: الأطفال الدليل على أنها بمعنى: الأطفال قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حيث وصفها بالجمع ولا يوصف المفرد بالجمع، لكن فيه دليل على أن اسم الجنس إذا حُلي بأل يكون للعموم ولو كان مفردًا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ يظهروا بمعنى: يَطّلعوا على ﴿عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ للجماع، والمعنى: أنهم لا يعرفون ما يتعلق بالعورات، فقوله: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ أي: لم يطلعوا بحيث لا يدرون ماذا يُفعل بالعورات، هذا هو المراد، ليس المراد الاطلاع بالعين؛ لأن الاطلاع بالعين هذا يكون من الأطفال وغيرهم، لكن المراد بالاطلاع: أنهم لا يدرون ماذا يُصنع بالعورات، ولا يرد لهم على بال، هؤلاء الأطفال يجوز أن تبدي لهم الزينة.

وقول المؤلف: [يُظهر لهم ما عدا ما بين السرة والركبة] بناءً على أن المراد بالزينة هنا: ما زَيَّن الله به المرأة لا أنها اللباس.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾.

صارت الأصناف الآن اثني عشر صنفًا: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ هؤلاء هم الذين تبدي لهم الزينة الخفية، ومن عداهم لا تبدي لهم، هذا هو ظاهر الآية؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ والاستثناء هذا مفرَّغ يقتضي أن من سوى هؤلاء لا يجوز إبداء الزينة لهم.

لكن بعض العلماء ألحق بهم بقية المحارم من مصاهرة أو نسب أو رضاع؛ لأن مِن المحارم من النسب مَن لم يُذكروا مثل: الأعمام والأخوال، وأيضًا من المصاهرة مَن لم يُذكر؛ لأنه قال: ﴿ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ معناه: أنها تكون زوجة ابنه ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ تكون زوجة أب، يعني: أن زوجة الأب تبدي لأبناء زوجها الزينة، وزوجة الابن تبدي لأباء زوجها الزينة.

زوج البنت لم يُذكَر، وهو من المصاهرة، فبعض العلماء يقول: إنه يُلحق بِمَن ذكر، وعندنا أيضًا الرضاع كله بجميع أقسامه لم يُذكَر، ألحقه بعض العلماء مدَّعين أن ذكر البعض يدل على

البقية، وأن العرب في كلامهم أحيانًا يقتصرون على ذكر البعض تنبيهًا على البقية، لكن هذا ليس بجيد وجه ذلك:

أن ذِكر البعض الذي يُراد به إلحاق البقية يكتفى منه بذكر واحد، ويكون هذا الواحد على سبيل التمثيل، أما أن يذكر عدد من جنس ويُحذف الباقي وبطريق الحصر فهذا غير مُسَلَّم.

لكن يبقى عندنا النظر في مسألة إبداء الزينة التي زينها الله بها يعني: الوجه واليدين وما أشبه ذلك فهذا له دليل غير هذه الآية، فنقول: هذه الآية في زينة اللباس وشبهه، ويجب إبقائها على ما ذكر الله سبحانه وتعالى.

وأما مسألة إبداء الوجه والكفين والساق والرقبة وما أشبه ذلك فهذا يؤخذ من أدلة أخرى.

المسألة الأولى: هؤلاء الاثنى عشر هل هم على حد سواء فيما يُبدى من الزينة، أو ليسوا على حد سواء؟

الجواب: ليسوا على حد سواء بلا شك، ولهذا بدأ الله بالزوج؛ لأنه أعلى من تُبدى له الزينة بمطلقها، والباقين ممكن أن يُقال: على الترتيب، ويمكن ألا يقال: على الترتيب بل يُنظر إلى ما جرت به العادة؛ لأن حقيقة الأمر أنه مثلًا الأخ إذا كان عند أخته دائِمًا في البيت ليست مثل ما إذا لم يكن لا يأتيها إلا نادرًا أيُّ الحالين أشد تحشمًا بالنسبة لها؟ إذا كان ما يأتي إلا نادرًا، بقيت تستحي منه وتحتشم أكثر مما إذا كان دائمًا عندها، فينبغي لمثل هذه الأشياء يقال بترتيبهم أما الزوج، فهو على كل حال في القمة وأما البقية فعلى حسب ما يدعو إليه العرف والعادة بالنسبة لإبداء الزينة كاملة أو متوسطة أو أدنى ما يقال: إنه زينة.

المسألة الثانية: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ هل يجب على المرأة أن تحتجب عن الرجل، يعني: هل يَحرُم عليها أن تنظر إلى الرجل أو لا يحرم؟ يعني إذا قلنا: إن المراد بالزينة هنا ما زين الله به المرأة أو ما زين الله به الرجل فهل يجب عليها أن تغض الطرف عن الرجل أولا يجب؟

هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم منهم من قال: إنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل كما لا يجوز للرجل أن ينظر إلى المرأة؛ لأن الآية واحدة ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، وأيدوا قولهم هذا بحديث أُمِّ سَلَمَة والمرأة الأخرى لما دخل ابن أم مكتوم قال النبي ﷺ: «احْتَجِبَا مِنْهُ» قالتا: يا رسول الله! إنه رجل أعمى، قال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟»(1)، فلما أوردا عليه أنه أعمى قال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟» وأمرهما بالاحتجاب.

لكن هذا الحديث لا يصح عند أهل العلم؛ لأنه من رواية نبهان مولى أبي سلمة وهو مجهول؛ ولذلك ضعفه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم إنه لا يمكن هذا الحديث، ولذلك الصحيح أنه يجوز

---

(1) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٩٦)، أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٨٠٦).

للمرأة أن تنظر إلى الرجل إذا لم يكن هناك فتنة أو شهوة، ويدل على ذلك أحاديث صحيحة صريحة منها: حديث عائشة رضي الله عنها حينما كانت تَطَّلع إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد والنبي ﷺ يسترها وهي تنظر إليهم، حتى إنها هي التي تركت هذا الشيء، وهذا دليل واضح على جواز نظر المرأة إلى الرجل.

كذلك أيضًا قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ عِنْدَهُ»(١) هذا أيضًا صريح واضح في أن المرأة يجوز أن تنظر إلى الرجل.

وأيضًا قال فقهاؤنا رحمهم الله: لو كان يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل لوجب على الرجال أن يحتجبوا مثلما أن المرأة تحتجب عن الرجل لئلا ينظر إليها، فنقول أيضًا: الرجل يحتجب عن المرأة لئلا تنظر إليه؛ لأنه لن يتم الواجب إلا بهذا! لأنه لو كان الرجل مكشوف فإن المرأة ستراه إلا إذا احتجب كما هي احتجبت، ولم يقُل أحدٌ من أهل العلم: إنه يجب على الرجل أن يحتجب عن المرأة.

ولهذا الصحيح في هذه المسألة مذهب الإمام أحمد: أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل، ولكن كل هذه المسائل هذه وغيرها كل ما قلنا يجوز: بشرط أَمْنِ الفتنة، أما إذا كان هناك فتنة فإنه لا يجوز أن تنظر ولا إلى صورة الرجل، حتى صورة الرجل التي تكون في بطاقة، أو تكون مثلًا تظهر في التليفزيون لا يجوز أن تنظر إليها إذا كان يخشى من الفتنة، وكذلك بالنسبة للرجل أيضًا.

مسألة: هل يجوز للرجل أن ينظر إلى صورة المرأة الأجنبية منه أم لا يجوز؟

الجواب: نقول: النظر إلى الصورة لا يساوي النظر إلى الحقيقة، وليس هو الذي ورد به النهي، ولكن متى تضمن ذلك فتنة بكونه يتعلق بها أو يقتنيها؛ فإن ذلك يكون حرامًا وإلا فلا شيء فيه.

مسألة: بالنسبة للنظر إليها في التليفزيون؟

الجواب: الحقيقة أن الفرق بينهما: أنها هنا تتحرك والثاني في الغالب إذا صارت ملونة يحكى حالها أكثر، وكذلك الصوت، وكذلك التغني إذا تغنت، والتمايل والرقص وما أشبه ذلك، لكن إذا قدرنا أنها امرأة عادية طبيعية تذيع مثلًا هل يحرم النظر إليها أو لا يحرم؟

أنا عندي أن النفس ما تتعلق بها لو رأتها في التليفزيون مثل لو رأتها حقيقة، أنا عندي فرق بين أن ينظر إلى امرأة في التليفزيون أو ينظر إلى امرأة في الحقيقة، أنا في ظني أن بينهما فرقًا، وهي في الحقيقة أن بعض الناس يقول: أن الصورة في التليفزيون أشد من الصورة التي في البطاقة؛ لأنها تحكي الحركة والصوت فتكون الفتنة بها أعظم، ولكن عندي أيضًا أن هذه تمتاز عن الصورة التي بالبطاقة مثل ما قال، تمتاز بأنها تتحرك، ولها صوت، وهذا أدعى للفتنة، لكنها تختلف عنها بأنها لا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

تثبت، والصورة التي في البطاقة تثبت، والإنسان ممكن يجعل عنده صورة بالبطاقة كلما اشتهى أن يتمتع بالنظر إليها ذهب إليها ونظر، لكن هذه ما يتمكن.

ربما يحتجُّ أحدهم بالحديث الذي أوردته وهو نهي النبي ﷺ للمرأة أن تنعت المرأة لزوجها كأنه يشاهدها[1]، فإذا كان الرسول نهى أن تُنعت المرأة للرجل فهذا مثله، الصورة يمكن أشد، هذا هو الذي يمكن أن يقال: إن الصورة تدخل فيه؛ لأن النعت في الحقيقة يعني: ذكر الأوصاف لا يحكي المرأة كما تحكيه الصورة إذا كان النبي ﷺ نهى أن المرأة تباشر المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها، فهذا مثله، ولكن ليس ظاهر لي؛ لأنه في الحقيقة حكاية الوصف بالنسبة للإغراء أشد، لاسيما إذا كان الرسول يقول: «تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا» إن كان هذه الكلمة لزوجها قيد ليس لبيان الغالب؛ لأن كونها تنعت لزوجها هذا يُفضي إلى مفسدة.

أولًا: قد يظن الزوج أن زوجته تكرهه وتنعت له هذه المرأة لأجل أن يتزوجها.

ثانيًا: أنه ربما إذا نعتتها لزوجها أن زوجها يتعلق قلبه بهذه المرأة المنعوته، ويكون ذلك سببًا لفراق هذه الزوجة، يعني: قد يقال: إن هذا ليس لبيان الواقع وإن الغالب أن المرأة لا تصف النساء إلا لزوجها قد يقال: ليس لبيان الغالب لكن لما يترتب عليه من المفاسد حيث يظن الزوج أن هذه المرأة لا تريده ولذلك تصف له النساء لعله يتعلق بهن هذه من جهة، ومن جهة أخرى: أنه ربما أن الزوج نفسه إذا وصفت له زوجته هذه المرأة يتعلق قلبه بها ويرغب عن زوجته التي معه ويتحول إلى الجديدة.

على كل حال أنا ما أستطيع أن أجزم بتحريم النظر إلى المرأة في التليفزيون أو في الصورة إذا لم يكن في ذلك محظور، فإن كان في ذلك محظور فلا شك أنه لا يجوز.

مسألة: فإن قال قائل: لكن الصور قد لا يتعلَّق بها الإنسان ؟

الجواب: هذا صحيح؛ لأن هذا يختلف باعتبار إثارة الفتنة أنه بعيد المنال قد لا تتعلق به نفس الإنسان لاسيما الإنسان العاقل؛ لأنه كيف يطمع الإنسان بما لا يمكن أن ينال بخلاف الأشياء التي يمكن للإنسان ولهذا - والله أعلم - أُبيح للمحارم أن يكشفن وجوههن للمحرم؛ لأنه نفسه لا يمكن أن تتعلق بهن، وأما الرجال الأجانب فلا.

هذه من الحكمة أنه لا يمكن لإنسان أن تتعلق نفسه بأحد من محارمه، ولهذا أُبيح لهن الكشف، المدار على خوف الفتنة، على الفتنة أو خوفها، وأما إذا كان الإنسان طبيعي ولا يهتز قلبه ولا مشاعره لهذا الذي يشاهد فالتحريم وتأثيم الناس به أمر فيه إشكال.

وتعرفون الآن الصور انتشرت فبعض الأقمشة أظن فيها صور نساء، وكذلك أيضًا بعض

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٠)، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبو داود (٢١٥٠).

الصحف، هذه المشكلة يعني: تأثيم الناس في شيء ما يتحققه الإنسان أمر صعب.

أولًا: أنه لا يجوز للإنسان أن يُؤثِّم الناس إلا لشيء قد يغلب على ظنه أو يقطع به، فأما شيء يشك فيه فلا ينبغي أن يؤثِّم الناس به، ولا شك أن التحرز من هذا أولى، ولكن المسألة ليست مسألة التحرز أو الأولوية مسألة التحريم أن تقول: حرام عليك أن تنظر أو ليس حرامًا، أما إذا كان الإنسان يجوز أن ينظر إلى المرأة نفسها فهذا واضح أنه يجوز أن ينظر إلى صورتها، مثل ما قيل في مسألة الخاطب: لو أن رجلًا أراد أن يخطب امرأة وقال: بدلًا من أن يذهب إذا كان يوجد صورة لها أروني صورتها فهذا لا بأس به، وإن كانت الصورة في الحقيقة لا تحكي الواقع تمامًا كما هو مشاهد، الآن تشاهد صور لشخص واحد أحيانًا تجد صورته مشوهة وأحيانًا تجد صورته أحسن من الواقع أيضًا، وأحيانًا تكون الصورة مطابقة للواقع، فالحقيقة أن الصور هذه لا تحكي الواقع تمامًا.

مسألة: فإن قال قائل: هل يجوز النظر للمرأة للضرورة ؟

الجواب: كل شيء حُرِّم تحريم الوسائل فإنه تبيحه المصلحة لا بالضرورة؛ لأن المحرم لذاته لا تبيحه إلا بالضرورة، والمحرم تحريم الوسائل تبيحه المصلحة، فمثلًا عندنا تحريم (ربا الفضل) محرَّم تحريم وسائل، وتبيحه الحاجة كمسألة العرايا، هذه المسألة - مسألة النظر - محرم تحريم وسائل - كما قاله أهل العلم - ولذلك تبيحه المصلحة، والحاجة مثل: نظر الطبيب للمريضة، ونظر الخاطب للمخطوبة، ونظر الشاهد للمشهود عليها، ونظر المعامل حتى المعامل يجوز أن ينظر لمن تعامله، يعني: امرأة جرت العادة أن تبيع وتشتري من الدكان يجوز أن تكشف الوجه يمكن تكون غيرها يعني: إذا شك يجوز يرى وجهها مرة ثانية يجوز هذا نص أهل العلم على جواز هذه المسألة؛ لأن هذا ليس من باب التحريم الذاتي محرم تحريم الوسائل، ويدلك على أن هذا محرم تحريم الوسائل بالنسبة للمحارم لماذا جاز للمرأة ان تكشف وجهها لمحرمها؟ لأن هذه الذريعة شبه منعدمة ولذاك لو قُدِّر أن فيه محرم - والعياذ بالله - مقلوب وأنه ينظر إلى محارمه نظر الأجنبيات وجب منعه.

الحاصل أننا نقول: إن تحريم النظر أصله ليس تحريمًا لذاته؛ لأن المُحرَّم الزنا والفاحشة، لكن النهي عن قربان الزنا لأجل أن لا يكون لنا وسيلة إليه، فتحريم النظر من أجل هذا من باب تحريم الوسائل.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ الضمير يعود على المؤمنات، ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ ضرب برجله معروف يعني: حرَّكها على الأرض بقوة ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [من خِلْخَالٍ يَتَقَعْقَع] يعني: يُصوِّت، فالقعقعة الصوت؛ لأن المرأة إذا صار عليها خلخال وقد ستره السراويل فهو لا يبين للناس ولكن بعض النساء للفتنة - والعياذ بالله -

تضرب برجلها حتى يُسمع الخلخال أي: ليُعرَف أن عليها خلخالًا، فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنات أن يفعلن ذلك أن ﴿يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

واللام في قوله: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقبة؟

يختلف المعنى: إذا قلت: إنها للتعليل صار النهي مُنصَبًّا على ما إذا قَصَدَت ذلك، أي: ضربت برجلها لأجل أن يُعلم؛ وعليه فلو ضربت برجلها على حشرة مثلًا على عقرب أو ما أشبه ذلك، وسُمع الخلخال فإنه لا حرج عليها في ذلك؛ لأنها لم تقصد أن يُعلم ما تخفي من زينتها.

وإذا جعلنا اللام للعاقبة يعني: لا تضرب برجلها؛ فإن عاقبة هذا الضرب أن يُعلم ما تخفي من زينتها، صار النهي عن الضرب بالرجل مطلقًا، سواء أرادت ذلك أم لم ترده.

لا شك أننا إذا نظرنا إلى المحظور من هذا الضرب ـ وهو علم ما أخفي من الزينة ـ فإن هذا المحظور لا فرق بين أن تكون المرأة قاصدة له، أم غير قاصدة هذا المحظور سيحصل إذا ضربت حتى صوت الخلخال سواء كانت قاصدة لهذا الأمر أم لم تقصد، وعلى هذا فيرجح أن تكون اللام للعاقبة ذلك لأن المحظور سيقع.

وإذا نظرنا إلى أن المرأة إذا لم ترد هذا الشيء فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، وهي ضربت برجلها لا لهذا الغرض فلا تكون آثمة به، رجَّحنا أن تكون اللام للتعليل، ولكن الأول أولى أن يقال: إنه لا يجوز الضرب بالرجل ولو لغير هذا القصد؛ وذلك لأنه ينتج أن يُعلم ما تُخْفِي من زينتها.

واللام للتعليل وردت كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] هم ما التقطوه لذلك، إنما التقطوه ليكون قرة عين لهم، لكن العاقبة صارت هكذا.

فعلى كل حال الذي يظهر أن ترجيح كون اللام للعاقبة أولى؛ وذلك لأن المفسدة والفتنة حاصلة سواء أرادت أم لم ترد.

إذا كان لا يجوز لها أن تضرب بالرجل خوفًا من ظهور صوت الخلخال، فما بالك بمن تُظهر الخلخال نفسه، وتظهر الأسورة في اليدين، وتُظهر القلادة على العنق، يكون هذا أشد وأولى بالنهي والتحريم، ولذلك عمل النساء الآن لا شك أنه محرم؛ وأننا في الحقيقة نحن وهن معرضون لذلك، كيف نرى هذه النساء تنتهك ما نهى الله عنه سبحانه وتعالى علنًا ولا نجد أحد ينهاها ويقول: هذا حرام.

هي في ظني أنها تتقصد إظهار اليد لتُرى ما عليها من الحلي، ولذلك تجدها أحيانًا لا تُظهر إلا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

اليد التي بها الحُلي وهذا أيضًا من العمل المشين الذي استعملته النساء، كونها تُملئ إحدى اليدين بالحلي وتجعل اليد الأخرى خالية، هذا أيضًا من الخطأ؛ لأن الظاهر أنه من جنس الذي يمشي بنعل واحدة، وقد نهى النبي ﷺ: «أَنْ يَمْشِيَ الرَّجُلُ بِنَعْلٍ وَاحِدَةٍ»(1) لما في ذلك من عدم العدل بين الرجلين، والعدل مأمور به، فنقول: الأولى أن تلبس الحلي على حد سواء في اليدين اللهم إلا إذا كانت إحدى اليدين فيها ساعة وأرادت أن تنقص من الأسورة بقدر ما تأخذه الساعة من المساحة فهذا ربما يُقال إنه عدل وليس فيه شيء، لكن كونها تملئ هذه اليد من الحلي والثانية بيضاء، أو ليس بها إلا ساعة ففي النفس من هذا الشيء.

على كل حال، نحن إذا كان الله سبحانه وتعالى نهى أن تضرب المرأة برجلها؛ خوفًا من أن يُعلم ما تُخفي من الخلخال بظهور صوته، فما ذكرناه مما عليه النساء اليوم أشد وأعظم، ولهذا لا يجوز للنساء أن تفعل ذلك.

حتى عند القائلين بأن الوجه والكف ليس بعورة يرون أن الذراع عورة، وأنه لا يجوز للمرأة أن تبدي ذراعها المحلى بالأسورة.

قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١]

[﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾أي: مما وقع من النظر الممنوع منه ومن غيره ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: تنجون بذلك بقبول التوبة منه]

قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا أمر من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين موجه لكل الناس أي: توبوا أيها المؤمنون، وإنما وجه الخطاب للجميع؛ لأن هذه المنكرات إذا أظهرت عمَّ بلاؤها الجميع فلهذا وجَّه الله الخطاب للجميع.

ثم تأمل تأكيد هذا الأمر بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿أَيُّهَ﴾ النداء، هذه مُغريات لإغراء الإنسان على التوبة أن تكون التوبة جماعية، ما يكفي أن يتوب واحد، والباقي يعلن فسقه ومخالفته.

ثانيًا: ﴿أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ النداء يدل على أهميته ولهذا وجَّه الخطاب بالنداء لبيان الاعتناء به، وأيضًا وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ دليل على أن الإيمان يقضي بتوبة المؤمن، وأن لا يغفل عن الذنوب، وأن عدم التوبة نقص في الإيمان.

والتوبة هي: الرجوع من المعصية إلى الطاعة وهي نوعان:

الأولى: توبة مطلقة: يستحق التائب بها أن يوصف بأنه من التَّوَّابين الذين يحبهم الله، وهي التوبة من جميع المعاصي، بحيث يقلع الإنسان عن كل معصية يعملها قولية كانت أو عملية أو

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧).

فعلية أو عقيدة، هذه قلنا فيها: التوبة المطلقة التي يستحق فاعلها الثناء وأن يكون من التوابين الذين يحبهم الله عز وجل.

الثانية: توبة مقيدة: من ذَنْبٍ مُعيَّن، فهذه توبة لصاحبها من الثناء ما يستحقه، والصحيح أن التوبة هذه توبة مقبولة، فإذا تاب الإنسان من ذنب، وهو مُصِرٌّ على غيره فتوبته منه ـ على القول الراجح ـ صحيحة ومقبولة؛ لأن الإيمان يتبعض، والأعمال تتبعض، والله سبحانه وتعالى حكم عدل، لا يظلم ولا يهضم، فهذا الرجل الذي تاب من ذنب وهو مُصر على غيره الصحيح أنه تقبل توبته، وأنه لا مانع من ذلك، لكن لا يستحق ما سبق من كونه تائبًا على وجه الإطلاق، ومن التوابين الذين يستحقون الثناء المطلق، فله من الثناء بحسب ما حصل له من التوبة.

هذا الأمر ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتوجه إلى أي القسمين؟

يتوجه إلى القسم العام يعني: توبة مطلقة عامة من جميع الذنوب، لأجل أن يحصل الفَلَاحُ، ولعل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للتعليل أي: أن التوبة سبب للفلاح، والفلاح في الحقيقة ليست كلمة هينة، الفلاح مثل الفوز، هو عبارة عن النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، وزحزح عن النار هذه النجاة من المرهوب، وأدخل الجنة حصول المطلوب.

والفلاح أيضًا هنا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ما قيده الله في الدنيا ولا في الآخرة، دل ذلك على أن الفلاح بالتوبة يكون في الدنيا وفي الآخرة وهو كذلك؛ لأن التائب يحصل له الفلاح في الدنيا وفي الآخرة.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الجملة:** وجوب التوبة لقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولا حاجة بنا إلى ذكر شروط التوبة؛ لأنها سبقت عدة مرات وأنها خمسة شروط، ففيه دليل على وجوب التوبة، ودليل أيضًا على محبة الله لها؛ لأنه أمر بها بهذه العناية ﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»[1] وذكر أن عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَأَنَّهُ أَضَلَّهَا فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا فَنَامَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ المَوْتَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَةِ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ، هذا الفرح في الحقيقة نحن الآن نقوله لكن هل نحن نتصوره؟ لا نتصوره يعني: مهما بلغت مخيلتنا من القوة وإدراك الأمور الغائبة ما يمكن نتصور حقيقته، الآن نتخيل أنه فرح عظيم؛ لأنه عبارة عن فرح بالحياة بعد الموت لكن عندما يقع للإنسان هذا الشيء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

يجد أنه لا نظير له ولا يمكن يوجد له نظير، والله سبحانه وتعالى مع كمال غناه عنا وكمال حاجتنا وافتقارنا إليه يفرح بتوبة عبده المؤمن أشد من فرح هذا الرجل براحلته، ولهذا أمر الله تعالى بالتوبة مع العناية بها بهذه الوجوه الثلاثة.

وجوه التوبة: محبة الله لها، كرم الله تعالى وفضله، من أين يؤخذ الكرم والفضل؟ من محبته للتوبة، يعني: كونه يحب أن يتوب الناس حتى لا يعاقبهم يدل على كرمه وفضله؛ وأن رحمته سبقت غضبه بخلاف من لا رحمة عنده.

مثلًا: مدرس أو ملك أمر بشيء أو نهى عن شيء، قد يكون بعض الآمرين والناهين يحب من الناس المخالفة لأجل أن يعاقبهم فيُظْهِر بذلك سيطرته عليهم، فهو يحب أن يخالفوه لأجل أن يعرفوا أن له الأمر أو النهي أو السلطة أو السيطرة، والله جل وعلا مع كمال هذا الأمر له ـ كمال السلطان ـ، مع ذلك يحب من عباده أن يتوبوا حتى لا يعاقبهم، وبهذا نستدل على كمال رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده وفضله وإحسانه.

وفيه دليل على: أن التوبة من مقتضيات الإيمان من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان لابد أن يحمل صاحبه على التوبة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1].

متى ينتفي عنه الإيمان؟ حين يزني، لا يمكن إنسان مؤمن حقيقة إلا ويترك ما حرم الله عليه، ويفعل ما أوجب الله عليه.

واعلم أنه إذا وقعت منك معصية فإن ذلك ـ ضروري ـ من لازم نقص إيمانك، ما يمكن أن يقع منك معصية إلا ملازم لنقص الإيمان، ولهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة رحمهم الله: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا مذهب أهل السنة والجماعة ونحن منهم إن شاء الله.

على كل حال أقول: إن التوبة من مقتضيات الإيمان، وأن من فرط بها فهو دليل على نقص إيمانه، وإذا كان المفرط بالتوبة يُسْتَدَل بعمله هذا على نقص الإيمان، فالفاعل للمعصية يباشر المعصية من باب أولى، ولهذا أشرنا إلى الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[2]، والمقصود نفي تمام الإيمان، وإلا كان كافرًا.

وفيه دليل على: أن من لم يتب فهو ناقص الإيمان، وعلى حسب معصيته يكون نقص إيمانه.

٢ - **ومن فوائدها:** أن التوبة سبب في الفلاح لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والفلاح هو: النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات الأسباب، حيث جعل الله التوبة سببًا للفلاح، ففيه ردٌّ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).

على أن من أنكروا الأسباب وقالوا: إن الأسباب مجرد علامات لا موجبات، وهذا مذهب الأشعرية، يرون: أن الأسباب علامات لا موجبات، حتى إنهم يقولون: إن الرجل إذا كسر الزجاجة ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسرها، والنار ما أحرقت إذا أحرقت ما تحرق، ما احترق بسببها، وإنما احترق عندها لا بها، الإنسان إذنْ أكل حتى شبع، ما شبع بالأكل شبع عند الأكل لا به، على كل حال هذا قول باطل ما له أصلًا محل من الصحة حتى العقل ينكره، لكن أقول: هذه الآية وكثير من الآيات يثبت الأسباب ويدل على أن الأسباب مؤثرة بمُسَبَّباتها.

ألا يقول قائل: إذا جعلتم الأسباب مؤثرة في مسبباتها ألستم أثبتم مع الله خالقًا ومُوجِدًا مثلًا؟

لا، ما أثبتنا موجدًا؛ لأننا لا نقول: إن الأسباب تستقل بتأثيرها بل الأسباب إنما كانت أسبابًا بإرادة الله سبحانه وتعالى ولهذا أحيانًا يوجد السبب تامًّا ولا يؤثر، لوجود مانع معلوم أو غير معلوم، ولا يمكن أن يقول قائل: إنكم إذا أثبتم الأسباب أثبتم مع الله شريكًا في الإيجاد، نقول: لا الذي جعل هذا السبب سببًا مقتضيًا لمسببه هو الله عز وجل، ولهذا نرى كثيرًا ما تتخلف المسببات مع وجود الأسباب التامة مما يدل على أن قدرة الله عز وجل فوق كل شيء، وأن هذه الأسباب ليست مستقلة لكن لا يمكن أن ننكر أمرًا أثبته الشرع، وأثبته الواقع من أن الأسباب تؤثر في المُسَبَّبات.

٥ - **ومن هذه الفوائد:** من قول المؤلف: [وفي الآية تغليب الذكور على الإناث].

مسألة: لماذا أتى المؤلف بهذه الجملة مع أن هذا كثير في القرآن؟

الجواب: لأن في هذه الآية كلها الخطاب موجه للنساء، ولو كان في الأصل موجه للذكور ما احتيج إلى هذه الجملة الذي ذكرها المؤلف.

ثم فيه أيضًا إشارة ـ توجيه الخطاب هنا للذكور، كما أنه يشمل الإناث بلا شك ـ إلى رعاية الرجل للمرأة والله أعلم، وأنه لابد من أن هو نفسه يتوب ويُعَدِّل أهله، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤].

فنقول في هذا ـ توجيه الخطاب إلى الذكور مع أن الآية كلها خطاب للنساء ـ فيه إشارة إلى رعاية الرجل للمرأة؛ وأن المرأة لا تستقيم إلا باستقامة الرجل، والواقع شاهد لذلك، الآن تفريط هؤلاء النساء عندنا السبب المباشر عدم رعاية الرجال لهن، هذا هو الذي أوجب لهن هذا التوسع الذي لا يقره الشرع، لذلك لو كان كل واحد من الناس قد جند نفسه لحماية امرأته ما حصل هذا الشيء، والعجيب أن الإنسان منا تجده يجند نفسه لحماية ماله الذي يجعل له مفاتيح، والمفاتيح معه دائمًا، وإذا صار عنده واحد في الألف خوف على هذا المال أودعه البنوك حماية له، والأهل الذين هم في الحقيقة حياة الإنسان ما يهمه، أولاده السائحين وبناته السائحات ولا ينظر، لو أننا اعتنينا

بأهلنا نصف ما نعتني بأموالنا لحصل خير كثير، مع العلم بأننا نعتني بأموالنا لغيرنا؛ لأن هذا مال المُكَدَّس لا ينفعنا إذ يرجع من حيث أتى، لكن أهلك إذا أصلحهم الله على يدك صرت في الحقيقة تصلحهم لنفسك، فإن النبي ﷺ يقول: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ» وذكر منها: «وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾، ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ لو قُرئ (وانْكحوا) يعني: من غير إظهار الهمزة وفتحها يختلف المعنى اختلافًا عظيمًا جدًّا، ولهذا لو أخطأ أحد في هذه الآية وقال: (وانْكحوا) وجب الرد عليه؛ لأن هذا لحنٌ يُحيل المعنى ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ بمعنى: زوِّجوا لكن (انْكحوا) بمعنى: تزوجوا فرق عظيم بينهما.

وقوله: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الخطاب للأحرار بدليل قوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾.

[يقول المؤلف: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جمع أيم: وهي من ليس لها زوج بكرًا كانت أو ثيبًا، ومن ليس له زوج، وهذا في الأحرار والحرائر].

قوله: ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾: جمع أيم، وهي من ليس لها زوج، سواء كانت ثيبًا مات عنها زوجها، أو طلقها، أو كانت بكرًا؛ فإنها تسمى (أيِّمًا) وقد أمر الله تعالى بإنكاحهن وهو دليل على أن المرأة لا تُزَوِّج نفسها، لأن (أنكحوا) بمعنى: زَوِّجوا، فلو كانت المرأة تزوج نفسها ما احتاج أن يقال لغيرها: زوِّجها؛ لأنها هي نفسها تزوج، وهذا أحد الأدلة ومنها قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢].

على كل حال ليس هذا موضع البسط في مسألة الولي وعدم الولي إنما في هذا خطاب، وفي هذا الخطاب توجيه لأولياء الأمور للنساء أن يزوجوهن، ولم يبين الله سبحانه وتعالى مَنْ يُنْكَح يعني: مَنْ الذي نُزوِّجه، يعني: هم مأمورون بالتزويج لكن مَنْ نُزوِّج؟ بيَّنت ذلك السنة: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ»(٢) فنحن نُزَوِّجُ صاحب الدين والخلق، صحيح أن المقصود شرعًا يعني

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٨٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٦٨).

مقصودٌ حسًّا واقعًا، وقد بين النبي - عليه الصلاة والسلام - أن المرأة تنكح لمالها والرجل كذلك ينكح لماله، لكن الأصل هو الدين والخلق.

وقوله: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ يعني: النساء غير المتزوجات، لكن الرجال الغير متزوجين كيف ننكحهم؟ هل معناه إذا خطب مني أزوِّجه أو معناه أعينه على الزواج أو الأمرين جميعًا؟

الجواب: الأمرين جميعًا؛ لأن الأيامى تطلق على الرجال والنساء الذين لم يتزوجوا، بالنسبة للإناث واضح أننا مأمورون بتزويجهن، لكن كذلك أيضًا الرجال نحن مأمورون بتزويجهم بمعنى: إذا خطب منا الأيم نزوجه، أما الذي له زوجة نزوجه أيضًا لكن هذا أشد عناية، يعني: لو خطب مني رجلان أحدهما معه زوجة والآخر لا زوجة معه، وكلاهما في الدين والخلق سواء نقدم من لا زوجة له؛ لأنه أحوج إلى أن يحصن فرجه أما هذا فقد حصن فرجه من قبل، إذنْ الأيامى منكم بالنسبة للرجال الذين ليس معهم زوجات، لو كان معهم زوجات مأمورين بالنكاح لكن إنما نص على الأيم؛ لأنه أحوج.

كذلك يدخل في ذلك مساعدة الأيامى على الزواج أن يساعدهم الإنسان؛ فإن هذا من الأعمال التي يؤجر الإنسان عليها؛ لأن الزواج مقصود شرعًا وطبعًا، فإذا تزوج الإنسان فقد فعل ما أمر الله به وأدرك ما تطلبه نفسه أيضًا، ومع ذلك إذا ساعدناهم على هذا الأمر فنحن ممتثلون لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾؛ لأنَّا في الحقيقة زوَّجناه، فمُساعدتنا له بالزواج هذا تزويج.

[قال: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يعني: وأنكحوا الصالحين أي المؤمنين ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وعباد من جموع عبد].

هذا بالنسبة للمملوكين يعني: هذا خطابٌ للأسياد، يعني: وأنكحوا الصالحين، زوجوا الصالحين ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾.

وقول المؤلف: الصالحين المؤمنين حَمَل المؤلف الصلاح هنا على صلاح الدين، وصلاح الدين بالإيمان والعمل الصالح، لكن يحتمل أن يكون شاملًا لصلاح الدين والدنيا، يعني: أننا إذا كان للإنسان رقيق صالح في دينه صالح في دنياه، بمعنى: أنه صالح لأن يُزَوَّج لكونه بلغ سن الزواج، ولكونه عارفًا لأمور الزواج، ولكونه عاقلًا لا يحصل من تزويجه مفسدة وتعطيل لحق امرأته. المهم أنه ينبغي أن يُفسَّر الصالحين بصلاح الدين وصلاح الدنيا، يعني: صالحًا؛ لأن يتزوج ولأن يُزَوَّج، أما أن يكون واحد عنده عبد مجنون، هذا لا نؤمر بتزويجه على الإطلاق، بل إننا ننظر إن لزم من عدم تزويجه مفسدة زوجناه وإلا فلا؛ لأن هذا جناية على غيره.

الحاصل أن الصالح من العباد يزوج مطلقًا، وغير الصالح إن دعت الحاجة إلى تزويجه لكونه يلزم من عدم تزويجه مفسدة أُمرنا لا من هذه الآية، ولكن من درء المفاسد للقاعدة العامة في الشريعة وهي: درء المفاسد.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ عباد جمع عبد، والمراد: الأرقاء لنا وسماهم الله عبادًا؛ لأنهم ذليلون لنا ونحن أسيادهم، ذليلون قَدَرًا وشَرْعًا، أما شرعًا فواضح؛ لأنه عبدي أبيعه وأشتريه وآمره وأنهاه، وقَدَرًا ـ كما هو معلوم ـ أن العباد الأرقاء يرون أنفسهم في قُصُورٍ عن أسيادهم وهذا؛ لأن الله أذلهم لأسيادهم، وإلا لو أنه تمرَّد على سيده صار كالجمل إذا هاج.

على كل حال: الله تعالى قد أذل العبيد شرعًا، وأذلهم قدرًا لذلك سماهم الله عبادًا لنا.

﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾ جمع أمَة وهي: الرقيقة المملوكة، وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يزوج نفسه لقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ زَوِّجوا هذا إذا كان الخطاب موجهًا للأسياد، أما إذا كان الخطاب موجهًا لعموم الناس بمعنى: أن الإنسان لا يترفع عن تزويج العبد والأمَة، لكن هذا بعيد والظاهر أن الخطاب هنا للأسياد يعني: زوِّجُوا الصالحين للزواج في دينهم ودنياهم، زوجوهم من إماء وعبيد.

في هذه الآية إشكال من جهتين:

الجهة الأولى: في عباد.

والجهة الثانية: في إماء.

فإن الرسول ﷺ يقول: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي»[1] وهنا قال: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وقال ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ»[2] فهل بين الحديث وهذه الآية تعارض أو لا؟

الجواب: في الحقيقة ظاهرهما التعارض، لكن التوفيق بينهما واضح، الخطاب هنا في: ﴿عِبَادِكُمْ﴾ من الله للإنسان سماه عبدًا له، أي: سمى رقيقه عبدًا له كما أنه يصح أن يقال: عبد فلان أنا أضيفه إلى فلان فأقول: هذا عبد فلان وهذه أمَته وما أشبه ذلك.

لكن المحظور الذي وقع النهي عنه: أن الإنسان يضيف عبودية هؤلاء إلى نفسه هذا هو المنهي عنه، يعني: إضافة السيد العبودية والإمائية إلى نفسه هذا هو المحظور؛ لأنه يتضمن الغرور بنفسه والتكبر على عبده والترفع عليه، عندما يقول: يا عبدي تعال، يا أمتي تعالي لا شك أنه هو يشعر بعظمة وعلو، وذاك يشعر أمامه بذل وخضوع، ولا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ولهذا جاء النهي عنه، أما إذا كان الأمر بالعكس جاءت الإضافة من غير السيد، فهذا لا بأس به .

كما أن أيضًا العبد منهي أن يقول: ربي لسيده وليقل: مولاي، لكن لو أنك قلت: يا عبد كلم ربك، هذا يجوز، نفس الشيء إذا خاطب العبد سيده بالربوبية نقول: هذا منهي عنه؛ لأن ذاك يتعاظم وهذا يتواضع، ولهذا جاء في حديث جبريل: قال: «أَخبرني عن أمارتها ـ عن أمارات

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

الساعة ـ» قال: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا»[1] هكذا ثبت بهذا اللفظ، والمعروف: «رَبَّتَهَا» لكن في رواية أخرى: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا».

الحاصل: أنه يجب أن نعرف الفرق بين الإضافة إلى ضمير المتكلم والإضافة إلى غيره؛ فالإضافة إلى ضمير المتكلم منهي عنها، بالنسبة للسيد لا يقول عبدي وأمتي، وأما الإضافة إلى غير المتكلم فهذه جائزة، والفرق بينهما من حيث المعنى واضح.

قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله: [﴿إِن يَكُونُوا﴾ أي: الأحرار ﴿فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ﴾ بالتزوج ﴿مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ لخلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم].

﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: المتزوجين وقول المؤلف: [أي: الأحرار] لماذا خصها بالأحرار مع أن الآية تقول: ﴿الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾؟ لأن الإماء ما يتصور منهنَّ الغنى والفقر؛ لأنهم لا يملكون والدليل على أنه لا يملك قول النبي ﷺ: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ، إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ مُبْتَاعُهُ»[2] فالعبد لا يملك، إذنْ هو فقير لا يمكن أن يصير غنيًّا لكن قد يقال: إن الغنى يكون لسيده.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٣٣]

❁ التفسير ❁

أمر من كان فقيرًا بأن يستعفف حتى يغنيه الله من فضله، يعني: لا يطلق لنفسه العنان بالنظر المحرم، والمباشرات المحرمة، وتتبع النساء، وما أشبه ذلك، بل يجب عليه أن يستعفف عن الزنا وأسبابه ومقدماته.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ لأنه إذا أغناهم الله من فضله تزوجوا، إذ لم يمنعهم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وأبو داود (٤٦٩٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

من الزواج إلا ذلك.

وقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ المؤلف فسرها بقوله: [ما ينكحون به]، والصواب أن الآية أعم من ذلك، ولهذا قال: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فيشمل ما ذكره المؤلف، ويشمل ما إذا لم يجد امرأةً يتزوجها، قد يكون إنسانًا غنيًّا وعنده مهر وعنده نفقة، ولكن يَخطب ولا يُقبل، فنقول: هذا لم يجد نكاحًا، فتخصيص عدم النكاح بما ذكره المؤلف فيه نظر، فالآية أعم ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يجدون نفقة له، ولا يجدون امرأة يتزوجونها أيضًا؛ لأنه داخل في عموم الآية.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هكذا أرشد الله سبحانه وتعالى إلى العفة لمن لا يجد النكاح، فهل هذا يعارض قول الرسول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»(١) هل بين الآية والحديث تعارض؟

لا، الآية أمر الله فيها بالعفة والنبي ﷺ بيَّن الطريق إلى العفة؛ بأن الإنسان يصوم، فإن ذلك يقطع شهوة النكاح، وإذا انقطعت شهوة النكاح فهذا من أكبر أسباب العفة، إذ إن الإنسان لا يحدوه إلى عدم العفة إلا الشهوة، فإذا انقطعت زالت أسباب وجود عدم العفة، وبهذا نعرف أن الحديث لا ينافي الآية.

ثم إن الذي لا يجد النكاح قد يكون ذا شهوة قوية، ربما تغريه بانتهاك المحرم، فدواء ذلك بالصوم، أما الإنسان الذي شهوته عادية، وبعيد أن تغريه فهذا وإن لم يصم؛ لأن قول النبي ﷺ قال: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ» لو أخذناه بظاهره لقلنا: كل إنسان فقير لا يجد نكاحًا وله شهوة فإنه يصوم، ولكن الأمر ليس كذلك، لكن إذا لم يجد الإنسان طريقًا إلى العفة سوى الصوم فليصم، أما إذا كان الإنسان معتدلًا طبيعيًّا ولا يخشى على نفسه فإنه لا حاجة إلى الصوم، ولهذا قال: «فعليه» و(على) هذه للإغراء دل ذلك على أنه في حالة يحتاج إلى ما يدله على كبح جماح الشهوة وذلك بالصوم.

وفي هذا أيضًا قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ إشارة إلى أن العفة سبب للغنى كما أن الزواج أيضًا سبب للغنى، فكذلك العفة إذا صبر الإنسان وأعف نفسه، وأبعدَ عما حرم الله عليه كان ذلك سببًا للغنى، وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هل المراد غنى المال أو غنى النكاح؟

الجواب: غنى النكاح؛ لأنه قال: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ لأنه قد يكون الإنسان غنيًّا لكن ما يجد نكاحًا ما يُزَوَّج، نحن نقول: لا يجدون حتى يغنيهم الله بالنكاح ليس بالمال، لكن بالنكاح الذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

كانوا لا يجدونه فيشمل ذلك الغني بالمال والغني بالزوجة، وكم من إنسان كثير المال ولا يجد زوجة، إذنْ هو مثل الفقير فالأولى أن نقول في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: بالنكاح؛ لأجل أن يشمل الأمرين، إن كان عدم وجود النكاح له من أجل الفقر فبالمال، وإن كان من أجل المنع فبالطاعة أن ييسر له من يطيعه ويزوجه.

ولما ذكر الله جل وعلا أحكام النكاح وما يتعلق بها انتقل إلى أمر آخر مهم وهو ما يتعلق بالمماليك؛ لأنه قال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فأشار إلى المماليك، ثم انتقل إلى مسألة مهمة جدًّا وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [بمعنى: المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أمانة وقدرة على الكسب لأداء مال الكتابة].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: يطلبون، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: المُكاتبة، والمكاتبة هي: بيع السيد عبده على نفسه، وسُميت مكاتبةً؛ لأنها في الغالب تجري بكتاب، يكتب السيد بينه وبين عبده كتابًا بهذا العقد، فإذا طلب العبد من سيده أن يُكاتبه فقد قال الله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

إذنْ نقول: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بمعنى: يطلبون، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المكاتبة وهي: بيع السيد نفس العبد على العبد.

وقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ الفاء رابطة للخبر بالمبتدأ. وربط الخبر بالمبتدأ هل هو محتاج إليه أم لا؟ لا يحتاج إليه، نقول: زيد قائم، الكتاب جميل، السماء رفيعة، لكن إذا كان المبتدأ يشبه الشرط في العموم فإنه يُربط خبره بالفاء، وذكرنا لكم سابقًا أن النحويين يمثلون بقولهم: (الذي يأتيني فله درهم)، وأن هذا في القرآن كثير منه هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هذه (من) بيان للموصول ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ لأن الموصول حتى وإن وجدت صلته فهو مبهم - في الواقع - (فمن) بيانية لبيان المبهم في الموصول وقوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في هذا إثبات المُلك للبشر.

فإذا قال قائل: أليس الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩]. فحصر المُلك لنفسِهِ فكيف يتفق هذا مع إثبات الملك للبشر؟

فالجواب: أن المُلك المُطلق لله، وأن مُلك البشر لما يملك ليس مطلقًا، ولذلك هو مُقيَّد بنوع الملك، ومقيد بنوع التصرف، ومقيد بكل شيء، عندما يكون لي مال هل لي مطلق التصرف فيه؟ لا، أتصرف فيه بنوع معين وعلى حدود معينة، لذلك ليس ملكًا تامًّا من كل وجه، فلهذا نقول: الملك المطلق لله وحده، وملكي أنا يضاف إليَّ لكنه ملك مقيد محدد، فإن مَلَكْتَ العين والمنفعة صرت مالكًا، وإن ملكت المنفعة دون العين سميت مستأجرًا، وهكذا كل نوع من الملك له اسم خاص.

وقوله: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الأيمان جمع يمين، وهي مقابل الشمال، هل معنى ذلك أن الإنسان يملك عبده بيده اليمنى فقط واليسرى ما ملكت؟

لا، هذا تغليبٌ مثل: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] فلما كان الغالب على الإنسان في الأخذ والإعطاء والبيع والشراء باليد اليمنى قال: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وإلا فالحقيقة ليس اليمين فقط لكن لما كان هذا الغالب في مسألة البيع والشراء والأخذ والإعطاء أضاف الله سبحانه وتعالى الملك إلى اليمين.

قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ قلنا: الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ وأنها ربطت الخبر بالمبتدأ؛ لأن المبتدأ اسم موصول يشبه الشرط في العموم.

وقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ هذا أمر، وهل الأمر هنا للوجوب أو الاستحباب؟

اختلف فيه أهل العلم، فالجمهور على أن الأمر للاستحباب وحجتهم في ذلك أن العبد مملوك لك ولا يجب عليك إخراج ملكك إلا برضىً منك، فكما أن الإنسان لا يُجبر على بيع بيته، وعلى بيع دابته، لا يجبر كذلك على بيع عبده؛ فإن طلب مني المكاتبة فأنا حر لأنه مالي، ولهذا سماه الله تعالى ملكي.

إذنْ: الجمهور يرون أن الأمر للاستحباب، حجتهم في ذلك أن العبد ملك لك، والإنسان لا يجبر على إخراج ملكه من ملكه: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[1] وإذا كان كذلك فإن الأمر هنا للاستحباب.

وذهب بعض أهل العلم، ومنهم أهل الظاهر، إلى أن الأمر للوجوب، وأن العبد إذا طلب المكاتبة فإنه يجب على السيد إجابته؛ وذلك لأن الأصل في الأمر الوجوب وقولهم: إن المالك لا يجبر على إخراج ملكه من ملكه هذا ليس على إطلاقه، فإن المالك يُجبر على إخراج ملكه من ملكه في الأمور التي أوجب الله، أليس يجب على الإنسان أن يخرجَ الزكاة وهو إخراج شيء من ملكه، أليس يجب عليه الكفارة، أليس يجب عليه الإنفاق على غيره من أقارب وزوجات وغيرهم.

فإذنْ: العبارة (لا يجب على الإنسان أن يخرج ملكًا من ملكه) ليست على إطلاقها، وما أكثر المسائل التي يُجبر فيها الإنسان على إخراج ملكٍ من ملكه، أليس الإنسان إذا تعلق بماله حق الغُرماء وصار دينه أكثر من ماله يُحجر عليه ويجبر على أن يبيع ماله ويصرف إلى الغرماء.

فعلى كل حال مثل هذه المسألة ليست على إطلاقها، وكم من مسائل صارت واجبة وهي متضمنة لإخراج الإنسان ملكه من ملكه.

ثم إنه يُقوِّي أن الأمر للوجوب ـ يعني: هذا في الحقيقة دفع لما احتج به الجمهور ـ أما تقوية

---

(١) صحيح: والحديث قد ورد عن جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة ذكرها الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٥٩) فراجعه إن شئت.

الأمر للوجوب فقالوا: إن الشارع متطلع للعتق، والرِّقُّ وارد في الحقيقة على البشر وليس أصيلًا فيهم، فإذا أراد البشر أن يتخلص من هذا الرق ويعيد نفسه إلى الأصل، فإن الشارع يتطلع لذلك، ولهذا تجد أن الشارع رَغَّبَ في العتق كثيرًا، حتى إنه أخبر «أَنَّ مَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا أَعْتَقَ اللهُ مِنْهُ بِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ جُزْءًا مِنَ النَّارِ حَتَّى الفَرْجَ بِالفَرْجِ»[1] وهذا ترغيب عظيم.

كذلك أيضًا أوجب الله ـ سبحانه وتعالى في كفارات متعددة ـ أوجب فيها عتق الرقبة مثل: كفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة القتل، كل هذا دليل على أن الشارع له تشوُّف لتحرير العبيد، فكيف لا نجعل هذا الأمر للوجوب لاسيما مع طلب العبد؛ لأن العبد هو الذي طلب الآن ويعرف من نفسه أنه سيستغني عن سيده ويريد أن يخلِّص نفسه فكيف نمنعه، فإذا قال السيد: هذا عبدي وأنا لا أستطيع أن أتخلص منه قلنا له: أنت إذا اتقيت الله سبحانه وتعالى جعل لك من أمرك يسرًا ربما تحرره، وإذا حررته تستأجره إذا كنت محتاجًا إليه وعارفًا به أو ييسر الله لك سواه. على كل حال ما دام أن الله أمر به، والأصل في أوامر الله ورسوله الأصل فيها الوجوب.

قال: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا شرط في الأمر ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فجعل الله ذلك مشروطًا بعلم الخير فيه، فما هو الخير؟

يقول المؤلف: [أي أمانة وقدرة على الكسب بأداء مال الكتابة].

فسره بعض السلف بقوله: صلاحًا في دينهم وكسبًا، ويمكن أن يكون قوله: (أمانة) يشير إلى ذلك، لكن إذا قلنا: صلاحًا في دينهم صار أعم من كلمة أمانة؛ لأن الأمانة من الصلاح في الدين ولهذا نقول المراد بالخير: الصلاح في الدين والكسب.

الصلاح في الدين: بأن نعرف أنه مقيم الصلاة، مقيم للصوم، تارك للمحرمات مستقيم، ومن الصلاح في الدين: الأمانة أيضًا، نعرف أنه ما يسرق من الناس أنه أمين.

والكسب: هذا صلاح الدنيا، أننا نعرف أن هذا العبد إذا أُعتق صار قادرًا على الكسب، وليس كلًّا على غيره؛ لأنه لو صار غير قادر على الكسب وأعتقه سيده ما أدراك من أين يأكل؟ إذنْ يصير كلًّا على الناس، وربما يصير عنده قوة فيسرق وينهب، لهذا لابد من هذا الشرط (الصلاح والكسب).

وأما قول المؤلف: [بأداء مال الكتابة] فهذا فيه نظر، فلا يكفي أن يكون عنده كسب لأداء مال الكتابة، بل لأداء مال الكتابة وللإنفاق على نفسه في المستقبل.

إذنْ الوجوب أو الأمر مشروط بأن نعلم فيهم الخير، أما إذا لم نعلم فيه خيرًا هل تجب مكاتبته إذا طلب؟ لا يجب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥١٧)، ومسلم (١٥٠٩).

هل يجوز؟ لا يجوز، وكيف يجوز وأنا أعلم أنه ما فيه خير، أعرف أني إذا أعتقته ربما يفسد، إما يلحق بالكفار إذا كان أصله كافرًا، وإما يُفسد في الأرض بالمعاصي، وهو عندي محفوظ لكن إذا صار حرًّا!! فالصحيح أن نقول: إذا لم نعلم فيه خيرًا لم نؤمر بمكاتبته، هذا مفهوم الآية.

ثم إن لم نؤمر هل يجوز لنا أن نكاتب إن علمنا فيه شرًّا ومفسدة في إجابته صارت إجابته حرامًا، وإن لم نعلم فيه شرًّا أو مفسدة فإجابته جائزة فصار المفهوم فيه تفصيل.

فإذا قال السيد: أنا لا أعلم فيه خيرًا فلا يجب عليَّ مكاتبته ماذا نقول؟

نقول: أنت وأمانتك، الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسبك، وقد وَكَلَ الأمر إليك، فإذا قلت: أنا لا أعلم فيه خيرًا بالنسبة لنا نوافق ولا نجبرك على الكتابة، لكن بالنسبة لله، أينفعك إذا كنت تعلم فيه خيرًا وادَّعَيْتَ أنك لا تعلم فيه خيرًا؟ بالنسبة لله لا ينفعك فعلى كل حال الأمر موكول إلى السيد في علم الخير وعدمه، بالنسبة لنا أحكام الدنيا على الظاهر إذا قال: أنا لا أعلم بهذا العبد خيرًا وأنا أعرف أني إذا أخليته يذهب يَفْسَد ويُفْسِد نقول: بالنسبة لنا لا نجبرك لكن إذا كان الله يعلم أنك تعلم أنه فيه خيرٌ فإن دعواك هذه مردودة ولا تقبل.

ويقول المؤلف: [وصيغتها مثلًا: كاتبتك على ألفين في شهرين كل شهر ألف فإذا أديتها فأنت حر، فيقول قبلت ذلك].

المؤلف يقول: [صيغتها مثلًا] يعني: ما هذه الصيغة الوحيدة بل ما دل على ذلك أجزأ لكن لاحظوا قوله: [على ألفين في شهرين] هل المراد: الألفين يحلا في نجم واحد في الشهرين، أو كل ألف في شهر؟ يقول العلماء: إنه من باب التيسير على العبد أن يكون المال الذي يكاتب عليه مُنجَّمًا بأجلين فأكثر، يعني: ما يقول كاتبتك مثلًا على عشرة آلاف يحلُّون بعد سنة لا؛ لأن هذا فيه صعوبة على العبد فليجعله مُنجَّمًا بأجلين فأكثر مثل عشرة آلاف إما أن يقول كل شهرين ألف ريال، أو كل شهر ألف ريال، أو في ستة أشهر خمسة آلاف، وفي ستة أشهر خمسة آلاف، المهم أن يكون مُنجَّمًا بأجلين فأكثر؛ مراعاة لحال العبد ورفقًا به.

وظاهر كلام أهل العلم في هذه المسألة حتى لو فُرض أن العبد عنده قدرة على أن يسلمها بأجل واحد؛ لأنه لابد من الأجلين، يعني: لو فرضنا أن العبد أتى به إنسان وقال له: اشترِ نفسك من سيدك وأنا أنجز لك الدراهم حالًا، فإنه لا يصح، ولكن في هذه المسألة نظر، وقضية عائشة مع بريرة حيث كاتبت أهلها على تسع أواق، فقالت عائشة رضي الله عنها: (إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَن أُعِدَّها لَهُمْ وَيَكُونُ وَلَاؤُكِ لِي فَعَلْتُ) يدل على الجواز، وإن كانت عائشة تبتغي تشتريها شراءً لكن يدل على أنه إذا أراد أحد أن يعجل ما كاتب عليه العبد لسيده واتفقا على ذلك فإنه يصح، لكن في هذه الحال يلزم أن العبد يحتاط لنفسه؛ لأنه قد يأتيه هذا الرجل ويقول له ذلك، ثم يتراجع، مع أنه لو تراجع ما يضر العبد شيئًا، وآخر أمره أنه إذا عجز عاد إلى سيده رقيقًا، وهذا في الحقيقة لا يضره،

والمال الذي كسبه لسيده.

يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ﴿وَءَاتُوهُم﴾ [أمر للسادة ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم، وفي معنى الإيتاء حط شيء مما التزموه].

يقول المؤلف: [الأمر للسادة] ويجوز أن يكون الأمر لغير السادة، أو للسادة وغيرهم، يجوز أن يكون الأمر للمسلمين كلهم.

إذا كان الأمر موجهًا للسادة ففي كيفية الإتيان صورتان:

الصورة الأولى: إذا كاتبه أعطاه مالًا لأجل أن يكون أساسًا لكسبه.

الكيفية الثانية: إذا أدى ما عليه يحط عنه، ولكن هل يحط عنه بالنجم الأول أم بالنجم الأخير؟ بعض السلف اختار أن يضع عنه من النجم الأول؛ لأن ذلك أيسر له، وبعض السلف اختار أن يضع عنه في النجم الأخير، وقال: إنني إذا وضعت عنه من النجم الأول أو أعطيته من النجم الأول ثم عجز وعاد إليَّ صارت صدقتي عادت إليَّ، بخلاف ما إذا أعطيته من النجم الأخير؛ لأنه إذا أدى من النجم الأخير يَعْتُق، فإذا أعطيته من النجم الأخير ما عاد إلي شيء من صدقتي، وهذا هو الأرجح أن يعطيه من النجم الأخير.

ولكننا نقول: الصحيح أنه أمر للسادة بالكيفية المذكورة، وأمر لغير السادة أيضًا أن يُعينوا المكاتَب في مكاتبته، ولذلك جُعِل له سهمٌ من الزكاة، فيجوز للإنسان أن يصرف من زكاته شيئًا للمكاتبين، وهذا هو الصحيح.

فالصحيح أن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ شامل للأسياد ولغيرهم.

وقوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ما قال من مالكم، إشارة إلى أنكم وإن آتيتموهم فالمنة لله سبحانه وتعالى؛ لأن المال مال الله سواء قلنا: إنه مال شرعي لله - وهو الزكاة - إذا قلنا بأن الأمر موجه لغير الأسياد أيضًا، أو أن المال الذي هو مال الله غير شرعي: مال لله قدرًا، وهو مال الإنسان الذي يتصرف فيه تصرف المالك في ملكه؛ فإنه في الحقيقة مال الله، وكأن في الآية إشارة إلى أنه لا فضل لكم، واحمدوا الله سبحانه وتعالى أن الله أعطاكم مالًا، فاعطوا هؤلاء المكاتبين ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

خلاصة الكلام: أن في هذه الآية مشروعية المكاتبة إذا طلبها العبد، والأمر في هذا للوجوب على القول الصحيح، ولكنه مشروط بِعِلْمِ الخير، والخير هو الصلاح في الدين والكسب.

وفي الآية أيضًا دليل على وجوب إتيان المكاتَب من المال، سواء كان الخطاب موجهًا إلى السيد، أو موجهًا لعموم الناس، أما لعموم الناس فإنهم يعطونه من الزكاة، وأما بالنسبة للسيد فيعطيه من المال الذي بيده؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَّ به عليه.

قد يقول قائل: لماذا تمنعون أن يعطي السيد من زكاته مُكاتَبَه مع أنكم تجيزون أن يعطى

غريمه؟

الجواب: الغريم إذا أعطيته ربما يُفيد وربما لا يُفيد فله أن يتصرَّف فيها كما يريد، لكن المكاتَب سيفيد مهما كان إما يفيد أو يعود رقيقًا ويعود المال إليه هذا هو الفرق بينهما.

وإذا صار العبد مكاتبًا لا تلزم نفقته على سيده، ويملك كسبه وكل شيء، والعتق يبدأ من بداية الكتابة، لكنه لا يتم إلا بأداء ما اتفقا عليه.

[قال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي: الزنا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: تعففًا عنه، وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط].

الفتيات كما قال المؤلف: [الإماء] وليس المراد بالفتيات هنا الصغيرات من النساء، يعني: حتى الحرائر لا؛ لأن هذا غير وارد، إنما المراد: الفتيات الإماء، والبغاء [الزنا] سمي بغاء؛ لأنه يُطلب يعني: مطلوب، والبغاء بمعنى: الطلب والابتغاء بمعنى: الطلب، والزناة - والعياذ بالله - والزانيات يطلبون هذا الأمر.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ التحصن عن الزنا أي: تعففًا عنه وامتناعًا منه.

[وهذه الإرادة محل الإكراه فلا مفهوم للشرط] الآية الكريمة إذا قرأناها ففيها أن الله تعالى نهى أن نكره الفتيات على البغاء شرط إذا أردن التحصن، يعني: فإن لم يردن التحصن فظاهر الآية لنا الإكراه، لكن المؤلف يقول: إن محل النهي هو الشرط أنه لا يتصور الإكراه إلا إذا أردن التحصن وعلى هذا فلا مفهوم للشرط، هذا ما ذهب إليه المؤلف وفيه نظر ظاهر.

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [وهذه الإرادة محل الإكراه]، يعني: الإكراه لا يتصور إلا مع وجود هذه الإرادة، فلا مفهوم للشرط، إذا صار الإكراه لا يتصور إلا مع هذه الإرادة، فالشرط لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع الذي هو واقع الإكراه، هذا ما ذهب إليه المؤلف، لكن فيه نظر ظاهر؛ لأنه قد يُكرهها على البغاء وهي لا تريد التحصن، إنما تكره الذي أكرهها عليه، مثل أن يقول مثلًا: تزنين بهذا الرجل، لكن ما تريد الرجل، وتريد رجلًا آخر فإذا أكرهها على أن تزني بهذا الرجل حصل الإكراه مع أنها لا تريد التحصن، ففي الحقيقة أن الإكراه ممكن أن يرد وإن لم تُرد التحصن، وأما قوله: إن الإرادة هي محل النهي؛ لأنه لا إكراه بدون إرادة التحصن فيقال: لا، ممكن أن يكون الإكراه بدون إرادة التحصن، مثل إما أن تكون هي في ذلك الوقت ليس بها رغبة للجماع، أو في مكان لا ترغب أن تجامع فيه، أو في زمان لا ترغب أن تجامع فيه، أو لا تريد من أكرهت عليه، أو ما أشبه ذلك، فليس الإكراه خاصًا بالزنا حتى نقول إن هذا الشرط لبيان الواقع فلا مفهوم له.

إذنْ ما هو الرأي في هذه المسألة يعني: ما هو القول الراجح؟

ذكر العلماء ثلاثة أوجه غير ما ذكره المؤلف منها:

أن هذا بناءً على الأغلب، أنهم يكرهونهن وهن يردن التحصن، ومعلوم: أن القيد إذا كان

لبيان الغالب لا مفهوم له، يعني أن الله ينهاهم عن أمر قد وقعوا فيه، وهو أنهم يكرهون فتياتهم على الزنا وهن يردن التعفف عنه، فيكون هذا بناء على الغالب فلا مفهوم له، وهذا ما ذهب إليه ابن كثير على أن القيد ـ هذا الشرط ـ لبيان الغالب لا لبيان الواقع.

وقال بعض العلماء: إن الشرط هذا بمعنى إذ؛ أي: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إذ أردن تحصنًا)، أي: لأنهن يُردن التحصن، وهذا القول ـ في الواقع ـ قد يكون راجعًا إلى القول الذي قبله.

وقال بعض العلماء: أن الله نهى عن حالة معينة كان الناس يفعلونها في الجاهلية، ولهذا لا يجوز حتى تمكينها من الزنا.

ورأي آخر: أن في ذلك مبالغة في تبكيت هؤلاء الأسياد، الذين يكرهون الفتيات على البغاء مع أن المفروض أنهن لو أردن البغاء لكنتم تريدون التحصن والتعفف.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى انتقاص رتبة من أراد ذلك، من أراد عرض الدنيا، وهذا صحيح.

اللام في قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ هل هي للتعليل أو للعاقبة؟ الظاهر أنها للتعليل وأن الذين يكرهون فتياتهم على ذلك إنما يريدون ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: متاعها، وسُمي متاع الدنيا عَرَضًا؛ لأنه يزول، وهذا أمر واقع، فإن متاع الدنيا كما وصفه الله عز وجل: قليل، فيزول عنك أو تزول عنه.

إذنْ فهو عَرَض يعني: أمرٌ عارض يزول.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى أن هناك حياةً أخرى، وهي حياة الآخرة، والدنيا: هل هي من الدنو المعنوي، أو الدنو الزمني، أو منهما جميعًا؟

منهما جميعًا، فهي من الدنو الزمني؛ لأنها سابقة على الآخرة، ومن الدنو المعنوي؛ لأنها أقل بكثير من الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦ـ١٧] وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] موضع السوط ـ يعني: حوالي متر ـ خير من الدنيا وما فيها، أي دنيا؟ هل هي دنياك التي تعيشها أنت أو كل الدنيا؟ كل الدنيا من أولها إلى آخرها مهما طال آخرها فموضع سوط أحدنا خيرٌ منها وما فيها؛ إذنْ فهي دَنِيَّة بالنسبة للمرتبة.

إذنْ الدنيا زمنًا ومعنى وإن شئت قلت: مرتبة وهو المعنى.

فهذه الدنيا كيف يريد الإنسان هذا العَرَضَ الزائل من هذه الحياة الدنيا على حساب الحياة الآخرة؟! لا شك أن هذا نقص في العقل أو نقص في الإيمان، أما الرجل المؤمن لا يمكن أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

يفضل الدنيا على الآخرة إطلاقًا، ولهذا خطب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ذات يوم ووعظ الناس وقال: أيها الناس إن كنتم تقرون بذلك ـ يعني مع المخالفة ـ فأنتم حمقى، وإن كنتم لا تقرون به فأنتم هلكى.

هذا صحيح، يعني: المخالف لشريعة الله بين أمرين: إما رجل لا يؤمن بالآخرة فهذا هالك، وإما رجل يؤمن بالآخرة وخالف فهو أحمق لا يعرف التصرف ولا يُحسن.

فعلى كل حال لا يليق بالإنسان أن يختار عَرَض الدنيا على حساب الآخرة.

قال المؤلف: [نزلت في عبد الله بن أُبي، كان يُكره جواريه على الكسب بالزنا ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهنَّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن].

يمكن هذا في عبد الله بن أُبي أو غيره، لكن ما ذكر المؤلف له سندًا، وذكرها المفسرون أنها نزلت في عبد الله بن أُبَي، ولكن ينبغي أن نعرف أن: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، لكن يجب أيضًا ـ الفائدة الثانية التي أشار إليها بعض العلماء ـ: أن العبرة بعموم اللفظ على الحالة التي نزلت أو التي ورد من أجلها العموم، ما هو عموم في كل الأحوال، بل عموم اللفظ بالنسبة لتقييدها بالشخص، لكن على الحالة الذي ورد من أجلها هذا النص، فلا يختص بالشخص الذي نزلت من أجله، بل يعمه وغيره على الحال الذي وردت.

مثال ذلك: قول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1] لو أخذنا على عمومه بالأشخاص والأحوال، لكان الإنسان لا يصوم في السفر مطلقًا وليس من البر أن يصوم، ولكننا لا نأخذه على عموم الإطلاق، بل على عموم الأشخاص في مثل هذه الحال التي ورد من أجلها، وقد ورد الحديث حينما رأى النبي ﷺ ازدحامًا، ورأى رجلًا قد ظُلِّلَ عليه، فقال: «ما هذا؟» قالوا صائم. قال: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» فإذا وصلت الحال بالصائم في سفره إلى مثل هذا الرجل قلنا له: ليس من البر، وما عدا ذلك فلا نقول إنه ليس من البر؛ لأن النبي ﷺ كان يصوم في السفر ولا يصنع شيئًا ليس بالبر، وكان أيضًا يقر أصحابه أن يصوموا في السفر إذا لم يصلوا إلى حال هذا الرجل.

فالعبرة بعموم اللفظ سواء عبد الله بن أُبي أو في غيره.

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ مَنْ هذه شرطية، والشرط للعموم ، فأسماء الشرط من صيغ العموم، كما أن الأسماء الموصولة من صيغ العموم كذلك أسماء الشرط يعني: أي إنسان يكره فتاته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ إشارة إلى أنه لابد من تحقق الإكراه، يعني: من بعد التحقق من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، و مسلم (١١١٥).

الإكراه؛ وأن لا يكون في قلبها أي ميل إلى ما أكرهها عليه، فإن الله من بعد هذا الإكراه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن؟ للمُكْرَهَة لا للمُكْرِه؛ لأنه عاصٍ ليس أهلًا للمغفرة، ولهذا نقول: إن جملة الشرط هنا لم تعد إلى ما يعود إليه فعل الشرط؛ لأن فعل الشرط يعود على المُكْرِه، لكن جواب الشرط لم يعد على المُكْرِه بل على المُكْرَهَة، وذلك للتلازم بين المُكْرِه والمُكْرَهَة إذ لا مكرهة إلا بمكره فلذلك صح أن جواب الشرط ليس عائدًا إلى ما يعود عليه فعل الشرط، إنما هو عائد إلى شيء مُلابس له ومُلازم له وهو المُكْرَهَة.

القاعدة العامة: (أن جواب الشرط يعود على ما يعود عليه فعل الشرط، لكن ليس ذلك بلازم، بل قد يعود على ملازمه ومُلابسه كما في هذه الآية، ولهذا نقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهن لا غفور لهم، أي: للمُكْرَهَات ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن.

وفي قوله: ﴿غَفُورٌ﴾ إشارة إلى أن هذا الذنب لا عقوبة فيه، وفي قوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله سيجعل لهن فَرَجًا؛ لأن الرحمة بها حصول المطلوب وزوال المرهوب، لذلك نقول: إن في هذه الآية إشارة إلى الفَرَج لمن أُكْرِه على فعل المحرم، وأن الله سيجعل له فَرَجًا، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

فإذا قال قائل: كثيرًا ما نسمع أن من الناس مَن أكره على أمرٍ محرم ولم يحصل له الفَرَج بسرعة.

فنقول: إن هذا لا ينافي الآية إذ قد يكون من جملة الفَرَج أنَّ الله يهون الأمر عليه في قلبه، ويكون التخلص الحسي من هذا الإكراه بعد ذلك لسبب من الأسباب فوق ما نعلمه.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** أن المُكره على فعل شيء لا يلحقه إثمه، ويكون في هذا رَدٌّ على من فَرَّق من أهل العلم على الإكراه على القول والإكراه على الفعل، فإن من العلماء من فرق بين الإكراه على الفعل، والإكراه على القول وقال: إن الإكراه على القول لا يترتب عليه مقتضاه والإكراه على الفعل يترتب عليه مقتضاه.

ولكن الصحيح أنه لا فرق وأن كل من أكره على قول أو فعل؛ فإنه لا حكم لفعله ولا لقوله، يدل على ذلك قوله تعالى مع هذه الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر بالقول أو الكفر بالفعل أو بهما جميعًا؟ بهما جميعًا، ولم تخصص الآية القول.

---

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

كذلك أيضًا هذه التي معنا في هذه السورة إكراه البغاء وهو فعل.

فإن قال قائل: فماذا تصنعون فيما يُذكر من حديث صاحب الذباب الذي مرَّ على صنم هو وصاحب له، وقال أصحاب الصنم لأحدهما: قَرِّب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل؛ فقتلوه، وقالوا للثاني: قَرِّب ولو ذبابة، فقرب ذبابة فلم يقتلوه.

نقول: إن هذه القصة لا تصح، ثم لو فرض أنها صحيحة عن بني إسرائيل فإن ديننا ولله الحمد قد وضع الله فيه من الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل ما أوجب أن يكون دين السهولة واليسر، ولهذا كان من صفات الرسول ﷺ: أنه يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم. فكثير من الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة رُفِعَت عن هذه الأمة.

على كل حال الآن نقول: في هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الإكراه على الفعل لا حكم له، يجعل الفعل لا حكم له، وأن المُكرَه لا إثم عليه، وفيه ردٌّ صريح بين من يفرقون بين الإكراه على القول وعلى الفعل، لأننا لو سلمنا جدلًا أن قوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ أن هذا خاص بالإكراه على القول، فإن هذه الآية لا يمكن فيها التأويل ولا التخصيص؛ لأن القضية في فعل.

لو أُكرِهَت المرأة وهي صائمة على الجماع، أي: زوجها جامعها وهي صائمة غصب عليها فما الحكم؟

لا شيء عليها، لا تفطر، ولا تأثم، وكذلك لو أكرهها على الجماع وهي محرمة فكذلك أيضًا ليس عليها شيء لا بالنسبة للنسك ولا بالنسبة للفدية، وهذه قاعدة عامة قاعدة مقررة في الدين الإسلامي.

لكن قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ فيه إشارة إلى تحقق الإكراه؛ وأنه لو كان في المُكرَه أدنى ميل فقد يختلف جواب الشرط، فقد تتخلف المغفرة والرحمة إذا كان بعد ما أُكْرِهَ مَالَ إلى الشيء، فهذا يدخل في تخلف الشرط، ومن ثَم زعم الفقهاء رحمهم الله أن الرجل لا يمكن أن يُكْرَه على الزنا وقالوا: إن الرجل إذا أكره على الزنا وجب عليه إقامة الحد، وإذا أكره على إفطار رمضان وجب عليه الكفارة والقضاء، وكذلك في النسك، والسبب أنهم قالوا: الإكراه في الجماع لا يمكن، لأنه لا يفعل إلا بعد انتشار ذكره، ولا ينتشر ذكره إلا إذا مال، وعلى هذا فلا يتحقق الإكراه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾.

وعلى كل حال، فالإنسان فإذا كان شابًّا وأُكرِه أن يزني بامرأة جميلة شابة ربما مثلًا: يُلْصَق بها إلصاقًا، هذا ربما يقع منه ويجامع، وفي الحقيقة أن الإنسان مع الكراهة الشديد للشيء ما يمكن أنه يميل.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤]

❁ التفسير ❁

[﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بفتح الياء وكسرها في هذه السورة، بُيِّنَ فيها ما ذكر أو بَيَّنَتْهُ].

﴿مُبَيَّنات﴾ أي: بُيِّن فيها ما ذُكِر، أو ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: بَيَّنته.

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم وهي للتوكيد، و(قد) كذلك للتوكيد، وعليه فهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد.

وإنما أكد الله هذا بهذه الأمور الثلاث للأهمية؛ لأننا إذا علمنا أن هذه آيات مبينة فإن ذلك يستلزم منا الاعتناء بهذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ ما المقصود بالآيات هنا الشرعية أم الكونية؟

الظاهر أنها الشرعية، وأن السياق يتفق معها أكثر مما يتفق مع الكونية. وهي: الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ

وفي قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ بالوحي إشارة إلى أنه ينزل حقيقة من العلو إلى السُّفل؛ لأنه ينزل من الله على قلب النبي ﷺ، فهو نزول حقيقي، وقد حرفه بعضهم إلى أن المراد بإنزال الوحي قال: أنزلنا يعني: أوحينا، وقال: إن النزول لا يكون إلا من أعلى، ولا يكون إلا في جُرم، فيقال نزل الإنسان من السطح إلى الأرض، والقرآن ليس كذلك، هذا لا شك أن الذي يقول هذا الكلام يُنكر علو الله، ولهذا أهل السنة والجماعة من جملة ما استدلوا به على علو الله: أن الله أنزل القرآن على النبي ﷺ وقالوا: يلزم من الإنزال أن يكون المُنزِل عاليًا، لكن يفسروه بالوحي بحجة أن الشيء النازل هو ذو جرم والقرآن ليس ذا جرم، وإنما هو قولٌ ينزل فهذا لا شك أنه قول مُحرِّف لكلام الله عز وجل .

ونحن نقول: إن القرآن ينزل كما قال الله؛ وأن كلمة ينزل غير كلمة يُوحِي أو يُوحَى بل لها معنى آخر خاص، قلنا: إنه ما المانع من أن يكون النزول في الأمور المعنوية، كلمة نزول إذا أضيفت إلى الأمور الحسية فهي في ذات الأجرام، والأمور المعنوية فلها معنى آخر، أليس الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤] و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ أمر معنوي.

إذنْ نقول الإنزال في الأمور المعنوية، ثم ما المانع أن يكون القرآن أيضًا له جرم ولكننا لا نعرف هذا الجرم؛ لأن الله يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] وقد سبق أنه ﷺ نزل عليه الوحي ورأسه على رجل حذيفة حتى كاد يرضها، وأنه نزل عليه الوحي وهو على الراحلة فتبرك به، فما المانع أن يكون جرمًا ولكنه ليس كالأجرام المعروفة - الله أعلم - والله سبحانه وتعالى يجعل الأمور المعنوية أمورًا حسية، ألم تروا إلى الموت يوم القيامة يمثل بكبش يشاهده الناس من أهل النار ومن أهل الجنة ويُذبح أمامهم، كما أن الأعمال تُوضع في الموازين يوم القيامة، والأعمال أصلها معنوي، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وقدرته تعالى فوق إحاطة المخلوقين.

فعلى كل حال: الآية هذه فيها دليل صريح على أن الله تعالى أنزل القرآن من عنده؛ وأنه نزول ليس بمعنى الوحي فقط، بل هو معنى خاص أخص من الوحي.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ جمعها حقيقة الأمر أنها كذلك، القرآن ليس حكمًا واحدًا ولا خبرًا واحدًا بل أخبارًا كثيرةً وأحكامًا كثيرةً فهي ﴿ءَايَٰتٍ﴾ بمعنى: علامات، علامات على عظمة مَن أنزلها، وعلى صدق من جاء بها عليه الصلاة والسلام، ووجه ذلك - أي وجه كونها آيات - أنك إذا تأملت الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات وجدتها مطابقة تمامًا للمصلحة، يعني: المصلحة في المأمورات ودفع المضرة في المنهيات، ووجدت أيضًا أن أخبارها في غاية ما يكون من المصلحة والمنفعة، ووجدت لها تأثيرًا بالغًا من جملة تأثيرها وآثارها، هؤلاء الأمم الذين كانوا يعادون الإسلام فدخلوا في دين الله أفواجًا، بمجرد أنهم سمعوا القرآن ورأوا آدابه وأخلاقه.

ثم إن هذا التأثير لمن ألقى السمع، أو كان له قلب، تأثير لا يوجد له نظير - في الحقيقة - إذا صفى الذهن وأقبل الإنسان بقلبه على القرآن مهما كان - حتى لو غير مسلم - لابد أن يتأثر، جبير بن مطعم الأسرى في المدينة فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦] يقول رضي الله عنه: «كاد قلبي أن يطير» ومن ذاك الوقت قذف الله الإيمان في قلبه، ثم أسلم.

فهذا دليل على أن القرآن آيات عظيمة تدل على عظمة من أنزلها، وعلى صدق من جاء بها، وذلك لما تضمنته من الأحكام العادلة التي تضع العقوبة ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها، ومن الأخبار الصادقة النافعة وأخبار ممتعة للنفس ومريحة لها ونافعة للقلب أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أي: تُبيِّن الحق من الباطل وتفصل بينهما وتميز بينهما، ثم أيضًا تبين الأحكام بنفسها، لكن منها ما يحتاج إلى بيان من غيره، ومنها ما هو بيِّن في نفسه، وفي هذا إشارة إلى أنه لا يوجد في الشرع أمر مُشكِل بحسب الواقع، لكن الإشكال بحسب الفهم، أما الإشكال

الذي يقع في المسائل الشرعية ليس لقصور في النصوص، ولكن لقصور في الفهم أو قصور في العلم، قد يكون الإنسان قاصر علم لا يحيط بالنصوص كلها، وقد يكون قاصر فهم ومن ثَمَّ يحصل الإشكال، أما العلم والفهم التام فإنه لا يمكن أن يوجد إشكال في الشريعة، ولذلك تجد أحيانًا تعرض لي المسألة ومن خلال النصوص حكمها عندي واضح مثل الشمس، ثم في زمن آخر تأتي نفس المسألة وتجد فيها إشكالًا لماذا؟

لأن صفاء الذهن وأحوال الإنسان لها تأثير بالغ في فهم النصوص، ولهذا أنا أرى أنه ينبغي لطالب العلم في المسائل التي تعرض له ـ المسائل النادرة التي يخشى أن ينساها ـ أنه يجب أن يُقيدها لا يعتمد على نفسه يقول: هذه بينة لا تحتاج إلى تقييد ولا شيء؛ لأنه ممكن يأتي يوم من الأيام يكون ما فتح الله به عليك بالأمس غير موجود الآن. إما لتخلف السبب أو لوجود مانع، والإنسان بشر تتقلب به الأحوال.

على كل حال: فالقرآن ـ ولله الحمد ـ مُبَيِّن ومُبَيَّن أيضًا، ولكن في الخفاء الذي يحصل للإنسان إنما هو من نفسه، لا من حيث الأدلة وذلك لأحد أمرين: القصور في العلم، أو القصور في الفهم فمن أجل أحد هذين الأمرين يحصل الخفاء في الأحكام الشرعية، أما الآيات التي أنزلها الله فهي آيات مُبَيَّنة مُبيِّنة لا يحصل فيها إشكال .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عبارة في «العقيدة الواسطية» قال: (من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق) هذه في الحقيقة عبارة تكتب بماء الذهب ـ وإن كان الذهب لا يجوز استعماله مدادًا ـ لكن القصد أن هذه عبارة ممتازة.

فالآيات مبينات: والآية عندنا ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مُبيَّنات ومُبيِّنات قراءتان سبعيتان.

[﴿وَمَثَلًا﴾ خبرًا عجيبًا، وهو خبر عائشة رضي الله عنها ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من جنس أمثالهم أي أخبارهم العجيبة كخبر يوسف ومريم].

يعني: أنزل الله أيضًا مثلًا من الذين خلوا من قبلكم، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالمثل هنا وهو أعم من الواحد يعني: أمثالًا من الذين خلوا، وليس هذا خاصًّا بخبر عائشة رضي الله عنها ومريم ويوسف؛ بل هو أعم من ذلك، لكن المؤلف قصره – كعادته رَحِمَهُ اللَّهُ – أنه يقصر الآيات العامة على المعنى حسب السياق وهذا نقص في الحقيقة، صحيح أن السياق قد يقيد المطلق وقد يخصص العام لكن بدليل، أما إن لم يكن دليل على أن هذا خاص فالأولى العموم.

فقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هذا في الحقيقة قد يكون أعم مما ذكره المؤلف، وفي القرآن إذنْ أحكام شرعية عبِّر عنها بـ: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وأخبار صادقة فيها العبرة، عُبِّر عنها بقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى ضرب لنا أمثالًا ممن خلا من قبلنا، لا فيما يتعلق بالعفة والصيانة، ولا فيما

يتعلق بالدين والإيمان والقدوة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠] ولما ذكر الله تعالى قصة لوط قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] الإنسان العاقل يقيس؛ لأن سنة الله واحدة، والله جل وعلا البشرُ بالنسبة إليه سواء إلا بالتقوى، فإذا أهلك الله أمة من الأمم السابقة بمخالفته فهل يمتنع أن يهلك هذه الأمة أيضًا؟! لا يمتنع، وإن كان يمتنع شيء وهو وجد في السابقين وهو الإهلاك العام، بل قال بعض العلماء: إنه لم يوجد من بعد إغراق فرعون واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣] قالوا: بعد ما نزلت التوراة على موسى عليه السلام ما عاد إهلاك كما في الأمم السابقين يعني: هلاك عام - هذا واقع في الحقيقة - سواء دلت عليه الآية أو لم تدل.

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مثل قصة يوسف عليه الصلاة والسلام رمى بما رمى به وأنجاه الله، من الذي رماه بالفاحشة؟ امرأة العزيز، والغريب أن امرأة العزيز هي التي راودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب وهيأت كل شيء، ولكنه عليه الصلاة والسلام ﴿هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] بعد أن همَّ، مع توفر الأسباب وانتفاء الموانع ووجود الطلب - وهو الهمة - بعد ذلك نهى نفسه، وهذا أعلى ما يكون في العفة، خلافًا لمن ذهب يحاول يؤوِّل كلمة همَّ يقول: همت به بالزنا، وهمَّ بها ليبطش بها هذا تناقض، لكن يقال: كمال العفة أن تحصل مع وجود الطلب، همَّ بها.

ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»(١).

فهو عليه الصلاة والسلام بعد أن همت به وهمَّ بها رأى برهان ربه، فتح الله عليه، أخيرًا تبين أن القائل امرأة العزيز، ظهر ذلك علنًا حتى من أن يوسف عليه الصلاة من قوة صبره ومن حكمته لَمَّا دُعِي أن يخرج من السجن قال: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ ما خرج حتى بان أمره، وهذا من الصبر العظيم، حتى يكون بريئًا تمامًا.

وبالنسبة لمريم عليها السلام نفس الشيء، اليهود اتهموها عرضوا تعريضًا، قالوا: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًّا﴾ فمن أين جاءك البغا؟

ولهذا اختلف العلماء: هل يُحدُّ بالقذف إذا عرَّض أو لا يُحد؟ والصحيح أنه إذا كان التعريض واضحًا أنه يحد، بل إنه أعظم، حيث قال بعض العلماء: إن التعريض بالزنا أعظم من التصريح به، لأنه يتضمن قذفًا ولومًا.

ثم قال المؤلف: [﴿وموعظة للمتقين﴾ في قوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾ إلخ ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم﴾ إلخ ﴿يعظم الله أن تعودوا﴾ إلخ، وتخصيصها بالمتقين لأنهم المنتفعون بها].

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه الآيات بناء على عادة وهو تخصيص العام بالسياق، وكانت عادة كما سبق أنه يخصص العموم بالسياق، والصحيح أن العموم لا يُخصص بالسياق، وأنه يشمل ما تضمنه السياق وغيره، وعلى هذا فهو موعظة للمتقين في هذه الآيات التي عدها وفي غيره.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥]

❁ التفسير ❁

يقول المؤلف: [﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي منورهما بالشمس والقمر ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفته في قلب المؤمن ...إلخ]

هذه الآية تضمنت عدة أشياء: أولًا قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما هذه الجملة؟ هل هي جملة على ظاهرها وحقيقتها أم هي تحتاج إلى تأويل؟

اختلف فيها أهل السنة وغيرهم كالعادة في بقية آيات الصفات، فذهب أهل التأويل إلى أن الآية لها تأويل، وجعلوا التأويل: إما أن نور بمعنى منوِّر، كما ذهب إليه المؤلف، أو أن نور بمعنى: ذو نور، كما تقول: رجل عدل، أي: ذو عدل، فمعنى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ذو نور السموات والأرض، أي صاحب نورهما، أي: الخالق للنور فيهما، وعليه فيعود هذا المعنى إلى المعنى الأول، لكن الاختلاف في التقدير، وهذا مذهب أهل التحريف الذين يُسَمَّون : أهل التأويل. والأصح في تسميتهم: أهل التحريف. لأن التأويل في الحقيقة منه صحيح، ومنه غير صحيح، والأليق بالتأويل غير الصحيح أن يُسمى تحريفًا، لأنه صرف للفظ عن مدلوله بدون دليل، وهذا هو التحريف حقيقة.

أما أهل السنة والجماعة فقالوا: إن الآية على حقيقتها، وأن الله سبحانه وتعالى نور السموات والأرض، لكن النور نوعان: نور هو ذات الله جل وعلا وصفاته وآياته وأحكامه ، وهذا غير مخلوق، ونور آخر حسيّ مخلوق منفصل بائن عن الله، فالنور الذي نراه في الشمس وفي القمر وفي

النجوم، وفي السُّرج، هذه من النوع الثاني، من النور الحسي المخلوق.

ثم النور المخلوق منه أيضًا حسي ومعنوي، الحسي هذا الذي مثلنا به، والمعنوي الذي ذكره الله في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ...إلخ﴾.

إذن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الله تعالى نور السموات والأرض، فهو نور بذاته، وكذلك أيضًا صفاته، وكذلك آياته، سماها الله تعالى نورًا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] فهو سبحانه وتعالى نور، لكن أهل التحريف لما ظنوا أن النور هو مادة الإضاءة أو الضوء نفسه، قالوا: هذا عَرَض يزول والله سبحانه وتعالى منزه عن العرض، أو هذا جسم قابل للإضاءة والله سبحانه وتعالى منزه عن الجسم، على حد تعبيرهم وقواعدهم.

لكننا نقول: ما الذي يسوِّغ لنا أن نعدل بالآية عن ظاهرها، ولا نقول: الله نور السموات والأرض، وقد قال النبي ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» فأثبت لوجهه نورًا، لكن الطريق السليم أن نقول: نور الله سبحانه وتعالى ليس مخلوقًا، ليس كنور القمر، الذي جعله الله فيه ﴿وجعلنا الشمس والقمر فيهن نورًا﴾ وليس كنور المصباح، وليس كالنور الذي يكون في قلب المؤمن من العلم والهداية، والإيمان.

وليس نوره ـ سبحانه وتعالى ـ كالنور الذي نتخيله، فإن النبي ﷺ يقول: «حِجَابُهُ النُّور، لَو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» أي: لأحرقت سبحات وجهه كل شيء، لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

إذن ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني هو نفسه نور فيهما، ولكن هذا النور الذي وصف الله به نفسه وجعله من صفاته وأسمائه لا يشبه الأشياء المخلوقة كسائر الصفات، إذن كلام المؤلف [منورهما] هذا ليس بصحيح، هذا تحريف، وإنما المعنى: نور في السموات والأرض نور بذاته وصفاته وآياته تبارك وتعالى.

ونحن نبطل القول، ونعذر القائل، ونقول لمن أخطأ: أخطأت، ولكن مع ذلك لا نلومه إذا علمنا منه حسن النية، بل نحبه أيضًا، ونحن نعرف علماء أجلة فضلاء ممن سلكوا هذا المسلك ـ مسلك التحريف في أسماء الله وصفاته ـ، ومع ذلك نشهد الله على محبتهم، لأننا نعرف أنهم ما سلكوا ذلك إلا عن اجتهاد وحسن نية، لما لهم من قدم الصدق في الإسلام، والنصح في الإسلام، مثل النووي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهما كثير. لكن لا مانع أنهم إذا أخطئوا قلنا: أخطئوا ولا يلزم من ذلك أن نلوم هذا الشخص. وذلك مسلك أهل السنة والجماعة، ولذلك لا تجد منهم عداوة ولا بغضاء إذا اختلفت أقوالهم، لأن كل منهم يعرف أن صاحبه معذور، لكن أهل الأهواء ـ والعياذ بالله ـ هم الذين لا يعذرون أحدًا يخالفهم، وإن كانوا هم على باطل، ولذلك تجدهم يكنون العداوة والبغضاء لمن خالفهم.

ثم قال المؤلف: [﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي صفته في قلب المؤمن] هذا في الحقيقة: مثل نوره أي: مثل نور الله، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [في قلب المؤمن]، لماذا لا نجعل ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هو نور ذاته وصفته؟ يعني: ما الذي أوجب لنا أن نؤول؟ لأن الله لا مثل له، ما يمكن أن نمثل نوره الذي هو صفته بشيء من مخلوقاته، فإن الله سبحانه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إذن فلا بد من التأويل، وفي الحقيقة: إذا قال قائل: ألستم تنكرون التأويل؟ نقول: لا ننكر التأويل مطلقًا بل ننكر التأويل الذي لا دليل عليه، أما ما يقتضيه العقل فإنه أمر معلوم، لأن عقلك لا يمكن أن يصدق أن نور الله في هذا الحجم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أبدًا، حتى العقل يمنع هذا، وإذا كان العقل يمنع هذا فالتأويل لا بد منه، يقول الله عز وجل في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عقلًا ما دمَّرت السموات، ولا دمرت الأرض، وإنما دمرت كل شيء ينتفعون به، بدليل قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وعلى كل حال: نقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل نوره الذي يضعه في قلب المؤمن، وبعضهم يقول: مثل نوره الذي يهدي به، ويرى أن هذا من باب تقريب المعنوي بالحسي، فمثلًا القرآن نور، مثل هذا النور كمشكاة ... إلخ، لكن الأسلم ما ذهب إليه المؤلف، أن المراد بالنور هنا النور الذي يضعه الله تعالى في قلب المؤمن. المشكاة: الكوَّة، ويسميها الناس: الروزنة، والمصباح: السراج.

قال المؤلف: [﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ هي القِنديل، والمصباح: السراج، أي الفتيلة الموقودة، والمشكاة: الطاقة غير النافذة، أي الأنبوبة في القنديل... إلخ].

المشكاة - كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: الطاقة غير النافذة، هذه إذا كان فيها مصباح في زجاجة - وسيأتي أيضًا وصف هذه الزجاجة - يكون نوره أقوى لأن النور ينعكس، ولا يتبدد.

يقول: [﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ والنور فيها ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: مضيء بكسر الدال وضمها من الدَّرء بمعنى الدَّفع لدفعها الظلام، وبضمها وتشديد الياء منسوب إلى الدُّرّ: اللؤلؤ] (دُرِّيٌّ) هذه القراءة الأخيرة بضمها وتشديد الياء، منسوب إلى الدُّر يعني اللؤلؤ لصفائه، والثاني (دِرِّيءٌ) على وزن سِكِّين مبالغة من الدَّرء، بمعنى الدفع، أو (دُرِّيءٌ) أيضًا من الدَّرء بمعنى الدفع.

والكوكب الدري معناه: العظيم النور والتَّوَقُّد. وذلك لأن وصفه بهذا الدرء يدل على قوة نوره ونفوذه، وكلما كان أشد لمعانًا كان أشد درءًا، ولهذا جاءت المسألة على باب المبالغة، لأن (فِعِّيل، وفُعِّيل) كلاهما من صيغ المبالغة، إذ إن اسم الفاعل في هذه المسألة لو قال: (دارئ) فإذا حوِّل عن اسم الفاعل إلى غيره صار ذلك صيغة مبالغة. يعني لكونه لقوة توقده وقوة ضوئه يكون درِّيئًا، أي يدرأ الظلام بقوة نفوذه، ولا يمكن أن يدرأ الظلام بقوة نفوذه إلا إذا كان عظيم التوقد وعظيم النور.

وعلى قراءة (دُرِّيٌّ) نسبة إلى الدُّرّ، وهو اللؤلؤ لصفائه، يعني ما به قتم يحول بيننا وبين هذا

الكوكب، فهو صافٍ جدًّا مثل الدُّرِّ.

وسبق لنا أن القراءتين يكون من فوائدهما أحيانًا سعة المعنى، فيكون المعنى أنها بنفسها صافية - بناءً على (دُرِّيّ) - ، وقوية الإضاءة - بناءة على (دِرِّيءٌ) ، فهذه من فوائد اختلاف القراءات، أنه يظهر في كل قراءة معنى غير الذي ظهر في القراءة الأخرى، فيكون ذلك أوسع وأشمل.

قال: [﴿تَوَقَّدَ﴾ المصباح بالماضي؛ وفي قراءة بمضارع (أوقد) مبنيًّا للمفعول بالتحتانية، وفي أخرى (تُوقَد) بالفوقانية، أي الزجاجة] إذن ثلاث قراءات هنا، كأنها كوكب دري تَوقَّد، هذا على أنها فعل ماض.

وفيها أيضًا ﴿يُوقَدُ﴾ أي: يوضع فيها الوقود، وفيه أيضًا (تُوقَد)، على (تَوقَّد) وعلى (يُوقد)، الضمير يعود على الكوكب؛ لأنه مُذكَّر ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ تَوَقَّد، كوكب دري يُوقَد، لكن على قراءة (تُوقَد) كأنها كوكب دُرِّيٌّ تُوقَد.

يقول المؤلف على هذه القراءة: أي ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾، يعود الضمير على الزجاجة لا على كوكب، وهنا لا يقال: إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور؛ لأن القاعدة تقول: إن الضمير يعود على أقرب مذكور ما لم يوجد مانع لفظي أو معنوي، فهنا وُجد مانع لفظي وهو عود الضمير؛ لأن توقد يعود الضمير على مؤنث والكوكب مذكر، هنا وجد مانع لفظي يمنع من عود الضمير إلى أقرب مذكور، وربما وجد مانع معنوي مثل قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ هو أي: الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]. الضمير يعود على الله ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ﴾ أي: الله ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ وطبعًا إبراهيم عليه السلام ما سمانا في هذا، يعني: لو فرض أنه هو سمانا من قبل يمكن يصح أنه يكون إبراهيم، لكن في هذا ما يصح.

فلذلك نقول: هذا مانع معنوي؛ لأنه هو صالح أن يرجع إلى الله، وصالح أن يرجع إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لكن المعنى يمنع منه.

على كل حال نعود إلى قراءتنا، نقول (توقَّد) و (يوقد) كلاهما الضمير يعود على الكوكب، وأما (تُوقَد) فالضمير يعود على الزجاجة التي فيها المصباح.

[﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بل بينهما فلا يتمكن منها حر ولا برد مضرين].

تنبيه: الضمير يعود على المصباح، ونحن قررنا أنه يعود على الكوكب، ولا يصح تقريرنا؛ لأن الكوكب لا يوقد من هذا الشيء، الذي يوقد هو المصباح.

يقول: [﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٖ﴾] كيف يكون من زيت شجرة؟ لأن الشجرة نفسها ليست هي الوقود وإنما الوقود زيتها.

وقوله: ﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أي: ذات بَركة، والبَرَكة: هي الخير الكثير الثابت، مأخوذ من بِرْكة الماء لكثرة مائها وثبوته.

وقوله: ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ هل هناك شجرة غير الزيتون يوقد منها؟ نعم، ولكن زيت الزيتون هو أعلاها وأشدها صفاء وأقواها نورًا، وقوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ يقول: [بل بينهما فلا يتمكن منها حر ولا برد مضرين] ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ يقولون: معناها: إنها في ربوة أو جبل؛ لأنها إذا كانت في منخفض لابد أن تكون شرقية أو غربية فإن كانت في المنخفض من جهة الشرق فهي شرقية، وشمس آخر النهار لا تصيبها، وإذا كانت من جهة الغرب فهي غربية شمس أول النهار لا تصيبها، فهي إما في ربوة وذلك أكمل وأبين، وإما في مكان مستوٍ صحراوية.

لكنهم قالوا: إنها في ربوة؛ لأنها إن كانت في ربوة فإنها أبين وأعلى، وأطيب زيتًا لكنها موصوفة بقوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ وفي هذا دليل وإرشاد أنه ينبغي للإنسان إذا وضع الشجر ألا يضعه في مكان يحتجب عن الشمس شرقًا أو غربًا، بل ينبغي أن يوضع الشجر في مكان يبرز للشمس شرقًا وغربًا.

قوله: [﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ وذلك لصفائه].

﴿يَكَادُ﴾ بمعنى: يقرب ﴿زَيۡتُهَا﴾ أي: زيت هذه الشجرة ﴿يُضِيٓءُ﴾ أي: يحدث إضاءة ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ كيف يمكن يضيء ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾؟

يقول المؤلف: [لصفائه] فإذا أصابته النار مع أن أصله صافٍ يكاد يضيء صار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾.

[﴿نُّورٌ﴾ به ﴿عَلَىٰ نُورٖ﴾ بالنار، ونور الله] الذي يوجد للمؤمنين [أي: هداه للمؤمن نور على نور الإيمان].

الآن يمكن أن نعرف كيف هذا التمثيل وهل هذا التمثيل مركب أم مفرد؟

الظاهر أنه مركب يعني: معناه مركب من هذه الأشياء، ولا يتحقق إلا بتصور هذه الأشياء مجتمعة، لو قلنا إنه مفرد كان معناه كل تمثيل لا يتصل بما بعده.

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ أين المشبه؟ نور الله، والمشبه به المشكاة، ثم ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ هل هذا التشبيه مستقل عما قبله أو هو في ضمن ما قبله؟ الذي نرى - وهو أبلغ - أن يكون في ضمن ما قبله لأجل أن يكون التشبيه مركبًا من الصورة كاملة.

إذنْ هذا تشبيه تمثيل بمعنى: أن الله شبَّه النور الذي في قلب المؤمن بهذه القضية كلها ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ أين الذي يقابل المشكاة؟ القلب والنور الذي يقذفه الله في قلبه مع نور الإيمان هو المصباح، لكن هذا المصباح مركب ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ الزجاجة الصافية لامعة ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ ووقود هذا النور ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ زيتها صافٍ وجيد فصار الآن مادة النور جيدة، وكذلك محله جيد وكذلك وقايته جيدة وأن الزجاجة تقي النور وتصفيه، فالنور إن لم يكن

في زجاجة ـ كما هو معلوم ـ يكون مضطربًا ويكون غير صافٍ، فتجد أن هذا النوع قد كملت فيه أسباب الصفاء من حيث الوقود والمكان، كذلك أسباب الشمول من حيث القوة ومن حيث كونه في مشكاة.

النور الذي في قلب المؤمن مثل هذا، ولكنه في الحقيقة المؤمن كامل الإيمان، فأما المؤمن ناقص الإيمان فإنه ينقص من نوره بمقدار ما نقص من إيمانه، يعني: لا تظن أن هذا التشبيه لكل قلب مؤمن، بل المراد المؤمن الكامل الإيمان، فإن الله يجعل في قلبه هذا النور العظيم، وذلك أمر معلوم: كلما قوي إيمان العبد، وكلما قوي طلبه للحق، فإن الله تعالى يهديه للنور، وكلما ضعف إيمان العبد أو ضعف طلبه للحق، فإنه يضعف نوره، ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ :

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَالَ: اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لَا يُؤْتَى لِعَاصِي

فكلما نقص الإيمان أو نقص طلب الحق؛ فإنه ينقص هذا النور وكلما ازداد الإنسان في طلب الحق، وذلك بالتعلُّم وقوي إيمانه، ازداد نوره، ولذلك تجد أن أهل العلم تَقْوَى معرفتهم بالشريعة بحسب ما أُثِر عنهم من الإيمان والتقوى.

قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ما هو النور الذي على النور؟

(النور): نور هذا المصباح، (على نور): ما في الزيت فإن هذا الزيت أصله فيه إنارة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فكيف إذا أصابته النار، كذلك نور الإيمان في القلب مثل نور الزيت، ونور العلم والهداية مثل النار التي تصيب هذا الزيت ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

يقول: [﴿نُّورٌ﴾ به ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ بالنار، ونور الله: أي هداه للمؤمنين نور على نور الإيمان].

إذنْ فالإيمان بمنزلة الزيت، والهداية بمنزلة النار التي جُعل الزيت وقودًا لها.

قوله: [﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: دين الإسلام ﴿مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ﴾ أي: يبين ﴿ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لأفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ضرب الأمثال].

قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ هذا النور الذي يهدي الله له هو النور الذي يقذفه في قلب المؤمن أم النور الذي ينزله للناس؟ الذي ينزله للناس، يهدي الله المؤمن إليه، فالذي ينزله الله تعالى إلى الناس من الوحي هو نور بلا شك ويهدي إليه من يشاء، وكلمة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدم معنا أن أي أمر عُلِّق بالمشيئة فإنه محكوم بالحكمة، فالله تعالى يهدي من يشاء لكن إذا اقتضت الحكمة هدايته، وقد علمنا أن كل من طلب الحق بنية صادقة فإن الله سبحانه وتعالى يهديه، وكل من زاغ عن الحق وتولى عنه فإن الله تعالى يضله.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾

[المائدة:٤٩].

وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ نقول: ممن تقتضي الحكمة هدايته، وذلك لكونه مستعدًّا وقابلًا للهداية.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الأمثال جمع مَثَل وهو الشَبَه أو مِثل وهو الشِّبه أيضًا، والأمثال كل شيء يشابه غيره فالله تعالى يضرب الأمثال للناس إمَّا أن يضرب حِسِّيًا بحسِّيٍّ أو معنويًّا بمعنويٍّ أو معنويًّا بحِسِّيٍّ، والغالب أن الله يضرب الأمثال إذا كان الأمر معنويًّا يضربه بأمر حسِّي أو إذا كان الأمر الحسِّي أمرًا مستبعدًا أو منكرًا فإنه يضربه بحسيٍّ معلوم، وذلك لتقريب الأمر إلى أذهان الناس، فمثلًا نجد أن الله ـ تعالى ـ ضرب مثلًا للذين يعبدون غير الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ هذا ضرب أمر معنوي بأمر حسِّي، فهم يلوذون بهذه الأصنام كما أن العنكبوت تلوذ ببيتها لكن هل بيتها يقيها؟ لا، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١]. ونجد أن الله تعالى يضرب مثلًا لما ينكره الكافرون من إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها؛ فإن الأرض تكون ميتة هامدة فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

نجد أنه هنا في الأمر المعنوي الذي هو نور الله تعالى في قلب المؤمن ونور الله الذي ينزله فيهتدي به المؤمن، نجد أن الله تعالى ضرب مثلًا في هذا المصباح الذي في المشكاة...إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مناسبة هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلم العالمين بما يطابق المثل مضربًا وموردًا؛ لأن المثل له مَضْرِب وله مورد لكن الله سبحانه وتعالى هو أعلم العالمين بهذا المضرب والمورد ومطابقة أحدهما للآخر؛ لأنه ربما يأتي إنسان ويشبِّه شيئًا بشيء وعندما تُمحص وتُحقق الأمر تجد أنه لا مشابهة، لكن الله سبحانه وتعالى إذا ضرب مثلًا بشيء فإنه بكل شيء عليم، لا يخفى عليه أوجه المشابهة التي يتضمنها هذا المثل.

وفي هذه الآية إشارة بل تصريح إلى عموم علم الله سبحانه وتعالى؛ وأنه عليم بكل شيء.

والله سبحانه وتعالى حكيم يجعل في وحيه أمرًا متشابهًا ويستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١] قالوا: حتى للغاية فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم المجاهد والصابر إلا بعد أن يجاهد ويصبر، ولكنه سبق لنا الجواب عن مثل هذا الإشكال. وهو أن نقول: إن المراد العلم الذي يترتب عليه الجزاء، لأن علم الله تعالى بالشيء قبل وقوعه لا يترتب عليه جزاء، يعني: كون الله يعلم هذا مجاهد وهذا لا يجاهد، هذا ما يترتب عليه الجزاء، فيكون المعنى: حتى نعلم العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان والابتلاء.

وفرقٌ آخر: علم الله بالشيء قبل وقوعه علم بأنه سيقع فلا يتعلق به شيء، وعلم بعد وقوعه علم بأنه وقع، وفرق بين مَدْرَك العلمين:

الأول: علم بأنه سيقع ولا يترتب عليه شيء بالنسبة للمُكلَّف.

والثاني: علم بأنه وقع وهو الذي يترتب عليه ما رتبه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمكلف.

هذا هو ما أجاب عنه أهل السنة عن مثل هذه الآية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النور:٣٦]

❁ التفسير ❁

[﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ الآتي] ما معنى متعلق؟

الفعل يتعدى إلى المفعول بنفسه، وأحيانًا يتعدى إلى المفعول بحرف الجر، إذا تعدى إلى المفعول بحرف الجر يقال: هذا متعلق به، وإلا فالحقيقة أن الجار والمجرور المتعلق، وكذلك الظرف هو مفعول، لكنه لا يتعدى إليه الفعل بنفسه.

فـ﴿يُسَبِّحُ﴾ تعلق بها قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يعني: أن العامل في الجار والمجرور هو قوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

قوله: [﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تُعظَّم، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بتوحيده].

قوله تعالى: ﴿أَذِنَ﴾ المراد هنا: الإذن الشرعي، فمعنى ﴿أَذِنَ﴾ أي: شَرَعَ أَنْ تُعَظَّم، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: أمر النبي ﷺ ببناء المساجد في الدُّور - يعني: في الحارات - وأن تُطَيَّب[1]، وهذا دليل على أن الإذن هنا بمعنى الشرع، وقد سبق أن قررنا أن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذنْ كوني، وإذن شرعي:

فمثال الإذن الكوني: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ومثال الإذن الشرعي: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

هذه لا تصح أن تكون إِذْنٌ كوني قدري لماذا؟ لأن الإذن الكوني القدري لم ينتفِ فإنهم شرعوا وما شرعوا إلا بإذن الله كونًا وقدرًا. فإِذَنْ قوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي شرعًا ولابد.

وقد يأتي الإذن بمعنى (الاستماع) كقوله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٥٩٤)، وأبو داود (٤٥٥)، وصحح إسناده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٢٤).

بِالقُرْآنِ»[1] معناه: ما أَذِنَ الله لشيء أي: ما استمع لشيء مثل استماعه لهذا النبي الذي يتغنى بالقرآن يجهر به.

إذنْ ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ في الآية التي معنا من أي الإذنين؟ الشرعي.

هل يتعين أن تكون للشرعي؟ نعم، والتعليل لو أَذِنَ بذلك قدرًا لكانت المساجد تعظم ولابد وترفع ولابد؛ لأن الإذن الكوني والقدري لابد فيه من وقوع المأذون.

كل ما يتعلق بالأمور الكونية لابد من وقوعه، فلو كان المراد بالإذن هنا الإذن الكوني، لكان رفع المساجد أمرًا حتميًّا، مع أننا نجد أن المساجد أحيانًا لا ترفع ولا تعظَّم بل تمنع، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤].

قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ تُعظَّم، وفي الحقيقة أن رفعها أعم من التعظيم فترفع بالتعظيم وبغيره، لكن صحيح أظهر ما يكون في الرفع هو التعظيم.

قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: اسم الله، والمراد أن الله يُذكر بأسمائه؛ لأنه إذا ذُكر الاسم ذُكِر المُسَمَّى.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بأي شيء يذكر؟ بالقراءة والتسبيح - كما سيأتي -، المهم يذكر فيها اسمه بالثناء والتمجيد، وهذا يشمل الصلاة وغير الصلاة.

ثم قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ وهذا التنزيه، فيكون في الآية إشارة إلى أمرين:

إلى إثبات الكمال في قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وإلى نفي النقص في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

[وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بفتح الموحدة وكسرها: أي يُصَلِّ]

يسبح فيها قراءتان سبعيتان الفتح والكسر - وسيأتي إن شاء الله - تخريج كل منهما فيما بعد.

وقوله: [أي يُصَلي] هذا فيه نظر إن قصد بذلك حصر التسبيح بالصلاة، وإن قصد بذلك التمثيل فهذا صحيح، فإن قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أعم من كونهم يصلون، بل هم يُسَبِّحون الله بالصلاة وغيرها مما يكون به تنزيه الله سبحانه وتعالى.

[وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ مصدر بمعنى: الغدوات: أي: البُكَر ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ العَشَايَا من بعد الزوال].

قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ الغدو يقول المؤلف: إنها مصدر غَدَا يَغْدُو غُدُوًّا، لكنها بمعنى الجمع، غُدُوّ مصدر بمعنى الجمع، بمعنى الغُدُوات يعني: أول النهار، وإنها لجأ المؤلف إلى جعل الغدو بمعنى الغدوات لمطابقة قوله: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾؛ لأن الآصال جمع أصيل وهو آخر النهار،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢).

وقوله: هي العَشَايا: جمع عشيٍّ أيضًا ما كان بعد الزوال.

وفي حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين قال: (صَلَّى بِنَا رَسُوْلُ الله ﷺ إِحْدَى صَلَاتَيِ العَشِيِّ)[1].

أين الصلوات إذا قلنا يسبح بمعنى: يصلي؟ يكون بالغدو صلاة الفجر والعشي الظهر والعصر، يتبقى المغرب والعشاء وهي مما يصلى في المساجد، ولهذا نرى أن الصواب في ذلك أن التسبيح أعم من الصلوات.

ثم إنه يحتمل أن يُقْصَد بالغدو والآصال جميع الوقت كما في قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]، الرزق لأهل الجنة دائم، لكن يقال هكذا والمراد: الدوام، فإما أن تُحْمَل الغدو والآصال على معنى الدوام أي: يسبحون دائمًا، أو على معنى أول النهار وآخره، فيكون في هذا إشارة للتسبيحات التي تذكر في أول النهار وفي آخره ومنها صلاة الفجر وصلاة العصر؛ فإن الصلاتين هاتين أفضل الصلوات كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[2] وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»[3] يعني: الفجر والعصر.

على كل حال: الغدو والآصال إن أُريد بهما حقيقتيهما وهو أول النهار وآخره كان في ذلك إشارة إلى ما يقال من التسبيح والتعظيم لله والتهليل في أول النهار وآخره، وكذلك أيضًا صلاة الفجر وصلاة العصر، وإن قلنا: المراد بالغدو والآصال كل الدهر، وأن هذا من باب ذكر الطرفين ليشمل الجميع كما في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢]؛ فإنه يشمل كل ما يسبح لله تعالى في المساجد في أول النهار وآخره وفي الليل أوله وآخره ووسطه.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

[وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء وعلى فتحها نائب فاعل له و﴿رِجَالٌ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم(٥٧٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم(٦٣٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم(٦٣٣).

فاعل فعل مقدر جواب سؤال مقدر كأنه قيل: مَنْ يسبحه؟].

توجيه القراءتين السابقتين: (يُسَبِّحُ)، و(يُسَبَّحُ).

إذا كانت (يُسَبِّحُ له فيها بالغدو والآصال) يُسَبِّحُ هذه مبنيٌّ فاعل أم مفعول؟ مبني للفاعل وعليه فيكون قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل (يُسَبِّحُ).

على قراءة: يُسَبَّحُ يكون الفعل مبنيًا للمفعول، يحتاج إلى نائب فاعل ما يصلح أن يكون رجال نائب فاعل؛ لأنه لو كان نائب فاعل كان الذين يسبحون هم الرجال، وهذا شيء غير ممكن إذنْ أين نائب الفاعل؟ نائب الفاعل هو الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، إذا لم يوجد المفعول - يعني في الفعل المبني للمجهول - ناب عنه الظرف والجار والمجرور، مثل ما لو قلت: ضُرِبَ الضَّرْبُ وما أشبه ذلك فإنه ينوب عن المفعول به.

قال ابن مالك:

وَقَابِلٍ مِنْ ظَرْفٍ أَوْ مِنْ مَصْدَرٍ أَوْ حَرْفِ جَرٍّ بِنِيَابَةٍ حَرِي

الذي معنا الآن (يُسبَّح له) إذا قلنا (له) هو نائب الفاعل وهو حرف الجر.

يبقى الإشكال في ﴿رِجَالٌ﴾ على قراءة (يُسَبَّحُ). نقول: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لفعل محذوف هذا الفعل المحذوف أوجبه كلمة (يُسَبَّحُ)؛ لأنه (يُسَبَّحُ له) كأنه قيل: مَنْ يُسبِّحُ له؟ فقيل: رجال.

وعلى هذا فتكون رجال فاعلًا لفعل محذوف دلَّ عليه الفعل المذكور وهو يسبِّح.

إذنْ (يسبح) فيها قراءتان سبعيتان فتح الباء وكسرها، وتبين الآن توجيه كل من القراءتين.

قوله: [﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ أي: شراء ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حُذِفَت هاء إقامة تخفيفًا ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تضطرب ﴿فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من الخوف، القلوب بين النجاة والهلاك، والأبصار بين ناحيتي اليمين والشمال: هو يوم القيامة].

يقول الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ تدل على المدح والثناء كما يقال: (فلان رجل) أي: إنه اتصف بصفة الرجولة، فكلمة ﴿رِجَالٌ﴾ لا شك أنها تدل على الثناء ولذلك لا تطلق إلا على البالغ العاقل.

وقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ لم يقل: لا يبيعون ولا يشترون؛ لأن الذي لا يبيع ولا يشتري قد يأتي إلى المسجد ليسد الفراغ، لكن وصفهم بأنهم يبيعون ويشترون لا أنهم بلا تجارة وبلا عمل، وهذا أبلغ في الثناء: كونهم يبيعون ويشترون، لكن هذا البيع والشراء لا يلهيهم عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ المؤلف فسر التجارة بالشراء لماذا؟ في مقابلة بيع، ولكنه تفسير ليس بصحيح؛ لأن الشراء مفهوم من بيع، إذ لا يوجد بيع إلا بشراء لكن التجارة أعم من البيع،

قد يُلهو الإنسان بتجارته لتصنيفها وتبويبها وحفظها وصيانتها وما أشبه ذلك، ربما لا يُلهو وهو يشتري لكن يُلهو بطريق آخر بهذه التجارة، لذلك نقول: المراد بالتجارة ما يَتَّجِرُ به الإنسان، ولهوه به ليس بالشراء بل بما هو أعم، أما الشراء فمفهوم من البيع؛ لأنهم إذا شروا فقد باع عليهم غيرهم، وإذا باعوا فقد اشترى منهم غيرهم.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: التجارة لا تلهيهم عن ذكر الله، يقدمون ذكر الله على تجارتهم لكن الناس في هذا الباب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ـ في مسألة التجارة والذكر ـ:

القسم الأول: فمنهم من يقدم التجارة على الذكر وهذا خاسر لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] لو رضوا بالأموال والأولاد فهم خاسرون.

القسم الثاني: من لا تلهيه التجارة والأولاد عن ذكر الله لكن يعمل هذا في محله، وهذا في محله، فهذا رابح ما فاته ماله وولده، ولا فاته ذكر الله أتى لهذا بنصيبه ولهذا بنصيبه.

القسم الثالث: من هو أعلى من هذا، من يجعل تجارته وولده من ذكر الله، بحيث يقصد بهذه التجارة الاستعانة على طاعة ربه، وعلى بذل أمواله فيما يرضي ربه، وكذلك بالنسبة للأولاد: يجعل اشتغاله بهم لتربيتهم، والتأمل في نعمة الله عليه بهم، وما أشبه ذلك، هذه هي المرتبة العُلْيا، وعلى هذا يكون هذا الرجل رابحًا من الطرفين في آن واحد. أما القسم الثاني: فرابح في الطرفين لكن على التناوب يربح في هذا ويعطيه ما يستحق، ويربح في هذا ويعطيه ما يستحق. أما الثالث والأخير: فهذا شأنه كثير، ولكن قَلَّ من يوجد بهذه الصفة وهو نادر جدًّا.

وأكثر الناس اليوم من القسم الأول الذي هو في الحقيقة آخرهم في المرتبة، هو أول في الذكر وآخرٌ في المرتبة.

قوله: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ إقام بمعنى: إقامة لكن حذفت التاء تخفيفًا، وإقام الصلاة ليس مجرد فعلها بل هو أمر فوق الفعل؛ لأنه معنى أقام الشيء: جعله قيِّمًا مستقيمًا، وذلك بفعل شروطها وأركانها وواجباتها، فما كل مصلٍّ مقيمًا للصلاة ولهذا تجدون أن الثناء الذي يذكره الله في القرآن، بل والأوامر التي يأمر الله بها في القرآن غالبًا بالإقامة؛ لأن ذلك هو الأصل ليس مجرد فعل الصلاة، ولهذا نجد أنه يصلي رجلان مع الإمام، أفعالهما واحدة، ودخولهما في الصلاة واحد، وخروجهما منها واحد، ولكن بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض؛ لأن أحدهما أقام الصلاة والآخر صلى فعلًا فقط، لكن الأول أقامها خاشعًا مُستحضرًا مُخلصًا يرجو ثواب الله ويخاف عقاب الله.

إقام الصلاة المذكور في القرآن كثيرٌ، بماذا بُيِّن؟

بُيِّن بالسنة، هناك أشياء بيَّنها القرآن لكن غالب ذلك مبيَّن بالسنة، وبهذا نعرف أن السنة

ضرورية في الشرع، وأن من أنكرها فقد هدم جانبًا كبيرًا من الشرع، وقد وُجِد بعض الناس أنكر السنة ـ والعياذ بالله ـ، وسمعنا أن بعض الزعماء من العرب صاروا يصادرون كتب السنة، قيل لي: إنهم يصادرون البخاري ومسلمًا من المكاتب حتى لا تنتشر سنة الرسول ﷺ بين أمته ـ والعياذ بالله ـ، وهذا لا شك أنه كفر، يعني: كيف يبيح لنفسه أن يصادر كتب الحديث التي تلقتها الأمة بالقبول!!

هم لو صادروا كتبًا مضلة ضعيفة موضوعة لكنا نحمدهم على هذا الأمر، لكن يصادرون كتبًا صحيحة تلقتها الأمة بالقبول وعلمها المسلمون واعتبروها سندًا، هؤلاء لا شك أنهم كفار؛ لأنهم كفروا بسنة الرسول ﷺ بل بالقرآن نفسه؛ لأن الله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ويقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦] على كل حال الآيات في هذا كثيرة، وبينة وواضحة.

فإقامة الصلاة من هذا النوع ما بيّنها بيانًا كافيًا إلا سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: إعطائها، والزكاة معروفة لنا وهي: الجزء الذي أوجبه الله تعالى في أموالنا، ولم يُبيّن المُؤتَى إليه لكنه مُبيّنٌ في القرآن في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ صفة للرجال لا تلهيهم، وهم أيضًا في هذه الأحوال يخافون يومًا، يخافون في حال تسبيحهم بالغدو والآصال، وفي حال إقامتهم للصلاة، وفي إيتاء الزكاة، وفي حال عدم لهوهم بالتجارة والبيع، كل هذه الأعمال مبنية على هذه العقيدة والأساس، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

خوفهم من هذا اليوم يدل على إيمانهم به، إذ لا يخاف الإنسان من شيء لا يؤمن به، فهو يدل على أن عندهم تمام الإيمان واليقين باليوم الآخر، ولذلك يخافون هذا اليوم، هذا اليوم وصفه الله بقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ أي: تضطرب ﴿فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ التقلب معروف هو: تغير من حال إلى حال، وهذه القلوب تتقلب وتضطرب وتنتقل من حال إلى حال، يقول: [القلوب بين الهلاك والنجاة] لا يدري الإنسان: هل ينجو أو يهلك، فقلبه متقلب مضطرب، أحيانًا يغلب عليه الرجاء، وأحيانًا يغلب عليه الخوف، كذلك الأبصار تتقلب، يقول المؤلف: [بين ناحيتي اليمين والشمال] لأن الناس كثيرون، ما كأنهم عقلاء، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج:٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٢ - ٤٣].

واحد إذا رأيته كأنه مجنون كأنه سكران من شدة الهول، وما ظنك بالقلب حينئذ لا شك أنه في الحقيقة سوف يتقلب ويضطرب ولا يدري المآل هذا الذي يحصل يوم القيامة.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨]

❁ التفسير ❁

[﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ثوابه و(أحسن) بمعنى: حسن]

اللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ هل هي للعاقبة وأن عاقبتهم هذا، أو هي للتعليل؟

يعني: أنهم يسبحون ويخافون لأجل أن يجزيهم الله أحسن ما عملوا، فيكون هنا جمعوا - على قولنا للتعليل - بين الخوف والرجاء، أو نقول: للعاقبة وأنهم يعملون تلك الأشياء خوفًا من الله عز وجل، فتكون عاقبتهم الأمن التام مع الثواب الجزيل؟

هناك احتمالان: إما أن تكون اللام للعاقبة يعني: أنهم يسبحون ويخافون وتكون عاقبتهم تلك، وهو الأمن مما يخافون وحصول الثواب الجزيل.

أو أنها للتعليل يعني: أنهم يفعلون ذلك لانتظار الجزاء ليجزيهم الله أحسن ما عملوا.

ثم هنا نناقش المؤلف، قال المؤلف: [أي ثوابه] لأنهم في الحقيقة لا يجزون لنفس العمل وإنما يجزون بثوابه، الجزاء: الثواب، لذلك احتاج المؤلف أن يقدر العمل بثواب العمل؛ لأنه هو الذي به الجزاء - هذه واحدة -.

الثاني: يقول: أحسن بمعنى: حسن؛ لأنه تَوَهَّم - المؤلف - أو ربما يتوهم المتوهم أن الجزاء إنما يقع على أحسن ما يعمل الإنسان، والحقيقة أن الجزاء يقع على الأحسن والحسن، عندما يعمل الإنسان حسن فإنما يكون الجزاء على الحسن والأحسن، ولكن هذا التَّوَهُّم لا يرد على تقدير المؤلف وهو أن المراد ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ثوابه يصير المعنى: ليجزيهم الله أحسن ثواب ما عملوا، وعليه فلا إشكال إطلاقًا ولا نؤول أحسن بمعنى: حسن؛ لأن تأويل أحسن بمعنى حسن تحريف؛ فلذلك نقول: الآية على ظاهرها واسم التفضيل على ذاته، والمعنى: أنهم يجزون أحسن ثواب بعملهم. كيف ذلك؟

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والإنسان لو عملت له عملًا

وأعطاك أجرك مرتين يصير هذا أحسن ثواب، لكن ثواب الله أحسن وأحسن؛ لأن الله يضاعف لمن يشاء، فالأولى بل الواجب أن تبقى أحسن على ما هي عليه من التفضيل، نقول: أحسن أي: أحسن ثواب لعملهم، ويكون هنا الأحسن ليس للعمل، وإنما للثواب.

بقي علينا على التقدير الأول ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ لماذا عبَّر، جعل الله تعالى الحُسن للعمل نفسه مع أن الحُسن للثواب؟ إشارة إلى أن الجزاء بقدر العمل ولذلك عُبِّر به عنه؛ لأن العمل كما تدين تُدان، فالإنسان الذي لا يصلي - مثلًا - هل له ثواب المصلي؟ لا، والذي لا يزكي لا يثاب ثواب المزكي وهكذا، فالجزاء على العمل، ولذلك عُبِّر به - أي بالعمل - عن جزائه، إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، لكنه جزاء أحسن ما يكون.

[وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقال: فلان يُنفق بغير حساب أي: يُوَسِّع كأنه لا يَحسِبُ ما ينفقه].

قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ هذا زائد على ثواب العمل، وذلك ما يحصل من زيادة الأعمال الصالحة، وزيادة الرزق في الدنيا، وزيادة ما يُدَّخَر لهم عند الله في الجنة، كالنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الصحيح في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] أن المراد بالزيادة النظر إلى الله.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ المعنى: أنه سبحانه وتعالى يُعطِي بغير تقدير، لكن ما معنى بغير تقدير؟ كيف نقول بغير تقدير مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الجواب: أن هذا كناية عن كثرة العطاء، ولهذا يُقال كما قال المؤلف: فلان ينفق بغير حساب، يعني: يعطي عطاءً كثيرًا لا حدَّ له، وإلا فإن الله قد قدره بعلمه وحكمته، فكل شيء حتى نقطة المطر إذا نزلت في الأرض فإنها بمقدار.

إذنْ يكون معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مقدار، وهو كناية عن كثرة ما ينفق لا عن كونه ينفق هكذا بدون أن يشعر بما ينفقه، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما يرزق، وكيف يرزق، وأين يرزق، ولكنه تعالى لكثرة عطائه كالذي لا يحسب.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلة المساجد، ونستدل عليه بقوله: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فإن إِذْنَ الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يدل على شرفها؛ لأن المكان يشرف بشرف العمل فيه، كما أن الزمان أيضًا يشرف بشرف العمل فيه.

لماذا كان رمضان شريفًا؟ لمشروعية الصيام فيه، وإنزال القرآن.

ولماذا كانت الكعبة شريفة؟ لأن فيها المناسك، وذكر الله على ما رزق من الأنعام وهكذا.

إذنْ يستفاد من ذلك شرف المساجد؛ لأنها محل ذكر الله عز وجل وتعظيمه.

٢ - **ومن هذه الفوائد:** مشروعية تعظيم المساجد ومن ذلك - من تعظيمها - أن تُطَيَّب، ومن ذلك أيضًا: أن تُنَظَّف عن الأذى والأقذار، هل نقول: ومن ذلك أن تُزَخْرَف؟ لا، ولهذا جاء في الحديث: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيْدِ المَسَاجِدِ» وعن ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى.

فالزخرفة هذا شيء لا يليق بالمساجد؛ لأن المساجد ليست بيوت دنيا، وإنما هي بيوت عمل للآخرة، لكن تنظف عن الأذى والأقذار وتُطَيَّب، وفرق بين التنظيف عن الأذى وبين إحداث الزخرفة، فإن التنظيف عن الأذى تنقية، لكن الزخرفة إيجاد أشياء لا تتناسب مع المساجد.

ومن تعظيم المسجد ألا تدخل بالنعلين إلا وقد نظرت فيه وعلمت نظافته، فإذا نظفته ادخل به، والسنة أن تصلي في النعلين؛ لأن النبي ﷺ أمر بذلك وفعله بنفسه أيضًا.

٣ - **ومن فوائدها:** تعظيم شأن المساجد لقوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ فإن هذا دليل على تعظيم شأنها. وبيَّنا أن الإذن ينقسم إلى قسمين: شرعي وكوني، والفرق بينهما: أن الشرعي ما يتعلق فيما شرعه الله وأحبه، والكوني فيما قدره سواء شرعه أو لم يشرعه وذكرنا على ذلك أمثلة.

٤ - **وفيها أيضًا:** فضيلة ذكر الله سبحانه وتعالى في المساجد لقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** فضيلة تنظيف المساجد وحمايتها من الأذى لقوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾؛ فإن هذا من رفعها، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى القَذَاةَ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ»[1].

٦ - **ومن هذه الفوائد:** أن الذكر الأفضل أن يكون بالقلب واللسان، ويؤخذ من قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾؛ لأنه لا يمكن ذكر الاسم إلا باللسان.

٧ - **من فوائدها:** فضيلة التسبيح لقوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

٨ - **ومن هذه الفوائد:** الجمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقص عنه، ويؤخذ من قوله: ﴿وَيُذْكَرَ﴾ و ﴿يُسَبِّحُ﴾ يذكر فيها اسمه: هذا إثبات صفة الكمال، ويسبح: نفي صفة النقص، وسبق لنا قاعدة مهمة في باب التوحيد في الأسماء والصفات: أن النفي لا يُراد به مجرد النفي وإنما يراد مع النفي إثبات كمال ضده، فإذا نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه أنه يظلم ليس معنى ذلك مجرد نفي الظلم، ولكن من أجل إثبات كمال العدل؛ لأن نفي الظلم مثلًا قد يكون من العجز عن الظلم، وقد يكون لعدم قابلية هذا المحل لكونه ظالمًا.

قلنا مثلًا: إنه يقال: الجدار لا يظلم؛ لأنه ليس قابلًا للظلم، القابلية معدومة.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩١٦)، وأبو داود (٤٦١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٠).

وتقول مثلًا: هذا الرجل الضعيف المهين لا يظلم لعجزه فلا يكون مدحًا، لكن عندما تقول لقادر قابلٍ لأن يكون ظالمًا من حيث هو ذاته، فهذا دليل على كمال عدله، ولهذا نفى الله الظلم عن نفسه، ولو كان غير قابل للظلم كما قالت الجبرية ما صح النفي.

٩ - ومن فوائدها: فضيلة التسبيح في الصباح والمساء إذا قلنا إن المراد ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ هذين الوقتين، فإذا قلنا المراد ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ معناه: الاستمرار دائمًا وإنما ذُكِرَ هذان الوقتان لأنهما طرفا النهار لم يكن في هذا دليل على تخصيص هذين الوقتين؛ لكن الظاهر من الأدلة أن لهذين الوقتين مزية؛ لأن الله دائمًا يأمر بالتسبيح بهما يعني: في هذين الوقتين.

١٠ - ومن هذه الفوائد: دليل على أنه كلما قوي الصارف ولم ينصرف الإنسان فهو أكمل ممن لا صارف له، وتؤخذ من أن هؤلاء الرجال لو كانوا لا يعرفون التجارة ولا يستطيعون التجارة قلنا إن لجوءهم إلى بيوت الله من باب الضرورة لكنهم قوم لهم تجارة؛ الصارف عن ذكر الله في المساجد موجود وهو التجارة، لكنهم مع ذلك لا تلهيهم.

١١ - ومن فوائدها: دليل على جواز الاتجار، ووجهه أنه أثبت أنهم يتاجرون في مقام المدح، ولو كان الاتجار حرامًا أو مذمومًا ما صح أن يؤتى به في سياق المدح، فالتجارة لا بأس بها، لا يقال للإنسان لا تتجر لا تعمل، ولكن على كل حال للناس أغراض في تجاراتهم.

أحد الناس يُريد بالتجارة أن تكون وسيلة له إلى الآخرة، وأناس يريدون بالتجارة الدنيا فقط، واختلاف الناس في هذا باب واسع فمن اتجَرَ ليكسب مالًا يعين به محتاجًا ويتقرب به إلى الله ويفعل مشاريع الخير هذا يحمد عليه، ولهذا جعله النبي ﷺ قرينًا للعلم النافع حيث قال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ بِالحَقِّ**»[(١)] فهذا دليل على فضيلة المال إذا كان عونًا على طاعة الله.

١٢ - ومن هذه الفوائد: دليل على فضيلة إقامة الصلاة، ووجه ذلك: أن الصلاة هنا من ذكر الله، وخصها بالذكر من بين الذكر، والتخصيص بعد التعميم يدل على فضيلة المُخَصَّص ومزيَّته، وذلك كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] الروح: جبريل خصَّه بالذكر مع أنه من الملائكة لشرفه وفضله، وتخصيص الصلاة إقامتها بعد ذكر ما هو أعم دليل على مزيتها، وكذلك أيضًا إيتاء الزكاة، وهاتان العبادتان هما أفضل العبادات بعد التوحيد والرسالة؛ لأن إقام الصلاة هي الركن الثاني وإيتاء الزكاة هي الركن الثالث، ودائمًا يَقْرِنُ الله سبحانه وتعالى بينهما في القرآن.

١٣ - ومن فوائدها: دليل على أن من تَعَبَّد لله خوفًا فهو محمود، وتؤخذ من قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على من تَعَبَّد خوفًا من العذاب فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم(٨١٦).

كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] وهنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وأثنى الله تعالى على من تَعَبَّد طلبًا ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩] وفي هذا ردٌّ بيِّن على من ذهب من الصوفية أو غيرهم إلى أن الأفضل في التعبد أن لا يقصد الإنسان حظًّا لنفسه، وإنما يعبد الله لذاته فقط، يعني: عندما تعبد الله لا تقصد أنك تريد فضل الله أو تحذر عقابه، يقول: أعبد الله لله.

فيقال لهم: لستم أكمل حالًا من النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكر الله أنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ولستم أكمل حالًا ممن أثنى الله عليهم من الأبرار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] إلى أن قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، ولا شك أن الإنسان الذي يعبد الله سبحانه وتعالى لينال فضله وينجو من عقابه هو يريد الوصول إلى رضوان الله وإلى رؤية الله عز وجل؛ لأن من جملة النعيم في الجنة رؤية الله سبحانه وتعالى.

١٤- ومن هذه الفوائد: دليل على عظم يوم القيامة وأهواله الشديدة لقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ والقلوب هذه ليست خاصة، بل (أل) فيها للعموم، يعني: كل القلوب تتقلب، وكل الأبصار تتقلب، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخافون ويخشون، ولكن مع ذلك أهل الخير يُؤَمَّنُونَ مع خوفهم، ومعلوم أن الذين يُؤَمَّنُونَ لا شك أنه يهون عليهم هذا اليوم، ولهذا قال الله تعالى في يوم القيامة: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠] وقال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦] فيُفهم منه أن هذا اليوم مع عظمه وأهواله وشدته يكون على المؤمنين يسيرًا، وإلا فهو في ذاته عظيم جدًّا، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

١٥- ومن هذه الفوائد: دليل على أن الجزاء من جنس العمل بل هو في الطاعات أحسن من العمل، ويؤخذ من قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شيئًا فوق ما عملوه.

١٦- ومن فوائدها: دليل على علم الله عز وجل؛ لأنهم إذا كانوا يجازون بأحسن ما عملوا فلا مجازاة إلا بعد علم المجازي، يعلم ما عَمِل ثم يجازيه عليه.

١٧- ومن هذه الفوائد: إثبات القدرة من إثبات الجزاء، فإنه لا يجزي إلا من كان قادرًا، لو أنك صنعت إلى إنسان معروفًا فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَنَعَ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[1] فالله سبحانه وتعالى من تمام قدرته لا ينقصه ما أعطى العاملين من ثوابهم وأجرهم.

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٦٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، والنسائي (١/ ٣٥٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦١٧).

١٨- **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، وإثبات المشيئة لله في حقه أي: فيما يتعلق بفعله - أمر متفق عليه فيما أعلم - ما خالف فيه أحد من المبتدعة ولا غيرهم، ومشيئة الله بالنسبة لما يتعلق بأفعال الخلق خالف فيها طائفة تسمى القدرية؛ حيث زعموا: أن العبد مستقل بعمله وأنه لا تعلُّق بمشيئة الله به، حتى أن بعضهم أنكر العلم، وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم بأعمال العبد إلا بعد أن يفعلها، أما قبل ذلك فإنه لا يعلم - سبحانه وتعالى -، وأنكروا النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات علم الله سبحانه وتعالى في كل شيء حتى في أعمال الإنسان.

١٩- **ومن فوائدها:** قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كثرة رزق الله عز وجل وأنه سبحانه وتعالى يُعطي بغير حساب وليس معنى بغير حساب أي: بغير تقدير لماذا ؟لماذا نقول ذلك؟

لأنه قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، حتى القطرة التي تنزل من السماء إلى الأرض هي مقدرة عند الله سبحانه وتعالى ولكن ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: أنه لا يُكافِئُ الإنسان بحساب، بل بكثرة كثيرة.

وهذا معروف يقال: فلان ينفق بلا حساب يعني: ينفق إنفاقًا كثيرًا.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أعمال هؤلاء الرجال، تلك الأعمال الفاضلة، ذكر أعمال الذين كفروا ما شأنها، وهذه طريقة الله تعالى في كتابه، إذا ذكر وصف المؤمن ذكر بعده وصف الكافر أو بالعكس، وإذا ذكر وصف الجنة ذكر بعده وصف النار أو بالعكس؛ لأن القرآن مثاني تُثَنَّى فيه المعاني ويقابل بعضها ببعض؛ ولأن الإنسان إذا ذُكِرَت له أوصاف أهل الخير وأوصاف الجنة قد يغلب عليه جانب الرجاء فيهلك، وإذا ذكرت صفات أهل النار وصفات أهل الشر يغلب عليه الخوف فيهلك أيضًا، ولهذا اختلف أهل العلم هل الأولى أن يُغَلِّب الإنسان جانب الرجاء، أو جانب الخوف، أو يجعلهما سواء؟

فقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب عليك الخوف وقعت في القنوط من رحمة الله، وإن غلب عليك الرجاء وقعت في الأمن من

مكر الله وكلاهما طريق لا يليق بالمؤمن.

وقال بعض العلماء: ينبغي للمريض أن يغلب جانب الرجاء لقول النبي ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»(١)، وينبغي للصحيح أن يغلب جانب الخوف.

وقال آخرون: ينبغي عند فعل المعصية أن يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يرتدع، لأنه لو غلب جانب الرجاء وقال الله غفور رحيم، وأرجو أن يغفر الله لي، أمن المعصية، وعند فعل الطاعة يغلب جانب الرجاء، أن الله سبحانه وتعالى يقبل منه ويثيبه حتى لا ييأس، ويدل على ذلك مثل قول النبي ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ»(٢)، كذلك اعبد الله وأنت على رجاء أن يتقبل منك.

وعلى كل حال هذا القول ـ في ظني ـ أنه أرجح الأقوال؛ لأنه عندما يكون الإنسان في حال التعبد وفعل العبادة يغلب الرجاء، ليس معناه أن يجزم بالرجاء؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] يعني: خائفة ألا يقبل منها لكن المعنى أنه يُغَلِّب هذا مع الخوف، وأما عند فعل المعصية يُغَلِّب جانب الخوف لأجل أن لا يقدم عليها معتمدًا على الرجاء.

على كل حال، القرآن الكريم يذكر الله تعالى فيه هذا وهذا ليكون سير الإنسان معتدلًا.

[قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ جمع قاع: أي في فلاة وهو شعاع يُرى فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري] هذا تفسير للسراب، والقيعة هي: الفلاة.

السراب بالقيعة في شدة الحر عندما تكون في فلاة من الأرض، قيعة جمع قاع بخلاف الرملية ما يكون بهذا الشيء، لكن القيعان تَرَى من بُعْد كأن في ذلك الجانب ماء، فتظنه ماءً فتقصده، هؤلاء الكفار أعمالهم هكذا، مثل السراب بالقيعة يحسبه الظمآن ماءً وليس بماء، كيف ذلك؟ لأنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فيظنون أن هذا الشرك ـ الذي يبعدهم عن الله حقيقة ـ يظنونه يقربهم إلى الله عز وجل، يظنون هؤلاء الشفعاء الذين سيتبرئون منهم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦] يظنونهم شفعاء، والنفس إذا تعلقت بالشيء على أنه شفيع، أو أنه مُقرِّبٌ لها إلى الله تتبعه بلا شك؛ هؤلاء أعمالهم مثل السراب بالقيعة.

[﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ أي: العطشان ﴿مَاءً﴾] هذا تشبيه بليغ يعني: أنه يقصده بشدة ولهف معتقدًا أنه مُنقِذه، فالعطشان محتاج للماء، فإذا رأى ما يشبه ماء قصده بشدة ولهف لأجل أن يدفع ضرورته به، هل يظنه ينفعه أم لا؟ نعم، يظنه ينفعه ولولا أنه يظنه ينفعه ما ذهب إليه، لكن النتيجة: [﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما حسبه كذلك].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).

إذا جاءه لم يجده شيئًا، فتكون حاله حينئذٍ خيبة أمل عظيمة ـ والعياذ بالله ـ ما يتصورها أحد.

يقول المؤلف: [كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقة تنفعه، حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد عمله، أي: لم ينفعه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: أنه جازاه عليه في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: المجازاة].

هذا الكافر، يظن أن عمله ينفعه، وتمثيل المؤلف لذلك بالصدقة فيه نظر، إلا إذا قصد بذلك ضرب المثل فهذا صحيح، هذا من جملة الأعمال التي يفعلها الكفار، ويظنون أنها تنفعهم وهي لا تنفعهم، ولكن ينبغي أن يقال هي أعم من ذلك، ليس المراد فقط الصدقة بل حتى عبادة الأصنام يظنونها تنفعهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ومع ذلك هذا كله لا ينفعهم سوف لا يجدون شيئًا ما يظنونه ويحسبونه.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عند هذا السراب؛ لأنه الآن وصل إلى الموت، فإذا مات فقد لاقى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ هذا ظاهر السياق.

أما على رأي المؤلف فيجعل [﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله]، تفريعًا على قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، لأن الذين كفروا عام فكأنه قال: (والذين كفروا) أي: الكافر عمله كذا وكذا كسراب بقيعة حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده أي: عند ذلك العمل لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، لكن ظاهر الآية أن الضمير يعود على أقرب مذكور، وهو هذا العطشان الذي وصل إلى الماء فلم يجد شيئًا فسيهلك، فوجد الله عنده ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. ﴿حِسَابَهُۥ﴾ يعني: جزاء عمله.

وقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: المُجازاة، ما المراد بالسرعة هنا؟ هل المراد: القرب لوقت المجازاة فتكون السرعة زمنية، أو المراد: إنجاز الحساب فتكون السرعة عملية، أو كلاهما؟ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هل المعنى: أنه سريع في محاسبته، أو معناه: حسابه للعباد قريب؟ يحتمل الاثنين فالحساب قريب، حتى وإن طالت الدنيا بالإنسان فإنها قليل ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧].

وكذلك عندما يحاسب الله الخلائق يوم القيامة يحاسبهم في نصف يوم، كما قال الله عز وجل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] استنبط العلماء من ذلك أنهم سيقيلون في منازلهم في نصف ذلك اليوم.

ولكن على كل حال: اليوم الذي أشار الله إليه مقداره خمسين ألف سنة، ومهما يكن من شيء فالله قادر على ما هو أبلغ من ذلك؛ لكن مع هذا، هذه سرعة عظيمة وقدرة بالغة، حتى لو الخمسين ألف سنة منها خمس وعشرون ألف سنة، الخلائق من أولهم إلى آخرهم ما بين آدمي وجني وطير وغيرهم في نصف يوم.

الآن لو حاسب الإنسان شخصًا يعامله لمدة سنة كم يبقى - إذا كان الحساب دقيقًا وكثيرًا -،

يبقى مدة، وقد يكون الحساب مضبوطًا وقد لا يكون مضبوطًا، أما حساب الله عز وجل فهو - مع سرعته - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، هذا مثل لكافر عَمِلَ للتقرب إلى الله عز وجل أو مثل آخر:

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]

❁ التفسير ❁

وقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾، ﴿أَوْ﴾ هنا ليست للشك - بلا ريب -؛ لأن الله تعالى منزَّه عن الشك، فالشك إنما يكون لقصور علم الإنسان أو لقصور علم الشاكِّ، أما الله عز وجل فعلمُه واسع يعني: لا يمكن أن يقول الله: إن الذين كفروا أعمالهم إما مثل هذا أو مثل هذا على سبيل الشك، كما تقول مثلًا: أنا رأيت هذا الشيء وهو يشبه كذا أو كذا، هذا لا يمكن أن يكون في حق الله عز وجل.

إذنْ، فـ﴿أَوْ﴾ للتنويع في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ يعني: ﴿أَوْ﴾ أعمالهم ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾.

[﴿أَوْ﴾ الذين كفروا أعمالهم السيئة ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي: عميق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ﴾ أي: الموج ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ﴾ أي: الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ أي: غَيْمٌ هذه ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر، وظلمة الموج الأول، وظلمة الثاني وظلمة السحاب] أربع ظلمات [﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ الناظر ﴿يَدَهُۥ﴾ في هذه الظلمات ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقرب من رؤيتها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يهده الله لم يهتد].

هذا قسم ثانٍ من الكفار، الأول: في حال الكافر المجتهد الذي يظن أن عمله ينفعه، وهذا الثاني: في حال المقلد؛ لأنه لا يدري؛ في ظلمة يسير مع هذا العالَم ومع الكفار وهو لا يدري.

قوله: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ البحر معروف، واللجي أي: العميق وكلما كان البحر أعمق كانت ظلمته أشد، هذا أيضًا ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ أي: يغطيه، يغطي هذا الكافر ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أيضًا أمواج عالية.

قوله: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ ما هو حد الموج الثاني من الأول؟ علوه؛ لأنه في الحقيقة سيكون أظلم كلما علا ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ إما أن يقال: بالاتجاه؛ يعني: يتلاقى أحدهما أتى من

هنا والثاني أعلى منه، جاء من جهة ثانية حتى يتبين علو هذا على ذاك، أو أنها أمواج ثلاثة؛ يعني مثلًا موج مقبل ووراءه موج آخر أرفع منه، فإذا لحقه صار موجًا ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، أما أن يكون موجًا واحدًا ما يمكن أن يكون فوق (أعلى من بعض)، ومن شاهد البحر وجد الأمر كذلك، تجد أمواجًا متلاحقة. أحيانًا إذا انعكس الهواء تتقابل، وأحيانًا تتلاحق لكن هذه المتلاحقة أيضًا ـ سبحان ربي العظيم ـ تجدها مثل الدرج يعني: بعضها فوق بعض، هذا هو ما ضربه الله ـ تعالى ـ في المثل.

قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ والسحاب في الحقيقة مراتب في الجو، ليس هو على ظنّنا أنه في طبقة واحدة، لا إنه في طبقات متباعدة جدًّا، وهذا يعرفه الإنسان إذا ركب الطائرة يجد أحيانًا سحابًا بينه وبين الطائرة من أسفل مثل ما بين السحاب والأرض، والسحاب من فوق بينه وبينه مثل ما بين الطائرة والأرض، وهو بينهما، وهذا شيء مُجرَّب وَمُشَاهَد، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ مثل قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ بمعنى: أن السحاب يكاد يكون ملاصقًا لهذه الأمواج، ومنه الضباب، فهو لا شك أنه يقرب من سطح البحر.

ويمكن أيضًا أن المراد بالسحاب: ما يشمل الضباب؛ لأن حقيقة الأمر أن الضباب سحاب؛ لأنه ينسحب على الأرض، فإذا تبين ذلك صارت الظلمة كثرتها واضحة جدًّا.

وقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ التهويل في هذا المثل، كان يكفي أن يُقال: من فوقه سحاب، لكن لأجل تهويله في النفس وبيان عظمته قال: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ثم ضرب مثلًا فقال: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ من أقرب ما يكون لك: اليد؛ بل هي أقرب شيء لك من الأعضاء المتحركة التي يمكن أن تُرى ويمكن أن تُخرج، إذا أخرج يده ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهل معنى أنه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أنه يراها بصعوبة أو لا يراها؟ قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] ذبحوا أم لا؟ ذبحوا.

يقول النحويون: إن (كاد) إثباتها نفي، ونفيها إثبات؛ فإذا قلت: لم أكد أفعل فمعناه: فعلت، لكن بعد جهد، و﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ على هذه القاعدة رآها لكن بَعد بُعد الرؤية وصعوبتها، لكن الظاهر كما قال آخرون من النحويين: أن (كاد) مثل غيرها، نفيها نفي، وإثباتها إثبات، لكن هي بمعنى (قارَبَ) فإذا قلت كدت أفعل أي: قاربت أن أفعل، هل أنت فعلت أم لا؟ ما فعلت، لكن قاربت، هل هي أثبتت أم نفيت الآن؟ أثبتت المقاربة، لكن علمنا انتفاء الفعل من المقاربة.

وقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقرب أن يراها كما قال المفسر.

إذنْ: إذا لم يقرب يراها فانتفاء الرؤية من باب أولى، وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] هذا لولا قوله ذبحوها ما دلت الآية على أنهم ذبحوها، لكن معنى ذبحوها بعد أن كادوا أي: بعد أن كانوا بعيدون عن الذبح، وما قصدوه وما نَوَوا أن يتمثلوا؛ بل

قالوا لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] بعد هذا البعد عن الفعل، وبعدما أجيبوا لطلباتهم ذبحوها.

تصير الآية على ما هي عليه، وفي هذا أيضًا كغيرها من الأفعال نفيها نفي، وإثباتها إثبات، لكن لـمَّا كانت تدل على القرب صار الرجل إذا قال: كدت أن أفعل معناه: ما فعل؛ لأن كلمة قاربت الفعل يعني: ولم أفعل، أي: لم أكد أفعل، إذا ما سبق شيء يدل على الفعل، فإنه يقين ما فعل، مثل قول عمر: ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب، يعني: ما قاربت صلاة العصر، إذنْ ما صلَّاها، يعني: ما قاربت صلاة العصر حتى قاربت الشمس الغروب، فلما قاربت الشمس الغروب قاربت صلاة العصر، هو ما صلى إلا بعد الغروب مع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لكن كأنه في الأول ما تهيَّأ له أن يقرب من الصلاة فضلًا عن أن يصليها، المعنى: أنه شغلهم الكفار إلى قُرب غروب الشمس، فما قارب أن يصلي ـ ومقاربة الصلاة بالتهيُّؤ لها ـ يقول: ما تهيأت للصلاة حتى قربت الشمس أن تغرب، ولهذا صلى مع النبي ﷺ صلاة العصر بعد غروب الشمس.

فالحاصل إذنْ أن الصحيح خلاف ما قاله بعض النحويين: إنَّ (كاد) إثباتها نفي ونفيها إثبات، بل الصواب: أن (كاد) كغيرها: إثباتها إثبات ونفيها نفي، لكنها هي بمعنى المقاربة؛ ولهذا هي عُدَّت عند النحويين من أفعال المقاربة.

فمن نفى أن يقارب الشيء فإنه قطعًا لم يفعله، ومن أثبت أنه مقارب له فهو أيضًا لم يفعله، لأن كلمة قاربت من الفعل أي: لم أفعله ـ هذا معناه ـ فإذا قيل: لم أكد أن أفعل كذا ولم يسبق ما يدل على فعله فإنه لم يفعله، فإن سبق ما يدل على فعله مثل قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] دَلَّ ذلك على أنهم كانوا قبل الذبح بعيدين عن الامتثال، ولا كادوا يفعلون إلا بعد الإلحاح، وبعدما قالوا: ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ [البقرة:٦٨] وبُيِّن كما طلبوا بعد ذلك أُجيبوا.

هذا مَثَلٌ ينبغي للإنسان أن يعتبره بنفسه عندما يؤمر بالأمر، لا يجادل ويورد إيرادات؛ لأن هذا خطير، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] ولهذا يجب على المسلم إذا علم بالشرع أن يستسلم ولا بأس فيما بعد ـ أي: بعد أن يمتثل ـ أن يعلم الحكمة؛ لأن معرفة الحكمة لا ينافي الانقياد، لكن المهم أن يستسلم أولًا، ولا يرد إيرادات وشبهات ولم كذا ولم كذا ثم بعد ذلك يفهم إذا شاء.

إذن بيَّن الله تعالى أن أعمال الكفار تنقسم إلى قسمين:

قسم ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾، وقسم آخر: ﴿كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾.

وهذا التقسيم وهذا التنويع باعتبار حال الكفار الأول ـ والله أعلم ـ: لمن عنده فهم واجتهاد، والثاني: لمن عنده جهل وغباء كعوامهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ يعني: الذي لم يجعل الله له نورًا لم يكن له نور ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي: [أي: من لم يهده الله لم يهتد] جعل المؤلف هنا النور نورًا معنويًّا أي: من لم يُنوِّر الله قلبه بالعلم والإيمان فلا أحد يُنوِّر قلبه ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

مثل هذه الآيات التي يذكرها الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ [الإسراء:٩٧] وما أشبهها، هل الغرض منها تقرير مذهب الجبرية كما استدلوا بها أو الغرض شيء آخر؟

الجواب: قطعًا ليس الغرض من ذلك تقرير مذهب الجبرية؛ لأن الجبرية مذهبهم باطل، يبطله الحس الشرعي، والعقل، والفطرة، لكن الغرض من ذلك ألا يعتمد الإنسان على نفسه، وأن يكون دائمًا يلجأ إلى الله عز وجل، في طلب الهداية، وطلب النور، وطلب التوفيق وغير ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله لا يقر أمرًا باطلًا يبطله العقل والحس، فعلى كل حال يقول الله: إذا لم يجعل للإنسان نورًا يهتدي به ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ وأكد انتفاء النور عنه في ﴿مِن﴾ الزائدة في قوله: ﴿مِن نُّورٍ﴾؛ لأن ﴿مِن﴾: زائدة، و﴿نُّورٍ﴾: مبتدأ مؤخر، أي: فليس له نورٌ.

فإذنْ نعلم بهذا أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يتصرف في ملكه كما يشاء، وأنَّ من أعطاه الله النور فهو على نور من ربه، ومن لم يعطه الله نورًا ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، ومن أين يأتيه النور، وقد حجب الله النور عنه؟ ولكن اعلم أيضًا أن حَجْبَ الله النور عن العبد ليس منعًا لفضله تبارك وتعالى، فإنه ذو الفضل العظيم، والعطاء أحبُّ إليه من المنع، والهداية أحب إليه من الإضلال، ولكن لأن المرء نفسه هو الذي منع عن نفسه هذا النور، واتلُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، واتلُ قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: عن الحق وأعرضوا عنه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] يتبين لك أن إضلال الله للعبد، وحَجْب النور عنه بسبب نفسه، هو الذي - والعياذ بالله - لم يهتدِ.

فعلى كل حال هذه الآية تدل على أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى الله دائمًا، بأن يسأله أن يُنوِّر قلبه؛ لأن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، هذا منطوق الآية.

مفهوم الآية: مَن جعل الله له نورًا فلا أحد يحجب عنه نور الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]

التفسير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام الداخل على النفي، وإذا دخل الاستفهام على النفي أفاد التقرير، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: قد شرحنا لك صدرك.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: قد رأيت، فهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفي تفيد التقرير أي: إثبات ما ذكر، لا نفيه مثلًا قال الله لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ما معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾؟ يعني: قد شرحنا لك صدرك، يقرر الله تعالى أنه شرح صدر النبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] معناها: قد علمت، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني: قد رأيت.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه؟ الظاهر العموم ألم تر أيها المخاطب لا أيها النبي؛ لأن ذلك أشمل وأعم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ هل هذه الرؤية بصرية أو علمية؟

إذا جعلتها بصرية صارت الرؤيا خاصة بما يُفْعَل لا بما يقال ولا بما يُعلم بالعقل، وإذا جعلتها علمية، شملت ما يعلم بالقول وبالبصر وبالذهن وحينئذٍ الأولى أن تكون علمية، يعني: ألم تعلم، سواء كان علمك عن طريق المشاهدة بالبصر أو عن طريق السمع بالأذن، أو عن طريق الاستنتاج بالعقل والتفكير، فعليه نقول: المراد بالرؤيا هنا: العلم ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ سواء كان هذا العلم عن الرؤية بالعين أو السمع بالأذن أو الاستنتاج بالعقل والذهن، وهذه الثلاثة هي طرق العلم كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

إذنْ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ علمًا ناتجًا عن هذه الأمور الثلاثة أو عن واحد منها ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن التسبيح صلاتهم.

أتى بـ ﴿مَن﴾ التي للعاقل؛ لأن التسبيح أظهر بالعقلاء من غير العقلاء، وهذا التسبيح يشمل التسبيح بالقول وبالحال، بالقول مثل: سبحان الله، وبالحال: أنك إذا تأملت خلقه وما جُبِلَ عليه، علمت بذلك أن الله تعالى مُنزَّه عن العبث وعن النقائص، يسمي هذا التسبيح بالحال.

إذا قلنا: التسبيح بالمقال فمن المعلوم أن الكافر لا يسبح الله بمقاله، يعني: لا يقول: سبحان الله؛ لأنه يصف الله بالعيب، ويزعم مع الله شريكًا، لكنه مسبح لله بحاله، فإن حاله وما جُبل عليه وانصرافه عن الحق مع وضوحه، وما أشبه ذلك، مما يدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى حكمته.

وقوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يشمل الملائكة، وتسبيح الملائكة لم نعلمه نحن عن طريق الرؤية، ولكن عن طريق الوحي الذي يكون بالسمع، سمعنا من نبينا ﷺ أن الملائكة تسبح الله وسمعنا قول الله ـ عز وجل ـ أن الملائكة تسبح لله.

قال: [﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ جمع: طائر بين السماء والأرض ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال باسطات أجنحتهن].

الطير: معطوفة على ﴿مَن﴾ يعني: وتسبح له الطير، ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، يعني: هي أيضًا تسبح الله - سبحانه وتعالى - في حال صفوفها أي: بسط أجنحتها أي: بسطها، هذا التسبيح حالي أو مقالي؟ نحن نعلمه حاليًا، ولكن ربما يكون أيضًا مقاليًا، ربما أنها في حالة مد أجنحتها وبسطها تسبح الله؛ لأن الطير لها نطق.

قال الله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، فكل شيء ينطق، حتى الحصى ينطق، وقد سُمع تسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ، كل شيء يسبح، بل قال الله في آية أخرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وهنا قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ ولم يذكر السموات، ولم يعمم في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ لأنه هناك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ فأثبت علمنا بهذا التسبيح وهو ليس شاملًا كما في الآية الثانية.

قوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أما تسبيح الطير تسبيح مقال فهذا ما نعلمه لكن بلسان الحال نعلمه، فإن صفوفها في الهواء بين السماء والأرض وعدم سقوطها، واتجاهها يمينًا وشمالًا، والرياح مع عصوفها لا تحجبها عما تريد، هذا مما يدل على كمال قدرة الله - عز وجل - الرياح التي تقلقل الجبال والسيارات ما تحجب الطائر عن اتجاهه! ويتجه معاكسًا للرياح - هذا شيء مُشَاهد - ولا يبالي، وهذا من تمام قدرة الله - عز وجل -.

هذا الطير الصغير الضعيف الذي يمكن للريح أن تحمله إذا كان متجهًا لا ترده الرياح، هذا من تمام قدرة الله عز وجل، ومن تمام القدرة أيضًا أنك تجده في أيام الشتاء الباردة القارصة يطير بين السماء والأرض بهذه السرعة، وفوق أيضًا، ولا يتأثر بهذا البرد، كل ذلك دليل على كمال قدرة الله عز وجل، ثم أعظم من ذلك كله قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

[﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ الله ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾].

علم فعل ماضٍ فيها ضمير مستتر - على كلام المؤلف - يعود على الله.

والقول الثاني: فاعل عَلِمَ يعود على ﴿مَن﴾ وما عطف عليها يعني: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ كلٌ مِن هؤلاء المسبحين ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعني: أن الله تعالى ألهم هذه الأشياء، حتى عرفت كيف تُسَبِّح الله عز وجل وكيف تصلي له.

وأما عِلْمُ الله في ذلك فمفهوم من قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وعلى رأي المؤلف يكون في الآية شبه تكرار ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هذه الجملة هي الأولى على رأي المؤلف، ولكن الصحيح أن قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: كل من هؤلاء المسبحين قد علم هو نفسه صلاته وتسبيحه.. بأي شيء علم؟

أما بالنسبة للبشر، وكذلك الجن فقد علموا بطريق الرسل، الرسل أرسلهم الله ليُعلِّموا الناس كيف يصلون وكيف يسبحون الله ـ عز وجل ـ وأما البهائم والحيوانات الأخرى فإنها عَلِمَتْ صلاتها وتسبيحها بما ألهمها الله ـ عز وجل ـ ولكل منها صلاة وتسبيح خاص، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ على لسان موسى ردًّا على فرعون عندما قال: من ربكما يا موسى؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]؛ لأن هذه الهداية كما تشمل الهداية في الأمور التي تحفظ أجسادها، كذلك تشمل الهداية للأمور التي ألهمها الله سبحانه وتعالى من التسبيح والصلاة.

إذنْ الصواب أن الفاعل في علم يعود على المُسبِّح، وأما علم الله بما فعلت فهذا مفهوم من قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [قال: فيه تغليب العاقل]

لأن يفعلون: الواو للعاقل، ومعلوم أن ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يشمل العاقل وغيره، لكن الآية غُلِّب فيها العاقل لا بالأول ولا بالثاني، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن﴾ هذه للعاقل كذلك: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ للعاقل، ففيها تغليب العاقل، والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن التسبيح والصلاة في العاقل أظهر منها في غير العاقل ولذلك غُلِّب، وإلا فغير العقلاء في الأرض أكثر من العقلاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور:٤٢]

❁ التفسير ❁

قوله: [﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خزائن المطر والرزق والنبات].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أولًا: قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخر، وقد عُلم من القاعدة: (أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر).

الحصر في هذا المُقَدَّم، يعني: حصر المؤخر في المقدم، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] لا نستعين إلا إياك.

فإذا قُدِّم ما حقه التأخير، كان ذلك دليلًا على حصر الشيء فيه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بناءً على هذه القاعدة نفهم أن: ملك السموات والأرض لله وحده، من الحصر وقوله: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا شامل لملك الأعيان والتصريف، فملك السموات والأعيان لله، والتصريف والتدبير أيضًا لله، وتخصيص ذلك بخزائن الرزق والنبات والمطر هذا لا وجه له إطلاقًا، فالله تعالى له ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا: الأعيان والتصريف لله وحده، ويدل على ذلك ما فيها من الانتظام، وعدم الاضطراب، وعدم التناقض، ولهذا استدلَّ الله على

وحدانيته بقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ إذنْ لو كان معه إله ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ ما دام إله لزم أن يكون له مملكته وحده، فالنتيجة ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] فإذا علا بعضهم على بعض فلمن تكون الألوهية؟ للعالي بلا شك.

ونحن نرى بعين اليقين أنه لم يتميز الخلق على بعض، وأن العالم العلوي والسفلي كله كتلة واحدة، مسخر بعضه لبعض، ويتم بعضه ببعض، ولا يتناقض، ولا يتنافر، فلهذا كان العقل والمشاهدة دليلين على وحدانية الله عز وجل.

ثم لا يمكن أبدًا من تعدد الآلهة، لا بد لأحدهما أن يغلب؛ لأنهما إن تمانعا ـ هذا دليل عقلي جدًّا معروف ـ وعجز كل واحد منهما عن الآخر صارا غير مستحقين للألوهية، ما دام كل واحد يعجز، وإن غلب أحدهما الآخر، صار وحده الرب والإله، فإذنْ لابد أن يكون الإله واحدًا؛ لأنه إما أن يغلب فتكون الألوهية له، وإما أن يعجز والثاني يعجز أيضًا فلا يصلح كل منهما أن يكون ربًّا؛ لأن الرب لابد أن يكون قادرًا وهذا من أبين الأدلة وأوضحها.

إذا قال قائل: أليس الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور:٣٣] فأثبت للإنسان ملكًا، وأنتم تقولون: إن ملك السموات والأرض خاص بالله بدليل الحصر فكيف الجمع؟

الجواب: الملك هذا مقيد، ليس ملكًا مطلقًا ومن الذي ملَّكك؟ الله تعالى هو الذي ملكك هذا الشيء على قدر محدود أيضًا، أنت إذا كنت تملك هذا المسجل ـ مثلًا ـ تملكه فتبيعه وتشتريه وتنتفع به هذا واضح لكن هل تملك أن تكسره؟ بالنسبة للمخلوقين تملك، لكن بالنسبة لله لا تملك، ولا يجوز لك أن تكسره؛ لأنك ممنوع من قِبَل الله، لكن الله ـ عز وجل ـ هل يملك أن يهلك من على البسيطة أم لا؟ نعم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] فتبين بهذا أن ملكي للشيء من الله، هو الذي ملَّكني ـ هذه واحدة ـ، والشيء الثاني: مُلك محدود مُقيَّد، وعلى هذا فلا منافاة بين ما أثبته الله تعالى للإنسان، من الملك وما أثبت لنفسه من الاختصاص بالملك.

ولهذا قال بعض أهل العلم: كل شيء أضيف ملكه للإنسان فهو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة؛ لأن المالك حقيقة هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا مالك مجازًا؛ لأني لا أتصرف في هذا الشيء إلا كما أذن لي فلا أتصرف تصرفًا مطلقًا.

قوله: [﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع] هذا فيه تنبيه على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ مالك للأول والآخر، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابتداءً ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ انتهاءً.

وفيه ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أنه إذا كان الملك لله والمرجع إليه، فإنه لا يحل لنا نحن أن نتصرف إلا حسب ما شُرِعَ لنا ما دمنا ملكًا لله، نحن الآن ملك لله ومصيرنا إلى الله، إذنْ ما دمنا ملكه،

ومصيرنا إليه فالواجب ألّا نتصرف إلا حيث شرع لنا؛ لأنك ما دمت تعلم أنك ملك له، فهو الذي يأمرك افعل كذا ولا تفعل كذا، وما دمت تعلم أيضًا أن مصيرك إليه، فلابد أن تستعد لهذا المصير؛ لأنه سوف يحاسبك عليه.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيها أيضًا ما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، كل شيء حقه أن يتأخر إذا قدمته، معناه: أنك تريد أن يكون ما بعده محصورًا فيه، فإذنْ المصير إلى الله، مهما طال الإنسان ومهما حلق بالخيال وفي التفكير، ومهما بقي في الدنيا، فإن مصيره إلى الله ـ عز وجل ـ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] ملاقاة الله ـ عز وجل ـ والمصير إليه أمر لابد منه حتمي، كما أن وجودنا من الله فمصيرنا أيضًا إلى الله ـ عز وجل ـ، ويحتمل أن قوله ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ ليس المراد: مصير الناس في الآخرة فقط، بل مصير الأمور كلها، يعني: المرجع إلى الله في كل شيء، كل شيء صائر إلى الله، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يدبر ويفعل ما شاء.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٣]

التفسير

[قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقه برفق].

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيضًا الخطاب لكل مخاطب، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب، والرؤية هنا بصرية أم علمية؟ إذا قلنا: بصرية الأعمى ما اعتبر بشيء، الأعمى لا يعتبر بهذا السحاب؛ لأنه لا يرى، لماذا لا نقل: علمية؟ لأن العلمية تتضمن البصرية يعني: ألم تعلم سواء كان ذلك عن طريق المشاهدة أو عن طريق السماع.

إذنْ: ﴿تَرَ﴾ أي: تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقه برفق، وبعضهم يقول: يسوقه ولم يقيده برفق، ولعلَّ ذلك أولى أن نفسر الإزجاء بالسَّوْقِ، سواء برفق أو بغير رفق؛ لأننا نشاهد أن السحاب يسير أحيانًا برفق وأحيانًا يسير بسرعة وهو سحاب.

يقول المتنبي:

وَمِـنَ الخَيـرِ بُـطْءُ سَـيْبِكَ عَنِّـي أَسرَعُ السُّحْبِ في المَسِيرِ الجَهَامُ

أي الذي ليس فيه ماء.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام قبل النفي هو للتقرير، وهكذا كلما دخلت أداة الاستفهام على النفي صارت لتقرير ذلك الشيء، يقول الله تعالى مُقرِّرًا هذا الأمر المرئي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ والرؤية بمعنى: العلم، وتفسيرنا لها بالعلم أعم من تفسيرها بالرؤية البصرية؛ لأجل أن يشمل رؤية الإنسان ببصره؛ لأنها تؤدي إلى العلم ورؤية الإنسان بسمعه بما يُخبَر به؛ لأنها تؤدي أيضًا إلى العلم، ورؤية الإنسان بقراءته عن هذا الأمر؛ لأنه يؤدي إلى العلم، والمهم أنه ما دامت الرؤية محتملة؛ لأنها تكون بمعنى: العلم فتفسيرها بالعلم أولى؛ لأنه أشمل وأعم.

والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل هو للنبي ﷺ ؟ أو لكل من يصح خطابه؟ الظاهر أنه لكل من يصح خطابه، يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب أن الله ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾ ...إلخ، لأن ذلك أيضًا أشمل.

وقوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾ يقول المؤلف: [يسوقه برفق]، ومن المفسرين من قال: يسوقه، ولم يقل برفق، لأجل أن يشمل السوق برفق وبغير رفق؛ لأن السحاب كما هو مشاهد أحيانًا يكون مشيه رويدًا رويدًا، وأحيانًا يكون مشيه سريعًا.

[﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة].

وهذا أيضًا مُشَاهَدٌ فإن الله سبحانه وتعالى يؤلف بين هذا السحاب، ويجمع بعضه إلى بعض حتى يكون قطعة كبيرة، وأحيانًا لا يؤلف بينه، نفس القطعة الصغيرة تتوسع وتكون قطعة كبيرة، لكن التأليف أبلغ؛ لأن المؤلَّف أحيانًا يكون من غير جنس المؤلَّف به، دائمًا تكون سحابة بيضاء أو حمراء وسوداء ثم تجتمع وتكون بلون واحد، وهذا أبلغ، ـ هذا التأليف ـ يقول الله ـ عز وجل ـ: [﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ بعضه فوق بعض].

قوله: ﴿رُكَامًا﴾ يعني: متراكمًا بعضه فوق بعض، وهذا أيضًا مشاهد برؤية العين، فإن السحاب تجد بعضه فوق بعض، أما إذا كنت في الطائرة مرتفعًا، فإنه يبدو لك ذلك ظاهرًا؛ تجد من السحاب ما هو تحتك ومن السحاب ما هو فوقك، وإذا كنت في الأرض يتبين لك أن السحاب بعضه على بعض بكون بعضه يغطي بعضًا، ترى مثلًا قطعة تمر تحت قطعة أخرى وتتجاوزها وتتعداها، مما يدل على أن بعضه فوق بعض، هذا الركام له منظر عجيب إذا كان الإنسان فوق، منظر يبهج ويُسر، ولذلك جعله الله من الآيات الدالة على كمال قدرته.

[﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: مخارجه]

ترى بمعنى: تبصر هنا؛ لأن المطر يُرى بالعين، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: من خلال هذا السحاب، لكن هذه الرؤية يدركها كل الناس؟

حقيقة إنَّهُ لا يدركها إلا إنسان قوي النظر، لكن نحن نعلم أن المطر ينزل من السحاب ويتخلله، قال بعض العلماء: إنه مثل الغربال يعني مثل: الغربال الذي يُغَرْبِلُ به القمح وما أشبه ذلك، ينزل هذا المطر من خلاله.

من أين يأتي المطر إذا كان ينزل من خلاله؟ منه هو نفسه، ينعصر بإذن الله، ثم يتخلل منه كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً﴾ [النبأ:١٤] فإنه بإذن الله ينعصر، وينزل هذا المطر، وعلى كل حال الأسباب الطبيعية ما نعرف عنها شيئًا، لكن هذا ما نعرفه بالرؤية الحسية.

قوله: [﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ في السماء بدل ـ من السماء ـ بإعادة الجار ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: بعضه ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾... إلخ].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ الغريب أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مرتبك في هذا؛ قال في الأول ﴿مِن جِبَالٍ﴾ قال: ﴿مِن﴾ زائدة، يعني: زائدة إعرابًا فعلى كلامه فيكون التقدير: (وينزل من السماء جبالًا)، ثم قال بدل من السماء بإعادة الجار، وما هو البدل؟ قوله: من جبال في السماء.

إذنْ: إذا كانت بدلًا بإعادة الجار فهل ﴿مِنَ﴾ زائدة في السماء، في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أم ليست زائدة؟ ليست زائدة لأن الابتداء ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: إلى الأرض، والمعنى هو المعنى الأخير الذي ذكر على أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل من السماء كأنه قال: (ينزل من جبال في السماء)، فهي بدل من السماء بإعادة الجار الذي هو ﴿مِن﴾، وعلى هذا فلا تكون ﴿مِن﴾ زائدة بل تكون لابتداء الغاية، يعني: ينزل من السماء إلى الأرض.

قال: [﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي: في السماء بدل بإعادة الجار ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: بعضه]، هذا الذي لو قال أن ﴿مِن﴾ زائدة لكان له وجه، لكن هو جعل ﴿مِن﴾ تبعيضية لأنه قال: [أي: بعضه] يعني: بعض برد، فمعلوم أن ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ ليست زائدة ولا صلة، بل لها معنى، وهو ابتداء الغاية.

قوله: ﴿فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾، ﴿فِيهَا﴾ الضمير يعود على ﴿السَّمَاءِ﴾ يعني: من جبال في السماء، وقوله: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ المؤلف يريد أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعيض يعني: ينزل بعض برد من هذه الجبال، ويحتمل أن تكون زائدة يعني: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: بردًا: ينزل من السماء من جبال بردًا، فتكون ﴿مِنْ﴾ زائدة، ويحتمل أن تكون (من) لبيان الجنس أي: أن الجبال من برد، فتكون الجبال نفسها من البرد، وعلى هذه تصير: وينزل من السماء من جبال من البرد، فيكون مفعول التنزيل المفعول محذوف، يعني: ينزل بردًا، إذا كان يُنزل من السماء من الجبال التي هي البرد، فإنه ينزل بردًا فيكون المفعول محذوفًا تقديره بردًا.

صار على كل حال: يُنَزِّل مفعولها على رأي المؤلف: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾؛ لأنه قال: [أي بعضه] على أساس أن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض فهي بمعنى: بعض، وعليه فيكون هذا هو مفعول يُنَزِّل، وأما المُنَزَّل

منه: الجبال التي في السماء؛ لأننا قلنا ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإعادة الجار فيكون المنزل منه هذه الجبال، والمُنَزَّل البرد.

على الاحتمال الأخير الذي ذكرنا أن ﴿مِنْ﴾ زائدة يكون أيضًا المنزل البرد، لكن ليست ﴿مِنْ﴾ للتبعيض.

وعلى الاحتمال الثالث: قلنا: إن ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، جنس الجبال (جبال من برد)، يعني: يُنَزِّل من جبال من البرد، يُنَزِّل بردًا، فعليه يكون مفعول المنزَّل محذوفًا، تقديره بردًا ودَلَّ عليه السياق.

على كل حال: معنى الآية الكريمة أن في السماء جبالًا من البرد، ينزل الله تعالى منها من هذه الجبال، هذا المُنَزَّل أحيانًا يكون كبيرًا وأحيانًا يكون صغيرًا، لكن من نعمة الله أنه لا يكون كبيرًا بحيث يهدم البناء، هذا شيء نادر جدًّا، إنما يكون كبيرًا بحيث يقتل بعض الزروع، أو بعض الأشجار، حسب حكمة الله عز وجل، أما أن يهدِّم منازل، ويقتل الآدميين فهذا قليل، وإن كان قد يوجد لكنه قليل.

وفي هذا دليل على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذه السماء تكون فيها هذه الجبال من البرد، وينزل منها ما ينزل بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته على هذه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ هذه الجملة هل هي لبيان الامتنان أم لبيان العقوبة؟

أو تحتمل لأن يصرف، قد يتبادر للإنسان أن المراد بالإصابة في الأول: إصابة العقوبة كما يقال: صرف الله عنك السوء، وكما جاء في الحديث: «وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ» فلا يُصرف ولا يُعبَّر بالصرف إلا عن شيء مكروه، وعلى هذا فتكون الجملة مسوقة لبيان العقوبة التي تحدث بهذا البرد.

ويحتمل أن يكون من باب الامتنان؛ لأن البرد قد يكون خيرًا، وقد يحصل به رِي الأرض، ونبات الأشجار وغير ذلك، فيصير هذا من باب سياق الامتنان، يصيب بهذا البرد من يشاء فينتفع به ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيفوته الانتفاع، ولا مانع من أن يستعمل الصرف في صرف الشيء النافع، وإن كان الأكثر في صرف الأشياء أن يكون في صرف الأشياء الضارة؛ لكن قد يستعمل أيضًا في صرف الأشياء التي تنفع.

هذا من بلاغة القرآن أن تكون هذه الجملة صالحة للوجهين: وجه العقوبة ووجه الرحمة، فالإصابة بالبرد أحيانًا تكون عقوبة تهلك بها الزروع وتموت بها المواشي، وأحيانًا تكون بالعكس.

[﴿يَكَادُ﴾ يقرب ﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ لمعانه ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الناظرة له: أي يخطفها].

من قوة هذا البرق يكاد سناه يعني: لمعانه، يذهب بالأبصار، وفي هذا إشارة إلى أن السحابة التي فيها برد يكون برقها أشد لمعانًا من غيره، فهذا البرق يكاد لقوته يذهب بالأبصار، ولا شك

أن هذا البرق عظيم جدًّا، وقد ذكروا أن فيه طاقة كبيرة من الكهرباء، وأنها تساوي كذا وكذا من الكيلوات، وهذا الأمر واضح.

الآن تجد مثلًا الطائرات قد لا تبعد بُعد السحاب، ومع ما فيها من الإضاءة ما تكاد تبصرها، أما هذا فإنه كما هو مُشاهد يكاد يخطف البصر، ويملأ الأرض ضياءً، مما يدل على كثرة الطاقة الكهربائية التي في هذا البرق، مع أنه بإذن الله في لحظة، وهذا هو الظاهر أنه من باب الاحتكاك - كما ذُكِر - يكون سالبًا وموجبًا فيتولد من بينهما البرق، ولا مانع إن صَحَّ الحديث أن يكون أيضًا هذا من أسباب ضرب المَلَك الذي يسوق السحاب، فإذا صَحَّ الحديث، فإنه لا ينافي ما ثبت من العلم الذي يتصل بهذا الأمر من كونه اجتماع سالب وموجب فيحصل به هذا اللمعان، إذ أنَّ اجتماع السالب والموجب قد يكون بأسباب ضرب الملك إذا صَحَّ الحديث بذلك، فهذا لا منافاة بينه وبين ما ورد عن النبي ﷺ - إن صَحَّ -.

إذنْ هذا من آيات الله الدالة على كمال قدرته، سوق هذا السحاب بين السماء والأرض، وكونه جبالًا من البرد، وإصابة الله تعالى به من شاء وصرفه عمن يشاء، كل ذلك من آيات الله، ولهذا جعلها الله تعالى بصيغة الاستفهام الدالة على التقرير.

❁ قال الله تعالى:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]

❁ التفسير ❁

[﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يأتي بكل منهما بدل الآخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لأصحاب البصائر على قدرة الله تعالى].

قوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ التقليب معناه: تغيير الشيء من جهة إلى جهة، وهذا التقليب هل المراد به التقليب الحسي - الذي أشار إليه المؤلف - بمعنى أنه يأتي بهذا بدل هذا؟ أو المراد ما هو أشمل أي: التقليب الحسي والمعنوي؟

الجواب: نعم، المراد ما هو أعم من التقليب الحسي، والتقليب الحسي إن الله يقلب الأرض بدل من أن كانت ليلًا أو نهارًا إلى ليل ثم إلى نهار وهكذا، والتقليب المعنوي: ما يحصل في هذه الأيام من الحوادث والتغيرات والعز والنصر والإذلال والخذلان كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فالصواب بالتقليب هنا: أنه ليس خاصًّا بالتقليب الحسي الذي هو جعل الليل مكان النهار والنهار مكان الليل؛ بل هو أعم من ذلك يشمل الحِسِّي والمعنوي.

ومن التقليب أيضًا تقليب: الفصول حيث يكون الليل والنهار مرة في وقت الشتاء ومرة في وقت الصيف كل هذا من التقليب، المهم أنه يجب أن تعرف أن هذا التقليب عام في كل ما يحصل من تغيير في الليل والنهار، من الأمور الحسية والأمور المعنوية، وهذا هو وجه العبرة [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾]، فصاحب البصيرة.

وقوله: ﴿الْأَبْصَارِ﴾ البصائر ليس المراد: بصر العين فكل ذي بصيرة يعرف من تقليب الليل والنهار ما في قدرة الله ـ عز وجل ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [القصص:٧١].

لو اجتمع الخلق كله على أن تخرج الشمس في نصف الليل ـ مثلًا ـ لا يستطيعون، ولو اجتمعوا كلهم على أن يأتي الليل في نصف النهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو أن الله تعالى جعل الوقت دائمًا ليلًا أو نهارًا ما استطاع الخلق كلهم أن يغيروا هذا الوضع، ولهذا بيَّن الله منته على عباده ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر:٦١].

كذلك ما يحدث في الليل والنهار من الحوادث وتقلبات الأمور، فهذا أيضًا فيه عبرة تجد مثلًا هذا المُلك لهذا الرجل مُلكًا تامًا وافيًا ونعم وافرة، ثم ينقلب هذا الملك إلى ذُلٍّ وأسر، وتجد هؤلاء القوم في عزٍّ ونصر وتمكين، وإذا الأمر بالعكس، كل هذا مما يستدل به الإنسان العاقل ذو البصيرة على ما لله تعالى من قدرة في تقليب الأمور، ومن حكمة في تدبيرها.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ إذا كنت لا تتخذ من ذلك عبرة، فاعلم أنك لست من ذوي البصائر، ولم تجد في نفسك حركة لهذا التقلُّب وهذا التغيُّر، فاعلم أنك لست من ذوي البصائر؛ لأن كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ محكم لا يتغير، وقد أخبر أن في هذا التقليب عبرةً لأولي الأبصار، فإذا لم يكن في ذلك لك عبرة فاعلم أنك لست من ذوي البصائر.

إذنْ لابد أن تعالج نفسك، حتى تتأمل ما في هذا التقليب من العبر وتعتبر به، لا تظن أن هذه مجرد كلمة أطلقت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وفقط، فيقول الإنسان: العاقل ذا البصيرة يعرف ما في ذلك وما لله من القدرة، ولكن يجب أن تعتبر، فإذا لم تعتبر أنت فإنك لست من ذوي البصائر.

قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥]

التَفسِير

قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ بعدما ذكر آيات الله تعالى في العالم العلوي ذكر آياته في العالم السفلي وهو قوله:

[﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ أي: حيوان ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: نطفة]

خلق بمعنى: أوجد ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ الدابة: كل ما يدب على الأرض، وإن كانت قد تطلق على ذوات الأربع عُرفًا، هذا في العادة والعرف؛ ولهذا ما يسمى الإنسان دابة في العرف، لو يقول لك إنسان: يا دابة يمكن تخاصمه، لكنها في اللغة: كل ما دب على الأرض فهو دابة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦].

وقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هذا أصل خِلقة الدواب من الماء، وقول المؤلف: من نطفة ليس بصحيح؛ لأنه ليس كل دابة من نطفة، بل كل دابة من ماء، نطفة وغير نطفة، فأما ما يتوالد فماؤه نطفة، وأما ما يتولَّد فماؤه رطوبة؛ لأن هذه الأشياء التي تتولَّد، تتولَّد من العفونات والرطوبات، وأما الذي يتوالد، فنعم يتوالد من نطفة له نطفة يخلقه الله منها، فكلمة (من ماء) أعم من كلمة نطفة، والواجب إبقاء الآية على عمومها ليشمل ما يتولد وما يتوالد.

وهذه الآية بعض من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] فهي أعم؛ لأن كل شيء حي يشمل الدواب وغير الدواب حتى الأشجار.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ الناس يستشهدون بالآية على غير ما أراد الله بها، على أن الماء ضروري لبقاء الحياة، وليس الأمر كذلك بل الآية تدل على أن أصل هذه الأشياء الحية من الماء، ولو كان المراد: ما يستشهد به الناس من أجله لقال: (وجعلنا من الماء كل شيء حيًّا) أي: صيَّرناه حيًّا بالماء.

من جهة ثانية نقول: إذا كان أصلها الماء نقول: فهي مفتقرة إليه؛ وأيضًا النمو لا يكون إلا بالماء.

قوله: [﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والهوام].

﴿فَمِنْهُم﴾ هذا التقسيم يدل على أن الدابة المراد بهم العقلاء، وإلا لقال: فمنها أي: من هذه الدواب، إلا إنَّ العلماء قالوا: إن ذلك تغليبٌ، تغليبٌ للعقلاء، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من هذه الدواب ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ والذي يمشي على بطنه هو يمشي أو يزحف؟ يزحف، ولكن هذا مشيه، مشيه زحف، مثل الحيات والهوام.

الحيات معروفة أما الهوام فيظهر لي في كلام المؤلف نظر؛ لأن الهوام منها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع فالتمثيل بها فيه نظر، أما الحيات فنعم تمشي على بطنها، وكذلك الدود وغيره تمشي أيضًا على بطنها.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير] الإنسان: يمشي على رجلين ثنتين،

والطير يمشي على رجلين ثنتين، وهل يوجد طيور تمشي على أكثر من رجلين؟ لا نعرف يمكن لا ندري لكن نحن نعرف أن الطيور ليس لها إلا رجلان اثنتان.

قوله: [﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والأنعام] هذا واضح.

هل هذا التقسيم مفيد للحصر أم لا ؟ هل هو من باب الحصر أم من باب القصر؟

من باب القصر يعني: الاقتصار على بعض الأشياء؛ لأن من الدواب ما يمشي على أكثر من أربع، فهناك مخلوقات لها أربعة وأربعين رجلًا، وفي أشياء دون ذلك لها ستة أرجل، وفي أشياء لها أكثر من ذلك، إنما هذا التقسيم ليس للحصر، ولكنه للقصر أي: من باب الاقتصار على بعض الأنواع فقط ويدل على ذلك قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من هذا الذي ذُكِر ممن يمشي على بطنه، وعلى رجلين، وعلى أربع وعلى ما هو أكثر من ذلك، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا أحد يعجزه فهو خالق لما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ القدرة صفة يتصف بها القادر؛ بحيث يفعل ما يريد بدون عجز، بخلاف القوة فإنها يفعل بها ما يريد بدون ضعف، فالقوة تُقَابَل بالضعف، والقدرة تُقَابَل بالعجز.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] فجعل القدرة في مقابل العجز، فلقدرته لا يعجز سبحانه وتعالى.

على كل حال: القدرة: صفة يتصف بها القادر؛ بحيث يفعل ما يريد بدون عجز، مثلًا: رجل يصلي قائمًا لكن مع تعب ماذا نقول هذا قادر أم قوي؟ قادر، وآخر يصلي قائمًا وهو لا يهمه هذا نسميه قوي، وقادر أيضًا، وإنسان يحمل هذه الصخرة كما يحمل الريشة ما يهمه، وهناك إنسان يحمل هذه الصخرة بصعوبة يحملها؟ الأول قوي، والثاني قادر؛ لأنه يفعله لكن مع التعب والمشقة، وهناك ثالث عندما أتى ليحملها أيس هذا ليس قويًا ولا قادرًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يوجد كلمة بين الناس يقولون: (إنه على ما يشاء قدير) هذه الكلمة لا ينبغي لنا أن نقولها؛ لأنك إذا قيدت القدرة بالمشيئة حصل بذلك قصور، وتصير قدرته على ما يشاء دون الذي لا يشاء، مع أن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالذي يقوله بعض الناس (أنه على ما يشاء قدير) يجب أن يُنهى عنه ويقال: قل: (إنه على كل شيء قدير) لا على الذي يشاؤه فقط؛ لاسيما وأنك إذا قلت: إنه على ما يشاء قدير، وقدّمت المعمول؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، وأنك حصرت القدرة فيما يشاؤه فقط،

وهذا ليس بصحيح.

فالذي يجب على الإنسان، أن يطلق صفة القدرة لله كما أطلقها الله لنفسه، ويقول: (إنه على كل شيء قدير) كما وصف به نفسه لا يقيدها بما شاء.

فأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] فالمشيئة هنا ليست قيدًا في القدرة، ولكنها قيد في الجمع، يعني: إنَّهُ إذا شاء هذا الفعل فليس بعاجز عنه، وهذا قاله الله تعالى ردًّا على من أنكروا البعث وقالوا: إنه ما يمكن أن يجمع الناس بعد أن تفرقوا في الأرض، وكانوا رميمًا.

ومثل ذلك أيضًا ما ورد به الحديث في مسلم، والرجل الذي أمره الله تعالى أن يدخل الجنة بعدما سبق عليه، فقال له الله ـ سبحانه وتعالى ـ: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] فإنه هنا يخاطبه لفعل شيء وقع، فكأنه قال: إني على ذلك قادر إذا شئته، ولهذا عبَّر بقادر دون قدير؛ فإن قدير أبلغ في الصفة بخلاف قادر؛ فقد تتعلق بفعل شيء معين.

على كل حال: الذي ينبغي للإنسان؛ بل الذي يجب عليه، أن يُطلق صفة القدرة إذا وصف الله بها فيقول (إنه على كل شيء قدير) فقط ولا يقيدها بالمشيئة.

❁ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦]

❁ التفسير ❁

[﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أي: بينات هي القرآن ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾ أي: طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: دين الإسلام].

قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ سبق الكلام على مثلها عدة مرات، وقلنا إن هذه الجملة مُؤَكَّدة بثلاث مؤكِّدات (القسم، واللام وقد)؛ لأن ﴿لَقَدْ﴾ أصلها (والله لقد)، فتكون الجملة هنا مؤكَّدة بهذه المؤكدات الثلاثة.

وقوله: ﴿مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أي: بينات، لا شك أن هذا التفسير لا يطابق المفسَّر؛ لأنه مبينات أبلغ من بينات؛ لأن المُبَيِّن البائن في نفسه، المُبِينُ لغيره، فهو ظاهر في نفسه مُظهِر لغيره، والبيِّن ظاهر في نفسه فقط، والأول أبلغ؛ لهذا تفسير المؤلف يعتبر قاصرًا، والصواب أن المبينات بمعنى: البيِّنة في نفسها المبينة لغيرها.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

فالآيات هذه التي أنزلها مبينات، تبيِّن كل ما يتعلق بمصالح العباد، تبيِّن الخير من الشر، والحق من الباطل، والمتقي من الفاسق، وصفات الخالق من صفات المخلوق، وكل ما يحتاج الناس إليه ويتعلق بمصالحهم في دينهم ودنياهم، فإن هذه الآيات بيَّنته.

لكن التبيين له طرق؛ تارةً يكون تبيينًا بالتفصيل، وتارةً يكون بالإجمال، أحيانًا يكون بيان القرآن بالتفصيل وأحيانًا بالإجمال، فمثلًا إذا تدبرت آيات الفرائض - قسمة المواريث - تجد أن الآيات فيها بيِّنة بالتفصيل، وإذا تَدَبَّرت بعض الآيات الأخرى مثل: أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، تجد أنها مجملة، لكن الإنسان يعرفها من أدلة أخرى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] ما من شيء إلا بيَّنه هذا القرآن، وقد ذُكِرَ عن الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كان في مطعم في أحد بلاد أوروبا، وكان عنده رجل من النصارى، فقال له: إن القرآن تبيان لكل شيء، فهل بيَّن كيف يصنع هذا الطعام؟ فقال: نعم، هذا القرآن بيَّن لنا كيف نصنع هذا الطعام، فتعجب هذا الكافر وقال: كيف؟! فدعا صاحب المطعم، وقال له: كيف صنعت هذا الطعام؟ فقال: صنعته بكذا وكذا وبيَّن له تراكيبه، فقال: هكذا في القرآن، فإن الله يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فإن القرآن ما بيَّن ذلك تفصيلًا، لكنه أرشدنا كيف نهتدي إلى معرفة الأمور، وهذه الآية طبعًا ما تريد أهل الذكر يعني: الطبخ لكن إما أن نقول: أهل الذكر أهل العلم، وعلم كل شيء بحسبه، وإما أن نقول: أهل العلم بالشرع، ونقيس ما عدا العلوم الشرعية على العلوم الشرعية، ويكون من باب العموم المعنوي في الآية؛ لأن الآية إن لم تشمل هذا بعمومها اللفظي، فهي شاملة له بعمومها المعنوي، والعموم اللفظي هو: الذي دخل في الكلام لفظًا دل عليه الكلام دلالة مطابقة.

والعموم المعنوي هو: الذي دل عليه الكلام بالقياس يعني: ما دخل في اللفظ لكنه يُقاس عليه؛ لأن القياس عبارة عن اشتراك المَقِيس والمَقِيس عليه في العلة التي من أجلها ثبت الحكم، وهذا عموم معنوي، ولذلك تجدون في كلام العلماء يُقال: هذه المسألة يشملها النص بعمومه اللفظي، بمعنى: أنها فرد من أفراد هذا العموم، وأحيانًا يقولون بعمومه المعنوي، بمعنى: أنها تقاس على ما دَلَّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لما بيَّن حال الآيات وأنها آيات مبينات، لكن هل كل أحد يستفيد من هذه الآيات المبينات؟ لا، قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: على الرغم من كون الآيات مبينات واضحة مبيَّنة فما كل أحد يهتدي بها وإنما الله تعالى ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وهذه الآية كغيرها في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فعمَّمَ بالدعوة، لكن الهداية ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

فالآيات مبينات موضحة للأمور، لكن ما كل أحد يهتدي بها.

قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تقدم الكلام على أن كل شيء قيده الله بمشيئته فهو مقرون بالحكمة فالله تعالى يهدي من اقتضت الحكمة هدايته.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أن الله تعالى له التصرف المطلق في خلقه.

٢ - **ومنها:** إثبات القدرة وعمومها، وهو من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأشرنا في التفسير إلى أن ما يستعمله بعض الناس من تقييد القدرة بما شاء خطأ، وأن الواجب إطلاق صفة القدرة، وأجبنا عن مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] والحديث الذي فيه: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] وقلنا: إن هذه المشيئة متعلقة بالفعل لا بالصفة؛ فالصفة مطلقة والفعل هو المُقَيَّد بالمشيئة، إذا شاء فعل وإذا شاء لم يفعل.

٣ - **وفيها:** بيان أن الآيات التي أنزلها الله تعالى مُبَيِّنة مُوَضِّحة لكل شيء؛ الحق من الباطل، وأهل الخير من أهل الشر، والأحكام التي بين الناس، وغير ذلك لكن مع كونها مبينة هل اهتدى بها كل الناس؟ لا، وإنما يهتدي بها من شاء الله هدايته ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ لكن ما كل أحد يهتدي بها، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وبه دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على نفسه في الهداية؛ بل يسأل الله دائمًا أن يهديه ثم يثبته، ما دام أن الله هو الذي يهدي فإذنْ لا تستقل أنت بهداية نفسك، فاسأل الله دائمًا الهداية ثم الثبات عليها، ولا تغتر بما معك من الإيمان - مثلًا - فإن ذلك قد يُسلَب منك؛ لاسيما إذا أُعجب الإنسان بعمله؛ فإن إعجاب الإنسان بعمله قد يؤدي إلى حبوطه وبطلانه.

٤ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الشرع كله - الذي هو دين الإسلام - أنه مستقيم ليس فيه اعوجاج لقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾، ﴿ٱلسُّبُلَ﴾ اليمين والشمال ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

إذا قلنا: إن الهداية من الله عز وجل وأنها مُعلَّقة بالمشيئة ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فهل لهذه الهداية سبب؟ نعم، وهي: طلب الحق هذا من أسباب الهداية، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] والدليل ما سيأتي في الآية بعدها، الآيات التي بعدها ترشد إلى ما ذكرنا؛ أن سبب الهداية: هو إرادة الإنسان الحق وطلبه له، فإذا أراده وطلبه، فإن الله تعالى يهديه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧) واللفظ له.

إليه، أما إذا أعرض وتولَّى، فإن الله تعالى لا يهديه إليه.

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧]

التفسير

[﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المنافقون ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿بِٱللَّهِ﴾ بتوحيده ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هما فيما حكما به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عنه ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المعرضون ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المعهودين الموافق قلوبهم لألسنتهم].

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هذه حكاية عن جماعة سواء كانوا من المنافقين؛ كما قال المؤلف أم من غيرهم ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ فسر المؤلف الإيمان: بالتصديق وقد سبق أن هذا التفسير قاصر وأن الإيمان هو: التصديق مضافًا إليه القبول والإذعان، أن يقبل الإنسان ما جاء به الرسول ﷺ وأن يذعن له، أما مُجَرَّد التصديق فليس بإيمان، ولهذا نعلم نحن أن أبا طالب كان مُصَدِّقًا للنبي ﷺ وهو بنفسه يقر على نفسه بذلك، يقول: لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل ويقول: ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية دينًا، لكنه ليس بمؤمن مع التصديق.. لماذا؟ لأنه لم يذعن، ولم ينقد، ما أذعن للرسول ﷺ، ولا انقاد له.

كذلك أيضًا الكفار الذين حكى الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، هل هم مصدقون بالله أم لا؟ مؤمنون به ومصدقون، لكن لما لم يقبلوا ما جاء به الرسول ولم يذعنوا له لم يكونوا مؤمنين، فتفسير الإيمان شرعًا بمجرد التصديق تفسير ناقص، بل نقول: الإيمان هو التصديق مع القبول والإذعان، ولابد من ذلك.

وقوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ أعاد حرف الجر، ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ لأن الإيمان بالرسول إيمان مستقل، يعني: لابد أن الإنسان يؤمن بالله إيمانًا كاملًا، وبالرسول إيمانًا كاملًا، كما أن الطاعة لله طاعة كاملة، وللرسول كذلك، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم قال: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾ عطفها على طاعة الله ورسوله بدون إعادة العامل؛ إشارة إلى أن طاعة ولاة الأمور تَبَعٌ لطاعة الله ورسوله، أما طاعة الرسول فهي مستقلة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وطاعة الله كذلك.

مثل أيضًا الإيمان بالله وبالرسول إذا جاء حرف الجر فمعناه: أن هذا إيمان مستقل كأن هؤلاء

يقولون: آمنا إيمانًا كاملًا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وآمنا إيمانًا كاملًا بالرسول أنه رسول الله.

وقول المؤلف: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بتوحيده، هذا أيضًا فيه قصور، بل الإيمان بالله يشمل التوحيد وغيره، التوحيد، والتصرف، والتدبير، والتشريع، وغير ذلك، وكذلك بما له من الصفات؛ لأنه لا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بصفاته لابد من ذلك.

وقوله: ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ هذا الانقياد، يعني: أننا مؤمنون وأيضًا مطيعون، والطاعة قالوا إن معناها: موافقة الأمر، بمعنى: ألَّا تخرج عمن أمرك ولا تخالفه بل توافق أمره، إن كان إيجابيًّا فبالفعل، وإن كان سلبيًّا فبالترك ـ هذه هي الطاعة ـ ولهذا كلمة طاعة تشمل فعل الأوامر وترك النواهي؛ لأن معناها موافقة الأمر فمعنى (أطعنا) أي: أننا وافقنا أمرًا لله ورسوله لن نخرج عنه، وبعد هذا القول:

﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد إقرارهم بالإيمان بالله ورسوله، يُعرض فريق منهم، يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني: وما أولئك المعرضون بالمؤمنين حقًّا، ولكن هذا النفي هل هو نفي للإيمان أصله، أو نفي للإيمان كماله؟

فيه تفصيل: إذا كان التولي توليًّا مطلقًا فهي نفي للإيمان كله لأصله، وإذا كان التولي غير مطلق؛ بل في بعض الأمور، فإنها تختلف قد يكون في بعض الأمور إذا تركها الإنسان وأعرض عنها كافرًا، وقد يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

المهم: أن توليهم ينافي ما ادعوه من الإيمان، وفي هذا دليل واضح على أن الإنسان إذا قال إنه مؤمن وهو متولٍّ ومعرض، فهو كاذب في دعواه، إما إنَّهُ ليس بمؤمن أصلًا وإما إنَّهُ مؤمن لكن ناقص الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ بمعنى: جماعة ﴿مِّنۡهُم﴾ أي: من هؤلاء القائلين، وفريق آخر باقون على الإيمان والطاعة لا يُعرضون صادقون، فيما ادعوه من إيمان حقيقة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إعراب هذه الجملة: (ما) نافية، لكنها تعمل عمل ليس عند الحجازيين؛ فترفع الاسم وتنصب الخبر، (أولاء) اسمها ـ لكنه ليس مضمومًا والسبب لأنه مبني، فأسماء الإشارة كلها مبنية.

وقوله ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الباء: حرف جر زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى ففيه تأكيد النفي في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ نفي الإيمان عن هؤلاء الذين قالوا آمنا وأطعنا، ثم تولوا فليسوا بمؤمنين، وعرفتم أن نفي الإيمان هنا إما نفي لأصله، وإما نفي لكماله.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور:٤٨]

التفسير

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ الضمير يعود على هؤلاء القائلين الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ ثم يتولون فإذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلى رسول الله ﷺ المُبَلِّغ عنه.

[وقوله: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن المجيء إليه].

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ أي: دعاهم من يخاصمهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أعرضوا.

قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ هل المراد: أن يُدْعَوا إلى الله تعالى ليصلوا إليه فوق عرشه؟ الجواب: لا، إذن أي شيء يكون الدعاء إلى الله؟ إلى كتابه؛ لأن كتاب الله كلام الله عز وجل، فالدعاء إلى الله هو الدعاء إلى كتاب الله.

وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ هل المراد: أن يصلوا إلى النبي ﷺ في بيته أو في مسجده أو في سوقه؟ نقول: في حياته إليه شخصيًّا في البيت، أو في المسجد، أو في السوق، وبعد وفاته إلى سنته؛ لأن سنته قوله وفعله وإقراره، فكأننا نشاهده عندما ندعوا إلى قوله أو إلى فعله أو إلى إقراره.

وقوله: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ اللام للتعليل، يعني: دعوا لهذا الغرض، الضمير في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يعود على الله أم على رسوله ﷺ؟ لا يصح أن يعود عليهما لو كان عائدًا عليهما للزم أن يكون بصيغة التثنية (إلى الله ورسوله ليحكما بينهم)، لكنها تعود إلى واحد منهما: إلى الرسول؛ لأنه أقرب مذكور، لكن بالنسبة لله سبحانه وتعالى إما أن يُقَدَّر جملة، مثل هذه الجملة يعني: إلى الله ليحكم بينهم، ورسوله ليحكم بينهم، مثلما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] ولم يقل: أن يرضوهما، بل قال يرضوه فقالوا: إن التقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه، وإما أن يقال: إن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله، ويشير إلى هذا قول المؤلف: [﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ المبلغ عنه]، فإذا كان النبي ﷺ هو المبلغ عن الله، صار حكمه حكم الله، وفي الحقيقة أن الحاكم المباشر هو الرسول ﷺ، فعند النزاع في حياته نرجع إليه مباشرة، لذلك نقول: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ الضمير يعود على الرسول ﷺ؛ لأنه أقرب مذكور.

ثم نقول: إن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله؛ لأنه مُبلِّغ عنه لا يحكم إلا بما حكم الله به، هؤلاء إذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، ﴿إِذَا﴾ هنا يسميها النحويُّون فُجائية يعني: للمفاجأة؛ لأن عندنا: ﴿إِذَا﴾ الأولى ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ تكون شرطية جوابها: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ لكنه صُدِّر بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية؛ لأنه جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية، فلابد أن يصدر بالفاء أو بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية، إذنْ ﴿إِذَا﴾ الثانية فجائية، ومعنى فجائية أي: تدل على

المفاجأة، مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

هؤلاء ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ هل يفكرون وينظرون: هل يقبلون أو لا يقبلون؟ لا، إنها يردونه مباشرة - والعياذ بالله - لا يتأنون في الأمر ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ مباشرة بسرعة يعني: بدون تروٍّ فكأنهم من الأصل مستعدون لرد حكم الله ورسوله، ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وهذا - والعياذ بالله - أشد في الاستكبار وفي العتو من رجل يقول: أنا أتروى، وإن كان كل واحد في حكمه إذ الواجب قبول ما حكم الله به ورسوله، لكن كون الإنسان يُفَاجِئُ به دليل على أنه مستكبر، ولا يريد أبدًا أن يَخْضَعَ للحق، ولهذا قال: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

في الأول: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ﴾؛ لأن ليس كل من قال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ ليس كلهم يتولون؛ بل منهم من هو مؤمن حقيقةً، ولا يتولى كذلك ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هل كلهم يتولون؟ لا، منهم من ينقاد لحكم الله ورسوله، ويتخاصم إلى الله ورسوله، ويقبل بحكم الله ورسوله ولهذا يقول: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾.

وقوله: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: عن المجيء إليه أو عن حكمه، التولي بالجسم والإعراض بالقلب؛ لأن المتولي قد يتولى وفيه أمل أن يرجع، لكن إذا تولى وهو معرض - والعياذ بالله -، والمعرض كاره لما دُعِي إليه؛ لأنه ما أعرض عنه إلا وهو يكرهه، هذا أشد من التولي، فالتولي بالجسم والإعراض بالقلب يعني: أنهم يتولَّون وليس من نيتهم الرجوع.

وفي الآية دليل على خطر من يتعصب للمذهب، أو لقول واحد من أهل العلم إذا دُعِيَ إلى الله ورسوله وقيل: هذا كتاب الله وهذه سنة الرسول ﷺ، فالواجب التحاكم إليها والرجوع إليها.

بعض الناس يقولون: لا، المذهب كذا، وقال العالم الفلاني كذا، وما أشبه ذلك، هذا فيه شَبَهٌ من هؤلاء المنافقين الذين ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، تجده متوليًا ومعرضًا، وبعض الناس - والعياذ بالله - ما يتأنى أبدًا - بسرعة يغضب، ويقوم ويقول أبدًا، يريد أن يتبع فلان نقول هل فلان هذا هو الرسول؟ لا، فلان بشر يأخذ من قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - تارة يخطئ وتارة يصيب فإذا قيل: وأنت أيضًا تخطئ وتصيب، أقول: صحيح أنا أخطئ وأصيب لكن هذا كتاب وسنة تأملها أنت، أنا لا ألزمك أن تأخذ بها فهمتُ أنا من كتاب الله وسنة رسوله، لكني ألزمك أن تنظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم تنظر في قول من قلدته هل يكون موافقًا أو مخالفًا، أما أن تعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، وتقول: أبدًا ما أنظر فيها، وأتبع فلانًا، وفلان هذا لا أوافقك عليه.

فهنا فرق بين أن أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله لتنظر فيه وتتبعه، وبين أن أقول هذا كتاب وسنة رسوله لكن الزم ما أفهمه أنا منها، هذا لا ألزمك به؛ لأني إذا ألزمتك به فقد دعوتك إلى ما نهيتك عنه، دعوتك إلى تقليدي ولكننا ندعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، المهم ألَّا تتحجر

وتقول: أنا لا أتبع إلا فلان.

والبلية كل البلية هو مسألة التقليد المحض إلا إننا - ولله الحمد - نُبشِّركم كما ترون الآن أن هذا بدأ يضعف في الناس أعني: التقليد المحض، الذي يكون حتى مع ظهور الحق وبيانه هذا - والحمد لله - بدأ يضعف في الناس، وصار الناس يتطلبون الأقوال الراجحة، حسب دلالة الكتاب والسنة، بقطع النظر عن كون فلان قلدها أو فلان أخذ بها أو لم يأخذ بها.

وفي الآية هذه دليل على أن الحكم لله ورسوله، والتحاكم إلى الله ورسوله، وقد أقسم الله تعالى قسمًا مُؤَكَّدًا، بأنه لا يمكن أن يؤمن الإنسان حتى يُحَكِّم النبي ﷺ فيما شجر بينهم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه مرحلة، المرحلة الثانية: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ يعني: ما يكون في نفسك ضِيق أو كراهة لما حكم به الرسول ﷺ، المرحلة الثالثة: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] يعني: ينقادوا انقيادًا تامًّا.

لأن الناس كل منهم التزم مرحلة، فمن الناس من لا يحكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهذا من الأصل ما دخل في المراحل الثلاث، ومن الناس من يحكم الرسول لكن يجد في نفسه حرج من حكم الله ورسوله؛ لأنه يخالف هواه، فتجده متحرج يعني: يمشي بالحكم لكن مع ضيق ومع حرج، هذا أيضًا ليس بمؤمن، من الناس من يحكم الرسول ولا يوجد في صدره حرج من حكمه لكن ما يستسلم، يكون مثلًا فيه تأنٍّ فيه تهاون أو تقصير في بعض التنفيذ، هذا أيضًا ليس بمؤمن لابد من الأمور الثلاثة: التحكيم، وانتفاء الحرج، والثالث: التسليم وتأمل قوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾ إشارة إلى أنه تسليم كامل ولهذا يسمي النحويون هذا المصدر يسمونه مصدرًا مُؤَكِّدًا يعني: أنهم يسلمون تسليمًا كاملًا ما فيه أي التواء أو إعراض، هذه الآية مثلها.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩]

❁ التفسير ❁

ثم قال: [﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين طائعين].

إذا كان لهم الحق في حكم الله ورسوله ما يتولون، وإنما يسرعون وينقادون، فَدَلَّ ذلك على أنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون ما يوافق أهواءهم، إن كان الحق لهم قبلوا وانقادوا، إذا كان الحق عليهم تولوا وأعرضوا، بل إن ظاهر الآية الكريمة أنهم يعرضون في الحالين: إذا كان الحق عليهم وإذا لم يكن عليهم ولا لهم؛ لأنهم ما يذعنون إلا إذا كان الحق لهم، وفي الحقيقة أن طاعتهم هذه وإذعانهم لهوى أنفسهم لا للحق، وهذا أيضًا حال بعض الناس تجده إذا دَلَّ الكتاب والسنة على

ما يهوى ويريد، ينشرح صدره ويذعن ويقبل، وإذا دل الكتاب والسنة على خلاف ما يريد، تجده يكون في نفسه حرج وربما يزيد على ذلك بالإعراض والتولي، هذا في الحقيقة ليس بمؤمن، وإنما يتبع من الحق ما وافق هواه فقط؛ أما المؤمن فله حال أخرى ستأتي إن شاء الله.

قال الله تعالى:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]

التفسير

[﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أي: شكُّوا في نبوته ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحكم أي: فيظلموا فيه؟ لا ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالإعراض عنه].

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مُبيِّنًا حال هؤلاء الذين يردون ما حكم الله به ورسوله: بأنهم لا يخلون من هذه الأحوال الثلاثة:

١ - ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمرض هو: علة تصيب الصحيح فيخرج عن الاعتدال - هذا المرض - وهذا التعريف للمرض يشمل المرض الجسمي والمرض القلبي، فالمرض الجسمي في الحقيقة علة تصيبه فيخرج عن الاعتدال، كذلك المرض القلبي علة تصيب القلب فتخرجه عن الاعتدال، حتى ينحرف ولا يقبل الحق.

فما هو المرض المشار إليه هنا؟

المؤلف فَسَّرَهُ بالكفر والذي يظهر لي - والله أعلم - أن المراد به: الشهوة والإرادة السيئة بدليل التقسيم سواء كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غير ذلك، المهم المرض الإرادة السيئة التي تصرفهم عن قبول الحق.

٢ - ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ هذا الشك وهو مرض الشبهة؛ لأنه مر علينا كثيرًا أن أسباب الانحراف عن الحق إما شبهة وإما شهوة، يعني: إما أن الإنسان يشتهي أمرًا مخالفًا للشرع فيتبعه، وإما أن يكون عنده شبهة في هذا الحق فيمتنع منه، فنقول هنا: ينبغي أن يُفسر المرض بالإرادة السيئة التي هي الشهوة أي: اشتهاء ما يخالف الشرع.

قوله: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أي: شكُّوا، هذا مرض الشبهة الذي يعرض للإنسان، حتى لا يتبين له الحق، مثال ذلك: رجل أُمِر بأمر من الأمور، أُمِر بأن يصلي، ولكنه قدَّم أمرًا دنيويًّا على صلاته، ما الذي في قلبه من الأمراض؟ مرض الشهوة، وآخر أُمِر أن يصلي لكنه شك في فائدة الصلاة، أو

شك في وجوبها، أو ما أشبه ذلك، هذا فيه مرض الشبهة.

فالآن: المرض بمعنى الإرادة السيئة. ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ هذا الشك ـ والعياذ بالله ـ.

٣ - الأمر الثالث: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعني: ما عندهم إرادة سيئة، ولا عندهم شك في حكم الله ورسوله؛ لكن عندهم شك آخر، في عدالة الله ورسوله، ولهذا هم يخافون ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، فيخشون من الميل والجور، وفي الحقيقة أن الميل والجور عندهم هم، ليس في حكم الله ورسوله، بل إن حكم الله ورسوله على الحق والعدل، ولكن الجور في ميزانهم هم؛ لأنهم هم الذين حادوا عمّا يجب أن يكونوا عليه من الامتثال والطاعة.

قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿بَلۡ﴾ هذه: للإضراب ولكن هل هو إضراب إبطال أو إضراب انتقال؟

المؤلف قال: لا، ثم قال تعالى: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فمُوجَب أن كلام المؤلف أن الإضراب هنا للإبطال؛ ولذلك قدَّر: (لا) بعد الاحتمالات الثلاثة السابقة، وعندي أن الإضراب هنا ليس للإبطال وإنما هو للانتقال؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي لا يقبل حكم الله ورسوله لا يخرج عن هذه الأمور الثلاثة: إما أن عنده إرادة سيئة، أو عنده شك، أو خوف، ما نتصور أمرًا رابعًا يرد على هذه الاحتمالات الثلاثة، ثم إن وصفهم بالظلم لا يخرج عن هذه الاحتمالات الثلاثة أيضًا، فمن في قلبه مرض فهو ظالم، ومن في قلبه شبهة فهو ظالم، ومن خاف أن يحيف الله عليه ورسوله فهو ظالم، إذنْ فالمسألة من باب الإضراب الانتقالي، وليس من باب الإضراب الإبطالي.

قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿أَمِ﴾ في هذه المواضع هل هي للتسوية التي بمعنى (أو) أو للإضراب الذي بمعنى (بل)؟

مر علينا فيما سبق أن التي بمعنى (أو) هي التي تأتي بعد همزة التسوية مثل: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة:٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون:٦] هذه هي التي بمعنى: (أو) ويسمونها متصلة، وأما التي بمعنى (بل) فهي التي تأتي ولا يسبقها همزة التسوية، وتسمى منقطعة فعلى هذا ﴿أَمِ﴾ في قوله ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾ هذه منقطعة بمعنى (بل)، وهي كثيرة وردت في آخر سورة الطور: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور:٢٩ ـ ٣٠] ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور:٣٢ ـ ٣٣] كثيرة في آخر سورة الطور، منقطعة بمعنى (بل)، وهمزة الاستفهام فهي هنا منقطعة، وليست متصلة؛ فإن المتصلة: هي التي تأتي بعد همزة التسوية وتكون بمعنى (أو)، وأما المنقطعة فهي التي لا تأتي بعد همزة التسوية، وتكون بمعنى (بل).

قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هنا: سجل عليهم الظلم وأكده بنوعين من التأكيد: الضمير المنفصل، ويكون الجملة اسمية معرفة الطرفين؛ لأن الجملة إذا كانت اسمية معرفة الطرفين فإنها

تفيد الحصر، هنا (أولاء): مبتدأ وهو معرفة؛ لأنه اسم إشارة ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر وهو معرفة؛ لأنه محلًّى بـ (أل)، وعلى هذا أكد الله ظلمهم بنوعين من التأكيد هما: كون الجملة اسمية معرفة الطرفين والثاني: ضمير الفصل.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]

التفسير

أولًا: في إعراب قوله: ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه منصوب والمعروف: أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر وهنا الذي يليها منصوب، وجوابه: أن هذا هو خبرها مقدمًا ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرها مقدم، واسمها المصدر المُنْسبِك من (أنْ) والفعل في قوله: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني: ما كان قولهم إلا هذا القول ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ إليه شخصيًا في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يقال فيه ما سبق في الآية نظيرها: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الضمير يعود على الرسول ﷺ وإنما أسند الحكم إليه؛ لأن حكمه تبليغ عن الله ـ عز وجل ـ، فيكون حكمه منتظمًا لحكم الله أيضًا، إذ هو المبلغ عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يشمل ما تنازعوا فيه من الخصومات، وما اختلفوا فيه من الأحكام، فإن الحاكم هو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا في الخصومات التي تحدث بين المتشاجرين، ولا في الأحكام التي يختلف فيها الناس، قال الله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، فالمؤمنون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فقولهم: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا بآذاننا، وأطعنا بجوارحنا فهم يسمعون وينقادون، والطاعة ـ كما مرَّ ـ شاملة لفعل الأوامر وترك النواهي، شاملة للأمرين جميعًا، عكس الذين يقولون سمعنا، وهم لا يسمعون أو يقولون سمعنا وعصينا، المؤمنون يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقول المؤلف: [أي: القول اللائق بهم]، يعني: ما كان قولهم اللائق فظاهر كلام المؤلف أن المسألة على سبيل التقدير والفرض؛ أي: ما يفترض إلا أن يقولوا هذا، ولكن الحقيقةُ أن هذا هو الواقع ليس القول اللائق فقط بل هو القول اللائق الواقع فهم ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مثل ما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥] وكون أن يجعل هذا قولًا لائقًا أي: مقدرًا ومفروضًا وهذا هو اللائق بهم خلاف ظاهر القرآن، فإن قول المؤمنين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعًا وطاعةً وعلى الرحب والسعة، فهذا قولهم اللائق الواقع منهم، لا يقولون رأي فلان خلاف ذلك، والناس على خلاف ذلك وما أشبه هذا، يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهكذا الواجب على كل مؤمن، فمن لم يكن هكذا فليس بمؤمن، إما إنَّه قد انتفى عنه الإيمان بالكلية أو هو ناقص الإيمان.

قال الله عز وجل: [﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حينئذٍ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون].

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل وقد مرت علينا فوائده الثلاثة: (الحصر، والتأكيد، وتمييز الخبر من الصفة).

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال المؤلف: [أي الناجون]، والأصح أن الفَلاح ليس نجاة فقط؛ بل نجاة من المرهوب وحصول المطلوب، فالمفلح هو الذي نجا مما يكره وأدرك ما يحب هذا هو المفلح.

إذنْ: هؤلاء هم الذين نجوا من المرهوب؛ لانتفاء العصيان منهم، وأدركوا المطلوب لحصول تمام الطاعة منهم، فبالطاعات حصول المطلوب، وباجتناب المعاصي النجاة من المرهوب.

وحَصْرُ الفَلاح في هؤلاء يدل على أن من سواهم غير مفلح؛ لكن إن انتفى عنه الإيمان كله انتفى عنه الفلاح كله، وإن انتفى عنه بعض الإيمان انتفى عنه بعض الفلاح.

إذنْ: وظيفة المؤمن فيما إذا دعي إلى حكم الله ورسوله أو فيما إذا اطَّلع هو بنفسه على حكم الله ورسوله الواجب أن يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما يلتفت يمينًا أو شمالًا أو يؤوِّلُ أو يحرف، بل يقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ انقيادًا تامًّا وسمعًا تامًّا؛ لأن بذلك يتحقق الإيمان.

والإنسان الذي ينقاد لحكم الله سبحانه وتعالى بهذه السهولة وبهذه المطابقة، هو الذي يستريح ولا يحصل عنده قلق؛ لأن من عوَّد نفسه التردد في قبول الأحكام الشرعية ولو في حكم واحد فإن النفس تجبره في أن يتردد في كثير من الأمور الشرعية، يقول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فالإنسان إذا عوَّد نفسه قبول الحق من أول وهلة وبدون أي قلق أو تردد في تنفيذه؛ فإنه يسهل عليه بعد ذلك الانقياد لجميع الأوامر، وعدم الالتفات والتردد، ولكنه إذا فعل ولو مرة وتردد في أمر من الأمور من الأحكام الشرعية يعني: بعد أن يثبت عنده ـ دعنا من التردد في الثبوت هذا شيء آخر ـ يعني: له أن يتردد في الثبوت إذا كان الحديث مثلًا ضعيف السند أو ما أشبه ذلك، لكن إذا ثبت عنده الحكم أن هذا حكم الله ورسوله فإن تردده في قبوله ـ لا في ثبوته ـ هذا خطر عليه جدًّا؛ لأنه يؤدي إلى التردد في الأحكام الأخرى المستقبلة.

ونظير ذلك في الحكم القدري أيضًا؛ الإنسان الذي لا يمرن نفسه على الصبر على أحكام الله وعلى قضائه وقدره، يبقى قلقًا دائمًا متعبًا من الأحكام القدرية التي لا تلائمه، فإذا تمشى مع القضاء والقدر، وصار إن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابه شرٌّ صبر عليه، وهو متمشٍّ مع القضاء والقدر فإنه بذلك يستريح ولا يقلق أبدًا، تجد الإنسان الذي يريد من الله عز وجل أن يكون قضاؤه وقدره فيما يلائمه تجده دائمًا في قلق؛ لأن القضاء والقدر ليس على ما يريد؛ كما أن الشرع أيضًا ليس على ما يريد، فمَنْ تمشَّى مع هذين القسمين، فإنه سوف يجد الفلاح والطمأنينة والحياة الطيبة. ومن قلق منهما أو من أحدهما، فإنه سيبقى في قلق، إن كان الأمر القدري بقي في قلق وحزن والأمور تجري على ما لا ينبغي، وإن كانت الأمور الشرعية - كذلك - أيضًا ينفتح عليه باب التردد في قبول أحكام الله وتنفيذها.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]

التفسير

[قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يخافه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بسكون الهاء وكسرها بأن يطيعه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالجنة].

هذه الآية من أجمع الآيات وأخصرها، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وسبق أن الطاعة موافقة الأمر نهيًا كان أو أمرًا، يعني: طلب إيجاب أو طلب ترك، فهي موافقة الأمر.

وقوله: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ الطاعة: لله ورسوله، والخشية: عبادة، والتقوى: عبادة لا تكون إلا لله وحده؛ ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ يقول المؤلف: [يخافه]، ولكن هذا التفسير قاصر؛ لأن الخشية أشد من الخوف، والفرق بينهما:

أولًا: الخشية لا تكون إلا من علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فالعالم هو الذي يخشى الله؛ لأنه يخافه عن علم بحقيقة المخوف وحال الخائف؛ فهو يعلم حال المخوف وحال الخائف.

الفرق الثاني: الخشية تكون من عِظَم المخشي، والخوف يكون من ضعف الخائف، والفرق بينهما ظاهر، يعني: أن الخشية إنما تكون لعظم المخشي، وإن كان الخاشي عظيمًا، والخوف يكون من ضعف الخائف.

الفرق الثالث: الخشية خوف بهيبة وتعظيم وإجلال وهي متفرعة عن الفرق الثاني، والخوف لا يكون كذلك، فلا يكون عن هيبة وتعظيم وإجلال، ولذلك يقال: خَافَ من الذئب ولا يقال

خشي منه، إلا على سبيل التوسُّع.

فهذه الفروق الثلاثة توجب ألَّا تكون الخشية بمعنى: الخوف على وجه المطابقة، نعم على وجه التقريب فلا بأس أن يقول الإنسان: إن الخشية بمعنى: الخوف ليقربها إلى أفهام السامعين لا على أن الخوف هو المعنى المطابق للخشية.

وقوله: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ نتكلم الآن عن القراءات فيها:

فيها: (ويتقهِ)، وفيها: (ويتقهْ)، وفيها قراءة ثالثة لحفص ما قالها المؤلف وهي: (وَيَتَّقْهِ) ـ بسكون القاف وكسر الهاء ـ.

أما قراءة (ويتقهِ) سواء أشبعنا الهاء أو لم نشبعها ـ هما قراءتان أيضًا ـ هذه القراءة واضحة وليس فيها إشكال؛ لأنها متمشية على ما نعرف من القواعد العربية، (يَتَّقِهِ) مثل (يَرمِهِ) معطوفة على فعل الشرط وهو يطع وهو مجزوم، والمعطوف على المجزوم مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، يعني: حذف الياء والكسرة قبلها دليل عليها، والهاء في (ويتقه) مفعول يتقي وهي ضمير مكسور.

لكن على قراءة (ويتَّقِهْ) سكون الهاء على خلاف الذي نعرف فنقول: سُكِّنَتْ للتخفيف؛ لأنه (ويتقهْ) أخف من (ويتقهِ) فهي مُسَكَّنَةٌ للتخفيف.

وعلى قراءة حفص (ويتقْهِ) كيف سكنت مع أنها مجزومة بحذف حرف العلة؟ نقول: لأن يتقي لا شك أنها فعل ناقص آخره حرف علة فكيف سكنت؟

فالإشكال الآن في تسكين القاف مع أن الفعل معتل آخره ليس حرفًا صحيحًا، والمعتل يجزم بحذف حرف العلة فلماذا سكن؟

نقول: إما أَنَّهُ سُكِّن تخفيفًا، أو سُكِّن على تناسي حرف العلة؛ كأنه نُسِيَ حرف العلة وصار فعلًا صحيحًا والفعل الصحيح يجزم بالسكون.

والتقوى: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه فما الربط بينها وبين الخشية؟

نقول: التقوى نتيجة الخشية؛ لأن من خشي الله اتقاه، والذي يخافه بهيبة وتعظيم وإجلال، لابد أن يتقيه، فالربط بينها وبين الخشية: أنها فرع عنها ونتيجة عنها، فمن خشي الله اتقاه بلا شك.

قد يقول قائل: قلتم: إن التقوى هي: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه أليس ذلك هو الطاعة؟

أقول: في الحقيقة هي الطاعة، ولكن هناك قاعدة وهي: (أن بعض الكلمات تُفَسَّر بمعنى عند الانفراد، وبمعنى آخر عند الاقتران؛ فقد تكون عند الانفراد شاملة لهذا المعنى وقد تكون عند الاجتماع بعضًا منها). وأمثال ذلك كثير، مثلًا: الفقير والمسكين عند الانفراد نجد أن الفقير يشمل

المسكين والمسكين يشمل الفقير، لكن عند الاجتماع يكون الفقير بعضًا من المسكين، والمسكين بعضًا من الفقير بمعنى: أننا نقول: الفقير كذا والمسكين كذا لأجل ألا يحصل الترادف بين الكلمتين فتضيع فائدة العطف.

وكذلك أيضًا هنا الطاعة والتقوى، إذا أفردت الطاعة فهي بمعنى: التقوى، وإذا أفردت التقوى فهي بمعنى: الطاعة، وإذا قرن بينهما جعلت التقوى في ترك النواهي، والطاعة في فعل الأوامر، فتصير إذنْ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره فقط ونقصرها على بعض معناها لاقترانها بالتقوى، والتقوى هنا: اجتناب النواهي فقط، ونقصرها على بعض معناها ولا نقل وفعل الأوامر والسبب اقترانها بالطاعة، ولهذا يقال: (بعض الكلمات إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت)، بمعنى: أنَّها إذا افترقت صارت بمعنى واحد، وإذا اجتمعت اختلف معناها، والذي يوجب لنا أن نُحَوِّل الشيء منها إلى معنى آخر أو إلى بعض المعنى: لئلا يكونا مترادفَيْن، وبذلك -أي بكونهما مترادفَيْن- تضيع فائدة العطف.

على كل حال نقول: الطاعة إذا انفردت صارت: فعل الأوامر وترك النواهي وإذا اجتمعت مع التقوى: حملت على فعل الأوامر، والتقوى على ترك النواهي كما أن التقوى إذا انفردت تكون لفعل الأوامر وترك النواهي.

وهذا المعنى في كلمات كثيرة من اللغة العربية، إذا اجتمعت افترقت وصار كل واحد له معنى لئلا تضيع فائدة العطف، وإذا انفردت اجتمعت وصار معناهما واحدًا.

والترادف المطلق لا يمكن أن يوجد أبدًا؛ لأنه تقارن بلا فائدة لاسيما مع وجود العطف أما مع عدم العطف فربما يكون من باب التأكيد اللفظي.

ولا يجوز وجوده مع وجود العطف؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، فإن المعطوف غير المعطوف عليه.

ويكون الاتفاق في الحكم والتغاير في المعنى؛ لأن الكلمة المعطوفة غير الكلمة المعطوف عليها، لكن الحكم واحد، نقول: قام زيد وعمرو وبكر وخالد، فالحكم على الجميع واحد لكن عمرو وبكر وخالد غير زيد، فتقتضي المغايرة في المعنى، وأصل العطف أن هذا انعطف على ذاك فصار له حكمه، لكن هذا غير هذا، يعني: لا يمكن أن تقول: قام زيد وزيد ويكون زيد الثاني هو الأول، لا يمكن لكن يجوز أن تقول: قام زيد زيد ويكون زيد الثاني هو الأول من باب التأكيد.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأن الجملة اسمية، وإذا كانت الجملة اسمية في جواب الشرط وجب قرنها بالفاء، ولا تسقط الفاء إلا عند الضرورة، مثل قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

ولم يقل: فالله يشكرها.

وقوله: ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فيها ما سبق في ضمير الفصل (الحصر، والتوكيد، والتمييز بين الخبر والصفة) وهذه في كل ضمير فصل.

[﴿الْفَائِزُونَ﴾ بالجنة] يعني: والنجاة من النار أيضًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] واقتصار المؤلف على الجنة فقط؛ لأن من دخل الجنة فقد نجا من النار.

هذه الآية من أجمع الايات؛ لأنها جمعت إجمالًا لأسباب الفوز، وهي هذه الأمور الثلاثة: طاعة الله، وخشيته، وتقواه، فمتى حصلت هذه الأمور لشخص؛ فإنه يفوز، والتفصيل معروف بالكتاب والسنة.

قال الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور:٥٣]

التفسير

[﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غايتها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ قُل﴾ لهم ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ للنبي ﷺ خير من قَسَمِكُمُ الذي لا تصدقون فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾]

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: حلفوا به ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

هذه الآية استوعبت أركان القَسَمَ، كل أركان القسم موجودة؛ لأن القسم غالبًا يُحذف منه بعض أركانه لكن هذه الآية استوعبت الأركان كلها:

(الْمُقسَم به، وحرف القَسَم، وفعل القَسَم، والْمُقسَم عليه). كل أركان القسم موجودة: فعْلُ القسم: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾، وحرف القسم: الباء في ﴿بِاللَّهِ﴾، والمقسم به: ﴿الله﴾، والمقسم عليه: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، هذه الجملة هي جواب القسم وهي المقسوم عليه.

أقسم هؤلاء ﴿لَئِنْ﴾ أمرهم النبي ﷺ يعني: بالجهاد، والدليل أنها بالجهاد قوله: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ لأن الخروج إنما هو في الجهاد، فهم أقسموا هذا القسم أن الرسول لو أمرهم لخرجوا، هذا القسم قسم ونذر؛ لأن القسم إذا تضمن التزامًا من الإنسان لله صار جامعًا بين القسم والنذر.

وعلى هذا لو قال قائل: والله لأصلين ركعتين، وقصده بذلك الالتزام، يصير هذا قسم ونذر، يصير لله عليَّ أن أصلي ركعتين بل أبلغ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة:٧٥]، وأما إن قصد الإنسان بالقسم تحقيق الشيء دون التزامه، فإنه ليس بنذر؛ لأن الفرق

بين الإنسان الذي يلتزم ويرى نفسه ملزمة بهذا الشيء، وبين الإنسان الذي يريد تحقيق الشيء، لكن من غير أن يرى نفسه مُلْزَمًا؛ مثل لو قال: والله لأخرجن إلى السوق، لألبسن الثوب وما أشبه ذلك، هو ما قصده أن يُلزم ولكن قصده أن يحقق أن يفعل بغير أن يكون مُلْزِمًا.

فالقسم إن تضمَّن إلزامًا صار قسمًا ونذرًا، أو نذرًا محكمًا عليه.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ لا حاجة لِأن تُقسموا، وإنما إذا أمرتم فاخرجوا بدون قسم، وليس هناك حاجة للحلف.

وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ المؤلف جعل ـ حسب سياقه ـ: طاعة مبتدأ، ومعروفة: صفة له، وخبرها محذوف والتقدير: خير من قسمكم، ولكن هذا ليس بظاهر بل الظاهر أن طاعة: مبتدأ والخبر محذوف تقديره: عليكم، (عليكم طاعة معروفة)، أو طاعة: خبر والمبتدأ محذوف أي: (طاعتكم طاعة معروفة)، يعني معنى ذلك: أن الإنسان عليه أن يطيع طاعة معروفة.

والطاعة المعروفة من المؤمنين: هي أن يفعل بدون حلف؛ لأن الذي حلف أن يفعل كأنه ما يودّ يفعل، لكنه يلزم نفسه غصبًا، فالطاعة المعروفة: الانقياد بدون قسم، وهذا أولى من تقدير المؤلف، هو أن نقول: عليكم طاعة معروفة، أو طاعتكم طاعة معروفة، يعني: الطاعة المعروفة للمؤمنين، وهي التزام أحكام الشرع بدون قسم.

وقوله: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل].

هذا ليس بصحيح، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملونه، سواء أقسمتم عليه أم لم تقسموا عليه، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ما: اسم موصول يفيد العموم، أي: جميع الأعمال، و﴿خَبِيرٌۢ﴾ بمعنى: عليم إلا إنَّ الفرق بينه وبين العليم: أن الخبير: هو العليم ببواطن الأمور فيكون أدق من العلم المطلق خبرة بالبواطن.

قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عام لكل ما يعمله الإنسان في قلبه أو لسانه أو جوارحه، ما يخفى على الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك شيء.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآيات الكريمة:** بيان صفة انقياد المؤمنين، أنهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما يتلكئون، ولا يترددون.

٢ - **وفيها أيضًا:** ما يترتب على هذا السمع والطاعة من الفلاح؛ الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

٣ - **وفيها أيضًا:** دليل على فائدة الطاعة والخشية والتقوى، وأن هذه الثلاثة فائدتها الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٤ - **وفيها:** دليل على كراهة النذر لقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ وهذا نهي، وقد اختلف أهل العلم

في النذر: هل هو مكروهٌ أو حرام؟ على قولين:

فمن العلماء من يرى: أن النذر مكروه، ومنهم من يرى: أنه محرم، وكان شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ يميل إلى التحريم وهو أقرب.

والقول بالتحريم أقرب من القول بالكراهة؛ لأن الله تعالى نهى عنه في قوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ والأصل في النهي: التحريم، والنبي ﷺ نهى عنه وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»(١) والمعنى يقتضيه أيضًا؛ لأن الإنسان في عافية فكونه يلزم نفسه بأمر لم يلزمه الله به، هذا من تكليف نفسه بما لم يكلف به، ثم ـ أيضًا من المعنى الذي يقتضيه ـ إن كثيرًا من الناس الناذرين يندمون على نذرهم؛ لاسيما إذا كان النذر فيه نوعٌ من المشقة، مثل: حلف إن شَفَى الله مريضه أن يصوم من كل شهر عشرة أيام، وشفى الله مريضه، وأصبح يلزم نفسه الآن يصوم عشرة أيام من كل شهر، إلا لعذر لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»(٢).

وكثير من الناس الناذرين لا يوفون بنذرهم؛ لأنهم يجدونه مشقة فيقول: الحمد لله حصل لنا المطلوب وشفى الله المريض أو نجحت، فلا يُوفِي لله بما وفى الله به، الله يوفي له بما شرط على ربه، وهو ـ والعياذ بالله ـ لا يوفي له ولكن ما النتيجة والعاقبة؟! عظيمة جدًّا ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ ولم يتصدقوا ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ولم يكونوا صالحين، فكانت النتيجة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥ـ٧٧].

وهذه نتيجة ـ والعياذ بالله ـ سيئة، عظيمة جدًّا، أن يجعل الله نفاقًا في قلب هذا الناذر الذي لم يفِ لله تعالى بما عاهد الله عليه؛ لأنه عاهد الله على هذا.

وأما من نذر معصية فلا يجوز الوفاء بها؛ لأنه «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»، فنفسك وإن ألزمتك بفعلها فلا تطعها، كما لا تطع أميرك إذا ألزمك بأمر فيه معصية الله، كذلك أيضًا لا تطع نفسك إذا ألزمتك بأمر فيه معصية الله.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ» ومع ذلك فعلى الناذر كفارة يمين؛ فالناذر ما يخلو في الحقيقة من بلاء يلزم به نفسه، أقله كفارة يمين، حتى لو قال الإنسان مثلًا: لله علي نذر فقط هذه الكلمة، ولم يقل شيئًا وجب عليه كفارة يمين، وبهذا نعرف خطورة النذر.

وأما ما يتوهم بعض الناس من أن النذر يحصل به المطلوب، فإن الرسول ﷺ نفى هذا الوهم بقوله: «فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»، مريضك قد قدر الله أن يُشفى قبل أن تنذر، وليس نذرك سببًا للشفاء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦).

بالتأكيد، فالله - عز وجل - أكرم الأكرمين ليس يتوقف كرمه على شيء يَشِيع الإنسان أنه اشترط يقول: أنا أنذر لك لكي تشفي مريضي، لا، إذا أنعم الله عليك النعمة فاشكره عليها، بما جاءت به الشريعة وأما أنك تقول: إن الله لا يعطيني ويشفي هذا المريض إلا إذا اشترط، فهذا أنذر له حتى يشفيه، ثم تأتي البلوى فيحصل الأمر عنده لا به، وهذا من الابتلاء.

لذلك يجب عليكم أن تحذروا من النذر، وأن توعوا الناس أنه ليس سببًا للخير، والنبي ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى في هذه الأمور أخبر: «بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ» وكم من طالب نَذَرَ إن نجَّحه الله أن يصوم ثلاثة أيام ويُنجِّحه الله ولا يصوم، وهم ثلاثة أيام فقط ليسوا عشرًا؛ لأن النفس الضعيفة الإيمان ما يهمه أن يخالف، يقول: حصل مقصودي ولا يهمه، على كل حال: هذا النذر يُستدل على تحريمه بقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾.

٥ - **وفيها**: وجوب تقييد الطاعة بالمعروف، أن تكون الطاعة بالمعروف، والمعروف هو المعروف من الشرع وليس المعروف بين الناس؛ لأن الناس قد يعرفون شيئًا يظنونه طاعة وليس بطاعة.

٦ - **وفيها**: أنَّهُ لا تجوز الزيادة على الشرع في الطاعة، ولا النقص لقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ بدون غلوّ ولا تقصير.

٧ - **وفيها أيضًا**: إحاطة علم الله بكل شيء، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكل ما تعملونه حاضرًا ومستقبلًا.

والفائدة من ذكر علم الله بما نعلم، ليس مجرد أن يخبرنا أنه يعلم، لكن الفائدة من ذلك الترغيب والترهيب إلا إذا اقتضى السياق واحدًا فقط، وإلا فكونك تعلم أن الله يعلم كل ما تعمل يعني: ينشطك على العبادة.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤]

❁ التفسير ❁

قوله: [﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من طاعته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ المبين].

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقد سبق أن الطاعة: هي موافقة الأمر بفعل الأوامر واجتناب النواهي ـ هذه الطاعة ـ وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بإعادة العامل يدل على أن طاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة، وأن ما جاء به فإنما جاء به عن الله؛ ولهذا قال العلماء: إن ما وجب بسنة رسول الله ﷺ كالذي وجب بالقرآن من أمر أو نهي، وهذا واضح؛ لأنه جعل طاعة النبي ﷺ طاعة مستقلة حيث قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ (أل) للعهد وهو عهد ذهني يعني: الرسول المعهود بينكم وهو محمد ﷺ وهذه ليست كقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦]؛ لأن هذا عهد ذكري أرسلنا إلى فرعون رسولًا ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، أما هذه فهي للعهد الذهني أي: الرسول المعهود بينكم الذي تعرفونه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل.

[﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعته بحذف إحدى التاءين خطاب لهم].

معنى ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: تُعرِضوا هذا في معنى التولي، لكن من حيث اللفظ أصلها (تتولوا)، فإن تتولوا خطاب للناس، فإن تتولوا أيها الناس ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، لكن حذفت منها إحدى التاءين.

وقد اختلف النحويون هل المحذوف تاء المضارعة أو المحذوف تاء الفعل؟ منهم من قال: تاء الفعل؛ لأن تاء المضارعة جيء بها لمعنى فلا ينبغي حذفها، ومنهم من قال: تاء المضارعة؛ لأن تاء الفعل أصلية، وأما تاء المضارعة فهي زائدة فهي أولى بالحذف من الحرف الأصلي، وعلى كل حال، الخلاف في هذا لفظي ما يترتب عليه أمر معنوي، لكن المراد تتولوا.

نظير ذلك في حذف إحدى التاءين قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] ﴿تَلَظَّىٰ﴾ بمعنى: (تتلظى) وليست تلظى فعل ماضٍ وإلا لقال: تلظَّت، لكنها فعل مضارع حذفت منه إحدى التاءين.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ والبيان والدعوة، فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلَّغ بلاغًا مبينًا، ودعا الناس أيضًا ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، فالواجب على النبي ﷺ أمران، والمؤلف اقتصر على أحدهما. الواجب عليه: التبليغ، والدعوة، وقد بلَّغ ودعا ﷺ، بلَّغ الناس ودعاهم إلى الله، وقام بما يجب عليه.

وقوله: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ما هو الذي حملناه؟ حملنا طاعته واتباعه، وعلى هذا فإن أخلَّ هو بما عليه صار مستحقًا لما يترتب على ذلك، وإن أخللتم أنتم بما يجب عليكم صرتم مستحقين لجزاء ذلك، والنبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين فقام بما حُمِّل، لكن الذين أعرضوا لم يقوموا بما حُمِّلوا، وفي

هذا دليل على أن الرسول ﷺ ليس ملزمًا بهدايتهم، وهذه كثير في القرآن: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠].

فهو ليس ملزمًا؛ بل إن الله نهاه أن يكون في صدره حرج وضيق وحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] وهكذا أيضًا من وَرِثُوا النبي ﷺ وهم العلماء، فإنما عليهم البلاغ والدعوة، أما هداية الخلق فهي إلى خالقهم - تبارك وتعالى - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

قال الله تعالى مرغبًا في طاعته: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ تطيعوا الرسول ﷺ تهتدوا، وفي هذا إشارة إلى ما سبق من أن ما جاءت به السنة فهو حكم مستقل، يجب أن يطاع ويتبع كما جاء في القرآن، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ والهداية مطلوبة، فإذا أمر النبي ﷺ بأمر فلا يجوز لنا أن نقول: هل لهذا أصل في القرآن أو لا؟ إن كان له أصل قبلناه، وإن لم يكن له أصل لم نقبله؛ لأن هذا حرام وهو كفر بالقرآن نفسه؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ فدل هذا على أن كل ما جاء به فهو حق وهداية وليس فيه باطل وضلالة.

ثم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ هذا الحصر حقيقي أم إضافي؟

إذا قيل: إنه حصر حقيقي معناه: أن ما سواه مُنتفٍ، فهل يمكن أن نقول هنا: إن الرسول ما عليه إلا أن يبلغ الناس، وأما أن يفعل الطاعات هو بنفسه فليس عليه منها شيء؟! يعتبر هذا الحصر إضافي يعني: بالنسبة لما يجب عليه نحوكم، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ بالنسبة إليكم ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أما أن يهديكم ويرغمكم على الحق فهذا ليس عليه كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وتفسير هذا الحصر بالنسبة لما يجب عليه نحو أمته، فإنه لا يجب عليه إلا البلاغ المبين، لكن الحصر الحقيقي: هو الذي يكون بالنسبة للعموم، ومعنى قولنا: (إضافي): أنه بالإضافة إلى كذا، كما لو قلت مثلًا: لا جواد إلا فلان، وهذا حصر مع أن الأجواد سواه كثيرون، لكن لا جواد إلا فلان يعني: بالنسبة إلى قبيلته مثلًا، أو بالإضافة إلى بلده أو ما أشبه ذلك.

إذنْ الحصر يكون إضافيًّا، هو حقيقي من حيث المعنى لكنه بالإضافة إلى كذا، فإذا كان الحصر بمعنى بالإضافة إلى كذا فهو: إضافي، وإذا صار الحصر بالإضافة إلى الكل فهو: حقيقي.

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بمعنى: التبليغ وأصل ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: الوصول إلى غاية، يقال: بَلَغَ كذا بمعنى: وصل، فالمبلغ مُوصِلٌ إلى غاية، وهي: الهداية التي أراد الله تعالى من عباده أن يكونوا عليها.

وقول المؤلف: [المبين بمعنى: البيِّن] فيه نظر؛ لأنه سبق أن المبين تصح بمعنى: البيِّن وتصح بمعنى: المُبِينُ لغيره يعني: الموضح لغيره، وهذا على حسب السياق، فهنا ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بمعنى: المبين يعني: الذي أظهر وأوضح ما دعا إليه وبلَّغه، فهنا ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ بمعنى: المُظْهِر وليست بمعنى البيِّن كما قال.

وأيهما أبلغ: المبين بمعنى المظْهِر أو المبين بمعنى البيِّن؟

الجواب: بمعنى المظهر؛ لأن المبين بمعنى المظهر بيِّن بنفسه مبين لغيره، والبيِّن فقط بيِّن بنفسه قد يُبِين غيره وقد لا يبيِّنه.

❀ قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

❀ التفسير ❀

قوله: [﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلًا عن الكفار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بالبناء للفاعل والمفعول ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسرائيل بدلًا عن الجبابرة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ويوسع لهم في البلاد فيملكوها ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الكفار ﴿أَمْنًا﴾ وقد أنجز الله ما وعده لهم بما ذكر وأثنى عليهم].

قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الوعد معروف، الوعد معناه: أن يُمنِّي شخصًا بما يحب، وأما الوعيد: فأن يُحذِّره مما يكره، ففرق بين الوعد والوعيد، الوعد لما يُرجى من المحبوب، والوعيد لما يُخشى من المكروه، وقد قال الشاعر:

وإنِّي وَإِنْ أَوعَدْتُه أَو وَعَدْتُه لمُخلِفُ إِيْعَادِي وَمُنْجِزُ مَوعِدِي

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ أي: أنه - سبحانه وتعالى - التزم لهم بما يحبونه مما يأتي وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان محله القلب والعمل الصالح محله الجوارح، والإيمان وحده لا يكفي والعمل وحده لا يكفي ولا يكون صالحًا إلا

بالإيمان، لكن ولو كان ظاهره صورة الصلاح إذا لم يكن مبنيًّا على إيمان فإنه ليس بصالح، فالذين جمعوا بين الأمرين الإيمان والعمل الصالح لهم هذا الوعد ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد.

ومعنى يستخلفنهم أي: يجعلهم خلفاء لغيرهم، يخلفون غيرهم في الأرض، وكلمة الأرض المراد بها: الجنس ليست أرضًا واحدة معينة، بل أرض عامة، كل الأرض، في الأرض كلها وذلك؛ لأن الأرض أرض الله ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ معروف من يشاء من يورثهم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وعلى هذا فمثلًا: أرض العرب ليست للعرب، وأرض الفرس ليست للفرس، وأرض الروم ليست للروم، الأرض لله يورثها من يشاء وهم العباد الصالحون، يورثها للعباد الصالحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فمن كفر بالله وعَتَى عن طاعته فلا حَقَّ له في الأرض، فالحق لغيره، يورثها الله تعالى من يشاء من العباد الصالحين.

وعلى هذا فإذا قال بنو إسرائيل: أرض الشام لنا؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١] فالله كتبها لنا، إذا قال بنو إسرائيل هكذا، نقول: نعم إن موسى قال هكذا؛ لأنكم في ذلك الوقت كنتم أهل الصلاح، وكنتم عباد الله الصالحون، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، فهي لكم في ذلك الوقت بلا شك، لكن لما جاء الإسلام وكفرتم به صرتم لستم أهلًا لها، وصار أهلها هم الصالحون وهم المؤمنون بمحمد ﷺ المتبعون له.

قبل ذلك أيضًا احتلها من بعد اليهود النصارى ـ الروم ـ؛ لأنهم كانوا هم الصالحون بعد اليهود، ثم احتلها من بعد الروم المسلمون؛ لأنهم هم عباد الله الصالحين، فكانت الأرض ـ أرض الشام ـ كتبت للصالحين ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وَرِثَهَا بنو إسرائيل من الجبارين؛ لأنهم كانوا على الحق ـ يعني: اليهود ـ ثم ورثها النصارى من اليهود؛ لأنهم أهل الحق، ثم ورثها المسلمون من النصارى؛ لأنهم أهل الحق، وعلى هذا فاليهود الآن لا حقَّ لهم في فلسطين، ولا غيرها من أرض الله، ما لهم حق في الأرض أبدًا لا هم ولا أي كافر؛ لأن الأرض إنما يستحقها عباد الله الصالحون، لكن إن صلح المسلمون ورجعوا إلى دينهم الحقيقي الذي يورثهم الله به أرضهم فإننا نجزم جزمًا، بأنهم سوف يسترجعون الأرض ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

فنحن نجزم أن المسلمين الآن لو رجعوا حقيقة إلى دين الله بالإيمان والعمل الصالح فسوف

يطردون اليهود من الأرض، بل سوف يطردون الأمريكان من أماكنهم، والروس من أماكنهم، نجزم بهذا جزمًا، أما ما داموا على هذا الوصف - أعني المسلمين - فإنه حسب القواعد الشرعية والنصوص لا يستحقون النصر؛ لأنهم ما قاموا بجهاد أنفسهم فضلًا عن أن يقوموا بجهاد غيرهم ليدخلوه في الإسلام.

نقول الآن: أقيموا الإسلام فيما بينكم، أقيموا دين الله فيما بينكم، ثم بعد ذلك سوف ينصر الله دينه إذا قمتم به؛ لأن الله ما ينصر فلانًا؛ لأنه فلان أو ينصر هؤلاء الطائفة لأنهم عرب، أو ينصر هؤلاء الطائفة؛ لأنهم فرس، لا، ينصر من قام بهذا الدين.

صلاح الدين الأيوبي أصله غير عربي ومع ذلك نصره الله على النصارى؛ لأنه قام بدين الله، الدين نفسه هو الذي ينتصر، هو الذي سيشق عن نفسه، إن حُمِل فهو سلاح، وإن لم يُحمل ما بقي للإنسان سلاح يستطيع أن يحكم بالنصر بما في يده من سلاح أبدًا، يبقى إذا لم يكن سلاح الإسلام في يد الإنسان يبقى هناك السلاح المادي، أيُّنا أقوى مادة؟ ومعلوم أن المسلمين أضعف الأمم مادة في الوقت الحاضر؛ لأنهم أمم متفرقة ومتناحرة والعداوات بينهم كثيرة، والبغضاء بينهم كثير، هذا يدعو إلى كذا، وهذا يدعو إلى كذا، وهذا له منهج خاص كلهم متفرقون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩] وهذا الأمر منطبق تمامًا على المسلمين في الوقت الحاضر، فلا اجتماع على الإسلام، ولا دين قَيِّم يقام للمسلمين، قد يوجد في شرذمة قليلة، إلا أنها لا تُمثل المسلمين، يوجد فيها شيء من الصلاح من الإيمان والعمل الصالح لكن على ضعف أيضًا.

فالحاصل أن هذا الوعد الذي وعده الله حق لكن للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهؤلاء هم عباد الله الصالحون الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

فإذا قال الذين يجاهدون اليهود الآن: نحن سنطرد اليهود، ونقيم على هذه البلاد المقدسة التي احتلوها برجسهم، نقيم عليها دولة إسلامية، تقود الناس بدين الله، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم مثلوا ذلك بأنفسهم قبل أن يفتحوا هذه البلاد، حينئذٍ نتيقن لهم بالنصر وفيما عدا ذلك فالنصر غير مضمون، بل قد يكون بالعكس الهزيمة هي المضمونة؛ لأن من قام بشيء وجاهد به وهو على خلافه، فإن ذلك نوع من خداع الله - عز وجل - ومن يخادع الله يخدعه.

وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قلنا: الأرض المراد بها: الجنس يعني: ليست أرضًا معينة كأرض مكة يستخلف الله فيها المهاجرين بدلًا عن المشركين، بل كل الأرض.

وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ هذا في الحقيقة مثل قوله: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] يعني: ذُكِرَ من باب التوكيد وطمأنينة الموعود

بما وُعِدَ به، يعني: كأنه قال: انظروا إلى هذا الوعد الذي وعدكم الله فقد تحقق فيمن قبلكم.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قول المؤلف: [من بني إسرائيل بدلًا عن الجبابرة]. صحيح ومن بني إسرائيل أيضًا بدلًا عن الفراعنة، فإن الله يقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩]. يقول أيضًا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل في ذلك الوقت ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]. وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان:٢٥] يعني: فرعون ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان:٢٦] هذه الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي هو جنة الدنيا تركوه لمن؟ لبني إسرائيل أورثهم الله تعالى.

كذلك المسلمون: قال الله تعالى في اليهود الذين قُضِيَ عليهم بالقضاء على بني قريظة وبالتالي بفتح خيبر قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧] يعني: ما وطأت عليها رجلكم أبدًا أورثكم الله إياها، وهذا وعد حق، وفي التاريخ أن المسلمين حينما كانوا يمثلون الإسلام حقيقة ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، ودانت لهم الأمم إدانة كاملة.

وفي الحقيقة أنهم فتحوا تلك البلدان قبل كل شيء بالدين والأخلاق، فإن من سَبَرَ أحوال المسلمين دخل في الإسلام دون أي قتال، ولكن مع ذلك استعانوا بالسلاح لئلا يقف أحد في وجه دعوتهم، فاستعمال السلاح في الإسلام ما هو إلا مدافعة عن الإسلام فقط، لا إرغامًا للناس أن يدخلوا بالسيف؛ لأن الله يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٦٥] ويقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: صد عن سبيل الله، وعن الدعوة الإسلامية ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فعلى كل حال نقول: إن من سَبَرَ أحوال التاريخ فيما قبل هذه الأمة وفي هذه الأمة عرف تصديق هذا الوعد، وأنه وعد تحقق ونجز، وأنه إنما تخلف فيما تخلف بسبب النقص عندنا إما في الإيمان وإما في العمل الصالح.

فتخلف النصر في أُحد لترك العمل الصالح، وهو الامتثال حيث قال الرسول ﷺ: «**لَا تَبْرَحُوا عَنْ مَكَانِكُمْ سَوَاءٌ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ أَوْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا**»(١) ولكنهم برحوا، وتخلف النصر في غزوة حنين لنقص الإيمان - وهو الاعتماد على الله - عز وجل - بل اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة فغلبوا من قلة، فهذا دليل على أنه متى تخلف أحد الوصفين: الإيمان أو العمل الصالح فإنه يتخلف من ذلك الوعد بقدر ما تخلف من هذين الوصفين.

والأمر الثاني مما وعد الله به المؤمنين: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهذا هو قرة أعينهم، قرة عين المؤمنين أن الله يمكّن ﴿دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ ويكون الإسلام هو المتمكن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٣٩)، وأبو داود (٢٦٦٢).

وهو الظاهر وهو الغالب هذه قرة عيون المؤمنين، وهي إن لم تكن مثل الأولى فهي أولى منها بالنسبة للمؤمن حقًّا الذي يريد الإيمان والإسلام.

لو سُئِل ماذا يتمنى؟ ما يقول: أتمنى أن يكون لي سيارة فخمة وقصر مشيد وما أشبه ذلك وإنما يقول: أتمنى أن أجد الإسلام هو العالي وهو المتمكن في الأرض، هذه أمنيته، وهذه أمنية عليا لكل مؤمن.

وفي قوله: ﴿دِينَهُمُ﴾ الإضافة إليهم فيها نوع من التخصيص ونوع من الفخر والإعزاز، الدين الذي اختاروه؛ لأنفسهم وصار خاصًّا بهم.

ثم في قوله: ﴿الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يصير فيه أيضًا ميزة أخرى، بأن هذا الدين الذي اختاروه هو الدين الذي ارتضاه الله لهم - أيضًا - فصار هذا الدين فيه ميزة وغبطة للمؤمنين من ناحيتين:

أولًا: أنه هو الذي اختاروه وسلكوه؛ لأنفسهم.

الثاني: أن الله ارتضاه لهم - أيضًا - ليدينوا لله به.

فيكون فيه مَزِيَّتَانِ: مزية من جهةِ السَّالِكِ ومزية من جهة الشارع، السالك: هم ﴿دِينَهُمُ﴾، والشارع: ﴿الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهم رضوا هذا الدين، وربهم رَضِيَهُ لهم، فكان هذا الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، ورضيه الله لهم أعز شيء عليهم أن يمكن الله لهم هذا الدين، وهذه نتيجة ثانية للإيمان والعمل الصالح، الأول: الاستخلاف في الأرض، والثاني: أن يمكن الله لهم الدين ويثبتهم ويقويهم ويجعله الأعلى على غيره.

وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ يقول: فيها [قراءتان التخفيف (يُبْدِلَنَّهم) والتشديد (يُبَدِّلَنَّهم)]، وهما بمعنى واحد أو مع اختلاف يسير.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ قال: ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ولم يقل: (بخوفهم أمنًا) لتحقق الخوف الأول، ثم يأتي من بعده الأمن، وظهور نعمة الأمن وفائدته بعد الخوف أبلغ من ظهور أمن على أمن؛ لأنه لا تُعرف قيمة الأشياء إلا بضدها، فإذا قُدِّر أن هذا الإنسان في خوف، ثم أُبدِل بعد الخوف أمنًا، ظهر لهذا الأمن من الأثر في نفسه ما هو أبلغ مما لو كان أمنًا على أمن.

ولذلك الآن هؤلاء الشباب من بنينا الذين عاشوا في هذا الظل الوارف والنعيم الوافر من الإطعام من الجوع، والأمن من الخوف هل يقدرون نعمة هذا الأمن؟ أبدًا ما يقدرونها وكأنه أمر عادي لا يمكن أن يتبدل، وكذلك لا يقدرون نعمة الشِّبَع، ما كأنه إلا أمر عادي خلقوا عليه ولن يتبدل، لكن من ذاق ألم الجوع ورهبة الخوف ممن سبقونا، ثم أدركوا هذا النعيم، يعرفون قدر هذا النعيم، الذين كانوا يبيتون لياليَ لا يشبعون إلا من ورق الشجر إن تيسَّر لهم، ولا يأكلون اللحم إلا من خفاف الإبل المشوية - إن تيسرت - هؤلاء هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة التي أصبحت اللحوم تلقى على المزابل من عدم الآكلين لها.

فعلى كل حال قصدي: أن الأمن بعد الخوف أشد ظهورًا منه من الأمن على الأمن، هذا لا يظهر في الحقيقة، استمرار الأمن بين قوم لم يذوقوا رهبة الخوف، هذا قد لا يُشعَر به، لكن حقيقة الأمر أن ظهور نعمة الأمن إنما يكون إذا جاء من بعد الخوف، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذه الآية أولًا: أنهم قد ذاقوا رهبة الخوف؛ لأنهم كانوا خائفين من أعدائهم الكفار بما ذاقوه من الأذى الشديد القولي والفعلي، حتى النبي ﷺ ما خرج من مكة إلا خائفًا مُتخفيًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى أظهره الله ـ عز وجل ـ ودخل فاتحًا منصورًا مؤزَّرًا، فإذا تصور الإنسان إبدال الخوف بالأمن يجد أن للخوف أثرًا كبيرًا في نفسه.

ثم قال المؤلف: [﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ وقد أنجز الله وعده] نعم أنجز الله وعده حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام قال ـ وهو على باب الكعبة عام الفتح معلنًا للتوحيد الذي قد كان يُحارَب في مثل ذلك المكان ـ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»(1) وقد تحقق ـ ولله الحمد ـ فكانت الأصنام في جوف الكعبة، وحول الكعبة، وهذا ينافي تمامًا شهادة أن لا إله إلا الله، وقد كان المسلمون منهم من لا يُمكَّن من الطواف بالبيت أو الصلاة حوله، وإذا صلى حوله سُخِر به وأوذي، حتى إمامهم محمد ﷺ كان ساجدًا وكان حوله أبو جهل ومن معه من شرار قريش فقالوا: ألا رجل ينتدب بسلا جزور بني فلان فيلقيه على محمد ﷺ وهو ساجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به ووضعه على النبي ﷺ وهو ساجد، فجعلوا يضحكون ويهزؤون به حتى إن بعضهم يسقط من الضحك والسخرية، حتى جاءت فاطمة ابنته وكانت صغيرة لا يجرؤون على أن يمنعوها، فأخذت هذا من على ظهر أبيها ﷺ.

فأقول: هذا البيت الذي كان حال المسلمون فيه على هذا الوصف بعد مدة وجيزة ـ ولله الحمد ـ وقف النبي ﷺ على عتبة الباب حَكَمًا في قريش، الذي هم فعلوا به ما فعلوا، وقال لهم: «مَاذَا تَرَونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، وفي هذا المقام الذي يستطيع أن ينتقم كما يريد ﷺ قال لهم: «أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [يوسف:٩٢] اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(2).

فأيُّ تمكين أقوى من هذا التمكين! وعزٍّ أعلى من هذا العز! فصدق الله وعده ـ تبارك وتعالى ـ في مدة وجيزة ـ ولله الحمد ـ وإلا فمن ذا الذي يفكر أنه في خلال ثمان سنوات، وخروج النبي ﷺ على الوصف الذي تعرفون، ثم يرجع فاتحًا منصورًا مؤزرًا.

يقول المؤلف: [وقد أنجز الله وعده لهم بما ذكره وأثنى عليهم بقوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(2) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

بِي شَيْئًا﴾] المؤلف يرى أن هذه الجملة استئنافية للثناء عليهم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية ليس الغرض منها: الثناء بل الغرض منها: استمرار الصفة من الإيمان والعمل الصالح، يعني: أن هذا التمكين وهذا الاستخلاف وهذا التبديل بالأمن بعد الخوف هذا متى يكون؟ إذا استمروا على عبادة الله - تعالى - من غير إشراك به، فتكون الجملة هذه حالية أو استئنافية، والغرض منها: بيان أن هذا الوصف الحاصل أو هذا الوعد الذي وعد الله به حاصل ما استمروا على عبادة الله وعدم الإشراك به.

خذ هذه الصفة وهي إخلاص التوحيد لله والبقاء عليه الذي هو شرط للتمكين مع قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤٠-٤١] هذه أربع صفات مع هذه الصفة وهي: العبادة بدون إشراك تكون أسباب النصر الذي وعد الله به تكون خمسة، عبادة الله بدون إشراك الذي أعلاه التوحيد، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذه هي أسباب النصر الحقيقية التي بها ينصر الله عباده، ما عدا ذلك فليس بسبب من أسباب النصر، ويُلاحظ أن إعداد القوة داخل في ضمن هذه الأشياء؛ لأنه من جملة عبادة الله حيث أمر الله به، وكل ما أمر الله به فهو من العبادات.

أما رجل يقول: أنا أتمنى النصر لكن لا يقيم الصلاة من أين يأتيه النصر؟ يقول: يتمنى النصر لكنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، لابد من أمر بمعروف ونهي عن منكر، ثم ثقوا أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر لَزِمَ ولابد التفرق بينهم، أقول: إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر فإنه يلزم لزومًا حتميًّا مؤكدًا أن يتفرقوا؛ لأنه هل مشرب الناس واحد وهدفهم واحد؟ لا، هذا أمر بالضرورة فإذا لم يُقَم هذا الذي شَذَّ عن الإسلام، إذا لم نقمه، صار مفارقًا لنا نسلك غير ما نسلك ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥].

فدل هذا على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون التفرق، وهو أمر واضح طبيعي.

قوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾: نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء مما يُشرَكُ به وليس الشرك خاصًّا بعبادة الوثن بأن يركع الإنسان ويسجد لشجرة أو حجر أو قبر أو شمس أو قمر، وإنما الشرك أعم من ذلك كله، حتى إنه إذا أُطيع الإنسان في معصية الله يكون ذلك شركًا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

قال عَدِيُّ بن حاتم: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم! قال ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحَلِّلُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ» قال: نعم، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١).

مسألة: الرجل يفضل الدنيا ويقدمها على الآخرة هل هو مشرك أم لا؟

الجواب: نعم، مشرك لقول النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»(٢)؛ لأن أصل العبادة مأخوذة من الذل، ومنه قولهم: طريق معبَّد يعني: مذلَّلًا لسالكيه يمشون عليه، فكون الإنسان يذل للدرهم والدينار حتى يُقدِّمَه على طاعة الله، هذا نوع من الشرك سماه النبي ﷺ عابدًا له.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ليست بالكلمة الهينة إذا كنا نتصور معناها كما جاء بالكتاب والسنة، أما إذا ضيقنا معناها وقلنا: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي: لا يعبدون شجرًا ولا حجرًا صارت ضيقة ولا معنى للعموم فيها، إذنْ عبادة الله حقًّا لا تكون إلا بانتفاء الشرك مطلقًا بحيث لا يُشْرِكُ بالله أحدًا، ليس في نفس العبادة فقط بل في نفس العبادة والإرادة وغير ذلك، فإذا تحقق هذا الأمر فقد تحقق الإخلاص.

وبعض السلف كان يقول: ما جاهدتُ نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص. وهذا حقيقة؛ فالإخلاص وأن لا يشرك الإنسان بالله شيئًا لا في العبادة التي لله وحده، ولا في الإرادة، هذا أمر يصعب جدًّا على الإنسان أن يحققه، ولكن بعون الله سبحانه وتعالى والاستعانة به يحصل المقصود.

ثم قال: [﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هو مستأنف في حكم التعليل].

الغريب أن المؤلف جعله بالأول ثناءً عليهم، ثم جعله تعليلًا، وفي الحقيقة أنه لا شك أنه تعليل كما قررناه، لكنه متضمن للثناء؛ لأنه من عَبَدَ اللهَ، لا يشرك به شيئًا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن في هذه الآية حثٌّ وترغيب على الإيمان والعمل الصالح.

٢- **ومن فوائدها:** أن فيها وعد لمن اتصفوا بهذين الوصفين أن يستخلفهم الله تعالى في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، يعني: ويجعلهم خلفاء لأهلها في إرثها من بعدهم.

٣- **وفيها أيضًا:** دليل على حسن التعليل، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكر الشواهد على وعده بالأمور الواقعة، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن الله أراد بهذا المثال تطمين هؤلاء الموجودين بذكر الأمر واقعًا فيمن قبلهم، فيكون في ذلك زيادة تشجيع لهم.

٤ - **وفيه أيضًا:** دليل على أن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، وهو الذي يستخلف فيها الناس بدل غيرهم، وليس للناس في هذه الأرض ملك، وإنما الملك في الأرض لله يؤتيه من يشاء.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

٥ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الإيمان والعمل الصالح سبب لتمكين الدين في الأرض، وأن المخالفة سبب لنزع الدين من الأرض، لقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، ويؤخذ منه أنهم لو فسقوا ولم يؤمنوا ولم يعملوا صالحًا ما مُكّن لهم الدين الذي هو لهم، والذي ارتضاه الله لهم.

٦- **وفيها أيضًا:** تحذير بالغ ـ وهذه الفائدة متفرعة على ما قبلها ـ من المخالفة والفسوق، وأن ذلك سبب لنزع الدين منهم، وهذا هو المطرد في سنن الله سبحانه وتعالى، فإن النعم إذا لم تُشكر زالت، وأكبر نعمة ينعم الله بها على عباده هي نعمة الدين، فإذا لم تُشكر فإنها تزول كغيرها من النعم.

٧ - **وفيها أيضًا:** دليل على كمال الدين الإسلامي، حيث قال: ﴿الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فهو الدين الذي ارتضاه لعباده وهو أكمل الأديان على الإطلاق، ولذلك ختمت به الرسالات.

٨ - **من فوائدها:** أن الإيمان والعمل الصالح سبب لاستمرار الأمن ـ إذا كان هناك أمن سابق فهو يستمر ـ، ولزوال الخوف ـ إذا كان هناك خوف فإنه يزول ـ، لقوله: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

٩ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الأمور الهامة ينبغي تأكيدها بأنواع المؤكدات، فإن هذا الوعد من الأمور الهامة لما يترتب عليه من مصالح ومنافع في الدنيا والآخرة، ولهذا أكده الله تعالى بالقسم، واللام، والنون، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾، وأكده أيضًا بمؤكد معنوي ـ ليس بأداة لفظية ـ وهو قوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن المراد بهذا التشبيه ـ كما أسلفنا ـ تأكيد هذا الوعد بذكر شواهده، فيكون ذلك أيضًا تأكيد معنوي على تأكيد لفظي بذكر ما يقوي القلب ويثبته.

١٠ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الإيمان والعمل الصالح هو عبادة الله، لقوله: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾، وعليه فيكون تحقيق التوحيد من أسباب هذا الوعد الذي وعد الله به.

١١ - **ومن فوائدها:** التهديد للكافرين لقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فإن هذا تهديد لمن كفر بعد هذا الوعد أو بعد هذا الواقع، سواء وقع له ما ذُكر من الاستخلاف في الأرض، والأمن، أو لم يقع له ولكنه وُعد به، فإن كفره بعد ذلك يجعله فاسقًا.

١٢- **وفيها أيضًا:** دليل على عظم هذا الفسق الذي يحصل بعد هذا الوعد أو بعد هذا الواقع، ووجه عظمه حصر الفسق في هذا ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فليس المعنى أنه لا يوجد فاسقون غيرهم، ولكن لعظم فسقهم حصر الفسق فيهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: افعلوها قيِّمة، على الوجه الذي شرع الله ورسوله، هذا معنى إقامة الصلاة، وإقامة الشيء يعني: تعديله، وجعله قويًا، وضد ذلك: تعويجه بالإفساد والنقص، فمعنى إذن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: افعلوها كاملةً.

والصلاة يعم الفرض والنفل؛ ولذلك إذا دخل الإنسان في نفل وجب عليه أن يأتي به كما شرع، فلو أراد الإنسان أن يتنفل بنافلة ـ صلاة نفل ـ ويترك مثلًا التسبيح أو يترك التكبير أو يترك التشهد، ويقول مثلًا: إنه نفل نقول له: هو نفل قبل أن تدخل فيه، فإذا دخلت صار الإتيان به على الوجه المشروع أمرًا مفروضًا، فلو قال: أصلي نفلًا وأسجد قبل أن أركع، أو أصلي وأسجد مرة واحدة أليس ذلك نفلًا؟! نقول له: هذا لا يجوز؛ لأنه إذا كان نفلًا فإن إقامته على الوجه المشروع واجبة.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها، أعطوها لُمستحقِّها وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستحقين للزكاة بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الطاعة: موافقة الأمر فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ هذا من باب عطف العام على الخاص؛ فإن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من طاعة الرسول، لكن هذا من باب التنويه بفضل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقوله: ﴿الرَّسُولَ﴾ (أل): للعهد الذهني، يعني: الرسول الذي هو معروف لديكم، وهو محمد ﷺ.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول: [أي: رجاء الرحمة].

وهذا يدل على أن المؤلف جعل لعل للرجاء، لكن باعتبار الفاعل لا باعتبار المتكلم، يعني: أنكم تفعلون ذلك لأجل أن ترحموا راجين بذلك الرحمة، فيكون هنا لعل للترجي لكن باعتبار الفاعل الذي هو المخاطب، لا باعتبار المتكلم، فإن المتكلم وهو الله ـ عز وجل ـ لا يعجزه شيء حتى يترجاه، ويجوز أن نجعل لعل للتعليل، وتكون باعتبار المتكلم، يعني: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول؛ لأن ذلك سبب لرحمتكم، وهذا أقرب، فإن لعل في كلام الله بل في كلام كل مخاطِب تحمل على ما يريد المتكلم لا على ما يريده المخاطَب، وعلى هذا فنقول: لعل للتعليل ويكون فيه دليل على أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول سبب لرحمة الله.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ من قِبَلِ من؟ من قِبَلِ الله ـ عز وجل ـ.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول، ونأخذ الوجوب من الأمر؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢ - **وفيها:** فضيلة الزكاة، حيث قُرِنَت بالصلاة، وهي مقرونة بالصلاة في مواضع كثيرة من القرآن، وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أن الزكاة عبادة مالية محضة، والصلاة عبادة بدنية محضة، وكلاهما من جنس، ولذلك حث الله عليهما جميعًا.

٣ - **وفيها:** أن ما ثبت في السن كالذي ثبت في القرآن، لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وهذا شامل لما قاله النبي ﷺ ابتداءً ولما قاله تفسيرًا للقرآن، فيكون فيه دليل على وجوب العمل بالسنة كما يجب العمل بالقرآن.

والأدلة في ذلك كثيرة جدًّا ولكن ينبغي التركيز عليها؛ لأنه ظهر في وقتنا من الزنادقة من يقولون: إنه لا يجب العمل بما في السنة بل من صادروا كتب السنة كصحيح البخاري ومسلم، صادروها وحجبوها عن الأسواق؛ لأنهم يرون أن السنة لا يجب العمل بها، بل على مقتضى عملهم هذا أن السنة ضلال؛ لأنها لا تُصادَر الكتب وتُحجَب عن الناس إلا إذا كانت سببًا لفسادهم وضلالهم.

٤ - **ويستفاد منها:** إثبات الأسباب، وأن الأسباب مُوجِبَة بذاتها، وتؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حيث جعل هذه الأشياء الثلاثة: إقامة الصلاة، وأيتاء الزكاة، وطاعة الرسول سببًا للرحمة، والصحيح ـ كما أشرنا إليه سابقًا ـ أن السبب موجب بذاته، لكن بإذن الله، وأما من قال: إن السبب غير موجب وإنما هو أمارة وعلامة فقط، فقوله يرده العقل والواقع.

٥ - **وفيها:** فضيلة هذه الأمور الثلاثة؛ حيث كانت سببًا لرحمة الله وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول.

٦ - **وفيها:** دليل على أن الصلاة أفضل من الزكاة، وذلك لتقديمها عليها في كل موضع، اللهم إلا أن يكون هناك سبب خاص لتقديم الإنفاق فقد يُقَدَّم الإنفاق على الصلاة، لكن عندما تذكر الصلاة والزكاة فإنها تقدم.

قال الله تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور:٥٧]

التفسير

قوله: [﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالفوقانية والتحتانية والفاعل الرسول ـ ﷺ].

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فهي خطاب ـ على كلام المؤلف ـ للرسول، ولكن هناك احتمال ثانٍ: أن يكون الخطاب لكل من يصح خطابه بمثل ذلك فيكون هذا أعم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها المخاطب ـ النبي وغيره ـ وأما على قراءة الياء: (لَا يَحْسَبَنَّ) فيقول المؤلف أيضًا: [أن الضمير يعود على الرسول] يعني: لا يحسبن الرسول الذين كفروا معجزين في الأرض، ولكن عندي فيه احتمال أقرب، وهو أن نجعل يحسبن فاعله ﴿الَّذِينَ﴾ لا يحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض، ويكون المفعول الأول ليحسبن محذوفًا، والتقدير: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين في الأرض، ويكون في هذا تهديد لهم، أما على ما ذهب إليه المؤلف فيكون المراد بذلك: ليس تهديد هؤلاء الكفار، ولكن المقصود بذلك: تثبيت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطمينه بأن هؤلاء الكافرين لن يعجزوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولكنه يملي لهم وقد يؤخر عقابهم.

وقوله: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ يقول: [لنا]، المُعْجِز من فَعَلَ ما يُعْجِزُ غيره ولا يستطيعه، فهل الذين كفروا معجزين لله أي: فاعلين ما يعجز الله عنه؟! الجواب: لا، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

يقول المؤلف: [بأن يفوتونا] هذا تفسير الإعجاز يعني: نعجز عنهم فلا ندركهم فليفوتوننا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أو (لا يحسبن) هذا النهي قلنا: إنه إذا كان الخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يصح خطابه فهو للتثبيت والتطمين والتسلية وما أشبه ذلك، إذا كان الضمير على ما أشرنا إليه إن الفاعل «الذين» يكون المراد بالنهي: التهديد.

قال الله تعالى: [﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مرجعهم النار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: المرجع هي].

مأواهم أي: مرجعهم الذي يأوون إليه: النار، وإنما قال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ لأن هذا هو الواقع، إذ إنَّ هذه الحياة الدنيا سوف تنقضي، والمرجع الذي ليس بعده شيء آخر هو ما يَئُول إليه المؤمن والكافر يوم القيامة إما إلى نار وإما إلى جنة، هؤلاء مأواهم النار ـ والعياذ بالله ـ ومرجعهم هي.

وقوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اللام واقعة في جواب القسم ـ موطئة للقسم ـ يعني: والله لبئس المصير، وبئس كما هو معروف: فعل ذم أو فعل جامد لإنشاء الذم، وبئس ونِعمَ تحتاج إلى فاعل، ومخصوص، الفاعل في هذه الآية: ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هو المصير، والمخصوص محذوف، والتقدير ولبئس المصير لكن ما يصلح أن تقول مستتر؛ لأنه لو قلنا: مستتر صار هو الفاعل بل نقول:

محذوف، إما أن يقال: ولبئس المصير النار، أو لبئس المصير هي.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** تمام قدرة الله عز وجل وأن الكافرين مهما بلغوا القدرة فليسوا بمعجزين لله، وكون الله تعالى يملي لهم لا يدل على عجزه عنهم، بل يدل على حكمته في تأخير العذاب عنهم.

٢ - **وفيها:** دليل على أن أهل النار مُخَلَّدُوْنَ فيها لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولو لم يخلدوا لكان مأواهم ما بعد النار؛ لأن المأوى معناها: المرجع الأخير، وهذا دليل على أن النار دائمة لهم، وأنهم مخلَّدون فيها، وقد ثبت في القرآن الكريم تأبيد تخليد أهل النار في ثلاث آيات من القرآن، في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥] وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] فهذه ثلاث آيات صريحة تنصُّ على تأبيد خلودهم.

وبهذا يُعْرَف ضعف قول من قال من أهل العلم: إنه لا تأبيد لأهل النار، واشتبه عليه قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] ولم يشتبه عليه قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: أهل الجنة ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ لم يشتبه عليه؛ لأنه قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وهنا قال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لكن ليس معنى ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنه سيرفع عنهم هذا العذاب؛ بل لما كان هذا انتقام منهم وعمل ليس من الأمر الذي يختاره الإنسان حتى تُذْكَر منةُ الله عليه باستمراره قال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقال في هؤلاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا يمنعه شيء أن يفعله فيفعل ما يريد.

أما آية: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣] فهي مُتعلِّقة بما بعدها يعني: أحقابًا لا يذوقوه، وأحقابًا أخرى، أو يقال: أحقابًا مدة طويلة، وهذا لا ينافي التأبيد،؛ لأن التأبيد هل هو ينقص عن الأحقاب؟ ما ينقص.

على كل حال: هذا لا ينافي التأبيد بلا شك، إما أن نقول: إنه متعلق لما بعده وهذا ضعيف عندي، وإما أن يقال: أحقابًا كونها أزمنة بعيدة طويلة لا ينافي التأبيد؛ لأن التأبيد أحقاب.

٣ - **وفيها أيضًا:** دليل على شؤم النار ومرجعها؛ لأن الله تعالى ذمَّها بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ واعلم أن ما ذمَّه الله - عز وجل - أو ما مدحه فإنه أمر عظيم؛ لأن العظيم لا يمدح إلا ما هو عظيم جدًّا، يعني: العظيم لا يرى الشيء عظيمًا إلا وهو عظيم، لكن غير العظيم

قد يرى ما ليس عظيمًا عظيمًا، أما العظيم فإنه لا يعظِّمُ إلا ما يستحق التعظيم، ولا يذم إلا ما هو مذموم، وذمه شديد.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٨]

❁ التفسير ❁

تقدم فائدة تصدير الحكم بالنداء، وهو التنبيه، وبين أهميته، ثم توجيهه إلى المؤمنين فيه أيضًا ثلاث فوائد: الإغراء والحث يعني: بإيمانك وُجِّه إليك هذا الخطاب، الشيء الثاني: أن تنفيذه من مقتضيات الإيمان، والثالث: أن الإخلال به نقص في الإيمان.

وقوله: ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ اللام للأمر.

قوله: [﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من الأحرار وعرفوا أمر النساء ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في ثلاثة أوقات].

قوله: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هو كما قال المؤلف: من العبيد والإماء؛ لأن: ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول يشمل الذكور والإناث، وقوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: ملكتم، وعَبَّر باليمين عن النفس؛ لأنها غالبًا أداة الأخذ والإعطاء.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يعني: لم يبلغوا زمنًا يحتلمون فيه غالبًا، أو ﴿لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ يعني: العقول، أي: لم يبلغوا أن يكونوا في حد العقلاء، وعلى كل حال فالمراد بهم: مَنْ دون البلوغ.

وقوله: [وعرفوا أمر النساء] كأن المؤلف أخذ هذا القيد من وجوب الاستئذان؛ لأن من لم يعرف أمر النساء لو دخل عليك في هذه الأوقات فلا يهمه، ولكن في هذا القيد نظر؛ لأنه ليس الغرض من ذلك دخولهم على النساء حتى نقول: إذا عرفوا أمر النساء، بل الغرض من هذه التوجيهات خوفًا من أن يدخلوا على الإنسان في حالٍ لا يحب أن يُطَّلَع عليه فيها، فإن هذه الأحوال الثلاثة عورات، فأي إنسان يطلع عليك ـ وإن كان مما لا يعرف أمر النساء ـ لا شك أنك

تشمئز منه وتنفر من هذا الدخول، والصحيح أن هذا القيد الذي ذكره المؤلف ليس بالمراد بل نقول: الذين لم يبلغوا الحلم؛ لأنهم إذا بلغوا الحلم ـ فسيأتينا إن شاء الله الحكم فيها ـ.

يستأذنون ثلاث مرات أي: يعني: في ثلاثة أوقات فصلها بقوله ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأن الإنسان قبل صلاة الفجر يكون غير مُتَهَيِّئ لأن يراه أحد ويدخل عليه أحد، قد يكون في ثياب النوم التي يكره أن يكون أحد يراه وهي عليه، وقد يكون ثياب أبلغ من ذلك، كثيابه مع أهله وما أشبه هذا.

والثاني قال: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت الظهر.

وفي قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وجه الخطاب لهم ثم قال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ والحكم لغيرهم إشارة إلى أنهم مسئولون عن تنفيذ هذا الحكم لأولادهم الصغار ومماليكهم، وأن هذا الصغير والمملوك إذا خالف فإنما إثمه على من لم يقم بواجب التربية والتأديب.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ فصلها بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

[﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ بالرفع خبر مبتدأ مُقَّدر بعدَه، مضافٌ ـ يعني هذا المبتدأ مضاف ـ وقام المضاف إليه مقامه، أي: هي أوقات].

مر علينا فيما سبق أن قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ يعني: ثلاثة أوقات.

قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ تقدير الكلام هي أي: هذه الثلاث ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

يقول المؤلف: إنها على حذف مضاف أي: هي أوقات ثلاث عورات لكم؛ لأن هذه أوقات ما هي العورات، اللهم إلا على سبيل التجوز بأن نقول: المراد بالعورة: زمنها، ولهذا المؤلف قَدَّرَ قبلها مضافًا هي: أوقات ثلاث عورات؛ لأن الوقت نفسه ليس بعورة، وعلى هذا فلا تكون هذه الأوقات هي العورات وإنما تكون أوقات عورات وليست عورات، ولهذا قال: هي أوقات ثلاث عورات لكم.

والعورة في الأصل ما يستقبح شرعًا أو عرفًا، كل ما يُستقبَح ويُستحْيَا منه شرعًا أو عرفًا فهو عورة، هذه الأوقات الثلاثة أوقات عورة.

كيف كانت أوقات عورات؟

من قبل صلاة الفجر يكون عليه لباس النوم التي قد يكره الإنسان أن يطلع عليها أحد، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ كذلك، الإنسان في وقت القائلة يضع ثوبه وينام عريانًا أو ينام على صفة لا يحب أن يطلع عليها أحد، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ يكون متهيئًا للنوم ولابسًا ثياب النوم، ولا يحب أن يطلع عليه أحد، ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ يعني: أوقات ثلاث عورات لكم.

يقول: [وبالنصب بتقدير أوقات منصوبًا بدلًا من محل ما قبله قام المضاف إليه مقامه، وهي لإلقاء الثياب تبدو فيها العورات].

يقول المؤلف: فيها قراءتان بالنصب، (ثلاثَ عورات لكم)، ويقال فيها ما سبق: بأنها على تقدير مضاف أي: إنَّها أوقات ثلاث عورات لكم، وهي منصوبة بدلًا مما قبلها قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾؛ لأن مرات بمعنى: أوقات، أوقات ثلاث عورات لكم، يصير أوقات ثلاث عورات بدلًا منها، وبدل المنصوب يكون منصوبًا.

والخلاصة: أن في قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ قراءتين:

الأولى: بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف.

والثانية: وبالنصب على أنها بدل من قوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

ومع ذلك فهي نفسها ليست هي الأصل لا في كونها خبرًا، ولا في كونها بدلًا، بل هي قائمة مقام مضافٍ، والتقدير: أوقات ثلاث عورات، أوقاتَ بالنصب أو أوقاتُ بالرفع.

يقول المؤلف مجيبًا على سؤال مقدر: كيف كانت هذه الأوقات أوقات عورات؟

قال: [وهي لالقاء الثياب تبدو فيها العورات] يعني: سُمِّيَتْ هذه الأوقات عورة؛ لأنها إذا ألقيت الثياب فيها للنوم، إما للتهيؤ له، أو لكونه أثر النوم ـ كما هو قبل صلاة الفجر ـ؛ فإنه تبدو فيها العورة، وكأن عادة الناس في ذاك الوقت، أن الإنسان إذا نام يخلع ثيابه، ويلتحف بلحاف وينام، وعلى هذا فالعورة في ذلك تبدو؛ لأن الإنسان ما عليه إلا لحاف وهو متهيئ للنوم، أما عادة الناس اليوم فهل هي كذلك؟ من الممكن أن يوجد بعض الناس ـ ما ندري ـ لكن الظاهر أن غالب الناس يلبسون ثوبًا قميصًا ساترًا، وكذلك أيضًا كانوا في الزمن السابق البيوت ما فيها حجاب ولا أستار، فإذا فاجأ العبد أو الصغير صاحب المنزل في هذه الأوقات اطَّلع على عورته، أما الآن فالبيوت مُحَجَّبَة والستور مُكَثَّفَة، ولهذا لو دخل البيت ولم يستئذن، فإن الحكم قد زال؛ لأن الحكم يدور مع علته حيث قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

ولأجل ذلك اختلف أهل العلم في هذه الآية: فزعم بعضهم أنها منسوخة؛ وذلك لأن الناس تركوا العمل بها من قديم، وقال آخرون: بل هي محكمة وباقية.

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح أن هذه الآية محكمة، لكن في حال دون حال، وأنه لما كانت البيوت فيما سبق غير محجبة، والستور غير موجودة، والناس في حاجة؛ لأن الإنسان ما كان عنده إلا ثوب ما يلبسه في النوم يخلعه ويلتحف باللحاف لأجل أن يوفر على نفسه غسله بعد الاتساخ.

يقول: فأما الآن وقد كانت البيوت محجبة، والستور كثيرة، فإن الحكم قد زال، وعلى هذا فالحكم يدور مع علته.

وعندنا أن الحكم باقٍ حتى ولو كانت البيوت محجبة؛ لأننا نقول: الإنسان عادة إذا أراد أن ينام فإنما ينام في مكان خاص، فإذا أراد أحد من هؤلاء المماليك والصغار أن يستأذن عليه في محل النوم الخاص فإن الحكم باقٍ. وماذا تغني الأبواب إذا أراد أن يدخل عليك إنسان غرفة النوم يفتح الباب مباشرة؟! هذا أشد فالحكم باقٍ في الحقيقة، نعم الاستئذان لدخول البيت عمومًا صحيح أنه قد زال؛ لأن الناس ما صاروا كما في الزمن السابق، كانوا في الزمن السابق الحُجَرة هي حجرة النوم وحجرة الأكل وحجرة الجلوس، وكل شيء، لكن بعد أن وَسَّع الله على المسلمين توسعت المباني، فصار النوم له غرفة خاصة، والجلوس له غرفة خاصة، وما أشبه ذلك.

فنقول: الحكم باقٍ لكنه بالنسبة للغرف المعدَّة للنوم، فإن هؤلاء لا يدخلون حتى يستأذِنوا في هذه الأوقات الثلاثة، أما لو دخل الإنسان الغرفة التي ينام فيها في غير هذه الأوقات الثلاثة فالأصل أنه ما دخل للنوم، فالاستئذان عليه ليس بلازم، إلا إذا عُلِم أن هذه الغرفة أيضًا محلٌّ لخلع الثياب ولبسه، فإنه إذا دخل غرفته فلابد أن يستأذن؛ لأنه يخشى أن يكون قد خلع ثوبه ليلبس الثوب الآخر، فتدخل عليه على وجه تبدو فيه العورة.

فإن هذه الآية تخصيصها بهذه الثلاث فإن الله له حكمة من ذلك، الحكمة في الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة: أنها أوقات عورة تُلقى فيها الثياب غالبًا للنوم، إما للتهيؤ له أو بعده أو من أجل الحر كما في قوله: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾.

[قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ في الدخول عليكم بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد الأوقات الثلاثة].

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني: في الدخول عليكم بدون استئذان.

(الجناح) بمعنى: الإثم، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ واضح في نفي الجناح عن الذين آمنوا؛ لأنهم مكلفون، فهم ممن يوصفون بالإثم وعدمه.

وقوله: ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ بالنسبة للمماليك ظاهر أنهم يأثمون بما يخالفون فيه الشرع.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ منطوق الآية، أن الدخول بدون استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة ليس فيه إثم لا على الأولياء، ولا على الصغار والمماليك.

مفهوم الآية الكريمة: أن دخولهم في هذه الأوقات بدون استئذان فيه جناح عليكم وعليهم، الجناح على الأولياء والصغار والمماليك إذا دخلوا بغير استئذان في هذه الأوقات الثلاثة.

أما ثبوت الجناح على الأولياء: إذا دخلوا هؤلاء بغير استئذان فالأمر فيه ظاهر، ووجهه: أنهم ما دخلوا بغير استئذان إلا لأن هؤلاء قَصَّروا في واجب التربية والتأديب، ومن قَصَّر في الواجب ترتب عليه ما يترتب على تركه، هذا بالنسبة للأولياء.

وبالنسبة للمماليك: عليهم جناح؛ لأنهم تركوا الواجب وهم مُكَلَّفون بالغون عاقلون.

بالنسبة للصغار: هذا هو المشكل؛ فإن الصغار لا إثم عليهم، فكيف يصح أن ينفي الإثم مع أنه لا إثم عليهم؟ الإشكال في دلالة المفهوم، فإن دلالة المفهوم تدل على أنه يثبت الجناح لهؤلاء الصغار إذا دخلوا في هذه الأوقات بغير استئذان، وهذا وجه الإشكال، كيف يثبت الإثم على من لم يكلفوا؟؟!

فالجواب على هذا أن يقال: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، وإنما تَصِحُّ وتَصْدُقُ بالدلالة على فرد من أفراده، ولهذا يقولون: (المفهوم لا عموم له)، فصار الجواب الآن أن نقول: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم فتصدق بصورة واحدة أو لفرد واحد، وهنا صدقت في صورتين من ثلاث فنقول: دلالة المفهوم لا يشترط فيها العموم، وإنما تصدق في صورة واحدة من مائة صورة أو من ألف، فكيف وقد صدقت الآن في صورتين من ثلاث، والصورة الثالثة لولا الأدلة على خروجها ما خرجت أيضًا، والأدلة على خروجها عمومات الأدلة على أن الصغير غير مُكَلَّف وأنه لا إثم عليه.

يقول: [﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ للخدمة ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائف ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾]

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هم طوافون، والجملة هذه تعليل لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ لماذا ليس عليهم جناح؟؛ لأنهم طوافون علينا يعني: مترددون، الطواف بمعنى: المتردد ومنه الطائف بالبيت؛ لأنه يتردد عليه، ومن قول النبي ﷺ في الهرة: «إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ»[1] أي: من المترددين عليكم، ومنه قول الناس للمساكين طوافون؛ لأنهم يترددون على الناس يسألونهم.

فعلى هذا تكون جملة ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ تعليلًا لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ لماذا لم يكن علينا ولا عليهم جناح بعدهن؟؛ لأنهم مترددون، فلو أُلزموا بأن يستأذنوا كُلَّما دخلوا لكان في ذلك مشقة عليهم وعلى أهل البيت أيضًا؛ لأن أهل البيت قد يكونون منشغلين ولا يسمعون المستأذن، وقد يدخل عليهم الرد عليه؛ لأنهم منشغلون، فيكون في ذلك مشقة على المستأذن وصاحب البيت، لو ألزمنا الصبي الذي له ست سنوات أو عشر سنوات كُلَّما خرج من البيت ودخل لا تدخل إلا أن تستأذن، وكذلك المملوك فيه مشقة كبيرة عليه وعلى أهل البيت، لهذا انتفى الحرج لوجود المشقة، وسيأتي ذكر ذلك في الفوائد.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قدره المؤلف بقوله: [طائف على بعض]، وعلى هذا فالجملة الثانية ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تأكيد للجملة الأولى التي هي ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾، فبعضكم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٠٣)، والترمذي (٩٢)، وأبو داود (٧٥)، والنسائي (٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٧٣).

يطوف على بعض ويتردد على بعض، فكونه يلزم بالاستئذان كُلَّما دخل هذا الصبي أو كلما دخل هذا المملوك مع أنَّه دائم في خدمة أهل البيت يأتي لهم بالفوائد وغير ذلك فيكون فيه مشقة.

[قال: والجملة مُؤَكِّدة لما قبلها] وهو قوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾.

[﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بُيِّن ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبره لهم].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقع هذه الجملة أو هذا التركيب يقع في القرآن كثيرًا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥] وما أشبهها.

وإعرابها: أن الكاف اسم بمعنى: مثل، وهي في محل نصب على المفعولية المطلقة، أي: مثل ذلك التبيين يبين الله لكم، كلما جاء هذا التعبير نقول: الكاف اسم بمعنى مثل منصوب على المفعولية المطلقة، وإن شئت قلت: إنَّه مفعول مطلق العامل فيه ما بعده، وتقدير الكلام هنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: يُوضح ويُظهر، وقوله: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يقول المؤلف: [أي: الأحكام]، ولو فُسِّرت بما هو أعم لكان أولى؛ لأن الله يبين الآيات الكونية والشرعية، لكن كأن المؤلف خصها بالأحكام؛ لأن السياق في الأحكام هنا وليس في الآيات الكونية، ولكن لو الأخذ بالعموم أولَى.

وقوله: الأحكام، كيف كانت الأحكام آيات الله؟ لأن هذه الأحكام إذا تأملها الإنسان وجدها في غاية الإتقان، ووجدها في غاية المناسبة للخلق في جلب المصالح لهم، ودفع المضارّ عنهم، لله المثل الأعلى لو أن رجلًا كَتَبَ له نظامًا المادة الأولى، الثانية...الخ، وتدبرنا هذا النظام فإذا هو نظام مُحكم مُتقَنٌ موافق للمصالح ومناسب، ماذا نقول عن هذا الكاتب؟ نقول: إنه حكيم ونُعْجَب بحكمته، ويدل ذلك على ذكائه وفطنته، فكيف بأحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا يمكن أن تتغير ولا أن تتناقض ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فمن تدبر أحكام الله سبحانه وتعالى في خلقه تبين له أنها من لدن حكيم خبير، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

وفي وصف الأحكام بالآيات إرشاد للخلق إلى تأمل هذه الأحكام ليستدلوا بها على مُشَرِّعها، لا تظن أني إذا قلت: الأحكام الشرعية آيات من آيات الله ما لأجل أن تقول ما شاء الله وتؤمن أنها آيات، بل يجب أن تبحث وتتأمل يتبين لك كيف كانت آية من آيات الله ـ عز وجل ـ، لتستدل بها على مُشرِّعِهَا على حكمته، وعلمه، ورحمته.

وهكذا أيضًا في الآيات الكونية، ومن آياته الليل والنهار، ما يكفي أن تقول: الليل من آيات الله، والنهار من آيات الله، والشمس والقمر من آيات الله، ما يكفي هذا؛ إنما يقال لك: إنها من آيات الله؛ ترغيبًا في البحث عن وجه كونها آية من آيات الله، لتستدل بها عن اقتناع على خالقها إن

كانت كونية، وعلى مشرعها إن كانت شرعية.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى أن هذه الأحكام صادرة عن علم وعن حكمة، وإذا صدر الحكم عن علم وحكمة صار مطابقًا للحق؛ لأن مخالفة الحق في الأحكام مرجعها أحد أمرين: إما الجهل، وإما السَّفَه، الجهل منافٍ للعلم، أو السفه المنافي للحكمة، فقد يكون المشرع جاهلًا فلا يشرع أحكامًا مناسبة؛ لأنه جاهل، وقد يكون سفيهًا يعلم الأحكام ويعلم مصلحتها ولكن لا يريدها فيكون سفيهًا، فالله جل وعلا مُتَّصِفٌ بالعلم والحكمة اللتين بها تكون الأحكام مناسبة للمصالح، وباختلاف واحد منهما يختل من الأحكام بحسبه ـ والله أعلم ـ.

الفوائد:

١ - **الفائدة الأولى:** توجيه الخطاب للمؤمنين والحكم لغيرهم يدل على أنهم مسئولون عنهم.

٢- **الفائدة الثانية:** وجوب استئذان هذين الصنفين من الناس (الصغار والمماليك) في ثلاثة أوقات فقط، وهي المذكورة، وأما من سواهم فيجب عليهم الاستئذان دائمًا.

٣ - **الفائدة الثالثة:** فيه دليل على تعليل الأحكام؛ بمعنى أن أحكام الله سبحانه وتعالى كلها مبنية على الحكم، وجه ذلك في الآية أن الله علل الحكم الأول والحكم الثاني، الحكم الأول وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات لأنها عورات، والحكم الثاني عدم الاستئذان في عداها لأنهم طوافون عليكم.

٤ - **الفائدة الرابعة:** تحريم النظر إلى العورات، ووجهه أنه إذا وجب الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خوفًا من أن نفاجئهم على عورة، فمن تعمد أن يرى هذه العورة فهو أولى، إذن يستفاد منه تحريم النظر إلى العورة سواء كان الناظر صغيرًا أو كبيرًا، وأما تهاون بعض الناس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطأ، لأنه لا بد أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر ثم ربما يذكره في يوم من الأيام.

الحاصل أن في هذا تحريم النظر إلى العورة من الصغير والكبير. ولكن المراد بالصغير الذي يميز، لأن قوله ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ دليل على أنه مميز، يؤمر بالاستئذان فيستأذن.

٥ - **الفائدة الخامسة:** رفع الحرج والمشقة عن الناس، نأخذها من رفع الحرج في عدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة لأنهم طوافون علينا، مترددون، والاستئذان فيه مشقة.

٦ - **الفائدة السادسة:** أن الولي آثم بما ارتكبه موليه من معصية أو مخالفة إذا كان قد فرَّط في تربيته وتأديبه، لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ .

٧ - **الفائدة السابعة:** طهارة بدن الطفل وإن غلب على الظن أنه نجس، نأخذها من قوله: ﴿طوافين﴾ وذلك ما لم يتيقن النجاسة.

٨ - **الفائدة الثامنة:** منة الله تعالى على العباد ببيان الآيات الكونية والشرعية حتى لا يبقى

للناس على الله حجة بعد هذا البيان ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ .

٩ - **الفائدة التاسعة**: أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل تشريع الله عز وجل ونظامه، وتؤخذ من كونه جعل ذلك من الآيات، وآيات الله معناها أنها لا تصلح لغيره، إذ لو صلحت لغيره لم تكن آية له.

هذا يدل على أن شرع الله لا يمكن أن يأتي أحد بمثله، وإلا ما صح أن يكون آية.

١٠ - **وفيها أيضًا**: دليل على ثبوت ملك اليمين للآدميين، وأن الإسلام جاء بالرق، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ ولكن كما هو معروف أن الإسلام حمى حقوق هؤلاء المماليك ورغب في تحريرهم وعتقهم وجعل للعتق أسباب متعددة.

١١ - **الفائدة الحادية عشرة**: جواز وضع الثوب عند النوم، ويلتحف الإنسان بلحاف، لقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وقيد الظهيرة وفي الأول ما قيدها، لم يقل: وحين تضعون ثيابكم من الفجر، أو من العشاء، لأنه ليس كل الناس يكون ما عند الظهر عورة له، إنما يكون عورة لمن يضع ثوبه لينام عند الظهيرة، وبعضهم قال: لأن نومة الظهر ليست طويلة فبعض الناس ما يضع ثيابه، ولهذا قيدها بقوله ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بخلاف نوم الليل فإن الناس يخلعون ثيابهم، لأن مدته تطول.

١٢ - **وفيها أيضًا**: دليل على عناية الله سبحانه وتعالى بالخلق، وأنه - وإن رضوا بما يُستقبح - لم يرضَ الله به، فقد يقول قائل: أنا ما يهمني إذا دخل علي طفلي في هذه الأوقات الثلاثة؟ فنقول له: ولكن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بك، ومنع من الدخول عليك في هذه الأوقات الثلاثة.

مسألة: هل هذه الآية محكمة أم منسوخة، أم ترك العمل بها لزوال الحاجة إليها؟

الجواب: الآية محكمة، ويجب أن نعرف أنه ما يجوز أن نقول عن آية أو حديث أنه منسوخ إلا بعد أن يتعذر الجمع بينه وبين ما ادُّعي أنه ناسخه، وأن يُعلم التاريخ بتأخُّر الناسخ، وإلا إذا كنت لا تستطيع أن تجمع فكِل إلى الله، لأن ادعاء النسخ إبطال للنص، وإبطال النص صعب، ولذلك يجب على الإنسان أن يتورع عن إطلاق النسخ فيما لم يثبت نسخه، ثم إن ترك العمل بها لا يدل على أنها منسوخة، لأنه كم من أشياء محكمة وترك الناس العمل بها! فترك الناس للعمل بها: إما تهاونًا، وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان.

١٣ - **وفي الآية أيضًا**: إثبات العلم والحكمة لله من هذين الاسمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحكمة: سبق لنا تعريفها، أنها وضع الأشياء في مواضعها، بل سبق لنا أن الحكيم ليس معناه ذو الحكمة فقط، بل معناه: ذو الحكم والحكمة.

١٤ - **وفيها أيضًا**: أن المشقة تجلب التيسير.

قال: [وآية الاستئذان قيل: منسوخة، وقيل: لا، ولكن تهاوَنَ الناسُ في ترك الاستئذان] هذان

القولان اللذان أشرنا إليهما، والصحيح أن الآية محكمة وباقية وأن ترك الاستئذان إما للتهاون، وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان، وأما أن نقول: إن الأحكام الشرعية تُنسخ لترك الناس العمل بها فهذا لا وجه له.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ أيها الأحرار ﴿الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ في جميع الأوقات ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الأحرار الكبار].

يقول المؤلف [منكم أيها الأحرار] وذلك لأن المماليك - كما سبق - لا يستئذنون إلا في الأوقات الثلاثة سواء كانوا كبارًا أو صغارًا، فلهذا قيدها المؤلف بالأحرار لمفهوم الآية الأولى.

وقوله: ﴿الْحُلُمَ﴾ هو كناية عن البلوغ بالإنزال، والحلُم بمعنى: الاحتلام أو بمعنى: العقل وذلك لكمال عقولهم لكن الأول أولى؛ لأنه لا يشترط في هذا كمال العقل، وكمال العقل يحصل بكمال أربعين سنة.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ لم يذكر الله سبحانه وتعالى سوى بلوغ الحلم، والمعروف أن هناك شيئين آخرين يحصل بهما البلوغ هما: تمام خمسة عشر سنة، وإنبات شعر العانة.

لكن هذان الأمران فيهما خلاف بين العلماء: فمنهم من يرى أنه لا بلوغ إلا بالإنزال، وأن تمام خمسة عشر سنة ليس علامة على البلوغ بل علامة على قدرة الإنسان على الجهاد؛ لأن الذين أخذوا بها إنما أخذوا بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - حينما عُرِضَ على النبي ﷺ عام أُحد فلم يُجِزْه، وعُرِضَ عليه عام الخندق فأجازه، وكان له عام الخندق خمسة عشر سنة[1]، لكن في رواية للحاكم أنه قال: فلم يُجِزْني ولم يراني بلغت، والثاني: فأجازني ورآني بلغت.

لكن كلمة (بلغت) هل معناها: بلغت سن التكليف، أو بلغت الحال الذي يمكنني بها أن أجاهد؟ فيه احتمال، لكن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي الله عنه كتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمسة عشر سنة ورآهم قد بلغوا، وقال: إذا كان هذا السن حدًّا لصلاحهم للقتال فهو حدٌّ لبلوغهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨).

ويرى بعض العلماء كأبي حنيفة أن حد البلوغ ثماني عشرة سنة، لا خمسة عشر سنة، وهذا هو الذي مشى عليه نظام العمل والعمال هنا؛ لأن الذي واضعه فيما يظهر إنسان أجنبي، لا يعرف إلا المذهب المعروف الشائع عند عامة المسلمين وهو مذهب أبي حنيفة الذي يقيده بثماني عشرة سنة، إنما المذاهب الثلاثة أن البلوغ يحصل بخمسة عشر سنة.

أما إنبات العانة ـ فنفس الشيء أيضًا ـ فيه خلاف، والذين قالوا: إنه ليس علامة على البلوغ قالوا: إن كون الرسول ﷺ يكشف عن مؤتزرة بني قريظة فمن أنبت قتله، ليس ذلك دليل على أنه مكلف، بل هو دليل على أنه من أهل القتال فيقتله النبي ﷺ، لكن المشهور من المذهب ـ كما هو معروف ـ أن البلوغ يحصل بواحد من ثلاثة أشياء.

قال: ﴿فَلْيَسْتَئْذِنُوا﴾ وجه الخطاب لهم؛ لأنهم إذا بلغوا الحلم صاروا أهلًا للتكليف وتوجيه الخطاب إليهم.

وقوله: ﴿كَمَا اسْتَئْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من عامة الناس، الذين يستأذنون في جميع الأوقات.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأطفال إذا بلغوا ﴿الْحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُوا كَمَا اسْتَئْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: في كل وقت، وأما قبل ذلك فلا يستأذنون إلا في ثلاثة أوقات فقط؛ وذلك لأنهم مترددون علينا والاستئذان في كل مرة يشق، وهذا الدين ما جعل الله تعالى فيه من حرج على هذه الأمة.

أي: مثل ذلك البيان وقد قلنا: إن الكاف اسم بمعنى مثل وهو مفعول مطلق لـ يُبين، وهنا هذه الآية الكريمة مثل الآية التي قبلها إلا الفرق في قوله: ﴿آيَاتِهِ﴾ بدلًا من ﴿الْآيَاتِ﴾ ولعل هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنويع في الأسلوب وإلا فمعناهما سواء.

الفوائد:

من فوائد هذه الآية:

أولًا: توجيه الخطاب للمؤمنين والحكم بغيرهم يدل على أنهم مسئولون عنهم.

ثانيًا: وجوب استئذان هذين الصنفين من الناس الصغار والمماليك في ثلاثة أوقات فقط ـ وهي المذكورة ـ وأما مَنْ سواهم فيجب عليه الاستئذان دائمًا.

ثالثًا: تعليل الأحكام بمعنى: أن أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ كلها مبنية على الحكم وجه ذلك من الآية أن الله علل الحكم الأول والحكم الثاني، الحكم الأول: في وجوب الاستئذان في ثلاث مرات بأنها عورة، والحكم الثاني: عدم الاستئذان فيما عداها بأنهم طوافون عليكم.

الفائدة الرابعة: تحريم النظر إلى العورات ووجهه: أنه إذا وجب الاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة خوفًا من أن يفاجئهم على عورة فمن تعمد أن يرى العورة فهو أولى، إذنْ فيستفاد منه،

تحريم النظر إلى العورة سواء كان الناظر صغيرًا أو كبيرًا، وأما تهاون بعض الناس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطأ، بعض الناس إذا صار الصغير سنه ست سنين، سبع سنين لا يهمه أن ينظر إلى العورة؛ لأنه لابد أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر ثم ربما يذكره في يوم من الأيام، الحاصل أن هذا فيه دليل على تحريم النظر إلى العورة من الصغير إلى الكبير ولكن المراد بالصغير الذي يميز؛ لأن قوله: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ﴾ دليل على أنه يميز يؤمر بالاستئذان فيستأذن، أما الصغير ليس يميز فلا يدري عن شيء.

الفائدة الخامسة: رفع الحرج والمشقة على الناس يؤخذ من رفع الحرج في عدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون علينا مترددون والاستئذان فيه مشقة.

الفائدة السادسة: أن الولي آثم بما ارتكبه موليه من معصية أو مخالفة إذا كان قد فرط في تربيته وتأديبه لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور:٥٨].

الفائدة السابعة: طهارة بدن الطفل وإن غلب على الظن أنه نجس يؤخذ من أنها ليست بنجس وعلل ذلك أنها من الطوافين، وهؤلاء من الطوافين، فربما يؤخذ من هذا طهارة بدن الطفل، وأنه طاهر ما لم يتيقن النجاسة، فإذا تيقن النجاسة انتهى الأمر.

الفائدة الثامنة: منة الله تعالى على العباد ببيان الآيات الكونية والشرعية حتى لا يبقى للناس على الله حجة بعد هذا البيان ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [البقرة:٢١٩].

الفائدة التاسعة: إِنَّهُ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل تشريع الله ـ عز وجل ـ ونظامه وهذا يؤخذ من كونه جعل ذلك من الآيات وآيات الله معناها: أنها لا تصلح لغيره؛ إذ لو صلحت لغيره لم تكن آية له، هذا يدل على أن شرع الله لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، وإلَّا ما صَحَّ أن يكون آية صار غير آية.

وفيها أيضًا: ثبوت ملك اليمين للآدميين، وأن الإسلام جاء بالرق لقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]، ولكن ـ كما هو معروف ـ أن الإسلام حمى حقوق هؤلاء المماليك، وَرَغَّبَ في تحريرهم وعتقهم وجعل للعتق أسباء متعددة.

الفائدة الحادية عشر: جواز وضع الثوب عند النوم ويلتحف الإنسان بلحافه لقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ قيَّد الظهيرة في قوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ وفي الأول ما قيَّدها قال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وكذلك فيما بعد ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ولم يقل: وحين تضعون ثيابكم من الفجر أو من العشاء؟ الظاهر أنه مثل قول بعضهم: إن ليس كل الناس يكون ما عند الظهر عورة له إنما يكون عورة لمن يضع ثوبه لينام عند الظهيرة، وبعضهم قال: لأن نومة الظهر ليست طويلة فبعض الناس ما يفصح ثيابه، ولهذا قيَّدها بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بخلاف نوم الليل فإن الناس يخلعون ثيابهم؛ لأن مدته تطول.

الفائدة الثانية عشر: فيه دليل على عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالخلق وأنهم وإن رضوا بما يُستقبح فلن يرضى الله به، فقد يقول قائل: ما يهمني إذا دخل عليَّ طفل في هذه الأوقات الثلاثة فنقول له: ولكن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بك ومنع الدخول عليك في هذه الأوقات الثلاثة.

الفائدة الثالثة عشر: هل هذه الآية محكمة أو منسوخة أو ترك العمل بها لزوال الحاجة إليها؟

الآية محكمة، ويجب أن نعرف أنه لا يجوز أن نقول عن آية أو حديث: إنه منسوخ، إلا بعد أن يتعذر الجمع بينه وبين ما ادُّعي أنه ناسخ، وأن يُعلم التاريخ بتأخر الناسخ وإلا إن كنت لا تستطيع أن تجمع فكِلِ العلم إلى الله أما أن تدَّعي النسخ؛ لأن معنى النسخ: إبطال هذا النص وإبطال النص صعب، لذلك يجب على الإنسان أن يتورع عن إطلاق النسخ فيما لم يثبت نسخه ثم إن ترك العمل بها لا يدل على أنها منسوخة في الحقيقة يعني: كم من أشياء محكمة وترك الناس العمل بها، فتَرْكُ الناس للعمل بها إما تهاونًا وإما لزوال السبب الموجب للاستئذان.

الفائدة الرابعة عشر: إثبات العلم والحكمة لله من هذين الاسمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها؛ والحكيم ليس معناه: ذا الحكمة فقط؛ بل معناه: ذا الحُكم والحكمة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٦٠]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: قعدن عن الحيض والولد لكبرهن ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ﴾ مظهرات ﴿بِزِينَةٍ﴾ خفية كقلادة وسوار وخلخال ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بأن لا يضعنها ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم].

﴿الْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعدة وقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان للقواعد؛ لأن (ال) في القواعد اسم موصول؛ لأنه إذا دخلت (ال) على اسم مشتق سواء كان اسم مفعول أو اسم فاعل فهي اسم

موصول، فالقواعد بمعنى: اللاتي قعدن وقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقواعد، لكن قعدن عن أي شيء؟

يقول المؤلف: [عن الحيض والولد] فصار معنى القواعد: اللاتي لا يلدن ولا يحضن لكبرهن، وقيل: القواعد المُلازِمات للبيوت لكبرهن؛ لأنهن لا يخرجن من العجز والضعف فهنَّ قواعد، وقيل: إن القواعد اسم للعجائز مطلقًا مثل ما نقول: عجوز مشتقة من العجز، نقول أيضًا: قاعدة بمعنى عاجزة عن القيام والذهاب والإياب.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ اللاتي صفة للقواعد؛ لأنك لو قلت: من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا صار في قواعد النساء اللاتي يرجون نكاحًا، وليس الأمر كذلك، فقوله: ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة للقواعد، وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ الواو واو الفعل، والنون نون النسوة، ومعنى ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن فيه وذلك لكبرهن؛ لأنهن يرجون أن أحدًا يتزوجهن؛ لأنهن عجائز ما بهن حاجة.

قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ لا شك أن المراد بقوله: ﴿يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ ليس جميع الثياب بمعنى: يبقين عراة، هذا لا يمكن القول به، إذنْ فما المراد بالثياب؟ الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها مثل الجلباب، يقول المؤلف: [الجلباب والرداء والقناع والخمار] الأشياء الظاهرة فيجوز للمرأة العجوز أن تبدي يديها ورأسها ووجهها ورجليها وساقيها لكن بشرط ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فإن كان من أجل أن تبدي الزينة؛ لأن بعض العجائز ما هن براغبات النكاح يحببن أن يُرين بمنزلة الشواب تجدها مثلًا تلبس سوار وتلبس خلخال، وتجدها تبجح عند الناس، لكن هذا بشرط ألا تكون بهذه الحال، إن كانت بهذه الحال فلا يجوز، لكن إن كانت المسألة طبيعية فيجوز لها أن تضع ثيابها. نعم ولو كانت عند أجنبي؛ لأنها ما تبغي نكاحًا.

يقول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ﴾ أي: [مظهرات ﴿بِزِينَةٍ﴾ أي: خفية كقلادة وسوار وخلخال].

التبرج بمعنى: التَّعَلِّي والظهور ومنه البروج التي في السماء لعلوها وارتفاعها، فمعنى متبرجات أي: مُتَعَلِّيات، وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مظهرات] هذا من باب التفسير باللازم، وإلا فالتبرج معناه: التعلي، يلزم منه أن يظهرن الزينة.

وقوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾ أي: بزينة خفية، يُظهِرْنَها إذا وضعن تلك الثياب.

ثم قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بأن لا يضعنها ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لما في ذلك من البعد عن مواضع الفتنة، وكما قيل: (لكل ساقطة لاقطة)، قد تكون بنفسها لا ترجو النكاح لكبرها، ولكن ربما يتعلق بها إنسان وهي في هذه الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

[وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بما في قلوبكم] ختم الآية بالسمع والعلم؛ لأن المقام قد يقتضي قولًا كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢] وبالعلم؛ لأن قوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ﴾ محَلُّه القلب ومتعلقه العلم؛ لأن ما في القلب لا يُسمع ولا يُرى، وإنما يُعلم علمًا، فهو سميع سبحانه وتعالى بما يقال لهن أو يقلنه هؤلاء القواعد، وعليم بما في قلوبهن وقلوب من نظر إليهن من الميل والفتنة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** الحكم الظاهر منها وهي أن العجائز اللاتي يئسن من النكاح لكبرهن يجوز لهن وضع الثياب الظاهرة مثل الجلباب والرداء والخمار وما أشبه ذلك، يعني: هذه الألبسة الظاهرة يجوز للعجائز أن يضعنها؛ وذلك لأنهن لا يرجون نكاحًا فلا يخفن من الفتنة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن على غير القواعد أن يلبسن لباسًا ظاهرًا ساترًا؛ لما في ذلك من التستر؛ ولأن عدمه يدخل في الحديث الصحيح: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[1]. فإن المرأة إذا كان عليها ثياب لكن تصف مقاطع جسمها، ولا تزول بها الفتنة فهي: كاسية عارية.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** يقاس على القواعد مَنْ لا تُشْتَهى لغاية في قُبْحِها، فإن التي لا تُشْتَهى لغاية في قبحها كالعجائز؛ لأنها لا ترجو النكاح، ولا يطمع أحد فيها، ولهذا ألحق العلماء هذا الصنف من النساء بالقواعد.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن التبرج بالزينة حرام على العجائز، لقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فهذا الشرط إذا تخلف صار عليهن جناح بذلك، وهنا يدل على التحريم.

٥ - **ومن فوائدها:** تحريم التبرج على الشواب ومن هي محل الفتنة، وهذا القياس قياس أولوية؛ لأنه إذا حرم على القواعد التي لا يرجون نكاحًا فغيرهن ممن يرجو النكاح وتتعلق به الفتنة أبلغ.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ لأن الله إنما أباح وضع الثياب لهؤلاء القواعد؛ لأن الفتنة بعيدة فيهن، فيؤخذ منه: أن المدار كله على خوف الفتنة في مثل هذه الأمور، فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

٧ - **ومنه فوائد هذه الآية:** ما نبه عليه كثير من أهل العلم بأنه حتى على القول بجواز كشف الوجه واليدين إذا كان ذلك ذريعة إلى الفتنة كان هذا حرامًا، وعليه فيكون هذا القول لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٢٨)، وأحمد في «مسنده» (٨٤٥١).

محل له في عصرنا؛ لأنه لا يمكن صد النساء أبدًا، ولهذا تجد المجتمعات التي أخذت بهذا القول أصبحت لا تستطيع أن تتخلص مما وقعت فيه من التبرج السافر الذي لا يرمي إليه هذا القول بأي صلة فلم تقتصر المسألة على الوجه والكفين، بل تدرجت إلى الرأس والرقبة والنحر والذراع بل والعضد أحيانًا، والساق، والقدم، كل هذا بأسباب أن النساء الآن، بل والمجتمعات الإسلامية ـ مع الأسف ـ لا يمكن أن تنضبط بالحدود الشرعية؛ لأنها مُدْبِرَة عن الدين إلا من شاء الله.

وعلى هذا فنقول: هذا القول الذي يطنطن به بعض الناس المحبين للسفور لا محل له في هذا العصر؛ لأن من شرطه أن لا تتبرج بزينة وأن لا يُخاف منه الفتنة، وهذا موجود مُحقَّق، فالفتنة موجودة والتبرج موجود، ولهذا القواعد اللاتي رخص الله لهن في وضع الثياب اشترط هذا الشرط ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ .

ونجد كثيرًا من نساء هؤلاء الناس تتبرج بالزينة ولا شك، تحمر الخدين، والشفتين، وتكحل العينين، وتزجج الحواجب، كل هذا مما يدل على أن الموضوع أصبح الآن ليس ذا محل في هذا الوقت.

٨ - **ومن هذه الفوائد:** دليل على أن الأفضل البعد عن الريبة ومحل الفتنة وإن بعدت، لقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فهن يجوز لهن أن يضعن الثياب لبعد الفتنة بهن، ولكن مع ذلك كلما بَعُد الإنسان عن أسباب الفتنة كان خيرًا له، والإنسان قد يشعر بنفسه أنه بعيد عن الفتنة ثم يقع فيها، وقد أمر النبي ﷺ من سمع بالدجال أن ينأى عنه؛ لأنه يأتيه وهو يرى أنه مؤمن فلا يزال يقذف به بالحجج والشبهات حتى يتبعه.

٩ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات تفاضل الأعمال؛ لأن قوله: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ يعني: من عدم الاستعفاف، فدل ذلك على أن الأعمال بعضها أفضل من بعض، ويتفرع على ذلك تفاضل الإيمان؛ لأن الأعمال منه فإذا ثبت تفاضل الأعمال فيما بينها، ثبت تفاضل الإيمان، وأنه يزيد وينقص، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

١٠ - **ومن هذه الفوائد:** إثبات اسمين من أسماء الله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وما تضمنتاه من الصفات وهي: السمع والعلم، وقد مر علينا أنه لا يراد من أسماء الله وصفاته مجرد معرفة ذلك الاسم وتلك الصفة، بل المراد والغرض التعبد لله بمقتضى ذلك، فإذا علمت أن الله سميع عليم؛ عملت بكل قول يُرضيه، وتجنبت كل قول يُسخطه، عملت بكل قول يُرضيه لأنك تعلم أنه يسمعك ويثيبك عليه، وتجنبت كل قول يُسخطه؛ لأنك تعلم أنه يسمعك فيسخط عليك.

وكذلك بالنسبة للعلم، وكذلك بالنسبة لسائر الصفات والأسماء.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ**

الجَنَّةَ»(١) والمراد بإحصاها ثلاثة أمور: ضبط لفظها، ومعناها، والتعبد لله بمقتضاها، أن الإنسان يعرف اللفظ والمعنى ويتعبد لله بما تقتضيه هذه الثلاثة أمور.

قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١]

التفسير

قوله: [﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في مؤاكلة مقابليهم].

(الأعمى) هذه اسم تفضيل أم صفة مشبهة؟ صفة مشبهة؛ لأن ليس المعنى أنه أعمى من فلان مثلًا، فالتفضيل معناه: أن هناك مفضل ومفضل عليه وأما الأعمى والأعرج فهذه صفة مشبهة، ومعنى صفة مشبة أي مشبهة باسم الفاعل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٢] فإن ظاهره أن أعمى الثانية اسم تفضيل، يعني: أشد عمىً وأضل سبيلًا، لكن المعروف خصوصًا عند البصريين أن هذه صفة مشبهة؛ وأنه لا يجوز أن يصاغ اسم التفضيل من ذي صفة مشبهة على وزن أفعل، أما الكوفيون فيقولون: إنَّهُ لا بأس ويرون أنه لا بأس أن تقول: فلان أعرج من فلان، وفلان أعمى من فلان، وقولهم أصح، لأن هذا شيء يقبله الذوق ولا مانع منه.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ الأعرج هو: الذي لا يمشي مشيًا مستقيمًا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض هو: الذي خرجت صحته عن الاعتدال.

لكن في أي شيء؟ قال المؤلف: [في مؤاكلة مقابليهم].

مقابل الأعمى: البصير، مقابل الأعرج: السليم، مقابل المريض: الصحيح، يعني: إِنَّهُ ليس على الأعمى حرج إذا أكل مع البصير.

لكن يقال: إنهم كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأعمى، يقولون: لأننا إذا أكلنا معه نأكل رغيفين ونبقي له رغيفًا، ومن جهة أخرى الأعمى يتحرج أيضًا من الأكل مع البصير؛ لأنه يخاف أن يأكل أكثر منه، على الرأي الأول: يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ يعني: ليس في الأعمى أي: بمؤاكلته حرج، كذلك المريض، ليس على المريض حرج إذا أكل مع الصحيح، ما يُقال أن فيه الحرج؛ لأن الصحيح يأكل أكثر، وكذلك الأعرج، الأعرج لا بأس أن يأكل مع الصحيح ولا حرج عليه.

هذا ما ذهب إليه بعضهم أن المراد: ليس عليهم حرج في الأكل مع غيرهم، وعلى هذا تكون (على) بمعنى: (في) يعني: ليس في الأعمى حرج أي: في مؤاكلته ولا في المريض حرج ولا في الأعرج حرج.

وقال آخرون: المراد الجهاد ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: في ترك الجهاد.

قالوا: والدليل على ذلك أن الله ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] إلى آخر الآيات.

فإنها في الجهاد وتكون الآيات مقدمة لذكر الجهاد، ولكنها صُدِّرت بها آية الأكل من البيوت المذكورة إما للتمهيد والتوطئة، والتنبيه؛ لأنه إذا جاء كلام في غير محله لابد أن ينتبه ويبحث ما هو السبب، بخلاف إذا جاء الكلام على نسق واحد؛ فإنه قد يسمعه ولا يفهم المعاني.

وقد مرَّ علينا أن من فائدة الالتفات هو تنبيه المخاطب أو السامع، لهذا أيضًا وضعت هذه الجملة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قبل أن تُذكر آيات الجهاد في هذا المحل؛ ليتنبه القارئ؛ حيث خرجت المسألة عما هو متبادر ومتوقع، هذا قول آخر: أن المراد ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد، وقالوا هذا كقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ فإنها في الجهاد بلا ريب.

وقال آخرون: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك أي عبادة تكون فيها هذه الأعذار مانعة، كل عبادة تمنع منها هذه الأعذار، فإنه لا حرج عليهم في تركها، فتكون الآية أعم من الجهاد وغيره، بل كل عبادة سبب تركها والإخلال بها أحد هذه الأوصاف الثلاثة فإنه لا حرج عليهم فيها.

قالوا: وهذا مقتضى الأدلة الشرعية، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

فإذا ترك الإنسان عبادة أو أخلَّ بها لعذر العمى، فلا حرج عليه، ولعذر المرض فلا حرج عليه، وعذر العرج فلا حرج عليه، فتكون الآية عامة في المؤاكلة - كما قال المؤلف -، وكذلك أيضًا في ترك الجهاد، وكذلك فيما يشترط له المشي وهو أعرج لا يستطيع، أو مريض لا يستطيع، أو أعمى لا يستطيع، كالذي يُشترط له البصر، فكل هذا ليس عليهم فيه حرج.

لكن على هذين الرأيين الأخيرين يبقى أن نعرف: ما مناسبة صدر الآية بآخرها؟

المناسبة أنَّهُ - كما هو معلوم - لا حرج على هؤلاء فيما يشترط فيه السلامة من هذه الأمراض، فإنه كذلك لا حرج عليكم فيما يأتي، ويكون الغرض التمهيد لنفي الحرج في الآتي، يعني: كما أنه معلوم أن هذه الأشياء أعذار تمنع من الحرج بدون أي مجادلة، فكذلك أيضًا ليس عليكم حرج في الأكل من بيوتكم... الخ.

ثم قال: [ولا حرج ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم].

قال المؤلف: [من بيوتكم] أي من بيوت أولادكم، لماذا لم يجعل الآية عامة؟ من بيوتكم يعني: من بيوت أنفسكم؛ لأن هذا لا حاجة إلى نفي الحرج فيه.

لكن قد يقول قائل: إن في آخر الآية مما يدل على أنه يراد بيوت الإنسان أيضًا، وهو قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، ويكون نفي الحرج عن الأكل من البيوت من حيث كونهم جميعًا أو أشتاتًا، لا لمطلق الأكل.

يبقى النظر على قوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾... إلخ لِمَ لم يذكر بيوت الأولاد؟

نقول: هي داخلة في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ فإن بيت الولد بيت لأبيه لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»(١)، ولقوله: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»(٢)، فعليه يكون بيت الولد بيت للوالد، ونحن إذ انتقدنا على المؤلف لم ننتقد إدخاله بيوت الأولاد في بيوت الإنسان، فإن هذا صحيح، وإنما انتقدنا تخصيصه البيوت ببيوت الأولاد، ونحن نقول: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أنفسكم وبيوت أولادكم، بالنسبة لبيت الإنسان نفسه فائدتها ما ذكر في آخر الآية، وبالنسبة لبيت ولده أعم من ذلك.

قوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾، ﴿ءَابَآئِكُمْ﴾ يشمل الأب الأدنى والأعلى فإن الجد أبٌ، كما قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] فسمَّى الله إبراهيم أبًا لنا مع أنه جدٌّ بعيد، وكذلك ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يشمل الأم الدنيا - التي ولدت الإنسان -

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وصححه الشيخ الإلباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

(٢) صحيح: الحديث ورد عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وذكره الشيخ الألباني بشيء من التفصيل في «الإرواء» (٨٣٨) فراجعه إن شئت.

الأمات العليا التي هي الجدات.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾ الأشقاء أو لأب أو لأم.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ﴾، لكن بشرط ألا تكون ذات زوج، فإن كانت ذات زوج والمال له، ما صار بيتًا لأخته، بل صار بيتًا لزوجها، لكن إذا كانت الأخت لها بيت فإنه لا بأس أن يأكل الإنسان من هذا البيت.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ وقالوا في: ﴿عَمَّاتِكُمْ﴾ مثل ما قلنا في أخواتكم، يعني: ما لم تكن العمة ذات زوج، ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ بالنسبة للأعمام والعمات والأخوال والخالات يشمل الأدنى من هؤلاء والأعلى.

فالأدنى أخو أبيك بالنسبة للعم، والأعلى أخو جدك وإن علا، وبالنسبة للخال الأدنى أخو أمك، والأعلى أخو جدَّتك وإن علا.

[﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ أي: خزنتموه لغيركم] المفاتِح بمعنى: الخزائن؛ يعني: ما ملكتُم خزائنه، وقيل: إنها بمعنى: المفَاتِيح وهي ما يُفتَح به، فالمِفتَاح غير المِفتَح، مِفْتَح: جمعه مفاتِح، ومِفتاح: جمعه مفاتيح، قيل: إنه يطلق المِفتح على المفتاح، والمَفاتح على المفاتيح، وقيل: المراد بالمَفاتِح: الخزائن، والمفاتيح ما يُفتَح به، ولكن القرآن يؤيد القول الأول كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦].

فنقول هنا في الآية الكريمة: مفَاتِحه أي: خزائنه أي: مفاتيح خزائنه، وقوله: ﴿مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ أي: جُعِلَت مفاتيحه في أيديكم، فلا جناح على الإنسان أن يأكل منها، لكن بالمعروف.

قوله: [﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهو من صَدَقَكُم في مودته، المعنى: يجوز الأكل من بيوت من ذُكِر وإن لم يحضروا، أي: إذا عُلِمَ رضاهم به].

يقول المؤلف: [يجوز أن تأكل وإن لم يحضروا] هذا صحيح، وقوله: [أي: إذا عُلِمَ رضاهم به] هذا غير صحيح، وذلك أنَّهُ إذا عُلِم رضا صاحب البيت بأكلك، فإنه لا فرق أن يكون من هؤلاء أو من غيرهم، لكنه يُؤكَل من بيوت هؤلاء ما لم يُعْلَم عدم رضاهم، فالمراتب الثلاث:

المرتبة الأولى: أن تعلم رضاه، رضا صاحب البيت فتأكل من هذه البيوت ومن غيرها.

المرتبة الثانية: أن تعلم عدم رضاهم فلا تأكل لا من هذه البيوت ولا من غيرها؛ لقول النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»(١).

(١) صحيح: والحديث قد ورد عن جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة ذكرها الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٥٩) فراجعه إن شئت.

المرتبة الثالثة: ألا تعلم رضاه ولا عدم رضاه فهذه هي التي يفرق فيها بين من ذكر وغيرهم، فتأكل من بيوت هؤلاء؛ لأن الغالب رضاهم لوجود الصلة بينك وبينهم، من القرابة، أو الصداقة، أو الائتمان، لأن حقيقة الأمر أن هذه الأمور ترجع إلى ثلاثة أشياء: إما قرابة أو ائتمان، أو صداقة، فالقرابة من ذُكِروا، أما الائتمان: في قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾، وأما الصداقة ففي قوله: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ففي حالة عدم العلم بالرضا والسخط نقول: يجوز الأكل من هذه البيوت دون غيرها، وأما اشتراط المؤلف علم الرضا في هذه البيوت فلا يصح، لأننا لو اشترطنا ذلك لم يكن بينها وبين البيوت الأخرى فرق.

وفي قوله: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ دليل على أن للصداقة حقًّا، وهي كذلك، والسبب الصلة التي بينك وبينه.

والصهر وَصِلَةُ الرضاع تدخل في الصداقة إن كان صديقًا، وإذا لم يكن صداقة بين الصهر وصهره، أو بين الرضيع ومرضعه، فإنه لا يجوز الأكل من بيته.

قوله: [﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شتٍّ] مثل سبب وأسباب، إلا أن سبب غير مدغمة، وشتّ مدغمة.

قال: [نزلت فيمن تحرَّج أن يأكل وحده، وإذا لم يجد من يؤاكله يترك الأكل].

هذه كانت عادة لبعض العرب، إذا وجد أحدًا يأكل معه يأكل، فإن لم يجد أحدًا يأكل معه ما أكل شيئًا أبدًا، يموت من الجوع ولا يأكل، إلى حين يلقى أحدًا يأكل معه، وهذا لا شك أنه دليل على الكرم، لكنه كرم فيه إحراج، ولكنك تأكل مع غيرك، وتأكل وحدك، كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ وهذا في الجواز، وأما الأفضل فهو الأكل جميعًا، كما أمر النبي ﷺ بذلك، وأخبر أن في ذلك بركة، وقد اشتكى إليه رجل أنه كان يأكل ولا يشبع، فقال له النبي ﷺ : «لعلكم تأكلون متفرقين» فقال: نعم. قال: «اجتمعوا على أكلكم يُبارك لكم فيه»، فاجتماع الناس على الأكل هذا من أسباب البركة.

كما أنه أيضًا من أسباب الإلفة والمودة لأن الناس ـ في البيت مثلًا ـ يكونوا في أعمالهم، إذا لم يكن شيءٌ يجمعهم ـ وهو الأكل ـ فمتى يجتمعون؟! لكن مع المؤسف أن هذه السنة أصبحت الآن مفقودة عند كثير من الناس، تجد الأب يأكل وحده، والولد الأكبر يأكل وحده، والمتوسط يأكل وحده، ...إلخ، ولكن هذا خلاف السنة.

ثم قال: [﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ لكم لا أهل بها ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة ترد عليكم، وإن كان بها أهل فسلموا عليهم].

قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ بيوتًا نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة لبيوت الإنسان وبيوت غيره، وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إن كان فيها أهل ـ وهي لغيره ـ يسلم عليهم، أي على من

فيها، وسُمِّي سلامًا على النفس وهو على الغير؛ لأن المؤمنين نفس واحدة كما قال النبي ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجسَدِ الوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الأَعْضَاءِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ».

وإن كانت بيوتًا ليس فيها أحد فإن الإنسان يسلم على نفسه، يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ لأن هذا هو السلام الذي علمه النبي ﷺ أمته أن يسلموا على أنفسهم كما في الصلاة.

وقوله: [﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر حيًا] يعني: تحيُّون تحية.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها الله إليه لأنه هو الذي شرعها. أو أنه الغاية بها، إما لأنها تُطلب منه، لأنك تقول: (السلام علينا) أو (السلام عليكم) فهي تطلب منه، فهو غايتها أي: الذي تنتهي إليه هذه التحية ليجيب عليها، ويثيبها.

وقوله: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ أي ذات بركة، والبركة - كما مر - هي الخير الكثير الثابت.

وقوله: ﴿طَيِّبَةً﴾ قال المؤلف: [يثاب عليها] وهذا نوع من الطَّيِّب، لكن من الطَّيِّب أيضًا أن تكون موافقة لشريعة الله، لأن الأعمال الطيبة هي الموافقة للشرع، بأن تكونه مخلصًا فيها لله، متبعًا فيها رسول الله ﷺ.

وقوله: [﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي يفصِّل لكم معالم دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا ذلك].

(كذلك يبين) مرَّ علينا أننا نعرب الكاف اسم بمعنى مثل، على أنها مفعول مطلق ليبين، أي: مثل ذلك البيان يبين.

و(الآيات) سبق أن المراد بها الشرعية والكونية، فالشرعية ما جاءت بها الرسل، والكونية: مخلوقات الله التي نشاهد ونسمع.

وقوله: (لعلكم تعقلون): لعل هذه للتعليل، أي: لأجل أن تعقلوا، ومعنى (العقل) هنا: الفهم - على ما مشى عليه المؤلف -، ولكن الأصح أنه أعم من ذلك، أنه الفهم وحسن التصرُّف، لأن العقل - كما مرَّ علينا نوعان:

الأول: عقل الإدراك وهو مناط التكليف، وهو حاصل للمسلم والكافر، والبر والفاجر.

الثاني: عقل التصرف: وهو إحسان التصرف، أن يكون الإنسان يتصرف تصرفًا مبني على عقل، وهذا يخرج منه الكافر والفاجر، لأنهم لم يحسنوا التصرُّف، فهم غير عاقلين؛ ولهذا دائمًا ينفي الله عز وجل العقل عن الكفار مع أنهم من أذكى الناس وأفهمهم، لكن ليس عندهم عقل التصرُّف، عندهم عقل الإدراك فقط.

والذي يُحمد عليه الإنسان هو عقل التصرُّف، أما العقل الأول فإنه لا يحمد عليه، لأنه ليس

من كسبه.

إذن، المراد بالعقل هنا ليس مجرد الفهم، لأننا إذا فسرناه بمجرد الفهم حوَّلناه إلى عقل الإدراك فقط، وعقل الإدراك ليس مناطًا للمدح، وإنما المناط للمدح عقل التصرُّف، الذي يحسن به الإنسان التصرُّف، وهذا هو المراد بهذه الآية، أي: (لعلكم تعقلون): تدركون ذلك وتحسنون التصرُّف بمقتضى هذه الآيات التي بينها الله لكم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان رحمة الله سبحانه وتعالى في نفي الحرج عمن لا يستحقه، لقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان سهولة هذه الشريعة بنفي الحرج عمن لا يستحق أن يلحقه.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الأحكام تدور مع عللها، فإذا وجدت العلة للحكم ثبت، وإذا انتفت انتفى الحكم، لأن نفي الحرج عن هؤلاء لهذه العلة التي فيهم، فإذا برئ المريض، واستقام مشي الأعرج، ورد الله البصر على الأعمى، انتفى الحكم في حقهم، وثبت في حقهم ما ثبت في حق السالمين.

٤ - **وفيها:** جواز الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، سواء بإذن أو بغير إذن، إلا إذا علمنا عدم رضاهم، فإذا علمنا أنهم لا يرضون فإنه لا يجوز الأكل من بيوتهم.

٥ - **وفيها:** دليل على أن مال ابنِ الإنسان مالٌ له؛ ووجه الدلالة من الآية أنه سبحانه ما ذكر الأولاد في الآية، فدل على أن المراد بقوله ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتكم وبيوت أولادكم.

٦ - **وفيها:** دليل أيضًا على تحكيم العادة في الأمور، لأنه إنما أُبيح لنا الأكل من هذه البيوت لأن العادة والعرف الرضا بذلك، فمعروف أن الأقارب والصديق ومالك المفاتيح، كلهم مما جرى العرف بأنهم يسامحون في الأكل، ولكن سبق أن الإنسان ما يحمل شيئًا، يأكل ولا يحمل، وهذا لأن الله إنما أجاز الأكل فقط.

٧ - **وفيها أيضًا:** دليل على جواز الأكل مجتمعين ومتفرقين، لقوله: ﴿ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾، ولكن الأفضل - كما مرّ - الاجتماع.

٨ - **وفيها أيضًا:** دليل على مشروعية السلام عند الدخول إلى البيوت، لقوله: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾، وكان هذا من هدي النبي ﷺ، إلا أن الإنسان يبدأ بشيء قبل السلام، وهو السواك، إذا دخل بيته يبدأ أولًا بالتسوُّك ثم يسلم على أهله.

وفيه أيضًا: دليل على فضيلة السلام، لكون الله تعالى وصفه بأنه: ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ثلاثة أوصاف، وهذا لا شك دليل على فضله، فيدل على أنه أفضل من قول الإنسان: (أهلًا وسهلًا) وشبهه، وعلى أن الإنسان إذا أجاب السلام بـ (أهلًا وسهلًا) لم يُجْزِه، لأن

(أهلًا وسهلًا) لم توصف بأنها تحية من عند الله مباركة طيبة.

ولهذا تجدون هذا هدي الأنبياء في حديث المعراج، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا سلم على النبي الذي يواجهه في السماء، يرد عليه السلام ويقول: مرحبًا بالابن الصالح، في آدم وإبراهيم، وبالأخ الصالح فيمن عداهم، مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فيرحبون بعد أن يردوا السلام، ولكن مع الأسف أن الناس الآن هجروا هذا، وصار غالب الناس إذا سلمت عليهم قالوا لك: (أهلا ومرحبا) أو (هلا) أو (مرحبا) وهذا لا يجزي، ولا يجوز الاقتصار عليه، وكذلك في الهاتف معظم الناس يبدءون الكلام بقولهم (ألو)، وهذا مخالف للسنة.

١٠ - وفي هذه الآية دليل على: عناية الله بالخلق؛ حيث كان يبين لهم الآيات لأجل أن يتصرفوا تصرف العاقل فيتبعوا شريعته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومر علينا أن هذا البيان بالنسبة للآيات الشرعية، ما يعرفها إلا المؤمنون الذين آمنوا بها وعقلوها، وأما الآيات الكونية فقد يؤمن بها حتى الكافر، الكفار يؤمنون أن الله خالق السموات والأرض، وأن بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه منزل الغيث، ... إلخ.

تنبيه: فائدة ذكر المنصوص عليهم في الآية: الحصر؛ فليس للإنسان أن يأكل من بيت ابن خالته، أو ابن عمه.... إلخ، فغير هؤلاء المنصوص عليهم لا يأكل الإنسان من بيتهم إلا إذا أذن.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والحصر يفيد إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عَمَّن سواه، وعلى هذا الإيمان ثابت لمن وُصِفُوا بهذه الصفات ومُنتفٍ عمَّن تخلف عنه منها شيء.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والإيمان بالله ورسوله ـ كما أسلفنا ـ لا يكون إيمانًا حتى يتضمن القبول والإذعان، أما مجرد التصديق فليس بإيمان، فلو صَدَّق الإنسان بالله وبرسوله ﷺ ولكن ما

قَبِلَ ما جاء به ولا أذعن له فليس بمؤمن، ولهذا أبو طالب كان مصدقًا بالنبي ﷺ ومع ذلك ليس بمؤمن به؛ لأنه لم يقبل ما جاء به ولم يذعن له .

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني: إيمانًا صحيحًا يتضمن القبول والإذعان.

[وقوله:﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ﴾ أي: الرسول ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ كخطبة الجمعة ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ لعروض عذر لهم ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾].

قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ يعني: على أمر عامٍّ للمسلمين، من الجهاد والمشورة والجمعة وغيرها، كل أمر عام جامع للمسلمين ليس أمرًا خاصًا بهم إذا اجتمعوا لا يذهبون حتى يستأذنوك؛ لأن ذهابهم بدون استئذان يؤدي إلى الفوضى واختلال النظام، فلو فرض أنه نودي: الصلاة جامعة، واجتمع الناس للتشاور في أمر، ثم قام واحد بعد أن حضر الناس قام وانصرف بدون استئذان، نقول: هذا حرام ولا يجوز؛ لأن هذا يؤدي إلى تفكك هذا الاجتماع وإلى الفوضى وعدم النظام، فإذا اجتمع المسلمون على أمر جامع يعني: عامًّا للمسلمين فإنه لا يجوز لأحد أن ينصرف إلا بعذر وبعد الاستئذان، لما في ذلك من الضعف للباقين لأنه لو رآه أحد يقوم قام الثاني وقام الثالث وهكذا، وكما هو مشاهد الآن أنه إذا قام واحد من المجتمع، فإنه يتبعه أُناس ويكون هذا بمنزلة الجدار الذي انهدم منه ثلمة لا يتماسك فيما بعد.

فالحاصل: أن المؤمنين حقيقة هم الذين إذا كانوا مع الرسول ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ أي: شامل وعام، كالتجمع للجهاد، والتجمع للمشاورة، والتجمع لأمر هام يتعلق بالمسلمين عمومًا، فإنهم لا يذهبون من مكان الاجتماع حتى يستأذنوا النبي ﷺ.

ثم إن المؤلف قيده بقيد لا بد منه قال: [لعروض عذر لهم] أي: لا يقوموا إلا لعذر، فلابد من العذر، والعذر أمر خفي لا يُعْلَم، ولابد من الاستئذان ليتبين لجميع الحاضرين عذرهم، ولا يكون في ذلك خلل عليهم.

وهذا عام لكل الاجتماعات العامة لمصلحة المسلمين، فلا يجوز لأحد أن ينصرف إلا لعذر، وبعد الاستئذان.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور:٦٢] لا شك أن ترتيب الجملة على هذا يدل على الشرف ورفعة المكانة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فإن أولاء: اسم إشارة تدل على تعظيم المشار إليه؛ ولهذا جاءت بصيغة البعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى علوِّ مرتبتهم، ثم جاءت مؤكدة بإن، ثم جاءت بالجملة الاسمية ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فحصر الإيمان بالله ورسوله في هؤلاء الذين يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كانوا معه ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، يستأذنونه قبل أن ينصرفوا.

قوله: [﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ أمرهم ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ بالانصراف

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾].

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فاشترط الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الاستئذان لشيء من الشئون يعني: لأمر من أمورهم التي يُعذَرُون بها في التخلف عن الجمع.

ثم قال للرسول: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فجعله أيضًا مُخَيَّرًا في الإذن وعدمه، وهذا التخيير هل هو تخيير تشهٍّ وإرادة مطلقة أو تخيير مصلحة؟

الجواب: تخيير مصلحة، فما هو الضابط لتخيير المصلحة وتخيير التشهي والإرادة المطلقة؟

إذا كان التخيير من أجل الرفق بالمكلف فهو: تخيير تشهٍّ، مثلما يوجد في بعض الكفارات ككفارة اليمين، قال تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

أي إذا كان الغرض من التخيير مراعاة التسهيل على المكلف فهو من باب التشهي، يعني: ما تشتهي افعله، وإذا كان التخيير من أجل مصلحة عامة أو خاصة فإنه تخيير مصلحة، وذلك فيما إذا كان يتعلق بالغير، فتخيير مثلًا ولي اليتيم في بيع ماله أو حبسه، أو إقراره، أو عدم إقراره، هذا من باب تخيير المصلحة؛ لأنه يتصرَّف بغيره، وكذلك أيضًا تخيير النبي ﷺ هنا ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾ هذا تخيير مصلحة، إذا كان إذنُ الرسول ﷺ لهؤلاء لا يضر بالجمع، وفيه أيضًا مصلحة بيِّنَة لهم أكثر من مصلحة ببقائهم، فهنا يتعين الإذن، وإذا كان يُخشى إذا أَذِنَ لهم أن يكثر المستأذنون وينهدم هذا الجمع، أو أن بقاءهم في هذا الجمع أصلح لهم من ذهابهم لشأنهم؛ فهنا يتعين ألا يأذن لهم، فتخيير النبي ﷺ هنا يرجع إلى المصلحة، إذا اقتضت المصلحة بالإذن أَذِن، وإلا فلا.

وقوله تعالى: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ عبر بالبعض إشارة إلى أنهم إذا استأذنوا لأمر مهم، وإن لم يكن شئون متعددة، فإنه يكون عذرًا في جواز الاستئذان والإذن لهم.

ثم مع ذلك قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ وهذا الاستغفار لهم؛ لتطييب قلوبهم إذا انصرفوا عن هذا الجمع وفاتهم أجره فاستغفر لهم الرسول ﷺ فإن قلوبهم تطيب بالانصراف، ولا يبقى في قلوبهم حرج وقلق ـ هذه من جهة ـ، ومن جهة أخرى: لأنه قد يكون في استئذانهم هذا أمرًا لا يُعذرون فيه، هم ظنوه عذرًا فاستأذنوا من أجله، وهو ليس بعذر عند الله فيكون استغفارك لهم ماحِيًا لما عسى أن يكون من التقصير، والتفريط في ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا تقدم الكلام عليه مرارًا وقلنا: إن المغفرة في جانب الذنوب، والرحمة في جانب حصول المطلوب، ففي المغفرة النجاة من المرهوب، وفي الرحمة حصول المطلوب.

قال الله تعالى مؤدبًا عباده:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]

التفسير

[قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بأن تقولوا: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله يا رسول الله، في لين وتواضع وخفض صوت... إلخ].

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، ﴿دُعَاءَ﴾ - على كلام المؤلف - بمعنى: نداء، ومنه قولهم: دعوت فلانًا أي: ناديته، وعلى هذا فدعاء مضاف إلى مفعوله؛ لأن دعاء مصدر يضاف إلى مفعوله، وفاعله محذوف والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فحذف الفاعل، وأضيف المصدر إلى مفعوله، أي: دعاؤكم الرسول.

وقوله: ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ هذا مضاف إلى فاعله، ومفعوله بعضًا يعني: كما إذا دعا بعضكم بعضًا، فإننا عندما يدعو بعضنا بعضًا نقول: يا فلان، لكن النبي ﷺ له من الحق والإكرام ما لا يليق بنا أن ندعوه باسمه، بل نقول: يا نبي الله ويا رسول الله، وقد التزم الصحابة ﷺ هذا الأدب، فصاروا ينادون النبي ﷺ بوصفه بالنبوة أو بالرسالة، وما ورد على خلاف ذلك من أقوال الصحابة أو دعائهم فإما أن يكون قبل النهي، وإما أن يكون من جاهل، كالذي يحصل من بعض الأعراب.

هذا ما ذهب إليه المؤلف وبعض المفسرين.

وقال آخرون: المراد من دعاء الرسول أي: دعاء الرسول إياكم فيكون المصدر مضافًا إلى فاعله أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم كدعاء بعضكم بعضًا، إن شئتم أجبتم وإن شئتم تركتم، بل إن النبي ﷺ إجابته فرض، وعليه: فإذا أمرنا بأمر أو دعانا لأمر، فإن إجابته فرض علينا ليس كغيره إن شئنا أجبنا وإن شئنا تركنا، وعلى هذا فيكون في الآية نهيٌ عن معصية الرسول ﷺ وأمرٌ بطاعته.

قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ويؤيد هذا قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإن سياق الآية يؤيد هذا القول.

لو قيل بأن الآية شاملة للمعنيين يجوز أو لا يجوز؟

الجواب: يجوز أن نجعلها شاملة للمعنيين؛ لأننا أطلقنا قاعدة بهذا؛ وهو أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين بدون تناقض فإنها تُحمل عليهما جميعًا، أما إذا كانت تحتمل المعنيين، لكن معنى كل

آية مخالف للآخر، فإنه حينئذٍ يجب طلب الترجيح الذي يرجِّح أحد المعنيين فيؤخذ به، وأما إذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا.

فعليه نقول: إن هذا من باب الأدب في مخاطبة الرسول ﷺ، والأدب في إجابته، في مخاطبته، ما نجعل مخاطبته ودعاءنا إياه كدعاء غيره، وفي إجابته لا نجعل دعاءه وطلبه لأمر من الأمور كطلب غيره، ومن ثَمَّ قال أهل العلم: لو دعاه النبي ﷺ وهو يصلي تجب عليه الإجابة.

ولو دعاه والده وهو يصلي: فإن كان في فريضة لم يُجبه، وإن كان في نافلة أجابه إلا أن يعلم رضا والده بذلك بحيث يشعره أنه يصلي، فلا يهمه إذا كان يصلي ألَّا يجيب فهذا لا يجيبه، وأما إذا كان والده من الناس الذين لا يَعْذِرُون وكذلك والدته، فإنه يجيبه في النفل ويقطع صلاته.

[قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يخرجون من المسجد في الخطبة من غير استئذان خفية مستترين بشيء، و﴿قَدْ﴾ للتحقيق].

قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ التسلل معناه: الخروج بخفية.

وقوله: ﴿لِوَاذًا﴾ أي: لائذين بشيء فهو مصدر في موضع الحال، أي يتسلل ويلوذ بشيء كالسارية مثلًا أو بشخص آخر، وما أشبه ذلك.

وقول المؤلف: في الجمعة، هذا بناءً على أن المراد بالأمر الجامع: خطبة الجمعة، وإذا قلنا: إن المراد به ما هو أعم أصبح يتسللون عن موضع الجمع، سواء في الجمعة أو في غيرها، فالله تعالى عالم بهؤلاء الذين يتسللون لائذين بشيء؛ لأنهم خرجوا عما صار المسلمون وعما يجب عليهم أن يكونوا عليه.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ قال المؤلف: ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، وإنما نَصَّ على ذلك؛ لأن كما هو معروف في علم النحو أن (قد) إن دخلت على ماضٍ فهي للتحقيق، وإن دخلت على مضارع فهي للتقليل مثل قولك: قد يجود البخيل، وقد يفهم البليد، فهذه للتقليل، لكنها أحيانًا تأتي للتحقيق مثل هذه الآية ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب:١٨].

وإنما جاء بالمضارع هنا لأجل أن يتبين أن هذا العلم ليس لما مضى فقط، بل ولما يُستقبَل، فعلم الله بهؤلاء المتسللين ليس علمًا بمن سبق تسلله؛ بل بمن سبق تسلله وبمن يأتي بعد ذلك.

وإخباره بأنه عالم به دليل على أنه سيجازيهم عليه، إذ لا فائدة من الإخبار بالعلم إلا ليكون مجازاة على ذلك.

ثم قال الله تعالى: [﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: الله أو رسوله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاء ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة].

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾: اللام لام الأمر، ولهذا سُكِّنَت بعد الفاء، ومعنى يحذر: يخاف، ولكنه إنما تقال

الحذر في مخوف مُحقَّق، المخوف غير المحقق يقال: فليخف، لكن فليحذر: دليل على أنه واقع هذا الخوف ويجب الحذر منه.

وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ المُتبادِر أن يقال: يخالفون أمره؛ لأن المخالفة فعل مُتَعَدٍّ بنفسه، لا بـ(عن) فكيف تُخرج الآية؟

على حسب ما علمنا فيما سبق أنه تخرج على أحد وجهين: إما أن يُجعل التجوُّز في الحرف، وإما أن يجعل التجوز في العامل، فهنا إما أن نقول: ﴿عَنْ﴾ زائدة، وإما أن نقول: إن يخالفون بمعنى: يخرجون عن أمره، وعليه فتكون ﴿عَنْ﴾ أصلية لا زائدة؛ لأننا ضَمَّنا الفعل معنًى يناسب هذا الحرف، فصار هذا الحرف في موضعه، وأن هذا الأخير هو الأصح: (كل ما جاءك حرف لا يتعلق بمثل عامله ظاهرًا فإننا نُؤَوِّل ذلك العامل إلى عامل يناسب ذلك الحرف، ويسمى هذا التضمين، يعني: تضمين الفعل فعلًا مناسبًا للمعمول).

وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ على الوجه الثاني بأن يخالفون تضمنت معنى يخرجون، يعني: يخالفون فيخرجون عن أمره، كأن إذ ضُمن الفعل الموجود فعلًا آخر، صار فيه دليل على معنى الفعل الموجود ومعنى الفعل المُضَمَّن، فالمعنى يخالف ويخرج، أي: يخرج مخالفًا لأمره.

وقوله: ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يقول المؤلف: [أي: الله أو رسوله].

هذه «أو» ليست للشك، ولكنها للتنويع، يعني: إما أن يكون الضمير عائدًا إلى الله، وإما أن يكون عائدًا إلى الرسول ﷺ، أيهما أرجح؟

إذا نظرنا ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ قلنا: للرسول، وإذا نظرنا إلى قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قلنا: إنها عائدة إلى الله، يكون هذا مُفرَّع على ما يفيده قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ من التهديد، يعني: قد يعلم الذين يتسللون، فليحذر هؤلاء أن يخالفوا أمر الله - عز وجل - ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر الله أن تصيبهم.

والمعنيان لا منافاة بينهما؛ لأن أمر الرسول ﷺ من أمر الله - تعالى -، فمن خالف عن أمر الله، فهو مُهَدَّدٌ بهذا الوعيد، ومن خالف عن أمر الرسول فهو مُهَدَّدٌ بهذا الوعيد، وهذا من بلاغة القرآن، حيث يأتي اللفظ صالحًا لمعنيين، فيشمل هذا وهذا، والسياق يؤيد أنها للرسول- ﷺ- وأقرب مذكور يؤيد أنها لله، ولكن ما أشرنا إليه: أمر الله وأمر رسوله شيء واحد.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَسَّرَ المؤلف الفتنة بالبلاء، والعذاب الأليم من الآخرة، وفي هذا نظر ظاهر فإن الفتنة ما تطلق على البلاء، إنما تطلق - كما سبق - على الصد عن دين الله، فمعنى الفتنة كما قال الإمام أحمد: الشرك؛ لأن الإنسان إذا رَدَّ بعض قول الرسول- ﷺ- وخالف أمره فهو لِهَوًى في نفسه، فيكون هذا الهوى معبودًا له، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾

[الجاثية:٢٣] وإذا سَهُل عليه المخالفة أول مرة سهل عليه أن يخالف بعدها؛ لأن المعاصي - في الحقيقة - سياج منيع هائل بين الإنسان وبين ربه، فإذا انتهك أول معصية سهلت عليه المعاصي.

وجرب نفسك حينما تخالف في أمر من الأمور، تجدك أول مرة خائفًا ولا تُقْدِم بسهولة لكن بعد هذه المرة في الثانية والثالثة والرابعة يكون الأمر عليك سهلًا، فالصحيح أن المراد بالفتنة هنا: الشرك كما قاله الإمام أحمد؛ لأنها من الصدِّ عن دين الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

وأما ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، ولم يقيده الله تعالى في الآخرة، فهذا قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون فيهما جميعًا.

استدل العلماء بهذه الآية على أن الأصل في أمر الله ورسوله الوجوب، ووجه الدلالة: حيث حذَّر من هذين الأمرين فيمن خالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ، والتحذير من العقوبة دليل على أن المخالفة حرام؛ لأنه لا يُحذَّر من العقوبة إلا في أمر محرم، أما الأمر الذي ليس بمحرم فلا عقوبة فيه حتى يحذَّر منه.

وقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَوْ﴾: هذه هل هي مانعة اجتماع؟ أو مانعة خلو؟ يعني: هل المعنى إما هذا أو هذا ولا يجتمعان فتكون مانعة اجتماع مثل: تزوج هندًا أو أختها. هذه مانعة اجتماع؛ لا يمكن أن يجتمعا، فهل نقول إن هذه مانعة اجتماع، أو مانعة خلوّ، بمعنى أنه لا يخلو من أحدهما وربما يجتمعان؟

الجواب: مانعة خلو بمعنى: أنه لا يخلو من أحد هذين الأمرين المتوقعين أو منهما جميعًا؛ لاسيما إذا قلنا بأن الفتنة: الشرك، فإن العذاب الأليم ملازم لها.

الفوائد:

١ - في الآية دليل على: أن الإيمان ينقسم إلى ناقصٍ وكامل؛ لأن عدم الاستئذان في الأمر الجامع لا يوجب الكفر، ولكنه معصية تنافي كمال الإيمان، فالإيمان قد يراد به: مطلق الإيمان وقد يراد به: الإيمان المطلق، والفرق أن مطلق الإيمان يصدق ولو بإيمان ناقص، والإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل، ففرق بين مطلق الإيمان بأن تضيف مطلق إلى إيمان، وبين أن تصف الإيمان بالمطلق، فالإيمان المطلق أي: الكامل، ومطلق الإيمان أي: أن يكون مع الإنسان أصل الإيمان، وإن لم يكن كاملًا، ففي قوله تعالى في كفارة القتل: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

المراد بالإيمان هنا: مطلق الإيمان؛ لأنه لا يشترط في عتق الرقبة أن يكون المعتَق كامل الإيمان، بل يكفي أن يكون مؤمنًا، ولو أن معه أصل الإيمان فقط.

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور:٦٢] في هذه الآيــة، وفي

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] المراد بالإيمان: الإيمان المطلق، يعني: الإيمان الكامل هو الذي يكون على هذه الأوصاف.

٢ - **وفي الآية دليل على**: أن ولي الأمر يجب عليه التيسير على من تحت يديه؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور:٦٢].

٣ - **وفي الآية دليل على**: أن الاستئذان بدون عذر لا يُغفر؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أما إذا استأذنوا لمجرد أنهم يرون أن يتركوا العمل؛ فإنه لا يؤذن لهم.

٤ - **وفيها أيضًا دليل على**: تفويض الأمر إلى من له ولاية؛ لقوله: ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ ولكن هذا التفويض - كما أشرنا إليه - تفويض للمصلحة، لا لمجرد التشهي والإرادة، بل إذا رأى أن في الإذن لهم مصلحة أَذِنَ لهم، وإذا رأى أن المصلحة في عدم الإذن فلا يجوز أن يأذن لهم.

٥ - **وفيها أيضًا**: عناية الله - سبحانه وتعالى - بعباده المؤمنين؛ حيث أمر النبي ﷺ أن يستغفر لهم ليطمئنوا على هذا الانصراف.

٦ - **وفيه أيضًا**: أن الأولى عدم الاستئذان حتى لو أن الإنسان له شأن؛ لأن الأمر بالاستغفار دليل على أن هناك شيئًا من التفريط الذي أُمِرَ النبي ﷺ بأن يستغفر لهم عليه، وهذا صحيح بلا شك أن الأولى البقاء مع الجماعة، وأن الإذن أو الاستئذان بالانصراف أمر قد يكون فيه ذنب، ولهذا أمر الله نبيه أن يستغفر لهم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

٧ - **وفي الآية دليل أيضًا على**: انتفاع الإنسان بدعاء غيره لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كثيرة، ولكن هل ينتفع الإنسان بعمل غيره - سوى الدعاء - أو لا ينتفع؟

الجواب: إن كان له أثر في ذلك العمل، فإنه ينتفع به بلا شك؛ مثل: أن يكون هو الذي سنَّ هذه السنة، يعني: ابتدأ العمل بها للناس، ودلَّ عليها، فإن النبي ﷺ يقول: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(١) وكذلك إذا كان له أثر في العامل مثل أن يكون والدًا له: «**فَإِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»(٢) فالوالد ينتفع بعمل ابنه إذا تبرع به له.

ولهذا جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي احتُبِسَت نفسها وإنها لو تكلَّمت

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

لتصدَّقَت، أفأتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ»[1]، وكذلك المرأة التي سألت النبي ﷺ: على أمها صوم شهر فهل يُجزِئ أن تصوم عنها فأذن لها النبي ﷺ[2]، وكذلك الحج: حيث سألت امرأة النبي ﷺ فقالت: إن أباها أدركته فريضة الله على عباده بالحج شيخًا لا يستطيع الركوب على الراحلة، أفأحج عنه قال: «نَعَمْ»[3] وذلك في حجة الوداع.

فإذا كان للإنسان أثر في العمل أو في العامل انتفع به، لكن إن لم يكن له أثر فيهما؛ مثل أن يتبرع قريب لقريبه أو صديق لصديقه في عمل صالح، فهل يجزئ ذلك أو لا يجزئ؟

اختلف في ذلك أهل العلم: منهم من يرى أنه يجزئ، وأن الإنسان لو عمل عملًا صالحًا وجعل ثوابه لشخص من المسلمين فإنه ينتفع به، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد، على أن أي قُرْبة وطاعة يتقرب بها العبد إلى الله ويجعل ثوابها لمسلم حي أو ميت فإنه ينتفع بذلك، ودليلهم على هذا قياس غير الأولاد على الأولاد، قالوا: لأنه إذا جاز أن يصل عمل غير الإنسان إليه، فلا فرق بين أن يكون ولدًا أو غير ولد.

والذين قالوا بالمنع قالوا: إن الولد ليس كغيره؛ لأن الولد من أثر الإنسان ومن كسبه وفعله، وليس كالأخ والقريب والصديق ونحوهم.

أما الدعاء للمسلمين، فهذا أمر مجمع عليه، وفيه نص الكتاب والسنة والإجماع، ولا أحد يخالف في ذلك.

فإذا سألنا سائل أيهما أولى: أن أصلي ركعتين وأتصدق بثوابها لشخص من أقاربي غير الأب، أو أن أدعو لهذا الشخص في صلاتي؟

نقول: الأفضل أن تدعو له في صلاتك؛ لأن هذا أمر مُجْمَع على نفعه، وأما أن تتصدق عليه بثواب صلاتك فهذا مختلف فيه، من العلماء من يرى جوازه ومنهم من يرى أنه ليس بجائز، وليس بمشروع، وأن الميت لا ينتفع به.

هذا في غير من استُؤْجِرَ لعمل صالح ليهديه إلى غيره، كاستئجار بعض القرّاء ليقرءوا قرآنًا للميت فإن هذا لا ينتفع به الميت قطعًا؛ لأن هذا الرجل الذي قرأ لأجل المال إنما قرأ للدنيا، ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فليس له حظ في الآخرة، وعلى هذا فلا ثواب لهذا القارئ وإذا لم يكن له ثواب هل ينتفع الميت بذلك؟ لا؛ لأنه إنما ينتفع بالثواب لا بمجرد القراءة، فإذا قلنا: إن هذا القارئ لا ثواب له لأنه أراد بعمل الآخرة الدنيا، بقي الميت غير مستفيد من هذه القراءة.

٨ - **ويستفاد منها**: وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وأنه لا يجوز للإنسان أن يناديه كما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤).

ينادي غيره من الناس لما له من التعظيم والتوقير.

٩- وفيه أيضًا ـ على الوجه الثاني في معنى الآية ـ: أن دعاء النبي ﷺ للأمة ليس كدعاء غيره، فإذا دعاك إلى أمر أو أمرك به، فإنه يجب عليك ألا تجعل هذا الدعاء كدعاء غيره، لما في إجابته من امتثال أمر الله ورسوله.

١٠- وفيه أيضًا: تحريم المتسللين في الأمور الجامعة بدون عذر واستئذان؛ لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

وهذه الجملة التي فيها أن الله يعلم، لا شك أنها تحذير لهؤلاء الذين يتسللون، وأنهم سوف يجازون على هذا العمل المحرم.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النور:٦٤]

❁ التفسير ❁

قوله: [﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا].

﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح، ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر إن مقدمًا، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ اسمها مؤخرًا، وتقديم الخبر يدل على الحصر، وتصدير الجملة بإن للتوكيد، وبألا للتنبيه والتوكيد أيضًا؛ لأن ألا الاستفتاحية تفيد التوكيد والتنبيه أيضًا، فإذا قلت: (ألا) فهذا قرع للسمع كأنك قرعت سمع المخاطب ثم تؤكد ذلك، ولهذا تجدون غالبًا «ألا» الاستفتاحية ملازمة لأداة توكيد ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:٦٢]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥]، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٥٥]؛ لأنها هي تفيد التوكيد، وعلى هذا فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين: بألا الاستفتاحية، والثاني: بإن المؤكدة.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه أُتِيَ بها بعد قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ كالدليل على أن ما حذر الله من الفتنة والعذاب الأليم على أنه أمرٌ لا يُعْجِزُ الله؛ لأن الله تعالى له ملك السموات والأرض، ومَنْ له ملك السماوات والأرض، فإنه لا يعجز عن تنفيذ ما هدد به وإيقاعه.

[﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿عَلَيْهِ﴾ من الإيمان والنفاق ﴿وَ﴾ يعلم ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾... إلخ].

﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ مر علينا أن قد إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها تفيد التقليل، كما في قولهم: قد يجود البخيل، لكنها تدل على التحقيق إذا دلَّت القرينة على ذلك، فهنا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ لا يمكن أن نجعلها للتقليل؛ لأن علم الله - عز وجل - ثابت مستقر، فتكون «قد» في هذا: للتحقيق، ولم يُعَبِّر بقوله: قد عَلِمَ ما أنتم عليه، إشارة إلى ما سيفعلونه في المستقبل وأنه عليم بما سبق وبما يصدر، فهنا الاستقبال ليس للعلم ولكن للمعلوم، ليس للعلم؛ لأن علم الله - سبحانه وتعالى - سابق أزلي، وإنما هو للمعلوم الذي سيفعله هؤلاء فإن الله تعالى يعلمه باستمرار.

وقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يقول: الخطاب للمكلفين ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ أيها المكلفون، ولو جعله للناس عمومًا لكان أولى، فيكون: ما أنتم أيها الناس عليه؛ ليشمل المكلَّف وغير المكلَّف؛ لأن غير المكلف أيضًا يثاب على ما يفعل من الأعمال الصالحة، ولا يُكتَب عليه ما يعمل من الأعمال السيئة، وعلى هذا فالله تعالى عليم بما هو عليه حتى غير المكلف.

وقوله: [من الإيمان والنفاق] ينبغي أن يكون هذا من باب التمثيل، وليس من باب الحصر؛ لأن الله يعلم ما نحن عليه ليس من الإيمان والنفاق فقط، بل من الإيمان والنفاق والعمل الصالح والعمل السيئ والرخاء والشدة وغير ذلك، كل ما نحن عليه من الأحوال والأعمال، فإن الله تعالى يعلمه.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ لما ذكر الله ما نحن عليه في الدنيا، ذكر ما نكون إليه يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني: ويعلم يوم يُرجعون إليه، كأنه تعالى بالعمل فيما نحن عليه في الدنيا حال العمل، ويوم نُرجع إليه حال الحساب والجزاء، فهو عالم بالحالين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فيه التفات عن الخطاب أي: متى يكون].

فهذا لا بأس به قوله: متى يكون. ولكن لنا عليه مناقشة.

قوله: [فيه التفات عن الخطاب]، كيف عن الخطاب؟ يعني: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ هذا خطاب، ومقتضى السياق أن يقال: ويوم ترجعون إليه، لكنه التفت عن الخطاب إلى الغيبة، وفائدة الالتفات: تنبيه المُخَاطَب؛ لأن الأسلوب إذا تغير فلابد أن ينتبه المخاطب، بخلاف ما إذا كان الأسلوب على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، ولا يجد شيئًا يوجب الانتباه.

وللالتفات أيضًا فوائد أخرى تُفهم من السياق، لكن الشيء المهم الدائم هو التنبيه، لكن قد يكون فيه فوائد أخرى كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢ - ٤] هذا كله غيب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] هذا خطاب.

الفائدة منه: التنبيه، والفائدة الثانية: هو أنه لما وصفت الله بتلك الأوصاف، كأنه صار الآن أمامك فخاطبته مخاطبة الحاضر؛ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: [متى يكون] في هذا نظر؛ لأنه ليس المراد أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم يوم يرجعون إليه متى يكون فقط، بل يعلم حالهم حينما يرجعون إليه، مع علمه أيضًا متى يرجعون إليه، فمتى يرجعون إليه عالم به بلا شك، لكن السياق لا يؤيده، بل يؤيد أنه عالم به: حال عملهم وحال الجزاء على العمل، فيصير المعنى ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ماذا يكونون عليه من الحال، كما أنه يعلم متى يرجعون سواء كان رجوعًا عامًّا كيوم القيامة، أو خاصًّا كموت الإنسان هذا أيضًا مرجعه إلى الله عز وجل.

وقوله: [﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فيه أي: في هذا اليوم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الخير والشر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾].

﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: من خيرٍ وشر، وفائدة الإنباء هو الاستقرار، يعني: يستقرهم حتى يكون جزاؤهم على وجه العدل الذي أقروا به هم، فلا يقولون: إنما ظُلمنا، فالله يقول: عملتم كذا وعملتم كذا، حتى يقروا بذلك ثم بعد هذا الإقرار يترتب الجزاء، فضلًا أو عدلًا؛ لأن الجزاء إما فضل، وإما عدل، وإما جَوْر، فالثالث الأخير مُنتفٍ عن الله، والأولان ثابتان، فإن جزاءَهُ سبحانه وتعالى بين العدل والفضل، فجزاء الحسنات من قبيل فضل، وجزاء السيئات من قبيل العدل إذا جازى كل سيئة بمثلها، وإن عفا ـ سبحانه وتعالى ـ فهو من باب الفضل.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا عام، كل شيء من أعمال بني آدم صغيرها وكبيرها، ومن غيرها أيضًا فإن الله تعالى عليم بها، والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فالله تعالى مُدْرِكٌ كل شيء إدراكًا جازمًا، فإنه سبحانه وتعالى ليس في علمه شك ولا ظن، بل كل علمه علم يقيني.

الفوائد

في هذه الآية من الفوائد:

١ - **فائدة لفظية وهي:** أنه ينبغي تأكيد الأمور الهامة والتنبيه عليها، وأن تُصَدَّر الأمور الهامة بما يؤكدها، وينبه عليها؛ لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنَّ عِلمنا بذلك وإقرارنا به واعتقادنا له هذا أمر مهم، ولهذا أُكِّد بألا وإن.

٢ - **وفيها:** عموم ملك الله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣ - **وفيها:** عموم علمه؛ لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ وإن علمه ـ تبارك وتعالى ـ في الحاضر والمستقبل لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويعلم يوم يرجعون إليه.

٤ - **وفيها:** إثبات الميعاد والبعث لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

٥ - **وفيها أيضًا:** إثبات الحساب لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾.

ثم هذا الإنباء هل هو مناقشة أم مجرد إخبار؟

الجواب: هنا ليس بمناقشة بل مجرد إخبار؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّب»[1] أو قال: «هلك»؛ لأن لو نُوقش وقال مثلًا: عملت كذا وكذا من الأعمال الصالحة، وثبت ذلك له ثم قوبلت هذه الأعمال بنعمة من النعم استوعبتها النعمة وخلصتها، وبقي الإنسان مطلوبًا، هذا المناقشة لكنها تعرض الأعمال حتى يُحِيطَ بها العبد، ثم بعد ذلك يرتِّب الله الجزاء كما يريد وكما يشاء.

أما بالنسبة للكفار، فإنهم لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، لأنهم ما لهم حسنات، وإنما تعرض عليهم الأعمال على وجه العار والخزي - والعياذ بالله - حتى يُقِرُّوا بها ويقولوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، ثم يكون بعد ذلك مآلهم النار.

٦ - **وفيها أيضًا**: دليل على عموم علم الله لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ وفائدة ذكر عموم العلم: التحذير من المخالفة؛ لأن من عَلِمَ بك ممتثلًا أو مخالفًا فسوف يجازيك على ذلك، فإذا كان الأمر هكذا، ففي كل آية فيها إثبات العلم تحذير من مخالفة الله - عز وجل - لئلا يقع الإنسان فيما يُسْخِطُ الله - سبحانه وتعالى - عليه.

٧ - **وفيه فائدة لفظية أيضًا**: وهي التحول: تحويل الخطاب من الغيبة إلى الخطاب، أو من الخطاب إلى الغيبة الذي يسميه أهل البديع الالتفات، وهذا لا يخلو من فائدة وهي: تنبيه المُخَاطَب وله فوائد مضافة إليها حسب ما يقتضيه السياق.

تم - بحمد الله - تفسير سورة النور

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

الفهرس

التَّفْسِيرُ الثَّمِينُ

لِلعَلَّامَةِ العُثَيْمِين

تفسِيرُ سُورَةِ النَّمل
تفسِيرُ سُورَةِ القَصَص

اعتنى بِهِ

أشرف بن كمال

الجزء الثامن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النمل
تفسير سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنةُ الطَبْـع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقمُ الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقمُ الطَبْعة : الأولى

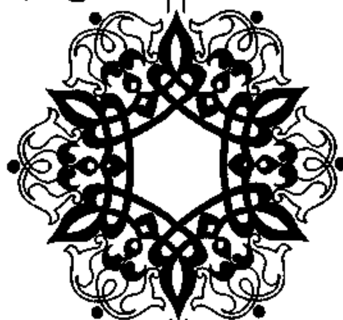

مكتبة الطبري
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة النمل

تفسير سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه سورة النمل، وسميت به لذكر النمل فيها، وتسمية السور، يكون بأدنى مناسبة؛ ولهذا سميت سورة البقرة لذكر البقرة فيها، ولا يمتنع أن تسمى السورة بعدة أسماء لعدة مناسبات.

وهي مكية، والفرق بين المكي والمدني: ما نزل قبل الهجرة؛ فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وقيل: المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.

وقيل: المكي ما فيه ذكر الأصول: أصول الإسلام، أو الإيمان.

والمدني: ما فيه ذكر الفروع.

على الأول: يكون المعتبر الزمن، وعلى الثاني: المعتبر المكان، وعلى الثالث: المعتبر الموضوع.

ولكن الذي عليه الحق: يكون، ما كان بعد الهجرة فهو مدني، وما قبلها فهو مكي.

أما البسملة فقد تقدم الكلام عنها عدة مرات، وبينا أن أحسن ما تُقَدَّر به أن يكون فعلاً مناسبًا متأخرًا، أن يكون فعلاً؛ - لأن الأصل في العمل الأفعال -، متأخرًا: لفائدتين هما: الأول: التبرك بتقديم اسم الله، والثاني: إفادة الحصر، يعني بسم الله لا بسم غيره.

فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التقدير بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ، ويجوز أن تقدر أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ويجوز أن تقدر قراءتي بسم الله الرحمن الرحيم، أو بسم الله الرحمن الرحيم قراءتي، ولكن ما ذكرنا أولاً هو الأرجح، وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى رجحانه لحديث النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[1]، فذكرها فعلاً، ولم يقل فليكن ذبحه قال فليذبح على اسم الله.

قال الله تعالى:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ١-٣]

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٠٠) ومسلم (٢/ ١٩٦٠) من حديث جندب بن سفيان ﷺ.

التَّفسِيرُ

قوله الله تعالى: ﴿طسٓ﴾، [الله أعلم بمراده بذلك]، هذا ما سلكه المؤلف وجماعة من أهل العلم؛ بأن هذه الحروف الهجائية الموجودة في أوائل بعض السور موقفنا منها أن نقول: الله أعلم بمراده بذلك، وقد سبق في مواضع كثيرة أن الراجح من ذلك أن هذه الحروف هجائية، وأنه بمقتضى كون القرآن بلسان عربي يقتضي أنه لا معنى لها، وهذا قد روي عن مجاهد، وأنها حروف هجائية أتى الله بها ليس لها معني، وعلى هذا نجزم بأنه لا معنى لها؛ لأنه لا معني لها، ولكن لها مغزى، وهو: أن هذا القرآن الذي أعجز هؤلاء الفصحاء البلغاء، إنما هو من هذه الحروف الهجائية التي يتكون منها كلامنا، ويؤيد ذلك أنه ما من حروف هجائية إلا ويأتي بعدها ذكر القرآن، اللهم إلا في سورتين وهما: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢]، ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١ - ٢] فإن فيها ما يدل على القرآن، كالأخبار في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾[الروم: ٢ - ٣]، وهذا من خصائص الوحي، و قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]، فيها - أيضًا - إخبار عمن مضى ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

وأما ما زعمه المتأخرون الخالفون من أن هذه الحروف تدل على إعجازٍ؛ حيث زعموا أن هذه الحروف الهجائية يوجد نظيرها في السورة المفتتحة بها، ويكون مجموع هذا منقسمًا على تسعة عشر، ويزعمون أن هذا أكبر آية من أن القرآن كلام الله، ويحتجون لذلك بأن أول آية نزلت على زعمهم هي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأنها مكونة من تسعة عشر حرفًا، وأن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدّثر:٣٠]، وأن هذا ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ هي هذه الحروف، كل هذا - والعياذ بالله - كذب، ولا ينضبط، وهو متناقض - أيضًا -، وغير مضطرد، لكنهم فرحون بهذا الكمبيوتر الذي أخرج لهم عدد الحروف، ونحن نقول: لا يمتنع أن الله أراد هذا، ولكننا نقول: لا نجزم بأن الله أراد هذا، فهناك فرق بين الجزم بأن هذه آية في القرآن، وبين أن نقول: لا نقول هذا، أولاً: لأنه ليس في ذلك إعجاز، والبشر قد يصنع خطبة أو كلامًا تتكون الحروف الموجودة فيه، وتنتظم على هذا العدد، أو على أي عدد كان، وليس بمشكل، ثم إن البسملة ليست أول ما نزل من القرآن، أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم إن البسملة - أيضًا - حروفها ليست كما قالوا: أنها تسعة عشر؛ لأن القرآن نزل مقروءًا أم مكتوبًا؟ مقروءًا، وهي بحروفها في القراءة، والقراءة ليست كذلك، والكتابة كما تعلمون هي قناع ربما لو فرض أن الكتابة في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وفي عهد الخلفاء ليست على هذا الشكل، ممكن أم غير ممكن؟ ممكن، الآن في بعض الكتابات لبعض اللغات يجعلون الحركة حرفًا، ويجعلون الحرف حرفين، أو يختصرون الحرفين حرفًا واحدًا، فالحاصل أن القرآن ما نزل مكتوبًا، وإنما نزل مقروءًا، ولا حجة في ذلك،

إذن نقول: الله أعلم بمراده بذلك، هذا أحد الأقوال في المسألة، والقول الثاني: أنها رموز لأشياء معينة مثل ما ذهب إليها المتأخرون، مثل ما يذكر بعضهم: أنها إشارة إلى حروب وملاحم تكون في آخر الزمان، وما أشبه ذلك، والثالث: أن يُقال أنها ليس لها معنى، وإذا، ورد علينا كيف نجزم بذلك؟ فالجواب: أن هذا القرآن نزل بلغة العرب، ولغة العرب لا تجد لهذه الحروف معنًى، لكنها إذا قلنا: بأنه ليس لها معنى فإنها لها مغزىً يظهر - والله أعلم - إن أراد بها ذلك.

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ آيات منه، ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهر للحق من الباطل، عطف بزيادة الصفة، هو ﴿هُدًى﴾ أي هاد من الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المشار إليه سابق، أم لاحق؟ المشار إليه لاحقٌ، وليس بسابق، وهذا مما تعود فيه الإشارة على متأخرٍ لفظًا، ورتبة، وهو جائز إذا دلَّ الدليل عليه.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [آيات منه]، وإنها لجأ المؤلف لقوله: [آيات منه]، لو أخذنا بظاهر ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكان في ذلك حصر للقرآن في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذا الذي نشير إليه، ومعلوم أن هذا ليس آيات القرآن كلها، ولكنه بعضٌ منها، ويجوز مثلاً أن نجعل الآية على ظاهرها، ولا حاجة إلى التأويل، ونقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يُشار إلى بعض الجنس والمراد الجنس كله، كما تقول مثلاً: هذا البشر، وتشير إلى رجلٍ واحد، أو هذا الإنسان، وتشير إلى رجلٍ واحد، فالمعنى أن الإشارة إلى بعض الجنس هنا للجنس كله، هذا ثابت ولا يحتاج إلى تأويل كما قال المؤلف.

وقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: [عطف بزيادة صفة]، عطف يمشي على آيات، لكن آيات مرفوعة، وكتاب مجرور، إذن على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾، تلك آيات القرآن، وتلك آيات الكتاب، وإنما وصف هذا القرآن بالقرآن، والكتاب؛ لأنه مقروء، ومكتوب، فهو مكتوبٌ باللفظ محفوظ، وهو مقروءٌ بالألسن، وهو مكتوبٌ في المصاحف - أيضًا - ، وكتابته سابقة، ولاحقة، وقراءته لاحقة؛ لأنه بعد أن تكلم الله به، ونزل به جبريل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٨]، والقرآن: مصدر غير مشتق؛ لأنه مثل الغفران والشكران، فهو مصدر قرأ يقرأ بمعنى: تلا، وقيل: إنه بمعني جمع؛ لأن القاف والراء تدل على الجمع، ومنه القرية؛ لأنها تجمع الناس في مكان واحد، وفي الحقيقة أن القرآن جامع للوصفين، فهو متلوٌ، وهو مجموع - أيضًا -.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ﴾ فهو فِعَال بمعنى: مفعول، أي: مكتوب، وفِعَال بمعنى: مفعول تأتي كثيرًا في اللغة العربية مثل بِناء بمعنى مبني، وغِرَاس بمعنى مغروس، وفِرَاط بمعنى مفروط، والأمثال كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: [مظهر للحق من الباطل]، كلمة مبين هي لغة أبان، وأبان يأتي لازمًا، ويأتي متعديًا، أي: يأتي بمعنى أظهر، ويأتي بمعنى بان، ولهذا تجد المؤلف يفسر ﴿مُّبِينٍ﴾

أحيانًا بمعني بيِّن، وعلى هذا التقدير يكون من اللازم غير المتعدي، ويُفسرها أحيانًا بمعنى مُظهِر فتكون من المتعدي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معنى مبين أي: بيِّن، فبيِّن منها بان اللازم، وأما مثل هذه الآية أن القرآن مبين، فهو بمعنى مُظهِر، وهل يستلزم كونه مظهرًا أن يكون هو بيِّنًا؟ نعم يستلزم، أو نقول: إنه من باب استعمال المشترك في معنيَيْن، والصحيح إيراده، وقد مرَّ علينا هذا، هل يجوز استعمال المشترك في معنيين؟ والمشترك - أيضًا - فهمناه من قبل: وهو ما اتحد لفظه، وتعدد معناه، هذا المشترك، وسُمي بذلك؛ لأن معاني المشترك مشتركة في لفظٍ واحد، المشترك الصحيح أنه يجوز استعماله في معنيين بشرط، أو بشرطين ذكرناهما، ألَّا يقع بينهما تعارض، وأن يكون محتملاً لهما، فإن كان لا يحتمل لهما لا يمكن الاعتماد عليه، أو كان بينهما تعارض، لابد أن يكون أحدهما هو المقصود، هنا مثلاً إذا قلنا: إن (بيِّن) من أبان اللازم، ومن أبان المتعدي يجوز، أم لا يجوز؟ يجوز، وإن كان هذا مشتركًا، لكنه إذا استعمل فإنه مستعمل على وجهٍ لا تعارض فيه، فالقرآن بيِّن، والقرآن - أيضًا - مبين مُظهِر، وعلى هذا التفسير، يكون دلالة المبيِّن على أن القرآن بيِّن دلالة مطابقة، أو دلالة التزام؟ دلالة مطابقة، إذا جعلنا مبين مستعملة في المعنيين الدلالة مطابقة، لكن لو قلنا: إن مُبين بمعنى مُظهِر فدلالته على كونه بينًا من باب دلالة الالتزام.

قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن مُظهِر للحق من الباطل، هل هو على عمومه، وإلا خاص بما نزل به القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وهو عامٌّ لكل شيء، لكن البيان قد يكون بيانًا للشيء على وجه التفصيل، وقد يكون بيانًا لأسبابه، وطرقه، فالقرآن حقيقة تبيان لكل شيء، حتى في غير الأمور الشرعية يبينها، لكن ما يبين تفصيلاتها؛ لأن هذه غير الأمور الشرعية خاضعة للزمن، والمكان، وأفهام الناس، وقوَّاتهم، لكنه يذكر الأسباب والطرق، وأن تستعملها في نفسك، ولهذا إذا قال قائل: كيف يصح هذا القول منكم، ونحن لا نرى في القرآن عدد ركعات الصلاة؟ ولا نرى فيه أنها خمس صلوات، ولا نرى أنصبة الزكاة، ولا مقادير الوقت فيها، فما هو الجواب؟

نقول: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، فالآية تجمع بين هذه الأمور كما قال ابن مسعود: فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ فَقَالَ عَبْدُ الله: وَمَا لِي لَا

أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ الله فَقَالَتِ المْرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَي المُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ فَقَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(1). القارئ للقرآن يعلم أنه بيان لكل شيء، لكن البيان قد يكون تفصيليًا، وهذا في بعض الأمور موجود، كما في المواريث والمطلقات مثلًا، ولا يشذ عن هذا إلا مسائل قليلة جدًّا، ومع ذلك بيانها موجود عند التأمل، وتفصيل الفرائض موجود في القرآن، كالجد، والأخوة، وغيرهما لكنه يحتاج إلى تأمل.

وأيضًا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]، إذن يكون القرآن مُنَزَّلًا على هذا ببيان سببه، وطريقه، فعندنا الآن طريقة للعلم بهذا الشيء، وهذا ما فسره الرسول ﷺ، إنما هذا بينه القرآن، ولا يلزم أن يكون هذا القرآن، لابد أن يسلك كل التفاصيل.

قال الله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [مظهر للحق من الباطل، عطف بزيادة صفة]، والصفة قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾.

ثم قال: ﴿هُدًى﴾ قدر المؤلف (هو) ليبين لنا إعراب هدى فعلى تقديره، يكون ﴿هُدًى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو هدي أي: هاد من الضلالة، ومعلوم أن هدي مصدر، وأن هادٍ اسم فاعل فيكون المؤلف هنا فسر المصدر باسم الفاعل، وفي تفسيره نظر؛ لأن الأولى أن يُجعل المصدر على بابه لسببين: السبب الأول: أن تحويل اسم الفاعل إلى المصدر أبلغ، فإنك إذا قلت: فلانٌ عدلٌ، وفلانٌ عادل، أيها الأبلغ؟ عدلٌ أبلغ، يعني كأنه مصدر العدل، لكن عادل متصفٌ بالعدل الموجود في غيره، فلا شك أن المصدر أبلغ، السبب الثاني في هذه الآية: أن جعله هدىً معناه: أن القرآن نفسه هدىً يهتدي به الإنسان، فهو كالعلم الذي يكون الإنسان وراؤه، حتى يصل إلى غايته، لذا سماه الله ـ تعالى ـ نورًا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٧]، فنحن نقول: ﴿هُدًى﴾ يجب أن تبقي على ما هي عليه أي: أنها مصدر، وهو أبلغ من تحويلها إلى اسم الفاعل، والثاني: أنها مصدر؛ وأن القرآن نفسه هدىً، ليس هاديًا، بل هو هدىً، مثلما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (بشرى) ـ أيضًا ـ بمعنى بشارة، لكن لمن؟ للمؤمن أي المصدقون بالجنة، قوله: [بالجنة] سنذكر هذا لاحقًا، قوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقون؟، ما يكفي هنا الإيمان مجرد التصديق، فالإيمان الموجود في القرآن لابد فيه من قبول، وإذعان، أما مجرد التصديق لا يكفي، والدليل على أن التصديق لا يكفي؛ أن أبا طالب كان مصدقًا لما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويقول:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيهم وَلا يُعنى بِقَولِ الأَبَاطِلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (١٢٠/ ٢١٢٥).

وقال أيضًا:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةً ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فإذن، هو ما قَبِل ولا أذعن؛ فلا نقول: إنه مؤمن، فالإيمان كلما وجدته في كتاب الله فالمراد به: التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ فليس مجرد تصديق، فإذن ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، المصدّقين به، القابلين له، المذعنين لأحكامه، لابد من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [بالجنة]، كما قال المؤلف: أم الله أعلم؟ الله أعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١]، ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣].

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يأتون بها على وجهها، أقام الشيء: أتى به مستقيمًا، ولا تكون الصلاة مستقيمة إلا إذا أتى بها على وجهها، وإقامة الصلاة نوعان: نوعٌ لابد منه وهو: الإتيان بالأركان، والواجبات، والشروط، ونوعٌ يكون على وجه الكمال وهو: الإتيان بالمكملات وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يعطون الزكاة إلخ.

قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هل المراد الفريضة أم النافلة؟ عام؛ لأنه لا يجوز لإنسان أن يأتي بالسنة مثلاً على وجهٍ ينافي الكمال الوارد، لو جاء واحد، وقال أنا أتطوع بسنن، لكنه لم يقرأ الفاتحة فنقول: الآن يجب عليك أن تقرأ الفاتحة؛ لأن قراءة الفاتحة من إقامة الصلاة، فإذن الآية للصلاة عامة، إقامتها في الواجب، وفي التطوع.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما بيّن المفعول الثاني في يؤتون، لكنه معلوم، وفي الصحيح: يؤتون الزكاة لمستحقها، وقد بيّن الله ـ تبارك وتعالى ـ مستحق الزكاة في سورة براءة ببيان واضح مُفصّل، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الزكاة لا حاجة إلى تعريفها، وسميت زكاةً؛ لأنها تزكي الإنسان ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هذا ثناء على المؤتين للزكاة، والسورة، كما رأينا مكية، فهل معنى ذلك أن الزكاة فرضت بمكة، أو بالمدينة؟ المعروف عند أهل العلم أنها فرضت بالمدينة، ولكن الصحيح أنها فرضت بمكة، ولكنَّ تقدير أنصبائها، وبيان الأموال على وجه التفصيل كان ذلك في المدينة، هذا هو الصحيح، وهو الذي به تجتمع الأدلة، وهذا من باب التطور في التشريع، فالإنسان يخرج ما شاء لأجل أن النفوس تتعود ثم بعد ذلك يُفرض عليه الأشياء الذي أرادها الله ـ سبحانه وتعالى ـ والكثير من الأشياء التي تطورت، الصلاة فرضت ركعتين ثم تطورت بعد ذلك فصارت هناك صلاة في السفر، و صلاة في الحضر، والزكاة هكذا فرضت أولاً على اختيار الإنسان، ثم حُدد

الصيام بعد ذلك على سبيل التخيير ثم عُيِّنَ، الحج ما أعرف فيه إلا أنه فُرض مرة واحدة، ولكن السبب في ذلك أنه أتى في السنة التاسعة، أو العاشرة بعد أن استقر الإيمان في القلوب، فلا حاجة إلى أن تُدرَّب النفوس من مرحلة إلى مرحلة.

هل يجوز التدرج في الأحكام؟

الظاهر لي: أنه يجوز، وأن نأمره بالأهم فالأهم، مثلما أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذ بن جبل[1] مع أن الأحكام مستقرة قال: أول ما تدعوهم إليه شهادة ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ثم إقام الصلاة ثم إيتاء الزكاة مع أن كل هذه كانت مفروضة ، وحكم الصوم، والحج ـ أيضًا ـ مفروض.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [يعلمونها بالاستدلال، وأُعيد ﴿هُمْ﴾ لما فُصل بينهم، وبين الخبر]. قوله تعالى: ﴿وَهُم﴾ مبتدأ،قوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ﴾ خبره، و قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: وهم هم الذين يوقنون بالآخرة دون غيرهم، أو، أن ﴿وَهُم﴾، كما قال المؤلف: [للفصل بين ﴿وَهُم﴾، وبين الخبر]، والفاصل قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ يحتمل هذا، وهذا، وقد يجوز أن يكون المراد هو التوكيد، فبين الله ـ تبارك وتعالى ـ أنهم هم أهل الإيقان حيث كرر الضمير مرتين، وكُرِّرَ ـ أيضًا ـ مرتين لوجود الفصل بين الخبر، ولكن الإيقان يقول المؤلف: [يعلمونها بالاستدلال]، وإنما قال بالاستدلال؛ لأن اليقين أخص من العلم، إذ إن اليقين هو العلم الذي لا يتطرق إليه الاحتمال، فهو أعلى درجات العلم، وهذا، إنما يكون بالاستدلال، ومن الأدلة المبينة المقنعة، ولهذا فسر المؤلف اليقين بأنه العلم بالأشياء عن طريق الاستدلال.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ليس المراد بالآخرة أنه فيه يبعث الناس فقط، لكن كلما أخبر الله ـ تعالى ـ بما يكون في هذا اليوم، وأخبر به رسوله فإنه يدخل فيه ما يكون بعد الموت، فعلى هذا تكون الآخرة المراد بها: ما بعد الدنيا دفنًا، وعذاب القبر، ونعيم القبر، ويشمل كذلك الموازين يوم القيامة، والحوض المورود للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما ذُكر.

هل بقي شيء من الإيمان؟ لأنه ذكر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة، ذكرنا أن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بالرسل، ويتضمن الإيمان بالكتب، ويتضمن الإيمان باليوم الآخر ـ أيضًا ـ ، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالقدر من الإيمان بالله؛ لأن القدر قدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكن بقي عندنا الصيام، والحج، وهما من أركان الإسلام، والجواب على ذلك أن السورة مكية، والصيام، والحج لم يُفرضا بمكة بالاتفاق، فالصيام فُرض في السنة الثانية، والحج فُرض في السنة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (٣١/ ١٩) ابن عباس رضي الله عنهما.

التاسعة، أو العاشرة على القول الراجح، وعلى هذا لا يوجد في الآية إشكال، ويُستفاد منها أن الإنسان إذا آمن بالشرائع المُنزلة، فهو كامل الإيمان، وإن لم يدرك الفرائض المتأخرة، فالذين ماتوا من الصحابة قبل فرض الصيام إسلامهم كامل، بل إن الرجل، يمكن أن يؤمن، ويموت قبل أن يصليَ صلاة واحدة، ويكون بذلك كامل الإيمان، يعني: إيمانه هو كامل، وإن كان بغير الذي أدرك، لكن هو بالنسبة إليه ما يُقال إيمانه ناقص أي أنه ناقص نقصًا يُخلُّ به.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآيات:** أنه كلما كمل الإيمان في العبد كَمُل اهتداؤه بالقرآن؛ لأن الشيء إذا عُلِّق بوصف زاد بزيادة ذلك الوصف، ونقص بنقصه، الحكم إذا علق بوصف، فإن هذا الوصف يزيد الحكم بزيادته، وينقص بنقصانه، وهذا معلوم، حتى في المحسوس تجد أن الشيء المعلق بشيء يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه فنقول: كلما زاد الإنسان إيمانًا ازداد اهتداءًا بالقرآن، ويدلك على هذا قول الله - تعالى - : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤]، ويدلنا على هذا - أيضًا - قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، وأيضًا: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البشارة هي: الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء، لكن بقرينة، وهنا يقول: بشرى بالجنة، ولكن الصحيح أنها بشرى بما هو أعلى: بالجنة، وبالعزة، والكرامة، وبالنصر قال تعالى : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، بشرهم بما لهم في الجنة، وبشرهم بما لهم في الدنيا من النصر، وكل إنسان بطبيعته البشرية يحب أن ينتصر على عدوه، ويحب أن يكون له العزة والكرامة، هذا لا يمكن أن يكون إلا بالإيمان، وكلما زاد الإنسان إيمانًا ازددنا انتصارًا على عدونا، وكلما تخاذلنا في الإيمان هُزمنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وإذا أردتم دليلًا على هذا فانظروا إلى الذين يُطنْطنون بالقومية العربية، منذ متى يُطنْطنون بها؟ أظن من أول القرن، يعني منذ زمن، وتبلغ هذه الدعوة، أو غيرها ومع ذلك لا يزدادون إلا تأخرًا، وضعفًا؛ لأنها ما بُنيت على الإيمان، لكن لما ظهرت الدعوة للإسلام والتضامن الإسلامي ماذا حصل؟ حاولوا بكل ما يستطيعون أن يقضوا على هذا، ليس من الدول الكافرة، بل حتى من الدول التي تزعم أنها مسلمة، وأنها عربية، وصاروا يقولون: هذه دعوة رجعية إلخ، وأخيرًا قُضي على مَن قام بها، وبالدعوة إليها.

فالحاصل الآن، أننا لو أردنا أن نرجع إلى العزة والكرامة والنصر فلا يكون ذلك إلا بالإيمان.

وقد يقول قائل: كيف ننتصر بالإيمان على القنابل الذرية، والهيدروجينية؟ الجواب: إذا أخذنا بالقوة المعنوية، فإن توفرت لنا القوة المادية وإلا جاءت القوة الإلهية، نحن مثلاً: من جملة الإيمان أن نستعد، لكن إذا عجزنا عن الاستعداد جاء دور النصر الإلهي؛ فيبطل ما عليه هؤلاء من القوة، والله - تبارك وتعالى - على كل شيء قدير، التغيرات الجوية تؤثر بأسلحتهم، هذه الصواعق تدمره، نعم؛ فإنَّ الخسف يذهب بها وبأهلها، وكل هذا بيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقد حدثني إنسان في العام الماضي ذهب إلى أفغانستان للقتال معهم، وهو شاب متخرج من أمريكا، لكنه قد أصر إلا أن يجاهد، وقال: لا يمكن أن أموت بدون جهاد، ولزم على أمه، وأبيه، وجعلوا الحكم إلى الله - تعالى - ثم إليَّ أحكم بينهم، هم يقولون: لا تذهب، وهو يقول: سأذهب، يقولون: لا تذهب مع أحد يا بني هذه ليست فريضة، وهو يقول: سأذهب، وألتزم لكم أني أرجع في ذي الحجة، المهم أنه بعد رمضان العام الماضي ذهب، والشاهد شاهد عيان يقول: مع قلة العدة التي كانت عندهم، حتى يقول: ليس عندهم أدوية إلا أدوية قديمة فاسدة جاءت إليهم من الشركات، لكن يقول: شاهدت بعيني أن الروس يحرصون يوم الجمعة على أن يأتوا إلى هذا المسجد ليدمروه، هم ينشرون على المناطق أناسًا يحرسون المسجد وما حوله فجاءوا بالقنابل، وضربت على الأرض على المسجد يريدون المسجد، لكن يقول: كلما ضربتْ لا تضرب المسجد، وتضرب النحور والصخور، يقول: ليس هناك إلا واحدة فقط صارت على أحد الجنود وقتلته، والباقي يخرجون ليس هناك شيء، فالحاصل أن نقول: إن النصر لا يعتمد على القوة المادية فقط هناك، لا بد أن يكون وراءه شيء، ولهذا يقول: الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ويقول أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] أربع صفات، قد يقول قائل:، وما لنا، والنصر مع هذه الصفات عند القنابل، وغيره، لكن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، ففي الأمور الحسية العاقبة لله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو - سبحانه وتعالى - يسوق الأيام على من عصا وخالف. على كل حال، نحن نستبعد النصر؛ بسبب أعمالنا العظيمة، ما عندنا رصيد يخول لنا أن ننتصر.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٤-٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [القبيحة بتركيب الشهوة، حتى رأوها حسنة].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يتحيرون فيها لقبحها عندنا].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدِّقُونَ بها فلا يؤمنون، فهم إذا لم يُصَدِّقُوا لا ينقادون، ولا يقبلون؛ لأن من لم يُصَدِّق لا يذعن، بل إذا صَدَّقُوا بها، ولم يقبلوا، ولم يذعنوا نفس الشيء، إذن لا يؤمنون بالآخرة يشمل نفي التصديق، ونفي القبول، ولكن ما الفرق بين القبول، والإذعان؟ أضرب مثلاً أن هذا الشيء فرض، وأعتقده فرضًا، لكن ما أفعله إذن أي شيء صار عدم إذعان.

وأما عدم القبول يرفض هذا، ولا يعترف أنه فرض،أما التصديق، يعني: أن المصدِّق على حق، لكن ما يقبله، والقبول: في الغالب، يكون في المعتقدات، والإذعان:، يكون في الأعمال الظاهرة أعمال الجوارح.

وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ خبر إن، وتفيد أن العلة في التزيين عدم الإيمان بالآخرة، وأن الله - تعالى - لم يزين لهم، فإن الذي زُين له سوء عمله، يكون ذلك دليلاً على نقص إيمانه بالآخرة؛ لأنه لو كَمُل إيمانه بالآخرة لكان يعرف الحسن من السيئ فيفعل الحسن، ويتجنب السيئ، ولكن لضعف إيمانه بالآخرة يحسُن له هذا العمل، ويفعل هذا الفعل القبيح، ويراه حسنًا، ولا حاجة إلى أن نعدد أنواعًا من ذلك؛ لأن الأنواع المنهية لِمَنْ زُين له سوء عمله كثيرة جدًّا، ولا شك من العمل السيئ أنه إذا نزل في أرض أخذ أربعة أحجار، ووضع ثلاثة للقِدح وواحدًا يعبده، ولا شك أن من العمل السيئ المُزين أن الإنسان يصنع له تمرًا على صورة صنم فيعبده، فإذا جاع أكله، ولا شك أن من سوء العمل المُزين أن الإنسان يأتي بابنته، وهي ثمرة فؤاده، ويحفر لها الحفرة، ويدفنها، وهي حية، هذا لا يكون - والعياذ بالله تعالى - إلَّا من الكفر وتزيين العمل السيء لصاحبه، ولذلك زُين لقوم من الجاهلية هذا العمل، حتى أنهم يقولون: إنه يقف على الحفرة ليلقيها، وهي إذا هم أن يلقيها تتشبث به، وتقول: يا أبت يا أبت، فتستجير به، وهو جارها.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، [يتحيرون فيها]، وهذا، - والعياذ بالله - من عدم الإيمان أن الإنسان الذي لم تدركه الهداية تجده حائرًا؛ لأنه لم يؤمن، وأبرز مثال لذلك ما يقع لأهل الكلام من الحيرة؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان به، أنكروا صفاته، وأنكروا ما جاء به كتابه، وسنة رسوله فصاروا متحيرين، ولهذا قال بعض الناس: (أكثر الناس شكًّا عند الموت أهل الكلام) - والعياذ بالله - ؛ لأنهم - نسأل الله العافية - ما آمنوا.

فكل إنسان يَضْعُفُ إيمانه يترتب عليه هذان الأمران السيئان: أولاً: تزيين العمل السيئ في عينه، حتى يُمارسه، ولا ينتزع منه، والثاني: شكه، وحيرته، وتردده.

من هذا نعرف الآن أنه كلما قوي الإيمان بالآخرة عرف الإنسان الطريق، ولم يتردد فيه؛ لأن هذه نتيجة عملية حسابية، إذا كان هذا الوصف يقتضي هذا الوصف فعدمه يقتضي عدمه، معادلة بيِّنة جدًّا، فالذين لا يؤمنون بالآخرة ابتلوا بهذين الأمرين، والذين يؤمنون بالآخرة ينتفي عنهم هذان الأمران - نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم من المؤمنين - فهم ليس عندهم إيمان في الحقيقة ولو كان عندهم إيمان في الحقيقة ما زيِّن لهم؛ لأن هذه الآية مقياس، فكل إنسان يُزين له سوء عمله فاعلم أنه ناقص الإيمان؛ لأنه لو كان عندهم إيمان حقيقي ما الذي يخرجهم عن طريق الرسول ﷺ؟!

إذنْ كلما ضعُف الإيمان بالآخرة ازداد التزيين للقبيح في عين الإنسان، وكلما ازداد الإيمان بالآخرة كره القبائح، وهذا أمرٌ مُسلم الآن.

على هذا يمكن أن نستنتج أن الرجل الذي يستحسن القبائح، أنه ضعيف الإيمان بالآخرة؛ لأنه لو قوي إيمانه بالآخرة ما حسُن في نفسه قبائح الأعمال، وهذا لا يستدل عليه، وفي الآيات - أيضًا - دليل على أن عدم الإيمان بالآخرة سببٌ للحيرة لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وعلى هذا فالإيمان بالآخرة سببٌ لليقين، والنور، وهذا أمرٌ - أيضًا - مُشاهد، والإنسان ما يُصاب بعدم اليقين إلا بسبب أعماله، ونقص إيمانه، وكلما قوي الإيمان فعلمه يزداد، حتى بالأمور غير العلمية الشرعية يعطيه الله - تبارك وتعالى - فراسة يتبين بها الأشياء.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [أشده في الدنيا القتل والأسر]، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشار إليه الذين لا يؤمنون بالآخرة، لما ذكر، - والعياذ بالله - طريقهم، وأنهم زُين لهم سوء أعمالهم، ذكر جزاءهم، ومآلهم فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، ثم بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يكون في الدنيا من الأسر، والقتل، ولكنه لا ينبغي أن يُقيد به، بل يُقال أن هذا من سوء العذاب الذي ينالهم، وهم ينالون سوء العذاب في الدنيا، وفي الآخرة، ومن أجل ذلك لم يكن لهم نصيبٌ في الآخرة، بل قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾ الأولى: مبتدأ، والثانية: توكيد، ويجوز أن تكون ضمير فصل، لكن لما سبق لها نظير، وهي كلمة هم

فالأحسن أن تكون ضمير فصل ويستفاد من ضمير الفصل التوكيد، ونستفيد الحصر من تعريف المبتدأ، والخبر ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

والأخسر: اسم تفضيل مأخوذ من الخسران، وهو النقص، وحصر الأخسرية فيهم دليلٌ على أن هناك خسارةً في غيرهم، لكن هم الأخسرون، والخسارة التي تكون لغيرهم هي أن الفُسَّاق من المؤمنين يُعذبون بقدر ذنوبهم، وهذا خسارة؛ لأنه لم يكمل لهم النعيم في الآخرة، حيث عُذبوا على ما فعلوا من الذنوب فهذا لا شك أنه نقص، وأنه خسارة، ولكن الأخسر هؤلاء الذين يخلدون في النار، ولهذا يقول: المؤلف: [لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم].

وعليه فإن الناس في الآخرة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: رابحون، وخاسرون، وأخسرون: فالرابح: الذي مَنَّ الله عليه فخرج من الدنيا، وهو لايستحق العقاب في الآخرة، سواءٌ كان ذلك لتوبة، أو لمصائب تكفِّر، أو لأعمال صالحة جليلة جدًّا تضمحل معها الأعمال السيئة، فأهل بدر قال الله لهم: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]، ولو عملوا مهما عملوا من الذنوب، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغفره لهم بسبب الحسنات العظيمة التي قاموا بها في غزوة بدر، وقد يكون ـ أيضًا ـ هذا الإنسان الذي عمل سيئًا في الدنيا قد يعفو الله عنه؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فتكون حاله في الآخرة إحسانًا، والثاني الخاسر غير الأخسر: وهو الذي أصاب بعض الذنوب، ولم يُقدر له الخلاص منها فعوقب عليها، والأخسر: هو الذي لا حظ له في الآخرة، ما لهم في الآخرة من خلاق، وهم الكفار.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وهذا الخطاب مؤكد بإنَّ ثم مؤكدٌ بتأكيدٍ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ لأن اللام هذه للتوكيد، وفي إعراب بعضهم قال: إنها اللام المزحلقة، ما معنى مزحلقة؟ يعني: مؤخرة، يقولون: إن الأصل أن تكون في أول الكلام، ولكن لما كان في أول الكلام مؤكِّد صارت اللام تؤخر؛ لأنه لا يجتمع موكدان في مكانٍ واحد، ولا هي تتمة للتوكيد، لكن إذا سُئلنا أين محلها؟ نقول: في أول الجملة، ولكنها زحلقت من أجل أن في أول الجملة مؤكدًا آخر.

وقوله: [﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك بشدة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، في ذلك].

ومعنى التلقية: التلقين، والإعطاء، لقيت كذا، بمعنى: لقنته إياه إذا كان ذكرًا، أو أعطيته إياه إذا كان عينًا، والقرآن ليس عينًا فيُعطى، ولكنه ذكرٌ يُلقن، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يُلقَّن القرآن، وكان إذا سمعه من جبريل في أول الأمر يتعجل ﷺ بقراءته فنهاه الله عن ذلك قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧]، ضمان من الله ـ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (١٦١/ ٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

سبحانه وتعالى ـ أن يجمعه، ويقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨ ـ ١٩]، بيانه لفظًا، ومعنًى، وحكمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾، سبق معنى القرآن: وأنه مشتقٌّ من قرأ بمعنى تلا، ومن قرأ بمعنى جمع، وقول المؤلف: [أي يُلقى عليك بشدة] من أين أخذ كلمة بشدة؟ من اللفظ تُلَقَّى، ولم يقل تَلقى أنت، فكأنه يُلقَّاه، كأنه يُشعر بالشدة، ولكنه ما يتبين لي كثيرًا، إنما لا شك أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجد من تلقى الوحي يجد شَدةً[1]، فدلالة تُلقى: فيها غموض الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ﴾ [من عند]، يعني أن لدن بمعنى عند، ويُقال فيها ـ أيضًا ـ لدى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]، نعم،قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، لدنا: هي لدن، ولديَّ: هي لدى، فيُقال هذا، وهذا، لكن القرآن، كما هو معلوم توقيفي، لا يمكن أن نبدل لفظًا مكان آخر، ولو كان بمعنى آخر.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ المراد به الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والحكيم: مرَّ علينا أنه مشتق من الحكم، والإحكام الذي بمعنى الإتقان، وهو الحكمة.

والحكم الثابت لله - عز وجل -، أو المُتصف به الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: حكم شرعي، وحكم قدري.

الحكم الشرعي كثير في القرآن، كما في قوله ـ تعالى ـ في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، لما ذكر أحكام النساء الكافرات، والنساء المهاجرات قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، والحكم القدري مثل قول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾[يوسف: ٨٠] يعني يُقدر، هنا ما ينتظر حكمًا شرعيًا، وإنما ينتظر حكمًا قدريًا.

الحكم الشرعي هل تمكن مخالفته؟ نعم تمكن، من الناس من يقبله، ومن الناس من لا يقبله، والحكم القدري: لا تمكن مخالفته إذن، فهو واقع لا محالة، إذا حكم الله ـ تعالى ـ بشيء قدرًا، فهو واقع لا محالة.

الحكم الشرعي محبوبٌ لله، أو مبغوضٌ إليه؟

محبوب، ومبغوض، إذا حكم بفعل الشيء، فهو محبوب، وإذا حكم بتركه، فهو مكروه، فالله ـ تعالى ـ حكم بتحريم الزنا مثلاً وهو مكروهٌ له، حكم بتحريم الشرك، وهو مكروهٌ له.

كذلك الحكم الكوني فيه محبوبٌ، ومكروهٌ له، ولا يمكن أن نعارض ذلك فنقول: كيف يقع الحكم الكوني، وهو مكروهٌ له؟ إذن معناه: أنه يُجبر، يعني: يفعل الشيء، وهو يكرهه، هذا لا يكون إلا في إنسان يُجبر، أو في فاعلٍ يُجبر، فهل الله ـ تعالى ـ يُجبر؟ إذن كيف تقول: إن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥) ومسلم (١٤٨/ ٤٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في الحكم الكوني ما هو مكروهٌ لله؟

إذن هو مكروهٌ من وجه، ومحبوبٌ من وجهٍ آخر، فهو من حيث ذاته مكروهٌ لله ـ سبحانه وتعالى ـ فالمعاصي الله يُقدرها، الله ـ تعالى ـ يُقدر المعاصي مع أنه يكرهها، لكنه محبوبٌ إليه من وجهٍ آخر، ويكون هذا الوجه أقوي من الوجه الآخر، فيقع هذا الشيء فيفعل هذا الشيء.

إذن الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ مشتقة من الحكم، والإحكام، والحكم المتصف به الله - تعالى - منقسم إلى قسمين:

كوني، وشرعي، ولكل منهما حكم: أولاً: الحكم الشرعي: لا يلزم منه وقوع المحكوم به؛ لأنه قد يقع، وقد لا يقع.

والحكم الكوني: يلزم منه وقوع المحكوم به في كل حال.

أما من حيث الكراهة، والبغض لله فنقول: كلاهما محبوبٌ، ومكروهٌ لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

الآن الحكم الشرعي تحريم الزنا مثلًا محبوب إليه لكنه محكوم به؛ لأنه مكروه إلى الله، الحكم الشرعي منه محكوم به محبوب، ومنه مكروه بمعنى المحكوم به بالكراهة مثلًا حكم الله بتحريم الزنا؛ لأنه مكروه إليه ، وحكم بالصلاة؛ لأنها محبوبة إليه، وأما نفس الحكم الذي هو فعله فهذا أمر ما يفهم؛ لأنه ما حكم بشيء إلا أنه يحب أن يكون كذلك.

إذن بالنسبة للإحكام: الإحكام بمعنى الإتقان، وهي الحكمة: تنزيل الأشياء في منازلها، ووضعها في مواضعها لا شك أن هذا إتقان، والله ـ تبارك وتعالى ـ متصفٌ بالحكمة البالغة، حكمةٌ بالغةٌ، فهو يضع الأشياء في مواضعها، فالحكمة تكون في صورة الشيء، وفي غايته: في صورة الشيء، ووقوعه على هذا النحو، وتكون ـ أيضًا ـ في غاية هذا الشيء، وتكون ـ أيضا ـ الحكمة في الأمور الشرعية، وفي الأمور القدرية؛ لأن الحكمين السابقين الكوني، والشرعي كلاهما مشتملٌ على الحكمة، وعلى هذا تكون الحكمة في الأحكام الكونية، وفي الأحكام الشرعية، وتكون في الصورية بمعنى أنه على هذه الصورة المعينة توجد حكمة، وغائية: بمعنى ما ينتج عليه أو منه من الغايات المحمودة، عندما مثلاً نتأمل الشريعة نجد أن وضعها على ما هو عليه هذا هو الحكمة؛ لأنها كلها تنشد المصالح، وتدرأ المفاسد، هذه القاعدة العامة في الشريعة، إذن هي على هذا الوجه، أو هذه الصورة موافقة للشرع ثم إن الحكمة الغائية: ما هي ثمرة هذه الشريعة التي تتمثل فيها؟ هي السعادة في الدنيا، وفي الآخرة، وهذه لا شك أنها غاية محمودة، وأن تشريع الأمور من أجل هذه الغاية أنه حكمة.

كذلك نأتي إلى الأمور القدرية: نقول: إن الأمور القدرية ـ أيضًا ـ ، وضعها على ما هو عليه في هذه الصورة، فهو حكمة، ثم الغاية منها حكمةٌ ـ أيضا ـ ، لكن هذه الحكمة في صورة الشيء، وفي غاية الشيء شرعًا، أو قدرًا قد تكون معلومة للعباد، وقد تكون مجهولة، ولكن ما هو فرضنا نحن

فيما نجهله من فتن الأمور؟ فرضنا الإيمان والتسليم نحن نؤمن بأن ما من شيء يفعله الله إلا وله حكمة، يجب علينا أن نؤمن بهذا؛ لأن هذا مقتضى وصفه بالحكيم، لكننا قد نفهم هذا الشيء، وقد لا نفهم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]، لكن علينا أن نؤمن هذا الإيمان، ونحن إذا آمنا هذا الإيمان فسوف نستبدل، وسوف نرضى بالشرع، وبالقدر ونعلم أن هذا هو العلم.

عندما نتأمل الآن أحوال المسلمين، وضعف دينهم، وانصرافهم عن الدين، لا شك أن هذا يُحزننا، ولكننا إذا نظرنا إليه من جهةٍ أخرى، وجدنا أنه مُقدر من جهة الله، وأنه لا بد أن يكون لهذا حكمة، لكننا قد لا نعلمها، وهذا يجب أن تجعله جاريًا على جميع أحوالك الخاصة، والعامة، أن تتيقن أن هذا لحكمة، ولكن تيقننا للحكمة لا يمنعنا من فعل الأسباب الشرعية التي أُمِرنا بها، مثال ذلك مسألة ضعف المسلمين، وانصرافهم، هذا يُوجب لنا أن نتحرك أكثر للدعوة إلى الإسلام، وبيان محاسنه، والتحذير من مخالفته، وسوء العاقبة للعصاة، والفاسقين، هذا يوجب لنا أن نتحرك أكثر، وهذا من الحكمة أن يتحرك أهل الخير، والدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وبيان الحق، وبيان العاقبة الحميدة لمن تمسك بدين الله، لأجل أن يكثر سوادهم، ولأجل أن يدخل الناس في دين الله عن اقتناع؛ لأني أظن أن الناس لو وُجدوا على حالة معينة، هل يدركون هذه الحال المعينة على حقيقتها؟ لا؛ لأنها أمرٌ معتاد عندهم، وقد لا يفهمون ما ينتج عنها من خير، أو من شر، لكن عندما يوغرون في الشر، وينتهون إلى غايته ثم يبين لهم الحق، ويرجعون إليه، يكون هذا أحسن حالًا من الحال الأولى التي وجدوا أباءهم على شيء فمشوا عليها؛ لأنهم الآن يأتون عن اقتناع، وعن محبة لهذا الأمر الجديد الذي بُيِّن لهم.

ولذلك الآن - الحمد لله - توجد بادرة طيبة في جميع الأقطار الإسلامية، بادرة الرجوع للإسلام عن اقتناع، ولا شك في ذلك، وهذا من الحكمة في أن الله - سبحانه وتعالى - يقدر مثل هذه الأمور المكروهة في الدين لأجل أن تكون غاية لما هو أحمد.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ العليم معناها: المتصف بالعلم، والعلم كما حدده أهل الأصول: هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا مطابقًا، ولا شك أن الله - سبحانه وتعالى - له من هذا الوصف أتمه، وأعلاه، فهو - سبحانه وتعالى - عليمٌ علمًا مطلقًا لم يُسبق بجهلٍ، ولم يُلحق بنسيان، ولا يُحد بحد، وعلم المخلوق مسبوق بالجهل ملحقٌ بالنسيان، ومحدود - أيضًا -، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، بخلاف علم الله.

وهنا قُدِّم الحكيم على العليم، وأكثر ما يرد في القرآن تقديم العليم على الحكيم إذن ما الحكمة من تقديم الحكيم على العليم؟ لأن تلقي القرآن مشتمل على الشريعة، والشريعة فيها أوامر ونواهٍ، وإذا لم نعتقد أن هذه الأوامر والنواهي مبنية على الحكمة فإنه يضعُف إنقيادنا لها، ولهذا قدم

الحكمة، أما العلم فإنه مفهومٌ من قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾؛ لأنه بمجرد تلقي القرآن، يكون العلم، لكن هل هذا الموجود في القرآن هو أصل الحكمة؟

نعم، هو موافق في الواقع، ولذلك قدِّمت الحكمة لأجل أن يشعر الإنسان قبل كل شيء بأن ما تلقاه الرسول - عليه الصلاة والسلام - من القرآن فإنه حكمة، نظير ذلك في سورة الذاريات ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩ - ٣٠]، وما قال العليم الحكيم، لماذا؟؛ لأن، ولادة العجوز أمرٌ خارج عن العادة؛ لأنه كيف تلد العجوز، ولماذا؟ فقدمت الحكمة لأجل أن يشعر الإنسان قبل كل شيء أن هذا الأمر النافذ الخارج عن العادة صادرٌ عن حكمة، وليس عن سفه، أو عن أمرٍ سبقي.

إذن هذا مثلها، نقول قُدم اسم الحكيم الذي يدل على وصف الله - تعالى - بالحكمة في هذا المقام؛ لأن ما يُلقاه ﷺ من القرآن مشتملٌ على التشريع الذي يحتاج إلى بيان الحكمة فيه، حتى يقتنع به المرء، ولذلك قدمت الحكمة على العلم، أما العلم فإنه مفهومٌ من كلمة تُلقَّى؛ لأنه إذا لُقِّي القرآن فقد عُلِم، لذلك صار في المرتبة الثانية.

السؤال الثاني: ما هو الحكمة من اقتران الحكمة بالعلم؟ تجد أن الحكيم مقرونًا بالعليم كثيرًا، ويُقرن بالعزيز ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ - أيضًا -، فما الحكمة من ذلك؟

الجواب البيِّن أن نقول: إن الحكمة قد تخفى على بعض الناس فهل خفاؤها علينا يقتضي أنها ليست معلومة عند الله؟ لا، وكأنه جمع بينهما ليتبين أن هذه الحكمة معلومة عند الله، وإن خفيت علينا، فهو - سبحانه وتعالى - حكيم عليم، يضع الأشياء في مواضعها، وإن خفي علينا ذلك، ما نقول مثلًا: إذا شرع الله شيئًا، أو قضى بشيء إن هذا ليس عن علم، بل هو عن علم، حتى لو فُرض أننا نحن لم نعلم حكمته، ووجهته، فهذا هو وجه الجمع في القرآن الكريم في آيات كثيرة بين العلم، والحكمة.

الخلاصة أن نقول: لما كانت الحكمة تخفى على العباد قرنها الله - تعالى - بالعلم ليطمئن المرء إلى أن هذه الحكمة معلومة عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإن كانت خافية علينا.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ٧ ـ ١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ قال المؤلف: [اذكر إذ قال]، وهذه طريقته، وهي ـ أيضًا ـ معروفة عند النحويين أن إذ ظرف، والظرف لابد له من عامل ومتعلَّق فيقدرون اذكر دائمًا في مثل هذا التفصيل، اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، ويقع بين أولي العزم في المرتبة الثالثة؛ لأن أولي العزم من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أفضلهم النبي ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى، وعيسى، ونوح، ما يجد الإنسان بينهما مُفاضلة؛ لأن لكل واحد منهما مزية ليست للآخر، ولهذا ما نُرجح واحدًا منهما على الآخر، أما الأولون الثلاثة فالتفريق بينهم واضح.

هل الترجيح بينهم من السنة؟

لا، ولكن هذا من باب بيان الفضل، لكن المُفاضلة على سبيل المُفاخرة هذه لا تجوز

وفي الآية الثانية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[الشورى: ١٣]، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن نوحًا قُدِّم هنا؛ لأنه هو صاحب أول الرسالات، لا لأنه أفضل، ولا شك أنه أول رسول، وهارون هذا أخوه، ولكن لم يُذكر له نبوة في القرآن.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

إلى آخر القصة، وهذه من جملة ما يُلقَّاه النبي ﷺ من القرآن، وهي قصص الأنبياء، وفائدة ذكر هذه القصص ما ذكره الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، عبرة نعتبر بها في أحكامها، وفي عواقبها، ولهذا الصحيح أن ما ذُكر من هذه القصص من الأحكام فإنه يجوز لنا أن نتبعه، وأن نقتديَ به لقول الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كذلك نعتبر مما جرى من العواقب للرسل، وأتباعهم، وما جرى من العواقب لمخالفيهم، ومعلومٌ أن عاقبة الأولين عاقبةٌ محمودة، وعاقبة الآخرين سيئة.

فمن جملة القصص التي كثر ذكرها في القرآن قصة موسى، ولا غرو أن تكثر في السور المدنية؛

لأن المدينة كان بها طائفة من اليهود، حتى يتبين أمرهم، ولهذا فصلت أحوالهم كثيرًا في سورة البقرة، وأما ذكر قصة موسى في السور المكية كهذه، فإن فائدتها التوطئة، والتمهيد للنبي ﷺ حتى يكون على بصيرة من أمرهم، وهذا التوجيه وهو الاستعداد للمستقبل سلكه النبي ﷺ أخذًا بتوجيه القرآن، كما قال لمعاذ بن جبل: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾، وأظننا تكلمنا عن موسى - عليه الصلاة السلام -، وأنه موسى بن عمران، وأنه أفضل أنبياء بني إسرائيل،قوله تعالى: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [زوجته عند مسيره من مدين إلى مصر]، يقول: [زوجته] لماذا؟

١- لأنه خرج من مصر، وحيدًا والتقى بالمرأتين، ثم اتصل بأبيهما ثم زوَّجه على أن يأجره ثماني حجج، وانتهت الحجج.

٢ ـ عند مسيره من مدين إلى مصر، وبهذه المناسبة بعض الناس يظنون أن صاحب مدين هو شعيب النبي، وليس كذلك، فإن بينه، وبين موسى برهة من الزمن، وإنما صاحب مدين رجلٌ من أهل مدين هذا هو الصحيح بلا شك.

وقوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ [أبصرت من بعيدٍ] ﴿نَارًا﴾، قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ جملة مقول القول، ولهذا كسرت إن، وقال تعالى : ﴿ءَانَسْتُ﴾ أبصرت من بعيد، آنس: أبصر، وكونها من بعيد ما يدل عليه اللفظ في الحقيقة اللهم إلا أن يُقال: إن الإيناس لا يدل على القرب، إنما يدل على الخفاء، والخفاء في النارما يكون إلا إذا كانت بعيدةً.

وقوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ السين للتنفيس، وقد ذكرنا فيما سبق أنها إذا دخلت على الجملة، وهي - طبعًا - لا تدخل إلا على المضارع وهي تفيد أمرين: هما: القرب، والثاني: التحقق.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، آتيكم أو أتيكم؟ وما الفرق؟ آتيكم: أي أعطيكم، وأتيكم بمعنى: أجيئكم، هكذا يصير، أو أنه خطأ؟

أتيتُ: مضارعه يأتي، آتيتُ: أُوتِيَ، إذن فآتيكم بمعنى: أجيئكم، أي: أنا آتيكم على كل حال، والإنسان ما يتبادر إلى ذهنه يطلب الجميع وهنا قال تعالى : ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾، وفي آية أخرى ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠]، فهل بينهما فرق أم هما بمعنى واحد؟

ولكن قد يكونا بمعنىً واحد؛ لأن لعل قد تأتي للتوقع، فقد أخذنا فيما سبق في النحو أن لعل تكون للترجي، والإشفاق، والتعليل، والتوقع، فإذا كانت للتوقع صار معناها: التوكيد، أما إذا قلنا إن لعل للرجاء، فهو رجاء أولاً ثم قوي، وجزم به، وقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [عن حال الطريق، وكان قد ضلها] هذا، واضح؛ لأن الخبر

---

(١) تقدم تخريجه.

الذي يريده خبر من يدله على الطريق؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد ضلها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [بالإضافة للبيان، وتركها] أي: ترك الإضافة فهي قراءتان﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابِ قَبَسٍ﴾ أو قوله تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أما إذا كانت ﴿بشهابِ قبس﴾ فهي للبيان، كما قال المؤلف: ، [والإضافة إذا كانت للبيان فهي على تقدير مِن]، مثلما يُقال: خاتمُ حديدٍ: أي خاتمٌ من حديد، فهنا شهابِ قبسٍ: أي شهاب من قبس هنا بيانية، أما إذا كانت ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ صارت قبس صفة لشهاب، صفة مبينة ـ أيضًا ـ ، فيكون الإضافة، والقصر بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ هل أو هذه مانعةُ جمعٍ، أو مانعةُ خلو؟ مانعة الجمع: لا يكون إلا أحد الأمرين إما هذا، أو هذا، ومانعة الخلو: ما يخلو الأمر من واحد منهما، أو منهما جميعًا، وهي تشبه قول النحويين: إن (أو) تأتي للإباحة، وللتخيير، إذا كانت في سياق الطلب، تقول: مثلاً تزوج هندًا، أو أختها هذه للتخيير لا تأتي للإباحة، جَالِس فلانًا، أو فلانًا، هذه للإباحة، كُل خُبزًا، أو أرزًا هذه للإباحة، لو للإباحة ما تمنع الجمع، ولو للتخيير تمنع الجمع، وإذا كانت أو في خبر فإنهم يسمونها مانعة خلو، أو مانعة جمع، إذن إذا كانت مانعة خلو بمعنى أنه يمكن أن نأتي بالأمرين جميعًا، الدلالة، والشهاب القبس، وفُهم من هذا الكلام ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أن الليلة كانت باردة، وما أحوج الضال في الطريق في ليلة باردة إلى نارٍ يصطلي بها، وإلى أهل نارٍ يخبرونه عن الطريق؛ لأن النار معلوم أنها ما تكون، وحدها لابد أن يكون عندها أحد يُخبر.

وقوله تعالى: [﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ بشعلة نارٍ في رأس فتيلة، أو عود]، هذا القبس الذي يُقتبس منه، وهذه تكون، كما قال المؤلف: [شعلة نار في رأس فتيلة، أو عود].

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعل هنا للتعليل أي: لأجل أن تصطلوا بها، والطاء بدل من تاء الافتعال، اصطلى أصله اصتلى بالتاء على، وزن افتعل، لكن أبدلت التاء طاءًا لسببٍ صرفي.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الطاء بدلاً من تاء الافتعال من صَلِي بالنار بكسر اللام، وفتحها، تستدفئون من البرد، وما أحلى النار التي يصطلي بها الإنسان في حال البرد.

ذهب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وبقي أهله في هذا المكان، وذهب هو وحده للنار لعله يأتيهم بالخبر، أو بالشهاب.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ فيها حذف، والتقدير فذهب فلما جاءها، ومن ثمَّ هذا الإيجاز إيجاز الحذف؛ لأن الإيجاز عندهم في البلاغة إما إيجاز قِصَر، وإما إيجاز حذف، فإذا كانت الجملة

القصيرة تشتمل على معانٍ كثيرة من دون حذف يُسمى إيجاز قصر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ هذه جملة مختصرة، لكنها تتضمن معانٍ كثيرة، فعلماء البيان يُسمون هذا إيجاز قِصَر، وهو: أن تكون الجملة قصيرة، لكنها متضمنة لمعانٍ كثيرة.

إيجاز الحذف معناه: قِصر الجملة، لكن الجملة نفسها ما تتضمن معانٍ كثيرة إلا بتقدير أشياء مخصوصة، هذا من إيجاز القِصر، ومن إيجاز الحذف، وأمثلته في القرآن كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فيها إيجاز حذف، والتقدير: تعذر فعدة من أيام أُخر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ﴾ أي: [بأن ﴿بُورِكَ﴾ أي: بارك الله ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي الملائكة، أو العكس]، قوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾ المنادِي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والدليل: أنه في آيات أخرى صرح بذلك ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، فالمنادي هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿أَن﴾ أي: [بأن]، أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن هنا مخففة من الثقيلة حينما قدَّر الباء؛ لأن تقدير الباء يدل على أن ما بعدها مؤولًا بمصدر، وهناك قولٌ آخر يجعلون أن تفصيلية، مثل ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ نعم ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾[المؤمنون:٢٧] ويقولون: إن ﴿نُودِيَ﴾ متضمن لمعنى القول حين نُوديَ، وأن إذا سُبقت بما يتضمن معنى القول دون حروفه فهي تفصيلية، ولكن من حيث المعنى واحد ولكن الاختلاف في الإعراب.

قوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال المُفسِّر: [بارك الله من في النار]، قدَّر هذا ليبين أن فاعل البركة الله، وأن (بارك) يتعدى بنفسهِ بارك اللهُ فلانًا، وكما يُقال: بارك الله في فلان، فهو يتعدى بنفسه ويتعدى بحرف الجر، يقول: المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : [بارك الله مَن في النار] من أعربها المفسر بدون تقدير المُفسِّر اسم موصول في محل رفع نائب فاعل.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة، أو العكس، أي: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي الملائكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: موسى، واحتمالٌ ثالث: أن يكون من في النار موسى، ومن حولها البلاد التي حول هذه النار؛ لأنها بلاد الشام مباركة، أو: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي أهله، كل ذلك سيأتي معناه.

تجد قوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ فيه إشكال في الحقيقة؛ لأن في الظرفية، والنار ظرف فهل موسى في النار، المؤلف فطن لهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ : [و قوله تعالى: ﴿بُورِكَ﴾ يتعدى بنفسه، وبالحرف، ويُقدر بعد ﴿فِي﴾ مكان؛ أي من في مكان النار؛ لأنه لو كان في النار حقيقةً لاحترق، ولكن يُقدر مكان، فإذا قيل: ما الفائدة من قوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾، وحذف المكان؟

قلنا: الفائدة من ذلك ـ والله أعلم ـ هي الشيء الأول: القرب التام منها، والشيء الثاني: أن

شعاع النار قد وصل هذا القريب منها يعني: النار، كما هو واضح لها شعاع، والإنسان القريب منها يكون في نفس الشعاع، فكأنه لقربه ووصول شعاع النار إليه صار كأنه فيها، - هذا والله أعلم ـ الحكمة من قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

وقد يسأل شخص ما: هل هذه النار حقيقية؟ نعم، حقيقة هذا هو الأصل .

هذه النار ما هو وقودها؟ ما لنا أن نقول إلا ما قال الله، ما ندري، وما لنا ألا نتكلم.

الكثير من المفسرين يقولون حول الموضوع هذا: أراد أن يأخذ منها شيئًا، فاتجهت إليه ثم انقلبت إلى نور؟

يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] فكل علم يأتينا عن هؤلاء الأمم من غير القرآن، أو صحيح السنة فليس بشيء، غاية ما هنالك أن يكون من أقوال بني إسرائيل التي لا تصدق، ولا تكذب، ولهذا القصص لا يجب أن نتعدى فيها القرآن، أو ما جاءت به السنة؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناها: قطع أي خبر يأتي من غير طريق الله؛ لأن لو كان هناك أخبار صحيحة تأتي من غير الله لكان الله يعلمها، وهؤلاء المفسرون ـ أيضًا ـ يعلمونها، والله ـ تعالى ـ حصر ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا من أقوى طرق الحصر الذي هو النفي، والإثبات ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذه الآية تبين لنا: إن قيل: ما يُقال في هذه القصة، وكذلك في قصة سليمان، وداود، وغيرهم من المسائل إن كان الشرع ينافيها، أو مقام النبوة ينافيها، فهي باطلة وكذب، كما في قصة داود ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص: ٢٣]، الخ، وإن كانت غير مبينة في شرعنا فموقفنا فيها أن نقول: لا نصدق، ولا نكذب أما أن نفسر بها كلام الله فهذا لا يجوز أن يفسر بها كلام الله.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معلوم أن (سبحان) اسم مصدر، وأن عمله محذوف دائمًا، وأنه ملازمٌ للإضافة، وأن معنى سبحان الله: أي تنزيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل نقص وعيب، ولكن هل الجملة هنا خبرية بمعنى الطلب، أو خبرية على ظاهرها؟

يقول بعض المفسرين: إنها تعجيبٌ لموسى، يعني: أعجب، وأسبح الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما لا يليق به، وأن هذا الأمر الذي رأيت، والكلام الذي سمعت ما هو إلا كلام رب العالمين فسبحان الله رب العالمين، فعلى هذا تكون الجملة الخبرية هنا من حيث المعنى طلبية أي: سبح الله رب العالمين عما لا يليق به، وإذا قلنا: إنها على ظاهرها صار معناه: أنه ثناءٌ من الله ـ عَزَّ وجَلَّ المُكلم المُنادي ـ على نفسه، أي المعنيين أشمل؟ الأول: الطلبية؛ لأنها تتضمن إذا أُمر بها موسى تتضمن أن الله أهلٌ لها فهذا هو الخبر، وتتضمن الثانية، وهو تعجيب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، واعتقاده بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن كل عيب.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما معنى الرب؟: المالك المتصرف، لكنها ـ أيضًا ـ متضمنة لمعنىً أدق، وهو التربية، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يربي مع كونه خالقًا مدبرًا متصرفًا.

وقوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ كلُّ ما سوى الله، فهو من العالمين، وسُموا (عالمين) قيل: لأنهم علمٌ على خالقهم، علمٌ ودليلٌ عليه، فإن ما في الكون شاهدٌ بوحدانية الله ـ تبارك وتعالى ـ ، وبما تقتضيه هذه الأقوام لمعاني ربوبيته ـ سبحانه وتعالى ـ .

قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ معناها: أنه يُربي عباده تربية حسية، ومعنوية، فالتربية الحسية مثلاً لنضرب مثلاً بالإنسان كونه في الخلقة يتطور من شيء إلى شيء عقلاً، وجسمًا، وفكرًا هذه تربية، هذا الطفل الصغير لو فرضنا أن عقله كالكبير ممكن أن يعيش؟ لا يمكن أن يعيش؛ لأنه لا يتحمل الأشياء التي تقابله، فهذا الطفل لو فرضنا أنه بعقل الكبير ما يستقر أبدًا، وكان ينخدع، وبالعكس لو كان الكبير بعقل الصغير ما استطاع أن يفعل شيئًا، وهكذا ـ أيضًا ـ الطعام يأتي إلى الإنسان شيئًا فشيئًا، هذه من التربية الحسية، والتربية المعنوية: ظاهره أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يربي عباده بالعلم النافع شيئًا فشيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يا موسى [من جملة ما نودي، ومعناه: تنزيه الله من السوء يقصد معنى التنزيه].

ثم قال الله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ﴾ أي: [الشأن] ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا تفسير الضمير، ضمير الشأن هو ضمير يتصل، ويُفسر بالجملة التي بعده، فعلى هذا يكون ﴿إِنَّهُ﴾ هذا الشأن، و قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه تفسيرٌ لهذا الضمير، أما من حيث الإعراب فإننا نقول: (إنَّ): حرف توكيد ينصب الاسم، ويرفع الخبر، والهاء: اسمها، و قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، الخبر، والجملة في محل رفع خبر إنَّ، وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾ فرأوا أن الهاء ضمير لا ضمير شأن، ضمير حقيقي للغائب، أي إن الذي يكلمك أنا، ثم بيّن هذا الضمير بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، لكن ما سلكه المؤلف أقرب، وإن كان الثاني مشتملاً على المعنيين، الثاني يقول: إنَّ: حرف توكيد ينصب الاسم، ويرفع الخبر، والهاء: اسمها، وليس ضمير شأن، و قوله تعالى: ﴿أَنَا﴾ خبرها، والأول يرون أن ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبره، يعني: أن الله قال لموسى: ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾، يعني: إن الذي يكلمك أنا، وكلمة ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾ هل يتبين من هو؟ ما يتبين، لذلك نُهي أن يقول: الإنسان إذا استأذن عند الباب، وقيل له: من فقال: أنا، إذن ﴿أَنَا﴾ هنا مبهمة بُينت بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هنا يستقيم لك أن الأول أقوم، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا الذي قدَّره المؤلف أحسن مما قدَّره بعض المفسرين مثل الزمخشري.

وقوله: ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: الله ابتدأ بالألوهية، والله ـ تبارك وتعالى ـ هو الاسم العلم

على الله الذي لا يتسمى به غيره، وجميع ما يأتي من أسماء الله دائمًا تجدونها تبعًا لهذا الاسم، دائمًا يُقدَّر أسماء الله بكلمة الله؛ لأنه العلم الذي لا يُسمى به غيره ثم تأتي باقي الأسماء بعد ذلك تابعةً له، والعزيز ما معناه؟ القوي الذي لا يُغلب، بل هو الغالب.

وقيل: إن العزة تنقسم إلى ثلاث أقسام:

عزة الامتناع، وقالوا: إنها مشتقة من الأرض العزاز، يعني الصُّلبة القوية، ونحن نسميها باللغة العامية عزب، فالعزيز معناه: القوي الغالب الذي لا يُغلب إذا قلنا بهذه الثلاثة أتينا بالمعاني الثلاثة، عزة القدر، والامتناع.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدم لنا الكلام عليه.

وإنما ذكر الله له ذلك ليشعره بأن مآله للعز، وأنما سيوحى إليه، فهو حكمة؛ لأن الصادر من العزيز يكون عزيزًا، ومن الحكيم يكون حكمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ما هي العصا التي معه؟ عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، عصا عادية، وإضافتها إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إضافة مملوكٍ إلى مالكه، وليس مخصوصًا إلى من اختص به، أي أن هذا العصا ليس له اختصاص، وأنه عصا من جوهر معين، وما أشبه ذلك، وعصى عاص،قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها،قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هذا ـ أيضًا ـ من إيجاز الحذف، كما مر، ودائمًا القصص ما يكون فيها إيجاز حذف؛ لأن المحذوف، يكون معلومًا من السياق فيكون حذفُه سهلاً، ومُيَسر، وقد قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ في «الألفية» قاعدة من آكد ما يكون، وذكرها في باب المبتدأ، وهي صالحة لكل شيء فقال:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تقول زيدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُما

(وحذف ما يُعلم جائز) هذه قاعدة قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، ولكن تفسير الاهتزاز بمطلق التحرك فيه نظر؛ لأن الاهتزاز أبلغ من التحرك؛ لأن الاهتزاز فيه نوع من القوة، والاضطراب.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [حيةٌ خفيفة]، وقيل: حيةٌ عظيمة، وقيل: الذكر من الحيَّات، وأيًّا كان فإنها صارت هذه العصا التي كانت في يده عقب ما ألقاها حية تهتز، وتتحرك، وتضطرب مثل الجان.

جان: تطلق على الجان والحية؛ فهي من الأسماء المشتركة.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ لو أخذنا الآية بظاهرها لكانت تهتز، وهي بيده قبل أن يلقيها، لكنه قال في موضع آخر: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

فألقاها قبلُ مثلما قدره المؤلف، فألقاها محذوف لابد من تقديره؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال له الله ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ لو أخذنا بظاهر القرآن كان لما أُمر أن يلقي عصاه اهتزت، فلابد من تقدير الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، ولَّى: هذه جواب لَّما، مدبرًا: حال، يعني هاربًا، لهذا يقول: ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يرجع، لماذا ولى؟ خوفًا منها؛ لأنها بطبيعة البشر إن إنسان ألقى عصاه، وصارت حية لابد أن يخاف لاسيما، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما علم أنه سيرسل، وأنه رسول، وإنما كلمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى الآن ما صار شيئًا.

فالحاصل: هذه طبيعة البشر لابد أن يوليَ، وليس في هذا نقص من النبي – صلي الله عليه وسلم –؛ لأن الأمور البشرية تعتري الرسل، وغيرهم، ولهذا كان الرسول ﷺ ينسى في أعظم العبادات في الصلاة، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم أَنسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»(١)، وليس في هذا أي قدح للرسل.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فقال الله تعالى له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ منها، هذه فيها ـ أيضًا ـ إيجاز بالحذف، ونحن نقول ـ باختصار ـ : جميع القصص، ولاسيما القصص الطويلة غالبًا، يكون فيها إيجاز حذف، وأحيانًا، يكون جملة، وأحيانًا جمل، وسيأتينا – إن شاء الله – في القصص التي تلي هذه شيء كثير من هذا.

قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ وناداه باسمه ليطمئنه؛ لأن الإنسان الذي يناديك، وهو يعرفك تطمئن إليه أكثر، لم يقل: يا هذا لا تخف، بل قال: يا موسى؛ لأنه معلوم الذي يعرفك تطمئن إليه أكثر الآن لو مثلاً رأيت عدوًا، وفهمت أنه عدوّك ثم رآك شخص فقال: يا فلان يا فلان تطمئن له أكثر؛ لأن هذا ما عمل لي سوءًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ منها، والتقدير: منها الذي أوجب للمؤلف أن يأتيَ به هو ظاهر السياق؛ لأن الظاهر أن موسى ﷺ، إنما هرب منها فقال: لا تخف.

قوله تعالى: [﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حيةٍ]، وغيرها، معلوم أن الذي بحضرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يمكن أن يخاف من شيء؛ لأنه في كنف الله ـ تعالى ـ ، وفي جواره فلا يمكن أن يخاف، وهو عند الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا ـ أيضًا ـ فيه بَشارة لموسى ﷺ؛ لأنه عند الله، وأنه من المرسلين، ومعلومٌ أنه إذا بُشِّر بهذه البشارة سوف يزول عنه الخوف نهائيًا، وسوف يحل مكان الخوف أمنٌ، ومكان الذعر سرور.

ثم قال – جل وعلا – مستثنيًا : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال المؤلف: [﴿إِلَّا﴾، لكن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أتاه ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: تاب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠) ومسلم (٨٩/ ٥٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أقبل التوبة وأغفر له]، قد يقول قائل: ما لهذه الجملة، وللكلام الذي يليه ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لكن موسى - عليه الصلاة والسلام - لما قال الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعله تذكر أنه قد وقع منه خطيئة، وما الخطيئة؟ أنه قتل نفسًا، وكأنه عندما يتذكر هذا قد يستبعد في نفسه أن يكون من الرسل.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ليذكره بما منَّ به عليه من التوبة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ بدل: المؤلف فسرها بقوله: [أتى حسنًا]؛ لأن ظاهره في الحقيقة ما يستقيم به المعنى،قوله تعالى: ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ بسوءٍ؛ لأن بدل تدل على أن هناك بدلًا، ومبدلًا منه، فإذا قلت: حسنًا بسوءٍ يصير الحسن مدفوع، والسوء مأخوذ، بدلتُ ثوبي بثوبك: أين المأخوذ؟ الأخير وهكذا. فهنا ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ لو أخذنا بظاهرها معناه: أنه ترك حسنًا، وترك سوءًا، ولهذا فسر المؤلف قوله تعالى: ﴿بَدَّلَ﴾ يأتي، والدليل على ذلك أنه لو كان المراد بالتبديل ظاهر معناه ما صحَّ أن يُعبَّر بقوله تعالى: ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ لو كان كذلك لقال: بدَّل حسنًا بسوءٍ ما قال تعالى: ﴿بَعْدَ﴾، لما قال: بعد عُلِم أن بدَّل هنا بمعنى: استبدل، واستبدل بمعنى: أخذ، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وأخذ مثل ما أخذ الذي نعرفه، والمعنى من الآية الكريمة أن من أتى حسنًا بعد سوءٍ، فإن هذا الحسن يمحو السوء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني: غفر له، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا قال قائلٌ: ما مطابقتها للشرط؛ لأن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ما إعرابها؟ من: اسم شرط جازم، وليست اسمًا موصولاً مستثنى؛ لأن المستثنى هنا منقطع.

وقوله تعالى: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ظلم: فعل الشرط، وجملة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط أقول: لو قال قائلٌ: ما وجه ارتباط الجواب بالشرط؟

الجواب على هذا أن نقول: لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - هذين الاثنين ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنه يريد مقتضاه هنا، ومقتضى المغفرة أن يغفر لهذا الذي ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء، ومقتضى الرحمة - أيضًا - أن يرحمه، ونظير هذا قوله - تعالى - في المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني معناه: يسقط عنه الحد؛ لأن هذا مقتضى المغفرة، والرحمة، فهنا مقتضى المغفرة، والرحمة أن من بدل حسنًا بعد سوء، فإن الله - تبارك وتعالى - يغفر له، ويرحمه، يشمل الرسل، وغير الرسل.

ومن ثَمَّ حسُنَ أن يقول: المؤلف، ونقول معه - أيضًا - : إن ﴿إِلَّا﴾ هنا الاستثناء منقطع؛ لأنه يشمل الرسل، وغير الرسل.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ ﴾:

١ - يُستفاد من هذه الآية: حُسن خلق موسى - عليه الصلاة والسلام -، وذلك من مكالمته لأهله، ومراجعته إياهم فيما يحدث من الأمور؛ لأنه لم يذهب هو بدون أن يقول لهم هذا القول، مما يدل على أنه يتراجع معهم فيما يهمه.

٢ - ومن فوائدها: أن الزوجة من الأهل، وهذا هو القول الصحيح، فعلى هذا آل النبي ﷺ يدخل فيهم أزواجه، وأنهم من الأهل، وقد اختلف العلماء فيما إذا أوصى الإنسان لأهله، أو أوقف لأهله هل يدخل الزوجات في ذلك أو لا؟

الذين يقولون بعدم الدخول، يردون ذلك إلى العرف، ويقولون: إن العرف عند الناس أن الزوجات ليست من الأهل، وإنما الأهل القرابة، فإذا أوقف الإنسان على أهل فلان، أو أوصى لهم دخل فيهم الزوجات بمقتضى اللغة، ثم إن وجدَ عرفٌ مختلف ينافي ذلك رجعنا فيه إلى العرف؛ لأن الصحيح أن الأقوال تردُ إلى أعراف الناس، وعاداتهم.

فإذا لم يوجد عرف رجعنا إلى الشرع، أو اللغة حسب ما يكون ذلك.

٣ - ومن فوائدها: أن الطبائع البشرية تطرأ حتى على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإن موسى كان قد ضلَّ الطريق، ولم يهتدِ إليه، وقد أصابه البرد هو وأهله، والأنبياء والرسل لا يختلفون عن غيرهم إلا بالرسالة ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾، فالأول: المماثلة بالبشرية، والثاني: الاختصاص، يُوحى إليه بالوحي.

٤ - ومن فوائدها: أن الإنسان لا يُلام على اتخاذه الوقاية الدافعة، أو الرافعة لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ هذه الوقاية دافعةٌ رافعة، رافعةٌ للبرد السابق، ودافعةٌ للبرد اللاحق، فاتخاذ الوقاية الدافعة، أو الرافعة لا يُلام عليه، بل إنه ربما يؤمر به أمر إيجاب، أو أمر استحسان: حسب ما تقتضيه الحالة التي يريد أن يدفعها، أو يرفعها.

٥ - ومن فوائدها: قبول خبر الثقة ويؤخذ هذا من قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ فالعمل بخبر الثقة هذا الشائع، وأما من ليس بثقة فقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ [الحجرات: ٦]، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسمٌ يوثق به، وقسمٌ لا يوثق به، وقسم مُحتمل؛ الذي لا يوثق به لا يُقبل، والموثوق به يُقبل، والمجهول، أو المحتمل يُتبين عنه، يُتوقف في طرقه.

قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ هذا يُخاطِب أهله، وفيه دليلٌ على مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، لكن هذه فائدة لغوية.

مسألة: هل خبر الثقة عام أو خاص؟

الجواب: عام وخاص فقد يكون هذا الإنسان معلوم الحال عندي أثق به، وهو عند الناس

مجهولٌ يتوقفون في أمره، فالكلام عن الثقة الذي تثق به.

إذن لو أن رجلاً قال: إنه رأى الهلال، وهو نظره ضعيف، وأخبر أنه رأى الهلال، والناس الذين معه ما رأوه، لا يُقبل خبره، وهو ثقة، وهو عدل، ما يقبل، وهذا وقع عند بعض القضاة فيما سبق، رأى الناس الهلال فقال شيخٌ منهم: إني رأيتُ الهلال، والناس الذي معه أقوي منه بصرًا فقالوا: ما رأيناه، والشيخ هذا في دينه، وأمانته موثوقٌ به، وأصرَّ على أنه رأى الهلال، فقال القاضي: ادنوا مني، فدنى منه فمسح حاجبه فقال: له انظر، قال: الآن ما رأيته، فإذا هي شعرة بيضاء، وهذا من لطائف بعضهم؛ لأنه كيف للناس معه ما يرونه، وهو رآه؟ هذا لا يمكن وهو ثقة، رجلٌ يوثق في خبره، لكن قد يُخطئ.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** إثبات الكلام لله - سبحانه وتعالى - لقوله: ﴿نُودِيَ﴾.

فإذا قال قائلٌ: الفعل هنا مبنيٌ للمجهول لم يُبيَّن مَن المُنادي، ولا دليل فيه على كلام الله، فما الجواب؟

نقول: قال الله في استفتاح الكلام: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن كلام الله - سبحانه وتعالى - بصوت لقوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾، والنداء لا يكون إلا بصوت، وفيه ردٌّ على طائفتين:

الأشاعرة والكلَّابية الذين يقولون: إن كلام الله - تعالى - معنًى قائمٌ بنفسه، فهذا القول باطل باطل.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي إيناس المستوحش، فالإنسان المستوحش أنت تقوم له، أو تفعل معه ما يؤنسه؛ ليطمئن وليكون قابلًا لما يُوحى إليه؛ لأن المستوحش ما يقبل ما يُوحى إليه - لا يتمكن من قبوله - وهذا يُفهم من قوله: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ فإن البركة لمن في النار ومن حولها يزداد به طمأنينة؛ ولهذا أول ما خاطبه الله في هذه الآية قال: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

٤ - **وفيها دليلٌ على:** تنزيه الله - سبحانه وتعالى - عما لا يليق به لقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

٥ - **وفيها دليل على:** عموم ربوبية الله - سبحانه وتعالى - لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهل معه ربٌّ آخر؟! لو كان معه رب آخر لم يقل الله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - بأنه لا يمكن أن يكون مع الله إله آخر عقلاً، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]، ولم تفسدا، فدلَّ على امتناع الآلهة بامتناع تصادمها دلَّ على امتناع تعدد الآلهة، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون: ٩١]، وهذا أمر بيِّن.

فإثبات وحدانية الله - سبحانه وتعالى - في ربوبيته معلوم، حتى المشركين في عهد الرسول ﷺ كانوا يقرون بوحدانيته في ربوبيته.

٦ - **وفيها دليلٌ على:** ثناء الله - تبارك وتعالى - على نفسه، وأن ذلك من كماله، فإنه أثني على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أثني على نفسه بنفي، وإثبات، النفي: سبحان الله، والإثبات: رَبِّ الْعَالَمِينَ، ومنها نعرف أنه لا يتم الكمال لاسيما كمال الأوصاف إلا بهذين الأمرين، وهما النفي، والإثبات؛ لأن إثبات الكمالات فقط لا يدل على نفي النقائص، ونفي النقائص فقط لا يدل على إثبات الكمالات، وباجتماعهما يحصل الكمال المطلق، ولهذا قالوا لابد من تخلية، وتحلية.

٧ - **وفي الآية دليل على:** أن جميع الخلق مربوبون لله - تعالى - يتصرف فيهم بمقتضى ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولهذا حكم الربوبية ما أحد يستطيع أن يخالفه.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

١ - **في الآية دليل على:** أن تعيين الشخص في النداء له فائدة، وهو الطمأنينة، والإيناس؛ لأني إذا قلتُ يا فلان طمأنته بلا شك فهذا يعرفني ما ينال مني، ولهذا قال: يا موسى، وفيه دليل على إثبات العزة، والحكمة لله - عزَّ وجَلَّ - لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٢ - **وفيها - أيضًا - دليل على:** أنه ينبغي من أراد تعيين نفسه أن يبين اسمه لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ما قال: أنا، مثلاً، أو: أنا أنا، أو ما أشبه ذلك، بل بيَّن - سبحانه وتعالى - من الذي يكلِّمك.

هل فيها إثبات الألوهية لله كيف ذلك؟

نعم فإثبات صفتي العزيز، والحكيم يعني: وصفه بالعزة، والحكمة: يقتضي أن يكون هو المألوه وحده.

٣ - **وفيها أيضًا:** إثبات الحكم المطلق لله - سبحانه وتعالى - ومأخوذة من ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذكرنا أن الحكيم ذو الحكم، والحكمة.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

١ - **ففي هذه الآية العظيمة:** الدلالة على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى -، وهي من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لأنه أُمر بإلقائها فألقاها، بمجرد، وصولها للأرض، صارت حية، ولهذا في سورة طه: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ [طه: ٢٠]، إذا فُجائية، تدل على مفاجأة الأمر، ووقوعه على وجه المفاجأة.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه إذا قال للشيء: كن فإنه يكون.

٣ ـ وفيها أيضًا دليل على: حكمة الله - تعالى - في آياته، وأنها تناسب العقل لقوله تعالى: ﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾؛ لأن هذا أشبه ما يكون فيها تطور تطورًا بالغًا عندهم في ذلك الوقت، وهو السحر، فإن أحدًا لو أنه أتى بعصا أمامك، ووضعها في الأرض ثم رأيتها حية ماذا تقول؟ تقول: هذا سحر. فلذلك أوتي موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الآيات ما يقضي على سحرهم.

٤ ـ ومن فوائدها: أن من البلاغة الإيجاز بالحذف، ولا يؤثر هذا قصورًا ولا تقصيرًا، إذن من أين؟ من النوع الأول: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ بلا شك، ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾؛ لأنه لو أُخذ الكلام على ظاهره لكان: ألقِ عصاك فلما أمر بهذا اهتزت، وهي في يده، وليس الأمر كذلك.

٥ ـ وفيه أيضًا دليلٌ على: أن هذه العصا ليست مجرد حيوان يتحرك، ولكنها أبلغ من ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾، ومعلومٌ أن الجان بنفسه مروع، الحية بنفسها مروعة، فإذا كانت من عظيم الحيات صارت أشد وأبلغ.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: جواز الخوف، أو على جواز أن يعتريَ الأنبياء الخوف ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾، وأن ذلك لا يُعد نقصًا فيه؛ لأنه من مقتضى الطبيعة البشرية، وهذا الذي يكون من الطبيعة البشرية ما أحد يُلام عليه، فالأنبياء يبولون، ويعطسون، ويبردون، ويمرضون، ويموتون أيضًا.

٧ ـ وفيها دليل على: رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بنبيه موسى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، فإن هذا من رحمة الله به؛ لأنه إذا قال له، وقد علم أنه رب العالمين إذا قال له: لا تخف لا يمكن أن يخاف.

٨ ـ ومن فوائدها: جواز توجيه الأحكام الشرعية إلى الأمور الفطرية: يعني مثلاً: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ إذا قال قائل: أنت إذا قلت للإنسان: لا تخف الخوف طبيعي كيف يستعيض عنه؟

الإنسان، وإن كان يخاف فالخوف أمر طبيعي، لكنه يمكنه معالجته بالمجاهدة، ولهذا جاء رجلٌ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: أوصني، قال: لا تغضب، والغضب من طبيعة الإنسان، ولكن معنى لا تغضب: حاول أن تقلل من غضبك، وأن تكون دائمًا هادئًا، ثم إن غضبتَ فلا تنفذ مقتضى هذا الغضب، فإذن الأمور الطبيعية البشرية التي هي مقتضى الطبيعة البشرية يجوز أن يُوجه الحكم إليها أمرًا، أو نهيًا، ويكون ذلك من باب المُدافعة، أو من باب تقليل الآثار، من باب مدافعتها قبل وجودها، أو من باب تقليل آثارها، فلا نقول: إن الإنسان أُمرَ بما لا يستطيع، أُمر بعدم الغضب، وهو لابد أن يغضب، وأُمر بعدم الخوف، وهو لابد أن يخاف مما هو مُخيف.

٩ ـ ومن فوائدها: أن من كان مع الله - سبحانه وتعالى - فلا ينبغي أن يخاف، قال تعالى: ﴿إِنِّي

﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ لديَّ أي: عندي، ولذلك كلما ذكر الإنسان ربه زال عنه الخوف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥]، ففي ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ زوال الخوف، والقوة، والرهبة، ولهذا أمر الله به في الجهاد.

١٠ ـ وفيها دليل على: أن من ظلم ثم أتى بعملٍ صالح، فإن الله يمحو العمل السيئ بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

١١ ـ وفيها أيضًا: إثبات المغفرة والرحمة لله بقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢ ـ ومن فوائدها: أخذ الأحكام من مقتضى أسماء الله - تعالى - وصفاته من أين جاء؟ فإن قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أَغْفِرُ له، وهذا حُكْمٌ، وأخذ الأحكام من مقتضى الأسماء والصفات هذا من أحسن ما يكون من الاستدلال.

ذُكر أن رجلًا قرأ عند أعرابي قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨] فقال: (والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ـ سهوًا ـ فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقال له: كلام الله، قال: أعد، فأعاد الرجل: (والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ثم تنبه الرجل ـ فأعادها الثالثة على الصواب ـ فقرأها: ﴿والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال الأعرابي: الآن أصبت فقال له: كيف عرفت يا هذا ﴿والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ قال :عز وحكم فقطع ولو غفر ورحم ما قطع، وهذا هو الصحيح.

ويدل على هذا الفهم قوله تعالى في المحاربين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، [المائدة: ٣٤]، إذن معنى إذا علمنا أن الله غفور رحيم، معناه: أنهم يُتركون، ولهذا إذا تاب قاطع الطريق قبل القدرة سقط عنه الحد، وهل يُلحق أحد غير من ذوي الحدود، أو لا؟ الجواب: لا يلحق أحد.

إذن يُستفاد من هذا أخذ الأحكام من مقتضي أسماء الله، وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سؤال: هل الأنبياء معصومون من الخطأ؟

أولاً: أنهم لا يمكن أن يصدر منهم ما يُخل بالرسالة مثل: الكذب، والخيانة، ولا ما يخل بالشرف، أو ما يخل بالمروءة كالزنا، وما أشبه ذلك.

ثانيًا: أنه إذا وقع منهم ما يمكن وقوعه من المعاصي فإنهم لا يُقرون عليها، لابد أن نحفظ لهم ما يُوجب تركهم لهذا الشيء؛ لأنهم رسل قدوة، ولو أُقروا على المعاصي لكانت المعاصي شرائعهم، وأما القول بالعصمة مطلقًا فلا وجه له، لا يوجد عصمة مطلقة، بل الصواب أنهم يحصل منهم ما يحصل، لكنهم لا يقرون عليه.

مسألة: هل قتل النفس من الكبائر؟

الجواب: نعم قتل النفس من الكبائر، لذلك لما قتل موسى الرجل الذي من بني إسرائيل قال الله حكاية عن قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، هذا يدل على أن القتل، وقع من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لكنه غُفِر له ما أصرَّ عليه.

مسألة: ما الحكمة من وجود النار في هذا المكان؟

الجواب: الحكمة من وجود هذه النار الله أعلم بذلك، لكن لعل الحكمة من مكانها هذا بالذات في الوادي المقدس أن الوادي هذا مبارك ومقدس، فصار ابتداء الوحي من ذات المكان، وإن كان بعيدًا منه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٢ - ١٣]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [طوق القميص].

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ اليد: تطلق على الكف فقط، ولا تشمل الذراع إلا مُقيَّدة، والدليل على هذا أن الله ـ تعالى ـ لما قال في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ [النساء: ٤٣]، صار خاصًّا بالكفين، ولما أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ الذراع قال في الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، إذن الذي أدخله ـ حتى في اللغة العربية أن الذي أُمر أن يُدخله موسى ـ ليس الذراع بل الكف أدخله في جيبه.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ تخرج مجزومة مع أنها فعل مضارع، وما دخل عليه حرف جازم، مجزوم بجواب الطلب.

قوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ يعني اليد خلاف لونها من الخُدْمة ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من أين أخذ المؤلف أنها كانت لون الخدمة؟ من قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ لأنها لو كانت بيضاء من قبل ما قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾، ولابد أنها تغيرت من اللون الأول إلى اللون الثاني.

وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ قال: [من غير برصٍ لها شعاعٌ يغشى البصر]﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هذا تقييدٌ لقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ لأن البيضاء قد يكون بياضها سوءًا مثل البرص، وإنه سوء؛ لأنه عيبٌ يسوء صاحبه، لكنه قال تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ إذن البياض ليس كبياض البرص، ولهذا يقول: المؤلف: [﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برصٍ لها شعاعٌ يغشى البصر آيةً]، أما قوله: لها شعاع فهذا يحتاج إلى دليل، والله ـ تبارك وتعالى ـ ما ذكر بأنه كان.لها شعاع، وكفى بذلك آية أن تدخل اليد على لونٍ ثم تخرج بلونٍ آخر، وأما زيادة الشعاع، فإن الله ـ تعالى ـ لم يذكرها، وليس لنا أن نتجاوز في هذه الأمور ما دلَّ عليه القرآن؛ لأنا ذكرنا فيما سبق أن المسائل الخبرية لا مجال للرأي فيها، المسائل الخبرية ما للرأي فيها مجال، يُقتصر فيها على ما جاء به الخبر، فنقول: هي بيضاء، وكفى بها آية.

قال المؤلف: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [في للظرفية]، فتكون الآية هذه، وكذلك آية العصا تكون من جملة التسع، وليست زائدةً على التسع،قوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ مرسلاً بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، عرف موسى آيتين منها من هذه التسع، وهي: العصا، واليد، لكن بقي سبع آيات، ما هي؟

إذن نقول،قوله تعالى: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ آيتان معروفتان، بقية التسع ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، هذه كم؟ سبع ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، تسع آيات، هذه الآيات:

الطوفان: ما الطوفان؟: الفيضان فيضان الماء، الجراد: معروف، القُمَّل: الدودة التي تكون في الحبوب عادةً، الضفادع: معروفة، والدم: معروف، والدم: بعض العلماء يقول: إن الدم هذا، إذا شربوا منه، فإذا هو دم، وإذا سلمه إلى الإسرائيلي عاد ماء، ولكن الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ ، قال: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الفيضان، وهذا يُفسد الزروع قبل خروجها، ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ يأكل الزروع بعد خروجها؛ لأن الشيء الخارج يأكله الجراد، والشيء المُدخر يُفسده القُمَّل، الماء يفسده الضفادع، إذن المأكول، والمشروب فسد، هذا المأكول، والمشروب إذا أكله الإنسان يتحول إلى دم، أُرسلَ عليهم الدم ـ أيضًا ـ، وهو النزيف: الرعاف، فعلى هذا يكون غذاؤهم فسد، وما حصل في الغذاء من شيء، وهذه الحقيقة ما معناها: بأن كل الماء فيه دم، وبالنسبة للضفادع إذا صار عندنا في الماء ضفادع كيف يشرب الواحد؟ تكون رائحته كريهة ومنظره قبيح، ويمكن ما يعرف يضع شفتيه.

وقوله تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو علم جنس لكل مَنْ مَلَكَ مصر كافرًا، مثل كسرى لكل من ملك الفُرس كافرًا، وكذلك قيصر لكل من ملك الروم كافرًا.

وقوله: ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ القوم: الأصحاب، وسُميَ الأصحاب قومًا؛ لأن بهم قوام الإنسان، فالإنسان يعتز، ويقوم بقومه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ هذا تعليل للرسالة إليهم، يعني، إنما أرسلناك بتسع آيات إلى هؤلاء؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين، يعني خارجين عن الطاعة، والفسق ينقسم إلى قسمين:

١ ـ فسق أكبر: وهو الخروج عن مطلق الطاعة،

٢ ـ فسق أصغر: وهو الخروج عن الطاعة المطلقة.

وما الفرق بين مطلق الطاعة، والطاعة المطلقة؟

الطاعة المطلقة: هي الطاعة الشاملة لكل أفراد الطاعة لكل أمر، يُقال: هذا الرجل قد أطاع الله طاعة مطلقة معناه: في كلِّ ما أمره ربه، لكن إذا فسق فقد خرج عن الطاعة المطلقة؛ لأن الفرق بين مطلق الشيء، والشيء المطلق، مطلق الشيء معناه: وجود أوجه إيمان، والشيء المطلق: الكامل.

ولهذا الفاسق عند أهل السنة، والجماعة هل معه إيمانٌ مطلق أو مطلق الإيمان؟

معه مطلق الإيمان، ومطلق الطاعة أن يُقال: هذا الرجل فاسقٌ أي: خارجٌ عن مطلق الطاعة (فاسقٌ أكبر)، يعني معناه: ما يصدق في حقه، ولا أقل طاعة.

وإذا قيل: هذا الكافر خارج عن الطاعة المطلقة، معناه: أنه معه طاعة، لكن الطاعة الكاملة ما معه، ولذلك عندهم ـ أيضًا ـ، حتى في الفقه مثل: هذا ماءٌ مطلق، وهذا مطلق ماء.

الثاني: هذا ما تغير بالأشياء الطاهرة، ليس بطهور؛ لأنه ليس بماءٍ مطلقًا، وإنما هو مطلق ماء، الكلام في الفرقِ بين التعريفين معروف عند الفقهاء، وعند الأصوليين، وعند أهل الكلام.

ثم الفرق بين مطلق الشيء، والشيء المطلق، والشيء المطلق معناه: الكمال، ومطلق الشيء معناه: الأصل.

إذنْ بما إنهم كانوا قومًا فاسقين أي الفسقين؟ الفسق الأكبر؛ لأنهم خارجين عن مطلق الطاعة ما عندهم طاعة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ الضمير يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾، وقوله: ﴿آيَاتُنَا﴾ أي: العلامات الدالة على صدق موسى ﷺ برسالته، وعلى أحقية ما دعا إليه؛ لأن الآيات التي جاء بها موسى تدل على أمرين:

١ - على صدق موسى، وهذا تأييد له.

٢ ـ وعلى صحة ما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ فسرها المؤلف: [أي مضيئةً واضحة]، وهنا كلمة ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسم فاعل، والفعل منها أبصر، فهل الآيات هي التي فيها البصر، أو مبصرة جاعلة غيرها يبصر بها؟

أيهما أبلغ، الثاني أبلغ، أنها جاعلة غيرها يبصر بها، يعني أنها تبُصِر غيرها.

فالآيات هذه هي بنفسها ظاهرة، واضحة، والذي يراها يبصر بها، ولهذا نقول: ﴿مُبْصِرَةً﴾ هي تعني: أنها باصِرة بنفسها، وموجبة للإبصار لغيرها.

لما جاءت هذه الآيات المبصرة كان الجواب: ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي: ما جاءنا، ولم يقولوا: هذه الآيات من أجل أن يشمل كل شيء، هذا الذي جاءنا من الآيات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ ظاهر، ومبين هنا على تفسير المؤلف موافق، أبان: اللازم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ السحر معناه في اللغة العربية: كل شيء صار خفي السبب، ما خفي سببه ولطف يسمى سحرًا، ولهذا ذكر ابن كثير أقسام السحر في تفسيره، وذكر من جملة السحر: الساعات، الساعات الآن تطورت إلى ما ترون الآن، لماذا؟ خفية السبب، عندك الآن العقرب هذا، وترى ما الذي يجعل المسمار إذا لمسته تحول التاريخ إلى تاريخ آخر؟ أو أقل التاريخ الشهر، أو اليوم، لو جاءت بغير الوقت لتعذب الناس بها، هذا يُسمى سحر لغة لا شرعًا؛ لأن السحر شرعًا هو عبارة عن عُقد، وعزائم، ورقى تؤثر في بدن مسحور، أو عقله، ربما تمرضه، أو ربما تهلكه، أو ربما تخذله، هذا هو السحر.

هنا الآن قولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ قول فرعون، وقومه ماذا يقصدون بهذا؟ السحر الحقيقي الشرعي، أم اللغوي؟

الحقيقي الشرعي؛ لأنهم قالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، - والعياذ بالله -، فهم قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا الجواب ليس صادرًا من فرعون فقط، بل جميع المكذبين للرسل قالوا: هذا، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، كل الرسل السابقين يقول قومهم هذا: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ لا ما تواصوا به، لكنهم جمع مشترك الطغيان ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

مجرد الضرر لا يدخل في الكفر في الحقيقة، ولهذا لو ضررت الإنسان بدواء كسم وشبهه ما تركوك، لكن ما ظهر أنه يقترن به من الأحوال الشيطانية، واعتقاد أن هذا مؤثر من دون الله - سبحانه وتعالى - هذا هو الباطل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن فيها آية من آيات الله - سبحانه وتعالى - وذلك أن يد موسى دخلت على طبيعتها ثم خرجت بيضاء من غير سوء في لحظة؛ لأن قوله: أدخل تخرج، تخرج جواب لتدخل، والمعنى أن بمجرد الإدخال تخرج هكذا، وهذا من آيات الله - سبحانه

وتعالى ـ.

٢ ـ **وفيها أيضًا دليل على:** حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في آيات الأنبياء؛ حيث تكون منافسةً للعقل الذي بعثوا فيه، ويُؤخذ هذا من أن هذه الآية تشبه السحر، والسحر خيال، السحر لا يمكن يقلب اليد إلى بيضاء، أو المتحرك إلى ساكن، أو الساكن إلى متحرك لا يمكن أن يقلبه في الحقيقة، لكن هذه الآية حقيقة.

٣ ـ **وفي الآية دليلٌ على:** مبدأ الاحتراز في الكلام، فينبغي الاحتراز في الكلام عندما يُوهم الشيء بأمرٍ يُحترز منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، فإن البيضاء قد تكون من سوءٍ، لكنه احترز بقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٤ ـ **وفيها دليلٌ على:** أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعطاه الله ـ تعالى ـ تسع آيات منها آيتان سابقتان، والباقي لاحق فما هذه التسع؟

هي: السني، نقص، والثمرات، اليد، العصا، الطوفان، الجراد، القُمَّل، الضفادع، الدم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يرسل نبيًّا إلا بآية لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، إذن ما هي الحكمة في أن الله لم يُرسل رسولاً إلا بآية؟

لأنه لا تقوم الحجة إلا بآية؛ ولو جاء رسول من عند الله بدون آيات ما يُصدق، وإذا لم يُصدق فلا حُجة على الخلق به، وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في هنا للظرفية على ذلك؛ وأما ذكره وغيره لابد من الآيات العظيمة.

٦ ـ **وفيها دليل على:** طغيان فرعون، وقومه: تؤخذ هذه من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

٧ ـ **وفيه دليل على:** أن من الفصاحة والبلاغة قرن الحكم بالتعليل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وقد ذكرنا أن من فوائد قرن الحكم بالتعليل. إذا ذكرت العلة فلها ثلاث فوائد أو أكثر:

أولاً: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى في تشريعه وقضائه،

الثاني: التعميم، أي: عموم العلة،

الثالث: أن المخاطب إذا علم الحكم، يزداد طمأنينة.

والفائدة من التعليل بالحكم: أنه من البلاغة قرن الحكم بالتعليل، وفيه دليل على أن الفسق يُطلق على الكفر من أين؟ من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وقد ذكرنا أن الفسق نوعان:

١ ـ فسقٌ مطلق: هو الكفر.

٢ ـ مطلق الفسق: هو العصيان من المؤمنين.

فأصل الفسق هو الخروج عن الطاعة، فإن كان خروجًا كاملاً شاملاً، فهو فسق مطلق، وإن كان بعض خروج، فهو مطلق فسق.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** أن الحجة قامت على فرعون، وقومه حيث جاءتهم الآية مبصرة.

٢ ـ **من فوائد الآية:** أن آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها الإبصار فهل هي مبصرة بنفسها، يعني باصرة، أو مبصرة لغيرها؟ كلاهما، يعني مبصرة: هي باصرة، وكذلك تبصر غيرها، وتدل عليه، وفي هذا دليل على أن آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ بينة واضحة تورث الحق، ولولا ذلك ما كانت آيات.

٣ ـ **ومنها:** أن فيها دليل على عِظم طغيان فرعون وقومه: لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤ ـ **ومنها أيضًا:** مبالغة صاحب الباطل بدعواه: حيث قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يعني: بين ظاهر،حيث فيه مبالغة بالكلمات التي تُشبِّه على الخلق، حتى يصل إلى ما يريده من الباطل.

وهنا لماذا قال تعالى؟: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يقل هذه مع أنه قال آيات مبصرات؟ ليشمل كل ما جاء، حتى موسى نفسه، يكون ساحرًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤]

❁ التفسير ❁

ثم قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ جحدوا: الضمير يعود على فرعون، وقومه.

والجحد: الإنكار، وجَحَد: متعدٍ بنفسه، ولكنه قد يُضم له معنى التكذيب فيتعدى بالباء، وجحدوا مكذبين بها: وهنا الجحد ضُم له معنى التكذيب، ولهذا تعدى بالباء، ذلك؛ لأن الجحد قد يكون تكذيبًا، وقد، يكون مراعاة لمصلحة من المصالح، والصالِحُ المُتعدَّى لَه جَحْد؛ لأنه قد يقول لك قائل: ماذا فعلت؟ فتجحد لمصلحة تريدها لا تكذيبًا، ولكنه هنا تكذيب، جحدهم هذا تكذيب، الدليل أنه عُدي بالباء، والذي يُعدى بالباء هو التكذيب، فجحدوا بها: أي كذبوا بها جحدًا، هم كذبوا، ومع ذلك ما أظهروها، ولهذا يقول المؤلف: [أي لم يُقروا بها]، ولم يقروا بها هو معناه: التكذيب، والمؤلف أتى بـ[لم يقروا] لأمرين: الأمر الأول: لأجل أن يسلم التعدي بالباء، والثاني: لأجل ألا يتضمن ذلك إخفاءها لمن طلبها؛ لأن تعبير المؤلف: جعل الجحد نفي الإقرار، ولكننا لا نوافقه على هذا التفسير:

أولاً: أنه فسر المُثبت بالمنفي جحد مُثبت، لم يُقر منفي.

الثاني: بتفسيره هذا يُفوت معنًى دلت عليه الآية، وهو: كتمانهم لهذه الآيات لو سُئلوا عنها، كتمانهم لو سُئلوا؛ لأن كون الإنسان ما يُقر يفُهم منه أنه جحد وكتم عن غيره، فإبقاء الآية على ما هي عليه أولى، ويُقال: أنه عُديَ الجحد بالباء لتصميمهم على التكذيب، ويكون دائمًا على أمرين:

١ - على إخفاءها عند طلبها. ٢ - وعلى التكذيب بها عند عرضها.

فالآية شاملة لما ذكره المؤلف، لكننا نقول: إن تفسير المؤلف لها فيه نظر من وجهين: الوجه الأول: تفسير الإثبات بالنفي، وهذا قصور، والثاني: أنه فوت معنًى، وهو الجحود عند السؤال، فهو تكذيبٌ عند العرض، وجحودٌ عند الطلب.

قال المؤلف: [وقد استيقنتها أنفسهم]: أي تيقنوا أنها من عند الله، فما الذي أوجب له أن يُقدر قد؟

نقول: لأن الجملة حالية، والجملة الحالية إذا كانت فعلًا ماضيًا يُقدر فيها قد للتحقيق.

والثاني: قال في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ قال: [أي تيقنوا أنها من عند الله]، ففسر استيقن بتيقن إشارة إلى أن السين، والتاء زائدتان، ولكن الأولى أن تبقى السين، والتاء على بابها، ولو حُكم بزيادتها؛ لأن الاستيقان أبلغ من التيقن، ومن المعروف عندهم أنهم يقولون: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالاستيقان أبلغ فإنهم قد استيقنوها استيقانًا كاملاً ليس عندهم فيها شك، ومع ذلك جحدوا بها، يكون هذا جحد مع الاستيقان أبلغ، ولهذا قال: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الخ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، ولم يقل: واستيقنوها، فإرادة الاستيقان هي من النفس أبلغ، أي: أنه يقينٌ بلغ نفوسهم، حتى تمكن منها، ومع ذلك، - والعياذ بالله - جحدوا بها، وأنكروها.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يقول: المؤلف: [تكبرًا عن الإيمان بما جاء به موسى]، ففسر الكلمتين بكلمة واحدة، وهي تكبرًا، ولكنه - أيضًا - لو نظرنا إلى الآية الكريمة، وجدنا أنها أبلغ لما فسرها به، قوله تعالى: ﴿ظُلْمًا﴾ الظلم في الأصل النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، ما معنى ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾؟ أي: لم تنقص، فالأصل فيه أنه بمعنى: النقص، وكل من نقص حق غيره، فهو ظالم، إذا نقص الإنسان حق نفسه، فهو ظالم لها، إذا نقص حق غيره، فهو ظالم له، هنا هؤلاء نقصوا حق موسى - عليه الصلاة والسلام - فهم ظالمون، ونقصوا حق أنفسهم أي فلم يقودوها إلى ما فيه صلاحها، فهم - أيضًا - ظالمون، ثم هذا الظلم والنقص ما الحامل عليه؟ قال: ﴿وَعُلُوًّا﴾ وهذا بمعني: غير الظلم، يعني ترفعًا عما جاء به موسى - عليه الصلاة والسلام -، ورغم أن فرعون قد قال: أنا ربكم الأعلى، إلا أن موسى قد أتاه وقال له: أنا رسولٌ إليك لابد أن تتبعني. بطبيعة البشر الفاسق أن يترفع عمومًا جاء به موسى، ولهذا جحدوا ظلمًا لموسى، وعلوًا لأنفسهم: ترفعًا عن موسى، وعما جاء به - أيضًا - ، فهم، -

والعياذ بالله - اتصفوا بالوصفين.

وقوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يقول: المؤلف: [راجعٌ إلى الجحد]، صحيح؛ لأنه لو استيقن فرعون وقومه، لاستيقنوا أن موسى صادق، فهو حق، هذا عدلٌ وتواضع، لكن ما استيقنوا هم، يعني: ما انقادوا لهذا الاستيقان، إذن فهو راجعٌ إلى الجحد، يعني: جحدوا بها ظلمًا وعلوًا، لكن فائدة الإتيان بالجملة الحالية ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بين المتعلَّق، والمتعلق به: التشنيع عليهم - المبادرة بالتشنيع - عليهم؛ لأن كونهم يجحدون مع الاستيقان أشد وأعظم، والجاحد مع الشك؟ قد يُعذر، لكن مع الاستيقان لا وجه له.

ففائدة الاعتراف بالجملة الحالية ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بين المتعلَّق، ومُتعَلَّقه ما فائدتها؟ المبادرة بالتشنيع عليهم، وبيان أنهم بلغوا في هذا الوصف غايته الوصف والعلو.

ثم إعراب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هل هي مفعول لأجله؟ يعني من أجل الظلم، والعلو، أم هي نصًا بمعنى الحال، أي ظالمين عالين؟

الأخير أولى؛ لأن الظلم، والعلو إذا قلنا: إنه مفعول لأجله: فهو سابقٌ على الجحد، إذ إنهم ظلموا، وعلوا ثم جحدوا، فعلى هذا نقول: إن ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إنها مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي جحدوا بها حال كونهم ظالمين عالين.

قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد الخ، قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ﴾، نظر اعتبار، أو نظر إبصار؟ نظر اعتبار؛ لأن نظر الإبصار هنا متعذِّر، لسبق زمني، لكنه نظر اعتبار، والخطاب على كلام المؤلف: يعود إلى رسول الله ﷺ فانظر يا محمد، وقد مرَّ علينا عدة مرات أن الخطاب للمفرد في القرآن لا يختص بالرسول - عليه الصلاة والسلام - إلا ما دلَّ عليه الدليل، وإلا فهو عامٌ، إذن فالتقدير: فانظر أيها المُخاطَب؛ لأن القرآن بين أيدي كل أحد، كل واحد بين يديه قرآن، أما ما دلَّ الدليل على أنه خاص بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فهو خاصٌ به، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ويدل على أن الخطاب المفرد عام:

أولاً: أن القرآن بين أيدي الناس جميعًا، ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، خاطب بالإفراد والجمع، فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ موجهٌ للأمة ما لم يدل الدليل على اختصاصه به مثل ما مثلنا بالمثالين، وكذلك منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[التحريم: ١]؛ لأن هذا خاصٌ بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ، هو الذي حرم، لكن مع ذلك الحكم عام.

إذنْ فانظر أيها المُخاطب، هنا خاطب بها الجمع، أي: فانظر قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في هذه الآية:

كان: فعل ناسخ ينصب الخبر ويرفع المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١١٣].

عاقبة: اسم كان مرفوع، ولكن إذا كان الاسم مؤنثًا، فلا بد أن يكون الفعل مؤنث، فما الجواب على هذا لإشكال؟

الجواب: إن عاقبة مؤنث لفظي وليس مؤنثًا حقيقيًا.

يعني: عاقبة مؤنث مجازي لا حقيقي، والفرق بين المؤنث المجازي، والحقيقي: ما كان له فرج، فهو مؤنث حقيقي، وما لم يكن له فرج، وإنما تأنيثه لفظي، فهو مؤنث مجازي.

والخبر مقدم، وهو كيف، مقدم وجوبًا.

لماذا وجوبًا؟ لأنه اسم استفهام، والاستفهام له الصدارة، لا يمكن يأتي الاستفهام في وسط الكلام، لابد أن يكون متقدمًا.

إذن: عاقبةُ: ما معنى العاقبة؟ العاقبة في الأصل: التأخر، ومنه العاقب في القدم، وعاقب القدم هو العرقوب المؤخر، العاقبة معناها: الأمر المُتأخر، يعني: انظروا ماذا كان من أمره في النهاية.

وقوله: ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين صار شأنهم الإفساد، والمراد بالإفساد هنا ليس إفساد العمران، فقد يكون العمران في زمن فرعون قد بلغ غايته، لكن المراد بالإفساد الإفساد المعنوي: إفساد الأخلاق، والعقائد، وربما يتبعه إفساد العمران كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]،قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، وبهذا التقرير، وهو أن الأصل في الإفساد المذكور في القرآن إفساد الأخلاق، والعقائد، ويتبعه فساد الأمان، بهذا نعرف خطأ ما يطنطن به الناس الآن مثل الرفاهية، والطمأنينة، والأمن، وما أشبه ذلك، وإذا أتوا إلى ذكر الدين يقول: العقيدة السمحاء، ولا يذكر العمل، ثم إن كلمة السمحاء - أيضًا - تدل على ضعفٍ في هذه العقيدة، سمحاء: كيف؟ صحيح أن العقيدة سمحاء - لا شك -، لكن لها أعمال، ولها حزم، ولهذا التركيز على الترفيه البدني، والنعيم البدني مع ذكر العقيدة، وحدها في نظري أنه خبيثٌ؛ لأنه كل واحد ينشد أنه عنده عقيدة فهذا بين أمرين:

١ - تجده ما عنده عقيدة سليمة، عقيدة سمحاء هينة لينة، في أي شيء تقبله وفي الذي قلنا تنشد - أيضًا - رفاهية البدن، والأمن، وما أشبه ذلك، لكن استقامة الدين، والسعي في إقامته بين الناس في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، هذا أمرٌ لا يكاد يُفرض.

وفي الحقيقة: أن الرفاهية إذا كانت للبدن، وحده فهي فساد، ما يدوم هذا أبدًا لا يمكن أن يدوم، على أن الرفاهية المطلقة للبدن لابد أن تكون مصحوبة بقلق في القلب؛ لأن الله - تعالى -،

إنما ضمن الحياة الطيبة لمن؟ أي نعم، قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، هذه عقيدة وعمل، وبدأ بالعمل أيضًا، حياة طيبة في الدنيا، وأجرٌ حسنٌ يكون في الآخرة، هذا الذي يجب أن يُركز عليه، أما الرفاهية المطلقة فإنها ضرر عظيم على الإنسان: توجب الغفلة عن الله - سبحانه وتعالى - وانشغال الإنسان بطلب الرفاهية الجسدية الزائلة، يقول بعض السلف: (لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)، فالأصل على ألا تزيد من النعيم والسرور، وانشراح الصدر، وما أشبه ذلك.

الفوائد:

١ - **يُستفاد منها:** أنه بالرغم من قوة الآيات التي جاء بها موسى لم يستفد منها هؤلاء، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾، والآيات إذا قويت ما يبقى من مجال للجهل، ولكن، - والعياذ بالله - أعمى الله بصائرهم فجحدوا بها.

٢ - **ويُستفاد من ذلك:** أن جحد هؤلاء المُرسل إليهم كان عن عنادٍ لا عن شبهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، وهل هذا وقع من كفار قريش مع النبي - عليه الصلاة والسلام -؟ نعم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليست؛ لأن هذا واقع من الرؤساء، والزعماء، لكن عامة الناس قد لا يكون لديهم هذا الأمر، وإنما هم نعم مقلدون، أما الزعماء، والكبراء فليس استحياءً.

٣ - **وفي هذا دليل على:** سوء أحوال أهل فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يعني: ظلمًا لأنفسهم ولموسى، وعلوًا: ترفعًا عن الحق، وفي هذا دليل على أن الاتصاف بهذين الوصفين يجعل الإنسان من الأمة الفرعونية، وهما الظلم والعلو، وما من صفةٍ يخرج بها العبد عن سواء السبيل إلا وله فيها إمام من أهل الكفر، ولهذا أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**أن سيتبعون سنن من كان قبلهم**»[1]، فالجحد بالحق ليس هذا من الإيمان مثل فرعون وقومه، الحسد ليس من الإيمان مثل اليهود، الرياء ليس من الإيمان كالمنافقين، وهكذا، بل إنه من المنافقين، بل فما من خصلة يخرج بها العبد عن سواء السبيل إلا وله فيها إمام من أهل الكفر.

٤ - **وفيها دليلٌ على:** ذم الترفع عن الحق: لقوله: ﴿وَعُلُوًّا﴾، ولا فرق في أن يكون ذلك عن حسن نية، أو لا، فالطريقة هذه مذمومة ولو عن حسن نية، وقولنا: (ولو عن حسن نية) ليدخل في ذلك بعض المقلدين الذين إذا عُرض عليهم الدليل من الكتاب والسنة قالوا: نحن نتبع فلانًا؛

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لأنه أعلم منك، هذا عن حسن نية فيما يبدو، لماذا عن حسن نية؟؛ لأنهم يرون أن هذا الإمام الذي يتبعونه أعلم منه، ويقول: نحن جُهَّال، ولا نعرف، وليس لنا إلا أن نُقلد، والرجل هذا أعلم منه.

٥ - ويُستفاد من هذه الآية: أنه إذا كان هذا الوصف مذمومًا وفرعونيًا، فإن عكسه محمود، وهو التواضع للحق، وقبوله لأن الله - تعالى - إذا أثنى بالسوء على وصف، فإن ضده يُثنى عليه بالحسن.

٦ - وفي هذا دليل على: أنه ينبغي للإنسان ويجب أن يتفكر، ويتأمل في عواقب من سبق لقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، وهل الإنسان ينظر في عواقب المفسدين أو في عواقب المصلحين؟ الاثنين، إذن ما الحكمة من الترهيب هنا؟ لأن المقام مقام ترهيب، وإذا كان المقام مقام ترغيب فإننا نقول للإنسان: انظر كيف كان عاقبة المصلحين، قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود: ١١٦]، فالمسألة تختلف: ففي مقام الترهيب يُشير الإنسان إلى عواقب المفسدين، وفي مقام الترغيب يشير إلى عواقب المصلحين، ليُحذر من أولئك، ويُرغب في هؤلاء.

٧ - ومن فوائد هذه الآية: فضيلة التأمل والتفكر في أخبار مَنْ مضى، وأن دراسة علم التاريخ من الأشياء التي جاء بها الشرع، فإننا لا يمكن أن ننظر كيف كان عاقبتهم إلا بدراسة أخبارهم وتدبرها، فعلم التاريخ إذن من الأمور المفقودة، لكن هل هو من الأمور المفقودة إسلاميًا، أو عربيًا؟ عربيًا إلا سيرة النبي - عليه الصلاة والسلام - ، والخلفاء الراشدين فإنها من الدين؛ لأنها كلها أحكام، بخلاف النظر في التاريخ لأجل الاعتبار فقط، فلكل مقامٍ مقال؛ لأن النظر في التاريخ للاعتبار فقط قد يعتبر الإنسان بغيره وقد يستغني عنه، لكن النظر في سيرة النبي - عليه الصلاة والسلام - ؛ لأنها أحكام فقه هذا مقصودٌ لذاته ما يستغني بغيرها عنها.

وعلى هذا، فإن الذين يذهبون إلى ديار ثمود للتفرج، والتنزه هؤلاء عصاة، الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»[1]، فلا يجوز للإنسان أن يذهب في رحلة مثلاً إلى ذلك المكان إلا إذا كان يدخل وهو باكٍ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم - الحمد لله -، الإنسان في غنى عن هذا، لكنها للأسف الآن صارت آثار، يعني يقتضي منها بيان قوة هؤلاء في إبداعهم، وإتقانهم لأمورهم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٥-١٦]

❁ التفسير ❁

فوائد هذه الآيات(١):

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** بيان ما منَّ الله - سبحانه وتعالى - به على داود، وسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٢ - **وفيها دليل أيضًا على:** ثناء الله - تعالى - على نفسه؛ لأن كونه يتمدَّح بإيتاء داود وسليمان علمًا، هذا من الثناء، وهل هذا محمودٌ بالنسبة للخلق، أن يتمدح الإنسان بفضله أو لا؟

ليس هذا محمود إلا إذا كان في ذلك مصلحة للغير، ليس لك أنت، أما الله - تعالى - فتمدح بنفسه للثناء على نفسه، لكن أنت لا تفعل هذا، أما إذا كان فيه مصلحة للغير، كإنسان مثلاً يذكر عن نفسه شيئًا لأجل أن يُستفاد بالخير، وهذا لا بأس به، أو لأجل أن ينتفع الناس بما عنده فهذا - أيضًا - لا بأس به، فابن مسعود ﷺ قال: «**لو أعلم أحدًا تبلغه الإبل أعلم مني بكتاب الله لذهبت إليه**»(٢) أو، كما قال، والعلماء مازالوا يمدحون كتبهم، ابن مالك يقول:

تُقَــرِّبُ الْأَقْــصَى بِلَفْــظٍ مُــوْجَزِ ... وَتَبْــسُطُ البَــذْلَ بِوعَــدٍ مُنْجَــزِ

وَتَقْتَــضِي رِضًــا بِغَــيْرِ سُــخْطِ ... فَائِقَــةً أَلْفِيَّــةَ ابْــنِ مُعْطِــي

المهم: أنه على كل حال: مثل هذا ما يكون في مصلحة الإنسان، هذا لمصلحة غيره لأجل أن ينتفع من هذا المؤلَّف مثلاً، على كل حال إن هناك رخصة، مع أن الإنسان قد يُتهم مهما كان، أُصلح ما بيني وبين ربي، وما يهمني الناس.

المهم أن في هذه الآية دليل على: تمدُّح الله - سبحانه وتعالى - بما تفضل به على عباده لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** فضيلة داود وسليمان، وأنهما أهلٌ لهذه النعمة؛ لأن الله - تبارك وتعالى -

---

(١) هذه الآيات من (١٥ - ١٦) لا يوجد لها تفسير؛ نظرًا لعدم وضوح سماعها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ومسلم (١١٥/ ٢٤٦٣).

يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤]، فما مِن فضلٍ يُعطيه الله للعبد إلا وهو في مكانه؛ لأن الله حكيم.

وفيه دليل على فضيلة العلم، لقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا﴾، وهذا - لا شك - فيه، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الزمر:٩].

لكن يبقى النظر ما هو العلم الممدوح؟ هذا هو الذي الآن يحتاج الناس أن تبذل فيه البدن، المراد بذلك علم الشريعة، أما ما سوى علم الشريعة فإنه لا يُمدح إلا حيث يُوصل إلى أمرٍ محمود، عكس ما عليه الناس اليوم، كثير من الناس الجهال يمدحون العلم بغير الشريعة، بعض الناس، ـ والعياذ بالله ـ يرى أن علم الشريعة تأخر، وأن علم الطبيعة تقدم، ولهذا يُنَبِّهُ هؤلاء العلماء على دراسة العلوم الطبيعية وطبقات الأرض، وغير ذلك، وتجده مثلاً مستمتعًا ومتفاخرًا بقوله: هذا أفضل علم، أو هذا هو العلم، أو إذا رأى مثلاً أشياء غريبة في العلم، يعني لا يوجد شك أن الآن هذا يُفضِل هذا العصر على عصر الصحابة، هذا ليس هو المقصود، بل المقصود به علم الشريعة؛ لأن علم الشريعة هو الذي ينفع الخلق، حتى إن علم الشريعة هو الذي يدلهم على هذه العلوم التي يحتفون بها؛ لأن الله يأمر بأن نسعى في الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾[الملك: ١٥]، قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الأعراف:١٨٥]، وما أشبه ذلك.

لأن العلم الذي منَّ الله به على داود وسليمان وأثنى عليهما به هو: علم الشريعة، وهذا دليل ما في النصوص أن مدح العلم هو علم الشريعة؛ لأنه هو الذي يُحمد لذاته، وما عداه متى يُحمد؟ إذا كان مُوَصِّلًا إلى أمر محمود، وإلا فإن كونه أوصل إلى أمرٍ مذموم كان مذمومًا، وإن أوصل إلى أمرٍ لا يُحمد، ولا يُذم فهو لا يُحمد، ولا يُذم.

هؤلاء الذين وصلوا إلى أعماق البحار، وآفاق الفضاء هؤلاء هم الذين صنعوا ما يُدمر الخلق، من القنابل، والأسلحة فهل هذا محمود، ثم نقول: هذه العلوم هنا نقصد العلوم الشرعية التي نحن نتمنى أن المسلمين ـ أيضًا ـ يصلون إلى هذه العلوم لينفعوا بها أنفسهم، وينفعوا الخلق.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن فيها دليل على: فضيلة داود وسليمان ـ أيضًا ـ: من جهة اعترافهما بنعمة الله، وشكرهما لها لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾، ولم يقولا: إننا أوتينا هذا على علمٍ منا، أو لأننا أذكياء، أو ما أشبه ذلك ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الشكر يكون بالقول، كما هو ـ أيضًا ـ بالفعل، يكون بالقول، وبالفعل، ويكون ـ أيضًا ـ بالاعتقاد، والشكر له ثلاث محلات: القلب، واللسان، والجوارح: قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

الدليل على هذا أن الشكر، يكون في ثلاثة مواضع:

١ - في اللسان.

٢ - وبالفعل حيث قال النبي - عليه الصلاة والسلام -، وقد قيل: له: كيف تفعل هذا، وكان يقوم، حتى تتورم قدماه، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، فقال: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1]. فجعل الفعل شكرًا لله - سبحانه وتعالى - وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبإ: ١٣].

٣ - وبالقلب: أن يعتقد بالنعم في القلب، فهو من الشكر، ما الدليل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، هذا الخبر يريد الله منا أن نعتقده، ولهذا ضم الله - تبارك وتعالى - الذين نسبوا نعمته إلى أنفسهم فقال عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

وفي هذه المسألة: كل الأنواع الثلاثة للشكر قلَّ مَنْ يقوم بها، فبعض الناس مثلاً يعتمد على السبب في جلب النعمة عليه، وينسى المُسبِّب عندما يعطيه إنسان شيئًا أو حاجة من الحاجات تجد أنه يكون في قلبه مِنْ شكر هذا المُعطي أكثر مما يكون من شكر الله، تجده - أيضًا - يُثني على هذا أكثر مما يُثني على الله، تجده يقوم بخدمة هذا أكثر ما يقوم بخدمة الله، مع أن هذا الذي بسط النعمة على يديه ما هو إلا طريقٌ ليوصلها إليه فقط، وإلا فالذي جعل في قلبه أن يُوصل هذه النعمة إليه من هو؟ الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يسَّر هذا.

الحاصل أن الناس الآن أكثرهم، أو غالبهم، يُقِلون في مقام الشكر إما بالقلب، أو باللسان، أو بالجوارح.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن فيها دليل على: أن الإنسان يُشرع له إذا منَّ الله عليه منةً أن يحمده عليها، وقد وردت نصوصٌ في ذلك، فعندما تنتهي من الأكل، والشرب تقول: : الحمد لله، عندما تستيقظ تحمد الله، عندما تلبس ثوبًا تحمد الله، وهكذا، وهذا من الأمور المشروعة - الحمد لله تعالى - على النعم.

٧ - **ومن فوائد الآية:** تواضع داود وسليمان بمعرفتهما للحقيقة لقوله: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما ذكر التفضيل المطلق على المؤمنين بل على كثير من عباده المؤمنين، هل يُستفاد من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما من المؤمنين؟

الظاهر: أنه يُشعر بهذا، يعني أننا شاركناهم، وصف الإيمان، وفضلنا الله على كثير منهم.

٨ - **وفي الآية دليل على:** أن الإنسان إذا رأى أنه أفضل من غيره بنعمة الله عليه، فإن هذا لا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٧٩/ ٢٨١٩) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

يُنافي التواضع، بل عندما تشعر أن الله أنعم عليك بالمال، فضَّلك على هذا، هل معنى ذلك أنك ترفعت وتكبرت؟ لا، بل إنك لا يمكن أن تمسك نعمة الله عليك، حتى تعرف أنه ضدها في غيرك، لا يمكن أن تعرف هذا إلا إذا رأيت مثلاً إنسانًا مُبتلىً في بدنه، والله - تعالى - قد عافاك، فتعرف أن هذا من فضل الله وتقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به، وفضَّلني عليه، عندما ترى جاهلاً، وأنت منَّ الله عليك بالعلم كذلك ـ أيضًا ـ ترى فضل نعمة الله عليك في هذا، ولا يُعد هذا من باب التكبر، والاستهانة بالغير، ولهذا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه قد يتراءى للإنسان أنه إذا رأى فضله على غيره بما أنعم الله عليه قد يتراءى له أن ذلك أمر مذموم، وأنه يتضمن الترفع، والاستهانة بالغير، وليس الأمر كذلك.

٩ ـ **وفيها من الفوائد:** مشروعية التحدث بنعمة الله، لكن لا على سبيل الافتخار، والعلو على الغير، ولهذا جاء في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»(١). فالإنسان إذا تحدث بنعمة الله غير مفتخرٍ بها فإنه لا بأس به، بل قد يكون هذا مشروعًا؛ لأنه ثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أنعم به عليه.

١٠ـ **وفي هذه الآية:** إثبات علم الله؛ لأنه أعطى علمًا، وفاقد الشيء لا يعطيه؛ وجهه: أن الله - تعالى - أعطى هؤلاء علمًا، ولا يعطي العلم إلا من كان عالمًا؛ لأنه يعلمهم بالعلم، بما يعلم هو.

١١ ـ **ويؤخذ أيضًا من الآية:** أن من فاق غيره في صفة لا يلزم أن يكون أفضل منه فضلًا مطلقًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن سليمان متأخر عن داود؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾، والإرث، كما قلنا: أن يخلف الإنسان غيره في شيء ما علمًا كان أو مالاً.

٢ ـ **وفيها دليل على:** مشروعية تحدث الإنسان بنعمة الله لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

٣ ـ **وفيها أيضًا:** أن هذا التحدث لا بأس أن يكون علنًا، يعني شاملاً؛ لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداءٌ للبعيد، فكأن سليمان أعلم ذلك لجميع الناس.

٤ ـ **وفي هذا دليل على:** أن الطير تنطق؛ لقوله تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

٥ ـ **وفيها:** أن منطقها مفهومٌ ومعلوم، ولكن فيما بينها معلوم، ولغيرها مجهول إلا لمن علَّمَهُ الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤].

٦ ـ **وفي هذه الآية دليل على:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى سليمان من كل شيء يتم به

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ملكه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو نظير قوله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما يتم به ملكها، هذا إذا قيدنا أن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتم به الملك فتكون ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، فإذا قلنا: إن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌ لكل شيء، فإن من تكون: للتبعيض، يعني: ما أوتوا كل شيء، بل بعض كل شيء.

٧ - وفيها دليل على أن ما يعطيه الله - تعالى - للعبد مثل العينين، والفم، فهو من فضله لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

هل يُستفاد من ذلك أن مَنْ علم لغة غيره فله ميزة على غيره؟

الجواب: نعم له ميزة على غيره؛ لأنه من باب قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾؛ إذن تعلم لغة غير العربية هي في الحقيقة من مِنَّة الله على العبد، لكن نستعملها في أي شيء، فإن استعملها مكان اللغة العربية، فهو مُخطئ، وكان عمر يضرب على ذلك، وإن استعملها لمصلحة دينية، فهذا له أجر في ذلك، إن استعملها لمصلحة في السعي إلى الله، وتفهيم الخلق الذين لا يفهمون اللغة العربية بهذه الوسيلة فهي مفيدة، المهم أنه لا شك أن الإنسان المُتعلم لغة غيره فله ميزة على غيره في هذا، لكن كونه محمودًا، أو غير محمود يرجع إلى ما يُتوصل إليه بهذه اللغة.

إن الإنسان يُمدح إذا علم لغة غيره، لكن لا شك أنه علم، وأنه إذا تُوصل به إلى أمر محمود، فهو محمود، وإن تُوصل به إلى أمرٍ مذموم كان مذمومًا، فمثلاً إذا كان الإنسان يتعلم لغة غير اللغة العربية، يعني: ويحلها محل العربية، ويبدأ يخاطب غيره بهذه اللغة فلا شك أنه مذموم، ويُنهى عنه؛ لأنه خالف الشرع من جهة، وخالف العقل من جهةٍ أخرى، الأمم الآن تسعى بكل وسيلة للحفاظ على لغتها، بل إنها تسعى لإحياء لغتها البائدة مثل ما يفعل اليهود الآن يحاولون بشتى الوسائل أن قومهم يرجعون للغة العبرية، فكيف لنا أن نضيع اللغة العربية التي هي لغة العالم شرعًا؟!، ولهذا يجب على جميع العالم أن يتعلم اللغة العربية؛ لأن القرآن باللغة العربية، ولا يمكن فهمه إلا باللغة العربية، ولكن نحن الآن مع الأسف نرى أن غير اللغة العربية هي العالمية، مثل ما نرى الآن الشعوب غير العربية هي العالمية؛ لأننا ما عرفنا قدر أنفسنا، وإلا فالمسلمون هم العالم في الحقيقة، هم العالم في دينهم، وفي كتابهم، وفي تاريخهم، يقول: الله - تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لم يقل للعرب، بل مواقيت للناس، قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقد فسرها الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذه الشهور العربية، ولكن:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

الحاصل أني أقول: إن مع الأسف الشديد تجد بعض الناس يتعلم لغة هؤلاء، ويجعلها هي لغة التخاطب فيما بينهم، وهذا لا شك أنه نقص في الشرع والعقل.

لو أن الناس نُقلوا من اللغة العامية إلى اللغة العربية الفصحى هذا جيد إذن من أحسن ما يكون؛ لأنهم باقون على لغة القرآن، والسنة، لكن هذا تغير لهجة فقط، ولو تأملت ما عليه الناس الآن من اللغة العربية العامية لوجدت أن كل كلماتهم لها أصول في اللغة العربية، لكن الاختلاف اختلاف لهجات، فأملنا في الحقيقة أن نرجع إلى اللغة العربية الفصحى، ولكننا لابد أن نتخلى عن لغتنا هذه العامية إلى الفصحى، هذا في نظري.

قال الله تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

سليمان - عليه الصلاة والسلام - أتاه الله - تعالى - ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، حتى الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما همَّ أن يقبض على الشيطان قال: ذكرت قول أخي سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥].

من جملة ملكه هذا التنظيم العظيم، قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ﴾ جُمع، ومن الجامع؟ الجامع النقباء والعرفاء الذين جعلهم يجمعون هؤلاء الجموع، فهو قد نظم ملكه غاية التنظيم، وجعل لكل أُناسٍ قادة، وعرفاء فهم يجمعونهم.

قوله تعالى: ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾، وغيرهم.

الجن: واضح، والإنس مكلفون، والطير: غير مُكلفين، لكنها تطير، هل الحيوانات الأخرى الماشية والزاحفة، تدخل في هذا؟ من باب أولى، ونقول: إذا حُشرت الطيور التي لا يمكن السيطرة عليها فغيرها من باب أولى؟ أو نقول إن سليمان - عليه الصلاة والسلام - ما كان يستعمل إلا الطيور فقط؛ لأنه يستخدمها لمصالحه ممكن على عموم هذا؛ لأنه يجعل مِنْ للتبعيض فليس على العموم، وإن جعلنا كل شيء يثبت بالملك، ويقوى به مثل هذا الشيء فهو محل إشكال عندنا: الآن نقول: سكت عن بقية الحيوانات، فهل هي داخلة في جنوده أو لا؟

الجواب: قد تكون داخلة من باب الأولى، وقد تكون ليست بداخلة. ما يدخل فيه من باب الأولى أن نقول: إذا كان الطير، وهو لا يمكن السيطرة عليه لطيرانه يُحشر ويُجمع فغيره من باب أولى وقد تقول: إنه ليس بداخل؛ لأنه يمكن أن سليمان ﷺ ما يستخدم من الحيوانات سوى

الطير، وإذا لم يستخدم سواها فلا حاجة له في أن يجمع الباقي.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يقول المؤلف: [يُجمعون ثم يُساقون]، وهذا - أيضًا - من التنظيم، يوزعون، يعني يُساقون، يعني يُنظمون في جمعهم، وسيرهم، يُجمعون أولاً، وبعد أن يُجمعوا يوزعون: يُساقون على وجهٍ مُنظم، وهذا لا شك أنه من التنظيم الذي يحفظ على الناس الوقت والعمل؛ لأن أكثر ما يضيع الإنسان وقته، وعمله هو عدم التنظيم، ولهذا أقول: أنه ينبغي لنا أن نكون عندنا تنظيم في أعمالنا اليومية بقدر المُستطاع، لكن ليس معنى ذلك أن نصر على هذه الأعمال، وإن وجد ما هو أفضل،لكنني أكون إنسانًا مرتبًا منظمًا، ما أترك وقتًا يضيع، ومن المستحسن أنه كلّ ما كان أهم يُبدأ به أولاً، كان بعض الناس يقولون: من جملة تنظيمه أنه يجعل قراءة الجرائد والصحف إذا تغدي، ما يجعل قراءة الكتب الهامة التي تحتاج إلى تعب بعد الغداء، لكن قراءة الصحف قراءة سطحية مثل التحدث العادي لا يتعب، ولا شيء، لكن الكتب والتعمق يحتاج إلى عمل، وهذا لا يتناسب مع وجود الشِّبع.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد نظم جنوده، ورتبهم بحيث يُجمعون عند الجمع، ويفرَّقون عند التفريق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾.

٢- **في هذه الآية دليل على:** أن الجنود التي يستخدمهم سليمان ثلاثة أصناف، وهم: الجن، والإنس، والطير، أما الإنس فاستصحابه لهم ظاهر؛ لأنه منهم، وأما الجن: فلاستخدامهم فيما لا يقدر عليه الإنس، وأما الطير: فقال بعض العلماء: إنها تصحبه لتظله لتغطية رأسه، فهي ظل له من الشمس، وهذا قد يكون مقصودًا وقد يكون أيضًا من مقصود استصحاب الطير أنها تأتيه بالأخبار البعيدة، كما في قصة الهدهد.

٣ - **وفيها أيضًا:** في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ دليل على كمال التنظيم أيضًا؛ لأن الوزع: ما معناه: الجمع والسَوق،قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، يجمعون إليها، ويُساقون إليها، وهذا دليل - أيضًا - على كمال التنظيم.

٤ - **ومن فوائدها:** استعمال الساقة في الجند والجيش أن يكون لهم سائق، كما أن لهم قائدًا دليلاً، فلهم - أيضًا - سائق، وقد كان من هدْي الرسول ﷺ أنه يكون في الساقة في أخريات القوم، مع أنه ﷺ رئيسهم وزعيمهم وكان يتأخر ولكنه يتأخر لأجل أن يساعد من قصَّر، ويعين من احتاج، وهذه فائدة عظيمة.

❁ قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ هذه غاية لما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ﴾، وعلى هذا فيكون في الكلام حذف تقديره: وساروا حتى إذا أتوا، فبعد أن جمع الجنود، ووزعوا، ورُدَّ أولهم إلى آخرهم ونُظموا ساروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ﴿أَتَوۡاْ﴾ أي: سليمان وجنوده أي: مرّوا، قوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر الكلام أن هذا الوادي معروفٌ بهذا اللقب، أنه يُسمى وادي النمل، لكن خلاف الظاهر أن يكون هذا الوادي واديًا فيه نمل، يعني: حتى إذا أتوا على وادٍ فيه نمل، وليس معروفًا بهذا اللقب بأنه وادي النمل، ولكن الأولى الأخذ بظاهر اللفظ، وهو أن يكون هذا الوادي معروفًا بكثرة نمله، وأنه يُلقب بهذا اللقب لكثرته، والنمل معروف، وهو من الحيوانات التي نُهي عن قتلها، كما في السنن: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعًا مِنَ الدَّوَابِّ، وَذَكَرَ مِنْهَا النَّمْلَةَ»(1).

وفي الصحيح - أيضًا -: «**في أحد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أنه قرصته نملة فأمر بقرية النمل كلها فأحرقت، فعاتبه الله على ذلك، وقال هلا نملة واحدة**»(2).

هذا النمل من جملة المخلوقات التي تعرف ربها، وتعرف ما ينفعها، وما يضرها على حسب ما رُكِّب فيها من هداية، وقد قال موسى ﷺ لفرعون لما قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠]، أعطى كل شيء خلقه أي: الخلْق اللائق به، كل شيء من الحيوان وغيره له خلقٌ يليق به أعطاه الله، ثم هداه: هدى هذا الخلق - أيضًا - بما تقوم به مصالحه.

فهذا النمل من جملة المخلوقات التي أعطاها الله - تبارك وتعالى - خلقها، وهداها.

قوله تعالى: ﴿أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ [وهو بالطائف أو بالشام]، فيه خلاف، ولا دليل لا على

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٦٧) من حديث ابن عباس ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠١٩) ومسلم (١٤٨/ ٢٢٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الطائف، ولا على الشام، والأقرب أنه في الشام، ومع ذلك لا نجزم به؛ لأن مقرَّ سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في الشام، ومع هذا لا نجزم به.

وتعيين المكان هل هو من الأمور التي لابد منها في القصة؟

لا؛ لأن المقصود الاعتبار بما جرى في أي مكان كان من الأرض.

وقال: [نمله صغار، أو كبار]، ولكن ما لنا ولهذا، ولهذا بعضهم يقول: النمل الكِبار: النملة الكُبرى الذئب، يعني صارت النمل كالحمير، هذا ما هو صحيح، بل النمل هو المعروف في لغة العرب، وكل من فسر شيئًا من القرآن بخلاف ما تقتضيه اللغة العربية فإنه لابد له من دليل، وإلا فيُرد عليه؛ لأنه معنا أصلٌ أصيل في تفسير القرآن في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فمن زعم أن شيئًا من هذا القرآن على خلاف هذا اللسان العربي المبين فعليه الدليل.

على هذا نقول: النمل هو النمل المعروف، وأما القول بأنه الكبار، وأن الكبرى الذئاب فلا دليل عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، هذا جواب إذا، حتى إذا أتوا ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [ملكة النمل، وقد رأت جند سليمان].

أما قوله: [وقد رأت جند سليمان] هذا واضح، الله أعلم أنها رأته، أو أحسته، قد يكون إحساسًا بدون نظر، وقد يكون نظرًا، إنما على كل حال هي أدركت قربه، ووصول سليمان بجنوده إليهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، نملة مُنكر، وظاهر كلام المفسر أنها مُعرفة؛ لأنه قال: [ملكة النمل]، وهذا يقتضي أن يكون التعبير: قالت: النملة؛ لأنها النملة المعهودة، وهي الملكة، ولما لم يكن التعبير بقوله: قالت النملة، دلَّ على أن القائل لا يتعيَّن أن تكون ملكة النمل، وإنما هي نملة من النمل، وهذا ليس بغريب، فإنه كما لو أقبل جندٌ على طائفة من الناس، ورآه واحد منهم يصيح بهم ، ولا يلزم أن يكون هذا الصائح هو الأمير، أو الملك، وإنما الصحيح إبقاء القرآن على ظاهره، وأنها نملة من هذا النمل، ولا يلزم أن تكون الملكة؛ لأن مثل هذه الأحوال أي: واحد يشعر من الطائفة الموجودة يشعر بالخوف يصيح به وينذر، أنا النذير العُرْيان.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ إذن الصواب أن نقول: قالت نملة من النمل، ولا نعينها بأنها الملكة.

وقد رأت جند سليمان: هل يتعين ـ أيضًا ـ أن تكون رؤيةً، أو يجوز أن يكون إحساسًا؛ يعني: هل يتعين الإدراك بالرؤية، أو يجوز أن يكون بالاحساس والسمع؟

الجواب: يمكن هذا، وحينئذٍ نسأل هل للنمل أعين؟ وقد رأيت كلامًا يقول: إن النمل بإذن الله إذا مشى يفرز أشياءً تمشي النملات الأخرى على رائحتها، وهذا الشيء أنا شاهدته بعيني كان

في بساط كبير، وكان النمل هذا يمشي، يعني يأتي على زاوية ثم يرجع، كل النمل على هذا، يعني: ما يروح يختصر، فأنا تعجبت كيف أنه يعرف الطريق إذا كان على تراب فالذي على التراب يبين أثر النمل، ويمشي بعضه مع بعض، لكن هذا ما هو على التراب، ولكن بعد أن قرأت هذا أمس عرفت أنه إذا مشى هذا، يكون للرائحة، وتمشي بقية النمل عليه، وهذا من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا معني قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

على كل حال نحن الذي يلزمنا من هذه الآية الكريمة: أن النملة أدركت ذلك برؤية، أو بغير رؤية.

يقول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾،

هذه الجملة تضمنت: نداءً، وأمرًا، وإرشادًا، وتحذيرًا، وتعذيرًا، وغير ذلك مما يمكن أن ندركه – إن شاء الله –.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ هذا نداء، وقد مرَّ علينا مرات أن تصدير جملة النداء الغرض منه: التنبيه؛ لأنك لو قلت: افعَلْ أو يا فلان افعَلِ الأخيرة أعظم وأبلغ، فهذا لتنبيههم، ثم قولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ نداء للبعيد مُصدَّر بتنبيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾؛ لأنها لو قالت: يا نمل؛ لأنكم كما تعلمون أن الإنسان أول ما يتكلم قد يخفى أول الجملة، فتخفى أول الجملة، ولو جاء بشيء ينبه قبل الدخول في الموضوع المقصود لا يفوت السامع من المقصود شيء، لذلك قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾، ولم تقل: يا نمل.

ثم إن نداء البعيد ـ أيضًا ـ يدل على أنها صوتت بصوت سمعه الكل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾

وفي قولها: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ هذا أمر، والمراد به الإرشاد، وفي تعيين المساكن وهي الملاجئ، هذا مثل صفارة الإنذار عند الناس، هل يهربون للسطوح أم للملاجئ؟، للملاجئ، هي ـ أيضًا ـ أرشدتهم إلى ملاجئهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾

ثم فيها ـ أيضًا ـ إشارة إلى أن هذه المساكن، كما أنها أفنان يهتم بها الإنسان هي ـ أيضًا ـ حصون يحترز بها الإنسان، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦].

وفي قولها: ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ الإضافة هنا على تقدير اللام؟ لأن الإضافة تكون على تقدير من: إذا كان المضاف من جنس المضاف إليه: خاتم حديد، باب خشب.

وتكون على تقدير في: إذا كان المضاف إليه ظرفًا من المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿بل مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ [سبأ:٣٣] أي مكرٌ في الليل.

وتكون على تقدير اللام، وهو الغالب، والأكثر، وهنا على تقدير اللام، واللام المقدرة بالإضافة هنا للاختصاص، أم الملك؟

الجواب: بالنسبة لنا للاختصاص، لكن بالنسبة لهن للنمل فيما بينهن الظاهر أنه للملك؛ لأن كل واحدة منهن تعرف بيتها، وأنه ما أحدٌ يدخل عليها.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هذا إرشاد وتحذير،قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ يكسرنكم، والجملة هذه كالتعليل للأمر، لقولها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، يعني: كأن قائلًا يقول: لماذا؟ الجواب،قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، فالجملة تعليل وتحذير.

وهذا من بلاغتها - أيضًا -، ما قالت: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فقط، لكن عينت المُحذر منه، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ ثم أتت بهذه الجملة الشديدة الوقع، ما قالت: لا يطأنكم، قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أيها أشد، وقعًا؟ الأخيرة أشد؛ لأن الوطء قد يلزم منه كسر وإتلاف، وقد لا يلزم، هذا هو بالنسبة لكلمة التحطيم.

وهل المقام يقتضي هكذا، أن يأتي بهذه العبارة الغليظة؟ نعم؛ لأن المقام مقام تحذير وسرعة، إذا لم يفعلن هذا بسرعة فإنهن يحطمن.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بالنون هذا لا يكون إلا للعاقل؛ لأن غير العاقل يؤنث: ادخلن مساكنكم، ولا يحطمنكن، ولكن هي قالت: ادخلوا، ولا يحطمنكم تنزيلاً لهن منزلة العاقل، أو يُقال: هن بالنسبة لبعضهن عقلاء، مثل ما قلنا: إن مساكن بالنسبة لبعضهن ملك، وبالنسبة لنا اختصاص.

وقوله تعالى: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، كأن هذا التعليل يدل على أن عظمة سليمان متقررة عندهن، وهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ ما قالت: وجنده؛ لأن الذي فهمناه من القرآن من أن معه ثلاثة أصناف من الجنود، مَنْ؟ الإنس، والجن، والطير، كما سبق.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا اعتذار، اعتذار لسليمان وجنوده، أنهم لن يقصدوا أن يحطموكم، ولكن بغير شعور منهم؛ لأنكم كما تعرفون الجنود الجيش العظيم الواسع، وهذه نمل صغار، يمكن أن يحطمهم وهو لا يشعر، ثم إن الغالب من مثل هذا الجند الكثير ما يستطيع أن ينكف بعضه عن بعض إذا وجدوا جُحر نملٍ مثلًا، فهذا معنى قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني لو قال قائل: كيف، وهم لا يشعرون؟ هل هم يمشون بغير هدى؟

نقول: لا يمشون بهدى، لكن من المعروف أننا إذا قارنا بين هذا الجند العظيم الواسع، وبين صغر هذه النمل، فإن الغالب أنهم لا يشعرون بها.

هذه الجمل البليغة العظيمة من هذا المخلوق الذي ليس في أعين الناس شيئًا، وهو من أصغر المخلوقات، على أي شيء يدلنا؟ يدل على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - وإنَّ ما هو أعظم من هذه المخلوقات النمل هو أعظم منها - أيضًا - في هذه الأمور؛ لأنه من أعطى الصغير هذا

الإعطاء، وهداه هذه الهداية فالكبير أحوج إلي الهداية من ذلك، وعنده من العلم ما عنده.

[نُزِّل النمل منزلة العقلاء في الخطاب بخطابهن] ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، و قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾؛ لأن النون هذه لجماعة العقلاء، والواو - أيضًا - لجماعة العقلاء، ولذلك خوطبوا بخطاب العقلاء مثل ما قلنا: إما لأن بعضهم مع بعضٍ عاقل، أو أنه لما كان هذا الخطاب يُفهم ويُعمل به صار كأنها تخاطب عقلاء.

هنا عبر ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ للكسر، وإنما الحيوانات طرية، والحشرات طرية؟

ولكن، لا يراد بالكسر هنا كسر عضو فقط، المراد بالكسر الإهلاك على سبيل التحطيم، يعني مثلاً النملة إذا آذيتها تقطعت تمزقت هكذا، ما معناه: أن تنكسر رجلها، وتبقى معلقة مثلاً بها، وهو أشد في الحذر،قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥]، هذا التحطيم أبلغ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

قال: [﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ابتداءً ﴿ضَاحِكًا﴾ انتهاءً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾]، يقولون: إن الضحك ثلاثة أنواع: ابتدائي، ووسط، وانتهائي.

الابتدائي: التبسم، والوسط: الضحك، والمنتهى: القهقهة، والقهقهة لا تليق بالإنسان العاقل الرزين، والتبسم هو أكثر ضحك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

والضحك:، يكون من الأنبياء أحيانًا. فهنا ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ المؤلف - رحمه الله تعالى - يرى أن سليمان ﷺ كان له مرحلتان في هذا الضحك الأولى التبسم، والثانية: الضحك، فابتدأ بالتبسم، وانتهى بالضحك، ويُحتمل أن يكون ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنه ضحك متبسمًا، يعني معناه: أنه ما ظهر له صوت، ولكنه تبسم تبسمًا، والله أعلم.

وعلى هذا التقدير، يكون ضاحكًا: هذه حال مبينة للنوع، يعني معناه: أن ضحكه كان تبسمًا، على كل حال هذه مسألة لا يضر لو كان ضحك، ابتدأ بالتبسم، وأنهى بالضحك، ما الفرق بين التبسم، والضحك؟

التبسم: إذا انفتح الفم بدون صوت، الضحك:، يكون صوت، لكن دون قهقهة، القهقهة: هي تكرر الصوت.

يقول: ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ ﴿مِّن﴾ بيانية، والبيانية للتعليل: يعني: بسبب قولها تبسم، هذا التبسم ما مصدره؟ من تحذيرها، من اعتذارها، من إرشادها، من أين؟

من كل ما يتضمنه هذا القول؛ لأنه في الحقيقة محل عجب، أنك تتكلم بهذا الكلام البليغ، وبهذه السرعة، ما تسترسل فتجيب العناصر، وتزين، هذا لا شك أنه محل ضحك.

ثم - أيضًا - محل ضحك ما من الأقوال فقط: من مغزى هذا القول، ولهذا جعله من نعمة الله،

وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، مغزى هذا القول: أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ تعترف حتى الحشرات بعظمته وعظمة جنوده، هذا - لا شك - من نعمة الله عليه، فهذا التبسم إذن من القول من مضمونه ودلالته، وكذلك من مغزاه، وما يتضمنه من نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ على سليمان.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ [وقد سمعه من ثلاثة أميال حملته إليه الريح فحبس جنده، حتى أشرف على واديهم، حتى دخلوا: أي النمل بيوتهم، وكان جنده ركبانًا، ومشاةً في هذا السير].

يقول المؤلف: وقد سمعه من ثلاثة أميال، من أين جاءت؟ هي أخبار إسرائيلية، بل إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾، ما الذي يدل على أنه سمعه على بُعد ثلاثة أميال؟، غاية ما هنالك أنهم عرفوا لما خُبِّر النمل بهذا التخبير دخلن في المساكن، يعني ما بينهم وبين أن يطئوا هذا النمل إلا دخول النمل مساكنهم، وهذا لا يقتضي أن يكون بينه وبين النمل ثلاثة أميال، ولا دليل على ذلك، وإنما يُقال أنه سمعه من قرب.

وهل سمعه غيره من جنوده؟

الظاهر: أنهم ما عرفوه، ولا سمعوه؛ لأن قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يدل على أن هذا التعليل نطق الحيوانات خاصٌ بسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وليس كما يزعم بعض العامة، بعض العامة يقولون: إن الكرسي يتكلم، ويأتون بقصص على هذا، إن هذا ما هو صحيح، ما من كلامٍ معلوم إلا في الأمم فيما بينها، وأما إن الإنس مثلًا يعلمون كلام الجن، أو يعلمون كلام الحشرات، فهذا لا يكون إلا بدليل، إذا وُجد دليل عن المعصوم فهذا صحيح، مثل ما أخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الذئب الذي تكلم، وأخبر ـ أيضًا ـ عن البقرة التي يُعذبها صاحبها، وقالت له: إنها لم تُخلق لهذا، المهم ما دلَّ عليه الدليل، وجب علينا أن نقبله، وإلا فالأصل أن الشيء يتكلم بلغته، وأن كل جنسٍ لا يفهم لغة الآخر.

يقول: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ [ألهمني] ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ :

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾، هذا مُنادٍ حُذفت منه ياء النداء، وأصله: يا ربي، وحذفت الياء المضاف إليها للتخفيف؛ لأن أصلها ربِّي، ودائمًا ما يأت الدعاء بحذف ياء النداء، لماذا يأتي الدعاء دائمًا بحذف حرف النداء؟ ابتداءً باسم الله، وعناية بالمقصود، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربٌّ يُبتدأ به قبل كل شيء، وكأن الإنسان من شدة شوقه لربه أثناء دعائه ما يذكر منه إلا اسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أوزعني: من حيث الإعراب فعل أمر، لكن النحويين - رحمهم الله - تأدبًا مع الله ما يقولون: فعل أمر؛ لأنك ما تأمر الله وإنما، يسمونه فعل دعاء، عندما نعرب هذه نقول: أوزعني: فعل دعاءٍ، ما نقول: فعل أمر يُقصد به الدعاء، وحقيقي أنه فعل أمر،

والمقصود به الدعاء، لكن تأدبًا مع الله نقول: فعل دعاء.

قوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ [ألهمني] ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، ما الحامل لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أن يقول هذا؟

الاعتراف بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخوف الغرور بالنفس؛ لأنه إذا كانت النملة تقول هكذا خوفًا منه وجنوده، وتعتذر لهم، ويفهم كلامها، هذا قد يؤدي بالإنسان إلى الغرور، مثل ما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فلهذا سأل الله في هذا المقام الذي ربما يحصل فيه الغرور للمرء، والإنسان بشر، سأل الله أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضاه، وهكذا ينبغي للإنسان إذا حصل له نعمة أن يسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يلهمه شكرها، حتى لا يلحقه الغرور بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليه سواءٌ كانت النعمة مالية، أو جسدية، معنوية، أم حسية.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ أن: هذه مصدرية، ما موقعها من الإعراب؟

مفعول ثانٍ لـ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ لأن المفعول الأول: الياء، والمفعول الثاني: أن أشكر، يعني: ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديّ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النعمة ما معنى النعمة؟ الإحسان الذي يَنْعَمُ به المُحسَنُ إليه، والنعمة كما تعرفون تنقسم إلى قسمين:

إما حصول مطلوب، وإما نجاة من مهروب، والله ـ تبارك وتعالى ـ دائمًا ينعم على عبده، والعبد دائرٌ بين هذين الصنفين من النعمة، دائمًا يحصل له مطلوبه، وينجو من مهروبه.

وقول المفسر: [أنعمت بها عليَّ]: لماذا قدَّر بها؛ لأنه من المعروف أن الجملة التي تكون صلة للموصول، لابد فيها من عائد يعود على الموصول، هنا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ تحتاج جملة (أنعمت) أن يكون فيها ضمير يعود على التي قدره المؤلف بقوله: [بها]، لأن تقدير الضمير لأجل أن يكون عائدًا على موصول، هذا واضح مُسلَّم، هذه قاعدة نحوية: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، أي: منه، هذا واضح، وهذا كثير في الكلام العربي، وفي القرآن والسنة وكلام الناس؛ أنه لابد من عائد يعود على الموصول ليربط جملة الصلة بموصولها، ولكن هل ما ذهب إليه المؤلف صواب؟

يقولون: إن العائد ما يُحذف إذا كان مجرورًا إلا إذا جُرَّ الموصول بحرفٍ مشابهٍ للمحذوف لفظًا ومعنًى وتقديرًا، وأنه إذا كان مجرورًا يُشترط أن يكون مجرورًا بالحرف الذي جرَّ الموصول، وأن يكون موافقًا له في اللفظ، ومتعلَّقه واحدًا موافقًا في اللفظ والمعنى والتقدير، والمعنى: المؤلف

الآن قدر (بها) مع أنها غير موجودة في القرآن: نعمتك التي أنعمت بها، وعلى هذا فالتقدير السليم أن يقول: أنعمتها عليَّ وعلى والدي؛ لأنه ما يمكن أن يُحذف العائد المجرور إلا إذا كان الموصول مجرورًا بحرف الجر الذي جُر به ذلك العائد.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، عليَّ: فظاهر أن نعمة الله عليه تحتاج إلى شكر، لكن نعمة الله على والديه، ما وجه كون هذا يحتاج إلى شكر منه؟

لأن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد، لاسيما نعمته هذه التي حصلت، وهو أنه ورث من داود النُّبوة، وخلفه فيها، فهذه النعمة نعمة الله على والديه هي في الحقيقة نعمة عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ هذه مثنى مضاف لذلك حُذفت النون منه، وأصله: وَالِدَيْنِ لِي، لكن حُذفت النون لأجل الإضافة.

إذن قوله تعالى: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ من المراد بالوالد؟ والده لصلبه أو حتى الجَدّ، وَمَنْ عَلا؟

نقول: الحقيقة أن كلمة (والد) أحيانًا يدخل فيها الجد، وإن علا وأحيانًا تتعين بالوالد الأدنى، والذي يُعيّن ذلك القرائن، القرائن اللفظية، أو القرائن الحالية، فمثلاً: لا يجوز لوالد أن يرجع فيما وهبه إلى ولده فيما يعطي، ما المراد بالوالد؟ الوالد الأدنى، والجد لا يُلحق به، الوالد في تحريم النكاح: يشمل الأدنى والأعلى، الوالد من جهة الميراث: يشمل الأدنى، والأعلى إن فُقد الأدنى، الذكور والإناث، فمثلاً الأب الوالد في الميراث يشمل الأب الأعلى إن فقد الأدنى، فصار في الحقيقة أن كلمة والد: صارت المراد بها الأدنى، وصارت المراد بها الأعلى، الأدنى والأعلى مجتمعين أو منفردين، وتارة المراد بها الأدنى والأعلى لا مجتمعين، والذي يعين ذلك هو القرائن اللفظية، أو الحالية.

وقوله: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ يعني الوالد، والوالدة، وإذا عبرت بـ والدِينا: عند أهل السنة والجماعة، واضح؛ لأن إذا قلت، والدِينا، وهما اثنين يصيروا أكثر وهكذا، ولذلك بعض الإخوان يقرأون في رمضان اللهم اغفر لنا، ولوالدَينا: هذا غير صحيح إلا على سبيل التجوز؛ لأن والدَينا معناه: عيال لرجلٍ واحد.

ما نحن بأخوة، ولهذا ما تأتي والدَينا إلا على سبيل التجوز، أي، والدَي كل واحد منَّا، ولهذا التعبير السليم في مثل هذا أن تقول: والدِينا.

قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾: معطوفة على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ يعني: وألهمني أن أعمل صالحًا ترضاه، وهنا قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أعمل عملاً صالحًا، والعمل الصالح لا يكون إلا إذا تضمن شرطين أساسيين هما:

الإخلاص والمتابعة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥]،

الإخلاص، واضح للأنبياء وغيرهم، والمتابعة في غير الأنبياء واضحة، وفي الأنبياء غير واضحٌ عندكم، ولكنه واضح؛ لأن النبي يتبع شريعةً تُوحَى إليه.

هو قد لا يتبع هذه الشريعة، لكن، كما مرَّ علينا أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون من الإقرار على المعاصي مطلقًا - فإذن المتابعة موجودة في الأنبياء ـ أيضًا ـ ؛ لأنها متابعةٌ للشرع الذي أوحي إليه.

وهذا العمل الصالح ما جمع بين أمرين: الإخلاص، والمتابعة، ففي فقد الإخلاص يكون الشرك، وفي فقد المتابعة يكون الابتداع، فالعمل الذي فيه شرك مردود قال الله ـ تعالى ـ، كما في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(١)]، حتى الرياء: الرياء نوع من الشرك إذا عمل الإنسان العبادة وهو مراءٍ فيها، فهو مع الإثم مردودٌ عليه عمله.

وكذلك - أيضًا - في الابتداع قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)]، وهو أعم من اللفظ الثاني: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»[(٣)] نعم، إلا إذا قلنا: من أحدث: في ذاته وصفاته، فإذا قلنا: من أحدث في أمرنا ما ليس منه سواء في نفس العمل، أو ف وصف العمل صار موافقًا للفظ الآخر.

على كل حال: العمل إذا لم يكن خالصًا فليس مقبولاً، وإذا لم يكن صوابًا، يعني: على السنة فليس مقبولاً، وليس بصالح ـ أيضًا ـ، بل هو فاسد.

وقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ الرضى: بمعنى: القبول، وكلمة: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ بعد قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ هل لها معنى؟ وأن كل صالح، فهو مرضي، فهل تكون الجملة حينئذٍ صفة مبينة، أو مُقيدة؟ الظاهر إنها مبينة، يعني: إن العمل الصالح مرضي، قد يقول قائل: إن العمل قد يكون صالحًا بظاهره، ولكنه غير مرضيٍّ في مآله، أو في مصاحفه، قد يعمل الإنسان مخلصًا لله متبعًا للرسول ﷺ، لكن يحصل منه إعجابٌ في عمله، هذا الإعجاب يمنع ما نزل الله به،قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[الحجرات: ١٧]، قد يكون عملاً صالحًا في أوله، وفي نهايته لا يرضاه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤]، كالرجل يتصدق بالصدقة مخلصًا لله ـ تعالى ـ متبعًا لرسول الله ﷺ فيه، لكنه يُتبعها بالمنِّ والأذى، وحينئذٍ تبطل الصدقة.

على هذا التقدير يكون قوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ صفة مقيدةً، أيُّ الأمرين أولى؟ هل الأولى أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٦/ ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نجعل الصفة مبينة، يعني مفسِّرة فقط، أو نجعلها مقيدة؟

الأولى: أن تكون مقيدة؛ لأن بالتقييد زيادة معنى، والتفسير ما يعدو شيئًا خارجًا عما سبق، فكل صفة تأتي في الكلام في هذا وفي غيره فالأصل أن تكون مقيدة، ولا يمكن أن نلجأ إلى كونها مفسرة لمجرد بيان الأمر إلا عند الضرورة، إذا تعذر أن تكون مقيدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، خلقكم والذين من قبلكم هذه مبينة، ومفسرة، وليست مقيدة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من البلاغة الإيجاز بالحذف؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟﴾ هذا الشيء محذوف، وفي التقدير: فساروا حتى إذا أتوا، يعني: حتى للغاية، يعني: لابد أن يكون هناك شيء مغيب قبله.

٢ - **وفيها دليل على:** إضافة الشيء إلى ساكنه: إضافة المكان إلى ساكنه لقوله: ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾، كما يُفعل الآن في الأحياء، أحياء البلد هذا حيّ بني فلان، كما هو معروف من قديم الزمان أن الأحياء تضاف إلى ساكنيها، هل نقول في هذا دليل على أن النمل إذا سكن أرضًا ملكها بحيث ما يجوز إحياؤها ولا الانتفاع بها أو لا؟

إذنْ: وادي النمل، بيت فلان: هل يحق لك أن تأتي إلى بيت فلان، وتسكنه؟

الجواب: لو نظرنا إلى مطلق اللفظ لكان هذا الوادي لهم، ولكن الله - تعالى - يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، إذا كان النمل يؤكل أكلناه فكيف لا نأخذ مساكنه!! فبنو آدم هم أحق بهذا من غيرهم، فهم إذا - مثلاً - احتاج الإنسان لعمارة هذه الأرض وكان فيها نمل، ولو لزم من ذلك أن يموت النمل؛ لأن هذا الموت غير مقصود، وإنما جاء ضرورة لتناول المباح فإنه لا يضر، وهذه القاعدة معروفة في الشرع: إن الشيء الذي يأتي ضرورة لفعل المباح، وهو غير مقصود فإنه لا بأس به، فينظر مثلاً إلى قتل النساء، والذرية في الحرب يجوز؟ لا يجوز، لكن إذا لم نتوصل إلى قتل المقاتلين إلا بالرمي بالمنجنيق، والمدافع العامة يجوز؟ يجوز، ولو لزم من ذلك قتل النساء، والذرية؛ لأنه غير مقصود، كذلك - أيضًا - قطع النخيل، نخيل العدو؟ لا يجوز، ولكن إذا لم نتوصل إليهم إلا بقطع نخيلهم جاز، كما فعل النبي ﷺ في بني النضير، فالحاصل أن نقول: إن قتل النمل إذا لزم من إحياء الأرض فإنه ليس به بأس؛ لأنه لم يكن مقصودًا، وإنما جاء ضرورة لتناول أمرٍ مباحٍ لنا، حتى بني آدم لو آذاك أو تطاول عليك بالقتل

فاقتله، وهو أعظم الحيوانات حرمة.

٣ ـ وفي هذه الآية دليل على: أن للحشرات نطقًا: لقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، وفيه دليل على أن قولها ـ أيضًا ـ مسموع يسمعه بنو جنسها؛ لأنهم لو لم يكونوا يسمعونه لم يكن به فائدة إذن فهم يسمعون قولها، وقد يُسمعه الله ـ تبارك وتعالى ـ مَنْ يشاء إما آية أو كرامة.

وفيه ردٌّ لكلام المؤلف في قوله: [إن النملة ملكة النمل]؛ لقوله: ﴿نَمْلَةٌ﴾ تنكر، وليس بغريب أن تكون نملة من النملات هي التي فعلت هذا.

٤ ـ وفيه دليل على: فصاحة هذه النملة ونطقها وذكائها؛ لأن الكلام الذي دار يتضمن هذا كله، فهو من بلاغتها استعملت في كل مكان ما يناسبه،قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أتت بياء المنادي للبعيد؛ لأن النمل ليس قريبًا منها كله، بل بعضه قريب وبعضه بعيد، ومن كمال نطقها: إرشادها إلى المخابئ والملاجئ لقولها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، ومن كمال ذكائها: أنها استعملت العبارات المثيرة المزعجة لقولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: عدل النملة؛ حيث إنها قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فتضمن هذا الكلام أنواعًا كثيرة من البلاغة، والفصاحة، والنضج، والتحذير، والتعذير، وغير ذلك مما مرَّ في الشرح.

٦ ـ وفيه ـ أيضًا ـ: عظمة مُلْكِ سليمان وجنوده؛ لأن النملة عرفت ذلك، وحذرت منه.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩]:

١ـ من فوائد هذه الآية: جواز التبسم عند وجود سببه، وجواز الضحك ـ أيضًا ـ؛ لقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، وهذا من فعل النبي، وكلام الأنبياء حجة حتى وإن كان غير نبينا ﷺ إلا ما ورد شرعنا بنصه فهذا لا يعتبر، والدليل على أن كلام الأنبياء حجة قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

٢ ـ وفيها دليل على: على ما كان عليه سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث لم يأخذه الغرور بهذا المُلك العظيم، حتى قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل:١٩].

٣ ـ وفيها دليل على: الاعتراف بنعمة الله، وأنه ليس من الافتخار؛ لأن سليمان ذكر نعمة الله عليه، ولكنه لم يقصد بذلك الافتخار، والعلوّ على غيره، وقد قال الله ـ تعالى ـ للرسول ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١]، لكن لا على سبيل الافتخار والعلو؛ لأنه حينئذٍ ينقلب إلى نقمة.

٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد لقوله:

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سيما نعمة الإسلام فإنها من أكبر النعم على الولد، لو مات طفلٌ وأبواه كافران، لكان هذا الطفل في الدنيا في حكم الكافرين، وفي الآخرة الله أعلم بحاله، لو مات طفلٌ بين أبوين مسلمين لكان هذا الطفل مسلمًا في الدنيا والآخرة، وعلى هذا فنعمة الله على الوالدين لاسيما في الدين نعمة على الولد، وهذا هو وجه قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

٥ - **وفيها دليلٌ على**: أن من العقل والعدل والشرع إضافة المنة إلى المانِّ بها، لقوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾، وهذا اعتراف وأبلغ من أن يقول إنسان: أوزعني أن أشكر النعمة فقط؛ لأن قوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾، واضح جدًّا بخضوع هذا الإنسان بهذه النعمة العظيمة التي أنعم الله بها عليه، وهذا فيه دليل على أنه من العقل والعدل والشرع إضافة المنة إلى المانّ بها، ومن الألفاظ المعروفة عندهم، (إنما يعرف الفضل من الناس ذووه)، ما معنى ذووه؟ أصحاب الفضل، ما يعرف الفضل إلا أصحابُ الفَضْلِ، أما مَنْ ليس بأهلِ فَضْلٍ فإنهم يُنكرون الفضل، بل إنك لو تفضَّلتَ عليهم لرأَوْا أن هذا حقٌّ لازمٌ عليك، وليس مِنَّة، وأعظم شيء في هذا مَنْ يمُنُّ على الله - سبحانه وتعالى - بما أنعم الله به عليه، كما في قصة الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات:١٧].

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كغيرهم مفتقرون إلى توفيق الله، وأنهم بدون توفيق الله - سبحانه وتعالى - ما يسوون خيرًا يرضي الله لقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل:١٩].

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن العمل غير الصالح ليس فيه فائدة، فالعمل غير الصالح دائرٌ بين أمرين: إما الإثم، وإما السلامة فقط، فإن صدر عن عِلْم، فهو إثم، وإن صدر عن جهل فالإنسان سالم، ولكن لا فائدة له فيه، كما لو صلّى إنسان مثلًا صلاةً باطلة في الحدث، صلاة بحدث فإنه إن تعمد ذلك كان آثمًا، وإن كان جاهلاً لم تفده، لم تفده في إبراء الذمة، ويُطالب بإعادتها، أما الأجر فقد يُؤجر عليها من أجل النية والعمل الذي حصل فيه مشقة، ولكن الإنسان ما يستفيد منها في إبراء ذمته، ولا تسقط عنه.

٨ - **ومن فوائد الآية**: أن الغاية التي يصير إليها الأنبياء، وَمَنْ بعدهم أو ومَنْ تبعهم هي رضا الله لقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ لأن المقصود من عمل الإنسان الوصول إلى رضا الله - سبحانه وتعالى - ، بل إن رضا الله غاية فوق كل شيء، قال الله - تعالى - في امتداح المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

﴿فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] يعني: أكبر من كل شيء، وإذا حلَّ على الإنسان رضا الله فهذا غاية ما يريد.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يتوسلون إلى الله، يعني: يسألون الله ـ تعالى ـ بالوسيلة لقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الإسراء:٥٧]، يعني: أولئك الذين يدعونهم هؤلاء المشركون أولئك ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء:٥٧] فكل الناس ـ كل الخلق - يسألون الله - تعالى - ويتوسلون إليه بما هو جائز.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: جواز التوسل بصفات الله؛ لقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾

ولكن هناك إشكال في الحقيقة في قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، إذا قال قائل: مقام النبوة أعلى من مقام الصلاح، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] فكيف دعا الله أن يكون من عباده الصالحين مع أنه نبي أعلى درجة من مرتبة الصلاح؟

هذا هو الأصل، الأصل: أن المراد بالصلاح هنا الصلاح المطلق، والصلاح المطلق هذا أعلى مرتبة، وقد قال يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] نعم، وقال الله ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢] فالمراد هنا الصلاح المطلق لا الصلاح الذي يُذكر مع المراتب، فإن مقام الصلاح مع المراتب دون مقام النبوة.

١١ ـ ومن فوائد الآية: أن العبادة مرتبة شريفة عظيمة يسألها حتى الأنبياء؛ لقوله: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾، ولهذا يذكر الله نبيه محمدًا ﷺ بوصف العبودية في أعلى مقاماته عند إنزال القرآن، وعند الدفاع عنه، وما أشبه ذلك، وقد قال الشاعر يخاطب:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

نعم هذا ـ أعوذ بالله ـ عاشق، لنفرض أن اسمه مثلاً بكر، يقول: لا تقل لي: يا بكر. قل: يا عبد ليلى، فإنه أشرف أسمائي، فالعبودية لله ـ سبحانه وتعالى ـ لا شك أن أشرف أوقات الإنسان أن يكون عبدًا لله، والإنسان لابد أن يكون عبدًا، ولا بد أن يتخذ إلهًا حتى الشيوعيين، والملحدين لابد أن يكونوا عبيدًا، ولهم آلهة، أم لا؟

نعم لابد، لو لم يكن لهم آلهة إلا أهواؤهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال الرسول ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»[1]، وهؤلاء - بلا شك - يعبدون الدينار والدرهم، بل إنهم لا يسعون إلا لذلك، هؤلاء الملحدون ما يسعون إلا لذلك،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذن لابد لكل إنسان أن يكون عبدًا، فإن كان عبدًا لله فقد تحرر من العبودية الموهومة؛ لأن عبد الله حُرّ، ما يرى شيئًا في الدنيا أو في المخلوقات أنه عبدٌ له، لكن يرى خالقه هو سيده، وإلهه؛ وأنه عبدٌ لهذا الخالق، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩] هل شكر النعم من النعم؟

لا شك أن شكر النعم من النعم، وقد قال الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... ، وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ، وَاتَّصَلَ العُمْرُ

وهذا صحيح، فإن هداية الله فقط للشكر نعمة، يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة، فإذا شكرته صارت نعمة ثانية توجب الشكر؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

١٢ - ومن فوائد الآية: أن فيها ردًا على القدرية؛ لأن القدرية يرون أن الإنسان مستقل بعمله لا يحتاج إلى معونة من الله ولا شيء، ولا شك أن هذا قولٌ باطل، لكن هذه الآية ترد عليهم.

١٣- وفيها: رد على الجبرية؛ لأنه أضاف العمل إليه فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ أنه ممكن أن أعمل غير صالح فهو مختار، ففيه ردٌ على الطائفتين جميعًا: القدرية والجبرية.

قال الله تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٠-٢٢]

التفسير

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ (أل) هذه للعهد؛ لأنها تعود على الطير المذكور ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾، وعلى هذا فيكون تفقده للطير في نفس هذه المسيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [وتفقد الطير ليرى الهدهد الذي يرى الماء تحت الأرض، ويدله عليه بنقره فيها لتستخرجه الشياطين لاحتياج سليمان إليه للصلاة فلم يره]، إذا تفقد الطير لابد أن يرى الهدهد، الهدهد يرى الماء تحت الأرض، إذا رأى أنهارًا تجري تحت الأرض نقر بمنقاره ثم يأمر الشياطين فتحفر؛ لأنه كما سلف كان - عليه الصلاة والسلام - ينظم الجنود،

ويتفقدهم، ولهذا ما قال: وتفقد الهدهد، أو الهداهد، بل قال: تفقد الطير كله، نعم؛ لأنكم تعرفون أن الطيور تسبح في الهواء فقد يشذ منها شيء - فعليه الصلاة والسلام ـ تفقدها من أجل كمال التنظيم، ثم إن قولهم أو دعواهم: إن الهدهد يرى ما تحت الأرض كلام غير صحيح؛ فإن عينه لا تراه ،وهذا الشيء إذا لم تر الحد القريب فكيف ترى المياه البعيدة، ثم إن الهدهد مثل غيره فينحجب نور عينيه ولا يرى شيئًا، ثم إن سليمان - عليه السلام - ليس بحاجة إلى هذا، بل إن سليمان من هذه الناحية في غير ما ذكر، إن وجد ماءً انتفع به، وإن لم يجد فإن الله ـ تعالى ـ ييسر له الماء بأي وسيلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ يسأل سؤالًا حقيقيًا ﴿ما﴾ اسم استفهام، وهل الغرض منه استخبار، أو استنكار؟ هنا الغرض استخبار، وقيل: إنه استنكار، وفيه يتضح أن الأصل في الاستفهام يتنافى فيه الاستخبار. قال بعضهم: وفي الآية قلب: على تقدير: ما للهدهد لا أراه، ولكن هذا ليس بصحيح، بل الآية على تقديرها، فهو يسأل: لماذا لا أرى الهدهد؟ نعم هل هناك مانع منع من رؤيته، أو أنه كان غير موجود، ولذلك أَضْرَب عن الأول، وقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وأم المنقطعة كما مرَّ علينا عدة مرات تكون بمعنى: بل والهمزة، يعني:، بل أكان من الغائبين، وحينئذٍ أضرب عن الكلام الأول، وعرف أنه لا علة في ذلك، وإنما العلة غيبة هذا الهدهد، ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم كان غائبًا فلم أره لغيبته، فلما تحققها.

ثم قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ قال: [تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾]،قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات، وهي: اللام: لام القسم، والقسم قبلها مقدر، والثالث النون ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ ويقول: ﴿عذابًا﴾، يقول: المؤلف: [تعذيبًا] إشارة إلى أن عذابًا اسم مصدر؛ لأن عذَّب مصدرها تعذيبًا، واسم المصدر منها عذابًا، نظيرها: كلم مصدرها تكليمًا، واسم المصدر منها: كلامًا، وسلم تسليمًا، واسم المصدر منها سلامًا.

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ العذاب الشديد على رأي المؤلف: [بنتف ريشه، وضربه، ورميه في الشمس فلا يمتنع من الهوام]، هذا شيء عجيب، فتقدير هذا التعذيب بهذا الشيء على أي دليل؟! إن هذا التعذيب الشديد الذي جاء به المؤلف، بعضهم يقول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أحبسه مع شيء ليس من جنسه، يضع الهدهد مع العصافير مثلاً، إذنْ جعل عذاب الحيوان أن يُحشر في غير جنسه، لو وُضِعَ الآدمي مع الجن يتعذب، أو الجن مع الآدمي يتعذبون، ولكن هذا ـ أيضًا ـ ما هو صحيح؛ لأننا نشاهد الآن أن أجناس مع غير أجناسها، ولا تتعذب واحد عنده مواشٍ؛ بقر، وغنم، وإبل، والغنم ضأن وماعز، ولا يتعذبون، فالصواب: أن هذا

التعذيب الذي قاله سليمان غير معلوم لنا إنه عذاب شديد، والله ـ تبارك وتعالى ـ لم يبينه، ولكن يكفي أن نعرف أنه شديد، هذه واحدة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هذه للتمويه، يعني: إما هذا، أو هذا، وقوله تعالى: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يقول: [بقطع حلقومه] قول المؤلف يعني: من عند الرقبة.

الثالث: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ [بنونٍ مشددة مكسورة، أو مفتوحة يليها نون مكسورة] ﴿يأتِيَنَني﴾ فيها نون الوقاية إما تُحذف، أو تثبت، ونون التوكيد مشددة لكنها إن حُذفت نون الوقاية كُسرت نون التوكيد: يأتِيَنِّي، وإن لم تُحذف (يأتِيَنَّني) فإنها تبقى مفتوحة هذا أمر ثالث فتوعده سليمان بواحد من أمرين إلا إذا أتى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [ببرهان بيِّن ظاهر على عُذره].

قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ كلمة سلطان ترد كثيرًا في القرآن، ومعناها العام: هي السلطة التي يتمكن بها الإنسان من الوصول إلى غرضه، هذا معناها العام، فتارةً يكون المراد به: الدليل ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، وتارةً يُراد به القدرة ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[الرحمن: ٣٣]، وتارة يُراد به البينة مثل هذا، كلمة ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: ببينة على عذره، والمراد الآن قلنا بالسلطان: هي السلطة التي يتمكن بها الإنسان أو صاحبها من الوصول إلى غرضه سواء كان ذلك دفاعًا عن نفسه، أم إثباتًا لأمر.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ فسره المؤلف: [بيِّن]، ولا تصلح بمعنى: مُظهِر، يعني: ما تصلح متعدية؛ لأنها الآن لازمة.

تصلح ـ أيضًا ـ متعدية؛ لأن بسلطان مُظهر لعذره، وهذا إذا فسرنا بهذا نكون أخذنا بالتفسير الذي فسرها به المؤلف، وزيادة.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ [بضم الكاف، وفتحها] مكَث، ومكُث، والفاعل الهدهد، ويحتمل أن يكون الفاعل سليمان، بأن بقي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: [يسيرًا من الزمان] وحضر لسليمان، هنا: حضر لسليمان ما الدليل عليه؟ أنه كان غائبًا في الأول ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، والغائب لا يُخاطب إلا إذا حضر، ولكنَّ قول المؤلف: [متواضعًا برفع رأسه، وإرخاء ذنبه، وجناحيه]، الظاهر أن المؤلف، كأنه معهم، يعني: الهدهد جاء، ورفع رأسه، ونزل ذنبه، وجناحيه، هل هذا استنباط؟ لا يمكن أن نقول هذا أبدًا، لا يمكن أن نصف كيف جاء، إنما يكفينا أن نقول ما قال الله ـ تعالى ـ في القرآن، وقد ذكرنا قبل قاعدةً: (كل ما سبق فإنه لا طريق لنا إلى العلم به إلا من طريق الوحي) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما لنا طريق إلا الوحي إما في القرآن، أو السنة الصحيحة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ﴿أَحَطتُ﴾ يُخاطب سليمان، وفي الحقيقة أن هذا

الهدهد قوي، قوي جدًّا، كما يقولون: كيف يُخاطب سليمان، وله هذا الملك العظيم، ويقول: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ما: تفيد التعظيم، ونحن الآن بشر، ونخاطب في بعض الأحيان المدير، أو مَن فوقه، ونقول مثلاً: أنتم، سيادتكم، أو سادتكم، ولا حضرتكم، ونعطيهم أكبر من اللازم مع أنهم بشر، وكل هذه الحقيقة من الأمور الشكلية التي لا تنذر عن شيء، ولا تندر - أيضًا -، الصحابة يخاطبون الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذا الخطاب، وهو أشرف عندهم من كل بشر، وكذلك الخلفاء الراشدون ما كانوا يُخاطبون بمثل هذا، ومن عجب الأمة أن بعض هؤلاء الذين يخاطبون بمثل هذه الألفاظ تجد قلوبهم تغلي على بعض هؤلاء المُخاطبين، تغلي عليهم، فيكون هذا الخطاب كأنه تهكمٌ بهم، ولو أن الناس تخاطبوا فيما بينهم على خطاب عادي، هذا الهدهد ما مكانه مع سليمان؟ جند من جنده الأضعفين، ومع ذلك يقول: بغاية الصراحة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وهذا أول ما كلمه بعد، لكن في الحقيقة فيه نوع من الأدب، ما قال مثلاً: أنت جاهل، ولا تعرف، وأنا ذهبت وبحثت، بل قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، يعني لأجل أن يعرف سليمان قدره، وأنه ليس محيطًا بكل شيء، فهذا الهدهد صار أشد إحاطة منه، والإنسان بشر ضعيف في كل شيء، حتى ما علمنا كيف نقبر موتانا إلا الغراب، مما يدل على أننا لسنا بشيء، الصراحة.

قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يشبهه قول إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ما قال له: إنك جاهل، وهذا من لطافة الأسلوب.

هنا قال تعالى : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الكلمة الشديدة، أي أطلعت على ما لم تتطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وأكد الخبر بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فما بالك؟ قال تعالى : ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ومع أن الهدهد كان متيقنًا إلا أنه قال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لماذا قال سليمان هذا مع أنه يقول له: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ لأن حقيقة الأمر أن كلام الهدهد فيه مقام الدفاع عن نفسه أن يصير مُدافعًا؛ لأنه متوعد بالعذاب الشديد، أو بالذبح، أو بخبر ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، فلما كان في مقام الدفاع احتاج أن يتثبت هذا ببيِّنة، وقد وقع مثل ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : استأذن عليه أبو موسى ثلاث مرات ثم انصرف فلما عاتبه في ذلك قال: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ، قال: ما البينة على ما تقول: ؟[1] مع أن أبا موسى صحابي ثقة لا يمكن أن يتقول على رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، لكن المقام يقتضي زيادة التثبت؛ لأن الإنسان قد يفهم من النص ما ليس مرادًا، فلذلك طلب عمر من أبي موسى أن يأتي بشاهد، هنا هذا الهدهد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٣٣/ ٢١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه قد يقن وأكّد له الخبر قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ثم أعطاه آية وقرينة ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، والقصة في الحقيقة عظيمة جدًّا، وفيها فوائد كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ سبأ: [بالصرف، وتركه]، بالصرف ﴿مِن سَبَإٍ﴾، وتركه ﴿مِن سَبَأَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِن سَبَأَ﴾ جُر بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، و ﴿مِن سَبَإٍ﴾ جُر بالكسرة؛ لأنه اسم ينصرف، على أي اعتبار من الصرف، وعدمه، قوله: ﴿مِن سَبَأَ﴾: [قبيلة باليمن سميت باسم جد لهم].

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

١ ـ **يُستفادُ من هذه الآية الكريمة:** سرعة رجوع الهدهد إلى سليمان مما يدل على أن جنود سليمان يهتمون به ويخشونه، ولا يتأخرون عن أعمالهم لقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

٢ ـ **ويُستفاد منها أيضًا:** أن سليمان إن كان أُعطي ملكًا عظيمًا لم يُعطه أحد فإنه لا يحيط بكل شيء، فهو على سِعَةِ مُلْكه، وقوته لا يحيط بكل شيء فغيره من باب أولى، فيُستفاد منه: ضعف إدراك المرء، الإنسان مهما بلغ من الملك، ومن القوة، ويدل على هذا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]؛ لأن هذا يبين ضعف الإنسان، الضعف يشوبه: في كل شيء في القوى العقلية، والقوى الجسمية، وكل ما يمكن أن يوصف بالقوة أو الضعف، فإن حال الإنسان فيه الضعف.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز أن يُخاطب الرئيس بمثل هذا الخطاب، علمت ما لم تعلم، أو فعلت ما لم تفعل، ومثله قول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيه: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣].

٤ ـ **ومن فوائده أيضًا:** أنه ينبغي للمتكلم أن يؤكد الخبر للمخاطب عند الحاجة إليه لقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، فإن قال قائلٌ: ما فائدة تأكيده له، وهو مصدر الخبر، إنما التأكيد يفيد إذا جاء من طرفٍ آخر، يكون شاهدًا للمخبر، أما نفس المخبر فكيف يُقال: إن في تأكيده للخبر فائدة؟

فالجواب: أن المقصود من ذلك زيادة طمأنينة المُخبَر؛ لأنه أيضًا يدل على أن له فائدة: أنك إذا أخبرك مخبرٌ بخبرٍ قد تقول له: هل أنت متأكد؟ فيقول: نعم، أو لا.

فإذن تأكيد المُخبِر لخبره لا يُقال: إنه لا فائدة منه؛ لأنه هو مصدر الخبر، بل نقول: فيه فائدة، وهي رفع توهم المخبِر في خبره، فيرفع هذا التوهم، ويطمئن المخاطب، ولهذا: ﴿وَجِئْتُكَ مِن

سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن استعمال ضمير الجمع المخاطب المُعظم ليس بلازم، وليس من شأن خطاب الأنبياء؛ لأنه مثلاً عندما يقول لإنسان مُعظم: أتيتُكم، جئتُكم، وما أشبه ذلك، كما هو المعتاد الآن عندنا، عندنا إذا كان الإنسان معظمًا يُقال كما تريدون مثلاً: سعادتكم، وسيادتكم، أو سماحتكم، أو فضيلتكم، أو ما أشبه ذلك.

لا، هذا ليس مُعتادًا فيما سبق، وإنما يُخاطب الإنسان بما تقتضيه الحال، حتى إن النبي - عليه الصلاة والسلام - يرد السلام على المُسلِم بقوله: عليك السلام، إذا سلم عليه أحد يقول: عليك السلام، وإذا كانوا مثلاً جماعة يُقال: عليكم السلام.

٦ - **ومن هذه الفوائد:** أنه من عادة السلف أنهم يخاطبون، أو يتكلمون مع المُخاطب بما تقتضيه حاله.

قال الله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٤][1]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ الضمير جمع، والعائد عليه مفرد ﴿سَبَإِۭ﴾، لكن لما كان المرادُ به القبيلة صحَّ أن يعود الضمير إليه جمعًا، وهذا سبق لنا في الشرح: سبأٍ، وسبأَ باعتبار القبيلة والجد.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ أن المرأة لا تصلح للملك؛ لأنه ما قال ملكة، بل قال تملكهم، والمفسر تقدم أنه قال: [هي ملكة لهم]، وأن الغرض من تفسير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ بملكة، خوفًا من أن يُقال: إنها تملكهم ملك استرقاق.

والمرأة هل يصح أن تكون ملكة؟ لا، ففي شرعنا لا يجوز أن تُولّى المرأة على الرجال، فلا يمكن أن تكون ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرًا، ولا يمكن أن تكون وزيرة، ولا يمكن أن

(١) تفسير هذه الآيات غير واضح سماعًا.

تكون قاضية، كل هذا لا يجوز؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ، وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً»[1].

اسم أميرة أو سيدة، هذا اسم فقط، أميرة اسم، يعني أنها من الأميرات فقط، وسيدة:أي امرأة، لكن الناس يسمونها سيدة، وهذه قد نبهنا عليها فيما سبق، وقلنا: إن هذه متلقاة من الغرب الذين يقدسون المرأة، وأن هذا ما ينبغي، ولهذا، حتى بعض الكُتّاب تجدهم يكتبون السيدة عائشة، السيدة خديجة، هذا ما ينبغي، بل يُقال: المرأة والأنثى، أما السيدة فلا يصح على الإطلاق، لاسيما وأنه مُتلقاة من غير المسلمين.

٢ ـ ويستفاد من هذه الآية: سعة ملك هذه المرأة، بل عظمة ملك هذه المرأة لقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، والمراد من كل شيء من مقومات الملك، كما قال المؤلف: المفسر.

٣ ـ وفيه أيضًا دليل على: أنها ذات أبهة لقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وأما وصف العرش، كما ذكره المفسر فلا دليل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

١ ـ يُستفاد من هذه الآية: أن هؤلاء القوم مشركون بالله؛ لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

٢ ـ وفيه دليل على: أن الشمس معبودة من قديم الزمان؛ لأن هؤلاء في زمن سليمان، ومازال إلى الآن يوجد من يعبد الشمس، ومن يعبد النار، ومن يعبد القمر بل ومن يعبد البقر.

٣ ـ وفيه دليل على: أن الخلق مفطورون على إنكار الشرك؛ لأن الهدهد أنكر عليهم شركهم، مع أن الهدهد ليس من العقلاء، لكن جميع الحيوانات ـ أيضًا ـ بل، والمخلوقات مفطورة على توحيد الله – عز وجل –: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

٤ ـ ويُستفاد من هذا فائدة: أن المشركين شرّ البرية، كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإذا كانت البهائم والجمادات تسبح الله وتعرف حقّه، وبنو آدم هؤلاء يشركون به صاروا شرّ الخليقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة:٦].

٥ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان يُذم على فعله، أو يُمدح على فعله؛ لأن الهدهد ساق ذلك على سبيل الذم، والغرض من ذكر هذه الفائدة: الوصول إلى أن فعل الإنسان باختياره إذ لو كان مجبرًا عليه لم يصح أن يكون محلاً للذم، أو للمدح؛ لأن الذي يُجبر على العمل يُمدح عليه إن كان خيرًا، ولا يُذم عليه إن كان سوءًا، ولكنه هو فعله، وفيه دليلٌ على إسقاط قول الجبرية الذين يقولون: أن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٥) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

الإنسان مُجبر على عمله؛ لأنه إذا كان مجبرًا لم يكن أهلاً للثناء في الخير، أو في الشر.

٦ - **في هذه الآية دليل على**، أن الأعمال السيئة من تزيين الشيطان؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكيف يُجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤] أضاف الله التزيين إليه، وهنا أضافه إلى الشيطان، وفي آية ثالثة: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]،وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ مبنية للمجهول، لكن هذه ما تُعارض الآيات الأخرى.

الجواب: يضاف إلى الله تقديرًا، وإلى الشيطان مباشرة.

إذن فإذا قال قائل: إن الأعمال السيئة تُزين للناس في رمضان، وقد ثبت أن الشياطين تُصفد فيها، وتُغل، ومع ذلك نرى أن كثيرًا من الخلق يُزين لهم سوء الأعمال في رمضان، فكيف الجمع بين الواقع؟

قلنا: هذا من تزيين النفس؛ لأنها تُزين - أيضًا - سوء الأعمال.

قال الله تعالى:

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل:٢٥-٢٦]

التفسير

قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ بمعنى: هلا يسجدوا، وألَّا للتحقيق، ولكن هذا التقدير فيه إشكال - أيضًا - ، وهو حذف النون من الأفعال الخمسة من دون ناصب، ولا جازم؛ لأن ﴿أَلَّا﴾ لا تنصب، ولا تجزم، وإذا قلنا: [أن يسجدوا]، أن للتحقيق، وهي لا تنصب، ولا تجزم، وإذا نظرنا إلى ﴿يَسْجُدُوا۟﴾، وجدنا أن فيها حذف النون نصبًا، أو جزمًا، وهنا لا يوجد ناصبٌ، ولا جازم، ولكن الجواب على هذا قد يكون سهلاً؛ لأن حذف نون الأفعال الخمسة بغير ناصب، ولا جازم جائز، ووارد في اللغة العربية؛ لقول النبي ﷺ: «**وَالله لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا**»[1]، فـ (لا تدخلوا): لا نافية لا تنصب، ولا تجزم، ومع ذلك حُذفت النون، ولم يقل: لا تدخلون الجنة.

فالجواب على ذلك أن يُقال: إن نون الأفعال الخمسة قد تُحذف بدون ناصبٍ، ولا جازمٍ لاسيما في مثل هذا التعبير ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ الدال على: التحفيز، فإن حذف النون هنا يُسهله وجود هذا الحرف السابق للفعل، وعلى كل حال: إذا كانت على تقدير المؤلف، فإن هذه الجملة بالنسبة لما

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣/ ٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قبلها فهي كالمؤكِّدة، لأنه لما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا يقتضي ألَّا يهتدون إلى الحق، إلَّا أن يسجدوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأما معنى القول الثاني: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ إن ألَّا: للتحقيق بمعنى: هَلّا، فإنه يدل على أن الهدهد انتقدهم بهذا الفعل، وبيّن أن الأولى، بل الأوجب أن يكون السجود لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتكون الجملة منفصلة عما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، لأن معنى قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ يجب أن يُفردوا الله ـ تعالى ـ بالسجود لا لغيره، فيكون مناط الذم كونهم يخصصون الشمس بالسجود، وكذلك ـ أيضًا ـ لو أشركوا بها مع الله، ولهذا لأنه لا يمكن أن يزول الذنب إلا إذا خُصص السجود لله وحده.

وقراءة ﴿ألا يااسجدوالله﴾ تكون ألا ـ أيضًا ـ : افتتاحية، و(يا): حرف نداء، والمنادى محذوف، يعني: ألا يا قوم اسجدوا لله، أو تكون يا: للتنبيه، نظيرها قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء:٧٣]، فإن (يا) بهذا المعنى تكون للتنبيه؛ لأنها لا تدخل على الأفعال، ولا على الحروف، وإما أن تكون للنداء، والمنادى محذوف.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [مصدرٌ بمعنى المخبوء من المطر والنبات ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبهم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ الخبء بمعنى: المخبوء، كما قال المؤلف: وهو مصدر بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول واردٌ في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦] أي: محمول؛ لأن الحمل فعل المرأة، وأما المحمول، فهو الجنين، وكذلك قوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق:٤]، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود، ومنه ـ أيضًا ـ قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[لقمان:١١] أي: مخلوقه.

فالخبء بمعني مفعول، قال: [من المطر]: هذا باعتبار المخبوء في السماء، والنبات: هذا المخبوء في الأرض، فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي يخرج ما في هذا ، وما في هذا، قال: [﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبهم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم]، ولم يُشر المؤلف إلى القراءة الثانية، وهي سبعيَّة في قوله: ﴿يخفون﴾، و﴿يعلنون﴾، فإن الذي في المصحف في قراءة عاصم، وهي: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يخاطب بذلك سليمان، وقوله: [﴿مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبكم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتكم] وفيه قصور حين خصّ الألسن فقط، فلو قال: بألسنتكم،

(١) تقدم تخريجه.

وجوارحكم لكان أشمل؛ لأن ما يُفعل بالجوارح مُعلن، كما أن ما يُنطق فيه باللسان مُعلنٌ أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وهذا من الوصفين إخراج الخبء، والعلم بما يُخفي العبد وما يُعلن، ولا يكون لأحدٍ من المخلوقين لا للشمس، ولا لغير الشمس، وإنما ذلك خاصٌ بالله تعالى، ولهذا جعله الهدهد من الأسباب التي تستلزم أن تكون العبادة لله وحده؛ لأنه العالم بها، ولا يمكن أن يُؤتي بوصفٍ يستلزم العبادة إلا إذا كان خاصًّا بالله؛ لأنه يُؤتى بهذا الوصف استدلالاً على بطلان العبادة لما سواه، ولو كان لا يمكن أن يكون لله لم يكن ذلك دليلًا على اختصاص الله ـ تعالى ـ بالعبودية، قد يقول: العابد للشيء، وهذا وصف موجودٌ في معبودي فأنا أعبده، فالمهم: أنه لا يمكن أن تقام الحجة إلا بدليلٍ خاصٍ للمحتجّ له، بمعنى: لا يمكن أن تقوم الحجة بأن العبادة لله وحده إلا بوصفٍ خاصٍ بالله؛ لأنك لو احتججت بوصفٍ، يكون لله ولغيره لكان العابد لغير الله يقول: وهذا الوصف ـ أيضًا ـ ممكن لمعبود فلا يدل على أنه مما يتصف به الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [استئناف جملة ثناءً مشتملًا على عرش الرحمن في مقابلة عرش بلقيس، وبينهما بونٌ عظيم]، يقول هذا الهدهد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذه كلمة التوحيد، والمؤلف يقول: إنها جملة استئنافية للثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بما لا يكون لغيره، فالأول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ﴾: هذا يتعلق بتوحيد الربوبية، والثاني: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: توحيد الألوهية يعني: لا معبود سواه، لكن لا معبود بحق؛ لأن هناك معبودات سوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير حق، فإذن أثنى على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصفة الربوبية، وبصفة الألوهية وربما نقول ـ أيضًا ـ : وبصفة الأسماء والصفات؛ لأن توحيد الربوبية مستلزم للأسماء، والصفات؛ لأن التصرف في الخلق، والتدبير، والعلم كل هذا من الصفات.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿رَبُّ﴾ بمعنى صاحب، أي: صاحبه، كما تقول: رب الدابة: أي صاحب الدابة، وقوله: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ (أل) هذه للعهد الذهني: أي العرش المعهود في أذهان الخلق ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بخلاف عرش بلقيس، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وهنا قال: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بأل، فالتعبير ظاهر جدًّا في الفرق بينهما؛ لأن (عرش): نكرة، والعرش: معرفة، فدلَّ ذلك على أن هذا العرش عرشٌ عظيم معلوم مفهوم بالأذهان بخلاف الأول.

ويقول المؤلف: إنه قاله في مقابلة عرش بلقيس: نعم هذا صحيح يعني واضح أنه قاله لأجل أن يبين أن صاحب العرش العظيم هو المستحق لأن يكون ملكًا، وأما هذه الملكة فإنَّ لها عرشًا، وليس لها العرش.

❁ قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٧-٣١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ يقوله سليمان، والسين، كما مرَّ علينا: تدل على التحقيق مع التراخي، لكنها تدل على التحقيق، قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ يعني: أن نظرنا هذا مُحقق، لكنه سيكون له مقدمات: فهي تدل على التأكيد.

قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، ولم يقبل كلامه من أول الأمر؛ خشية أن يكون قد أتى بذلك دفاعًا عن نفسه، ونظير هذا ما سلكه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري حين استأذن ثلاثًا، وانصرف ثم حدثه أن النبي ﷺ أمره بذلك، فطلب منه من يشهد له.

فهنا التُّهم، أو عدم الثقة بالقوم لها أسباب، من جملتها أن يكون المُخطئ على هذا الوصف يتضمن إخباره دفاعًا عن نفسه، فهنا مهما كان من الثقة تجد أنك تتردد في قبول هذا الخبر.

قال: [﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هذا النوع، فهو أبلغ من: أم كذبت فيه].

وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، صريح الأول أنه فعل، وهنا قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: من هذا النوع، فهو أبلغ من: (أم كذبت)؛ لأنه يدل على الوصف الدائم في قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فهو أبلغ من قوله: (أم كذبت)؛ لأن (أم كذبت) فعل، والفعل قد يكون مرة، لكن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، هذا وصف يدل على استمرار الفعل فيه، وهذا ما قرره المؤلف.

وعندي: أن فيه لباقة في تعبير سليمان للهدهد؛ لأن مصارحته، ومقابلته بقوله: إن كذبت أشد وقعًا من قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أهون مما لو قال: أم كذبت، فالثاني في الحقيقة من جهةٍ أشد بالنظر إلى أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وصفٌ لازم، ومن جهة المخاطبة: أهون من قوله: أم كذبت، ولهذا وجد اختلاف بين قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يقول: [ثم دلهم على الماء، واستُخرج، وارتووا، وتوضأوا، وصلوا ثم كتب سليمان

كتابًا صورته: من عبد الله سليمان ابن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ، واتوني مسلمين ثم طبعه بالمسك، وختمه بخاتمه ثم قال للهدهد اذهب بكتابي هذا]، كل هذه من الإسرائيليات التي لا دليل عليها في القرآن، وكونه دلهم على الماء، واستخرجوه، وارتووا، وتوضأوا، وصلّوا ـ أيضًا ـ ليس موجودًا في القرآن، ولكننا نقول: هذا لا دليل عليه، ولا يجوز لنا أن نعتقده، ولا أن نكذبه، هذا إذا صحَّ عن بني إسرائيل، ـ وأين الطريق بيننا وبين بني إسرائيل، مَنْ رواه عن بني إسرائيل؟ فإذا صحَّ عن بني إسرائيل، وأنهم مما حدثوا في هذه الأمة نقول فيه إنه لا يُصدق، ولا يُكذب؛ لأنه ليس فيه شيء يعارض كتابنا، ولا في كتابنا ما يُؤيده، وإلا لو كان في كتابنا ما يؤيده قبلناه، ولو كان في كتابنا ما يعارضه رددناه.

قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ هل يحق لسليمان - عليه السلام - لمجرد الفعل هذا أن يصفه وصفًا مطلقًا؟

الجواب: لا، لأن الكاذبين: هم الذين من دأبهم الكذب، فهو لم يصفه ولو كان هذا من الكاذبين إما أنه من دأبه الكذب، أو في جملتهم، وقد يكذب مرةً واحدة، وهو ـ أيضًا ـ ما وصفه؛ لأن قوله: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فلا يُعلم هل يكون متصفًا بقوله: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ أم بقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

هذا لا يستحق أن يُوصف بأن يكون من الكاذبين، ولكنه كما قلنا: هذا من باب التوقف في الخطاب؛ إذن هذا يكون أرجح، وكل واحد له وجه، وليس بينهم تعارض حتى يكون هناك ترجيح، ما بينهم تعارض أصلاً، فكونه من الكاذبين هذا أشد من وصفه بالكذب، وكونه يخاطبه بقوله: أن كذبت، يكون أهون، مثل قول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للضيوف: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ١٨] ما قال: أنكركم، ولا أعرفكم، بل قال: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وهذا من باب الفصاحة في التعبير.

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾:

إذا قال قائلٌ: قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا﴾ يقتضي أنه صدقه، هل هذا صحيح، أو هذا اختبار له؟

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ ما الذي يدل عليه؟ هل هو صدقه في ذلك، ولهذا كتب لهم، أو قال: هذا من جملة الاختبار؟

يعني: أنه إذا كان كاذبًا فسيقول: ليس هناك أحد، ما وجدت أحدًا مثلاً، فيكون هذا من جملة وسائل الاختبار العائدة على قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، وقد يُقال: إن قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ إن في الآية تقديرًا، فنظر وتحقق صدقه فأعطاه الكتاب، والله أعلم بما جرى، فإما أن يكون هذا

الكتاب من جملة اختباره، مثل ما لو أخبرك إنسان بخبر تقول: اذهب وأحضر لي منه ذكرًا، يُقال مثلاً: تُباع السلعة الفلانية الآن في السوق قلت: اذهب وأحضر لي - مثلاً - منها شيئًا لأنني يلزم أن أختبر هل هو صحيح، أم لا؟ وإن كان ظاهرًا فعليًا لما أعطيته الأموال أنني صدقته، لكن قد يكون هذا من وسائل الاختبار.

فالحاصل: إذا كان سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حقق هذا الأمر ثم أرسل بالكتاب فالأمر ظاهر، ولكن ليس في القرآن ما يدل على ذلك فنقول: إن إعطاءه الكتاب من الوسائل التي تبين صدقه.

وقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ أشار إليه للتعيين؛ لأن سليمان يكتب لهم ولغيرهم، ولكنه عيَّن الكتاب الذي كتبه لهم قال تعالى: [﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بلقيس، وقومها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ انصرف ﴿عَنْهُمْ﴾، وقف قريبًا منهم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يردون من الجواب، فأخذه، وأتاها، وحولها جندها فألقاه في حجرها، فلما رأته ارتعدت وخضعت خوفًا، ثم وقفت على ما فيه ثم قالت لأشراف قومها: يا أيها الملأ].

ذهب به الهدهد فألقاه إليهم أي: طرحه بين أيديهم، وتولى عنهم، كما أرشده سليمان، لكن هذا التولي ليس بعيدًا بدليل قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فهو يدل على أن هذا التولي يكون قريبًا منهم، ثم ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

أخذت الكتاب، وقرأته ثم قالت: لأشراف قومها: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ والملأ، كما بين المؤلف: [هم الأشراف]، وهنا نادتهم: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، إشارة إلى علو مرتبتهم في دولتها؛ لأن يا أيها: ما تكون إلا للبعيد، فهي لم تقل: يا ملأ، بل قالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ﴾ [بتحقيق الهمزتين] ﴿ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾، [وتسهيل الثانية، وقلبها واوًا مكسورة]؛ لأنه إذا جاءت الهمزة بعد الضم جاز أن تقلب واوًا ـ قاعدة في اللغة العربية ـ، ومنه قول كثير من المؤذنين: الله وكبر؛ لأنه يجوز الله أكبر، ويجوز الله وكبر، فالهمزة إذا وقعت بعد ضم يجوز أن تُسهل إلى واو، وعلى حسب الحال إن جاءت قبل كسر كُسرت، أو جاءت قبل ضم ضُمَّت، أو الفتح.

قال: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية بقلبها، واوًا مكسورة].

وقوله تعالى ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [مختوم]، فسر الكريم بالمختوم؛ لأن ختمه يدل على أهميته، فالكتب والرسائل المختومة يُعتنى بها، وحتى الآن إذا كان الشيء مهمًا تجده يُختم بالشمع، وما إلى ذلك لئلا يُزوَّر، ولكنَّ تفسير الكريم بالمختوم غير صحيح؛ لأن الختم دليلٌ على كرمه، وليس هو معنى كرمه، فالكريم معناه: المتضمن للمعاني العظيمة المؤثرة، وفي قولها: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾، ما قالت: ألقى الهدهد؛ لأن الظاهر أنه مرّ هكذا ثم ألقاه عليها، وليس معناه: أنه جاء ووقف بين يديها، وأعطاها الكتاب، وهذا ربما يكون أبلغ في الهيبة من أنه يعطيها إياه، وهو مارٌّ، بخلاف ما لو

وقع بين يديها فإنه لا يكون هيبة على أنه لو وقع بين يديها، فالمفترض - وكونه هدهدًا - أن تمسكه، لكنه ألقاه إلقاءً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾، ولم تنسبه إلى أبيه؛ لأنه كان معروفًا، ومعلومًا عندهم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسولٌ أعطاه الله ـ تعالى ـ من الملك ما لم يعطه غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي مضمونه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، وليس فيه (أي الكتاب): والسلام على من اتبع الهدى، ولا أن ناداها، كما قال المؤلف: من أين أتى به المؤلف؟ يمكن أن تكون من أخبار بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، لكن قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل سليمان قال: مِنْ سليمان إلى بلقيس؟

الجواب: لا، ما قال ذلك، ولكنه لعلها فهمته إما بتوقيع أو بكتابة ما على الظرف، أو في صلب الكتاب: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ هذا الصلب، وهذا هو الظاهر؛ لأنه لا يمكن أن يبدأ سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله: من سليمان بسم الله الرحمن الرحيم، بل سيبدأ بالبسملة قبله، فلما لم يذكر الله إلا البسملة دلَّ ذلك على أنه لم يحكِ بقوله: إنه من سليمان ما أتى بها، لكنه لابد أن يكون في الكتاب ما يشير إلى ذلك، وإلا لما فهمناه.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ المقصود: الخضوع له؛ لأن معناه: ذلُّوا لي؛ لأنهم ما كانوا يعلون عليه، حتى يقول: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، وإنما أراد أن يأتوا إليه أذلّة مسلمين لله، أو مسلمين له أي مستسلمين؟

الجواب: فيها احتمال مسلمين لله، أو مستسلمين له، ولكن هل يلزم من إتيانهم مستسلمين له أن يكونوا مسلمين لله؟ لا يلزم، لكن يلزم من كونهم مسلمين لله أن يستسلموا له، وأن يأتوا مطيعين غير مخالفين.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكرم بالمال معناه: بذله بالسَّخاء والكرم ـ أيضًا ـ في المال: يطلق على الجيد منه؛ لقول النبي ﷺ: «وَاتَّقِ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»، أو «وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1].

وكذلك ـ أيضًا ـ يوصف ما يتضمن الشيء به يوصف بالكرم لأي شيء هذا الوصف؟ لكتاب سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الأَوْلَى أن يُبدأ الكاتب باسمه فيقول: مِنْ فلان قبل أن يبدأ باسم المرسل إليه، أو المكتوب إليه، وهل هذا من باب التعبد، أو من باب العادة؟

(١) تقدم تخريجه من حديث علي بن أبي طالب أن النبي بعث معاذًا إلى اليمن إلخ، والحديث متفق عليه.

الظاهر: أنه من باب العادة، ولكن مع تلك العادة التي كان عليها السلف أولى من العادة التي اعتاد الناس عليها اليوم. اعتاد الناس اليوم أنهم يبدأون بالمكتوب إليه، فلان ابن فلان، لكن العادة الأُولى أَوْلى؛ لأن الإنسان إذا قرأ كتابًا يقرأه من أوله، فإذا قرأ: من فلان عرف الآن الكتاب، ما هذا الكتاب، وما قيمة الكتاب قبل أن يقرأه كله، ثم إن الترتيب الطبيعي يقتضي هكذا؛ لأن الكتاب، واردٌ منه إِلَيَّ فيقتضي أن نبدأ بالوارد منه قبل الوارد إليه، فإذن نقول: الأولى أن يبدأ الإنسان باسمه إذا أرسل كتابًا إلى أحد، فإن هذه السنة مبتدعة.

إذن: هل يُؤخذ من هذا الكتاب أنه لا يحتاج إلى ذكر مكتوب إليه؟ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾، وأرسل إلى ملكة سبأ؟

إنه إذا دلَّ الدليل على المكتوب إليه فلا حاجة إلى ذكره. مثلاً: إذا أرسلت هذا الكتاب إلى شخص، ولكنني مثل ما في قصة سليمان أنه جاء به هذا الطائر إلى صاحبه، فهنا احتمال أن يصل الكتاب لغير المكتوب إليه والمقصود ببيان المكتوب إليه: أن يتعين، ويصل إليه.

وهنا إذا جاء الكتاب على هذا الوجه فإنه يحصل به أكبر تعيين، فنقول: إنه لا حاجة إلى ذكره إذا كان الأمر يحصل بدونه، ولكن مع هذا يصبح أولى، لاسيما إذا كان يترتب عليه شيء في المستقبل، وإذا فرضنا أن صاحبه الذي أُرسل إليه علم وأخذه، لكن في المستقبل ما يدري من أرسل له هذا الخطاب، فذكره بلا شك أولى.

٣ ـ ومن فوائد الآية: استحباب البداءة بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول الرسائل؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية: استعمال الإيجاز إذا لم يكن فيه تقصير؛ لأن هذا الكتاب الذي كتبه سليمان في غاية ما يكون من الإيجاز فهو جملتان فقط ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، لكن بشرط ألا يكون الإيجاز مُخِلًّا بالمقصود، فإن كان مخلاً بالمقصود صار تقصيرًا.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعاهم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يريد التملك والسيطرة، وإنما يريد بذلك الدخول في الإسلام؛ لأن الهدهد لما أخبره أنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فهذا كفر، فلابد أن يطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام، لقوله: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾.

٦ ـ وفيه أيضًا دليل على: قوة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه لم يقل: وأسلموا، بل قال: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، فطلب منهم أن يأتوا إليه، وهم على إسلام.

وهل المراد أن يأتوا جميعًا؟ لا، المراد أعيانهم وأشرافهم؛ لأن الأعيان والأشراف يقومون مقام العامة.

قال الله تعالى:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٢-٣٧]

التفسير[1]

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** استحباب المشاورة في كل الأمور العامة؛ لقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ مع أنها ملكة، ولها تمام السلطة مع ذلك: لم تستغنِ عن المشاورة، قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** حزم هذه المرأة، وأنها تريد أن تكون سياستها مبنية على المسئولية على الجميع؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، وحينئذٍ لو جاء أمرٌ خلاف المقصود لم يكن عليها لوم ما دامت تُشهد هؤلاء، وتُبين لهم.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز للمستشير أن يُخالف المُستشَار إذا لم ير أنه مصيب في مشورته؛ لأنهم لما ذكروا أنهم يريدون قتاله وهي لا تراه خالفتْهم، لأنها قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ إلخ.

٤ - **ومن فوائد الآية:** مكانة هذه المرأة من قومها؛ لأنها بعد أن استشارتهم وأبدوا رأيهم، تأدبوا معها، وقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فهل يؤخذ من ذلك - أيضًا - أنه إذا قدم المُستشار مشورته؛ للإنسان الكبير أكبر منه قدرًا، أو

---

(١) تعذر سماع تفسير هذه الآيات.

فهمًا، أو علمًا أن له أن يقول مثل هذا؟

الجواب: نعم، فقول مثل هذا يُعتبر تأدبًا، وصاحبه بالخيار إن شاء أخذ بمشورته، وإن شاء لم يأخذ.

٥ - **ومن فوائد الآية:** حزم هذه المرأة - أيضًا - من جهة أنها نظرت في العواقب ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهكذا ينبغي للعاقل ألا يحكم على الأمور ببوادرها، وظواهرها، وإنما يحكم على الأمور بعواقبها، فإن الشيء قد تكون بوادره وظواهره مفيدة في نظر الإنسان، لكنه عند التأمل، يكون الأمر بالعكس، لكن هل الأولى المبادرة، أو التأنِّي؟

الجواب: في الأصل التأني أولى؛ لأن الإنسان إذا تأنى لا يندم؛ لأنه ما فعل شيئًا، لكن إذا تسرع، فهو الذي يكون عُرضة للندم، وكم من كلمة قال الإنسان: ليتني لم أَقُلْهَا، وكم من فعلٍ قال: ليتني لم أفعله، ولكن مع هذا ينبغي استعمال الحزم في الأمور، ولا يتأمل تأملاً يفوت المقصود، ولا يتسرع تسرعًا يحصل به الندم، وأظن أني أنشدت بيتين في هذا المعنى، أنه قد يكون التسرع أولى، وقد يكون التأني أولى:

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَرُبَّمَا فَاتَ قَوْمًا جُلُّ أَمْرِهِمُ ... مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وهذا صحيحٌ وواضح.

إذنْ المهم أننا نقول: إذا دار الأمر بين الإسراع، والتأني، ولم يترجح الإسراع عليه فالأولى التأني؛ لأن الإنسان يكون الأمر بيده ما دام لم يُحدث شيئًا، لكن إذا أحدث شيئًا فاته الأمر، ولم يتمكن من التخلص منه.

٦ - ويُؤخذ من الآية؛ لأنها قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أنها نظرت في العواقب؛ لأن النظر في العواقب يستدعي إما التسرع، وإما التأني، قد يكون مثلاً الإنسان يرى الرأي أنه إذا لم يُسرع فات المقصد فيسرع، أو إذا أسرع حصل الزلل فيتأنى، وهذا مأخوذ من قولها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

أما فوائد قوله: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** ذكاء هذه المرأة، وحنكتها.

٢ - **ويَستفاد من ذلك:** جواز الاختبار والامتحان، وأن ذلك لا يُعد خديعة إذا أراد الإنسان أن يمتحن غيره بشيء من الأشياء، لا يُعد هذا خديعة؛ لأنه يريد أن يستظهر به حاله، وهذا لا مانع منه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** العمل بالقرائن؛ لأنها أرادت أن ترسل هذه الهدية لتختبر مراد سليمان،

هل يريد المال فقط فتكفيه هذه الهدية، أو يُريد أنهم يسلمون، فلا تنفع فيه هذه الهدية، ولا يكف عن طلبه الأول؟ وهو: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.فيها إذن ثلاث فوائد.

وهل ورد مثلٌ لذلك؟

الجواب: نعم، في قصة داود في المرأتين اللتين احتكمتا إليه في ابن إحداهما، خرجت امرأتان إلى خارج البلد، ومع كل واحدة منهن ابن فأكل الذئب ابن الكبرى، فاحتكمتا إلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ قضى بالابن الموجود للكبرى، بناءً على أن الصغرى يمكنها أن تلد فيما بعد، ولكنه لما تحاكمتا إلى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ليس هذا الحكم، بل الحكم أننا نأتي بالسكين، ونشق الولد نصفين، فيكون للكبيرة نصف، وللصغيرة نصف، أما الكبيرة فوافقت على أن ينشق نصفين لماذا؟ لأنه مات ولدها، وأما الصغيرة فقالت: لا يا نبي الله الولد لها[1]، فعلم بذلك أن الولد للصغرى فحكم به لها.

فهذا من باب الاستظهار للحق بالقرائن، ولا مانع من ذلك، وقد كان القضاة يفعلونه.

فهذه مسألة إرسال الهدية إلى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا الموقف لتستظهر بها حاله فتعمل بالقرينة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذه الهدية كانت كبيرة، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، ولا يرسل جماعة بهدية إلا وهي كبيرة، وأيضًا ربما نقول: مع كبرها ثمينة؛ لأجل أن يدافع هؤلاء المرسلون عنها لو حاول أحدٌ أن يعتديَ عليها.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

١ ـ **يستفاد من قوله:** ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أن من المستحسن أن يتقدم الرئيس ـ رئيس الوفد، أو القوم ـ بالكلام، أو بالفعل إذا كان مُكلف بالفعل؛ لأن تقدم الجميع دفعة واحدة غير لائق لضياع المسئولية، فلابد أن يتقدم واحد، وكلما حصر الأمر كان أقرب إلى الفهم، وإلى حصول المقصود.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** توجيه الخطاب للجماعة، وإن كان المتقدم رئيسهم؛ لقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** جواز الغلظة في القول إذا كانت المصلحة فيه؛ لأن هذا الأسلوب من سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسلوب قوي، إذ إننا قلنا: إن الاستفهام في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخ، والتعجيب، يعني أنه يوبخهم على فعلهم، ويتعجب من فعلهم؛ كيف يمدونه بمالٍ، وهو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٧) ومسلم (٢٠/ ١٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ملك معروف مشهور.

٤ ـ ومن فوائد الآية: جواز التحدث بنعمة الله، أي يجوز للإنسان أن يتحدث بنعمة الله لقوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكن هل يتحدث بهذه النعمة على سبيل الافتخار، أو على سبيل الاستصغار والافتقار؟

الجواب: على حسب الحال؛ فمع العدو يجوز أن يتحدث بها افتخارًا، ولذلك تجوز الخيلاء في الحرب؛ مع أن الخيلاء محرمة، ومن الكبائر، لكن في الحرب لإغاظة العدو لا بأس بها.

فسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحدث هنا بنعمة الله افتخارًا فيما يظهر منه، افتخارًا على هؤلاء القوم، وهذا لا بأس به إذا كان أمام العدو؛ فأما إذا كان لإظهار النعمة فإنه لا يجوز إلا على سبيل الاستصغار والافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا على سبيل الافتخار، والعلو على الخلق.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أنه يجوز للإنسان أن يصف غيره بما يبدو من حاله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، إذ إن الفرح، أمرٌ باطني، تظهر علاماته على ظاهر البدن، ولكنه في الأصل أمرٌ باطني؛ لأن من يفرح لا نسمع لفرحه صوتًا، ولا يظهر عليه حركات، ولكن تظهر علاماته، فلا بأس أن الإنسان يحكم على غيره بالقرائن لما يظهر من حاله، وقد مر عليكم كثيرًا مثل هذا الأمر، فقد قال الرجل الذي جامع زوجته في نهار رمضان: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني[1]، ومع هذا، فإن هذا الرجل لم يقف ببيوت أهل المدينة فيفتشها، حتى يعرف أنه ما في أحد أفقر منه.

٦ ـ ومن فوائد الآية: إظهار القوة للإعداء؛ لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وهذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال: ٦٠]، فإن ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، نكرة تشمل كل ما يمكن من القوى؛ سواء أكانت القوة قولية، أم مادية، أم معنوية، المهم أن جميع القوى في معاملة الأعداء ينبغي للمرء أن يستعملها، حتى إنه جاء في الحديث: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»[2]، لكن الخيانة هل تجوز؟

الجواب: لا تجوز، لا يجوز للإنسان أن يخون عدوه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ولا تخونهم، وكذلك إذا خانوا يكونون قد نقضوا العهد، وقد مرَّ علينا أن هذه المسألة لها ثلاث حالات ـ المعاهدون لهم ثلاث حالات- :

١ ـ إما أن يستقيموا لنا ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

٢ ـ وإما أن ينقضوا العهد فحينئذٍ لا عهد، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢].

٣ ـ وإما ألا ينقضوا عهدًا، وظاهرهم الاستقامة، لكن نخاف منهم الخيانة: فهؤلاء ننبذ العهد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٣٦) ومسلم (٨١/ ١١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٢٩) ومسلم (١٨/ ١٧٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليهم، ونخبرهم بأننا أبطلنا العهد، حتى لو قالوا سنبقى على العهد نقول: لا، الآن لكل منا حكم.

هنا توجد قوة في الكلام ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ هذا التهديد، والوعيد لا شك أنه مظهر قوة، فيكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٧ - **وفيها أيضًا دليل**؛ في قوله - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ على كثرة جنود سليمان؛ لأن هذه الملكة التي لها العرش العظيم، وعندها قوم مطيعون يمتثلون لأوامرها يقول: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، ولم يبين هذه الجنود، لكنه مرَّ في أول القصة أن جنوده ثلاثة أصناف: هي الجن، والإنس، والطير، هذه كلها، يمكن أن يسلطها عليهم، إذا سلط الجن، فالجن لا قبل لهم بها، وإن سلط الطيور تنقر عيونهم - أيضًا - لا قبل لهم بها.

والحاصل: أن الجنود التي لسليمان لا يمكن لهؤلاء أن يقاتلوها، لا كمية ولا كيفية.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ قال: [في الهمزتين ما تقدم]، ما الذي تقدم؟

الجواب: تحقيقهما ﴿الْمَلَأُ أَيُّكُمْ﴾، وتسهيل الثانية: بقلبها، واوًا ﴿الْمَلَأُ أَيُّكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [منقادين طائعين فلي أخذه قبل ذلك لا بعده].

قال: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ من أين عرف أنهم سيأتون مسلمين إليه؟

عرف ذلك من أنهم إذا سمعوا بما قاله الرسول الذي قال له: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ فإنه لابد أن يستسلموا وينقادوا، فهو - أيضًا - حكم بالقرائن.

ويجوز أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إليه بذلك؛ لأنه نبي، فالمسألة دائرة بين أن يكون حكم بكونهم يأتون مسلمين بناءً على القرينة، ويحتمل أن يكون ذلك بوحيٍ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ نبَّه المفسر على أنه إذا كان العرش أخذ قبل أن يأتوا مسلمين إليه، فهو جائز، وإذا كان بعد ذلك فليس بجائز، وفي هذا نظر؛ لأنها هي بمجرد ما تفارقه مسلمة تكون قد أحرزت مالها وقد حمته، فمالها محترم قبل أن تصل إلى سليمان بمجرد إسلامها، وهي إذا غادرت ستأتي إليه مستسلمة؛ لأنه قال لهم في الأول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وليس غرضه ـ والله أعلم ـ أنه إذا كان قبل إسلامهم جاز له أخذه، وإذا كان بعده لم يَجُزْ. ثم إن الظاهر ـ أيضًا ـ أن سليمان لا يريد تملك هذا العرش، وإنما يريد إظهار قوته أمامها، وأنه استطاع أن يأتي بعرشها قبل أن يصلوا إليه، لا ليتملكه، حتى يرد ما قاله المؤلف.

وقوله تعالى: ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [هو القوي الشديد]، العفريت: القوي الشديد، ولا زال هذا المعنى إلى الآن موجودًا، يقولون: فلان عفريت يعني: قوي شديد.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾:

آتي: اسم فاعل أم فعل؟

فعل، إذن يصلح أن أقول: أنا آتٍ إليك به، ويكون التقدير: أنا آتٍ إليك به قبل أن تقوم من مقامك؟ يصلح لكن الظاهر أنها فعل؛ لأن هذا العمل من الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾، ولكن الأقرب أنه فعل يقربه؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، والكاف معلوم أنه مفعول به، فهذا هو الأصل.

قال تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [الذي تجلس فيه للقضاء، وهو من الغداة إلى نصف النهار]، هذا لا دليل عليه، ولكن قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ المراد أنا آتيك به بسرعة، وهذا أسلوب معروف، أنا آتي به قبل أن تقوم، لا يزال إلى الآن موجودًا هذا الأسلوب، فالمعنى: أنا آتيك به بسرعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾، أي على هذا العرش، وقوله تعالى: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ أي: [على حمله]، قوله تعالى: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: [على ما فيه من الجواهر، وغيرها] مثلما قال: ﴿آتِيكَ بِهِ﴾ هذا إخبار، ولكن يحتاج إلى تأكيد لهذا الأمر أن يحضره قبل أن يقوم من مقامه، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾، ولست بضعيف على أن أحضره بهذه السرعة، و ـ أيضًا ـ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: لا أخون فيه بشيء لا على نفس العرش، ولا على نفس ما فيه من جواهر، وغيرها، وهذان الوصفان يحتاج إليهما كل عامل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ عن صاحب بنت مدين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وهذان الوصفان مطلوبان في كل عمل؛ لأنه إذا فاتت القوة لم يحصل الأمر من

أجل العجز، وإذا وجدت القوة، ولكن فاتت الأمانة فإنه ـ أيضًا ـ يتخلف العمل بسبب الخيانة.

قال المؤلف: [قال سليمان: أريد أسرع من ذلك]، من الذي قالها؟ لا دليل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

[قوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المُنزل، وهو: آصف بن برخيا كان صديقًا يعلم اسم الله الأعظم؛ الذي إذا دُعِيَ به أجاب]، هو معلوم أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، لكن يحتمل أنه إذا دعا به هذا الرجل الذي عنده علم من الكتاب، يعني أن هذا الرجل قد جرب، وقد عرف أنه إذا دعا الله ـ تعالى ـ بهذا الاسم أجابه، فيكون هنا الأنسب أن يُقال: إذا دعا به أجاب؛ لأن هذا الرجل الذي عنده علم من الكتاب يعلم، أو قد جرب أنه إذا دعا بهذا الاسم أجاب.

وهذا ـ أيضًا ـ ليس بلازم أن يكون هذا الإنسان الذي عنده علم من الكتاب يريد أن يسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ باسمه الأعظم، وإنما نقول: هذا الرجل أعطاه الله ـ تعالى ـ علمًا من الكتاب المنزل، ولا شك أن الإنسان العالم يعرف الأدوات، والصيغ التي تكون أقرب إلى الإجابة، سواء باسم الله الأعظم، أم بغيره.

يقول: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [إذا نظرت به إلى شيء] ـ الله أكبر ـ أيهما أسرع؟ الثاني.

قوله تعالى: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ أي: يرجع، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: نظرك، يعني: إذا نظرت هكذا أمامك بسرعة، بسرعة فائقة، وكأن -سبحان الله العظيم ـ هكذا يأتي من اليمن إلى الشام بهذه السرعة العظيمة؛ لأنه يأتي بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠]. فالله ـ تبارك وتعالى ـ إذا أجاب الداعي لا يحتاج إلى مدة، ولا إلى مهلة، ولكن مع ذلك يُقدر الله ـ تبارك وتعالى ـ الأمور بأسبابها، قد يدعو الإنسان لمريض أن يشفيَه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكن هل يُشفى كلمح بالبصر؟ لا له أسباب تُقدر، لكن الأسباب تنعقد فورًا إذا أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُجيب، مع أن الله قادر أن يُبرأ هذا المريض في لحظة، مثلما كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُؤتى أحيانًا بمريض فيدعو له فيُشفى في لحظة، فقد جيءَ إليه بعليّ بن أبي طالب في خيبر، وهو يشتكي عينه فبصق فيها، ودعا فبرأت كأن لم يكن بها وجع في الحال، والله ـ تبارك وتعالى ـ على كل شيء قدير، ولكن تأخر الشيء لا يدل على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بقادرٍ على إبرائه حالاً، ولكنه يدل على أن الله حكيم، يُقدّر الأمور بأسبابها، حتى خلق السموات والأرض في ستة أيام ذكرنا فيما سبق أنه لفائدتين:

أولاً: ما اشتهر عند أهل العلم من أن الله ـ تعالى ـ جعلها في ستة أيام ليعلم العباد التأني في

الأمور، وأن المهم إحكام الأمر لا التعجيل فيه.

وفيها فرق أن خلق هذه الأشياء يحتاج إلى أسباب، ومكونات تتفاعل، وتنتهي إلى الكمال، لهذا صار في ستة أيام.

[هنا قال: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال له: انظر إلى السماء فنظر إليها ثم رد بطرفه فوجده موضوعًا بين يديه، وفي نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتيَ الله به فحصل بأن جرى تحت الأرض، حتى نزع تحت كرسي سليمان] ـ الله أكبر يعني غرائب القصص، يعني هل هذا الذي عنده علم بالكتاب قال لسليمان: انظر إلى السماء؟ ما فيه دليل، ولا أحد يقدر،قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأي نظرٍ أتاك طرفك إليه.

ثانيًا: من أين جاء من الأرض بأن جرى في الأرض نزعًا من تحت الكرسي، يجوز أنه جاء من الأرض، ويجوز جاء من فوق الأرض، أو جاء من محلٍ عالٍ جدًّا، ونزل، كل هذا لا ينبغي الجزم به، بل يُقال: إن الله على كل شيء قدير، المهم أن العرش حضر بلحظة حسبما قدر القائل.

وفي قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ أي: [ساكنًا]، هذه أشكلت على النحويين؛ لأنهم يقولون من قواعدهم: إذا كان الظرف، أو الجار والمجرور متعلَّقه عامًّا فإنه يجب حذفه، مثلاً نقول: زيدٌ في البيت، ولا تقول: زيدٌ كائنٌ في البيت فيجب حذف كائن؛ لأنه عام، أما إذا كان خاصًّا مثل: زيدٌ محبوسٌ في البيت فيجب ذكره، فمحبوس لو حُذفت ما يدل عليها دليل، بخلاف زيد في البيت فإنه بمجرد النطق به يتبين للمخاطب أن المعنى: كائنٌ في البيت، أو موجود فيه، فهم يقولون: إذا كان الجار والمجرور، أو الظرف متعلَّقه عام، وجب حذفه، وهنا مستقر: عام، كلمة مستقر: عام، مثل كائنٌ في البيت يعني: مستقر في البيت، إذن نقول كما قال ابن مالك:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ ... نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ

لكن قالوا: إن الاستقرار هنا ليس استقرارًا عامًّا، بل هو استقرار خاص غير مطلق الوجود، فلما كان استقرارًا خاصًّا غير مطلق الوجود صار كالمعنى الخاص، ولذلك ذُكر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾، لاحظ لو قال: فلما رآه عنده: ما يدل على معناه: في كلمة مستقر، صحيح معناه: لو رآه كائنًا عنده، لكن ما تدل على أن هذه الكينونة كانت استقرارًا، وثباتًا، وأيضًا هذا يُفهم من قوله: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ ما أشار إليه العفريت في الأول: وهو القوة، والأمانة؛ لأنه بالقوة والأمانة يأتي العرش على ما هو عليه، ما يتكسر، والإنسان الضعيف ربما إذا ما قدر على حمله، وهو ضعيف ربما يسقط من يديه، أو ما أشبه ذلك فيتكسر، أو إذا ما كان أمينًا ما يهمه أن يضربه جبل، أو شجر، أو ما أشبه ذلك، أو هو نفسه يتسلَّط عليه.

فالحاصل من هذا: أن الاستقرار له معنىً خاص غير الاستقرار العام فلذلك ذُكر.

قال المؤلف في قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ [الإتيان لي به ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾].

[﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ أي: ساكنًا ﴿عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سليمان، رأى العرش، والاستقرار هنا أمرٌ زائد على مجرد الكينونة، ولو كان المراد بالاستقرار هنا مجرد الكينونة لكان ذكره غير بليغ، ولهذا فسره المفسر هنا بالسكون، يعني: كأن له أزمانًا، وهو في هذا المكان، مثلاً أي شيء تضعه في مكان تعدله، وتزينه لاسيما مثل العرش الذي له قوائم في العادة، وهذا ثابت، وهذا من كمال القدرة أيضًا ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، (من) هذه لبيان الجنس، أم للتبعيض؟

الجواب: يجوز هذا وهذا؛ لأنه إذا قصدنا أن الباء للجنس: فهي لبيان الجنس، وإذا قصدنا بالفضل هذا الشيء المعين فهي للتبعيض.

وقوله: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾، الفضل: هو العطاء الزائد، وفضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على العبد لا يُعد، ولا يُحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[النحل: ١٨]، ومن فضله على عبده أن يحسن إليه، ثم يعد إحسانه إحسانًا، ثم يعد إحسان العبد إحسانًا ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فما جزاء المحسنين الذين أحسنوا عملهم إلا أن يحسن إليهم، وإحسانهم عملهم إحسانٌ من الله، ولكن هذا من باب تمام الفضل من الله على عباده أن يعد إحسان عملهم، وهو منه إحسانًا منهم كأنهم هم المتفضلون به ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠] ـ اللهم لك الحمد- .

وقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ الربوبية هنا: خاصة، ولهذا أضافها إلى نفسه فقال: ﴿رَبِّي﴾، وقد مرَّ علينا أن الربوبية: عامة، وخاصة، وأن العبودية كذلك عامة، وخاصة، وأن الخاصة فيها ما هو أخص. قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ لأن الربوبية هنا غير الربوبية لعباد الله الصالحين الآخرين.

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾، ليختبرني، واللام هنا: للتعليل.

[﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا، وتكريرها وإدخال ألف بين المُسهلة والأخرى وتركه]، هذا ما أحد يقرأه، إذن بتحقيق الهمزتين ﴿ءَأَشْكُرُ﴾، بإبدال الثانية ألفًا: ﴿أاشكر﴾، تسهيلها: ﴿آشكر﴾، إذن همزة مسهلة، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركها؛ لأن قراءة التسهيل لها صورتان:

١ ـ إدخال ألف: أاشكر، التي بعد الألف همزة مسهلة.

٢ ـ أو بدون ألف، يعني أن التسهيل تجد فيه المد قبل التسهيل، وعدم المد.

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ [بالنعمة]، إذن بما يكون الشكر؟

أولًا: يكون الشكر بالثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه النعمة بذاتها.

وثانيًا: الاعتراف بالقلب على أنها محض فضلٍ من الله، وأنه ليس لك بها منة على ربك.

والثالث: القيام بما تقتضيه هذه النعمة من واجب، وهذا الشكر الخاص غير الشكر العام؛ لأن الشكر، يكون عامًّا بحيث يوصف الإنسان بأنه من الشاكرين على الإطلاق، ويكون خاصًّا بحيث يوصف بأنه من الشاكرين على هذه النعمة فقط، مثال ذلك: رجل آتاه الله مالاً، الشكر الخاص على هذا المال أن يتحدث بهذا المال على أنه من فضل الله عليه، ونحوه، وأن يعترف من قلبه أنه فضل من الله ما يقول: أوتيته على علم عندي، والثالث: أن يقوم بواجب هذا المال؛ من دفع زكاته، وما يترتب عليه من نفقات بسبب هذا المال، لكن قد يكون الإنسان مثلاً من جهة أخرى يعصي الله، يخرف في الصلاة مخرف في الصيام، هذا نقول له بأنه شاكر على الإطلاق، لكنه قائمٌ بشكر نعمة معينة، إذن الشكر نوعان: شكر مطلق، وشكر خاص.

فالشكر الخاص: أن يقوم بشكر النعمة المعينة بما تقتضيه، والشكر العام: أن يكون قائمًا بطاعة المنعم مطلقا في كل حال.

وأنت لو تأملت هذا لوجدته موجودًا في عامة الأوقات المحمودة، والمذمومة، فالتوبة قد يوصف الإنسان بأنه تائب توبة خاصة مقيدة من ذنبٍ معين، وقد يوصف بأنه من التائبين على سبيل الإطلاق.

قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ على أي وجه نحمله؟

إذا قلنا: إنه على العموم معناه: أننا رمينا سليمان بأنه ليس بشاكر نعمة الله في غير هذا، وإذا قلنا على الخصوص، يعني على هذه النعمة المعينة، فهو أولى، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ به أأشكر الله عليه أم أكفر، فالظاهر أنه هنا على سبيل الخصوص، يعني على هذه النعمة، أما النعم الأخرى فنحن نؤمن أن سليمان قد قام بشكرها؛ لأنه ﷺ كما مرَّ علينا، كما في قصة النملة قال مثل هذا الكلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فالحاصل الذي يظهر لنا: أنه على هذه النعمة، هل أشكرها أو أكفرها؟ وكل نعمة تحتاج إلى شكر خاص، والشكر العام معروف، فالإنسان يقول: أشكر الله، ويعتقد ويؤمن من قلبه أنه شاكر لله على جميع النعم، لكن عند نعمة معينة تحتاج هي أيضًا إلى شكرٍ خاص، فالشكر على المال ليس كالشكر على القوة، مثلاً: إنسان عنده قوة، وقدرة على الرمي والجهاد، فالشكر على النعمة أنه يستعملها في الجهاد، عنده قدرة على بيان الحق بما أعطاه الله من العلم، والفهم، شكر الله على هذه النعمة أن يبين هذا الأمر، فتجد أن الشكر يختلف إذا اعتبرنا كل نعمة بحسبها، فيختلف

شكر هذا عن شكر هذا، لكن في الشكر المطلق أن نعتقد بأن جميع الفضائل، والنعم كلها من الله - سبحانه وتعالى -.

يقول: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ إذا قال قائل: كيف يقول: سليمان ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾، والكفر كلمة نافية؟ لماذا لم يقل: أأشكر أم لا أشكر، مع أن المعنى واحد، لكن هذا أهون.

نقول: لأجل ردع نفسه عن المخالفة، وعدم الشكر، حتى يبين لنفسه أنه إذا لم يشكر، أنه كفر، فلكل مقام مقال، قد تخاطب إنسانًا ترى أنه لم يشكر نعمة الله عليه فتخشى إذا قلت: أنت كافر بالنعمة أن ينفر منك، ويزداد نفورًا من أصل النعمة إذا أنت قلت: أنت لم تشكر تمام الشكر، أو حق الشكر، أو ما أشبه ذلك لا شك أنه أهون، والأساليب تؤثر، يُقال: إن ملكًا من الملوك رأى رؤية فأفزعته فقال: عليَّ بالمعبرين، أو بالمعابرين، فأحضروا له المعبرين فقال لهم: إني رأيت أن أسناني قد سقطت فماذا ترون؟ فقام كبيرهم فقال: أرى أن أهلك سيموتون، فقال: أشبعوه ضربًا، فأشبعوه ضربًا، ثم قعد مع اثنين آخرين فقال لهم: إني رأيت أن أسناني قد سقطت، قام كبيرهم فقال: الملك أطول أهله عمرًا، فقال: أجيزوه، مع أن المعنى واحد؛ لأنه لم يتسرع، فالحاصل أن التعبير له دخل في قبول الحق، أو النفور منه، وقد مرَّ علينا قصة إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[مريم: ٤٣] ما قال: أنت جاهل وما تدري، ولا تعرف بل قال: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وبعض الناس يهبه الله - سبحانه وتعالى - قدرة على التعبير، حتى إن العبارات تكون في يده كالعجين يلان له القول، فتجده يستطيع، حتى لو أراد أن ينطق لسانه بكلمة لا يريدها فبسرعة يجد بديلًا لها.

إذن: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ نقول عبر بهذا التعبير لأجل أن يردع نفسه عن المخالفة، وعدم الإتيان بالشكر.

وقوله: [﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضال على من يكفرها]؛ لأن من شكر، ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ غني عن شكره صحيح، أو غنيٌّ مطلقًا، ومن جملة ما يتضمنه المعنى شكر هذا الإنسان على نعمة الله، فإن الله - تعالى - ما أنعم على العباد لحاجته إلى أن يشكروه، بل لفضله عليهم، وظهور آثار أفضاله العظيمة، فظهور آثار أفضاله العظيمة ما يكون إلا بأفعاله، والتي من جملتها النعم، أو النقم - أيضًا - ليظهر بذلك صفات الانتقام، والغضب.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾، أي أنه - سبحانه وتعالى - قد يبقي النعمة على من كفرها تكرمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراكًا، والله - تبارك وتعالى - حكيم يهب فضله من يشاء، قد يبقي الله النعمة على الكافر استدراكًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨]، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقد يبقي الله - تعالى - النعم مع الكفر تربية بحيث إن الإنسان يفتح الله عليه بالتأمل فيخجل من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يبارز الله - تعالى - بالمعاصي، والله - تبارك وتعالى - يدر عليه بالنعم فيرتدع، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لأن الكرم في مقابل الكفر ما يكون إلا إذا كان ذلك الكرم من مصلحة الكافر بها، وإلا ما ظهر أثر الكرم، بل ظهر آثار الكفر، لو قال حكيم، صار هذا يشمل من تكرم الله له حتى أهلكه، لكن: كريم: ما يتم الكرم للكافر بالنعمة إلا حيث كان إبقاء النعمة عليه مصلحةً له لأجل أن يعود.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن فيها دليل على جواز الخطاب إلى المبهم إذا كان تعين بعد ذلك لقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ ما قال: ائتني يا فلان، وهذا النوع من الخطاب يترتب عليه فوائد كثيرة حكمية، وخبرية:

فمنها مثلاً: أنه يجوز أن نقول: زوجتك إحدى ابنتي هاتين، ثم يختار إحداهما، مثلما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها يجوز أن نقول: بعتك إحدى هاتين السلعتين بكذا فيختار إحداهما.

ومنها بعتك هذا بعشرة نقدًا، أو بعشرين نسيئة: فيختار أحد الثمنين.

فصار الآن أنه يجوز الخطاب حكمًا، وخبرًا، لكن بشرط أن يتعين قبل تمام الحكم. إذن هنا: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز للإنسان أمام عدوه أن يظهر العظمة؛ لأن سليمان أراد بإحضار هذا العرش.

إظهار عظمته، وقدرته، وأنه استطاع أن يأتيَ بعرشها المُحصن بلا شك؛ لأنه كما هو في العادة: بيوت الملوك لابد أن تكون محصنة، وعليها حرس لاسيما عند العرش.

وأما زعم المؤلف: أنه أراد أن يتملكه، فإنه لا دليل في الآية عليه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - إما أنه تفرّس، أو أُوحِيَ إليه بأن هؤلاء القوم سوف يأتونه؛ لأنه لما ردّ الرسول بالهدية، وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، ما جاءه جواب، فطلب أن يُحضر عرشها، مما يدل على أنه عالمٌ بأنها ستأتي وقومها، ولكن من أين علم ذلك؟

إما من وحي، وإما من فراسة؛ لأن مثل هذه العبارات التي ترسل ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ بهذه القوة؛ يقتضي أن العدو يخضع ويفزع.

إن كانت هذه فراسة، فهو يدل على: جواز الحكم بالفراسة، وقد ذكرنا عدة مرات: أنه

يجوز الحكم على الشيء بمقتضى غلبة الظن، بل يجوز أن يحلف عليه بمقتضى غلبة الظن، والفراسة تؤدي إلى غلبة الظن، ولكن ليس مجرد الوهم يجوز أن تحكم بالظن، بل لابد للفراسة من قرائن تدل عليها: إما قرائن سابقة، وإما قرائن مقاربة، وأما أن تحكم بشيء ما فيه قرينة فهذا حكم بالظن.

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾:

١ - **في هذه الآية دليل على**: تسخير الجن لسليمان لقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ هو، أو من تكلم.

٢ - **وفيها**: دليلٌ على قوة الجند؛ لأنه كيف يأتي بهذا العرش العظيم من سبأ في اليمن إلى الشام.

٣ - **ومن فوائد الآية**: سرعة الجن وهو من أصناف القوة لقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهذه سرعة فائقة، سرعة عظيمة، ومعلوم أنهم عندهم سرعات عظيمة بدليل أنهم يسترقون السمع من السماء، ولا يأتي السماء إلا من كان عنده سرعة هائلة عظيمة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما اتصف به من صفات الكمال ترغيبًا، أو ترهيبًا، لقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ هذا ترغيبًا، وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ترهيبًا، فيجوز هذا، وهذا، لكن بشرط أن يكون متصفًا به حقيقة، أما دعوى فلا، فهذا، مثلما قال في ذات الحديث: «مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ، فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(١). فالإنسان الذي يمدح نفسه بما ليس فيها هذا بلا شك أنه مزور بالخبر، ومزور بالصفة، هو أخبر عن نفسه ما ليس فيها الخبر الكذب، وثبوت الوصف هذا للنفس مثلاً كذب، فهو كلابس ثوبي زور.

قال ابن مسعود: (لو أعلم أن أحدًا تناله الإبل أعلم مني بكتاب الله لسرت إليه) أو كما قال.

٥ - **ومن فوائد الآية**: مدار العمل على هذين الوصفين، وهما: القوة، والأمانة لقوله: ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾؛ لأن من ليس بقوي: لا يتقن العمل لضعفه، ومن ليس بأمين لا يتقن العمل - أيضًا - لخيانته، فقد يكون الإنسان قويًا، ويستطيع أن يعمل هذا العمل بكل سهولة، لكنه ليس بأمين فلا يثق الإنسان به، ثم إن العمل لو أنه أتقنه يبقى الإنسان شاكًا، يقول: ما أقدر على أكثر من هذا، ولكن ما يفعل؛ لأنه خائن، وكذلك - أيضًا - لو كان الإنسان أمينًا، لكنه عاجز فإنه لا يتقن العمل لعجزه، أيهما أشد لومًا؟ الخائن أشد، والضعيف عنده - أيضًا - من الخيانة؛ لأن هذا كونه يقوم بالعمل وهو ليس بقادر عليه، هذا لا شك أنه خطأ وخيانة، لهذا قال النبي ﷺ لأبي ذر: «إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»(٢).

فالإنسان الضعيف ما يتدخل في شيء إلا إذا كان يستطيع إتقانه لاسيما إذا كان يوجد في الناس

(١) حسن: أخرجه أحمد (٦/ ٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧/ ١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

من يحسنه، فهذه تعتبر خيانة لنفسه، ولغيره، خيانة لنفسه؛ لأنه في الحقيقةارتقى مرتقىً صعبًا، فيظهر ضعفه أمام الناس، وخيانة لغيره: حيث تقبل أعمالاً، وهو لا يحسنها،قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ مَنْ؟ ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

إذا قال قائل: إذا اجتمع عندنا أربعة أشخاص؛ أحدهم قويٌّ أمين، والثاني: قوي غير أمين، والثالث: أمين غير قوي، والرابع: ضعيفٌ خائن؟

القوي الأمين يُقدم، والخائن الضعيف يُؤخر بلا شك. وفينا قوي خائن، وضعيفٌ أمين؟

يجب أن نرى أيهما أولى مراعاة: إذا كان في عملٍ القوة فيه أظهر: فهنا يُقدم القوي؛ لأن القوي، وإن كان عنده خيانة ربما تحمله قوته على إتقان العمل لأجل أن يشتهر بهذه القوة مثلاً ولا يريد الله، أما إذا كان في المسألة: تحتاج إلى عمل وقوة، لكنها تتطلب الأمان فهنا يُقدم الأمين، إذن هذا واضح، إذا كان في عملين أحدهما يظهر فيه خصل الأمانة، والثاني يظهر فيه خصل القوة، فالأمير مثلاً: القوة في حقه أظهر إن كان قويًا غير أمين فإنه أنفع من استعمال أمير ضعيفٍ أمين، والقاضي: بالعكس الأمانة في حقه أظهر؛ لأنه إذا كان أمينًا، وإن كان ضعيفًا، وهذا موجود كثيرٌ في عصرنا الآن، التنفيذ لمن؟ لجهة الأمارة القاضي يحكم، فإذا كان أمينًا فهنا خصل الأمانة في القضاء أظهر من خصل القوة.

وعلى هذا فقس، ولكن إذا كان العمل يتعارف فيه القوة والأمانة فهذه محل نظر، ولا يمكن أن نحكم بحكمٍ عام، بل إننا ننظر في القضية المعينة، ونرى يعني: إذا كنا في عمل يتطلب القوة والأمانة معًا، ولا يظهر فيه فضل أحدهما على الآخر حينئذٍ ما أستطيع أن أحكم هنا حكمًا عامًا، بل إنما يُنظر في كل مسألة بخصوصها، ويُنظر للقرائن، ويُنظر ـ أيضًا ـ للأشخاص، ويُنظر هل فيه القوة أكثر من ظهور الأمانة في الثاني، أو الأمانة في هذا أكثر منها في الثاني، على كل حال: هذه المسألة لا نحكم فيها بحكم عام، بل نحكم فيها بالقضية المعينة، ثم نقول: يقدم هذا على هذا، عندما تحصل القضية المعينة. فالحاصل إذن: أن أقسام الناس باعتبار العمل أربعة:

قوي أمين، وقوي خائن، وضعيفٌ أمين، وضعيف خائن. ومعلومٌ أن الأول يُقدم على كل حال، والثاني يؤخر على كل حال، والثالث، والرابع بينهما تجافي، فينظر ما إذا كان يحتاج فيه للقوة أكثر فيقدم فيه القوي، وما كان يحتاج الأمانة أكثر يقدم فيه الأمين، وإن احتمل أمرين؟ يُنظر فيه للقضية المعينة حتى نستطيع أن نقدم هذا على هذا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما يتصف به، لكن بشرط أن يكون ذلك حقيقة.

وصف الإنسان نفسه نعتبره من الأحكام الخمسة، قد يكون واجبًا أحيانًا، وقد يكون محرمًا، إنما هو على سبيل الإباحة، ولا يمكن أن نقول في كل حال؛ لأنه قد يكون بغرض سيئ، ولا نقول

في كل حال؛ لأنه قد يكون بغرض حسن، أو على سبيل الجواز، وقد يكون للتحدث بنعمة الله فيكون مندوبًا، وقد يكون لأجل أن نمنع من ليس بأهلٍ في مباشرة هذا العمل فيكون قد وجب، ليبيِّن نفسه.

٧ - **يُستفاد من قوله:** ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد رتب شئون حياته بأن له مجلسًا خاصًا معروفًا معينًا؛ لأن قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ لاشك أنه مقدر بنسبة معلومة، وإلا لم يكن لذلك فائدة؛ لأن قيامه من مقامه إذا لم يكن معلومًا، فهل يُدرى مثلاً التوقيت، قد يبقى يومًا كاملاً مثلاً، وقد لا يبقى إلا دقيقة واحدة، فلولا أنه - عليه الصلاة والسلام - قد رتب أوقاته، حتى أصبحت معلومة للناس ما قال مثل هذا الكلام.

وأما ما قاله المُفسر: [من الغداة إلى نصف النهار]، فهذا الله أعلم به، على كل حال يؤخذ منه: أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - كان قد رتب أوقاته، حتى صارت معلومة، وهذا لاسيما بالنسبة للإنسان المراد الذي يريده الناس في أمرٍ من أهم الأمور أنه يرتب أموره، حتى إن الإنسان الذي يريده في حاجة يعلم أنه في هذه الساعة يجده وفي ساعة اللقاء لا يجده فيستريح، مثلاً يرتب لنفسه جلسة مثلاً في بيته، أو مكان واسع على سبيل العموم بين العشاءين، أو بعد العصر، أو الضحى، المهم شيء يعرفه الناس، يرتب نفسه مثلاً على عمل معين يعرفه الناس، حتى من أراده لهذا العمل يأتي إليه.

٨ - **ويستفاد من هذه الآية:** أن سليمان قد رتب أوقاته في عمله، والثاني: أنه ينبغي للإنسان خصوصًا المراد من أميرٍ، وقاضٍ، وعالم، ووجيه، وغيره أن يجعل له وقتًا معينًا في أوقات محددة، حتى إن الناس يشعرون بأن هذا الرجل رجل منظَّم، ويشعرون أن الإنسان الفوضوي إن شاء جلس، وإن شاء قام؛ لأنه ليس بمنظم، فلا يعتبرونه شيئًا.

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾:

١ - **في هذا دليل على:** أن جنود الله - سبحانه وتعالى - وهم الملائكة أقوى من الجن؛ لأنه قال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهذا قال: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أيهما أسرع؟

الأخير بلا شك، ولا تردد؛ لأن الذي عنده علم بالكتاب عالم، ولا قوَّة له إلا بالدعاء؛ لأن هذا هو الظاهر؛ لأن قوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ مفصول عن قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، والأصل أن الكلام مع الإنس، فالظاهر أنه رجل ليس من الجن.

لأن كل إنسان، أو كل قائل ليس من البشر لابد أن ينوه عنه؛ لأن الأصل أن البشر هم الذين يتخاطبون، وما كان من غيرهم ينوه عنه.

٢ - **وفي هذه الآية دليل على:** كمال قدرة الله - عز وجل -؛ لأن كون هذا العرش العظيم

يأتي من اليمن إلى الشام بلحظة لاشك أنه من كمال قدرة الله التي لا يتصور الإنسان كيف تكون.

الآن هل يمكن أن نتصور كيف جاء هذا من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إلي الإنسان طرفه؟!!

ولا نتصور أن الأرض كسرت كسرًا، حتى يلتقي هذا بهذا - أيضًا - ، فقدرة الله - سبحانه وتعالى - لا يمكن للإنسان أن يتصورها، تأتي فوق التصور، في كتاب الله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣،١٤] هم: تبلغ الخلائق كلهم على وجه الأرض كيف تتصور هذا؟ لا تستطيع التصور، يعني لو كانت الأرض تتشقق، وتتفتح، فالمهم أن هذا نموذج من صفات الله - سبحانه وتعالى - يعجز العقل مهما بلغ عن إدراك كُنْه قدرة الله، وكذلك بقية صفاته فأنت إنسان علمك محدود، وطاقتك محدودة، ولا يمكن أن تتجاوز أكثر مما تشاهد، أو ما أطلعك الله عليه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** فضل الله - سبحانه وتعالى - على سليمان حيث سخر له أهل العلم والجن، الجن في الأول، وصاحب العلم في الثاني، وهل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ مبالغة، أم حقيقة؟

حقيقة، وإلا لقلنا: أنه يجوز المبالغة في الأمور، ولكن على كل حال المبالغة في الأمور قد وردت في غير هذا النص، أن الإنسان يبالغ، وإن كان ليس مقصودًا على سبيل الحقيقة، وقد جاء في القرآن، وفي السنة - أيضًا - المبالغة في الأمور.

٤ - **في هذه الآية من الفوائد:** التحدث بنعمة الله - سبحانه وتعالى - بإضافة النعمة إليه، من قوله: ﴿هذا من فضل ربي﴾، وهذا هو الواجب شرعًا، والمقتضى عقلًا؛ لأن إضافة النعم، إنما تكون إلى مُسدِيها، ومُولِيها.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات التعليل لأحكام الله - سبحانه وتعالى - الكونية كما ثبت ذلك في الأحكام الشرعية، ويُؤخذ من قوله: من اللام للتعليل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾، ففيه دليل على تعليل أحكام الله الكونية، كما أن أحكامه الشرعية كذلك مُعلَّلة، ففيه ردٌّ على الجهمية الذين يقولون: إن فعل الله - سبحانه وتعالى - ليس مُعلَّلًا، ، إنما يفعله لمجرد المشيئة، إذا شاء فعل لحكمة، أو لغيرها.

٦ - **ومن فوائد الآية:** اختبار المرء بما يُظهِر حقيقة أمره، لقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

مسألة: هل يجوز اختبار المرء وإن كان المختبِر يعلم حاله.

الجواب: هذا يُنظر فيه إلى المصلحة، قد، يكون محُرَّمًا، كما لو أردتَ أن تُظهِر ضعفه أمام الناس، وقد يكون، واجبًا، كما لو كان إنسانًا داعيةً إلى ضلالة، وأردتَ أن تختبره ليتبيَّن أمره للناس، وأنت تعرف ما عنده إجابة، لكن تريد أن تُظهِر للناس أمره، فهو بالنسبة لله - سبحانه وتعالى - ممدوحٌ كله؛ لأن الله يعلم المآل، لكن بالنسبة للإنسان فاختباره عما يعلم مآله على حسب المصلحة والفائدة.

وفيه إشكال؛ حيث قد يُقال: أليس الله ـ تعالى ـ يعلم ما يؤول إليه الأمر؟

فالجواب: بلى، إذنْ ما فائدة الاختبار وهو يعلم؟ ليترتَّب الجزاء على ظاهر الحال؛ لأن الله لو جازى الإنسان على ما يعلم من حاله من قبل أن يبلُوَه لكان ذلك ظلمًا له في ظاهر الحال، فإذا ابتلاه فأطاعه، أو عصاه تبيَّن الأمر، فيكون هنا الفائدة عظيمة، وهي ظهور أثر هذا الشيء للناس، وأنه ليس بظلم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا خالف لظهور نعمة الله على العبد العامل إذا أعطاه؛ حيث يشكر الله سعيَه.

الحاصل: أن الابتلاء في مثل هذه الأمور فائدته أن يجري الجزاء على ظاهر الحال، لا على علم الله. مسألة: هل يُؤخذ منه أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؟

الجواب: نعم، يجوز لأنه إذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو أحكم الحاكمين ـ لا يحكم بمجرد العلم حتى تظهر الآثار، فالقاضي من باب أولَى، ولهذا ذكر أهل العلم أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه، لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ»[1]، قد يُقال: إنها تُؤخذ، وقد يُقال: إن هذا توسع في الاستدلال، وأنها لا تؤخذ من هذه الآية.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يُخاطِب نفسَه بما تقتضيه الحال، لقوله: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فإننا ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ هذه العبارة الشديدة من أجل أن يردع نفسه عن ممارسة كفر النعمة.

٨ - ومن فوائد الآية: أن الإنسان الذي يشكر الله لا يُسدي إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفعًا، أو يدفع عنه ضررًا، وإنما هو إذا شكر فإنما يشكر لنفسه، المصلحة لنفسه ليست لله.

٩- ومن فوائد الآية: أن الشاكر يُثاب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، ولم يقل: عن نفسه، فدل ذلك على أن للشاكر ثوابًا يُجازَى به، وهو كذلك.

١٠- ومن فوائد الآية: أن العامل عمله له، وليس لغيره إلا أنه قد يُؤخذ منه مُقاصَّة، كما جاء في الحديث الصحيح في المُفلِس الذي يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته وإلا فثوابه يبقى، لا يمكن أحد أن يعتدي عليه أبدًا، أو يأخذه، فهو مُدَّخر عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ما قال: ومن كفر فإنما يكفر على نفسه، كما قال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن رحمة الله ـ تعالى ـ سبقت غضبه، وإلا في الحقيقة، أن من كفر فعلى نفسه؛ مثلما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، لكن أحيانًا، يكون السياق يقتضي خلاف ذلك، فهنا يقول: من كفر فإنه لا يضر الله شيئًا؛ لأن الله ـ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/ ١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

تعالى ـ غني عنه وعن شكره، وهو مع ذلك كريم، قد يجود على الكافر بالإمهال لعله يشكر، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ نكروه: أي: [غيروه إلى حالٍ تُنكره إذا رأته]، والتنكير يحصل بتغيير أدنى صفة من صفاته، أدنى صفةٍ من صفاته يحصل به التنكير:

إذا كان له قوائم طويلة يمكن أن يقصر تلك القوائم، إذا كان لونه أحمر مثلاً يجعله أخضر، يعني سواء أكان هذا التنكير بالأشياء، أم باللون، أم بالفرش هذا داخلٌ في التنكير.

وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ننظر: ما الذي جزم هذا الفعل؟

نكروا فعل أمر، ننظر: مجزوم بجواب الأمر ﴿نَكِّرُوا﴾ لم يوجه الخطاب لشخص معين يدل على أن كل جنوده بطاعته؛ لأنه لو كان يخشى أن أحدًا من جنوده يتمرد لكان وجه الخطاب إلى شخصٍ معين لأجل أن يخرجه فلا يستطيع أن يقول: لا، وهكذا عظمة السلطان تكون في مثل هذا.

وقوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ نقول هذه ـ أيضًا ـ خطاب عظمة، ولهذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ إما يقصد نفسه تعظيمًا، أو مع جنوده، وحاشيته ينظرون جميعًا ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وهذا كله ـ أيضًا ـ من أساليب الاختبار الذي يستخدمه سليمان لهذه المرأة، كما اختبرها ـ أيضًا ـ فيما يأتي في مسألة الصرح.

الفوائد:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** امتحان الغير بما يُعرف به ذكاؤه، وفطنتُه؛ لقوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقد سبق أن المراد بتنكيره تغييره، والعلة في ذلك قوله: ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، قوله تعالى: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ أتعرف أم تكون من الذين لا يعرفون، وكيف تعرف، أو لا تعرف؟

لأنه لو بقي العرش على ما هو عليه لعرفته، ولو غُيِّر نهائيًا لكان لها العُذر في ألَّا تعرفه، ولكنه إذا غُيِّرت صفتُه، وبقي أصلُه، حينئذٍ يُعرَف به ذكاؤها؛ أي: تعرفه، والمقام في الحقيقة هنا مقام مدهش، ليس مقامًا عاديًّا طبيعيًّا؛ لأنها هي سوف تستبعد أن يؤتى بعرشها، وهو محفوظ في مكانه، ثم يؤتى

به إلى سليمان. ثم - أيضًا - لعلها حسب الطبيعة، والعادة تستبعد جدًا أن يسبقها العرش مع أن الظاهر أنها أتت إلى سليمان بأسرع ما يمكن من السير، فعلى كل حال هذا التنكير سوف يدل على دهائها، وعقلها.

وقوله: ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ مثل قوله للهدهد: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ما قال: أم لا تهتدي، بل قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أنها إذا كانت تعرف عرشها مع تغييره؛ فستعرف أن الذي يستحق العبادة هو الله؛ لأنها هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله - كما مرَّ -، فإذا كانت هي تعرف عرشها مع تنكيره، فإنه لا شك أن معرفتها بأن الله - تعالى - هو المستحق للعبادة من باب أولَى.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٢-٤٤]

التفسير

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يعني: إلى سليمان، ونظرت إلى العرش، قيل: لها: أهكذا عرشُكِ؟ والقائل: إما سليمان أو أحد جنوده، ولم يُبيِّن؛ لأن المقصود معنى هذا القول دون قائله.

وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الاستفهام هنا على حقيقته، والمراد به الاستخبار، والهاء للتنبيه، والكاف حرف جر حالَت بين هاء التنبيه، واسم الإشارة، مع أن هاء التنبيه تقترن باسم الإشارة، لكن الكاف تحول بينها وبين اسم الإشارة لمباشرة حرف الجر للمجرور، ولكن - أيضًا - هو خاصٌّ بالكاف، لو أنك أتيت بحرف جر سوى الكاف ما جاز أن تفصل بينه وبين اسم الإشارة، لو قلت مثلًا: أهلذا حضرتَ؟ يعني: ما يُفصَل بين اسم الإشارة وبين هاء التنبيه بأي حرف من حروف الجر إلا بالكاف فقط، إذنْ نقول: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الجار والمجرور خبر مُقدَّم، وعرشك مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر هنا واجب، لأجل الاستفهام؛ لأن له الصدارة، وهنا ما قالوا: أهذا عرشك؟، بل قالوا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؛ يعني: هل عرشكِ مثل هذا؟ هي أجابت بمثل ما سُئِلت عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وكأن للتشبيه، ولم تقل: إنه هو، ولم تنفِ، السبب: أنه مُشابِهٌ لعرشها من حيث

الأصل، ومُخالفٌ له من حيث الصفة؛ لأنه غُيِّر، وهذا ـ أيضًا ـ من ذكائها أنها لما وقع في نفسها أنه عرشها التي تغيَّرت صفته قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، والجواب مُطابقٌ للسؤال.

والمؤلف سلك في ذلك مسلكًا غريبًا، قال: [أي: فعرفته، وشبَّهَت عليهم، كما شبَّهوا عليها؛ إذ لم يقل: أهذا عرشكِ، ولو قيل هذا لقالت: نعم].

إنما جوابها مُطابق للسؤال، ومطابق لمقتضى الحال، أما مطابقته للسؤال؛ فلأنه سألها: ﴿أَهَٰكَذَا﴾؛ يعني: أهو مثل هذا، فكان الجواب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وأما مطابقته لُمقتضى الحال؛ فلأن المرأة قد رأت أن العرش قد غُيِّر، فلم تجزم بنفيه، أو ولم تجزم بإثباته، إن نُظِر إلى أصل العرش، فهو هو، وإن نُظِر إلى صفته فليس إياه، لذلك كان جوابها جيِّدًا جدًّا، وليس فيه تشبيه، كما قال المؤلف.

ولو قالوا: أهذا عرشُكِ؟ ما ندري هل تقول: : نعم، أو تقول: : كأنه هو، وجزم المؤلف بأنها تقول: ليس بصحيح؛ لأن المرأة ذكية جدًّا، والإنسان إذا حصل له مثل هذه الحال هل يجزم بأن ما شاهَدَه هو ما كان يعرفه من قبل؟ ما يجزم، بل إن مُقتضى الجزم والتحرُّز أن يقول: كأنه هو، لاسيَّما مع القرائن التي تُبعِد أن يكون إياه، كما في هذه القصة، فإنه عرشٌ محروسٌ من مكان بعيد، فيبعُد أن يمثل أمامها في هذه الحال، المهم أننا نأخذ من جوابها هذا ذكاءها من وجهين:

أولًا: أنها أجابت بجوابٍ مُطابقٍ للسؤال.

وثانيًا: أنها أجابت بجواب مُطابق لُمقتضى الحال؛ أي: لا يمكن؛ إذ الجزم بهذا تسرُّع، ونفيُه تباطؤ ـ أيضًا ـ، لاحتمال أن يكون إياه، ﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

[قال سليمان لما رأى لها معرفة، وعلمًا]: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾، ووجه ارتباط هذه الجملة بما سبق أنه أراد أن يتحدث سليمان بما أنعم الله به عليه من العلم، العلم يشمل العلم الشرعي، ويشمل العلم بقواعد الملك ومُثبِّتاته، وما أشبه ذلك؛ يعني: كأن الملأ من قومه لما رأوا ما رأوا من ذكائها، ومعرفتها، وتحرُّزها، وتثبُّتها، رأوا أنها عليمة، فأراد سليمان أن يُذكِّرهم بما هو أعظم من ذلك، وهو ما آتاهم الله ـ تعالى ـ من العلم السابق، والإسلام ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾.

ويرى بعض المُفسِّرين أن قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ من قول المرأة؛ يعني: وأوتينا العلم، والمسألة متصلة، يقول: ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾ أي: من قبل هذه القضية؛ أي: أننا عندنا علمٌ من قبل هذه القضية فلا تعجَّبوا من علمنا بهذا، فإن لنا علمًا سابقًا، ولكن هذا الاحتمال، وإن ذُكِر ضعيف، والصواب: أن هذا من قول سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحدث بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه، وعلى قومه السابق لمعرفة هذه المرأة.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ قال المؤلف: [عن عبادة الله ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾].

إذنْ ﴿مَا﴾ إعرابها أنها فاعل؛ يعني: صدَّها الذي كانت تعبد من دون الله، ويحتمل أن تكون

﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: وصدَّها كونها تعبد من دون الله، لكنه وإن كان سائغًا لغةً، لكنه ليس له محل هنا، فـ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ ما هو الذي كانت تعبده من دون الله؟ الشمس، والعائد على ﴿مَا﴾ المنقولة محذوف، التقدير: ما كانت تعبده من دون الله، وصدَّ بمعنى: صرف، ومناسبة هذا لما سبق أنه قال: إذا كانت هذه المرأة بهذا الذكاء، وهذه المعرفة، فلماذا لم تعبد الله؟ مع ظهور أن العبادة لله وحده. بيَّن أن الذي صدَّها عن عبادة الله أنها اشتغلت من أول أمرها بعبادة غير الله، وأنها كانت من قوم كافرين، فنشأت في بيئة كافرة، واشتغلت بعبادة المخلوق عن عبادة الخالق، فكأن هذه المرأة مع كونها ذكية، وفاهمة، وعندها احتراز وتحفُّز كأنها مع ذلك، إنما عدلت عن عبادة الله مع ظهورها ووضوحها بسبب انشغالها بالباطل، والنفس لابد أن تكون مشغولة إما بالحق، وإما بالباطل.

وهنا نقول: ما مناسبة قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ أنه كالجواب عن سؤال مُقدَّر، وهو: لماذا لم تعبد الله؟ فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، فقد نشأت من أول أمرها في بيئة كافرة، وقد أخبر النبي ﷺ أن كل مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه(١).

وقيل: إن (صدها) الفاعل يعود على سليمان، أي أن سليمان منع ما كانت تعبد من دون الله؛ أي: منعها عما كانت تعبد من دون الله بسبب ما رأت من الملك العظيم الذي لسليمان - عليه السلام -، ولكن الأول أولَى بالسياق، أن ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعل، ولكن لا بأس من هذا الاحتمال؛ لأنه يمكن عند التأمل أن يكون هذا الاحتمال صحيح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ يعني: بيئتها منذ نشأت، وهم كافرون بالله - سبحانه وتعالى - يعبدون الشمس، فلهذا اشتغلت بعبادة غير الله عن عبادة الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿قِيلَ لَهَا﴾ أيضًا ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، والقائل، كما قلنا: مُبهم، إما سليمان، أو غيره. وهذا الصرح يقول عنه المؤلف: [هو صرحٌ من زجاج أبيض شفاف، تحته ماء عذبٌ جارٍ فيه سمك، اصطنعه سليمان لما قيل: له: إن ساقيها، وقدميها كقدمَي الحمار].

أما قوله: [صرحٌ من زجاج أبيض] هذا صحيح، والأصل في الصرح: أنه البناء العالي، كما قال فرعون لهامان: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[غافر: ٣٦]، ولكنه يُطلق على الصرح، وإن لم يكن عاليًا، وهذا عبارة عن صرح من زجاج، وتحته ماء يقول: المؤلف: [إنه جارٍ]، وأخذ كونه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٢/ ٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جاريًا من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ لأن اللُّجَّة هي أمواج البحر المُتردِّدة؛ لأن كل شيءٍ مُتردِّد يُسمَّى لجَّة، ومنه اللَّجَّة تردُّد الأصوات، وارتفاعها، فالظاهر أن المؤلف أخذ الجريان، وأن ما في الآية ما يدل على أنه جرَيَان، أخذه من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾.

وقوله: [فيه سمك] هذا ليس بشرط؛ لأن اللُّجَّة قد تكون فيها سمك، وقد لا تكون، وقد يكون فيها سمك بعيد لا يُرى.

وكذلك ـ أيضًا ـ قوله: [ماء عذب] ما في دليل على أنه ماء عذب، ولا مالح، المهم أنه ماء.

حتى لو قال قائل: إن الزجاج هذا يُعطي كأنه ماء بسبب مثلًا أضلاع فيه أو شيء لو قيل بهذا لم يكن بعيدًا؛ لأنه لا يتعيَّن أن يكون تحته ماء.

وأما قوله: [لما قيل: له إن ساقيها، وقدميها كقدمَي الحمار] يقولون: إن الجن لما أن سليمان أعجبته هذه المرأة همَّ أن يتزوَّجها، فحسدوها على ذلك، فقالوا له: إن قدمَيْها وساقيها قدما دابة وساقا دابة، لأنه أقبح، وهذا ليس بصحيح، وإنما المقصود من هذا الصرح اختبار المرأة ـ أيضًا ـ؛ لأنه لما قيل: ﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ هي في الحقيقة كانت تحسبه لجَّة، إذا كانت خائفة لا تدخل أصلًا، وإذا كانت مُغفَّلة دخلت وثيابها نازلة، وإذا كانت حازمة وشجاعة دخلت، ورفعت عن ساقيها، ثم هي ـ أيضًا ـ من ذكائها أنها تعلم أنها ما أُكرِمت، وقيل لها: (ادخُلي الصرح)، فتُدخَل في بحرٍ لُجِّيٍّ يغرقها، فعلِمَت أن هذا البحر غاية ما فيه أن يصِل إلى ركبتها، أو نحو ذلك؛ لأنه لا يمكن أن يكون بحرًا لُجِّيًّا عميقًا؛ لأنها قيل لها على سبيل الإكرام: ادخلي الصرح، المهم أن هذا ـ أيضًا ـ اختبار ثانٍ لذكائها، وحزمها، وشجاعتها، أما القول بأن قدميها كقدمي حمار وساقيها كساقي حمار فهذا كذب بلا شك، والأصل أنها امرأة مثل أي امرأة من بنات آدم وليس بها شيء من هذا.

[قال: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً﴾ من الماء] ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾، وهذا لا شك أنه يدل على حزمها، وقوتها، وشجاعتها؛ لأن الإنسان الغريب إذا حصل له مثل هذا الأمر قد لا يتوقع، ويقول في نفسه: ما أدري إن كانوا يخدعونني، يجعلوني أدخل في هذا، وأموت، لكنها كانت قوية، وحازمة ـ أيضًا ـ، أقدمت على الدخول، لكن مع الاحتراز عن الأذية؛ حيث رفعت عن ساقيها، والرفع عن الساقين هل يُؤخذ منه جواز إظهار المرأة لساقيها؟

نقول: أولًا: لا يُؤخذ منه ذلك؛ لأنه هنا فعَلَته للحاجة، وكشف المرأة ساقيها للحاجة لا بأس به، حتى في شريعتنا إذا احتاجت المرأة إلى كشف ساقيها في مثل هذه الحال فلا حرج فيه؛ لأن ما حُرِّم تحريم الوسائل تُبيحه الحاجات، كما هو مقرر في علم الأصول، ولهذا يجوز النظر إلى العورة لأجل حاجة، حتى إنهم قالوا: يجوز أن يحلق عانة من لا يُحسِن حلق عانته، فهذا بالضرورة سوف يكشفها.

فالحاصل إننا نقول: إن كانت شريعة سليمان تُبيح مثل ذلك فلا غرابة فيه، وإذا كانت لا تُبيحه

فإنه - أيضًا - لا يُخالف شريعتنا؛ لأن الحاجة هنا تدعو إليه.

[قوله تعالى: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وكان سليمان على سريره في صدر الصرح، فرأى ساقيها، وقدميها حِسانًا]، فاطمأن.

﴿قَالَ﴾ [لها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُملّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج] هذه الجملة - أيضًا - تفيد أنه قُصِد به مع اختبارها، وامتحانها إظهار عظمة مُلك سليمان؛ مثل ما قصد بإحضار العرش هذا المقصد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فتبيَّن بذلك أمران:

أحدهما: عظمة ملك سليمان؛ حيث إن الزجاج يُصنع له حتى يكون كالبحر اللُّجِّي.

وثانيًا: الإشارة إلى أن هذه المرأة، وإن كانت عاقلة، وحازمة، وذكية فإنه يخفى عليها الأمر؛ لأنها حسِبَت أن هذا الزجاج لجّة من الماء مع أنه ليس كذلك، ففيه نوع من إظهار ضعفها - أيضًا - ؛ حيث إنها ظنَّت الأمر على خلاف ما هو عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ حينئذٍ عرفت مكانتها، وعرفت مكانة سليمان.

وقوله: [دعاها إلى الإسلام] ليس في الآية ما يدل عليه، بل إن الظاهر أنها بما شاهَدَت ألجأها ما شاهدته إلى أن تُسلِم؛ لأنها شاهدت أمورًا منها: إتيان عرشها، ومنها: هذا الصرح العظيم المُمرَّد من قوارير، ومنها - أيضًا - : أن سليمان - عليه السلام - أخبرها بعظمته، وقوته؛ حيث إن هذا صرحٌ مُمرَّد من قوارير، وليس ماءً، حينئذٍ اعترفت فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [بعبادة غيرك]، وعبادة غير الله من أعظم الظلم، قال الله - تعالى - عن لقمان لما قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأن أعظم الظلم أن تتسلط على من حقه أبين وأوضح، ولا أبين وأوضح من حق الله على العباد، لهذا كان الشرك أظلم الظلم.

عندما تُخاصم إنسانًا، وأنت تعرف أن الحق له لا لك تُعدُّ ظالمًا، عندما يشتبه عليك الأمر؛ بحيث تُرجِّح ثمانين بالمائة أنه له، وعشرين بالمائة أنه لك، يكون هذا الظلم أخف من الأول، عندما يكون خمسين بالمائة لك، وخمسين بالمائة له، يكون أخف من الثاني، عندما تُرجِّح ثلاثين بالمائة، وسبعين بالمائة له، يكون أقرب، وهكذا، فالمهم أن الظلم يكون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحق ودوامه، وأظهر الحقوق، وأعظمها عبادة الله - سبحانه وتعالى - فيكون أعظم الظلم الإشراك مع الله، أن تُشرِك مع الله أحدًا، ولهذا تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ إذنْ النفس عندك أمانة يجب عليك أن تسعى لها بما فيه خيرُها، فأنت يجب أن تسعى لنفسك بما هو خيرٌ لها، وإن تجرَّأتَ على ما ليس لك فقد ظلمتَ نفسك، أو فرَّطت فيما يجب عليك فقد ظلمت نفسك، وإذا كنت لا تستطيع أن تتصرف في بدنك بما تريد؛ فكيف تستطيع أن تتصرف في فعلك بما تريد، فلا يجوز أن تتصرف في أفعالك بما يعود على نفسك بالضرر، فإن فعلت فأنت ظالم.

قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أسلمتُ [كائنة] أفاد المؤلف بتقدير كائنة أن شبه الجملة في قولها: ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ في موضع الحال؛ يعني: أسلمتُ حالة كوني مع سليمان ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هنا تعتبر مسلمة، إذا قال الرجل: أسلمتُ، لو قال: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فقد أسلم،قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، فإذا عبَّر الإنسان عن العمل بما يدل عليه الفعل حُكِم عليه به، ولهذا لو قال قائلٌ؛ لإنسان: حلفتُ عليك أن تفعل كذا صار يمينًا، هو ما قال: والله، قال: حلفتُ أن أفعل كذا، صار يمينًا، وإن لم يقل: بالله؛ لأن هذا هو الفعل، إذا قال: أسلمتُ صار إسلامًا، وإن لم يقل: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيه أنها أسلَمَت مع سليمان إسلامًا كاملًا؛ حيث أقرَّت بألوهية الله بقولها: ﴿لِلَّهِ﴾، وبربوبيته العامة في قولها: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قال المؤلف: [وأراد تزوجها فكره شعر ساقيها فعملت له الشياطين النورة فأزالته بها]، والنورة تُزيل الشعر، ويُقال: أول من عُمِلَت له النورة بلقيس بأمر سليمان؛ حيث إن الشياطين عمِلَتها له، كل هذا كذب، ويجب أن يُنزَّه كلام الله عن مثل هذه الأشياء، وموقفنا مع مثل هؤلاء العلماء: أن نسأل الله لهم العفو وأننا نخالفهم؛ لأن كونهم يضعون في كلام الله مثل هذه الأمور هذا من الأشياء التي ينتقص بها الإنسان كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وأكثر ما وردت هذه الأخبار، كما قال ابن كثير في هذا الموضع عن رجلين، وهما كعب الأحبار، ووهب بن مُنبِّه، فإنهما أرسلا كثيرًا من الإسرائيليات في كلام الله، وغيره.

قال المؤلف: [فتزوَّجها، وأحبَّها، وأقرَّها على مُلكِها، وكان يزورها في كل شهر مرة، ويُقيمُ عندها ثلاثة أيام، وانقضى مُلكُها بانقضاء مُلكِ سليمان، رُوِيَ أنَّه مَلَكَ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾:

١ ـ **يُستفاد منها:** التورية في الكلام، وهو أن يُظهِر الإنسان شيئًا غير ما يُريد، فإن قوله: ﴿أَهَـٰكَذَا﴾ تورية؛ لأن حقيقة الأمر أن العرش الذي بين أيديهم هو عرشها، فكان مُقتضى الحال أن يقولوا: أهذا عرشُكِ؟ لكن أتوا بصيغة تورية لإبعاد الأمر؛ لأن كونه عرشها قد تتسرَّع، وتقول: لا؛ لأنها تستبعد أن يكون حضر في هذه المدة، وعليه الحرس، وعليه المغاليق، فقيل لها: أهكذا عرشُكِ، وقوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الجواب ينبغي أن يكون مطابقًا للسؤال؛ لأنها قالت: كأنه هو للتشبيه، ولم تقل: هو.

٣ - **ومن فوائد الآية**: ذكاء هذه المرأة لاحترازها مما يُخشى أن يكون مُستبعدًا؛ لأنها لو قالت: لا، فقد يكون هو، ولو قالت: نعم، فقد يكون غيره، فقالت: كأنه هو، فاختارت هذا للسببين اللذين ذكرناهما في التفسير.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يتحدث بنعمة الله عليه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾؛ لأن الصحيح أن هذه الجملة من كلام سليمان، وإن كان بعضهم ذكر احتمال أنه من كلامها، لكن الصحيح أنه من كلام سليمان.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان لابد أن يُشغل نفسه، فلابد أن تكون النفس مشغولة إما بحق، وإما بباطل، فهذه المرأة اشتغلت بالباطل عن الحق، وقد قيل: من الحِكْمة إن لم تشغل نفسك بالحق شغلَتك بالباطل، وقيل - أيضًا -: (الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطَعَك)، وهذا صحيح، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ حَارِثٌ، وكُلُّكُمْ هَمَّامٌ»[1]، فلابد للإنسان أن يهم ويعمل، إما بخير، أو بغيره فمن الحكمة أن تشغل نفسك بالحق.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن البيئة لها تأثير، لقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، فهؤلاء القوم أثَّروا عليها، فصارت كافرة تعبد مع الله غيرَه.

٣ - **ومن فوائد الآية**: التحذير من مُصاحبة الأشرار؛ لقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، حتى لو كانوا من أقاربك فلا ينبغي أن تُصاحبهم، وإذا كان لهم حق عليك بالقرابة فأعطِهم حقَّهم الذي لهم، ولكن لا تكن مُخالِطًا لهم مُصاحبًا لهم؛ لأن النبي ﷺ قال فيما رُوي عنه، وهو حديث حسن: «المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[2]، وهذا واقع يشهد له التاريخ السابق والحديث.

ثم قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: عظمة ملك سليمان، وتسخير الله له، ففي ذلك الوقت حسب علمنا ليس هناك أفران تصهر الزجاج، ويفعل بها الإنسان ما يشاء، ولكن لا شك أن الزجاج موجود، قد يكون مُستخرجًا من البحر وقد تكون الشياطين قد صنعته، وقد يكون هناك مصاهر وأفران حسب حالهم، ولهذا قال الله عن الشياطين: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

فالحاصل: أننا نقول: إن هذا دليل على عظمة مُلك سليمان؛ حيث سُخِّر له الجن والإنس

---

(١) هذا ليس حديثًا أصلًا ولعل الشيخ وهم في ذلك «انظر المصنوع» ص (١٣٩) و«أسنى المطالب» ص (٢٠٠) و«المقاصد الحسنة» ص (٥١٠).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

يعملون له ما يشاء.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: جواز اختبار المرء كما سبق، وهذه القصة فيها عدة اختبارات؛ لقوله: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾، ليُرى هل تهاب فلا تدخل، أو تُغامر فتدخل بدون تحرُّز، أم ماذا تفعل؟ فالمرأة بذكائها دخلت، ولكن مع التحفُّظ والاحتراز كشفت عن ساقيها، أو رفعت عن ثوبها حتى بان الساقان.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المرأة من قديم الزمان سيمتها التستُّر؛ لأن قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، دليل على أن الأصل أنها مستورة، وهو كذلك، بخلاف الرجل، فإن أُزرة المؤمن فوق نصف ساقه، الآن أصبح الأمر بالعكس، فأصبح الرجال ثيابهم مُسبَلة، والنساء ثيابهن قصيرة، وهذا خلاف الفطرة التي فطر الله عليها الخلقَ

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الرؤية قد تكذب، وأن ما يُدرَك بالحواس ليس على الأمر الواقع مائة بالمائة؛ لقوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، فإن هذا، صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير، وتنظر إليه نظر العين، ومع ذلك تحسبه لُجَّة، فدلَّ هذا على أن ما يُدرَك بالحواس قد يقع فيه الخطأ، قد يرى الإنسان الساكن مُتحرِّكًا، والمُتحرِّك ساكنًا، والأبيض أَسْوَد، والرجل امرأةً، بل قد يتخيَّل له في بصره شيء، وليس له حقيقة، وكذلك بالنسبة للسمع، وبهذا نعلم أن الشهادات، ورواية الأخبار، وغيرها كلها، يمكن أن يقع فيها الخطأ، وليست معصومة مائة بالمائة، ولكن لا شك أنه كلما تواردت الأخبار، وتكاثَرَت فإنه تدل على أن الأمر متأكِّد، ولكن نفي احتمال الخطأ مهما بلغ الرائي أو السامع من القوة والأمانة، فإن الخطأ عُرْضة فيما رأى، أو فيما سمع، أو في اللمس، الآن تلمس الشيء فتظنه لينًا أو أملس وهو بالعكس، الرجل الفلاح يلمس الشيء الخشن فيظنه أملس وهكذا، فالحاصل: أن الخطأ قد يقع أيضًا في الأمور الحسية، فما بالك بالأمور العقلية؟! فهي من باب أولى وأعظم؛ وبهذا نعرف ضعف الإنسان، وأنه بحاجة ماسَّة إلى علم الشرع، والوحي مهما بلغ فإنه بحاجة إلى هذا الأمر.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي تأكيد الكلام في موضعه، ما قال: هذا صرح، قال: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ﴾، وإن للتوكيد، والتوكيد هنا في محله؛ لأنها هي، وإن لم تكن مُنكِرة، لكن حالها حال المُنكِر؛ حيث ظنَّته لُجَّة، وكشفت عن ساقيها.

٦ ـ وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ فيه دليل على: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد يهَب المرء ما يُوجِبُ له أن يُسلِم، بل قد يُيسِّر له الأسباب التي تُوجِب إسلامه بكل فروعه، هذه المرأة حسب القصة ما وجدنا أنها دُعِيَت، وأُكِّد عليها، وبُيِّن لها الخطأ إلا في قوله في أول القصة: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[النمل: ٣١]، لكن لما شاهدت ما شاهدت من عظمة ملك سليمان، وقوته عرفت أنها لابد أن تُسلِم، وهكذا إذا يسَّر الله ـ تعالى ـ للعبد هذه الهداية، فإن الأمر، يكون

عليه يسيرًا، وإذا لم تُيسَّر له أصبح كل مانع يمنعه من الهداية، وإن لم يكن مانعًا قويًّا.

٧ - ومن فوائد الآية: أن المرأة آمنت بسليمان، لم تُسلِم إسلامًا مطلقًا؛ لأنها قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾، فدلَّ هذا على أنها آمنت به؛ لأن مع للمُصاحبة، فكانت من أصحابه المؤمنين به.

٨ - وفي هذا دليل على: أن المعاصي هي ظلمٌ للنفس، وسبق وجه ذلك، وأن الإنسان مؤتمن على نفسه من حيث السلوك، مؤتمن على نفسه من حيث التصرف في ماله، مؤتمن على نفسه من حيث التصرف في بدنه، ولهذا نُهِي عن إضاعة المال، ونُهِي عن قتل النفس،قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]، وأُمِر بالدواء «تَدَاوَوْا، ولَا تَدَاوَوا بِالحَرَامِ»[(١)]، وأُمِر بالأكل، وبالشرب، وباللباس، وبالوقاية من الحر، وبالوقاية من البرد، كل هذا من أجل حفظ النفس التي هي أمانة عنده، فالإنسان ليس حرًّا يتصرَّف، كما يشاء في بدنه، أو، كما يشاء في سلوكه، أو كما يشاء في ماله، هو مُقيَّد، فالإنسان فيه نفسان وقيل: ثلاثة أنفس: أمارة، ولوامة، ومطمنة، والظاهر نفسان أمارة تأمرة بالخير والشر ومطمنة تأمر تالخير، فيكون الظلم لنفسي المطمنة.

٩ - وفي هذه الآية: إثبات عمومية رب العالمين؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ولا أحد له الربوبية العامة الشاملة سوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الإنسان قد، يكون ربًّا لبيته، وقد، يكون لدابَّته، وقد يكون ربًّا لمملوكه، كما في الحديث الصحيح: «**أَنْ تَلِدُ الأَمَةَ رَبَّتَها، وَأَن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ**».

وتقدَّم لنا في التفسير أن ما ذكره المؤلف من هذه الإسرائيليات أنه لا يجب التصديق به، بل ما كان منها مخالفًا للقرآن، أو لا يليقُ بحال النبي ﷺ، فإنه يجب تكذيبُه، وما كان منها ليس مُخالفًا، ولا مُنافيًا لما يليق بالنبي ﷺ، فإنه لا يُصدَّق، ولا يُكذَّب، ونلاحظه بالتفسير، إلحاقنا إياه بالتفسير يصدَّق.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل: ٤٥ـ٤٦]

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) من حديث أبي الدرداء ﷺ وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

التَفْسِيرُ

تقدَّم أن هذا التعبير أو الجملة فيها ثلاث مُؤكِّدات: القسم، واللام، وقد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، و﴿صَٰلِحًا﴾ عطف بيان له وليس بدلًا، بل عطف بيان أوضح؛ لأنه يُبيِّن المُبهَم في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ثمود هذه قبيلة موجودة في مكان يُسمَّى الآن مدائن صالح، ويُسمَّى الحِجْر، ويُسمَّى ديار ثمود، وهذه القبيلة يسَّر الله ـ تعالى ـ لها من أسباب العمران في السهل، والجبل ما برزت به على غيرها، كما قال لهم نبيهم مُذكِّرًا لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، أرسل الله إليهم صالحًا، وآتاهم بآية عجيبة، وهي ناقة لها شِربٌ، وللقوم شِربٌ؛ يعني: أن هذه البئر التي تشرب منها الناقة، وهي أوسع الآبار، وأغزرها ماءً أُذِن لهم أن يشربوا منها يومًا، وأُمِروا بأن يضعوها يومًا للناقة تشرب منها، وتذهب في اليوم الثاني للرعي، وفي اليوم الذي تشرب منه قيل: إنهم يأتون إليها ومن سقاها دلوًا أعطته دلوًا من اللبن، وهذا من الأمور الإسرائيلية لا تُصدَّق، ولا تُكذَّب، لكنهم مع هذه النعمة العظيمة في هذه الناقة كفروها ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وعقروا هذه الناقة، وكفروا بهذه النعمة العظيمة.

يقول: [﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلة ﴿صَٰلِحًا﴾] لماذا قال من القبيلة؟ احترازًا من الخطأ؛ لأنه ليس أخًا لأحد منهم إلا نفرًا يسيرًا وهم الذين آمنوا معه.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، [أي: بأن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾]، أفادنا المؤلف بأنَّ (أن) هنا مصدرية، ولكن يجوز فيها وجه آخر، أن تكون تفسيرية؛ لأن ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ يتضمَّن أوحينا، والوحي فيه معنى القول دون حروفه، وهذا هو دلالة (أن) التفسيرية يسبقها فعل فيه معنى القول دون حروفه، إذا قلنا: إنها تفسيرية ما صحَّ أن نُقدِّر الباء؛ أي: بأن، بل نُقدِّر أن؛ بمعنى: أي، أن: اعبدوا الله؛ يعني: أوحينا إليه أن اعبدوا الله.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال: [وحِّدوه]، وهذا مأخوذ من تفسير ابن عباس - فيما أظن - لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] قال: ليُوحِّدونِ، فجعل العبادة هي التوحيد، ولكن الصحيح أن العبادة هي التذلُّل لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالطاعة؛ لأن هذه المادة (العين، والباء، والدال) تدل على الذل، ومنه قولهم: طريق مُعبَّد؛ أي: مُذلَّل لسالكيه، فعبادة الله معناها: الذل له بالطاعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرف عطف، وإذا فُجائية؛ يعني: ما الذي حصل بعد إرساله؟ المُفاجأة في التفرُّق.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، قال المؤلف: [في الدين، فريقٌ مؤمنون من حين

إرساله إليهم، وفريقٌ كافرون] فانقسم قومه إلى قسمين: قسم آمنوا به، وقسم آخر كفروا به، من الذين آمنوا به؟ المُستضعفون، كما قال الله - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]، ما قالوا: أتؤمنون به؟ بل ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فماذا قال هؤلاء؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٧٥]؛ يعني: لسنا نعلم فقط، بل نعلم ونُؤمن، قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الأعراف:٧٦] ما قالوا: إنا به كافرون؛ لإظهار المُضادة لهم، والمُعاندة والاستنكار، وقولهم هذا أبلغ في المعاندة والمضادة، كأنهم يقولون: أنتم الذين تؤمنون به هذا نكفر به.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: يجري بينهم خصام، وهذا الخِصام الذي جرى بين قوم صالح جرى - أيضًا - في قوم الرسول ﷺ، ولابد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان: ٣١]، فلابد من هذا، ولا يمكن أن يتمحَّص الحق إلا بظهور العدو؛ لأن العدو يُورِد، والوحي يُجيب، حتى يتمحَّص الحق بينًا ظاهرًا حتى في الانتصار، وفي الخذلان، فالله - تبارك وتعالى - ذكر من فوائد الخذلان في أُحُد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤١]، فلا يتبيَّن الحق تمامًا إلا بظهور عدو له يُناقضه، ويُعاديه، حتى يظهر الحق على الباطل.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قوله: [للمكذِّبين]﴿قَالَ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [أي: بالعذاب قبل الرحمة؛ حيث قلتم: إن كان ما آتيتنا به حقًّا فأتنا بالعذاب].

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، والتعجُّب؛ يعني أنه يُوبِّخهم، ويُنكِر عليهم هذا الأمر، ويتعجَّب من حالهم؛ لأن حال العاقل أن يستعجل بالحسنة قبل السيئة، لا أن يستعجل بالسيئة قبل الحسنة، لكن السفيه - والعياذ بالله - سفيه؛ مثلما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قالوا: إن هذا هو الحق فاهدنا إليه، وهذا - نسأل الله العافية - في غاية ما يكون من الاستكبار، فهؤلاء يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ويقولون: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وهذا التحدِّي من أعداء الرسل للرسل يدل على تماديهم في العناد، وأنهم غير مؤمنين، ولكن ذلك لا يُجابُون إليه، وإن كان في ذلك نصر للرسول، لكنهم لا يُجابون إلى ذلك؛ لأنهم إذا أُجِيبوا إليه صار معناه: أنهم يُجابون على اقتراحاتهم؛ مثلما قالوا لما أخبرهم عن

حتمية البعث: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الجاثية: ٢٥]، فيُقال لهم: إن الرسل ما قالوا لكم: إنكم تُبعثون الآن، بل تُبعثون يوم القيامة، لو قالوا: تُبعثون الآن فنقول: نعم، يأتون بآبائكم، لكنهم قالوا: تُبعثون يوم القيامة، وانتظروا يوم القيامة، وستجدون آباءكم.

يقول الله -عَزَّ وجَلَّ- على لسان صالح: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾، قال: [من الشرك]، ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا، وهذا من معانيه، ومن معاني (لولا) أيضًا: أن تكون للتحضيض، وهي حرف امتناع لوجود ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾[الحج: ٤٠] ما الذي يمتنع؟ تهديم الصوامع، وذلك لوجود دفع الله -سبحانه وتعالى- الناس بعضهم ببعض.

ما الذي يُعيِّن هذا المعنى من هذا المعنى؟ السياق، وبهذا وبكثير من أمثاله يتبيَّن أن الكلمات ليس لها معنى ذاتي؛ بمعنى: أنها خُلِقت له، وإنما هي قوالب، وسياق للمعنى الذي يدل عليه السياق، فأي ثوبٍ تُركِّبه معنى السياق، فهو هو، وبهذا التقرير -أيضًا- يتبيَّن أن ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من أنه لا مجاز في اللغة العربية أمر صحيح، وأن كل كلمة تُستخدم في مقامها فهي حقيقة فيه، وكل ما تُعرف بهذا اللفظ إلا لذاك المعنى الذي وضعت فيه لا يدل على أن ذاك هو معناها الذاتي؛ لأننا نقول: ليس للكلمات معنىً ذاتي(١).

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

١- **يُستفاد منه:** أنه ينبغي، أو يجب أحيانًا تأكيد الأخبار المهمة؛ ليكون المُخاطَب على يقين منها، ولا تقل: أنا لست مهزومًا، ولا يهمني أن أُصدَّق، أو أُكذَّب، بل إن مُقتضى النصح أن تُؤكِّد ما ينبغي تأكيد للمُخاطَب.

٢- **ومن فوائد الآية:** دليل على أن الرسل السابقين رسالتهم خاصة وليست عامة، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ﴾، ما قال: إلى الناس عامة، وهذا ثبت به الحديث عن النبي ﷺ بقوله: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(٢).

٣- **ومن فوائد الآية:** أنه يصح إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبية بين المسلم، والكافر، فلا يُقال: إذا انتفت الأُخُوَّة الإيمانية انتفت الأُخُوَّة النَّسَبية، بل كل منهما إذا انتفى يبقى الآخر، لقوله: ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

---

(١) بقية تفسير الآية غير واضح سماعًا.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الذي أُرسِلَت به الرسل هو ما خُلِق له البشر، بل الجن والإنس، وهو عبادة الله؛ لقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: انقسام الناس إلى فريقين في مواجهة الرسل؛ مؤمن، وكافر، وهذا لتحقيق الحكمة الابتدائية، والغائية في خلق الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، هذه الحكمة الابتدائية بالخلق منذ خلق ـ أيضًا ـ لتتم الحكمة الغائية أن الله ـ تعالى ـ خلق الجنة، والنار، وخلق لكل منهما أهلًا، فلو كان كل الناس مؤمنين لم يكن لخلق النار فائدة، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هذا ابتداء ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] هذا الغاية؛ إذ لو لم يكن مؤمنٌ، وكافرٌ لم تتم غاية الله في نار جهنم، وذلك في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: وقوع الخِصام بين المؤمنين، والكافرين، وأنه أمرٌ لابد منه.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]

❁ التفسير ❁

لما حثَّهم على الاستغفار، وبيَّن لهم نتائجه، كان جوابهم: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ يعني: أنت ما أتيت لنا بفائدة، بل صرتَ شُؤمًا علينا أنت، وأتباعك، وهذا حال الذين يتطيَّرون بأهل الخير، والله ـ تبارك وتعالى ـ قد يفتِن الناس، فقد يقع مثلًا مع مجيء الخير، بعض الآفات أو بعض الأشياء المكروهة لدى الناس ليكون ذلك فتنة، وابتلاء، فربما مثلًا يحل رجلٌ من أهل العلم، والعبادة في بيت، ثم يحترق هذا البيت ابتلاءً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وامتحانًا، فأهل الشر يفرحون، ويكرهون، يقولون: انظروا الأسباب، احترق البيت لما جاء هذا الرجل، والله ـ تعالى ـ قد يفتن الناس ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وهؤلاء يقولون: إنه بمجيء صالح، ومعصية قومه عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالقحط، والجَدْب، وغور المياه، فقالوا: أنت يا صالح، ومن معك ما جئتنا بخير، ما جئتنا إلا بالقحط، والجدب، وغور المياه، فتطيَّروا به، وقالوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [أصله: تطيَّرنا، وأُدغِمت التاء في الطاء]، وهذا

الإدغام على خلاف القاعدة؛ إذ إن الإدغام يقع بين ساكن، ومتحرك، ولكنه هنا وقع بين متحرِّكَيْن، ولما أُدغِمت التاء في الطاء صار الحرف الأول منهما ساكنًا، وبعد الإدغام قُلِبَت التاء طاءً، والساكن لا يمكن الابتداء به، فاجتُلِبت الهمزة لتسهيل النطق به، ولهذا قال المؤلف: : [واجتُلِبَت همزة الوصل] لتسهيل النطق بالساكن.

ومعنى: ﴿أَطَّيَّرْنَا﴾ [أي: تشاءمنا]، من الشؤم، والشؤم معناه: توقُّع الشر من مُشاهَد، أو مسموع، أو زمن، أو مكان، أو حال، ولهذا قالوا: إن التطيُّر مأخوذ من الطير، وكانوا في الجاهلية يتشاءمون بالطيور حيث يبعثونها، وعندهم قواعد لهذا التشاؤم، إذا ذهبت يمينًا يتفاءلون، أو يسارًا يتشاءمون، أو أمامًا يُعيدون البعث مرة أخرى، وخلفًا يتشاءمون، فعندهم لذلك قواعد، فلذلك سُمِّي هذا التشاؤم تطيُّرًا فهو مأخوذ من الطير؛ لأن غالب تشاؤم العرب به.

فهم يقولون: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا، وكان مجيئك شؤمًا علينا أنت، وأتباعك.

إذن التطيُّر هو التشاؤم بمرئي أو مسموع، أو زمان، أو مكان، أو حال بمرئي يرى الإنسان شيئًا فيتشاءم، مثلًا أراد أن يسافر فقابله إنسان يكرهه، فقال: رجعني، هذا المرئي، أو همَّ أن يسافر فلما خرج سمع قائلًا يقول: مات فلان بن فلان قال: رجعني، هذا المسموع، أو زمان أي يتشاءم بيوم من الأيام، أو أسبوع أو شهر من الشهور، والعرب كانوا يتشائمون من شهر شوَّال في الزواجات، لكن عائشة أبطلت ذلك بالواقع وقالت: إن الرسول ﷺ تزوجها في شوَّال وبنى بها في شوال، فأيكم أو أيكن كان أحظى عند رسول الله ﷺ، إذن إذا أردنا أن نبطل التشاؤم ونعمل التفاؤل هو أن نتفاءل بشهر شوال، ولكن مع ذلك لا نتفاءل بشوال ولا نتطيَّرُ به، فالخير والشر بيد الله - سبحانه وتعالى -، ومنه التطيُّر بالمكان، مثلًا يأتي إنسان إلى هذا المكان فيتشاءم منه أو يتشاءم بالحال، حال الشخص مثلًا، وهذا أيضًا ما لا يجوز، قد يعمل الإنسان عملًا يعاكسه في أوَّل أمره، أو يهم أن يفعل شيئًا غدًا ولا يجد فيه رغبةً ويجد بعض التعب والعجز فيتشاءم ويعجز بسبب هذه الأحوال التي عرضت له، فكل هذا لا يجوز، وأنت إذا عزمت فتوكَّل على الله.

فنقول: كل التشاؤم لا يجوز، أنت إذا عزمت فتوكل على الله، اللهم لا قدر إلا قدرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك. الإنسان ـ مثلما قال القرطبي، وغيره من أهل العلم ـ إذا علَّق تصرُّفاته بهذه الأمور المتشاءم بها، فهو من أجهل الناس، حقيقة، ثم إنه لا يمكن أن ينصلح حاله إذا كان ينظر لهذه الأشياء، ولكن الفأل الذي يعين على فعل الخير لا يدخل في هذا الأمر، كان النبي ﷺ يُعجِبُه الفأل[1]، يكره الطِّيَرة؛ لأن الطِّيَرة فيها تعلُّق الإنسان بغير الله في مثل هذه الأمور، وفيها ـ أيضًا ـ منعٌ للإنسان عما يُريده من الخير، لكن التفاؤل فيه التشجيع على الخير، لما جاء سُهيل بن

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

عمرو في صلح الحديبية، قال النبي ﷺ: «هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو، وإِنَّهُ قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[1]، إذا صحَّت هذه الكلمة في الحديث.

فالحاصل: أن التفاؤل غير التشاؤم، واعلم أن التشاؤم غير الشؤم، فإن الشؤم قد يكون في بعض الأشياء؛ مثلما أخبر النبي ﷺ أنه يكون في المرأة ويكون في الدار، ويكون في الدابة، وهذا شيءٌ مُشاهَد، أن الإنسان قد ينزل بعض الدور، وما يتشاءم لكن يكون فيها شؤم، تكون دائمًا خراب مثلًا، ودائمًا تحتاج إلى أعمال، فإذا ارتحل عنها ارتاح، ووجد ما يريد، كذلك بعض السيارات وكذلك القلم، كذلك ـ أيضًا ـ بعض النساء، يتزوج الإنسان امرأة، وتتعبه ليلًا ونهارًا في حياته العامة، والخاصة، ومع أهله، وأقاربه، ويتزوج أخرى فتكون راحة لنفسيته، وقرة عينه.

فالحاصل: أن هذه الأشياء أمرها واقع، ولكن الرسول ﷺ ما قال: التشاؤم، قال: الشُّؤْمُ، وفرق بين هذا، وهذا، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء أحيانًا يجد الإنسان فيها راحة، وأحيانًا يجد فيها تعبًا وقلقًا، فالشؤم من فعل غيرك والتشاؤم من فعلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ هذا جواب الرسل، وهذا ـ أيضًا ـ أجاب به بنو إسرائيل لموسى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾[الأعراف: ١٣١]، وكذلك أصحاب القرية الثلاثة تطيروا بالرسل التي أُرسِلت إليهم.

على كل حال: هذا جواب أهل الشر، أنهم يجعلون الأسباب التي هي من أفعالهم، ونتيجة لأفعالهم يجعلونها بأسباب هؤلاء المُصلحين، والحقيقة أنها وقعت جزاءً على أفعال الكفار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ تشاءمنا قال المؤلف: [بالمؤمنين؛ حيث قُحِطوا المطر، وجاعوا] قُحِطوا بمعنى: مُنِعوا.

قوله: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ [شؤمكم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أتاكم به ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾] قوله: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: وليس منا، و﴿طَائِرُكُمْ﴾ بمعنى: شؤمكم، والمراد: ما أصابكم مما تشاءمتم به ـ وهو القحط، والجدب ـ عند الله، وليس مني أنا، وإذا كان عند الله ـ ـ سبحانه وتعالى ـ فهذا أبلغ جواب، فإن الله ـ تعالى ـ حكيم، ما يُنزِّل هذا الشيء إلا في منزلته، وبأسبابه التي يستحق بها، فكأنه يقول: ما دام عند الله، فالله حكيم، ما أنزله إلا في موطنه، وموضعه، وهو الشؤم.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ هذا الإضراب ليس لإبطال الأول، ولكنه للانتقال، والإضراب، يكون على نوعين: إضراب إبطالي، يكون الحكم لما بعد بل، ويبطل ما قبلها.

والثاني: إضراب انتقالي؛ مثل هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ انتقال من شيء إلى شيء، هنا الإضراب انتقالي؛ لأنه عند الله يفتنهم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

-سبحانه وتعالى-بما حصل.

ووجه الفتنة: أولًا: أنهم نسبوا هذا إلى صالح، ومن معه، وهذه فتنة عظيمة ضلَّ بها هؤلاء.

ثانيًا: أنه أصابهم مع مجيء صالح إليهم، فظنوا أو ادَّعوا أن أسباب ذلك صالح، ومن معه، ففُتِنوا بذلك، وابتعدوا عن الحق، مثلما أشرت لكم بالرجل الصالح.

والله-سبحانه وتعالى-حكيم، يفتن الإنسان، ويختبره بأنواع الفتن تارةً بالمصائب، وتارةً بالنعم، وتارةً بالأمور التي تُوجِب الاشتباه ليمتحنه بذلك، ولهذا الدنيا كلها محنة، ما دام الإنسان دائرًا بين أمرين: إما شر، وإما خير، وكلاهما يقول الله فيه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] إذنْ معناه: انتبه أيها الإنسان، الفضل ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، المصائب ليبلوني أأصبر أم أجذع، الشبهات العلمية التي تَرِد على قلب الإنسان ليبلوه هل يثبت أو يزيغ، فالمسائل كلها في الحقيقة فتنة، واختبار من الله-سبحانه وتعالى-ولهذا يجب على العاقل أن يكون حذِرًا دائمًا، ولست أدعو بهذا إلى سوء الظن بالله-عَزَّ وَجَلَّ-ولكني أدعو إلى النظر في الأمور ليكون التصرُّف على وجه سليم، ولكن مع ذلك أقول: إنه إذا تجاوز الإنسان هذه الفتنة حصل له الثبات، والاستقرار؛ لأنه يطمئن قلبه، ويرسخ في هذه الأمور، ولا يزيغ بإذن الله بعد ذلك، لكن قد يُفتَن المرء فلينظر، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [تُختبرون بالخير والشر]، ووجه الفتنة في هؤلاء أن البلاء الذي أصابهم بسبب دعوة صالح إلى عبادة الله، فكفروا فأوذوا، فهذه من الفتن؛ لأنهم قالوا: أنت أسبابها، وفي الحقيقة أن أسبابها هم أنفسهم، ففُتِنوا بذلك.

قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)
قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٨ - ٥٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ [مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: رجال]، والرهط صحيح أنهم رجال، لكنهم قالوا: إن الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة، وبعضهم قال: ما بين السبعة إلى العشرة، فعلى هذا ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، وهل في التسعة تسعة؟ لا، ولهذا فسَّر المؤلف الرهط بالرجال، لا بمعناه الخاص، لأجل أن تستقيم الإضافة؛ إذ الشيء لا يُضاف لنفسه إلا على تأويل، وقال بعضهم: إنه لا حاجة إلى تأويل؛ لأن الإضافة هنا بيانية؛ أي: أن رهط تفسير لتسعة، كأنه قال: تسعةٌ رهطٌ، والمعنى على كل حال هو أن هذه المدينة - مدينة صالح أو مدينة ثمود - كان فيها رجال تسعة، وكانت التسعة هذه مجالًا للتفاؤل، والتشاؤم، واحد يتشاءم من العدد تسعة، ويقول: تسعة جاءت بالإفساد في الأرض ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وواحد يتفاءل بها، فالرافضة يتشاءمون بالعشرة، ويتفاءلون بالتسعة، العشرة المُبشَّرون بالجنة، لكن هم يُفرِدون علي بن أبي طالب منهم، لكنهم يتشاءمون بالعشرة، لأن عدوهم من العدد العشرة، وصديقهم التسعة.

فقال لهم شيخ الإسلام: يجب إذا كنتم تتفاءلون، وتتشاءمون بالعدد، فأنتم تتشاءمون بالتسعة؛ لأنه هو الذي قال فيها: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، أما العشرة، فإن الغالب أنها خير، عشر ذي الحجة، وعشر رمضان، والعشر المُبشَّرون بالجنة، وأمثلة كثيرة، وأنا أقول: إن كلام شيخ الإسلام هذا للتنزُّل مع الخصم، وإلا فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يتشاءم لا بهذا، ولا بهذا، فالعدد عدد.

وقوله تعالى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأي شيء؟ بالمعاصي، وكلما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفساد في الأرض فالمراد به المعصية وهي الشرك وذكر ما دونه؛ لأنه لا شك أن عمل المعاصي نفسه هو الفساد، ثم هو سبب للفساد ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالمعاصي هي نفسها فساد، وهي سبب للفساد ـ أيضًا ـ.

[﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، منها: قرضهم الدنانير، والدراهم]، ينقصون الدراهم بالقطع منها والقص، لكن هذا القول ضعيف، ليس عليه دليل، ولا هو ـ أيضًا ـ أكبر المعاصي، هذا صحيح أنه غش، لكنه ليس أكبر المعاصي، على كل حال، المهم أنهم أنكروا الرسالة، وكفروا بالخالق، هذه من أعظم المعاصي التي يُفسِدون بها في الأرض.

وقوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ معناه: أن فسادهم هذا ـ والعياذ بالله ـ شامل، لا يوجد صلاحٌ أبدًا، وهذه هي الحكمة من قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وفيه فائدة عظيمة، وهو أنه

قد يجتمع الصلاح، والفساد في آنٍ واحد، كما أن الإنسان، يكون مؤمنًا، ويكون فاسقًا، يكون فيه إيمان، وفيه كفر، وفيه فسوق، وطاعة، وفيه فساد، وصلاح، فالأمور إما خيرٌ محضٌ وصلاحٌ محضٌ، وإما شرٌّ محض وفسادٌ محضٌ، وإما خليط من الأمرين، وهؤلاء القوم يُفسِدون، ولا يُصلِحون - والعياذ بالله - ما يُصلِحون بالطاعة أبدًا، وهذا دليل على أنهم ليس فيهم خيرٌ محضٌ أبدًا، لا قليل، ولا كثير، لكن فيهم أناسٌ خيِّرون، الذين آمنوا بصالح واتبعوه، لكن هؤلاء الرهط التسعة يُفسِدون في الأرض، ولا يُصلِحون دائمًا، ما همهم إلا الفساد في الأرض بالمعاصي، وإلقاء الفتن بين الناس، ومحاولة قتل المُصلِحين، ولهذا قالوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي: هؤلاء التسعة ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أي: احلفوا بالله؛ يعني: طلب بعضهم من بعض أن يتعاهدوا على هذا الأمر، يتحالفوا على أن يُبيِّتوا صالحًا، وأهلَه، ومعنى البَيات: إنذار العقوبة ليلًا، فهنا حلفوا هذا الحلف الكاذب على أن يُبيِّتوا صالحًا، وأهله، ولهذا قال: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ اللام واقعة في جواب القسم والنون للتوكيد، فهم أكَّدوا على الفعل باليمين، واللام، والنون، يقول: المؤلف: [بالنون، والتاء، وضم التاء الثانية]، وإذا جعلناها بالتاء لزم ضم التاء الثانية: ﴿لَتُبَيِّتُنَّه﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [أي: من آمن به، أي: نقتلهم ليلًا]، والمراد بالأهل أتباعُه، كما قال المؤلف: ولكن قد يُنازَع في هذا، فيُقال: إن المراد به: أهله الخاصُّون؛ يعني: أهل بيته، وأنهم هم الذين يكونون في الغالب معه في الليل، فإن الغالب أن الإنسان لا يبيت معه في بيته إلا أهله الخاصُّون به.

ثم بعد ذلك بعد أن نُبيِّته ﴿لَنَقُولَنَّ﴾، قال المؤلف: [بالنون، والتاء، وضم اللام الثانية] ﴿لَتَقُولُنَّ﴾ بفتح اللام تكون أيضًا ﴿لنبيتنه﴾ يعني: ثم بعد أن نُبيِّته، ونقتله إذا قام وليُّه للأخذ بثأره نقول: ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ [الوليِّ دمه]، وليُّ الدم عندنا في الشريعة الإسلامية هم الورثة بفرضٍ، أو تعصيبٍ، وقيل: لا، بل العَصَبة هم أولياء الدم؛ لأنهم الذين يُؤدُّون العقل عنه، وأما ذوي الفرض فليسوا من أولياء الدم، والصواب: أن أولياء الدم هم الورثة بفرضٍ، أو تعصيبٍ، مثل الزوجة والبنت فهما من الأولياء.

وقوله تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ [حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ بضم الميم، وفتحها]، ولم يتعرَّض المؤلف للقراءة الثابتة، وهي ﴿مَهْلِكَ﴾، فالقراءات فيها ثلاث: فتح الميم وكسر اللام، وفتح الميم واللام، وضم الميم وفتح اللام، وهاتان الأخيرتان هما اللتان ذكرهما المؤلف.

﴿مُهلَكَ أهله﴾، أو ﴿مَهلَكَ أهله﴾ يقول: [أي: إهلاكهم، أو هلاكهم] على القراءتين، وأن

﴿مُهلَكَ﴾ أي الإهلاك؛ لأن ﴿مهلك﴾ من أهلَكَ الرباعي، وقوله تعالى: ﴿مَهلَكَ﴾ من هلَكَ الثلاثي، ولذلك نقول: إذا كان الفعل ثلاثيًا، فإن المصدر الميمي منه على وزن مَفعَل، وإذا كان رباعيًّا فإن المصدر الميمي منه على وزن اسم المفعول.

قال المؤلف: [فلا ندري من قتلهم]، وهذا الإنكار صحيح، أم كذب؟ ما داموا هم الذين قتلوه، فقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ هذا كذب، لكن فيه تورية، وأنهم يقولون: ما شهِدنا بل فعلنا، والشاهد أنهم لم يفعلوا، ولهذا قالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، وهذه الجملة هل هي من جملة قولهم الذي يُدافعون به عن أنفسهم، أو هو تقرير لقوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ يعني: وأنهم لم يقولوه للدفاع عن أنفسهم؟ يحتمل الأمرين.

والحاصل: أن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ فعلوا هذا الفعل المنكر، وهو مكرٌ؛ لأنه إتيان لصالح، وأهله من حيث لا يشعرون، فإن الليل موضع السكون، والهدوء، وإذا اعتدى أحدٌ على أحد صار ذلك غدرًا، ومكرًا، ولهذا حتى في حرب الكفار اختلف العلماء هل يجوز تغفيل الكفار، أو لا يجوز؟

الجواب: من منع التغفيل قال: لا يمكن أن نحارب الكفار، وهم غافلون نائمون، فمنهم من قال بهذا والمسألة تحتاج إلى تحرير وبحث.

والحاصل: أننا نقول: إن هذا من الغدر، والمكر أن يأتي هؤلاء إلى صالح، وأهله في الليل فيُبيِّتونه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ [في ذلك ﴿مَكْرًا﴾] مُنكَّر، وأحيانًا يقولون: من فائدة التنكير: التعظيم؛ أي: مكروا مكرًا عظيمًا، والمكر فسَّره بعضهم بأنه التوكُّل بالأسباب الخفيَّة إلى الإيقاع بالخصم؛ لأن الأسباب الظاهرة لا تُسمَّى مكرًا، وإنما بأسباب خفية.

قال الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في مُقابلة ذلك: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: أعظم من مكرهم، قال المؤلف: : [أي: جازيناهم بتعجيل عقوبتهم] ففسَّر مكرًا بالمُجازاة، والصحيح أن المكر أشدُّ من المُجازاة؛ لأنه مُجازاة من حيث مأمن المُجازاة، لكن أراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن يدفع بذلك صفة المكر عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ففسَّره بالمُجازاة، والصواب عند أهل السنة والجماعة: أن المكر لا يجوز أن يُحرَّف إلى معنى المُجازاة مطلقًا، وأنه لا يمتنع وصف الله ـ تبارك وتعالى ـ في محله، فالمكر في محله يُعتبر مدحًا، وفي غير محلِّه يُعتبر ذمًّا، المكر بهؤلاء الماكرين مدحٌ عظيم، ولهذا الصحيح في هذه المسألة على مذهب أهل السنة، والجماعة: أن الله ـ تعالى ـ يُوصَف بالمكر لا على الإطلاق، فلا يُقال: إن الله ماكر؛ لأنه على الإطلاق يتضمَّن صفة الذم، وإنما يُقال: ماكرٌ بمن يمكُر به، أو بمن يستحق المكر، وحينئذٍ يكون صفة نفي، والصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: صفات حُسنى بكل حال، فهذه ثابتة لله على وجه الإطلاق؛ كالسمع، والبصر، والعلم، والحياة، وما أشبه ذلك.

والثاني: صفات نقصٍ على كل حال، فهذه يُنزَّه الله عنها على كل حال؛ مثل: الظلم، واللُّغوب، والجهل، والعمى، والموت، والمرض، والجوع، والعطش، وما أشبه ذلك، والولادة، والشريك، فهذه يُنزَّه الله عنها على كل حال.

والثالث: صفات ذات وجهين، تكون مدحًا في حال، وتكون ذمًّا في حال، فهذه لا يُوصَف الله بها على الإطلاق، ولا تُنفَى عنه على الإطلاق؛ مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، وأمثالها، بل يُوصَف بها حيث تكون كمالًا، وتُنفَى عنه حيث تكون نقصًا، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[التوبة: ٧٩]، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة:١٥]، وقال ـ تعالى ـ : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، وقال ـ تعالى ـ : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: وهم لا يشعرون بعاقبة مكرهم، وهل يتم لهم ما أرادوا، أم لا؟ لا، ولا يشعرون كيف يمكر الله بهم، فهم لا يشعرون لا بهذا، ولا بهذا، لا بعاقبة مكرهم، ولا بمكر الله بهم؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ مُتمادون في الضلالة، والغالب أن الذي يتمادى في الضلالة يعمى، فلا يُبصِر، فلهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، والجملة هذه في محل نصب حال من الواو في ﴿وَمَكَرُوا۟﴾، أو من الضمير المحذوف في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يعني: بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أولًا، أو لمن يصح خِطابه؛ يعني: فانظر أيها المُخاطَب، أو فانظر يا محمد، وهو رأس هذه الأمة، وقائدها، وإمامها، فيكون خِطابُه خِطابًا للأمة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ كيف هذه للاستفهام مُعلَّقة لـ (انظر) عن العمل، ولهذا نقول: إن محلها النصب خبر كان مُقدَّمًا، وجملة كان، واسمها، وخبرها في محل نصب مفعول لـ (انظر)، والعاقبة ما يعقب الشيء؛ يعني: انظر ماذا يعقب مكرهم من الأمر ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، قال المؤلف: [أهلكناهم] فيها قراءتان، فتح الهمزة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، وكسر الهمزة ﴿إِنَّا﴾، أما كسرها، فهو كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[القمر: ٣٠، ٣١] فتكون مُستأنفة لبيان هذه العاقبة، وجيء بالجملة الاستئنافية بيانًا لها.

أما على قراءة الفتح فهي بيان للعاقبة؛ يعني: هو أَنَّا دمَّرناهم، وقومهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ يقول المؤلف: [أهلكناهم] من التدمير، وهو أبلغ من الإهلاك؛ لأن التدمير يُوحِي بعِظَم هذا الإهلاك، وعظمته، وهو كذلك، فإن قوم صالح أُخذوا ـ والعياذ بالله ـ بأمرين: بصيحةٍ، ورجفةٍ، صِيح بهم، وارتجفت بهم الأرض، حتى انهدم عليهم بناؤهم، وتقطَّعت قلوبهم في أجوائهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، فهذه العقوبة عليهم نتيجة لهذا العصيان، والتمرُّد، والمكر الذي أرادوه بنبيهم صالح عليه السلام.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ مع أن القوم لم يُشارِكوا في هذه الجريمة، ولكن هذا شُؤم المعاصي أن الله ـ تعالى ـ إذا عاقَبَ بها أحدًا شمل الجميع، مع أن قومه مُستحقُّون للعقوبة؛ لأنهم كانوا كفارًا مُكذِّبين، لكنِ تعجيل العقوبة مقرونٌ بهذا السبب، وهو مكرُ هؤلاء بصالح، هذا قد لا يكون هؤلاء القوم مُستحقِّين له، ولكنه شملهم ـ والعياذ بالله ـ عقوبة هؤلاء، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في آيات أخرى مُفصَّلة أن نبيَّهم صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فتمتَّعوا، وبقوا ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك أتاهم الله بهذه البغتة.

وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير لقوله: ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾؛ يعني: ما بقي منهم أحد إلا من كان مؤمنًا بصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقول المؤلف: [بصيحة جبريل، أو برمي الملائكة بحجارة وغيرها، ولا يرونهم].

أما قوله: [بصيحة جبريل] فهذا قد يكون مقبولًا؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [القمر: ٣١]، وهذه الصيحة إما من الله، أو من جبريل، أو من غيره من الملائكة، المهم أنهم أُهلِكوا بصيحة.

وأما قوله: (أو برمي الملائكة بحجارة) فهذا لا أعلم له وجهًا، ولكنهم لما جاءوا إلى صالح في الليل أمر الله ـ تعالى ـ الملائكة أن تحرسه فلما جاءوا، فإذا الملائكة تحرسه، وجعلت الملائكة ترميهم بالحجارة، وهذا لا أصل له، ولم يكن هذا المعصوم، فإنه غير مقبول، وهو ـ أيضًا ـ غير لائق أن تكون الملائكة يرمون بالحجارة.

ولكننا نقول: الذي دمَّر الله به هؤلاء، وقومهم هو الصيحة، والرجفة، كما جاء ذلك في القرآن، ولا نتعدَّى القرآن في هذا الأمر؛ لأن الله يقول في سورة إبراهيم: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[إبراهيم: ٩]، فما دامت هذه الأمور من معلومات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإننا لا نتجاوز ما قال الله فيها، إلا ما ورد عن النبي ﷺ بسندٍ مقبول.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قال المؤلف: [أي: خالية، ونصبه على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ المُشار إليه معلوم محسوس؛ لأن بيوت ثمود موجودة الآن ومُشاهَدة، لكنها، كما قال الله ـ تعالى ـ خاوية؛ بمعنى: أنها خالية على رأي المؤلف، وقيل: خاوية مُتهدِّمة، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: مُتهدِّمة، وهذا أبلغ؛ يعني: تقدير الخاوي بالمُتهدِّم الذي ليس بقائم أولَى؛ لأن البيوت قد تكون قائمة، ولكن إذا خوِيَت بمعنى: دُمرت، وانهدمت فهي خاوية، فإذنْ يلزم من دمارها خلوُّها، ولا يلزم من خلوِّها دمارها، والواقع أنها دمرت؛ لأن هذه الرجفة العظيمة لابد أن تُدمِّر.

وقول المؤلف: [نصبه على الحال] حال من البيوت، أي حال كونها خاوية، ولكن أين العامل في الحال؛ لأن العامل لابد أن يكون فعلًا، أو اسمًا بمعنى الفعل؟ قال المؤلف: [والعامل فيها معنى الإشارة]؛ لأن ﴿تلك﴾ بمعنى: أشير، فاسم الإشارة مُتضمِّن لحرف معنوي.

قال: [﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم]الباء للسببية، و(ما) مصدرية، فالمؤلف رَحِمَهُ الله حوَّل الفعل إلى مصدر، افترض أن ما مصدرية، أو تحوِّل ما بعدها إلى مصدر؛ أي: بسبب ظلمهم لا أننا ظالمون لهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم، ثم فسَّر المؤلف حال الظلم بالكفر، فقال: [أي: كفرهم]، وأن كل كفرٍ ظلم، وليس كل ظلم كفرًا، ولهذا قال العلماء: إننا نحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون، فلو قال الثانية صار كل ظالم كافرًا، ولكن قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فإن كل كافرٍ ظالم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وتفسير المؤلف للظلم هنا بالكفر؛ هل عليه دليل؟ نعم؛ لأن فعلهم، وتهديدهم لرسولهم كفرٌ، فهنا تفسير الظلم بما هو أشد دليل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال المؤلف: [﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا فيتَّعِظون] تفسير الآية بالقدرة هذا مختلف، بل المراد ما هو أعم من علم قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، بل يعلمون صفات الله، وحكمته، وما جرى للأمم، كل هذا داخل؛ لأن الذي لا يدري بماذا يعتبر؟ لكن الذي يدري هو الذي يعتبر، وفي هذا من الحث على معرفة أخبار الأمم، والعلم بها ما هو ظاهر؛ لأن بها يتَّعِظ الناس، وكذلك ـ أيضًا ـ الأخبار الواقعة في زمن الإسلام، ينبغي أن يتخذ من حوادثها عظةً، وعبرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [بصالح، وهم أربعة آلاف ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك].

﴿أنجينا﴾ أي: عصمنا، والإنجاء بمعنى: العصمة، أنجيناهم من هذا التدمير الذي ذكره الله، والعقوبة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قول المؤلف: [بصالح] فيه نظر، فهم آمنوا بالله لأجل أن يُنجِّي صالحًا، ومن معه، كما قال الله ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٦٦]، فالصواب: أن الإيمان بالله، بل نقول: إن صالحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب عليه أن يؤمن بنفسه أنه رسول، ولهذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤمن، ويصِف نفسه بالرسالة، ويقول: في صلاته: «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ، ورَسُولُهُ**»(١)، وأحيانًا يقول: إذا وقع الأمر على وفق ما قال: «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنِّي رَسُولُ الله**»(٢)، فالمهم أن الرسول نفسه مُلزَمٌ بأن يشهد لنفسه بالرسالة، بأنه رسول الله،يؤمن بما أُوحِي إليه.

وقول المؤلف: [أربعة آلاف] نقول: أين الدليل الذي حصرهم؟ لا دليل عليه، والغالب أن المؤمنين أقل من ذلك، فالنبي ﷺ يقول: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ، ومَعَهُ الرَّهْطُ، والنَّبِيَّ، ومَعَهُ الرَّجُلُ، والرَّجُلَانِ، والنَّبِيَّ، ولَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(٣)؛ إذ رُفِع له سواد، فظن أنهم أمته، فقالوا: هذا موسى، وقومه، فالمهم أن تقديرهم بأربعة آلاف، أو بأربعين رجلًا، أو بأربعة ملايين، أو بأقل، أو أكثر يحتاج إلى دليل، وهو ـ أيضًا ـ من فضول العلم التي لا ينبغي للإنسان أن يُتعِب نفسه في ذلك، ليس فيه فائدة، ولو كان فيها فائدة لحث الله عليها، ونظير هذا البحث مثلًا في كلب أصحاب الكهف، ما لونه، ما اسمه، ما فيه فائدة، كذا على الغار أين كان؟ وفي أي مكان؟ كل هذه المسائل جانبية.

المهم: أن كل من اتصف بالإيمان، فإن الله ـ تعالى ـ أنجاه من هذا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يقول: المؤلف: [الشرك]، ولو أنه قال: يتقون المعاصي، أو يتقون الله لكان هذا أولَى؛ لأن الإيمان، والتقوى بمعنى: الإيمان، والعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح من التقوى، بخلاف ما إذا قُرِن بالتقوى البر، وما أشبه ذلك، فيكون التقوى للمعاصي، والبر للطاعات.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾:

١ ـ في هذه الآية من الفوائد: مبدأ العِصابة، ولا زال موجودًا إلى الآن فإن هؤلاء التسعة يُفسِدون في الأرض، ولا يُصلِحون، وما يزال الأمر إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده والله أعلم أنه سيبقى؛ لأن أهل الشر لهم طرق يتفنَّنون بها في فرض شرِّهم على غيرهم.

٢ ـ ومن فوائد الآية: أنه يمكن أن يجتمع الفساد، والصلاح، لقوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولولا أنه يمكن اجتماعهما لم يكن لقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدة؛ لأنه يكون عدم الصلاح مفهومًا من الفساد، فيمكن اجتماعهما، فيُؤخذ منه أن الفساد، والصلاح قد يجتمعان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١) ومسلم (٥٥/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٣٧٤/ ٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في شخص.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن الكفر، والإيمان قد يجتمعان في شخص؛ لأن الإيمان صلاح، والكفر فساد، وكذلك - أيضًا - الفُسوق، والطاعة، يمكن أن يجتمعا، وخالف في ذلك طائفتان من الناس: المُعتزلة، والمرجئة، المرجئة قالوا: الإنسان إذا كان مؤمنًا صارت كل أحواله صالحة، ولا يُعذَّب بذنب، ولا يُلامُ عليه، والخوارج، والمعتزلة بالعكس.

المهم: أنه قد يجتمع كفر، وإيمان، وفسوقٌ، وطاعة، بل من أتى ما يُوجِبُ الفسق صار كافرًا، ومن أتى ما يُوجِبُ الكفر صار كافرًا على رأي الخوارج، أو خارج من الإيمان بين منزلة الإيمان، والكفر، على رأي المُعتزلة، ولا شك أن النصوص، والواقع، والعقل يدل على خلاف ما قالوا؛ لأن اجتماع هذا، وهذا أمرٌ معلومٌ.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن المعاصي من أسباب الفساد في الأرض، لقوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾، وهؤلاء جماعة ليسوا يهدمون البيوت، ولا يُهلِكون الزروع، ولا يسرقون المتاجر، لكنهم يفعلون ما يكون سببًا للفساد، الحسي والمعنوي؛ وهو فساد الأخلاق، والسلوك، والفساد الحِسِّي؛ لأن الفساد الحِسِّي يتبع الفساد المعنوي.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أنه من الحزم - والحزم قد يكون في الخير، أو الشر أن تتعاقد الطائفة، وتتعاهد على منهاجها الذي تسير عليه؛ لئلا تتفرَّق، وتختلف، وتُؤخذ من قوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، ما ذهب كل واحد مذهبًا، اجتمعوا أولًا على تدبير الخطة، ثم على تنفيذها، يؤخذ منها أن من الجزم أن تجتمع الطائفة وتتفق على عهد يربط بعضها ببعض ليكون التنفيذ.

وهذا المسلك لا زال يُسلَك حتى الآن، والصحيفة التي اجتمعت قريش فيها على مقاطعة بني هاشم؛ هل نُقِلت برجل واحد؟ لا، بل ذهب هذا الرجل الذي أراد نقلها إلى فلان، وفلان، وصار يُجمِّع الناس حوله، حتى اجتمعوا على نقلها، وغلبوا في تنفيذ فكرته.

فالحاصل: أن هذه المسائل ينبغي للإنسان إذا أراد أن يَهِمَّ بأمرٍ، وينشأ منهاجًا أنه يجعل معه أقوامًا يُساعدونه، ويتعاقد معهم ويتعاهد، إن كان في خيرٍ فخير، وإن كان في شر فالله يتولاهم، هنا تقاسموا على شرٍّ من أعظم الشرور.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أنها دليل على مبدأ الاغتيالات - أيضًا -؛ لقوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ لأن التبييت اغتيال؛ إذ إن الاغتيال معناه: القتل على غِرَّة، ولهذا كان الصحيح من أقوال أهل العلم أن الغِيْلة ليس فيها خيار لأولياء الدم، وأنه يجب قتل المُغتال بكل حال، وهذا مذهب

مالك، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه لا يمكن التحرُّز منه، فهو فساد في الأرض، ولا يُعارِضُ هذا قول الرسول ﷺ: «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ، فهو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ»[1]؛ لأن قوله: «مَنْ قُتِلَ لَهُ» هذا من الحقوق الخاصة، وأما مبدأ الاغتيال فإنه من الحقوق العامة، يكون الإنسان في مأمن، ويقتله؛ لأنه لو جاء وهو في بيته نائم، فهذا يمكنه أن يتحرَّز منه بالفرار، أو يتحرَّز بالمُدافعة، أو بالصِّياح لمن حوله، وما أشبه ذلك.

فهؤلاء تقاسموا على هذه الفعلة القبيحة، ولكنهم لم يُنفِّذوا ما أرادوا، فلم يحصل لهم تنفيذ ما أرادوا؛ لأنهم مكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين.

٣ - وفيها دليل على: الإنكار، وهذا الشيء واضح أن الفاعل للسيئة لا يهمه أن يُنكِر فعله؛ يعني: من قتل يهون عليه أن يُنكِر القتل؛ لأن القتل أعظم من إنكاره، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

٤ - وفيها: أن البيِّنة على المُدَّعي، واليمين على من أنكر؛ لأنه لولا أن هذا القول يُبرِئُهم ما صحَّ أن يتفقوا على اتخاذه حُجَّة، دلَّ هذا على أن الإنكار يبرأ به المُدَّعى عليه، ووجهه: لولا أن ذلك يُبرِّئُهم لم ينفعهم الاتفاق عليه؛ لأنهم لو قالوا: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ لقال: أنتم القاتلون، فإذا ادَّعى شخصٌ أن هذا الرجل قتل والده، نقول له: هات بيِّنة، فإذا لم يأت ببيِّنة، فإنه لا يثبُت له حق؛ لأن البيِّنة على المُدَّعي، واليمين على من أنكر، ولكن هل هذا على إطلاقه؟ المشهور من المذهب: أنه على إطلاقه، وأنه لو كان المُدَّعَى عليه القتل من أفجر الناس، والمقتول من أفضل الناس كذلك المُدَّعِي فإنه لا يُؤخذ بقوله، لعموم قول الرسول ﷺ: «البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي، واليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»[2].

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن هذا يُؤخذ بقوله، ولكن تُجرى فيه القَسامة، إذا كان هذا الرجل معروفٌ بالفُسوق، والمقتول معروفٌ بالصدق، والاستقامة، وكذلك أولياؤه، قال (فإن هذا قرينة تُغلِّبُ على الظن صدق المُدَّعِي)، وعلى هذا فتُجرَى فيه القسامة، وما قاله الشيخ ليس ببعيد.

كذلك الأمر الثاني بالعكس، لو أن شخصًا قتل إنسانًا، وقال: نعم، أنا قتلته، ولكن الرجل صال عليَّ، ولم يندفع إلا بقتله، فماذا أصنع؟ في المذهب: لا يُقبل قوله، ويُقتل أي: ما قتلته إلَّا دفاعًا عن نفسي، نقول له: هاتِ بيِّنة أنه صال عليك، وإلا قتلناك.

قال: لا يمكن أن آتي ببيِّنة؛ لأنه ما صال عليَّ أمام الناس، ولو يدري أن حوله أحد ما صال.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢) ومسلم (٤٤٧/ ١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: أخرجه البيهقي (٨/ ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٨٤).

نقول: إذنْ نقتلك، ويوم القيامة اختصما عند الله. هذا هو المذهب.

واختار الشيخ هنا أنه يُقبَلَ قول معروف، فإذا كان هذا الرجل مستقيمًا، هذا القاتل يقول: أنا قتلته، والمقتول معروفٌ بالفجور، والاعتداء على الخلق، فإنه يُقبل قولُه، ولكن يحلف تأكيدًا لقوله.

وما قاله الشيخ هو الصحيح، ولا يمكن العمل إلا به، أما قولهم: نقتلك، وحسابك عند الله، هذا فيه نظر، حتى لو وجدت قرينة تدل على صدق الرجل غير مسألة حال هذا، وحال هذا؛ يعني: مثلًا: لو وجِد المقتول في بيت القاتل؛ جاء ودخل عليه، أو انتهك حُرمة أهله، فهذا لا يندفع إلا بالقتل.

الكلام على قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يدل على أن المُنكِر مقبول القول ما لم يكن مُدَّعي ببيِّنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

١ - **في هذه الآية دليل على:** عظمة الله - سبحانه وتعالى - وأنه أعظم مكرًا ممن يمكرون به، فهؤلاء أرادوا المكر برسوله، ولكن الله - تعالى - مكر بهم بما هو أعظم.

٢ - **وفيها دليل على:** وصف الله - تعالى - بالمكر، لكنه ليس صفة كمال على الإطلاق، بل على سبيل التقييد، فيُقال مثلًا: هو ماكرٌ بمن يستحق المكر، أو ما أشبه ذلك مما يجعل المكر صفة كمال؛ لأن المكر ليس صفة كمال على الإطلاق، ولا بصفة نقصٍ على الإطلاق.

٣ - **وفي هذا دليل على:** أن الله - سبحانه وتعالى - قد يمكر بالعبد، فلا يشعر بمكره، ومن ذلك: استدراجُه إياه بالنعم؛ حيث يُسدِي إليه النِّعَم، وهو يُبارِز الله - تعالى - بالعصيان، ومن مكره به تلبيسُه عليه في الحكم، يُلبِّس عليه في الحكم، حتى يظن الباطل حقًّا، فيتمادى فيه، ولهذا من الدعاء أن يقول: اللهم أرِني الحق حقًّا، وارزقني اتباعه، وأرِني الباطل باطلًا، وارزقني اجتنابه، فالإنسان قد يكون لديه شُبهة، أو شهوة، شُبهة فلا يعرف الحق، أو شهوة لا يُريد الحق، بل يريد غيره.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

١ - في هذه الآية فوائد منها: الحث على الاعتبار، لقوله: ﴿فَانظُرْ﴾، والنظر، يكون بالقلب، ويُسمَّى نظر البصيرة، ويكون بالعين، ويُسمَّى نظر البصر، وكلاهما أمرٌ مطلوب إذا أدَّى إلى مطلوب، وأما إذا لم يُؤدِّ إلى مطلوب، بل أدَّى إلى العكس؛ مثل: أن يعتبر ويتبصَّر، ثم يتخذ من هذا النظر وسيلة إلى الطعن في حكمة الله - سبحانه وتعالى -، أو إلى وصف الله - تعالى - بالظلم، أو ما أشبه ذلك مما يقع من بعض الجاهلين، فإن هذا ضرره كبير - والعياذ بالله - لكن يجب أن ينظر

الإنسان بعين العقل والعدل، فبانتفاء العقل لا يعرف الإنسان، وبانتفاء العدل يظلم.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي في مقام التحذير استعمال أغلظ الألفاظ، وأشدها تأثيرًا، لقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾، ولم يقل: أهلكناهم، فإن التدمير أعظم وقعًا في النفس، والنفس تنفر منه أكثر، ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾.

٣ - **وفي هذا دليل على:** أن العقوبات إنما تأتي بأسباب المرء؛ حيث جعل هذا التدمير عاقبة مكرهم، وهذا يدل عليه - أيضًا - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال-تعالى -في خصوص أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦]، من فوقهم من الثمار الطويلة، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ من الزروع التي تحت الأرض.

٤ - **وفي هذا دليل على:** أن العقوبة تعم، ولكن كما قال رسول الله ﷺ «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ»(١)، فالعقوبة قد تعم، ولكن يُبعث الناس على أعمالهم، وهذا مُشاهَد، سواءً كانت العقوبة من الله؛ يعني: من فعل الله، أم من فعل العباد، يُسلِّط الله - تعالى - بعض العباد على بعض فيُدمِّر هذا المُتسلِّط على الصالح، والطالح، ولكن يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم، وأعمالهم، أو يُنزل الله - تعالى - كارثة من عنده؛ كالفيضانات، والرياح، وغيرها، فتُدمِّر الصالح، والطالح، ويوم القيامة يُبعثون على نياتهم، وإنما كان كذلك لحكمة عند الله - سبحانه وتعالى - لأجل أن يستقيم الناس على أمر الله؛ لأني أنا إذا علِمتُ أن المصيبة ستعم سأسعى إلى إزالة السيئة المُوجِبة للعقوبة، لكن لو نعلم أن العقوبة تخُص فاعل المعصية فقط ما استقام الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر، ولذلك يجب أن يكون خوف الإنسان من معاصي غيره كخوفه من معاصي نفسه؛ لأن العقوبة واحدة، إذا نزلت عمَّت، بل إن المعاصي كالدخان يصرع من شمَّه، وإن لم يكن في بيته، ولذلك معاصي الناس اليوم أثَّرت حتى على أهل الخير البعيدين منهم؛ يعني: أهل الخير لو سألتهم، وقلت: هل تجِدون في قلوبكم ما كنتم تجدونه قبل سنوات من الإنابة إلى الله، والخشوع، والخضوع، ومحبة الخير، لو سألتهم، لأجابوا: لا، الناس الذين ماتوا قبل ثلاثين سنة، أو أكثر هذا ما نظنهم سلِموا من هذا الفِكر، والذي يُوجد من الناس منذ ثلاثين سنة أصلح بكثير من اليوم، مع أن حالهم هي هي، تجد الإنسان مثلًا في مسجده إمامًا، ولم يلتفت للدنيا، ولم يشتغل بها، تجد الإنسان مثلًا في أهله ما يلتفت إلى أحد غيرهم، ومع ذلك تأثَّروا بالذنوب؛ لأن للمعاصي مفاسد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٠٨) ومسلم (٨٤/ ٢٨٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مهما كانت، ولكن مع هذا قد يأتي الله ـ تعالى ـ ببركان عظيم يُبدِّل هذه الأشياء، يُقيِّض الله ـ تعالى ـ للأمة الإسلامية طائفة منصورة ظاهرة فتُبدِّل كل هذا الأمر، ولهذا لابد من عمل، فالركود لا ينفع، والركود ليس فيه السلامة أبدًا، ولابد من العمل، ولكن على هدى مستقيم، وبحكمة بالغة؛ لأن الذي يضر الدعاة اليوم واحد من أمرين: إما جهلٌ، أو سفَه؛ يعني: إما أنه ليس عندهم علم بيِّن راسخ، مثل الذين يتشددون في الأمور فتجدهم يُحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُوجِبون ما لم يُوجِبه الله، وهذه مفسدة عظيمة، أو يكون عندهم سَفَه؛ يعني: ما يكون عندهم حكمة في الدعوة إلى الله، فيكون عندهم تصرُّف بعنف، أو تباطؤ في غير موضعه، ففي الأول: يحصل ردّ فعل عنيف من المدعُوِّين، وفي الثاني يحصل تنازل من المدعُوِّين يُفوِّت الفرصة على الدَّاعين، فلابد من العلم، والحكمة قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥].

ثم قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾:

لما قال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ هذا عام مبهم، نصَّ على شيء معيَّن أن بيوتهم خاوية، إما خالية، وإما مُتهدِّمة مُدمَّرة، وهذا قد نقول: إن فيه فائدة، وهي:

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: التبيين بعد الإجمال؛ لأن التبيين بعد الإجمال أوقع في النفس، فالشيء إذا جاء مُجملًا تتشوَّف النفس إلى بيانه، ومعرفته، فإذا جاء إليها مُبيَّنًا بعد إجمال صادف أرضًا يابسة تشرب الماء، لكن إذا بُيِّن من الأول مرَّ مرور الكِرام، وهذا دائمًا تجده في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ ما هو هذا الأمر؟ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن التدمير والإهلاك من أسباب الظلم، لقوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾؛ لأن الباء هنا للسببية

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الجزاء من جنس العمل.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بظالم، ما دام لا يُعاقِب إلا بسبب ، فمعنى ذلك أنه مُنتفٍ عنه الظلم ـ سبحانه وتعالى ـ.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: التحذير من الظلم؛ لأننا إذا تبيَّنَّا أن التدمير من أسباب الظلم، معناه: أننا ننفر منه، ونهرب منه، ففيه التحذير من ممارسة الظلم، سواءً كان مُتعدِّيًا، أم لازمًا، أم سواءً كنت تظلم نفسك وحدها بالتقصير بواجب الله، أو بالظلم لغيرك أيضًا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هذه الحوادث التي يُحدِثها الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ آيات من آياته تدل على كمال قدرته، وسلطانه، وعلى كمال عدله ـ أيضًا ـ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾؛ أي: علامة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسلطانه، وعلى حكمته، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل إلا بمُقتضى الفعل.

٧ - ومنها: الردُّ على من يُنكِرون الحكمة؛ مثل: الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إنه لا حكمة لله ـ سبحانه وتعالى ـ في أفعاله، وخالفتهم المعتزلة تمامًا، وقالت: أفعاله مقرونة بالحكمة، والحكمة مُوجِبة، ولهذا قالوا: يجب عليه فعل الصلاح، وبعضهم قال: يجب عليه فعل الأصلح، وأما الجهمية فبالعكس، وهذا من المواضع التي اختلفت فيها الجهمية، والمعتزلة، وإن كانوا يشتركون في كثير من الأشياء، لكنهم يختلفون ـ أيضًا ـ في أشياء أخرى، منها: هذه المسألة؛ هل فعل الله لحكمة، أو لُمجرَّد المشيئة؟ الجهمية يقولون: لُمجرَّد المشيئة، والمعتزلة يقولون: لحكمة، لكن غلوا في إثبات الحكمة؛ حيث أوجبوا على الله ـ سبحانه وتعالى ـ فعل الأصلح، والصواب: أنه يجب على الله ـ تعالى ـ فعل الأصلح، لكن لا بإيجابنا نحن، ولكن بما اقتضت حكمته؛ لأن الحكمة تقتضي هكذا، الأشاعرة مثل الجهمية.

٨ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا ينتفع بالآيات إلا أولو العلم، لقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أما من ليس من ذوي العلم فإنه يفوتهم شيء كثير، لا يعتبرون به، ولا يتعظون به، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣]، والأمثال تشمل الأمثال المعقولة، والأمثال المحسوسة المُشاهَدة، فالله ـ تعالى ـ يضرب الأمثال المعقولة، ويضرب الأمثال المحسوسة،قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، هذه من الأمثال المُشاهَدة المحسوسة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[العنكبوت: ٤١]، هذه من الأمثال المعقولة.

والحاصل: أن أهل العلم هم الذين يعقلون هذه الآيات، ويعتبرون بها، وينتفعون بها.

٩ ـ ومن فوائد الآية: فضيلة العلم.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: الحث على العلم؛ لأنه إذا ثبت فضله، فمعنى ذلك: أن الله ذكره لنا لنتعلَّم، ولا شك أن العلم من أفضل ما أنعم الله به على العبد؛ يعني: ما بعد الإسلام نعمة مثل العلم، وأفضل من نعمة المال، وأفضل من نعمة قوة البدن، وأفضل من نعمة البنين، ولذلك تجد أن العلماء، الذين مثَّلوا العلم كانوا دعاة إلى الله، وكانوا علماء مِلَّة لا علماء دولة؛ لأن العلماء منهم علماء مِلَّة، يدعون إلى المِلَّة، والشريعة، ويغدون في أمر الله، ومنهم علماء دولة يدعون إلى ما تريده الدولة.

ونعلم أنه عندما ظهرت الاشتراكية صار أناس من أهل العلم في البلاد التي ظهرت فيها هذه البدعة صاروا يدعون إليها ويزعمون أن القرآن والسنة دلَّا إليها، ويأتون بالآيات الدالة على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: ٢٨]، يقولوا: أنتم سواء في الرزق وأنتم شركاء في ثلاثة، وهكذا، وهذا مرّ علينا مثل المحدثين أي: محدثين الدولة مثلما فعل غياث بن إبراهيم عندما دخل

على المهديّ وهو يلعب بالحمام فروى له هذا الحديث: «لَا سَبَقَ إلا فِي خُفٍّ أَوْ نَصْلٍ أَوْ حَافِرٍ»، وزاد فيه: «أو جناح»؛ إرضاء للمهدي[1].

فالحاصل: أن المراد بالعلم الممدوح هو العلم المُؤكِّد للعمل، والدعوة، والحقيقة أن مقام طلبة العلم ما هو مقام علم فقط، ويكون العلم في الصدور، إذا لم يكن هناك دعوة، أنتم الآن، وارثون للأنبياء، فالعلماء ورثة الأنبياء، ادعُ مثلما دعا الأنبياء إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعلَّم وادعُ ولا تبالِ، واعلم أنك ما قلتَ كلمةً تبتغي بها وجهَ الله إلا كان لها تأثير لابد، ونحن نضرب لكم مثالًا بقول موسى أمام السحرة، وأمام فرعون، وجنوده، وعامة أتباعه، قال للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾[طه: ٦١]، ماذا عملوا له؟ قال تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢]، وأخيرًا آمنوا بالله، أعلنوا إعلانًا كاملًا، وتصميمًا، وعزمًا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الشعراء: ٤٧ ، ٤٨]، فتوعَّدهم فرعون ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾[الشعراء: ٤٩] ماذا قالوا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾[طه: ٧٢].

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾:

١ ـ **في هذه الآية دليل على**: أن الإيمان والتقوى من أسباب النجاة؛ لأن قوله: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حكم مُعلَّقٌ بوصف، والحكم إذا عُلِّق بوصف دلّ ذلك على عِلِّية هذا الوصف، وتأثيره في الحكم، فيكون فيه دليل على أن الإيمان، والتقوى، وهي مُتضمنة للعمل الصالح من أسباب النجاة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: الحثُّ على الإيمان، والتقوى؛ لأن كل إنسان عاقل ينبغي له أن يسلك أسباب النجاة، فيكون في الإخبار عن نجاتهم الحث على السبب الذي به نَجَوْا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ حيث أهلك مَنْ يستحق الإهلاك، وأنجى من يستحق النجاة، قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن صالحًا ومن معه كانوا مؤمنين مُتصفين بهذا الوصف: (الإيمان، والتقوى)؛ لأنهم هم الذين أُنجوا من هذه العقوبة.

(١) انظر لسان الميزان (٤/ ٤٢٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٤- ٥٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ وَلُوطًا ﴾ قال المؤلف: : [منصوبٌ بـ (اذكر) مُقدَّرًا قبله] يعني: اذكر يا محمد لوطًا، وإنها ذُكِر بعد صالح، ودائمًا يُذكر بعد صالح؛ لأن مدائن صالح، وقرى قوم لوط ليس بعيدًا بعضها من بعض، وليست مبذولة للناس لعهد النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من لوط، قال: كأن التقدير: واذكر إذ قال لوطٌ لقومه.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، قال: [أي: اللواط] الهمزة هنا للاستفهام وللتوبيخ، والإنكار، وإن شئت زِد على ذلك التعجُّب.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، (أل) لاستغراق الجنس من حيث المعنى، لا من حيث الأفراد، لكن المعني: أن هذه أعظم فاحشة من نوعها، وهي أعظم من الزنا؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٣٢]، وهنا قال: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي ـ أيضًا ـ أعظم من نكاح ذوات المحارم؛ لأن الله قال: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[النساء:٢٢]، ونكاح ذوات المحارم أعظم من الزنا؛ لأن الله وصفه بثلاثة أوصاف: فاحشة، ومقت، وسوء سبيل، والزنا وصفه بوصفين: فاحشة، وسوء سبيل، ولهذا، الصحيح أن من زنا بمحارمه يُقتَل، وإن لم يكن مُحصنًا؛ لأن هذه ـ والعياذ بالله ـ أعظم من الزنا، كذلك ـ أيضًا ـ اللُّواط، الصحيح أن فاعله يُقتَل ما دام بالغًا عاقلًا، وإن لم يكن مُحصنًا.

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [أي: اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يُبصِرُ بعضكم بعضًا انهاكًا في المعصية] يعني: أقبح من الحمير، يرى بعضهم بعضًا، يفعل الواحد بالثاني، ولهذا قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾[العنكبوت:٢٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من الإبصار بالعين؛ يعني: وأنتم تُبصِرون، وكل إنسان له فطرة سليمة يكره هذا الشيء؛ لأنه سوف يركب مثله، ونفس هذا المركوب يُركب، ثم إن المكان هذا -أيضًا- ليس محلًّا لهذه الشهوة؛ لأنه مكان مُتلوِّثٌ بالأنجاس، فليس محلًّا له، فهو خبيثٌ في الفطرة، وفي الحس -أيضًا-، ولكننا نقول: لو أننا فسَّرنا الإبصار الحسِّي بالعيني، والإبصار المعنوي بالقلبي لكان ذلك جائزًا، ففي الحقيقة أن رداءة هذا الشيء في القلب أمرٌ معلومٌ بالفطرة، وكونهم يفعلونه، ولا يُنكِر بعضهم على بعض، هذا أشد وأعظم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي إدراك الغرض الذي من أجله أُرسل الرسول؛ لأن الرسل كلهم كافة أُرسِلوا لتوحيد الله، لكن بعضهم يُبيِّن مع الأمر بعبادة الله أنه أُرسل لهذا الغرض، (ولوطًا) هنا بيَّن الله - تعالى - أنه أرسله لغرض انتساب قومه من هذه الفاحشة العظيمة، مع أنه لابد أنه قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، لكن لما كانت هذه الفاحشة ظاهرة فيهم بيَّنها الله - تبارك وتعالى -.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الرسل يُرسَلون إلى قومهم، لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، ولم يُبعث أحدٌ إلى عموم الناس إلا رسول الله ﷺ.

٣ - **ومن فوائد الآية:** بيان عِظَم اللواط، وقُبحه، وأنه في قمم الفواحش، لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بيان وجوب الإنكار على مَنْ أتى هذه الفاحشة، لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾؛ لأن الهمزة هنا للاستفهام، والتوبيخ، ولا شك أنه يُنكِر عليهم، لكن بماذا يُعاقَب؟ في شريعتنا يُعاقَب بالقتل مطلقًا، سواءً كان مُحصنًا أم غير مُحصَن، وهذا هو ما دلَّ عليه الحديث الذي في السنن وصحَّحه الحاكم وغيره من قول الرسول ﷺ: «**مَنْ وجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، والمَفْعُولَ بِهِ**» وهو الذي أجمع عليه الصحابة، كما حكاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، لكنهم اختلفوا كيف يُقتل؟ هل يُقتل بالرجم، أو بإلقائه من شاهق، وإلقائه بالحجارة، أو يُقتل بالسيف، أو يُقتل بالإحراق بالنار؟ المهم: أنهم اتفقوا على قتله، وتكون الكيفية هنا راجعة إلى الإمام، إذا رأى أقوى كيفية تردع عن هذا العمل الخبيث فإنه يقوم بفعلها وتقريرها.

٥ - **وفي الآية دليل على:** أن الفواحش تقبح بحسب ما يقترن بها، لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، فإن هذه الفاحشة مُنكَرة، ولكنهم إذا كانوا يفعلونها علنًا وجهرًا يُبصِر الناس بعضهم بعضًا فيها، صارت أقبح، وأعظم، ولهذا أتى بالجملة الحالية في قوله: ﴿وَأَنتُمْ

تُبْصِرُونَ ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين] فالقراءة - أيضًا - من أربع.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾، وهنا الاستفهام للتقرير، ولكن أُكِّد هذا في الجملة التي قُرِنت بالاستفهام بـ (إنَّ)، واللام ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾، وهذا كقول إخوة يوسف ليوسف: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي: أتقرِّر أنك يوسف، وتُؤكِّد ذلك فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، وفي جوابه لهم إهانة لهم؛ لأنهم هم طلبوا أن يؤكِّد لهم أنه يوسف، ما قال: إني لأنا يوسف، قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ إذن الاستفهام إذا تلاه التأكيد لا يخلفه عن معنى الاستفهام، وكأن المستفهم يطلب من المستفهم منه تأكيد الجملة، ولهذا في هذه المسألة الاستفهام للتقرير يقرر مع التأكيد ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ شهوةً تحتمل أن تكون مصدرًا في موضع الحال، ويحتمل أن تكون مفعولًا لأجله؛ أي: لأجل الشهوة، وعلى كل حال ففيها إنكار من جهة أنهم يأتون الرجال شهوةً، وليسوا أهلًا لها، ومن جهة أخرى أنهم يدَعون النساء، ولهذا قال: ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، وهن محل الشهوة، فيكونون قد أساءوا فيما فعلوا، وفيما تركوا، ولهذا قال لهم في آية أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وهذا أبلغ؛ يعني: لو أن المسألة ضُيِّقت ما بقي إلا هذا الطريق لكان أهون، لكن هنا تركوا محلًا مباحًا موافقًا للفطرة، تدَعونها وتذهبون إلى هذا، كالذي يدَع المُذكَّاة، ويأكل الميتة، وكالذي يدَعُ البيع الصحيح، ويذهب إلى الربا، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فالحاصل: أن القبائح تزداد قُبحًا إذا كان لها بدائل من الحسنات، لأجل هذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١].

الفوائد:

١ - في هذه الآية من الفوائد: قُبح فعل هؤلاء، وهذا مع الوجه الأول ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ قد يكون له وجه آخر وهو أنهم يأتون الرجال الذين ليس لهم حق في إتيانهم، ويدَعون النساء التي خلقهن الله لذلك، قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

٢ - ومن فوائد الآية: أن هذه الشهوة، إنما تصدر عن جهل، لا بمُقتضى الطبيعة، لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، كأنه قال: إتيانكم إياهم شهوة ليس له محل، ولكن الذي أوجب ذلك لكم أنكم قوم ذوو جهل؛ أي: سَفَه.

٣ - ومن فوائد الآية: بيان ما عليه هؤلاء القوم من المظهر الاجتماعي الفاسق؛ لأنهم إذا كانوا يأتون الرجال ما بقي منهم رجل في الحقيقة، صاروا كلهم بمنزلة النساء، إلا أنه إذا كبِر الإنسان

ارتفع عن أن يُفعَل به، وصار فاعلًا، فهم في حال الشباب مفعولٌ بهم، وفي حال الكِبَر فاعلون، ولهذا يُعتبر الانحطاط الاجتماعي في البشر من أخسِّ الانحطاطات.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن هذه الفعلة من السَّفَه العظيم، لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والاستمرار.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿جَوَابَ﴾ خبر كان مُقدَّم، و ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمها مُؤخَّر، وهذه الجملة للحصر؛ يعني: ما كان جواب قومه أن ينقادوا، ولا أن يقفوا موقفًا سلبيًّا من دعوته؛ بحيث يتوقفون عن القبول، وعن المعارضة، بل كان جواب قومه - والعياذ بالله - اللجوء إلى القوة، وإلى العنف، إلى أن قالوا؛ أي: قال بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الفاعل يعود إلى أهل الحلّ والعقد في القرية.

وقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أتى بهذا التعبير إشارة إلى أن لوطًا ليس منهم، وإنما هو حكومة طارئة على محل، فيجب أن يُنزَّه منه؛ لأن لوطًا أُرسل إلى أهل سدوم، وليس منهم، ولهذا قال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: الذين جاءوا، ووفدوا إليكم، وليسوا منكم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يقولوا: من القرية، بل قالوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ للإغراء بإخراجهم؛ يعني: كأنهم يقولون: هذه قريتكم، وهذا الرجل جاء عليها، ويريد أن يُناقضكم، وأن يقف ضدَّكم، أخرجوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ جملة تعليل لما سبقها من حكم، وهو الأمر بالإخراج، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون من أدبار الرجال، فجعلوا علّة العقوبة ما هو من أسباب رفع العقوبة، فإن التطهُّر عن هذا حسن يقتضي المدح، والثناء الجميل على من تطهَّر منه، وهؤلاء جعلوه بالعكس؛ لأنهم - والعياذ بالله - إما زائغون يعرفون الحق، وما يعملون به، وإما ضالون يضِلُّوا عن الحق - نسأل الله العافية - ، والغالب أنهم زائغون؛ لأن هذا معروف لدى البشر أن الطبيعة تنفر منه، ولا أحد يقبله.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقة، وأن هذا الفعل خبيث وأن هؤلاء يريدون التطهر، أو أراد أنهم يتطهَّرون بزعمهم، وأن هذا الفعل ليس نجِسًا، لكن هؤلاء يريدون أن يتطهَّروا منه؟

الأقرب: الأخير؛ لأنه هو مُقتضى حالهم أنهم رأوا هذا المنكر معروفًا، وهذه الفاحشة يسيرة، فتمسكوا بها.

وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أناس نكرة، والمنكر غير معروف، وكل هذا لقصد التباعد منهم، والإغراء بإخراجهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ لما عزموا على إخراجه أمره الله ـ تعالى ـ أن يخرج بأمر الله، فإن الله أمرهم أن يسري بأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، فسرى بأمر الله، ولما بعُد عن القرية أهلك الله أهل القرية صباحًا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فأرسل الله عليهم حجارة من سجيل، فجعل عاليَها سافِلَها، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الاستثناء متصل، أو منقطع؟ متصل فيكون في هذا دليل على أن المرأة من الأهل؛ لأن الإنسان يأهلها، ويأوي إليها، وكذلك هي بالنسبة إليه، فالزوجة من أهل الإنسان، كما أن أقاربه من أولاده، وآبائه هم ـ أيضًا ـ من الأهل.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: قدَّرنا عليها، ولهذا قال: [﴿جعلناها﴾ بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب]، الغابر بمعنى: الباقي، فالمعنى: أنها هي بقيت، ولم يأت بها، فكانت ـ والعياذ بالله ـ من الهالكين، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فإن هذه الخيانة ليست خيانة فرْج، وعِرْضٍ، وإنما هي خيانة كفر؛ لأنهما أظهرتا أنهما مؤمنتان، وهما ليستا كذلك، فبهذا صارتا خائنتَيْن.

قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، [وهو حجارة من سجيل فأهلكتهم ﴿فَسَآءَ﴾ بئس ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذاب مطرُهم] في هذا دليل على أن المطر ليس خاصًّا بالماء، بل كلما قُذِف به الإنسان من فوق يُسمَّى مطرًا، ولهذا قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، والمطر الذي أصابهم ما قاله المؤلف: حجارة من سجيل، كما قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، هذه الحجارة أهلكت، وجعلت عالي القرية سافلَها؛ بمعنى: أنها تهدَّمت عليهم، حتى صار عاليَها سافِلَها، وانهدم البناء فصار أعلاه أسفله، هذا هو الظاهر، وأما ما رُوي من أن جبريل حملها من الأرض السفلى، وأنه صعد بهم، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ونهيق حميرهم ثم قلبها، فإن هذا لا دليل عليه، لا من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، فالأقرب أن هذه الحجارة لما أصابت قريتهم صار عاليها سافلها.

وقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ﴾ [بئس]، إذنْ ساء فعل ماض، مجرد عن الزمن، وإنما هو يفيد الذم.

قوله تعالى: ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، قال: [بالعذاب مطرُهم] نقول في إعرابها: ساء فعل ماض، و﴿مَطَرُ﴾ فاعل، وهو مضاف إلى ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: مطرُهم، وهذا المخصوص أحيانًا يتقدَّم، وأحيانًا يأتي بدله اسم موصول يُجعَل بدلًا أو يُجعَل تمييزًا يكون بدل هذا المخصوص.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية**: بيان عُتوِّ هؤلاء المُكذِّبين للوط عليه السلام، وأنهم لم يقتصروا على رد دعوته، بل اتفقوا على أن يُخرجوه من البلد.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي عند الدعوة إلى الشيء أن يقرِن الداعي دعوته بما يُغري المدعُوِّين، ويُؤلِّفهم، ويُقوِّيهم، يؤخذ من قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، ولم يقولوا: من القرية.

٣ - **ومن فوائد الآية**: استعمال الداعي لما يُغري المدعو؛ لأن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ هذه تُوجِب الحمِيَّة، والعصبية، حتى يخرجوا، كأنهم قالوا: هذه القرية لكم أخرِجوا هذا الرجل، وكذلك في قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: هؤلاء ليسوا منكم.

٤ - **ومن فوائد الآية**: قَرْن الحكم بالسبب، لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وهذا سبب قولهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن قول البعض إذا رضِيَه الباقون، فهو للجميع، لقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن المعلوم أن هذا القول ليس للجميع؛ لأنهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾، فهو يُخاطِب بعضهم بعضًا، ولكن الكلمة إذا جاءت من بعض القوم، ورضِيَ الآخرون، فإنها تُنسَبُ إليهم، ولهذا يُخاطِبُ الله اليهود في عهد النبي ﷺ بما فعل أسلافهم، وفي سورة البقرة كثير من ذلك، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، وموسى الذي أوتي الكتاب والفرقان هل جاء لهؤلاء، أو لأسلافهم؟ لأسلافهم، وكذلك قال: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]، والذين اتخذوا العجل ما هم هؤلاء، لكن هؤلاء راضون، وفعل بعض القوم، أو القبيلة إذا رضِيَ الآخرون، فهو للجميع، ولكن إذا أكره أحد على ذلك فالعبرة بالأشراف.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

١- **يُستفاد من هذه الآية**: بيان أن الله - تعالى - كامل العدل؛ حيث أنجى لوطًا، وأهله.

٢- **ومن فوائد الآية**: أنه مَنْ أتى بأسباب الهلاك هلك، وإن كان بين قوم صالحين، لقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية**: بيان سبق التقدير للحوادث، أي أن تقدير الله - تعالى - سابقٌ على أفعاله، لقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها بتقديرنا السابق.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن المرء يُعذَر بما لا يعلم، فإن لوطًا كان لا يعلم عن امرأته شيئًا أنها كافرة، والدليل على أنه لا يعلم قوله - تعالى - في سورة التحريم: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، وإلا لما كان لنبي أن يُبقي

تحته امرأة كافرة، إلا أنه إذا كان لا يعلم، فهو معذور.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه لا يُنجي من عذاب الله الاتصال بأهل الصلاح، فلا يقول مثلًا الإنسان: أنا أخي صالح، أو ولي، أو ما أشبه ذلك، فهو يعصمني من عذاب الله، فهذه امرأة لوط لم ينفعها أنها امرأة نبي، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ونوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ له ابن كافر، قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، والنبي ﷺ قال لابنته فاطمة: «يا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا»[1]، فالمهم أن هذه الفائدة هي: ألَّا يغترَّ الإنسان بقُربه من أهل الخير، والصلاح، فيقول: إنني سأنجو بهذا القُرب؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحابي أحدًا، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُعذِّب كل إنسان بذنبه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فهنا يقول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، ووجه المناسبة من العقوبة للجريمة: أن هذا المطر جعل عاليَ بلادهم سافِلَها، كما أن أولئك سفلوا بأخلاقهم، حتى كانوا يستعملون هذه الفاحشة، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وهذا لا شك انقلابٌ في فِطَرهم، ولذلك عوقِبوا بهذه الجريمة - والعياذ بالله -.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: الثناء على الفعل بما يستحقُّه من الثناء؛ حيث قال: فساء مطرُ المنذرين، وهنا نُورِد إشكالًا، وهو أن هذا المطر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والثناء عليه بالقُبح، والشر لا يُنافي قول الرسول ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[2] وكيف الجمع؟

نقول: لا يُنافيه، والجمع: أن هذا السوء ليس في فعل الله، ولكنه في مفعوله، فهذا المطر هو الذي حُكِم عليه بالسوء ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، ولكن فعل الله فإنه ليس بشرٍّ، بل إنه من كمال العدل، والقوة، والسلطان؛ حيث عاقب المجرمين بما يستحقون، وعقوبة المُجرِم بما يستحق لا شك أنها ليست ظلمًا، وليست بسيئة، ولا يُحكَم على فاعلها بالسوء، فتبيَّن بهذا أنه لا يُنافي قول الرسول ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء الذين أهلكهم الله قد قامت عليهم الحُجَّة، هذه تؤخذ من قوله: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي أن هؤلاء أُنذِروا بالعذاب، فقامت عليهم الحُجَّة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٣٥١/ ٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠١/ ٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يقول في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فما عذَّب الله أمة من الأمم إلا بعد قيام الحُجَّة عليهم، ولولا ذلك لكانت الحُجَّة على الله، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلا أحد له حُجَّة على ربه؛ لأن الحُجَّة قد قامت بها ركَّب الله ـ تبارك وتعالى ـ في فِطَر الناس من محبة الخير، وعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأيَّد ذلك بالأنبياء، والرسل الذين أتوا بالبينات الظاهرات، فلم يبق للإنسان حُجَّة؛ لأن الدليل الباطني، والدليل الظاهري موجود فيهم، فالدليل الباطني: الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والدليل الخارجي: الرسل الذين جاءوا بالكتاب، وبالآيات البيِّنات، فقد قال ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ البَشَرُ»، فبهذا نقول: إن هؤلاء الذين أهلكهم الله ـ وهم قوم لوط ـ كانوا قد أُنذِروا بالعذاب، ولهذا قال: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

مسألة: ما الفرق بين المُنذِرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وبين المنذَرين في هذه الآية؟

الجواب: المُنذِر: مَنْ أتى بالإنذار، أو مَنْ أنذَر، والمُنذَر: مَنْ أُقيمت عليه الحُجَّة.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قُلِ﴾ قال المؤلف: [يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هلاك الكفار من الأمم الخالية] الأمر للنبي ﷺ، أو لكل من يمكن أن يُوجَّه إليه من العُقلاء.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أطلق هنا ما يُحمَد عليه، فهو أعم مما قاله المؤلف، وإن كان السياق يقتضي ما قاله المؤلف، لكنه ينبغي أن يُؤخذ بالعموم، ويكون من جملة ما يُحمَد عليه إهلاك الكفار؛ لأنه دالٌّ على عدله بإهلاك هؤلاء، وعلى فضله بالأنبياء، والمؤمنين؛ حيث أخذ أعداءهم، ولكنه يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا عام، يُحمَد على كامل أوصافه، وعلى أحاسن أفعاله، فأفعاله كلها حُسنى، وصفاته كلها كاملة، فيُحمَد على هذا، وعلى هذا، فيكون إهلاك كفار الأمم من جملة ما يُحمَد عليه، وهذا هو السر في أن الله ـ تعالى ـ لم يقل: قل الحمد لله على هذا، ولكنه قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ليكون الله ـ تبارك

وتعالى ـ محمودًا على كل حال، ومن جملة ما يُحمَد عليه إهلاك المُكذِّبين للرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال: [هم]، هذا المفعول قدَّره المؤلف، هل هو داخل في ضمن المقول؛ يعني: قل: الحمد لله، وقل: سلام على عباده الذين اصطفى، فيكون الإنسان مأمورًا بحمد الله، وبالدعاء لعباد الله الذين اصطفاهم، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أو هي جملة مستقلة خبر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه سلَّم من اصطفاه، وأنجاه؟

فيه احتمال للأمرين، لكن أيهما أقرب إلى السياق؟

الجواب: لا نُرجِّح أحد الاحتمالَين؛ لأن لكل منهما وجهًا، فالإنسان مأمور بأن يحمد الله، مأمور بأن يُسلِّم على عباد الله، وكذلك ـ أيضًا ـ الله ـ تبارك وتعالى ـ محمود على كمال صفاته، ثم إخباره بأنه سلَّم هؤلاء، هذا ـ أيضًا ـ مما يُحمَد عليه؛ لأن زوال النِّقَم كجلب النِّعَم، ويكون في هذا فائدة، وهي: أن العباد الذين اصطفاهم الله قد أحلَّ عليهم السلام، فلا ينالهم ما نال هؤلاء الكفار، ويكون الله محمودًا على الأمرين، على إهلاك الكفار، وعلى تسليم عباده الذين اصطفى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ بمعنى: اختارهم، والله ـ تبارك وتعالى ـ يخلق ما يشاء، ويختار، يختار ما يخلق، ويصطفي، فمن جملة مَنِ اختار مِنْ بني آدم: اختار الأنبياء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، واختار ـ أيضًا ـ المؤمنين، فإن المؤمنين بالنسبة للكفار مُصطفَون، والأنبياء صفوة الصفوة، والاصطفاء كغيره من الصفات التي تكون متفاوتة بحسب ما قام به العبد من أسباب الصفة، فكلما كان الإنسان أقوم بعبادة الله، وأشد تعظيمًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ كان أشد اصطفاءً.

وقوله: ﴿آللَّهُ﴾ [بتحقيق الهمزتين ﴿أألله﴾، وإبدال الثانية ألفًا ﴿آلله﴾، وتسهيلها ﴿ألله﴾، وإدخال ألف بين المُسهَّلة، والأخرى]، التسهيل فيه صفتان يدخل بينهما ألف بين الهمزة والمسهلة، ويترك، فصارت القراءات أربع.

ثم قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾. [لمن يعبده ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء، والياء؛ أي: أهل مكة به، الآلهة خير لعابديها]، خصَّه المؤلف بخيريته لمن يعبده، والصواب: أنها خيرية مطلقة لمن يعبده ـ وهذا يقتضي الإحسان ـ ولكماله ـ وهذا يقتضي العظمة ـ فهنا ما يعبده فقط، بل ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كل صفاته، وفي إحسانه، وعطائه؛ لأن الآية مطلقة، فيجب إطلاقها، وإطلاقها واضح حتمًا من تقييدها؛ لأنه مثلًا قد يكون هذا خيرًا لمن يتعامل معهم، لكنه ليس فيه الخيرية المطلقة، مثل هذا الرجل يتعامل مع شخص، فإذا عامله أعطاه فوق ما يستحق، لكنه في الصفات الأخرى رديء، ويأتي آخر جيد، وخيرٌ في صفاته الأخرى، لكن إذا تعامل معه ربما لا يُعطيه ما يستحق، فيكون الأول خيرًا من الثاني، ومع ذلك، فهو ناقص.

فقول المؤلف: [﴿خَيْرٌ﴾ لمن يعبده] هذا فيه نظر، أولًا: لتقييده لمطلق بلا دليل، الثاني: أن هذا التقييد لا يقتضي الأفضلية، ولذلك يجب أن يُقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كل شيء، في صفاته، وفي ثوابه، وجزائه لمن يعبده.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: أم الذي يُشرِكونه مع الله من الأصنام، وغيرها؟ والجواب: بل الله خير، ولهذا ينبغي لك إذا قرأت هذه الآية أن تقول: بل الله، وهذه المعادلة لا تقتضي المقاربة، أو المُماثلة، فإنه قد يُفاضَل بين الشيئين مع خلو الطرف الثاني منهما، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، مع أنه ليس في مُستقر النار خير، وليس فيها حُسْنُ مَقِيل، بل إنهم يُفاضِلون بين أمرين مُتعاكِسَيْن، فيُقال مثلًا: الشتاء أشد من الصيف، أو يقول بعضهم: الشتاء أبرد من الصيف، مع أن الصيف ليس فيه برودة.

فالحاصل: أن هذا لا يقتضي المُماثلة، أو المُساواة، ولكن هل يقتضي النقص؟

نقول: نعم، يقتضي النقص؛ لأنه يُوهِم المشاركة إلا في مقام التنزُّل فلا يقتضي المُشاركة، يقول الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـسَّيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ: إِنَّ السَّيْفَ أَمْـضَى مِـنَ العَـصَا

لكن عند التنزُّل لا يدل على النقص، فهذه الأصنام التي يُشرَك بها مع الله يُريد منها عابدوها أن تنفعهم بجلب النفع، أو دفع الضرر، فنقول لهم: أيها فيه خير؛ هذه أم الله؟ من باب التنزُّل مع الخصم؛ لأن هؤلاء يدَّعون أن في آلهتهم خيرًا، فيُقال لهم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: على زعمكم، وإن كان ليس فيها خير إطلاقًا.

وقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أم هذه متصلة، أو منقطعة؟ وما الفرق بين المتصل، والمنقطع؟

المتصل معناه: أن تكون بين متعادلَين، وأما المنقطع: أن تكون بين متباينَيْن؛ لأن الثاني منقطع عن الأول، وهذا متصل به، فإذا صارت بين متعادلَين فإنها تُسمَّى متصلة.

وأيضًا فرق آخر لفظي يفصل: أن المتصلة يسبقها همزة الاستفهام، أزيدٌ قائمٌ أم عمرو؟ فيُذكر فيها المُعادِل، وتسبقها الهمزة تحقيقًا، أو تقديرًا.

وأما المنقطعة فلا تُدخل بين المُتعادلَين، ولا يلزم منها أن يكون قبلها همزة، هذه الآن قبلها همزة ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾، وهي أيضًا بين مُتعادلَين.

قال المؤلف: [﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء، والياء] يعني: ﴿أَمَّا تُشرِكون﴾، أو قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال المؤلف: [أي أهل مكة به، الآلهة خير لعابديها] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ قدرها المؤلف مرة ثانية، [فيه التفات من الغيبة إلى التكلُّم ﴿بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة وهو البستان المحوط ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لعدم قدرتكم عليه].

قول المؤلف: [الآلهة خير لعابديها]، واضح، وعلى هذا فتكون أم - أيضًا - متصلة، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى: أوجد بتقدير؛ لأن الخلق لابد أن يسبقه تقدير، والإيجاد أعم منه، قد يُوجِد الإنسان الشيء بلا تقدير، ولكن الخلق لابد فيه من تقدير.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بعضهم يقول: السماوات ليست مفعولًا به، وإنما يُقال: مفعولًا مطلقًا، وليست مفعولًا به؛ لأن المفعول به يقتضي أن يكون ما وقع عليه الفعل سابقًا على الفعل، وهنا السماوات ليست سابقة على خلقها، وعلى هذا فقل: إنها مفعول مطلق.

لكن هذا في الحقيقة من الفلسفة التي ليس لها معنى؛ لأن ﴿خَلَقَ﴾ تعني أوجد السماوات، فالفعل واقع على الإيجاد، وإن كانت السماوات قبل الإيجاد ليست موجودة، هم يقولون: المفعول به لابد أن يكون سابقًا على الفعل، ضربتُ زيدًا، فزيد سابق على الضرب، أكلتُ الطعام، الطعام سابق على الأكل، صنعتُ الطعام، حوَّلته من حال إلى حال - أيضًا - سابق على الطعام، لكن خلق السماوات نقول: سابق على الخلق؟ لا، إذنْ ليس هي مفعولًا به؛ لأنه ما يقع عليها فعل الفاعل، إذ لم توجد إلا بفعل الفاعل، فخلق معناها يدل على الإيجاد، والإيجاد سابق على الموجود.

قال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والسماوات تُذكَر بلفظ الإفراد، والجمع وقع كثيرًا في القرآن، والأرض ما ذُكِرت إلا بلفظ الإفراد، إلا أن الله قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وإلا فبقية الآيات، وحتى في هذه الآية ما ذُكِرت إلا مفردة، ولم يقل: والأراضين، لكنها، وردت في السنة مجموعة، ومُبيَّن أنها سبع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ماءً هذه مفعول مطلق، أو مفعول به؟ مفعولٌ به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ اللام للتعليل، أو للإباحة، ولكنها للتعليل أبلغ؛ لأنها إذا كانت للتعليل شملت الإباحة، وشملت ما يكون به النفع من هذا الماء، وإن لم يلامسه.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المراد بالسماء هنا: العلو، والدليل على ذلك: أن هذا الماء ينزل من السحاب، وقد قال الله - تعالى - : ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فدلَّ هذا على أن المراد بالسماء هنا: العلو.

وقوله: ﴿مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، قال: [فيه التفاتٌ من الغيبة إلى التكلُّم]، وما الغَيْبةُ؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ﴾، وهنا قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، والالتفات فيه فوائد منها:

أن الكلام إذا سار على وتيرة واحدة أدى إلى الملل، ففي الالتفات التنبيه.

قال المؤلف: [أآلهة خيرٌ لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟]، والجواب:، بل من خلق السماوات، والأرض، فهو خيرٌ.

وقوله: [أآلهة خيرٌ لعابديها] نقول فيها مثل ما قلنا في قوله: [خيرٌ لمن يعبدون]الخيرية هنا

مطلقة إذا صحَّ تقدير المؤلف؛ لأنه قد يقول قائل: إن قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ للإضراب، وليست للمُقارنة؛ يعني:، يكون السؤال استفهامًا مطلقًا؛ يعني يقول: من الذي خلق السماوات، والأرض؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فيكون قوله: ﴿أَمَّنْ﴾ هذه للإضراب، وليست مُتعلِّقة بما سبق، فيصير تقدير الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فيكون استفهامنا ليس للمُعادلة، أما المؤلف فجعل الاستفهام للمُعادلة: [آلهة خير لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾]، وقد تقدَّم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ﴾.

قال: [حدائق جمع: حديقة، وهو البستان المُحوَّط] يعني: الذي عليه حائط، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [حُسن] والبهجة بمعنى: الحُسن؛ لأنه يبتهج بها القلب، وينشرح بها الصدر، وهذا أمرٌ معلومٌ لاسيَّما لعُشَّاق الحدائق، وإلا فبعض الناس ما يهمُّه الحديقة سواءٌ كان فيها ما يبهج، أو لا، ولكن عُشَّاق الحدائق يجدون لذَّةً عظيمة في مثل هذه الحدائق التي فيها هذا النبات العظيم.

قال الله - تعالى -: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ما كان بمعنى: ممتنع غاية الامتناع، وهي نظير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] أي: ممتنعٌ عليه، فـ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾؛ أي ما صحَّ لكم، وما أمكن لكم أن تُنبِتوا شجرها، [لعدم قُدرتكم على ذلك]، ليس في مقدوركم أن تُنبتوا هذا الشجر، فإذا قال مُجادِل: بل في مقدوري أن آتي بعدس، وآتي بحبٍّ، وأحرِث الأرض، وأضعه فيها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤] أنت فعلتَ السبب، لكن هل خلقتَ هذا؟ هل خلقتَ الحبَّ، والنوى؟ أبدًا، وإذا جادل مُجادِلٌ بمثل ذلك، قلنا له مثل ما قال إبراهيم للذي قال: أنا أُحيِي، وأُميت، قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، نقول: إذا كنت تقدر أن تفعل هذا، فهذه الشمس تأتي من المشرق، فأْتِ بها من المغرب.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ﴾، قال المؤلف: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين في مواضعه السبعة] يعني: في الآيات الآتية.

﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [أعانه على ذلك]، أو انفرد بشيء منه، فالمعية هنا تقتضي المُعاوَنة إذا كان مُصاحبًا له، أو الانفراد ببعض الخلق إذا كان غير مُصاحِبٍ له، فهذه الحديقة مثلًا فيها نخل، ورمان، وعنب؛ هل مع الله إلهٌ شارَكه في إيجاد النخل، والرمان، والعنب، أو أوجَدَ النخل، والله أوجد الرمان، والعنب، وما أشبه ذلك، إذنْ قول المؤلف: [أعانه] ينبغي أن يُقال: أو انفرد بشيء منها؛ لأن الله يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الانفراد، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هذه المُشاركة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن

ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، هذه المُعاونة، وإن لم يكن شريكًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ هذا التوسُّل، فلا يمكن أن يتعلَّق به المُشركون بالنسبة لأصنامهم فنفاه في هذه الآية، انظر إلى الترابط في القرآن!

أولًا: الانفراد، في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ثانيًا: المُشاركة على وجه الشيوع، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

ثالثًا: المعاونة بدون مُشاركة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما عاونه أحد.

رابعًا: التوسُّط للعابدين إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ فبأي شيء يتعلَّقون؟

فالحاصل: أن قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه، نقول ـ أيضًا ـ: أو انفرد بشيء، أو شارك في مُلكه، ليس معه إله آخر.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقول: [أي: ليس معه إله] فالاستفهام إذنْ إنكاري للنفي؛ يعني: ليس مع الله إلهٌ فعل ذلك، فالمعبودات التي تعبدونها مع الله لم تفعل ذلك، إذنْ فالواجب إفراد الله ـ تعالى ـ بالألوهية، فعليه تكون الحُجَّة قد قامت على هؤلاء بما أقرُّوا به من الربوبية، وهذا كثيرًا ما يستدل الله ـ تبارك وتعالى ـ بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية،قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ توحيد ألوهية، وقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ هذا ربوبية.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، قال: [يُشركون بالله غيرَه]، ﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الانتقالي؛ يعني: بل هم مُقرُّون بذلك، وأنه لا إله مع الله، ولكنهم يعدِلون به غيرَه، فيُشرِكون، فصار فعلهم هذا ليس عن دليل، بل لمُجرَّد هوى، وإن كانوا مُقِرُّون بأن الله ـ تعالى ـ لا شريك له في خلق السماوات، والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النبات به، وإنما يعدِلون بالله غيرَه فيُشرِكونه مع الله لمُجرَّد أهوائهم، أما أنه عن دليل عقلي، أو فِطري، أو نقلي فليس كذلك.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

١ ـ يُستفاد من هذه الآية: وجوب حمد الله، لقوله: ﴿قُلِ﴾، والأصل في الأمر الوجوب، والله ـ تعالى ـ يُحمَد على كمال صفاته، وأفعاله، وهنا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الأمرين جميعًا، ومن جملة ما يُحمَد عليه أنه أهلك هؤلاء المُنذَرين الذين كذَّبوا الرسول، ولهذا تخصيص المؤلف بقوله: [على هؤلاء الكفار]تقدَّم التنبيه عليه، وأن هذا تخصيصٌ للآية، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيُحمَد الله ـ تعالى ـ على كمال صفاته، وأفعاله، وحمدُه واجب.

مسألة: الحمد هل هو الثناء أم غيره؟

الجواب: بعض الناس يقول: الحمد هو وصف الله بالجميل، وهذا غير صحيح، وإنما الحمد هو: وصف المحمود بالكمال، ثم إن كُرِّر صار ثناءً، ودليلنا على هذا: قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي، وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فإذا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1]، فدلَّ هذا على أن الحمد ليس الثناء.

وحمد الله واجب شرعًا وعقلًا؛ لأن العقل يقتضي أن يوصف الله بالكمال.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن إهلاك الله للأمم صفة كمال ينبغي أن يُحمَد عليه،وهذا الإهلاك للمستحقين - طبعًا - ولا يعذب الله إلا مستحقًا للعذاب، وعلى هذا إذا أُصيب هؤلاء الكفار بالكوارث، من الزلازل، والفيضانات، والأوبئة، فما موقفنا نحن من ذلك؟ هل نترحَّم لهم، ونأوي لهم؟ لا، لكن بعض الناس الجُهَّال في وقتنا هذا تَجِدهم يتأوَّهون لهم، ويتوجَّعون لهم، ويعطِفون عليهم، ويرحمونهم، وهذا خلاف العقل، وخلاف النقل، بل إننا إذا أوقع الله بهم ما يُوقِع من عقوباته فإننا نقول: الحمد لله، نحمدُ الله على ذلك؛ لأن إهلاكهم مصلحة للإسلام، والمسلمين، ما من فرد يزيد في الكفار إلا ويزدادون به قوة على المسلمين، فإذنْ إهلاكُهم نعمة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ علينا أن نحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليها، ولا يُنافي هذا أن نعطِف مثلًا على القُصَّار منهم؛ لأن هؤلاء لا ذنب لهم، مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت، وبقي أيتامُها، وهم كفار، فإنه لا مانع مثلًا من أن نتصدَّق عليهم؛ لأن هؤلاء لا ذنب لهم، ولا جريمة لهم، وربما يعيشون في الإسلام فيما بعد، ، إنما هؤلاء المُكذِّبون المُجرِمون إذا أهلكهم الله، فإن الواجب علينا أن نحمد الله، لا أن نترحَّم لهم، ونرِقَّ لهم، وهذا خلاف ما عليه بعض الناس اليوم الذين فقدوا الغيرة الدينية، ولم يكن في قلوبهم الولاء والبراء؛ لأن كثيرًا من الناس فقدوا الولاء والبراء، وبعض الناس فقد البراء فقط، ومعه الولاء، لكنه، وليٌّ لكل أحد، وبعض الناس برئ من كل أحد لا يحب المسلمين، ولا الكفار، ولكن هذا نادر، إنما الكثير في وقتنا هذا هو الولاء للجميع، وأنه لا يُبغِضُ أحدًا، فالمسألة إنسانية فقط ليست دينية، وهذا خطأ، وخطر ـ أيضًا ـ ، مع كونه خطأً، فهو خطر؛ لأن من أوثق عُرى الإيمان: الحبُّ في الله، والبُغض في الله[2].

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له أن يتمدَّح بنفسه، ويدعو الناس إلى ذلك، أما غيره فليس من اللائق أن الإنسان يقول للناس: احمدوني، واثنوا عليَّ، ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأنه أهل لذلك، ولأن المصلحة لنا، والله ـ تعالى ـ لا ينتفع بطاعة الطائعين، ولا يتضرَّر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨/ ٣٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٣٧) من حديث ابن عباس ﷺ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

بمعصية العاصين.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الذين اصطفاهم الله قد برئوا مما يُلصَق بهم، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإن هذا السلام يتضمَّن سلامتهم مما وصِفوا به، وقُدِح فيهم به، ويتضمَّن ـ أيضًا ـ سلامتهم من عقوبة الله، فالسلامة هنا شاملة، السلامة مما يتعلَّق بفعل الله كالعقوبة، أو بفعل الخلق؛ كالقدح.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصطفي من عباده من يشاء، فيختارهم لعبادته، لقوله: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ أي: اختار، لكن من الذين يختارهم؟ هم الذين قاموا بطاعته، فمن قام بطاعة الله اصطفاه الله، ومن عصا الله، فهو بعيدٌ من الاصطفاء.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: قيام الأفعال الاختيارية بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإن الاصطفاء من الأفعال، والله ـ تبارك وتعالى ـ قائمٌ به الأفعال الاختيارية.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: حكمة الله ـ تعالى ـ لتعليق الأحكام بأسبابها، فإن السلامة هنا مُعلَّقة على الاصطفاء، وهكذا أحكام الله الكونية، والقدرية كلها مربوطة بأسبابها، وذلك لثبوت الحكمة في أحكام الله؛ إذ إن الله ـ تعالى ـ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: الثناء على المُصطفَيْن لسلامتهم.

٩ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ما جاءت به الرسل فإنه ليس فيه نقص، سواءٌ كان ذلك في الأحكام الشرعية، أو في الأخبار، فما أخبرَت به الرسل، فهو حق، ليس فيه كذِب، وما أمرت به، أو نَهت عنه، فهو عدلٌ ليس فيه جورٌ، ولا ظلمٌ؛ لأن قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أول من يدخل فيه: الرسل، ولهذا يقول الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في سورة الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فسلَّم على الرسل لسلامة ما قالوه من النقص، والعيب.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من قام بما يجب عليه من الاجتهاد فأخطأ، فلا إثم عليه، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإذا اجتهد الإنسان في طلب الحق، وتحرَّى الحق، وأخطأ، فلا إثم عليه في هذا الخطأ؛ لأنه ما دام مُتحرِّيًا للحق، وطالبًا له، وفاعلًا لأسبابه، فهو من العباد المُصطفَين، فإذا حصل عليه خلل، فهو سالمٌ مما يكون بهذا الخطأ، وهذا يشهد له قول الرسول ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١١ ـ **وفيه دليل على**: جواز المُقارنة بين ما هو خيرٌ محض، وما لا خير فيه؛ مراعاةً للخصم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري(٩٧) ومسلم (٢٤١/ ١٥٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وإقامة للحُجَّة عليه، فإن من المعلوم أن الله خيرٌ مما يُشرِكون، ولا مُقارنة بينه وبينهم، لكنه يُخاطِب قومًا مُشركين إن كانت القراءة بالتاء، أو يتحدَّث عن قوم مُشركين، فلهذا راعَى أحوالهم، فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٢ـ ومن فوائد الآية: بيان إلزام الخصم بما لا يمكنه إنكاره، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٣ ـ وفيها ـ أيضًا ـ: جواز المُقارنة بين شيئين لا يتشابهان في المعنى من أجل إقامة الحُجَّة، لقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك؛ لأن ما يُشرِكون به مع الله ليس فيه خيرٌ إطلاقًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، ما قال: لا يقضون بالحق، بل قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾؛ يعني: ما لهم أي سلطة إطلاقًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾:

١ ـ من فوائد هذه الآية: أن من أساليب المناظرة إلزام الخصم بما يُقِرُّ به؛ لأن هؤلاء لا يمكن أن يقولوا: إن آلهتهم خير أبدًا، ولهذا عقَّبها بقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ إلى آخره مما هو من أفعال الربوبية التي لا يمكن لهم أن يدَّعوا أن آلهتهم تفعلها، فإذنْ تقرير الحكم، أو إلزام الخصم بما يُقِرُّ به هذا من أساليب المناظرة.

٢ ـ ومن فوائد الآية: عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في إقامة الحُجَّة على المُعانِدين؛ لأنه إذا وصلت الحال إلى هذا الأمر إلى أن يقول لهم: آلله خيرٌ أم أصنامُكم؟ فهذا في غاية ما يكون من العدل، وإقامة الحُجَّة، وإلا فالله قادرٌ على أن يدَع هؤلاء، ويُبيِّن الحق، ولا حاجة إلى مُناظرة، ولكن لإقامة الحُجَّة على هؤلاء، ولكمال العدل فيما لو عُوقِبوا أن يكون عقوبتهم بعد إقامة الحُجَّة صار مثل هذا الكلام.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ الخيرية المُطلقة في كل شيء، خلافًا لما مشى عليه المؤلف؛ حيث قال: [لمن يعبده]، والصواب: آلله خيرٌ في كل شيء، في صفاته، وفي أفعاله المُتعلِّقة بعابديه.

٤ ـ ومن فوائد الآية: بيان انفراد الله ـ تعالى ـ بخلق السماوات والأرض، لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، وخلق السماوات، والأرض يتضمَّن إيجادهما، وإيجاد ما فيهما من المنافع، فلا أحد يستطيع أن يُغيِّر شيئًا من خلق السماوات، والأرض، لا من الشمس، ولا من القمر، ولا من النجوم، ولا من غيرها.

٥ ـ ومن فوائد الآية: ما تضمَّنته هذه المخلوقات من منافع الخلق.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان حكمة الله ـ تعالى ـ من إنزال المطر من فوق، لقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأن نزوله من السماء أعم، وأقل ضررًا؛ إذ لو كان يأتي من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال إلا وقد أغرق ما تحتها، ولهذا ينزل من فوق ليكون أشمل، وأعم وأقل ضررًا.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل أي: لأجلكم، وهذا من رحمته ـ تعالى ـ؛ لأنه غنيٌّ عنا، ولكن نحن مُفتقِرون إليه.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الأشياء ينبغي أن تُضاف إلى المُسبِّب، لا إلى السبب، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، فأضاف الإنبات إلى الله مع أن النبات يحصل بالمطر، ولكن المُنزِل هو الله، ولهذا ينبغي للإنسان أن يُضيف الشيء إلى المُسبِّب الخالق مُشيرًا إلى السبب، كما يقول العلماء عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : هدى الله به من الضلالة، وأنقذ به من الهلاك، وبصَّر به من العمى، وما أشبه ذلك، فأضاف الشيء إلى المُسبِّب بالإشارة إلى بيان السبب.

٩ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾؛ لأن الباء للسببية، وإثبات الأسباب يتضمَّن إثبات الحكمة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربط الأسباب بمُسبَّباتها، وهذا من الحكمة.

١٠ـ **ومن فوائد الآية**: التنزُّه في الحدائق، والابتهاج بها، لقوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، وأن الإنسان لا يُلام لو أنه مثلًا نظر إلى ما أخرج الله من المطر في هذه الحدائق، والبساتين، فإنه لا يُلامُ على ذلك، بل هذا من فضول الكلام، فإن النفس إذا لم تُمَرَّن على هذا، وهذا فإنها تملُّ، وتكِلُّ، ولا تأتي بالأمور على وجهها، والناس ـ أيضًا ـ يختلفون في هذا؛ منهم من يكون من ضروريات الحياة له أن يتنزَّه أحيانًا، ومنهم من لا يهتم بذلك، ومنهم من يجعل ديدنَه دائمًا التنزُّه، واللهو، واللعب، فيُعرِض عمَّا خُلِق له.

فالحاصل: أننا نقول: إن قوله تعالى: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ في سياق الامتنان يدل على أنه لا مانع أن الإنسان يرتاد هذه الحدائق لأجل أن يبتهج بها، لكن بشرط ألَّا تشغله عن ذكر الله، وطاعته، وعما هو أهم من ذلك.

١١ـ **ومن فوائد الآية**: أن الخلق لا يُمكنهم أن يَخْلُقوا، ولا شجرة، لقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ لأن ما كان؛ بمعنى: لا يمكن، ولا يصح، فهو من المستحيل، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ﴾ [مريم: ٣٥]، فالخلق مع قدرتهم الصناعية لا يمكن أن يخلقوا شجرة، ولا شجيرة صغيرة، وإلى الآن، وإلى ما بعد الآن لا يمكنهم ذلك، كما أنهم لا يمكن أن يُبقُوا إنسانًا، ولا يمكن أن يمنعوا خروج نفسه عند خروجها.

فإذا قال قائل: يعالجون المرضى المزمنين ثم يشفون فما تفسير ذلك؟

الجواب: هذا لا يعدو أن يكون سببًا فإذا حان الأجل بطل السبب، ونحن لا ننكر الأسباب ولكن ننكر كون هذه الأسباب موجبة لمشيئة الله لكنها قد تفيد وقد يوجد مانع أقوى منها.

١٢- ومن فوائد الآية: تحدِّي هؤلاء المُتخذين آلهة مع الله أن يكون لآلهتهم شيءٌ من هذا، لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن هذا تحدٍّ عظيم، ولا يستطيعون أن يُثبِتوا ذلك.

١٣- ومن فوائد الآية: إقامة الحُجَّة على سفَه هؤلاء المُشركين، لقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ يعني: يعدِلون بالله غيرَه، وليس المراد العدل الذي هو ضد الظلم، إذا كان هذا هو المراد لكان هؤلاء ممدوحين مُثنًى عليهم، ولكن المراد: يعدِلون بالله غيرَه، فيجعلونه عديلًا لله - سبحانه وتعالى - .

١٤ - ومن فوائد الآية: ما أشرنا إليه كثيرًا من أن الكلمات ليس لها معنى ذاتي، بل معناها يُحدِّده السياق، وأن كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لو كان له معنى ذاتي، لكانت هنا بمعنى: لا يجورون؛ لأن مفهوم هذا الفعل أن العدل بمعنى: إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، والأمر هنا ليس كذلك، بل هذا ظلم أن يعدِلوا بالله غيرَه، وبهذا التقرير الذي قرَّرناه يتبيَّن رُجحان كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال: (إنه ليس في اللغة مجاز)، والمسألة فيها ثلاثة أقوال:

إثبات المجاز في اللغة والقرآن، ونفيُه فيهما، وإثباتُه في اللغة دون القرآن، والصواب: أنه لا مجاز، لا في اللغة، ولا في القرآن، وأن كلَّ ما ادُّعِيَ أنه مجاز، فإنه حقيقة في موضعه[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ على تقدير المؤلف نقول: آلهة خير ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ جعل فعل ماضٍ ينصِب مفعولَين: الأول ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، والثاني ﴿قَرَارًا﴾، قوله تعالى: ﴿قَرَارًا﴾ قال: [لا تميدُ بأهلها]، فهذا ما أحد يستطيع أن يجعل الأرض قرارًا لاسيًا، وأنها مُركَّبة على الماء، والماء مُحيطٌ بها من كل جانب، ولو أنك وضعتَ كرةً في ماءٍ؛ هل تستقرُّ، أم لا؟ تتقلَّب، وتتموَّج، ولكن الله - تبارك وتعالى - جعل هذه الأرض كرةً في وسط الماء؛ لأن البحار تُمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسة، ومع هذا فإنها مُنضبطة تمامًا، لا تميدُ ولا تتقدَّم إلى ناحية، ولا تتأخَّر عنها، ولا تتدحرج في هذا الماء، فجعلها الله - تعالى - قرارًا، والقرار موضع الاستقرار.

---

(١) هذا الرأي فيه نظر لعلماء العربية.

وقوله: ﴿قَرَارًا﴾ استدل به مَن يقول: إن الأرض تدور، ومن يقول: إن الأرض لا تدور.

الذي يقول: إن الأرض لا تدور، يقول: لأنها مع الدوران ليست في قرار، ولو كانت تدور لاستدارت، والذي يقول: إنها تدور يقول: لولا أن هناك حركة ما مادت المَيَدان، فنفي الأخص يقتضي وجود الأعم؛ مثلما أنكم استدللتم بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ على أن الله يُرى؛ لأنه لو كان لا يُرى، ما صحَّ أن يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ولقال: لا تراه، فهنا ألقى في الأرض رواسي أن تميد، لولا وجود الحركة ما صحَّ أن يكون هناك مَيدان؛ لأن ما لا يتحرَّك لا يُتوقَّع منه المَيَدان، وإنما يُتوقَّع المَيَدان بما يتحرَّك، وعلى هذا فنقول: إن هذه الآيات دليل على أن الأرض تدور.

والذين يقولون: لا تدور يقولون: إن نفي المَيَدان صحيح يدل على حركة، لكن هل هو يدل على حركة موجودة بالفعل، أو يدل على حركة مُتوقَّعة؟ بمعنى: أنه لولا هذه الجبال لكانت تضطرب؛ حيث إنها في الماء، ولكن لما وجدت هذه الجبال أمسكته، وكانت لها رواسي بمنزلة أطناب الخيمة، في الحقيقة أن هذا الأخير ردٌّ واضح على الأول، وأنه لا يلزم من مجرد الحركة الدوران، نقول: نعم، هي يمكن أن تتحرَّك، ولولا هذه الجبال لمادت؛ لأن محلها في ماء، فكُرَةٌ في ماء لابد أن تتحرَّك، وهذا الماء العظيم التي تضربه الرياح لابد أن يكون فيه أمواج عظيمة مثل البحار ﴿يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠]، هذه الأمواج العظيمة إذا ضربت الأرض لولا وجود الجبال المُرسِية لمادت على كلِّ حال؛ لأن هذه الأمواج ليست هيِّنة.

فالحاصل: أن الآية ليس فيها ما يُقرِّر أن الأرض تدور، بل فيها ما يقرر أن الأرض لا شك أنها تضطرب لولا وجود هذه الجبال.

ثم يبقى الأمر الآن، مسألة الدوران تبقى لا دليل عليها من القرآن، ولا دليل ينفيها، فإذا ثبت ذلك بالأدلة البيِّنة فإننا نؤمن به؛ لأن الإنسان المؤمن لا يمكن أن يُنكِر المحسوس، بل إذا أنكر المحسوس كان ذلك طعنًا في فهمه، وفي تصوُّره، وما دام أنه ليس في القرآن ما ينفي ذلك، وما لا يُثبِته، فما موقفنا نحن؟ موقفنا الوقوف، حتى يتبيَّن لنا الأمر، فمن زعم أن الأمر قد تبيَّن له، وهو من المسلمين، وقال: أنا أعتقد ذلك؛ ليس عندنا دليل، نُنكِر عليه.

ومن قال: ما يتبيَّن لي، والحمد لله، حسبُنا أن نقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكونها تدور، أو لا تدور، هذا لا يعنينا، يعنينا الآن أن المصالح مُركَّبة على تعاقب الليل، والنهار، قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

أما أن هذا التعاقُب، يكون بدوران الأرض، أو بدوران الشمس، فهذا لا يعنينا.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: [لا تميدُ بأهلها]، والمَيَدان معناه: الاضطراب، فما

أحد جعل الأرض قرارًا إلا الله - سبحانه وتعالى - ولا يستطيع أحد أن يقوم بذلك، ولهذا إذا جاءت الزلازل هل يمكن هؤلاء بجميع قواهم أن يمنعوا رجَّة الأرض؟ لا، ما يستطيعون؛ بل، ولا يعلمون متى تكون هذه، إلا إذا ظهرت توابعُها، ولو خفيَّة تُعلَم بالآلات الدقيقة علِموا بذلك، فإذنْ لا أحد يستطيع أن يجعل الأرض قرارًا بأهلها إلا خالق الأرض، وهو الله - سبحانه وتعالى - .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَآ أَنْهَـٰرًا﴾ ما معنى خلالها؟ قال: [فيها بينها] ﴿أَنْهَـٰرًا﴾ ظاهرة على ظهر الأرض، وأنهارًا باطنة في جوف الأرض، وأن الله - تعالى - أخبر بأن هذا المطر يسلُكُه الله ينابيع في الأرض، هذا شيء مشاهد، فالذين يحفرون الأرض يجدون أن فيها أنهارًا تجري يرونها عيونًا، تجري في داخل الأرض، وتصُبُّ حيث أراد الله - سبحانه وتعالى - فمن يُجْرِي خلال الأرض هذه الأنهار؟ ليس إلا الله - سبحانه وتعالى - ولو اجتمعت الأمة كلها بجميع قواها، وقُدَرها على أن تُجرِي نهرًا واحدًا من هذه الأنهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فالذي جعل هذه الأنهار رحمةً بالعباد هو الله - سبحانه وتعالى -.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾، قال المؤلف: [جِبالًا أثبت بها الأرض]، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: صيَّر لها ﴿رَوَٰسِىَ﴾ فواعل جمع فاعل، وكأن المؤلف هنا يُشير إلى أن راسي بمعنى: مُرسِي، وفرق بين الراسي، والمُرسِي، والراسي، يعني بنفسه، والمُرسِي بغيره، هذه الجبال يُعبِّر الله عنها في آيات عديدة أنها رواسي، وقال في سورة النازعات: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]؛ هل: أرسى الأرض بها، أو أرسى الجبال أثبتها؟ كلا المعنيين، فإذا هي رواسٍ بنفسها، وهي - أيضًا - مُرسِية، ولهذا سمَّاها الله أوتادًا ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] بمنزلة أوتاد الخيمة تُمسكها، وتربطها، هذه الجبال راسية بنفسها، ولذلك أمام العواصف، والقواصف تجدها ثابتة ما تتحرَّك، فهي راسية، وكذلك - أيضًا - مُرسِية للأرض، قال الله - تعالى - : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٦]، فهي راسيةٌ مُرسِية، إذنْ من الذي جعل هذه الرواسي؟ الله - سبحانه وتعالى - ولو اجتمعت الخلائق كلها على أن تُزلزل جبلًا من هذه الجبال الكبيرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، دلَّ ذلك على أنه لا إله مع الله، كما يأتي في تفسيره في آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، قال المؤلف: [بين العذب، والمِلح، لا يختلط أحدهما بالآخر]، وقوله تعالى: ﴿حَاجِزًا﴾ أي: مانعًا، والمراد بالبحرين: العذب، والمِلح، ثم كيف هذا الحاجز؟ بعضهم قال: إن الحاجز هو اليابس من الأرض الذي يحول بين البحر، وبين النهر؛ لأن البحر له منفذ خاص، والنهر له منفذ خاص، ولو شاء الله - تعالى - لمزجَهما، ولكن جعل لهذا مجارِيَه، ولهذا مجارِيَه.

وبعضهم يقول: إنه حاجز غير مرئيٍّ، وأنه يوجد في نفس البحار أنهار عذبة حلوة، ومع ذلك

لا تختلط بالمِلْح؛ لأنها لو اختلطت بالمالح لفسد الهواء، وأوجد احمرارًا، كما يوجد الآن في المُستنقعات التي تأتي من السيول، إذا أتت يتعلَّق بها الجو، والهواء، ويتولَّد منها أشياء كثيرة مُؤذِية ضارة، بينما البحار العظيمة ما يؤثر فيها هذا، بما أودع الله - تعالى - فيها من هذا المِلْح الذي يقتل الجراثيم، ويمنع فساد الهواء، ولو اختلطت هذه بهذه أفسد كل منهما الآخر، لكنه جعل بينهما حاجزًا، المهم: هل هذا الحاجز أمرٌ محسوسٌ، وهو اليابس من الأرض الذي يكون بين هذا، وهذا، أو هو حاجز غير محسوس، كما نُشاهد الأنهار التي في وسط البحار؟

لنا أن نقول بالأمرين؛ حاجز محسوسٌ، وحاجزٌ غير محسوس.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا إله مع الله، والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: الأمر واضح، وبيِّن، لكن أكثر هؤلاء لا يعلمون، وقول المؤلف: [توحيده] فيه قُصور، والصواب: أنه نفيٌ للعلم مطلقًا، لا بتوحيد الله، ولا بما تدل عليه هذه الآية العظيمة من الرحمة، والحكمة، والقدرة، والسلطان فتخصيص هذا بالتوحيد، فيه نظر.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُفهم منه أن بعضهم يعلم، ولكنه مُهان، وجاحد، وأيهما أشد لومًا، وتوبيخًا؟ من علِمَ، وجحد، فهو أشد لومًا، وتوبيخًا، ثم اعلم أن نفي العلم قد يُراد به نفيُ حقيقة العلم؛ بحيث لا يكون الإنسان عالمًا، وقد يُراد به نفيُ الانتفاع به، فإن من لا ينتفع بعلمه، فهو كالجاهل بل أشد، وفي القرآن أمثلة كثيرة يُراد بنفي الشيء نفيُ فائدته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، مع أن أعينهم صحيحة، وآذانهم قوية جدًّا، ولكنهم من أجل عدم إدراك هذه الأشياء صاروا كالفاقدين لها، فهنا نأتي للعلم، إن كان المراد به نفيُ وجود العلم فالأمر ظاهر، فإن بعض الناس لا يُفسِّر.

الفوائد:

١ - **يُستفاد منها:** نعمة الله - سبحانه وتعالى - على العباد بجعل الأرض قرارًا، مع أن الأصل أن تكون مائدةً، واستدل بها بعضهم على أن الأرض تدور؛ لأن كونها قرارًا مع عدم الدوران لا يتبيَّن فيه تمام القدرة، والنعمة، وإنما يتبيَّن ذلك بما إذا كانت دائرة، وهذه الفائدة غير مُسلَّمة؛ لأننا نقول: لا يلزم من المَيَدان الدوران، فحقيقة أنها لولا أن الله جعلها قرارًا لكانت تميد بأهلها، وأما أنه يلزم أن تدور، فليس بلازم، إذنْ ففيها الفائدة الأولى فقط.

٢ - **ومن فوائد الآية:** ما أنعم الله به على العباد من هذه الأنهار المُتخلِّلة بالأرض ظاهرًا، وباطنًا، لقوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية:** ما أنعم الله به بهذه الرواسي التي هي الجبال، التي هي راسيةٌ بنفسها،

مُرسِيةٌ للأرض - أيضًا - ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾، وفي سورة فصلت قال: ﴿رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [فصلت: ١٠]، قال أهل العلم البيولوجيون: إن كون هذه الرواسي من فوق لا من باطن الأرض فيه فوائد عظيمة: فوائد للطقس، وفوائد للنبات، وفوائد للمعادن، إلى غير ذلك مما هو معلوم عند أهل العلم بذلك؛ يعني: يقولون: أن تكون الجبال المُرسِية للأرض من فوقها دون أن تكون من أسفل فيه فوائد كثيرة، وأنت إذا نظرتَ إلى سلاسل الجبال التي على البحار عرفت بها قدر هذه النعمة العظيمة، لاسيَّما ما يأتي من الجهات الباردة؛ حيث هذه الرواسي تصُدُّ هبوب الرياح الباردة، المهم: أن فيها فوائد عظيمة لكونها من فوق الأرض، ولكن هذا لم يُذكَر هنا، وإنما ذُكِر في سورة فصلت.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث جعل بين البحرين حاجزًا، والبحران هما: العذب، والمالح، وهذا الحاجز هل هو مشهودٌ أو مذكور؟

الجواب: فيه احتمال، بل إننا نقول: عام، يشمل المشهود، والمذكور، وإن لم يُشهَد، فإن هذه الأنهار جعل الله بينها وبين البحار حواجز طبيعية كالأرض، وحواجز غير معلومة، لكنها مذكورة، فإن في جوف البحار المالحة أنهارًا عذبة، وعيونًا عذبة.

٥ - **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله، ومنَّته - أيضًا - ، لجعل الحاجز بين هذين البحرين؛ لأنه لو اختلط ماء بعضهما ببعض، لأفسد أحدهما الآخر، وضاعت منافعهما.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن أكثر الخلق لا يعلمون ما في هذه الآيات من العِبَر، ثم إن نفي العلم قد يكون نفيًا لأصله، وقد، يكون لثمرته، وفائدته، والأمر كله واقع، فإن من الناس من ليس عنده علم أصلًا، ولا يُفكِّر في هذه الآيات، ويرى أنها ظواهر طبيعية، وليس لله - تعالى - فيها أي شأن، ومنهم من يعلم، ولكن لا ينتفع.

قال الله تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٢ - ٦٣]

التفسير(١)

قوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمع، الأكثر أن الجمع يكون في رياح الرحمة، والإفراد في ريح العذاب، إلا إذا وصِفت الريح المفردة بما يدل على أنها ريح خير، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، ثم إن الرياح بالنسبة للفلك ليست من مصلحة أهلها؛ لأن الرياح إذا اختلفت على الفلك ما مشت، لاسيَّما الفلك الأول، فإن الفلك الأول يمشي على الهواء السفن الشراعية، فإذا اختلفت عليه الأهوية تعوَّق، ولكن إذا كانت ريحًا واحدة صار ذلك أحسن، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، المهم: أن الرياح، إنما تُقال في الغالب في رياح الرحمة، وفي الإفراد في ريح العذاب، هذا الغالب، وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وأمثال ذلك.

وقال العلماء: ومن الحكمة في هذا أن الريح إذا كان مهبُّها واحدًا صارت أصلب؛ إذ لا يُقابلها شيءٌ من الرياح، حتى يشكر حِدَّتها، فلهذا كانت تأتي دائمًا في مقام العذاب.

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، قال تعالى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا إله معه، وكل هذا تقريرٌ لألوهية الله - سبحانه وتعالى - التي يُنكِرُها المُشركون.

وقوله تعالى: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿تَعَـٰلَى﴾ بمعنى: علا بتنزُّه؛ لأن معنى ﴿تَعَـٰلَى﴾ مُشتمل لمعنى: ترفَّع عن هذا الشيء، مع علوِّه، فهو عالٍ بتنزُّهٍ عما يُشرِكون، عن هذه الأصنام التي يجعلونها مع الله شريكًا في العبادة أم في الربوبية؟ في العبادة، أما في الربوبية فهم يُقرُّون أن هذه الأصنام ليس لها أبدًا شأنٌ في الربوبية، ولكنهم - والعياذ بالله - يعبدونها مع الله، ومنهم من يُصرِّح بأنه يعبدها لتُقرِّبه إلى الله، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فهم مُعترفون بأن عبادتها ليست عبادة مقصودة لذاتها، بل هي مقصودة لغيرها لتُوصِلهم إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [به غيره]، عام في كل شرك، وعام في كل مُشرَك به، فالله - تعالى - مُتعالٍ عن كل شرك، وعن كل مُشرَك مهما عظُم قدره.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ

(١) هذا ما توفر من تفسير لهاتين الآيتين.

مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن قوله تعالى: ﴿يُجِيبُ﴾ يشمل كل ما تتطلبه الضرورة من قليل أو كثير؛ فيكون في ذلك دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه تعالى يُجيب دعوة المضطرين.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان سعة رحمة الله تعالى، وأن رحمته سبقت غضبه؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ يشمل الكافر والمؤمن؛ وأنه سبحانه وتعالى أطلق ولم يُقيد؛ وأنه لا فرق بين أن يكون المُضطرُّ مؤمنًا أو كافرًا، ويُؤخذ هذا من العموم وعدم التقييد؛ لأنه ما قُيِّد بالمسلم، بل أطلق وعمَّم. وأن المُضطر مُجاب الدعوة مُطلقًا.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن إجابة المُضطر المتحتمة مشروطة بها إذا دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وأما إذا لم يدعه فقد يجيب ضرورته، وقد لا يجيبها؛ لأن المضطر قد لا يدعو الله استغناءً بما عنده من الأمور المادية عن دعاء الله – سبحانه وتعالى – فيستكبر عن دعائه، وحينئذٍ لا تكشف ضرورته.

فالمهم: أن إجابة المضطر هنا، اشترط الله أن يكون داعيًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي إقامة الحجة على الخصم بما يعترف به؛ لأن إجابة المضطر يُقِرُّ بها هؤلاء المُكذِّبون؛ كيف ذلك؟ هم إذا ركِبوا في الفلك، وأصابتهم الضراء والأمواج، لا يدعون إلا الله، فهم عند الضرورة لا يدعون إلا الله، فإذا كنتم تعرفون أنكم لا تدعون إلا الله عند الضرورة؛ فكيف تعبدون غيره عند السعة والسراء.

٥ - **ومن فوائد الآية:** شمول رحمة الله - تعالى - بكشف السوء، سواءً دُعِي بذلك أم لم يُدعَ، لقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وكم من سوء كشفه الله - تعالى - عن خلقه بدعاء، وبغير دعاء، وضرورة، وغير ضرورة، وقد أوردنا فيما سبق أنه قد يقول قائل: هذا الطبيب يُعالِج المريض فيبرأ؛ فيكون كشفًا للسوء، وأجبنا عن هذا بأنه فعلٌ للسبب، وليس كشفًا للسوء؛ بدليل أنه قد يُعالِجه بما برأ به غيره من نفس المرض، ولا يبرأ، لأن الكاشف للسوء هو الله، وما للعباد إلا فعل الأسباب فقط.

٦- **ومن فوائد الآية:** منة الله – تعالى – على عباده بكشف السوء أي: إزالته عن الجميع؛ ولهذا ما قال: عن المضطر؛ بل قال: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فحذف متعلّقه، والظاهر عند أهل العلم: أن حذف متعلّقه يُفيد العموم فمعناه: يكشف السوء عن كل أحد.

٧- **ومن فوائد الآية:** أنه يجب على المرء ألّا يلتفت في كشف السوء إلا إلى الله؛ لأنه لا يكشف السوء إلا الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا يجب عليك ألا تعلق هذا الأمر إلا بربك الذي

هو قادر على كشفه، وتعلقك بغيره خذلان لك، فمن تعلق بشيء وُكِلَ إليه، ولكن هل هذا الكلام يُنافي فعل الأسباب؟

الجواب: لا يُنافيها؛ لأنه إن كان يعتقد أن السبب وحده هو الفاعل لذاته فإنه يُنافي ما ذكرنا، وإن كان يعتقد أن السبب هو الفاعل ولكن بتقدير الله؛ فهذا من التعلق بالله - سبحانه وتعالى -؛ لأنه لا يُنافي إذا توكلت عليه واعتمدت عليه، أن تفعل من الأسباب ما جعله الله سببًا.

والإنسان يرجو من الله تعالى دخول الجنة، والنجاة من النار، ومع هذا يسعى في الأسباب، يرجو من الله تعالى الأولاد، ومع ذلك يفعل الأسباب، فالمهم أن فعل السبب، إن لم يعتقد أن السبب فاعل بذاته؛ فإنه لا يُنافي التوكل ولا التعلق بالله، ولا يُنافي كمال التوكل أيضًا.

٨ - ومن فوائد الآية: بيان قدرة الله، ونعمته؛ أن جعل الناس على أهل الأرض خلفاء، يخلُف بعضهم بعضًا؛ وإلا أنقطعت الخليقة، وانقطعت النفس؛ أو بقيت الخليقة أزمنةً مُتطاولة، وتعاقبت عليها الأحداث، وتوالت عليها الأمور، وحينئذٍ يكون فيها سأمٌ وملل؛ يعني: لولا هذه الخلافة للزِمَهم أحد أمرين:

الأول: انقطاع الخليقة؛ يعني: ما تستمر بأن يخلُف بعضها بعضًا.

الثاني: وإما أن تبقى الخليفة دائمًا، وحينئذٍ يكون التعب والسأم والملل، وقد جاء في ذلك قول الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمُ

وقال آخر:

إِنَّ الثَّمَانِينَ، وبُلِّغتَهَا قَدْ ... أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

ففي الحقيقة أن طول الزمان بالإنسان يُضعِفه، ويُلحِقه السأم والملل، ثم هو لا يزال يتذكَّر الأحداث التي تتعاقب، وحينئذٍ يرجع ولا يكون عنده قرار نفسي ولا فِكري، لذلك كان من قدرة الله - سبحانه وتعالى - ومن رحمته - أيضًا -، أن جعلنا خلفاء يخلُف بعضنا بعضًا.

١٠ - ومن فوائدها: أنه مهما ظهرت القرائن والبراهين؛ فإن كثيرًا من الناس لا يتعظ بها، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤٢] وأن كثيرًا من الناس لا يتذكر مع وجود ما به التذكر، وأن من المتعظين أيضًا ما يكون اتعاظه قليلًا، والتذكر بمعنى: الاتعاظ، لأن الإنسان يَذَّكر فينتفع بذكره.

١١ - ومن فوائدها أيضًا: أن الدعاء من أسباب إزالة الضرر، لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وهذا أمرٌ مُجرَّبٌ، ومُشاهَد، لاسيَّما الأدعية التي جاءت بها السنة، فإنها خير وبركة ولها ثمرة ظاهرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ

رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾:

١ - **يُستفاد منها:** بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على الخلق بالهداية في ظلمات البر والبحر، وهذه الهداية هل هي بعلامات أم بإلهام؟ بكلا الأمرين، قد تكون بعلامات وهو الأكثر، وقد تكون بالإلهام، قال تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]؛ لأنه ما يعرف - عليه السلام - شيئًا؛ فهداه الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا يستعمل بعض العلماء هذه الآية إذا ضاع بالبر أو حتى بالبلد، ولا يهتدي إلى أحدٍ يُرشده على الطريق فيتلو هذه الآية: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو دعاء مناسب.

٢ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أنه يجب على الإنسان أن يعتمد على الله في الهداية إلى الطريق الحسي، كما يعتمد عليه في الطريق المعنوي، فكما أنك تقول: رب اغفر لي وارحمني واهدني، هذه هداية معنوية، كذلك أيضًا اعتمد على ربك في الهداية الحسية، ولا تعتمد على الأسباب.

٣ - **ويُستفاد من هذه الآية:** بيان آية الله - سبحانه وتعالى - في هذه الرياح وأنها مُسخرة مُدبرة، وليست هي التي تهُبُّ بطبيعتها، بل هي مُسخَّرة مُدبَّرة.

٤ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أن الشيء الواحد قد يكون خيرًا، وقد يكون شرًّا بحسب آثاره ونتائجه، فالرياح هنا بُشرًا بين يدي رحمته، وعلى عاد ونحوهم عذاب، قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، والكل من فعله - تبارك وتعالى -، فحينئذٍ يرِد علينا إشكال: هل الله - تعالى - يفعل السوء؟

فالجواب: السوء بالمفعول، وأما بالنسبة لفعل الله فإنه ليس بسوء؛ لأنه صادر عن حكمة، وقد مرَّ علينا في أول الآيات أن انتقام الله من المُجرمين فهي نعمة وكمال يُحمَد عليه، لأنه لما ذكر عقوبة قوم لوط قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٥ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أن المطر من رحمة الله، لقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وهو من باب إطلاق الصفة على آثارها، فالمطر ليس رحمة الله، ولكنه آثار من آثار الرحمة، والله - تعالى - يُطلق الرحمة على ما كان من آثارها، قال تعالى عن الجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1].

٦ - **ومما يُستفاد من الآية:** أن فيها دليلًا على أن الرياح سبب لنزول الأمطار، لقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وقال - تعالى - في آية أخرى صريحة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، وهذا دليل، واضح على أن الرياح هي التي تُثير السحاب بإذن الله - سبحانه وتعالى -.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦/٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧ - **ومما يُستفاد من الآية:** بيان تنزُّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل ما يُشرَك به، وأنه أعظم وأجلّ من كل ما يُشرَك به، لقوله: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

٨ - **ومما يُستفاد من الآية:** أنه لا أحد يستطيع أن يفعل هذه الأشياء، وهي: الهداية في البر والبحر، وإرسال الرياح بُشرًا بين يدي رحمته إلَّا الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟، فالجواب: لا إله إلا الله. وهل هذا يشمل الهداية التي في البر والبحر بالأسباب التي توصل إليها الناس اليوم؟ نعم.

قال الله تعالى:

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٤-٦٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ [في الأرحام من نطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت، وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها]. قلنا من قبل: إن ﴿أَمَّن﴾ أصلها (أم ومن)، ولكنها قُرِنَتِ اتباعًا للرسم العثماني، ومن فوائد قرنها ألا تتصادم مع القراءة الأخرى وهي ﴿أَمَن﴾.

وقوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصَّر في التفسير؛ حيث قال: [في الأرحام من نطفة]، والصواب: أنه أعمُّ من ذلك، يبدأ الخلق في الأرحام من نطفة هذا فردٌ من أفراده، وإلا فقد بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ـ أيضًا ـ بعض الأشياء التي تتولَّد، ولا تتوالد ما لها أرحام تكون فيها، وإنَّما تتولَّد مما تتولَّد منه بدون أن يكون لها أرحام، فالصواب في هذا: أن يُقال بالعموم، فقوله تعالى: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي: يُوجِدُه ابتداءً في الأرحام، وغير الأرحام، ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، لو يجتمعون كلهم ليخلقوا ذبابًا ما استطاعوا، وأبلغ من هذا: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، هذا الذباب الضعيف إذا سلبهم شيئًا ما يقدرون أن يردُّونه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، إذنْ الذي يبدأ الخلق هو الله، والذي يُعيده هو الله سبحانه وتعالى.

وقول المؤلف: [وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها] لا حاجة لتقديره؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر بدء الخلق، فإن إعادة الخلق بالفطرة والعقل أهون من ابتدائه، فإنه إذا

تقرَّر أنه يبدأ الخلق؛ فإنه من المعلوم أنه يُعيده، بل إعادته أهون، فعلى هذا يكون الله ـ تعالى ـ قد قرَّر ألوهيته بهذا الفعل العظيم، وهو بدء الخلق، وإعادتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من جهة السماء [بالمطر]، والأرض [بالنبات]، فالرزق الذي ينزل من السماء هو المطر، والذي يأتي من الأرض هو النبات، هذا ما قاله المؤلف.

ويجوز أن نقول: إن قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العلو، والأرض؛ أي: من النزول، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، ويكون المراد بالسماء ما كان من الأشجار الرفيعة العالية، وبالأرض مثل الزروع، والأشجار الممتدة على الأرض التي ليس لها ساق.

أو نقول: إن الآية أعم من هذا، فتشمل المطر؛ لأنه من السماء، وتشمل ما أشرنا إليه من الثمرات، من الأشجار العالية التي يتوصَّل إليها هؤلاء، فتكون في السماء، وتكون في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: [لا يفعل شيئًا مما ذُكِر إلا الله]، ولا إله معه، وهذه الآية جمع الله فيها بين بدء الخلق، والرزق؛ لأن المخلوقات تحتاج إلى إمداد، وتحتاج إلى إعداد، فالإعداد بابتداء الخلق؛ لأن الله إذا ابتدأ الخلق أعدَّ الإنسان لكل ما هو لازمٌ له، والإمداد بالرزق من السماء، والأرض.

قال: [﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حُجَّتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾].

قوله: ﴿هَاتُواْ﴾ هذه فعل أمر؛ لأن الذي تلحقه العلامة يكون فعل أمر، والذي يبقى على حالة واحدة يكون اسم أمر أنت تخاطب واحدًا فتقول له: صه، وكذا اثنين وكذا جماعة إذن هي اسم فعل أمر لكن تخاطب واحدًا وتقول: هاتِ وتخاطب أنثى فتقول: هاتي وتخاطب جماعة فتقول: هاتوا وتخاطب نساء: هاتين فهي فعل أمر، ومعناها: أحضِروا، والبرهان هو الدليل، وخصَّه بعضهم بالدليل القاطع، وقالوا: إن الدليل إن كان قطعيًّا في دلالته، فهو برهان، وإن كان ظنيًّا، فهو دليل، وليس ببرهان، ولكن الظاهر من الآيات الكريمة أن البرهان دليل، سواء كان قطعيًّا ـ، كما قال أهل المنطق ـ أم غير قطعيٍّ، فعلى هذا نقول: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ شامل للقطعي، والظني؛ لأن ما عندهم دليل قطعي، ولا ظني.

والأمر في قوله: ﴿هَاتُواْ﴾ المراد به التحدِّي.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، قال: [أن معي إلهًا فعل شيئًا مما ذُكر]، والجواب: أنهم لا يمكن أن يأتوا ببرهان، وجاء بإن الشرطية؛ لأنه محسوس دلَّ عليه ما قبله على رأي الكثير من النحويين.

والصحيح: أنه بهذا لا يحتاج إلى جواب.

قال المؤلف: [وسألوه عن وقت قيام الساعة، فنزل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾] ما ادَّعاه المؤلف بأن الآية لها سبب نزول لا صحة له، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ انتقل من ذكر الخلق إلى ذكر ما يلزم للخلق، وهو العلم، فإن الخلق لابد أن يتقدَّمه علم؛ إذ لا يتم خلق إلا بعلم، وقدرة، فمن لا علم له لا يقدر، ومن لا قدرة له لا يخلق، فالآية فيها انتقال من معنى إلى معنى، وليس فيها سبب، كما قال المؤلف.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [من الملائكة] الذين في السماوات، [والناس] الذين في الأرض، وكذلك الجن ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مفعول يعلم، و﴿مَن﴾ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: [ما غاب عنهم]، فيكون الغيب على تقدير المؤلف مصدرًا بمعنى: اسم الفاعل؛ لأنه قال: أي: ما غاب، وغاب فعل ماضٍ له فاعل.

ويجوز أن يأتي المصدر بمعنى اسم الفاعل، كما نقول: رجل عدل بمعنى عادل، وله أمثلة، كما أن المصدر يأتي بمعنى: اسم المفعول كثيرًا.

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، [لكن ﴿ٱللَّهُ﴾ يعلمه] جعل إلا بمعنى، لكن، فيكون الاستثناء منقطعًا على رأيه، ثم قدَّر المؤلف: يعلمه، ليكون إعراب الله مبتدأ، ويعلمه خبره، وهذه الآية تحتاج إلى مناقشة:

أولًا: لماذا عدل المؤلف عن الاستثناء المتصل إلى الاستثناء المنقطع؟

الجواب: لأنه يرى أن الله ـ تعالى ـ لا مكان له، وقوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهي مُتعلِّقة بمحذوف تقديره: استقر، فصلة الموصول تُقدَّر باستقر، أو كان، أو ما أشبه ذلك، فيقول: إذا قلت: من استقر في السماوات، أو من كان في السماوات، والأرض غير الله لزِم أن يكون الله ـ تعالى ـ في السماوات، فيكون له مكان، وهذا عندهم ممتنع عند المؤلف، ومن كان على عقيدته.

ثانيًا: نقول له: إذا كان الاستثناء منقطعًا، فالمعروف أن الاستثناء المنقطع إذا سُبِق بتامٍّ منفي، وجب فيه النصب، كما قال ابن مالك:

.........وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ ... وَعَنْ تَمِيمٍ فِيهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ[1]

وهنا ليس منصوبًا.

فقال: نحن نجعل الجملة لا دخل لها بالاستثناء، ونجعل ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، لأجل ألَّا نخالف المشهور من كلام العرب؛ لأن القرآن نزل بلسان قريش، وليس بلسان بني تميم.

وبعض العلماء يقول: نحن نتخلَّص مما فرَّ منه المؤلف، مع عدم إثبات المكان لله، بأن نقول: لا يَعْلَمُ مَنْ في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، لا نقول من استقر؟ وحينئذٍ يزول الإشكال؛ لأن

---

(١) ألفية ابن مالك: (البيت رقم: ٣١٧).

الله ـ تعالى ـ موجود في السماوات، وفي الأرض، فيزول الإشكال الذي من أجله قطع المؤلف الاستثناء.

فعلى الرأي الذي نرى ـ وهو المُتعيِّن ـ أن الاستثناء هنا متصل، وأن الله ـ تعالى ـ له مكان، وأن مكانه في السماء، وقد سأل النبي الجارية فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»، فقالت: في السماء، وأشار النبي ﷺ إلى السماء حينما أشهد ربَّه على إقرار أمته بإبلاغ رسالتَه، فقال، وهو يخطب بعرفة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم، قال مُشيرًا إلى السماء: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، فهذا دليل على أن الله في السماء.

فقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الاستثناء متصل، ويكون (الله) بدلًا مِنْ (مَن)، كما تقول: ما قام القوم إلا زيدٌ. لأن الاتباع هنا أولى، وإن كان يجوز النصب، ولكن ليس فيه إلا الاتباع حتى لا يرد إشكال على عقيدة أهل السنة والجماعة.

يبقى عندنا على رأي من يقول: إنه لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن الله في السماء؛ لأنه ليس له مكان ـ على زعمهم ـ؛ كيف نُخرِّج الآية؟

نُخرِّجها على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: إما أن نجعل السماوات مُتعلِّق بفعل مناسب، ويكون التقدير: من يُذكَر في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، وعلى هذا، يكون الاستثناء متصلًا، وهو مقطوع على البدلية، ولا إشكال فيه من حيث الإعراب، لكن من حيث المعنى غير مُسلَّم.

الوجه الثاني: يقولون: نجعل الاستثناء منقطعًا، ويكون الرفع هنا على لغة بني تميم الذين يُجوِّزون الإبدال، ولو كان الاستثناء منقطعًا.

الوجه الثالث: أن نجعل الاستثناء منقطعًا، ولكنه ليس تابعًا لما سبق، بل هو مبتدأ، وخبره محذوف، وهو الذي مشى عليه المؤلف؛ حيث قال: [لكن الله يعلمه].

وهذه التفسيرات، والتقديرات مما حذَّر منه النبي ﷺ؛ حيث قال: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2]، وفي رواية: «فَقَدْ أَخْطَأَ، وإِنْ أَصَابَ»[3]، فالذي يُفسِّر القرآن على حسب عقيدته، هذا في الحقيقة أنه جانٍ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومُتقوِّل على الله بلا علم؛ لأن الواجب أن تُفسِّر القرآن بما دلّ عليه، ثم تجعل عقيدتك تابعة له، ولهذا يقول العلماء: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأن الإنسان الذي يعتقد أولًا، ثم يستدل، الغالب عليه أنه يُخضِع الأدلة إلى مُعتقده، كما هو معروف الآن فيما يتكلَّم الناس فيه في العقائد، وموجود ـ أيضًا ـ حتى

---

(١) صحيح: مسلم (١٤٧/١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٣) من حديث جندب بن عبد الله وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فيما يتكلَّمون فيه في الأحكام، فإن من ينتمي إلى مذهب إذا جاءت النصوص الدالة على خلاف مذهبه تجده يسلك فيها أحد مسلكيْن:

إما إبطالها إن أمكنه، فيقول: هذا ضعيف، وهذا مردود.

وإن لم يمكن الإبطال فبالتحريف، لأجل أن تُطابق مذهبه.

وهذه علة قلَّ من يسلم منها إلا من شاء الله أن يجعل عقيدته وحكمه تابعًا للدليل، وهذا الواجب على كل مسلم، لأجل أن يكون تابعًا، والنصوص تكون متبوعة.

أما أن يعتقد أولًا، سواء كان هذا الاعتقاد مما يتعلَّق بالعقائد، والأمور الخبرية، أو مما يتعلَّق بالأحكام العملية، ثم بعد ذلك يحاول أن يُحرِّف النصوص إليها، فهذا غير مُسلَّم، ولا يجوز أيضًا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، قال: [أي: كفار مكة]، وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ﴾ قال: [وقت]، وقوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ يعني: ما يشعر أحد متى يُبعَث الناس؛ لأن علم الساعة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فلا أحد يدري متى تقوم الساعة، حتى ولو جاءت علاماتها، وأشراطها، فإننا لا نستطيع أن نُحدِّدها بالتعيين، ونقول: بقي عليه كذا سنة كذا شهرًا، ولهذا قال: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقول المؤلف: [وقت يُبعثون] فيه التفات من جهة النحو، أيّان هذه ظرف، لكنها استفهامية، والوقت ظرف مجردة من الاستفهام، ولهذا تقدير أيّان بوقت قصور، ولو قال المؤلف: ما كانوا يُبعثون لكان هو المناسب؛ لأن ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ نقول: إنها ظرف، وهي مُتضمِّنة لاستفهام مُعلِّقة للفعل عن العمل، والفعل: ﴿يَشْعُرُونَ﴾، فالجملة: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ في محل نصب مفعول (يشعرون)، ولو كان التقدير: (وقت يُبعَثون) لم يكن في الجملة تعليق، فإذنْ المؤلف بتقديره (وقت) ضيَّع علينا مسألتين:

المسألة الأولى: ما تضمَّنته ﴿أَيَّانَ﴾ من الاستفهام.

والمسألة الثانية: كون الجملة هنا في محل نصب؛ لأنها مُعلَّقة بأيّان، وعلى تقديره تكون أيان نفسها هي المفعول؛ لأنه ينبغي أن يكون التفسير اللفظي خاصة مطابقًا للمفسر في كل الأحوال.

مَنِ ادَّعى أنه يعلم متى يُبعث؟ فما الحكم فيه؟ هو كافر، أي: من ادَّعى أن القيامة في سنة كذا ـ وهذا شاهدناه وسمعناه مثلما ظهر في لبنان ـ فهو كافر.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

١ - من فوائدها: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في بدء الخلق، وإعادته، ولا أحد يستطيع بدء الخلق وإعادتهم أبدًا إلا الله، والذي قال لإبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، بماذا أجابه إبراهيم؟ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٢ ـ ومن فوائد الآية: بيان أن الرزق من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أليس الله يقول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾؟

نقول: إن إضافة الرزق للمخلوق من باب إضافة الشيء إلى سببه، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]، فهذه المخلوقات من الذي يرزقها؟ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وأنت لا ترزق الطير، ولا الوحوش، ولا السباع، وأيضًا لا ترزق نفسك، ولهذا تجد أفضل الناس، وأجودهم في البيع، والشراء، وأشدهم مكرًا وحيلة تجده أحيانًا أفقر الناس، وتجد الإنسان الأبله الذي لا يُحسِن شيئًا، يكون عنده أموال عظيمة، والله ـ تبارك وتعالى ـ يُعطي فضله من شاء.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن الرزق من السماء هو المطر، ومن الأرض هو النبات، أو من السماء ما علا من الأشجار، ومن الأرض ما نزل من الزروع، لقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

٤ ـ ومن فوائد الآية: بيان أنه لا يقدر على ذلك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية: تحدِّي المُناظِر، لقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا بأس للإنسان أن يتدرَّج مع خصمه، وأن يتحدَّاه بما يُقِرُّ به، وهذا غاية الإنصاف أن تقول لخصمك: هات الدليل؛ لأن هناك حالًا أخرى ليست إنصافًا، وهي أن تقول لخصمك: لا أقبل منك أبدًا، فأنت إذا قلت: هات الدليل إن كنت صادقًا، فقد أنصفته، وتحدَّيتَه ـ أيضًا ـ، وحينئذٍ يظهر عجزُه، لكن لو قلت: لو تأتي بأي دليل ما قبلت، معناه: أن العلو له، هو ينتصر عليك، وأنت تنخذل أمامه، وإذا كان المجادل لا يريد الحق كان لك أن تقول: لا أصدقك ولا أوافقك مهما تقول؛ لأنه معادل .

فالحاصل: أنه في مقام المناظرة يُطالب الخصم بالدليل؛ لأن في ذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: إظهار العدل، والإنصاف.

الفائدة الثانية: منع استنصار الخصم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

٧ ـ من فوائدها: أنه ليس عندهم برهان؛ لأنه لو كان ثمَّة برهان لم يكن للتحدِّي فائدة إطلاقًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الخطاب

للرسول ﷺ:

١ - يُستفاد من هذا، ومما سبق: أن توجيه الخطاب للرسول ﷺ أن يقول قولًا يدل على عناية الله - سبحانه وتعالى - بهذا القول؛ لأنه عبارة عن رسالة خاصة، القرآن كله مأمور أن يعتني به، لكن إذا خُصَّ بعض الآيات بكلمة: ﴿قُلْ﴾ يدل على عناية الله - تبارك وتعالى - بهذا الأمر؛ حيث أوصاه بتبليغه وصية خاصة.

٢ - ومن فوائد الآية: أنه لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، والذي في المستقبل لا يعلمه أحد إلا الله في كل حال، والحاضر، أو الماضي قد يُعلَم، ودعوى علمه ليست من علم الغيب، وعلى هذا فالذين يُحوِّرون، ويُخبِرون عما جرى على العبد، هؤلاء ليسوا ممن يدَّعون علم الغيب؛ لأنهم يذكرون الماضي، أو الحاضر، وهو ليس بغيب، لكن قد يكون غائبًا عن البشر شاهدًا للجن؛ لأن الجن يعلمون الشيء البعيد، ويُخبِرون من يصحبهم من الإنس، وعلى هذا فما نتحدَّث به عن بعض الناس أنه إذا جاءه المريض قال: أصابك كذا، وأصابك كذا، ويكون الأمر، كما أخبر، هذا ليس من دعوى الغيب، فتصديقه ليس كفرًا بالله، لكن يبقى النظر في حال هذا الرجل؛ فإذا كان مستقيمًا فإننا حينئذٍ نركن إليه، ولا حرج علينا إذا ذهبنا إليه، أما إذا كان غير مستقيم؛ بحيث إن الجِنّة لا تخدمه إلا بكفر فإنه لا يجوز لنا أن نذهب إليه لما في ذلك من الإعانة على الكفر.

٣ - ومن فوائد الآية: أن الله - تبارك وتعالى - في السماء، لقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد خرَّج العلماء على أن ﴿فِي﴾ بمعنى: على، أو أن المراد في السماوات: في الجهات العُليا، وأنه - تعالى - فوق العرش، وليس على نفس العرش.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ذكر الزمخشري كلامًا جيدًا في هذه الآية، وهو أن قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ذكر أن المعنى: أنه بلغ علمهم في الآخرة غاية أن يؤمنوا بها ولم ينتفعوا، وذكر أن ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ من الدرَك وهو الهلاك، يعني: أنهم ضعف علمهم في الآخرة، ثم انتقل فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ ثم انتقل فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ فيكون بالإضافة إلى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ المراتب أربعة: أولًا: نفي الشعور، ثم ضعف العلم، ثم الشك، ثم العمى،

فتكون هذه الآية فيها إغرابات: انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فإنه يقول: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، ثم قال: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ انتقالات، الأول: نفي الشعور، والثاني: ضعف العلم، والثالث: الشك، والرابع :العمى يعني: عمى القلب.

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية: أن هؤلاء المكذبين بيوم القيامة، أنهم على هذه المراتب.

٢- ويستفاد منها أيضًا: أن الإنسان الذي لا يريد الحق يكون له باعتبار قبوله مراتب بعضها أشد من بعض، أي أنه ينتقل من الأدنى إلى الأعلى، ولهذا قال أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر، ومعنى بريد الكفر: أي أنه ينتقل بها الإنسان من مرحلة إلى مرحلة كما ينتقل البريد، والبريد هو الساعي الذي ينتقل من بلد إلى بلاد أخرى، وكانوا في الزمن الأول يجعلون الرسل بالكتب على مراتب، كل بريد فيه منطقة، إذا وصل إليها وقف وأعطاه الثاني ثم يسعى الثاني من هذا البريد رقم واحد إلى البريد رقم اثنين ثم يقف، ثم يأخذه من رقم اثنين إلى رقم ثلاثة حتى ينتهي إلى البلد، يفعلون ذلك لئلا يشق عليهم متابعة السير من البلد إلى البلد، وهذا يكون أسرع، ولذلك سمي البريد بريدًا لهذا السبب، يعني يجعلون في كل مساحة من الأرض بريداً، والبريد على مسافة أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال؛ إذنْ البريد اثنى عشر ميلًا، ولذلك كانوا في الزمن الأول يستعملون السرعة في إيصال الخطابات إما بالبريد كما ذكرنا، وإما في الحَمَام، يربى حمامًا يطير من محل إلى محل ويعلق في عنقها أو في أرجلها الرسائل، وطبعًا الرسائل ما هي كبيرة، لكن قد تكون مثلًا رموز و إشارات وما أشبه ذلك يعرفها المكتوب إليه.

الشاهد أننا نقول: إن الإنسان إذا فعل معصية سواء اعتقادية أو عملية، فإن الشيطان يتدرج به من الأدنى إلى الأعلى حتى يصل ـ والعياذ بالله ـ إلى الكفر.

٣- ومن فوائد هذه الآية: أن أهل الإيمان باليوم الآخر يزدادون بها بصيرة؛ لأنهم عندهم يقين وعلم وطمأنينة بما أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، لكن هؤلاء بالعكس ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ و(من) هذه للابتداء، يعني من أجلها صاروا عمين أي: عميت بصائرهم، وسبب ذلك أنهم إذا كذَّبوا بها - والعياذ بالله - ازدادوا ضلالًا وظلمًا ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة:١٢٤ - ١٢٥].

ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ ما قال: عنها عمون، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من هذه الآخرة بسبب أنهم أنكروها ازدادوا عمًى وضلالًا - والعياذ بالله -.

❁ **قال الله تعالى:** [1]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧-٦٨]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** تلبيس أهل الضلال للحق بالباطل؛ لأنهم أنكروا البعث واحتجوا بشبهة لا تغني عنهم من الحق شيئًا، ما هي؟ يقولون: ﴿أَءِذَا﴾ كنا ترابًا نخرج؟ هذه الشبهة إنما تنطلي على الجهال، أما على أهل العلم والبصيرة فلا تنطلي، المهم أننا نأخذ من هذه الآية أو من هذا السلوك: بيان أن أهل الباطل يلبسون باطلهم بالشبهات التي يوردونها.

٢- **ومن هذه الفوائد:** إنكار هؤلاء للبعث؛ لأن الهمزة في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ للإنكار.

٣- **ومن هذه الفوائد:** أنهم احتجوا على تشبيههم هذا بأنهم وُعدوا هم وآباءهم من قبل ولم يروا شيئًا، وهذا من التمويه، وإلَّا فهم لم يوعدوا أن يبعث الناس اليوم، لكن متى وعدوا أن يبعثوا؟ يوم القيامة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٥]

فنقول لهم: نحن ما قلنا لكن تبعثون اليوم حتى تقولوا ائتوا بآباءنا قلنا: إنكم تبعثون يوم القيامة وستبعثون، لكن هكذا أهل الباطل يلبِّسون ويشبِّهونَ على الناس بالشبهات لإقرار باطلهم.

٤- **ومن هذه الفوائد:** تأكيد إنكارهم؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ يعني: أتؤكدون لنا ذلك والأمر بعيد لا يمكن.

٥- **ومن هذه الفوائد:** أن من لا يريد الحق فإنه لا يتبين له، فالإنسان الذي لا يريد الحق يحرم منه فلا يتبين له، لقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فجعلوا أبيَن الأمور وأصحَّ الأمور وأوكد الأمور جعلوه أساطير، والأساطير كما هو معروف هي: عبارة عن كلام لا أصل له، غالبه أكاذيب، فهذا القول تقدم لنا في التفسير أنه إن كان عن عقيدة فقد لُبِّس عليهم الحق، وإن كان عن إنكار فقد جمعوا بين التكذيب بالحق وبين عيب الحق، يعني جمعوا بين أمرين: أنهم كذبوه وعابوه، وأما إن كان هذا عن عقيدة بمعنى أنهم لا يرون أن هذا حقيقة وأنه أساطير فيكون هنا قد لُبِّس عليهم الحق بسبب أنهم لا يريدونه، ولا شك أن من لا يريد الحق فإنه لا يُوَفَّق له ولا يُيسر له، وبهذا نعرف أنه ينبغي لطالب العلم عندما يبحث عن مسألة أن يبحث عنها - ونسأل

(١) تفسير الآيات من (٦٧ - ٧٥) غير واضح.

الله العافية - لأجل أن يصل إلى الحق، لا لأجل أن ينكر قوله، بمعنى أنك عندما نفرض أنك اختلفت أنت وزميلك في مسألة، وأردت أن تحقق ما قلت فأنت عندما تراجع وتبحث لا تجعل رائدك أن تنتصر لنفسك، فإنك ربما تحرم الوصول إلى الحق، لكن اجعل رائدك الوصول إلى الحق عسى أن يكون معك فتحمد الله تعالى أن يَسَّر لك الوصول إليه، وأن جعل بيان الحق على يدك، أو يكون مع خصمك فتحمد الله تعالى أن الله تعالى يسر لك الرجوع عن الباطل، وهيَّأ لك الوصول إلى الحق، فأنت على كل تقدير في نعمة، ولكن ليكن رائدك الحق، وهذه مسألة صعبة جدًّا على النفوس، أن يكون الإنسان يراجع في مثل هذه الأمور لأجل الوصول إلى الحق، فإن كثيرًا من الناس يراجع لأجل أن ينصر قوله، ولكن افرض أنك تعتقد أن قولك هو الصواب مائة في المائة، وأنت تراجع لتنصر قولك، فهل هذا ينافي النيَّة الصحيحة، نقول: إن كنت تريد أن تراجع من أجل أن تنصر قولك لأنه الحق فهذا لا ينافي؛ لأنك إنما تقصد تقوية الحق وإلزام الخصم به، وإن كنت تراجع بنية أن تنصر قولك ولو كان هو الحق فالنية فيها دَخَن مدخولة.

فالحاصل من هذه المسألة: ينبغي للإنسان أن يلاحظه وهو أن من لا يريد الحق لا يُوَفَّق له بل يلتبس عليه الأمر؛ لأن هؤلاء يقولون في أبين الأمور وأحقها: إنها أساطير الأولين، وانظر إلى بيان السبب في هذا في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] كلا ليس القرآن أساطير الأولين ، لكن السبب أنهم جعلوه أساطير الأولين هو أنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فعَمُوا عن الحق أو تَعَامَوْا عنه.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية**: بيان أهمية السير في الأرض، وهذا يؤخذ من أمر الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغه إلى الناس، وقد قلنا إن كل حكم أو خبر يُصَدَّرُ بقُل هو دليل على الاهتمام به؛ لأن الله تعالى جعل له عناية خاصة بالوصيَّة بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، لكن كون هذا الأمر يُصَدَّر بقُل إذن ففيه عناية خاصة بتبليغه.

٢- **ومن فوائدها**: فائدة السير في الأرض وأن السير في الأرض له فائدة عظيمة، ولهذا أُمِر بإبلاغه على سبيل الخصوص.

٣- **ومن فوائدها**: أن السائر في الأرض يجب عليه أن يكون سيره على سبيل التفكر والاتعاظ، لقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ والأمر للوجوب لا سيما إذا كان هذا المخاطَب معانِدًا، يعني: الآية هنا تخاطب المعاندين الجاحدين، فإنه يجب عليه أن يسير وينظر؛ لأن هذا طريق إلى هدايته.

٤- **ومن هذه الفوائد:** أن عاقبة المجرمين وخيمة، لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ﴾ وكيف هذه للتعظيم، أي: أن عاقبتهم عظيمة الوخَامة.

٥- **ومن هذه الفوائد:** أن العبرة بالعاقبة لا بالمبتدأ، لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ فإذا رأيت هذا المجرم قد نُعِّم فلا تظن أنه على حق، بل المعتبر العاقبة وستكون عاقبته وخيمة.

٦- **ومن هذه الفوائد:** أنه - أيضًا - لا يُعتبر الفرد فقط فإن من المجرمين من يبقى في تنعيمه حتى يموت، لكن العبرة بالكل، ولهذا قال: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فإن المجرمين مهما كانوا لا يمكن أن يستقر لهم قرار.

فإذا قال قائل: في الوقت الحاضر الآن ما نرى أن المجرمين عوقبوا، بل إنهم منعمون غاية التنعُّم.

فيقال: إن هذه الأمة قد عهد الله إلى نبيها ﷺ أن لا يعذبهم بسنة عامة، ولكننا نرى في هؤلاء المجرمين من جَعْل البأس بينهم وتفرقهم، وكذلك أيضًا عدم استقرارهم ما هو عقوبة، فإن الذي يخرج إلى تلك الأمم يجد أنهم ليسوا مستقرين، حتى إننا نسمع أن الإنسان ما يأمن أن يجعل في جيبه دراهم، وأنه لو وجد في جيبه دراهم قُتل، ولذلك لا يتعاملون هناك إلا بالأوراق، وهذه يسمونها، باسم خاص وهي كروت الائتمان وهذه تمثل كذا دولار؛ لأنهم ما يمكن أن يتعاملوا بالدراهم كذا، يقتل الإنسان، وحدثني إنسان ذهب إلى أمريكا يقول ما تأمن تضع ثلاث مائة ريال في جيبك وهذا أبلى ما يكون من العذاب؛ لأن الله يقول في عقوبة القرية الآمنة المطمئنة: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ فهب أن هؤلاء ما عندهم جوع لكن عندهم خوف.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] (١)

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الداعية إلى الله إذا بذل ما يجب عليه فلا ينبغي أن يحزن لمخالفة الناس، لقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ والحكمة من ذلك أن حزن الإنسان على مخالفة الناس يُعيقه عن الدعوة إلى الله ويستحسر من أجْله؛ لأنه ما يمكن للنفس أن تمتد وتسير وهي حزينة، ولكن أن تسير على حسب ما أُمِرْتَ إن اهتدى الناس فلك ولهم، وإن لم يهتدوا فلك وعليهم، ولهذا إذا حزن الإنسان في هذه الأمور فإنه ييأس ويتحسر ولا ينشرح صدره ولا تنبسط نفسه.

٢- **ومن هذه الفوائد:** عناية الله - سبحانه وتعالى - بالرسول ﷺ بالتسلية والتفريج عنه،

---

(١) تفسير هذه الآية والتي تليها غير موجود، والآيات من [٧١ - ٧٣] غير موجود.

لقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وجه ذلك أن نهيه عن أن يكون في ضيق معناه: أن مكرهم يؤثر عليه أم لا؟ ما يضره، وإن ضاقت به نفسه فإن ذلك لا يضره؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ أي: لا يهمك أمرهم ولا تضق منه فإن لدينا ما هو أعظم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾[الأنفال:٣٠]

٣- **ومن هذه الفوائد:** هل هذا الأمر يكون للرسول ﷺ ولغيره؟ نعم يكون له ولغيره، كل من يدعو إلى شريعة الرسول ﷺ فإننا نوجِّه إليه هذا الخطاب، ونقول: إذا رأيت الناس لم يقبلوا فلا تحزن ولا تكن في ضيق مما يمكرون، وإلا فإن أعداء الرسل سوف يمكرون بالدعاة في دينهم، وسوف يوجهون ضدهم الدعايات وسوف يؤذونهم بالقول فيُسمعونهم ما يكرهون وربما يؤذونهم بالفعل، والإنسان عليه أن يصبر كما صبر النبي ﷺ وأوذي في بيته وفي بدنه حاضرًا ومسافرًا، إذا حسَّ بأنهم يأتون بِسَلا الجذور ويضعونه عليه في المسجد الحرام[1]، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يضعونه عليه وهو ساجدٌ لله، ويأتون بالقاذورات والعذرات ويلقونها على عتبة بابه مع أنهم يكرمون الناس - أفسق الناس وأفجر الناس - إذا جاءوا إلى مكة، ولا يكرمون النبي ﷺ، وذهب إلى الطائف ليدعوهم إلى الله فامتنعوا وآذوه.

٤- **ومن هذه الفوائد:** الثناء على الكافرين يؤخذ منها بالتضمن، وقد سبق لنا مرارًا معنى الشكر وأنه ليس مجرد قول الإنسان: أشكر الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[النمل:٧٤-٧٥]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان سعة علم الله، لقوله: ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وهذا دليل على سعة علم الله - سبحانه وتعالى - وأنه لا يخفى عليه شيء.

٢- **ومن هذه الفوائد:** تحذير هؤلاء وغيرهم أيضًا من أن يُكِنُّوا في صدورهم ما لا يرضاه الله؛ لأن إخبار الله بأنه يعلم ذلك معناه: التحذير من أن نكنَّ في صدورنا ما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ.

٣- **من هذه الفوائد:** أن علم الله - تعالى - بما بطن كعلمه بما ظهر، لقوله: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا فرق بين هذا، وهذا عند الله، وإن كان المخلوق يختلف عنده حكم الغائب والظاهر، الغائب ما لا يعلمه المخلوق، والظاهر يعلمه، وحتى لو علم الغائب بطريق من الطرق فإنه لا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧/ ١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يستوي مع علم الظاهر، أما علم الله - سبحانه وتعالى - فإنهما عنده سواء.

٤- ومن هذه الفوائد: كتابة الله تعالى في اللوح المحفوظ كل شيء، لقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويلزم من الكتابة العلم أو ما يلزم؟ يلزم من الكتابة العلم؛ لأنه لا يكتب المجهول، فإذن نقول: زيادة على أن الله يعلم ذلك قد كتبه في اللوح المحفوظ.

٥- ومن هذه الفوائد: ذكر مرتبتين من مراتب القضاء والقدر وهما العلم والكتابة.

٦- ومن هذه الفوائد: الرد على القدرية الذين ينكرون القدر، والقدرية ينقسمون إلى قسمين: غلاة ومقتصدين، فالغلاة أنكروا حتى العلم والتقدير، وقالوا: إن الله لا يعلم ما يعمله العباد إلا بعد وقوعه منهم، والثانية: المقتصدون منهم قالوا: لا؛ إن الله علم ما الخلق عاملين وكتبه لكنه ليس بمشيئته وخلقه بل المرء مستقلّ به.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل:٧٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ هذا القرآن: يعني المنزَّل على النبي ﷺ، والقرآن إما مصدر بمعنى اسم المفعول، وإما اسم فاعل، أما على الأول قرآن مصدر بمعنى المفعول؛ فلأنه مفعول أي: يُقرأ، وهو - أيضًا - مقروء من القَرْء بمعنى الجمع، فهو مجموع وهو متلوّ، بمعنى: الجمع والتلاوة، وأما على أنه مصدر فإن فعله يأتي مصدرًا مثل الغفران والشكران، فهو في الحقيقة مصدر بمعنى اسم المفعول، وإما مصدر يطلق كالغفران والشكران، وإما مصدر بمعنى اسم الفاعل، بمعنى: أنه جامع لأحكام الكتب السابقة فعله يأتي بمعنى ثالث أن يكون القرآن بمعنى جامع، وقد ذكر الله تعالى أن القرآن مهيمن على الكتب السابقة، وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القص بمعنى: التشبث بالشيء، فهذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بني إسرائيل الذكور منهم أم الإناث؟ الذكور والإناث؛ لأن الابن إذا كان المراد به القبيلة فهو شامل للذكر والأنثى، وإذا لم يرد به القبيلة فهو خاص بالذكور.

فإذا قال قائل مثلًا: هذا وقْف على بني محمد، محمد شخص وهذا وقف على بني محمد، مَنْ يُختصّ به؟ الذكور، فإذا كانت القبيلة كلها تسمى بني محمد، فهي للذكور والإناث، فبنو تميم إذا كان الإنسان يقسم على بني تميم قبل أن يكونوا قبيلة حين وجود الجد أبو تميم فهي خاص

بالذكور، وبعد أن كانوا قبيلة يكون عامًا للذكور والإناث، إذنْ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هنا المراد بهم: القبيلة فيعم الذكر والأنثى، و إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهم أبناء عمٍّ للعرب؛ لأن العرب أبوهم إسماعيل بن إبراهيم وهؤلاء أبوهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يعني: جدهم إسحاق الذي هو أخو إسماعيل، وهؤلاء القوم ينسبون إلى أبيهم، وإسرائيل بمعنى: عبد الله، بعض الناس اليوم يقولون كيف نسمي الدولة اليهودية إسرائيل وهو جدهم؟ ما الجواب؟ نقول: إن هذا نسبة إلى أبيهم، ألسنا نُسمي العرب قرشيين، نسبوا إلى من؟ إلى جدهم قريش، ما نقول: بني قريش، نقول: قريش، إذن تُسمى باسم أبيها بالقرشيين وهم بنو إسرائيل على أننا أيضًا نشك على أن هؤلاء اليهود الموجودين من بني إسرائيل ما ندري لعلهم من أوروبا أو غيرها من البلاد التي ليست من بني إسرائيل، لكن على كل حال فإن العرب يعتبرون العروبة بالعربيَّة، فيقولون: من نطق بالعربية فهو عربي، وإن كان أصله أعجميًا، أولئك أيضًا يقولون: من نطق بالعبرية فهو إسرائيلي، وإن لم يكن من بني إسرائيل، ولهذا نقول: نجزم أن الطائفة الآن التي تسمى اليهود ليست كلها من بني إسرائيل بل إنها ينتمون إلى هؤلاء القوم باعتبار نطقهم ولغتهم.

وقوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي﴾: ما قال: (كل الذي) بل قال: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وذلك أن القرآن إنما قصّ عليهم ما فيه مصلحة، أما ما لا مصلحة فيه فإنه لا يقصه؛ لأن القرآن هدى وكل ما فيه فإنه له معنى في نفسه، فكل ما فيه فائدة يقصه عليه، الذي اختلفوا فيه، مثلًا اختلفوا في لون الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف هل في هذا فائدة؟ ليس فيه فائدة، كذلك اختُلف في البقرة التي أُمروا بذبحها اختلفوا ما هي؟ فقيل إنها لإنسان بار بأمه، وقيل: إنها لشيخ كبير، وقيل أشياء كثيرة، لكن هذا هل فيه فائدة؟ لا ليس فيه فائدة، قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فما فيه فائدة يقصه هذا القرآن ويحكيه بينهم.

وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ لأي شيء يقص ذلك؟ لأجل أن يصدقوا بالقرآن؛ لأنهم إذا جاء هذا القرآن قاصًا عليهم ما سبق مما فعلوه، والنبي ﷺ قد علم بأنه ما دَرَس التوراة ولا دَرَس على اليهود، علم أن ما جاء به فهو حق، وهذه هي الحكمة من كونه يقول: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مع أن هذا القصص لبني إسرائيل ولغيرهم، لكن بني إسرائيل عندهم من علم الكتاب ما ليس عند العرب، فلهذا بين لهم لإقامة الحجة عليهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٧٧-٨١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن واللام، والهدى معناه: الدلالة فإن القرآن هدى يعني دلالة، ولكنه لا ينتفع به إلا المؤمنون كما قيَّده به في قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سبب لها، سبب للرحمة؛ لأن الإنسان إذا اهتدى به نال رحمة الله - سبحانه وتعالى -، فيكون رحمة، لكن للمؤمنين، والتقييد بالمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، وقد ذكر الله في القرآن أنه هدى للعالمين وأنه هدى للمؤمنين وللمتقين، والجمع بينهما أنه في حالة العموم معناه دالٌّ وموضع دلالة، وفي حالة التقييد أنه ما انتفع به ووفِّق للاهتداء به إلا من قيد، هذه الآية من المطلق أم من المقيد؟ من المقيد للمؤمنين، إذنْ هدىً: هذا العلم، والرحمة: العمل والتوفيق؛ لأنه سبب الرحمة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قال: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ كغيرهم يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عدله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به، فلا يمكن أحدًا مخالفته، كما خالف الكفار في الدنيا أنبيائهم]، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل؛ لأن السياق فيهم، ولهذا قال: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، والمختلفون يحتاجون إلى من يحكم بينهم، أيهم على الصواب، فحكم الله بينهم في الدنيا ويحكم بينهم يوم القيامة، بماذا حكم بينهم في الدنيا؟ بما أنزله في القرآن المستفاد من قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ويحكم بينهم يوم القيامة بالحكم العدل كما في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وقول المؤلف: [يقضي بينهم كغيرهم يوم القيامة] لا يتعين أن يكون هذا القضاء يوم القيامة، بل قد يكون في الدنيا أيضًا فإن القضاء كما يكون يوم القيامة يكون أيضًا في الدنيا، وقد قضى بينهم في الدنيا بما أنزله في كتابه، وبيَّن الذين على حق والذين على باطل من بني إسرائيل، يوم القيامة يقضي بينهم قضاءً يترتب عليه الثواب، الثواب إما بالعقوبة وإما بالإحسان.

فالحاصل أن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ لا يتعين أن يكون يوم القيامة كما

قيّده المؤلف؛ لأن القضاء كما يكون في الآخرة يكون في الدنيا، وقول المؤلف: [كغيرهم] يفيد أن القضاء يوم القيامة ليس بين بني إسرائيل فقط بل بينهم وبين غيرهم، وهذا أمر لا شك فيه، ولا حاجة إلى تقديره؛ لأنه ما دام السياق في بني إسرائيل فإن غيرهم لا ينبغي أن تقحم في هذه الآية؛ لأنك إذا أقحمت غيرهم يكون كالاعتراض على القرآن؛ لأن معناه أن المقام يقتضيه، ولكنه لم يُبيّن، فنقول هنا: لا حاجة إلى تقدير (كغيرهم) بل هو يقضي بينهم، والآية هنا لم تتعرض للقضاء العام، وأما القضاء العام فيستفاد من آيات أخرى.

قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدله، وهنا أضاف الحكم إلى الله سبحانه وتعالى لأمرين: الأمر الأول: أنه حكم متضمن للعدل، والأمر الثاني: أنه حكم لا يُعقَّب بخلاف حكم غيره فإنه عرضة للخلل من ناحيتين: من ناحية أنه قد يكون غير عدل، ومن ناحية أنه قد يكون غير منفذ، أما حكم الله فإنه متضمن للأمرين: العدل، وأنه لا يعقب بل لابد أن ينفذ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [أي: عدله]، وهذا طرف أو جزء مما يدل عليه قوله ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ إذ إنه يدل على الأمرين الذي ذكرنا.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ العزيز يقول المؤلف: [الغالب]، وقد مر علينا في شرح الأسماء الحسنى أن العزيز لها ثلاثة معانٍ: عزة قدر وعزة قهر وعزة امتناع، وأما العزيز معناه الممتنع عن كل نقص، الذي لا يلحقه نقص، وأنه غالب وأنه ذو قدر عظيم، وغالبًا ما يفسر المؤلف وغيره العزيز بالغالب؛ لأنه أظهر معانيه ولأنه يكون أحيانًا في سياقٍ يقتضي يكون تفسيره بالغلبة أخص به من غيره.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [بما يحكم به]، وهذان الأمران من شروط الحكم؛ لأن من حكم بغير علم أصاب حكمه الخلل، ومن حكم بغير عزة أصاب حكمه الخلل أيضًا، فالأول: الذي هو فوات العلم يحصل به خلل الحكم في إصابة الصواب؛ لأن من حكم بغير علم فَإصابته للصواب من باب المصادفة، الثاني: الغلبة إذا فاتت العِزَّة حصل الخلل بالحكم لا من ناحية الصواب، ولكن من ناحية التنفيذ، فإنه إذا كان ليس له عزة وحَكَم بأمرٍ فقد يخالف في هذا الأمر، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليتبين الأمران.

فإذا قال قائل: كيف يقدِّم العزيز على العليم، والعلم سابق من حيث الترتيب الحكمي إذ إنه يعلم ثم يحكم ثم ينفذ؟

قلنا: لأن المقام هنا يقتضي بيان قوة حكم الله - سبحانه وتعالى -، وأن هذا الحكم لابد أن يَنْفُذ لكونه صادرًا عن عزيز.

مسألة: ما الحكمة في ختم الآية، بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟ لأن خلل الحكم راجع إلى فوات العلم، وفوات العزة، ففي فوات العلم يحصل الخلل من جهة الإصابة؛ لأن الجاهل إذا

حكم توفيقه للصواب من باب المصادفة، وفي فوات العزة خلل في التنفيذ؛ لأن الضعيف الذي ما عنده عزة لا ينفذ، ولهذا كان الحكم يفتقر إلى الوصفين جميعًا وهما العزة والعلم، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال المؤلف: [فلا يمكن أحدًا مخالفته كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءهم] الحكم في الدنيا كما قال المؤلف يخالف والمراد الحكم الشرعي، أما الحكم الكوني فلا يمكن أن يخالف لا في الدنيا ولا في الآخرة، ما أحد يقدر أن يخالف الله، والحكم الشرعي يمكن مخالفته في الدنيا كما هو كثير، بل أكثر الناس يخالفون الحكم الشرعي في الدنيا؛ لأن بني آدم منهم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف كلهم مخالفون للحكم الشرعي وواحد في الألف موافق للحكم الشرعي، وهذا دليله: حديث آدم أن الله يناديه يوم القيامة فيقول: «يا آدم» فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: «**أخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**»، فيقول: وما بعث النار؟ قال: «**من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون، واحد في الجنة وهؤلاء في النار**»، وابن القيم يقول في النونية:

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

[قال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الدين البيِّن والعاقبة بالنصر على الكُفَّار]، الخطاب للنبي ﷺ، والأمر هنا للوجوب، والتوكل نصف الدين قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا استعانة إلا باعتماد؛ ولهذا يقولون: إن الدين عبادة وتوكل، عبادة يفعل بها الإنسان، وتوكل يعتمد به على الله سبحانه وتعالى، وهنا قال المؤلف [﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به] وفسره غيره بأن التوكل هو الاعتماد على الله مع الثقة، فلابد من اعتماد وثقة وبه يكون التوكل. إذنْ قد تعتمد على غير الله ولكن لا تثق به، تعتمد على إنسان في أن يشتري لك شيئًا ولكنه مع هذا لا تثق به، قد تثق بالإنسان في أمانته ولكنك لا تعتمد عليه لضعفه، والأول إما لضعفه أو خيانته، أما الله - عزَّ وجلَّ - فيجب عليك أن تعتمد عليه واثقًا به، ولا يمكن تحقيق التوكُّل إلا بهذا، إذنْ التوكل على الله: الاعتماد عليه مع الثقة به، فلابد من الأمرين: اعتماد وثقة، والأمر بالتوكل لا ينافي فعل الأسباب الصحيحة التي تؤثر في المسببات فإن الرسول ﷺ كان سيد المتوكلين، ومع ذلك فكان يفعل الأسباب التي تحصل بها المنافع وتندفع بها المضار، كان يأكل ويشرب ويلبس وكان - أيضًا - يتخذ ما يقي من الضرر حتى إنه في أُحُد لبس درعين، كل ذلك تقوية للأسباب التي تندفع بها الأضرار، فإذن التوكل على الله لا يعني ألَّا تأخذ بأسباب النجاح، بل خذ بالأسباب مع الاعتماد على الله تعالى والثقة به، أن ينفع بهذا السبب، ولما حجَّ قوم من أهل اليمن وليس معهم زاد قالوا: نحن نحج ونحن المتوكلون، قيل لهم: أنتم المتواكلون، ففرق بين التواكل والتوكُّل.

الإنسان الذي يريد أن تأتيه الأمور بدون فعل أسبابها هذا متواكل، وليس عنده عقل، فالبهائم والحشرات وغيرها تفعل الأسباب أم لا تفعل الأسباب؟ تفعل الأسباب مع أن الذي

قام برزقها وتكفل به هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ومع ذلك تجدها تفعل الأسباب بل قال الرسول ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[1] ما قال تبقى في أوكارها ويأتيها رزقها، قال تغدو: تذهب في الصباح في الغدو، خماصا يعني: جائعة، وتروح في آخر النهار بطانًا ملآنة بطونها، فالإنسان المتوكل هو الذي يأخذ بالأسباب النافعة، أما الأسباب التي لا تنفع فإن الأخذ بها نوع من الشرك، كل من أخذ بسبب ليس بنافع يعني: ما دل على نفعه الحس ولا الشرع فإنه مشرك، فلهذا التمائم والتعوذات والتِّوَلة وما أشبه ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تفعل وهي لا تفعل جعلها النبي ﷺ من الشرك؛ لأننا نقول في تقرير هذا: كل من اتخذ سببًا غير نافع يعني: لا يدل على نفعه شرع ولا حس وإن شئت قلت شرع ولا قدر فإنه مشرك، كيف يكون مشركًا ما وجه كونه مشركًا؟ أنه أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا فكان مشاركًا لله تعالى هنا في تقديره؛ لأن مقدر الأسباب وجاعل الأسباب سببًا هو الله، فهذا إلى الله فأنت إذا قلت هذا سبب وليس بسبب فقد أشركت مع الله وجعلت نفسك شريكًا مع الله؛ لأن هذا السبب حِسِّي ومع كونه سبب حِسِّي للرزق لكن محرم شرعًا، الآن مثلًا الذي يرابي هل اتخذ وسيلة تحقق له الربح قدرًا؟ معروف الواحد الذي جعل هذا سببًا للرزق، لكنه هل هو سبب شرعي أم قدري؟ قدري، الله ما أذن فيه شرعًا لكن إذا وقع علمنا أن الله أذن فيه قدرًا، هذا ما يكون من الشرك؛ لأنه سبب قدري إنما هو محرم؛ لأنه منهي عنه شرعًا.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [أي: الدين البيِّن] فسَّر المؤلف ﴿ٱلْحَقِّ﴾بالدين، و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ بالبين، وليس هذا بجيد؛ لأن الدين منه حق وباطل، أليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهذا هو الدين الباطل، الدين الحق يظهر على الدين كله أي: على الدين الباطل، فتفسير المؤلف الحق بالدين قصور بلا شك، بل الحق هنا الثابت بصدق أخباره وعدل أحكامه، هذا معنى الحق أنه ثابت وذلك بالصدق في أخباره والعدل في أحكامه، وأما قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ففسره بالبيِّن وعلى هذا جعل أبان من اللازم؛ لأن بان يبين فهو بيِّن، وأبان يُبِيْن فهو مبين، هنا هل تصلح أن تكون بمعنى مظهر؟

الجواب: لا، لأن بَيِّن هنا أنسب من مظهر، فهذا الحق بيِّن ظاهر، وفي قوله: ﴿عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تثبيت للرسول ﷺ أن يبقى على ما هو عليه، معتمدًا على الله تبارك وتعالى؛ لأن الإنسان إذا علم أنه على حق يثبت وترسخ قدماه، وإذا كان شاكًا أو مترددًا فإنه لا يثبت، فأمره أن يعتمد عليه وبيِّن له أن ما كان عليه من هذا الدين فهو حق بين ظاهر، إذنْ إعراض هؤلاء المعرضين عنه

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

هل يقدح في كونه بيِّنًا؟ لا يقدح لأن البلاء ليس من القرآن، بل البلاء منهم، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

الحاصل الآن: أمر الله نبيه أن يعتمد على الله، وبيَّن له الحال التي كان عليها، وأن هذا الدين حق بيِّن، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، ثم بيَّن - سبحانه وتعالى - أن إعراض من أعرض عنه ليس لقصور في بيان هذا الدين وظهوره، ولكن لقصور في هؤلاء المعرضين؛ لأن الدين هنا بالنسبة إليهم لم يصادف محلًا، ومعلوم أن الأمر إذا لم يصادف محلًا قابلًا فإنه لن يثبت، حتى إن الإنسان ليقرأ آية على مريض فيشفى، ويقرأها على مريض آخر بنفس المرض فلا يشفى؛ لأن المريض الأول: قابل مؤمن بتأثيرها، والثاني: ليس مؤمنًا بتأثيرها فلا تنفعه، فلابد في الأمور من قابلية: يعني محل يقبل هذا الشيء، وإذا لم يقبل فلا يمكن أن يلائمه، وهذا كما أنه في الأمور الشرعية كذلك أيضًا في الأمور القدرية، فلو أننا زرعنا قلبًا في إنسان ونفر منه الجسم هل يبقى؟ لا يبقى ويموت، أو زرعنا كُلْيَةً في إنسان ونفر منها الجسم فإنها لا تبقى ويعفن ويموت، فكل شيء لابد أن يكون المحل قابلًا له فإن لم يقبله فلا مكان له، هؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن ليس معناه النقص في القرآن، فالقرآن حق بيِّن واضح، لكن البلاء منهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: بالبيِّن فالعاقبة لك بالنصر على الكفار، [ثم ضرب أمثالًا لهم بالموتى وبالصُّمِّ وبالعَمَي] فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ إذنْ يقول: ضرب لهم أمثالًا بالموتى وبالصم وبالعمي، وقال ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ وهذا مثل كما قال المؤلف؛ لأن الرسول ﷺ ما خرج إلى المقابر يدعو على القبور حتى يقال له إنك لا تسمع الموتى، وإنما دعا الأحياء، ودعاء الأحياء، انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم قبلها واطمأن إليها فهو حي، ولهذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ على من؟ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠] ليتبين أن المراد بالحياة هنا حياة القلب، حياة الإيمان لا الحياة الجسدية؛ لأن مقابلة الشيء بالشيء تفيد معناه، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ حياة جسم؟ لا، لو كانت حياة جسم لقال: ويحق القول على الموتى، ولكن قال: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وبهذا عرفنا أن كل حياة في مثل هذا السياق فالمراد بها حياة القلب لا حياة الجسم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الموتى جمع ميت والمراد به هنا ميت القلب، أو نقول: إن المراد به ميت الجسد ويكون هنا تشبيهًا أي: أن هؤلاء الذين تدعوهم ولا يؤمنون كالموتى، لو أتيت إلى ميت قلت يا فلان اعبد الله وآمن بالرسول ﷺ واتق الله هل ينتفع؟ ما ينتفع، كالحجر، ولا شك أن الرسول ﷺ قرر الحق على الذين أُلقوا في قليب بدر وقال لهم: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، وقال للصحابة: «لَسْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»(١)، لكن هذا على

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري(٣٩٧٦) ومسلم (٧٧/ ٢٨٧٤) من حديث أنس ﷺ.

سبيل التوبيخ لا على سبيل الدعوة؛ لأن هؤلاء مهما كان ما يمكن أن يجيبوا في هذه الحال إجابة دعوة، ولهذا الكافر لا ينتفع انتفاع جواب بما يسمع عند قبره من تلاوة أو ذكر، ما ينتفع به، وبه نعرف بدعة هؤلاء الذين ابتدعوا قراءة على أو عند القبور يظنون أن الميت ينتفع، فنقول: لا يمكن أن ينتفع انتفاع الثواب، أما انتفاع تخفيف عقاب فهذا ربما ينفع، لكن لما لم يرد صار من البدع، وإلا فهم يزعمون أن ذلك يخفف العذاب؛ لأن الرسول قال في الجريدتين: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1]، وقالوا: إن العِلَّة في ذلك أنها قبل اليبس تُسَبِّح الله، فيخفف عنه بكونه يسبح عند قبره، ولكن هذا ليس بصحيح.

إذن ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل أن يراد بالموتى هنا: موتى القلوب وحينئذٍ فالآية ليس فيها تفسير، أو أنه موت الأبدان فيكون هؤلاء مشبهين بالموتى، قال ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ولا تسمع الصمَّ أم الصمُّ؟ أين الفاعل؟ ضمير مستتر محذوف وجوبًا تقديره أنت؛ قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ إذن الصم: مفعول أول، والدعاء: مفعول ثانٍ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ يعني: ما تخلي الصم الذين ما يسمعون ما تخليهم يسمعون دعائك، والمراد بالدعاء: الصلاة، يعني: لو دعوت أصم وقلت يا فلان يا فلان، هل يسمع أو لا يسمع؟ لا يسمع، قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يعني: دعوتكم إياه ودعوته إيَّاكم، فيحمل الأمرين على القول الصحيح، فالمعنى أن هذا لا تسمع الصم الدعاء، أيضًا إذا كانوا صمًا وولوا مدبرين يكون هذا أبلغ؛ لأن الأصم إذا كان مقابلًا لك، ربما يفهم الخطاب بحركات الشفتين، لكن إذا ولى مدبرًا ما عاد أبدًا لو ترمي مسافة خلفه ما يفيد، ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وهذا غاية ما يكون من البعد من بعد السمع، والله تبارك وتعالى يبين لهؤلاء، الحقيقة أن هؤلاء حالهم كحال هؤلاء الصم المدبرين؛ لأن هؤلاء معرضين عن الحق غير قابلين له، فلذلك صار هذا التشبيه بهم من أبلغ ما يكون، فهم صم غير سامعين، ومع ذلك غير مقبلين؛ لأن الأصم إذا أقبل عليك كما قلت ربما يفهم منك بعض الشيء، لكن إذا كان مدبرًا ما فيه رجاء ولا أمل، وقول المؤلف: ﴿الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ يقول: [بتحقيق الهمزتين] كيف نقرأها؟ الدُّعَاءَ إِذَا، [أو تسهيل الثانية بينها وبين الياء] يعني: تسهل الهمزة الثانية حتى تكون بين الهمزة والياء: ﴿الدعاءَ يِذا﴾، فتجعلها لا هي بياء خالصة ولا همزة خالصة.

وقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ولوا: والتولي هو الإدبار وعلى هذا فتكون مدبرين حالًا مؤكِّدَة للعامل أم لصاحب الحال؟ للعامل؛ لأن التولي نفس التولي إدبار مثلها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠] فمفسدين حال من الواو وهي مؤكدة للعامل؛ لأن العتو هو الفساد، وهنا ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال من الفاعل لكن ليست مؤكدة للفاعل؛ لأن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٦) ومسلم (١١١/٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تأكيد الفاعل لو جاء به السياق فأجمعين، فإن الواو دالة على الجمع، لو جاء بلفظ أجمعين صارت مؤكدة لها، لكن جاءت بلفظ مدبرين، فهي مؤكدة للعامل ولوا، فيكون هذا في الحقيقة تأكيدين: التولي والإدبار، نعم التولي هو الإدبار لكن قد يكون من المتولي فيه رجاء وأمل، يتولى وهو ملتفت بقلبه إليك، لكن إذا كان مُدبرًا الإدبار جسدي وقلبي، وهو أصم يكون هنا ثلاثة موانع للقبول أو للسماع، وهي الصمم والتولي والإدبار.

قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ شبههم برجل أصم ولى مدبرًا على كل حال هل كونها تشبيهًا أقرب، أم يجوز أن نقول إنهم صم وأنهم انتفى السماع عنهم لانتفاء فائدته؟ يكون نفي السمع عنهم لانتفاء فائدته، والشيء قد ينفى لانتفاء فائدته ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾.

(هادي) فيها إشكال من الناحية النحوية: قال ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ هل (بهادي) اسم فاعل؟ نعم اسم الفاعل يعمل عمل الفعل، وهنا ما نسب العموم بالإضافة إذن هو مضاف إلى مفعوله معنىً وليست مضافة إلى فاعلها، وهنا مضافة إلى مفعولها، الإشكال الثاني: قوله: ﴿الْعُمْيِ﴾ بالكسر، ونحن قلنا: إن الاسم إذا كان منقوصًا فإنه لا يظهر عليه إلا الفتحة، وهنا ظهرت الكسرة على الياء؛ إذن تكون جمعًا ولو كان جمعًا لا فرق بين الجمع وغير الجمع، إذن ليس منقوصًا لأن المنقوص كل اسم معرب آخره ياء لازمة مكسور ما قبلها، وهذه ساكن ما قبلها إذن ليس منقوصًا، ﴿بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ جمع أعمى، ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ متعلقة بـ ﴿الْعُمْيِ﴾ أو ﴿بِهَادِي﴾؟ ﴿بِهَادِي﴾ بلا شك، وقال بعضهم متعلقة بالعمي وتكون ﴿عَن﴾ هذه للمجاوزة، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: أنهم عمي بسبب ضلالتهم، ولكنه ليس بصحيح بل ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ متعلق ﴿بِهَادِي﴾ يصير ﴿هادي﴾ بمعنى صارف؛ لأن الهداية تتضمن أمرين: الصرف عن الضلال، والدلالة على الحق، فيصير: ما أنت بصارف هؤلاء عن ضلالتهم إلى الحق، لماذا؟ [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون لله تعالى بتوحيده].

قوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾، (إن): أي بمعنى ما، ونحن ذكرنا لكم قبل أن (إِنْ) تأتي لعدة أمور: فتأتي شرطية، وتأتي نافية إذا وقع بعدها إلا، وتأتي للتوكيد وهي المخففة من الثقيلة، وتكون زائدة، الزائدة كقوله:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ   وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ[1]

(١) أورده ابن هشام الأنصاري في «أوضح المسالك» الشاهد رقم (١٠١)، وفي «قطر الندى» رقم (٥٠)، وفي

قوله: (ما إن أنتم) أي: ما أنتم، ولهذا قال ابن مالك:

إِعْـمَالُ لَـيْسَ أُعْمِلَـتْ مَـا دُوْنَ إِنْ   مَـعَ بَقَـا النَّفْـي وَتَرْتِيـبٍ ذُكِـرْ(١)

ما دون إن يقصد به الزائدة ومثل لها بهذا البيت:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ   وَلَا صَرِيْـفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

هذه مخففة.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

١- **من هذه الفوائد:** أن القرآن كلام، لقوله: ﴿يَقُصُّ﴾ والقصص قول فالقرآن إذن قول، ومعلوم أن القرآن نزل من الله فيكون قولًا لله - سبحانه وتعالى - كما يدل على ذلك سياق الآيات ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ بهذا القول الذي قص عليك.

٢- **الفائدة الثانية:** أنه يجوز أن يخص طائفة ممن يخاطبون من أجل إقامة الحجة عليهم، فإن القرآن يقص على بني إسرائيل وغيرهم لكن بني إسرائيل اعتنى بهم هنا؛ لأن الموضوع فيما يتعلق بهم.

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه ينبغي أن يُعتنى بما هو أهم أو بما هو مهم، ويترك ما لا فائدة منه؛ لقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقص عليهم جميع ما يختلفون فيه؛ لأن مما اختلفوا فيه ما لا فائدة من ذكره أو ما لا داعي لذكره، وهذه المسألة ينبغي للإنسان أن يعتني بها، يعني يقتصر على المهم أو الأهم وأن يدع ما لا فائدة منه؛ لأنه إضاعةٌ للوقت وتطويلٌ للخلاف بلا فائدة، ومن ذلك ما يوجد في كثير من التفاسير يذكرون الخلاف في أمور هي في الحقيقة واحدة، تجده مثلًا يذكر الخلاف عن مجاهد ومقاتل وعَلقمة وابن مسعود وابن عباس، والاختلاف بينهم إنما هو في التعبير فقط، فمثلًا قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قال بعض العلماء: قضى بمعنى وصَّى، وبعضهم يقول: بمعنى عهد، وبعضهم يقول: بمعنى أوجب، وبعضهم يقول: بمعنى ألزم، هذه لا داعي لها؛ لأن كل هذه الكلمات الأربع مثلًا تدل على معنى واحد، كذلك أيضًا يذكرون الخلاف فيما لا طائل تحته كما ذكروا الاختلاف في كلب أصحاب الكهف هو أسود أم أحمر أم أبيض وما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا اختلافهم في عدة أصحاب الكهف فإن الله - تعالى - ذكر الخلاف وأبطل قولين وأقر الثالث، المهم أن الله يقول بعد هذا بعدما ذكر القولين ووصل الثالث: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ يعني: لا تتعمق، إذا جاء أحد

«الشذور» رقم (٩٠).

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفية ابن مالك.

يجادلك في هذا الأمر؛ لأنه لا فائدة منه فالشيء الذي لا فائدة منه أو فائدته قليلة ويضيع عليك ما هو أهم ينبغي لك تجنبه، وهذا لو نسير عليه في حياتنا كلها لَكُنَّا نستوعب الوقت بما فيه الفائدة، لكن ما أكثر الأوقات التي تضيع وما أكثر الأقوال التي تقال ويضيع الوقت فيها، المهم أنه يؤخذ من هذه الآية: أنه ينبغي الاعتناء بما هو أهم وترك ما لا فائدة منه، لقوله: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٤- **الفائدة الرابعة**: الإشارة إلى الخلاف بين بني إسرائيل، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والاختلاف رحمة أم شر؟ شر، وأما «اختلاف أمتي رحمة» فموضوع لا يصح[1]؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ لكن لو صح هذا الحديث مثلًا أو قاله بعض أهل العلم فالمعنى أن هذا الاختلاف داخل في رحمة الله وفي سعته بالنسبة للمختلفين، أو أنهم لا يعذبون، وليس المعنى أن إيقاع الخلاف بينهم من رحمة الله، بل ومن حكمة الله ولكن رحمة الله واسعة، فلا يقال مثلًا إنهم معذبون بهذا الخلاف، أو إن الواحد المصيب منهم له أجر والباقون محرومون أو ما أشبه ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

١- **يستفاد من هذه الآية**: بيان مرتبة القرآن وفضله وأنه هدى ورحمة، رحمة للعمل به.

٢- **الفائدة الثانية**: أنه لا ينال هذا الهدى وتلك الرحمة إلا المؤمنون؛ لقوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- **الفائدة الثالثة**: أنه لا معارضة بين هذه الآية وبين قوله تعالى في وصف القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ والجمع بينهما أن الإثبات هنا والإثبات هناك مختلف الجهة، فهناك هدى للناس بمعنى دليل لهم فهو دليل لكل الناس، لكن هل من استدل به انتفع به؟ لا، قد يهتدي به وقد لا يهتدي به، إنما هو نفسه صارف الهداية لجميع البشر.

٤- **الفائدة الرابعة**: فائدة الإيمان، لو لم يكن في القرآن فوائد إلا هذا لكفى وهو الاهتداء بالقرآن ونيل الرحمة به.

٥- **الفائدة الخامسة**: أنه كلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أقوى اهتداءً بالقرآن، وهذا مأخوذ من قاعدة مرت علينا وهو (أن الحكم إذا عُلِّقَ بوصف قويَ ذلك الحكم بقوة ذلك الوصف وضعف بضعف ذلك الوصف)، فما دامت الهداية معلقة والرحمة كذلك بوصف الإيمان فكلما ازداد ذلك الوصف ازداد الهدى وازدادت الرحمة، فإن القاعدة: (أن الحكم إذا علق بوصف فإنه يزيد بزيادته وينقص بنقصانه).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾:

---

(١) إشارة إلى حديث: «اختلاف أمتي رحمة» قال الألباني في الضعيفة رقم (٥٧): لا أصل له.

١- **يستفاد من هذه الآية**: أن القضاء موكول إلى الله وحده؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

٢- **ثانيًا**: أن كل قضاء لا يستند إلى قضاء الله فهو باطل.

٣- **الفائدة الثالثة**: إثبات العدل لله سبحانه وتعالى، ويؤخذ من قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ فإن إضافة الحكم إلى الله دليل على أنه مشتمل على العدل.

٤- **الفائدة الرابعة**: وهي مستفادة من التفسير أيضًا أن الحكم هنا يتضمن الحكم الشرعي والحكم الجزائي، فيقضي بينهم بحكمه شرعًا في الدنيا وبجزائه عدلًا في الآخرة، إذن ذكرنا أن للإضافة إلى حكم الله فائدتين: أحدهما: العدل، والثاني: الإصلاح، يعني: ما دام الحكم مضافًا إلى الله تعالى وقد علم أنه سبحانه وتعالى حكيم فإن هذا الحكم لابد أن يكون مناسبًا وموافقًا لمحلِّه، وكل حكم وافق محله فهو إصلاح، فإن هذا يتضمن العدل والإصلاح.

٥- **الفائدة الخامسة**: وصف الله - تعالى - بالعِزَّة والعلم، لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٦- **الفائدة السادسة**: قرن العزة مع العلم في هذا الموضع يستفاد منه فائدة مستقلة غير فائدة العزة على حدة والعلم على حدة، يعني: يستفاد من جمعهما فائدة مكونة منهما وهي أن حكم الله - سبحانه وتعالى - لابد أن ينفذ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ولابد أن يكون مطابقًا وصحيحًا من قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأننا قلنا فيما سبق أن من كمال الحكم العلم والعِزَّة، العلم ليحكم بالصواب، والعزة لينفذ ما حكم؛ لأن خلل الحكم يأتي إما من الجهل وإما من الضَّعف، إما لجهله أي: الحاكم فيحكم بغير الصواب، وإما لضعفه فلا يستطيع أن ينفذ، إذن يؤخذ من جمع هذين الوصفين لله - سبحانه وتعالى - عقب ذكر الحكم تمام الحكم حيث كان مبنيًا على العزة والعلم، فبالعزة يكون التنفيذ وبالعلم يكون الصواب.

٧- **الفائدة السابعة**: تقديم الأخص من الأوصاف على الأعم، الأخص معناه: الأنسب للقضية، فهنا قدم العِزَّة على العلم مع أن العلم سابق عليها في الترتيب الحُكْمي، في الترتيب الحكمي أيهما أسبق؟ العلم أسبق؛ لأن الإنسان يعلم ثم يحكم ثم ينفذ، ففي الترتيب الحكمي العلم مقدم، لكن هنا قدم العزة على العلم في الذكر؛ لأن المقصود الأهم في الحكم هو تنفيذه فكان من المناسب تقديم العزة على العلم، نظير هذا قوله تعالى عن الملائكة لما قالت امرأة إبراهيم حينما صكَّت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠] فقدم الحكمة على العلم مع أن العلم سابق إذ لا حكمة إلا بعلم، لكنه لما كان هذا أمرًا خارجًا عن العادة ومستغربًا قدم الحكمة ليتبين لها أنه ما خرج ذلك عن العادة إلا لحكمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية**: وجوب التوكل على الله، لقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والأصل في

الأمر الوجوب، ومعنى التوكل سبق تفسيره.

٢- **الفائدة الثانية:** أن في التوكل على الله - سبحانه وتعالى - تتيسر الأمور؛ لأن الرسول ﷺ يكابد من عناد بني إسرائيل وغيرهم، فأمره الله بالتوكل عليه؛ لأن الله ذكر فائدة التوكل في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ فبالاعتماد على الله تتيسر الأمور، وباعتماد الإنسان على نفسه يحصل الخذلان قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥] مع أن الرسول معهم ﷺ، ومع أنهم خير القرون وأفضل أهل الأرض لما قالوا لن نغلب اليوم من قِلَّة، حصل هذا الأمر فيتبين بهذا أن من اعتمد على نفسه في حصول مقصوده أو دفع مضروره فإنه يخذل، ولهذا أمر الله رسوله بالتوكل على الله في هذا المقام، مقام النزاع وبيان الحق لبني إسرائيل وهو يكابد من ذلك.

٣- **الفائدة الثالثة:** تسلية الرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- **الفائدة الرابعة:** شهادة الله - تعالى - بما جاء به الرسول بأنه حق؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وفي هذه الفائدة نستفيد فائدة أخرى وهي: الترغيب في سلوك طريق النبي ﷺ، ما دام حقًا؛ لأن كل إنسان عاقل يختار الحق على الباطل.

٥- **الفائدة الخامسة:** فضيلة النبي ﷺ حيث كان مسلكه الحق المبين، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا فيه شهادة من الله وتزكية للرسول ﷺ، وهو يتضمن فضيلة الرسول ﷺ يعني: الشهادة من الله أنه على الحق المبين.

٦- **الفائدة السادسة:** أن كل ما خالف ما كان عليه الرسول ﷺ فهو باطل؛ لأننا لو قلنا: إنه حق للزم الجمع بين النقيضين، نقول ما جاء به الرسول حق، وهذا حق، ما يمكن وهو يخالفه، إذ هذا جمع بين النقيضين، إذ لا يمكن أن يكون الشيئان متناقضين كل منهما حق، فلابد أن أحدهما هو الحق، ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ ويقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ:٢٤] وبهذا نعرف أن جميع ما خُولِف فيه ما كان عليه الرسول ﷺ فهو باطل وهو في النار كما قال الرسول ﷺ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» فإن كانت المخالفة تامة فهو باطل كله، وإن كانت المخالفة جزئية كان فيه من الباطل بقدر ما خالف ما كان عليه الرسول ﷺ.

٧- **الفائدة السابعة:** ظهور أحقية ما كان عليه الرسول ﷺ أنه حق ليس فيه خفاء، لقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٨- **الفائدة الثامنة:** أن بيان الحق لا يلزم منه أن يكون بيِّنًا لكل أحد، فإن الخفافيش تعمى في ضياء النهار، فلا يلزم من كون الرسول ﷺ على الحق المبين ألا يُعرض عنه أحد، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: لا تظن أن هؤلاء الذين أعرضوا، أعرضوا لأنك على باطل

بل لعدم قابلية المحل، ومعلوم أن الشيء وإن كان تامًا إذا لم يجد محلًا قابلًا لم يكن له تأثير، رجل معه سيف مسلت وحاد للغاية وأمامه عمود من حديد صلب وهو يُضرب به الحديد الصلب ويقول: أنا ابن جلا وطلَّاعُ الثنايا، ويضرب هذا الصلب الحديد بالسيف يريد أن يقطعه هل ينقطع هذا؟ لا، لعدم قابلية المحل، الآن السبب موجود سيف صارم ورجل شجاع ورجل يعزز نفسه ويتشجع ويصيح بهذا العمود من الحديد، وطبعًا إذا كان بهذه الحال يضرب بقوة أم لا؟ يضرب بقوة ومع ذلك لم يؤثر؛ لأن المحل غير قابل، فما كان عليه الرسول ﷺ من الحق المبين هو حق مبين بلا شك بين ظاهر، وعدم سماع هؤلاء له ليس لخلل فيه، السبب تام لكن الخلل في المحل غير قابل لهذا الحق، ولهذا ما أحسن هذه العبارة أو هذه الآية بعد الآية التي قبلها ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فلا تظن أنك لست على الحق، لكن هؤلاء موتى.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

١ - **في هذه من الفوائد:** أن الميت والمراد بالميت هنا ميت القلب أو الموتى موتى الأجسام على سبيل التمثيل لا يسمع، فإذا كان ميت القلب فالأمر ظاهر أنه لا يسمع سماعًا ينتفع به، وإلا فهو يسمع مع الإدراك لكنه لا ينتفع به.

٢ - **الفائدة الثانية:** استدل بالآية هذه مَنْ قال: إن الموتى في قبورهم لا يسمعون، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم منهم من قال: إن الموتى يسمعون ولكن لا يجيبون، ومنهم من قال: إنهم لا يسمعون، ويقبل ما وردت به السنة من سماعهم ولكنه يقصره على ذلك ويقول: فيما عدا ذلك لا يسمع الميت، والسنة وردت بأن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه فإنه يسمع قَرْع نعالهم، والسنة وردت بما ثبت عن النبي ﷺ، أنه وقف على أصحاب قليب بدر من المشركين وجعل يؤنبهم يا فلان بن فلان بأسمائهم وأسماء آبائهم: «هَلْ وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكم حقًّا فَإِنِي وَجَدتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، فيقال للرسول ﷺ، ما تُكلِّم من قوم قد جَيَّفُوا، فيقول: «لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[1]، فهذا الكلام الآن والمناداة كانت عند الدفن أو عند إلقاء الميِّت أو تسليمه للآخرة فلا يقتضي أن يسمع كل وقت، ومن العلماء من قال: (إنه يسمع كل وقت)، كشيخ الإسلام ابن تيمية ويستدلون بالحديث الذي رواه ابن عبد البر وصححه وهو: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفَه فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّم عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»[2] فيصححون هذا الحديث، وبعضهم يضعفه ويقول: إنه لا يصح، ولكن هذا الحديث لا ينبغي أن يكون هو ركيزة مَنْ يقول: إن الموتى يسمعون، بل إننا نقول: إن الموتى يسمعون وقد نستدل بحديث أصح

(١) تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

من هذا، وهو ما ثبت عن النبي ﷺ أنه يزور المقبرة ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِيْنِ»(١) وتوجيه السلام عليهم بالخطاب يدل على أنهم يسمعون، وإلا لكان يقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين، ولا يقول عليكم ولو قال قائل: إن هذا من باب قوة الاستحضار، قلنا: قوة الاستحضار لا تحتاج إلى الدنوِّ، ولهذا نحن نقول: السلام عليك أيها النبي وإن كنا بعيدين ولا يُسن أن نقول الآن: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، حتى نحضر إليهم، فدل هذا على أنهم يسمعون، يبقى عندنا إذا كانوا يسمعون فما هو الجواب عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟

نقول المراد: السماع سماع القبول إذا كان المقصود بالموتى موتى القلوب، أو السماع الذي تحصل به الإجابة، هو سماع الإدراك الدنيوي، هذا ما يمكن يعني ليس سماع الميت بما يتكلم به الإنسان كإدراك الحي، بل هو سماع لا نعرف كيفيته، إنما هو سماع لا يمكن أن يجيب إلا إذا أراد الله تعالى إحياءه، وتكلم ونطق فهذا يمكن مثل صاحب البقرة، فإن صاحب البقرة ضربوه ببعضها فأحياه الله وتكلم ومات، ولكنه لم يتكلم ولم يجب إلا بعد أن حيي حياة دنيوية ثم أماته الله.

على كل حال هم لا يسمعون كل الكلام، يعني مثلًا لو ذهبنا نحن وإياك عند قبر وصرنا نتكلم ما يلزم من هذا أنهم يسمعون، هم لا يسمعون إلا الخطاب الموجه إليهم، وليس معنى ذلك أنهم يسمعون وإن كان ظاهر كلام الفقهاء أنهم يسمعون حتى ما لا يخاطبون به، نحن وإن كلمناهم هل يسمعون مطلقًا؟ نعم، يسمعون مطلقًا؛ لأنه إذا كان السبب في هذا السماع، الخطاب، خطابنا لهم، لكن ما دام الخطاب إذا سمعوه مرة سمعوه مرة أخرى ما المانع؟ البعض ما قال مفهوم بأنها تنزع الروح بعد السلام؛ لأنها إذا ردت بعد السَّلام هذا هو الظاهر، أما إذا انتهى السلام لم تسمع، كُلّما خوطبوا رد الله عليهم أرواحهم فسلموا، بقي أن يقال: هل يسمعون بدون مخاطبة؟

ظاهر كلام الفقهاء أيضًا أنهم يسمعون، ولهذا قالوا: إن الميت يتأذّى بفعل المنكر عنده من قول أو فعل، هذا رأي الفقهاء ولا أدري ما مستندهم، على رأي الفقهاء يكون يسمعون حتى ما لم يخاطبوا، وعليه أيضًا يكون الإنسان إذا شرّف القبر بالأحجار التي تلقى عليه أو بالكتابات أو بغير ذلك فإن الميت يتأذى به؛ لأن هذا من المنكر، تشريف القبر وتمييزه على غيره من القبور هذا منكر ولا يجوز، وعلى كلام الفقهاء يكون الميت يتأذى بذلك، ويكون هذا الذي أراد تشريف ميِّته هو في الحقيقة آذاه.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (١/ ١٨٥) وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٩٣).

٣- **الفائدة الثالثة:** أن من لم يقبل الحق فهو بمنزلة الأصم الذي لا يسمعه؛ لقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

٤- **الفائدة الرابعة:** أن الجوارح والحواس التي لا ينتفع بها كالمعدومة وجه ذلك أن هؤلاء لهم آذان ولهم سمع، ولكن لما لم ينتفعوا به، صاروا صمًّا.

٥- **الفائدة الخامسة:** بيان شدة إعراض هؤلاء عن الحق؛ لأنهم صم مولُّون مُدْبرون، وهذا أبعد ما يكون عن السماع، فالأصم إذا كان مقبلًا إليك قد يفهم منك ما يفهمه من الإشارات والحركات فينتفع بذلك ولو كان أصم، لكن إذا ولَّى مع الإدبار ولَّى ببدنه وأدبر بقلبه أو بالعكس، فإن ذلك يكون أشد استحالة في سماعهم مما إذا كان أصم مع الإقبال، وأيضًا في هذا دليل على أن الإنسان إذا ولَّى مدبرًا عن الشرع فإنه قد يعاقب بالصمم عن سماع الحق، بحيث إنه ما ينفع له موعظة ولا نصيحة وهذا هو الغالب، أن الإنسان إذا كان ليس عنده إقبال على الحق أن يحرم الحق حتى لو تَكَلَّم الناس وفعلوا وأقاموا الأدلة ما انتفع بذلك، ونضرب مثلًا الآن بالمرابين والمتحيِّلِينْ على الرِّبا هم يسمعون المواعظ لكنهم يولُّون، يرون أن ما هم عليه لابد أن يفعلوه ولذلك ما وفِّقوا للانتفاع به، بل بقوا على ضلالهم والسبب في هذا أنهم ما عندهم أي إقبال من الإقبال الذي ينبغي ولهذا نقول: إن الإنسان إذا ولَّى مدبرًا عن الحق فإنه لا يوفق لسماعه.

٦- **الفائدة السادسة:** أن المُعرِض عن الحق بمنزلة الأعمى فهنا قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

٧- **الفائدة السابعة:** أن الرسول ﷺ لا يملك هِداية الخلق؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]؛ لأن الهداية المثبتة غير الهداية المنفيَّة، وما هي الهداية المثبتة؟ هداية الدلالة والعلم والبيان، والرسول ﷺ معلم مبيِّن ودالُّ الخلق على الحق، وأما التوفيق لذلك فهو بيد الله، فالجمع بين الهداية المثبتة للرسول ﷺ والمنفية عنه أن نقول: ما أُثبت للرسول فهو هداية العلم والبيان، وما نفي عنه فهو هداية التوفيق والعمل ولا يستطيع هذا أبدًا.

٨- **الفائدة الثامنة:** أن هؤلاء الجماعة الذين أعرضوا عن الحق قد أقفلت عليهم طرق الخير فهم موتى القلوب لم ينتفعوا بقلوبهم، صم الآذان لم ينتفعوا بآذانهم، عمي العيون لم ينتفعوا بعيونهم، والآيات إما عقلية أو مسموعة أو مرئية، فالعقلية محلها القلب وقد انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والمشهودة بها العين وقد انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ والمسموعة بالأذن انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ فجميع الطرق التي تحصل بها الهداية في هؤلاء، كلها - والعياذ بالله - مسدودة مغلقة.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ في هذه القطعة من الآية من الفوائد الكثيرة:

٩- **الفائدة التاسعة:** أن الذي ينتفع بالآيات التي جاء بها الرسول هم المؤمنون بها ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾.

١٠- **الفائدة العاشرة:** أنه كُلَّما قوي إيمان الإنسان بآيات الله قوي انتفاعه بها؛ لأنه عُلِّق على وصف الإيمان به في هذه الآيات، فكُلَّما قوي هذا الوصف قوي الانتفاع.

١١- **الفائدة الحادية عشرة:** أن الإيمان يستلزم الإسلام وهل الإسلام يستلزم الإيمان؟ ما يستلزمه، قد يكون الإنسان مسلمًا وليس بمؤمن ولهذا قيل عند الرسول ﷺ عن رجل أنه مؤمن فقال: «أَوْ مُسْلِمٌ»[1]، فدلَّ ذلك على الفرق بين الإيمان وبين الإسلام، وكثير من الناس الآن مسلمون، ولكن ليسوا بمؤمنين، وكثير من المسلمين مستسلمين وليسوا بمسلمين، فالمسلمين اليوم إما مستسلم، أو مسلم أو مؤمن، أقلهم وجودًا المؤمن بلا شك، والمسلم المستسلم كثير، في البلاد غير بلادنا، أكثرهم مسلم بمعنى مستسلم، هوية فقط، ولهذا يأتي أناس من بلادٍ أخرى يقولون: لا نعرف نتوضأ ولا نعرف نصلّي، ولا نعرف نقف في الصلاة، ومع ذلك نقول في الهوية مسلم، القسم الثالث: المسلم غير المؤمن، وهذا كثير في بلادنا مسلمون لكن ليسوا بمؤمنين، والدليل على هذا أن الأعمال أو الأخلاق التي عُلِّقت بالإيمان تجدها مفقودة في كثير من هؤلاء «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2] هل هذا موجود بكثرة؟ بقلة، «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»[3] فانتفاء الغش موجود بقلة، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[4] بقلة، وامشِ على هذا، المهم أن الإيمان بالنسبة للمسلمين اليوم قليل، والإسلام كثير والاستسلام أكثر.

١٢- **الفائدة الثانية عشرة:** قوله ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يفيد بأن الآيات كثيرة ليست واحدة، وهي تنقسم إلى قسمين: آيات كونية وآيات شرعية، فما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فهو آيات شرعية، وما دلت عليه الحوادث أو ما كان من الحوادث فهو من الآيات الكونية، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ من أي شيء؟ كونية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٧]. هذه الآيات الشرعية، وما وجه كون الآيات آيات؟ لأنها دالة على الله، والآيات الكونية دالة على الله من حيث الفطرة والحكمة والسلطان إلى غير ذلك من معاني الربوبية، والآيات الشرعية دالة على منزلها من حيث

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧) ومسلم (٢٣٦/ ١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٧١/ ٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٤/ ١٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٧٣/ ٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العدل والإحسان، لأن جميع الشرائع - وليس شريعة الإسلام فقط التي جاء بها سيدنا محمد - كلها تحارب الفساد، وكلها تقرر الصلاة، لكن شريعتنا تمتاز على غيرها، بأنها تراعي المصالح العامة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النمل:٨٢-٨٦].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول المفسر: [حق العذاب أن ينزل بهم في جملة الكفار] وهذا تفسير منه على أن الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى كفار مكة، ولهذا احتاج أن يقول: [في جملة الكفار] لأجل التوطئة لما بعدها ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ويجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى جميع الناس أي: إذا وقع القول على الناس، ولا يكون المراد بالقول هنا القول بالعذاب بل يجوز أن يكون المراد به: القول بانتهاء الدنيا فتحمل الآية على الدابة التي تخرج في آخر الزمان وهي من أشراط الساعة.

وقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ نكرها بأنها غير معروفة فكأنها دابة منفردة في نوعها، وقوله: ﴿دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل هي متعلقة بدابة أو بأخرجنا؟ الظاهر أنها متعلقة بدابة، أي: أخرجنا لهم دابة من الأرض لا من السماء، وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني: تكلم الناس، فالكلام هنا بمعنى الحديث، قال: [أي تكلم الموجودين حين خروجها بالعربية] يجوز أن تكون بالعربية أو بغيرها.

على كل حال أنها تكلم الناس بكلام يعرفونه، هذا هو المتبادر من الكلام.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالكلام هنا الجرح، ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تجرحهم بأظفارها، قالوا: لأن الكلم يأتي بمعنى الجرح؛ لقوله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا» ولكن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن الأصل في الكلام هو النطق ولا

معنى لكونها تجرح الناس، لكن تكلمهم بماذا؟ قال: [من جملة كلامها عنَّا أن الناس كانوا بآياتنا...] إلى آخره، قوله: [من جملة كلامها عنا] أي: أنها تقول على لسان الله؛ لأن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يستقيم أن يكون من كلام الدابة عن نفسها، إذ إنها أي: الدابة ليس لها آيات يجب الإيقان بها، وإنها الآيات التي يجب الإيقان بها لله، ولهذا يقول المؤلف هنا: [عنا ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفار مكة، وعلى قراءة فتح همزة أن تقدر الباء بعد تكلمهم]، أي: تكلمهم بهذا الكلام، ويستفاد من كلام المؤلف [وعلى قراءة الفتح]: أن الأصل الذي فسَّره بالكسر «إن الناس»، تكلمهم إن الناس، يكون هذا مبتدأ الكلام، وعلى قراءة الفتح يكون على تقدير حرف الجر، أي: بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، وقول المؤلف: إن المراد بالناس كفار مكة هذا فيه نظر ظاهر بل إن المراد بالناس الموجودين في ذلك الوقت الذين وقع عليهم القول فأخرجت لهم الدابة، وأما كونها يقال: كفار مكة لا يوقنون فلا حاجة إلى إخبارها عنهم إخبار القرآن عنهم أوكد من إخبار هذه الدابة عنهم، فكلام المؤلف هنا فيه نظر ظاهر، وليس بصواب أبدًا بل هو خطأ فهي تُكلِّم الناس الذين وقع عليهم القول حين خروجها تحذرهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون، هذا ما مشى عليه المؤلف وأكثر المفسرين على أن كلام هذه الدابة أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، ولهذا احتاج إلى تقدير (عنا)، لكن ابن كثير استبعد هذا القول وقال: إنها تكلمهم أي: تحدثهم بحديث مستقل ما بُيِّن في القرآن، فيكون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو (إن الناس)هذا تعليل لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني: فليست الدابة هي التي تقول للناس ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لأن هذا القول لا يمكن أن تنطق به الدابة إذ إنه لا يصح أن يكون إلا من الله، لهذا أنكر هذا القول مع أن ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختاره، لكنه هو على أنه مختصر لابن جرير أنكر هذا وقال: إنها تكلمهم بكلام لم يُبيَّن.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتح أو بالكسر والجملة تعليل لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يقول: [أي لا يؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب] وتفسير الإيقان بالإيمان فيه قصور لكنه تقريب؛ لأن الإيقان أبلغ من الإيمان وأخص منه، فهو درجة عالية أعلى من الإيمان، ولهذا يقال أيقنت بكذا أبلغ من قولك آمنت به، وهذه الدابة أولًا نبحث فيها هل هي الدابة التي تخرج في آخر الزمان والتي ذكرها النبي ﷺ من علامات الساعة أو دابة أخرى؟

الجواب: يرى بعض العلماء أنها هي الدابة التي تكون في آخر الزمان، ويرى آخرون أنها دابة أخرى، ولهذا جاءت في الحديث معرَّفة وجاءت هنا منكرة، فيقال: دابة والله أعلم بها، هل هي التي تكون من أشراط الساعة أو أنها دابة مستقلة؛ لأننا لو نعلم أن الحديث بعد هذه الآية لقلنا: إن الدابة في الحديث للعهد الذهني، يعني: الدابة التي عرفتموها يتحدث الله عنها، وحينئذٍ تكون

الدابة هنا هي الدابة هناك، ولكننا لا نعلم، ولهذا التوقف أولى هل هي هي أو غيرها؟ ثانيًا: هذه الدابة مبهمة من حيث المكان، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ لكن من أي مكان تخرج؟ وردت أحاديث لكنها ضعيفة أنها تخرج من مكة، من أبياد أو من الصفا أم من مكان آخر، المهم أنها تخرج من مكة ولكنها أحاديث ضعيفة لا يعتمد عليها في العقيدة، ثم هل هي تخرج حقيقة من الأرض تنشق عنها الأرض، تخرج سواء من مكة أو غيرها، أو أن المراد بالإخراج هنا إبرازها وإظهارها وأنها دابة كغيرها من الدواب؟ ثم تتبين بها يحصل لها من النطق فيكون هذا كقول الرسول ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ»؛ لأن السباع في آخر الزمان تكلم الإنس، هذه - أيضًا - محل توقف ولذلك هذه الدابة نكرة لفظًا ومعنىً لا نعرفها تمامًا؛ لأنها ما وصفت بالقرآن أو بالسنة أوصافًا بحيث يجزم الإنسان بها.

البحث الرابع: هذه الدابة هل هي من جنس الدواب أو أنها دابة معينة على شكل معين؟ تكلموا فيها كلامًا طويلًا في هذا، وكل ما ذكروا إنما هو مأخوذ من بني إسرائيل ولا يمكن أن يصدق، وغاية ما هنالك أنه يذكر فيحدث به ولا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليه في العقيدة وذكروا عن آذانها وذكروا عن عينها وعن رجلها أشياء غريبة جدًا.

المهم أننا نقول: نبهم ما أبهمه الله، ولا نعين ما لم يعينه الله ورسوله، وحسبنا أن نؤمن بأنه إذا وقع القول على الناس فسوف يخرج الله لهم دابة من الأرض تحدثهم وتكون هذه الدابة آية على أن العذاب قد قَرُب وقوعه، هذا غاية ما يستدل به من هذه الآية أو ما يستدل عليه من هذه الآية، إذن يكون قوله: (إن الناس) أو (أن الناس) ليس من قول الدابة على هذا التقدير، بل هو من قول الله تعليلًا من قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ يعني: نخرجها؛ لأن الناس كانوا، وعليه فيكون مطابقة هذا التعليل للشَّرْك في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يكون مطابقته مطابقة السبب بالمسبب، إذا كانوا لا يوقنون حينئذٍ وقع عليهم القول، وحينئذٍ أخرجت الدابة.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: المراد بالآيات هنا الكونية والشرعية، لكن الكونية ألم يوقن بها الكفار؟ نعم لكنه إيقان لم ينفعهم، والشيء الذي لا ينفع يصح أن ينفى لعدم الانتفاع به، قال: [وبخروجها] أي: بخروج الدابة [ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يؤمن كافر] لماذا؟ لأنه قد وقع عليهم القول، وإذا صحَّ هذا التفسير فإن معنى ذلك أن هذه الدابة من أشراط الساعة؛ لأنه لا يكون الأمر كذلك إلا في آخر الزمان بعد أن ينزل عيسى ويبقى في الأرض سبع سنين ولا يحصل بين اثنين عداوة ولا شحناء، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فتقبض نفس كل مؤمن ويبقى شرار الناس، ويبقى الطير وأحلام السباع، فهذا إذا كان هو الذي فهمه المؤلف من هذه الآية في هذا الأمر فإن هذه الدابة يكون خروجها بعد عيسى بن مريم؛ لأن بعد ذلك يقول المؤلف: إنه لا يؤمن كافر ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن المنكر، ولكن موقفي في هذا أن

أقول: الله أعلم، يعني هذه المسألة من مسائل الغيب التي يتوقف الإنسان فيها إلا على ما يفيده ظاهر القرآن فنقول: إيماننا بهذا أن نقول: إنه إذا وقع القول على الناس باستحقاق العذاب أخرج الله لهم هذه الدابة التي تكلمهم، ولا نزيد على هذا ولا نقول ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا نقول: إنه لا يؤمن كافر؛ لأن ذلك أمر يحتاج إلى توثيق.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾. [(و) اذكر ﴿يوم نحشر من كل أمة فوجًا﴾ جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ وهم رؤساؤهم المتّبعون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يجمعون برد آخرهم إلى أولهم ثم يساقون]، قال: [واذكر يوم] يستفاد من هذا التفسير أن (يوم) ظرف وأن عامله محذوف، والتقدير: اذكر يوم، وهذا الترتيب له نظائر في القرآن فيكون تقديره على هذا كما قدَّره المؤلف هنا، وقوله: ﴿نَحْشُرُ﴾ بمعنى: نجمع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الأمة هي القبيلة أو الطائفة الكبيرة من الناس، والفوج أقل منه، ولهذا يقول المؤلف: وهم رؤساؤهم المتبعون، وقوله: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ مِنْ هذه لبيان الجنس، أي: فوجًا من المكذبين بآيات الله الشرعية أو الكونية أو إحداهما، ﴿فَهُمْ﴾ أي: الفوج [رؤساؤهم المتّبعون]، فهم يحشرون فيجمعون ثم بعد ذلك يوزعون، والوزع بمعنى المنع، أي: يحبس أولهم حتى يجتمع به آخرهم، ولهذا قال: [برد آخرهم إلى أولهم] فيكونون جملة واحدة [ثم يساقون إلى الله تبارك وتعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ مكان الحساب ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ أنبيائي]، المؤلف قال: [أنبيائي] يشير بذلك أن مفعول كذبتم محذوف، وأن ﴿بِآيَاتِي﴾ حال من أنبيائي، ولكن هذا التقدير لا معنى له ولا داعي له؛ لأن التكذيب دائمًا يقع معموله معدّى بالباء، كذب بآيات الله، وهو لم يقل كذب آيات الله بأنبياء الله، بل كذب بآياتي، والتكذيب هنا مضمن معنى الجحد فعليه نقول: لا حاجة إلى تقدير المؤلف أنبيائي، بل نقول بآياتي جار ومجرور متعلق بكذبتم، قوله:﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ يعني: أنكرتموها وجحدتموها، [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا﴾ من جهة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾ إلى آخره]، والإحاطة بالشيء بمعنى: إدراكه من جميع الجوانب وأصله مشتق من الحائط لأنه يحيط بالمكان فمعنى أحاط بالشيء أدركه من جميع جوانبه، المؤلف فسر هنا الإدراك من جهة تكذيبكم، أي: أنكم كذبتم من غير أن يكون لديكم علم بالتكذيب، كذبتم بلا علم، ولكن يحتمل معنى آخر وهو: أنكم كذبتم بالآيات قبل أن تدركوها، فيكون هذا من البدار بالشيء قبل أن يدركه:

إِنَّ البِدَارَ بِرَدِّ شَيءٍ لَمْ تُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

كما قال ابن القيم.

الآن لدينا تفسيران: أحدهما أن قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي من جهة تكذيبكم، والمعنى على هذا: أنكم كذبتم بدون علم، وهو الذي مشى عليه المؤلف قال: [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا﴾ من جهة تكذيبكم]، الآن إذا أتاك رجل بخبر فقلت كذبت؛ لأن فلانًا الذي أخبرت به هو موجود عندي

في تلك الساعة، الآن كذبت بعلم أم بغير علم؟ بعلم، مثلًا إذا قال لك: إن فلانًا رأيته في بُريدة أمس، فقلت له كذبت فلان أمس عندي فهنا كذبت بعلم، فإذا قال رأيت فلانا في بريدة أمس فقلت له كذبت وأنا ما أدري، فقد كذَّبت بلا علم، الآن المؤلف يقول: [من جهة تكذيبكم بها]: يعني: أنكم كذبتم بغير علم، وهناك رأي آخر يقول: لا، قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ يعني: أنكم كذبتم بها من غير رويَّة ومن غير تأمُّل، يعني: أنكم رددتموهما من أول وهلة، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والفرق بين المعنيين ظاهر الآن، والأقرب المعنى الثاني؛ لأن قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا أبلغ من كونهم كذبوا بعد أن تَرَوَّوْا ولكن لم يجدوا لتكذيبهم دليلًا، فهم كذبوا من غير تروٍ بل إنهم في الحقيقة وخصوصًا الرؤساء منهم يعلمون أن ما جاءت به الرسل فهو الحق، ولكن كذَّبوا بشيء، مثل ما قال الله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ كذبوا بشيء لم يحيطوا بعلمه، بل من أول وهلة وهذا أشد في اللوم عليهم، فعليه الاستفهام في قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ للتوبيخ واللوم؛ لأن من كذب بالشيء بعد دراسته والإحاطة به، ثم يتبين له الكذب هذا لا يلام عليه، لكن من كذب لأول مرة بدون أن يحيط بالشيء علمًا فهو دليل على أنه ليس بقابل إطلاقًا للحق.

قال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: [أم ما فيه إدغام ما الاستفهامية]، أين الإدغام؟ في (أم) التي للإضراب وأصله أم بمعنى بل، ثم إحداهما في الأخرى و(ذا) موصول، أي: ما الذي كنتم، ويجوز أن نجعل (ذا) مركبة مع (ما)، وتكون مع ماذا كلها اسم استفهام ولكن ليس هذا في كل مكان يجوز هذا وهذا، إنما في مثل هذا الترتيب يجوز أن نجعل ماذا اسم استفهام جميعًا، وأن نجعل (ما) اسم استفهام و(ذا) اسمًا موصولًا، أي: ما الذي كنتم تعملون؟ وعلى هذا التقدير الأخير يجب أن نقدر ضميرًا في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليكون عائدًا إلى اسم الموصول، وعلى الأول لا حاجة لذلك، ونجعل (ماذا) مفعولًا مقدمًا لـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، لكن هل تقدر (ما) اسم استفهام و(ذا) اسمًا موصولًا، وتحتاج إلى عائد يعود على الموصول في ﴿تَعْمَلُونَ﴾، أو نقدر ماذا جميعًا على أنها اسم استفهام، أم هذه حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، نظيرها في القرآن ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ فيها قراءتان: (قل العفوُ)، و(قل العفوَ)، كيف نعرب ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ على قراءة الرفع؟ نعربُ ماذا: ما اسم استفهام وذا اسم موصول؛ لأنه إذا قلت ما اسم استفهام وذا اسم موصول ما: مبتدأ والذي: خبره بل كل منهما مرفوع، ثم يأتي (قل العفوُ) لأن الجواب مطابق للسؤال، أي: العفوُ الذي ينفقون.

أما على قراءة النصب (قل العفوَ) فيتعين أن تجعل (ماذا) اسم استفهام كلها وهي مفعول مقدم لـ (ينفقون) لأجل أن تكون مطابقة للجواب، يعني: ذا منصوب فيكون السؤال كذلك منصوبًا، وهذا هو الذي يبين لك الفرق بين الإعرابين، قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ

﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ نقول على هذه القراءة: يجب أن نعرب ماذا اسم استفهام مفعولًا مقدمًا لينفقون، لأجل ماذا؛ لأني ما أعرف أن الجواب يكون مطابقًا للسؤال، فإذا كان السؤال منصوبًا كان الجواب منصوبًا، على قراءة الرفع قل العفوُ، نجعل ما مبتدأ وذا اسم موصول خبره، يعني ما الذي ينفقون فيكون التقدير: الذي ينفقونه العفو، فتكون مرفوعة، متى تحتاج إلى ضمير؟ إذا جعلناها اسمًا موصولًا، والتقدير: ماذا كنتم تعملونه.

قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ماذا تعملون؟ يعني في الدنيا، فيكون الله تعالى وبَّخهم على أمرين: أمر يتعلق بالعقيدة وهو قوله: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ وأمر يتعلق بالعمل وهو قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأن ماذا كنتم تعملون هذه استفهام لإنكار ما يعملونه، فيكون في هذا توبيخًا على العقيدة والعمل، وقوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [حق العذاب ﴿عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حجة لهم]، وقع القول: أي: قول الله بالعذاب فإن الله تبارك وتعالى يأمر بتعذيبهم إذا لم يجيبوا، وهذا السؤال ليس سؤال استخبار واستعلام، ولكنه سؤال توبيخ وتقريع، حينئذٍ يقع عليهم القول، وهذا القول الذي وقع عليهم لم يظلموا به، ولكن هم الذين ظلموا، ولهذا قال: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسبب، و(ما) هنا مصدرية يعني: أن الفعل بعدها يحول إلى مصدر، فيكون التقدير: وقع القول عليهم بظلمهم، وقول المؤلف: [أي أشركوا] ينبغي أن يفسر الظلم بما هو أعم من الشرك؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - وبَّخهم على التكذيب وعلى العمل المنحرف، فيكون الظلم الذي حصل منهم التكذيب والجحد الذي يتضمن الإشراك، وكذلك الفسوق والعصيان الذي حصل منهم بإيذاء الرسل وغير ذلك، فالأصح أن نجعل ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسبب ظلمهم ومنه الشرك، ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ الفاء مفرعة على قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ أي: بعد أن وقع عليهم القول استحقوا العذاب لا يستطيعون النطق، يقول المؤلف: [إذ لا حجة لهم] وهذا في آخر الأمر؛ لأنهم كانوا بالأول ينطقون، ويدافعون، ولكنهم إذا رأوا أن جوارحهم شهدت عليهم حينئذٍ أنكروا ما يستطيعون الآن، وإلا يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] نحن كنا ما أشركنا، ويقولون أيضًا: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣] ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧ - ٢٨] فهم يتكلمون ويدافعون عن أنفسهم ولكن ذلك لا ينفعهم، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] المهم: أنهم يتكلمون.

وقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ هذا يكون الجمع بينه وبين الآيات الدالة على أن النطق أن للقيامة أحوالًا؛ لأن يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة، فالأحوال تتغير يكون الناطق فيه ساكتًا ويكون

الساكت فيه ناطقًا وتتقلب الأحوال، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لما ترى ﴿فَهُمْ﴾ في حال ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ وفي حال ينطقون ويدافعون، ولكنهم مهما قالوا ومهما فعلوا فإن لديهم شهودًا من أنفسهم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] اللسان ينطق بها قال، واليد تنطق بما فعلت، والرِّجل تنطق بما فعلت، والأعجب من ذلك الجلود، تشهد بما لمست، وجميع الذي فيه الإدراك والحاسة يشهد على هؤلاء بما فعلوه، وحينئذٍ ما يستطيعون أن يدافعوا، ما دام أن هذه الأشياء تشهد عليهم؛ إذن من يشهد له، ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ يحشرون يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، تتغير الأحوال، المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، ولكنهم إذا دخلوا النار يصير ضرس الواحد منهم مثل أُحد[1].

قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: الرؤية هنا بصرية أم علمية؟ علمية وبصرية أيضًا لكن كونها علمية أعم؛ لأن من أبصر الشيء علمه، وليس كل من علم الشيء أبصره، فالأعمى يرى الليل، يعني: يعلمه، والمبصر يراه بعينه وبصيرته، والهمزة هنا ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقرير هذه الرؤية التي لا ينكرها أحد، ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ فسر المؤلف الجعل هنا بالخلق فيكون متعديًا بمفعول واحد، ويجوز أن يكون الجعل هنا بمعنى التصيير، يعني: أنَّا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه، ويدل على هذا قوله تعالى الذي بعده ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [ليتصرفوا فيه]، ويكون حذف من كل جملة ما دل عليه المذكور في الجملة الأخرى فيسمى هذا في علم البديع بالاقتباس، والاقتباس: أن يذكر في كل جملة ما حذف من الأخرى مع التقابل، هنا نقول: (ألم يروا أنا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه)، ماذا حذف من هذا؟ مظلمًا، ذكر مقابله مبصرًا وحذف من قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ليتصرفوا فيه، وذكر مقابله ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فيكون في الجملة اقتباس وبهذا نكون استفدنا المعنى مع الاختصار، على هذا التقدير الذي ذكرنا يكون (جعلنا) ليست بمعنى: خلقنا، بل بمعنى صيَّرنا، تنصب مفعولين: المفعول الأول الليل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مظلمًا، ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللام هنا للتعليل، السكون معناه: القرار وعدم الحركة، ولذلك كان الليل محل السكون للخلق، ولكنه بإذن الله محل عمل لخلق آخرين، فالهوام والسباع ما تعمل إلا في الليل؛ لأنها تختفي في النهار إما خوفًا من الناس وإما رحمة من الله بالخلق؛ لأنه لو كانت هذه السباع وهذه الهوام تختص بالنهار أتعبت الناس، ولكنها والحمد لله لا تظهر إلا بالليل، إذا سكن الناس بدأ عملها بالتناوب.

وهذا من رحمة الله - تبارك وتعالى - بالخلق أن يكون هذا التبادل ليعيش الناس بسلام، حتى هي أيضًا لا تأمن على نفسها إلا بالليل، آمن لها، ما تعارض، فهنا المراد بالسكون: يحوي الآدميين

(١) هذا حديث صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه مسلم (٤٤/ ٢٨٥١).

ومن أشبههم ممن سكونهم الليل، ولهذا كان الإنسان إذا أراد الصحة فليكن الليل سكنًا له ولكن ينام أول الليل، فإن النبي ﷺ كان يكره الحديث بعد العشاء[1]، وقد ذكروا أن نوم الليل الساعة منه تقابل ساعات من النهار، هذه الثروة السكونية التي أضعناها الآن بما لا نفع فيه، بل بما فيه ضرر الآن، الآن الناس يعكفون على مشاهدة التلفزيون إلى نصف الليل تقريبًا بينما في الدول الغربية - مع الأسف الشديد - الكافرة الملحدة لا يتجاوز الساعة التاسعة من الليل؛ لأنهم حريصون على أنفسهم وعلى عمالهم وعلى مثقفيهم، فهم لا يريدون الضرر بالأمة يقولون: إذا أبقيناه إلى ما بعد التاسعة سهر الناس عليه وكان في ذلك إنهاك للعمال، وكان في ذلك إهمال للطلبة، فلذلك نحن نغلقه من الساعة التاسعة حتى ينام الناس وحتى لا نكون نحن تسببنا في إرهاق الناس، وحدثني بذلك عدة أناس من الذين جاءوا من أوروبا، يقولون أبدًا ما يمكن يتجاوز الساعة التاسعة، اللهم ما أدري في الأشياء النادرة، لكن هذا هو برنامجهم، نحن الآن مع الأسف الشديد يقولون: إنه يبقى إلى فوق الثانية عشرة، يعني: الثانية عشرة نصف الليل، هذا مع ما يتطلب من الناحية الاقتصادية، كم يستهلك الناس من الكهرباء في هذه الساعات، تلفزيوناتهم وكذلك أيضًا في أنوارهم؛ لأن المكان لابد له من نور، يستهلك نور ويستهلك كهرباء في التلفزيون، كم يكلف العالم وكم يرهق المعدَّات أيضًا، هذا بقطع النظر عن المفاسد الأخرى البدنية، ولكن العبرة بمن بصَّره الله - تبارك وتعالى -.

فمثل هذا المسئول الآن راعي البيت، إذا كانت الساعة التاسعة يأمر أهله بالنوم ويغلقه، والنبي ﷺ كره الحديث بعد العشاء، فكوننا نسهر إلى نصف الليل أحيانًا أو إلى أكثر وليس ليلة طارئة حتى نقول العوارض عوارض، بل هي دائمًا في الغالب، هؤلاء الذين يسهرون إلى ما بعد نصف الليل أولًا ربما ما يقومون لصلاة الفجر، وإذا قاموا يؤدونها بكل كلفة ومشقة، أو ينامون يمكن في نفس المسجد أو في نفس الصلاة، ثم إذا رجعوا إلى بيوتهم ينامون إلى الظهر، يعني: أول النهار الذي محل البركة ومحل العمل يضيع، والليل الذي هو محل السكون يُضَيَّع السكون فيه، وهذا من نقص الوعي في المسلمين، هذا في الحقيقة يعتبر نقص وعي في المسلمين، يقولون عن الكفار: إن هناك عندهم عطلة فترة السبت لأجل اليهود والأحد لأجل النصارى، لكن يقولون النصارى ليلة الإثنين من غروب الشمس وكلهم في محلهم، ما يمكن لأجل مرور الصباح وإذا هو مباشر لعمله، ما يمكن أن يتأخروا، كل إنسان في محله يكون متهيئًا للعمل، وإذا قارنت حال هؤلاء بحال المسلمين اليوم مع أن أحوالهم هذه هي التي يجب أن تكون للمسلمين، وجدت هذا السبب الذي جعلنا في تأخر وجعلنا في هذا الذل وجعل كثيرًا من شبابنا ما هم مقتنعين بأحوالهم، يعني: بعض الشباب الآن المنحرف قد يكون له عذر، يقول: أنتم تقولون الإسلام والإسلام

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤٧) ومسلم (٢٣٧/ ٦٤٧) من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

والإسلام أين الإسلام؟ ليس هناك إسلام، ولكن نقول الذنب ذنب من ينتسبون إلى الإسلام ليس ذنب الإسلام نفسه، ذنب من يقولون: نحن أهل الإسلام، وفي أهل الإسلام من لا يعرف أركان الإسلام، وقد يكون أن بعض الناس المسلمين الآن الذين يقولون نحن مسلمون مكتوب على هويتهم مسلم لا يعرف أن يتوضأ أو أن يصلي فأين الإسلام من قوم لا يتوضأون ولا يصلون؟ هذا هو الذي أخَّرَنَا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** خروج هذه الدابة إذا وقع القول على الناس وذلك بأنهم إذا كفروا وأعرضوا عن دين الله - سبحانه وتعالى - أخرج الله لهم هذه الدابة.

٢- **الفائدة الثانية:** أن هذه الدابة التي ذكرها الله مبهمة فلا تعلم صفتها ولا كيف تخرج ولا من أين تخرج، وما ذكر من الآثار في ذلك فكلها ضعيفة لا يُعول عليها، وحسبنا أن نؤمن بما ذكر الله تبارك وتعالى مطلقاً.

٣- **الفائدة الثالثة:** بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ -، حيث كانت هذه الدابة تُكلِّمُ الناس بكلام يفهمونه مع أن الحيوانات تتكلم بكلام لا يفهمه الإنس إلا من علَّمه الله - تعالى - منطقها كما في قصة سليمان عليه السلام.

٤- **الفائدة الرابعة:** بيان حكمة الله - تبارك وتعالى - في الإنذار، وأنه - سبحانه وتعالى - ينذر عباده بالآيات الكونية إذا لم تفدهم الآيات الشرعية، وهذا كثير كالكسوف والزلازل والفيضانات والصواعق والحاصب من السماء بالبرد أو غيره، كل هذا إنذار بالآيات الكونية إذا لم تفد الآيات الشرعية، وقد قيل: (العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه الإشارة)، فالمؤمن الواعي الحي يكفيه ما في القرآن من الآيات العظيمة، ولكن المعرض اللئيم لا ينفع فيه إلا العصا، إلا الآيات الكونية التي تُقطّعه غصباً عنه، هذا إذا لم يكن أيضاً قلبه ميِّتًا للغاية فإن كان قلبه ميتاً للغاية لم تنفع فيه حتى الآيات الكونية ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ ماذا يقولون؟ قطع من العذاب تنزل من السماء ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[الطور:٤٤] وعاد لما رأوا عارضاً مستقبل أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ وفي الوقت الحاضر إذا رأوا هذه العقوبات يقولوا هذا أمر طبيعي، فيضانات طبيعية، براكين وما أشبه ذلك من الكلام الذي يدل على موت القلوب، فإذن نستفيد من هذه الآية أخيرًا إنذار الله تعالى بالآيات الكونية، كما هو عادته سبحانه وتعالى.

٥- **الفائدة الخامسة:** أنه يعطي - سبحانه وتعالى - العلم حتى البهائم، فهذه الدابة تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ على أحد القولين فيها، والقول الثاني: أن هذا الكلام من

كلام الله وأنها ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وتكلمهم يعني: كأنها منهم، ثم يعلل الله هذا الإخراج بقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

٦- **الفائدة السادسة:** أن عدم اليقين بآيات الله - تعالى - سبب للهلاك، وأنه لا يكفي التردد أو الإيمان الضعيف بل لابد من إيقان، فالمتردد بما يجب الإيمان به مؤمن أم لا؟ لا؛ لأنه لم يوقن فلابد من الإيقان، وأما التردد والشك حتى مع ترجح ما ذكر الله، فإنه لا يفيد الإنسان، يعني: لو إنسان آمن لكن عنده بعض الشك، فإن ذلك ليس بمؤمن؛ لأنه لابد من اليقين بما يجب الإيمان به.

فائدة: قوله تعالى عن الأعراب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، هؤلاء ليس عندهم نوع من الشك، لكن عندهم نوع من الانقياد، يعني: ضعف في الانقياد وعدم العلم بما أنزل الله، وأما لو كان عندهم شك ما صاروا مؤمنين إطلاقاً ولا مسلمين أيضاً، فهذا نفي كمال الإيمان لا أصل الإيمان، وأما مع الشك فإن أصل الإيمان لم يوجد، فالإيمان الإعتقادي إذا لم يوجد كاملاً فهو لا ينفع الإنسان، فالإيمان يكون مفقوداً عند الشك فيه، ولابد من الإيمان الجازم ولهذا من شك فيما وعد الله به ومن شك في أركان الإيمان الستة أو في واحد منها فهو كافر، لابد أن يؤمن.

وخبر الله إذا شك أحد فيه فهو كافر أيضاً؛ لأن خبر الله يجب التصديق به.

الفوائد:

وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:٨٣].

١- **من فوائد هذه الآية:** أن فيها دليلًا على إثبات الحشر، لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾؛ لأن هذا على تقدير محذوف، ما هو المحذوف؟ اذكر يوم، لكن اذكره لمجرد العلم أم لمجرد العلم والعقيدة؟ للعلم والعقيدة، كل شيء في القرآن ليس يذكر لمجرد النظر أو لمجرد أن نعلم به، بل هو يذكر للاعتقاد إن كان عقيدة وللعمل إن كان عملاً.

٢- **الفائدة الثانية:** أن الله - سبحانه وتعالى - يحشر من الأمم أفواجاً معينة يكونون أمة لباقيهم، لقوله: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ من كل الأمم فوجًا، ومنهم هؤلاء الفوج: أشدهم على الرحمن عتيًا ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] لأجل والعياذ بالله يخزون خزيًا أعظم؛ لأنهم قادة في الدنيا فيكونون قادة إلى النار في الآخرة قال الله عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

٣- **الفائدة الثالثة:** يستفاد مما قررنا الآن: عِظَم الإمامة في السوء كما أنها أيضاً عظيمة في الخير، فالإمام في الخير له أجر من اتبعه، والإمام في الشر عليه وزر من اتبعه، فالإمامة في الخير أو في الشر هي أمر عظيم، وخير الناس من دلّهم إلى الخير وشر الناس من دلّهم على الشر.

٤- **الفائدة الرابعة:** قوله: ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فيه دليل على: أن التكذيب بالآيات كفر؛ لأنه يحشر هؤلاء الفوج إلى النار؛ لأنهم مكذبون بآيات الله، والتكذيب بآيات الله سبق أنه ينقسم إلى قسمين: تكذيب بالآيات الشرعية وتكذيب بالآيات الكونية، وأن التكذيب بالآيات الكونية أقل من التكذيب بالآيات الشرعية.

٥- **الفائدة الخامسة:** ما يفيده قوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم إلى آخرهم وآخرهم إلى أولهم؛ لأن ذلك زيادة في خزيهم وعارهم - والعياذ بالله -، حيث يعرفون أنفسهم ويُعرفون عند الخلق.

الفوائد:

ثم قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** إثبات الكلام لله - عزَّ وجلَّ -، لقوله: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾ وأنه بحرف وصوت؛ لأن الجمل التي هي مقول القول حروف، وأنه بصوت، ما وجهه بصوت؟ لأنه لولا أنهم يسمعون ما كان لهذا فائدة ولا سماع إلا بصوت.

٢- **الفائدة الثانية:** توبيخ هؤلاء على تكذيبهم بآيات الله، ومعلوم أن التوبيخ لاسيما في هذا المقام أشد من وقع السهام؛ لأنه توبيخ في مكان يقع فيه الندم والحسرة، لأنه لا يمكن التخلص ولا التكذيب ولا الرجوع عما كان، فهو من أعظم ما يكون من العذاب والعياذ بالله، مثل هذا التوبيخ الذي في قوله ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه يزداد التكذيب إذا لم يُحط الإنسان علماً بما كذب به؛ لقوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ وهذه الجملة محلها من الإعراب: جملة حالية، يعني: والحال أنكم لم تحيطوا بها علماً، الجملة إذا صار يصح قبلها والحال كذا، فهي جملة حالية، ففيها زيادة توبيخ في كونهم يكذبون من غير أن يحيطوا علماً بما كذبوا به، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ المؤلف فسر ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ على وجه آخر، ما هو الوجه الآخر؟ يعني: كذبتم بلا علم عن وجه هذا التكذيب.

٤- **الفائدة الرابعة:** توبيخ هؤلاء على عملهم، كما وُبِّخُوا على التكذيب وُبِّخوا أيضاً على العمل في قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وتقدم إعراب ﴿أَمَّاذَا﴾ وما يجوز فيها من الوجهين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العذاب قد حق على هؤلاء، أو أن المعنى ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أنه صدق القول عليهم فلم يستطيعوا الجواب، يعني: أنهم وبِّخوا بالتكذيب وبالعمل فقال: وقع القول عليهم أي: ما قيل لهم من هذا التوبيخ صدق عليهم، فلم يستطيعوا الدفاع، في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأن من وُبِّخ على أمر لم يقع عليه يستطيع أن ينطق

فيدافع، لكن هؤلاء ما استطاعوا.

٢ - **من فوائدها:** قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ إثبات السبب؛ لأن الباء هنا للسببية، وإثبات الأسباب هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأن الأمور مقرونة بأسبابها، يقول العوام: وقد قال الله تعالى: (وجعلنا لكل شيء سبباً)، هل هذا صحيح؟ لا، هذا ليس في القرآن، ولكنه كقراءة بعضهم لما ذكر له الأعراب، قال ألم تسمع قول الله في الأعراب: (سود الوجوه إذا لم يُظلموا ظلموا)، وهذا ليس من قول الله، لكن أحياناً العامة يحملون أشياء يعتقدونها من القرآن، فنحن نثبت الأسباب ولكن ما نقول: إن الله في القرآن ذكر أن لكل شيء سبباً إنما القرآن مملوء بإثبات الأسباب، والظاهر أنها آية الكهف حرفوها، فهمنا من هذا أن إثبات الأسباب هو مذهب أهل السنة والجماعة، فهل أحد من أهل البدع يخالفهم في ذلك نعم الجبرية والأشاعرة ما يثبتون الأسباب، ويقولون: إن فعل الله سبحانه وتعالى لمجرد المشيئة، والمعتزلة على عكس هؤلاء يرون أن الأسباب موجبة ولهذا يقولون: (إن الله يجب عليه فعل الأصلح والصلاح)، والصواب أن نقول: إن المعقول والمنقول يدل على أن الأسباب مؤثرة ولكن بأمر الله، وكم من سبب كان مؤثراً ثم لم ينفع إذا لم يرد الله تعالى أن ينفذ هذا الشيء.

٣ - **الفائدة الثالثة:** أن الله - تعالى - لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، لقوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يعني: فهذا الأمر الذي نزل بهم بسبب ظلمهم ولم يظلمهم الله سبحانه وتعالى.

٤- **الفائدة الرابعة:** أن للناس في يوم القيامة أحوالاً، لهم أحوال مختلفة، تؤخذ من قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأن الله ذكر في بعض الآيات أنهم ينطقون ويدافعون، يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] فأنت الآن ما يمكن أن تجمع بين الآيات هذه إلا إذا قلت: إن الناس لهم أحوال، حال يمكنهم الكلام، وحال لا يمكنهم فيها الكلام، وبهذا يتآلف القرآن وهو مؤتلف.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦].

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: في هذا تقرير هذه القدرة الإلهية وهي جعل الليل مظلماً للسكن والنهار مبصراً للمعيشة، وهذه النعمة كلهم يقر بها ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

٢- **الفائدة الثانية:** الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن هذا الليل والنهار ما أحد من

الخلق يستطيع أن يغير فيهما أقل تغيير، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، فالقادر على هذا التغيير قادر على البعث، والإنسان في الليل يتوفى ثم يبعث في النهار لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فالقادر على هذا قادر على إعادة الناس بعد موتهم.

٣- **الفائدة الثالثة:** بيان فضل الله - سبحانه وتعالى - بجعل الليل والنهار على هذا الوصف، ظلام للسكنى وإبصار للعمل، ولو كان الدهر كله ظلاماً ما عمل الناس، ولو قُدِّرَ أنهم رتبوا أعمالهم لاختلفوا، وكذلك لو كان نهاراً ما سكن الناس، ولو قُدِّرَ أنهم رتبوا أوقاتهم وجعلوا مثلاً نصف الوقت عملًا ونصف الوقت سكنًا لم يتفقوا فيه، ولكن من رحمة الله - سبحانه وتعالى - أنه جعل الليل والنهار ليسكن الناس جميعاً ويبتغوا من فضله جميعاً.

٤- **الفائدة الرابعة:** أنه ينبغي للعاقل أن يعتبر بهذه الآيات؛ لأن الاعتبار بها من الإيمان، لقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٥- **الفائدة الخامسة:** أن الانتفاع بالآيات بقدر ما مع الإنسان من الإيمان؛ لأنها رتبت على وصف، والمرتب على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧-٩٠]

التفسير

قال: [﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ القرن]، هذه معطوفة على قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فيكون من جملة المأمور بذكره، يعني واذكر يوم ينفخ في الصور، والصور يقول المؤلف: [القرن] وقيل: إنه البوق، ولا تنافي بين القولين؛ لأن القرن المعوج يكون مثل البوق، ولكن هذا القرن يوافق القرن المعروف في الاسم دون الحقيقة، وقد ورد في بعض الآثار أن سعته كما بين السماء والأرض، وهو لابد أن يكون بهذه السعة والعظمة، لأن النفخ فيه يستلزم الفزع والموت، ومثل

هذا لو كان صغيراً هل يفزع الناس ويموتون منه كلهم؟ الجواب: لا، وأيضاً ينفخ فيه فتخرج منه الأرواح كلها وتعود إلى أجسامها، إذن فهو قرن عظيم ما يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال: [النفخة الأولى من إسرافيل] وفيه نفخة ثانية أم لا؟ فيه نفخة ثانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٨] وقوله: [من إسرافيل] بيان للنافخ، يعني: الذي ينفخ هو إسرافيل، ولكنه لا ينفخ بإرادته هو بل بإرادة الله، وإسرافيل هو أحد حملة العرش وهو أحد الملائكة الثلاثة الذين يستفتح بهم النبي صلى الله عليهم وسلم صلاة الليل، والثاني: جبرائيل، والثالث: ميكائيل، والحكمة من ذلك أن هؤلاء الثلاثة كل منهم موكَّل بحياة، فجبرائيل: موكل بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل بالقطر والنبات الذي به حياة الأرض، وإسرافيل: بالصُّور الذي به حياة الأجساد، ومناسبة الافتتاح بصلاة الليل ظاهرة جدًّا؛ لأنه بعث الإنسان بعد موته أو بعد وفاته بالنوم، فهذه حياة فناسب أن يبتدئ هذه الصلاة التي هي باب الحياة بمن وكلوا بالحياة، وطبعاً هذا من باب التوسل؛ لأنك تقول: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل... إلى آخره.

قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من العقلاء أم وغيرهم؟ وغيرهم، وجاءت من تغليباً ولأن العاقل أشد فزعاً من غير العاقل؛ لأن العاقل يفزع للحاضر والمستقبل، وغير العاقل للحاضر فقط ولا يهمه المستقبل، ولهذا لو سمعت صدمة لص بالباب قوية وعندك صبي كلكم يفزع من هذه الصدمة القوية لكن الصبي إذا انتهت الصدمة وقف، ما صار عنده شيء نبت في قلبه، وأنت تفكر في المستقبل وتخاف، فلهذا غُلِّب من هنا في جانب الفزع؛ لأن فزعهم أعظم يكون للحاضر والمستقبل، وهنا قال: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفي آية الزمر ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهل هما نفختان فإذا جمعت إلى الثالثة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ صارت ثلاث نفخات، أو أن نفخة الفزع والصعق واحدة وأن الناس يفزعون أولاً ثم يموتون، فزعًا يليه الموت؟

الظاهر والله أعلم: أنه إذا نفخ يكون صوت عظيم ممتد فيفزعون ثم يموتون مثل الصيحات التي يصاح بالمجرمين، كالتي أخذت ثمود، هذه المسألة اختلف فيها أهل العلم فمنهم من يرى أن النَّفَخَات ثلاثة: نفخة يفزع الناس ويتأهبون ويكونون على حذر، ثم أخرى للصعق فيموتون، ثم ثالثة للبعث، وقيل: إن نفخة الفزع بعد نفخة الصعق والبعث، وأنهم يصعقون ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ثم ينفخ ثالثة فيفزعون إلى الداعي، لكن هذا القول ضعيف، والمشهور القولان السابقان: هل هو ثلاث: فزع ثم نفخة أخرى فيها الصعق ثم نفخة أخرى فيها البعث، أو هما نفختان نفخة فيها فزع وصعق، ونفخة فيها بعث، وهذا هو الأقرب؛ لأن حديث أبو هريرة ﷺ يدل على هذا، فإنه ذكر النفختين وذكر أن بينهما أربعين، قيل له: يوم أو شهر أو سنة؟ قال:

أبيْت[1]، ولم يبين؛ لأنه ما يعلم، سمع من الرسول ﷺ أربعين ولا يعلم هل أربعين يوم أو سنة أو شهر، وبعد النفخة هذه التي هي الفزع والصعق يرسل الله تبارك وتعالى مطراً كأنه الطل[2]، والطل معروف أنه الندى الذي ينزل من السماء عند الصحو في الليل، أو أنه الرذاذ الخفيف جداً ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ ثم تنبت الأجسام بإذن الله من هذا الماء وهي في القبور، فإذا تكامل نباتها نفخ في الصور النفخة الثانية وحينئذٍ تخرج الأرواح وتعود إلى أجسامها، فيخرج الناس من القبور، وليس كما يتوهم بعض الناس أنهم ينبتون على قبورهم بل هم ينبتون في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ فمعنى ذلك أنهم يخرجون من القبور وهم مسرعون فهم أحياء، وهذا بعد تكامل أجسامهم في القبور، ثم إن هذا أيضاً مقتضى القياس في بدأ الخلق؛ لأن الإنسان يتكامل خلقه في بطن أمه ويخرج حياً والأرض للإنسان مثل بطن الأم له، والله سبحانه وتعالى حكيم، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، أفعاله دائماً تكون متناسبة، ليس فيها تناقض ولا تنافر، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حتى الملائكة يفزعون وكذلك يصعقون، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقول المؤلف: [أي خافوا الخوف المفضي إلى الموت كما في آية أخرى ﴿فَصَعِقَ﴾].

فعلى هذا يكون رأي المؤلف أنهما نفختان الأولى تتضمن الفزع والصعق، [كما في آية آخرى فصعق والتعبير فيه بالماضي لتحقق وقوعه]، أين الماضي؟ ﴿فَفَزِعَ﴾ وينفخ مضارع، وليس الكلام في ينفخ؛ لأنه للمضارع والمستقبل، لكن قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ولم يقل: فيفزع، يقول المؤلف: [لتحقق وقوعه] والشيء المتحقق الوقوع كالماضي، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كيف أتى فلا تستعجلوه؟! إذن ما أتى، ما دام فلا تستعجلوه معناه ما جاء بعد، فعبر بأتى لتحقق الوقوع ولقربه أيضاً كأنه لقربه حصل، فهنا ذكر (يوم ينفخ) بلفظ المضارع؛ لأنه لم يكن، وذكر الفزع الذي يتصف به الناس بلفظ الماضي كأنه شيء قد وقع بهم، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ثم عين المؤلف هذا المبهم فقال: [أي جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وعن ابن عباس هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون] فيكون المستثنى خمسة، هكذا قال المؤلف، وهذا يحتاج إلى توقيف ونص، إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدري فمن الذي يدري، أخبر النبي ﷺ أنه أول من يفيق فيجد موسى - عليه الصلاة والسلام - آخذاً بقوائم العرش أو بقائمة من قوائمه، يقول: «فَلَا أَدْرِيْ أَجُوْزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي»[3] إذن الرسول ﷺ ما يدري من المستثنى؛ لأنه جهل أن يكون ممن استثنى الله، ولو كان عنده علم بهم لعلم مثلاً أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨١٤) ومسلم (١٤١/ ٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١١٦/ ٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٩٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

موسى ليس منهم، أو أنه منهم، فإذا كان النبي ﷺ لم يعلم فغيره من باب أولى، ولهذا: الصواب أنه يجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا إذا جاءنا عن الرسول ﷺ فإن الله يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وأما إذا ما جاءنا عن المعصوم شيء في هذا فالواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، والأمر في هذه المسائل من الخطورة بمكان، حتى آدم فلا نستثني أحداً أبداً، إلا من شاء الله.

فإذا قال قائل: من الذي شاء الله؟ قلنا: الله أعلم، نفهم أن الله - سبحانه وتعالى - استثنى أحداً قد يكون واحدًا وقد يكون ألفاً وقد يكون ألفين وقد يكون عشرة آلاف ما ندري، إلا من شاء الله، ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [وكلٌ تنوينه عوض عن المضاف إليه وكلهم بعد إحيائهم يوم القيامة أتوه] أي: أتوا الله عزَّ وجلَّ داخرين، كلٌ يقول: [تنوينه عوض عن المضاف إليه] وما المضاف إليه، وما معنى التقدير؟ وكلهم إذن تنوين تعويض عن كلمة، والتنوين تنوين العوض يقولون: إنه ثلاثة أقسام: عوض عن جملة، وعوض عن كلمة، وعوض عن حرف، مثل حينئذٍ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٤]يكون هنا التنوين عن جملة، يعني: حين إذ بلغت، ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٤]ويومئذٍ عوضاً عن جملة وهي (ويوم إذ يغلب الروم)، عوض عن اسم، مثل قوله ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلهم، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]أي وإن كلهم، ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وإن كلاً، والعوض عن حرف هو الذي يلحق مثل جوارٍ وغواشٍ، يقول: أصلها جواري وغواشي، فحذفت الياء وعوض عنها التنوين، وهذا في الحقيقة - مسألة التعويض عن الحرف - ما له قيمة.

المهم الذي يمكن يترتب عليه المعنى أو فهم المعنى هو العوض عن جملة أو اسم، قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ أتوا من؟ أتوا الله، بصيغة الفعل واسم الفاعل، وما إعراب اسم الفاعل؟ اسم الفاعل على وزن فاعل: آتي وإذا جمعت تقول آتوهم، وكلٌ آتوه: هذا الفعل، واسم الفاعل: كل آتوه، ﴿دَٰخِرِينَ﴾ [صاغرين] ما إعرابها؟ حال من مفعول أتوا من الهاء، إذا كان فعلاً واضحاً إنه حال، لكن كلاً آتوه داخرين، كيف تكون حال، وأين العامل فيها؟ اسم الفاعل؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله.

وقوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين، في ذلك الوقت حتى الرؤساء وحتى الملوك وحتى الأمراء وحتى الأسياد كلهم واحد، كلهم يأتون في حال الصغار، فأعظم ملك في الدنيا وأعظم رئيس في الدنيا الذي كان لا يمشي إلا وعن خلفه وعن يمينه وعن شماله خلائق البشر يأتي يوم القيامة صاغراً ولكن هذا الصغار بالنسبة لعظمة الخالق، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار، ثم قد يكون بالنسبة للشخص أيضاً، وقد يكون بالنسبة لعظمة الخلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ؛ لأن هذه الرؤية له ولغيره، والجبال معروفة، والرؤية هنا بصرية، قال المؤلف: [تبصرها وقت النفخة] فيه نظر؛ لأن وقت النفخة لم يكن الناس قد قاموا من قبورهم، ولكنها تراها يوم القيامة بعد أن يأتي الناس إلى الله داخرين، قوله: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ [تظنها]، والجملة في قوله: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ في موضع نصب على الحال؛ لأننا قلنا: إن الرؤية هنا بصرية، والرؤية البصرية لا تنصب إلا مفعولاً واحداً، وقال: [﴿تَحْسَبُهَا﴾ تظنها، ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة مكانها لعظمها]، وقوله: ﴿جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ﴾ استعمل الجمود للوقوف بجمع الثبوت في كل منهما، لأن الجامد ثابت والواقف كذلك ثابت، ولكن قول المؤلف: [واقفة مكانها] فيه نظر، إنما ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة وإن كانت هي تدور، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فتبيَّن بهذا أنها ليست واقفة في مكانها، ولكنها تُحسب واقفة وهي في الحقيقة سائرة، ولهذا قال [﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ المطر إذا ضربته الريح، أي تسير سيره حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباءً منثوراً].

قوله: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يقول: [المطر] وفيه نظر أيضاً، والصواب أن المراد بالسحاب: هذا السحاب المعروف، والمعنى أنها تسير كما يسير السحاب في السرعة، وهي أبلغ من المطر الذي فسر به المؤلف حيث قال: [المطر إذا ضربته الريح]، المطر إذا ضربته الريح تجده يزول عن مكانه، ولكنه في الحقيقة ليس كما يتصوره الإنسان من الآية، بل إن الآية على ظاهرها والمراد بالسحاب هو السحاب المعروف، فإنه يمر بسرعة، ثم إن مشابهة الجبال بالسحاب أقرب من مشابهة الجبال بالمطر، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فالصواب إبقاء الآية على ظاهرها بدون تأويل، وقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ السحاب معروف أنه يمر بسرعة، فهي إذن تقتلع من مكانها، وتكون مثل السحاب هباءً يطير.

ثم يقول المؤلف: [حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبثوثة] هذا محتمل ما قاله المؤلف: أنها بعد صعودها ومرورها مر السحاب تقع على الأرض ثم تستوي بالأرض، ويحتمل أنها تبقى طائرة ثم تكون هباءً منثوراً بمعنى: أنها أولًا: تضعف حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم بعد ذلك تطير من الأرض حتى تمر مر السحاب مشاهدة لها جسم متماسك، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً تتبدد وتتفرق، وذلك من عظم الأهوال يومئذٍ فتبقى الأرض بدل ما كانت مرتفعة وماثلة تبقى قاعاً صفصفاً كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧].

قال الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول: [مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله أي: صنع الله ذلك صنعاً]، قال المؤلف:

﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله] أين الجملة؟ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ هذا فعل من الله، هو الذي جعلها تكون على هذه الحال، ولهذا قال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ فأكد هذه الجملة بهذا المصدر، إذن إذا كان المصدر مؤكداً لجملة قبله فإنه عند النحويين يجب حذف عامله، يقول ابن مالك:

وَحَذْفُ عَامِلِ الْمُؤَكِّدِ امْتَنَع [1]

يعني: أن المصدر إذا كان مؤكداً لجملة قبله فإنه يجب حذف عامله؛ وذلك لأن الجملة التي قبله ما دام هو مؤكداً لها صارت كأنها فعله، فلا يجمع بين البدل والمبدل، وقوله: [أضيف إلى فاعله] يعني: مصدر صُنع أُضيف إلى الله، والله هو الفاعل، والمصدر يضاف تارة إلى فاعله ويضاف تارة إلى مفعوله، تقول مثلاً: عجبت من أكلِكَ الطعامَ، أكل مصدر؛ لأن الفعل أكَلَ، يأكل أكلاً، فأكل مصدر مضاف إلى الكاف، والكاف فاعل، فهو مضاف إلى فاعله، والطعامَ مفعول به، إضافته إلى المفعول: تقول مثلاً عجبت من أكل الطعام من زيد، عجبت من طحن الدقيق من زيد، إلى المفعول، لأن الدقيق مطحون والطعام مأكول، فهو مضاف إلى مفعوله، هنا ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ الله - تعالى - صانع فيكون هنا مضافاً إلى فاعله، وقوله: [بعد حذف عامله] وجوباً أم جوازاً؟ وجوباً يجب حذف العامل وجوباً وإنما وجب حذفه؛ لأنه مؤكد للجملة قبله، فتكون هذه الجملة بمنزلة العامل، أي: بمنزلة الفعل، ولا يجمع بين البدل والمبدل منه، أي صنع الله ذلك صنعاً، وفي إضافة الصنع إلى الله هنا تعظيم لهذا الأمر وأنه من الأمور العظيمة التي هي من صنع الله - تبارك وتعالى -.

وقوله: ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أتقن: أحسن كل شيء صنعه، فالله - سبحانه وتعالى - أتقن كل شيء صنعه، ومن جملة إتقانه أنه حينما كانت الأرض محتاجة إلى هذه الجبال صارت الجبال راسية ورواسي ترسي بها الأرض وهي أيضاً في نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزول الحاجة إليها بل تقتضي الضرورة زوالها، فتزال هذه الجبال العظيمة، وبهذا نعلم أن الله - تبارك وتعالى - صنع الجبال حين احتاج الناس إليها باقية، ولما زالت الضرورة إليها أزالها الله تبارك وتعالى، وبهذا نعرف الفائدة أو الحكمة في قوله: ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصار وجود الجبال إتقان وزوالها يوم القيامة إتقان أيضاً وقوله: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال المؤلف: [صنعه] وينبغي أن لا يقيد بقولنا: صنعه؛ لأن الله أتقن كل شيء صنعه وشرعه، والذي أوجب للمؤلف أن يقيد ذلك بقوله: ﴿صنع﴾؛ لأن السياق في مقام الصنع، فلهذا قال: [أتقن كل شيء صنعه] ولكننا نقول: إن الله تعالى لم يقل: الذي أتقن صنعه، ولو كان الله تعالى والله أعلم يريد أن يقيد الصانع بما صنع لقال كما قال صنع الله لقال الذي أتقن كل شيء صنعه، ولكنه - سبحانه وتعالى - يبين أنه أتقن كل شيء صنعه أو شرعه، فما

---

(١) البيت رقم (٢٩١) من الألفية.

صنعه الله من المخلوقات فهو متقن، وما شرعه الله تعالى من الأحكام فهو أيضاً متقن، ليس فيه خلل، قال الله تبارك وتعالى في سورة تبارك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك:٣ - ٤] وقال تعالى في الآيات الشرعية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فبين الله- سبحانه وتعالى - في آية تبارك وفي آية النساء أنه متقن لكل ما شرع ومتقن لكل ما صنع.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [بالياء والتاء]، ﴿بما يفعلون﴾ و﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، أما على قراءة الياء فيقول المؤلف: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [أي أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة] فالخطاب لجميع الناس، والخبير بمعنى ذو الخبرة، والخبرة هي العلم ببواطن الأمور، وعلى هذا هي أخص من العلم المُطْلق، وإذا كان عالماً بالبواطن فهو عالم بالظواهر أيضاً، فالله تبارك وتعالى عليم بالظواهر وبالبواطن لقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ما مناسبة قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لما تحدث الله به أو لما تحدث الله عنه من صنعه هو، يعني: كان مقتضى السياق ألَّا تختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وتختم بقوله: إنه عليم حكيم، أو إنه على كل شيء قدير، وما أشبه ذلك، لقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهذا يقتضي أن تختم الآية بما يدل على القدرة والحكمة، ولكنها ختمت بما يدل على العلم والخبرة.

الجواب: والله أعلم أن الحكمة من ذلك أن قوله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أنها جملة معترضة بالنسبة للمعنى لا بالنسبة للإعراب، وأن المقام يقتضي الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يفعلون؛ لأن يوم القيامة هو يوم الجزاء، والجزاء مرتب على العلم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

ثم قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ من: شرطية، وجاء: فعل الشرط، وجملة فله خير منها: جواب الشرط، وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ ما قال: من فعل الحسنة، بل قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ لأن الإنسان قد يفعل الحسنة في الدنيا ولكنه لا يأتي بها، لوجود ما يتلفها فتزول، ولكن الشأن كل الشأن في أن يأتي بها يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الظاهر أن المراد بها الجنس وليس المراد بها العهد، ولكن المؤلف فسرها على أن المراد بها العهد، فقال: [أي لا إله إلا الله] فجعل الحسنة حسنة معينة معهودة وهي لا إله إلا الله، ولكن الصواب بلا شك خلاف كلام المؤلف وأن المراد بالحسنة الجنس يعني: أي حسنة

يأتي بها الإنسان فله خير منها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا»[1]، بحسنة نكرة يشمل جميع الحسنات، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ وقول المؤلف: [يوم القيامة] متعلق بجاء يعني: من جاء يوم القيامة بالحسنة ﴿خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ ثواب ﴿مِّنۡهَا﴾ [بسببها، وليس للتفضيل إذ لا فعل خير منها]، هذه ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يقول المؤلف: [المراد بالخير هنا الثواب] يعني: ما يقابل الشر، و﴿مِّنۡهَا﴾ ليست منها المتعلقة باسم التفضيل، ولكنها بالسببية أي: فله ثواب بسببها، وهذا تحريف ظاهر للقرآن، تحريف ما أفاد معناه، بل ﴿خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يعني: أفضل منها، وذلك بأي شيء؟ بالمضاعفة، أنت إذا أعطيتني ريالًا وقلت سأعطيك خيراً منه وأعطيتك ريالين، ريالين صار خيراً منه أم لا؟ خيراً منه، إذن ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ أي أفضل منها، فهو يأتي بواحدة ويعطى عشراً إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما تعليل المؤلف لمنع أن يكون المراد بالآية التفضيل بقوله: [إذ لا فعل خير منها] فنقول: نعم الحسنة حسنة بلا شك وهي خير لكن ليس المراد هنا فله فعل خير منها، ولكن المراد الثواب والجزاء، والجزاء ليس بفعل للعبد ولكنه من الله عزَّ وجل يجزي به العبد، فتعليل المؤلف إذنْ عليل بل ميت ليس فيه روح إطلاقاً؛ لأنه ليس المقام هنا مقام مقابلة حسنة بحسنة من العبد، وإنما المقام مقام جزاء من الله، والله تعالى يجزي العبد بخير من فعله وأفضل، وفي آية أخرى ﴿عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ إذن هذا يرد عليه، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ يطرح فله عشر أمثالها عشر بسببها؟ هذا يرد عليه في الحقيقة، فالآية التي أشار إليها تفسر هذه الآية التي ذكر الله، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ إذن عشر أمثالها، وفي الحديث **«إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»**.

والغريب أن التفسير الذي نحا إليه المؤلِّف لا يكاد أحد يفهمه أبداً، كل من قرأ القرآن وله علم، ماذا يفهم من قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾؟ يفهم جزاء أفضل منه وأكبر، وليس يفهم أن المعنى: له ثواب بسبب هذه الحسنة أبداً ما يفهم هذا، وإنما يفهم أن الثواب أكثر وأعظم وأفضل من العمل، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ [﴿وَهُم﴾ أي اللاجئون بها ﴿مِّن فَزَعِ يَوۡمَئِذٍ﴾ بالإضافة وكسر الميم]، ﴿مِّن فَزَعِ يَوۡمَئِذٍ﴾ فزع: مضاف، ويوم: مضاف إليه، ويوم: مضاف، وإذ: مضاف إليه، وإذ مضاف والجملة المحذوفة مضاف إليها، فيكونون هنا ثلاثة إضافات، فزع مضاف ليوم، ويوم مضاف لـ (إذ)، وإذ مضافة لجملة محذوفة.

قوله: ﴿مِّن فَزَعِ يَوۡمَئِذٍ﴾ الفزع بمعنى الخوف، ولكنه ليس مجرد خوف، بل خوف بقلق وحركة واضطراب، ولهذا يقال فزع الرجل، ليس مجرد أنه خاف بل تجده قلقاً ثم يحاول كما نقول نحن في اللغة العامية: لُكِز من الفزع، فهم من هذا الفزع وكلمة فزع مفرد مضاف فيعم كل ما يحصل به الفزع؛ لأن الحقيقة يوم القيامة فيه أسباب عدة أسباب للفزع كأخذ الكتب بالشمال أو باليمين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (٢٠٧/ ١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكذلك أيضاً بميل الشمس وكذلك الميزان وكذلك الحوض المورود، وغير ذلك.

كذلك أيضاً ينادى على الظالمين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ وما أشبه ذلك، كل هذه تثير المرء وتوجب الفزع لكن هؤلاء الذين يأتون بالحسنة ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وأضاف الفزع إلى يوم القيامة؛ لأنه فزع لا نظير له في الدنيا، وعلى قراءة أخرى يقول: [بفتحها وفَزَعٍ منوناً وفتح الميم] إذن بالإضافة فيها قراءتان: (من فزع يومَئِذٍ)، و(من فزع يومِئِذٍ)، هاتان القراءتان على الإضافة، والثالثة: [وفزعٍ منوناً وفتح الميم]: ﴿من فَزَعٍ يومَئِذٍ﴾، القراءات كم صارت؟ ﴿فزع يَوۡمَئِذٍ﴾ ولا إشكال فيها، ﴿فَزَعِ يومِئِذٍ﴾، ولا إشكال فيها أيضاً، ﴿فزعِ يَوۡمَئِذٍ﴾ بالإضافة فيها إشكال، حيث كانت يومَ بالفتح مع أنها مضافة، فيقتضي على هذا أن تكون مجرورة، نخرج هذا على واحد من أمرين: إما أن نجعلها مبنية على الفتح، يعني فزع مضاف ويوم مضاف إليه مبني على الفتح في محل جر، أو نقول: ﴿مِّن فَزَعٖ﴾ في الأصل منونة حذف التنوين تخفيفاً وعلى هذا فتكون يوماً مفعول يعني ظرف زمان كما هي على قراءة التنوين: فزعٍ يومَئِذٍ، بالنسبة للمعنى أيهما أبلغ؟ من فزعٍ يومَئِذٍ آمنون، أو من فزعِ يومِئِذٍ آمنون؟ الأخير يدل على العموم، كل الفزع في ذلك اليوم هم آمنون منه، وعلى قراءة فزعٍ يومئِذٍ، يعني هم آمنون من فزعٍ في ذلك اليوم، وهو يقتضي أن يكون فزعاً واحداً إلا إذا قلنا: إنه على تقدير من كل فزعٍ، من فزعٍ أي من كل فزعٍ آمنون، فتوافق القراءة الأولى التي هي بالإضافة ولكن القراءة بالإضافة أحسن؛ لأنها لا تحتاج إلى تأويل، وقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ آمنين من الفزع.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** إثبات النفخ في الصور ولم يعين الله تعالى النافخ ولكنه جاءت به السنة وأنه إسرافيل أحد حملة العرش.

٢- **ومن فوائدها أيضاً:** أن هذا النفخ عظيم، عظيم؛ لأنه ينتج الفزع، ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لو أن قنابل فجرت في مكان مهما بلغت قوتها تُفزع من حولها ولكنها لا تُفزع أهل الأرض كلهم ولا أهل الأرض وأهل السماوات، وهذا النفخ يُفزع أهل السماوات وأهل الأرض ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيدل ذلك على عظمة هذه النفخة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [الحاقة:١٣].

أكدها بواحدة ليتبين أنها عظيمة لا تحتاج إلى إعادة وتكرار.

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه لا يفزع جميع من في السماوات ومن في الأرض بل يبقى من لا يفزع

بمشيئة الله، لقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهل هذا المبهم في الآية معلوم لنا؟ لا، الصحيح أنه ليس بمعلوم، ولذلك أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان موسى ممن صعق أو ممن استثنى الله[1]، فدل هذا على أنه ليس معلوماً للناس من هم المستثنَوْن وهذا يرجع إلى كمال ربوبية الله سبحانه وتعالى.

٤- **الفائدة الرابعة:** كمال الربوبية والسلطان لله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ووجه ذلك: أن العظيم إذا أبهم ما يتصرف به دل هذا على أنه لا معارض له وأن سلطانه تام، يعني: كأنه لا أحد يسأل من هذا الذي لا يفزع ومن هذا الذي يفزع، وذلك دليل على كمال السلطان والعظمة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣].

٥- **الفائدة الخامسة:** أن كل أحد يأتي يوم القيامة صاغراً ذليلاً لله سبحانه وتعالى لا فرق بين الملك والمملوك والرئيس والمرءوس لقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ كلٌّ؛ لأن هذا التنوين عوض عن كلمة التقدير: وكلهم: أي من في السماوات ومن في الأرض أتوا الله سبحانه وتعالى داخرين.

٦ - **ويستفاد منها:** إثبات البعث، لقوله: ﴿أَتَوْهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

١ – **من فوائد هذه الآية:** كيف يراها واقفة وهي تمر مر السحاب؟ نقول: من أجل عِظَم هذه الأهوال وارتفاعها، فالشيء إذا كان مرتفعًا ولو كان يجري بسرعة فإنه يُظن أنه واقف.

٢- **الفائدة الثانية من هذه الآية:** أن هذا الأمر الذي حصل لهذه الجبال هو من صنع الله عز وجلَّ، لقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فالذي جعلها جامدة في الدنيا راسية عظيمة ثقيلة كانت في الآخرة تمر مر السحاب وذلك من صنع الله الذي لا يستطيع البشر أن يفعلوه.

٣- **الفائدة الثالثة:** جواز إضافة الصنع إلى الله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

لكن هل يؤخذ منه إثبات اسم الصانع لله، أو لا؟ لا يؤخذ منه، ولكنه يخبر به عن الله، فيقال: إن الله تعالى صانع كل شيء، على سبيل الخبرية، وأما إثبات اسم الصانع فلا، على أنه يوجد في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ دائمًا كلمة الصانع، والظاهر: أنهم أرادوا بهذا مخاطبة أهل الكلام بمثل ما يتكلمون به، ولذلك يقول مثلًا إثبات الصانع يدل عليه كذا وكذا، مع أننا نرى أن الأولى والأفضل أن لا يُثبت حتى بهذا اللفظ، بل يقال: إثبات الخالق دل عليه كذا وكذا، والخالق جاءت في القرآن وهو أبلغ من الصانع، إنما على كل حال الإخبار عن الله بأنه

---

(١) تقدم تخريجه.

صانع مضافًا إلى التعميم نقول: صانع لكل شيء، هذا جائز لا بأس به، والناس يقولون في عباراتهم العامية: صانع كل مصنوع، هذا خبر صحيح أما أن تجعله اسمًا من أسماء الله فلا؛ لأنه يُفرق بين الاسم وبين الخبر، كيف يوصف بأنه صانع ؟ يعني: يقال صنعة الله، يقال هو صانع).

ما هو الفرق بين الخبر والاسم؟.

الخبر ضد الاسم، يعني: الشيء إما يخبر به عن الله أو يسمى به الله، فالخبر عن الله يجوز أنك تخبر عن الله تعالى بكل ما ثبت له من فعل مقيَّدًا إن كان مقيَّدًا ومطلَقًا إن كان مطلقًا، وأما الاسم فلا تسمي الله إلا بما سمى به نفسه، ولهذا يصح أن نقول عن الله سبحانه وتعالى: إنه مدبر الأمور، مسخر السماوات والأرض، مذلل الإبل لراكبيها وما أشبه ذلك، لكن كونك تسميه بهذا الاسم،فالأسماء توقيفية لكن هل الصفة مثل الخبر؟ نعم الصفة التي يصح إضافتها إلى الله تخبر بها عن الله لا مانع؛ لأن كل مشتق فهو دال على صفته، ولا يمكن أن تقول عن شيء: إنه مشتق ثم تنفي الصفة التي اشتق منه.

٤- **الفائدة الرابعة**: أن هذا الأمر الذي يقع للجبال يوم القيامة أمر عظيم، وجه عظمته إضافته إلى الله؛ حيث قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ وما أضيف إلى العظيم فهو عظيم، كما أن ما أضيف إلى الحقير فهو حقير.

٥- **الفائدة الخامسة**: أن الله تعالى متقن لكل شيء من الأفعال والأحكام، لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما صنع أم مما صنع وشرع؟ مما صنع وشرع، وأما تقييد المؤلف له بقوله: [صنعه] ففيه نظر ولا يقال: إن السياق في الكلام على الصنع؛ لأننا نقول الكلام على الصنع لكنه جاء بعد ذلك تعميم، ما قال: أتقن كل ما صنع، قال: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ إذن فالله تعالى متقن لكل ما صنع ولكل ما شرع بستنتج من هذه الفائدة:

٦- **الفائدة السادسة**: إثبات الحكمة لله عز وجلَّ؛ لأنه لا إتقان إلا بحكمة، فلا يمكن أن يتقن الشيء إلا بعلم من المتقن كيف يتقنه، والثاني بحكمة بحيث ينزل كل شيء منزلته، وإلا لفات الإتقان، كيف يتقن الشيء من لا يعرف كيف يتقنه، ممكن هذا؟ ليس بممكن، وكيف يتقنه وهو يعلم كيف يتقنه لكنه سفيه لا يحسن أن يتصرف؟ أيضًا لا يصح الإتقان، لا إتقان إلا بعلم وحكمة، فمن إتقان الله نستنتج هذه الفائدة وهي إثبات الحكمة والعلم له سبحانه وتعالى وضرورة أنه لا إتقان إلا بعلم وحكمة.

٧- **الفائدة السابعة**: عدم الاعتراض على هذه الآية؛ وجه ذلك أن الله أتقن كل شيء، والله تعالى أعلم وأحكم من عباده، فأنت متى علمت هذا الشيء انقطع عنك كل اعتراض، سواء سمعته من غيرك، أو أوردته على نفسك، والإنسان يعرض له أحيانًا شبهات تعرض له يلقيها الشيطان في قلبه، كيف كان كذا؟ لما كان كذا؟ وما أشبه ذلك، نقول: متى آمنت بأن الله تعالى قد

أتقن كل شيء انقطع عنك هذا الاعتراض، وأمكنك أن تقطع به اعتراض غيرك أيضًا، لو فرضنا أن المطر جاء في غير وقته وأفسد الثمار، إذا علمنا أن الله أتقن كل شيء وأن هذا المطر من فعله ومن صنعه لا يمكن لنا أن نعترض؛ لأننا نعلم أنه نتيجة إتقانه، ومبني على علم وحكمة، تتقاصر علومنا وحكماتنا عن إدراكها، وهذا أمر يفيد الإنسان في أشياء كثيرة، ففي الشرع أحيانًا تأتي أحكام يخفى على المرء وجه التفريق بينها، وهي ثابتة عن الشرع، ولكنك تقول الله تعالى أتقن كل شيء، ومن ثم أحدث العلماء والفقهاء مسائل سموها بالتعبديَّات، يعني: هم ما أحدثوها في الحقيقة هي مسائل ثابتة، لكنهم وضعوا لها هذا الاسم: التعبُّدي، ومعنى التعبدي ليس الذي ليس له حكمة؛ لأنه ما من شيء وإلا وله حكمة ولكن معناه الذي تخفى حكمته علينا وليس لنا فيه إلا التعبد كعدد الركعات في الصلوات وكونها خمسًا وكذلك أشياء كثيرة في الطهارة يخفى على المرء حكمتها، وكذلك في الحج، فالمهم أنه متى بَنَيْنَا اعتقادنا على هذه المسألة وهي أن الله أتقن كل شيء زالت عنا شبهات كثيرة.

٨- **الفائدة الثامنة:** كمال علم الله سبحانه وتعالى وذلك بالخبرة التي هي أخص من مطلق العلم؛ لأن الخبرة كما سبق لنا هي العلم ببواطن الأمور، وهي مأخوذة من الخبير وهو المزارع الذي يدفن الحب في الأرض فتخفى فهي العلم ببواطن الأمور.

٩- **الفائدة التاسعة:** تحذير المرء من أن يعمل ما يخالف حكم الله، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ لو أن أباك قال لك اذهب افعل ما تريد أنا أعلم بما تفعل، ماذا يقتضي هذا؟ يقتضي التحذير، وأن تحذر من مخالفة أبيك، فكيف بالله عزَّ وجلَّ، الذي هو خبير بكل ما نفعل، إذن فالجملة تفيد تحذير المرء من المخالفة وأنك عندما تسول لك نفسك معصية لله عز وجل فإنك تعرض عليها مثل هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ وأشبه ذلك من الأشياء التي يجب على المرء إذا هم بسيئة أن يستعرض هذه الآيات حتى تمنعه.

١٠- **الفائدة العاشرة:** أن ما يتعلق بالهم المجرد فإنه لا يؤاخذ به العبد؛ لأن المقصود من قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ التحذير من هذا الفعل المخالف، فإذا قدر أنه همَّ مجرد هَمٍّ فإنه ليس بفعل فلا يؤاخذ عليه العبد، وهذه الفائدة بعيدة التصور ولكنها دلت عليها السنة وأن مجرد الهمّ لا يؤاخذ به العبد حتى يفعل، إلا الهم بالحسنة فإنه يُكتَب للمرء ولكنه لا يدخل في الآية هنا؛ لأن الآية سيقت للتحذير، والهم بالحسنة يرغب فيه، فالهم بالسيئة لا يعاقب عليه العبد، والهم بالحسنة يثاب عليه العبد، ما مقتضى العدل؟ مقتضى العدل أن يعاقب على السيئة وأن يثاب على الحسنة، أو ألا يعاقب على السيئة ولا يثاب على الحسنة، ولكن رحمة الله تعالى اقتضت الفضل دون العدل، فصار الهم بالسيئة ليس فيه شيء، والهم بالحسنة فيه ثواب.

ثم قال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾:

يستفاد من هذه الآية فوائد:

١- **أولًا:** أن الحسنات يؤتى بها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ فإذا قال قائل: كيف يؤتى بالحسنات وهي أعمال مضت والأعمال معاني ليست أجسامًا؟ فيقال: إن الله تعالى على كل شيء قدير، يقلب هذه المعاني إلى أجسام، مثل قلب الموت وهو معنى إلى جسم وهو الكبش فالله تعالى على كل شيء قدير، قال النبي ﷺ لأصحابه: «**مَنْ تَعِدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُم؟ قَالُوا: مَنْ لَا دِرْهَمَ عِنْدَهُ وَلَا مَتَاعٌ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ**»[1]، وأخبر ﷺ أن الله يقبل الصدقة من الكسب الطيب بعدل التمرة أي: ما يعادلها فيربيها كما يربِّي الإنسان فُلُوَّه حتى تكون مثل الجبل[2]، وهذا أيضًا عمل، فالمهم أننا نقول: إن المجيء بالأعمال يوم القيامة ليس بممتنع؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير.

٢- **الفائدة الثانية:** أن العبرة بالمجيء بالحسنة لا بعملها، لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وذلك؛ لأن عامل الحسنة في الدنيا قد لا يأتي بها يوم القيامة، ماذا يحصل لها؟ يحصل ما يبطلها مثلًا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، فقد يعمل الإنسان الحسنة لكن يأتي شيء يبطلها فلا يأتي بها يوم القيامة، والمدار على الإتيان بها يوم القيامة.

٣- **الفائدة الثالثة:** أن الجزاء أفضل من العمل وأعظم؛ لقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ وكيفية المقابلة؟ بماذا يكون؟ بالخيرية؛ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة هذه الخيرية.

٤- **الفائدة الرابعة:** إثبات الفزع في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾.

٥- **الفائدة الخامسة:** أَمْن من جاء بالحسنة من هذا الفزع.

٦- **الفائدة السادسة:** أن من جاء بالسيئة فإنه لا يأمن منها، وهو مأخوذ من المفهوم في قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ﴾ يعني: وأما من جاء بالسيئة فإنه لا يأمن، ولهذا تكب وجوههم في النار.

٧- **يستفاد من هذا أيضًا:** أن يوم القيامة لا يقاس بأمر الدنيا، فهذه الأفزاع العظيمة لا تفزع المؤمنين الذين جاءوا بالحسنات وإن كانت عظيمة في ذاتها؛ لأن الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة يخلق أشياء يستبعدها العقل في الدنيا، فالشمس تدنو من الخلائق قدر ميل، ومن الناس من يكون في ظل منها، والعرق يصل من بعض الناس إلى كعبيه وإلى ركبتيه وإلى حِقْوَيْه ومنهم من يلجمه وهم في مكان واحد، مما يتبين به قدرة الله سبحانه وتعالى وأن في هذا المكان الواحد وفي الزمان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٩/ ٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (٦٣/ ١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الواحد يختلفون هذا الاختلاف المتباين، وفي إضافة الفزع في ذلك اليوم دليل على شدته ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الشرك] مثلها ﴿مَن جَاءَ﴾ نقول فيها كما قلنا في قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾؛ لأن الإنسان قد يعمل سيئة ولكنه لا يأتي بها، وكون يعملها ولا يأتي بها يتوب منها أو تكون له أعمال صالحة تكفرها أو ما أشبه ذلك، الغالب أنه تغفر يوم القيامة، وقوله: [الشرك] فيه نظر، وإنما حمله على ذلك تفسيره للحسنة بأنها لا إله إلا الله، وهو توحيد فقال: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الشرك].

ولكن الصواب أن المراد بالسيئة هنا الجنس فيشمل كل سيئة، ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [بأن وليتها وذكرت الوجوه لأنها موضع الشرف من الحواس فغيرها من باب أولى]، الذي أوجب للمؤلف أن يحمل السيئة على الشرك جواب الشرط ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يقول: إن هذا لا يكون إلا للكافرين، وهذا فيه نظر أيضًا؛ لأن من جاء بالسيئة ولو دون الشرك فإنه إن لم يغفر له يكب في النار، لكنه يعاقب على حسب ذنوبه ثم بعد ذلك يخرج منه إما بشفاعة وإما بانتهاء جزائه إذا لم يشفع له.

فالحاصل أننا نقول: إن قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ لا يلزم منه الخلود، هل يلزم لذلك الخلود؟ لا، لا يلزم منه الخلود، بل قد تكب وجوههم في النار ثم ينجون.

فإذا قال قائل: كبت وجوههم في النار إذا كانوا عصاة فإن موضع السجود لا تأكله النار، قلنا إذا كُبَّ على وجهه أصابته النار إلا موضع السجود، وهذا لا يمنع أن يكب على وجهه وتحمى مواضع السجود من النار، وقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ كان مقتضى الأمر أن يقول: ومن جاء بالسيئة كبت؛ لأن فعل الشرط إذا كان ماضياً وجوابه إذا كان ماضياً لا يحتاج إلى الفاء، يقولون: إن الفاء تدل على تقدير قد، يعني: فقد كبت، وتكون دالة على التحقيق في هذا الأمر؛ لأن قد للتحقيق ولكنها حذفت لفظاً؛ وأشير إليها معنىً، فالفاء تشير إلى قد وحذفت لفظاً؛ لأن قد للتحقيق والمسألة لم تقع فكان في تحقيقها بقد وهي لم تقع نوع من التناقض فلذلك حذفت باللفظي وأشير إليها بالمعنى بالفاء، ومعلوم أن جواب الشرط إذا اقترن بقد يجب أن يكون مقرونًا بالفاء:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجامِدٍ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

سبعة مواضع إذا كانت جواباً للشرط وجب اقتران الفاء بها.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ قال: [ما تجزون]، يعني: أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يدل على النفي وزيادة، فهو مثلًا ما تجزون إلا ما كنتم تعملون يدل على أنهم لا يجزون إلا ما كانوا يعملون، لكن هل تجزون يدل على تقرير هذا الأمر وأنه لا يمكن للإنسان أن يجازى إلا بما كان يعمل، ويكون فيه تقرير وتقريع في نفس الوقت، قال المؤلف: [ويقال لهم تبكيتًا ﴿هل﴾ ما ﴿تجزون إلا﴾ جزاء ﴿ما كنتم تعملون﴾ من الشرك والمعاصي] قوله: [ما تجزون] تقدم الكلام عليها، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي أن يكون العمل هو الجزاء نفسه ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ﴾ ومن المعلوم أن العمل ليس الجزاء، بل الجزاء شيء والعمل شيء آخر، عندما تستأجر إنسانًا يعمل لك ثم تعطيه الأجرة، فعمله غير أجرته، والعامل لله سبحانه وتعالى عمله غير جزائه، فظاهر الآية ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أن الإنسان يُجزى بعمله، لذلك احتاج المؤلف أن يقدر هذا المحذوف، [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لكن ما في الآية أبلغ؛ لأنه من باب المبالغة في العدل أن يجعل الجزاء هو العمل، كأن الجزاء نفسه عملك مبالغة في العدل، فأنت إذا كنت تريد ثوابًا كثيرًا تعمل كثيرًا؛ لأن ثوابك عملك.

وأما قوله: [هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] ففيه أيضًا ركاك، ما تجزون إلا جزاء العمل، معلوم أن كلمة ﴿تجزون﴾ يستفاد منها الجزاء، فلا حاجة إلى تقدير، فالصواب إبقاء الآية على ظاهرها، ويفهم أن الذي يعطونه هو الجزاء من قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ والتعبير عن الجزاء بالعمل نفسه مبالغة في العدل بحيث يكون جزاؤك عملك.

وقوله: [من الشرك والمعاصي] هذا ما ذهب إليه جمهور أهل العلم وهو الصواب أن الكافر يعاقب على أصل الكفر وعلى المعاصي أيضًا التي عملها، فالمشرك إذا زنى وسرق وشرب الخمر يعاقب على ذلك، فيعاقب على الأصل وعلى الفرع، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل العلم، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)﴾ [المدثر: ٤١ - ٤٦] فالصلاة والصدقة ليست من الأصول وإن كان الصواب أن الصلاة من الأصول وأن تاركها يَكْفُر، لكن الصدقة ليست من الأصول حتى الزكاة على القول الصحيح لا يكفر تاركها، ومع ذلك ذكروا أنها من أسباب دخولهم النار، ولولا أن لها تأثيرًا في الجزاء ما صارت من الأسباب، وهذا دليل على أنهم يعاقبون على فروع الإسلام كما يعاقبون على أصوله، وعلى هذا فيعاقبون على معاصيهم التي دون الشرك، وهذا بلا شك كمال العدل؛ لأنه إذا كان المسلم يعاقب عليها فكيف بالكافر، هل تكون للمسلم نقمة وللكافر نعمة؟ لا، بل أبلغ من ذلك: أن الكافر يعاقب حتى على المباح للمسلم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ففُهِم من قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ﴾ أنها لغير المؤمنين ليست

خالصة وأنهم سيجازون عليها، وهذا أيضًا مقتضى النظر إذ كيف يتنعم الإنسان بنعم الخالق وهو يعصي الخالق، لابد أن يعاقبه، يقول له أنا أحسنت إليك أطعمتك سقيتك كسوتك أسكنتك زوَّجْتُك، وما أشبه ذلك فيعاقب على هذه النعمة؛ لأنها تحتاج إلى شكر.

الفوائد:

١- **يستفاد منها:** أن المدار في العقاب على السيئات هو المجيء بها يوم القيامة لا مجرد العمل، قد يعمل الإنسان السيئة وتكفر أو يتوب منها، ولكن العبرة بالمجيء.

٢- **الفائدة الثانية:** إثبات عذاب النار، لقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ - والعياذ بالله -.

٣- **والفائدة الثالثة:** بيان شدة العقوبة - والعياذ بالله - بهؤلاء حيث يكبون على وجوههم في النار، والوجه أشرف الأعضاء وإهانته أعظم من إهانة غيره، لو أن أحدًا صفعك على خدك أو ضربك برجلك أيها أشد إهانة؟ الوجه أشد، ولهذا كان إكبابهم على وجوههم في النار أشد وأبلغ في الإهانة وفي العذاب.

٤- **الفائدة الرابعة:** كمال عدل الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: ما ظلمناكم، أنتم الذين ظلمتم أنفسكم فعملتم ما استحققتم به هذا العذاب.

٥- **الفائدة الخامسة:** أن عذاب أهل النار عذاب نفسي وبدني، بدني حيث تُكَبّ وجوههم في النار، نفسي حيث يوبَّخون ويقرعون، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ما ظنك بمن يقال له مثل هذا، تجده مثلًا يمتلئ خجلًا ويمتلئ أيضًا ندمًا يقول: ليتني ما عملت ليت وليت، لكن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، فإذن يجمع لهم والعياذ بالله بين العذاب البدني والعذاب النفسي وقد ذكر الله تعالى في سورة المؤمنون أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] وهم لو أخرجوا منها لعادوا ما فيها إشكال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لكن يقولون هذا من شدة ما يجدون فكان الجواب أعظم والعياذ بالله جواب في الإهانة ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] والعياذ بالله هذا جواب في غاية الإهانة والصغار والذل، وقد ذُكِر أن الله لا يكلمهم إلا بعد مدة طويلة يكلمهم بهذا الكلام الذي لا خير فيه لهم، بل هو تيئيس من كل خير ومن كل فرج نسأل الله العافية، ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يعني: اندحِروا وذلوا وتلحقكم المهانة والإهانة ومع ذلك لا تكلمون، لستم أهلًا لأن تكلموني - نسأل الله العافية -، فإذن يجمع لأهل النار بين العذابين: البدني والنفسي، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال: [قل لهم] ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [أي مكة] ﴿الَّذِي﴾ ما قال التي لماذا؟ لأنها صفة لمذكر ﴿رَبَّ هَٰذِهِ﴾ ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي﴾، ولهذا تعرب الذي على أنها اسم موصول مبني على السكون في محل نصب، صفة لأي شيء؟ لرب، ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرمًا آمنًا، جعلها كونًا أم شرعًا؟ جعلها شرعًا، ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ إضافة الربوبية إليها تفيد الفضل، وأن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بها وشرفها، قال [لا يسفك فيها دم إنسان] والحديث: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»(١)، وأيهما أعم: دم إنسان أو دم؟ دم أعم، ولهذا لا يسفك فيها دم إنسان ولا دم صيد، وأما المواشي من الإبل والبقر والغنم وما أشبهها فإن هذا دلت السنة على جوازه، وقوله: [ولا يظلم فيها أحد] هذا ليس خاصًا بمكة، حتى غير مكة لا يجوز أن يظلم فيه أحد، ولذلك ما جاء في الحديث لا يظلم فيها أحد، بل قال الرسول: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»، فليس من خصائص مكة أن لا يظلم أحد، صحيح أن الظلم في مكة أعظم من غيره، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] أما أن الظلم في غيره مباح فلا، كذلك لا يصاد صيدها ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ الباء تدل على أن الفعل مضمن معنى العزيمة الصادقة، قال: [ولا يصاد صيدها] صحيح وغيرها يصاد، [ولا يختلى خلاها]، صحيح وغيرها يختلى، المدينة يختلى خلاها، يجوز، إنما يحرم الشيء الذي بدون حاجة في المدينة، وأما الذي بحاجة فيجوز، هذا الفرق بينها وبين مكة، [وذلك من النعم على قريش أهلها في رفع الله تعالى عن بلادهم العذاب والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب] إذن قوله: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرمًا وجعلها حرامًا، وما قلناه أعم مما قال المؤلف؛ لأن المؤلف يقول: [جعلها حرمًا آمنًا].

ثم ذكر الأشياء، فهي حرم وحرام أيضًا، حرم: بمعنى أنها محترمة، وحرام: بمعنى أنها محرمة، لهذا من قصدها فإنه يشرع له بإجماع أهل العلم ألَّا يدخلها إلا مُحْرِمًا، وفي وجوبه خلاف معروف،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٥/ ١٣٧٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أيضًا من جملة احترامها أن المشركين لا يقربونها، أو لا؟ لا يقربون المسجد الحرام، فيكون الحرم كله محرم عليهم؛ لأن دخولهم الحرم من قربان المسجد الحرام، فلهذا كان ذلك احترامًا لهذا البلدة ومع ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥ﴾ [تعالى] ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ [فهو ربه وخالقه ومالكه] الجملة الأخيرة فيها فائدة عظيمة؛ لأنه لما قال: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى تختص ربوبيته في هذه البلدة فأتى بعد ذلك بالتعميم قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ نظير هذا قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ قال بعدها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ حتى لا يتوهم متوهم أن ذلك الفضل خاص بأولئك فبيَّن أن الجزاء للجميع وهو الجنة وإن كانوا لا يستوون، هنا ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ربوبية الله عامة لكل شيء، لكن ربوبيته لهذه البلدة أخص من ربوبيته العامة.

قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من أمر؟ الله ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أليست العبادة هي الإسلام؟ الجواب: بلى العبادة هي الإسلام، لكن هناك قال: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ والعبادة هي التذلل له بالطاعة.

ثم قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أن أحقق هذه العبادة بالاستسلام التام لأوامر الله تبارك وتعالى، فالإنسان قد يكون عابدًا في الأصل لكن الانقياد التام بجميع مشروعات الإسلام يستفاد من قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المنقادين لله سبحانه وتعالى انقيادًا تامًا لا معارضة عندهم ولا استكبار.

وفي قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليل على أن اليهود والنصارى كانوا مسلمين حين كانت شرائعهم قائمة، لكن بعد أن نُسِخَت فإنهم إذا لم يلتزموا بالشريعة الناسخة لم يكونوا مسلمين، لأن الإسلام هو الدين عند الله في كل زمان ومكان، وبعد بعثة الرسول ﷺ فلا إسلام إلا باتباع شريعته، وإلا فأصل الإسلام من الاستسلام والانقياد وهذا يشمل كل انقياد لله سبحانه وتعالى سواء في عصر هذه الأمة أو قبلها، فنوح عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مثل ما قيل للرسول ﷺ، وقال عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢] وقالت بلقيس: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وهنا قد علم المكان الذي قاله النبي ﷺ فيه فهو مكة؛ لقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ والإشارة هنا للقريب.

ثم إن قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فيه إظهار لفضل الله تبارك وتعالى على ساكني هذه القرية حيث جعل الله تعالى هذه القرية حرامًا.

قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: المنقادين إلى حكم الله، ولا منافاة بينه وبين العبادة فيما سبق ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ لأنه أصل العبادة شيء والإسلام في جميع الشريعة شيء آخر، ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان، ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي: لأجلها، فإن ثواب اهتداءه له، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾]، قوله: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، فالتلاوة الأولى: قراءة القرآن، والتلاوة الثانية: العمل بما جاء به القرآن، مأخوذة من تلا الشيء يتلوه إذا تبعه وصار تلوًا له، فقول الرسول: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يشمل هذا وهذا، أن أتلوَه قراءة وأن أتلوَه اتباعًا، فهو مأمور بذلك، يعني: فكأنه يقول: سأتلو القرآن عليكم تلاوة قراءة، وأيضًا سأتلو القرآن تلاوة اتِّباع، ولا أبالي مخالفتكم وإعراضكم، وهذا ليس للرسول ﷺ فحسب بل لكل من اتبع الرسول يجب عليه أن يتلو القرآن تلاوة لفظية، وقد عُلم أن قراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة التي هي من أركان الإسلام.

ثانيًا: يجب على المسلم أن يتلو القرآن تلاوة اتباعيَّة ولا يبالي بمن خالفه، ولو أننا راعينا شعور الناس وراعينا عصور الناس بقي الدين ليس دينًا بل صار الدين عادةً إن تقبله الناس حسب عاداتهم صار دينًا وإن لم يقبلوه لم يكن دينًا، والواجب أن يكون الدين بعيدًا عن عادات الناس بمعنى أن يكون الحَكَم هو القرآن والسنة، لا ما يعتاده الناس فيما يفعلونه من عبادات أو غيرها، خلافًا لبعض الناس الآن الذين يريدون أن يتابعوا الناس فيما هم عليه ولو كان باطلًا، وهذا ليس بصحيح؛ لأننا لو مشينا على هذا الأمر أو على هذا المنهاج ما بقي حياة للإسلام، فالإسلام يبقى ميتًا ويموت منه جزء في هذا العصر ثم يأتي عصر آخر فيموت منه جزء آخر وهكذا حتى ينقضي، ولكننا إذا كنا نعمل بالإسلام ونجدد حسب ما يقتضيه الكتاب والسنة لا حسب آرائنا صار ذلك هو القيادة، وأما أن نسكت وندس رؤوسنا في التراب ونقول: هؤلاء الناس لا يمكن تخالفهم أو نتهيب قول بعض الناس: طلعتم علينا بدين جديد، هذا الدين ما عرفناه من قبل، وما أشبه ذلك فإن هذا لا ينبغي أن يمنع الإنسان عن قول الحق، ولهذا قوله: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تلاوة لفظية تقوم بها الحجة عليكم، وتلاوة عملية تطبيقية يتبين بها أنني لست بمبالٍ بمن يخالفني في هذا الأمر.

وقوله: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هو هذا الذي نزل عليه ﷺ، وبعد تلاوة القرآن ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ له، ولكن على تفسير المؤلف يقول: اهتدى بمعنى انقاد؛ لأن اهتدى لا تتعدى باللام بل تتعدى بالباء اهتدى به، لكنه ضمنه بمعنى: انقاد، وتضمينه معنى الانقياد ليشمل هداية العلم وهداية التوفيق، فالذي يهتدي وينقاد له ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ [أي: لأجلها فإن ثواب اهتدائه له] صحيح من اهتدى بهذا القرآن وانقاد له فالمصلحة لمن؟ ليست لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله غني عنها، وليست لفلان

ولا لفلان؛ لأن كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، إذن فهو لنفسه، وإن كان ينتفع الداعي بذلك أيضًا انتفاع الدالّ فإن الدال على الخير كفاعله، لكن أصل الثواب للفاعل، فلا يقال مثلًا: إن الرسول ﷺ يدعو الناس ليهتدوا فيكون له أجر، بل قصده ﷺ الأول هو نفع الخلق، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ وإن كان النبي ﷺ ينتفع باهتدائه فهو كذا ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ﴾ [عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى] ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ المؤلف قدر [له] فيمن اهتدى، وقدر هنا فقل له والسبب أنه يقدر هنا: لأجل أن يرتبط الجواب بالشرط؛ لأن قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اهتدى لأي شيء؟ للقرآن الذي أتلوه، أو بالقرآن الذي أتلوه، وهنا ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ من: شرطية، ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ما يمكن أن يكون قل: إنما أنا من المنذرين، جوابًا لقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ إلا إذا كان فيه ضمير يعود عليه، ولهذا قدره بقوله فقل له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

فإذا قال قائل: ما الحكمة في حذفه؟

قلنا: الحكمة في حذفه العموم، يعني: فقل له ولغيره ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يعني: معناه أن هذه الجملة التي وصف ثابت للرسول ﷺ، ليست خاصة بمن يضل، بل من يضل ومن لا يضل، يقال له: إن الرسول ﷺ من المنذرين، ومعنى المنذِر: المخوِّف، قال: [المخوفين فليس عليَّ إلا التبليغ]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠﴾ إنما: أداة حصر.

فإذا قال قائل: هذا يفيد اختصاص الرسول ﷺ بالإنذار، مع أن الله يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

قلنا: لكن لكل سياق ما يناسبه من اللفظ، فهنا المخاطب قوم منكرون فكان ذكر جانب التخويف في حقهم أولى من الجمع بينه وبين التبشير، قال: [وهذا قبل الأمر بالقتال] والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يسلك هذا المسلك كثيرًا في مثل هذه الآية، ويقول: [إنه قبل الأمر بالقتال] وهذا يتضمن أن تكون الآية منسوخة لا يعمل بها ولكن هذا قول في غاية الضعف.

والصواب: أن هذا يقال حتى بعد الأمر بالقتال، النبي ﷺ عليه الإنذار والتبليغ وليس عليه الهداية، والرسول ﷺ يقرأ في كل جمعة غالبًا أو كثيرًا يقرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١ - ٢٢] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥ - ٢٦] وكيف تكون مثل هذه الآيات التي تُرتَّل على المسلمين في جمعاتهم منسوخة، ثم إن النسخ ليس بالأمر الهين دعواه، لأن معناه إبطال دلالة الآية أو الحديث، وهذا يتضمن الاعتداء على الله تعالى وعلى رسوله، ولهذا يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من دعوى النسخ، وإذا عجز عن الجمع يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وغيره كثير من أهل العلم إذا عجزوا عن الجمع قالوا: هذا منسوخ، وهذا مسلك ليس بجيد وليس بسديد وليس

بصواب بل هو خطير، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : (أن المنسوخ في الشريعة لا يتجاوز عشرة أحكام)، ولو سلكنا ما سلكه المؤلف لكان المنسوخ عشرات الأحكام أو ربما يبلغ المائة وفي هذا خطأ عظيم.

فالصواب أن هذا القول: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ يقال حتى الآن وحتى بعد الأمر بالقتال فهو منذر، لكن هذا الإنذار لا يقتضي ألَّا يقوم بما يجب عليه من الجهاد، يقول: أنا منذر فليس عليَّ هداكم، وهداكم على الله سبحانه وتعالى، وأما مسألة الأمر بالقتال فهذا شيء يمكن حتى مع هذا القول، فالصواب في هذه المسألة: أن الآية محكمة، هذه وغيرها من أمثالها محكم ولا يجوز دعوى النسخ فيها؛ لأن أهم شروط النسخ أو من أهمها: تعذر إمكان الجمع وإذا أمكن الجمع فلا نسخ؛ لأن النسخ هو عبارة عن إبطال مدلول الآية أو الحديث، وهذا أمر ليس بالهين، يأتي حديث وتمسح عليه فمعنى النسخ كأننا ضربنا عليه، المهم: إذا تعذر الجمع وعُلِمَ التاريخ فالمتأخِّر ناسخ، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بالكسر؛ لأنها اسم فاعل فهو منذر، والناس مُنذَرُون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾:

في هذه الآية من الفوائد:

١- **من هذه الفوائد:** وجوب إعلام الرسول ﷺ بما ذكر؛ لأنه على تفسير ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ وواجب عليه أن يعلن ذلك من أجل أن يكون قدوة فيه.

٢- **من هذه الفوائد:** قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وجوب العبادة على النبي ﷺ، ما يقال إن التكاليف تسقط عن الأنبياء والأولياء، بل تجب على النبي ﷺ، كما تجب على غيره، ويجب عليه هو - عليه الصلاة والسلام - أن يشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله هذا مقتضى الإسلام.

٣- **من هذه الفوائد:** بهذا نعرف بطلان ما ادعاه أهل من يزعم أنهم أولياء أو أصحاب من يزعم أنهم أولياء حيث قالوا إن الولي يصل إلى درجة يسقط بها عنه التكليف، وهذا موجود عند الصوفية وغيرهم، يقولون: هذه العبادات التي نكلف بها وسائل إلى غاية، الغاية: اليقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] فإذا وصل الإنسان إلى اليقين سقطت عنه العبادة وصار لا يجب عليه صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج ولا يحرم عليه نكاح أحد يتزوج من شاء من ذكور وإناث والعياذ بالله ومن عدد صغير وكبير حتى نسمع الآن في أفريقيا الواحد منهم له خمسين امرأة وأيضًا ما يتزوج بعقد، إذا اشتهى امرأة أرسل إلى أبيها وقال خلي بنتك زوجة لي أريدها زوجة لي ولا أحد يتمكن من أن يعارض لأنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى غاية لا يحتاجون معها إلى تكليف، وإذا كان النبي ﷺ أمر أن يعبد الله فغيره من باب أولى.

٤- **من فوائد الآية:** فضيلة مكة من وجهين: من إضافة الربوبية إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ومن كونه تعالى حرمها ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ففيه فضيلة مكة على سائر البلاد، نعم ولها فضائل كثيرة لو لم يكن منها إلا أن خصَّها من أركان الإسلام، خصَّها للعبادة من أركان الإسلام، الحج ركن من أركان الإسلام ما في أي بلد في العالم يكون القصد إليه فرضًا أبدًا ولا سنة إلا مكة.

٥- **ومن فوائدها:** أن الذي حرم مكة هو الله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فإذا قال قائل: ألا يعارض ذلك ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ»(١)؟ قلنا: لا؛ لأن معنى قوله: حرم مكة، أي: أظهر تحريمها وأبانه، وإلا فالذي حرمها هو الله، ولهذا نقول مثلًا: إن الرسول ﷺ حرم الميتة والخمر والخنزير يعني: أظهر تحريمه وأبانه وإن كان الذي حرمه هو الله، المهم أن هنا لا منافاة بين قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وقول الرسول ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ»، والجمع واضح.

٦- **ومن هذه الفوائد:** أن كل شيء فهو ملك لله، مكة وغيرها؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

٧- **ومن هذه الفوائد:** الرد على المعتزلة، القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، فإنه على قولهم يخرج بعض الأشياء عن ملك الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

٨- **ومن هذه الفوائد:** بلاغة القرآن؛ لأنه لما قال: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ فإن أحدًا يفهم أن ربوبية الله تعالى خاصة في هذا المكان، فاحترازًا من هذا الفهم الخاطئ أعقبه بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ وهذا من بلاغة القرآن، هل تدخل مكة في قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ أم لا تدخل؟ هذه المسألة مختلف فيها عند الأصوليين يعني: إذا ذكر الخاص مع العام فهل التنصيص عليه مخرج له من العموم، فيكون ذكر مرة لكن نص عليه لشرفه مثلًا والعناية به، أو أنه لا يخرجه من العموم فيكون ذكر مرتين: مرة بصيغة التفصيل ومرة بصيغة التعميم، فما هو المتبادر للذهن؟ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ ماذا يتبادر للأذهان؟ الملائكة وجبريل، لكن يتبادر إلى الذهن أنه إذا ذكر الخاص بعد العام أو قبله إنه ما أريد به دخوله في العام، عندما تقول جاء الطلبة وعلي، وهو من الطلبة، معروف أنه من الطلبة، أنت تفهم أنه خرج عنهم لما نص عليه، وكفى بذلك فخرًا أن يخرج من بين العموم وينص عليه بالحكم، لكن أولئك يقولون إنه ذكر مرتين: مرة بطريق العموم ومرة بطريق الخصوص، ولكنه فيما أظن ويتبادر إليَّ أنه ليس كذلك، نعم لو ذكر العموم في موضع آخر ولم يذكر الخصوص فلا شك أنه داخل في العموم.

٩- **ومن هذه الفوائد:** أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بغير ما أنزل الله لقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ لأن من جملة الأشياء الحكم بين العباد بل هو من أعظم الأشياء، فإذا كان ذلك لله فلا يجوز لأحد أن يستقل به، ومن أراد أن يستقل به فقد حاول أن يكون شريكًا لله تعالى في ذلك،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٢٩) ومسلم (١٣٦٠/٤٥٤) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

ونزل نفسه منزلة لا يستحقها، إذَنْ أمر التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله؛ لأن له كل شيء، أما التحسين والتقبيح إلى الله؛ لأن بعض الأشياء لا نعرف حسنها أو قبحها إلا من الله، لكن أيضًا للعقل مجال في هذا، ولذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] دل هذا على أن العقل يحسِّن ويقبِّح، فإن هذا من القبيح

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

فالعقل يحسِّن ويقبِّح لكنه لا يوجب ويحرم، الإيجاب والتحريم من الله، وأما التحسين والتقبيح فيحسن ويقبح؛ ولهذا يُحِيلُ الله أشياء كثيرة إلى العقل فدل ذلك على أن للعقل أن يحسن ويقبح، ولكن من الأشياء ما لا يعلم حسنه وقبحه إلا بطريق الشرع، وهذا هو الصحيح في هذه المسألة مسألة التقبيح والتحسين العقلي صار فيها نزاع طويل بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدع منهم من قال: (لا يحسن ولا يقبح) والغريب أن هذا هو المشهور من مذهب الحنابلة، قال الفتوحي في كتاب مختصر التحرير في أصول الفقه: (العقل لا يحسن ولا يقبح) ولا يوجب ولا يحرم، نقول وأما قوله: (لا يوجب ولا يحرم) فهذا صحيح، وأما (لا يحسن ولا يقبح) فهذا ليس بصحيح، يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح) [1]، وربما يشهد لهذا قول الرسول ﷺ: «الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»، فإن هذا دليل على أن الإنسان الذي صفت سريرته وخلصت نيته هذا لا يطمئن للإثم أبدًا، أما الإنسان الفاسق ومعلوم أن الزبال لا تهمه الزبالة، لكن العطار الذي عند الزبالة لا يمكن أن يقعد، فالإنسان الذي صفت سريرته وخلصت نيته وعلم الله منه حسن القصد موفق، وتجده إذا عمل سيئة ما تطيب نفسه ولا تستقر، ولهذا قال: «البِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ»[2]، لكن هذا مَنْ نخاطب به؟ هل كل الناس؟ لا، بل صاحب القلب الصافي والإيمان الخالص، أما أن يكون في هذا فلا يخاطبون به.

١٠- **ومن هذه الفوائد،** أن الرسول ﷺ مأمور بأن يكون من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ .

١١- **من هذه الفوائد،** أن الإسلام والإيمان شيء واحد؛ لأن قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا شك أن ما أمر به هو أعلى الحالات، وهو الإيمان ولكن هذه المسألة وهي هل الإسلام الإيمان أو لا؟ فيها أيضًا عراك بين أهل السنة والجماعة أنفسهم وبينهم وبين الأشاعرة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) وحسنه الألباني في تخريج الطحاوية ص (٥٣٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤/ ٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

والصواب أن يقال: إن الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، والإيمان عند الإطلاق يشمل الإسلام، وأما عند التقييد وأن يقرن بينهما فإنه يكون الإيمان ما وقر في القلب والإسلام ما قامت به الجوارح؛ لأن الإسلام من الاستسلام وهي عدم المعارضة بل الموافقة، فالمنافقون الذين لا يؤمنون عرضًا نسميهم مسلمين، لكن ما نسميهم مؤمنين لعدم وجود الإيمان في قلوبهم، ومن الناس من يكون وسطًا ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (لما يدخل) ما قال لم يدخل، ليفيد أن الإيمان قريب الدخول في قلوبهم، لكنه لم يدخل إنما هو قريب، والإيمان من المنافقين بعيد لا يمكن هم ينفرون منه، لو قرب إليهم هم نفروا منه، لكن هؤلاء الأعراب ما دخل الإيمان في قلوبهم بعد إلا أنه قريب، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

إذن الصواب في هذه المسألة: أن الإيمان والإسلام إذا اقترنا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

الفوائد:

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** وجوب تلاوة القرآن بنوعيها: اللفظية والعملية، فواجب على المرء أن يتلو القرآن تلاوة لفظية وعملية، عن ظهر قلب أو وإن كان نظرًا؟ وإن كان نظرًا.

٢- **ومن هذه الفوائد:** فضيلة القرآن وشرفه حيث كان مأمورًا بتلاوته.

٣- **ومن هذه الفوائد:** وجوب تحسين القرآن لقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٤- **ومن هذه الفوائد:** وجوب تبليغ القرآن على النبي ﷺ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

التفسير

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فإنها على تقدير قل، يعني: وقل الحمد لله، وهذه الجملة للثناء على الله تبارك وتعالى وقد أثنى الله على نفسه في ابتداء الخلق وانتهاءه، وفي ابتداء إنزال القرآن وفي مقام التعظيم للرسول ﷺ، في إنزال القرآن وما أشبهها، فهنا قال: الحمد لله، على كمال صفاته وبيان آياته، ومنها ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فيريكم: والإراءة أبلغ من

البيان؛ لأنه قد يكون الشيء بيِّنًا وتعمى عنه الأبصار، ولكن الإراءة أبلغ إذ كل مرئيٍّ فهو بيِّن، وليس كل بين مرئيًا، والسين في قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ تفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: قرب هذا الأمر.

والفائدة الثانية: تحققه، فهي تفيد التحقيق والتقريب، ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ والإراءة هنا بصرية، وهي لما كانت معداة بالهمزة تنصب مفعولين: المفعول الأول: الكاف، والمفعول الثاني: آياته، وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل المراد بآيات الله هنا الآيات الدالة على صدق ما أخبر به في القرآن فتكون الآيات الكونية؟ أو هي أشمل من ذلك؟ الظاهر أنها أشمل من ذلك، أنها تشمل الآيات الدالة على صدق ما وعد به رسوله وتوعد به أولئك، وكذلك أيضًا الآيات الشرعية الدالة على كمال شريعته، وقوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيضًا أبلغ من الإراءة؛ لأنني قد أُري الإنسان شيئًا ولكن لا يعرفه، وهنا قال: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فعندنا بيان وإراءة ومعرفة، أعلاها المعرفة ثم الإراءة ثم البيان، قوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ نتيجة هذا أن تقوم عليكم الحجة؛ لأنهم إذا أُروا الآيات حتى عرفوها قامت عليهم الحجة.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأراهم الله يوم بدر القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وعجلهم الله إلى النار] نعوذ بالله ـ هذه من جملة الآيات التي أراهم إيَّاها، وإلا فقد أراهم الله انشقاق القمر قبل بدر، فإنهم طلبوا آية من الرسول ﷺ، فأشار إلى القمر فانفلق فلقتين حتى شاهدوه بأعينهم فقالوا: سحرنا محمد فاسألوا الرهبان الذين يقدمون إلى مكة هل شاهدوا ذلك أم لا؟ فسألوهم فأخبروهم بأنهم شاهدوا ذلك[1]، وقد أنكر قوم هذه الآية - انشقاق القمر - ومنهم محمد رشيد رضا وأظن شيخه كذلك محمد عبده، وهذا خطأ فادح والعياذ بالله؛ لأن الأحاديث فيه متواترة، وإشارة القرآن إليه ظاهرة، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١] هم حرفوا القرآن فقالوا: انشق القمر أي: بان ضياء الحق والنور بما جاء به الرسول ﷺ، وهذا بلا شك تحريف للقرآن وتكذيب لما تواترت به السنة.

الصواب الذي لا شك فيه وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة أن القمر انشق، وقولهم: إنه لو انشق لكان أمرًا عالميًا وكان له ذكر في التاريخ؛ لأنه أمر عالمي حيث إنه القمر آية أفقية كل يشاهدها، وحيث إن هذه الحالة للقمر حالة غريبة خارجة عن العالم، فتوافرت الهمم على نقله، ولابد أن تذكر في التواريخ، تاريخ الهند والروم والفرس وما أشبه ذلك، فنقول: تبًا لكم أن تجعلوا ما أخبر الله به موضعًا للشك؛ لأن هؤلاء لم يذكروا، بل لو ذكروا أنه لم يقع لقلنا: كذبتم وصدق الله، وأيضًا الجواب على هذا أن نقول: لا يلزم إذا انشق القمر حتى رآه أهل مكة ومن بقربهم أن يراه الناس جميعًا؛ لأن نصف الكرة الأرضية لا يمكن أن يروه، لماذا؟ لأنه غائب عنه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٤/ ٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هذه واحدة، الكرة المقابلة التي هي سطح الأرض لأهل مكة ومن حولهم قد يكون أتاهم في منتصف الليل أو في آخر الليل أو عندهم غيوم مانعة أو ما أشبه ذلك، الموانع كثيرة، موانع رؤيتهم له كثيرة ولكنه ما يهمنا أن يروه أو لا يروه أو يدونوه في تواريخهم أو لا يدونوه.

وتكذيب القرآن بمثل هذه الأمور أو السنة المتواترة بمثل هذه الأمور هذا في الحقيقة إيغال في العقل أو في العقليات على ما يقولون، فالإنسان ما ينبغي أن يكون عقلانيًا محضًا ولا ينبغي أن يكون ظاهريًا محضًا بل يجب أن يكون عنده عقل يزن به الأمور، وإذا بانت الأمور الشرعية فإنه لا مجال للعقل، إذنْ أراهم الله تعالى آيات منها انشقاق القمر ومنها أيضًا أن النبي ﷺ شهد الناس كلهم أن الحجر يُسلِّم عليه والشجر يسلم عليه حتى إنه يقول« كَانَ حَجَرٌ يُسلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ»[1]، وكذلك أيضًا من الآيات ما حصل يوم بدر، يوم بدر حصل فيه من الآيات قتل وسبي، قتل لرؤساء الكفار ما هو لأطرافهم لصناديد قريش، وقتل صناديد أعداء النبي ﷺ آية له؛ لأن ذلك نصر له، ولو كان ما قاله باطلًا ما كان الله تبارك وتعالى لينصره أبدًا؛ لأن الله ما ينصر الباطل على الحق نصرًا مستمرًا ولكن قد يكون للباطل طولة ليمحص الله المؤمنين فينتصر أهل الباطل لكنه انتصار مؤقت، كذلك أيضًا السبي سُبيَ منهم أحد أم لا؟ نعم سبي سبعون رجلًا منهم وذهب بهم إلى المدينة وهم أيضًا من المسلمين من أشرافهم، المهم أن هذه الواقعة واقعة بدر أثخنتْهم تمامًا، وأذلتهم إذلالًا بالغًا، ولهذا سمّاه الله تعالى يوم الفرقان؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وتعلمون أن الناس ينتظرون ماذا يحدث، العرب لما رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه وهم قلة ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلًا غلبوا حوالي ألف من قريش كاملي العدة والعدد كثير، عرفوا أن أمر الرسول ﷺ سيظهر.

كذلك أيضًا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم هل هذا ورد في بدر أم ورد في الكفار مطلقًا؟ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] لكن في بدر هل ذكر أن الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم؟ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] ما فيه أنها تضرب الوجوه والأدبار، فيه أنه يضرب فوق الأعناق، يعني: فوق أعناقهم، ويضرب منهم كل بنان يعني: الأيدي، فهذا هو الظاهر وأما ما ذهب إليه المؤلف فلا أعرف في ذلك سنة أيضًا بيِّنة كهذا، وإن كان المؤلف له وجهة نظر بأن الملائكة تضرب وجوههم إذا أقبلوا على المسلمين وتضرب أدبارهم إذا أدبروا عن المسلمين لكن ما دام أن هذا لم يرد فالأولى الاقتصار على ما ورد، وهو أن الله قال لهم: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ما قال اضربوا وجوههم وأدبارهم إلا أن يقول قائل:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢/ ٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

إن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يشمل هؤلاء فإنهم من الكفار، فهم عند الوفاة يضربون وجوههم وأدبارهم، فإن أراد المؤلف في هذا ما تشير إليه عموم الآية فهو مقبول، قال: [وعجلهم الله إلى النار] كيف عجلهم إلى النار؟ يعني معناه: عجلهم الله قبل موت الرسول ﷺ، قبل موت الرسول ﷺ حصل لهم هذا الأمر وتعجَّلوا إلى النار، قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [بالياء والتاء]، أي: عما يعملون وعما تعلمون قراءتان سبعيتان [وإنما يمهلهم لوقتهم]، قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة المقصود بها التحذير والتسلية، تحذير هؤلاء المكذبين وتسلية الرسول ﷺ، وفيها من صفات الله أنها صفة من الصفات السلبية، وقد مر علينا أن الصفات السلبية تتضمن أمرين: نفي الصفة المذكورة وإثبات كمال ضدها، فالله تعالى لا يغفل لماذا؟ لكمال علمه ومراقبته، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢].

تم بحمد الله تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* قال الله تعالى:

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١-٦]

التفسير(١)

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: يستبقي حياتهم، وجملة يُذبِّح، ويَستحيِي محلُّها من الإعراب: حال من الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الإرادة مرادفة للمشيئة، وأيضًا مُتعلَّق الإرادة الكونية، الحكم القدري، وهذه متعلقة بالحكم القدري، إذن الفرق من ناحيتين:

الناحية الأولى: من ناحية المعنى.

---

(١) هذا ما بدأ به الشيخ رحمه الله تفسير سورة القصص ـ وذلك فيما تحت أيدينا من مصادر ـ سورة القصص.

والثانية: من ناحية المتعلق.

فالإرادة الكونية مرادفة للمشيئة، والإرادة الشرعية مرادفة للمحبة، والثاني من جهة المتعلق: الإرادة الكونية تتعلق بالأمور الكونية، والإرادة الشرعية تتعلق بالأمور الشرعية، والله يريد منا أن نصلي مع الجماعة شرعًا أم كونًا؟ شرعًا.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ المراد: أئمة في الخير؛ لأن الإمام كل من يُقتدَى به.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الوارثين لمن؟ فرعون وجنوده، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

الفوائد:

١- بيان عِظَم القرآن وعلوه، وذلك عن طريق الإشارة إليه بالبعد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾.

٢- أن هذا القرآن مكتوب، لقوله: ﴿الْكِتَابِ﴾ والذي نعلم من كتابته ثلاثة أمور: في اللوح المحفوظ، والمصاحف، والصحف التي بأيدي الملائكة.

٣- أن هذا القرآن مظهر مبين للأمور، لقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ فهو مظهر مبين للأمور، هل حذف المتعلَّق ﴿الْمُبِينِ﴾ يستفاد منه عموم إبانة القرآن لكل شيء؟ نعم، هذا من القواعد التفسيرية أن حذف المتعلَّق يفيد العموم، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ما قال: فأغناك؛ لأن الله أغناه وأغنى به، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ما قال: هداك؛ لأن الله هداه وهدى به، إذن حذف المتعلق بقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ يدل على أنه مبيِّن لكل شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ إذن أي مشكلة علينا في الدين من أين نحلُّها؟ من القرآن، والقرآن يرشدنا إلى الأخذ بالسنة، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وحينئذٍ لا يبقى في الدنيا مشكلة إلا وجد حلُّها في الكتاب وفي السنة، لكن القصور عن فهمها يكون له سبب إما هوى مُتَّبع، وإما جهل، لذلك يبحث في الكتاب والسنة لعله يجد ما يُبرِّرُ ما ذهب إليه، مثلًا إنسان يريد أن يبرر الاشتراكية، فيذهب يبحث في الكتاب والسنة عما يؤيد هذا الرأي، وليس قصده الحق، ويدل لذلك أنه لو وجد في القرآن والسنة ما يخالفه تركه وطلب غيره».

وهكذا أيضًا كل هؤلاء الذين يريدون أن يشرِّعوا قوانين، أو أمورًا فقهية أو أي شيء، إنما كانوا يرجعون إلى الكتاب والسنة من أجل أن يبرروا مواقفهم، فإذا رأوا ما يخالفها أغمضوا أعينهم، وإن رأوا ما يشير إليها ولو إلى إبطالها فتحوا أعينهم إلى رءوسهم، هؤلاء في الغالب أنهم ما يتقون، لكن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «العقيدة الواسطية» قال كلمة عظيمة وهي: (من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق)، هذه الكلمة في الحقيقة وزنها ثقيل، من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه، أمران: تدبر، وطلب الهدى، التدبر: الفعل، طلب الهدى: النية الصالحة، طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق، هذا جواب الشرط، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جزم به؛

لأنه في القرآن لا شك في هذا.

إذن القرآن مُبيِّن لكل الأمور، إما من القرآن نفسه، أو مما يرشد إليه، وذلك بالتحويل على السنة، أحيانًا تعترضنا مسائل نبحث عنها في كتب الفقهاء، كفقهاء الحنابلة، وفقهاء الشافعية، وغيرهم لا نجدها، نرجع إلى القرآن والسنة نجدها موجودة، والكتاب والسنة الرجوع إليهما يفيد الإنسان في الحقيقة فائدتين عظيمتين: أولًا: الطمأنينة والاستقرار؛ لأن اتباع كلام أهل العلم وإن كان الإنسان يطمئن إليه بعض الشيء لكن ما يكون طمأنينته إليه كطمأنينته إلى ما دل عليه الكتاب والسنة، الشيء الثاني: أنه يستطيع أن يُقنِع غيره ويُطَمئِن غيره؛ لأنه إذا قال إنسان: من قال: إن هذا حرام؟ قيل: لأن الله يقول: حرام، أو لأن الرسول ﷺ يقول: حرام، حينئذٍ يطمئن، لكن لو تقول له: لأنه في الكتاب الفلاني حرام، الكتاب الفلاني هل صدر عن وحي، إذن الفائدة هذه: الطمأنينة وإقناع الغير.

ولهذا أنا أحب أن يكون دائمًا رجوعنا إلى الكتاب والسنة، وليس معنى ذلك أنني أقول: نطرح كلام أهل العلم؛ لأن كلام أهل العلم مفاتيح لهذه الخزائن، وكم من إنسان لا يهتدي بالكتاب والسنة إلا حيث يدخل ما دخله هؤلاء العلماء، ففرق بين من يقول: اتبع الكتاب والسنة واقتدِ بكلام أهل العلم بالنسبة لفتح هذه الخزائن من الكتاب والسنة، ومن يقول: اقتدِ بالكتاب والسنة واطرح كلام أهل العلم، ولا تلتفت لهم، ولا تعدَّهم شيئًا، هذا ليس صحيحًا، هذا يعني: أن بعض الناس الآن لا يرى كلام أهل العلم شيئًا إطلاقًا ولا يرجع إليه أبدًا فهذا ليس بصحيح، فدائمًا الحق يكون بين طرفين متطرفين، إذن في الكتاب تبيين لكل شيء.

٤- **وفيها أيضًا دليل على:** أن القصص يسمى تلاوة، قص الإنسان للقصة يقال: تلاها علينا، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾.

٥- **ومن الفوائد أيضًا:** أهمية قصة موسى مع فرعون، ولهذا تكفل الله تعالى بتلاوتها على النبي ﷺ لأهميتها وبيان فوائدها، فعلى كل حال قصة موسى وفرعون من أهم القصص، ولهذا يكررها الله تعالى في القرآن بأساليب مختلفة، وهنا يقول: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن ما أخبر الله به فهو حق، جميع ما أخبر الله به من هذه القصص فهو حق، وقد سبق أن قلنا إن الحق إذا وصف به الخبر: فهو بمعنى الصدق، وإذا وصف به الحكم: فهو بمعنى العدل.

٧- **ومن الفوائد:** أن هذه القصص سبب للإيمان.

٨- **ومن فوائدها:** أنها زيادة في الإيمان، سبب لمن لم يؤمن أن يؤمن، ولمن آمن أن يزداد إيمانه ثباتًا وكمية، وما الدليل أنه ينتفع بها غير المؤمن؟ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كل إنسان ذو لب وعقل لابد أن يعتبر وينتفع.

٩- **ومن فوائدها**: بيان ما كان عليه فرعون من العلو والجبروت، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها**: أن من علا في الأرض، وطلب العلو على الخلق فهو شبيه بفرعون، وبئس الرجل يكون إمامه فرعون.

١١- **ومن فوائدها**: أن تفريق الأمة سبب لفشلها وذلها، يؤخذ من قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

١٢- **ومن فوائدها**: أن حكمة الإنجليز المشهورة: فرِّق تَسُدْ فرعونية؛ لأنه هو الذي جعل أهلها شيعًا لأجل أن يسودهم.

١٣- **ومن فوائدها**: أن بني إسرائيل من أهل مصر مع أنهم في الأصل من أهل الشام، فيتفرع على هذه الفائدة أن من سكن أرضًا وأقام فيها وإن لم يكن من أهلها في الأصل نسب إليها وصار من أهلها.

١٤- **ومنها**: بيان شدة استضعاف فرعون لبني إسرائيل، حيث كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نسائهم؛ لماذا؟ قيل: لأنه أُخبِر بأنه سيولد من بني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده، وقيل: لأن ذلك هو الطريق لإذلال الأمة؛ لأنه إذا ذهب الرجال وبقي النساء صِرن إماءً للمستعبِد بلا شك، ليس عندهم قيِّم ولا مدافع.

١٥- **ومن فوائدها**: أن هذا العمل: العلو في الأرض، والعتو على الخلق، والسعي بينهم بالتفريق، أنه من الإفساد، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ عكس ذلك إذن الذي يتواضع للحق وللخلق ويجمع الأمة ويقصر عدوانه يكون من المصلحين؛ لأن بضدها تتبين الأشياء، فإذا كانت هذه الأمور من الفساد فضدها من الصلاح.

١٦- **ومن فوائدها**: إثبات إرادة الله في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ وجه إثبات الإرادة من قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ مع أن (نريد) فعل وليس اسمًا، نقول لأن الفعل يدل على الحدث وزمانه، فنريد مشتق من الإرادة، وعليه فنقول إنه يدل على إثبات الإرادة لله، المعتزلة نفوا الإرادة، والأشاعرة أثبتوا الإرادة، قالوا إن الله تعالى له إرادة لأن التخصيص بكون الليل ليل، والنهار نهار، والحر حر، والبرد برد، يدل على إثبات الإرادة؛ لأنه لا يقع هذا التخصيص إلا بإرادة، وهم كما عرفنا من قبل إنما يستدلون على إثبات الصفات بالعقل، وما خالف عقولهم وجب تأويله وصرفه إلى ما يوافق العقل، وقد مضى لنا هذا ولكن لا بأس من إعادته، مضى أن هذه طريقة فاسدة مخالفة للقرآن ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ : (ليت شعري بأي شيء يوزن الكتاب والسنة أفكلما جاءنا رجل أجدل من رجل اتبعناه وتركنا قول الآخر). يستقيم هذا أم لا يستقيم؟ لا يستقيم.

إذن نقول: إثبات صفات الله بالطرق العقلية ونفي ما لم يدل عليه العقل هذا في الحقيقة عدوان وطريق فاسد، على أننا نقول إنه يمكننا أن نثبت ما نفيتم بطريق العقل كما أثبتم أنتم ما أثبتم بطريق العقل، بل أبلغ عقلًا، ظهور صفة الرحمة في المخلوقات أبلغ من ظهور صفة الإرادة، الإحسان إلى الخلق بالرزق والإمداد والإعداد وبجميع ما يتمتعون به هذا ظاهر لكل أحد، لكن كون هذا حر وهذا برد يدل على الإرادة؟ دلالة هذا على الإرادة أخفى من دلالة النعم على الرحمة بلا شك، أيضًا نصره للطائعين وخذلانه للعاصين يدل على الحب والبغض أم لا؟ لولا أنه يحب هؤلاء ما نصرهم، ولولا أنه يبغض هؤلاء لنصرهم، وهذا معروف حتى الإنسان إذا صار يبغض واحدًا ما ينصره، وإذا صار يحبه ينصره، إذن نصره لهؤلاء وإذلاله لهؤلاء دل على إثبات المحبة والبغض وهم ينكرون ذلك يقولون العقل لا يدل عليه، المهم والحمد لله أن الحق واضح، ما من شيء يزعم هؤلاء أن العقل ينكره أو لا يثبته، إلا وجدنا أن العقل يثبته كما أثبته الشرع.

١٧- **ومن فوائد الآية:** تمام قدرة الله عز وجل، وجهه أن هؤلاء المستضعفين جعلهم أئمة ووارثين لهؤلاء الطغاة، جعلهم وارثين بقدرتهم، أم بقدرة الله فقط؟ في الحقيقة ليس لبني إسرائيل أي قدرة؛ لأن المسلمين من هذه الأمة ورثوا ديار الروم وديار الفرس بفعلهم وجهادهم، لكن إرث بني إسرائيل لديار فرعون بلا سبب منهم، بل هو من الله عز وجل محض، ولهذا قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فهو بجعل الله سبحانه وتعالى المحض، يستفاد منه كمال قدرة الله عز وجل، وأن الله ييسر لعباده من النصر ما لم يكن في مقدورهم ولا في الحساب.

١٨- **ومن فوائدها:** أن من استُضعِف بقيامه بالحق فلابد أن تكون العاقبة له، كل من استُضعِف بقيامه بالحق لابد أن تكون العاقبة له؛ لأن قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإن كانت في سياق بني إسرائيل فغيرهم داخلٌ في العموم، العموم اللفظي إذا قلنا: على الذين استضعفوا في أي مكان وزمان؟ أو العموم المعنوي وذلك بقياس غيرهم عليهم؛ لأن دلالات العموم إما لفظية أو معنوية فالقياس الصحيح دلالة اللفظ على المقيس دلالة معنوية، فحينئذٍ نقول على الذين استضعفوا في الأرض إذا جعلناهم هم بني إسرائيل فقط، المستضعفون بقيامهم بالحق من غيرهم مثلهم؛ لأن الله يقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ سنة الله في الخلق واحدة؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس بينه وبين أحد نسب حتى يراعيه، أو حَسَبٌ حتى يراعيه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فإذن نقول: في هذه الآية دليل على أن من استُضعِف في طريق الحق - يعني: لقيامه بالحق - فإن العاقبة له، هنا قد يقال: إن أناسًا استُضعِفوا في الحق وقتلوا أو طردوا أو ما أشبه ذلك، فأين العاقبة التي تزعمون؟ نقول: إن العاقبة لا تكون للشخص الجسدي فقط؛ بل للشخص المعنوي، مقالة هذا لابد أن تُنصَر، وانظروا الآن إلى من سبقنا من أهل العلم، كل عالم أُوذِيَ في الحق سواء

قتل أو لم يُقتَل، فإنك تجد مقالاته تبقى وتنتشر أكثر من غيره، وهذا واضح لمن تأمل.

إذن فالنصر للقائل في حياته أو بمقالته بعد وفاته، والإنسان المجاهد لله هو لا يريد أن يبقى بنفسه، همه أن يبقى هذا الحق الذي قام به، لا يهمه أن يبقى هو أو لا يبقى، إذا كان يدعو إلى الله، أما من يدعو إلى نفسه ـ ونسأل الله أن يعيذنا من ذلك جميعًا ـ فهذا نعم هو الذي يقول إذا قتل أو أوذي ما انتصر، لكن من يدعو لله لا يهمه إلا أن تنتصر هذه الدعوة، ولهذا هو يقاتل لها ومن أجلها.

مسألة: بعض الناس قد يتهوَّر، ضعيف ليس لعدوِّه بمُقابل، يقرأ هذه القصة يقول: لابد من النصر.

الجواب: نعم؛ لكن لابد من نصر الحق بأسبابه، إذا أعيتك الأمور جاء النصر من عند الله بدون سبب، لكن ما دام أنك أنت مأمور بطريق معين قد لا تنصر من أجل مخالفتك إياه وتقصيرك؛ لأنه ليس كل من حسنت نيته حسن فعله ونصر، لا، يختلف الأمر، ولذلك مسائل هذه الأمور من أدق المسائل التي نحن نتكلم عنها كثيرًا؛ لأن هذه المسائل دقيقة جدًّا والإنسان يمشي كأنه كرة في اليم تقلبها الرياح، أحيانًا يأتيها ريح عاصف تبعدها أميالًا، لذلك يجب أن يكون الإنسان مُتَّزنًا ولا يكون مُتهوِّرًا، إذا تهوَّر ثم خالفه النصر فالبلاء من عند نفسه.

١٩- **ومن فوائد الآية**: مناقب بني إسرائيل لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ وهنا قد يشكل على الإنسان أن الله تعالى يقول هنا: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ وفي آيات كثيرة يذم بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى بيَّن السبب في جعل هؤلاء أئمة، فقال تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فهم حين كانوا متصفين بهاتين الصفتين الصبر واليقين، كانوا أئمة، وقد أخذ شيخ الإسلام من هذه الآية جملة، فقال: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، لكن لما تخلف الصبر وتخلف اليقين منهم صاروا قردة خاسئين، وجاءت الآيات بذمهم، الآيات لا يُكذِّبُ بعضها بعضًا لكن هناك أشياء توجب تقلب أحكام بعض الآيات لتخلف السبب.

٢٠- **ومن فوائد الآية**: أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار ملكوها، لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ والوارث يملك ما ورث، فهم يجعلهم الله الوارثين، ولهذا قال أهل العلم: إن الأراضي تملك.

٢١- **ومن فوائد الآية**: أن الأراضي ليست من الغنائم المحضة، هنا قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ مع أن الرسول ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»(١) انظروا الآن إلى هذا التقرير الذي أقرر انظروا هل هو صحيح أو ليس بصحيح، أعتقد أنه صحيح؛ لأن الله أورث

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

بني إسرائيل أرضهم وأموالهم، أرض بني فرعون وأموالهم، قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فالكنوز لا شك أنها مغانم، ويقول: ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فكيف نُجيب عن الحديث؟ الجواب: أن نقول: إن هؤلاء لم يرثوها بالقتال، والغنيمة معروفة أنها تُؤخَذ عن طريق قتال الأعداء، هؤلاء لم يرثُوها بالقتال، ولكن بقوة الله عز وجل التي ليس لهم إليها سبيل، وعلى هذا فلا تخالِف قول الرسول ﷺ: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي» فيما سبق توجد غنائم لكنها لا تحل للمقاتلين، شأنها أنها تُجمَع ثم تنزل عليها نار من السماء فتحرقها، ثم إنه إذا كان فيها شيء من الغلول لا تنزل النار سبحان الله العظيم، لا تنزل حتى يُفقَد شيء، إذا فُقِد شيء نزلت النار فأحرقتها، والحكمة من إحراقها من أجل قطع التعلق بها نهائيًا؛ لأنها لو بقِيَت تداولها الناس بالبيع والشراء والانتفاع ومَلَكُوها.

مسألة: هذه الأمة أفضل الأمم، فلو مثلًا مُنِعَت من الغنائم لكان أولى؛ لأنها أقوى إيمانًا؟

الجواب: لا؛ ليس صحيحًا، لكن هذه الأمة الله سبحانه وتعالى أمدَّها بأشياء لتستعين بها، ولا مانع أن الإنسان الذي يكون أفضل يمد بأشياء ليصل إلى الفضيلة، أليس النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ ومع ذلك هو يستغفر الله تعالى، ونحن أيضًا مأمورون بأن نصلي عليه مع أن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ فلا يلزم من الوصول إلى الكمال أن لا يسأل الإنسان بأسبابه.

٢٢- من فوائد الآية: أن تمكين الإنسان في الأرض من نعمة الله عليه، لقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن هذا من جملة ما أنعم الله به على بني إسرائيل أنْ مكنهم في الأرض، فكون الإنسان يُمكَّن له في الأرض سواء كان هذا التمكين عن طريق سلطة السلطان أو عن طريق سلطة القرآن، لاحظوا أن التمكين في الأرض ليس معناه: أن الإنسان يحكم الناس ويكون سلطانًا عليهم، لا بل من التمكين في الأرض أن الله يُمكِّن له حتى يكون لقوله سلطان على المؤمنين، فمثلًا شيخ الإسلام ابن تيمية مُكِّن له في الأرض أم لا؟ مُكِّن له في الأرض أعظم من تمكين الولاة في وقته، تمكين الولاة في وقته انقضى بموتهم، لكن تمكين الله لهذا الرجل حتى كان قوله معتبرًا بين الناس، باقيًا إلى الآن، إذن التمكين في الأرض وإن كان يتبادر إلى الذهن أنه تمكين السلطان فينبغي أن نقول وتمكين القرآن، بمعنى أن من قام بالحق فإنه يكون لقوله سلطان وقوة، وهذا أيضًا جاء بالحديث شاهدًا له بأن الله تعالى إذا أحب عبدًا وضع له القبول في الأرض، بمعنى: أنه يكون له قبول، ولقوله نفاذ، فهذا من تمكين الله تعالى في الأرض.

٢٣- ومن فوائد الآية أيضًا: أن فرعون وقومه كانوا يحذرون من بني إسرائيل، فأراهم الله تعالى ما كانوا يحذرون، وهنا إشكال: كيف أراهم الله تعالى ما كانوا يحذرون مع أنهم هلكوا؟

قال بعضهم في قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: ليس المراد: الهلاك، المراد بما كانوا يحذرون: منازعة آل فرعون، فإن بني إسرائيل لما بعث موسى استقووا، وقصة السحرة واضحة فيها، لما اجتمعوا واجتمع الناس في يوم عيدهم وفي الضحى في رابعة النهار وصارت الهزيمة على آل فرعون هُزموا حسًّا ومعنىً، هُزموا حسًّا بأن عصى موسى ﷺ جعلت تلقف ما يأفكون، وهزموا معنى بأن السحرة أنفسهم آمنوا وصرحوا للملأ بأن فرعون هو الذي أكرههم على السحر وبينوا أن الرب الحقيقي هو رب موسى وهارون، هذه هزيمة معنوية بالإضافة إلى الهزيمة الحسية، أليست هذه تغيظ آل فرعون؟ تغيظ فرعون وهامان وجنودهما غيظًا عظيمًا، إذن يمكن أن نجيب عن هذا بجوابين: أحدهما: ما ذكرت أن كل واحد في آخر لحظة من حياته يتبين له أنه خاسر وأن بني إسرائيل هم الغالبون، والثاني أن نقول: إن الله أراهم منازعة بني إسرائيل لهم وظهور بني إسرائيل عليهم في ذلك المجمع العظيم ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يوم الزينة هو يوم العيد يتزين الناس به، وأن ﴿يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يجمعون ﴿ضُحًى﴾ في رابعة النهار، هذا الموعد الذي من موسى هو الذي اقترحه لأنه واثق عليه ـ الصلاة والسلام ـ بأن الله سينصره، حصل هذا الاجتماع في هذا اليوم، وصار في الحقيقة يوم عيد لبني إسرائيل ويوم شر وسوء لفرعون نظير ما قال أبو جهل إننا لا نرجع إلى بدر حتى ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القِيَان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، سمعت العرب والعجم أيضًا بهذه الغزوة لكن كانت تُغنِّي القِيان لهم أم عليهم؟ عليهم في الحقيقة، صاروا قد فعلوا ما به ظهور عورهم، وظهور - والعياذ بالله - جبروتهم حتى أعز الله تعالى الإسلام والمسلمين بهذه الغزوة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٧-١٠].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ويطلق على معانٍ متعددة، منها: الوحي الشرعي: وهو وحي النبوة أو الرسالة، ووحي الإلهام: وهو ما يلقيه الله سبحانه وتعالى في نفس الموحى إليه، ووحي النوم، فإن النوم الرؤية الصالحة فيه جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ننظر إلى هذه الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فإذن وحي النبوة أو الرسالة؟ بل النوم؛ لأن الذي أوحي إليها ليس بشرع، ترضعه إلى آخره، ثم إن الصحيح أنه لم يُبعث أحد من النساء نبيًّا، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾.

إذن يكون الوحي إما إلهامًا أو منامًا، فالإلهام ليس بالشيء الغريب، أن تُلهَم امرأة ما يكون في مصلحتها، فالله تبارك وتعالى ألهم النحل، وهو يلهم من بني آدم ما فيه مصلحتهم، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ إلى آخره، ولهذا قال المؤلف: [وأوحينا وحي إلهام أو منام] [أو] هنا للتنويع تنويع الخلاف في هذه المسألة، فإن بعض العلماء يقول: إن الوحي وحي إلهام وبعضهم يقول إن الوحي وحي منام، والمهم أنه ليس وحي رسالة أو نبوة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ يعني التي ولدته وهذا هو الأصل في الأم ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ وأما الأم من الرضاعة فلا تذكر مطلقة إنما تذكر مقيدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ الأم من الرضاعة لا تدخل في مطلق الأم بل لابد أن تكون مقيدة.

وإنما قررت هذا ليتبين أن قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ المراد بها: الأم التي ولدت دون أم الرضاعة، قال: ﴿إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [وهو المولود المذكور ولم يَشعر بولادته غير أخته].

[وهو المولود المذكور]؛ لأنه ما من أم إلا ولها ولد، وقوله: [ولم يشعر بولادته غير أخته] هذا من الأقوال الإسرائيلية، التي لا تصدق ولا تكذب؛ لأنه ما الذي أدرانا أنه لم يشعر به إلا أخته؟ ليس عندنا أحد يدلنا على هذا.

وقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أن: هذه تفسيرية وضابط التفسيرية: التي تقع بعد ما فيه معنى القول دون حروفه فهي تفسيرية، ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ كمثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ وأمثاله كثير.

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ وهذا دليل أن هناك خوفًا من آل فرعون وأنهم يلتقطون الأولاد، ولهذا قال: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فسره بقوله: [البحر]، ثم فسر البحر بقوله: [أي النيل]، فاليم هو البحر كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ يعني: البحر، والمراد

بالبحر هنا: النيل، وسمي بحرًا وإن كان نهرًا لكثرته واتساعه، قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ هذا فعل الشرط وجواب الشرط ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ وهو من الغرائب أن من يُخاف عليه يلقى فيما فيه هلاكه؛ لأن إلقاءه في البحر معناه: استعجال الهلاك له، إذ أن المعروف أنه يموت إذا أُلقي في البحر، وهذا من آيات الله - عز وجل - أن يكون موسى ملقى في مكان الخوف فلا يموت ثم يعيش بين أحضان فرعون الذي كان يتتبع أولاد بني إسرائيل فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم.

هذا من الآيات الدالة على كمال قدرة الله عز وجل وأن الله إذا حمى أحدًا فإن الأسباب المؤدية إلى الهلاك لا تؤثر ولا يكون لها تأثير وأن قدرة الله فوق الأسباب، ولهذا النار محرقة بلا شك وصارت على إبراهيم بردًا وسلامًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ قال المؤلف: [غَرَقَه]، فمفعول تخافي محذوف قدَّره بقوله: [غَرَقَه] وهو واضح، ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [لفراقه]، قال: [الفراقه]؛ لأن الحزن يكون في الماضي، والخوف في المستقبل، فما أهمَّ الإنسان إن كان مستقبلًا فهو خوف، وإن كان ماضيًا فهو حزن، هنا قال الله لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فإن الأمر سيكون على خلاف ما تتوقَّعين، ولهذا قال: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إنا رادوه ما قال نرده، لتكون الجملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستقرار، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجمع للتعظيم، وقوله: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي مرجعوه ولم يبين الله تبارك وتعالى المدة التي قد حجبوا فيها، ولكن الظاهر أنها ليست ببعيدة كما سيأتي في آخر القصة، وقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه بشارة فوق البشارة الأولى، وهو أن يكون هذا المولود من المرسلين أو ممن أرسلهم الله تبارك وتعالى وأكرمهم بالرسالة.

هذه الآية فيها أمران، ونهيان، وبشارتان، الأمران: قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿فَأَلْقِيهِ﴾ والنهيان: قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ والبشارتان: قوله: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فأرضعته ثلاثة أشهر لا يبكي وخافت عليه فوضعته في تابوت مقلم بالقار من داخل ممهد له فيه ثم أغلقته وألقته في بحر النيل ليلًا، قوله: [أرضعته ثلاثة أشهر] ليس في الآية ما يدل عليه، إنما لا شك أنها امتثلت أمر الله أرضعته ولما خافت عليه ألقته، وقول المؤلف: [فوضعته في تابوت] من أين أخذه؟ من آية أخرى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ وهذا من إرشاد الله تبارك وتعالى لها؛ لأنه ما أمرها أن تُلقيه سهلًا في البحر، وإنما أمرها أن تلقيه في تابوت ليكون حفظًا له، والتابوت يكون من الخشب، والخشب عادة يطفوا على الماء، فإذا جعل فيه القار فإنه أيضًا يمنع من دخول الماء إليه؛ لأنه ربما إذا دخل الماء إليه وتسلل في الخشب يثقل ثم يغوص، وأما قوله: [وألقته في بحر النيل ليلًا] من أين أخذ قوله: [ليلًا]؟ ربما يؤخذ من قوله فيما بعد: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أنها ألقته في الليل، ثم جعلت توسوس فيه، وتهتم له حتى كانت

لا تفكر في غيره، ثم يؤيد ذلك أن المرأة قد خافت عليه، وإذا خافت عليه فإنه من المستبعد عادة أن تخرج به نهارًا وتلقيه أمام الناس فلابد أن يكون ليلًا، فيكون هذا الحكم بأنه ليلًا مأخوذ من الآية، ومن العادة أن هذا لا يكون إلا في الليل، قال في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾: [بالتابوت صبيحة الليل] ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، التقطه ولم يقل أخذه لأنه أخذ أخي حكم اللقيط المنبوذ وأهل العلم يقولون: إن اللقيط هو الطفل المنبوذ، الذي طرح ثم لقيته، ولهذا قال: التقطه، ولم يقل: أخذه لماذا؟ لأن اللقيط هو الطفل المنبوذ، هؤلاء أخذوا هذا التابوت.

وقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قال المؤلف: [أعوانه] آله أي: أعوانه، ويحتمل أن آله أي: قرابته، على كل حال المهم أنه أخذه من ينتسب إلى فرعون وهو الملك.

وقال: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [فوضعوه بين يديه] أي: بين يدي فرعون، وكانوا لا يشعرون بالذي فيه، وربما يظنون الذي فيه مالًا من الأموال، [وفُتِح وأُخرِج موسى منه وهو يمص من إبهامه لبنًا] والعادة بأن الشيء المغلق، الإنسان لابد أن يفتحه وينظر ما فيه، وأما كونه يمص من إبهامه لبنًا فهذا من الأمور الإسرائيلية التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، إن لم نقُل بأنها تُكذَّب؛ لأن هذا بعيد من العادة.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ [في عاقبة الأمر]، ﴿لِيَكُونَ﴾ الضمير يعود على موسى، و﴿لَهُمْ﴾ الضمير يعود على آل فرعون ويدخل في آل فرعون فرعونُ نفسه، وقوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ قال المؤلف: [في عاقبة الأمر] إشارة إلى أن اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل؛ لأنهم لو شعروا بأنه يكون لهم عدوًّا وحزنًا قتلوه، ولكن العاقبة أنه كان كذلك، وما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من أن اللام للتعليل باعتبار علم الله، له وجه ويقال: التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا في علم الله، وليست تعليلًا للالتقاط هذا له وجه، لكن الأقرب ما ذهب إليه المؤلف وغيره من أن اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل.

إذن اللام التي تدخل على الفعل المضارع تنقسم إلى قسمين: زائدة وغير زائدة، وغير الزائدة تكون للتعليل، وتكون للعاقبة، وتكون لتأكيد النفي، وأما الزائدة: فهي التي تقع في الغالب بعد فعل الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ فإن اللام هنا زائدة؛ لأنك لو حذفتها وقدرت أن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ إنما يريد الله أن يُذهب تم الكلام أم لا؟ تم، واللام غير الزائدة تكون للتعليل مثل: حضرت لأتعلم، أي: من أجل أن أتعلم، وتكون لتأكيد النفي مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ولهذا يسميها النحويون لام الجحود؛ يعني: النفي، فهي لتأكيد النفي، والثالثة: تكون للعاقبة مثل هذه الآية ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [يقتل رجالهم] ﴿وَحَزَنًا﴾ [يستعبد نساءهم]، هذا فيه نظر؛

بل الظاهر أنه عدو لما يحصل على يديه من الأضرار البالغة لآل فرعون، وحزنًا؛ لأنه سوف يحزنهم حين يظهر له من الانتصارات العظيمة، وأبلغها متى؟ حين انتصر يوم الزينة يوم انتصر عليهم انتصارًا بالغًا باهرًا وحصل لهم بهذا من الحزن ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولم نعلم أن موسى ﷺ قتل رجال آل فرعون ولا أنه استعبد نساءهم، إنما المعروف أن الله سبحانه وتعالى أغرقهم بفعله، [وفي قراءةٍ بضم الحاء وسكون الزاي، لغتان في المصدر، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل من حَزَنَه كأَحْزَنَه]، يقول: [وفي قراءة]، سبعية أم شاذة؟ سبعية؛ لأن قاعدة المؤلف أنه إذا قال: [في قراءة] يعني: سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة، قال: [بضم الحاء وسكون الزاي] ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ حُزْنًا وحَزَنًا معناهما واحد، وهما لغتان في المصدر، من أين يؤخذ؟ يقول: [من حَزَنَه كأَحْزَنَه]، يعني: أن الحَزَن الذي ليس مزيدًا بالهمزة مثل أَحْزَنَه المزيد بالهمزة من حيث التعدي، وقوله: [وهو هنا بمعنى اسم الفاعل]، وما معنى بمعنى: اسم الفاعل؟ يعني: بمعنى حَازِن أي: مُحْزِن، لماذا أَوَّلَه المؤلف إلى هذا؟ لأن الحزن شعور بالنقص، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل يكون شعورًا في أنفسهم؟ لا، لكنه مدخل لهذا الشعور وهو الحزن في أنفسهم، وعلى هذا فيكون حزنًا بمعنى حازنًا، ويأتي المصدر غالبًا بمعنى اسم الفاعل وغالبًا بمعنى اسم المفعول، فيقال فلان عدل رضا، ويقال أيضًا فلان ثقة، وعدل ورضا وثقة مصادر بمعنى اسم الفاعل، عادل ورضا بمعنى: المرضي، وثقة بمعنى: موثوق بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول، وقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(1) هذا مصدر بمعنى: اسم المفعول؛ أي: مردود.

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ما هو العدو؟ العدو عند الفقهاء قالوا: إن العدو من سرَّه مساءة شخص، أو غمه فرحه هو عدوه، كل إنسان يَسُره أن تُساء ويحزنه أن تُسَرَّ فهو عدو وكل إنسان يَسُره أن تُسَر ويحزنه أن تَحْزَن فهو وليك؛ لأن العدو ضده العدل وضده الولي.

قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ الجملة هذه تعليل لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ كأنه قيل: لماذا يصير لهم عدوًا وحزنًا؟ فبين أن السبب في ذلك هو خطأ هؤلاء، فرعون: الملك، هامان: وزيره، جنودهما: أتباعهما الذين يمتثلون بأمرهما وأصل الجنود جمع جند والجند: هم أنصار الإنسان، ويقول: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [من الخطيئة؛ أي: عاصين فعوقبوا على يديه]، الخاطئ والمخطئ ما الفرق بينهما؟ الخاطئ: يعني من أتى الخطأ متعمدًا فهو خاطئ، ومن أتاه غير متعمد فهو مخطئ، ولذلك الخاطئ مُعَذَّب والمخطئ غير مُعَذَّب، قال الله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ والمخطئ ليس عليه إثم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والفعل من خاطِئ خَطِئ، ومن أخطأ مُخْطِئ هذا هو الفرق إذن هذا قوله سبحانه وتعالى خاطئين أي: واقعين في الخطأ عن عمدٍ وقصد، ولهذا قال المؤلف: [أي: عاصين فعوقبوا على يديه].

قوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ [وقد همَّ مع أعوانه بقتله] أي: بقتل موسى، [هو] ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ عندي مكتوبة قرة بالتاء المفتوحة، والقاعدة بالمربوطة، وهي كذلك فيما بقي من الآيات بالمربوطة، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ مربوطة ولم تأت مفتوحة إلا في هذا الموضع في القرآن، وذكرت في القرآن في موضعين سوى هذا، وكلها بالمربوطة، وإذا قيل: ما الفرق؟ نقول: إن هذا يدفع فيه الرسم العثماني هكذا رسمه الصحابة ﭫ، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ أولًا: قالت توجه الخطاب إلى فرعون، وقُرَّت قدَّر المؤلف: [هو] ليبين أنه خبر مبتدأ محذوف، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ مأخوذ من القر أو القرار، يعني: قصده من هذا أو من هذا ويصح منهما جميعًا من القر وهو البرد؛ لأن العين إذا بردت فإنها تكون علامة على السرور، ولهذا يقال: دمع السرور بارد ودمع الحزن حارٌّ، ويقال: يبكي عليه بدمع حار يعني: من الحزن، إذن قرت العين كناية عن برودتها، وبرودة العين دليل على السرور، وقيل: إنها مقرة بالمكان وهو القرار وعدم الاضطراب؛ لأن الإنسان إذا كان خائفًا بدأت عينه تجول من هنا ومن هنا تشخص وتجول وتتلفت ولكن قرارها دليل على أنها لم تخف.

وقوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ قولها ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يدل على أنهم هموا بقتله، وإلا لما كان لقولها لا تقتلوه فائدة، وقولها ﴿لِي وَلَكَ﴾ وقع كما توقعت بالنسبة لها نعم لا شك أنه وقع الأمر كما توقعت وصار هذا الولد قرت عين لها ورفعة لها في الدنيا والآخرة، وأما لفرعون فلا، ما صار قرة عينٍ له بل كان له عدوًا وحزنًا، ومن غرائب التفسير أن بعضهم قال: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي﴾ ووقف ﴿وَلَكَ لَا﴾ ووقف أيضًا، و﴿تَقْتُلُوهُ﴾ جملة مستأنفة، وهذا في الحقيقة كالتلاعب بالقرآن؛ لأنه لو كان كما يقولون لقال الله تعالى: تقتلونه؛ إذ أن حذف النون هنا لا نعلم له سببًا سوى النهي فكيف يفسر كلام الله بمثل هذه التفاسير الباردة، ولكنا ذكرناه؛ لأنه قد قيل: إنه عن ابن عباس ﭬ، ولكن هذا من أبعد ما يكون عن ابن عباس، لما فيه من تفكيك الكلام وتناثره وعدم التئام بعضه ببعض، ولأن النون في الفعل تقتلوه محذوفة، مما يدل على أن لا: مسلطة عليهم، ولكنها هي ﭫ إما أنها قالت ذلك من باب التهدئة له ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ لتهدئه وتفرحه، وإما أنها قالت ذلك معتقدة له، ولكن ليس من اعتقد شيئًا يكون الأمر على وفاق ما اعتقد، بل قد يخلف الله تعالى اعتقاد الإنسان لحكمة يريدها وهذا لا مانع منه أن تقول ذلك معتقدة أنه سيكون قرة عين له ولها أيضًا، ويدل لهذا قولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ عسى: للترجي، وقولها: ينفعنا: بالخدمة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نتبناه، وقد

قيل إنه ليس لفرعون من امرأته ولد، فقالت أو نتخذه ولدًا، ومعلوم أن بين الأمرين فرقًا فإن انتفاعهم به لا يجعلهم يحنون عليه كما يحنون على الولد، فالخادم عند الإنسان يأمره وينهاه ولا تجد في قلبه له من الرحمة والرأفة والعطف ما يكون للولد، ولهذا قالت ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، إذن نحن لسنا محرومين من هذا الولد، فإما أن نتخذه خادمًا ننتفع به، وإما أن نتخذه ولدًا نفخر به ويكون لنا بمنزلة الولد، هناك احتمال ثالث أنه لا ينفعهم ولا يتخذوه ولكنه لا يمكن أن يقال في هذا السياق لأنها تريد ترغيبهم في إبقائه، والترغيب في الإبقاء لا يبقى فيه إلا الصفات المرغوبة، وهي أن ينفع أو يتخذ ولدًا.

وقال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه جملة من كلام الله أم من كلامها هي؟ الظاهر أنها من كلام الله يعني: هم أي: آل فرعون ومنهم المرأة لا يشعرون بعاقبة أمر هذا الولد؛ لأنهم لو شعروا بعاقبة أمره قبلوا منها مشورتها أم لا؟ لم يقبلوا، ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى ذلك عنهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [لما علمت بالتقاطه ﴿فَٰرِغًا﴾ مما سواه]، أصبح هذا بناءً على أنها ألقته ليلًا، وتأتي كلمة أصبح بمعنى: صار بقطع النظر عن الزمن، بخلاف العربية تأتي أصبح بمعنى: صار، وتأتي أصبح بمعنى: صار بإصباحه يقال مثلًا: صار الماء ثلجًا أصبح الماء ثلجًا بمعنى: صار، في اللغة العامية الآن دائمًا يعبر الناس بقولهم: أصبح كذا وأصبح كذا ويريدون بذلك: أنه انتقل إلى كذا، كما أن الإصباح انتقال من الليل إلى النهار، لكن هنا ليس ببعيد أنه في صباح تلك الليلة استولت عليها الوساوس والهواجس حتى صار قلبها فارغًا من كل شيء، لا تفكر بأي شيء إلا بهذا الولد، وهذا ـ أعني أن المراد بالإصباح هنا الدخول في الصباح ـ أولى من أن نجعله بمعنى صار؛ لأنكم كما تعلمون الشيء يحزن عليه عند فقده لكن إذا طال الزمن فإنه قد ينسى، الظاهر أن أصبح أي: في تلك الليلة، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ ما الفؤاد؟ القلب، ﴿أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ يقول: [مما سواه] أما قول المؤلف: [لما علمت بالتقاطه] فهذا لا يتعين منه علمًا؛ لأنه بمجرد أن ألقته سوف توسوس به، ﴿إِن كَادَتْ﴾ إنْ: مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي: أنها كادت لتبدي به أي بأنه ابنها لولا أن ربطنا على قلبها إلى آخره، يقول: المؤلف أعرب (إنْ) مخففة من الثقيلة، وابن مالك يقول:

خُفِّفَتْ إنْ فَقَلَّ العَمَلُ وتَلْزَمُ اللامُ إذا ما تُهْمَلُ

فالآية إذن جارية على اللغة الفصحى؛ لأن كاد: ناسخ أم غير ناسخ؟ ناسخ، وهنا اللام ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ لازمة أم جائزة؟ هي جائزة؛ لأن السياق يدل على المعنى وهو قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فإن هذه الجملة لا تناسب أن تكون إنْ نافية يعني: ما كادت تبدي به لولا أن ربطنا على قلبها؛ لأن الربط على القلب يقتضي الكتمان أم البيان؟ الكتمان، ولا يصح أن نقول: ما كادت تظهره لولا أن ربطنا؛ لأن لولا أن ربطنا يستلزم أن لا تظهره، فعلى هذا تكون اللام هنا

جائزة وهي جائزة من حيث الصناعة النحوية، أما من حيث التلاوة القرآنية فهي غير جائز حذفها، والسبب أن كلام الله لا يمكن أن يبدل لا بنقص ولا بزيادة، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ تبدي أي: تظهر، ﴿بِهِۦ﴾ أي: بموسى، وأما قول المؤلف: [أي: بأنه ابنها] فهو بناءً منه على أنها وصلت إلى آل فرعون، ولولا أن الله ربط على قلبها لقالت: هذا ابني، ولا شك أن هذا بعيد من القصة، وبعيد من المعنى، ولكنه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: لتظهر بما فعلته به وهي تحدث الناس وتقول: والله أنا فعلت كذا، وفعلت كذا، وألقيت ابني في اليم إلى آخره، وإنما قال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ لأنه معروف أن الإنسان إذا حزن بشيء فإنه يخفف من آلام الحزن على نفسه أن يتحدث به إلى أحد من الناس ممن يتصل به.

ولذلك تجد الإنسان يضيق صدره بالشيء حتى يحدث به، هذا شيء معلوم، فهي لولا أن الله ربط على قلبها لأبدت ذلك الأمر، وقالت: إن هذا ابني، أبدت الأمر الذي وقع منها وهي أنها ألقته في تابوت وألقته في اليم، لو فعلت هذا لكانت كما يقول الناس يطير الخبر؛ لأن الخبر مكتوم ما لم يظهر، فإذا ظهر لواحد يتشعَّب فلو أبدته ولو إلى أقرب الناس إليها لظهر أمر الطفل وعلموا به، ولكن الله سبحانه وتعالى ربط على قلبها، ولهذا قال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [بالصبر أي: سكنَّاه] الربط على الشيء معناه: شد الرباط عليه، ربطنا على قلبها أبلغ من أسكنا قلبها؛ لأن الربط عليه معناه: لا يمكن أن يتحرك، فهذا أبلغ، فالله تعالى ربط على قلبها؛ بحيث أنها صبرت ولم تحدث أحدًا بما جرى، ولكن الذي وقع قالت لأخته: قصيه، وقد سبق أن المؤلف قال: [ما اطلع على ولادته سوى أخته] ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المصدقين بوعد الله، وجواب لولا دل عليه ما قبله]، فقوله: ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: شددناه بالربط، والمراد به: التسكين، وقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ اللام للتعظيم، أو للمعلل؟ ربط الخلق، يعني: ربط الله على قلبها لهذه الغاية ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس المراد به: إيمانًا جديدًا؛ لأنها هي مؤمنة بلا شك، وأدلُّ دليل على أنها مؤمنة أنها امرأة ألقت ابنها في اليم ثقة بوعد الله عز وجل، ولكن المراد هنا بالإيمان: الإيمان الزائد على أصله، يعني: التثبيت واليقين ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا الذي وقع.

الفوائد:

أولًا: ما يستفاد من الآية الأولى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فيه: دليل على كرامة الله سبحانه وتعالى لأم موسى في هذا الإلهام.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** عناية الله تعالى بموسى.

٣ ـ **وفيها أيضًا دليل على**، أن الأنبياء كغيرهم من البشر يحتاجون إلى الغذاء لقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

٤ ـ **وقد يستفاد منها**، وجوب الإرضاع إذا جعلنا الأمر للوجوب لا للإرشاد، والقواعد الشرعية تقتضي وجوب الإرضاع.

٥ ـ **وفيها أيضًا**، قوة إيمان أم موسى ويكون هذا من مناقبها، كيف ذلك؟ لإلقائها إيَّاه في اليم مع أنه ابنها، وهذا شيء لا يقع إلا من مؤمن حقًّا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**، إكرام الله لأم موسى من عدة أوجه: الحقيقية من هذا الوحي والإلهام، ومن تأمينها في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ ومن بشارتها وأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**، بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ أن هذا الولد الذي ألقي في اليم – واليم مهلك إلا من حفظه الله عز وجل – بقي وصار أخر أمره من الرسل.

٨ ـ **ومن فوائدها**، أنه ينبغي طمأنة المحزون ببشارته بمستقبله، فالله يقول: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٩ ـ **وفيها**، إثبات الرسالة ـ أيضًا ـ لموسى لقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

من فوائد هذه الآية:

١ ـ أولًا: أن أتباع الرجل وحاشيته من آله لقوله: ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا**، أن الإنسان مهما بلغ في العتو والاستكبار فإنه لا يعلم المستقبل، تُؤخذ من أن آل فرعون لم يعلموا أن هذا الطفل سيكون عدوًّا لهم وحزنًا.

٣ ـ **ومن فوائدها**، أن المؤمنين أعداء للكفار؛ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وأنهم أيضًا حزنٌ لهم، وهذا أمر ظاهر، أن المسلمين أعداء للكفار وهم أيضًا حزن لهم، ولا شك أنهم يساءون بما يسرنا وبالعكس.

٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**، أن الإنسان قد يسعى لما فيه حتفه؛ لأن هؤلاء سعوا لما فيه حتفهم فالتقطوا هذا الطفل الذي سيكون عدوًّا لهم وحزنًا.

٥ ـ **ومن فوائدها**، بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن هذا الصبي أو الطفل الذي كانت بنو إسرائيل تقتل أبناءها بسببه أن يتربى في حجر فرعون في بيته؛ مع أنه كان يبحث عن أولاد بني إسرائيل ويقتلهم، فقال الله عز وجل – يعني: بلسان الحال –: ها أنت تقتل بني إسرائيل وهذا من سليلهم سوف يعيش في حجرك، ومن أكبر الأدلة على قدرة الله عز وجل: أنه لا ينبغي للإنسان

أن يعتمد على الأسباب المادية، فإن الله تعالى يخلف.

٦ - **ومن فوائدها**: بيان أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا على باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

٧ - وفي هذه الآية: دليل على أن لهامان - وهو وزير فرعون - سلطة كبيرة على مملكة آل فرعون؛ لقوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

وفي عدة آيات يضيف الله الجنود إلى فرعون وحده، فباعتبار أن فرعون هو المرجع لهؤلاء الجنود يضاف إليه وحده، وباعتبار أن هامان له تأثير لأنه وزير- وزير داخلي أم خارجي؟ - وزير في كل شئونه ! فهو وزير عارف أن يتصرف فيم جعله وزيرًا فيه.

ثالثًا، ومن فوائد الآية التي بعدها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١ - بيان فضيلة امرأة فرعون، لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

٢ - **وفيها**: دليل على فراستها؛ لأنها توقَّعت أن ينفعهم، ولكنها لم تحصل على ما توقَّعت من كل الوجوه، نَفَعَ من؟ نفعها هي ولكنه ضرَّ فرعون.

٣ - **وفيها أيضًا**: دليل على ما قيل: إن البلاء موكل بالمنطق، والتفاؤل كذلك؛ لأنها - بالنسبة لامرأة فرعون - قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فتفاءلت به خيرًا فحصل لها ذلك وصار قرة عين.

٤ - **وفيه أيضًا**: دليل على أنه ينبغي أن تُستعمل الأساليب التي تحقق المقصود لقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإن هذا القول منها - سواء كانت تتوقع ذلك أو لا تتوقعه - لابد أن يكون سببًا في موافقة فرعون لما طلبت.

٥ - **ومن فوائدها**: أنها تدل على أن فرعون همَّ بقتل موسى، تؤخذ من قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فالظاهر أنه همَّ به.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا**: قصور علم الإنسان مهما بلغ في علوه واستكباره؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هل يؤخذ منها: جواز التبنِّي؟ ومعنى ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أنه مثل الولد في البيت عندنا في الإكرام، أو﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ مثل الخادم - على كل حال - إن كانت الآية المقصود بها نتخذه ولدًا نتبناه فإن هذا العمل نسخ، وكان في أول الإسلام ثم نسخ، وإن كان المراد نتخذه ولدًا أي بمنزلة الولد في الإكرام بدون أن نستخدمه، ولا يؤخذ منها التبني، ومقصود من الآية أن التبني عندهم معروف.

رابعًا: ثم قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ...﴾.

من فوائد هذه الآية:

١ - أن الإنسان يكون له حال عند نزول البلاء غيرها قبل نزوله، وأن الإنسان إذا نزل به البلاء يتغير حاله، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قد كان في أول أمرها الطمأنينة، ولهذا جعلته في التابوت وألقته في اليم، وهذا غاية من الطمأنينة، لكن الآن صار قلبها فارغًا قلقة، كأن ما في الدنيا سوى ابنها، وهذا هو الواقع أن الإنسان له حال قبل نزول البلاء وله حال بعد نزوله؛ ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للبلاء.

يُذكَر أن سحنون أحد أصحاب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كان على غاية من الرضا بقضاء الله، والعبادة إلى آخره، وأنه قال في يوم من الأيام بيتًا ما معناه: إنني صابر فكيف ما شئت فامتحنِّي، فأُصيبَ بعسر البول - صار لا يبول إلا بتعب شديد - فكان يمُرُّ على الصبيان في الكُتَّاب في مجالسهم ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب؛ لأن الأطفال يرجى استجابة دعوتهم.

فالمهم: أن الإنسان قبل البلاء له حال وبعد البلاء تتغير حاله، وهكذا أيضًا في الأمور الشرعية فالنبي ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَأْتِي إِلَيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَو يَرَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، ثُمَّ لَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يُهْلِكَهُ»(١) والواقع أن الإنسان يجب أن يتحرز من البلاء، الحاصل: أن الإنسان له حال قبل وقوع البلاء وله حال بعده.

٢ - **وفيها أيضًا:** دليل على أن الطبيعة البشرية لا يُآخذ بها المرءُ، وجه ذلك أن فؤاد أم موسى كان ينبغي أن لا يكون فارغًا من ذكر الله عز وجل، ومن الدار الآخرة، لكن هو أصبح فارغا ما فيه شيء أبدًا للذكر سوى ذكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية، والأمور العظيمة التي تنزل بالمرء تنسيه كل شيء.

٣ - **وفيها أيضًا دليل على:** فضيلة أم موسى ﷺ لكونها لم تُبْدِ ما في قلبها لأحد؛ لقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

٤ - **وفيها أيضًا دليل على:** أن المرء مفتقر إلى الله - سبحانه وتعالى - في كل أحواله، لاسيما عند نزول الحوادث؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فالإنسان مفتقر إلى الله - سبحانه وتعالى -، ولولا معونة الله ما فعل الإنسان شيئًا: لا صبر على بلاء ولا شكر عند الرخاء.

٥ - **وفيها أيضًا:** دليل على إثبات العلل والأسباب؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الذين ينكرون الأسباب والعلل: الجهمية والأشاعرة، حتى الأسباب الظاهرة الحسية ينكرونها ويقولون: إن الشيء يحدث عنده لا به، حتى لو أخذتَ حجرًا وضربتَ به الزجاج وانكسر؛ لا يقولون: إن الزجاج انكسر بالحجر لكن انكسر عنده، مع أنك لو تضع الحجر على الزجاج - وهو

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) من حديث عمران بن الحصين ﷺ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

عنده فوقه - ينكسر أم لا؟ لا ينكسر، لكن تضربه به ينكسر.

وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الإيمان والكمال في الرجال أكثر؛ لأنه لم يقل: لتكون من المؤمنات، ثم يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى في مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ولذا جاء في الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَا امْرَأَةُ فِرْعَونَ، . . »[1]، ولا ريب أن الإيمان في الرجال أكثر وأثبت وأزيد، وفي الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[2]، وإنما قررنا هذا من أجل أنه يجب على المرء مراعاة المرأة، وأنها محتاجة إلى الرعاية، وأيضًا محتاجة إلى أن لا تجاب على كل ما تطلب؛ لأنها ناقصة عقل وناقصة دين، كما وصفها النبي ﷺ بذلك.

٦ - **وفيها أيضًا**: دليل على إثبات القضاء والقدر، من أين نأخذه ؟ من قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فإن هذا من قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدره، هل يشتق من هذا الفعل اسم لله بحيث يسمى الله الرابط ؟ لا يشتق؛ لأن الأفعال وكل شيء في الكون فهو من فعل الله وتقديره فهل نشتق من كل ما في الكون اسمًا لله ؟ لا؛ ولأن أفعال الله سبحانه وتعالى متنوعة، وأنواعها كثيرة، والفعل غير الاسم، ولهذا لا نشتق من: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أن الله يسمى ماكرًا، ولا نشتق من قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أن الله يسمى خادعًا، ولا نشتق من: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أنه مستهزئ؛ لأن هذه كلها أفعال مقيدة بأنواعها، فيصح أن نقول أن الله مستهزئ بالمنافقين، إن الله خادع للمنافقين، إن الله ماكر بالماكرين وما أشبه ذلك، وقيل: إن مكر الله هو تدبيره.

قال في قول الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المصدقين بوعد الله]، وينبغي أن لا نفسر الإيمان بالتصديق بل نجعله أعم من ذلك؛ يعني: المصدقة ثابتة على ما طلب منها.

[وجواب لولا دل عليه ما قبلها]، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وتقديره: لأبدت به، ولهذا قال المؤلف: إنه دل عليه ما قبلها، ولم يقل: إنه ما قبلها، وقد سبق أن سألنا: هذا التعبير هل يحتاج إلى جواب أو لا يحتاج ؟ وذكرنا أن بعض العلماء يقول: إنه لا يحتاج إلى جواب؛ لأنك لو جئت بالجواب لكان الكلام ركيكًا، إذن لا يحتاج إلى جواب قولك: أكرم الطالب إن كان مجتهدًا، هذا لا يحتاج إلى جواب؛ لأنك لو أجبت: أكرم الطالب إذا كان مجتهدًا فأكرمه، يكون هذا كلام ليس بسليم، هذا كلام ركيك، وهذا المعنى الذي ذكرناه أشار إليه ابن القيم في كتابه: «التبيان في أقسام القرآن».

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣١١) ومسلم (٧٠/ ٢٤٣١) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ يقول المؤلف: [مريم]، ونقول للمؤلف: من أين لك أن اسمها مريم، ومن هذه ؟ إن التي ذكرت مريم أم عيسى، وبينها وبين موسى أزمان طويلة ـ على كل حال ـ هذه من الأخبار الإسرائيلية، وتعيين اسمها لو كانت الفائدة تترتب عليه لكان الله تبارك وتعالى يبينه، فلا يهمنا تحديد الاسم، المهم أن نعرف صلة هذه المرأة بأم موسى وبموسى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أخت موسى إذا صارت هذه المرأة أختًا لموسى، فما صلتها بأم موسى ؟ لو كانت من أب أو كانت من أم لقيدها، وعند الإطلاق تكون الأخوية مطلقة، فهي من الأم والأب، والظاهر أنها مطلقة فتحمل على الأكمل من الأخوة؛ وهي الشقيقة.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [أي: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، القص معناه: تتبع الأثر، اتبعي أثره وابحثي عنه.

قال الله عز وجل: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: [أبصرته] وما ذهبت إليه، وظاهر الآية الكريمة ﴿فَبَصُرَتْ﴾ ـ الفاء للترتيب والتعقيب ـ، أنها ما ذهبت بعيدًا حتى رأته.

وقوله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ [من مكان بعيد] ﴿جُنُبٍ﴾ بمعنى: بعيد وعلى هذا فالمظروف محذوف والتقدير: عن مكان بعيد منها، لكنها عرفت أن هذا أخوها.

[يقول: بصرته من مكان بعيد اختلاسًا]، وما معنى اختلاس ؟ أي: مسارقة، يعني: ما جعلت تحد النظر فيه؛ لأنها لو جعلت تحد النظر فيه، وأقبلت إليه بسرعة، وظهر منها علامات على أنه مطلوبها، لكانوا يحسون بذلك، ولكنها ما جعلت تنظر إليه نظرًا يشعرون به، بل تختلس النظر تختلسه اختلاسًا، وهذا واضح وإن لم يكن في الآية ما يدل عليه، لكنه واضح أنه لابد منه؛ لأنها لو كانت لمّا رأته ذهبت إليه، وجعلت تنظر وما أشبه ذلك، لكانوا يشكون في هذا الأمر ويمسكونها ولكنها بصرت به عن جُنُبٍ تختلس النظر.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [أنها أخته، وأنها ترقبه]، ومن الذين لا يشعرون؟ آل فرعون لم يعلموا؛ لأن المرأة فيها ذكاء جعلت تنظر من بعيد حتى وصلت إليه، وهم لا يشعرون بأنها أخته وتراقبه؛ لأنها لم تبدِ حركات تدل على ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الجملة موضعها من الإعراب حال لفاعل بصرت، فهي بصرت والحال أنهم لا يشعرون، والجملة الحالية لا يشترط أن تكون وصفًا لصاحب الحال، ولهذا تقول: جاء زيد والشمس طالعة، والجملة هذه حالية مع أنها ليست في مواصفات زيد، وهنا بصرت به وهم لا يشعرون، لو قال قائل: كيف تجعلونها حالًا من فاعل بصرت مع أنها ليست من صفاته؟ قلنا لأن الجملة الحالية يكتفي فيها بأدنى ملابسة.

قال الله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل رده إلى أمه أي: منعناه، والتحريم معناه المنع.

السؤال: التحريم ينقسم إلى قسمين ما هما ؟

الجواب: تحريم شرعي، وتحريم قدري، التحريم الشرعي متعلق بالأحكام الشرعية مثل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، والقدري متعلق بالأحكام الكونية، مثل قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تقل على أهله طبعًا، لو قالت على أهله لاتضح الأمر وأمسكوها هي وهو وأهله، بل قالت: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ منكّر، فإنهم لا يعرفونها وهي من أهل البيت وأخت موسى.

قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ [لما رأت حنوهم عليه]، أي: حنو آل فرعون على هذا الطفل، وأنهم يحبون أن يجدوا من يقوم بكفالته وإرضاعه لهم.

قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ [بالإرضاع وغيره].

والكفل معناه: القيام بحضانة الطفل، ويسمى: كِفْل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفي قراءة ثانية: وكَفَلَها زكريا.

المعنى في قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ...﴾ يقومون بحضانته على أتم قيام بدليل قولها :﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ الفعل جاء بالفعلية، والنية جاءت بالجملة الاسمية، ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: الكفالة هنا فعل، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾: النصيحة مبنية على النية في القلب، ومعنى ناصحون أي: مخلصون وأصل النصح إخلاص الشيء من الشوائب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: خالصة من الشوائب لله وحده. إذن ﴿نَٰصِحُونَ﴾ النصح يعني: الخلوص من الشوائب أي: أنهم مخلصون لكم إخلاصًا كاملًا، وهي صادقة في قوله بلا شك.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود إلى هذا الطفل، وإذا كان يعود إلى هذا الطفل فإذا قال قائل: ما فائدة آل فرعون بنصح أهل هذا البيت له ؟ نقول: فائدة آل فرعون في ذلك أنهم أحبوا هذا الطفل، وودوا من يقوم بكفايتهم وبكفالته على الوجه الأتم.

يقول المؤلف: [وفَسَّرت ضمير ﴿لَهُۥ﴾ بالمَلِكِ جوابًا لهم فأجيبت]، وهذا مبني على قصة إسرائيلية أنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كأنهم استشكوا ما الذي أدراكي أنهم ناصحون له، فقالت: أقصد أنهم ينصحون للملك، يعني: وهم للملك ناصحون، وهذه القصة لا شك أنها إسرائيلية ضئيلة من الصواب فليست بصواب، وإنما المراد بـ ﴿لَهُۥ﴾ أي: للطفل وليس هناك ما يمنع أن يكون الضمير عائدًا إليه، فلا حاجة ـ أيضًا ـ إلى تفسيره بالملك؛ لأنهم هم – أي آل فرعون – يحبون من ينصح لهم فهم ليسوا بسائلين عن هذا الشيء، فتأويل المؤلف هذا لا داعي له.

يقول: [فجاءت بأمّه فقبل ثديها وأجابتهم عن قبوله بأنها طيبة الريح طيبة اللبن فأذن لها في إرضاعه في بيتها، فرجعت به كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾].

هذا التأويل الذي فسره المؤلف أيضًا لا دلالة في الآية عليه، ولا أمه هي التي جاءت وقبل ثديها أمام الناس واتهمت به ودافعت عن التهمة بأن ثديها طيب الريح ولبنها طيب، كل هذا لا أصل له، والصواب أنها لما قالت هذا الكلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: نعم دلينا – القصة واضحة جدًّا – دلينا فدلتهم ! فجاءوا به إلى أمه، وهذا أبلغ في المعجزة والآية، أن أمه في بيتها، أمرت أخته أن تخرج في طلبه، فما رجعت أخته إلا به إلى أمه، أما أن الأم راحت، وأنها ألقمته الثدي وأنها اتهمت به، ودافعت بأنها طيبة الريح وطيبة اللبن؛ فهذا ليس بصحيح، ومثل هذه الأمور لا يلزم أن يكون لها أسباب حسية معلومة؛ لأنها من خوارق العادات، وخوارق العادات ما نحتاج أن نوجه لها أشياء تناسب العادة، بل هي فوق العادة، فعلى هذا نقول: إن المسألة سائرة على حسب ما جاء في القرآن الكريم، ولم تأتِ الأم، والله لم يذكر أن الأم هي التي أتت بل قال: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾.

* قال الله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]

التفسير

قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ أي: موسى ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [بلقائه].

﴿تَقَرَّ﴾ ثبت أنها مأخوذة إما من القر وهي البرودة، وإما من القرار وهو السكون، ولعله يشمل المعنيين، تسكن العين وتبرد.

وقوله: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: وكي هنا حرف تعليل وهي مصدرية تنصب الفعل المضارع، فلهذا﴿تَقَرَّ﴾ منصوبة وعلامة نصبها فتحة ظاهرة على الراء؛ لأنها من قَرَّ يقِرُ وليس من قَرَّ يقُرُّ.

قال: [﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذٍ]، يعني: لا تحزن على ما مضى، بل يزول عنها الحزن وتقر العين، [﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بردّه إليها ﴿حَقٌّ﴾].

الفوائد:

١- وفي هذا ثلاث فوائد: تقر عينها، ولا تحزن، والثالث: ولتعلم أن وعد الله حق، أما الأول فظاهر أنها ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برجوعه، وأنها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ يزول عنها الحزن، لكن قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فإن هذه العلة قد سقطت؛ لأنها منذ أن ألقته في اليم قد علمت بأن وعد الله حقٌ ولولا علمها ويقينها بأن وعد الله حق ما ألقته، فيكون هنا المراد بالعلم عين اليقين أو حق اليقين، علمها بالأول علم عن الشيء خبرًا، وعلمها الثاني علم عن الشيء وقوعًا، وفرق بين علم الإنسان بالشيء خبرًا وعلمه بالشيء وقوعًا، ولهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١).

فالحاصل أن قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ يعني علم الشيء بعد وقوعه، وأما علمها به خبرًا فقد تقدم، ولولا أنها واثقة في الأول ما فعلت.

٢- وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ذكروا أن الوعد هو الوعد بما يسر والوعيد بما يحزن، يعني الوعد بالخير والوعيد بالشر، وأن الشر من أوعد، والخير من وعد، وقالوا: أوعده أي

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

بالشر، ووعده أي بالخير.

فهل الوعد هو الحق دون الوعيد أو كلاهما ؟ الوعيد والوعد حق؛ لأننا لو قلنا أن الوعيد ليس بحق لزم أن يكون في خبر الله كذب، وهذا غير ممكن، لكن الوعيد قد لا ينفذ تفضلا من الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه حق الله والله تبارك وتعالى قد يتجاوز عنه، أما الوعد فإنه حق للموعود ولهذا لا يمكن أن يتخلف، قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لُمخلِفٌ إيعادي ومُنجِزٌ موعدي

لأن الوعد حق للموعود والوعيد حق للواعد، أضرب مثالًا: إذا قلت لرجل إن فعلت كذا أعطيتك مائة دينار؛ هذا وعد؛ فإذا فَعَلَ ما قلت وجب عليَّ أن أوفيه؛ لأن الحق له، لكن إن قلت لولدي مثلًا: إن فعلت كذا حبستك، ثم فعله، ولكني عفوت عنه، أهذا جائز أم غير جائز؟ هذا جائز، ويكون فضلًا، لاسيما إذا عفا عنه مع القدرة؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، أما العفو مع العجز فما هو بمدح.

الحاصل: أن وعد الله ووعيده كلاهما حق، لكن وعده لما كان حقًا للموعود صار لابد منه ومن وقوعه، ووعيده لَّما كان حقًا له إن شاء عفا عنه تكرمًا وتفضلًا حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى.

٣ـ قال: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ حق هنا بمعنى: ثابت، وأظن أننا قلنا: إن الحق في الأخبار له معنى والحق في الأحكام له معنى، أي: الحق إذا تعلق بالأخبار فمعناها الصدق، وفي الأحكام فمعناه العدل، وعلى هذا فيكون هنا بمعنى الصدق، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صدق ولا يمكن أن يتخلف؛ لأن تخلف الوعد إما أن يكون عن كذب الواعد أو عن عجزه عن تنفيذه، وكلا الأمرين في حق الله مستحيل، فلا كذب في قوله، ولا عجز في فعله، ولهذا إن عباد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يختمون الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [أي: الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بهذا الوعد، ولا بأن هذه أخته].

المؤلف خص الآية، والحقيقة أن الآية عامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم ينفعهم في وعد الله، فنفي العلم هنا إما لإثبات الجهل أو لنفي العلم النافع، فأكثر الناس لا يعلمون بأن وعد الله حق؛ إما لجهلهم وإما لعدم انتفاعهم بهذا العلم، ونفي الشيء لنفي الانتفاع به ثابت في القرآن ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ودائمًا ينفي الله سبحانه وتعالى العقل عن أناس أو السمع عن أناس لعدم انتفاعهم بذلك.

فقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، المؤلف خص هذه بقصة موسى، والآية عامة: أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، أقول: إما الجهل بذلك - بكونهم لا يعرفون من أسماء الله وصفاته ما هو اللائق به -، وإما لكونهم لا ينتفعون بهذا العلم.

الذين لا يحرصون على فعل الخير أو على تجنب الشر في الحقيقية هم الجاهلون بأن وعد الله حق، إذ أن الطبيعة البشرية والعقل يقتضيان أنك ما دمت مؤمنًا بهذا الشيء سواء كان وعدًا أو وعيدًا، فلابد أن تسعى له بمقتضى إيمانك إذا كنت تعلم أن الإنسان سيموت، وأن المؤمن إذا مات سيجد الخير، ويدخل الجنة وينجو من النار حق، لكن الذي لا يسعى للجنة وينهمك بسعيه للدنيا الفانية هل هذا في الحقيقية عالم أن وعد الله حق أو منتفع بعلمه ؟ لم ينتفع به، وإن انتفع به ما فوَّت هذه الفرصة العظيمة.

فالإنسان يعرف أن المعصية هي السبب في دخوله النار، ويعرف أن وعد الله حق لكن مع ذلك يتجرأ على المعاصي، نقول: إن علمه هنا ناقص، إذ لو آمن بذلك حقًا لكان يتجنب هذا الشيء، فصدق معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حلل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية يقول: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بهذا الوعد - يعني بها وعد الله أمه من رده إليها - [ولا بأن هذه أخته وهذه أمه] وعلى هذا فيقول بأن الضمير في أكثرهم يعود على آل فرعون، [فمكث عندها إلى أن فطمته وأجرى عليها أجرتها لكل يوم دينار].

أما كونه بقي عندها حتى فطمته هذا واضح؛ لأنه مادام محتاج إلى الرضاعة فسوف يبقى عندها، وأما أجرى عليها أجرتها فهذا أيضًا صحيح؛ لأنه جُعل لها أجرة، وصاروا يرسلون إليها بالهدايا والتحف ويكرمونها؛ لأنها كافلة هذا الطفل الذي قالوا إنه :﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ و﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ولهذا روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أن قال في الذي يحسن الصنعة ويتخذ عليها أجرًا: إنه «... **كَأُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ عَلَيْهِ أَجْرًا**»(١) وهذا من آيات الله أن يجيئها الولد وترضعه، وتكرم عليه، ما ظنكم لو لم تفعل هكذا، ولم تُلقِه في اليم، ولم تأخذه امرأة فرعون، تبقى خائفة وجلة، ولا يحصل لها أجرة ولا إكرام ولا إعزاز من هؤلاء الطغاة.

وأما قوله: [لكل يوم دينار] فهذا غير مسلَّم به؛ لأن طريقنا في مثل هذه الأمور: أن ما ثبت عن الرسول ﷺ فهو مقبول، وما لم يثبت من أخبار بني إسرائيل فإننا نتوقف به، ولا ينبغي أن نجزم به هذا الجزم، نعم نحدث به ولكننا لا نجزم به.

يقول :[لكل يوم دينار]، - وجاء بإشكال فقال :-[وأخذتها لأنها مال حربي].

سبحان الله هل أخذتها بأنها مال حربي أو أخذتها لأنها أجرة على إرضاعها ؟! أجرة ما فيها إشكال، أما كونها تأخذه بأنه مال حربي فهذا لا وجه له.

لا يقال مثلًا: إن أم موسى لما لم يقبل ثدي غيرها كان إرضاعها إياه فرضًا عليها، والفرض لا يجوز أخذ العِوَض عليه، مثَّل بأخذ العِوَض هنا على أنه مال حربي نقول: حتى المال الحربي إذا جاء

(١) ضعيف: أخرجه البيهقي في السنن (٩/ ٢٧) وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٥٠٠).

بصيغة عقد لا يجوز أخذه، إنها تأخذه بمقتضى العقد والمعاقدة بينك وبين الحربين مثل الاستئمان بل هي استئمان في الواقع، فالصواب أنها أخذتها لأنها أُجْرِيَت عليها على كفالته وإرضاعه، وهي لو لم تأخذ لكان في ذلك بلاء ولعلم أنها قريبة له أو ما أشبه ذلك، فهي أخذت؛ لأنهم هم يعتقدون أنها ليست أمه ويعتقدون أن هذا الطفل سوف يكون لهم.

يقول المؤلف: [فأتت به فرعون فتربى عنده] كما قال الله تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾].

تربى عند فرعون في بيت الملك، وكان يركب كمراكب الملوك ويلبس لباس الملوك، فلو كان عند أمه ما حصل له شيء من هذا بلا شك، أما الآن فأصبح معززًا مكرمًا وذلك من تسخير الله سبحانه وتعالى له.

۞ قال الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٤،١٥]

۞ التَفْسِيرُ ۞

[قال: ولما بلغ أشده وهو ثلاثون سنة أو وثلاث].

الأشد قيل إنه: ثلاث وثلاثون سنة وقيل: ثلاثون سنة وقيل: قريب من أربعين وذلك أن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فدل هذا على أن بلوغ الأشد غير الأربعين؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ على أنه يحتمل أن بلوغ الأشد معناه كمال العقل ولا ينافي أن يكون كمال العقل عند تمام الأربعين.

ويقول في قوله: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: [أي بلغ أربعين سنة].

استوى بمعنى كمل، والاستواء في اللغة العربية بمعنى الكمال، ومنه قولهم استوت الثمرة أي كملت، وهي في كل موضع بحسبه، ولكنه إذا عدي بإلى فهو بمعنى الفصل، فإذا عدي بعلى فهو بمعنى العلو والاستقرار؛ لأن ذلك هو الكمال والاستواء.

قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ [حكمة] ﴿وَعِلْمًا﴾ [فقها في الدين قبل أن يبعث نبيًا].

آتيناه بمعنى أعطيناه، وهذا الإيتاء كوني أو شرعي ؟ الإتيان يكون كونيًّا ويكون شرعيًّا، فإن كان متعلقا بالقضاء والقدر فهو كوني، وإن كان متعلقًا بالشرع فهو شرعي؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ هذا الإتيان شرعي؛ لأنه متعلق بالشرع والقصد، وهنا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هذا كوني؛ لأنه يتعلق بالقضاء والقدر، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ آتوهم شرعي، ولكن الذي أتاكم قدرًا، الذي قدره لكم فالإتيان إذن يكون شرعيًّا ويكون كونيًّا بحسب متعلقه.

وقول المؤلف في: ﴿حُكْمًا﴾ فسره بالحكمة، وقال في: ﴿وَعِلْمًا﴾ [فقهًا]، لماذا فسر الحكم بالحكمة ؟ لأن العلم هو علم الأحكام، فإذا فسرنا الحكم بأنه الحكم الذي هو مقتضاه الشرع صار فيه نوع من التكرار؛ لأنه العلم، لكنه يجوز أن نقول: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: علمًا بالأحكام الشرعية وعلمًا بالأخبار والأسرار. وحينئذٍ لا يكون في الآية تكرار، ولا نلجأ إلى تفسير الحكم بالحكمة؛ لأنه معروف أن الحكم غير الحكمة، فالحكم هو مقتضى خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين، والحكمة هي علة ذلك الحكم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ﴿لما﴾ إعرابها شرطية، بدليل أنه جاء لها فعل وجواب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ فهي إذن شرطية، وهي ترد في اللغة العربية شرطية - كما هي هنا - وترد بمعنى (إلا) مثل قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: إلا عليها حافظ، وترد ظرفًا: جئتك لما عرفت أنك مستيقظ مثلًا؛ أي: حين عرفت، والذي يعين هذه المعاني هو السياق.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [كما جازيناه] ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [لأنفسهم].

قوله: [كما جازيناه]، يفيد أن الإشارة هنا إلى هذا الإعطاء الذي أعطاه الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني: ومثل ذلك، والكاف هنا ـ وهي كثيرة في القرآن ـ نعربها هنا بأنها مفعول مطلق بمعنى مثل، أي مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين، إذا كانت مفعولا مطلقا بمعنى مثل فهي اسم، قال ابن مالك:

شبه بكاف، وبها التعليل قد ... يعنى، وزائدًا لتوكيد ورد

واستعمل اسمًا وكذا «عن» «وعلى» ... من أجل ذا عليهما من دخلا(١)

فالكاف تأتي بمعنى مثل وتعرب على أنها اسم لا حرف جر.

وقوله تعالى: ﴿نَجْزِى﴾ أي نكافئ، وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: [لأنفسهم].

---

(١) انظر: «الألفية» أبيات رقم: ٣٧٧، ٣٧٨.

يشمل ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، الدليل على هذا أن جبريل قال للنبي ﷺ: أخبرني عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، هذا هو الإحسان في عبادة الله، تعبد الله كأنك تراه وهذه عبادة الطلب، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذه عبادة الهرب والخوف، ولا شك أن العابد بالمعنى الأول أكمل من العابد بالمعنى الثاني؛ لأن العابد الأول مرتبته عليا، يعبد الله كأنه يراه فهو يقصد الله ـ عز وجل ـ وله شوق كبير إلى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أما الثاني فإنه يعبد الله كأن الله يراه هو خائف من ربه فإذن عبادته هي عبادة الهرب والأول عبادة طلب.

الإحسان بالنسبة إلى الخلق تُفسَّره ببذل الندى، وكفُّ الأذى، الندي بمعنى العطاء وكف الأذى واضح، فالإحسان إذن له شقان بذل الندى سواء كان ذلك يتعلق بالمال أو بالجاه أو بالبدن، وكف الأذى القولي والفعلي، وقد يتخلف أحدهم ويكون الإنسان محسنًا من وجه غير محسن من وجه آخر، ويكون مسيئًا إذا تخلف كف الأذى، على كل حال إذن الإحسان هو عبارة من أحسن ما يكون هي بذل الندي وكف الأذى، أنك ما تؤذي الناس؛ فتكون مسيئا، ولا تحرمهم خيرك؛ فلا يكون فيك إحسان، ليس هناك إحسان إذا لم تبذل الندى.

قوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنين في عبادة الله وإلى عباد الله يشمل هذا وهذا، فأما الإحسان في عبادة الله فقد فسره النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وأما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل الندي وكف الأذى.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ بعد بلوغ أشده؛ لأن الأصل أن ما تقدم ذكرا فهو متقدم وقوعًا وعملًا، هذا الأصل المتقدم وقوعًا إن كان في الأخبار، وعملًا إن كان في الأحكام، ولهذا أقبل النبي عليه الصلاة والسلام الصفا فقال: «﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» وقال العلماء: إن الفقراء أشدُّ حاجة من المساكين؛ لأن الله بدأ بهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، فهنا نقول: لما ذكر الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ﴾ علمنا أن دخوله المدينة بعد أن بلغ أشده.

وقوله: ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ [مدينة فرعون وهي (منف) بعد أن غاب عنها مدة].

تعين المدينة بأنها مدينة فرعون في نفسي من هذا شيء؛ لأن الرجل قد تربى عند فرعون في مدينته نفسها أوفي مكانه نفسه، اللهم إلا أن يقال: إن فرعون كان في مصر وأن (منف) هذه بلد خارجة عن القاعدة أو قصبة البلد، وأنه خرج في يوم من الأيام فدخلها، والأحسن في مثل هذا المقام - إذ لم ترد عن النبي عليه الصلاة والسلام - أن نقول أنها مدينة من مدن مصر ويسكنها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٧/ ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أقباط وإسرائيليون.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [وقت القيلولة].

قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ بعض العلماء يقول: المراد على حين غفلة زمنًا، يعني أنهم في زمن يغفل الناس فيه، بعضهم يقول: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: أنهم نسوا فرعون وأنهم نسوا موسى وقصته، وطال الزمن فدخل على حين غفلة من التحدث في هذا الأمر، ولكن المعنى الأول أظهر أنه دخلها في وقت أهلها غافلون، هل يتعين أن يكون وقت القيلولة؟ لا يتعين، قد يكون وقت القيلولة مثلًا أو بليل أو يكون في المغرب الله أعلم، إنما في وقت أهل البلد فيه غافلون.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ [أي: إسرائيلي] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [أي: قبطي].

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ الاقتتال بمعنى المنازعة، والمخاصمة، والمضاربة أيضًا، وليس المراد في ما يبدو أنهما يريدان أن يقتل بعضهما بعضًا.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾: شيعة الرجل معناه أتباعه قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾، وقيل: إن الشيعة من يناصرك، فكل من يناصرك هو شيعة لك، سواء كان متبعًا لك أو غير متبع، وعلى كل حال فهنا المراد بالشيعة أنه من قبيلته ولهذا قال المؤلف: [أي: إسرائيلي] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من عدو موسى من آل فرعون وهم الأقباط، قال: [أي: قبطي يسخِّر إسرائيليًّا ليحمل حطبًا إلى مطبخ فرعون].

من يقبل هذا؟ على كل حال؛ يقتتلان كعادة الناس الأعداء، فالأعداء يخاصم بعضهم بعضًا دائمًا ويقاتل بعضهم بعضًا، وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: بأن هذا يدل على قوة شعب بني إسرائيل بعد أن كانوا أذلة يقتَّل أبناؤهم وتُستَحْيَى نساؤهم أصبحوا الآن يجعلون أنفسهم أندادا لآل فرعون الأقباط؛ لأنهم يعرفون أن موسى منهم، وأن موسى في منزلة عظيمة عند فرعون، فهم استقوت قلوبهم بهذا الشيء، أما أنه يريد أن يسخره ليحمل الحطب إلى المطبخ فهذا لا يتاح ويحتاج إلى دليل بيِّن، ولا دليل على هذا.

أصل القصة: دخول موسى للمدينة ووجود الرجلين وقتل النفس، وكل هذا كان سببًا لخروج موسى، ثم نبوته.

الفوائد:

١ - **يستفاد منها:** أن الله - سبحانه وتعالى - يجري الأمور بأسبابها؛ أي: إثبات الأسباب.

ويستفاد من قوله: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾: جواز الاستغاثة بالمخلوق، لكنه مشروط بما يفيد فيه، أما ما لا يفيد فيه فلا يجوز، فعلى هذا إذا استغاث بالميت فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي فيما لا يقدر عليه فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي فيما يقدر عليه فهو جائز؛ إذن الاستغاثة جائزة بشرط أن تكون فيما يفيد، وذلك في حي قادر على دفع الشدة.

٢ - **وفيها أيضًا:** إثبات العداوة والولاية؛ لقوله: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ وهي أصل في الدين، فإن ولاية المؤمنين من واجب المؤمن، والبراءة من الكفار من واجب المؤمن، ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أمر لابد به أن يتبرأ الإنسان من كل كافر.

٣ - **وفي الآية:** دليل على قوة موسى لقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾.

٤ - **وفيها:** إثبات غيرته وسرعة استجابته؛ لأنه ما تلكع في الأمر، بل بادر به.

٥ - **فائدة:** هل يستفاد منها جواز الدفع - دفع الصائل - بما يصل إلى القتل ؟

ما دلت على هذا ولا أقرّته، ولكنه في الشريعة الإسلامية معروف أن الإنسان إذا صال عليه أحد ودفعه بالتي هي أحسن ولم يندفع فله أن يقاتله.

٦ - **وفيها:** أن المعاصي من أوامر الشيطان وأعماله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

٧ - **وفيها أيضًا:** إثبات السبب؛ لقوله: ﴿مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ لأن ﴿مِنۡ﴾ سببيه.

٨ - **وفيها أيضًا:** ثبوت عداوة الشيطان لبني آدم ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ﴾ وأكد بـ﴿إن﴾ لشدة التنفير منها؛ لأن عداوته ليس فيها التباس.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]

التفسير(١)

الفوائد:

١ - **في هذه الآية:** إثبات أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد يخطئون قبل الرسالة، فقبل الرسالة ممكن أن يقع منهم هذا الشيء؛ لكن لا يقع منهم فساد الأخلاق، وشرب الخمور وما أشبه ذلك، أما الغيرة والحمية فهذا قد يقع منهم.

٢ - **وفيها أيضًا:** جواز التوسل إلى الله - سبحانه وتعالى - في حال الداعي، تؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فالظالم لنفسه محتاج إلى من يخرجه، إذ هو يسكن إلى الله - سبحانه وتعالى - في حال الداعي، ومنه قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، والتوسل إلى الله - سبحانه وتعالى - يكون بحال الداعي، ويكون بالثناء على الله بأسمائه وصفاته، وكذلك بأفعاله التي ينعم بها، وقد اجتمع الجميع في تعليم النبي ﷺ لأبي بكر: قال له علمني دعاء أدع به في صلاتي، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٢).

٣ - **وفيها أيضًا:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وإثبات الاسم يتضمن ثلاثة أمور إذا كان الاسم متعديًا، وأمرين إذا كان لازمًا، يتضمن إثبات هذا الاسم من أسماء الله، وإثبات ما دل عليه من صفة، وإثبات الأثر وهو تعديه إلى المخلوق، فالغفور الرحيم تتضمن ثلاثة أشياء: إثبات الغفور الرحيم على أنهما من أسماء الله، وإثبات صفتي المغفرة والرحمة لله - سبحانه وتعالى -، وإثبات الأثر المترتب على ذلك بأنه يغفر ويرحم.

٤ - **وفيها أيضًا في قوله:** ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ دليل على إثبات الأسباب؛ لأن الفاء هنا للسببيه، يعني فبسبب ظلمي نفسي فإني أسألك أن تغفر لي.

---

(١) تعذر سماع التفسير، ولكن تم إثبات الفوائد.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٤٨/ ٢٧٠٥) من حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

٥ ـ يستفاد من قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وما تتضمنه هذه الاستجابة من صفات؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعلم والقدرة والغنى هذا معنى الوجوب إذا استجاب الله لإنسان هذا معناه أنه كان قد سمعه وعلم بحاله وقدر على إعطائه سؤاله، كل هذا يستفاد منها.

٦ ـ وفيها أيضًا: إثبات كرم الله لقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾.

٧ ـ وفيها: إثبات أن الدعاء سبب، خلافا لمن أنكر سببيته وقال: إن الشيء إن كان قد كتب لي لم يحتج إلى دعاء، ولو كان لم يكتب لي فلا فائدة من الدعاء، والجواب على ذلك أن يقال: هو مكتوب لك بالدعاء، يقول مثلًا: أنا لا أدعو؛ لأن المكتوب لابد أن يحصل؛ وما لا يكتب لا يمكن أن يحصل، أهذا صحيح ؟ نقول: هذا ليس بصحيح؛ لأنه مكتوب لك بهذا السبب كما لو قال قائل: أنا لن أتزوج؛ وإن كان مقدر لي ولد يأتني الولد، وإن كان لم يُقدَّر لي ولد؛ ليس هناك فائدة للزواج، نقول: ولكنه مقدر لك الولد بالزواج، فهذه الأمور الغيبية مثل الأمور المشاهدة كما أن الأمور المشاهدة لا تصلح إلا بفعل الأسباب التي توصل إليها، فكذلك الأمور الغائبة لا تصلح؛ إذن نقول: لا تعمل صالحًا لأنك إن كنت من أهل الجنة فإنك ستكون من أهل الجنة، وإن كنت من أهل النار فلن تكون إلا من أهل النار، فيقال: أنت تكون من أهل الجنة بعملك؛ ولهذا لما قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحابه: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ، أَو فِي النَّارِ**»، قالوا: يا رسول الله ! أفلا نَدَع العمل ونتَّكِل على الكتاب؟ قال: «**لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أو فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»[1] ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ فإن في هذه الآية وغيرها من الآيات الكثيرة دليل على تأثير الدعاء في حصول المطلوب، وأن من أنكر ذلك فهو في الحقيقة مكابر أو جاهل.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

❁ التفسير ❁

هذه الآية من العلماء من يقول: إنها دعاء، ومنهم من يقول: إنها خبر بمعنى الالتزام، إن قلنا:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٦/ ٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

إنها دعاء، فإنه يستفاد منها جواز التوسل بنعم الله ـ عز وجل ـ؛ لأن قوله: ﴿بِمَآ أَنۡعَمۡتَ﴾ أي: بسبب إنعامك علي، وإن قلنا: إنها التزام، فإنها تدل على شكر النعم، وأن الإنسان إذا أنعم الله عليه فإنه يجب ألَّا يكون عونًا بهذه النعمة للمجرمين، والمعنى الثاني أقرب وأرجح؛ لأنه ظاهر الآية ولا ينبغي العدول عن ظاهرها، وإن كانت تحتمل المعنى الثاني فيستفاد منها:

الفوائد:

١ ـ كمال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث التزم لله تعالى شكرًا لنعمته ألَّا يكون ظهيرًا للمجرمين.

٢ ـ وفيها دليل على: أن مظاهرة المجرم تنافي الشكر، فهي محرمة، ومظاهرته يعني مساعدته، ومساعدة المجرمين محرمة لأنها إجرام في الحقيقة، والمجرم مساعدته بمنع إجرامه؛ ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، قالوا: يا رسول الله ! هذا المظلوم، فكيف ننصر الظالم؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنْ ظُلْمِهِ»[1].

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٨]

❁ التفسير ❁

﴿فَأَصۡبَحَ﴾ أي: موسى، و أصبح أي: دخل في الصباح، يعني: بات ليلته ولكن في صباحها أصبح خائفا يترقب، وقوله: ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ البناء للعهد الذكري؛ لأنها سبق ذكرها، وقوله: ﴿خَآئِفٗا﴾، أصبح من أخوات كان ترفع الاسم و تنصب الخبر فـ ﴿خَآئِفٗا﴾ خبر أصبح، وقوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ هذا خبر ثانٍ، أو حال من الضمير في ﴿خَآئِفٗا﴾ حال كونه يترقب أو أصبح خائفًا أصبح يترقب، صار الإعراب الثاني أنها خبر يكون هذا من باب تعدد الخبر مع الاختلاف؛ لأنه يجوز تعدد الخبر سواء تعدد بلفظ المفرد أو تعدد بلفظ الجملة أو تعدد بلفظ المفرد والجملة.

وقوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول المؤلف: [ينتظر ما يناله من جهة القتيل].

نعم؛ لأن هذا القتل إجرام، وكل إنسان يقتل شخصًا في بلد - يعتبر هؤلاء الشيعة ـ شيعة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس ﷺ.

موسى ـ عليه السلام ـ يعتبرون مستضعفين - لابد أن يخاف، وهذا الخوف من طبيعة البشر، وليس خوف عبادة، فالخوف نوعان: خوف عبادة يقتضي التقرب إلى المخوف والتزام طاعته وما أشبه ذلك. وخوف طبيعي مما يخاف منه، فهذا لا بأس به لأنه من طبيعة البشر، لكنه يكون مذمومًا إذا أدى إلى ترك واجب أو فعل محرم ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾، قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ إذا فجائية، يعني: فاجئه في الصباح - وهو خائف يترقب - أن صاحبه الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس اليوم يستصرخه، والاستصراخ معناه: طلب الإنقاذ من الشدة، فهنا عندنا (استغاث واستنصر واستصرخ) أيهم أبلغ ؟ أبلغهم الاستصراخ في كلمة ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾، والاستنصار ظاهر الآية الكريمة أنه بمعنى الاستغاثة؛ لأنه قال: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ﴾ فظاهره أن الاستغاثة والاستنصار بمعنى واحد ولكن في الحقيقة الاستنصار أعم؛ لأنك قد تستنصر إنسانًا ينصرك وإن لم تكن في شدة، والاستغاثة أخف، إلا أنها في الآية الكريمة تدل على أن استغاثته من باب الاستنصار.

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قال: [يستغيث به على قبطي آخر].

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿قَالَ لَهُ﴾ للإسرائيلي الذي استنصره، وزعم بعض المفسرين أن الضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾ يعود إلى القبطي، وأن موسى عليه الصلاة والسلام عاتب القبطي، وقال له :﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ولكن هذا بعيد من السياق؛ والصواب أن الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود إلى الإسرائيلي الذي استنصره.

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بين الغواية لما فعلته بالأمس واليوم.

﴿لَغَوِيٌّ﴾ على وزن فعيل بمعنى: فاعل، أو على أنها صفة مشبهه، والغوي ضد المرشد؛ وهو الذي يتصرف على وجه الإساءة، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ والرشد معناه معروف أنه: إحسان التصرف؛ وعلى هذا فيكون الغي سوء التصرف، فمعنى ذلك ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ أي: ذو غواية وهي سوء التصرف، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنُها، ووجه سوء تصرفه أن أمسه القريب كان يتخاصم مع قبطي، واليوم التالي الذي يليه كان يتخاصم أيضًا مع قبطي آخر، فلهذا قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]

❁ التفسير ❁

﴿فَلَمَّآ أَنْ﴾ [زائدة]، يعني: أن كلمة ﴿أَنْ﴾ زائدة، وهي زيادة لفظية إعرابية وليست زيادة معنوية؛ لأنها تفيد التوكيد، وجميع الحروف الزائدة في القرآن أصلا هي أصلية معنى؛ لأنها تفيد معنى التوكيد، وتقترن زيادة أن بعد لما وكذلك قبل لو، كما يقول الشاعر:

وأقسم أن لو التقينا ....

وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ على (أن) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ تكون مخففة من الثقيلة، يعني وأنهم لو استقاموا.

﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [لموسى والمستغيث به] ﴿قَالَ﴾ [المستغيث]، ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾ كيف عرف أنه يريد والإرادة عمل قلبي؟ هو تهيأ وأراد أن يفعل، فهو لابد أنه استند في هذا العلم إلى أمر ظاهر، وإلا فالإرادة محلها القلب وقوله: ﴿أَرَادَ﴾ أي: موسى ﴿أَن يَبْطِشَ﴾، ومعنى البطش هو الأخذ بقوة.

﴿قَالَ﴾ [المستغيث ظنًا أنه يبطش به] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

جعل الفاعل في ﴿قَالَ﴾ المستغيث، وهذا يبعده أمران: أمر معنوي وأمر لفظي؛ أما الأمر اللفظي: فإن (قال) ضميرها يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور القبطي الذي هو عدو لهما، والثاني: أنه قال: يا موسى أتريد أن تقتلني؛ والله يقول: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ فنحن نفسر الإرادة الثانية بالإرادة الأولى، وأن القبطي هو الذي قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. فإذا قال قائل: هذا يبعده أن القبطي لا علم له بذلك، من أين علم؟ قيل: إنه استنتج ذلك من قوله للإسرائيلي إنك لغوي مبين، فقصّة القتل اشتهرت في المدينة وبانت، وصار الناس يتحدثون عنها، فهذا القبطي عرف أن الإسرائيلي عدوٌّ له ولهذا لامه - موسى - قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ فاستنتج من ذلك أن الذي قتل القبطي بالأمس هو موسى؛ فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وهذا القول هو الراجح من قول المفسرين، فالمفسرون لهم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الذي قال ذلك الإسرائيلي مع أن موسى تهيأ بالبطش بالخصم لكن هو ظن أنه سيبطش به لما قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

والقول الثاني: الذي أثبتناه، أن القائل هو القبطي، ويرجح ذلك أنه لما قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ -لقد عُلِم أن الإسرائيليين أعداءٌ للأقباط -عَلِم بأن موسى عليه الصلاة والسلام -أو استنتج من هذه القصة- أنه هو الذي قتل القبطي بالأمس؛ فلهذا قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾؛ لأنك تقتلني مثل ما قتلت القبطي بالأمس.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

﴿إِن﴾ بمعنى ما، فهي نافية.

وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ الجبار معناه: المتعاظم المترفع على غيره، وهو من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويوصف به غيره ولكنه من أسماء الله، له ثلاثة معانٍ:

أحدهم: المتعاظم وذو القوة والبطش.

والثاني بالعكس: الجبار الذي يجبر الكسير ويرحمه ويعطف عليه.

والثالث: يقول ابن القيم في النونية:

وله مسمى ثالث وهو العلوْ ... فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارةٌ للنخلة الـ ... عليا التي فاتت لكل بنان

فجبار بمعنى: ارتفاع، ومنها قولهم :نخلة جبارة يعني طويلة ومرتفعة. لكن إذا جاءت بالخلاف عن الله فإنها للذم قال الله تعالى: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

هذه التهمة - ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - من أين استند إليها؟ من قتلٍ بالأمس ويهدده بالقتل اليوم، ثانيا: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أخذها أيضًا من قتله بالأمس وسيقتل اليوم، والمصلح عادة لا يعتدي على أحد المتخاصمَين، إنما يحاول الإصلاح بينهما، فهو يقول إنك بإرادتك القتل - وقد قتلت بالأمس - إنك تريد أن تكون جبارًا ولا تريد الإصلاح؛ إذ أن من يريد الإصلاح يسعى بالإصلاح بين الناس ولا يستعدي على أحدهم دون الآخر، وهذا الذي قاله هل ينطبق حقًا على موسى ؟ لا ينطبق عليه؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما أراد إلا الإصلاح، ولكن هذا الرجل ظن أنه لا يريد إلا الجبروت والاعتداء على من كان من غير شيعته.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [فسمع القبطي ذلك فعلم أن القاتل موسى فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون الذبَّاحين بقتل موسى، فأخذوا في الطريق إليه].

هذا الذي فسره بناءً على ما اختاره من أن الذي قال: ﴿تُرِيدُ﴾ هو الإسرائيلي، أما على القول

الثاني: فإن القبطي لما رأى موسى يريد أن يقتله - واستنتج أنه قاتل بالأمس - ذهب وترك المخاصمة، وذهب إلى آل فرعون وأخبرهم، وإذا أخبرهم فسوف ينتقمون لأنفسهم، جعلوا يتشاورون كما هو ظاهر في كلام الرجل، وعليه لا نجزم بأنهم أرسلوا إلى موسى من يذبحه؛ لأن الرجل الذي جاء - وهو الناصح - لم يقل: إن الملأ قد أرسلوا من يذبحوه ولكن قال: إنهم يأتمرون به ليقتلوه، يعني: يتشاوروا فيما بينهم ماذا يصنعون.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]

❁ التَفسِير ❁

وهنا يقول في قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾: [هو مؤمن آل فرعون].

وهذا التأويل الذي قاله المؤلف لا يُجزم به؛ لأن الله ـ تعالى ـ نكَّره ولم يقل: إنه مؤمن، بينما هو في قصته مع آل فرعون قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ولكن هذا الرجل لا شك أن عنده عطف على موسى ورحمة به، فلهذا جاء ينصحه.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ - وفي سورة يس، هي قصة أخرى، ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ - فما هي الحكمة في أنه قُدِّم في هذه الآية (الرجل) وأُخِّر في قصة المرسلين ؟ لأن قصة المرسلين الاهتمام بكون هذا الرجل بعيدا عن الرسل ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ ليؤكد صحة ما جاءوا به أبلغ، أما هنا فالذي جاء به هذا الرجل خبر من الأخبار فاعتماده على رجل أبلغ من كون الرجل جاء من الأقصى أو من الأدنى، فلهذا قُدِّم وصف الرجولة على وصف المكان فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [آخرها] يعني: أبعدها من مكان موسى.

قال في ﴿يَسْعَىٰ﴾: [يسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم] هذا بناءً على أن الذباحين خرجوا ليذبحوا موسى، ولكن ليس بلازم.

وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ ما محلُّها من الإعراب ؟ يجوز أن تكون صفة أو تكون حالًا، أما جواز أن تكون صفة فلأن رجل منكر، وأما جواز أن تكون حالًا؛ لأن المكان وصفت لقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

ومعنى يسعى أي: يسرع في مشيه ـ كما قال المؤلف ـ وهذا الإسراع هل هو كما زعم أنه جاء من طريق قريب لئلا يدركوا موسى فيقتلوه ؟ أو أنه يخاف أن ينفذوا ما ائتمروا عليه ؟ وهذا هو الأفضل.

قال يا موسى إن الملأ من قوم فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ﴾: نداؤه بهذا يدل على أن هذا الرجل كان له معرفة بموسى ولهذا ناداه باسمه، في قصة مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ما قال أتقتلون موسى؛ لأن المقام يقتضي أن لا يبين أن له اتصالًا به ومعرفة، ولو قال: أتقتلون موسى؛ لقالوا: هذا الرجل يعرف موسى فأخذوه، ولكنه قال أتقتلون رجلًا كأنه لا يعرفه، ولكن يعرف ما جاء به من الدعوة الصحيحة السليمة، وأما هنا فإن الرجل يعرف موسى فلهذا قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك، وأكد له الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ مع أن موسى كان خاليَ الذهن من ذلك؛ لأن الأمر مهم، وقد ذكرنا فيما سبق أن الأسباب التي تقتضي تأكيد الجملة الخبرية ليست هي حال المخاطب فقط ولكنها حال المخاطب وحال مصدر الأمر؛ لأنه إذا كان مهمًا فإنه يؤكد.

وقوله: ﴿فَاخْرُجْ﴾ أي: من المدينة، وقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في الأمر بالخروج، بل وفي مجيئه إليه أيضا وإخباره بذلك، وأن الذين يأتمرون بشأنه ليسوا عامة الناس بل الذين يأتمرون هم الملأ والكُبراء الذين ينفذون ما ائتمروا به؛ لأنه لو كان عامة الناس يتشاورون في هذا ما كان لهم أهمية.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٣-٢٦]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: لهما أو من أجلهما، وليس المعنى أنه سقى المرأتين، ولكن سقى غنمهما من أجلهما، واللام هنا للتعليل وليست للتعدية.

قوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ما المراد بالظل هنا ؟ أظل جبل أم شجرة أم أكمة ؟ الراجح أنه ظل شجرة.

وقوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لماذا لم تتعدَّ بـ (إلى) والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ لأنه لما أضيف الفقر إلى الله عدِّيَ بإلى، وإذا أضيف للشيء المحتاج إليه عُدِّي باللام، فأنا فقير للمال ولست مفتقر إليه؛ لأن المال ليس مبلغ غاية المفتقرين وإنما به زوال فقرهم، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المنفق على المفتقرين.

قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لماذا خير بالجر؟ لأنها جرت بمن والجر والمجرور في محل خبر إن.

قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ما موضع تمشي من الإعراب ؟ تمشي في محل نصب حال لإحداهما، وعلى استحياء في محل نصب حال للضمير المستتر في تمشي، فهي تمشي حال كونها على استحياء.

قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ من التي جاءت الكبيرة أم الصغيرة؟ نقول: القرآن لم يبيِّن إحداهما الكبيرة أو الصغيرة فالله أعلم.

قال: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [أي: واضعة كم درعها على وجهها حياءً منه].

هذا ما ذكره ابن كثير عن عمر رضي الله عنه وقال: إن إسناده صحيح، ويروى هذا عن عمر قد يكون على سبيل التوقع، أي: أنه توقع منها رضي الله عنه أنها واضعة كم درعها على وجهها، لكن في الآية ليس ذلك بواضح.

كم الدرع على الوجه: الدرع الذي يسميه الناس: المِسْبَح في يومنا هذا كان يسمى درعًا؛ لأنه مثل الدرع الذي يلبس في الحلقة، ولكن كيف وضعت كمها على وجهها ؟ لا يكون هذا إلا إذا كان كمها واسعًا.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ هنا عندي إشكال في أبي، المعروف أن الأسماء الخمسة لا تنصب بالياء، فهل هنا نصبت بالياء لقوله: ﴿إِنَّ أَبِى﴾ ؟

الصواب: أنها نصبت بالفتحة - وهي أصلها -؛ لأنها أضيفت لياء المتكلم، والدليل من كلام ابن مالك - أنها يشترط ألا تضاف لياء المتكلم -

وشرط ذا الإعـراب أن يـضفن لا لليـا كجـا أخـو أبيـك ذا اعـتلا

وهنا مضاف إلى الياء ولهذا نقول: أبي اسم إن منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾: اللام للتعليل؛ يعني يدعوك لهذا الغرض، ومعنى يجزيك يكافئك، وهي من جزى يجزي.

وقوله: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ مفعول الفعل ليجزيك، ومعنى أجرَهُ أي عِوَضَهُ، والأجر هو العوض المأخوذ في مقابلة عمل.

وقوله: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لأجلنا، وما في قوله: ﴿مَا سَقَيْتَ﴾ ليست شرطية ولا موصولة أيضا هي مصدرية، يعني ليجزيك أجر سقيك ولا يريد أجر الذي سقيت؛ لأنه إما يريد أجر الذي سقى أو أجر السقي، فما مصدرية؛ لو قال أجر الذي سقيت لصار أجر العمل، وهي لا تريد أن يعطيه أجر العمل وإنما تريد أن والدها يجزيه أجر سقيه للغنم، فيتعين أن تكون هنا مصدرية.

واللام في قوله: ﴿لَنَا﴾ هي مثلها في قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي أنها لتعليل وليست لتعدية.

[فأجابها - موسى، يعني أجاب دعوة أبيها - منكرًا في نفسه أخذ الأجرة].

يعني: أجاب ولم يظهر أنه يريد أخذ الأجرة، ومن أين علمنا هذا ؟ قالوا: نعلم بأن موسى فعل ذلك لله، ومن فعل شيئًا لله لا يمكن أن يأخذ عليه أجرا في الدنيا، ولكن هذا لا يُعَيِّن أن يكون موسى يأخذ أجرًا، فإنما لو قيل لهم: هل تشهدون بأن موسى في تلك الحال - عندما أجاب الدعوة - قد أضمر في نفسه أنه يأخذ أجرة ؟ لا ندري؛ قد يكون موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأخذ الأجرة؛ لأنه محتاج؛ فيأخذها لسد حاجته، وقد لا يأخذها تكرمًا منه، ثم إن المدفوع من الله يأخذ أجرًا مقدمًا لما يفعله لله، ثم لو كوفئ به مكافأة فإنه لا مانع أن يأخذ، بل إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما بعث عمر عاملًا على الصدقة وأعطاه؛ وقال: أعطني أكثر منه ومعلوم أن عمر لم يكن يتطلع إلى أخذ عمالة بدليل أنه قال: أعطني أكثر منه، ومع ذلك قال الرسول له: «خذ»، فالإنسان الذي يعمل عملا لله إذا كُوفِئ عليه لا يعد أجرا ما دامت نيته في الأصل خالصة لله. إذن فدعوى أن موسى كان منكرا في نفسه أخذ الأجرة ليس عليها دليل، وليس لنا من حق أن نتكلم في هذا وليس لدينا دليل.

[كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها] كأنها: المؤلف في دلالتها كأنه يعلم الغيب، وقولها: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ معروف أن الأجر لا يكون إلا بعقد - عقد إيجار - وهل وقع بين موسى وبينهما عقد إيجار على أن يسقي لهما ؟ لا، لكن يقول: [كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها] فسمَّت هذه المكافأة أجرًا.

[فمشت بين يديه، فجعلت الريح تضرب ثوبها وتكشف ساقيها، فقال لها: امشي خلفي

ودليني على الطريق] إن كانت هذه القصة ليس لها أصل - كونها مشت بين يديه - لكنهم يأتون بها توطئة لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فقد سبق أنه نزع الصخرة العظيمة التي لا ينزعها إلا عشرة ـ مَثَل القوة ـ وهو الرجل الأمين.

[ففعلت إلى أن جاء أباها وهو شعيب ـ عليه السلام ـ وعنده عشاء فقال: اجلس فتعش قال: أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل خير عوضًا قال: لا، عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام، فأكل وأخبره بحاله.]

كل هذا لا دليل عليه، والذي عليه الدليل أن موسى ﷺ أجاب الداعي ومشى حتى وصل إلى الأب، وهذا يكفينا أن نعتقد ما دل عليه الكتاب والسنة وما دل عليه القرآن من هذه القصة، أما أن نأت بشيء لا ذكر له في الآية فلا.

يقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ الفاعل في ﴿جَاءَهُ﴾ موسى، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ﴾ أي: موسى.

﴿الْقَصَصَ﴾ [مصدر بمعنى المقصوص]؛ لأن القصص قصة كما يقال، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: يقُصَّان الأثر قصًّا، والقصص غير القص؛ لأنه يُقَصُّ المَقْصُوص، وعلى هذا فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول يأت كثيرًا كقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أولَات حمل أي محمول، كذلك كقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) أي: فهو مردود، - على كل حال - هنا نقول: القصص مصدر بمعنى المقصوص، لماذا لا نجعله مصدرًا بمعناه الحقيقي؟ لأن القصص فعل القاص وليس هو شيئًا مخبر عنه، وإنما الذي يُخْبَر عنه بالقص هو الشيء المقصوص يعني القضية والقصة وما أشبه ذلك - هذا الذي يقص.

ما الذي قص عليه ؟ قال: [مِنْ قَتْله القبطي وقَصْدِهم قتْلَه وخوفِه من فرعون] قصَّ عليه قضيته كلها، بأنه كان في مصر مثلًا، وما كان من قتل القبطي، وأن رجلًا جاءه ونصحه فقال له اخرج فخرج، ولهذا قال: ﴿الْقَصَصَ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ ﴿قَالَ﴾ جواب لما ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ قال أي صاحب مدين: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿لَا تَخَفْ﴾ اللام هنا ناهية والمراد بها طمأنة هذا الرجل، وعلى هذا فيكون قوله: نجوت من القوم الظالمين تأكيدًا للجملة بكل معنى، أي لا خوف عليك؛ لأنك نجوت من القوم الظالمين- سبحان الله العظيم - جاء كلام هذا الرجل مطابقًا لسؤال موسى، موسى خرج منها خائفًا يترقب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ؟ فجاء الجواب هنا من هذا الرجل :﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَا تَخَفْ﴾ إزالة لقوله: ﴿خَائِفًا

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

يَتَرَقَّبُ ﴾، ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة لقوله: ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فكان جواب هذا الرجل مطابقًا لسؤال موسى، وهكذا تكون إجابة الله تعالى للنفر مطابقة تمامًا لسؤاله.

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إذ لا سلطان لفرعون على مدين]، وهذا هو الظاهر أنه طمأنه بأنه نجا من القوم الظالمين؛ لأن سلطان فرعون إنما في مصر وما حولها أما مدين فإنه لا سلطان لفرعون عليها، إذ لو كان له سلطان عليها ما نجا منه وما نجا من القوم الظالمين ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [وهي المُرسَلَة الكبرى أو الصغرى] لأننا لا ندري الكبرى أو الصغرى التي قالت، والذي ندريه أنه ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾.

أما كونها المرسلة فهو بناءٌ على ما سبق من أنها جعلت تمشي أمامه وجعلت الريح تكشف عن ساقيها فقال كوني خلفي، فعرفت بذلك أن هذا الرجل أمين؛ هذا السبب في قوله: [وهي المرسلة] ولكن السؤال الآن: هل يتعين أن تكون القائلة هي المُرسَلَة أو الباقية ؟ لا يتعين هذا ولا هذا؛ قد تكون المرسلة وقد تكون الباقية، المهم أننا نحسّ أنه يظهر ما أبهمه الله.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لما لم تقل يا أبي ؟ وهل تاء التأنيث تحل محل الياء ؟ يجوز إبدال الياء بالتاء فيقال أبتِ بدل أبي.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، وأن ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ليس لطلب الفعل على وجهه الحقيقي، وأن البنت لا يمكن أن تأمر أباها أمرا، ولكن لا يصلح هذا الطلب على سبيل الدعاء ولا الالتماس؛ لأن الالتماس يكون من مغيب لمغيب والدعاء لا يكون إلا في جانب الله سبحانه وتعالى، وربما للترجي والاستمالة.

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [اتخذه أجيرا يرعى غنمنا بدلنا]

تلك استفادتين: أولًا فيه تقطع والثاني أن الرجل قوي وأمين.

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [أي: استأجره لقوته وأمانته]

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ هذا تعليل؛ يعني استأجره لأنه قوي أمين، لكنها أتت بالتعليل على سبيل القاعدة العامة، لو قالت: استأجره إنه قوي أمين صار هذا تعليلًا لمسألة خاصة وهو استجار موسى، لكنها أتت بهذه العلة منطوية تحت قاعدة عامة وهي :﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وهذان النصان هما ركنان في كل عمل، فكل عمل لابد فيه من هذين الأمرين لا يقوم إلا بهما وهما القوة والأمانة؛ فبالقوة يكون الفعل وبالأمانة يكون تمام الفعل؛ لأنه من ليس قويًا لا يفعل ومن ليس أمينًا لا يتمم الفعل وقد لا يفعل أصلًا، فلذلك إذا كان الإنسان قويًا أمينًا حصل به تمام الفعل، وهل ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ الحالة خاصة بالإجارة أننا نتطلب القوي الأمين أم في جميع الأعمال ؟ في جميع الأعمال، لو وكلنا شخصًا على بيع فخير من نوكل القوي الأمين، أو

أمرنا شخصًا على قرية فخير من نُأمِّر القوي الأمين، ولو ولَّينا شخصًا على قضاء بلد فخير من نولي على القضاء القوي الأمين؛ ولهذا قال الجن - لما قال لسليمان أنا آتيك بعرش ملكة سبأ قبل أن تقوم من مقامك - قال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ فقوله هنا: الأجير نقول: ليس بأجير؛ فالقوة والأمانة شرطان أساسيان في كل عمل، من ليس قويًا لا يجدي نفعًا، ومن ليس أمينًا لا يؤتمن ولا يكمل الفعل ولا يتممه.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ - أي موسى - [فسألها عنها فأخبرته بما تقدم من رفعه حجر البئر، ومن قوله لها: امشي خلفي وزيادة أنها لما جاءته وعلم بها صوب رأسه فلم يرفعه؛ فرغب في إنكاحه].

قوله: [فسألها] أي: أبوها، [عنهما] أي: عن القوة والأمانة؛ من أين عرفتِ أن الرجل قوي وأمين ؟ فذكرت له [أخبرته بما تقدم من رفعه حجر البئر] رفع حجر البئر وعادة لا يرفعه إلا عشرة أنفس؛ وهذا دليل على قوته، وكانت تمشي أمامه والريح تكشف ساقيها؛ فقال: كوني ورائي؛ وهذا دليلٌ على أمانته، وكذلك أيضًا زيادة من الأمانة أنه [لما علم بها صوب رأسه] أي: نزله فلم يرفعه. وهذا من الأمانة، لكن نحن لا نحتاج إلى هذه القضايا الثلاث، بل هما عرفا من سقيه: أنه قوي من نزعه للدلو وسقيه لهما، وأنه أمين بحيث أنه سقى سقيًا تامًا ولم يحصل شيئًا من العنف، وهذا يدل على أمانته، فالأمانة والقوة أخذتا من سقيه، ولا يلزم أن نصطنع شيئًا لأجل أن نمهد لكونه قويًا أمينًا.

قوله: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ القصص ما هو من حيث الإعراب ؟ من حيث الإعراب محله مفعول به لقص.

قوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ما معنى نجوت؟ النجاة من الشيء الانفلات منه.

ثم إن هذه الجملة مطابقة لسؤال موسى ولحاله أيضًا، كيف ذلك ؟ بأنه خرج من المدينة خائفا يترقب، ودعا الله: رب نجني من القوم الظالمين، فأبدل الله الخوف بالأمن لقوله: لا تخف.

لماذا قال له: نجوت من القوم الظالمين ؟ لأن مدين ليست تحت ملك فرعون.

قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ما محلها لما قبلها في المعنى؟ تعليلية كأنها تقول استأجره فإنه قوي أمين.

هذان الوصفان هما الوصفان الأساسيان في الأعمال؛ لأن ضد القوة الضعف والضعيف لا يستطيع، وضد الأمانة الخيانة والخائن لا يتمم العمل.

وهذان الوصفان أساسيان في كل ولاية (في الخلافة والإمارة والإدارة والوكالة والوصية وغير ذلك) كل ولاية لابد فيها من الأمرين القوة والأمانة.

القوة في العمل أنواع، فالعمل الذي يقتضي طاقة جسمية لابد أن يكون قوي الجسم، والعمل

الذي يقتضي طاقة فكرية كالأعمال الحسابية وما أشبهها لابد من أن يكون قوي القياس، فالقوة في العمل حسب طبيعة العمل.

الفوائد:

١ - **يستفاد منها:** أنه لا ينتظم أن يحكم على الأمور إلا بعد معرفة الأسباب، من أين نأخذها؟ أنه ما حكم على المرأتين بأي حكم إلا بعد أن قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: تزودان غنمكم عند السقي، ولم يحكم بأي حكم على هذا الأمر حتى سألهم.

٢ - **ويستفاد منها:** أنه قد سقى لهما ثم تولى إلى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٣ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان رأفة نبي الله موسى بهاتين القاصرتين لقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

٤ - **وفيها:** جواز الاقتصار في الدعاء على ذكر حال الداعي وبدون طلب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٥ - وفيها أيضًا - من فوائدها -: أنه ينبغي تصدير الدعاء بذكر الرب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ﴾ وقد ذكرنا أن هذا هو أفضل الذكر في الدعاء بوصف الربوبية - وأما بغير الربوبية يكون للخلق والتفويض للناس.

٦ - **ويستفاد من هذه الآية:** حاجة الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى؛ لأنه في غاية ما يكون من الضرورة إلى الخير النازل إليه من الله.

٧ - **ويستفاد منها:** علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لقوله: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ لأنه لا يكون إنزال الشيء إلا إذا كان عاليًا، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ عالٍ بذاته وصفاته.

والعلو نوعان: علو ذات وعلو صفة ولا يلزمنا إثبات علو الذات ـ التمثيل ـ كما يقوله المُعطِّلون، ولا أن المكان يحيط به - كما قالوه أيضًا - متوصلين بذلك إلى إنكار علوه؛ لأن هؤلاء المعطلة يتوصلون إلى تعطيلها بمثل هذه الطريقة: بأن إثبات هذا يستلزم كذا من الأمور التي ليست بلازمة، ولكنهم يرونها بعقولهم لازمة؛ فيلزمون بها غيرهم، ثم يتلفظون بها إلى إنكار الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذا:** أولًا بيان الوقار الذي جعله الله لموسى، فهذه جاءت إليه على استحياء تعليل له؛ لأنه كلما كان الإنسان أشد وقارًا كان الحياء منه أكثر؛ ولذلك الرجل الذي ليس بوقور

تجد الناس لا يستحيون منه ولا يبالون به، ويتكلمون عنده بالكلام الذي لا يليق ويفعلون عنده ما لا يليق؛ لأنه ليس وقورًا ولهذا يقال: احتشِم تُحتَشم.

٢ - ومنها أيضًا: بيان كمال خُلُق هاتين الأختين؛ حيث جاءت تمشي وليست تسرع وتهرول بل تمشي بهدوء، وهذا دليل على كمال أدبها، وكذلك كونها على استحياء هو أيضًا من كمال الأدب.

وفي قولها: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ أيضًا كمال أدب؛ حيث نسبت الدعوة إلى الأب دون نفسها، وهو أيضًا من كمال الذكاء؛ لأن نسبة الدعوة إلى الأب أقرب إلى إجابة موسى للدعوة؛ حيث يكون الداعي له رجلا، وقد وصفت تعريفه من قبل بأنه شيخ كبير، فتكون الدعوة منه إلى موسى أقرب للإجابة.

٣ - وفيها أيضًا: دليل على ذكائها من وجه ثانٍ لقولها: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ليطمئن وليكن هَدِأً إلى إجابة الدعوة.

٤ - ويستفاد من الآية أيضًا: أنه ينبغي على الإنسان استعمال الأدب في الأساليب وإزالة الوحشة لقوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فيكون في هذا ذهاب الوحشة؛ لأنه ينبغي على الإنسان أن يزيل الوحشة عن المخاطب لاسيما في المقام الذي تحتويه الوحشة، وكما ينبغي أن يكون ذلك في الوصف ينبغي أن يكون ذلك في الحال - حال المرء - حيث يقابل غيره بوجه بشر، والسماحة بانطلاق الوجه؛ ولهذا كان من أوصاف النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه كان دائم البشر كثير التبسم، وضد ذلك العُبُوس والتَّقطِيب وعدم الانشراح فإن هذا يوجب لغيرك أن ينفر منك، وكذلك أيضًا يوجب أن لا يأنس بك أحد، حتى لو جلس عندك ما آنسك، لكن إذا رآك منشرحًا أقبل إليك ،هذا الأمر قد يكون بالتكسب؛ وقد يكون غريزة، فإن من الناس من يهبه الله - سبحانه وتعالى - مثل هذه الخصلة الطيبة، ومن الناس من يحرم منها، ومن الناس من يحاول أن يتخلق بها؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - للأحنف بن قيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ» أن الحليم من يتأنى، قال: أخصلتين تخلقتُ بهما أم جبلني الله عليهما، فقال: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»[1] فهذا يؤخذ منه: أن مثل هذه الأخلاق تكون بالتخلق، وتكون بالجبلة، وأيها أفضل ؟ الجبلة أفضل ولهذا قال الرسول له: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا» لأن التخلق قد ييأس الإنسان أحيانًا منه فلا يتخلق فيكون على جبلته عبوسًا جهولًا، لكن الجبلة لا شك أنها أكمل، وإنما ينبغي للإنسان التعود والتخلق على الشيء، ويكون ذلك خلقا له.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيات: ذكرنا أدب هاتين المرأتين وذلك بالحياء ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥/ ١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾.

٢ - **وكذلك**: ذكرنا كمال ذكائهما أيضا من وجوه ثلاثة.

ويستفاد من قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

١ - أن قص الأخبار لا يعتبر شكاية، لو قصصت على إنسان ما جرى عليك من المصائب فإنه لا يعتبر ذلك من الشكاية إليه؛ ولهذا يقول المريض إذا سئل عن حاله: إخبارٌ لا شكوى، والفرق بينهما أن الشكوى تتضمن طلب إزالة الشيء والتضجر منه، وأما الخبر فإنه مجرد عن ذلك؛ مجرد إخبار عن أمر واقع.

٢ - **وفيها أيضًا**: دليل على فقه صاحب مدين حيث طمأنه مع ذكر السبب فقال: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن قوله لا تخف يفيد طمأنينة الرد.

٣ - ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تفيد العلة في ذلك؛ لو قال لا تخف ولم يكن نجى فقد يظن الظان أنه أراد أن يهون عليه الأمر وإن كان فيه احتمال ألا ينجو، لذا قال: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وصار هذا بيان للحكم مع العلة.

٤ - **وفيها**: دليل على أن آل فرعون معروفون بالظلم عند الناس في ذلك الوقت لقوله: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥ - **وفيها أيضًا**: دليل على أن جنود الظالم ظلمة؛ لأنه لم يقل نجوت من الظالم بل قال: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو كذلك؛ فإن جنود الظالم ظلمة، ولهذا لو أمرك الأمير أو من فوق الأمير بأمر تعرف أنه ظالم فيه فإن طاعتك له محرمة؛ لأن ذلك من باب طاعة المخلوق في معصية الخالق.

أصلها وجوب طاعة ولي الأمر ولم يوجد ما يمنع هذا الأصل إذ أنك لا تريد فعل ذلك ولأنهم لمشاقة أن الجندي مثلًا إذا أمره من فوقه أن يضرب أو يُحدَّث أنه لماذا يضرب؟ ولأن هذا يؤدي إلى الفوضى وتفكك الحكومة والدولة فلهذا يقول: وجب عليك التنفيذ ما لم تعلم أنه ظلم، وقال بعض أهل العلم بالتقسيم وهو أنه إذا كان الأمر معروفًا بالظلم فإنه لا يجوز لإنسان على موافقته إلا إذا علمت انتفاء الظلم في هذه القضية المعينة تقسيمًا للظاهر على الأصل، ما هو الظاهر؟ ظاهر حال هذا الأمير مثلًا أنه ظالم فيقدم على الأصل وهو عدم الظلم ووجوب الطاعة، وهذا التأصيل لا بأس به مع أن فيه ثقلًا؛ لأنه إن كان ظالمًا فقد لا يظلم في كل شيء ومعلوم ألَّا يبتلينا ولا إياكم أن جنديًا يصعب عليه جدا أن يقول لآمره: ما وجه حبسه ولهذا من قواعد الدراسة عندهم في الجندية وفي الجيش أن الصغير يطيع من فوقه طاعة عمياء حتى أن بعضهم يرى أنه يجب طاعته ولو في معصية الله ولكن هذا غير مسلم إنما أقصد أنهم يطيعون طاعة عمياء كأن الإنسان أصم

أعمي وعلى كل حال فمن أخذ بالقول بوجوب الطاعة فقد أخذ بالأصل وكان معه سعة، فمن أمكنه أن يستفهم عند أمر الأمير عن هذا الأمر الذي ظاهره الظلم بالعدل ولا يحتاج إلى تفكير، وهذا لا بأس به، المهم أن نأخذ من هذه الآية أن جنود الظالم ظلمة طبعا إذا وافقوه على ظلمه، بل قد يجد أحيانًا إذا كان موجدًا فهذا يخفف على الأشياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** بيان أن مشورة الإنسان على أبيه لا تعد من التنقص له، لقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

٢ - **ويستفاد منها:** تلطُّف هذه المرأة في مخاطبة أبيها، لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ولهذا قالوا: ما ينبغي ألَّا ينادي الإنسانُ والده باسمه فيقول مثلًا: يا عبد الرحمن، يا عبد العزيز، وما أشبه ذلك حتى أن بعضهم يقول: إذا نادى أباه باسمه يُعذَّب؛ لأنه نوع من الاحتقار له وأما الخبر عنه باسمه فلا بأس مثل أن يقول: قال فلان، فلا حرج ولهذا كثيرًا ما نسمع في الأحاديث ابن عمر يقول: قال عمر، وما أشبه ذلك هذا لا بأس به بخلاف النداء فالنداء له حال والخبر له حال أخرى.

٣ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه ينبغي للقائم على الشيء سواء كان متبرعًا أو بأجرة المهم كل قائم على عمل ينبغي أن يُراعِيَ فيه هذين الوصفين، وهما: القوة والأمانة؛ لأن في القوة القدرة على التنفيذ وبالأمانة الإتمام والإكمال.

٤ - **ويستفاد منها:** أن موسى ﷺ كان متصفًا بهذين الوصفين القوة والأمانة؛ لأنه بها أن الجملة هذه تعليل لقوله: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

٥- **من فوائد هذه الآية** أنه يستدل منها جواز تكلم المرأة بحضور الأجنبي، انظر إلى هذه الفائدة هل نوافق على هذا؟ لا محادثة حدثت لكن موسى الآن لم يكن نبيًّا، والشريعة لم تكن قائمة، هذا خبر وحين ذكر المفسرون وغيرهم كلامهم أنه هو الظاهر يعني: أن هناك محادثة لموسى ولا نُسلِّم أن هذا دليل على الجواز؛ لأن شريعة موسى في ذلك الوقت لم تكن قائمة نعم؛ إن كان شعيب على دين ونقول: هذا لأننا لا نوافق من قال: إن المراد به شعيب النبي وأقول: إن كان صاحب مدين على دين فيمكن أن يستفاد من هذا جواز مخاطبة المرأة في حضرة الأجنبي مع أن المسألة لا إشكال فيها من الناحية الشرعية في شريعتنا أن المرأة يجوز أن تتكلم في حضور الرجال، النساء كلهن كلمن الرسول ﷺ بحضور الرجال ما لم يخش الفتنة، إن خشية الفتنة ممنوعة حتى في الأمور المباحة.

٦- **وكذلك أيضًا يستفاد من هذه الآية** أن مشورة الأبناء للأعلى لقوله: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لأن الأمر هنا ليس للالتزام ولكن للمشورة أو العرض فقد يكون الأدنى أعلى من الأعلى في بعض الأمور كما أن المفضول قد يكون أفضل من الفاضل.

٧ - ويستفاد من الآية الكريمة الرجوع في الأعمال إلى هذين الوصفين وهما القوة والأمانة.

٨ـ ويستفاد منها أيضًا أنه ينبغي أن يتحرى الإنسان في جميع أحواله من كان قويًا أمينًا مثل قولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ والقوة في العمل بحسبه فالقوة على الأعمال البدنية معناه قوة البدن والقوة في الأمور الفقهية قوة الفكر في هذا الشيء والقوة في الأمور الحربية قوة تنسيق الحرب فكل شيء قوته بحسبه وباختلال أحد الوصفين يختل العمل وإذا اختلت القوة وصار الإنسان ضعيفًا لا يمكنه أن يقوم بالعمل، ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبي ذر: «إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ فَلَا تَوَلَّيَنَّ إِمَارَةً، وَلَا عَلَى مَالِ يَتِيمٍ»[1]، فقوله: «إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ» هنا الضعف هو يريد به الأمانة أم يريد بها القوة؟ يريد بها القوة، الرجل أمين لكنه ضعيف في تولي الأعمال فعليه نقول إن الإنسان قد تختلف فيه القوة أو الأمانة، والكمال بوجود القوة ووجود الأمانة.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨]

❁ التفسير ❁

وقال: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ قال: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ﴾ الآن ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ هل هذا عقد نكاح أم وعد بعقد نكاح؟ أريد أن أنكحك وليس عقدًا وعلى هذا فلا يكون دليل على جواز العقد على المبهمة؛ لأنه يقول: أريد أن أنكحك ومعنى أنكحك: أزوجك؛ لأن النكاح أصله الضم والجمع ومعنى أنكحك يعني: أزوجك؛ لأن الرجل يضم زوجته إليه ويجتمع إليها.

وقوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ قوله: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ﴾ هذا مبهم ما ندري أهي الكبرى أم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧/ ١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الصغرى؛ ولهذا يقول: وهي الكبرى أم الصغرى؟ وقوله: ﴿ٱبْنَتَيَّ﴾ أصلها ابنتين لي وحذفت النون من أجل الإضافة ولهذا نقول: إن ﴿ٱبْنَتَيَّ﴾ مجرور بالياء؛ لأنه مثنى ولكن حذفت النون من أجل الإضافة إلى ياء المتكلم وقوله: ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ اسم إشارة لتعيين البنتين فهمنا من ذلك أن المعنى أن موسى قد لا يعلم أن هاتين البنتين له قد يقول: إني أنكحك إحدى ابنتي وهذا هو الأقرب وأما تعينه مع اسم الإشارة لئلا يتوهم المخاطب أن له بنات أخرى وليس المعنى أنه يعين هاتين ليخيرك بقية البنات الغريب أن بعض المفسرين قالوا: هذا لإخراج بقية البنات، وأن بناته سبع وهاتين أخرجهما بالتعيين فيقال ليس كذلك فليس في الآية ما يدل عليها ولكن لو قلت لشخص أنا أريد أن أنكحك إحدى ابنتي وعندي امرأتان هل يكفي أن أقول: ابنتي؟

ما يكفي حتى أقول هاتين، هو يفهم أن هذه بناته فهو يقول هاتين على هذا المهر ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ تأجرني يعني: تأجرني نفسك ثماني حجج تكون أجيرًا لي في رعي غنمي ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ أي سنين وهو جمع حجة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي راعي عشر سنين ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ فمن عندك التمام وليس بوعد، أخبره بأنه يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه ويكون المهر على أن يرعى الغنم ثماني سنين فمن أين يعرف أن المراد رعي الغنم قد يكون مستأجرًا لأجل أن تكون بنّاءً عندي أو حراثًا أو ما أشبه ذلك؟ هي جاءت في القصة ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾فقولها: إن العمل الذي أمامه الآن هو رعي الغنم ويعلم بذلك أنه أراد - يعني: صاحب مدين - أن يستأجر موسى ﷺ لرعي الغنم ثماني سنوات فإن أتم عشرًا فمن عنده يعني: السنتين يكونان تبرعًا والعطف على ثمان سنوات قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط العشرة قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط العشرة هذا كلام ظاهر؛ لأن اشتراط العشرة لو قدره ـ موسى ـ في مشقة ونحن نقول: إن اشتراط الثمانية بدل الستة فيه مشقة ولكن لا أريد أن أشق عليك في حال معاملتك لتنفيذ العقد يعني معناه أني سأتساهل لو فات يوم أو أيام وما رعيت ما أشبه ذلك أو حصل عليك أثر من مرض أو غيره فإني لا أشق عليك.

قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ الآية هنا للمستقبل لأن السين هذه تحول المضارع إلى المستقبل وهذا مر علينا كثيرًا التحريض والتقريب.

ففيها ثلاث فوائد: سين تفعل في المضارع تحويله إلى مستقبل وتحقيقه وتقريبه، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من وجد يجد إذا أدرك الشيء ولكنه قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وهذا يدل على أن صاحب مدين مؤمن؛ لأن كلامه هذا يدل على إيمانه وأنه على ملة وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق فهل هو تعليق يراد به حقيقته يقول المؤلف: [إنه للتبرك] والذي حمل المؤلف على ذلك هو أن قوله: ستجدني وعد منه والوعد إذا علق لم يكن مجزومًا به ولهذا قال: [إنه للتبرك]؛ لأنه لا ينافي الوعد ولكنه في الحقيقة لا ينبغي أن نقول: إن هذا تبرك بل نحمله على

التعليق الحقيقي بالمشيئة لأن عزم الإنسان على الشيء مجزوم به لكن تنفيذ الشيء لا يستطيع أن يجزم به الإنسان أبدا مهما كان الأمر ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] فالذي نرى أن هذا التعليق على حقيقته وليس للتبرك لماذا؟ لأن تنفيذ هذا الشيء ليس بيد صاحب مدين فإن الأمور قد تختلف.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه جملة لا محل لها من الإعراب يسميها النحاة جملة معترضة بين الفعل ومفعوله؛ لأن ستجدني تنصِبُ مفعولين: المفعول الأول ياء المتكلم والمفعول الثاني ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجار والمجرور وهنا وقعت الجملة المعترضة بين الفعل ومفعوله وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني الوفيين بالعهد؛ لأن صلاح كل شيء بحسبه فهنا المصلحة تجارة والصلاح فيها يكون بالوفاء وفي كل موضع بحسبه الصلاح في الدين هو القيام بطاعة الله وصلاح الطعام ألّا يكون متغيرًا برائحة كريهة أو مثل ذلك والصلاح في موضع بحسبه.

قوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ قال: موسى ذلك الذي قلته بيني وبينك ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ الحقيقة هذا القبول وعندنا كل عقد يحتاج إلى إيجاب وقبول إيجاب من الباذل وقبول من الآخِذ إيجاب من الباذل سواء بائع أو مؤجر أو مزوج أو ما أشبه ذلك وقبول من الآخذ، الإيجاب من صاحب مدين قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ والقبول من موسى ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معناه أني موافق وقابل مع أنه في الأول صاحب مدين يقول: أريد أن أنكحك على ولم يقل: أنكحتك على أن تأجرني مما يدل على أن العقود تنعقد بما دل عليها؛ لأن الإرادة عن الشيء ليست هي الشيء ولذلك لو قال الرجل لامرأته: أريد أن أطلقك هل صار طلاقًا؟ لا؛ لأن الإرادة غير منعقدة لكن هذا يدل على القول الراجح وفي هذه المسألة نتعرض لها إن شاء الله في ذكر الفوائد وهو أن العقود تنعقد بما دل عليها ما لها صيغة معينة حتى أنها ربما تنعقد بالفعل كمثل أراد البيع قال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثمانية أو العشر وما زائدة للتوكيد وعليه فأي مفعول مقدم لقضيت، وهي لا تصح من باب الاشتغال لأن باب الاشتغال لابد أن يكون في العامل ضمير إذا لم يكن بضمير فالسابق مفعول تقول مثلًا: زيد أكرمته هذا من باب الاشتغال؛ لأن فيه ضمير لكن زيد أكرمت بدون ضمير هذا من باب المفعول المقدم وليس من باب الاشتغال؛ إذ ينافي زيد أكرمته؛ لأنه قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ ولم يقل: أيما الأجلين قضيته فليس المسألة من باب الاشتغال لكنها من باب المفعول المقدم.

وقوله: ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يقول المؤلف: [أي: رعيه] الحقيقة ليس هناك حاجة إلى تفسيره؛ لأنه معروف من السياق فموسى سيقضي الأجلين أو سيقضي الرعي؟ سيقضي الرعي في الأجلين، ولهذا قال المؤلف: [أي: رعيه] لكن هذا سائر في اللغة العربية يقولون: أنه يطلق الأجل على

العمل المعين ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: المدتين قضيت بالرعي، فالصواب أن يطلق المعنى على ظاهره ويقال: إنه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ بالرعي ويكون بالرعي، لأنه معلوم، أم أن نقدر المحمول رعيًا؛ لأن هذا على سبيل التوسع والمجاز يكون مرعى وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ الأجلين هما عنده الآن ثمان سنين وهي مؤكدة وعشرة وهي نافذة من موسى ولهذا قال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أيما الأجلين فلا عدوان قضيت به أي: فرغت منهم ﴿فَلَا﴾ القضاء بمعنى: الفراغ من الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي أتمهن وانتهى منهم وهذا معناه في اللغة العربية وأما في الاصطلاح فإن القضاء ما فعل بعد فواته عند الفقهاء، ولهذا يقولون: الرجل إذا صلى الصلاة بعد الوقت تسمى قضاءً والرجل إذا فاته بعض الصلاة مع الإمام وقام يكمل يسمونه قضاءً؛ لأن هذا يقولون: أنه يقرأ فيه سواء مع الفاتحة ويستفتح ويتعوذ كأنه الآن دخل في صلاة ولكن الصواب أن القضاء هو الإتمام والانتهاء من الشيء وكلمة ﴿قَضَيْتُ﴾ الصلاة يفسره قول الرسول ﷺ في رواية أخرى: «مَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[1].

قوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لا نافية، نافية للجنس ولهذا ضم اسمها معان فقال: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ وما هو العدوان معناه: الذل والاعتداء يعني: فإذا قضيت هذه الأشياء فإنه لا عدوان عليَّ بذلك؛ لأنني أتممت العقد ومن أتم العقد فإنه لا اعتداء عليه لكن ما الذي تتصورون من العدوان في مثل هذا العقد؟ المؤلف يقول: [بطلب الزيادة عليه] وهذا صحيح أن يقول له المستأجر: هذا عدوان كذلك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ في إلزامي بما يقتضي العقد كما لو طلب منه مثلًا أن يرعى الغنم ليلًا ونهارًا وكذلك لا عدوان عليه مما تركه بالأجرة فهو قال في الأجل: يتم العقد أما أن العدوان لا يختص بطلب الزيادة فقط؛ بل يتم لما يتصور مما ينفي العقد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾ حفيظ أي: شهيد فتم العقد بذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الله مبتدأ، ووكيل خبره.

والوكالة معناها: الحفظ والشهادة، وقوله هنا: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقديمها على عاملها وهو وكيل المعروف أنها يفيد الحصر ومعلوم أن الله -سبحانه وتعالى- على كل شيء وكيل ما نقول فقط ولكنه حصر في هذا لزيادة الاهتمام به وإلا فلا شك أن الله وكيل على كل شيء ولكن كأنه يقول: لو لم يكن الله شهيدا على شيء لكان شاهدًا على ما نقول من العقد الذي جرى بيننا وفي هذا دليل على أن موسى ﷺ كان عارفًا بالله وعنده الفطرة وإلا ما كان وجه الآية؛ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٥) ومسلم (١٥٥/ ٦٠٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

﴿نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هذا إقرار بإيمانه بالله - سبحانه وتعالى - وبما له من صفات لكونه سبحانه وتعالى وكيلًا على كل شيء، ظاهر الحال هنا أنه ليس هناك شهود، ولذا فالله على ما نقول وكيل، ليس هناك شهود يثبتون هذا العقد فهل مثلًا يكفي ذلك في شرعنا بأن لو اتفق هو وشخص لنكتب: والله على ما نقول وكيل أو شهيد يكفي، ولهذا بعض الناس يحتج عليك ويقول :الله شاهد على هذا نقول: نعم الله شاهد ونِعْمَ الشاهد لكن يكون مع شهادته ما يدل على صدق ما قلته، نقول: نِعْمَ الشاهد؛ لأن شهادته فوق كل شيء ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ اللَّهُ﴾ ولكننا نقول: أين الآية من الله - سبحانه وتعالى - التي تشهد بأنه حصل كذا وكذا يعني: إذا حصل مثلًا أن يؤتين بعض الزكوات يقولون للفقير: أنا والله ما عندي شيء، والله شاهد على ذلك، يقول: ألا تقبل الله؟ ما الجواب؟ أقبل الله، لكن هات آية تدل على أن الله شاهد بذلك، وإنما مجرد كلام فكل واحد يجعله شاهدًا.

قال: [فتم العقد بذلك وأمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصى يدفع بها السباع عن غنمه، وكانت عصى الأنبياء عنده فوقع في يدها عصى آدم] هذا من الإسرائيليات هل نأخذ من الآية أن موسى - عليه الصلاة والسلام - أخذ عصى؟ ما في الآية دليل على أنه أخذ عصى.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾.

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: نصح هذا الوالد لبناته؛ لأنها لما وصفته بالأمانة والقوة اختاره وهكذا ينبغي للإنسان أن يختار لبناته من يتصف بالقوة والأمانة ويستفاد من هذا جواز خطبة الزوج يعني أنك أنت تخطب زوجًا لابنتك مع أن العادة العكس لكن هذا جائز.

٢- ويستفاد منها أيضًا: جواز خطبة الإنسان الرجل لابنته.

٣- ويستفاد من هذا أيضًا: كرم هذا الرجل ووجهه أنه خير موسى بالبنتين قال اختر إحداهما وهذا من الكرم لأن في الحقيقة أن التخيير أوسع للإنسان وأطيب لنفسه حيث يختار ما يراه أنسب ولكن لو قال: إني أريد أن أنكحك هذه البنت فقد يكون الرجل لا رغبة له فيها أما إحدى ابنتي التخيير يدل على الكرم.

٤- ويستفاد من ذلك: جواز العقد على المبهمة إيجابًا لا قبولًا يعني معناه أن يقول: زوجتك إحدى ابنتي ويقول: الزوج قبلت نكاح فلانة وهذه المسألة لها ثلاث صور: إما أن يحصل التعيين بالإيجاب والقبول يحصل التعيين في الإيجاب والقبول فيقول: زوجتك ابنتي فلانة فيقول: قبلت هذا تعين في الإيجاب وفي القبول فالإيجاب مثل أن يقول: زوجتك ابنتي عائشة والزوج قال: قبلت زواج هذه المرأة وإما أن يكون الإبهام في الإيجاب والقبول فلا يصح مثل أن يقول: زوجتك

إحدى ابنتي فيقول: قبلت نكاح إحداهما فهذا لا يجوز ولا ينعقد النكاح؛ لأننا لا ندري أيتهما التي انعقد نكاحها وإما أن يكون التعيين في الإيجاب دون القبول فيقول مثلًا: زوجتُك ابنتي عائشة، فيقول: الزوج قبلت نكاح إحدى بناتك، فما الحكم؟ لا يجوز، لا ينعقد، وقيل: الصورة الرابعة أن يقول: زوجتك إحدى بناتي، فيقول الزوج: قبلتُ نكاح فلانة يسميها، وهنا الإبهام في الإيجاب والتعيين في القبول فهل هذا يصح أم لا يصح؟ المذهب لا يصح؛ يعني: لابد أن يكون التعين في الإيجاب والقبول ولكن الذي يظهر أنه يصح؛ لأنه لما قال: زوجتك إحدى بناتي وهو قال: قبلت عائشة هنا حصل التعيين أم لا؟ حصل لكن الموجب وهو الولي أراد أن يفتح له المجال في الاختيار فهذا الظاهر صحة العقد لاسيما إذا قال: زوجتك إحدى بناتي هؤلاء وعينهن إذا قبلت عائشة وهي من المعينات فهذا أيضًا أقرب إلى الصحة؛ لأنه هنا حصل التعيين بالإشارة ثم عين واحدة منهن بالقبول هل نقول: في القصة هذه دليل على هذه المسألة ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ وموسى على كل حال يأخذ إحداهن مقابل؛ فهل في القصة دليل؟ لا لماذا؛ لأنه لم يعين قال: أريد أن أنكحك يعني: تتخير فربما يكون العقد قائمًا بعد ذلك عقد جديد وقد تقدم قبل قليل أن الإرادة لشيء غير فعل الشيء.

هل يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الأب يملك العقد على ابنته بدون رضاها؟ الآية ليس فيها دليل؛ إذ من الممكن أن يكون الأب قد استأذن منها قبل ذلك أو أنه فهم الرضي لكونها عرضت عليه ووصفته بالقوة والأمانة وعلى كل تقدير حتى لو فرضنا احتمال أنه لم يستأذن فإن شريعتنا وردت بخلاف ذلك أنه لا يجوز للإنسان أن يزوج ابنته بدون رضاها وأن العقد إذا زوَّج الرجل ابنتَه بدون رضاها يعتبر باطلا ليس بصحيح.

٥ - **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا**: جواز اشتراط الأب شيئًا من الصداق له، الأمر للأب ورأيها له وهنا يزوِّجه على أن يأجره ثماني حجج فيكون فيه دليل على أنه يجوز أن يشترط الأب مهر ابنته له وهذا فيه إشكال بالنسبة لشريعتنا؛ لأن الله يقول: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ [النساء: ٤] وقال: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وهاتان الآيتان تدلان على أن المهر للزوجة وهي التي تملك التصرف فيه والإعطاء وليس للأب حق في ذلك وهو الذي دلت عليه السنة أيضًا أن ما كان من شرط أو حباء قبل العقد فهو للزوجة وما كان بعده فأحق ما يكرم عليه المرء ابنته وأخته فالمهر الذي قبل العقد كله يجب أن يكون للزوجة وهذا القول هو الصحيح أن المهر للزوجة لا يشاركها فيه أحد؛ لأنه في مقابلة بضعها فيكون وليس للأب أن يشترط منه شيئًا لنفسه، نعم للأب إذا ملَّكته الزوجة أن يتملَّك منه؛ لأن الأب له أن يتملك من مال ولده ما لا يحتاجه و لا يضره؛ لقول

النبي ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»(١) فأما أن يشترط فيه شيئًا لنفسه فكلًا، فإن الشرع لا يجيزه، وهو أيضًا سبب للفساد وملاحقة الأب للمهر ويزوج من يشترط له أكثر، وإن لم يكن كُفئًا ويمنع من لا يشترط له، وإن كان كُفئًا فالمصلحة والشرع كلاهما يقتضي أنه لا يجوز للأب أن يشترط لنفسه شيئًا من المهر والأم والأخ، الآن في البادية - والعياذ بالله - على خلاف هذا؛ يشترط الأب شيئًا، والأم شيئًا، والأخ شيئًا، والمرضعة شيئًا، والكلب شيئًا، والحمار شيئًا، وهكذا ويبقى للمرأة مال من المهر مثل ما يكون للحمار والكلب، وهذا لا يجوز، هذاحرام، يجب أن يكون المهر كله للزوجة، وليس لأحد عليه سلطة إلا الأب وله سلطة عليه بعد ما تملكه، ويدخل في ملكها، فللأب أن يتملَّك من مال ولده ما لا يضره ولا يحتاجه.

هذه الآية استدل بها بعض العلماء على أنه يجوز للإنسان أن يشترط من مهر ابنته شيئًا: المهر كله أو بعضه نقول لهم: لا يصح؛ هذا لأن شرعنا ورد بخلافه استدل به بعض العلماء أيضًا على أنه يجوز أن يكون المهر منفعة تستحلها الزوجة من زوجها يعني: أن يكون يعمل بها بناء يبني لها بيتًا يأتي لها بشيء غائب والاستدلال واضح؛ لأن رعي الغنم منفعة عنه؛ إذ لو لم يرعها موسى لم يقم برعيها لاستمر في الرعي هاتان البنتان فهو في الحقيقة منفعة لها ثم إن شرعها ورد بوافقه قال النبي - عليه الصلاة والسلام للرجل الذي لم يجد عنده شيئًا: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»(٢).

وهذا منفعة ولكن لو اشترطت عليه أن يخدمها أن يكون مهرها خدمتها مثل: امرأة عجوز كبيرة خطبها رجلٌ ليس عنده مال أو عنده مال وقالت: المهر أنك تخدمني تحملني مثلًا أتوضأ وكذلك أيضًا تقدم حذائي وتغسل ثوبي وما أشبه ذلك يجوز أم لا يجوز؟ فيه خلاف بين أهل العلم منهم من يقول: إنه لا يجوز؛ لأن مقام الزوج أن يكون أعلى من مقام الزوجة فإن الزوج سيد كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ والزوج رجل فهو قوام على المرأة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ والمرأة أسيرة عند الزوج «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»(٣) وإذا قلنا: إنه يجوز أن يكون المهر خدمتها انعكست القضية صار الأعلى هو الأسفل فلا يجوز ولكن مذهب جواز ذلك؛ لأنها منفعة وكما يجوز أن تتزوجه على أن يبني بيتها ويرعى غنمها فكذلك أن يقوم بخدمتها والتأويل هذا لا يمنع أن يكون زوجها يخدمها بما يجب عليه وتخدمه بما يجب عليها فتكون خادمة مخدومة كحرف الجر يعمل فيه الفعل وهو يجر الاسم هو عامل معمول المهم - الحمد لله - أن الشرع يخالف هذا.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) من حديث جابر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٧٦/ ١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٦٣) من حديث عمرو بن الأحوص ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

٦- ويستفاد من هذه الآية: أنه يجوز أن يجعل الإنسان العمل عملين عملًا واجبًا وعملًا تبرعًا يجوز يعني يقول: أنا استأذن منك هذه السيارة عشر سنوات واثني عشر سنة من عندي يجوز من بعض الوجوه أن يقول القائل لشخص: خذ هذا الشيء فبعه بمائة فما زاد فلك فإن هذا جائز الشرط أن يكون عند كل من الطرفين معرفة بالسعر لئلَّا ينخدع أحدهما احتمال أن يكون واحد عنده حاجة يبيعها وجاء إلى الدلال وقال: خذ هذه الحاجة بعها بمائة وما زاد فهو لك يجوز؟ نقول: نعم جائز يبيعها بمائة، وعشرون يأخذ العشرين بمائة، وخمسة يأخذ الخمسة، بمائة وعشرة يأخذ العشرة، ولكن يشترط في هذا أن يكون لدى كل من الوكيل والموكل علم بالسعر لئلَّا ينخدع أحدهما - سعر هذه السلعة - تعرف أنها تساوي المائة قد تزيد قليلًا وقد تنقص قليلًا أما هي ما تساوي يقول: بِعْه بمائة ثم يبيعها بأربع مئة مثلًا تساوي أربع مئة يقول: ما أدري أو يكون مثلًا يعرف أن سعرها ما تساوي خمسين والوكيل ما يدري من الذي يغتر هنا؟ الوكيل، وفي المسألة الأولى الموكل، المهم أن صار السعر معروفًا إما قيمتها من المائة إما أن تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا يعرفون هذا لكن إذا قُدِّر أن الوكيل ما يدري عن السعر والموكل يدري أن هذه السلعة لا يمكن أن تصل إلى المائة، فأعطاه أكثر من المائة فأخذها في الحرج عليها وباعها ما بيعت إلا بثمن تسعين مثلًا يكون في هذا الوكيل وبالعكس إذا كان الموكل لا يعرف ما هي القيمة وقالها البائع: أنت تبيع لي هذه وما يزيد عن المائة لك، فوافق على هذا فنقول: لا يجوز؛ لأن فيه تغريرًا بالموكل.

٧- ويستفاد من هذه الآية: حسن معاملة صاحب مدين من وجهين أولًا: أنه فتح له في الأجل حيث قال: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ وثانيًا: أنه وعده بالتيسير في المعاملة حيث قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ فهذان دليلان على أنه سَمْحًا في معاملته.

٨- ويستفاد من قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنه لا ينبغي للمرء أن يعزم على فعل الشيء إلا مقرونًا بالمشيئة لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بل إن الله - سبحانه وتعالى - نهى نبيه أن يعزم على فعل الشيء بدون قرنه بالمشيئة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] والقرن بالمشيئة فيه فائدتان: الفائدة الأولى: تفويض المرء الأمر إلى الله وهذا هو تحقيق التوكل، والثانية: تيسير الأمر له، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة سليمان: «لَو قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ»[1] هذا إذا كان الإنسان يريد أن يخبر عن الفعل، أما إذا كان يريد التعبير عن عزيمته على الفعل فلا يلزم قوله: إن شاء الله لكن يخبر عن العزيمة يقول: سأفعل غدًا يعني: هذه نية العزيمة فإنه لا يلزمه القرن بالمشيئة؛ لأن العزيمة حاصلة فقد شاءها الله وإذا كانت حاصلة وقد شاءها الله ما حاجة أن يقول: إن شاء الله؛ لأن الله شاءها ففرق بين أن يقول الإنسان سأزورك غدًا وهو يريد

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٨٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

وقوع الفعل وبين أن يقول سأزورك غدا وهو يريد أن يخبر عن ما في قلبه من النية والعزيمة ما هو الفرق؟ الفرق في الأولى لابد أن يقول: إن شاء الله وفي الثانية لا يحتاج أن يقول إن شاء الله والفرق بينهما أن العزيمة أمر واقع وأما الفعل فأمر مستقبل قد يقع وقد لا يقع.

٩ـ ويستفاد من قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أن صاحب مدين مؤمن؛ لأن مثل هذه الصيغة لا تأتي إلا من مؤمن ملتزم بالشريعة ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٠ـ ويستفاد منها: أن الصلاح في كل موضع بِحَسَبِهِ ففي العبادة القيام بما يجب من الإخلاص والمتابعة لله وترك المنهيات وإتيان المأمورات والصلاح في المعاملة والوفاء بما يقتضيه العقد هذا الصلاح في المعاملة هنا ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الأمرين أليق؛ صلاح العبادة أم صلاح المعاملة؟ المعاملة؛ لأن المسألة جاءت تعقيبًا على عقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

١١ـ يستفاد من هذه الآية: أن العقود ليس لها صيغ معينة فتنعقد بما دل عليها وكذلك الفسوخ وكذلك الولايات كل التصرفات من عقود وفسوخ وولايات فإنها تنعقد بما دل عليها فإنها تصح بما دل عليها ولا يشترط لها لفظ معين بل تجرى على ما يتعرفه الناس بينهم حتى عقد النكاح على القول الراجح ما يشترط له صيغة معينة يقول: زوجتك، لو قال زوجتك أو أنكحتك ملكتك زوجتك عقد لك على ابنتي كل هذا ينعقد به النكاح ما دام الأمر معروف في عرف الناس إن هذه الكلمة تدل على هذا العقد.

وما أشبه ذلك مثله ينعقد بما دل عليه فإذا كان الأمر محتملًا لأن يدل على العقد أو لا يدل حينئذٍ نرجع إلى اللفظ اللغوي؛ لأنه إذا لم يكن هناك عرف رجعنا إلى الحقيقة اللغوية كما ذكره في الأيمان وغيره فإذا كان هذا اللفظ قال الناس أحد يريد بهذا وأحد لا يريد نرجع إلى مقتضاه في اللغة العربية ما لم يكن بين المتعاقدين نية مسبقة؛ لأنهما يريدان هذا العقد إذا كان بينهم نية معروفة واتفقا عليها عمل بها، الفقهاء رحمهم الله استثنوا بعض العقود وجعلوا لها صيغًا معينة للنكاح قالوا: ما ينعقد إلا بلفظ زوجتك أو أنكحتك فلما قيل لهم: إن النبي ﷺ تزوج صفية وجعل عتقها صداقها قال: «أَعْتَقْتُكِ وَجَعَلْتُ عِتْقَكِ صَدَاقِكِ»[1] قالوا: هذه المسألة تستثنى فيقال لهم: ما الدليل على الاستثناء؟ قالوا: هذه المسألة تدل على أن النكاح ينعقد بما دل عليه.

وتؤخذ من هذه الآية: أن العقود تنعقد بما دل عليها من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ ما قال: قبلت النكاح وما قال: قبلت الإجارة ولا شيء ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٦) ومسلم (٨٥/ ١٣٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: أن النبي أعتق صفية وجعل عتقها صداقها.

١٢ـ ويستفاد من الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أن العقود عهود في الحقيقة وهو كذلك لأن كل إنسان يعقد مع شخص فقد التزم أن لا يخونه والتزم أن يفي له بمقتضى هذا العقد فيكون بذلك عهدًا، في سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الأنعام: ١٥٢] الولاية على وكيل نوع من العقد وجعله الله تعالى عهدًا فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

١٣ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن موسى ﷺ وجد ما جعله هو صاحب مدين من اختيار أحد الأجلين حينما قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ فبقي العقد مفتوحًا يعني: إن أتممت العشر لا تلُمني تقول: اذهب عني ما تعتدي علي بإخراجي من بيتك وترجع عن عملك إن أردت العشرة وإن أتممت الثمانية لا تلُمني وتقول: هذا الرجل ما وفَّ لي وهذا معنى قوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ يعني لا اعتداء علي إن أتممت وإن اقتصرت على الثماني لا تقُل: هذا الرجل لم يفِ لي، تتكلم بين الناس فلا تعتدِ علي وهذا في الحقيقة يتوجه؛ لأنه ربما يسأل سائل يقول: كيف يقول: أيما الأجلين فلا عدوان عليَّ؟ هو يسأل أعليه عدوان والرجل يفي بما عهد عليه؟ نقول: ربما يكون عدوان بمعنى أنه إذا أراد إتمام العشر يقول له ويمنعه أو أنه اقتصر على الثماني يبدأ يتكلم به في المجالس والمؤلف يقول: فلا عدوان علي بطلب الزيادة علي وهذا يتقدم أنه غير صحيح؛ لأن أصل طلب الزيادة غير واضح.

١٤ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حفيظ على كل أحد لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ويستفاد منه جواز تخصيص العموم لغرض يعني جواز تعليق الشيء العام لأمر خاص لغرض تؤخذ من قوله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فإن هذا يقتضي التخصيص في وكالة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما قاله فقط ولكن الأمر ليس كذلك إنما خصص هذا لغرض العناية به هل يستفاد منه جواز إشهاد الله على العقد والاقتصار عليه؟ هو في الحقيقة شرعًا ما يكتفي به لكن باطن فيما بينهم وبين الله يكتفى به وفائدة ذلك إذا أشهد الله وجعله الوكيل الحفيظ المراقب فائدته كأنه يقول: ينتقم الله تعالى ممن انتقض العهد ويكون هذا فيه قربة عظيمة للعقوبة عند نقض هذا العقد، إنك إذا جعلت الله شاهدًا ثم خونت فهذه استهانة بالله مثل ما جعلت واحدًا من المخلوقين شاهدًا ثم خونت فهذا استهانة بشهادته وبحد الله، لكن استشهاده أعظم والتزام الإنسان بمقتضى هذه الشهادة يكون أعظم ويكون فيه توكيد للعقد يقول: الله شاهد علينا لم يشهد أحد لكن الآن إذا قال أحد أن الله هو الشاهد إذا وافق هذا يكون أبلغ بالتأكيد؛ لأن مخالفته عرضة للعقوبة ولهذا قيل: ما من أحدٍ يحلف بالله كاذبًا إلا أصيب، كل إنسان يحلف بالله كاذبًا في الخصومة فإنه يصاب في الدنيا قبل الآخرة، في الآخرة إصابته واضحة، وهو أن يلقى الله وهو عليه غضبان لكن الغالب أنه ـ سبحانه ـ يعجل له العقوبة في الدنيا والقصص على هذا كثيرة،

حدثني إنسان أنه كان بينه وبين شخص خصومة تخاصما عند القاضي وأنكر حقه وحلف المدعى عليه لكنه في اليوم التالي خرج هو وعائلته إلى الرياض فحصل لهم حادث وماتت العائلة كلها ما بقي لهم أحد، وهذا واضح عقوبة معجلة - والعياذ بالله.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٢٩-٣١]

التفسير

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ (ال) هذه للعهد يعني: الأجل الذي بينه وبين صاحب مدين فقد علمنا أن بينهما أجلين أجلًا واجبًا، وهو ثمان سنوات وأجلًا تبرعًا من موسى وهو عشر سنوات فأيما الأجلين قضى هل هو الواجب أو التبرع؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وهو ثمان أو عشر سنين وهو المظنون به] الضمير في قوله: [وهو المظنون به] يعود على العشرة يعني: الذي يظن بموسى أنه أتم عشرًا ولكن الآية محتملة فترجيح العشرة بناءً على المعلوم من حال موسى ﷺ من الكرم والوفاء وترجيح أنه ثماني؛ لأنه هو الواجب عليه وموسى كان في اشتياق إلى بلده مصر وهو قد قال في ما سبق معتذرًا: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ وهذه الجملة قد تشير إلى أنه يريد أن يقتصر على الأجل الواجب وإلا فمن المعلوم أنه إذا قضى الأجل التطوع فإنه لا أحد يلومه أو يعتب عليه فلكل منهم وجه وموقفنا نحن من هذه القصة أن نبهم ما أبهمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فنقول: قضى الأجل والله أعلم أي الأجلين قُضِي.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ السير معناه المشي سار بأهله من عند صاحب مدين وأهله يقول زوجته بإذن أبيها نحو مصر ثم يقول: [زوجته] فهذا صحيح أن المراد أن الزوجة تسمى أهل وأما

قوله: بإذن أبيها فهذا لا دليل عليه ولا يحتاج إلى الزوج إذا أراد أن يسافر بزوجته إلى إذن أبيها؛ لأنه إذا تزوج المرأة صارت ملكًا له يسير بها حيث شاء اللهم إلا إذا سار بها إلى أمر لا يجوز شرعًا فلها أن تمتنع ولأبيها أيضًا أن يمنعه وإلا فالحق له، لو شرط عليه أن لا يسافر بها يلزمه الوفاء؟ إذ يلزمه الوفاء ولكن لو أذنت وأبى أبوها وقد شرط عليه فهل الحق لها فتسافر أو لأبيها الحق؟ الحق لها ؛لأن هذا يتعلق بها شخصيا وقد ترى أن من الأفضل لها أن تسافر مع زوجها.

وقوله: ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر من بعيد أصل آنس مشتقة من الأنس وهو زوال الوحشة ولكنها تأتي بمعنى الإبصار بالشيء؛ لأنك إذا أبصرت الشيء وعرفته زال عنك ما تخشاه فمعنى أنس أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بالضم جبل وجانب ما معناه: جهة. يعني من جهة الطور آنس ﴿نَارًا﴾ وهذه النار ليست نارًا حقيقية ولكنها نور تشبه النار لما أبصر هذه النار وكان الزمن زمن شتاء والظاهر والله أعلم أن الليلة كانت في غيمة وأن موسى - عليه الصلاة والسلام - عنده نوع من الاشتباه في الطريق كما تدل عليه القصة ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ قال: لأهله امكثوا أقر المؤلف قبل قليل أن المراد بأهله الزوجة وهنا قال لأهله امكثوا وامكثوا خطاب لجماعة؛ لأنه لو قال لواحد لقال: أُمكُثي فهو لجماعة فما هو المخرج من هذا الإشكال إذا قلنا: أن الأهل هي الزوجة فقط قال بعض المفسرين: إنه اصطحب معه خادمًا وقال بعضهم أيضًا: إنه ولد له منها بناءً على أنها سلمت له من أول العقد وبقت معه ثماني أو عشر سنين فولدت فعلى هذا يكون الخطاب امكثوا الجماعة مطابقًا للواقع؛ لأن معه زوجة وخادمًا وولدًا؛ لأنهم جماعة، وهذا ليس ببعيد؛ لأنه قد جاء في العادة أن الإنسان إذا سافر لاسيما في هذا الحال أن يصطحب معه من يخدمه.

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ لعل هنا للترجي؛ لأنه يتمنى أن يحصل له هذا الأمر ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ آتي هنا فعل ماض أم فعل مضارع؟ فعل مضارع آتيكم وأصلها أأتيكم بمعنى: أجيئكم، آتي اسم فاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ فهنا أتي لا تصلح اسم فاعل؛ لأنه هنا يريد الفعل لا أن يبين أن المتصل بالإتيان يريد الفعل، والدليل أنك لو حولتها إلى معناها لقلت: لعلي أجيئكم، فأجيئكم واضح أنها فعل مضارع فليس هنا اسم فاعل.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من هذه النار ومعلوم أن النار نفسها لا تعطي خبرًا ولكن المراد من عندها؛ لأن النار عادةً لا تشتعل إلا وعندها أُناس، وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ المؤلف يقول: [عن الطريق وكان قد أخطأها] وهذا ممكن أن يكون وممكن أن يكون أعم من الطريق وعمّا بقي من مسافة وعن كل شيء خبر نكرة وقوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يقول: بتثليث الجيم «بجِذوة، وبجَذوة، وبجُذوة» وإذا قالوا: مثلث أو بتثليث فمعناه: أنها تجوز فيها الحركات الثلاث أما إذا

قالوا: بها مثلثة هذه غير المثلث ولماذا المثلثة؟ الثاء يعني: عليها ثلاث نقاط، فإذا جاء بالمثلثة يعني: بالثاء يعني: لا بالتاء، وإذا قيل: بتثليث كذا، فالمعنى: يجوز فيه الحركات الثلاثة ما هي الجذوة؟ قال: هي قطعة أو شعلة يعني معناه يأتي بعود في طرفه نار مشتعلة هذه جذوة.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعل هذه للتعليل أو لأجل أن تصطلوا؟ مر علينا أن لعل لها عدة معاني: الترجي والإشفاق والتوقع والتعليل، هذه معاني لعلَّ، قال: [﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون]؛ لأن الصَّلْي معناه: الاحتماء بالنار فالاصطلاء إذن معناه الاحتماء بها وهو الاستدفاء وهذا دليل على أنهم كانوا في برد، والطاء بدل من تاء الافتعال هذه علة تصريفية وما هي تاء الافتعال؟ التي تدل على فعل الشيء اصطلى أصلها ا صتلى وتصطلون أصلها تصتلون مثل تبتغون ولكن القاعدة التصريفية في اللغة العربية أنه إذا وقعت تاء الافتعال بعد الصاد تقلب طاء ويقال اصطلى بدل اصتلى ويقال: تصطلون بدل تصتلون وهي مأخوذة من صلي النار بكسر اللام وفتحها صلى النار إذن من صلي كرضي أو من صلى كرمى ففيها لغتان في القرآن الكريم ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] من أي البابين من رضي يرضى، أو رمى يرمي من رضي، لو كانت من رمى لكان لا يصلِها كما يقال: لا يرمِها إذن فالقرآن يدل على ما قدَّره المؤلف من أنها بكسر اللام أفصح ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢] يصلى ولم يصلِ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ﴾ لما أتاها يعني: جاء إلى النار ووصل إليها] ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، ﴿نُودِىَ﴾ النداء هو دعاء الشخص بصوت مرتفع، والمناجاة: المسامرة بصوت منخفض وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فموسى نودي من بعد ثم قرب فنُوجي، وقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ كلمة نودي مبنية للفاعل أم للمفعول فمن الذي ناداه؟ الله كما في آية أخرى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦] فهنا حذف الفاعل للعلم به؛ لأنه معلوم أن الذي ناداه هو الله بدليل ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾ شاطئ الشيء: جانبه ومنه شاطئ النهر، شاطئ النهر يعني: جانب النهر، وقوله: ﴿ٱلْوَادِ﴾ مجرى الماء يعني مجري الشيء يسمى واديًا؛ لأنه فيه جمع والودي الجمع فعليه يكون مجري الشيء واديًا وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ كلمة الأيمن صفة للشاطئ؟ الدليل أن الوادي له شاطئان لكن ما عندنا واديان أحدهم أيمن والثاني أيسر ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ فإن كلمة الأيمن صفة لشاطئ أو من الشاطئ الأيمن يقول المؤلف: لموسى معلوم؛ لأنه المنادى هو أمام الوادي أو هو في نفس الوادي الأيمن منه هو الذي على يمين موسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لموسى في البقعة، وما في البقعة؟ أرض، أصل البقعة: الشيء المتميز عن غيره،

ومنها: بقع الماء في الثوب، فالبقع معناه: الجانب من الأرض الذي له مَيزةٌ عن غيره من أشجار، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي التي باركها الله ـ سبحانه وتعالى ـ والبركة كما مر علينا هي الخير الكثير الثابت؛ لأنه مشتق من بركة الماء وبركة الماء تكون مجمع له مع ثبوته فيها، والبركة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وليس شيء مبارك لشخصه بل لما أنزل الله فيه من البركة وقد مر علينا بحث في كون الإنسان يتبرك به يعني: مثلًا زرنا نتبرك بفلان؛ فهل هذا صحيح أم لا؟ إن كان المراد البركة الشخصية فهذا ليس بصحيح إلا للنبي ﷺ وإن كان المراد بالبركة ما يحصل منه من منافع علمية أو مالية فإن هذا صحيح فإن بعض الناس قد يكون مجلسه مبارك ينفع الحاضرين إما في الذكر وإما في العلم وإما بالمال وإما بالآداب والأخلاق هذه بركة لا شك وبعض الناس يكون مشئوم على جليسه كما أن من الناس أيضًا من يكون مفتاحًا للخير ومغلاقًا للشر ومنهم من يكون العكس.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ قيدها المؤلف قيدًا حسنًا مباركة لموسى فهي مباركة في ذلك الوقت بالنسبة لموسى أما بعد ذلك فليس لها صبغة دينية وليست مقدسة بعد ذلك؛ لأن هذا خاص في وقت تكليم موسى ومنه أيضًا غار حراء بالنسبة لرسول ﷺ مبارك لرسول الله حين نزول الوحي عليه فيه أما بعد ذلك فليس له صبغة دينية، ولهذا من البدعة أن الإنسان يذهب إلى غار حراء ليزوره متعبدًا وكذلك غار ثور أما إذا كان يزوره إطلاعًا فقط فإن هذا لا بأس به ولا حرج؛ لأنه لا يريد التعبد ومنه أن هذه الأماكن التي لا يثبت لها قدسية عامة تكون قدسيتها خاصة متى؟ في حينها فقط، ولمن هي؟ له أيضًا وأما لغيره فلا يكون لها هذا الحكم.

ومن أحسن ما مشى عليه المؤلف تقريره هنا لموسى لسماعه كلام الله فيها ولا شك أن الاستماع إلى كلام الله ـ عز وجل ـ لا يشبهه أي استماع؛ لأن الإنسان يجد فيه من لذة المناجاة ما لا يجده في مناجاة أي أحد لأنه أحبُّ شيء إلى الإنسان، ومعلوم أن الإنسان إذا خاطب محبوبه صار أشد تلذذًا بكلامه معه مع أن كلام الله لا يشبه كلامًا لسماعه كلام الله فيها وكلام الله سميعه من الله أم من الشجرة؟ سميعه من الله حين تكلم به وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وخالف في ذلك الأشاعرة فقالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس وأن ما يسمع مخلوق خلقه الله ـ عز وجل ـ ليعبر به عن ما في نفسه وعلى هذا فيكون موسى ما سمع كلام الله إنما سمع عبارة عن كلام الله، وخالف في ذلك أيضًا المعتزلة والجهمية وقالوا: إن كلام الله مخلوق يخلق سبحانه وتعالى فيما أراد إما في جبريل وإما في الشجرة وإما في الأرض فتسمع هذه الأصوات فيُنسَب إلى كلام الله فينسب الكلام إلى الله من باب التشهير والخلق والتكوين وعندما نمحص الأمر نجد أنه لا فرق بين الأشاعرة والمعتزلة في هذا الباب والسبب أن الكل متفقون على أن ما يسمع فهو مخلوق فليس هو

كلام الله وفي الحقيقة لا فرق بينهما لكن الأشاعرة تلطفوا في الأمر وقالوا: إن الكلام معنى قائم في النفس يعبر عنه بالأصوات وهذا أكبر المتكلم يطلق ما يدل عليه ولا ريب أن مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب الصحيح الموافق للعقل والنقل يقولون: إن كلام الله يسمع من الله وأنه أي كلام الله بحرف وصوت أما الحرف فهو ما يتكلم - تبارك وتعالى - من ما يستعمله الناس في نطقهم وأما الصوت لا يشبه أصوات المخلوقين وهو - سبحانه وتعالى - إذا تكلم بالوحي صرخت الملائكة وارتجفت السماوات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قال: [﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ لإعادة الجر لنباتها فيه] ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هنا تخصيص بعد تعميم أو بعد تخصيص هنا عندنا الآن تخصيص بالنسبة لجانب الشاطئ وما التخصيص فيه؟ أنه الأيمن وفيه أيضًا تخصيص أخر بالنسبة للشاطئ وهو أنه من الشجرة وهو من الشجرة أو من ناحيتها وليس أن النداء من الشجرة المعتزلة يقولون: أن النداء من الشجرة وأن الشجرة خُلِقَ فيها صوتٌ سمعه موسى على أنه كلام الله ولكن المراد من الشجرة أنه من ناحيتها وجهتها بدليل: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هل يمكن أن تقوله الشجرة؟ لا يمكن أن تقوله، ولو قالت الشجرة: إني أنا الله رب العالمين لقال لها موسى: كذبتي ولكن الذي يقول ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وقوله: [النباتها فيه] وهي شجرة رمان أو عوسج أو هذا لتنويع الخلاف ولكن لا يهمنا نحن أن تكون هذا أو هذا، المهم أنها شجرة نودي منها - عليه الصلاة والسلام - والنداء أن مفسرة لا مخففة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أن مفسرة والمفسرة هي التي بمعنى أي، وهي التي تأتي مفسرة لما فيه معنى القول دون حروفه ولماذا بما فيها دون حرفيه؟ يعني: الكلمة فيها معنى القول لا حروف القول، النداء فيه معنى القول أم حروفه؟ معناه ما فيه قيل له بل فيها نون فتكون مفسرة ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أن هذه مفسرة أم مخففة؟ مفسرة؛ لأنها أتت بما فيه معنى القول وهو الإيحاء دون حروف القول يعني مثلًا لو قال له: قيل له أن يا موسى ما تكون في معنى المفسرة؛ لأن فيها حروف القول لكن نودي تكون الآن مفسرة؛ لأن فيها معنى القول ولهذا سميناها مفسرة؛ لأنها فسرة النداء بالقول؛ لأن مكتوبها أن يا موسى أني أنا الله مفهومها قول يا موسى إني أنا الله هذا قول ولهذا يقول: أن هذه مفسرة؛ لأنها فسره معنى الفعل المتضمن القول دون حروف القول وقوله: لا مخففة، مخففة من الثقيلة فلا تصح أن تكون مخففة لأنه ينطبق عليها معنى التفسيرية وأيضًا المخففة تحتاج إلى تقدير الذي يقدر الاسم والأصل عدم التقدير وقول المؤلف: [إنها مُخَفَّفة] أشار إلى نفيه؛ لأن بعض المعربين يقولون: إنها مخففة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: الذي يخاطبك

﴿أَنَا اللَّهُ﴾ فبدأ بالألوهية؛ لأنها هي المقصود وقال: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثنَّى بالربوبية؛ لأن الربوبية في الحقيقة وسيلة إلى الألوهية، ولهذا من أقرَّ بالربوبية لازمه أن يُقِرَّ بالألوهية وإلا كان متناقضًا، والله تعالى يحتج على المشركين بالألوهية يحتج عليهم دائمًا بإقرارهم بالربوبية؛ لأن من أقر أن الله ربه فإنه يقال: له إذن يجب أن تعبد هذا الرب إذا عبدت معه غيره فإنك لم تصدق في إقرارك بربوبيته فهما متلازمان، فلهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فجعل الخلق الذي هو من مقتضى الربوبية جعله دليلًا ملزمًا لعبادته ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ أنا ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة وهذا ما يعني لو قال: إني الله ما اشتبه الأمر فالظاهر لي أنها مبتدأ إني أي المتكلم أنا الله كما قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فهي مبتدأ والله خبره وجملة المبتدأ والخبر في محل رفع خبر إن وقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر ثانٍ لأنا و﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ما معنى الرب؟ الرب هو الخالق المالك المدبر لجميع الأشياء وقوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ المراد به: من سوى الله وجمعهم باعتبار أصنافهم والذي في العالم كله من سوى الله فهو عالم لكن جمعوا عالمين؛ لأن هناك مثلًا عالم الإنس، عالم الجن، عالم البهائم، عالم الملائكة؛ أي: جُمِعوا باعتبار أجناسهم وهذه الربوبية عامة، وقد مر علينا أن الربوبية تنقسم إلى عامة وخاصة كما أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ - ٤٨]، قوله: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه العامة ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ هذه الخاصة.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ نودي أن يا موسى يعني ونودي أيضًا أن ألقي عصاك على الأرض هي عصاك لماذا استصحبها؟ ماذا قال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ مأرب أخري ما ذكرها ما هي المأرب؟ إذا يدافع بها عن نفسه لكن جانب المصالح قال أتوكئ عليها وأهش بها على غنمي وأما جانب دفع المفاسد فأجمله في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ وهذا في الحقيقة من الأدب في النطق وتجدون أن صفات الله - سبحانه وتعالى - في مقام الإثبات يؤتي بها بالتفصيل وفي مقام النفي يؤتي بها بالإجمال غالبًا قال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك كأنها جان [وهي الحية الصغيرة] من سرعة حركتها على وجه التشبيه ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها قوله: ﴿فَلَمَّا رَآهَا﴾ أبصرها وعلى هذا فيقينه في جملة ﴿تَهْتَزُّ﴾ في موضع نصب حال الحال وليست مفعولًا ثانيًا؛ يعني: رؤية البصرية ما تنصب إلا مفعول واحد ولجواب لما فلما رآها تهتزُّ ولَّى مُدبِرًا، وقوله: تهتز يقول: [تتحرك] لكن الاهتزاز نوع من الاضطراب وتعرفون الحية تتحرك يمينًا ويسارًا.

وقوله: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ هذا للتشبيه يعني كأنها في هيئتها وفي حركتها يعني: في ذاتها وفي حركتها

جان قال: [وهي الحية الصغيرة] هذا هو الجان ووجه المشابهة الحركة وسرعة الحركة ولكن المؤلف فسر الجان بأنها الحية الصغيرة والله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧] ثعبان الذكر من الحية الكبيرة فما الجمع بينهما؟ قال: إن الجمع بينهما أن أول ما ألقاها صارت كالجان ثم بعد ذلك تضخمت حتى كانت ثعبانًا مبينًا.

﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها ومدبرًا هذه حال ويسمونها حالًا مؤكدة؛ لأن التولي معناه الإدبار فهي حال مؤكدة لعاملها؛ إذ أن معنى الإدبار مفهوم من قوله: ﴿وَلَّىٰ﴾ ولكنها جاءت لتأكيد وقوله: ﴿مُدْبِرًا﴾ يعني: ولَّاها دُبُرَهُ، ولهذا قال المؤلف: [هاربًا] لأن الهارب ما يمشي إلى جنب وإنها يمشي على العكس عندما تهرب أولًا عندما تنصرف عن الشيء لكن إذا كنت هاربًا حيث تولي جنبك وتمشي باتجاه جانب، أو باتجاه مُعاكِس، ولهذا قال: [ولم يعقب أن يرجع؛ لأنه انصرف] ولكن الله يقول: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ ولهذا ينبغي أن نقف على قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لأننا لو وصلنا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لظنَّ الظانُّ أن الكلام واحد، ولكن الكلام انفصل ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ أقبل في مقابل التولي ولا تخف مقابل الهرب؛ لأن الهارب يكون خائف ثم طمئنه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾؛ لأن الآمِن لا يخاف، وإنها يخاف من ليس عنده أمن، وهنا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ ولم يقل: إنك آمِن؛ بل قال: من الآمنين فما وجه البلاغة في هذا؟ مراعاة الفواصل لكن هذا مناسبة لفظية، ليتذكر أن هناك آمِنِيْن فإنه لا غرابة أن تأمن؛ لأن الإنسان إذا ذكر بما حدث لغيره صار أشد طمأنينة في حصول ذلك الشيء ونظيره بالعكس قول فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ولم يقل: لأسجننك لأجل أن يرهبه بأن عنده من هو مسجون وأنه ليس يعجزنا أن نسجنك والحاصل أن مثل هذا يقال لأجل أن يتذكر موسى - عليه الصلاة والسلام - أن هناك أناسًا آمنين فيأمن أكثر منها[1].

قال الله تعالى:

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا

(١) الآياتان (٣٢، ٣٣) تعذر سماعها.

جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٤-٣٦]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ هل ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، أو ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿أَفْصَحُ﴾ خبر؟ الأخير هو الأوجه؛ لأن ضمير الفصل لا يكون إلا إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين؛ لأنه في هذه الحال يلتبس الخبر بالاسم، أما إذا كان الخبر نكرة - كما هنا -، فإنه يُجعَل مبتدأ.

قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ﴾ أخوه من أمه وأبيه، وأما قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]، فإنهم ذكروا أنه نسبةً إلى أمه؛ لأنها أشفق من الأب، فذكَّره بأمه لكونها أشفق ليُشفِق عليه.

قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أفصح بمعنى: أبْيَن مني، وقوله: ﴿لِسَانًا﴾ أي: كلامًا، وعبَّر باللسان عن الكلام؛ لأنه آلة الكلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: بنطقهم ولغتهم.

وقوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لماذا؟ قيل في الإسرائيليات: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان في لسانه لثغةٌ من جمرة أخذها وأكلها، فرعون أراد أن يقتله، فقالت امرأته: إنه طفل لا يدري ولا يعرف، فإذا أردت أن تختبره فأعطِه تمرة وجمرة، فقدَّم إليه التمرة والجمرة، الجمرة رؤيتها أجمل من التمرة، فأخذ الجمرة ووضعها في فمه، فانعقد لسانه، وهذه إسرائيلية إسرائيلية؛ لأن هذا غير ممكن؛ لأنه إذا أراد أن يأكلها وأخذها ما يستطيع أن يضعها في فمه، ولكن هذا من الخِلقة التي خلق الله موسى عليها، ولهذا طلب موسى من الله أن يحُلَّ هذه العُقدة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧- ٢٨]، وبعض الناس يكون في لسانه فأفأة، وبعضهم يكون في لسانه تأتأة، وبعضهم ما يكون فيه هذا ولا هذا ولكن ما يستطيع أن ينطق؛ تراه قد عُقِد لسانه في صفة الحروف أو في النطق بالحرف، كل هذه من العُقَد، وصفة الحروف أنه ما يستطيع أن يُخرِجه على الوجه الأكمل.

فالصواب: أن هذه العُقْدة التي بموسى عليه الصلاة والسلام أنها من أصل الخِلْقة، وليس هناك جمرة ولا شيء.

قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [مُعينًا، وفي قراءة بفتح الدال بلا همزة] كيف نقول: رِدًى.

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ فهِم موسى عليه الصلاة والسلام أن الله أرسله إلى فرعون من قوله:

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، ولهذا قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ لما عرف أنه رسول.

وقوله: ﴿مَعِيَ﴾ المعية بمعنى: المصاحبة والمقارنة، وهي في كل موضع بحسبه؛ أي: بحسب ما تُضاف إليه، وتقتضي في كل موضع غير ما تقتضيه في الموضع الآخر، فالرجل إذا قيل: معه زوجته ليس مثل ما إذا قيل: القائد معه جنوده، بينهما فرق، وكذلك إذا قيل: اللبن مع الماء؛ يعني: امتزج مختلطًا به.

وهنا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ غير معية الزوج لزوجته، ومعية اللبن للماء، ولكنها مصاحبة يُراد بها: التأييد، وهو: النصر، ولهذا قال: ﴿رِدْءًا﴾ والرِدْء هو: المعين.

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ ما معنى يُصدِّقني؟ أي: يكون مُصدِّقًا لي أمامهم حتى يقوى قولي لهم ويكون صدقًا، وليس المعنى أنه يقول: أنت صادق، ولكن إذا قوَّى كلامُه كلامي صار ذلك مُوجِبًا لتصديقي.

قال: [بالجزم جواب الدعاء، وفي قراءة بالرفع، وجملته صفة رِدْءًا] بالجزم نقول: يُصدِّقْني تكون جوابًا للدعاء، وأين الدعاء؟ أرسِله معي، وهو واضح؛ يعني: إن أرسلتَه صدَّقني، وفي قراءة أخرى سبعية؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: وقُرِئ فهي شاذة.

قال: [وجملته صفة رِدْءًا] يعني: رِدْءًا مُصدِقًا لي؛ يعني: هذا هو تصديقه.

الفائدة من القراءتين؛ لأنه تترتب من القراءتين فائدة، وهي: أن قوله: يُصدِّقْني إذا كانت جوابًا فإن معناه: أنه يحصل به التصديق، وإذا كانت صفة فالمعنى: أنه يحاول أن يُبيِّن للناس أنه صادق، فتكون قراءة الرفع على سبيل السبب، وقراءة الجزم على سبيل النتيجة، فيكون هارون فاعلًا مُؤثِّرًا.

قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ الضمير في ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ ضمير الواو يعود على فرعون وملئه، و﴿أَخَافُ﴾ بمعنى: أتوقَّع وأخشى، وليس خوف الرُّعب؛ لأنه ما في رُعب، ولكنه يتوقَّع ذلك ويخشاه.

وقوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فيها إشكال من حيث الإعراب؛ لأن المعروف أنَّ (أنْ) إذا دخلت على الأفعال الخمسة حُذِفَت النون، وهنا فيها نون، والجواب: أن هذه النون نون الوقاية، وليست من الإعراب، ولهذا تُشاهدونها الآن مكسورة، إذن أصله: أن يُكذِّبونني، فحُذِفت نون الرفع لأجل النصب، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، ونظيرها: قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] إذا وقفت عليها فبالسكون، فيفهم الطالب المُبتدئ الذي ما عنده معرفة كبيرة أنه هنا بقيت النون مع وجود لا الناهية، ويجب حذفها، ولكن

نقول: هذه النون في الآية نون الوقاية بدليل أنك لو وصلتَ لكسرتَها، فقلتَ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝ فَوَيْلٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [نُقوِّيك] الشد بمعنى: التقوية، والعضُد هو: العظم ما بين الكتف والمرفق في عظم الذراع، وشد العضُد كناية عن التقوية؛ لأن اليد هي آلة العمل، فإذا شُدَّ عضُدُه صار قويًّا، والمعنى: أننا سنُقوِّيك ونُؤيِّدك بأخيك هارون، أجاب الله طلبَه أم لا؟ أجاب طلبَه، وقال: ﴿سَنَشُدُّ﴾ والسين للتنفيذ، وتفيد التأكيد والتقرير، تأكيد الشيء وتقريره أنه سيكون عن قُرب.

قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ ولا شك أنه إذا قال الله له ذلك معناه أنه سيتقوَّى الآن؛ لأن الله وعده لا أن يُرسِل هارون معه فقط؛ بل سيكون مُعينًا له على هذا الأمر.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [غلبةً] وهذه بُشرى ثانية لهما جميعًا، نجعل: نُصيِّر لكما سلطانًا، والمراد بالسلطان هنا يقول المؤلف: [غلبةً]، والسلطان في القرآن يأتي بمعنى: الغلبة والقدرة، ويأتي بمعنى: الدليل؛ لأن الدليل يتقوَّى به الإنسان ويكون له به قوة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] ما معنى سلطان؟ يعني: ما عندكم دليل بهذا، وقوله: ﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بقوة وغلبة، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] أي: سيطرته وغلبته.

هنا يقول: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ يقول: [غلبةً] فهو من القسم الثاني ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ قال: [بسوءٍ] والمعنى: لا يصِلون إليكما بسوءٍ، فما خِفتَ منه فإنه سوف ينتفي بما جعل الله لكما من تأييد، وهذه بُشرى لهما وتقوية، وهي نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

قال المؤلف: [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] كأن المؤلف يرى أن قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ منفصل عن قوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ولهذا قدَّر لها فعلًا تتعلَّق به، فيكون على هذا التعليل الوقوف على قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ونبدأ فنقول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا﴾.

المؤلف قدَّر [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] ثم قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، والآية على حسب تقدير المؤلف: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بسوء اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لأنه قدَّر [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] ولا يصح أن نقول: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ تابعة لها؛ لأن من اتبعهما لم يذهب بالآيات، هذا وجه.

وجه آخر: يقولون: إن قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يتعلق بـ (نجعل) ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا؛ أي: بسبب آياتنا نجعل لكما السلطان فلا يستطيعوا الوصول إليكما ولا إبطال دعوتكما، وعلى هذا يحتاج إلى تقدير الآية أم لا؟ ما يحتاج، وهل نقف على قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أو نصِل؟

نصِل، فيكون القراءة: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بسبب ما معكما من الآيات، وهذا المعنى هو الصحيح:

أولًا: لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأن التقدير لابد أن يسبقه مرتبتان: المرتبة الأولى: إثبات أن في الكلام حذفًا، والمرتبة الثانية: إثبات أن تقدير المحذوف هو ذا؛ يعني: تعيين المُقدَّر؛ لأنه على فرض أن الآية تحتاج إلى تقدير فإنه قد يُنازَع ويقال له: لا نُسلِّم أن تقدير المحذوف هو هذا، كل ما يُدَّعى حذفًا في آية فإنه يحتاج إلى شيئين أو مرتبتين: المرتبة الأولى: إثبات أن في الكلام حذفًا، وبأي طريق نعرف هذا؟ إذا كان الكلام لا يستقيم بحذفه علِمنا أن هناك حذف، هذه واحدة.

المرتبة الثانية: إثبات أن المحذوف هو هذا الشيء الذي قدَّرته؛ إذ جائز أن يكون المُقدَّر غيره، وهذا الأخير يُعيِّنه السياق، هو الذي يُعيِّن نوع المحذوف.

إذا كان الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير فالأصل: عدم التقدير.

هذه الآية معناها واضح جدًّا على القول بعدم التقدير، وأن المعنى: نجعل لكما سلطانًا بسبب آياتنا التي معكما فلا يصِلون إليكما، وهذا المعنى أيضًا أوضح مما قدَّره المؤلف وغيره؛ لأنه في الحقيقة هو يقول: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمع، وفي الأول يقول: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ فلم يُعطِها الله سبحانه وتعالى حين أرسلهما إلا آيتين أو آية واحدة؟ آيتين، فالصواب إذن: أن الآية موصولٌ بعضها ببعض، وأننا نقرأ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ ويكون متعلِّقًا بقوله: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا فلا يصلون إليكما.

وزعم بعض المُعرِبين أن قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلق بـ ﴿الْغَالِبُونَ﴾ وهذا في المعنى قريب مما ذكرنا؛ يعني: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، والغالب بالآيات هو الذي جُعِل له بها سلطانًا، وقيل على هذا: فلا يصلون إليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، وهذا لا شك أنه أحسن من تقدير المؤلف؛ لأنه ما يحتاج إلى حذف، ولأنه يُوجِب أن يكون الكلام بعضه متصلًا ببعض.

لكن هناك محذوف من حيث القواعد، وهي: أن ﴿الْغَالِبُونَ﴾ اسم فاعل، و(ال) المتصلة باسم الفاعل اسم موصول، والمعروف أن اسم الموصول لا يعمل ما بعده في ما قبله، فحينئذٍ نحتاج إلى جواب عن هذه القاعدة.

الجواب: قالوا: إن (ال) هنا ليست اسمًا موصولًا، وأنها كأل الداخلة على الاسم الجامد، إذن في هذا التقرير فيه قاعدة من المعروف من القواعد النحوية، نرجع الآن إلى أن الصواب: أن نجعل قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ونسلم من كل ذلك؛ من المخالفات، ومن التقديرات، ومن تعيين المُقدَّر.

وقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ فيه دليل على أن الله سبحانه وتعالى أعطى موسى وهارون آيات، وقد ذكر في سورة أخرى أنه أعطاه تسع آيات ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَٰتٍۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ ممن؟ من بني إسرائيل ومن آل فرعون؛ لأن من آل فرعون من اتبعهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨].

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ فيه دليل على أن الإنسان يُنصَر ويغلب باتباع الرسل، وأنه لا طريق إلى النصر والغلبة إلا الدخول في طريق الرسل واتباعهم، وعليه فيكون هذا قاعدة: كل من كان للرسول أتبع كان إلى النصر أقرب، وكل من كان عن اتباع الرسول أبعد كان عن النصر أبعد؛ لأنه من المعلوم في القواعد المُقرَّرة: أن الحكم إذا عُلِّق بوصف كان ثُبوته قوةً وضعفًا، ووجودًا وعدمًا بحسب ذلك الوصف؛ مثلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] معيته للصابرين قوتها وضعفها بحسب ما معه من الصبر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: ١٢٨] فتكون المعية للمتقين قوةً وضعفًا بحسب تقواهم، وهكذا.

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ الغالبون لمن؟ يقول المؤلف: [لهم] والحقيقة نعم الغالبون لهم؛ لأن المقام يقتضيه، لكنا إذا أردنا أن نأخذ ذلك على سبيل العموم نقول: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ للمخالفين، فأتباع الرسل غالبون لمن خالفهم دائمًا وأبدًا؛ بل إن هذه الأمة لها مزيَّة على غيرها، قال النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» لو كنا متبعين لهذا النبي ﷺ على وجه الحقيقة لكان عدونا مرعوبًا منَّا مسيرة شهر، لكننا لم نكن متبعين للرسول ﷺ على وجه الحقيقة، ولذلك صار بأسنا بيننا.

قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [واضحات حال] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: آل فرعون ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يقل: وهارون؛ لأن الرسالة في الأصل لموسى، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الباء للمصاحبة؛ يعني: مصحوبًا بالآيات، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جمع آية، وهي العلامات، وأُضِيفت إلى الله إضافة العطية إلى مُعطيها؛ لأن هذه الآيات ليست آيات على الله، لكنها آيات منه على رسالة موسى، وموسى يريد منها: إثبات أن الله وحده هو إله الحق.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ قال المؤلف: [واضحات] وقال في إعرابها: [حال] من آيات، ولا يصح أن تكون صفة؛ لأن آيات معرفة، وبينات نكرة، ولا تُنعَت المعرفة بنكرة؛ بل إذا جاءت النكرة بعد المعرفة وهي وصف لها أُعرِبَت حالًا.

وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ إقامة للحجة؛ لأن الآية هي علامة، وكلما كانت أظهر كانت الحجة أقوى، فموسى - عليه السلام - جاءهم بالآيات البينات، فأي جواب كان منهم؟ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [مُختلَق]، ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: الذي جئتَ به يا موسى ﴿إِلَّا سِحۡرٞ﴾.

وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ ما هو هذا السحر؟ العصا واليد، هذا إذا قلنا: إنه يعود على

الآيات الحسية، فإن قلنا: إنه يعود على الآيات المعنوية، وهي: البيان، فإن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

وقوله: ﴿مُّفْتَرًى﴾ [مُختلَق] وصف الافتراء للقول واضح، لكن وصف الافتراء للعصا والسحر؛ لأن السحر لا يقلب الأشياء حقيقة، ولكنه يقلبها تخيُّلًا بحسب ما يتخيله المرء، فيكون هذا التخييل مطابقًا للواقع أو مخالفًا للواقع؟ مخالفٌ للواقع، وكل ما يخالف الواقع فهو مُفترى، فالافتراء هنا إن وُصِف به ما قالاه من الرسالة فهو واضح؛ لأن نسبة الافتراء إلى القول أمر معروف، لكن إذا وُصِف به ما جاء به من الآيات الحسية؛ كقلب العصا، وإخراج اليد بيضاء، فكيف نقول: إنه مُفترى؟ لأن السحر لا يقلب الأمر عن حقيقته، فيكون ظهوره بغير الحال التي عليها من باب الكذب، ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

[﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ كائنًا ﴿فِيٓ﴾ أيام ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾]، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ المُشار إليه: ما جاءا به من الرسالة؛ لأنها هي المسموعة؛ لأن آية اليد والعصا فهي مُشاهَدة مرئية.

وقوله: ﴿بِهَٰذَا﴾ قال المؤلف: [كائنًا] أشار به إلى أن مُتعلَّق الجار والمجرور ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ محذوف تقديره: كائنًا، وكائنًا هنا على تقدير المؤلف مفعول ثانٍ أو حال؟ حال من اسم الإشارة، وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في زمانهم، ولهذا قال: [﴿فِيٓ﴾ أيام ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾] أي: السابقين، وكلامهم هذا صحيح أو لا؟ لا، إذن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر كذب، فهم كاذبون في هذه الدعوى، ثم على فرض أن الدعوى صحيحة وأنهم ما كذبوا هل كون هذا لم يوجد في الأولين يقتضي أن يكون باطلًا في الآخرين؟ لا؛ لأن الحق إذا جاء وجب قبوله، سواء كان موجودًا في الأولين أم غير موجود، فهذه الجملة إذن مُركَّبة من كذب وباطل، أما الكذب: فإن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كذب؛ لأن مؤمنهم أقام عليهم الحُجَّة، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

وأما كون الحجة باطلة على تقدير أنها صحيحة قولًا، إلا أن عدم وجود ذلك في الأولين لا يقتضي بطلان وجوده في الآخرين، فإن الله تعالى فعَّال لما يُريد، وما دامت الآيات بينات فقد قامت الحجة.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كيف يكونون أولين وهم آباؤهم؟ لأن الأب يُطلَق على الأب المباشر، وعلى الجد وإن علا، قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعقوب هو المباشر، وإسحاق جدُّه، وإبراهيم جدُّ أبيه سماهم آباءه، وهذا وإن كان فيه ترتيب لكن ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ما فيها ترتيب؛ يعني: ما فيه أب مباشر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾:

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية:** جواز تقديم العذر عند الأمر بشيء يظن الإنسان فيه أنه غير مستطيع أن يفعله حتى في طاعة ولي الأمر؛ لأن طاعته واجبة لازمة، فإنه لا بأس من تقديم العذر لأجل أن يتخلص الإنسان من هذا الأمر، كما كان الصحابة يقدمون للنبي العذر إذا تعذر عليهم أمر.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الخوف الطبيعي لا ينافي مقام الرسالة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

٣- **ويستفاد منها أيضًا:** أن القصاص موجود في الأمم السابقة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ لأن قولهم هذا على سبيل القصاص، أو على سبيل العدوان، ولو أننا طبقنا الآية على النظام الإسلامي لكان لا قصاص؛ لأنه لايقتل مسلم بكافر، فنقول: هذا إما أن يكون من أجل أن القصاص كان مشهورًا بينهم، أو أنه كان يخشى أن يعتدوا عليه بالقتل، وإن لم يكن ذلك فبالحبس.

قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

١- **يُستفاد من هذا:** بيان المنة الكبرى من موسى لأخيه؛ حيث سأل الله تعالى أن يُرسله معه، ولهذا يقال: أعظم هدية أهداها قريبٌ لقريبه من موسى لهارون؛ لأنه سأل الله أن يُرسله معه ومقام الرسالة مقام عظيم لا يناله إلا من اصطفاهم الله لهذا المقام.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنه يجوز للإنسان أن يستعين بغيره في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾.

٣- **ومنها أيضًا:** أن هذا الأعوان من أسباب النجاة، وهذا أمر معلوم من قديم الزمان وحديثه أن كل ما كان الإنسان معه من يُعينه ويساعده كان ذلك أقرب إلى نجاحه من انفراده.

٤- **ومنها:** أن الفصاحة لها تأثير قوي في القبول أو الرفض، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»، لقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

٥- **ومنها:** فضيلة موسى عليه الصلاة والسلام بإقراره الفضل لأخيه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ لأن من الناس من يكون ناطقًا ولكن لا يستطيع أن يُعبِّر.

٦- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعي أن يذكر مبررات دعوته؛ لأن قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ هذا من مُبرِّرات دعوته وسؤاله ربه تعالى أن يرسله معه، وهو: أنه أفصح منه لسانًا، وهذا معروف في مثل هذه الأمور أن الإنسان يذكر مُبرِّرات دعواه.

٧- **ويُستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أن موسى عليه الصلاة والسلام خاف أن يُكذِّبوه

إذا كان وحده، فطلب مزيدًا من العون؛ لأنه كما قلنا: إن الواحد مع الواحد يكون أقوى في الحجة.

٨ـ **ومنها أيضًا:** أن الخبر يزداد ثبوتًا بتعدُّد المُخبرين.

وقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

١ـ **من فوائد الآية الكريمة أن فيها دليلًا على:** فضل الله سبحانه وتعالى على عبده؛ حيث إن الله أجاب دعوة موسى قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها أن فيها دليل على:** أن الله أعطى موسى أكثر مما سأل؛ لأنه قال: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فأعطاه الله أكثر من ذلك بأن يُقوِّيه به؛ لأن التصديق معناه: الخبر بأنه صادق، لكن التقوية أبلغ، ولهذا قال: سنشد عضدك بأخيك.

٣ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله سبحانه قد يمُنُّ على العبد فيجعل له سلطانًا بما آتاه من العلم، لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾، ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

٤ـ **ومنها:** أن العلم سلاح؛ لأن السلطان معناه: القوة والغلبة، فإذا كان سببه العلم كان ذلك دليلًا على أن العلم سلاح من أعظم ما يدافع به الإنسان ويهاجم أيضًا.

٥ـ **ومنها أيضًا:** حماية الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون، لقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وهذا نظير قوله: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

٦ـ **ومنها أيضًا:** أن التمسُّك بشريعة الله سببٌ للغلبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ كل من اتبعهما.

٧ـ **ومنها أيضًا:** أنه إذا كان هذا في بني إسرائيل أن من اتبع الرسل فهو الغالب، فمن اتبع النبي عليه الصلاة والسلام من باب أولى، فمن اتبع النبي ﷺ فإنه غالب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨] ما معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾؟ يُعلِّيه؛ لأن الظهر والظهور كلها تدل على الغلبة.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

١ـ **يُستفاد منه:** أن موسى ﷺ نفَّذ ما أرسله الله به.

٢ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن الآيات التي يرسل الله بها الأنبياء تكون مُبيِّنة واضحة لئلا يكون للمدعوِّين حُجَّة، فإن الله تعالى أرسل بآيات بينة واضحة، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»، فلابد أن تكون الآيات مُبيِّنة واضحة لئلا يبقى للناس حُجَّة.

٣- **ومنها أيضًا:** أن الآيات التي أرسل الله بها موسى ليست واحدة ولا اثنتين؛ بل هي آيات متعددة يؤمن على مثلها البشر.

٤- **ومن فوائدها:** أن دعوى المكذبين للرسل ما تكون إلا من نوع المخاطرة، فإن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هل يقتضي رد الحق أو لا؟ لا، ما يقتضي رد الحق، ما سمعتموه أخبروه، فليس للإنسان حجة إذا قال لله تعالى: ما سمعنا بهذا.

٥- **ومنها أيضًا:** أن أعداء الرسل يُلقِّبون الرسل بألقاب السوء والعيب، لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ ما عند أعداء الرسل إلا أنهم يُلقِّبونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا كذاب، هذا مجنون، هذا شاعر، وما أشبه ذلك.

إذن نأخذ منه أيضًا فائدة متفرِّعة: أن أعداء الرسل يُلقِّبون من يدعون بدعوة الرسل بمثل هذه الألقاب، فيقولون: رجعيِّين، متأخرين، متزمِّتين، متشددين، متعصبين، وما أشبه ذلك، أو ربما يقولون أكثر من ذلك؛ مثل: ضالين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

المهم: أنه يجب أن نعرف أن هذه الدعوة دعوة الحق لها أعداء، هؤلاء الأعداء الذين قابلوا الرسل بما قابلوهم به سيقابلون من بعدهم بمثل ما قابلوا به الرسل أو أكثر، إذن فالمهم: نُصمِّم أنفسنا على أننا إذا دعونا إلى الله تعالى على حق وعلى بصيرة فسيكون أمامنا من يقول لنا مثل ما قيل للرسل.

المهم: أنه ما دامت الدعوة واحدة فعدوها واحد، وما قيل في الأول يُقال في الثاني.

٦- **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للمرء أن يُثنيه عن قول الحق وصفه بعدم الصواب أو وصفه هو بعدم الصواب؛ لأن موسى هل توقف لما قالوا له هذا الكلام؟ لا؛ بل استمر في الدعوة وفي إقامة الحجة مع أنه هُدِّد بالسجن، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يُبال بذلك، وكذلك ينبغي للداعي إلى الله أن يصبر ما دام يعلم أنه على حق.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٧، ٣٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ [بواو وبدونها] يعني: أنه يجوز أن تقول: قال موسى ربي أعلم، ويجوز أن تقول: وقال، هذه من القراءات النادرة؛ لأن المعروف من القراءات المتواترة ما يكون فيها تغيير كلمة بزيادة حرف.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، قال: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ أعلم هذه اسم تفضيل، واسم التفضيل يدل على الاشتراك في أصل الصفة ثم الزيادة عليها، فإذا قلت: فلان أفضل من فلان، فقد اشترك الاثنان في الفضل وزاد المُفضَّل على المُفضَّل عليه في ذلك.

هنا يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ قال المؤلف: [عالم] فحوَّل اسم التفضيل إلى اسم الفاعل، وهذه جناية عظيمة؛ لأن عالم أدنى بكثير من أعلم، والصواب: أن أعلم على ما هي عليه أنها اسم تفضيل، وأن من علِم بمن جاء بالهدى من عند الله فالله أعلم منه، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن حذا حذوه على ذلك إنما فرُّوا من أن يكون الإنسان مشتركًا مع الله في العلم، قالوا: عالم؛ لأننا لو قلنا: أعلم صار مشاركًا للإنسان في العلم لكن الله أعلم، ولكن عالم ما فيه دليل على المشاركة.

وهذا خطأ؛ لأنكم إذا قلتم: أعلم الآن نفيتم المشاركة؛ لأن الأعلم في درجة لا يصل إليها لا واحد فقط، لكن إذا قلتم: عالم هذا هو الذي فيه التشبيه؛ لأن الله عالم والإنسان عالم ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، فالشاهد: أن كلمة أعلم هي التي تمنع المشاركة بخلاف عالم.

ثم إن فيها دليل واضح على أن كل صفة كمال من الممكن أن يتصف بها الإنسان، فالله تعالى أعلاها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فكل صفة كمال مطلق فلله تعالى منها أكملها.

قال: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضمير يعود للرب، من عنده؛ أي: من عند الله، فإنما أشار المؤلف إلى هذا لئلا يُظنَّ أن الضمير يعود على من جاء بالهدى؛ لقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، ولا يمكن أن يعود إلى (مَنْ).

وقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ ولم يقل: أعلم أني قد جئت بالهدى من عنده؛ بل قال: ﴿بِمَن جَآءَ﴾ لئلا يكون مُدَّعيًا؛ بل يبقى الأمر موكولًا إلى الله منزلًا عليه من جهة العمل.

قال: [﴿وَمَن﴾ عطف على مَنْ قبلها] يعني: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ وبمن تكون له عاقبة الدار، فهو أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، وأعلم كذلك بمن تكون له عاقبة الدار، فهو

يعلم سبحانه وتعالى المبتدأ والمنتهى.

وقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ سمَّى الوحي هدى؛ لأنه يهدي، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فالهدى هو العلم.

وقوله: ﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾ أضافه إلى الله؛ لأن الوحي من الله سبحانه وتعالى وليس من غيره، ولا أحد يأتي بهدى إلا من عند الله.

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ [بالفوقانية والتحتانية] الفوقانية: تكون، والتحتانية: يكون، فهما قراءتان، أما قراءة الفوقانية تكون فالأمر فيها ظاهر؛ لأن ﴿عَٰقِبَةُ﴾ مؤنث، والفاعل إذا كان مُؤنَّثًا يُؤنَّث له الفعل، وأما التحتانية: ومن يكون له عاقبة الدار، وإنما جاز تأنيث الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث مجازًا.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ هذه تكون ناقصة أو تامة؟ هي ناقصة، وخبرها مُقدَّم، وهو قوله: ﴿لَهُۥ﴾، واسمها مؤخَّر، وهو: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قال المؤلف: [أي: العاقبة المحمودة في الدار الآخرة] ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: من يعقُب غيره في الدار، والمؤلف حملها على أن المراد بالدار هنا: الدار الآخرة، ولكن ينبغي أن يقول: إنها عامة؛ الدار الآخرة والدار الدنيا، فإن عباد الله الصالحين هم الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد كانت العاقبة لموسى وقومه حتى في الدار الدنيا، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، فالأولى إذن أن نجعل العاقبة عامة في الدار الدنيا والدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العُقبى فيه بأن يعقب غيره، فالعُقبى في الدنيا واضحة، إذا فتح المسلمون البلاد صاروا هم الذين يرثونها، لكن في الآخرة كيف يكون ذلك؟ بالجنة؛ لأنه يكون المؤمن في الجنة وارثًا لمكان الكافر منها، فإن الكافر يرى مقعده في الجنة لو آمن، ولكنه يدخله المؤمنون، المؤمنون يرثون مقاعد الكافرين كلها، فتكون العُقبى لهم أيضًا في الدار الآخرة.

قال المؤلف: [أي: هو أنا في الشِّقَّين] ما هما الشِّقَّان؟ ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، الشق الثاني: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقول المؤلف: [أي: هو أنا] أي أن موسى له عاقبة الدار، ولكن موسى خاطب فرعون بهذا الخطاب المترتب بين قوم هدى عنده أو عند فرعون وأخبر فرعون على سبيل التنزُّل، كما في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وكما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، والآن يقول: [أي: هو أنا] لكنه ما صرَّح بأن قال: أنا قد جئت بالهدى؛ لأن هذا هو الدعوة التي جاء بها وأقامها؛ لأنه ساق

الكلام مساق الخطاب المترتب بينه وبين فرعون من باب التنزُّل معه.

قال: [فأنا محقٌّ فيما جئت به] هذا مُفرَّع على قوله: [هو أنا].

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الكافرون] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير هنا ضمير الشأن، أي: إن الشأن والحال أنه لا يُفلِح الظالمون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هل هو يصير إلى فرعون وأنه ظالم فلن يُفلِح، أو هو أمر عام؛ يعني: إن كنتُ أنا ظالمًا في دعوتي فأنا لا أُفلِح، وإن كنتَ ظالمًا بردك الحق فأنت لا تُفلِح؟ نقول: هو هذا؛ لأنه مُفرَّع على ما قبله ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدار تكون لمن؛ للظالم أو لغير الظالم؟ لغير الظالم؛ لأن الظالم لا يُفلِح، ونحن على علم اليقين أن الظالم في هذا الحال فرعون؛ لأنه رد الحق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ الفلاح هو: حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب، وسُمِّي فلاحًا؛ لأنه من البقاء، فأصله في اللغة: البقاء، كما قال الشاعر:

لكل همٍّ من الهموم سَعَه والمسي والصبح لا فلاح معه

يعني: لا بقاء معه، ولهذا يتعدَّى الأمر إلى أن يقولوا: إن الفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

وقول المؤلف: [الكافرون] مع أن الله يقول: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وعدم فلاح الظالمين بحسب ظلمهم، إن كان ظلمًا أكبر فهم لا يُوصفون عبثًا، وهم الكافرون، وإن كان ظلمًا دون ذلك نقص من الفلاح بحسب ما نقص من العدل، فالصواب في هذا أيضًا: إبقاء الآية على ظاهرها، وأن الظالم لا يُفلِح، لكن انتفاء الفلاح عنه بحسب وجود الظلم فيه، فالظلم الأكبر يفوته الفلاح كله، وما دون ذلك يفوت فيه من الفلاح بقدر ما عمل من الظلم.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ﴾ تكلم فرعون بالنداء تعميمًا للأمر، وتعليمًا لهم.

ثم قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ولم يقل: ما وجدت لكم؛ لأنه لو قال: ما وجدت لكم كذَّبوه؛ إذ أنهم يقولون: أنت لم تذهب للبحث عنه، ما طلبتَ الله ولم تجده؛ بل نفى أن يكون عالمًا بذلك ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ لأجل أن يُكرِّر عليه ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أوقد لي يا هامان على الطين اجعل لي صرحًا قويًا لأجل أن أطلع إلى إله موسى، وهذا أبلغ من قوله: «ما وجدت»؛ لأنه لو قال: «ما وجدت» فمن الممكن أن يكذبه قومه، كيف؟ لأنه لو قال: «ما وجدت» كان من الممكن أن يقول له قومه: أنت لم تحفظ كل شيء.

ثانيًا: لو قال: ما وجدت لقالوا: كيف ما وجدت وأنت لم تذهب أصلًا للبحث عنه، فعبَّر

بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ﴾ لأجل أن تتم له اللعبة.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ المراد: من ربٍّ غيري؛ لأنه قال في سورة النازعات: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣- ٢٤]، أو يجوز أن تكون على ظاهرها فيكون الإله؛ أي: المعبود، ولا يُعبَد إلا الله.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ الفاء للسببية، وهي عاطفة، و﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ﴾ هامان من هو؟ وزيره.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [فاطبخ لي الآجُرّ] الطين هو: التراب المبلول، وإذا أُوقِد عليه انعقد يتحجَّر وصار آجُرًّا، وإنما اختار ذلك؛ لأن الآجُرّ أقوى، ولأنه إذا أُوقِد عليه صار حجرًا صلبًا، فيصبح أساسًا يستطيع أن يتحمل أي بناء عليه.

﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ يقول المؤلف: [قصرًا عاليًا] لو قال المؤلف: بناءً عاليًا لكان أولى.

﴿صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ لعلي هذه للتعليل؛ يعني: اجعله لي لأطَّلِع إلى إله موسى [أنظر إليه، وأقف عليه] وقوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ - والعياذ بالله – جاء بها على سبيل التعجيز؛ لأن موسى عنده حقير، فإلهه يكون مثله؛ لأنه يكون حقيرًا لحقارة عبده.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [في ادعائه إلهًا آخر، وأنه رسوله] ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أكَّدها بـ (إنَّ، واللام)، ثم قال: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ لأنه ليس هذا أول من كذب، فليس بغريب أن يكذب؛ لأنه سبقه من كذب، فيكون هذا قبولًا لقوله عندهم، يُذكِّرهم بأنه من الكاذبين، وليس أول من كذب.

هل قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ يعني أنه قادر على أن يطلع إلى إله موسى؟ ليس قادرًا؛ لأن موسى قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنه يُموِّه به على قومه، ولهذا أمر بهذه اللعبة.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** التنزُّل مع الخصم على وجهٍ لا يكون فيه تقرير لدعوى المُدَّعي.

٢- **ومن فوائد قوله:** ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾: أن الهدى من الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يأتي بما يحصل الاشتياق به، ويُوفِّق من شاء من عباده له، فالهدى من عند الله.

٣- **ويُستفاد من هذه الآية:** أن العاقبة لمن اتبع هدى الله، لقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

٤- **ومنها أيضًا:** أن الظالم لا يُفلِح، ومفهومه: أن صاحب العدل يُفلِح؛ لأنه إذا انتفى الفلاح

عن الظالم وجب ثبوته لصاحب العدل.

٥- **ومنها**: التحذير من الظلم، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والترغيب بالعدل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ إلخ.

١- **يستفاد من هذه الآية**: أن فرعون قد سيطر على قومه، وجه ذلك: أن مثل هذا الكلام لا يُقبَل إلا من شخص قد غلب عتوّه.

٢- **ومنها أيضًا**: استعلاء فرعون على قومه، وأنه من أشد الناس كذبًا وكفرًا، لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

٣- **ومنها**: إثبات علو الله، من قوله: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، في هذا دليل على أن موسى قال له: إن الله في السماء.

٤- **ومنها أيضًا**: أن فرعون كان عظيم الملك في مملكته.

٥- **ومنها**: إسناد الفعل إلى الآمِر به إذا كان له سلطان على الناس، لقوله: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ ومعلوم أن هامان لن يُباشر البناء، من يُباشره؟ العمال، ولكنه أسند الأمر إليه؛ لأنه الآمِر به، والفقهاء رحمهم الله اعتبروا هذا، فقالوا: لو أمر بالقتل غيرَ مُكلَّف فقتل فالقَوَد على الآمِر؛ يعني: لو قال الإنسان مثلًا: اقتل فلانًا فذهب فقتله، فإن الذي يُقتَل الآمِر؛ لأنه هو السبب.

٦- **ومن فوائد الآية**: أن الفخّار أقوى من الطين غير المُوقَد عليه، يؤخذ من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ويقال: إن أول من سنَّ الآجُرّ إنه فرعون، والله أعلم.

٧- **ومنها أيضًا**: طغيان فرعون واستكباره؛ حيث ذكر الرب سبحانه وتعالى بصيغة الإذلال، لقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، فأشار إليه احتقارًا له؛ لأنه يحتقر موسى.

٨- **ومنها أيضًا**: أن فرعون من أكذب الناس، لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٩-٤٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ من الكبرياء وهي: العظمة، والمعنى: أنه تجبَّر وتعاظَم هو وجنوده، وزيادة الهمزة والسين والتاء للمبالغة، وليست للاستدعاء؛ لأن الغالب أن الهمزة للاستدعاء؛ مثل: استغفر؛ يعني: طلب المغفرة، استرحمه طلب رحمته، لكن تأتي أحيانًا للمبالغة؛ مثل: استكبر؛ يعني: بالغ في الكبرياء والعظمة.

وقوله: ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ من جنوده؟ الجند في الأصل: هم خاصة الإنسان وأنصاره، ويُطلَق على كل من اتبعه فهو من جنده.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ (استكبر)، و(ال) في ﴿الْأَرْضِ﴾ للعهد الذهني، قال المؤلف: [أرض مصر] ليس الأرض كلها؛ لأنه لا سلطان له على بقية الأراضي، ولكن المراد: أرض مصر، فعلى هذا تكون (ال) هنا للعهد الذهني لا للعموم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بيان للواقع؛ لأن الاستكبار كله مخالف للحق، ولكنه بيان للواقع، وزيادة في تقبيحه، فالاستكبار قبيح، فإذا وُصِف بأنه بغير الحق صار أقبح، ونظير هذا: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ هل يمكن أن يكون قتل النبيين بالحق؟ لا، كل قتل النبيين بغير حق، لكن ذكر ذلك للمبالغة في تقبيحه، وإلا فالواقع أنه ليس بالحق.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والحق في الأصل: هو الشيء الثابت، فإذا أُضيف إلى الأخبار فالمراد به: الصدق، وإذا أُضيف إلى الأحكام فالمراد به: العدل، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، إذن انتفى عن هؤلاء باستكبارهم الحق من وجهين:

الوجه الأول: استكبارهم في الأرض بغير الحق.

والوجه الثاني: هو كذبهم وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ظنُّوا، المراد بالظن هنا: اليقين أي: تيقنوا أنهم لا يرجعون إلى الله.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان: لا يَرجعون بالبناء للفاعل وللمفعول، بالبناء للفاعل: لا يَرْجِعُون، وبالبناء للمفعول: لا يُرجَعون.

ومعنى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ أي: يعودون ويُردُّون إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ إن الكل سوف

يرجع إلى الله، والإنسان راجع إلى الله في محياه وفي مماته، فهو بعد الموت يرجع إلى الله، وكذلك في الدنيا أمره راجع إلى الله فهو الذي يدبره.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ الفاء عاطفة، والمراد بها أيضًا: السببية؛ أي: بسبب استكباره هو وجنوده ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ مقابل الاستكبار ذكر الله تعالى عقوبتهم على وجه النسيان والتحقير ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ إذ إن النبذ هو: الطرح بقوة، والمطروح بقوة هل هو عظيم أو حقير؟ بل هو حقير؛ لأن العظيم لا يمكن أن تستطيع أن تنبذه نبذًا، فهو ثقيلٌ عظيمٌ لا يُقدر على طرحه، إنما يُنبَذ نبذًا من كان هيِّنًا حقيرًا، ولهذا قال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ فنبذناهم (هم) يعود على فرعون والجنود.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ ولم يُغنِ عن هؤلاء الجنود شيئًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا شيء يقابله في القوة ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ [فطرحناهم] ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ اليم قال: [البحر المالح] فنهر النيل من الأنهار، والأنهار بحار ولكنها غير مالحة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] فسمى الله تعالى أنهارًا، والبحار المالحة سماها بحارًا.

وقوله: [البحر المالح] هذا بيان للواقع الذي نُبِذَ فيه فرعون وجنوده؛ لأنهم نبذوا في بحر القلزم، وهو البحر الأحمر الذي بين جدة ومصر هذا الذي غرق فيه فرعون، لقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وانظر إلى الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى أغرقهم إغراقًا في اليم؛ لأن فرعون كان يفتخر بأنهاره ويقول لقومه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] فافتخر بالماء فأُغرِق به، قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] فأخرجه الله من ملكه وأهلكه بما كان يفخر به من الأنهار.

قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [فانظر] الخطاب لمن هل للنبي أو لأي قارئ أو سامع؟ الجواب: الأخير؛ أي: فانظر يا من تسمع هذا الخطاب فيوجَّه إليه، والمراد بالنظر هنا: نظر الاعتبار، فقد ينظر بعينه وبقلبه.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كيف هنا للاستفهام، والمراد به: التعظيم؛ يعني: عِظَم العاقبة، وليس تعظيم الرفعة، ولكن تعظيم العقوبة - والعياذ بالله -، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو تفخيم لها لتعظيم أن العاقبة وخيمة سيئة للغاية.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ كيف هنا اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر مقدم لـ«كان»، وتقديم الخبر هنا واجب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عاقبة بمعنى: عقبى، فهي على صيغة اسم الفاعل، والمراد: العقبى، والظالمون هم الذين نقصوا الحقوق -

حقوق رسول الله -؛ لأن الظلم في الأصل: النقص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص منه شيئًا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ المراد بالظالمين هنا: الكافرون؛ لأنه يشير لما جرى لفرعون وقومه، وهم ظالمون ظلم كفر؛ لأن الظلم ينقسم إلى قسمين: ظلم كفر، وظلم معصية لله، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ما الظلم المراد في الآية؟ المراد: ظلم المعصية، وفي قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المراد: ظلم الكفر، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ شامل للأمرين: الكفر وما دونه ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ حين صاروا إلى الهلاك بأتفه الأمور وهو الماء، وهذه من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأخذ كل إنسان بذنبه، كما قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ أي: بما يقتضيه ذنبه من العقوبة، عاد استكبروا في الأرض وتحدَّوا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ لأن الخالق بلا ريب أقوى من المخلوق، لكن بماذا أُخِذوا؟ أُخِذوا بأبسط الأشياء، وهي الريح أرسل الله عليهم الريح ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، لو شاء الله لأرسلها عليهم في ليلة واحدة ودمَّرتهم تدميرًا، لكن لحكمةٍ أرادها متعدِّدٌ أمرها ما أخذتهم جميعًا، أخذت بعضهم فتتبَّعَت الأمراض، وجعلَت البعض يصعد إلى أعلى السماء ثم يرجع إلى رأسه؛ لأن عذابهم كان بالخوف، وهذا أشد في العقوبة؛ لأن لو جعلتهم مرة واحدة ودمرتهم وانتهى الأمر، لكنَّ هذا أشد.

وقال: [﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾ بتحقيق الهمزتين - أئمةً -، وإبدال الثانية ياء] فتقال: أيِمَّةً، والقراءتان هنا سبعيَّتان، قال: [رؤساء في الشرك]؛ لأن الإمام هو: القائد الذي يُتبَع، فهو لابد له أثر في الكفر وليسوا رؤساء فقط، رؤساء متبوعين، رؤساء في الشرك؛ يعني: متبوعين، الإمام هو المتبوع، المعنى: أنهم كانوا قادة لهؤلاء الجنود في الشرك، لكن هنا يقول المؤلف: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ [في الدنيا] ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: حقيقة الأمر أن إمامتهم في الكفر متى؟ الجواب: في الدنيا، فهم جُعِلُوا في هذه الدنيا أئمة؛ يعني: متبوعين يُقتَدى بهم في الكفر، فكل من أتى بعدهم وكان كفرُه استكبارًا فإنه مُقتدٍ بهم، وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يدعون إلى النار بالقول أو بالفعل؟ الجواب: بهما جميعًا، فهم قبل أن يُهلَكوا كانوا يدعون بالقول وبالفعل، وبعد أن هلكوا يدعون بالفعل؛ لأن من أفسد الناس بفعله فهو في الحقيقة قد دعاهم إليه، وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ قطعًا ما يدعونهم يقولون: أيها الناس ادخلوا إلى النار، لو كانوا يقولون: يأيها الناس ادخلوا النار، ما أطاعوهم، لكن يدعون إلى النار يدعون إلى العمل المُوصِل إليها، وهو الشرك والإثم، وبئس ما كانوا أئمة إذن، وهو الدعوة إلى الكفر بالله تبارك

وتعالى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يوم هذا ظرف متعلق بـ ﴿يُنصَرُونَ﴾ يعني: وهم لا ينصرون يوم القيامة، في الدنيا أئمة متبوعين، لكن في الآخرة لا ينصرون، هم لا يستطيعون أن ينتصروا لأنفسهم فلا يمكن أن يكونوا أئمةً يُقتَدى بهم، وقوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يجدون من ينصرهم لدفع العذاب عنهم، لا هم ولا غيرهم، حتى غيرهم لا يمكن أن يدفع عنهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [المُبعَدين] ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ﴾ الضمير يعود على فرعون وجنوده، ﴿أتبعناهم﴾ يعني: جعلنا اللعنة تبعهم بعد إهلاكهم، واللعنة في الأصل: الطرد والإبعاد، وفسَّرها المؤلف بلازمها، وهو: الخزي؛ أي: أنه كل من ذَكَرهم يلعنهم ويطردهم ويبتعد عنهم، ولكن لا منافاة بين اللعنة هنا وبين قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأن الذي يأتم بهم هو الموافق لهم على كفرهم، أما من لم يأتم بهم فإنه يلعنهم، وقوله: ﴿لَعْنَةً﴾ من الله أو من غيره؟ منه ومن غيره، قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ فمن لعنه الله لعنه المؤمنون بالله، قال ابن مسعود رضي الله عنه عن لعن النامصة والمتنمِّصة، قال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ يوم القيامة أيضًا ظرف متعلق بمفهوم الحال منهم؛ يعني: وهم حال كونهم يوم القيامة من المقبوحين، أو متعلق بالمقبوحين.

وقوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ هذه جملة اسمية دالة على أنهم هم في ذلك الوقت لا يمكن أبدًا أن يُقرَّبوا؛ بل إنهم في ذلك الوقت من المقبوحين المُبعَدين الذين يُقَبِّحُهُم كلُّ من ذكرهم، فلا يمكن لأحدٍ أن يُقرِّبهم، إذن عوُقِب هؤلاء - والعياذ بالله - الذين كانوا يدعون إلى النار عوقبوا بأمرين؛ بل بثلاثة أمور: الأمر الأول: أنهم إذا حل بهم العذاب يوم القيامة لن يجدوا من ينصرهم؛ لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ الأمر الثاني: العار الذي لحقهم واللعنة التي لحقتهم إلى يوم القيامة، لقوله: ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ والأمر الثالث: أنهم يوم القيامة لا يمكن أبدًا أن يكونوا من المقبولين المُقرَّبين؛ بل هم من المقبوحين المطرودين المُبعَدين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان حال فرعون وجنوده؛ لأنهم قومٌ مُستكبِرون عن الحق، ومُتعالون عليه.

٢ - **يستفاد منها أيضًا:** أن من استكبر عن الحق ففيه شبهٌ من فرعون وجنوده.

٣ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** وجوب الرجوع إلى الحق؛ يعني: أن الإنسان يجب عليه أن

يرجع للحق، سواء وافق هواه أم خالفه.

٤- **ومنها:** أن المُستكبِر ليس له حقٌّ في الاستكبار، لقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٥- **ومنها أيضًا:** أن هؤلاء المُستكبِرين يعملون عمل من لا يظن أنه يرجع إلى الله؛ لأن من ظن أنه يرجع إلى الله فلن يستكبر عنه؛ إذ أنه يخاف منه، لكن الذي يستكبر فهو من ظنَّ أنه لا يرجع إلى الله -سبحانه وتعالى-.

٦- **ومنها:** إثبات البعث؛ لأن قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيقتضي أن الرجوع إلى الله أمرٌ ثابتٌ.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

١- **يستفاد منه:** أن الذنوب سببٌ للعقوبة؛ لأن الفاء تُفيد السببية.

٢- **ومنها:** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى؛ حيث أخذ هؤلاء الطغاة بما لهم من القوة، ونبَذَهم ولم يُبال بهم.

٣- **ومنها:** حكمة الله -سبحانه وتعالى-؛ حيث كان إهلاك فرعون وقومه بالذي كان يفتخر به، في قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا الذي كان يفتخر به كان محل هلاكه.

٤- **ومنها:** أن فرعون قد هلك فيمن هلك؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ليس معناه: أنه حيٌّ باقٍ، وإنما الذي أُنجِيَ وظهر للناس هو بدنه فقط ليكون لمن خلفه آية؛ لأن بني إسرائيل لما صاروا مؤمنين قد أرعبهم فرعون، فلولا أنه خرج حتى شاهدوه ببدنه لكان عندهم نوعٌ من القلق، إن كان هلك أو لم يهلك؟ فإذا شاهدوه وتيقَّنوا فزال عنهم القلق، فإذن هو هالكٌ فيمن هلك، لقوله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾.

٥- **ومنها -أي: من فوائد الآية-:** أنه يُطلب من المرء إما وجوبًا أو استحبابًا أن يتأمل في عاقبة الظالمين ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فيتفرع على هذه الآية: أنه ينبغي لنا أن نتَّعِظ بعاقبة هؤلاء فلا نظلم مثلهم؛ لأن من عاقبة الظالم الهلاك.

٦- **ومنها:** أن الظلم محرم؛ لأنه سببٌ في العقوبة، فما كان سببًا في العقوبة فإنه محرم، وسواء كان الظلم للنفس، أو للغير فإنه محرم بجميع أنواعه، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧/٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

١ - **يُستفاد من هذه الآية**: حكمة الله - سبحانه وتعالى - في مثل فرعون وقومه من الإجابة للفتنة، فإن الله قادر على أن يجعل الناس على هدى، لكنه - سبحانه وتعالى - له حكمة في أن يكون مثل هؤلاء القوم الذين يدعون إلى النار.

٢ - **ويستفاد منها أيضًا**: حكمة الله تعالى فيمن خلق من أهل الشر، وأنهم بلاءٌ وفتنة.

٣ - **ومنها**: إثبات الإمامة للشر كما هي ثابتة للخير، انظر إلى هذه في آل فرعون وانظر إلى هذه في بني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فالفرق بينهم أن يدعون الناس إلى الخير أو يأخذونهم بشريعتهم، وبين من يدعون إلى النار.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الدعاء إلى النار وإلى الخير أيضًا، كما يكون بالقول يكون بالفعل، وأيهما أقوى؟ قد يكون الدعاء بالقول أقوى، وقد يكون الدعاء بالفعل أقوى، إنما على كل حال الدعاء بهذا وبهذا ثابت، فإن الإنسان يدعو بمقاله وبحاله.

٥ - **ومنها**: إثبات يوم القيامة، في قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة: أنه يقوم الناس كلهم من قبورهم لرب العالمين، وأنه يُقام فيه العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وأنه يقوم فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ولهذا سُمِّيَ يوم القيامة.

٦ - **ومنها أيضًا**: بيان أن آل فرعون لا ناصر لهم في الآخرة، ومثلهم مَن كان على شاكلتهم من المُعرِضين عن الحق، فإنهم لا يجدون من ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية**: أن عقوبة آل فرعون قائمة حين تبدأ إلى يوم القيامة، للذكرى السيئة لهم ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فإن كل من دخل على فرعون يذكرهم بالسوء، والبغض، والكراهية.

٢ - ومنها أيضًا - من فوائد الآية -: تحقير الدنيا؛ لأن قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ إشارة للقريب لدنوِّ مرتبتها، وأنها دنيا، والدنيا مؤنث أدنى، وهي من الدُّنُوِّ الحسي والمعنوي، أما الدُّنُوُّ الحسي فهي أدنى إلى المخلوقين من الآخرة، وأما الدُّنُوُّ المعنوي فلما تتضمَّنه من النقص من جميع الكمالات، فما من كمال في الدنيا إلا وهو ناقص، والآن لو تأملت في الأشياء الدنيوية لوجدتَها مشوبةً بالضرر والخطأ، حتى الجهاد، كما قال الشاعر:

ويومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ

لو تأمَّلت هذا لوجدته ثابتًا، فعلى هذا تُطلَق الدنيا بأمرين: الدُّنُو الحسي والمعنوي، الدنو الحسي أنها أدنى إلى الخلق من الآخرة، والدنو المعنوي أن ما فيها من شيءٍ إلا وهو مفقود الكمال.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن اللعنة - والعياذ بالله - التي لُعِن بها آل فرعون تكون عليهم في الآخرة، لقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وأن المُقبَح معناه: المُبعَد المطرود، واللعن: هو الطرد.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٣-٤٩].

التَّفْسِيرُ

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، وهي الكتاب بمعنى: مكتوب، والجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القَسَم، واللام الواقعة بجوابه وقد؛ وهنا قد يقول قائل: لماذا تؤكَّد هذه المؤكدات الثلاثة مع أنها ليست مقابلة بمُنكِر لها؟ فالجواب: أننا سبق أن قلنا: إن التوكيد ليس سببه إنكار المُخاطَب فقط؛ بل قد يكون سببه: أهمية المُخبَر عنه، فيؤكَّد القسم وباللام وقد، وغيرها من المؤكدات.

آتينا بمعنى: أعطينا، واعلم أن إيتاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: إيتاءٌ شرعي، وإيتاءٌ قدري، فما تعلق بالكون والأرض فهو إيتاءٌ قدري، وما تعلق بالشرع فهو إيتاءٌ شرعي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هذا إيتاءٌ شرعيٌّ، والمراد به: دفع الصدقات، ومثل ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا إيتاءٌ قدري؛ لأن الإنزال - إنزال القرآن - قدري، فالعمل بالكتاب شرعي؛ لأن أصل الإنزال قدري يتعلق بقضاء الله وقدره، لكن العمل به شرعي.

قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ موسى مفعول أول لآتينا، والكتاب مفعولٌ ثانٍ، وهي من باب كفى؛ لأنه إذا لم يكن الأول مبتدأ والثاني خبر، فهو من باب لو قلت: موسى الكتاب لا يصلح، فكل مفعولين لا يصلح أن يكون أحدهما مبتدًا والثاني خبرًا فهما من باب فتح، وما صحَّ أن يكون المبتدأ خبرًا فهما من باب ضم، وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول: [التوراة] وهو فعال بمعنى: مفعول؛ لأنه التوراة مكتوبة، فالله تعالى كتبها في ألواح وأعطاها موسى.

وقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلِّق بآتينا يعني: أعطيناه إياه من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، القرون جمع قرن، والمراد بهم: الأمم، وقد يراد به: الحقبة من الزمن، ومقدارُها: مائة سنة، فالقرون تارة يراد بها: الأمم، وتارةً يُراد بها: أحقاب الزمن، وهنا المراد أحقاب الزمن أو الأمم؟ الأمم؛ لأن أحقاب الزمن ما تُهلَك، الذي يُهلَك الأمم.

﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم] هؤلاء هم القرون الأولى، وإنما قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إشارةً إلى أن الناس كانوا في حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي نزل على موسى؛ لأن القرون أُهلِكَت فتطاول الزمن فاحتاج الناس إلى إرسال، فأرسل الله تعالى موسى بهذا الكتاب الذي هو التوراة، وقيل: إن القرون الأولى تشمل حتى آل فرعون؛ لأن التوراة ما نزلت على موسى إلا بعد أن أهلَكَ الله فرعون وقومه، فإنه يشمل حتى هؤلاء، حتى إن بعض العلماء استنبط منها: أنه لم تُهلَك أمةٌ بعد نزول التوراة؛ لأن هذا من فوائد قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ كأن إهلاك الأمم السابقة مضى وانقضي ولا إهلاك بعد نزول التوراة، والحقيقة أن من تأمل التاريخ وجد أنه لم تهلك أمة بعد نزول التوراة، لكن هل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يشير إلى هذا؟ هذا هو محل البحث والنظر.

قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [حال من الكتاب] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ البصائر [جمع بصيرة، وهي: نور القلب] كما أن بصر وأبصار نور العين، ونور القلب يسمى: بصيرة وبصائر، ونور العين يسمى: بصر وأبصار ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ (ال) هنا للعهد الذهني، وليست للعموم؛ لأن التوراة لم تنزل

لجميع الناس، وإنما نزلت لمن؟ لقوم موسى فقط، كما قال النبي ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ هل يُخرِج الجن؟ نعم؛ من حيث التكليف والإرسال يُخرِج الجن، فإنه لم يُكلَّف أحدٌ برسالة أحدٍ من الرسل إلى الجن، لكن من حيث العمل يمكن أن يستبصر بها الجن، كما قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن الظاهر أنهم انتفعوا بما أنزل على موسى كما انتفعوا بالقرآن.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ كما تقدم هي للعهد الذهني، قال: [جمع بصيرة، وهي: نور القلب؛ أي: أنوارًا للقلوب] وهكذا جميع الكتب التي يُرسِلها الله عز وجل تكون أنوارًا للقلوب؛ لأنه يكون بها الاتباع، ولهذا قال: [﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به] تقييد المؤلف: [لمن عمل به] غيرُ وجيهٍ، والأَولى إبقاء الآية على ظاهرها أن التوراة هدى، لكن هذا الهدى ما ينتفع به إلا من وُفِّق، فهي هدى من الضلالة إلى النور، لكن هل ينتفع بها واقعيًا كل أحد؟ لا، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ وقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ففي الأول: هدى دلالة، وفي الثاني: هدى توفيق، التوراة إذا قلنا: هدى لمن عمل بها قيَّدنا الآية بهدى التوفيق مع أنها مطلقة، ولهذا الأَولى أن نقول: هدى من الضلالة لكل أحد، كما قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ وهدًى أيضًا للناس، ولكن الهدى الذي بمعنى الدلالة عام، والهدى الذي بمعنى الاقتداء؛ يعني: يقتدي بها الإنسان هذا خاصٌّ بمن وُفِّق له ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [لمن آمن به] هذه نعم ليس بمفهوم أن المقام يصلح أن يكون رحمة لكن ليس لكل أحد، فيكون هدى باعتبار العلم، ورحمة باعتبار العمل؛ لأن من عمل به فهو مرحوم؛ وأما الهدى فهو باعتبار العلم، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدي هو: العلم النافع، ودين الحق هو: العمل الصالح.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هنا معناها: التعليل، أما عملها فيستنبط من المبتدأ والخبر، وخبرُها جملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتعظون بما فيه من المواعظ] أي: بما في الكتاب التوراة من المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كلمة يتذكرون الضمير يعود على من أنزلت عليهم التوراة، وهم: بنو إسرائيل.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: [﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل أو الوادي أو المكان ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ من موسى حين المناجاة] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ جانب بمعنى: جهة أو طرف، وقوله: ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ صفة لموصوف محذوف، ما هذا الموصوف؟ قال المؤلف: [الجبل، أو الوادي، أو المكان] وأو هنا ليست للتخيير، ولكن الشك؛ لأن بعض علماء النحو يقول: المراد به: الجبل،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

وبعضهم يقول: المراد به: الوادي، وبعضهم يقول: المراد به: المكان، كلمة المكان أعم؛ لأنها تشمل أن يكون واديًا أو جبلًا، وموسى - كما تعلمون - نودي من جانب الطور وهو في الوادي المقدس، فالآية الصادقة، والذي يصدق في الوادي، أو المكان، أو الجبل هو كلمة: المكان.

الجانب الغربي منه؛ أي: الجانب الغربي من الجبل، فيكون من باب ردِّ الموصوف إلى صفته، كما يقال: مسجد الجامع؛ أي: المسجد الجامع، على هذا التقدير الأخير يكون المراد الغربي: من نفس الجانب ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بالجانب الغربي للمكان، أما على رأي المؤلف فهو يقول: [﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بجانب المكان الغربي] أي: بجانب الغربي من موسى وهو يكلم الله، وحينئذٍ نقول: موسى إذا كان وجهه إلى السماء، فالجانب الغربي منه: الغرب، فإذا كان وجهه إلى الشرق فالجانب الغربي منه يكون وراءه؛ لأن المتجه إلى الشرق يكون الجانب الغربي من خلفه، وعلى كل حال فالغربي نسبةً قد تقول: مثلًا القصيم غربًا بالنسبة لمكة، وشرقًا بالنسبة لمكان آخر، بالنسبة مثلًا للمدينة تكون شرقًا، أو جنوبًا، وبالنسبة للكويت تكون غربًا، المهم أن ما كنت بذلك الجانب حين المناجاة [﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه] ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ يقول المؤلف: [أوحينا] وعلى هذا فالقضاء يتعلق بالقدر، لكن المؤلف جعله شرعيًا؛ لأنه قضينا الأمر بالرسالة؛ يعني: أمَرناه به، جعل الأمر هنا واحد الأوامر، وليس واحد الأمور، فإذا جعلناه واحد الأوامر، صار هنا المراد بالقضاء: القضاء الشرعي، ويحتمل أن المراد بالأمر هنا: واحد الأمور؛ أي: قضينا إليه ذلك الشأن العظيم، وهو: الرسالة، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهذا واحد الأمور وليس واحد الأوامر، وعلى هذا فيكون القضاء كونيًا.

والقضاء - كما هو معرف - ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاء الكوني لابد من وجود المقضيِّ، والقضاء الشرعي قد يوجد، وقد لا يوجد، والقضاء الكوني يكون محبوبًا إلى الله ويكون مكروهًا إليه، والقضاء الشرعي لا يكون إلا محبوبًا إليه؛ لأنه من هذا الأمر؛ فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ هذا قضاء كوني يحبه الله أو يكرهه؟ يكرهه.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ هذا قضاء شرعي؛ لأنه لو كان قضاءً كونيًا للَزِمَ أن الناس كلهم يعبدون الله، وليس الأمر كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ على رأي المؤلف واحد الأوامر، ولهذا قال: [الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه] أو نقول: إن الأمر واحد الأمور.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [لذلك فتعلمه فتخبر به] وما كنت بجانب الطور، وما كنت من الشاهدين؛ لأن من كان بالجانب قد يرى وقد لا يرى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فإذا قال قائل: لماذا لم يقتصر على قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؟ قلنا أيضًا: نفس الكلام؛ لأن الإنسان قد لا يشاهد من بُعد ولا من قريب، فهنا تضمَّن أنه قريب وأنه مشاهد، ففرق بين أن نقول: ما كنت شاهدًا؛ يعني: ما كنت قارئًا، أو مشاهدًا بعينك، ولو كنت بعيدًا، ولهذا ليس في الآية الكريمة ضعف ولكن فيها شيء من التبيين؛ يعني: لا حضر و لا نظر، كما يقولون للنبي - عليه الصلاة والسلام -: ما كان حاضرًا حتى يسمع، ولا كان قريبًا حتى يشاهد، إذن فيكون ما أخبر به عن ذلك من باب الوحي لا من باب المشاهدة، ولا من باب السماع، ولكنه وحيٌ أوحي إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ [أممًا من بعد موسى] أنشأنا أي: أوجدنا وخلقنا أممًا ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ أي: زاد في الطول، والتاء والألف للمبالغة، وقوله: ﴿ٱلۡعُمُرُ﴾ المعنى: الزمن؛ لأن الأعمار هي الأزمان، قال: [أي: طالت أعمارهم، فنسوا العهود، واندرست العلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولًا، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره].

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا﴾ الاستدراك هنا ما يقتضي إبطال المُشاهَدة، ليس المعنى: فما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونًا، ولكن هذا الاستدراك لتقرير المعنى: والمعنى: أن الدهور طالت وأنت لست بشاهد ولا بحاضر، ولما طالت الدهور صار الناس محتاجين إلى الرسالة، فأوحينا إليك بما جرى، وأرسلناك إلى الناس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾.

قوله: ﴿ثَاوِيٗا﴾ [مقيمًا في أهل مدين] والمراد بأهل مدين: القوم الذين أتى إليهم موسى - عليهم الصلاة السلام -، وجرى معه ما ذكر من استئجاره وتزويجه وسيره بأهله، فهل الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان مقيمًا في أهل مدين حتى يخبر عما حصل منه؟ الجواب: لا، إذن فما جاء به من أخبار أهل مدين فإنه عن طريق الوحي، وقوله: ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [في أهل مدين ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ خبر ثان] وأين الخبر الثاني؟ جملة ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: وما كنت تتلوا عليهم آياتنا [فتعرف قصتهم فتخبر بها]، وقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ الضمير ظاهرُ كلام المؤلف، وهو أيضًا ظاهر سياق الآية أنه يعود إلى أهل مدين ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [فتعرف قصتهم وتخبر بها].

وقال بعض العلماء - بعض المفسرين -: إن الضمير يعود على قريش؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتلوا عليهم القصة التي قصصتَها بآياتنا، وهذا أقرب إلى المعنى، وإن كان الأول أقرب إلى اللفظ؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، لكنه لا يعود على أهل مدين إلا بتعسُّفٍ شديد، فالصواب: أنه يعود على قريش؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتلوا عليهم القصة التي جاءت بآياتنا، إذن فأنت رسول؛ لأنك أتيت بها لم تكن شاهدًا فيه ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [لك وإليك بأخبار المتقدمين] مرسلين لك إلى الناس،

وإليك الوحي، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرسلٌ للناس، ومرسَلٌ إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ كان فعل ماض، وهي مسلوبة الزمن، والمقصود بها: اتصاف اسمها بخبرها، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ (نا) هذه للجماعة، و(كنا) للجماعة، و(مُرسِلين) جمع، مع أن الله تعالى واحد أحد، ولكن ذلك للتعظيم؛ لأن المتكلم المُعظِّم نفسه، أو للمتكلم ومعه غيره؟ وهي بجانب الله بلا شك للمتكلم المعظم نفسه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولم يقل: ولكنا أرسلناك، كما قال في الآية التي قبلها: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ لأن الرسالة مازالت في الخلق منذ اختلفوا إلى آخر الرسل محمد ﷺ ومتى اختلفوا؟ اختلفوا بعد آدم، بعد أن مضت قرون إما عشر، أو أقل، أو أكثر اختلف الناس، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فتقرير الآية: كان الناس أمة واحدة، فاختلفوا، فأنزل الله.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [لك وإليك بأخبار المتقدمين] والفائدة من ذكر أخبار المتقدمين على الرسول ﷺ ليتلوها على الناس لتقرير أنه نبيٌّ؛ لأنه ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخُطُّه بيمينه، فإذن يكون ما أخبر به عن موسى يكون من باب الوحي المجرد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [الجبل ﴿إِذْ﴾ حين ﴿نَادَيْنَا﴾ موسى أن خُذ الكتاب بقوة] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ هذا خبر آخر غير الخبر الأول الذي فيه ابتداء الوحي؛ لأن الله تعالى بعد ما أهلك القرون الأولى واعَدَ موسى ثلاثين ليلة، وأتمَّها بعشر، واختار من قومه، ثم ذهب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمناجاته وإنزال التوراة عليه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ جانب أي: جهة الطور، أو قُرب الطور، والطور هو: الجبل المعروف في سيناء، ﴿إِذْ﴾ [حين ﴿نَادَيْنَا﴾] أفادنا المؤلف بأن ﴿إِذْ﴾ هنا ليست تعليلية، ولكنها ظرفية، وهي ظرف لما مضى من الزمان، وإذا ظرف لما يُستقبل، وإذن ظرف للحاضر، وبها وبهذا استكملت الظروف الثلاثة؛ إذا للمستقبل، وإذ للماضي، وإذن للحاضر، قال: [﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ أن خذ الكتاب بقوة] هل الله قال له: خذ الكتاب بقوة يا موسى؟ حين رفع فوقهم الطور قال: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ الظاهر أن المؤلف توهَّم هذا، في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهي تفسير لكل شيء ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ إذن قال المؤلف: [أن خُذ الكتاب بقوة] بمعنى أتى به، وإلا فالله يقول: فخذها؛ أي: الألواح التي فيها التوراة بقوة، إذن أُمِر موسى أن يأخذها بقوة، أن يأخذ الألواح بقوة، فعلى كل حال؛ كان المؤلف إذن صواب، ولكنه أتى به بالمعنى لا باللفظ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ هذه الألواح بقوة ﴿وَأْمُرْ

قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾، يقول الله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله، عاملها محذوف، والتقدير: أرسلناك رحمة، وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ ليس المعنى: أنه هو الرحمة، ولكن معناه: أنه أُرسِل للرحمة، ليرحَمَ به، فالرحمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأرسله الله رحمةً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ليس المعنى: وما أرسلناك إلا حال كونك رحمة، ولكن إلا من أجل الرحمة، فبين المعنيين فرقٌ ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ على سبيل التخصيص والتشريف، وهذه هي الرحمة الخاصة، وهناك رحمة عامة، وفيها دليل – أي: في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ – على أن إرسال النبي ﷺ إلى الخلق ليُرحَموا به أنه من الربوبية الخاصة؛ لأن من نعمة الله على العبد أن يُمهِلَه هُدى ليهدي الناس به، فإن هذا في الحقيقة من أكبر النعم، فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُوحِي إليه ليُرحَم الخلق بما أُوحِيَ إليه، وهذا من مُقتضَى الربوبية الخاصة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل: من ربهم؛ بل ﴿من ربك﴾ الذي رباك تربية خاصة ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هنا حرف جر؛ لأنها داخلة على (أن) المُقدَّرة؛ أي: لأن تُنذِر، ثم تُحوَّل إلى مصدر فيكون: لإنذارك قومًا، ولهذا على مذهب البصريين تكون اللام حرف جر، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مُضمرة جوازًا بعد اللام، أم على رأي الكوفيين يقولون: إن اللام هي الناصبة، فيقولون: اللام كيف، وهي ناصبة، لكن البصريين أدق منهم في هذه الناحية.

فالحقيقة: أن اللام حرف جر، وأن (أَنْ) هي الناصبة مقدرة، أين المتعلق بـ﴿لِتُنذِرَ﴾؟ متعلقها هذا المحذوف الذي قدَّره المؤلف: [أرسلناك] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الإنذارُ هو: الإعلام بما يُخاف، والإعلام بما يُرغَبُ ماذا يُسمَّى؟ بشارة، أو تبشير، وقوله: ﴿قَوْمًا﴾ المراد بهم: قريش، ولا يعني ذلك: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوثٌ إليهم خاصة؛ ولكن لأن أول من أنذرهم كانت قريش، وإلا فقد بُعِث لهم ولغيرهم، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من قريشٍ وغيرهم ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (ما) نافية و(أتاهم) بمعنى: جاءهم، و(من) حرف جر زائد إعرابًا لا معنى، ونذير فاعل أتى؛ يعني: ما جاءهم نذير، وفائدة زيادة (من): أن التنصيص على العموم في كل الأزمان الماضية ما أتاهم أحدٌ يُنذِرهم قبل الرسول ﷺ، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ جملة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ في محل نصب صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال المؤلف: [وهم أهل مكة] تفسير لقوم، إذا قال قائل: أليس إسماعيل رسولًا؟ بلى؛ إذن هو قد أتاهم قبل النبي ﷺ، أو يقال: لما طال العهد حتى انمحَت صاروا محتاجين إلى نذير، ولم يأتِهم نذير، فما أتاهم من نذير بعد أن انقرضت معالم رسالة إسماعيل، وإلا فلا ريب أن إسماعيل مُرسلٌ إليهم؛ لأنه نبي، ولكنها انقرضت، ولهذا كان من دعاء إسماعيل

وإبراهيم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد به: محمد ﷺ، فمنذ إسماعيل إلى أن بُعِث الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما جاءهم نبي، وانقرضت معالم النبوة، وكان أول من غيَّرها عمرو بن لحي الخزاعي، فإنه هو الذي أدخل عبادة الأصنام، وأدخل السوائب على العرب حتى انمحى الدين في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هذه للتعليل، وهي متعلقة بـ(تنذر) تنذرهم لأجل أن يتذكَّروا؛ أي: يتَّعِظوا بما جئتَ به.

قوله تعالى: [﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر وغيره ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ المرسل بها ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾] لولا هنا تكرَّرت مرتين، وفي كل موضع لها معنى غيره في الموضع الآخر، الأول قال: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم﴾ الضمير يعود على قريش أهل مكة، وإصابة الشيء بمعنى: نزوله؛ يعني: تنزل بهم مصيبة، والمراد بالمصيبة هنا: العقوبة بسبب كفرهم، وهي - أعني: لولا -: حرف امتناع لوجود، و(أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، وجواب (أن) محذوف، كما يُقدِّره المؤلف، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب، (بما) اسم موصول؛ أي: بسبب الذي قدمت أيديهم، والمراد بأيديهم: أنفسهم؛ أي: بما قدَّموه، وعبَّر باليد عن النفس؛ لأن اليد في الغالب هي آلة العمل، واعلم أن هناك فرقًا بين إضافة الفعل إلى اليد، وبين إضافة الفعل إلى النفس بواسطة اليد، فمثلًا قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أي: مما عمِلناه، أو مما خلقناه، وليس المراد: أن الله خلق الأنعام بيد؛ وأما قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فهنا أضاف الفعل إلى نفسه، ثم جعل اليد واسطة، فيدل على أن آدم خُلِق بيد الله.

كذلك مثلًا لو قلت: بما عملت بيدك، فهنا يكون الإنسان عمِلَ الشيء بيده، فهو عمِلَه بنفسه لكن بيده، أما إذا قلت: بما عمِلَت يداك، أو بما قدمت يداك، فالمراد: بما عمِلتَ، سواء عملته بواسطة اليد، أو بالعين، أو بالرجل، أو باللسان، المهم: أنه يُضافُ إليك يُضاف العمل إلى اليد لا إلى العامل بواسطة اليد، فإذا أُضِيف إلى العامل بواسطة اليد صار العمل له لكن من باب أن يُضاف العمل لليد، وإذا أُضِيف العمل إلى اليد صار المراد به: عمل الإنسان، سواء بيده أو بغير يده، فقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليس كقوله: (بما قدموا بأيديهم)؛ لأن الأول المراد: بما قدَّموا، سواء كان باليد، أو بالرجل، أو بالعين، أو بالأذن، أو باللسان، وقوله: [﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر وغيره] صحيحٌ أن المصائب لا تكون إلا بالمعاصي ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، وهنا قال: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ بسبب كفرهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ الفاء حرف عطف، ويقولوا معطوف على تصيبهم؛ يعني: فأن يقولوا، متى بعد المصيبة أم قبلها؟ بعد المصيبة، فيقولوا مُحتجِّين على الله: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ يعني: هلَّا

أرسلتَ إلينا رسولًا قبل أن تصيبنا بالعقوبة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والحُجَّة لهم أو لا؟ لو أُصِيبوا بغير أن يُرسَل إليهم رسول لكان ذلك حجة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلولا هذا الأمر أن يُصابوا بكفرهم وذنوبهم، ثم يحتجُّوا على ربهم بأنه لم يُرسِل إليهم رسولًا، فما هو الجواب؛ هل الجواب: لعاقبناهم، أم الجواب: لما أرسلناك إليهم؟ قال المؤلف: [وجواب لولا محذوف، وما بعدها مبتدأ] ؛ يعني: والخبر محذوف [والمعنى: لولا إصابة المُسبَّب عنها قولهم، أو لولا قولهم المُسبَّب عنها؛ أي: لعاجلناهم بالعقوبة، ولما أرسلناك إليهم رسولًا] كأن المؤلف جعل الجواب مركبًا من إثبات ونفي، الإثبات قوله: [لعاجلناهم بالعقوبة]، والنفي: [ولما أرسلناك إليهم]؛ لماذا؟ لأنه ذكر أمرين: الإصابة، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، فكان الجواب مركبًا من أمرين، ويجوز أن يكون الجواب مركبًا من أحد الأمرين؛ أي: لعاقبناهم، أو لما أرسلناك إليهم؛ لأن المعنى يتم بدون تقديم الأمرين جميعًا، وعلى هذا فتكون الواو هنا في كلام المؤلف بمعنى: (أو)، وأظن الآية معناها واضح من حيث الإجمال: أنه لولا أن هؤلاء الكفار المستحقِّين للعقوبة بسبب كفرهم، لولا أن يحتجُّوا بأنه لم يُرسَل إليهم رسول لعاقبناهم بدون أن نرسلك، أو لما أرسلناك إليهم، فيكون إرسال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إقامةً للحجة عليهم، ودفعًا لحجتهم، ودحضًا لها، فكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُرسِل إليهم قبل أن يؤخذوا بالعقوبة، وهذا يقتضي أنهم إذا كذَّبوه كانوا مستحقين للعقوبة؛ لأن الحجة التي يحتجون بها قد زالت.

عندنا الإعراب أظننا فهمناه من كلام المؤلف، لولا الأولى شرطية، وهو حرف امتناع لوجود، ولولا الثانية تحضيضية بمعنى: هلَّا، وقوله: ﴿فيقولوا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، وقوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية الواقعة في جواب لولا التحضيضية، وإذا وقعت الفاء بجوابها نُصِبَ الفعل بأن مضمرة، ابن مالك يقول:

وبعد فا جواب نفي أو طلب ... محضين أن وسترها حتمٌ نَصَب

يعني: أن (أن) تنصِب بعد فاء الواقعة في جواب طلب أو نفي محضين، وسترها أي: حذفها وجوبًا حتمًا، وأظنه موجود بيت يقرأه الطلاب منذ صغرهم لما تنصب فيه أن مُضمرة في جواب، وهو:

مُرْ وادعُ وانهَ وسَلْ واعرِض وحضِّهم ... تمنَّ وارجُ كذاك النفي قد كَمَل

هذه تسعة إذا وقعت الفاء جوابًا لواحد منها فإنه ينصب الفعل بعدها بأن مضمرة.

أما (مُر) فهو الإشارة إلى الأمر، كما تقول: انزل عندنا فنكرِمك، (وادعُ) هذا دعاء الله، قال

الشاعر:

ربٌّ وفِّقني فلا أعدِلَ عن ... سَنَنِ الساعين في خير سَنَن

وتقول: رب وفقني فأعملَ صالحًا، (وانهَ) ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، (وسَل)؛ يعني: اسأل استفهام ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ موصولة فعل بأن، (واعرِض) العرض، كما في قول القائل: (ألا تنزل عندي فتصيب خيرًا) عرض، (لحضِّهم) هذا التحضيض، منه هذه الآية: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، (تمنٍّ) المراد به: التمني، تقول: ليت لي مالًا فأتصدَّق منه، (وارجُ) الرجاء الترجِّي يعني ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ (كذاك النفي) غير النهي، فتقول: ما تعلَّم زيدٌ فيُعلِّمني، هذه تسعة مواضع إذا وقعت الفعل بعدها فإنه ينصب الفعل بأن مُضمرة.

قال المؤلف: [﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المُرسَل بها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لولا محذوف] المعنى: إنا أرسلناك يا محمد إقامةً للحُجَّة عليهم، ورحمةً بهم أن يصيبهم العذاب بدون أن يرسل إليهم رسولًا، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الحق ذكرنا فيما سبق أنه الشيء الثابت، وأنه فيما يقابل الأوامر هو العدل، وفي مقابلة الأخبار هو: الصدق، والمراد بالحق هنا قال المؤلف: [إنه محمد ﷺ]، وكأنه عدل به عن المعنى الظاهر منه من أجل قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: لولا أوتي هذا الحق مثل ما أوتي موسى، فكأن المؤلف عدل عن معنى الحق الظاهر إلى أن يكون محمد ﷺ في هذا، ولكن الصواب: أن المراد بالحق: الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ والعِندية تقتضي القُرب، وأن يكون ذلك من الله، وهذا لا يُتصوَّر أنه محمد ﷺ؛ بل هو الحق الذي جاء به، كما أن مثل هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ في جميع مواضع القرآن هي مُطَّردة أن المراد به: الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، ويكون قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ أي: محمدٌ الذي جاء بهذا الحق، فمعنى الآية هنا ظاهر جدًا ولا فيه تكلُّف، ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يؤيِّد أن يقول: الحق محمد؟ نقول: لا حاجة إلى ذلك، ما دام جاء الحق والذي جاء به محمدٌ، فيكون معلومًا أن قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ الذي جاء بالحق، وليس محمدًا هو الحق، ولهذا ليس من أسماء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحق، نعم هو ﷺ صادق فيما جاء به من نبوة، ولكنه جاء بالحق.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ﴾ الضمير يعود على من؟ يعود على من جاءهم الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ﴿قالوا لولا﴾ [هلَّا] تحضيضية، وليست شرطية، [هلَّا] ﴿أوتي﴾ أي: أُعطِيَ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: من الآيات، وهذا الجواب فيه إشكال إذا جعلناه عائدًا إلى قريش؛ لأن قريشًا - كما هو معلوم - قومٌ أميون لا يعلمون عن الرسل شيئًا،

فكيف يعارضون في قصة موسى؟ أجاب المفسرون عن ذلك: بأن قريشًا كانت عندما بُعِث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تراسل اليهود وتقول: جاءنا رجلٌ يقول: إنه نبي، فما هي علامات الأنبياء عندكم؟ فتخبرهم اليهود بعلامات الأنبياء، ولهذا عارضت قريشٌ النبي ﷺ في الآيات التي جاءت لموسى، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ عائدٌ إلى اليهود؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوث إليهم، ويؤيد هذا الاحتمال قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهو أحد الكتب الثلاثة الباقي أثرها، وهو الإنجيل والقرآن والتوراة.

١ ـ **يستفاد منه:** أن إتيان التوراة كان بعد إهلاك الأمم السابقة، ومنهم: فرعون، واستنبط منها بعض العلماء من قوله: ﴿أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنه لم تهلك أمة على العموم بعد نزول التوراة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ وكأنه بعد ما أنزل التوراة ما أهلك أحد من القرون، وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يُصدِّقُه.

٢ ـ **ويستفاد من هذه الآية:** أن الكتب النازلة من السماء أنها أنوار للناس يهتدون بها، لقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن التمسك بشرائع الله تكون به الرحمة، لقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن الكتب النازلة من السماء هي التي بها الهدى من الضلال، لقوله: ﴿وَهُدًى﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن الحكمة من إنزال هذه الكتب تذكُّر الناس بما فيها من المواعظ، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات الحكمة في أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وكذلك في شرائعه؛ لأن لعل معناها: التعليل، فيُستفاد منها إثبات الحكمة في أفعال الله وشرائعه، ولكن من الذي أنكر الحكمة؟ هم الجهمية يقولون: إن الله تعالى ليس له حكمة فيما يفعل وفيما يشرع، وإنما هو بمجرد مشيئة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** تقرير رسالة النبي ﷺ، وذلك لما أخبر به عن هذه الوقائع التي ليس حاضرًا فيها ولا شاهدًا.

٢ ـ **ومنها أيضًا**: أن الوحي يسمى قضاء، لقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن الوحي ذو شأن عظيم؛ لأن الله سماه الأمر، وهذه الكلمة محلاة بـ (أل) الدالة على العظمة والكمال، ولا ريب أن أعظم الأمور ما جاءت به الرسل من وحي الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما فيه من مصلحة البلاد والعباد.

٤ ـ **ومنها أيضًا**: أن الإنسان لا يُقبَل خبره إلا إذا كان حاضرًا يسمع، أو شاهدًا يرى، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فإن الذي يمكن أن يخبر هو من حضر فسمع، أو من قرُبَ فشاهَد، أما الإنسان الذي يخبر بدون شهادة، أو بدون شهود ولا حضور فإنه لا يُقبَل خبره، وهذا أمر معلوم من الشرع من جهة أخرى، ومن آيات أخرى أن الإنسان لا يشهد إلا بما علم من رؤية، أو سماع، أو غيرهما من أسباب العلم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ هذه الآية معلوم تفسيرها على ما سبق، ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: تكذيب دعوى هؤلاء بقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ فإنه قد جاءهم الحق مع الرسول ومع ذلك كذَّبوا، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ ففي الآية: تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، والحق بمعنى: الشيء الثابت، وهو بالنسبة للأخبار: الصدق، وبالنسبة للأحكام: العدل.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن ما خالف ما جاء به النبي ﷺ فهو باطل، لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، فكل خبر يتضمن تكذيب خبر الله ورسوله فهو الكذب؛ فمثلًا: إذا قال قائل: أصل الإنسان قرد ثم تطوَّر فصار إنسانًا، ماذا نقول له؟ كذب؛ لأنه مخالف ما جاء به النبي ﷺ، وإذا شرَّع الإنسان قوانين مخالفة للشرع، فإن هذا باطل وضلال؛ لأن الحق في ما جاء به الشرع فقط.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عُتوِّ هؤلاء المكذِّبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عُتوِّهم وعنادهم، وهو أنهم كذَّبوا بالحق بعد أن قالوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن قريشًا عندهم بعض المعلومات عن الرسل السابقين؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ وبأي وسيلة حصلوا على هذا العلم؟ عن طريق اليهود؛ لأنه لما جاء الرسول ﷺ، أرسلوا إلى اليهود يفتون عن أخبار هذا الرجل، فكتبوا لهم بما يعرفون من أخباره، وبما جاء به موسى.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رسالة موسى ﷺ، لقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعطاه الله تعالى آيات يؤمن على مثلها

البشر، وهذا ليس خاصًّا به؛ بل هو لكل رسول بعثه الله، لابد أن يؤتيه من الآيات ما يؤمن على مثلها للبشر؛ لأن البشر لا تصدق رجلًا قال: أنا رسول الله إليكم، آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، واتركوا ما كان عليه آباؤكم من عبادة الأصنام، واتركوا ما كان عليه آباؤكم من تحريم الحلال، وما أشبه ذلك، ما يقبلوه إلا بآيات تدل على صدقه وتؤيده.

٨ - **ومنها أيضًا**: إبطال حجة هؤلاء المكذبين ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

٩ - **ومن فوائدها أيضًا**: أنه ينبغي في مقام المناظرة والمجادلة أن يُفحَم الخصم بإبطال قوله بقوله، أي: أن يُبطل قوله بما جرى منه هو؛ لأن ما جرى منه لا يمكن أن يُنكِره، ولو أنكره ما قُبِل، فكلما أُقيم الحجة على الخصم من فعله وقوله هذا أبلغ في إفحامه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن طبيعة البشر واحدة بناءً على أن قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ أن الضمير يعود على جنس الإنسان، فإن طبيعة البشرية واحدة.

١١ - **ومنها أيضًا**: أنه ينبغي أيضًا عند المخاصمة أو عند المناظرة إبطال قول الخصم بالواقع، أن تُبطِل قول الخصم بالأمر الواقع، فإن الآيات التي جاء بها موسى لهؤلاء كُذِّبت، ما آمن بها البشر، إذن فالمدار ليس على جنس الآيات، ولكن المدار على حال المخاطب، الآيات قائمة مُبيِّنة، لكن ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

١٢ - **ومنها**: أن أهل الباطل يُلقِّبون أهل الحق بألقاب السوء تنفيرًا للناس عن قبولهم، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ أو (قالوا ساحران تظاهرا) فسواء وصفوا ما جاءت به الرسل بالسحر، أو وصفوا الرسل أنفسهم بالسحر، فإن المقصود من ذلك: تنفير الناس عن قبول ما جاءت به الرسل، هل نقول: إن هذه القاعدة ثابتة لأتباع الرسل؟ ثابتة، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

والله تبارك وتعالى قد جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين، والعدو من المجرمين عدوٌّ للنبي بشخصه، أو عدوٌّ له بوصفه؟ بوصفه، بدليل: أن محمدًا ﷺ قبل أن تأتيه الرسالة وهو عند العرب: الصادق الأمين، ويرَونه أنه من أفضل بني هاشم، وأفضلهم بالعرب، فلما جاءهم بالحق صار الخائن الكذوب، إذا كان هؤلاء المجرمون يعادون الرسل بوصفهم فمعنى ذلك: أن المعاداة ستنتقل إلى من تابع هؤلاء الرسل؛ لأن المعنى الذي حصلت به العداوة موجود أيضًا في أتباع الرسل، وعلى هذا فيمكن أن نأخذ منه فائدة، وهي: طمأنة أتباع الرسل وتثبيتهم على أنهم سينالون من ألقاب السوء، ومن المعاداة مثل ما نال الرسل، فعليهم أن يُقابِلوا ذلك بالصبر،

والثبات، والقوة، لا أن ينخذِلوا؛ بل يكونوا كما كان مَتْبُوعوهم ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

١٣ - **ومنها أيضًا**: أن التعاون حتى على الباطل له تأثير وتقوية، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ فإذا كان التعاون في الباطل له تأثير، فما بالك بالتعاون في الحق، وعلى هذا فينبغي لنا - وهي الفائدة التي تترتَّب على ذلك - ينبغي لنا أن نكون متعاونين فيما نحن عليه من دعوة الحق، وألَّا يخذل بعضُنا بعضًا، خلافًا لما كان عليه الناس اليوم فإنهم في هذا الباب ليسوا بمتعاونين، حتى أهل الحق وأهل الدعوة تجدهم غير متعاونين؛ لأنهم أولًا: كل واحد همه إلا نفسه، وثانيًا: أنهم ربما يختلفون في أمرٍ بسيط جدًّا من أمور الدين ويتعادون على ذلك، يمكن يخالفوا في كيفية رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، هذا يقول: أنت على ضلال، وهذا يقول: أنت على ضلال، ماذا تُثمِر هذه الكلمة؟ تُثمِر الحقد والبغضاء والعداوة، فنقول: إن التعاون له تأثيرٌ بالغ، وأظنكم تعرفون قصة الصحيفة التي كتبت قريش في مقاطعة بني هاشم، كيف نقضوا هذه الصحيفة؟ ما جاء واحد من الناس ينقضها، ما يستطيع، لكنه ذهب إلى فلان، وقال ووبَّخ: بنو هاشم قوم منكم، كيف ترضون أن تقاطعوهم حتى يموتون، وذهب إلى آخر، وإلى ثالث، ورابع، حتى كوَّنوا جماعة، وذهبوا إلى هذه الصحيفة ومزَّقوها، فإذن التعاون أساس النجاح في المجال العام، وانظر إلى كلمة المجرمين قالوا: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، فيه بيان عُتوِّ هؤلاء أيضًا؛ من جهة أنهم لم يؤمنوا بالأمرين ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

١٣- **ومنها أيضًا**: أن تقديم المعمول في قوله: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يفيد الحصر مع أنهم كفروا بما أنزل عليهم، لكنه سبق أن قلنا: إن هذا الحصر المقصود به: إغاظة الخصم، كأنهم يقولون: لو آمنا بكل شيء ما كفرنا إلا بهما، والمعلوم أنهم يكفرون بغيرهم، وهذه فائدة قليلٌ من ينتبه لها، وهو: أنه إذا كان الشيء غير محصور في هذا الشيء، ولكنه قصر فيه فلابد أن يكون هناك غرض، فالغرض هنا: الإغاظة، كأنهم يقولون نحن وإن آمنا بكل شيء، فنحن كافرون بما جئتم به ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه من العدل التنزُّل مع الخصم إلى حال يُقِرُّ بها، فإنه من المعلوم أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم أنه لا يمكن أن يأتوا بما طلب منهم، فقد طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ أهدى من التوراة والقرآن، والله يعلم أنهم لن يأتوا بذلك، كيف يقول للرسول ﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾ مع أنه يعلم أنه لا يمكن؟ هذا من باب التنزُّل مع الخصم إلى غاية ما يكون العدل، كأنه جعله مع الخصم شيئًا واحدًا، فيقول: أنتم هاتوا كتاب أهدى من التوراة والقرآن أتبعه أنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتوا يلزمهم أن يتبعوا التوراة والقرآن؛ لأنهم ما داموا أني ألتزم لهم بأنكم إذا

أتيتم بكتاب أهدى منهما فأنا أتبعه، فأنتم واجب عليكم أن تتبعوه، ما دام لم تجدوا، إذن فيه التنزُّل مع الخصم؛ لأن ذلك من تمام العدل في المناظرة.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** إفحام الخصم بالتحدي، ولو أنكم قرأتم آخر سورة الطور لوجدتم فيها شيئًا غريبًا من المناظرة من قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ تجدون آداب كثيرة من المناظرة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، إن كان الأمر ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إن كان الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فالمناظرة يعني: الله سبحانه وتعالى في المناظرة يجعل الخصم يُفْحَم بتحدِّيه بما لا يستطيع، فهنا لا يستطيعون أن يأتوا بمثله فتقوم بذلك عليهم الحجة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن التوراة والقرآن من عند الله، فيكون القرآن والتوراة كلام الله، لكن القرآن نزل وحيًا، والتوراة نزلت كتابة، كتبها الله بألواح ألقاها إلى موسى.

٤ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنه لا يلزم الإنسان الانتقال عمَّا كان عليه إلى غيره إلا إذا كان أهدى منه، أنه ما يلزم من انتقالي من مذهب الحنابلة إلى مذهب الشافعية حتى أرى أنه أصوب، ما يجب الاتباع إلا إذا كان ما جاءوا به أهدى منه، أما إذا كان مُساويًا فأنتم لا تُلزموني وأنا لا ألزمكم إذا كان مساويًا، إنما الإلزام حينما يكون ما جاء به الخصم أهدى مما أنا عليه، وهذه فائدة مهمة جدًّا، وهي: لا يلزم الإنسانُ الإنسانَ الانتقال مما هو عليه من طريقة أو مذهب إلا إلى ما هو أصوب وأهدى منها، أما عند التساوي فإنه لا يُلزَم ولا يُلام أيضًا إذا ما انتقل، وأما أيضًا إذا كان الرجوع إليه أدنى فإنه من باب أولى لا يلزم، فالمراتب الآن ثلاث: إما أن يكون ما تُدعَى إليه أدنى مما أنت عليه، أو أهدى، أو مساويًا، إن كان أهدى يلزم الاتباع، وإن كان أدنى حرُمَ الاتباع، بقينا إذا كان مساويًا هل يلزم الاتباع، أو يحرُم، أو يُخيَّر فيه الإنسان؟ العلماء يقولون في مثل هذه الحال: يُخيَّر الإنسان، قالوا: وإذا أفتاه عالمان ولم يكن عنده أحدهما أرجح، فإنه يُخيَّر في اتباع أي القولين شاء، وأي قول شاء، وربما يُفهَم حكم هذه المسألة من هذه الآية؛ لأنه ما أوجب الله الاتباع إلا إذا كان أهدى، ومعلوم أنه إذا كان أدنى كان الاتباع محرمًا، فيبقى المساوي ليس إلى جانب التحريم وليس إلى جانب الوجوب، وهذه مرتبة أخرى.

٥ - **ومنها أيضًا:** أن التحدِّي أيضًا يكون بالوصف كما يكون بالفعل ﴿فَأْتُوا۟﴾ تحدِّي بالفعل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تحدِّي بالوصف، إن كنتم من الصادقين أن ما أنتم عليه حق فأتوا بهذا، وإلا فأنتم من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

التفسير

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإن انتفى استجابتهم لك، ففيه جواز التعليق بالشرط فيما هو مُحقَّق الوقوع؛ يعني: معناه: إن لم يستجيبوا لك هذا مُحقَّق، فهل يظن الظان أن فيه احتمالًا أن يستجيبوا؟ لا يظن، إذن فنقول: جواز تعليق الشيء المحقق بالشرط، ولو كان مُحقَّقًا أنه لا يكون، وكذلك ولو كان محقَّقًا أنه كائن، فهنا الانتفاء كائن لا محالة، ومع ذلك عُلِّق بالشرط، وفي الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1] يقول لأهل المقابر، ومعلوم أن هذا الأمر محقق.

إن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ ليس عندهم حجة سوى اتباع أهوائهم، لقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهل معنى ذلك: أي: فلا تجادلهم؛ لأن المتبع هواه مُكابِرٌ، الذي يتبع هواه مكابر ما دام لم يُرِد الحق، وإنما يريد أن ينتصر لنفسه فقط ويتبع هواه؟ فأعتقد أن مثل هذا الرجل ما يمكن أن يُجادَل، لا يُجادَل ما دام صاحب هوى ، فهل نقول: إنه إذا عُلِم بأن المُجادل يريد اتباع هواه، فإنه لا فائدة من جِدَاله؛ لأنه إضاعة وقت، ولهذا قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: ولا فائدة من جدالهم، فإذا كنت بيَّنتَ للإنسان الحق ووضحته بأدلته النقلية، والعقلية، والحسية حسب ما هو موجود من الأدلة، ولكنه أصرَّ إلا أن يبقى على ما كان عليه، فاعلم أنه متبع لهواه، والمُتبِّع لهواه مشكل، ما يمكن أن الإنسان يتطلَّب الهدى، ما يمكن أن يتبع، ولهذا نقول في هذه الحال: لا يجب على المرء مجادلته، وإنما يُنتقل إلى شيء آخر، وهو: معاقبته ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فالمعاند غير من يريد اتباع الحق ولم يظهر له، المعاند له حال، وقد قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ يعني: وإن لم تنفع فلا تُذكِّر، وهذه تقدَّم الكلام عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** اختلاف الناس في الضلال، فليسوا على حد سواء في الضلال، كما أنهم ليسوا على حد سواء في الهدى، وليسوا على حد سواء في الغيِّ، وليسوا على حد سواء في الرشد،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ففي هذا دليل: على أن الناس يتفاوتون في الضلال، ولكن ما أحد أضل من هذا الذي اتبع هواه بغير هدًى من الله.

٢ ـ **ومنها أيضًا**: أن الهوى قد يكون موافقًا للهدى ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أما من اتبع هواه بناءً على هدًى من الله، فهذا طيب أن يكون هواه تَبَعًا لما جاء به الحق، وقد ذكرنا لكم الحديث المروي عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، فالحاصل: أن الهوى المذموم هو الذي ليس على هدى.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الظالم قد عرَّض نفسه لحرمانه من الهدى، أو إن شئت فقل: إن الظلم سببٌ لحرمان الظالم من الهدى، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالظالم هو الذي حَرَمَ نفسه من الهدى؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والقدريون يرون أن الإنسان يمكن أن يهتدي بنفسه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أي سلطة؛ لأنهم - والعياذ بالله - ماذا يقولون بالنسبة لقدر الله؟ أن الأمر أُنُف؛ بمعنى: أن الله ما قدَّر أفعال العباد، وإنما أنا أفعل وأترك باختياري المجرد المحض، وليس لله في تقديره أي مشيئة، ولا خلق، ولا شيء، لكن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يرد عليهم، كما أنه أيضًا يرد على الجهمية الجبرية الذين يقولون بالجبر؛ لأن الله نسَب هؤلاء بفعلهم إلى الظلم، ولو كانوا مُجبَرين عليه لكان نسبة الظلم إليهم ظلمًا، والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يظلم أحدًا، ففي الآية إذن ردٌ على القدرية وردٌ على الجبرية، والجبرية جهمية؛ يعني: الجهمية من مذهبهم الجبر، ففيهم ثلاث جيمات - كما قال ابن القيم في «النونية» - كلهم جيمات ذم:

جبرٌ، وإرجاءٌ وجيمُ تجهُّمٍ ....

فهم جبرية مُرجئة جهمية، الله يكفينا شر هؤلاء الثلاث، على كل حال؛ في الآية الكريمة ردٌ على الطائفتين الضالتين، وهما: القدرية والجبرية والقدرية، والقدرية يُنكرون قدر الله في فعل العبد، والجبرية بالعكس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن من تحرَّى العدل فإنه قد تعرَّض للهداية؛ لأن الظلم ضد العدل، وانتفاء الهداية بوصف الظلم، يقتضي ثبوت الهداية بوصف العدل، فمن تحرَّى العدل فإنه يُوفَّق للهداية فالعدل سببٌ للهداية، وهكذا كل من تحرَّى الخير ـ نسأل الله أن يُوفِّقنا لتحرِّيه ـ كل من تحرى الخير فإنه يوفق له، إذا كانت النية صادقة والعزم أكيدًا.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص: ٥١-٥٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَصَّلْنَا﴾ من التوصيل، وحروفها الأصلية: وصل، والوصول إلى الشيء: بلوغ غايته، والمعنى: أن الله - سبحانه وتعالى - يُؤكّد في هذه الجملة بطرق ثلاثة، وهي: القسم، واللام، وقد، أنه وصَّل لهم القول.

وقوله: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المعروف أن وصل تتعدَّى بـ (إلى) فيقال: وَصَل إليه، ويقال: وصَّل إليه، وأوصَل إليه، هذا معروف، وهنا عُدِّيت باللام، تعديتها باللام؛ لأنها تضمَّنَت معنى البيان، معنى الوصول والبيان، ولهذا قال المؤلف في تفسيرها: [بيَّنَّا لهم]، وقد مرَّ علينا أن اللغة العربية قد تُعدِّي العامل بغير ما يتعدَّى به؛ لماذا؟ ذكرنا أن لعلماء النحو في ذلك طريقين: الطريق الأول: التجوُّز في الحرف، والطريق الثاني: التجوُّز في الفعل؛ فمثلًا: هنا أوضح مثالًا: قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ العين يُشرَب بها، أم منها؟ يُشرَب منها، والذي يُشرَب به الإناء، لكن العين يُشرَب منها، فالآية الكريمة قال الله فيها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، فمعلوم أن الفعل هنا عُدِّيَ بغير ما يتعدَّى به، فقال بعض النحويين: إن التجوُّز بالحرف وأن الباء بمعنى: (مِن)، وقال بعض النحويين: بل التجوُّز بالفعل يشرب؛ لأنه يتضمَّن معنى يروى، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى بها إذا شرِبَ منها، وهذا في الحقيقة أصح، وهو مذهب البصريين، يرون أن هذا التجوز وأن مذهب التجوز موافقة له في التعبير.

فهنا نقول: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المعروف أن وَصَل أو وَصَّل يتعدَّى بـ (إلى)، وهنا عُدِّي باللام، فنقول: إما أن تكون اللام بمعنى: إلى، وإما أن نجعل وصَّل بمعنى مُشربًا معنى البيان، فمعنى وصلنا إليهم ببيان ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ القول يقول المؤلف: [القرآن]، ولعله أعم مما قال المؤلف، المراد بالقول: أي: قولنا، فالله تعالى ما زال يُنزِّل لعباده سبحانه وتعالى من قوله ووحيه ما تصلح

به أمورهم حتى يصل في الغاية إلى ما زال - سبحانه وتعالى - يوصل القول إلى عباده وهو: الوحي إلى أن وصل إلى محمد ﷺ، وهو القرآن.

وقوله: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: ما أغفلناهم؛ بل ما زالت أقوالنا تصل إلى الخلق وتبين لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن يتذكروا، فالتذكُّر بمعنى: ذكر الشيء لكن لا لمطلق الذكر ولكن للاتعاظ به، المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ دائمًا يُفسِّر يتذكرون بلازمه، وهو: الاتعاظ، والأصل: التذكُّر، تذكَّرتُ الشيء؛ أي: كنت منه على ذُكْر، لكن المراد: لازمه، وهو: الاتعاظ، أما مجرد الذكر بدون اتعاظ فهذا لا ينفع، والمؤلف يقول: [يتعظون] أي: تؤثر فيهم الموعظة والقول [فيؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ آتيناهم بمعنى: أعطيناهم، والإيتاء هنا شرعي أو قدري؟ إيتاءٌ شرعي، ويحتمل أن يكون آتيناهم إيتاءً قدريًا، قدَّرنا أن يأتيهم الكتاب - وهو الوحي – فأتاهم، وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ بمعنى: المكتوب، والمراد به: التوراة والإنجيل، كلها تسمى كتابًا، وقوله: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ الضمير يعود على القرآن ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿هُم﴾ أي: الذين آتيناهم ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون له وينقادون له.

الإعراب: «الذين» مبتدأ في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، وجملة ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾ صلة الموصول، و﴿هُم﴾ مبتدأ ثان، و﴿بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبرُ المبتدأ الأول، والفائدة من تكرار المبتدأ لأجل أن يكون إسناد الإيمان إليهم مرتين؛ مرة بالضمير هم، ومرة بالمبتدأ الأول (الذين).

وقوله: ﴿هُم بِهِ﴾ وأتى بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في الفعل المضارع الدال على الاستمرار إشارة إلى أنهم تلقَّوه عن قبول وإذعان، وأنهم ما زالوا على هذا الأمر، فهذه الجملة بالنسبة لما قبلها في المعنى كأنها إقامة دليلٍ على الذين كذَّبوا بالقرآن؛ يعني: كأنه يقول: الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم آمنوا بالقرآن، مما يدلّ على أنه حق؛ لأنهم هم مع أنهم أهل كتاب تركوا كتابهم وآمنوا بالقرآن، وأنتم أهل جهل وليس لديكم كتابٌ فكان حقًّا عليكم أن تقولوا: هذا لغو في الإيمان؛ لأنه من الصعب أن الإنسان ينتقل من كتابه أو من دينه إلى دين آخر، لكن ليس من الصعب أن الإنسان ينتقل من جهل إلى حق وعلم، كما أن فيه أيضًا تأييدًا لهؤلاء، وفيه أيضًا دليل على أنه حق؛ لأن الذين أُوتوا الكتاب ما آمنوا به إلا عن علم، وهو كذلك، وإنه ما من شك أن النبي ﷺ كان مكتوبًا عند بني إسرائيل في التوراة والإنجيل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حتى أوصافه الخِلْقية موجودة عندهم، بقطع النظر عن منهاجه وسيرته؛ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، هذا كله موجود في التوراة والإنجيل ومعروف، ولهذا تجمَّع اليهود في المدينة من أجل أن يستقبلوا هذا النبي الذي

وجدوا صفته عندهم فيؤمنون، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يستنصرون عليهم بهذا النبي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فالحاصل: أن في هذه الآية أقول: إنها متعلقة بما قبلها من وجهين:

الوجه الأول: تأنيب هؤلاء الجاهليِّين على الكفر بمحمد ﷺ مع أن أهل الكتاب - وهم على دين - انتقلوا من دينهم إلى دينه، فكنتم أولَى باتباعه.

الوجه الثاني: أنه إقامة دليل على صحة ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن هؤلاء الذين عندهم علم من الكتاب ما انتقلوا إلا عن علم في أنه حق، وهذه المناسبة واضحة جدًّا بين هذه المسألة والتي قبلها.

ولا ريب أيضًا أن في هذه الآية ثناء على الذين آمنوا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - من الذين أوتوا الكتاب ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يستكبروا عنه مع أن لديهم كتابًا.

قال: ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [أيضًا] ما معنى أيضًا؟ يعني: كما آمنوا بكتبهم.

وأيضًا يقولون: إنها من الأسماء الملازمة للنصب على المصدرية؛ لأن فعلها آضَ يئيضُ، أيضًا مثل: باع يبيع بيعًا، وأن معناها: رجع، فالمعنى: أنهم هم أيضًا يؤمنون بالقرآن، قال المؤلف: [نزلت في جماعة أسلموا من اليهود؛ كعبد الله بن سلام وغيره، ومن النصارى قدموا من الحبشة ومن الشام] وكذلك من غير الشام، [أسلموا من اليهود] مثل: عبد الله بن سلام، واشتهر عبد الله بن سلام بالإسلام، وهو من اليهود؛ لأنه كان حَبْرًا من أحبار اليهود، وكان كما قال اليهود عنه في حضرة النبي - عليه الصلاة والسلام -: إنه خيرهم وابنُ خيرهم، وسيدهم وابنُ سيدهم(١)، يعترفون له بالفضل، والعلم، والسيادة، فلهذا كانوا يضربون به المثل؛ لأن مثل هذا الذي يكون سيدًا في قومه قد تحمله السيادة على العناد، وقد يحمله أيضًا حب الرئاسة على عدم الاتباع لغيره؛ لأنه إذا تَبعَ غيره صار مرؤوسًا لا رئيسًا، لكنه رضي الله عنه أَبَى تواضعًا للحق، فكان مؤمنًا بالرسول - عليه الصلاة والسلام -، وقصة إيمانه معروفة، فإن الرسول خبأه ودعا اليهود وسألهم عنه، فأثنوا عليه، وسألهم عن رسالة الرسول ﷺ، فكذَّبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فقال لهم: ما رأيكم لو أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: حاشاه من ذلك؛ لأنه خيرهم، فخرج وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فما خرجوا إلا وهم يُثْنُون عليه شرًّا؛ لأنه أسلم، كذلك نزلت في جماعة من النصارى قدِموا من الحبشة، قدمَ نصارى من نجران وأسلموا، وفيهم نزلت: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، ولكن الحبشة المعروف أنه أسلم فيها نصارى؛ مثل: النجاشي، فإنه أسلم ودخل دين الإسلام، وهو على دين النصرانية، ووصفه النبي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩١١) من حديث أنس رضي الله عنه.

- عليه الصلاة والسلام - أنه أخٌ للصحابة[1]، وأنه رجلٌ صالح، وهو كذلك؛ لأنه قال لهم: رجلٌ صالح، فالمهم: على كل حال؛ لا يهمنا أعيان الذين أسلموا، المهم: أن من الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنصارى قومٌ آمنوا بالقرآن أيضًا.

وقوله: [﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾] إذا يُتلَى قالوا، إذا - كما نعرف - شرطية، وجواب الشرط متصلٌ بفعله مباشرة؛ بمعنى: أنه متى وُجِد فعل الشرط وجد جوابه، هنا الاقتصار اللفظي الاقتصار الوقوعي إذا وُجِد الشرط وُجِد المشروط، وطبعًا على حسب الحاجة، قد يكون حاضرًا، قد تكون حتى في المستقبل، فهنا يقول: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ إذا يُتلى، لم يقل: إذا تُلِيَ، فمعنى ذلك: أنه أي آية تتلى عليهم يقولون: آمنا بها، ما آمنوا بالقرآن جملة، آمنوا بالقرآن تفصيلًا؛ لأن الفعل المضارع يدل على الاستمرار، فكلما تُلِيَت عليهم آية آمنوا بها فزادَتهم إيمانًا ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُقرأ عليهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ مع تردُّد ونظر وتفكير، أو بلا تردُّد يؤمنون؟ بلا تردُّد يؤمنون، قلنا: إن جواب الشرط يلي فعل الشرط مباشرة، إذا يتلى ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي: بالذي تُلِيَ عليهم من القرآن قليلًا كان أو كثيرًا، ثم بيَّنوا أن إيمانهم هذا عن اقتناع، وعلى أساس ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ إنه؛ أي: ما تُلِيَ عليهم من القرآن، الحق بمعنى: الشيء الثابت الواقع، الصادق خبرًا، العادل حكمًا، وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ ولم يقولوا: من الله؛ لأن الرب هو الذي له التصرف المطلق، فهو يتصرَّف بعباده شرعًا وقدرًا، فكأنهم يقولون: إن ربنا لن يخذينا من أن ينزل القرآن، وله الحكم والتصرُّف المطلق كونًا وشرعًا، وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ هذا إشارة إلى أنهم - ﷺ - يفتخرون بانتسابهم إلى الله، وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ الجملة من حيث المعنى محلها مما قبلها تعليلية؛ يعني: آمنا به لا لأنه أعجبنا حُسنُه وبيانه وبلاغته، ولكنا آمنا به؛ لأنه الحق من ربنا، فإذا قال قائل: إنه إذا كانت تعليلية فلماذا لا تُفتح الهمزة (أنَّه الحق من ربنا)؟ لأن الجملة التعليلية على تقدير اللام، واللام إذا اتصلت بـ (إنَّ) وجب فتحه، فتقول: لأن ذلك كذا، ولا تقول: لإنَّ ذلك كذا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ ولم يقل: إنهم إلى ربهم، فهنا لماذا لم تكن تعليلية؟

قلنا: الجملة التعليلية قد تكون تعليلية من حيث المعنى فقط؛ يعني: يُلاحَظ فيها المعنى فقط، وقد تكون تعليلية يُلاحَظ فيها اللفظ مع المعنى، فإن لُوحِظَ معها اللفظ مع المعنى فإنها تُفتَح الهمزة؛ لأنها على تقدير اللام، وإن لُوحِظ المعنى فقط فإنها تُكسَر الهمزة، وهنا لُوحِظَ المعنى فقط، ومُلاحظة المعنى وملاحظة اللفظ أيهما أولى؟ نقول: لكل مقام مقال؛ فملاحظة المعنى فائدتها: أن

---

(١) قال النبي ﷺ: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» يعني النجاشي والحديث متفق عليه أخرجه البخاري (٣٨٧٧) ومسلم (٦٥/ ٩٥٢) من حديث جابر ﷺ.

الجملة تكون من حيث اللفظ منقطعة عما قبلها، فكأنها جملة خبرية مستقلة، وكأنها منقطعة عن اللفظ، لكن إثارة التعليل من السياق، وأما التعليلية اللفظية فإنها تكون مرتبطة بما قبلها، وإذا شئتم ذلك فاقرأوا قول ابن مالك:

فَاكْسَرْ فِي الابْتِدَاء.

فهذا هو الفرق بين الجملة التعليلية التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، أو التي قُصِد بها المعنى فقط.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ من قبل القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ قال المؤلف: [موحِّدين] ولو أنه فسَّر الإسلام بظاهره لكان أولى؛ لأن الإسلام معناه: الاستسلام والانقياد، وأصله من عدم المعارضة والمحاربة، ولهذا يقال: السِّلْم والإسلام؛ يعني: معناه: عدم المعارضة والمحاربة، فكلمة ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقَادين مُذعِنين للحق، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ ليس المراد بذلك: الفخر والإعجاب بالعمل قطعًا، ولكن المراد بذلك: الثناء على الله بما كانوا عليه في الحالَين؛ في الحال السابقة، وفي الحال الثانية، ففي الحال الثانية ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، في الحال الأولى ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ مُنقادين مُتَّبعين للرسول الذي جاء إليهم، وما إعراب ﴿مُسْلِمِينَ﴾؟ خبر كان، أم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ هي الخبر؟ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ هي الخبر، ولو تقدَّم عليه الخبر؛ لأن الخبر ما تحصل به الفائدة، سواء تقدم أو تأخر.

وقال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أولئك المشار إليهم: الذين أوتوا الكتاب، ثم آمنوا بالرسول ﷺ ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ فآمنوا به، ثم آمنوا بالرسول ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يُعطَون أجرَهُم، وأما قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ فإنه مفعول مطلق؛ يعني: أنه دالٌّ على المصدر لكنه بغير لفظه، فهو مفعول مطلق ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ [بإيمانهم بالكتابين]، فهم يؤتَون أجرهم مرتين[1]؛ المرة الأولى: على الإيمان بالكتاب السابق، والمرة الثانية: على الإيمان بالقرآن، وأما أهل الجاهلية الذين آمنوا بالقرآن فيؤتون أجرهم مرة واحدة؛ لأنهم ما آمنوا مرتين، وقد ثبت في هذا الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - موافقًا لهذه الآية، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - ذكر الذين يؤتون أجرهم مرتين: الرجل الذي آمن بالكتاب الذي نزل إليه، ثم آمن بما أُنزِل على محمد، والرجل يُعتِق المرأة ويتزوجها، والثالث: العبد الذي أحسن في عبادة الله، وفي معاملة مواليه.

قال: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، ومعنى المصدرية أو علامتها: أن تحول ما بعدها إلى مصدر، فهنا نقول في التحويل - كما قال المؤلف -: [بصبرهم]، هل تصح أن تكون ما اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي صبروا؟ لا يصح، ما هو بالذي صبروا؟ ثم لو كانت موصولة لكانت تحتاج إلى الضمير: بالذي صبروه، وهذا لا يستقيم، فإذن هنا تكون مصدرية؛ أي: بصبرهم، وهو أحد محامل ما العشرة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠١١) ومسلم (٢٤١/ ١٥٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: [بصبرهم على العمل بهما]، وهذا الصبر على العمل بهما هل هو من باب الصبر على طاعة الله، أو من باب الصبر عن معصية الله، أو من باب الصبر على أقدار الله؟ الثلاثة تجتمع؛ بما صبروا على طاعة الله، فإن الشرع فيه أوامر شاقة على النفوس تحتاج إلى معالجة، فهذا صبر على طاعة الله، في الشرائع نواهٍ يُنهَى عنها قد يشق على النفس تركها، ففيها صبرٌ عن معصية الله، كذلك أيضًا في الشرائع إيذاء، فإن المجرمين يؤذون المؤمنين، وربما يضربونهم، وربما يقتلونهم، وهذا صبر على أقدار الله المؤلمة، فعلى هذا يكون الصبر على الشرائع يتضمن الصبر بأنواعه الثلاث: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

وأصل الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قُتِل فلان صبرًا؛ أي: محبوسًا على القتل، أُمسِك وقُتِل، فمعنى الصبر: حبس النفس، والنفس تحتاج إلى حبس على طاعة الله - سبحانه وتعالى -؛ لأنه كم من إنسان يقول له ضميره: افعل كذا من الطاعة، وربما يفعل البعض ثم يعجز فلا تصبر نفسه، وكذلك بالنسبة للمعاصي، فإن النفس المطمئنة تزجر المرء عن المعصية، ولكن تأتيه النفس الأمارة بالسوء فتأمره بالمعصية، وحينئذٍ تتصارع النفسان، والتوفيق بيد الله - عز وجل - كذلك بالنسبة للأقدار، من الناس من لا يصبر على الأقدار؛ بل إذا نزل به القدر يمكن - والعياذ بالله - أن يكفر، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، فإن بعض الناس قد لا يصبر على الأقدار المؤلمة وتجده يقنط، ومن الناس يقال: إنهم إذا أُصيبوا بالمصائب انتحروا، هؤلاء ما صبروا على الأقدار، فقتلوا أنفسهم ليُعذَّبوا بما قتلوا به أنفسهم في نار جهنم - والعياذ بالله -، فيُخلَّدون فيها، لكن الصبر على الأقدار المؤلمة هذا أمر يمكن للإنسان أن يصبر عليه ويحاسب نفسه حتى يستقيم، فالمهم: أن الصبر إذن ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، والأعلى والأكمل الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه الجهادين: جهاد على العمل، وجهاد على تحمل العمل، ثم الصبر عن المعصية؛ لأنه جهادٌ واحد، وهو: جهاد على تحمل تركه، ما في عمل، يقال: لا تزني، لا تزني، ما كُلِّفتَ بشيء، الصبر على الأقدار المؤلمة هو أدناه؛ لأنه صبرٌ على ما لا اختيار للمرء فيه، كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تصلوَ صُلُوَّ البهائم، وصلو البهائم، البهيمة مثلًا: تجدها ترغل ولدها ولكن إذا وُضِعَ لها علف جيد وماء جيد نسيت، فإما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تصلو صلو البهائم، ولهذا كان صبر يوسف على ترك الزنا بامرأة العزيز أكمل من صبره على ما حصل من أذية إخوانه له بلا ريب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ولم يذكر مثل هذا حين ألقوه في غيابات الجب.

وقوله: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ للسببية؛ أي: بسبب

صبرهم.

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالحسنة السيئةَ، السيئةَ مفعول به، والباء في قوله: ﴿بالحسنة﴾ هذه باء الآلة؛ مثل ما تقول: ذبحت بالسكين، وضربتُ بالعصا، فعندنا دارئ، ومدروء، ومدروء به، من الدارئ؟ المؤمنون، والمدروء؟ السيئة، والمدروء به؟ الحسنة، كما تقول: ذبحت بالسكين، فعندنا ذابح، ومذبوح، ومذبوح به، فالحسنة لهم بمنزلة الآلة التي يتوصلون بها إلى غرضهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ السيئةَ يقول المؤلف: [منهم] فإذا فعلوا سيئة أتوا بعدها بحسنة فاندفعت السيئة، هذه الحسنة المدروء بها السيئة تنقسم إلى قسمين: قسم يزيل السيئة من باب المقابلة، وقسم آخر يزيل السيئة من باب المحو والإزالة، فإن كانت الحسنة المدفوع بها السيئة إن كانت توبةً، فالتوبة من الحسنات ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من باب المحو والإزالة، وإن كانت حسنة أخرى، كما لو دفع السيئات بالصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فهذا الدرء من باب المقابلة؛ يعني: أن ثواب الحسنة يُقابَل بعقوبة السيئة من باب الموازنة، فإذا رجح ثواب الحسنة انمحَت السيئة، وإلا فلا، أيهما أكمل؛ أي الدرئين أكمل: الأول أو الثاني؟ الأول أكمل؛ لأنه إذا حصل الأول صارت الحسنة الثانية زيادة رفعة في الدرجات، المهم مقابلة السيئة، ثم إنه إذا كان الدرء من باب المقابلة فقد تضعُف الحسنة الثانية عن مقابلة السيئة، فصار الدرء بالتوبة أكمل من الدرء بفعل حسنة أخرى تُقابِل السيئة، وكلا الأمرين يحصل بهما الدرء، وقول المؤلف: [منهم] في الحقيقة هذا الكلام وجيه، لكن لو قلنا: إنها أعم؛ لأنهم يدرءون بالحسنة السيئة منهم ومن غيرهم، كيف منهم ومن غيرهم؟ يعني: إذا أُسِيءَ إليهم دفعوا الإساءة بالإحسان، فيكون هنا ثناءً عليهم من حيث معاملتهم مع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وعلى هذا فنحمل الآية على المعنيين ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ بالنسبة لما يقع منهم في عبادة الله، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ بالنسبة لما وقع من غيرهم في المعاملة، إذا عومِلوا أساء إليهم أحد قابلوه بالإحسان.

لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شنُّوا الإغارة فرسانًا وركبانًا

الآن ذمَّهم أم مدَحَهم؟ مدحهم، يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً، فهنا درءُ السيئة بالحسنة ممدوح إذا كان على سبيل العزة، أما إذا كان على سبيل الضعف فهذا ليس بممدوح، ولهذا الرسول ﷺ لما سأله الرجل عن إنسان يأتي ليأخذ ماله قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: أرأيت إن قاتلني،

قال: «قَاتِلُهُ»[1]، المهم: أنه يقول: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [منهم] الصواب أن نجعلها أعم، فيدرءون بالحسنة السيئة منهم في معاملتهم مع الله، ومن غيرهم في معاملتهم مع الخلق.

قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [يتصدقون] ويُهدُون أيضًا، هناك أناس لا يتصدَّقون؛ لأن الهدية قد تكون محمودة إذا كان الغرض منها جلب المودة «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»[2] تهادَوا أو تهادُوا؟ تهادَى الرجلان يتهاديان؟ فإذن «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»، الشاهد: أن قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ رزقناهم بمعنى: أعطيناهم، فالرزق بمعنى: العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، الرزق: العطاء، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من هنا هل لبيان الجنس أو للتبعيض؟ الأولى أن نجعلها لبيان الجنس؛ لأن في بعض الأحيان يكون إنفاق المال كله من الأمور المحمودة، فقد حثَّ النبي ﷺ ذات يوم على الصدقة، فقال عمر: الآن أسبق أبا بكر، فأتى بنصف ماله، ولكن أبا بكر أتى بماله كله[3]، فالإنفاق إذا جعلنا (من) لبيان الجنس فهو أولى، لأجل أن يشمل بذل المال كله أو بعضه؛ لأنه قد يكون من الخير بذله كله، وقد يكون من الخير بذل بعضه حسب الحال التي أُنفِق فيها، فـ (من) الأولى أن نجعلها لبيان الجنس، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق بمعنى: البذل لا بمعنى: الصدقة، لكن الذي أوجب للمؤلف أن يخصَّه بالصدقة؛ لأن المقام مقام ثناء، ولكن الأولى أن نجعله على عمومه، ونجعل ينفقون أي: يبذلون ويعطون؛ لأنه قد يكون البذل تصدُّقًا خيرًا، وقد يكون البذل توددًا خيرًا أيضًا، قد يكون أكرم من الصدقة في بعض الأحيان، وعلى هذا فنقول: الأولى أن نجعل الإنفاق بمعنى: الإعطاء والبذل، سواء كان صدقة، أو كان هدية، أو كان هبة، وتعرفون الفرق بين الأمور الثلاثة، ما الفرق بين الهبة والهدية والصدقة؟ الصدقة: ما أُريدَ بها وجه الله، يُتقرَّب بها إلى الله، ما يهمه تقرَّب إليه هذا المعطى أم لا، والهدية: ما قُصِدَ به: التودُّد للمُعطَى؛ يعني: يريد أن يتقرب إلى المعطَى، والهبة: ما قُصِد به: نفع الموهوب فقط، ما قصد به: أن يتقرب إلى هذا الموهوب، ولا أن يتقرَّب إلى الله بذلك، قُصِد به: نفعه، فهذه تسمى: هبة، وكلها محمودة في الواقع، لكنها هل بعضها أفضل من بعض؟ هذا على حسب الحال.

الفوائد:

١- **يُستفاد من قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أن الله سبحانه وتعالى لم يُخلِ الأرض من وحي؛ لأن التوصيل معناه: وصل الآخر بالثاني.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٥/ ١٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤).
(٣) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٧٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

٢- **ويستفاد منه**: أن الوحي مشتمل على غاية البيان؛ لأننا قلنا: إن وَصَّل مضمن معنى: بيَّن.

٣ـ **يُستفاد منه كذلك**: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بإيصال القول إليهم ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ [القصص: ٥١].

٤- **ويستفاد من الآية أيضًا**: أن الحكمة من الوحي هو: التذكُّر والاتعاظ، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٥- **ويستفاد منها**: إثبات العلة في أحكام الله الكونية والشرعية وأنه ما يفعل شيئًا ولا يشرعه إلا لحكمة، والذي خالف في ذلك: الجهمية هم الأصل، قالوا: أفعال الله ما تُعلَّل، وأحكامه لا تُعلَّل.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية**: أن اليهود والنصارى فيهم من آمن بالقرآن، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢- **ويستفاد منها أيضًا**: أن حكم الفرد قد يتناول جنسه، ما معنى هذا؟ معناه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ لو نظرنا إليها وجدنا أنها عامة تشمل كل الذين أوتوا الكتاب، وهل هي عامة؟ هل كل الذين أوتوا الكتاب من قبل آمنوا بالقرآن؟ أبدًا، النصارى بقُوا على نصرانيتهم، واليهود بقُوا على يهوديتهم، ولكن مِنْ هؤلاء من آمن، يكون معنى ذلك: أننا أعطينا الجنس حكم الفرد؛ يعني: كأنه يقال: إيمان عبد الله بن سلام وإيمان النجاشي مثلًا، من يدري أن هذا اسمه: عبد الله بن سلام، وهذا اسمه: النجاشي؟ لكن لأنهم أوتوا الكتاب، فهم آمنوا لا لأسمائهم، ولكن لما علموا من كتبهم بأن الرسول ﷺ سيُبعَث، وهذا يقتضي أن يكون كل هذا الجنس يجب أن يكون مؤمنًا، وإن لم يؤمنوا كلهم، والمهم: أنه يستفاد من هذه الآية: إعطاء الجنس حكم الفرد، مادام أن هذا الحكم سببه يشمل جميع الجنس، مثلًا: ما سبب إيمان عبد الله بن سلام؟ علمه بما في التوراة من صفات الرسول ﷺ، هذا العلم يختص به أم يشمل جميع اليهود؟ يشمل جميع اليهود.

إذن فهنا أعطينا الجنس حكم الفرد للعلة التي تشمله وغيره، وإلا قد يقول قائل: ما نرى أن الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، ما كلهم آمنوا، لكن نقول: نعم، هو ما آمن إلا بعضهم، لكن هذا الإيمان من بعضهم حمله عليه العلة الشاملة لجميع الجنس، فنستفيد من هذا: أننا نعطي الجنس حكم الفرد إذا كان علة هذا الحكم شاملة للجميع، فإنه يُعطَى الجنسُ حكمَ الفرد.

٣- **يستفاد من هذه الآية أيضًا**: الثناء البالغ على الذين آمنوا بالقرآن وبالكتب السابقة، لقوله: ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

٤- **ويستفاد منه**: أن صفة النبي ﷺ موجودة فيما سبق من الكتب؛ في التوراة والإنجيل، وهذا صريح في آية الأعراف، لقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ...﴾[الأعراف: ١٥٧] إلى آخره.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

١- **يستفاد من هذا**: زيادة الثناء على هؤلاء بأنهم يؤمنون بكل ما يُتلى عليهم، هم ما آمنوا بالقرآن جملة فقط، ولكن جملة وتفصيلًا، وأخذنا ذلك من قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ ويُتلى فعل مضارع يدل على التجدُّد والحدوث، وأن هذا شأنهم كلما تُلِيَ عليهم.

٢- **ويستفاد منها أيضًا**: أنهم آمنوا لا لمجرد الفعل، ولكن آمنوا إيمانًا مبنيًّا على اقتناع، من أين يؤخذ؟ من قولهم: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ ما آمنوا هكذا تبعًا للناس، ولكن آمنوا عن اقتناع أنه الحق من ربهم.

٣- **ويستفاد منها أيضًا**: أن القرآن من عند الله، لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾.

٤- **ويستفاد منها**: كمال عقل هؤلاء الذين آمنوا؛ حيث عبَّروا هنا بالربوبية: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ دون الألوهية؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن الرب له الحكم يحكم بما شاء كونًا وشرعًا.

٥- ويستفاد من هذا أيضًا: أن هؤلاء كانوا مؤمنين مسلمين مُنقادين للكتب السابقة، لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

٦- **ويستفاد منها**: جواز ثناء المرء على نفسه بالصفات المحمودة، بشرط أن يكون في ذلك مصلحة، وأن لا يكون فيه افتخار، وعلوٌّ على الغير، لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا أمرٌ واقعٌ من الرسول ﷺ، ومن الصحابة، ومن أهل العلم، قال النبي ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»[1]، وقال ابن مسعود: لو أعلم أنَّ أحدًا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منِّي لذهبتُ إليه[2]، وهذا ثناء على نفسه ولكن لمصلحة، والعلماء دائمًا إذا كتبوا في كتاب يثنون عليه بما يحتوي هذا الكتاب، ومعلوم أن الثناء على الكتاب ثناءٌ على مصنِّفه، لو أنك أثنيت على هذا البناء مثلًا قلت: هذا البناء جيد مُحكَم وجميل، من أثنيت عليه في الواقع؟ أثنيت على الباني، فهذه المسألة يجوز للإنسان أن يثني على نفسه بصفات الحمد بشرط ألَّا يُوجِبُ ذلك: الافتخارَ على غيره، والشرط الثاني أيضًا: أن يكون في ذلك مصلحة، أما الشرط الأول فوجهه ظاهر؛ لأنه إذا قُصِد الافتخار والعلو على الناس فهذا قَصْدٌ مُحَرَّمٌ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (٧٨/ ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ومسلم (١١٥/ ٢٤٦٣).

فَخْرَ»(١)، وكذلك أيضًا اشتراط أن يكون فيه مصلحة؛ لأنه إذا لم يكن فيه مصلحة كان لغوًا من القول على أقل ما نقول فيه؛ لأنه لماذا الإنسان يمدح نفسه بدون مصلحة؟ لولا أنه يريد أن يُبرِز صفاته ليفتخر بها على غيره ما فعل ذلك حتى لو قال: أنا ما أريد الفخر.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المؤمنين من أهل الكتاب لهم أجران: الأجر الأول: الإيمان بكتابهم، والثاني: الإيمان بالقرآن.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات عدل الله سبحانه وتعالى؛ حيث لم يُضيِّع أجرهم الأول بالأجر الثاني، ولا الأجر الثاني بالأجر الأول.

٣- **يستفاد من ذلك أيضًا:** أن الثواب على قدر العمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، هؤلاء يُؤتَون أجرهم مرتين؛ لأنهم عملوا مرتين.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب والعلل، لقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** فضيلة الصبر، ما دام أن الصبر سبب للأجر فلا شك أنه صفة حميدة وفاضلة، وأظن أننا في التفسير ذكرنا أن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وأن أفضلها أولها، ثم الثاني، ثم الثالث.

٦- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الحسنات يُذهِبن السيئات، لقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

٧- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي مقابلة المسيء بالإحسان؛ لأن الآية - كما قلنا عامة - لدرئهم سيئاتهم بحسناتهم، ودرئهم سيئات غيرهم بالإحسان إليهم، وأتينا لذلك بشاهد من القرآن، ولكن هذا الدرء ثقيل على المرء، درء سيئات الغير بالإحسان إليه هذا ثقيل على المرء جدًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] أكثر الناس يقولون: والله لأكيلنَّ له الصاع بالصاعين، والصفعة بالصفعتين، لكن الأمر ليس كذلك، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ما النتيجة؟ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وأتى بـ (إذا) الفجائية للدلالة على أن هذا الأمر يتحول بسرعة، هذا العدو يتحول بسرعة يكون كأنه ولي حميم؛ يعني: صديق قريب لك، إذن نقول: إنه يستفاد منه: أن الحسنات يذهبن السيئات، وأنه ينبغي مقابلة الإساءة بالإحسان، إلا أنا ذكرنا أن هذا ينبغي أن لا يكون مظهر عجزٍ للمرء، فإن كان مظهر عجز للمرء فلا ينبغي؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

٨- ويستفاد من الآية أيضًا: فضيلة الإنفاق من رزق الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

٩- ويستفاد منها أيضًا: أن المُنفِق لم يُنفِق مما صنعه، أو اكتسبه بنفسه، ولكنه يُنفِق من رزق الله، فالله هو الذي رزقك، وهو الذي أمرك، فأنت في الحقيقة خادمٌ عبدٌ مُتصرِّفٌ حسب أمر سيدك، قال لك: اكتسب فاكتسبت، قال لك: أنفق فأنفقت، قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كيف نجمع بين ما هنا، وبين قوله في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]؟

نقول: نجمع بينهما بأن غالب أحوال الناس ألَّا ينفقوا جميع أموالهم؛ لأن إنفاق جميع المال قد يكون مُضِرًّا به، لكن في بعض الأحيان يكون إنفاق جميع المال محمودًا، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ فلا تُنفِق ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتُنفِق كل ما عندك، لكن النصوص الأخرى تدل على أن المسألة مبنيَّة على تغيُّر الحكم بتغيُّر الأحوال، فقد يكون مثلًا من الأفضل إنفاق جميع المال، وقد يكون من الأفضل إبقاء بعضه.

١٠- ويُستفاد من الآية الكريمة أيضًا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أن الإنفاق من رزق الله تبارك وتعالى محمود، والرزق: ما ينفع من حلال، وضده وهو: الحرام، فهل يُحمَد الإنسان إذا أَنفَقَ من حرام؟ لا؛ لأنه ما يُثابُ عليه، والواجب عليه أن يرد الشيء ويتخلَّص منه، هذا الواجب عليه، لكن المراد هنا بالرزق الذي يُحمَد على الإنفاق منه: إذا كان رزقًا حلالًا، أما من اكتسب رزقًا حرامًا فإن النبي ﷺ أخبر بأنه إن أنفقه لم يبارَك له فيه، وإن تصدَّق به لم يُقبل منه، وإن خلَّفه كان زاده إلى النار[1]، وهذا يدل على أن الإنفاق من المحرَّم لا ينفع المرء، لكن ينفعه متى؟ إذا أنفقه يريد التخلص منه، فإنه ينفعه بمعنى: أنه لا يلحقه شيءٌ من جرَّائه، وينفعه لأن إنفاقه للتخلُّص منه توبة، والتوبة تنفع العبد، فمثلًا: إذا كان إنسان عنده مائة ألف درهم اكتسبها من الحرام، وأنفقها للتخلُّص منها، هل يُعطَى أجر المتصدق بها؟ لا، لكن يعطى أجرًا على التوبة من هذا الذنب الذي فعله، لكن لو أنه اكتسبها من حلال وأنفقها أُعطِيَ الأجر بقدرها، وعلى حسب المضاعفة التي جاء بها النص.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٢٥).

* قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

* التفسير *

قال الله وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (إذا سمعوا): يجب أن نعرف الفرق بين سمِع واستمع، فالسامع هو: الذي أدرك الصوت بدون قصد، والمستمع هو: الذي أدركه بقصد، أدرك الصوت بقصد، ولهذا نقول: يُسنُّ سجود التلاوة للمستمع دون السامع، فهنا قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ دلَّ على أن هؤلاء القوم ليسوا يستمعون إليه، ولكن يسمعونه، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] مرُّوا به ما يدخلون عنده، لكن إذا مرُّوا به، هؤلاء أيضًا إذا سمعوا اللغو يقول المؤلف: [الشتم والأذى من الكفار] أيضًا هذا تخصيصٌ لما هو أعم، فإن اللغو يشمل ما قاله المؤلف: [الشتم والأذى]، ويشمل أيضًا كل كلام لا خير فيه، كل كلام لا خير فيه سواء كان فيه شر، أو لم يكن فإنه من اللغو، فهؤلاء في غاية ما يكون من الجِدِّ وحفظ الوقت لا يستمعون إلى كلام اللغو، والله تبارك وتعالى مدح الذين لا يستمعون اللغو، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمِتْ»(١)، والمقابل للخير: الشر، وما لا خير فيه ولا شر، فالأصح أنه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ يشمل كل كلام لا خير فيه، سواء كان فيه أذية وشر أو لم يكن ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ بأبدانهم، أو بأبدانهم وقلوبهم، أو بقلوبهم فقط؟ الأصل: القلوب، لكن قد تشمل الأبدان أيضًا؛ بحيث إذا سمعوا كلامًا لا خير فيه قاموا وتركوا المكان، فالكلام هنا حرام، ولو كان غير حرام، أما إعراض البدن مع إقبال القلب، فهذا ينفع؟ لا ينفع، فالمقام هنا أربعة أنواع: تارة يُقبِل عليه بجسمه وقلبه، وحينئذٍ يكون مشاركًا لأهله، وتارة يُعرِض عنه بجسمه وقلبه؛ بحيث ما يستمع إليه ولا يُقبِل عليه، وتارة يُعرِض بقلبه دون جسمه، وتارة يُعرِض بجسمه دون قلبه، والتركيز هنا على أي شيء؟ الإعراض بالقلب.

﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ كأنه يقول: إذا قيل لهم: لماذا لا تردون؟ لماذا لا تنصاعون لأذاهم؟ يقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، فنحن لا نُسأل عما تعملون، وأنتم لا تُسألون عما نعمل، ولا نوافقكم على هذا العمل، وليس يعني ذلك: أنهم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر؛ لأن الكلام هنا عن اللغو، وهو: الكلام الذي ليس فيه خير، أما المنكر فإنهم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧/٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا شك أنهم ينهون عنه، ويأمرون بالمعروف.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يسلمون عليهم سلام تحية، أم سلام غير تحية؟ المؤلف يقول: [سلام متاركة؛ أي: سلمتم منا من الشتم وغيره]، وليس يسلمون سلام تحية، فهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا وقاموا وقالوا لهؤلاء: سلامٌ عليكم؛ يعني: سلام عليكم منا أو من الله؟ سلامٌ عليكم منا، فأنتم سالمون لا نُقابلكم بما تفعلون بنا، وهذا من المؤلف بناءً على أن المراد بقوله: ﴿ٱللَّغۡوَ﴾ يعني: الأذى والشتم من الكفار، أما إذا قلنا بالعموم، فإنه يحتمل أن يكون المراد بالسلام هنا: سلام من الله؛ أي: سلام تحية؛ لأنه يُشرَع لمن قام من المجلس أن يُسلِّم، ويحتمل أن يكون سلام متاركة، وإن شئنا جعلناه موزَّعًا، فقلنا: إن قلنا باللغو: إنه الشتم والأذى فالسلام هنا: سلام متاركة، وإذا قلنا: إن المراد باللغو: الكلام الذي لا خير فيه، وإن لم يكن سبًّا ولا شتمًا، فهو سلام تحية؛ لأن هؤلاء لم يُسيئوا للمعرضين حتى يقولوا لهم: سلام عليكم منا، وهذا أيضًا جائز، أن نحمل السلام؛ أي: معنى السلام، هل هو متاركة أو سلام تحية على معنى اللغو.

وقوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [لا نصحبهم] وهذا التفسير من المؤلف قاصر، يقول: [لا نصحبهم]، ولو كان الأمر كذلك لقال: لا نصحب الجاهلين، لكن ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الابتغاء بمعنى: الطلب، ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح: ٢٩] أي: يطلبون، فمعنى لا نبتغي: أي: لا نطلب، وإذا انتفى طلب الجاهلين فانتفاء صحبتهم من باب أَولى، إذا انتفى طلب الجاهلين انتفت الصحبة من باب أَولى؛ لأنهم هم ما يطلبون الجاهلين، فضلًا عن كونهم إذا وجدوهم صحِبوهم، فأيها أبلغ تفسير المؤلف أو ظاهر الآية؟ ظاهر الآية أولى وأبلغ؛ يعني: نحن لا نطلب الجاهلين فضلًا عن صحبتهم؛ وذلك لأنهم ذوو علم وبصيرة، والإنسان ذو العلم والبصيرة لا يطلب الجاهلين فيكون معهم؛ بل لا يصحبون إلا الأخيار ذوي العلم والمروءة والشرف والدين، أما الجاهلين فإنهم لا يتبعونهم ولا يطلبونهم ولا يريدونهم أيضًا، والجاهل هنا المراد به: السفيه، أو من ليس بعالم؟ المراد به: السفيه، حتى لو كان عالمًا؛ لأنه إذا أساء التصرف ولو كان عالمًا فهو بمنزلة الجاهل؛ بل أشد من الجاهل؛ لأن من خالف عن علم أشد ممن خالَفَ عن جهل، ويسمى من خالف عن علم: سفيهًا، ويسمى: جاهلًا مركبًا إذا ادعى أنه يعلم، بخلاف الإنسان الجاهل الذي لم يأته العلم أصلًا، فإن هذا قد يستقيم إذا علِمَ، إذن الجاهلين هنا ليسوا من لا يعلمون؛ بل السفهاء، وإذا قال قائل: ما الذي يدل على أن الجهل يأتي بمعنى: السفه؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧] فإن قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ لا شك أن المراد: بسَفَه؛ لأن من يعمل السوء جاهلًا بغير علم فهذا لا ذنب عليه حتى نقول: إنه يتوب، فالجهل هنا بمعنى: السَّفَه ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: السفهاء الذين يعملون بجهالة، الجاهل غير العالم هل يبتغيه المرء؟ ربما يبتغيه يطلبه لأجل أن يُعَلِّمَه ما دام جاهلًا، ولهذا

كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج[1]، يأتي للقبيلة ويقف عليهم يدعوهم إلى الله، فهو يطلب هؤلاء الجُهَّال ليعلمهم، لكن المراد بالجهل هنا هو: السفه؛ لأن السفيه في الحقيقة فعله كفعل الجاهل تمامًا؛ إذ أنه يخالف الحق ولا يعمل به، لكنه أشد من الجاهل؛ لأنه غير معذور.

نحن الآن وإياكم نقرأ هذه الصفات، فهل المراد أن نقرأها للعلم أو للعمل؟ للعلم والعمل؛ لأن بعض الصحابة ﷺ كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات تعلَّموها وما فيها من العلم والعمل، وأكثر الناس إذا قرأ مثل هذه الآيات قال: ما أحسن الصفات، وما أجمل أفعاله، وهذا غاية ما يستفيد من الآية، ولكن هذا لا يكفي، المقصود من ذكر هذه الألفاظ الحميدة سواء كانت عن سبيل الإخبار عن الحال، أو عن سبيل القصص الغرض منها هو: الاعتبار؛ أن الإنسان يعتبر بما حصل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ونسأل الله أن يعيننا جميعًا على فهم كتابه والعمل به.

وثانيًا: أنه ينبغي الإعراض عن اللغو، وهو: الكلام الذي لا فائدة فيه ولا خير فيه، والفعل يقاس عليه أم لا؟ يقاس عليه، فلا ينبغي للإنسان أن يمضي وقته في أفعال لا خير فيها، واعلم أن الخيرية ذاتية وعَرَضية؛ بمعنى: أنه قد يكون الشيء خيرًا في ذاته، وقد يكون خيرًا لغيره لعارض يعرض له، فمثلًا: الصلاة خيرها ذاتي، والسعي إليها خيره عَرَضي؛ لأن مجرد المشي ليس بقربة حتى يكون وسيلة إلى قربة أخرى، فعلى هذا لو أن الإنسان تحدَّث بحديث ليس من الذكر، ولا من العلم، ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه حديث يُقصَد به إدخال السرور على الجالسين، يكون خير هذا أم لا؟ نعم، يكون خيرًا، لكنه ليس خيرًا ذاتيًا في هذا الكلام؛ بل هو خير عرضي، أو عَرَضَ له بسبب القصد الحسن فيه، وهذا في الحقيقة على هذا التقدير.

ولاحظوا أيضًا أن هناك فرقًا بين الخير العَرَضي والخير الذاتي؛ لأن الخير العرضي يفقد خيره إذا زال السبب، والخير الذاتي خيره ثابت، ما دمنا قلنا: إنه خير عرضي، فهذا إذا انتهى وزال السبب الذي من أجله تحدث يكون الباقي ما فيه فائدة، يكون من الأحسن تركه «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمِتْ»[2]، إذا زال السبب الذي من أجلها يتحدث إليهم ذهبَت الخَيرية، فيمكن أن ينتقل إلى حديث آخر مفيد أو نحو ذلك، والإنسان في الحقيقة البصير يستطيع أن يعمل، ومن أحسن ما يكون أن بعض الإخوان إذا صحب أحدًا ربما يوجه له أسئلة مفيدة في الدين مثلًا من أجل أنه يشغل الناس عن كلام اللغو الذي لا فائدة منه، ويشدهم أيضًا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٣٤) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

إلى البحث؛ لأنه قد يكون عند الإنسان سؤال ناسيه وإذا انفتح الباب تذكَّره، هذا من أحسن ما يكون، لاسيَّما طلبة العلم الذي ينبغي أن يكونوا مفيدين للناس في جلساتهم؛ يعني: فلا ينبغي لطالب العلم أن تكون جلسته كجلسة العامي؛ بل يحرص على الفائدة ما أمكن.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أنه ينبغي التبرؤ من أصحاب اللغو وعدم مجالستهم، لقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

٢- **ويستفاد منه:** مشروعية السلام عند الانصراف، لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يتوجَّه على تفسير المؤلف لها أم لا؟ لا؛ لأن معنى كلام المؤلف ما يستقيم هذه الفائدة على تفسير المؤلف؛ إذ أنه يرى أن السلام هنا سلام متاركة لا سلام تحية، وعلى هذا فلا تؤخذ هذه الفائدة، وهو: إنما حمله على سلام المتاركة بناءً على تفسير اللغو بأنه الشتم والسب، والحقيقة أن هذا تفسير ناقص؛ لأن الشتم والسب قد لا يقال: إنه لغو فقط؛ بل لغو وعدوان، فهو أخص من كونه لغوًا.

٣- **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للعاقل طلب السفهاء، فضلًا عن الجلوس معهم، لقوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأن طلبهم في الحقيقة لأجل الجلوس معهم، والجلوس مع الجاهلين منهيٌّ عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، فلا ينبغي للإنسان أن يتطلب أهل السفه ويجلس إليهم، أو على الأقل يأنس بما يفعلون، فإن هذا من الصفات التي ليس عليها أهل الخير والإيمان.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٦، ٥٧].

❁ التفسير ❁

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ قال المؤلف: [ونزل في حرصه ﷺ على إيمان عمه أبي طالب] أبو طالب هو أبو علي رضي الله عنه، وهذا العم آوى رسول الله ﷺ، ودافع عنه، وناصره، ولكن - والعياذ بالله - حيل بينه وبين الإيمان، بسبب ما كتب الله له من الشقاوة، وفيه

حكمة عظيمة عدم إيمانه؛ لأنه لو آمن ما تمكّن من الدفاع الذي حصل منه للرسول ﷺ؛ إذ لو آمن لكان هو محل إيذاء للمشركين، لكن لما بقي على ملتهم كانوا يحترمونه بعض الاحترام فكان في بقائه على الكفر من حكمة الله ما هو ظاهر، وإلا ما استطاع أن يحمي الرسول ﷺ تلك الحماية، وهذا الرجل له فضلٌ على الإسلام بسبب دفاعه عنه، ولهذا أَذِنَ الله لنبيه ﷺ أن يشفع له، مع أن غيره من الكفار لا يمكن أن يشفع لأحد، ما شُفِع ولم يُشفَع لأحد من الكفار إلا هذا الرجل لما له من الفضل على الإسلام من حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه، ولكن الشفاعة هذه ما نفعَتْه نفعًا كاملًا؛ لأنه لا يمكن أن تنفعه وهو غير مؤمن، إنما نفعَته أنه كان في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه[1]، وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا وهو أهونهم - والعياذ بالله -، قال النبي ﷺ: «وَلَولَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[2]، لولا أنا - يعني: أني شفعت له -، أو أنه أيضًا عمل ما عمل من حماية الرسول ﷺ، هذا العم حرص النبي ﷺ غاية الحرص على أن يؤمن حتى إنه في سياق الموت يقول له: «يَا عَمّ ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[3]، فكان يقول آخر ما قال: إنه على ملة عبد المطلب، وأنه لم يَدَع طريقة الأشياخ، الأشياخ الكبار أهل الجاهلية، فكان - والعياذ بالله - خُتِم له بخاتمة الشقاء، فلم تنفعه هذه المحاولة من الرسول ﷺ، ندم الرسول على هذا الأمر، وقال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فنُهِي عنه، وقيل له: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، أما بالنسبة لندمه على عدم إيمانه فسلّاه الله تعالى بهذا الأمر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، إنك يا محمد، وغيره من باب أولى، إذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق عند الله وأعظمهم جاهًا ما يستطيع أن يهدي أحدًا فكيف يستطيع غيره؟

وقوله ﴿لَا تَهْدِى﴾ المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق؛ بمعنى: لا تضع الهداية في قلوب الناس، وليست هي هداية الدلالة والإرشاد، فإن هداية الدلالة والإرشاد ثابتة للرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولكن هداية التوفيق وهي إلقاء الهدى في القلوب هذا لله سبحانه وتعالى وحده، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المؤلف قدره بقوله: [هدايته] من أحببت هدايته، والصواب: من أحببته، لماذا عدل المؤلف إلى أحببت هدايته؟ لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يحب أبا طالب وهو كافر، فإنه لا يحب الكافرين، ولكننا نقول: الحب الطبيعي هذا لا ينافي الإيمان، فالإنسان يحب مثلًا قريبه ولو كان كافرًا، لكنها محبة طبيعية، كما

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥) ومسلم (٣٦٠/ ٢١٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٣٥٧/ ٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٤) ومسلم (٣٩/ ٢٤) من حديث المسيب رضي الله عنه.

تحب الأم ولدها، نعم، المحبة الدينية هذه لا تجوز بين المؤمن والكافر ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أيضًا المؤلف يقول: [من أحببت هدايته]، في الحقيقة لو أننا حملناه على ما قال المؤلف لكانت هذه تعم كل الناس؛ لأن الرسول يحب أن يهدي كل الناس، ليس فقط عمه أبو طالب، لكن من أحببته هذا يختص بأبي طالب مثلًا أو غيره من أقاربه، أيضًا لو أننا قلنا كما قال المؤلف لكان في الآية إضمار الهداية؛ لأن الأصل في ضمير الصلة أن يعود إلى نفس الصلة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ﴾ (من) هذا اسم موصول يعود على من؟ عَلَى أبي طالب، وعائد الصلة يعود على نفس الصلة، وبهذا تبيَّن أن الراجح من أحببته من وجوه ثلاثة: وجه معنوي، ووجهان لفظيان، الوجه المعنوي: أن الآية نزلت في أبي طالب، ولو قلنا: من أحببت هدايته لكانت عامة، الوجهان اللفظيان: أننا إذا قدرنا هدايته لزِمَ أن يكون في الآية شيء محذوف، والأصل عدم الحذف، الوجه الثاني من الوجهين اللفظين: أن عائد الصلة يعود إلى الموصول، فإذا عاد إلى (من) في قوله: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ صار المراد: من أحببته هو، وأما ما لاحظ المؤلف، بما يظهر لي أن المؤلف لاحظ أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يحب أبا طالب، فالجواب عليه: أن المحبة نوعان: محبة طبيعية، ومحبة شرعية، فالمحبة الطبيعية لا تنافي المحبة الشرعية، الشرعية قد تجتمع معها وقد تنفرد، فإذا كان المؤمن قريبًا لك اجتمع فيه المحبَّتان، وإذا كان بعيدًا منك وُجِد فيه محبة واحدة، وهي: الشرعية، وإذا كان قريبًا وهو غير مؤمن ففيه محبة واحدة وهي المحبة الطبيعية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لمن الهداية إذن؟ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ يهدي هداية التوفيق، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ علَّق الفعل بالمشيئة، وكل فعل يُعلِّقه الله بالمشيئة من أفعاله فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ إذ أن أفعال الله كلها مبنية على الحكمة، إذن من يشاء هدايته ليس الأمر اعتباطيًا، ولكن الأمر على حكمة ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ما يهدي من يهدي إلا وهو أهل للهداية، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وكذلك هو أعلم حيث تكون هذه الرسالة، فمن كان أهلًا للرسالة أُرسِل، ومن كان أهلًا للقيام بواجب الرسالة أتِي بذلك، فإذن الإطلاق في قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ لا يصح.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال المؤلف: [أي: عالم بالمهتدين] نحن ذكرنا أننا ننتقد المؤلف من وجهين: الوجه الأول: أن هذا تحريف للقرآن؛ حيث حوَّل ﴿أعلم﴾ الدالة على الكمال في العلم والأفضلية فيه إلى عالم الذي لا يمنع مشاركة غيره له في هذه الصفة، فأنا أقول: محمد عالم، وزيد عالم ...إلى آخره، لكن لو قلت مثلًا: زيد أعلم معناه أنه ما ساواه أحد في علمه، المؤلف الآن حرَّف القرآن؛ حيث فسَّر ﴿أعلم﴾ بعالم، وفسَّر ما يدل على الكمال بما يدل على

المشاركة، الوجه الثاني: أننا نقول: إن وصف الله بأنه أعلم أكمل من وصفه بأنه عالم، أكمل بلا ريب، فما الذي يمنع أن يقول: أكمل، هو كأنه يريد أن يقول: ما يمكن أن نقول: الله أعلم، فنجعل لله مشاركًا في العلم، نحن نقول: ما جعلت لله مشاركًا مساويًا، جعلت لله مشاركًا نازلًا عن علم الله، فالله أعلم، لكن إذا قلت: إن الله عالم، قيل: لك جعلت لله علمًا قد يساويه غيره فيه، فالصواب: أن أعلم اسم تفضيل وأنها على بابها.

وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمهتدين فعلًا، أو بمن يستحق أن يكون من المهتدين؟ إذا قلنا: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن هو قابل للهداية؛ لأن الكلام الآن على إنشاء الهداية في قلب المرء، فيكون ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ما معناها الذين اهتدوا؛ بل أعلم بمن يستحق أن يقبل الهدى، ولهذا فسره بعضهم بالمهتدين في علم الله؛ أي: من علم الله أنه سيكون مهتديًا، فعلى كل حال؛ المهتدي معناه: من كان قابلًا للهداية، ومعناه: من اهتدى بالفعل، والمراد بالآية: الأول، أم الثاني؟ الأول؛ يعني: أعلم بمن يقبل الهداية فيهديه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المهتدين هنا الذين اهتدوا بمعنى: قبلوا الهدى وتمسّكوا به، الجمع بين هذه الآية وبين الآية التي أشرنا إليه قبل قليل ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أن المُثبَت غير المنفي، ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فنقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المراد بها: هداية الدلالة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هديناهم معناه: دللناهم على الهدى، ولكنهم - والعياذ بالله - استحبوا العمى عليه، وأما الهداية هنا فهي: هداية التوفيق، وهذه ليست لأحد، ما هي إلا لله سبحانه وتعالى، هذه الآية في الحقيقة نستفيد منها: أن الإنسان إذا جدَّ واجتهد في دعوة الناس إلى الهدى فلم يهتدوا فإن عليه أن يتسلَّى بهذه الآية، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

كثير من الناس الآن عندهم أقارب، إما معهم في البيوت، أو خارج البيوت يدعونهم إلى الهدى فلا يهتدوا، فنقول: الحمد لله إن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن هذا الأمر ليس إلينا إنما هو إليه، إن اهتدوا فلهم ولنا ثواب دلالتهم وإن لم يهتدوا فلنا ثواب الدلالة والدعوة وعليهم وزر الغيِّ.

ثم قال تعالى: [﴿وَقَالُوا﴾ أي: قومه] قوم من؟ قوم الرسول ﷺ، ﴿وقالوا﴾ يعني: قريش، ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ سواء قالوا ذلك عن عقيدة أو عن غير عقيدة، هذا القول كذب، قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ المعية هنا للمصاحبة والتبعية؛ يعني: إن نتبع الهدى ونكون معك فيما تدعوا إليه، والمراد بالهدى: ما جاء به الرسول ﷺ، وفي قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ إقرار بأن ما مع الرسول هدى، وهذا غريب منهم أنهم يقولون: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ فيعترفون بأنه هدى، ثم بعد ذلك يكفرون، ماذا يحصل؟ ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول المؤلف: [نُنْتَزَعُ منها بسرعة] الخطف: نزع الشيء بسرعة؛ يعني:

يتخطفنا الناس، يتخطفونا ويقومون علينا؛ لأننا خالفنا ما كانوا عليه من الشرك والأوثان، فهم يقضون علينا بسرعة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالشيطان يخوف المؤمنين الكفار، يقول: ترى إن آمنتم حصل كذا وكذا، إن تمسكتم بدينكم حصل كذا وكذا، أي: كأنكم ألزمتم الناس باتباع الإسلام ظاهرًا وباطنًا صار الناس عليه، الناس ثلاثة أرباعهم يريدون الفسوق، فأنتم إذا ألزمتموهم بالدين فإنهم يفوزون عليكم، هذا لا ريب أن الشيطان يلقيه في قلوب الناس ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ ولكن ما الواجب علينا نحو هذا المقام؟ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الواجب: ألَّا نخاف، ما دمنا نرى أننا نسير على حق فإننا لا نخاف أحدًا؛ بل إننا نعلم علم اليقين أننا لو كنا على الحق لخافنا الناس ولم نخف منهم، أم لا؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] الأمن من أي شيء؟ الأمن من الخوف، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] لهم الأمن من الخوف لا من الله؛ يعني: ما يخافون عقاب الله؛ لأنهم آمنوا إيمانًا صريحًا ما لبس بظلم، وكذلك أيضًا يؤمِّنهم الله مما يخافون، وهو أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ إن المؤمن الذي يُؤمِن يُؤمِّن عباده الطائعين له مما يخافون، ولكن هذا بإيمان في الواقع، وبإيمان حقيقي، فإذا وُجِد الإيمان الحقيقي، ثم نُفِّذَت الشريعة، فأنا ضامن أن يحصل الأمن التام أكثر مما يحصل بالدبابات والرشاشات وغيرها، هذه الأحوال التي نصنعها الآن ولاسيما في هذا العام؛ من الاغتيالات والانفجارات وغيرها، هذه هل إن الدول التي حصل فيها هذا الأمر ليس عندها سلاح تردع الناس؟ عندها سلاح قوي أقوى من سلاح هؤلاء المخربين، ولكن ما عندهم إيمان يحصل به الأمن، فمهما قوِيَ السلاح المادي فإنه لا يحصل به الأمان، الأمان حقيقة بالإيمان، الأمان والإيمان مقترنان، هنا يقول هؤلاء الكفار: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا قول غير صحيح، وسواء قالوه لدفع ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ من غير عقيدة، أو قالوه عن عقيدة، فالأمر غير واقعيٍّ، والدليل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نُمكِّن لهم حرمًا؛ يعني: معناه: نجعل لهم مكانًا؛ مثل: ﴿إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٤١] أي: جعلنا لهم مكانًا يتمكنون فيه، وهنا نمكن لهم حرمًا آمنًا يعني: نجعل لهم مكانًا هو ذلك الحرم الآمن.

وقوله: ﴿حَرَمًا﴾ على وزن فعل، فهو صفة مشبهة أي: من الحرمة؛ يعني: مكانًا حرمًا؛ أي: ذا حرمة، ولا ريب أن مكة المكرمة لها حرمة عظيمة في نفوس الناس حتى في الجاهلية.

وقوله: ﴿آمِنًا﴾ هنا كلمة (آمِن) اسم فاعل، وهل الحرم هو الآمِن، أو من فيه هو الآمِن؟ المؤلف يقول: [يأمنون فيه من الإغارة والقتل الواقعين من بعض العرب على بعض] فجعل آمِن؛ أي: آمنًا أهله؛ يعني: فسَّر آمِن بقوله: يأمنون، فيكون المعنى آمنًا أهله، وعندي أن الوصف هنا

للحرم، لأن المؤلف يقول: الآمِن وصف سببي، وأنا أرى أنه وصف حقيقي، عند النحاة نعت يسمونه نعت سببي، ونعت حقيقي، فالنعت الحقيقي ما كان صفة للمنعوت، والسببي ما كان صفة لغيره مما يتصل به، فإذا قلت: عندي رجل قائم، النعت هنا حقيقي، قائم يعود على رجل، عندي رجل قائم أبوه، هذا النعت سببي؛ لأن الوصف قائم هو ما له به صلة، المؤلف يقول من باب النعت السببي؛ يعني: الآمِن أهلُه، وعندي أنه نعت حقيقي، وأن الحرم هو الآمن، وإذا أُمِنَ المكان بلا ريب من فيه سوف يأمن، فهذا المكان آمِن، وطالما كان آمِنًا لا أَحَدَ يعتدي عليه حتى من أراده بسوءٍ أتلفه الله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] هذا الحرم الآمن نفس العرب مع كفرهم مهما فعلت قريش لا يمكن أن يغزوا هذا البيت أبدًا، ثم إن أهل هذا البيت هم سادة العرب حتى في الجاهلية، فكيف يقولون: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا غير ممكن؛ لأن الحرم آمن فهم آمنون فيه، ما يمكن أن يتخطفوا فيه، ثم مع ذلك هذا البلد مع كونه آمنًا هو أيضًا عيشٌ رغد ما يلحق أهله ضيق.

ولهذا قال: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يجبى يقول المؤلف: [بالفوقانية والتحتانية] يُجبى وتُجبى قراءتان سبعيتان، ومعنى يُجبى: أي: يجمع من الجباية وهي الجمع، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ معناه: يؤتى ضمن يجبى بمعنى يُؤْتَى أيضًا، يُجمَع الثمرات من كل أوب وتأتي إلى هذا البلد، وهذا هو الواقع، قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فكانت الثمرات تأتي إلى هذا البلد من كل أوب، من المكان القريب كالطائف وغيره، ومن المكان البعيد، وقوله: [من كل أوب] يعني: من كل صوب، أوب: أي: صوب، والصوب والأوب بمعنى: الناحية؛ أي: من كل ناحية.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ رزقًا معناها: العطاء وهو منصوب على أنه مفعول من أجله، أو مفعول مطلق لقوله: ﴿يجبى﴾، يجبى عطاءً، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، وليس لهم به حول ولا قدرة؛ بل الأمر من الله عز وجل هو الذي جعل هذه الثمرات تُجبَى إليهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما تقوله حق، قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المعلوم هنا محذوف في الآية ما قال: لا يعلمون كذا وكذا، لكن المؤلف خصه بقوله: [لا يعلمون أن ما تقوله حق] وعندي بأن الأمر أعم وأشمل؛ لأن حذف المفعول يدل على العموم، فعليه نقول: لا يعلمون أن ما تقوله حق، ولا يعلمون العاقبة أيضًا، فإن العاقبة أنه إذا كان هذا الحرم آمنًا في حال الكفر وتجبى إليه الثمرات في حال الكفر فما بالك في حال الإيمان؟ كيف وقد قال إبراهيم: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإذا كان أهل هذا البلد مؤمنين فإن أمنه يكون أشد من جهة أن نفس المكان آمن، ومن جهة أن المؤمن الذي في هذا المكان آمن أيضًا، فإذا

كان هذا الأمن مع كون هؤلاء من المشركين فإنهم إذا كانوا مؤمنين يكون أكثر، ولهذا لما حصل من المسلمين ما حصل من انتهاك هذا البلد العظيم فإنه سُلِّط عليهم من سلط من الظلمة؛ مثل: قضية البرامكة، ومثل: ما سيكون في آخر الزمان؛ حيث يسلط على هذا البيت رجل من الحبشة فيأتي إليه فينقضه حجرًا حجرًا، ولهذا نحن في الحقيقة نخاف خوفًا عظيمًا مما نراه في مكة من الفسوق والمعاصي، نخاف أن يكون هذا بداية لانتهاك الحرم انتهاكًا بالغًا حتى يسلط عليه هذا الخبيث، ولكننا لا نعلم ماذا يكون في المستقبل، فالمعاصي في الحرم لها أثر عظيم إما على نفس الحرم، أو على من حوله، يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذن نقول: لا يعلمون ليس خاصًا بأن ما جاء به الرسول حق؛ بل هو عام حتى في النهاية وفي الغاية مما لو آمنوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذه فائدة ذكر إهلاك القرى السابقة لأجل أن يقال لقريش: الكفر لا يمنع الخوف، ولا يمنع العقوبة؛ بل إنه سبب العقوبة، فأنتم تقولون: إننا إذا آمنا تخطَّفَنا الناس هذا ليس بالحقيقة؛ بل العكس هو الحقيقة ، ولهذا قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فكأن الله يدلل لتكذيب هؤلاء بأن الكفر لا ينجي بها أهلك به الأمم السابقة التي بطرت معيشتها، كلام هؤلاء الكفار للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أبطله الله تعالى بالسلب والإيجاب، أما الإيجاب فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ ما يمكن أن يكون هذا البلد خائفًا، فإذا كان آمنًا في حال الكفر ففي حال الإيمان من باب أولى، أما السلب فقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فالكفر لا يؤمِّن صاحبه؛ بل هو السبب في إهلاكهم، فأنتم بقاؤكم على الكفر ليس هو الذي ينجيكم من أن يتخطفكم الناس؛ بل هو سبب هلاككم وهو الواقع، ولذلك خرج صناديد قريش وزعماؤهم إلى بدرٍ ليهلكوا، الحرم آمِن ما فيه شيء، لكنهم هم الذين خرجوا لهلاكهم، فقتلوا ببدر، فالحاصل: أن الله يقول: نحن نُكذِّب ما قلتم بأمرين: أحدهما أمر إيجابي، وهو: أن هذا الحرم آمِن والناس هم الذين يتخطفون من حوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وثانيًا: أن الكفر ليس سببًا للبقاء، والدليل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فأنتم آمنوا لتكونوا في أمن وفي مكان آمن، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ الهمزة هنا معناها: التقرير؛ يعني: قد مكنَّا، كما هي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا لك، وقوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ أظن أنه مر علينا من مثل هذا التعبير وقلنا: إن لعلماء النحو في ذلك مذهبين: المذهب الأول: أن الهمزة داخلة على شيء مقدر، والواو أو الفاء حرف عطف على ذلك المقدر، والمذهب الثاني: أن الهمزة بعد الواو محلها لكن قدمت؛ لأنها للاستفهام، وأصلها: وألم يروا، ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أَتُخُطِّفُوا؛ يعني: هل هم تُخُطِّفوا ولم نمكن لهم حرمًا آمنًا؟!!

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية**: بيان أن المشركين لا يستفيدون من شركائهم شيئًا في أحوج ما يكونون إليهم، وذلك يوم القيامة.

٢- ويستفاد منها أيضًا: التوبيخ لهؤلاء الذين يدعون مع الله غيره، فإن في هذا لا شك توبيخًا وتقريعًا لهم يوم القيامة.

٣- ويستفاد منها أيضًا: ثواب التكليف في الآخرة، هو لازم العبادة، وقد يكون الشرك عبادة، ويكفر به المخالف، فإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فكفر بذلك، مع أن السجود لغير الله شرك، فالطاعة: ما أمر الله به على أي حال تكون، هنا أُمِروا أن يدعوا هؤلاء، فهل نقول: إن هذا الأمر تكليف وإلزام لهم، أو نقول: إن هذا ليس تكليفًا؛ لأنه ليس الغرض الفعل، وإنما الغرض التحدي وإظهار عجز هذه الأصنام؟ هذا هو الظاهر.

٤ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العذاب في الآخرة، لقوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها**: أن الاهتداء هو السبب المانع من العذاب، لقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾، فإذا أردت سببًا ينجيك من عذاب الله فعليك بالاهتداء بهدي الله؛ لأنه هو السبب الذي ينجي من عذاب الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦].

❁ التفسير[1] ❁

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذكرنا أنه في السؤال الأول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ سأل عن التوحيد، وهذا سأل عن الرسالة، فيكون المسئول عنه الآن: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أو أن عيسى أو موسى حسب الأمم التي تُسأل.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ ما معنى عميت عليهم الأنباء؟ انطمست عليهم فلم يجدوا جوابًا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن هذه الأخبار وعن الجواب؛ إما لعجزهم وعدم تمكُّنهم،

(١) تفسير الآيات (٥٨ ـ ٦٤) غير واضح سماعًا.

أو لأنهم لو سألوا ما وجدوا خبرًا، وقال بعضهم: إن معنى ﴿لا يتساءلون﴾ يعني: معناه: لا يتنادون في القرابة كما كانوا يفعلونه في الدنيا، إذا ضاقت على الإنسان الحيل صار إلى قرابته، وما أشبه ذلك، وهذا في الآخرة لا يكون.

الفوائد:

١- **يُستفاد من قوله:** ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ في هذه الجملة ما سبق في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ من إثبات كلام الله، وأنه بصوت، وأنه يسمع، وأنه بحرف.

٢- **ويستفاد من قوله:** ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾: أن الناس يُسألون عن إيمانهم بالرسل كما يُسألون عن تركهم ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، فيستفاد منه: أن السؤال في الآخرة عام لجميع الخلق؛ المرسلين وغيرهم، أما السؤال في القبر فإنه قد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه خاص بهذه الأمة، لقوله: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»[1]، وقوله: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُبْتَلُونَ فِي قُبُورِكُم»[2] إنما يوم القيامة السؤال عام بنص القرآن.

٣- **ومن فوائد الآية:** إظهار فضل الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث أثبت الله تعالى أحقِّيَّة رسالتهم في هذا الموطن العظيم.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن غير المؤمنين تعمى عليهم الأنباء في ذلك اليوم ولو كانوا عالمين، وهذا كما أن الميت يُسأل في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ولو كان عالمًا؛ لأنه إذا كان غير مؤمن لا يجيب بالصواب.

٥- **ومنها:** أنه لا يغني أحد عن أحد يوم القيامة، لقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٧ - ٦٩].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧/ ٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٦) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

❁ التفسير ❁

قال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أما شرطية وجوابها: قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، قوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ التوبة تقدم لنا أنها: الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى عن معصيته إلى طاعته، وأن لها شروطًا خمسة: الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود، وأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

وقوله: [من الشرك] لعل المؤلف أوجب له أن يقيد التوبة هنا بالتوبة [من الشرك] في قوله: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ لأن الإيمان بعد الشرك، فإن العاصي مؤمن ولو كان عاصيًا، فهذا هو الذي أوجب على المؤلف أن يقيد التوبة من الشرك.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ [صدَّق بتوحيد الله] هذا نقص في تفسير الإيمان؛ لأن الإيمان ليس هو التصديق في الشرع، صحيح أن الإيمان في اللغة يراد به: التصديق، لكنه في الشرع هو: التصديق بشرط أن يتضمن: القبول والإذعان، فلابد من قبول وإذعان، وإلا فليس بمؤمن لو صدَّق، فأبو طالب مثلًا مُصدِّق برسالة الرسول ﷺ ومع ذلك فهو كافر؛ لأنه لم يقبل ولم يُذعِن، وقول المؤلف: [صدَّق بتوحيد الله] أيضًا فيه قصور؛ لأنه ليس الإيمان أن تصدق بوحدانية الله، لكن أن تصدق بكل ما يجب الإيمان به، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فلابد من هذه الأركان الست في الإيمان.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ قال المؤلف: [أدى الفرائض] وفي هذا أيضًا قصور، والمراد عمل صالحًا؛ أي: عمل عملًا صالحًا يشمل الفرائض والنوافل، والعمل الصالح هو الذي جمع بين أمرين: الإخلاص والمتابعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥]، ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا الإخلاص، و﴿حُنَفَآءَ﴾ هذا المتابعة؛ لأن الحنيف: الذي ليس بمائل، فمن خرج عن المتابعة فهو مائل، فالعمل الصالح إذن كل عمل تضمن الإخلاص والمتابعة، ضده العمل الفاسد، وهو الذي اشتمل على الشرك أو على البدعة، فهذا ليس بعملٍ صالح، من جمع هذه الأوصاف الثلاثة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾، ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ من أفعال الترجِّي، لكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالى ما تكون للترجِّي، تكون للتعليل؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: عسى من الله واجبة؛ لأن العلة ملازمة للمعلول، وإذا وُجِدَت العلة ثبت المعلول، فالعلة من ثلاث هي: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، فإذا وُجِدت هذه وُجِد الفلاح.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ أن يكون أي: الذي تاب وآمن وعمل صالحًا من المفلحين، قال المؤلف: [الناجين بوعد الله] يعني: الناجين بما وعدهم الله به، ولكن الفلاح ليس كما قال المؤلف: [هو النجاة فقط]؛ بل النجاة من المرهوب والفوز بالمطلوب هذا هو الفلاح، أن ينجو الإنسان مما

يكره، وأن يحصل له ما يحب، قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ لو قلنا: هذا للترجي مثلًا لتضمَّن فائدة، وهي: أن الإنسان وإن عمل هذا العمل فليكن راجيًا لا قاطعًا، فليكن راجيًا للفلاح، لا قاطعًا به؛ لأنه لا يدري قد يكون هناك موانع أو خلل لا يحصل معه الفلاح، فكأنه يرشد إذا قلنا: إن عسى هنا للترجِّي باعتبار العامل لا باعتبار الجازم أنها للترجي، وتكون الفائدة منها: هو أن الإنسان وإن عَمِل فلا يقطع، فليكن راجيًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ فهنا المقام ليس مقام جزم؛ بل هو مقام رجاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هذه الآية تعليل ببطلان آلهة المشركين وإثبات الألوهية لله وذلك عن طريق إثبات الخلق، وأن الخالق هو الذي يجب أن يُعبَد، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فإن هذا الوصف تعليل للعمل؛ فإن الخالق يجب أن يكون هو الإله المعبود، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] فإذا كانوا لا يخلقوا كيف يستحقوا أن يُعبَدوا؟ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، هنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لإلزام هؤلاء المشركين بعبادة الله وحده، وقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ الخلق هو: الإبداع المبني على التقدير، فإن الله سبحانه وتعالى يُقدِّر ثم يخلق، فخلقُه مبنيٌّ على الحكمة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولم يقل: من يشاء، مع أن في المخلوقات ما هو عاقل، فلماذا قال: ما يشاء دون من يشاء؟ تغليبًا لغير العاقل؛ لأنه أكثر، ثم من أجل أن يشمل الأعيان والأوصاف، والأوصاف معلوم أنها ليست من العقلاء، وإذا روعِيَت الأوصاف أُتِي بـ (ما)، وانظروا إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولم يقل: من طاب، مع أن المنكوح عاقل، لكنه لما كانت المرأة تُنكَح لصفاتها قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ﴾ يعني: أنه راعى الصفة.

فهنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تغليبًا لغير العاقل لكثرته، وليشمل الأعيان والأوصاف، فالله تعالى خالق كل شيء الأعيان والأوصاف؛ ولهذا من مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعال العبد التي هي أوصافه، فالله تعالى يخلق ما يشاء.

وقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما يشاء خلقه، فالمفعول إذن محذوف، وهذه المشيئة كل ما ذكر الله تعالى عن فعل من أفعاله أنه تابعٌ للمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن من أسماء الله تعالى الحكيم، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يحكم بشيءٍ عبثٍ، كل ما شاءه فهو مقرونٌ بحكمة.

وقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ قال المؤلف: [ما يشاء] يختار ما يشاء، والاختيار: الأخذ بخير الأمرين، فإنه سبحانه وتعالى أيضًا يأخذ بما يراه خيرًا من أفعاله وأحكامه، فمصير الخلق عائد لأصل التكوين، والاختيار عائد للتأييد المبني على الإرادة التامة، فهو لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه،

فيختار ما يريد سبحانه وتعالى، يخلق الآدمي على هذا الوجه، يختار أن يكون على هذا الوجه، خلق البهيمة المركوبة اختار أن تكون على هذا الوجه، كذلك أيضًا اختار أن يكون شرعه كذا وإن لم يكن مخلوقًا على هذا الوجه، فإذن الاختيار أعمُّ من الخلق من وجه؛ حيث يشمل المخلوق وغير المخلوق، فيختار سبحانه وتعالى ما يريده من شرعه، أو أعم من هذا الوجه، أما الخلق فإنه أعم من حيث أنه يشمل الأعيان والأوصاف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ قال: [للمشركين] ﴿الْخِيَرَةُ﴾ [أي: الاختيار]، قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ هل هي نافية أو اسم موصول؟ قال بعضهم: إنها اسم موصول؛ يعني: يختار ما كان لهم الخيرة؛ يعني: ما يكون فيه خير لهم يختار الذي فيه خير لهم، وعلى هذا فقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ موصولٌ بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنه مفعول به، وهذا القول ذهب إليه المعتزلة الذين يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح أو الصلاح، فقالوا: إنه تعالى لا يختار إلا ما كان فيه الخيرة، أما ما لم يكن فيه الخِيَرة فلا يختاره، وهذا معناه: أنه سبحانه وتعالى يفعل ما هو أصلح أو ما هو صلاح، ولكن أكثر المفسرين - وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما - يقولون: إن ما نافية، وكما قال المؤلف، والمعنى: لا يكون الخيرة لهؤلاء المشركين، ولا لأصنامهم أيضًا، فأصنامهم لا تطلب ولا تطاع، وكذلك فهم ليسوا لهم حق الاختيار في ما أراد الله، وهذا الخير هو الصواب، وعلى هذا فيكون الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فقط، ثم تبدأ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وهذا هو القول الصحيح في هذه الآية: أن الله هو الذي له الاختيار المطلق، وليس لأحد خِيَرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فلا يختارون من أمرهم إلا ما اختار الله، وقد تقدَّم لنا في العقيدة تفسير القول: هل يجب على الله فعل الأصلح والصلاح أو لا يجب، وذكرنا أنه واجب بمقتضى الحكمة وليس بمقتضى عقولنا، فإن الله تعالى بمقتضى كونه حكيمًا ما يفعل إلا ما هو صالح أو أصلح، لا يمكن أن يفعل ما ليس بصالح أو أصلح؛ لأنه حكيم، ولكن هل معنى ذلك: نحن نُوجب على الله ونقول: هذا أصلح من هذا، ويجب أن يفعل كذا؟ لا، ولكن الله سبحانه وتعالى يفعله وقد لا نعلم نحن بوجه الأصلحية أو بوجه الصلاحية، لا يلزم أن نعلم، وكم من الأشياء نظن أن الحكمة في مخالفة ما أمر الله به، أو ما يقع قدرًا، فيكون الحكمة فيما جاء به الشرع، وقضى به الله تعالى في قدره.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الاختيار في شيء] فسَّر المؤلف الخيار بالاختيار، إذن فهي اسم مصدر؛ لماذا؟لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، ونظير الخِيَرة الطِّيَرة، فإن الطيرة اسم مصدر بمعنى: التطير، وهكذا الخيرة اسم مصدر بمعنى: الاختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [عن إشراكهم]، قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تقدم لنا أكثر من مرة أنها اسم مصدر بمعنى: التسبيح، والتسبيح: تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به، والذي لا

يليق به: النقص، ومشابهة المخلوقين، مُشابهة المخلوقين مُمتنعٌ على الله، والنقص ممتنعٌ عليه سبحانه وتعالى، فعليه: سبحان الله: تنزيهًا لله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مُشابهة المخلوقين، وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: [عن إشراكهم] استفدنا من تقدير المؤلف أن (ما) مصدرية فيكون تنزيهًا عن فعلهم، ويحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا، ويكون العائد محذوف، والتقدير: عما يشركونه به، فيكون مُنزَّهًا عن الشركاء التي هي الأصنام، وقوله: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ مأخوذة من العلو، لكنها تفيد معنى: التنزُّه مع العلو؛ يعني: تعالى بمعنى: ترفَّع وتنزَّه بعلو، فهي أبلغ من قولك علا؛ فإن علا تفيد العلو، لكن تعالى تفيد مع العلو التنزُّه والتحاشي عن ما يشركون به أو عن إشراكهم به، ولما بيَّن الله تبارك وتعالى عموم خلقه، وأنه هو الذي له الاختيار المطلق، وليس لأحد من خلقه اختيار؛ بل الخيار له وحده.

وقد ذكر بأنه عالم بكل شيء ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾، ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطابُ فيها وفي الذي قبلها إما للرسول ﷺ، وإما لكل من يصح توجيه الخطاب إليه ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [تسر قلوبهم من الكفر وغيره] ﴿تُكِنُّ﴾ تُسرُّ وتُخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، وإنما عبَّر عن الصدور؛ لأن القلب فيه، والقلب متصل بالصدر، فلهذا الصدر هو المُكنُّ للقلب، الساتر له من الأشياء المستورة، فالله تعالى يعلم ما في صدورهم، وقول المؤلف: [من الكفر وغيره] صحيح، من الكفر وغير الكفر، فلا يخفى عليه شيء مما في القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦] توسوس به أي: تحدث به، فهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء؛ بل هو يعلم ما لا تعلم أنت، يعلم مثلًا بأنك سوف توسوس في اليوم الفلاني بكذا وكذا قبل أن يقع منك.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤] [بألسنتهم من ذلك] ﴿يُعلنون﴾ يُظهِرون، وتخصيص المؤلف الإظهار بالألسن فيه قصور؛ لأن الإعلان قد يكون باللسان وقد يكون بغيره من الجوارح، قد يكون باللسان فيتكلم، وقد يكون بغيره من الجوارح فيفعل بيديه، أو قدميه، أو عينيه، أو غير ذلك، فهو أعم مما قال المؤلف.

الفوائد:

١- **يُستفاد من هذه الآية:** فضيلة هذه الأوصاف الثلاثة: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الأوصاف الثلاثة سبب للفلاح، لقوله: ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الفلاح مرتبة عالية لا ينالها إلا ذوو الأوصاف الحميدة؛ التائبون، المؤمنون، العاملون صالحًا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا، وهو ما جمع شرطين كما سبق:

الإخلاص، ومتابعة الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات أن الله وحده هو الذي يخلق، لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ لأن من لا اختيار له قطعًا لا خلق له.

٢- **ومنها:** أن الله تعالى قادر على كل شيء؛ لأن من يخلق ما يشاء معناه: أنه قادر.

٣- **ومنها:** إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ والإرادة هنا الشرعية أم الكونية؟ إن نظرنا إلى قرنها بالخلق قلنا: هي كونية، وإن نظرنا إلى لفظها بقطع النظر عن اقترانها بالخلق قلنا: إنها شاملة للكونية والشرعية، فإنه سبحانه وتعالى يختار كونًا وشرعًا ما يشاءه، وهذا أولى العموم أولى أن تكون شاملة في الاختيار الكوني، والاختيار الشرعي.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا اختيار له، وقد تمسك بهذا الجبرية، لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ فقالوا: هذه الآية تدلُّ على أن الإنسان ما له اختيار، وأنه مُجبَر على فعله، والجواب على ذلك أن يقال: ما كان لهم الخيرة المطلقة؛ يعني: التي تكون بدون الله، فالله يختار وهم يختارون، والدليل على هذا أن ما لهم الخيرة المطلقة: آيات كثيرة وأحاديث تدل على أن الإنسان له إرادة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فهو سبحانه وتعالى أثبت للإنسان مشيئة وأثبت له الإرادة، والواقع يشهد بذلك، فالإنسان يُفرِّق بين الفعل الاختياري وبين الفعل غير الاختياري، فالإنسان إذا نزل من السطح بالدرج نزوله اختياري، ولكن إذا دفعه أحد من أعلى الدرج وصار يتدحرج نزوله غير اختياري، فإذن قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ النفي هنا يُسلَّط على الخيرة المطلقة التي لا تعارض، فالإنسان مُريد وله إرادة، وأما أن تكون نفيًا لمطلق الخيرة فهذا لا يمكن؛ لأن الآيات والواقع يشهد بأن الإنسان له خيرة، العلماء يقولون في كثير من الاستفسارات: يُخيَّر بين كذا وكذا.

٥- **ومن فوائدها:** انفراد الله تبارك وتعالى بالإرادة المطلقة، لا مُقيِّد لإرادته، لا مُعقِّب لحكمه، ولا راد لقضائه.

٦- **ومنها:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٧- **ومنها أيضًا:** تعاليه وتنزُّهه عن هؤلاء المشركين، سواء قدرنا (ما) مصدرية، أو قدرناها موصولة، فهو سبحانه وتعالى متعالٍ عن المشركين؛ عن أصنامهم وعن شركهم.

فإذا نزَّه الله نفسه عن ذلك النقص، فالمعنى: أن هذه الأصنام ناقصة.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية:** إثبات العلم لله، وأنه شامل لما يُسَرُّ وما يُعلَن.

٢ - **ومن فوائدها**: التحذير والترغيب، تحذير الإنسان أن يظهر أو يعلن سوءًا؛ لأن الله يعلم به، وترغيبه أن يظهر، أو يعلن خيرًا؛ لأن الله يعلم به، إذن فالله أعلم بمقادير الخير والشر معناه: أنه لن يضيع، فهو معلوم، كما قال الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أنه يعلم ويخبر بما عمل هؤلاء، ففي الآية ترغيب وتحذير، فمن أظهر خير وأعلنه فهو له ترغيب، ومن أظهر شرًا أو أعلنه فهو له تحذير.

* قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٠-٧٢].

* التفسير *

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يعود على الرب؛ يعني: وذلك الرب هو الذي يخلق، والذي يعلم هو الله، الله أصلها الإله حُذِفَت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، كما في أناس فيقال فيها: الناس حُذِفت الهمزة فيها للتخفيف، فالله تعالى معناه: الإله أصلًا، ثم حذفت اللام للتخفيف وصارت الله، فما معنى الإله؟ إله بمعنى: مألوه وليست بمعنى: آلِه، فهي بمعنى: مألوه؛ مثل: غراس بمعنى: مغروس، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وأمثلتها كثيرة، فإله بمعنى: مألوه؛ أي: معبود، وسمي المعبود مألوهًا؛ لأن القلب يألهه؛ أي: يميل إليه، ومعلوم أن أَلِهَ موافقة في الاشتقاق لِأَهِل؛ إذ أن فيها الهمزة والهاء واللام، ففي الألوهية وهي العبادة نوع من التأَهُّل والاطمئنان؛ لأن الآلهة للشيء مطمئن إليه، فإذن الإله بمعنى: المعبود؛ لأن العابد يألهه أي: يميل إليه ويطمئن إليه، وليس الإله بمعنى: الآلِه؛ حيث قال المتكلمون: إن الإله بمعنى: الآلِه؛ أي: القادر على الاختيار؛ يعني: القادر على الخلق، لكن هم عندهم تعبيرات فلسفية، لو فسَّرنا الإله بمعنى: القادر على الخلق لكان المشركون الذين قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام موحدين؛ لأنهم يقولون: لا خالق ولا قادر على الخلق

إلا الله، ولا ريب أن هذا يؤدي إلى إبطال الرسالة والتوحيد، ومن ثَمَّ نعلم خطأ بعض المؤلفين الآن في التوحيد حيث يركزون على توحيد الربوبية ويتناسون توحيد الألوهية، وهذا خطأ عظيم؛ لأن التوحيد ليس الإقرار بالخالق والاعتراف به فقط؛ إذ أن هذا حاصلٌ من المشركين الذين استباح النبي عليه الصلاة والسلام دماءهم وأموالهم، لكن الإله بمعنى: المعبود، وهو أمر فوق القادر أو الخالق، ويقول تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما كرر ألوهيته بصيغة الجملة الاسمية ﴿وهو الله﴾ هذه جملة اسمية طرفاها معرفة، والمعروف عند البلاغيين أن الجملة الاسمية إذا كان طرفاها معرفة فإنها تفيد الحصر، أكَّد ذلك بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا حصل أيضًا للألوهية في الله وحده، فليس معه إله.

كما قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون:٩١] فدل هذا على أن الإله هو المعبود الذي يخلق، ولهذا قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ولا تظن أن هذه الآية تؤيِّد تفسير المتكلمين لما قال تعالى: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؛ إذن هذا دليل على أن الله هو الإله الخالق، وإلا لقال: لذهب كل إله بمن عبده، لا؛ لكن لأنه لما كان الإله الحق هو الإله الخالق قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ وهنا الحصر حقيقي أو إضافي؟ الحصر حقيقي، وقد يشتبه على بعض الناس فيقول: إنه إضافي؛ وذلك لأن هذا الحصر إذا جعلناه حقيقيًا يشكل عليه كثيرًا أن الله أثبت آلهة سواه؛ حيث قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وقال سبحانه وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وكذلك الكافرون قالوا للرسول ﷺ قالوا فيه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] فيظن الظان أننا لا يمكن أن نجمع بين هذه الآية وبين إثبات الربوبية للأصنام إلا إذا جعلنا الحصر إضافيًا؛ بمعنى: أننا نثبت ألوهية لكن على وجه آخر، ويكون النفي هنا على وجه آخر مخالف لما أثبتته، فنقول في ذلك: أصل الإله حقًا هو الخالق، وأما هذه الآلهة التي عُبِدَت من دون الله فهي آلهة باطلة، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ فجعل ذلك إفكًا وليس بحقيقة، فهي وإن عُبدت وأُلِّهت فليست بآلهة، ولهذا تجدون أن الرسل - صلى الله عليهم وسلم - كل منهم يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ يعني: من إله يُعبَد ويستحق أن يُعبَد بحق سوى الله - عز وجل -، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٨ - ٩٩] ما معنى آلهة؟ أي: معبودة بحق، والتي أثبت الله لها العبادة، على هذا نقول: إن الجمع بين هذا الحصر وبين ما ذكر من إثبات الإلهية للأصنام هو: أن الإله هو المعبود بحق، وهذا لا ينطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، وأما ما عُبِد

بغير حق فهو يسمى إلهًا لكنه لا يستحق أن يكون إلهًا، وكما قال الله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هل هو ذكر على انفراده؛ بمعنى: أنك يُشرع تقول: لا إله إلا هو، أو ليس ذكرًا على انفراده ما لم يسبق الضمير مرجع؟ هذا هو المتعين، لا يمكن أن تقول: لا إله إلا هو إلا إذا سبق لهذا الضمير مرجع مذكور أو مرفوع مذكور؛ مثل: الله لا إله إلا هو، أو ملفوظ؛ مثل: أن يأتي شيء من أفعال الله فتقول: لا إله إلا هو، وأما لا إله إلا أنت فيصح؛ لأنك تخاطب الله فهو متعين، وإنما قلنا ذلك في الأول يعني: لا إله إلا هو لابد من مرجع خلافًا للصوفية، الصوفية يقولون: لا إله إلا هو، ثم يعيدونه فيقولون: هُو هُو هُو .. إلى آخره، فيعبدون الله ويذكرونه بلفظ الضمير فقط، ويحذفون لا إله إلا، يبقون يقولون هو هو، فيهزون الرؤوس، ويضربون الطبول، ويغبِّرون بالأصوات، ويقولون: هُو هُو، وربما يجرحون أنفسهم من شدة الانفعال والغيبوبة - نسأل الله العافية -، فالحاصل: أن هذا ما يكون إلا بسبق مرجع.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فله وحده الحمد في الأولى والآخرة، أمَّا غيره فليس له الحمد الذي يستحقه الله لا في الأولى ولا في الآخرة، وقوله: ﴿الْحَمْدُ﴾ (ال) هذه للاستغراق؛ أي: جميع أنواع الحمد، وما يتعلق به من خير أو شر، فالله تعالى له الحمد كله فهو الذي لا يُحمَد على سوءٍ سواه، يُحمَد على كل حال، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الْحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1]، وقوله: ﴿لَهُ﴾ اللام هنا للاختصاص أو للاستحقاق؟ الاختصاص غيرَ الاستحقاق، فالحمد المطلق مختص بالله، والمستحق للحمد حقيقة هو الله؛ لأن غيره وإن استحق أن يُحمَد، فإن ما أفاده من أسباب الحمد هو من الله سبحانه وتعالى، وغاية ما فيه أن يكون وسيلة، فالإنسان مثلًا يُحمَد على ما له من الصفات الكاملة، والإحسان إلى الخلق، وما أشبه ذلك، لكن هذا ممن؟ من الله، إذن فالحمد حقيقة لله، فالذي يستحق الحمد هو الله، والذي يختص بالحمد المطلق على جميع الأحوال هو الله سبحانه وتعالى، فهو إذن للاستحقاق والاختصاص ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ يُحمَد في الدنيا على ما أجراه سبحانه وتعالى من أحكامه الكونية، وما شرعه من أحكام شرعية يحمد عليه حمدًا كاملًا، كذلك أيضًا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [الجنة] وليس كذلك، الآخرة تشمل منذ يُبعَث الناس إلى أن يصلوا إلى منازلهم، فإنه سبحانه وتعالى يُحمَد؛ بل إن الله تعالى يفتح على نبيه في ذلك اليوم من المحامد ما لم يفتحه عليه من قبل، وهو سبحانه وتعالى في يوم القيامة يظهر حمده لكل أحد، فإنه يظهر عدله، ويظهر فضله وإحسانه، وتظهر حكمته، وتظهر قدرته إلى غير ذلك من الصفات العظيمة التي تظهر في ذلك اليوم ويستحق عليه الحمد، فليس المعنى: ما يُحمَد إلا في

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الجنة، هذا قصور جدًّا من المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -،والله سبحانه وتعالى له الحمد في الآخرة، فأثبت قسمًا منه في الدنيا بين الناس إلى أن ينتهي كل إنسان إلى داره، وهو في الآخرة يُحمَد قلنا: محمول على ما يظهر في ذلك اليوم؛ من العدل، والقدرة، والرحمة، والحكمة، والفضل، والإحسان، وغير ذلك من أشياء كثيرة ما تظهر في الدنيا، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه يستأذن من الله عز وجل في الشفاعة، ويدخل تحت العرش، فيفتح الله عليه من المحامد ما لم يفتحه عليه من قبل[1]، وهذا قبل دخول الجنة؛ بل قبل أن يحاسب الخلق، فالله سبحانه وتعالى له الحمد في الآخرة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ اللام ﴿وله﴾ خبر مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ قال المؤلف: [القضاء النافذ في كل شيء]، والحكم يشمل: القضاء وهو الحكم الكوني - كما قال المؤلف -، ويشمل الحكم الشرعي، فالحكم لله قضاءً وشرعًا، لا حاكم إلا الله، فمن ابتغى الحكم من غيره ضل، ومن اتبع هدى الله فإنه لا يضل ولا يشقى، وهنا ذكرنا أن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن الحكم لله وحده، وهو كذلك إذا كان المراد: الحكم المطلق، فالحكم المطلق لله ما يشاركه أحد، هو الذي يوجب الشيء، ويحرمه، ويندب إليه، ويبيحه، وكذلك في الأمور الكونية هو الذي ينزل الغيث، وهو الذي يزيل القحط، وهو الذي يحيي ويميت، ويرزق، كل هذا من الأحكام الكونية، هل أحد نازع الله في هذين الحكمين؟ نعم، الإنسان نازع ربه في الحكم الكوني وفي الحكم الشرعي، ففيهم مثلًا من أثبت مع الله خالقًا، وفيهم من زعم أنه رب يتصرف كما يشاء، والمخالفة في الحكم الشرعي أكثر وأبين، وما أكثر الذين يشرعون ويرون أن تشريعاتهم نافذة كشرع الله أو أعلى، وهؤلاء سبق أنهم كفار حتى لو صلوا، وصاموا، وزكوا، وحجوا فهم كفار.

وكذلك أيضًا من نازع الله في الحكم؛ مثل: فرعون فهو نازع الله في الحكم القدري، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] هذا الحكم المطلق فهمنا أنه لله، لكن هل هناك حكم مقيد؟ قلنا: نعم، فيه حكم مُقيَّد لكنه بأمر الله، ولهذا نحن نرى في كتب أهل العلم يذهبون إلى الحاكم، وقال الحاكم الشرعي، وبإذن الحاكم، وما أشبه ذلك، هذا الحكم الذي يستفيده هذا الإنسان مقيد أم غير مقيد؟ مقيد محصور، مقيد بأن يكون تحت حكم الله، محصور في مكان معين وفي زمن معين، فإذن الحكم المطلق هنا لله عز وجل في الدنيا وفي الآخرة.

وأما الحكم المقيد فهذا يكون لغير الله؛ مثل: ما يقول العلماء: الحاكم الشرعي يأخذ دور الحاكم ، وما أشبه ذلك، فالحكم مقيد في زمانه، ومكانه، ونوعه، أما في الزمان فمعلوم أنه مقيد، هل الحاكم الشرعي يبقى أبد الآبدين؟ لا، في مكانه هو ما يحكم إلا في بقعة من الأرض، ولا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

يحكم في الأرض ولا في السماء، في نوعه؛ لأنه مقيد بأن يكون تحت حكم الله، فلا يملك أن يُغيِّر شيئًا من أحكام الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيضًا قدم المعمول؛ يعني: غير متعلقة بـ (ترجعون)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فالرجوع إلى الله مهما طالت الدنيا، ومهما بعُد الإنسان، ومهما كان الإنسان أيضًا فإن مرجعه إلى الله، قال المؤلف: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [بالنشور] يكون متى؟ يوم القيامة، كل الخلائق مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى وذلك في يوم القيامة، لا يبقى شيءٌ لا يُحشَر، كل شيء يُحشَر حتى يتبين أن الأمر كله مرجعه إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ [لأهل مكة] ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ [أخبروني] الخطاب للنبي ﷺ أرأيتم قل، لكن من المخاطب؟ المؤلف يقول: [لأهل مكة]، والصواب: أنه عام لكل أحد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ [أي: أخبروني] تفسير المؤلف لها بـ[أخبروني] تفسير بالمعنى لا باللفظ؛ لأن (رأى) من الرؤية البصرية، والمعنى: أأبصرتم ذلك فأخبروني عنه، ولكن المؤلف فسَّره كغيره من أهل العلم يفسرونه باللازم؛ لأن من لازم الرؤية: إخبار الإنسان عما يرى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أرأيتم يقولون: إنها تنصب مفعولين، مع العلم أنه قول البصرية، تنصب مفعولين: المفعول الأول قد يكون موجودًا وقد يكون محذوفًا، وأكثر ما يأتي محذوفًا، ولكنه قد يكون موجودًا؛ مثلًا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩] هنا المفعول موجود ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] هنا المفعول الأول محذوف ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المفعول الأول محذوف، والتقدير: أرأيتم حالكم؛ يعني: أخبروني عن حالكم ماذا تقولون لو أنه حصل كذا وكذا، فالمفعول الأول محذوف، وجملة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ في محل نصب هي المفعول الثاني، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [دائمًا] جعل بمعنى: صيَّر، فمفعولها الأول: الليل، ومفعولها الثاني: سرمدًا، إن صيَّر الله عليكم الليل سرمدًا، والليل: من غروب الشمس إلى طلوعها، واختفاء الشمس في الأفق هو الليل، وظهورها هو النهار، والنور الذي يسبقها بعد الغروب، أو يتقدمها بعد الفجر هذا من مقدمات النهار أو من مؤخرات الليل، وإلا في حقيقة الأمر أن الليل يكون من غروب الشمس إلى طلوعها، لقوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: أن أصلها سردًا، والسرد التتابع؛ يعني: متتابعًا، وعلى هذا التقدير فالميم زائدة، ويكون وزنه الصرفي سرمدًا فعلًا، وأن الميم زائدة، لو قلنا: إن الميم أصلية، وأنه من سرمد إذا استمر، وعلى هذا فيكون الوزن الصرفي: فعللًا؛ يعني: تكون الميم أصلية، الذي يهمنا معنى السرمد، معناه: الدائم المستمر ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لو كان الليل سرمدًا إلى يوم القيامة أحد يستطيع أن يأتي بنهار؟ لا أحد يستطيع؛ بل ما أحد يستطيع أن يقدم النهار قبل وقته، ولا أن

يؤخره بعد وقته، فالآن لو اجتمع العالم مثلًا أن الشمس تخرج على اثني عشر، لو اجتمع العالم كلهم على أن تخرج اثنا عشر إلا دقيقة يستطيعون؟ لا يستطيعون، ولو أرادوا أن تتأخَّر وتخرج الساعة اثنا عشر ودقيقة، ما يستطيعون، أو على أن يُزحزحوها قليلًا عن مكانها، ما يستطيعون، إذن أننا لا نستطيع أن نُغيِّرها لا زمانًا ولا مكانًا ما نستطيع أن نجلبها ونأتي بنهار، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [بزعمكم] ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [نهار تطلبون فيه المعيشة]، (مَن) مبتدأ، و(إله) خبره، و(غير الله) صفته، و(يأتيكم) حال من إله؛ لأن يوصف؛ يعني: أي إله يأتيكم بضياء، وقول المؤلف: [على زعمكم] هذا ما يفطن له إلا إنسان فاهمٌ في اللغة العربية؛ لأن (مَن) يُستفهَم بها عن التعيين، فتقتضي التعدد؛ لأن التعيين إنما يُطلَب عند التعدد، إذا تعدَّدت الأشياء يصير التعيين، فإذا قلت: مَن قام؟ فالآن أُثبتُّ بهذا الاستفهام أن عددًا من الناس قد قاموا، ولكني أستفهم عن تعيين هذا القائم، فإذا قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أثبتت الآية أن هناك آلهة والمطلوب: التعيين، عيِّنوا لي الإله الذي يأتيكم، هل حقيقة الأمر أن هناك آلهة متعدِّدين؟

ولهذا قال المؤلف: [بزعمكم] يعني: إن كنتم تزعمون أن هناك آلهة فمن الإله الذي يأتيكم بضياء؟ ويكون هذا أبلغ في التحدي، لو قال: هل إله غير الله؟ صار هنا الاستفهام عن وجود إله لا عن تعيينه، لكن الاستفهام عن تأويله أبلغ في التحدي؛ يعني: حتى على زعمكم أن هذه آلهة، فإنا نتحداكم أين الإله الذي يأتي بهذا الشيء؟ إذا قلتم: ما عندنا أحد يفعل هذا تبيَّن أن ألوهيتها باطلة؛ لأن الإله لابد أن يكون قادرًا سميعًا بصيرًا إلى آخر الصفات الكاملة، (مَن) يُطلَب به التعيين من المتعدد، وهنا ﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ يقتضي أن هناك آلهة متعددة، وهذا ليس على حقيقته؛ بل على زعم هؤلاء المشركين، زعمهم وجود إله مستحق، وإذا كان ذلك على زعمكم مستحق للعبادة فلتكن قادرة، إذا لم تكن قادرة فهي لا تستحق العبادة ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ الباء هنا للتعدية؛ يعني: يجلب إليكم الضياء، وقال: ضياء؛ لأنه علامة النهار؛ بل إنه هو النهار في الواقع، إما علامته أو هو هو.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [ذلك سماع تفهُّم، فترجعون عن الإشراك] ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يعني: أَصُمَّت آذانكم فلا تسمعون، والمراد بالاستفهام هنا: سمع التفهُّم الذي يرتدع به المرء عن غيِّه، هنا قد يقول قائل: لماذا لم يقل: أفلا تبصرون؟ الجواب: لأن النهار يكون الإبصار فيه أظهر؛ بل قال: أفلا تسمعون؟ نقول: لأنه تبيين لقوله: ﴿عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والرؤية هنا ممتنعة، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وليس تبيينه على آخر الآية: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ فهو تبيين على أول الآية، والمعنى: أنكم لا تستمعون سمعًا تستفيدون به؛ لأن السمع؛ أو لأن الليل محل السمع، وليس محل الرؤية.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

١ - **يستفاد منه**: إثبات ألوهية الله.

٢ - **ويُستفاد من الآية أيضًا**: وانفراده بالألوهية، لقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

٣ - **ويُستفاد من الآية**: اختصاص الله تعالى بالحمد المطلق، لقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ بالحمد المطلق الشامل للدنيا والآخرة.

٤- **ومن فوائد الآية**: ظهور كمال صفات الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة؛ لأن الحمد: وصفُ المحمود بالكمال.

٥- **ومن فوائدها**: اختصاص الله تعالى بالحكم، أنه وحده الحاكم، لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وما ذُكِر من إثبات الحكم في الآية فهو مقيد؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا مقيد.

٦- **ومن فوائد الآية**: إثبات البعث، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

١- **من فوائد الآية**: تحدِّي هؤلاء المشركين أن تكون أصنامهم جالبة للخير أو دافعة للشر.

٢- **ويُستفاد منها**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث لا يُعجِزُه أن يجعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة.

٣- **ويُستفاد منها أيضاً**: تذكير العباد بنعمة الله، فإن الأشياء إنما تتبيَّن بضدها.

٤- **ومن فوائد الآية**: أنه لا يستطيع أحد أن يُغيِّر سنة الله في الكون، فإذا جعله سرمدًا ما استطاع أحدٌ أن يسير فيه.

٥- **ومن فوائد الآية**: الحثُّ على سماع ما يُتلَى من كتاب الله سمعَ تفهُّم وقبول، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

٦- **ومنها**: بيان نعمة الله على العباد في ضياء النهار، كم طاقة لكي يبقى هذا الضياء؟ ما يصلح؛ يعني: أن كل الإضاءة التي في الليل تسقط بالنهار، فكم تستهلك الأمة من طاقة في إضاءة الليل، مع أنها ما تكون مثل إضاءة النهار، فبهذا نعرف قدر نعمة الله سبحانه وتعالى من هذا الضياء الذي يستهلكه الناس بكميات كبيرة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

١- **هذه الآية يُستفاد منها** ما يُستفاد من الآية التي قبلها إلا أن فيها زيادة، وهي: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى، ويستفاد من الآية ما يستفاد من ما قبلها فيما اتفقّتا فيه، ومنها: بيان نعمة الله تعالى في الليل الذي جعله سكنًا، لقوله: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها** أن نوم الليل أفْيَد للجسم من نوم النهار؛ حيث جعل الله الليل محلَّ السكن ووقتَه، وهذا أمر مشاهَد.

٣- **ومنها** الحثُّ على التبصُّر في آيات الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا يفيد حث الإنسان على أن يتبصَّر فيما جعل الله سبحانه وتعالى من هذه الآيات حتى يستدل بها على كمال قدرة الخالق.

قال الله تعالى:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٣، ٧٤].

التفسير

قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ﴾ الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ﴾؛ يعني: وجعل لكم الليل والنهار من رحمته. قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (من) هنا للسببية؛ أي: بسبب رحمته، أو بسبب ما اتصف به سبحانه وتعالى من الرحمة، والرحمة صفة حقيقة ثابتة لله سبحانه وتعالى، وهي غير الإرادة، غير إرادة الإنعام وغير الإنعام، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الرحمة صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل لا تُشبِه رحمة المخلوق، وأما الأشاعرة فيُحرِّفون معنى الرحمة إلى أنها الإنعام أو إرادة الإنعام، فيُفسِّرونها بالفعل، وهو الإنعام، أو إرادته؛ لأنهم يثبتون الإرادة، وهي صفة معنوية يثبتونها، وقد مر علينا أنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبع صفات؛ منها: الإرادة، فيُفسِّرون الرحمة بإرادة الإنعام؛ لماذا؟ قالوا: لأن الإرادة دلَّ عليها السمع والعقل، ونحن لا نثبت من صفات الله إلا ما دل عليه العقل، فأما ما لا يدل عليه العقل فإنه يجب علينا أن نؤوِّله، ونحن نقول: نُحرِّفه على كلامهم، هم يسمونه: تأويلًا، ونحن نقول: هو تحريف، فيقولون: ما دل عليه العقل من صفات الله أثبتناه، وما لا يدل فإنه يجب أن نؤوِّله، وبالمعنى الأصح: أن نُحرِّفه، وما الدليل العقلي على الإرادة؟ يقولون: إن العقل يدل على الإرادة بواسطة التخصيص؛ تخصيص

المخلوقات كل شيء من المخلوقات خُصِّص بشيء، هذا أراد الله أن يكون قاسيًا فصار قاسيًا، وهذا يكون لينًا فصار لينًا، وهذا يكون طويلًا فيكون طويلًا، وهذا قصير فيكون قصيرًا إلى آخره، هذا يدل على إرادة؛ يعني: أمر لا يخلو من إرادة، والرحمة لماذا أنكرتموها؟ قالوا؛ لأن الرحمة عبارة عن رقة تعتري القلب تُوجِبُ الحُنُوَّ على المخلوق، فنقول لهم: هذه الرحمة التي ذكرتم إنما هي رحمة المخلوقين، ونحن نثبت لله رحمة لا تشبه رحمة المخلوقين.

ثم إننا نستدل على الرحمة بالعقل كما استدللتم على الإرادة بالعقل، كم لله سبحانه وتعالى علينا من نعمة؟ لا تعد ولا تحصى، وكم لله تعالى من تفريج كربات؟ لا تعد ولا تحصى، ما هو الأمر المقتضي لهذه الأشياء؛ لجلب النعم ودفع النقم؟ الرحمة؛ لأن القاسي الذي لا رحمة فيه ما يجلب النعم ولا يدفع النقم، فإذن الاستدلال بالحوادث التي فيها جلبُ النعم ودفع النقم أظهر وأبيَن من الاستدلال بالتخصيص على الإرادة؛ لأن دلالة التخصيص على الإرادة لا يفهمها إلا أفرادٌ من الناس، لكن دلالة جلب المنافع ودفع النقم على الرحمة كل الناس يفهمونها، حتى العامي في سوقه إذا رأى رجلًا قاسيًا على أولاده قال له: هذا منكر يا أخي، وإذا رآه مثلًا دائمًا يجلب الخير ويدفع الشر عنهم قال: هذا إنسان رحيم، فإذن دلالة العقل على الرحمة أقوى من دلالته على الإرادة، ومع ذلك هم يُثبِتون الإرادة ولا يُثبِتون الرحمة، فهم يقولون: من رحمته لا يمكن أن نثبت لله صفة هي الرحمة، وإنما نقول: من رحمته: من إنعامه، ونحن نقول: إن ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أن (من) للسببية، ورحمته هي صفته التي اتصف بها أزلًا وأبدًا، وبهذا افتتح كتابه: بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقرن ربوبيته بذلك: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهذه الربوبية كلها ربوبية رحمة، ما هي ربوبية انتقام وغلبة؛ بل هي ربوبية رحمة، فكيف ننكر هذه الصفة العظيمة من صفات الله ونثبت ما هو دونها؟ وهذا يدل على تناقض هؤلاء المُعطِّلين من الأشعرية والمعتزلة وغيرهم؛ لأنهم يتناقضون فيُثبِتون لله من الصفات ما يدلُّ العقل على إثبات ما هو أَولى منه، وينكرون من الصفات ما يدل العقل على إثباتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ﴾ جعل بمعنى: خلق، وليس بمعنى: صيَّر، ولهذا لم تنصب مفعولين ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ليل ونهار يتعاقبان على الناس ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [أي: في الليل] ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [في النهار للكسب]، قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ اللام للتعليل؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه، ولا يلزم من وجود المعلول وجود العلة، إذا لم تكن العلة مؤثرة؛ مثلًا: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ هذه علة غائية، والعلة الغائية لا يلزم من وجود المعلول وجودها، فلا يلزم من الخلق وجود العبادة، كذلك ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ هذه علة غائية وليست علة مؤثرة، ولا يلزم من وجود المعلول وجود العلة الغائية؛ فمثلًا: قد يقول قائل: نجد بعض الناس ما يسكنون في الليل، لا يسكنون بالليل، أحد معاشه بالليل؛ كالحراس، وأحد لهوه بالليل؛

كأصحاب البطالة الذين ينامون النهار ويسهرون الليل، فنقول: إن وجود المعلول إذا كانت العلة غائيةً لا يلزم منه وجود العلة، كما لو قلت: قدَّمت لك هذه البعير لتركب عليها، فقد تركب وقد لا تركب، أعطيتك القلم لتكتب به، ربما تكتب وربما لا تكتب، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يقول المؤلف: [تستريحون]؛ إذ أنه ليس من السكنى، ولكنه من السكون، أين النون في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾؟ النون حُذِفَت؛ لأنه منصوب على الفعل، ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل؛ يعني: تستريحون، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ لتبتغوا أي: تطلبوا، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أي: من عطائه ورزقه، في النهار للكسب.

وفي الآية هنا تركيب ﴿جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، بدأ بالليل وقدَّم من بعده صفته، وهذا في الليل ففيه كلامٌ مُركَّب، الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعل هذه للتعليل؛ أي: لأجل أن تشكروا الله سبحانه وتعالى على نعمته، فهنا ذَكَر الله سبحانه وتعالى العلَّتين: الشرعية والقدرية، أما القدرية، العلَّة القدرية في خلق الليل والنهار: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، والعلَّة الشرعية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون الله سبحانه وتعالى على ما أنعم الله به عليكم من تعاقب الليل والنهار؛ لأن الأشياء تتبين بضدها، لو كان الليل سرمدًا والنهار سرمدًا ما كان أحد يستريحُ بليل، ولا يبتغي الفضل بالنهار، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك لأجل الراحة، مع أن هناك فوائد أخرى غير مسألة لتسكنوا فيه وتبتغوا من فضله، ذكرها الله في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ»(١).

الحاصل: أن في تعاقب الليل والنهار فوائد عظيمة تستوجب أن نشكر الله - سبحانه وتعالى - عليها.

واعلم أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أما الشكر بالقلب: فهو أن يعترف الإنسان بقلبه بأن هذه النعم من الله تعالى وحده، يعترف اعترافًا كاملًا حتى لو أن هذه النعم جاءت عن سبب، فليعتقد أن السبب من الله هو الذي أوجده فحصلت به هذه النعمة، وأما الشكر باللسان فإنه: الثناء على الله تعالى بما يستحق، سواء على هذه النعمة أو غيرها، كل ذلك داخل في الشكر، وعلى هذا فقول الإنسان: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، يعتبر شكرًا، وقوله حينما يأكل طعامًا أو يشرب شرابًا: الحمد لله؛ يعني: على هذا الطعام والشراب يعتبر أيضًا من الشكر، أما الثالث وهو الجوارح فهو: أن يقوم الإنسان بطاعة الله، سواء تتعلق بهذه النعمة أو لا، فيستعين بهذه النعمة على طاعته، أو يفعل الطاعة التي لا تتعلق بهذه النعمة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٩/٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ثم قال: [واذكر] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾ أفادنا المؤلف بتقدير: [واذكر] أن الظرف في ﴿يوم يناديهم﴾ متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [أي: الله]، وذلك يوم القيامة، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أظن مرَّت علينا هذه قريبًا، وهذا تكرار للتحذير من الشرك؛ يعني: معناه: اذكروا أيضًا اليوم النداء مرة ثانية، ﴿يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ومعنى شركائي؛ يعني: الذين جعلتموهم شركاء لي في الخلق والرزق والتدبير، أو في العبادة؟ الذين أشركوا حين بُعِث الرسول في العبادة، فهم يُقرُّون بأن الله منفرد بالخلق والرزق، لكن من الناس من يُنكِر ذلك أيضًا، ويقول: لا رب، أو يقول: إن هذه الأشياء أوجدتها الطبيعة المحضة، هذا أيضًا نوع من الشرك، والأول تعطيلٌ محض، الذي ينكر الإله مطلقًا هذا معطل محضًا، والثاني مشرك، وقوله: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال المؤلف: [ذُكِر ثانيًا ليُبنَى عليه].

الفوائد:

١- **يُستفاد من الآية:** الرحمة حقيقية ثابتة لله على وجه الكمال، ولا تشبه رحمة المخلوقين؛ فمثلًا: إذا قيل: إن الرحمة تقتضي الضعف والرقة وما أشبه ذلك، قلنا: هذا بالنسبة للمخلوق، فهي رحمة حقيقية لا تشبه رحمة المخلوق.

٢ـ **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بتعاقب الليل والنهار ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن الليل للسكن، والنهار لطلب المعاش، فقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار، ويتفرَّع على هذه المسألة فائدة وهي ما ذكره الأصحاب - رحمهم الله - في القسم بين الزوجتين، إذا كان للإنسان زوجتان، وأراد أن يقسم بينهما، فإن مدار القسم: الليل لمن معاشه في النهار، والنهار لمن معاشه في الليل، فإذا أشكل عليه الأمر فالعماد الليل؛ لأنه محل السكن.

٤- **ومنها أيضًا:** أن الليل هو محل السكن، فالسكون فيه بالنوم والراحة أفيَد للبدن من ذلك في النهار.

٥- **ومنها أيضًا:** إثبات الأسباب؛ حيث قال: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا، فالرزق ما يأتي من السماء وينزل؛ بل لابد فيه من طلب، إذا لم تفعل هذا السبب الذي يحصل به الرزق ما أتى الرزق؛ لأن الله تعالى حكيم ربط الأسباب بمسبباتها، وفي الآية ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: إثبات الأسباب؛ لأن الأمور بأسبابها.

٦ ـ **ومنها:** أن الرزق منَّة من الله عز وجل وفضل وعطاء ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فليس حاصلًا بمجرد كسب الإنسان وكدِّه، فكم من إنسان يكِدُّ ويكدح ومع ذلك يكون رزقه ضيِّقًا، وكم من

إنسان يفعل أسبابًا أقل مما فعله الأول، ثم يُوسَّع له في الرزق.

٧- **ومن فوائد الآية**: أهمية الشكر، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٨- **ومنها**: أنه ينبغي للمرء أن يكون ذا بصيرة فيما سخر الله حتى يشكر الله عليها، فإن الله سخر لنا الليل والنهار، والشمس والقمر، فلنأخذ من هذا عبرة نتوصَّل بها إلى شكر الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يؤخذ من فوائدها ما سبق في الآية الأولى.

قال الله تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٥-٧٧].

التفسير

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ النزع بمعنى: الإخراج، نزع الشيء من الشيء؛ أي: أخرجه منه ﴿وَنَزَعْنَا﴾ [أخرجنا] ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ المراد بالأمة هنا: الطائفة، ولكنها ليست مجرد الطائفة، الطائفة التي كانت على منهاج واحد، فإذا كانت الطائفة على منهاج واحد فإنها تُسمَّى: أمة، ولهذا جاءت فيها النون الدالة على الجمع والاجتماع، فالدولة ذات الأحزاب لا تكون أمة؛ لأنها مختلفة، ولكن الأمة هي الطائفة التي اجتمعت على منهاج واحد؛ فمثلًا: أمة الإسلام على دين واحد، أمة الكفر على دين واحد، وهكذا.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ شهيدًا بمعنى: شاهدًا، ولكنه على صيغة المبالغة أو بصيغة الصفة المشبَّهة باسم الفاعل، وما المراد بالشهيد؟ يقول المؤلف: [وهو نبيهم يشهد عليهم بما قالوا] هذا ما ذهب إليه المؤلف، وقال بعض العلماء: المراد بالشهيد: العريف؛ يعني: زعيمهم

كبيرهم ننزعه من بينهم، ثم نسأله هذا السؤال المبني على التحدِّي ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبد الرحمن في «تفسيره» أن المراد بالشهيد هنا: الكبير من الأمة الذي يعتبر بمنزلة العريف؛ وذلك لأن الكبير من الأمة نائبٌ عن الأمة، وأيًّا كان فالأقرب - والله أعلم - ما ذهب إليه شيخنا أن المراد بالشهيد: مَن يكون شهيدًا بينهم، ومعتبرًا بينهم، وهذه منزلة العريف ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ من القائل؟ الله سبحانه وتعالى ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ البرهان: الدليل، قال: هاتوا الدليل على ما قلتم به من الإشراك، وليس عندهم دليل، وقوله: ﴿هَاتُوا﴾ فعل أمر المقصود به: التحدي والتوبيخ أيضًا، التحدي؛ لأنه طلب ما لا يمكن، والتوبيخ؛ لأنه سوف يلحقهم من الخِزي والعار أمام الناس في ذالك المجمع ما لا يستطيعون دفعه.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ متى علموا أن الحق لله عندما لم يأتوا بدليل وبرهان على إشراكهم، فعلموا أنه لا حق لهم في هذا الإشراك؛ لأن الحق لله وحده، وأن هذه الأصنام ليس لها حقٌّ في العبادة، ﴿أَنَّ الْحَقَّ﴾ يعني: في العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، وهذا العلم لا ينفعهم في ذلك الوقت؛ لأنهم في ذلك اليوم يوم المجازاة، ينفعهم لو أنهم عمِلوا به في الدنيا لنفعهم، لو علموا أن الحق لله في الدنيا ثم عملوا لكان ذلك نافعًا لهم، أما بعد أن شاهدوا العذاب فيعلمون أن الحق لله، فإن ذلك لا ينفعهم.

ولكن فيه فائدة عظيمة، وهي: إقامة الحجة عليهم: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المُلك:٨ - ١٠] فالفائدة من ذلك من كونهم يتحدَّون حتى يتبين لهم أن الحق لله هو: أنهم يعرفون أنهم لم يُظلَموا شيئًا ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [أن الحق في الإلهية لله لا يشاركه فيه أحد] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ [غاب عنهم] ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [في الدنيا من أن معه شريكًا تعالى عن ذلك] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا﴾ ضل يقول المؤلف: بمعنى: غاب، ولكن ضلَّ أبلغ من غاب؛ لأن ضلَّ يقتضي كأنه أمر مطلوب يُطلَب ولكنه عجز عنه، كالضالة، الإنسان إذا ضلت بعيره مثلًا أو شاته يتطلَّبها فلم يجدها، ويكون ذلك أشد عليه حسرة، فهنا ضلَّ عنهم كأنه شيء مفقودٌ عزيزٌ عليهم، ولكنهم لم يتمكنوا منه.

وقوله: ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (ما) اسم موصول فاعل ضلَّ، وأين العائد؟ التقدير: ما كانوا يفترونه، وقول المؤلف: [في الدنيا]؛ لأن كانوا فعل ماضي، فما كانوا يفترون في الدنيا من أن مع الله شريكًا يضل عنهم هذا الشريك يوم القيامة، ولا يستطيعون أن يقوموا ببرهان عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قارون اسم رجل غني من بني إسرائيل، وكان من قوم موسى، قال المؤلف: [من أقاربه] فسَّر القوم هنا بالأقارب، فقال: إنه [ابن عمه، وابن خالته] كيف ابن عمه، وابن خالته؟ أخوان تزوَّجا أختين، فأتى كل واحد منهما بولد، يكون

هذان الولدان ابنَيْ عم وابنَيْ خالة، ولكن هذا دعوى ما ندري أتصح أم لا، وإنما قيل بها أنه كان ابن عمه، وقيل: إنه كان من قومه؛ أي: من بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل هم قوم موسى، ونحن لا يهمنا أن يكون قريبًا من موسى أو بعيدًا منه، المهم: هو قصته التي وقعت، وأن هذا الرجل كان من قوم موسى [وآمن به] ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [بالكبر والعلو وكثرة المال] الباء للسببية ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اعتدى واستطال عليهم ـ على قوم موسى ـ ﴿كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على هؤلاء القوم، وذلك بما أعطاه الله تعالى من المال صار طاغيًا، وهذا هو شأن الإنسان من حيث هو إنسان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧] فهذا الإنسان إذا كثُر ماله ورأى أنه في غِنى عن غيره يطغى – والعياذ بالله –.

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ [أعطيناه] ﴿مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي: من كنوز المال، وهو جمع كنز، والكنز ما يُحتَفَظ به ويُغلَق عليه، ويشمل جميع أنواع المال؛ من ذهب، وفضة، وزبرجد، وجواهر، ونقود، وغير ذلك هذه الكنوز.

وقوله: ﴿مَآ إِنَّ﴾ (ما) اسم موصول، وهي: المفعول الثاني لـ (آتيناه) فمفعولها الأول: الضمير الهاء في (آتيناه)، وقوله: ﴿مَآ﴾ أي: الذي ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ إنَّ حرف توكيد، ومفاتح اسمها، وجملة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾: خبرها، والجملة لما قبلها وصف مخرجها صلة الموصول ما؛ يعني: الذي إن مفاتحه لتنوء بالعصبة، المفاتيح تنوء؛ أي: تثقُل به، ومفاتح جمع مفتح، وهو اسم للمفتاح قال المؤلف: ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ [تُثقل] ﴿بالعصبة﴾ [الجماعة] ﴿أولي﴾ [أصحاب] ﴿القوة﴾ [أي: تُثقلهم، فالباء للتعدية] الباء في قوله: ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ لتعدية الفعل إلى مفعوله بحرف الجر، وإنما احتاج المؤلف إلى هذا؛ لأن ناء ينوء يتعدَّى بنفسه أو بحرف الجر، وهنا تعدَّى بحرف الجر، [أي: تُثقلهم، فالباء للتعدية، وعدَّتهم قيل: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عشرة، وقيل: غير ذلك] عدَّة من؟ عدَّة العُصبة، ولا ريب أن العصبة هي الجماعة التي يعصِب بعضها بعضًا، والعصب في اللغة: الشد، ومنه قول القرابة: عصبة؛ لأنهم يشدون أَزْر قريبهم، فهم جماعة ذوو قوة، بعض العلماء يقول: من ثلاثة إلى سبعة، وبعضهم يقول: إلى عشرة، وبعضهم كما قال المؤلف: [سبعون] وأربعون، مسألة خلافية، ولكن الظاهر لنا: أنهم هم الجماعة الذين يشدُّ بعضهم بعضًا، فلابد أن يكونوا ذوي كثرة، ولا حاجة إلى حدِّهم، لكن مع هذا مع كونهم جماعة مجتمعين هم أولوا قوة أقوياء، فاجتمع هنا في حقهم أمران: القوة بالكيفية، والعدد بالكمية، فصار عندهم كمية وكيفية، هؤلاء الجماعة لو اجتمعوا على حمل المفاتيح فقط لكانت المفاتيح تُثقِلهم؛ فمثلًا: هذا ما يحمله عشرة، مفاتيحه ما يحملها العشرة أصحاب القوة، فإذا كان هكذا، فما بالك بالخزائن؟ هذه مفاتيح الخزائن، فما بالك بما في هذه الخزائن؟ يعني: خير كثير جدًّا أعطاه الله سبحانه وتعالى، [واذكر ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل ﴿لا تفرح﴾ بكثرة المال فرح بطر] ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾

الناصحون له، وهم كما قال المؤلف: [المؤمنون]؛ لأنه لا ينصح مثل هذه النصيحة إلا رجل مؤمن، وكلمة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الإضافة تفيد بيان أن هؤلاء على جانب كبير من النصح، وأن من كان من قومك فإنه يبعُد أن يغشَّك، فلابد أن يكون ناصحًا لك.

وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ (لا) ناهية، والفرح ينقسم إلى قسمين: فرح يكون سرورًا لا يحمل على الأشر والبطر؛ بل يكون حاملًا للإنسان على رضاه بنعمة الله سبحانه وتعالى وقيامه بما أوجب الله تعالى فيها، والثاني: فرح بطر وترفُّع وعدوان وبغي، وهذا هو الفرح الذي نهى عنه هؤلاء القوم قارون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ وهذه الجملة هل المراد: لا يحب ولا يكره، أو أنه إذا نفى المحبة ثبت ضدها، فالمرء إما أن يفرح، أو لا يفرح، أو يكره، قصدي: يحب، أو لا يحب، أو يكره، الإنسان إما أن يحب الشيء، أو يكره الشيء، أو لا يحب ولا يكره، فإذا قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ هل المعنى: نفي المحبة فقط ويكون هذا الأمر الذي ينفي المحبة فيه ليس محبوبًا ولا مكروهًا عند الله، أو المراد: إثبات ضده؟ الظاهر - والله أعلم - أن المراد: إثبات ضده، وإن كانت القسمة العقلية لا تقتضي ذلك، ولكن السياق يقتضيه؛ لأن كل شيء نفى الله أنه يحبه نجد أنه مما يكرهه الله، ﴿وَٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

فالظاهر من السياق أن المراد: إثبات الكراهة، لكنه أتى بنفي المحبة؛ لأن المحبة محبوبة، فكأن هذا الذي أحبَّ الفساد أو أحبَّ الفرح وما أشبه ذلك يُقابَل بنقيض قصده، وقوله: ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ بذلك المشار إليه: كثرة المال، والمراد بالفرح الذي نفى الله محبته: فرح البطر والأشر، فإذا قال قائل: ما الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]؟ قلنا: إن المراد بقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فرح بفضل الله؛ الدين العلم والإيمان، ولهذا قال: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا، فدل هذا على أن الفرح الذي أُمِر به أن يفرح الإنسان بما أنعم الله به عليه من العلم والإيمان، وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»(١)، أما الفرح الذي لا يُحمَد صاحبه فهو الفرح بالدنيا على وجه البطر والأشر، والفرح بالدنيا على وجه أنه حصل للإنسان ما يسرُّه لا بطرًا، هذا لا بأس به، قال عمرو بن سلمة الكرمي لما كساه قومه ثوبًا قال: فما فرحت بشيء بعد الإسلام فرحي بمثل هذا

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الثوب[1]، أو قال: بهذا الثوب، وقالت عائشة: لأن أكون استأذنتُ النبيَّ ﷺ كما استأذنته سودة[2]؛ يعني: في الدفع بالمزدلفة أحب إليَّ من مفروح به، فالفرح الطبيعي الذي لا يحمل على البطر والأشر والكبرياء هذا أمرٌ لا يُذمُّ الإنسان عليه؛ بل إذا فرح به؛ لأنه وسيلة إلى مقصود شرعي كان بذلك محمودًا مأجورًا عليه؛ مثل: أن يفرح بما جاءه من المال؛ لأنه يحب أن يبذله في سبيل الله، أو في طلب العلم، أو في بناء المساجد، أو في التصدُّق على الفقراء يكون هذا الفرح محمودًا.

وقوله: ﴿وابتغ﴾ [اطلب] ﴿فيما آتاك الله﴾ [من المال] ﴿الدار الآخرة﴾ [بأن تنفقه في طاعة الله] ابتغ؛ أي: اطلب ﴿فيما﴾ في الذي ﴿آتاك الله﴾ يعني: أعطاك من المال من هذه الكنوز العظيمة التي مفاتحها تنوء بها العصبة اطلب فيها الدار الآخرة، والمراد بالدار الآخرة: الجنة هنا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] كيف يطلب به الدار الآخرة؟ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : [بأن تنفقه في طاعة الله] وحينئذٍ يكون ذلك ذخرًا لك عند الله في الدار الآخرة، وإذا عوَّد الإنسان نفسه على ذلك وروَّضها على هذا الأمر صار هذا الأمر سجيَّةً له، يفرحُ به ويُسرُّ وتنعمُ به نفسُه، ولذلك الكريم أحبُّ شيء إليه هو العطاء، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد» أن الإنفاق لله سبحانه وتعالى، والإنفاق لله في الله؛ يعني: في حدود الشرع يقول: إنه من أكبر أسباب انشراح الصدر، وهذا أمر معروف، تجد أكثر الناس انشراحًا في الصدور: الكرماء، وأنه إذا أعطى إنسانًا عطية يجد لذلك سرورًا وانشراحًا، لو أنه استعمل هذا وابتغى به في الدار الآخرة، فإن ذلك لا يعود عليه عند الله، ثم مع ذلك يقول الناصحون له: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ [تترك]؛ لأن النسيان يطلق على أمرين: أحدهما: الذهول عن الشيء المعلوم، والثاني: الترك، فهنا ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: ولا تترك، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] معنى نسوه: تركوه، فلم يقوموا بحقه، فنسيَهم؛ أي: تركهم سبحانه وتعالى فلم يجبهم، ومنه: قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:١٩] أي: تركوه ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه، وأما قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] المراد بالنسيان: الذُّهول عن شيءٍ معلوم، فالله تعالى أحصاه، لكن هؤلاء نسوه، فهنا إذن من هذين الشاهدين من القرآن الكريم يتبيَّن لنا أن النسيان يُطلَق على معنيين: أحدهما: الترك، والثاني: الذهول عن شيء معلوم، أيها الذي يصح أن يوصف الله به؟ الترك، أما الذهول فقد نفاه الله عن نفسه، فقال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] هذا النسيان: نسيان ذهول، وليس تركًا؛ لأن الله يترك من يشاء من عباده ممن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٠٢) من حديث عمرو بن سلمة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣/ ١٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

يستحقون الترك، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] من أي النوعين؛ الذهول أو الترك؟ يعني: هل آدم ﷺ حين أكل من الشجرة كان ناسيًا؟ هذه المسألة فيها قولان لأهل العلم: منهم من قال: إن قوله: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: ترك عن عمد، فيكون مستحقًا للعقاب، وعلى هذا الرأي فلا إشكال في المسألة، كونه يُعاقَب على أمر تركه من غير ذهول، تركه وهو عالم به، فلهذا يكون ملومًا، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، ومنهم من قال: إن المراد بالنسيان: الذهول، وهؤلاء قصدوا بذلك: تجنُّب وصف آدم بتعمُّد المعصية؛ لأنه إذا ترك عن نسيان لا يُلام، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب عن سقوط الإثم في النسيان، ويقولون: إن هذا من خصائص هذه الأمة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ تَجَاوزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ»(١)، فقوله: «عَنْ أُمَّتِي» يدل على أن الأمم السابقة مؤاخذة به، وكون الأمم السابقة مؤاخذة أو غير مؤاخذة الحقيقة هذا لا يرجِّح أحد القولين، لكن الذي يرجح أنه نسيان ترك لا نسيان ذهول، قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وهذان الوصفان مع صفة الغيِّ يدلان أنه فعل ذلك عن عمد، لكنه اغترَّ بغرور إبليس ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ لما قاسمهما ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] فاغترَّ آدم وفعل ما فعل.

المهم: أن النسيان هنا قوله: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ من أي النوعين؟ ولا تترك ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وإنما قالوا: ولا تنس، كأنهم يقولون: اجعل انهماكك فيما تريد في الآخرة حتى كأن ما تريده للدنيا يغيب عنك، ولكن لا تنساه.

وقوله: ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي: أن تعمل فيها للآخرة]، يُشير المؤلف إلى أن المراد بنصيبه من الدنيا: أنه عائدٌ على قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني: لا تنس نصيبك من الدنيا بإمهالك، فما دمت قد أُعطِيت مُهْلة فلا تنس هذه المُهْلة أن تُنفِق المال في طاعة الله، فيكون المراد بالنصيب من الدنيا هنا المراد: العيش في الدنيا؛ يعني: لا تنس أن تغتنم الفرصة في هذه الدنيا فتُنفِق، فتكون الدنيا هنا عائدةً على الجملة الأولى في المعنى؛ يعني: اطلب الدار الآخرة فيما تنفق حتى لا يضيع عليك الوقت، ويضيع نصيبك من الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي: أن تعمل فيها للآخرة] كأنه يقول: اغتنم هذه المدة التي هي نصيبك من الدنيا اغتنمها للآخرة، فتكون الجملة الثانية عائدة على الجملة الأولى، ويحتمل - وهو الأقرب - ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: أننا لا نأمرك بأن تُنفِق جميع مالك في الآخرة؛ بل اطلب الآخرة فيه، وخذ نصيبًا من الدنيا لك، فنحن لا نريد أن تنخلع من مالك، ولكننا نريد أن تبتغي به: الدار الآخرة، ومع ذلك فخُذْ نصيبك من الدنيا؛ من حيث: المأكل، ونظافة المنزل، والثياب،

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر ﷺ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

والزوجات، وما أشبه ذلك، وهذا المعنى أقرب وأصح؛ لأننا على المعنى الذي ذهب إليه المؤلف تكون الآية في شيء من التكرار، ثم هل هي تكون سببًا لجلْبِه وقبوله النصيحة، أو نقول: إنه إذا قيل له: اطلب الآخرة ولا تنس حقك من الدنيا، أن هذا أقرب لقبول النصيحة؟ الأخير أقرب؛ لأنه لو قيل: هذا المال العظيم الذي مفاتحه تنوءُ بالعُصبة كله ابتغ به الدار الآخرة ربما يرفض، لكن إذا قيل: ابتغ به الآخرة وتمتَّع في الدنيا بنصيبك، هذا يكون أدعى للقبول، وهو أيضًا من الأساليب الحسنة في الدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(١)، لا تقل: إني أقوم الليل، وأصوم النهار ما عشت، هذا خطأ، إن لربك عليك حقًا في عبادته، ولكن لنفسك عليك حقًا بإعطائها الراحة، فالصواب: هو هذا.

وقال: ﴿وَأَحْسِن﴾ [للناس بالصدقة ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾] هنا المؤلف خصَّ الإحسان قال: [أحسن للناس بالصدقة]، ولكن الصحيح أن المراد: ما هو أعم؛ أي: أحسِن في عبادة الله، وفي معاملة عباد الله ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الكاف هنا للتعليل، ولا تكون للتشبيه؛ لأن ما يمكن الإنسان أن يُحسِن كما أحسن الله إليه، إحسان الله إليه أكمل وأعظم، فالتشبيه ممتنع، فتكون الكاف هنا للتعليل، وقد جاءت الكاف للتعليل في عدة مواضع من القرآن؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: واذكروه لهدايتكم، ومثل: قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»(٢)؛ فإن الكاف هنا للتعليل وليست للتشبيه، وهذا المعنى الذي ذكرناه نسلم به من الإيراد الذي أورده بعض الناس على هذا الحديث، وهو: أنه من العادة أن المُشبَّه أقل شأنًا ورتبة من المُشبَّه به، ومحمد ﷺ لا شك أنه ليس أقل من إبراهيم، فكيف يقول: اللهم صلِّ على محمد كما صليت على إبراهيم؟ من العلماء من أجاز قال: إن المراد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أن التشبيه بالصلاة على واحد بالصلاة على جماعة، إبراهيم وآله، وهذا يصح أنه يُعطَى محمد ﷺ مثل ما أعطي هؤلاء كلهم، ولكن لا حاجة لهذا التأويل؛ بل نقول: إن المعنى: أنك يا رب كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ لأن هذا من شأنك ومن عادتك التكرُّم، فامنُن أيضًا على محمد ﷺ، فيكون هذه الجملة: كما صليت للتعليل، وهي في الحقيقة للتوسُّل؛ يعني: أننا نتوسَّل إليك بما فعلت من قبل بإبراهيم وآله، أن تفعل ذلك في محمد ﷺ وآل محمد.

وقوله: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بماذا أحسن الله إليه؟ بالمال العظيم الذي مفاتحه تنوء به العصبة، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفساد في أي شيء؟ أول من بُدِئ بالبغي؛ حيث قال تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٦٨) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٥٧) ومسلم (٦٦/ ٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ فلا تبغ الفساد في الأرض بالبغي، كذلك أيضًا إن كان هذا الرجل يعمل بماله في معصية الله، فيكون هذا من الفساد في الأرض، وهذا هو الغالب أن من آتاه الله مالًا، وليس عنده إيمان، فإنه يجعل من ماله وسيلة إلى الفساد في الأرض، وقوله: ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كيف يكون الفساد في الأرض؟ بالمعاصي؛ لأن المعاصي في الحقيقة هي سبب الفساد في الأرض ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١] ولهذا ما من شيءٍ يكون في الأرض من فِتَنٍ وحروب وقتال وجدب وغيره إلا بسبب المعاصي ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر:٤٥]، الآن هذا الهرْج الذي كثر في هذا العصر ولاسيما في هذا العام، ما هي أسبابه؟ ما تكاد تفتح الإذاعة إلا وتسمع من أول مصر إلى آخرها حروب في كل مكان واغتيالات وتفجيرات وفساد، كل ذلك بسبب المعاصي التي تُفعَل، فهي عقوبةٌ للعصاة الذين أُصيبوا بهذه، وإنذار للآخرين، فإنك تختار البلاد الآمنة المطمئنة التي يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ويجلب الناس إليها من كل مكان تجد أنها دُمِّرت الآن مساكنها وبيوتها وأمنها ورخاؤها بسبب المعاصي، فهو إنذارٌ للآخرين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية:** إثبات البعث والحساب، لقوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾.

٢ـ **ومن فوائد الآية:** أن الرسل يُسألون يوم القيامة، لكنهم يُسألون تبكيتًا وتوبيخًا لأقوامهم الذين كذَّبوهم، هذا على تفسير المؤلف، أما على التفسير الثاني ففيه دليل على أن الزعماء هم الذين يُقامُون يوم القيامة للمناقشة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾.

٣ـ **ومن فوائد الآية:** تبكيت هؤلاء المشركين في ذلك اليوم العظيم؛ حيث يُتحدَّون بطلب الدليل على ما قالوا من الإشراك.

٤ـ **ومن فوائدها:** إذعان هؤلاء المشركين يوم القيامة بأن الحق لله، ولكن ذلك لا ينفعهم.

٥- **ومنها:** أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها في أحوج ما يكونون إليها، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

٦ـ **ومنها:** أن اتخاذ هذه الأصنام آلهة من الافتراء والكذب، ويشهد لذلك: قول إبراهيم لقومه: ﴿أإفكًا آلهةً دون الله تريدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ

بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن الغِنى سبب للطغيان؛ لماذا؟ لأن قارون إنما بغى وطغى بسبب ما آتاه الله تعالى من المال.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن القومية لا تنفع أصحابها، إنما النافع هو الإيمان بالله ـ عز وجل ـ، فهذا الرجل من قوم موسى ومع ذلك طغى عليهم.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الله يبتلي بالمال أي: بإعطاء المال، قد يبتلي الله العبد به، فكما أن الفقر ابتلاء، فكذلك الغِنى ابتلاء.

٤- **ومنها**: كثرة أموال هذا الرجل، لقوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

٥ ـ **ومنها**: أن هذا الرجل بغى عن علم؛ لأنه نُصِح ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ فنصحوه، ولكنه - والعياذ بالله - استمر في طغيانه.

٦- **ومنها**: أن من حسن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى أنه إذا ذُكِر الحكم تُذكَر العلة تخويفًا أو ترغيبًا، إن كان منصوحًا بطلب تُذكَر العلة ترغيبًا، وإن كان منصوحًا بنهي فإنها تُذكَر العلة تخويفًا، لقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثباتُ المحبة لله؛ يعني: ما نفاها عن هؤلاء إلا وهي ثابتةٌ بضدِّه، ولهذا استدل العلماء بأن المؤمنين يَرون ربهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قالوا: فلما حُجِبوا عن ربهم دلَّ على أن غيرهم غير محجوبين، لو كان الكل محجوبين ما كان يُخصَّص هؤلاء بالحجب، إذن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فيها إثبات المحبة؛ لأنه ما نفاها عن هؤلاء إلا وهي ثابتةٌ لغيرهم، ولولا ثُبوتها لغيرهم ما كان لنفيها عن هؤلاء فائدة.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

١- **يُستفاد من هذه أن فيها**: دليلًا على أن قارون كان يُنفِق المال بغير روِيَّة، في المعاصي والفساد وغير ذلك، وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ لو كان ينفقها في الدار الآخرة ما قالوا له هذا.

٢ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: أنه ينبغي لمن آتاه الله مالًا أن يُحسِن النية والقصد في بذله؛ يعني: كل إنسان عنده مال يبذله، لكن ينبغي أن يُحسِن النية والقصد ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حين قال لسعد بن أبي وقاص: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا**»(١)، قيَّدها بقوله: «**تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ**»، أما لو أنفق الإنسان في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦) ومسلم (٥/ ١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

غير هذا الغرض فإنه لا يُثاب، وإن أنفق لغرض سيئ فإنه يُعاقَب.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن المال وإن اكتسبه العبد بفعله فهو من فضل الله، لقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فهو وإن كان الإنسان يكتسب ويتَّجِر ويُحصِّل لكنه من الله عز وجل هو الذي يُقدِّره.

٤ - **ومن فوائد الآية**: إثبات اليوم الآخر، لقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

٥ - **ومنها**: جواز تمتع الإنسان بما آتاه الله تعالى في الدنيا أن يتمتع به في الدنيا، لكن بشرط ألَّا يكون على سبيل المعصية، لقولهم في جملة النصيحة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: هذا على الرأي الذي اخترناه، أما على رأي المؤلف، فإن هذا عائد على قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ويريد أن يكون نصيبه من الدنيا: الفسحة والمهلة التي يعطيها لا يضيعها.

٦ - **ومن فوائد الآية**: حسن دعوة هؤلاء؛ حيث ذكَّروه بنعمة الله عليه ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فكأنهم يقولون: أحسِن؛ لأن الله أحسن إليك، فأنت حينما تحسن تكون شاكرًا لنعمة الله.

٧ - **ومنها**: أنه ينبغي للداعي أن يُذكِّر المدعو بنعمة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا ذُكِّر بالنعمة قد يخجل من الله فلا يعصيه، أما إذا ذُكِر له الأمر والنهي مجردًا عن الأسباب والوسائل التي تحمله على الفعل أو الترك، فإن هذه الدعوة تكون قاصرة، فالذي ينبغي للداعي أن يُذكِّر المرء المدعو بما يقتضي إقباله وقبوله، لقولهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية**: تحريم نية الفساد في الأرض، لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإذا حرُمت نية الفساد، فالفساد نفسه من باب أولى، فيحرُم على المرء أن يفسد وأن ينوي الفساد.

٩- **ومنها**: التحذير من الفساد، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٠- **ومنها أيضًا**: إثبات محبة الله؛ لأن نفيها عن المفسدين دليل على ثبوتها للمصلحين.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ

خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٨-٨٠].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ [أي: المال] ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [أي: في مقابلته].

انظر جواب قارون لهؤلاء الناصحين ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ [أي: المال] ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ هم قالوا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فردَّ هذا الاعتراف لم يعترف؛ بل قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فقيل كما قال المؤلف: [أي: في مقابلته]؛ يعني: أنه ليس فضلًا من الله؛ ولكن لأني كنت عالمًا في التوراة وفاهمًا أُوتيت هذا الشيء، فجعل فضل الله عليه من باب المكافأة، وليس من باب الفضل، إذن هو ردَّ نصيحتهم ولم يعترف بأن الفضل لله – والعياذ بالله –، هذا قول، ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ هذا القول يرجع إلى معنى: إنما آتاني الله ذلك؛ لأني أهل له، فصار هذا المعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على علم من الله أني له أهل، القول الثاني: المعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أني أوتيته؛ لأني عالم بأسباب الرزق، فاكتسبته بما معي من العلم، وليس هذا من فضل الله؛ بل أنا رجل حاذق أعرف كيف أتصرَّف، وأعرف الأسباب التي يُؤتَى بها المال، فحصل لي ذلك بما عندي، كأنه يقول: إنما أوتيته بحولي وقوتي، وليس بفضل الله ومنّه، فصار على المعنى الأول نسب هذا الإتيان على أنه مكافأة من الله له، وعلى القول الثاني: نسب هذا الفضل إلى حوله وقوته، وليس إلى فضل الله تعالى، يقول: أنا عالم أعرف كيف يكتسب المال فاكتسبته.

يقول المؤلف: [أي: في مقابلته، وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون] ما ذكره المؤلف أو ما زعمه من أنه أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون غير مُسلَّم به؛ بل إن الظاهر: أنه قال: على علم من الله أني له أهل وأني أهل لهذا الشيء، أو على علم عندي؛ أي: على معرفة مني بالأمور، وأما أعلم بني إسرائيل بالتوراة فليس هناك ما يدل عليه.

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [الأمم] ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [للمال؛ أي: هو عالمٌ بذلك].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ هذه الهمزة للاستفهام، المراد به: التقرير؛ يعني: أنه قد علم كيف ندري أنه قد علم؟ لأن المُخبِر قد علم من هو؟ الله، وهو عالم بأن قارون عالمٌ بذلك، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ فالتقرير هنا من الله، هو الذي أخبرنا بأن قارون قد علم بهذا الأمر، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ الإهلاك بمعنى: الإتلاف، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، والقرن تارةً يُراد به: الأمة، وتارةً يُراد به: الزمن، فيقال مثلًا: تتابعت الأمم قرنًا بعد قرن؛ يعني: زمنًا بعد زمن، وهنا

قد أهلك من قبله من القرون [أي: الأمم]، ﴿مَنْ هُوَ﴾ مفعول أهلك؛ أي: الذي هو أشدُّ منه؛ أي: من قارون ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أشد منه قوة في ماله أو في بدنه؟ في بدنه، وأما المال فقال: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: أكثر مجموعًا للمال، أو أكثر جمعًا أي: تحصيلًا، وهذا هو ظاهر كلام المُفسِّر، أكثر جمعًا أي: تحصيلًا، ولكن إذا قلنا: أكثر جمعًا أي: مجموعًا كان أولى؛ لأن المجموع نتيجة للقوة التي يُحصِل بها المرء المال، قال المؤلف: [أي: هو عالم بذلك]، فأفادنا بأن الاستفهام هنا للتقرير؛ يعني: أن قارون قد علم، ولكنه تجاهل الأمر - والعياذ بالله -.

قال المؤلف: [فيهلكهم الله ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾] يهلكهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يسألهم عن ذنوبهم، لا يسألهم سؤال استخبار، وإنها يسألهم يوم القيامة سؤال تبكيت، فإن الله تعالى يسأل الناس يوم القيامة عن ذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣] إذن نقول: النفي بحال والإثبات بحال؛ يعني: لو قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وأمثالها؛ مثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وبين الآيات التي تثبت السؤال؛ مثل: ما أشرنا إليه من الآيتين: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟

فالجواب على ذلك: أن يُقال: إن السؤال المنفي هو سؤال الاستخبار، الذي يُسأَل هل أذنبت وما ذنبك؟ والسؤال المثبت سؤال التوبيخ والتبكيت والتقريع؛ يعني: هم يُسألون ليُقِرُّوا، فهذا ثابتٌ كما ذكر الله هنا.

فتبيَّن الآن بذلك: أن السؤال المنفيَّ غير السؤال المُثبَت، وهذا هو الصحيح، وبعضهم يقول: إن السؤال المثبت يكون في وقت، والسؤال المنفي في وقت آخر؛ لأن يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة، فالمدة طويلة، فيمكن أن يُسألوا في موضع، ولا يُسألون في موضع آخر.

قوله: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ من المجرم؟ هو فاعل الإجرام، والإجرام: المعاصي، فالمعنى: أن العصاة لا يُسألون، وأكثر ما يُطلَق الإجرام على الكفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩] لماذا لا يسألون؟ يقول المؤلف: [لعلمه تعالى بها] يعني: بالذنوب، [فيدخلون النار بلا حساب] هذا هو ما مشى عليه المؤلف؛ أنهم لا يُسألون وإنها يدخلون النار بدون حساب، ولكن الصحيح: أنه لابد من حساب ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥ - ٢٦] فهم يُحاسَبون، لكنهم لا يُحاسَبون محاسبة منفوذًا حسناتهم وسيئاتهم؛ لأن ما لهم من حسنات، ولكنهم يُحاسَبون محاسبة توبيخ وتقريع - والعياذ بالله -.

وقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾، قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بقومه بنو إسرائيل، وخرج من بيته، ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ حال من فاعل خرج؛ يعني: حال كونه متلبسًا بزينته، قال المؤلف مُفسِّرًا للزينة: [بأتباعه الكثيرين] ففسَّر الزينة بالأتباع؛ لأن الأتباع من الخدم ونحوهم زينةُ الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويحتمل خلاف ما قال المؤلف، أن المراد بزينته: بماله العظيم الذي يتزيَّن به؛ من الخدم، والمركوبات، [بأتباعه الكثيرين مُتحلِّين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية] قد يكون كما قال المؤلف، وقد يكون أقل، وقد يكون أعلى مما قال، فالأولى أن تبقى الآية على ظاهرها: ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ أي: فيما يستطيع من الزينة، سواء باللباس، أو بالمركوب، أو بالأتباع، أو المال، أو بغير ذلك، المهم: في زينته التي يفخر بها على قومه.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يريدونها أي: يطلبونها أو يبتغونها، ولها ميزان في أنفسهم، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ (يا) يقول المؤلف: [للتنبيه] وليست للنداء؛ لأن (ما) دخلت على المنادى؛ إذ ليت حرف تمنٍّ، والمنادى لابد أن يكون اسمًا يصح نداؤه، وعليه فتكون للتنبيه، وقيل: إنها للنداء، وأن المنادى محذوف، تقديره: يا قومنا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، ومثل هذا التركيب يا ليت متكرر في القران الكريم، والنحويون اختلفوا فيها على هذين الوجهين؛ منهم من يقول: إنها لمجرد التنبيه وليس هناك نداء ولا منادى، ومنهم من يقول: إنها للنداء؛ لأن المنادى محذوف والتقدير هنا: يا قومنا ليت لنا مثل ما أوتي، المعروف أن ليت تنصب الاسم وترفع الخبر، أين اسمها؟ ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ﴾ اللام هنا جر ومجرور خبر مقدم؛ لأن التقدير: ليت مثل ما أوتي قارون لنا، فلنا خبر مقدم، ومثل اسم مؤخر، وليت هنا للتمني.

وقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ أوتي بمعنى: أُعطِي؛ أي: أعطيه من المال، ولهذا قال: [في الدنيا] من المال، والكنوز، والزينة، وقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ ما قالوا: يا ليت لنا ما أوتي قارون؛ بل قالوا: مثله؛ لأنهم لو قالوا: ليت لنا ما أُوتي قارون كان ذلك حسدًا؛ لأنهم يتمنون بذلك زوال النعمة عنه، لكنهم قالوا مثله، وهذا ما يرجونه، إذا أُعطوا مثله يكون له مثله ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ [نصيب] ﴿عَظِيمٍ﴾ [وافٍ فيها] أي: في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: قارون ﴿لَذُو﴾ أي: صاحب حظ أو نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ يحتمل بمعنى: الوافر الكثير، وهذا إنما يقوله من نظره قاصر ولا يريد إلا الدنيا، والحقيقة أن الدنيا ليست فيها الحظ، وإنما الحظ نصيب الإنسان من الآخرة، أما نصيبه من الدنيا فهو ليس بشيء؛ لأنه نصيبٌ يزول أو يزول من أعطيه ولا يبقى، ولأنه نصيب في الغالب يحمل على الخسارة والخذلان، ويحمل على الأشر والبطر فيخسر الإنسان دينه ودنياه، وليس بالحقيقة حظًّا، لكن يقول ذلك من نظره قاصر، وإلى وقتنا هذا فالناس إذا رأوا شخصًا قادرًا قد أنعم الله عليه بالمال يقولون: ما شاء الله ! صاحب حظ، ولكن هذا من قصور

النظر؛ لأن الحظ حظ الآخرة.

والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هذا هو الحظ العظيم الذي يلقى الأخلاق الطيبة الفاضلة ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: النصيب الوافي ولم يقيد ذلك أيضًا في الدنيا؛ يعني: كأنهم تناسوا الآخرة ورأوا أن الحظ هو حظ الدنيا ولكن قابلهم أهل العلم والإيمان فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله في الآخرة، كلمة الذين أتوا العلم تدل على أن الأولين جهال ما عندهم علم، وما معرفة الأمور بحقيقتها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ﴾ [كلمة زجر] يُقصَد بها: زجر الإنسان عما يريد من الأمور التي ينبغي الإعراض عنها، وهو في الأصل كلمة عذاب ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] ولكنها يراد بها الزجر؛ يعني: ويلكم إن تمنَّيتم ذلك؛ أي: مثل ما أوتي قارون، والإعراب: ويل مفعول بفعل محذوف تقديره: ألزمكم الله ويلكم؛ أي: جعل الويل لازمًا لكم إن أنتم تمنيتم مثل ما أوتي قارون أو مثله؛ لأن هناك ما هو أفضل منه.

قال: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ [في الآخرة بالجنة] ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ثواب الله خير أي: الثواب هو الجزاء، كأن العمل رجع إلى صاحبه بالجزاء عليه، فثواب الله في الآخرة خير لكن لمن آمن وعمل صالحًا، فالمؤمن العامل عملًا صالحًا ثواب الله له في الآخرة خير من الدنيا وما فيها، وقد قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ولكن ما هو الإيمان؟ التصديق مع القبول والإذعان، قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ما هو العمل الصالح؟ هو الذي جمع بين أمرين: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ خير من ما أوتي قارون في الدنيا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [أي: الجنة المثاب بها] ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [على الطاعة، وعن المعصية] ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يوفَّق لها إلا الصابرون، قال المؤلف: [على الطاعة وعن المعصية]، ولكنه لم يأت بالأمر الثالث، وهو: الأقدار، لو قال: وعلى الأقدار لتمَّ له الأمر، فالتفسير ناقص، فهم الصابرون على طاعة الله لا يملون ولا يضجرون، وعن معصية الله لا يمارسونها، وعلى أقدار الله المؤلمة لا يتسخطون منها.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** بيان بغي قارون؛ حيث لم يعترف بفضل الله عليه.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن من اعتقد أن ما رزقه الله من كسبه فهو مُشابه لقارون في عدم اعترافه بنعمة الله؛ فمثلًا يقول: هذا بيدي وبمعرفتي بالأمور، والمكاسب، نقول له: أنت مشابه

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

لقارون.

٣ - **ومن فوائد الآية**: تقريع أولئك الذين يفتخرون بسعيهم بأن الله قد أهلك من كان قبلهم من القرون ممن هم أشد منهم قوة وأكثر جمعًا.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن المجرمين لا يُسألون فيُرحمون، وإنما يهلكون بدون سؤال، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية**: أن قارون كان يظهر الأبّهة والعظمة؛ حيث يخرج في زينته؛ من المال والرجال.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن ذوي النظر القاصر يتمنون متاع الحياة الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

٣ - **ومنها**: أن أهل العلم الذين يعلمون حقائق الأمور يدرون أن هذه الدنيا ليست بشيء، وأن ثواب الآخرة أعظم وأجل.

٤ - **ومنها**: أنه لا ينال ثواب الآخرة إلا من آمن وعمل صالحًا، لقوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

٥ - **ومنها**: أنه لا يستحق لذلك الثواب في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨١-٨٤].

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ خسفنا به بمن؟ [بقارون] ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فهوى في الأرض هو وداره، ولم تُغنِ عنه الأموال ولا الرجال ولا غيرهم، وإنما كانت عقوبته بالخسف؛ لأنه كان باغيًا عاليًا متكبرًا فأُخِذ بما يناسب حاله، فالعالي أي شيء يكون مناسبًا له؟ أن يُنَزَّل بعد أن كان عاليًا، فلهذا كانت العقوبة مناسبة للعمل، قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وممن خسف به الله الأرض قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أو غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك] ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ من فئة (من) حرف جر زائد إعرابًا، وفئة اسم كان مرفوع به، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها: اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ الإتيان بـ (من) هنا له فائدة من حيث المعنى، وهو: التنصيص على العموم؛ يعني: ما كان له أي فئة تقوم بنصره، والفئة: الطائفة التي يرجع إليها المرء هذه الفئة مأخوذة من فاء يفيء إذا رجع، وأما الفئة التي يرجع إليها المرء بنصرها له هي محل فيئه أو محل رجوعه، المعنى: أنه ما كان له أحد حتى التي جرت العادة بأنه ينتصر له، ما كان له أحد ينصره.

وقوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ النصر معناه: المنع مما يضر.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [أو غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك] فدون هنا بمعنى: غير، فلما نزل به بأس الله هل نفعته زينته؟ لا، هل منعه جنوده؟ لا، فما نفعته زينته ولا منعه جنوده؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - له القوة الكاملة والقدرة العظيمة.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [منه] يعني: هو ما كان أحد ينصره، ولا هو أيضًا انتصر بنفسه، فصار ضعيفًا بنفسه وبغيره ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الله - عز وجل - ومن عذابه؛ بل أصبح عاجزًا وهو في بيته مخسوف به، أما العاقبة بالنسبة للذين تمنوا زينته بالأمس قال: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ هل هي بمعنى: صار أو معنى أصبح أي: دخل في الصباح؟ أصبح يعني: صار الذين تمنوا بالأمس يقولون إلى آخره، ويحتمل أن أصبح أي: دخل في الصباح، كما هو في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا﴾ ما تقف على حد المعنى ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ هم يتمنون هذا أما اليوم فإنهم يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ صار الآن يتعجبون ويعلمون أن الله - سبحانه وتعالى - يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء يعني هذا على حسب مسألة حكمته وليس؛ لأن قارون له حظ عظيم بل؛ لأن الله هو الذي

يعطي ويمنع وسيأتي في الفائدة إعراب كلمة ويكأن قوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ ما محلها من الإعراب؟ اسم إن على أحد الوجوه من الإعراب، أو اسم كأن على الوجه الثاني من الإعراب؛ يعني: فيها وجهان، وقوله: ﴿يَبْسُطُ﴾ يقول: [يوسِّع] ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ أي: العطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ للذي يشاء، فمن اسم موصول، هذه المشيئة مشيئةٌ مقرونة بالحكمة، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ممن اقتضته حكمته أن يبسط لهم الرزق، وقد جاء في الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الغِنَى»(١)، فالله تعالى حكيم يبسط الرزق لفلان؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك ويضيقه على فلان؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك ولو كانت المسألة اعتباطية بدون أي روية قد يكون لله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكمة في ما أعطى وفي ما منع.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ عباد جمع عبد، والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة التي هي: التذلل للأمر الكوني، وليس العبودية الخاصة التي هي: التذلل للأمر الشرعي، وقد مر علينا أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة، وهي الخضوع للأمر الكوني هذه هي العامة وهي شاملة لجميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] والنوع الثاني: العبودية الخاصة وهي الخضوع للأمر الشرعي؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وهذه خاصة بمن؟ بالمؤمنين، يفيد الآن المعنى ﴿يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ العامة؛ لأن بسط الرزق وتزويد الرزق يكون للمؤمن وغير المؤمن، قال تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ وفي قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ دليل على أن جميع الخلق في قبضته ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنهم لا يعجزونه، وعليه فإننا إذا كنا بالله ومع الله لا نهيب أي قوة في العالم؛ لأننا نعلم أن كل من في الكون فهو خاضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيق على من يشاء] يقدر يعني: يضيق يجعله على قدر معين، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ قدر بمعنى: ضيق عليه حتى صار على قدر كفايته، أو على أقل أيضًا، فالله تعالى له الحكم في بسط الرزق وتضييقه، هل تعلمون أن أحدًا أفسده الغنى؟ نعم، مثل قارون، وربما يفسد الإنسان الفقر، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١] فمن الناس من إذا افتقر بعد الغنى - والعياذ بالله - أبى أن يتحمل ما نزل به، فكفر بالله، ومنهم من ينتحر، قال المؤلف: [وي اسم فعل بمعنى: أعجب] أي: أنا أعجب فهو اسم فعل مضارع، ويقول: [أي: أنا] إذن ففاعله ضمير مستتر وجوبًا، تقديره: أنا، قال المؤلف: [والكاف بمعنى: اللام] أي: لأنه، واللام هنا بمعنى: التعليل أي: أغضب لهذا الأمر؛ أي: أعجب أنه لا يفلح؛ أي:

(١) ضعيف جدًّا: أخرجه الكلاباذي في «بحر الفوائد» ص (٣٧٨) وقال الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٥): ضعيف جدًّا.

أعجب لعدم فلاح الكافرين فصارت الآن ﴿ويكأنه﴾ مركبة من أربع كلمات هم: وي، وهي اسم فعل، والكاف هي بمعنى: اللام وهي للتعليل، أنَّ حرف توكيد، والهاء اسمها، وعلى هذا التقدير يكون الوقوف على وي فتقول مثلًا: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وتقف على وي، وقال بعضهم: إن وي اسم فعل يعني: مبالغ، والكاف حرف خطاب وليست حرف جر، وإنما هو حرف خطاب ولا محل له من الإعراب؛ لأن الفعل هذا فاعله مستتر تقديره: أنا، وعلى هذا يكون أنَّه حرف توكيد، والجملة التعليلية على تقدير اللام؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهنا فتح الهمزة؛ لأنها تعليل على تقدير حرف الجر، هذان إعرابان.

الإعراب الثالث: يقولون: وي اسم فعل مضارع بمعنى: أعجب، وكأن حرف تشبيه، والمراد بهذا التشبيه: التحقيق، كما تقول للإنسان: كأنك فاهم؛ أي: أنه فاهم، انظر الآن ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: أن الأمر حق لا يفلح الكافرون، فالأوجه ثلاثة، وهي: (وي) اسم فعل مضارع بمعنى: أعجب على كل التقديرات، (وي) ما تختلف، كأنه قيل: إن الكاف حرف جر بمعنى: لام، وأنَّ حرف توكيد هذا وجه، وقيل: إن الكاف حرف خطاب، وأنَّ حرف توكيد على تقدير اللام ويكا أنه لا يفلح الكافرون، وقيل: إن كأن جميعًا حرف تشبيه لكن يراد به: التحقيق، فقولك للفاهم: كأنك فاهمٌ وقد علم أن كأن للتشبيه ودخلت على اسم جامد ولضم أو لتحلية هي دخلت على مشتق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لا يفلح، الفلاح هو: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، إذن هو كلمة من أجمع الكلمات، والكافرون أي: الكافرون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وكلما أطلق الكفر فالمراد به: الكفر بالله، أما إذا قُيِّد فهو بحسب ما قُيِّد به؛ مثل: ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٦٥] هنا قيَّد الكفر بالطاغوت لكن عند الإطلاق يكون الكفر بالله، فكل من كفر بالله بأي نوع من أنواع الكفر سواء كان كفر تقليد أو كفر استكبار فإنه لا يفلح.

فإذا قال قائل: على أن يشكل على هذا ما كان عليه أهل الكفر من النعيم والترف في الدنيا؟ نقول: لا يشكل؛ لأنهم لا يفلحوا حتى وإن نعموا في الدنيا ماذا يفيدهم النعيم، وهم إذا ماتوا انتقلوا إلى جهنم؟ هذا النعيم في الحقيقة يكون وبالًا عليهم؛ لأنهم يفقدونه إلى عذاب، ولو كانوا معذَّبين في الأصل في الدنيا لكن انتقالهم إلى عذاب الآخرة أهون من انتقالهم من النعيم ولهذا إذا عذب أحد في الدنيا ماذا يفعل؟ ينتحر ليتخلص منه بزعمه إلى راحة وعلى كل حال لا يرتاح بل هو ينتقل إلى الشقاء - والعياذ بالله - لكن قصدي أنه إذا انتقلوا من هذا النعيم فهذا أشد وأنكى وأعظم عليه وأبلغ حسرة وهم في الحقيقة ما أفلحوا أن نقول إنهم هل استفادوا من وقتهم في الدنيا شيئًا؟ لا، أبدًا بل خسروا، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بناء للفاعل والمفعول ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ لولا هذه شرطية وهي: حرف امتناع لوجود، امتنع الخسف بوجود المنة فهي حرف امتناع لوجود وهي الذي بعدها يكون مبتدأ وخبره محذوف غالبًا، وقال ابن مالك:

وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتمٌ ....

وقوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ إن مصدرية، ومن فعل ماضٍ، وأن وما دخلت عليه وتأويل مصدر منخدع أو لولا منة الله علينا والخبر محذوف تقديره لولا منة الله علينا موجودة أو واقعة وأما قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فهي جواب لولا يعني: جواب الشرط، وهذا المشهور عند النحويين، وعندي ينبغي أن يقال: إن المبتدأ هنا لا يحتاج إلى خبر لا يحتاج إلى خبر أصلا ما نقول كما يقول النحويون أنه محذوف بل نقول: أنه لا حاجة لنا إليه والسبب لدلالة الجواب عليه فحينئذٍ نقول: لا فائدة لتقدير الخبر، نقول: هو مبتدأ ويحتاج إلى خبر، كما قيل: في القسم في قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١ - ٥] أنه ما يحتاج إلى جواب، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد» أو في «أحكام القرآن» يقول: إن الشيء المعلوم ما يحتاج إلى تقريب نقول: استغني عنه في جملة؛ لأن دلالة اللفظ على معناه ظاهرة؛ بل إذا كان السياق لا يحتاج إلى تقريب ما نقربه، قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ما هو المن؟ المن هو العطاء الذي لا يراد به المقابلة أي: المكافأة ولا ريب أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد من عباده أن يكافئوه؛ لأنهم لو حاولوا المكافأة لا يستطيعون ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف بقارون ولكن منة الله عليهم منعه ذلك، انظر الآن رجعوا إلى الصواب وعرفوا أن هذه المتعة التي متع بها قارون لم تُغنِ عنه شيئًا، ثم قال المؤلف: [﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ بالبناء للفاعل والمفعول قراءتان سبعيّتان] بالبناء للفاعل ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، وبالبناء للمفعول ﴿لَخُسِفَ بنا﴾، على قراءة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأمر فيها ظاهر؛ يعني: لخسف بنا كما خسف بقارون، وعلى قراءة ﴿لخُسِف بنا﴾ يكون المراد: خسف الله عز وجل لا شك لكنهم قالوا ذلك تأدُّبا، فلم ينسب الخسف إلى الله؛ بل بناه للمفعول كراهية أن ينسبوا الخسف إلى الله، كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ هم يعرفون أن الذي يريد ذلك كله هو الله، لكن لما تكلموا عن الشر ما نسبوه إلى الله فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وهذا من الأدب في اللفظ هؤلاء قالوا لخُسِف بنا مع أن الخاسف هو الله لكن هذا من باب الأدب في اللفظ، يقول المؤلف: [﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله؛ كقارون].

قال: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قد تقدم الكلام على إعراب ويكأنه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾، قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وهي اسم إشارة قوله:

﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يحتمل أن تكون صفة لتلك ويحتمل أن تكون خبرًا، قوله: ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني بذلك دار الجنة؛ لأن هي الدار الآخرة؛ لأن للإنسان في الدنيا والآخرة دورًا أربع: الدار الأولى: بطن أمه، والثانية: الدنيا، والثالثة: البرزخ، والرابعة: الآخرة، وهي التي ليس بعدها دار، ولهذا وصفت بأنها آخرة ليس بعدها شيء.

وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ جملة نجعلها إن أعربنا الدار صفة فجملة نجعلها خبر وإن أعربنا الدار خبر فجملة نجعلها حال من الدار الآخرة يعني: الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعني: نفسه لضمير النفس تعظيمًا لمن ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ بالبغي ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بعمل المعاصي خلافًا لقارون وأمثاله فالدار الآخرة للذين لا يريدون علوا في الأرض والعلو هنا سواء كان علوًّا عن أوامر الله أو علوًّا على عباد الله ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ إنما يريدون الذل لله والذل للعباد على الوجه الذي يرضاه الله هؤلاء هم الذين لهم الدار الآخرة فمن أراد العلو على الخلق سواء كان بماله أو بعشيرته أو بقوته البدنية أو بعلمه أو بسلطانه من أراد العلو على الخلق بهذه الأمور أو ذويها فإنه لا حظ له في الآخرة على حسب ما عنده من إرادة العلو، قوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ الفساد يقول المؤلف: [بعمل المعاصي] فإن عمل المعاصي فساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١] والفرق بين الصفتين أن الأول مستكبر متعالٍ متعاظم في نفسه والثاني بالعكس ما عنده التعالي لكنه يريد المعاصي؛ يريد مثلًا: الفجور، يريد السرقة، يريد قطع الطريق، وما أشبه ذلك، فكِلَا النيتين باطلة، لا إرادة في العلو ولا إرادة في الفساد في الأرض فمن لم يرد ذلك العلو ولا الفساد هو الذي يكون له الدار الآخرة

قال الله تعالى: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عقاب الله بعمل الطاعات]، العاقبة النهاية التي تعقب ما سبقها هذه للمتقين فمن كان متقيًا لله عز وجل فالعاقبة له بكل حال ولكنها تكون باعتبار شخصيته وعمله أحيانًا وتكون له باعتبار عمله دون شخصيته قد تضمن هذا الإنسان المتقي قام بما يجب عليه من تقوى الله عز وجل ودعا إلى الله على بصيرة لكنه مات قبل أن تتم له المهمة نقول هذا ما لا عاقبة له؛ لأنه قد مات، وقد لا يتحقق العاقبة لكن العاقبة بعمله الذي دعا إليه لابد أن ينجح ولو بعد موت العامل فالإنسان الذي يتقي الله ـ عز وجل ـ لابد أن تكون له العاقبة حتى لو اعتدى عليه من يعتدي فإن العاقبة له ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] فالعاقبة للمتقين في كل حال ثم قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ من هذه شرطية تعم كل من جاء قوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمصاحبة ويحتمل أن تكون للتعدية المعنى أن الإنسان إذا أتى بالحسنة مُدَّخرًا لها يوم القيامة فإن له خيرًا منها، كيف الخيرية؟ قال المؤلف: [ثوابٌ بسببها وهو عشر أمثالها] عشر أمثالها فقط؛ يعني: إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والله تبارك وتعالى يضاعف لمن يشاء، ومن ثَمَّ من

جاء بالحسنة فله خير منها بلا ريب حتى إن من همَّ بالحسنة ولم يعملها كتبها الله في ميزانه حسنة وله خير منها، إن عملها أو لا، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [أي: مثله] من جاء بالسيئة يوم القيامة فإنه لا يجزى إلا مثلها ولهذا قال: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كانوا يعملون لا يزاد عليهم، وفي قوله: ﴿وَمَن جَآءَ﴾ في الموضعين إشارة إلى أن المدار على مجيء الإنسان بذلك لا على عمله فقد يعمل الحسنة ثم يردُ عليه ما يبطلها قد يتضمن الإنسان عمل صدقة ثم من بها على هذا المتصدق عليه فلا تكون هذه صدقة؛ بل تبطل، من يُؤتَى به يوم القيامة عمل سيئة لكنه تاب منها أيضًا تذهب السيئة ولا يأتي بها يوم القيامة، التعبير بقوله: جاء ثم يدعون إشارة إلى أن ليس المدار على مجرد العمل بل المدار على أن يصل العمل إلى يوم القيامة فلا يبطل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ.

٢- **ومنها:** التحذير من التعالي والبغي على الخلق.

٣- **ومنها أيضًا:** أن الله إذا أنزل العقوبة بأحد فليس له ناصر إلا الله، ولو عظمت قوته، وكثر جنده، لقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن هؤلاء الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون عرفوا أن ما أوتيه ليس لكونه أهلًا له بل؛ لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر كما قال لهم في الجواب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ هنا تبين لهم أنه ليس لهذا السبب ولكن؛ لأن الله تعالى بيده الأمر يرزق من يشاء من عباده ويقدر.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان أن تمني متاع الدنيا لابد أن يتبين للمرء أنه تمنٍ لا حقيقة له وذلك؛ لأنه يزول فهؤلاء الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون لما زال وخسف به عرفوا أن هذا التمني في غير محله وأن حقيقة الأمر أن يتمنى الإنسان ما فيه ثواب الآخرة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات مشيئة الله لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ومنها إثبات حكمته في بسط الرزق وتضييقه يبسط ويقدر في هذه لحكمته ـ سبحانه وتعالى ـ.

٤- **ومنها:** اعتراف هؤلاء المتمنِّين بمنَّة الله عليهم، في قولهم: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾

فهنا عرفوا منة الله عليهم حيث لم يعطهم مثل ما أعطي قارون فيكون مآلهم كمآله فتبين لهم بذلك نعمة الله عليهم.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا فلاح للكافر لقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ونأخذ من ذلك: إثبات عكسه للمؤمنين؛ أي: أن لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات الجزاء يوم القيامة لقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** مدح من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد، وهو أعظم من مدح من لا يعلو ولا يفسد، وجه ذلك: أن انتفاء الإرادة ورد منه انتفاء الفعل، أما انتفاء الفعل فلا يلزم منه انتفاء الإرادة فقد يريد الإنسان الفساد والعلو ولكن ما يعلوا ولا يفسد لعدم تمكنه أو لفقده الأسباب أما الذي لا يريد فهو أسلم وأنزه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن النية لها أثر لقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ والإرادة بمعنى: النية.

٤- **ومنها:** ذم من يريد العلو والفساد وسواء علا وأفسد أو لم يعلو ويفسد؛ لأنه إذا كان في الجنة هؤلاء الذين لا يريدون وهذا مدح لهم بلا ريب فإن من أراد فهو مذموم سواء تمكن من تنفيذ إرادته أو لم يتمكن.

٥ - **ومنها أيضًا:** أن المعاصي سبب للفساد وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ لأننا نعلم أن الفساد في الأرض ليس معناه: أن يأتوا بالمحاريث، والمناشير، ويقطعون الأشجار، ويهدمون البيوت؛ ولكن المعنى: أنهم يفعلون أفعالًا توجب الفساد ويفسر ذلك: قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

٦ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة التقوى، تؤخذ من قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٧- **ومنها:** أن العاقبة تكون للمتقين، العاقبة في أي شيء؟ قال المؤلف: [العاقبة المحمودة]، ولكننا نقول: هي أعم من هذا فالعاقبة في الدنيا فيكون النصر لهم في الآخرة أو في آخر الأمر، العاقبة في الآخرة فتكون الدار الآخرة والجنة لهم دون غيرهم، فالعاقبة أعم مما قال المؤلف، حتى في الدنيا إذا تقابل المتقون والفجار في النهاية للمتقين، العاقبة النتيجة المرضية للمتقين.

قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية**: أن جزاء الحسنة خير منها بالكمية والكيفية أما الكمية فالحسنة بعشر أمثالها وأما الكيفية فإن جزاء الحسنة دائمة وهذا خير منها كمية وكيفية ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٢ ـ **ومنها**: أنه ليس المدار على عمل الحسنة بل المدار على أن يأتي بالحسنة لقوله: ﴿مَن جَاءَ﴾ فقد يعمل الإنسان الحسنة فيها ما يبطله فالمدار على أن يأتي الإنسان يوم القيامة بالحسنة لا على أن يفعلها.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الجزاء لقوله: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: أن السيئة لا تضاعف من قوله: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٥- **ومنها**: أن عدم مضاعفة السيئة عامٌ في مكة وغيرها، وجهه: أن الآية عامة ليس فيها استثناء، ثم إن السورة التي معنا تكون مكية السورة نازلة بمكة والآية نازلة بمكة ولم يُستثن شيءٌ، وأما ما يروى عن ابن عباس أنه قال: لا أقيم في بلد حسناته كسيئاته، فهذا باطل، لا يصح عن ابن عباس؛ لأن ابن عباس أفقه من أن يقول مثل هذا القول، لكن السيئة في مكة تُضاعف ما من جهة الكمية ولكن من جهة الكيفية؛ يعني: عقوبتها أشد وأبلغ ألمًا وتعرفون الفرق بين الكمية يعني ما تكون عشر سيئات لكن يكون أشد، فأنا مثلًا أضرب ضربًا هكذا لكن بالعصاة كان أعظم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: التنديد بعامل السيئات؛ لأنه قال: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل: فلا يجزى عامله، وهذا تنديد بهم وبيان استحقاقهم ما يسوءوا من العذاب كأنه قال؛ لأنهم عملوا السيئات يجزون سيئة فهذا تبكيت وتنديد لهم.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: أن ثواب الله سبحانه وتعالى دائر بين العدل والفضل ما هو القسم الثالث؟ الجزاء إما عدل، أو فضل، أو جور، فجزاء الله تعالى دائر بين العدل والفضل، الفضل بالنسبة للمحسنين ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ والعدل بالنسبة للمسيئين ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأما الجور فهذا ممتنع في حق الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ فجزاء الله تعالى دائر بين الفضل والعدل إذن فهو محمود على أي حال؛ لأنه إما عدل وإما فضل.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٥، ٨٦].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ الذي فرض عليه الله سبحانه وتعالى وهذا وعد محقق ببيان الشاهد ليقاس عليه الغائب فإن فرض القرآن على الرسول ﷺ ثابت محقق، وردُّه إلى معادٍ موجود وليس مشهودًا، فأراد أن يحقق الموجود بالمشهود ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ لفظ إجماع لم يقل: إن الله رادُّك إلى معاد؛ بل قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأن فرض القرآن على الرسول ﷺ متيقن فإرادته سبحانه وتعالى أن يثبت الموجود بالمشهود فإن الموجود المشهود معروف لرادك إلى معاد موجود غير مشهود ولكنه حقق ذلك الموجود بالمشهود قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يقول المؤلف: [أنزله] وهذا أحد التفسيرين في الآية أن الفرض هنا بمعنى الإنزال وقيل: فرض أوجب عليك القرآن، الإيجاب معناه هنا أوجب القرآن أي: أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به.

فرض الله على نبيه ﷺ القرآن ثلاثة أمور: أن يتلوه، وأن يبلغه إلى الناس، وأن يعمل به، وحينئذٍ يكون الذي فرض عليك القرآن أي فرض عليك تلاوته وتبليغه والعمل به وهذا التفسير أقرب إلى ظاهر اللفظ؛ لأن الفرض بمعنى: الإنزال ليس موجودًا في اللغة العربية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] «وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيْلَةٍ» هنا «أَعْلِمْهُمْ» هنا بمعنى: أوجب وألزم، قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ اللام هنا للتوكيد ورادك خبر إن، قوله: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ أي لمرجعك إلى معاد قال المؤلف: [إلى مكة وكان قد اشتاقها] قد اشتاق إليها، والمعنى إن الذي انزل على رأي المؤلف إن الذي أنزل عليك القرآن لابد أن يعيدك إلى مكة لتفتحها كما أن القرآن أُنزل عليك فيها، هذا معنى كلام المؤلف فيكون رد المعاد، المعاد مكة أي: مكان العودة والرجوع وأنك سوف ترجع إلى المكان الذي أخرجت منه ويكون في هذه الآية وعد من الله - سبحانه وتعالى - أن يفتح النبي ﷺ مكة وأن يعود إليها وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه البخاري عنه، وقيل: إن المراد لرادك إلى معاد أي لرادك إلى يوم القيامة فالمراد بالمعاد معاد الناس يوم القيامة ويكون المعنى: أن الذي

فرض عليك القرآن وأوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به لم ينزله عبثًا قد أنزله لأمر يعود الناس إليه وهو يوم القيامة فيكون المعنى لرادك إلى معاد أي: إلي يوم القيامة لتدنى وتسأل هل بلغت أم لم تبلغ؟ قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

وهذا المعنى أقرب من ما روي عن ابن عباس وهي مروية عنه أيضًا، وأنه قد روي عنه هذا المعنى ويقربه أن السورة مكية وإذا كانت مكية فكيف يقال لمن في مكة لرادك إلى معاد؟ هم في مكة فيكف يردوا إليها وأيضًا هو أنسب بالنسبة إلى صدر الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ هذا الخلق يكون عبثًا بل له يوم يعاد فيه الناس ويسألون عنه وهذا القول إن المراد لرادك إلى معاد أي إلى يوم يعاد فيه الناس ويجزون فيه على حسب هذا القرآن وما قاله بن عباس له ردٌ لكنه ضعيف وأن معني لرادك إلى معاد فتح مكة يعني إلى معاد أي إلى مكة فيكون إثارة إلى فتح مكة الذي هو علامة على قرب أجل النبي ﷺ، وقرب الأجل معناه: الموت ثم البعث.

وأعلم بمعنى عالم ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ الربوبية هنا خاصة يعني: ربي الذي أرسلني أعلم بمن جاء بالهدي ومن هو في ضلال يعني يعلم من هو أتي في الهدى ومن هو في ضلال مبين هل هو الرسول أو أنتم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الله أعلم، وقال المؤلف: [إن أعلم بمعنى: عالم] أعلم أي: عالم، وإنما أوَّلها بمعنى عالم؛ لأن أعلم اسم التفضيل، واسم التفضيل لا ينصب المفعول به وهنا من منصوبة؛ لأنه لا يصح أن تكون مجرورة لتقارب المعنى ولذا يقول أعلم بمن ضل ولكن هذا لا يصلح يعني معناه: أعلم من يضل عن سبيله فيكون له من الضالين سبحانه وتعالى وهذا أمر منكر لكن من منصوبة بلا ريب وأعلم اسم تفضيل وهو لا ينصب المفعول به فنحتاج حين إذن إلى أن نؤوله بمعنى عالم اسم فاعل ليس بمفعول به لو قلت المفعول به وهذا التقريب الذي وصل له المؤلف واقع على رأي من يرى أن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به وأما على رأي الكوفيين فإنهم يجوزون نصب اسم التفضيل بالمفعول به وحين إذن لا يحتاج إلى أن نؤوله إلى عالم ونجد أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به هذان إعرابان:

الإعراب الأول: ما نص عليه المؤلف وهو أن أعلم بمعنى عالم ومن مفعول به.

والإعراب الثاني: أن أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به لاسم التفضيل وهذا رأي الكوفيين والرأي الثالث أن من مفعول به بفعل محذوف دل عليه السياق وهو والتقدير على رأي هؤلاء قل ربي أعلم يعلم من جاء بالهدي فيجعلون من مفعول لفعل محذوف تقديره يعلم قل ربي أعلم وهذا تقدير مطلق أن ذكر فرد من أفراده فقد يعلم من جاء بالهدي ومن هو في ضلال مبين

والقاعدة عندي إذا اختلف النحويون في شيء أخذنا بالأسهل وأسهل هذه الآراء رأي الكوفيين؛ لأن الكوفيين الآن لا يحتاجون إلى تقدير، ولا تقدير يُعلَم، وتأويل أعلم بمعنى عالم يقول أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به فهو مفعول به لأعلم مباشرةً أعلم من يضل عن سبيله قوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الهدى المراد به: العلم النافع ومن الذي جاء بالهدى النبي ﷺ ومن هو في ضلال مبين يعني وأعلم من هو في ضلال مبين ولم يقل ممن يأتي به قال ومن هو في ضلال مبين وأتى بـ (في) الدالة على الظرفية كأن هذا منغمس في الضلال والضلال يحيط به من كل جانب إحاطة الظرف بالمظروف ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ حين تقول: الماء في الإناء، الإناء يحيط بالماء من كل جانب هذا في ضلال مبين معناها: أن الضلال يحيط به من كل جانب، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فهنا الضلال يحيط بهؤلاء من كل جانب.

قوله: ﴿مُّبِينٖ﴾ بمعنى بين وقد تقدم لنا أنه بان الفجر وأبان الفجر بمعنى: ظهر يعني: أن الرباعي مثل الثلاثي في كل اختلاف وعلى هذا يقول: إن الرباعي لكنه بمعنى الثلاثي أي: بين وإما أنه لم يكن أعلم من جاء بالهدي ومن لم يأت به؛ لأن لا واسطة بين الهدي والضلال فالآن إما هدى وإما ضلال ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ما هناك واسطة بين الهدي والضلال فيكون الإنسان لا مهتدٍ ولا ضال فالناس كلهم إما مهتدي وإما ضال ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المهم هنا جَعْلُ الأمر دائرًا بين شيئين كلاهما خصيم للآخر وهما الهدى والضلال؛ لأنه لا واسطة بينهما يقول المؤلف: [نزل جوابًا لقول كفار مكة له] يعني: للنبي ﷺ إنك لفي ضلال أي فهو الآتي بالهدي وهم في ضلال وأعلم بمعنى عالم يحتمل أن ما قاله المؤلف صحيح وأنهم قالوا هكذا كما جاء في الآية، ويحتمل أن يكون غير صحيح وسبب النزول لابد أن يثبت بدليل صحيح أما مجرد أن نفهم من السياق أنهم قالوا وقيل لهم فهذا لا يجوز؛ لأن سبب النزول أمر منقول، والأمر المنقول لا يمكن أن يستنبطه الإنسان بقوله.

ثم قال تعالى مبينًا نعمته على محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هذه لا تتأتي على قواعد الكتابة الآن القواعد الإملائية لا تأتي الألف هنا؛ لأن الألف في القواعد الإملائية الحاضرة أنها تكون إذا كانت واو للجماعة مثل: [قالوا] فجاء الألف بعدها أما إذا كان واو الفعل فما حصل في القواعد الحاضرة لا تصلح لكن هذه القواعد في القرآن كان على الرسم العثماني فيرسمونه سواء كان موافق للقواعد الحاضرة أو غير موافق ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي ينزل عليك ما كان الرسول يرجو هذا ولا خطر بباله أنه يلقى إليه القرآن فإذا كان لم يخطر بباله أن يلقى عليه القرآن فهل يمكن أن يقال: أنه تعلمه من

غيرك؟ لا؛ لأن المتعلم الشيء من غيره لابد أن يكون عنده أمل للحصول عليه حتى يسعى في أسبابه ويحصله أما شخص لم يكن يرجو ذلك إطلاقًا والمخبر بذلك أن يلقى إليه الكتاب فهو دليل على أنه ليس من عنده بل هو من عند الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولو قال الكتاب مع أنه ملقى؛ لأنه نائب فاعل قال أن يلقى إليك الكتاب القرآن وكتاب بمعنى مكتوب ويصف القرآن به؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ مكتوب بأيدي الملائكة مفعول بأيدي الناس يعني: مكتوب بأيدي الملائكة ومكتوب أيضًا وهو في أيدي الناس.

قال المؤلف: ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القرآن] ﴿إِلَّا﴾ [لكن أُلقِي إليك] إشارة منه على أن الاستثناء منقطع وليس متصلًا؛ لأن المتصل هو أن يكون المستثنى من جهة المستثنى منه ومعلوم أن الرحمة ليس سياق رجاء وليس من الرسول من يرجو ذلك وما كان يرجو ولكن الأمر حصل بمجرد الرحمة.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ رحمة هذه تكون إما أداة استثناء والاستثناء هنا منقطع ورحمة منصوبًا على الاستثناء ويجوز أن يكون منصوب على أنه مفعول له يعني مفعول من أجله يعني ولكن أنز ل لأجل الرحمة والرحمة هنا لرسول ﷺ له ولغيره قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهنا ذكر الربوبية الخاصة؛ لأن رحمة الله للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة رحمة خاصة وإذا كان الأمر كذلك وأنه ألقى إليك الكتاب رحمة من ربك.

قال المؤلف: [﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ معينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾]، قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ لا ناهية وفيه إشكال كيف تكون ناهية والفعل بعدها منصوب فلا تكونن نقول ليس بمنصوب بل هو مبني على الفتح لاختصار وجوه الترتيب وهو في محل نصب فلا تكونن ظهيرًا معينًا للكافرين على دينهم، الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما كان ظهيرا للكافرين لكنه عليه الصلاة والسلام ينهى عن أمر وإن لم يكن واقعًا منه أو متصورًا أن يقع حينها قال تعالى أيضًا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنه يمكن أن يشرك ولكنه ينهى عن ذلك فقيل: إن النهي نهيه هو عنه نهي لأمته وقيل: بل إنه نهي حقيقي له وإن لم يكن ذلك متوقعًا منه، والفائدة من ذلك: بيان أن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون والله أعلم.

الفوائد:

يستفاد من الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١ - **الفائدة الأولى:** وجوب تلاوة القرآن والعمل به وتبليغه عن النبي ﷺ، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٢ - **ويستفاد منه:** إثبات البعث في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

٣- **ويستفاد منه:** الحكمة من إنزال القرآن وهو المجازاة على العمل به؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ كأنه علة ومعلولة، كأنه إنما فرض القرآن من أجل المجازاة عليه.

٤- **ويستفاد من ذلك أيضًا:** دوام قدرة الله عز وجل على البعث ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

٥- **ويستفاد من قوله:** ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ إثبات علم الله وأنه أكمل العلوم؛ لأن أعلم اسم تفضيل، فصحَّ أن نقول: أكمل العلوم.

٦ - **ويستفاد من هذه الآية أيضًا:** أن ما عدا الهدى فهو ضلال لقوله: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأنه ليس هناك واسطة بين الهدى والضلال وذكرنا آيات شواهد لهذا الأمر مثل قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ ومثل قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الميزان الحقيقة يتبيَّن به أشياء كثيرة اختلفت على بعض الناس مثلًا ما نشر في الصحف هذه الأيام من أن الأشعرية من أهل السنة والجماعة نقول مثلًا: هل قول الأشعرية هو قول السلف؟ الجواب: لا، حتى أن الكاتب هذا يقول: إن قول الأشعرية ليس كقول السلف؛ لأن الأشعرية لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا على أن إثباتهم لها ليس على الوجه الذي يريده الله ورسوله، يعني: يقولون في صفة الكلام يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس هو الحروف والأصوات.

وكذلك أيضًا نقول: هل هم موافقون للسلف أم غير موافقين؟ غير موافقين، إذا كان كذلك فإما أن يكونوا هم على الحق والسلف على الضلال وإما أن يكون السلف على الحق وهؤلاء على الضلال؟ هل هناك واسطة بأن يكون ليس على حق ولا على ضلال؟ ليس هناك واسطة؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ وحين إذن يكونوا ضالين وإذا ثبت ضلالهم فإنه لا يمكن أبدًا أن يقال: إنهم من أهل السنة والجماعة؛ لأنه يلزم من ذلك أن تكون السنة ضلالًا، لو كان هؤلاء الضالون من أهل السنة والجماعة للزِم أن تكون السنة ضلالة وهذا أمر غير ممكن ولكن يجب أن نعرف أنه وإن قلنا: إنهم ضالون في العقيدة لا يلزم أن نضللهم في كل شيء ونتجه إلى أهل السنة والجماعة في جميع الأشياء؛ لأن هؤلاء فيهم أئمة أو لهم علماء كبار لا شك أنهم يتجهوا إلى السنة في أمور كثيرة وأنهم يرتقون لها أيضًا فالإنسان يجب أن يكون كلامه في الناس على حين يفعل العبد فبالقسطاس المستقيم فلا يظلم أحدًا حقه و لا يعطى أكثر من حقه فالحاصل من هذا في آية أخرى ميزان واضح جدًا أنه ليس الأمر إلا ضلالًا أو حقًّا.

٧ - **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** إثبات أن الرسول عليه الصلاة والسلام على الهدى أعلم من جاء بالهدى ومعلوم أن الذي جاء وورد عن الناس الرسول؛ لأن الجهمية باقون على ما هم عليه ما جاءوا بجديد فالذي جاء بجديد هو الرسول ﷺ فأعلم من جاء بالهدي يشير على أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي على هدى وأن أولئك في ضلال مبين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يتطلب الرسالة ولا خطرت على باله، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة بيان تكذيب هؤلاء الذين قالوا إنما يعلمه بشر الكفار يقولون إنما يعلم محمد القرآن بشر لو كان الرسول ﷺ يتعلم من بشر لكان متطلعًا إلى هذا القرآن والله يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أنه رحمة للخلق رحمة في الدنيا أم في الآخرة ففي الدنيا تستقيم أموره وتصلح أقواله ويعلى أمرهم وفي الآخرة في جنة النعيم فهذا القرآن رحمة أولًا وأخرًا وهو أشد نعمة من الله سبحانه وتعالى وأعظم منة من نزول المطر الذي تحتاجه الأرض؛ لأن القرآن تحيى به القلوب وتَصْلُح به الأعمال، وبحياة قلوبنا وصلاح الأعمال تحيى الأرض ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٣ ـ **ومنها:** إثبات الربوبية الخاصة للرسول ﷺ، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فهذا يقتضي ربوبية خاصة كما أن النبي ﷺ له عبودية خاصة، عبودية خاصة وربوبية الله له خاصة أيضًا وإذا شئت أن تعرف أن الربوبية نوعان فاقرأ قول الله تعالى عن سحرة آل فرعون الذين آمنوا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١ - ١٢٢] الأولى عامة والثانية خاصة.

٤ ـ ويستفاد من قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: تحريم مظاهرة الكفار أو معاونتهم؛ لأن النهي للتحريم لاسيما وقد أُكّدَ بتقديم الجار والمجرور ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وأيضًا بـلا تكونن؛ لأن النون هنا للتوكيد، والدليل على التوكيد دليل على أن الفعل بُنِيَ على الفتح فلا تكون وإلّا لوَجَبَ جَزْمُه.

المعاونة للكفار هل هي معاونة عسكرية أو معاونة فكرية أو معاونة المالية أو المعاونة المعنوية؟ كل ما فيه معاونة للكفار ومساعدة لهم وتقويتهم فإنه محرم؛ لأن الواجب علينا نحن المسلمين العكس من ذلك الواجب علينا إذلالهم وخذلهم بكل ما نستطيع بل قد قال الله للرسول ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] وقال للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] يعني: هذا من تقوى الله إذا قاتلتموهم ليجدوا منكم غِلظة معناه إذا لم يقاتل ولم يجد منه غلظة فإنه مخالف للتقوى، والحاصل: أنه لا يجوز معاونة الكفار بأي وجه من وجوه المعاونة وهو من أخطر الأمور؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١] هو أن الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

كيف الرسول ينهى أن لا يكون ظهيرًا للكافرين؟ ذكرنا أن بعض المفسرين يقول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، إن هذا الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - والمراد به الأمة ولكنه على حد قول الشاعر:

إِيَّــاكِ أَعْنِــي وَاسْــمَعِي يَــا جَــارَة ....

نعم الخطاب للرسول والمراد: أمته وقال بعضهم بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام من نهي عن الشيء لا يلزم منه الوقوع فإذا قال قائل نعم هو لازم الوقوع لكن هل يلزم منه جواز الوقوع؟ بمعنى: أن يكون - عليه الصلاة والسلام - ظهيرًا للكافرين،؛ لأنه إذا كان مستحيلًا لغوًا، فالنهي عن المستحيل لغوٌ أو قال أجاب على ذلك من لا شيء، إما أن نقول: إن الرسول ﷺ لولا تربية الله له لركن إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤ - ٧٥] وكان يقال الوجه الثاني المثال أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يفعل الشيء من ما هو مظاهرة للكافرين وهو لا يعلم أنه مظاهرة قد يفعل وهو لا يعلم أنها مظاهرة فنهاه الله عنها لأجل أن يكون منها على حذر وعلى بعد من هؤلاء الكافرين ثم نقول أيضًا: إن ما جاز عقلًا وعادة قد يمتنع شرعًا، افرض أن هذا أمر قد يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام باعتبار العادة أو باعتبار الحالة البشرية لكن هناك شرعية لا يمكن فيكون له عائد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام باعتبار الحالة البشرية الطبيعية أما شرعًا فلا يمكن أن يكون.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٧، ٨٨].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يقول المؤلف: [حذف يصدونك حذفت نون الرفع للجازم، والواو للفاعل لالتقائها مع النون الساكنة]، فصارت يصُدُّنك أصلها يصدوننك قبل دخول لا الناهية لما دخلت لا الناهية وجب حذف النون الأولى يصدُّوننك هذه يصدون، النون هذه علامة الرفع، فلما دخلت لا الناهية وجب حذف النون للجزم حذفنا النون الأولى للجزم أجزمه بالواو لما

حذفنا النون الأولى صار لدينا واو ساكنة والنون المشددة أو الحرف المشدد أوله ساكن فالتقاء الساكنان فأوجب حذف الأول منهما، قال ابن مالك في «الألفية»:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقَ وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

والواو من صفتها السكون، ولهذا حُذِفَت، وصار يصدونك وأما قوله لتسمعنا فليست من هذا الباب؛ لأن لتسمعنا ليس فيها شاهد، واللام في لتسمعنا من حروف القسم، لتسمعنا أصلها لتسمعونن، فحذفت النون لا لناصب ولا لجازم، ولكن لتوالي الأمثال: نون الرفع، ونون التوكيد المشددة، وحُذِفَت الواو أيضًا لالتقاء الساكنين النون المشددة والياء الساكنة قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الواو في قوله يصدنك تعود إلى الكافرين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: ولا يصدنك الكافرون والخطاب للنبي ﷺ ومعنى الصد يستعمل لازمًا ومتعديًا وإن كان لازمًا فهو بمعنى: أعرض وإذا كان متعديًا فهو بمعنى انصرف فإنك لو صددته عن الخطأ صرفته وهذا يكون متعديًا وتقول صددت عن الضلال أي أعرضت عنه فمثلًا أن يأتي في القرآن ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هل هو لازم أو متعدٍ الأولى أن نقول أنه متعدٍ؛ لأن من صد غيره فهو عن الحق أصد لكن من صد بنفسه قد لا يصد غيره فالأولى أن نحمل ما جاء في القرآن من ذكر الصد على أسلوب المتعدي لا على اللازم قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ من الاثنين من اللازم أو المتعدي الكاف مفعول به فعل متعدي يعني: لا يصرفونك هؤلاء لا يصرفنك عن آيات الله والمراد هنا الآيات الشرعية يريد به قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ لا يصدونك عن آيات الله أي: القرآن فإن القرآن آيات الله عز وجل ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] وإنما كان القرآن من آيات الله؛ لأنه كلامه ولما تضمنه من الأخبار والقصص النافعة والأحكام العادلة ولأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤] تحدٍّ لهؤلاء الأعداء الذين هم أقوى الناس فصاحة ومع ذلك عجزوا ما استطاعوا ولهذا كان القرآن آية من آيات الله.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ إذا قلنا: ما الفائدة من قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وأصل النهي لا يقع لا يصدونك عن آيات الله إلا إذا كانت نازلة فهل هذا الكلام لغو لا فائدة منه؟ لا ليس لغوًا لا فائدة منه بل فيه فائدة وهي تذكير الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذه الحجة والمستند وهو أنها أنزلت من عند الله، وإذا كان يذكر هذا المستند فإنه لا يمكن لأحد أن يصده عنه، فهو وإن كان مفهومًا أن الصد عن الشيء لا يكون إلا بعد وجوده، لكنه لأجل أن يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بحال الإنسان حتى يكون ذلك أثبت له، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ﴾ من عند الله، أو لا ترجع إليهم في ذلك هذا التفسير ليس بصحيح؛ لأنه تفسير ببعض اللازم؛ لأن صدهم للرسول عن ما أنزل إليه لا يلزمهم أن يرجع إليهم قد يرضون منه أن يخرج من دينه وإن

لم يوافقهم على دينهم؛ لأن أعداء المسلمين لا يهمهم أن يكون المسلمون نصارى أو يهودًا المهم أن يخرجوا من دينهم فهنا الآية ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فنقول: إن هناك فرقًا بين لا يصدونك، وبين لا ترجع إليهم، لكن نعم قد يلزم من الصد أن يرجع إليهم وقد لا يلزم ولهذا الأَولى أن نقول: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فتخرج منها إليهم أو إلي غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الدعاء معناه الطلب أي: اطلب الناس أن يدخلوا في دين الله وادع الناس، أفادنا المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ - أن المفعول محذوف تقديره الناس وادع الناس، إلى ربك لتوحيده وعبادته هذا التفسير لدعاء يعني: ادعهم إلى التوحيد والعبادة.

والتوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات يعني: أُدعهم إلى كل هذا التوحيد.

والعبادة وهي توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ هذا هو المهم أن تكون دعوة الإنسان إلى الله عز وجل لا إلى أي قصد أخر فمن دعا الناس إلى الحق ليقوي جبهتهم ويكثر فهذا داع إلى الله ومن دعا الناس إلى الله من أجل أن يكون له وجه بين الناس فإنه لا يدعوا إلى الله؛ بل لابد أن يكون الإنسان يدعو إلى الله فيكون ليس له غرض اللهم إلا رجل يقول أنا أحب أن أذهب إلى الجبهة التي أدعوا إليها لأجل أن أدعو إليها، فهذا لا حرج عليه ولكن مع ذلك الأولى أن يأخذ القصد الأول وإلا فلا حرج على الإنسان أن يدعو إلى الله ويحب أن يخبر أتباعه لأجل أن ينتصر الحق به قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

[﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في إعانتهم]، فسر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الآية بتفسير قد تكون على خلاف الظاهر فقال: [لا تكونن من المشركين بإعانتهم؛ لأن النبي لا يشرك؛ لأن من أعان قومًا فهو منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)] وكأن المؤلف يقول: إن الله نهى الرسول أن يكون من المشركين لا لم ينهه على أن يشرك؛ لأن هذا لا يمكن أن يقع بل نهاه أن يكون منهم بمعنى معينًا لهم لا أنه مشرك كإشراكهم فإن هذا لا يمكن ولكن المعنى أنه لا يكون معينًا لهم على شركهم فإن ذلك يجعله منهم.

ويحتمل أن يكون على ظاهره أنه ينهاه أن يكون من المشركين والنهي عن الشيء لا يلزم من وقوعه ولا يلزم منه تلازم وقوعه شرعًا فإنه لو فرض أنه جائز أن يقع عادةً فإنه شرعًا لا يمكن وعلى هذا فمثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لا يلزم على جوازه شرعًا ولكن إن جاز أن يقع ذلك منه أو وقع منه فإنه يحبط عمله فما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ

﴿ٱلۡعَـٰبِدِينَ﴾ هذا الشرط لا يمكن أن يكون ولا يلزم من التعدي أو استحالات الشيء أن لا يقع شرطًا حتى في الأمور العادية لو قال الإنسان: إن خرجتي فأنتِ طالق، يصح، ولهذا نقول: تعليق الشيء على المستحيل يجعله مستحيلًا، هو جائز ولكن يجعلة مستحيلًا؛ مثل: قول الشاعر:

إِذَا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهلِي ... وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ

شاب الغراب يعني صار أبيض وهذا مستحيل وصار القَارُ الأسود فهل يمكن أن يكون مثل اللبن لا يمكن المعنى هنا أنه لا يأتي أبدًا؛ لأنه ما دام علَّقه على شيء مستحيل فالمُعلَّق على المستحيل مستحيل قال المؤلف: ولم يؤثر الجازم في الفعل ببنائه، والفعل ولا تكونن ما أثره في الفعل يقول المؤلف: [لبنائه] لأنه لولا البناء لقال: ولا تكون فحذفت لام الفعل الأولى ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿ولا تكن في ريب﴾ تكن هنا أثر أم لا يؤثر؟

فحذفت لام الفعل ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ المعنى هنا أثر أم لا يؤثر؟ يؤثر بالفعل وما الذي يؤثر به؟ حذف منه الواو ﴿وَلَا تَكُن﴾ هنا ما حذفت الواو، لماذا؟ قال: لبنائه؛ لأنه مبني على الفتح وأصل حذف لام الفعل من أجل السكون ﴿وَلَا تَكُن﴾ وتكن أصلها تكون، لو أننا أبقينا الواو وسكنًا النون التقى ساكنان وهذا لو جاء في اللغة العربية فإذا التقا ساكنان فالأولى له حذف الأول ولهذا حذفت اللام التي هي لام الفعل ثم هنا ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فلم تحذف قال المؤلف: [لبنائه].

وقوله: ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الشرك ينقسم إلى: أكبر مُخرِج عن الملة، وإلى أصغر لا يُخرِج عن الملة، فالأكبر أن يشرك مع الله أحدًا في عبادته أو ربوبيته، فهو مشرك، وما دون ذلك مما أطلق عليه الشرك فهو شرك أصغر، والغالب أن الشرك الأصغر يكون إما شركًا قد يصل إلى الشرك الأكبر كالرياء فإن الرياء إنما كان شركًا؛ لأن الذي يعمل العبادة ويحصلها للناس، قد يؤدي به الأمر إلى أن يعمل أفضل عبادة للناس فيكون بذلك مشركًا شركًا أصغر، وقد يكون الشرك الأصغر لا يصل إلى الشرك الأكبر وإنما يتعلق بأمور أخرى وما هي تتعلق بالأشياء الشركية.

وقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ لا ناهية وتدعو فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وحرف الواو محذوف لأنه مجزوم والضمة قبلها دليل عليها ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا﴾ مفعول تدعو والإله بمعنى: المألوه أي: المعبود ﴿ءَاخَرَ﴾ فإن هذا غير ممكن أن يكون مع الله إلهًا أخر حق وذلك؛ لأن الآلهة التي سوى الله باطل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] وفي هذه الآية ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سمى الله تعالى ما يعبد إلهًا وذلك؛ لأن الإله فعال بمعنى مفعول أي معبود ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة كالتعريض بالنهي السابق يعني فإنه لا إله إلا هو وهذا النهي بل هذا النفي نفي للحق؛ لأنه المعبود الحق وإنه لا إله إلا الله وحين إذن لا يكون بينها ولا بين ما سبقها منافاة إذ إن ما سبقها يثبت آلهة مع الله لكن منهي أن تدعى هذه الآلهة والثاني يقول: لا إله

إلا هو ينفي أن يكون هناك إله والجمع بينهما في أن يقال: الإله الحق الذي عبد وهو يستحق أن يعبد وأما الإله الباطل الذي عُبد وهو لا يستحق أن يعبد فهذا ثابت في غير الله، مع أنه يحتمل أن يكون منفيًا بمعنى النهي أي لا تعبد إلا الله والنفي بمعنى النهي يرد بالقرآن كما قال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا المعنى قال المفسرون: لا ريب فيه أي لا ترتابوا فيه فجعلوا النفي بمعنى النهي ولكن الأولى أن يبقى النفي على ظاهره يعني يجعله نفيًا حقيقيًا ويكون النفي أبلغ من النهي؛ لأن النفي إثبات صفة وأما النهي فهو نهي عنه قد يمكن الامتثال وقد لا يمكن، يعني: قد يحصل الانتهاء أو قد لا يحصل ثم إذا كانت نفيًا فهي أعم وأولى فعليه نقول: هذا النفي لا يتعرض مع ما قبله؛ لأن ما قبله باعتباره أنها آلهة باطلة، والثاني: باعتبار أنها آلهة حق، فلا إله حق إلا الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

كلمة هو: ضمير يعود على الله وليس هو اسم مستقل بمعنى خلافًا للصوفية المبتدعة الضالة فهم يجعلون (هو) من أسماء الله ويقولون لا إله إلا هو مثل لا إله إلا الله ويقولون في أذكارهم الباطلة هو، هو، هو يكررونها ويكون هذا هو الذكر، فنقول الضمير هو ليس اسم علم لله وإنما هو ضمير يعود على الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله إلا الله الذي قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كل شيء هالك بمعنى: زائل ومضمحل ومعدوم بعد الوجوب ﴿هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قال المؤلف: [إلا إياه] يعني: إلا الله فإنه سبحانه وتعالى ليس بهالك كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فسره المؤلف بقوله: [إلا إياه] قدم على قول أهل الباطل الذين قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه - والعياذ بالله - وجعلوا الوجه هنا لم يعبر به عن الذات أي جعلوه معبرًا به عن صفة الوجه فقط وقالوا: إن الله يفنى إلا وجهه وهذا لا يصلح؛ لأنه كلام باطل وأن المراد بالوجه هنا الذات كله كل الذات العلية لكنه عبر بالوجه كسائر التعبيرات اللغوية حيث يعبر بالوجه عن الشيء كله.

قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فقول المؤلف: [إلا إياه] تكون باعتبار الرد على من يقولون: بأنه يهلك إلا وجهه لكنهم صدوه بمعنى باطل وهو إنكار الوجه لكن المؤلف ما أظنه يقول ذلك فمعروف أن الأشاعرة ينكرون الوجه حقيقة ونحن نقول إن لله وجهًا حقيقيًا بلا شك وهذه الآية يستدل بها ولهذا قال: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لكنه عبر بالوجه عن الذات كسائر أساليب اللغة العربية وقيل: إن المعنى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ إلا ما أريد به وجهه فيكون هذا عائد على الأعمال يعني جميع الأعمال مردودة غير مقبولة إلا ما أريد به وجه الله واستدل هؤلاء بأن قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا موجه إلى الإنسان، ثم قال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كأنه قال: إن الشرك هالك وتالف وغير نافع للمرء إلا ما أريد به وجه الله وهو الخالق له وأنه يبقى للمرء.

والهلاك ما لا يفيد الإنسان فمعنى هالك يعني: لا تفيده، مثل قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) ولكن نقول: إن النوع الأول أقوى أي أن المراد كل شيء فانٍ وتالف إلا وجه الله وهو كتعليل لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني فكأنه يقول هذه الأصنام المعبودة من دون الله لا تبقى والله تعالى هو الذي يبقى فكأنه ينبغي أن يستحق أن يعبد.

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ هذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر الخبر (له) مقدم، و(الحكم) مبتدأ مؤخر وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى له وحده الحكم، يقول المؤلف: [القضاء النافذ] أي أنه فسره بالحكم الكوني والصحيح أنه يشمل الحكم الكوني والشرعي حيث قال: [فله القضاء النافذ على كل أحد وله أيضًا الفصل بين الخلق في الأحكام الشرعية] لكن الحكم شامل للأمرين الحكم الكوني والشرعي وقد مر علينا أن من أمثلة الحكم الشرعي منها قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]، وأما من الحكم الكوني ومنها قوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠] قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ الجملة فيها اختصار أن الحكم لله وحده مع أن غيره له الحكم ولهذا يقال الحاكم الشرعي وحاكم البلد وما أشبه ذلك والجواب على هذا أن يقال حكم هؤلاء مُقيد بحكم الله والحكم المطلق التام الشامل هو لله وحده فكونهم حكام فهو من باب التبعية إذ إن الحاكم الذي لا يحكم بغير ما أنزل الله فإن حكمه لم يمكث كثيرًا [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور من قبوركم]، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم وذلك بالنشور إذا نشركم من القبور فلا مرجع إلا إلى الله ويحتمل أن يكون الرجوع هنا أعم من ما ذكر المؤلف بحيث يكون المعنى وإليه ترجعون حتى في أحكامكم فإنما ترجعون إلى الله ولهذا يرد الحكم بين الناس إلى الله عز وجل.

تم بحمد الله تفسير سورة القصص

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

الفهرس

التَّفْسِيرُ الثَّمِينُ

لِلعَلَّامَةِ العُثَيْمِين

تفسير سورة العنكبوت — تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان — تفسير سورة السجدة

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء التاسع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة الرّوم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السّجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

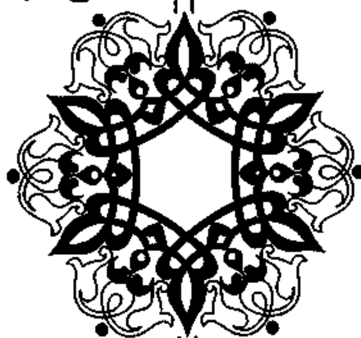

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة العنكبوت

تفسير سورة العنكبوت

❁ قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]

❁ التفسير ❁

سورة العنكبوت مكية وهي تسع وستون آية[(١)].

والبسملة آية مستقلة بذاتها في ابتداء السور ما عدا سورة براءة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قال المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك] وهذا حق فيما ليس عنا، وهذه الكلمة لا معنى لها كذا قال مجاهد وغيره[(٢)]؛ وذلك لأن القرآن نزل باللغة العربية، والحروف الهجائية ليس لها معنى ولكن هذه لها مغزى، وهو الإشارة إلى أن هذا القرآن الذي أعجز فصحاء العرب وأعجز غيرهم لم يأت بحروف جديدة لا يعرفونها وإنما أتى بحروف يعرفونها ويركّبون منها كلامهم ومع ذلك أعجزهم؛ ولهذا لا تكاد تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدت بعضها فيه ذكر القرآن أو ما هو من خصائص القرآن مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١- ٣]، وقال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢] ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [ابراهيم: ١]، وكذلك: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢] وهكذا.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ما فيها ذكر للقرآن، ولكن فيها ذكر من لازم القرآن وهو قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ فإن من آمن بالقرآن لابد أن يُفتن.

قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ هذا محل الاستفهام أَوَ يظن الناس أن يتركوا إذا قالوا آمنا بدون أن

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٣).

(٢) راجع «تفسير الطبري» (١/ ٢٠٥ - ٢١٣).

يختبروا؟! هذا أمر لازم، بل لابد من الاختبار وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان اختباره أكثر؛ فإن النبي ﷺ قال: «أَكْثَرُ النَّاسِ ابْتِلَاءً الأَنْبِيَاءُ[1] ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ[2]»[3]، حتى يُنظر في دينه هل فيه قوة أم هو ذو دين ضعيف!

وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ (حسب) بمعنى ظن.

وقوله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، وذلك لأن قوله: إن المؤمن، يكون المؤمن حقًّا ويكون المنافق، والمنافق لا يصح أن يسمى مؤمنًا على الإطلاق ولكن يقال: مؤمن بلسانه كافر بقلبه.

وقوله: [﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾] يعني: يظن الناس أن يتركوا بلا فتنة إذا قالوا آمنا [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم]، وهذا الاستفهام التقريري للإنكار يعني: لا تظنوا هذا أنكم إذا قلتم آمنا تُركتم بلا فتنة، بل لابد من فتنة واختبار، والله سبحانه وتعالى يبتلي المرء تارة بأفعاله التي يفعلها به سبحانه وتعالى وتارة بأفعال غيره الذين يسلطون به عليه؛ أما بأفعاله، فإن الله تعالى قد يبتلي الإنسان بمصائب ليختبر بها إيمانه كمصائب مالية أو أهلية أو بدنية، فإن من الناس من إذا أصيب بمصائب ـ والعياذ بالله ـ عجز من أن يصبر وربما يرتد بعد إسلامه ويكفر، ومن الناس من يصبر ويحتسب، كذلك قد يبتلى المرء بأمر يسلطه الله عليه مثل أن يسلط عليه قوم يؤذونه بالقول أو بالفعل أو بهما جميعًا مثلما حصل للصحابة ﷺ، بل وحصل للنبي ﷺ فإن النبي عليه الصلاة والسلام أوذي إيذاء عظيمًا[4] من قومه ومن غير قومه، وكذلك أصحابه أوذوا إيذاء عظيما، ومع ذلك صبروا واحتسبوا، فإن عمار بن ياسر وآله حصل لهم إيذاء عظيم، وكذلك غيره من المؤمنين منهم من أوذي بالقول ومنهم من أوذي بالفعل ومنهم من أوذي بالقول وبالفعل.

قال المؤلف: [﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون بما يتبين به حقيقة إيمانهم، ونزل في جماعة آمنوا فآذاهم المشركون].

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أي هم أشد في الابتلاء لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء، ولأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية، وليتوهن على الأمة الصبر على البلية. ولأن من كان أشد بلاء كان أشد تضرعا والتجاء إلى الله تعالى. «تحفة الأحوذي».

(٢) أي الأفضل فالأفضل على ترتيبهم في الفضل فكل من كان أفضل فبلاؤه أشد. «حاشية السندي على سنن ابن ماجه».

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٤٨١) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

(٤) «مستدرك الحاكم» (٥٦٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣١)، و«صحيح السيرة النبوية» (ص١٥٤).

[العنكبوت: ١٠]، ثم يرتد ـ والعياذ بالله ـ كذلك من الناس الآن من الشباب المتجه إلى الدين من يؤذيه أولئك الفَسقة ويسبونه، فهذا ابتلاء من الله سبحانه ليعلم الله سبحانه وتعالى هل يثبت هذا على دينه أو يعجز ثم يرجع خوفًا من أذية هؤلاء.

ومن الناس أيضًا من يؤذى بالتخلِّي عن أخلاق المؤمنين كحلق اللحية مثلًا فيبتلى بذلك ثم بالقول والاستهزاء والاستخفاف، وإما بالفعل فيضرب عليها أو يحبس فتجده يحلق لحيته خوفًا من هذا الأمر وهذا لا يجوز؛ لأن الواجب أن تصبر، نعم إن أُكرهت على هذا وغلت يدك وأوتي بالموسى، وحُلقت فالأمر ليس إليك، لكن ما دام الأمر إليك فإنك لا يجوز لك أن تفعل المعصية خوفًا من الناس المعاصي يجب الإنسان ألا يفعلها خوفًا من الناس يجب أن يصبر ويحتسب.

قال المؤلف: [﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم علم مشاهدة﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه].

وقوله: ﴿فَتَنَّا﴾ بمعنى :اختبرنا، ولقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن من فتنة من قبلنا أن الرجل يمشط بأمشاط الحديد ما بين عظمه وجلده[1]، ومع ذلك فإنه يصبر ويحتسب رغم أنه يمشط بأمشاط الحديد بين اللحم والعظم، فإذا كان هذا فيمن قبلنا فإن هذه الأمة أولى بالصبر على هذا الأمر العظيم، لاسيما إذا كان المقام مقام جهاد مثلما وقع للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في أيام المحنة فإنه كان يضرب بالسياط ويجر بالبغال ليقول: إن القرآن مخلوق، ومع ذلك أبى أن يقول: إن القرآن مخلوق؛ لأنه لو قال: إن القرآن مخلوق لاتبعته الأمة كلها على قوله وترتب على ذلك فساد الأمة؛ ولهذا من أُكْرِهَ على الكفر وكان كفره يستلزم كفر غيره لفساد الملة فليس له أن يكفر ولو أُكره؛ لأن المقام في حقه مقام جهاد، والإنسان يجب أن يجاهد في سبيل الله ولو أدى إلى قتله.

أما إذا كانت المسألة إكراهه شخصيًّا على الكفر، فإن هذا يجوز بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان فعلى هذا رجل مثلًا قدوة وإمام في الناس، أكره على أن يفعل معصية أو أن يفعل كفرًا فعله لها ليس بمجرد أن ينجو بنفسه، ولكن فعله فساد للأمة وللناس فهذا نقول له: لا تفعل فلا توافق ولو أكرهت؛ لأن المقام مقام جهاد في سبيل الله وإنسان آخر لا يُؤْبَه به وأكره على شيء كالكفر أو دونه، فله أن يفعل بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان مثل ما قال الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ الصدق مطابقة القول للواقع أو مطابقة الفعل للواقع الذين صدقوا في قولهم إنهم مؤمنون، فمن كان صادقًا في إيمانه فإنه يسلم بذلك ومن كان كاذبًا فإنه ـ والعياذ بالله ـ ينخدع بهذه الفتنة وينقلب على وجهه فيخسر الدنيا والآخرة.

وقول المؤلف: [علم مشاهدة] يشير إلى أن قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ فإن قوله تعالى

(١) رواه البخاري (٣٤١٦)، وأبوداود (٢٦٤٩)، وأحمد في «مسنده» (٢١٠٩٥) من حديث خباب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ مستقبل بدليل دخول نون التوكيد عليه وبدليل أنه جملة قَسَمية، والجملة القَسَمِيَّة تكون في المستقبل، فهو فعل مضارع واقع في جملة قَسَمية مؤكد بالنون فيكون للمستقبل، والله تبارك وتعالى يعلم ذلك قبل أن تحصل الفتنة فكيف الجواب عن قوله فليعلمن الله الدال على أن العلم لا يكون إلا بعد الفتنة؟ المؤلف قال: [علم مشاهدة] وذلك لأن علم الله تعالى بالأشياء ينقسم إلى قسمين:

فالأول: علم بما لم يكن، والثاني: علم لما كان وهذا هو الذي ننزل عليه مثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فالمراد علم المشاهدة فالعلم بالمجاهد علم، ولكن علم بما سيكون ومتعلق العلم الآن إما مستقبل يعلمه الله أنه سيكون وإما واقع علم الله بأنه قد كان، هذا جواب.

والجواب الثاني: أن العلم ينقسم إلى قسمين علم يترتب عليه جزاء، وعلم لا يترتب عليه جزاء؛ فعلم الله في الأزل قبل وقوع الشيء علم لا يترتب عليه جزاء، وعلم الله تعالى بعد الوقوع هو علم يترتب عليه الجزاء، فيكون العلم الذي يجعله الله تعالى مرتبًا على الوقوع المراد به علم المجازاة، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر فهذان جوابان عن مثل هذه الآية ولا يقال إن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه كما قال ذلك غلاة القدرية فإن غلاة القدرية يقولون: إن الله لا يعلم بالشيء إلا بعد وقوعه فنقول: هؤلاء في قلوبهم زيغ؛ لأنهم اتبعوا ما تشابه منه، ولو رجعوا إلى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛ لتبين لهم أن الله سبحانه وتعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون.

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: الكاذبين في قولهم: إنهم مؤمنون، فالله تعالى إذا فتن الخلق علم من كان صادقًا في قوله ومن كان كاذبًا، وفي هذا التحذير تحذير المرء عند وقوع الفتن بأن ارتد عن إيمانه فيكون بذلك كاذبًا.

اللام في قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ هذه للتوكيد وهي أيضا موطئة للقسم فتكون جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

الفوائد:

١- في هذه الآيات الكريمة فوائد منها: الحكمة في ابتداء السور بالحروف الهجائية وقد تقدم لنا بيان ذلك.

٢- ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يختبر المؤمنين؛ ليعلم بذلك صدق إيمانهم من عدَمِهِ.

٣- ومنها: أن هذا الاختبار ليس خاصًّا بهذه الأمة، بل لهم ولغيرهم؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٤- ومنها: أنه كما قيل: (عند الامتحان يكرم المرء أو يُهانُ)، وأنه لا يعرف حقيقة المرء إلا

بامتحانه فإذا امتُحِنَ وثَبَتَ كان ذلك دليلًا على صدقه وإذا انحرف كان ذلك دليلًا على كذبه وعدم صدقه.

٥ـ ومنها: إثبات العلم لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.

٦ـ ومن فوائدها: انقسام الناس في الإيمان إلى صادق وكاذب، فالصادق هو الذي يثبت على إيمانه عند الامتحان، والكاذب الذي لا يثبت عليه.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤-٧]

التفسير

قال المؤلف: [﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ يفوتونا فلا ننتقم منهم].

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ أم هذه منقطعة؛ لأن (أم) تأتي في اللغة العربية على قسمين: متصلة ومنقطعة، والفرق بينهما أن المتصلة بمعنى (أو) وأنها تأتي بعد همزة التسوية وأنها تأتي بين متقابلين، لها ثلاث علامات، مثالها: قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] فهنا تجد أنَّ (أم) بمعنى أو يعني هذا وهذا سواء، وتجدها بعد همزة التسوية وأنها بين متقابلين، ومثلها قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

أما (أم) المنقطعة فهي التي تأتي: بمعنى بل ولا تقع بعد همزة التسوية ولا بين متقابلين فهنا ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ بمعنى: بل أحسب وهذا الإضراب إضراب انتقالي وليس إبطالًا يعني: بعد أن ذكر الله تعالى وأنكر علي الذين حسبوا أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.

انتقل سبحانه وتعالى إلى صنف آخر من الناس وهم الذين لم يقولوا آمنا ولم يؤمنوا بل هم يعملون السيئات ويظنون أن الله تعالى لم يحيط بهم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون الأعمال السيئة والسيئ ما يسوء فاعله وكل عمل محرم فإنه سيء؛ لأنه يسوء صاحبه

بما يجد فيه من العقوبة الحاضرة والمستقبلة.

وقوله: [الشرك والمعاصي] أفادنا المعلق أن الشرك هنا تعم الصغائر والكبائر فالكبائر أعلاها الشرك والصغائر ما دون الكبائر والمعاصي فهي تشمل كل ما يسوء فاعله من الشرك وما دونه.

وقوله: [﴿يَسْبِقُونَا﴾ يفوتونا فلا ننتقم منهم] السبق بمعنى الفوات كما تقول: سبقت فلانًا يعني: فته فلم يدركني فهؤلاء يظنون الذين يعملون السيئات أن الله سبحانه وتعالى لا يدركهم وأن الله لا ينتقم منهم، وهذا بلا شك سوء ظن بالله تبارك وتعالى ولهذا قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم هذا وهو حسبانهم بأن الله تعالى لم يدركهم.

نقول: ساء بمعنى بئس، وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم فيحتاج إلى فاعل ويحتاج إلى مخصوص والمخصوص دائمًا يحذف استغناء عنه أو لدلالة الفاعل عليه؛ ولهذا قال المؤلف: [﴿سَآءَ﴾ بئس، ﴿مَا﴾ الذي] فهي اسم مخصوص، [﴿يَحْكُمُونَ﴾ـه]، وقد قدر المؤلف الهاء لتكون عائدًا إلى المخصوص.

إذنْ الذي فاعل والمخصوص: قال المؤلف: [حكمهم هذا]، وكل فعل من الأفعال الجامدة التي للذم أو المدح تحتاج إلى فاعل وتحتاج إلى مخصوص تقول مثلًا: نعم دار المتقين الجنة، الفاعل: دار، الجنة هي المخصوص بالمدح، والجنة هذه إعرابها لك فيه وجهان أحدهما: أن تجعلها مبتدأ مؤخرًا والجملة خبرًا مقدمًا، والثاني: أن تجعلها خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هي الجنة.

يقول: [بئس ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا]، ولا ريب أن ما حكموه وظنوه لا ريب أنه ظن سوء لا يليق بالله، فإن الله تعالى يقول في آيات كثيرة: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، فالذين يستمرون في عمل السيئات ويظنون أن الله تعالى لا يقدر عليهم ولا ينتقم منهم هؤلاء أضافوا ـ والعياذ بالله ـ شرًا إلى شرهم.

قال المؤلف قال الله تعالى: [﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يخاف ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به ﴿لَأٓتٍ﴾ فليستعد له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم].

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ ﴿مَن﴾ هذه شرطية وجواب الشرط على رأي المؤلف محذوف تقديره: [فليستعد له].

قال المؤلف في تفسير [﴿يَرْجُواْ﴾ يخاف]، وهذا جرف للفظ عن ظاهره والرجاء غير الخوف؛ الرجاء يعني الأمل وهذا هو الصواب معنى ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يأمل أن يلقى الله عز وجل راضيًا عنه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وليس هناك ما يوجد فرق اللفظ عن ظاهره، بل إن المعنى: أي إنسان يرجو لقاء الله وأنه يلقاه وهو راضٍ عنه، فإن الأمر ليس ببعيد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: المدة التي جعلها الله سبحانه وتعالى حائلًا بينك وبين لقائه سوف

تأتي، ويحتمل قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: المدة التي قدرها للقائه وهذا أحسن؛ فالمدة التي قدرها الله لابد أن تأتي، [﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ به] أي: باللقاء يعني أن اللقاء مؤجل فإن كل شيء مؤجل بأجل معلوم، ﴿لَآتٍ﴾ اللام هنا للتوكيد؛ لأنها واقعة في خبر إن ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ فهي للتوكيد وقد بينا في شرح «الألفية» أن محلها أن تكون في أول الجملة ولكنهم أخَّروها؛ لأن (إن) للتوكيد وكره أن يجتمع توكيدان متواليان وزحلقوا اللام إلى مكانها في الخبر.

وقوله: ﴿لَآتٍ﴾ خبر (إن) ومع ذلك فهي مكسورة والمعروف أن خبر إن مرفوع فكيف صح ذلك؟ نقول إن (آت) اسم منقوص؛ لأن الاسم إما منقوص أو ممدود أو مقصور أو صحيح الآخر فهنا لأنها اسم منقوص أصلها لآتي بالياء، فحذفت الياء وعوِّض عنها بالتنوين فصارت ﴿لَآتٍ﴾، وعلى هذا نقول: (آت) خبر إن مرفوع بها وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره ـ الياء المحذوفة ـ؛ لالتقاء الساكنين.

وقوله: ﴿هو﴾ أي: الله سبحانه وتعالى [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم].

نعم السميع لأنه ذو السمع الذي لا يخفى عليه شيء، كل شيء من المسموعات فإن الله تعالى مدركها كما أن السمع، وقد مر علينا أن السمع ينقسم إلى قسمين سمع إدراك وسمع إجابة، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، والثاني مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومثل قول المصلي: سمع الله لمن حمده بمعنى: أنه استجاب وذكرنا فيما سبق أن سمع الإدراك ينقسم إلى أقسام:

منها: ما يقتضي التهديد.

ومنها: ما يقتضي النصر والتأييد.

ومنها: ما يقصد به مجرد الإدراك.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ومثال الثاني: قوله تعالى ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ومثال المقصود به مجرد الإدراك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

وكونه تعالى سميعًا هل يلزم منه إثبات الأذن؟ الجواب: لا يلزم كما أن كونه بصيرًا لا يلزم منه إثبات العين، ولكن العين ثبتت بدليل آخر، ولولا أن الله أثبت العين في دليل آخر ما أثبتناها نقول: لا يلزم من كونه سميعًا أن يكون له أذن كما لا يلزم من كونه متكلمًا أن يكون له أذن ولسان وشفتان وما أشبه ذلك فإننا نعلم أن الأرض تحدث أخبارها ولا تحدث إلا بعد سماع وهل لها أذن؟ ما لها أذن حينها نعلم أنه ليس لها أذن، وهل لها لسان؟ ما نعلم أن لها لسان وعلى هذا نقول: لا يلزم من إثبات السمع إثبات الأذن.

فإذا قال قائل: قد ثبت في الحديث الصحيح: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنَ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى

بِالْقُرْآنِ[1]»[2]. الجواب أن نقول: ما أذن له أي: ما استمع له ولا يلزم من هذا أيضًا إثبات الأذن؛ لأنه ما هو صريح والصفات ما يمكن أن نثبتها بالاحتمال لكن لابد أن تكون المسألة واضحة وصريحة.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول المؤلف: [بأفعالهم]، والحقيقة أن العلم يتعلق بالأفعال والأقوال أيضًا، فتخصيصه بالأفعال فيه نظر؛ لأن ما يختص بالأفعال إنما هو الرؤية، أما العلم فإنه أعم يتعلق بالأفعال ويتعلق بالأقوال ويتعلق بحديث النفس ويتعلق بكل شيء.

أما جواب ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ المؤلف قدَّره بقوله: [فليستعد له] وجعله محذوفًا، وعندي لا بأس أن نقول: إن جواب الشرط هو قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ ويكون بهذا المعنى أن الذي يرجو لقاء الله فإن سيأتي له ولا حاجة لنا أن نقدر لشيء محذوف؛ لأن الأصل عدم الحذف، وهذا الذي قدَّره المؤلف مثل ما قدره في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، قد تقدم أن المؤلف قدره بقوله: [فليمت غيظًا] وقد بينا هناك أنه لا حاجة للتقدير.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تكريم أولئك الذين يرجون لقاء الله؛ لأن ما رجوه فسيأتي.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة لقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله جل وعلا وهما: السميع العليم.

٥- **ومنها:** إثبات ما تضمناه من صفة، فالأول تضمن صفة السمع والثاني تضمن صفة العلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ قال المؤلف: [جهاد حرب أو نفس] أفادنا المؤلف بهذه العبارة أن الجهاد ينقسم إلى قسمين: جهاد حرب وذلك بجهاد الأعداء وجهاد نفس بأن تجاهد نفسك على فعل الطاعات وعلى ترك المحرَّمات.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ قال في معناها: [فإن منفعة جهاده له لا لله]، فالذي يجاهد - والجهاد بذل الجُهد في الشيء - لا يجاهد لله وإنما يعمل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] وقول المؤلف: [فإن منفعة جهاده له لا لله] نعم له لأنه مأجور سواء جاهد نفسه أو جاهد غيره مع أنه إذا جاهد غيره قد تكون المنفعة أيضًا للغير، فإن هذا الغير في

---

(١) أي يحسن صوته به حال قراءته أو هو الجهر وقوله يجهر به تفسير له أو يلين ويرقق صوته ليجلب به إلى نفسه وإلى السامعين الحزن والبكاء وينقطع به عن الخلق إلى الخالق جل وعلا. «حاشية السندي على النسائي».

(٢) رواه البخاري (٧١٠٥)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجهاد ربما يدخل في دين الله وحينئذ يكون له منفعة، المهم: أن الله سبحانه وتعالى لا ينتفع به - أي بالجهاد - ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، فالله تعالى غني عنه لا ينتفع بطاعته ولا يتضرر بمعصيته.

وقوله: ﴿لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ معنى ﴿غني﴾ أي: الذي لا يحتاج إليهم بما عنده من الجود والسعة والتدبير للأمور فهو لا يحتاج إلى العالمين كلهم.

قال المؤلف: [﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الإنس والجن والملائكة وعن عبادتهم] فهو غني عنهم لا يحتاج إليهم قال تعالى :﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، كذلك غني عن عبادتهم؛ لأن عبادتهم إنما عبادتهم تكون لهم، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينتفع بطاعة الطائعين ولا يتضرر بمعصية العاصين.

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ الجملة هنا مؤكدة بمؤكدين اثنين وهما: إن واللام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان لابد أن يحصل له مشقة في القيام بما يجب عليه، لأن الجهاد معناه بذل الجهد لأدراك أمر شاق.

٢- **ومن فوائدها:** أن من جاهد في العمل الصالح فإن جهاده لنفسه لا ينتفع الله به.

٣- من فوائدها: إثبات غنى الله سبحانه وتعالى عن خلقه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤- **ومن فوائدها:** أن من لم يجاهد فإن ضرره على نفسه؛ لأن إن كان منفعة الجهاد لك فعدم الجهاد ضرره عليك.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

قال المؤلف: قوله: [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعمل الصالحات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ بمعنى: حسن ونصبه بنزع الخافض الباء ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الصالحات].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هذا في مقابل ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، أما هناك فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، والإيمان كما تقرر كثيرًا هو: التصديق مع القبول والإذعان وليس مجرد التصديق.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هذا في أعمال الجوارح فالإيمان في القلب وعمل الصالحات في الجوارح، و(العمل) يتناول الفعل والقول وبهذا ليس قسيمًا للقول كما يقول بعض الناس فيقول:

قول وعمل بل إن قسيم القول هو الفعل، أما العمل فإنه يشمل القول ويشمل الفعل؛ فقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذن يتناول الفعل والقول، مثل الركوع والسجود والصلاة والقيام والقعود فيها ويتناول الأقوال كقراءة القرآن والتكبير والتحميد وغير ذلك وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهو صفة لموصوف محذوف تقديره الأعمال الصالحات، والعمل الصالح هو الذي جمع شرطين هما: الإخلاص والمتابعة، الإخلاص أن يقصد بعمله وجه الله، والمتابعة أن يكون في ذلك متَّبعًا للنبي ﷺ، وضد الأول الإشراك وضد الثاني البدعة فلا تكون مشركًا ولا مبتدعًا.

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ هنا قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ والجملة جواب لقسم مقدر تقديره: والله لنكفرن فهي إذن مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم واللام والنون.

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التكفير بمعنى الستر ومنه الكُفُرَّى وهي القشرة على طلع النخلة فمعنى ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: نسترها والمراد بالستر لازِمُه وهو العفو، لكن نكفر عن سيئاتهم بإيمانهم وعملهم الصالح؛ لأن الإيمان يهدم ما قبله والعمل الصالح يقول الله فيه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١].

وقوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ قال المؤلف: [بعمل الصالحات] فأعمالهم الصالحة تكون مكفِّرة للسيئات قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»(١).

وقال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا(٢)»(٣)، فالأعمال الصالحة تكون بمنزلة الكفَّارة للأعمال السيئة.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ الجزاء بمعنى المكافأة على الشيء، وهذه يقال فيها بالنسبة للتوكيد ما قيل في قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ﴾ قال المؤلف: [بمعنى حسن] وكأنه فرَّ من إشكال قد يورد،الآية تدل على أنهم سيجزون أحسن ما كانوا يعملون، فالعمل الصالح حسن وأحسن فإذا كانت الآية أحسن ما كانوا يعملون معناه: أن الحسن لا يجازَوْنَ عليه؛ ولهذا أوَّل المؤلف أحسن بمعنى: حسن ما كانوا يعملون، ولكن نحن نرى أنه لا حاجة إلى التأويل وأن ما ما دلت عليه الآية أولى مما قدَّره المؤلف وهو أن الله يقول: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ جزاء الذي كانوا يعملون فهو على تقدير محذوف لنجزينهم أحسن جزاء، وأحسن الجزاء بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

(١) رواه مسلم (٢٣٣)، وأحمد في «مسنده» (٧١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لما وقع بينهما من الذنوب الصغيرة.

(٣) رواه البخاري (١٦٨٣)، ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ البخاري (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا أحسن الجزاء؛ لأن الجزاء غايته أن يكون مثلها فعل الفاعل، لكن هنا يجازى بأحسن وأعظم وعلى هذا فيكون أحسن ليس منصوبًا بنزع الخافض كما قال المؤلف: [وهو الباء]، بل هو مفعول ثانٍ؛ لقوله ﴿نَجْزِى﴾ والمفعول الأول (هم) والنون في قوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، للتوكيد هذا هو معنى الآية الكريمة، أي أن الله وعدهم بأمرين: بتكفير السيئات بالأعمال الصالحة وبالجزاء على هذه الأعمال أحسن جزاء يُعْطونه وذلك أن تكون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة[(١)].

وقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يقول المؤلف : [وهو الصالحات] فهذه الأعمال الصالحة التي يعملونها يجازيهم الله عليها أحسن جزاء.

الفوائد:

١ـ **من فوائد هذه الآية:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح.

٢ـ **ومنها:** أنه تُكَفَّر السيئات بالعمل الصالح والمراد بالسيئات الصغائر؛ لقول النبي ﷺ «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»[(٢)].

٣ـ **ومنها:** أن جزاء الله تعالى أفضل من عمل المؤمن وأحسن؛ لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

٤ـ **ومنها:** أنه لا بد في العمل من أن يكون صالحًا والصالح ما جمع شرطين: الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ، فإذا لم يكن مخلَصًا فهو فاسد وإذا لم يكن على وجه الشريعة أيضًا فهو فاسد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٣)].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٨-١١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ لما ذكر سبحانه وتعالى مجمل حقه وما توعد به المخالفين وما وعد به المنافقين قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ وصيناه بهما أي: عهدنا إليه بهما والوصية إنما تكون في الأمور الهامة.

وقوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: أمه وأبيه.

وقوله: ﴿حُسْنًا﴾ قال المؤلف: [أي إيصاء ذا حسن بأن يبرها]، فعلى رأيه يكون قوله ﴿حُسْنًا﴾ وقفًا بمحذوف أي إيصاء حُسنًا.

و(حسن) معلوم أنها مصدر وليست حسنًا، فإذا كانت مصدر فإنه يجب أن يقدر لها مضاف وهو ذا حسن هكذا قال المؤلف، ويحتمل احتمالًا قويًا أن حسنا هذه منصوبًا بنزع الخافض أي: عهدنا إليه بحسن وأن الحسن هنا بمعنى الإحسان كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وهذا أقرب من تقدير المؤلف.

والمؤلف يريد به أن يكون الحسن وصفًا لإيصاء الله والصواب أنه وصف للموصى به أي وصيناه بأمر ذي إحسان كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾.

وقول المؤلف: [بأن يبرهما]، البر هو الإحسان بأن يحسن إليهما بالقول وبالفعل وبالمال والمال حقيقة من الفعل فيحسن إليهما بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وبالفعل لقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وبالمال ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء: ٢٦] فمثلًا إذا كان الإنسان يحسن على والديه بالمال وقد أغرقهما إغراقًا بالمال لكنه جاف معهما في الكلام فهذا لا يكون بارًا حتى ولو أغدق عليهما بالمال، كذلك من كان معهما رءوفا لينًا بالقول مغدقًا لهما بالمال لكن لا يخدمهما بنفسه إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه ليس ببارٍّ فالبر لابد أن يكون بالقول والفعل والمال.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أي: بذلا جهدهما ومعناها الإلزام والإرغام والإحراج.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ [لقمان: ١٥] يعني: أمراك بالشرك وبذلا الجهد في ذلك بالإلزام عليه والإحراج تارة بمدح الشرك وتارة بذم التوحيد وتارة بالإلزام والإرغام وتارة بالتعهد بالقطيعة، إذا جاهداك على هذا يقول الله تعالى ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لماذا؟ لأن حق الخالق مقدَّم على حق المخلوق

والإشراك بالله ظلم في حق الخالق كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فلا يجوز أن تفرّط في حق الله من أجل حق هؤلاء.

وقوله ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ هي مثل قوله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾.

وقول المؤلف: ﴿أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾ [أي بإشراكه ﴿عِلْمٌ﴾ موافقة للواقع] هذا لا مفهوم له.

قد يقول قائل: قوله تعالى: ﴿أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فإن جاهداك على أن تشرك بي ما لك به علم فأطعهما؟

نقول: ظاهر الآية تدل على أن الإشراك تدل على قسمين: إشراك ليس به علم وإشراك به علم، فالإشراك الذي به علم يجوز والإشراك الذي ليس به علم لا يجوز!! قلنا: ليس الأمر كذلك، ولكن هذا بيان للواقع أن كل شرك بالله فإنه لا علم به عند الإنسان قال الله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومعلوم أن الله ما جعل شركًا فيه سلطانًا، فكل الشرك ليس فيه سلطان، بل إن الشرك قد أقام السلطان والعلم الصحيح على أنه باطل، فصار معنى قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه موافق للواقع فيكون كالتعليل لتحليل الشرك كأنه يقول على أن تشرك بي والحال أن الشرك ليس لك به علم، فإن الشرك قطعًا لا يمكن أن يقوم الدليل على وجوده، بل إن الدليل الصحيح على انتفائه فإن الله تعالى لا شريك له فلا تطعهما في الإشراك، لو قال الوالد والوالدة مثلًا: إذا لم تشرك فإننا نقاطعك ولا نكلمك ولا نأتي إلى بيتك ما تقولون في هذا؟ لا تطعهما مهما كان الأمر فهذا معنى قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾.

قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنت وهما، والمعنى: ولا تظن أنك بمعصيتك لهما يلحقك إثم في هذا فإن مرجعكما إليَّ يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد بالإنباء هنا لازمه وهو المعاقبة والمؤاخذة فأنت بقيت على التوحيد فتجازى جزاء الموحد وهما بقيا على الشرك فيجازيان جزاء المشرك بل أبلغ من ذلك يجازيان جزاء المشرك الداعي إلى الشرك؛ لأنهما ما جاهداه على الإشراك إلا وهما مقيمان عليا ومصرّان عليه فيكون في هذا جزاءان فيكون عليهما عقوبتان إحداهما عقوبة على إشراكهما، والثاني عقوبة على دعوتهما إلى الشرك بل ليس دعوة فقط بل مجاهدة الولد على أن يشرك.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المراد بالإنباء لازمه؛ ولهذا قال المؤلف: [فأجازيكم به].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب الإحسان إلى الوالدين بالقول والفعل والمال.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رحمة الله سبحانه وتعالى؛ حيث وصى الإنسان بوالديه.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن للوالدين حقًّا وإن كانا كافرين.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[(١)]؛ لقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب طاعتهما في غير معصية؛ لأنه إنما نهى عن طاعتهما في المعصية حيث إنه نهي المرء عن طاعة الوالدين في الشرك وأمر بطاعتهما في غير الشرك، ومعلوم أن المنهي عنه طاعتهما في المعصية وهي أعم من طاعتهما في الشرك، ونرى أن طاعتهما في الواجب واجب؛ لأن الله أوجبه مثل لو قال لك الأب: قم صل مع الجماعة وجب عليك أن تصلي، طاعتهما فيما ليس فيه طاعة ولا معصية هل تدل الآية على الوجوب أم لا؟

ما تدل على الوجوب ولكن تدل على الوجوب إن كان في طاعتهما إحسان إليهما، فإن الآية تدل على الوجوب؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فإن لم يكن في طاعتهما إحسان فالآية لا تدل على الوجوب؛ ولهذا قال شيخ الإسلام: إن طاعة الوالدين إنما تجب فيما لهما فيه منفعة وليس عليهما فيه مضرة، والآية تدل على ما قاله الشيخ لأن الله نهى عما لو كانت الطاعة في معصية وسكت عن طاعتهما في غير معصية بحيث إن كانت تتضمن الإحسان إليهما فهي واجبة؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فإذا أمرك أبوك مثلًا وقال لك: اذهب واشترِ من السوق شيئًا كان ذلك واجبا عليك؛ لأنه من الإحسان إليه فيجب عليك أن تفعل، وإذا أمرك أبوك ألا تصاحب فلانًا لأنه مستقيم فلا يجب عليك طاعته؛ لأن في ذلك مضرة أو على الأقل عدم الانتفاع منه ولكن ليس فيه منفعة له. لكن لو قال لك: لا تصاحب فلانًا لأن فلانًا بينه وبين أبيك عداوة شخصية وأنت ما عندك منه مصلحة أو منفعة ولا عليك مضرة يجب طاعته؛ لأن مصاحبتك لعدو أبيك يغيظ أباك فيكون في ذلك منفعة.

فالمهم الآن: أننا نقول القاعدة في هذا الأمر أنهما إذا أمراك بمعصية لا تطعهما، لكن لو قال لك أبوك: لا تحج هذا العام وأنت قادر على الحج بمالك وبدنك ولم تؤدِ الفريضة لا تطعه فيجب عليك أداء الحج ولو لم يرض أبوك، لكن إذا أمرك ألا تحج هذا العام حج نفل وما له مصلحة في هذا ننظر إلى حال الوالد فلعله ليس معه من يخدمه إلا ولده ولهذا نقول: يجب عليه طاعة والده.

مسألة: لو قال لك أبوك: طلق زوجتك، لا يجب عليك أن تجيب إلا إذا كان هناك مصلحة شرعية مثل أن يكون الزوج اطلع على أمر ما لا يتحمل أن تبقى زوجته معه، أما فعل ابن عمر مع أبيه، فالإمام أحمد لما سأله الرجل عن الرجل يأمر أو أن أباه أمره بأن يطلق زوجته قال: لا تطلقها قال: أليس عمر أمر ابنه أن يطلق زوجته فأمره النبي ﷺ بتطليقها[(٢)] قال: نعم حصل هذا ولكن

(١) صحيح: انظر «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥١٣٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٨٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٢٥٣)،

هل أبوك عمر؟!

إذن الآية الكريمة تدل على تحريم طاعة الوالدين في المعصية ويجب طاعتهما في غير معصية، وعلى هذا فلا تجب طاعتهما إلا إذا كانا داخلا في أول الآية إذا كان في ذلك إحسان إليهما كانت واجبة لقوله ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

٦ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن حق الله أعظم من جميع الحقوق وهل يدخل في ذلك حق نبيه؟ نعم يدخل فيه، فحق النبي ﷺ عليك أعظم من حق والديك.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أن الإشراك بالله لا يمكن أن يقوم عليه دليل، فالأدلة كلها على خلافه وبطلانه.

٨ ـ ومنها: إثبات البعث والرجوع إلى الله، لقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٩ ـ ومنها: أن الإنسان مجازىً بعمله لقوله ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٠ ـ ومنها: إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ لأن الإنباء هو الإخبار ولا يكون الإخبار إلا عن علم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيّن الله فيما سبق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يكفِّر الله عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، هنا جزاء آخر وهو أنه يدخلهم في الصالحين واللام في لندخلنهم موطئة للقسم والنون للتوكيد فالجملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات.

وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أليسوا هم صالحين؟ بلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكن المراد بالصالحين هنا الذين سبقوهم ودلوهم إلى خير وهم الأنبياء والأنبياء لا شك أنهم من الصالحين وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقابلون النبي ﷺ في المعراج وكانوا يقولون: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح[1] فوصفوه بالصلاح وكذلك أيضًا في سورة الأنبياء قال: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦] ولا شك أن أخص الناس في وصف الصلاح الأنبياء لأنهم صالحون مصلحون عليهم الصلاة والسلام.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [﴿فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأنبياء والأولياء بأن نحشرهم معهم] قوله: [والأولياء] فيه نظر؛ لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأولياء قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ

والبيهقي في «الكبرى» (١٤٦٧٠)، ولفظ أبي داود: (حدثنا مسدد ثنا يحيى عن ابن أبي ذئب قال حدثني خالي الحارث عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال كانت تحتي امرأة وكنت أحبها وكان عمر يكرهها فقال لي طلقها فأبيت فأتى عمر النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «طلقها». وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٨٧).

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ.

ﵟالَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِﵞ [البقرة: ٢٥٧] وقال سبحانه وتعالى ﵟأَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَﵞ [يونس: ٦٢، ٦٣] وقال تعالى: ﵟإِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُواﵞ [المائدة: ٥٥]، لكن قلنا الأنبياء؛ لأن مرتبة الأنبياء أعلى من الأولياء.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح.

٢- **ومنها:** أنه يتوصل بهما - أي بالإيمان والعمل الصالح - إلى اللحوق بالصالحين؛ لقوله: ﵟلَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَﵞ.

٣- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان وحده لا يكفي للحوق بالصالحين.

٤- **ومنها:** أن العمل لا ينفع ألا إذا كان صالحا وهو ما جمع شرطين: الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﵟوَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَٰلَمِينَﵞ

قوله تعالى: ﵟوَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِﵞ ﵟمنﵞ هنا للتبعيض وهي خبر مقدم وﵟمَنﵞ مبتدأ مؤخر من ﵟيقُولُﵞ.

وقوله ﵟمَن يَقُولُ ءَامَنَّاﵞ معناه: أنه يقوله بلسانه ولكنه لم يترسخ الإيمان في قلبه ولهذا قال تعالى: ﵟفَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِﵞ، فهو يقول بلسانه آمنا بالله.

وقوله: ﵟفَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِﵞ أي: لحقته أذية ﵟفِي اللَّهِﵞ أي: في دين الله الذي كان يعتنقه ويحتمل أن تكون (في) للسببية أي بسبب الله أي: بسبب قيامه بدين الله، والمعنى واحد سواء كانت للظرفية أو للسببية، ﵟفَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِﵞ هذا شرط والجواب: ﵟجَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِﵞ [أي: أذاهم له] ﵟكَعَذَابِ اللَّهِﵞ في الخوف منه فيطيعهم فينافق] فيجعل فتنة الناس أي: إيذاءهم له؛ لأن إيذاء المؤمن من غيره فتنة، فإن بعض الناس - نسأل الله العافية - إذا أوذي ما يصبر بعض الناس إذا كان مؤمنًا وحصل له أذية ما صبر وارتد وبعض الناس الذين فيهم قوة لو أُوذي يصبر ويزداد قوة في إيمانه، لكن الذي قال: أنا أومن بالله ما آمن إيمانًا راسخًا في قلبه.

وقوله: ﵟجَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِﵞ فيجعل هذا عذابًا في الخوف منه، ماذا يقول له يرتد بسبب هذا الإيذاء يقول: هذه عقوبة فأنا أرجع عما أنا عليه، وحينئذ ينافق ولكنه مع هذا يدعي أنه مؤمن متى يدعي أنه مؤمن ﵟوَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْﵞ.

يلاحظ في قوله: ﵟوَلَئِنﵞ يقول المؤلف: [لام القسم] وإن شرطية وﵟجَآءَﵞ فعل الشرط

وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسم، فإذا اجتمع قسم وشرط فابن مالك يقول:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم جَوَابَ مَا أَخَّرْتَه فَهُوَ مُلْتَزَم[1]

وهنا الذي تأخَّر الشرط فحذف جوابه؛ لدلالة جواب القسم عليه.

قال المؤلف: [﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ﴾ للمؤمنين ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فغنموا] ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هذه جماعة فعاد الضمير على ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] باعتبار المعنى، وعاد وعاد على ﴿مَن﴾ في قوله ﴿مَن يَقُولُ﴾ ولم يقل من يقولوا باعتبار اللفظ، وقد مرت علينا هذه القاعدة غير مرة وقلنا: إنه إذا جاء اسم الموصول أو اسم الشرط العام للواحد والجماعة فإنه يجوز في ضميره أن يكون مجموعًا وأن يكون مفردًا فإن كان مجموعًا يعني أن يُراعى فيه اللفظ والمعنى فإذا كان اللفظ صار مفردًا وإذا كان المعنى صار بحسب ما يُراد به في المعنى وسواء ذلك كان في أسماء الشرط أو في الأسماء الموصولة، وعندنا الآن اسم موصول، أما أسماء الشرط فقد قال الله تعالى في سورة الطلاق ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التغابن: ٩] وهنا راعى اللفظ، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ راعى المعنى ﴿أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الطلاق: ١١]، راعى اللفظ، ففي هذه الآية مراعاة اللفظ ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ مرة ثانية.

قال تعالى:[﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين]، وبقيت الضمة في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ دالة على الواو المحذوفة، [﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الإيمان فأشركونا في الغنيمة] هؤلاء - والعياذ بالله - إذا أوذوا في الله ارتدوا على أدبارهم ووافقوا من آذاهم، ولكنهم إذا أصاب المؤمنين نصر قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني: نريد أن يحصل لنا ما حصل لكم من الغنيمة

قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجواب؟ بلى.

قال الله: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ قال المؤلف: [أي: بعالم] وسبق لنا هذا لا يعتبر تفسيرًا ولكنه تحريف؛ لأن ﴿بِأَعْلَمَ﴾ أبلغ من العالم فكيف يردها إلى عالم وهو أنقص؟!

وقوله: ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المراد بها في صدورهم أي: قلوبهم، يعني: أعلم بقلوب الناس أن القلب محله الصدر والقلب محل الإرادة وفي هذا دليل على أن محل التصديق والتكذيب هو القلب.

وقوله:﴿بِمَا فِي صُدُورِ﴾ من الإيمان والنفاق الجواب بلى وعلى هذا فنقول لهذا الذي قال إني معكم لست معهم في الحقيقة وذلك بأنك كافر بالله عز وجل حينما ارتددت حينما أوذيت.

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ٤٣).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الإيمان باللسان لا ينفع.

٢- ومنها: حكمة الله تعالى في ابتلاء المرء في أذية الناس له بإيمانه.

٣- ومنها: أن الابتلاء هو الامتحان الذي يتبين به الصادق من غيره وإلا لكان كل واحد يقول: أنا مؤمن.

٤- ومنها: أن من لم يرسخ الإيمان في قلبه رجع عنه إذا أوذي فيه.

٥- ومنها: أن المنافقين يدَّعون مشاركة المؤمنين عند الرخاء ويفارقونهم في الشدائد.

٦- ومنها: أن النصر من عند الله.

٧- ومنها: التحذير من النفاق؛ لقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال بعد ذلك: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾

قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وليعلمن الله في المستقبل لا في الماضي؛ لأن المضارع إذا دخلت عليه نون التوكيد جعلته في المستقبل، والجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي: القسم واللام ونون التوكيد والمراد بالعلم هنا الذي أكده الله وجعله مستقبلًا في قوله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ المراد به علم المشاهدة والمجازاة؛ لأن الله تعالى عالم بالمنافق وبالمؤمن من قبل، هذا لكن علمه السابق علم بأن هذا سيقع وعلمه اللاحق علم بأنه واقع، وعلمه السابق لا يترتب عليه مجازاة فلا مجازاة إلا بعد الاختبار وعلمه اللاحق يترتب عليه المجازاة، فإذن كلما رأينا أن الله عبر عنها في القرآن عن علمه في المستقبل فإننا نحمله على علم المشاهدة والمجازاة وليس على العلم السابق في الأزل؛ لأن العلم السابق في الأزل هذا سابق من قبل أن يخلق الناس فضلًا عن كونه فضلًا عن قبل ما يعملون ولكن العلم الذي يترتب عليه المجازاة والمشاهدة ما كان بعد ذلك ووقع.

قال تعالى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال المؤلف: [بقلوبهم]، يعني: لا بألسنتهم والذي سبق ذكره ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا إيمان باللسان، ولكن هذا الإيمان باللسان لا ينفعهم عند الله، صحيح أنه ينفع في الدنيا ولهذا لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين مع علمه بهم، ولكنه امتنع عن ذلك؛ لأن ظاهرهم الإسلام ولو أنه قتلهم لكان في ذلك وسيلة إلى أن يُقْتَل المسلم بحجة أنه منافق مع أن قلبه لا يعلمه إلا الله؛ ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**[1]»[1]، والحمد لله أن هذا هو الشرع؛ لأنه لو

---

(١) قال النووي في «شرحه على مسلم»: (فيه ما كان عليه ﷺ من الحلم، وفيه ترك بعض الأمور المختارة، والصبر على بعض المفاسد خوفا من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه، وكان ﷺ يتألف الناس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة، ويرغب غيرهم في الإسلام).

كان الأمر كذلك لكان كل واحد من الولاة الظلمة في عصرنا هذا يرى شخصًا متدينا يقول: إنه منافق مراءٍ وهو كافر بالباطن ثم يقتله، ولكن من نعمة الله تعالى أن الشرع جعل الحكم في هذه الدنيا على الظواهر أما في الآخرة فعلى السرائر.

قال تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [فيجازي الفريقين] فالمؤمن يجازيه جزاء المؤمن والمنافق يجازيه جزاء الكافر وجزاء المنافق أنه في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

قال المؤلف: [واللام في الفعلين لام قسم] والفعلان هما في قوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فهي لام قسم والجملة على هذا مؤكدة بثلاث مؤكدات.

الفوائد:

١- **من فوائد قوله:** ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ أن الحكمة من الامتحان إظهار المؤمن من المنافق.

٢- **ومنها:** إثبات النفاق؛ لقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

٣- **ومنها:** أن المنافقين ليسوا بمؤمنين؛ حيث جعل الله المنافقين قسيمًا للمؤمنين، وقسيم الشيء خلاف الشيء.

٤- **ومنها:** إثبات علم الله سبحانه وتعالى بما في القلوب.

٥- **ومنها:** أن الإيمان محله القلب وليس الجوارح؛ إذ لو كان في الجوارح لكان المنافقون مؤمنين فالإيمان محله القلب.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]

۞ التفسير ۞

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾. ﴿سَبِيلَنَا﴾ [ديننا] وهذه من الدعايات والدعوى من الباطل يقول الكفار للمؤمنين الذين آمنوا بالرسول ﷺ اتبعوا طريقنا وهو الشرك.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ اللام لام الأمر والمراد به الخبر يعني ونحن نحمل خطاياكم وإنها جعلوا الخبر بصيغة الأمر لإظهار الالتزام لهم بذلك يعني: بدلا من أن يقولوا ونحن نحمل فكأنهم يقولون نلزم أنفسنا بذلك فنوجه الأمر إليها ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ والخطايا جمع خطيئة وهي ارتكاب الإثم يعني: ارتكابكم للإثم نحن نتحمله.

قال المؤلف: [في اتباعنا إن كانت، والأمر بمعنى الخبر] قوله: [إن كانت] إنها قدَّرها المؤلف؛ لأن هؤلاء المشركين الذين دعوا إلى متابعتهم لا يعتقدون أنهم على خطأ فهم يقولون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا وإن كان لكم خطايا في هذا الاتباع فإننا نتحملها فالتقدير الذي ذكره المؤلف واضح من الآية؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون أنهم إذا رجعوا إلى الشرك أو إذا دخلوا في الشرك كانوا مخطئين ما دعوا إلى ذلك فقولهم ونحمل خطاياكم يعني إن كان لكم خطايا بدخولكم في الشرك فإننا نتحمله، تضمن هذا الكلام دعوة ودعاية، أما الدعوة فقولهم اتبعوا سبيلنا والدعاية بتزيين هذا الأمر لهم بقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ يعني ما عليكم شيء قال الله تعالى مكذبًا لما دعوه:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ ما نافية وهي هنا حجازية ودخلت الباء في خبرها على حد قول ابن مالك في «الألفية»:

وَبَعْدُ مَا وَلَيْسَ جَرَّ ذَا الخَبَرْ[1]

فهنا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ وإنها أتى بالباء الزائدة إعرابًا لتأكيد النفي أي أن هذا أمر مؤكد.

وقوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ (من) حرف جر زائد أيضًا وفائدة زيادتها تأكيد العموم سواء كان هذا الشيء قليلًا أو كثيرًا، أما قوله: ﴿مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ فإنها في موضع نصب على الحال من شيء، لأن الوصف إذا سبق النكرة صار حالًا منه وإن تأخر صار نعتًا.

يقول: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما هم حاملين شيئًا من خطاياهم وهل هذا خبرا عن حكم شرعي أو عن حكم شرعي قدري؟

أما كونه عن حكم شرعي فنعم ما يمكن أن يحمل هؤلاء من خطايا هؤلاء شيئًا لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، أما عن كونه حكم قدري أيضًا، فلأن هؤلاء لو قالوا لهم فهم كاذبون لو قالوا نحن نحمل خطاياكم فإنهم كاذبون في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] فهم لو قالوا ما هم بحاملين فكأن الله تعالى يكذبهم يقول: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ أنهم ما يصدقون فيما قالوا فصارت هذه الآية الآن متضمنة للنفي حكمًا شرعيا وللنفي حكمًا واقعيًّا فهم في الشرع لا يحملون أوزارهم وهم في الواقع لا يحملون أوزارهم

(١) «شرح ابن عقيل» (١/ ٣٠٨).

أيضًا لو قالوا ما صدقوا ما هم بحاملين من خطاياهم شيئًا ولكن يريدون أن يخدعوهم ويغروهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ لو قالوا ما يُصدَّقون كما أنهم بالنسبة إلى الله عز وجل ما يمكن أن يحمل أوزار هؤلاء لهؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ولما كان قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قد يوهم أنهم لم يحمّلوا شيئًا من أوزارهم أي: أن الدعاة لا يتحملوا شيئًا من أوزار المدعوين قال:

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ الفاعل الدعاة والمدعوون والجملة هذه مؤكَّدة بالقسم واللام والنون، ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ أوزارهم يعني: عقوبة الذنوب وسميت الأوزار أثقالًا؛ لأنها تثقل ـ والعياذ بالله ـ صاحبها.

وفي قوله: ﴿أَثْقَالِهِمْ﴾ الضمير في (هم) يعود إلى الداعين يعني: ليحملن هؤلاء الدعاة أثقال أنفسهم وأيضًا: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: أثقالًا أخرى مع أثقالهم وما هي الأثقال الأخرى؟ أثقال دعوتهم، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل: ٢٥]، فهم يحملون أثقالهم كاملة، أما أثقال المدعوين لا يحملونها كاملة ولو حملوها كاملة ما بقي للمدعوين شيء؛ ولهذا هنا قال: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أثقالا بالنكرة وفي الآية الثانية قال: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وذلك لأن الداعي لا يتحمل وزر المدعو كاملًا لو تحمله كاملة ما بقي للمدعوّ شيء ولكنه يكون لهذا ولهذا عياذًا بالله.

وقوله: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لدعوتهم إلى الضلال وكل من دعا إلى ضلالة فله مثل وزر من عمل بها من غير أنه ينقص من عملهم شيء.

قال المؤلف: [﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بقولهم للمؤمنين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ وإضلالهم مقلديهم]، والمقلدون هم الذين اتبعوهم؛ لأن الكفار مجتهدون ومقلدون يعني: رؤساء ومقلدون قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص: ٤١]، والإمام له مأموم أي: له مؤتم به يدفعه، فالكفار لهم رؤساء ولهم مقلدون فهؤلاء المقلدون يحمل الرؤساء من أوزارهم ما يتحملون كذلك من أوزار الذين يضلونهم بغير علم، لكن إذا دعا شخصًا ولم يقتد بهم فإنهم يحملون أوزار الدعوة فقط دون وزر العمل والسبب؛ لأنه ليس هناك عمل.

قال تعالى: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يسألهم الله سبحانه وتعالى فهو الذي يسألهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: في الآخرة وقد تقدم أنه سمي بذلك لأمور ثلاثة وهي:

١ـ قيام الناس من قبورهم.

٢ـ إقامة العدل.

٣ـ قيام الأشهاد فإن الأشهاد يقومون في ذلك والأشهاد هم الرسل عليهم السلام وكذلك غير الرسل من العلماء وكذلك الجنود.

قال المؤلف: [﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون على الله] ؛ لأنهم قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ وهم كاذبون في هذا فسيُسألون عن هذا الكذب وكذلك كل دجال يدعو إلى باطله في الكذب سيسأل عن هذا.

قال المؤلف: [سؤال توبيخ].

هل هذا سؤال توبيخ أو سؤال استنكار؟ هو سؤال توبيخ لأجل أن يقروا ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨- ١١].

قال المؤلف: [واللام في الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع].

أين اللام في الفعلين؟ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ والثاني: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ﴾ فاللام لام القسم والقسم مقدر والنون للتوكيد فصار التوكيد بثلاثة فحذف فاعلهما: الواو ونون الرفع ونون الرفع حذفت لتوالي الأمثال؛ لأن ثلاثة مجتمعة كلهن زائدات ما يصير فحذفت النون الأولى لتوالي الأمثال، ولم تحذف نون التوكيد لأنه جيء بها لمعنى فكان الحذف لنون الرفع الذي جرت في العادة أن تحذف، ومعلوم أن الأفعال خمسة تحذف نونها وجوبا في حال النصب والجزم وجوازًا بكثرة في حال النفي وجوازًا بقلة في حال الإثبات.

لماذا حذفت الواو؟ حذفت الواو لالتقاء الساكنين على حد قول ابن مالك في «الكافية»:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية الكريمة:** حرص الكافرين على إغواء المؤمنين؛ لقولهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾.

٢ـ **ومنها:** أن أولئك الضالين يستعملون أساليب الدعاية الباطلة؛ لقولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ فإن هذا من الدعاية الباطلة.

٣ـ **ومنها:** أن هؤلاء الدعاة إلى الضلال كاذبون فيما جزموا به من حمل الخطايا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٤- **ومنها:** أن من كَفَرَ هان عليه ما دون الكفر، فهؤلاء كفروا فهان عليهم الكذب أن يقولوا: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية:** الحذر من دعوة أهل الضلال ودعايتهم - أقصد بالدعاية تزيين ما دعوا إليه وتسهيله في نفوس المدعوين - فيجب علينا أن نحذر من هؤلاء.

٦- **ومن فوائد الآية:** تقرير قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية:** الإقناع قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية:** إثبات علم الله لقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لأنه خبر عن واقع في المستقبل.

٩- **ومن فوائدها:** إثبات عدل الله؛ حيث لا يحمِّل أحدًا خطيئة أحد.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

١ - **ففيها دليل على:** أن الدعاة إلى الشر عليهم من أوزار المدعوين؛ لقوله: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾.

٢ - **ومنها:** أن الدعاة من الخير لهم مثل من أجر مثل ما المدعوين؛ لأن الداعي إلى الشر يناله من العقوبة - وهذا من العدل - فإن الداعي إلى الخير يناله من الأجر؛ لأن الله تعالى ذو الفضل العظيم.

٣ - **ومنها:** خطورة الدعوة إلى الضلال؛ حيث إن كل من تأثر بهذه الدعوة فإن على الداعي مثل وزره أو من وزره كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ﴾.

٥ - **ومنها:** إثبات سؤال هؤلاء عن أعمالهم السيئة؛ لقوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الكذب يعاقب عليه المرء؛ لقوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي الذي كانوا يفترونه إلا الكذب المباح فالكذب المباح ما عليه عقوبة، لكن الكذب غير المباح عليه عقوبة وهناك من يقول من الناس إن الكذب نوعان: أبيض وأسود فالأسود هو الذي عليه العقوبة والأبيض لا عقوبة عليه، والحقيقة أن الكذب كله أسود ما فيه أبيض، هم يقولون: إن الأسود فيه أكل مال للغير أو اعتداء عليه أو انتهاك لعرضه يعني ما فيه مضرة على الغير، أما ما فيه ترويح على النفس وما أشبه ذلك فهو أبيض، وهذا غير صحيح، بل ورد الوعيد على من كذب ليضحك به القوم، فالإنسان يجب عليه أن يتجنب الكذب كله لأن الأصل أنه حرام.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ
عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ
ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ (اللام) هنا للقسم و(قد) للتحقيق فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات وإنما أكد الله ذلك وإن كان الخطاب لغير منكر، لكن تقدم لنا أن الأمور الهامة تؤكد وإن لم يخاطَب بها منكر أو متردد.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: بعثناه برسالة وكان هذا بعد مدة طويلة من آدم؛ إذ كان الناس بعد آدم على ملة واحدة بدون رسالة؛ لأن آدم نبي وليس برسول، إذ إنه ليس هناك أحد يرسل إليه وإنما أوحي إليه بشرع وجعل يتعبد به واتبعه بنوه على ذلك، ولكن لما كثر بنوا آدم اختلفت آراؤهم قال الله تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فبين الله سبحانه وتعالى أن الرسل أُرسلوا بعد أن اختلف الناس؛ ولهذا في قراءة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهذه القراءة دلت عليه آخر الآية ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فأرسل الله نوحًا وهو أول رسول أرسل إلى البشرية.

قال المؤلف: [وعمره أربعون سنة أو أكثر] ونحن لا نعلم بالتحديد كم عمره، لكن نعلم علم اليقين أن الله أرسله وعمره قابل لأن يكون أهلًا للرسالة سواء كان أربعين سنة أو أكثر ولا أظنه يكون أقل من ذلك.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هذا فيه شاهد للحديث الصحيح: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قال المؤلف: [﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى توحيد الله فكذَّبوه].

قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي: في دعوتهم إلى دين الله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يعني: تسعمائة وخمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله، عمر طويل وهو معهم في صراع، وفي سورة نوح يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [نوح: ٢-٧]؛ لئلا يسمعوا ما أقول ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ فغطوا بها لئلا يروني أعوذ بالله يعني معناه أنهم يسدون كل منافذ الوعي: السمع والبصر ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على ما هم عليه من المعاصي، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الواجبات ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨، ٩] انظر إلى مراحل الدعوة العظيمة ومع ذلك ما استفادوا شيئًا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] فالمدة طويلة والدعوة متنوعة والمضادة والمحادة شديدة عظيمة يمرون به وهو يصنع سفينة فيسخرون منه لكنه مؤمن بالله عز وجل فكان يقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩] هذه المدة الطويلة يقول الله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ حتى إن أحد أولاده ما آمن، وهذا يوجب لنا أن نصبر ونحتسب، فالإنسان منا إذا دعا الناس لمدة ساعة ولم يستجب له أحد غضب وترك الدعوة وقال: ما في فائدة لكن نوح عليه السلام لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ هنا ذكر فيها السبب والأثر، إرسال ومكث طويل، وبعد ذلك أخذهم الطوفان، لكن أخذٌ بسبب؛ وهو قوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ وهذا أبلغ من قوله: فأغرقهم، والأخذ يكون في مقابلة عمل فهو جزاء.

قال المؤلف: [﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: الماء الكثير طاف بهم وعلاهم فغرقوا]، طاف بهم من كل جانب ـ والعياذ بالله ـ وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر فقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] فتح الله كل أبواب السماء، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يعني: نازل بشدة وقوة ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ الأرض كلها حتى قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وهو موضع النار البعيد عن الرطوبة وعلت الماء فوق قمم الجبال وهكذا كان بإذن الله، فالأرض كلها تبث العيون والسماء منهمرة بالماء العظيمة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ماء الأرض وماء السماء ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

ورد في الحديث: «لَوْ أَنْجَى اللهُ أَحَدًا لَأَنْجَى أُمَّ الصَّبِيِّ»[1] وهي امرأة معها صبي كلما وصلها الماء صعدت في الجبل وكلما وصلها صعدت حتى وصلت إلى قمة الجبل فلما ألجمها الماء حملت ولدها فوق رأسها لأجل أن تغرق قبل ابنها ولكن ـ والعياذ بالله ـ ما أدركت رحمة الله الكافرين

(١) ضعيف: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣١٠) بلفظ (لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٩٨٥).

بعد أن رأوا العذاب ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ يعني: أخذهم حال أنهم ظالمون أي مقيمون على الظلم ما آمنوا لأن ما آمن مع نوح إلا نفر قليل.

وقوله: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا] من هذا الطوفان العظيم ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوفة على الهاء في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ وأنجينا أيضًا أصحاب السفينة أي: أهل السفينة أي الذين كانوا معه فيها وهم المؤمنون أهل نوح كلهم إلا ابنه الكافر، والمؤمنون من قومه أنجاهم الله كذلك وكذلك الحيوانات ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فكل هؤلاء الذين ركبوا السفينة نجوا.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعلناها عبرة للعالمين، والضمير أي: القصة أو جعلناها أي: السفينة ويؤيد أنها السفينة أنها تعود إلى أقرب مذكور ويؤيد العموم أن العبرة ليست السفينة فقط بل السفينة والقصة حيث إنه بقي هذه المدة الطويلة ولم يؤمن معه إلا قليل وحصل هذا الغرق العظيم الذي لا نظير له فيما نعلم، فهي آية للعالمين، وأما أنها السفينة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢] أي: مثل سفينة نوح فصار أول من صنع السفن هو نوح عليه السلام ومنه أخذ الناس هذه الصنعة وتأمل الحكمة في قوله تعالى ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] ولم يقل وحملناه على السفينة تنبيهًا على المواد التي يسمونها المواد الخام في صنع السفينة والألواح معروفة وهو الخشب، أما الدسر فهي المسامير وقال رب العزة ذلك حتى يعرف الناس هذا وهذا وهو الواقع فإن الناس عرفوا بها وتطورت أيضًا صنع السفن الآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بعض العلماء يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة عينًا وأن هذه السفينة بقيت في الأمم حتى أدركتها آخر الأمم وهم أول هذه الأمة فيقال: إن أجزاء هذه السفينة بقيت إلى أن أدركها أول هذه الأمة على الجودي التي استوت عليه، وهذا فيه نظر.

والقول الثاني في الهاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ يعود على السفينة باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص والضمير يعود عليها باعتبار جنسها فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا﴾ [الملك: ٥] أي: الشهب التي تخرج من هذه المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿ولقد وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] جعلناه باعتبار جنسه ولا يصح أن يكون باعتبار الشخص؛ لأن آدم ليس في الأرحام فآدم الذي خلق من سلالة من طين لا يكون في الأرحام وهل يكون في قرار مكين؟ لا، ولكن ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الإنسان باعتبار جنسه فالضمير يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة باعتبار الجنس.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ العالمين المراد بالعالمين هنا قال المؤلف: [لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسلهم] فسيحل بهم العقوبة كما حل بقوم نوح .

[وعاش نوح بعد الطوفان ستين سنة أو أكثر] وقبل البعثة أربعين سنة، وفي الدعوة ألف سنة إلا خمسين سنة فهذه ألف وخمسين سنة لكن المؤلف قال: [ستين سنة أو أكثر حتى كثر الناس]، لكن ما نجزم بأنه عاش ستين سنة بعد الطوفان لأننا نقول: لا فائدة من معرفة كم لبث قبل الرسالة ولا معرفة كم لبث بعد الطوفان؛ لأن المهم من القصة بأن هذا هو أول الرسل عليهم السلام ومع ذلك وجد من قومه من المعارضات ومن الاستكبار ورد دعوته ما لم يجده نبي مثله؛ لأننا ما نعلم بأن نبيًا بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا إلا نوحًا.

مسألة: في قصة نوح قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ١٠٥] والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ومعروف أن الذي أرسل إلى قوم نوح واحد وهو نوح فما معنى الآية الأولى؟

نقول: إن المكذب لواحد مكذب للجميع؛ لأن ما هناك فرق بين النبي نوح وشعيب وصالح وهود، فكلهم من بني آدم، مثل من آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فكأنها كفر بالجميع، كمن يقول: إن الصلاة مفروضة ولكن ما أومن أن الزكاة فرض نقول له: كذَّبت بهذا وبهذا؛ لأن إيمانك بأن الصلاة مفروضة دون الزكاة فهذا عن هوى فهو لا يؤمن بهذا ولا بهذا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]

التفسير

قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: اذكر، والفائدة من حذف العامل هو الاختصار وبيان الاهتمام بالمعمول، فهنا حذفت اذكر اختصارًا واهتمامًا بالمعمول وهو إبراهيم، ليبدأ به أولاً، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام كلنا يعرف أنه ثاني أولي العزم من الرسل، وأولهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى واختلفوا أيها أفضل، والأولى أن يقال: لكل منهما مزية، أما الثلاثة محمد ثم إبراهيم ثم موسى، فهذا متفق على التفضيل، وقد ابتلاه - أي إبراهيم - الله تعالى بأمرين: أحدهما: بالدعوة إلى الله، والثاني: في أعز محبوب إليه.

أما في الدعوة إلى الله: فإن الله ابتلاه بأن سلط عليه قومه ليحرقوه، والنتيجة قد أنجاه الله من النار، وقال للنار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩]، وأما الأمر الثاني فهو في أعز الأشياء إليه وهو ابنه حين بلغ معه السعي وهو وحيده وأول أولاده، وهو إسماعيل على

القول الصحيح، ابتلاه الله تعالى بأن أمره بذبحه، أمره بأن يذبحه هو، واستسلم ووافق ـ والقصة معروفة ـ وأنجاه الله سبحانه وتعالى منه حين قال له: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] إلى آخره، وسمي خليلاً حيث اتخذه الله خليلاً بسبب هذا الأمر حيث قدم على محبة الله تعالى أحب شيء إليه، وقد نبهنا من قبل على أن بعض الناس الجهال في الواقع يصفون النبي ﷺ بأنه حبيب الله وأن إبراهيم خليل الله وهذا خطأ، فإن محمدًا ﷺ خليل الله أيضًا كما ثبت ذلك عنه[1]، والذي يقول: إن محمدًا حبيب وإبراهيم خليل قد تنقص من قدر النبي ﷺ لأن درجة المحبة أدنى من درجة الخلة.

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ (إذ) هذه ظرف وهي في موضع نصب على الحال أي: حال كونه قائلاً لقومه، وقوله ﴿لِقَوۡمِهِ﴾ والقوم: هم الجماعة الذين ينتسب إليهم الإنسان في نسب أو هدف، كل من ينتسب إليه الإنسان بنسب فهم قومه، أو بهدف بأن يكون دعواهم واحدة وطريقهم واحدة يسمى أيضاً قوماً، والمراد بقومه هنا من ينتسب إليهم قرابة لقومه.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ قال المؤلف: [خافوا عقابه] ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أصل العبادة مأخوذة من الذل، ومنه قولهم: طريق معبَّد، أي مذلل، لأن العبد يذل لمعبوده، فالعبادة إذنْ التذلل لله عز وجل، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهذا حد لها في الواقع باعتبار ميدان العبادة، أما أصلها فإنها الذُّل، لأن هذا مقتضاها في اللغة: أن يتذلل الإنسان لله سبحانه وتعالى بطاعته فعلاً للأوامر وتركًا للنواهي.

واعلم أن العبادة تنقسم إلى قسمين: أولًا: الخضوع للأمر الكوني، وهذه عامة لكل أحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]، كل من في السماوات والأرض من مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر، كلهم يأتون الله تعالى بهذا الوصف ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾؛ وهل من ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢]؟

ذكرنا أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة وهي: الخضوع للأمر الكوني وهذه لا يُستثنى منها أحد كل الناس كل الخلق خاضع لأمر الله الكوني، لا أحد يقدر يرفع المرض أو الموت عن نفسه، مثاله قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ هل من هذا قوله تعالى يخاطب إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾؟

الجواب: إن جعلنا الاستثناء متصلًا فإن المراد بالعبودية: العامة، وإن جعلناه منقطعًا فالمراد

---

(١) كما عند مسلم (٢٣٨٣)، والترمذي (٣٦٥٥)، وأحمد في «مسنده» (٣٥٨٠) من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

بالعبودية الخاصة، والعبودية الخاصة: هي التذلل لأمر الله الشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هؤلاء تذللوا للأمر الشرعي، وهنا في الآية الكريمة قال إبراهيم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي الأمرين يريد؟ الجواب: التعبد لله بالعبادة الشرعية.

وقوله ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عطفًا على قوله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والعطف كما قيل: يقتضي المغايرة، ونحن ذكرنا أن العبادة: التذلل لله سبحانه وتعالى بالطاعة، والتقوى اتخاذ وقاية من عذابه بطاعته، لأن أصلها من الوقاية، فيتقي الإنسان عذاب الله بطاعته، على هذين التفسيرين يكون عطف التقوى على العبادة من باب عطف الشيء على نفسه، والمعروف أن بلاغة القرآن تأبى أن يعطف الشيء على نفسه؛ لأن ذلك من باب التكرار، فما هو الفرق الذي يكون به العطف مقتضيًا للمغايرة، يعني: لو قلنا التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بطاعته، والعبادة التذلل لله تعالى بطاعته، صار معناهما واحدًا، والعطف يقتضي المغايرة، فكيف يمكن أن نفسر العبادة بمعنى يغاير معنى التقوى؟

نقول: الجواب هذا من أحد وجهين: إما أن يراد بالعبادة هنا في هذه الآية فعل الأوامر، وبالتقوى ترك النواهي، يعني: أن تتقي المعاصي وأن تفعل الطاعات، وهذا الوجه ـ أعني أنه إذا كانت الكلمتان كل واحدة منهما تشمل معنى الأخرى عند الانفراد وتغايرها عند الاجتماع ـ له أمثلة كثيرة: مثل الفقير والمسكين: هما شيء واحد عند الانفراد، ويختلفان عند الاجتماع، والبر والتقوى هما شيء واحد عند الانفراد، وشيئان عند الاجتماع، وهنا نقول: العبادة والتقوى: هما شيء واحد عند الانفراد، وعند الاجتماع تفسَّر العبادة بفعل الأوامر والتقوى باجتناب النواهي، هذه واحدة.

الوجه الثاني: أن نقول: أن يراد بالعبادة: مطلق الالتزام والتذلل، والتقوى المراد بها: اتقاء العمل المعين، لأنه ليس كل من قام بمطلق العبادة يقوم بالتقوى، فكثير من المسلمين الآن يعبدون الله لكن هل يتقونه في كل شيء؟ لا، الصوم عندنا الآن نصوم لكن هل الصائم يتقي الله في كل شيء بحيث يترك الكذب والغيبة والشتم والمحرم وقول الزور والعمل به؟

الجواب: ليس كل صائم هكذا، وعلى هذا فنقول: المراد بالعبادة مطلق الالتزام والتذلل، وبالتقوى: أن يتقي الإنسان ربه في كل فرد أو في كل جنس من جنس المعاصي وأفرادها.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ يقول المؤلف: [خافوا عقابه] ولو أن المؤلف فسر الآية بما يطابق اللفظ لكان أولى.

[وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه: العبادة والتقوى.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة**: فضيلة إبراهيم، حيث أمر أهله بها ذكر.

٢- **ويستفاد منها**: أنه ينبغي ذكر الدعاة إلى الله سبحانه تعالى بها يرفع من شأنهم، لأننا قدرنا ﴿إبراهيم﴾ مفعولًا لفعل محذوف تقديره: اذكر إبراهيم.

٣- **ومن فوائدها**: وجوب عبادة الله وتقواه، يؤخذ من قوله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٤- **ومن فوائدها**: أن خير ما يحصل عليه العبد عبادة الله وتقواه، لقوله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: أنه لا يعقل هذه الأشياء إلا أهل العلم، تؤخذ من قوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]

الفوائد[1]:

١- **من فوائد هذه الآية**: أن كل ما يُعبد من دون الله فإنه وثن لا ينفع ولا يأتي بالرزق.

٢- **ومن فوائدها**: أن تسمية هذه الأوثان بالآلهة كذب، لقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي لمن ذكر حكمًا أن يذكر علَّته، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

٤- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي الاستدلال بالمحسوس على المعقول، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ وهذا دليل محسوس، ووجه الاستدلال بالمحسوس على المعقول أن المحسوس لا ينكره أحد، لكن المعقول قد لا يتصوره الإنسان فضلًا عن كونه يقر به، فإلزام الإنسان بالشيء المحسوس على المعقول هذه من طرق المناظرة وإقامة الحجة والإلزام.

٥- **ومن فوائدها**: أن الذي يجب أن يُلجأ إليه هو الله عز وجل، وهذه تؤخذ من قوله ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

(١) هذه الآية والتي تليها تفسيرهما غير واضح.

٦- ومن فوائدها: أن الله ذكر فيها سبب الرزق وسبب بقاء الرزق، سبب وجوده وسبب بقائه، سبب وجوده طلبه من الله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾، أما سبب بقائه فعبادة الله سبحانه وتعالى أو نقول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا سبب الرزق، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سبب البقاء.

٧- ومنها: وجوب شكر النعمة، لقوله ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هنا الفعل متعد أي: اشكروا نعمته مخلصين له، هذا على القول بأنه متعد، أما على القول بأنها لازمة فإن شَكَرَ تكون لازمة تقول: شكرت له، ومتعدية تقول: شكرته، ويكون المفعول هو الهاء وليس محذوفًا.

٨- ومن فوائدها: إثبات البعث، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وهذا يكون يوم القيامة بعد البعث.

٩- ومنها: إثبات الجزاء على الأعمال، يؤخذ من قوله ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأن الفائدة من هذا الإخبار بأنهم سيبعثون ويجازون وليس مجرد البعث بدون جزاء، بل لابد فيهم من جزاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨]

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية: تهديد المكذبين للرسول ﷺ، لقوله ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾، وقد علموا ما جرى لهم، لعل هذا يكون فيه تهديد لهؤلاء المكذبين للرسول ﷺ.

٢- ومن فوائدها أيضًا: أن الرسل يجب عليهم الإبلاغ، لقوله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ وعلى تفيد الوجوب، قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] يعني: واجب، فعلى إذا قيل على فلان كذا وكذا فإنها تفيد الوجوب، فإذنْ يستفاد من الآية وجوب الإبلاغ على الرسل.

٣- ومن فوائدها: أنه لا يجب عليهم هداية الخلق، وما عليهم إلا البلاغ أما الهداية فإلى الله عز وجل وكذلك الحساب على الله عز وجل، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

٤- ومن فوائدها: وجوب الإبلاغ على أهل العلم، وهذه تؤخذ من ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ والعلماء ورثة الأنبياء، فيجب عليهم الإبلاغ كما يجب على الرسل.

٥- ومنها: أن القرآن متضمن لجميع الأحكام العقائدية والعملية، وأنه أتى بذلك على أكمل وجه وأبينه، لقوله ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ لكل ما أُرسل به، لأنه رسول فعليه البلاغ المبين لكل ما أرسل به، والرسول ﷺ أرسل بعقائد صحيحة سليمة، وبأعمال قويمة وبأقوال مستقيمة، وعلى

هذا فنقول نستدل بهذه الآية على أن جميع الشريعة بيِّنة مكملة واضحة، فنرد به على جميع أهل البدع، كل أهل البدع نرد بذلك عليهم، لأن أهل البدع يستلزم قولهم ألا يكون النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، مثلًا الذين ينكرون حقيقة استواء الله على عرشه، ويقولون: معنى الاستواء الاستيلاء على العرش، هؤلاء تكذبهم هذه الآية، لو كان المراد بالاستواء الاستيلاء لكان يأتي هذا المعنى ولو في آية واحدة، وآيات الاستواء في القرآن سبع آيات، وما جاءت آية واحدة يقول الله فيها استولى على العرش، فنقول: أنتم كاذبون تكذبكم هذه الآية.

وكذلك بقية الشبهات التي يحتج بها أهل التعطيل أو أهل التمثيل أيضًا، حتى أهل التمثيل الذين يقولون نعم إن الله استوى على عرشه حقيقة، لكن استواءه كاستواء المخلوق على المخلوق، كاستواء الملك على عرش الملك وما أشبه ذلك، نقول: هؤلاء أيضاً يكذبهم قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ لأن الرسول بلغ البلاغ المبين وقد أتانا من بيانه قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لو قال قائل: يوجد وقائع الآن تقع ما نرى لها ذكراً في القرآن ولا في السنة، فما هو الجواب على هذه الآية؟

نقول: هي مبينة ببيان الجنس يعني ما هو بلازم أن القرآن يأتي في كل فرد أو السنة تأتي في كل فرد، لأن أفراد القضايا ما لها حصر، ما ظنكم لو أن الله تعالى ذكر في القرآن كل قضية تأتي إلى يوم القيامة كم يكون القرآن من مجلد؟ مجلدات ما لها حصر، لكننا نقول هذه الأفراد - أفراد هذه المسائل - موجودة بأجناسها وعللها وقواعدها، يعني إما أن تكون بالقياس وإما أنها مسكوت عنها، والسكوت في مقام البيان بيان، كما قال النبي ﷺ، «مَا سَكَتَ عَنْهُ[1] فَهُوَ عَفْوٌ[2]»[3].

المهم أننا نقول ما من قضية تقع، إلا وحكمها موجود في القرآن أو السنة، باعتبارها جنسًا، فنجس هذه القضية موجود في القرآن إما بقاعدة عامة أو بقياس صحيح أو ما أشبه ذلك، لكن الخلل والنقص يأتي من واحد من أمور:

السبب الأول: إما قلة في العلم، يكون الإنسان ما عنده علم، والخلل هنا من الإنسان، فالإنسان ما أحاط بالسنة، والقرآن يحيط به الإنسان، لكن السنة ما يمكن أن يحيط بها الإنسان، يوجد أحاديث تأتي على الإنسان ما كانت تدور في ذهنه.

السبب الثاني: وإما لقصور في الفهم، يكون الإنسان عنده علم ولكن فهمه قاصر، أو يكون به نوم أيضًا مثل بعض الناس أيضًا الذين ينامون في الدرس، يكون عنده قصور في الفهم،

---

(١) أي لم يبين حكمه.

(٢) أي متجاوز عنه لا تؤاخذون به.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٠٠) من حديث ابن عباس ﷺ، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في «غاية المرام» (٣٤).

ولاحظوا أن اختلاف الناس في الفهم أكثر وأعظم من اختلافهم في العلم، يوجد بعض الناس يستنبط من دليل واحد عدة مسائل، وآخر ما يستنبط إلا مسألة أو مسألتين.

السبب الثالث: من أسباب عدم الوصول أو عدم معرفة الحق من الكتاب والسنة: أن يكون عند الإنسان سوء قصد بحيث لا يريد الحق، ما يريد إلا أن ينتصر قوله، فإن هذا ـ والعياذ بالله ـ يُحال بينه وبين الوصول إلى الصواب ومعرفة الحق، لأنه لا يريده، فهذه أسباب ثلاثة.

السبب الرابع: المعاصي فإن المعاصي ظلمة توجب أن يُحال بين الإنسان وبين الوصول إلى الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل إن المعاصي توجب نسيان الموجود كما تمنع وجود المفقود، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[المائدة: ١٣].

إذن هذه أسباب أربعة كلها تحول بين الإنسان وبين الوصول إلى معرفة حكم الله الذي في الكتاب وفي السنة، أما نفس الكتاب والسنة فإنها لا شك أنها محيطة بجميع القضايا إلى يوم القيامة، لأن هذا الكتاب إلى يوم القيامة، وأما قول من قال من أهل العلم ـ وهو من أعجب ما يكون ـ إن الكتاب والسنة ليس فيها إلا حكم القليل من القضايا، حتى إن بعضهم يزعم أنه ما في القرآن والسنة إلا نحو عُشر القضايا هذا خطأ عظيم، ولهذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: ٨٩].

٦- **ومن فوائد الآية**: أن الرسل أفصح الخلق، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ سواء قلنا: إن المبين بمعنى بيِّن، أو بمعنى مُظْهِر، والصواب: أنها بمعنى مظهر.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت:١٩، ٢٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بالياء والتاء يَنظروا] بالياء والتاء يعني: يروا والثانية: (تروا)، فهما قراءتان سبعيتان، الرؤية هنا فسرها المؤلف بمعنى النظر، فهي رؤية عين، ويحتمل أن تكون رؤية قلبية أي: علمية، بمعنى: أولم يعلموا، وننظر أيها أولى في سياق الآية.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يقول المؤلف: [هو بضم أوله وقرئ بفتحه

من بدأ وأبدأ بمعنى: أي يخلقهم ابتداءً]، عندنا يبدئ الآن فيها قراءة سبعية، وقراءة شاذة، فالقراءة السبعية هي: ﴿يُبْدِئُ﴾، من الماضي الرباعي: أبدأ والقراءة الشاذة بفتح أوله من أين؟ من بدأ، كيف عرفنا أن هذه القراءة شاذة؟ لأن اصطلاح المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا قال قرئ فهي شاذة، لكن المؤلف يقول من بدأ وأبدأ هذا اللفظ والنشر مركب أو مشوش؟ مشوش يعني: له شوشة، أو مشوش يعني: غير مركب، انظر الآن من بدأ هذه على أي القراءتين؟ الشاذة الذي يبدأ، وأبدأ على القراءة السبيعة التي هي يبدئ، والحقيقة: أن المؤلف ليته ما فعل هذا، لأنه قد لا يفهم الإنسان أن هذا من باب اللفظ النشر المشوش، ولا داعي إليه، لو قال المؤلف: من أبدأ وبدأ لكان أوضح للإنسان الطالب.

وقوله [بمعنى] يعني: بمعنى واحد، يعني بدأ وأبدأ معناهما واحد، أي: [يخلقهم ابتداءً]، يعني: كيف يخلقهم سبحانه وتعالى ابتداءً.

وقوله ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ الخلق: هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: المخلوق، كيف يبدئه ثم يعيده.

والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول كثيرًا في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق: ٦] الحمل الذي في البطن بمعنى المحمول، وقوله ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) بمعنى: مردود، وهنا خلق بمعنى مخلوق، ومثلها قوله تعالى ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه.

وقوله: [﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: الخلق كما بدأهم] المؤلف يقول: [أي: الخلق كما بدأهم] إشارة إلى أن الخلق هنا بمعنى المخلوق الذي يعم كل الناس، وقوله [ثم هو يعيده] قدر هو لتكون الجملة استئنافية، لماذا؟ لأن إعادة الخلق لا يمكن أن ينظروا إليها، متى تكون إعادة الخلق؟ يوم القيامة في المستقبل، لكن ابتداء الخلق يمكن ينظرون إليه، هذا مثلًا ينظر إلى مخلوقات الله عز وجل كيف تتوالد وكيف تتنامي وكيف تكبر إلى آخره، لكن إعادة الخلق ما يمكن فلهذا قدر المؤلف رحمه قوله: [ثم هو يعيده]؛ لئلا يتوهم إنسان أنها معطوفة على ﴿يُبْدِئُ﴾ فلا يصح عطفها على يبدئ؛ لأنه لو كانت معطوفة عليها لكان المعنى كيف يبدئ الخلق ثم كيف يعيده؟!، وهنا النظر لكيفية الإعادة متعذرًا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يحتمل أن تكون علمية ويحتمل أن تكون بصرية، والمؤلف مشى على أنها عينية بالبصر، ولكن أيهما أشمل؟ الظاهر أن القلبية أشمل، لأنها تشمل ما رآه الإنسان بعينه وما علم به من غيره، فهي إذن أشمل، واعلم أن الآية إذا احتملت معنيين أحدهما أشمل فالأولى

---

(١) تقدم تخريجه.

حملها على الأشمل، لأن الأخص داخل فيه، بخلاف ما إذا حملت على الأخص فمعناه أنا أخرجنا بعض دلالتها، فعليه نقول إن الأولى أن نحملها على الرؤية العلمية التي تحصل بالبصر وبالسمع أيضاً كما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [السجدة: ٩] السمع والأبصار طريق العلم، والأفئدة محل الوعي، وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول المؤلف [إن ذلك المذكور من الخلق الأول والثاني على الله يسير أي سهل] إن ذلك ابتداء الخلق سهل على الله، واقرأ قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] سهل على الله، إعادة الخلق أيضاً سهلة لقوله ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] زجرة واحدة فقط ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] وأعم من ذلك قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] بدون تأخر، واحدة يأمر الله الشيء فيكون مثل لمح البصر، وهذا دليل على كمال قدرته جل وعلا، وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ في آية ثانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فإننا نقول لهؤلاء المنكرين للبعث: هل تقرون بأن الله خلقكم ابتداءً؟ ماذا يقولون؟ يقولون: نعم، الكلام على المنكرين المقرين بابتداء الخلق، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] مقرين بهذا الشيء، نقول لهم: أيهما أهون الابتداء أم الإعادة؟

الجواب: الإعادة أهون فكيف تقرون بالأصعب ثم تنكرون الأهون؟ وأقول بالأصعب لا باعتبار ذلك منسوبًا إلى الله عز وجل، لأنه كله يسهل عليه، لكن نقول لهؤلاء ما دام الابتداء أشد وأشق فالإعادة من باب أولى أن تقروا بها، لكن هم يقرون بالابتداء؛ لأنهم لا يستطيعون إنكاره، فما يستطيعون أن يقولوا ما خلقنا الله ونحن الذين خلقنا أنفسنا أو الزوج هو الذي خلق الولد في رحم الأم هذا أن لا يمكن أن يقولوه، فلهذا احتج الله عليهم بالابتداء؛ ليقروا بالإعادة.

وقوله: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فكيف ينكرون الثاني].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ هذه الآية مع التي قبلها ربما يظهر منها الإشكال؛ لأن الأولى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقرير لهم بأنهم يرون ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وهنا يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيقتضي أنهم حتى الآن لم يعلموا كيف بدأ الله الخلق.

نقول الجواب على ذلك: إنهم وإن كانوا يرون كيف بدأ الله الخلق لكنهم قد ينكرونه فأمر الله تعالى نبيه أن يأمرهم بالسير في الأرض بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: امشوا في الأرض انظروا مثلاً إلى الوحوش انظروا إلى الحشرات انظروا إلى مخلوقات الله

سبحانه وتعالى، كيف تنشأ هذه الأشياء بدون أن نرى لها خالقًا سوى الله عز وجل؟! فهذا من باب إلزامهم ولاسيما إذا قلنا: إن الرؤية الأولى علمية، من باب إلزامهم بما يشاهدونه في الأرض بعد أن يسيروا فيها.

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المراد السير بالبدن أو السير بالقلب أو بهما معًا؟

الجواب: هما جميعًا، لأن الإنسان قد يسير ببدنه ويطلع على مخلوقات الله، وقد يسير بقلبه فيقرأ ما كتب عن مخلوقات الله، وربما تقرأ كتابًا عن الحيوانات وغيرها وأنت في مكانك في حجرتك، وتكون قد اطلعت على مشارق الأرض ومغاربها ويكون السير حينئذٍ بالقلب، فهو شامل للأمرين جميعًا، ثم اعلم أيضًا أن السير بالقدم لا ينفع إذا لم يكن هناك سير بالقلب واعتبار، فلو أن الإنسان سار في فجاجَ الأرض كلها وهو غافل ما استفاد من ذلك السير شيئًا، بل لابد أن يكون هناك تيقظ واعتبار، لأن الآن لو نظرنا إلى السير في الأرض إلى واقعه أيهما أكثر بالقلب أو بالقدم؟ بالقلب ما فيه إشكال، بل إن السير بالقدم إذا لم يقصد به الاعتبار فإنه لا فائدة منه، فإذا قصد به الاعتبار عاد إلى كونه سيرًا بالقلب إلا أنه اجتمع السير بالقلب والبدن.

وقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ هنا قال: ﴿فَانظُرُوا﴾ وفي الأول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ﴾ ومعلوم أن (انظروا) ويروا أفعال متعدية، مفعولها ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ و﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ الفعل الذي قبله يحتاج إلى مفعول، وهو معلق بالاستفهام، وإذا جاء الاستفهام فهو يعلق الفعل، مثلًا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ كلمة ﴿كَيْفَ﴾ هنا في موضع نصب على الحال وهي معلقة الفعل عن العمل، وقد مر علينا هذا في ألفية ابن مالك في باب ظن وأخواتها قال ابن مالك:

وَالْتَزِمِ التَّعْلِيقَ قَبْلَ نَفْيِ مَا وَإِنْ ... إلى آخره

قال المؤلف: [﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ لمن كان قبلكم وأماتهم].

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم الله ينشئ، الأول أتى بالصيغة الفعلية وهنا أتى بالجملة الاسمية ليفيد تقرر هذا الأمر وتأكده.

وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ الله هنا عَلَمٌ على الباري جل وعلا، وأصلها الإله وحذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما حذفت من الناس، والإله معناه المعبود بحق أو بغير حق، وعلى هذا فيكون الله هنا هو المعبود بحق بدليل قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥] يعني: لا معبود حق إلا الله سبحانه وتعالى، فعلى هذا نقول: الله علم على الباري جل وعلا، وأصله الإله بمعنى المألوه أي: المعبود، والأصل أن الإله بمعنى المعبود بحق أو بباطل ولكن إذا قلت: لا إله إلا الله فالمعنى: لا إله حق يعني لا إله هو حق إلا الله عز وجل.

في قوله: ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يقول المؤلف: [مدًّا وقصرًا مع سكون الشين] مدًّا (النشاءة)

﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِأُ النَّشَاءَةَ الآخِرَةَ﴾، وقصراً مع سكون الشين: (النشأة) ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

وقوله: ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ﴾ يحتمل أن تكون مصدراً كما تقول: يضرب الضربة، ويحتمل أن تكون بمعنى اسم المفعول، أي ينشئ المنشأة الآخرة، والمعنى واحد أن الله سبحانه وتعالى ينشئ الخلق مرة ثانية.

فإذا قال قائل: كيف نسميه نشأة وهو إعادة؟

قلنا الجواب على ذلك: أن هذه الإعادة تختلف عن سابقتها اختلافاً كثيراً، فهي بالنسبة إليها نشأة، لأن الحياة الآخرة ما هي مثل الحياة الدنيا، الحياة الآخرة حياة أبدية، الحياة الدنيا حياة فناء، ولذلك تجدها ناقصة يُخلق الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف، أما الإعادة فإنه يخلق للأبد فلذلك سُميت نشأة وإن كانت هي إعادة لاختلاف الحالَين، انظروا إلى الجنين في بطن أمه قال الله فيه بعد أن ذكر أطواره: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وهل هو إنشاء أم تطوير؟ تطوير، ولكنه لما كان التطوير الأخير الذي فيه نفخ الروح يختلف عن الأول، فالأول وهو في بطن أمه جماد ثم تنفخ فيه الروح فيكون نشأة جديدة غير الأولى، فسُمي نشأة وإن كان تطويراً من حال إلى حال.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قال المؤلف:[ومنه البدء والإعادة]، هذه الجملة تعليل لما سبق، من كونه ابتدأ الخلق ثم أعادهم؛ لأن الله على كل شيء قدير، والقدرة: هي وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز، وهل هي القوة أو غيرها؟

غير القوة، فالقوة يقابلها الضعف، وهذه يقابلها العجز، ويظهر ذلك بالمثال مثلاً: أنا حملت هذا الكتاب لكن بمشقة ماذا أُوصف به؟ قادر ولكن لست قويًّا، وآخر أراد أن يحمل هذا الكتاب وعجز عنه، هذا عاجز، والثالث أخذه كأنه ريشة في يده، هذا قادر قوي، فتبين بهذا أن القدرة غير القوة، كذلك أيضاً القدرة يُوصف بها ذو الشعور ولا يُوصف بها غيره، فهل أنت تقول للحديد إنه قادر؟ لا، القوة يوصف بها ذو الشعور وغيره، فتقول للحديد قوي وتقول للإنسان قوي، والله سبحانه وتعالى موصوف بالقدرة وموصوف بالقوة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ هذا على عمومه لا يخصص بشيء، وقال صاحب الجلالين وهو السيوطي قال: [وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر] [1] خص العقل ذاته يعني ذات الله فليس عليها بقادر، قال هذا في سورة المائدة، ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة:١٢٠] قال إن العقل يخصص هذه العموم، ونحن نقول: لا يخصص هذا العموم من العقول إلا العقل الفاسد الذي يرى امتناع قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، أما العقل

---

(١) «تفسير الجلالين» (ص١٦١).

الصحيح السليم فهو يرى أن الله يفعل ما شاء، ينزل ويستوي على العرش، ويستوي إلى السماء ويضحك، ويعجب وغير ذلك من الأفعال الاختيارية التي تليق بجلاله سبحانه وتعالى، فقوله [خص العقل ذاته فليس عليها بقادر] هذا خطأ عظيم، إذا كان ما يقدر على نفسه كيف يقدر على غيره؟ هذا من أكبر المحال ومن أكبر الغلط.

لكن لو قال قائل: لعل المؤلف يريد أنه لا يقدر على إفناء نفسه مثلاً أو على خلق مماثل له.

قلنا: هذا لا تتعلق به القدرة أصلًا، فالقدرة لا تتعلق أصلاً بالشيء المستحيل إطلاقاً فهو غير داخل في العموم، من الأصل فليس بمخرج منه، هنا عبارة يقولها بعض الناس يقول: إنه على ما يشاء قدير، هذا التعبير خطأ، لأن الله يقول ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء فهو قادر على ما يشاء وما لا يشاء، حتى الذي لا يشاؤه قادر عليه فلو شاءه لفعله، ليس على الذي يشاءه فقط، ثم إن هذه العبارة (على ما يشاء قدير)، مخالفة لما جاء به القرآن، في القرآن ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ثم إن بعض أهل العلم يقول: إن هذه العبارة توحي بمذهب المعتزلة الذين يقولون إن الإنسان مستقل بعمله فقالوا: إنه إذا كان الإنسان مستقل بعمله لا دخل لمشيئة الله فيه، فمعناه أن الله عاجز عن عمل الإنسان، وهذا خطير ـ كما هو معروف ـ، فالذي ينبغي أن نقول: إنه على كل شيء قدير على الإطلاق.

فإذا قال قائل: ألا ينتقض علينا هذا بقوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]؟

قلنا: المشيئة هنا عائدة على الجمع أم على القدرة؟ على الجمع لا على القدرة، المعنى: أنه إذا شاء أن يجمعهم جمعهم بدون عجز سبحانه وتعالى فلا تُنافي ما قلنا.

يقولون: إن الشيطان جمع جنوده أو هم اجتمعوا إليه فقالوا له إنك تفرح بموت العالم ولا تفرح بموت العابد، قال: نعم العابد إذا مات ما يهم يموت عن نفسه، لكن العالم إذا مات يموت عن عالم، وإذا بقي يفسد علينا الأمور، فالمراد بالعلماء الحقيقيين الذين يعملون ويدعون، قال هيا بنا نذهب أنا وإياكم إلى عالم نسأله وإلى عابد، يقولون إنهم ذهبوا إلى العابد وقالوا له هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه؟ قال: نعم يقدر يخلق مثل نفسه، والدليل قال: لأن الله على كل شيء قدير، ماذا حصل لهذا الرجل؟ كفر، فأي إنسان يعتقد هذا الاعتقاد فهو كافر وهو أيضاً غير صحيح مهما كان ما يمكن، لو لم يكن من الفرق، فالفرق عظيم جدًّا، لكن لو لم يكن إلا أن هذا الإله لو قُدر مخلوق ـ والإله الحق غير مخلوق ـ، وجاءوا إلى العالم وقالوا له: هل يقدر الله أن يضع السماوات والأرض كله في بيضة واحدة؟ فقال ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] لو أراد ذلك لفعله، فتخلص منه، مع أن

الأخير يمكن ينكر حسب ما يبدو للناس أكثر من الأول.

والحاصل أن نقول: إن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يجوز أن يقع في نفسه استثناء شيء من هذا العموم، بل يكون على عمومه بدون تفسير.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمستدل أن يستدل بالمشاهد على الغائب ليقتنع بذلك الخصم.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾

٣- **ومنها:** إثبات قدرة الله عز وجل، لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٤- **ومنها:** عموم هذه القدرة، وهذا يؤخذ العموم من قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، فإنها من تمام قدرته، مثل المجيء والنزول والاستواء على العرش، والضحك والعجب وما أشبه ذلك.

٦ـ **ومنها أيضًا:** خطأ من قال: [خص العقل ذاته فليس عليها بقادر]، وهذا بينا أنه ليس بصحيح، وقلنا: إن هذا فيمن ينكرون قيام الأفعال الاختيارية في الله عز وجل، يقولون: ما يقدر الله سبحانه وتعالى أن يفعل، وهذا لا شك أنه يُردُّ عليهم الكتاب والسنة وإجماع السلف.

❁ قال الله تعالى:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني: بعد البعث ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ويجوز أن يكون يعذب حتى في الدنيا، لأن العذاب يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، فالعقوبات التي رتِّبت على الجرائم هذه من العذاب؛ لقول النبي ﷺ في المتلاعنين: «عَذَابُ الدُّنْيَا[1] أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»[2] وكذلك ما يصيب الإنسان من المصائب في بدنه وأهله وماله أيضًا من العذاب، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾ جاءت بالفعل المضارع الدال على أن هذا أمر من أفعاله مستمر، ليس أمرًا

(١) وهو حد القذف.

(٢) رواه مسلم (١٤٩٣)، وأبوداود (٢٢٥٦)، والترمذي (١٢٠٢)، والنسائي (٣٤٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مضى وانقطع كما أنه أيضًا يكون في الحاضر يكون أيضًا في المستقبل، العذاب: هو العقوبة أن يعاقب.

وقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مر علينا كثيرًا بأن الله تعالى إذا أضاف الفعل إلى المشيئة فإنه مَقْرُونٌ بالحكمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا لمجرد المشيئة، بل كل ما فعله فهو بمشيئته المقرونة بحكمته، وهذا أمر واضح؛ فإن من يعذَّب لابد أن يكون قد أتى ما يستوجب التعذيب، وحينئذٍ تكون الحكمة في تعذيبه، وليس الله تعالى يعذب من شاء بدون ذنب أبدًا، لأن حكمته تأبى ذلك ورحمته تأبى ذلك، خلافًا لمن قال:

وَجَـازَ لِلْمَـوْلَى يُعَـذِّبُ الـوَرَى مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْـبٍ وَلَا جُـرْمٍ جَـرَى

ثم علل ذلك بقوله:

فَكُـلُّ مَـا مِنْـهُ تَعَـالَى يَجْمُـلُ لِأَنَّـهُ عَـنْ فِعْلِـهِ لَا يُسْـأَلُ

هذا ليس بصحيح هو إن جاز عقلاً لكنه ممتنع شرعاً، لأن الله يقول في الحديث القدسي «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»(١)، وقال تعالى في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢].

المهم: أن قوله ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ قلت: إنه مقرون بالحكمة، إذنْ فلا يعذب إلا من يستحق التعذيب، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ والرحمة صفة من صفات الله عز وجل وهي تقتضي الإنعام والإحسان سواء كان الإحسان بإيجاد محبوب أو بدفع مكروه، فإن رحمة الله عز وجل تكون للإنسان إما بجلب ما ينفعه وإما بدفع ما يضره.

وقوله: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿يَرْحَمُ﴾ فعل مضارع مشتق من الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله عز وجل ثابتة على وجه الحقيقة، ومن آثارها: الإنعام والإحسان أو إرادة الإنعام والإحسان، وليست هي الإنعام أو الإحسان أو الإرادة، خلافاً لمن قال بذلك، وممن قال بذلك الأشاعرة ومن وراءهم من المعطلة المحضة أشد وأشد، فهم يقولون: إن الرحمة معناها إرادة الإنعام وبعضهم يقول: أو الإنعام، والصواب خلاف ذلك، لأن الإرادة ناشئة عن الرحمة، يرحم فيريد أن يحسن أو ينعم، هذا الذي عليه مذهب أهل السنة والجماعة أن الرحمة صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة وقال الذين احتجوا بمنعها أن تكون حقيقية: لأن الرحمة خور وضعف في الراحم، تجد نفسه تنكسر حتى ترحم، جوابنا على هذا بسيط، أن نقول من وجهين: أحدهما أن نمنع أن يكون ذلك من باب الخور والضعف، فإننا نجد الملوك الجبابرة قد يرحمون وهم ليس فيهم خور ولا ضعف، وثانيًا لو

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والطيالسي في «مسنده» (٤٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٨٨) من حديث أبي ذر ﷺ.

فرض أن هذا المعنى لازم للرحمة في الإنسان فليس بلازم بالنسبة لله كغيره من الصفات التي تثبت حقيقة للمخلوق وتثبت للخالق أيضًا، فإن اللوازم والعوارض التي تكون لصفة المخلوق لا يمكن أن تكون لصفة الخالق؛ لما بينهما من الفرق العظيم في الذات والصفات، فكما أن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا مثيل له في ذاته فكذلك لا شبيه ولا مثيل له في صفاته.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون] أي: إليه لا إلى غيره، فتقديم المعمول يفيد الحصر، فالانقلاب أو القلب إلى الله عز وجل ما نقلب إلى غيره، وهذا عام لكل أحد مهما كان الناس إلى أين مرجعهم؟ إلى الله سبحانه وتعالى ومهما فروا، فالقلب - يعني الرد - إلى الله سبحانه وتعالى وإذا كان مردنا إلى الله صار هو الحكم بيننا، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، ويحكم بين عباده فيما بينه وبينهم، لأن حكم الله في العباد يشمل الحكم فيما بينه وبينهم والحكم فيما يختلفون فيه، فالمؤمنون مع الكفار مختلفون فيحكم الله بينهم يوم القيامة، وكذلك المعتدون مع المعتدى عليهم مختلفون فيحكم الله بينهم يوم القيامة.

الفوائد:

١- في الآية الكريمة فوائد منها: إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل من قوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والأئمة - إثبات الأفعال الاختيارية لله -، أي أنه يفعل ما يشاء.

وخالف في ذلك الأشاعرة وغيرهم، فقالوا: إن الله تعالى لا يتعلق به فعل حادث، وعللوا ذلك: بأنه لا يقوم الحادث إلا بحادث، وأننا لو أثبتنا حدوث الأفعال لله لزم من ذلك أن يكون الله تعالى حادثًا ولا ريب أن هذا قول باطل، لأننا نقول لهم: من قال لكم أن الحادث لا يقوم إلا بحادث؟ من أين جاءت هذه القاعدة هل هي في القرآن، هل هي في السنة، هل هي في العقل؟ ثم إننا نرد على هذه القاعدة الفاسدة بقاعدة أكمل منها وأوضح وهو أن الفعال لما يريد أكمل من الذي لا يفعل، فأنتم إذا عطلتم الله عز وجل عن أفعاله الاختيارية معنى ذلك وصفتموه بأنقص ما يكون، فإن هذا أمر معلوم لجميع العقلاء، أما الفاعل لما يريد أكمل من الذي لا يفعل أو الذي يُجبر على الفعل أيضًا.

٢- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله عز وجل، لقوله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في الموضعين.

٣- ومن فوائدها: أن الرحمة لا تُطلب إلا من الله، لقوله ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقام التقسيم يدل على الاختصاص، يعذب ويرحم، فلا تطلب الرحمة إلا من الله، حتى الذين يرحمون من الخلق، ينبغي عندما تطلب رحمتهم أن تجعل ذلك متعلقًا في الله؛ لأن الله عز وجل لو شاء ألا يرحموك لم يرحموك.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** التحذير من المخالفة، لأنه إذا كان المرجع إلى الله فاحذر من مخالفته، فإن هذا يشبه التهديد والوعيد من المخالفة.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢٢]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

قوله: ﴿وَمَا أَنتُم﴾ الخطاب إما أن يكون للكافرين، وإما أن يكون لعموم الناس، فكونه لعموم الناس أولى، يعني: وما أنتم أيها الناس، وكونه للمكذِّبين المعاندين أبلغ لأنهم يظنون أنهم أعجزوا الله.

وقوله ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿مَا﴾ هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة الحجاز، بل بلغة قريش، اسمها ﴿أَنتُم﴾ الضمير، وخبرها ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، والباء هنا زائدة للتوكيد، قال ابن مالك:

وَبَعْدَ مَا وَلَيْسَ جَرَّ البَا الْـخَبَرَ

فنعرب ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: الباء زائدة للتوكيد، ومعجزين: خبر (ما) منصوب وعلامة نصبه ياء مقدرة على الياء منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ هذه من أعجز فهو متعدٍّ؛ لأن عجز لازم وأعجز متعد، إذا كانت متعدية وهي اسم فاعل فتحتاج إلى مفعول، أين المفعول؟ قال المؤلف: [﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم] فيكون المفعول محذوفاً تقديره: بمعجزين ربكم، أو بمعجزين الله مثلاً ما في مانع، والمعجز هو من فعل ما يعجز به غيره، ولهذا قال بعض أهل العلم عن آيات الرسل أنها معجزات، لأنها تعجز أعداء الرسل عن معارضتها.

وقوله ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هذا الجار والمجرور حال من ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، يعني: حال كونكم في الأرض أو في السماء ما تعجزون الله، سواء كنتم في الأرض أو في السماء، ولهذا قال المؤلف: [لو كنتم فيها] فيكون قوله: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ على سبيل التقدير وليس على سبيل الحقيقة، لأن الناس

في الأرض وليسوا في السماء، ولا في السماء لو كنتم فيها، أي: على تقدير أنكم فيها لا تعجزون الله، وقيل: إن المعنى على سبيل المبالغة، يعني: لا تعجزون الله سواء كنتم في أعماق الأرض أو في أجواء السماء فإنكم لا تعجزون الله، فيكون المعنى: لا تعجزونه في أي مكان كنتم.

وقيل إن قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني به أهل السماء، يعني أن الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، فأهل السماء لا يعجزونه، وأهل الأرض لا يعجزونه فيكون على هذا الوجه: وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السماء معجز الله، على حد قول الشاعر حسان بن ثابت:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاء

ومعلوم أن الأول غير الثاني، لأن الذي يهجوه ما يمكن أن يمدحه وينصره، فيكون على تقدير: ومن يمدحه وينصره سواء، فهذه مثلها.

على كل حال يظهر لي: أنه على معنى أنكم لا تعجزون الله في أي مكان كنتم، سواء كنتم في السماء أو في الأرض، وهذا وقت نزول القرآن لا يمكن أن تكون السماء حقيقة، إلا أن يراد بالسماء ما علا ولو على قمم الجبال، وفي وقتنا الآن يمكن أن يكون الإنسان في السماء أي: في العلو أما هي السماء الدنيا، السماء الدنيا ما أحد يصل إليها ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] حتى النبي ﷺ وجبريل ما استطاعا أن يدخلا هذه السماء إلا بعد الاستفتاح والاستئذان[1].

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾ قال المؤلف في تفسيره الإجمالي: [أي لا تفوتنه] أي: لا تفوتون الله بل إذا شاء أن يعذبكم أدرككم فإن الله تعالى لا يفوته شيء، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] واعلم أن عقوبة الله عز وجل وإدراكه للإنسان تارة يكون بأمور حسية، يقدر الله أسبابًا معلومة لنا نشاهدها، وتارة يكون بأمور لا ندركها نحن، تأتيه العقوبة من الله بدون أي سبب معلوم لنا، فالآن مثلاً أسباب نصر الرسول ﷺ، أحيانًا يكون بأسباب غير معلومة، وأحيانًا تكون بأسباب معلومة، فمثلاً نصر الله تعالى للرسول ﷺ في غزوة الخندق أسبابها معلومة مشاهدة أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لا نراها، فالجنود التي لا نراها هي من الأمور التي غير معلومة إلا بالإخبار بالشرع، لكن الريح التي أقلقتهم وأقفأت قدروهم وهدمت خيامهم هذه محسوسة معلومة، لكن الجنود التي لم نرها، لولا إخبار الله إيانا عنها ما كنا نعلمها.

فالله عز وجل يدرك الإنسان إما بأسباب معلومة تظهر للعيان، وإما بأسباب خفية لا تظهر

---

(١) كما في حديث المعراج الذي رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ.

للعيان، ثم قد نعلمها بطريق الوحي وقد لا نعلمها.

قال المؤلف: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم من عذابه].

قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ (ما) هنا هل هي نجدية أو حجازية؟ هذه اتفقت فيها اللغتان ـ النجدية والحجازية ـ، وذلك لعدم الترتيب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ لأن ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ هو المبتدأ، و﴿لَكُم﴾ هو الخبر، يعني: لا ولي لكم من دون الله، وقول المؤلف: [﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره] صحيح، وعبر عن الغير بالدون لانحطاط رتبته، وقوله سبحانه وتعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ قال المؤلف: [يمنعكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم من عذابه] ولا أعلم إلا أن النصر بمعنى المن والعون، لكن الصحيح أن قوله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أن الولي من يتولى الإنسان في جميع أحواله، فينصره في مقابل عدوه، ويأتي إليه بالخير ولو في غير مقابلة العدو، فالولي هو الأعم فهو الذي يتولاك في جلب الخير ودفع الشر، والنصير: هو الذي يدفع عنك فقط قد لا يكون من أوليائك لكن يدفع عنك في الحال المعينة التي تحتاج فيها إلى ناصر، والنصرة تكون في دفع المكروه، فيكون الولي هنا أعم، يعني: ما أحد يكون يتولاكم فيجلب لكم الخير ويدفع عنكم الشر ولا أحد أيضًا ينصركم من دون الله فيمنع عنكم العقاب، وهذا أمر واقع فإن بأس الله إذا نزل بقوم ما يستطيع أحد أن يدفع عنهم هذا البأس ولا أن يمنعهم منه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه لا مفر للمرء من قدر الله سواء كان في السماء أو في الأرض لقوله ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** ضعف البشر بالنسبة إلى الخالق، لأن الخطاب: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ للعموم، فالبشر مهما بلغوا من القوة فهم بالنسبة إلى الخالق عاجزون ضعفاء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ ما قال: أن الله هو أشد، وإنما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ [فصلت: ١٥] فإذا كانوا مخلوقين فإن الخالق أقوى بلا شك، فأتى بهذا الجملة بالموصول وصلته كالتعليل والدلالة على ضعفهم أمام الله عز وجل.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا ملجأ للبشر في جلب المنافع ودفع المضار إلا إلى الله، وأنهم مهما

استغاثوا بغيره فإنهم خائبون، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥- **ومنها**: وهي فائدة بلاغية: وهي أن من أدوات التوكيد الزيادة ـ زيادة الحروف ـ لقوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يعني: ﴿مِّن﴾ هنا زائدة لإفادة العموم أو التنصيص على العموم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: القرآن والبعث].

قوله: ﴿الذين﴾ مبتدأ، وخبره الجملة الاسمية في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ فهذه الجملة كبرى وصغرى، أين الكبرى؟ إذا كانت الجملة خبرًا يسمونها جملة صغرى، وإذا كانت مكونة من مبتدأ وخبر تسمى كبرى، فعندنا الآن: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخر الجملة نسميها جملة كبرى، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ هذه جملة صغرى؛ لأنها جزء من الجملة، كيف ذلك؟ لأنها خبر، هي مبتدأ وخبر ولكنها خبر، فهي جزء جملة، وأتى بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستقرار.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿آيَاتِ﴾ جمع آية، والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالكونية ما خلقه الله سبحانه وتعالى في الأرض، فهي آيات كونية، لدلالتها على خالقها، فهي دالة على الخالق، وكل شيء منها يدل على صفة تناسبه، يعني: الآيات كلها على سبيل العموم تدل على الخالق، كل آية منها تدل على صفة معينة من صفاتها، فإذا كانت الآيات عظيمة دلت على وجود الخالق وعلى قدرته، وإذا ظهر فيها إحكام وإتقان دلت على الحكمة، وهكذا.

فالمهم: أنها آيات هي بعمومها دالة على وجود الخالق ثم كل آية منها لها دلالة خاصة تدل عليه من هذه الصفات الخاصة، وهذه الآيات الكونية مثل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] وفي سورة الروم عدة آيات ذكرها الله عز وجل، النوع الثاني من الآيات: الآيات الشرعية: وهي ما جاءت به الشرائع، الآيات الكونية أظنها واضحة أنها علامة على الله جدًا واضحة، الآيات الشرعية أيضًا علامة على الله عز وجل وعلى حكمته لماذا؟ لأنه يعجز البشر عن أن يأتوا بمثلها، لأنها كلها إصلاح ودرء للمفاسد، وكل الشرائع جاءت للإصلاح ـ هذه فائدة ـ لكن الإصلاح يكون في كل أمة بحسبها، فالشدة على اليهود مناسبة،

والتخفيف على النصارى مناسب، والجمع بينهما في هذه الأمة غاية المناسبة، وإن كان هذا الدين من حيث هو يسر - دين الإسلام يسر ما فيه حرج -، لكنه بالنسبة إلى دين النصارى دين النصارى فيه أشياء كثيرة مسامح كثيرة لأن حالهم تناسب ذلك، ودين اليهود فيه غلظة وشدة وآصار وأغلال حطها الله عنا بهذا النبي الكريم، فهذه الشرائع كلها آيات تدل على كمال من شرعها وسنَّها لعباده.

ولكن النوع الأول من الآيات الإيمان به سهل والوصول إلى حقيقته سهل، لكن الثاني هو الذي يكون فيه نوع من الصعوبة؛ لأنه لا يعرف كمال الشريعة ودلالتها على من شَرَّعَهَا إلا من تعمق فيها وعرف الحكم والأسرار التي تتضمنها هذه الأحكام، ولهذا ينبغي لنا التعمق في معرفة حِكَم التشريع، يعني: كوني أعرف أن هذا حلال وهذا حرام هذا قد يكون سهل لكن كوني أعرف لماذا حلل أو لماذا حرم هذا هو المهم جدًّا، وهو الذي يتبين به كون الشرع من آيات الله عز وجل.

وقوله ﴿وَلِقَآيِهِۦ﴾ يوم القيامة، يعني: كذبوا باللقاء اللازم منه البعث؛ لأن البعث لازم من لوازم اللقاء، لا لقاء إلا ببعث، ولقاء الله عز وجل ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] يعني: فأنت ملاقيه فيجازيك على هذا الكدح إما خير وإما شر.

وقوله: ﴿وَلِقَآيِهِۦ﴾ يعني: البعث، لأن المنكرين للبعث لا يؤمنون بلقاء الله، لأنهم يقولون: إنه - والعياذ بالله - إذا كانوا عظامًا ورفاتًا ما يمكن يبعثون خلقًا جديدًا فكذبوا بهذا.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ هذا جزاؤهم، جزاء هذا التكذيب اليأس من رحمة الله، قال المؤلف: [أي جنتي]، فأولها إلى الرحمة المخلوقة لا إلى الرحمة التي هي صفة الله عز وجل؛ وذلك لأن الرحمة المضافة إلى الله قد يراد بها دار رحمته فتكون مخلوقة كما في الحديث القدسي: «أَنَّ اللهَ قَالَ لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وتطلق على الرحمة التي هي وصف الله عز وجل وحينئذٍ تكون صفة من صفات الله غير مخلوقة، ومنه قوله تعالى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧] فما المراد بالرحمة في هذه الآية؟ هل المراد بها النوع الأول، الرحمة المخلوقة التي هي موضع الرحمة، أو الرحمة التي هي صفته؟

الظاهر: أن المراد بها الرحمة التي هي صفته، لأنه إذا أطلقت الرحمة مضافة إلى الله فالمراد بها الصفة ما نحملها على أنها موضع الرحمة إلا إذا وجدت قرينة، إذا وجدت قرينة عملنا بهذه القرينة وإلا فالأصل أنها صفة من صفات الله، إذن ﴿يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ معناه يئسوا من أن أرحمهم، وإذا

(١) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لم يرحمهم الله ما دخلوا الجنة، هذا هو المعنى الصحيح للآية، وما ذكره المؤلف فهو محتمل، يعني: ما ننكر عليه إنكارًا شديداً لا، لأن الرحمة كما تطلق على الصفة تطلق على موطن الرحمة.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه أيضاً جملتان كبرى وصغرى، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر، كل هذا لكمال التهديد لهم، فهم حرموا من الخير ووقعوا في الشر، ولهذا قال: [﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم]، والعذاب معناه: العقوبة، يعني لهم عقوبة أليمة أي: شديدة مؤلمة والعياذ بالله وذلك في النار، ولا حاجة إلى شرح ما في هذه النار من العذاب لأنه معلوم.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أن الكفار لا يدخلون الجنة، تؤخذ من قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾.

٢- ومن فوائدها: إثبات الآيات لله عز وجل الكونية والشرعية، لقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٣- ومن فوائدها: رحمة الله تعالى بالعباد حيث أظهر لهم من الآيات ما يؤمنون على مثله، هذه من نعمة الله أن الله تعالى أرى عباده من آياته ما يؤمنون على مثله، ولهذا كلما ظهر للإنسان من آيات الله شيء كان أشدَّ شكرًا لنعمة الله عليه وأشد في رسوخ إيمانه، ومن ذلك: الكرامات التي حصلت لبعض أولياء الله فإنها تزيد في إيمانه وتؤيد ما كانوا عليه من الحق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وكثرت الكرامات في زمن التابعين دون الصحابة لأن عند الصحابة من الإيمان ما ليس عند التابعين فليسوا في حاجة إلى كرامات تقوِّي إيمانهم كحاجة التابعين، ذكر هذا في كتاب الفرقان، وهذا حق فإنك إذا تأملت الكرامات التي ذُكرت وجدتها في التابعين أكثر، المهم أن إظهار الآيات للإنسان سواء كانت شرعية أو قدرية أنها من نعمة الله عليك، لأنها تزيد في إيمانك ورسوخه في القلب.

٤- ومن فوائدها: إثبات رؤية الله، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ فإن أهل السنة والجماعة استدلوا بذلك على إثبات الرؤية، لأن الملاقاة إذا لم يكن منها مانع لابد فيها من الرؤية ولا مانع يمنع.

وهذه المسألة فيها خلاف كثير بين أهل السنة وأهل البدع، والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة إثبات رؤية الله تعالى بالعين وأنه في الآخرة يرى، أما في الجنة فيراه المؤمنون، ولا يراه غيرهم لأنهم ليسوا فيها، وأما في عرصات القيامة فالصحيح أنه يراه المؤمنون ويراه المنافقون لكن المنافقين يرونه ليس رؤية تنعيم بل هي في الحقيقة رؤية تنديم، لأن الله تعالى يظهر لهذه الأمة وفيها منافقوها فيكشف لهم عن ساقه تبارك وتعالى ويأمرهم بالسجود، فمن كان يسجد لله سجد، ومن

كان لا يسجد إلا رياءً وسمعة يعجز ولا يسجد، لكن المؤمنون يرونه رؤية تكريم وهؤلاء رؤية تنديم؛ لأنه إذا حجبوا عنه بعد ذلك صار أشد وقعًا في نفوسهم، مثل ما أن المنافقين أيضًا يعطون نورًا يوم القيامة ثم يحجب عنهم هذا يكون أشد من الذين لم يعطوا نورًا من الأصل.

وهذه الرؤية إذا قال قائل: كيف تقرونها فتؤمنون بها مع أن الله جل وعلا يقول لموسى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ويقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟

فالجواب: أما قوله لموسى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإنه جواب على قول موسى: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهو يريد الآن؛ ولهذا قال ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فدل هذا على أن نفي الرؤية في ذلك الوقت لا يتعدى إلى غيره، وهذا لأن الله تعالى لا يرى في الدنيا لعجز الإنسان عن تحمل ذلك، وقد ضرب الله تعالى لرسوله موسى ﷺ مثلاً بالجبل وعجز الجبل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فهي إلى الدلالة على ثبوت الرؤية أقرب من الدلالة على نفي الرؤية، لأن الله لم يقل: لا يرى، بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾؛ لأن الإدراك أخص من مطلق الرؤية، نفي الأخص لا يدل على نفي الأعم، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم، أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فهنا نحن نقول: إن هذا يدل على أنه يرى، لأنه لو لم يكن يُرى لقال: لا تراه الأبصار، فلما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ علم أنه يرى لكن لا يدرك، ونحن نقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ حتى في الآخرة فإنه لا يمكن الإحاطة بالله عز وجل، لكنه يرى وضرب المثل لا بأس به لكن مع الفرق، ألسنا نرى الشمس ولا ندركها، بل إننا نرى أصغر شيء مثل أن ترى حيوانًا صغيرًا لعلك تراه بالعين ومع ذلك لا تدرك ما فيه مما خلق الله عز وجل في جوفه أو في جلده ما تدركه.

فالحاصل: أنه لا يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية، بل هو دليل على ثبوت الرؤية ولهذا استدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على ثبوت الرؤية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بلقاء الله، لأن الله تعالى عاقب الذين لا يؤمنون بذلك باليأس من رحمته.

٦- **ومن فوائدها:** ثبوت الرحمة، لقوله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ والإضافة هنا إن قلنا: إن المراد بالرحمة الجنة فهي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا وتكريمًا، وإذا قلنا: إنها صفة الله، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العقوبة للكافرين وأنها عقوبة شديدة، لقوله ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والآيات في هذا كثيرة جدًّا ولا حاجة للكلام فيها؛ لأنها واضحة الحمد لله.

مسألة: هل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يفيد الرد على

القدرية؟

الجواب: نعم فيها رد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله وأنه لا دخل لمشيئة الله فيه، لأننا إذا قلنا بذلك فإنه يلزم أن يعجز الله، وقد نقول: إن هذا فيه دليل عليهم؛ لأنهم يقرون بأن الله قادر على إهلاكهم إذا خالفوا وعلى استئصالهم بالعذاب.

قال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]

التفسير

[قال الله تعالى في قصة إبراهيم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾] لأن الجملة على رأي المؤلف معترضة من قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨] قيل: هذا جملة معترضة، هذا ما ذهب إليه المؤلف وابن جرير وأكثر المفسرين، وقال بعض المفسرين: إن الكلام كله من كلام إبراهيم، وليس فيه شيء معترض، واختار هذا ابن كثير، وقال إنه كله من كلام إبراهيم.

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

(أو) هذه للشك أو للتنويع أو للتخيير؟ هي للتنويع وليست للتخيير؛ لأن الله قال في سورة الأنبياء: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ...﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فـ (أو) ليست للشك؛ لأن كلام الله لا يقع فيه الشك لكمال علمه سبحانه، ولا للتخيير أيضًا لأنه خلاف ظاهر القرآن في سورة الأنبياء. بل للتنويع هو الصحيح، أي أن بعضهم قال: اقتلوه وبعضهم قال حرقوه، وكان الرأي على التحريق.

وقوله: ﴿جَوَابَ﴾ إعرابها خبر مُقدم.

فإذا قال قائل: أليس الحرق يحصل به القتل؟

قلنا: بلى، ولكن لحمقهم وشدة ما في صدورهم على إبراهيم رأوا أن يُعذبوه بالنار، والله حكيم جل وعلا تجري الأمور على مُراده، فلعلهم لو قتلوه ما حصلت هذه الآية العظيمة، وهي أن تكون النار بردًا وسلامًا عليه، لكن الله تعالى حكيم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فالآية فيها حذف والتقدير: فحرقوه فأنجاه الله من النار.

أنجاه الله أي: خلصه ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ قال المؤلف: [التي قذفوه فيها بأن جعلها عليه بردًا

وسلامًا]، وذلك بأمره بأن قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا.

قال أهل العلم: لو قال الله كوني بردًا فقط لكانت ثلجًا عليه، ولكنه قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ وذلك من أجل يسلم، فالبرد يقتل كما أن الحر يقتل، ولولا أن البرد لا يقتل ما احتيج إلى قوله: ﴿وَسَلَامًا﴾.

وقوله: [﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: إنجائه منها ﴿لَآيَاتٍ﴾] معلوم أن (إن) تنصب المبتدأ وترفع الخبر، فاسمها ﴿لَآيَاتٍ﴾، واللام فيها للتوكيد. والخبر ﴿فِي ذَلِكَ﴾

فـ (إن) تنصب آيات لكنها هنا مجرورة وذلك لأنها جمع مؤنث سالم، وهو يكسر في النصب والجر معًا.

وقوله ﴿لَآيَاتٍ﴾ جمع آية وهي العلامة، والمقام هنا هل يعني فيه الآيات الكونية أو الشرعية؟

الجواب: يقصد الكونية.

وقال المؤلف: [﴿لَآيَاتٍ﴾ هي عدم تأثيرها فيه مع عظمها وإخمادها وإنشاء روض مكانها في زمن يسير] هكذا بيَّنَ المؤلف الآيات:

أولًا: أنها لا تؤثر مع عظمها؛ لأنهم جمعوا حطبًا عظيمًا، وأضرموا نارًا عظيمة حتى إنه ذكر أنهم ما استطاعوا أن يُقربوها، وأنهم ألقوه بالمنجنيق من بُعد - والله أعلم -.

ثانيًا: وقوله: [وإخمادها] يعني: كونها تخبو وتهدأ من اللهب في لحظة هذا من آيات الله عزَّ وجلَّ.

ثالثًا: أنها كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وعندي: أن الآيات أكثر مما ذكره المؤلف فإن من الآيات إبطال كيد الأعداء.

ومنها: صبر إبراهيم وتحمله، وحقيقة الأمر: أن هذا شيء ما يقوى عليه إلا أمثال إبراهيم من أولي العزم.

ومنها أيضًا: امتداد هذه الحرارة إلى البرودة.

ومنها: امتداد كون هذه الحرارة سببًا للهلاك إلى أن كانت سلامًا عليه.

والظاهر من القرآن أن النار بقيت وأمرها الله أن تكون بردًا وسلامًا عليه وما أمرها الله أن تخبو بل قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، وعلى هذا فيكون في كلام المؤلف نظر.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال المؤلف: [يصدقون بتوحيد الله وقدرته لأنهم المنتفعون بها].

هذه الآيات أيدها الله جل وعلا بأنها لقوم يؤمنون، أما القوم الذين لا يؤمنون وإن كانت الآيات أمامهم فإنهم لا ينتفعون بها فليست لهم آيات ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] هل هناك في الكلام شيء أعظم آية من كلام الله؟

الجواب: لا نعلم ذلك وهو الواقع، ومع ذلك من ليس بمؤمن إذا تُلي عليه القرآن قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

ولذلك إذا رأيت من نفسك أنك لا تتأثر بالقرآن فاتهم نفسك، لأن الله ما قال عن أحدٍ لا ينتفع بالقرآن إلا المُكذبين الذين لا يرون في القرآن شيئًا يأخذ بِلُبِّهم وروعهم وهذه المسألة - نسأل الله لي ولكم النجاة منها - ؛ لأن كثيرًا من الناس يقرؤون هذا القرآن ولكنه لا يهزُّ مشاعرهم، وهذا خطير جدًّا على الإنسان ويجب عليه أن يتهم نفسه بهذا الأمر حتى يعدِّل ما اعوج منه ويقويه.

وعلى هذا نقول: إن الآيات الكونية والشرعية لا ينتفع بها إلا المؤمن، وغير المؤمن لا ينتفع بها لأنها تمر عليه وكأنها إن كانت آيات كونية أمرٌ عادي، أو بمقتضى الطبيعة فالزلازل التي تصيب الناس في شغلهم يقول: هذه البراكين عادية، وهذه الرياح العاصفة التي تُدمر المحاصيل والأشجار، وكذلك الأمطار كل هذه الآيات يقولون: إنها ظواهر طبيعية لا كأنها عقوبة من الله عز وجل.

إذن هؤلاء المكذبون لم ينتفعوا بها، حتى الآن بدأ الناس في الكسوف يقولون: هذه أسباب ظاهرة - نسأل الله السلامة - وينشرونها قبل أن تقع لأجل أن تأتي إلى الناس وقد اطمأنوا إليها، وقد استقرت في نفوسهم ولا ترعبهم ولا تخيفهم، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ» وهؤلاء جعلوها كأنها هلال عيد حتى إن بعض الناس خاطبنا بهذا وقال: إننا نخبر الناس لأجل أن يتهيأوا ويترقبوا لذلك، حتى يأتي الكسوف وهم مستعدون، كأنه هلال عيد فيخرجون لكي يُصلوا - وهذا خطأ -.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ تعبدونها و(ما) مصدرية ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خبر إن وعلى قراءة النصب مفعول له وما كافة والمعنى: تواددتم على عبادها].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بين لنا أن قوله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: قراءة الرفع (مودةُ بينكم)، وعلى هذه القراءة المؤلف أعرب ما مصدرية والتقدير: إن اتخاذكم من دون الله أوثانًا مودة بينكم فيكون المصدر المنثبت من (ما) اسم إن و﴿مَّوَدَّةَ﴾ خبر إن، وعلى قراءة النصب مفعول له ـ أي: لأجله ـ يعني: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا لأجل المودة بينكم ولكن على هذه القراءة ما كافة وتكون داخلة على إن، وما الكافة إذا دخلت على إن تفيد الحصر يعني: ما اتخذتم الأوثان إلا لأجل المودة بينكم.

وقيل: إن ما اسم موصول على قراءة الرفع وأن العائد محذوف والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثانًا مودة بينكم، وعلى هذا التقدير يكون مفعول اتخذ الأول محذوف، ومفعولها الثاني ﴿أَوْثَٰنًا﴾، وعلى هذا فنقول: إن أداة توكيد ونصب تنصب الاسم وترفع الخبر، وما اسمها بمعنى الذي و﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ صلة الموصول والعائد محذوف، والتقدير: واتخذتموه، و﴿أَوْثَٰنًا﴾ مفعول ثانٍ لاتخذ، لأن اتخذ تنصب مفعولين، مثل قول الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥].

فيكون المعنى: إن الذي اتخذتموه أوثانًا لا يجمعكم عليه إلا المودة، لا ينفعكم اتخاذكم إياها، ولهذا قال المؤلف: [والمعنى توادتم على عبادتها]؛ لأن والعياذ بالله أهل الشر يتوادون على فعل الشر، كما أن أهل الخير يتناصرون أيضًا على فعل الخير، فكذلك أهل الشر.

وقوله: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي﴾ هنا يجوز في كلمة (بين) أن يضاف إليها ما قبلها، ويجوز أن يقطع عن الإضافة فيجوز مثلاً في غير القرآن: مودةٌ بينكم، ويجوز: مودةَ بينكم، وهي هنا على هذا الوجه.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقة بما قبلها، يعني: أنها مودة في الحياة الدنيا فقط فهؤلاء المشركون يتوادون في الشرك، في الدنيا فقط، وتجدهم متناصرين متعاونين لكن ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: ينكره، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]، وهذا لا شك أنه نفاق وكفر ببعضهم لبعض.

وقوله: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] ومجادلة الأتباع للمتبوعين في عدة آيات من القرآن ليست في آيات البقرة فقط، في ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٧٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبأ: ٣٣] وما أشبه ذلك، و﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف: ٣٨].

فالحاصل: أن هذه المودة بين المشركين في الدنيا فقط، أما يوم القيامة فإن كل واحد منهم يتبرأ من الآخر وينكره ويلعنه أيضاً، وهذا لا شك أنه من أشد ما يكون من العقوبات، لكن المتقون

خلتهم باقية إلى يوم القيامة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧]، وأما هؤلاء فإن المودة فيما بينهم تزول بالموت.

قال المؤلف: [﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يتبرأ القادة من الأتباع، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يلعن الأتباع القادة].

والآية عامة أنه يتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة وكذلك أيضًا يلعن بعضكم بعضاً.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال المؤلف: [﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ مصيركم جميعاً]، فالمأوى بمعنى المصير، لأنه من أوى يأوي إذا سار إلى الشيء واتجه إليه.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وهذه النار قد أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين، وهي الآن موجودة ورآها النبي ﷺ ليلة أسري به، وهي نار لا يستطيع الإنسان أن يدرك في الدنيا ما فيها من العذاب فإنها فضلت على نار الدنيا بتسع وستين جزءًا، أضف إليها الجزء المتمم للسبعين، والرسول النبي ﷺ يقول: «عَلَى نَارِكُمْ هَذِهِ» أو نار الدنيا، ونار الدنيا ومعلوم أن فيها نار شديدة الحرارة وفيها نار متوسطة وفيها نار باردة بالنسبة لغيرها، ومع ذلك فإنها تقاس بأعلى نار في الدنيا تتفضل عليها بتسعة وستين جزءاً.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ قال المؤلف: [مانعين عنها]. وهذه فيها ﴿مِّن﴾ الزائدة للتوكيد؛ لأن ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ أصلها مبتدأ وخبره قوله: ﴿لَكُم﴾ يعني: لا أحد ينصركم فيمنعكم من دخول النار، هذا كلام إبراهيم؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، هذا من كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن الأصنام لا تنفع عابديها.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن غاية ما يحصل لهم من هذه الأصنام: الموادة بينهم في هذه الحياة الدنيا على الباطل.

٣- **ومن فوائدها:** أن أهل الباطل قد يقع بينهم مودة لحماية باطلهم وللانتصار على الحق، ولكن هذا لا يدوم.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين اجتمعوا على الباطل إذا كان يوم القيامة فإن بعضهم يتبرأ من بعض ويلعن بعضهم بعضًا، لقوله ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات البعث، لقوله ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وسمي يوم القيامة لوجوهٍ ثلاثة:

أولًا: أن الناس يقومون فيه من قبورهم إلى رب العالمين.

وثانيًا: أنه يقوم فيه الأشهاد كما قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١].

والأشهاد أي: الذين يشهدون على الرسل بأنهم بلغوا وعلى الأمم بأنهم بُلغت، وكذلك الجوارح تشهد على الإنسان بما عمل.

وثالثًا: أنه يقام فيه العدل قال الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأنبياء: ٤٧].

٦- **ومن فوائدها**: إثبات النار، لقوله ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن بدليل قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤].

٧- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء المشركين لا يجدون من يمنعهم من عذاب الله، لقوله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ فلا أحد يمنعهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة.

٨ ـ هل يؤخذ من الآية: أن المتقين في يوم القيامة تبقى مودتهم؟

ربما يؤخذ بما يسمى قياس العكس الذي أثبته النبي ﷺ؛ لأن القياس قياسان: قياس مماثلة وموافقة، وقياس عكس، فقياس العكس أثبته النبي ﷺ في قوله لما قال «وَفِي بُضْعِ[1] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» يعني: الإنسان إذا جامع زوجته فهو صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟» الجواب: نعم يكون عليه وزر، قال: «فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»[2]، هذا يسمى قياس العكس.

ممكن أن نقول: إذا كان هؤلاء المشركون يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضًا، فالمتقون الموحدون المخلصون على عكس ذلك، وأنا أريد هل تؤخذ من هذه الآية؟ ولست أريد إثبات الحكم نفسه فإن الحكم ثابت في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنهم اختلفوا ماذا يصنعون به ثم قرروا أن يحرقوه وهذا إجماع منهم على ذلك ويدل لذلك ما في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

١٠ـ ومن فوائدها: تمام قدرة الله عز وجل بأن جعل هذه النار المحرقة بردًا عليه وهذا علامة من علامات الله الدالة على قدرته.

---

(١) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه أو إعفاف زوجته ومنعهما جميعا من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة .

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

١١- ومنها: أن كل من قام لله فإن الله ينجيه بمفازته، يعني: ينجيه في موضع العقوبة، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ صدَّق بإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هاران] وقال إبراهيم إلى آخره، ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ الإيمان في اللغة التصديق، ولكنه ليس مطلق التصديق، بل هو تصديق بطمأنينة، لأن مادة آمن هي مادة الأمن يعني: فيها الهمزة والميم والنون، وعلى هذا فليس الإيمان هو مطلق التصديق، بل هو تصديق خاص، متضمن للطمأنينة في الشيء، وهو يتعدى باللام كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى ﴿آمَنتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] وكذلك ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] وعدة آيات من هذا، ويتعدى أيضًا بالباء وهو كثير ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وما أشبه ذلك، فهل هذا من باب الترادف أي أن اللام بمعنى الباء، والباء بمعنى اللام؟ أو هناك فرقاً بينهما؟ يمكن أن نقول إنه من باب الترادف، وأما كل واحدة منهما أي من اللام والباء تأتي محل الأخرى، لكثرة استعمال هذه وهذه، ويمكن أن نقول بالتغاير، وأن اللام تدل على استسلام، وأما الباء فتدل على طمأنينة القلب، فاللام للاستسلام: آمن له، فيضمن معنى انقاد، وأما الباء فإنها تدل على طمأنينة القلب، فآمن به: اطمأن به، والله سبحانه وتعالى فرَّق بينهما في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] في آية واحدة، فالظاهر والله أعلم: مما هو وارد في القرآن الكريم أنهما ليستا مترادفتين، لأن بينهما فرقًا فما يجب فيه الطمأنينة، أو ما كان فيه معنى الطمأنينة فهو بالباء، وما كان مضمنًا لمعنى الانقياد ولو ظاهرًا فإنه يأتي باللام.

سحرة فرعون قال لهم فرعون مرة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ [طه: ٧١] وقال مرة أخرى: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ [يونس: ٥١] فهل القولان معناهما واحد؟

لا، بناءً على ما قلنا، ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: صدقتم به بطمأنينة واطمأنتم قلوبكم بصدقه، و﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ تابعتموه واستسلمتم له ولهذا قال لهم: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتنزل كل آية على معنى.

وهنا قال: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ نحن نعلم أن لوطًا عليه الصلاة والسلام آمن لإبراهيم وبه، فهو آمن به بقلبه، واطمأن إلى صدقه، وكذلك انقاد له فتضمن هنا الإيمان معنى الانقياد ومعنى

الطمأنينة.

فإن قال قائل: لو اجتمعا افترقا في المعنى، ولو أفرد أحدهما دل على ما يدل عليه الآخر﴾ ألا يظهر هذا؟

نقول: ما يظهر، لأنه في الحقيقة كلما تتبعت اللام وجدتها في أمرٍ ليس يقتضي الطمأنينة كمالًا، فما تأتي آمنت لله، أبدًا.

وقول المؤلف في قوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [صدق بإبراهيم] يدل على أنه يرى أن اللام بمعنى الباء، يرى أن آمن له: أي آمن به، فصدق تفسير (آمن)، بإبراهيم: تفسير (له).

وقوله: ﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هاران، يعني: أن إبراهيم له أخ اسمه هاران ابن آزر، وهاران له ابن اسمه لوط.

قال المؤلف: [﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ حيث أمرني ربي، وهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام].

قوله: ﴿وَقَالَ﴾ قال المؤلف: إن الضمير يعود إلى إبراهيم، وعلى هذا ففي التلاوة تقف على ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ ولا تقل ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾؛ لأنك لو وصلت لأوهمت أن القول من لوط.

وقال بعض العلماء: إن الضمير يعود على لوط بناءً على ظاهر السياق، وأن لوطًا عليه الصلاة والسلام آمن وهاجر فجمع بين الإيمان والهجرة.

وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هنا مُفَاعِل في اللغة العربية ترد بمعنى ما اشترك فيه اثنان فصاعدًا، كما يقال مقاتل، وترد على معنىً ليس فيه إلا طرف واحد، كما يقال: مسافر، كلمة مهاجر من أيهما؟ مما هو مشترك بين طرفين، أو مما هو خاص بطرف واحد؟ يعني: هاجر بمعنى هجر، أو هاجر معناه أنه هجرهم ثم هجروه، أم في احتمال أن المعنى مهاجر أني هجرتهم وهجروه بمفارقتهم؟

ويحتمل أنه من باب ما فيه طرف واحد فقط.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ قال المؤلف: [أي: إلى حيث أمرني] يعني: إلى الجهة التي أمرني الله سبحانه وتعالى أن أسافر إليها، هذا ما فسره به، والغريب أن بعض المُحَشِّين قال: إن المؤلف قال: [إلى حيث أمرني ربي] فرارًا من إثبات الجهة لله، لأننا لو أخذنا بظاهر الآية ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ لكان متجهًا إلى الله ذاته، وهم يرون أن الله تعالى ليس في جهة، وهذا رأي الأشاعرة وكذلك معطلة الجهمية، فإن الجهمية انقسموا في مسألة الجهة إلى قسمين:

الأول: قسم حلولية يرون أن الله سبحانه وتعالى بذاته في كل مكان، وهؤلاء القدماء منهم.

الثاني: قسم آخر أهل تعطيل محض يرون أن الله سبحانه وتعالى ليس في مكان وليس في جهة، فيقولون: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولا مباين ولا محايد ـ

نسأل الله العافية ـ هذه الجهة يتوصل بها من ينكرون علو الله عز وجل بذاته، يقولون: لأنك إذا قلت: إن الله عالٍ بذاته على عرشه لزم من ذلك أن يكون في جهة، وإذا كان في جهة لزم أن يكون متحيزًا، والمتحيز مخلوق.

أما نحن فنقول في مسألة الجهة: لا ننكرها في المعنى لكننا ننكر جهة تحصر الله عز وجل أو تحيط به، لأن الله محيط بكل شيء، لكننا نثبت بأن له جهة وهي العلو، فالجهات ثلاث: جهة سفل، وجهة علو محيطة بالله، وجهة علو لا تحيط به، أيها المثبَتُ؟

المثبت جهة العلو التي لا تحيط به، أما جهة السفل فهي ممتنعة، وأما جهة العلو التي تحيط به فهو ممتنع أيضًا، لأن الله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، إذن كيف نؤول ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على القول الراجح؟

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى ديني كقوله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠] أي: من ينصر دينه، والإنسان المهاجر إلى دين الله يلتمس المكان الذي يقيم فيه دينه، فلهذا يقول العلماء في الهجرة: هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام؛ حيث يقيم في ظل دين الله عز وجل.

وقوله: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ﴿إِلَىٰ﴾ للغاية، وفيها الإشارة إلى حسن نيته وقصده، قال النبي ﷺ: «**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

قال المؤلف: [وهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام] ما هو سواد العراق؟ العراق نفسه أرض العراق، وسمي سوادًا لكثرة نخيله وأشجاره، وقوله: [إلى الشام] معروف.

قال المؤلف: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه] هكذا يجري المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذين الاسمين، يقول [العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه] وهذا فيه شيء من القصور، فهو سبحانه وتعالى عزيز بذاته وبصفاته، وعزته ثلاثة أنواع:

الأول: عزة القدر.

والثاني: عزة القهر.

والثالث: عزة الامتناع.

أما عزة الامتناع: فمعناها أنه يمتنع أن يناله سبحانه وتعالى نقص في جميع صفاته وأفعاله.

وأما عزة القدْر: فهو المنزلة والجلال والعظمة.

وأما عزة القهر: فهو القوة والسلطان، إذن فلا أحد يغلبه، فهو الغالب ولهذا فسرها كثير من العلماء بأنه الغالب وكذلك لا أحد يناله بسوء، وكذلك لا يناله نقص في صفاته، فلذلك تكون العزة ثلاثة أنواع. وأصل هذه المادة تدل على القوة، ومنه قولهم للأرض الصلبة: أرض عزاز:

---

(١) رواه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يعني قوية صلبة.

وقوله: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه] فيه قصور، لأن حكمة الله عز وجل لا تختص بصنعه في خلقه، بل هي في صنعه وشرعه، فهو حكيم فيما صنع، حكيم فيما شرع، والحكيم ليست أيضًا من الحكمة فقط، لأن الحكيم من الحكمة بمعنى المتقن، لكنها من الحكمة ومن الحُكم أيضًا، و(فعيل) تأتي بمعنى الفاعل في المبالغة، ومن أمثلة المبالغة: فعَّال أو مِفْعَال أو فَعُول أو فَعِيل أو فَعِل ـ هذه خمسة صيغ للمبالغة ـ فهي إذن فعيل، من حَكَمَ فهو حاكم لكن صارت بمعنى حكيم للمبالغة، أو لكونه صفة مشبهة، فهي إذن من الحكم، وحكم الله عز وجل ينقسم إلى قسمين:

النوعان هما: الكوني والشرعي، مثال الكوني: قول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠] هذا الكوني، ولهذا ما قال: يحكم علي، قال ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ يعني: يقدر لي.

والحكمة تكون في الشرع وتكون في القدر، وهي مشتقة من الإحكام بمعنى الإتقان، تكون في الشرع بمعنى أن جميع ما شرعه الله عز وجل فهو موافق للحكمة، وتكون في القدر بمعنى أن كل ما قدَّره الله فهو لحكمة، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، الفساد من حيث هو فساد وجوده حكمة أم لا؟ ليس بحكمة؛ لأن الله لا يحب الفساد، لكن للغاية التي يكون هو حكمة، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] هذه هي الحكمة، فإذنْ كون الأمور أو كون أمور الخير حكمة ظاهر جدًّا للجميع، يعني وجود ما فيه الخير للعباد حكمته ظاهرة، وجود ما فيه الشر للعباد هذا ما يمكن أن يقع من الله عز وجل إلا لحكمة، ولهذا قال النبي ﷺ «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1] ولم يقل: ليس منك، فهو لا ينسب إلى الله لكن كل ما وقع فهو من الله، من خير ومن شر، وهو الذي قدره لكن الشر لا يقدره الله عز وجل إلا لمصلحة أعظم منه، وإذا كان لمصلحة أعظم منه يكون حكمة أم لا؟ يكون حكمة، فتجد الإنسان الذي هو أرحم الخلق بابنه يأتي به إلى الطبيب ليشق جلده فيسيل دمه، هذا شر؛ لأنه يؤلم الصبي، لكنه لمصلحته فالعاقبة حميدة، ويأتي به إلى الطبيب ويقول: احمِ هذه الحديدة على النار واكوه بها، والكيُّ شر في حد ذاته، لكن غايته حميدة، وكذلك في الختان يأتي به إلى الخاتن ويقول: خذ واقطع جلدة من ذكر ولدي ـ موضع حساس ويقطع من جلده! ـ إذن نقول: الشر قد يكون خيرًا باعتبار ما يؤول إليه، وإن كان هو في حد ذاته شر.

المهم: أن ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ صار معناه مشتق من الحُكم والحكمة أو الإحكام، فالإحكام بمعنى الحكمة، والحكمة تكون في الشرع وتكون في القدر، والقدر: كل ما قدره الله فهو لحكمة، سواء

(١) رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٨٠٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان خيرًا أو شرًّا، أيضاً الشرع كل ما شرعه الله فهو لحكمة، شرع الله عز وجل في الزاني المحصن أن يرجم بالحجارة، فلو قتل بالسيف لكان أهون، لكن كونه يرجم بالحجارة ويشهر به ويعلم، هذا له حكمة عظيمة وهي ردع غيره أن يقع في مثل هذا المحظور، ثم من أجل أن هذا البدن الذي تلذذ كله في الشيء المحرم ينبغي أن يناله ألم من العقوبة.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن لوطاً عليه الصلاة والسلام كان من أتباع إبراهيم مع أنه نبي، لقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ مع أنه نبي.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمهاجرة، فإن الهجرة من أفضل الأعمال، لأن الإنسان يدع فيها المألوف من الأهل والوطن، حتى يقيم دين الله.

٣- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى الإخلاص، لقوله ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمَّناه من الصفة، لأن كل اسم من أسماء الله، فهو متضمن لصفة، وليست كل صفة متضمنة لاسم، يعني: كل اسم هو متضمن لصفة ولا عكس، بمعنى أنه لا يشتق من الصفات أسماء لله، لكن أسماء الله كلها متضمنة للصفات.

فمثلاً من صفات الله تعالى المكر بمن يستحق المكر، فلا نسميه بالماكر، ومن أسمائه: أنه عزيز ذو انتقام، فذو انتقام هذا صفة فلا نسميه المنتقم كما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وإن كان ظاهر كلام ابن القيم في البدائع[1] إثبات اسم المنتقم، وقال: إنه من الأسماء المزدوجة التي ما تذكر مفردة، ما يقال: المنتقم فقط، بل يقال: العفو المنتقم.

إذن إثبات ما تضمنه اسم العزيز من الصفة وهي صفة العزة، وهي كما قال أهل العلم ثلاثة أقسام، والحكيم الصفة التي يضمنها: الحكمة والحكم وقد سبق شرحه.

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** الرد على القول بالجبر لقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وفي قوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أيضًا، فإن الهجرة من الأفعال وهو نسبها إلى نفسه، والحمد الرد على الجبرية واضح، والمشكلة عندنا الآن في مسألة القدرية، هي التي عند كثير من أهل الجهل قد يميلون إلى مذهب القدرية؛ لأنهم يرون أن الإنسان مستقل يعمل بحرية، فربما ينكرون القدر، والجبرية ما يحتاجون إلى الانتماء إلى مذهبهم أو الاحتجاج به إلا أهل المعاصي والكسل يحتجون بمذهب الجبرية، أهل المعاصي يكثرون لكن أهل الصنائع والحِرف وما أشبه ذلك هم إلى القدرية أميل، لكن أهل الحق الذين يأخذون بكل دليل لا يوافقون هؤلاء ولا هؤلاء.

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧١).

٥- **ومن فوائدها:** إثبات حكمة الله، وهذه مأخوذة من قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، والإيمان بالحكمة يستلزم التسليم التام للقضاء والقدر وللشرع أيضًا، فإذا آمنت بحكمة الله لزم من هذا: الاستسلام التام للقضاء والقدر وللشرع، لأنك إذا علمت أنه ما من شيء يفعله الله أو يشرعه الله إلا لحكمة، فإنك لا شك أنك ترضى بهذا وتقتنع، ولهذا أحياناً يقول لك القائل: ما الحكمة من وجوب كذا؟ ما الحكمة من تحريم كذا؟

نقول: هو الحكمة لأنه شرع الله، ولهذا عائشة لما قيل لها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ ما الذي استدلت به؟

قالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) [(١)]، فهذه من الحكمة.

مسألة: بالنسبة للأنبياء هل يجوز عليهم قبل النبوة أن يفعلوا شيئًا من الذنوب كالشرك كغيرهم من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؟

الجواب: لا يدل على هذا، لأن بعض المفسرين قال: آمن له مع إيمانه من قبل، واللام هذه تدل على الاتباع، والأنبياء قبل النبوة معصومون مما يخل بالشرع والمروءة، كالزنا واللواط والسرقة وما أشبه ذلك، وأما الشرك فلا أعلم أنهم وقعوا فيه أبدًا، وإن كانوا يعيشون في بيئة مشركة، فالنبي ﷺ ما عبد الأصنام أبدًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ﴾]، الهبة معناها الإعطاء بدون فوائد أو بدون عوض، فكل ما تفضل الله به على عباده بدون عوض تفضلًا منه، [﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بعد إسماعيل]، وإنما جعل الله يعقوب هبة لإبراهيم؛ لأنه ابن ابنه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أن هذا دليلاً على أن الجد أبٌ، لأن الله جعل ابن الإبن هبة لجده.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ذرية إبراهيم، وهنا خالف القاعدة في

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، وأبو داود (٢٦٣)، والنسائي (٢٣١٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٩٩٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الضمير، فعاد إلى المذكور الأول، والغالب أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، لكنه قد يخرج عن هذه القاعدة بحسب السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] ﴿هُوَ﴾ يعود على الله لا على إبراهيم مع أن إبراهيم أقرب مذكور.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ قدم الجار والمجرور وهو الظرف على المظروف وهي النبوة والكتاب؛ إشارة إلى الحصر، فلهذا قال أهل العلم: ما من نبي بعد إبراهيم إلا وهو من ذرية إبراهيم، ويُكنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأبي الأنبياء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ قال المؤلف: [فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى الكتب]، فهو مفرد يراد به الجنس، [أي: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان]، فالتوراة نزلت على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داوُد، والفرقان على محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قال: [وهو الثناء الحسن في كل أهل الأديان]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: أعطيناه، فهي تنصب مفعولين: أحدهما الهاء في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ والثاني: ﴿أَجْرَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ الأجر هو: العوض ـ عوض الشيء يسمى أجرًا ـ، ومنه الأجرة عوضًا للعامل عن عمله، وما هو أجره في الدنيا؟ هل نقول: إنه ما قاله المؤلف: [الثناء الحسن في كل أهل الأديان] أو هو ما أعم من ذلك؟

الصواب: أنه ما هو أعم من ذلك، من قرة عينه بأولاده وانتشارهم وكثرتهم، وكذلك الثناء الحسن، فكل الأديان ينتمون إليه ويريدون أن يكون منهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كما ادعت اليهود، ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما ادعت النصارى، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ثم حكم الله تعالى بين الطوائف فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بإن واللام.

قال المؤلف: [﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى]، والمراد هنا أعلى أنواع الصالحين، وهم الأنبياء أو الرسل، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح.

وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إذا جاءت الصالحون وحدها شملت كل الأجناس الأربعة: وهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والله أعلم.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية هذه:** أن الذرية التي يَمنُّ الله بها على العبد من منح الله عز وجل، لقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن ابن الابن ابنٌ، لأن يعقوب ابن ابن إبراهيم، وجعله الله تعالى موهوبًا لإبراهيم، ويدل لذلك قول النبي ﷺ في الحسن بن علي بن أبي طالب «إِنَّ ابْنِي[1] هَذَا سَيِّدٌ»[2]، والعلماء أجمعوا في باب الميراث أن ابن الابن بمنزلة الابن عند فقده، وهل يؤخذ من ذلك، أن أب الأب أبٌ؟ نعم لأن هذا هو قياس الطرد، وقلنا إذا كان ابن الابن ابنًا لزم أن يكون أبُ الأبِ أبًا، ولهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في زيد بن ثابت: (ألا يتقي الله زيد يجعل ابن الابن ابنًا ولا يجعل أب الأب أبًا)، وهذا هو الصحيح، أنه إذا كان ابن الابن ابناً فإن أب الأب أبٌ، هذا هو الصحيح، فيكون على هذا فيه دليل على سقوط الأخوة بالجد في باب الميراث.

٣- **ومن فوائد الآية:** بل مناقشة فيها، لماذا ذكر الله تعالى أن يعقوب موهوب لإبراهيم؟ قال المفسرون: لأنه ولد في حياته، فأقر الله عينه به وهو حي، كما قال الله تعالى عن امرأته: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

٤- **ومن فوائد الآية:** فضيلة إبراهيم وبركته، من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، وهذا هو النسل المبارك، أن يكون في ذرية الإنسان من يعطيه الله النبوة والكتاب، والنبوة بعد محمد ﷺ متعذرة مستحيلة، لكن الكتاب الذي هو العلم ممكن، فربما يجعل الله سبحانه وتعالى في ذرية الإنسان بركة في العلم ونشره، ومن ذلك قصة عبد الله بن أبي طلحة؛ حيث دعا النبي ﷺ أن يبارك الله لأبي طلحة في ليلته مع أهله، يقولون: إنه صار لعبد الله هذا عشرة من الأولاد كلهم يحفظون القرآن، وحفظ القرآن عند السلف ما هو بالأمر الهين، وليس كما هو عندنا الآن، أن الإنسان يحفظ القرآن ولكنه لا يرى عليه أثره، أما عند السلف إذا حفظ الإنسان القرآن ظهر عليه أثره بالسمت والآداب والأخلاق والأعمال الصالحة.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء، لقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾، وأنه قد يعجل للإنسان، إثبات الجزاء هذه واحدة، والثانية: أنه قد يعجل للإنسان، وتعجيل الجزاء للإنسان في الحقيقة لا يعد حرمانًا له من أجر الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وتعجيل الثواب للإنسان في الدنيا من نعمة الله على العبد، لأن الإنسان يرى أثر عمله فينشط على العمل، ويعتبر هذا من نعمة الله على العبد أن يريه أثر عمله، سواء كانت هذه الإراءة في أشياء خارجية أو

(١) المراد ابن ابنته ويطلق على ولد الولد أنه ابن.
(٢) رواه البخاري (٢٥٥٧)، وأبوداود (٤٦٦٢) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

في أشياء في نفس الإنسان أو في باطنه، من ذلك مثلاً من ثواب الأعمال الصالحة: أن يجد الإنسان في قلبه السرور والنور والارتياح للعمل الصالح، وهذه لا شك أنها من الثواب العاجل.

٦- ومنها: من الأشياء الخارجية أن ترى له مراءٍ سارة كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن ذلك عاجل بشرى المؤمن، أن الرؤية الصالحة يراها الرجل أو ترى له، قال النبي عليه الصلاة والسلام «إِنَّهَا مِنْ عَاجِلِ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[1] وقال الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾[يونس: ٦٣].

إذن يستفاد من هذه الآية: تعجيل الثواب في الدنيا، وينبني على هذه الفائدة فائدة أخرى: أن تعجيل الثواب في الدنيا من نعمة الله على العبد لما فيه من تنشيط الإنسان على العمل واستمراره فيه.

٧- ومن فوائدها: أن وصف الصلاح وهو أعم من وصف النبوة، يجوز أن يُوصف به النبي، يعني أنه يجوز الوصف بالمعنى الأعم دون الأخص، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والأنبياء في ليلة المعراج يقولون للرسول ﷺ مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح[2].

٨- ومن فوائدها: الثناء على إبراهيم، مؤكدًا بإن واللام في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فائدة: نحن ذكرنا أن عطية الأبناء منحة من الله، لكن في الحقيقة هذه المنحة قد تكون محنة إذا أضاع الإنسان حق الله فيهم، لكن إذا قام الإنسان بما يجب لله في أولاده فهم منحة بلا ريب.

إيراد: بالنسبة للمرأة التي كانت تصرع فقال لها النبي ﷺ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ لَكِ»، هذا ما فيه شيء بالنسبة للجزاء في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الرسول ﷺ فَهِمَ من هذه المرأة أن عندها نوعًا من الجزع، فلهذا وطّنها على أن تصبر، والصبر درجة عالية ما تنال بمجرد أن تصبر، فهذا هو السبب أن الرسول قال: «وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ[3] وَلَكِ الْجَنَّةُ[4]»[5]، وهذه بشرى للصابرين.

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وأحمد في مسنده (٢١٤١٧) من حديث أبي ذر ﵁.
(٢) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﵁.
(٣) على هذا الابتلاء.
(٤) أي درجة عالية فيها بمقابل صبرك.
(٥) رواه البخاري (٥٣٢٨)، ومسلم (٢٥٧٦) من حديث ابن عباس ﵄.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قال المؤلف: [واذكر لوطاً] فعليه يكون مفعولاً لفعل محذوف، والأمر بذكر هؤلاء الفضلاء من الأنبياء ليس لمجرد الثناء عليهم وإعلاء رُتبتهم بين الناس، ولكن لهذا الغرض ولغرض آخر وهو الاقتداء بهم واتباعهم والصبر كما صبروا.

وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءِإِنَّكُمْ﴾ قال: [بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما على الوجهين في الموضعين]

قوله: [بتحقيق] إلى آخره هذه في قراءة، تحقيق الهمزتين أن تقول: أَإِنكم، هذا التحقيق، والثاني يقول: [تسهيل الثانية] أَيِنكم، [إدخال ألف بينهما على الوجهين] آاِإنكم هذا على التحقيق، [وعلى التسهيل] آيِنكم، وقوله: [في الموضعين] في قوله: ﴿أإنكم لتأتون الرجال﴾.

هذه القصة كغيرها من القصص ترد في القرآن الكريم على وجوه متنوعة، فكيف نجمع بينها وهي قصة واحدة؟

نقول في الجمع: إن كان مما يمكن أن تتكرر فإنها تكون قد تكررت على الوجهين، وإن كان مما لا يمكن فإن الله تعالى يحكيها بالمعنى تارة كذا وتارة كذا، ولوط عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية، يقول الله عز وجل إنه قال: ﴿أإنكم لتأتون الفاحشة﴾ وفي آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] أو ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] هذا اختلاف كيف نجمع بينهما؟

نجمع بينهما بالوجه الأول، وهو: تعدد القول، فمرة يقول لهم كذا ومرة يقول كذا، وهذا لا إشكال فيه، ففي قصة فرعون قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] كيف نجمع؟

نقول: كلهم قالوا هذا وهذا، فإذا أمكن التعدد سواء من القائل أو بالقول حُمل عليه، وإذا لم يمكن فإنه يكون من باب نقله بالمعنى والله سبحانه وتعالى يتكلم به في كل موضع بما يناسبه وبما تقتضيه البلاغة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اللام في قوله ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لام التوكيد، وتأتون: بمعنى تجيئون، وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (أل) هي هنا للعهد يعني: الفاحشة المعلومة لديكم، ودخلت عليها (أل) لعظمها وقبحها، ولهذا جاءت في هذا المكان: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وقال أيضًا ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال أيضًا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]. فهذه ثلاث تعبيرات، في اللواط وصفه الله بالفاحشة بما نقله عن لوط، وفي باب الزنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفي نكاح المحارم قال: ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ [النساء: ٢٢]، إذن نكاح المحارم أعظم من الزنا، لأنه وصف بوصفين سيِّئين: الفاحشة، والمقت، واللواط: أقبح منهما من حيث الوصف، فإنه الفاحشة التي تُستفحش عند جميع الناس.

قال: [﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: أدبار الرجال]، - أعوذ بالله - أدبار الرجال هذه لا شك أنه فاحشة كلٌّ يستفحشها، فكل ذو عقل سليم فإنه يستفحشها، أما من نكس قلبه فلا تستغرب إذا قال: إنه ليس بفاحشة، كما أن الذين يعبدون الأصنام يرون أن ذلك منقبة وحسنة، هذا أيضًا نفس الشيء، فهم والعياذ بالله يستحسنون هذا الأمر، ومن عجب أن واحدًا منهم يأتي الذكر في حال شبابه، وهذا المأتي إذا كبر أتاه غيره، فيكون فاعلًا مفعولًا به، والاستفهام في قوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ [النمل: ٥٥] للإنكار والتوبيخ، وأكد هذا الإنكار باللام.

وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، و﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فاعل (سبق) لكنه بزيادة حرف الجر للتوكيد، أي: ما سبقكم بها أحدٌ، وقوله ﴿بِهَا﴾ هل نقول: إن الباء هنا بمعنى على؟ ما سبقكم عليها؟ لا، نقول: الباء على معناها، أي أنكم لم تسبقوا بها، بخلاف لم تسبقوا عليها، لو قال: عليها لكان هذا فيمن أدرك زمانهم وكانوا هم أسبق إلى هذا منه، أما إذا قال: من سبقكم بها، فهذا يقتضي السبق الزمن.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المؤلف: [الإنس والجن] الإنس لا شك فيهم، أما الجن ففيه مشكلة، لكن لو أخذنا بالعموم قلنا بعده والملائكة.

على كل حال: يجوز أن تكون العالمين عامة أريد به الخاص، أي: من بني آدم، ويجوز أن تكون عامة إلا فيما يخصصه العقل كما في الملائكة، ونقول: يشمل الجن والإنس، أما البهائم فهي ليست من العالمين؛ لأنها غير مكلفة.

هذا في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد زيادة التشنيع عليهم،

يعني: أنتم الذين سننتم هذه الطريقة، «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»[1]، كأنه يقول لهم: لو كنتم قد سُبقتم بهذه الفاحشة لكان لكم نوع من العذر، لكنكم ما سُبقتم بها فأنتم القدوة فيها والعياذ بالله.

الفوائد:

١- رفع ذكر هؤلاء الدعاة إلى الله، لأن قوله ﴿اذْكُرْ﴾ يعني: اذكره في موضع الثناء، رفع ذكر الدعاة إلى الله عز وجل من الأنبياء وغيرهم؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن في قصة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾[مريم: ١٦].

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة لوط عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائدها:** التركيز على الأمر الذي انغمس فيه الناس، وإن كان غيره أولى منه، فلوط الآن ما ركَّز على التوحيد في هذه القصة، وإلا ما من رسول إلا وهو يدعو إلى التوحيد، لكن ركز على هذا العمل السائر السائد بين الناس، وينبني عليه فائدة: وهي أن بعض الناس إذا رأى بعض الدعاة ينكر شيئًا معينًا انغمس الناس فيه، قال الناس أشد من هذا لماذا تتكلم على هذا، الناس في الفخ أكبر من العصفور، يعني: تتكلم مثلاً عن الملاهي أو عن الميسر أو عن الربا، يقول لك: لا تتكلم بهذا هناك ناس لا يصلون، لماذا لا تتكلم عن هذا الشيء؟

نقول: لا مانع أن يركز الدعاة على ما انغمس فيه الناس ولو كان غيره مما لم ينغمسوا فيه أهم منه؛ لأن المقصود علاج هذا الداء الذي استشرى في الناس.

٤- **ومن فوائدها:** فحش اللواط - والعياذ بالله - وهو إتيان الذكر الذكر، ولا ريب أنه من أعظم الفواحش.

وفي الآية الكريمة هنا ما ذكر حده، وكذلك السنة ما فيها أحاديث صحيحة صريحة في هذا الأمر - في حد اللوطي -، ولذلك اختلف فيه أهل العلم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن حده القتل بكل حال، يعني: سواء كان الفاعل والمفعول به محصنًا أو غير محصن، والمحصن: هو الذي تزوج وجامع في نكاح صحيح.

القول الثاني: قال بعض العلماء: إن حده كحد الزاني، يعني أنه إذا كان محصناً رُجم، وإن كان غير محصن فإنه يجلد ويغرب.

القول الثالث: وقال بعض أهل العلم: إنه لا حد فيه، وأنه يُكتفى بالرادع النفسي، وما كان خبيثًا في النفوس فإنه لا يكون عليه الحد، يكتفى فيه بالرادع، مثل البول، فالبول أخبث من الخمر

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

والخمر فيه حد، والبول ما فيه حد؛ لأن النفوس تنفر منه، وتستقذره، فاكتفي بالرادع الطبيعي عن الرادع التأديبي، هذه ثلاثة أقوال.

أما القول الأول: فاستدلوا بالحديث الذي جاء فيه هذا المعنى وهو قول النبي ﷺ «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ**»[1] وهو حديث أدنى أحواله أن يكون حسنًا، ثم إن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على قتل اللوطي الفاعل والمفعولِ به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار، وقال بعضهم: إنه يُرجم بالحجارة، وقال آخرون: يُلقى من أعلى مكان في البلد، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على أنه يُقتل الفاعل والمفعول به للحديث والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم وللمعنى وللقياس الصحيح؛ لأن هذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ ما يمكن التحرز منها، فإذا لم يكن لها رادع قوي استشرت في الناس ـ والعياذ بالله ـ وغلبت، هذه واحدة؛ ولأنها قتل للمعنى والرجولة، فإن الإنسان يكون بمنزلة المرأة، حتى إن بعضهم ـ والعياذ بالله ـ المبتلى بهذا الأمر يتجمل ولا يمكن أن يسلم الناس إلا بهذا الأمر.

أما القول الثاني: أن حده حد الزاني فهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وقالوا في ذلك: إن الحديث عندهم ما تقوم به الحجة، بمعنى أنه لا يصل إلى درجة يُستباح بها دم المسلم، إذن هو فاحشة بنص القرآن، فيجب أن يُلحق بالفاحشة بنص القرآن، ما الفاحشة بنص القرآن؟ الزنا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فعليه يكون هذا طريقه طريق الزنا، فيُرجم المحصن ويجلد غيره ويغرَّب.

أما القول الثالث فإنه حُكي عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ، ولكنه قول ضعيف جدًّا، وكونه مستقذر لا تألفه الطباع هذا حقيقة بالنسبة للطباع السليمة، لكن بالنسبة للطباع المهينة فإنها تألفه، هؤلاء أمة قوم لوط كلهم على هذا الأمر، فكيف أننا نقول الذي يستقذر في الطباع السليمة لا يردع بالتأديب، فهذا القول ضعيف جدًّا ولولا أنه قيل ما حكيناه، لكنه ضعيف للغاية.

٥- **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي ذكر ما ينفر عن العمل السيئ، لقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ووجه كونه منفرًا أنهم ليس لهم قدوة، فهم أول من ابتدعوه، وأيضًا: وآثام مَنْ بعدهم تكون عليهم، فهم ما لهم قدوة حتى يعذرون بها وكذلك آثام من بعدهم تكون عليهم.

ونحن نتكلم عن الفائدة هذه ما هو بالنسبة لهم هم، بل نحن نقول: إنه ينبغي ذكر ما ينفر عن العمل السيئ، فمثلاً نقول لهؤلاء القوم: أي ناس عملوا عملاً جديدًا نقول: هذا ما سُبقتم عليه، لِنوبخهم على أنه لا قدوة لهم ونحذرهم من أن يقتدى بهم.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣٢) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٨٩).

٦- **ومن فوائدها:** تأكيد الأمر المنكَر بما يقتضيه الأسلوب في اللغة العربية، لقوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وذلك مثل قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النمل: ٥٥] وإن: للتوكيد، واللام: للتوكيد، ولكن لابد هنا أن نطرح سؤالًا: كيف يؤكد هذا الأمر مع أنهم معترفون به؟ ذلك لأن التأكيد هنا للإنكار والتوبيخ، فالهمزة هنا للتوبيخ والإنكار، لكن كلامنا على التأكيد والمعروف في علم البلاغة أنه ما يؤكد إلا إذا كان منكِرًا أو مترددًا.

مسألة: قلنا إن الصحيح أن الخطاب يؤكد مراعاة لحال المخاطب وذلك لماذا؟

نقول: لأهمية الخبر، فمراعاة حال المخاطب أن يُجعل غير المنكر كالمنكر، فإن ممارستهم لهذا الفعل مشقة لأنهم ينكرون كونه فاحشة أم لا؟ حالهم تقتضي أنهم يستبيحون ذلك ولا يرونه منكرًا، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[المؤمنون: ١٥] إن واللام مؤكدة، الموت هل هو فيه شك؟ ما فيه شك، لكن قال ذلك من أجل أن فعل هؤلاء المشركين فعل المنكِر للموت، لأن من أقر بالموت فلابد أن يستعد له، فهؤلاء الذين قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فكونهم يمارسونها ولا يبالون بها ويرونها أمرًا سائغًا كالمنكرين لكونها فاحشة.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ هذه الجملة كالتقرير لما سبق في الجملة السابقة والتفصيل لها، قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، وظاهر الآية الكريمة أنه حتى الكبير - والعياذ بالله - يأتونه، والذكر إذا بلغ سمي رجلاً، وهذا فيه كناية عن الجماع، لأن القرآن يُكنى بل هو في اللغة العربية يكنى عما يستقبح ذِكْره بما يدل عليه، فيقال مثلاً: قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣] فعبر عن الجماع بالإتيان، وهنا عبر عنه أيضًا بالإتيان.

ثانيًا: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ السبيل: الطريق، وقطعهم الطريق له صفتان: الصفة الأولى قطع الطريق المعروف وهو أنهم يتعرضون للناس بالسَّلب والنهب والقتل، ويسمى عندنا في اللغة العامية: الحنشلة، الثاني قطع الطريق: أنكم تتسببون لعدم سلوك الطرق فيما تفعلون بأهلها، ولهذا قال: [طريق المارة بفعلكم الفاحشة بمن يمر بكم فترك الناس الممر بكم]، هذا أيضاً قطع طريق، فإذا مر أحد والعياذ بالله من الطريق تعرضوا له بالفاحشة، ما هو بأخذ المال والقتل والسلب والنهب لكن يفعلون الفاحشة فيه.

الثالثة: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ ناديكم: أي متحدثكم، فالنادي والمنتدى والندي، كلها أسماء لمكان الحديث والاجتماع بين الناس، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: [فعل الفاحشة بعضكم في بعض].

قوله: ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ المؤلف فسره بفعل الفاحشة، وعلى هذا يكون فيه تكرار، والأصح أن المنكر أعم من فعل الفاحشة وهو كل ما ينكر عرفًا أو شرعاً، ذكروا من ذلك أنهم يتلاكزون، يعني بعضهم يلكز بعضهم مع عجيزته، وذكروا من ذلك أنهم يتضارطون الضرطة المعروفة،

وذكروا من ذلك أيضاً أنهم يحلون أزرَّتهم، يعني: يدلِّعون لكن هذه منكرة.

فالمهم: أن نطق الآية على ما هي عليه، فـ ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كل ما ينكر عرفاً أو شرعاً، وكذلك الرمي حذف الحصى وما أشبه ذلك، وأنا عندي عام في كل شيء حتى أيضًا في الكلام الذي يتضمن السخرية والاستهزاء فهذا منكر، هل وجد في هذه الأمة ما يشبه ذلك؟

نقول: نعم وجد، لأن في هذه الأمة من عمل عمل قوم لوط، ومن هذه الأمة من إذا سألت عن مجتمعاتهم وجدتهم يفعلون مثل فعل لوط، منها السخرية والاستهزاء واللغط واللهو وغير ذلك، والنبي ﷺ يقول: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ[1] مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2].

ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ انظر ـ والعياذ بالله ـ بعد هذا التوجيه والإرشاد والإنكار عليهم كان هذا الجواب ـ جواب المستكبر المتحدي ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ جوابَ بالنصب على أنها خبر كان مقدمًا و﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ اسمها مؤخر، يعني: إلا قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه توعدهم بالعذاب فـ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ائتِ: فعل أمر والمراد به هنا التعجيز والتحدي، يعني: نتحداك أن تأتي بالعذاب الذي وعدتنا به.

وقوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال المؤلف: [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباح ذلك وأن العذاب نازل بفاعليه]، وهذه الجملة الشرطية جوابها قيل: إنها لا تحتاج في مثل هذا التركيب إلى جواب؛ للعلم به مما سبق، وقيل: إنه محذوف دل عليه ما سبق، والأصح: الأول وهو الذي اختاره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: إنه إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف فلا حاجة إلى تقديره؛ لأن تقديره نوع من العبث.

وقولهم له: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغ من قوله: إن كنت صادقًا، لأن كل إنسان يحب أن يكون من الصادقين، لكن لو قال:إن كنت صادقاً كان المعنى صادقًا في هذه المسألة بخصوصها، أما من الصادقين أي: الموصوفين بالصدق، وهذا أشد في التحدي، فكأنهم يقولون: إنك من عداد الكاذبين ولست من عداد الصادقين فإن كنت من عدادهم فأتنا بما تعدنا، ماذا كان جواب لوط؟

كان جوابه أن لجأ إلى الله عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿رَبِّ﴾ هذه منادى حذفت منها ياء النداء، وهي منصوبة؛ لأن أصلها ربي بالياء وحذفت الياء تخفيفًا.

مسألة: كلام المؤلف هنا خصه بكونه صادقًا فيما يدعيه أن هذا فاحشة، أو المعنى: إن كنت

---

(١)السنن هو الطريق .

(٢) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ (لتتبعن سنن) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

صادقًا في رسالتك على العموم؟

الجواب: كلام المؤلف ما فيه مانع، لكن الأقرب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في وعيدك إيانا، لأنهم هم قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما تواعدتنا به.

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية: بيان عتو هؤلاء القوم واستكبارهم.

٢- في هذه الآية دليل على: أن الداعية ينبغي أن يذكر جميع الأوصاف السيئة التي عليها المدعو ليكون ذلك أبلغ في توبيخه وردعه، لأنه ذكر عدة أوصاف.

٣- ومن فوائد الآية: ما كان عليه قوم لوط من الشر والفساد غير الفاحشة التي هي اللواط، وهي قطع السبيل وإتيان المنكر في ناديهم.

١- يستفاد من هذه الآية: بيان عتو هؤلاء القوم واستكبارهم.

٤- ومن فوائدها: الدلالة على أن لوطًا قد حذرهم من عذاب الله، لقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومن فوائدها: أنه ينبغي للداعية أن يدعو مبشرًا ومنذرًا، ولا يقول: إني إذا أنذرت نفَّرت، لأن الإنذار قد يكون لابد منه.

٦- ومن فوائدها: أن مجرد الإقرار بالله لا يدخل الإنسان في الإيمان فإن هؤلاء كانوا مقرين بالله، لقولهم: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وليس مجرد كون الإنسان يؤمن بأن للخليقة ربًّا مدبرًا لا يدخله هذا في الإيمان.

٧- ومن فوائدها: أنهم مكذبون له، لأنهم قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أولًا: أن مادة نصرَ تتعدى أحيانًا بمن وأحياناً تتعدى بعلى، فإن تعدت بمن فمعناها المنع، كما في قوله الله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ نصرناه منهم، أي: منعناه منهم، وإن تعدت بعلى صار معناها الظهور والغلبة، وأحيانًا ما تتعدى بمن ولا بعلى، فتشمل المعنيين كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٦] نصرناهم ما قال من ولا على، فلها ثلاث استعمالات الآن: تارة تتعدى بمن، وتارة تتعدى بعلى، وتارة تأتي مطلقة، فإذا تعدت بمن فمعناها: المنع والإنجاء، وإذا تعدت بعلى فمعناها: الغلبة والظهور، وإن أُطلقت: شملت الأمرين، وهو كثير في القرآن هذا وهذا وهذا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]

وأمثلتها كثيرة.

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٧] الظاهر: أنه يشمل الثلاثة، يعني يشمل ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تمنعوا دينه من الاعتداء عليه، وكذلك تنصروه بمحاولة إعلاء هذا الدين، وقال الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] هذا المنع، وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] هذا الظهور..

وقوله: ﴿ٱنصُرْنِى﴾ قال المؤلف: [بتحقيق قولي في إنزال العذاب، ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ العاصين بإتيان الرجال فاستجاب الله دعاءه].

قوله: ﴿ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ذكر حال المدعو عليهم من باب التوسل، لأن كل وصف يستوجب الإجابة فإنه يعتبر وسيلة، وقد ذكرنا فيما سبق أن التوسل إلى الله أنواع:

منها: التوسل بذكر حال الداعي كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وهنا بحال المدعو عليه قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن إفسادهم يقتضي إهلاكهم، والذل والغلبة عليهم والظهور عليهم.

وقوله ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بأي شيء هم مفسدون؟ يقول المؤلف: [العاصين] وهذا تفسير للشيء بسببه، لأن المعصية سبب الفساد، قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] ولا شك أن فعل قوم لوط من أعظم الفساد في الأرض.

الفوائد:

١- يستفاد من هذه الآية: ضرورة لجوء الإنسان -مهما علت منزلته- إلى ربه.

٢- ثانياً: إثبات ما يستلزمه الدعاء، ودعاء الله يستلزم أمورًا فيستلزم علمه؛ لأن من لا يعلم لا يدعى ولا يستطيع أن يأتي بها دُعي.

ويستلزم أيضاً: إثبات السمع.

ويستلزم أيضًا: إثبات القدرة؛ لأن من لا يقدر لا يُدعى، لو رأيت شخصًا مريضًا أو أشل لا يمكن أن تقول: ساعدني جزاك الله خيرًا على حمل هذه الحمولة على رأسي؛ لأنه مريض.

ويستلزم أيضًا: الرحمة؛ لأن من لا يرحم لا يُدعى بل يُخشى منه.

ويستلزم كذلك: الكرم لأن من ليس بكريم لا يؤمل فلا يدعى.

يكفي ما ذكرنا وربما يظهر للإنسان عند التأمل أكثر من ذلك.

٣- ومن فوائدها: أن اللُّواط من الإفساد في الأرض، لقوله ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٤- ومن فوائدها: ظهور التبرؤ منهم، أن لوطاً تبرأ، تؤخذ من قوله ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يقل على قومي، مع أنه بالأول مضاف إليه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ لكن هو عليه الصلاة والسلام قال: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ ولم يضفهم إلى نفسه، وهذا ظاهر منه التبرؤ.

٥- ومن فوائدها: في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ أنه ينبغي للداعي أن يبدأ باسم الله ويحذف ياء النداء، ولا يصلح أن تقول: يا ربي. قال الرسول ﷺ «يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ»[1].

٦- يستفاد منه أيضًا وهذه فائدة مهمة: جواز الدعاء على القوم إذا أُيس من صلاحهم وتمردوا تمردًا بالغًا، ولهذا لما قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تحدوه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠]، وأيضًا نوح عليه الصلاة والسلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] والنبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ[2]»[3]، لكن الرسول ﷺ قيد، لأن سني يوسف سبع سنوات، مع أن قوله ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هو ظاهر في الدعاء عليهم، لكنه إذا تأملنا الآية وجدنا أنه يقصد النصر عليهم بما تحدُّوه به، وهو قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن مجرد قوله: ﴿ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا تدل على أنه دعا عليهم، لكنه لما كانوا قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فهذا هو النصر عليهم، قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فالنصر عليهم أن يظهر صدقه فيما توعدهم به.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ (لما) هذه من أدوات الشرط غير الجازمة، وهي تجزم الفعل إذا كانت للنفي وليست للشرط كما في قوله تعالى ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي: لم يذوقوا لكنه العذاب قريب منهم، لأنها هي تنفي الفعل، لكن تدل على توقعه، وهذا من الفروق بينها وبين (لم)، المهم أنها لا تجزم إلا إذا كانت للنفي، أما إذا كانت شرطية فإنها لا تجزم مثل إذا ولو وغيرها، وجواب الشرط في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾ قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ الباء هنا للمصاحبة، أي: مصطحبين

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» (١٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٧٢١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في القحط والمحنة والبلاء.

(٣) رواه البخاري (٧٧١)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للبشرى، والبشرى بمعنى البشارة، والبشارة: هي الإخبار بما يسرُّ، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] واستعمالها فيما يسوء، قيل: إنه من باب التهكم بالمبشَّر، ولكنه ضعيف، ولكن وجه كونه بشارة هو أنه يؤثِّر على بشرة المخاطَب به، كما يؤثر الخبر السار عليه.

قال المؤلف: [﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب بعده]، ما الدليل على أن المراد بالبشرى خصوص هذه المسألة؟

نقول: الدليل قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، ولهذا لا نقول: إن المراد بالبشرى هنا البشرى بالوَلَدَيْنِ وبالعقاب، لأن ظاهر الآية ينافي أن يكون العقاب مما بُشِّر به إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ هذه الجملة مؤكَّدة، و﴿مُهْلِكُوا﴾ خبر إن وحذفت النون من أجل الإضافة.

قال المؤلف: [﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي: قرية لوط]، وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ الإشارة للتعيين، وكأن القرية قريبة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا أشاروا إليها باسم الإشارة، والقرية تطلق على مكان القوم ومساكنهم، وكذلك تطلق على نفس القوم الساكنين، يعني تطلق على هذه وهذه، كما جاء في القرآن العظيم مرادًا به ذلك هذا وهذا، والذي يعين أحد المعنيين السياق، فمثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ما المراد بالقرية؟ مكان القوم، ومثل قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[الحج: ٤٨] المراد أهلها.

وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] ليس فيه مجاز، بل المراد أهلها؛ لأن السؤال لا يتوجه إلا إلى عاقل يدرك ويجيب.

هنا يقول: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ما المراد بالقرية هنا؟ المكان لأنه قال: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ والقرية ليست كالمفهوم العرفي هنا في عرفنا أنها اسم للبلد الصغير، بل القرية في اللغة العربية تشمل حتى أكبر المدن، فمكة سماها الله قرية، وما هو أعظم من مكة سماه الله قرية، قال الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد:١٣].

فعلى هذا إذا سميت بلدك بالقرية تجزع وتصيح أم لا؟

نقول: حسب العرف نعم أجزع، أما إذا كان الذي يخاطبنا أناس من أهل اللغة العربية يفهمون ما هنا، ولذلك عندنا الآن يقال: المدن والقرى، ويقال: المدينة وما يتبعها من القرى.

نقول: أهل هذه القرية أي قرية لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أخبروا وعللوا، فقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ وعللوا هذا الإهلاك بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال المؤلف: [كافرين] فالظلم هنا ظلم كفر مع أن الظلم قد يكون كفراً وقد يكون

غير كفر، من كون الظلم كفراً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ومن كون الظلم غير كفر: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] هذه في سياق صفة المتقين؛ فإذن الظلم تارة يُراد به الكفر وتارة يراد به ما دونه، والذي يعين المراد هو السياق، ولهذا في الحقيقة قد يُشكل على بعض الناس إنكار شيخ الإسلام وابن القيم أن يكون في اللغة العربية مجاز، وقالوا: هذا غير معقول لأن اللغة العربية مملوءة بالمجاز، لكن من تدبر أن الألفاظ ما يتحدد معناها إلا بالسياق وأن السياق هو الذي يحدد المعنى عرفوا وجه كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وابن القيم وغيرهم، والناس في هذه المسألة كما ذكرنا لكم سابقًا على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه ما في مجاز في اللغة العربية أبداً.

والقول الثاني: في مجاز في اللغة العربية لكن لا مجاز في القرآن خاصة.

والقول الثالث: في مجاز في القرآن وفي اللغة العربية، حتى إن بعض العلماء - من علماء اللغة لا أذكر اسمه - قال: إن اللغة كلها مجاز، فإنك إذا قلت: قلتُ قولاً، فإن قولًا نعربها على أنها مفعول به، والمفعول به لابد أن يكون شيئًا يرى حتى يقع عليه الفعل، والقول ما هو يرى، فيكون قلت قولًا مجاز، ويصرفون كل الكلام يقولون كله مجاز، وليس في اللغة شيء حقيقة - أعوذ بالله - وهذا مبالغة.

فالصواب في هذه المسألة: ما اختاره شيخ الإسلام وأن الكلمات ليس لها معنى ذاتي خلقت له بل لا يتحدد معناها إلا بالسياق.

الفوائد:

١- هذه الآية دليل على أن الله أجاب دعاء لوط يؤخذ من قول الرسل: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات أن الملائكة رسل، لقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وفي القرآن في سورة فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وهل المراد أن كل ملك فهو رسول، أو أن منهم رسلاً؟

الظاهر: أن منهم رسلًا؛ لأن من الملائكة من هو قائم، راكع لله، ساجد، ومنهم من يرسلهم الله.

٣- **ومن فوائدها:** أن الرسول يطلق على البشر والملك، بخلاف النبي فإنه لا يطلق إلا على البشر، فيكون الرسول أعم من حيث متعلقه، يعني: يكون للبشر وللملك، وفي القرآن الكريم قال الله عز وجل عنه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فالرسول

الأول في سورة التكوير جبريل، والثاني محمد ﷺ.

٤- **ومن فوائدها:** أن من طبيعة البشر الفرح بالولد، تؤخذ من قوله ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾[هود: ٦٩].

٥- **ومن فوائدها:** أن الفرح بالولد لا ينافي كمال المرتبة، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام من الكُمَّل من الرسل، ومع ذلك استبشر بالأولاد وفرح بهم، فلا يقال إن الفرح بالأولاد ينافي الكمال.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحًا أو عقولًا كما ادعاه بعضهم، فكيف نقول: إنهم أرواح وعقول وهم لهم أجنحة ويأتون ويذهبون ويقولون، جبريل رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح[1] قد سدَّ الأفق[2]، ولكن نعم هذه الأجسام ليست كأجسام بني آدم، فإن فيها من الخفة والقوة ما ليس لبني آدم والله سبحانه وتعالى قد يجعلهم على صور غير الصورة الأصلية، مثلما جاء جبريل بصورة دِحْية الكلبي وبصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر إلى آخره.

كذلك الجن قال بعض الناس الذين يقرون بهم؛ لأن من الناس من أنكر الجن، وإنكار الجن كفر بلا ريب، ومن الناس من أقر بالجن لكن قال: إنهم أرواح وليسوا أجسامًا وهذا أيضاً خطأ، والصحيح: أنهم أجسام في المتعين لأنهم يأكلون كما ثبت في الحديث: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً**»[3].

إذن من هذه الآية نستفيد: أن الملائكة أجسام وليسوا مجرد أرواح ومعانٍ وعقول.

٧- **ومن فوائد الآية:** أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعظم منزلة من لوط، ولهذا جاءت الملائكة إليه أولاً وأخبروه بأنهم مهلكو أهل هذه القرية.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الهلاك في الأصل إذا جاء يشمل الصالح وغير الصالح، لقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فلولا أنه يشمل الجميع ما نبههم على هذا، بل إن الله تعالى ذكر ما يدل على ذلك صريحاً فقال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤].

٩ - **ومن فوائدها:** أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما أخبروه بأنهم سيهلكون أهل هذه القرية بينوا السبب من أجل أن يطمئن إبراهيم، في قولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** جواز إضافة الحكم إلى سببه، لقوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ لأن الذي يهلكهم حقيقة هو الله كما قال الله تعالى ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٧٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١٧٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم (٤٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٣٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ظَالِمَةٌ ﴾[الحج: ٤٥].

لأن إضافة الشيء إلى سببه المعلوم حسًا وشرعًا جائز مثل ما في هذه الآية وآيات كثيرة وأحاديث كثيرة تضيف الأشياء إلى أسبابها.

حتى قال الرسول ﷺ في عمه أبي طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ(١) الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(٢).

(لولا أنا)، إذا أضيف الشيء إلى سببه المعلوم حسًا أو شرعًا، لكن مع الله بحرف يقتضي التسوية كان ذلك شركًا: شركًا إما أصغر، وإما أكبر قد يصل إلى حد الأكبر إذا اعتقد أن له تأثيرًا كتأثير الله ـ عز وجل ـ وإذا أضافه إلى الله وإلى غيره بحرف يقتضي الترتيب، فإن كان (ثُمَّ) فهو جائز؛ لقول النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئتَ، قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٣).

وإن قرنه بحرف يقتضي الترتيب والتعقيب كالفاء مثلًا: لولا الله ففلان. فهل هذا صواب ؟

عندنا ثلاثة حروف: الواو واضح أنها حرام وشرك، وثُمَّ جائزة، والفاء الحقيقة الفاء يتنازعها أمران: إذا رأينا أن الترتيب موجود فيها قلنا بالجواز، وإذا رأينا الفرق بينها وبين ثُمَّ التي دلت النصوص على جوازها وأن ثم تدل على التراخي والمهلة وبُعد الثاني عن الأول قلنا: إنه ينبغي ألا نجوزها، ولا ريب أن الاحتياط التورع عنها أحسن، وإن كانت لا شك أن تفيد الترتيب، ولكن بينها وبين ثم فرق.

والحمد لله ما من شيء محرم إلا والمباح أكثر منه وأضعافه، ولكن يحتاج الناس إلى تنبيه من الداعي.

فائدة: بعض الناس يقول للناس مثلًا وهو يعظهم أو يرشدهم: هذا حرام، ولا يجوز، لكن لا يفتح لهم بابًا يسلكونه، وهذا خلاف الدعوة الصحيحة، ونحن ذكرنا أن الإنسان إذا ذكر الباب الممنوع للناس فإنه من تمام الدعوة والإصلاح أن يذكر لهم الباب المتاح المفتوح وقلنا: إن هذا هو ما دل عليه الكتاب والسنة.

ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ هذا ممنوع، ولكن: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤] ففتح لهم بابًا.

وفي السنة قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام لبلال: «بِعِ الْجَمْعَ(٤) بِالدَّرَاهِمِ» لما منعه شراء

(١) طبق من أطباق جهنم وأسفل كل شيء ذي عمق ويقال لما انخفض درك كما يقال لما ارتفع درج.

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩) من حديث عبدالله بن عباس ﷺ.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٠٦٣) من حديث ابن عباس ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٤) الرديء أو الخليط من التمر.

الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة قال: «ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمَ جَنِيبًا(١)»(٢).

فكون أننا نقول للناس: هذا الشيء محرم ثم لا نفتح لهم بابًا هذا في الحقيقة نقص في الدعوة.

١١- ومن فوائد الآية: أن كلمة: ﴿أَهْلِ﴾ في هذه الآية من الناحية اللغوية تعم الذكور والإناث.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، ﴿لُوطًا﴾: هذه منصوبة؛ لأنها اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر.

﴿قَالُوا﴾ أي: الرسل ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾.

قوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ كلمة: ﴿أَعْلَمُ﴾ ظاهرها أنها اسم تفضيل و﴿أَعْلَمُ﴾ وإن كانت اسم تفضيل فالمفضل عليه قطعًا من إبراهيم، لكن ما وجه ذلك؟

وجه ذلك: أن مثل هذا التعبير يُخاطب به من يراد إعلامه بها عند المتكلم، كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «نَحْنُ أَوْلَى بالشَّكِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»(٣)؛ فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «نَحْنُ أَوْلَى بالشَّكِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»(٤) اسم التفضيل هنا باعتبار المفضل والمفضل عليه هل فيه شك؟ لا، لكن المعنى: أنه لو كان في إبراهيم شك كنا أولى منه، فكما أننا نحن لا نشك فإبراهيم لا يشك، فالمعنى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ يعني: كما أنك أنت عالم فنحن عندنا علم بذلك.

وهنا ليس فيها محظور إذا كانت على سبيل العموم، يعني معناه: أن إبراهيم قد لا يعلم كل ما فيها، لكن لوطًا هو مخاطب عنه، فإذا قلنا باعتبار المكنون لوط وقومه فلا مانع أن تكون الملائكة أعلم من إبراهيم؛ لأن إبراهيم لا نجزم بأنه يعلم بكل من فيها، لكن إذا قلنا المراد ما وقع عنه أو

---

(١) نوع جيد من أنواع التمر.

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٩)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١) بلفظ (نحن أحق بالشك) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هو سابقه.

ما وقع فيه الاعتراض وهو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ صار المعنى على بابه: فيكون المعنى: إننا نحن عالمون كما أنت عالم.

وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ يعني: يشمل لوطًا وغيره؛ لأن (من) اسم موصول من صيغ العموم.

وقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾: بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان: (نُنَجِّي) من المضعَّف (نَجّى)، (نُنجِي) من المزيد بالهمزة من (أَنجى) وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ النجاة معناها الإنقاذ من الهلكة، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ معطوفة على الضمير.

وجملة ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر واللام، ونون التوكيد.

وقوله: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستثنى من قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾، والمراد بها هنا: الزوجة، ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي الباقين في العذاب.

وقوله: ﴿كَانَتْ﴾ نقول: فعل ماضٍ مسلوب الزمنية، كما قلناه في عدة آيات مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤].

فقدمنا أن: ﴿وَكَانَ﴾ في مثل هذه الآيات مسلوبة الزمنية، والمراد اتصاف اسمها بخبرها، هنا: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ هل نقول: إن المراد بين أنها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فقط أي: أنها مسلوبة الزمن، أو نقول: إن كانت دالة على الزمن، والمراد: ﴿كَانَتْ﴾ في علم الله ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؟

نقول: كلاهما محتمل؛ فإن شئت تقول: كانت في علم الله من الغابرين، وإن شئت فقل: كانت أي أنها اتصفت بكونها من الغابرين أي: الباقين في العذاب يعني: فليست ناجية.

مسألة: يقال: امرأة فلان أو زوجه فما الفرق؟

الجواب: لا فرق في المعنى، يقال: امرأة فلان يعني: زوجته.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: رأفة إبراهيم وحلمه؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وكأنه - عليه الصلاة والسلام - يريد ألا تُهلك هذه القرية؛ لوجود هذا الرجل الصالح - هذا احتمال -، واحتمال أنه أورد هذا الإيراد ليعرف ماذا تكون حال لوط وأيهما أرجح؟

الإيراد الآن يحتمل أنه قال ذلك ليرفع العذاب عنهم بسبب هذا الرجل الصالح، ويحتمل أنه أورد هذا ليظهر كيف تكون حال لوط؟

الجواب قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ هذه الآية عندي أنه يرجح الثاني، ماذا تفعلون بهذا الرجل؟!

وهناك دليل منفصل يؤيد القول الأول وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤].

إذن نقول: إنه أراد هذا وهذا فما يمنع أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال هذا لغرضين وعلى كل ففيه دليل على رأفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا مشهور عنه حتى إنه قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

٢ـ ومن فوائد الآية: إثبات القول والعلم للملائكة مما يدل على أنهم ذوو عقول ونطق خلافًا لمن قال: إنهم لا عقول لهم، وهذا من أغرب ما يكون أن يكون هؤلاء الملائكة الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، والذين يصفهم الله بأنهم عباد مكرمون يقول: إنهم لا عقول لهم فمن له عقل بعد ذلك؟! وخلافًا أيضًا لمن قال: إنهم أرواح ليسوا أجسادًا؛ لأن ظاهر الحال أنهم أجساد يتكلمون وينطقون ولهم عقل ونطق.

٣ـ ومن فوائد الآية: جواز إضافة الشيء إلى سببه كقوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ومعلوم أن الإنجاء من الله لكن لما كانت هؤلاء الرسل رسل الله أضيف إليهم فعل الله، أي أن ما قدره الله فهو فعلهم، ففيه إضافة الشيء إلى سببه وقد تقدم لنا أن إضافة الشيء إلى سببه له أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن يضاف إلى السبب بدون ذكر الله.

والثاني: أن يضاف إلى السبب مع الله بالواو.

والثالث: أن يضاف إلى السبب مع الله بـ (ثُمَّ).

والرابع: وأن يضاف إلى السبب مع الفاء.

القسم الأول جائز والدليل على جوازه: قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أبي طالب: **«لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**(١).

والحقيقة: أن الذي منعه أن يكون في الدرك الأسفل من النار الله ـ عز وجل ـ، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبب.

وإذا أضيف السبب مع الله بالواو لا يجوز و الدليل: قول الرجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: **«أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟»** (٢) وهذا يحتمل أن يجعل السبب مساويًا لله ـ عز وجل ـ إذنْ هذا الحكم لا يجوز، لكن ما يكفي أن نقول: لا يجوز، فإنه قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون أصغر بحسب ما يقوم بقلب هذا المتكلم.

فإذا كان مضافًا إلى سببه مع الله بثمَّ جاز، والدليل فيها حديث قتيلة عن الرؤيا التي رآها رجل من المسلمين مع رجل، وحديث ابن عباس أظهر كما نقول هذا دل عليه حديث قتيلة وفي سنده نكشف عن صحته من عدم صحته وكذلك أثر ابن عباس، وهو مشهور في قول الله تعالى: ﴿فَلَا

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

تَجعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

ثم التعليل: أن ثم دل على تأخُّر المعطوف عن المعطوف عليه تأخرًا كثيرًا، يعني: ثم تدل على الترتيب بمهلة.

وإذا قرنه مع سببه بالفاء فهي تخالف الواو، وتخالف ثم، فـ(ثمَّ) ورد جوازها والواو ورد منعها، أما هذه فقد قلنا: الأولى للإنسان تركها وأن يعدل عنها.

٣ـ ومن فوائد الآية: أن الزوجة داخلة في الأهل، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾.

وهذا من المستثنى المتصل لا المنقطع، ولولا ذلك ما احتيج إلى إخراجه، إذنْ ينبني على هذه الفائدة فائدة وهي: أن أزواج النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل بيته ولا شك خلافًا للروافض الذين يخرجون زوجاته من أهل بيته، وفي القرآن ما يدل على ذلك تصريحًا أن أزواج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أهل بيته، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٢ـ٣٤].

إلى قوله: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ وهذا واضح وصريح.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الاتصال بالصالح لا يستلزم منه أن يكون المتصل صالحًا، صحيح أن الاتصال بالصالح من أسباب الصلاح لكنه ليس بلازم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ فكانت من الهالكين أو الباقين في الهلاك مع أنها امرأة رجل صالح نبي من الأنبياء، فلا تُدل الزوجة على ربها بصلاح زوجها، وقد وردت مثل هذه المسألة في قصة التحريم في سورة التحريم وأنه يجب ألا تُدل زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الله بكونهن زوجات للنبي.

مسألة: هل امرأة لوط خرجت معه؟

الجواب: نعم ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] ليس مستثنى من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ﴾، بل مستثنى من الجملة التي قبلها، وهذه قد مرت علينا ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ وذكرنا اختلاف العلماء هل هذا مستثنى من الجملة الأخيرة أو هذه.

٥ ومن فوائد الآية: جواز القسم بدون استقسام، تؤخذ من قوله: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

٦ـ ومن فوائدها أيضًا: اعتبار القسم المقدر بمعنى أنه لا يشترط في القسم أن تنطق به.

لو قال قائل: لأفعلن كذا هل يكون مُقْسِمًا؟

نعم يكون مقسمًا، لأنه معروف أن هذه الجملة تكون جوابًا لقسم مقدر فيكون مقسمًا، ولو قال: لئن آتاني الله من فضله لأصدقن يكون مقسمًا، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]

فجعلوا هذا نذرًا وذلك لأن النذر ليس له صيغ معينة، فكل ما دل على الالتزام فهو نذر بأي صيغة، وقد يكون نذرًا مقرونًا بالقسم فيفيد التوكيد.

مسألة: جملة: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ هل يفيد أن وجود الصالحين يمنع العذاب عنهم؟

الجواب: ربما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٣، ٣٤]

❁ التفسير ❁

نقول في: ﴿وَلَمَّآ﴾ ما قلنا فيما سبق، وقوله: ﴿أَن جَآءَتْ﴾، ﴿أَن﴾ هذه يقولون: إنها زائدة، ﴿أَن﴾ زائدة للتوكيد، وكل حرف زائد في القرآن فإنه للتوكيد حسب السياق ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ يعني: تحقق مجيئهم له: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قال: [حزن بسببهم].

قوله: ﴿سِىٓءَ﴾: هذه فعل ماضٍ مبني للمفعول، والمبني للمفعول يضم أوله إلا إذا كان معتلًا مثل: قيل، وبيع، يقول ابن مالك:

وَاكْسِرْ أَوِ اشْمِمْ فَاثُلاثي أُعِلّ عَيْنًا وَضَمٌ جَا كَـ «بُوع» فَاحْتمل[1]

إنا نعرف أن ننطق بالكسر الخالص، وبالضم الخالص، فنقول: قول لكن الإشمام صَعْبٌ علينا.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ١١٤).

وقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أفاد المؤلف في قوله: [بسببهم] أن الباء للسببية: أي لحقه السوء بسببهم ـ والله أعلم ـ.

إذا كان (أن) أو غير (أن) حذفت واستقام الكلام فهي زائدة، هي الغالب إذا حسب ما في القرآن أنها تأتي زائدة.

إذن قوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ هو جواب لـ (ما) و ﴿سِيٓءَ﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول ونائب الفاعل يعود إلى لوط أي: حصلت له المساءة، وقوله: ﴿بِهِمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسببهم.

وإذا جعلت الجار والمجرور نائب فاعل فقد عديته؛ لأن نائب الفاعل معناه في الأصل مفعول به فمعنى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: هو ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾، أي: حصلت له مساءة، أو إصابة السوء، أما ساء في الأصل فتكون متعدية إذ تقول: ساءني هذا الشيء، وساءني في هذا الخبر، كما تقول سرني.

وقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ إعراب ﴿ذَرْعًا﴾ هذا تمييز محول عن الفاعل، والتمييز كما مر علينا يكون محولًا عن الفاعل وعن المفعول به، مثال المحول عن المفعول به قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]. فهذا تمييز محول عن المفعول، وأصله: وفجرنا عيون الأرض.

ومثال المحول عن الفاعل: هذه الآية أو أن تقول مثلًا: انشرح بهم صدرًا، أي: صدره، وهنا: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أصله ضاق ذرعه بهم وما هو الذرع؟

فسره المؤلف بالصدر، قال: [﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ صدرًا]، أي: ضاق صدره بهم ولم ينشرح بل حصل له همٌّ وغمٌّ بذلك.

وقيل **وهو الصحيح**: إن الذرع بمعنى: الطاقة. أي: ضاق بهم طاقة، فصار غير متحمل لهم وهذا موجود في اللغة العربية، فسميت الطاقة ذرعًا من الذراع لأن الذراع محمل الحمل، والطاقة هي التي بها يستطيع المرء أن يحمل أو لا يحمل.

قال: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ العلة لأنهم كانوا حِسان الوجوه في صورة أضياف فخاف عليهم قومه فأعلموه أنهم رسل ربه؛ وهذا هو السبب أنه ضاق بهم؛ لأن قومه ـ كما ذكرنا في السابق في آية أخرى ـ لما سمعوا بذلك: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود:٧٨] يعني: مسرعين ـ والعياذ بالله ـ يريدون هؤلاء الأضياف، وهذا من فتنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للعبد أن يجعل الأمور المحرمة عليه في صورة تهواها نفسه؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب، فهم ـ والعياذ بالله ـ لما جاء هؤلاء، جاءوا إلى لوط يريدونهم فكان يقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨].

فهو ضاق بهم خوفًا عليهم من قومه؛ لأن قومه كما قال الله تعالى ـ أهل خبث ـ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤].

لكنهم قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ فالخوف عما يُتوقع حدوثه في المستقبل، والحَزَن عما وقع في الماضي، قالوا: وقد يطلق الحَزَن على المستقبل ومثلوا لذلك بقول النبي ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[1] فكلام النبي معناه: لا تخف على أنه يحتمل أن تكون على بابها وأنه لا تحزن مما حصل من خروجنا ودخولنا إلى الغار.

أو أنه خشي أن يشمله العذاب فخاف: ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[هود:٧٧]، بمعنى: هل ما حصل له من كونه: ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ هل السبب الخوف عليهم من قومه، أو السبب أنه خاف أن يعمه العذاب؟ الأول.

على كل حال: يصلح أن تكون استئنافية وتعليلية وما المانع أن يكون يخاف هذا وهذا؟

وقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ قراءتان.

يعني: مُنْجُوك ومنَجُّوك، مُنْجُوك من الفعل الماضي أنجا، ومنَّجوك: نجَّا.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ هنا بالنصب عطفًا على الضمير في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، وهنا إشكال بأن الضمير في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ محله الجر بالإضافة، وهنا جاءت: (أهلَ) منصوبة، فما وجه النصب فيها؟ إذا قلنا: إنها معطوفة على الكاف في: ﴿مُنَجُّوكَ﴾

لأن اسم الفعل تارة يعمل عمل الفعل وتارة يكون مضافًا؛ لهذا قال ابن مالك.

وَاجْرُرْ أَوِ انْصِبْ تَابعَ الَّذِي انْخَفَضْ ... كَمُبْتَغِي جَاهٍ وَمَالًا مَنْ نَهَضْ[2]

ويجوز كمبتغي جاهٍ ومالٍ من نهض، إذنْ: هذه مثل مالًا.

ويجوز أن تكون الواو للمعية، وقد قال ابن مالك:

يُنْصَبُ تَالِي الوَاوِ مَفْعُولًا مَعَه

إذن نقول نصب ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يكون عطفًا على محل الكاف.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤].

قوله: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ قال: [بالتخفيف والتشديد] فـ ﴿مُنْزِلُونَ﴾، و ﴿منزِّلون﴾.

[﴿عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾].

قوله: ﴿رِجْزًا﴾ قال المؤلف: [عذابًا]، والرجز غير الرجس، فالرجز: العذاب، والرجس: النجس.

وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ هل المراد بالسماء السقف المحفوظ أو العلو؟

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) شرح ابن عقيل (٣/ ١١٨).

سواء قلنا: إنه السقف المحفوظ وأن هذا العذاب نزل من السماء الدنيا، أو قلنا: إنه المراد به العلو، فعلى كل حال قد أتاهم من فوق، وكونه يأتي من فوق أشد وأبلغ؛ لأن ما يأتي من فوق يكون عاليًا ومحيطًا ـ والعياذ بالله ـ بخلاف الذي يأتي من أسفل فإنه لا يكون كذلك.

قال: [﴿بِمَا﴾ بالفعل الذي ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ به، أي: بسبب فسقهم].

كلام المؤلف غريب وفيه شيء من التنافر، الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ للسببية لا شك، و(ما) أعربها على أنها اسم موصول، ثم قدَّرها بالمصدر مما يدل على أنه جعلها مصدرية وهذا من الغرائب.

وقوله: ﴿بِمَا﴾ قال: [بالفعل الذي]، فتكون (ما) اسمًا موصولًا صفة لموصوف محذوف تقديره: بالفعل.

والاسم الموصول يحتاج إلى جملة تكون صلة ويحتاج إلى عائد يربط الجملة به، فجملة الصلة قوله: ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، والعائد قدره بقوله: به، بما كانوا يفسقون به، وهذا خلاف المشهور عند النحويين من أنه إذا كان العائد مجرورًا فلابد أن يكون موافقًا لاسم الموصول في نوع العامل وفي نوع حرف الجر.

ما هو الشاهد من كلام ابن مالك في اشتراط هذا الشيء؟

كَذَا الَّذِي جُرَّ بِمَا الموْصُولَ جُر   كَمُر بِالَّذِي مَرَرتَ فَهُوَ بَر[1]

وهنا اختلف العامل، فالصحيح فيه أن: (ما) هنا مصدرية، أي: بكونهم يفسقون، فـ (ما) مصدرية وليست موصولة.

وقوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ الفسق في الأصل الخروج عن الطاعة ومنه قولهم: فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها. وينقسم الفسق إلى قسمين:

فسق أكبر مخرج من الملة، وفسق أصغر لا يُخرج من الملة.

والمصطلح عليه عند أهل العلم: الثاني إذا أطلقوا الفسق فإنهم يريدون به ما لا يخرج من الملة، لكنه في القرآن ينقسم إلى هذين القسمين.

أي أن الفسق يكون فسقًا أكبر مخرجًا عن الملة ويكون فسقًا دون ذلك أصغر لا يخرج عن الملة، لكنه بقسميه مخرج من العدالة؛ فالفاسق ليس يعدل والشاهد من القرآن للفسق المخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠] هذا فسق مخرج عن الملة، أما الفسق الذي لا يخرج من الملة فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].

أما سبب الفسق وهو الخروج عن الطاعة فإنه قد يكون سببه ترك واجب، وقد يكون سببه

---

(١) شرح ابن عقيل (١/ ١٧٢).

فعل محرم.

قد يكون سببه ترك واجب كما لو ترك الإنسان صلاة الجماعة فإنه يكون فاسقًا؛ لأن الجماعة واجبة، وقد يكون سببه فعل محرم كما لو حلق الإنسان لحيته؛ لأن حلق اللحية محرم، إلا أن العلماء يقولون في المحرم: إن كان كبيرة فسق بمجرد فعلها إن لم يتب منها بمجرد الفعل، وإن كان صغيرة لم يفسق إلا بالإصرار عليها.

هل حلق اللحية يفسق به إذا فعله مرة واحدة؟ لا، لكن إذا أصر وصار كلما نبتت حلقها صار فاسقًا.

سؤال: وما الحكم إذا حلق نصفها، يحلق الذقن ويبقي العوارض؟

الجواب: نعم أنا رأيت إنسانًا حالقًا للذقن تاركًا العوارض فهذا حرام سواء حلق العوارض وأبقى الذقن أو حلق الذقن وأبقى العوارض؛ لأن كثيرًا من الناس يظنون أن اللحية هي الذقن والذقن هو اللحية!

الذقن مجمع اللحيين؛ لأن اللحية هي منبت الأسنان وقد ذكر في القاموس أيضًا أن جميع شعر الوجه من اللحية يعني: شعر الخدين من اللحية.

سؤال: ما حكم من يقصرها، يعني يقصها؟

الجواب: على كل حال ليس كالحلق، ولكنه معصية، لأن الرسول ﷺ قال: «**أَعْفُوا اللُّحَى**»(١)، والأصل في الأمر الوجوب، فإذا أصر عليه صار فاسقًا.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣]

١- من فوائد الآية الكريمة: إطلاق الرسل على الملائكة في قوله: ﴿رُسُلُنَا﴾، وقد ذكرنا فيما سبق الدليل أن الملك يسمى رسولًا.

٢- ومن فوائدها: تشريف هؤلاء الرسل بإضافتهم إلى الله - سبحانه وتعالى - فإن الشيء يشرف بما يضاف إليه.

٣- ومن فوائدها: أن الأنبياء كغيرهم من البشر يلحقهم المساءة والأحزان والسرور والفرح لقوله: ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ فالعوارض البشرية ليس لا تنقص من كمال الرسالات، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما نسي في الصلاة: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**»(٢)، وهو أيضًا يبرد ويفتر

(١) رواه البخاري (٥٥٥٤)، ومسلم (٢٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٣٩٢)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ويجوع ويعطش.

٤- ومن فوائدها: شدة احتراز لوط - عليه الصلاة والسلام - من قومه؛ لأنه إنما ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ خوفًا عليهم من قومه؛ لأنهم جاءوا في صورة شباب ذوي جمال وحسن وهذه فتنة من الله - عز وجل -.

٥- ومن فوائد الآية أيضًا: أنه ينبغي الاستدلال على الأحوال من الملامح الظاهرة، لقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾؛ لأنهم رأوا منه العلامات، فيمكن أن يؤخذ من هذا فائدة تنبني عليها وهي: العمل بالقرائن، والعمل بالقرائن ثابت في قصة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]. وهذه قرينة وليست بينة.

وكذلك أيضًا في قصة سليمان في المرأتين في غلامهما[1]، لأنه تنازعت المرأتان الصغرى والكبرى وقال - عليه الصلاة والسلام - سآتي بالسكين، أو جاء بالسكين ليشقه نصفين، فأما الكبيرة فوافقت، لأن ولدها قد أكله الذئب، وأما الصغيرة فقالت له: يا نبي الله هو لها؛ لأنه أدركها الحنان فعلم بهذه القرينة أنه الاستغراق فحكم به لها وهذه من القرائن.

كذلك أيضًا من هذه الشريعة: فالنبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة ذَهَبِ حيي بن أخطب لما سأل النبيُّ عن ماله أين هو؟ فقالوا: يا محمد أنهته الحروب والسنون؛ قال: «**مَا يُمْكِنُ الْمَالُ كَثِيرٌ وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ**»، ثم دفع الرجل إلى الزبير بن العوام وقال: مِسَّه بعذاب فلما أحس بالعذاب قال: انتظر أنا أرى حيي بن أخطب يحوم أو يدور حول هذه الخلدة فلا أدري لعله دفنه في هذا فوجدوه. وهذا من العمل بالقرائن ولها أمثلة كثيرة.

المهم: أن هذا يدلنا أن كوننا نستدل على حال المرء بملامحه هو من العمل بالقرينة.

٦- ومن فوائد الآية أيضًا: أنه ينبغي طمأنة الخائف؛ ليزول عنه الخوف؛ لقوله: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ ومنها ما يُستعمل الآن في الطب أن الطبيب يقول للمريض هذا أمر سهل وهين ويطمئنه لأجل أن ينشرح صدره.

٧- ومنها أيضًا: أنه ينبغي إزالة المؤذي قبل حصول السارِّ لقوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ فبدأوا بنفي الخوف والحزن ثم أعقبوه بالبَشارة، ولهذا من الكلمات المشهورة عند أهل العلم يقولون: (التخلية قبل التحلية)؛ يعني: جرد الشيء مما يشوبه من نقص ثم بعد ذلك كمِّله بالتحلية، ومنه كلمة الإخلاص أيهما أسبق النفي أو الإثبات؟ النفي؛ لا إله إلا الله.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن للاتصال بالصالح لا يلزم منه الصلاح يؤخذ من قوله:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (١٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾؛ لأن امرأته متصلة به ومع ذلك لم تصلح؛ لكن هل الاتصال بالصالح سبب للصلاح؟

نعم سبب للصلاح؛ ولهذا حثَّ النبي - عليه الصلاة والسلام - على الجليس الصالح(1).

فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤]

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ لأن الباء للسببية.

٢- **ومن فوائدها:** أن الفسق سبب للعقوبات والدمار؛ ولهذا جعل الله المعاصي من الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وفي إثبات الأسباب رد على طائفة من المبتدعة وهم الجهمية، لأن الجهمية فيهم ثلاث جيمات أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فما هي هذه الجيمات عندهم؟

جبر وإرجاء وجيمة جهم

وهم يقولون: لا يوجد شيء فيه أسباب مؤثرة حتى إنك إذا رميت بالحجر على الزجاجة فانكسرت كان الحجر ما كسرها، بل انكسرت عنده لا به - طبعًا هذا غير معقول - وعندما تضع ورقة في النار تحترق يقولون: النار ما أحرقتها فلا يوجد أسباب تؤثر، ولكن هذا حصل عند النار لا بها فأنت وضعتها عند النار فاحترقت.

على كل حال: هذا قول تصُّوره كافٍ لرده؛ لكن هم يريدون أن يتوصلوا إلى شيء وراء ذلك وهو أن الإنسان مجبر على العمل، فإذا عذبه الله - تعالى - وهو عاصٍ لله فإن تعذيبه إياه ليس حجة؛ لأن الله - تعالى - قد يعذب بدون سبب، والأسباب عندهم غير فاعلة ونحن نوافقهم على أنها غير فاعلة بنفسها؛ بدليل أن النار المحرقة صارت على إبراهيم بردًا وسلامًا، لكننا نقول: إنها فاعلة بتقدير الله - عز وجل -، فالله الذي جعلها تحرق فأحرقت، إذنْ فيه شاهد على هذا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ

---

(١) فقد روى البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة».

﴿ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٥-٣٧]

التفسير

الجملة في قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم واللام وقد.

وقوله: ﴿تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: أبقينا منها الترك هنا بمعنى الإبقاء وهو ظاهر في اللغة العربية، تقول: أخذت هذا وتركت هذا، يعني: أبقيته.

﴿تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ يعني: أبقينا من هذه القرية آية بينة، و ﴿ءَايَةً﴾ بمعنى: علامة، و﴿بَيِّنَةً﴾ بمعنى: ظاهرة وواضحة.

قال المؤلف: [ظاهرة هي آثار خرابها]، قال الله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

فكان العرب يمرون على هذه القرى ذاهبين وجائين إلى الشام فيرون من آثار العذاب ما هو ظاهر لكنهم لا يستفسرون، ولهذا قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال المؤلف:[يتدبرون].

إذنْ: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ متعلقة بـ ﴿تَّرَكْنَا﴾ أم بـ ﴿بَيِّنَةً﴾؟ يجوز الوجهان.

يجوز أن يكون المعنى بيِّنة للعاقلين، ويجوز بمعنى تركناها للعاقلين.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العقل سبق لنا أنه ينقسم إلى قسمين:

عقل يُراد به الإدراك، وعقل يراد به الرُّشد.

العقل الذي يراد به الإدراك: هو مناط التكليف، والذي يقول الفقهاء من شروط هذه العبادة مثلًا: التمييز والعقل.

وعقل الرشد: هو مناط المدح والذم، يعني: الذي يُمدح عليه الإنسان ويُذم، والذي يوجد في القرآن غالبًا هذا وليس الأول؛ لكن في كلام أهل العلم يرد بالفعل المعنى الأول الذي هو الإدراك.

أقول: إن العقل الثاني الرشد وهو مناط المدح والذم، ومعنى ذلك: أن يكون الإنسان حسن التصرف بحيث يعقله ما معه من الإدراك عما يضره إلى ما ينفعه، هذا هو الذي يراد هنا في هذه الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ المراد به عقل الرشد الذي يحجزك عما يضرك إلى ما ينفعك.

وقول المؤلف: [يتدبرون]، هذا في الحقيقة ليس تفسيرًا مطابقًا للَّفظ؛ لأن التدبر هو سابق على العقل، فالإنسان يتدبر أولًا ويعرف النافع والضار، ثم يعقل فيتبع ما ينفعه ويدع ما يضره.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني: وأما من لا يعقلون فإنهم لا ينتفعون بالآيات ولا يتعظون

بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

يقول المؤلف: [﴿و﴾أرسلنا ﴿إلى مدين﴾].

فعلى هذا يكون: ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: (أرسلنا)، وقال: ﴿أَخَاهُمْ﴾ ولم يقل: (أخوهم)؛ لأنه اسم من الأسماء الخمسة كما في «الآجرومية» أو الستة كما في «الألفية».

إذنْ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الأخوة هنا ليست في الدين قطعًا؛ لأن الكفار ليسوا إخوة للمؤمنين.

إذنْ: فهما إخوة طين وعند بعض الناس إخوة إنسانية، وقالوا: إن الكافر والمؤمن أخوان في الإنسانية؛ لأن هذا ليس حِمارًا وهذا بشر كلهم بشر، فالمراد بالأخوة: الإنسانية.

وقال: إنه يجوز أن تقول: إن هذا أخ للكافر؛ لأنك مشترك معه في الإنسانية.

المهم على كل حال: يعني بدون عاطفة نريد أن نبحثها بعقل، العاطفة لا شك أننا ننكر هذا من أول وهلة، لكن لو قال: أخي في الإنسانية؛ لأننا سمعنا واحدًا يتكلم في مسجد من المساجد يعظ الناس ويقول: هؤلاء إخوتنا في الإنسانية، فما ينبغي لنا يعني أن نغلظ عليهم ونفعل ونفعل؛ فالمقصود إذن مطلق الموافقة والمشابهة.

على كل حال: نرد عليهم فنقول: هذا شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى هنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء:١٧٦ـ١٧٧] ما قال أخوهم، ﴿قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾.

قال أهل العلم: لأن أصحاب مدين كان شعيب منهم فهو أخوهم في النسب وأصحاب الأيكة ليس منهم بل هي قرية حول مدين أرسله الله إليهم، ولهذا لم يقل: أخوهم، بل قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولو كانت الأخوة هي الإنسانية في مثل هذا المقام لاختلف السياق، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:٧٣] وما أشبه ذلك.

لو كان المراد بالأخوة: الإنسانية، لكان يقال أيضًا في أصحاب الأيكة؛ لأنه أخوهم.

ثم إن الأخوة في اللغة العربية إذا تتبعناها وجدناها إما في النسب فيكون الأصل الجامع بينهما نسبًا وهذا واضح، وإما أن يكون الأصل الجامع بينهما هدفًا واحدًا، يسعى إليه الجميع.

ومعلوم أن الكافر والمسلم مختلفان في الهدف ولا يمكن أن يكون أحدهما موافقًا للآخر في الهدف فإننا لا نوافق على هذا القول مهما كان الأمر؛ لأنه في الحقيقة يؤدي إلى أن أي إنسان يقول: إن هذا الكافر أخوه يحصل له رقة ولين ومنافقة ويسهل ما في النفوس من بُغض الكفار، ثم كما يعرف الكثير منهم إذا قيل نصراني ويهودي يقف الشعر ويتخوف الإنسان ويتهيب، لكن الإنسان

الآن صارت المسألة تمر على القلب مرور الماء البارد ولا أحدَ يتأثر إلَّا من شاء الله وهذا له خطره العظيم.

وهل شعيب أخٌ للبلد؟ هو ما قال: قرى مدين، فهل يكون أخاهم؟

نقول: هذا من باب إطلاق القرية وإرادة الأهل، يعني: مثل إطلاق القربة وإرادة الأهل، وكذلك في الآية التي تقول: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٢].

قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ مع أنها نية صريحة تلقاء مدين، فالإنسان يتوجه تلقاء القوم، وإذا قلنا بهذا ينتهي الإشكال.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا: هذه نداء، وقوم: منادى معرب، فيكون منصوبًا على النداء وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين. إذنْ: فتحة مقدرة على ما قدره المتكلم المحذوفة لالتقاء الساكنين، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي تذللوا له بالطاعة، يعني: العبادة. وهي مأخوذة من التذلل، ومنها قولهم: طريق معبَّد أي: مذلل للسالكين، فالعبادة إذن هي التذلل لله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعته، والطاعة هي: امتثال الأمر واجتناب النهي عند الإطلاق، أما إذا قرنت فقيل طاعة ومعصية صارت الطاعة في الأوامر والمعاصي في النواهي.

قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمراد هنا بالعبادة أي: إخلاص العبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ قال: [اخشوه، وهو يوم القيامة].

والرجاء: يطلق على الطمع في المحبوب، وهذا هو الأصح، ولهذا يقال: التمنى والرجاء، ويطلق الرجاء بمعنى الخوف.

فهو إذنْ من باب الأضداد، لأن في اللغة العربية كلمات تدل على المعنى وضده تسمى الأضداد، وألَّف علماء اللغة في هذا كتبًا، تجد كلمة واحدة تصلح لهذا ولهذا، للشيء وضده.

قال: هل هنا الرجاء بمعنى الخوف أو بمعنى الطمع؟

الرجاء بمعنى الطمع في المحبوب، والمؤلف حملها على المراد بها: الخوف؛ وذلك لأن المقام هنا مقام إنذار.

ويحتمل أن يكون المراد بها الرجاء الذي هو الطمع في المحبوب، لأن فيه المحبوب وفيه المكروه.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

لو قال لنا قائل: ألا يجوز أن نحمله على المعنيين جميعًا: وارجوه خوفًا من العقاب وطمعًا في الثواب؟

نقول: نعم يصلح أن يكون شاملًا للأمرين، وقد تقدم أن القول الراجح عندي وهو قول لبعض العلماء هو: جواز استعمال المشترك في معنيين إذا لم يحصل تنافٍ، بحيث يكون اللفظ المحتمل لهما لا يتناقض في المانع من أن يستخدم في معنيين -والله أعلم-.

وفي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من التلطف ما هو ظاهر؛ لأن قوم الرجل لابد أن ينصروه ويقبلوا ما جاء به.

وقوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ قال: [اخشوه]، ويحتمل المعنى: واطمعوا بما فيه من الأجر والثواب فهو صالح لهذا وهذا، وهو من أسماء الأضداد الذي يدل على الشيء وعلى ضده.

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ هو يوم القيامة وسمي بالآخر؛ لأنه لا يوم بعده إذ إن الناس لهم أربع مراحل: مرحلة أولى في البطن، والمرحلة الثانية في الدنيا، والمرحلة الثالثة في القبور، والمرحلة الأخيرة يوم القيامة؛ ولهذا سُمي باليوم الآخر، إذ إنه آخر مرحلة تكون للإنسان هو هذا اليوم، فلذلك سمي باليوم الآخر.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ لا تفسدوا وعلى هذا فمفسدين قال المؤلف فيها: [حال مؤكدة لعاملها]، ما معنى مؤكدة له؟ أي: بمعناه وهذا التوكيد معنوي لأنه ليس من مادة الفعل؛ فلو قال: لا تعثوا في الأرض عاثين لكان لفظيًّا، أما هنا فإنه معنوي؛ لأنه أكده بمعنى إذ إن العثو يقول المؤلف: [من عثي بكسر المثلثة أفسد]، يُقال: عَثِي: يعثى، كفَرِح يفرح، والأبواب على وجه التفصيل ستة، منها باب فَعِلَ يَفْعَلُ، كفَرِحَ يَفْرَحُ، رضي يرضى، وعثي على رأي المؤلف يعثى، ويجوز أن تكون من باب: فَعِلَ يَفْعُلُ، عثى يعثو، وكلاهما بمعنى أفسد، ولهذا قال المؤلف: [أفسد].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ النهي هنا واضح، ولهذا جزم الفعل بحذف النون لا تعثوا، بماذا يكون الإفساد؟ هل المراد الإفساد الحسي هدم البناء وإفساد الأنهار وقطع الأشجار ونحو ذلك، أو أن المراد الإفساد المعنوي، أو كلاهما؟

كلاهما؛ فلا يجوز الإفساد حتى في الأمور المادية ولهذا نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال[1].

(١) رواه البخاري (١٤٠٧) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أقول: إن الإفساد في الأرض يشمل الإفساد بالمعاصي والإفساد الحسي المادي، والدليل على هذا أن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال، وروى أبو داود: أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فنزلوا أرضًا فنهاهم عن قطع أشجارها؛ لأنها للاستغلال فهو إفساد لها.

ما هي مقابلة هؤلاء القوم لهذه الدعوة التي تدعو إلى الخير وتنهى عن الشر؛ تدعو إلى الخير كمثل قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ وتنهى عن الشر في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؟.

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٧]

الرد: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ هنا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع التكذيب إنما يكون في الخبر وهو قال: اعبدوا الله وارجوا ولا تعثوا وكل هذه الجمل الثلاث إنشائية وليست خبرية وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فعصوه، وهنا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾.

الجواب أن يقال: إنه قال لهم هذه الأوامر أو هذين الأمرين والنهي باعتباره رسولًا من عند الله ﴿فكذبوه﴾ أي: بدعوى الرسالة، وهذا أبلغ من العصيان؛ لأنهم أنكروا رسالته رأسًا، ما أقروا بالرسالة ثم قالوا: إنا نعصيك في هذا الشيء بل كذبوا بالرسالة رأسًا فكان هذا أبلغ من قوله: فعصوه.

قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، الفاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ للتعقيب، وفي قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ يحتمل أن تكون الفاء للتعقيب ويحتمل أن تكون سببية فإن قلنا: للتعقيب فهو دليل على أنه بمجرد تكذيبهم عوقبوا، وإن قلنا: إنها للسببية فإنه لا يلزم من ذلك أن تكون عقوبتهم قريبة من تكذيبه؛ لأنه يجوز أن الله أمهلهم بعد التكذيب ثم أخذهم، على أننا إذا جعلناها للسببية لا تنافي أو لا تمنع أن تكون العقوبة مباشرة، وعلى هذا فنقول: إن الأولى أن تكون للسببية، فتكون للسببية أولى من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: دلالتها على حكمة العقوبة وهي التكذيب.

والوجه الثاني: أنها أوسع دلالة من أن تكون الفاء للترتيب؛ لأنها تشمل ما أعقب الترتيب وما تأخر عنه.

والوجه الثالث: أننا نسلم من دعوى أن الله - سبحانه وتعالى - لم يمهلهم وليس عندنا علم بذلك، فيكون اختيار أن تكون الفاء هنا للسببية أولى.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، (أخذتهم) أبلغ من قوله: أصابتهم؛ لأن الأخذ دليل على أنه لا هوادة فيه، وأنه مدمر، والرجفة يقول: الزلزلة الشديدة، ما في آية ثانية تدل على أخذتهم الصيحة.

إذن: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وأخذتهم الصيحة لا تنافي بينهما فبالإمكان اجتماعهما؛ إذ يكون العذاب صيحة صيح بهم فسمعوا، ورجفت بهم الأرض فيكونون عوقبوا بالصوت، وعوقبوا بالفعل بالأمرين جميعًا.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾: والفاء هنا نقول إنها عاطفة أو سببية تصلح هذا وهذا، ﴿جَاثِمِينَ﴾ بالنصب خبرًا لأصبح وقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود:٦٧] ولا منافاة، وذلك لأن (دار) مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

فـ ﴿نِعْمَةَ﴾ مفرد لكن المراد هنا الجمع لقوله: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾؛ لأن الواحد يحصى.

إذن دار وديار لا فرق بينهما من حيث المعنى.

وقوله: ﴿جَاثِمِينَ﴾ قال المؤلف: [باركين على الركب ميتين]، أعوذ بالله هذا الجاثم من شدة ما نزل بهم بركوا على ركبهم ثم همدوا فصاروا ﴿جَاثِمِينَ﴾.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥].

١- **من فوائد هذه الآية:** حكمة الله - سبحانه وتعالى - في إبقاء آثار الآيات: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ يعني: المراد إبقاءها.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا ذوو العقول؛ لقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣ - **ومنها:** فائدة العقل، فكلما أوتي الإنسان عقلًا، فإنه من نعمة الله عليه كلما كان أعقل فهو من نعمة الله من كون صاحبه ينتفع به في الآيات التي تركها الله - عز وجل -.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات رحمة الله وحكمته في إرسال الرسل؛ لأن إرسال الرسل يدل على الرحمة والحكمة، أما الرحمة فظاهر؛ لأنه لا يمكن للعباد أن ينتفعوا بعقولهم في التعبد لله - عز وجل -، ولهذا يقول العلماء: إن العبادات توقيفية، وأما الحكمة فلئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن النبي - غالبًا - يكون من قومه؛ لأن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن كل واحد ذكر بـ قوله: (إلى قومه)، (وأخاهم)، وما أشبه ذلك، والحكمة من هذا أنه يتولد منه فائدة أخرى وهي: أنه ينبغي أن يكون الرسول معروفًا بين قومه؛ لأجل أن يساعدوه ويعينوه ولا يكذبوه.

٣ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** وجوب عبادة الله؛ لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٤ ـ **ومنها**: وجوب الاستعداد لليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾.

٥ ـ **ومنها**: إثبات اليوم الآخر.

٦ ـ **ومنها**: تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والأصل في النهي التحريم.

٧ ـ **ومنها**: أن الشرائع تجمع بين الأمرين: الإيجاب والسلب، فالإيجاب بالأوامر والسلب بالنواهي، يعني: أن الشرائع أفعال وتروك، ولا يصلح العباد إلا هذا، لأن الإنسان قد تناسبه الأوامر ولا تناسبه النواهي، وقد تناسبه النواهي ولا تناسبه الأوامر، وجمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ في شرائعه بين الأمر والنهي.

٨ ـ **ومنها**: قلنا تحريم الإفساد في الأرض، وذكرنا في التفسير أن هذا الإفساد يشمل الإفساد المعنوي بالمعاصي، والإفساد الحسي بالتدمير والإتلاف.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٧].

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: بيان ما يعانيه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أقوامهم؛ لقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ولا ريب أن تكذيب الإنسان الذي على حق يبلغ في نفسه كل مبلغ، فالإنسان على حق والآيات وجاء بمصلحة الخلق فلم يكذبونه؟ هذا أمر ليس بهين على النفس.

٢ ـ **من فوائد الآيات أيضًا**: تسلية الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ إذا عُورضوا في دعوتهم. وكيف هذه التسلية؟

أن الرسل كُذبوا فهم من باب أولى ولهذا يسلي الله النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمثل هذا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر:٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤] فالداعي إلى الله لا ينبغي أن يقنط من أن يكذب؛ لأن هذا هو طريق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم سيكونون مثلهم.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: التعجيل بالعقوبة للمكذِّب إذا قلنا: إن الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ عاطفة، أما إن قلنا: إنها سببية فلا تدل؛ لأن المسبَّب قد يتأخر عن السبب.

٤ـ **ومن فوائد الآية**: حكمة الله ـ عز وجل ـ في عقوبة المكذبين لرسلهم.

٥ ـ **ومنها**: أن العقوبة ليست جورًا ولا ظلمًا؛ لأن الله ـ تعالى ـ منزَّه عن الظلم، ولا يظلم أحدًا، فلولا أن هؤلاء يعاقبون بحق ما عاقبهم الله.

٦ـ **ومنها**: قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وهم قبيلة كبيرة أبادهم الله ـ تعالى ـ في لحظة، وهذا دليل على قدرته وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

٧ ـ **ومنها**: أن الملاجئ لا تنفع من الله، تؤخذ من قوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾؛ فالدار: ملجأ للإنسان يلجأ بها من عدوه لكنها بالنسبة إلى الله لا تمنعه، فلا تمنعه من إيقاع مراده؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨، ٣٩]

التفسير

قال المؤلف: [﴿و﴾ أهلكنا (عادًا وثمودًا) بالصرف وتركه بمعنى الحي والقبيلة]

ما هو الصرف؟ الصرف التنوين قال ابن مالك:

الصَّرْفُ تَنْوِينٌ أَتَى مُبَيِّنَا ... مَعْنًى بِهِ يَكُونُ الاسْمُ أَمْكَنَا[1]

فهنا يجوز الصرف ﴿وَثَمُودًا﴾، ويجوز ترك الصرف ﴿وَثَمُودَا﴾ وهما قراءتان، وهكذا كل أسماء القبائل يجوز فيها من حيث الأصل الصرف وعدمه، فالصرف باعتبار الحي وهو مذكر، وعدم الصرف باعتبار القبيلة وهي مؤنثة.

فعليه إذا قلنا: ﴿وَثَمُودَا﴾ بدون صرف نقول: معطوف على عادًا والمعطوف على المنصوب منصوب، ولم ينون؛ لأنه لا ينصرف والمانع له من الصرف: العلمية والتأنيث باعتباره قبيلة، وعلى ﴿ثمودًا﴾ تكون ثمودًا معطوف على ﴿عادًا﴾ والمعطوف على المنصوب منصوب ونون لأنه مذكر باعتباره حي.

وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ مفعولان لفعل محذوف والتقدير كما قال المؤلف: [أهلكنا].

أهلكنا عادًا وثمودًا، وعاد محلهم في الأحقاف؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١] وثمود قوم صالح في الحجر وديار ثمود معروفة.

قال المؤلف: [﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ إهلاكهم ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحجر واليمن].

قوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ ظهر لكم، والخطاب لقريش؛ لأنهم تبين لهم ويعرفونه.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ٣٢٠).

وقوله: ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾، ﴿مِّن﴾ على تقدير المؤلف: تكون سببية، أي: تبين لكم من إهلاكنا إياهم بسبب رؤيتكم مساكنهم.

أفلا يجوز أن نجعل ﴿مِّن﴾ للتبعيض ويكون المعنى: تبين لكم من مساكنهم، أي: بعض مساكنهم؟

ممكن، لكني ما رأيت أحدًا أعربها هذا الإعراب، أي: ممكن أن نجعل ﴿مِّن﴾ تبعيضية أي: تبين لكم بعض، والبعض قد زال فإن المشاهد الآن بعض المساكن والآثار.

أما على تقدير المؤلف فيقول: إن فاعل تبين محذوف والتقدير: ﴿تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ فاعل تبين محذوف والتقدير: إهلاكهم فسيّان أن نقول: الفاعل محذوف وأن نقول الفاعل مستتر.

فمن قال يحذف قال لا يكون إلا في مكان لا يمكن أن يقدر فيه كالمصدر مثلًا كما قالوا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ [البلد:١٤-١٥].

قالوا: إن الفاعل هنا محذوف؛ لأنه ما يمكن استتاره بمصدر، أما إذا كان ممكن استتاره فإنه يقال: مستتر، يقال: مستتر، والمحذوف قد يكون عمدة وقد يكون فضلة، لكن الحقيقة أن المؤلف كلامه يوهم بأنه محذوف، فلو قال المؤلف: وقد تبين أي: إهلاكهم وجعلها مفسرة لمحذوف لكان أولى.

وقوله: [﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ بالحجر واليمن]، هذا بالحجر واليمن ترتيب مشوش؛ لأن بالحجر يعود على ثمود وهو متأخر في القرآن واليمن يعود على عاد، ومثل هذا لا ينبغي، يعني: لا ينبغي للمفسر أو الشارح لكلام أحد، أن يشرح هو على هذا الترتيب؛ لأن الجاهل الذي لا يدري، نحن إذا كنا لا ندري عن مكانهم لقلنا: إن الحجر للأولى لِعَادٍ، وقلنا إن اليمن لِثَمُودِ.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هذه على تقدير قد، يعني: وقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الكفر والمعاصي، ﴿وَزَيَّنَ﴾ بمعنى حسَّن وجمَّل، فحسَّن لهم - والعياذ بالله - الأعمال من الشرك والمعاصي، وقال: إن الشرك حسن؛ لأنكم تعبدون هذه الأصنام لتقربكم إلى الخالق: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

ثم إنكم ترجونها وتدعونها فيحصل لكم المقصود؛ لأن الله تعالى قد يبتلي العابدين فيحصل لهم مقصودهم عند هذا الشيء لا به، يعني: قد يدعو الصنم، وقد يدعو النبي ﷺ، وقد يدعو ملكًا من الملائكة فيقدر الله ابتلاءً وامتحانًا أن يكون هذا السبب عند دعائه لهم، ونحن مؤمنون بأنه ما حصل به لكنه حصل عنده امتحانًا، والله - سبحانه وتعالى - قد يبتلي الإنسان بالامتحان بالمعصية فتُسهل له وتُزين له، وقد مر علينا أن الله امتحن اليهود بالحيتان، تأتي يوم السبت ولا تأتي في غيره، وابتلى الله الصحابة رضي الله عنهم بالصيد تناله أيديهم ورماحهم وهم مُحْرِمون، وهكذا أيضًا، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي**

أَخَافُ اللهَ »، فهما ليس عندهما أحد؛ لأنه لو كان عندهم لقال: أخاف من الناس، لكن قال: أخاف الله، فالإنسان قد يبتلى بالمعصية امتحانًا، كذلك أيضًا يقول الشيطان لهم: هؤلاء الأصنام إذا عبدتموها تقربكم إلى الله وتكون وسيلة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

أما المعاصي فكذلك أيضًا يزينها الشيطان للإنسان ويسهلها عليه ويقول: أنت اعمل والرب غفور رحيم، واعمل وتب والدنيا أمامك ما دمت لم يتم لك أربعون سنة فإنه لا تجب عليك الصلوات ولا الصيام، وإذا بلغت أربعين سنة وبلغت أشدك حينئذ تجب عليك الصلاة، والصيام، وهذا موجود الآن عند بعض المسلمين الجهال.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وما هو وزن الشيطان؟

بعضهم يقول: هو من شطن على وزن فعلان، وبعضهم يقول: من شاط.

إذا جعلتها من شطن فهي على وزن فيعال، أما إذا كان أصلها شاط فهي على وزن فعلان بالنون.

على كل حال: إن الذي يظهر أن الشيطان من شطن إذا بعُد.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هنا أضاف التزيين إلى الشيطان، وفي آية أخرى أضاف التزيين ـ سبحانه وتعالى ـ إليه نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فكيف نجمع بين الآيتين أن يضيف الله سبحانه وتعالى التزيين مرة إليه ومرة إلى الشيطان؟

الجواب: هذا باعتبار السبب وباعتبار الفاعل الحقيقي، فالفاعل الحقيقي هو الله والسبب هو الشيطان، فهو يضاف إلى الله تعالى خلقًا وتقديرًا ويضاف إلى الشيطان مباشرة.

وقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم، وهذا من استعمال صدَّ متعديًا؛ لأن (صد) يكون لازمًا ومتعديًا، فإذا قلت: صد الرجل عن سبيل الله فضلَّ هذه لازمة.

ومثل هذه الآية: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ صرفهم هذه متعدية.

قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء:٦١] ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ المصدر العام على وزن فعول.

قال ابن مالك:

وَفَعَلَ اللَّازِمُ مِثْلَ قَعَدَا ... لَهُ فُعُول بِاطِّرَادٍ كَغَدَا[1]

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ١٢٣).

لكن صد المتعدي مصدره صدًّا، لقول ابن مالك:

فَعْــلٌ قِيَــاسُ مَــصْدَرُ الْمُعَــدَّى مِــنْ ذِي ثَلَاثَــةٍ كَــرَدَّ رَدّا [1]

على كل حال: (صد) تأتي لازمة ومتعدية ماذا عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:١] هل هذا من اللازم ولا من المتعدي؟

هي متعدية؛ لأن الذين كفروا هذا صدهم، اللازم يدل عليه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، صدوا عن سبيل الله أي: غيرهم، هذا هو الأقرب.

يقول: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (أل) في قوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهد الذهني المعلوم وهو سبيل الحق ولهذا قال المؤلف: [سبيل الحق]، وسُمِّيَ سبيل الله؛ لأنه يوصل إليه ولأنه هو الذي وضعه لعباده كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣].

وقد يضاف إلى المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١١٥].

قال: [﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ ذوي بصائر].

يعني: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعطاهم من العقول والبصائر ما يمكنهم الاهتداء به وقد ذكر الله ذلك في قوم صالح صريحًا فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، فهم عندهم بصائر، وعندهم علم لكنهم كانوا مستكبرين ـ والعياذ بالله ـ فهم صدوا عن السبيل مع أن الله أعطاهم ما يتمكنون به من مدافعة الشيطان ولكن غُلبوا على أمرهم بما زين لهم الشيطان.

إذن فهم مستبصرين بمعنى أن عندهم بصيرة وعندهم عقول يدركون بها لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها، يعني بمعنى أنهم اهتدوا بها، ما انتفعوا بها، فهم عندهم بصائر، ومعرفة لكنهم ما انتفعوا بها، فيكون عندهم بصيرة، لكن ما عندهم اهتداء بهذه البصيرة، فيكون بمعنى أنهم عندهم علم وبصر يدركون به الأشياء ولكن ما انتفعوا بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

قال المؤلف:[﴿و﴾ أهلكنا (قارون وفرعون وهامان)]، وهذا التقدير باعتبار السياق، يعني: أن السياق يدل على أن هناك شيئًا مضمرًا هو [أهلكنا].

قارون رجل تاجر من بني إسرائيل ولكنه كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿فبغى عليهم﴾، وقد

(١) «شرح ابن عقيل» (٣/ ١٢٣).

أعطاه الله ـ عز وجل ـ مالًا عظيمًا حتى إن مفاتحه تثقل بالجماعة من الناس هذه المفاتح ـ مفاتح الخزائن ـ، ولهذا ما آمن بموسى، اغتر بماله ـ والعياذ بالله ـ فلم يؤمن بربه.

وفرعون معروف هو ملك مصر الذي ادعى أنه الرب، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وهامان وزيره، وإنما قدم قارون لعلو نسبه لأنه من بني إسرائيل وهم أشرف من الأقباط، وقدم فرعون على هامان؛ لعلو مرتبته عليه.

وقوله: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ لو قال قائل: أليس هذا الترتيب من باب ترتيب البداءة بالأدنى؟

الجواب: لا، لو كان من باب الأدنى لقال: (قارون وهامان وفرعون).

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾، كل هذه الأسماء: قارون وفرعون وهامان: لا تنصرف، والمانع من الصرف: العلمية والعجمة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ قال المؤلف: [بالحجج الظاهرات] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ هذه الجملة كثير ما تمر علينا مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: القسم المقدر، واللام، وقد.

وقوله: ﴿مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: الباء هنا للمصاحبة يعني أتاهم إتيانًا مصحوبًا بالبينات؛ لأن الله تعالى لا يرسل رسولًا إلا أعطاه من البينات ما يؤمن على مثله البشر لأنها الحكمة والرحمة تقتضي هكذا، إذ ليس من المعلوم وليس من الحكمة أن يرسل رجل من الناس إلى الناس ويقول: إني رسول الله بدون بينة، فلا بد من بينة آية واضحة تدل على أنه رسول، ولهذا قال: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، قال المؤلف: [الحجج الظاهرات]، منها مثلًا: العصا، ومنها اليد، وكذلك السنين التي أُخذوا بها، ولكن مع هذا ما انتفعوا ـ نسأل الله العافية ـ

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استكبروا بمعنى: تكبروا وعلوا وارتفعوا على الحق ولم يقبلوه، ومعلوم ما جرى لموسى مع فرعون من المناظرة والتهديد حتى وصل به الحال أن قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [فائتين عذابنا]، يعني: ما كانوا سابقين لنا، لم يسبقونا، والسبق بمعنى الفوات، فأنت إذا سابقت إنسانًا فسبقك أو فاتك عجزت عنه، هؤلاء مع استكبارهم وعظمتهم وعتوهم ما سبقوا الله ـ عز وجل ـ أبدًا، أما قارون فخسف الله به وبداره الأرض وبقي فيها إلى يوم القيامة وما نفعه لا بيته الذي احتمى به ولا ماله الذي كَنزه، وأما فرعون وهامان فأغرقهما الله ـ عز وجل ـ بما كان فرعون يفتخر به حيث قال لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]. فأخرجه الله من مصر وأهلكه بمثل ما افتخر

به، فقد افتخر بالأنهار فأهلك بالماء، فما فاته الله - عز وجل -، مع أن فرعون حين إهلاكه كان يظن أنه منتصر؛ لأنه أرسل في المدائن حاشرين، فجمعوا الناس واتبعوا موسى وقومه على أنهم أمرهم يسير في القضاء عليهم؛ لأنهم قالوا: ما لهم إلا البحر إما يسقطوا في البحر وإما أن نأخذهم أخذًا لا هوادة فيه فكان الأمر - والحمد لله - بالعكس أهلك الله فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

١ - في هذه الآية من فوائد منها: أنه ينبغي الاعتبار بأخبار من مضى، هذه تؤخذ من قوله: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني: فاعتبروا واتعظوا.

٢ - ومنها: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن عادًا من أقوى عباد الله؛ حتى إنهم قالوا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥] ومع ذلك أهلكهم الله بألطف الأشياء. وهي الريح، التي هي من ألطف الأشياء أهلكهم الله بها، فدل هذا على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - وأنه مهما بلغ الناس من قوة فليست قوتهم بشيء بالنسبة لقوة الله.

٣ - ومن فوائد الآية: أن الشيطان قد يُسلَّط على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٤ - ومن فوائدها: التحذير من تزيين الأعمال وأظننا نفهم أن قوله: (زين أعمالهم) تدل أن هذه الأعمال أصلها قبيح لكنها زينت فيجب الحذر من تزيين الشيطان.

إذا قال قائل: ما هو الضابط لتزيين الشيطان، قد أهوى هذا العمل فيزين في نفسي فأفعله فلا أدري هل هو من تزيين الشيطان أو من تزيين الله - عز وجل - فما هو الضابط؟

الضابط: إذا كان هذا العمل خلاف شريعة الله فهو من تزيين الشيطان، وإن كان موافقًا لشريعة الله فهو من هداية الله، وليس من تزيين الشيطان.

٥ - ومنها: إثبات الشياطين وتأثيرها على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٦ - ومنها: الرد على الجبرية في نسبة الأعمال إليهم، فإذا نسب إليهم فمعنى ذلك أنهم فاعلون حقيقة.

٧ - ومن فوائد الآية أيضًا: أن الأعمال السيئة قد تكون سببًا لضلال العبد لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ﴾، ولا ريب أن الأعمال السيئة سبب لضلال العبد قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، فالأعمال السيئة يجر بعضها بعضًا حتى يعمى الإنسان

ويبعد عن الحق بسبب معصيته.

٨ - **ومن فوائد الآية:** بشاعة الصد عن السبيل مع البصيرة وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، فإن الجملة هنا حالية على تقدير «قد» يعني: فصدهم وقد كانوا مستبصرين، والمستبصر كان بصدد ألا يصد، لكن - والعياذ بالله - قوة السبب وضعف المانع هو الذي أوجب لهم أن يصدوا عن سبيل الله.

٩ - **ومن فوائد الآية:** اعتبار دلالة الألفاظ بما يفهمه المخاطب، أعني: أن (أل) في قوله: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهد الذهني، ففيه دليل على أن المخاطَب قد يحال على ما يفهمه في ذهنه من دلالة الخطاب وهو كذلك.

فلو قال قائل: هذه الآية فيها إبهام عن السبيل ما ندري ما هو السبيل؟

قلنا: لا إبهام فيها ما دام هناك شيء معهود للمخاطب فإنه ليس فيها إبهام.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩].

١ - **من فوائد هذه الآية:** ذم هؤلاء الثلاثة أشخاص: قارون وفرعون وهامان.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن سبب الطغيان قد يكون المال وقد يكون الجاه والرئاسة، ففي قارون سبب طغيانه المال، وفي فرعون وهامان الجاه والرئاسة، وهذان السببان هما سببا استكبار الإنسان عن طاعة الله - سبحانه وتعالى -.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات رسالة موسى ﷺ، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن موسى رسول إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، وفرعون ليس من بني إسرائيل بل هو من الأقباط.

أترى كيف نجمع بين هذا وبين قول رسول الله ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً**»[1]، وقوم موسى هم بنو إسرائيل، وموسى أرسل إلى فرعون وإلى بني إسرائيل؟

أنا عندي والله أعلم أن الجواب من أحد وجهين:

الوجه الأول: أن قوله ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة**» ليس أول عموم يخصص، ممكن أن نقول: هذا باعتبار الأكثر والأعم، ونقول: إن موسى دل الدليل على أنه بعث إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، وهذا الجواب ليس فيه تكلف.

والوجه الثاني: يمكن أن نقول: إن الرسالة إلى فرعون؛ لأنه لا يمكن لبني إسرائيل أن يستقلوا

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وأن يقوموا بواجب الرسالة واتباع موسى إلا إذا اهتدى فرعون ولذلك ما كان لهم دور أو سلطة إلا بعد أن أهلك الله فرعون فيكون هذا قصد فرعون أولًا؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى بني إسرائيل واستقلال الدعوة فيهم إلا بعد أن يسلم هذا الرجل أو يهلك كما هو الواقع فتكون رسالته هنا من باب الوسائل إلى المقصود، ويكون موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُرسل إلى بني إسرائيل لكن لا يمكن تحقيق الرسالة في بني إسرائيل حتى يهتدي هذا الرجل أو يقضي الله عليه وهذا هو الذي حصل أن قضى الله عليه بعدما حصل من الآيات والبينات إلى آخره.

وإذا قلنا: إن المراد بالقوم من بُعث فيهم صار لما بعث النبي إلى جميع الناس صاروا قومه فيدل دلالة آخر الحديث ومر علينا في قصة شعيب أنه أيضًا أرسل إلى أصحاب الأيكة وليسوا من قومه بدليل أنه ما قال: أخاهم.

والأرجح أن نقول: إن هذا العموم قد خُصص ولغى الأدلة على أن بعض الرسل أرسل إلى قومه وإلى غيرهم، لكن ما فيه أي رسول أرسل إلى الناس عامة إلَّا محمد ﷺ.

٥ ـ ومن فوائد الآية: قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أن الرسل يؤيدون بالآيات البينة؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ[1] إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ[2]»[3].

٦ ـ من فوائدها أيضًا: إثبات الرحمة والحكمة في آيات الأنبياء؛ لأن الآيات التي مع الرسل رحمة بالخلق وحكمة رحمة؛ لأجل أن تكون سببًا لاهتدائهم وحكمة لإقامة الحجة عليهم حتى لا يقول قائل: إن هذا الرسول ما أتانا بآية فهو كاذب، فإذن إثبات الآيات للأنبياء فيها متضمنة للرحمة والحكمة.

٧ ـ ومن فوائد الآية: بشاعة كفر هؤلاء الثلاثة: (قارون وفرعون وهامان) وذلك بالاستكبار عن الحق والإعراض عنه، ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث لا يفوته أحد من خلقه؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ مع عظمتهم وكبريائهم وأموالهم ما يسبقون الله، وهذا تحقيق

---

(١) هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة.
(من الآيات) أي المعجزات الخوارق .

(٢) المعنى أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، وعليه بمعنى اللام أو الباء الموحدة، والنكتة في التعبير بها تضمنها معنى الغلبة، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه .

(٣) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ .

قوله ﷺ في أذكار الصلاة: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد[1]»[2]، فإن الإنسان مهما عظم وكثر ما ينفعه عظمته وكثرته.

قال الله تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]

التفسير

قال المؤلف: [﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾].

قوله: ﴿فَكُلًّا﴾ قال المؤلف: [من المذكورين]، ومعروف المقدَّر فكل أحد، ولكن المؤلف منعه من تقدير أحد أن (كلًّا) منونة وهو لا يحب أن يغير لفظ القرآن؛ ولهذا قال: [من المذكورين]، والتنوين في (كلًّا) هنا يقول النحويون: إنه تنوين عوض من كلمة أحد، فكل واحد أو فكل أحد، والتنوين يكون عوضًا عن كلمة مثل (كلًّا) هنا، وقد يكون عوضًا عن حرف كما في جوارٍ وغواشٍ وحينئذٍ ويومئذ وما أشبهها.

قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ أي: فكلًّا من هؤلاء أخذه الله - عز وجل - بذنبه، والباء في قوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ تكون سببية ومعاوضة ومقابلة يعني: أنهم بسبب ذنوبهم أُخذوا وعلى قدر ذنوبهم أخذوا أيضًا، والباء هنا سببية وعوضية، أي: أنهم أُخذوا بسبب الذنب، ولكن ما تجاوز الله بهم أكثر مما يستحقون بل بالسبب والقدر.

وقوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ في القرآن الكريم جاءت أيضًا بذنوبهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام:٦] والجمع بين الجمع والإفراد يصير أن يقال: إن الإفراد هنا أن يضاف فيعم أي: بذنوبهم، والذنوب هي المعاصي سواءً كانت كبيرة أو صغيرة وهي هنا بلا شك من أكبر الكبائر.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ هذا التفصيل يعني قوله: ﴿بِذَنبِهِۦ﴾ مجمل فصل بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أرسلنا عليه ولم يقل: إليه؛ لأنه هنا إرسال عذاب فهو عالٍ عليه وليس إرسال خطاب حتى نقول: إن غاية هذا الخطاب أن يرسل إليهم فهو إرسال عذاب ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

(١) لا ينفع صاحب الغنى غناه عندك وإنما ينفعه عمله الصالح.

(٢) رواه البخاري (٨٠٨)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه.

حَاصِبًا﴾ قال المؤلف: [ريحًا عاصفة فيها حصباء كقوم لوط].

والمفهوم من قوم لوط أن الذي أرسل عليهم ﴿حَاصِبًا﴾ من السماء وهي حجارة من سجيل مثل الذي أرسل على أصحاب الفيل، وليست هي من الحصباء التي تديرها الرياح ولا علمنا أن الله ـ تعالى ـ أرسل الرياح على قوم لوط ولو كانت رياحًا تحمل الحصباء لبين الله ـ عز وجل ـ ولو قال أرسلنا عليهم حاصبًا كقوم لوط لصح فإن الله ـ تعالى ـ أرسل عليهم حاصبًا من السماء تحصبهم حجارة من سجيل.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ مثل قوم صالح وشعيب وأصحاب مدين.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ مثل: قارون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه هؤلاء أهلكوا بالغرق، أما فرعون وقومه فغرقوا بالبحر الأحمر، وأما قوم نوح فبالطوفان العظيم الذي أمر الله ـ عز وجل ـ السماء ففتّح أبوابها بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، انظر إلى التعبير ـ سبحان الله ـ ما قال: فجرنا عيون الأرض، لو كان التعبير: فجرنا عيون الأرض لكان فيه شيء كثير من اليابس ما تفجر، وإنما تفجرت العيون فلو كان التعبير: فجرنا عيون الأرض؛ لكن: ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ [القمر:١٢] كأن الأرض كلها صارت عيونًا حتى إن التنور الذي هو محل إيقاد النار وأبعد ما يكون عن ظهور الماء فيه صار يفور عيونًا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢] حتى علا قمم الجبال واستوت السفينة على الجودي، والجودي وهذا جبل رفيع جدًا على أن الماء حملها حملًا إلى أن رست على هذا الجبل مما يدل على كثرة هذه المياه ـ الله أكبر ـ الإنسان لو تصور أن المطر يرتفع أربعة أمتار لتهول من ذلك، لكن هذا الذي بقدرة الله ـ عز وجل ـ علا إلى مئات الأمتار والله على كل شيء قدير.

قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [فيعذبهم بغير ذنب] والله ما كان، هذه اللام هنا يسمونها لام الجحود؛ لأن لام الجحود هي المسبوقة بكون منفي، ولأصحاب الآجرومية: ما سبقها ما كان أو لم يكن، وهنا الذي سبقها ما كان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ .

ولما نفى أن يكون الله ظلمهم بيّن من أين وقع هذا الظلم، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: خبر كان، والواو اسمها.

وقيل: الجملة الفعلية خبر كان، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول يظلمون فتكون: (كانوا يظلمون أنفسهم).

نقول: اسم كان الواو: ﴿كَانُوا﴾، إذنْ: لو كانت ـ أي أنفسهم ـ تأكيدًا لكانت مرفوعة وهي هنا منصوبة.

وقيل: إن ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ منصوبة من باب الاشتغال، فبذلك تكون مفعولًا مقدمًا ليظلمون،

ولكن الاشتغال ليس بصحيح يقول ابن مالك:

إِنْ مُضْمَرَ اسْمٍ سابِقٍ فِعْلًا شَغَلْ عَنْهُ بِنَصْبِ لِفْظِهِ أَوِ المَحَلْ[1]

فالاشتغال لابد وأن يكون ضمير في الفعل المشغول، ولهذا سميناه اشتغالًا، أما هنا فأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون، وتقديمها له فائدتان: فائدة لفظية وفائدة معنوية.

الفائدة اللفظية: مراعاة الفواصل، يعني: أواخر الآيات هذه فائدة لفظية؛ فلو قال: لكن كانوا يظلمون أنفسهم، ما تناسبت مع ما قبلها وبعدها.

الثانية الفائدة المعنوية: الحصر والاختصاص يعني: ما ظلموا إلا أنفسهم، فهم في الحقيقة الذين ظلموا ولكن كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، أما نحن فما ظلمناهم.

أما فوائد قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

١ - **من فوائد هذه الآية**: تمام قدرة الله في إرسال هذه العقوبات: لأن كلها عقوبات تدل على القدرة.

٢ - **ومنها**: إبطال قول هؤلاء الملحدين حينما تأتي مثل هذه الآيات في الوقت الحاضر يقولون: هذه من الكوارث الطبيعية، تأتي الزلازل التي هي الرجفة ويقولون: هذه مسألة طبيعية، وتأتي الفيضانات العظيمة التي تدمر ويقولون: هذه كوارث طبيعية، ما يعتبرون بها ويرون أنها نوع من العقوبات التي جرت على الأمم السابقة، وكذلك الرياح الشديدة وهذا من موت القلوب - والعياذ بالله - أن الإنسان يعرض عن التأمل والتدبر في هذه الآيات ويضيفها إلى أمور طبيعية وكأنها - على زعمهم - أن الطبيعة هي تخلق وتفعل من دون الله.

٣ - **ومن فوائد الآية**: إثبات حكمة الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ سواء قلنا: إن الباء للسببية أو للمقابلة.

٤ - **ومنها**: إثبات الأسباب في كل ما جاء في القرآن من لام للتعليل أو باءٍ للسببية فإنها تدل على إثبات الأسباب والحكم.

٥ - **ومنها**: الرد على الجبرية الذين ينكرون الأسباب ومن وافقهم من الأشعرية؛ فإننا نحن - أهل السنة والجماعة - نؤمن بالأسباب لكننا لا نقول: إن هذه الأسباب مؤثرة بنفسها ولكن بخلق الله - سبحانه وتعالى - التأثير فيها.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ١٢٩).

٦ ـ **ومنها**: أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾ واعلموا أن الجزاء من جنس العمل في الجزاءات الشرعية وفي الجزاءات الكونية.

فالجزاءات الشرعية مثل: الحدود، وهي العقوبات المقدرة من قبل الشرع فكلها في الواقع عقوبات فقطع اليد بالسرقة لا شك أنه موافق للحكمة؛ لأن اليد بها يأخذ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف في قطاع الطريق موافق للحكمة؛ لأن قطَّاع الطريق يعتدون على الناس بأيديهم وأرجلهم، ورجم الزاني بالحجارة دون قتله بالسيف موافق للحكمة أيضًا، وهكذا كل العقوبات الشرعية والكونية فإنها موافقة للحكمة ويدل على هذا قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ و ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ و ﴿خَسَفْنَا﴾ و﴿أَغْرَقْنَا﴾ هذه الأنواع الأربعة من العقوبات ذكرها له حكمة؛ لأن قوله: ﴿مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاك جاء من فوق، و﴿مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ من تحت، ﴿مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاك بالقول والصوت، وقوله: ﴿أَغْرَقْنَا﴾: إهلاك بالماء من أجل أن يتبين للناس أن العقوبات لا تأتي من نوع واحد؛ بل تأتي من أنواع متعددة بحسب حال المعاقب.

٨ ـ **ومنها**: بيان كمال عدل الله، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذه الصفة من الصفات السلبية، وقد مر علينا عدة مرات أن الصفات السلبية لا تكون مدحًا إلا إذا تضمنت ثبوتًا فمجرد النفي ما فيه مدح حتى يتضمن ثبوتًا.

إذن نفي الله الظلم عن نفسه ليس معناه أنه لا يظلم فقط بل لكمال عدله لا يظلم، وليس معناه أنه غير قادر على الظلم، بل هو قادر ـ سبحانه وتعالى ـ على أن يظلم لكنه لكمال عدله لا يظلم ولو كان غير قادر على الظلم لم يكن نفي الظلم عنه مدحًا.

ولهذا قالوا في قول الشاعر(١):

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

نفي الظلم عن هؤلاء الجماعة هو فيه ذم، يعني: لأنهم لعجزهم لا يظلمون.

وكذلك قول الشاعر(٢):

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

---

(١) ينسب هذا البيت إلى النجاشي الحارثي، قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وهدده عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع لسانه وضربه عليٌّ رضي الله عنه على السكر في رمضان. قال البكري: النجاشي من أشراف العرب إلا أنه كان فاسقاً وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

(٢) ينسب هذا البيت إلى قريط بن أنيف العنبرى .

يعني: ما هم من الشر في شيء ولا يفعلون الشر ولا فيهم شر أبدًا بل أبلغ من هذا أنهم:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

إذا ظلمهم أحد قابلوه بالمغفرة والسماح وكذلك أيضًا إذا أساء إليهم أحسنوا، هذا ظاهره أنه مدح لكنه في الحقيقة ذم؛ لأنه يحتقرهم ويقول: إنهم ما يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم أو ينتصروا لأنفسهم ولكن إذا أسيء إليهم قابلوه بالإحسان خوفًا من إساءة أعظم وإذا ظلموا غفروا، ولهذا قال نفس الشاعر:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

تمنى أن الله يعطيه بدلهم.

المهم: أنه بمجرد النفي لا يدل على الكمال حتى يتضمن مدحًا حتى يتضمن ثبوتًا.

٩ - ومن فوائد الآية: أن الإنسان هو الظالم لنفسه بفعل المعاصي؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ إذن فأنت حرام عليك فعل المعاصي؛ لأنه ظلم لنفسك وأما الله تعالى فلا يظلم.

إذن عندنا نفي الصفات من حيث العموم قد يتضمن الكمال وقد يتضمن النقص وقد يكون لعدم القابلية فالذي لله الكمال، قد يكون للكمال مثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق:٣٨] وقد يكون نفي النقص؛ لعدم القابلية مثل أن تقول: إن هذا الجدار لا يتعب، هذا الجدار ما يتعب وهذا الجدار ما يظلم؛ لعدم القابلية فهل هذا مدح له؟ لا؛ لأنه أصلًا ما يقبل هذا الوصف حتى يُنفى عنه، وقد يكون النفي للعجز، مثل:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

ولا يكون لله من هذه الأقسام الثلاثة إلا القسم الأول وهو ما تضمن كمالًا ومدحًا، ولهذا يقول أهل العلم: إن الله تعالى إذا نفى عن نفسه صفة فإن المراد بها أمران: نفي تلك الصفة، والثاني إثبات كمال ضدها.

فائدة: قول الجبرية: إن الظلم أن يتصرف الإنسان في ملك غيره والله تعالى إذا تصرف في ملكه فليس بظالم فيجوز - على زعمهم - أن يعاقب الله المطيع الذي أمضى ليله ونهاره في طاعة الله فيعاقبه عقوبة الكافر، وعندهم أن هذا ليس بظلم؛ لأن الله ما يتصرف إلا في ملكه.

وعلى هذا قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ:

جَازَ لِلْمَوْلَى يُعَذِّبُ الوَرَى مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ وَلَا جُرْمٍ جَرَى

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمُلُ لِأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لَا يُسْأَلُ[1]

(١) العقيدة السفارينية (ص٦٢).

فصفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية: الثبوتية ما أثبته الله لنفسه ولا تكون إلا صفة كمال، والسلبية: ما نفاه الله عن نفسه ولا تكون إلا صفة نقص وهي تدور على شيئين: أحدهما النقص، والثاني: مشابهة المخلوقين. ولو قلنا: إن مشابهة المخلوقين نقص وحصرنا هذين الشيئين في شيء واحد لم يكن ذلك بعيدًا؛ لأن مشابهة الناقص تعتبر نقصًا.

١٠ ـ ويستفاد من الآية: في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أن العاصي ظالم لنفسه، وذلك أن النفس عندك أمانة فكما أنك ممنوع من نقصها نقصًا حسيًّا فأنت ممنوع من نقصها نقصًا معنويًّا بمعنى: أن الإنسان لو أراد أن يقطع يده أو أصابعه أو يسيء إلى بدنه كان ذلك محرمًا، ولهذا: «من قتل نفسه بشيء عذب به في جهنم خالدًا مخلدًا»[1] فجعل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاتل النفس كقاتل الغير في التخليد في النار والتعذيب بما قتل به.

وعلى هذا نقول: كل من عصى الله فإنه ظالم لنفسه ومن هنا نعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وأن العدول عن ملة إبراهيم سفه؛ لأنه ظلم للنفس من حيث لا يشعر الإنسان.

قال الله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١]

التفسير

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ مَثَل، ومِثْل، كشَبَه، وشِبْه وزنًا ومعنًى، والمثل بمعني الشبه وهو عبارة عن تشبيه شيء معقول بشيء محسوس؛ لأن ذلك يزيدها وضوحًا وبيانًا وتصورًا، وإن كانت لا تتساوى من كل وجه لكنها من هذا الوجه الذي شبهت به تتساوى.

وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: جعلوا أولياء، والمراد بالأولياء: الأصنام وسموا أولياء لأن عابديها يرجون نفعها كالولي الذي ينفعك في النصرة والدفاع وجلب الخير وما أشبه ذلك.

ولهذا قال قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨].

(١) رواه مسلم (١٠٩)، والترمذي (٢٠٤٣)، والنسائي (١٩٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهم ينصرونها ويرجون النصر منها ولهذا سميت هذه الأصنام بأولياء.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره والدليل أن المراد من غير: أن ذلك جاء في آيات متعددة كقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] والتعبير بالدون لدنو مرتبته بالنسبة إلى الله - عز وجل -.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مثلهم، والمراد بالذين اتخذوا من دون الله أولياء؟ المشركون، مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي: كشبه العنكبوت، فالعنكبوت معروفة تتخذ لها بيتًا من العشب وهذا البيت من العشب هي التي تنسجه يخرج منها والله - سبحانه وتعالى - على كل شيء قدير، وهذه العنكبوت إذا سقطت من أعلى فورًا تفرز هذا العشب فتتعلق به حتى لا تقع على الأرض ثم بعد ذلك تفرزه وتتعلق به وتجده متدليًا هذا الخيط وإذا شاءت أن تصعد به صعدت تنقلب وتجعل رأسها لأعلى وتصعد مع هذا الخيط الذي أفرزته هي في الحال، ثم هي أيضًا عند صيدتها وأكثر ما تصيد الذباب، ماذا تصنع به؟ تقيده بهذه الخيوط حتى تقضي عليه، وهذا بعض من قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] فهدى هذا الخلق لما فيه مصالحهم.

الشاهد أن هذه العنكبوت اتخذت بيتًا أي: جعلت لها بيتًا من العشب الذي تنسجه، قال المؤلف: [﴿اتخذت بيتًا﴾ لنفسها تأوي إليه]، وهذا شاهد.

وقال: [﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾] هذا كلام الله - عزوجل - وهو العالم بما لم نحط به علمًا، فما أكثر مخلوقات الله - تعالى - التي لها بيت ونحن لا نعلم عن هذه البيوت إلا ما نشاهده منها، وما أكثر الغائب عنا، والله - عز وجل - يقول: أوهن البيوت بيت العنكبوت، وأكد هذه الجملة ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ بـ (إن واللام) من أجل تأكيد ضعف هؤلاء الأولياء كما أن هذه البيوت التي تأوي إليها العناكب ضعيفة فهي أوهن البيوت وأضعفها فإن هؤلاء الأولياء أيضًا أضعف ما يكون من الأولياء فإنها لا تنفع عابديها بل إن الله يقول في القرآن: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ لو كان هؤلاء آلهة﴾ حقًا ﴿مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] أي: الآلهة أو المتألهين لها؟ تشمل هذا وهذا، فهم لو كانوا آلهة حقًّا لمنعوا أنفسهم من دخول النار ولمنعوا عابديهم من دخول النار ولكنها آلهة باطلة ما تنفع فهذا وجه المشابهة في قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ هذا التشبيه تشبيه يسميه البيانيون يسمونه التشبيه التمثيلي: يعني أنه مكون من جملة فأنت إذا قلت: فلان كالبحر في الكرم، هذا تشبيه لكنه تشبيه إفرادي حيث شبهت فردًا بفرد، إنما لو أتيت بشيء كأن تشبه قصة بقصة أخرى أو قضية بقضية فإن التشبيه هنا تمثيلي مركب من عدة أوجه، من مشبه ومشبه به متعدد وأوجه شبه متعددة أيضًا، هذا التشبيه نسميه

تشبيهًا تمثيليًا؛ لأنه مركب من قصة متكاملة، يعني: ما قصد أن يشبه العابدون بالعنكبوت وحدها، والمعبدون بالبيوت وحدها، بل قصد أن تشبه القضية كاملة بالقضية كاملة حتى تتضح الصورة أمام المخاطب.

وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ قال المؤلف في بيان هذا الوهن: [لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا] نعم لا يرفع الحر ولا البرد ولا يقيها أيضًا من الآفات كأن يسقط عليها شيء أو نحو ذلك. فهذا البيت أوهن البيوت؛ إذن يكون هذه الأصنام لا تنفع عابديها.

فعلى هذا نقول: إن هؤلاء الذين عبدوا هذه الأصنام ما لجأوا إلى ملجأ نافع بل إلى ملجأ ليس بنافع ولا مانع، ولا دافع؛ ولهذا شبه الله ذلك ببيت العنكبوت، وفي آية أخرى شبه هذه الأصنام ودعاءها برجل باسطٍ كفيه إلى الماء ليبلغ فاه هل يبلغه؟ إنسان أمامه الماء وهو عطشان فبسط كفيه إلى الماء يريد أن يصل إلى الفم يمكن أن يصل؟ لا يمكن أن يصل أبدًا، وهذه أيضًا الأصنام لا تنفع عابديها كما لا يصل هذا الماء إلى فم هذا العطشان.

قال الله ـ عز وجل ـ: [﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما عبدوها]، ﴿لَوْ﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط قوله: ﴿كَانُوا﴾ وجوابه مقدر على كلام المؤلف [ما عبدوها]، ولا ينبغي أن تُوصَل هذه الجملة بالتي قبلها؛ لأنك لو وصلتها بما قبلها لكان وهن بيت العنكبوت مشروطًا بعلمهم مع أنه أوهن البيوت سواءً علموا أم لم يعلموا، ولهذا ينبغي أن نقف على قوله: ﴿لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ ثم نقول: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فلو كانوا يعلمون، كما قال المؤلف:[ما عبدوها].

ويحتمل أن يكون الجواب: لو كانوا يعلمون أي لو كانوا من ذوي العلم النافع ما خفي عليهم هذا الأمر فإذا لم يخف عليهم هذا الأمر ما قاموا بهذه العبادة.

وعلى كل حال: فإن هذا يدل على جهل هؤلاء العابدين مهما بلغوا من الذكاء ومن حسن التصرف في الدنيا فإنهم ـ من هذه الناحية ـ سفهاء، ليس عندهم علم ولا عقل، هذه الآية تذكرنا بآية يغلط فيها كثير من الناس أيضًا في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] بعض الناس يقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ وهذا خطأ؛ لأن المعنى يفسد به فسادًا واضحًا؛ لأنك لو وصلت لكان ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ جواب ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ والأمر ليس كذلك، بل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ جملة مستأنفة مستقلة أخبر الله تعالى بها أننا سنرى الجحيم فيجب الوقوف على قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** ضرب الأمثال للناس.

٢ ـ **وفي هذه الآية الكريمة:** دليل على سفه المشركين؛ حيث اعتمدوا على ما لا معتمد

عليه بعبادة الأصنام، يؤخذ من قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

٣ـ ومن فوائدها أيضًا: تقبيح هؤلاء المشركين وتنزيل مرتبتهم؛ حيث شبهوا بالعناكب، لأن هذا بلا شك أن تشبيه الإنسان بالحيوان أنه إذلال له وتنزيل له عن مرتبته لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها أبدًا ولا تدفع عنهم فهي لا تأتي بخير ولا تدفع الضرر تؤخذ من حيث تشبيهها ببيت العنكبوت.

٥ ـ ومنها: جواز ضرب المثل بالدُّون حسب ما تقتضيه الحال أخذناه من قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ لأنها من أدنى ما يكون من المخلوقات. وقد قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، وقد ضرب لهم مَثَل بالذباب وبالحمار وبالكلب وبالبعوضة وبالعنكبوت. كل هذا حسب ما يقتضيه المقام.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن أوهن البيوت وأضعفها بيت العناكب ومن هنا نأخذ أنه لا ينبغي أن يقال: هذا أوهى من بيت العنكبوت؛ لأنه قال: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، فأنت لا تقول أوهى من بيت العنكبوت لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، لكن إذا كان غير بيت كأن نقول: حصة هذا الرجل أوهى من بيت العنكبوت هذا لا بأس وما فيه تكذيب للقرآن، أما الذي فيه معارضة للقرآن أن تقول عن بيت إنه أوهى من بيت العنكبوت.

٧ ـ هذه الآية فيها: أن الله لم يحكم على هؤلاء المشركين بمشابهتهم للعنكبوت إلا عن علم، وهذه الآية تعليل لما قبلها، يعني: أن الله سبحانه وتعالى ما قال كمثل العنكبوت إلا عن علم وهو يعلم حقيقة هذه الأصنام وأنها لا تنفع ولا فائدة منها.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٢، ٤٣]

التفسير

قوله: ﴿مَا﴾ يقول المؤلف: [بمعنى الذي] فتكون اسمًا موصولًا وهذا الإعراب الذي سلكه المؤلف هو المتبادر من الآية وبعض المعربين يقول: (ما) استفهامية والوقف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَعْلَمُ﴾ ما الذي ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ هل يستفيدون؟

ولكن هذا بعيد فإعراب المؤلف هو الصواب ﴿يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يبقى على إعراب المؤلف أن نقول أين عائد الموصول؟

الجواب: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الهاء في ﴿دُونِهِۦ﴾ تعود على الله لكنها لا تعود على (ما)، إذن العائد محذوف والتقدير: إن الله يعلم ما يدعونه من شيء.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ قال: ﴿يعبدون﴾ فالدعاء هنا دعاء عبادة، وكما يكون الدعاء دعاء عبادة فهو دعاء مسألة.

أما دعاء المسألة ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] مثل أن تقول: يا رب اغفر لي، يا رب ارحمني وما أشبه ذلك، ودعاء العبادة معناه أن تتعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أمرك به وإنما كان ذلك دعاءً؛ لأن حقيقة حال العابد طلب مغفرة الله ورحمته،ودليله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وقوله: [﴿مَا يَدْعُونَ﴾ يعبدون] ينبغي أن نجعل الدعاء هنا شاملًا للعبادة ولدعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، وأيضًا يسألونها، وشبيه بهذا أولئك الذين يشركون بالأنبياء والأولياء؛ لأنهم يدعونهم دعاء مسألة يقولون: يا رسول اغفر لي، يا رسول الله يسر أمري، وما أشبه ذلك.

وقوله: [بالياء والتاء]. كيف بالياء والتاء؟ يعني: ﴿يَدْعُونَ﴾ و﴿تَدْعُونَ﴾، قراءتان سبعيتان، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ [غيره]، ﴿مِن شَىْءٍ﴾ هذا بيان لـ ﴿مَا﴾ يعني: أي شيء يدعون فإن الله تعالى عالم به، لكن ما هو معنى علمه؟ أنه يعلم حال هذا المدعو المعبود، وهو كالتعليل لقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

تؤيد أن هذا المثل مطابق للواقع؛ لأنه صادر عن علم، أي: أن الله يعلم، لأنه لما ذكر أنهم كالعنكبوت بين أن هذا عن علم من الله، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وأن هذا الشيء الذي يدعى لا ينفع.

وقوله: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه].

لو قال قائل: إن المناسب أن يقال: وهو السميع العليم؛ لأنه يقول: يعلم، فمقتضى الظاهر أن تختم الآية بالعلم.

قلنا: هذا حق بالنسبة لظاهر الكلام، لكن عند التأمل نجد أن ختامه بالعزة والحكمة أبلغ؛ فإنهم يريدون الاستنصار بهذه الأصنام، والغلبة والظهور وأكبر شاهد لذلك قول أبي سفيان يوم أُحد حيث قال: (أعلُ هبل)، فهذه الأصنام لاعتزازهم بها يقابل بعزة من لا يُغْلَب وهو الله، ولهذا

قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب لهذه الأصنام ولعابدي هذه الأصنام، إذن مناسبة العزيز أبلغ من مناسبة العليم؛ لأن هؤلاء يستنصرون بأصنامهم ويريدونها أن تظهر وأن تغلب، فبين الله أنه هو صاحب العزة وسبق لنا أن العزيز من أسماء الله ـ عز وجل ـ وأنه يتضمن العزة من ثلاثة وجوه:

عزة القدْر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

أما عزة القدر: فمعناه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يشبهه أحد في عظمته وجلاله وقدره.

وأما عزة القهر: فمعناه أنه لا أحد يشبه الله ـ عز وجل ـ في قهره وسلطانه ومُلكه.

وأما عزة الامتناع: فمعناها أنه ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن كل نقص وعن كل عيب فهو عزيز أن ينال بعيب أو نقص.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ دائمًا يقرن الله ـ سبحانه وتعالى ـ العزة بالحكمة؛ لأن بعض الأعزاء من الخلق تحملهم العزة على التهور وعدم التثبت، وعدم تنزيل الأشياء منازلها واذكروا قول الله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ [البقرة:٢٠٦] وكون العزة تأخذه بالإثم، خلاف الحكمة، ولهذا يقرن الله ـ تعالى ـ دائمًا العزيز بالحكيم إشارة إلى أن عزته تبارك وتعالى مقرونة بالحكمة فهو وإن كان عزيزًا غالبًا قاهرًا له السلطان الكامل فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يدبر الأمر إلا على وجه الحكمة البالغة، ثم إنه أيضًا على تفسيرنا فيما سبق الحكيم بأنه ذو الحُكم والحكمة ظاهر جدًّا أن عزته مقرونة بحكمة وأن له الحكم المطلق في عباده ـ سبحانه وتعالى ـ فلهذا يُقرن هذا الاسم بهذا الاسم دائمًا.

واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لها معانٍ عند إفرادها وإذا قرنت مع غيرها تركب من هذا الاقتران معنًى آخر فوق المعنى الإفرادي لكل اسم، وهذه المسألة تأملوها، فمثلًا العزيز له معنًى عند انفراده والحكيم له معنى عند انفراده، لكن إذا اقترنا جميعًا حصل منهما معنًى ثالث زائد عن المعنى الانفرادي، وهو ما يحصل باجتماع هذين الاسمين من المعنى الكامل، وسبق لنا أن الحكيم ذو الحُكم والحكمة وأن الحكم ينقسم إلى كوني وشرعي ومثلنا للكوني بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠].

وللشرعي بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] ولما يشملهما جميعًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] وما أشبه ذلك، أما الحكمة فإنها ثابتة لله ـ عز وجل ـ، وهي تنزيل الأشياء في منازلها، وتكون في الحُكم الكوني، والحكم الشرعي، هذا باعتبار موضعها وتكون أيضًا حكمة غائية وحكمة صورية، صورية بمعنى أن كون الشيء على هذه الصورة المعينة موافق للحكمة، ثم الغاية منه حكمة أيضًا فتكون حكمة في الغاية وفي الهيئة التي كان عليها هذا الأمر، وهذا شامل لجميع أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكونية والشرعية.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قال المؤلف: [﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ في القرآن ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نجعلها ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي يفهمها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ المتدبرون].

قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ أتى بـ (تلك) الدالة على البعد، لأنه لم يقل: وتلك المثل حتى نقول: إنه عَدَلَ بالكلام عن ظاهره، أو عن مقتضى سياقه؛ لأن المثل المضروب الآن قريب، لكن قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾، والأمثال الأخرى غير مثل متخذي الأصنام، بعيدة بالنسبة لهذا المكان. يعني أنها متنوعة في القرآن، ولهذا جاءت الآية بتلك الأمثال، ولم يقل هذا المثل، فهو شامل لكل الأمثال الواردة في القرآن، والأمثال الواردة في القرآن كثيرة متعددة، وقد أُلِّف فيها بعض أهل العلم الكتب المستقلة، وأفردها السيوطي في: «الإتقان» في فصل مستقل، وبيَّن فوائد الأمثال التي يُضرب المثل من أجلها، والفائدة الملموسة القريبة جدًّا هو تقريب المعقول إلى الأذهان؛ إذ إن المثل هو ضرب شيء معقول قد يبعد عن الإنسان تصوره بشيء محسوس يسهل تصوُّره، قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

إذا قلت: ضرب ذلك مثلًا، فالمعنى: جعل ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] أي: جعل لكم، فالضرب إذنْ يأتي بمعنى الجعل، إذا أُضيف إلى المثل، كلما وجدت ضرب الله مثلًا وما أشبهه فاعلم أن المراد بالضرب هنا الجعل، فمادة (ضرب) ليست خاصة بالضرب الذي هو الضرب باليد، بل تشمل الضرب بمعنى الجعل، وتشمل الضرب بمعنى تحويل النقود من سكة إلى سكة، وغير ذلك حسب السياق الذي بينهما.

وقوله: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نجعلها أمثالًا للناس عمومًا فالله تعالى ضرب المثل لجميع الناس في التوراة والإنجيل والقرآن، ولكن من الذي يعقلها وينتفع بها؟ الجواب: ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

إذنْ: ﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: ذوو العلم والفهم الذين ينتفعون بفهمهم وعلمهم، ولهذا قال المؤلف: [المتدبرون]. وهذا التفسير فيه نظر؛ لأن العلم بعد التدبر، لكن لما كان العلم لا يحصل إلا به فسره المؤلف به، والحقيقة أن المراد بالعالمين، ذوو العلم والفهم الذين يعقلون الأشياء ويفهمونها؛ احترازًا من أهل الجهل المعرضين الذين لاينتفعون بما أعطاهم الله ـ تعالى ـ من الفهوم فإنهم لا يعقلون هذه الأمثال وإذا لم يعقلوها، ما ينتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الله تبارك وتعالى عمَّم في ضرب المثل، وخصص في عقل المثل، أين التعميم في ضرب المثل قال: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، والتخصيص قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وهذا أسلوب كثير في القرآن، التعميم ثم التخصيص قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فعمم في الدعوة وخصص في الهداية.

الفوائد:

١- **منها:** إثبات العلم لله فيما يتعلق بالخلق، ويكون فيه رد على غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله لا يعلم الأشياء المتعلقة بالخلق إلا بعد وقوعها، لكن هؤلاء الغلاة يقول شيخ الإسلام - في وقته -: إنهم كانوا قليلين، قالوا: لأنهم رأوا أن إنكارهم للعلم نداء على أنفسهم بالكفر فتركوا هذا وصاروا ينكرون الكتابة والمشيئة.

٢- **ومن فوائد الآية:** إثبات هذين الاسمين الكريمين: العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمناه من صفة وهي العزة والحكمة، وكذلك ما تضمناه من صفة على سبيل دلالة الالتزام؛ لأن دلالة اللفظ على معناه تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام وما يستلزمه هذان الوصفان من الصفات فإنه ثابت.

نضرب مثالًا كلمة (دار) تدل على هذه الكتلة من البناء المتضمنة للغرف والحجر والسطوح والرحبات تدل على ذلك بالمطابقة، وتدل على كل حجرة بمفردها أو غرفة بمفردها أو سطح بمفرده أو رحبة بمفردها تدل عليها بالتضمن، يعني: أنها متضمنة لكذا وكذا، تدل على أن لها بانيًا بالالتزام يعني: ما تكون الدار إلا ببانٍ هذا معنى قولهم: إن الدلالة مطابقة وتضمن والتزام.

فمثلًا العزيز يدل على العزة دلالة مطابقة؛ من لازم العزة أن يكون العزيز عالمًا قادرًا قويًا دلالته على هذه المعاني دلالة التزام، ودلالة العزيز على الذات والصفة دلالة مطابقة وعلى الذات وحدها أو الصفة وحدها دلالة تضمن، إذنْ: لهذا اسم الحي القيوم تضمن جميع الصفات؛ لأن الحي مستلزم لجميع صفات الكمال، والقيوم مستلزم لجميع صفات السلطان والملك والتدبير وما إلى ذلك؛ ولهذا ورد في الحديث أنهما اسم الله الأعظم.

إذنْ: العزيز الحكيم قلنا فيها إثبات العزة، والحكيم إثبات الحكم والحكمة، وفي الجمع بينهما يظهر صفة ثالثة وهي أن عزة الله مقرونة بالحكمة وليست كعزة عزيز غيره فإنها قد تكون خالية من الحكمة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي التأمل إذا خُتمت الآيات بما يكون مخالفًا لظاهر الحال يعني: فلا تردها، فإذا وجدت آية مختومة بخلاف ما يقتضيه ظاهر الحال أو السياق فتأمل فيها فإن الخطأ منك: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] مقتضى ظاهر السياق أن يقول: فإنك أنت الغفور الرحيم. لكن عدل عنه، فلا تقل: إن هذا خلل أبدًا، خلل منك أنت؛ لأن هذا كلام الله عز وجل ما فيه خلل، فالآيات الكونية ليست فيها خلل والآيات الشرعية كذلك فيجب أن تتأمل وتتيقن وهنا في الآيات التي معنا قد يتبادر للإنسان أنها تختم بالعلم ولكن عند التأمل يكون ختمها بالعزة والحكمة أولى.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾

[العنكبوت:٤٣].

١ - في هذه الآية الكريمة: فائدة ضرب الأمثال، وأنه نوع من التعليم والتوجيه لقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا ﴾.

٢ - ومن فوائدها: إثبات عظمة الله عز وجل تؤخذ من قوله: ﴿نَضْرِبُهَا ﴾ بنون العظمة، نضربها للناس واعلم - إن كنت لا تعلم من قبل - أن ما أضافه الله تعالى إلى نفسه بلفظ العظمة فإنه يدل على عظمة نفسه - سبحانه وتعالى - وقد يُراد به ملائكته لا نفسه وهذا في القرآن كثير وكذلك الأول في القرآن كثير، فمما أراد الله به ملائكته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، فالضمير هذا يعود على جبريل؛ لكن إضافة الله إلى نفسه، لأن جبريل رسوله، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود:٧٤]، هو لا يجادلهم الله إنما يجادل الرسل؛ لكن حمل ما أضيف إلى الله في سياق العظمة على رسله وملائكته لابد له من دليل وإلا فالأصل أنه يعود إلى الله، أما ما أضافه الله - تعالى - إلى نفسه بصيغة الإفراد فهو له نفسه، ونضرب لهذا مثلين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] هذه الضمائر كلها بصيغة الإفراد، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ المراد قربه نفسه من داعيه، ولكن هذا القرب لا يلزم منه أن يخلو منه العرش أو ينتفي عنه العلو، كما أنه ينزل إلى السماء الدنيا ولا يلزم منه أن يخلو منه العرش أو أن ينافي ذلك علوه لكن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٣ - ٨٥] فإن ﴿أَقْرَبُ﴾ فيها ضمير يعود على نحن، ونحن الضمير لله، لكنه أقرب إليه منه بملائكته، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ فإن الملائكة تحضر إلى الميت لقبض روحه وتجلس منه مد البصر لكن ما نبصرها نحن، فهنا القرب للملائكة، لأن الله أضافه إلى نفسه بصيغة العظمة ووُجد الدليل، وهذه الفائدة مهمة جدًا تنفع في باب الصفات وغيرها: أن ما أضافه الله إلى نفسه بصيغة الإفراد فهو له، وما أضافه إلى نفسه بصيغة الجمع فهو له، لكن قد يكون للملائكته بقرينة، وهذا غير ممتنع.

إذنْ هنا قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا ﴾ له لا للملائكة؛ لأنه ما فيه قرينة تدل على أنه للملائكة. إذن كلمة (نضرب) تفيد فائدة ضرب الأمثال.

٣ - وفيها أيضًا من الفوائد: رحمة الله تعالى بالخلق بضرب الأمثال لهم، لأن ضرب الأمثال - كما قلنا - يقرب المعقول إلى الأذهان، وتصور الإنسان للمحسوس أقوى من تصوره للمعقول. الآن لو أشرح لكم صفة الحج شرحًا بيِّنًا واضحًا وافيًا أو أذهب بكم إلى المناسك أيهما أبلغ؟ الأخير أبلغ؛ لأنكم تحسونه بأعينكم لكن الأول تتصورونه بقلوبكم ولا تدركونه جيدًا؛ فإذن

ضرب الأمثال فيه رحمة بالخلق حيث إن الله - سبحانه وتعالى - يقرب لنا المعقولات بالمحسوسات.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي التأمل في الأمثال، لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، فالعالم هو الذي يتأمل وينظر حتى يعقل.

٥ - **ومن فوائد الآية**: الثناء على العقل؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد. فالعقل الذي ينفع هو الذي يُثنى عليه.

٦ - **ومنها أيضًا**: فضيلة العلم؛ لقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ الذي غير عالم بالله - سبحانه وتعالى - وآياته ما يعرف هذه المعاني يقول: هذه أشياء ليس لها معنى، لكن العالم هو الذي يعقلها ويعرف مغزاها ومعناها وأوجه الشبه بينها حتى يصل إلى درجة الكمال.

قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤]

التفسير

قال المؤلف: [﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: محقًّا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ دالة على قدرته تعالى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾].

إذن ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معنى: ﴿خَلَقَ﴾: أي أوجدها، والله تعالى خالق السموات والأرض وبديع السموات والأرض، قال أهل العلم: بديع بمعنى: مبدع، والإبداع إيجاد الشيء على غير مثال سبق، ومنه البئر البدع التي حُفرت الآن جديدة، فالخلق أعم من البدع، لكن قد بيَّن الله - عز وجل - في آية أخرى أنه خالق وبديع، فهو الذي أوجد السموات والأرض وهو بديع السموات والأرض.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني: بما فيهما، والذي فيهما بالنسبة لبني آدم منهما، وكذلك النبات فإن الإنسان خُلق من طين من الأرض والنبات أيضًا من الأرض كما هو ظاهر.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قال المؤلف: [أي محقًّا]، فالجار والمجرور في موضع نصب على الحال من فاعل خلق، ويجوز أن يكون مفعولًا لأجله يعني: خلقها للحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾ [ص:٢٧] وإنما هي حق، وتفسير المؤلف يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، فإذا لم يكن لاعبًا - سبحانه وتعالى - كان محقًّا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الخلق فيشمل كل ما تطور من خلق السموات والأرض فإنه آية، فنفس السموات والأرض خلقها آية دالة على الله؛ لأن آية الشيء ما كان دالًا عليه دون غيره، هنا السموات والأرض دالة على الله؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق مثل هذه السموات والأرض.

إذن: فهي آية له، فوجود هذه السموات والأرض دالٌّ على القدرة وما فيها من الانتظام وعدم الاضطراب والتناقض دالٌّ على الحكمة، ولو تأملت أشياء من حوادث السموات والأرض لوجدت كل واحد منها يدل على القدرة وعلى العلم قال الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] وعلى الحكمة وله أيضًا دلالة خاصة على ما يدل عليه بنفسه وهذا شيء إذا تأملته يظهر لك آيات كثيرة.

وقوله: ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [دالَّة على قدرته تعالى] بل وعلى علمه وعلى حكمته وعلى رحمته وعلى قوته.

وكل حوادث السموات والأرض كل شيء منها يدل على تلك الصفة الخاصة به.

وقوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال المؤلف: [خُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين]، صحيح الآيات الكونية لا ينتفع بها إلا المؤمن والكافر ما ينتفع، الكافر يقول: هذه طبيعة تُدبِّر بنفسها وتنتقم من الناس بنفسها وتجلب الخير للناس بنفسها ولا ينتفعون، والمؤمن ينتفع بذلك، كذلك أيضًا الآيات الشرعية المؤمن ينتفع بها وغير المؤمن لا ينتفع قال الله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤ ـ ١٢٥]. فالآيات إذن الكونية والشرعية ما تنفع إلا المؤمن.

فإذا قال قائل: المؤمن مؤمن كيف ينتفع؟

قلنا: نعم ينتفع بزيادة الإيمان لا شك أنه نفع عظيم؛ لأن الإيمان إما أن يزيد وإما أن ينقص وإما أن يبقى على ما هو عليه والأخير هذا قد يكون نادرًا، أن يكون الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهو إما في زيادة وإما في نقصان هذا في الغالب، فالغالب الكثير على أن التقسيم الحاصل هذا أنا لا شك في وجود القسم الثالث منه وهو أن يكون لا يزيد ولا ينقص؛ لأن عدم زيادة الإيمان يؤدي إلى نقصه؛ إذ إن الإيمان يزيد بالطاعة كما هو مفهوم للجميع إذا فقدت الطاعة حصل النقص، إنما القسمة العقلية هو أن يكون إما زائد أو ناقص أو باقٍ على حاله وتصور أو وقوع القسم الثالث الله أعلم به.

سؤال: ما دليل الذين يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؟

الجواب: ما عندهم دليل؛ لأن عندهم تعليل عليه، الذين يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص هم المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو إقرار القلب والإقرار لا يتفاوت أو المعتزلة والخوارج

الذين يقولون: الإيمان ما يتبعض إما أن يوجد كله كاملًا وإما أن يعدم كله.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية من الفوائد:** أن الخالق للسموات والأرض هو الله، خلق الله السموات والأرض.

لو قال قائل: ما في الآيات حصر حتى تقولون: إن الخالق هو الله.

نقول: نعم ما فيها حصر بالطرق المعروفة، لكن فيه حصر من حيث إنه لا يوجد إلا سموات وأرض واحدة إذا كان الخالق لها هو الله انتفى أن يكون غيره خالقًا لها.

٢ ـ **ومنها:** الرد على أهل الطبيعة ـ والعياذ بالله ـ الذين يقولون: إن السموات والأرض ليس لها خالق بل إنها أشياء تتفاعل وتتحول وتتقلب وأن الخالق لا أول له ولا نهاية.

٣ ـ **ومنها:** إثبات حدوث السموات والأرض وأنها ليست قديمة تؤخذ من قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي موجدة بعد العدم فكل ما سوى الله فهو موجود بعد العدم.

٤ ـ **ومنها:** أن السموات عدة وأنها سبع.

٥ ـ **ومنها أيضًا:** أن الأرض واحدة والمراد الجنس، إذنْ: في القرآن ما جمعت الأرض أبدًا لكن أشير إلى جمعها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]. المماثلة هنا في الوصف متعذرة؛ لأنه ما فيه مقارنة بين السموات والأرض، وإذا تعذرت المماثلة في الوصف رجعنا إلى المماثلة في العدد وقد جاءت السنَّة صريحة في ذلك مثل قوله ﷺ: «طُوِّقَهُ[1] مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»[2].

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذه السموات والأرض خلقها بالحق وليس عبثًا ولا لهوًا ولا باطلًا؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٧ ـ **ومنها أيضًا:** أنها مشتملة على الحق، فخلقها وأصل إيجادها بالحق وهي أيضًا مشتملة على الحق، ما يمكن أن يحدث في السموات والأرض شيء إلا بحق.

٨ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** اطمئنان الإنسان لما يحدثه الله في السموات والأرض أو بعض الاطمئنان، وجه ذلك: أنها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، فكل شيء يحدث ما دام عرفت أنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أطمئن ولا أقول لماذا حدث، ولماذا ما يكون حدث، فلو حدث على الناس جوع، ومرض، وزلازل، وفيضانات. فأعرف أن ذلك بالحق فأطمئن وأرضى وأسلم ولا راحة ـ في الحقيقة ـ للإنسان إلا بهذا، فما يمكن أن يستريح

---

(١) أي جعله طوقا في عنقه.

(٢) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩٥٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٣١٢) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

الإنسان إلَّا إذا آمن بقضاء الله وقدره وأنه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيطمئن تمامًا وإلا فإنه يستكدر؛ لأنه ما من ساعة إلا ويجد فيها ما يسوؤه إما في نفسه أو أهله أو صحبه أو بلده أو البلاد الإسلامية عامة، ولا يمكن أن يطمع الإنسان أن يستقر حتى يؤمن بأن هذه الأشياء كلها حق.

سؤال: ما حكم منازعة الأقدار؟

الجواب: منازعة الأقدار بالشرع هذه واجبة.

أي: إذا جاءنا من القدر ما يسوؤنا تنازعه بما يقتضيه الشرع وذلك بالصبر فإذا صبرنا ما ساءنا ذلك، وهكذا فمنازعة القدر بالشرع هذا شيء واجب، وهي أن تقابل القدر بما يقتضيه الشرع لكن منازعة القدر بالقدر هنا ما يجوز، وبعض الناس ينفر من كلمة منازعة والمراد بالمنازعة المقابلة.

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** أن خلق السموات والأرض آية دالة على ما يقتضيه هذا المخلوق من صفات الله ـ عز وجل ـ، وقد ذكرنا أن منه ما يقتضيه الدلالة على قدرة الله والدلالة على حكمة الله والدلالة على عزته حسب ما تقتضيه الآية.

١٠ ـ **ومنها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون لقوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ونستفيد من هذه الفائدة، فائدة تتفرع: أنه كلما كمل إيمان العبد ازداد انتفاعًا بالآيات، وهذه الفائدة الطريق إلى الحصول عليها هو ما سبق لنا غير مرة من أن الحكم إذا عُلِّق بوصف ازداد قوة بقوته وضعفًا بضعفه، كل حكم يعلق على وصف فإنه يزداد قوة بقوة هذا الوصف وضعفًا بضعفه. فنقول إذن: كلما كان الإنسان أكمل إيمانًا ظهر له من آيات الله في هذه المخلوقات ما لم يظهر لمن دونه.

قال الله تعالى:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥-٤٧]

التفسير

قوله: ﴿ٱتْلُ﴾ يتضمن التلاوة اللفظية والتلاوة الحُكمية، التلاوة اللفظية أن تقرأ القرآن،

التلاوة الحكمية أن تأخذ بأحكامه وهي تلاوة الاتباع من قولهم: تلا فلانٌ فلانًا أي تبعه. فالأمر هنا بالتلاوة يشمل هذا وهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس موجهًا لكل من يصح خطابه؛ لأنه قال: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وهذا يخصصه بالرسول ﷺ لأن غيره لم يوح إليه، ولكن مع ذلك الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خطاب له وللأمة بدليل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] إلا ما قام الدليل على اختصاصه به، فإنه يؤخذ بالدليل: كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ لو وقفت الآية على هذا لكان يجوز للأمة أن تفعل؟ نعم، لكن قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٠].

يدل هذا على أن الخطاب إلى الرسول ﷺ له ولأمته ما لم يوجد دليل على اختصاصه به.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مَآ﴾ اسم موصول يفيد العموم، وقوله: ﴿أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ الوحي في اللغة هو الإعلام بسرعة وخفاء، أما في الشرع فهو إعلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالشرع لأحد أنبيائه أو رسله وهذا هو الوحي شرعًا، وله مراتب ذكرها الله تعالى في سورة (حم عسق) الشورى.

قال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مِنَ﴾ هنا: بيانية، بيان لقوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به القرآن وسمي كتابًا؛ لأنه يُكتب في المصاحف؛ ولأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ ولأنه مكتوب في أيدي الملائكة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١ ـ ١٦].

وكتاب على وزن (فعال) بمعنى: مفعول، وقد مرت علينا كثيرًا في اللغة العربية، مثل: غراس، مغروس، وبناء، مبني.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتي بها على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قويًا، ليس به اعوجاج ولا نقص.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ومعلوم أنه يقيم الصلاة، وأنه أقوم المصلين صلاة فكيف وجِّه إليه الخطاب بأقم الصلاة؟

قلنا: توجيه الخطاب إلى من يتصف به المراد به الاستمرار عليه، لا تجديده؛ لأنه موجود لكن للاستمرار عليه مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ

﴿ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فالخطاب ليس عبثًا حتى نقول: إن هذا تحصيل حاصل، فالمؤمن مؤمن نقول: المراد الاستمرار على ذلك، فإذا وجِّه الخطاب أو الأمر لمن يتصف به فالمراد الاستمرار عليه.

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قبل قليل قلنا: إن التلاوة تشمل الاتباع والعمل بأحكامه أليس إقامة الصلاة من اتباعه والعمل بأحكامه؟ بلى. إذن عطفها على قوله: ﴿ٱتۡلُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام هو إيذان برفعة شأنه، ولا شك أن الصلاة أفضل أعمال البدن؛ فلهذا خُصَّت بذكرها، ثم إن عطف الخاص على العام هل معناه ذكره مرتين، أو معناه أنه أفرد بالذكر من بين العموم؟

في هذا رأيان لأهل العلم، فمنهم من يقول: إن ذكر الخاص بعد العام معناه أنه سلبت دلالة العموم بالنسبة إليه، ثم أُفرد بالذكر.

ومنهم من قال: إنه داخل في العموم الأول ثم أُفرد بالذكر فيكون ذُكر مرتين وكلاهما يدل على شرفه هذا المفهوم، لكن أيهما أقوى؟

الأخير أن يكون ذكر مرتين مرة لذكر العموم ومرة في الخصوص، تظهر الفائدة مثل لو قلت: أكرم الطلبة ومحمدًا، ومحمد من الطلبة على القول أنه داخل في العموم ثم خص بالذكر نكون قد عرفنا أن هذا الرجل طالب واسمه محمد، أما لو قلنا: نزع من العموم وخص بالذكر فحينئذٍ نبحث عن محمد هذا من هو طالب أم أنه غير طالب ويحتاج إلى قرينة تدل على أنه من الطلبة؟

والصحيح: أن ذكر الخاص بعد العام معناه ذكره مرتين.

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: معللًا الأمر بإقامة الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ وهذا التعليل هل هو تعليل بالنسبة للمخاطب أو بالنسبة للمخاطب به؟المخاطب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمخاطب به الصلاة، خاطبه بإقامة الصلاة، فهل هذا التعليل لإقامة للصلاة من حيث هي إقامة، أو هي تعليل للمخاطب أو المتصل بالمخاطب، إذا قلنا: إن المتصل بالمخاطب صار المعنى: إن الصلاة تنهاك عن الفحشاء والمنكر، وهذا يقتضي جواز وقوع الفحشاء والمنكر من الرسول ﷺ، وإذا قلنا: إنه تعليل للمخاطب به يتصل بالمخاطب به وهو الصلاة قلنا: إن الصلاة من حيث هي صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويكون هذا وصفًا صادقًا بالنسبة لغير الرسول ﷺ، ويكون هذا التعليل بالنسبة للمخاطب به وهي الصلاة لا المخاطب بذلك وهو الرسول ﷺ، لِعلمنا أنه معصوم من الفحشاء والمنكر. وهذا هو المتعين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ الصلاة هنا والتي قبلها المراد الصلاة الفريضة أو الفريضة والتطوع؟ الكل: عام.

وقوله: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾، ﴿تَنْهَىٰ﴾ أي: تمنع، لكن التعبير بالنهي أبلغ من التعبير بالمنع؛ فإن المانع قد لا يكون محذّرًا لكن في النهي تحذير، فكأن الصلاة فيها سر يقتضي أن يُبعد الإنسان عن الفحشاء والمنكر كأنها تؤنب ضميره تقول له: لماذا تفعل هذا؟

وقوله: ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ كل ما يُستفحش من المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وما أشبهها، أما المنكر ما دون ذلك. وعطف المنكر على الفحشاء من عطف العام على الخاص؛ لأن كل فحشاء منكر وليس كل منكر فحشاء.

قال المؤلف: [﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ شرعًا أي: من شأنها ذلك ما دام المرء فيها]، قوله: [أي من شأنها ذلك] هذا صحيح، لكن ما دام المرء فيها ليس بصحيح، بل هي تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها وما لم يدم فيها، يعني: ليس نفعها هذا النفع خاصًّا بها إذا كان الإنسان متلبسًا يصلي الذي يصلي معلوم أنه لن يفعل الفحشاء والمنكر، لكن الفائدة العظيمة أنها تؤثر في قلبك ما يقتضي إبعادك عن الفحشاء والمنكر، وهذا في الحقيقة هو الثمرة والنتيجة لا أن الثمرة والنتيجة أنك إذا كنت تصلي ما عدت تفعل الفحشاء والمنكر، فتقييد المؤلف بقوله: [ما دام فيها] ففيه نظر، وليس بصواب، بل هي مطلقًا ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بمعنى أن ما يحدث منها يوجب للقلب البعد عن الفحشاء والمنكر ووجه ذلك: أن الإنسان المصلي يناجي ربه كما قاله رسول الله ﷺ فبينه وبين ربه صلة، وهذه الصلة تكسب القلب إيمانًا ونورًا، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «الصَّلَاةُ نُورٌ[1]»[2] ومعلوم أن القلب الذي يكتسب النور لا يميل إلى الفحشاء والمنكر، كلما همَّ أن يفعل ذكر أنه قبل ساعات كان واقفًا بين يدي الله - عز وجل - فيخجل ويبتعد، وهذا أمر مشاهد، إن الإنسان أحيانًا ليذكر وقوفه في صلاة لها عشرون سنة أو أكثر صلى في يوم من الأيام صلاة كأنه يرى ربه، «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، يعني في غاية الإحسان، يجد طعم هذه الصلاة بعد حين طويل، يذكرها ما تغيب عن قلبه، وهذه الذكرى لابد أن تؤثر في نفس الإنسان عن الفحشاء والمنكر، وهذا وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ لكن المراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الصلاة المقامة، ما هي كل الصلوات تنهى عن الفحشاء والمنكر، والله لو صلاتنا تنهانا عن الفحشاء والمنكر، كلنا كنا سالمين، لكن الآن - نسأل الله أن يعاملنا بعفوه -، يدخل الإنسان في الصلاة بقلب ويخرج بنفس القلب أو

(١) معناه أنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب كما أن النور يستضاء به.

(٢) كما ورد عند مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها).

أسوأ، يعني لاحظوا أن العبادات إن لو تؤثر على قلبك حسنًا فهي ضرر، الذي ما تنفعه الآيات تضره، كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(١).

ثم إنه قد يشك بعض الناس في هذا الخبر وهو خبر الله ـ عز وجل ـ صادق، فيقول: أنا أصلي ولكن ما أرى أنها تنهاني عن الفحشاء والمنكر، فأصلي مع الجماعة في الروضة ثم أخرج إلى دكاني وأبيع بالربا، وأبيع بالغش، وأبيع بالكذب، أصلي مع الإمام في الروضة ثم أجد في نفسي غلًّا وحقدًا على المسلمين وكراهة لبعض شرع الله وما أشبه ذلك، وأين هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؟

نقول له: البلاء ما هو في الصلاة، البلاء في المصلي وإلا فكل مؤمن يعلم علم اليقين أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأن هذا خبر الله ـ عز وجل ـ وهو صدق؛ لأنه عالم ـ جل وعلا ـ بكل شيء وهو ـ سبحانه وتعالى ـ قال ذلك عن علم وكلامه أصدق الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال المؤلف: [﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من غيره من الطاعات]، أولًا: اللام في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ﴾ اللام للابتداء، لأن الجملة ما هي قسمية، وقوله: (ذكر الله) ذكر مصدرٌ مضاف إلى اسم الله فهل هو مضاف إلى فاعله أو مضاف إلى مفعوله؟ يعني: ولذكرك ربك أكبر، أو ولذكر الله إياك في الصلاة له أكبر من نهيه عن الفحشاء والمنكر؟

والثاني يصح والشأن بذكر الله لك لا ذكرك الله، كما أن الشأن بمحبة الله لك لا بمحبتك الله، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ولم يقل فاتبعوني تحبون الله، ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فالشأن أن تُذكر، وكما أن هذا بالنسبة للمخلوق مع الخالق هو أيضًا بالنسبة للمخلوقين مع بعضهم، فكونك تحب فلانًا أو تذكر فلانًا ماذا نستفيد إذا كان فلان معرِضًا عنك؟ ما تستفيد إلا العناء والبلاء، نعم ولذلك: قصة بريرة مع زوجها مغيث هو يذكرها لكن هي لا تذكره ولا تريده وهو يحبها حبًّا شديدًا، فالشأن إذن بذكر الله لك ولكن ثق بأنك إذا ذكرت الله من قلبك فإن ذكر الله لك أعظم من ذكرك له: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي» ونفس الله تعالى أعظم من نفسك بلا شك «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُه فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ(٢)»(٣).

فأنت اذكر ربك حقيقة فالله ـ عز وجل ـ يذكرك ذكرًا أعظم وأجل من ذكرك إياه، إذن: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ نقول: إنه صالح لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من غيره من الطاعات، هل المراد هنا الذكر المنفصل عن الصلاة أو الذكر الذي في الصلاة؟ نرى كلام المؤلف: كلام المؤلف ماذا يرى؟ المنفصل، ظاهر

(١) هو جزء من الحديث السابق.
(٢) جماعة من الملائكة المقربين وهم أفضل من عامة البشر.
(٣) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلام المؤلف أنه الذكر المنفصل، يعني أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله أعظم نهيًا عن الفحشاء والمنكر وأكبر، ويحتمل أن يكون المراد: ولذكر الله الموجود في الصلاة والموجود بها أين الفرق؟ بينهما فرق: فذكر الله الموجود فيها مثل التسبيح والتكبير والقراءة وذكر الله بها يعني ما يحصل بسببها.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ قال المؤلف: [فيجازيكم به] هذه جملة خبرية له معنى عظيم ليس المقصود من هذه الجملة أن نعلم بأن الله يعلم ما نصنع ولكن المقصود منها التحذير من أن نصنع ما يخالف شريعتنا وقوعًا في المنهي أو تركًا للأمر.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول دال على العموم يشمل كل ما نصنع من قول أو فعل فيما يتعلق بحقه وفيما يتعلق بحق عباده ﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، قال: [فيجازيكم به] هذه النتيجة واضحة وتكون المجازاة عليه في الدنيا ويوم القيامة والمجازاة عليه على ما نسمع قد تكون شرعية بفعل العبد وقد تكون كونية بفعل الله، المجازاة عليه شرعية بفعل العبد مثل الحدود؛ لأن الحدود عقوبة شرعية بفعل العبد، وتكون كونية قدرية بفعل الله كما لو أصيب الإنسان بأمراض وتلف أموال وما أشبه ذلك.

سؤال: هل الابتلاء عقوبة؟

الجواب: قد يكون عقوبة وقد يكون ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

قد يكون اختبارًا وقد يكون عقوبة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٩].

فالإنسان قد يُبتلى عقوبة على معصية أو امتحان، فالمصائب التي تأتي للرسول ﷺ هذه من باب الامتحان حتى يصل الإنسان إلى درجة الكمال؛ لأن الصبر ـ كما هو معلوم ـ منزلة عالية عظيمة في الدين ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]؛ لكن الصبر بدون أن يُصبر عليه ما يمكن فهناك أشياء ترد على الإنسان من قضاء الله فيصبر عليها. ونقول: الفتنة بالنسبة للخير فتنة الشكر وبالنسبة للشر فتنة الصبر.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟﴾: الخطاب هنا للأمة جميعًا وهو نهي، وقوله: ﴿تُجَٰدِلُوٓا۟﴾

المجادلة: منازعة الخصم لأمرين: للظهور عليه وإبطال حجته، هذه هي المجادلة تنازع خصمك من أجل أن تعلو عليه وتظهر عليه وتبطل حجته مأخوذة من فتل الرأس وفتل الحبل؛ لأن الجدْل الذي هو فتل الحبل المقصود به إحكامه وتقويته؛ كأن المنازع يريد أن يقوي حجته على

خصمه وأننا نعرف باللغة العامية ما يسمى بقرون المرأة فتايل؛ لأنها تفتله وتقويه.

وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: الذين أوتوه، وأهل الشيء يراد به من أوتيه وإن لم يعمل به، ويراد به من أوتيه وعمل به ومحل الثناء الثاني، فأهل القرآن من هم الذين حفظوه فقط تلاوة أم حفظوه وعملوا به؟ كل هذا يقال له أهل، فالأولون أهل والآخرون أهل، لكن حقيقة الأمر أن الثناء والمدح على من كانوا أهله تلاوة وعملًا، فأهل الكتاب هم الذين أوتوه، إن عملوا به صاروا أهله حقًا وإن لم يعملوا لم يكونوا أهله حقًا، وأهل الكتاب المراد بالكتاب هنا الجنس وإلا فهما كتابان، التوراة والإنجيل، التوراة لليهود والإنجيل للنصارى.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هذا الاستثناء مفرَّغ من عموم الأحوال، يعني: في أي حال من الأحوال لا تجادلوهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، ﴿بِٱلَّتِي﴾ لم يقل: بالذي قال: ﴿بِٱلَّتِي﴾ والتي كما نعرف جميعًا: مؤنث.

أي: إلا بالطريقة التي هي أحسن، لأن المجادلة ما هي كلمات تقال، بل هي طرق ولذلك عندهم في الأدب والمناظرة عندهم للمناظرة طرق يتمكن بها الإنسان من الوصول إلى إقناع الخصم وإقامة الحجة عليه؛ ولهذا قال: ﴿بِٱلَّتِي﴾ أي بالطريقة التي ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هنا أتى باسم التفضيل مطلقًا ليعم الحكم في سياق الأدلة مثلًا في سياق المجادلة والحسن أيضًا في كيفية هذه المجادلة؛ لأنه لابد من أمرين:

لابد من حسن الطريق، نأتي بأقرب الطرق لإقناع الخصم، ولابد أيضًا من كيفية وضع هذه الطريقة وكيفية إلقائها.

نضرب مثلًا للأمرين: إنسان عنده قوة في المناظرة وإيراد الحجج لكن إذا جاء يجادل قال: أنت بليد، أنت حمار ما تعرف، القضية كذا وكذا وكذا، أنا الحقيقة مخطئ أني أجادل مثل هذا الحمار. هذا أحسن أم لا؟ ليست أحسن وإن كان عرض الطريقة جيدًا لكن كيفية إلقاء هذا ليس بجيد.

إنسان آخر لين الكلام مهذب، لكن ما يحسن أن يناظر هذا أيضًا ليس داخلًا في قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

انظر إلى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما حاجه الرجل في ربه: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة:٢٥٨] ما راح ينازع إبراهيم ويقول: أنت ما تحيي ولا تميت، إنما تبقي الحياة أو تفعل السبب الذي يكون به الموت، لأن الحقيقة أن الإنسان لا يحي ولا يميت، لكنه يفعل السبب الذي به يموت أو يستبقي الحياة من غيره، فما راح ينازع هذه المنازعة، بل أتى له بدليل آخر: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾

بسيطة، لكن لا يقدر، ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ ما استطاع أن يتخلص من هذا الإيراد أبدًا هذا أيضًا من الأحسن في المناظرة أنك إذا رأيت أنك بسلوكك هذا الطريق ينفتح عليك باب المعارضة فاسلك الطريق الآخر، قد يقول الإنسان في نفسه: أنا ما أريد أن أنهزم بل أريد إثبات هذه الحجة التي أدليت بها، قد يقول الإنسان في نفسه: أنا أحب أن أبقى على الحجة التي أدليت بها ولا أورد الأخرى؛ لأني أخشى أن يكون ذلك انهزامًا أليس هذا واردًا؟

هذا وارد، فقد يصير الإنسان يدلي بحجة ينازع فيها لأجل يحققها ويثبتها وقد يفتح عليه أبواب النقد بدلًا من هذا ما دام عندك حجة واضحة تبطل بها الخصم، فإن المقصود الأول إبطال حجة الغير المنازع، فما دام عندي حجة أستطيع أن أنازع بها أترك الذي أدليت به.

أولًا أقول: دعنا من كذا، وافعل كذا، أو وما تقول في كذا لأن هذا أولًا يكشف حال الخصم بسرعة، وثانيًا: لئلا يقوم بالمنازعة في الأولى فيقهر عليك؛ لأن الإنسان قد يكون عند الخصم استعدادًا للمناظرة في مسألة من المسائل وعنده دليل واضح، وعند المجادلة يغلبك بينما يكون عندك أنت دليل أقوى منه لكن لو سلكت طريقًا آخر وصلت إلى مقصودك، المهم أنني قلت: إن المجادلة بالتي هي أحسن يشمل الطريقة التي بها تندفع حجة الخصم، وتقوم عليه الحجة، ويشمل كذلك كيفية إلقاء هذه الحجة في المجادلة فهو شامل لهذا وهذا.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ عندنا أحسن وحسن فالإنسان عند المجادلة تجده يدلي بالشيء الذي يدحض به حجة الخصم، ومع ذلك أمر الله ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ لأن المقصود الوصول إلى الحق لا مجرد الغلبة الذي يقصد بالمجادلة مجرد الغلبة لا لله ولكن لنفسه، هذا في الحقيقة خاسر وإن نجح، نعم من قصد الظهور والغلبة على خصمه لله؛ لأنه يعتقد أن الحق معه فيريد أن يعلو هذا الحق فهذا لا شك أنه حسن ولا يلزم عليه المرء، لكن أعلى منه من قصد إظهار الحق بقطع النظر عن كون ذلك انتصارًا لنفسه أو لا.

فالمراتب إذن ثلاثة عند المناظرة: من الناس مَنْ يناظر من أجل ظهوره هو وغلبته فقط هذا خاسر، وهذا يعني أنه سيناظر على قوله وإن كان باطلًا.

ومن الناس من يناظر ويريد الغلبة أو الانتصار لنفسه؛ لأن قوله يرى أنه حق فهذه مرتبة الإنسان فيها سالم وناج.

المرتبة الثالثة أعلاها من يقصد بذلك إظهار الحق بقطع النظر عن كونه انتصر أو ما انتصر ما يهم، ولذلك قد يرى من نفسه مثلًا أنقص مرتبة لكن ما يهمه أن يكون ناقص المرتبة، إنما يريد ظهور الحق فهذا لا شك أنه أعلى المراتب.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال المؤلف: [كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه]، الدعاء إلى الله بآياته الشرعية والكونية، لأن الله تعالى يقيم الحجة بهما جميعًا قال الله تعالى: ﴿فَلَا

تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٢].

والمجادلة بالآيات الكونية وبالآيات الشرعية بأن أبين ما في شريعة الله من الحكم والأسرار؛ لأن هذه الشريعة إذا بانت حكمها وأسرارها لكل ذي عقل تبين له أنها هي الحق، وكذلك أيضًا أبيِّن ما في هذه الآية الشرعية من الالتئام والانتظام وعدم الاختلاف: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

أما المجادلة بالآيات الكونية أن أريه ما في الآية الكونية وأقول من فعل كذا ومن فعل كذا؟ قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

هذه الآيات التي في سورة الطور مناظرة في الآيات الكونية والشرعية: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]. هذه هي الآيات الشرعية، وقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الطور:٣٥-٣٨] من الآيات الكونية فتجادل المعاند بالآيات الكونية وتبين له، ومن ذلك أيضًا مناظرة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- والذي حآجَّه في ربه أنه ناظره بالآيات الكونية.

وقوله: [والتنبيه على حججه]، الحجج جمع حجة وهي الدليل، الدليل المقنع والمفحم للخصم.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى:١٦].

احتج من ينكر صفات الله - عز وجل - على اختلاف مشاربهم هل هي الصفات الخبرية أو الفعلية أو كل الصفات؟ احتجوا بشبهة، قالوا: إثبات هذه الصفات يستلزم التشبيه، لأننا لا نعقل في الخارج من يوصف بهذه الصفة إلا المخلوق وهذا يقتضي أن الله - سبحانه وتعالى - مشابهًا للخلق، إذن يجب الإنكار، وعلى هذا غالب حجة أهل التعطيل كلهم على اختلاف مشاربهم إذ يقولون: ما نشاهد في الخارج وقولهم: في (الخارج) يعني في الواقع؛ احترازًا من الفرض الذهني، والفرض الذهني قد يفترض أشياء لا وجود لها أي: يمكن للذهن أن يصور شخصًا مثلًا له آذان طويلة وهو غير موجود. يفرض مثلًا كلية عامة اسمها الحيوانية يدخل فيها الإنسان والبعير والحصان وما أشبه ذلك كلية عامة هل لها وجود في الذهن؟ نعم. لكن في الخارج والواقع لا، فهم يقولون: لا نجد في الخارج أي: في الواقع شيئًا متَّصفًا بهذا إلا المخلوق فيجب أن ننفي عنه هذه الصفات.

وغلاة الجهمية قالوا أيضًا: الأسماء، والأسماء ابقوها، لا تثبتوا أبدًا إلا فاعلًا وقادرًا فقط،

فغلاة الجهمية يقولون: ما يمكن أن نثبت ولا الأسماء حتى ما نسميه السميع ولا العليم ولا الغفور ولا الرحيم؛ لأن هذه أسماء المخلوق ما نسمي الله بها، نسميه فقط فاعلًا وقادرًا فقط؛ لأنهم جبرية يرون الإنسان ما يفعل بنفسه ولا يقدر على الفعل قالوا: فلما انتفت صفة الفعل والقدرة عن الإنسان فإن الله فاعل قادر، أما غير ذلك فلا.

فالحاصل أن أقول: قول المؤلف: [على حججه] المراد بها البراهين الصادقة، والأدلة القاطعة، وليس كل حجة مقبولة إلا الحجة من الله ورسوله فهي مقبولة من كل حال والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ هذا مستثنى من قوله: ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا الاستثناء هل يجب فيه النصب أو يجوز فيه النصب والبدل؟ البدل؛ لأنه مسبوق بنهي.

قال ابن مالك:

وَبَعْدَ نَفْيٍ أَوْ كَنَفْيٍ انْتُخِبْ اتْبَاعَ مَا اتَّصَل وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ[1]

قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ قال المؤلف: [بأن حاربوا وأبوا أن يقروا بالجزية فجادلوهم بالسيف حتى يُسلموا أو يُعطوا الجزية].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ لعل الآية أعم مما قال المؤلف ويكون مراد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: الذين كابروا وعاندوا ولم يرضخوا للحق الذي تبين، فهؤلاء لا يُجادلون بالتي هي أحسن؛ لأنه تبين عنادهم، ولكن هل الآية تدل على متاركتهم وأنهم يُتركون، أم أن الآية تدل على أنهم يُجادلون بالتي هي أسوأ؟

اختلف كلام المفسرين في هذه المسألة، فمنهم من قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فاتركوهم ولا تجادلوهم؛ لأنه لا فائدة من جدالهم، ما دام قد ظهر عنادهم وظلمهم فلا فائدة، ومنهم من قال كما قال المؤلف: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعني: جادلوهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

وعندي: أن الآية تحتمل المعنيين جميعًا، وأنه ينبغي أن تنزل على الحالين وتستعمل كل حال بما يليق بالناس، وإذا كان المقام يقتضي أن نجالدهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية فأما بأن يكون لدينا من القوة والقدرة ما نتمكن به من ذلك وإذا لم يكن فينا قدرة إذا كانت المصلحة تقتضي متاركتهم فإننا نتركهم وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر في أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر حكم هذا المستثنى صريحًا، فما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فجادلوهم بالتي هي أسوأ، ولا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ فلا تجادلوهم إطلاقًا، بل جعل حكم هذا المستثنى صالحًا للأمرين.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓا۟﴾ قال المؤلف: [لمن قَبِل الإقرار بالجزية إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم،

(١) «شرح ابن عقيل» (٢/ ٢٠٩).

﴿ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾]، هذه لتهدئة الخصم عند المناظرة والمحاجَّة؛ لأن بعض الناس إذا نازع أو خاصم صار يسبُّ محل الحجة من خصمه، وهذا غلط؛ لأنه قد يقول لك هذا المنازع - إنه مما قاله فلان في الكتاب الفلاني بعض الناس يصب كال السب والغضب على هذا الكتاب وهذا خطأ، ما ينبغي هذا العمل؛ لأن هذه قضية عاجز، إنما هدئ بالك وقرر وإذا كان ما احتج به مما يقبل فاقبله وليس كل ما يُقبل في شيء يقبل في جميع الأشياء، فهنا نقول لهؤلاء المجادلين من أهل الكتاب: ﴿ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وهو التوراة إذا كانوا من اليهود أو الإنجيل إذا كانوا من النصارى، ونحن لا ننكر ما أُنزل إليكم ونقول هو حق، لكن نؤمن أيضًا بما أنزل إلينا ونقول: إنه حق، وإذا آمنا بهذا وهذا صار الحكم لما نزل أخيرًا وهو القرآن؛ لأنه ناسخ وحينئذٍ يكون قولنا هذا أولًا تهدئة لهم ولنفوسهم. وثانيًا: إلزام لهم بالإيمان بما أنزل إلينا؛ لأن الإنسان في كل مكان بشر، فإذا قيل له: أنا آمنت بما أنزل إليك فآمن بما أنزل إلي سيأخذه الخجل والفشل وربما يوافق كيف هذا الرجل يؤمن بما أنزل إلي وما أنزل إليه وأنا أكذب ما أنزل إليه!

فيكون في هذا مصلحة من وجهين:

أولًا: تهدأته، وثانيًا: إلزامه بالإيمان بما أنزل إلي، كما أنني أنا مؤمن بما أنزل إليه وهذا في الحقيقة من المجادلة بالتي هي أحسن.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: كلما جاء الأمر بالإيمان فالمراد به القول باللسان بعد الإقرار بالجنان؛ لأن مجرد القول باللسان لا يكون إيمانًا كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، فالإيمان الذي لا يتطابق فيه القلب واللسان هذا ليس بإيمان، هذا نفاق - والعياذ بالله - فلابد من القول باللسان بعد الاعتراف بالجنان.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هذا من بلاغة القرآن لم يقل: وما قلتم، أو ما جئتم به، قال: (والذي أنزل إليكم). لماذا لم يعبر بالأول؟

لأن لديهم من التحريف والتبديل ما لا يمكن معه أن يقبل كل ما جاءوا به، لكن نؤمن بالمنزل إليهم. أما بما جاءوا به فهم قد حرفوه وكذبوا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لَا تُصَدِّقُوهُمْ**[1] **وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: آمَنَّا**»[2] بهذا اللفظ الذي جاء في القرآن: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، فنحن مؤمنون بالمنزل لا بالمبدل، المبدل ما نؤمن به إنما نؤمن بالمنزل.

---

(١) أي لا تعتمدوا أقوالهم وتفسيراتهم سواء وافقت الواقع أم خالفته واعتمدوا ما جاءكم على لسان نبيكم صلى الله عليه و سلم مع تصديقكم بما أنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(٢) رواه البخاري (٤٢١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وصفة الإيمان بما أنزل إلينا هل هو كصفة الإيمان بما أنزل إليهم؟

لا؛لأن إيماننا بما أنزل إلينا ملزم بالاتباع ولإيماننا بما أنزل إليهم ليس ملزمًا، فإذا وجد في شرعنا ما يخالف شرعهم نتبع شرعنا، لكننا نؤمن أن ما أنزل إليهم من عند الله، أنه حق وأنه يجب عليهم اتباعه في حال عدم تحريفه منهم.

وقوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من أي أحد؟ من الله - عز وجل - ؛لأن جميع الكتب المنزلة على الأنبياء من الله.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبودنا؛ لأن إله بمعنى مألوه، والمألوه بمعنى: المعبود، وهو يطلق على المعبود بحق، والمعبود بغير حق، لكن الله وحده هو المعبود بحق وما عداه فمعبود بالباطل. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، إذن هذه الأصنام تسمى آلهة ولكن ألوهيتها باطلة شرعًا؛ ولهذا صح النفي في قوله: (لا إله إلا الله)، فهذا النفي لا يعني أنه لا يوجد إله إلا الله في الكون، بل توجد آلهة لكن باطلة لأن ما عدا الله - سبحانه وتعالى - فألوهيته باطلة، وهي لا تسمى آلهة حقًّا، أما آلهة بالباطل فقد سماها الله آلهة، والرسل أيضًا سموها آلهة. نعم هي آلهة ولكنها باطلة، ومن أجل بطلانها صح النفي في قولنا: لا إله إلا الله.

مسألة: ألا يصح أن نقول: لا إله موجود ونجعل تلك الآية مجرد أسماء؟

الجواب: لا يصح؛ لأننا لو قدرنا هذا: لا إله موجود، لاحتج المشركون علينا وقالوا: إذا كنتم تقولون هذه ليست آلهة؛ إذن فلسنا بمشركين، لأنّنا ما عبدنا إلهًا وهذا باطل، الواجب أن نقدر لا إله حق إلا الله، وهذا صريح في القرآن والله - تعالى - سماها آلهة فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩] سماه إلهًا، وما هو فيه محاجة للمشركين حتى نقول: هذا من باب التنزل مع الخصم، وقال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وقال الرجل الصالح الناصح لقومه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس:٢٣] فاتفق على ذلك الوحي المنزل وكلام الرسل وكلام الصالحين.

قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾ إذن: إله بمعنى مألوه، والصيغة هذه بمعنى مفعول وهي كثيرة في اللغة العربية ومنها الغراس والبناء والفراش وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ هذا في مخاطبة اليهود واضح لكن في مخاطبة النصارى كيف يصح أن نقول: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ وهم يعبدون المسيح ويرونه إلهًا ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]؟

الجواب: نرد على زعمهم بأن الله ثالث ثلاثة بأن ننكر أن يكون الله متعددًا، ونلزمهم بذلك؛

لأن الله ـ عز وجل ـ يقول يوم القيامة لعيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] الله يعلم أنه ما قال هذا لكن من أجل إبطال دعوى قومه وإلزامهم بالحجة.

قال: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٦ ـ ١١٧].

وقولنا: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ هذا فيه أيضًا إلزام لهم بالقبول: فإذا كان الإله واحدًا، ونزَّل الكتاب السابق ثم نزل الكتاب المهيمن اللاحق فالواجب علينا وعليكم؟ اتباع هذا الذي نزل من عند الإله المتفق عليه بيننا وبينكم، ومثل ما لو قال قائل ـ ولله المثل الأعلى ـ لكن على سبيل التمثيل: الملك واحد أمرنا بأمر، وأمركم بأمر الواجب علينا جميعًا ما دمنا نعترف أنه هو الملك على الجميع الطاعة فكلٌّ يطيعه فيما أمر به، فأنتم أمرتم بشيء ثم نُسخ هذا الأمر إلى هذا الأمر الثاني من إله واحد فالواجب علينا جميعًا أن ننصاع تحت أمر هذا الإله الواحد.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ نحن أي وحدنا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي: لهذا الإله الواحد مسلمون، وتقديم المعمول يفيد الحصر يعني: له، لا لغيره مسلمون، والمراد بالإسلام هنا الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، والاستسلام ظاهرًا واضح أن يقوم الإنسان بالأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاستسلام باطنًا إخلاص النية لله ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] إسلام الوجه أي: إسلام القصد، وهو محسن بالعمل الصالح وهو عمل الجوارح، فقوله: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ المراد به الاستسلام ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا فسر العلماء الإسلام بأنه الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: وأما أنتم فمعناه أنكم لم تسلموا له وإنما أسلمتم لأهوائكم، ولهذا يجب على كل مؤمن أن يكون مسلمًا لله وحده مسلمًا ظاهرًا وباطنًا.

قال المؤلف: [مطيعون] ففسر الإسلام بالطاعة، والطاعة هي موافقة الآمر أو الناهي بما يريد، يعني: أنها فعل المأمور وترك المحظور على الوجه الذي قصد من الآمر أو الناهي.

مسألة: ما الفرق بين الإسلام والإيمان؟

الجواب: الإسلام والإيمان إذا ذكر أحدهما شمل الآخر فالإسلام عند ذكره وحده يشمل الإيمان، والإيمان عند ذكره وحده أيضًا يشمل الإسلام، وإذا قُرنا صار الإيمان في الباطن والإسلام في الظاهر ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ

هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]

قال المؤلف: [﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَۚ﴾ القرآن كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها]،﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذه دائمًا تقع في القرآن وكثيرًا ما يعبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها وقد مر علينا إعرابها. وهي مفعول مطلق، بمعنى مثل مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره مثل ذلك.

فيكون المعنى: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا إليك الكتاب، ووجود هذا كثير في القرآن مثل ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل:٣٤]، أي: ومثل ذلك الفعل يفعلون، وربما تكون أيضًا الأخيرة هذه مفعولًا به مقدمًا.

قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخطاب في قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ إضافة الله إليه؛ لأنه كلامه، فالقرآن كلام الله لفظًا ومعنًى، هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي دل عليه القرآن والسنة وإجماع الأئمة وهو مخالف لقول الأشاعرة: إن القرآن كلام الله معنًى لا لفظًا وأن هذه الحروف مخلوقة خلقها الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لتكون حكاية أو عبارة عن كلامه، أما أنه كلامه فلا، ويجعلون الكلام هو المعنى القائم بالنفس، والغريب أيضًا أنهم يقولون: إنه قديم يعني: لا يتجدد وأنه بمعنًى واحد وأنه قل مثل هذا وكان الخبر مثل الأمر وأن التوراة والإنجيل والقرآن وسائر ما يتكلم الله به شيء واحد، وكل هذا تصوره كافٍ في رده فهو في الحقيقة إنكار لكلام الله؛ ولهذا قال بعض محققيهم: الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة والجهمية فإننا جميعًا متفقون على أن ما في دفتي المصحف مخلوق لكن هم أشجع منا، ـ المعتزلة أشجع ـ يقولون: هو مخلوق لفظًا لا معنًى.

على كل حال هذا محل بحث في العقائد.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن وسمي كتابًا بمعنى مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة وفي المصاحف التي بأيدينا، وفي قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الفاء للتفريع تفرع عن إنزال الكتاب على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم آتاهم الكتاب فآمنوا به، وقسم آخر لم يؤمن به، فقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وقسم آخر لم يؤمنوا به.

فقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قال المؤلف: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام، وغيره] ولكن هذا التفسير فيه شيء من الإشكال، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به بهذا القرآن هل جميع الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به؟

لا، أكثرهم في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما آمن به، لكن الذين آتيناهم الكتاب إيتاءً كونيًّا وشرعيًّا، بمعنى أن الله آتاهم الكتاب وعملوا به فهؤلاء الذين أوتوا الكتاب على وجه

الكمال والإطلاق هم الذين آمنوا بالقرآن، مثل عبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، وسلمان الفارسي آمن بما في القرآن؛ لأنه تلقى العلم عن أهل الكتاب، فهؤلاء ثلاثة أصناف: اليهود والنصارى ومن تلقى عنهم، فكلهم فتح الله عليهم وآمنوا بهذا القرآن.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بمعنى: أعطيناهم، وليست جئناهم، وما الفرق بين جئناهم وبين أعطيناهم؟ الفعل (أتى) من الرباعي بمعنى أعطيناهم، ومن الثلاثي بمعنى جئناهم.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [بالقرآن] ويصدقوه، فأهل العلم منهم الراسخون فيه الذين يريدون الحق لا شك أنهم آمنوا بالقرآن واتبعوه ورأوا أنه الحق. أما على القول بأن التقدير بأن معنى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: نزل إليهم الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بمعنى يعرفون أنه حق ولكن لا يؤمنون به فهو خلاف ظاهر الآية، وإن كان المعنى المشار يحتمل لكن خلاف ظاهر الآية؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

قال المؤلف: [﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكة] (مِنْ) هذه للتبعيض وعلامة من التبعيضية أن يحل محلها بعض، يعني: وبعض هؤلاء يؤمن به والإشارة إلى هؤلاء يراد بها أهل مكة، لأن هذه السورة مكية والمشار إليهم قريبون إذ أنها نزلت قبل الهجرة، ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، فهناك تشابه بين الفريقين فيكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب ومن هؤلاء من يؤمن به كأن المؤمنين بذلك من قريش قلة بعضهم يؤمن به.

وقوله: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الإيمان ـ كما سبق ـ عند الإطلاق يراد به التصديق المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرد التصديق، ولكن مجرد التصديق ليس بإيمان وإلا لكان أبو طالب مؤمنًا، ولكنه لابد أن يكون مستلزمًا للقبول، أي: قبول ما جاء به الرسول ﷺ والإذعان وهو الانقياد، أما غير ذلك فليس بإيمان.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال المؤلف: [بعد ظهورها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: اليهود وظهر لهم أن القرآن والجائي به محق وجحدوا ذلك]

وهذا استثناء مفرغ لما بعده، وعلى هذا نعرب: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فاعل لـ﴿يَجْحَدُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المعروف أن الجحود يتعدى بنفسه، فيقال: جحد الشيء، لكنه هنا مضمن لمعنى الكفر أي: وما يكفر بها جحودًا إلا الكافرون.

فلو قال قائل: إذا قيل: ما يكفر بها إلا الكافرون صار تحصيل حاصل.

فنقول له: ليس تحصيل حاصل؛ لأننا نقول: وما يجحد بها أي: ما يكفر بها جحودًا، والكفر قد يكون جحودًا وقد يكون استكبارًا وهنا كفر الجحود.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الشرعية و الكونية؛ لأن من الناس من جحد الآيات الكونية، جحد أن الله

يحيي الموتى، بل من الناس من جحد أن تكون هذه الخليقة بخالق والآيات الشرعية الجحد بها كثير.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مفهومه أن غير الكافرين يقرون بها، وعلى هذا فنقول: كل من جحد شيئًا من آيات الله فإنه يستحق من الكفر بقدر ما جحد، إما كفرًا مطلقًا أو أقل.

وقول المؤلف: [أي اليهود]. هذا من باب القصور، فهذا قصور في التفسير، لأن قوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أعم من اليهود؛ لأن (أل) اسم موصول.

قال ابن مالك:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ أَل

ولهذا كانت للعموم، ما يجحد إلا الكافر، وعليه فتكون تشمل اليهود وغير اليهود أليس الله تعالى قد قال عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] وهل فرعون وقومه من اليهود؟ لا، بل هم من الأقباط وقبل أن يكون بنو إسرائيل يهودًا.

قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** وجوب تلاوة القرآن، وقد سبق أن التلاوة ثلاثة أقسام: تلاوة اللفظ، والمعنى، والابتداء، وذكرنا أثرًا يدلُّ على ذلك: (كانوا - أي الصحابة - لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل).

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن النبي ﷺ رسول، وتُؤخذ من قوله: ﴿أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أهمية الصلاة والعناية بها، وتُؤخذ من قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإنها داخلة في تلاوة ما أوحي إليه فخصَّها بالذكر للعناية.

٤ - **ومنها:** أنه ليس المقصود فعل الصلاة؛ بل إقامة الصلاة، ولا يخفى على الجميع الفرق بين الإقامة وبين مجرَّد الفعل، فيكون المأمور به إقامة الصلاة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** الآثار الحميدة على إقامة الصلاة، وهي: النهي عن الفحشاء والمنكر.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** فضيلةُ ذكر الله عز وجل، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٧ - **ومنها:** أن الأمور الإيجابية أكمل من الأمور السلبية؛ لأنَّ النهي عن الفحشاء والمنكر أمرٌ سلبيٌّ، وذكر الله أمرٌ إيجابيٌّ، ولهذا قال العلماء: إن الصبر على طاعة الله أكمل من الصبر عن معصية الله؛ لأنه صبرٌ على فعل معاناة ومشقة، فالإنسان يُجرِّبُ نفسَه في الصبر على طاعة الله من وجهين: من جهة إلزامه بها، ومن جهة الصبر والتحمُّل على هذه الأفعال أو الأقوال.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ إذا كانت مُضافة إلى الفاعل فمعناها: أن الله يذكُره، وإن كانت إلى المفعول: أنك تذكر الله.

٩ ـ **ويستفاد منها أيضًا**: فضيلةُ ذكر الله للعبد، وأنها من المراتب العالية، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إثباتُ علم الله، يؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثبات عموم العلم، من قوله: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾، وإثبات تعلُّق الله بفعل العباد، من قوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، فيكون فيه ردٌّ على طائفة وهم غُلاة القدرية ـ وليسوا كلهم ـ فغُلاة القدرية قديمًا كانوا يُنكِرون تعلُّق علم الله بفعل العبد، ويقولون: إن الأمر أُنُف؛ أي: مُستأنف، وإن الله ما يعلم بأعمال العباد إلا إذا عملوها، ولا شكَّ أن هذا كفرٌ، كما قال الشافعي وغيره: (جادِلوهم بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصِموا، وإن أنكروه كفروا).

١١ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: إثباتُ الأفعال الاختيارية للمرء ونسبتُها إليه، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، ففيها ردٌّ على طائفة ضدَّ القدرية، وهم الجبرية.

١٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن من لم تنههُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فإنه لم يُقِمها؛ لأن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، فجعل هذا أمرًا مُرتَّبًا على إقامة الصلاة، إذا لم تنهَك عن الفحشاء والمنكر فإنك لم تُقِمها، وهذه المسألة يجب علينا أن نُحاسِب أنفسنا عنها، لا نقُل: إننا أقَمنا الصلاة حتى ننظر آثارها، فإذا وجدنا أن القلوب لم تتغيَّر، ولم تقلع عن الفحشاء والمنكر بفعل الصلاة علِمنا أننا مُقصِّرون في إقامتها، وإلا لو أقمناها لكانت النتيجة كما قال الله عز وجل.

أما فوائد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

١ ـ يُستفادُ من هذه الآية الكريمة: وجوب اتباع الأحسن في المجادلة، وهذا يؤخذ من الحصر في الآية الكريمة، فلا تُجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، والنهي يقتضي التحريم، فإذا حرُمَت المجادلة إلا بالأحسن، معناه: وجَبَت المجادلة بالتي هي أحسن.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنه يجب على المرء أن يعرف ما عند خصمه ليُجادِله به، فيمكن أن نقرأ في التوراة والإنجيل لنجادل اليهود والنصارى، وإلا ففي القرآن كفاية للرد عليهم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: ألَّا نُجادِل غير أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، كما لو جادَلْنا الفلاسفة وغيرهم، ما نُجادِلهم إلا بالتي هي أحسن.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنه يجب في المُجادلة اتباع ما يكون أشدَّ إقناعًا، وإبطالًا لحُجَّة الخصم، من قوله: ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقد ذكرنا في التفسير أنه إذا كانت المجادلة تفتح باب المنازعة فإنه يُترَك هذا الباب إلى بابٍ لا تُمكن المنازعة فيه، وذكرنا مثالًا على هذا: قصة إبراهيم، لما قال له

الذي حاجَّه: ﴿أَنَا أُحْيِ، وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وحينئذٍ ما عاد يقدر يُجادِل أبدًا، فأنت إذا سلكت طريقًا في مُحاجَّة غيرك، ورأيت أن هذا الطريق سيفتحُ باب الجدل؛ فماذا تصنع؟

لا بأس أن تتنازل عن هذه الطريقة؛ لأن بعض الناس قد لا يتنازل عن الطريقة التي وضعها خوفًا أن يُظنَّ أنه مُنهزِم، لكن إذا كان عندك أدلة وطرقٌ أخرى لإفحام الخصم فلا حرج؛ بل قد يجب أن تعدِل عن الأول إلى الثاني؛ لأنه لا ضير عليك حتى تقول: سأبقى في هذا الطريق.

٥ - ومن فوائد هذه الآية: أن الظالم في المُحاجَّة لا يُجادَل بالتي هي أحسن، لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، ولكن هل يُترَك أو يُستعمل معه الشدة؟

ذكرنا فيما سبق أنه على حسب الحال، إن كانت المصلحة تقتضي تركَه تُرِك، أو اتباع الشدة اتبع الشدة.

٦ - ومن فوائد هذه الآية: أن من أهل الكتاب من هو مُعارِض ظالم، ومنهم من يكون خفِيَ عليه الحق، فبالمُجادلة يتبيَّن له، وتُؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فعُلِمَ منه أنهم ينقسمون إلى قسمين: ظالم مُعانِد مُكابِر، وآخر مُسترشد قد يخفى عليه الحق بما لُبِّس عليه من علمائه، فإذا تبيَّن له الحق رجع وأخذ به.

٧ - ومن فوائد هذه الآية: سلوك ما يُطمئِنُ الخصم في المناظرة، ما يقتضي اطمئنانه وإلزامه أيضًا، من قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾؛ لأن هذا يستلزم سكون الخصم، ما دام أن الخصم يقول: إني آمنتُ بما أُنزل إليك، ثم يستلزم إلزامه، فهو يقول: أنا مؤمن بالاثنين؛ لماذا أنت لا تؤمن بالاثنين؟

٨ - ومن فوائد هذه الآية: إثبات أن التوراة نزلت من عند الله، وكذلك الإنجيل.

٩ - ومنها: إثبات أن التوراة والإنجيل والقرآن أيضًا كلام الله، وهذه تُؤخذ من قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

١٠ - ومنها: إثبات العلو لله عز وجل؛ لأن النزول ما يكون إلا من أعلى.

مسألة: هل القرآن عينٌ قائمٌ بنفسه، أو صفة؟

الجواب: صفة؛ لأنه كلام، ليس عينًا قائمًا بنفسه؛ بل هو كلامٌ، إذا كان كلامًا والكلام صفة، فلابد لكل صفة من موصوف، وبهذا نعرف أن القرآن كلام الله.

أما مسألة الإنزال فهي حُجَّة، ولكن فيها شُبْهة، وهي أن يحتجَّ عليك الجهميُّ فيقول: إن الله قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ومعلومٌ أن الأزواج الثمانية مخلوقة، وسمَّاها الله تعالى إنزالًا، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والحديد لا شكَّ أنه مخلوق!

ولكننا ننفكُّ عن هذا الإيراد بأن هذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها، والعين القائمة بنفسها، فإنها مخلوقة بكل حال، فكل ما سوى الله من الأعيان فإنه مخلوق.

١١ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن أهل الكتاب يُقرُّون بألوهية الله، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.

أوردنا في التفسير على هذه الآية إشكالًا: وهو أن النصارى ما يُوحِّدون الله، فحقيقة قولهم عدم التوحيد؛ لأنهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وأن الإله مُكوَّن من أقانيم ثلاثة وهي: الأب، والابن، وروح القدس، أو خلاف ذلك مما يصطلح عندهم.

فنقول: هم يزعمون أنه إلهٌ واحدٌ في ثلاثة، وهذا لا شكَّ أنه مُكابَرة؛ كيف يكون إلهًا في ثلاثة، وكل واحدٍ قائمٌ بنفسه منفرد عن الآخر، لكن الذي جاء في الإنجيل والذي جاء في التوراة أن الإله واحد.

١٢ ـ ومن فوائد هذه الآية: أن الإسلام إنما يكون لله سبحانه وتعالى، تُؤخذ من تقديم المعمول في قوله: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحصر، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[البقرة: ١١٢].

فوائد قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

١ ـ يُستفادُ من هذه الآية: أن القرآن مُنزَّلٌ من عند الله في قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، وأنه كلامُه، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وأنه كلامُه بحروفه، لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والذي يُكتَب هو الحروف، وعلى هذا فيكون القرآن كلامُ الله حروفه ومعانيه، وكلها كلام الله عز وجل.

وسبق في التفسير أشرنا إلى أن الأشاعرة ومن نحا نَحْوَهم يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وهذه الحروف مخلوقة، فهي عبارة عنه أو حكاية، هم يقولون: عبارة الأشاعرة، والكُلَّابية أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب الذي تتلمذ عليه الأشعري يقولون: إنه حكاية وليس عبارة، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: إنه كلام الله تعالى حقيقةً، لا حكاية، ولا عبارة.

٢ ـ يُستفاد من قوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإشارة إلى أن القرآن الكريم مكتوب، وذكرنا أنه مكتوبٌ في ثلاثة مواضع، وهي: اللوح المحفوظ، والصُّحُف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدينا.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية: في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أن من أهل الكتاب من آمن به فعلًا، لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد: البعض؛ مثل: عبد الله بن سلام.

٤ ـ وهذه الآية يُستفادُ منها: الاستشهاد بالغير على صحة المُدَّعى به، أن الإنسان يستشهد بغيره

من خُصومه، من قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وهذه الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيُقال: ممن أوتي الكتاب منكم أنتم أيها اليهود أو النصارى من آمن بهذا القرآن، وهذه الحُجَّة مفيدة جدًّا عند المناظرة وهي أن تحتجَّ على الطائفة بقول بعض علمائها، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره يحتجُّ مثلًا على الفلاسفة بقول بعض نُظَّارهم، فقد احتجَّ على بُطلان مذهب المتكلِّمين مثلًا بقول الرازي[1] - المفسر لا الطبيب وهو من أكابرهم - قال:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ العُقُـولِ عِقَـالُ ... وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وَأَرْوَاحُنَـا فِي وَحْـشَةٍ مِـنْ جُـسُومِنَا ... وَغَايَـةُ دُنْيَانَـا أَذًى وَوَبَـالُ

وَلَمْ نَـسْتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولِ عُمْرِنَـا ... سُوى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

وهذه فائدة عظيمة، والشاهد من هذه الأبيات هو نفسه يتكلَّم بهذه الأبيات إما مُنشِدًا أو مُنشِئًا، لكنه سبقها كلامٌ، يقول: (لقد تأمَّلتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أرها تُروِي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ووجدتُ أقرب الطرق في ذلك طريقة القرآن، أقرأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأقرأُ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرَّب مثل تجربتي عَرَفَ مثل معرفتي) هذا صريحٌ بأن الرجل أقرَّ على نفسه بأن هذه المذاهب الفلسفية كلها لا خير فيها، لا تشفي العليل، ولا تروي الغليل.

فالاحتجاج على الطائفة بقول زعمائها من أقوى الحُجَج، والقرآن سلك هذا المسلك كما في هذه الآية وغيرها.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن من قريش من آمن بالقرآن، لقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ فيكونوا حُجَّة على الذين لم يُؤمنوا، ومعلوم أنه آمن من قريش من أشرافهم ووجهائهم من سبقوا إلى الإسلام؛ مثل: أبو بكر رضي الله عنه كان من أشرافهم، وكانوا يرجعون إليه في معرفة الأنساب، ومعروف بالكرم أيضًا، فإن أوصافه رضي الله عنه كأوصاف النبي ﷺ يحمِل الكلَّ، وكذلك أيضًا يُعين على نوائب الحق، ومع ذلك كان أسبق الناس إلى الإيمان بالرسول ﷺ، ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ فلماذا تُنكِرون أنتم وفيكم من آمن؟

٦ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن كل من جحَد بآيات الله فهو كافر، لقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، هل هذا يشمل جحد الآيات عمومًا، أو حتى أفرادها؟ حتى أفرادها؛ يعني:

(١) انظر «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١١٠).

ما هو لازم أن يجحد القرآن كله، فلو جحد بعضه وأقرَّ ببعض حُكِم بكفره، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فمن آمن ببعض وكفر ببعض، علمنا يقينًا أن إيمانه ليس بحق، لو كان إيمانُه حقًّا لم يكن هناك فرقٌ بين ما آمن به وكفر به، وإنما هو لمجرد هواه، إذنْ من جحد شيئًا من الشريعة الإسلامية فإنه كافر ولو آمن بالبعض، ولكن هذا مشروطٌ بالعلم، فإذا انتفى العلم وجحده لعدم علمه لم يكفر حتى يتبيَّن له الحق؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكذلك أيضًا يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا بيَّن لهم ما يتقون ولم يتَّقوا، حينئذٍ حكم بضلالهم، أما أنه يُضِلُّهم جلَّ وعلا قبل أن يُبيِّن لهم ما يتقون هذا لا يمكن؛ لأنه ليس مما تقتضيه حكمة الله وعدلُه، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وأخذ أهل العلم بذلك فقالوا: من نشأ بالبادية أو بدار كفرٍ وجحد ما هو معلومٌ عند المسلمين بالضرورة فإنه لا يكفر حتى يُعرَّف به، فإذا عُرِّف به وتبيَّن له ثم أنكر حينئذٍ يكفر، وهذه مسألة يجب علينا أن نتأمَّلها؛ لأن بعض الإخوة الغيورين على دينهم يحكمون بالتكفير على سبيل الإطلاق، وهذا خطأ، فإنه ثبت عن النبي ﷺ أن من دعا رجلًا بكفر[1]، أو قال: يا عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه، وأيضًا الحكم بالتكفير حكم من أحكام الله؛ لأن قولك عن هذا الرجل: إنه كافر، كقولك عن هذا الطعام: إنه حرام، أو إنه حلال، فالحكم بالتكفير والإيمان لله، فلا يجوز أن تُكفِّر إلا من كفَّره الله ورسولُه؛ بل ولا يجوز أن تُفسِّق إلا من فسَّقَه الله ورسولُه، فالأمر ليس إليك، والحكم على العباد بيد خالقهم سبحانه وتعالى، إن حكم عليهم بالكفر والفسق فاحكم به، وإلا فلا.

كذلك أيضًا من شروط التكفير: ألَّا يوجد مانعٌ منه، فإن وُجِد مانع من التكفير لم يُكفَّر؛ لأن العلم بما يُوجِبُ الكفر شرط، كذلك انتفاء المانع شرط، فإن وُجِد مانع يمنع من التكفير لم يُكفَّر.

والموانع كثيرة، **منها**: الإكراه، فلو أُكرِه رجلٌ على الكفر وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، فهو مؤمن بنصِّ القرآن وإجماع المسلمين، وكذلك أيضًا: ألَّا يحول دون إرادته حائل يمنعه الإرادة والقصد، فيكون خرج منه الكفر بغير قصدٍ، فإذا خرج منه الكفر بغير قصد لا يكفر، ولو كان

---

(١) كما روى البخاري (٥٧٥٣)، ومسلم (٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما).

كفرًا صريحًا كالشمس ما دام بغير قصد؛ مثل: أن يكون غاضبًا غضبًا شديدًا، أو فرِحًا فرحًا شديدًا، أو خائفًا خوفًا شديدًا، فيُطلِق الكفر من غير إرادة، فهذا لا شك أنه لا يكفر، وقد قال النبي ﷺ في فرح الله بتوبة عبده المؤمن، أنه «كَرَجُلٍ أَضَلَّ بَعِيرَهُ[1] وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَلَمْ يَجِدْهَا فَنَامَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ المَوتَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَإِذَا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَةِ، فَأَخَذَ بِالخِطَامِ، وَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ» هذه الكلمة كفر؛ يعني: لو قال: أنتَ عبدي فقط لكفر؛ كيف وقد قال: وأنا ربك أيضًا؟! فادَّعى لنفسه الربوبية ولربِّه العبودية، لكن قال النبي ﷺ: «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ»[2].

فالحاصل من هذه المسائل: يجب علينا أن نقول: إن التكفير لابد فيه من وجود الشروط وانتفاء الموانع، وهذا الأمر – أي: باعتبار وجود الشروط وانتفاء الموانع – ليس خاصًّا بمسألة التكفير، أظننا نعلم جميعًا أنه عام، فكل الأشياء ما تتم إلا بوجود شروطها، وانتفاء موانعها.

مسألة: إذا ادَّعى الجهل ومثلُه لا يجهلها؛ هل يُقبل؟ قال: ما علِمتُ أنه واجب، ولو علِمتُ أنه واجب ما جحدتُه.

نقول: الحمد لله، إذا قلتَ هكذا فأنت الآن تُبت، ما دُمت تقول: أنا ما علِمت أنه واجب، ولو علِمتُه ما جحدتُه، الآن أقررتَ به، لكن لو أنه جحَدَه رأسًا قبل أن يُطالِبه – إذا كان مثلُه لا يجهل ذلك – فهو كافر.

فلو جحد تحريم الزنا وهو ناشئٌ في البلاد الإسلامية المُحافِظة، وقال للناس: إنها حلال، فهذا لا يُعذَر؛ لأنه مشى في بلاد إسلامية محافِظة، أما لو نشأ في بلاد إسلامية مُتهتِّكة فيها أسواق الزنا فيها مفتوحة، وجَحَد تحريم الزنا فهذا يعذر ما دام هناك شُبْهة، فإن الحُدود تُدرَأ بالشُّبُهات، والإنسان المسلم هو مُسلمٌ، ولا يمكن أن يخرج من الإسلام إلا بيقين.

الآن تحريم الربا، فلو نشأ الإنسان مثلًا في بلاد أموالها كلها ربوية، وتتعامل بالربا في البنوك وغيرها، وقال: ما أعرف أنه حرام، يمكن يصير هذا حقًّا؟ نقول: يمكن، الإنسان إذا عاش في شيءٍ ما يدري عنه.

الآن الذين نشأوا في بلاد ينتحل علماؤها طريقة الأشاعرة، إنهم لا يدرون عن مذهب أهل السنة شيئًا، ويحسبون هذا هو الحق، حتى إن منهم من يُؤلِّف ويقول: إن مذهب أهل السنة والجماعة ينحصِر في مذهبين: الأشاعرة والماتُريدية؛ لأنه جاهل، وهذه بليَّةٌ عظيمة مسألة الجهل.

وعندنا الآن عند العامة، العامة يظنون أن ما هناك مذهب إلا مذهب الحنابلة، حتى إن

(١) أي: فقده.

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧) عن أنس رضي الله عنه.

بعضهم سُئِل في حضرة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ ، قال له: ما هو مذهب النبي ﷺ ؟ قال: مذهب النبي ﷺ حنبلي.

٧- ومن فوائد هذه الآيات: أن القرآن مُغنٍ عما سواه من الآيات، وقد سبق في التفسير وجه ذلك.

٨ - ومن فوائدها: أن القرآن كلام الله، لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والشيء المُضاف إلى الله عز وجل إذا كان غير عينٍ قائمةٍ بنفسها فإنه صفة من صفاته، أما إذا كان عينًا قائمة بنفسها، أو وصفًا في ذلك العين فإنه مخلوق، وتكون إضافته إلى الله إما من باب إضافة التكوين، أو من باب إضافة التشريف.

فالمُضاف إلى الله إذنْ ثلاثة أنواع:

صفة، وعينٌ قائمة بنفسها، وصفةٌ في تلك العين.

فالصفة تكون صفةً لله لاستحالة قيام الصفة بدون موصوف، وهي قد أُضيفَت إلى الله في هذا الموضع فتكون صفةً له؛ مثل: عزة الله، وقدرة الله، وسمع الله، وبصر الله، وما أشبه ذلك.

والثاني: عينٌ قائمةٌ بنفسها أُضِيفَت إلى الله، فهي ليست من صفاته؛ بل هي مخلوقٌ من مخلوقاته، وأُضِيفت إليه إما من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وإما من باب التشريف؛ فقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] هذا من باب إضافة التكوين والخلق، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، و(بيت الله) هذا للتشريف، ومنه أيضًا: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠] فإنها من باب إضافة التشريف؛ لأن المراد: أرضه التي تُقام فيها عبادتُه.

والوصف؛ مثل: إضافة الروح إلى الله عز وجل، روح آدم، وروح عيسى، فإن الروح وإن كانت جسمًا لكنها تحِلُّ بالجسد، فهي تُشبِه الصفة فتكون مخلوقًا؛ لأنها روح من جسدٍ مخلوق، فتكون مخلوقة.

٩ - ومن فوائد الآية: إثبات علو الله.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ
(٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[العنكبوت:٤٨-٥٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ﴾ قال المؤلف: [أي: القرآن]﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾.

قوله: ﴿مِن كِتَابٍ﴾ ﴿مِن﴾ حرف جر، زائدةٌ إعرابًا، لكنها مُفيدة معنى، ومحلها من الإعراب: النصب على أنها مفعول به أي: وما كنت تدري كتابًا.

وكلمة ﴿مِن كِتَابٍ﴾ قال بعضهم: إنها توكيد لـ ﴿تَتْلُوا﴾؛ لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب، وأنه لو قال: وما كنتَ تتلو شيئًا، لاستقام الكلام؛ وهذا الكلام فيه نظر؛ لأن الذي يُتلَى قد يكون مكتوبًا، وقد يكون مسموعًا، عندما أسمع منك كلامًا وأُتابِعُك فيه أكون قد تلوتُه، فـ ﴿مِن كِتَابٍ﴾ في ظنِّي أنها ليست من باب التوكيد، وإن كان بعضهم زعم ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ من باب التوكيد؛ يعني: لو قال قائل: هنا بيمينك احترازًا من بـ (يسارك)، وأن النبي كان يكتب باليسار مثلًا، ما يستقيم الكلام، إذن فهذه يتعيَّن أن تكون من باب التوكيد، وليست من باب التقييد؛ لأننا لو قلنا: إنها من باب التقييد لكان مفهومُها: وتخطُّه بيسارك، لكنها من باب التوكيد، قالوا: وهي كقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ٣٨]، فإن الطيران معروف أنه بالجناح، ولهذا إذا كُسِر جناحُ الطائر لا يطير.

وإن كان بعض المتأخِّرين يقول: إن قوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ احترازًا من التقييد وليس بتأكيد، وأنه احترازٌ من الطيارات الموجودات الآن؛ لأن الله يعلم أنه سيكون طائرٌ بدون جناح، وهذا ليس مستقيمًا.

وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ هل يُؤخذ **منها**: أن الذي يكتب باليمين أحسن من الذي يكتب باليسار؟

الظاهر: أن الأخذ والإعطاء والكتابة والضرب يكون باليمين، ونادرًا أن يوجد أحد يعمل باليسار، وأندر منه من يعمل بهما جميعًا على السواء.

وقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ هذه إذ مُنوَّنة، ويُسمِّي علماء النحو هذا التنوين تنوين العِوَض - عِوَض عن جملة - وتقديرها: إذ لو كنت تتلو من قبله من كتاب، أو تخطُّه بيمينك لارتاب المُبطِلون.

على هذا نقول: ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (اللام) واقعةٌ في جواب (لو) المحذوفة في الجملة

المُعوَّض عنها بالتنوين، كقول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] أي: يوم إذ تقوم الساعة، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٤] حين إذ بلغت الحُلقُوم، وهذا كثيرٌ في القرآن.

قال: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى: شكَّ، إلا أن أهل العلم يقولون: إن الرَّيبَ والشكَّ بينهما فرقٌ، فالرَّيبُ شكٌّ بقلق، والشكُّ تردُّدٌ بدون قلق؛ يعني أنهم لو كنتَ على هذا الحال لارتاب المُبطِلون.

وقوله: ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ما قال: لارتاب الناس؛ لأنه حتى لو فُرِض أن النبي ﷺ يتلو كتابًا من قبل ذلك ويخُطُّه بيمينه، وأتى بهذا القرآن مع وجود الآيات الدالَّة على صدقه؛ هل يحصل ارتياب؟ لا، لكن المُبطِل قد يحتجُّ بالشُّبهَة ويراها بيِّنة.

وقوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ (أل) هنا إعرابها عند النحويين: اسم موصول، صلتُه: مُبطِلون. قال ابن مالك:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ (أل)

وقوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المائلون إلى الباطل، أو الداخلون فيه؛ لأن زيادة الهمزة قد تُفيد الدخول في الشيء؛ مثل ما يُقال: أحصد الزرع؛ يعني: دخل في وقت الحصاد، ويُقال: أنجَدَ الرجل؛ أي: دخل في نجد، وأبطل؛ أي: دخل في الباطل وأخذ به، كما أنه المُبطِلون أي: المُبتَغون للباطل الداخلون فيه.

الفوائد:

١- يُستفادُ من هذه الآية الكريمة: أن رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يُنزَّل عليه القرآن، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، واختلف العلماء هل صار يُحسِن القراءة والكتابة بعد نزول القرآن عليه، أو لا؟

جمهور الأمة على أنه لا يُحسِنها، وأنه عليه الصلاة والسلام مات وهو لا يقرأ ولا يكتب، واستدلُّوا لذلك بأن النبي ﷺ كان أُمِّيًّا، وصفه الله بأنه: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، والأُمِّيُّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا الوصف الأصل بقاؤه حتى يتبيَّن زوالُه.

واستدلُّوا أيضًا بأنَّ الرسول ﷺ كان لديه كُتَّاب يكتبون الوحي والرسائل للملوك الذين يدعوهم إلى الله عز وجل، ولو كان يكتب بيده لكانت كتابته بيده أوثق وأبلغ اطمئنانًا للمكتوب، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن ليَدَع ما هو أوثق وأقوى اطمئنانًا لأمرٍ دونه إلا عند العجز عنه.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي ﷺ صار يُحسِنُ الكتابة والقراءة بعد نزول الوحي عليه، واستدلُّوا بأن الله قال هنا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾، فمفهوم: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ يقتضي أنه

بعد ذلك لا يمتنع عليه أن يقرأ أو يكتب، واستدلُّوا أيضًا بأن النبي ﷺ في غزوة الحُديبية لما أمر عليَّ بن أبي طالب أن يكتب: هذا ما قاضى عليه محمدٌ سُهَيلَ بن عمرو، فأبى ﷺ أن يكتبها، وقال: ما أمحو اسمك؛ لأن أول ما كتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سُهيل بن عمرو، وذلك لما قال سهيل: ما يمكن أن تكتب رسول الله؛ لأننا لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك، فأمَر النبي ﷺ عليًّا بمحوها فأبى عليٌّ ﷺ، فأخذها النبي عليه الصلاة والسلام فمحاها، وكتب: محمد بن عبد الله، هذا لفظ البخاري[1].

قالوا: فكلمة «كتب» تدلُّ على أنه باشَر الكتابة.

والثالث: أن هذا – أي: أنه كان يقرأ ويكتب – هو الأظهر بعد أن نزل عليه القرآن؛ لأنه ﷺ أعطاه الله تعالى عقلًا، وأعطاه علمًا، والعاقل العالم لا يشقُّ عليه أن يقرأ أو يكتب بعد أن ينزل عليه القرآن؛ لأن تعلُّم هذا يكون في الصِّبيان الصغار؛ فكيف بمثل حال الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يمتنع عليه ذلك.

وأجابوا عن احتجاج أولئك بقولهم: إن وصفَه بالأُمِّي لا يُنافي أن يكون تعلَّم الكتابة بعد ذلك، من وجهين:

الوجه الأول: أن وصْفه بكونه أُمِّيًّا لا يعني الوصف الشخصي؛ إذ قد يُرادُ به أنه من الأُمِّيِّين، فيكون الأُمِّي مثل: القرشي، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، أو يُقال: إنه كان أُمِّيًّا حين نزول القرآن عليه. هذا جواب.

والجواب عن كون الرسول عليه الصلاة والسلام له كُتَّابٌ: هو أن الكبير والرئيس جرت العادة أن يكون له كُتَّابٌ يكتبون له ما يُريد، كما هو مشهور، فهذا شأن النبي ﷺ مع كُتَّاب الوحي، وكُتَّاب الرسائل إلى الملوك.

وقالوا: إن المحظور الذي يتحقَّق أو يُخشَى منه بكون الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ أو يكتب قد زال، بعد أن نزل عليه الوحي وهو لا يقرأ ولا يكتب وثبتت الرسالة، فإنه قد زال، وإن كان يمكن أن يُقال: إنه قرأ أو كتب ما ينزل عليه من الوحي شيئًا فشيئًا، لكن الأصل أنه بعد ثُبوت نبوَّته في أول مرة زال هذا المحظور.

وتوسَّط بعض أهل العلم فقال: إن الرسول ﷺ لا يقرأ ولا يكتب صناعةً؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، وأما ما وقع منه يوم الحديبية فهو إما أنه من آيات الله؛ يعني: أنه معجزة، أن يكون هو لا يقرأ ولا يكتب، ثم في تلك اللحظة الحرجة صار يقرأ ويكتب، وكتب اسمه، وطبعًا قرأ، فمن كتب قرأ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٥٢) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

أو يُقال: إنه كتب؛ أي: أمر من يكتب، فإن الأفعال تُسنَد إلى من يأمر بها، وهذا كثير، والله تعالى دائمًا يُسنِدُ أفعال الخلق إلى نفسه؛ لأنه مُدبِّرٌ لها، ويُقال في المثل: بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، هو ما بناها بنفسه، وإنما الذي بناها العمَّال بأمره، المهم: أنهم حملوا قوله: (كتب) على أمره أن يكتب.

وقال بعضهم: إن الرسول ﷺ كان يعرف أن يكتب اسمَه فقط، لا أنه آية في تلك اللحظة، ومن كان يكتب حرفًا دون حرف، أو أكثر الحروف ما يكتبها، وأكثر الكلمات ما يكتبها، هل يخرج عن وصفه بكونه أُمِّيًّا؟ لا يخرج، ولهذا تجِد الآن كثيرًا من الناس يعرف يكتب اسمه مثلًا، لكن ما يعرف أن يكتب اسم غيره، هل نقول: هذا الرجل كاتب؟ لا نقول.

والخلاصة: أن المسألة ما زالت محلَّ إشكالٍ، والأدلة فيها مُتقابلة، فإذا كانت الأدلة مُتقابلة، فإننا نرجع إلى القاعدة العامة، وهي: أن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فنقول: الأصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكتب ولا يقرأ، فهذا هو الذي نبقى عليه حتى يأتي دليلٌ يُبيِّن لنا بيانًا ظاهرًا بأنه ﷺ تعلَّم الكتابة والقراءة.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أن كل مُبطِلٍ فإن الله تعالى قد أبطَل شُبْهَته، ولا نقول: حُجَّته، فالإسلام مُبطِلٌ لجميع شُبَه المُبطِلين، لقوله: ﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي في المناظرة التنزُّل مع الخصم، وإبطال ما يحتجُّ به حتى عند التنزُّل معه؛ لأن هذا ليس بلازمٍ أن نقول: إنكم كاذبون في إبطالكم نبوَّة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن مع هذا بيَّن الله هذه الآية الواضحة المحسوسة أنه لو كان يقرأ ويكتب لكان في ذلك ارتيابٌ للمُبطِل بمعنى: شُبْهة يحتجُّ بها، وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فأبطل الله هذه الحُجَّة بمثل هذه الحُجَّة، إذ قال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن المُبطِل يتعلَّق بكل شُبْهة؛ لأن كون الرسول ﷺ يقرأ أو يكتب، ثم يقول: إنه أُوحِي إليه ويُؤيِّد ذلك بالآيات، هل يكون كتابته وقراءتُه مانعًا من قبول حُجَّته؟ لا، لكن المُبطِل يتعلَّق بكل شُبْهة، ومع ذلك تنزَّلنا معه وقلنا له: أنت الآن لو زعمتَ أن الرسول تعلَّمه من غيره، فكتبه وجاء يقول: أنا أُوحِي إليَّ هذا القرآن، فإننا نقول لك: إن الرسول ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلۡ﴾ للإبطال، وقد سبق لنا أن (بل) تأتي للإضراب، وأن الإضرابُ نوعان: إضرابٌ لإبطال ما سبق، وإضرابٌ للانتقال منه إلى ما فوقه أو دونه، ولهذا يُقال: الإضرابُ

نوعان: إبطالي، وانتقالي؛ كقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل: ٦٦] نوع الإضراب هنا انتقالي، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾[المطففين: ١٣، ١٤]، هذا إبطالي، حيث أبطَل قولهم: إنها أساطيرُ الأولين.

هنا قال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ ﴾ وهذا يحتمل أن يكون إبطاليًّا أو انتقاليًّا، أما كونه إبطاليًّا فهو لإبطال قولهم: إنه جاء به من عنده، أما كونه انتقاليًّا فإنه لما نفى ما يكون به مُتقوَّلٌ على الله أثبتَ أنه آياتٌ من الله، فيكون انتقالًا من النفي إلى الإيجاب.

قال: [﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي: القرآن الذي جئت به ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: المؤمنون يحفظونه].

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ جمعها؛ لأن كل آية من القرآن فهي آية على صدق الرسول ﷺ؛ لأن كل آية منه فهي - كما قال أهل العلم - مُعجزة، والله تعالى تحدَّى الناس والعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سُوَرٍ منه، أو بسورة، أو بحديثٍ، ولو آية، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[الإسراء: ٨٨] هذا عموم القرآن.

والعشر سور، قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[هود: ١٣] وهذه سورة هود.

والسورة الواحدة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[يونس: ٣٨]، وهذه في يونس.

والآية الواحدة: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور: ٣٤]، وهذه في سورة الطور.

إذنْ كل آية منه فهي آية ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ ﴾ والآيات: العلامات - كما تقدَّم - وسبق أن آيات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى: كونية، وشرعية.

وقوله: ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: ظاهرات لا إشكال فيها ولا غُمُوض.

وقوله: ﴿ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (في) للظرفية، حملها المؤلف وكثيرٌ من المُفسِّرين على أن المراد: حِفظُه عن ظهر قلبٍ، وأن هذا القرآن محفوظٌ في الصدور، ولهذا قال المؤلف في تفسيره: [أي: المؤمنين يحفظونه] ويكون المعنى: أن هذا القرآن محفوظٌ في الصدور.

ويحتمل أن المعنى: ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي: في قلوبهم؛ أي: أنهم يعلمون أنه حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧].

وقد يُقال: إن المراد: النوعَيْن جميعًا؛ أي: حِفظُه في الصدور فإنه يدلُّ على أنه مُعتنًى به ومُهتمٌّ به، وكذلك كونه آياتٍ بيِّناتٍ في الصدور يعترف به أهل العلم.

المهم: أنه لا ينبغي أن نقتصر على أن المراد: أنه في صدورهم يحفظونه؛ بل أنه في صدورهم يعلمونه، ويحفظونه كذلك، فأهل العلم يعرفون في قلوبهم أن القرآن آياتٌ بيِّنات، ولا يمترون في

هذا، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

وقول المؤلف: [﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: المؤمنين]، بناءً على أن المراد به: أهل العلم العاملين به، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين.

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ تقدَّم أن الجحْد هنا بيّن المعنى أنه التكذيب.

وقوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الظلم هنا: الظلم الأكبر؛ لأن الظلم ظُلْمان: ظلمٌ أصغر – وهو ما دون الشرك والكفر –، وظلمٌ أكبر – وهو الكفر والشرك –، وكلاهما موجودٌ في القرآن.

مثال الأكبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وكذلك هنا في هذه الآية، وكذلك: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ومثال الظلم الأصغر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ قال: [أي: اليهود، وجحَدوها بعد ظهورها].

قوله: [أي: اليهود]، لا شكَّ أنه قاصرٌ، فإن الآية عامة، تشمل اليهود، والنصارى، والمجوس.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن أسلوب القرآن كما يُبطِل الشُّبْهة معنى يُبطِلها لفظًا؛ يعني: باللفظ والمعنى؛ لأنَّ (بل) للإضراب الإبطالي، وليس الانتقالي.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الذي يتبيَّن كون القرآن آية هم أولو العلم، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن محل العقل والوعي القلبُ، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، والقلوب في الصدور، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٤ - **ومن فوائد الآية:** جواز التعبير بالمحلِّ عن الحال، لقوله: ﴿فِي صُدُورِ﴾، والمراد: في قلوب الذين أوتوا العلم التي في صدورهم.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الثناء على العلم، والقدح في الجهل، وجه ذلك: أن الذي يتبيَّن كون القرآن حقًّا هم أهل العلم، وهذه منقبة لهم، والذين يجهلون ذلك هم أهل الجهل، وهذه مذمَّة.

٦ - **ومن فوائد الآية:** ثبوت كون القرآن آية، لقوله: ﴿بَيِّنَاتٌ﴾، فليس في القرآن خفاء؛ بل كونه آية للرسول ﷺ أمرٌ بيِّنٌ ظاهر.

٧ - **ومن فوائد الآية:** أن الجحد بالآيات ظلم، والإقرار بها عدلٌ، لقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، في مقابل ذلك وما يؤمن بها إلا أهل العدل والإنصاف، ولذلك كل من كان مُنصِفًا فإنه لابد أن يُقِرَّ بحقيَّة القرآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: [أي: كفار مكة]؛ يعني: هم الذين اطَّرحوا الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[الإسراء: ٩٠].

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا، فتكون للتحضيض، وهذا إحدى معاني (لولا)، والمعنى الثاني: أن تكون شرطية، حرف امتناع لوجود، مثالها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أما هنا فهي للتحضيض بمعنى: هلَّا؛ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾[يونس: ٢٠] [أي: محمد ﷺ، وفي قراءة: ﴿آيَةٌ﴾]، والمعنى: واحد؛ لأن ﴿آية﴾ نكرة في سياق ما يُشبهُ الشرط وهو التحضيض، فكانت للعموم.

وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: علامات على صدقه؛ يعني: لصدَّقناه، أي: هلَّا أُنزِل عليه آيات حتى نُصدِّقه، ويتبيَّن لنا صِدقُه.

وقوله: [وفي قراءةٍ: ﴿آية﴾] القراءة هنا سبعيَّة؛ لأن من اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعيَّة، وإذا قال: [وقُرِئَ] فهي شاذة.

قال: [كناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى] فهذه آيات حِسِّية، وهم طلبوا هذه تعنُّتًا، وإلا فقد جاءهم من الآيات الحِسِّية والمعنوية ما هو أعظم، لقد أراهم النبي ﷺ انشقاق القمر[1]، ولقد أخبرَهم بما رأى ليلة الإسراء والمعراج[2]، فهذه آيات من جنس ما طلبوا، لكن كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وكل إنسان مُتعنِّت لا يمكن أن يقبل؛ لأن من قصدَه الحق يكفيه الآية التي تدلُّ على صدق ما قال صاحبُه، أما المُتعنِّت الذي يقول مثلًا: هاتِ كذا، فإذا جاء به قال: لا، هات غيره، فهذا ما يقبل.

والمُتعنِّت هذا دأْبه، حتى لو جاءت آية على ما يقولون لقالوا: نُريد غيرها، أنت ساحر، نُريد غير هذه الآية.

قوله: [ناقة صالح] قال الله: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥] هذا وجهُ قولنا: آية، أما ما ذُكِر في الإسرائيليات من أنها خرجت من الحجر، وما أشبه ذلك، فالله أعلم به، إنما الآية التي أبانها الله هي: أن لها شِرْبٌ، ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم.

[وعصا موسى] آية من وجوهٍ مُتعدِّدة،

منها: أنه إذا ألقاها كانت ثُعبانًا عظيمًا.

(١) كما روى البخاري (٣٤٣٨)، ومسلم (٢٨٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) كما روى البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

ومنها: أنها التقمت ما جاء به السحرة من الحبال والعِصِي.

ومنها أنه كان يضرب بها الحجر فيتفجَّر عيونًا.

ومنها: أنه كان قد ضرب بها البحر فانفلق؛ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].وليس منها أنه يهش بها على غنمه؛ لأن هذا يكون لكل أحد.

كذلك أيضًا [مائدة عيسى]، هذا التمثيل من المؤلف يدلُّ على أنه يرى أن المائدة أُنزِلَت، وهذه المسألة فيها خلافٌ بين أهل العلم، فمنهم من قال: إن الله أنزل المائدة على بني إسرائيل، ومنهم من قال: إن الله لم يُنزِلها؛ فأيُّهما أقرب إلى ظاهر القرآن ؟

قال الله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٢، ١١٣] وهذا دأب بني إسرائيل أنهم دائمًا شراه[1] البطون، كذلك قالوا أيضًا مع موسى قالوا: حنطة بدل حِطَّة.

وقالوا: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٣-١١٥] إن نظرنا إلى قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ فظاهره أنها نزلت، وإن نظرنا إلى الشرط: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾.

قلنا: إنها ما نزلت؛ لأنه ما جرى هذا التعذيب الذي لم يُعذَّب أحدٌ من العالمين به للنصارى، وأيضًا فإنها لو كانت هذه المائدة نزلت لكانت عيدًا لأولهم وآخرهم، وهي الآن مجهولة، ما هي عند النصارى هذه المائدة، عيد المائدة ما هو موجود عند النصارى، فهذا مما استدلَّ به من يقول: إنها لم تنزل؛ لأن الله تعالى ذكر شرطًا في نزولها لم يوجد، فدلَّ على عدم النزول.

وهذه ثلاث آيات، قلنا: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أُعطِي ما هو أعظم منها، لكن المُتعنِّت لا ينتفع بالآيات.

قال الله عز وجل مُبيِّنًا أن لدى الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم من ذلك:

[﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ يُنزِّلها كيف يشاء]، ولو قال: ومتى شاء لكان أحسن.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذه الجملة حصر؛ يعني: ما الآيات إلا عند الله، ليست عندي حتى أُعطيكم ما تقترحون، وإذا كانت عند الله فإنها تبعٌ لمشيئته وحكمته، يُنزِّلُها كيف يشاء، ومتى شاء، وليس الناس هم الذين يقترحون على الله عز وجل الآيات، وإنما الله تعالى هو الذي يُنزِّلُها، فالحكم إذن إلى الله، والله عز وجل يُنزِّلُها لحكمة، ومع ذلك فإننا نعلم علم اليقين أن الله ما

(١) الشره: شدة الحرص على الطعام. «الوجيز» مادة (شره).

أرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ لأن الله حكيم، لا يُرسِل رسولًا للناس يقول للناس: أنا رسول الله إليكم أستبيحُ دماءكم وأموالكم ونساءكم إلى أن تؤمنوا بي، هذا لا يمكن أن الله تعالى يُمكِّنُه إلا بآياتٍ تُلزِمُ الناس بقبول قوله، وهذا أمرٌ معلوم أنه يُنافي الحكمة لو جاء رسولٌ بدون آيات؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: هو الذي يأتي بها، لكن تبعًا لمشيئته وحكمته يُنزِّلُها كيف يشاء، ومتى شاء.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [مُظهِرٌ إنذاري بالنار أهل المعصية] هذه أيضًا جملة حصر، وهل الحصرُ في الجملتين: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ حقيقي، أو إضافي؟

الواقع أن الحصر في الأولى حقيقي، أن الآيات ما تكون إلا عند الله، ما أحد يستطيع أن يأتي بها، والثاني إضافي؛ لأنك إذا قلتَ: ما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ، فإن هذا ليس باعتبار الواقع والحقيقة: أنه ليس إلا نذيرًا؛ بل هو نذيرٌ مبين، وبشير، وسراجٌ منير، وبشر.. إلخ، فالحصرُ إذن إضافي؛ أي: بالإضافة إلى كذا، فهو بالإضافة إلى جانب الآيات غير قادرٍ، لكن يقدر على شيءٍ آخر، وهو الإنذار.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ ما هو الإنذار ؟ يقول العلماء: إن الإنذار هو الإخبارُ بالمَخوف، والإخبارُ بالمرغوب بِشارة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشير، وهنا ما قال: بشير؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ إذ هو يُخاطِب المُكذِّبين المُعانِدين.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا بمعنى: مُبيِّن، ولهذا قال: [مُظهِرٌ]، وقد علمنا أن بان وأبان، فـ (بان) لا تُستعمل إلا لازمة، يُقال: بان الصبح إذا ظهر، وبان هذا من هذا، إذا انفصل منه، وأما أبان فتُستعمل لازمة ومُتعدِّية، يُقال: أبان الصبح؛ بمعنى: بان وظهر، ويُقال: أبان الأمرَ؛ بمعنى: أظهره ووضَّحه.

في بعض الأحيان تكون الآية لا تحتمل إلا اللازم، وفي بعض الأحيان لا تحتمل إلا المُتعدِّي، وفي بعضها تصلح لهذا وهذا.

فالرسول عليه الصلاة والسلام نذيرٌ مبينٌ لإنذارهم، أو نذيرٌ بيِّنُ الإنذار، وعلى هذا فيكون النعتُ سببيًّا إذا جعلنا مبين بمعنى: بيِّن، والأصل أن النعت حقيقي وليس سببيًّا.

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [أي: مُظهِرٌ إنذاري بالنار أهلَ المعصية].

فالرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأنُه، وهذه وظيفتُه أنه مُنذِر، أنه يأتي بالآيات إذا طُلِبَت، أو أنه يهدي الناس إذا ضلُّوا، فهذا ليس إليه، هذا إلى الله عز وجل، هو الذي يملك هذا.

الفوائد:

١ - **يُستفادُ من هذه الآية:** تعنُّتُ المشركين في طلبهم الآيات، لقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وإلا فنحن نقول لهم: قد جاءتكم آيات!! ولكنهم يقولون هذا تعنُّتًا.

٢- **ومن فوائدها:** أن المُتعنِّت مُكابِر، لإنكاره ما هو ظاهر، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مع أنها قد جاءتهم الآيات، والنبي ﷺ وغيره من الأنبياء ما أُرسِلوا إلا بالآيات التي يُؤمن على مثلها البشر.

٣ - **ومنها:** إقرار المشركين بالله، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٤ - **ومنها:** إقرارهم بعلوِّه، لقوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فيكون اعتقاد المشركين في الله من حيث العلو أكمل من اعتقاد المعتزلة والجهمية والأشاعرة؛ لأن هؤلاء يُنكِرون علو الله الذاتي، ويقولون: الله لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مُبايِن، وهذا معروف عندهم.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن الرسول ﷺ بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن إضافة الأمور إلى الله تقطع الحُجَج، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ويتفرَّع على هذه المسألة فائدة أخرى في الأحكام الشرعية. إذا سُئِلنا: ما الحكمة من كون كذا كذا وكذا؟

فنقول: هذا من عند الله، هذا حكم الله، وهذا كافٍ لكل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولهذا احتجَّت عائشة على عمرة بـ: (كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَر بقضاء الصوم ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة)، إذن فإسناد الأمور إلى الله كافٍ في إبطال الحُجَج، وهو أعظم حُجَّة، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٧ - **ومنها:** إثبات قدرة الله عز وجل، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الشيء لا يكون آية حتى يكون خارقًا للعادة، فلو جاء رسول إلى الناس، وقالوا له: أعطِنا آية، قال: عندي لكم آيتان ما آية واحدة، ما آيتُك؟ وكان ذلك في وقت اعتدال الربيع، فقال: آيتي أن تطلع الشمس الساعة اثني عشر، وتغيب اثني عشر، هذه ليست آية، بل هذه عادة، لابد أن تكون الآية مخالفة للعادة، فإذا أجرى الله الأمر على خلاف العادة دلَّ ذلك على إثبات قدرة الله، فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومنها:** الردُّ على أهل الطبيعة الذين يقولون: إن الكون طبيعة مُنظِّمة لنفسها بنفسها، وأنها عبارة عن مقدِّمات ونتائج ينتج بعضها ببعض ومن بعض، وهذه تُؤخذ من قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عند الله وحده، فهو الذي يُدبِّر سبحانه وتعالى الكون، ويأتي بالآيات الدالة على كمال قدرته وسلطانه.

٩ - **ومن فوائد الآية:** أن رسول الله ﷺ وظيفته الإنذار لا الهداية، لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠ - ومنها أيضًا: أنه لا يملك أن يأتي بآية إلا من عند الله، وهذا ما يُفيده الحصر في قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وأكبر شاهد على هذا: أنهم سألوه عن قصة أصحاب الكهف، فقال لهم: أُخبِركم بذلك غدًا، ينتظر الوحي، فامتنع الوحي خمسة عشر يومًا ولم ينزل، فضاق النبي ﷺ بهذا، ولكن هو في الحقيقة من تأييد الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ينفي كل شُبْهة يمكن أن يُقال: إنه يتقوَّل القرآن، فالذي يتقوَّل القرآن يحرِص غاية الحرص على ألَّا يُخلِف ما قال؛ لأن آخر ما قال صار موضع شك، لكن حقيقة هو موضع يقين؛ لأنه لو كان يتقوَّل لجاء به من الغد بناءً على وعدهم، ولكنه ﷺ لا يتقوَّل، وإنما يتلقَّى، فهو يتلقَّى من الله الوحي، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

١١ - ومن فوائد الآية: أنه لا يجب على من بلَّغ عن الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الإنذار؛ يعني: أهل العلم الذين هم ورثة الأنبياء ما يملكون هداية الخلق، لكن عليهم الإنذار والتبيين.

١٢ - ومنها: أن من بلاغة الكلام أن يكون الخطاب موافقًا لمُقتضى الحال، فكان مُقتضى الحال أن يُقال لهم: صفة الإنذار فقط دون التبشير، لهذا قال: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٣ - ومن فوائدها أيضًا: المنقبة للمُنذِر إذا كان مُبينًا في إنذاره، فيكون فيه مدحٌ للفصاحة والبلاغة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، وكم من رجلٍ يكون قليل العلم لكنه قوي الفصاحة، فيُؤثِّر تأثيرًا كبيرًا أكثر مما يُؤثِّره ذاك الآخر كثير العلم، والله سبحانه وتعالى إذا أعطى الإنسان قوة في البيان، وانطلاقًا في العبارة، فإنه من نعمة الله عليه، يُؤثِّر تأثيرًا بالغًا، وهذا أمرٌ ظاهر.

ثم من الناس من يعطيه الله الفصاحة في القول والكتابة، ومنهم من يعطيه الله تعالى الفصاحة في القول دون الكتابة، ومنهم من يكون فصيحًا في الكتابة دون القول.

ثم قال الله تعالى مُعارضًا لطلبهم بما هو أولَى منه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [فيما طلبوا ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الضمير يعود على الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والهمزة هنا للاستفهام، والواو عاطفة على جملةٍ مُقدَّرة تُقدَّر بحسب المقام، هذا أحد الرأيَيْن لأهل النحو، والرأي الثاني يقول: إن الواو عاطفة على الجملة السابقة، ولا تحتاج إلى تقديم، وأن ترتيب الهمزة في التأخر، وأن التقدير: وألَم يكفِهم، وهذا القول أسهل؛ لأن القول الأول وإن كان مبنيًّا على أصل، وهو عدم التقديم والتأخير، لكن القول الأول أحيانًا يُعيِيك أن تُقدِّر المحذوف، وأما

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٨٦٩).

هذا القول فإنه لا يُعييك، ما دمتَ تقول: هذا معطوفٌ على ما سبق، ما يكون فيه إشكالٌ أبدًا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الكفاية بمعنى: الغِنَى عن الشيء، ومنه ما هو معروفٌ لأهل الفقه، يجب عليه كفاية من ينوبه أي: إغناءُ من ينوبه عن غيره، فمعنى: ﴿يَكْفِهِمْ﴾ أي: يُغنِهم عن كل آية.

وقوله: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ﴿أَنَّآ﴾ هذه تُؤوَّل وما بعدها بمصدر، على أن يكونا فاعل يكفي؛ يعني: أولم يكفهم إنزالنا عليك الكتاب، وهذا الاستفهام هنا للتوبيخ؛ يعني: كان النبي يجب أن يكفِيَهم هذا الإنذار، ولهذا قال: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، وهو مكتوبٌ – كما مرَّ – في اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يُقرأ، ولا أحد يقول بينهم وبينه، والذي يتلوه الرسول عليه الصلاة والسلام، فيتلوه على الناس فيُبلِّغُهم إياه فيتناقلونه.

وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال: [فهو آية مستمرَّة لا انقضاء لها، بخلاف ما ذُكِر من الآيات].

في الحقيقة أنها كما نقل المؤلف آية مستمرَّة إلى يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] بخلاف الآيات السابقة، فالآيات السابقة آيات مشهودة، الذي ينتفع بها المُشاهدون لها، أما من بعدهم فإنها تصِل إليهم عن طريق الأخبار، ومعلوم أنه ليس الخبر كالعِيان، أما القرآن فإنه بيننا نُشاهده ونسمعه ونتلوه، فليس هو من طريق الخبر عن شيءٍ مضى، فيكون أعظم آية من الآيات التي انقضت وزالت، وهذا هو السر في أن هذا القرآن كان آية لكل الناس؛ لأن النبي ﷺ مبعوثٌ إلى جميع البشر، ولكن لاحِظوا أن هذا القرآن آية لمن يُتلَى عليه، ولا يبعُد عن الأذهان ما سبق قبل قليل أنه آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم، أما المُستكبِرون عنه فليس آيةً لهم، فالذي يقرأ القرآن وهو مُعرِض لا لينتفع به، فإنه لا تظهر له الآيات فيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦] فلا ينتفعون، ولا يحفظون، والقرآن آياتٌ لكن لمن أقبل عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ثم إن هذا القرآن آية في نفسه لا لوجود مانعٍ من مُعارضته، خلافًا لمن قال: إن معارضة القرآن ليس بالقرآن نفسه، ولكن بصرف الناس عن مُعارضته، وإلا فهم قادرون.

وهذا لا شك أنه خطأٌ بيِّن، ولو صحَّ لكان آية، لكنه لم يصح؛ بل نقول: إن القرآن نفسه آية من آيات الله وكافٍ في الدلالة على صدق الرسول ﷺ لكن لمن تدبَّره.

وقولي: (لمن تدبَّره) واضح؛ لأن العامِّي الآن قد لا يظهر له كونه آيةً للرسول ﷺ بيِّنة؛ لأنه ليس من أهل العلم، نعم العامِّي يشهد بأن هذا القرآن كلام الله، وكذلك أيضًا يشعر بما فيه من الترغيب والترهيب، ولهذا تجده يسأل الله من فضله عند آية الترغيب، ويستعيذ بالله من النار أو العذاب عند آية الترهيب، وإذا جاءت أسماء الله فإنه يشعر بأنه يقشعرُّ جلده ثم يلين بذكر الله، لكن الآيات العظيمة التي يتضمَّنها القرآن لا يعرفها العامَّة.

قال: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ عظةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ قال المؤلف: [الكتاب] ويحتمل أنه إنزال الكتاب، أننا أنزلنا عليك؛ لأن الذي ذكر الله أنه يكفيهم هو الكتاب هو لا إنزالُه، فيكون الذي فيه الذكرى هو الإنزال، ومعلومٌ أنه إنما تكون الذكرى بالإنزال باعتبار المُنزَّل، لكن إنزالُه من الله ذكرى، والقرآن في الحقيقة ذكرى من الوجهين:

من جهة أنه نزل من عند الله، ومُجرَّد شعور الإنسان أنه نزل من عند الله لا شكَّ أنه يُتيقَّن به ويُعلِّمه، وكذلك أيضًا ما فيه من المعاني العظيمة والآثار الحميدة وهو أيضًا آية من آيات الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

وقوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾ الرحمة من الله، فالله أنزل القرآن رحمةً للناس، وأيضًا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يعني: عِظَة يتذكَّر به الناس، فبه يتراحمون ويُرحَمون، وبه أيضًا يتذكَّرون، ولكن ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أما من لم يؤمن فليس رحمةً في حقهم؛ لأنه يزيدهم رجسًا إلى رجسٍ، فيضِل أكثر، ويزداد كفرًا - والعياذ بالله -، وعلى هذا فالمؤمن هو الذي يكون القرآن رحمة له وذكرى ينتفع به.

وما دام الأمر عُلِّق على الوصف في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أكثر رحمةً بهذا القرآن وتذكُّرًا، وكلما كان الإنسان أضعف إيمانًا كان القرآن أقل رحمةً له وتذكُّرًا.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية أيضًا:** إثبات علو الله، تُؤخذ من قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾.

٢ ـ **ومنها:** إثبات رسالة النبي ﷺ، في قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وهذا يعني أنه مُوحًى إليه به.

٣ ـ **ومنها:** الإشارة إلى شرف هذا القرآن؛ حيث كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ، وفي الصُّحُف التي بأيدي الملائكة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن المشركين قد قامت عليهم الحُجَّة، لقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فهو ليس غائبًا عنهم حتى يعتذروا، ولكنه يُتلَى عليهم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن مُجرَّد تلاوة القرآن على شخص يكون مُلزِمًا له بالاتباع؛ لأن الله لم

يذكر أكثر من ذلك ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فإذا تُلِي القرآن على إنسان فقد قامت عليه الحُجَّة، ولهذا الجن ولَّوا إلى قومهم مُنذرين بمُجرَّد أن سمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فقراءة القرآن مُلزِمة.

أما إذا كان لا يفهم لغة القرآن لا يكون ذلك مُلزِمًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ما يُحسِن البيان لو لم يعرف اللغة.

٦ - **ومن فوائد الآية**: ما يتضمَّنه إنزال القرآن من الرحمة، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾، ومن الذكرى، وهو الاتعاظ والتذكُّر في قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: أنه لا ينتفع بهذه الرحمة والذكرى إلا المؤمنون لقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا**: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أكثر انتفاعًا بالقرآن، وكلما كان أضعف إيمانًا أو أكثر معصية كان أبعد عن فهم القرآن والانتفاع به؛ بل إن المعاصي تحول بين الإنسان، وبين فهم القرآن، ولقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦] أن الاستغفار سببٌ لبيان الحق عند الحكم، سواءً كان هذا الحكم فُتيا، أو حكم قضاء، فإن الإنسان إذا استغفر صار ذلك مفتاحًا للفهم والعلم؛ لأن الذنوب حائل بين الإنسان وبين التوفيق، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ولهذا لما رانَت على قلوبهم هذا الشيء صاروا يقولون عن القرآن: إنه أساطير الأولين، ولم ينتفعوا به - والعياذ بالله.

٩ - **من فوائد الآية**: فضيلة الإيمان؛ حيث تتم به الرحمة والذكرى في القرآن.

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ قال المؤلف: [بصدقي] ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ يقول المُعرِبون: إن الباء هنا زائدة، وأن المعنى: كفى الله، و﴿شَهِيدًا﴾ قيل: إنها حال من الاسم الكريم - الله -، وقيل: إنها تمييز؛ كقولهم: لله درُّه فارسًا؛ لأن ﴿شَهِيدًا﴾ هنا ليست مصدرًا، ولا اسمًا جامدًا؛ بل هي مُشتقة، فتصلح أن تكون حالًا، وتصلح أن تكون تمييزًا؛ أي: كفى شهادة الله بيني وبينكم.

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ ضمَّن الشهادة هنا معنى الحكم، وإلا فإن الشاهد لا يكون شاهدًا بين فلان وفلان، بل يكون شاهدًا لفلان على فلان، لكنه ضمَّن الشهادة هنا معنى الحكم، وهو كذلك، فإن شهادة الله لنبيِّه عليه الصلاة والسلام بالحق حكمٌ له بالحق، ووجه كون ذلك شهادةً وحكمًا: لأن كون الله عز وجل يُمكِّن نبيَّه ﷺ من قتال هؤلاء الكفار،

واستباحة دماءهم وأموالهم، وكونه يُمكّن له في الأرض فيفتح البلاد، يدلُّ على أنه حكم له عليهم، وهذا ظاهرٌ، أن تمكين الله للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو يراه يقتل عبادَه ويستبيح دمائهم وأموالهم، وهو سبحانه وتعالى يُمكّن له، ويفتح له الأرض أرضًا أرضًا لا شكَّ أن هذا دليلٌ على شهادة الله له بالصدق، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فهذا أكبر، أن تكون الشهادة شهادة الله، وقد شهِدَ الله لنبيِّه بالفعل، والتمكين على أنه حق.

إذنْ الشهادة تُطلق بمعنى الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]، فإن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ بمعنى: حكم حاكمٌ، والحاكم في الحقيقة شاهدٌ من وجهين:

أولًا: أنه شاهدٌ بحكم الله؛ لأنه حاكمٌ به، فهو إذا حكم يقول: أشهد بأنَّ حكم الله؛ يعني: يقوله بلسان الحال، أشهد بأن حكم الله كذا وكذا، وهو شاهدٌ على المُحِقِّ بالحق، وعلى المُبطِل بالباطل، فهذا وجه كون الحاكم شاهدًا، ولهذا يقولون: إن الحاكم شاهدٌ ومُفتٍ ومُلزِم؛ كالأمير، وهذا واضح فيما ذكروه.

ووجه كونه سبحانه وتعالى كافيًا: أنَّ كونه يُؤيِّد رسوله بالآيات البيِّنات، ويُدحِض حُجَج أولئك، ماذا يدل عليه هذا ؟ على أن الرسول عليه الصلاة والسلام على حق، وأن خصومه على باطل، وهذا من أبين الأمور.

ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه الجملة حال من (الله)؛ يعني: حال كونه يعلم، ويجوز أن تكون استئنافية في بيان صحة شهادة الله وحكمه، فإنه يشهد عن علمٍ، فيعلمُ المُحِق فيحكم له، والمُبطِل فيحكم عليه.

وقوله: ﴿ما في السماوات والأرض﴾ كلنا يعلم أن (ما) هنا اسمٌ موصول، وأنه مُفيدٌ للعموم، واختيار (ما) على (مَن) الدالة على العقلاء إما للتغليب إن كان غير العقلاء أكثر، وإما لمُلاحظة الصفات مع الذوات، ومُلاحظة الصفات يُعبَّر فيها بـ (ما)؛ لأن الصفة ما هي عاقل، قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، ولم يقُل: من طاب؛ لأنه ليس المقصود عين المرأة، بل المقصود وصف المرأة، كما قال النبي ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ[1]: لِمَالِهَا، وَحَسَبِهَا[2]،

(١)لأجل خصال أربع مجتمعة أومنفردة.
(٢)هو ما يعده الناس من مفاخر الآباء وشرفهم.

وَجَمَالِهَا[1]، وَدِينِهَا»[2].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذا كان للعموم فهو يشمل أفعال الإنسان وأقواله وسِرّه وعلانيته.

وفيها ردٌّ ظاهر على غُلاة القدرية الذين كانوا قديمًا ينفون العلم – والعياذ بالله –، ويقولون: إن الأمر أُنُف[3]؛ يعني: مُستأنَف، والذين يُنكِرون علم الله سبحانه وتعالى كفَّار؛ لأنهم مُكذِّبون للقرآن.

ودائمًا يجمع الله سبحانه السماوات، ويُفرِدُ الأرض، وكلها في العدد سواء، كما ثبتت به السنة، وكما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيكون الأرض مُفردة ولكن معناها الجمع، فـ (أل) هنا لاستغراق الجنس؛ يعني: كل ما يسمى أرضًا، فيشمل السبع أرضين، [ومنه] أي: مما في السماوات والأرض [حالي وحالكم]، ونصَّ المؤلف على ذلك؛ لأنَّ المقام يقتضيه؛ حيث قال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.-

ثم قال الله تعالى مُستأنفًا الكلام فيما يظهر: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

هذا من الحُكم بينه وبينهم، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الظاهر: أنها من كلام الله، وأنها جملة مُستأنفة، وليست من كلام النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال: [وهو ما يُعبَد من دون الله] آمنوا به؛ يعني: اعترفوا به، وأقرُّوا به، ورأوا أنه حقٌّ، هؤلاء خاسرون، والباطل كلُّ ما عُبِد من دون الله في هذا المقام، وإلا ففي غيره يُقال: الباطل كل ما خالَفَ الحق، حتى الشيء الذي ما فيه خير للإنسان يُسمَّى باطلًا وإن لم يضره، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا كَذَا وَكَذَا**»[4]، لكن الباطل يُفسَّر في كل مكانٍ بحسبه.

وهذه القاعدة شاملة لجميع الكلمات، تجد الكلمة الواحدة في سياقٍ لها معنى، وفي سياقٍ آخر لها معنى آخر بحسب السياق، وهذا هو الذي يُطمئِنُ الإنسان بصحة القول بأنه لا مجاز في اللغة العربية؛ حيث إننا قلنا: إن الذي يُحدِّد معنى الكلمة هو سياقُها ومكانُها في هذا السياق، باعتبار حال المُتكلِّم بها، وحال الموضوع التي هي مسوقةٌ لأجله.

---

(١) يؤخذ منه استحباب تزوج الجميلة إلا إن تعارض الجميلة غير الدينة وغير جميلة الدينة، نعم لو تساوتا في الدين فالجميلة أولى، ويلتحق بالحسنة الذات الحسنة الصفات، ومن ذلك أن تكون خفيفة الصداق.

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٢)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «صحيح مسلم» (٨).

(٤) انظر صحيح الجامع (٤٥٣٤).

فالباطل هنا لا يصح أن نقول: إنه كل ما لا نفع فيه؛ بل نقول: هو الأصنام، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[الحج: ٦٢]، ولو قال قائلٌ بأنه يشمل كل ما خالَف الحق، فليس ببعيد، وتكون عبادة الأصنام داخلة فيه دخولًا أوليًا.

وقوله: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: أنكروا ما يجب له من حق، وذلك أن الكفر في اللغة العربية بمعنى: الستر، ومنه سُمِّي الكُفُرَّى وهو طلع النخل؛ لأنه يستُر التمر.

وقول المؤلف: [منكم] هذا من أغرب ما يكون؛ حيث قال: [منكم] إلا إذا كان المؤلف يرى أن الكلام في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أنه من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن قوله: [منكم] له وجه؛ لأنه يكون المُخاطَب بذلك: المُشركون، فيكون الرسول يُخاطِب المشركين ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ ﴾ منكم أيها المشركون، أما إذا كانت من كلام الله فإنها عامة، وهي بالنسبة للرسول ﷺ وأصحابه غير واقعة، فإذا كان الكلام من الله فإن قوله: [منكم]، وإن كلام من النبي عليه الصلاة والسلام فهي وجيهةٌ.

وقوله: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ في صفقتهم].

أولًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ إعرابُها على أنها مبتدأ والخبر جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، وصوغ الجملة على هذا الوجه له معنى عظيم؛ حيث جاءت بالجملة الاسمية المُفيدة للحصر.

لو قال: والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله الخاسرون، لعُلِم المعنى، لكن إذا جاءت في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ صارت أبلغ؛ لأن الإشارة للتعيين كما هو ظاهر، وضمير الفصل يُفيد الحصر، وعلى هذا فيكون حُصِر الخسران فيهم من جهتين:

من جهة التعيين بالإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، ومن جهة ضمير الفصل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، خسروا صفقتهم فما ربحوا؛ بل تضرَّروا بهذه الصفقة.

ضمير الحصر ذكرنا فيما سبق أنه يُفيد ثلاثة فوائد، وهي: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر، ولهذا سُمِّي ضميرَ فصل.

فإذا قلت: زيدٌ الفاضلُ، يحتمل أن الفاضل صفة، والخبر مُنتظَر؛ يعني: زيدٌ الفاضلُ قائمٌ.

وإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل تعيَّن أن يكون خبرًا، فاستفدنا من ضمير الفصل أنه عين أن ما بعده خبرٌ لا صفة.

ضمير الفصل هل هو اسم أو حرف؟

الأصح أنه حرف، وبعضهم يقول: إنه ضمير لكن لا محل له من الإعراب، وبعضهم يقول: إنه ضمير ومحلُّه من الإعراب ما قبله، ولكن الأخير هذا خلاف اللغة العربية؛ لأن الضمائر ما يُنعَت بها، ولا تُنعَت، صحيح أنها تُؤكِّد؛ كقام هو.

فالأصح والأرجح الذي عليه الأكثر أنه حرف جِيء به للفوائد الثلاثة التي ذكرنا.

وقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اعلم أن الخُسران يكون بفوات المحبوب، ويكون بحصول المكروه، والذي حصل لهؤلاء المؤمنين بالباطل الكافرين بالله كِلا الأمرين، فهم فاتَهم المحبوب، ووقعوا في المكروه، فاتهم الثواب العظيم الذي وعد الله المؤمنين به من الجنات، وحصلوا - والعياذ بالله - على النار، فخسروا الأمرَين جميعًا، فأولئك هم الخاسرون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

الخُسران هنا هل هم خسروا أنفسهم فقط؟

لا، خسروا أنفسهم، وأهليهم، وأموالهم، ودنياهم، وآخرتهم.

خسروا أنفسهم ظاهر؛ لأن أنفسهم التي كانوا بصدد أن يحموها عن المحارم وعن الباطل، ضيَّعوها فخسِروها، ضاعت مع نفوس الهالكين، وخسروا أهليهم؛ لأن المؤمنين قد ربحوا أهليهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، فربحوا الذرية في الدنيا والآخرة، وأما هؤلاء فخسروا ذريتهم في الدنيا والآخرة، ما انتفعوا بها؛ لأنهم - والعياذ بالله - أهل النار ما يجتمعون ويتحابون ويتآلفون؛ بل بالعكس، كلما دخلت أمة لعنت أخرى، وكل إنسان - والعياذ بالله - في تابوت مُعذَّبًا وحده، فهم - والعياذ بالله - خسروا أهليهم.

وخسروا أموالهم أيضًا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ثم إن المال المفروض على الإنسان أن ينتفع به، أما هؤلاء ما انتفعوا بمال، ومهما أنفقوا من نفقة فلن يُقبل منهم، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] إذنْ هم خاسرون من كل وجهٍ - والعياذ بالله -، ولهذا حصر الخسران فيهم.

الفوائد:

١ - يُستفاد من هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى شهادته أعظم شهادة، وأكبر شهادة، لقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي سورة الأنعام قال سبحانه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢ - ومنها أيضًا: أن شهادة الله سبحانه وتعالى تكون بالقول وبالفعل، أما بالقول فإن الله تعالى يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وأما بالفعل فإن تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض ونصره وإياه، وخذلان أعدائه أكبر شهادة على أنه صاحب الحق، وأن أعداءه أهل

الباطل، فالشهادة إذنْ نوعان: شهادةٌ فعلية، وشهادةٌ قولية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إطلاق الشهادة على الحكم، من قوله: ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]، ما قال: شهيدًا لي عليكم، وقد سبق أن الحكم شهادة من وجهين: لأنه شهادة بأن هذا حكم الله، وشهادةٌ للمُحقِّ على أنه مُحِق، والمُبطِل على أنه مُبطِل.

٤ ـ **ومنها:** إثبات علم الله عز وجل، لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإثبات عموم العلم، والعموم غير نطاق العلم، فالإنسان عالم لكن علمُه ليس عامًّا، أما الله عز وجل فإنه عالم، وعلمه عام.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات تعدُّد السماوات، لقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وهي جمع، وهي هنا مُبهَمة لكنها بُيِّنَت في آياتٍ مُتعدِّدة بأنها سبع سماوات.

٦ ـ **ومنها:** إثبات علم الله بما يفعله الإنسان؛ لأن ما يفعله الإنسان داخل في قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيكون في ذلك ردٌّ على غلاة القدرية الذين أنكروا علم الله، وقالوا - والعياذ بالله -: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العبد، وأن العلم مُستأنف.

٧ ـ **من فوائد الآية:** أن الإيمان بالباطل والكفر بالله سببٌ للخسارة، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٨ ـ **ومنها أيضًا:** أن الخُسران هنا بقدر ما آمن الإنسان به من الباطل، وكَفَرَ به من الحق، فأعظمُه الشرك بالله عز وجل، ومنه ما هو دون ذلك، كما لو آمن بحكمٍ مُخالف لحكم الشريعة، وكفر بحكم الشريعة، فإن لديه من الخُسران بقدر ما حصل منه من هذه المُخالفة، وما فسدت أحوال العالم الإسلامي وغير الإسلامي إلا بالحكم بغير ما أنزل الله، ولو كانت الأمة الإسلامية صادقة في إرادة العزة والكرامة والسعادة والفلاح، لرجعت إلى الحكم بكتاب الله؛ لأن الحكم بالقوانين الوضعية وهو مُخالِف للشريعة لا شكَّ أنه خسارة بنصِّ القرآن، فإنها باطل، وما نزل به القرآن فهو الحق، فيكون عليه من الخُسران بقدر ما خالَف من الحق.

٩ ـ **ومما يُستفاد منها:** أن من حقَّق الإيمان بالله والكفر بالباطل، فهو الرابح، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

هل نأخذ من هذه الآية: أن من آمن بالباطل فهو كافرٌ بالله؟

يمكن أن يقال: إن قوله: ﴿آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ إن هذا لبيان حالهم، وأنه يلزم من الإيمان بالباطل الكفر بالله؛ لأننا نقول: هَبْ أنه آمن بالباطل وآمن بالله؛ هل يكون إيمانه صادقًا؟ لو قال: إنه يؤمن بالله ربًّا، ثم صار يعبد الصنم، فما صار مؤمنًا، فالإيمان بالباطل يلزم منه الكفر.

لكن هذا في الحقيقة حكاية لحالهم أنهم جمعوا بين الأمرين صريحًا، فآمنوا بالباطل وكفروا بالله.

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٣، ٥٤]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يعني: يطلبون منك التعجيل بالعذاب، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، والعياذ بالله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٨، ٢٩]، فهم يتحدَّون الرسل وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ بالعذاب، وهذا كقولهم أيضًا في البعث: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] هذه شُبْهة ما هي حُجَّة، فالذين قالوا بالبعث ووعدوهم بالبعث هم قالوا: إن البعث يكون في الآخرة، إذنْ قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تشبيهٌ وليس حُجَّة؛ لأن الجواب أن نقول: ما قالوا لكم إنهم سيُبعثون اليوم حتى تقولون: ائتوا بهم، فالحاصل: أن هؤلاء يستعجلون بالعذاب، لا لأنهم يريدون العذاب فيما يظهر، وقد يكونوا يستعجلونه يريدونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢]، فهم يستعجلون بالعذاب تحدِّيًا.

وأحيانًا يستعجلون به مثل ما ينتحِر المُضطهَد، فيقولون: إذا كان هذا هو الحق فإنا لا نُريد البقاء في الدنيا، ولننتحِر، وليأتِنا العذاب ولنتخلص من هذه الدنيا.

لكن الغالب أن المُستعجِلين بالعذاب يُريدون التعجيز والتحدِّي، بدليل قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ (أل) هنا للعهد، أو لبيان الحقيقة.

فقولنا: للعهد، يكون المراد العذاب الذي وُعِدُوا به؛ يعني: الذي قالت لهم الرسل: إنه سيقع بهم، وإن قلنا: لبيان الجنس صارت أعمَّ من ذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ﴾ هذه شرطية، ﴿أَجَلٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به وقوعه في سياق الشرط، هذه واحدة، والثاني: وصفه بقوله: ﴿مُسَمًّى﴾ وخبر

المبتدأ محذوف، وتقديرُه: ولولا أجلٌ مُسمًّى مُقدَّر - مثلًا أو ما أشبه ذلك - لجاءهم العذاب، والشاهد على حذفه في كلام ابن مالك:

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الخَبَرْ حَتْمٌ............ (١)

إذنْ الخبر هنا محذوف، وقوله: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هذا جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الأجل هو غاية الشيء؛ يعني: لولا الغاية التي حدَّدها الله، وقوله: ﴿مُّسَمًّى﴾ أي: مُعيَّن، أو مُحدَّد، مُعيَّن فعل من الله عز وجل تبعًا لحكمته؛ لأن الله عز وجل كل شيء عنده بمقدار، حتى القطرة التي تنزل من السماء ما تنزل إلا بمقدار في وزنها، وحجمها، وزمنها، ومكانها، وفي كل شيء، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨، ٩]، ما يخفى عليه شيء، ولا يشِذُّ عن تقديره شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن مُحدَّد بنظام وانتظام لا يزيد ولا ينقص، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

قال: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كما استعجلوا به!! ولكن الله عز وجل يحلُم ويحكم ويُحكِم، فهو حليمٌ حكيمٌ، ولو كان سبحانه وتعالى كلما طلب هؤلاء من آية أعطاهم، وكل ما استعجلوه من عذاب عذَّبهم لفَسدت الأرض، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ولكن الله عز وجل حكيم يُقدِّر الأشياء حسب ما تقتضيه حكمته، وهذه الحكمة في غاية قد تُعلَم لنا وقد لا تُعلَم، قد نعلمها ولو مُستقبلًا، وقد لا نعلمها؛ لأننا ضُعفاء في العلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال: [﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ له]؛ أي: للعذاب [﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلًا] ولكن الله تعالى سيُنزِّله عندما تقتضيه حكمته.

ثم قال مُتوعِّدًا ومُتهدِّدًا لهم: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال المؤلف: [﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه].

قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات، وهي: القسم المُقدَّر، واللام، ونون التوكيد، ومعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يجيئنَّهم؛ أي: العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ البَغتة كل ما باغَتَ الإنسان؛ أي: أتاه من غير توقُّع له، إذنْ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تكون جملةً مُؤكِّدةً لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾؛ لأن المُباغِت للإنسان يأتيه بدون شُعُورٍ، وقيل: إنها جملة مُستقلة بمعناها، وأن قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذا تهديدٌ وتحذيرٌ، فاحذروا أن يأتيكم، وأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أنه لا يأتيهم الآن حين طلبوه؛ لأنهم إذا أتاهم العذاب حين طلبوه يكون قد أتاهم وهم مُتوقِّعون له،

(١) عجز البيت: حتم وفي نص يمين ذا استقر. انظر شرح ابن عقيل (١/ ٢٤٦).

وشاعرون به، ولكنه سيأتيهم في غير وقت طلبهم له؛ يعني: والحال أنهم لا يشعرون، فيكون المعنى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ هذا صفة وقوع العذاب بهم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: في غير وقت طلبهم إتيان العذاب؛ لأنه إذا أتاهم وقت الطلب صاروا شاعرين به؛ لأنهم يكونون قد تهيَّأوا واستعدُّوا بسبب طلبهم العذاب أن ينزل بهم العذاب.

أما على القول الأول أنها توكيد لقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فيكون هذا مُفسَّرًا بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وهذه فيه غفلة، فالإنسان النائم ما هو مُستعدٌّ للعذاب؛ بل هو آمنٌ غاية الأمن، ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، والإنسان الذي يلعب في رابعة النهار هذا أيضًا آمِنٌ، ولكن الله هدَّد هؤلاء المُبطِلين في حال أمنهم أن يأتيهم عذاب الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ظاهر الآية الكريمة: أن هذا في الدنيا، إذ يأتيهم بغتة، ولا فرق أن يكون هذا العذاب على أيدي النبي ﷺ وأصحابه، أو من الله عز وجل، فالعذاب الذي أتى قريشًا من الله ما دعاه النبي ﷺ ربَّه عليهم به، في قوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[1]، فهذا عذاب، أصابهم الجَدْب والقَحْط – والعياذ بالله –، والجوع، وكذلك أيضًا ما كان على أيدي المؤمنين في «غزوة بدر»، فإن تلك الغزوة أصابتهم إصابة بالغة عظيمة، ولهذا سمَّى الله يومَها يوم الفرقان، فما من بيتٍ من بيوت مكة الكبار إلا وقد أُصيبَ بهذه المصيبة، وعُذِّب بهذا العذاب، وعلى العموم فإن قريشًا أُصيبوا عامَّةً بنكبة بالغة؛ لأن صناديدهم ورؤساءهم قُتِلوا، ثم قُتِلوا في الحقيقة وغُلِبوا وأُسِروا وهُزِموا وخابوا، على حين أنهم كما قال الله تعالى: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] يعني: قد جزموا أنهم غانمون وهازمون للرسول ﷺ وأصحابه، فأبو جهل يقول: والله لا نرجع حتى نقدُمَ بدرًا فننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القِيَان، ويسمعُ بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا[2]، هذا كلامُه، لكن الله عز وجل من ورائه مُحيط.

الذي حصل أن العرب تحدَّثوا به، وأن القِيان عزفت عليهم بالنعي، لا بالفرح، وأنهم سُقُوا كأس الحِمَى، ولم يُسقَوا الخمور، فصار الأمر عكس ما قالوا تمامًا، والنبي عليه الصلاة والسلام رفع الله رايته، ونصرَه، ووقف عليهم مُوبِّخًا على القليب وهم جُثث هامدة، يقول: «**يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»[3]، فهل أبلغ من هذا الذُّل – والعياذ بالله – والعار؟! وسبعين رجلًا أُسِروا، ولم يُطلَقوا إلا بفداء، وصاروا بدل

---

(١) رواه البخاري (٧٧١)، ومسلم (٦٧٥) من أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نور اليقين (ص٨٤).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٤)، والنسائي (٢٠٧٥)، وأحمد في مسنده (١٢٠٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

الكراسي العالية يُدرِّسون الصبيان بالمدينة، ويُعلِّمونهم الكتابة، وهذا ذلٌّ ما وراءه ذل، وعذاب ما فوقه عذاب، وليس بالحقيقة العذاب ألم البدن فقط.

أنا عندي وعندكم أيضًا أن العذاب المُهين هو ألم القلب والنفس، هذا أشد وأعظم، ولذلك إذا منَّ الله على الإنسان بقلبٍ مُطمئن، وصدرٍ مُنشرِح، مهما كان ما يتعذَّب بشيء.

فعلى كل حال نقول: هذا من العذاب بغتة، ما أصابهم في الدنيا مما كان بفعل الله عز وجل، أو بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وكذلك أيضًا قد يكون في الدنيا ما يُصيب الواحد منهم عند الموت؛ لأنه إذا جاءه الموت – وما أقرب الموت، مهما طالت بالإنسان الحياة –، إذا جاءه الموت يُبشَّر بغضبٍ من الله وسخط – والعياذ بالله –، ويُقال لروحه: اخرُجي أيتها الروح الخبيثة، فهذا – والعياذ بالله – عذاب أيضًا.

ثم قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يكون هذا المراد: عذاب الآخرة، ويكون قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ هذا في الدنيا، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذا في الآخرة، وهم في الحقيقة يستعجلون العذاب هذا وهذا؛ لأنهم يُكذِّبون الرسول عليه الصلاة والسلام بما قال من وعيد الآخرة، وبما قال من أنه سينتصر عليهم، وتكون الغلبة له.

قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: يطلبون منك تعجيله، ولكن الأمور مُقدَّرة بيد الله عز وجل، ولهم عذابٌ ما يستطيعون الخلاص منه، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بمُؤكِّدَين، وهما: إن، واللام.

والإحاطة بالشيء معناها: أن يأتيه من كل جانب.

و﴿جَهَنَّمَ ﴾ وهي اسمٌ للنار، أعاذنا الله وإياكم منها، وسُمِّيَت بذلك لأمرَين:

لبُعد قعرها، وسوادها، فهي من الجُهْمة، والنون زائدة فيها، وعلى هذا فيكون وزنها: (فعنلل)، وقيل: إنها اسمٌ أعجميٌّ، وأن أصلها (كهنَّام) في اللغة الأعجمية، لكن عندما عُرِّبَت يكون فيها تغيير، فصارت إلى جهنَّم، والغريب أن العجم الآن عندما يتحدَّثون إلى بعض عن النار يقولون: جهنم، حتى نار الدنيا يُسمُّيها جهنَّم؛ يعني: عندهم إلى الآن جهنم اسم للنار.

وقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الحمد لله أنه ما قال: بالظالمين، الكافر يكون في قعر الجحيم – والعياذ بالله –، ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥] أي: في المكان السويِّ منها وهو الوسط، فهؤلاء – والعياذ بالله – تُحيطُ بهم النار من كل جانب؛ لأن الإحاطة تقتضي ذلك، لكن يبقى على هذا التقرير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يغشاهم يعني: يُغطِّيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل: ١] يعني: يُغطِّي الأرض بسواده، فعلى هذا ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: يُغطِّيهم لكن ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ونحن قلنا: الإحاطة من كل جانب، فهل تكون الآية ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ

ﵟٱلۡعَذَابُﵞ مُخصِّصة لهذه الإحاطة، وتكون الإحاطة من فوق ومن تحت، أو يُقال: إن تغشية العذاب أبلغ من إحاطة النار، وهذا هو الأقرب، وخصَّ الفوق والتحت؛ لأنه لا يمكن الفرار منه، لكن الجوانب يمكن الفرار، وقال بعض المُفسِّرين: خصَّ الفوق والتحت؛ لأن نار الدنيا لا تأتي من فوق ومن تحت، تكون من جانب، وهذا منقوضٌ بمن أُلقي في نفس النار.

إنما الذي يظهر - والله أعلم -: أنه أقل تمكُّنًا من الفرار، إنما الذي نرى أن ما بعد قوله: ﵟلَمُحِيطَةٌﵞ لا يُخصِّصُه، فالإحاطة عامة من كل جانب، وتغشية العذاب - وهو أشد وأعظم - يكون من فوق، ومن تحت، كما قال الله تعالى: ﵟلَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِﵞ [الزمر: ١٦].

الفوائد:

١- يُستفاد من هذه الآية: أمران:

الأول: سفهُهم، فإن الإنسان إذا وُعِد بالشيء فإن العقل والرُّشد يقتضي ألَّا يستعجل به، ولهذا قال المؤمن لآل فرعون: ﵟوَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡﵞ [غافر: ٢٨]، فكون الإنسان يُوعَد بالعذاب إذا لم يؤمن، ثم يستعجل به، هذا من السَّفَه.

والثاني: تُفيد أنهم قومٌ عُتاة مُعانِدون، ولهذا يتحدَّون أخبار الرسل باستعجالهم بالعذاب.

٢ - ومن فوائد الآية أيضًا: إثبات حكمة الله عز وجل، وأنها غاية في الكمال، لقوله: ﵟوَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُﵞ، فلولا الحكمة لعُوجِلوا بالعذاب لاستعجالهم به، ولكن الحكمة تقتضي عدم ذلك، وانظر إلى غاية الحكمة الإنسانية في قول الرسول عليه الصلاة والسلام لملك الجبال، لما جاء يستأذنه قال: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبَيْن[1]، فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ[2] مَنْ يَعْبُدُ اللهَ»[3] فهذ النبي قد خرج من بلده مكة لاشتداد الإيذاء عليه وعلى أصحابه وذهب إلى الطائف يلتمس الدعوة هناك فطرد منها وهو على مشارفها ثم يجيئه ملك الجبال ويقول له هذا، فمُقتضى الطبيعة البشرية إذا جاءه من يقول: مكِّنِّي فأنا أُهلكهم عن آخرهم، يقول: نعم، وجزاك الله خيرًا، لكن الحكمة هي التي تمنع الإنسان من أي فعل لا يحمد عُقباه فيما بعد، ولذلك يقول الله عز وجل: ﵟوَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاﵞ [البقرة: ٢٦٩]، وكثيرًا ما يندم الإنسان على تصرُّفاته عند فوات الحكمة، فلهذا يجب على الإنسان أن يُغلِّب جانب العقل دائمًا، لا جانب العاطفة؛ لأن جانب العاطفة فيه خلل كثير،

---

(١) جبلي مكة أبي قبيس ومقابله قعيقعان سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما يقال رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم.

(٢) جمع صلب وهو كل ظهر له فقار.

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

لكن تغليب جانب العقل هذا هو الحكمة.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن أفعال الله سبحانه وتعالى مُقدَّرة ومُنظَّمة، وليست هكذا تأتي صُدَفًا، أو تأتي بغير علم، أو تأتي بغير رُشدٍ؛ بل هو سبحانه وتعالى كامل العلم، وكامل الحكمة، وكل أفعاله مُقدَّرة مُنظَّمة، تُؤخذ من: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٤ ـ ومن فوائد الآية أيضًا: أن الحوادث مُقدَّرة عند الله تعالى في علمه، لقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، فيكون هذا فردًا من الأفراد الكثيرة الدالة على أن الله سبحانه وتعالى قدَّر ما يكون، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وهاتان هما الدرجتان اللتان يتضمَّنها القضاء والقدر؛ لأن القضاء والقدر يتضمَّن أربع مراتب، هذه التي في الآية الكريمة مرتبتان، وهي: العلم، والكتابة، وباقي المراتب: المشيئة، الخلق.

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُه ... وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

٥ ـ ومن فوائد الآية: إضافة الفعل إلى الحادث، لقوله: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، والجائي به حقيقةً هو الله عز وجل، لكن يصدق عليه أنه آتٍ.

٦ ـ ومن فوائد الآية: عِظَم العذاب إذا جاء غير مُتوقَّع، لقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٧ ـ ومن فوائدها أيضًا: تهديد هؤلاء المُستعجلين بالعذاب بأنه سيأتيهم ولابد، لكن يأتيهم على غِرَّة وبغتة، ليكون أشدَّ وقعًا.

٨ ـ ومن فوائد الآية: تكرار ما به الذم على من يستحقُّه، لقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ هذا إذا جعلنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الثانية توكيدًا للأولى، أما إذا حملنا الأولى على عذاب الدنيا، والثانية على عذاب الآخر، فلا توكيد في المسألة.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن أهل النار – والعياذ بالله – يأتيهم العذاب من كل وجهٍ، لقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٠ ـ ومن فوائدها: عِظَم هذا العذاب؛ حيث كان يُغلَّب عليه من ناحيتين: العلو والسُّفل؛ لأنه يكون كالغطاء، والوطاء، فيكون كأنه مُطبقٌ عليهم بنار، ومُوقَد عليهم من تحت بنار – والعياذ بالله –، عدا ما يأتيهم من كل جانب، لقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.

❁❁❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]

❁ التفسير ❁

وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: [أي: جزاءه فلا تفوتونا] الأمر هنا لإهانتهم وتوبيخهم.

وقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) هنا اسم موصول بمعنى: الذي، وعلى هذا يكون العائد محذوفًا، والتقدير: ما كنتم تعلمونه.

وقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [أي: جزاءه] وهو كذلك، لكنه عبَّر بالعمل نفسه؛ لأنه السبب، ولأن الجزاء من جنسه.

وفيه أيضًا قوله تعالى: ﴿ونقول﴾ [فيه بالنون؛ أي: نأمر بالقول، وبالياء: يقول؛ أي: المُوكَّل بالعذاب] هذا في الحقيقة تحريف من المؤلِّف، ما هو الداعي لصرف اللفظ عن ظاهره ؟ ولهذا المُتعيَّن أن يكون القائل هو الله عز وجل، وقد قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فإذا كان هناك الكفار يخسئوا فيها كلام الله ولا شك، فهنا هو كلامه أيضًا بلا شك، قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨، ١٠٩]، وهذا واضح وصريح في أن القائل هو الله، وهنا أيضًا القائل هو الله.

وكونه يقول: [من يقول] هذا تحريف، من الذي يمنع أن يكون الله تعالى هو الذي يقول؟! فالله تعالى يتكلَّم بما شاء، متى شاء، وكيف شاء، وكلامُه سبحانه وتعالى مسموعٌ بصوتٍ لا يُشبِه الأصوات، لكنه بحروف يفهمها المُخاطَب بهذا الكلام.

وقوله: ﴿فنقول﴾ أضافه إلى نفسه بصيغة العظمة؛ لأنه سبحانه وتعالى أعظم العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾، ومعلومٌ أنه واحد، لكن هذا من باب التعظيم، وهو سبحانه وتعالى لا شكَّ أنه عظيم، وقد سبق لنا أن ما أضافه الله لنفسه بصيغة العظمة قد يُرادُ به هو نفسُه، وهو الغالب الكثير، وقد يُراد به ملائكتُه، وهو كثير أيضًا، لكن الأكثر أنه يُريد الله عز وجل.

ومما جاء مما يُراد به الملائكة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] فالمراد: جبريل، إذا قرأه جبريل.

ومما جاء كذلك: قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] فإن إبراهيم ما جادَل الله، وإنما جادَل الملائكة، ومنه قوله تعالى في المُحتضَر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، فإن المراد بالقُرب قُرب الملائكة، بدليل قوله: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ فإن

هذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان، لكنه لا يُبصَر، وكذلك قوله - على القول الراجح - : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦، ١٧]، فالمراد: أقرب إليه بملائكتنا؛ لأنه قيَّد هذا القُرب بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾، فصار المراد: قُرب هذين المُتلقِّيَيْن.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالمراد به: قُربُه نفسُه، ولكنه قريبٌ في علوه، ولا يلزم من هذا القرب أن يكون الله سبحانه وتعالى في نفس المكان الذي أنت فيه، فإن هذا مستحيل على الله عز وجل ممُتنع، لكنه يقرُب من خلقه كيف شاء كسائر صفاته، وكما أنه ينزل من السماء الدنيا وهو لا زال عاليًا؛ لأن علوَّه من لوازم ذاته؛ إذ إن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفكُّ الله عنها، فكذلك يقرُب من خلقه كيف يشاء مع علوِّه سبحانه وتعالى.

والحاصل: أن ما أضافه الله لنفسه بصيغة التعظيم تارةً يُراد به نفسُ الله عز وجل، وهو الأكثر والغالب، ويكون هذا من باب التعظيم، وتارةً يُراد به ملائكته، وهو قليل.

فإذا قال قائل: كيف صحَّ أن يُضاف إليه وهو للملائكته؟

قلنا: لأن ملائكته تفعل بأمره، فهم عبادُه يفعلون ما يُؤمَرون، وما كان يُفعَل بأمر الآمر صحَّ أن يُنسَب إليه، وقد مرَّ علينا هذا كثيرًا، قال فرعون: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦] لا شكَّ أن المراد: مُر من يبنِه، ما يُريد أن هامان يُباشِر يأتي بالمساحي، والمعاول، والزنابيل ليبني، ما أراد هذا.

وقوله: [وبالياء؛ أي: (يقول) الملك المُوكَّل بالعذاب] ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ﴾، يقول المؤلف: إن المراد الملك المُوكَّل بالعذاب، تأويل الآية بالمَلَك هنا أهون من تأويله في قوله: ﴿ونقول﴾؛ وذلك لأن [ويقول] فيها ضميرٌ مُستتر للغائب، هذا الغائب يجوز أن يكون الله، ويجوز أن يكون غير الله، ولكننا نقول: يمنع أن يكون المراد أن يكون القائل المَلَك: القراءة الأخرى ﴿ونقول﴾؛ لأنها تدلُّ على أن القائل هو الله عز وجل، فلو فسَّرنا يقول بأنه المَلَك لخالَفنا القراءة الثانية، وهي: ﴿نقول﴾ لأننا نقول: القائل هو الله، ولا شك أن القراءتين يُفسِّر بعضهما بعضًا، القراءة الثانية قد تكون تفسيرًا للأولى قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، القراءة الثانية: ﴿تثبَّتوا﴾، إذن ما معنى ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ (فتثبَّتوا).

فقول المؤلف: [نأمر من يقول]، أو يقول المَلَك كلاهما تحريف، والحامل عليه هو الاعتقاد.

ومن ينظر في أدلة الناس، أو في استدلالات الناس يجد أن من يعتقد مذهبًا من المذاهب تجده يُحرِّف الكلام عن مواضعه لأجل أن يُوافِق ذلك المذهب، وهذا خطير جدًّا، والواجب أن يكون

الإنسان نحو الأدلة ساذجًا؛ بمعنى: خاليًا محضًا، ويكون متابعًا تمامًا، ولا يجعل الدليل تابعًا، بل يجعل نفسَه هو التابع، ليكون كأنه أرض ما فيها عُشب ولا نبات، فهي مُهيَّأة لما يُبذر فيها، وليس فيها نباتٌ من قبل، إن كان فيها نباتٌ من قبل مُشكِل، يمكن أن يُحاول أن يكون هذا الغرس مثل هذا النبات.

مسألة: لماذا عبر أهل السنة بقولهم: إن كلام الله بحرف وصوت، وهذا القول لم يرد عن السلف الصالح من الصحابة؟

الجواب: ينبغي أن نعرف أن أهل السنة والجماعة - جعلنا الله وإياكم منهم صار لهم أحوال وأوقات، فلكل حال ولكل وقت منزلته، وهم ابتُلوا بقومٍ يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وعلى هذا فإن هذا القول في الحقيقة نافٍ لكلامٍ الله، فاضطُرُّوا إلى أن يقولوا: بحرفٍ وصوتٍ تأكيدًا لمعنى الكلام فقط، فهم مُضطَرُّون لُمقابلة هؤلاء.

ولهذا لما قيل للإمام أحمد: ما بالنا نقول: غير مخلوق، والسلف الذين قبلنا ما قالوا: غير مخلوق؟ فتعجَّب الإمام أحمد، قالوا: مخلوق، فلابد أن نقول: غير مخلوق.

فأخبرنا الإمام أحمد بهذا أنهم رحمهم الله يأتون بهذه الكلمات لأجل دفع إيهام القول بما يقوله أهل الباطل، لو سكتوا وقالوا: القرآن كلام الله، لقالوا: إن الله يتكلَّم بكلام، صار في هذا إيهام.

حتى إن الإمام أحمد سُئِل عن رجل قال: أنا أقول: إن الله معنا ولا أزيد على هذا، فقال: قد تجهَّم؛ لأن الجهمية كانوا يُضلُّون الناس، كانوا يُصرِّحون بأنَّ الله معنا بذاته في الأرض، وأحيانًا يقولون: إن الله معنا، ولا يزيدون شيئًا، لأجل أن يُوهِمون الناس، فهم يتستَّرون بمثل هذا الشيء، كذلك لو قال قائل: السلف يقولون: إن الله استوى على العرش بذاته؛ أين بذاته في القرآن والسنة؟ ليست موجودة، لكنهم لو قالوا: استوى بمعنى علا العرش، قال لهم أولئك المُحرِّفون: نعم، هو علا على العرش لكن علوًّا معنويًّا، فيكون استوى بمعنى: استولى وملَكَ، فاحتاجوا إلى أن يقولوا: بذاته.

كذلك أيضًا عبَّر بعضهم بحديث النزول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا[1]»[2] فقال: بذاته، وهي ليست موجودة، ولكن دفعًا لتحريف من قالوا: ينزل أمرُه أو ينزل ملكٌ من ملائكته، أو تنزل رحمته مثلًا.

فالمهم: أن السلف رحمهم الله يُورِدون بعض الكلمات لدفع هذا الباطل، كما أنهم يسكتون عن بعض الكلمات خوفًا من توهُّم الباطل، والإنسان يعرف أن أهل العلم رحمهم الله ربما نفس

(١) وهي السماء الأولى وسميت الدنيا لقربها من أهل الأرض.

(٢) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفتوى معنويًّا ما هو لفظيًّا تتغيَّر بتغيُّر الزمان.

فهذا عمر رضي الله عنه أجاز الطلاق الثلاث فجعله طلاقًا بائنًا، مع أن من قبله: النبي ﷺ وأبا بكر يجعلون طلاق الثلاث واحدًا، هو نفسه جعل الطلاق الثلاث واحدًا سنتين من خلافته، لكن لما رأى أن ينتشر فيهم هذا الشيء أراد أن يُلزمهم به لأجل أن يتنبهوا[1]، وهكذا فليُعلَم أن أهل العلم ليسوا - وهذا نُكرِّره دائمًا - أنَّ العلم ليس مُجرَّد علم؛ بل هو علمٌ وتربية، أهم شيء أن يُربِّي الناس على الشريعة، ولهذا رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه[2])[3].

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن مسألة الذات لم ترِد في لسان العرب العُرباء، ولكنها صحيحة، فيجوز الإخبار بها عن الله، ولكن ما تجعلها من أسمائه، ولكن يجوز أن يُخبَر بها عنه؛ مثل ما أنه يجوز أن تقول: إن الله موجود، والموجود ليست من أسماء الله، لكنه معلوم لابد أن تُقِرَّ بأنَّ الله موجود، وفي أسماء الله ما يُغني عنها؛ مثل: الحي الذي لا يموت، فهو يُغني بلا شك، ويصلح أن تُخبِر عن الله بأنه قديم، ويُعنَى بالقديم: ما لا أول له، هذا يصلح أن تُخبِر به عنه، لكن ما يجوز أن تجعل القديم اسمًا من أسمائه، خلافًا لبعض المتأخِّرين الذين جعلوا أخصَّ أوصافه أنه قديم، نقول: هذا ما هو صحيح، وفي القرآن والسنة ما يُغني عنه، وهو الأول، الأول يُغني عنه، وهو أيضًا أبلغ من القديم؛ لأن القديم قد يُطلق على الحادث المُتقدِّم، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩]، فلا يدلُّ على السبق المُطلق، ولأن الأوَّل يُفيد معنى زائدًا على تقدُّم الزمن، وهو أن الأشياء تؤول إليه، وترجع إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** ما يحصل لهؤلاء المُعذَّبين من التقريع والتوبيخ الذي فيه الألم النفسي، والألم النفسي قد يكون أشد من الألم الجسمي، لقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

٢- **ومنها:** جواز التعبير بالسبب عن المُسبَّب، ويؤخذ من قوله: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وهم في الحقيقة لا يذوقون ما كانوا يعملون، إنما يذوقون جزاءهم، لكنه من باب التعبير بالسبب عن المُسبَّب، وأيضًا فهو أشد في التقريع، إذا قال: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأن العمل هم اختاروه بأنفسهم، والجزاء لم يختاروه بأنفسهم، فكأنه يقول: هذا هو الذي اخترتم تمامًا.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فجعل الجزاء

(١) انظر صحيح مسلم (١٤٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أي إذا حدث الناس بما يشتبه عليهم ولا يعرفونه ربما كذبوا بما جاء عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه البخاري (١٢٧).

هو نفس العمل، إذنْ فهو نظيرُه تمامًا؛ لأنه عُبِّر به عن العمل، وهذا بالنسبة للكفار وأهل الظلم يُجازَون بقدر أعمالهم، أما من عمل خيرًا فإنه يُجزَى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

٤ - **يُستفاد منها أيضًا:** أن تعذيب الكفار جسمي ونفسي، الجسمي ما يذوقوه من أنواع العذاب، والنفسي هو هذا التوبيخ الذي يوجَّه إليهم في قوله: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فما أدري كيف يتصوَّر الإنسان حينما يُقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولا أدري ماذا يكون تصور الإنسان في مقت هؤلاء لأنفسهم؛ لأنهم سيبغضون أنفسهم أشدَّ البُغض، ويكون هذا هو عملهم، إذًا لابد أن يتأثَّروا تأثُّرًا نفسيًّا لا نظير له، ففي هذا دليل على أن أهل النار يُعذَّبون عذابًا جسميًّا وعذابًا نفسيًّا بالتقريع والتوبيخ.

قال الله تعالى:

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:٥٦، ٥٧]

التفسير

الآية إشارة إلى أن مقتضى العبودية والإيمان أن يقوم الإنسان بحقيقة بما تقتضيه هذه العبودية، وهو ألَّا يرى لنفسه حقًّا في جانب حق الله؛ بمعنى: ألَّا يُقدِّم حقوق نفسه على حقوق ربِّه، وليس المعنى: ألَّا يقوم بالأمرين، فإن الإنسان مأمور بأن يقوم بالأمرين، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا**[1]**، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»، لكن المهم ألَّا يُقدِّم حظوظ نفسه على حقوق ربِّه، ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

وإضافة العبودية إلى الله هنا فيها من التشريف والتكريم ما هو ظاهر؛ لأن كون الله يُناديهم فيقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ فيُضيفُ ذلك إلى نفسه هذا له معنى عظيم فيما هو ظاهر.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ اعلم أن العبادة تنقسم إلى قسمين: عبادة كونية، وعبادة شرعية.

فالعبادة الكونية: هي الخضوع لحكم الله الكوني، وهذه ثابتة في حق جميع الخلق، المؤمن والكافر والبَر والفاجر.

والثانية: عبادة شرعية: وهي الخُضوع للحكم الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله عز وجل؛ لأنه خضع لحكمه الشرعي أمرًا ونهيًا.

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٧)، وأبويعلى في مسنده (٨٩٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢١٤٤).

واخترتُ أن أُعبِّر بقولي: حكم دون أمر، لأجل أن يشمل الأمر والنهي، فإن العبادة هي: القيام بطاعة الله امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه.

ومن الأمثلة على هذين النوعين: الأولى ـ العبودية العامة ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن العبودية الخاصة قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وكذلك قوله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. هنا الآية إذا وصلت في القراءة فهي عبودية عامة، وإذا فصلت في القراءة فهي عبودية خاصة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلها من الإعراب النصب؛ لأن (عباد) منصوبة، منادى منصوب بسبب الإضافة.

وقوله: ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ سبق لنا مرارًا أن الإيمان هو التصديق المُستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، كما قاله أهل الإرجاء، فأهل الإرجاء يقولون: إن الإيمان مجرد التصديق، فمن صدَّق بالله فهو مؤمن، لكن إن استكبر عن العبادة كان دليلًا على عدم صدقه في تصديقه.

وهذا قولٌ منكر، فالصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان هو التصديق المُستلزم للقبول والإذعان.

وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذا هو محط النداء، المُنادى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، والمنادى به الذي هو محط النداء قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، الإضافة هنا من باب إضافة المملوك إلى مالكه، فتكون من باب إضافة الخلق والتكوين، أو من باب إضافة الاختصاص؛ يعني: الأرض التي هي محل عبادتي.

إذا قلنا: إنها الأول صار إشارةً إلى أن يُهاجروا إلى بلاد كفر أو إسلام.

وإذا قلنا: إنها الثاني التي هي على سبيل الاختصاص وهي أرض عبادة الله، يُراد بها البلاد الإسلامية، وهذا هو الظاهر، وأنه سبحانه وتعالى يحُثُّ المُقيمين في بلاد الكفر على أن يُهاجِروا إلى أرض الله، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧]، وهذا واضح بأن المراد بأرض الله هنا أرض الإيمان والعبادة التي هي دار الإسلام.

وقوله: ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ الواسع ضد الضيق؛ يعني: الذي يسَع ما يكون فيه، وليس فيها ضيق، فلا حُجَّة لكم في التأخُّر عن الهجرة، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ محلها من الإعراب: أن (إياي) مفعول لفعل مُقدَّر، والمعنى: إيَّاي خُصُّوا

بالعبادة فاعبدون.

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ قد يقول قائل: هذا يتناقض مع قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ولكننا نقول: لا يتناقض؛ لأن المراد بقوله : ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: أديموا عبادتي وأكملوها؛ لأن الأمر بما هو واقع لغوٌ من القول، فحينئذٍ لابد أن نُقدِّر معنًى يتلاءم مع الأمر، في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] والمعنى: أديموا وأكملوا، واستمرُّوا على الإيمان، هذه مثلها: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ المعنى: أديموا عبادتي وحقِّقوها بالتكميل؛ لأن العبد قد يكون عبدًا لكنه مُقِلٌّ في بعض الأمور.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ واضح أنه يدلُّ على الحصر والاختصاص.

ثم قال المؤلف: [﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ في أرض تيسَّرت فيها العبادة، بأن تُهاجِروا إليها من أرضٍ لم تتيسَّر فيها].

إذن الله سبحانه وتعالى رغب في الهجرة بقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وأمر بها في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ لأنه ما تتحقَّق العبادة في بلدكم، فإذا لم تتحقَّق فما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وعلى هذا ستكون الهجرة واجبة.

قال: [نزلت في ضُعفاء مُسلمي مكة كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها] فأُمِروا أن يُهاجِروا إلى بلادٍ يستطيعون فيها أن يقيموا دينهم، فهاجر منهم جماعةٌ إلى الحبشة، ثم قيل لهم: إنَّ مُشركي قريش أسلموا، فرجعوا، ولكنَّ كفار قريش ازدادوا في اضطهادهم - والعياذ بالله - فرجعوا مرة ثانية إلى الحبشة، ثم بعد ذلك أُذِنَ للنبي ﷺ أن يُهاجِر هو وأصحابه إلى المدينة، فهاجروا فكان أول بلد إسلامي تُقام فيه الحكومة الإسلامية هو المدينة، الذي تحقَّق ذلك بالهجرة.

وقوله: [كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها] الضيق الذي حصل لهم من الكفار مُتنوِّع بالقول، وبالفعل، وربما يُؤدِّي إلى القتل، وأنواع كثيرة، حتى إنهم - والعياذ بالله - يُعذِّبونهم في شدَّة الحر - في الرَّمضاء -، ويضعون الأحجار الحامية على بطونهم، لكن ذلك لا يُثنيهم عن دينهم أبدًا؛ لأنهم مؤمنون حقًّا، ويرون أن هذه الدنيا ليست بشيء؛ مثلما قال السحرة الذين آمنوا بموسى لفرعون: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢] افعل ما تشاء، والذي يفوتنا بما تقضي به علينا إن فاتنا فهو الحياة الدنيا، وهذا هو حقيقة الإيمان، أن الإنسان يفدي دينه بنفسه، وبماله، وأما الإيمان الهشُّ الذي إذا أُوذِي صاحبُه في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، فرجع عمَّا كان عليه، فهذا في الحقيقة ناقصٌ غاية النُّقصان، ومن حكمة الله عز وجل أن الله يبتلي الإنسان بالفتن في دينه؛ لأجل أن يتبيَّن صدقُ إيمانه من ضعفه، كما تدلُّ هذه الآية، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ هذه قضية عامة صورها كلِّي.

وقوله: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ميتة، لكن عبَّر عن حقيقة الموت بالذوق؛ لأن الإنسان يذوق مرارة الموت، وألم فراق الحياة، لكنه إذا كان مؤمنًا فإنه يذوقه من وجه لكن يُهوِّن عليه الأمر وجهٌ آخر، وهو أنه إذا بُشِّر بالجنة عند موته فإنه يُسرُّ بذلك، ولهذا يسهُل على نفسه الخروج، الملائكة تتنزَّل عليهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فيُسرُّون بذلك، ويهُون عليهم فراقُ الأحِبَّة، ثم إنهم يشعرون في هذه الحال إلى أن أمامهم إمامهم الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون والصحابة، فيقول الإنسان: الحمد لله، أنا أنتقل من دار العناء والشقاء والابتلاء والامتحان إلى دار النعيم، فأكون مع النبي عليه الصلاة والسلام، وخلفائه الراشدين، وأصحابه الكرام فيزدادُ بُشرى، ويهُون عليه الفراق، فهنا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ولكن فرق بين المذاقَين، بين مذاق المؤمن ومذاق غير المؤمن.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بعد الإشارة إلى الهجرة كأنه يقول: بقاؤكم في بلاد الكفر من أجل التمتُّع بالمال والبلاد والأوطان، وهذا نقصٌ في التفكير؛ لأن هذا الأمر الذي أنتم تُحافِظون عليه – وهو البقاء في البلاد والتمتُّع بها – زائلٌ، فإذا كان زائلًا ولابد، فكيف نُحافظ عليه وندَع ما هو أهم من الهجرة، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ثم بعد الموت نُرجَع إلى الله عز وجل، وإذا رُجِعنا إلى الله يتبيَّن كشف الحساب، ماذا حصل؟ لأنَّ هذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، ﴿صَغِيرَةً﴾ وإن صغُرت؛ لأنه نكرة في سياق النفي، ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولو عظُمت ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لو أن الإنسان أراد أن يُحصِي ما يتكلَّم في اليوم، كم يكون له مُجلَّد في الأسبوع؟ لا بل مُجلَّدات، فالإنسان يجب عليه أن يعتبر بهذه الأمور؛ كيف تبلغ كلماته في كل يوم، وفي كل أسبوع، وفي كل شهر، وفي كل سنة، وفي العمر كله، وهذا الكتاب لا يُغادِر لا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقوله: [﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء والياء] قراءتان سبعيَّتان، لكن الفرق بينهما من حيث المعنى: أن ﴿يُرْجَعُونَ﴾ للغائب، و﴿تُرْجَعُونَ﴾ للمُخاطَب.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ، فالإنسان إذا نظر إلى رحمة الله عز وجل، وسعى في عفوه رغَب، وقال: سأرجو إلى ربٍّ عفوٍّ كريم، وإذا نظر إلى شدَّة عقابه وأخذِه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] فإنه يخاف، وهل يُغلِّب جانب الرجاء أو جانب الخوف؟

نقول: فيه آراء لأهل العلم؛ منهم من قال: يُغلِّب جانب الرجاء، ومنهم من قال: يُغلِّب جانب الخوف، والآيات في هذا قد تُرجِّح هذا القول، وقد تُرجِّح هذا القول، ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فبدأ بالمغفرة والرحمة

قبل ذكر العذاب، وقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[المائدة: ٩٨]، فبدأ بالتهديد قبل الوعد، فاختلف أهل العلم في هذا.

وقال بعض العلماء: في حال الصحة يُغلِّبُ جانب الخوف حتى يستقيم على أمر الله، وفي حال المرض يُغلِّب جانب الرجاء؛ لأجل أن يُلاقي الله وهو يُحسِن الظنَّ به، فاعتبروا اختلاف الحالَيْن.

وقال آخرون: يجعل خوفَه ورجاءه واحدًا، قال الإمام أحمد: (ينبغي أن يكون خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهما غلب هلك صاحبُه)؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف استولى عليه اليأس من رحمة الله، وإن غلَّب جانب الرجاء استولى عليه الأمن من مكر الله، فيكون بين هذا وهذا.

وقال بعض العلماء: في حال الطاعة يُغلِّب جانب الرجاء، وفي حال المعصية يُغلِّب جانب الخوف؛ يعني: إذا عمل الطاعة يكون أرجى لله أن يقبلها، فينشط على العبادة ويفعلها، وفي المعصية يُغلِّب جانب الخوف؛ لئلا يفعل المعصية، أو يستمر عليها بدون توبة.

والذي يظهر لي -والله أعلم-: أنه إذا لم يكن هناك سببٌ لتغليب أحدهما على الآخر، فالأولَى أن يكونا سواءً، أما إذا كان هناك سببٌ فإنه ينبغي أن يتبع ذلك السبب، فإذا همَّ بالمعصية، أو جعل رجاءه وخوفه واحدًا هانت عليه، لكن لو غلَّب جانب الخوف، وعظم عليه أن يعصيه كان ذلك أحسن له بتجنُّب المعصية، ولو وقع في المعصية وأراد التوبة، قلنا: غلِّب جانب الرجاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ قال المؤلف: [بعد البعث].

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن المؤمن عبدٌ لله، لقوله: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ والمراد: العبودية الخاصة.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** شرف الإيمان؛ حيث جعل الله تعالى هؤلاء المؤمنين عبادًا له، وإضافتهم إلى الله بالعبودية تشريفٌ لهم بلا شك.

٣ - **ومن فوائدها:** أن المُهاجِر سيجِد سَعةً في أرض الله، لقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء: ١٠٠].

٤ - **ومن فوائدها:** أن من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، فهؤلاء تركوا بلادهم التي ضُيِّق عليهم فيها، فعوَّضهم الله بلادًا لا يجدون فيها هذا الضيق؛ بل يجِدونها ذات سعة، فمن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

٥- **ومن فوائدها:** إنعام الله تعالى على عباده بالترغيب بفعل الواجبات، لقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ﴾، فإن هذا فيه من ترغيبهم والحث على قيامهم بالواجب ما هو ظاهر.

٦ - **ومن فوائدها**: توجيه الأمر للإنسان بما هو مُتصفٌ به، لقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ثم قال في النهاية: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وينبني على هذا فائدة، وهي: أن هذا الأمر المُوجَّه لمن يتصف به يُراد به أمران، هما: الاستمرار فيه، وتحقيقه أو تكميله؛ لأنك إذا قلتَ: يا قائم قُم، ما لها معنى إلا إذا كان الغرض: استمر على القيام، وحقِّق هذا القيام، كما لو قلت: يا رجل كن رجلًا، هو يقول: أنا رجل، لكن اثبُت على هذا، وحقِّق الرجولية وأكمِلها.

٧ - **ومن فوائدها**: وجوب الإخلاص لله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: أن دار الإسلام تُضاف إلى الله عز وجل؛ لأنها مكان عبادته، لقوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وهذه الإضافة ليست إضافة خلق وتكوين؛ لأن كل الأراضي لله، لكن إضافة تشريف، وأخصُّ من ذلك أن يُضاف المكان نفسه المُعيَّن إلى الله؛ مثل: المساجد بيوت الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية**: وجوب الهجرة.

٢ - **ومن فوائدها**: أن الهجرة من عبادة الله، لقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الحكمة من الهجرة هو القيام بعبادة الله، فعليه نقول: إذا تمكَّن الإنسان من عبادة الله لا تجب عليه الهجرة، لكن الأفضل أن يُهاجِر من بلاد الكفر؛ لأن قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إشارة إلى السبب؛ لأن الحكمة من الهجرة هو تحقيق عبادة الله عز وجل.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن كل المخلوقات تموت إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨]، ولكن يُستثنَى من هذا العموم ما دلَّت النصوص على استثنائه، وهم الذين خُلِقوا للبقاء؛ مثل: الحور، والولدان، فإنهم يبقَون، كما هو معروف.

٥ - **ومن فوائدها**: إثبات البعث، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا**: محاسبة الإنسان نفسه، فينبغي للإنسان أن يُحاسِب نفسه؛ لأن الله تعالى توعَّد بأنهم يُرجَعون إليه؛ يعني: فيُحاسِبهم، قال عمر بن عبد العزيز: (حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزَنوا).

٧- **ومن فوائد الآية**: أنه لا رجوع إلى أحدٍ سوى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، فالعالَم مهما فرُّوا لا يمكن إلا أن تكون النهاية والغاية إلى الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٦٠]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ نُنزلنَّهم، وفي قراءةٍ بالمُثلَّثة بعد النون، من الثواء الإقامة، وتعديتُه إلى ﴿غُرَفًا﴾ بحذف «في»].

الآية فيها قراءتان: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بمعنى: لنُنزلنَّهم، وعلى هذا فتكون الهاء المفعول الأول، و﴿غُرَفًا﴾ المفعول الثاني.

وفي قراءةٍ أخرى بدل الباء ثاء، وبدل الهمزة واو ﴿لنُثوينَّهم﴾.

[من الثواء] وهو الإقامة، يُقال: ثوى في المكان أقام فيه، وعلى هذا فتكون ﴿غُرَفًا﴾ منصوبة بنزع الخافض (في)، أو (لنُثوينَّهم) في غرفٍ، لنُقيمنَّهم في غرف، وقيل: إنها منصوبة بتعدِّي الفعل إليها على سبيل التوسُّط، وهذا أصح؛ لأنه على هذا لا يحتاج إلى تقدير (في).

والقراءتان يثبُت معناهما جميعًا، وتكون الآية دالة على الإنزال وأنه إنزال إقامة لا إنزال إعارة؛ يعني: لنُنزلنَّهم على وجه الإقامة الدائمة، كما في آياتٍ كثيرة تدلُّ على دوام نعيم أهل الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذه تتكرَّر في القرآن، ذكر الإيمان والعمل الصالح، واعلم أنه إذا أُطلق الإيمان شمل العمل الصالح، وإذا ذُكِر مع العمل الصالح صار الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الجوارح، كما ذكر النبي ﷺ في حديث جبريل[1] حين سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فبيَّن كلَّ واحدٍ منهما على حِدة، ولكن إذا أُطلِق الإيمان شمل الإسلام، وإذا أُطلق الإسلام شمل الإيمان قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] يشمل جميع الشريعة بعقائدها، وأعمالها.

هنا قال: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ نقول: الإيمان في القلب وهو العقيدة، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات هي: أعمال الجوارح، وإذا قيل: عمل شمل ثلاثة أعمال: عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عمل القلب هو: حركة القلب، وهو غير العقيدة، العقيدة قول القلب، وهو إقراره واطمئنانه إلى هذا العمل، وأما عمله فإنه حركة يتحرَّك بها؛ كالمحبة مثلًا، وكالتوكُّل، وكالرجاء، والخوف، ونحو ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قلنا أيضًا: يشمل قول اللسان فإنه عمل، فإن اللسان عندما يقول يعمل، ويتحرَّك بحركة عجيبة، لا تُشبه أن تكون اختيارية، ولا قهرية، هكذا اللسان، الآن عندما نريد أن نتكلَّم، هل الواحد منا يُريد أن يرفع لسانه عندما يأتي حرف يقتضي الرفع، ويُنزله عندما يأتي حرف يقتضي التنزيل؟ لا ولو كان يُلاحِظ هذا كان يُفكِّر متى يُظهِر اللام من الميم من السين من الشين، لكن هو سبحانه بإذن الله عزَّ وجل، وحكمته يتحرَّك حركة آلية لا شعورية، لكن أصل تحريكه باختياره، ما فيه شك، ما يمكن أن يتكلَّم إلا بإرادته، لكن هذه الحركات التي تظهر بها الحروف هي عبارة آلية، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وبهذا يُعرف قدرة الله تعالى في الخلق؛ كيف هذا الجزء من البدن يتحرَّك هذه الحركة الآلية؟!! وفي ظنِّي -والله أعلم- أنه لو كانت حركة إرادية محضة لكان يتعب الإنسان.

إذنْ نقول: عمل اللسان هو حركته، وعمل الجوارح ظاهر، وقد مرَّ علينا في «**العقائد**»: أنَّ الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وأن قول اللسان يصح أن نقول: إنه قول باعتبار الصوت، وأنه عمل باعتبار حركة اللسان والشفتين.

قال: ﴿غُرَفًا﴾ جمع غرفة، وهي السكن العالي، والحجرة هي السكن الأسفل؛ لأنه مُتحجِّر.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأنهار جمع نهر، وهذه الأنهار أربعة أصناف، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] أنهار تجري، فاللبن جاء من بقر أو إبل؟ لا، الذي خلق اللبن في الدنيا من بين فرث ودم قادرٌ على أن يُجرِي أنهارًا في الجنة من هذا اللبن، وكذلك العسل، والماء، وكذلك الخمر، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

واعلم أن أحوال الدنيا لا تُقاس بها أحوال الآخرة، وإنما تُفهَم أحوال الآخرة من أحوال الدنيا بالاسم فقط، أما حقيقة المُسمَّى فإنه لا مقارنة، ولا مساواة بين هذا وهذا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء فقط، لكن الحقيقة التي عليها يختلف اختلافًا عظيمًا.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ انظر كيف تتصوَّر حُسن المنظر، إذا صارت هذه الغُرف والقصور العظيمة والخِيام تجري من تحتها هذه الأنهار المُضطرِدَّة؛ يعني: منظر يبهج الناظرين، ولا يُساويه شيءٌ في الحُسن والسرور، وهذه الأنهار كما قال ابن القيم: وردت فيها أحاديث تدلُّ على أنها تجري بدون أُخدود؛ يعني: بدون شيءٍ يمنعها، يتصرَّف فيها الناس كما يشاءون، يُدبِّرها بدون مساحٍ،

وبدون عُمّال، كما يشاءون، قال في «النونية»:

أنهارُها في غير أخدُودٍ جرَت سُبْحان مُمسِكِها عن الفَيضانِ[1]

فالحاصل: أن هذه الأنهار عندما يتخيَّلها الإنسان وهي تجري من تحت هذه الغُرف يتصوَّر منظرًا عظيمًا، ولاسيَّما الذين لهم ذوقٌ في هذه الأمور، أما نحن ما عندنا ذوقٌ في هذه الأمور فلن نتصوَّر كيف يكون هذا المنظر وهذه البهجة.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ قال: [مُقدَّرين الخلود، ﴿فِيهَأ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر].

وقوله: [مُقدَّرين فيها الخلود]؛ لأن كلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود مُستمر، فإذا كان مُستمرًّا فإنه لا يكون مع الدخول، ولكن تكون - كما يقولون - حالًا مُقدَّرة، وفي الحقيقة أنه لا حاجة إلى أن نقول: حال، نقول: هذه الغُرف هي أيضًا دائمة، فهم خالدون في هذه الغُرف، فتكون الغُرف والخلود فيها مُستمرًّا.

وقوله: [﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر]، فقدَّم المؤلف هذا الأجر ليُبيِّن المخصوص بالمدح؛ لأن نِعم وبئس تحتاج إلى فاعل ومخصوص، وهنا الفاعل موجود وهو قوله: ﴿أَجۡرُ﴾، والمخصوص بالثناء والمدح محذوف، ولهذا يقول المؤلف: [هذا الأجر]، كما تقول: نِعْمَ الرجل زيد، هذا هو المخصوص، ما هو أجر العاملين؟ هذا الأجر والجزاء.

فعليه نقول: نِعْم فعل ماضٍ جامد، وقوله: ﴿أَجۡرُ﴾ فاعل، وأجر مُضاف، و﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ مُضاف إليه، وهذه الجملة تحتاج إلى مخصوص، التقدير: [هذا الأجر]، ونُعرِبُه على أنه مبتدأ، وجملة ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ﴾ خبر مُقدَّم.

وهذا من ثناء الله على هذا الأجر، وسمَّى الله تعالى هذا الثواب أجرًا من باب إظهار كرمه على عباده كأنهم أُجراء، فيكون هذا الثواب واجبًا وجوب الأجرة للأجير، والله سمَّى الإنفاق في سبيله إقراضًا، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [الحديد: ١١]، كأنه سبحانه وتعالى جعل هذا الإنفاق بمنزلة الشيء اللازم ردُّه، كما يلزم ردُّ القرض، وهذا لا شكَّ أنه من نعمة الله سبحانه وتعالى وفضله، وإلا فهو المُتفضِّل أولًا وآخرًا، هو المُتفضِّل بالعمل، وهو المُتفضِّل بالجزاء، ولكن لنهاية كرمه وجوده جعل عمل الإنسان كأنه عملٌ من نفسه فقال: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المحسنين.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية**: أن الإيمان إذا قُرِن مع العمل الصالح فالمراد به ما في القلب، ما هو وجه هذه الفائدة من الآية؟ لأن العطف يقتضي المُغايَرة، أما إذا ذُكِر الإيمان وحدَه فإنه يدخل

(١) متن القصيدة النونية (ص٣٢٦).

فيه العمل الصالح.

٢ - **من فوائد الآية**: اشتراط أن يكون العمل صالحًا، والعمل الصالح ما جمع شرطين: الإخلاص لله، والمُتابعة لرسول الله ﷺ، فالمُرائي بعمله عملُه ليس صالحًا لفقده الإخلاص لله، والمُخلِص لله المُبتدع عملُه ليس صالحًا؛ لأنه غير متابع.

وهل تُشترط المتابعة، أو عدم العلم في المنافاة، أي: هل يُشترط أن يتحقَّق أنه مُتابع، أو يكفي أن نعلم أنه لا يُنافي الشرع؟

الأول يقينًا؛ لأنه ينبني على هذا لو أن الإنسان تعبَّد بعمل، وقلنا: لماذا تتعبَّد بهذا؟ طاعتُه دليل على أنه غير مشروع، نحن ما عندنا دليل ينصُّ على أن هذا العمل ليس بمشروع؛ فهل لنا سلطة على منعه أم لا؟

نعم؛ لأنه يُشترط أن نعلم أنه مشروع لتتحقَّق المتابعة، فالمقامات ثلاث:

تارةً نعلم أنه غير مشروع؛ كالنهي عن صوم العيدين مثلًا، وما أشبه ذلك.

وتارةً نعلم أنه مشروعٌ؛ كصوم يوم الإثنين.

وتارةً لا نعلم أنه مشروع ولا أنه غير مشروع؛ مثل: لو قال قائل: ائتوني بدليل على أن اتخاذ ليلة ولادة النبي ﷺ عيدًا ليس بمشروع، أو قال: ائتوني بدليل على أن من لازَمَ التسبيح في اليوم وجعلها سنة راتبة فإن ذلك غير مشروع.

نقول: الدليل على الفاعل؛ لأن الأصل في العبادات المنع حتى يقوم دليل على المشروعية.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن جزاء المؤمنين العاملين عملًا صالحًا سُكنَى الجنات، لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: الإقامة الدائمة في الجنة، على قراءة ﴿لنُثوينَّهم﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن منازل الجنة عالية، لقوله: ﴿غُرَفًا﴾.

٦ - **ومنها**: أن في الجنة أنهارًا، لقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والأنهار - كما هو معروف - أصنافها أربعة.

٧ - **ومن فوائدها**: أن التنعُّم في الجنة كما يكون في الأكل، والشرب، والنكاح، واللباس يكون كذلك في النظر، والبهجة، لقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فإنك لا تستطيع الآن أن تتصوَّر البهجة التي تنالها إذا رأيتَ هذه الأنهار مُضطربة تحت قصورك وغرفك، لها منظرٌ لا يُتصوَّر.

٨ - **ومن فوائدها**: عِظَم هذا الثواب الذي يحصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الله أثنى عليه في قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

٩ - **ومنها**: نهاية الكرم والجود من الله عز وجل؛ حيث كان هو الذي وفَّقهم للعمل، ثم أثنى عليهم به ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها أيضًا:** الرد على الجبرية، تُؤخذ من ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فأضاف العمل إليهم، فدلَّ هذا على أنهم يعملون باختيار وإلا لَمَا استحقُّوا الثناء، فلولا أن الإنسان يعمل باختياره ما استحقَّ أن يُثنَى عليه بالعمل الصالح، ولا أن يُذمَّ في العمل السيئ، ومن ثَمَّ قال الجبرية: إن أفعال الله غير مُعلَّلة، فهو يظلم من شاء وإن كان هو الذي جبَرَه على العمل، ويُثيبُ من شاء وإن كان هو الذي جبَرَه على العمل، قيل لهم: لا حكمة في ذلك؟ قالوا: نعم، ونحن لا نُعلِّل أفعال الله، ونقول: إن أفعال الله لُمجرد المشيئة فقط.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ **فيه أقوال:**

الأول: أن يكون منصوبًا على المدح؛ يعني: أمدحُ الذين صبروا.

الثاني: أن تكون خبرًا على تقدير: [هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾]. على رأي المؤلف.

الثالث: أن يكون نعتًا مقطوعًا، أو أن يكون نعتًا موصولًا على أنه صفة للعاملين.

قال المؤلف: [﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على أذى المُشركين، والهجرة لإظهار الدين]

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أمرَين على كلام المؤلف: على أذى المُشرِكين، وعلى الهجرة لإظهار الدين؛ لأن في كليهما مشقَّة على النفوس، على أذى المُشركين المتنوِّع في القول والفعل، وكما يقولون: حرب الأعصاب، والمُضايقات النفسية، ولا الهجرة من بلادهم التي سكنوها وأقاموا فيها إلى بلاد أخرى يكونون فيها غرباء، فكل هذا لا شك أنه يشقُّ على النفوس، وإنما خصَّ المؤلف الصبرَ بهذين الأمرَين بتعيين السياق لها، إذنْ السياق كله في مسألة الهجرة وما أشبهها، ولكن لو قيل بالعموم لكان المعنى: الذين صبروا على كل ما أُمِروا بالصبر عليه، ونجعله مُنقسمًا إلى ثلاثة أقسام:

صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصيته، وصبرٌ على أقداره، لو قلنا بالعموم لكان أولَى؛ لأن القول بالعموم يدخل فيها الصبر على الأذى والهجرة بخلاف القول بالخصوص.

وعلى هذا فنقول: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الأقسام كلها:

الصبر على الطاعة: مُجاهدة النفس على فعلها، وإتمامها، وإتقانها.

والصبر عن المعصية: حبس النفس عن فعلها.

والصبر على الأقدار: حبسُ النفس عن التسخُّط على القدر، وقد سبق لنا أن مقامات المُصاب في الأذى أربعة.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مُتعلِّقة بـ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقُدِّمت لإفادة الحصر، والتوكُّل معناه: الاعتماد، وعرَّفه بعضهم بقوله: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾.

واعلم أن التوكُّل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكُّل عبادة مقرون بالخشية والمحبة والتعظيم، وتفويض الأمر تفويضًا كاملًا إلى المُعتمَد عليه، وهذا النوع لا يجوز إلا لله عز وجل، الذي هو توكُّل العبادة.

الثاني: توكُّل اعتماد بلا عبادة: بمعنى: أن الإنسان يعتمد على غيره، لكن لا اعتمادًا يشعر بأنه مُتذلِّل وخاشع له، وراغبٌ إليه، ونحو ذلك، وهذا القسم إن كان على ما يمكن الاعتماد عليه فهو شركٌ أصغر، وإن كان على ما لا يمكن الاعتماد عليه فهو شركٌ أكبر؛ وذلك إذا كان على ميت أو غائب، لا يمكنك أن تعتمد عليه، فإنه شركٌ أكبر؛ لأنه ليس لذلك معنى إلا أن تعتقد أن هذا المُعتمَد عليه مُتصرِّف في الكون بغير مُباشرة، وهذا كما يحصل لكثير من المشركين الذين يعتمدون على الأموات، والأولياء وإن كانوا بعيدين، وما أشبه ذلك.

أما إذا كان يعتمد عليه وهو يمكن أن يكون سببًا لجلب المنفعة أو دفع المضرَّة، ولكنه مُعتمِدٌ عليه على أنه مِنْ فوقه وهو من تحته، فإن هذا نوعٌ من الشرك الأصغر؛ مثل: اعتماد كثير من الناس الآن على رواتب الدولة، وما أشبه ذلك، فكونك تعتمد على هذا وأنها هي مصدر رزقك، فإن هذا نوعٌ من الشرك الأصغر، فإنها ليست إلا مجرد سبب، ولهذا من كان على هذه الحال تجِدُه يُراعِي المُتوكَّل ويخافه، وربما يترك ما أوجبه الله عليه مُراعاة له، ومُداهنةً، أو يفعل ما حرَّمه الله عليه كذلك.

الثالث: فهو الاعتماد على الغير لا على السبيل الخشية والخوف والرغبة إليه، ولا على شعور أنه فوقك، وأعلى منك، ولكن على شعور أنك أنت الذي فوقه، وأنت الذي تُدبِّره، فتعزِل وتنصِب، فهذا جائزٌ، ولا حرج فيه، وقد وقع من النبي ﷺ، فإنه كان يبعثُ السُّعاة توكيلًا له على ما يُريد، وهذا لا بأس به، وهذا ما يحصل بطريق الوكالة، عندما أُوكِّل إنسانًا يشتري لي شيئًا، أو يبيعُ لي شيئًا، فأنا مُعتمِد عليه الآن في هذا الأمر، لكن هل هو اعتماد على أنني أشعر أنني المُحتاجُ إليه وأنه فوقي؟ لا؛ بل على العكس، أعتقد أنني أنا الذي فوقه لاسيَّما إذا كان بعِوَض، وأن الأمر إليَّ بشأنه، إن شئتُ عزلتُه وإن شئتُ نصبتُه، وقد أجمع العلماء على جواز التوكيل في البيع والشراء وغيره مما تدخل فيه الوكالة.

وهنا المراد بالآية الكريمة: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي الأقسام؟

القسم الأول، وكذلك الثاني بنوعَيه، فإنهم لا يعتمدون على أحدٍ سوى الله عز وجل في جلب المنافع، ودفع المضار.

واعلم أن التوكُّل أحد شِقَّي الدين، فإن الدين مُكوَّن من أمرَين: عبادة، واستعانة، كما قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:

١٢٣]، وهذا كثيرٌ في القرآن؛ لأن العبادة لا تكون إلا بفعل من العبد، وبمعونةٍ من الله سبحانه وتعالى، ويجب على المرء عندما يتعبَّد لله أن يكون مُعتمِدًا على ربه؛ لأن الله لو وكَلَه إلى نفسه لوكَله إلى ضعف وعجزٍ وعورة، ولا يستطيع أن يقوم بما أوجب الله عليه.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال: [فيرزقهم من حيث لا يحتسبون]، وهذه الجملة من المؤلِّف لا تُناسب التوكُّل؛ لأن الذي يُناسِب التوكُّل أن يكون حسبَهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]، أما الرزق من حيث لا يشعر فيُناسِبه التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وفرقٌ بين الأمرَين، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أتى بهذه الجملة توطئةً لما بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، وإلا فبالنظر إلى الآية المُفسَّرة لا يُناسِبها هذا القول.

هل الله سبحانه وتعالى يكون وكيلًا ومُوكِّلًا ؟

نعم، أما وكيلًا فكثير في القرآن ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ومثلها: ﴿حَسِيبًا﴾، وأما مُوكِّلًا ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وليس التوكيل من الله لهؤلاء؛ كتوكيلي أنا لفلان وفلان مثلًا؛ لأن توكيلي لفلان وفلان إما لعجزي أو تقصيري أو ما أشبه ذلك، لكن توكيل الله بمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يجعل هؤلاء هم القائمين بها، لا أنه سبحانه وتعالى عاجز.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** فضيلةُ الصبر؛ حيث أثنى الله على الصابرين الذين صبروا.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوكُّل والاعتماد، لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٣ - **ومنها:** أنه ينبغي للصابر أن يعتمد على ربه في صبره، لقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وفائدة اعتماده في صبره على ربه:

أولًا: الثبات على ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣].

الثاني: أن صبره يكون عبادة؛ لأن بعض الناس يصبر ويتجلَّد على حدِّ قول الشاعر [1]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

---

(١) ينسب هذا البيت إلى: أبو ذُؤَيب الهذلي، خويلد بن خالد بن محرِّث أبو ذُؤيب من بني هذيل بن مدركة المضري. شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى إفريقية سنة (٢٦ هـ) غازياً. فشهد فتح آفريقية وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان، فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها. وقيل مات بإفريقية. أشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد ،قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة. وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته، فأدركه وهو مسجّى وشهد دفنه. توفي سنة (٢٧هـ) .

هذا الصبر لا شك أنه يكون جميلًا لكن لا يُثابُ عليه.

إذنْ نقول: إن الصبر المقرون بالتوكُّل على الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون فيه الثواب والأجر.

٤ - **ومن فوائد الآية**: كفاية الله عز وجل؛ لأنه لا يُتوكَّل إلا على من هو كافٍ، فمن ليس بكافٍ فليس أهلًا لأَن يُتوكَّل عليه.

٥ - **ومن فوائدها**: إثباتُ الربوبية، لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ...﴾ يقول المؤلف: [كم] فعلى هذا تكون خبرية؛ يعني: وكم من دابة؛ أي: كثيرٌ من الدواب، والدابة في اللغة العربية كل ما يدِبُّ على الأرض سواءٌ مشى على بطنه، أو على رجلَيْن، أو على أربع، كلها تُسمى دواب، أما العُرف فهي لذوات الأربع، ولا تشمل ما يمشي على بطنه، ولا على رجلَيْن، وهناك أيضًا عُرف أخصُّ من هذا، وهو أنَّ الدابَّة هي الحمار فقط، ويقولون مثلًا: ذهب منَّا على دابَّة، كل من كلَّمته بهذا الكلام ذهب إلى أنه الحمار، لكن الكلام على المعنى اللغوي، أما الأعراف فإنها تتبعُ أصحابَها، المعنى اللغوي: الدابَّة كل ما يدِبُّ على الأرض.

وقوله: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قال: [لضعفها].

فما معنى: لا تحمله هل ما تقواه، أو لا تستطيع أن تتكسَّب للرزق؟

الجواب: الأخير؛ يعني: ما تستطيع أن تكتسب وتحمل الرزق؛ حيث تقوم بالكفاية بنفسها، وهذا شيء كثير؛ لأن هناك دواب يصيبها عاهات وأمراض فما تستطيع أن تكتسب الرزق فيهيئ الله لها رزقًا بحيث يأتيها وهي في مكانها، وقص علينا من هذه الأشياء كثير.

وهناك أيضًا من الدواب ما يكون دقيقًا فما تستطيع أن تتحرك بعيدًا فيقيد الله لها رزقها.

وهذه الدواب أيضًا منها ما يستطيع بنفسه أن يدَّخِر الرزق، ومنها ما لا يدَّخر الرزق، ومنها ما له أعوان، ومنها ما ليس له أعوان، المهم أن من يتفكَّر في مخلوقات الله في هذا الأمر يجد العَجَب العُجاب، وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

والمتأمل للآية يجد كلمة ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نكرة في سياق النفي المؤكد عمومه بمن فأي دابة في الأرض فعلى الله رزقها وأيضًا يعلم مستقرها ومستودعها، وليست الدواب كلها ترتزق بشيء واحد، فهذا يناسب هذه ولا يناسب الأخرى، وهو فوق ذلك يعلم مستقرها أي محل استقرارها، ومستودعها أي: محل استيداعها، يعني: يعلم ما تؤول إليه يوم القيامة وهو محل استقرارها والمستودع الدنيا والبرزخ الذي بين الدنيا والآخرة.

قال: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ هنا أتى بالجملة الاسمية، والرزق بمعنى: العطاء بلا عِوَض.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي: هذه الدابة، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا معطوف على الهاء في قوله: ﴿يَرْزُقُهَا﴾، وفصل الضمير هنا واجب؛ لأنه كلما أتى الضمير بعد العطف فهو واجب الانفصال؛ إذ إنَّ الضمير المتصل هنا ما يمكن يتأتّى، فلو قلتَ: الله يرزقها وكُم، ما صحَّ، فإذا أتى الضمير بعد العطف، أو بعد إلَّا عُلِم أنه لابد أن يكون منفصلًا.

قال: [﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المهاجرون، وإن لم يكن معكم زادٌ ولا نفقة]؛ لأن الكلام كله مسوقٌ للهجرة ومغادرة البلد، فالله تعالى كما رزق هذه الدواب العظيمة التي هي نفسها جنسًا، فضلًا عن النوع، وفضلًا عن الأفراد، فأنتم كذلك إذا هاجرتُم لا يضيعُ رزقكم؛ بل رزقكم على الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وقد حصل هذا، فأسرى بدر الذين أسلموا ماذا حصل لهم؟ حصل لهم من الفيْء والغنائم أكثر مما أُخِذ منهم.

وقوله: [﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائركم] وهو سميعٌ سبحانه وتعالى لكل شيء، يسمع كل صوتٍ وإن خفِيَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، فهو يعلم كل ما يكون من صوتٍ خفيٍّ، سواء كان قولًا أو غير قول، لكن المؤلف خصَّ القول؛ لأنه محطُّ التكليف والإثم أو الأجر.

والسميع من أسماء الله سبحانه وتعالى، وله معنيان: أحدهما: إدراك المسموع، والثاني: إجابة الدعاء. أما إدراك المسموع فله أمثلة كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١].

وأما إجابة الدعاء؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] سميع بمعنى: يُجيبُ دعاءه؛ لأن هذا هو المقصود، فالإجابة دون سماع الصوت.

واعلم أن السمع الذي هو بمعنى: إدراك المسموع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يُراد به: بيانُ إدراك سمع الله سبحانه وتعالى لكل مسموع.

وقسمٌ آخر يُراد به مع ذلك: النصرُ والتأييد.

وقسمٌ ثالث يُراد به مع ذلك: التهديد والوعيد.

وهذا على حسب السياق؛ كغيره من صفات الله، كثير من صفات الله سبحانه وتعالى تكون مُرادًا بها هذه الأمور الثلاثة، ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] المقصود هنا: التهديد، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ..﴾ [آل عمران: ١٨١] هذا يُراد به: التهديد، وفي مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] هذا يُراد به: النصر والتأييد، ليس مجرد أن يسمع فقط، ولكن مُراده النصر والتأييد، وفي مثل قوله

تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] يُراد به بيانُ إحاطة سمع الله لكل مسموع؛ لأن السياق لا يقتضي نصرًا ولا تهديدًا، فيكون المقصود به: بيان إحاطة علم الله عز وجل بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها في هذه الآية: (تبارك الذي وسِعَ سمعه الأصوات، والله إنِّي لفي أدنى - أو طرف - الحُجرة، وإنه ليَخفَى عليَّ بعضُ حديثها، والله تعالى فوق عرشه، عالٍ على خلقه، ومع ذلك يسمع مجادَلتَها ومحاورَتها للنبي ﷺ)، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وفي هذه الآية فائدة مهمة بالنسبة للذين يتكلَّمون على أسماء الله وصفاته، وهو أنه من المعروف عند أهل السنة أن الاسم يتضمَّن ثلاثة أشياء إذا كان مُشتقًّا من وصفٍ مُتعدٍّ فهو يتضمَّن ثلاثة أشياء، وهي: الاسم، والصفة، والحكم، فهنا: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾؛ لأنه ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، فدلَّ هذا على أن سميع تتضمَّن ثُبُوت مُقتضاها، وهو أنه يسمع، ومعلومٌ أنه لا سماع إلا بسمع، خلافًا لمن قال: إنه يسمع بذاته، كما قال ابن حزم وجماعة، لا بصفةٍ هي السمع، وقالوا: يسمع بذاته، ولا نُثبت لها صفة هي السمع، وهذا كلام في الحقيقة هُراء، فالله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فأثبتَ الصفة ذو الرحمة، وقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، فدلَّ هذا على أن الرحيم مُشتقٌّ من الرحمة؛ لأنه قال: ﴿الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، يُوازيه تمامًا: ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وهذا مُقرَّر عند أهل السنة، ومعلومٌ - والحمد لله - أن الأسماء التي تتضمَّن وصفًا مُتعدِّيًا تدلُّ على ثلاثة أمور.

وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ قال: [بضمائركم]، وعلى رأي المؤلف تكون هذه الآية تدلُّ على الأقوال وما في الضمائر فقط، مع أن هناك أفعالًا لا تتعلَّق بالسمع، فإذا قلنا: العليم بالضمائر بقِيَ عندنا قسمٌ من أفعال الناس، وهي الحركات - أفعال الجوارح - فتكون الآية ما فيها دليل عليها، ولهذا الصواب أن يُقال: العليم بجميع أحوالكم، فالله تعالى عليمٌ ليس بما في الضمائر فقط؛ بل بما في الضمائر، وبما يُفعل، وبما يُسمَع؛ لأن العلم من أشمل ما يكون من صفات الله، كما قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فهو من أعم الصفات شمولًا.

وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ العلم يقول العلماء: هو إدراك المعلوم على ما هو معلوم إدراكًا جازمًا مُطابقًا، فخرج به الشك والظنُّ والوهم، ومُطابقًا خرج به الجهل المُركَّب، وإدراك خرج به الجهل البسيط، فيكون تعلُّق الإدراك بالأمور على ستة أنواع: علم، وجهل بسيط، وجهل مُركب، وشك، وظن، ووهمٌ.

العلم: أن تُدرِك الشيء على ما هو عليه جازمًا به؛ كأن يُدرِك بأن هذا الذي أمامه مُسجِّل.

الجهل البسيط: أن يقال لي: ما هذا الذي أمامك؟ فأقول: لا أدري.

الجهل المُركَّب: أن يقول لي قائل: ما هذا الذي أمامك؟ فأقول: هذه ألعوبة رضعاء - وهو مسجل -، فهو جهلٌ مُركَّب من جهلي بحقيقة الحال، ومن جهلي بالحال، ظننتُ أني عالم وأنا جاهل.

الشك: أنه قال لي: ما هذه؟ فأقول: إما مُسجِّل، أو راديو؛ لأن أحد الاحتمالَين صحيح، فيكون هذا شكًّا، وكونُه شكًّا مع التساوي، إذا رجَّحتُ أنه مُسجِّل فهو ظنٌّ، والمرجوح الذي هو راديو وهم، هذا تعلُّق العلم بالأشياء، كل هذه الأمور مُنتفية عن الله عز وجل ما عدا العلم، فإنه ثابتٌ لله سبحانه وتعالى على أكمل وجه.

فإن قال قائل: هذا الجزم منكم بأنه لا يكون على الله من هذه الأمور الستة إلا العلم، يُردُّه قوله تعالى في الحديث القُدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوتَ، وَأَكْرَهُ إِسَاءَتَه، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ»[1]، فأثبتَ الله سبحانه وتعالى أنه يتردَّد في بعض أفعاله.

فالجواب: أن التردُّد قسمان:

تردُّدٌ بتوقُّف المُتردِّد في الأمر؛ هل يكون خيرًا أو لا. وهذا بالنسبة إلى الله مُمتنع، لا يمكن هذا أبدًا؛ لأن الله تعالى يعلم.

وتردُّدٌ باعتبار النظر للغير؛ يعني: تردُّدٌ لأمرٍ يتعلَّق بغيره؛ مثل هذه الحال، فإن تردُّد الله عز وجل لا لخفاء الأمر عليه، ولكن لأنه يكره أن يسوء عبده المؤمن، فيتردَّد لا لشكٍّ في الأمر واستظهارٍ للواقع، ولكن لأجل هذه المسألة لأمرٍ يتعلَّق بغيره، فهذا لا يُعتبر نقصًا؛ بل هو كمال يدلُّ على رحمة الله عز وجل، وبهذا يزول الإشكال.

وكذلك أيضًا قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ من الأسماء المُتعدِّية، فتكون مُتضمِّنة لثبوت الاسم، والصفة، والحكم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: الإرشاد إلى النظر في مخلوقات الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ لأجل أن نتفكَّر في هذه الدواب التي لا تحمل رزقها.

٢ - **ومن فوائدها**: أنها تشتمل على عدة صفات من صفات الله؛ منها:

كمال القدرة؛ حيث يخلق هذه الدواب الصغيرة التي ما تحمل رزقها، ويخلق الدواب العظيمة التي تكتسب الرزق.

ومن الصفات: قدرة الله عز وجل، ومنها: علمُه، ومنها: رحمته، ومنها: إحاطتُه بكل شيء، فإن هذه الدواب الصغيرة التي ما تحمل رزقها يعلمها ويرزقها.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ـ **ومن فوائدها:** إثبات اسمي: السميع والعليم، وما يتضمَّناه من الصفة.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[العنكبوت:٦١،٦٢]

التفسير

قوله: [﴿ وَلَئِن ﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُم ﴾ أي: الكفار ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾].

يقول المؤلف: إن اللام لام قسم، وقد اجتمع هنا قسمٌ وشرطٌ، والشرط هو (إنْ).

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ﴾ هذا جواب القسم، والقاعدة أنه إذا اجتمع شرطٌ وقسمٌ حُذِف جواب المتأخِّر، قال ابن مالك:

واحــذِفْ لَــدَى اجْـتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَـسَم جَـوَابَ مَـا أَخَّـرتَ فَهْـو مُلتَـزَم[1]

فعندنا اللام قسم وإن شرطية، فكان الجواب الموجود القسم.

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ فيها ضميران: التاء والهاء، التاء في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ وتقدَّم لنا أمثالها كثيرًا.

وقوله: ﴿سَأَلْتَهُم ﴾ أي: الكفار الذين لا يُقِرُّون بتوحيد الألوهية، هم يُقِرُّون بتوحيد الربوبية لكن لا يُقِرُّون بتوحيد الألوهية والعبادة، والضمير في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ إما أن يكون للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه؛ أي: ولئن سألتَهم أيها الإنسان: من خلق السماوات والأرض، خلق بمعنى: أوجَدَ، لكن هذا الخلق ليس بمعنى الإيجاد المُجرَّد؛ بل هو إيجادٌ على تقديرٍ مُعيَّن؛ أي: أنه يكون مسبوقًا بتقدير، ولذلك لا يكون إلا فيما فيه إتقان وجودة.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ تقدَّم كثيرًا، وقلنا: إن السماوات تُجمع دائمًا في القرآن، والأرض ما جاءت إلا مفردة، ولكن الثابت أن الأرضين سبع كما أن السماوات سبع.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ سخَّر بمعنى: ذلَّل الشمس، وجعلها مُذلَّلة لمصالح العباد، تسير بهذا النظام الذي لا يختلف ولا يتغيَّر، لا تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ولا علوًّا ولا نزولًا، فلو أنك

---

(١) شرح ابن عقيل (٤/ ٤٣).

تدبَّرتَ هذه الشمس منذ إذ ميَّزتَ إلى اليوم لرأيتَها على نظام بديع لا يتغيَّر، على عِظَمها، وكِبَرها، ثم إن فيها من آيات الله هذه الحرارة العظيمة، كم مسافة بيننا وبينها ؟ مسافة بعيدة جدًّا، ومع ذلك انظروا إلى حرارتها في أيام الصيف، وهذه الحرارة العظيمة ما هي إلا نَفَسٌ بسيطٌ من نار جهنم، كما قال النبي ﷺ «إِنَّ النَّارَ اشْتَكَتْ إِلَى رَبِّهَا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ(١): نَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، وَنَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ»(٢).

هذه الحرارة العظيمة يقول الناس: إن حرارتها لو قُرِّب منها أقوى حديدٍ وأشد حديد لطار هباءً قبل أن يصل إليها من شدة الحرارة، وهذا أمر معلوم، لو تُوقِد نارًا عظيمًا من أبلغ نيران الدنيا هل تجِد هذه الحرارة فيها من هذه المسافة؟!

ثم إن هذه الشمس كل يوم لها مطلع، وكل يوم لها مغرب؛ لأن الله سخَّرها هكذا، ولولا ذلك ما اختلفت مشارق الشتاء ومشارق الصيف.

وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ القمر معروف ، وإنما ذكر تعالى هنا الشمس والقمر لما فيهما من المصالح الظاهرة؛ لأن النجوم والكواكب ليس فيها مصالح ظاهرة لنا، وإلا فقد سخَّر الله الشمس والقمر والنجوم، كلها سخَّرها لنا، لكن هذا أظهر وأبيَن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ دليل على أنهما هما اللذان يجريان حول الأرض، خلافًا لمن قال: إنهما لا يسيران على الأرض، وأن اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض نفسها، ولا شك أن الذي لا يعتقد أنهما يدوران على الأرض أنه على خطر عظيم، ربما يصل به ذلك إلى الكفر؛ لأن الذي نؤمن به ونعتقده ما أخبرنا الله عنه من أن الشمس هي التي تدور على الأرض، وكذلك القمر ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، فأضاف الله تعالى هذه الأفعال كلها إلى الشمس، طلعت، تزاور، غربت، تقرضهم، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء الخرَّاصون لكانت الأرض هي التي تزاور، وهي التي تطلع عن الشمس، وهي التي تغرُب عنها، فهم ما عندهم إلا أمور ظنية فقط، والقرآن دلالته ظاهرة على أنها هي التي تدور على الأرض، وكذلك القمر، والنبي عليه الصلاة والسلام لما غربت الشمس قال لأبي ذر: «أَتَدرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»(٣)، ولم يقل: أتدري أين نذهب عن الشمس؛ بل الشمس هي التي تذهب، وهي التي تأتي، وهي التي تستأذِن، وهي التي يُؤذَن لها، أو تُمنَع.

ومن العجيب أن هذا القول المخالف لظاهر القرآن قد سرى إلى أُناسٍ لا تشك في دياناتهم، لكن غرَّهم السراب فانخدعوا، والواجب علينا في هذه الأمور أن نمشي على ظاهر القرآن، حتى

---

(١) مجاز عن خروج ما يبرزمنها.
(٢) رواه البخاري (٥١٢)، ومسلم (٦١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (١٥٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

يتبيَّن لنا ما يكون مخالفًا لهذا الظاهر، أما ما دلَّ عليه القرآن دلالة يقينية فإنه لا يمكن لشيء يُخالفه، فدلالة القرآن إما ظاهرة، وإما صريحة، الصريحة قطعية الدلالة ولا يمكن لشيء يُخالفها، والظاهرة ظنية الدلالة فنبقى على هذا الأصل، نبقى على الظاهر حتى يتبيَّن لنا بأمر قطعي خلافه، وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يمكن أن يُؤوَّل.

وتسخير القمر أيضًا لمنافع العباد ومصالحهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] بيَّن الله الحكمة من ذلك فقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] فباختلاف منازل القمر يكون العلم بعدد السنين والحساب؛ لأن الأهِلَّة هي المواقيت العالمية الفِطرية، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] عامة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] وهذه الأشهر هي التي بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام هي الأشهر الهلالية.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اللام هذه جواب القسم، اللام الأولى في ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ موطِّئة للقسم، وهذه واقعة في جواب القسم.

قال: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي: المسئولون من الكفار ﴿ٱللَّهُ﴾ أحسن شيء أن نقول: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الله، فيُقرُّون بأن الذي خلقها الله سبحانه وتعالى، فهم يعترفون أن هذه الأشياء ما تصنعها الآلهة، لا خلقًا ولا تدبيرًا، فالآية جمعت بين الإيجاد والتدبير، تصرُّف في الإيجاد، وتصرُّف في التدبير، الإيجاد في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والتدبير في قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، ولم يقل: خلق.

قال تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيقرُّون بأن خالق السماوات والأرض ومُسخِّر الشمس والقمر هو الله دون أصنامهم، لما أقروا هذا الإقرار أقاموا الحُجّة عليهم؛ لأن من أقر بالربوبية لزِمه أن يُقرَّ بالألوهية، ومن أقر بالألوهية فقد أقر بالربوبية، فهما متلازمان، أما الإقرار بالربوبية فهو مُلزِم للإقرار بالألوهية، وأما الإقرار بالألوهية فهو مُستلزم للإقرار بالربوبية، وأيهما أسبق؟

الإقرار بالربوبية أسبق؛ لأن الإنسان ما يعبد إلا ربًّا يعلم أسماءه وصفاته وأفعاله.

قال: [﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفون] أنّى اسم استفهام، والغرض منه التوبيخ؛ يعني: بعد أن أقروا بهذا كيف يُصرَفون، وسُمِّي الصرف إفكًا؛ لأنه صرفٌ للشيء عن حقيقته، فالإفك صرف مثلما نصرف الكلام عن الواقع ويُسمَّى إفكًا.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: أنّى يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

ثم قال الله تعالى: [﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّق ﴿لَهُۥٓ﴾ بعد البسط لمن يشاء ابتلاءً].

الله يبسط؛ يعني: يوسِّع، والرزق بمعنى: العطاء.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعباد هنا: المُتعبِّدون له بالمعنى العام الشامل للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَن) هذه اسم موصول بمعنى: الذي، وهو من الأسماء الموصولة العامة.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن يشاء بسط الرزق له، فإذن مفعول ﴿يَشَآءُ﴾ محذوف دلَّ عليه السياق، وقد مرَّ علينا قاعدة مهمة جدًّا، وهو أن كل شيء علَّقه الله تعالى بالمشيئة فإنها المراد المشيئة المبنية على الحكمة؛ لأن جميع أفعال الله عز وجل وأحكامه كلها مبنية على الحكمة علِمناها أم جهِلناها.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المؤلف: [امتحانًا]، والتضييق قال: [ابتلاءً] الامتحان هو الابتلاء حقيقة، قال الله تعالى عن سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بمعنى: يُضيِّق، من أين عرفنا أن يقدر بمعنى: يُضيِّق، ولماذا لم نجعل القدرة هنا بمعنى: استطاعة العمل؟

من قوله: ﴿يَبْسُطُ﴾ هذا مُقابلته بالبسط يدل على أن المراد التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضُيِّق عليه.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على من يشاء؛ يعني: ويقدر لمن يشاء، وهل المبسوط له والمُقدَّر له واحد؟

ظاهر كلام المؤلف أنه واحد، ولهذا قال: [يقدر له بعد البسط]، والسبب أن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود على (مَن) في قوله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يعود عليه باعتبار عينه، ولكننا نقول: لا مانع من أن يعود إليه باعتبار جنسه لا باعتبار عينه، فيكون الضمير عائدًا على من يشاء باعتبار الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، قوله: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ باعتبار جنسه، فيكون عمر مُعمَّر آخر، ومثله أن تقول: أعطيتُ هذا الرجل درهمًا ونصفه، نصف درهم آخر، فالذي يظهر أن الضمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ يعود على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ باعتبار الجنس لا العين، فالله تعالى يبسط الرزق لهذا، ويُضيِّقه على هذا، كما أنه سبحانه وتعالى يبسطه أحيانًا، ويُضيِّقه عليه أحيانًا؛ ألسنا نرى الآن من الأغنياء من رجع فقيرًا، ومن الفقراء من رجع غنيًّا؟! فالله سبحانه وتعالى يبسط الرزق باعتبار العين وباعتبار الجنس، هذا البسط تابع لعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه البسط والتضييق، فالله سبحانه لا يبسط أو يُضيِّق إلا عن علم، ثم هذا العلم أيضًا تتبعه الحكمة، فهو سبحانه وتعالى يُغني من يُصلحه الغنى، ويُفقِر من يُصلِحه الفقر، ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ مِن عبادِي مَن لو أَغنَيتُه لأفسَدَه الغِنى، وإنَّ مِن عبادِي مَن لو أفقرتُه لأفسَدَه الفقرُ**»[1]، وإذا منَّ الله على العبد وتفضَّل عليه، وجعل رزقه تابعًا لمصلحته حصل بذلك خيرٌ

---

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (٧٥).

كثير، ومن العباد من إذا أُغني فسد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كل شيء مما يفعله هو، أو مما يفعله العباد، فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك أبدًا.

قال بعض الناس: وما من عامٍّ إلا خُص، إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ هل هذا صحيح؟

الجواب: لا، الصواب: أن الأصل في العمومات بقاؤها على العموم، إن أرادوا التصوُّر والتقدير فهذا ممكن، أما إن أرادوا الواقع فلا.

قال المؤلف: [ومنه محل البسط والتضييق] فهو سبحانه وتعالى عالم بأن هذا أهل لأن يُبسط له الرزق، وأن ذلك أهل لأن يُضيَّق عليه في الرزق.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** إقامة الحُجَّة على الخصم حتى يُذعِن ويُقِر.

٢ - **ومنها:** سَفَه المُشركين بالله في عبادتهم؛ حيث يُقِرُّون بربوبيته، ثم يُنكِرون ألوهيَّته، وكان من العقل أن من أقرَّ بالربوبية أقرَّ بالألوهية.

٣ - **ومنها:** إثبات خلق السماوات والأرض، وأن الذي خلقها هو الله.

٤ - **ومنها أيضًا:** أن تدبير الكون إلى الله عز وجل، لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

٥ - **ومنها:** رحمة الله تعالى بخلقه؛ حيث سخَّر لهم الشمس والقمر.

٦ - **ومنها:** أن المُشركين يُقِرُّون بالربوبية.

٧ - **ومنها:** أن الإقرار بالربوبية لا يكفي في التوحيد، وبهذا نعرف بُطلان تفسير من فسَّر الإله بالقادر على الاختراع، فإن المُتكلِّمين يُفسِّرون الإله بالقادر على الاختراع، وإذا فسَّروا الإله بالقادر على الاختراع لم يكن في توحيدهم فرق بينه وبين توحيد المشركين؛ لأننا نقول: إن الله هو المعبود حقًّا، وكذلك المعبود بالباطل يُسمَّى إلهًا؛ لأنه يُعبَد لكن ربوبيَّته باطلة.

٨ - **ومن فوائد الآية:** ثُبوت علم الله بالمستقبل، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فإن هذا خبرٌ عن أمرٍ مُستقبل، لا شك أنه واقعٌ كما أخبر الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١ - **من فوائد الآية:** أن الرزق بيد الله، وإذا كان كذلك فهو الذي يُطلَب منه الرزق.

٢ - **ومن فوائدها:** أن إثبات القدر لا يعني: الكفَّ عن الأسباب، فهنا بيَّن الله أن بسط الرزق

وتقديره بيده، ومع ذلك يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، ما قال: ناموا على الفُرُش ويأتيكم الرزق، فالقدر لا يُنافي فعل الأسباب؛ لأنه قد يكون مُقدَّرًا عليك بهذا السبب، كما أن دخول الجنة والنجاة من النار ليس له سبب، إذا لم تعمل ما حصل، كذلك الرزق إذا لم تعمل له ما حصل لك.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات كمال التصرُّف لله عز وجل، لقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾، وقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾[آل عمران: ٢٦]، فهو سبحانه وتعالى له التصرُّف المُطلق في مخلوقاته.

٤ ـ **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة، لقوله: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾، وهل المشيئة تتعلَّق فيما يُحبُّه فقط، أو فيما يُحبُّه ويكرهه؟

فيما يُحبُّه ويكرهه؛ فإن المسلمين مُجمِعون على قولهم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

هل الإرادة مُتعلِّقة فيما يُحبُّه وما يكرهه، أم فيما يُحبُّه فقط ؟

فيه تفصيل :

الشرعية: فيما يُحبُّه فقط، والكونية: فيما يُحبُّه وما لا يُحبُّه؛ لأنها مُرادفة للمشيئة.

٥ـ **ومن فوائدها:** إثباتُ علم الله، لقوله:﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه عامٌّ في كل شيء؛ فهل يشمل الصغير والكبير، وما يتعلَّق بفعله، وما يتعلَّق بفعل عباده.

فإذا كان عِلِم فعل عباده لزِمَ أن يكون مُقدَّرًا له؛ لأنه إذا كان عالمًا به، فإنه لا يمكن أن يقع على خلاف معلومِه، وحينئذٍ يكون مُقدَّرًا له، ولهذا قال الشافعي في مُناظرته القدرية: (جادِلوهم بالعلم، فإن أنكروه كفروا، وإن أقرُّوا به خُصِموا)، وهذا صحيح، هذه حُجَّة قائمة وقيِّمة.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** فضل الله عز وجل بالرزق، سواءٌ كان مقدورًا أم مبسوطًا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[العنكبوت:٦٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هذه لام قسم ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، جواب القسم: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، و(مَنْ) اسم استفهام؛ لأنه وقع بعد السؤال، وعلى هذا فـ (مَنْ) مبتدأ، و﴿نَزَّلَ﴾ الجملة خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿مَّن نَّزَّلَ﴾ بالتشديد، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام: ٩٩]، والفرق بين نزَّلَ، وأنزل: أنَّ نزَّل تُفيد نزول الشيء شيئًا فشيئًا، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: ١٠٦].

وقوله: ﴿نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأنَّ النزول يكون من أعلى، والمُراد بالسماء هنا: العلو، وليس السماء السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤]، والمطر ينزل من السحاب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[النور: ٤٣]، فبهذا عرفنا أن المراد بالسماء هنا: العلو، وكل ما علاك فهو سماء؛ لأنه من سمَا يسمو إذا علا وارتفع.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حكمة نزوله من السماء؛ لأنه إذا نزل من السماء شمل النازل والعالي، ولو كان يجري من الأرض لكان لا يصِل إلى العالي حتى يُدمِّر النازل، ولكن من حكمة الله أنه ينزل من أعلى.

قال: ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الفاء هنا تدلُّ على الترتيب والتعقيب، لكنها إذا كانت متصلة بجملة فإنها تُفيد أيضًا السببية مع الترتيب والتعقيب، بخلافها إذا دخلت على اسم، فإنها لا تدلُّ على السببية، تقول: قام زيدٌ فعمرو، لا يعني أن قيام زيد سبب لقيام عمرو، لكن يعني أن قيام عمرو بعد قيام زيد، أما إذا اتصلت بفعل فإنها في الغالب تكون مع الترتيب للسببية، فعليه يكون قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يكون الماء سببًا لإحياء الأرض.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ هل الأرض تحيا في الحال، أو بعد؟

بعد، لكن لما كان السبب مُؤثِّرًا صار الأثر مُترتِّبًا عليه فورًا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، ما تُصبح الأرض مُخضرَّة بمُجرَّد نزول الماء في الليل، لكن هذا سبب مُوجِب، فلما كان سببًا مُوجِبًا صار كأن المُسبَّب موجود في الحال، ومن ذلك قولهم: تزوج فلان فوُلِد له، وإن كان هذا أضعف من الذي معنا، لكن قولهم: (فوُلِد) له نحن نعلم علم اليقين أنه ما يُولَد له ليلة زواجه، لكن الزواج سبب للولادة، ويكون الترتيب بحسبه، ما هو لازم أن يكون مُعقِّبًا، لكن لما كان السبب مُوجِبًا ولابد صار كأن المُسبَّب مُعقِبًا للسبب.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ الجماد يَحيا ويموت، وكل شيء حياته وموته بحسبه، ولا تظنُّ أن الحياة والموت لا تُضاف إلا ما يمكن أن يكون مُتحرِّكًا، فهذه الأصنام يقول الله فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠،

٢١]، فكل شيء لا حركة فيه، ولا نمو فيه يمكن أن نُسمِّيه ميتًا، وإن كان مما تشمله الحياة.

وقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾ هل المراد بالأرض هنا النبات، أو أنها نفس الأرض؟

قيل: إن المراد نفس الأرض، وأنها باختلاط الماء فيها تكون حية، وبدون ماء تكون ميتة.

وقيل: المراد ما عليها من العُشب والزرع ونحو ذلك، وأن الأرض لا تكون أرضًا في الحقيقة ينتفع بها الناس إلا بالنبات الذي فوقها، فتكون حياتها وموتها؛ أي: حياة نباتها، وموت نباتها.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ نقول فيها ما سبق: إن اللام واقعة في جواب القسم، ويقولنَّ أصلها: يقولونَّ، قال النحويون: فحُذِفت النون الأولى لتوالي الأمثال، لماذا لا نقول: حُذِفت إحدى النونين بنون التوكيد؟

قالوا: لأن نون التوكيد جِيءَ بها لغرض، وهو التوكيد، ونون الرفع دائمًا تُحذَف في حال الناصب والجازم والتخفيف، وما أشبه ذلك، فكانت أولَى بالحذف.

ما سبب حذف الواو؟ التقاء الساكنَين؛ لأن نون التوكيد المُشدَّدة مُكوَّنة من حرفين: أولهما ساكن، فإذا كان ساكنًا حُذِف حرف العلة الذي قبله، كما قال ابن مالك:

.... وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ نقول: خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ما قال: فأنى يُؤفكون، هناك قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ لظهور دلالة الخلق والتدبير على الربوبية المُستلزم للإقرار بالألوهية، وهنا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن إقرارهم بالأول وبالثاني، وأن الأمر كله بيد الله يستلزم لا أنَّ الله موجود فقط؛ بل لأن الله مُستحقٌّ لأن يُثنَى عليه، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله ظهرت عليكم الحُجَّة، وقامت عليكم البيِّنة، وظهر كمال الله عز وجل، فالأول فيه تخلية، والثاني فيه تحلية، فالكمال لله عز وجل؛ يعني: الحمد لله على قيام البيِّنة عليكم، وظهور الحُجَّة ووضوحها.

أما قول المؤلف: [فكيف يُشرِكون به؟] فهذا أتى به على حدِّ قوله في الآية الأولى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ولكن عندي أن الآية الثانية فيها إقامة الحُجَّة على أمر آخر هم يُنكِرونه، وهو البعث، فإنهم يُنكرونه، وحقيقة الأمر أن مُنكِرَ البعث سيُشرِك بالله، وسيعمل ما شاء؛ لأن مُنكِر البعث يعتقد أنه ليس هناك جزاء ولا حساب، ومن اعتقد كذلك ما يعمل، ولهذا يجمع الله سبحانه وتعالى دائمًا في القرآن بين الإيمان به وباليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الحادي للإنسان على العمل؛ إذ من لا يعتقد أن هناك جزاءً فكيف يعمل؟!!

فالذي يظهر لي: أن الآية الثانية سِيقت لإلزامهم بالإقرار بالبعث.

قال: [﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ثبوت الحُجَّة عليكم].

قيل: المراد الحمد هو الثناء بالجميل، وهذا غير صحيح، فإن الثناء غير الحمد بقول النبي ﷺ؛ بل بقول الله تعالى في الحديث القدسي حديث أبي هريرة: «قَسَمتُ الصلاةَ بَيني وبَينَ عبدِي نِصفَيْن، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: حَمِدَني عبدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أَثنَى عليَّ عبدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مَجَّدَني عَبدِي»[1]، وهذا دليل واضح على أن الثناء غير الحمد، وإلا لكانت إقرارًا، وأيضًا المعنى يقتضي ذلك؛ لأن الثناء من الثَّني وهو الرجوع، فإنك إذا ثنيتَ العصا رجع طرفه إلى طرفه، ومنها أيضًا لف اثنين؛ يعني: واحد وواحد.

فالمهم: أن الحمد لا يصح تفسيره بالثناء، إذنْ فما هو؟

نقول: وصف المحمود بالكمال ،لكن نزيدُ أيضًا: مع المحبة والتعظيم، حتى يخرج بذلك المدح، فإن المدح وصف الممدوح بالكمال، لكن قد يكون بمحبة وتعظيم، وقد يكون لخوف لا لمحبة، فهذا الرجل الذي وقف أمام ملك ظالم جبَّار، وقال: أنت الملك الكريم المُحسن العادل الذي لا تظلم أحدًا، هذا مدح ولكن ليس عن محبة وتعظيم، هو كذب.

ثم إنه أيضًا يُفرَّق فيه بينه وبين المدح: أن المدح قد يكون موافقًا للواقع وقد يكون غير موافق، والحمد لابد أن يكون موافقًا للواقع.

قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول العلماء: (أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أنها للاستغراق، فجميع المحامد لله، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لشبهه لا للتمليك، فالحمد مُستحق ومُختصٌّ بالله، والمراد به الحمد الكامل، أما مجرد الحمد فلا يختصُّ بالله، قد يُحمَد الإنسان على خصلة من الخصال بقدر هذه الخصلة، لكن الحمد الكامل الواسع مُستَحق لله وحده، ومختص بالله وحده

قال: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم في ذلك]، بل هنا للإضراب الانتقالي؛ يعني: فبعد أن ثبت الأمر، وقامت الحُجَّة، واستحق الباري الثناء أو الحمد، حينئذٍ يصح أن يُسجَّل عليهم الجهل، وهو قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فأكثر هؤلاء لا يعقلون، لأن عندهم من السفه ما هو ظاهر؛ ولأنه لو كان عندهم عقول لكان إقرارهم بما أقرُّوا به مُلزِمًا لإقرارهم بما أنكروه، فهم أقرُّوا أن الذي خلق السماوات والأرض، وسخَّر الشمس والقمر هو الله، والذي نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها هو الله، إذنْ أين العقل وأنتم تُنكِرون البعث، وتُشرِكون بالخالق؟!!

الفوائد:

١ـ من فوائد هذه الآية: حكمة الله سبحانه وتعالى في إنزال المطر من السماء.

٢ ـ ومن فوائدها: أنه لا يقدر على إنزال المطر من السماء إلا الله، ومهما حاول هؤلاء الذين

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، وأبوداود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أعطاهم الله ما أعطاهم من الصنائع فإنهم لن يستطيعوا أن يُنزِّلوا المطر من السماء؛ لأن هذا خاص بالله عز وجل.

٣ - **ومن فوائد الآية**: قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى، لقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: أن الجماد يُوصف بالحياة والموت، قال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَآ﴾، وقوله في الأصنام: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

٥ - **ومن فوائدها**: قياس الغائب على الشاهد، فالغائب إحياء الناس بعد الموت، والشاهد إحياء الأرض.

٦ - **ومن فوائدها**: ثبوت القياس الصحيح، أو اعتبار القياس الصحيح، خلافًا لمن أنكره، أو غلا فيه؛ لأن الناس انقسموا إلى قسمين: منهم من غلا، ومنهم من ترك؛ يعني: منهم من ترك القياس مطلقًا؛ كابن حزم، وهو يمكنه أن يقيس أحيانًا، ومنهم من غلا فيه، وتجاوز الحد، حتى بلغ بهم إلى أن يقيسوا صفات الخالق بصفات المخلوق؛ كالمُشبِّهة مثلًا.

٧ - **ومن فوائد الآية**: حُسن مناظرة القرآن ومجادلته، وأن مناظراته ومجادلاته تكون مُلزِمة، وجه ذلك: أن إقرارهم بهذا الشيء مُلزمٌ لهم أن يُقرُّوا بتوحيد الألوهية، وكمال صفات الله.

٨ - **ومنها**: وجوب إعلان الثناء والحمد لله عز وجل أمام المشركين، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٩ - **ومنها**: أن إقرار المشركين بما يختص به الله تعالى من القدرة هو في الحقيقة كمال لله عز وجل، ولهذا أمر الله نبيَّه أن يصفه بالحمد لما قال: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، فيُستفاد منه أن إقرار المشركين بما يختص به الله من صفات يُعتبر من كمال صفات الله التي يستحق عليها الحمد.

١٠ - **ومنها**: أن أكثر هؤلاء المشركين جُهال، لقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المعنى: لا يعقلون ما يستحقه الله من أوصاف الكمال، أكثرهم سفهاء، فلو كانوا عقلاء لعرفوا اللازم وملزوماته، وأقرُّوا بها.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: أن الأشاعرة ونحوهم ليس عندهم فيما ذهبوا إليه من إثبات بعض الصفات وإنكار بعضها معقول، ولا أثر منقول، أما الأثر المنقول فظاهر، ما عندهم دليل، وكذلك أيضًا ليس عندهم نظر معقول، فإنهم يُنكِرون ما يُقرُّون بمثله أو دونه.

إذنْ نقول: كل من أقرَّ بشيء من صفات الله تعالى وأفعاله وأنكر آخر، فهو دليل على قلة عقله، وليس المراد بالعقل هنا عقل الجنون، لكن عقل الرشد والهداية.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤-٦٦]

التَفسِير

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ الإشارة هنا للتحقير ودنو مرتبتها، والإشارة للتحقير واردة في اللغة العربية، كما في قوله عن الكفار: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] يعني: من هذا الحقير الذليل الذي يسبُّ الآلهة وهي عظيمة وعالية، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ هي الدار التي نحن فيها، ووُصِفت بالدنيا لسببين: لدنوِّها زمنًا، ودنوِّها مرتبةً.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ جاءت هنا ليُقابل بها الحياة الثانية.

وقوله: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ هذا الحصر حقيقي، فالدنيا التي هي الدنيا تنحصر في هذين الأمرين: في اللهو واللعب، والفرق بينهما: قيل: إن اللعب بالجوارح، واللهو باللسان، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقيل: إن اللهو بالقلب، وهو غفلته، وامتلاؤه بالملاهي وبما يُلهيه عن طاعة الله، واللعب بالجوارح من اللسان وغير اللسان، وهذا أقرب، أن اللهو بالقلوب، واللعب بالجوارح، وعليه فحاصل الدنيا أنها لهوٌ يلهو به الإنسان، غفلات يمينًا وشمالًا، حتى الأمور الجِدِّية التي للدنيا هي لعب؛ لأنها تذهب ولا تبقى، أو يذهب عنها صاحبها، فهي كلعب الأطفال يتسلَّون به ما داموا أطفالًا، ثم يهجرونه إذا كبروا وعقلوا وعرفوا ما هم عليه.

قال المؤلف: [وأما القُرب، فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها].

قوله: [وأما القُرب] هذا جواب عن سؤالٍ مُقدَّر، كأنَّ قائلًا قال: كيف تكون الدنيا لهوًا ولعبًا مع أن الإنسان يعمل فيها عملًا صالحًا، يُصلي، ويزكي، ويصوم، ويحج، ويصل رحمه، وما أشبه ذلك؛ فهل هذا لعب؟

يقول المؤلف: ليس بلعب، أليس في الدنيا؟ قال: بلى، ولكن ظهور ثمرته في الآخرة، ولهذا

قال: [وأما القُرب، فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها] وصدق المؤلف، فإن الأعمال الصالحة ما هي من الدنيا، ولهذا لو أراد بها الإنسانُ الدنيا لبطلت، ولم يكن له أجر فيها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من حجَّ ليأخذ، فليس له في الآخرة من خلاق) يعني: من نصيب، ويشهد لهذا الكلام الذي قاله الشيخ قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، ويدل له أيضًا قوله ﷺ: «تَعِسَ[1] عَبْدُ الدِّينَارِ[2]، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرهَم.. »[3] إلخ، فالحاصل أن أعمال الآخرة ليست من أعمال الدنيا؛ بل إذا أُريدَ بها الدنيا بطلت.

قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بثلاث مؤكِّدات، أكَّد الله عز وجل أن الحيوان يعني: الحياة، لكنها جاءت على هذا الوزن للمبالغة فحيوان فعلان، وإلا فالحيوان بمعنى: الحياة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هي ما يكون يوم القيامة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ بمعنى الحياة، ولكن زيدت الألف والنون فيها للمبالغة؛ يعني: هي الحياة الحقيقية، ولهذا يقول الكافر يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] حياته الدنيا مُقدَّمٌ لها؛ بل هي جنته، لكن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة؛ لأن حياة الدنيا في الحقيقة ليست بحياة.

أولًا: لأنها مُنغَّصة، كل صفوٍ فيها له كدَر.

وثانيًا: أنها غير باقية.

وثالثًا: أن الإنسان مُهدَّد فيها، فلا يدري متى يأتيه أجله صباحًا أو مساءً، وكم من إنسان خرج من أهله ولم يرجع إلا جثة، وكم من إنسان علا كرسيه فما أكمل الكتابة التي يخطها بيمينه، وليست هذه هي الحياة الحقيقية، ولهذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنغَّصَةً ... لذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

مهما طاب لك العيش إذا تأمَّلتَ سوف تهرم وتدع هذا العيش ولا يطيب لك، وسوف تموت، فلا تبقى للعيش أصلًا.

والحاصل: أن الدار الآخرة - صدق ربنا جل وعلا - هي الحيوان، فهي التي ينبغي للإنسان العاقل أن يسعى لها، والغريب أنه إذا سعى للآخرة حصَّل الدنيا والآخرة، وإذا سعى للدنيا فقط فاتته الدنيا والآخرة، والدليل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] يعني: نُعطيه حرث الآخرة مع الدنيا، لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

---

(١) سقط على وجهه أو شقي وهلك.

(٢) مجاز عن الحرص عليه وتحمل الذلة من أجله فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له.

(٣) رواه البخاري (٦٠٧١)، وابن ماجه (٤١٣٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٢١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء عاجل، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧] هذا جزاء آجل، وقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[الشورى: ٢٠] وهذا الوعد أيضًا مقرون بالمشيئة كما في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء: ١٨]، إذن الحيوان حقيقةً هي الآخرة.

والحيوان الواو هنا أصلية أو منقلبة؟

قيل: إنها منقلبة عن ياء، وأنها قُلِبت واوًا لئلا يلتبس بالمُثنَّى، وأنها لو قال: وإن الآخرة لهي الحيَّان لكان يلتبس بالمُثنَّى، فقُلِبت واوًا، وهذا رأي لسيبويه، بناءً على أن الحياة يائية من حيَّ يحيى.

وقيل: إن الواو أصلية، وأن الواو في الحياة هي الأصل، لكن قُلِبت ياءً في حيَّ لتحرُّكها وانكسار ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة، وليست لو هنا صلة تتعلَّق بما قبلها، ولكنها مستأنفة، فهي شرطية، وجواب الشرط محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما آثروا الدنيا عليها] والحقيقة أن قوله: [ما آثروا الدنيا عليها] صحيح أنه يصح أن يكون جوابًا، لكن الجواب أبلغ مما قدَّره المُفسِّر، ولهذا حذفه الله؛ لأجل أن يبلغ الذهن في تقديره كل مبلغ، فلو كانوا يعلمون لعملوا لها ليلًا ونهارًا، ومعناه أن من قدَّم الدنيا على الآخرة فليس عنده علم، ولو كان يعلم حقيقة ومن ذوي العلم والأفهام ما قدمها.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الضمير يعود على المشركين؛ يعني: سل هؤلاء عن آلهتهم هل هم يرجعون إليها عند الشدائد، أو هم يعترفون أنه لا يفرج الشدة إلا الله؟

الجواب: الثاني، هم مُعترفون بأن أصنامهم لا تنفعهم، واعترفوا بما سبق بأن الذي خلق السماوات والأرض الله، وأن الذي ينزل من السماء ماءً الله، وأن الذي سخَّر الشمس والقمر الله، وأن الذي يدفع الضرورة بناءً على ما ذُكِر في الآية هذه الله.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والفلك السفن أو السفينة، فإنه يصلح للجمع والمفرد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[يونس: ٢٢] هذا جمع، والمفرد في قوله تعالى: ﴿إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ﴿دَعَوُا۟﴾ هذه جواب إذا، وهي مركبة من فعل وفاعل.

وقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دعوا دعاء مسألة.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حال من فاعل دعوا، والإخلاص تنقية الشيء عما يشوبُه؛ أي: لا يجعلون مع هذا الدعاء دعاءً لشيء من الأصنام.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قال المؤلف: [أي: الدعاء]؛ لأن الدعاء عبادة فهو من الدين، فلهذا قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لا يدعون غيره؛ لأنهم في شدة لا يكشفها إلا هو، وهم بذلك معترفون مُضطرون، لا يمكن أن يدعو الواحد منهم صنمًا في هذه الحال؛ لأنه يعلم أن الصنم لا ينفعه، فلا يدعون إلا الله، وهذه حُجَّة رابعة عليهم، الحُجَّة الأولى خلق السماوات والأرض، والثانية تسخير الشمس والقمر، والثالثة إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض، ثم إخلاصهم الدعاء في حال الشدة لله هي الخامسة.

قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ لما هذه شرطية، وفعل الشرط: ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾، وجوابه: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ و﴿إِذَا﴾ يُسمِّيها النحويون فُجائية، والفُجاءة الشيء الذي يأتي بغتة، والمعنى أنهم إذا نُجُّوا إلى البر فاجأوا وبادروا إلى الشرك، جزاء النعمة أن يكفروا، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي: نجاهم الله؛ يعني: أنقذهم من الشدة التي هم فيها إلى البر الذي هو شاطئ السلامة، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ هذه جملة اسمية تفيد أن هذا يكون كالصفة اللازمة لهم، فهم مستمرون - والعياذ بالله - على الشرك، مُبادِرين به، وهذا غلط منقول من اللؤم؛ لأن الإنسان بطبيعته وصفاته لا يكفر بمن أنعم عليه؛ بل يشكر من أنعم عليه، أما هؤلاء فإنهم بمُجرَّد النعمة يُشركون - والعياذ بالله -.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

قال المؤلف: [﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعمة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام، وفي قراءة بسكون اللام أمر تهديد] .

قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام هنا للأمر، أو للتعليل؟ إن سكَّنَّا اللام - وهي القراءة الثانية - صارت اللام للأمر، أمر تهديد؛ لأن الله ما يحمل للكفر أمر إرشاد ولا أمر إنزال، وإذا كسرنا اللام الثانية صارت اللام لام كي - أي لام تعليل -، ثم هل اللام في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ على أنها إذا لم تكن للأمر، هل هي لام التعليل، أو لام العاقبة؟

الجواب: أنها لام العاقبة؛ لأن الله ما نجاهم إلى البر فأشركوا لأجل أن يكفروا، لكن صارت عاقبتهم الكفر، ولام العاقبة معروفة في اللغة العربية ، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، لو سألَنا سائل: هل آل فرعون التقطوا موسى لهذا الغرض؟

لقلنا: لا، لكن صارت العاقبة هذه، لو أنهم علموا أنه يكون عدوًّا لهم وَحَزَنًا، لما التقطوه.

فهنا العاقبة أنهم كفروا بما آتيناهم.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ الباء مُعدًّى بها الفعل؛ مثل: كفر به، وهذا هو الأقرب وليست للسببية؛ يعني: ليكفروا بما آتيناهم؛ أي: أن الفعل كفر تعدَّى إلى مفعوله بالباء، والمعنى: كفر بالله، وكفر بالرسول، وكفر بكذا.

وقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بما أعطيناهم من النعمة إنجاؤهم من الغرق.

وقوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قال: [باجتماعهم على عبادة الأصنام]، ويمكن أن يُقال: وليتمتَّعوا بالنعم أيضًا التي أُعطوها، فهم كفروا بها فلم يشكروها، وتمتَّعوا بها إلى مصيرهم ومآلهم.

يقول المؤلف: [وفي قراءة بسكون اللام أمر تهديد] أي: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾.

وعلى هذا فمن قرأها من العوام بهذه القراءة فهذا غير صحيح إلا أن طالب علم يعلم القراءات فيقرأ بها.

وقوله: [﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك] (سوف) يقولون: إنها تفيد التحقيق لكن بمهلة، ولهذا يقولون: التسويف بخلاف السين، فإنها تفيد التحقيق مع القرب.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الجملة خبرية يراد بها التهديد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، وقال تعالى في سورة النبأ: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥]، فالعذاب – والعياذ بالله – نازلٌ بهم لا محالة.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ تقدم الكلام على مثل هذا التركيب، وأن الهمزة للاستفهام والواو حرف عطف، وهل الهمزة مقدمة عن مكانها أو لا؟

ذكرنا أن في ذلك خلافًا، وذكرنا أن القول الأسهل أن الهمزة للاستفهام، وأن الواو عاطفة على ما قبلها.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: بيان حقارة الدنيا، وأنها ليست بشيء مطلقًا، ويمكن أن نقول: إنه على سبيل المقارنة بالآخرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أنه لا يجوز أن يُقصَد بأعمال الآخرة شيءٌ من الدنيا.

فلا يجوز أن تأخذ عنها عِوضًا عن الدنيا، والمسألة هذه فيها خلاف بين أهل العلم في «باب الإجارة».

٣ - **ومن فوائد هذه الآية**: كمال الحياة في الآخرة، لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ

ٱلْحَيَوَانُ﴾، وهو كذلك؛ لأن الدار الآخرة دائمة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** الحث على العلم، لقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٥ - **ومنها:** أن من العلم؛ بل من أكبر العلوم: التفريق بين الأمور النافعة والأمور الضارة، وهذا التفريق من أعظم ما يكون إذا أُوتيه الإنسان في الحقيقة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، إذا أُوتي معرفة الفرق بين الأمور النافعة والضارة، ومعرفة الفرق بين الأمور المتشابهة في العلم فهو ينال خيرًا كثيرًا.

وقد صنع بعض أهل العلم شيئًا من ذلك، فصاروا يُؤلِّفون كتبًا اسمها: الفروق والتقاسيم، مثلًا: يذكرون الفرق بين الفرض والنفل، الفرق بين الأذان والإقامة، الفرق بين الجعالة والإجارة، الفرق بين العطية والوصية، الفرق بين كذا وكذا، وهذه مفيدة لطالب العلم، وهنا قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الحياة الدنيا والآخرة، فما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة.

فوائد قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان أن المشركين فيما سبق يُخلِصون في حال الشدة.

٢ - **ومن فوائدها:** اعتراف المشركين ضمنًا بأن آلهتهم لا تنفعهم، ولو كانوا يعتقدون نفعها لدعوها في هذه الحال.

٣ - **ومن فوائدها:** أن إشراك السابقين أهون من إشراك من أشرك من هذه الأمة؛ لأن المشركين من هذه الأمة ما يدعون الله، بل يدعون أولياءهم - والعياذ بالله -، ومن اتخذوهم أندادًا مع الله، الرافضة مثلًا يدعون عليًّا: يا علي، وسمعتُ رجلًا منهم يدعو عند المقام، ويرفع صوته: يا علي، فجاءه أحد رجال الحِسبة فزجره، وقال: تُشرك تحت الكعبة! اخرج، فقال: إنما أنا أقول: يا عليٌّ، والله يقول في القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يعني: أنه يُنادي الله، وهذا من التقيَّة التي يتخذونها، وهي سبيل المنافقين، فهذا لا شك - فيما يظهر لي والله أعلم - أنه لا يريد الله، إنما يريد عليًّا، لأنه لو كان يُريد الله لقال: يا رب، أو اللهم، أو ما أشبه ذلك، لكن لما وقع في شَرَك العدل والتوحيد ادَّعى هذه الدعوة.

والحاصل: أن شرك من أشرك من هذه الأمة أعظم من شرك المشركين فيما سبق.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن اللجوء إلى الله عز وجل أمرٌ فِطريٌّ غريزي، بدليل أن هؤلاء غلبتهم الفِطرة حتى دعوا الله وحده مخلصين له الدين.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن الدعاء من الدين، لقوله: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ولا شك أن الدعاء من الدين والعبادة؛ لأن فيه غاية الذل والاعتراف بالكمال لله عز وجل، وهذه العبادة، أنت

عندما تقول: يا ربِّ، معناه أنك مُفتقر إلى الله عز وجل، ومعناه أن الله كامل، ولهذا بايَع الصحابةُ النبيَّ ﷺ على ألَّا يسألوا الناس شيئًا، فكان الرجل يسقط سوطُه من بعيره فينزل ويأخذه ولا يقول: ناولني إياه يا فلان[1]، بينما نجد الآن في وقتنا الإنسان يتذلَّل غاية الذل في سؤال المال وهو غير مُحتاج إليه، هؤلاء يأتون يوم القيامة وما في وجوههم مُزعة لحم - والعياذ بالله -.

فالمهم: أن الدعاء تذلل، ولهذا كان من العبادة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء المشركين إذا نجوا من الشرك كفروا بالنعمة، لما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون.

٧ - **ومن فوائدها**: سفه من يجعل النِّعَم سببًا للأشر والبطر، فإن هذا فيه من مشابهة المشركين ما هو ظاهر؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه نعمة أن يزداد عبادة لله سبحانه وتعالى؛ لأن العبادة من الشكر، فإذا أنعم عليك ربك بالنعمة فاسجد له شكرًا، ولهذا كان الرسول ﷺ لما دخل مكة طأطأ رأسه، حتى إنه ليُصيب مقدم رحله عليه الصلاة والسلام، كل هذا من أجل التذلل للمُنعِم سبحانه وتعالى، فلا تجعل نِعَم الله عليك سببًا للأشر والبطر؛ بل اجعلها سببًا للشكر والذل لله سبحانه وتعالى حتى تزداد هذه النِّعَم وتكون نِعَمًا حقيقية.

فوائد قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

١ - **فيُستفاد منها: على أن اللام في الآية للأمر**: تهديد أهل الكفر والتمتُّع المُحرَّم؛ لأن الأمر هنا للتهديد؛ إذ لا يأمر الله أحدًا ليكفر، ولا ليتمتَّع تمتُّعًا مُحرَّمًا.

٢ - **ويُستفاد منها: على قراءة أن اللام للتعليل**: أن هؤلاء الذين أشركوا صارت عاقبة أمرهم الكفر والتمتُّع الزائل، ولهذا قال بعده: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فيُستفاد منه تهديد هؤلاء الكفار الذين ليس لهم إلا هم التمتُّع بالدنيا.

٣ - **ومن فوائدها**: الحذر الشديد مما عليه بعض المسلمين اليوم؛ حيث صار ليس لهم همٌّ إلا التمتُّع بالدنيا فقط، تجد أكثر ما يتكلَّمون عليه الرفاهية والترفيه، وما أشبه ذلك، لكن أمراض القلوب، وعلل القلوب، وانحرافات القلوب قلَّ من يتكلَّم عليها، مع أنها هي الأصل، وترفيه الأبدان إذا مرضت القلوب لا فائدة منه، إلا أنه إذا نزلت النقمة من الله ازداد الإنسان حسرة - والعياذ بالله -، لكن ترفيه القلب بطاعة الله جل وعلا هذا هو الذي فيه الفائدة للبدن ولكل شيء، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

(١) رواه مسلم (١٠٤٣)، وأبو داود (١٦٤٢)، وأحمد في مسنده (٢٢٤٧٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٧-٦٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يقول المؤلف: [يعلموا]؛ وذلك لأن الرؤية نوعان: علمية وبصرية، إن تعدَّت إلى مفعولين فهي علمية، كقولك: رأيت العلم نافعًا، وإلى مفعول واحد فهي بصرية، كقولك: رأيتُ فلانًا.

من الرؤية العلمية في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[المعارج: ٦، ٧]أي: نعلمه قريبًا، ويرونه الأولى رؤية ظن.

فقوله تعالى: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ في بلدهم مكة ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾] لماذا خصَّه بأهل مكة؟

لقوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ الحرم ما له حُرمة أي: تعظيم، وسُمِّي التعظيم حُرمة؛ لأنه يُمنع بهذا التعظيم ما كان سائغًا لولاه، فيمنع الصيد، وقطع الشجر، وغيرها فكل آمن حتى الحيوانات غير المؤذية.

و قوله: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أهل المجاز يقولون: آمنًا من فيه، والصواب: أن الحرم نفسه آمن، ولهذا عصمه الله سبحانه وتعالى من كل أحد، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل: ١]، وحرَّم النبي ﷺ القتال فيه(١)، فهو نفسه آمِن، وإذا أَمِن نفسه أَمِن من فيه.

وقوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال: [قتلًا وسبيًا دونهم].

في عهد الجاهلية، غير أهل الحرم ليسوا لهم أمان، يُغار عليهم فيُقتلون ويُسبون وتؤخذ أموالهم ونساؤهم، لكن أهل مكة آمنون، حتى إنه يجد الإنسان قاتل أبيه في الحرم ولا يقتله مع شدة الحمية عنده، لكن ما خرج عن الحرم يوجد القتل والسبي والنهب، وهذه نعمة من الله عظيمة على قريش، وكان عليهم أن يُقابلوا هذه النعمة بالشكر والتصديق للرسول ﷺ، مع أن الرسول ﷺ منهم، يعرفونه قبل أن يأتي بالرسالة ويسمونه الأمين، ويحتكمون إليه أحيانًا، لكن لما

---

(١) كما روى البخاري (١٦٥٢)، ومسلم (١٦٧٩).

بُعِث بالرسالة، وخالف أهوائهم كفروا به.

ثم قال تعالى مذكرًا هؤلاء الكفار بنعمة عظيمة لا ينالها أحد سواه قال تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

قال المؤلف: [﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ الصنم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بإشراكهم].

الاستفهام هنا للتوبيخ، وهو كما يقال في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بمعنى أن الهمزة هل هي بعد الفاء وأُخِّرت الفاء، أو أنها في مكانها والعطف على الجملة السابقة.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ قال المؤلف: [الصنم] وفي هذا نظر، إلا إذا قصد المؤلف التمثيل، وأن من جملة الأشياء الباطلة الأصنام، وإلا فإنها تشمل كل ما لا خير فيه؛ من صنم، أو دنيا، أو رئاسة، أو غيرها، فكل شيء سوى الحق فهو باطل، قال النبي ﷺ: «أَصدَقُ كلمَةٍ قَالَهَا شاعِرٌ: كلمَةُ لَبيدٍ: أَلا كلُّ شيءٍ مَا خَلا اللهَ باطِلٌ»(١)، فعلى هذا نقول: الباطل أعم مما ذكره المؤلف.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون ويطمئنون إليه، فهم تجدهم في الأمور الباطلة مُطمئنِّين مُصدِّقين مُتبعين، لكن بنعمة الله يكفرون.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: بما أنعم عليهم من المال، أو الجاه، والرئاسة، وغيرها.

وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ لأن هذا النعم تحتاج إلى شكر بالرجوع إلى طاعة الله، فإذا بقي الإنسان على معصية الله مع إظهار النِّعَم عليه صار بذلك كافرًا، ويمكن أن نقول بالنسبة للمسلمين: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ النعمة المادية الجسدية، والنعمة المعنوية القلبية، فالإسلام أكبر النعم علينا، إذا كفر به الإنسان ولم يقُم بواجباته، فإنه يُوبَّخ على هذا، إذ يُقال: ألستَ مسلمًا؟ فيقول: بلى؟ فيُقال: لماذا لم تُصلِّ؟ لماذا لم تُزكِّ؟ لماذا لم تصُم؟ لماذا لم تفعل كذا وكذا من الواجبات؟

فشكر نعمة الله بالإسلام واجب، كما أن شكر نعمة الله علينا بالمال والأمن والراحة وما أشبه ذلك واجبٌ؛ بل الشكر على الإسلام أوجب، وكفر الإسلام أخطر؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، يمكن أن ينزع الله الإسلام من قوم لا يقومون بواجبات الإسلام؛ مثلما يُنزع الأمن والرخاء من قوم لا يشكرون هذا الأمن والرخاء، النِّعم واحدة، وسبيلها واحد.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ هذه واحدة أو كثيرة؟ كثيرة، وهو مفرد مُضاف فيعُمّ، الدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ولو كانت واحدة ما في عد ولا إحصاء.

وقوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أين تتعلَّق قوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾؟ بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، فقُدِّمت

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإفادة الحصر، كأنهم لا يكفرون بشيء إلا بنعمة الله، وهذه فائدة معنوية، وفيها أيضًا فائدة لفظية، وهي: مراعاة الفواصل.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [أي: أشرك به].

قوله: ﴿مَنْ﴾ يقول المفسر: [أي: لا أحد]، وعليه فيكون الاستفهام هنا بمعنى النفي، وفائدة إتيان الاستفهام في موضع النفي أنه يكون مُشربًا معنى التحدِّي، كأنه قال: إن كنت صادقًا فأعلِمني أن أحدًا أظلم، فالاستفهام في موضع النفي هذه فائدته أنه يكون مُشربًا معنى التحدِّي.

قال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبًا، قال المؤلف: [بأن أشرك به] إلا أن يريد التمثيل، من أشرك بالله فقد افترى على الله كذبًا؛ لأنه زعم أن مع الله إلهًا وهو كاذِب.

من قال: إن الله حرَّم كذا، وهو لم يُحرِّمه فقد افترى على الله كذِبًا، ومن قال: إن الله أراد بكلامه كذا دون كذا فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: إن الله ليس له يدٌ حقيقة، وليس له وجهٌ حقيقة، وليس له رضًا حقيقة، وما أشبه ذلك فقد افترى على الله كذبًا.

والافتراء على الله كذبًا له أنواع كثيرة، وأفراد لا تُحصى، فكل من قال عن الله، أو عن أفعاله، أو عن أحكامه شيئًا لم يقله الله ورسوله، فإنه مُفترٍ على الله كذبًا.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ يُشكِل علينا أنه في بعض الأحيان تأتي مثل هذه الصورة في مسألة غير هذه يُقال فيها: من أظلم، وقد جمعها الله سبحانه وتعالى في آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] عدة مسائل، وقال النبي ﷺ: «وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذهَبَ يخلُقُ كَخَلقِي»(١)، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[البقرة: ١١٤]، ماذا نقول ونحن فسَّرنا (من أظلم) أي: لا أحد أظلم، فكيف نجمع بين هذه النصوص؟

نقول: نجعل كل شيء مُختصًا بما يقتضيه السياق، أو نقول: إن الجميع اشترك في الأظلمية؛ يعني: ما أحد أظلم من هذا، ولا أظلم من هذا، ولا أظلم من هذا.. إلخ، فكلها اشتركت في الأظلمية.

فمن قال: إن مع الله شريكًا فقد افترى على الله كذبًا، ومن قال: إن من أسماء الله كذا وهو ليس من أسمائه فقد افترى على الله كذبًا، النصارى يُسمُّون الله الأب، والفلاسفة يقولون: إنه العلة الفاعلة، وهذا كذبٌ على الله عز وجل، وكذلك الكذب على الله تعالى في صفاته، والكذب على الله في أحكامه مثل الذي يقول: هذا حلال، وليس بحلال، هذا حرام، وليس بحرام، وما أشبه ذلك،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالله تعالى بيَّن أنه لا أحد أظلم من هذا.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ الحق هو الشيء الثابت إن كان خبرًا فهو الصدق، وإن كان أحكامًا فهو العدل.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ بمعنى: حين جاءه كذَّب به، وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ لأنه قبل مجيئه إليه لا يُلزَم به، إن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فالله سبحانه وتعالى برحمته وعدله لا يُعاقب أحدًا حتى تقوم عليه الحُجَّة.

وقوله: [﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: فيها ذلك، وهو منهم].

قول المؤلف: [أي: فيها ذلك] إشارة إلى أن المراد بالاستفهام هنا التقرير، والغالب أنه إذا دخلت همزة الاستفهام على أداة نفي الغالب أنها للتقرير، وأمثلة هذا كثيرة؛ مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وأيضًا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، وأشباه ذلك، فكل هذا يدل على أن الهمزة هنا للتقرير.

قوله هنا: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ المعنى: في جهنم مثوى، ولهذا قال المؤلف: [أي: فيها ذلك، وهو منهم] وهو أي: من افترى على الله كذبًا أو كذَّب بالحق لما جاءه، [منهم] أي: من الكافرين.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ المثوى هو المأوى، لكن المأوى الذي هو محل إقامته، يأوي إليه على أنه محل إقامته، فثوى في كذا؛ أقام فيه.

وقوله: ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ هو في الحقيقة إظهار في موضع الإضمار؛ إذ إن مُقتضى السياق أن يُقال: أليس في جهنم مثوى لهم! لكنه أظهر في موضع الإضمار، وذكرنا أن الإظهار في موضع الإضمار يُستفاد منه ثلاث فوائد:

أولًا: تعميم الحكم؛ بحيث يكون عامًّا له ولغيره.

ثانيًا: الحكم على موضع الضمير بأنه متصف بهذا الوصف.

ثالثًا: إفادة التعليل إذا كان مُشتقًّا، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ التقدير: لكفرهم، لو قال: أليس في جهنم مثوى له ما استفدنا هذه الفوائد الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

قال: [﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ في حقنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طرق المسير إلينا].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ خبره، والخبر مؤكَّد بثلاث مؤكِّدات، وهي: القسم، واللام، ونون التوكيد.

قوله: ﴿جَـٰهَدُوا۟﴾ أي: بذلوا جهدًا في الوصول إلى الغاية.

وقوله: ﴿فِينَا﴾ قال المؤلف: [في حقنا] أي: في دين الله، وما يجب له سبحانه وتعالى، ومن

بيان شريعة الله سبحانه وتعالى، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه كفُّ النفس عما يحرم، وإلزامُها بما يجب، كل هذا من الجهاد في الله، ومنه أيضًا قتال الكفار لإعلاء كلمة الله، والآية عامة، فكل من بذل الجهاد في الله فإن جزاءه عاجلًا قبل الآجِل: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هداية دلالة، وهداية توفيق، فهي شاملة للأمرَين، ولهذا قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ولم يقل: لنهدينَّهم إلى سبلنا، فعدَّى الهداية بنفسها إلى المفعول الثاني، فشمل هداية الدلالة والتوفيق، ومنه قوله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لم يقل: اهدنا إلى الصراط؛ ليشمل الهداية إليه، والهداية فيه، فالهداية إليه الدلالة إليه، والهداية فيه أن يُوفِّقك للعمل في إطار هذا الصراط.

فإذنْ قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يشمل الأمرَين: هداية الدلالة، وهداية التوفيق والإرشاد، وهذا وعد من الله عز وجل مؤكَّد بهذه المؤكِّدات الثلاث، إذا كان الإنسان يؤمن بهذا الوعد؛ لأنه من الرب جل وعلا، وهو لا يُخلف الميعاد لتمام علمه، وقدرته، وصدقه أيضًا، وإخلاف الموعد يكون بتخلُّف واحد من هذه الثلاثة، ما هي؟ العلم، والصدق، والقدرة، فلا يخلف الموعد معك إلا جاهل، وعدك بشيء وهو يظن أنه يُحصِّله ولم يكن على ظنه، أو إنسان كاذب وعدك فكذبك، أو إنسان عاجز، هو صدوق ويعلم الأسباب لكنه عاجز، أما الله عز وجل فقد انتفى في حقه كل هذه الثلاث: الجهل، والكذب، والعجز، فلتمام قدرته، وعلمه وصدقه، لا يخلف الميعاد.

أقول: من صدَّق بهذا - ونحن والحمد لله نُصدِّق به - فإنه لابد أن يبذل جهده في حق الله، وهذا هو مصداق ما جاء في الآثار الكثيرة من أن الإنسان إذا عمل بعلمه فإن الله تعالى يزيده علمًا، يُثبِّت علمه الذي كان يعلمه ويزيده علمًا، ولهذا قيل: قيِّدوا العلم بالعمل.

وقيل: العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل

إن أجاب وعمل الإنسان بعلمه بقي وزاد أيضًا، وإن لم يُجِب ارتحل العلم، وهذا حق يُؤيِّده الواقع، ويُؤيِّده المعلوم في الشرع، أما الواقع فإن الإنسان إذا صار يعمل بعلمه فإن عمله بالعلم دراسة له في الحقيقة.

إذنْ العمل بالعلم دراسة له، فأنت تعلم كيف كان رسول الله ﷺ يُصلِّي، وتُطبِّق ذلك في كل صلواتك، وبهذا لا تنساه؛ لأن التطبيق دراسة.

ومن الناحية الشرعية يقول الله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، فكل من اهتدى فإن الله تعالى يزيده هدى وعلمًا، وفي الحقيقة نحن نعرف ذلك ونقرؤه دائمًا، لكن يغلب علينا السهو الغفلة والنسيان، ونعلم أن هذا حق، وأن كل من علِمَ فعمل فإن الله تعالى يزيده ثباتًا في علمه، وفضلًا مما لا يعلمه.

وقوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ الضمير هنا ضمير جمع، والآيات التي أضاف الله فيها الأمر إلى نفسه بصيغة الجمع هي من متشابه القرآن عند قوم، فالنصارى يقولون: أنتم تقولون: الله واحد، والله يقول:

نحن، وفعلنا، وقلنا، وما أشبه ذلك؛ كيف تقولون: إنه واحد، وهذه ضمائر تدل على الجمع؟

فنقول: إن هذه للتعظيم، كما يقول ملككم أو قسُّكم يقول: فعلنا، وقلنا، وما أشبه ذلك، مع أنه واحد، لكن له أناس يأتمرون بأمره، ويقولون بقوله.

لكن الله قد أثبت الوحدانية لنفسه في كتابه وذلك في آيات كثيرة فقال ردًّا على النصارى الذين قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فقال الله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طرق السير إلينا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة مؤكَّدة بإنَّ واللام، ﴿مع﴾ هذه حرف أو اسم؟

هي في الحقيقة فيها خلاف بين النحويين؛ منهم من يرى أنها اسمٌ وهي الصحيح بلا شك، ومنهم من يرى أنها حرف، وفيها لغتان وهو الأكثر.

الحاصل: أن مع الصحيح أنها ظرف، وأنها منصوبة على الظرفية؛ لأنها تدل على الصحبة، و﴿مع﴾ مُضاف، و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مُضاف إليه.

وقول المؤلف: [﴿لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين] هذا تفسيرٌ ناقص؛ لأن المحسنين أخص من المؤمنين، ولهذا قال النبي ﷺ: «الإِيمانُ أَنْ تُؤمِنَ بالله، ومَلَائِكَتِهِ.. » إلخ، ثم قال: «الإِحسانُ: أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تراهُ»(١)، فكل مُحسِن إحسانًا شرعيًّا وليسَ عاديًّا فهو مؤمن، ولا عكس، وأقول: (إحسانًا شرعيًّا)؛ احترازًا من الإحسان العادي؛ لأن الإحسان العادي يقع حتى من الكافر، لكن الإحسان الشرعي الذي فسَّره الرسول ﷺ بقوله: «أَنْ تعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تراهُ» وهذا أخصُّ من المؤمن.

وقوله: [بالنصر والعون] نعم صحيح، هو معهم بذلك، وليس معهم في مكانهم؛ لأن هذا شيءٌ مُستحيلٌ على الله عز وجل أن يكون مع الناس في أمكنتهم لا المحسنين، ولا غير المحسنين؛ وذلك لأن هذا القول يستلزم نفي علوه، وقد التزم بذلك من قال به من الجهمية القدماء منهم أيضًا، والمتأخرون كما قرَّرناه غير مرة، فإنهم يرون أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا متصل ولا مغاير، هذا ما استقرَّ عليه مذهب الجهمية، وتبعهم في ذلك الأشاعرة، فإنهم يرون هذا النفي المحض – والعياذ بالله –، أما قدماء الجهمية فقالوا: إنه تعالى في الأرض وليس على السماء، فمن العجائب أنهم نفوا العلو مع تطابُق الأدلة عليه، وأثبتوا الحلول مع تطابُق الأدلة على إنكاره.

فالعلو تقدَّم لنا أنه دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع سلف الأمة.

فالكتاب مملوءٌ بما يدل على هذا، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن في الكتاب ألف دليل على

---

(١) تقدم تخريجه.

علو الله، والسنة كذلك مملوءة من الدلالة على علو الله عز وجل على وجوه متنوعة من قول وفعل وإقرار، قال النبي ﷺ: «ألا تأمَنُوني وَأنا أمينُ مَن فِي السَّماءِ؟»[1]، وقال: «العَرشُ فَوقَ ذَلكَ، واللهُ فَوقَ العَرشِ»، وأشار عليه الصلاة والسلام بأصْبُعه إلى السماء يُشهِد الله على إقرار أمته بالبلاغ في أعظم مجمع للمسلمين في يوم عرفة، حيث قال: «اللَّهُمَّ اشْهَد»[2]، ودعا ربَّه في خطبة الجمعة فرفع يديه إليه يقول: «اللَّهُمَّ أغِثْنَا»[3]، وهذه سنة قولية وفعلية، أما الإقرارية فإنه سأل الجارية قال: «أَينَ اللهُ؟» قالت: في السماء، قال: «أَعتِقْهَا فَإنَّا مُؤمِنَةٌ»[4].

وأما دلالة العقل على ذلك فهي ظاهرة أيضًا، فإننا نقول: العلو صفة كمال، ولا أحد يُنكِر هذا، والسُّفول صفة نقص، والله سبحانه وتعالى واجب له الكمال، ومُنزَّه عن النقص.

أما الفطرة فسل الصبيَّ والعجوز والعامي والجاهل فالكل مفطور على التوجه حين الدعاء إلى العلو.

تم -بحمد الله- تفسير سورة العنكبوت

ويليها -إن شاء الله- تفسير سورة الروم

(١) رواه مسلم (١٠٦٤)، وأحمد في مسنده (١١٠٢١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٦٥٥)، ومسلم (٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

تفسير سورة الروم

تفسير سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ **قال الله تعالى:**

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [سورة الروم مكية] والمكي هو الذي نزل قبل الهجرة، والمدني ما بعدها سواء نزل في مكة أم لا، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] نزلت بعرفة يوم حجة الوداع فيكون مدنيًا، ولو كان نزل بمكة، وهي ستون، أو تسعة وخمسون آية إن جعلنا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [الروم:١] آية مستقلة صارت ستين آية، وإلا فتسع وخمسون.

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم أن البسملة آية مستقلة يُؤتى بها في ابتداء السور وليست تابعة لما بعدها لا في الفاتحة ولا في غيرها؛ خلافًا لبعض العلماء الذين يقولون: هي آية من الفاتحة فيحسبون الفاتحة سبع آيات منها البسملة قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

والصحيح أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولا من غيرها فأول آيات الفاتحة هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هي السادسة، وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هي السابعة في المصحف، وتوجد البسملة من الفاتحة آية ومن غيرها ليست آية ولكن الصحيح أنه لا فرق.

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [الروم:١] قال المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك].

نعم إذا لم نكن نعلم شيئًا فالواجب أن نقول: الله أعلم بما أراد، وهذا قد قيل: إنه نصف العلم؛ لأن الإنسان إما عالم وإما جاهل، فإذا قال فيما يعلم بما علم، وفيما يجهل الله أعلم صار عنده نصف العلم، ولا شك أن قول الإنسان الله أعلم فيما لم يعلمه هو الواجب عليه، ولا تقول: إن قلت لا

أدري نقص قدري عند الناس؛ لأنه لا ينقص قدرك عند الناس، بل يزداد عند الناس كما أنه لا ينقص عند الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ اللهُ»[1] وهذا من باب التواضع لله أن تقول فيما لا تعلم: لا أعلم، وهو نظير العفو الذي لا يزيد الإنسان إلا عزًّا، ونظير الصدقة التي لا ينقص بها المال، وكذلك لا أدري لا ينقص بها قدر الإنسان في العلم بل يزداد؛ لأن الناس إذا رأوا أن هذا الرجل محترزًا يقول فيما يعلم ويتوقف عما لا يعلم يثقوا به؛ لأنهم عرفوا أنه لا يتكلم إلا بما يعلم.

فقول المؤلف: [الله أعلم بمراده بذلك] هذا هو الواجب على كل إنسان لا يدري ما أراد الله، ولكن إذا رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] فعلمنا أن هذا القرآن بمقتضى اللغة العربية وأنه ما فيه كلمة إلا وهي معقولة وإلا كان الله مُنَزِّلًا شيئًا لا نعرف معناه فإذا طبقنا هذه الحروف الهجائية على هذه القاعدة ـ أي: القاعدة التي في هذه الآية، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ـ وجدنا أن مثل هذا التركيب في اللغة العربية ﴿الٓمٓ﴾ ليس له معنىً في اللغة العربية، وإنما هي مجموعة حروف هجائية (ألف ولام وميم)، ولهذا لا ننطق ونقول: ألم ـ كلمة واحدة ـ وإنما نقول: (ألف لام ميم).

إذن فهي بمقتضى اللسان العربي الذي نزل به القرآن لنعقله ما لها معنى، وإنما هي حروف هجائية ليس لها معنى في ذاتها وحينئذٍ نكون قد علمنا، لكن ما مراد الله بها؟

ذكر شيخ الإسلام وكثير من أهل العلم أن الغرض منها بيان أن القرآن معجز مع كونه من هذه الحروف الهجائية التي يتكلم الناس بها، فالقرآن من هذه الحروف ما أتى بحروف جديدة غريبة حتى نقول: إنه أعجز الناس بأن أتى بحروف لا يفهمونها، ولا ينطقون بها، بل هي حروف يتركب منها كلامهم.

فالإعجاز إذن من حيث الحروف بأنه أتى بحروف جديدة أم من حيث التركيب والسياق والمعاني الجليلة النافعة؟

الجواب: من الوجه الثاني، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام لا شك أنه قوي، وأن هذه الحروف الهجائية في حد ذاتها ليس لها معنى، لكن لها مغزىً ومراد، وهو أن هذا القرآن الذي أعجز كل الخلق لم يأتِ بجديد في الحروف التي يتكلمون بها.

وذهب بعض المعاصرين إلى أن هذه الحروف كالمفتاح للسورة التي فيها، بمعنى: أنك إذا وجدت لامًا وميمًا مصدرًا بها سورة من القرآن فما ذاك إلا لكثرة اللام والميم فيها فتكون كالمفتاح لها، وكذلك إذا وجدت نونًا فهو لكثرة النون فيها، وإذا وجدت لامًا وراءً فهي لكثرة اللام والراء، لكن هذا منتقض.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩).

على كل حال: نحن نعلم بمقتضى كون القرآن باللسان العربي لنعقله أن هذه الحروف الهجائية في حد ذاتها ليس لها معنى.

وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:٢] [وهم أهل الكتاب، غلبتها فارس وليسوا أهل كتاب، بل يعبدون الأوثان ففرح كفار مكة بذلك وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم].

قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فعل مبني للمجهول، و﴿ٱلرُّومُ﴾: نائب فاعل، وأنَّثها: ﴿غُلِبَتِ﴾ ولم يقل: (غُلِبَ الروم) مع أن الذين يحاربون هم الرجال، لكنه أنَّثها باعتبار القبيلة، والذين غلوبها الفرس، والحكمة ـ والله أعلم ـ في حذف الفاعل؛ ليكون ذلك أعظم إهانة للفرس وليكون هذا أخفى بالنسبة لذل الروم وخذلانها، وأخفى الفاعل لسببين: الأول: إهانة للفرس؛ لأنهم ليسوا أهلًا للذكر، والثاني: تهوينًا للأمر على الروم؛ لأنه إذا قيل للإنسان: أنت غُلبت أهون عليه من أن يقال له: غلبك فلان؛ لأنك إذا قلت: غلبك فلان كان دليلًا على أنه ذليل لهذا الرجل المذكور.

وقوله: ﴿ٱلرُّومُ﴾ [أهل الكتاب]، ولو قال المؤلف: أهل كتاب لكان أحسن؛ لأن الروم نصارى وأهل الكتاب تشمل اليهود والنصارى، [غلبتها فارس وليسوا أهل كتاب؛ بل يعبدون الأوثان]؛ لأنهم مجوس يعبدون النار [ففرح كفار مكة بذلك].

وقوله: [وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم] يعني: أن كفار مكة تفاءلوا بهذا الشيء، وقالوا: إذا كان الروم أهل كتاب وغلبتهم الفرس وهم أهل أوثان فهذا مفتاح نصر لنا أن نغلب المسلمين وهم أهل كتاب ونحن أهل أوثان.

قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قال المؤلف: [﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة التقى فيها الجيشان والبادي بالغزو الفرس].

قوله: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى أقرب الأرض إلى فارس، وأن فارس اعتدوا على الروم وحصل القتال بينهما، وقيل: ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ في أقربها إلى أرض الغرب، وهذا يرجع إلى التاريخ الذي يحدد موقع هذه المعركة حتى نعرف ﴿أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾، إنما لا شك بأن ﴿أَدْنَى﴾ بمعنى: أقرب.

وقوله: [﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أضيف المصدر إلى المفعول أي: غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ﴿في بضع سنين﴾].

تأمل التأكيد!! فقد أكد هذا الوعد أولًا بتصدير الاسم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ﴾؛ لأنه إذا صدر بالاسم صار جملة اسمية دالة على الدوام والثبوت، وأكد من وجه آخر لقربه؛ حيث كان الخبر مقرونًا بالسين الدالة على القرب، ثم أكد أيضًا بمؤكد ثالث وهو قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾؛ لتحقق الغلبة وأن هذا أمر لابد أن يقع، ولو كانوا مغلوبين؛ لأنه لو فُرغ من بعد

غلبهم وهم سيغلبون، لكان الإنسان يقول: سيغلبون ولو غلبوا، لعلهم إذا كانوا قد غلبوا لا يغلبون، فلما قال تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ صار في ذلك تأكيد للغلبة، فصار تأكيد غلبة هؤلاء من وجوه ثلاث.

قال الله تعالى: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

قوله: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي: في خلال هذا البضع، قال المؤلف: [هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر]، لكن ما دون الثلاث لا يدخل في هذا.

على كل حال: نفهم أن البضع يكون من ثلاثة إلى تسعة أو إلى عشرة؛ يعني: ما دون الثلاث لا يدخل في الحكم، [فالتقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول وغلبت الروم فارس] فصدق بذلك خبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأنهم سيغلبون في بضع سنين؛ لأنه ما تجاوز الأمر سبع سنوات حتى كانت الغلبة للروم على الفرس فصدق الله وعده.

وقوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ في هذه المدة المعنى: أن الغلبة ستكون في خلال سبع سنين، وليس المعنى: أن الغلبة تستغرق سبع سنوات.

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل غلب الروم ومن بعده، والمعنى: أن غلبة فارس أولًا وغلبة الروم ثانيًا بأمر الله أي: إرادته.

وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ هذه الجملة اسمية قُدم فيها الخبر لإفادة الاختصاص (لله وحده الأمر)، (أل) هذه للاستغراق يعني: كل الأمر و (أل) التي للاستغراق هي التي يحل محلها كل، فإن كانت لاستغراق المعنى فهي لاستغراق المعنى، وإن كانت لاستغراق الأفراد فهي لاستغراق الجنس قال الله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] (أل) هذه لاستغراق الجنس؛ لأنه يصح أن يحل (كل) فيقال: (وخلق كل إنسان ضعيفًا)، وقال أيضًا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١ ـ ٢] هذه (أل) أيضًا لاستغراق الجنس أي: كل إنسان، وإن كانت لاستغراق المعنى فهي لاستغراق المعنى، ومثل ذلك بقولهم: (زيدٌ نِعْمَ الرجل) أي: نِعْمَ الشخص الجامع لصفات الرجولة، هنا الأمر لاستغراق الجنس أي: لله كل أمر.

لكن هل المراد بالأمر هنا: الأمر الكوني أو الأمر الشرعي؟ نقول: الأمر الكوني، أي: أن جميع الأمور ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ سواء المتعلقة بأفعال العباد أو المتعلقة بأفعال الله ـ عز وجل ـ فإنها راجعة إليه، وقد سبق لنا في التوحيد أن الأمر ينقسم إلى قسمين: أمر كوني، وأمر شرعي.

مثال الأمر الكوني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومثال الأمر الشرعي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: أمره الشرعي ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦]

هذه من الأمر الكوني، وهذا هو المتعين، أي: أن الله يأمرهم أمرًا كونيًّا بالفسق فيفسقون، وأما من قال: إن المراد بالآية الأمر الشرعي وأن الله يأمرهم فيفسقون، يعني: يأمرهم بالطاعة فيفسقون، ثم يأخذهم بالعذاب. فهذا القول باطل؛ لأنه يقتضي أن يكون المعنى: أن الله يرسل الرسل فيأمروا الناس بطاعة الله عز وجل؛ لأجل أن يفسقوا فيحل عليهم العقاب، وهذا يرجع إلى أن الله بعث الرسل نقمة على العباد، وهو أمر لا يمكن.

ثم إننا نقول: الأمر الشرعي هل يختص بالمترفين؟

نقول: لا بل هو أمر عام لهم ولغيرهم، فالمهم أن هذا القول ضعيف وباطل وينافي حكمة الله - عز وجل - بإرسال الرسل.

إذن قوله هنا: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ المراد به: الأمر الكوني.

وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ قد يقول أصحاب النحو: لماذا ضمت ﴿قَبۡلُ﴾ مع أن ﴿مِن﴾ حرف جر؟ نقول: لأن قبل وبعد إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه بنيا على الضم، فإن وجد المضاف صارا معربيْن فتقول: (أتيت من قبلِ أن يأتي زيد) فتجرها، وكذلك إذا حذف المضاف إليه ولم ينوَ لا لفظًا ولا معنىً فإنها تعرب؛ لقول الشاعر:

فَصَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وكنْتُ قَبْلاً   أَكَادُ أُغَصُّ مِنْ مَاءِ الفُرَاتِ

وكذلك إذا حذفت المضاف إليه ونوي لفظه فإنها تعرب، ولكنها لا تنون فيقال مثلًا: كنت حريصًا على الدرس فأتيت من قبلِ، أي: من قبلِ ابتداء الدرس فهنا حذف المضاف ونوى لفظه، فالمشكلة ما الذي يدرينا أنه نوي لفظه أو نوي معناه؟

الإعراب نفسه فإذا كانت مبنية على الضم علمنا أنه قد حذف وأريد المعنى، وإذا لم تكن كذلك علمنا أنه قد حذف وأريد اللفظ، فإن نوِّن علمنا أنه ما أريد اللفظ ولا المعنى.

وقوله: [﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾: أي: يوم تغلب الروم، ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم على فارس].

قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ﴾: (يوم) هذه ظرف متعلقة بـ ﴿يَفۡرَحُ﴾، وهي مضافة إلى اسم ونوِّنت عوضًا عن جملة، هي: يوم تغلب الروم، فالمحذوف الآن جملة.

وقوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ الفرح: لا يمكن للإنسان أن يعبر عنه فهو صفة النفس وسرور النفس، ونقول: الفرح معلوم، ولهذا في القاموس إذا جاءت مثل هذه الأشياء الفرح مثلًا قال: (م)، وهذه تكتب بعدها. يعني: أنه معروف ولا حاجة أن يبين.

وقوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المراد به النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْرَحُ﴾ وهو مصدر مضاف إلى فاعله، أما مفعوله فمحذوف وتقديره: (بنصر الله الروم على الفرس)، ولهذا قال المؤلف: [﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم على فارس]، والنصر معناه: العون والظهور، أي معناه: أن الله يعينهم حتى يظهروا على أعدائهم. وهذا هو النصر، أن يعين الله الإنسان حتى يظهر على عدوه، فهذا هو معنى النصر.

وقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ سمي نصرًا مع أنه لكفار على كفار؛ لأننا نقول: إن النصر هو العون والظهور، ولا فرق أن يكون بين مؤمن وكافر، أو بين كافر وكافر، ثم إن أهل الكتاب أقرب من الفرس، ولهذا لهم أحكام خاصة تقربهم من المسلمين.

قال: [وقد فرحوا بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدرٍ بنزول جبريل بذلك مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه]؛ يعني: أنه حصلت الواقعة فيه بين فارس والروم في الزمن الذي حصلت فيه الواقعة بين الكفار والمؤمنين؛ ولذلك نزل في بدر، وعلى هذا تكون هذه الآية نازلةً قبل الهجرة بخمس سنوات؛ لأنه إذا كانت المدة التي حصلت فيها الغلبة سبع سنوات، وبدر كانت في السنة الثانية لزم أن تكون غلبة فارس للروم قبل الهجرة بخمس سنوات.

وقوله: [مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه] فيكون في هذا الزمن اجتمع نصر أهل الكتاب على المجوس ونصر المسلمين على المشركين.

وقوله: [بأمر الله أي: إرادته] هذا في الحقيقة تحريف؛ بل الصواب أنه بأمره أي: بقوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإن الله تعالى لا يقدر شيئًا إلا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم كل شيء أراده الله فإنما ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

والصواب: أن المراد بالأمر هنا القول: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: الأمر الكوني والشرعي من قبل ومن بعد، والإرادة ليست هي القول، فإن الإرادة صفة لا تستلزم القول إذ إن المريد قد يفعل ما أراد أو قد يقوله، وأما القول فهو أخص من الإرادة، فكل قول متضمن الإرادة، وليست كل إرادة متضمنة للقول.

وقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ هذه عامة من عمَّ، سواء كان المنصور كافرًا، أو كان المنصور مؤمنًا؛ لأن الأمر بيد الله، وقد سبق لنا أن كل شيء مقيد بالمشيئة فإنه يتضمن الحكمة؛ لأن الله لا يشاء شيئًا إلا بحكمة؛ فـ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ نصره بحكمة اقتضت ذلك.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب]، وهذا أحد معاني العزة، فالعزة منقسمة إلى ثلاث أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

عزة القدر: بمعنى: أنه - سبحانه وتعالى - عظيم القدر، وكلما كان الشيء عظيم القدر كان عزيزًا أي: قليل الوجود والله - سبحانه وتعالى - لا مثل له.

وعزة القهر: بمعنى: الغلبة والظهور.

وأما عزة الامتناع: فمعناها: امتناع جميع النقص عليه ـ سبحانه وتعالى ـ فهو عزيز من هذه الوجوه الثلاثة: فالأول: عزة القدر: بمعنى: أنه عظيم لا نظير له في قدره وعظمته، والثاني: عزة القهر: بمعنى أنه قاهر وغالب لكل شيء، والثالث: عزة الامتناع: أي أنه يمتنع عليه كل نقص، ومن هذا المعنى قولهم: أرض عزاز، ونحن نقول:أرض عزا، ومعنى عَزَاز أي: الصلبة التي يمتنع أن يؤثر فيها شيء، والله ـ عز وجل ـ متصف بالعزة من جميع هذه الوجوه.

وقوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ قال المؤلف:[بالمؤمنين] استدلالًا بقول الله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] والصواب:أن رحمة الله تكون عامة وخاصة، فإن كل من في السماوات والأرض في رحمة الله العامة، ولولا رحمة الله بالكفار هل يبقون؟ أبدًا ما يبقون، فكون الله يدرُّ عليهم الأرزاق والعافية والنشاط والعقل، وما أشبه ذلك لا شك أنه من رحمة الله، ولكن الرحمة التي تكون بها رحمة الدنيا والآخرة هذه خاصة بالمؤمنين.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية فوائد عظيمة منها: أن كلام الله ـ عز وجل ـ بالحروف (ألف لام ميم) ـ ألم ـ، فيه رد على الأشعرية الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس وليست الحروف، وأن هذه الحروف مخلوقة لتعبر عن هذا المعنى القائم بنفسه، ثم يقولون أيضًا: إن هذا المعنى القائم بالنفس لا يتغير ولا يختلف فهو واحد سواء كان استفهامًا أو خبرًا أو أمرًا أو نهيًا أو قرآنًا أو زبورًا أو إنجيلًا لا يختلف، فالتوراة هي الإنجيل وهي القرآن وهي الزبور وهي صحف إبراهيم وصحف موسى؛ لكن التصور ليس هو منك؛ لأن هذه اختلفت بالتعبير. فإن عبر هذا الكلام بالعربية صار قرآنًا، أو بالعبرية صار توراة، أو بالسريانية صار إنجيلًا، أو بلغة داود صار زبورًا، وهكذا.

ثم يقولون: إن الاستفهام والخبر معناهما واحد، فإذا جاء استفهام من الله ـ عز وجل ـ فهو كالخبر عنه؛ لأن المعنى واحد، وهذا لا شك أن مجرد تصوره كافٍ في رده وإبطاله.

٢ ـ ومن فوائد الآية: علم الله بالغيب؛ لقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الإخبار عن الغيب لا يكون إلا بوحي.

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كامل السلطان والتدبير؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن كل الأشياء لا تكون إلا بأمر الله؛ لأنه لما قال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ إذن: فكونهم غُلِبوا بأمر الله

وانتصارهم بأمر الله فكل الأمور بتقدير الله تعالى وأمره ـ سبحانه وتعالى ـ.

٦ ـ **ومن فوائدها:** الرد على القدرية الذين يقولون باستقلال العبد بفعله، فهم يقولون: إن العبد مستقل بفعله وليس لله فيه تقدير ولا أمر ولا مشيئة ولا غيره، وهذه الآية ترد عليهم.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** جواز التعبير بما يُدخل الخوف والحزن على العدو؛ لأن قوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهي: من ثلاث إلى عشر أو تسع، معناه: أنه سيبقى هؤلاء الفرس في ذعر وخوف، فكل سنة تمر عليهم يقولون: هذه سنة الغلبة، ولا شك أن هذا مما يزيدهم ذعرًا وخوفًا؛ لأنهم لو غلبوا بأي سنة انتهى الأمر، لكن كونهم يُتوعدون بأمر لا يُدرى في خلال ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ لا شك أن ذلك أشد عليهم من أن يأتي الأمر وينتهي.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ من البلاغة؛ حيث حذف الفاعل؛ إذلالًا له وإهانة له: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ لم يذكر الغالب إذلالًا له، وكذلك رفقًا بالروم.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

١ ـ **في هذا من الفوائد:** جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفار على بعض إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ﴾، وليس ذلك نصر مسلمين على كفار، لكنه نصر كفار على كفار، لكن هذا في مصلحة الإسلام.

وعلى هذا إذا اقتتلت دولتان من دول الكفار، وكانت إحداهما أقرب إلى نفع المسلمين من الأخرى وفرحنا بانتصارها، هل نقول: إن هذا حرام، كيف تفرح بانتصار كافر على كافر؟ لا، بل نقول: هو جائز كما فرح المسلمون بانتصار الروم على فارس مع أن الكل كفار، لكن هؤلاء أهل كتاب فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس.

٢ ـ **ومنها:** جواز تسمية غلبة الكفار نصرًا؛ لقوله: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.

فإذا قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤٠ـ٤١]، مع أن الروم لا يتصفون بهذه الصفات؟

الجواب: أن النصر نوعان: الأول: نصر مطلق دائم، فهذا لا يكون إلا لمن ينصر الله، والثاني: نصر عارض مؤقت، فهذا يكون لهؤلاء ولغيرهم، فنصر الروم على الفرس ليس نصرًا دائمًا، والدليل أنه بعد ذلك نصر الله المؤمنين على الفرس وعلى الروم ففتحوا ممالك كسرى وممالك قيصر ولم يكن ذلك نصرًا دائمًا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** إثبات العزة لله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، وإثبات الرحمة في قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ وإثبات كمال عزته؛ حيث قُرنت بالرحمة، فإننا ينبغي أن نعرف أن الأسماء الحسنى تدل

على الكمال، فكل واحد منها يدل على كمال بانفراده، ثم باجتماع الاسمين بعضهما إلى بعض يدلان على كمال مركب، فالعزيز يدل على الكمال، والرحيم يدل على الكمال، فإذا اجتمعا أخذ من ذلك كمال آخر فوق الكمال الذي يتضمنه كل اسم على انفراده وهو أن تكون عزته مقرونة بالرحمة؛ لأن عزة غيره قد تكون خالية من الرحمة، فإذا صار عزيزًا أخذ الذي هو ظاهر عليه أخذه أخذ عزيز مقتدر، ولم يرحمه بخلاف عزة الله، فإنها مقرونة بالرحمة، وهي أيضًا مقرونة بالحكمة.

أضرب مثلًا: لو أن رجلًا غلب على قومٍ وصار عزيزًا وهم أذلاء، فإن هذا الرجل قد تأخذه العزة بالإثم فيبطش بهم ولا يرحمهم، لكن عزة الله ليست كذلك، فهي مقرونة بالرحمة كما أنها مقرونة بالحكمة؛ ولهذا دائمًا يقرن الله العزة بالحكمة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[الروم:٦، ٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يقول المؤلف: [مصدر بدل من اللفظ بفعله، والأصل (وعدهم الله النصر)].

قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ كلنا يعلم أنه مصدر، وليس فعلَ مصدر مضاف إلى الفاعل يعني: (وعد الله إياهم) فالمؤلف يقول: إنه بدل من فعله أي: ناب مناب الفعل أي: (وعدهم الله) وقيل: إنه مصدر فعله محذوف وليس نائبًا عن الفعل، وعلى هذا يكون المقدر كالموجود، أي: (وعدناهم وعد الله) وهذا أقرب أن يكون مصدر عامله محذوف وليس نائبًا عن عامله، والمعنى: أن الله وعدهم وعدًا مضافًا إليه، والوعد المضاف إليه لا يخلف؛ ولهذا قال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، فالجملة هذه كالتوكيد لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المضاف إليه لا يمكن أن يخلف أبدًا؛ إذ إن إخلاف الوعد ناشئٌ عن كذب أو عجز، فإذا وعدك أحد وأخلفك، فهو إما كاذبٌ، وإما عاجزٌ، والكذب والعجز ممتنعان على الله - عز وجل - لكمال صدقه وقدرته.

فعلى هذا: هل يخلف الله وعده؟

الجواب: لا، لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ولا يمكن أن يخلفه وإخلاف الوعد أن يأتي الواعد بخلاف ما وعد به، فيقول رجل لك: سأزورك غدًا في الساعة الثامنة، ثم تأتي الثامنة ولا يزورك. أخلف هذا أو لا؟ نعم فهو إما عاجز أو ناسٍ وهو عيب أي: النسيان.

وعلى هذا نقول: بالنسبة لله - عز وجل - ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لكمال صدقه في خبره، وكمال

قدرته في تنفيذ وعده، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ كامل القدرة، وكلامه كامل الصدق، ولهذا قال: [﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ به] أي: بالنقض، والنقض: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾.

أيضًا وعدٌ آخر في الآيات التي سبقت، وهو فرح المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فوعد الله بانتصار الروم على الفرس، وبفرح المؤمنين، ولا شك أن الفرح فيه من انبساط النفس وسرورها وانشراحها ما فيه فهو نعمة ينعم الله بها على الفَرِحْ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول المؤلف: [أي: كفار مكة] وتخصيص ذلك بكفار مكة فيه نظر، والصواب: أنه يشمل كفار مكة وغيرهم ممن ليس عندهم إيمان، فهو لا يعلم ما لله تعالى من تنفيذ الوعد؛ لأنه ما بين مُكذِّب وبين شاك متردد.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده تعالى بنصرهم أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى لا يخلف الوعد أو الأمرين جميعًا؟ والراجح: الأمران جميعًا، فهم لا يعلمون أن الله تعالى سيحقق النصر لهم إما لجهلهم بما أخبر الله به، وإما لشكهم في صدقه أو قدرة الله عليه، وهم لا يعلمون أيضًا أن الله لا يخلف الوعد في هذا أو في غيره؛ لشكهم في صدق الله وفي قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ على إنفاذ موعوده.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ إذن: أقل الناس يعلمون؛ لأنهم يؤمنون بالله تعالى وبما له من القدرة، والصدق في القول.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبر ثانٍ لـ (لكن)، والخبر الأول ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: إنه بدل من ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ورد هذا القول بأنه لا يبدل المثبت من المنفي للتضاد فكيف نبدل شيئًا مثبتًا من شيء مضاد له؟ وعلى هذا نقول: إن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الثانية خبر ثانٍ لـ (لكن)، وتعدد الخبر جائز في اللغة العربية.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أثبت لهم العلم لكنه علم قاصر من وجهين:

الوجه الأول: أنهم إنما يعلمون ظاهرًا لا باطنًا، وكم من العلوم الخفية في هذه الحياة لا يعلمها هؤلاء الكفار، والدليل أن الكفار السابقين لم يكونوا يعلمون كل خفي في هذه الدنيا من تطور الصنائع والمخترعات؛ لأن هذا التطور بالنسبة للسابقين غير معلوم، ثم سيأتي تطور آخر يكون بالنسبة للموجودين غير معلوم.

إذن هم إنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يعلمون كل ما في الدنيا من ظاهر وباطن، يقول أيضًا: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وليس كل ظاهر؛ بل الظاهر وفرق أن يقول: (يعلمون كل ظاهر من الحياة الدنيا) أو أن يقال: (يعلمون الظاهر من الحياة الدنيا) أو يقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فالتغير يكون على هذه الوجوه: يعلمون كل ظاهر، يعلمون الظاهر، ﴿يَعْلَمُونَ

ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيها الأقل؟ الأخير، يعني: ما يعلمون كل ظاهر إنما ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقط، وهناك ظواهر أخرى لا يعلمونها أيضًا، فعُلم بهذا قصور علم هؤلاء بما يتعلق بالله ـ جل وعلا ـ وبما يتعلق بالدنيا، إنما ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فقط، وفيما يتعلق بالآخرة يقول الله عز وجل: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ جملة اسمية أكد فيها المبتدأ. أين الذي أكد؟ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ الثانية: ﴿هُمْ﴾ توكيد للأولى ولو حذفت وقيل: (وهم عن الآخرة غافلون) يستقيم الكلام لكنها كررت للتوكيد يعني: هم بالنسبة لأمور الآخرة غافلون معرضون عنها لا يفكرون فيها.

تجد الواحد في أمور الدنيا فتنبهر من علمه بها، ولكن في أمور الآخرة عنده غفلة لا يفكر فيها، ولا يحاول أن يُعمل فكره ولا ينظر في هذا الخلق العظيم ماذا يكون مآله وكيف خُلق وإلى أين ينتهي، فهو غافل.

قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من الإيمان بالله ورسوله،أما والأعمال الأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣] يدركونها تمامًا، لكن الإيمان بالله واليوم الآخر لا ﴿قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ ولهذا يجد جزاء هذه الغمرة إذا قيل له: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وهذا يكون يوم القيامة.

المهم: أن هؤلاء الذين غفلوا عن الله عز وجل، وعن الآخرة عندهم علم من الحياة، لكن هم قوم من أمر الآخرة أُمِّيُّون لا يعلمون شيئًا؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ عندهم غفلة، ولهذا تتعجَّب! كيف هم الآن يصِلُون إلى الأجواء، ويصنعون الطائرات، ويصنعون الآلات الغريبة، ومع ذلك ما عندهم علم بالله ولا بالآخرة؟!

ولو تسأل الطفل من المسلمين أجابك، ولو تسأل أكبر واحد منهم من المخترعين ما أجابك، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:٥٤].

المقصود من هذا: أن هؤلاء الجاهلين ـ لأجل تأكيد الذم بالنسبة لهم ـ هؤلاء الذين جهلوا بالله ليس القصور فيهم ولا في أفهامهم، لكن لغفلتهم.

وحتى المؤمنين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ما يعلمون كل شيء، لكن المؤمنين معهم العلم بالله وأسمائه وصفاته، وحينئذٍ ما يكون ذلك نقص فيهم إنما محط النقص هو أن هؤلاء ما يعلمون ما يتعلق بالإيمان بالله.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعود على الكفار؛ لأن المقصود بهذا تأكيد الذم في حقهم وإلا فحتى المسلمين لا يعلمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨] حتى المؤمنين ما يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا فقط.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن غلبة الروم للفرس، وفرح المؤمنين بذلك خبر متضمن من الوحي.

٢ - **ومن فوائدها:** امتناع إخلاف الله وعده؛ لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** ثبوت القدرة والصدق لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ لأنه متضمن لكمال الصدق والقدرة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن أكثر الناس غير عالمين بما يستحقه الله من الصفات، أي: صفات الكمال؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن العلم الحقيقي هو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته لا العلم في الدنيا؛ لقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ فنفى العلم عنهم؛ لأن علم الدنيا ليس بعلم في الحقيقة، فالعلم الحقيقي الذي يمدح عليه المرء هو العلم بالله، وأسمائه وصفاته وأحكامه.

٦ - **ومن فوائدها:** قصور علم المرء؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس كل الظاهر وليس الباطن، فالمرء علمه قاصر حتى في علوم الدنيا.

٧ - **ومن فوائدها:** ذم الذين يتكالبون على العلوم الدنيوية مع غفلتهم عن الآخرة؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أنها تتضمن مدح المقبلين على الآخرة والحريصين عليها، وإن فاتهم شيء من أمور الدنيا؛ لأنه إذا ذُمَّ من كان على العكس فذم الضد مدح الضد، فالذين يقبلون على الآخرة وإن كان ما عندهم إلا علوم قليلة من الدنيا أكمل بكثير من الذين يقبلون على الدنيا ويغفلون عن الآخرة، وهذا ما تدل عليه الآيات.

٩ - **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن للمرء الإحاطة بعلم الدنيا أيضًا.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٨-٩]

التفسير

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ قال المؤلف: [ليرجعوا عن غفلتهم].

سبق لنا مرارًا كيف نعرب مثل هذا التركيب ففي إعرابه عند النحويين قولين:

أحدهما: أن الهمزة مقدمة على مكانها وأن أصلها: (وألم يتفكروا) فتكون الجملة معطوفة على ما سبق.

والوجه الثاني: أن تكون الهمزة داخلة على محذوف مقدر بحسب السياق، ويكون ما بعدها من حرف العطف عاطفًا على ذلك المحذوف.

وفي هذه الآية يكون التقدير: (فغفلوا ولم يتفكروا) والاستفهام للتوبيخ؛ لأن الإنسان مأمور أن يتفكر؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾، هل قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ هي محل التفكر أو آلة التفكر، بمعنى: هل المقصود من الآية الحث على تفكرهم في أنفسهم كما في قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، أو الحث على التفكر في خلق السماوات والأرض؟

نقول: كلا الأمرين، لكن الأقرب الأخير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فالمعنى: أولم يرجعوا إلى أنفسهم ويتفكروا تفكُّرًا حقيقيًّا في هذا الكون ليعرفوا بذلك حكمة الله -عز وجل- وما يتضمنه من صفاته العظيمة. وقوله: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، ﴿مَّا﴾: إعرابها نافية، الدليل قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى: أوجد وأبدع ولا يكون خالقًا إلا بتقدير وتنظيم؛ لأن أصل الخلق له تقدير في النفس كما قال الشاعر:

وَلَأَنتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

يعني: ما قدرت الخلق فهو الإبداع بتقدير وتنظيم.

وقوله: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ سبق الكلام عليها وأن المراد بها الطباق وكانت سبعًا.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ﴾ مفرد يراد به الجنس ويشمل جميع الأرضين، وهي سبع وعطفت على السماوات وهي منصوبة ولهذا فُتحت بخلاف السماوات؛ لأنها جمع مؤنث سالم.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، ﴿وَمَا﴾: اسم موصول معطوفة على السماوات، والعلماء يقولون: إنه إذا تعددت المعطوفات، فالمعطوفة عليه الأول منها؛ لأنه المباشر للعامل وما بعده فرع عليه، فيكون العطف إذن على السماوات. فتقول: (جاء زيد وعمر وبكر وخالد وسعيد) فسعيد معطوف على زيد أول واحد؛ لأنه المباشر وما بعده فرع، والفرع لا يعطف على فرع؛ بل يعطف على أصل.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ البينية لا تقتضي التماس فقد يكون الشيء بين الشيئين، وهو لا يمس أحدهما فهنا ما بين السماوات والأرض لا يلزم أن يمس، ولكن هل يمكن أن يمس؟ يمكن،

لكن لا يلزم.

فعلى هذا نقول: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يشمل السحاب والرياح والنجوم والشمس والقمر، وغير ذلك من المخلوقات العظيمة التي لا نعلمها، وفي التخصيص على ذكر ما بين السماوات والأرض فيه دليل على أن ما بينهما أمر عظيم يُقارن بنفس السماوات والأرض، وهذا يعلمه أهل الفلك الذين يطلعون على ما في الأُفق من الآيات العظيمة التي تدل على كمال الله تعالى.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هذا محط الفائدة أي: هذا الخلق مقارن بالحق، فالباء إذنْ للمصاحبة والملابسة، أي أن خلقه سبحانه وتعالى مصحوب بالحق؛ لأنه متضمن لكمال العدل ولكمال الصدق، ما خُلقت السماوات والأرض إلا بالعدل، والعدل حق، وهل يشمل ذلك أن تكون الغاية منها حقًّا؟

نقول: نعم يشمل بالحق ابتداءً وانتهاءً كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، فلو كانت هذه السماوات والأرض خلقت لتحيا الخليقة عليها وتعيش وتموت بدون جزاء، ولا حساب، ولا ثواب، ولا عقاب، لو كان الأمر كذلك لكان باطلًا وليس بحق.

إذنْ: لابد لهذه المخلوقات العظيمة أن يكون لها غاية وهي الحق.

فعلى هذا نقول: إن قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يشمل الابتداء والانتهاء.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلقهم أيضًا إلا بأجل معين، والأجل: غاية الشيء، و﴿مُّسَمًّى﴾ من قِبَل الله تعالى هو الذي عينه وقوله: ﴿وَأَجَلٍ﴾ يشمل الابتداء والانتهاء، فإن الله أوجد هذه السماوات والأرض بعد أن كانت معدومة وإيجاده كان بالأجل المعين عنده وكذلك سوف ينهي السماوات والأرض وإنهاؤه إياها بالأجل.

إذن: كل شيء عند الله ـ عز وجل ـ مقدر حتى الحوادث التي تحدث في السماوات والأرض بعد خلقها وإيجادها بأجل لا يتقدم ولا يتأخر، وإذا تأملت قليلًا عرفت بذلك كمال قدرة الله - تبارك وتعالى - وكيف أن هذه الأمور والشئون العظيمة، والكثيرة كلها تدبر بأجل ما يتقدم، وما يتأخر.

مثلًا: نحن مقررين ابتداء الدروس في الساعة الثامنة، ولكن حين نبدأ الثامنة والنصف ونتأخر ما ينتظم أمرنا مع أنه بسيط.

وهكذا كل شئون الخلق ما يمكن لأحد أن يضبط جميع أعماله بأجلها المحدد مهما بلغ في الحرص؛ لأنه قد يعتريه ما لا طاقة له به فما يقدر، لكن الرَّب ـ سبحانه وتعالى ـ حدد كل شيء بأجله فلا يتقدم ولا يتأخر، وهذا لا شك أنه من كمال الحكمة والصنع: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

فإذا تأملنا هذا الكون العظيم على ما فيه من الحوادث الفلكية والأرضية والعامة والخاصة، فإننا نستدل به دلالة واضحة على كمال قدرة المدبر لهذا الكون، وأن كل شيء بأجل، وفي آية أخرى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨] أيضًا بمقدار لا يزيد ولا ينقص بأجله وبمقداره لا يزيد ولا ينقص.

قال المؤلف: [﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لذلك تفنى بعد انتهائه وبعده البعث]، تفنى أي: السماوات والأرض وما بينهما عند انتهاء هذا الأجل ثم يأتي البعث.

يقول: [﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كفار مكة ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث بعد الموت].

وقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ خصه المؤلف بأهل مكة، والصواب: العموم فيشمل أهل مكة وغيرهم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ينكرون البعث فيمكن أن نجد في غير أهل مكة من هو أشد منهم إنكارًا للبعث، فتخصيص العام في القرآن أمر لا ينبغي إلا إذا قام الدليل على هذا.

وقوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾ اللقاء بمعنى: المواجهة والمقابلة، وكل إنسان سوف يلقى الله ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] يشمل المؤمن و الكافر ، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠] فدل ذلك على أنه عام، فكل أحد ملاقي الله ـ عز وجل ـ وسوف يحاسبه، ولكن حساب الله للناس يختلف، فالمؤمن يُقرِّره بذنوبه فإذا أقر بها غفر له، وأما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فإنه يُخزى بها ويُعاقب ويكون هوانًا له.

قال الله تعالى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَكَـٰفِرُونَ﴾ للتوكيد، و﴿كافِرُونَ﴾ خبر إن، ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَكَـٰفِرُونَ﴾ وقدم عليه لمراعاة الفواصل، ومراعاة الفواصل في القرآن الكريم ظاهر؛ لأن الكلام عامة إذا كان فواصل متفقة يكون أنشط للنفس وأرغب في استماعه وتلاوته.

وقوله: ﴿لَكَـٰفِرُونَ﴾ الكفر في اللغة: الستر، ومنه سمِّي (الكُفُرَّى) الذي هو كافور النخل ـ الطلع ـ لأنه يستره، والمراد بالكفر ستر نعمة الله على المرء بحيث يعصيه إذا أمره ويجحد إذا طلب منه الإيمان.

وأنواع الكفر كثيرة منها: الكفر المخرج عن الملة، ومنها: الكفر أي: خصال الكفر وليس الكفر المطلق وهذا يرجع إلى حسب النصوص الشرعية.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فالتفكر يكون في خلق السماوات والأرض والسير في الأرض فقط، ثم إن السير في الأرض إما أن يكون سيرًا بالأقدام أو سيرًا بالأفهام، إن كان سيرًا بالأفهام فهو داخل فيما سبق، وقد نقول: إن هذا أخص مما سبق؛ لأنه قال هنا: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فهو نظر في حوادث لا في خلق الأرض، فتكون هذه الآية منفصلة عن التي قبلها من حيث المعنى، فالأولى: تفكير ولهذا جاء متعلقها عام في السماوات والأرض وما بينهما، وهذه السير لأمر مخصوص، هو الحياة، فيشمل السير بالقدم والسير بالفكر على القول بأنه سير أقدام فيكون السير حسيًّا، وعلى الثاني: يكون معنويًّا.

إذا قال قائل: كيف يطلبون من الإنسان أن يسير بقدمه إلى مواقع العذاب وقد نهى النبي ﷺ أن ندخل مواقع العقاب إلا ونحن باكون؟

نقول: لا تعارض؛ لأن هذا هو مقصود السير إلى مواقع العذاب المقصد منه الاتعاظ والانزجار وهذا يتحقق بالبكاء، ولهذا نهى النبي ﷺ أن ندخل على ديار ثمودَ إلا ونحن باكون، وقال: «**إِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ فَلَا تَدْخُلُوهَا**»، وبعض الناس يذهب إلى زيارة ثمود على سبيل النزهة والطرب والتمتع بالمناظر؛ ولهذا يأخذون لها صورًا إعجابًا بها لا خوفًا، وهذا من قسوة القلب - والعياذ بالله - والجهل بما جاء به النبي ﷺ؛ لأن غالبهم يكون جاهلًا.

فهؤلاء الذين يذهبون إلى هذا المقصد يكونون جاهلين، لا نقول: إن كلهم عندهم قسوة قلب وتعمدوا مخالفة الحق، لكن نقول: عندهم شيء من الجهل ولا يجوز للإنسان الذي لا يعرف من نفسه التأثر حتى يبكي لا يجوز أن يدخل؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناها (على)؛ لأنها لو أُخذت بظاهرها لكان السير في سراديب تحت الأرض.

و﴿فِي﴾ للظرفية، والظرف محيط بالمظروف من جميع الجوانب، ولا يمكن أن تحيط بك الأرض من جميع الجوانب إلا إذا كنت داخل الأرض وليس هذا مرادًا، فعلى هذا تكون ﴿فِي﴾ بمعنى: (على)، وقيل: إن ﴿فِي﴾ للظرفية (على) ولا حاجة إلى تأويلها.

إذن قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: في ظهر الأرض، وكل أحد يعرف أنه لا يراد أن تخرق الأرض وتمشي في أسفلها فلا أحد يفهم هذا، وأيًّا كان فإن المراد السير على ظهر الأرض.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ الأرض مفرد والمراد بها الجنس، أي: الأراضي التي وقع العذاب بأهلها مثل ديار ثمود، والأحقاف، وديار قوم نوح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر:٧٦].

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ هل النظر هنا نظر بصر، أو نظر بصيرة؟

نقول: إن كان السير بالقدم فالنظر نظر بصر، وإن كان السير بالفهم فالنظر نظر بصيرة، فينظروا بعين البصيرة، أو بعين البصر حسب السير الذي يسيرونه.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ الفاء هنا سببية أو عاطفة أو يجوز فيها الوجهان؟

يجوز أن تكون عاطفة والمعنى: (أفلم يسيروا فلم ينظروا)، ويجوز أن تكون سببية المعنى: (أفلم يسيروا فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل).

والمقصود أنك إذا سِرت بقدمك تنظر بعينك، لكن هذا الناظر بالعين هل يعتبر أو لا؟

إن كان ما في بصيرة ما يفيد.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ مجزومة بحذف النون والواو فاعل؛ لأنها من الأفعال الخمسة.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ﴿كَيْفَ﴾ هذه اسم استفهام خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، و ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها، والعاقبة مصدر بمعنى: (العُقبى) وعاقبة الشيء ما يتلوه ويأتي بعده.

وقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ما تلى تكذيبهم للرسل، أي: [إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم]، فعاقبة ثمود هي الإهلاك والدمار، وعاقبة عاد الذين استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة ما أحد أشد منا قوة، عاقِبتهم أن أُهلكوا بأمر من ألطف الأشياء، وهو الريح جسم لطيف لا يُرى. هؤلاء الكبار الأجسام الشديدو القوى أُهلكوا بهذه الريح اللطيفة التي لا ترى؛ ليتبين ضعف الإنسان لأنه مهما كان فالله ـ عز وجل ـ أقوى منه كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وكذلك أهلك قوم لوط الذين أُترفوا ونُعِّموا حتى إنهم كانوا من شدة الترف يعدلون عما خلق الله لهم من أزواجهم إلى إتيان الذكور ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: ﴿كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ﴿كَانُوٓا﴾ جملة استئنافية يراد بها بيان حال هؤلاء السابقين ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود، لا شك أنهم أشد من قريش قوة، وعاد معروفة قوتهم، قال تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٧ ـ ٨]، وثمود أيضًا الذين قال الله فيهم: ﴿ينحتون مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، من الجبال ومن الأحجار، وهذا يدل على القوة و ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]، عظيمة فخمة هذا ما حصل لأهل مكة، ومع ذلك دمرهم الله عز وجل ـ أي الأقوام السابقة لقريش ـ بكفرهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ﴾ معطوفة على ﴿كَانُوٓا﴾ ليس على خبر كان، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ﴾ وليست معطوفة على ﴿أَشَدَّ﴾ حتى نقول: كانوا أشد منهم وكانوا أثاروا الأرض وعمروها؛ بل هي معطوفة على قوله: ﴿كَانُوٓا﴾.

وقوله: [﴿وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: حرثوها وقلبوها للزرع والغرس] هذه إثارة الأرض، فالإنسان إذا حرث الأرض لا شك أنه يثير الأرض بالمحراث والجرارات ترفعها وكذلك أيضًا

الغرس، فإن الإنسان يثير الأرض ويحفر للشجرة حتى يثبتها، فهؤلاء أشد منهم قوة وأيضًا قد أثاروا الأراضي.

أما أهل مكة فهم ما أثاروا الأرض؛ لأنه وادٍ ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقوله: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: السابقون بالتجارة والبناء والمصانع وغيرها.

فسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال الله تعالى عن جنوده: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣] (الجِفَان): هي الصحاف فيها الطعام ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: بِرَك الماء هي صحاف كبار كبركة الماء وهذا شيء عظيم، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ما تُحمل من كبرها وكثرة الطعام فيها هذا كله وما هو مثله ما حصل لهؤلاء أي: لقريش.

وقوله: [﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الظاهرات].

(الباء) للمصاحبة، أو التعدية؟ يجوز هذا وهذا، والمعنى: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءتهم بالبينات رسل من قِبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج البينات أو الآيات البينات التي تشمل الحجج والأحكام فإن الحكم إذا كان حكمًا عادلًا نافعًا للعباد فإنه بينة تدل على صدق من أتى به، فالرسل كلهم جاؤوا بالبينات فما من رسول إلا أتى بالبينة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] إذن: فمع كل نبي كتاب، وكل نبي له كتاب وله آيات بينات.

المهم: أن ما من رسول إلا معه بيِّنة ومعه كتاب.

قال المؤلف: [﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بإهلاكهم بغير جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتكذيبهم].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تسمى لام الجحود، أي: لام النفي لملازمته له، وقد سبق لنا أن لام الجحود هي التي يسبقها (لم يكن) أو (ما كان)، هنا سبقها ﴿فَمَا كَانَ﴾ فإذا قيل: ما كان الله ليفعل كذا أو ما شابه ذلك فاعلم أنه ممتنع غاية الامتناع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] ممتنع غاية الامتناع، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩] ممتنع غاية الامتناع، وهكذا كل ما جاء مثل هذا التعبير فالمراد به أنه ممتنع غاية الامتناع.

وقوله: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ الظلم في أصل اللغة النقص ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] وهو في الشرع كذلك: نقص فيما يجب، فيشمل الإهمال في الواجب والتعدي في المحرم؛ لأنك بخست نفسك حقها؛ حيث لم تجتنب المحرم، وكذلك أيضًا التقصير في الواجب نقص فمن قصر في واجب فقد ظلم نفسه، ومن تعدَّى في محرم فقد ظلم

نفسه بأنه نقص مما يعامل به نفسه.

فيكون الظلم إما ترك لواجب، وإما فعلًا لمحرم بالنسبة لله ـ عز وجل ـ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ هذه الصفة سلبية لا ثبوتية، وأيضًا تتضمن كمال العدل فهو لا يظلمهم لا لأنه عاجز عنهم ولا لأنه غير قادر لهم، ولكنه لكمال عدله ـ سبحانه وتعالى ـ، ونفي الظلم يكون لثلاثة أسباب: إما للكمال، أو العجز، أو عدم القابلية.

فإذا قلت: إن الجدار لا يظلم فهو لعدم القابلية.

وإذا قلت: فلان ضعيف لا يظلم عدوه فإنه للعجز.

قال الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُونَ بذِمَّةٍ ولا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وذلك لعجزهم.

فإذا قلت: إن الله لا يظلم الناس شيئًا فهو لكمال عدله لا لعجزه، فهو قادر ـ سبحانه وتعالى ـ على الظلم، لكنه ممتنع عليه لكمال صفاته.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ منصوبة على أنها خبر كان، و(كان) فعل ماض ناقص يرفع المبتدأ وينصب الخبر، والواو ضمير متصل في محل رفع اسمها والألف للجماعة، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ خبر، ولو كانت لتوكيد الضمير لقال: (أنفُسُهُم).

فقوله: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾، يعني: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، وبأي شيء يظلمون أنفسهم؟ بمعصية الله، إما بترك واجب، أو بفعل محرم وستأتي الفوائد بما تدل عليه هذه الجملة.

المهم: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ظلم هؤلاء الذين أهلكهم، ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم، أي: جناية منهم على أنفسهم، والله عاملهم بعدله.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨].

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** توبيخ من أعرض عن التفكر؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ فالاستفهام هنا للتوبيخ ويتفرع على هذه القاعدة: الحث على التفكير.

ويتفرع عليه فائدة ثانية: وهي فائدة التفكر؛ لأن الله لا يحث على شيء وتوبيخ على تركه إلا لما فيه من الفائدة والمصلحة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن محل التفكير هو العقل؛ لقوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾

٢ ـ **ويستفاد من الآية:** عجيب صنع الله في الإنسان، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾، وإذا أردت أن تعرف ذلك فاذهب إلى أهل العلوم والطب تجد في جسمك العجب العجاب، هذا الطعام يتحول إلى دم ويوزع على أنسجته الجسم يعني: يعطي الأعصاب كمية تليق بها، ويعطي اللحم كمية تليق به ويعطي العظام كمية تليق بها يعني: أنابيب بسيطة مثل الشعر توزع على هذا الجسم ما يحتاج إليه، فخلق الله فيه العجب العجاب وما يبهر العقول، وقد ذكر ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» من هذا شيئًا كثيرًا قبل أن يتوصل الطب إلى ما توصل إليه الآن.

٢ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن خالق السماوات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فلم يخلقها أحد، ولهذا قال في سورة الطور: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٦].

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات عدد السماوات وهي سبع، وأما الأرض فدائمًا تفرد في القرآن فما ذكرت في القرآن مجموعة لكن أشير إلى جمعها في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما يستحق أن يجعل قسيمًا لخلق السماوات والأرض. فكلنا يعلم عِظَم السماوات والأرض؛ إذن فعظم ما بينهما موازٍ لهما.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** كمال حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته وكمال قدرته نستدل عليها بعظم مقدوره، فكمال القدرة يؤخذ من عظم المقدور، وهذا من الدلالة بالله، أن الله إن فتح على العبد بمعرفة لوازم النصوص استفاد بذلك فوائد عظيمة، حتى إنه ليأخذ من النص الواحد من المسائل ما لا يحصِّل غيره نصفها.

إذن يُستفاد من هذه الآية: عِظَم قدرة الله ـ عز وجل ـ وبالغ حكمته، فالحكمة من قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فهي ليست عبثًا؛ بل هي مخلوقة بالحق.

أما القدرة: فنأخذها من عِظَم المخلوق الذي يدل على عظمة الخالق.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان ألا يضيع وقته سُدًى، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأن ضده الباطل، والباطل إما ضار وإما غير ضار ولا نافع، لكن كل ما هو مذموم فهو باطل.

المهم: أن السماوات والأرض كلها خلقت ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فينبغي لك أن تكون موافقًا لهذه الحكمة التي خلقت من أجلها السماوات والأرض.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذا الخلق على عظمته له أجل محدود؛ لقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فكل شيء في السماوات والأرض كليًّا كان أو جزئيًّا فهو محدد إلى أجل مسمى، وسواء كان عينًا أو

صفة فإنه محدود إلى أجل مسمى، ولهذا من الحكم المشهورة: (**دوام الحال من المحال**)، وهذا يتفرع عليه قاعدة أخرى وهي: أن الخلق ناقص؛ حيث لم يقدر له الأبدية فهو ناقص، ولهذا تأتي الحياة الآخرة كاملة؛ لأنها مؤبدة.

٨ ـ ومن فوائد الآية: كمال الحكمة؛ حيث كان كل شيء مُقدَّرًا مُنظَّمًا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، والمقدار: يشمل مقدار الكمية، والكيفية، والزمنية، والمكانية، كل الأنواع الأربعة يشملها قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

٩ ـ ويستفاد من هذه الآية: أنه مع هذه الآيات العظمى ـ خلق السماوات والأرض وما بينهما وتأكيد ذلك بأجل مسمى وتقديره بتقدير معين ـ مع هذا كله كثير من الناس ينكرون لقاء الله، والحقيقة أن العاقل يستدل بهذا التأكيد على وجوب لقاء الله إذا رأى أصحابه وقرناءه الذين كانوا بالأمس معه يذهبون واحدًا فواحدًا هل هذا يحمله على الإيمان أم لا؟ لا شك أنه يحمله على الإيمان؛ لأنه يعلم أن الدنيا لو دامت لأحد ما وصلت إليه، إذن يستدل بهذه الآجال المقدرة على أنه لابد وأن يكون هناك شيء وراء هذا، فهل من الحكمة أن تنشأ هذه الخليقة العظيمة وبهذا النظام البديع ثم تكون النهاية أن يموت الإنسان كجيفة حمار!! ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] فهذه الشرائع التي نزلت لابد وأن يكون وراءها شيء وهو البعث الذي به لقاء الله ـ عز وجل ـ لكن مع هذا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾

١٠ ـ من فوائد هذه الآية: إثبات البعث المفهوم من قوله: ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾.

١١ ـ ومنها: أن كل أحد سيلاقي الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ وقال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فإذا قال قائل: هل هذا اللقاء شامل للمؤمن والكافر؟ **قلنا:** نعم، لكن هناك فرق بين اللقاءين كما أن الرجل يلاقي زيدًا ويلاقي عمرًا ويكون بين اللقاءين فرق عظيم، يلاقي هذا بوجه غضب وهذا بوجه رضى، وهذا بوجه منقبض، وهذا بوجه متبسط وما أشبه ذلك.

١٢ـ ومن فوائد الآية: إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ مع أنه يتكلم عن الكافرين فهي الربوبية العامة، والربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة.

وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١ ـ ١٢٢] فالأولى عامة، والثانية خاصة.

والفرق بينهما: أن الربوبية العامة تستلزم التفرق المطلق في المربوب، والخاصة تستلزم مع التفرق المطلق العناية به ونصره وتأييده وما أشبه ذلك تشبه المعية العامة والخاصة وتشبه مسائل كثيرة من هذا.

١٣ - ومن فوائد الآية: ذم من كفروا بلقاء الله مع الآيات العظيمة الدالة على وجوده وحكمته وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ هذه الجملة لا ريب تدل على الذم.

فوائد قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩]

١ - يستفاد من هذه الآية: التوبيخ لمن غفلوا عن السير في الأرض سواءً بأبدانهم أو بقلوبهم؛ لأن الاستفهام في الآية للتوبيخ، ويتفرع على ذلك: الحث على السير في الأرض، ومن ذلك مراجعة كتب التاريخ والأمم؛ لأن من راجعها لاسيما التواريخ الحريصة على الضبط يتبين له العجب العجاب في خلق الله عز وجل ومداولة الأيام بين الناس، وتغييره للأمور، وتزيد الإنسان إيمانًا بالله، لكن إن كانت هذه الحوادث من السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين ازداد بها مع الإيمان بالله أن يصطبغ بصبغتهم ويحتذي حذوهم في السير، وإن كانت من الأمور العامة العابرة فإنه يستدل بها على قدرة الله - عز وجل - وكمال سلطانه.

فالمهم: أن السير في الأرض بمعنى مراجعة الحوادث والتاريخ الذي يفيد المرء ويعتبر بها، ولكنها تفيد من وجه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

٢ - ويستفاد منها: أن عاقبة الكفار عاقبة مادية؛ لقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٣ - ومن فوائدها: أن الإنسان مهما قوي فهو ضعيف بالنسبة لقوة الله؛ لقوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ومع ذلك هل تحصنوا بهذا من عذاب الله؟ الجواب: لا؛ بل إن الله بحكمته أذلَّ أعتى أهل الأرض بأهون الأشياء وألطفها وهم عاد فأهلكوا بالريح، وأهلك من كان يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته بالماء الذي كان يفتخر به بالأمس، وهذا مما يدل على كمال سلطان الله تعالى وعظمته، وأنه مهما قوي الإنسان فهو ضعيف بالنسبة لقوة لله - عز وجل -.

في عام أربعمائة أظن حصلت هزة أرضية في إيران دمَّرت في لمح البصر خمسة وعشرين ألف نسمة من بني آدم فضلًا عن الحيوانات والمواشي وما إلى ذلك ودمرت مائتين وثلاثين قرية ومدينتين كبيرتين، والهزة هي كالأرجوحة؛ بل هي في لمح البصر مثل الهزة التي حصلت في اليمن، فهذه القدرة العظيمة هل يمكن لأحد أن ينجو منها؟!

إذا عُصِي الله - عز وجل - لا يمكن أبدًا، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

٤- **ومن فوائد الآية:** أن التأمل في حال الكفار بالاعتبار مطلوب، فإذا جاء إنسان وأراد أن يدرس تاريخ أمة كافرة، هل لنا ننهاه عن ذلك؟

نقول: إذا كان يريد أن ينتفع بالآيات ويعرف ماذا صنع الله بهم فإنه مأجور، أما إذا كان يريد أن يتعجب من قوتهم وصنعتهم فإنه يُنهى عنه، مثلما قلنا في الذين يذهبون إلى ديار ثمود للنزهة فهذا حرام، أما للاعتبار فهذا جائز بالشرط الذي ذكره الرسول -عليه الصلاة والسلام-: وهو البكاء.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن إثارة الأرض وتعميرها فيه نوع من الاكتفاء الذاتي[١].

قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم:١١، ١٧]

التفسير

قال المؤلف: [﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾ أي: ينشئ خلق الناس، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالياء والتاء]؛ هذا لتأكيد الإيمان باليوم الآخر.

ذكَّر الله تعالى عباده بأمر يعترفون به وهو أنه بدأ الخلق ولا أحد ينكر ذلك، فلا أحد يدعي أنه خلق نفسه، فكل إنسان يعرف أنه مخلوق من عدم، ومن المعلوم أنه لو ادعى أنه خُلق من غير خالق فإن كل أحد يكذبه، وإذا أقر أنه لابد من خالق فنقول له: مَنْ عَيَّنَهُ لنا؟ وحينئذٍ لا يستطيع أن يعيِّن، فنقول له: إن الذي خلقك هو الله.

قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾ أي: يُنشِئه أول مرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] وتطوير الخلق أي: يجعله أطوارًا وهذا أمر معلوم؛ لأن هذا هو مقتضى الحكمة أن الأشياء تتطور شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى حد الكمال.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب بمُهْلة؛ لأن الإعادة لا تكون إلا عند قيام الساعة فهذا

---

(١) يلاحظ أن تفسير الآية (١٠) غير موجود.

يتأخر كثيرًا عن ابتداء الخلق.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يرجعه مرة ثانية وليس يبتدئ خلقًا جديدًا وإنما يعيد المخلوق الأول، وهناك فرق بين الأمرين؛ لأننا إذا قلنا: إنه ابتداء خلقًا جديدًا، فمعنى ذلك: أن يعذب من يعمل ومن لم يعمل، وأيضًا هذا النوع لا ينكره المكذبون بالبعث؛ لأنهم يقرون بالابتداء، إنما هم ينكرون الإعادة قال تعالى حكاية لقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وعلى هذا فالبعث إعادة وجمع ما تفرق وليس ابتداء خلق جديد، فإذا قيل: هذا المتفرق صار رميمًا ثم ترابًا وتلاشى أو أكلته السباع أو الحيتان أو ما أشبه ذلك، نقول: مهما كان فالله قادر على أن يجمعه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان: ﴿يُرْجَعُونَ﴾، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فعلى قراءة التاء تكون الجملة للخطاب، وعلى قراءة الياء تكون الجملة للغيبة، ويشكل على هذا أنه قال: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ مع أن الخلق يُبدأ مفردًا ثم يعيده، ومقتضى السياق أن نقول: ثم إليه يرجع، لكن لماذا قال: ﴿تُرْجَعُونَ﴾؟

نقول: إن الجواب على ذلك أن الخلق مصدر بمعنى اسم المفعول فمعنى يبدأ الخلق يعني: يبدأ المخلوقين، لكن لما كان مصدرًا فإن المصدر لا يُثنى ولا يجمع قال ابن مالك في «الألفية»:

ونَعَتُوا بِمَصْدرٍ كَثِيْرا فَالْتَزَمُوا الإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيْرا

وعلى هذا نقول: إن الخلق بمعنى: المخلوقين، يعني: ثم إلى الله يرجع هؤلاء المخلوقون بعد الإعادة، وهذا الرد إلى الله والإرجاع من أجل الجزاء والحساب ثم المآل إلى دار النعيم أو إلى دار الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم:١٢]، قال المؤلف: [يسكت المشركون لانقطاع حجتهم].

قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه ظرفيَّةٌ متعلقة بقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ وهي مضافة إلى الجملة التي بعدها ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، فالجملة إذنْ في محل جر بالإضافة.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: تأتي كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، والساعة المراد بها ساعة البعث فـ (أل) فيها للعهد، أي: العهد الذهني، يعني: الساعة المعهودة العظيمة التي فيها قيام الخلق من قبورهم إلى الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ [يسكت] ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالإبلاس بمعنى: السكوت، وقيل: الإبلاس بمعنى: اليأس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩] أي: لآيسين، ومنه إبليس؛ لأنه أيس من رحمة الله، وعلى هذا فيكون ﴿يُبْلِسُ﴾ بمعنى: ييأس، ولا يبعد أن تكون الآية جامعة للمعنيين أي: ييأسون فيسكتون؛ لأنه إذا أيس الإنسان، ولم يتكلم

بشيء؛ إذ إن الكلام لا ينفعه، وعلى هذا فنقول: إن معنى ﴿يُبْلِسُ﴾: ييأس مع السكوت.

وقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اسم فاعل من أجرم، أي: فَعَلَ الجرم، وهو الذنب العظيم، ولهذا فسرها المؤلف بقوله: [المشركون]، ويستدل على أنهم المشركون بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ [الروم:١٣]، فهم يوم القيامة ييأسون ويسكتون، ولا يجدون لهم حجة.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم:١٣].

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ قال المؤلف: [أي لا يكون].

لماذا فسر (لم) بـ(لا)؟ لأن (لم) للماضي، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ فتقتضي أن هذا الأمر قد وقع وهو واقع أو لم يأتِ؟ لم يأت؛ لأنه يوم القيامة، فعلى هذا يكون ماضيًا بمعنى: المستقبل ﴿يُبْلِسُ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ حينئذٍ.

وعندي: أنه لا حاجة لهذا التأويل؛ لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ مقيدة بكلمة: ﴿يُبْلِسُ﴾، يعني: (ولم يكن لهم في حال الإبلاس)، وحال الإبلاس يكون يوم القيامة، لكن رأي المؤلف أخذ الآية على أنها مطلقة بدون أن تقيد بقوله: ﴿يُبْلِسُ﴾، وعلى هذا فلابد أن نقول: إن (لم) بمعنى: (لا).

قال: [﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ممن أشركوهم بالله وهم الأصنام ليشفعوا لهم ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾] إلى آخره.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾، ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ إعرابها اسم ﴿يَكُن﴾، و﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ خبرها مقدم.

وقوله: ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ جمع شريك وهو بمعنى اسم مفعول، فقتيل بمعنى: مقتول، أي: مشروك به، والمعنى: (من جعلوهم شركاء مع الله) كما قال المؤلف: [ممن أشركوهم بالله]، فصارت هنا الإضافة من باب إضافة الشيء إلى مفعوله لا إلى فاعله أي: (الذين جعلوهم شركاء لهم).

وقوله: ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ جمع شفيع بمعنى: شافع، والشافع هو من يتوسط لك إما بجلب منفعة، وإما بدفع مضرة، وسمي شافعًا؛ لأنك به كنت شِفْعًا، وكنت قبله منفردًا ومعه شفعًا، ولهذا سمي الشفيع شافعًا لهذا الوجه، قلنا: إن الشفيع هو مَنْ يشفع لك ويتوسط إما بجلب منفعة أو بدفع مضرة.

مثالها في جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها.

ومثال دفع المضرة: شفاعة النبي ﷺ لأهل النار ألَّا يدخلوها، فهؤلاء لم يكن لهم من شركائهم شفعاء.

وقوله: [﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: يكونون ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: مُتبرِّئين منهم].

في يوم القيامة، هؤلاء الشركاء الذين كانوا يرجون منفعتهم يكفرون بهم ويتبرؤون منهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧] فهم يوم القيامة

يكفرون بهم، كما أن العابدين أيضًا يكفرون كل منهم يكفر ببعض - والعياذ بالله - بينما كانوا في الدنيا يرجون شفاعتهم وخيرهم قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣] لكنه في يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم:١٤]

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ نقول فيها ما قلناه فيما سبق أن المراد بالساعة هنا: ساعة البعث المعهودة والمعلومة.

قال المؤلف: [﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي: المؤمنون والكافرون].

قوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ هي متعلق ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعني: أن ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثانية تأكيد للأولى، والدليل على أنها تأكيد أنها لو حذفت وقيل: (ويوم تقوم الساعة يتفرقون) استقام الكلام، لكنه يفوت التوكيد الذي أراده الله - عز وجل - يعني: في ذلك اليوم بالتأكيد.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في كل مواردها يقولون: إنه عِوَضٌ عن جملة يعني: (يوم إذ تقوم الساعة)، وكذلك يقال في حينئذٍ، ويقال أيضًا في وقتئذٍ: أن التنوين عوض عن الجملة أي: يومئذٍ، وحينئذٍ يكون كذا وكذا.

وقوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ الضمير يعود على الخلق فيشمل المؤمن والكافر حتى لو كانوا أقارب، فلو كان أب مسلم وابن كافر أو بالعكس تفرقوا؛ لأنها دار الجزاء، وكل يُجزى بعمله، فكيف التفرق إذنْ؟.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥]

قال المؤلف: [﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ جنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّون].

قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ يقولون: حرف شرط وتفصيل، ولذلك يؤتى بها دائمًا في مواضع التفصيل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥] وهي أيضًا حرف شرط فتحتاج إلى جواب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ [الليل:٥ - ٧] وهنا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فتكون ﴿فَأَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل، وهي أيضًا متضمنة معنى التوكيد، مثلًا قولك: أما من فعل كذا فله كذا، أقوى من قولك: فمن فعل كذا فله كذا، فتفيد الشرطية والتفصيل والتوكيد وهو تقوية الكلام.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: جمعوا بين الإيمان والعمل.

واعلم أن الإيمان إذا أطلق شمل العمل كما أن عمل الصالحات إذا أُطلق شمل الإيمان -

قصدي بالإطلاق: الإفراد - وإذا قُرن أحدهما بالآخر صار الإيمان للأعمال الباطنة، والأعمال لعمل الجوارح.

والإيمان يشمل: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ هكذا فسره النبي ﷺ لجبريل - عليه السلام - حين سأله: ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]. وكلمة عمل تشمل: الفعل والقول، والعمل الصالح يشمل قول اللسان، وعمل الجوارح، والعمل الصالح هو ما جمع بين أمرين الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لابد من هذين الأمرين: إيمان وعمل، فمجرد الإيمان لا ينفع بدون عمل، والعمل بدون إيمان أيضًا لا ينفع، فلابد من إيمان وعمل.

وبهذا نعرف أن بعض النصوص المطلقة التي فيها الوعد بالجنة لمن كان في قلبه أدنى حبة خردل من إيمان وما أشبه ذلك، المراد: الإيمان المتضمن للعمل تحقيقًا أو تقديرًا؛ تحقيقًا: بأن يكون عاملًا فعلًا، وتقديرًا: بأن يكون ما تمكن من العمل، ولكن معه الإيمان كما لو آمن عند قرب وفاته.

وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٖ يُحْبَرُونَ﴾ الجملة اسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار.

وقوله: ﴿فِي رَوْضَةٖ﴾ يقول المؤلف: [جنة]، وهي كذلك، فالروضة: هي عبارة عن البساتين المشتملة على الأزهار والأشجار والروائح الطيبة والمناظر البهيجة، ولهذا قال: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي:[يسرون]، وقيل: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ ينعمون، وهما متلازمان؛ لأن النعيم يحصل به السرور، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿فِي رَوْضَةٖ يُحْبَرُونَ﴾.

التقسيم الثاني: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم:١٦].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بترك العمل الصالح ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلم يؤمنوا.

وقول المؤلف: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: القرآن] وهذا القول ليس صحيحًا، بل يشمل القرآن وغير القرآن؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هؤلاء يكونون في هذه الأمة ويكونون في غيرها.

وقوله: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ البعث وغيره، والبعث هو الإخراج من القبور، وغيره؛ الحساب والجزاء والجنة والنار التي يكذبون بها ويقولون: ليس هناك جنة ولا نار ولا حساب ولا عذاب.

والعجيب: أن هذا القول الباطل الفاسد نحا إليه من يسمون أنفسهم بالحكماء وهم الفلاسفة إذ يقولون: لا توجد جنة ولا نار ولا بعث، ولكن الرسل قالوا للناس هذا من أجل إقامتهم على الطريق التي اخترعوها لهم ويزعمون - والعياذ بالله - أن الرسل رجال عباقرة عندهم ذكاء

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحسن سيرة وتنظيم، لكنهم لو قالوا للناس: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا بدون ترغيب ولا ترهيب ما أطاعهم الناس، فكانوا يقولون للناس: إن لكم ربًّا عظيمًا وإلهًا قادرًا وإن لكم معادًا يكون فيه الجنة أو النار والأمر ليس كذلك عندهم.

وإنما ذكروا ذلك من أجل إقامة الناس على الطريق التي سنُّوها لهم، وهذا معناه: كفر بالبعث وكفر بالرسالة وحتى بأنفسهم؛ لأن من لم يؤمن بالله عز وجل فقد كفر أول ما كفر بنفسه؛ لأنه أنكر أن يكون له خالقًا.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ المراد بالعذاب هنا العقوبة، وجعل العذاب ظرفًا لهم؛ لأنه محيط بهم من كل جانب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ من الإحضار، أحضرته بمعنى: جعلته يحضر هذا الشيء، فهؤلاء محضرون في العذاب غصبًا عليهم ولو رجع الأمر إلى أنفسهم ما حضروا ولكنهم يُحْضَرون فيه كُرهًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]

قال المؤلف: [﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: سبحوا الله]، المؤلف يقول:[أي سبحوا الله]، وجعل المفعول المطلق هنا بمعنى: فعل الأمر لا على أن عامله محذوف بل جعله نائبًا عن فعلهم أي: سبحوا الله، فتسبيح الله معناه: تنزيهه عما لا يليق به، وهذا يتضمن شيئين:

أحدهما: تنزيه الله عن كل نقص في صفات كماله.

والثاني: تنزيهه عن مشابهة المخلوقين.

أما الأول: فإننا نرى كثيرًا ما يذكر الله ـ عز وجل ـ أنه لا يتعب، ولا يظلم، ولا يغفل، وما أشبه ذلك؛ لكمال صفاته.

وأما مشابهة المخلوقين: فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقين هو في الحقيقة تنزيه له عن النقص؛ لأن المخلوق ناقص وتشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، بل إن المقارنة تكون بينه وبين من في رتبته، وكما قيل:

ألم تـر أنَّ الـسَّيْفَ يـنقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيْلَ: إنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

يقول المؤلف: [أي: سبِّحوا الله بمعنى: صَلُّوا]، فأفادنا المؤلف أن المراد بتسبيح الله هنا: تسبيح خاص وهو الصلاة، من أين أخذ هذا التخصيص؟

أخذ المؤلف من تقييده بهذه الأوقات، فإن تقييده بهذه الأوقات يدل على أن المراد: الصلاة،

وأطلق على الصلاة التسبيح؛ لأن التسبيح من واجباتها كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[1] وعلى هذا تكون الصلاة هي المراد بالتسبيح، ويدل على التخصيص تأكيدها بأوقات الصلاة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠].

١ - **يستفاد من هذه الآية:** سوء العاقبة للمسيئين؛ لأن عاقبة هؤلاء الذين أساؤوا السوأى؛ لقوله: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن عاقبة المحسن الحسنى؛ لأن الحكم يدور مع علته فإذا كانت عاقبة المسيء السوء فعاقبة المُحسن الحسنى، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الإساءة هنا هي والتكذيب بآيات الله والاستهزاء بها على تقرير المؤلف، وعلى الرأي الثاني يكون قوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ هي العاقبة.

فيستفاد منها: أن عاقبة المعاصي تكون الكفر التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها.

إذا قلنا: إن قوله: ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: عملوا السيئات كان عاقبتهم التكذيب والاستهزاء ويكون معنى ذلك: أن المعاصي سبب في الكفر وهو كذلك، وقد قال أهل العلم: إن المعاصي بَريد الكفر.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الوحي الذي أنزله الله على الرسل من الآيات؛ لقوله: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وإنما كان من الآيات لما يشتمل عليه من الصدق في الأخبار، والنفع في القصص والعدل في الأحكام والإصلاح، فكل الكتب النازلة كلها متضمنة هذه الأمور: صدق في الخبر، ونفع في القصص، وعدل في الأحكام، ومصلحة للعباد، ولهذا كانت هذه الكتب من آيات الله؛ لأنه لا يمكن للبشر أن يضعوا مثلها.

٤ - من فوائد الآية: الفرق بين التكذيب والاستهزاء، فالتكذيب: رد الخبر، والاستهزاء: السخرية بالأعمال الظاهرة أو الباطنة، والاستهزاء أشد؛ لأنه جامع بين التكذيب والسخرية.

٥ - **ومن فوائد الآية:** التحذير من الأعمال السيئة؛ حيث كانت عاقبتها سواء، قلنا: إن

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣٣٤).

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هو العاقبة، أو أن العاقبة: هي التكذيب فإنه يتضمن التحذير من الأعمال السيئة.

فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم:١١].

١ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث ابتدأ الخلق.

٢ـ ومن فوائدها: ثبوت حدوث العالم وأنه ليس قديمًا لا أول له، كما زعمت الفلاسفة؛ لأن الله ابتدأه والمبتدأ معناه: أنه كان في الأول عدم.

٣ ـ ومن فوائد الآية: ثبوت البعث؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٤ ـ ومن فوائدها: أن البعث ليس ابتداء خلق ولكنه إعادة له، خلافًا لمن قال: إن البعث ابتداء خلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والضمير يعود إلى خلق المبتدأ.

وقد سبق لنا تعليقًا على هذه الآية: أنه لو كانت الإعادة ابتداء خلق جديد لكان يعذب من لم يعمل وينعم من لم يعمل، لكن البعث إعادة لما سبق لنفس الأعيان، التي تفككت وذهبت ونفس التراب ، فهذا الجسم هو نفس الأول يجمع الله تعالى ما تفرق منه ثم يحييه.

٥ ـ ومن فوائد الآية: الاستدلال بالمبدأ على المعاد تؤخذ من قوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الاستدلال بالمبدأ على المعاد استدلالًا حقيقيًا ومنطقيًا ومعقولًا فأيهما أصعب وأشد إذن؟ بالطبع الأول؛ فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، فالكل هين لكن هذا أهون؛ لأن هذا إعادة.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن مرجع الخلائق إلى الله ـ عز وجل ـ في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فيرجعون إلى الله ليحكم بينهم بالجزاء، وأما في الدنيا فيرجعون إلى الله ليحكم بينهم بالعمل ، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] فهو خبر ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:٥٩].

فالمهم: أن المرجع إلى الله دنيا وأخرى، فنحن نرجع إلى الله في أمور دنيانا وفي أمور ديننا، وكذلك في أمر الآخرة نرجع إلى الله ويجازينا بما نستحق فالآخرة تدخل فيها بالأولوية، ولكن لا مانع أن تحمل الآية على العموم.

٧ ـ ومن فوائدها: أنه لا يجوز التحاكم إلى غير الله، ووجه ذلك الحصر في قوله:﴿إليه﴾ يعني: لا إلى غيره.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الروم:١٢-١٣].

١ ـ يستفاد من هذه الآية: قيام الساعة وأنه كائن لا محالة.

٢ ـ ومن فوائدها: أن أهل الشرك إذا قامت القيامة سكتوا وأيسوا من الرحمة؛ لقوله: ﴿يُبْلِسُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بخلافهم في الدنيا فإنهم في الدنيا يعاندون ويستعلون بآلهتهم، كما قال أبو سفيان: (اعْلُ هُبَل)، لكن في الآخرة لا حراك لهم ولا قول.

٣ - ومن فوائدها: أن هذه المعبودات لا تنفع أصحابها في أحوج ما يكونون إليها، وجه ذلك من الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾، وهذا هو محل الشفاعة، لكنهم لا يستفيدون من هذه الأصنام؛ بل أكثر من هذا أنهم يكفرون بها؛ لقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ كما أن الأصنام تكفر بهم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] فيتبرأ كلٌّ من الآخر مع أن ذلك هو محل الأزمة والفرَج.

٤ - ومن فوائد الآية: الإشارة إلى أن هؤلاء المشركين إنما أشركوا بطلب أن يكون هؤلاء المشْرَك بهم شفعاء، وهذا ما صرَّح الله به في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فإذا قال هؤلاء الذين يعبدون القبور: نحن لا نعبدهم؛ لأننا نرجوا منهم نفعًا مباشرًا، ولكن نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله.

قلنا: هذا شرك الأولين، وهذا ما حكى الله عن المشركين أنهم لا يريدون النفع المباشر لكنهم يريدون أن تكون شفيعة لهم عند الله - عز وجل -.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

١ - يستفاد من الآية: إثبات القيامة.

٢ - ومن فوائدها: أنه في ذلك اليوم يتفرق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

٣ - ومن فوائدها: أن الآباء والأمهات مع أولادهم إذا كان أحدهم مؤمنًا، والثاني كافر يتفرقون ولا يمكن أن ينقذ أحدٌ أحدًا في ذلك اليوم؛ لعموم قوله: ﴿يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يستثنِ الأولاد مع والديهم أو بالعكس، ففي ذلك اليوم لا يوجد اجتماع إلا إذا كانوا على الحق.

٤ - ومن فوائد الآية: إثبات الجزاء، أولًا: لقوله: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾، وثانيًا: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٥ - ومن فوائدها: فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ حيث كان جزاؤه ما ذكر، والتحذير من الكفر؛ حيث كان جزاؤه ما ذكر أيضًا.

٦ - ومن فوائد الآية: أن الإيمان والعمل يختلفان إذا اجتمعا ويتفقان إذا افترقا، فعلى هذا يكون كل منهم بمعنى الآخر عند الافتراق ويختلف كل منهما عن الآخر عند الاجتماع.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا؛ لقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ وحيث فسرنا الصالح بأنه: ما اجتمع فيه الإخلاص والمتابعة، يستفاد منه: أن العمل الذي فيه شرك لا ينفع صاحبه، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] فالشرك من خصائصه ولو كان أصغر لا يغفر إلا بالتوبة.

مسألة: ماذا لو طرأ الرياء أثناء العبادة؟

الجواب: إذا طرأ الرياء في أثناء العبادة فإن العبد إن كافحه ودافعه ما ضرَّه، وإن استرسل معه واطمأن إليه فإنه يضره، ثم هل يكون مُبطِلًا للعبادة أم غير مُبطِل؟

إذا كانت العبادة تتجزأ كما لو أراد أن يتصدق بصاعين وأخرج صاعًا بدون رياء ثم أخرج الثاني برياء، فإن البطلان يختص بما حصل فيه الرياء فقط؛ لأن الأول صار صحيحًا وإن كان بالعكس لا تتجزأ كما في الصلاة، فإن من أهل العلم من يرى بأنها تبطل الصلاة؛ لأنه طرأ عليه الرياء وهي لا تتجزأ فلا يمكن أن يصلح أولها دون آخرها.

ومنهم من يقول: لا تبطل؛ لأن أصل هذا العمل خالص لله فلا يبطله الرياء.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الجنة روضة؛ لقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ويروى أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال للنبي ﷺ ليلة أعرج به: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»[2].

٩ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذه الجنة مملوءة بالسرور؛ لقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ لأن الحبور هو التنعم والسرور الذي لا شيء فوقه.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

١ ـ **ومن فوائدها:** أن الكفر أعم من التكذيب؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، قال تعالى: ﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾؛ لأن الكفر ينقسم إلى قسمين: إما جحد وإما استكبار، فلهذا كان أعم من التكذيب.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الكتب المنزلة من آيات الله، وسبق لنا قبل قليل وجه كونها من آيات الله؛ لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٦٠) دون قوله: «سبحان الله ....».

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات البعث وأن مُنكِره كافر؛ لقوله: ﴿وَلِقَآيِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ولقاء الآخرة - هذا اللقاء العظيم - الذي تتلاقى فيه كل المخلوقات ويلاقون الله - سبحانه وتعالى -.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن هؤلاء المكذبين الكافرين يحضرون للعذاب قسرًا وقهرًا؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يعني: يدفعون بعنف وشدة - والعياذ بالله - قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٣-١٤] ومعلوم أنهم لو رجع الأمر لاختيارهم لا يدخلونها، لكنهم يُدفعون فيها بعنف وشدة حتى يدخلوها.

قال الله تعالى:

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:١٨-٢١]

التفسير

قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾: جملة مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر مقدم؛ لإفادة الحصر فله وحده الحمد، وحمد الله يختص بأنه حمد يستحقه المحمود، ولهذا نقول: إن اللام هنا للاستحقاق والاختصار، و(أل) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هذه للعموم يعني: جميع المحامد لله - سبحانه وتعالى - في السماوات والأرض وهو - سبحانه وتعالى - محمود على كل حال، وكان النبي ﷺ إذا أصاب ما يسره قال: «الحَمْدُ لله الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»[1]، وإذا كان الأمر على خلاف ذلك قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وأما ما يقوله العامة: (الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه) هذا وإن كان حقًّا لكنه لا ينبغي التعبير بهذا الشيء؛ لأنه فيه شيء من العَتْب على الله - عز وجل - في قولهم: (على مكروه سواه) وإنما يقال كما قال النبي ﷺ: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ».

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥).

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول المؤلف: [أي: يحمده أهلهما]، وهذا لا شك أنه داخل في الآية أن ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يعني: أنه يُحمد، ولكن ينبغي أن يقال بما هو أعم، أي أن ما خلقه في السماوات والأرض فإنه مستحق الحمد عليه سواء حمد أم لم يحمد، فكل ما في السماوات والأرض، فإنه شيء يحمد الله عليه، أما في أمور الخير فظاهر، وأما في أمور الشر فيظهر ذلك أن الشيء بالنسبة لفعل الله ليس بِشَر بل قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» فلا يُنسَب إليه الشر.

مثال ذلك: الجدب والمرض والفقر والجهل والخسوفات في الأرض هذه كلها للإنسان شر، لكنها بالنسبة لقضاء الله خير؛ لأن الله ما قضاها إلا لحكمة وحينئذٍ يكون محمودًا عليها، والشر في المقضي لا في القضاء، ولهذا في حديث الحسن بن علي قال: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»[1] شر الذي قضيت فأضاف الشر للمقضي لا إلى القضاء.

ثم اعلم أيضًا: أن المقضي ليس شرًّا محضًا؛ بل هو شر من وجه، وخير من وجه آخر، أو شر في محل، وخير في محل آخر، فمثلًا: الفساد في البر والبحر شر لكنه خير من جهة عاقبته؛ لأن الله قال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إذنْ: هذا خير، كذلك أيضًا قد يكون شرًّا في مكان لكنه خير في مكان آخر، فإهلاك الأمم السابقة بذنوبهم شر بالنسبة لهم؛ حيث هلكوا فما رجعوا ولا استفادوا، لكن بالنسبة لغيرهم ممن يعتبر بحالهم خير فيكون هذا شرًّا في محله خيرًا في محل آخر.

المهم: أن قضاء الله نفسه ليس فيه شر أبدًا بل هو خير، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في جميع الأحوال، إذنْ المقضي يكون فيه الشر، ومع إثباتنا أن الشر في المفعولات لا في الفعل نقول أيضًا: إن هذا الشر في المفعولات ليس شرًّا محضًا لا خير فيه أبدًا؛ بل قد يكون شرًّا من وجه، وخيرًا من وجه في نفس المحل كقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقد يكون شرًّا في محله، خيرًا في محل آخر، مثل إهلاك الأمم السابقة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما محل نفوذ فعله، فإن الذي في السماوات والأرض من الملائكة والبشر والجن وغيرهم كلها تحمد الله وكلها محل حمده.

فإذا قال قائل: هل الكافر يحمد الله؟

الجواب: بلسان المقال لا، ولكن بلسان الحال؛ بمعنى: أن حاله تستوجب لمن تأملها أن يحمد

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وأبو داود (١٤٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الله، هذا معنى قوله: إنه يحمد بلسان الحال، يعني: حاله من تأملها عرف بها ما يستحقه الله من الحمد والتنزيه.

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوف على قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني: وسبحوا الله عشيًا، والعشي من الزوال إلى غروب الشمس، وفي حديث أبي هريرة في المسيء في صلاته قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله إِحْدَى صَلَاةِ العَشِيِّ»[1].

قال المؤلف: [﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على ﴿حِينَ﴾، وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وفيه صلاة الظهر].

وقوله تعالى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾؛ لأنه سبق لنا أن القاعدة في المعطوفات: أن يكون العطف على أول واحد؛ لأنه هو المحل الذي وقع عليه عمل العامل فيكون العطف على الأول.

هذه الأوقات الخمسة هي أبسط ما ذكره الله تعالى في القرآن من أوقات الصلوات وذكرها مجملة في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] في هذه الآية: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ يعني: وقت دلوك الشمس؛ لأن اللام للتوقيت مثل قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] أي: وقت استقبال عدتهن، فدلوك الشمس لزواله، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ أي: شدة ظلمته، وذلك عند انتصافه؛ لأن أشد ما يكون الليل ظلمة إذا انتصف؛ لأن نصف الليل أبعد ما تكون الشمس عن سطح الأرض.

أما قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ فيدخل في هذا من زوال الشمس إلى منتصف الليل أربع صلوات: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ ففصَّله، والمراد به: صلاة الصبح وفصله عما قبله ليدل على أن وقت العشاء ينتهي بنصف الليل وهذا هو الذي دلت عليه السنة أيضًا، ومن قال: إنه ينتهي بطلوع الفجر فلا دليل له وهذه المسألة ينبني عليها إذا أطهرت المرأة في النصف الثاني من الليل هل يلزمها صلاة العشاء على قول من يقول: إن وقت العشاء إلى طلوع الفجر؟ نعم، يلزمها العشاء وكذلك المغرب أيضًا، وعلى القول الراجح لا تلزمها صلاة العشاء؛ لأن صلاة العشاء إلى نصف الليل.

ثم قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٩]

قال المؤلف: [﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾] إلى آخره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

النطفة باعتبار ما يظهر لنا ميت وكذلك البيضة، لكنها في الواقع ما هي ميتة- أي: النطفة - ، فقد قال النبي ﷺ حين سُئل عن العَزْل قال: «هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ»[1] فجعله وأدًا ، والوأْدُ لا يكون إلا لحيٍّ، فالحيوانات المنوية حية لكنها لا تُرى.

وهذه النطفة البسيطة التي ليست بشيء يقولون: إن فيها خمسة ملايين، أو أكثر من الحيوانات المنوية.

إذنْ نقول: إنه باعتبار ما يُرى ويَظهر هي ميتة ، لكن باعتبار الحقيقة ليست كذلك.

وقوله: ﴿ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ المقصود هنا المراد الحياة الحسية والمعنوية، فإن الكافر ميت معنىً قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٢]. يعني: هؤلاء الكفار بمنزلة الأموات، والمؤمن حي ولاسيَّما العابد، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وسمى الله القرآن رُوحًا فدل هذا على أن من عمل به فهو حي.

فالآية أعم مما قاله المؤلف، وإن كان سياقها يقتضي أن المراد بها بالأَولى: الحياة الحسية.

قال المؤلف: [﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يُبسها]

وقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بما أنزل الله عليها من المطر، ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله - عز وجل - فهذه الأرض الهامدة اليابسة التي ما فيها قدرة ينزل الله عليها الماء الأرض مخضرة بأمر الله - عز وجل -، فلو اجتمع الخلائق كلهم على أن يفعلوا ذلك ما استطاعوا ولا أن يخرجوا أدنى حشيشة من هذه الحشائش، ولكن الله تعالى بقدرته يفعل ذلك.

قال: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور]، وكذلك الكاف حرف جر. يعني: ومثل هذا الإخراج تخرجون ويجوز أن تكون: وكهذا الإخراج تخرجون، ولا تكون مفعولًا مطلقًا؛ فعلى الأول: تكون مفعولًا مطلقًا، وعلى الثاني: تكون الكاف حرف جر واسم الإشارة مبني على السكون في محل جر، أي: وكهذا الإخراج تخرجون.

وقوله: [﴿تُخْرَجُونَ﴾ من القبور] ظاهر الآية أن الخروج من القبور يشبه خروج النبات من الأرض، وخروج النبات من الأرض يكون بنزول المطر عليها فيكون في هذه الآية إشارة إلى ما ورد في الحديث: من أن الله تعالى يُمطِر على القبور مطرًا غليظًا كمنيِّ الرجال أربعين يومًا تنبت منه الأجساد في القبور، ثم بعد ذلك تخرج إذا نفخ في الصور وهنا وردت به أحاديث في إسنادها مقال، لكن مجموعها يقضي بأنها أحاديث حسنة وظاهر القرآن أيضًا يشير إليها.

وقوله: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ البناء للفاعل والمفعول، البناء للفاعل مثل: (تَخْرُجون) وللمفعول

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤٢)، والترمذي (٢٠٧٦)، والنسائي (٣٣٢٦).

﴿تُخْرَجُونَ﴾ ففيها قراءتان سبعيَّتان؛ لأنَّ من عادة المُؤلِّف رحمه الله أنه إذا أتى بقراءةٍ شاذة أن يقول: [وقُرئ].

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

قال: [﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تعالى الدالة على قدرته].

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ﴿وَمِنْ﴾ حرف جر، ومعناها: التبعيض، يعني: بعض آياته، والآيات جمع آية، وهي: العلامة البيِّنة الواضحة، ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يقول المؤلف: [الدالة على قدرته].

وقوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (أنْ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر يعني: خَلْقُكم، ﴿مِّن﴾ هذه لابتداء الغاية، والمعنى: أن ابتداء الخلق من التراب أي: أصلكم آدم، وأما سلسلة آدم فخلقت من نطفة.

قال: [﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ من دم ولحم ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض]، كنتم تراب والتراب لا يتحرك من مكانه ولا ينتشر وليس فيه حركة ثم بعد ذلك: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾ قد يقول قائل: إن في هذا ما ظاهره التنافر؛ لأن ﴿إِذَآ﴾ فجائية و﴿ثُمَّ﴾ للمهلة والمفاجئة والمهلة متناقضان؛ إذ إن المفاجئة تدل على المبادرة.

فيجاب عن ذلك: بأن المفاجئة بعد المهلة؛ لأنه ليس في الحال يكون التراب بشرًا وإنما تطور لمدة حتى وصل إلى البشرية، هذا إذا قلنا: إن المراد بالبشر: خصوص آدم، أما إذا قلنا: المراد به: ذريته فالمهلة ظاهرة؛ لأن هذا يشمل الذرية إلى قيام الساعة، لكن المفاجئة في قوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ المراد به آدم، فإن آدم بشر وذريته انتشرت في الأرض.

وقوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ هذه الجملة مبتدأ وخبر و﴿تَنتَشِرُونَ﴾ صفة لبشر، وإذا جعلناها صفة لبشر صار فيها إشكال من جهة أن بشر مفرد، و ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ جمع، لكن المفرد المراد به الجنس يكون للجمع.

وقوله: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في أي مكان في الأرض، فالبشر منتشر في جميع أقطار الدنيا - وسبحان الله العظيم - الإنسان حيثما يرجع إلى ما سبق يقول ما الذي أوصل أهل أمريكا إلى أمريكا، وإلى البلاد الأخرى مع هذه المحيطات العظيمة؛ لأن آدم لا شك كان في إحدى القارات فما الذي أوصل بنيه إلى القارات الأخرى؟

نقول: الله أعلم، قد يكون الله يسر لهم في ذلك الوقت من الأسباب ما لا نعرفه حتى الآن حتى وصلوا إلى هذه البلاد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فخلقت حواء من ضلع آدم، وسائر

الناس من نطف الرجال والنساء].

المعنى: أن المؤلف يريد بقوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ذواتكم - على رأي المؤلف -، فالمراد بالنفس هنا: الذات.

وقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ اللام للاختصاص وليست للملك؛ لأن الإنسان لا يملك زوجته، ويحتمل أن تكون للتعليل أي: خلق لأجلكم، لكن المعنى أبلغ في الإنعام؛ حيث إن كل إنسان زوجته تختص به، ولهذا لا يجوز للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل في آن واحد.

والمؤلف سار على أن المراد بالنفس: الذات، وأن ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض.

يعني: أن نفس هذه الزوجة من نفس الإنسان جزء منه، ولهذا فسره بخلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء، هذا ما قرره المؤلف أن المراد بالنفس: الذات، ويحتمل أن المراد بالنفس الجنس كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] يعني: من جنسكم، ويؤيد هذا المعنى قول: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، فإن الإنسان يسكن إلى بني جنسه دون غيره؛ لأنه لو كانت المرأة تخالف الرجل وليست من جنسه لكان في ذلك مشكلة، ولا يمكنه أن يسكن إليها، لهذا جعلها الله من جنسه لأجل أن يسكن إليها، واللام في قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوا﴾ للتعليل، أي: لأجل أن تسكنوا وهي معللة لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

وقوله ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ قال المؤلف: [وتألفوها] والسكون معناه: الاستقرار ومنه السكنى في البلد لاستقراره فيها، فالمعنى: تستقروا وتطمئنوا لها وتألفوها كما قال المؤلف.

وقوله: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جميعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله تعالى].

وقوله: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جميعًا] يعني: بين الزوج وزوجته أم الناس جميعًا؟نقول: بين الزوج وزوجته هو الظاهر، ولكن كلام المؤلف يقتضي العموم، ولكن ظاهر السياق يختص بالمرأة وزوجها، فإن هذه المرأة الأجنبية التي لا تعرفها ولا تعرفك من قبل إذا تم العقد بينكما ألقى الله تعالى في قلوبكما المودة والرحمة.

قيل: إن المودة في قلب المرأة، والرحمة في قلب الرجل؛ لأنه هو الذي له السلطان عليها وهي التي تميل إليه فتكون المودة منها والرحمة منه، فيكون الوصفان موزعين على الزوج والزوجة، وقيل: إن الوصفين لكل من الزوجين يعني: أن المودة تكون بين الزوج وزوجته، وكذلك الرحمة تكون بين الزوج وزوجته، وهذا هو الأقرب وهو الذي يؤيده الواقع أيضًا، فإن المرأة إذا ودَّت زوجها يكون فيها رحمة، ولولا أن الأم أرحم النساء لقلنا: إنها مثل رحمة الأم، ولهذا تجدها تُلاحِظه إذا مرض وتحزن إذا حزن وتسر إذا سر وإذا كانت الحال بينهما جيدة يمكن أن تبيع كل ما تملك من أجل راحته وإسعاده هذه لا شك أنها رحمة، وأما المودة فظاهرة، ولولا قوة المودة بين

الزوجين ما حصل الاتصال بينهما الذي أراده الله، لكن تكمل هذه الخليقة وتنمو، ومن أجل هذا جعل الله المودة والرحمة.

ذكر ابن الجوزي في: «صيد الخاطر» قال: لولا أن الله بحكمته قضى أن تبقى هذه الخليقة لكان الاتصال بين الزوج وزوجته من أقبح الأمور أن كل واحد منهما يكشف عورته للآخر ثم يحصل هذا الشيء الذي قد يكون مستكره في أذواق بعض الناس، لكن جعل الله هذه المودة بينهما؛ لأجل أن تستقيم الأمور وتنمو الخليقة.

وهذا صحيح وهذا حق فلولا أن الله جعل هذا الأمر – أي: المودة – ما حصل الاتصال بين الزوجين، ولهذا كلما كان الزوج أو الزوجة بعضهم لبعض كارهًا قل الاتصال بينهما.

وقوله: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذلك المذكور].

اللام في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ للتوكيد وآيات جمع آية.

وتأمل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ قد نقول ما هذا التنافر؛ حيث قال في الأول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ولكننا نقول: لا تنافر في الواقع؛ لأن قوله: ﴿وَمِنْ﴾ للتبعيض، وبعض الآيات قد يكون آية واحدة وقد يكون أكثر من آية، ثم قال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ هذه أربع آيات فيكون في أصل الخلق آية واحدة، لكن في أوصاف هذا الخلق المتطور آيات.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أعلمهم بما فيه مصلحتهم.

٢- **ومن فوائدها:** أن الصلاة تسبيح وتنزيه لله؛ لأن الله أطلق عليها اسم التسبيح.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب التسبيح في الصلاة؛ لأننا سبق لنا قاعدة: أنه إذا أطلق على العبادة جزء منها دل ذلك على أن هذا الجزء من واجباته، وأنه لابد منه فيها.

٤- **ومن فوائد الآية:** بيان الأوقات الخمسة مفصلة، وذلك في قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن المساء يطلق على أول الليل، فإن قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يدخل فيه: المغرب والعشاء، وقد يؤخذ من هذا: جواز الرمي ليلًا ـ أي: رمي الجمرات ـ؛ لأن رجلًا قال: يا رسول الله ! رميت بعدما أمسيت، فقال: «لَا حَرَجَ» فإذا كان المساء يطلق على أول الليل، وأطلق النبي ﷺ نفي الحرج، علم أنه جائز.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل في توزيع الصلوات على هذه الأوقات، ووجه الحكمة أمران:

الأمر الأول: أنها لو جُمعت في وقت واحد لخلتْ بقية الأوقات عن الاتصال بالله عز وجل، يعني: لو جعل الإنسان يصلي في وقت الفجر كل الصلوات الخمس جميعًا، معناه بقي في النهار والليل ما يكون له صلوات مفروضة.

والوجه الثاني: أنه لو جُعلت هذه في وقت واحد، لكان في ذلك نوع من المشقة، فإن يصلي سبعة عشر ركعة في آنٍ واحد، هذا فيه مشقة على الأقوياء والأصحاء فكيف على الضعفاء والمرضى!!

فوائد قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾:

١- **ومن فوائد الآية:** كمال الله عز وجل، لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ - **ومنها:** أنه وحده المستحق لأن يُحمد على وجه الإطلاق، وهذا نأخذه من تقديم الخبر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن كل ما يحدث في السماوات والأرض من خيرٍ أو شرٍّ فإن الله تعالى يستحق عليه الحمد، يؤخذ من الإطلاق في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، ولم يقل على الخير، أو على ما ينفع، بل أطلق، فيستفاد منه أن الله تعالى محمود على كل حال.

فوائد قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾:

١- **في هذه الآية:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يُخرج الحي من الميت وبالعكس، وهذا من تمام القدرة أن يُخرجَ الشيء من ضده.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** قدرته على إحياء الأرض من بعد موتها؛ لقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** ثبوت قيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، والأفعال الاختيارية هي التي يفعلها بمشيئته، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، من قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ ومن قوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأن البعدية تقتضي حدوث هذا الشيء، وقيام الأفعال الاختيارية بالله عز وجل، هو الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، فما من أحد منهم أنكر ذلك؛ حيث ويثبتون الاستواء على العرش فعلًا لله، والنزول إلى السماء الدنيا فعلًا لله، والمجيء للفصل بين العباد فعلًا لله، والعجب فعلًا لله، والضحك فعلًا لله، والخلق فعلًا لله، ويقولون: إن الله تعالى يفعل ما يشاء كيف شاء متى شاء.

ولكن أهل البدع من المعتزلة والأشعرية وغيرهم ينكرون قيام الأفعال الاختيارية بالله، ويقولون: لو قامت به الحوادث لكان حادثًا، والله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال، فنقول لهم: هذا قول باطل.

أولًا: لأنه قياس في مقابلة النص؛ لأن النصوص متكاثرة في إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، التي تتعلق بمشيئته.

وثانيًا: قولكم: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث ليس بصحيح؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بكامل قادر على ما يشاء، أما كونها لا تقوم إلا بحادث فما هو العقل الذي يوجب هذا؟!

٤- **ومن فوائد الآية:** قياس الغائب على الشاهد؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فإن قياس الغائب على الشاهد، ليحمل على الإقرار به طريقة متبعة.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات القياس، يؤخذ من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وإثبات القياس له أدلة كثيرة في القرآن، منها على سبيل التعميم و منها علة سبيل الحد، فكل مثل ضربه الله تعالى في القرآن فهو دال على ثبوت القياس،مثل ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٤] كذا وكذا، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، وما أشبه ذلك، فإن الأمثال ضربها تشبيه حال بحال أو فرد بفرد، فتكون دالة على ثبوت القياس، وكذلك القصص التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، وفي السنة أيضًا كثير من ذلك، مثل: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم، قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر.... الحديث، ومثل قوله: «أَرَأَيْتِ لَو كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ؛ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟»[1] وكذلك العقل يقتضي ثبوت القياس فإن العقل السليم الصريح لا يمكن أن يفرق بين مُتماثِلَيْن أبدًا ودائمًا حتى الصبي إذا منعته من شيء وأبحت له نظيره، قال: لك كيف هذا مثل هذا؟ فالمهم: هذا مما تشهد العقول والفطر والنصوص بثبوبته، أما عن القياس الباطل الذي يتوسع فيه بعض الناس حتى يعطلوا دلالة الكتاب والسنة هذا لا شك أنه باطل، أما القياس الصحيح فإنه لا ريب في ثبوته، والذين أنكروا القياس، هم في الحقيقة مضطربون؛ لأنهم أحيانًا يقولون بالقياس من حيث لا يشعرون، ولا يمكنهم إلا أن يقيسوا؛ لأننا لو أردنا أن نحصر دلالة الكتاب والسنة على الأحكام على سبيل العموم والقواعد والضوابط لوجدناها وافية، لكن من حيث الأفراد والجزئيات لا منتهى لهم ولا حصر لهم، إذنْ لابد أن يضطروا إلى إثبات ذلك.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآيات لله عز وجل، أي: العلامات الدالة على ما تدل عليه من صفاته؛ لأن كل فعل يدل على نوع من الآيات، لكن هي على سبيل العموم تدل على القدرة، فجميع الأفعال تدل على القدرة والحكمة، لكن لكل نوع منها آية خاصة بالحكمة، والقدرة، والعزة، وما أشبه ذلك.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن أصل بني آدم من تراب؛ لقوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣١٥)، والنسائي (٢٦٣٣).

٣- **ومن فوائدها:** إبطال النظرية الملحدة، وهي نظرية النشوء والتطور التي كان قائدها (دارون)، وهذه نظرية خاطئة وباطلة بلا شك، وجه ذلك من الآية: أن الله يقول: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ فيخاطب البشر باعتبارهم بشرًا، إذن هم بشر أُنشئ من التراب إلى اليوم، أما أولئك فيقولون: إن أصل الإنسان ليس بشرًا، إنما أصل الإنسان قرد، ثم تطور حتى صار بشرًا، فلا أدري ماذا يقولون في أصل الحمير، والبغال، والخيل، والدجاج...إلخ ، ثم ما هو التطور الآخر، هل نحن نكون ملائكة؟

على كل حال: هذه نظرية ـ والحمد لله ـ حتى فلاسفة الغرب الآن أبطلوها، وتبين لهم أنها نظرية باطلة خاطئة، ثم نحن نعلم علم اليقين أنها باطلة، وأن اعتقادها كفر؛ لأنها تكذيب للقرآن والسنة وإجماع المسلمين، فالإنسان خلق من تراب كما قال الله عز وجل، تراب جعله الله طينًا، ثم فخارًا حتى كان صلصالًا، له صلصلة إذا ضربت عليه كالفخار كما قال الله عز وجل، ثم تكوَّن إنسانًا، فالله على كل شيء قدير.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن هذا البشر الذي خلق من أصل واحد انتشر وملأ الأرض؛ لقوله: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وهذا من آيات الله، فهذا رجل واحد، وانتشرت منه هذه الخليقة في جميع أقطار الأرض.

٥- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن الإنسان متحرك بالطبع، فلابد أن يتحرك وينتشر ويذهب ويجيء، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَّام»[1]؛ لأن الإنسان دائمًا يحرث ويطلب رزقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ اعلموا أنني راجعت كثيرًا من التفاسير التي عندي فما وجدت الحكمة في أنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ يعني: ما رأيت أحدًا بيَّن الحكمة في كونه يأتي مرة بالمصدر، ومرة بأن الداخلة على الفعل التي تؤول بمصدر، لكن هل نقول: إن هذا من باب الاختلاف في التعبير المراعى به جانب اللفظ، أو أنه من باب التعبير المراعى به جانب المعنى؟

إن قلنا: إنه من باب التعبير المراعى به جانب اللفظ فالأمر بسيط، نقول إن الله تعالى غاير بين العبارات؛ لأجل أن لا يمل السامع إذا كان الكلام على وتيرة واحدة؛ لأن الاختلاف في التعبير هذا مما يزيد الإنسان نشاطًا وتجددًا.

أما إذا قلنا: إن هناك أمرًا معنويًّا، فأنا إلى الآن ما عرفته، ولا ذكره الزمخشري، ولا أبو السعود،

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) بلفظ: «أصدقها حارث وهمام»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولا هؤلاء الذين يتكلمون على مثل هذه الأمور.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية**: رحمة الله تبارك وتعالى بنا؛ حيث جعل أزواجنا من أنفسنا، أي: من جنسنا.

٢- **ومنها**: أن من أهم أغراض النكاح ومقاصده: السكون إلى الزوجة، والاطمئنان إليها، والحياة معها حياة سعيدة، وأنه ينبغي للإنسان إذا رأى عدم السكون، ولم تلتئم الحال أن يفارق، ولهذا قال أهل العلم: إن الطلاق يستحب لتضرر المرأة بالبقاء مع الزوج، فكونها تتضرر، ولا تستأنس مع الزوج، فما ينبغي أن يكرهها على أن تبقى معه، فإن بعض الناس والعياذ بالله يكرهونهن على البقاء، أو يعضلونهن من أجل أن يفتدينه، لأجل يفتدينه يسلمن قروشًا لكي يطلقها، كل هذا حرام، والذي ينبغي إذا رأيت من الزوجة أنها لا تستطيع أن تعيش معك عيشة سعيدة، ينبغي لك أن تطلقها، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ»(١)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «وَاللهُ فِي عَونِ العَبْدِ، مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَونِ أَخِيهِ»(٢) وفي القرآن: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فأنت إذا نويت الخير في التوسعة على هذه المرأة التي عاشت معك وفارقتها، فلعل الله تعالى أن ييسر لك الأمر بحصول زوجة تألفها وتألفك، المهم: أن من أهم أغراض النكاح السكون والطمأنينة إلى الزوجة، والحياة حياة سعيدة.

٣- **ومن فوائد الآية**: إثبات حكمة الله وقدرته، ورحمته أيضًا، حيث جعل بين الزوجين مودة ورحمة.

٤- **ومن فوائدها أيضًا**: الثناء على التفكير؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فإن هذا واضح أنه محل ثناء لهم.

٥- **ومن فوائدها**: أن التفكير تنفتح به أبواب كثيرة، يعرف الإنسان بها من أحكام الله وحِكَمِه ما لا يحصل له لو لم يفكر؛ لأنه خص الآيات بالقوم الذين يتفكرون، فدل هذا على أنه يحصل بالتفكر من الاطلاع على أحكام الله وحِكَمِه، ما لا يحصل بالغفلة، إذن التفكر يكون في آيات الله، أي: مخلوقاته ومشروعاته؛ لأن الآيات كما سبق إما كونية وإما شرعية.

مسألة: هل يحصل التفكر في صفات الله؟ ومن أي وجه، من وجه المعنى أو من وجه الكيفية؟

الجواب: نعم، من وجه المعنى، أما من وجه الكيفية فلا يجوز التفكر، فلا يجوز التفكر في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٤٢٥).

الصفات من حيث الكيفية؛ لأن تلك محاولة لما لم يمكن الحصول عليه، ولهذا قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ : السؤال عنه بدعة، فلا يجوز أن نتفكر في كيفية صفة من صفات الله، بل نتفكر في المعنى دون الصفة، والتفكر في ذات الله عز وجل مثله لا يجوز؛ لأنه محاولة لما لا يمكن الوصول إليه، ثم التفكير في هذه الأمور يجر إلى بلايا، ومهالك، والذي ضر من ضر من أهل التعطيل وأهل التشبيه أيضًا، الذي ضرهم هو محاولة الوصول إلى الكيفية، فلهذا آل بهم الأمر إلى التعطيل، أو التمثيل.

المهم: أن التفكر يكون في مخلوقات الله وفي مشروعاته، وفي معاني أسمائه وصفاته، أما في ذاته وكيفية صفاته، فإنه لا تفكر؛ وذلك لأنه مهما بلغ الإنسان فإن الفكر سيرجع خاسئًا وهو حسير، والإعراض عن هذا هو الواجب، كما قال الإمام مالك.

مسألة: بالنسبة لمذهب المبتدعة في رد الصفات، هل هو مبني على مقدمات عقلية متفق عليها بينهم، أم كل واحد بعقله يُعلِّل؟

الجواب: لا، كل واحد يُعلِّل، يعني: يختلفون في تعليل هذا الرد،ولكن غالب ما يدورون عليه هو التمثيل ولكنهم يختلفون في الطرق الموصلة إليه.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٢، ٢٣]

التفسير

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ خبر مقدم و﴿خَلْقُ﴾ مبتدأ مؤخر.

وقوله: ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: إيجادهما بتقدير ونظام بديع، وهذا يشمل خلق هذه السماوات باعتبارها أجرامًا عظيمة، وباعتبارها مصلحةً للعباد، فهذا من آيات الله.

وقال: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ اختلاف الألسنة أيضًا من آيات الله، ووجه ذلك أن هذه الألسن من نوع واحد، أو من جنس واحد، فكلنا بشر، وكلنا من أب واحد ومع ذلك تختلف الألسن اختلافًا عظيمًا، كذلك أيضًا هو من آيات الله؛ لأن كل إنسان يعرف به جنسه بلغته، فأنا أعرف مثلًا هذا هندي، وهذا تركي، وهذا إنجليزي مثلًا، وهذا ألماني، وهذا روسي، بسبب لغتهم، فهذا أيضًا من آيات الله، أن الله جعلها دليلًا على جنس الإنسان.

وقوله: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يشمل أصل اللغة، ويشمل اللهجات، ويشمل السلامة

من العيوب، ويشمل العيوب أيضًا، ويشمل الفصاحة، ويشمل العِيّ، يعني: لا تظنوا أن اختلاف الألسنة فقط في جنس اللغة، لا بل بكل هذا، فأجناس اللغات من آيات الله عز وجل، وكون هذا الإنسان ينطق بالحروف نطقًا تامًّا، هذا من آيات الله، والثاني بالعكس، ينطق بها على وجه اللثغة، أو يتثاقل، أو ما أشبه ذلك، كذلك أيضًا قد نقول: إن من اختلاف اللسان الصوت، فاختلاف الأصوات يكون هذا صوته جيد، وهذا حسن، والآخر بالعكس، كذلك من اختلاف الألسن الفصاحة وعدمها، فإن من الناس من يعطيه الله تعالى بلاغة في نطق الكلام وحسن أدائه، حتى إنه يؤدي إليك المعنى بعبارة واضحة، تفهمها لأول مرة، ومن الناس من يكون بالعكس، فجميع ما يمكن أن يرد على اختلاف اللسان، فإنه داخل في كونه من آيات الله عز وجل.

أما الألوان فحدث ولا حرج، فإنها من آيات الله، لا تكاد تجد اثنين متفقين في اللون أبدًا، حتى لو كانا توأمين، لابد أن يكون هناك اختلاف، لكن منهم من يكون ظاهرًا ومنهم من يكون غير ظاهر، فالرجل الأبيض الأوربي بينه وبين الرجل الأسود الذي على خط الاستواء فرق شاسع، وما بين ذلك درجات متفاوتة، لكن لا تكاد تجد اثنين على لون واحد وهذا من الحكمة؛ لأنه لولا هذا لكان الناس ما يختلف بعضهم على بعض، ويقال: إن الله جعل لكل إنسان أربعين شبيه، ولكن ما أظن هذا يصلح، بل إنهم يقولون: إن البصمات التي في الأنامل تختلف، فكل واحد له بصمات على شكل لا يوافق الآخر، وهذا هو الظاهر، ولهذا الآن يعتبر في التحقيقات البصمات، مما يدل على أنها تختلف قطعًا، وهذا مما يدل على قدرة الله سبحانه وتعالى أي: هذا الاختلاف العظيم، فهناك ملايين الملايين من البشر، ومع ذلك كل إنسان ما يمكن أن يطابق للآخر من كل وجه، لابد أن تكون هناك علامة فارقة.

قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ اختلاف معطوفة على خلق، يعني: ومن آياته أيضًا اختلاف ألسنتكم، قال المؤلف: [أي: لغاتكم من عربية وعجمية وغيرها].

صحيح أن اختلاف الألسنة من آيات الله، بحسب اللغات عربية، وأعجمية وغيرها، فإن أردنا بالعجم: اسم القوم، فإن كلمة: [وغيرها] صحيحة، وإن أردنا بالعجم من سوى العرب فإن قوله: [وغيرها] ليس بصحيح، وهذا هو الأسلم، أنه يقال عرب وعجم ويراد بالعجم ما سوى العرب، فيشمل جميع لغات العالم، ثم إن اختلاف الألسنة أيضًا، قد ينزله على اختلاف اللغة نفسها، واختلاف النطق نفسه فأنت ترى الإنسان ينطق بخروج الهواء منذ دفعه ثم مروره على مخارج الحروف، كلما مر على مخرج تغير؛ فإذا مر على مخرج الصاد صار صادًا، وإذا مر على مخرج الميم صار ميمًا، وإذا مر على مخرج الدال صار دالًا، مع أن الهواء واحد، ثم إنه أيضًا ما يحتاج إلى عملية، هل نحن الآن نجد عملية تُجرى لنقل الباء إلى النون أو إلى القاف أو إلى اللام؟ لا، هو شيء واحد - أي: الهواء - ومع ذلك تجد الحروف تتنوع بمرورها على هذه المخارج، فهذا أيضًا من

آيات الله العظيمة، وهي داخلة في قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾.

وقوله: [﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ من بياض وسواد وغيرهما]، ثلاثة ألوان: بياض وسواد وغيرهما، ما بين السواد والبياض يعني: أسود خالص وأبيض خالص، وما بينهما هو غيرهما، وهذا أيضًا من آيات الله، ولهذا لا تجد إنسانَيْن يتفقان في كل وجه في اللون أبدًا، لابد أن يكون هناك فرق إما بميله إلى الحمرة، أو إلى السواد، أو إلى البياض، أو يكون مثلًا الجنس ليس على بشرة واحدة، وهذا شيء مُشاهَد.

قال المؤلف: [وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة]، أي: من آدم وحواء، ومع ذلك نختلف هذا الاختلاف العظيم في الألوان.

مسألة: لماذا لم يذكر الله عز وجل الاختلاف في الأجسام ما بين صغير وكبير ومتوسط؟

الجواب: لأن القدرة على خلقهم باختلاف ألوانهم أبلغ من القدرة باختلاف خلقهم على كِبر أجسامهم وصغرها، ولهذا ذكرت الألسنة والألوان.

مسألة: هل يدخل في اختلاف الألسنة اختلاف التعبير والخطابات؟

الجواب: نعم؛ لأن بعض الناس يعبر عن المعنى تعبيرًا يستطيع الإقناع إذا أراد أن يقنع، ويستطيع التنفيذ إذا أراد أن ينفذ، وبعض الناس عنده عيٌّ بحيث ما يقدر أن يعبر حتى عن المعنى الصحيح، حتى إنه إذا عبر عن بعض المعاني التي يريدها ربما لا تقبل منه لضعف تعبيره.

قال الله عز وجل: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ دلالات على قدرته تعالى ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها، أي ذوي العقول وأولي العلم].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بفتح اللام وكسرها؛ لأنه يجوز أن تقول: ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ وأيضًا ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، والقراءتان سبعيتان؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ذكر الوجهين فهما قراءتان سبعيتان، أما إذا قال: [وقرئ] فمن الشاذة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ أو ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: ذوو العلم، و﴿العالَمين﴾ جمع عالَم، يعني: الخلق، وهل نأخذ من اختلاف القراءتين أن المراد بالعالَمين ذوي العلم؟ لا؛ لأن العالَمين أعم من العالِمين؛ لأن العالِمين تختص بذوي العلم، والعالَمين عامة، فهل نقول: إن الآية تدل على أن هذا فيه آيات للعالَمين العالِمين، أو نقول: إن الآيات للعالَمين أي: كلهم العالِم وغير العالِم، لكن العالِم له مزية.

نقول: قد تكون الآية دالة على أن اختلاف الألسن والألوان أمر معلوم بكل أحد، لكن ما وراء ذلك الظاهر وأمر لا يعلمه إلا أهل العلم، ويكون في الآية إشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نتعمق في هذا الأمر، حتى يتبين لنا بعلمنا ما ليس بائنًا لغيرنا، وهذا هو الأحسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال المؤلف: [بإرادته راحة لكم].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيضًا ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، الباء هنا بمعنى: في، فهي للظرفية، وهل تأتي الباء للظرفية؟ نعم تأتي كثيرًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:٣٧، ٣٨] أي: وفي الليل، وبالليل الباء هنا ظرفية.

وقوله: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ما ذكر الله وقتًا معينًا من الليل، ولا وقتًا معينًا من النهار؛ لأنه - أي: النوم - في أي ساعة من ليل أو نهار فهو من آيات الله، أما كونك يكره لك أن تنام في هذا الوقت أو لا تنام، فهذا موكول إلى الشرع، وهو من الآيات الشرعية وليس من الآيات الكونية.

وقوله: [بإرادته راحة لكم]، كلمة [راحة لكم] هل هي مفعول لأجله، أو مفعول لإرادة، أي: أنه يريد الراحة لكم؟ إما المعنى: بإرادته أن تستريحوا، أو المعنى: أن نومكم بإرادته راحة لكم، فيفيد أن النوم ليس باختيار الإنسان، أليس كذلك؟ بلى ما هو باختياره، فالإنسان غاية ما يفعله أنه يفعل الأسباب التي يكون بها النوم، أما أن يخرج روحه من جسده حتى ينام، أو يرد روحه إلى جسده حتى يستيقظ، فهذا ليس إليه، بل هو إلى الله، ولهذا أحيانًا يكون الإنسان يريد النوم ويكون على الفراش ويحاول بقدر ما يستطيع أن ينام ثم لا ينام، وأحيانًا يغلبه النوم ولو لم يتهيأ له.

إذن النوم بإرادة الله، وهو ـ أي: النوم ـ وفاة صغرى، فكما أن الوفاة الكبرى إنما تكون بأمر الله وإرادته، فكذلك الوفاة الصغرى.

وقال: [﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ بالنهار ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: تصرفكم في طلب المعيشة بإرادته].

قوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ هذه معطوفة على ﴿مَنَامُكُم﴾، ومعناها: أي طلبكم، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾، و﴿مِّن﴾ هذه لبيان الجنس أي: من عطاءه ورزقه، والمؤلف رحمه الله خص الابتغاء بالنهار والأحسن أن نجعلها مطلقة كما أطلقها الله؛ لأن من الناس من يبتغي من فضل الله بالنهار، ومنهم من يبتغي من فضل الله بالليل، فكونها تبقى على ما هي عليه بدون تقييد هذا هو الأولى؛ لأن التقييد يضيق المعنى، فيجعل الابتغاء في النهار مع أنه يوجد أناس لا يطلبون الرزق إلا في الليل، مثل الحراس، وأصحاب الأمن، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الفضل بمعنى: العطاء، أي: [تصرفكم في طلب المعيشة بإرادته]، والإرادة هنا إرادة الله عز وجل، ولا يريد المؤلف رحمه الله أن يثبت مذهب الجبرية، لا يريد ذلك ولكن يريد أن يبين أن تصرفنا وإن كنا مستقلين به من وجه، فإننا لسنا مستقلين دائمًا، وابتغاء الفضل بإرادة الله، والمنام بإرادة الله، وبينهما فرق؛ لأن المنام ليس لنا فيه اختيار إطلاقًا ولا إرادة، بخلاف الابتغاء من فضله فإن لنا فيه إرادة ولكنها تابعة لإرادة الله، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور، قال

المؤلف: [سماع تدبر واعتبار]، وأتى بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لأنه بدأ بالنوم وبدأ بالليل، والليل وظيفة الإنسان فيه السمع؛ لأنه لا يرى بالليل، ولكن ما المراد بالسمع هنا، هل المراد مطلق السمع؟نقول: لا بل المراد سماع التدبر والاعتبار؛ لأن السمع كما سبق يطلق على سمع الإدراك المجرد، وعلى سمع الإدراك المنتفع به، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] يعني: ما يسمعون سماع تدبر واتعاظ وانقياد.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة**: أن ابتداء خلق الإنسان من تراب؛ لقوله: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية**: إبطال النظرية الخاطئة، وهي نظرية النشوء والتطور، الذي يقول فيها صاحبها: إن الكائنات متطورة وأن الإنسان أصله قرد، ثم بعد ذلك تطور إلى إنسان، وممكن أن يتطور بعد ذلك فيصير ملكًا، وعلى هذا فقس، فهذه النظرية باطلة، وحتى أبطلها علماء الكفار، ونحن نعلم علم اليقين أنها باطلة، بدون أي نظر لأن القرآن يكذبها.

٣- **ومن فوائد الآية**: حكمة الله عز وجل في كون الآدمي بشرًا، أي: بادي البشرة، وما هذه حكمة؛ لأنك إذا علمت أنك مفتقر إلى اللباس الحسي علمت أنك مفتقر إلى اللباس المعنوي، وهو لباس التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن البشر من طبيعتهم الانتشار والذهاب، والمشي، وطلب الرزق، وطلب الصنائع، وطلب الأعمال، وهذا هو الواقع، ولهذا قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية وما بعدها من الآيات أيضًا**: منة الله على عباده بتنبيههم إلى آياته، يعني: أن الله عز وجل مَنَّ على العباد بتنبيههم إلى الآيات، فلم يكِلْهم إلى ما في فطرهم من الاعتراف بالخالق، بل أعانهم على ذلك وأمدهم بالتنبيه على ما في هذا الكون من آيات؛ لأن الإنسان كما قال الله عز وجل بشر يغفل وينسى فيمده الله عز وجل.

فوائد قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: نعمة الله عز وجل على الذكور من بني آدم؛ لكون الأزواج من أنفسنا ـ أي: من الإنس ـ ولو كان الإنسان زوجته من الجن لم يألفها، ولو كانت من البشر لكن لها قرون بهيمة ـ قرون نعج مثلًا ـ أو وصفًا فيما خلق الله من الحيوانات، فإنه لا يألفها

أيضًا، فهذه من حكمة الله عز وجل ورحمته، أن جعلهن من أنفسنا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الحكمة من الزوجية هي السكون ـ سكون أحد الزوجين إلى الآخر ـ ويتفرع على ذلك: أنه لو حصل التنافر، فإن من الحكمة التفريق بينهما، تؤخذ من قوله: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ فإذا فاتت هذه الحكمة فإنه لا زواج؛ ولهذا لما فاتت الحكمة بين ثابت بن قيس وزوجته، ماذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام؟ قال ﷺ: «خُذِ الحَدِيْقَةَ وَطَلِّقْهَا»[1] وكيف يمكن أن يكونا زوجين يتباغضان ويتنافران، وكل واحد منهما يحب أن يرى الموت ولا يرى صاحبه، ومثل هذه الحال لا زواج معها .

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ما ألقى الله تعالى في قلوب الزوجين من المودة والرحمة، وهذه من الآيات العظيمة، فهذه امرأة لا تعرفها إلا عند خطبتها، وليس بينك وبينها قرابة، ثم يجعل الله بين قلوبكما من المودة والرحمة ما يربو أحيانًا على مودة الأم والأب، وهذا لا شك أنه من آيات الله، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٤]، جعل الله في هذه الآية الصهر قسيمًا للنسب، يعني: كأن البشرية الآن إما مصاهرة وإما قرابة نسب.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المودة ما تنال بالفعل، يعني أن الله قد يجعلها في قلب الإنسان؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ يعني: أنت لو أردت أن تغصب روحك على محبة شيء، والله عز وجل ما جعل في قلبك مودة ما استطعت، ولهذا مَنَّ الله على المؤمنين بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧]، وأنت تقول في الدعاء: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلى حبك؛ إذنْ المودة يلقيها الله عز وجل في القلب، فأنت ينبغي لك أن تسأل الله دائمًا أن تكون محبتك لله وفي الله، وأن تكون محبتك بالله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحثُّ على التفكر، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن التفكر مفتاح العلم، ولا يمكن أن يكون علم بلا تفكر أبدًا، وتفكر أولًا لتعلم.

٦- **ومن فوائد الآية**: أن ما ذكر ليس آية واحدة؛ لقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ كيف؟ لأن الله قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ هذه واحدة، ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾، فتكون هذه آيات متعددة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب التراحم بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَرَحۡمَةً﴾، وهل نأخذ منها وجوب معالجة الزوجة إذا مرضت؛ لأنه من الرحمة، أو نطلقها ونقول: لا يجب أن تعالجها، ولا أن تعطيها قيمة الدواء؛ لأن هذا ليس مما في النفقة؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٧٣)، والنسائي (٣٤٦٣) .

الجواب: كون الله يجعل بينكم رحمة، ليس معناه: أن يلزمك بشيء لا يلزمك، إنما هذا بيان للواقع، وهذا صحيح، الرحمة توجد، لكن هل يلزمه؟ هذه محل نظر، ولهذا قال الفقهاء: إنه لا يلزم الدواء ولا أجرة الطبيب، وبعضهم يقول يلزم إلا إذا كان شيئًا يسيرًا تقدر الزوجة أن تقوم به من مالها الخاص فإنه لا يلزمه.

فوائد قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية**: أن خلق السماوات والأرض من آيات الله، وسبق لنا في التفسير وجه كونها من آيات الله؛ لعظمها، ولارتفاعها، وما فيها من الكواكب والنجوم والأشجار والبحار والأنهار وغير ذلك، كل هذا من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على عظمته وقدرته.

٢- **ومن فوائد الآية**: أن السماوات جمع، والأرض كذلك، لكن ليس في الآية دليل على هذا، إنما يُستفاد كون الأرض جمعًا من أدلة أخرى.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن اختلاف الألسن والألوان من آيات الله، واختلاف الألسن والألوان هل هو بطول اللسان وقصر اللسان، أو المراد اختلاف اللغة؟ المراد اختلاف اللغات، واختلاف الفصاحة والبيان؛ لأن الناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا؛ حيث تجد المعنى الواحد يتكلم فيه إنسان فيفهمه الحاضرون؛ لقوة بيانه وفصاحته، ويتكلم فيه آخر فما يُلتفت إليه، وتجد رجلين يتكلمان أحدهما يشد الناس إلى نفسه، والآخر يتكلم وهذا يسرح بفكره في مجالات شتى، وهذا ينعس مع أن الكلام واحد، والموضوع واحد، لكن اختلاف الإلقاء والفصاحة هو الذي جعل الناس يتأثرون.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الألوان لا تتفق؛ لقوله: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ولهذا يقول العلماء: إنه لا يوجد شخصان متفقان من كل وجه أبدًا، فعلى كثرة الناس لا يمكن أن تجد شخصين متفقين من كل وجه، حتى التوأمان لا يتفقان من كل وجه، صحيح أن بعض الناس يتقاربون ولا تعرف بعضهم من بعض، لكن عند التأمل لابد أن تكون هناك علامة فارقة، وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، حتى الأعضاء الآن لا تكون أعضاؤك متفقة بل تختلف، وكذلك العروق ـ عروق اليدين ـ تجدها مختلفة، وعروق الرجلين تجدها مختلفة، والبنان التي يسموها البصمات تجدها مختلفة.

إذنْ على كثرة الناس ما يمكن أن يتفقوا، وهذا دليل واضح على عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى، وبالغ حكمته.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: مدح أولي العلم، وتؤخذ من قوله: ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام، فإنه يدل على فضيلة أهل العلم، ولا شك أن أهل العلم لهم فضل، فهم العالمون بالله وآياته

سبحانه وتعالى ولهم من الفضائل بحسب علمهم.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** انفصال الروح عن البدن عند النوم، وهذه الروح متصلة بالبدن تمام الاتصال فإذا نام حصل منها نوع انفصال، ولهذا سمى الله تعالى النوم وفاة، ولكن ليست كالوفاة الكاملة التي يقبض فيها الروح من البدن وتنفصل عنه انفصالًا كاملًا، لكنها أثناء النوم تنفصل عنه انفصالًا جزئيًّا، وهذا الانفصال الجزئي الذي تبقى معه الحياة دون وعي من آيات الله، هل أحد يستطيع أن يفعل هذا إلا الله؟ أبدًا وكذلك أيضًا لا يستطيع أحد أن يردها إلا الله عز وجل.

فإذا قال قائل: ماذا تقولون في النوم بالتنويم الذي يسمونه التنويم المغناطيسي، الواحد ينومه الثاني؟

نقول: إذا ادعى مدعٍ أن النوم المغناطيسي تنويم، كفعل الله، فهو كادعاء الذي يقول: أنا أحيي وأميت، فهو يحيي ويميت بأن يقتل ويبقي، لكن ليس صحيحًا أنه أحيى، أو فعل سبب الحياة أو سبب الموت، فمجرد السبب فقط يعجز عنه، كذلك المنوم ما جلب النوم، لكن فعل سببه، والتنويم المغناطيسي هذا معناه استسلام النفس الباطنة لهذا المنوِّم، ثم ينام ويسترخي، ليفقد الوعي، إلا الذاكرة، ولهذا تجد المنوم المغناطيسي ـ كما يقولون ـ إذا استجاب له المنَوَّم بدأ يخاطبه في العقل الباطني، وذلك المنَوَّم يتكلم بدون شعور، ويعلمه بكل ما في رأسه، أي شيء يسأله عنه يخبره إياه، حتى الأمور التي ما اطلع عليها أحد من الناس يعلمه بها، لكن شرط أن المنوم يستسلم استسلامًا كاملًا، أعظم من هذا القتل، الذي يسميه الفقهاء القتل بالحال؛ حيث إنه يسلط نفسه على نفس هذا الرجل ويخنق نفسه ويموت، ولهذا ذكروا في باب القصاص هل القتل في الحال بالحال عمدًا يقتل به القاتل، أو خطأ أو شبه عمد؟

وإذا قلنا: إنه يقتل فهل يقتل بالحال أو يقتل بالسيف، الصواب: أنه يقتل القاتل بالحال، سواء قلنا: إنه قصاص أو قلنا: إنه من باب دفع الفساد في الأرض، لكن بعض الفقهاء يقولون: إذا أردنا المقاصَّة تمامًا نأتي بواحد يقتل بالحال ونجعله يقتل هذا الرجل، فيقتل بما قتل به؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذكر المتقابلات ـ منامكم وابتغاؤكم من فضله ـ، وابتغاء الفضل يكون في اليقظة، فهذا جمع بين الشيء ومقابله، فالمنام آية، وابتغاؤكم من فضل الله أيضًا آية.

٣- **ومن فوائد الآية:** جواز النوم ليلًا ونهارًا؛ لأن الله جعله من آياته التي امتن بها على

العباد، يؤخذ من قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لكن أيهما أصح؟ نوم الليل أصح بالاتفاق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يطلب رزق الله؛ لقوله: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[الروم:٢٣].

فلو قال قائل: الرزق مكتوب كالأجل، فهو محتوم الوجود.

نقول: لكن مكتوب بسبب، ولا يمكن لأي إنسان أن يقول: الرزق مكتوب فيأتيني، ولا يتخلف عن طلب الرزق أبدًا إلا رجلٌ جاهلٌ أحمق، ولهذا لو قال قائل: إذا كتب الله لي ذرية ستأتي بدون زواج، هل يعقل هذا؟ ما يُعقل أبدًا، فنقول: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يطلب الرزق.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** كراهة سؤال الناس، أو أنه من الأمور التي لا تنبغي؛ لقوله ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وأنت إذا طلبت الرزق من الله عز وجل، فقد طلبته من أهله ممن له المنة عليك.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٤-٢٧]

التفسير

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ جار ومجرور، و﴿يُرِيكُمُ﴾ فعل مضارع، فهل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يُرِيكُمُ﴾، أو متعلق بمحذوف فيكون تأويله قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ مصدرًا مؤخرًا؟

نقول: ظاهر كلام المؤلف [أي: إراءتكم] وصفه أن قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ خبر مقدم، و﴿يُرِيكُمُ﴾ مصدرًا مؤخرًا؛ لأنه أوَّلها إلى مصدر، يعني: وليس المعنى ويريكم من آياته البرق

خوفًا وطمعًا فلنا في إعراب هذه الآية وجهان:

الوجه الأول: ما مشى عليه المؤلف، بأن تجعل يريكم: فعل مضارع مؤوَّل بمصدر، فتصير: إراءتكم، مع أنه ليس فيه حرف مصدري، وهذا موجود في اللغة العربية، ومنه قولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، تسمع هذه مبتدأ، بدليل قوله: خير من أن تراه، مع أنه ليس فيها حرف مصدري يؤوَّل به.

والوجه الثاني: أن نقول ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ متعلقة بـ ﴿يُرِيكُمُ ﴾، يعني: يريكم من آياته البرق خوفًا وطمعًا، يرجِّح الوجه الأول سياق الآيات؛ فسياق الآيات كلها يدل على أن هذا الفعل منسبك بمصدر، فتصير ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ إراءتكم، كالآية التي قبلها ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ ﴾، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم: ٢١]، ويرجح الوجه الثاني أننا نتحاشى هذا المصدر بدون حرف مصدري،قال المؤلف: [﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا ﴾ للمسافر من الصواعق، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر].

قوله: ﴿خوفًا﴾ إعرابها مختلف بين مفعول لأجله وحال، وهنا ﴿يُرِيكُمُ ﴾ الفاعل الله، والخائف الطامع الإنسان ـ أي: بنو آدم ـ فاختلف الفاعل، وابن مالك يقول:

وَهوَ بِما يَعْمَلُ فِيهِ مُتَّحِد   وَقْتًا وَفَاعِلًا وَإِن شَرطٌ فُقِد

الوقت متحد، ولكن الفاعل لم يتحد، وعليه فيكون ﴿خَوْفًا ﴾ حال مصدر من نوع الحال، بمعنى يريكم البرق خائفين وطامعين، أما إذا أسقطنا اشتراط ابن مالك في حال الفاعل تكون ﴿خَوْفًا ﴾ مفعولًا لأجله، ولكن عندي أن هناك وجهًا آخر وهو أن نجعل ﴿خَوْفًا ﴾ بمعنى: تخويفًا، وإذا جعلنا خوفًا بمعنى: تخويفًا زال الإشكال؛ لأن التخويف من الله وهو المريد، والإطماع أيضًا من الله وهو المريد، وحينئذٍ نقبل مخالفة شرط ابن مالك، ولكنه لابد من تأويل في الواقع، فحوَّلنا ﴿خَوْفًا ﴾ إلى إخافة، و﴿وَطَمَعًا﴾ إلى إطماعًا.

فالوجوه إذنْ ثلاثة: إما أن نجعل ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدرين في موضع الحال، أو نجعلهما مصدرين على أنهما مفعول لأجله ولا نعتبر اشتراط ابن مالك في حال الفاعل، أو نجعلهما مصدرين، لكن بمعنى: التخويف والإطماع، وحينئذٍ نكون قد اعتبرنا اشتراط الفاعل، ولم يعوذنا إلى الحال.

وقول المؤلف: [﴿خَوْفًا ﴾ للمسافر من الصواعق، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم في المطر]، ظاهر كلام المؤلف أن هذا على سبيل التوجيه، خوفًا لأناس وطمعًا لأناس، والصواب خلاف كلامه رَحِمَهُ اللهُ ، فالصواب: أن البرق خوف وطمع للجميع، فالمسافر يخاف ويطمع، والمقيم أيضًا يخاف ويطمع، وإلا فمن ذا الذي يسلم من الصواعق؟! إذنْ هو عائد على الجميع، لكن تقديم الخوف

على الطمع، يدل على أن خوف الناس في البرق أشهر من طمعهم، وهذا - والله أعلم - بمعنى: الخوف على الغالب؛ لأن أكثر الناس لاسيما في البرود الثقيلة والبرد العظيم، يخافون أكثر مما يطمعون، ويوجد أناس ما يهتمون بهذا الأمر مهما قوي البرق، ومهما قوي الرعد، لا يهتمون، فهم دائمًا في طمع.

وقوله: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ كلمة الأرض، هل المراد ذات الأرض أنها تُحيى، أو المراد النبات الذي في الأرض يحيى؟

الجواب: المراد النبات الذي في الأرض، إذنْ المراد بالأرض نبات الأرض، وحينئذٍ قد يعترض علينا معترض ويقول: إنكم تقولون: إنه لا مجاز في القرآن، وهنا إذا حملتم الأرض على نباتها فقد قلتم بالمجاز، فما هو الجواب على هذا؟

الجواب على: هذا كما كررنا مرارًا بأن الكلمة في حد ذاتها لا يقوم معناها إلا بسياقها، فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢] لا شك أن المراد ذات الأرض، لكن قوله: ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، يخاطب أناسًا يعرفون الذي يحيى والذي يموت، يعرفون الذي يحيى بالمطر والذي يموت بفقد المطر، فهل أحد ممن يخاطب بهذه الآية يقول: إن هذا الطين وهذا الرمل وهذا الحجر يموت بفقد المطر ويحيى بوجوده؟ ما أحد يقول هذا، والكلمة يعين معناها السياق، وبهذا نسلم من القول بالمجاز؛ لأن القول بالمجاز أبرز على ما في المجاز أنه يصح نفيها، والقرآن ما فيه شيء يصح نفيه؛ لأنه لو صح نفي شيء في القرآن لكان معناه التكذيب.

مثال ذلك قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] إن قال قائل: الجدار لا يريد، فمعنى هذا أنه نفي لما أثبت الله عز وجل، وهذا هو الذي جعل بعض أهل العلم ينكر المجاز في القرآن ويثبته في غيره من اللغة العربية، يقول: لأنه ليس في القرآن شيء يصح نفيه، وأبرز ما في المجاز أنه يصح نفيه، ولكن الصواب كما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا مجاز، لا في القرآن، ولا في اللغة العربية؛ لأننا نقول: إن الذي يعين المعنى هو السياق، وعليه فإذا تعين معنى الكلمة فهو حقيقتها في كل سياق.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور، فالمشار إليه كل ما سبق، ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، هذا المذكور فيه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يقول: [يتدبرون]، وهنا قال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لذوي العقل، والعقل تقدم أنه ينقسم إلى قسمين: عقل إدراك، وعقل رشد، عقل الإدراك هو الذي هو مناط التكليف، الذي يقول فيه: العلماء يشترط لوجوب الصلاة أن يكون عاقلًا، هذا نسميه عقل إدراك؛ لأن الإنسان يدرك الأمور، فيميز بين النافع والضار وغيره، والعقل الثاني أي: عقل الرشد الذي هو مناط الثناء والمدح، وهو الذي يوجد في القرآن كثيرًا، فمثلًا نفى الله العقل عن الكفار مع أنهم

أذكياء، فهم عندهم عقل إدراك لكنهم ليس عندهم عقل رشد يتصرفون فيه تصرف العاقل، وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عما يضره، وهذا هو الذي جعله يسمى عقلًا ويسمى حِجْرًا، قوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]؛ لأنه يحجُر صاحبه ويحجزه عما لا ينبغي.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أتى بالعقل هنا؛ لأنه إشارة إلى ما سيذكر فيما بعد؛ لأن الآيات كما تشاهدون كلها في تقرير إعادة الموتى، وانتقال العقل من هذه الأشياء المحسوسة إلى أشياء منظورة موجودة، إنما يكون عن طريق العقل، ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قال: [بإرادته من غير عمد]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: نقول في إعرابها كما سبق، وقوله: [﴿بِأَمْرِهِ﴾أي: بإرادته من غير عمد]، أفادنا المؤلف رحمه الله أن المراد بالأمر هنا الأمر الكوني؛ لأنه قال: [بإرادته] وإن كان في تفسير الأمر بالإرادة، شيء من الشك، إذ أنني أخشى أنه فسر الأمر بالإرادة فرارًا من إثبات الكلام لله عز وجل؛ لأن الأمر لو كان قويًّا يكون بالكلام؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فأخشى أن المؤلف ـ غفر الله له ـ أراد بتفسير الأمر بالإرادة فرارًا من إثبات الكلام، ومعروف أن الأشاعرة لا يثبتون الكلام بالحرف والصوت، وإنما يثبتون الكلام على أنه المعنى القائم بنفسه، والحرف المكتوب والصوت المسموع، يقولون: إنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله.

وقوله: ﴿أَن تَقُومَ﴾ أيضًا فسره بقوله: [من غير عمدٍ]، وهذا يدل على أنه ذهب على أن المراد بالقيام هنا القيام الحسي، يعني: أن تبقى غير واقعة على الأرض، بل هي ممسكة بأمر الله سبحانه وتعالى بغير عمد، وهذا تفسير قاصر.

والصواب: أن قيام السماوات والأرض أعم من كونه قيامًا حسيًّا، أو قيامًا معنويًا، بمعنى: أنه يشمل القيام الحسي والقيام المعنوي، فالسماوات قائمة بأمر الله قيامًا حسيًّا بما فيها من الانتظام بما خلق الله عز وجل من الأفلاك المتضمنة الشمس، والقمر، والنجوم، وغير ذلك، وكذلك الأرض قائمة قيامًا حسيًّا بما أودع الله فيها من مصالح الخلق من أشجار ونبات وأنهار وبحار وغير ذلك، هذا قيام حسي.

يوجد أيضًا قيامٌ معنوي وهو قيام هذه بطاعة الله فإن المعاصي إفسادٌ في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] فالسماوات أيضًا والأرض تقوم بأمر الله الشرعي كما تقوم بأمره الكوني، ولا قيام للأرض ولا للسماوات إلا بالتزام أمر الله الشرعي، فحينئذٍ نفسر القيام بأنه القيام الحسي والقيام المعنوي.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر قيام

السماوات والأرض؛ لأن البعث متأخر لا يكون إلا بعد قيام الساعة، يقول: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الفاعل هو الله عز وجل، ﴿دَعْوَةً﴾ أي: واحدة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض.

يقول المؤلف: [بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من في القبور ﴿مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ منها أحياءً، فخروجكم منها بدعوة من آياته تعالى].

قوله: ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ هل تتعلق بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾، يعني: إذا دعاكم دعوة تخرجون من الأرض، أو متعلق بدعا؟

نقول: هو متعلق بدعا، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾، وليس متعلقًا بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لأنه لا يتعلق ما قبل إذا الفجائية بما بعدها، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، إذا شرطية. ﴿إِذَا أَنتُمْ﴾، إذا فجائية، فهي نائبة مناب الفاء الواقعة في جواب الشرط.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: دعاكم منها، هل دعوة الله تكون من الأرض، أو إذا دعاكم من الأرض يعني: أنكم أنتم في الأرض؟

المراد، إذا دعاكم من الأرض، مثلما تقول دعوته من بيته، ما أنا في البيت، لكن هو في البيت فدعوته منه ليحضر، ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] يعني: على وجه الأرض، وهذا من آيات الله أيضًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال المؤلف: [مِلكًا وخلقًا وعبيدًا].

وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، الضمير في (له) يعود على الله وهو خبر مقدم والمبتدأ منفي وتقديم الخبر - كما هو معروف في علم البلاغة - يفيد الحصر، يعني: الله وحده له من في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: مستقرًا؛ لأن الجار والمجرور الواقع صلة للموصول تقدر بفعل، بخلاف الواقع خبرًا للمبتدأ فإنه يقدَّر باسم، فالجار والمجرور إذا وقع صلة لموصول فقدر متعلقة فعلًا؛ لأن الأصل في صلة الموصول، أن يكون جملة، لكن إذا وقع الجار والمجرور أو الظرف خبر لمبتدأ فقدره باسم؛ لأن الأصل في الخبر أن يكون مفردًا لا جملة، تقول: زيد في البيت، تقديره كائن في البيت، فزيد مبتدأ، وكائن خبر، لكن لو قلت: زيد في البيت، أي: زيد استقر في البيت صار الخبر جملة، والأصل في الخبر أن يكون مفردًا، أما إذا قلت: يعجبني الذي في المسجد، ما تقول: الذي كائن في المسجد؛ لأنك إذا قدرت الذي كائن في المسجد، لزم أن تقدم المبتدأ أيضًا أي: الذي هو كائن في المسجد، إذنْ لماذا لزمك أن تقدر المبتدأ كائن؟ لأن صلة الموصول لابد أن تكون جملة، بخلاف خبر المبتدأ فإنه يكون مفردًا.

إذنْ عندما نقدر المتعلق بالجار والمجرور الواقع صلة نقدره فعلًا؛ ليكون ذلك جملة، وعندما

نقدر متعلق الجار والمجرور، أو الظرف في المبتدأ نقدره اسمًا.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: من استقر من الملائكة، هذا الذي نعرف، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من البشر والحيوان، وهنا قال: ﴿مَن﴾؛ تغليبًا للعاقل، وإلا فإن الأرض فيها العاقل وغير العاقل.

وفي قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]، كان الأولى أن يقدم الخلق، ثم الملك ثم العبيد، فله من في السماوات، هو الذي يملكهم سبحانه وتعالى وهو الذي خلقهم، وهو ربهم وهم عبيده، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا أحد يعارضه في ذلك، فكلهم في السماوات والأرض له طائعون، كما قال الله عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [مطيعون]، ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ خبرها، والجار والمجرور له متعلق بـ ﴿قَٰنِتُونَ﴾، لكنه قُدم عليه للاختصاص والحصر.

وقوله: ﴿كُلٌّ﴾ التنوين هنا عوض عن مفرد، فكل ما جاءت كل أو بعض منونة، فإنها عوض عن مفرد، والمعنى أي التقدير: كل من في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: [مُطِيعُون]، والطاعة هنا: طاعة وخضوع للأمر الكوني، وهذا شامل للمؤمن وغير المؤمن، والثاني طاعة وقنوت للأمر الشرعي وهذا خاص بالمؤمن، وعلى هذا يكون المراد بالقنوت هنا القنوت الكوني لا الشرعي؛ لأنه قال: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾، ولا يتصور هذا إلا في الكوني، فالكل خاضع لأمر الله قانت باعتبار أمره الكوني، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

قال المؤلف: [﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ للناس ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد هلاكهم، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من البدء].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يبتدئه وأتى بكلمة ﴿يَبْدَؤُا۟﴾؛ لأن الخلق مشتمل، فكل يوم يكون فيه ابتداء خلق، مثل: الأجنة في بطون الأمهات تنشأ كل يوم، وكم في الدنيا في اليوم الواحد من جنين يُصور!! ولهذا أخذ الفعل المضارع الدال على الاستمرار، ولما يقل بدأ.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يعني: ثم يعيده الله عز وجل، ومعنى الإعادة: رده على ما كان عليه أولًا، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأخبر النبي ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا(١) كما بدأوا.

قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾ والضمير يعود على الإعادة، المفهوم من قوله يعيده، فمرجع الضمير

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

إذنْ المصدر المفهوم من الفعل، وقد سبق لنا عدة مرات أن مرجع الضمير قد لا يذكر بلفظه ولكن يذكر ما يدل عليه، كقوله تعالى: ﴿أَعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٩] فمرجع الضمير هنا العدل المفهوم من كلمة ﴿أَعْدِلُواْ﴾.

إذنْ ﴿وَهُوَ﴾ أي: الإعادة، والإعادة مصدر يصح أن يعود الضمير عليها مذكرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أهون اسم تفضيل من هان يَهون، واسم التفضيل يدل على أن الهون درجات: هين وأهون، ودرجات الهُون قد توحي بأن هناك مشقة؛ لأنه لولا أن في بعضها مشقة ما صار بعضها أهون من بعض، ولذلك اختلف المفسرون في اسم التفضيل هنا وهو أهون، فقيل: إنه بمعنى هين، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو هين عليه، وقال بعض المفسرين: وهو ما ذهب إليه المؤلف، وهو أنه أهون عليه من البدء، بالنظر إلى ما عند المخاطبين من أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه وإلا فهما عند الله تعالى سواء في السهولة، فصارت الآن كلمة ﴿أَهْوَنُ﴾ على بابها، فالمؤلف مشى على أنها على بابها، لكنها باعتبار المخاطبين؛ لأن المخاطب يعرف أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، وسبب ذلك أن إعادته لا تحتاج إلى تفكير جديد؛ لأنه قد سبق فيه التفكير، ثانيًا: أن مواد التكوين موجودة، افرض مثلًا: أنني عندما أريد أن أصنع سيارة أجدها تحتاج إلى تفكير أولًا ومواد، فإذا أردت أن أعيدها مرة ثانية بعد أن تفككت هذه السيارة، تكون الإعادة أهون؛ لأن التفكير قد فرغت منه، والمواد موجودة متوفرة، فتكون الإعادة أهون باعتبار المخاطب، أما بالنسبة لله عز وجل، فلا نقول: إن في حقه ما هو أهون وما هو هين، بل الكل عند الله تعالى هين سهل.

وقال بعض المفسرين: إن ﴿أَهْوَنُ﴾ هنا بمعنى: هين، فعلى هذا يكون الهُون بالنسبة إلى الله عز وجل لا بالنسبة إلى ما عندنا نحن، وهو هين عليه، ففي الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ: أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ، وَلَيْسَ بَدْءُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1] فهو مفسر للآية، وهو يفسر أن كل ذلك هين عليه ولكن لا شك أن الإعادة أهون باعتبار المفهوم عند المخاطبين كما مشى عليه المؤلف رحمه الله وهو هنا جيد.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الصفة العليا وهي أنه لا إله إلا الله، قوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾ خبر مقدم و﴿ٱلْمَثَلُ﴾ مبتدأ مؤخر، والمثل يطلق على عدة معانٍ، فيطلق على الشَّبه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] يعني: شبههم كشبه الذي استوقد نارًا، ويطلق المثل على الصفة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد :١٥] ، ويطلق المثل على الذات، قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٧٤)، والنسائي (٢٠٧٨).

[الشورى: ١١] يعني: ليس كذاته، فترى المَثَل والمِثْل سواء، كلاهما واحد، وقالوا: منه قول الشاعر:

لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْرٌ

المراد بالمثل هنا في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الصفة، أي: وله الصفة العليا في السماوات والأرض، فكل صفة كاملة فللَّه عزَّ وجلَّ أكملها، وكل صفة نقص فإنه منزه عنها، وينزه عن صفة النقص؛ لأنه مادام قد ثبتت له الصفة الكاملة العليا، فإنه بالضرورة العقلية ينتفي عنه النقص؛ لأنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له المثل الأعلى.

إذنْ هذه الآية الكريمة، تدل على صفات الكمال لله عز وجل، الكمال المطلق؛ لأنه قال: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وعلى انتفاء النقص من جميع الوجوه، إذ إنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له المثل الأعلى، ونأخذ من هذا أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال وليس فيه نقص، وكل كمال فإن الله تعالى مستحق له، إذنْ هذان شيئان:

الأول: أن نعلم علم اليقين أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال.

الثاني: أن نعلم أن كل صفة كمال فالله مستحق لها، فهو أهْل لها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»[1] وسيأتي إن شاء الله في الفوائد ما يستدل به في الرد على الذين ينكرون صفات الله بحجة أنها تستلزم النقص، وهو التشبيه.

وقوله: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المقصود بالمثل الأعلى في السماوات والأرض، أي: عند أهل السماوات من الملائكة، وعند أهل الأرض، وكل الفطر السليمة فإنها تعترف بأن المثل الأعلى والصفة العليا لله وحده، وأما قول المؤلف: [وهي أنه لا إله إلا الله]، فهذا فرد من أفراد المثل الأعلى، وليس هو المثل الأعلى كله، فإن لا إله إلا الله تدل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، وهذا من المثل الأعلى، لكن المثل الأعلى أعم من ذلك، فله مثلًا: القدرة الكاملة، والعلم الكامل، والحياة الكاملة، والسمع الكامل، والبصر الكامل، والحكمة البالغة، وهكذا، فهي أعم من تفرده بالألوهية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [في ملكه] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [في خَلْقه]، تفسيره هذا فيه قصور، فـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: ذو العزة، وهي الغلبة والقهر والقَدْر، فله عزة القهر والقدر، فالعزة إذنْ ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة القهر بمعنى: أنه القاهر لكل شيء فلا يغلبه أحد، قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

الثاني: عزة القدر: والمعنى أنه سبحانه لا نظير له ولا شبه له؛ لكمال قدره سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٧)، والنسائي (١٠٦٨).

وعظمته، ومنه قولهم: هذا الشيء عزيز، أي: نادر الوجود لا نظير له.

المعنى الثالث: عزة الامتناع، بمعنى: أنه يمتنع عليه النقص؛ لكمال قوته، ومنه قولهم: هذه الأرض عَزَاز، أي: شداد قوية ما يمكن أن يُؤثِّر فيها شيء، والأرض الرَّخوة بالعكس، كل شيء يؤثر فيها، حتى الرجل إذا مشى عليها يؤثر، بخلاف الأرض الصلبة التي تسمَّى عَزَاز، فصارت الآن عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠] من أي المعاني إذنْ؟ نقول: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، فهو من عزة الامتناع.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فالمؤلف يقول: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [في خلقه]، وأحيانًا يقول: [في صنعه]، ومعناهما واحد، لكن هذا قاصر أيضًا؛ لأن الحكيم مشتق من الحُكم والحكمة، فعلى قولنا: إنه مشتق من الحُكم، يكون حكيم بمعنى: حاكم، مثل رحيم بمعنى: راحم، وعلى قولنا: إنه من الحكمة، يكون حكيم بمعنى: محكم، فهو من أحكم يحكم.

إذنْ فعيل بمعنى: مُفعِل، هل تأتي في اللغة العربية؟

الجواب: نعم، ومنه قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع أي: المُسمِع؛ لأن الداعي يُسمع غيره وليس هو نفسه سميعًا.

إذنْ نقول: حكيم إذا كان من الحكمة فهو من أحكم، بمعنى: أتقن، فجاء حكيم مأخوذة من الحكم والحكمة، فعلى أنه مأخوذ من الحكم يكون بمعنى: حاكم؛ مثل: رحيم بمعنى: راحم، وسميع بمعنى: سامع، وإذا قلنا: إنه من الحكمة فهو من أحكم، فهو حكيم بمعنى: مُحكِم - أي: اسم فاعل من الرباعي - إذنْ ينقسم حكم الله عز وجل إلى قسمين: كوني وشرعي، فالكوني نافذ في جميع الخلق، شاءوا أم أبوا، والشرعي نافذ فيمن أطاع الله عز وجل، أما من لم يطعه فإنه لا ينفذ حكمًا.

هل هناك أمثلة من القرآن تدل على هذا التقسيم، أن الحكم كوني وشرعي؟

نقول: نعم موجود، قال أحد إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، والمراد بالحكم هنا: الحكم الكوني القدري، يعني: أو يقدر الله ذلك، أما الحكم الشرعي فإن الله لما ذكر ما يجب في النساء المهاجرات في سورة الممتحنة، قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، والمراد بالحكم هنا: حكم الله الشرعي؛ لأن ما ذُكِر من الأمور أمور شرعية، أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] شامل للاثنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] الظاهر أنه شامل وإن كان الشرعي في هذه الآية أظهر؛ لأن الله قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذنْ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ من الحكم تنقسم إلى قسمين هما: حكم شرعي وحكم كوني، الحكم الكوني: هو قضاؤه وقدره وكل أحد خاضع له، والحكم الشرعي: ما حَكَم به شرعًا، ولا يخضع له كل أحد، أما إذا قلنا: إن ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾من الحكمة، بمعنى: مُحكِم، فإن الحكمة يقولون: إنها تنقسم إلى قسمين: حكمة غائية، وحكمة صورية، يعني: صورة الشيء كذا وكذا، فكون الشيء على صورة معينة، نجد أن جميع ما خلقه الله في صفاته كلها على صفة موافقة للحكمة، تدبر المخلوقات مثلًا فتجد أن المخلوقات في ذواتها وحركاتها وهيئاتها وصفاتها كلها موافقة للحكمة.

والحكمة الغائية: هي الغايات المحمودة، في أفعاله وأحكامه الشرعية، فكل ما خلق الله عز وجل فإنه لغاية محمودة، ليس عبثًا ولا سدى، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص: ٢٧] حتى ما يقدره الله من الأمور المؤلمة فإنه حكمة، فهزيمة المؤمنين يوم أحد حكمة، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾[آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]؛ إذنْ كل أفعاله سبحانه وتعالى لها حكمة ولها غاية محمودة، كذلك أيضًا أحكامه الشرعية، مثل: الأحكام الكونية، فوضعها على صفة معينة موافقة للحكمة، ثم غاياتها الحميدة التي بها صلاح القلوب والبلاد والعباد، فهي أيضًا حكمة، فصارت الحكمة نوعان: حكمة في الشيء على صفة معينة، وحكمة في غايته الحميدة، ثم إن هذه الحكمة تكون في الشرع، وتكون في الكون، إننا إذا علمنا ذلك ـ أن الله تعالى حكيم ـ فإننا نطمئن غاية الاطمئنان لما قضاه وقدره، ولما شرعه وحكم به، وأنه موافق للحكمة، وحينئذٍ لا يمكن أن نورد ولا أن يرد علينا سؤال مثل :

من أين شُرع كذا؟ فمن سأل على سبيل الاسترشاد فيجوز، فالإنسان الذي يسأل عن الحكمة مسترشدًا لا بأس، أما الذي يسأل عن الحكمة معترضًا فإنه قاصر ولم يقدر الله حق قدره.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إلى آخره.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أولًا أن البرق من آيات الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن البرق يشتمل على الخوف والرجاء؛ لقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وسبق أن الصحيح أنها ليست موزعة - كما قال المؤلف -؛ بل هي صفة مجتمعة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى بإنزال الماء من السماء.

٤- **ومنها**: رحمته بالخلق؛ حيث كان إنزال هذا المطر من السماء، هذه واحدة؛ وحيث كان ينزل شيئًا فشيئًا؛ لأنه لو كان ينزل دفعة واحدة لأهلك الناس.

٥- **ومن فوائد الآية**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث يحيي الأرض بعد موتها، فتجد الأرض يابسة ما فيها عود أخضر، ثم بعد نزول المطر تصبح مخضرة تهتز.

٦- **ومنها**: رحمته بالخلق أيضًا؛ حيث إن إحياء الأرض، نافع للإنسان والحيوان.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا ينتفع بالآيات إلا ذوو العقول.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: استعمال العقل في القياس، أي: في قياس الأشياء المتشابهة والنظير على نظيره.

٩- **ومن فوائدها**: أن القياس من الأدلة العقلية، وإن كان ثابتًا في الشرع، لكن طريقه هو العقل؛ لأن العقل يهتدي بهذا على هذا، وينتقل من هذا إلى هذا.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ إلى آخره.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: أن قيام السماوات والأرض بأمر الله، ليس للمخلوقين فيه تعلق إطلاقًا، فالله تعالى هو الذي يقيم السماوات والأرض، سواء القيام الحسي أو المعنوي.

٢- **ومنها**: إثبات الكلام لله، تؤخذ من قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ والمؤلف قال: [بإرادته] وتقدم التنبيه على هذا، أن المراد بأمره الكلام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى ببعث الموتى بكلمة واحدة، تؤخذ من قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دعوة واحدة يكون بها جميع الخلق خارجين، وهذا لا شك أن فيه ما هو من أبلغ القُدَرِ، وأن الله تعالى على كل شيء قدير.

٤- **ويُستفاد من الآية أيضًا**: أن مقرَّ بني آدم الأرض؛ لقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] فالمعمول في هذه الآية مقدم ـ فيها ومنها ـ وتقديم المعمول يدل على الحصر، إذنْ فالحياة على الكواكب الأخرى مستحيلة بالنسبة لبني آدم، وهذا هو ظاهر الآيات، أن بني آدم خُلقوا من الأرض ويرجعون إلى الأرض، ويُدعون يوم القيامة من الأرض.

٥- **ومنها**: إثبات الكلام لله في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾:

١- **فيُستفاد منها**: عموم مُلك الله، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأن من اسم موصول والموصولات كلها تفيد العموم.

٢- **ويستفاد من الآية**: انفراد الله عز وجل بالمُلك واختصاصه به، يؤخذ من تقديم الخبر في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن﴾ يعني: لا لغيره، وهنا يرد علينا إشكال في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في هذا

العموم نجد أن بني آدم يملكون أشياء من هذا، فما هو الجواب عن ذلك؟

نقول: الجواب عن هذا أن ملك بني آدم ملك مقيد بتمليك ممن له الملك، ولذلك أنت لا تستطيع أن تتصرف في مالك كما تشاء، فأنت لا تملك أن تحرق مالك، ولا أن تتلفه، صحيح أنت تملكه بالنسبة لغيرك من الآدميين، فهم لا يقدرون أن يمنعوك، لكن بالنسبة للخالق الذي له الملك يمنعك من هذا، فصار ملكنا لما نملك ليس ملكًا تامًّا، وجهه أننا لا نستطيع ولا نملك أن نتصرف فيما بين أيدينا كما نشاء.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة**: خضوع الكائنات لربها سبحانه وتعالى، يؤخذ من قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ وأن جميع الكائنات خاضعة لله.

٤- ويستفاد من ذلك: أن القنوت لا يختص بالقنوت الشرعي، وأكثر الناس يظنون أن القنوت يختص بالقنوت الشرعي، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] هذا قنوت شرعي لا شك، لكن الآية هذه وما أشبهها تدل على أن القنوت هو الخضوع لله عز وجل، سواء كان ذلك خضوعًا شرعيًّا أو كونيًّا.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة**: أن الخلق حادث بعد أن لم يكن، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ فيكون في الآية رد لقول الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، والصواب: أن العالَم حادث بعد أن لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات إعادة الخلق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٣- **ومن فوائدها أيضًا**: استعمال قياس الأَوْلَى، وهو الاستدلال على الشيء الذي يكون أولى من المقيس عليه، من قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إعادته، فإنه إذا كان قادرًا على الابتداء فهو على الإعادة أقدر من باب أَوْلى.

٤- **ومن فوائد الآية**: إثبات كمال الصفات لله؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٥- **ومن فوائدها**: الردُّ على أهل التعطيل الذين ينكرون صفات الله عز وجل، فإن الذين ينكرون صفات الله، ما جعلوا له المثل الأعلى، بل جعلوه موصوفًا بالنقائص - والعياذ بالله - سواء كان هذا التعطيل كليًّا أو جزئيًّا؛ لأنه إن كان كليًّا كما فعل الجهمية الذين سلبوه جميع الصفات، وكذلك المعتزلة قالوا: له أسماء بدون صفات، فظاهر أنهم سلبوا الكمال عن الله، أما إذا كان جزئيًّا كما فعل الأشاعرة والماتريدية ونحوهم، فإن هذا فيه سلب الكمال عن الله فيما وصف به نفسه، فـ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] الاستواء صفة كمال، وهم يقولون: استوى بمعنى: استولى، فلم يجعلوا للعرش خصيصة بالاستواء عليه؛ لأن الله تعالى مستولٍ على كل شيء، وكذلك أيضًا إذا

قالوا: إن المراد بالآيات خلاف الظاهر فإنهم وصفوا الله عز وجل بالنقص؛ لأن إرادة المتكلم بكلامه خلاف الظاهر بدون بيان، يعتبر تدليسًا وتمويهًا، والله عز وجل ما أنزل القرآن إلا للبيان، قال عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٤٤] الآيات في هذا كثيرة، فإذا قلنا: إن الله أراد بهذا خلاف الظاهر، فهذا وصف له بالتعمية سبحانه وتعالى وأنه لا يريد البيان، وهذا لا شك أنه نقص، ولهذا نقول: إن جميع من أنكروا صفات الله عز وجل كلية أو جزئية، فإنهم قد وصفوا الله تعالى بالنقص.

٦- **يستفاد من الآية الكريمة**: أن كل صفة وصف الله بها نفسه فهي صفة كمال، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾ فإذا أثبت لنفسه صفة علمنا أنها صفة كمال، فالرحمة أثبتها الله لنفسه، فهي صفة كمال، لكنها عند أهل التعطيل المحرِّفين هي صفة نقص، إذ يقولون: إن الرحمة تدل على الخور والضعف، ولهذا رحمة الله لا يراد بها الرحمة، وإنما يراد بها الإحسان أو إرادة الإحسان، يفسرونها إما بالجزاء المفعول المخلوق، وإما بإرادته، وعلى هذا فَقِسْ.

مسألة: هل يستفاد من هذه الآية الكريمة استعمال قياس الأولى في حق الله، وأن نقول: كل صفة كمال في المخلوق فالخالق أولى بها؟

الجواب: نعم، شيخ الإسلام رحمه الله يقرر هذا؛ لأن استعمال قياس الأَوْلى في حق الله جائز، أما قياس التمثيل وقياس الشمول فهذا ممتنع؛ لأنه هو التشبيه، فإذا قلنا: كل صفة كمال في المخلوق فالخالق أولى بها، صح لكن يجب أن نعلم أن صفات المخلوق الكاملة التي تكمِّل نقصه، كاملة في حقه لكن لتكميل نقصه، هذه لا يوصف الله بها، وهذا صحيح؛ لأنها هي كاملة في حق المخلوق، لكن لتكميل نقصه، فإن الخالق لا يوصف بها؛ لأنها وإن كانت كاملة فهي في الواقع نقص، مثل الأكل والنوم والنكاح وما أشبه ذلك، هذه الصفات في حق المخلوق صفة كمال؛ لأن الذي لا يأكل معناه مريض، والذي لا ينام معناه مريض، والذي لا يتزوج معناه مريض، وفوات هذه الصفات نقص في المخلوق، لكنها لما كانت تكميلًا لنقصه صارت لا يوصف بها الخالق؛ لحاجة الإنسان إلى الأكل، صار يأكل، والذي لا يشتهي ولا يأكل فإنه يموت، وكذلك لما كان الإنسان يتعب ويحتاج إلى صفة تقطع هذا التعب قال الله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧] صار النوم في حقه كمالًا، وكذلك لما كان الإنسان محتاجًا إلى بقاء النسل والنوع، صار النكاح في حقه كمالًا، وفي الحقيقة التكميل لنقص، لكن لا يوصف الله به عز وجل؛ لأن الله كامل من جميع الصفات.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة**: إثبات العزة؛ لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإثبات الحكمة؛ لقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وإثبات الحكم أيضًا من قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

٨- **ويستفاد من الآية الكريمة**: قطع الاعتراض على الخلق والشرع، بمعنى: أنك لا تعترض على خلق الله أو على شرعه، إنما تسلم؛ لأنك إذا آمنت أن الله تعالى حكيم، فحينئذٍ ينقطع الاعتراض نهائيًا، ما تقول لمَ؟ ولا من أين؟ إلا على سبيل الاسترشاد.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: اطمئنان الإنسان التام لما قدَّر الله تعالى وَشَرعه؛ حيث إنه صادر عن الحكمة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢٨-٣٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ضرب: جعل ﴿لَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا﴾ كائنًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾]

المثل بمعنى: الشبه والنظير، يعني: ضرب لكم أمرًا نظيرًا لما فعلتم أنتم في جانب الله عز وجل، ما هذا المثل؟ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: من الذين [﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ لكم]، كلمة ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ إعرابها أنها مبتدأ دخل عليها حرف لأجل العموم، ولكنه قد يشكل علينا أن ﴿مِّن﴾ لا تزاد إلا بعد النفي، ابن مالك يقول في هذه المسألة:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبهِهِ فَجَر ... نَكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفَر

وقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾ أي: من الذي ملكت، وهي صلة الموصول والعائد محذوف، والتقدير: ملكته أيمانكم.

وقوله: ﴿أَيْمَانُكُم﴾، الأيمان جمع يمين، وهي اليد، وأضيف المُلك إلى اليد؛ لأن غالب تصرفات الإنسان بيده، وأضيف إلى اليمين؛ لأنه أشرف من اليسار.

وقوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، المراد: ما ملكت الأيمان من الإنسان، ولهذا قال المؤلف: [أي: مماليككم]، أي: مِنْ مماليككم.

وقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ هذه هي المبتدأ، والخبر ﴿لَّكُم﴾ المقدم، ولكن المبتدأ دخلت عليه ﴿مِّن﴾ لإفادة العموم أو للتنصيص على العموم؛ لأن ﴿مِّن﴾ الزائدة تفيد التنصيص على العموم.

وقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ [لكم] إذا قال قائل: كيف جاءت من زائدة وهي لم تسبق بنفي؟

الجواب: أنها سبقت بشبهه.

وقوله تعالى: [﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيره ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾] يقول المؤلف: [﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيره]؟

والجواب: لا، ليس لنا مما ملكت أيماننا شركاء فيما رُزقنا، فالمملوك لا يشاركك في مالك، ولا يشاركك أيضًا في ولدك ولا يشاركك في أي شيء تملكه.

وقوله: [﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم فيه سواء]، المؤلف أتى بكلمة [وَهُم]؛ لأن المساواة لا تكون إلا بين شيئين، فلهذا أتى بقوله [وهم]، ولا حاجة إليها في الحقيقة، لأن الكلام تام بدونها، إذ من الممكن أن يقول: ﴿فَأَنتُمْ﴾ الضمير يعود على المالك والمملوك، فأنتم أيها المالكون والمملوكون فيه سواء، وحينئذٍ لا نحتاج إلى تقديم وهم.

وقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، هذا الذي تسلط عليه النفي، يعني: لستم فيه سواء. وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [أي: أمثالكم من الأحرار]، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الضمير يعود على ﴿مِّن﴾ باعتبار اللفظ أم باعتبار المعنى؟ نقول: باعتبار المعنى؛ لأن ما لو عاد إليها الضمير باعتبار اللفظ، لعاد إليها مفردًا، فلما عاد إليها جمعًا صار باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، المؤلف رحمه الله جعل الأنفس بمعنى: الجنس، يعني: كما تخافون من جنسكم، ولهذا قال: [أي: أمثالكم من الأحرار]، ويمكن أن يقال: إنه يعود على ذات الإنسان، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: كما أنكم لكم التسلط على أموالكم فأنتم تخافون أن يتسلطوا على هذه الأموال كما تتسلط أنفسكم، وقوله:

﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا مصدر مضاف إلى الفاعل، وأنفس هي المفعول، قال المؤلف رحمه الله : [والاستفهام بمعنى: النفي. المعنى: ليس مماليككم شركاء لكم إلى آخره عندكم، فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له؟!].

وهذا مثل واضح؛ حيث إنه إذا كان لك أنت الذي لا تملك، لا يشاركك مماليكك في مالِك، وفيما هو من خصائصك، فكيف تجعل لله تعالى شريكًا فيما هو من خصائصه؟! إذنْ الكلام واضح جدًّا في إلزام هؤلاء بعدم الشرك، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ قال

المؤلف: [نبينها مثل ذلك التفصيل ﴿لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون].

كذلك الكاف اسم بمعنى: مثل، فهو إذنْ مفعول مطلق، وعامله مفصَّل، أي: مثل ذلك التفصيل والتبيين يفصل الآيات، ولكن من الذي ينتفع بها؟قال: ﴿لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: إن الله فصل الآيات للعاقلين وغير العاقلين، فلماذا خص ذلك بالعاقلين؟

الجواب: لأنهم المنتفعون بهذا التفصيل، مثلما وصف الله القرآن بأنه هدى للمتقين، وفي آية أخرى هدى للناس عامة، فباعتبار الهداية المطلقة هو عام، وباعتبار الانتفاع هو خاص - والله أعلم -.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ بل هذه للإضراب، والإضراب هنا انتقالي وليس إبطاليًا، وجه ذلك: أن الله تعالى لما بيَّن هذه الآيات الدالة على قدرته، وعلى أنه واحد لا شريك له بضرب المثل الأخير، المثل الذي لا ينازع فيه إلا مكابر، وهو أنه كيف تجعلون لله شريكًا والله يملكه، فهل لكم أنتم شركاء في أموالكم من مماليككم؟

الجواب: لا، إذنْ فإنه يدل على أن الله لا شريك له، ثم بعد هذا بيَّن عز وجل أن الذين خرجوا عن ذلك وأنكروا البعث وأنكروا الوحدانية أنهم ليسوا على حق، وإنما هم ظالمون، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ قال المؤلف: [بالإشراك] وهذا تخصيص في غير محله، والظاهر لي: أن المؤلف خصَّصه مراعاة للمثل الذي قبله؛ لأن المثل الذي قبله واضح في أن الغرض منه إبطال الشرك، لكن لو قيل: إنه يشمل هذا وغيره من الظلم، كإنكار البعث مثلًا، وإنكار البعث لا شك أنه ظلم؛ لأنه يستلزم تكذيب الله عز وجل، كما ثبت في الحديث القدسي أن تكذيب الله بأن الله تعالى لا يعيد الخلق كما بدأه، وقد سبق ذكره، فيكون المراد بالظلم هنا الإشراك وغيره مما ظلموا فيه أنفسهم.

وقوله: ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾ جمع هوى، والهوى في الأصل: الميل، ثم إنه لا يطلق في الغالب إلا على الهوى المذموم، فيقال: اتبع هواه دون هداه، وقد يأتي للهوى المحمود، كما في الحديث - وإن كان فيه ضعف -: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»(١) فالهوى هنا التابع لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، لا شك أنه هوىً محمود.

وقوله: ﴿أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ يعني: أن هذا الاتباع ليس مبنيًّا على علم بل هو مبني على

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة» وانظر تفصيل القول فيه للعلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه: «جامع العلوم والحكم».

الجهل والضلال فيمن كانوا جاهلين، وعلى الاستكبار والعناد فيمن كانوا معاندين، فالذين اتبعوا أهواءهم اتبعوها بغير علم، إذا كانوا جاهلين، فظاهر الأمر أنه لا علم لهم باتباع أهواءهم، لكن إذا كانوا معاندين، فهل نقول: إنهم بغير علم؟

الجواب: نعم، نقول: إنهم بغير علم؛ لأن من استكبر وعاند الحق، فإنه كالجاهل بما يستحقه الرَّبُّ عز وجل، فهو في الحقيقة غير عالم، بل الجاهل خير منه.

فإذا قال قائل: كيف يصح نفي العلم مع وجوده؟

قلنا: كما يصح نفي السمع مع وجوده، ونفي البصر مع وجوده، لمن لم ينتفع به، أليس الله يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] أو ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

المهم: أن نفي العلم لمن لم ينتفع به صحيح، كنفي السمع عمن لم ينتفع به، والحاصل أن المتبعين لأهوائهم ينقسمون إلى قسمين:

قسم جاهل حقًّا: بنى هواه على الضلال، ويمكن أن نمثل لهؤلاء بالنصارى؛ لأن النصارى ضالون.

وقسم آخر مستكبر معاند: فهذا في الحقيقة لا علم عنده وإن كان له علم فإنه لا ينفعه بل يضره، كاليهود.

قال الله عز وجل: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام، والمراد بالاستفهام هنا: النفي، وقد سبقت لنا قاعدة أن الاستفهام إذا جاء بمعنى النفي صار مشربًا بالتحدي؛ لأنك إذا قلت: من يفعل كذا؟ أعظم من قولك: لا أحد يفعله، كأنك تقول: هذا أمر لا يمكن، فإن كنت صادقًا فأرني من يفعله، فإذا جاء الاستفهام بمعنى النفي صار أبلغ من النفي المجرد؛ لأن الاستفهام بمعنى النفي مشرب بالتحدي.

وقوله: ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ فاعل، والمفعول محذوف، والتقدير: من أضله الله، وهذا المفعول هو عائد الموصول الذي يعود إليه.

وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، قال المؤلف: [أي: لا هادي له] فسر الاستفهام بالنفي وهو حق لكنه كما قلت أبلغ من النفي المجرد.

ثم قال: [﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله]، الظاهر أن الواو هنا للاستئناف؛ لأن الجملة خبرية والتي قبلها إنشائية استفهامية؛ لأن الاستفهام من قسم الإنشاء كما قرأنا في البلاغة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم بغير علم، هم الذين يستحقون العذاب ولن يجدوا أحدًا ينصرهم منه، أي: يمنعهم من العذاب.

والنفي هنا مؤكد بـ ﴿مِّن﴾ الزائدة الداخلة على قوله: ﴿نَّٰصِرِينَ﴾، وأصل الكلام بدون هذه أن يقال: وما لهم ناصرون.

مسألة: هل ما هنا حجازية أو عربية؟

الجواب: الحجازي معناه الذي يختص به الحجازيون، والعربي الذي للحجازيين والتميميين، وهي هنا عربية لاختلاف الترتيب؛ لأن خبرها قُدم ولا تكون حجازية إلا إذا كانت مرتبة، أي: الاسم قبل الخبر.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

بعد أن توعد هؤلاء المشركين بما توعدهم به وبين أنه لا أحد يهديهم إذا أضلهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

أي: فأقِم وجهك إليه وعما سواه، ولهذا حذف المتعلق؛ ليكون شاملًا للميل إلى الدين والميل عن الدين وأصل الحنف ميل الرجل، والرجال المائلة تسمى حنفاء، فالحنيف معناه: المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن المعصية إلى الطاعة، وقول المؤلف: [أي: أخلص نيتك لله] أي: أخلص دينك لله [أنت ومن تبعك]، وهذا تفسير معنوي لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، ولو جُعل أعم من ذلك لكان أولى؛ لأن إقامة الوجه تشمل الإخلاص وتمام الاتباع؛ لأن إقامة الوجه نحو الشيء يستلزم متابعته وعدم المخالفة فيكون شاملًا لإخلاص النية وللاتباع اللذين هما أساس العمل، فكل عمل لا ينبني على الإخلاص والمتابعة فهو باطل؛ لأنه إذا فَقَدَ الإخلاص فهو شرك، وإن فقد الاتباع صار بدعة، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1] هذا في الإخلاص، وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2] هذا في الاتباع.

وقوله: [أنت ومن اتبعك]؛ لأنه سيأتينا وقفٌ مجموع وهو قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم:٣١] إلى آخره ولا يمكن أن تكون الحال المجموعة لمفرد؛ لأن الحال وصف فكما لا يخبر عن الواحد بالجمع لا يُجعل الحال جمعًا لواحد، وما ذهب إليه المؤلف صحيح من وجهين:

أولًا: مراعاة اللفظ الآتي.

والثاني: أن الخطاب للرسول ﷺ خطاب له ولأمته؛ لأن زعيم القوم يوجَّه إليه الخطاب الموجه للجميع، يقول مثلًا: الركن في الجيش للقائد: اذهب إلى الجبهة الفلانية، فمن يجيب إذنْ؟ هل القائد وحده؟ نقول: لا، لا يريده وحده فالخطاب لزعيم قوم خطابٌ للجميع، فالله - عز وجل - يوجه الخطاب للرسول ويُريده ﷺ والأمة. الدليل على هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١].

فالخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبعده: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فليس هو وحده بل كل الأمة، ويدل لذلك أيضًا قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١] فنحن لنا فيه أسوة ونحن له تُبَّع.

إذنْ: وجه كون الخطاب الخاص بالرسول للأمة له وجهان:

الوجه الأول: أن خطاب الزعيم خطاب له ولمن تبعه بدليل قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١].

الوجه الثاني: أننا مأمورون باتباع الرسول فكل خطاب له يأمر به أو ينهى عنه فإننا تبع له في ذلك والفرق بين الوجهين ظاهر؛ لأنه على الوجه الأول يكون تناول الخطاب لنا أصلًا مع الرسول، وعلى الوجه الثاني يكون الخطاب لنا عن طريق التبعية.

وقال تعالى: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلقته ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي دينه أي: الزموها].

قوله: ﴿فِطْرَتَ﴾ البحث فيها من وجهين:

الوجه الأول: من حيث الرسم، والرسم غير جارٍ على القواعد المعروفة لا في الرسم العثماني، ولا في الرسم الحالي أن التاء مطلقة ﴿فِطْرَتَ﴾ وهي مرفوعة؛ لأنها مفرد، والمفرد تكون التاء فيه مرفوعة.

على كل حال: هذا لأن خط القرآن يُتبع في الرسم العثماني، واستفاضة في البحث: اختلف العلماء - رحمهم الله - هل يجوز للإنسان أن يكتب المصحف على غير الرسم العثماني أو لا يجوز؟

فمنهم من قال: إنه جائز؛ لأن الرسم العثماني عبارة عن شكل وصورة ولو كان الرسم العثماني في ذلك العهد على غير ذلك الوصف لكتب القرآن به.

إذنْ: خضوعه للرسم العثماني في ذلك الوقت ليس على سبيل أنه نزل على هذا الوصف؛ لكن على سبيل أن الرسم في ذاك الوقت كان على هذه الصورة، ولا شك أنه لو كان على الصورة الموجودة حاليًّا، لا شك أنه سيكتب عليها.

مثلًا: الصلاة الصورة الحالية بعد الصاد لام ألف(لا)، لكن على الرسم العثماني لام وواو، والزكاة مثلها، والربا بالواو مع أنها على الرسم الموجود بالألف.

الحاصل: أن بعض العلماء يقول: يجوز أن يكتب القرآن على القواعد المعروفة حاليًّا، وتعليلهم؛ لأن هذا الرسم شكل كان في ذلك الوقت على هذا النحو فكتبوه وليس القرآن نازلًا مكتوبًا بهذا، فلو كان نازلًا مكتوبًا بهذا لقلنا ربما لا يجوز، لكن هذا اصطلاح، وإذا كان اصطلاحًا فكل ما يتأتى به الغرض فإنه يجوز.

ومنهم من يقول: إنه لا يجوز مطلقًا أن يخالف الرسم العثماني وأنه يجب أن يبقى الرسم حتى

لو رسمت للصبيان على السبورة يجب أن يكون بالرسم العثماني احترامًا للقرآن.

ومنهم من فصل وقال: إن المبتدأ يجوز أن نرسمه له بحسب القواعد المعروفة عنده، وغيره لا يجوز؛ لأن المبتدأ يحتاج إلى تعليم، لو أنك كتبت بالرسم العثماني للمبتدئ الربا في قوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ماذا يقرأها؟ (يمحق الله الربو)، والزكاة يقول: (الزكوت)، والصلاة تكون (الصلوت)، وما أشبه ذلك بخلاف الإنسان العالم فإنه يكتبه بالرسم العثماني.

وأيًّا كان فإن ما يفعله بعض الناس اليوم من جعلهم يكتبون القرآن على صورة النقوش ويجعلونها في براويز من أجل أن يعرفوا أيهم أحسن نقشًا فإن هذا محرم على كل الأقوال؛ لأنه الآن أصبح هذا العمل كأننا جعلنا القرآن وشيًا وتطريزًا فتضيع قيمته، وأقبح من ذلك أن يجعل على صورة إنسان.

فقد شاهدت صورة إنسان لآية من القرآن؛ إذ إنهم راسمون رأسًا ورجلين كأنه جالس مفترش، فهذه مُضادة ومُحادة لله ورسوله؛ لأن الصورة المحرمة كيف تَكْتِبُ بها القرآن وتَجْعَلَهَا كتابة للقرآن؟!!!

والحاصل: أن الناس ـ نسأل الله لنا ولهم الهداية ـ صاروا يبالغون في أشياء تضرهم ولا تنفعهم بالنسبة للقرآن الكريم.

البحث الثاني: في قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ ما الذي نصبها؟

الجواب: الذي نصبها فعل محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [الزموها] أي: الزموا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾.

ومثل هذا يقولون: إنه منصوب على الإغراء، فهو إذن أبلغ من ذكر العامل الذي هو الزم حذفه؛ لأنه إذا وجد العامل تقيدت الجملة به، لكن إذا حُذف العامل صارت الجملة صالحة له ولسواه مما يمكن أن يتسلط على المعمول، فـ[الزموها] اعتنوا بها، وتمسكوا بها، وما أشبه ذلك.

فلهذا يقولون: إنه منصوب على الإغراء وهو المبالغة في الحث.

ثالثًا: ﴿فِطْرَتَ﴾ مشتق من فطر الشيء أي: ابتدعه على غير مثال سابق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] أي: مبدعهما على غير مثال سابق، وهذه الفطرة أبدعها الله ـ عز وجل ـ في الإنسان أو في الناس كما في الآية على غير مثال سابق، ولهذا قال: [﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خلقته ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي دينه أي: الزموها].

وهذه الآية شاهد للحديث الصحيح: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُنَصِّرَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِهِ»[1] ولو أن المخلوق تُرِك وفطرته ما عَبَدَ إلا الله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

ولهذا البهائم العُجم التي ليس لها ما يغيرها أو يعرفها هل يمكن أن تعبد اللات والعزى والشمس والقمر؟

الجواب: لا؛ لأن الله يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤].

فأصل الخلق مفطور على توحيد الرب ـ عز وجل ـ الخالق، لكن من أُعطوا العقول هم الذين ربما ينحرفون؛ لأن لهم إرادات واتجاهات بخلاف مَنْ ليس له إلا العقل المعيشي، فإنه لا ينصرف عن هذه الفطرة، ولهذا البهائم العُجم تعرف خالقها وفاطرها ولا تسبح إلا الله.

وقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [لدينه] أي: لا تبدلوه بأن تشركوا.

وهذه الجملة نفي؛ لأن ﴿لَا﴾: نافية للجنس، فهل هو باقٍ على كونه نفيًا يعني: لفظًا ومعنىً أو أنه نفي لفظًا خبرٌ معنىً؟

المؤلف أخذ بالأخير وأنه نفي بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا هذه الفطرة بالإشراك، والنفي يأتي بمعنى النهي كثيرًا مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:١ ـ ٢] فإنه فيها تفسيرات ـ كما تقدم ـ أحدها أنها بمعنى النهي أي: ليس فيه ريب ولا شك، والثاني: بمعنى النهي أي: لا ترتابوا فيه ومثل قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧].

هذه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبدلوا خلق الله بالإشراك، ويجوز أن يكون نفيًا على ظاهره، وأنه لا أحد يبدل خلق الله كما في قوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، فيكون المعنى: أن الأمر بيد الله ـ عز وجل ـ فمن شاء هداه بقي على فطرته، ومن شاء أن يضله أضله فلا يستطيع أن يبدل خلق الله، وإنما الذي بيده الأمر هو الله، وعلى هذا فيكون في الآية وجهين:

الأول: أنها خبر بمعنى النهي.

والثاني: أنها خبر على بابه.

وعلى الأول الأمر ظاهر يعني: المعنى ظاهر أنه (لا تبدلوا) فيكون نهانا عن الإشراك، وعلى المعنى الثاني: يكون وجهه أن هذه الفطرة التي فطر الله عليها الخلق لا أحد يستطيع أن يبدلها بل الذي يبدلها هو الله، فمن أراد الله هدايته لن يضله أحد، ومن أراد الله أن يُضلَّه فلن يهديه أحد، لاسيما وأنه قال قبل هذا: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩].

من جملة أسباب التبديل ما ذكره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»، وذِكْرُ الأبوين ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل التنظير والتمثيل، يعني: أن من يتصل بهذا الإنسان يجعله يهوديًّا أو نصرانيًّا.

وكم من إنسان تنصَّر لا عن طريق الأبوين ولكن عن طريق الجلساء والرفقاء، ومن ثمَّ حذَّر

النبي ﷺ من جليس السوء ورغَّب في الجليس الصالح وقال: «إِنَّ مَثَلَ الجَلِيْسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، أَو تَبْتَاعَ مِنْهُ، أَو تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَالجَلِيْسِ السُّوءِ كَنَافِخِ الكِيْرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً»(١).

والنبي ﷺ حرص غاية الحرص وبذل ما يستطيع من جهد في هداية عمه أبي طالب ولكن ما تمكن، قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وليس معنى ذلك أننا إذا قلنا: إن الأمر بيد الله ـ عز وجل ـ وأنه هو الذي يضل ويهدي، ليس معنى ذلك ألا نفعل الأسباب كما أن الأمر بيد الله في: إيجاد الرزق، إيجاد الولد، دفع الضرر، فهل نحن نفعل الأسباب أو نبقى حائرين؟

الجواب: نفعل الأسباب، والهداية بيد الله، والإضلال بيد الله، لكن لكل منها سبب.

ما قاله المؤلف له وجه لورود ذلك في اللغة العربية، والوجه الثاني هو الأصل؛ لأن عندنا نفي، فمَنْ صرفه عن ظاهره يحتاج إلى دليل.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [المستقيم توحيد الله] ذلك المشار إليه قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: إقامة وجهك للدين هو: ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

وقوله: ﴿الْقَيِّمُ﴾ [المستقيم]، لكن ﴿الْقَيِّمُ﴾ أبلغ؛ لأن ﴿الْقَيِّمُ﴾ على وزن (فَيْعِل) فهي صفة مشبهة، يعني: هو (قيِّم) أبلغ من قولنا: إنه مستقيم؛ لأن المستقيم ضد المعوج؛ لكن القيِّم الكامل في قيامه، فهو أبلغ.

يعني: أن هذا الدين هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الكامل الذي ليس فيه اعوجاج وليس فيه نقص ولا شك، هو ﴿الْقَيِّمُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] فلا أَقْوَم للعباد ولا أنفع للعباد من اتباع شريعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإخلاص له واتباع رسله.

وقوله: [﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي: كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله].

قال المؤلف: [كفار مكة]، وهذا لا شك أنه تخصيص بدون دليل؛ بل الدليل يخالفه؛ لأن كفار مكة ليسوا أكثر الناس.

وقوله: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وصدق الله ـ عز وجل ـ؛ لأن أهل النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف هنا الأكثر أم الأقل؟ الأكثر بدون استفهام

قوله: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم لو علموا ما صاروا من أصحاب الجحيم فهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، لكن ما معنى أنه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أو ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ينبغي لهم أن يكونوا عليه، أم ماذا نقول؟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

الجواب: الآية مطلقة قد تشمل كل شيء ينافي هذا الدين، فمن خرج عن هذا الدين فإنه لا يعلم أن هذا الدين قيِّم، وإن علم به ولم يتبعه صار علمه كالمعدوم، كذلك لا يعلم حقيقة أمره وحاله وأنه يجب أن يكون دائنًا لله بما دان به خلقه، كذلك لا يعلم ما يترتب على هذا من جزاء بالثواب الجزيل لمن قام به وبالعقوبة والعذاب الأليم لمن خالفه.

وحذف المفعول يقتضي العموم، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم: (أن حذف المعمول يفيد العموم) وله أمثلة كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، ومن أوضحه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦ - ٨] قوله: ﴿فَآوَىٰ﴾ الإيواء للرسول ولمن تبعه، ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الهداية له ولمن اهتدى بسنته، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ الغنى له ولأمته، وقال النبي: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[1].

المهم: أن تحقيق المؤلف لقوله: [كفار مكة] لا وجه له، والصواب: أن أكثر الناس من بني آدم من كفار مكة وغيرهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما إذا قلنا بالعموم شمل كفار مكة، وأما كون السورة مكية فلا يدل على أن جميع الخطابات التي فيها تشير لأهل مكة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله بخلقه بضرب الأمثال لهم؛ ليصلوا إلى الكمال في الهداية.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** بلاغة القرآن في ضرب الأمثال وهو أسلوب من أساليب اللغة العربية في دروس البلاغة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** المناداة بجهل هؤلاء المشركين وعنادهم؛ لأنهم جعلوا لله شركاء من المملوكين وعنادهم؛ لأن الأمر واضح، ولهذا قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ومع هذا عاندوا وأصروا على الشرك حتى إنهم في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن العبيد لا يملكون، وجه ذلك: أنه إذا انتفت مشاركتهم لأسيادهم في أموالهم فغيرهم من باب أولى، وانفرادهم أيضًا من باب أولى، إذا كان لا يمكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

المشاركة مع أسيادهم فالغير من باب أولى، والذي لا يملك المشاركة لا يملك الانفراد مع أنه جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ بَاعَ عَبْدًا وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ»[1]، قال ﷺ: «فَمَالُهُ لِلذِي بَاعَهُ» ولا تظن أن هذا من باب التنافر؛ حيث أضاف المال إليه «مَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ»؛ لأن الإضافة هنا ما هي للتعليل ولكنها للاختصاص كما تقول: سرج الدابة، وزمام الدابة، وحجرة الدابة، وما أشبه ذلك.

٥ - **ومن فوائد الآية**: ما استدل به أهل الاشتراكية؛ حيث قالوا: إن الآية تدل على ثبوت الاشتراكية؛ لقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الرد عليهم بهذه الآية فهي فيها دليل على نفي الاشتراكية؛ لأن قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ مثل ما تقول: (هل لكم؟) يعني: ما يمكن أن يكون هكذا.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن هذا القرآن مفصَّل للآيات؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: أنه لا يدرك هذا التفصيل إلا أهل العقل، والدليل: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: نفع العقل؛ لأن به يدرك الإنسان هذا التفصيل الذي يفصِّله الله - عز وجل -.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات عظمة الله؛ لقوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأن ﴿نُفَصِّلُ﴾ والله سبحانه ليس معه غيره فيكون دالًّا على التعظيم لله وحده بنون العظمة.

١٠ - **ومن فوائد الآية**: أن المعبود من دون الله مِلْكٌ لله؛ لأن الله قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، ولا شك أن كل من في السماوات والأرض فهو ملك لله.

١١ - **ومن فوائد الآية**: أن الرزق لا يُنال بالكسب وإنما هو فضل من الله، لكن له أسباب لا شك مثل غيره من الأمور؛ لقوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ لكن هذا الرزق له أسباب شرعية وأسباب كونية، فمثلًا من الأسباب الشرعية: انتقال المال بالإرث واستحقاق الفقير من الزكاة وما أشبه ذلك، والأسباب الكونية: أن الإنسان يسعى بحراثة الأرض والبيع والشراء وما أشبه هذا.

١٢ - **ومن فوائد الآية**: إثبات القياس، وجه ذلك ضرب المثل قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

١٣- ومنها أيضًا: كون القياس دليلًا هو من طريق العقل؛ لقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ولأن إلحاق الفرع بالأصل وهو قياس يحتاج لعلة جامعة تدرك بالعقل.

إذا قال قائل: إذا قلتم: إن القياس طريقة العقل فكيف يكون دليلًا شرعيًّا؟

الجواب: أن الشارع اعتبره فجعله دليلًا شرعيًّا بدليل ضرب الأمثال، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣).

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

فوائد قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن المشركين وغيرهم من الذين ظلموا أنفسهم إنما اتبعوا أهواءهم، أما العقل ما استعملوه، ولكن مجرد هوى، ولو اتبعوا العقول ما خالفوا المنقول.

٢ - **ومن فوائدها**: جواز نفي الصفة عمن ينتفع بها؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: أن الأمور كلها ـ الهداية، والضلال، والصلاة، والزكاة، وغيرها ـ بيد الله؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: لفت انتباه الإنسان إلى سؤال الهداية دائمًا من ربه؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، إذا علمت ألا أحد يهدي من أضل الله فإلى من ترجع في طلب الهداية؟

إلى الله ـ عز وجل ـ حتى نفسك لا تعتمد عليها بل اعتمد على الله ـ عز وجل ـ في الهداية واسأله دائمًا الثبات، ولهذا يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [النساء:١٣٦] هم آمنوا بالله ورسوله، ولكن المراد اثبتوا عليه وحققوه، وهذا كله لا ينال إلا بالله.

٥ - **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء الظالمين لا يجدون من ينصرهم من عذاب الله؛ لقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: أن الله تعالى لا يضل أحدًا إلا لظلمه، فهو الذي بدأ وانحرف في آرائه السيئة، فظلم فأضله الله؛ لقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾، هذا مفرع على الذي قبله؛ ولهذا أتى بالفاء في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ إشارة إلى أن إضلالهم بسبب ظلمهم، فهم الذين ظلموا فأُضلُّوا ـ والعياذ بالله ـ.

إذا قال قائل: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هل يشكل عليهم ما وقع من نصر المشركين في أُحد؟

الجواب: في أُحد حصلت هزيمة للمسلمين ومعلوم أنه انتصار للكافرين وأن هزيمة الخصم انتصار للخصم الآخر، ولهذا قال أبو سفيان: (اعْلُ هُبَل)، فهل هذا ينافي الآية الكريمة؟

نقول: لا ولكن هذا يعني: كأن نصرهم ليس لأجل أن ينتصروا ولكن ابتلاء الآخرين، ولهذا كانت العاقبة للمؤمنين بل قال الله ـ عز وجل ـ مشيرًا إلى الحكمة من انتصارهم: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:١٢٧]

قال أهل العلم: انتصارهم هذا يؤدي إلى التشجع على محاربة الرسول حتى تكون نهايتهم أن يقطع طرفًا منهم.

على كل حال نقول: في الحقيقة ليس هذا الظهور على المسلمين نصرًا لهؤلاء ولكن من أجل

الابتلاء لهم، والابتلاء والامتحان للمؤمنين بمخالفتهم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:١٥٢] يعني: حصل ما تكرهون، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ حصل ما تكرهون.

٧ ـ وفيها فائدة: الحث على طلب العلم والعمل به؛ لقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾، وهل فيه دليل على ما ذهبت إليه الجبرية؛ لقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾؟

الجواب: ليس فيه دليل؛ لأن إضلال الله لهم كان بسببهم فيكونوا هم السبب بدليل أنه قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ فكانوا هم الظالمين أولها فأضلوا ـ والعياذ بالله ـ.

٨ ـ ومن فوائدها: الرد على القدرية، يؤخذ من قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ فنسب الله الإضلال إليه، والذي يضل هم الذين حقت عليهم الضلالة يدل هذا على أن فعل العبد في تقدير الله وخلق الله.

فإذا قال قائل: هذا مشكل أن تقولوا: إنه بخلق الله وفعل الإنسان وهل يمكن أن يكون الشيء الواحد مفعول لفاعلين؟

الجواب: الفعل الواحد لا يكون مفعولًا لفاعلين إلا إذا اختلفت الجهة، يعني: إذا قمت لا يمكن أن يكون قيامي قيام شخص آخر، أو أن يكون فعلي فعلًا لفاعل آخر، لكن إذا اختلفت الجهة صح ذلك، فأقول: إن فعل العبد بالنسبة للعبد فعل مباشر له؛ لكن إذا أردت القيام ولكنني عاجز ما أقدر أيضًا فما يحصل القيام، الأول: لانتفاء الإرادة، والثاني: لانتفاء القدرة، فمن الذي خلق الإرادة والقدرة؟ الله ـ عز وجل ـ هو الذي خلق الإرادة والقدرة فصارت نسبته إلى الله واضحة ـ نسبة السبب إلى مسببه ـ، أما المباشر فهو الإنسان نفسه.

بهذا نرد على القدرية بأنه ما يمكن أن يكون الفعل الواحد مفعولًا لفاعلين، نقول: هذا حق ولكنه يصح أن يكون لفاعلين باعتبارين باختلاف الجهة، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة أن فعل الإنسان ينسب إليه حقيقة.

وسبق لنا أن الأشاعرة قالوا قولًا غير معقول في هذا الباب إذ قالوا: لا ينسب للإنسان حقيقة كسب له، لكنه ليس له حقيقة، حتى إنهم يقولون: إذا قمت فإن القيام ما حصل بك لكن حصل عندك، ويقولون: الإنسان إذا أخذ السكين وذبح الشاة فهو ما ذبح ولكن عند ذبحه، ويقولون: إذا أخذت الحجر ورميت الزجاجة فانكسرت هي ما انكسرت بالحجر ولكن انكسرت عنده؛ لأنهم يقولون: لو أنك أثبت أن هذه الأشياء تحصل بهذه الأشياء أثبت خالقيْن يعني: هذا الكسر أثبت خالقًا، وهو هذا الحجر الذي خلق الكسر ـ هذا ليس معقولًا ـ ولذلك يقولون: إن هذا الكسب عند الأشاعرة وهذا من الأمور التي لا حقيقة لها، وكل إنسان يعرف أن المُسبَّب يحصل بالسبب مباشرة؛ لكن من الذي جعل هذا السبب؟ الله ـ عز وجل ـ فهو الذي جعل النار محرقة، يقولون: لو

أدخلت الورقة في النار واحترقت ما احترقت في النار، لكن عند النار، أما المحرق فهو الله.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]

١ - **يستفاد من هذه الآية**: وجوب الإخلاص لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾.

٢ - **ويستفاد منها**: أن الإخلاص لا يتم إلا بسلب وإيجاب، وهو مضمون قول الإنسان: لا إله إلا الله، فإن هذه الجملة العظيمة مشتملة على النفي والإثبات ولا إطلاق إلا بنفي وإثبات، وهذه الآية فيها نفي وإثبات ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ إثبات ﴿حَنِيفًا﴾ نفي؛ لأنها مائل، إذن: ففي هذه الآية وجوب الإخلاص، وفيها أن الإخلاص لا يتم إلا بالسلب والإيجاب يعني: بالنفي والإثبات.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الخطاب للرسول ﷺ خطاب له ولأمته، يؤخذ من ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أن الإخلاص هو الفطرة، وذلك في قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾، فهذه شاهدة لقول الرسول ﷺ: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ».

٥ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الخلق لله، وأنه الخالق وحده؛ لقوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما يقدره الله لا يمكن أن يغير؛ لقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ على أحد المعنيين، أما على مذهب المؤلف فيستفاد منه: النهي عن الشرك هل يمكن أن نقول: إن الآية تدل على المعنيين جميعًا؟

الجواب: نعم، صالحة للمعنيين جميعًا؛ لأنها صالحة لأن تكون للنفي وأن تكون خبرية أو أن تكون للطلب فتكون إنشائية، والكلام في الحقيقة أن الإنشاء والخبر متعارضان لكن إذا جعلنا كل واحد على انفراد بمعنى أن ما يدرى هل أراد الله هذا أو أراد هذا، وما دامت الآية صالحة لهذا ولهذا فنقول: هي للمعنيين جميعًا، يعني: لا أحد يستطيع أن يغيِّر ما خلق الله، ولا يجوز لنا نحن أن نغير هذه الفطرة التي خلقنا عليها من الإخلاص إلى الشرك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أقوَم الأديان ما بُني على الإخلاص؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ والمشار إليه هو ما سبق من الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي أمر الله بها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، والدين القيم هو الذي أقام الإنسان فيه وجهه تؤخذ من قوله: ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وهو الفطرة التي فطر الناس عليها.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا الدين المبني على الإخلاص اجتمع فيه الشرع والفطرة، الشرع لأنه أُمر به، والفطرة؛ لأن الناس خُلقوا عليها وجُلبوا عليها ولولا ما يحصل من الموانع والعوارض لبني آدم لكان الناس كلهم مؤمنين على الفطرة كما جاء في الحديث: «أَبَوَاهُ

يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١).

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس في هذا الباب على جهل وضلال؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم بين أمرين: إما عالم استكبر فعلمه لم ينفعه، وإما جاهل، والعامة المتبعون لدعاة الكفر والضلال يوصفون بالجهل وعدم العلم، ويصبح منهم العارفون الذين يوصفون بالجهل؛ لعدم انتفاعهم بما علموا، لكنهم في الحقيقة يستحقون وصفًا أعظم فهم جاهلون مستكبرون؛ لأن هؤلاء - والعياذ بالله - يعلمون أنهم على ضلال؛ لما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢] ولم يقل فرعون: إنني ما علمت فسكوته إقرار، لكن عندهم عناد.

قال الله تعالى:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٣]

التفسير

قال المؤلف: ﴿مُنِيبِينَ﴾ [خاشعين] يعني: ناب ينيبون إذا رجعوا.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ [تعالى فيما أمر به ونهي عنه] يعني: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وقيل: ذلك من الشرك إلى التوحيد. هذا معنى الآية وقد أثنى الله على المنيبين إليه كما في قوله: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤].

فالإنابة من أفضل الأحوال للعابدين؛ لأن المنيب إلى الله تعالى دائمًا يذكر الله بقلبه؛ لأنه يعلم أنه قد انتقل من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده حتى يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراك.

يقول المؤلف: [حال من فاعل (أقم)، وما أريد به أي: أقيموا].

قوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من الفاعل وما تبعه، وهذا مبني على أن الخطاب في قوله: (أقم)

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

للرسول شخصيًّا، أما إذا قلنا: إن المراد به الأمة وإنما خوطِبَ به زعيمها فلا حاجة إلى هذا التفصيل.

يقول: [﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من فعل (أقم)] فلا مانع منه أن يكون جمعًا؛ لأن المراد بالمفرد في أول الآية الجمع.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ خافوه، والتقوى تقدم لنا مرارًا أنها مأخوذة من الوقاية، وأصل التقوى وَقْوَى، وأن المراد بالتقوى هو اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن جميع التفاسير التي فسرت بها التقوى كلها ترجع لهذا المعنى الجامع العام وهو: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فمن يعبد الله بفعل الأوامر، ولكنه يفعل النواهي عنده تقوى من وجه دون وجه، واعلم أن التقوى عند الإخلاص تشمل الدِّين كله كما يقتضيه هذا الترتيب، فإن قُرِنت بالبر في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] صار المراد بها: ترك المحظورات، وصار المراد بالبر: فعل المأمورات، وهذا اللفظ له نظير كثير في اللغة العربية يكون له معنىً عند الانفراد، ومعنىً عند الاجتماع، والذي يعين ذلك هو سياق الكلام.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ائتوا بها قويمة، وليس المراد بإقامتها لفظ: قد قامت الصلاة، بل أن تأتي بها قويمة وإقامتها على نوعين:

الأول: إقامة واجبة لابد لصحة الصلاة منها، وذلك بالإتيان بالشروط والأركان والواجبات.

والثاني: إقامة مكملة وهي إضافة المستحبات إلى ما ذُكر، فإنها إضافة مكملة، ومن إقامتها المكملة أن يأتي الإنسان بالنوافل؛ لأن النوافل تكمُل بها الفرائض يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وعطفها على ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وسبق لنا أن عطف الخاص على العام يقتضي زيادة الاعتناء به، فهو دليل على أهمية الصلاة.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الخطاب هنا يعود على الفاعل في ﴿مُنِيبِينَ﴾ يعني: حال كونكم ﴿مُنِيبِينَ﴾ غير مشركين أيضًا في إنابتكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله وهو شامل للشرك الأكبر والشرك الأصغر، ولهذا يُنهى الإنسان أن يفعل الشرك أيًّا كان نوعه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، والكبائر تحت المشيئة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨].

ووجه الدلالة من الآية أن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ مؤول بمصدر فيكون المعنى: إن الله لا يغفر إشراكًا به، فهو نكرة في سياق النفي يشمل جميع أنواع الشرك، ولهذا قال ابن مسعود: لِأن أحلف

بالله كاذبًا أحب إليَّ من أحلف بغيره صادقًا[1]؛ لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إذا قيل: إن هذا خطاب للرسول، والشرك في حقه ممتنع، قلنا: لا يمنع أن تخاطب شخصًا بإثبات ما هو عليه أو بنفي ما هو منتفٍ عنه، ويكون المعنى: الثبوت على ما ذُكر، يقول الله للمؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] ـ وهم مؤمنون ـ ولكن المعنى: اثبُتوا.

كذلك إذا قلت لشخص: لا تشرك وهو لا يشرك، فالمعنى: اثبت على نفي الشرك ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾، قال المؤلف: [﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بدل بإعادة الجار] أي: بدل من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهنا أفادنا المؤلف رحمه الله أن البدل على نوعين: تارة يكون بإعادة العامل، وتارة يكون بعدم الإعادة.

فإذا قلت: (مررت بزيد أخي) فهذا بإعادة العامل، ولو قلت: (مررت بزيد بأخي) لم يعد العامل، هنا ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ هذا بدل بإعادة العامل الذي هو حرف الجر.

وقوله: [﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ باختلافهم فيما يعبدون ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقًا في ذلك ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون].

قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ هذا وصف مذموم لهؤلاء المشركين؛ حيث كان لكل واحد منهم ملة ونِحلة، فهؤلاء يعبدون حجرًا، وهؤلاء يعبدون شمسًا، والآخرون يعبدون قمرًا، والرابع يعبدون شجرًا، وهكذا.

ثم إن لهم نِحَلًا مختلفة فيما يسلكونه في منهاج عبادتهم فهم كما قال سبحانه: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: شتَّتوه ووزَّعوه، وهذا دليل على أنه لا ينبغي للأمة الإسلامية أن تفرق دينها.

اليهود والنصارى فرقوا دينهم على إحدى وسبعين، والنصارى على ثنتين وسبعين، والمشركون الجاهليون حدِّث ولا حرج في الافتراق، وهؤلاء فرقوا دينهم، ودينهم ما يدينون به سواء كانوا يدينون لمخلوق أو لخالق على زعمهم؛ لأن المشركين يقولون في آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ

(١) موضوع: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦٧)، وفي «أخبار أصبهان» (٢/ ١٨١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٩١).

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

وهناك أناس آخرون يعبدون ما يعبدون من الآلهة لا لتقربهم إلى الله ولكن لاعتقاد أنها هي الإله وأنه لا إله إلا هذا المعبود عندهم.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ يعني فِرق، وأصل التشيع أو الشيعة: الأنصار للشيء، فيقال: شيعة فلان أي أنصاره، فهم شِيعٌ، كل طائفة منهم تنصر ما هي عليه وتؤيده، يعني أنهم لم يقتصروا على أنهم تفرقوا فقط، بل كل واحدة تدعو إلى ما هي عليه، ومعلوم أن من يدعو إلى ما هو عليه لابد أن يحذِّر ما يخالفه؛ إذ لا يكون الانتصار إلا بهذا.

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ [منهم]، حزب بمعنى: طائفة، وسميت الطائفة المتفقة على رأي أو هدف أو دين حزبًا؛ لأن كل واحد منها يحزب الآخر أي: يقويه.

وقوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بالذي، و ﴿لَدَيْهِمْ﴾ بمعنى: عندهم وهي صلة الموصول أو متعلقة في لفظ الموصول؟

متعلقها هو صلة الموصول؛ لأن (لدى) ظرف وبُني على السكون هنا لإضافته إلى الهاء؛ لأن أصله مبني على الفتح المقدر على آخره (لدى زيد)، (جلست لدى زيدٍ) أي: عنده؛ لكنه هنا أضيف إلى الهاء مثل: (إلى) إذا أضيفت إلى الهاء يقال فيها: (إليك) و (عليك) الصلة أن متعلق الظرف وجواب المفعول يقدر فعلًا بخلاف خبر المبتدأ يقدر اسمًا، فإذا قلت: (زيدٌ عندك) فالمعنى: كائن أو مستقر، وإذا قلت: (أكرمت الذي عندك) تقول: الذي استقر عندك، والفرق بينهما أن الأصل في خبر المبتدأ أن يكون مفردًا، وأما صلة الموصول فالأصل أن تكون جملة، على أنه يجوز أن تقدر مستقر في صلة الموصول؛ لكن إذا قدرنا المستقر في صلة الموصول فإنه يجب أن تقدر مبتدأً لتكون جملة التقدير الذي هو مستقر، ومن أجل هذا قلنا: إن الأولى أن تقدر من الأصل فعلًا حتى لا يحتاج إلى مبتدأ.

وقوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، ﴿فَرِحُونَ﴾ هذه خبر ﴿كُلُّ﴾، وقوله هنا: [مسرورون] هنا الله وصفهم بهذا الفرح الذي وصفهم به؛ لأن من فِرح بشيء لازمه، ولكن فرحهم مذموم؛ لأنه فرح بباطل، والفرح بالباطل لا شك أنه باطل، لكنه لو فرح بما عنده من الحق لَكَانَ فرحًا مسرورًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرح لا يُذم من حيث أنه فرح، ولكن يذم من حيث متعلقه، فإن كان فرحًا بباطل فهو مذموم، وإن كان فرحًا بحق فهو محمود، أما الأشر والبطر الذي ينجم عن الفرح فهذا مذموم بكل حال حتى لو كان فرح الإنسان بالحق أدَّاه ذلك الفرح إلى الأشر والبطر، مثل أن يفرح بما أعطاه الله بالمال والبنين لكنه اتخذ من هذا وسيلة للعلو والاستكبار، فإن هذا فرح مذموم لنقيضه لا لذاته.

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إذا طبقناه الآن على الأحزاب الموجودة، وأن كل

حزب فرح بما هو عليه، مستمسك به، مدافع عنه، موهن لغيره وجدنا أن الآية تنطبق تمامًا على ما يوجد من الأحزاب ولاسيما في الأمة العربية، فالأمة العربية الآن متحزبة كل حزب فرح بما عنده، لكن الأمة الإسلامية ما تتحزب؛ لأنها حزب واحد وهو الإسلام حتى لو اختلفت آراؤهم، هذا شافعي، وهذا مالكي، وهذا حنفي، وهذا حنبلي، وهذا ظاهري، وغير ذلك.

فإنها في الحقيقة متفقة؛ لأن كل واحد من هذه الأحزاب لا يضلل الآخر؛ بل إنه يمدح إذا خالفه بمقتضى الدليل عنده، فالإنسان العاقل المؤمن حقًّا هو الذي إذا خالفه غيره بمقتضى الدليل عنده ما يكرهه، بل يحمده على هذه المخالفة؛ لأنه ما خالفني لأنني فلان بل خالفني؛ لأنه يعتقد أن الحق معه، وهذا هو الواجب عليه والواجب على كل مؤمن أن يتبع الحق إذا تبين له ولو خالف غيره.

فإذن الطريق واحد ولو اختلف المنهاج؛ لأننا كلنا نحكم بالكتاب والسنة وكلنا نعتقد أن هذا هو الحق، فلماذا أكره من خالفني والله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] نعم، من تبين له الحق وأصر وعاند وعلمنا أنه مجادل بالباطل فهذا ينزل منزلته وهذا هو الميزان في قولهم: (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، فإن هذه العبارة اشتهرت على الألسن، لكنها ليست على إطلاقها؛ لأن مسائل الاجتهاد نوعان:

أحدهما: ما يحتمل الاجتهاد، فهذه لا إنكار فيها؛ لأن كل إنسان إذا اجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، ولا يمكن أن نزن الناس بميزان واحد؛ لأن العلم بالأحكام الشرعية يتفاوت بحسب الإيمان وحسب العلم وحسب الفهم، فمن الناس من يكون معه إيمان صافٍ حتى يرى الحق على ما هو عليه ويُفتح له باب الهداية، ومن الناس من يكون في إيمانه ضعف فيُحجب عنه من الهداية بقدر ما نقص من إيمانه.

فالإيمان له أثر كبير حتى في العلم ونذكر ما قال الشافعي عن وكيع:

شَكَوتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأَرشَدَنِي إِلَى تَركِ المَعَاصِي

وَقَالَ: اعْلَمْ بِأَنَّ العِلمَ نُورٌ ... ونُورُ الله لَا يُهدى لِعَاصِ

والله تعالى يقول: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] ولا فرقان إلا بعلم.

الناس يختلفون في هذا بحسب ما معهم من الإيمان والتقوى، كذلك أيضًا يختلف الناس في العلم، فهناك إنسان مثلًا يعرف كتب السنة: البخاري ومسلم وغيرهما، وإنسان لا يعرف شيئًا، وإن كان جيدًا يعرف البخاري فأيهما أعلم؟ الأول أعلم.

والثالث الفهم: فإن الناس يختلفون فيه اختلافًا عظيمًا، ولهذا قيل لعلي بن أبي طالب: هل عهد لكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: ما عهِدَ إلينا بشيءٍ إلا ما في هذه الصحيفة، أو فهمًا يؤتيه الله رجلًا في

القرآن[1]، والفهم ليس هناك شك أنه يختلف الناس فيه حتى إن النص الواحد تجد بعض الناس يستنبط منه عشر مسائل وآخر ما يستنبط إلا مسألتين أو ثلاثة، وثالث يقول: أنا أقرأ لكم الحديث وعليكم الاستنباط.

فالحاصل: أن الناس يختلفون؛ لذلك أهل السنة والجماعة والمـُفْتُونَ عمومًا يقولون: إن اختلافنا في الآراء ليس اختلافًا في الدين؛ لأننا كلنا على هدف واحد ولا يضلل بعضنا بعضًا، ولكن يستثني من ذلك من علم الحق وتبين له وعلمنا أنه معاند.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [وفي قراءة ﴿فَارَقُوا﴾ أي: تركوا دينهم الذي أمروا به].

وقوله: [في قراءة] تكون سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣].

قال المؤلف: [﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي: كفار مكة ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ خص هذه الآية من وجهين: من جهة من نزلت فيه أو من جهة المراد بها، ومن جهة إذاقة الرحمة بالمطر، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي: كفار مكة، وهذا ليس بصحيح بل الناس عمومًا، ولكن هل المراد بالناس عمومهم؟

ننظر إلى الحال التي تحدث الله عنها هل تنطبق على المؤمنين أو خاصة بالكفار؟ فنجدها هنا خاصة بالكفار.

إذن: الناس من حيث هم أُناس، المراد بعمومهم هنا الخصوص وهم الكفار.

فعندنا الآن وجهان: الوجه الأول أن نقول: إن المراد بالناس، الناس من حيث هم أُناس بقطع النظر عما يتصفون به من الإيمان أو الكفر، أو نقول: إن المراد بالناس الكفار فيكون عامًّا أُريد به الخاص مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

الناس الأولى: يراد بهم واحد وهم: معن بن مسعود أو غيره، وقوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ المراد بالناس الثانية: واحد، وهو: أبو سفيان.

المهم: أن كلمة الناس يراد بها أحد أمرين: إما أن يُراد بها المؤمنون عينًا، أو المؤمنون والكافرون، فهذا لا يصلح؛ لأن الحالة التي ذكرها الله لا تنطبق على المؤمنين.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٣٧٠).

الثاني يقول المؤلف: [﴿ضُرٌّ﴾ شدة]، ثم قال: [﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بالمطر].

إذا قلنا: رحمة بمعنى: مطر، صارت كلمة ﴿ضُرٌّ﴾ تعني: (شدة القحط) وهي عدم المطر والأمر ليس كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بل هو أعم؛ لأن كلمة ﴿ضُرٌّ﴾ نكرة في سياق الشرط فتكون للعموم بمعنى: أيُّ ضر سواء قحط أو مرض أو فَقْد مال أو غير ذلك، فهم عندما يصابون بالضر فيدعوا ربهم راجعين إليه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فإذا أصيبوا بالشدة عَرفوا الله خلاف ما أمر به النبي ﷺ في قوله: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» فالذي لا يعرف ربه إلا في الشدة هل هو عابد ربه رغبةً؟

الجواب: لا، وهذا الذي تحدث الله عنه أخف حالًا ممن أصيب بالشدة فدعوا المخلوق، فهؤلاء أقبح ممن تحدث الله عنهم.

يقول تعالى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من فاعل ﴿دَعَوْا﴾، وعندنا إشكال في قوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ حرك الواو بالضمِّ مع أن الواو ساكنة؛ لالتقاء الساكنين.

فإذا قال قائل: التحريك لالتقاء الساكنين يكون بالكسر مثل: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة:١].

قلنا: لكن لا يناسب الواو هنا إلا الضم.

فعلى هذا نقول: حُركت بالضم؛ لالتقاء الساكنين وأظن أن هذا يذكرنا أن نقول في الواو والياء: منع من ظهورها الثقل، الفتحة تظهر عليه، والضمة والكسرة تقدَّر منع من ظهورها الثقل، لكن هنا لا ثقل في قوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ تنطق بها بسهولة والسبب أن هذه الضمة عارضة؛ للتخلص من التقاء الساكنين.

إذن: ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ على هذا التقدير، أما ﴿دَعَوْا رَبَّهُم﴾ فليس فيها إشكال، فكلمة (رب) بمعنى: الخالق المالك المدبر فالربوبية تقتضي الخلق فالذي أوجد الناس هو الله المالك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، مدبر ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس:٣] هذا هو الرب حيث إذا عرفوا أن الأمور بيده فدعوه.

وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوْا﴾ من الواو.

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ قال: [راجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ دون غيره]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ [بالمطر] ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿أَذَاقَهُم﴾ معناه أصابتهم الرحمة حتى تحققوها كما يتحقق الإنسان الطعام في فمه، ولهذا عبَّر بالإذاقة وإن كان هذا لا يُذاق؛ لأنه ما يدخل الفم، لكن لتحقق الإصابة صار كالشيء الذي يؤكل فيذاق.

وقوله: ﴿مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ المراد بالرحمة: ما يقابل الضر ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾، ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ

رَحْمَةً﴾، فمثلًا: إذا كان الجدب فالمراد بالرحمة: المطر، وإذا كان مرضًا فالمراد بها: الشفاء، وإذا كان فقرًا فالمراد بها: الغنى، المهم: أنها تقابل بالضر.

وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾، ﴿إِذَا﴾ فجائية وهي حرف مع أن إذا الشرطية اسم؛ لأن إذا الشرطية نابت مكان الاسم، وأما إذا الفجائية فنابت مناب الفاء، والفاء حرف.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، و﴿يُشْرِكُونَ﴾ خبر﴿فَرِيقٌ﴾، وهنا جاء المبتدأ نكرة؛لأنها أفادت وبخصوص؛ ولأنها وقعت بعد ﴿إِذَا﴾ الفجائية فلا بأس أن يكون نكرة، وابن مالك يقول:

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَةِ مَا لَمْ تُفِدْ

وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ يعني: هناك فريق آخر لا يشرك مع أنه في آية أخرى يقول: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] وفي آية ثالثة: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢] فهل نقول: إن الآيات التي يقول الله فيها: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تحمل على المشركين والآيات التي فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أو ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ تنزل على العموم؟

الجواب: الذي يحضرني الآن أن الآيات التي يقول الله فيها: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تكون خاصة بالمشركين، أما الآيات التي يقول فيها: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ و﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ فهي تصلح للعموم؛ لأن الناس حتى المؤمنين إذا أصابهم الذُّعر صار عندهم من الرجوع إلى الله -عز وجل- واللجوء إليه أكثر.

فصلاة الاستسقاء للرجوع إلى الله، والإنابة أكثر، وصلاة الكسوف، وحتى أنت الآن بنفسك إذا وقعت في شدة يكون عندك من اللجوء والافتقار إلى الله أكثر مما إذا كنت في رخاء.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣١]

١- **من فوائدها:** وجوب التقوى؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ووجوب إقامة الصلاة؛ لقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** شرف الصلاة وفضلها؛ لقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن الشرك صغيره وكبيره؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٤- **ومنها:** شدة التنفير من الشرك، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنه لاشك أن ترك الشرك من التقوى، لكن هذا يكون خاصًا، أي عطف خاص على عام.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أهل الشرك من شأنهم ودأبهم وعادتهم التفرق في الدين؛ لقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾.

٦- ومن فوائدها: التنبيه على أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتفرقوا في دينهم، قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾.

٧- ومنها: أن التفرق في الدِّين مشابهة للمشركين، بل أولئك الذين يتفرقون في دينهم من أجل مسائل بسيطة، من فروع الدين القليلة أيضًا، هؤلاء فيهم شبه من المشركين، فتجد بعض الناس يعادي صاحبه أو أخاه من أجل أنه لا يطبق سنة يراها، وهذا التارك لا يراها، هذا خطأ؛ لأنه تقدم لنا أنه يجب على الإنسان ألا يجعل الخلاف المبني على الاجتهاد سببًا للنزاع والبغضاء والتفرق، بل العاقل يرى أن من خالفه من أجل قيام الدليل عنده فهو في الحقيقة موافق له؛ لأن السبيل والمنهاج واحد، فكلنا نمشي على الدليل، إذنْ أنت موافق لي، والمنتهى واحد وإن اختلفت الطُّرق.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أحزاب المشركين مستمسكون بما هم عليه، لقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أولئك الذين أوتوا شيئًا من العلوم العصرية وفرحوا ورفعوا رؤوسهم، فيهم شبه من المشركين؛ لأن هنا أناس - والعياذ بالله - أوتوا شيئًا من العلوم العصرية فاحتقروا الدين، واحتقروا العلوم الشرعية، وصاروا غارقين بما أوتوا فضلُّوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ترى الواحد منهم إذا أدرك مسألة من مسائل الكون البسيطة، رأى أنه كأنه أدرك تفاسير القرآن وأمهات السنة، وأنه هو العالم الحَبْرُ الذي لا يوجد له نظير، واحتقر من سواه، وهذه مشكلة وقع فيها بعض الناس اليوم.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز التحزب في الدين والتشيُّع، فيكون في هذا ذم لهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم؛ لأنهم يشيِّعون الناس في الواقع، حتى إن بعض المفتين إذا أفتى قال: على أي مذهب تريد أن أفتيك، المذهب الشافعي، أو المالكي، أو الحنبلي إلى آخره؟ وهذا لا شك أنه تفريق للأمة، ولهذا ذكروا فيما سبق من التاريخ أنه يحصل إلى حد القتال بين أصحاب المذاهب المتبوعة، وأئمة هذه المذاهب لا يرضون هذا أبدًا، ولا يرضون لأحد أن يقدم أقوالهم على قول الرسول ﷺ أو أن يجعل أقوالهم مسارًا للنزاع والجدل والعداوة والبغضاء.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ إلى آخره.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن طبيعة الإنسان عند الضراء الرجوع إلى ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

وهناك دليل يتفرع على هذا: هو أن أولئك الذين إذا مسهم الضر لجئوا إلى غير الله، فهم خالفوا جميع صفات البشر، فهناك أناس الآن إذا وقع في ضر ما دعا الله، بل يدعو الولي الذي يتبعه أو الذي يراه وليًّا، وإذا وقع في الأمر الهين دعا الله، فيجعلون الشدائد لمن لا يستطيع أن

يدفع عنهم شيئًا أبدًا؛ بل ولا يستجيب لهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بخلاف الناس حتى غير المسلمين إذا وقعوا في شدة لا يدعون إلا الله عز وجل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك الذين يلجئون إلى ربهم في الشدائد، إذا زالت عنهم الشدائد وأخذوا بالرحمة انقسموا إلى قسمين: منهم من يشرك ويبقى على شركه، ومنهم مَنْ يبقى على إيمانه إذا كان من المؤمنين.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك المشركين لا يتأنّون في شركهم بعد أن ينجوا من الشدة، بل يستمرون عليه فورًا؛ لقوله: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ و﴿إِذَا﴾ هنا فجائية.

٤- **فيها:** الرد على أولئك الذين يقدمون أولياءهم، أو أولئك الذين لا يلجئون إلى أحد.

٥- **وفيها أيضًا:** إثبات الرحمة لله، قال تعالى: ﴿إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾.

٦- **وفيها:** التنديد بإشراك هؤلاء؛ لأنه قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فكيف يليق بهم أن يشركوا بربهم الذي خلقهم؟! لأن الخالق سبحانه وتعالى يجب أن تكون العبادة له وحده.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٤-٣٨]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ اللام هنا للعاقبة، يعني: أنهم بإشراكهم صارت عاقبتهم كفرًا بما آتاهم الله عز وجل، وآتاهم أي: أعطاهم.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هل نقول: إن الباء للسببية، أو إن الباء للتخصيص، بمعنى: أنهم يكفرون بهذا الشيء؟

الجواب: أنه يحتمل أن تكون للسببية أي: بسبب ما آتاهم الله تعالى من الرحمة والإنقاذ من

الشدة، قال ذلك لأشرهم وبطرهم وكفرهم، كما هي عادة الإنسان إلا من عصمه الله عز وجل، أو يقال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: يكفروا بهذا الشيء الذي آتيناهم؛ حيث لا يؤدون شكره، وكان الواجب عليهم أن يؤدوا الشكر لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ هذا يسمونه في البلاغة التفات؛ لأنه ما قال: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ كما قال في آية أخرى، ولكنه أمرهم أن يتمتعوا، والأمر هنا للتهديد كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أريد به التهديد] ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ الأمر هنا للتهديد وليس للإباحة، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال: [عاقبة تمتعكم، فيه التفات عن الغيبة] والغيبة هي قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾.

قد سبق لنا أن الالتفات فيه فائدتان:

الأولى: فائدة لازمة في كل التفات، وهي: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان فيه منساقًا معه، فإذا اختلف وقف قائلًا لماذا اختلف السياق؟ لماذا كانت الجملة للغائب ثم صارت للمخاطب أو العكس؟ فيقف ويعطي زيادة تأمل.

الفائدة الثانية: هذه تختلف بحسب السياق، والفائدة الثانية هنا في هذه الآية هي أنهم إذا قوبلوا بالعمل فتمتعوا صار أشد وأعظم تهديدًا مما إذا قال: وليتمتعوا.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قد قيل: إن (سوف) تفيد التحقيق، لكنها أيضًا تفيد التراخي، بخلاف السين فإنها تفيد التحقيق والفورية، وكل شيء بحسبه، وإنما كان كذلك هنا؛ لأن أشد العقاب الذي يأتيهم سيكون يوم القيامة وهو متأخر.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾

قال المؤلف: [﴿أَمْ﴾ بمعنى: همزة الإنكار، ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وكتابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يأمرهم بالإشراك! لا].

و قوله: ﴿أَمْ﴾ هنا يقول المؤلف: [إنها بمعنى همزة الإنكار]، وهذا أحد القولين فيها، والقول الثاني: أنها بمعنى: بل والهمزة، فتكون مفيدةً للإضراب الانتقالي، يعني: بل أأنزلنا عليهم سلطانًا، والاستفهام إذا كان للإنكار فمعناه النفي، يعني: هل نحن أنزلنا عليهم سلطانًا يؤيد شركهم ويسدده، ويقول: إنه حق؟

الجواب: لا، ما أنزلنا ذلك.

وقوله: ﴿سُلْطَانًا﴾ يقول المؤلف: [حجة وكتابًا]، والحجة تسمى سلطانًا؛ لأن المحتج بها له سلطة على المحجوج، فبهذا تسمى سلطانًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ أي: حجة، واعلم أن السلطان يطلق على عدة معانٍ، فيجمعها كلها السلطة على الشيء،

فتارة تأتي بمعنى: الحاكم، كما جاء في الحديث: «وَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»(١) وكذلك «إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالقُرْآنِ»، وتأتي السلطان بمعنى: الحجة وهو كثير، وتأتي بمعنى القدرة مثل قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقدرة وليس لكم قدرة، وكلها يجمعها هذا المعنى، السلطة التي بها السيطرة والغلبة.

وقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ قال المؤلف: [تكلم دلالة] فهو يتكلم بلسان الحال وليس بلسان المقال، هذا ما قاله المؤلف، ولكنه يحتمل أن تبقى على ظاهرها؛ لأن الذي ينزل من عند الله كلام الله، وكلام الله تعالى يصح أن يُنسب الكلام إليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ الباء هنا للاختصاص أيضًا؛ أي: يتكلموا بهذا الشيء، ويقولون: إنه حق، والجواب: لا، إذنْ ليس عندهم حجة لا عقلية ولا شرعية، أما العقلية فقد سبق أن فطرة الله سبحانه وتعالى كلها الإخلاص لله، وأما الشرعية فإنه لم يأتِ في كتاب من الكتب المنزلة أن الشرك حق، بل جميع الكتب المنزلة وجميع الرسل المرسلين كلهم يقولون: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ قال: [كفار مكة وغيرها] هذا أرجح وهو أنه جعلها عامة، وأفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقوله: [كفار مكة وغيرها] أن المراد بالناس هنا: الكفار، فيكون من باب العام المستعمل في الخاص، وقد مر بنا كثيرًا أن العام يُستعمل في الخاص، والعام المراد به الخصوص، غير العام المخصوص، وقد سبق لنا في «أصول الفقه» الفرق بين العام المخصوص، والعام الذي أريد به الخصوص الذي لم يرد معنى العموم فيه من أول الأمر، وإنما أريد به المعنى الخاص فقط، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران:١٧٣] لم يرد به عموم الناس من الأول، وأما العام الذي دخله التخصيص يعني: العام المخصوص فهو أُريد به العموم، وهو تناوله لجميع الأفراد، ثم أُخرج بعض أفراده من هذا الحكم، فيكون عامًّا مخصوصًا، وعلى هذا فلا يمكن أن يستدل مُستدلٌّ بالعام المراد به الخصوص بل يمكن أن يستدل به على عموم الحكم؛ لأنه لم يرِد به العموم، بخلاف الثاني العام المخصوص فإنه يمكن أن يستدل به على عموم الحكم.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٠٢)، وأبو داود (٢٠٨٣)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٩).

إذن المراد بالناس هنا في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ عام أُريد به الخصوص، يعني: الكفار؛ لأن هذا الوصف لا ينطبق إلا عليهم، أما المؤمن فإنه إذا قضى الله له قضاءً لم يكن على هذا الوصف.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ قال المؤلف: [شدة] ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من الرحمة، ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة].

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ رحمة تشمل كل الأنواع، من مال، وأولاد، وأمن، ورخاء في العيش، وغير ذلك، كل ما ينعم به الإنسان فإنه داخل في هذا، ولهذا قال: [من نعمة].

وقوله: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ فقيَّدها المؤلف بقوله: [فرح بطر]؛ احترازًا من الفرح بنعمة الله، فرح شكر؛ لأن هذا لا يذم، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، فأمر الله تعالى أن نفرح بفضل الله ورحمته، وعلى هذا فالفرح نوعان: فرح بطرٍ يؤدي إلى الأَشَر والاستكبار عن الحق والتعالي على الخلق، هذا هو المذموم، والثاني: فرح شُكر، حيث يكون الإنسان فرحًا بنعمة الله، لكن هذا الفرح يحمله على شكر النعمة، فهذا ليس بمذموم وهو من طبيعة الإنسان، فإن الإنسان إذا رُزق ولدًا فرح، وإذا رزق مالًا فرح، وإذا كان طالب علم فتوصل إلى مسألة من مسائل العلم فرح، فهو من الأمور الطبيعية، لكن إن أدى الفرح إلى الأَشَر فإنه محرم ومذموم وإلا فلا.

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ المراد بالسيئة هنا: ما يسوؤهم وهو ضد الرحمة، مثل: الخطر، وزيادة الخوف، وفقدان المال، وما أشبه ذلك - هذه السيئة - وسُمِّي سيئة؛ لأنه يسوؤهم.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء: هنا للسببية، أي: بسبب، و(ما) موصولة، أي: جملة، وعلى هذا فالعائد محذوف والتقدير: بما قدمته أيديهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

ولاحظ أن الله عز وجل أطلق الرحمة فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، وأما السيئة فقيَّدها بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ وذلك لأن السيئات سببها أعمال العباد كما قال تعالى في الآية التي ستأتي إن شاء الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ المراد هنا: قدموا، فعبر بالأيدي عن النفس؛ لأن غالب الأعمال بها، وهذا كثير في القرآن، أن الله تعالى يضيف الشيء إلى الأيدي والمراد بها: نفس العامل، بل إن الله أضاف الأيدي إلى نفسه والمراد بها نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، فإن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ ليس كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، والفرق: أن المراد بقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما عملناه، وأما قوله:

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فأضاف الخلق إلى نفسه معدًى إلى اليد بالباء، فصارت اليد هي التي حصل بها الفعل، وأما الخلق فهو مضاف إلى نفسه سبحانه وتعالى، فأضافه إلى نفسه المقدسة وعداه إلى اليد بالباء، ولهذا يغلط من جعل قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ مثل قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

إذنْ فـ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما كسبوا، وعبر بالأيدي عن النفس؛ لأنها آلة الفعل غالبًا.

وقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿إِذَا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط وهو قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾.

وقوله: ﴿هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أتى بالجملة الاسمية للدلالة على أنهم اتصفوا بذلك على سبيل الدوام، فهم دائمًا في قنوط ما دامت السيئة فيهم، والقنوط يقول المؤلف: [إذا هم ييأسون] ولكنه تفسير فيه شيء من القصور؛ لأن القنوط ليس هو اليأس، بل هو أشد من اليأس؛ لأن اليأس إذا كان فيه شيء من الرجاء، لا يسمى قنوطًا وإن سمي يأسًا، لكن إذا بلغ اليأس غايته سمي قنوطًا، وقد قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الجاهلون بما لله عز وجل من الحكمة لما يجري على عباده من الضراء والسراء.

يقول المؤلف: [ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة] وعلى هذا تكون الآية في الكفار.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣٧]

قال المؤلف: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاءً].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ قال المؤلف: [يعلموا] وعلى هذا فالرؤية علمية، ويؤيد تفسير المؤلف أنها جاءت في آية أخرى بـ (يعلموا) في سورة الزمر، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إذنْ فأحسن ما يفسر به القرآن القرآن وهو أعلى أنواع التفسير، ويمكن أن يقال: إن لكل آية معنى، فنفسر الرؤية هنا برؤية البصر لا رؤية البصيرة التي هي العلم، ونفسرها هنا برؤية العلم، كما هو لفظ الآية ويكون البسط والتضييق معلومًا بالقلب مرئيًا بالعين، فإن الإنسان أيضًا يرى توسيع الرزق بعينه كما يعلمه أيضًا بقلبه، وأيهما أعم يعلموا، أو يروا؟

الجواب: إذا لم يفسر يروا بـ (يعلموا العلم) فالعلم أعم؛ لأن العلم قد يكون بالرؤية وقد يكون بالسماع، قد لا أرى أن الله بسط الرزق لعباده وقدره، فالعلم أعم؛ وذلك لأن وسائل العلم متعددة، بخلاف الرؤية فإن طريقها البصر، فالعلم كل الحواس الخمسة المعروفة توصل إليه، فالمس والشم والذوق والرؤية والسماع كلها تفيد العلم، فهو أعم.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ البسط بمعنى التوسيع، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ

كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: يوسعه.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سبق لنا أن كل شيء قيَّده الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة وليست مشيئة الله مشيئة مجردة؛ لأننا نعلم أن الله عز وجل حكيم، لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة، فكلما مر عليك شيء مقيد بالمشيئة، فاعلم أنه مقيد بالحكمة.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ قال المؤلف: [امتحانًا] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيقه لمن يشاء ابتلاءً] ففرق المؤلف بين تضييق الرزق وبين بسطه، فجعل البسط امتحانًا والتضييق ابتلاءً والصواب: أنهما سواء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فكلاهما ابتلاء، وقال سليمان عليه الصلاة السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالصواب: أنها كلها ابتلاء، والامتحان قريب من معنى الابتلاء، لكن الإصابة ببسط الرزق تقتضي شكرًا، وبتضييقه تقتضي صبرًا، هذا هو الفرق بينهما، والمؤمن يكون بين الدرجتين؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وهذا ليس إلا للمؤمن فقط.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام هنا المراد به: التقريب، يعني: أنهم يرون أن الأمور بيد الله عز وجل، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فكيف يقنطون إذا أصابتهم السيئة؟! وكيف يفرحون إذا أصابتهم الرحمة؟! بل الواجب عليهم أن يعلموا أن ذلك بحكمةٍ من الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الواو هنا حرف عطف، والهمزة أداة الاستفهام، وأداة الاستفهام لها الصدارة، فإذاً لم تسبق الواو بشيء يُعطف عليه، فما هو الجواب؟ ذكرنا فيما سبق أن لعلماء النحو في مثل هذا التقييد قولين:

القول الأول: أن الواو عاطفة على ما تقدم بعد الهمزة.

والثاني: أن الواو عاطفة على ما سبق، وعلى هذا فتكون الهمزة مقدمة قبل العاطفة، وذكرنا أن هذا الرأي أولى؛ لأن الأول وإن كان جيدًا لكنه في بعض الأحيان يصعب على الإنسان أن يقدر شيئًا يرى أنه موافق للسياق، وعليه فيكون القول بأن الهمزة للاستفهام وأن الواو مقدرة قبلها، يعني: وألم يروا.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولا شك أن بسط الرزق وتضييقه ابتلاء من الله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن العبد يناسبه أحيانًا أن يُبسط له الرزق، وأحيانًا بالعكس، حسب ما تقتضيه الحكمة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: في بسط الرزق وتضييقه، ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَآيَاتٍ﴾ اسم إن مؤخر، وقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ خبرها مقدم.

قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لعلامات دالة على أن الله سبحانه وتعالى له التصرف المطلق في عباده، هذا مع أن المرء يسعى بقدر ما يستطيع بأسباب الرزق ومع ذلك لا يوسع عليه في الرزق

ويفشل، ويسافر كي يضرب في الأرض يبتغي من فضل الله، ومع هذا ليس كثير المال بل مضيق عليه، وتجد بعض الناس يسعى سعيًا بسيطًا، ولكن الله تعالى يبارك له في سعيه حتى يكون عنده رزق كثير، مما يدل على أن الأمور لا تنال بالكسب؛ لأن الكسب سبب، لكن فوق ذلك إرادة الله عز وجل.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بهذه الرؤية وهذا التفكر، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بها، ولذلك تجد هؤلاء الذين لا يؤمنون إذا حصلت مثل هذه الأمور ينسبونها إلى الطبيعة، فإذا كثر المطر قالوا: هذا بسبب كذا، وإذا قلَّ قالوا: هذا بسبب كذا، ونحن لا ننكر أن الأمور لها أسباب، ولكننا ننكر أن تكون الأسباب هي الفاعلة؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل، وما الأسباب إلا وسائل يستدل بها على حكمة الله سبحانه وتعالى وأنه حكيم؛ حيث ربط المسببات بأسبابها.

ثم قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (آت) بمعنى: أعطِ؛ لأنها من الرباعي، ولو كانت من الثلاثي لكانت بمعنى: ائْتِ.

وقوله: ﴿فَآتِ﴾ الخطاب مفرد، فهل هو للرسول ﷺ شخصيًا أو لكل من يتوجه إليه الخطاب؟

نقول: إن للعلماء في هذا رأيين، إلا ما دل الدليل على أنه خاص بالرسول ﷺ فهذا يختص به، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وما أشبه ذلك.

إذنْ قوله: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ قال المؤلف: [القرابة] فالقربى هنا بمعنى: القرابة، [﴿حَقَّهُ﴾ من البر والصلة]، وأحق الناس بذلك الأم والأب وإن علَوا، وصلتها تسمى برًّا؛ لأنه يجب أن تكون أعلى من غيرهما، والبر كثرة الخير، وغيرهما تسمى صلة؛ لأن نصيب الوصل فقط بخلاف الأب والأم، فحقه هنا مجمل، ولكنه مبيَّن بنصوص أخرى من الكتاب والسنة، وهو أن حق الأبوين البر، وحق غيرهما الصلة، فيمكن أن يكون قول المؤلف من البر والصلة على سبيل التوظيف من البر بالأبوين والصلة بغيرهما.

وقوله: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ يعم كل قريب ولو كان كافرًا؛ لأن العلة القرابة، وليس الإسلام، فلو قال: آت المؤمن حقه، قلنا : العلة الإيمان فيختص الحكم به.

وقوله: ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسكين هو الفقير، وهنا أطلق المسكين والمراد به الفقير والمسكين في آية الصدقة، وقد مر علينا أن المسكين يشمل الفقير إذا أطلق، وإذا قرنا جميعًا افترقا، فالمسكين له حق، وحقه: دفع حاجته؛ لأنه فقير.

قال أهل العلم: إطعام الجائع وكسوة العاري فرض كفاية، إذا قام به من يقدر سقط عن الباقين.

وقوله: ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المسافر]، وسمي ابن سبيل لملازمته له، والسبيل الطريق، وكل من لازم شيئًا يسمى ابنًا له، وهذا كما يقال: ابن الماء للطير المُلازم للماء، ويقال للرجل الذي يكثر السفر في الليل: ابن الليالي، وما أشبهه.

قال: [من الصدقة] هذا تفسير لحق المسكين وابن السبيل، وقيل: المراد بابن السبيل الضيف؛ لأنه عابر سبيل، ولكن الصحيح: أنه المسافر، ويشمل الضيف؛ لأن الضيف مسافر.

قال: [وأمة النبي ﷺ تبع له في ذلك]، أفادنا المؤلف بهذه الجملة أن الخطاب في قوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ موجه إلى الرسول ﷺ شخصيًّا والأمة تبع له، وقد سبق لنا أن وجه ذلك أن الرسول ﷺ هو زعيم أمته، فوجه الخطاب إليه وإن كان الكلام له، أو أنه خاص به وتكون أمته تبع له، على سبيل التأسي به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ المشار إليه: إيتاء ذي القربى حقه، والمسكين وابن السبيل، ﴿خَيۡرٞ﴾ هل يُراد بها هنا التفضيل، أم هي اسم وليست للتفضيل؟

قلنا فيما سبق: إن خير وشر تستعملان اسمي تفضيل، وتستعملان اسمًا مجردًا عن التفضيل، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ وهذا ليس المراد بها التفضيل، كذلك هنا قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ الظاهر: أنه لا يراد بها التفضيل، وإنما المراد: أن هذا خير ضد الشر لكنه قيد بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ وهذا دليل على الإخلاص، يعني: خير للمخلصين، أما غير المخلص، فإنه ليس خيرًا له.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ فجعل الله ذلك خيرًا مطلقًا، ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ فجعل هذا الشيء خيرًا مطلقًا، بما فيه من نفع متعدد، ولكنه لا يكون خيرًا للفاعل إلا بالنية - أي نية الإخلاص -، وأظن هذا ظاهر، فلو أنك تصدقت على شخص بدراهم، أو بثوب يلبسه، انتفع به أم لا؟ انتفع، هل تنتفع أنت؟ قد تنتفع وقد تُضر، وقد لا تنتفع ولا تُضر، إن فعلت ذلك رياءً تضرَّرت، وإن فعلته إخلاصًا انتفعت، وإن فعلته مجرد سجية وطبيعة، فإنك لا تنتفع، ولهذا قال هنا: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ قال المؤلف: [أي: ثوابه] لما يعملون، وهذا تفسير ليس بصحيح، وإنما هو على طريق أهل التأويل الذين لا يؤمنون بالصفات الخبرية التي أخبر الله بها عن نفسه، كالوجه واليدين والقدم وما أشبهها.

فتفسير الوجه بالثواب خطأ وليس على طريق أهل السنة والجماعة بل هو على طريق أهل البدع المؤولين الذين يسمون أنفسهم المؤولين وهم في الحقيقة محرفين، والصواب: أن المراد بوجه الله وجهه الذي هو صفته، وأن في الآية إشارة إلى أن من فعل مثل هذه الأمور لله فإنه سوف يرى الله عز وجل، ويلقاه كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة وإجماع السلف أن المؤمنين يرون ربهم كما

يرون القمر ليلة البدر.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أولاء: مبتدأ، وهم: ضمير فصل، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبرها، والمفلح هو الذي فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب، من أفلح إذا فاز، وأصل الفلاح: البقاء، كما قال الشاعر:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَه ... وَالْمُسيُ وَالصُّبحُ لا فَلاحَ مَعَه

يعني: لا بقاء، ولكنه صار شاملًا، لكل ما حصل به المطلوب ونجا به من المرغوب.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الجملة اسمية تدل على أن الفلاح لازم لهم، وضمير الفصل هل هو اسم أم حرف؟ الصحيح: أنه حرف لا محل له من الإعراب ولا يعرب، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

الأولى: الحصر.

والثانية: التوكيد.

والثالثة: الفرق بين الصفة والخبر.

من أجل ذلك إذا قلت: زيد العاقل، فزيد مبتدأ، والعاقل خبر، لكن يحتمل أن تكون العاقل صفة لزيد وأن الخبر ما بعد ذلك: زيد العاقل محمودٌ مثلًا، فإذا قلت: زيد هو العاقل، تعين أن تكون العاقل خبرًا، ولهذا قيل: لا هو ضمير فصل؛ لأنه يفصل ويميز بين التابع الذي هو النعت وبين الخبر.

أما إفادته للتوكيد واضح، فإن قولك: زيد هو العاقل أقوى في الدلالة على الحصر من قولك زيد العاقل، أما كونه لا محل له من الإعراب، فظاهر في القرآن، قال تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فلو كان له محل من الإعراب لقال: إن كانوا هم الغالبون، فتكون هم مبتدأ، والغالبون خبر، والجملة خبر كان، فدل هذا على أنه لا محل لها من الإعراب، وهو على المشهور عند النحويين حرف جيء به للفصل.

الفوائد:

فوائد قول الله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى قد يجعل النعم سببًا للكفر؛ لقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ لأننا ذكرنا أن اللام هنا للعاقبة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب إذا جعلنا الباء في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ سببية، أما إن جعلناها للاختصاص، فليس فيه دليل على ذلك.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما أصابنا من نِعم فمن الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

٤- **ومنها**: تهديد الكافرين، وأن انبساطهم بنعم الله تعالى غرر عليهم؛ لقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٥- **ومنها**: بلاغة القرآن، وذلك بالانتقال من الغَيبة إلى الخطاب، الذي يسمى في اصطلاح البلاغيين الالتفات؛ وقد سبق لنا أن ذكرنا فوائده.

٦- **ومنها**: إثبات الجزاء؛ وذلك من قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

فوائد قول الله عز وجل: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: أن أولئك المشركين ليس لهم حجة على شركهم؛ لقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن من فعل شيئًا بدليل فلا لوم عليه، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ يعني: لو كان لهم سلطان ما نلومهم ولا نعذبهم.

٣- **ومنها**: أن المجتهد المتأوِّل لا إثم عليه، لاعتماده في اجتهاده على دليل، ولهذا لم يضمِّن النبي ﷺ أسامة بن زيد الرجل الذي قتله بعد أن قال: لا إله إلا الله، والسبب؛ لأنه متأول، ولم يلزم عمار بن ياسر بقضاء الصلاة لما تيمم عن الجنابة بالتقلب على الأرض والتمرغ فيها؛ لأنه متأول، ولم يلزم المرأة المستحاضة بقضاء الصلاة، وهي تتركها وقت الاستحاضة؛ لأنها متأوِّلة، وعلى هذا فكل متأول يظن أنه على صواب فإنه لا إثم عليه، لكن هل هذا يشمل الأصول والفروع، أو هو خاص بفروع الدين؟

الجواب: يرى شيخ الإسلام أنه يشمل الأصول والفروع، وأنكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم أن يكون الدين منقسمًا إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم لا أصل له، لا في الكتاب ولا في السنة، فهذه الصلاة عند المقسمين من قسم الفروع، وهي من آكد الأصول، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، ومع ذلك هي عندهم من قسم الفروع، وأشياء يختلفون فيها، وهي عندهم من قسم الأصول، ويرون أن للاختلاف فيها مساغ، كاختلافهم في رؤية النبي ﷺ ربه، واختلافهم في نعيم القبر وعذاب القبر وما أشبه ذلك، مما هو من العقائد ومع ذلك يرون أن الاختلاف فيه سائغ.

والشاهد أن المدار كله على قاعدة من قواعد الشرع وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فمن اجتهد في طلب الحق وتحراه ولكنه لم يوفَّق له مع حسن النية وصحة المسلك، هل نقول: إن هذا آثم؟ لا يمكن، يعني عندنا مثلًا علماء أجلاء نشهد لهم بالدين والصلاح وحب الإسلام والانتصار للإسلام ومع ذلك هم مخالفون للسلف في العقيدة، ونحبهم ولا نؤثمهم، كابن حجر، وابن الجوزي وكذلك النووي، وطوائف من العلماء معروفون بالصلاح، والإصلاح، وحب الخير ونعلم أنهم مجتهدون، فالإنسان الذي تبين له الحق ولكنه عاند وأصر،

فهذا يُعامَل بما يقتضيه عناده وإصراره.

وهنا في هذه الآية قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ هي مسألة أصولية، لو كان لهم حجة يعتمدون عليها ما استحقوا العذاب ولا اللوم، لكن ليس لهم حجة.

٥ ـ **يستفاد منه أيضًا:** أنه لابد أن يكون السلطان أو الحجة التي يحتجون بها واضحة لقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتعبير بالكلام هو أوضح ما يكون في الإظهار.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ظهور عدل الله سبحانه وتعالى، وإلا لكان عز وجل يعذبهم بدون أن يقيم عليهم الحجة، ولكن لإظهار عدله سبحانه وتعالى صار يطالب هؤلاء بالحجة، مع العلم بأنه لا حجة لهم، ومن هذا النوع الموازين يوم القيامة والكتب يوم القيامة، وكل هذا لإظهار عدل الله، وإلا فإن الله تعالى له الحكم وإليه المنتهى قادر على أن يعذب بدون ميزان وبدون كتاب، ولكنه سبحانه وتعالى لكمال عدله يعطى الإنسان كتابه ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك، وهذا صحيح، فلو أنك تتذكر بينك وبين أحد الناس معاملة بكتاب صادر وارد، وقال لك: خذ الدفتر أنت حاسب بنفسك، ماذا يكون هذا عدل أم لا؟ عدل، خلاف ما لو أجملت الحساب وقلت: عليك كذا ولك كذا قد يكون في هذا شبهة، لكن يعطيك الدفتر ويقول: أنت حاسب نفسك، فهذا غاية الإنصاف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الرحمة من الله تفضلًا منه وامتنانًا، أما كونها منه؛ فلقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا﴾ وأما كونها تفضلًا؛ فلأنه لم يذكر لها سببًا.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم الفرح إذا كان على سبيل الأَشَر والبَطَر، يؤخذ من قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ويمكن أن يؤخذ الفرح المذموم من الصفة التي بعدها.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السيئة لا تضاف إلى الله؛ لأنه قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ ولم يقل: (وما أصبناهم).

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ هل إيقاعها سيئة أم لا؟

نقول: إيقاعها ليس بسيئة، فهي سيئة لكن إيجادها ليس سيئًا؛ لأنه لحكمة، فالشيء بنفسه قد يكون سوءًا، ولكن بالنسبة لفعل الفاعل لا يكون سوءًا، مثل رجل مرض ابنه، واحتاج الابن إلى كي، فأحمى الحديدة في النار وكواه، فصرخ الابن ألمًا لا فرحًا، هذه سيئة، لكن كَيُّ والده إياه

حسنة، فحينئذٍ يجب أن نعرف الفرق بين الفعل والمفعول، فالسوء والشر إنما هو بالنسبة لمفعول الله المنفصل عن الله، أما بالنسبة للفعل الذي هو فعل نفسه فإنه لا يمكن أن يكون شرًّا أبدًا بل هو خير، ويمكن أن تقول: إن الخير نوعان: خير لنفسه وخير لغيره، فما كان شرًّا في نفسه فقدره الله فهو خير لغيره، وما كان خيرًا في نفسه فهو خير واضح.

إذنْ لنا عن هذا جوابان:

الجواب الأول: أن يقال: إن الشر ليس في فعل الله، بل هو في مفعوله، أما إيجاد الله له فهو خير لما يتضمنه من الحكمة البالغة، هذا واحد، ونظيره كيُّ الإنسان ابنه ليشفى من المرض، فهو في ذاته شر، لكن بالنسبة لفعل الأب له: خير، هذا وجه.

الجواب الثاني: إن الخير نوعان: خير لذاته، وخير لغيره، فما كان خيرًا محضًا فهو خير لذاته، كالمطر، والنبات، والرزق، وما أشبه ذلك، وما كان شرًّا لذاته فهو خيرٌ لغيره، فإذا كان الشر خيرًا لغيره صار بهذا خيرًا، فالجدب والقحط والخوف وما أشبه ذلك خير؛ لأنه يؤدي إلى خير، كما قال الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن السوء لا ينال الناس إلا بأعمالهم؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

مسألة: هل هذا يشمل الأمور الدينية والأمور الدنيوية، أو الأمور الدنيوية فقط؟

الجواب: فيهما جميعًا، فالجدب والقحط بسبب الأعمال السيئة والمعاصي، كذلك زيغ القلب بسبب المعاصي، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ إذنْ المصائب الدينية والدنيوية، كلها بسبب أعمالنا نحن، فلو استقمنا استقامت لنا الأمور، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ إذنْ التقوى سببٌ للعلم؛ لأن الفرقان لا يكون إلا بعلم، يفرق به الإنسان بين النافع والضار، والحق والباطل.

إذنْ نقول: هذا يشمل أمور الدين وأمور الدنيا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم القنوط من رحمة الله؛ لأن الله أطلقه على سبيل الذم، فقال: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فهذا دليل على تحريمه، بالنظر إلى أن القنوط يستلزم عدم الرجوع إلى الله؛ لأنه إذا قنط من رحمة الله كيف يرجو رحمة الله؟! فيستحسر وييأس - والعياذ بالله - ولا يتعرض لما فيه الرجاء والأمل.

فائدة: الابتلاء يكون على قدر الإيمان؛ لأن الابتلاء أحيانًا يكون بالمصائب وليس من أجل العقوبة، لكن من أجل التمكين والبيان، وهذا مر علينا أنه قد يقع، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾، وقلنا: إن الابتلاء مع استقامة الحال ليس المراد به تكفير سيئة حصلت، بل المراد به رفع الدرجات؛ لأن الصبر ما يكون إلا على بلاء، والصبر لا ينال إلا بالمشقة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الاختيار للبشر؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فيكون في ذلك ردٌّ لقول الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ما له اختيار في العمل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يُعاقب على أعمال القلوب، أو قد يُذم على أعمال القلوب؛ لأن القنوط من أعمال القلوب؛ إذ إنه أشد اليأس ومحله القلب.

فوائد قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

١- **في هذه الآية الكريمة:** تقرير ما يحدث لقوم من بسط الرزق وتضييقه على آخرين؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ لأن الاستفهام للتقرير كما سبق.

٢- **ومن فوائدها:** أن سعة الرزق وتضييق الرزق كله بيد الله عز وجل.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، والله أعلم.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ...﴾ إلى آخره:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لهؤلاء الأصناف الثلاثة حق، القريب والمسكين وابن السبيل.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوب إيتاء هؤلاء حقهم، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ للأمر والأصل في الأمر: الوجوب.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الأقرب فالأقرب أحق، تؤخذ من قوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لكن كيف الأخذ؟ لدينا قاعدة سبق لنا أن قررناها: وهي أن الحكم إذا عُلق على وصف كان أكثر في هذا الوصف فهو أحق، فكلما كان هذا الوصف أشد تمكنًا في شيء، فهو أحق.

فمثلًا إذا قلت: أدِّب العاصي، فعلق التأديب بالعصيان، فيقتضي أن كل من كان أشد معصية، كان أشد تعذيبًا، وإذا قلنا: أكرِم المؤمن، صار بذلك كل من كان أقوى إيمانًا صار أحق بالإكرام، وفي قوله: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ علق الحق بالقرابة، فكل من كان أقرب كان أحق بالإيجاد، وهذه القاعدة مفيدة، لطالب العلم، أنه إذا علق الحكم على وصفٍ قوي ذلك الحكم بقوة ذلك الوصف، نظرًا لأن تعليقه بالوصف يفيد عليته، وهذه أيضًا قاعدة ثانية أن تعليق الحكم بالوصف يفيد أن ذلك الوصف علة، فماذا تقول: أكرم المؤمن؟ لإيمانه، أدب الفاسق؛ لفسقه، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ معناه: لإفسادهم، وهكذا نقول: إن تعليق الحكم بالوصف يدل على علية ذلك

الوصف، وأنه علة الحكم وبناءً على هذه القاعدة تأتي القاعدة الأولى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل مَنْ كان أحق بالإحسان فهو أولى به؛ لأن المسكين أحق بالإحسان من الغَني، وابن السبيل والمسافر والمنقطع فهو به أحق من غيره.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النفع المتعدي خير في نفسه، فهل هو خير للفاعل؟ خير له بشرط، وهو خير بنفسه وإن لم ينتفع به الفاعل، بناءً على ذلك يتفرع على هذا: أن ما يبذله الكفار من منافع للمسلمين هي خير للمسلمين، ما نقول: هذه صدرت من كافر فليست فيها خير، لو أن أحدًا من الكفار أصلح طريقًا من الطرق من هذه الشركات الكافرة، فيكون في هذا الإصلاح خير لا شك، ولكن ليس خيرًا لهم، إنما هو خير لغيرهم.

٦ - **ومن فوائد الآية:** التنبيه على أهمية الإخلاص؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه كلما كان العمل أخلص لله، كان أكثر خيرًا للفاعل، وذلك من الآثار التي مرت علينا، أن هذا الحكم عُلق بعلة ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾؛ لأن اسم الموصول مع صلته كاسم الفاعل تمامًا، فيكون خير للذين يريدون، إذنْ كلما كان الإنسان أخلص في إرادة وجه الله كان أكثر خيرًا له.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الوجه لله؛ لقوله: ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾، ووجه الله عز وجل قال أهل العلم: إنه من الصفات الخبرية؛ لأنهم عندهم الصفات الخبرية المحضة يعبرون عنها بالخبرية؛ لئلا يقعوا في المحظور، فلا يقولوا: إنها بعضية مثلًا أو جزئية ؛ لأن التبعض في صفات الله عزَّ وجلَّ محرم إطلاقًا، فالوجه واليد والعين والسَّاق والقدم، كل هذه يُعبر عنها بالصفات الخبرية، لكن السمع والعلم والقدرة والحياة تُسمى: صفات معنوية، أي: ذات معانٍ.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى رؤية الله عز وجل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ولا شك أن رؤية الله ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع السلف، ففي القرآن قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣] ومعنى: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة وهي الحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظاء من النظر وهو الرؤية بالعين، وهذه الآية من أصلح ما في القرآن، وفي آية أخرى قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، وفي آية ثالثة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وقد فسرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله(١)، وهناك آية رابعة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وفيه آية خامسة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣] فإن هذه الآية تدل على الرؤية؛ لأن الله قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ ونفي الإدراك يدل على ثبوت الأصل، ولو كان لا يُرى لقال: لا تراه الأبصار، فنفي الأخص يقتضي وجود الأعم، ولهذا كانت هذه

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

الآية التي استدل بها أهل التعطيل على نفي رؤية الله، دليلًا عليهم، لا دليلًا لهم.

والفرق بين الصفات المعنوية والخبرية أن الصفات المعنوية تدل على معانٍ: السمع، والبصر، والعلم، والقدرة، وما أشبهها، وأما الصفات الخبرية فهي تدل على صفات، هي بالنسبة لنا أبعاض، فيدُ الإنسان ووجه الإنسان وساق الإنسان وقدم الإنسان وعين الإنسان هذه أبعاض لنا، لكن ما نُسمِّيها بالنسبة لله أبعاضًا، بل سماها أهل العلم: الصفات الخبرية.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الفلاح يكون بأمرين: بالإخلاص، وفعل المأمور به، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء المشار إليهم أتوا بالفعل والإخلاص.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٩، ٤٠].

❁ التفسير ❁

لما أمر الله تعالى بإيتاء ذي القربى حقه في قوله: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ إلخ حذَّر من هذا الأمر، فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾. والربا في اللغة: الزيادة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلَت:٣٩] أي: علتْ، ومنه الربوة وهي المكان المرتفع. أما في الشرع فالربا المحرم هو زيادة في أشياء أو نسيئة في أشياء، يعني: هناك أشياء يزيد فيها كما لو باع صاعًا من البُر بصاعين، ولا يدًا بيد فهو ربا فضل أو باع دنانير بدراهم مع تأخير الخصم، فهذا ربا بلا نسيئة، وكلاهما محرم.

وأما الربا هنا في الآية: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ فالمراد به الزيادة فهو ربا لغوي، هذا الذي عليه جمهور المفسرين، فقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم﴾ أي: وما أعطيتم من ربًا ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]، وكيف ما أعطيتم من ربًا؟

فسره المؤلف بقوله: [بأن يُعطي شيئًا هبة أو هدية ليطلب أكثر منه]، تهدي لتأخذ، لأجل يعطيك أكثر، أو تهبه من أجل أن يرد عليك أكثر مما وهبت، الآن آتيت شيئًا ليردَّ عليك أكثر منه، نقول: إن هذا ربا، لكن إذا قال قائل: أنا ما أعطيت ربًا، أنا أعطيت شيئًا حصل به الربا، أجاب المؤلف عن هذا فقال: [فسمى باسم المطلوب من الزيادة في المعاملة]، فيكون هذا الذي أعطى ليعطى أكثر كأنه أعطى

ربًا؛ لأنه أُعطيه، هذا ما عليه أكثر المفسرين، وعلى هذا فيكون الربا هنا لغويًا وليس شرعيًا وهنا قول المؤلف :[ربًا أو هدية]، الفرق بين الربا والهدية، أن الربا يقصد بها مجرد الإحسان إلى المعطَى فقط، أما الهدية فيقصد بها التودد والإكرام هذا الفرق بينهما، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»(١) هناك شيء ثالث يسمى صدقة وهذه يقصد بها ثواب الآخرة، فما يقصد به ثواب الآخرة فهو صدقة، وما يقصد به التودد والإكرام فهو هدية، وما يقصد به نفع المعطَى فهو ربًا.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يزيد عند الله عز وجل؛ لأن هذه الحال حال دنيا نازلة، ولهذا نهى الله عنها رسوله ﷺ، في قوله ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ يعني: لا تعطِ لأجل أن تعطَى أكثر، فلما كانت هذه الحالة نازلة قال هنا: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

قال المؤلف: [﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المعطين أي يزيد، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يزكو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾] .

هنا قال المؤلف: [يزكو عند الله] أي لا ثواب فيه للمعطين، وذلك لأنها حال لا يرضى عنها الله، فلا يكون فيها أجر عند الله عز وجل، هذا ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية، ورووه عن ابن عباس وغيره.

وعندي: أنه يحتمل في الآية معنىً آخر يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الربا الشرعي، ويخاطب الله عز وجل المعطين بالربا يعني: أن الربا الذي تعطونه غيركم وإن كان يزيد في أموالهم، فإنه لا يربو عند الله، بل إنه على العكس يحصل به النَّحس فلا خير فيه، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ففرق بين المُرابي، وبين المُتصدِّق، كما أن الله عز وجل يقرن بينهما في بعض الآيات مثلما ذكر في سورة البقرة؛ حيث ذكر الإنفاق وذكر بعده الربا، وكذلك أيضًا ذكر في سورة آل عمران: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٠ - ١٣٣]، وذكر من جملة أوصافهم أنهم ينفقون في السراء والضراء، ولكن هذا الاحتمال - حتى الآن - ما رأيت أحدًا قال به، وإنما يقولون بالمعنى الأول، أن المراد بالربا: أن يعطِي الإنسان شيئًا ربًا أو هدية ليُعطى أكثر، فإن هذا وإن زاد في أموال المعطين فليس فيه زيادة عند الله؛ لأنه خُلُقٌ مذموم.

لكن لو قال قائل: ماذا تقولون فيما لو أهدينا إلى شخص معروفًا بالمكافئة به، وأنا ما قصدت، فهل يجوز أم لا؟ **الجواب:** ما دام لم يُقصد فإنه لا يضر، والإهداء للأمراء والملوك والوزراء وما أشبه ذلك يدخل في هذا النهي، غالبًا الذين يهدون خصوصًا الملوك والكبار من الأمراء إنما يريدون الزيادة، ولهذا إذا عُرف الإنسان بأنه لا يعطي إلا مثل القيمة أو دونها، ما يعطى هدايا إلا من عُرف بأنه يبذل أكثر، ويريد أكثر.

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١٦٠١).

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ءَاتَيْتُم﴾ يعني: أعطيتم، ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾، (من) هذه حرف جر وهي بيان لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وما هنا إعرابها: شرطية، بدليل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فارتبطت الفاء في الجواب، يعني: ومهما أعطيتم من زكاة بهذا القيد: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

قوله: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال المؤلف: [صدقة] وفي هذا القيد نظر، إن قصد بها صدقة التطوع فلا، أما إن قصد بها الصدقة مطلقًا فنعم؛ لأن الصدقة تطلق على الواجب والمستحب، والدليل على إطلاقها على الواجب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فهذا للواجب، إذنْ نقول: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ المراد بها: الزكاة الواجبة بالمعنى الأول، وكيف نحوِّلها إلى صدقة على أن المراد بها التطوع؟

الصواب: أن المراد بالزكاةِ هي الزكاة الواجبة؛ لأنها مُرادة عند الإطلاق، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور:٥٦] المراد: الواجبة.

إذنْ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ [الروم:٣٩] أي: من صدقة واجبة.

وقوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يعني: تريدون بهذه الزكاة التي آتيتم وجه الله، وهذه جملة شرط للثواب والأجر أن يريد الإنسان وجه الله؛ لأن من لا يريد وجه الله إما أن يريد وجه غيره أو لا يريد شيئًا، فإذا أراد وجه غيره فليس له أجر، بل عليه وزر؛ لأنه مُراءٍ مشرك فلا تُقبل منه، وإن لم يرد وجه الله ولا غيره، وإنها أراد إبراء ذمته فقط كما هو غالب من يؤدي الزكاة - نسأل الله يعاملنا بعفوه -، وغالبًا أكثر الناس عندما يأتي للصلاة تجده يريد إبراء ذمته وما يشعر بأن هذه الصلاة تقربه من الله عز وجل، ويريد القرب بها إلى الله، هذا غالب الناس إلا من وُفق وصار يتنبه عند فعل الطاعات بإرادة وجه الله وهو الإخلاص واتباع الرسول ﷺ في هذه العبادة، أما الذي لا أراد وجه الله ولا أراد وجه غيره، إنها أراد بها إبراء ذمته هل هي تنفعه أم لا؟ تنفعه بلا شك وتبرئ بها ذمته، وربما يؤجر لقيامه بركن من أركان الإسلام، بل يقينًا يؤجر، وربما يؤجر أيضًا بكونه يشعر أن هذا مما أوجب الله عليه فيؤديه، يعني: هذا لا شك أنه تعبد لله، يعني: فَعَله تعبُّدًا، لكن كونه يريد بذلك وجه الله والتقرب إليه، وهذه حالة أعلى من كونه مجرد إبراء ذمته.

وقوله: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ المراد به كما قال المؤلف في الآية التي قبلها بأنها ثوابه، وذلك في قوله: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقال: [ثوابه بما أرادوه]، والصواب: أن المراد بوجه الله: ذات وجه الله لا ثوابه، وفيه إشارة - كما سبق - إلى رؤية المؤمنين ربهم.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ هذا جواب الشرط، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، و﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ خبر أولئك، ومعنى ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الحاصلون على التضعيف؛ لأن الفعل الثلاثي إذا دخلت عليه الهمزة فقد يُراد به الدخول في الشيء، مثل قولهم: أنجدَ أي: دخل نجدًا،

فمعنى أضعف هنا: أي صار من ذوي الإضعاف، والإضعاف معناه الزيادة، يعني: فأولئك هم المُضعِفون الذين حصلوا على مضاعفة الأجر والثواب، بخلاف الأولين الذين أتوا الربا؛ ليربوا في أموال الناس، فهؤلاء ليس لهم زيادة، فالزيادة للذين آتوا الزكاة يريدون وجه الله هؤلاء هم المضعفون أي: الداخلون في الإضعاف.

قال المؤلف: [﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه] يعني: الذين ضاعفوه وزادوه بما أرادوه، ثم قال: [فيه التفات عن الخطاب] الخطاب في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، وكان مقتضى السياق - لو كان على نسق واحد - أن يقال: فأنتم المضعفون، لكن قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ تعلية للشأن مثل التعبير بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ ما قال: وقلت لكم أو أقول لكم، تعظيمًا لشأنه تعالى، المراد بذلك: تعظيم شأن هؤلاء الذين أرادوا وجه الله عز وجل بكونهم حافظوا على مضاعفة الأجر والثواب، بخلاف الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ يقول المؤلف: [ممن أشركتم بالله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به].

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يعني: أوجدكم من العدم، لكن الخلق ليس مجرد الإيجاد بل هو الإيجاد بتقدير، بل إن بعضهم قال: إن الخلق في الأصل هو التقدير، واستدلوا لذلك بقول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْـرِي مَا خَلَقْـــتَ وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

ومعنى (ما خلقت) أي: ما قدَّرت، ولكن الصحيح أنه يطلق على الإيجاد المسبوق بالتقدير، فمعنى ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم إيجادًا مسبوقًا بالتقدير والإحكام والإتقان، فهذا مسلَّم أم لا؟ حجة عند المشركين؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا يمكن لأحد إلا المجوس أن يدعي أنه خلق نفسه أو يدعي أنه خلق بغير خالق، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فأنت ما خلقك أبوك ولا خلقتك أمك ولا خلقك أحد من البشر ولا من غير البشر سوى الله سبحانه وتعالى وهذا أمر مسلَّم به.

وقوله: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: أعطاكم، والرزق في اللغة: العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨] أي: أعطوهم، وهل أحد يدعي أن الرازق سوى الله؟ قد يدعي أحد، قد يقول قائل: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، فأنا رزقت هذا الإنسان وأعطيته، فيقال: لكن الذي خلق ما أعطيت هو الله، ومهما كان من عمل بني آدم، فإنما هو تحويل لا إيجاد، فكل عمل بني آدم حتى الصنائع والبناء وغير ذلك، ليس إلا مجرد تحويل، يعني: تغيير من شيء إلى شيء، وإلا فالأصل هو الله عز وجل، فهو الخالق وهو الموجد، فهذا

الرجل أعطيته كيسًا من الطعام، نعم إنك رزقته، لكن الذي أوجد هذا الكيس هو الله عز وجل.

إذنْ فالرزق أصله من الله، وإن كان يوجد على أيدي بعض الناس، لقوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ وقول الرسول ﷺ: «وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»[1].

لكن يقال: من الذي خلق هذا الرزق؟ ومن الذي جلبه إليك؟ ومن الذي قدَّر أن تعطيه هذا؟

الجواب: هو الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني: بعد هذا الخلق والإمداد، الخلق للعباد، والرِّزْق إمداد، فالله عز وجل أوجدك وأعدك وهيأك ثم أمدك بما به القوامة، وبعد ذلك يميتكم، يعني: بعد الحياة الدنيا يكون الموت وهو مفارقة الروح البدن مفارقة تامة؛ لأن النوم فيه مفارقة، لكن ليست مفارقة تامة، أما الموت الذي هو الموت فإنه مفارقة تامة، ولكنها تعاد إليه في قبره إعادة برزخية، لا كإعادتها في الدنيا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: الحياة الآخرة التي ليس بعدها فناء.

قال الله عز وجل: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ هذه مضافة إلى المفعول مضافة إلى المفعول لا إلى الفاعل، يعني: هل من هؤلاء الذين أشركتموهم بالله، ولهذا قال المؤلف: [ممن أشركتم بالله] ؛لأن المشرَك به مفعول فالمعنى:أنهم ليسوا هم الذين أشركوكم، بل أنتم أشركتموهم مع الله، فهو مضاف إلى مفعوله.

قال: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إعراب ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ يحتمل أن تكون نكرة موصوفة، والتقدير: هل من شركائكم أحد يفعل ذلك، ويحتمل أن تكون موصولة على أنها مبتدأ مؤخَّر، أي: الذي من شركائكم هل يفعل ذلك؟! والأول أحسن، أن يكون نكرة موصوفة؛ أي هل من شركائكم أحد يفعل من ذلك.

وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾ زائدة، وصحت زيادتها؛ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي ومَنْ تُزاد في النفي، كما قال ابن مالك:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبهِهِ فَجَر ... نَكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفَر

وقوله: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ المشار إليه الخلق والرِّزْق والإحياء والإماتة، فعلى هذا يكون الجواب عن كونه مفردًا مذكَّرًا مع أن السابق أربعة أشياء جمعًا، يقال: لأنه أُوِّل بالمذكور.

وقوله: ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أي: من ذلكم المذكور، فصح أن يأتي اسم الإشارة مفردًا مذكرًا؛ لأنه عائد إلى المذكور.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

وقوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ يعني: ما يمكن أن يفعل هؤلاء أي شيء من هذه الأمور، لا الخلق ولا الرزق ولا الإحياء ولا الإماتة، وهذا على سبيل التحدي، فإذا كانت هذه الآلهة التي أُشركت مع الله لا تفعل شيئًا من هذا، هل تصح أن تكون آلهة؟ لا، بل تأليهها باطل، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، يبقى النظر لو ادعى مدعٍ أنه يحيي ويميت، كالذي حاج إبراهيم في ربه، إبراهيم ﷺ قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فما هو الجواب لو قال قائل: إن من المعبودين من يستطيع أن يحيي ويميت؟ نقول: هذه دعوى باطلة؛ لأن الإحياء والإماتة من الإنسان ليست إحياءً وإماتةً، ولكنها فعل سبب يحصل به.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن من بذل ماله من أجل الحصول على أمر الدنيا، فإنه لا أجر له في ذلك، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا عكس الأولين الذين سبقوا في الآية السابقة، فالذين أعطوا في الآية السابقة يريدون وجه الله، وهؤلاء بالعكس يريدون الازدياد بما أعطوا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** التنبيه على أهمية الإخلاص، لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن مضاعفة الأعمال تكون بحسب الإخلاص، لقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فقد رتَّب الله تعالى الإضعاف على إرادة وجه الله، وعلى ما قررنا في القاعدة قبل قليل وهو أنه كلما كان العبد أخلص لله فعمله أكثر مضاعفة، وهذا أمر لا شك فيه، فإن مضاعفة الأعمال تكون بأسباب كثيرة، منها شرف الزمان، ومنها شرف المكان، ومنها شرف الفاعل، ومنها شرف العمل ومنها الإخلاص ومنها الاتباع، كل هذه الأسباب الستة من أسباب المضاعفة.

فالمضاعفة بسبب شرف الزمان مثل شهر رمضان والعشر الأُول من ذي الحجة.

والمكان كالحرمين والأقصى فإن العمل فيهما أشرف من غيرهما.

ومنها الفاعل كالصحابة، الذين قال فيهم الرسول ﷺ «**لَو أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[1] ويلحق بهذا: العاملون في آخر الزمان ـ في أيام الصبر ـ الذين يتمسكون بسنة الرسول ﷺ مع تباعد الناس عنها، فإن هؤلاء يُضاعف لهم الأجر، وإن كانوا لا ينالون

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

مرتبة الصحابة، لكن يُضاعف أجرهم بسبب ما يجدونه من الغرابة ومخالفة الناس لهم؛ لأنه لا أحد يشك أن الإنسان الذي يعمل في مكان وزمان الناس فيه يعملون كما يعمل، فالعمل عليه هين، أما مخالفته الناس هي الصعب، لاسيما أن المعارضة ستكون عنيفة؛ لأن هذا متمسك بطاعة الله والمخالف له على العكس، وأعنف صراع يكون بين المتخالفين هو ما يكون بين المتمسكين بدين الله، والمتحللين منه.

وتكون أيضًا المضاعفة بحسب العمل، ولكن الكثرة ليست هي المرادة، لكن جنس العمل، فالصلاة أفضل من غيرها، والفرض من كل عمل أفضل من نفله وأشرف، والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وهكذا كما تبين كثيرًا.

والخامس بحسب الإخلاص كما في هذه الآية، وكلما كان الإنسان أخلص - وإن كان العمل واحدًا - كان عمله أشرف من الآخر، ولهذا تجد رجلين ركبا سيارة واحدة وخرجا ودخلا جميعًا في الحج أو في العمرة، ورجعا جميعًا على السيارة، وأفعالهما واحدة وأقوالهما واحدة، وبينهما تفاوت أكثر مما بين المشرق والمغرب، وذلك بحسب الإخلاص لله.

والسادس بحسب الاتباع، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله، الصلاة على وقتها؛ لأنها حصلت على وجه المتابعة للرسول ﷺ هذه الأسباب في الشرع كلها مما يوجب للعبد العناية بأعماله وأن يتحقق بما يستطيع من هذه الأسباب.

مسألة: ما معنى قوله ﷺ: «**الْمُخْلِصُ فِي أَيَّامِ الصَّبْرِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»(١)؟

الجواب: المعنى: له أجر خمسين في هذه الخصلة التي عانى بها وتعب، فأصل العمل مثلًا: الصدقة مضاعفة بعشر أمثالها، عشر أمثالها موجودة في الصحابة وموجودة في زمن المتأخر هذا، لكنه يضاعف ذلك، فيكون أجر هذا مثل أجر خمسين من الصحابة لما يجده من المعاناة، لكن الكَمية التي تحصل للصحابة، التي لو أنفق أحدنا مثل أحدٍ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، هذا خاص بهم، فعندنا ثواب على أصل العمل.

والثواب أيضًا يُضاعف بحسب العامل، فالذي في أصل العمل كالصدقة مثلًا، يكون لهؤلاء المتأخرين أجر خمسين من عمل الصحابة باعتبار أصله، لا باعتبار أنه وقع من الصحابة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الروم:٤٠].

١- **من فوائد الآية الكريمة**: الاستدلال بالأجلى والأوضح؛ لأن الله استدل على بطلان آلهة المشركين بأمر يقرُّونه هم، وآلهتهم لا تفعله وهو الخلق والرزق والإماتة والإحياء.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٥٨)، والنسائي (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٤٤).

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله عز وجل، وذلك بالأمور الأربعة، الخلق والرزق إلى آخره.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** إثبات أن ما اكتسبه الإنسان فهو من الله؛ لأن هذه الأربعة فيها ثلاثة ما أحد يماري فيها، وهي الخلق والإماتة والإحياء، لكن الرزق قد يماري فيه ممارٍ، فقارون مثلًا قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقد فسره مجاهد - فيما أظن - : على علم مني بوجوه المكاسب، يعني معناه: أني ماهر بمعرفة المكاسب وحصَّلت هذا المال، ولكننا نقول: هذا التحصيل الذي حصلته بمهارتك جاءك من الله عز وجل؛ لأن هذا الذي حصل لك بسببه، وخالق الأسباب هو الله.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا استجلاب الرزق من ربنا وحده، لقوله: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يترتب على هذا فائدة أخرى وهي: ألا نطلب رزقه بمعاصيه، وجهه: إذا كنت تطلب الرزق من الله هل من اللائق عقلًا أن تقدم له معصية ليرزقك؟ لا؛ لأن الذي يبتغي الرزق من غيره يقدم طاعته والخضوع له، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣].

إذنْ من استجلب رزق الله بمعاصيه فقد خالف الحكمة والصواب، فهؤلاء الذين يطلبون الرزق بالربا، ويطلبون الرزق بالغش، ويطلبون الرزق بالكذب، وغير ذلك من الوسائل المحرمة، هم في الحقيقة أشبه ما يكونون بالمستهزئين بالله عز وجل، الساخرين به، كأنهم يقولون: يا ربنا إننا نعصيك لترزقنا، وهذا من أعظم ما يكون، ولهذا جعل الله الذين يطلبون زيادة المال بالربا محاربين له؛ حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٩].

والربا كما قال شيخ الإسلام: ما ورد في ذنب من الذنوب - دون الشرك - أعظم مما ورد في الربا، والذي أصبح عند الناس الآن أنه من أسهل الأشياء وأبسطها، حتى كانوا يتعاطونه بالصراحة، ويتعاطونه بالتَحيُّل، وتعاطيه بالتحيُّل أخبث من تعاطيه بالصراحة، مثل أن تعاطي الكفر بالنفاق أخبث من تعاطيه بالكفر الصريح؛ لأن هذا المتحيل مخالف لله عز وجل، جمع - والعياذ بالله - بين مفسدة الربا ومفسدة الخداع والتحيُّل، فالرب عز وجل إذا حرم شيئًا ليس كغيره تخفى عليه الأشياء، فهو ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ونبيه عليه الصلاة والسلام وضح أن الأعمال بالنيات، فما دمت قد نويت الربا الآن لكن تحيَّلت عليه إدخال سلعة غير مقصودة فهذا تلاعب، واستهزاء بآيات الله عز وجل، يأتي إليه يقول: أنا ضمنت مائة ألف على أن تكون بمائة وعشرين ألفًا إلى سنة، كيف الوصول إلى هذا؟

والله - نحن المسلمين - ما نقدر أن نعطيك المائة ألفًا نقدًا وأكتبها عليك مائة وعشرين؛ لأننا

نخشى الله، ولكن هنا طريق نلوذ من جهة أخرى ونجعل حاجزًا بيننا وبين الله، بماذا؟ بأي سلعة تتفق، نرى الذي عند الناس وجدوا عند هذا سكَّر، قال: نشتري السكر، وجدوا عنده هيلًا قال: نشتري هيلًا، وجدوا سيارات قال: نشتري سيارات، وجدوا أكياسًا لا يُدرى ما في وسطها فلعله أن يكون رملًا قالوا: نشتري هذه الأكياس، هذا هو الواقع، ولهذا ما ينظرون الآن إلى هذه الأكياس، بل يقولون: أكياس سكر، أكثر ما يكون في القبض، ويقولون: إن هذا هو القبض، فهل هذا قبض لغة أو عُرفًا أو شرعًا؟

أبدًا لا يعد هذا قبضًا؛ لأن القبض معناه: أن يكون الشيء في قبضتك وهذا الشيء مركون في مكانه، ترد عليه عدة مبايعات خلال ساعة أو ساعتين، وهذه البلية التي ابتلي بها الناس الآن، نسأل الله أن ينزِّههم منها، بلية عظيمة ويقبحها أنهم يعتقدون أنها حلال وأن عمل البنوك حرام، حتى إن بعضهم يأتي ويتضايق ويتضجر، ويقول: أعوذ بالله انظروا الحرام الربا يُعلن صريحًا في البنوك، وهو ممن يتعاملون بهذه المعاملة، يبكي غيره ولا يبكي نفسه، وهو أحق أن يبكي نفسه.

فالمهم أننا نقول: إن الرزق إذا كان من الله عز وجل فيجب عليك شرعًا وعقلًا أن تستمد هذا الرزق بطاعة الله لا بمعصيته.

مسألة: التورُّق هل يدخل في هذا؟

الجواب: التورق يقول شيخ الإسلام: إنه داخل في هذا، ويقول عنه تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : إن شيخنا يُسأل عن هذا مرارًا فيُصرُّ على أنه حرام وأنه ربا، والتورُّق غير عمل الناس الآن.

ولاحظ أن الإمام أحمد وردت عنه رواية بأنها جائزة ورواية ثانية بأنها من مسائل ذكرها عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكرها ابن القيم في «تهذيب السنن» أن مسألة التورق من مسائل العِينة، والعِينة معروف أنها حرام.

فالحاصل: أننا في الحقيقة في عصرنا الحاضر لما كان الناس لا يبالون إلا أن يكتسبوا المال، فجعلوا المال مقصودًا مخدومًا بعد أن كان وسيلة خادمًا، حقيقة المال أنه وسيلة خادمة، ولكننا جعلناه الآن مقصودًا مخدومًا، وهذا من سفه الإنسان، أن يستخدمه ماله الذي خلق له، قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عزل هذه الآلهة عن فعل شيء يختص بالربوبية، لقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأن هذا الاستفهام - كما قررناه بمعنى النفي.

٦ - **ومن فوائدها:** ثبوت التلازم بين التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وأن مَنْ أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية، وهذا المعنى قرره الله تعالى في عدة آيات.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص، يؤخذ هذا من قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٨ ـ ومن فوائدها: أن المشركين بالله عز وجل قد وقعوا في تنقص الله، لقوله: ﴿سُبْحَنَهُۥ وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

٩ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى يجمع بها وصف وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات، النفي في قوله: ﴿سُبْحَنَهُۥ﴾، والإثبات في قوله: ﴿وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: قوة الإقناع في أسلوب القرآن؛ لأن مثل هذا التحدي في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ هذا أقوى ما يكون في الإقناع، فكل منهم سيكون جوابه: لا، إذنْ لماذا تعبدونها مع الله؟!

١١ ـ يستفاد من هذه الآية: استنباط أقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية موجود، والألوهية موجود، لأن إلزام الإقرار بالربوبية إلزام للإقرار بالألوهية، ثم إن قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ [يونس:٣٤] المقصود إبطال ألوهيتهم، والأسماء والصفات موجودة لقوله: ﴿سُبْحَنَهُۥ وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:٤١-٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى: بان واتضح.

وقوله: ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ ضد الصلاح، وهو من كل شيء بحسبه، ففساد الزروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والمرض المتلف، وكذلك فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثمار بنقصها وما أشبه ذلك.

المهم: أن الفساد في كل شيء بحسبه، وهل الفساد هنا يراد به الفساد الحسي أو يشمل الحسي والمعنوي؟

الصحيح: أنه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، الحسي ما ذكرنا أمثلته قبل، والمعنوي: هو كثرة المعاصي والفسوق، وكثرة انتشارها بين الناس وعدم المبالاة بها، حتى يصبح المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، فإن هذا من أعظم الفساد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

﴿إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] قال العلماء: لا تفسدوها بالمعاصي.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ يقول المؤلف: [القِفَار] يعني: الأماكن الخارجة عن المدن والسكان، هذا البر، وقيل: المراد بالبر ما ليس ببحر، فيشمل المدن والأمصار والقفار وغيرها.

وقوله: [بقحط المطر وقلة النبات]، والبحر: أي البلاد التي على الأنهار لقلة مائها، فمشى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن المراد بالبر ما سوى العمران، والمراد بالبحر: العمران الذي على شواطئ البحار، وهذا قاله كثير من المفسرين، ولكن الصواب أن المراد بالبر ما سوى البحر؛ لأن ما ذكرناه هنا أعم مما ذكره المؤلف وغيره وهو الأظهر أيضًا؛ لأن البحر إذا أُطلق في القرآن يُراد به الماء، ففساد البر، كما قال المؤلف: [بقحط المطر وقلة النبات] وفساد النبات أيضًا بعد وجوده، ولهذا أرسل الله على آل فرعون الجراد والقُمَّل والضفادع والدم ـ أربع آفات ـ.

الجراد: يتلف الزروع بعد خروجها ويأكلها، والقمل: يفسد القوت إذا حصد فيأتي القمل، وهو السوس الذي يتلفه، والضفادع في الماء، حيث امتلأت مياههم ضفادع، حتى إن الإنسان ما يستطيع أن يشرب من الماء - والعياذ بالله -، والدم، الصحيح: أن المراد به النزيف، وإن كان بعض العلماء يقول: إن المراد بالدم أن الماء يكون عند آل فرعون كالدم، والصواب: أنه النزيف؛ لأن الله ذكر إتلاف الماء بالضفادع، فكان القوت من أوله إلى آخره وغايته وهو الدم؛ لأن الدم يكون من القوت فصارت الأقوات - والعياذ بالله - غير صالحة لا قبل دخولها أجوافهم ولا بعد الدخول.

أما الفساد في البحر فقد قال العلماء: يكون بموت الحيتان، وفسادها، وكذلك تغير المياه، وخروجها عن العادة.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ الباء للسببية، وما: يحتمل أن تكون مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة، فإذا كانت موصولة فلابد لها من عائد محذوف، فالتقدير: بما كسبته أيدي الناس، وإن كانت مصدرية لا تحتاج إلى عائد، ويكون المعنى بكسب أيدي الناس.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ قال المؤلف: [من المعاصي]، وأيدي الناس جمع يد، والمراد: ما كسبوا، وهذا من أساليب اللغة العربية أن يُعبر باليد عن صاحب اليد، وليس المراد ما كسبت اليد فقط؛ لأن المعاصي لا تكون بالأيدي فقط بل تكون باليد وبالرجل وبالعين وباللسان وبالأذن، وبجميع الحواس، فكل الحواس يمكن للإنسان أن يعمل بها المعصية، فيكون المراد بالأيدي هنا الأنفس لا اليد التي هي عضو من أعضاء البدن، وليس هذا مجازًا؛ لأنها بسياقها دالة على أن المراد ما كسبوا بها، فلا تكون مجازًا.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة:٣٣] فالمراد: الأعضاء، فالكلمة في سياقها حقيقة في معناها، ولهذا لو أراد أحد أن يحذف قوله: ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ إلى أن المعنى أو

تقطع أبدانهم ما استطاع، كما أنه لو أراد أن يجعل قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بما كسبت اليد نفسها فقط دون بقية الأعضاء ما استطاع، وهذا هو وجه قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة العربية(١)؛ لأنه إذا كانت الكلمة قد تعين معناها بسياقها صارت بمقتضى هذا السياق حقيقة في هذا المعنى، وحينئذٍ ما نحتاج إلى تأويل.

وقوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تقدم لنا مرارًا وتكرارًا أن أصلها أُناس، لكن حذفت الهمزة للتخفيف كما هي في شر وخير، وأصلهم أشر وأخير، وكما هي في اسم الجلالة الله فإن أصله الإله، هكذا قيل في الله، وفي النفس منها شيء.

قال: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ [بالياء والنون] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ اللام هنا للتعليل، والمعلل متعلق هذه اللام، واللام متعلقة بـ ﴿ظَهَرَ﴾، هذا هو المعلل، ظهر لكذا، أي: لأجل أن يذيقهم، وفيها قراءتان سبعيتان، وهي ﴿لِنُذِيقَهُم﴾ مضافٌ فيها الفعل إلى الله عز وجل، أو ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ مضافٌ فيها الفعل إلى ضمير الغائب، ومع ذلك فإن هذا الغائب يعود إلى الله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ يعبر دائمًا بالإذاقة عن الإصابة؛ لأن الذوق هو أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشيء ثم يراه ثم يذوقه، أقول لك: عندي تفاحة فإدراكك للتفاحة الآن بالسماع ثم أخرجها وأريك إياها، فيكون بالرؤية، أيها أقوى؟ الرؤية أقوى من السماع، ثم أعطيكها فتأكلها، فيصير الذوق أعلى ما يكون؛ لأني لو قلت: عندي تفاحة، وما رأيتها أنت، يحتمل أن قولي هذا كذب، وإذا أريتُك إياها ولكن ما ذُقتَها يحتمل أن تكون نباتًا آخر يشبه التفاحة، ويحتمل أن تكون من التفاح الصناعي المعمول من البلاستيك، وجائز أن يكون التفاح حقيقيًّا، فإذا ذقتها صارت حق اليقين، ولهذا يعبر الله دائمًا عن الإصابة بالإذاقة؛ لأنها أعلى أنواع الإدراك.

وقوله: [﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: عقوبته]؛ لأن الذي عملوا غير الفساد الظاهر في البر والبحر، ولكن الفساد هو عقوبتهم، لكن قد يقول قائل: لماذا عبر عن العقوبة بالفعل؟

نقول: إنه عبر عن العقوبة بالفعل ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ لوجهين:

الوجه الأول: بيان سبب هذه العقوبة.

الوجه الثاني: أن هذه العقوبة بقدر العمل تمامًا، ولذلك عُبر عنها بالعمل، إشارة إلى أنها بقَدَره ليس فيها ظلم، وهذا كثير في القرآن يعبر الله عز وجل عن العقوبة بالفعل.

وقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ يعني: ليس كله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وهذا حق، فلو أن الله تعالى آخذ

(١) وهذا قول، لعلماء اللغة فيه نظر طويل.

الناس بقدر ذنوبهم ما ترك عليها من دابة، كل الناس يموتون ولا يبقون، ولكنه سبحانه وتعالى يصيبهم ببعض ذنوبهم، والحكمة: قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: [يتوبون] ولعل هنا للتعليل، وكلما جاءت لعل في كلام الله فإنها للتعليل، أو توقع الشيء إذا كان من المتوقع، أي: لأجل أن يرجعوا إلى الله عز وجل، وهذه من حكم الله، أن الله تعالى يبتلي العباد بالضراء؛ لأجل أن يرجعوا إلى الله، وكم من إنسان صارت عقوبته بالضراء سببًا لرجوعه إلى ربه، بل إنها أحيانًا تكون سببًا مباشرًا قال الله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أين يذهبون؟ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥] هذا رجوع، لكنهم - والعياذ بالله - إذا نجوا عادوا إلى كفرهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

قال المؤلف: ﴿قُلْ﴾ [لكفار مكة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾].

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون له ولكل من دعا إلى شريعته.

وقوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السير معناه: المشي، و﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿فِي﴾ بمعنى: على يعني: على الأرض، وليس المراد: في داخلها، وقيل: إن (في) للظرفية وأن الظرف يختلف باختلاف المظروف، وبحسب الظرف أيضًا؛ لأن مثلًا إذا قلنا: الماء في الكوز صار في جوف الكوز، أو القِدْرِ، فهنا صار الماء في جوفه، وإذا قلنا: الكتابة في الورق اختلف، وإذا قلنا: الوجه في المرآة اختلف، فيرى بعض العلماء أن في هنا للظرفية، ولكن في كل شيء بحسبه، والسير المأمور به هنا لا أحد يتصور أن المراد: أن تحفروا لأنفسكم خندقًا في الأرض وتدخلوا فيه.

فهنا وجهان في كلمة ﴿فِي﴾:

الوجه الأول: أن تُجعل بمعنى على، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على ظهرها.

الوجه الثاني: أن تُجعل في للظرفية ويقال: إن الظرفية في كل مكان بحسبه.

هذا تفسير ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهل المراد السير بالأقدام أو السير بالقلوب؟

الجواب: الاثنين فيشمل السير بالأبدان؛ لأن الإنسان يذهب إلى مساكن القوم ليتعظ ويعتبر، أو السير بالقلوب بأن يقرأ تواريخهم وأحداثهم حتى يعتبر بها، وكم من سير بالقلب صار أعظم من السير بالقدم!! ولكن السير بالقدم من أجل التفرج والنزهة، هذا محرم كما يفعله بعض الناس الآن الذين يذهبون إلى ديار ثمود من أجل التفرج والنزهة والاطلاع على ما لهم من قوة سابقة مع أن الرسول ﷺ يقول: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَومِ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِيْنَ فَلَا

تَدْخُلُوهَا»[1] أين الذين يذهبون إلى ديار ثمود وهم يبكون؟! فالرسول ﷺ لما مر بها في ذهابه إلى تبوك مشى مُسرعًا وقنع رأسه عليه الصلاة والسلام وأسرع.

وعلى هذا فنقول: إذا سرت في أرض هؤلاء المعاقَبين فسر سير متعظ معتبر، كما أمر النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ هل المعنى فانظروا نظر اعتبار وتفكر أم نظر عين؟

الجواب: على حسب ما قلنا في السير، إن كان سيرًا بالقدم فهو نظر بالعين، وإن كان سيرًا بالقلب فهو نظر بعين البصيرة ـ التفكر والتأمل ـ ويمكن أن نقول أيضًا: إنَّه حتى إذا فسرنا السير بالسير الحسي على الأقدام، فإنه لابد أن يكون مقرونًا بالنظر بعين البصيرة والاعتبار، إذِ النظر بالعين المجردة لا يفيد شيئًا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ محل ﴿كَيْفَ﴾ من الإعراب النصب وهي خبر كان مقدم، ﴿عَاقِبَةُ﴾ اسمها، والجملة معلقة عن العمل، معلقة لكلمة ﴿فَانظُرُوا﴾، الجملة المعلقة في تأويل اسم المفرد، والتقدير: فانظروا حالهم كيف كان.

وقوله: ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿عَاقِبَةُ﴾ هنا مصدر، ولهذا ذكر الفعل و ﴿مِن﴾ حرف جر، و﴿قَبْلُ﴾ مقابل للاسم مرفوع بالضمة الظاهرة في آخره وهي ظرف مبني على الضم؛ لأن المضاف نوي معناه؛ لأنهم يقولون: في (قبل وبعد) أربع حالات:

الأولى: إن وجد المضاف لفظًا فهي معربة غير مُنَوَّنة، تقول: أتيت من قبل زيد، ومن بعده.

الثانية: وإن حذف لفظًا ومعنىً فهي معربة منونة.

الثالثة: إذا حذف المضاف إليه ونوي لفظه فهي معربة غير منونة كما لو وجد لفظة معربة غير منونة.

الرابعة: إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه، فهي مبنية على الضم.

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كأن الإنسان يتوقع، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ فأهلكوا وأتلفوا وما أشبه ذلك، ولكن البيان جاء على خلاف المتوقع في قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، جاء مبينًا لسبب هذه العاقبة؛ لأنها هي الحالة التي عليها هؤلاء المكذبون وهو الشرك، يعني: فأنتم الآن مشركون وهم كانوا مشركين فدُمِروا، فمعنى ذلك أن عاقبتكم أنتم ستكون مثلهم مآلها التدمير والهلاك، وهذا من بلاغة القرآن: أن الله تعالى ذكر سبب هلاك أولئك القوم الذي كان عليه الآن، فهؤلاء المخاطبون الآن مشركون وما وجدوا العاقبة، لكن إذا علموا أن سبب عاقبة هؤلاء هو الشرك، فلا شك إذا كان لهم عقول أن ينتهوا عن الشرك.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يقول: [فأهلكوا بإشراكهم ومساكنهم ومنازلهم خاوية].

وظاهر الآية الكريمة أن البعض الآخر وهو الأقل لم يكن مشركًا، وها هنا إشكال، هل أُهلك الموحدون مع المشركين مع أن الله ذكر في آيات كثيرة في الأمم السابقة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعراف:٦٤]، ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزُّمَر:٦١]؟

فظاهره أن المؤمنين لم يهلكوا، أو نقول: كان أكثرهم مشركين، باعتبار القادة والرؤساء الذين يعرفون أنهم على شرك، أما العامة الذين لا يدرون فهم تابعون وراضون وإن لم يكن عندهم شرك، لكن هم يظنون أن هذا هو الحق، واحتمال ثالث أن يقال: إن الله أمرنا أن ننظر كيف كان عاقبة السابقين، وإذا نظرنا وجدنا أن أكثرهم مشرك فأهلك، وأما المؤمن فنجا، فيكون في هذا تحذير من الشرك وترغيب في الإيمان والتوحيد، فها هنا ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن الجميع أهلك، وهذا يشكل عليه آيات كثيرة في أن الله تعالى أنجى المؤمنين.

الاحتمال الثاني: أن المراد بأكثرهم مشركين، الذين يعرفون أنهم على شرك، دون الغوغاء والعامة الذين لا يدرون ما هم عليه وإنما هم أتباع كل ناعق.

الاحتمال الثالث: أن يقال: العاقبة حميدة وذميمة، والله يقول: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، فنحن نعلم أن من حكمة الله عز وجل أن يجازي المشرك على شركه والمؤمن على إيمانه، وحينئذٍ يكون في الآية: ترغيب في الإيمان والتوحيد وترغيب عن الشرك والكفر، فأي الاحتمالات أولى؟

الظاهر: أن الأخير أولى؛ يعني: ينظروا كيف كان عاقبة السابقين وأن من كان مشركًا منهم أخذ بشركه، ومن كان مؤمنًا نجّي بإيمانه من أجل أن يؤمنوا هم، ومن أجل أن يثبت المؤمنون من هذه الأمة على إيمانهم.

وقال المؤلف: [فأهلكوا بإشراكهم ومساكنهم ومنازلهم خاوية] هذا هو الواقع، فصالح مثلًا، والذين معه نجوا أم لم ينجوا؟ نجوا، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]، قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل:٥٢] تجدها خاوية ولم تسكن فيما نعلم بعدهم إلى الآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ قال: [دين الإسلام]، ﴿فَأَقِمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، وقد سبق توجيه القول الأول إذا جعلنا الخطاب للرسول ﷺ، فإما أن يكون المراد به الرسول نفسه، وتكون أمته تبعًا له، وإما أن يُراد به الرسول والأمة، لكن

خُوطب به الرسول ﷺ؛ لأنه زعيمهم وإمامهم.

وقوله: ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المراد بالوجه: الظاهر أنه الاتجاه لا المعنى الحسي؛ لأن الوجه يراد به الجهة كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾؛ لأنه سبق لنا أن فيها قولين للمفسرين: أن المراد به وجه الله الحقيقي، وقول: أن المراد به الجهة ولا شك أن الوجه يراد به الجهة.

وقوله: ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ المراد بالدين العمل، وقد سبق لنا أن الدين في القرآن يُراد به العمل والجزاء، فقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧] المراد بالدين الجزاء، وأما قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فالمراد به العمل، كما في هذه الآية.

وقوله: ﴿الْقَيِّمِ﴾ ضد المعوج، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١ - ٢]نعم الكتاب قيم؛ لأنه يريد الدين، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١] يعني: قَيِّما، فدين الإسلام دين مستقيم ليس فيه اعوجاج، لا بالنسبة لمعاملة الله عز وجل وهي العبادة، ولا بالنسبة لمعاملة المخلوق؛ ولهذا تجد في المعاملات حُرم الكذب والغش والخديعة، وما أشبه ذلك، وحُرم الجور والظلم وما أشبه ذلك، فإن كل ذلك خلاف الاستقامة.

وفي العبادات حرَّم الشرك والابتداع، لما في ذلك من الانحراف عن الصراط المستقيم، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] هذا يشمل العقيدة ويشمل الأعمال الظاهرة، إذنْ ما قلنا فيما سبق: إن الإسلام إذا قُرن بالإيمان صار الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة، وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر.

قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال: [هو يوم القيامة]

قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ متعلق بـ (أَقِم)، يعني: أقمه من قبل هذا اليوم، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ نكرة للتعظيم؛ لأن هذا اليوم كما وصفه الله في قوله: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٥ - ٦].

وقوله: ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ (مرد): هذا مصدر ميمي من رد أي لا رد له، يعني: ما يمكن أن يُرد هذا اليوم؛ لأن الله تعالى قضى به.

وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق بصفة لقوله: ﴿يَوْمٌ﴾؛ لأن من قبل أن يأتي يوم من الله، يعني هذا اليوم من الله لا من غيره، ويحتمل أن يكون متعلق بـ ﴿يأتي﴾ أي: يأتي من الله يوم، والأول أبلغ، وهو أن يكون صفة ليوم؛ لأن قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يدل على عظمته، وأنه لا يمكن أن يرد هذا اليوم.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ إذا قال قائل: هذه الآية خُوطب بها الناس في عهد الرسول ﷺ

ومعلوم أن القيامة ما تكون في عهد الرسول ﷺ فكيف قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؟

الجواب على هذا: أن نقول: إن الموت واقع حتى في عهد الرسول ﷺ ومن مات قامت قيامته وانقطع عمله، فلا فرق بين من يموت في ذلك الوقت وبين من يموت وهو آخر الناس موتًا، بالنسبة لانقطاع العمل، لأن كل منهم انقطع عمله، فكأنه من يموت في عهد الرسول ﷺ بلغ يوم الجزاء، ولهذا يقول العلماء: إن موت الإنسان قيامة بالنسبة إليه، وهو قيامة صغرى بالنسبة إلى عموم الناس؛ لأن العمل انقطع وانتهى.

وقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يفيد بأن هذا أمر لابد أن يقع، وهو كذلك، فإن يوم القيامة، هو الذي من أجله خُلق الناس، خلق الناس لعبادة الله، وجزاؤها يكون يوم القيامة.

قال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال المؤلف: [فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد: يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إذ: منونة، والتنوين هنا عوض عن جملة، يعني: يوم إذ يأتي يصدعون، ويقول المؤلف: [فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد]، ومعنى إدغام التاء في الأصل في الصاد أن أصلها يتصدعون، فقوله: [إدغام التاء في الأصل] أي: باعتبار الأصل، يعني: أن الصاد التي أُدغمت في أختها، أصلها تاء فأدغمت بها بعد قلبها صادًا، ومعنى (يتصدعون) يتفرقون، ومعنى التصدع: التفرق، ومنه تصدُّع الأرض.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات العلل والأسباب، وأن أفعال الله عز وجل معللة، لابد لها من علة، تؤخذ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، ولا شك أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة؛ لأن من أسمائه الحكيم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الناس لا يعاقبون إلا بأكسابهم، لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فيتفرع على ذلك: أن من أراد أن تُرفع عنه العقوبة فليتب إلى الله؛ لأن التوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة، ولهذا قال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل، لقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان سعة رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه، لقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ولو أن الغضب كان بقدر الرحمة لكان الله يذيقنا كل الذي عملنا، ولو كان غالبًا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة الآن إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل والأكثر ممتنع وإنما يذيق الله تعالى البعض؛ لأنه ثبت في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[1]، ولولا هذا لكان الله تعالى يؤاخذ الناس بما عملوا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العقوبات قد تكون سببًا للرجوع إلى الله تعالى؛ وهذه تؤخذ من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كما أنها قد تكون بالعكس، فقد تكون سببًا في الازدياد في العتو والنفور ـ والعياذ بالله ـ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، والجمع بين هذه الآية وبين ما نحن نفسر أن يقال: إن العقوبات على سبيل العموم مفيدة، لكن على سبيل الخصوص، قد لا تفيد؛ لأن الله قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ من الناس، على أن قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يحتمل أن تكون المراد بها فتنة الدين، بحيث ما يكون عنده مقاومة فيقع في الهاوية - والعياذ بالله -، لكن الأظهر أنها عامة، لقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

٦ـ **وفيها دليل على:** بطلان مذهب الجبرية، لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فالجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله لا يفعل باختياره، ولا يضاف الفعل إليه إلى على سبيل المجاز، فيقال صام، صلى، زكى، مجازًا لا حقيقة، لكن الآية الكريمة ترد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إلى أيدي الناس.

الوجه الثاني: أن الله عاقبهم على هذا الفعل، ولو كانوا مجبرين عليه لكانت عقوبتهم ظلمًا لهم، فكيف يعاقبون على ما ليس باختيارهم؟! ففيها رد من وجهين، وجه لفظيٌّ، وهو إضافة الكسب إلى أيديهم، ووجه معنوي، وهو: أنه يلزم من عقوبتهم على ذلك لو كانوا مجبرين أن يكون الله تعالى ظالم لهم، والله تعالى ليس بظلام للعبيد، وكذلك أيضًا يؤخذ من قوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إذ أضاف العمل إليهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

١ ـ **في هذه الآية الكريمة:** الأمر بالاعتبار، بما جرى للسابقين، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ كتب التاريخ الماضية، للاعتبار، ولكن كما نعلم جميعًا أن كتب التاريخ بعضها مزيف، ليس على حقيقته، فمصدر التاريخ في الأمم السابقة هو ما أخبر الله به ورسوله، قال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فنفى أن يكون لأحد علم بهم إلا الله، إذن نأخذ أخبارهم - ما دام لا يعلمهم إلا الله - من الله إما من الكتاب وإما من السنة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أسباب هلاك الأمم السابقة كان بسبب إشراك أكثرهم، لقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن العقوبة إذا حلت قد تصيب الصالحَ وغيره؛ لأنه قال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني: والبعض لم يشرك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقد ينجي الله المؤمنين، كما أنجى الله الرسل ومن آمن معهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ...﴾ إلى آخره.

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** وجوب الاتجاه إلى الدين، لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، ويلزم من وجوب الاتجاه إليه وجوب الإعراض عما سواه؛ لأن الوجهة واحدة، إما إلى هنا وإما إلى هنا، فإذا لزم أن تتجه إلى الدين لزم أن تنحرف عن غيره.

٢ - **ومن فوائد الآية:** تحريم الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه مخالف للاتجاه إلى الدين القيم، والحكم بغير ما أنزل الله منه ما يكون كُفرًا ومنه ما يكون فسقًا ومنه ما يكون ظلمًا، كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفي الآية الثانية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفي الآية الثالثة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]، وهذه الأوصاف تتنزل على حال الحاكم، فقد يكون كافرًا أو ظالمًا أو فاسقًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الدين قيم، ومعنى قيم أي: معتدل لا اعوجاج فيه، لا في جانب العبادة ولا في جانب المعاملة.

٤ - **ومن فوائدها:** أنك إذا ظننت أن في الدين ما يخالف الاستقامة فاعلم أنك قاصر، إما في علمك وإما في فهمك، وجه ذلك: أن الله وصف هذا الدين أنه قيم، فكل شيء تستعرضه في دين الله فيبدو لك أنه على الاستقامة فاعلم أنك مخطئ، لقصور علمك أو لقصور فهمك، والإنسان يؤتى من هاتين الناحيتين، إما لقصور علمه، وإما لقصور فهمه؛ حيث تكون عنده علم لا ما يفهم.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمن أمر بشيء أن يذكر ما يُغري به ويرغب فيه، يؤخذ من قوله: ﴿الْقَيِّمِ﴾، فالإنسان إذا علم أنه قيم لا شك أنه يتجه له، فأنت إذا أردت أن تأمر

بشيء فاذكر الأسباب التي توجب للناس الإقبال عليه، بأوصافه المحبوبة وثمراته الحميدة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الجمع بين الترغيب والترهيب، الترغيب في قوله: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾، الترهيب: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٤٣].

٧ - **ومن فوائدها**: إثبات يوم القيامة، وأنه آتٍ لا محالة، لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: أن يوم القيامة يوم عظيم، وهذه الفائدة تؤخذ من تنكير يوم في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، والتنكير يفيد التعظيم، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

٧ - **ومن فوئد الآية الكريمة**: أن الحكم لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فلا أحد يستطيع أن يمنع ما أراد الله، ولا أن يجلب ما لم يُرد الله أبدًا، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**».

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الناس يوم القيامة ينقسمون ويتفرقون، لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٤-٤٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يقول المؤلف: [وبال كفره وهو النار]، هذا كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن يصدعون يتفرقون بحسب أعمالهم، فقوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾

الإعراب:

﴿مَن﴾ شرطية وفعل الشرط: ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه جملة: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

وقوله: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ قوله: ﴿كُفْرُهُۥ﴾، والخبر قوله: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ مقدم، وفائدة التقديم: الحصر.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مثلها شرطية، وجواب الشرط قوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقدم المعمول وهو ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، للحصر وهي فائدة معنوية، ولمراعاة الفواصل، وهي فائدة لفظية؛ لأنه لو قال: فيمهدون لأنفسهم لاستقام الكلام، لكنه قدم لهاتين الفائدتين، يقول الله عز وجل: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يعني: أي إنسان يكفر فإن وبال كفره عليه، لا يضر إلا نفسه، ويكون على غيره أم لا؟ لا يكون على غيره إلا أن يكون ذلك الغير سببًا فيه، فإن كان سببًا فيه صار عليه مثل وزره، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وثبت عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوم القِيَامَةِ»[1].

فإذا قيل: هل هذا يناقض الآية: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؟

الجواب: لا يناقضها؛ لأنه إذا كان هو السبب، فإن ذلك من عمله، لكن صورة المسألة مختلفة؛ لأنه عمل غيره وعمل نفسه، إنما حقيقة الأمر أن الدالَّ على الكفر فاعل لما يؤزر عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: [يوطئون منازلهم في الجنة].

الكفر في اللغة العربية معناه الستر، ومنه الكُفُرَّى الذي هو جراب طلع النخل، ويسمى بلغتنا العامية: الكافور، فهذا يستر الطلع، فالكفر في الأصل هو هذا، والمراد به الخروج عن طاعة الله؛ لأن الخارج عن طاعة الله قد ستر ما أنعم الله به عليه من العقل والعلم وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ العمل الصالح قال أهل العلم: هو ما جمع شرطين أساسيين: أحدهما: الإخلاص، والثاني: المتابعة للرسول ﷺ وضد الإخلاص: الشرك، والمتابعة ضدها الابتداع، فمثلًا: إذا وجدنا رجلًا يصلي الصلاة المعتادة، لكنه يرائي الناس بها فعمله ليس بصالح، فهذا العمل فقد منه الإخلاص، وإذا وجدنا رجلًا قد أحدث نوعًا من العبادات لم يرد في الشرع، لكنه مخلص يريد بذلك وجه الله، وتجده خاشعًا يبكي ويتأثر بهذه العبادة، لكنها على غير شريعة الله، فهذا عبادته باطلة؛ لفقد المتابعة للرسول ﷺ.

ومن ذلك ما إذا أخرج العبادات المشروعة عما شُرعت عليه، فإنه لا يقبل عمله، كما لو صلى الصلاة بعد خروج وقتها متعمدًا بدون عذر، فهذا لا يُقبل منه، لأنه ليس عنده متابعة، هو مخلص لكنه غير متابع، وكذلك لو صلى صلاة بغير طمأنينة، إذا قال: سمع الله لمن حمده وسجد بسرعة، وإذا قام من السجود كذلك، فصلاته باطلة، ولو صلى إلى يوم الدين ما قبل الله منه، لعدم المتابعة، ولهذا لما صلى رجل صلاة لا يطمئن فيها، قال له النبي ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[2] فنفى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٦٧)، ومسلم (٣٩٧).

عنه الفعل لانتفاء صحته.

إذن العمل الصالح هو الذي جمع بين شرطين: الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ المهد والتمهيد بمعنى: التوطئة، ومنه قولهم: هذا طريق ممهد، يعني: موطَّأ محسَّن من أجل أن تطأه الأقدام، فمعنى ﴿يَمْهَدُونَ﴾: يحسنون الشيء حتى يكون موطئًا لهم؛ وذلك لأن الذين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصالح إلى دخول الجنة، فيسهِّل لهم الطريق الذي يوصلهم إليها.

وقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ تقديم المعمول يفيد الحصر.

فإذا قال قائل: هل هذا ينافي ما ثبت في الحديث من أن من سن سنة حسنة في الإسلام فله أجره وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؟

نقول: لا ينافيه؛ لأن الذين يسنون حسنات عملوا فتوبعوا على ذلك، فالأجر الذي حصل لهم من أجل اتباع غيرهم لهم هو في الحقيقة من فعلهم.

قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قال: [متعلق بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾]، دائمًا نرى العلماء إذا جاء ظرف أو جار ومجرور يقولون: متعلق بكذا، فما معنى متعلق؟ يعني: أن هذا هو الذي عمل فيه؛ لأن الجار والمجرور والظرف بمنزلة المفعول به، والمفعول به لابد له من عامل يعمل به.

فإذا قال: متعلق بكذا يعني: أن هذا هو الذي عمل فيه، ولابد لكل جار أو ظرف، لابد له من متعَلَّق.

قال ابن مالك: لابدْ للجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بفعلٍ أَوْ مَعْنَاهُ.

فإذنْ معنى قوله: [متعلق بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾] أن العامل في كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، وهذا رأي المؤلف، ويحتمل أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن التصدع في الحقيقة هو نفس الجزاء، فكيف يكون الشيء علة لنفسه؟! هذا ما يبعد كلام المؤلف.

لكن إذا قيل: يأتي هذا اليوم لأجل المجازاة، صار المعنى مستقيمًا واضحًا؛ لأن اللام حرف جر، فإذا قلنا: إنها متعلقة بـ ﴿يَأْتِيَ﴾ فهو أوضح من قولنا: إنها متعلقة بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأن التصدع هو نفس الجزاء.

وقال بعض المُعرِّبين: إنه خبر لمبتدأ محذوف، فهو متعلق بمحذوف فيكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: ذلك ليجزي، والمشار إليه ما سبق، وهذا أيضًا وجيه جدًّا أن يُجعل متعلقًا بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، قلنا: إن اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر، والمعلوم أن حروف الجر لا تدخل إلا على الأسماء، وقد تبين بأن من علامات الاسم: دخول حرف الجر عليه، ففي «الآجرومية» يقول:

الاسم يعرف بالخفض والتنوين ودخول الألف واللام وحروف الخفض، فكيف صح أن نقول: إن اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ حرف جر مع أن ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هذا فعل؟ نقول: لأن هذا الفعل بمنزلة الاسم إذ إنه فعل مقدر فيه (أن)؛ لأن التقدير: لأن يجزي و(أن) مصدرية تحول الفعل إلى مصدر، والمصدر اسم، فعليه يكون المعنى: لجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات..إلى آخره.

فإذا دخلت لام التعليل على الفعل فإنه يقدر بينها وبين الفعل (أن) المصدرية فيكون التقدير: لأن يجزي.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الفاعل فاعل الجزاء هو الله سبحانه وتعالى وهو ضمير مستتر يعود عليه، واللام جارة لما بعدها باعتبار أن الفعل سيكون مصدرًا، وهي نفسها لام التعليل التي ينصب الفعل المضارع بأن بعدها، على رأي البصريين.

والجزاء بمعنى: المكافأة، أي: ليكافئهم.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ قال: [يثيبهم]، هذا تفسير للجزاء، بمعنى: الإثابة، والثواب هو المكافأة وسمي ثوابًا؛ لأنه من ثاب يثوب إذا رجع؛ لأنه يرجع إلى الإنسان جزاء عمله.

وفي الآية: قرن بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصالح وحده لا يكفي، هذا إذا قُرن الإيمان بالعمل، أما إذا قيل: عمل صالح يكفي، أو إيمان يدخل فيه العمل، والإيمان يكون بالقلب، فمن لا إيمان في قلبه لو عمل من الصالحات ما عمل لم ينفعه، فالمنافق يذكر الله ويصلي وينفق وربما يخرج في الجهاد ولكن لا ينفعه؛ لأنه لا إيمان في قلبه.

والإنسان الذي عنده إيمان بالله سبحانه وتعالى، ولكنه لم يعمل عملًا صالحًا، يمكن أن يجزى إلا في واحدة فقط وهي الصلاة، فإنه إذا لم يعملها فإنه لا ينفعه الإيمان؛ لأنه قد دلت الأدلة على أن هذا العمل وإن كان عملًا بدنيًا لكنه يكفر الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أما غير الصلاة من الأعمال فقد قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا تركه كفر إلا الصلاة، يعني: لو لم يزكِّ فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يصم فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يحج فإنه لا يخرج من الإيمان، وهذا هو الصحيح، وعن الإمام أحمد رواية أن جميع أركان الإسلام إذا تركها الإنسان متهاونًا فهو كافر، فإذا لم يزكِّ فهو كافر، وإذا لم يَصُمْ فهو كافر، وإذا لم يَحُجَّ فهو كافر، يقول: لأن ركن الشيء عليه اعتماد الشيء، فإذا لم يوجد الركن ما قام الشيء، وهذا لا شك أن له وجهًا، لكن الأدلة تمنع من القول بهذا، فإن حديث أبي هريرة في الصحيح فيمن لا يؤدي زكاته ذكر النبي ﷺ عقوبته ثم قال: «ثُمَّ يُرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» فقوله: «يُرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، يدل على أنه لا يكفر بمنع الزكاة؛ لأنه لو كان يكفر بذلك ما صار له سبيل إلى الجنة، فإذا لم يكفر بترك الزكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسلام التي

دون الزكاة أنها دونها، فالصيام دون الزكاة والحج دون الزكاة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] فإن ظاهره من كفر فلم يحج، فإن الله غني عن العالمين؟

الجواب: أن يقال: المراد بالكفر هنا: سوى الكفر الأكبر، يعني: كفر دون كفر، ولهذا ما قال: ومن لم يحج فهو الكافر، أو وترك الحج هو الكفر، كما قال في الصلاة، و(كفر) فعل، والفعل يدل على الإطلاق، ولا يدل على العموم، فهذا الجواب عن هذه الآية، والذين قالوا: إنه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمِنْ﴾ للتبعيض، و﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجرورة بها، و﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ هذه فعل مؤوَّل بالمصدر وهو المبتدأ، أي: من آياته إرسال الرياح، ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ حال من الرياح، يقول الله عز وجل في هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعض آياته؛ لأن (من) هنا للتبعيض؛ وذلك لأن آيات الله عز وجل لا يمكن إحصاؤها ولا حصرها.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

فلو أراد الإنسان أن يحصي آيات الله عز وجل التي في جسمه هو فقط، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فكيف بآيات الله تعالى التي ملأت الكون، ولهذا تأتي (من) الدالة على التبعيض.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: علاماته، واعلم أن كل آية فإنها تدل على العلم، وتدل على القدرة، وتدل على الحكمة، هذا لابد منه في كل آية أنها تكون آية علامة على هذه الأمور الثلاثة: العلم والقدرة والحكمة، ثم تختص بعض الآيات بما تختص به، إما أن تكون مثلًا التي بعدها رحمة أو بعدها شيء يدل على السلطان أو العظمة.

المهم: أن لكل آية شيء خاص وشيء عام، فالشيء العام هو هذه الثلاثة: العلم والقدرة والحكمة.

وقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾، تضاف إلى هذه الثلاث الرحمة؛ لأن هذه الرياح تبشر بالمطر.

والإرسال بمعنى: الإطلاق، ومنه قول الشاعر:

فأرسلها العِرَاكَ

يعني: أطلقها، ومنه قول الفرضيين: دَيْنٌ مرسل، يعني: مطلق، ليس به رهن، أي: يرسل الرياح، بأن يطلقها سبحانه وتعالى، والرياح جمع ريح، وهي الأهوية، واعلم أن الريح تُذكر مفردة وتُذكر مجموعة، فإذا ذُكرت مجموعة فإنها تكون غالبًا للرحمة، وإذا ذكرت مفردة فإنها تكون

غالبًا للعقاب، لقوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[الحاقة:٦]، وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]، وما أشبه ذلك، ولكنها ـ أي: الريح ـ قد تفرد وتكون في مقام النعمة، لاسيما إذا وصفت بما يدل على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢] هنا الريح نعمة وإنما كانت نعمة؛ لأنها وصفت بقوله: ﴿طَيِّبَةٍ﴾ وأيضًا بالنسبة للسفن هل الأَوْلى اختلاف الرياح أو اتحاد الريح؟ اتحاده؛ لأنها إذا اختلفت، اختلف سير السفينة، وذلك فيما سبق لما كانت السفن شراعية، هنا الرياح في مقام النعمة، ولهذا جُمعت الرياح.

وقوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ حال من الرياح، أي: تبشر بالخير، ولهذا بعض الرياح إذا هبَّت استبشر الناس؛ لأن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة أن هذه الريح المعينة يتكون منها السحاب ثم المطر، وأحيانًا يستبشرون بالريح إذا رأوها تجمِّع السحاب، أي: تجمعه وتفتته، فيستبشرون بها.

والبشارة هي الإخبار بما يسرُّ غالبًا، وسميت بَشَارة؛ لأنها تؤثر على البشرة، فالإنسان إذا استبشر ينير وجهه ويُسْفِر وتجد عليه علامة البشرى، وقد تطلق البشارة لما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١].

وقوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ قال: [بمعنى: لتبشركم بالمطر]، المؤلف رحمه فسر اسم الفاعل بالفعل المعلل، وقال: [بمعنى: لتبشركم] لأجل أن يسهو العقل في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾؛ لأن قوله: ﴿مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم﴾ يجد الإنسان بينهما فجوة، هذه الفجوة أراد المؤلف أن يقربها بقوله: [بمعنى ليبشركم بالمطر]، ولكن الصحيح عندي أن ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ على حالها، تعتبر اسمًا، ولكننا نقدر فعلًا يناسب ما بعدها، لأجل أن يصح عطف الفعل عليه، والذي أرى أن يقدر: لتستبشروا بها، وليذيقكم من رحمته، أو نجعل لتبشركم كما قال المؤلف، ما نجعلها مبشرات، بل نجعلها فعلًا مستقلًا قدرناه ليصح العطف في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ [بها ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ المطر والخصب]، تقدم لنا أن الله تعالى يعبر عن الإصابة بالإذاقة؛ لأنها أعلى أنواع الإصابة وأبلغها، وليذقكم بها ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ يقول: [المطر والخصب]، ففسر الرحمة بأثرها، وعلى هذا فتكون الرحمة في هذه الآية مخلوقة، وهذا الذي فسرها به محتمل؛ لأن الله تعالى قد يطلق الرحمة على الشيء المخلوق الذي يكون من آثار رحمته، كما ثبت في الحديث الصحيح أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، ومن المعلوم أنه سبحانه وتعالى لم يرد أنها رحمته التي هي صفته؛ لأن الجنة مخلوق دائم، ولكن أراد أنها من أثر رحمته أو مقتضى رحمته، فهنا يصح أن نقول: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: من هذا المطر والخصب، وتكون الرحمة هنا: مخلوقة من المخلوقات.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ قال: [السفن بها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإرادته، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرزق بالتجارة في البحر].

يقول: [السفن بها]، بها: الضمير يعود على الرياح، فالله تعالى يرسل الرياح لتصير بها المياه في أجواء السماء، وهو السحاب، ويرسل الرياح لتصير بها السفن في البحار، وكلٌّ من السحاب والسفن يحمل نعمًا كثيرة، فالسفن تحمل أرزاق الأناسي والحيوان وغيرها، والسحب تحمل الماء، الذي هو مادة الحياة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ ففي الرياح إذنْ فائدتان:

تسيير الماء في أجواء السماء، وتسيير السفن في أجواءِ البحار.

وقوله: ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ تصلح للجمع وللمفرد، وذكر الفقهاء كلمة ذكرتها سابقًا فقالوا: إن الأحدبَ ينوي الركوع بقلبه، فهو ليس قائمًا حتى يركع، لكنه ينوي بقلبه، قال بعض الفقهاء: فهو شبيه للفُلك في اللغة العربية، لا يعرف إلا بالنية، فالفلك صالح للمفرد وللجماعة، ولا يعرف إلا بالنية أو القرينة، هذا المسكين الأحدب في حال الركوع ما الذي يعلمنا بأنه راكع أو غير راكع؟ فركوعه وقيامه سواء، هذه يمكن أن يستدل بها. على أن الكسائي يقول: إن الإنسان إذا أتقن شيئًا من العلم، أمكنه أن يفهم غيره من العلوم، وذكروا القصة: أنه كان هو وأبو يوسف عند الرشيد أحد خلفاء بني العباس وأنهما تناظرا في مسألة فقال أبو يوسف للكسائي: ما رأيك لو سها الإنسان في سجود السهو، هل في نحوك علمٌ في هذه المسألة؟

قال: نعم، إذا سها في سجود السهو فإنه لا يسجد، قال: أين القاعدة في نحوك؟ قال: عندنا قاعدة في النحو تقول: إن المصغر لا يُصغر، فاستدل بأن سجود السهو صلاة مصغرة فإذا سها فيه لا يعيد الصلاة مرة ثانية.

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال: [بإرادته]، والصحيح: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ من الأمر الذي هو بالقول، وليس المراد به الإرادة فقط؛ لأن الفلك لا تعلم عما يريد الله عز وجل، لكنها إنما تأتمر بأمره القولي وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فكل مراد الله إن لم يقترن بالقول فإنه لا يقع، وكيف تحدث الكائنات بمجرد إرادةٍ لا يعلم بها إلا الله؟! فلابد من قول.

فالصواب: أن المراد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أمره القولي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ولا يمنع ذلك أن يكون هذا الجريان بأمره بأسباب محسوسة معلومة لنا؛ لأن المقدر للأسباب هو الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى يخلق ويسخر ولكن بأسباب.

وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كل هذا مما خلقه الله عز وجل لهذه الحِكَم العظيمة، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ [تطلبوا من فضله الرزق بالتجارة في البحر] وهو كذلك، فكم من أناس كانت تجارتهم في البحار،

ينقلون الأرزاق من جهة إلى جهة بواسطة السفن، ولولا هذه السفن لكان من المتعذر أن تنتقل الأرزاق من الجهة التي خلف البحر إلى جهة أخرى، ولكن الله عز وجل جعل هذه السفن لأجل أن تنقل هذه الأرزاق والنِّعم.

قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [هذه النعم يا أهل مكة فتوحدوه]، (لعل) هذه معناها التعليل، ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الشكر هو القيام بطاعة المنعم ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، والشكر يكون بالقلب كأن يؤمن الإنسان بأن هذه النعمة من الله عز وجل، هو الذي أمده بها وهو الذي يسرها له، وهو الذي جلبها إليه، هذا بالقلب، والشكر باللسان: أن يحمد الله عليها، فإن هذا من شكر النعمة، وأن يتحدث بها اعترافًا لله بالفضل، لا افتخارًا بها على غيره، وأما الشكر بالجوارح: كأن يقوم لله تعالى بالعمل البدني من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيره، ولهذا يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الُمحَجَّبَا

فـ(يدي): الجوارح، و(لساني): القول، و(الضمير المحجبا): القلب.

ما هي الواسطة أو النسبة بين الحمد والشكر؟

نقول: الحمد أعم من حيث السبب، والشكر أعم من حيث التعلق؛ لأن الحمد يكون باللسان، ويكون على النعم وعلى كمال صفات المحمود، يعني: أنه يحمد المحمود على نعمه وإحسانه على الحامد، وعلى كمال صفاته، وأما في المتعلق فإنه يتعلق باللسان خاصة، فالحمد يكون باللسان فقط، وربما يكون بالقلب أيضًا بأن يعتقد الإنسان كمال هذا المحمود، لكنه لا يسمى حمد اللغة إلا باللسان.

وأما الشكر فهو أخص من الحمد باعتبار سببه، وأعم باعتبار متعلَّقه، وكيف يكون أخص باعتبار سببه؟ لأن سببه النعمة فقط، الإنعام على الشاكر هذا السبب، وإلا لو كان الإنسان المحمود من أكمل الناس وهو ما أعطاك شيئًا هل تشكره أو لا؟ لا تشكره، فالشكر يكون على النعم فهو أخص من حيث السبب، ويكون بالقلب واللسان والجوارح فهو من حيث المتعلق أعم، إذنْ النسبة بينهما العموم والخصوص الوجهي.

فالشكر قلنا: هو القيام بطاعة المنعم، هذا بالمعنى العام، لكن شكر النعمة الخاصة يكون بالقيام بوظيفتها من الطاعة، مثلًا: شكر الإنسان ربه على العلم يكون بالعمل به وتعليمه، هذا شكر خاص؛ لأنها نعمة خاصة، وشكر الإنسان ربه على المسكن مثلًا يكون بطاعته في هذا المسكن، بألا يكون فيه مثلًا إسراف ولا تبذير وما أشبه ذلك.

فالشكر هنا له إذنْ معنيان، المعنى العام: هو القيام بطاعة المنعم، والمعنى الخاص: هو القيام بطاعة الله تعالى فيما يتعلق بهذه النعمة الخاصة، وكل نعمة لها شكر خاص.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئه للقسم، يعني أنها جواب لقسم محذوف، والتقدير: والله لقد، وبهذا نعرف أن الجملة هنا مؤكدة بثلاثة أمور، وهي: القسم واللام وقد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ من المشهور المعروف عند أهل العلم أن الرسول مَنْ أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه؛ لأنه مرسل، وهذا الصنف من الناس هو أعلى أنواع الأصناف من بني آدم، ويليهم الأنبياء ثم الصِّدِّيقون ثم الشهداء ثم الصالحون، فأعلى أصناف البشر الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم جمعوا بين الاختصاص بالرسالة والعبادة، قال الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] ما يعطي الرسالة إلا من هو أهل لها، فأحق الناس بالرسالة بلا شك هم هؤلاء الأعيان الذين أرسلهم الله عز وجل، ولا يمكن أن يكون أحد من الناس أحق بها منهم.

وبهذا نعرف ضلال ـ بل وكفر ـ من قالوا: إن عليَّ ابن أبي طالب أحق بالرسالة من محمد ﷺ؛ لأنهم بذلك طعنوا في الله عز وجل، ونسبوه إلى ما لا يليق به؛ لأنه إذا كان أعطى الرسالة محمدًا وعليٌّ أولى بها، فهو إما جاهل بالأحقية وإما غير مريد لإعطاء الحق أهله، وكلا الأمرين بالنسبة إلى الله محال وممتنع، وأي أحد يصف الله بهذا أو بما يستلزم هذا فإنه كافر بلا شك، إذنْ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أشرف أصناف الخلق، وهم أحق الناس بالرسالة بلا شك، ولا أحد أحق منهم.

وأن يوجد – والعياذ بالله – بعض الناس الفلاسفة يرون أن الرسل من آخر مراتب الخلق، ويقولون: إن الولي أفضل من النبي، والنبي أفضل من الرسول؛ لأن الولي خاص الخاصة، ـ ولي على اسمه ـ والنبي له مزية الوحي، والرسول بمنزلة الخادم الذي في البيت، يُرسل ليشتري الحوائج، انظر ـ والعياذ بالله ـ الضلال، ويقولون فيما يقولون:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

يعني: فوق الرسول بقليل، وبالنسبة للولي دونه ومنحط وبعيد عن الولي، وعلى هذا فتكون رتبة الولاية عندهم أعلى شيء، وهذا لا شك أنه كفر، بل نقول: إن مقام الرسالة فوق كل شيء، ثم النبوة، ثم الرسالة؛ لأن الرسول جامع بين الرسالة والنبوة والولاية، والنبي له النبوة والولاية، والولي له الولاية دون النبوة والرسالة، ومعلوم أنه كلما ازدادت صفة الكمال بشخص كان أكمل من غيره.

وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ القوم: هم الطائفة الذين ينتسب إليهم الإنسان؛ لأن بهم قِوامه، فهو يقوم بهم وهم به يقومون، وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لأنه ما من رسول أُرسل سوى رسول الله ﷺ

إلا ورسالته خاصة كما في حديث جابر: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(1).

وقوله: ﴿فَجَآءُوهُم﴾ الفاعل للرسل، والمفعول: ﴿قَوْمِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال: [بالحجج الواضحات على صدقهم، في رسالتهم إليهم فكذبوهم]، قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البينات أي: الواضحات، لكن هل المراد بالبينات هنا ما يبين صدق رسالتهم فيكون المراد بها المعجزات، التي قيدوا بها، أو المراد بالبينات أي: بالشرائع البينات الظاهرة التي كل من استقرأها عرف أنها من عند الله، أو المراد الأمران؟

المراد: الأمران، فالرسل أتوا بالآيات البينات التي تؤيدهم وتدل على صدقهم، وأتوا أيضًا بالشرائع البينة الظاهرة التي يُعلم أنها من عند الله عز وجل، فالباء إذنْ في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تكون للمصاحبة، يعني: أُرسلوا رسالة مصحوبة بالبينات، أو للاختصاص على القول بأن المراد بالبينات: الشرائع، وهذا من حكمة الله عز وجل ورحمته أن الله ما أرسل رسولًا إلا أيده بآية؛ لأنه لو جاء الرسول بدون آية إلى الناس وقال: أنا رسول الله لا يقبلوا؛ لأن من طبيعة البشر ألا يقبلوا حتى يعرفوا، كما أنه لو جاء واحد من الناس أخبرنا وقال: أنا عالم عندي علم بالشرع، فاستفتوني في أي شيء، يطيعون أم لا؟ لا يطيعونه حتى يمتحنوه ويسألوه، فكيف عَبدٌ يدعي أنه يُوحى إليه، لا يقبل إلا إذا جاء بآية، وهذا من حكمة الله، ومن رحمته أيضًا؛ لئلا يعاقب أحدًا بذنبٍ بدون حُجة؛ لأنه لو أرسل الرسل بدون آيات وكذبتهم الأمم لكانوا معذورين بالتكذيب لعدم وجود الآية، وقد لا يُعذرون؛ لأنهم يجب عليهم أن يستسلموا، لكن من رحمته أن جعل معهم آيات بينات، ليطمئن الناس إليهم ويؤمنوا بهم عن اقتناع.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ ربما يستفاد من كلمة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أنه لا رسول بعد محمد ﷺ، كما سنذكره إن شاء الله في الفوائد، ونناقش هذه الفائدة.

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الانتقام: هو الأخذ بالعقوبة، وهذا من فعل الله وليس من أسمائه، ولهذا الحديث الذي فيه سياق الأسماء الحسنى وهي مدرجة ما صحت عن الرسول ﷺ فيها أن من أسمائه المنتقم، وليس كذلك أي: ليس من أسمائه بل هو من أوصافه وأفعاله، ولهذا ما جاء مطلقًا بل قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة:٢٢] فهو فعل.

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الإجرام هو فعل الجُرْم، والجُرْم: كل ما يكون سببًا في الإثم، والمراد بالإجرام هنا: الكفر، وفُهم من الآية الكريمة: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أن من لم يجرم لم يُنتقم منه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَصْرُ﴾ اسم كان، وخبرها: ﴿حَقًّا﴾، هذا أحسن ما يكون في إعراب الآية وأوجه ما يكون وأسهل ما يكون، وإلا ففيها أوجه

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

أخرى، أو وجهان.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ الحق بمعنى: الشيء الثابت اللازم، وقوله: ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنين بما يجب الإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر والقدر خيره وشره، فأوجب الله عز وجل على نفسه أن ينصر المؤمنين، حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نصر المؤمنين﴾، وبماذا نصر المؤمنين؟ أي يمنعهم من أعدائهم وذلك بأن يجعل لهم من النصر الحسي والمعنوي ما به تكون العاقبة لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

فإن قال قائل: هذا الحق الذي التزم الله به قد يشكل علينا أن الله تعالى يخذل المؤمنين أحيانًا كما في أُحد مثلًا، فإن النصر في أُحد لقريش وأتباعها، فما هو الجواب عن هذه الآية؟

نقول: الجواب: إن نصر قريش على الرسول ﷺ ليس نصرًا دائمًا كانت العاقبة فيه لهم، بل إن هذا في الحقيقة من نصر المؤمنين عليهم، وإذا شئت أن يتبين لك ذلك فاقرأ ما علل الله به هذه الغزوة في سورة آل عمران، من جملة ما ذكر من الحكم: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]؛ إذنْ فهو نصر بجنبهم؛ لأنهم لو هُزموا في كل مقام ما قاموا ولا حاربوا، لكن إذا صار لهم شيء من النصر فإن ذلك يغريهم بالقتال حتى تكون العاقبة للمؤمنين ويبيدهم الله عز وجل.

ومنها: أيضًا نصر المؤمنين على أنفسهم؛ لأنهم ما أتاهم الذي أتاهم به في أحد إلا بسبب مخالفتهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢] لكي يعرفوا قدر المعصية وأنه يفوت بها من المحبوب.

الحاصل: أن هذه الآية على بابها أن الله تعالى ينصر المؤمنين حقًّا عليه أوجبه هو بنفسه على نفسه، كما في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

الفوائد:

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: الجمع بين الترغيب والترهيب، الترهيب في قوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، والترغيب في قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن شؤم الكافر لا يتعداه إلى غيره، لقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، وتقديم الخبر يدل على الحصر.

٣- **ومن فوائد الآية**: أنه لا يتم الثواب إلا بالعمل الصالح المبني على أمرين: وهما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾.

٤- **ومن فوائدها**: أن الحزم والكياسة بالعمل الصالح، لقوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك استراحوا في المستقبل إذ إنهم وطأوا لأنفسهم منزلًا هو خير المنازل، وقد

ذكرنا عند قوله: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ الجمع بينها وبين قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَام سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوم القِيَامَةِ»[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] فذكرنا الجمع؛ لأنهم هم السبب.

فوائد قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية**: إثبات العلل في أفعال الله، لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقد انقسم الناس في هذا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أنكروا العلل في أفعال الله وفي شرعه، وقالوا: إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم بما يشاء بدون أي علة أو حكمة، مثل: الجبرية.

وقسم آخر أثبتوا العلل في أفعال الله، وقالوا: إن الله تعالى لا يفعل إلا لحكمة ولا يشرع إلا لحكمة، لكنهم جعلوا تلك العلل موجِبَةً، وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا لكذا، وهؤلاء المعتزلة.

وقسم ثالث توسطوا وقالوا: أفعال الله تعالى لحكمة وشرائعه لحكمة، لكن ليست هذه الحكمة موجبة، بل الذي أوجب على نفسه الحكمة هو الله، والحكمة من مقتضى اسمه الحكيم، فتكون واجبة وليست بإيجاب أحد، ولكنها بمقتضى كونه حكيمًا هو الذي أوجبها على نفسه، وهذا القول هو الصحيح، وإذا قلنا به فإننا لا يمكن أن نعترض على أي حُكم من أحكام الله كونيًّا كان أو شرعيًّا؛ لأننا نعلم أن الذي أوجب أن تقترن أفعاله وشرائعه بالحِكَم هو الله، لا نحن، فلا نقول: إن الله يجب عليه فعل الأصلح، ولا فعل الصلاح، إيجابًا مستقلًّا عن إرادته، وهذا القول هو الحق.

إذن نأخذ منه: أن جميع أفعال الله وأحكام الله كلها معللة بالحكمة بمقتضى اسمه الحكيم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء ليس واجبًا على الله، لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، لكنه أوجبه على نفسه في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] فأوجبه هو سبحانه وتعالى على نفسه، ولهذا قال الشاعر:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ ... كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الوَاسِعُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ نظم معنى هذين البيتين لكنه علل، فقال:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبُ ... هُوَ أَوْجَبَ الأَجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

فقيد المطلق بالبيتين السابقين أنه هو الذي أوجب ذلك تفضُّلًا منه سبحانه وتعالى.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المحبة لله، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن قيل: هذا نفي كيف نأخذ منه الإثبات؟ لأنه إذا انتفت محبته عن الكافرين لزم محبته للمؤمنين، فإن لم يكن، لم يكن فرق بين المؤمنين وبين الكافرين، أي: لو كانت المحبة منتفية في هؤلاء وهؤلاء ما كان بينهم فرق؛ ولهذا استدل أهل العلم على إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] إذ قالوا: فلما حجب هؤلاء في حال السخط دل على أنه لا يُحجَب الآخرون في حال الرضا.

إذنْ نأخذ من هذه الآية: إثبات المحبة، وهي كما سبق الكلام عليها، صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة وليست بمعنى الثواب، ولا بمعني إرادة الثواب، وإنما ذلك من لازمها ومقتضاها، فإذا أحبَّ قومًا أثابهم ولا يثيبهم إلا بإرادة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحثُّ على الإيمان والعمل الصالح، فالله ما قال: آمنوا واعملوا، لكن ذِكْر الجزاء يستلزم الحث على الفعل، وهذا أحد الطرق التي يُستدل بها على أن الشيء مأمور به، فلا تظن أن الشيء المأمور به هو ما جاء بصيغة افعل، بل الأمر يُستفاد من عدة أمور، فإذا ورد الترغيب في شيء فهو مأمور به، إذنْ يستفاد من هذا: الحث على الإيمان والعمل الصالح.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** ذم الكفر، وذلك من قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا نفى الله المحبة عن هؤلاء فإنه يقتضي ذم عملهم.

٦- **ومنها:** أن الحكم إذا عُلق بمشتق ـ وهذه فائدة أُصولية ـ فهو دليل على أنه علة الحكم، مثلًا قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لماذا؟ لكفرهم، فالحكم هنا عُلِّق على وصف، فيقال: لا يحبهم لكفرهم، إذنْ فالكفر علة انتفاء المحبة كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤] ما هي العلة في المحبة؟ القتال، وهكذا كل حكم يُعلق بمشتق، فإنه يدل عليه ذلك الشيء.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة:** اعتبار اللازم، بمعنى: أنه إذا لزم من الشيء كذا وكذا، فإنه يثبت هذا اللازم تبعًا لثبوت الملزوم، فمثلًا: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما قال: إنه

يحب، ولا يحب الكافرين، بل قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، المقابل: إنه لا يحب الكافرين، فيلزم منه ألا يجزيهم من فضله، وإنما يعاملهم بعدله، فعقاب الكافرين مأخوذ من لازم انتفاء المحبة، ودلالة التلازم هذه مفيدة جدًّا لطالب العلم، وهي أنه يلزم من كذا وكذا، لكن لابد من شرطين:

الشرط الأول: أن يكون اللازم صحيحًا، فإن كان اللازم فاقد الصحة فإنه ليس بلازم، حتى لو ادعى الإنسان أنه لازم فليس بلازم.

الشرط الثاني: أن يكون ذلك في كلام الله وكلام رسول ﷺ، أما الشرط الأول أن يكون التلازم صحيحًا فإننا نحترز به عما إذا كان التلازم غير صحيح.

فمثلًا أهل التعطيل الذين أنكروا الصفات وبعضها، ما شبهتهم في الإنكار؟ قالوا: إنه يلزم التمثيل، فهل هذا اللازم صحيح؟ ليس بصحيح، ولذلك ما نقول: إنه يلزم من إثبات صفات التمثيل؛ لأنه ليس بلازم.

إذن في كلام الله وكلام رسوله إذا كان اللازم صحيحًا فهو حق ويكون النص دالًّا عليه، لكن في كلام غيره لا يكون اللازم قولًا لصاحب القول الملزوم، ولهذا العلماء عندهم ترجمة في هذه المسألة، هل لازم القول قولٌ أو ليس بقول؟

منهم من قال: إن لازم القول ليس بقول.

ومنهم من قال: إن لازم القول قول.

والصحيح: أن لازم القول في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قول، لكن بشرط أن يكون اللازم صحيحًا، ولماذا يكون قولًا؟ لأن الله عز وجل يعلم ما يترتب على كلامه من اللوازم، لكن الإنسان البشر هل يعلم ما يلزم على قوله؟ أحيانًا يقول الإنسان قولًا يظنه صوابًا ويكون هذا القول يلزم منه لزومًا صحيحًا حقيقيًّا أمور فاسدة، لو نُبه القائل لها لرجع عن قوله، فلذلك نقول: إن لازم القول في غير كتاب الله وسنة رسوله ليس بقول، صحيح أنه يُستدل به على بطلان القول، لكن ما يقال: إنه قول فلان.

فالحاصل: أن هذه المسألة ينبغي التنبه لها، وإنما نقول بذلك؛ لأن الإنسان بشر لا يحيط بما يستلزمه كلامه من اللوازم الصحيحة واللوازم الباطلة، الآن نرى كثيرًا ما يأمر الإنسان بشيء أو ينهى عن شيء، أولاده، ثم إذا فعلوه علم أنه يستلزم مفسدة فيرجع عنه هذا اللازم، هل كان عالمًا به من قبل؟ لا فلو كان عالمًا ما أمر به، وكثيرًا ما ينهاهم عن شيء، ثم إذا تركوه رأى في ذلك مفسدة، فهو ما كان يعلم بها حين النهي، فتجده يرجع.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هناك علامات ودلالات على وجود الخالق، وعلى علمه، وعلى قدرته وحكمته، وهذه الآيات التي تعرف الله بها لعباده من نعمة الله عليهم، وذلك أن الله يريهم آياته ليقوموا بشكره ويعترفوا بفضله.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** ثبوت الرحمة، لقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ هذه الرياح لو اجتمع الخلق كلهم على أن ينفخوا بجميع وسائل النفخ هل يستطيعون أن يغطوا بهذا النفخ بلدًا واحدًا؟ لا يستطيعون، والرب - جلَّت قدرته - يغمر ما شاء أن يغمر بهذه الريح التي قد تَقلع الأشجار وتهدم الديار، أليس هذا دليل على قدرة الله العظيم؟! وكونها مبشرات فيه إثبات الرحمة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** نعمة الله سبحانه وتعالى على العباد بالفُلك التي تجري بأمره ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر من الأسباب ما يكون به ذلك، ما عرف الناس كيف يتعدون من بَر إلى بَر بواسطة البحر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ظهور الآيات للإنسان سبب لشكر نعمة الله عليه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات العلل والحِكَم لأفعال الله، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾؛ لأنها للتعليل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** تسليةُ الرسول ﷺ وتحذير المخالفين له؛ تسليته بمن سبقه من الرُّسل، فقد كُذِّبوا وأوذوا، فإذا علم أن أحدًا شاركه في ذلك هان عليه الأمر؛ لأن كل إنسان يتسلى بما أُصيب به غيره بمثله، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحذير المخالفين له جل وعلا، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** رحمة الله عباده بإرسال الرسل، إذ لولا هذه الرسالة ما عرف الناس كيف يعبدون الله عز وجل، بل وما عرفوا من تفاصيل أسمائه وصفاته، فالرسل رحمة عظيمة للخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الانتقام من المكذِّبين كان بسبب فعلهم، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي: لإجرامهم.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الرسالات السابقة خاصة، لقوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ ويبينه الحديث الثابت

في «الصحيحين»: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَومِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن الله ما أرسل الرسل إلا ببينات تشهد بصدقهم، وبشرائع بينة لا توجب لبسًا على المتبعين، يؤخذ من قوله: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات البينات الدالة على صدقهم وبالشرائع البينات الواضحة التي لا تقتضي لبسًا على المتبع.

قال أهل العلم: وآيات الأنبياء على حسب عصرهم، ففي عهد موسى انتشر السحر وكَثُر، فأعطاه الله تعالى من الآيات ما تبطل السحر وليست بسحر، فأعطاه الله تعالى اليد وأعطاه العصا، وقالوا: في عهد عيسى تقدم الطبُّ، فأعطاه الله من الآيات ما لا يمكن للطب أن يقوم به، وهو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، فهذا ما يمكن أن يقوم الطب به أبدًا، فالميت لا يمكن يحيى بالطب وقالوا أيضًا: الأبرص لا يمكن شفاؤه بالطب، والأكمه هو الذي خُلق بلا عين، هذا يمكن فيما سبق من العصور أن يوضع له عين، لكن الآن إذا وجد مكان العين يمكن أن يوضع له عين بالطب، لكن إذا لم يوجد، إذا خلقه الله عز وجل بدون أن يخلق له مكانًا للعين، ما يمكن أن يوضع له عين.

وفي عهد الرسول ﷺ قالوا: إن البلاغة بلغت أعلى ذروتها فكان من أعظم آيات الرسول عليه الصلاة والسلام هذا القرآن الذي أعجز البلغاء والفصحاء، بل تحدى الله به كل الجن والإنس، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨] لا انفرادًا ولا تعاونًا، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

٧ - **وفيها أيضًا**: إثبات فعل الانتقام لله عز وجل، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾.

٨ - **وفيها أيضًا**: إثبات العظمة، لقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ و ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فإن هذا - أي: نون الجمع - للتعظيم وليس للتعدد، وذلك بإجماع المسلمين.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله أوجب على نفسه نصر المؤمنين، لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ - **ومنها**: أن هذا النصر لابد أن يكون؛ لأنه أتى بصيغة التعظيم، فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ ولم يقل: عليَّ، بل قال: ﴿علينا﴾ إشارة إلى أن هذا الحق لابد أن يكون، وفي الآية دليل على أن غير المؤمنين لا يُنصرون، لقوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا أورد إنسان علينا ما حصل من الانتصارات الخاطفة للكفار فما هو الجواب؟ نقول: إن هذا استدراج من الله عز وجل، حتى يتم النصر للمؤمنين في النهاية، ثم إنه لا يدوم هذا النصر أبدًا، فالعاقبة لابد أن تكون للمؤمنين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وقال بعض أهل العلم: إن النصر نوعان: نصر بالحجة والبرهان، ونصر بالسيف والسنان، فأما النصر بالحجة والبرهان فهو مضمون وثابت، وليس فيه استثناء؛ لأن الحجة والبرهان مع المؤمنين على كل حال، حتى لو هُزموا عسكريًّا فإن الحجة والبرهان معهم، غالبون بحجتهم وبرهانهم، وهذا لا استثناء فيه.

والثاني: النصر العسكري، يعني بالسيف والسنان ونحن نقول الآن بالطائرة والقنابل وما أشبهها، هذا قد يحصل نصر لغير المؤمنين؛ امتحانًا للمؤمنين واستدراجًا للكافرين.

مسألة: هل تدل هذه الآية على ختم الرسالة بالرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أو لا تدل؟

الجواب: قد تدل من حيث إن الرسول مرسَلٌ إلى الناس عامة، والعموم هذا يشمل عموم الوقت والمكان والأمم، وهذا يستلزم ألا يوجد رسول من بعده، فلو وجد رسول من بعده انتفى العموم إلى الناس كافة، وصار معناه: أن الرسول الذي بعده يكون رسولًا إلى هؤلاء الناس دون محمد عليه الصلاة والسلام.

والغريب أن بعض الناس بالافتراض أنكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقال: إننا لو قلنا بنزوله، لكان ذلك تكذيبًا للقرآن، فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] هل استدلالهم بالآية صحيح أو لا؟ غير صحيح؛ لأن عيسى ما ما ينزل مُشرِّعًا، وإنما ينزل تابعًا للرسول ﷺ ولا ينشئ شيئًا من الشريعة، حتى يكسر الصليب ويقتل الخنزير، هذا أخبر به الرسول ﷺ فأقره، يعني: يقال: إنه يأتي ويحكم بذلك ولا يقبل إلا الإسلام، فليس هناك جِزْية بعد نزول عيسى ولا عهد، فليس هناك إلا الإسلام، فيقال: إن هذا ليس شرعًا جديدًا ناسخًا لشرع الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو شرع مقرَّر من الرسول ﷺ، فالرسول أخبر بأنه سيفعل هذا مقررًا له، فهو لن ينزل على أنه رسول بشرعٍ جديد، بل على أنه تابع للرسول عليه الصلاة والسلام، ولعل هذا والله أعلم ليتحقق ما أخبر الله به بالفعل في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] فهذا خبر من الله عز وجل، لكن هل نحن علمنا هذا بأن نبيًّا من الأنبياء تابع الرسول فعلًا؟ لا، لكن نزول عيسى ومتابعته لرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام تكون هذه حق اليقين؛ لأن آية آل عمران فيها علم اليقين، فإذا وجد ذلك بالفعل صار حق اليقين، فهذا من الحكمة في نزوله، ﷺ في آخر الزمان، وأيضًا عندنا أحاديث واضحة صحيحة صريحة متلقاة بالقبول عند أهل العلم، فكيف ينكر ذلك؟! لكن ـ والعياذ بالله ـ بعض الناس يأتي بقاعدة من

أفسد القواعد وأبطل القواعد، وهي أن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد، ولو كان الخبر صحيحًا، وهذا في الحقيقة مزلة لمن قاله؛ لأننا نقول له: أنت تثبت من الأحكام العملية بدليل لا يصل إلى درجة الصحة، وربما يكون إلى درجة الحسن، عندك أنت وعند غيرك لا يصل إلى درجة الحسن، وإثبات الحكم العملي مستلزم للعقيدة؛ لأن تنفيذه مقتضى الإيمان، ولأن الإنسان لا يعمل بهذا إلا بعد أن يعتقد أنه من شريعة الله، وإلا لما عمل به، فهناك عقيدة سابقة: أن هذا من حكم الله، ومن شريعة الله، وأنه مقرب إلى الله، وأنه عبادة لله، ثم العمل به، يعني: إذا أخذنا بذلك لزم أن ننكر أشياء كثيرة، مما يتعلق بالأمور العلمية؛ لأن الشرع إما أمور علمية، وإما أمور عملية.

والصواب بلا شك أنه لا فرق بينهما، وأن ما صح عن رسول الله ﷺ يجب الإيمان به عقيدة وعملًا، وإذا شئت مزيدًا من الإيضاح فاقرأ ما كتبه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في آخر كتاب: «**الصَّواعق المرسَلَة**»، فإنه تكلم على هذه المسألة كلامًا شافيًا.

١١- ومن فوائد الآية أيضًا: أن على الله حقًّا أوجبه على نفسه، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، فإذا سُئلنا: هل يجب على الله شيء؟

نقول: أما بعقولنا فلا يجب على الله شيء، وأما أن يوجب هو على نفسه شيئًا فهذا أمر وارد.

١٢ - ومن فوائدها أيضًا: فضيلة الإيمان وأنه سبب للنصر، قال تعالى: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٨،٤٩]

التفسير

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قال المؤلف: [تزعجه]؛ لأنه مأخوذ من أثار الصيد إذا أزعجه، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ يعني: [يبعثها] ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ قال المؤلف: [تزعجه] كإثارة الصيد فإن إثارة الصيد من مكانه يعني: إزعاجه حتى يطير.

وقوله: ﴿سَحَابًا﴾ السحاب معروف هو الغيم، ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [من قلة

وكثرة] (يبسطه)، البسط معناه: النشر، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تعود إلى كيفية هذا النشر، قد يكون واسعًا وقد يكون قليلًا وقد يكون كثيفًا وقد يكون خفيفًا، ولهذا قال: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [بفتح السين وسكونها قِطعًا متفرقة]، بفتح السين يعني: ﴿كِسَفًا﴾، وسكونها يعني: ﴿كِسْفًا﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] والكِسف معناه: القطع، وكأن المؤلف رحمه الله يريد أن يبين أن السحاب قد يكون واسعًا منتشرًا مبسوطًا، وقد يكون قليلًا قطعًا متفرقة، وقال بعض المفسرين: معنى كونه كسفًا: أنه قطعًا متراكبة بعضها فوق بعض، حتى يسود ويدلهم ويحصل في الرعد والبرق، وهذا أولى أن المراد بالكسف القطع المتراكبة التي يَركب بعضها بعضًا حتى تدلَهِمَّ وتسود، وهذا في الغالب أكثر مطرًا.

يقول: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الخطاب لكل من يتأتى خطابه؛ لأن هذه الرؤية ليست خاصة بالرسول ﷺ.

وقوله: ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ يعني: حبات المطر، فهي تسمى ودقًا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [أي وسطه]، وقيل: من بينه، من بين هذا السحاب، وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ إذا قال قائل: نحن لا نراها بأعيننا المجردة، لا نرى أن المطر يتخلل هذا السحاب وينزل، فيقال: إنه خبر صدق فيكون كالمشاهدة، ما دام الله تعالى أخبر به فإننا كأنما نشاهده بأعيننا، ثم إنه في الوقت الحاضر وجدت الآلات القوية التي يستطيع الإنسان بها أن يرى كيف تخرج هذه النقط من خلال السحاب.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ [بالودق] ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ هذه الجملة شرطية، فإذا أصاب به إذا هم، تدل على أن هؤلاء الذين أُصيبوا بالمطر أنهم في غاية الاشتياق إليه، ولهذا بمجرد ما يصيبهم يحصل الاستبشار، وقولنا: (بمجرد) ليس نتيجة عن ترتب جواب الشرط على فعل الشرط، ولكنه نتيجة لذلك زيادة أمر آخر هو الإتيان بـ (إذا) الفجائية، التي تدل على المفاجئة والسرعة.

إذن (إذا) تفيد الشرط، وفعل الشرط هو ﴿أَصَابَ﴾، وجواب الشرط: جملة ﴿هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المصدَّرة بإذا الفجائية، قلنا: إن هذا التعبير يدل على أن هؤلاء في غاية ما يكون من الاشتياق إلى نزول الغيث، وجه ذلك: استبشارهم بمجرد الإصابة وليس استبشارًا عاديًّا كترتب الجواب على فعل الشرط، ولكنه أبلغ؛ لأنه أتى بإذا الفجائية الدالة على المبادرة بوجود أسباب الشيء.

وقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال المؤلف: [يفرحون بالمطر]، والاستبشار أشد من مجرد الفرح، بل هو يستبشر بنفسه وربما يهنئ غيره ويبشره، ولهذا في أيام موسم المطر تجد مثلًا الناس إذا رأى بعضهم بعضًا لاسيما الذين يأتون من البراري يقول: أبشركم بأنه نزل مطر وأنه كثير أو حسب ما

يكون، فالاستبشار هنا أبلغ من مجرد الفرح، لكن المؤلف رحمه الله ربما يفسره بالتقريب.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ لا ما يشاء الناس، فالذي ينزل الغيث هو الله عز وجل، وليس أحدًا يستطيع أن ينزله، وأما ما ذُكر من أنهم الآن يسلِّطون موادًا كيماوية على السحاب فينزل المطر، فإننا نقول: إن صح هذا الأمر فمن الذي خلق هذا المطر؟ الله سبحانه وتعالى الذي أوجد هذا السحاب، وكونهم يتوصلون إلى أسباب يتبخر بها هذا السحاب حتى ينزل مطرًا، هذا لا ينافي أن يكون الله عز وجل هو الذي ينزل الغيث، ثم إن الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤] أبلغ من ينزل المطر، إذ إن المطر قد ينزل ولا يكون غيثًا، كما ثبت في «صحيح مسلم»: «لَيْسَ السَّنَةُ أَلَّا تُمْطَرُوا، إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ»[1] السَّنة ما معناها؟ الجدب والقحط؛ لأن ما هو السنة أنه ما ينزل المطر، لكن السنة الحقيقية: أن يأتي ولا يحصل نبات.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المراد بالعباد هنا: جمع عبد، وهي العبودية العامة؛ لأن المطر ينزل على المؤمنين وعلى الكافرين، بل ربما يكون نزوله على الكافرين أكثر وأغدق وأشد استمرارًا، امتحانًا لهم؛ لتعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] أي: بهذه الطيبات ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ إلى آخره.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ قال المؤلف: [وقد كانوا]، قدَّر إن بقد، وتبع في ذلك البغوي، والمؤلِّف «الجلالين» مأخوذ من البغوي، يعني: كأنه مختصر له؛ لأنك إذا تأملت تفسيره رَحِمَهُ اللَّهُ، وجدت أنه هو «تفسير البغوي» بعينه، لكن البغوي مبسوط وهذا مختصر، هو قال: إن بمعنى: قد، ولا أحد من أهل النحو قال بهذا القول، إلا أن يقوله على سبيل التفسير فقط.

والصواب الذي لا شك فيه أن (إن) هنا: مخففة من الثقيلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، وعلى هذا فنقول: إن أصلها: إنَّ، فخففت، واسمها ضمير الشأن محذوف، والتقدير: وإنهم، وقد سبق لنا أن القول الصحيح من أقوال النحويين: أن ضمير الشأن لا يقدر مفردًا مذكرًا، وإنما يقدر بحسب السياق، فهو ضمير مقدر بحسب السياق، إن كان السياق يقتضي التأنيث فهو مؤنث، أو كان يقتضي التذكير فهو مذكر، أو الجمع فهو مجموع، أو كان يقتضي التثنية فهو مثنىً، إذن أصله: وإنهم كانوا، لكن خففت إنَّ فحذف اسمها على أنه ضمير الشأن.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: المطر، من أين نعرف أنه المطر، هل سبق التحدث عن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٠٤).

تنزيل المطر؟

الجواب: نعم، في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ فإن الودق إذا خرج من خلال السحاب ينزل إلى الأرض.

وقوله: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ يعبر الله عز وجل عن نزول المطر بالإنزال والتنزيل؛ وذلك لأن المطر أحيانًا يأتي دفعة واحدة بكثرة وغزارة فيكون إنزاله، وأحيانًا يأتي بالتدريج ضعيفًا متقطعًا فيسمى تنزيلًا؛ لأن التنزيل معناه إنزال الشيء شيئًا فشيئًا.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾، كلمة ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ اختلف فيها أهل العلم فقال بعضهم كما قال المؤلف: إنها تأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ كرر الفعل توكيدًا، هذا قول، وهو الذي مشى عليه المؤلف وعليه أكثر المفسرين، أن قوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ أي: من قبل أن ينزل عليهم فكأنه قال: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، فتقرأها بالتوكيد.

وقال بعض المفسرين: إنها كُررت للتأسيس، لا للتوكيد، ومعلوم أنه إذا دار الكلام بين أن يكون توكيدًا وأن يكون تأسيسًا فالأصل التأسيس، الأصل: عدم التوكيد؛ لأن التوكيد تكرار، والأصل عدم التكرار، فيرى بعض المفسرين أنها ليست للتوكيد وأنها للتأسيس، والفرق بين التوكيد والتأسيس: أن التوكيد معناه: أن هذا هو الأول، والتأسيس معناه: أن هذا غير الأول وأنه كلام مستقل، على القول بأنه تأسيس ما معناه؟ قال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل الاستبشار.

قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ من قبل الاستبشار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فذكر الله لهم حالين قبل الاستبشار وبعده، وهذا ما مشى عليه أبو السعود والرازي وليس فيه إشكال من حيث التصور والمعنى، المعنى: وإن كانوا من قبل إنزال المطر من قبل ذلك الاستبشار ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، فنبههم الله على حالهم قبل الاستبشار وهو الإبلاس، وعلى حالهم بعد ذلك.

وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل أن ينزل عليهم، أي من قبل ذلك القبل، فيجعلون الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ليس عائدًا إلى المطر ولا عائدًا إلى الاستبشار، وإنما يجعلونه عائدًا إلى القبل، فالمعنى على هذا: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ذلك القبل لمبلسين، فتكون فائدتها أن الإبلاس مستمر معهم من قديم الزمان، فيأتي موسم لا يأتي فيه مطر فيبلسون، ثم يأتي موسم آخر فيبلسون، ثم يأتي موسم آخر فيبلسون وهكذا، ومعلوم أنه إذا تكررت مواسم ولم ينزل مطر كان أشد في الإبلاس، فيكون المعنى أن هذا الاستبشار أتى بعد يأسٍ مرتين فأكثر، وهذا أيضًا ذكره ابن كثير في تفسيره، فصار لدينا في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ثلاثة أقوال، القول الأول: أنه

توكيد، والثاني: أن الضمير يعود على الاستبشار، والثالث: أن الضمير يعود على القبل، أي: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ذلك القبل أيضًا لمبلسين.

أما قوله: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي بالنصب خبرًا لكان في قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾، واقترنت اللام بها من أجل إن، والاقتران هنا واجب أم جائز؟ الظاهر الوجوب؛ لأنها قد تشتبه بـ (إن) النافية، أما إذا لم تشتبه فما يجب الاقتران، وهناك شاهد من كلام العرب لذلك وهو قول الشاعر:

.... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

فالحاصل: أن اللام هنا للتوكيد ويسميها بعض العلماء: اللام الفارقة، وهذا أدق في التعبير وهي مع كونها فارقة تفيد التوكيد، وإنما سموها اللام الفارقة؛ لأنها تفرق بين إن النافية وبين إن المخففة.

إذا قال قائل: هل يمكن أن تقترن بها اللام مع كون إن بمعنى النفي؟

الجواب: لا، وهذا هو السر في أنها فارقة، فلا يمكن أن تقترن بها اللام؛ لأن اللام تفيد توكيد الإثبات، والنفي بخلاف ذلك، النفي يفيد النفي.

يقول المؤلف: [﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزالهم]، والإبلاس مثل القنوط أشد اليأس، ومنه سمي إبليس - نعوذ بالله منه -؛ لأنه مبلس آيس من رحمة الله.

وقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للإنسان لا للرسول، فهو خطاب لمن يتأتى خطابه، الرسول ﷺ وغيره؛ لأنه قال في الأول: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ ثم قال هنا: ﴿فَٱنظُرْ﴾ أي: انظر أيها الإنسان إلى أثر رحمة الله، وفي قراءة يقول المؤلف: [آثار رحمة الله]، انظر الرسم العثماني، من فوائد التزامه: أنه لا يتغير بتغير القراءات، آثار على مقتضى القواعد - قواعد الرسم الأصلية - كيف تكتب؟ بألف بين الثاء والراء، لكنها على قواعد المصحف العثماني تكتب بها ألف؟ لا، بل ثاء وراء، فتصلح آثار وتصلح أثر، وقوله ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ و﴿إلى أثر﴾ لا فرق بينهما في الجملة من حيث المعنى؛ لأن آثار مضاف فيفيد العموم، وأثر مضاف فيفيد العموم؛ لأنه قيل: إذا أضيف أفاد العموم، فأثر وآثار من حيث الجملة لا فرق بينهما؛ لأن أثر رحمة الله، بمعنى: آثار، لكن الفرق بينهما من حيث المعنى الخاص، أما أثر يشمل الجنس باعتباره شيئًا واحدًا، وأما آثار تشمل الجنس باعتباره أنواعًا، كيف باعتباره أنواعًا؟

مثل أثر المطر يخرج به الزرع ويخرج به الشجر ويخرج به شيء صغير وشيء كبير وشيء له أشجار مسطحة وشيء له أشجار دقيقة كالعيدان، فلهذا تعتبر هذه آثارًا باعتبار أنواعها، ثم أيضًا الآثار تختلف من أرض إلى أرض، فهذه الأرض تنبت كذا وهذه الأرض تنبت كذا، هذه ينبت فيها الكلأ وهذه لا ينبت وهكذا، فهي آثار باعتبار الأنواع، أما باعتبار الجنس وأن كله حصل بسبب المطر فهو شيء واحد، وهذا هو الفرق الخاص بين أثر وآثار.

وقوله: ﴿ءَاثَرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [أي: نعمته بالمطر]، وقد سبق لنا أن الرحمة في مثل هذا يصح أن تكون اسمًا للمخلوق، ويصح أن تكون من صفات الله، فإن كان المراد الأثر المباشر فالمراد بالرحمة المطر؛ لأن هذا النبات نبت بالمطر، وإن كان المراد السبب غير المباشر فالمراد بالرحمة صفة الله، يعني: لكون الله جل وعلا رحيمًا فهذه من آثار رحمت الله أنه ينزل المطر وتنبت به الأرض ويزول به القحط، فالآية صالحة لهذا ولهذا.

وقوله: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ هذا مما يرجح أن المراد بالرحمة الصفة، كيف يحيي هو أي: بالرحمة سبحانه وتعالى؟ قال: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ يجعلها حية بعد موتها، قال المؤلف: [أي: يبسها بأن تنبت] فحياة كل شيء بحسبه، فالأرض اليابسة التي ما فيها خضار تسمى ميتة ما فيها شيء حي، فإذا نزل عليها المطر وحيي النبات سميت حية؛ لقوله: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وهذا دليل على قدرة الرب عز وجل وعلى رحمته؛ لأنه من يقدر على أن يخلق النواة والحب بباطن الأرض حتى يخرج منها هذا النبات النامي؟ لا أحد يقدر، ولهذا قد جاء في الحديث الصحيح القدسي: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» لا يستطيعون، ما يستطيع أحد أن يخلق هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[الأنعام:٩٥].

وقوله:﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ انظر إلى الكيفية والقدرة كيف هذه الأرض التي كانت غبراء كأنها محترقة، أصبحت الآن روضة خضراء!!

قال المؤلف: [أي: يبسها بأن تنبت،﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾]

الحاصل: أن هذا الكون العظيم لا يمكن أن يكون عبثًا هكذا يُحيا ثم يكون ترابًا، فالله عز وجل ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليس بني آدم فقط، ولكن بنو آدم وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] وأخبر النبي ﷺ أن البهائم يقتص الله تعالى من الشاة القرناء للجلحاء ـ التي لا قرون لها ـ حتى البهائم يُقضى بينها، ولهذا نقول: الموتى لا يختص بالإنسان فقط، بل بالإنسان وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ثم أكد هذا أيضًا بمؤكدٍ آخر في الجملة التي بعده وهي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فإذنْ أُكد إحياء الموتى بمؤكدين لفظيين ومؤكدين معنويين.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: كل شيء فالله قادر عليه بدون استثناء، كل ما تتعلق به القدرة ويمكن أن يكون قادرًا عليه فإن الله قادر عليه.

وليس على ما يشاء فقط، بل على ما يشاء وما لا يشاء، فهداية الكافر الذي مات على كفره،

فالله قادر عليها فهو شاءها وهو قادر عليها، فلا تختص قدرته بما شاء، وبهذا نعرف أن تعبير بعض الناس: إنه على ما يشاء قدير، لا ينبغي، بل قل ما قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وأما حديث الرجل الذي جاء الله يوم القيامة فذكر القصة، وفيها أن الله قال له: إني على ما أشاء قادر، فهذه ليس المراد بها وصف الله بالقدرة مطلقًا، بل وصف الله بالقدرة على هذا الشيء المعين الذي استبعده المخاطب، فالله يقول: قد شئته فأنا قادر عليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩] القيد بالمشيئة هنا ليس عائدًا على القدرة، لكنه عائد على الجمع، فالشيء المعين ممكن أن تقيده بالقدرة، أما إذا ورد وصف الله بالقدرة فلا تقيدها بمثله، ففرق بين أن تعلق القدرة بشيء معين خاص وبين أن يذكر على سبيل الوصف العام لله، إذا كان وصفًا عامًّا لله، فالله تعالى ما ذكر قيدًا للمشيئة أبدًا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر:٦] وما أشبه ذلك.

والقدرة ضد العجز، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] وأتى بالعلم هنا؛ لأن العاجز قد يعجز لعدم علمه بالشيء، واحد مهندس قلنا له: اصنع السيارة هذه، يقدر أم لا؟ ما يقدر، لأنه ليس عنده قدرة، وآخر نشيط يحمل الحجر الذي هو أكبر منه، لكنه ما يعرف فليس عنده علم، قلنا له: اصنع السيارة قال: ما أقدر، وذلك لعدم العلم، فانتفاء القدرة قد يكون لانتفاء العلم وقد يكون لعدم القدرة.

قال المؤلف في تفسيره: [وخص العقل ذاته فليس عليه بقادر]، يعني: إن العقل يقتضي تخصيص ذات الله، فالله لا يقدر عليه، وهذا ليس بصحيح؛ بل الله على كل شيء قدير، ولهذا الله تعالى استوى على العرش بفعله وقدرته، وينزل إلى السماء الدنيا، ويأتي للفصل بين عباده، ويتكلم بما أراد، كل هذا مما يتعلق بذاته وهو قادر عليه.

فإن قال قائل: الله قادر على إماتته أم لا هل يقدر على أن يميت نفسه؟

نقول: هذا ما يمكن، لا لانتفاء القدرة، لكن لأن هذا عمل لا يليق به، وهو أشد من العجز، فنقول: امتناع هذا بأنه مستحيل على الله عز وجل، ولهذا السَّفَّاريني رحمه الله في العقيدة لما ذكر صفة القدرة قال:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ

أما المستحيل فهو ما يمكن، فالمستحيل لا تتعلق به القدرة، يقال: إن الشيطان إذا مات العالم يفرح فرحًا عظيمًا، وإذا مات العبَّاد فهذا ليس بمهم عنده، قالت جنوده له: كيف تفرح بموت

العالم هذا الفرح ولا تفرح بموت العابد الذي يصلي طول النهار في محرابه؟

قال: لأن العالم أشد عليَّ من العابد، وإذا شئتم الآن أريتكم، فذهب إلى العابد وقال له: هل يقدر الله أن يجعل السماوات والأرض في جوف بيضة؟ قال العابد: لا ما يقدر، قال هل الله يقدر يخلق مثله؟ قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فذهب إلى العالم وقال له مثل هذا القول، فأما خلق مثله فهذا شيء مستحيل، ولا يمكن لمخلوق أن يكون مثل الخالق أبدًا مهما كان، وأما كونه يجعل السماوات والأرض في جوف بيضة فهو على كل شيء قدير، فالمسكين العابد كفر من وجهين، أثبت ما لا يمكن، ونفى ما يمكن، وهذا حقيقة، يعني: العُبَّاد مثل ما قال القائل: من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، واليهود أخطر من النصارى لا شك؛ لأن العالم فاسد - والعياذ بالله - عن علم، والعابد فساده عن جهل وما كان عن جهل فهو أهون مما كان عن علم.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل من عدة أوجه، بإرسال الرياح، وإدارة السحاب، وارتفاعها في الجو، وبسطها فيها، وجعلها كسفًا ونزول المطر منها.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن السماء يطلق على كل ما علا، لقوله: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فإنه لا تطلق السماء إلا على السقف المحفوظ، وإنما البسط يكون في الجو العالي.

٣- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل في نزول المطر من أعلى؛ لأنه إذا نزل من أعلى عم النازل والمرتفع، خلاف ما لو كان يجري في الأرض، فلو كان يجري في الأرض فإنه يُغرق النازل قبل أن يصل إلى العالي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة افتقار الخلق إلى رحمة الله، لقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات المشيئة، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

٦- **ومنها:** إثبات الألوهية العامة، لقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

٧- **ومنها:** أن فيها احتمال جواز الاستبشار بالمطر، وهناك احتمال أن يكون هذا بلاءً، فلا يؤخذ منه الحكم، وغاية ما فيه أن يقال: إنه مباح؛ لأن الله تعالى ذكره ولم ينكره.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾.

١ - **في هذه الآية**: بيان حال العبد، قبل نزول المطر وأن العبد ضعيف، لقوله: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، فإن الضعيف إذا أصيب بشيء أيس واستبعد الفرج، ولكن الله عز وجل يثيبنا على العمل؛ لقوله: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

فوائد قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١ - **في هذه الآية**: الأمر بالنظر ويكون بالعين الباصرة، وبعين البصيرة أيضًا.

٢ - **ومن فوائدها**: أن النظر كما يكون نافعًا للإنسان فهو مأمور به شرعًا، أي بمعنى إثابة الإنسان على النظر في آيات الله، لأنه مأمور به شرعًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن الآثار التي تنشأ عن المطر كلها من رحمة الله، مثل إحياء الأرض والنبات وكثرة المياه في الأرض وغير ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: إثبات قدرة الله تعالى على إحياء الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية**: الاستدلال بالمحسوب المنظور على المحسوس المنتظر؛ المحسوس المنظور ما يحصل من حياة الأرض، والمحسوس المنتظر ما يحصل من إحياء الموتى.

٦- **ومنها**: أنه لابد أن يكون الدليل أجلى وأظهر من المدلول عليه بمعنى: أنه لا يمكن أن يستدل بالأخفى على الأجلى، لأن الدليل معرف للمدلول ومبين له.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث يضرب لهم الأمثال ويبين لهم الأدلة، ليتوصلوا إلى اليقين بما يجب الإيمان به؛ لأنه يكفي أن يقول عز وجل: آمنوا بأني أحيي الموتى، لكن من رحمته أنه يبين لنا ويضرب لنا المثال لنصل إلى درجة اليقين فيما أخبرنا به، لقوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: نعمة الله على العباد بإحياء الأرض؛ لقوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

٩- **ومنها**: أن الجماد يُوصف بالحياة والموت، وفيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إنا لجماد لا يمكن أن يوصف بالحياة والموت؛ لأنه غير قابل له.

فنقول: إن الله وصف الجماد بأنه حي وميت كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١] مع أنها أصنام من الأحجار والأشجار وما أشبه ذلك.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** ثبوت صفة القدرة وعمومها، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥١-٥٣]

التفسير

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ و﴿وَلَئِنْ﴾ اللام هنا لام قسم دخلت على إن الشرطية.

وقوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾ هذا هو الجواب، لكنه جواب لأيهما للشرط أو للقسم؟ جواب للقسم؛ لأنه لو كان جوابًا للشرط ما احتاج إلى اللام، فالفعل الماضي إذا جاء جوابًا لفعل الشرط لا يحتاج إلى اللام، والقاعدة عند أهل اللغة العربية: أنه إذا اجتمع شرط وقسم يحذف جواب المتأخر منهما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهُـوَ مُلْتَـزِم

والجواب الآن للقسم دل عليه اللام الموطئة، وهو قوله: ﴿لَّظَلُّوا﴾، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ في الأول يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾، وهنا قال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مطلقة وقد ذكرنا سابقًا أن الجمع يكون رحمة والإفراد يكون عذابًا، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ ﴿رأوه﴾ الضمير لا يعود على الريح وإنما يعود على ما حيي من الماء الذي نزل من السماء.

يعني: ولئن أرسلنا ريحًا فرأوا هذا الذي حيي ﴿مُصْفَرًّا﴾ يعني: يابسًا بسبب هذه الرياح، ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ اللام جواب للقسم.

قال المؤلف: [﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مضرة على نبات] ﴿فَرَأَوْهُ﴾ الضمير يعود على النبات،

[﴿مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ لصاروا جواب القسم، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من اصفراره ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر].

يعني: أن الله عز وجل إذا أحيا الأرض بعد موتها، وأرسل عليها ريحًا فاصفر النبات ويبس فصاروا من بعد هذا الاستبشار وبعد أن رأوا هذه الرحمة يكفرون، لكن كيف يأتي هذا المطر وينزل وتحيا الأرض ثم تأتي هذه الريح فيكفرون بالله وينسون نعمة الله عز وجل؟! ولكن هذا من الامتحان، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١] وكان يجب عليهم أن يقابلوا ذلك بالصبر لا بالكفر، بالصبر على هذه البلية؛ لأن الصابر يوفَّى أجره بغير حساب، وربما تزول هذه النعمة إلى نعمة أخرى وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] فالمؤمن يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ ويجوز أن يكون الخطاب عامًّا لكل من يتأتى خطابه.

وقوله: ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ يعني: لا تسمعها سماعًا ينتفعون به، أو لا تسمعهم حين الدعوة، والأقرب: الأول، لأنه ليس من المعقول أن أحدًا يقف على الأموات ويقول: يا أيها الناس اعبدوا الله واتقوه.

لكن لو فرض أنه دعا فهل يسمعون سماعًا ينتفعون به؟

الجواب: لا.

فإذا قال قائل: هذا تقييد للآية والآية مطلقة فكيف ساغ لكم أن تقيدوها بقولكم: سماعًا ينتفعون به؟

نقول: إن هذا - أعني هذا السماع - يطلق على نفي السماع النافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] هم يسمعون بآذانهم ولكن لا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا نحمله على الإطلاق؛ لأن سماع الموتى قد ورد فيه الآثار فإن رسول الله ﷺ ثبت عنه أنه وقف على أصحاب قليب بدر من المشركين ودعاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم «يَا فُلَانَ بنَ فُلَانٍ يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجدتُم مَا وَعَدَكُم رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقًّا» فقال عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام جيَّفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما

أقول منهم».

وكذلك صح ابن عبد البر رحمه الله حديثًا ورد عن رسول الله ﷺ: أنه ما من أحدٍ يسلم على ميت كان يعرفه في الدنيا إلا ردًّا الله عليه روحه فرد عليه السلام، وهذا ذكره ابن القيم في كتاب «الروح» وذكر تصحيحه ولم يتعقبه، وعلى هذا فهم يسمعون لكن لا ينفعون بهذا السماع.

ووردت آثار عن الصحابة في هذا الأمر ذكرها بعض المفسرين عند تفسير هذه الآية، وثبت أيضًا في الصحيح: أن الإنسان إذا انصرف عنه أصحابه بعد الدفن فإنه يسمع قرع نعالهم.

فالحاصل: أننا نقول: كل هذا يؤيد المعنى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: سماعًا ينتفعون به، ومعلوم أن الرسول ﷺ ما دعا الموتى وما ذهب إلى القبور ليدعوهم، ولكن الذين يدعوهم من الأحياء كالموتى لا يستجيبون ولا ينتفعون بالدعوة.

يقول عز وجل: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مفعول أول، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مفعول ثانٍ، أما ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأولى فقد حُذف المفعول الثاني؛ لأن هذا فضلة، وسبق لنا أنه يجوز حذف الفضلة ولو بغير دليل.

قوله: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع لاسيما إذا اقترن به الإدبار ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا أشد ما يكون بالنسبة للأصم بانتفاء السماع عنه، والأصم لا يسمع ولو كان مقابلًا لك، ولهذا الأصم إذا كان أمامك ودعوته بصوت ما ربما يسمع لكن إذا ولَّى مهما دعوته لا يسمع إلا إذا أدركته فمسكته.

وقوله: (الصمُّ إذا ولو مدبرين) ما يسمعون وإنما قيد الله عز وجل الصم في هذه الحال؛ لأنها هي الحال التي لا يسمعون بها مطلقًا بخلاف ما إذا كان أمامك فإنهم قد يسمعون ويستدلون على ما تقول بحركات شفتيك.

قال المؤلف: [بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية بينها وبين الياء] وهما قراءتان سبعيتان.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

هنا انتقال: الموتى ثم الصم ثم العُمي.

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ ﴿مَآ﴾ نافية للجنس حجازية و(أنت) اسمها، والباء حرف جر زائد، و﴿هادِ﴾ خبرها.

قوله: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ جمع أعمى؛ لأن أفعل جمعه (فعل).

قال ابن مالك:

فُعل بنحو أحْمَرٍ وَحَمْرَاء

(أحمر) مثل (أعمى)، و(حمراء) مثل (عمياء) (عُمي) جمع للذكور والإناث.

وقوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ معنى الضلالة المتاهة أي: متاهتهم فهم إذا تاهوا في الطريق ما أنت بهاديهم فكذلك هؤلاء الذين عموا عن الحق فلا يرون وصمُّوا فلا يسمعون وماتوا عنه فلا يفقهونه، هؤلاء أيضًا لا تستطيع أن تهديهم.

هنا في هذه الآية قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ ما قال : ما أنت بمبصر؛ لأن البصر يتعلق به الدلالة وهي الهداية بخلاف الصم فإنه يتعلق به السمع.

قال المؤلف: [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسۡمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾].

أي: فبناءً على إيمانهم هم مسلمون منقادون؛ لأنهم كلما تم الإيمان تم الانقياد، فكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا فإنه يكون أعظم انقيادًا ولهذا الإيمان يستلزم الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فقد يستسلم الإنسان ظاهرًا وقلبه منطوٍ على الكفر - والعياذ بالله - بخلاف الإيمان، ولهذا رتب على الإيمان الإسلام بالفاء: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ فهم من أجل إيمانهم مسلمون منقادون.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: إنه القرآن، مع أن آيات جمع وليست مفردة فما هو الجواب عن قول المؤلف؟

الجواب: أن فيه قصور، والحق أن المراد بالآيات ما هو أعم من القرآن فيشمل جميع الآيات الشرعية، أو الكونية بأن يؤمن بأن هذا الكون خلقه الله عز وجل؛ لأن من لا يؤمن بآيات الكون قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ [الطور: ٤٤] فيقولون: الكون مادة وطبيعة تتفاعل وينتج بعضها من بعض وما أشبه ذلك. والآيات الشرعية أيضًا من الناس من لا يؤمن بها فيكذب بأخبارها ويستكبر عن أحكامها. وهذا تضييق.

والصواب: أن المراد ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ما يشمل الآيات الشرعية كلها والآيات الكونية كلها؛ لأن من الناس من ينكر الآيات الكونية.

فإذا قال قائل: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معلوم أن المؤمن سامع فكيف يقول: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ فما الجواب عن هذا؟

الجواب: من أحد وجهين:

الأول: إما أن يقال: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ﴾ إلا من كان مستعدًّا للإيمان بما تقول، فهو مكتوب عند الله أنه مؤمن، وهذا أمر غير معلوم للرسول ﷺ لكن يجب عليه أن يبلغ الدعوة

فيسمعها من كان في علم الله أنه مؤمن وكان مستعدًّا للإيمان.

الثاني: أو يقال: إن الدين شرائع ليس شيئًا واحدًا بل هو شرائع وشعائر متعددة، فالذي ينتفع بهذه الشعائر ويطبقها هو المؤمن، فهذا هو الذي يسمع كل ما دعا إليه الرسول ﷺ من جميع شرائع الدين.

وعلى القول بأن الدين أصول وفروع نقول: أصول الدين، وفروع الدين لكن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن تقسيم الدين إلى أصول وفروع قول مبتدع لا دليل عليه، وهو صحيح، وشيخ الإسلام لم ينكر هذا لمجرد أنه اصطلاح بل لأنه تُوصل به إلى أمور منكرة.

فقالوا مثلًا: لا نعتدُّ بأخبار الآحاد في أصول الدين، وجعلوا هذا بابًا يدخلون منه إلى إنكار الصفات، وإلى إنكار ما ورد من أخبار اليوم الآخر، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المؤمن مسلم ظاهرًا وباطنًا، والمنافق مسلم ظاهرًا لا باطنًا، والمعلن بكفره كافرًا ظاهرًا وباطنًا، والناس لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة.

❁ قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

هذه الآية سيقت لبيان حال الإنسان وكمال قدرة الله عز وجل.

قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿الَّذِي﴾ خبرها، ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ بفتح الصاد وضمها، ضمها لغة الحجازيين، وفتحها لغة بني تميم، ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: أقرأني رسول الله ﴿من ضُعْفٍ﴾ بضم الضاد لكن الحديث ضعيف وهما قراءتان سبعيتان.

وما هو الضعف؟ يقول المؤلف: [ماء مهين] فجعل الضعف هو النطفة؛ لأنه كما قال الله عز وجل ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

وقوله: ﴿مِّن﴾ هنا للابتداء كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ولكن الظاهر أن المراد: ضعفه بعد نفخ الروح فيه؛ إذ إنه حال النطفة جماد لا يوصف بأنه ضعيف أو بأنه قوي.

وهذا هو الصحيح، فإن الإنسان لا يكون خلقًا تامًّا إلا بعد نفخ الروح فيه؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] هذا الإنشاء هو أول ما يكون به الإنسان إنسانًا؛ لأن الإنسان إنسان ببدنه وروحه وعلى هذا نقول: إن المراد بالضعف: بعد نفخ الروح فيه.

وضعف الطفولة يبتدئ من كونه حيًّا في بطن أمه.

إلى هنا انتهى الشيخ في تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ١-٥][1].

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل في إنزال هذه الحروف الهجائية، وهي: الم وما أشبهها.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الله عز وجل يتكلَّم بحرف، وكذلك بصوت؛ لأن ﴿الٓمٓ﴾ من كلام الله، وهي حروف، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وقد تقدَّم لنا البحث فيه مرارًا، وأن أهل السنة والجماعة يقولون: إن كلام الله تعالى بحرف وصوت.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو شأن هذا القرآن، لقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن آية وعلامة على مُنزِله، لقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وسبق لنا أن الإضافة على تقدير من إضافة جنسية، وهو آية على مُنزِله سبحانه وتعالى من صدق أخباره، ومطابقتها للواقع، ومن حسن قصصه، وحبها للنفوس، وعدم مللها منها؛ يعني: ما من كلام يُردَّد إلا ويُمَلّ إلا القرآن، والثالث: من حيث الأحكام؛ حيث إن أحكامه عادلة نافعة للعباد في معاشهم ومعادهم، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن مكتوب كما هو مقروء، لقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ

---

(١) الآيات من (١-٥) غير موجود تفسير لها في المادة المسموعة لدينا.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** الثناء على القرآن بهذا الوصف العظيم، وهو: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٧- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لا يوجد في القرآن خبرٌ سِيق عبثًا، ولا حكم أُثبِت عبثًا، لقوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ لأن العبث يُنافي الحكمة، ولا يمكن أن يكون في القرآن شيءٌ عبثًا، لا خبرًا ولا حكمًا.

ثم قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

وفيها قراءتان كما سبق: هدى ورحمةٌ، وهدى ورحمةً.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الترغيب في هذا القرآن، لقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وكل أحد منا يطلب الهدى والرحمة، فهو هدى في العلم، ورحمة في العمل؛ إذ إن العامل به ينال رحمة الله، والمُهتدي به على هدى وبصيرة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم جمع الخير كله، فهو علم نافع، وعمل صالح، علم نافع لقوله: ﴿هُدًى﴾، وعمل صالح لقوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ لأن الرحمة لا تُنال إلا بالعمل الصالح.

٣ - **ومنها:** الحث على الإحسان، لقوله: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الإحسان سببٌ لنيل العلم والعمل الصالح؛ لأن الله جعله هدى ورحمة للمحسنين.

٥ - **ومنها:** أنه كلما ازداد إحسان العبد ازداد علمه وعمله الصالح؛ لأن الحكم إذا عُلِّق على وصف ازداد بزيادته ونقص بنقصه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إن إقامة الصلاة من الإحسان؛ لأن ما بعدها بيان لها ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله، أن الله قدَّمها على إيتاء الزكاة مع أن إيتاء الزكاة فيه نفعٌ متعدٍّ للغير، ولكن الصلاة أحب إلى الله منها وأفضل.

٣ - **ومنها:** الحث على إقامة الصلاة، من ثناء الله على المقيمين لها، والثناء لا يكون إلا على شيء محبوب مرغوب إلى الله.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضل إيتاء الزكاة، وأنها تلي الصلاة في الفضيلة، لقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على من أيقن بالآخرة، لقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: إثبات البعث، لقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن المتصفين بما تقدَّم هم الذين على الهدى.

فيتفرَّع على ذلك: أن من خالف فيما تقدَّم فليس على هدى، وأنه فاته من الهدى بقدر ما فاته من العمل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إظهار فضل الله عز وجل على هؤلاء الفضلاء، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن ربوبية الله عز وجل نوعان: عامة، وخاصة، فالعامة لجميع الخلق ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]، والخاصة للمؤمنين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن بهذه الأعمال الفاضلة الجليلة، والاعتقادات النافعة يحصل الفلاح، لقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بذلك، وجهه: الحصر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا
وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٦-٩].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

من للتبعيض، والجار والمجرور خبر مُقدَّم، و﴿مَن يَشْتَرِى﴾ مبتدأ مؤخَّر، وقوله: ﴿يَشْتَرِى﴾ معنى الاشتراء: الاختيار؛ يعني: من يختار، وعبَّر عن الاختيار بالاشتراء إشارة إلى حرصهم على هذا الأمر؛ لأن الاشتراء إنما يكون بالمعاوضة، فكأنهم من قوة اختيارهم لهذا الشيء كأنهم بذلوا فيه أموالهم، إذن يشتري معناها: يختار، وعبَّر عن الاختيار بالاشتراء إشارة إلى قوة رغبتهم له؛

حيث شبَّه هذا الاختيار بالمشتري الذي يبذل ماله من أجل الحصول على ما اختاره.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ هنا ﴿يَشۡتَرِي﴾، و﴿يشري﴾ بينهما فرق ﴿يشري﴾ بمعنى: يبيع، ومعنى ﴿يَشۡتَرِي﴾: يبتاع، وعند الناس أن الشراء هو الاشتراء، وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧] يشري نفسه؛ يعني: يبيعها، بدليل قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]، فهم بائعون.

وقوله: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [أي: ما يُلهِي منه عما يعني] ﴿لَهۡوَ﴾ مضافة إلى الحديث من باب إضافة الشيء إلى نوعه، فالإضافة على تقدير من، كما يقال: ثوب خزٍّ، ثوب صوفٍ، خاتم حديد، وما أشبه ذلك، فهو على تقدير من، وهكذا كلما أُضِيف الشيء إلى نوعه فالإضافة فيه على تقدير من، إذن ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: لهوًا من الحديث، واللهو: كل ما يُلهَى به، والذي يُلهَى به آلة ما يكون في الشيء الباطل، وقد يُلهَى بالخير عن الشر، لكن أكثر ما يُطلَق اللهو في مقام الذم، وكل لهو يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا مداعبة أهله، وترويض فرسه [(١)]، وما أشبه ذلك مما يكون فيه مصلحة، وإلا فإن الأصل أن ما يُلهَى به باطل.

والذي يُلهَى به نوعان: حديث، وهو: القول، والثاني: فعل؛ يعني: فالذي يُلهَى به إما حديث وهو القول، وإما حركات وهي الفعل، والله عز وجل ذكر هنا لهو الحديث، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: [أي: ما يُلهِي منه عما يعني] كل ما يُلهَى به عما يعني فهو من لهو الحديث، وأما ما يعني الإنسان ولكن يلهو بالمفضول عن الفاضل فليس هذا من لهو الحديث؛ لأن له فائدة في اللهو بالمفضول لكنها فائدة ناقصة، ولا شك أن الأقوال مراتب، كما أن الأفعال مراتب، فلو تلهَّى الإنسان بحديث فيه فائدة عن حديث أفيَد منه؛ هل نقول: إن هذا من لهو الحديث أو لا؟ لا؛ لأن فيه فائدة، ليس مجرد لهو يلهو به الإنسان، وإذا كان فيه فائدة فإننا نقول لهذا الرجل: إن اختيارك للمفضول عن الفاضل يعتبر سوء تصرُّف منك، والذي ينبغي أن تلهو بالأفضل عن المفضول.

قال: ﴿لِيُضِلَّ﴾ [بفتح الياء وضمها] وأما الضاد فهي مكسورة على القراءتين، ليَضِلَّ؛ أي: هو، ليُضِلَّ؛ أي: غيره؛ يعني: يُضِل غيره، وفائدة القراءتين هنا: اشتمال هذه الكلمة على المعنيين، الضلال بنفسه، وإضلال غيره.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [طريق الإسلام] والصواب: أن يقال: طريق الله، وهو: الإسلام، سبيل الله طريقه المُوصِل إليه، والذي وضعه هو سبحانه وتعالى، وهو الإسلام، وسُمِّي طريق الله أو سبيل الله؛ لأنه المُوصِل إليه، ولأنه سبحانه هو الذي وضعه وشرعه لعباده، ويُطلَق على سبيل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٨٥) وصححه الألباني في غاية المرام برقم (٣٨٩).

المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، ولا تنافي بين الإضافتين؛ فهو مضاف إلى الله لأنه مُوصِل إليه، وهو الذي وضعه وشرعه، ومضاف إلى المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يسلكونه، ومثله: الصراط أُضيف إلى السالكين في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، وأُضيف إلى الله؛ لأنه الذي شرعه ووضعه لعباده ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣].

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ هذا لا يعني أن هناك لهوًا يضل به الإنسان بعلم، فهي إذن صفة كاشفة مُبيِّنة لحقيقة الأمر؛ أي: أن فعله هذا ناشئ عن الجهل بالله عز وجل، وعن الجهل بشرعه، وعن الجهل بحقيقة ما خُلِق له، كيف تتلهَّى بأمر لا تستفيد منه؟ فهذا جهل بما ينبغي أن تعلمه لتعتبر به، لكن كثيرًا من المفسرين قال: إن المراد بلهو الحديث: هو الغناء، وممن قال بذلك: ابن مسعود رضي الله عنه [1]، وكذلك ابن عباس [2] وجماعة، حتى إن ابن مسعود يحلف فيقول: (والله الذي لا إله إلا هو إنه الغناء)، والغناء يُنبِت النفاق في القلب، وتفسير الصحابي حُجَّة، حتى ذهب الحاكم وجماعة من أهل العلم إلى أن تفسير الصحابي له حكم الرفع؛ يعني: يكون كالحديث المرفوع، والصحيح: أن الأمر ليس كذلك، فليس له حكم الرفع إلا أن يكون مما لا مجال للاجتهاد فيه، فأما مجرد تفسير آية بمقتضى اللغة العربية، فإن الصحيح أن تفسير الصحابي ليس له حكم الرفع، لكنه مُقدَّم على غيره.

ثم اعلم أن المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم قد يذكرون تفسير الآية على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فإذا قال ابن مسعود: إن المراد بلهو الحديث: الغناء لا يعني: أنه لا يجتمع معه غيره؛ بل يكون هذا على سبيل التمثيل فقط، ويدلُّك لهذا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] قال بعض العلماء في التفسير: الظالم لنفسه هو الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، وقال آخرون: هو الذي لا يُزكِّي، ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ والمُقتصد هو الذي يأتي بالصلاة في آخر وقتها، وقال آخرون: هو لذي يؤدِّي الزكاة المفروضة فقط، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ قال بعضهم: هو الذي يصلي الصلاة في أول وقتها، وقال آخرون: هو الذي يؤدِّي الزكاة والصدقة، هذا ما يدل عليه؟ على أن العلماء قد يُفسِّرون الآية ببعض الأمثلة، فلا يُنافي أن تكون الآية متناولة لغيرها.

فتفسير ابن مسعود وابن عباس وغيرهما للهو الحديث بأنه الغناء لا يعني: أنه يمتنع أن يُراد

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١١٣٠) وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب ص (١٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١١٣٧) وصححه الألباني في تحريم آلات الطرب (١٤٣).

بالآية ما هو أعم، وعلى هذا فنقول: الآية تشمل كل لهو الحديث الذي لا نفع فيه من الغناء، ومنه أيضًا: مطالعة ما يُكتَب في الصحف والمجلات من الكلام المُراء الذي لا فائدة منه، فإنه في الحقيقة مضيعة للوقت، وإذا كان يشُدُّ الإنسان إلى ما هو أفضل صار أشد، فعلى كل حال نقول: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ كل حديث لا فائدة منه، سواء كان ذلك يجُرُّ إلى محرم، أو لا يجُرُّ إلى محرَّم، لكن إن جرَّ إلى محرَّم صار أعظم.

فإذا قال قائل: الآية يقول الله فيها: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأنت قلت: إن لهو الحديث كل ما لا نفع فيه، وما لا نفع قد يضل وقد لا يضل، فإننا نقول: إن الإنسان إذا عوَّد نفسه على أن يشتغل بهذا اللهو الذي لا نفع فيه جرَّته إلى ما فيه مضرَّة؛ لأن النفس إما أن تشغلها بالحق أو تشغلك بالباطل.

واللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هل هي للتعليل، أو للعاقبة؟ الجواب: هي صالحة للأمرين؛ فإن كان الإنسان يقصد بلهو الحديث: أن يُضِل غيره به فاللام للتعليل، وإن كان لا يقصد ذلك فاللام للعاقبة.

ومن لهو الحديث أيضًا الذي قد يضل عن سبيل الله: ما يوجد في قصائد الصوفية البريئة من الشرك، وإلا بعضها شرك - والعياذ بالله -، بعضها حلول، وأن الرب عز وجل حالٌّ في مخلوقاته، فهذا معروف شأنه حتى لو كان نثرًا فإنه محرم، لكن بعضها ليس كذلك إلا أن بعض الناس يتلهَّى بها عن مواعظ القرآن والسنة حتى يكون ذلك ديدَنَه، وهذا لا يجوز، ويوجد الآن ما يُسمَّى بالأناشيد الإسلامية التي استولَت على عقول كثير من الناس، حتى صار كأنها يقرأون القرآن، دائمًا على لسانه وعلى قلبه، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «الفتاوى» أن ذلك مما يُلهِي عن القرآن والسنة، وحذَّر منه تحذيرًا كثيرًا، وبعض الناس يجعل أيضًا في هذه القصائد يجعل معها دُفًّا، فيكون إلى اللهو أقرب منه إلى الذِّكْر، وبعض الناس يقول: أيُّها؛ هذه أو أم كلثوم؟ نقول: أنت الآن مفروضٌ عليك أن تفعل هذا أو هذا حتى تقول: أنا مُخيَّر بين الأمرين فأختار أيسرهما؟ على أن أم كلثوم قد يسمعها الإنسان وهو يشعر أنه مُذنب فيحاول الإقلاع، لكن هذا يفعله على أنه مُتقرِّب إلى الله بذلك فيستمر عليه، وما هذا إلا نظير هؤلاء الذين يتحيَّلون على الربا بالخداع وبيع الخام والحِيل وما أشبهها، ويقولون: هذا أحسن أو الربا الذي في البنوك؟ فنقول: ليس الإنسان مُخيَّرًا بين هذا وهذا، الحمد لله توجد أشياء مُباحة يُتمكَّن من فعلها بدون أن يفعل هذه الأشياء التي تصدُّه عن القرآن والسنة.

إذن الضابط في لهو الحديث هو: كل كلام لا فائدة منه، وأما ما فيه فائدة ولكن اشتغل به عما هو أفيَد فليس لهوًا لكنه خلاف الحكمة؛ إذ إن الحكمة أن يشتغل الإنسان بالأفضل عن المفضول.

وعاقبته: ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ [بالنصب عطفًا على يضل، وبالرفع

عطفًا على يشتري] قراءتان: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا﴾ يكون عطفًا على ﴿لِيُضِلَّ﴾، أو ويتَّخِذُها عطفًا على ﴿يَشْتَرِى﴾؛ يعني: ومن الناس من يتخذها هزوًا، وبينهما فرق؛ لأن قراءة النصب تجعل الحامل على من يشتري لهو الحديث الحامل له أمران: الضلال، واتخاذها هزوًا، وأما على قراءة الرفع فإن الحامل على اشتراء لهو الحديث، شيء واحد، لكن من الناس أيضًا من يتخذ آيات الله هزوًا؛ أي: مكانًا للاستهزاء، يقول: [مهزوءًا بها] فأشار المؤلف بقوله: [مهزوءًا] إلى أن المصدر هنا بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول كثيرًا ما يأتي في اللغة العربية.

واتخاذها هزوًا له أنواع كثيرة؛ منها: أن يستهزئ بالقرآن في نظمه وتركيبه، ومنها: أن يستهزئ بالقرآن في أخباره، ويقول: أساطير الأولين، ومنها: أن يستهزئ بالقرآن في أحكامه، ومنها: أن يستهزئ بالسنة، ومنها: أن يستهزئ بالرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها: أن يستهزئ بمن تمسَّك بالسنة لا لشخصه ولكن لعمله، وهي كثيرة، حتى إن بعض أهل العلم يقول: إن الإنسان إذا صلى وهو مُحدِث فهذا استهزاء بآيات الله، ويقول: إنه إذا عمِل مُبطِلًا من مُبطِلات العبادة فهو مُستهزئ بآيات الله، وعلى كل حال؛ كل من حوَّل آيات الله عز وجل إلى هُزء بالقول، أو بالفعل، أو بالهيئة فإنه يُعتبر مُتخذًا لها هزءًا، والاستهزاء بآيات الله عز وجل ليس بالأمر الهيِّن، حتى إن أهل العلم يقولون: من قال كفرًا أو فعل كفرًا ولو هازلًا فإنه يكفر، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أولاء اسم إشارة للجمع، مع أن الضمائر التي قبلها للمفرد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾، ﴿لِيُضِلَّ﴾، ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ فهي للمفرد، ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ جمع؛ لأن مَن في ﴿مَن يَشْتَرِى﴾ اسم موصول تصلح للمفرد والجماعة، فإن أفردتَ ما يعود عليها صرتَ متبعًا للفظها، وإن جمعته فأنت مُتبعٌ لمعناه، ويجوز أن تُراعي لفظها أو معناها في كل الكلام، ويجوز أن تُغيِّر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق: ١١] كل هذا على سبيل الإفراد التابع للفظ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هذا باعتبار المعنى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ باعتبار اللفظ، فهي آية واحدة ومع ذلك غُيِّرت فيها الضمائر من مراعاة اللفظ إلى مراعاة المعنى إلى مراعاة اللفظ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: الذين يفعلون هذا الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أتى بـ (لهم) وهو الخبر قبل المبتدأ لإفادة الحصر، وأتى بالجملة الاسمية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ لإفادة الثبوت والدوام والاستحقاق لهذا العذاب.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ العذاب بمعنى: العقوبة، و﴿مُّهِينٌ﴾ [أي: ذو إهانة] يعني: يهينهم - والعياذ بالله - بدل ما كانوا يستعزُّون بأنفسهم ويسخرون بآيات الله حتى يضعونها عن مكانها

اللائق بها عُوقِبوا بمثل جنايتهم، ودائمًا الجزاء من جنس العمل، لا في الدنيا ولا في الآخرة، «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» مثلًا بمثل، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وعلى هذا فقِسْ، فالجزاء من جنس العلم.

هذا الرجل الذي اتخذ آيات الله هزوًا غرضه: أن يضعها بين الناس، وأن يجعلها محل سخرية غير معبوءٍ بها، ولا مهتم بها، فصار جزاؤه والعياذ بالله أن الله تعالى يجزيه بالعذاب المهين الذي يُهينه ويُذِلُّه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال المؤلف: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ [أي: القرآن] ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [مُتكبِّرًا] ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقرأ، من القارئ؟ أي إنسان، الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعون، أو أي إنسان، إذا قُرِئَت عليه آيات الله فإنه يُولِّي مُستكبرًا يُعرِض، وليس إعراضًا على وجه المماثلة، أو إعراضًا لشغل آخر، ولكنه يُعرِض مستكبرًا – والعياذ بالله –، والاستكبار هنا استفعال من الكبر، والسين والتاء فيه للمبالغة، وليست للطلب؛ لأن السين والتاء تارة تكون للطب؛ كقولك: أستكبر الله؛ أي: أطلب مغفرته، وتارة تكون للمبالغة؛ مثل: استغفر، فهنا ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: مُبالغًا في كبرياءه والعياذ بالله، وإعراضه عن آيات الله.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ هذه تشبيه في موضع الحال؛ يعني: كحال الذي لم يسمعها في عدم الانتفاع منها، لكنه أقبح منه لكونه ولَّى مُستكبرًا، فالذي لم يسمعها قد يكون معذورًا، لكن من سمعها وولَّى مُستكبرًا فهو كالذي لم يسمعها باعتبار عدم الانتفاع، لكنه أشد باعتبار تولِّيه مُستكبرًا.

ثم قال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ يقول: [صممًا] الوقر: الصمم؛ كأن الصمم يسد الأذن، فالمعنى: أنه – والعياذ بالله – ما كأنه سمع الآيات؛ بل كأن أذنه التي هي محل السمع غير مستعدة للسمع، فهو لم يسمع، وليس عنده آلة سمع، ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾ أذنيه الاثنين لا أذن واحدة ﴿وَقْرًا﴾ قال المؤلف: [وجملتا التشبيه حالان من ضمير ولَّى، أو الثانية بيان للأولى] لأنهما في محل نصب على الحال، التشبيه هذا كله في محل نصب على الحال، حال من فاعل ولَّى؛ يعني: ولَّى مُستكبرًا مُشابهًا لمن لا يسمع، ومُشابهًا لمن في أُذنيه وقرٌ، وهذا في غاية ما يكون من بيان حال هذا الرجل في إعراضه، وعدم انتفاعه بآيات الله، إذا طبَّقنا هذه الآية على حال بعض الناس اليوم وجدنا أنها تنطبق، فإننا نسمع بعض الناس إذا جاءت الأغاني في الراديو أو التليفزيون فتح لها قلبه وأذنه.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ قال المؤلف: [أعلمه] واعلم أن البشارة إنما تكون في الخير، هذا في الغالب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣]، ما قال: لهم البشرى بكذا وكذا، فعُلِم أن البشرى هنا إنما هي بالخير، وإن قُيِّدَت بالخير صار ذلك تأكيدًا، كما في قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وإن قُيِّدت بالشر فهي بالشر، فالبشرى إما أن تُطلَق أو تُقيَّد، إذا أُطلِقت فهي بالخير، وإن قُيِّدت بالخير فهي خير ويكون ذلك تأكيدًا، وإن قُيِّدت بالشر فهي بالشر، لكن هل قِيلت فيه على سبيل الحقيقة، أو على سبيل التهكُّم؟ المؤلف يرى أنها قِيلَت على سبيل التهكُّم؛ لأن الأصل فيها الخير، فإذا قُيِّد بالشر فهو من باب التهكُّم به، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] على القول بأن المراد: العزيز الكريم في تلك الحال، لا أنك أنت العزيز الكريم في الدنيا من قبل، ولكن قد يقول قائل: إن البشرى إذا قُيِّدت بالشر فهي على حقيقتها، وأن أصل البشرى من البَشَر، وهو: الإعلام بما يتغيَّر به الوجه، فإن تغيَّر بالسرور والانشراح فهي بالخير، وإن تغيَّر بالانقباض والعبوس فهي بالشر، فكل ما كان مُؤثِّرًا على بشرة الإنسان فهو بشرى، لكن هي في الأصل بالخير.

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بمعنى: مؤلم، في الأول: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، وفي الثاني: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذو إيلام؛ لأنه فعل أفعالًا أعظم من الأول، هذا الأخير ماذا يفعل؟ إذا تُتلى عليه آيات الله ولَّى مُستكبرًا، فهو أعظم من الذي يشتري لهو الحديث، فالأول يُصاب بعذاب مهين، والثاني يُصاب بعذاب أليم، والموصوف واحد في الحقيقة، لكن أحواله متغيرة.

قال المؤلف: [وهو النضر بن الحارث كان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويُحدِّث بها أهلَ مكة، ويقول: إن محمدًا يُحدِّثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أُحدِّثكم أحاديث فارس والروم، فيستملِحُون حديثَه، ويتركون استماع القرآن]، المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [وهو النضر] وتعيينها بالنضر فقط لا شك أنه قصور، والصواب: أنها عامة له ولغيره، وسواء بهذه الطريقة التي كان يتخذها هو أو بغيرها، كما سبق في الأمثلة، فالصواب العموم، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ دائمًا يُخُصُّ القرآن بالعموم، كما مرَّ علينا كثيرًا، يحمل الآيات التي تتحدَّث عن الكفر والشرك يحملها على أهل مكة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وهذه طريقة القرآن إذا ذكر آيات الوعيد وصفات من يستحقون ذلك الوعيد ذكر بعدها آيات الوعد وصفات من يستحق ذلك الوعد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فالإيمان محله القلب؛ يعني: آمنوا بما يجب الإيمان به، وهو كما قال الرسول ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يعني: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح: كل ما جمع بين شرطين: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، وهل يدخل في ذلك التَّرْك؟ الذي لا يزني هل نقول: إنه عمِل؟ مجرد التَّرْك في الحقيقة ليس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١/ ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعمل، لكن إذا اقترن به النية صار عملًا؛ لأنه إذا اقترنت به النية صار كفًّا للنفس، والكفُّ عمل، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً»(1)، لكنه ذكر علَّتها فقال: إنه تركها من جرَّاء؛ أي: من أجل، وهذا هو الفصل في الخلاف؛ هل الترك فعل وعمل أو لا؟ نقول: الترك ليس بفعل ولا عمل إلا إذا اقترن به نية، فإنه إذا اقترن به نية صار فيه كفٌّ للنفس، وحينئذٍ يكون بهذا الاعتبار عملًا.

وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ خبر مُقدَّم، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ جمع جنة، وجُمِعت باعتبار أنواعها، وكذلك باعتبار مراتبها، الجنة في اللغة هي: البستان الكثير الأشجار، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تُجِنُّ من كان فيها؛ أي: تستره وتغطِّيه، أما الجنة التي وُعِدَها المتقون فإنها الدار التي أعدَّها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فينبغي أن تُعرَّف الجنة التي وُعِدها المتقون بهذا، ما يقال: الجنة هي الحائط الكثير البستان؛ لأنك إذا قلت هذا في تعريف الجنة التي وُعِدها المتقون، هل تشعر بأن لها من المقام والعظمة ما كنت تنتظره من قبل؟ لا، ولكنك تقول: هي دار النعيم التي أعدَّها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ النعيم كلمة جامعة تشمل سرور القلب، وترف البدن، فالإنسان مُنعَّم فيها في ظاهره وباطنه، في الدنيا ما يمكن أن يجتمع الأمران، الغالب أن من تنعَّم ببدنه فإن قلبه يغتمّ بحزن وعذاب، ومن الناس من يُجمَع له بين الأمرين - والعياذ بالله -، أما أهل الجنة فإنهم جمع الله لهم بين سرور القلب، وبين ترف البدن، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [حال مُقدَّرة] اعلم أن الحال تنقسم إلى قسمين: حال مقربة بمعنى: أن صاحبها مُتلبِّسًا بها الآن، وحال مُقدَّرة بمعنى: أنها ستكون لصاحبها، فهنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا وعد وليس خبرًا، ما قال: يدخلون جنات النعيم؛ بل وعدهم بأن لهم جنات النعيم، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فهل هم خالدون فيها حال وعدهم بها، أو بعد أن يُبعَثوا؟ بعد أن يُبعَثوا، قال: [حال مُقدَّرة؛ أي: مُقدَّرًا خلودهم فيها إذا دخلوها] أما الآن فليسوا خالدين فيها؛ لأنهم إلى الآن ما بُعِثوا ولا وصلوا إليها، وعليها فنقول: إنها حال مُقدَّرة؛ يعني: أن صاحبها ليس متلبِّسًا بها الآن.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود: هو المُكث، إما الدائم، وإما الطويل؛ يعني: أنه قد يكون مُكثًا دائمًا، وقد يكون مُكثًا طويلًا، فإذا أُكِّد بالتأبيد وقيل: أبدًا فهو قطعًا للمُكث الدائم؛ لأنه أُكِّد به.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (٢٠٧/ ١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ عندنا الآن مصدران: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ والوعد هو: مثل العهد أن الواعد يتعهَّد للموعود بما وعده به، ويقال: وعد ووعيد، فالوعد فيما يسر، والوعيد فيما يسوء.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر عامله محذوف؛ أي: وُعِدوا وعد الله، أو وعدهم الله وعد الله.

وأما قوله: ﴿حَقًّا﴾ فهو أيضًا مصدر، ولكن عامله أيضًا محذوف، والتقدير: يُحِقُّه حقًّا، أو حقَّه حقًّا، فعليه يكون الله تعالى أكَّد هذه الجملة الخبرية بمُؤكِّدين معنويين؛ أحدهما: أنها وعد الله، ووعد الله عز وجل لا يُخْلَف؛ لأنه لا يخلف الميعاد لتمام صدقه وقدرته، والإخلاف بالوعد إنما يأتي من أمرين: إما أن يكون الواعد كاذبًا فليس محلًّا للصدق، وإما أن يكون صادقًا لكن يعجز عن الوفاء بما وعد، والله عز وجل قد انتفى في حقه الأمران؛ فهو مُنزَّه عن الكذب، ومُنزَّه عن العجز، إذا كان مُنزَّهًا عن الكذب وعن العجز لزِم أن يكون كامل القدرة، وحينئذٍ يتحقَّق ما وعد به.

وأما المُؤكِّد الثاني فهو قوله: ﴿حَقًّا﴾ يعني: أؤكِّده تأكيدًا، وأُحقُّه حقًّا، وهذا من زيادة التوكيد في الوعد.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الذي لا يغلبه شيء فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [الذي لا يضع شيئًا إلا في محلِّه].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول المؤلف: إنه الغالب الذي لا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده، ولكن سبق لنا أن العزيز له ثلاث معان: عزة القهر، وعزة القدر، وعزة الامتناع، فأما عزة القهر فمعناه: أن الله سبحانه وتعالى هو الغالب الذي لا يُغلَب، ولهذا يقال: فلان عزيز؛ يعني: غالب في الجهاد والقتال، قال الله تعالى: ﴿وينصرك الله نصرا عزيزا﴾، الثاني: عزة القدر؛ بمعنى: أنه ذو قدر عظيم، والثالث: عزة الامتناع؛ بمعنى: أنه يمتنع عليه النقص، ومنه: قولهم: أرض عَزاز للأرض القوية الشديدة الصلبة، ونُسمِّيها في اللغة العامية: عَزاز؛ لأنها قوية صلبة، فصار معنى العزيز: المُتصف بالعزَّة.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فتقدم لنا أنه مشتق من الحكم والحكمة، وأما الحكم نوعان: حكم كوني قدري، وحكم شرعي ديني، فما جاءت به الرسل من الأوامر والنواهي هذه أحكام شرعية دينية، وما يتعلَّق بالخلق والتكوين ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهذا حكم كوني، ثم إن هذين الحكمين مقرونان بالحكمة، وهي: موافقة الصواب، وموافقة الصواب معناه: أن يضع كل شيء في موضعه، فكل شيء في أحكام الله الكونية وأحكامه الشرعية فإنه في غاية ما يكون من الصواب، وفي غاية ما يكون من المطابقة لأن الله ما خلق شيئًا عبثًا، ولا شرع شيئًا سفهًا؛ بل كل مشروعاته بالحكمة، وكل مخلوقاته بالحكمة.

وتقدم لنا أن الحكمة أيضًا نوعان: حكمة غائية، وحكمة صورية، الصورية معناها: أن هذا الشيء على هذه الصورة المُعينة موافق للحكمة، والغائية معناها: أن إيجاد هذا الشيء له حكمة وغاية محمودة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** ذم من يركن إلى لهو الحديث، وهو ما لا خير فيه، لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تحريم الغناء؛ لأن ابن مسعود أقسم بالذي لا إله إلا هو أنه الغناء، وتفسير الصحابي حُجَّة، حتى ذهب الحاكم وجماعة من أهل العلم إلى أن تفسيره في حكم المرفوع، ولا شك أن الغناء المشتمل على آلة اللهو حرام؛ لأن نفس آلة اللهو حرام، قرنها رسول الله ﷺ بالزنا والخمر والحرير، فقال كما في «صحيح البخاري» من حديث أبي مالك الأشعري: «لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ، وَالحَرِيْرَ، وَالخَمْرَ، وَالمَعَازِفَ»[1]، فكلمة «يَسْتَحِلُّونَ» دليل على أنها حرام، واستحلالهم لها إما باعتقادهم أنها حلال، وإما بفعلهم إياها فعل المُستحِلِّ لها الذي لا يُبالي، والموجود الآن الأمران؛ فإن من الناس من استحلَّ هذه المعازف - والعياذ بالله - وقال: إنها حلال، ومنهم من يعتقد تحريمها لكنه يفعلها فعل المُستحِلِّ لها بدون مُبالاة، وأنتم ترون ما وقع فيه الناس اليوم من البلاء والعياذ بالله، فإنه أصبح لها تأثير عظيم على قلوبهم، ودينهم، وسلوكهم، وانظر إلى المُبتلَيْن بها - والعياذ بالله - يقول: ما هو المهم إلا هذا الأمر، وهم أبعد الناس عن معرفة القرآن والسنة، ومعنى القرآن والسنة، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أنه لا يجتمع حب الغناء وحب كتاب الله عز وجل، قال ابن القيم:

حبُّ الكتاب وحبُّ ألحان الغناء ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعان

ولهذا قال هنا: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والغناء بدون آلة لهو ما حكمه؟ إن اشتمل على محرم فهو حرام، وقد يصل إلى حد الشرك، كما لو اشتمل على الغلو في مدح أحد غلوًّا يصل به إلى درجة الخالق، وقد يكون محرَّمًا وفسقًا، كما لو اشتمل على تحبيب الفسق والمجون، وما أشبه ذلك، وقد يكون محرمًا تحريم الغيبة، كما لو كان يسُبُّ شخصًا معينًا، المهم: أنه درجات، أما إذا كان مباحًا فإنه لا شك أنه من اللهو لكنه إذا استُعين به على شيء مُباح فلا حرج فيه؛ مثل: غناء العمال الذين يُغنُّون لكي يتقوَّوا على ذلك، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في حفر الخندق يرتجزون،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والرسول عليه الصلاة والسلام يُجيزُهم، يقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدا

والرسول عليه الصلاة والسلام يُجيبهم ويقول:

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرَ الآخِرَه فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالمهَاجِره [1]

وكان رسول الله ﷺ ينقل التراب، ويرتجز بقول عبد الله بن رواحة:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقنا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا فَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا [2]

قال البراء بن عازب رضي الله عنه في هذا الحديث: يمُدُّ صوته بآخره، فهذا لا بأس به لما فيه من الإعانة على العمل.

ومنه: الحُداء، فإنه كان يُحدَى بين يدي الرسول ﷺ للإبل؛ لأن حداء الإبل يزيدها مشيًا وإسراعًا، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: «يَا أَنْجَشَة! رِفْقًا بِالقَوارِيرِ»[3] يعني: بالنساء، وشبَّهها بالقوارير لأجل أن يرفق بها أكثر؛ لأن القوارير مع الحركة تتكسَّر.

فالحاصل: أننا نقول: أن الغناء له الأحوال التي ذكرنا؛ أما إذا اقترن بآلة لهو كما هو موجود الآن فهو حرام ولا شك؛ لأنه داخل في حديث أبي مالك الأشعري الذي رواه البخاري، فهو وإذا خلا فهو على حسب الحال.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن لهو الفعل أيضًا لا يجوز التشاغل به، يُؤخذ من قوله: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فإن القياس: أن لهو الفعل كذلك؛ لأن الكل لهو وضياع وقت، وعلى هذا فالألعاب التي لا تُزيد الإنسان نشاطًا ولا قوةً ويضيع الوقت تدخل في هذا.

المهم: أن لهو الفعل يؤخذ من الآية الكريمة، من فحواها أن لهو الفعل كلهو الحديث.

والكرة ما تدخل فيها؛ لأن الكرة فيها رياضة بدنية، إلا إذا ألهت عن الواجب، مثلًا: البيع والشراء الجائز بالإجماع إذا ألهى عن واجب صار حرامًا، فإذا ألهت فنعم، أو كانت تشتمل على كشف العورة ؛ كما لو كانت - مثلًا - يبدون أفخاذهم ، فإن هذا أيضًا لا يجوز، لكن إذا انتفت المحظور فلا أرى بها بأسًا؛ لأنها تفيد البدن.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٣٤) ومسلم (١٣٠/ ١٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٣٧) ومسلم (١٢٥/ ١٨٠٣) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٧٠/ ٢٣٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

والشطرنج حرام، وفيه خلاف بين أهل العلم، والصحيح: أنه حرام.

كل المباحات إذا اقترن بها ما يقتضي التحريم تكون حرامًا، وإذا اقترن بها ما يقتضي الوجوب صارت واجبة؛ لأن المباح بذاته قد تتعلق به الأحكام الخمسة، كما هو معروف.

وتحريم الحلال أشد من تحليل الحرام؛ لأن الله يحب أن يُيسِّر على عباده ويُوسِّع لهم، لا يكمن أن نقدم على شيء ونقول: هذا حرام إلا بالدليل؛ لأننا مسئولون عن هذا يوم القيامة، مسئولون عن نسبته إلى الله أن الله حرَّمه، ومسئولون عن التضييق على عباد الله فيما أباح الله لهم، فالمسألة ليست هيِّنة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ذم كل ما يصد عن سبيل الله، لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم إن كان يضل عن واجب صار حرامًا، وإن كان يضل عن مستحب لم يكن حرامًا، ولكنه يُذَم بلا شك.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم الهزء بآيات الله، لقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، والاستهزاء بآيات الله حكمه الكفر، فمن استهزأ بآيات الله فهو كافر بنص القرآن ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] فهو صريح في الكفر، ولهذا قال العلماء: إن من قال قول الكفر ولو كان هازلًا أو مازحًا فهو كافر، فمن سب الله أو رسوله أو دينه ولو كان هازلًا فهو كافر؛ لأن هذا - والعياذ بالله - أعظم من أن يسبَّه جادًّا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الوعيد الشديد على من هذه حاله، لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى آخره.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: أن من علامات هذا الصنف من الناس إعراضهم عن سماع آيات الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا الذي تتلى عليه آيات الله وهو قد اشترى لهو الحديث يكون - والعياذ بالله - كالإنسان الذي به صمم، لا يمكن أن يصل إليه سماع الحق، لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الوعيد الشديد على من إذا تليت عليه آيات الله ولى مستكبرًا.

٤- **ومن فوائدها**: ثبوت المدح والثناء لمن كان على العكس من ذلك؛ لأن الذم على صفة - وهذه قاعدة مفيدة - يقتضي مدح من اتصف بضدها، فيُؤخذ منه: مدح من إذا تُلِيَت عليه آيات

الرحمن أقبل إليها واستمع إليها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] يعني: ولا عميانًا، وإنها يقبلون إليها بآذان سامعة، وأعين مبصرة.

إذا قال قائل: هل من الإعراض عن آيات الله من يقول للقارئ: اسكت انتهِ من القراءة؟ ليس من هذا؛ لأنه قد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه لما قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقْرَأْ عَلَيَّ» فقال: يا رسول الله! أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ قال: «نَعَمْ؛ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فتلا عليه سورة النساء فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «حَسْبُكَ»[1] - يعني: قف - يقول: فرأيت النبي ﷺ عيناه تذرفان، وعلى هذا فيجوز للإنسان أن يقول للقارئ: اسكت، كما يجوز أيضًا أن يغلق الراديو إذا كان يقرأ القرآن ولا حرج عليه، وكذلك أيضًا في المُسجِّل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن البشارة تُطلَق على ما يسوء، لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن طريقته أنه إذا ذكر العذاب ذكر النعيم، إذا ذكر المؤمنين ذكر الكافرين، وهكذا؛ لأنه لو ذُكِر الإيمان أو المؤمنين ولم يذكر ما يُضادُّه غلب على الإنسان جانب الرجاء، ولو ذُكِر التخويف وأهل النار غلب عليه جانب الخوف، وهذا يضر المرء، وإنما يكون المرء أتم إذا صار يسير إلى الله بين الخوف والرجاء.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، من أين يؤخذ؟ لأن الثواب بالحسنى على العمل يدل على مدحه والثناء على فاعله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان لا يكفي؛ بل لابد من عمل صالح، فمجرد العقيدة لا تكفي إذا لم يكن عمل صالح؛ بل ربما نقول: إذا لم يكن عمل صالح فهو دليل على أنه لا عقيدة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[2]، لكن من الأعمال ما لا يُخرِج من الإيمان لا فعله ولا تركه، يكون من الكبائر لكن ما يخرج من الإيمان، إنما يدل على ضعف العقيدة والإيمان، ومن الأعمال ما يكون فعله أو تركه كفرًا، فلو أن أحدًا غَلَا بشخص حتى رفعه إلى منزلة الرب كان بذلك كافرًا، وإن كان يعتقد أن الله موجود، وان له الأسباب الكاملة، ولو أن أحدًا لم يصل كان كافرًا ولو كان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قال ابن القيم: لا تغتر بمن قال: إن رجلا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

يحافظ على ترك الصلاة ثم يقول: إنه مؤمن، فإن هذا لا يدري عن أعمال القلوب وشئونها وأحوالها، ولا يمكن لإنسان يحافظ على ترك الصلاة ثم يقول: إنه مؤمن، لو قال ذلك فهو كافر؛ إذ إن الإيمان حقًّا لا يدعه يترك الصلاة مع علمه بفضلها والوعيد على تركها، كيف تؤمن بأن الرسول قال: «مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[1]، ثم لا تصلي؟ وكيف تؤمن بأن الرسول يقول: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ» ثم لا تصلي؟ وكيف تؤمن بأن هذه الصلاة ما فُرِضت على الرسول إلا وهو في أعلى مكان، وفي أشرف ليلة، وبدون واسطة، وعلى أنها خمسون صلاة، كل هذا يدل على عناية عظيمة بهذه الصلاة، ثم لا تحافظ عليها وتغفل وتقول: إنك مؤمن؟ أعتقد لو أن أحدًا من الناس قال له ملك من الملوك: إذا زُرتَني في بيتي أعطيتك كذا، وإذا لم تزُرْني عاقبتك بكذا، ثم لم يزُرْه، هل يكون عنده الثقة بما قال هذا الملك؟ ما يكون عنده ثقة، لو كان عنده ثقة لذهب بلا شك على رأسه ما على رجليه، فكيف وهو يعرف بوعد الله ووعيده؟

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجنة، لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي موجودة الآن أم لا؟ موجودة الآن، وقد دخلها النبي عليه الصلاة والسلام، ورأى فيها قصرًا لعمر بن الخطاب.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن هذه الجنات مشتملة على النعيم الذي هو سرور القلب، وترف البدن، فأبدانهم في غاية ما يكون من الترف، وقلوبهم في غاية ما يكون من السرور ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] نضرة في أبدانهم، وسرورًا في قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الجنات جنات الخلد لا موت فيها، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقد ورد في عدة آيات من القرآن ذكر التأبيد لهذا النعيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

هل في الآيات ما يدل على أنه لا مرض في الجنة؟ نعم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لأن المرض ينافي النعيم، وعلى أنه ليس فيها شيخوخة؛ لأن الشيخوخة تنافي ذلك أيضًا، وعلى أنه ليس فيها همٌّ، أو كَدَر، أو تنغيص أبدًا، كل هذا ينافي النعيم، اللهم اجعلنا من أهلها.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا الوعد حق لا يمكن أن يُخلَف، لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضل الله تعالى على عباده، لكونه يؤكِّد لهم هذه الأمور هذه التأكيدات مع أنه جل وعلا يكفي خبره، أليس كذلك؟ خبره كافٍ، لكنه يؤكد هذا الخبر وهذا وعد من أجل أن يقوى الناس على الحصول على هذا النعيم، وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢١) من حديث بريدة ﷺ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزة والحكمة لله، لقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وإثبات هذين الاسمين من أسماء الله، وهما: العزيز، والحكيم.

قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]

التفسير

قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [أي: العمد، جمع عماد، وهو: الأسطوانة، وهو صادق بأن لا عمد أصلًا]، السماوات جمع السماء، ويُطلق السماء على كل ما علا، ويُطلق على السماوات ذات الأجرام المحسوسة خلقها الله عز وجل بغير عمد، والعمد جمع عماد، ويقول: [وهو: الأسطوانة] يعني: ليس لها أعمدة تحملها، وهل المعنى: أن لها عَمَدًا لا تُرى، أو أن المعنى: أنه لا عمد لها؟ أقول: إنه لا عمد لها، وهو ما عليه جرى المؤلف قال: [وهو صادق بأن لا عمد أصلًا] بمعنى: أنه يصح أن تقول: هذا ليس له عمد تُرى؛ يعني: فإذا انتفى رؤيتها انتفت هي؛ لأنها لو كانت لرأيناها كما نرى السماء، فلماذا لم نرها فالمعنى: أنه لا وجود لها، وقال بعضهم: نعم، هي ليس لها عمد، لكن الضمير في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ لا يعود على العمد، إنما يعود على السماء ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي: السماوات كذلك لا عمد لها، وقال بعض المفسرين: إن معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أن لها عمدًا لكن لا تُرى.

والصواب: أنه لا عمد لها، وأن الله تعالى أمسكها بقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وهذا أبلغ في القدرة، ألَّا يكون لها عمد أبلغ في قدرة الله عز وجل.

ولكن المعنى الأول كيف نخرجه له تخريجان: أحدهما: أن يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تعود على السماوات؛ يعني: أنكم ترونها كذلك لا عمد لها، فهي كذلك لا عمد لها، والقول الثاني: أنها يعود على العمد؛ أي: بغير عمد ترونها [وهو صادق بأن لا عمد لها أصلًا]، كما تقول: ليس في هذا المكان عمود أراه، المعنى: ليس فيه عمود، وهذا؛ أعني: كونها لا عمود لها أصح، وأبلغ في قدرة الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ويمسك السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾.

قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [جبالًا مرتفعة] ﴿وَأَلْقَى﴾ بمعنى: وضع، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع راسية، وهذه الرواسي هي الجبال، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾، فهذه الرواسي

هي الجبال، فهي رواسي بنفسها، وهي أيضًا مُرسِية للأرض مُثَبِّتة لها.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ قال المؤلف: [أن لا تميد بكم] فقدَّر لا النافية بعد أنْ، وهذا موجود، فإن لا النافية تُقدَّر بعد أنْ وهي زائدة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] فهنا لا زائدة بعد أنْ، والتقدير: لأنْ يعلم أهل الكتاب ألَّا يقدرون، وقد تُحذَف وتكون مُقدَّرة كما في هذه الآية؛ لأنه من المعلوم أن الله ما ألقى هذه الرواسي لأجل أن تميد بهم، وإنما ألقاها لئلا تميد، فتكون لا هنا عيَّنها السياق.

وقال بعض المُعرِبين: إنها لا تُقدَّر؛ بل يُقدَّر اسم مناسب؛ أي: تراها فأن تميد بكم، وقالوا: إن هذا أَولى، لئلا نُفسِّر الإثبات بالنفي؛ لأننا إذا قلنا: التقدير: ألَّا تميد بكم فسَّرنا الإثبات بالنفي، فإذا قلنا: تراها فأن تميد بكم فإننا نُفسِّر الإثبات بإثبات لكن على تقدير مراد، وهذه الآية لها نظير؛ مثل: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] هل البيان سبب للضلال، أو لعدمه؟ إذن المعنى: يُبيِّن الله لكم كراهة أن تضلوا على قول، أو ألَّا تضلوا على قول آخر.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يقول: [تتحرك] فسَّر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ المَيَدان بالحركة، والصواب: أن المَيَدان حركة خاصة، وهو الاضطراب، وليس مجرد الحركة؛ بل ألقى في الأرض رواسي حتى لا تميد؛ أي: لا تضطرب، وذلك أن الأرض موضوعة على الماء، فإن جميع جوانب الأرض من كل ناحية ماء، والجسم إذا وُضِع في الماء يتحرك ويضطرب أو لا؟ يتحرك ويضطرب لا شك، فإذا كان كذلك فلابد من شيء يحفظ توازنه، وذلك الشيء هو الجبال، فجعل الله عز وجل الجبال على الأرض حتى لا تضطرب بالناس.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني: أن تضطرب، وعند علماء الجيولوجيا من هذه الحِكَم والعلل شيء كثير؛ لأنه في بعض الأماكن تكثُر الجبال، فالجبال العظيمة الطويلة كثيرة، وفي بعض الأماكن تقل، وهذا يرجع إلى الحكمة التي خلق الله عز وجل، وقد تخفى علينا لكنها عند العلماء معروفة.

قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ بث بمعنى: نشر ووزَّع، ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ اسم فاعل؛ أي: من كل نفس دابة، فهو اسم فاعل من دبَّ يدبُّ، إذا درج ومشى، والدابة تُطلق عُرْفًا على ذوات الأربع، وتُطلق أيضًا في عُرْف أخص على الحمار فقط، أما معناها في اللغة العربية، فهي: كل ما دبَّ على الأرض، سواء يمشي على أربع، أو على ست، أو على أكثر، أو على بطنه، أو على رجلين، كل ذلك يسمى دابة، نشر الله عز وجل في الأرض هذه الدواب لحكمة عظيمة؛ لأن من هذه الدواب ما هو نافع، فينتفع الناس به، ومنها ما هو ضار فيحترز الناس عنه، ومنها ما لا يعرف منه نفعٌ أو ضرر، فيعرف الناس ما جعل الله تعالى فيه من الآيات ليعرفون به كمال قدرة الله وحكمته، فالأشياء النافعة ظاهرة حكمتها، نفع العباد وقيام المصالح بها؛ مثل: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣] هذا نافع، ومنها ما هو ضار، هذا الضار ما الفائدة من خلقه؟ الفوائد من خلقه كثيرة؛ منها: بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث كان قادرًا على أن يخلق ما فيه منفعة ومصلحة، وما فيه مضرة، فالكل خلق الله، والكل دابة، والكل من ماء، ومع ذلك هذا نافع، وهذا ضار، هذه حكمة.

الحكمة الثانية: أن الإنسان يعرف بذلك قدر نفسه، هذا الإنسان المُتمرِّد المُستكبر يعرف قدر نفسه في هذه المخلوقات، ولهذا يقال: إن ملكًا جبارًا كان جالسًا وحوله من أهل العلم من حوله، فكان يقول: ما هي الحكمة من خلق هذه الذبابة؟ فقال له رجل: الحكمة من ذلك: أن يُرغِم الله بها أنوف الجبابرة مثلك، هذه الذبابة تقع على أنف أي إنسان فتنعص هدوءه عليه، هذا ليعرف الإنسان قدر نفسه، وأنه ضعيف بالنسبة إلى قوة الله عز وجل.

الحكمة الثالثة في خلق هذه المؤذيات: أن الإنسان يذوق الألم والعذاب حتى يعرف أن العذاب غير ملائم له، فيُوجِب له النفور من معصية الله إلى طاعة الله عز وجل.

الحكمة الرابعة: أن الإنسان ربما يحمله على أن يقوم بما ينبغي أن يقوم به من الأوراد والأذكار، كثير من الناس قد يُورِد ويقرأ ما يعصمه من الأذى ليس لأجل شياطين الجن، ولكن خوفًا مما يُؤذيه حِسًّا، وهذا شيءٌ مُجرَّب ومُشاهَد، أخبرني بعض الناس الكبار أنه كان من عادته أن يقرأ آية الكرسي كل ليلة، يقول: فنسيتها ذات ليلة فلُدِغتُ، لُدِغ؛ لأنه ليس عليه من الله شيء حافظ، ومن قرأها في ليلة لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يُصبح.

هذه من الحِكم أن الله سبحانه وتعالى بثَّ في الأرض من هذه الدواب المؤذية، أما ما لا نفع فيه ولا ضرر فإن الإنسان يستدل به على قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، تجد هذه الدواب على كثرة أنواعها ما تستطيع أن تُحصِي أنواعها فضلًا عن أفرادها، ما بالك قد أعطاك الله تعالى الهداية بما هو من مصالحك، قال موسى عليه الصلاة والسلام لما قال له فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩- ٥٠]، وأنت إذا رأيت هذه النملة الصغيرة كيف هداها الله عز وجل إلى مصلحتها ومنفعتها، كيف تدَّخر القوت لها، وكيف تجلبه من بعيد، وكيف تُكسِّر أطراف الحبوب قبل أن تختزنه؛ لماذا؟ حتى لا ينبت؛ لأنه إذا جاءه المطر فإنه ينبت، لكن إذا كُسِّر أعلاه الذي يُثمِر فإنه لا ينبت، من الذي ألهمها ذلك؟ هو الله عز وجل، هي ما درست في المدارس، ولا تخرَّجت من الثانوية، ولا قرأت في كتب العلوم، لكن الله عز وجل هو الذي ألهمها ذلك.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» من هذه الأمور أشياء عجيبة، وذكر أنه ذُكِر لشيخ الإسلام ابن تيمية أن رجلًا وضع شيئًا من الطُّعْم، فجاءت ذرَّة من الذرَّات، فلما رأت الطُّعْم هذا ما استطاعت أن تحمله كبير، فذهبت إلى أخواتها فاستصرختهم، فجاءوا، يقول: فلما

أقبلوا نزع الطُّعْم، ذهبوا يبحثون في مكان الذرَّة التي أخبرتهم ما وجدوا شيئًا فرجعوا، فوضعه ثانية، فلما وجدته الذَّرَّة ذهبت إلى أخواتها فاستصرختهم، فجاءوا ولكن لما أقبلوا رفعها، فلما لم يجدوا شيئًا رجعوا، في المرة الثالثة فعل بهم كذلك، يقول: فاجتمع الذَّرُّ عليها فقتلوها، وقال شيخ الإسلام: هذا لأن جميع النفوس مجبولة على بُغض الكذاب الظالم، وهذه كذبت عليهم، وأخرجتهم من بيوتهم، والنتيجة لا شيء، وهذا شيء عظيم، إذا تأمَّل الإنسان هذه الأمور وجد العجب العُجاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ يقول: [فيه التفات عن الغيبة] إلى المتكلم، وقد سبق لنا أن الفائدة من الالتفات تنبيه القارئ؛ لأنه إذا تغيَّر أسلوب الكلام لابد أن ينتبه، والفائدة الثانية في هذا: بيان القدرة أن الأرض مفتقرة إلى السماء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ماءً وهو المطر، والمراد بالسماء هنا: العلو، وأن المطر ليس ينزل من السماء الذي هو السقف المحفوظ، وإنما ينزل من العلو.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يقول المؤلف: [صنف حسن] صنف تفسير لزوج، وحسن تفسير لكريم، وعندي أن الكريم هو الحسن وزيادة، وهو ما ينتفع الناس به من هذا النبات؛ كأنه رجل مِعطاء يُعطِي ويُغدِق، فهو نبات حسن، ومع ذلك نافع بسبب ما فيه، والزوج يأتي بمعنى: الصنف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]، وقوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم، والله أعلم.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾:

١- **يستفاد منها**: إثبات خلق الله للسماوات، ويتفرع على هذه الفائدة: إبطال قول الفلاسفة بِقِدَم الأفلاك، حيث أن الفلاسفة يقولون: إن الأفلاك قديمة وإنها لا تتغيَّر؛ لأن القديم عندهم الذي لا ابتداء له وما لا ابتداء له لا انتهاء له، فيكون في هذا إبطالٌ لقول الفلاسفة: إن الأفلاك قديمة وأنها لا تتغيَّر، ومن ثم أنكروا إنكارًا شديدًا انشقاق القمر، وقالوا: القمر لا يمكن أن ينشق؛ لأنه من الأفلاك، وأن معنى قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] أي: بان صدق الرسالة، وأنكروا الأحاديث الواردة في ذلك التي تلقَّتها الأمة بالقبول.

٢- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عز وجل في خلق هذه السموات العريضة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فيُستفاد منها: بيان القدرة من وجهٍ آخر، وهي: أن هذه السماوات العظيمة، والسقف الواسع بغير عمد، لقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

وأظن لو رأينا بناءً واسعًا ما فيه أعمدة لكنا نتعجَّب من هذا البناء، كيف هذا البناء واسعًا وما فيه عمد، مع أن بناء السماء أوسع وأعظم، ومع ذلك بغير عمد.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾: بيان حكمة الله ورحمته في إلقاء الرواسي، ورحمته لئلَّا تميد بالخلق.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الأرض تدور، كيف ذلك؟ يقولون: إن قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يدل على وجود أصل الحركة؛ لأن نفي الأخص يدل على وجود الأعم، ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] حيث كان دليلًا على وجود أصل الرؤية، وهذه الآية استدل بها أهل السنة على إثبات رؤية الله، وأهل البدعة على نفي رؤية الله، ولكن الصواب مع أهل السنة؛ لأن نفي الأخص يقتضي وجود الأعم؛ إذ ليس من المعقول أن يُنفَى الأخص مع انتفاء الأعم ثم لا يُتطرَّق له، لو كان الأعم منتفيًا لوجب أن ينفى الأعم لأجل يستفيد الأخص، لو كان الله لا يرى لقال عز وجل: (لا تراه الأبصار) حتى تنتفي الرؤية وينتفي الإدراك من باب أولى، فلما قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ عُلِم أن أصل الرؤية موجود لكنه لا يُدرَك سبحانه وتعالى، هنا لما قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ والمَيَدان الاضطراب، عُلِم أن أصل الحركة موجودة، لكن هذه الرواسي من أجل اتزان الحركة من أجل ألَّا تضطرب، هذا هو تقرير من يرى أن في الآية دليلًا على أن الأرض تدور.

أما الذين يقولون: هو دليل على أن الأرض لا تدور، فيقولون: إننا لا نسلِّم أن المَيَدان بمعنى: الاضطراب؛ بل نقول: إن الميدان هو الحركة، ألقى في الأرض رواسي أن ترسو ولا تتحرَّك، فيُفسِّرون المَيَدان بأصل أو مطلق الحركة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الواجب أن نرجع إلى اللغة العربية، فإذا كانت اللغة العربية تدل على أن الميدان هو الاضطراب، فنحن نقول: إن فيها دليل على وجود أصل الحركة، وإذا كانت اللغة العربية تقول: إن الميدان هو الحركة فإننا نقول: فيه دليل على أنها لا تدور، ونحن إذا قلنا: إنها لا تدور لا ينقص الله شيئًا؛ بل هو في الواقع زيادة في قدرته سبحانه وتعالى؛ حيث تدور هذه الأرض بجميع ما فيها؛ من بحار، وأنهار، وأشجار، ومدر وحجر، وكل شيء تدور ومع ذلك بهذا الاتزان البديع الذي لا يتغير، هذا دليل على قدرة الله عز وجل، كما أن سكونها وهي علينا دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى، لكن الشيء الذي يجب أن يُذكَر حتى يتبيَّن لنا كالشمس هو القول بأن ارتباط الليل والنهار بسبب دوران الأرض، هذا لا نُسلِّم به؛ بل نقول: إن الليل والنهار بسبب دوران الشمس على الأرض؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن ولا يمكن أن نتزحزح عنه إلا بدليل يكون مثل الشمس، فإن الله عز وجل أثبت الفعل للشمس ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] ولم يقل: إذا طلع الكهف عليهم يتزاور، وأثبت تزاور، ولو كانت الحركة للأرض لكانت الأرض هي التي تزاور ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾

هذا فعل ثالث، ولو كانت الأرض هي التي تدور التي يكون باختلاف دورانها الليل والنهار لقال: وإذا غربت الأرض أو خفِيَت الأرض وما أشبه ذلك، و﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ نفس الشيء، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر لما قال لأبي ذر: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»[1] لما غربت الشمس، فأخبر أنها تذهب هي بنفسها، فالصواب بلا شك هو هذا إلا إذا ظهر لنا دليل مثل الشمس فإنه يمكن أن تُؤوَّل هذه الآيات إلى أن المعنى غربت وطلعت باعتبار رؤية الرائي، وإن كان الرائي هو الطالع. أنت تسير بسيارة فطلع عليك مثلًا ناقة، فأنت تقول: طلعت عليَّ أم لا؟ بينما أسير إذ طلع عليَّ ناقة، تقول: طلعت عليَّ؛ لأنك أنت الذي طلعت عليها، هذا ممكن للرائي، لكن ما دمنا لم نتيقن هذا الأمر وإنما هي نظريات من قوم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالشرائع، فإننا لا نقبل ذلك منهم؛ بل نأخذ بظاهر كلام الله عز وجل.

فإن قال قائل: إن قولكم هذا يناقض قولكم بإمكان دوران الأرض؛ يعني: إذا أمكن دوران الأرض لزِمَ أن يكون تعاقُب الليل والنهار بسبب دورانها.

فنقول: إن هذا لا يلزمنا؛ لأنه من الممكن أن يدور هذا وهذا وتكون حركة الشمس ودورانها أسرع، وإذا كانت أسرع لزم من ذلك أن تطوف بالأرض ولو مع دوران الأرض؛ يعني: ممكن تدور مع الأرض تدور قليلًا وهذه تكون أكثر فيمكنها أن تدور على الأرض، فالحاصل من هذه المسائل: لا شك أن الواجب على المؤمن أن يأخذ بظاهر القرآن والسنة في الأمور الغيبية وفي الأمور التي لا يمكنه إدراكها حسًّا، ثم إذا تبيَّن له بعد ذلك بالحس أن ظاهر القرآن غير المراد، فإننا يجوز لنا؛ بل يجب علينا أن نُؤوِّل ظاهر القرآن؛ لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يتعارض القرآن مع الواقع، مستحيل هذا، ولو أننا جوَّزنا ذلك عقلًا للزِمَ أن يكون في القرآن ما هو كذب؛ لأن الكذب هو خلاف الواقع، وهذا أمر مستحيل، ولذلك يجب علينا يا إخواننا أمام هذه النظريات أن نجعلها كأحاديث بني إسرائيل، ما وافق القرآن فهو حق وأخذنا به، ولكننا لا نأخذ به على أنه هو الذي أثبته؛ بل على أن القرآن هو الذي أثبته، وإنما نقول ذلك لئلا يكون لهم الفضل علينا، ثانيًا: ما خالف القرآن وجب علينا ردُّه، الثالث: ما لا نعلم موافقته للقرآن ولا مخالفته فهذا العقل والشرع يقتضي أن نتوقَّف، ونقول: إننا لا نُصدِّق ولا نُكذِّب، فحينئذٍ يحتاج طالب العلم إلى أن يتعمق ويتأمل وينظر نظرًا عميقًا جدًّا في نصوص الكتاب والسنة حتى لا نحكم بأن الواقع يخالفها، فيكون في ذلك رد فعل لمن لا يؤمنون بالإسلام؛ يعني: مثلًا لو أن أحدًا أنكر مثل هذه النظريات بدون تأمُّل في دلائل الكتاب والسنة كما تقول بعض العامة، وهذا في الحقيقة ليس من خدمة الإسلام، هذا أخذ الإنسان خنجرًا بيده وطعن به صدره وهو لا يشعر، فالواجب تجاه هذه الأمور - كما قلت لكم - أن نعرضها على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩) ومسلم (١٥٩/٢٥٠) من حديث أبي ذر ﷺ.

لكونه وافق الكتاب والسنة وما خالفهما، فهو باطل، وما لم تُعلَم موافقته ولا مخالفته فالواجب فيه التوقف، وأن يقول الإنسان: إن تبيَّن لي بحسب إدراكي أنا، وإن كان علمي قاصرًا في هذه العلوم فأنا أُصدِّق به، إذا لم يظهر لي فأنا لست مُلزَمًا أن أُصدِّق أو أُكذِّب، أقف من هذا موقف المُحايِد، وهذا هو العقل وهو الشرع.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في بث هذه الدواب في الأرض، لقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: نشر، وجه دلالتها على القدرة: اختلاف هذه الدواب أجناسها، وأنواعها، وأشكالها، وأحوالها، وقد سبق لنا بيان بعض الحِكَم في خلق ما هو ظاهر منها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله أيضًا وحكمته ورحمته في إنزال الماء من السماء، القدرة أن الماء ينزل من فوق فمعنى ذلك: أن بحارًا عظيمة تطوف بالأرض بين السماء والأرض، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] جبال بين السماء والأرض من البرد ينطلق منها هذه الأجزاء حتى ينزل إلى الأرض، ولو شاء الله لأنزل الجبل جميعًا على الأرض، ثم إنه دليل على الرحمة؛ حيث كان نزوله من العلو الذي يشمل المرتفع والمنخفض، وهو ينبني على الرحمة أن هذا الماء لنا فيه فائدتان عظيمتان: إنبات ما ينبت منه، والثاني: خَزْنه في الأرض ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٦٩] ففيه أيضًا مادة حياة الإنسان في طعامه وفي شرابه.

٧- ومن فوائد الآية أيضًا: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ من أين تُثبَت الأسباب؟ من فاء السببية ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ وإثبات الأسباب من حكمة الله عز وجل، فالمُنكِر للأسباب طاعن في حكمة الله لا شك؛ لأن الله حكيم جل وعلا، وكل شيء عنده بسبب لتقوم الأشياء، وتمشي على نظام.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدره الله عز وجل على تصنيف هذا النبات مع أن أرضه واحدة، وماءه واحد، لقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف، ترى هذه الشجرة كبيرة، وهذه صغيرة، هذه خضراء، وهذه بُنِّية، هذه زهرتها بيضاء، وهذه صفراء، وهذه لون آخر، ألوان مختلفة مع أن الماء واحد، والأرض واحدة، وهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا النابت فيه منفعتان لنا، وهما: النظر إليه، والبهجة والسرور به، ولهذا إذا وقف الإنسان على روضة معشبة تتبَّع الرياح أزهارها يجد سرورًا وأُنسًا، فما يحصل من هذا النبات من المنافع لنا ولبهائمنا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا

ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٦- ٣٢].

قال الله تعالى:

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١]

التفسير

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ المشار إليه: ما سبق، وهي: خلق السموات بغير عمد، وإلقاء الرواسي في الأرض، والبث فيها من كل دابة، وإنزال الماء من السماء، والإنبات فيها من كل زوج كريم، هذه خمسة أشياء مشاهدة محسوسة، ولهذا أشار إليها بالإشارات الحسية فقال: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه، فهو من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، وليس المراد به: خلق الله الذي هو فعله، فإن فعله لا يشاهد، وأن المشاهد مفعوله.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي: مخلوقه، ﴿فَأَرُونِى ﴾ قال: [أخبروني يا أهل مكة ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾؟].

قوله: ﴿فَأَرُونِى ﴾ فسَّر الرؤية هنا بالإخبار، الإراءة بالإخبار، ولكن الأَولى إبقاؤها على ظاهرها أن المراد بالإراءة يعني: أبصروني أروني شيئًا خلقه أحد سوى الله عز وجل.

وقوله : ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أبلغ من تفسير المؤلف بقوله: [أخبروني]؛ لأن التحدي فيها ظاهر؛ إذ من الممكن أن يخبروه بأمر وهم كاذبون، فيقولون: نعم؛ أن هناك كذا وكذا خلقه كذا وكذا، لكن إذا قال: ﴿فَأَرُونِى ﴾ التحدي فيها يُرى، فحينئذٍ يُبهتون.

وقوله: ﴿فَأَرُونِى ﴾ قال: [يا أهل مكة] بناءً على أن كل خطاب في سورة مكية يتعلق بالكفار فالمراد به: أهل مكة، والصواب: أنه عام، حتى يمكن الآن أن نقول بهذا التحدي في عصرنا الحاضر.

والأمر هنا في قوله: ﴿فَأَرُونِى ﴾، للتعجيز والتهديد. ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [غيره؛ أي: آلهتكم حتى أشركتموها به تعالى]؛ يعني: أروني ماذا خلقوا، فإذا أريتموني أنها خلقت شيئًا فإنه قد يكون عذرًا لكم في تشريكها مع الله تعالى في العبادة، أما والأمر ليس كذلك ولا يمكن أن يوجد خالق سوى الرب عز وجل فإنه لا يجوز أن يُعبَد معه غيره؛ لأنه إذا أقررتم بأنه لا خالق إلا الله يجب أن تُقِرُّوا بأنه لا معبود إلا الله، وأنه كما أقررتم بالربوبية يجب أن تُقِرُّوا بالألوهية.

وقوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ ﴾ يقول: [ما استفهام إنكاري مبتدأ، وذا بمعنى: الذي بصلته خبره،

وأروني: معلق عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين].

قوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أعربها المؤلف إعرابًا صحيحًا، ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يقول: ما اسم استفهام، وذا اسم موصول مبنيٌّ على السكون في محل رفع، وخلق فعل ماض، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، والتقدير: ماذا خلقه الذين من دونه، والجملة: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ جملة الاستفهام معلقة عن العمل، عن عمل ﴿فَأَرُونِى﴾.

وقوله: [وما بعده سد مسد المفعولين] هذا إذا قلنا: إن الرؤية بمعنى العلم، أما إذا قلنا: إن الرؤية بمعنى رؤية البصر فإن ما بعده سد مسدَّ مفعول واحد فقط.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من سوى الله عز وجل، وهذا التحدي وكل تحدٍّ في القرآن لا يمكن أن يكون موجودًا؛ لأنه لو كان الشيء ممكنًا لكان التحدي لغوًا لا فائدة فيه، قال الله عز وجل: ﴿بَلِ﴾ قال المؤلف: [للانتقال] ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [بيِّنٌ بإشراكهم، وأنتم منهم]؛ لأن الأمر واضح، وأنه لا خالق إلا الله، وأنه لا يمكن أن يوجد أحد يخلق، ولكن استمرار المشركين في شركهم يعتبر ظلمًا وضلالًا مبينًا، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون، الذين أشركوا مع الله في العبادة مع أنهم مؤمنون بأنه لا شريك له في خلقه. ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال المؤلف: [بيِّن] وكلمة مبين تأتي بمعنى: بيِّن؛ أي: ظاهر، وبمعنى: مُظهِر؛ لأنها مشتقة من أبان الرباعي، وأبان الرباعي يأتي متعديًا ويأتي لازمًا، ويأتي أبان بمعنى: بان، أي: ظهر، وحينئذ يكون لازمًا، ويأتي بمعنى: أظهر، أبان الشيء أظهره، وحينئذ يكون متعديًا، وفي هذه الآية: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من اللازم، ولهذا فسَّرها بقوله: [بيِّن]، ومثال المُتعدِّي: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] أي: مظهر، فالحاصل: أن مبين لا تظن أنها دائمًا متعدية، قد تكون لازمة بمعنى بين، وقد تكون متعدية بمعنى مظهر.

الفوائد:

قوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، لقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ يعني: مخلوقه، فهم يُقِرُّون بخلق الله، وإن أقرُّوا لزِمَهم الإقرار بتوحيد الألوهية، وعلى هذا فنقول: يُفهَم من هذه الآية: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، ولهذا نظائر في القرآن؛ منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] كأنه يستدلُّ بكونه ربًّا خالقًا على أنه يجب أن تكون العبادة له وحده، وهذا دليل عقلي مُلزِم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الاستدلال بالأظهر على ما يُنكِره الخصم؛ لأن هذا

استدلال بأمر ظاهر واضح على أمر ينكره الخصم، وهو إنكار: انفراد الله تعالى بالألوهية.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** استعمال التحدي في المناظرة، لقوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المنكرين لتوحيد الربوبية ظالمون، وفي ضلال مبين، لقوله: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عجز جميع الأصنام المعبودة أن يخلقوا مثل خلق الله، لقوله: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ فإذا كانت عاجز عن الخلق كانت غير مستحقة للعبادة، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] أَضِفْ على ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٢-١٤].

التفسير

قال: [منها: العلم، والديانة، والإصابة في القول، وحِكَمُه كثيرة مأثورة]، قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بثلاث مؤكدات، هي: اللام، وقد، والقسم. وقوله: ﴿آتَيْنَا﴾ أعطينا، وهذا الإعطاء إعطاء كوني، أعطاه الله تعالى الشيء إعطاءً كونيًّا. وقوله: ﴿لُقْمَانَ﴾ هو اسم رجل، وأكثر أهل العلم على أنه رجل أعطاه الله تعالى حكمة ودراية بالأمور وليس نبيًّا، قال ابن كثير: إنه أكثر الناس على أنه ليس بنبي [1]، ويُروى عن عكرمة - إن صح عنه - هكذا قال-أنه نبي، ولكن الصحيح: أنه ليس بنبي، وإنها رجل حكيم ذو أمر رشيد، أعطاه الله هذه الحكمة، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) تفسير ابن كثير الجزء السادس ص ١٤٧، ط. مكتبة الصفا.

قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ما هي الحكمة؟ الحكمة في الأصل هي: موافقة الصواب؛ وبمعنى هذا قولهم: إنها وضع الأشياء في مواضعها، فصاحب الرأي الرشيد والتصرف السديد هذا يعتبر حكيمًا؛ لأنه يضع الأشياء في مواضعها، وهما بمعنى واحد؛ لأن موافقة الصواب هو وضع الشيء في موضعه.

يقول: [منها: العلم]، وتُنال به الحكمة، والثاني: [الديانة] وهي حكمة، والثالث: [الإصابة في القول] حكمة، وكذلك الإصابة في الفعل حكمة.

قال: [وحِكَمُه كثيرة مأثورة، كان يفتي قبل بعثة داود، وأدرك بعثته، وأخذ عنه العلم وترك الفُتيا، وقال في ذلك: ألا أكتفي إذا كُفِيت؟ وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يبالي إن رآه الناس مُسِيئًا] هذا من الحكمة أن الإنسان إذا كُفِيَ يكتفي؛ لأنه إذا كُفِيَ ثم عمل بما كُفِيَ فيه لم يكن منه إلا إضاعة الوقت والتعب.

وأما أي الناس شر؟ فقال: [الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئًا] هذا قد يُنازَع فيه؛ لأن هذا الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئًا يعتبر فاقد الحياء فقط، ولا يعتبر شر الناس، شر الناس في الواقع هو الذي يشرك بالله عز وجل، هذا شر الناس؛ لأن هذا أظلم الناس فيكون شر الناس، ثم إن هذه المقولة للمؤلف أو هاتين الجملتين قد تكون صحيحة إلى لقمان وقد تكون غير صحيحة؛ يعني: ما يُجزَم؛ لأنه ما هناك سند صحيح إلى لقمان متصل، ولم يخبر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك عنه، ومثل جميع الإخبار السابقة إذا لم تكن عن طريق الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يُنظَر فيها؛ لأنها تأتي بغير إسناد تؤخذ عن أهل الكتاب، وأهل الكتاب غير مأمونين، ولكن كل الأحاديث عما سبق لا تخلو من ثلاثة أقوال كما هو معروف: إما أن توافق الشرع، أو تخالف، أو لا توافق ولا تخالف؛ فما وافق الشرع فهو مقبول، وما خالفه فهو مرفوض، وما ليس فيه مخالفة ولا موافقة فإنه لا يُصدَّق ولا يُكذَّب.

يقول: [﴿أَنِ﴾ أي: وقلنا له: أن ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاك من الحكمة]، قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ثم قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لو أن أحدًا قال: إن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير للحكمة بأن ﴿أَنِ﴾ هنا تفسير للحكمة، لم يكن بعيدًا، أما المؤلف يرى أنها مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا له: أن اشكر لله يعني: على ما آتاك من الحكمة، أما على الاحتمال الأول الذي هو ظاهر القرآن ولا يحتاج إلى تقدير فالأمر ظاهر أن شكر نعمة الله هو الحكمة؛ بل رأس الحكمة.

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ اللام هنا للاختصاص والاستحقاق؛ لأنه لا يختص بالشكر المطلق ولا يستحق الشكر المطلق إلا الله سبحانه وتعالى، والشكر هو: القيام بطاعة المنعم اعترافًا بالقلب، وثناءً باللسان، وطاعةً بالأركان، فمتعلق الشكر ثلاثة: اللسان والقلب والجوارح، وسببه واحد وهو النعمة، ولهذا كان بينه وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة السبب الحمد أعم، ومن

جهة المتعلق الشكر أعم. كيف ذلك؟ الحمد سببه أمران: كمال المحمود، وإنعام المحمود، ولهذا تحمد الله على كماله، وتحمده على إنعامه، ولكن الحمد يختص من حيث المتعلق باللسان فقط، أما الشكر فإنه من حيث السبب أخص؛ لأنه لا يكون إلا في مقابلة نعمة، لكن من حيث متعلق أعم؛ يكون بالقلب واللسان والجوارح، وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ قلنا: إن اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، فيجب على العبد أن يخلص الشكر له، وأن يعتقد بقلبه أنه لا يستحق الشكر المطلق إلا الله.

قال: [﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن ثواب شكره له ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمودٌ في صنعه].

﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الجملة هذه شرطية، فعل الشرط فيها مجزوم ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ وجواب الشرط جملة قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ و(إنما) أداة حصر، و(يشكر) فعل مضارع، ولكن هل يقال: إن (يشكر) هو الجواب أم الجملة؟ الجملة، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كيف قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؟ قد تقولون: إن المتوقَّع أن يقول: ومن يشكر فإنما يشكر لله، ولكن نقول مثل ما قال المؤلف: إن معنى قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أنه يعود ثواب الشكر إليه فهو لمصلحته، وليس الشكر يعود إلى الله عز وجل فينتفع به؛ لأنه سبحانه وتعالى لا ينتفع بالطاعة ولا يتضرر بالمعصية، وإنما يعود إليك أنت نفسك.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وهو ضد الشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غني عنه إذا كفر نعمة الله ﴿حَمِيدٌ﴾ فعيل بمعنى مفعول، ويجوز أن نقول: حميد بمعنى فاعل حامد، فهو سبحانه وتعالى محمود وحامد؛ لأنه سبحانه وتعالى يصف من يستحق الصفات الكاملة بما يستحقه، ولهذا أثنى على أنبيائه وعلى أوليائه، وهذا حمدٌ له، وهو أيضًا محمود من عباده، فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، وجه ارتباط الجملة بجملة جواب الشرط ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وجه ارتباطها بالشرط ظاهر؛ يعني: من كفر فإنه لن يضر الله ولن ينقص من ملكه؛ لأنه غني، وكذلك لن يكون في ذلك قصور من حكمته لأنه جل وعلا حميد، فإيجاد الشاكرين مما يُحمَد الله عليه، وإيجاد الكافرين مما يُحمَد الله عليه، ولولا هذا ما عرف قدر الشكر، ولا عرف أيضًا مضرة الكفر، لولا هذان لكان الناس على حد سواء لا يتميز فيهم الطيب من الخبيث. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فالغني من أسماء الله، والحميد من أسماء الله أيضًا.

وحميد يقول المؤلف: [محمود في صنعه]، والصواب: أنه محمود في صنعه وشرعه وفي جميع صفاته، فهو محمود على صفاته الكاملة، وعلى أفعاله، وعلى شرعه.

قال: [واذكر ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ

﴿ٱلشِّرۡكَ﴾ بالله ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فرجع إليه وأسلم].

قوله: [واذكر إذ قال] أفادنا المؤلف أن إذ مفعول لفعل محذوف، أو ظرف متعلق بفعل محذوف؛ يعني: اذكر هذا الوقت الذي قال فيه لقمان لابنه إلى آخره.

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جملة: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حالية، حال من فاعل (قال) وهو لقمان؛ يعني: والحال أنه يعظ ابنه، والموعظة للتذكير المقرون بالتخويف أو الترغيب، قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ قال المؤلف: إنه تصغير إشفاق، وهو كذلك وليس تصغير احتقار؛ لأن المقام لا يقتضيه، ولكنه تصغير إشفاق عليه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ هذا مقول القول لقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾، ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تجعل معه شريكًا، في ماذا؟ في العبادة، وفي الخلق والتقديس، وفي أسمائه وصفاته ؛ لأن التوحيد كما هو معروف عند أهل العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء و الصفات، فالشرك بالله أن يشرك بالله تعالى في أحد هذه الأقسام، فمن اعتقد أن مع الله خالقًا فهو مشرك في الربوبية، ومن اعتقد أن مع الله من يستحق أن يعبد فهو مشرك في الألوهية، ومن اعتقد أن لله منازع في أسمائه وصفاته فهو من باب الشرك في الأسماء والصفات.

قوله تعالى: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ﴾ بالله ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، أكد لقمان كون الشرك ظلمًا بمؤكدين، وهما: إن، واللام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ الجملة تعليل لما قبلها وهو قوله: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ فجمع له لقمان بين الحكم والحكمة، نهاه عن الشرك وبين أنه ظلم عظيم، والظلم في الأصل معناه: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص، وأما في الشرع فإن الظلم: هو نقص كل ذي حق حقه، وعلى هذا فالشرك نقص في حق الله عز وجل.

وقوله: ﴿لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ هذا من باب تعظيم الشرك والحذر منه. فليس هناك ما هو أعظم ظلمًا من الشرك؛ لأنه مهما كان فإن ظلم الشرك أعظم من كل شيء، فالذي خلقك أوجدك من العدم، والذي أمدك بما تقوم به حياتك هو الله عز وجل، والذي أعدك وجعلك مستعدًّا لما تنتفع به هو الله، فهو المُوجِد المُعِدّ المُمِدّ، إذا كان كذلك فهل يوجد أحد أعظم حقًّا عليك من الله ؟ لا يوجد، فإذا نقصت الله حقه كان ذلك أعظم الظلم، ولهذا من كان إليك أكثر إحسانا فإن إساءتك إليه تكون أعظم من غيره، الذي يحسن إليك ويعطيك ويُربِّيك ثم تسيء إليه أعظم مما لو أسأت إلى أحد لم يكن منه ذلك.

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [فرجع إليه وأسلم] من الذي رجع؟ الابن، وعلى كل حال ما نعرف هل هذه المسألة كما قال المؤلف أن الابن كان مشركًا فلما وعظه أبوه رجع فأسلم، أو أنه -

أي: الابن - خاف عليه أبوه من الشرك فنهاه عنه وبيَّن له أن الشرك لظلم عظيم، ولا يلزم من النهي عن الشرك أن يكون الإنسان قد أشرك؛ لأنه قد يُنهَى عن الشيء خوفًا من وقوعه لا رفعًا لما وقع منه، وهذا أمر موجود ومضطرد في القرآن، وفي السنة، وفي كلام الناس، تقول الرجل مثلًا: لا تصاحب الأشرار، هل يلزم من هذا النهي أن يكون مصاحبًا لهم؟ ما يلزم، قد يكون نهيًا لما يُخاف أن يحصل منه، فكلمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ ليست صريحة في أن الابن قد وقع في الشرك حتى يقال: إنه رجع وأسلم؛ بل قد يكون أبوه نهاه عن الشرك خوفًا من أن يقع فيه، والعلم عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذه الجملة ليست من كلام لقمان؛ بل هي من كلام الله عز وجل، فهي معترضة بين كلام لقمان الأول وكلامه الثاني؛ لأن الله عز وجل دائمًا يقرن حق الوالدين بحقه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [أمرناه أن يبرهما]، ففسَّر المؤلف الوصية بالأمر، ولكنها أخص من الأمر المطلق، الوصية عهد بما ينبغي الاعتناء به، ليست مجرد أمر؛ بل هي عهد بما ينبغي الاعتناء به، ولا شك أن بر الوالدين مما ينبغي الاعتناء به.

وقوله: [أن يبرهما] لو قال: أن يحسن إليهما لكان أولى؛ لأن الله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولكن المؤلف فسَّره بالبر؛ لأن البر من الإحسان.

قال: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفت للحمل، وضعفت للطلق، وضعفت للولادة ﴿وَفِصَالُهُ﴾ أي: فطامه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾].

﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ يقول المؤلف: [فطامه]، لكن نُخرج منها مدة الحمل؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أسقطنا أقل مدة الحمل ستة أشهر بقي أربعة وعشرون شهرًا وهي عامان.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [وقلنا له: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾].

فصاله في عامين يعني: أنه لا ينفصل عن أمه إلا بعد عامين، فيُضاف إلى الحمل مدة الفصال، مدة الفصال فيها تعب أم لا؟ فيها تعب بلا شك، ترضعه، وتسهر بسهره، ويتألم قلبها بألمه، وتصلح شأنه من تنظيفه وتنظيف ثيابه وحمله عند البكاء، وغير ذلك، إذن فهي في تعب من حين يُحمَل إلى أن يفصل بعد ولادته في عامين، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى في حق الأب شيئًا، فما تقولون؟ لأن الأب في الغالب يُتَّقى ويُخشَى، فلا حاجة إلى أن يُبيِّن ما يناله من ابنه حتى يكون حافزًا للابن على القيام بحقه، لكن الأم لما كانت ضعيفة وربما يتهاون الإنسان بحقها ذكر الله

سبحانه وتعالى من أحوالها ما يكون سببًا لقيام الابن بواجبها، وهذا ترونه كثيرًا في القرآن، الشيء الذي يُخشَى فيه التهاون يُؤكَّد، مثال ذلك: الوصية والدَّين في التركة، أيها يُقدَّم؟ يُقدَّم الدَّين على الوصية بالإجماع، ومع ذلك ذكر الله تعالى الوصية في آيات المواريث قبل الدَّين، قدَّمها في الذكر على الدَّين؛ لماذا؟ لأن الوصية حق قد يتهاون به الورثة، والدين لو يتهاون به الورثة فوراءه من يطالب به، صاحبه، فالله عز وجل قد يدعم الأشياء التي يخشى فيها التهاون بأوصاف تحمل على القيام بما ينبغي أن يقوم به، فهنا لما كانت الأم ضعيفة وكان الإنسان قد يعتدي عليها وعلى حقها أكثر، ذكر الله تعالى من أسباب برِّها الموجبة ما لم يذكره في حق الأب، وأظن أن كلنا نعلم أن الابن دائمًا يعتدي على أمه بالسب والشتم وربما بالضرب، لكن على أبيه ما يستطيع ولا يعتدي عليه بمثل اعتدائه على أمه، وإذا لم يقم بحقه فإن أباه يأخذ ذلك عليه، فلهذا ذكر الله تعالى هذه الصفات في الأم ليكون حثًّا لنا على القيام بحقها.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۚ﴾.

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله سبحانه على لقمان بإعطائه الحكمة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحكمة قد ينالها من ليس بنبي؛ لأن لقمان على قول الجمهور ليس نبيًّا.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب الشكر لله، لقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾.

٤- **ومن الفوائد:** أن شكر الله من الحكمة؛ لأن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هذا من تفسير الحكمة، والشكر لله لا شك أنه من الحكمة؛ لأن الحكمة هي موافقة الصواب، أو وضع الشيء في موضعه، ولا شك أن شكر الله موافق للصواب، وأنه وضع للشيء في موضعه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشاكر ثوابه لنفسه ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

٦- **ومنها:** أن الله لا ينتفع بطاعة الطائعين؛ بل طاعة الطائعين لأنفسهم.

يتفرع على هذه الفائدة: أن أمر الله عز وجل عباده بطاعته أو بعبادته أنه مجرد إحسان إليهم؛ لأن هذا النفع لهم، كما لو كنت تربي الصغير وتقول له: كل من هذا الطعام، والبس هذا الثوب، واشرب هذا الماء، فأنت تأمره لكن الأمر في مصلحته هو.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر لا يضر الله شيئًا، لقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى

أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[1].

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين لله عز وجل، وهما: الغني والحميد، وإثبات ما تضمَّناه من صفات، وهو: الغنى والحمد، سواء كان حامدًا أو محمودًا.

٩- **ومن فوائدها**: اتصاف الله تعالى بالصفة المركبة من الوصفين، وهما: الغنى والحمد، فليس كل غني يُحمَد، وليس كل محمود غنيًّا، أما الله عز وجل فقد اجتمع في حقه الغنى مع الحمد، وذلك لكمال جوده وكرمه سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: ملاطفة المخاطَب لاستدعاء قبوله لما يوجَّه إليه، لقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ لأن هذا من باب الملاطفة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أهمية هذه النصيحة؛ لأنها صدرت من أبٍ مُشفقٍ إلى ابنه، إذن فهي من أهم ما يكون من الوصايا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم الشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ تحريم الشرك، هل يكفي هذا التعبير أن أقول: تحريم الشرك؟ نقول: نعم يكفي؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣] قد يقول قائل: إذا سمعنا نقول: إن الشرك حرام قال: ما يكفي أن الشرك حرام. يكفي لأن الله قالها، لكنه هو أشد المحرمات إثمًا وظلمًا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب توحيد الله عز وجل؛ لأن النهي عن الشرك يقتضي وجوب التوحيد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشرك ظلم عظيم، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي قرن الأحكام بعللها للفوائد التي سبقت؛ مثل قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من أهم ما ينبغي العناية به: التركيز على التوحيد وعدم الشرك؛ لأنه ذكر ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فبدأ به قبل كل شيء، وكان الرسول ﷺ إذا بعث أحدًا يدعو للإسلام يأمره أول ما يبدأ به: الدعوة إلى التوحيد؛ لأنه هو الأصل؛ إذا لم يكن عند الإنسان توحيد فمن يعبد؟ لابد أن يُركِّز على التوحيد، ولكن لكل مقام مقال؛ إذا كنا في بلد يكثر فيها الشرك فإنه ينبغي أن يكون كلامنا في التوحيد أكثر، إذا كنا في بلد بالعكس لكن عندهم مخالفات

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

في أمور أخرى ينبغي أن نُركِّز عليها أكثر، وذلك مأخوذ من طريقة القرآن.

ففي مكة كان التركيز على التوحيد في آيات القرآن أكثر، وفي المدينة كان التركيز على المعاملات وفروع العبادات أكثر، فلكل مقام مقال، ولذلك قد يعترض بعض الناس ويقول: لماذا لا تكثرون الكلام في التوحيد ولاسيما في المسجد؟ نقول: إن الكلام في التوحيد لا شك أنه مهم، وأنه أهم الأشياء، لكن إذا كنا في قوم قد وحَّدوا - ولله الحمد -، وعرفوا الأمر، وهم بعيدون عن الشرك، وإنما يخالفون في أمور أخرى دون الشرك، فنحن نركز على ما في هذه المخالفة، على أنه لو طرأ ما يُخالف التوحيد يجب أن يُركَّز عليه، كما يوجد في الآونة الأخيرة من ظهور بعض الأشياء الشركية والبدعية من هذه الكُتيِّبات الصغار التي فيها أذكار وأوراد كلها كذب، أو غالبها كذب، فيجب أن يُركَّز عليها، وكذلك أيضًا وُجِد تمائم تُعلَّق، تمائم من النحاس يقال: إنها تنفع، هذا من الشرك، وكذلك أيضًا ما وُجِد من قضية الدبلة وما يتعلق بها، إن كان الرجل يكتب اسمه على خاتم امرأته، وهي تكتب اسمها على خاتم زوجها، ويعتقدون هذا يُوجِد المحبة وكأنه رباط، هذا أيضًا من الشرك، وهو من التِّوَلة، إذا ظهرت مثل هذه الأمور يجب أن تُحارَب وأن يُركَّز عليها، وأن يكثر القول فيها حتى لا تنتشر، فالمهم أنه لكل مقام مقال.

٨- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: توجيه المواعظ من الآباء إلى أبنائهم؛ لأن هذا من الحكمة، لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أنه ينبغي للإنسان الموجه أن يقرن توجيهه بالموعظة، لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فهل يكفي مثلًا أن تقول للإنسان: هذا حرام وهذا واجب، أو يُنظَر في حال الشخص؟ نعم، يُنظَر في حال الشخص، من الناس من يكفي أن تقول له: إنه حرام أو واجب فينتهي، ومن الناس من لا يكفي أن تقول له: هذا حرام أو واجب حتى تقرن له ذلك بموعظة، فتقول: اتق الله، كيف تُصِرُّ على هذا وهو معصية لله ورسوله، وما أشبه ذلك، فالمهم أنه لكل مقام مقال، وكذلك أيضًا تذكر ما ورد فيه من الوعيد من القرآن والسنة، كما لو طُلِب منك أن توجِّه نصيحة إلى رجل مغمور بمعاملة الربا، هذا ما يكفي أن تقول له: إنه حرام؛ لأنه يعرف، ما أحد يشكل عليه أن الربا حرام، لكن يحتاج إلى موعظة تبيِّن له الحق.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: عناية الله عز وجل بمعاملة الوالدين، ولهذا أوصى الله سبحانه وتعالى بها وصية.

٢- **ومن فوائدها**: أنه سبحانه أرحم بالوالدين من أولادهما؛ لأنه أوصى الأولاد بالوالدين، إذن فهو أرحم بالوالدين من الأولاد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١]: إن في الآية دليلًا على أن الله أرحم بالولد من والديه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان عِظَم حقوق الوالدين، ولهذا جعلها الله تعالى وصية، والوصية كما سبق في التفسير: أن يُعهَد إلى شخص بأمر هام، فهذا دليل على عِظَم حقوق الوالدين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن يُذكَر للمخاطَب ما يحمله على امتثال ما وُجِّه إليه، لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي تقوية الجانب الضعيف بما يقويه، تؤخذ من قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فإن الله تعالى ذكر ما يحصل للأم إغراءً بالقيام بحقها، ولم يذكر ما يحصل للأب؛ لأنه كما قلنا في التفسير: الأم ضعيفة تحتاج إلى من يقوي جانبها.

وهل يُستفاد منها: أن حق الأم أوجب من حق الأب؟ هو ذكر ما تعانيه الأم من المشاق إشارةً إلى أنها أحق؛ لأنه بالنسبة للأب ما يجد في ابنه هذه المشاق، ولكن الأم هي التي تجد، صحيحٌ أن الأب قد يتحمل مشاقًا أخرى مثل: حصول النفقة، وما أشبه ذلك، لكن تعب الأم هو الألم البدني وهذا ما يكون بالأب.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي للأم أن تصبر على ما ينالها من مشقة الحمل؛ لأنه أمر طبيعي، لقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

يتفرَّع على هذه الفائدة: بيان خطأ بعض النساء اليوم اللاتي لا يصبرن على وهن الحمل، فتجد المرأة تستعمل حبوبًا لمنع الحمل تريد أن لا يلحقها تعب ومشقة، وما أشبه ذلك، وبعض النساء يحاوِلن أن يلِدْن عن طريق العملية؛ لأنه أهون، كل هذا فرارًا مما جُبِلَت عليه المرأة؛ من الضعف عند الحمل، وعند الطلق، وعند الولادة. نعم؛ إذا احتاج الأمر إلى عملية، هذا لا بأس به للضرورة، وإلا فإنه لا ينبغي ذلك؛ لأن هذا خلاف ما جَبَل الله عليه المرأة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أقل الحمل ستة أشهر، من قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقد قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أسقطت عامَيْن من ثلاثين شهرًا، كم بقي؟ بقي ستة أشهر. وذكر ابن قتيبة في «المعارف» أن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر، وهو الخليفة بن محمد، كما هو معروف ولد لستة أشهر.

ويقول الخبراء في هذه الأمور: أنه إذا وُلِد الإنسان لستة أشهر يمكن أن يعيش، لكن لثمانية أشهر قد لا يعيش.

٨- ومن فوائدها: أنه يجب الشكر للوالدين كما يجب الشكر لله، لقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

٩- **ومنها**: أن شكر الله مُقدَّم على غيره؛ لأنه قدَّمه في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فقدَّم الشكر له على شكر الوالدين مع عِظَم حقهما.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مرجع الأمور إلى الله، لقوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وتقديم الخبر يدل على الحصر، أنه إلى الله وحده.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير والتخويف من المخالفة؛ لأن قوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: سأحاسبك أيها الإنسان، ارتباط هذه الجملة بما قبلها أنها تفيد التهديد والتخويف من المخالفة .

قال الله تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٥-١٧]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾

الضمير في قوله: ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ ضمير فاعل يعود على الوالدين، ومعنى جاهداك: بذل الجهد معك، على أي شيء؟ ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني: على أن تجعل معي شريكًا لا علم لك به.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قيدٌ لبيان الواقع، وليس قيدًا احترازيًّا؛ لأنه لا يمكن أن يوجد علم بأن لله تعالى شريكًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فإن قال قائل: ما فائدة هذا القيد وقد عُلِم أنه لن يوجد؟ قلنا: الفائدة فيه: تحقيق هذا الأمر حتى لا يحاول أحد أن يبحث ويطلب علمًا أو برهانًا بأن الله تعالى له شريك، فكأنه يقول: هذا هو حقيقة الواقع، وما كان حقيقة الواقع لا يمكن أن يتخلَّف، فهذا هو فائدة قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ﴾ (ما) هذه تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: الذي ليس لك به علم، ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة؛ أي: أن تشرك بي شريكًا ليس لك به علم.

وقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جواب الشرط، وهو: إن جاهداك، إن جاهداك فلا تطعهما، فتأمل قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولم يقل: فلا تبرهما، ولم يقل أيضًا: فاعصِهما؛ لأن كلمة (لا تطعهما) أهون في النفس من كلمة فاعصهما، ولهذا كان قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أهون من قوله: يا أبت إنك جاهل بما عندي، فقال: ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ لأن نفي الكمال أهون من إثبات النقص على النفوس، ويُذكَر أن أحد الملوك رأى في المنام أن أسنانه قد سقطت، فقال: ادعوا لي مُعبِّرًا يُعبِّر هذه الرؤيا، فجاءوا برجل ليعبرُها، فقصَّ عليه الرؤيا، فقال: يموت أهلك، لما قال: يموت أهلك فزِعَ الملك، وقال: اجلدوه، فجلدوه وانصرف، وجاءوا برجلٍ آخر فقصَّ عليه الرؤيا، فقال: الملك يكون أطول أهله عمرًا، فأكرمه وأسبغ عليه بالنعم، ومعنى ذلك، معناهما متقارب، فالحاصل: أن التعبير له أثر على النفس، كلمة (لا تطعهما) أهون من كلمة (فاعصهما)، ثم قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ما قال: لا تبرهما، أو لا تقم بحقهما، حقهما واجب ولو أمراك بالشرك، إذا كان الوالدان لهما حق واجب ولو أمراك بالشرك، فكيف إذا أمراك بما دون الشرك، ولذلك فإن حق الوالدين ليس بالأمر الهيِّن.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لماذا لا تطعهما؟ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن حق الله أوجب من حق الوالدين، وهو الذي أوجب لهما الحق فكيف نضيع حقه من أجل حقهما؟

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقول: [موافقةً للواقع] هذا تفسير لقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أن هذا هو الأمر الواقع أنه ليس لك بذلك علم.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [أي: بالمعروف؛ البرّ والصلة] ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ كلمة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ (في) ظرفية لا شك فيها، ولكن هنا المراد بالدنيا المراد: في زمن الدنيا، أو المراد: في شئون الدنيا؟ يحتمل أن يكون المراد: الشئون؛ يعني: في أمور الدنيا صاحبهما معروفًا، أما في أمور الدين فلا تتعدَّ ما أمرك الله به، ويحتمل أن يكون ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في هذه الدنيا، لكن المعنى الأول أبلغ؛ لأنه من المعلوم أن المصاحبة بين الوالدين والولد إنما تكون في الدنيا فلا حاجة إلى التقييد، فالظاهر أن المعنى: صاحبهما في الدنيا؛ أي: فيما يتعلق بأمور الدنيا.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال المؤلف: [بالمعروف] ومعنى هذا التفسير: أن ﴿مَعْرُوفًا﴾ منصوب بنزع الخافض، والنصب بنزع الخافض مع غير (أنَّ، وأنْ) ليس بمضطرد؛ بل هو شاذ، وإذا كان كذلك فإنه لا ينبغي أن يُفهَم القرآن عليه، ولو قيل: إن ﴿مَعْرُوفًا﴾ صفة لمصدر محذوف، فالتقدير: صاحبهما صحابًا معروفًا؛ يعني: صحبة معروفة ليس فيها عنف، وليس فيها توبيخ، ولا لوم، وليس فيها نقص مما يجب لهما، فكان هذا أولى.

قال المؤلف: [بالبر والصلة] البر: كثرة الخير، والصلة: عدم القطيعة، فالمعنى: صِلهما وبرَّهما بما يستحقانه منك لكن في أمور الدنيا فقط.

[﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ سبيل: طريق ﴿مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ رجع إليَّ بالطاعة].

قوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ﴿مَنْ﴾ هذه اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، فهل هو على عمومه؛ أي: اتبع سبيل من أناب إليَّ منهما أو من غيرهما، أو هو عام أُريد به الخصوص؛ أي: من أناب إليَّ منهما؟ الأَولى أن نقول بالعموم، اتبع سبيل من أناب إليَّ من كل الناس، وعليه فمن أناب من الوالدين إلى الله عز وجل يكون اتباعُ سبيله من باب أولى.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أناب بمعنى: رجع، من أين؟ من المعصية إلى الطاعة، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الفسوق إلى الاستقامة والتقوى.

يقال: إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما أسلم قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أتيت به؟ فقال: هذا هو الحق، فقالت له: لتترُكنَّه، أو لأَدَعنَّ الطعام والشراب حتى أموت فتُعيَّر بي، فقال: هذا حق لا أَدَعه، فأمسَكَت عن الطعام والشراب يومًا كاملًا، فلما أصبحت إذا هي مجهودة؛ يعني: تعبانة من الجوع والعطش، فطلب منها ولدها أن تأكل وتشرب، وقال: لن أرجع عن هذا الدين، ولكنها أبَت، وفي اليوم الثاني أصبحت أكثر جهدًا، فقال لها كما قال في الأول: أني لن أدع هذا الدين، فبقيت على عنادها، فلما كان في اليوم الثالث وإذا هي قد أصبحت مجهودة جهدًا شديدًا، فقال لها: يا أمي تعلمين أن هذا هو الحق، والله لو كانت نفسك مائة نفس، وماتت كل نفس - يعني: وحدها - والله ما أدع هذا الدين، فلما رأت أن الرجل عازم أكلت.

مثل هذه الحال هل يجوز للإنسان إذا رأى أن أمه تموت أو أبوه يموت؛ يجوز أن يُشرك؟ لا، لو قال قائل: لو أراد أن يقول: إنه مشرك بلسانه متأولًا، هل يجوز؟ الصحيح: أنه ما يجوز أن يوافق ولا بالتأويل؛ بل يصبر، لو خاف على نفسه هو أن يُقتَل فله أن يقول ذلك متأولًا، لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] على أنه أي: في المسألة الأخيرة ما يجوز فيما إذا كان فيه نصرة للإسلام، فإنه إذا كان في ثبوته نصرة للإسلام، وفي موافقته ظاهرًا خذلان للإسلام حرُمَ عليه ذلك؛ لأنه حينئذٍ يدخل في باب الجهاد.

مثل ما حصل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ دُعِيَ إلى القول بخلق القرآن، ودُعِي غيره أيضًا إلى القول بخلق القرآن، فمن العلماء من تأوَّل وأجاب ظاهرًا بما يُدعَى إليه، ومنهم من أصرَّ فقُتِل، ومنهم من أصرَّ فرحمه الله من القتل كالإمام أحمد، الإمام أحمد ما أجابهم ولا بالتأويل؛ لأن الناس ينظرون ماذا يقول الإمام أحمد، فلو قال: إن القرآن مخلوق ولو بالتأويل، ماذا يقول العامة؟ يقولون: مخلوق، وتنطلي هذه البدعة على عموم المسلمين، فرأى رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يجوز أن يتأوَّل في هذه الحال، لما في ذلك من خذلان الحق وإثبات الباطل.

﴿ثُمَّ﴾ هذا التعقيب لما ذكر سبحانه وتعالى أنهما إذا ما أرادا الشرك فلا تطعهما، وأن الواجب عليه اتباع سبيل من أناب إلى الله، قال: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد هذه المحاولات منهما بأن تشرك بالله،

وبعد أن تُطيع فالمرجع إلى الله.

وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جملة اسمية خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غيري ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مردكم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بمعنى: أخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والإنباء هذا يستلزم المجازاة، وقد لا يكون هناك مجازاة، ولهذا دائمًا يُعبِّر الله عز وجل بالإنباء؛ أي: الإخبار؛ لأنه قد يجازي وقد لا يجازي، فإنه يخلو بعبده المؤمن، ويخبره بذنوبه، ويُقرِّره بها، ثم بعد ذلك يقول: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم.

وقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كنتم تعملون، وهو شامل لكل ما يعمله الإنسان من صغير وكبير دون ما لم يعمله، فلو همَّ بالشيء فلم يعمله، فإنه لا يجازى عليه، لكن قد يُثاب عليه إذا كان معصية تركها من أجل الله عز وجل فإنه يُثاب على هذا الترك.

قال: [فأُجازيكم عليه، وجملة الوصية وما بعدها اعتراض] قال المؤلف: [فأجازيكم عليه] كأنه جعل من لازم الإنباء: المجازاة، ولكني قلت لكم: ليس لازمًا، ولهذا عبَّر الله عز وجل بالإنباء ليكون الأمر دائرًا بين أن يُجازي عليه، وبين أن لا يُجازَى عليه.

وقوله: [وجملة الوصية وما بعدها اعتراض] الوصية مبتدأة من قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ اعتراض من قول الله عز وجل وليس ذلك من قول لقمان لابنه؛ يعني: الذي وصَّى بالوالدين إحسانًا، ووجَّه الإحسان هو الله عز وجل، وإنما جاءت هذه الوصية بعد ذكر الشرك؛ لأن حقوق الوالدين يرد بعد حق الله سبحانه وتعالى، وفي الوصية أيضًا جملة اعتراضية، هي: قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ لأن قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ﴾ هو الموصَى به ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ الآن يكون عندنا كم اعتراض؟ إذن نقول في هذا: الوصية اعتراضية بين كلام لقمان لابنه.

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ اعتراض أيضًا بين فعل الوصية والموصَى به.

ثم قال الله عز وجل أيضًا على وصايا لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ [أي: الخصلة السيئة] ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ [أي: الخصلة السيئة] فيه قصور؛ لأن الصواب والمراد: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: الخصلة السيئة والحسنة كل شيء من حسن أو سيئ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، ﴿مِثْقَالَ﴾ أي: وزن، وسمي ذلك مثقالًا؛ لأنه يعتبر بثقله؛ لأن الشيء يُوزَن ليُعلَم ثِقَلُه من خفته، وقوله: ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ هذه حبوب معروفة صغيرة، ﴿فتكن في صخرة﴾ في أي مكان من الأرض؛ لأننا لا نعرف صخورًا إلا في الأرض، لكن الذين خرجوا إلى القمر جاءونا منه بصخور، فلا أدري هل هذا صحيح، أو ليس بصحيح، على كل حال ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ المعروف أن الصخور في الأرض.

وقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ هل يمكن أن يكون حبة من خردل في صخرة، أم هذا على سبيل المبالغة؟ على كل حال إما أن تكون على سبيل المبالغة، أو يكون مثلًا في هذه الصخرة شيء من غير جنسها بقدر حبة الخردل فيعتبر فيها، أو يقال: إن المراد أن حبة الخردل قد تكون في شق من هذه الصخرة.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أو في أعلى السموات، أو أنزلها ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أعلاها، أو أنزلها، [أي: في أخفى مكان من ذلك] ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولماذا حُذِفَت الياء؟ لأنها جواب الشرط لقوله: ﴿إِن تَكُ﴾ فإن ﴿إِن﴾ شرطية و﴿تَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (إن) الشرطية وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿يَأْتِ﴾ جواب الشرط مجزوم بـ ﴿إِن﴾ وعلامة جزمه حذف الياء.

قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [فيُحاسب عليها] هذا من أخفى ما يكون، ومع ذلك قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: يعلمها الله؛ لأنه من لازم الإتيان بها العلم بها؛ لأن الإتيان أبلغ، الله سبحانه يأتي بها ويجازي عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ [باستخراجها] ﴿خَبِيرٌ﴾ [بمكانها] المؤلف دائمًا يُخصِّص العموم بمقتضى السياق، والمعروف عند أهل العلم: أن العبرة بعموم اللفظ، فهنا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جعل اللطف هنا بالاستخراج، والخبرة بالمكان، والصواب: أنها أعم من ذلك، فإن اللطيف من أسماء الله، قال ابن القيم: وهو اللطف بعبده ولعبده، فالله تعالى لطيف بعبده، ولطيف لعبده، واللطف في أوصافه نوعان:

اللطف الأول: إدراك أسرار الأمور وخفايا الأمور، والثاني: اللطف عند مواقع الإحسان، وهو الإحسان إلى العبد، يلطف له بمعنى: يقدر له من الإحسان ودفع السوء ما لا يعلم به، فيكون (لطيف) يتعدَّى بالباء، ويتعدَّى باللام، فإن تعدَّى بالباء فهو بمعنى: العلم بخفايا الأمور، وإن تعدَّى باللام لطيف لهم، فهو بمعنى: الإحسان بجلب المطلوب، ودفع المكروب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] هذا قول يوسف عليه الصلاة والسلام؛ يعني: ومن لطفه أن يسَّر الاجتماع بكم بعد الفراق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالحاصل: أن اللطيف من أسمائه تعالى، وله معنيان حسب ما يتعدى به، إن تعدَّى باللام لطيف لما يشاء، فمعناه: الإحسان، وإن تعدَّى بالباء، فمعناه: العلم بالخفايا، فهو لكمال علمه لطيف، كل شيء يعلم به، وهناك معنى ثالث، ولكنه لا ينطبق على أوصاف الله، اللطيف هو الرقيق، عند الناس يقولون: فلان لطيف؛ يعني: رقيق حسن الخلق، وعندي أن هذا داخل في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يعني: يتعدى باللام فمعناه: الإحسان، فإن الإحسان أخص أيضًا من حسن الخلق؛ لأنه يتضمن الإنعام على من لطف له.

وأما قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ والخبير هو: العليم ببواطن الأمور، وهو مع اللطيف كالمؤكد له، وسُمِّي العلم ببواطن الأمور: خبرة مأخوذ من الخَبار؛ يعني: الأرض الرخوة، فهو خبير سبحانه وتعالى عالم ببواطن الأمور، ومنها : هذه الحبة التي من خردل تكون في صخرة، أو في السموات، أو في الأرض.

ثم قال عز وجل: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

هذه أربعة أوامر: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الأول نهاه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ نهي، ثم تحذير في قوله: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾، ثم بعد ذلك أمر ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية؛ يعني: معناه: أزِل الشوائب، ثم ائتِ بالمكملات، وقوله هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر بإقامة الصلاة، ومعنى إقامتها: أن يأتي بها الإنسان تامة بأركانها، وشروطها، وواجباتها، ومكملاتها، وقوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شامل للمفروضات والنوافل.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أين مفعول ﴿وَأۡمُرۡ﴾؟ محذوف، والتقدير: الناس أو غيرك، وأمُر غيرك بالمعروف؛ أي: بالقول المعروف، والفعل المعروف، والمعروف: ما أمر به الشرع، هذا المعروف؛ لأن ما أمر به الشرع قد أقرَّه الشرع، وأقرَّته الفِطَر السليمة، فالمعروف إذن كل ما أُمِر به شرعًا، سواء ما يتعلق بحق الله أو بحق العباد.

وقوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المنكر: كل ما أنكره الشرع أو نهى عنه، سواء ما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق العباد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هو واجب عيني، أو هو واجب على الكفاية؟ واجب على الكفاية، لقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إذا جعلنا (من) للتبعيض، أما إذا جعلنا (من) لبيان الجنس، فالمعنى: ولتكونوا أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فإنه يكون فرض عين، ولكن الصواب: أنه فرض كفاية، وأن المقصود به: إصلاح الغير فإذا حصل إصلاح الغير بغيرك حصل المقصود، أما إذا لم يحصل فإنه يجب أن تأمر، فإذا وجدنا تهاونًا من الناس في هذا الأمر وتكاسلًا صار فرضًا علينا، أما إذا رأينا أن الناس قد استقاموا على هذا، وصاروا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فإنه يكون في حقنا فرض كفاية.

وقوله: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ حتى والديك تأمرهما بالمعروف، وتنهاهما عن المنكر؛ بل إن حق الوالدين أعلى من حق غيرهما؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحسان للمأمور والمنهي وليس إساءة، فإذا كان كذلك فأحق من تحسن إليه والداك.

ذكرنا فيما سبق أن المراتب ثلاث: بيان ودعوة، وأمر ونهي، وتغيير، فالبيان والدعوة واجبان

على كل أحد، كل أحد يجب عليه أن يُبيِّن إذا دعت الحاجة إلى البيان، أو سُئِل عن العلم، وكل واحد عليه أن يُبلِّغ إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك، وأما الأمر فهو أخص من الدعوة؛ لأن الأمر أن توجِّه أمرًا إلى شخص معين، فالبيان أن تقوم في الناس وتقول: هذا حلال، وهذا حرام، هذا يعتبر موعظة، وأما التغيير فأن تغيِّر بيدك، تأخذ هذا المنكر تكسِّره مثلًا، أو تقول بلسانك إن عجزت عن الفعل تغيِّر باللسان، إما برفع الأمر لمن يستطيع التغيير، وإما بالانتهار والتوبيخ والزجر حتى يحصل التغيير، فإن لم يحصل لا هذا ولا هذا فيكون التغيير بالقلب، وهو الكراهة، وهذا في الحقيقة ما يحصل التغيير المطلق؛ يعني: بمعنى: أن المنكر لا يتغيَّر بقلبك لا يزول، لكن هذا أدنى درجات التغيير، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عن ذلك: «وَهَذَا أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[1].

ومن الشروط أيضًا: أن لا يخشى ضررًا محقَّقًا، لو خشي ضررًا في ماله أو بدنه لم يلزَمه، فإن خشي الأذيَّة لزِمَه؛ لأنه لابد من أذية، لكن أذية ما فيها ضرر، ولهذا قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ هذا تمهيد، كأنه يقول له: إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر فلابد أن يحصل لك أذية فاصبر على هذا، وهذا هو الواقع، فإن الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر غالبًا يؤذى، إما بالقول، وإما بالسخرية، وربما تصل الحال أن يرموه بالحجارة أحيانًا، وربما تحصل الحال إلى أن يُخرِّبوا سيارته، أو يكسروا بابه، أو ما أشبه ذلك، لكن الأخير هذا ضرر بالمال، ولكن لا بد أن يكون أمرًا محقَّقًا، أما إذا كان وهمًا عن الضرر فليس بشيء.

وقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه ما سبق من الأمور الأربعة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [أي: معزوماتها التي يُعزَم عليها لوجوبها] ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ بمعنى: الشئون والأخبار، والعزم هنا مصدر بمعنى: اسم المفعول؛ أي: معزوماتها التي يعزم عليها؛ لأنها واجبة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: تحريم طاعة الوالدين إذا أمرَا بالشرك، لقوله: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، ويُقاسُ على ذلك: كل معصية أمرا بها فإنهما لا يطاعا، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»[2].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن فسوق الوالدين وكفرهما لا يسقط حقهما من البر، من قوله: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ فإنه أمر بمصاحبتهما معروفًا مع أنهما كافرين، ويأمران

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (٣٩/ ١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

بالكفر.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب اتباع سبيل المؤمنين، لقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم مرجعهم إلى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الحكم بين الخلق إلى الله، لقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فإن تقديم الخبر يدل على الحصر.

٦- **ومنها:** إحاطة الله تعالى بكل شيء علمًا، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن الإنباء بما نعمل لا يكون إلا عن علم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الكلام لله، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ والإنباء: إخبار.

٨- **ومن فوائدها أيضًا:** تحذير الإنسان من الأعمال السيئة، فإن قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ يفيد التحذير، حتى لا نقع في أمر حرمه الله علينا.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: بلوغ الغاية في البلاغة في القرآن الكريم، لقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقل: فأجازيكم، وذلك أنه قد يُنبَّأ الإنسان أحيانًا بما عمِلَ، ثم يُغفَر له، فذكر الله الإنباء؛ لأنه مؤكَّد، أما المجازاة فإن الله تعالى قد يغفر عن المذنب بذنوبه.

وهل يؤخذ من الآية الكريمة: وجوب طاعة الوالدين في غير معصية الله؟ الآية سكتت عن ذلك، حرَّمت الطاعة في المعصية، وسكتت عما عدا ذلك، لكن قد يقال: إن قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يدل على وجوب طاعتهما في غير معصية؛ لأنه لا شك أن مصاحبتهما بالمعروف امتثال أمرهما، وعلى هذا فقد يُستدلُّ بعموم قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على وجوب طاعتهما في غير معصية، ولكنه سبق لنا أثناء التفسير أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: تجب طاعتهما فيما فيه نفع لهما ولا ضرر عليه فيه، أما ما فيه ضرر عليه فلا يجب عليه الطاعة، ولهذا لما ذكر أهل العلم أن للأب أن يتملَّك من مال ولده ما شاء، قالوا: بشرط ألَّا يضرَّ الولد، فإن ضرَّ الولد فإنه ليس له أن يتملَّكه؛ بل قالوا: بشرط ألَّا يضره وألَّا تتعلق به حاجته، فإن تعلَّقت به حاجته فليس له أن يتملَّكه، وحاجته هنا حاجته الخاصة؛ بمعنى: أنه مثلًا ما يجد غيره، لكن سريَّة يحتاجها ما نقول للأب: أنت تتملَّكها؛ لأن هذا يُفوِّت على الابن حاجته واستمتاعه بها.

ثم يقال أيضًا: لكل مقام مقال، فمثلًا: إذا كان الوالدان يتبجَّحان بالكفر ويفتخران به، فلنا أن نعلن هذه البراءة والعداوة والبغضاء، وإذا كانا ساكتَين مُسالِمَين فنحن لا نتعرَّض لهما، ولكن نتبرَّأ على صفة العموم مما هما عليه من الدين، وهنا يقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أما فيما يتعلق

بالدين فلا تصاحبهما معروفًا أبدًا، فما يتعلق بالدين يجب أن تبتعد عنهما وتعاديهما.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾.

١- من فوائد الآية: أن فيها تحذير الابن من المخالفة، لقوله: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ فلا تخفى عليه ولا تفوته.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علم الله عز وجل وتمام قدرته، من أين نأخذ العموم؟ لأنه يقول: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والذي يكون باديًا عن الأرض وليس في الصخرات من باب أولى، فيُستفاد منه: عموم علم الله وإحاطته وتمام قدرته أيضًا وذلك بالإتيان بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ وإثبات ما تضمناه من الصفة.

٤- **ومن فوائدها:** أن السموات متعددة، لقوله: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعددها معروف وهي سبع، وأما الأرض فلم تذكر مجموعة في القرآن، كل ما في القرآن من ذكر الأرض فإنه بالإفراد، ولكن الله تعالى أشار إلى أنها جمع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن قوله: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ يُراد المثلية في العدد؛ إذ إن المثلية في الكيفية مستحيلة، فلزِمَ أن تكون مثلية في العدد فقط.

ثم قال تعالى من بقية وصايا لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن ينبغي للآباء أن يوصوا أبناءهم بهذه الخصال الأربع: إقام الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الصبر على ما أصابهم.

٢- **ومن فوائدها:** أهمية الصلاة؛ حيث بدأ بها قبل هذا كله ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** توقُّع العداء على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأنه لما قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أعقبه بقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن هذه الأشياء واجبة، لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ؛ لأن عزم بمعنى: معزوم؛ أي: موجَب، والأمور: الشئون.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للأب أن يقرن موعظته بالترغيب والترهيب، فإن قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تأكيد يحتم على الابن أن يقوم بهذه الوصايا الأربع.

٦- في كل هذه الوصايا: (يا بني، يا بني) يُؤخذ منها: تلطف الإنسان في مخاطبة ابنه، لاسيما في مقام الموعظة.

ويتفرَّع على هذا أيضًا: بيان سوء معاملة بعض الآباء؛ إذا أراد أن يعظ ابنه أمره بالعنف والشدة وهذا خطأ، لقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»(١) فأنت إذا آمنت بهذا الشيء فإنك سوف تتعامل بالرفق؛ لأن الرسول أخبر أن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فإذا كان يحصل لك مقصودك بالعنف، فإن حصوله بالرفق من باب أولَى، وعلى هذا فينبغي الرفق في الأمور، لاسيما في مقام الوعظ لهؤلاء الأبناء الذين لا يفيقون علمًا لما هم عليه، أما المعاند والمستكبر فهذا له حال أخرى، لكن كلامنا في مقام الدعوة وفي مقام التوجيه والإرشاد فإنه ينبغي التلطف وعدم العنف.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٨، ١٩]

❁ التفسير ❁

﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ فهي إذن من وصايا لقمان لابنه، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ [وفي قراءة: (تُصاعِر)] ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول المؤلف: [لا تُمِلْ وجهك عنهم تكبُّرًا] التصعير: هو الإمالة، ومنه الصَّعَر في الوجه، وهو المراد؛ بحيث تكون العنق ملتوية تميل إما يمينًا وإما شمالًا، وقوله: ﴿خَدَّكَ﴾ أي: وجهك، فهو من إطلاق البعض وإرادة الكل.

وقول المؤلف: [تكبُّرًا] نعم، هذا محط النهي، أن يفعل ذلك على سبيل التكبر، أما لو فعله على سبيل الإعراض عما لا يجوز النظر إليه، فمال وأعرض فإنه لا يدخل في الآية؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وأما إذا صعَّرت وجهي أو خدي لأجل ألَّا أرى شيئًا محرمًا فإنه لا يدخل في هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ اللام هنا هل هي للاختصاص على أصلها، أو أنها بمعنى: عن؟ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: عنهم، وتميل عنهم تكبُّرًا، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عام يشمل المؤمن والكافر، ولكن الكافر لا يعامَل كما يعامَل المؤمن في مثل هذه الأمور، وقد يقال: إن شرعنا ورد بخلافهم، وأن الكافر يُصعَّر له الخد، ويعرَض عنه، وقد يقال: إن الكافر إذا جاءك مقبلًا فأقبل عليه، فإن هذا من باب التأليف على الإسلام، وأما إذا أعرَض فأعرِض.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ هذا مجزوم بحذف الياء، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض، ﴿مَرَحًا﴾ قال المؤلف: [أي: خيلاء] المرح: بمعنى: البطر والأشر، والخيلاء من ذلك، فلا تكون متبخترًا في مشيتك، متعاليًا في نفسك، ولكن امش مشيةَ المتذلِّل الخاضع لله عز وجل الغير متعالٍ على عباد الله.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٣/٧٦) من حديث عائشة ﵂.

ذكر هنا ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فالأول في معاملة الناس ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، والثاني: في هيئته في نفسه ألَّا يمشي في الأرض مرحًا، وإنها يمشي كما يمشي عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلامًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إن الله لا يحب كل مختالٍ متبخترٍ في مشيه، فخور على الناس ﴿مُخْتَالٍ﴾ أي: فاعل للخيلاء، و﴿فَخُورٍ﴾ أي: مفتخر بنفسه، والفرق بينهما: أن الاختيال يكون بالنفس، والفخر يكون بالقول، فهذا الرجل عنده خيلاء في نفسه، واختيال على عباد الله، وعنده فخر بلسانه يفخر بنفسه، ويقول: أنا فلان بن فلان، فيمتدح نفسه، ولكن هذا -كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد- ما لم يكن في الحرب، فإن كان في الحرب فلا بأس أن يفخر الإنسان، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[1]، ورأى بعض أصحابه يمشي مشية المتبختر، فقال: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوطِنِ»[2]، ففي باب الحرب يجوز للإنسان أن نفتخر ويجوز أن يتعاظم بنفسه؛ لأنه أمام أعداء الله الذين ينبغي إذلالهم.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [توسط فيه بين الدبيب والإسراع وعليك السكينة والوقار] ﴿وَاغْضُضْ﴾ [اخفض] ﴿مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ [أقبحها] ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [أوّله زفير، وآخره شهيق].

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ القصد معناه: الوسط في الأمور، القصد في الأمور معناه: أن الإنسان يكون وسطًا في مشيه بين الذي يمشي مسرعًا والذي يمشي مُتباطئًا، والقصد في كل شيء: الوسط، ولهذا ورد في الدعاء المأثور: «وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى»[3] معنى القصد: التوسُّط في الأمور ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [توسط فيه بين الدبيب والإسراع، وعليك السكينة والوقار] يعني: لا تدبُّ دبيًا وأنت تمشي، ولا تسرع سرعةً تُخِلُّ بالمروءة، ولكن ليكن مشيك وسطًا بين هذا وهذا دالًا على القوة وعلى النشاط، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل في مشيه.

﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ (من) هذه للتبعيض، ما قال: اغضض صوتك؛ بل قال: ﴿من﴾؛ وذلك لأن الإنسان لا يُحمَد على رفع الصوت جدًّا، ولا على خفضه جدًّا، والناس منهم من يكون عالي الصوت إذا دنى تكلم وإذا هو كأنها يتكلم مع جماعة بعيدين، ومن الناس من يكون بالعكس يكلمك ربها لا تفهم منه إلا الكلمة بعد الكلمة، كل هذا ليس بجيد؛ ولهذا قال: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ ولم يقل: اغضضه كله، فلا ينبغي هذا ولا هذا؛ بل يكون أيضًا قصدًا بين رفع الصوت والإخفات.

وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ المراد: عند المخاطبة، ثم إن (من) هنا تفيد التبعيض في الكيفية، وكذلك في الكمية، في بعض الأحيان يكون الأفضل أن ترفع صوتك؛ أليس كذلك؟ افرض أنك تنادي قومًا بعيدين مترامي الأطراف، تريد أن تحثهم على القتال أو ما أشبه ذلك، يجوز رفع الصوت أو لا؟ يجوز،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (٧٨/ ١٧٧٦) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في سيرته (٤/ ١٣) وفي سنده جهالة.

(٣) صحيح: أخرجه النسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

ولهذا العباس بن عبد المطلب في غزوة ثقيف لما انصرف الناس أمره النبي عليه الصلاة والسلام أن ينادي، فقال بأعلى صوته: يا أهل الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة[1]، بأعلى صوته، وهذا لا شك أنه ليس غضًّا من الصوت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ فصار الغض من الصوت باعتبار الكميات وباعتبار الكيفية، كيف ذلك؟ إذا كنت تخاطب من إلى جانبك لا ترفع الصوت ولا تخفضه بحيث لا يسمع، هذا باعتبار الكيفية، باعتبار الكمية؛ يعني: أحيانًا ربما تضطر إلى رفع الصوت، ولهذا قال: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ يعني: أحيانًا، ففي بعض الأحيان تستدعي الحال أن ترفع صوتك بقدر ما تُسمِع.

ثم علَّل سبحانه وتعالى، أو يكون من كلام لقمان؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام لقمان؛ لأنه الأصل، ويحتمل أن يكون من كلام الله ختم الله به الآية، فقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ يعني: أقبحها وأبشعها، وليس أعلاها، لكن أنكرها؛ لأنه يوجد في الحيوانات ما هو أعلى من صوت الحمار، لكن في القبح ليس فيه أقبح من صوت الحمير.

وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ الجملة هذه مؤكدة بمؤكدين، وهي: إن، واللام، ووجه ذلك ما ذكره المؤلف: أن أوله زفير، وآخره شهيق، ما الفرق بين الشهيق والزفير؟ الشهيق: يكون باطنًا في الصدر، والزفير: يكون خارجًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال في آية أخرى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧] فذكر الله تعالى للنار شهيق وزفير، كما أن لساكنيها أيضًا زفيرًا وشهيقًا.

انتهت الوصايا النافعة التي هي من الحكمة التي آتاها الله تعالى لقمان.

الفوائد:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** ذم هاتين الخصلتين: تصعير الخد للناس تكبُّرًا وتعاظمًا، والمشي في الأرض مرحًا، وقد دلَّت الآيات الأخرى على أنهما من المحرمات، كما في سورة الإسراء.

٢- **ويستفاد من هذه الآية أيضًا:** أنه ينبغي للإنسان عند محادثة غيره أن يكون مقبلًا إليه بوجهه؛ لأن النهي عن تصعير الخد يدل على الأمر بضده، فيكون مقبلًا بوجهه.

٣- ويستفاد منها: أنه ينبغي في المشي أن يكون كما قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الله يحب، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾، ووجه الدلالة: أن نفي محبة الله لهؤلاء يدل على ثبوتها لغيرهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم الاختيال والفخر؛ لأن الله نفى محبته لهما، وقد سبق الفرق بين الاختيال والفخر؛ الفخر بالقول والاختيال بالفعل.

---

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٦٧) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وسنده صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يكون مشيه قصدًا لا إسراعًا مخلًا، ولا دبيًا متباطئًا، فالإسراع الذي يسبب التهوُّر والعجلة والطيش مذموم، والتباطؤ والدبيب مذموم، فيستفاد منه: أن يكون الإنسان في مشيه قصدًا بين الإسراع والتباطؤ.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أن يقال: إذا كان هذا في المشي الحسِّي، فليكن كذلك في المشي المعنوي، من الآداب والأخلاق، لا ينبغي أن يسرع الإنسان سرعة مخلة، ولا أن يتباطأ تباطئًا يفوِّت المقصود، أما الإسراع إلى الخير فقد أمر الله به، ولكنه لا يتجاوز الحد؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا سَمِعْتُمُ الأَذَانَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا»[1].

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أنه ينبغي للإنسان أن يغضَّ من صوته، لقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وذكرنا أنه يشمل الكمية والكيفية، وأنه في بعض الأحيان ينبغي رفع الصوت، كما في الأذان والخطبة، وما أشبهها.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن رفع الصوت في غير محلِّه محرم، لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فإن هذا التشبيه يقتضي التنفير منه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ»[2].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ذم أصوات الحمير، لقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وهل يؤخذ منها: أن للجار أن يطالب جاره إذا كان عنده حمار نهَّاق مزعج، ببيعه، أو لا؟ نعم؛ له أن يطالب بذلك، إذا كان نهيقه غير معتاد؛ لأن بعض الحمير كثير النهيق، فعلى هذا له أن يُطالِب، مثل ما قال الفقهاء رحمهم الله: إن له أن يمنعه من الرحاء التي يطحن بها دائمًا، كل ما يؤذي الجار فلجاره أن يمنعه منه، فإذا كانت قد وصفت أنه منكر بأنه أنكر الأصوات، فإن له أن يُطالب، فيقول: بِعْ هذا الحمار، وإلا اجعله في محل آخر حتى لا أتأذى به.

٦- **ويستفاد من الآية السابقة من وصايا لقمان:** ما أعطاه الله تعالى من الحِكَم، فإن كل ما أوصى به ابنه كله حكم موافق للعقل، والشرع أيضًا يؤيده.

٧- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الله عز وجل إذا قصَّ علينا نبأ أحد، فإن كان ذلك خيرًا فإنه يريد منا أن نفعله، وإن كان غير ذلك فإنه يريد منا أن نتجنَّبه، لما قص علينا قصة قارون، وذكر الله قول قومه له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٦- ٧٨] قص ذلك علينا لنحذر ونخاف، ولأجل ألَّا نسكت على من رأيناه يُفسِد في الأرض، وهنا قص علينا قصة لقمان من أجل أن نعتبر بهذه الحِكَم، وأن نقتدي به في نصيحة أبنائنا وأهلينا.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٠-٢٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ثم قال الله تعالى مقرِّرًا ما أنعم الله به على عباده: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ [تعلموا يا مخاطَبين] ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [من الشمس والقمر والنجوم لتنتفعوا بها] ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من الثمار، والأنهار، والدواب] ﴿وَأَسْبَغَ﴾ [أوسع وأَتَمَّ] ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ [وهي حُسن الصورة، وتسوية الأعضاء، وغير ذلك] ﴿وَبَاطِنَةً﴾ [وهي المعرفة، وغيرها].

يقرِّر الله تعالى في هذه الآية ما أنعم الله به على العباد، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وإنما قلت: يُقرِّر؛ لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على (لم) أفادت التقرير، فينقلب الفعل المضارع إلى مؤوَّل بماضٍ، مؤكَّد بقد، فمثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رأيتم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا لك صدرك، فيكون معنى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رأيتم، ولهذا في سورة ألم نشرح لك صدرك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وبعدها ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فعطف فعلًا ماضيًا على ما سبق؛ لأن ما قبله ما هو فعل ماض.

وقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ سخر بمعنى: ذلل، ذللها لكم أي: لمصالحكم ومنافعكم ﴿مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قال المؤلف: [من الشمس والقمر والنجوم] وهذا على سبيل التمثيل، وإلا فإنه سخر لنا أيضًا الرياح، وهي بين السماء والأرض، وسخر لنا السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] فهو لكل ما سخره الله تعالى، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من الثمار والأنهار والدواب] وغيرها أيضًا حتى المعادن وغيرها سخرها الله لنا وذلَّلها لنا، كل ما في الأرض مسخر مذلل، لكن بعضه مسخر بطبيعته، وبعضهم مسخر بواسطة، فالحديد والمعادن وما أشبهها مسخرة لكنها بواسطة، والدواب والأنهار والأشجار مسخرة بدون واسطة، يجدها الإنسان مهيأة كاملة.

وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ فسرها المؤلف بأمرين: بالسعة، والإتمام، أي: أوسع، وأتم، ومنه: إسباغ الوضوء

على المكاره؛ يعني: إتمام الوضوء، فمعنى أسبغ؛ يعني: أوسع وأتم، أما أتم فمثالها ما ذكرت: إسباغ الوضوء على المكاره، وأما أوسع فمنه قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعًا سابغات واسعة، ومنه أيضًا قولهم: ثوب سابغ؛ يعني: واسع، فيدخل فيه الإتمام أيضًا، فالمهم أن الإسباغ يتناول شيئين: إتمام الشيء، والثاني: توسيعه، والنعم التي أنعم الله بها علينا شاملة للأمرين؛ فهي واسعة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وهي أيضًا تامة ليس فيها نقص، كل ما يحتاجه الإنسان في حياته؛ بل كل ما يحتاجه في دينه فإن الله قد أتمَّه والحمد لله.

وقوله: ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فسَّر المؤلف الظهور بأنها الحسية الظاهرة، والباطنة [هي المعرفة، وغيرها].

النعم جعلها الله تعالى ظاهرة وباطنة، ظاهرة للعيان، وذكر المؤلف من الظاهرة: حسن الصورة، واستقامة الخلق، وما أشبه ذلك، والباطنة يقول: هي المعرفة، فهو في القلب هذا معلوم، وهذا لا شك أنه تفسير ناقص جدًّا، والظاهرة الصواب أنها أعم من ذلك، فالنعم إما ظاهرة لكل أحد، وإما باطنة لا يعلمها إلا الإنسان، هذا واحد، وإما ظاهرة أيضًا؛ بحيث كل يعرف أنها نعمة، وباطنة بحيث لا يرى أنها نعمة إلا من آثارها؛ يعني: بعض الأشياء حين وجودها لا تظن أنها نعمة لكن إذا عرفت آثارها وجدت أنها نعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن الإنسان أحيانًا يصيبه ما يصيبه من قضاء الله وقدره فلا يرى أنها نعمة حتى يعرف آثارها فيما بعد، والمهم أن النعم - والحمد لله - ظاهرة بيِّنة للعيان عامة شاملة للخلق، وشيء باطن لا يعرفه إلا من أنعم الله به عليه، أيضًا شيء واضح ظاهر أنه نعمة، وشيء باطن لا يتبين أنه نعمة إلا فيما بعد.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ (من) للتبعيض، وقد اختلف المُعرِبون في (من) التبعيضية هل هي اسم بمعنى: بعض، أو أنها حرفٌ دالٌّ على هذا المعنى؟ وعلى هذا الاختلاف ينبني الاختلاف في الإعراب؛ فإذا قلنا: (من) اسم بمعنى (بعض)، فإننا نقول: من مبتدأ، و (من يجادل) خبرها، وإذا قلنا: إنها حرف، فإن (من) حرف جر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و (من يجادل) مبتدأ مؤخر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ قال المؤلف: [أي أهل مكة] بناءً على قاعدته رَحِمَهُ اللَّهُ، أن كل السور المكية يحمل فيها العموم في مثل هذا السياق على الخصوص، وهم: أهل مكة، والصواب: أن ذلك عام؛ يعني: من الناس من أهل مكة وغيرهم.

﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المجادلة: مأخوذة من الجدْل، وهو فتل الحبل بإحكامه، ومنه: ما يسمى جدال المرأة؛ أي: فتل رأسها وإحكامها، وهذا معناها في اللغة، لكنها في الاصطلاح المجادلة هي: الممانعة؛ بمعنى: أن كل واحد من المتناظرَيْن يُحكِم الحجة من أجل إفحام خصمه، فهي إذن إحكام الحجة لإفحام الخصم وتعجيزه، والمجادلة إن كانت بعلم وحكمة فهي ممدوحة بلا شك، وقد تكون واجبة أحيانًا، كما

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإن كانت بغير علم فإنها مذمومة، فمن يجادل لإيراد الحُجَج والعلل الواهية لإفحام خصمه ونصر قوله ولو بالباطل، فهذا من الأمور المنكرة المحرمة ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ يقول: [أي: أهل مكة] ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ هل المراد في ذاته سبحانه وتعالى، أو المراد في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، أو أحكامه وأفعاله؟ الجواب: يشمل كل هذا، فمن الناس من يجادل في ذات الله، وينكر وجود الله وحده، ويجادل في هذا، ومن الناس من يجادل في وحدانيته، يُقِرُّ به لكن ينكر الوحدانية، ومن الناس من يجادل في ألوهيته؛ أي: في تفرده بالألوهية، ومن الناس من يجادل في أسمائه وصفاته، وأكثر ما وقع فيه الجدل بين المسلمين في باب الأسماء والصفات، لكن المسلمون الذين ينتسبون إلى الإسلام ويسمون أهل القبلة، هؤلاء كثُر الجدل بينهم في باب أسماء الله وصفاتها كذلك من الناس من يجادل في أحكام الله، وما أكثر المجادلين في أحكام الله، تجده يجادل تقول: هذا الشيء حرام، ثم يأتي ويجادلك: أي شيء حرمه؟ وهات الدليل، وهذا الدليل منقوض، وهذا التعليل باطل، وهكذا بغير علم، أما إن كان بعلم فليس فيه ذم، لكن بغير علم.

كذلك من الناس من يجادل في أفعال الله - والعياذ بالله -، فيقول: لماذا أنعم الله على هؤلاء الكافرين بالنعم الكثيرة ومن المسلمين من هو في جهد شديد، ومرض وفقر وجهل، وما أشبه ذلك، هذا يجادل في أفعال الله، كذلك يجادل في أفعال الله في مسألة القدر، ويقول مثلًا: إما أن يكون الله قد قدَّر على الإنسان عمله أو لا، فإن كان قدَّر عليه عمله فكيف يعاقبه؟ وإن لم يقدر عليه عمله فمعنى ذلك: أن الإنسان مستقل به، فيكون منفردًا بالحوادث ومشاركًا لله فيها، وما أشبه هذا من الجدل الذي يكون بغير علم، ولهذا ينبغي للإنسان في مسائل الشرع وفي مسائل القدر أن يستسلم لما دل عليه الكتاب والسنة، وألَّا يجادل؛ لأنه إن فتح على نفسه باب الجدل ما يستقر له قدم أبدًا، ولهذا قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المسائل العقلية ما لها دخل في الأمور القدرية، وأنا لو أردنا أن نُحكِّم كل هذه الأمور على العقل، فإن العقل قد يُجوِّز ما كان ممتنعًا شرعًا غاية الامتناع، كما أنه قد يمنع ما هو جائز، والمراد بالعقل: ما ادَّعى صاحبه أنه عقل، أما العقل الصحيح الصريح فإنه لابد أن يوافق النقل الصحيح، وإذا شئتم أن يتبيَّن لكم هذا فقرءوا كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية المسمى بكتاب «العقل والنقل» أو «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول».

ثانيًا: أن الجدل بابه واسع، والكلام هنا في المجادلة المذمومة، وهي المجادلة بغير علم بغير دليل، إذن ﴿في الله﴾ في ذاته، ربوبيته، ألوهيته، أسمائه وصفاته، أحكامه، أفعاله.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: ما عنده العلم ذاته، ولكن مكابرة ومعاندة، ﴿وَلَا هُدًى﴾ [من رسول] يعني: ولا عنده اقتداء بغيره، فهو ليس عنده علم في نفسه يقتدي به، وليس عنده علم من غيره يهتدي به ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: ولا كتاب منير [أنزله الله تعالى؛ بل بالتقليد]، هو ما عنده علم، ولا اهتداء بهدي رسول، ولا

كتاب أنزله الله فيهتدي به، إذن بماذا يجادل؟ يجادل بالباطل، وقال المؤلف: [بالتقليد]، لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الذي أوجب المؤلف أن يقول: [بل بالتقليد] يعني قال: لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿قِيلَ﴾ هذه مبنية للمجهول، فمن القائل؟ الله، الرسول، المؤمنون، كل هذا يمكن أن يكون، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، والنبي عليه الصلاة والسلام يحث الأمة على اتباعه، والمؤمنون كذلك يدعون الناس إلى اتباع ما أنزل الله، فيكون هنا حذف الفاعل لإرادة العموم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ هذا أعمُّ مما لو قال: وإذا قال الله لهم، أو وإذا قال لهم الرسول، أو وإذا قال لهم المؤمنون، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ يكون أشمل.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿مَآ﴾ مفعول ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾، و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ما المراد به؟ القرآن لا شك؛ لأن الله أنزله، والسنة ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] قال العلماء: الحكمة هي: السنة، إذن ما أنزل الله من القرآن، ومن السنة أيضًا؛ لأن السنة وحي، إن كان الله أوحاها إلى رسوله، وإلا فإقراره سبحانه وتعالى إيَّاها بمنزلة الوحي، لذلك قال العلماء: إن إقرار النبي ﷺ بمنزلة قوله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي أو الانتقالي؟ الإبطالي؛ يعني: بل لا نتبع ما أنزل الله، وإنما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، معارضة حق بباطل؛ لأنهم الآن عدلوا عمَّا أنزل الله عز وجل إلى الآراء فقط والأهواء ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان شركًا؟ نعم، ولو كان طاعة؟ نعم، ولو كان طاعة، فيكون اتباعهم لما عليه آباؤهم لا لأنه شرع، ولكن لأن عليه آباءهم، وحينئذٍ فلا يكون اتباعهم آباءهم على هذه الحال اتباعًا للشرع، ولا اتباعًا محمودًا.

وعلى هذا فنقول فيمن دُعِيَ إلى الكتاب والسنة، وقال: أنا أريد أن أتبع فلانًا، الإمام الفلاني، أو العالم الفلاني مع بيان السنة ووضوحها، يكون مشابهًا لهؤلاء المشركين؟ نعم، يكون مشابهًا لهم.

قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ هذا استفهام يتلوه حرف عطف، وقد تقدم لنا مرارًا وتكرارًا بأن حرف العطف إذا وَلِيَ الاستفهام، ففي إعرابه قولان: أحدهما: أن همزة الاستفهام دخلت على محذوف عُطِف عليه ما بعد حرف العطف، ويُقدَّر هذه المحذوف بحسب السياق، وعلى هذا فهمزة الاستفهام في مكانها، والمستفهَم عنه محذوف.

والقول الثاني: أن الواو حرف عطف والمعطوف عليه ما سبق، ومحل الهمزة بعد حرف العطف، وقلنا: إن هذا أهون من الأول، الأول أبلغ في التقعيد، وهذا أسهل، ووجه سهولته: أن الأول قد يخفى على الإنسان ماذا يُقدِّره، وربما يصعب أحيانًا تقدير شيء مناسب، وأما هذه فلا تحتاج إلى تقدير، تكون معطوفة على ما سبق، أما المؤلف فمشى على أي القولين [أيتبعونه ولو كان الشيطان]؟ على الأول؛ أن حرف الاستفهام دخل على شيء محذوف، وأن حرف العطف عاطف على ذلك الشيء المحذوف.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [أي: موجباته؟ لا] يقول الله عز وجل: أيتبعون آباءهم فيما أنزل الله حتى في هذه الحالة، وهو أن الشيطان يدعوهم، يدعوا آباءهم أو يدعوا هؤلاء؟ أظنها تشمل هؤلاء والآباء ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني: إلى ما يوجب عذاب السعير؛ من أعمال الشرك والكفر، وغيرها.

الاستفهام ظاهر كلام المؤلف أنه للإنكار والنفي لقوله: [لا]، ولكنه للنفي فيه إشكال؛ لأنهم لا شك أنهم يتبعونه، أما للإنكار فنعم، يكون الله عز وجل أنكر عليهم أن يتبعوا آباءهم، والشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير.

وقوله: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو عذاب النار.

وقوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [موحِّد] ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (من) هذه شرطية، جوابها: قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾، وقُرِن الجواب بالفاء؛ لأنه اقترن بقد، والجواب يقترن بالفاء إذا كان أحد أمور سبعة:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّة وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّسْوِيفِ

وهذا اقترن بجوابه قد، فوجب أن يُقرَن بالفاء.

وقوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني معناه: ينقاد له تمام الانقياد؛ بحيث يُسلِمه إليه، وهذا غاية ما يكون من التذلُّل والتوكُّل ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: لله؛ لأن قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أبلغ؛ كأنه أعطاه الله عز وجل، وبلغ غايته في الوصول إلى الله.

وقوله: ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ المراد: وجهه؛ يعني: وجه قلبه، أو وجه بدنه؟ المراد: وجه قلبه؛ يعني: اتجاهه، فهو من الوجهة؛ أي: من يتجه إلى الله قصدًا وتوكُّلًا واعتمادًا.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الجملة هذه حالية، حال من فاعل يسلم؛ يعني: والحال أنه محسن، والمراد بالإحسان، يقول المؤلف: التوحيد، ولكن الصواب خلاف كلامه؛ لأن التوحيد مفهوم من قوله: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكن قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: محسن باتباع الشريعة شريعة الله عز وجل، فيكون في الآية إشارة إلى الركنين الأساسين في العبادة، وهما: الإخلاص والمتابعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: في اتباع الشريعة؛ يعني: متبع لشريعتهم على وجه الإحسان.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ بمعنى: تمسَّك، لكنها أتت بهذه الصيغة استفعل للمبالغة في التمسك؛ لأن استمسك بكذا أقوى من قولك: تمسَّكَ به؛ لأنهم يقولون: إن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فلما كثُرت حروف استمسك صارت أقوى في معناها من: تمسَّك.

وقوله: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه] الإنسان عندما يتمسَّك بالحبل، فتارة يتمسك به بطرفه وليس له عروة، وتارة يتمسَّك به بطرفه وهو معقود، وتارة يتمسَّك به بطرفه وهو مثنيٌّ كالعروة، أيها أبلغ؟ العروة أبلغ؛ لأن الإنسان إذا

تمسك بطرفه ربما يسقط، وكذلك بطرفه معقودًا ما يتمكن كما يتمكن بطرفه إذا كان عروة، والوثقى مؤنث أوثق؛ يعني: العروة التي هي أوثق شيء، ولا ريب أن من أسلم وجهه لله وهو محسن فإنه سينجو من كل مكروه، ويفوز بكل مطلوب؛ لأن هذا هو الطريق الأمثل الذي يوصل إلى الله عز وجل، أن تسلم وجهك إليه وأنت محسن.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لما بيّن أن الذي يُسلِم وجهه إلى الله وهو محسن أنه مستمسك بالعروة الوثقى، وأن الإنسان في حال الإسلام إلى الله والإحسان قد يعتريه أمور يشك هل هو مستمسك بالعروة الوثقى أم لا؟ مثل: أن يتخلف عنه النصر في يوم من الأيام وما أشبه ذلك، فيخشى أن يكون على غير حق، فبيَّن الله تعالى أن عاقبة الأمور إلى الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١] لأن الإنسان قد يقول: ما قيمة هذه الأشياء بالنسبة للقنابل والصواريخ، وما أشبه ذلك؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقبة الأمور لله، فأنت ما دمت قمت بأسباب النصر التي بيَّنها الله لك فلا يخدعنَّك ما أعطي أعداء الله تعالى من القوة المادية؛ لأن هذه القوة المادية تتضاءل بكلمة من الله عز وجل، إذا أراد الله عز وجل أن يخسف بهم جميعًا الأرض، أو يفسد عليهم معداتهم، قال: كن، فيكون، ولهذا أعقبها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ حتى لا يستبعد الإنسان نصر الله عز وجل بسبب ما أوتي أعداؤه من القوة؛ لأن العاقبة لله عز وجل، هذه مثلها أيضًا، يُسلِم الإنسان وجهه إلى الله وهو محسن وينتابه بعد الآن شكوك، وهل هو على حق أو على غير حق، وهل هذا الاستمساك حقيقي أم لا، فبين الله تعالى أن عاقبة الأمور إلى الله، وأنك متى أسلمت وجهك إلى الله وأنت محسن فلابد أن تنجو.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (إلى) تفيد أي شيء؟ تفيد الغاية؛ يعني: غاية عاقبة الأمور إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يدبر الأمور كيف يشاء حتى تصل إلى ما يريد سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ جمع أمر، واحد الأمور؛ يعني: الشئون، كل الشئون الدينية والدنيوية، العامة والخاصة كلها عاقبتها إلى الله، هذا قسم من الناس الذي أسلم إلى الله وجهه وهو محسن.

الثاني: الكافر، قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [يا محمد] ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ [لا تهتم بكفره] ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى آخره.

قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ (من) هذه شرطية، وفعل الشرط كفر، وجوابه: قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ وقُرِن بالفاء؛ لأن الجملة اسمية.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذا عام من الأقارب والأباعد؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يحزن بكفر الكافرين، سواء كانوا أقارب له، أم أباعد.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ [يا محمد] أبان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ لمن؟

للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون موجهًا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكل من يصح خطابه ممن شأنه أن يحزن إذا كفر عباد الله، فيكون على هذا المعنى أعم مما قال المؤلف.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ما هو الحزن؟ الحزن هو: ضد السرور، وإذا قيل: حزن وخوف صار الحزن على الماضي والخوف في المستقبل، وقد يطلق الحزن على الخوف؛ كما في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] يعني: لا تحزن؛ أي: لا تخف فإن الله معنا، على أنه يحتمل أن المعنى: لا تحزن على ما فعلنا من اللجوء إلى هذا الغار، فيكون على بابه على الأصل.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ قال المؤلف: [لا تهتم بكفره] وظاهر كلامه: أن الحزن هنا بمعنى: الاهتمام بالشيء، لا يهمنَّك أمرهم، ولكن الحزن أخص من الاهتمام، فإبقاء الآية على ظاهرها، وهو أن الرسول يحزن إذا كفر الناس، وكذلك من كان ناصحًا لله ولرسوله يحزن إذا كفر الناس، أقول: إن حملها على ظاهرها أولى، وفعلًا الإنسان الناصح يحزن إذا كفر الناس، يحزن لأمرين: أولًا: رحمة بهؤلاء الذين كفروا، والثاني: حزنًا على ما فات الإسلام من كثرة مُتَّبعيه؛ لأن كثرة متبعي الإسلام عز للإسلام؛ وما هو الدليل على أن الكثرة عزة من القرآن؟ في القرآن آيتان تدلان على أن الكثرة عزة؟ قال شعيب لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال تعالى ممتنًا على بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] فالكثرة عز بالدليل الشرعي والواقع، الآن الصين الشيوعية بالنسبة للقوة الصناعية ما تقارَن بالروس ولا بأمريكا، ومع ذلك يهابونها؛ لماذا؟ للكثرة، وأعداء المسلين الآن يحبِّذون المسلمين أن يقللوا النسل، فتارة يقولون: إذا كثَّرتم النسل ضاق الرزق، كقول الكفار الذين يقتلون أولادهم خشية الإملاق، وتارة يقولون: إذا كثرت الأولاد عجزتم عن تربيتهم إساءة ظن بالله عز وجل، وتارة يقولون: إذا كثر الحمل ضعفت المرأة ولحقها الضعف، وهذا لابد منه، لا بد أن تضعف المرأة، كما قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والحاصل: أن كثرة الأمم تكون عزًّا لهم.

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جملة خبرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحصر ﴿إِلَيْنَا﴾ يعني: نحن إلى الله عز وجل، لا إلى غيره، وقوله: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مصدر ميمي، أي: رجوعهم إلى الله عز وجل لا إلى غيره، وهو الذي يحاسبهم على أفعالهم، ولهذا قال: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (ننبئهم) نخبرهم، وإذا أخبروا بذلك يُجازَون عليه؟ نعم، الكافر لابد أن يُجازَى على ذنبه، ولكنه يُجازَى بالعدل، ولهذا كانت النار دَرَكات بحسب جُرْم الكافرين، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

فقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي: نخبرهم على سبيل التوبيخ والإهانة، ثم نجازيهم بها يستحقون، قوله: (إلينا، فننبئهم) هذا ضمير جمع، لكن المراد به: التعظيم لا شك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا تكميل للتهديد؛ يعني: أن الله عليم بذات الصدور، وما هي ذات الصدور؟ ذات الصدور هي القلوب؛ لأنها فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فمعنى ذات الصدور؛ أي: صاحبة الصدور، وهي: القلوب، وقال: ذات الصدور، دون

القلوب؛ لأن ما كان داخل الصدر محجوب عن الخلق لا يعلمه إلا الله عز وجل، فلهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وفي قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليل على أن الكافر يحاسب على عمل القلب، وهو كذلك، فإن الكافر يحاسب عليه؛ لأنه لولا أنه يُحاسَب لم يكن في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبير فائدة.

ثم قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني: نجعلهم يتمتعون، يأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما شاءوا، ويركبون ما شاءوا، ويسكنون ما شاءوا، ويتنعمون بكل نعيم الدنيا، ولكن هذا قليل، وقليل، وقليل، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] خير من الدنيا من أولها إلى آخرها، من الدنيا وما فيها، هؤلاء - والعياذ بالله - يتمتعون قليلًا، وما أقل الدنيا ومتاعها، كل ما مضى من الدنيا إلى ساعتنا هذه كأنه لم يكن، يعمر الإنسان فيها ما يعمر، ومع ذلك يوم يرون ما يوعدون كأن لم يلبثوا فيها إلا ساعة من نهار، فهم يمتعون قليلًا، والقلة هنا باعتبار نوع المتاع، وباعتبار زمنه، فنوع المتاع بالنسبة لما في الآخرة قليل أو كثير؟ قليل جدًّا، ولا يُنسَب، قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، كذلك بالنسبة للزمن، الزمن قليل؛ أليس كذلك؟ ولا يُنسَب أيضًا، لا يُنسَب إلى زمن الآخرة الأبدي ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى صفته هذا التمتيع، فقال جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، هذا صفة هذا التمتع، شهوانيين ليس لهم إلا شهوة البطن وشهوة الفرج، كما تفعل الأنعام تمامًا.

وقال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ يعني: بعد هذا التمتع القليل ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [وهو عذاب النار، لا يجدون عنه محيصًا].

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ يعني: نُلجِئهم، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] يعني: فمن أُلجِئ، وهذا أصله مأخوذ من الإلجاء إلى الضرر؛ لأن اضطر أصلها: نضطر، فلهذا كل شيء يُلجِئ الإنسان يسمى: ضرورة؛ لأنه يلجئه إلى هذا الشيء.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لأنهم هم لا يريدون النار ولا يريدون هذا العذاب، لكنهم يُجبَرون عليه والعياذ بالله؛ لأنهم عملوا أسبابه.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ [في الآخرة] ما المراد بالآخرة؛ هل ما بعد يوم القيامة، أو حتى القبر؟ حتى القبر، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر: كل أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كله من اليوم الآخر، فهم بعد هذا المتاع يلجئون إلى العذاب والعياذ بالله.

وقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ﴾ العذاب: العقوبة، ﴿غَلِيظٍ﴾ يقول المؤلف: [إنه عذاب النار]، وأي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

شيء ضد الغليظ؟ ضده الرقيق، وغلظ عذاب النار في كيفيته وفي نوعه - والعياذ بالله -، أما الكيفية: فإن الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، ويقول فيما يُعذَّبون به: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] والعياذ بالله، هذا في كيفيته، أما نوعه فإنه لا يحصل ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥] إذا استغاثوا وماتوا من العطش وطلبوا الغوث، يغاثون بماء كالمهل، وهو: الرصاص المُذاب - والعياذ بالله - ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] إذا أقبل على الوجه شوى الوجه، فإذا نزل إلى الأمعاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وأحيانًا يُسقون من ماءٍ صديد ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] هذا العذاب - والعياذ بالله - بأنواعه الشديدة العظيمة يستحق أن يوصف بأنه عذاب غليظ، ليس فيه رِقَّة؛ بل هو غليظ.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١] هكذا في القرآن؛ يعني: لا يجدون مفرًّا ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣] بل إنهم - والعياذ بالله - يأتون إليها وِردًا عِطاشًا وتمثَّل لهم كأنها سراب ماء، والعطشان إذا رأى الماء ولو كان سرابا يظنه ماء من شدة تلهفه إلى الماء، فيردونها على هذه الحال - والعياذ بالله - ويتساقطون فيها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ لام القسم، مقرون بماذا؟ بـ (إن) الشرطية، حُذِفَ جواب الشرط، أم جواب القسم؟ حُذِف جواب الشرط، وبقي جواب القسم، أين الجواب؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقد مر علينا قول ابن مالك:

واحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَم

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو من يصح خطابه؟ يحتمل هذا وهذا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هذا هو صيغة السؤال، من خلق السموات والأرض؟ هل خلقها اللات، العُزَّى، مناة، هُبَل، من؟ الجواب: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هم يعترفون بأن خالق السموات والأرض هو الله عز وجل. وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسم، حُذِف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، والواو الثانية لالتقاء الساكنين، أصله (ليقولونَّ) لأن هذا فعل مضارع من الأفعال الخمسة لابد فيه من الواو والنون، فنقول: (ليقولون) وعند توكيد المعنى (ليقولونَّ) اجتمع عندنا الآن ثلاث نونات كلهم زيادات، إن حذفنا نون الرفع بقِيَت نون التوكيد، وإن حذفنا نون التوكيد بقيت نون الرفع، فأيها نحذف؟ نحذف نون الرفع لسببين: السبب الأول: أن نون الرفع اعتِيد حذفُها فيما إذا كان الفعل منصوبًا أو مجزومًا؛ بل إنها قد تُحذَف في غير حالتي النصب والجزم؛ تحذف للتخفيف، كما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»، «لَا تَدْخُلُوا» هذه ما فيها ناصب ولا جازم حُذِفَت للتخفيف،

وأصلها: (لا تدخلون) فحذفت النون للتخفيف، وتحذف النون أيضًا مع نون الوقاية كثيرًا، إذن فهي أحق بالحذف، فتبقى نون التوكيد؛ لأننا لو حذفنا نون التوكيد فات المقصود، ونحن نريد أن نؤكِّد الفعل، وتأكيد الفعل هنا واجب، أم ليس بواجب؟ واجب؛ لأنه مُثبَت بقسم مستقبل غير مفصول لم يُفصَل بين لامه وبين فعله فيكون توكيده واجبًا.

فإذن نُبقي النون، فإذا قالت نون الرفع: أبقونا جميعًا، (ليقولونن) نقول: ما يمكن؛ لأن نون الرفع زائدة، ونون التوكيد زائدة، فلا يمكن أن يجتمع عندنا ثلاثة حروف في مكان واحد، يمكن أن نتحمَّل حرفًا أو حرفين، إذن نقول: لابد من حذف نون الرفع، فهي أولَى بالحذف، اجعل الواو مع نون التوكيد، الواو هنا ساكنة ونون التوكيد مشدَّدة، فالحرف الأول منها ساكن، اجتمع ساكنان ما يمكن أن يجتمع ساكنان، وما هو السبب؟ لأن السكون والحركة نقيضان، فلا يمكن أن يجتمع شيء ساكن وساكن، فإذن لابد من أن نعمل عملًا يمكِّنا من اجتماع الساكنَيْن، ما هو العمل؟ العمل: إن كان الحرف صحيحًا الذي قبل الساكن نكسِره، وإن كان الحرف غير صحيح حرف لين فإننا نحذفه، قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقَ وَإِنْ يَكُنْ لينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

فهنا الساكن الأول: الواو حرف لين أم صحيح؟ لين، إذن نحذفه، فتلتقي اللام مع النون (ليقولن)، فصار عندنا الآن في هذا الفعل حذفان: حذف النون لتوالي الأمثال، حذف واو الرفع لالتقاء الساكنين، وعلى هذا يقول المؤلف: [حُذِف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الضمير لالتقاء الساكنين].

ما إعراب قوله: ﴿ٱللَّهُۚ﴾؟ فاعل لفعل محذوف، والتقدير: خلقهن الله، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ فذكر الله تعالى الفعل، فهنا المحذوف الفعل، هل يصح أن نقول: إن المحذوف اسم، والتقدير: هو الله؟ يصح ولكنه خلاف الأولى؛ لأن السؤال مُعادٌ في الجواب، والسؤال بلفظ الفعل: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾ فيقتضي أن يكون الجواب كالسؤال بالفعل خلقهن.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ يعني: إذا أقرُّوا واعترفوا قل: الحمد لله، الحمد: مبتدأ، والله: خبره، الحمد لله على أي شيء؟ على ظهور بيان الحُجَّة، وظهور المحجَّة.

الآن هم اعترفوا بماذا؟ بأنهم على ضلال في شركهم، فالحمد لله هنا على بيان الحجة وإظهارها، وأنهم خُصِموا بذلك؛ لأنهم إذا اعترفوا وأقرُّوا أن خالق السموات و الأرض هو الله وأن هذه الأصنام لا تخلق، فقد أقرُّوا على أنفسهم بأن هذه الأصنام لا تستحقُّ العبادة، ولهذا قل: الحمد لله، كما أن الحمد هنا يمكن أن نقول مع ذلك: الحمد لله على خلق السموات والأرض، أنه يُحمَد على أنه الخالق عز وجل دون غيره، ويُحمَد على ما له من صفات الكمال، ومن جميل الأفعال.

يقول المؤلف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ [على ظهور الحجة عليهم] (الحمد) تقدَّم لنا مرارًا وتكرارًا بأنه هو: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِۚ﴾ للاستحقاق والاختصاص،

الاستحقاق: بأنه هو المستحق للحمد، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»[1] ثانيًا: للاختصاص؛ لأن الذي يستحق الحمد المطلق هو الله عز وجل.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي، فهو انتقال مما سبق للتسجيل عليهم بالجهل التام، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وجوبه عليهم] يعني: التوحيد، وإنما نفى العلم عنهم؛ لماذا؟ لانتفاء فائدته، والشيء قد يُنفَى لانتفاء فائدته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٢١] يسمعون بآذانهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفى السمع عنهم لانتفاء فائدته بالنسبة إليهم، فقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى العلم عنهم وإن كانوا مُقرِّين بأن الله هو الخالق، لكنهم لم ينتفعوا بهذا العلم، وأيهما أشد قبحًا؛ جاهل لا يدري، وعالم لم ينتفع؟ الأخير أشد وأقبح؛ لأنه جاهل مركَّب، وذاك جاهل بسيط، ولأنه مُعانِدٌ مستكبر، وذاك غير معاند، والجهل المركب أشد قبحًا، والعناد عن علمٍ أشد من العناد عن جهل، يقول الشاعر:

وَمَنْ رَامَ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... يَضِلَّ عَنِ الصِّرَاطِ المستَقِيم

وَتَلْتَبِسِ العُلُومَ عَلَيْهِ حَتَّى ... يَكُونَ أَضَلَّ مِنْ تُومَا الحكِيم

توما جاهل مركب يسمونه: الحكيم، لكن بمجرد أنه سمى الحكيم، بدأ يفتي في كل شيء، حتى أفتى بأنه من تصدَّق على إنسان بابنته فإنه يدخل الجنة، ، قال:

تَصَدَّق بِالبَنَاتَ عَلَى رِجَالٍ ... يُرِيدَ بِذَاكَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

قال حمار الحكيم توما:

لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرَ كُنْتَ أَرْكَب ... لأَنَّنِي جَاهِلٌ بِسيطٌ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ

فالحمار يقول: إنه جاهل بسيط، وصاحبه توما جاهل مركب، الجاهل هو الذي لا يدري أنه جاهل، هذا مركب، والبسيط الذي يعلم أنه جاهل، ويتضح بالمثال: لو قال لك قائل: متى كانت غزوة بدر؟ فقلت : لا أدري، فما يسمى هذا؟ يسمى جهل بسيط، الإنسان لا يدري وعرف أنه لا يدري، وقال رجل لآخر: متى كانت غزوة بدر؟ قال: الحمد لله الذي فتح على الجاهلين، كانت غزوة بدر في جمادى الآخرة في سنة تسع من الهجرة، الآن هو جاهل وهو لا يدري أنه جاهل، لذلك استفتح بقوله: الحمد لله الذي فتح على الجاهلين، فيقال: إنه ما فتح الله عليك؛ لأنك جاهل، مركب من جهلين: جهله بالواقع، وجهله بالحادث.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

١- **في هذه الآية الكريمة**: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده بهذه النعم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٤/ ٤٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يحب أن يتنزَّه بما أسدى إلى عباده من النعم، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الله تعالى سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وهو ظاهر، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

٤- **ومنها:** جواز استخدام ما في هذا الكون في السموات والأرض لمصالحنا؛ لأنه مسخر لنا، فإذا كان مسخرًا فلنا أن ننتفع به بما أحل الله لنا، فلو قال قائل مثلا: هل لنا أن نأخذ المعادن الجارية والجامدة؟ نقول: نعم، هل لنا أن نحاول الصعود إلى الكواكب والنجوم لنرى ما فيها من الآيات، وكيف سخرت لنا؟ الجواب: نعم، ولكن على كل حال إذا كان هذا يكلف نفقات باهظة أكثر مما نستفيد منه، فإن الحكمة تقتضي ألا نفعله؛ لأن الآن هذه المحاولات يكون فيها من نفاد الأموال الشيء الكثير، فإذا قدر أن ما فيها من نفاد الأموال أكثر بأضعاف وأضعاف مما نستفيد منه فإن العقل يقتضي إلا نفعل؛ لأن هذا من السفه والتبذير، والإنسان العاقل لا يبذل المال إلا وهو يرى أنه ينتفع بأكثر مما بذل، أليس كذلك؟ لو فرض أنك بذلت مالًا قدره ألف ريال لتحصل على منفعة تساوي ألفي ريال، محمود هذا أو لا؟ نعم؛ وبالعكس لو أنك بذلت مالًا يبلغ ألفي ريال لتحصل على منفعة بقدر ألف ريال، هذا مذموم؛ لأنك الآن أضعت ألف ريال بدون فائدة، فيكون هذا من باب إضاعة المال والإسراف.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نعم الله عز وجل وافرة؛ يعني: كثيرة كاملة، لقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن نعم الله عز وجل نوعان: ظاهرة، وباطنة، سواء فسَّرنا الظاهرة بالأمور المحسوسة، والباطنة وبالأمور المعنوية، أو فسَّرنا الظاهرة لكل أحد، والباطنة التي لا يعرفها إلا صاحبها، أو فسَّرنا الظاهرة بما هو عام يعم جميع الناس في المطر والخصب، والباطنة بما دون ذلك، على كل حال النعم وافرة وسابغة من كل وجه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** ذم الجدل بغير برهان لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

٢- **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الجدل بالعلم والهدى والدليل من القرآن أنه جدل لا يُذمُّ صاحبه؛ لأنه حق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمجادل أن يكون له دليل من العقل أو من النقل، لقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهذا العلم الذاتي الذي يكون بطريق العقل، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العلم المكتسب، الهدى من الرسول، والكتاب المنير: القرآن.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء المجادلين ليس عندهم سوى التقليد،

لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ذم من خالف الحق لاتباع الآباء، لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الحق ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم التقليد مع ظهور الحجة، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أيًا كان المقلد إذا بانت الحجة فإنه لا تقليد، ولكن تُتَّبع الحجة.

٤- **ومن فوائدها**: أن التقليد يسمى اتباعًا، لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والمعروف المشهور بين أهل العلم: أن الاتباع يكون عن دليل، فيقال للرسول عليه الصلاة والسلام اتبعنا الرسول، والتقليد هو الذي يكون عن غير دليل، لكن هذه الآية تدل على أن كل من تابع أحدًا فهو متبع له.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان أن هؤلاء المخالفين كان عندهم علم بالحق، لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فيكون هذا أشد في ذمهم.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: ظهور العصبية في هؤلاء، لقوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهذا تعصُّب للآباء، والتعصب للآباء والقبائل من شأن أهل الجاهلية.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مخالفة الدليل للتقليد من إجابة الشيطان، لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: أن مخالفة ما أنزل الله سبب لدخول النار، لقوله: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أن وسوسة الشيطان التي يلقيها في قلب بني آدم من الدعوة، لقوله: ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ إذ إن الشيطان ليس يمثل أمامهم ويقول: اتبعوا كذا، ولكنه يوسوس في صدورهم حتى يتبعوه، وهكذا الشيطان يأمر بالشر.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحذر من وساوس الشيطان؛ لأن قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ هذا للتوبيخ والإنكار.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل شيء يُوجِبُ العُقوبة فهو من تلبية طلب الشيطان، لقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فمثلًا لو أراد الإنسان أن يسرق، أو أن يزني، أو أن يشرب الخمر، أو أن يقتل نفسًا محرمة، فإن هذا من الشيطان وتلبية لطلبه؛ لأن الشيطان هو الذي يدعو إلى عذاب السعير.

١٢- **ومن فوائدها**: أن الشيطان له عقل وإرادة وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] الشيطان له إرادة، وله تزيين، وله تلبيس، ولهذا يجب الحذر منه غاية الحذر.

١٣- **ومن فوائدها**: أن من دعا إلى ما يوجب العقاب فإنه شبيه بالشياطين؛ بل لنا أن نقول: إنه شيطان، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في الذي يُمانِع إذا منع من المرور بين يدي المصلي قال: «فَإِنْ

أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان»(1)، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** الفائدة العظيمة في الإخلاص والمتابعة؛ الإخلاص من قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾، والمتابعة من قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن من لم يكن كذلك فهو هالك لا متمسَّكَ له؛ لأنه رتَّب الاستمساك على هذَيْن: إسلام وجهه لله مع الإحسان، وعلى هذا فمن لم يأتِ بهما فليس له نجاة.

٣- **ومن فوائدها:** أن أوثق ما يستمسك به الإنسان للنجاة هو الإخلاص والمتابعة؛ لأن كلمة ﴿الْوُثْقَىٰ﴾ اسم تفضيل، فهي مثل أوثق في المذكر.

٤- **ومنها أيضًا:** فضيلة الإحسان، لقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقد سبق لنا أن الإحسان يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عواقب الأمور إلى الله عز وجل، فهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، وكم من إنسان يقدِّر، ولكن أمر الله يأتي على خلاف تقديره، والدليل قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه ينبغي لمن أسلم وجهه إلى الله وهو محسن أن يصبر؛ لأن العاقبة له، لا يتعجَّل، أو يستبعد الفرج، أو يستبعد النصر؛ لأن الأمور كلها ترجع إلى رب العزة سبحانه وتعالى.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يستطيع أن يُدبِّر في الكون، من أين تؤخذ؟ من تقديم الخبر الدال على الحصر.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزن لكفر من يكفر، لقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ فإن قال قائل: هذا ليس بصريح على ذلك، قلنا: إذا لم يكن صريحًا فإنه يدل على أن ذلك متوقَّع من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لو لم يكن موجودًا أو متوقَّعًا لكان النهي عنه لا فائدة منه، وقد قال الله عز وجل في آية أخرى ما يدل على أنه كان يحزن، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وما أشبه ذلك مما يدل على أن الرسول عليه الصلاة

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩) ومسلم (٢٥٨/ ٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والسلام كان يحزن لكفرهم.

٢- **ومن فوائد هذه الآية المترتبة على ما ذكرنا:** شدة حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، لكونه يحزن لمن لا يؤمن، مع أن عدم إيمانه لا يضر الله ولا رسوله شيئًا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يحزن لكفر من كفر؛ لأن الأمر بيد الله، وكونك تحزن هذا مما يشغلك عما ينبغي أن تقوم به من العبادات الخاصة، أنت عليك أن تبذل وتنصح فإذا رأيت «هَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَوَامِّ»[1].

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد الكافرين، لقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مرجع الخلائق إلى الله وحده، يستفاد من تقديم الخبر الدال على الحصر.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الكلام لله، لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٧- **ومنها:** أن كلامه سبحانه وتعالى بصوت مسموع، لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ لأن ما لا يُسمَع لا يكون فيه إنباء، فلا إنباء إلا بصوت مسموع، وهذا الصوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو أعظم وأجل، ولهذا إذا تكلَّم الله بالوحي صعق أهل السموات وارتجفت السموات، ومعلوم أن صوت أحد من الخلق لا يحدث منه هذا الشيء، ولكن الله عز وجل أعظم وأجل.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الله، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** التخويف من مخالفة الإنسان باطنًا، لقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإياك والمخالفة في الباطن، لا تقل: إنني لم أُظهِر ولا أحد يعلم، فإنه وإن لم يعلم الخلق فالله تعالى أعلم، مهما تكتم الشيء فإن الله تعالى يعلمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان مراقبة الله عز وجل دائمًا، لقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولهذا جاء في الحديث: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[2] لأنك إذا علمت بذلك وأيقنت به أوجب ذلك لك المراقبة مراقبة الله عز وجل، والرغبة إليه، وأن تكون همتك دائمًا في طلب ما يرضي الله سبحانه وتعالى، إذا كان الإنسان يؤمن بهذا الأمر وبمراقبة الله عز وجل لما في قلبه، فإنه لو هم بمعصية في أخفى ما يكون من الأرض فسيردعه ذلك الإيمان عن هذه المعصية، ولهذا حماية الإيمان بما يوجه إليه أعظم بكثير من حماية السلطات بما توجّه إليه؛ أليس كذلك؟ الشعب المؤمن ما يحتاج إلى مراقبة سلطات؛ لأنه يعلم أنه مراقَب من قِبَل من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لكن إذا ضعف

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤١) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

الإيمان احتاج إلى قوة السلطان، فإن ضعف الإيمان والسلطان فسدت الأديان والبلدان، فإذا اجتمعت القوتان: قوة الإيمان، وقوة السلطان فهذا هو الكمال، وإن ضعفا جميعًا فهذا هو الهلاك، وإن ضعُف أحدهما دون الآخر، ففيه حياة وموت.

ثم قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾، ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ الضمير يعود على الكافرين.

١- يستفاد من الآية الكريمة: أن الكافر قد يُمتَّع في الدنيا أكثر مما يمتع المؤمن؛ أليس كذلك؟ قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ وهذا هو الواقع، فإن بعض الكفار يكون أشد تمتعًا في الدنيا من المؤمنين، ولكنه كما قال الله عز وجل: ﴿قَلِيلًا ﴾.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن التمتع في الدنيا قليل في زمنه ونوعه، أما زمنه فظاهر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وأما نوعه فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن عذاب الكفار عذاب غليظ، لقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

٤- ومنها: أن الكفار يُضطَرون ويُلجئون إلى دخول هذا العذاب، لقوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾ واعلم أن هذا الاضطرار يكون عند خروج الروح، ويكون كذلك في الآخرة، أما عند خروج الروح فإنه قد ورد في حديث البراء الطويل أنه إذا حضر الموت إلى هؤلاء الكفار، وبُشِّرت روحه بالغضب من الله تعالى فإنها تفرَّق في البدن تتشبَّث فيه حتى ينتزعوها من البدن كما يُنزَعُ السَّفُّود من الصوف المبلول؛ يعني: بشدة، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿أَخْرِجُوا ﴾ يدل هذا الأمر على أنهم كانوا أشِحَّاء في إخراجها ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ إلى آخره، هذا معنى قوله: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾، وقال تعالى في الآخرة: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: ١٣] يُدعُّون بعنف حتى يدخلوها - والعياذ بالله -.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

١- في هذه الآية الكريمة: دليل على أن الكافرين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يُقرُّون بربوبية الله، لقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾.

٢- وفيها: أن هذا التوحيد لا ينفع من أقرَّ به؛ لأن هؤلاء المشركين انتفعوا بهذا الإقرار أم لا؟ لا؛ بل لابد من أن يُضافَ إليه: توحيد الألوهية، والأسماء والصفات.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات أن خالق السموات والأرض هو الله عز وجل، فإن قال قائل: هل المخلوق يخلق؟ نقول: لا، المخلوق لا يمكن أن يخلق، وخلق المخلوق إنما هو تحويل شيء إلى

شيء، يجعل الخشب بابًا، ويجعل الحجر بيتًا، وما أشبه ذلك، لكن هل يخلق خشبة ليجعلها بابًا؟ لا، ولا يخلق حجرًا ليجعله بيتًا، فكل ما في الإنسان من مصنوعات ومبتكرات ومبتدعات إنما هو تغيير وتحويل من شيء إلى شيء، أما إيجاد ذوات الأشياء فهو إلى الله عز وجل، وبهذا يتبيَّن معنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلا فالإنسان يخلق، ولكن خلقه ليس معناه إبداع وإيجاد بعد عدم، ولكنه كما أقوله وأكرِّره حتى يتبيَّن لكم معنى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فأثبت أن مع الله خلقًا، لكن هذا الخلق ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تحويل وتغيير لبعض الأشياء حسب ما أعطاه الله تعالى من قدرة ذهنية وبدنية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات أن السماء متعددة، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بُيِّن في آية أخرى أن عددها سبع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٧].

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن اعتراف الإنسان بالحق مما يُحمَد الله عليه، لقوله للرسول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإنه لا شك أن إقرار الإنسان واعترافه بالحق إظهار للحجة، وإذا ظهرت الحجة كان في ذلك من الثناء على الله ما هو خيرٌ لهم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أكثر هؤلاء المعاندين والمشركين كانوا لا يعلمون؛ إما للجهل، وإما لعدم الانتفاع بعلمهم، لقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي تأكيد الكلام في موضع التأكيد لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ فأكَّد الله عز وجل أنه سيقولون ذلك لئلَّا يقول قائل: هل هؤلاء يُقِرُّون بتوحيد الربوبية أو لا يُقِرُّون؟ فبيَّن الله أنهم، يُقِرُّون به وأكَّد ذلك، حتى لا يقال: كيف يقرون بتوحيد الربوبية ثم ينكرون توحيد الألوهية؟

قال الله تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٦- ٢٩].

۞ التفسير ۞

الجملة هنا خبرية ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وفيها حصر، وطريقه: تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: لا لغيره؛ بل له وحده سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: من كان فيها، والأرض كذلك، وأتى بـ (ما) التي لغير العاقل؛ لأنه يُراد بها: ملك الذوات والصفات، وإذا أُريد ملك الذاوت الصفات أُتِيَ بـ (ما)؛ لأنها أكثر، فإن كل ذات لها صفة، وليست كل الذوات عاقلة؛ بل الدواب والبهائم وغيرها من قسم غير العاقل.

وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المؤلف: [ملكًا، وخلقًا، وعبيدًا] الملك يشمل ملك الذوات والتصرف في هذه الذوات، ولهذا قال: [وعبيدًا] والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة دون الخاصة؛ لأن العبودية الخاصة تختص بالطائعين الذين تذلَّلوا لله سبحانه وتعالى طاعةً بالمعنى الشرعي، وأما العبادة العامة فهي تشمل كل الخلق؛ لأن جميع الخلق متذلِّل لله عز وجل باعتبار القضاء والقدر، ما أحد يستطيع أن يُعارِض قضاء الله وقدره، لكن الكفار يستطيعون أن يعارضوا إن شاء الله، ولهذا عارضوا وأنكروا الشرع، واستكبروا عن الحق.

قال: [وعبيدًا، فلا يستحق العبادة فيهما غيره] في السموات والأرض ما يستحق العبادة إلا الله؛ لأنه بمقتضى العقل والفطرة أن المالك الخالق المُدبِّر يجب أن يكون هو المعبود، ولهذا يستدل الله عز وجل على وجوب العبادة بماذا؟ بالربوبية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ومر علينا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهذا ظاهر أن من له الخلق يجب أن تكون له العبادة وحده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [عن خلقه] ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ [المحمود في صنعه] الجملة هنا استئنافية لبيان ما لله عز وجل من هذين الاسمين، وما تضمَّناه من الصفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الضمير ضمير فصل، ولضمير الفصل ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التوكيد، الثانية: الحصر، والثالثة: التمييز بين الخبر والصفة، فإذا قلت: زيد الفاضل، فزيد مبتدأ، والفاضل يحتمل أن تكون صفة لزيد، وأن الخبر لم يأت بعد، وأن التقدير: زيد الفاضل محبوب مثلًا، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، يحتمل أن يكون صفة أو لا؟ لا، يكون خبرًا، ولهذا سمي ضمير فصل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ قال المؤلف: [عن خلقه]، وهو كذلك غني في نفسه، غني عن غيره، غني في نفسه لكثرة ما عنده؛ لأن كل شيء هو لله عز وجل وهذا تمام الغنى، وغنيٌّ عن خلقه فلا يحتاج إلى أحد، والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أما من سواه فإنه مُفتقِرٌ إلى الله عز وجل قبل كل شيء، ثم إن الناس بعضهم مُفتقِر بعضهم إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢] الناس بعضهم إلى بعض في حاجة؛ بل في ضرورة أحيانًا، والجميع إلى الله في حاجة وضرورة، أما الرب عز وجل فإنه في غنى عن غيره، كما أنه غني بنفسه أيضًا، إذن غناه يتضمن شيئين: الغنى الذاتي؛ بمعنى: كثرة ما يملكه سبحانه وتعالى؛ إذ كل شيء فهو ملكه، الثاني: الغنى عن الغير؛ بحيث لا يحتاج إلى أحد، وغيره محتاج إليه.

وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ قال المؤلف: [المحمود في صنعه] فقصَّر في التفسير من وجهين: أولًا: قال: الحميد؛ بمعنى: المحمود، والصحيح: أنها بمعنى: المحمود والحامد، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله عز وجل، وهو كذلك محمود على كمال صفاته، وتمام إنعامه، محمودٌ على أمرين: على كمال صفاته، وعلى تمام إنعامه.

الوجه الثاني مما قصَّر فيه المؤلف: أنه قال: المحمود في صنعه، والصواب: أنه محمود في صنعه وفي شرعه أيضًا، فإن شرعه سبحانه وتعالى أكمل الشرائع وأنفعها للعباد، ومن ثمَّ للخلق طريقًا تستقيم به أمورهم، فهو أهل للحمد، الآن لو أن أحدًا دلَّك على طريق بلد في سفرٍ واحد من أسفارك تحمده أم لا؟ نعم، تحمده، فكيف بمن دلَّك على طريق الآخرة بكل ما تحتاج إليه، فالصواب: أن حميد بمعنى: حامد ومحمود، وحميد في صنعه، وفي شرعه، فصنعه الذي هو الخلق يُحمَد عليه سبحانه وتعالى؛ على إيجاده، وعلى إعداده، وعلى إمداده، وهو أيضًا محمود في شرعه يُحمَد عليه لما في شرعه من العدل، والحكمة، والرحمة التي لا نظير لها، وما أعظم الفائدة في اقتران الحميد بالغني؛ لأنه كما مرَّ علينا أسماء الله تعالى كلها حسنى وتدل على معنى أحسن، لكن قد يدلُّ الاسمان على صفة ثالثة حصلت باقترانهما، فالغنى مع الحمد يزداد كمالًا؛ لأنه قد يكون الغنيُّ غنيًّا ولكن غنى لا يُحمَد عليه؛ مثل: البخيل، فالبخيل الغني غني لكن لا يُحمَد على غناه؛ لأنه لا يُستفاد من ماله، وقد حرم نفسه من مصلحة ماله، لكن الله عز وجل له الغنى المقترِن بالحمد لكمال إحسانه على خلقه من هذا الغنى.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾.

(لو) هذه شرطية، وفعل الشرط محذوف؛ أي: ولو ثبت أنما في الأرض من شجرة إلخ، و(ما) اسم موصول بمعنى: الذي، و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الموصول؛ يعني: لو أن الذي استقر في الأرض، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ جار ومجرور بيان لـ (ما) الاسم الموصول؛ لأن الاسم الموصول مُبهَم يحتاج إلى بيان، فـ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بيان له؛ يعني: لو أنك تعرف من الشجر.

وقوله: ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ خبر (أن)؛ يعني: ولو أن الذي في الأرض من الأشجار كان أقلامًا يُكتَب بها.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ يقول: عطف على اسم (أن) ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾، وفي قراءة (والبحرُ)، (والبحر) إذا كانت بالرفع فهي مبتدأ، قال ابن مالك:

وجائز رفعك معطوفًا على ... منصوب إنَّ بعد أن تستكملا

وألحقت بـ (إنَّ) لكن وأن ....

قال: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ﴾ عطف على اسم إنَّ فتكون بالنصب، ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ أين الخبر؟ الخبر محذوف، قدَّره المؤلف بقوله: [مدادًا] يعني: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، وما فيها من البحار مداد؛ يعني: حبرًا يُكتَب به، جواب الشرط: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ المعبَّر بها عن معلوماته، نفد بمعنى: انتهى، ما نفِدَت كلمات الله الكونية والشرعية، السبب: لأنه سبحانه وتعالى لم يزَل ولا يزال متكلِّمًا، والخلق له بداية وله نهاية؟ لا، الخلق ما له نهاية؛ لأنه إذا دخل الناس الجنة أو النار، ماذا يكون؟ سرمدي أبدي، فإذن كل شيء يخلقه الله فإنه يخلقه بكلمة كن، فيكون، إذا كانت المخلوقات لا تنتهي، وكذلك أيضًا أفعال الله عز وجل في الأزل ما لها نهاية، فإنها لا يمكن أن تنفد أبدًا حتى لو فُرِضَ أن البحر ومن بعده سبعة أبحر تُمِدُّه، والشجر كل الشجر الذي في الأرض أقلام، وصار يُكتَب بها، فإن كلمات الله لا تنفد، ووجه ذلك واضح؛ لأن المخلوقات لا تنفد، وكل مخلوق فإنه يكون بالكلمة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] إذن يتبيَّن لنا وجه كون هذه الجملة الخبرية صدقًا محضًا، وهي صدق لا شك، كلمات الله خبر الله صدق، لكن قد يقول القائل: كيف وجه هذا ؟ نقول: هذا وجهه؛ إذ أن الإنسان قد يستعظم أن تكون البحار البحر المحيط ومن وراءه سبعة أبحر تكون مدادًا، وما في الأرض من شجرة أقلام يُكتَب به، ثم لا تنفد الكلمات، قد يستعظِم هذا الشيء ولكنه إذا عرف كمال قدرة الله وعظمته ما استعظم هذا.

وقوله: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾، قال: [المُعبَّر بها عن معلوماته بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد، ولو بأكثر من ذلك؛ لأن معلوماته تعالى غير متناهية] عفا الله عن المؤلف، هذا تحريف، عبَّر يقول: المراد بالكلمات: المعلومات معلومات الله؛ يعني: ما نفد ما يعلمه، لكن هذا تحريف ظاهر للقرآن، الله يقول: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ﴾ والكلمات تكتب، أما المعلومات فقد تكتب وقد لا تكتب، فهل كل المعلومات تكتبها؟ لكن كلماتك إذا أردت أن تعبر عنها للغير تنطق بها وتكتبها، فالمعنى: ما نفدت كلمات الله؛ أي: كلماته بالحق كلماته الحقيقية لو أُملِيَت على أحد وصارت البحار مدادًا لها، والأشجار أقلامًا لها ما نفدت، ووجه ذلك ظاهر، وهذا يدل على عظمة الله عز وجل، وكمال قدرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [لا يعجزه شيء] ﴿حَكِيمٌ﴾ [لا يخرج شيءٌ عن علمه وحكمته] قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ يقول: [لا يعجزه شيء] وأحيانًا يُعبِّر المؤلف نفسه فيقول: عزيز لا يغلبه شيء؛ وذلك لأن العزة كما سبق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر ، والثاني: عزة القهر وهو الغلبة، والثالث: عزة الامتناع، وهي أنه سبحانه وتعالى لا يناله شيءٌ بسوءٍ أبدًا، ممتنع عن كل سوء لقوته سبحانه وتعالى، وأما قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو هنا قال: [لا يخرج شيء عن علمه وحكمته] ففسَّر الحكمة بالعلم، وقد سبق لنا أن الحكيم مشتقة من الحكم والحكمة، فهو حكيم لا يخرج عن ملكه شيء وحكمه، وحكيمٌ لا يخرج عن حكمته شيء، إذن هو حاكم مُحكِم، كلها تؤخذ من كلمة حكيم، وفي قَرْن العزيز بالحكيم فيها إثبات صفة ثالثة غير العزة

والحكمة، وهي: أن عزته عز وجل مقرونة بالحكمة، فتكون عزَّة أكمل، وتكون حكمة أكمل، وذلك أن العزيز من الخلق قد تأخذه العزة بالإثم، فلا يكون حكيمًا في تصرُّفه؛ أليس كذلك؟ بلى، لكن الله عز وجل عِزَّتُه مقرونةٌ بالحكمة لا يمكن أن تخرج أفعاله عن الحكمة التي هو موافقة الصواب.

ثم قال عز وجل مُبيِّنًا كمال قدرته بعد أن ذكر عموم ملكه وكمال كلماته، قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [خلقًا وبعثًا؛ لأنه بكلمة كن فيكون] يعني: معنى الخلق والبعث، ما خلقكم جميعًا إلا كنفس واحدة، وما بعثكم جميعًا إلا كنفس واحدة، إذن الكثرة لا تعجز الله عز وجل؛ لأن الكثرة عنده والقلة على حدٍّ سواء، الكل تتعلق به القدرة، وهو كله سهلٌ عليه؛ لأنه يكون بأي كلمة؟ بكلمة (كن)، فالله عز وجل لما خلق السموات والأرض هل احتاج إلى عمَّال وعوامل؟ لا، يقولون: إذا كان البناء واسعًا كان أشد، وإذا كان ضيقًا كان أهون؟ لا، إنما هو بكلمة: كن، وما كان بكلمة كن فلا فرق بين أن يكون كثيرًا أو قليلًا، ولهذا قال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يعني: بل هي أقرب من لمح البصر، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] هذا غاية ما يكون من السرعة والإنجاز، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣- ١٤] كل هذا يدل على كمال قدرته عز وجل، فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا خلق السموات في ستة أيام؟ هي مخلوقة بالحكمة؛ لأن هذه القدرة أو هذا الخلق يحتاج إلى أشياء مقدمات وأسباب يحصل بها كمال الخلق، أليس الله قادرًا على أن يخلق الجنين في بطن أمه بدون أن يتناولها الرجل؟ بلى؛ كما حصل في عيسى، ومع ذلك فإن الله قد جعل لهذا أسبابًا؛ اتصال الرجل بالمرأة، ثم بعد ذلك الجنين يتطوَّر شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية، ثم إذا كان قابلًا أن يخرج إلى الدنيا خرج، ثم مع ذلك ينمو شيئًا فشيئًا ما يأتيه العقل كاملًا دفعةً واحدةً، ولا يأتيه النمو دفعة واحدة، ولكنه على وفق الحكمة، فيكون هذا جواب عما يرد في الذهن، أو يورَد على المرء لماذا خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ولماذا يخلق الله الجنين في بطن أمه لمدة تسعة أشهر، وما أشبه ذلك؟ فالجواب: أن أفعاله مقرونة بحكمة، وأنه سبحانه وتعالى جعل الأسباب مربوطة بمسبباتها، فلابد أن يكون هناك سبب ينتج عنه مسبب، ولابد أن يكون هذا السبب مطابقًا وموافقًا حتى يأتي.

﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [يسمع كل مسموع] ﴿بَصِيرٌ﴾ [يُبصِر كل مُبْصَر، لا يشغله شيء عن شيء]، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ تقدَّم أن السميع ينقسم قسمين: قسم بمعنى: مجيب، وقسم بمعنى: سامع؛ يعني: مدرك للأصوات، فالسميع الذي بمعنى مجيب؛ مثل: قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مجيبه، ومن المعلوم أيضًا أنه لا يجيبه إلا بعد أن يسمعه سمع إدراك، ولكن الفائدة من الدعاء هي: إجابة الداعي، أما مجرد أن يُسمَع دعاؤه فلا فائدة له من ذلك حتى يُجاب، وتقدَّم أن سمع الإدراك ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ما يفيد التهديد، وما يفيد التأييد، وما يفيد سعة سمع الله سبحانه وتعالى وإدراكه لكل مسموع.

فمما يفيد التهديد: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] هذا يفيد التهديد، وما يفيد التأييد: قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ومما يفيد الشمول شمول سمع الله عز وجل كل ما يُسمَع؛ مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] ولهذا قالت عائشة: تباركَ الذي وسِعَ سمعُه الأصوات؛ إني في طرف الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها، والله عز وجل من فوق سبع سموات يسمع هذا الحديث كله، لم يفته سبحانه وتعالى شيء.

أما قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ بمعنى مبصر؛ أي: مدرك ببصره سبحانه وتعالى، فلله تعالى بصر يبصر به المبصرات، كما جاء في الحديث الصحيح: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1]، وقد يكون البصير دالًّا على العلم؛ مثل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣] أي: عليم به، وعند الناس الآن إذا قالوا: فلان بصير بالأشياء؛ أي: عنده علم بها وخبرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ إلى آخره.

الهمزة هنا للاستفهام التقريري، فمعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: قد رأيت، فهو يقرر سبحانه وتعالى هذه القضية المشاهدة المعلومة لكل أحد، والخطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ إما للرسول عليه والصلاة والسلام، أو لكل من يصلح له الخطاب، والمعنى الثاني أشمل وأعم، فتكون شاملة لكل من يصلح له الخطاب، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرائي المخاطَب ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخِلُ الليل في النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يدخله في الليل، وهذا الإيلاج والإدخال لا يكون إلا بقدرة عظيمة، وكيف الإيلاج ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هل المراد: إقبال الليل وإقبال النهار؛ لأنك ترى الليل إذا أقبل يدخل سواده في النهار، يدفع النهار ويطرده، وكون النهار أيضًا إذا أقبل يلج في الليل فيطرده، فيكون هذا عبارة عن تقرير طلوع الفجر، وإقبال الليل، وقد أقسم الله تعالى بذلك في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤] يكون معنى الإيلاج: إدخال الليل في النهار أو بالعكس؛ متى؟ عند كل صباح، وعند كل مساء، هذه واحدة، أو أن المعنى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بمعنى: أنه يزداد النهار مدة حتى يدخل في الليل، ويزداد الليل مدة حتى يدخل في النهار؛ يعني: يطول النهار فإذا طال أخذ من الليل فيكون قد دخل عليه، ويطول الليل حتى إذا طال أخذ من النهار فيكون قد دخل عليه واختلس منه، هذا أيضًا معنى لكلمة الإيلاج، وكلاهما معنى صحيح، ففي إقبال الليل وإدباره آية عظيمة من آيات الله، وفي كون هذا يزيد وهذا ينقص آية من آيات الله عز وجل؛ لأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن يأتوا بالليل في النهار أو النهار في الليل ما يستطيعون، لو اجتمعوا كلهم على أن يزيدوا في النهار دقيقة واحدة أو في الليل دقيقة واحدة ما يستطيعون، مهما أوتوا من قوة، إذًا فهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل.

ثم إن في إيلاج الليل في النهار - على المعنى الثاني - وبالعكس فيه دليل على رحمة الله؛ لأن في اختلاف

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣/ ١٧٩) من حديث أبي موسى ﵁.

الليل والنهار بالزيادة والنقص فيه مصلحة عظيمة؛ لأن الليل إذا طال حصل البرد والشتاء، وظهرت آثار الشتاء، وماتت الحشرات التي قد يكون بقاؤها ضارًّا للإنسان والنبات، وكذلك إذا ازداد النهار ازداد الحر، فمارت السماء وزال البخار من الأرض، وماتت بذلك حشرات كثيرة من أجل الحر لو أنها بقيت لأضرَّت بالناس، فيكون هذا أيضًا فيه دليل على كمال الحكمة والرحمة مع القدرة.

يقول المؤلف: ﴿يُولِجُ﴾ [يدخل] ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يدخله] ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ سخر الشمس والقمر؛ أي: ذلَّلهما؛ لأي شيء؟ لمصالح العباد، والدليل على ذلك: قوله تعالى في الآية العامة الشاملة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ كلمة ﴿لَكُم﴾ إذن كل ما ذُكِر من تسخير في الكون فهو لبني آدم، ولهذا يقال في بعض الآثار: يا ابن آدم خلقتُك من أجلي، وخلقت كل شيء من أجلك، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما لمصالح العباد، وذكر الشمس والقمر بعد ذكر الليل والنهار؛ لأن الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء: ١٢] وهو: القمر ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ ولذلك القمر ما فيه نور، إنما يستمِدُّ نوره من الشمس، كلما قابلها ازداد نوره، فإذا تمَّت المقابلة بينه وبين الشمس في ليالي الإدبار كمُل نوره، ثم كلما ضعفت المقابلة ضعف نوره.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ﴾ [منهما] ﴿يَجۡرِيٓ﴾ [في فلكه] ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [وهو يوم القيامة] هذا التنوين الذي في كلمة ﴿كُلّٞ﴾ عِوَض عن كلمة؛ يعني: كل واحد من الشمس والقمر يجري إلى أجل مسمى. رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الشمس والقمر يجريان في فلكهما في النهار، ويجريان في فلكهما تحت الأرض في الليل، وهذا يدل على أن ابن عباس يرى أن الأرض كروية؛ لأنه إذا صار يجري تحت الأرض، فمعناه: أنها كروية، وهو كذلك؛ لأن الشمس والقمر في الليل يجري تحت الأرض، كما قال رضي الله عنه؛ يعني: أن الأرض طبقات بعضها فوق بعض، ألم تر إلى البيضة فيها القشر الأعلى، ثم القشر الثاني الذي يليه البياض، ثم البياض، ثم القشرة الرقيقة، ثم الأصفر، والأصفر أيضًا طبقات، الأرض مثل البيضة هذه، كذلك أيضًا السموات نفس الشيء طبقات مُكوَّرة[1].

(١) بقية الآيات غير موجود تفسير لها؛ نظرًا لتعذر الحصول على المادة الخاصة بها.

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ **قال الله تعالى**(١):

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾
وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[السجدة:٩-١٣].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إذا مشينا على ما قال المؤلف ففيه إشكال كبير، وهو: أنه يقتضي أن تسوية آدم بعد جعل السلالة من ماء مهين، وهذا هو الواقع أو خلافه؟ خلافه؛ لأن تسوية آدم قبل أن تكون سلالته من ماء مهين، فما هو الجواب عن هذا؟ الجواب من أحد وجهين: إما أن يقال: إن قوله: ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ هذه جملة معترضة لبيان أن آدم الذي كان من طين كان نسله من السلالة، ثم عاد إلى آدم فقال: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾، وإما أن يقال: إن هذا من باب الترتيب الذكري وليس من باب الترتيب المعنوي أو الوقتي، والترتيب الذكري موجود في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم ساد من بعد ذلك جده

---

(١) تفسير الآيات من (١ ـ ٨) غير موجود فيما لدينا من مصادر المادة العلمية.

والترتيب هذا على خلاف الواقع، هذا أحد الوجهين.

أما إذا قلنا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: النسل ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كما قاله بعض المفسرين، فالآية على الترتيب، ما فيها إشكال.

لكن هذا القول فيه إشكال في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ فإن هذا الوصف خاصٌّ بآدم، كما قال موسى له وهو يُحاجُّه: «أَنْتَ الذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»[1] فظاهره أن هذا خاصٌّ بآدم، ولهذا الوجه الأول أولى من هذا الوجه، وإن كان هذا الوجه له قوة من حيث الترتيب بـ (ثم)، لكن من حيث أن نفخ الروح ما كان إلا في آدم، وفي عيسى كما تعرفون، فإنه يدل على أن المراد بقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ المراد به: آدم، ويكون عودًا على بدء.

قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كلمة ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ مضافة إلى الله، وفيها إشكال؛ إذ إن ظاهرها أن آدم فيه شيء من روح الله فيكون جزءًا من الله، وهذا شيء ممتنع مستحيل، فما معنى الإضافة إذن؟ نقول معناها: أنها إضافة خلق وتشريف، كما قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ وهل الكعبة بيت لله يسكنه؟ لا، لكنه بيت أضافه الله لنفسه على سبيل التشريف والتعظيم، وكما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، وكما قال الله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣] هذه الإضافة على سبيل التشريف والتعظيم لهذا الشيء ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [أي: جعله حيًّا حسَّاسًا بعد أن كان جمادًا] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا التفات من الغَيْبَة إلى الخطاب، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ فهذا غيبة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ هذا غيبة ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ هذا غيبة ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا خطاب.

والانتقال أو الالتفات يسميه البلاغيُّون: الالتفات، له فائدة؛ بل فوائد: منها: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على وجه وتيرة واحدة ما حصل تنبُّه، لكن إذا اختلف يحصل التنبُّه، سواء اختلف بأوجه الضمائر؛ كالانتقال من الغيبة إلى الخطاب أو بالعكس، أو اختلف بشدة الصوت، عندما يكون الإنسان كلامه هادئًا على وتيرة واحدة ما يكون هناك انتباه، لكن لو أتى بزجر في بعض الأحيان يحصل انتباه، فالالتفات أو تغيير الخطاب كل يحصل به الانتباه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ قال: [أي: لذريته] فالخطاب لا شك أنه للذرية كما قال المؤلف، والفائدة الثانية حسب السياق؛ إما مثلًا زيادة توبيخ، أو زيادة في بيان نعمة، أو ما أشبه ذلك، حسب السياق و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ قال المؤلف: [بمعنى: الأسماع] لماذا أوَّلها إلى أسماع؟ لأن ﴿لَكُمُ﴾ جمع الخطاب لجمع، وإذا كان الخطاب لجمع لزِمَ أن يكون السمع لكل واحد فيكون جمعًا، قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (١٣/ ٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أهل اللغة: وإنما أفرد السمع وجمع الأبصار؛ لأن السمع مصدر، سمع يسمع سمعًا، والمصدر لا يُجمَع ولا يثنَّى، وإنما يبقى مفردًا، ويكون مرادًا به الجنس، والأبصار جمع بصر، وهو القوة الباصرة، وليس مصدرًا؛ لأن المصدر إبصار، أبصر يبصر إبصارًا، فلهذا جمعها، هذا مما أراد به الجنس.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئدة يعني: القلوب، فذكر الله سبحانه وتعالى طريق الفهم ومكان الفهم، طريق الفهم هو: السمع والبصر، ومحل الفهم والوعي هو: القلب ولهذا يكون السمع والبصر كقناتين يصبَّان في القلب، يتلقيَّان ما يُسمَع أو يبصر ثم يصبَّان في القلب، وهو محل الوعي والإدراك، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني: القلوب، لماذا لم يذكر الشم، والذوق، واللمس؟ لأن الاتعاظ بالآيات يكون بالسمع والبصر، وبدأ بالسمع؛ لأنه أشمل وأعم؛ لأنك تسمع ما لا تراه، ولما كان أشمل وأعم كان الابتلاء به - والحمد لله - أقل، لو نسبت الصُّمّ إلى العُمْي لوجدت النسبة قليلة؛ لأن الصمم أشد، فوجود السمع أهم، وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول المؤلف: [ما زائدة مؤكدة للقلة] ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وقليلًا ما إعرابها؟ مفعول مطلق؛ يعني: تشكرون شكرًا قليلًا؛ يعني: مع هذه النعم التي ساقها الله عز وجل من ابتداء خلق الإنسان إلى انتقاله في الأرحام إلى خروجه بالسمع والبصر والقلب، مع هذه النعم العظيمة فالشكر قليل، أي: تشكرون شكرًا قليلًا، وما هذه يقول: [زائدة لتأكيد القلة] وهذا معروف حتى في الأساليب العُرفية الآن تقول: قليلًا ما؛ يعني: توكيد لهذه القلة، فما زائدة والله أعلم.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ قال المؤلف: [أي: منكروا البعث] قالوا موردين هذه الشبهة: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المؤلف: [غِبْنا فيها بأن صِرنا ترابًا مختلطًا بترابها]، هذا معنى ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: غِبنا فيها وصرنا ترابًا كسائر التراب، أئذا حصل ذلك ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكار؛ يعني: أنكون في خلق جديد بعد أن أكلتنا الأرض وضللنا فيها، والاستفهام هنا إنكاري؛ يعني: لن يكون ذلك، هذه الشبهة هل هي حجة أو غير حجة؟ الجواب: ليست بحجة؛ لأننا نقول: أنتم خُلِقتم من تراب، والذي خلقكم أولًا من تراب قادر على أن يعيدكم ثانيًا من تراب، ولهذا جاءت هذه الآية بعد ذكر خلق الإنسان من طين، لما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ هذه شرطية، فأين جوابها؟ جوابها مفهوم من الجملة بعدها؛ يعني: أئذا ضللنا في الأرض أنُنشَأ خلقًا جديدًا؟

وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ يعني: أيتأكد أننا في خلق جديد، ولهذا لو قال قائل: إذا كانت الجملة الاستفهامية هنا للإنكار فكيف تأتي اللام الدالة على التوكيد ﴿أَءِنَّا لَفِى﴾؟ نقول: المراد:

ينكرون أن يتأكد ذلك؛ يعني: أيتأكد أننا في خلق جديد بعد أن تأكلنا الأرض، كقول إخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ فالمهم أن هذا التأكيد كأنهم ينكرون ما أُكِّد من كونهم يرجعون.

قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ هل الخلق هنا بمعنى: المخلوق؛ يعني: أئنا لنكون في أمة جديدة، أو إنه مصدر بمعنى التقرير؛ يعني: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ أي: لأن يخلقنا الله؟ يحتمل المعنيين وكلاهما صحيح ولا يتعارضان؛ يعني: أنكون في خلق جديد في أمة جديدة، أو أنُخلق خلقًا جديدًا بعد أن ضللنا في الأرض وكنا ترابًا؟ والجواب: نعم، تكونوا في خلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز، فالذي أنشأكم من التراب قادر على أن يعيدكم منه، حتى لو فني الإنسان كله مع أنه ورد في الحديث أنه يفنى كله إلا عجْبَ الذَّنَب، فإنه منه يخلق الإنسان كالنواة للشجرة، ويُستثنى من ذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وهذا دليل على قدرة الله عز وجل، وإلا فالأنبياء بشر، من أين هم مُكوَّنون؟ خُلِقوا أصلًا من تراب، لكن الآن من لحم وعظم وجلد كسائر بني آدم، ومع ذلك الأرض ما تأكلهم ما تأكل منهم شيئًا أبدًا، أما غير الأنبياء فإنها تأكلهم، لكن قد يحمي الله عز وجل بدن بعض الناس لا تأكله الأرض على نوع من الكرامة.

قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين في الموضعين] بتحقيق الهمزتين في الموضعين فيُقرأ: أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق، هذا التحقيق، أما إدخال ألف بين الهمزتين المحققتين: آئذا ضللنا في الأرض آئنا لفي خلق جديد، هذا إدخال ألف، تسهيل الثانية: أيذا ما تجعلها محققة اجعلها بين الهمزة والياء بدون ألف، بألف: آيذا ما تظهرها أيضًا، اجعلها بين الهمزة والياء، فالقراءات أربع، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [بالبعث كافرون] يعني: أن بل هنا للإضراب الإبطالي أو الانتقالي؟ الإبطالي؛ يعني: بل الأمر ليس كما شبَّهوا ولبَّسوا، فهم يعلمون قدرة الله لكنهم جاحدون ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بكافرون، وكافرون خبر مبتدأ هم؛ أي: بل هم كافرون بلقاء ربهم؛ أي: بملاقاته، ومتى تكون الملاقاة؟ تكون بالبعث، ومن كفر بلقاء الله فقد كفر بالبعث، ولهذا قال المؤلف مفسرًا لها بالمراد لا بالمعنى قال: [بالبعث] وإلا فهي أخص من البعث، اللقاء بمعنى: الملاقاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦] الإنسان أي إنسان ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ إلى آخره، يعني: هؤلاء الكافرون بلقاء الله؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ومن لم يؤمن بالبعث لم يؤمن بلقاء الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [لهم] ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [أي: بقبض أرواحكم]

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبضكم، كما تقول: توفَّيت حقي من فلان؛ أي: قبضتُه، وكذلك استوفيته؛ أي: قبضته على سبيل الوفاء، وهو الكمال، فمعنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي: يقبضكم، والمراد: قبض الأرواح.

وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ ملك مفرد ملائكة، أو مفرد أملاك، وهو مشتق من الألوكة بمعنى: الرسالة، وعلى هذا فأصله مألك، ثم حُوِّل فقُدِّمَت اللام وأُخِّرَت الهمزة فكانت ملئك، ثم خُفِّف فحُذِفت الهمزة فصارت ملك، ولهذا إذا جمع جاءت الهمزة، فقيل: ملائكة ولا يقال: مئالكة؛ لأنه صار فيه إعلال بالتحويل؛ يعني: بتقديم وتأخير، وهو من الألوكة أي: الرسالة، فملك الموت معناه: الذي أُرسل أرسله الله عز وجل لقبض الأرواح، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١] وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أضيف إلى الموت؛ لأنه يميت الناس بإذن الله، فسمي: ملك الموت، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، ولكنه لم يصح عن رسول الله ﷺ، وقد سبق أن الذين صح أسماؤهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنة، منكر ونكير فيه بعض الشيء بعضهم أنكر هذا، أما عزرائيل ما ثبت عن النبي ﷺ على الرغم من أن هذا الاسم أشهر أسماء الملائكة عند العامة، وقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ من الذي وكَّله؟ وكَّله الله عز وجل، وهذا التوكيل ليس توكيلًا لحاجة، ولكنه توكيل سلطان وعظمة؛ لأن الرب عز وجل لا يحتاج إلى أحد يعينه، كل من وُكِّل من الملائكة بشيء فليس ذلك على سبيل الحاجة، أنا إذا وكَّلت أحدًا قد أكون محتاجًا إلى هذا؛ لأني لا أستطيع مباشرة العمل، لكن الرب سبحانه وتعالى لا يحتاج، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، لكنه يوكِّل ذلك توكيل سلطان وعظمة لبيان سلطانه وعظمته، وأن كل شيء في خدمته وفي عبادته، وقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وكَّله الله، إذن الله وكيل وموكل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١] وموكِّل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام: ٨٩] وهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولكن ليس كونه وكيلًا بمعنى: أنه متوكل لغيره، والموكِّل أعلى منه، كما هو معهود، ولكنه وكيل بمعنى: رقيب على عباده مهيمن عليهم، وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هنا مفرد، وفي آية أخرى في سورة الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] فجمع، وفي آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ في الزمر، فكيف نجمع بين هذه الآيات الثلاث؟ جمع أهل العلم بينهن بأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ هذا هو الأصل أن المتوفِّي هو الله؛ لأنه مُدبِّر، والمُدبِّر للشيء فاعل له، كما تقول: بنى الملك قصرًا للحكم، يعني: ذهب أتى بالزنبيل، وأتى بالمسحاة، وأتى بسطل الماء، وربَّع الطين، وقام يحمل على متنه ويبني، الملك؛ ليس الأمر كذلك، إذن معنى بناه؛ أي: أمر ببنائه، لكن لما كان هذا البناء لا يتم إلا بأمره أُسنِد إليه، فالله تعالى يتوفى الأنفس ما يكون توفيها إلا بأمره، فأُسنِدت الوفاة إليه، أما قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ فإما أن يقال: إن ملك الموت هنا مفرد مضاف فيعم ملائكة، وهذا له وجه في اللغة العربية لكن ليس

بصحيح من حيث الواقع، ولكن الواقع أن ملك الموت له أعوان قبل قبض الروح، وأعوان بعد قبض الروح، أعوان قبل القبض يسوقون الروح من البدن حتى تصل إلى الحلقوم، ثم يقبضها، وأعوان بعد ذلك إذا قبضها فهناك ملائكة الرحمة تنتظر هذه الروح بالكفن الذي من الجنة، فلا يدَعُونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ويجعلوها في ذلك الكفن، وإن كان الإنسان بالعكس فعنده ملائكة العذاب معهم كفن من نار لا يدَعُونها في يده طرفة عين، يكون هنا المراد الجمع بينهما: أن إسناد الوفاة إلى الملائكة وهم جمع؛ لأنهم أعوان ملك الموت فكان لهم نوع مشاركة في هذا الفعل، وملك الموت هو الذي يقبضها إذا بلغت الحلقوم، وبهذا الجمع يزول الإشكال، ونحن قد بيَّنا كثيرًا أن القرآن والسنة ليس فيهما تعارض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢] وأنه إذا رأيت في شيء منهما تعارضًا فاعلم أن ذلك من سوء فهمك، أو قلة علمك، فتدبر وتعلم حتى يتبين لك الأمر.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [أي: بقبض أرواحكم] يعني: لم يوكل بنا في كل شيء، ولكنه وُكِّل بنا في قبض الأرواح فقط، لكن هناك ملائكة موكَّلون بنا في حفظ أعمالنا، وفي حفظنا أيضًا، وكذلك ملائكة موكَّلون في أعمالنا يجوبون الأرض وينظرون مجالس الذكر فيجلسون فيها، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [أحياءً فيجازيكم بأعمالكم] يعني: بعد الموت يرجع الإنسان إلى ربه، فيجازَى بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ثم قال تعالى: [﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مطأطئوها حياءً يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أنكرنا من البعث ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ إما إلى الرسول ﷺ، وإما إلى كل من يتوجه إليه الخطاب، وهذا المعنى أعم والأخذ به أولى لعمومه إلا أن يمنع منه مانع، ولهذا الخطابات التي تأتي للمفرد في جميع القرآن الأولَى أن تُحمَل على العموم، وأن يراد بها: كل من يتوجه إليه الخطاب إلا إذا منع من ذلك مانع، فتكون خاصة بالرسول ﷺ، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ لو هذه شرطية، ولو الشرطية تحتاج إلى جواب؛ يعني: إلى شرط، وإلى جواب الشرط، فالشرط قولهم: ﴿تَرَىٰٓ﴾ والجواب محذوف التقدير: [لرأيت أمرًا فظيعًا]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ إذ هذه ظرف؛ يعني: لو ترى ذلك الوقت الذي فيه المجرمون على هذا الوصف لرأيت أمرًا فظيعًا، المجرمون: مبتدأ، وناكسوا: خبره، وأين النون التي في ناكسوا؟ حُذِفَت لأجل الإضافة، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [أي: مطأطئوها] يعني: يخافون هكذا - والعياذ بالله -، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند الله عز وجل وهم بين يديه يوم القيامة، ولكن ﴿نَاكِسُوا۟﴾ يقول المؤلف: [حياءً] وفي النفس من هذا التفسير شيء، والظاهر أنهم ناكسوها ذلًّا وخضوعًا لسلطان الله،

بدليل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ أما حياءً فالحياء محمود لكن كونهم ينكّسونها ذلًّا هذا هو الواقع، ناكسوا رءوسهم عند ربهم ذلًّا، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ فجملة: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ مقول لقول محذوف تقديره: يقولون، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ يعني: يا ربنا، ونادوا الله باسم الربوبية؛ لأن الغالب أن الجمل الدعائية تأتي مصدَّرة برب؛ لأن الرب هو المالك المتصرف.

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ قال المؤلف: [ما أنكرنا من البعث] هذا ما قاله المؤلف، وعليه فيكون مفعول أبصرنا محذوف، التقدير: ما أنكرنا من البعث، ويحتمل أن أبصرنا هنا أي: حضرت أبصارنا وبصائرنا، ويكون أعم مما قدَّره المؤلف؛ يعني: صِرنا ذوي بصرٍ وبصيرة الآن، فيكون أعم؛ يعني: كأنهم يقولون: آلآن صرنا ذوي بصر وبصيرة، وهذا المعنى أعم وأبلغ.

وكذلك ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ يقول المؤلف: [سمعنا منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه] لأن الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ولكن أيضًا هذا الذي قال المؤلف لنا فيه وجه أحسن مما قال، فيكون معنى سمعنا؛ أي: كنا ذوي سمع الآن، ولهذا يقولون: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ يعني: كما نرى ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أما في يوم القيامة فيقولون: نعم، الآن صرنا ذوي بصر، وصرنا ذوي سمع، ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ﴾ ارجعنا إلى الدنيا وهو فعل طلب؛ أي: دعاء، وليس فعل أمر؛ لأن المخلوق لا يوجِّه أمرًا إلى الخالق.

وقوله: ﴿نَعۡمَلۡ﴾ هذا جواب الطلب جُزِم بجواب الطلب؛ يعني: إن ترجعنا نعمل صالحًا، وقوله: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ يعني: عملًا صالحًا، والعمل الصالح تقدَّم كثيرًا أنه ما جمع شرطين، هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ، هذا هو العمل الصالح، [﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن فما ينفعهم ذلك ولا يُرجعون]، معلوم ما ينفعهم إذا شاهدوا العذاب فإن الإيمان لا ينفعهم، كل من شاهد العذاب فإنه لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر:٨٤]، قال الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٥]، وما أحد نفعه إيمانه بعد العذاب إلا قرية واحدة قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] ليس له توبة؛ فقد شاهد العذاب فلا ينفع، ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر عمره قبل أن يحل به أجله فلا يستطيع الخلاص.

وقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أتوا بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ متى؟ الآن، لكن ما ينفعهم، لكن ما رأيكم لو رُدُّوا فماذا يكون

الأمر؟ ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] هذا خبر الله عز وجل الذي لا يُخلِفه.

يقول المؤلف: [وجواب لو: لرأيت أمرًا فظيعًا] يعني: جواب محذوف، إذا قال قائل: ما هي الحكمة في حذف الجواب، ولماذا لا يذكر من أجل أن لا يكون هناك اختلاف، وما هي الحكمة في الإبهام في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، ولماذا لا يذكر لأنه أبين؟ الجواب: أنه في مقام التهويل ينبغي الإبهام، لأجل أن يذهب الذهن كل مذهب في تعظيم الأمر وهوله؛ لأنه إذا ذُكِر الشيء قد يهون، لو أقول لك: والله يوجد سبع عظيم يأكل الناس ويفعل ويفعل ويفعل وهُول لديك وأنت ما رأيته يكون عندك رعب، لكن ربما لو رأيته يهون عليك الأمر، كذلك مثل هذه الأمور العظيمة إذا أبهمها الله فإنها أعظم وأوقع في النفس، وأشد وأعظم، ولهذا حُذِف الجواب، وأبهم الغاشي في قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] وأبهمت الحاقة والقارعة في مثل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة:٣]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة:٣] كل هذا من باب التعظيم والتهويل.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [فتهتدي بالإيمان والطاعة باختيار منها].

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الضمير يعود على الله عز وجل، وأتى بضمير الجمع تعظيمًا، فإذا قال النصراني: الآلهة ثلاثة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ونا للجمع، أين الدليل الذي يخرج هذا اللفظ عن معناه؟ وإلا فالصواب معنا، وأنتم أيها الموحدون على ضلال، وإلا لقال الله: ولو شئت، فالجواب: أن هذا من باب التشبيه والتلبيس، وإلا فارجع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] كم يصير؟ واحد، فيكون: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ من باب التعظيم، والله تعالى عظيم بصفاته، كل صفة من صفاته تقتضي عظمةً غير ما تقتضيه الصفة الأخرى، وباجتماع هذه الصفات يكون هناك عِظَم أعظم وأجل ﴿لَـَٔاتَيْنَا﴾ هذا جواب لو ﴿لَـَٔاتَيْنَا﴾ أعطينا، ولهذا نصبت مفعولين؛ المفعول الأول: كل نفس، والثاني: هُداها، والهدى بمعنى: الدلالة والتوفيق، ولهذا قال: [فتهتدي بالإيمان والطاعة] ولو شاء الله تعالى لفعل، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] فالله تعالى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الإيمان والتوحيد والاستقامة، ولكن حكمة الله تأبى ذلك، لأسباب كثيرة؛ منها: أنه جل وعلا قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهذا

قسم وتعهُّد من الله عز وجل للنار أن يملأها ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد صدَقَ هذا أو ما صَدَقَ؟ ما صدق، فإذن لابد أن يصدق، ثانيًا: لو كان الناس على أمة واحدة على التوحيد هل يتميَّز المؤمن من الكافر؟ كلهم واحد، ما يوجد امتحان واختبار، ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد لانسدَّ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما السبب؟ ما في منكر يحتاج إلى نهي عن منكر، ولو كان الناس أمة واحدة على التوحيد لبطل الجهاد، من يُجاهد؟ ما في أحد، المهم أن هناك حِكَم كثيرة في كون الله عز وجل جعل الناس إلى قسمين، ولهذا قال هنا: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ حقَّ بمعنى: وجب وثبت، و﴿الْقَوْلُ﴾ فاعل و﴿مِنِّي﴾ متعلق بمحذوف حالًا من القول، ولكن حق القول صادرًا مني، ما هو القول؟ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ [الجن] ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الفعل مؤكد بالنون، واللام، وبالقسم المقدر، والتأكيد هنا واجب من الناحية النحوية؛ لأنه في قسم مثبَت مستقبل لم يفصل بينه وبين لامه بفاصل.

وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ جهنم هذه اسم من أسماء النار، قيل: إنها عربية والنون فيها زائدة وأنها من الجهم أو من التجهُّم، وهو الظلم، وقيل: إنها اسم معرَّب، ما هو عربي لكنه معرب، وعلى كل الأقوال فالمراد بها: النار ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ الجِنَّة: الجن، والناس: بنو آدم أجمعين، تُملأ من هؤلاء وهؤلاء، أيهم أكثر؟ الله أعلم، لكن ظاهر القسمة أنهم سواء، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل الجن فهمنا من هذه الآية، أو من آية أخرى أنهم يدخلون النار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ يدخلون النار، وهذا بإجماع المسلمين أن كافر الجن يدخل النار، مؤمن الجن هل يدخل الجنة، أو لا؟ اختلف فيه العلماء والصواب: أنهم يدخلون الجنة، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ممن؟ من الجن والإنس، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن:٤٦] ثم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخاطب من؟ الجن والإنس، فهذا دليل أيضًا على أنهم يدخلون الجنة، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦)﴾ [الرحمن:٥٦] يدل على أنهم يدخلون الجنة، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل العلم، وقال بعضهم: إنهم لا يدخلون الجنة؛ لأن الذين ولَّوا إلى قومهم منذرين ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف:٣١]، فهل قال: يدخلكم الجنة، فهذا دليل على أن المؤمن منهم يُجار من العذاب الأليم فقط، فيقال: إن

هذا استدلال بنصٍّ وترك نصوص، وما هكذا حال الإنسان الذي يوفِّق بين الأدلة، ثم إن مقام هؤلاء القوم مقام إنذار وتخويف ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ دون مبشِّرين، فهو مقام إنذار وتخويف، وهم إذا استقاموا وخافوا فإنه لا شك أنهم يدخلون الجنة؛ لأن من أُجِير من العذاب الأليم من المُكلَّفين فلابد أن يدخل الجنة؛ إذ أن مآل الورى إلى الجنة أو النار، وهذا القول هو الحق أن مؤمنهم يدخل الجنة وكافرهم يدخل النار، والثاني بالإجماع ما فيه خلاف؛ لأنه نص القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [(١)].

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: كمال خلق الله تعالى؛ لأنه أحسَنَه.

٢- ومن فوائدها: أن كل مخلوق خُلِق على ما يناسب حاله، وجه الدلالة من الآية: أنه لو لم يكن الأمر كذلك لما كان إحسان خلقه، إذا كان هذا هكذا، وضممته إلى سورة طه وهو قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] يعني: خلقه المناسب له ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: هداه لمصالحه المناسبة له، أليس كذلك؟ أعتقد أن البقر لو خرجت مسابقة في وظيفة تذهب تسابق؟ طبعًا لا، ما هو من شأنها، لكن لو ألقي علف في زاوية من البيت تسابق إليه؟ نعم، تسابق إليه؛ لأن الله هدى كل مخلوق لما يناسبه.

٣- ومن فوائدها: تكذيب النظرية الكاذبة وهي نظرية داروين الذي يقول: إن الخلق نشأ بالتطور وأن أصل الإنسان قرد، ثم صار على طول الزمن إنسانًا، وعلى قاعدتهم ما ندري ماذا سيكون الإنسان على طول الزمن، ولا شك أن هذه النظرية باطلة وكفر بالله عز وجل، نأخذها من قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ما أصدق من هذه الآية شيء.

٤- ومن فوائدها: تمام قدرته سبحانه وتعالى؛ حيث خلق هذا الإنسان العجيب في خلقه وفهمه وتدبيره وذكائه من هذا الشيء الجماد، وهو الطين.

٥- ومن فوائدها: إثبات أفعال الله الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، من قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾ فإن البدء يكون عن عدم.

٦- ومن فوائدها: أن الإنسان حادث بعد أن لم يكن، لقوله: ﴿وَبَدَأَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾.

١- من فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان الذي خلق من الطين له نسل، جعل له نسل من أجل أن يبقى هذا النوع من المخلوقات، لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن الإنسان يُخلَق من المني، لقوله: ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ والسلالة هي

(١) هذه الآية تفسيرها غير متوفر لدينا.

الخلاصة، والماء المهين هو المَنِيُّ، وعلى هذا فهو مخلوق من مني الرجل لا مني الأنثى؛ لأنه هو الماء المهين.

٣- ومن فوائدها: حكمة الله عز وجل في هذا الماء؛ حيث جعله على هذا الضعف وعلى هذا النوع من أجل حفظ الحيوان المنوي؛ إذ لو كان سائلًا سيولة الماء ما احتفظ بهذه الحيوانات، ولو كان غليظًا أثخن من هذا لكان منه ضغط على هذه الحيوانات فربما تموت، ولكن الله عز وجل جعله على هذا الوضع المناسب.

ثم قال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى أكمل خلق الإنسان، لقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين:٤]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن الإنسان جسم لا يكون إنسانًا إلا بالروح، لقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

٣- ومنها: وليس بذاك القوي أن الروح جسم؛ لأنها تنفخ في هذا الجسم البائد وهو كذلك؛ لأن الروح جسم لكنها جسم لطيف لا يُرى، مع أن الملائكة تقبضه وتجعله في الحنوط، وتصعد به إلى السماء، لكن نحن لا نراه عندما تخرج روح الميت فنحن عنده لا نرى شيئًا.

٤- ومن فوائدها: بيان نعمة الله عز وجل على الإنسان بجعل السمع والأبصار والأفئدة التي بها إدراك المعقول وعقله، إدراك المعقول بالسمع والبصر، وعقله بالقلب ووعيه.

٥- ومن فوائدها: أن الإنسان قليل الشكر، لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما أن الشاكر قليل أيضًا، والقائم بالشكر على الوجه المطلوب قليل، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ:١٣] الشاكر قليل يعني: معناه: من حيث الأفراد والأشخاص، واحد في العشرة هذا قليل، ونفس الواحد هذا أيضًا شكره قليل، الشاكر قليل، وشكر الشاكر أيضًا قليل، فقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا باعتبار شكر الشاكر، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ باعتبار الأفراد الشاكرين.

٦- ومن فوائدها: ذمُّ من لا يشكر، لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٧- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يكون شكره على حسب النعمة؛ ففي السمع يستعمل السمع في ما يُقرِّب إلى الله، ويمنعه عما حرَّم الله، وكذلك في البصر، أما القلب فنَعَم يجب عليه أن يُعرِض بقلبه عما كل ما حرم الله، وأن يُقبِل بقلبه على كل ما أمر الله به.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: توبيخ هؤلاء المنكرين، كما جاء في خطاب الله عنهم: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء المكذبين كانوا شاكِّين في قدرة الله، لقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا﴾، ويحتمل أن يكون ذلك منهم مُكابَرة وأنهم عالمون بقدرة الله ولكن يُكابِرون، ويؤيد هذا قوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: الأمر واضح لكن هؤلاء كفار.

٣- **ومن فوائدها**: تمام قدرة الله عز وجل بإعادة الأموات بعد أن غابوا في الأرض واضمحلُّوا فيها يُنشِئُهم الله تعالى خلقًا جديدًا.

٤- **ومن فوائدها**: إبطال قول من يقول: إن البعث إيجاد من عدم؛ لأن هناك من يقول: إن الخلق يُعدَم بالكلية، ثم يُنشَأ من جديد، وهذا القول باطل؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الثواب لمن لا يعمل، والعقوبة على من لم يعمل، لو قلنا: بأنه يُعدَم بالكلية، ثم ينشأ خلق جديد ويحاسب، فهذا الجديد ما هو موجود في الأول، فيكون معاقبًا على ما لم يفعل، ومثابًا بما لا يفعل، والله تعالى قد بيَّن أن الإنسان نفسه هو الذي يُعاد، فليس يُعدَم ثم يُخلَق من جديد، ولكنه يُعاد ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، ما قال: نخلق غيره، الشاهد: قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول: كيف بعد ما نغيب في الأرض ونكون ترابًا كيف نُبعَث؟ فدلَّ هذا على أن البعث هو إعادة ما سبق، وليس ابتداء خلق جديد.

٥- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء المنكرين للبعث ليس عندهم حجة إلا مجرد الكفر، لقوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: إثبات ملاقاة الله عز وجل يوم القيامة، لقوله: ﴿بِلِقَآءِ﴾، ومثله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة**: أن الذي يتولَّى قبض الأرواح ملك الموت، لقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: إثبات الملائكة، لقوله: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، والملائكة عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعلهم من السامعين المطيعين له، وأفطرهم على فعل المأمور، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:٢٠]، وقال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦]، فيه كمال الامتثال، وكمال القدرة.

٣- **ومن فوائدها**: تمام تنظيم الله للأمور وإحكامه لها، لقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فإن كل ملك مُوكَّل بشيء من الأشياء، لتمام النظام، وإحكامه، وإحسانه.

٤- ومن فوائدها: عظمة سلطان الله، من قوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ فقد سبق لنا أن هذا التوكيل ليس عجزًا من الله عز وجل، ولكنه لبيان سلطانه وعظمته.

٥- ومن فوائدها: إثبات الرجوع إلى الله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، ويؤخذ منه: إثبات الجزاء؛ لأن هذا هو المقصود من قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

١- في هذا: بيان فظاعة ما يحلُّ بالكافرين يوم القيامة، من قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ والمقدر جوابها: لرأيت أمرًا فظيعًا.

٢- ومن فوائدها: أن هؤلاء المجرمين المستكبرين في الدنيا الرافعي رءوسهم ستكون حالهم في يوم القيامة على العكس من ذلك، لقوله: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ المؤلف يقول: [حياءً]، والصواب: أنه ذلًا وعارًا وخزيًا - والعياذ بالله -.

٣- ومن فوائدها: أن المجرمين يوم القيامة يُقرُّون بالحق، من قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ ولكن هل ينفع هذا؟ لا، بعد أن شاهد الإنسان العذاب أو الجزاء ما ينفع الرجوع.

٤- ومن فوائدها: أن هؤلاء يطلبون الرجعة إلى الدنيا، لقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾.

٥- ويتفرع عليها: أن الآخرة قد يكون فيها شيء من العبادات؛ لأن الدعاء من العبادة، وهم يدعون الله، وعليه فمن نفى أن الآخرة دار تكليف أو دار عمل فإن نفيه على سبيل العموم فيه نظر ظاهر، فإن الآخرة قد يكون فيها تكليف ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، ﴿وَيُدۡعَوۡنَ﴾ هذه تكليف، أو لا؟ تكليف، فالآخرة قد يكون فيها تكليف.

٩- ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين يُوقِنون بالآخرة، لقوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

١٠- ومن فوائدها: إقرارهم على أنفسهم بأن عملهم السابق ليس بصالح، من قوله: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ كأنهم بالأول لا يعملون صالحًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

١- يستفاد من هذه الآية: إثبات مشيئة الله، لقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾.

٢- ومن فوائدها: تمام سلطانه، لقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾.

٣- ومن فوائدها أيضًا: إثبات حكمته؛ حيث لم يؤتِ كل نفس هداها، وقد سبق لنا شيءٌ من الحِكَم في اختلاف الناس إلى مؤمن وكافر.

٤- ومن فوائدها: الرد على القدرية، وهم الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، ما لله

تعالى فيه تقدير ولا خلق، يشاء بنفسه، ويفعل بنفسه، وليس لله تعلُّق بفعله، هؤلاء هم القدرية، فقوله: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا ﴾ يردُّ عليهم، ولكن هل في الآية دليلٌ لمذهب الجبرية؟ ظاهرها، إلا أن الآيات الأخرى تدل على أنه لا حُجَّة فيها لهم؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان قدرة واختيارًا، ونحن معشر أهل السنة لا نأخذ ببعض الكتاب وندَعُ بعضًا؛ بل نأخذ بالكتاب كله، فنؤمن بأن مشيئة الله فوق كل شيء، ونؤمن بأن للإنسان مشيئة، وإرادة، وقدرة على العمل، وأن يسهل الفاعل، وليس الله هو الفاعل.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات كلام الله، أن الله يتكلم، لقوله: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن كلامه سبحانه وتعالى بحرف؛ لأن قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ حروف أم لا؟ حروف، فكلام الله تعالى بحرف.

٧- **ومن فوائدها:** الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس؛ إذ لو كان كذلك لقال سبحانه وتعالى: ولكن أردت أن أملأ، ولم يقل: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات النار، لقوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله جل وعلا أوفَى المعاهدين، أنه وعد النار أنه يملأها فوفى لها بها وعدها، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أن الجن يدخلون النار، من قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩] وهل يدخلون الجنة؟ تقدم أن في ذلك خلافًا، وأن الصواب: أنهم يدخلونها، وبيَّنا الأدلة على ذلك من القرآن.

قال الله تعالى:

﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤-١٧].

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ المؤلف يقول: [وتقول لهم الخزنة إذا دخلوها] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾، ولننظر في كلام المؤلف هل يوافق ظاهر الآية: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ هل يناسب أن يكون القائل الملائكة، وأن الملائكة تقول: إنا نسيناكم؟ لا، من القائل إذن؟ الله، كما قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فصار أن هذا القول من قول الله عز وجل، يقول لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا، يقول: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ فالأمر هنا ليس للإكرام ولا لمجرد الأمر، ولكن للتوبيخ والتقريع والإهانة ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ قال المؤلف: [فذوقوا العذاب] أفادنا بهذا التقدير أن مفعول ذوقوا مفعولًا محذوفًا تقديره: العذاب، ويحتمل أن لا يكون لها مفعول، والمعنى: كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] يكون المراد مجرد التوبيخ والإهانة، قال: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [أي: بترككم الإيمان به، والعمل له]، وأفادنا بقوله: [بترككم] أن (ما) مصدرية، وأن ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى: تركتم، وهو كذلك، فإن (ما) مصدرية؛ أي: بنسيانكم، والنسيان هنا بمعنى: الترك، وليس النسيان الذي هو ذهول القلب عن معلوم؛ لأن النسيان المعروف هو ذهول القلب عن معلوم، ولهذا لا يعاقب عليه الإنسان، ويُطلَق النسيان على الترك وهو الذي يُعاقَب عليه، والدليل على إطلاق النسيان على الترك: قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وهذه الآية: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ بمعنى: تركناكم، وليس معناها: ذهول القلب عن معلوم، لقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، النسيان المنفي عن الله غير النسيان المُثبَت له، النسيان المُثبَت له هو الترك، والنسيان المنفي عنه هو الذهول عن الشيء، ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ تركتم لقاءه، المراد: تركتم العمل له والإيمان به، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم في العذاب، تركهم الله عز وجل، هو ما نسيهم لا يزال يعلم بهم جل وعلا، ولكنه تركهم، وقال لهم بعد المراجعات: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، هل يتكلمون بعد ذلك؟ أبدًا؛ لأنهم في الآخرة ما يقدرون يخالفون، لما قال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤهم من كل رجاء - والعياذ بالله - وأيِسُوا من كل خير.

وقوله: [﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم في العذاب ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الدائم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب]، هذا تكرار للتأكيد، وبيان أن ما ذاقوه لا يمكن أن يزول عنهم، مع أنهم قالوا فيما سبق: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فقال: ما في رجوع.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني: العذاب الدائم، وهذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه، أو على تقدير (في) للظرفية؛ يعني: عذاب في الخلود، وعلى كل حال هو عذاب دائم، ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) هنا يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم في الدنيا تعملونه، ويحتمل أن تكون مصدرية، ولكن ظاهر تفسير المؤلف أنها اسم موصول.

ثم بيَّن الله عز وجل مَن المؤمن حقًّا، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [القرآن] ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ (إنما) أداة حصر حصرَت الإيمان في الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرُّوا سجدًا، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ قال المؤلف: [القرآن] وعلى هذا فهي الآيات الشرعية، والصواب: أنها عامة، حتى الآيات الكونية كمن ذُكِّر بما يفعله الله عز وجل بالمكذبين والمجرمين، فإن ذلك داخل في الآية ﴿بِآيَاتِنَا﴾، وقوله: [القرآن] يقتضي أن هذا القول خاصٌّ بهذه الأمة ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ لأنهم هم أهل القرآن، ولكن الأولى أن تؤخذ على سبيل العموم حتى فيمن سبق ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا الَّذِينَ﴾ [الإسراء:١٠٧].

يقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ (الذين) ما إعرابها؟ فاعل ليؤمن؛ يعني: ما يؤمن إلا الذين، والمراد: الإيمان الكامل، وقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ [وُعِظوا بها] أي: جُعِلت موعظة لهم، وبُيِّنَت لهم الآيات، فإذا وُعِظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ خروا: جواب إذا ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ الخرور يكون من أعلى إلى أسفل، ومنه خرور الماء من فوق إلى تحت، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ من القيام ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حال السجود ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ هذه الآية أورد عليها بعض العلماء إشكالًا، وقال: هل كل من ذُكِّر بآيات الله يسجد، أم ماذا؟ هل أنتم الآن ما يكون الإنسان مؤمنًا إلا إذا قرأتَ عليه آية سجد؟ أو إذا وعظته بموعظة سجد؟ ليس كذلك، إذن ما الجواب عن هذه الآية؟ قال بعضهم: المراد: إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سجدًا في موضع السجود؛ يعني: خرُّوا سُجَّدًا إذا مرَّت بهم آية سجدة سجدوا، أما إذا ذُكِّروا بآيات ربهم بدون أن تمر بهم آية سجدة فإنهم لا يسجدون، ولكن الصواب خلاف ذلك، الصواب: أن المعنى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ إنقادوا لها، وخضعوا لها، ولا يلزم من ذلك أن يكون السجود مباشرًا للتذكير، إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سجدًا حتى في المستقبل، فلا يلزم أن يكون الجواب مباشرًا للشرط؛ يعني: لا يلزم أن يكون جواب الشرط مباشرًا له، وما يقتضي الترتيب من الحروف أو التركيب قد يراد به: الترتيب في موضعه، في كل شيء بحسبه، ولهذا لو قلت: تزوج زيد فوُلِد له، الفاء للترتيب والتعقيب، ومن المعلوم أنه لا يُولَد له فور عقد النكاح له، هل يُولَد له بمجرد ما يُعقَد له الزواج؟ لا، إذن الفاء للترتيب والتعقيب، نقول: ترتيب كل شيء بحسبه، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، وهل المطر إذا نزل وصار الصباح فإذا هي مخضرة؟ لا، ولكن بعد مدة تخضر، وبعد مدة يولد لهذا المتزوج، فكذلك هذه ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا﴾ ما يلزم من ذلك أن يُباشِروا مجرد التذكير يخرُّون؛ بل المعنى: أنهم يلتزمون بذلك ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ التزموا بذلك بالسمع والطاعة فسجدوا في موضع السجود، ولم يوجد منهم استكبار، وعلى هذا فلا إشكال في الآية.

وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا حال من فاعل خرُّوا، ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ معطوف على خروا، ومعنى سبَّحوا؛ أي: نزهوا، فالمفعول محذوف، والتقدير: وسبحوا ربهم، أو سبحوا الله، وقوله: [متلبسين بحمد ربهم] أفادنا المؤلف أن الباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أن الباء للملابسة؛ يعني: معناه: أن التسبيح مقرون بالحمد، ولو أنه ذهب إلى أن الباء للمصاحبة وسبَّحوا تسبيحًا مصاحَبًا بحمد ربهم لكان أولى، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [أي: قالوا: سبحان الله وبحمده] هذا معنى ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾، ويحتمل ألَّا يكون المراد بالتسبيح والحمد: تسبيح اللسان وحمده، وأن المراد: نزَّهوه بقلوبهم وحمدوه بألسنتهم، نزَّهوه بقلوبهم عما لا يليق به، وحمدوه بألسنتهم بما يستحق، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الجملة حال؛ يعني: والحال أنهم لا يستكبرون عن الإيمان والطاعة؛ بل ينقادون ويخضعون.

ثم بيَّن الله تعالى من صفاتهم ما ذكره بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتبتعد أيضًا؛ لأن المجافاة: الإبعاد، ومنه: كان النبي ﷺ يُجافي عضُدَيه في السجود [1]؛ يعني: يبعدها عن جنبيه، فمعناها إذن: الإبعاد والارتفاع، والارتفاع يستلزم البعد، ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ المضاجع جمع مضجع، وهو مكان الاضطجاع، والاضطجاع هو النوم، يقول المؤلف: [مواضع الاضطجاع بفرشه لصلاتهم بالليل تهجُّدًا] ما ينامون ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ فلا ينامون، ولكن هذا مقيد بما جاءت به السنة أنهم يتهجَّدون ليس كل الليل، ولكن الزمن المشروع التهجُّد فيه، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ [من عقابه] ﴿وَطَمَعًا﴾ [في رحمته]، ﴿يَدْعُونَ﴾ هذه الجملة حالية من فاعل تتجافى، أو من المضاف إليه بجنوبهم؛ أي: حال كونهم يدعون ربهم، دعاء مسألة، أو عبادة، أو الأمرين؟ يشمل الأمرين؛ يدعونهم دعاء مسألة وعبادة، ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقاب الله عز وجل، وطمعًا في رحمته، لكن ما الحامل على الخوف والطمع؟ إذا نظروا إلى تقصيرهم، وعظمة الله، وشدة عقابه، غلب عليهم جانبُ الخوف، وإذا نظروا إلى سعة رحمة الله وعفوه، وأنهم قاموا بما ينبغي أن يقوموا به، غَلَبَ عليهم جانبُ الطمع، فهم يسيرون بجناحي الخوف والطمع، ولكن أيهما ينبغي أن يُغلَّب؟ فيه خلاف، قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف قنط من رحمة الله، وإن غلَّب جانب الرجاء أمِنَ مكر الله، ولكن يكون بين بين، نقول: الصحيح يُغلِّب جانب الخوف، والمريض يُغلِّب جانب الطمع؛ يعني: عند الموت يُغلِّب جانب الطمع والرجاء، وفي حال الصحة يُغلِّب جانب الخوف، وقيل: إن فعل الطاعة فليُغلِّب جانب الرجاء، وإن همَّ بالمعصية أو عمِلَها فليُغلِّب جانب الخوف.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [يتصدَّقون] (من) هل هي لبيان الجنس، أو أنها للتبعيض؛

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٩٠٠) من حديث أحمر بن جزء رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

يعني: بعض ما رزقناهم ينفقون؟ إذا قلت: إنها للتبعيض صار من يبذل كل ماله تقرُّبًا إلى الله صار مذمومًا، وإن قلت: إنها لبيان الجنس وأنهم ينفقون مما رزقناهم، فإنه لا يقتضي أن يكون من بذل ماله كله مذمومًا، فالمراد: بيان الجنس، فيشمل القليل والكثير، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء؛ هل يبذل الإنسان كل ماله في طاعة الله، وفي سبيل الله، أو يقتصر على بعضه؟ والصواب: أن ذلك يرجع إلى حال الشخص، وإلى الأسباب التي بها يدفع الضرورة عن نفسه وأهله، فإن كان الإنسان ضعيف التوكُّل، أو ضعيف القدرة على التكسُّب، فالأفضل أن يُبقِيَ شيئًا من ماله، وإن كان الأمر بالعكس فله أن يتصدَّق بجميع ماله، كما فعل أبوبكر، أما أبو لُبابة لما نذر أن ينخلع من ماله صدقة لله ورسوله، قال له الرسول ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»[1]، فجعل من الخير له أن يمسك بعض المال، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق: البذل.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي نفس تكون؟ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذا نفيٌ لعلم الحقيقة لا لعلم المعنى، فإن المعنى معلوم فيما أخفى الله من قرة الأعين، لكن حقيقة ذلك الشيء مجهولة، ولهذا قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، نعلم أن في الجنة نخلًا، ورمانًا، وفاكهة، ولبنًا، وعسلًا، وماءً، وخمرًا، وطيرًا، وما أشبه ذلك، نعلم هذا، لكن حقيقة ذلك الشيء مجهولة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ أي: حقيقة ما أُخفِي، وليس معنى ما أخفي، فالمعنى معلوم، وقوله: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تَقَرُّ به أعينهم، قَرَّت عينه؛ بمعنى: جمدت، وقرَّت عينه؛ بمعنى: سكنت، فعلى الأول تكون من القُرِّ وهو البرد، ولهذا يقال: إن دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ولهذا قال: قرَّت عينه إذا سُرت، أما إذا كانت من القرار، وهي: أنها لا تلتفت إلى سوى ما هي تنظر إليه؛ يعني: أن أعينهم قارَّة لا تلتفت إلى سوى ما هي عليه، وكلا المعنيين صحيح، فإن معنى قرَّت عينك؛ أي: بردت، فلم يلحقها حرارة الحزن، ومعنى قرَّت عينك؛ أي: سكنت، فلا تنظر إلى شيء سوى ما هي عليه، وهذا يكون معناه غاية الأمنية.

قال المؤلف: [وفي قراءة بسكون الياء مضارع] أُخْفيَ هذه فعل ماضٍ، أُخْفِيْ فعل مضارع، فلا تعلم نفس ما أخفيْ لهم أنا؛ يعني: الله عز وجل من قرة أعين، أما ما أُخفيَ لهم فهي فعل ماض مبني للمجهول، وفاعله مستتر جوازًا، أو وجوبًا؟ إذا كانت أخفيَ فهو مستتر جوازًا، إذا صارت أخفيَ فهي فعل ماض، وفاعله مستتر جوازًا، وإذا كانت أخفيْ بالسكون فهي فعل مضارع وفاعله مستتر وجوبًا تقديره: أنا، والمعنى على كلتا القراءتين صحيح، فالله هو الذي أخفاه حتى على البناء للمجهول: ما أُخْفِيَ، فإن المُخفِي هو الله ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جزاء مفعول من أجله، ولكن هل المفعول من أجله عامله أُخفِيَ أم قُرَّة؟ الظاهر أنها قرة؛ يعني: قرة أعينهم جزاءً،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٥٣/ ٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

وليس المعنى: أخفي لهم جزاءً؛ لأنه قد يقال: إن الإظهار أبلغ في البيان، لكنها ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كانوا يعملونه في الدنيا من طاعة الله، فإن قلت: هذا يدل على أنهم يجازون بعملهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[1]، فما هو الجمع بين هذا الحديث وبين هذه الآية وأمثالها؟ قال أهل العلم: إن الجمع بينهما باختلاف معنى الباء، فالباء التي للسببية هي الموجودة في مثل هذه الآية: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟﴾ أي: بسبب ما كانوا يعملون، والباء التي للعِوَض هي المذكورة في قوله: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»؛ أي: عِوَضًا عن عمله؛ لأننا لو أردنا المعاوضة والمقاصَّة لظهر العامل مغبونًا مطرودًا، لو طلبنا المُقاصَّة والمعاوضة كان العامل مهما عمل من صالحات فهو مغبون، نعمة واحدة من نعم الله عليك تستوعِب جميع الأعمال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن التعصُّب في التقليد ليس من طريق المؤمنين، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويوجد في المتعصبين بالتقليد من يستكبر على الحق، إذا عُرِض عليه أبى.

٢- **ويستفاد من الآية:** ذمُّ من أصرَّ على رأيه بباطل، من قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ من الناس من إذا قال قولًا لا يمكن أن يتنازل عنه ولو بان الحق، وهذا نوعٌ من الاستكبار، الواجب أن تعرف نفسك وأنك بشر، وأنه يفوتك العلم؛ إما نسيانًا، وإما جهلًا، ويفوتك أيضًا الوصول إلى الغاية، قد يكون عندك علم لكن ينقصك التفكير، والتأمُّل، والجمع بين الأدلة، وما أشبه ذلك فتحتاج إلى أن توفق.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** فضيلة قيام الليل؛ لأن الله تعالى ذكره في سياق المدح، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكن هذا الإطلاق مُقيَّد بما جاءت به السنة؛ يعني: بأن لا يكون جميع الليل تتجافى جنوبهم عن المضاجع في حدود ما جاءت به السنة، وبهذا نعرف خطأ ما يوجد في كتب الوعظ من أن فلانًا صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة؛ يعني: أنه ما نام الليل يقوم الليل، هذا خطأ، هذا يتبرأ منه الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال في الجماعة الذين قال أحدهم: أنا أقوم الليل ولا أنام، قال: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[2]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٧١/٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (٥/١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

لكن مشكلة هؤلاء الوعاظ الذين يكتبون هذه الكتب يريدون أن يُرغِّبوا الناس لكن يرغبوهم في الباطل، ولو أن الناس اقتُصِر لهم بما صح عن النبي ﷺ من التبشير والإنذار ومن الأعمال الصالحة لاستقاموا، لكن عندما أسمع هذا رجل يُثنَى عليه من أربعين سنة صلى الفجر بوضوء العشاء، أين أنا من هذا؟ إذن أبقى على ما أنا عليه، وأصلي سنة العشاء ركعتين، والوتر أقله ركعة أصلي ركعة، ولا يجب إلا قراءة الفاتحة أقتصر على الفاتحة، ولا يجب إلا سبحان ربي الأعلى مرة في السجود، وسبحان ربي العظيم مرة في الركوع أقتصر عليها أيضًا، لكن لو أن الناس بُيِّنَت لهم السنة حقًّا لكفى بها واعظًا.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة الدعاء، لقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعي والعامل العابد أن يكون دعاؤه وعبادته بين الخوف والرجاء، لقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** فضيلة الإنفاق مما رزقك الله، لقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على حسب التفسير الذي ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١- في هذه الآية: دليل على عِظَم نعيم الجنة، من قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأن هذا لا شكَّ أن الإبهام يدلُّ على التكثير، كما قلنا في التفسير.

٢- **ومن فوائدها:** أن في الجنة من قُرَّة العين في المأكول، والملبوس، والمنكوح، والمسكن ما لا يخطر على البال؛ لأن كل هذه الأربعة تقرُّ بها العين، قال الشاعر:

ولُبْس عباءةٍ وتقَرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبْس الشُّفُوف

٣- **ومن فوائدها:** فضل الله عز وجل على العباد المؤمنين، فضله السابق واللاحق، السابق: أن وفقهم للإيمان والعمل الصالح، واللاحق: أن جعل هذا الجزاء على عملهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كأن هذه النعم التي في الجنة كأنها جزاء على عمل لهم؛ بل هي حقيقة جزاء على عمل لهم، لكن فيها أن الفضل من الله عليهم، كأنه فضل منهم على أنفسهم، لقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مثل قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠] إحسان العمل بإحسان الجزاء، ومنه: قوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان:٢٢] يمُنُّ عليهم بالسعي الحميد، ثم يشكرهم عليه، يمُنُّ عليهم هنا بالتوفيق للهداية، ثم يقول: أُجازيكم على عملكم، وهذا لا شك أنه من تمام نعمة الله عز وجل.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٢].

❁ التفسير ❁

وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ المراد بالفسق هنا: الفسق الأكبر المخرج عن الإسلام، وليس الفسق الأصغر الذي يبقى فيه الإنسان مؤمنًا ناقص الإيمان، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الجواب: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وانتبه أيها القارئ أن يقف على قوله: ﴿فَاسِقًا﴾ فإن كثيرًا من القراء يقرأ يستمر ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ما يصح هذا، كمن كان فاسقًا، لا يستقيم، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ قِف، ثم قل: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ هذا الجواب جواب من؟ جواب الله عز وجل، الله تعالى استفهم وأجاب نفسه، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أجاب ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: المؤمنون والفاسقون.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾ وهو ما يُعدُّ للضيف ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أما: هذه حرف شرط وتفصيل، وتفيد مع الشرط والتفصيل: التوكيد، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] هنا ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تكون فيها ثلاث فوائد: شرطية، بدليل أنها أتى لها جواب ﴿فَلَهُمْ﴾ تفصيلية؛ لأنها أتت بقسمين: أما الذين آمنوا، وأما الذين فسقوا، توكيدية؛ لأنه لا شك أن هذه الصيغة تفيد التوكيد، ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ﴾ هذا جواب الشرط ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجنَّات جمع جنة، وهي في اللغة: الحديقة الكثيرة الأشجار، وسُمِّيت به؛ لأنها تُجِنُّ من فيها؛ أي: تستره لكنها في الشرع: الدار التي أعدَّها الله تعالى لأوليائه، فهي أعلى مما يدور في الخيال، أو يخطر على البال.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني: التي هي مأواهم لا يبغون عنها حِوَلًا، ولا يتحوَّلون عنها،

فهي مأوى، كما أن الجحيم مأوى الكافرين لا يتحوَّلون عنها، فالمأوى مكان الإيواء؛ أي: أنها هي جناتهم التي يأوون إليها، ولا يخرجون منها.

وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ يقول المؤلف: [هو ما يُعدُّ للضيف] وعلى هذا فتكون مصدرًا في موضع الحال؛ يعني: أنه يُعدُّ لهم هذا النزل ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الباء هنا للسببيَّة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ - والعياذ بالله -، مأواهم؛ أي: مرجعهم النار، هل يخرجون منها؟ لا، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ يُمنَّون بالخروج، ترتفع بهم إلى أن يقرُبوا من أبوابها، ثم بعد أن يتمنَّون الخروج ويريدونه يُعادُون فيها، وهذا أشد - والعياذ بالله - في التعذيب، لو فرضت أنك محبوس في مكان، يقول لك: تعال تعال، كلما قربت من الباب ردك، أيُّ هذا، أو أن تبقى في حجرة الحبس؟ أيهما أشد؟ أن تبقى في الحجرة أشد؟ أمن أن تقرب إلى الباب ثم إذا أراد أن يخرج قال له: ارجع؛ لأنه - والعياذ بالله - إذا فُرِض هكذا صار كأنه يحبس عدة مرات؛ لأن من أشرف على الحياة ثم عاد إلى الموت صار ذلك موتًا آخر، تكون عودته إلى محبسه تكون حبسًا ثانيًا، هكذا أهل النار - والعياذ بالله - يُمنَّون الخروج، وكلما أرادوا أن يخرجوا أعيدوا فيها، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أيضًا توبيخًا ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيجتمع عليهم - والعياذ بالله - العذاب الجسمي والعذاب القلبي، الجسمي من النار ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ والقلبي من هذا التوبيخ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ بماذا يحس الإنسان عندما يقال له هكذا؟ ألا يتحسَّر ويقول: يا ليتني ما كذَّبت، كيف أكذب ويتمنى، يكون هذا فيه من التوبيخ والتنديم، وإدخال الحسرة ما هو ظاهر، ولهذا قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧] الآن نحن إذا فاتنا شيء في قضاء الله وقدره، وهو مما يسُرُّنا ممكن الإنسان يندم؟ يندم، ويقول: ليتني فعلت، وليتني فعلت، مع أنه منهي عنه؛ لأن هذا يفتح عمل الشيطان، يفتح باب الندم، أو الاعتراض على القدر، ولهذا نهى الرسول ﷺ عنه، فالمهم أن هذا التوبيخ يكون عذابًا قلبيًّا، وأما كونهم يُردّدون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فهو عذابٌ جسميٌّ بدني، فهم دائمًا في عذاب، وحسرة، وندم ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزُّخرُف:٧٥] دائما وأبدًا ما في فترة راحة، ولهذا يقولون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر:٤٩] انظر - والعياذ بالله- الخزي والتقاصُر، ما قالوا: ادعوا ربكم يرفع العذاب، قالوا: يخفف فقط، ولا قالوا: يخفف دائمًا، قالوا: يخفف يومًا، وهذا يدل على شدة يأسهم؛ لأنهم أُيِّسُوا من الرحمة، يتمنون ولا لهم وجه على الله أنهم هم الذين يسألون، يطلبون من خزنة جهنم أن يشفعوا لهم إلى الله أن يخفف عنهم، لا يرفع، يومًا لا دائمًا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكن ماذا تقول لهم الخزنة؟ تُوبِّخُهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ

تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَتِ﴾ فيقولون: ﴿بَلَى﴾ ثم يقولون: إذن نحن برءاء منكم، ما نتدخل في شأنكم فادعوا أنتم يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا دُعَتَؤُا الْكَفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَلٍ (٥٠)﴾ [غافر:٥٠] ما ينفعهم، ولهذا إذا ألحّوا على ربهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ انظر التضرُّع ﴿رَبَّنَا﴾ والاعتراف ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ هم حكموا على أنفسهم، وكل هذا من باب التضرُّع؛ لأن الإنسان إذا اعتبر بإساءته فإن هذا مدعاة لرحمته، إذا جاءك واحد يعتذر بذنبه ويعترف بذنبه، هذا يُوجِب أنك ترحمه، فهم يعترفون لعلهم يُرحمون، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾ [المؤمنون:١٠٧]، قال الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ذُلُّوا وكونوا حقارى، ولا تكلمون بأي كلمة، حينئذٍ - والعياذ بالله - ييأسون من كل خير.

ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ هذا فعل مُؤكَّد بالنون واللام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ تأكيدًا وجوبيًا؟ نعم؛ لأنه مُثبَت، مُستقبَل بجواب قسم، غير مفصولًا من لامه، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ عذاب الدنيا؛ بالقتل، والأسر، والجدب سنين بالأمراض ﴿دُونَ الْعَذَابِ﴾ [أي: قبل ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من بقي منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان]، هذا وعيد من الله عز وجل أنه يذيقهم العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، وهو: عذاب الآخرة لعلهم يرجعون، لعل للتعليل، ولكن هل رجعوا؟ منهم من رجع ومنهم من لم يرجع، فإن قريشًا أصيبوا بالجدب، وبالسنين، والقتل ببدر قتل شرفائهم، والأسر أيضًا، ومع ذلك رجعوا أم لا؟ منهم من رجع، ومنهم من لم يرجع، فمن أراد الله له النجاة أحيا الله قلبه بهذه المواعظ فرجع، ومن طَبَع الله على قلبه بقِيَ على ما هو عليه ولم يرجع.

قال الله تعالى: [﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين ﴿مُنتَقِمُونَ﴾].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أفادنا المؤلف بقوله: [لا أحد أظلم] أن الاستفهام هنا للنفي؛ أي: لا أحد أظلم منه، والظلم سبق لنا عدة مرات أن المراد به: النقص في الأصل، كقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص، والمراد به: نقص الإنسان فيما يجب عليه فيَدَعه، أو نقصه فيما مُنِع منه فلا يمتثِل ويرتكِب المحرَّم، وقوله: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرسول ﷺ لأجل أن يشمل كل مُذكِّر؛ لأن بعض الناس قد يخضع لبعض المُذكِّرين لكونه فلانًا، وهذا ليس خاضعًا للآيات، إنما هذا خاضع للأشخاص، تجده إذا ذُكِّر بهذه الآية إن ذكَّره فلان قبِل، وإن ذكَّره آخر لم يقبَل، يوجد أناس إذا أمرهم الإنسان بأمر معروف ما همُّوا؛ بل ربما يستهزءون به، وإذا أمره به آخر امتثل وأظهر الموافقة، ولهذا قال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ لئلَّا يتقيَّد بمُذكِّر

معين، أي مذكَّر يكون.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قال المؤلف: [المراد به: القرآن] والأصح: أنه أعم من القرآن، ويشمل حتى من ذُكِّروا بالتوراة في زمن التوراة، ومن ذكِّروا بالإنجيل في زمن الإنجيل، وبالزبور في زمن الزبور؛ لأن هذا حكم عام، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتى بالربوبية المقتضية للانقياد؛ لأنه ما دام التذكير بآيات رب لك فأنت مربوب عبد، والمربوب في تدبير من ربِّه.

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ والفرق أنه في الآية الأخرى ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أنه بادر بالإعراض ﴿فَأَعْرَضَ﴾، الثانية بعدما فكَّر وقدَّر في هذه الآية أعرض، والناس هكذا منهم من يُعرِض لأول وهلة ولا يلتفت ولا يفكر، ومنهم من قد يفكر ولكن في النهاية يُعرِض.

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجملة استئنافية لتهديد هؤلاء المعرضين وبيان أنهم من المجرمين، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهو إظهار في موضع الإضمار، والأصل: إنا منهم، لكن أظهر في موضع الإضمار للسببين السابقين اللذَين أشرنا إليهما وهما أنه من أجل أن يحكم على هؤلاء المجرمين، ولأجل أن يكون الحكم عامًّا لكل مجرم فيهم، وفي غيرهم، والإجرام بمعنى: الإثم، فالمجرم هو: الآثِم الذي ارتكب ما لا يحل له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطفِّفين:٢٩]

قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جمع ليُطابِق المبتدأ، أين المبتدأ؟ ﴿إِنَّا﴾ اسم (إنَّ) يعني: أصلها: إننا لكن حُذِفَت النون الثانية تخفيفًا، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ والجمع هنا وفي كل ما يضاف إلى الله يراد به: التعظيم، وقد سبق لنا أن النصراني لو استدلَّ بالجمع على التعدد قلنا له: أنت من أصحاب الزيغ الذين يتَّبعون ما تشابه منه؛ لأنك لو رجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]زال عنك هذا الاشباه.

وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤] فكلمة: ذو انتقام تعني أنه: صاحب انتقام؛ يعني: ممن يستحقه، وهنا: ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مقيدة منتقمون من المجرمين، وبهذا نعرف أن المنتقم ليس من أسماء الله؛ لأن الاسم من أسماء الله يكون مطلقًا دالًّا على المعنى الأحسن على كل تقدير، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كل كلمة تحتمل هذا وهذا فإنها لا تكون من أسماء الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والانتقام لا شك أنه حسن في محله، وعليه فلا يصح أن يُوصَف الله به على سبيل الإطلاق، وهو معدود من الأسماء الحسنى المشهورة، ولكن هذه الأسماء الحسنى المشهورة - كما قال شيخ الإسلام وغيره من أهل التحقيق -: ليست ثابتة عن الرسول ﷺ؛ لأن فيها أشياء من الأسماء لا تصح اسمًا لله، إذن هل يُوصف الله بالانتقام مطلقًا، فيقال: المنتقم؟ الجواب: لا؛ لأنه ما ورد إلا مُقيَّدًا، وورد ذو انتقام نكرة في سياق الإثبات فلا تدل على العموم؛ لأن النكرة في سياق

الإثبات - كما هو معروف - لا تفيد العموم إنما تفيد العموم إذا كانت في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام الإنكاري كما ذكره أهل الأصول.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾.

١- **في هذه الآية:** تقرير أنه لا مساواة بين المؤمن والكافر، وأن هذا أمر لا يمكن ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٦] هذا من السَّفَه ومن الخطأ في الحكم أن نجعل المسلم كالمجرم، أو الفاسق كالمؤمن.

٢- **ومن فوائدها:** أن المؤمن خير من الفاسق ولو كان الفاسق أعظم جاهًا في الدنيا عند الخلق، وتُؤخذ من العموم ﴿ أَفَمَن﴾ (مَن) هذه اسم استفهام، وأسماء الاستفهام من صيغ العموم، لا يمكن لأي فاسق أن يكون كالمؤمن، ولو عظُمَ في الدنيا، ولو نال من الدنيا ما ينال فإنه ليس كالمؤمن تمامًا.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن المؤمن لا يُساوِي الكافر لا في عمله، ولا في جزاءه، أما العمل فظاهر هذا مؤمن وهذا فاسق، وأما الجزاء فبيَّن له الفرق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ وأولئك مأواهم النار، وفرقٌ بين هذا وهذا.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، لقوله: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فلا يكفي مجرد العقيدة؛ بل لابد من عمل صالح.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الجنة، لقوله: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ لكن هل هي موجودة، أو توجد يوم القيامة؟ موجودة، لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣] وأعد فعل ماض.

٤- **ومن فوائدها:** طِيب منازل الجنة ومقرِّها، لقوله: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ يعني: الجنات التي لا يتمنَّى الإنسان إلا أن يأوِي إليها ﴿الْمَأْوَىٰ ﴾ كل أحد يتمنَّى هذا المأوى لكن لا يناله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٥- **ومن فوائدها:** أن أهل الجنة يُكرَمون بما يُنعَّمون به، كما يُكرَم الضيف بضيافته، لقوله: ﴿نُزُلًا﴾ وتعلمون ما يجده الضيف من السرور في نفسه إذا أُكرِم بالضيافة، بخلاف الذي يقدم له الطعام عاديًّا، الذي يُقدَّم له الطعام عاديًّا يرى أنه شيء معتاد ما له أهمية، لكن الذي يُقدَّم له كضيافة وكأنه رجل مكرم ومحترم يجد في نفسه مع تلذذه بالطعام تلذذ جسدي، يجد تلذذا وراحة نفسية وإكرامًا، ولهذا سماه الله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾.

٦- ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١- يستفاد من الآية الكريمة: أن الفسق نوعان: فسق أكبر، وهو: الكفر، وفسق دون ذلك، وهو: المعاصي.

٢- ومن فوائدها: أن الكفار مأواهم النار، لقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ هنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، ولم يقل: فلهم نار المأوى، الفرق: لأن النار كل أحد لا يحب أن تكون مأواه بخلاف الأول، الجنة كلٌّ يحب أن تكون هي المأوى، وأما هذا فلا، وإن كان هذا الفرق قد يختلف في بعض الآيات؛ مثل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤١]، لكن لكل مقام مقال، هنا المسألة المقام مقام معادلة وموازنة، فلهذا فرَّق بينهما، قال: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أما هناك فليس هناك معادلة؛ يعني: ما ذُكِر أن قومًا يدَّعون لأنفسهم الإيمان الحق فأنكر الله ذلك.

٣- ومن فوائدها: إثبات النار، لقوله: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن، والدليل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٤- ومن فوائدها: شدة عذاب أهل النار لكونهم يُمنَّون بالخروج ويُرفَعون يرتفع بهم اللهب حتى إذا ظنُّوا أنهم يخرجون أعيدوا فيها، يقول: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

٥- ومن فوائدها: أن أهل النار جُمِع لهم بين العذاب الجسمي والعذاب القلبي بالتوبيخ، يقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: بيان حكمة الله عز وجل فيما يبتلي به من المصائب، تؤخذ من قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا كقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن عذاب الدنيا لا يُنسَب إلى عذاب الآخرة؛ لأن بينهما من الفرق العظيم، فهذا أدنى وذاك أكبر؛ يعني: كلاهما في طرفي نقيض؛ لأن أدنى اسم تفضيل، وأكبر اسم تفضيل، فإذن هل يُنسَب أدنى شيء إلى أعلى شيء؟ لا نسبة، ولهذا نقول: يستفاد من الآية الكريمة: الفرق العظيم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

٣- ومن فوائدها: قبول التوبة من الكافر، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٤- ومن فوائدها: إثبات حكمة الله، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأن لعل للتعليل، والتعليل:

هو الحكمة.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات العذاب في الآخرة، لقوله: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فإن المراد به: عذاب الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن من كان على هذا الوصف فهو لا يكون أحدٌ أظلم منه، لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهاهنا مسألة، وهي: أن مثل هذه العبارة جاءت في غير هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهنا نحتاج إلى الجمع بين هذه النصوص، وفي السنة: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[1] فكيف نجمع بين هذه النصوص؟ ذكرنا فيما سبق أن الجمع بأحد وجهين: الوجه الأول: أن نقول: إن الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا تفيد أن الظالم لا يوجد له مشارك أو مساوٍ لهذا الظلم، وإنما نقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾ اشترك بماذا؟ بالأظلمية؛ يعني: هذا أعلى ما يكون في الظلم، هذا وجه، والوجه الثاني: أن نقول: عن الأظلم بالنسبة لما تحته من نوعه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني: هذا أظلم ما يكون من المُذكَّرين، بخلاف من ذُكِّر ثم أعرض عن البعض، أو ما أشبه ذلك، يصير هذا الأظلمية بماذا؟ بالنسبة لما تحته من نوعه، ﴿و وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا أحد أظلم في منعِ شيء من الأشياء ممن مَنَع مساجد الله، وعلى هذا فقِسْ، فصار الجواب بأحد وجهين: إما أن يقال: في الآية الكريمة وجوب القبول على من ذُكِّر بآيات الله، نأخذه من المعنى في الإعراب.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإنسان يجب أن يقبل التذكير من أي من ذكَّره، يُؤخَذ من بناء الفعل للمجهول ﴿ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرسول، أو ذكَّره فلان أو فلان، إذا وقع التذكير، أو أتاك التذكير من أي جهة فالواجب عليك القبول.

٣- **ومن فوائدها:** أن الإعراض بعد العلم أقبح منه هذا الجهل؛ لأن الله تعالى جعل هذا أعظم الظلم، أن تُذكَّر ثم تُعرِض، لكن من أعرض بدون تذكير فهو أهون.

٤- **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها إجرامٌ، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** جواز إضافة الانتقام إلى الله مُقيَّدة، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني: الإخبار عن الله بأنه منتقم لكن مُقيَّدًا بقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١/١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- **ومن فوائدها**: إثبات عظمة الله، لقوله: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فإن الجمع هنا للتعظيم.

٨- **ومن فوائدها**: بلاغة القرآن وأنه في أعلى ما يكون من البلاغة، لقوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يقل: إنا منهم، من أجل أن نستفيد فائدتين: الفائدة الأولى: أن هذا مجرم، والفائدة الثانية: أن الحكم يعمُّهم وغيرهم من المجرمين.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ آتينا بمعنى: أعطينا، وهو إعطاء شرعي قدري، وقوله: ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ موسى مفعول أول، والكتاب مفعول ثان، و(ال) في قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ للعهد الذهني؛ لأنه ما سبق له ذكر حتى يُحال على المذكور، وليس شيئًا حاضرًا حتى يقال إنه عهد، إذن فهو عهد ذهني؛ يعني: الكتاب المعهود المعروف، وهو: التوراة، ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ [شكٍ ﴿مِّن لِّقَائِهِ﴾، ﴿فَلَا تَكُن﴾ الخطاب هنا على ما مشى عليه المؤلف الخطاب للرسول ﷺ، والضمير في لقاءه يعود على موسى، والمعنى: فلا تكن يا محمد في مرية؛ أي: في شك من لقاءه، لقاء من؟ لقاء موسى؛ يعني: فإنك ستلاقيه، قال المؤلف: [وقد التقيا ليلة الإسراء] هذا ما ذهب إليه المؤلف، وذهب إليه كثير من المفسرين أيضًا أن الخطاب للرسول ﷺ، والضمير يعود على موسى، والمعنى: لا تكن يا محمد في شك من ملاقاة موسى، فإنك ستلاقيه، وقد لاقاه في ليلة الإسراء، قال المؤلف: [الإسراء] لأن الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَا تَكُن﴾ خطاب لموسى؛ يعني: آتينا موسى الكتاب قائلين له: لا تكن في مرية من لقاءه؛ أي: لقاء الجزاء عليه؛ أي: على الكتاب، والمعنى: أن هذا الكتاب الذي آتيناك إياه لابد أن يحاسب عليه من نزل إليهم حتى يلاقوا جزاءهم، ويحتمل أن المعنى: فلا تكن في مرية من لقاءه؛ أي: لقاء موسى، أي: لقاء مثل ما لقيه، من أي شيء؟ من الأذى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: لقاء ما لقيه موسى من الأذى فإن موسى أُوذِي، وقال النبي ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(١)، وهذا أيضًا معنى حسن، إن المعنى: أن ما آتيناه وآتيناك أيضًا، وأُوذي فستؤذى فلا تكن في شك من هذا،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٠) ومسلم (١٤١/ ١٠٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا هو الواقع، فإن الرسول ﷺ لقِيَ من الأذى الشيء الكثير، وكل من تبع شريعته وانتهج منهاجه في الدعوة إلى الله والعمل في شريعة الله فسيلقَى الأذى، ولكن الشأن كل الشأن هل يلزم من الأذى الضرر؟ ما يلزم، ولهذا يصح أن نقول: إن الله يؤذى ولا يتضرَّر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[1]، مع أنه قال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[2]، فلا يلزم من الأذى الضرر، ها نحن الآن نتأذى برائحة إنسان أكل بصلًا، أو ثومًا ونتضرَّر؟ ما نتضرَّر، فلا يلزم من الأذى الضرر، والرسول ﷺ لا شك أنه أوذي ولكن ما ضره ذلك والحمد لله، صار الأمر والعاقبة للرسول ﷺ، وأما قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فالمعنى: أنهم لن يضروكم أبدًا ولكن أذى، ولهذا قالوا: إن الاستثناء في هذه الآية منقطع.

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جعلناه الضمير يعود على الكتاب.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** إثبات رسالة موسى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتأكيد هذه الرسالة، لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأن الجملة مؤكَّدة بثلاث مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدَّر.

٢- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام رسولٌ حقًّا لا يجوز الشك فيه، لقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني: أن هذا حق لا تكن في شك من أنه حصل لموسى هذا الذي حصل، وهذا على التفسير الذي ذكرنا، أما على ما قاله المؤلف فيستفاد منه: أن محمدًا ﷺ سوف يُلاقي موسى.

٣- **ومن فوائدها:** أن التوراة كالقرآن هدى، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ لكن هداية مخصوصة بمن؟ ببني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي لنا أن نطلب الهدى من التوراة، لقوله: ﴿هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أما من بعد بعثة الرسول فالهدى لهم هو: القرآن.

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢/ ٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤-٣٠].

❁ التفسير ❁[1]

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** فضيلة الصبر، نأخذه من الجزاء عليه، من كون الصابر يكون إمامًا، وهذا دليل على أن الصبر محبوب إلى الله يُجازي عليه بهذا الجزاء العظيم.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة اليقين، لقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** نيل الإمامة في الدين بهذين الوصفين، وهما: الصبر، واليقين.

٤- **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما صبروا وأيقنوا صاروا أئمةً يُقتَدى بهم، كلما أصاب الإنسان شيء قال: لقد أُصيب فلان فصبر فيصبر، كلما وردت عليه شبهة، قال: لقد كان فلان موقنًا فأنا موقن، فيكون الإنسان بذلك إمامًا.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الآيات لله؛ لقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه لا حاكم في الآخرة إلا الله، تؤخذ من ضمير الفصل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ هو وحده يفصل، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وقال تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر:١٢].

٢- **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة، لقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) هذه الآيات المادة الصوتية الخاصة بتفسيرها غير واضحة، أما الفوائد فواضحة.

٣- **ومنها**: أن الله تعالى يحكم بين المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيقول: أنتم على حق، وأنتم على باطل، وهؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، أيهما الغالب؟ المؤمنون أو الكافرون؟ المؤمنون، والدليل: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، قاضي يعلن الحكم بين الخصمين، ويقول: أنت الغالب، فيعلن بالحكم قبل القضية، يجوز هذا أو لا يجوز؟ في حق الله عز وجل لا شك أنه جائز، فالآن نحن نقول: نحن نتخاصَم مع الكافرين، ولن يكون لهم علينا سبيلًا.

٤- **ومن فوائدها**: أنه لا وِفاق بين المؤمنين والكافرين، ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأي إنسان يحاول يقارب بين الإسلام والنصرانية، أو بين الإسلام واليهودية فإنه أراد أن يرُدَّ اللبن في الضرع، ممكن أم لا؟ هذا غير ممكن، كل كافر مهما كان سواء انتسب إلى الإسلام أم كان كافرًا مُعلنًا بكفره فإنه لا يمكن أن يتوافق مع المؤمنين أبدًا، ومن زعم ذلك فقد أبعد النَّجْعة وحاول شيئًا مستحيلًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: استعمال ضرب الأمثال، يؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: فإذا كنا أهلكنا مَن قبلهم فسنُهلكُهم إذا كانوا مثلهم، ولهذا قال الله تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾. [يوسف:١١١].

٢- **ومن فوائدها**: الاستدلال بالشيء المحسوس على الشيء المعقول، لقوله: ﴿يمشون في مساكنهم﴾، أو بعبارة أخرى: الاستدلال بعينِ اليقين على صدق علم اليقين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ هذا علم اليقين، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليقين.

٣- **ومن فوائدها**: جواز المشي بدار المُعذَّبين ومساكنهم، تؤخذ من قوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ هل ذكر الخبر عن الشيء يفيد حِلَّه؟ لا، ما يفيد؛ يعني: كون هذا هو الواقع أنهم يمشون في مساكنهم ما يدل على أن هذا المشي مأجورين فيه، أخبر النبي ﷺ أن الظعينة تمشي من حضرموت إلى صنعاء لا تخشى إلا الله [(١)]، والظعينة وحدها حرام أن تمشي، والرسول قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى»[(٢)]، وهذا حرام أو حلال؟ حرام، فالإخبار عن كونهم يمشون في

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٦/ ٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مساكنهم لا يدل على أن المشي حلال، لكن هل يدل على أنه حرام؟ لا يدل على أنه حرام، لا على أنه حلال، فنرجع إذن إلى الأدلة الدالة على ذلك؛ على التحليل أو التحريم، نجد أن الأدلة تدل على أن السير فيها جائز، وأما السُّكنى فلا تجوز، ومع ذلك فقد قال الرسول ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1] ، فالإنسان الذي يقصِدها نقول: لا تدخلها إلا باكيًا، وأما الذي يمُرُّ بها مرورًا فله أن يمر ولكن يسرع، كما أسرع النبي ﷺ، أما الذهاب إلى هذه المساكن من أجل أن يتفرَّج، ويقول: ما شاء الله! والله حضارة عظيمة هذه، انظر الحضارة القديمة؛ هل يوجد حضارة جديدة مثلها؟ ويُشَمُّ من كلامه تعظيم هؤلاء، هذا من السير في الأرض المنهي عنه؛ لأننا كوننا ندخل على هؤلاء نتفرَّج مُنبسِطِين مُنبهِرين بقوتهم مُتناسين ما وقع بهم من العذاب لمخالفتهم أمر الله ورسلهم، هذا مذموم وليس محمودًا ولا مأمورًا به، وعليه فنقول لكل من أراد أن يذهب إلى هذه البلاد: إذا كنتم فعلتم ذلك على سبيل النزهة فهذا حرام عليكم، أما على سبيل الاعتبار والاتِّعاظ بما جرى لهم من العذاب والنكال، وأن تتأثَّروا بذلك حتى تبكوا فهذا جائز، وإلا فلا تدخلوا لا تعرضوا أنفسكم للعذاب.

٤- **ومن فوائدها:** أن في إهلاك الأمم عبرة وآية، لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فهو آية لكون الله تعالى أخذهم وأهلكهم مع قوتهم، وهي عبرة أن الله أخذهم؛ لماذا؟ لمخالفتهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ كل هذا يفيد بأنه يجب علينا نحن أن نعتبر بهذه الآيات وأن نخاف.

ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** وجوب النظر في الآيات؛ لأن الاستفهام هنا للتوبيخ ولوم من لم ينتفع بذلك.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات أفعال الله الاختيارية، تؤخذ من قوله: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يسوق الماء جوًّا أو برًّا إلى هذه الأراضي الخالية الميتة الهامدة فتُنبِت، لقوله: ﴿الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الأصل فيما نبت من الأرض: الحِلّ، من قوله: ﴿أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ فالأصل فيما نبت من الأرض أنه حلال حتى يقوم دليل على التحريم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٥- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله عز وجل بإحياء الأرض بعد موتها قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أعلى درجات اليقين، وهي: حق اليقين، من قوله: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فهم لا ينظرون إليه فقط، ولكنهم يأكلون منه، وهذا هو حق اليقين.

٧- **ومن فوائدها:** الحثُّ على النظر والتبصُّر، وهذه تؤخذ من من قوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات المُلك للأنعام، لقوله: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ والإضافة هنا إضافة ملك، ولكنه سبق لنا أن كل ملك يأتي للإنسان فهو ملك لله لكنه مُلك مُقيَّد، فالإنسان لا يملك الشيء ملكًا مطلقًا يتصرَّف فيه كما شاء وإنما يملكه مُلكًا مُقيَّدًا في تحصيله، وتمويله، وتصريفه، مُقيَّد بالتحصيل ما تحصله إلا على الوجه مشروع، وفي تمويله يعني: الاتجار به، وفي تصريفه لا تصرفه إلا مقيدًا، فهل بعد هذا يكون الملك حقًّا أو حقيقيًّا؟ لا، إذن مُلكك بالأشياء حتى ملكك الخاص؛ كالبيت والسيارة والثوب ليس ملكا مطلقًا فهو ملك مقيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١- في هذا دليل على: سفه هؤلاء المكذبين وحمقهم، لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والاستفهام قلنا: إنه للاستبطاء والتحدي للرسول ﷺ ومن كانوا معه.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحكم بين المؤمن والكافر من الفتح؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فأقر هذه التسمية.

٣- **ومن فوائدها:** بيان عُتوِّ الكافرين وإجرامهم، لكونهم يتحدون الرسول ﷺ والمؤمنين، يقولون: متى هذا الحكم بيننا إن كنتم صادقين.

١١- **ومن فوائدها:** أن العذاب إذا نزل لا ينفع الإيمان، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أنه إذا نزل العذاب فلا إنظار، لقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** أن العذاب قد يُؤجَّل قبل نزوله؛ لأنه يقول: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فظاهر الآية أنه لو كان هذا الإيمان قبل نزول العذاب فإن الله تعال يرفعه بالإيمان، ولهذا أمر النبي ﷺ عند الخسوف بالصلاة، والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والتكبير من أجل أن يُرفع العذاب الذي هذا إنذار به؛ لأن الكسوف إنذار بالعذاب، هو نفسه ليس عذابًا، لكنه إنذار بأن يُعذِّب الخلق، فإذا فزعوا إلى الصلاة وإلى الذكر والدعاء والاستغفار رُفِع عنهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن المُكابِر يُعرَض عنه ويُترَك حتى ينزل به العذاب، فإذا رأيت من يُكابِر تأمره بالحق، ولكن يكابر ويجادل ويعاند فاتركه؛ لأن بقاءك معه لا يُجدِي شيئًا،

فالإنسان المكابر الذي يقول: هذه ليست بشمس ولكن هذا قمر، تقول الآن: نحن في النهار في الضحى انظر الشمس، قال: لا، أنت مُخطئ، نحن الآن بعد صلاة العشاء، وهذا الذي ترى إنما هو القمر، تتكلم معه؟ أبدًا تطلب من يقرأ عليه، أو من يداويه؛ لأنه مجنون، كذلك من تريه الحق مثل الشمس، والحق أبين من الشمس، ثم يقول: لا، هذا غير صحيح، فإن هذا ينبغي أن يطلب له من يداوي عقله قبل فكره، هذا مُكابِر ليس هناك فائدة في الكلام معه، ولهذا يقول الشاعر:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

٢- **ومن فوائدها:** أن المكذب لا ينتظر بتكذيبه إلا العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، وأما تفسير المؤلف: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [أن يحِلَّ بك هلاك أو نحوه]، فهذا فيه نظر؛ بل يقال: إنهم منتظرون للعذاب، بكونهم استمروا على كفرهم فهم كالمُنتظِر لما ينزل بهم، وقد يقال: إن الآية تشمل المعنيين جميعًا؛ يعني: هم ينتظرون أن تموت، وينتظرون عذابهم باستمرارهم على المعصية، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، نسأل الله العافية، هم ينتظرونه، سواء أحسوا بذلك، أو لم يحسوا؛ لأن مآلهم إلى العذاب، ولهذا إذا مات الكافر يُعذَّب بلا شك؛ بل هو يُحاسب بالعذاب في حال النزع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وقال الله ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

تم بحمد الله تفسير سورة السجدة

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعا وترتيبا وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

التَّفْسِيرُ الثَّمِينُ

لِلعَلَّامَةِ العُثَيمِّين

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء العاشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة الأحزاب

❁ **قال الله تعالى:**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١، ٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة قد تقدم الكلام عليها من حيث المعنى ومن حيث الإعراب، وقلنا في الإعراب: إنها جار ومجرور متعلق بمحذوف، وأنه ينبغي أن يقدَّر ذلك المحذوف فعلًا خاصًّا متأخرًا.

مثال ذلك: عندما تريد أن تقرأ، تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فيكون التقدير: بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ، وهو أحسن من أن تقول: التقدير ابتدائي بسم الله الرحمن الرحيم، أو التقدير: أبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأننا إذا قدرناه فعلًا خاصًّا كان أدل على المقصود، فإن كلمة ابتداء عامة في كل ما يبتدئ به، لكن إذا عينت الفعل، وقلت: بسم الله أقرأ، كان أدل على المقصود هذا واحد، نقدره فعلًا؛ لأن الأصل في الأعمال هي الأفعال، ولهذا تعمل بدون شرط، وأما ما يعمل من الأسماء فإنه لا يعمل إلا بشروط، كاسم الفاعل واسم المفعول والمصدر وما أشبه ذلك، فنجعله متأخرًا لسببين:

السبب الأول: التبرك بالبداءة، باسم الله.

والسبب الثاني: الدلالة على الحصر؛ لأن تأخير العامل يدل على الحصر، أو بعبارة أعم: لأن تأخير ما حقه التقديم، يدل على الحصر، إذْ نقول في البسملة كلها جاءت متعلقة بمحذوف يقدر

هذا المحذوف فعلًا خاصًا متأخرًا، فعندما تريد أن تتوضأ، كيف نقدر؟ بسم الله أتوضأ، وعندما يريد الإنسان أن يذبح ذبيحة يكون التقدير: بسم الله أذبح، وعلى هذا فقس، يقول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهنا (اسم) مضاف إلى الله وهو مفرد فيفيد العموم، ولهذا قدّره الشُّرَّاح بأن المعنى بكل اسم من أسماء الله، والاسم مأخوذ من السُّمو وهو الارتفاع، وقيل: من السِّمة وهي العلامة، ولو قيل بأنه مأخوذ من هذا وهذا لم يكن بعيدًا؛ لأنه يُظهر المسمى فيكون فيه معنى الارتفاع، ولأنه يميزه فيكون فيه معنى العلامة وأسماء الله تعالى تقدم الكلام عليها في درس «التوحيد» ولا حاجة في الكلام عليها هنا.

وقوله: ﴿اللَّهِ﴾ علم على ذات الله سبحانه وتعالى، وهو أصل الأعلام أسماء الله كما نعرف أعلام وأوصاف، لكن أصلها كلمة الله؛ ولهذا تأتي الأسماء دائمًا تبعًا لها فهي الأصل، وربما يأتي لفظ الجلالة تابعة لغيرها من الأسماء، مثل قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] فهنا الله تابعة لما قبلها.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة، لكن الأول منهما يدل على الرحمة باعتبارها وصفًا لله، والثاني يدل على الرحمة باعتبارها فِعلًا له؛ فهو رحمن وهو رحيم متصف بالرحمة، وفاعل للرحمة، يعني: أنه سبحانه وتعالى مع كونه رحيمًا فإنه يرحم، وهذا الذي قررته وقرره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الفرق بين الرحمن وبين الرحيم، وإن كان بعض العلماء يفرِّق بينهما بأن الرحمن ذو الرحمة العامة والرحيم ذو الرحمة الخاصة، ويقول: إنه يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، لكن المعنى الذي أشار إليه ابن القيم أبلغ وأحسن، ولهذا جاءت الرحمن على وزن (فعلان) وهذا الوزن يدل غالبًا على السَّعة والامتلاء فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة، وهو سبحانه وتعالى يرحم من يشاء، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

والبسملة آية من كتاب الله تأتي في مُبتدأ كل سورة إلا في سورة «براءة» فإنه ليس فيها بسملة، وذَكَر أهل العلم أن سبب سقوط البسملة في «براءة»: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أشكل عليهم هل هي من سورة الأنفال أم هي سورة مستقلة؟ فجعلوا بينهما فاصلًا، ولم يكتبوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهذا واضح، لكن أوضح منه أنه لو كانت البسملة قد نزلت بين سورة الأنفال وبراءة لم يمكن أن تسقط؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر:٩] لكن لما أشكل على الصحابة هل هي مستقلة أو من سورة الأنفال، وضعوا الفاصل فقط.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ النداء هنا للنبي ﷺ بوصفه نبيًا، وقد يناديه الله تعالى بوصفه رسولًا، فيخاطبه سبحانه وتعالى بوصفه رسولًا في مقام الرسالة كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] والنبي مشتق، فأصلها النبيءُ، وقيل: أصلها النبيو بالواو، فعلى

القول الأول، يكون مشتقًّا من النبأ، وأبدلت الهمزة بالياء تخفيفًا، وعلى القول الثاني يكون مشتقًّا من النَّبْوَة وهي الارتفاع، ولا شك أن مقام النبوة مقام رفيع، وأن النبي مُخْبِرٌ ومُخْبَرٌ أيضًا، فهو فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، يقول الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمراد به نبينا محمد ﷺ يقول له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ قال المؤلف: [دُمْ على تقواه]، صرفها المؤلف عن لفظها؛ لأنك إذا أمرت أحدًا بشيء، فالأصل أنه غير متلبس به، فإذا قلت: يا فلان قم، فهل هو قائم؟ لا، هذا هو الأصل أن الأمر إنشاءُ ما لم يكن فإذا قلت: يا فلان قم أو يا فلان اقعد؛ فإنه حين توجيه الأمر إليه ليس متصفًا بهذا الوصف، والنبي عليه الصلاة والسلام قال الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فلو أخذنا بظاهر العبارة لكان النبي ﷺ حين توجيه الخطاب إليه لم يكن متقيًا، وهذا أمر لا يمكن؛ لذلك يكون معنى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دم على تقواه، ومنه هنا نأخذ أن الأمر بالشيء قد يكون أمرًا بتجديده، وقد يكون أمرًا بالاستمرار عليه.

وقد يكون أمرًا بالتفصيل لهذا المأمور به، فمثلًا إذا قلت: يا أيها المؤمن آمن، فالمعنى: دُمْ على إيمانك وحققه، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] الأمر هنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: دوموا عليه لكن فيه التفصيل؛ لأنهم آمنوا مجملًا، ثم قال ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، فصار إذن توجيه الأمر في الأصل إلى من لم يكن متلبسًا به، هذا هو الأصل، وقد يوجَّه إليه لطلب الاستمرار، وقد يوجه إليه لبيان التفصيل، كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وقوله ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تأتي التقوى في القرآن الكريم كثيرًا فما معناها؟ ومن أين هي مشتقة؟

نقول: هي مشتقة من الوقاية، ولهذا يقولون: إن أصل التاء فيها واو فتقوى بمعنى (وقْوَى) هذا أصلها، وإذا كانت بمعنى الوقاية، فإن التقوى هي: أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله عز وجل، ولا وقاية من عذاب الله إلا بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعلى هذا فنقول: إن المراد بالتقوى فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، ومن المعلوم أننا إذا قلنا: فعل أوامر الله، فأوامر مضافة إلى الله فالإنسان سينوي بهذا الفعل امتثال أمر الله، وكذلك إذا قلنا: اجتناب نهي الله، فإن الإنسان سيجتنبه؛ لأن الله نهى عنه؛ لأن مجرد الفعل بدون نية ليس بتقوى، ومجرد الترك بدون نية ليس بتقوى، لكن لما كان الفعل والترك مضافان إلى الله صار لابد فيهما من النية.

قال: [﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك].

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عطف قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ على ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن ترك طاعة هؤلاء من تقوى الله عز وجل فيكون عطفًا على التقوى

من باب عطف الخاص على العام، وهذا كثير في القرآن والسنة وكلام العرب.

والكافر هو الذي صرح بكفره وأعلنه، وأما المنافق فهو الذي أخفى كفره وأظهر أنه مؤمن، ومن أين اشتُق الكفر أو الكافر؟

يقولون: إن الكفر في الأصل: الستر، ومنه الكُفُرَّى، وهو غلاف الطلع؛ لأنه يستره، هذا في الأصل، وسُمي الذي لا يؤمن بالله كافرًا؛ لأنه ستر نعمة الله عز وجل، وجحد شريعته فصار بذلك ساترًا للحق وساترًا للنعمة التي أنعم الله بها عليه.

وأما النفاق فإنه مأخوذ من نافِقاءِ الْيَرْبُوع، واليربوع دُوَيْبَةٌ معروفة تتخذ بيتًا في الأرض، وتحفر الجحر وتجعل له بابًا وتجعل في آخره بابًا مغلقًا بشيءٍ من التراب، بمعنى أنها تحفر حتى إذا وصلت إلى منتهى الجحر حفرت إلى أن يبقى عليها شيءٌ قليل من طبقة الأرض بحيث إذا دفعته برأسها أو إذا دفعه برأسه انفتح، هذه هي النافقاء، ويصنع ذلك من أجل أنه إذا فوجيء من باب الجحر خرج من هذا؛ فهكذا المنافق إذا خُوطب بالإيمان قال: إنه مؤمن، يتخلص، كما أنه إذا أتى إلى قوم كفار يقول: إنني كافر، فيتخلص من ملامة هؤلاء وملامة هؤلاء.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يطيع الكافر، لكن الذي قد يمكن أن يطيع المنافق؛ لأن المنافق لا يُحَسُّ بنفاقه وكفره، ولا يعلم عنه، فقد يَغتر به الإنسان، فلهذا قَدم الله الكافرين هنا على المنافقين مع أنه في باب الوعيد يقدم المنافقين على الكافرين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقول المؤلف: [فيما يخالف شريعتك]، هذا القيد يقتضي تخصيص النهي، مع أن النهي مطلق، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فما الذي حمل المؤلف على أن يقيده بما يخالف الشريعة؟

الجواب: الذي حمله على ذلك؛ لأنه لو فُرض أن الكافر أو المنافق أَمَر بما يوافق الشريعة لكان لزامًا علينا أن نطيعه؛ لا لأنه أمر؛ لكن لأن هذا مقتضى الشريعة، هذا وجه. ووجه آخر هو أن يقال: إن تقييد المؤلف ذلك بيانٌ للواقع؛ لأن الكافر والمنافق لعداوتهما لشريعة النبي ﷺ لا يمكن أن يأمرا إلا بما يخالف الشريعة فيكون هذا القيد بيانًا للواقع والقيد الذي يكون بيانًا للواقع لا يقيِّد؛ لأنه لا يُراد، وأظن أن في ذلك أمثلة مرت علينا كثيرًا، فمن أمثلة ما يكون فيه القيد بيانًا للواقع وغير مراد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قيد مبين للواقع وليس المعنى: أن هناك ربًّا لم يخلق وربًّا خلق.

والأمثلة في هذا كثيرة، فهنا يمكن أن نحمل كلام المؤلف في قوله: [فيما يخالف شريعتك]، على أنه بيان للواقع وهو أن الكافر والمنافق لا يمكن أن يأمر إلا بما يخالف الشريعة؛ لأن الكافر كافرٌ بها، والمنافق أيضًا كافرٌ بها، لكنه يظهر الإيمان.

ثم قال: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون قبل كونه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يخلقه].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذه الجملة محلها أو موضعها ما قبلها في المعنى تعليلية، ووجه كونها تعليلية لما قبلها أن الله لما أمر نبيه ﷺ بالتقوى ونهاه عن طاعة الكافرين بيَّن أن هذا الأمر والنهي صادرٌ عن علمٍ وحكمةٍ، وأنه سبحانه وتعالى أعلم بما يكيده هؤلاء الأعداء من الكفار والمنافقين، فلا تطعْهم فليسوا أهل نصحٍ لك أبدًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ [بما يكون قبل كونه]، هل هذا التقييد صحيح؟

الجواب: نعم؛ لأنه عليم بما يكون قبل كونه وبعد كونه، وحال كونه موجودًا وبعد حال كونه معدومًا، فعلْم الله تعالى يتعلق بالأشياء، في أحوالها الثلاث: قبل الوجود، وحين الوجود، وبعد العدم.

وعلم المخلوق لا يتعلق بهذه الأشياء في الأحوال كلِّها، قبل الوجود معلوم أنه لا يعلمه، وحين الوجود لنفرض أنه يعلمه، وبعد العدم قد ينْسَاهُ، فعلم المخلوق محفوف بنقصين: جهل سابق، ونسيان لاحق، أما الله عز وجل، فإن علمه كامل جملة وتفصيلًا في جميع الأحوال، قبل الوجود وحين الوجود وبعد العدم، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فنفى عنه الضلال الذي هو الجهل والنسيان الذي هو الذهول عن الشيء بعد علمه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ إذن نقول: عليمًا بما يكون قبل كونه وبما يكون حين كونه وبما يكون بعد عدمه، أي: في كل الأحوال.

وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ مرت علينا كثيرًا وبينَّا أنه مشتق من الحِكمة والحُكم، وأن حكم الله عز وجل كونيٌّ وشرعي، وأن الحكمة نوعان: غائية وصورية، صورية ليس معناها أنها بالصورة فقط، لكن كون الشيء على هذه الصورة حكمة والغاية منه حكمة أخرى، فإذا كان كذلك، تكون الأقسام أربعة: حكم مشتمل على الحكمة في صورته وغايته حكم كوني، وحكم شرعي مشتمل على الحكمة في صورته وفي غايته.

وهنا إشكال في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾؛ لأن المعروف أن الشيء الماضي قد مضى، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، فهل يفيد أنه الآن ليس بعليم؟

الجواب: لا؛ لأنَّ (كان) قد تكون مسلوبة الزمان ويُقصد بها اتصاف اسمها بخبرها، وتحقق

ذلك الاتصاف بدون أن يُلاحظ الزمان فيها، وهي كلما جاءت بالنسبة إلى الله تعالى وأسمائه وصفاته، أنها على هذا الباب، وهي أنها تفيد تحقق اتصاف الموصوف الذي هو اسمها بصفته وهو خبرها بقطع النظر عن الزمان، فعليه نقول: إن الفعل هنا مسلوب الزمان يعني: لم يزل ولا يزال عليمًا حكيمًا.

إذن العلم والحكمة هل هما من الصفات الذاتية أو الفعلية؟

نقول: من الصفات الذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال عليمًا ولم يزل ولا يزال حكيمًا، والله أعلم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

نقول في: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني: استمر على اتباعه، واتباع ما يُوحى إلى النبي ﷺ بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام يشمل اتباعه بالتبليغ واتباعه بالدعوة واتباعه بالعمل؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالأمور الثلاث: مأمور بتبليغه، وبالدعوة إليه، وبالعمل به.

وقوله: ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الوحي في الأصل الإعلام بسرعة وخفاء، فالإعلام بسرعة وخفاء يسمى وحيًا، والمراد به هنا: إبلاغ النبي ﷺ ما شرعه الله سبحانه وتعالى، سواء كان بواسطة أو بغير واسطة، ومعلوم أن إبلاغ الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الوحي ظاهر أو لا؟ ليس بظاهر؛ لأن النبي لا يعرف أنه يوحى إليه إلا بما يظهر من الوحي، لكن لا ندري كيف يوحى إليه لولا أنه أخبرنا بذلك.

وقول: ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ﴿مَا﴾ اسم موصول من صيغ العموم تشمل كل ما يوحى إلى النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يفيد أن هؤلاء الكافرين والمنافقين كانوا يحاولون من النبي ﷺ أن يخالف شريعته، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قد لا يعلم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هؤلاء الكفار والمنافقون.

وقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ الخبير مشتقٌّ من الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور ولهذا سُمي صاحب الحرث والزرع خبيرًا وسُميت المزارعة مخابرة؛ لأن الحب يُدفن في الأرض فيكون باطنًا غير ظاهر.

فالخبير هو العليم ببواطن الأمور؛ إذن الخبير أخص من العليم؛ لأن العليم يشمل العالم بظواهر العلوم وبواطنها، لكن الخبير أخص وهو العالم ببواطن الأمور، والعالم بالبواطن عالم بالظواهر من باب أولى، وعندي يقول المؤلف: [وفي قراءةٍ بِالتَّحْتَانِيَّةِ]، فتكون: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ و اصطلاح المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: [في قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قرئ]

فهي شاذة، وعلى هذا ففي الآية قراءتان سبعيتان تجوز القراءة بكل منهما، وعندما نقول: تجوز، فليس معناه أن القراءة بهذا وهذا على حدٍّ سواء، لكن المعنى أن القراءة بها غير ممنوعة؛ لأن الأفضل أن تقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، فإن اختلاف القراءات كاختلاف العبادات، وقد ذكرنا أن الأفضل في العبادات الواردة على وجوهٍ متنوعة أن تأتي بهذه مرة وبهذه مرة؛ لأجل أن تكون قد عملت بالسنة في جميع وجوهها، كذلك في القراءات الأفضل أن تأتي بهذه مرة وبهذه أخرى، بشرط أن تكون عالمًا بالقراءة، ولكنها بالقول الذي نقوله: إنما هو في قراءة الإنسان على الخاصة، أما قراءته على العامة فإنه لا ينبغي أن يخرج عن القراءة الموجودة بين أيديهم؛ لأن العامي لا يُدرك هذه القراءات، أو لا يدرك اختلاف هذه القراءات، فإذا قرأت القرآن بغير ما بين يديه فإنه سينكر عليك، لكن هذا الإنكار ربما تجيب عنه، لكن سيقع في نفسه شيءٌ من الشك.

ولهذا ينبغي لنا أن نحدِّث الناس بما تدركه عقولهم، كما في حديث عليٍّ رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟)[1].

فالحاصل: أن طالب العلم الذي يعرف القراءات ينبغي له أن يقرأ أحيانًا بهذه وأحيانًا بهذه، ولكن هل يجمع بين القراءتين؟ يعني: مثلًا هنا أقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، و﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؟

الجواب: لا، ولكن الأفضل أن تأتي بهذه مرة وبهذه مرة؛ لأنك إذا جمعت بين قراءتين فقد خالفت؛ إذ إن من قرأ بالتاء لا يقرأها بالياء فكيف تجمع بينهما؟! لكن بعض أهل العلم يقولون: لا بأس أن تجمع بين القراءتين سواء كانت منفصلة أو غير منفصلة بمعنى: أنه يجوز أن تقرأ بالقراءتين في الآية الواحدة، ويجوز أن تقرأ في آية بقراءة قارئ وفي آية أخرى بقراءة قارئ آخر.

أما الثانية: وهي أن تقرأ في آية بقراءة قارئ، وفي آية أخرى بقراءة قارئ آخر فهي جائزة، أما الجمع بين القراءتين في آية واحدة وفي تلاوة واحدة فإن في جوازه نظرًا يعني: مثلًا تقرأ هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ على قراءة أحد القراء ثم تأتي مثلًا في قراءة ثانية تخالفه في آية أخرى فتقرأ بها.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

١ - يستفاد من هذه الآية الكريمة أن مجرد النداء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يعتبر تعظيمًا له ﷺ؛ لأن النداء بالنبوة تعظيم مع أن الأنبياء الذين سواه يناديهم الله تعالى بأسمائهم: يا موسى،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٧).

يا عيسى وما أشبه ذلك، أما النبي عليه الصلاة والسلام، ما ناداه إلا بوصف النبوة أو الرسالة.

فإن قلت: أليس الله قد قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩] فخاطبه هنا باسمه، فهذا يرد ما تقول؟

نقول: هذا ليس مقام نداء وخطاب، لكن هو مقام خبر.

٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب التقوى؛ لقوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾.

٣ - **ويستفاد منها:** وجوب التقوى على الأمة، فإذا كان الرسول ﷺ يُؤمر بالتقوى، فغيره من باب أولى هذا وجه، وجه آخر أن الخطاب الموجه للرسول عليه الصلاة والسلام موجه له ولأمته ما لم يقم دليل على التخصيص.

وبهذه المناسبة، فالخطابات الموجهة للرسول عليه الصلاة والسلام إما أن يقوم دليل على العموم، أي: في نفس الخطاب ما يدل على العموم، أو فيه ما يدل على الخصوص، أو فيه ما لا يدل على هذا ولا على هذا؛ فالذي فيه ما يدل على العموم بالعموم، دليله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أو فيه ما يدل على الخصوص قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٩] وله أمثلة كثيرة، أو فيه ما لا يدل على هذا ولا على هذا، مثل هذه الآية التي معنا، ولكن حكمها عام للنبي ﷺ ولأمته.

٤ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمورٌ مكلفٌ؛ وذلك لأمره بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

٥ - **ويستفاد من ذلك:** أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة، فإن التكاليف لا تسقط عنه، وعلى هذا يتفرع على هذه الفائدة: بيان ضلال أولئك الصوفية الذين يقولون: إن الإنسان إذا وصل إلى درجة المعاينة سقطت عنه التكاليف؛ لأنَّا نقول: لا أحد يبلغ مرتبة النبي ﷺ عند الله عز وجل، ومع ذلك لم تسقط عنه التكاليف، فإن قالوا: إن الله يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني: حتى تصل إلى درجة اليقين، ثم تنتهي عن العبادة، فبماذا نجيبهم؟

نقول: المراد باليقين هنا الموت، والدليل قول أصحاب الجحيم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦، ٤٧] أي: الموت، وليس معناه أنهم وصلوا إلى درجة اليقين أبدًا، لكنهم ماتوا على التكذيب، ولم يصلوا إلى درجة اليقين، وإذا كان هؤلاء يقولون: إننا وصلنا إلى درجة يقين يكونون به من أصحاب الجحيم، فنحن نوافقهم على ذلك.

٦ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم طاعة الكافرين والمنافقين والركون إليهم، لقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

٧ - **ويستفاد منها:** أن الكافر والمنافق لا يمكن أن يكونا ناصحين للمؤمنين أبدًا، ولو أمكن أن يكون فيهم نُصح، ما نهى الله عن طاعتهم مطلقًا، لأن الناصح يُطاع.

٨ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العليم والحكيم).

وبالنسبة للعلم نقول: إن علم الله كما يتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل، يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل فهو يتعلق بالواجب وذلك في كل ما أخبر به عن نفسه، وبالممكن مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨]، وبالمستحيل كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٢]

١ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب اتباع ما أُنزل على النبي ﷺ، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، فإن قلت: هل هذا على العموم، وأنه يجب اتباع ما أُنزل على الرسول؟

الجواب: لو قلنا بالعموم، إذن يجب أن نرفع الأيدي في الصلاة، ويجب أن نسبح أكثر من مرة إلا ما قام الدليل على أنه ليس بواجب، لكن نقول: هذا يُستثنى منه ما قام الدليل على أنه ليس بواجب؛ لكن ما صح عن النبي ﷺ ولو كان غير واجب، يجب اعتقاد مشروعيته، حتى وإن كان غير واجب الفعل، فعندنا اعتقاد المشروعية، وتنفيذ هذا المشروع على حسب ما جاءت به الأدلة إما واجب، وإما مستحب؛ وأما اعتقاد المشروعية فيما صح فهو واجب - فمثلًا - يجب عليَّ أن أعتقد مشروعية مجافاة العضدين عن الجنبين في السجود وغيرها، لكن فعل ذلك يتوقف على الأدلة التفصيلية؛ إن دلت الأدلة على وجوبه فهو واجب، وإن دلت على أنه مستحب فهو مستحب.

٢ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** ثبوت رسالة النبي ﷺ ونبوته، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣ - **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن لله تعالى ربوبية خاصة بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد مر علينا كثيرًا بأن الربوبية نوعان، والعبودية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فمثال الربوبية العامة قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الصافات:٥] هذه عامة، ومثال الخصوصية مثل هذه الآية قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢].

وكذلك العبودية نوعان: عامة وخاصة، فالعامة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ

بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤]، والخاصة قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١] والمراد الرسول عليه الصلاة والسلام.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن علم الله تعالى شامل للأمور الباطنة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

٥- **ويستفاد منها** : تحذير الإنسان من المخالفة؛ لأن هذا يوجب أننا لا نخالف الله ما دمنا نعلم أنه خبير بما نعمل؛ فإننا لا يمكن أن نخالف الله -عز وجل- مثل ما لو قلت: اذهب وأنا أعلم ما تفعل، فالمراد بهذا: التهديد والتحذير من المخالفة، فكل نص يبيِّن الله فيه أنه يعلم ما نعمل فهو تحذير لنا من مخالفته.

قال الله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]

التفسير

قال المؤلف: [﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمرك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا لك]، فالتوكل بمعنى الاعتماد مع الثقة، ولهذا فسروه بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله عز وجل، بأن يكون القلب معتمدًا على الله لا على غيره في جلب المنافع وفي دفع المضار مع ثقته بالله سبحانه وتعالى، يعني: واثقًا بأن الله سبحانه وتعالى سيكفيه، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، فإذا صَدَّقت الله عز وجل في أنه سيكفيك فهذا هو تمام التوكل.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جاءت هذه في القرآن في عدة مواضع ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة:٢٣] وعلى هذا يكون التوكل من العبادة، لأن الله تعالى أمر به، وما أمر الله به شرعًا فهو من العبادة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أقسام التوكل.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ الباء يقول أهل الإعراب: إنها زائدة لتحسين اللفظ وأن لفظ الجلالة[1] هو الفاعل، والتقدير: وكفى الله وكيلًا، و﴿وَكِيلًا﴾ حالٌ من الفاعل.

والمعنى: ما أعظم كفاية الله تعالى في هذا الشيء إن كان هو (كفى بالله شهيدًا) فهو: ما أعظم كفاية الله تعالى في شهادته، وإن كان: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، ما أعظم كفاية الله في وكالته.

---

(١) الأصوب أن نقول: اسم الجلالة.

وقوله: ﴿وَكِيلًا﴾، يقول المؤلف: [حافظًا لك]، وعلى هذا فعيل هنا بمعنى فاعل، وليست بمعنى مفعول؛ لأن الوكيل إذا قلت: وكلت هذا الوكيل، فإن ﴿وَكِيلًا﴾ بمعنى مفعول، لأنه مُوَكَّل، لكنه هنا بمعنى فاعل أي أنه حافظ، فالاعتماد من الإنسان، والحماية والحفظ من الله، ويدل لتفسير المؤلف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، وسوف يقوم سبحانه وتعالى بحفظه وبتحقيق ما توكل به عليه.

قال المؤلف: [وأمته تبع له في ذلك كله]، إنما قال هذا؛ لأن الخطاب في الآيات موجه للنبي ﷺ فأمته تبع له، من أين علمنا أن أمته تبع له؟ علمنا ذلك من طريقين، أو من أحد طريقين:

الطريق الأول: أن الله أمرنا بالتأسي به، فكل أمر موجه للرسول ﷺ لا يدل الدليل على تخصيصه به، فهو لنا أيضًا، فنحن مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثانيًا: أنه من المعروف في الخطاب أن الخطاب الموجه إلى المتبوع خطاب له ولتابعه ولهذا يقول مثلًا القائد لضابط الجيش: اذهب إلى المكان الفلاني، هل هو يريد اذهب أنت بنفسك أم أنت بمن تبعك؟ هو يريد: أنت بمن تبعك، فالخطاب في اللغة العربية إذا وجه إلى المتبوع، فهو له وللتابع.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب تقديم الوحي على الرأي، لقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، فإن هذا الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، وإلى أمته بالأولى، فيفيد وجوب تقديم الوحي على الرأي، وتقديم الرأي على الوحي له أقسام:

* منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما هو دون ذلك، فالذين يقدمون الرأي على الوحي مع علمهم بالوحي، معتقدين أن غير الوحي مساوٍ له، أو أكمل منه، أو أنه يجوز الحكم بالرأي المخالف للوحي مع العلم به، فهؤلاء يعتبرون كفارًا، في هذه الأحوال الثلاث، إذا اعتقدوا أن الرأي أكمل وأنفع من الوحي، أو أنه مساوٍ له، أو أنه يجوز تقديمه على الوحي مع العلم به، فهؤلاء كفار، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

* وأما من قدموه بتأويل ظنًّا منهم أن ذلك لا يخالف الوحي، أو أنه طريق يوصلهم إلى الوحي، فهؤلاء لا يصلون إلى درجة الكفر، وذلك مثل كثير من المتعصبين للمذاهب، فإنهم لا يرون أن هذه المذاهب خارجة عن الوحي، وإنما يرون أن ذلك طريق إلى العمل بالوحي، فيقولون: هذا إمامنا أعلم منا وأفهم فنتبعه، ونتهم رأينا بالنسبة إلى رأيه، وإلا فنحن متمسكون بشريعة الله ومحكِّمون لكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهؤلاء نقول: إنه إذا تبين لهم الحق، وجب عليهم اتباعه، ولو خالف متبوعهم من الأئمة؛ وذلك لأن الحق لا يخطئ، والأئمة يخطئون، ولا

يمكن أن تُدَعى العصمة لأحد من البشر إلا رسول الله ﷺ، فالذي يدعي العصمة لغير الرسل رجل ضال، كما يفعل الرافضة لأئمتهم، وهذا ضلال بيِّن؛ لأن أئمتهم قد يخطئون، كما يخطئ غيرهم.

وقد مر علينا ما وقع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو إمام الأئمة - بالنسبة لأولئك القوم - أنه أخطأ، حين أعطاه النبي ﷺ حُلَّة من حرير فلبسها، فقال: «**إِنِّي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، إِنَّمَا تُعْطِيهَا الفَوَاطِمِ**»(١)، وكذلك ما هو مشهور عنه من أن المرأة إذا كانت حاملًا، وتوفي عنها زوجها، فإنها تعتد بأطول الأجلين، وهذا مخالف للسنة الصحيحة الصريحة.

والحاصل: أننا نقول: إن في الآية الكريمة: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وجوب تقديم الوحي على الرأي، وأنه يجب الحكم بما جاء به الشرع مطلقًا، سواءً خالف رأي متبوعك أم لم يخالف.

٢- **وفي هذا دليل على**: وجوب التوكل على الله، وقد ذكرنا في «كتاب التوحيد» أن التوكل ينقسم إلى أقسام: أحدها توكل العبادة؛ وهو شعور الإنسان بافتقاره إلى المتوَكَّل عليه، وذله بين يديه، وهذا لا يجوز صرفه لغير الله، وصرفه لغير الله كفر وشرك؛ لأنه إشراك بالله فيما لا يستحقه إلا الله، وهو شرك أكبر، هذا هو النوع الأول من أنواع التوكل.

النوع الثاني من أنواع التوكل: الاعتماد على الغير الذي جعلته نائبًا عن نفسك، هذا جائز وقد وقع حتى مع الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فإنه وَكَّلَ «عروة بن الجَعْد» على أن يشتري له أضحيةً، وكان له وكيل في خَيْبَر، وكذلك وَكَّلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ذبح ما بقي من الهدي، وهو جائز ولا إشكال فيه، ووكل علي بن أبي طالب حين ذهب إلى تبوك أن يكون خليفةً له في أهله، وموسى - عليه الصلاة والسلام - وكَّل هارون حين ذهب إلى الطور وقال: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢]، إذنْ هذا جائز ولا إشكال فيه؛ لوقوعه من الأنبياء، ولأنه عقد من العقود، والأصل في العقود الحل إلا ما قام الدليل على منعه.

والثالث: أن يعتمد على من لا يصح الاعتماد عليه: على قوة سرِّية نعلم أنه لا أثر لها في هذا الاعتماد، وهذا شرك، قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، مثل اعتماد أولئك الذين يتوسلون بالأموات، ويعتقدون أن في الاعتماد عليهم خيرًا، هؤلاء قد يصل بهم الأمر إلى الشرك الأكبر، وإلا فمجرد اعتمادهم عليهم شرك ولا يحل.

والرابع: أن يعتمد على قوة ظاهرة مؤثرة لكنه يعتمد عليها، لا باعتبار أنها نائبةٌ عنه، بل باعتبار

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٧١)، والنسائي (٥٢٩٨)، وأبو داود (٤٠٤٣)، وابن ماجه (٣٥٩٦) واللفظ له.

أنها مجدية له، وأنها مصدر سعادته وفلاحه ورزقه، وما أشبه ذلك، فهذا مكروه، وقد يصل إلى درجة التحريم كاعتماد الإنسان على الراتب، وعلى المعاش من الوزارة التي يعمل فيها، أو الإدارة أو الرئاسة أو ما أشبه ذلك، فهذا فيه نوع من الشعور بالافتقار إلى ذلك الشيء، والتذلل له.

ولذلك تجد الذين ابتُلوا بهذا النوع يحابون من كانوا يعتمدون عليهم، يحابون كبراءهم من الوزراء وغير ذلك، يحابونهم في أمر لا يجوز، أما مجاملتهم فيما هو جائز، فهذا أمر لا بأس به، لكن محاباتهم في المحرم، فهذا لا يجوز، لكن هذا قد يقع، لأنهم يشعرون بأنهم مفتقرون إلى هؤلاء، فهذا أقل أحواله: الكراهة.

والإنسان ينبغي له أن يكون عزيز النفس، لا يعتمد إلا على ربه سبحانه وتعالى.

٣ - ويستفاد من الآية الكريمة أن كِفاية الله - عز وجل - فوق كل كفاية؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وزعم بعض أهل العلم، أن مثل هذا التركيب يفيد التعجب، يعني: ما أعظم كفاية الله، وهذا ليس ببعيد، أن كون هذه الصيغة تحول من (وكفى الله وكيلًا) إلى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لا يبعد أن يكون المراد بذلك: بيان المبالغة في كفايته سبحانه وتعالى، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَّا﴾ نافية، ولفظ الجلالة: فاعل، وقوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ هل هي مفعول ﴿جَعَلَ﴾، الأول أم الثاني؟ هي مفعولها الأول وهو مؤخر، ومفعولها الثاني قوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾ ومن هنا نقول: إنها زائدة من حيث الإعراب، فنعرب ﴿قَلْبَيْنِ﴾ على أنها مفعول به منصوب وعلامة نصبه ياءٌ مقدرة على هذه الياء التي جُلبت ؛ لأن عمل الأداة الظاهرة أقوى من عمل الأداة غير الظاهرة يعني مثلًا ﴿جَعَلَ﴾ تنصب ﴿قَلْبَيْنِ﴾، لكن عارضها عامل أقوى مباشر، وهو حرف الجر، فيقولون: إن الياء هذه ليست ياء النصب، لكنها ياء حرف الجر الزائد، وعلى هذا فنقول: علامة

نصبه ياء مقدرة، في مكان الياء الموجودة التي اجتلبت من أجل حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ﴾ هذا الجعل كونيٌّ، وليس شرعيًّا؛ لأن الجعل الذي يُضاف إلى الله ينقسم إلى قسمين: جعل شرعي، بمعنى ما شرع، وجعل كوني، بمعنى ما خلق، مثال الجعل الشرعي، قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣] هذا، جعل شرعي، والدليل أنه كونٌ واقع مجعول لكنه شرعًا لم يُجعل.

وأما الجعل الكوني: فهو كثير، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١٠، ١١]

وفي هذه الآية الكريمة قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ هي من الجعل الكوني، وأكد الله هذا النفي بحرف الجر الزائد؛ لأن الحروف الزوائد من أدوات التوكيد، إذن محال أن يكون في الإنسان الواحد قلبان، ولكن هل هذه الجملة مرادة لذاتها، أو مرادة لغيرها؟

الجواب: يرى المؤلف وجماعة من علماء التفسير: أنها مرادة لذاتها، وأنها نفي لأمر قد ادُّعي، ولهذا قال ردًّا على من قال من الكفار: إن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ﷺ، هذا ما ذهب إليه جماعة من أهل العلم، يعني: أن هذا نفي لأمر ادعاه رجل من الكفار، يقول: إن له قلبين، وإذا كان له قلبان كان له عقلان، وإذا كان له عقلان كان أفضل من النبي ﷺ؛ لأنه ما له إلا قلب واحد.

وذهب بعض المفسرين - وعلى رأسهم الزهري رحمه الله - إلى أن هذه الجملة ليست مقصودة لذاتها، لأنها أمر معلوم؛ لأنه ليس لإنسان قلبان، لكنها توطئة وتمهيد لما يأتي بعدها، لأنه ذكر في الآية الكريمة ثلاثة أشياء قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، فكما أنكم تقرون بأنه لا قلبين لرجل في جوفه، فكذلك ليست الزوجة أمًّا؛ لأن الله لم يجعل للإنسان أُمَّيْن، كما أنه ليس له قلبان، وكذلك ليس هناك ابن غير حقيقي، يعني: ليس للإنسان ابن خلق من مائه وابن نسب إليه ولم يخلق من مائه، بل ابنك من خلق من مائك. وهذا ما اختاره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ، على أن هذه الجملة توطئة؛ لأن انتفاء القلبين في الجوف الواحد أمر معلوم، والقصة التي ذكروها ينظر في صحتها، وحتى لو صحت، فإن هذا الذي يقول إن له قلبين، ادعاؤه أن له قلبين يدل على أنه لا قلب له؛ لأن هذا أمرٌ مستحيل.

يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ فهل قوله ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ يعتبر قيدًا شرطيًّا له مفهوم؟

فيقال: لا، ولكنها لبيان الواقع؛ لأنه من المعلوم أن القلوب في الأجواف وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]؛ لأن قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ كقول الإنسان: ولا ماشٍ يمشي برجليه، لبيان الواقع، وإن كان بعض المتأخرين زعم في قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنها قيد شرطي لتخرج الطائرة المعروفة، لأنها تطير بغير جناحيها، وقد يقال: إن هذا ليس بصحيح أيضًا، حتى الطائرة الآن تطير بجناحيها أين النفاثات؟ النفاثات التي تطير بها في الجناحين، والمراوح التي كانت في الأول في نفس الجناحين، لكن لا شك أن الطائرة ما هي من الأمم التي هي أمثالنا، بل هي من صنعنا.

إذنْ قوله تعالى ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾، لبيان الواقع.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾ يقول المؤلف: [بهمزٍ وياءٍ وبلا ياءٍ]، بهمزٍ وياء تكون: ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾، وبلا ياء، يعني: بهمزٍ بلا ياء، تكون اللاءِ، وهي كما نعرف جميعًا جمع التي، فهي مثل الذين في الذكور، جمع الذي، اللائي.

وقوله: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ يقول: [بلا ألف قبل الهاء وبها والتاء الثانية في الأصل مدغمة في الظاء] ﴿تظَّهَّرون﴾ وهذه قراءة وفي الأولى يقول: [بلا ألف قبل الهاء]، وبها يعني بألف قبل الهاء، فتكون ﴿تظَّاهَرُونَ﴾، هذان قراءتان، وإلى الآن ما جاء المؤلف بالقراءة المشهورة عندنا وهي ﴿تظاهرون﴾، فيكون في الآية ثلاث قراءات: ﴿تظَّهَّرون﴾، ﴿تظَّاهرون﴾ والثالثة ﴿تُظَاهرون﴾، وتظَّهَّرون وتظَّاهرون، يقول: [والتاء الثانية في الأصل مدغمة، التاء مدغمة في الظاء] وأصلها تتظاهرون، أو تتظهَّرون، لكن صارت تظَّهَّرون فأدغمت التاء في الظاء.

فما معنى ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؟ أي: تقولون: إنهن عليكم كظهور أمهاتكم، وهذه صيغة طلاق في الجاهلية، أي: إذا أراد الإنسان أن يطلق امرأته طلاقًا بائنًا، قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، فتطلق طلاقًا بائنًا؛ لأن ظهر أمه لا يحل له بحال من الأحوال، وخص الظهر؛ لأنه محل الركوب، والإنسان يركب زوجته؛ لأنها فراش، كما قال النبي ﷺ.

إذنْ ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ أي: تقولون: لهن أنتم علينا كظهر أمِّنا، وهذه الجملة يعتبرها أهل الجاهلية طلاقًا بائنًا، أما في الإسلام فليست بطلاق، بل هي «ظهار»، أي: أنها موجبة لتحريم المرأة حتى يفعل الإنسان ما أمره الله به كما في سورة المجادلة.

يقول: [﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ يقول الواحد مثلًا لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي]، ويمكن أن يقول غير هذه العبارة، فممكن أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي، ويمكن أن يقول: أنت علي كبطن أمي، فالعبرة بالمعنى لا بالصيغة، وقد مر علينا في كتاب «الظِّهار» تعريفه: وهو أن يشبه الرجل زوجته بمن تحرم عليه تحريمًا مؤبدًا بنسبٍ أو بسبب مباح، المهم: أن يكون تحريمًا مؤبدًا، هذا هو الظهار عند أهل العلم، وسبق الخلاف فيما لو حرَّمها أو لو ظاهر منها، وشبهها بمن تحرم عليه

تحريمًا إلى أمد.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، الذي نصبها ﴿جَعَلَ﴾، والمفعول الأول: ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾، و﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ صفتها، و﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ صلة الموصول، و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ المفعول الثاني.

قال المؤلف: [أي كالأمهات في تحريمها بذلك، المعدّ في الجاهلية طلاقًا، وإنما تجب به الكفارة بشرطه كما ذكر في سورة المجادلة]، هذا في الإسلام ليس بطلاق، ولكنه تحريم تجب به الكفارة بشرطه وهو العود، لقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[المجادلة:٣].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قال المؤلف: [جمع دعي، وهو من يُدعى لغير أبيه ابنًا له] أدعياء جمع دعي، كأغنياء جمع غني، وأكفياء جمع كفي ولها أمثلة، ودعي فعيل بمعنى مفعول وأصلها دعيو بالواو، لكن قلبت الواو تاءً لعلةٍ تصريفية.

إذنْ دعي بمعنى مدعو، والدعاء في الأصل طلب الإقبال والمراد بادعاء هنا النسبة، بأن ينسب إلى غير أبيه، فيقال: هذا ابن فلان وليس ابنًا له حقيقةً، وهؤلاء الأدعياء ما جعلهم الله تعالى أبناءً لا شرعًا ولا قدرًا، أما لا قدرًا فواضح، وأما شرعًا فهنا نفى الله عنه، قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، فإذا كان الأدعياء ليسوا أبناءً لا قدرًا ولا شرعًا؛ فإنه لا يتوجه الذهن إليهم شرعًا، هذه الكلمة التي أقولها يتبين بها ضعف قول من يقول في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ قيد يحترز به عن ابن التبني؛ لأننا نقول: ابن التبني لا يدخل في الابن أصلًا، فلا يذهب إليه الوهم، حتى نقول: إنه يحتاج إلى قيد يحترز به عنه، وسبق أن بحثنا هذه المسألة في باب «المحرمات في النكاح».

المهم: أن الأدعياء ما جعلهم الله أبناءً لا شرعًا ولا قدرًا، وكانوا في الجاهلية يدْعُون الإنسان لغير أبيه، يكون هذا الرجل شريفًا، وذا نسب، وهذا الدعيُّ وضيعًا نسبه عند الناس ليس بذاك الشيء، أو ليس له نسب معلوم فيُدعَى إلى هذا الأب من أجل رفعته، فأبطل الله ذلك؛ لأن دعوة الإنسان إلى غير أبيه، يترتب عليها أمور، كل ما يترتب على النسب من تحريم وتحليل وإرث ونفقات وغيرها، ربما تنتقل إلى هذا الدعي بسبب أنه دُعي إلى هذا الرجل، فلذلك منع الله ذلك شرعًا؛ لأن تسمية الشيء باسم بعيد عن حقيقته، هذا يوجب أن تنقلب الأوضاع حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءَ، يَدْعُونَهَا العَتَمَةَ[(١)]، وَهِيَ تَعْتِمُ بِإِبِلِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي كِتَابِ اللهِ العِشَاءُ»، فكل الأشياء التي إذا سميت باسم آخر ربما تختلف أحكامها، فإن الشرع نهى عنه.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قال: [حقيقةً]، حقيقة تفسير لأبناء، يعني: ما جعلهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٤٤)، والنسائي (٥٤١)، وأبو داود (٤٩٨٤).

أبناء على وجه الحقيقة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ قال: [أي: اليهود والمنافقين] المؤلف يريد أن يكون الخطاب هنا لليهود والمنافقين، والصواب: أنه عائد على كل من دعا شخصًا لغير أبيه من الأدعياء، سواء كان من المنافقين، أو من اليهود، أو من المشركين، أو من المسلمين، فإن هذا قول يقوله الإنسان بِفِيهِ وليس حقيقةً، فهو نفسه يعلم أن هذا الدعي ليس ابنًا لهذا المدعو إليه، فكيف يقول ما يعتقد أن الأمر بخلافه؟!

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أتى بضمير الجمع في الخطاب، لأن المخاطبين جماعة، وقد مر علينا في اسم الإشارة: أن اسم الإشارة يراعى المشار إليه، والكاف يراعى بها المخاطَب، وهنا المشار إليه مفرد مذكر وهو دعوة الرجل إلى غير أبيه، والمخاطبون جماعة ذكور.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني: تقولونه بألسنتكم وأنتم تعرفون الحقيقة أنها ليست كذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : [قالوا لما تزوج النبي ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ التي كانت امرأة زيد بن حارثة، الذي تبناه النبي ﷺ، قالوا: تزوج محمد امرأة ابنه فأكذبهم الله في ذلك].

وكلام المؤلف بعيد من ظاهر الآية إلا أن كلام المؤلف يقول: إنهم بعد أن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش، وكانت في الأول عند زيد بن حارثة، قالوا هذا القول، والآية ما فيها إشارة للقصة إطلاقًا، إنما الآية يتحدث الله فيها عن ابن التبني، ما تحدث الله تعالى ولا أشار إلى تزوج الرجل بزوجة ابنه الذي تبناه.

والصواب: أن الآية إنما هي في نسبة الإنسان إلى غير أبيه تبنيًا.

وقوله: [﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في ذلك ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحق].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المؤلف قيَّدها، فقال: [في ذلك]، والصواب: عدم القيد، حتى وإن كان السبب هو هذا؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ما هو الحق الذي يقوله الله عز وجل فيما يقوله؟

الجواب: فسره الله تعالى في القرآن نفسه، فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] هذا هو الحق الذي يقوله الله عز وجل، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، فكل ما قاله الله عز وجل فهو دائر بين أمرين: إما خبر وإما حكم، فالخبر أحقيته الصدق والحكم أحقيته العدل، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، ولهذا إذا قال قائل: ما هو الحق في قول الله؟

نقول: الحق في قول الله ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، لم يقل: (ويهدي السبيل) ؛لأن الجملة الثانية تتعدى للغير

فهناك هادٍ ومَهْدٍ، ومهدي إليه وفيه، هناك هادٍ وهو الله ومهدٍ وهو الإنسان مثلًا، ومهديٌّ إليه وفيه أيضًا، وهو الدين السبيل الموصل إلى الله عز وجل، مهدي إليه هذه هداية الدلالة، ومهدي فيه، هذه هداية التوفيق؛ لأنك تقول: دللته إلى كذا، وهديته في كذا بمعنى جعلته عاملًا فيه، وهذا هو الحكمة في أن الله عز وجل قال في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، ولم يقل: إلى الصراط؛ لأجل أن تعم الهداية إليه بالدلالة إليه وبيانه، والثاني: الهداية فيه بالعمل به، وهذا مقصود كل داعٍ، يدعو الله عز وجل الهداية أن يهديه الله إلى الشيء فيعرفه ويعلمه ويهديه فيه، فلا يضل عنه.

إذنْ ﴿ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾(أل) هذه للعهد الذهني، وأي سبيل يراد بهذه الآية؟ المراد: سبيل الله عز وجل، والدليل أن المراد سبيل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٣٥]، إذنْ السبيل التي يهدي الله إليها هي سبيل الله عز وجل، وهي طريق الحق، ومن جملة ذلك أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الزوجات اللاتي ظَاهر منهن أزواجهن أمهات، ولم يجعل الأدعياء أبناءً، فقال الحق في ذلك وهدانا السبيل في ذلك، فالزوجة زوجة، والابن الدعي ليس ابنًا.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذا السياق القرآني:** أن القرآن قد بلغ الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البرهان، وجه ذلك أنه قدَّم الدليل على المدلول بصورة لا يمتري فيها أحد، وهي قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾، فإن هذا أمر معلوم، ولا يتنازع فيه اثنان، أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، ليس فيه قلبان، لأن هذين القلبين إن اتفقا على أمر واحد صار القلب الثاني لا فائدة منه، وإن اختلفًا، تناقَضَا في عين واحدة، فماذا يصنع الإنسان؟ هل يتبع القلب الأيمن أم يتبع القلب الأيسر؟! يبقى محتارًا، لذلك ما جعل الله لرجلٍ من قلبين، لأنه في جسم واحد، وتأمل قوله: ﴿فِى جَوْفِهِۦ ﴾ يستفاد منها فائدة، غير أنها بيان للواقع، فيستفاد منها: أن الجوف الواحد لا يتناسب معه إلا قلب واحد، وإلا لكان القلبان في جوفين، لا في جوف واحد، فصار فيها فائدة، غير ما سبق، وهي أنها بيان للواقع، لأن الجوف الواحد لا يمكن أن يديره إلا قلب واحد.

إذن في الآية الكريمة: سياق الشيء بالبرهان، أو إثبات الشيء بالبرهان الذي يكون قاطعًا لا يمتري فيه أحد.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المرأة المظاهَر منها ليست أمًّا، لقوله : ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾، ويتفرع على هذه الآية أن جعلها أُمًّا في الظهار كذب، وزور، ومنكر، ولهذا قال الله في آية الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المجادلة:

٢]، فهو منكر لمخالفة الشرع وزور لمخالفته الواقع والحقيقة.

٣ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: الإشارة أو التنبيه على تحريم الظهار؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، فإذا كان الله ما جعل ذلك، فإنه لا يحل لنا أن نجعل شيئًا لم يجعله الله، لأن الأمر من الله وحده.

٤ ـ ويستفاد من الآية: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أن الأبناء الأدعياء ليسوا بأبناء حقيقة، فهم ليسوا أبناءً قدرًا وليسوا أبناءً شرعًا ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

٥ ـ ويستفاد منها: أنه إذا لم يكن الابن الدَّعي ابنًا لا شرعًا ولا حقيقةً، فإنه لا يحتاج إلى قيد يخرجه من معنى البنوة؛ لأنه غير داخل فيها أصلًا حتى نحتاج إلى قيد نخرجه به، ويتفرع على هذه الفائدة: بيان ضعف قول من يقول: إن الاحتراز في قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ عن ابن التبني؛ لأننا نقول: إنه ـ أصلًا ـ لم يدخل حتى يحتاج إلى قيد يخرجه.

٦ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول قولًا لا يعتقده؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

٧ ـ ويستفاد منها: أنه ليس من الرجولة، وليس من العقل أن يقول الإنسان قولًا بفِيهِ، وهو لا يعتقده بقلبه؛ لأن المراد من قوله تعالى: ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ التنديد بهم والتوبيخ لهم، كيف تقولون شيئًا بأفواهكم وأنتم تعترفون بقلوبكم بأنه ليس موافقًا للواقع؟!!

٨ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن قول الله ـ عز وجل ـ كله حق، ليس فيه باطل، لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾، والحق سبق أنه في كلام الله هو الصدق والعدل، لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتبار الخبر صدق، وباعتبار الحكم عدل.

٩ ـ ويستفاد من الآية الكريمة: أن كلام الله ـ عز وجل ـ ليس فيه تناقض، لقوله: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾، والتناقض لا يكون إلا في الباطل، فالحق لا يمكن أن يتناقض.

١٠ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما وصف الله به نفسه في كتابه، فهو على حقيقته، وليس فيه تحريف، أو تأويل؛ لأنه لو كان على خلاف ظاهِرِهِ، لكان ظاهره يدل على باطل، فإذا قلنا: إنه على خلاف الظاهر، لزم أن يكون دالًا على باطل، إذا كان المراد بآيات الصفات خلاف ظاهرها، صار ظاهرها باطلًا؛ لأنه خلاف المراد، وهذا ينافي قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقول إلا الحق.

١١ ـ ويستفاد من الآية: أنه مع ظهور أن الله يقول الحق، فإن الناس لا يتَّفِقُون عليه، لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ يعني: حتى مع أن الله لا يقول إلا الحق فليس كل أحد يهتدي لذلك، بل الهداية بيد الله ـ عز وجل ـ.

١٢ - **ويستفاد من الآية الكريمة**: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه - سبحانه وتعالى - في سؤال الهداية؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، وتأمل تغيير الصيغة؛ حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، ولم يقل: (ويهدي السبيل) لأجل أن تكون الجملة الثانية مستقلة بركنيها، بمبتدئها وخبرها؛ لأن قوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي﴾ هو مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِي﴾ خبره، فهذه الجملة مستقلة عن الأولى؛ لأن ذلك أبلغ في بيان أن الهداية بيد الله - سبحانه وتعالى -.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن طريق الحق واحد، لقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو مفرد، ولهذا السُّبل تأتي جمعًا فيما يخالف الحق، مثل قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالصراط أفرده في قوله: ﴿صِرَٰطِي﴾، أما الصراط الآخر المخالف لصراط الله جمع، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾.

وإذا جاء طريق الحق مجموعًا فالمراد تنوع شرائعه، وكذلك الوليُّ: أولياء الكفار في قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] ؛ لأن سبل غير الحق متنوعة، وكل نوع منها عليه طاغوت يدعو إليه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ قال المؤلف في التفسير: [لكن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾]، هنا أتى بالاستدراك، وفي ظني: أنه حاجة إلى الاستدراك، وأن الجملة استئنافية، فلما أبطل الله سبحانه وتعالى أن يكون هؤلاء الأدعياء أبناءً، أمر بأن ندعوهم لآبائهم، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما كانت الآية الثانية ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾، غير مقابلة لما نفاه الله في الأول، يعني: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، لكن جعلهم أبناء آبائهم، فرأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا هو وجه الاستدراك.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، لكن جعلهم أبناء لآبائهم فادعوهم لآبائهم، نقول:

هذا لا حاجة إليه، فالجملة استئنافية، ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾، أي: انسبوهم لآبائهم، تقول: يابن فلان، وكلمة ﴿ءَابَآءَهُمْ ﴾ جمع أبٍ، هل المراد هنا باعتبار المدعوين، يعني: لأن الناس كثيرون، أو أن المراد آباؤهم بالنسبة لكل شخص، بمعنى: أن الإنسان ينسب إلى أبيه وجده وهكذا، أو شامل للأمرين؟

الجواب: هو شامل للأمرين، فالإنسان يُدعى لأبيه يقال: فلان بن فلان بن فلان، والرسول ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بل إنه عليه الصلاة والسلام قال: أنا ابن عبد المطلب، ومحمد عندنا صاحب «الألفية»، قال محمد، واسمه: محمد بن عبد الله، أبوه عبد الله، فهو فيما يظهر أنه شامل، يعني: أنه جمع باعتبار أفراد الناس، وجمع باعتبار الآباء؛ لأن الآباء أبٌ أدنى، وأبٌ فوق.

وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿هُوَ﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ ﴾ أي: هو دعاؤهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨] ﴿هُوَ﴾ أي: العدل المفهوم من الفعل، فهنا ﴿هُوَ﴾ أي: دعائهم لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: أعدل.

وقرأها بعضهم باسم الفاعل، أي: ﴿هُوَ قَاسِطٌ عِنْدَ الله﴾، يعني: هو العدل عند الله عز وجل، وإنها لجأ إلى ذلك؛ لأن المعروف أن اسم التفضيل يشترك في أصل معناه: المفضل والمفضل عليه، فإذا قلت: فلانٌ أشجعُ من فلان، فكلاهما شجاع، لكن هذا أشجع، فهنا إذا جعلنا اسم التفضيل على بابه، وقلنا: دعاؤهم لآبائهم أقسط عند الله من دعائهم لمن تبناهم، صار في دعائهم لمن تبناهم عدلٌ، مع أنه لا عَدلَ فيه، ولذلك قال بعض المفسرين: إن (أفعل) التفضيل هنا إنه بمعنى اسم الفاعل، حتى لا يكون في الطرف الثاني منه شيء.

وقال بعض المفسرين: هو على بابه، واللغة العربية تأتي باسم التفضيل دائمًا فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤] مع أن أصحاب النار لا خير في مستقرهم.

وعلى هذا فنقول: إبقاء الآية على ظاهرها، يكون أولى، فإذا قلنا ذلك، فإنه يرد علينا سؤال، لماذا عبَّر بأفعل التفضيل في طرف ليس في الطرف الآخر منه شيء؟

قلنا: لبيان أن هذا غاية ما يكون من العدل يقول: فائدتها: أن دعاءهم لآبائهم أعدل شيء، وهو غاية ما يكون من العدل، فاسم التفضيل هنا باعتبار المعنى، أي: أن هذا أعدل شيء، وكلمة ﴿أَقْسَطُ﴾ اسم تفضيل من الثلاثي؛ لأن اسم التفضيل لا يصاغ إلا من الاسم الثلاثي، ثم إن الرباعي من هذه المادة ليس بمعنى العدل، بل بمعنى الجور، فالقاسط: هو الجائر، والمقسط: هو العادل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرات:٩].

إذنْ يَرِد علينا إشكال في مسألة الأقسط هنا، فنقول في الجواب عنه: إن في هذا دليلًا على صحة مذهب الكوفيين الذين يقولون بجواز صيغة اسم التفضيل من غير الثلاثي، يقولون: أقسط من باب الإقساط، يعني: أن ذلك أعدل.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: في حكمه؛ لأن حكم الله عز وجل يضاف إليه، وهذا نظير قوله تعالى في الذين يرمون المحصنات: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، تأمل قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾! انتقلنا الآن عن الآية، إذا قذف رجل امرأةً بالزنا، فهو باعتبار الواقع، قد يكون حقًّا وقد يكون كذبًا، أي: قد يكون حقًّا أنها زنت، وقد يكون كذبًا، لكنها في حكم الله كذب، ولهذا قال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ما قال: فأولئك هم الكاذبون؛ لأنه قد يكون حقيقة باعتبار الواقع، لكن في شرع الله هم كاذبون، ولهذا يجب عليهم حد القذف، إذا لم يأتوا بأربعة شهداء.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: إن لم تعلموا آباء هؤلاء الأدعياء، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يعني: وليسوا أبناءكم، يعني: حتى في الحال التي لا يعرف لهذا الرجل أبٌ، فإنه لا يجوز أن يُنسب إلى غير أبيه، ولكن يكون أخًا لنا في الدين، ومولىً لنا إذا كان قد دخل في مُلكنا ثم حررناه مثلًا، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة اختصام علي وجعفر وزيد بن حارثة، قال لزيد: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا» فهو أخ في الدين، وليس ابنًا لي، وهو أيضًا مولاي إذا كنتُ قد أعتقتُه، ولو لم أعرف أباه، فإنه لا يُنسب إليَّ؛ ولهذا تجدون العلماء - رحمهم الله - الذين يكتبون أسماء الرجال، عندما ينسبون أحدًا من الموالي إلى مَنْ أعتقه، يقول: القرشي مولاهم مثلًا، والتميمي مولاهم؛ لأنه لو قال: القرشي فقط، يظن الظان أنه قرشي حقيقةً، فإذا قال: مولاهم، يعني: أنه نسب إليهم، لكونه مولىً لهم، ومولى القوم منهم، حتى إن العلماء قالوا في الصدقة: إنها تحرم على موالي بني هاشم؛ لأن مولى القوم منهم، لكنهم لا ينسبون إليه نسبًا حقيقيًّا؛ بل لا بد من أن يقيد.

أما كونهم إخواننا في الدين، فظاهر، وأما كونهم موالي، فإن كان عتيقًا للمرء فهو مولىً له بالعِتق، وإن لم يكن عتيقًا له فهو مولىً له في الدين، لأن المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] فهم إخوانكم ومواليكم، فتدعوه بيا أخي، ولو قلت: يا بن أخي يصلح، ولهذا المؤلف يقول: [﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ بنو عمكم] فجعل الولاية هنا ولاية النسب، وليست ولاية الدين، لكن في النفس من هذا شيء؛ فالولاية إما ولاية نسب، وإما ولاية دين، وإما ولاية عتق، فأما ولاية العتق، فواضح أن العتيق مولىً لمن أعتقه، وأما ولاية الدين: فظاهر أيضًا أن كل مؤمن وليٌّ لأخيه المؤمن.

أما ولاية النسب، لقوله: [بنو عمكم]، فهذه إن كانت اللغة العربية يأتي فيها مثل هذا التعبير، فنحن نقبل ذلك، لأن القرآن عربي، ولا مانع من أن يكون للفظ الواحد عدة معان إذا كانت لا تناقض بينها.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ ﴿جُنَاحٌ﴾ اسم (ليس) مؤخرًا، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ قال: [في ذلك]، أي: في دعائهم لغير آبائهم، يعني: أن الإنسان لو أخطأ، فدعا شخصًا لغير أبيه، فإنه ليس عليه إثم؛ لأنه أخطأ، والخطأ مرفوع عن هذه الأمة (١).

وفي قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾، المؤلف يقول: [في ذلك] فكأنه خص الآية، والصواب أنها عامة، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإذا كان السبب هو دعوة الإنسان لغير أبيه، فإنه لا يقتضي تخصيص هذا العام بهذه المسألة؛ لأن القاعدة المقررة: أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة لها أدلة من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾ [المجادلة:١،٢]، فالسبب خاص، ولكن الحكم عام.

وكذلك في السنة: «رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا فِي السَّفَرِ قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، وحَوْلَهُ زِحَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: صَائِمٌ، فقال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» إلا أن هنا، أي: في الحديث الذي ذكرت، فيه أن قوله: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ».

إذا قلنا:أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإنه يشكل على هذا أن النبي ﷺ كان يصوم في السفر، كما في حديث أبي الدرداء: «مَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وعبدُ الله بِنْ رَوَاحة» فكيف نجيب عن هذا الحديث «لَيْسَ مِنْ البِرِّ»، هل النبي ﷺ لم يفعل برًّا؟

الجواب: كلا، نقول: كما أشار ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللهُ إلى هذه المسألة، إن العبرة بعموم اللفظ، لكن يراعى المعنى الذي من أجله، وردت هذه الصيغة، فالمعنى هو المشقة، هنا نقول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أي أنه لا يختص هذا الحكم بهذا الرجل بعينه، لكنه عام في جميع الناس، إلا أنه يجب أن نراعي المعنى الذي من أجله وردت هذه الصيغة العامة، وهي المشقة، فنقول: «لَيْسَ مِنْ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَر» إذا أدى إلى مثل هذه الحالة، وهذا واضح جدًّا، فهل هذا خرج عن القاعدة: العبرة بعموم اللفظ؟

نقول: لا، لأنه لو خُص الحكم بالرجل المعين، لكان خارجًا عن القاعدة، لكنه ما خُص به؛ لأنه عام لكل من صام ولحقه من المشقة ما لحق هذا الرجل.

---

(١) وذلك لقول النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

إذنْ فالحديث لم يخرج عن القاعدة، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لا يختص فيمن دعا رجلًا بغير أبيه مخطئًا بل هو عام، وهذه القاعدة العظيمة في الشريعة الإسلامية، سيأتي إن شاء الله تعالى بيان ما يترتب عليها من الفوائد.

ثم إن قوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، ظاهره العموم في المأمورات وفي المنهيات، ولكن من تدبر النصوص وجد أن هذا خاص في المنهيات فقط، أن الإنسان ليس عليه جناح فيما أخطأ به؛ أما في المأمورات فليس عليه جناح فيما أخطأ به، ولكن هذه المأمورات إذا كان خطؤه مخلًا بصحتها، فلابد من إعادتها على وجهٍ صحيح، فهنا بالنسبة للمنهيات، ليس عليه جناح، ولا تبعة، ولا أثر، لكن بالنسبة للمأمورات ليس عليه جناح فيما أخطأ به، إلا أنه إذا كان هذا الخطأ مخلًّا بصحة المأمور، فإنه يجب إعادة المأمور على وجه صحيح، انظر مثلًا إلى الرجل الأعرابي الذي صلى بغير طمأنينة، مخطيء أم عامد؟ مخطيء؛ لأنه جاهل، يقول: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا فَعَلِّمْنِي، هل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ تركه، أو أمره أن يعيد الصلاة؟ أمره أن يعيد الصلاة، فلهذا نقول: إنه ليس عليه إثم في صلاته الأولى التي أخل فيها بواجب الطمأنينة؛ لأنه جاهل، لكن يجب عليه أن يعيد العبادة على وجهٍ صحيح.

وكذلك لو أن أحدًا ترك واجبًا من واجبات الحج جاهلًا، فإنه لا إثم عليه، لكن عليه إعادة ذلك الواجب، إن كان يمكن تداركه، فإن لم يمكن تداركه، فعليه بدله ـ عند جماهير أهل العلم ـ وهو فدية يذبحها في مكة، ويوزعها على الفقراء.

وقوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، (ما) هذه من صيغ العموم تشمل كل ما حصل فيه الخطأ، [﴿وَلَٰكِن﴾ في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه وهو بعد النهي]، أما قبل النهي، فإنه لا يؤاخذ به الإنسان؛ لأن الحكم لم يتقرر بعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]، وقال أيضًا: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه قبل تقرير الحكم وثبوته شرعًا، فالأصل البراءة، وهو ما يعبر عنه الأصوليون: بالبراءة الأصلية.

وقوله: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ؛ لأن المدار على القلب إذ إنه هو الذي يدبر الجوارح؛ لقول النبي ﷺ «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، وهل القلب هو عبارة عن هذه البَضْعَة من اللحم أم أن المراد بالقلب: العقل المفكر، ومحله هذه القطعة من اللحم ؟

الصحيح: أنه الثاني، ولكن أين محل العقل؟ الصحيح أنه القلب؛ لأن الله قال في القرآن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]، فجعل العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: إن العقل في القلب، وله اتصال بالدماغ. ولكني رأيت كلامًا لشيخ الإسلام ابن

تيمية أقرب إلى الواقع، وإلى الطب الحديث، يقول: إن أصل التفكير في الدماغ، ثم القلب يدبر يأمر وينهى، فيكون المخ كالسكرتير للقلب، يفكر وينظر، ثم يرسل إلى القلب، والقلب هو الذي يدبر بلا شك؛ لأن الكتاب والسنة يدلّان على أن القلب هو الذي يدبر، كما في الآية، وكما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّه، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، ولكن الاتصال بين المخ والقلب سريع ما يتصور سرعته، وهذا من تمام عظمة الخالق، ـ عز وجل ـ حيث إن هذه المعدات العظيمة في هذا البدن معامل، وآلات إلكترونية، وأشياء ـ سبحان الله العظيم ـ إذا بحث الإنسان يجد ما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠،٢١] فسبحان الخالق العليم.

قال المؤلف: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما كان من قولكم قبل النهي، ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم في ذلك].

قوله: [لما كان من قولكم قبل النهي]، في هذا نظر ظاهر جدًّا، ووجهه: أنه قبل النهي لم يثبت الحكم حتى يكون الإنسان مخالفًا، فيوصف عدم مؤاخذته بالمغفرة؛ لأن المغفرة فرع عن وجود الذنب، وهنا لا ذنب قبل أن يتقرر الحكم، والصواب أنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيما وقع من قولكم بعد النهي على سبيل الخطأ، فإن هذا من مغفرته ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمته، حيث إنه يرفع الخطأ عمن فعله بعد النهي وتقرُّر الحكم.

ثم يقال أيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعود إلى الفعل الخطأ، والفعل العمد، أما الفعل الخطأ فإن رفع المؤاخذة به من آثار الرحمة، ولو شاء الله تعالى لكان يؤاخذ عبادَه بالجهل كما يؤاخذهم بالعمد، لكنَّ رحمته سبقت غضبَه سبحانه وتعالى.

وأما ﴿غَفُورًا﴾، فإنه يعود إلى ما فُعل عمدًا فإن من مقتضى كون الله غفورًا أن يسعى الإنسان في أسباب مغفرته وذلك بالتوبة مما حصل منه، فإذا تاب، فإن الله يتوب عليه ويغفر له.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب دعوة الإنسان إلى أبيه ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ يعني: انسبوهم لآبائهم لفظًا وحقيقةً؛ أما لفظًا فتقول: يا فلان بن فلان، فتنسبه إلى أبيه، وأمَّا حقيقةً: وذلك أن تعتقد أن البنوة الحق، إنما هي للأب الحقيقي الذي وُلد الإنسان من صلبه، لا للأب الذي ادُّعِيَ أنه أب.

٢ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه لا ينبغي أن يُدعى الإنسان لغير أبيه، وهذا نوعان:

أحدهما: أن يُدْعى لغير أبيه لفظًا وحقيقةً، فهذا لا يجوز، بل إن النبي ﷺ جعل ذلك من الكفر، إذا ادَّعى الإنسانُ لغير أبيه وهو يعلمه، فإن ذلك كفر قال: «فَإِنَّه كُفْرٌ بِكُم أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُم».

الثاني: أن يَدَّعي إلى غير أبيه لفظًا، ولكن لا تثبت له أحكام البنوة إطلاقًا إلى من ادعى إليه، مثل هذا نقول: إنه خلاف ما أمر الله به، ولكن أهل العلم يقولون: إن الإنسان إذا اشتهر به مع عدم الالتفات إلى أحكامه ومقتضياته، فإنه جائز، وذكروا لذلك مثلًا وهو المقداد بن الأسود، فإن المقداد بن الأسود ليس أبوه هو الأسود، ولكن الأسود كان قد تبناه، واشتهر بهذه الكُنية حتى أبطل الله التَّبَنِّي، ولكن بقي مشهورًا بذلك، قالوا: فهذا لا يضر؛ لأنه انتفت عنه أحكام التَّبَنِّي، ولم يبق إلا اللفظ.

ومع هذا فإن الأفضل بلا شك، هو أن يُدْعَى إلى أبيه، لكن المشكل أن الشيء إذا اشتَهَرَ، فوصفته بغير ما اشتُهر به، حصل بذلك التباس، الآن لو قلنا: عن عبد الرحمن بن صخر أن النبي ﷺ قال: كذا وكذا، يمكن أن كثيرًا من الناس، لا يدري من هو، لكن إذا قلت: عن أبي هريرة، فكلنا يعرفه.

٣ - **وفي الآية الكريمة دليل على**: أن الأعمال تتفاضل عند الله؛ لقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: أبلغ في العدل، ووجه ذلك: أن هذا الرجل الدَّعِي، كوننا ننسبه إلى غير أبيه فهو باعتبار أبيه ظلم، كيف تنسبه إلى شخص ما أتى من صلبه، وتحرم من أتى من صلبه من دعوته إليه؟! هذا لا شك أنه جور، ولهذا قلنا: إن اسم التفضيل - هنا - ليس في الطرف الآخر منه شيء، لأنه ليس فيه أي عدل في أن تنسب الإنسان إلى غير أبيه، وقلنا: إن فائدة التفضيل هنا: بيان أن هذا الشيء قد بلغ الغاية في العدل، لأن هذا جيء به باسم التفضيل، قال: ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾.

٤ - **ويستفاد من الآية الكريمة**: نفي الإثم في الخطأ؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾.

٥ - **ويستفاد منها أيضًا**: نفي الحِنث في الخطأ أيضًا، والحِنث يعني: الحنث في اليمين، فإذا حلف الإنسان ألا يفعل شيئًا، ففعله جاهلًا به مثل: حلف ألا يكلم إنسانًا فكلم شخصًا لا يدري أنه فلان الذي حلف على ترك تكليمه، فإنه ليس عليه حنث، وكذلك أيضًا في الطلاق، فلو علق الطلاق على شيء ففعله جاهلًا أنه الشيء الذي علق الطلاق عليه، فإنه لا حنث عليه، وكذلك لو فَعَلَ مُكَفِّرًا، جاهلًا أنه مكفر، فإنه لا إثم عليه، ويؤخذ هذا كله من العموم في قوله: ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم﴾، من العموم.

ثم إن نفي الإثم لا يستلزم نفي القضاء فيما يجب قضاؤه، وعلى هذا فتكون الآية في باب المحظورات، لا في باب المأمورات، ولهذا لم يعذر النبيُّ ﷺ الجاهِلَ الذي كان يصلي، ولا يطمئن في صلاته حيث جعله يعيد مرةً بعد أخرى حتى يعلمه وبيّن له[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٧)، و مسلم (٣٩٧).

إذن نقول: باب المأمورات لا يؤاخذ الإنسان بتركه إياها جهلاً، لكن لا يلزم من عدم مؤاخذته بتركها جهلًا أن يسقط عنه فعلُها أو فعل بدلها؛ والدليل أن النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يعذر الجاهل في ترك الطمأنينة، ولكنه سبق لنا أن قلنا: إنه قد يكون الإنسان مفرطًا في ترك السؤال فيلزمه الإثم بتفريطه.

مسألة: هل هذه الآية عامة في حق الله وفي حق الآدمي؟

الجواب: نقول: حتى في حق الآدمي؛ لأن الآية عامة قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لكن لا يلزم من انتفاء الإثم انتفاء الضمان في حق الآدمي، يعني: يُلْزَمُ بضمانه، فلو أن رجلًا أكل طعامَ رجل جاهلًا أنه طعامه فهل عليه إثم؟ لا، لكن يلزمه ضمان الطعام؛ لأنه حق آدمي، لكن الإثم منتفٍ عنه، أما لو علم أنه طعام فلان، فإنه يأثم مع الضمان.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** سعة رحمة الله - عز وجل -، حيث أسقط الإثم عمن كان مخطئًا وذلك في قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾.

٧- **ويستفاد منها:** إثبات اسمين كريمين من أسماء الله يؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وما تضمناه من الصفة، وما تضمناه من الحكم أيضًا وهو الأثر؛ لأن الغفور والرحيم متعديان متعلقان بالغير، وقد مرت علينا قاعدة في أسماء الله وصفاته (أنه إذا كان الاسم متعديًا فإنه يلزم الإيمان به اسمًا لله، وبما تضمنه من صفة، وبما يترتب عليه من الحكم وبعضهم يقول الأثر).

٨- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن مدار الأحكام والمؤاخذ عليها هو القلب، لقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وهذا له شواهد كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، في الآية الأخرى قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ومنها قوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] وبناءً على ذلك، لو أن المُحْرِم قتل صيدًا غير متعمد، فإنه لا يأثم ولا يضمن؛ لأنه حق لله، والله - تعالى - قد عفى عن حقه، وبه يُعرف ضعفُ قول من قال: إن جزاء الصيد واجب حتى على من قتله خطأً في حال الإحرام، مع أن الآية صريحة قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾.

مسألة: وهل يلحق بذلك لو قص أظفارَه جاهلًا، أو حلق رأسه وهو محرم؟

الجواب: نعم، من باب أولى.

ويلحق به ما لو جامع زوجته، مثلًا لو أن رجلًا في مزدلفة جامع زوجته، وهو في مزدلفة، جاهلًا استنادًا إلى قول النبي ﷺ «الحَجُّ عَرَفَةُ» فليس عليه شيء، لا إثم، ولا فساد نسك، ولا قضاء؛ لأنه جاهل وما تعمد.

الخلاصة: أن كل شيء لا يتعمده الإنسان بقلبه فإنه لا إثم عليه، وإذا كان من حق الله سقط عنه الإثم والضمان ـ إن كان مما يضمن أو مما تجب فيه الكفارة ـ، وإذا كان في حق آدمي، سقط عنه الإثم ووجب الضمان، إلا أنه يُستثنى من هذا مسألة واحدة؛ وهي (قتل النفس) فإن قتل النفس وإن كان خطأً، تجب فيه الكفارة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] فأوجب الله حقه وحق العباد، وذلك لعظم قتل النفس؛ لأن قتل النفس ـ والعياذ بالله ـ عمدًا، ما تَحُلُّه الكفارة ولا ينفع فيه إلا التوبة النصوح مع استيفاء الحقوق.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مبتدأ و﴿أَوْلَىٰ﴾ خبر، وهي اسم تفضيل من الولاية، ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [فيما دعاهم إليه، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه] انظر كيف حوَّل المؤلف المعنى، يعني: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا دعاك إلى شيء، ودعتك نفسك إلى خلاف هذا الشيء فإن النبي أولى بك من نفسك، يعني: فأَطِع النبي، وخالف نفسك، وهذا لا شك أنه داخل في الآية، لكن الآية أعم وأشمل، وأدق، يعني إذا كان الإنسان يسأل نفسه بما فيه الخير، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى به من نفسه.

ويشمل عدة وجوه:

الوجه الأول: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنسبة للمؤمنين أبلغ من أنفسهم في مراعاة مصالحهم وما ينفعهم، وفي دفع الضرر عنهم؛ ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»[1] هذه من جملة قوله الداخلة في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثانيًا: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في تقديمه على أنفسهم، ولهذا لا يتم الإيمان حتى يكون

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٧١)، و مسلم (١٦١٩).

النبيُّ ﷺ أحب إليك من نفسك، كما قال عمر: «وَالله يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: وَمِنْ نَفْسِي، قَالَ الْآنَ يَا عُمَرُ»(١)، فيجب على كل مؤمن أن يحب النبي ﷺ أكثر من محبته لنفسه.

ثالثًا: ما أشار إليه المؤلف من أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى بك من نفسك فيما يدعوك إليه، وتدعوك نفسك إليه، فإذا دعتك نفسك إلى شيء يخالف ما دعاك إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن النبي ﷺ أولى بك من نفسك.

إذن ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كلمة عامة تشمل كل ما فيه ولاية وتولي، فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أما غير المؤمنين فإن هذا الوصف لا ينطبق عليهم، بالنسبة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، انظر إلى الفرق في التعبير فما قال: (النبي أب للمؤمنين، وأزواجه أمهاتهم) لكن قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فهي أشد من الأب، فأبوك ليس أولى بك من نفسك، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى بك من نفسك، فهذا أعظم من قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، ومن أجل هذه الولاية، التي هو أولى بك من نفسك، كانت أزواجه أمهات لنا، أمهات لنا من قِبَلِهِنَّ أم من قبلنا؟ أي: هل هن ينظرن إلينا كالنظر إلى الأبناء، أو نحن ننظر إليهن كنظر الأمهات أو الأمرين؟

الجواب: نقول الأمرين؛ فنحن نعلم أن أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ بالنسبة لأمَّة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمَّة الإجابة، ينظرن إلى هذه الأمَّة كما تنظر الأم إلى أولادها، ونحن يجب علينا أن ننظر إليهن كما ننظر إلى الأمهات؛ لأنهن زوجات من هو أولى بنا من أنفسنا؛ أي: النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا جرم أن يكنَّ بمنزلة الأمهات في الاحترام والتقدير والدفاع عنهن، وعدم التعرض لما وقع مما وقع، إن وقع شيء في مخالفتهن، بغَيْرَة أو غيرها؛ لأن النساء معلوم أنه يكون بينهن غَيْرة، فقد تخطئ المرأة خطأً تحملها عليه الغيرةُ، والغيرة أمر يملك الإنسان ولا يملكه الإنسان، كما أن الغضب يملك الإنسان ولا يملكه، فما وقع في مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] مثل هذا يجب علينا أن ندافع بقدر ما نستطيع، مَنِ اتخذوا مِنْ مثل هذه القضية اتخذوا منفذًا للطعن في زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا ريب أن من طعن في زوجات النبي ﷺ، لا يقتصر طعنه عليهم، بل يشمل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فلو أن رجلًا اتخذ من فواسق النساء زوجات له، هل هذا مدح له أو قدح؟ إنه قدحٌ بلا شك،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧٥٨٦).

فمن قدح في واحدة من أمهات المؤمنين، فإن قدحه يتعدى إلى النبي ﷺ بلا شك ولا سيما إذا كان القدح فيما يتعلق بالشرف والنزاهة؛ ولهذا الصحيح من أقوال أهل العلم: أن من رمى بالزنا واحدة من أمهات المؤمنين فإنه يكون كافرًا كفرًا مخرجًا عن الملة، أما عائشة إذا رماها بما برَّأها الله به، فلا شك في كفره؛ لأنه مكذب للقرآن، وأما غيرها؛ فإنه إذا قذف واحدةً بالزنا، فإنه مكذب للقرآن أيضًا من جهة أخرى، يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، ولا شك أن الزنا ـ والعياذ بالله ـ خبث، فأنت إذا وصفت واحدةً من أمهات المؤمنين بالزنا، وإن لم تكن عائشة ﵂، فقد وصفت النبي ﷺ بالخبث ـ نسأل الله العافية ـ وحينئذٍ يكون الإنسان كافرًا بلا شك، فالصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم: أن من قذف واحدةً من أمهات المؤمنين فإنه يكون كافرًا كفرًا مخرجًا عن الملة.

وكذلك من قذف غيرهن من زوجات الأنبياء، يكون كافرًا بالآية التي ذكرت ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ إلى آخره، والخبيثات: هن سيئات العمل، والخبث هو الزنا.

إذنْ ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ من الناحيتين، يعني أننا لزوجات الرسول ﷺ بمنزلة الأبناء، وأنهن لنا بمنزلة الأمهات، لكن هل هو في المحرمية والنظر والخلوة، أو في الاحترام فقط؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : [في حرمة نكاحهن عليهم] ما يكفي هذا، في حرمة نكاحهن عليهم لا شك أنه لا يحل لأحد أن يتزوج امرأةً بعد وفاة النبي ﷺ من زوجاته، ولكن هذا الاحترام ليس لهن فحسب، بل حتى للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ احترامًا له، ولذلك إذا توفي الرجل عن المرأة ولو كانت لا تحيض تعتد بأربعة أشهر وعشرًا، احترامًا للنكاح الأول، إلا إذا كانت حاملًا فبوضع الحمل.

إذنْ أقول: إنهن أمهات المؤمنين في حرمة النكاح وفي وجوب احترامهن.

فائدة: ذكر بعض أهل العلم أن مَن قَذَفَ غيره بسبب الغَيْرة، فإنه لا يُحد؛ لأن الغَيرة تملك الإنسانَ ولا يملكها.

وقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ في قراءة لبعض السلف قوله: ﴿وَأَزْوَاجُه أُمَّهاتُهم وَهوَ أَبٌ لَهُم﴾ لكنها قراءة لا تعتبر من القراءات السبعية، إلا أن بعضهم قرأ بها، ولكنك إذا تأملت قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، وجدت أنه أعظم من الأب.

وسيأتينا ـ إن شاء الله ـ في الفوائد، هل أولادهن إخوة للمؤمنين، وهل إخوانهن أخوال للمؤمنين، وهل آباؤهن آباء للمؤمنين، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [ذووا القرابات، ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾ في الإرث، ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، أي: من الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام فنسخ].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ (أولى) ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾، وعلى هذا (فمن) هنا هي الدالة على المفضَّل عليه، إذا قلت: فلان أفضل من فلان فإن مِن فلان من هذه لتعيين المفضل عليه، وهنا ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾، وقيل: إن ﴿مِنَ﴾ بيانية، يعني: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، يعني: أولو الأرحام سواءً كانوا مؤمنين فقط، أو مؤمنين مهاجرين، فإن بعضهم أولى ببعض.

ولكن أيها أعم المعنيين إذا قلنا: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في الإرث من المؤمنين والمهاجرين، أو قلنا: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين، صار المعنى الأخير أعم وأشمل؟ الأخير صار أعم وأشمل.

وعلى كل حال الآية فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: أن هذه ناسخة للإرث الثابت في أول الإسلام بين المؤمنين من الأنصار والمهاجرين من المسلمين، فكان بالأول جعل النبي ﷺ بينهم أخوة يتوارثون بها حتى أنزل الله آية الإرث، وجعل ذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

الرأي الثاني: أولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، وعلى هذا فتكون الآية محكمة ليس فيها نسخ، وتكون أعم من الإرث أي: أولى ببعض في كل شيء، حتى في ولاية النكاح، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أولو بمعنى: أصحاب، والأرحام: جمع رحم؛ وهو القرابة، ولهذا قال المؤلف: [من ذوي القرابات] وأما ما اشتهر عندنا في عُرْفِنا أن الأرحام أقارب الزوجة، فهذا غير صحيح؛ فأقارب الزوجة يُسَمَّوْنَ أصهارًا، ومن أجل هذا الخطأ في المعنى صار بعض الناس يقول: أنتم تقولون: إن أسباب الإرث ثلاثة: رحم ونكاح وولد، أين الثالث؟ فالرحم والنكاح واحد عند هؤلاء، فيقولون أين الثالث؟ نقول: إن فهمكم للرَّحِم فهم خاطئ، وهذا هو ما يرمي إليه الشرع في تسمية الأشياء بأسمائها الشرعية حتى لا يحصل الخطأ، فالآن عند العامة، كلمة العَمّ تطلق على زوج الأم.

فكل هذه الأشياء ينبغي لنا أن نصحح كلام الناس فيها؛ حتى لا يقع الخطأ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾، قوله: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: مكتوبه، فهو فعال بمعنى: مفعول.

وهل المراد في كتاب الله أي: في الوحي أو في كتاب الله أي: في فرض الله؛ لأن الكَتْبَ يطلق بمعنى الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]؟ نقول: يحتمل هذا وهذا، ولكن الأقرب أنه في كتاب الله، أي: في مكتوبه، يعني: فيما كتبه الله ـ عز وجل ـ لكن كيف فيما كتبه؟ نقول: إن كان المراد من كتاب الله في اللوح المحفوظ، فالأمر ظاهر؛ لأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، وإن كان المراد من كتاب الله هذا القرآن، فإنه مكتوب بأيدي الملائكة، ومكتوب بأيدي المؤمنين من بني آدم.

وتقدير المؤلف ﴿إِلَّآ﴾ بـ(لكن)؛ لأن الاستثناء هنا منقطع، وإذا كان الاستثناء منقطعًا، فإنه يقدر (إلا) بـ(لكن)، والانقطاع كما يكون في الذوات يكون في المعاني أيضًا، فقول النحويين: «جاء القوم إلا حمارًا»، هذا استثناء منقطع باعتبار الذوات. القوم يعني: ذواتهم إلا حمارًا، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾، استثناء منقطع بالمعاني.

وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣] هذا متصل؛ لأن الذين آمنوا من الإنسان، لكن ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾، هذا ما يدخل في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ لأن أولياءنا هؤلاء ليسوا من ذوي الأرحام، بل بيننا وبينهم موالاة، ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ ماذا بعدها؟ بوصية، فجائز، إلى أوليائكم جمع ولي والمراد بالولي هنا: من كان بينك وبينه موالاة ومناصرة، كالذي حصل بين المهاجرين والأنصار في أول الهجرة، فإذا كان بينك وبينه معروف تفعل فيه معروفًا، فإن هذا جائز.

قال المؤلف: [بوصية]، وقد خصَّ المعروف بالوصية؛ لأن الكلام الآن في التوارث؛ والتوارث ما يكون إلا بعد الموت، كذلك الوصية لا تكون إلا بعد الموت.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: [نسخ الإرث بالإيمان، والهجرة بإرث ذوي الأرحام] ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، [وأريد بالكتاب في الموضعين، اللوح المحفوظ]، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه: كون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين.

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، على كلام المؤلف، وهو ظاهر في الأخيرة؛ لأن ﴿كَانَ﴾ يدل على الماضي، وهذا يدل على أن الذي في الكتاب المحفوظ، أن الإرث يكون لذوي الأرحام لكنه كان بالموالاة، في زمن غير طويل، فأول ما قدم المهاجرون إلى المدينة، صاروا يتعاقدون أخوة بينهم، يثبت بها الإرث لكن هذا ليس هو الذي كتبه الله مستقرًّا على عباده؛ وإنما حصل ذلك لعارض، وهو ثبوت الأخوة التامة بين المهاجرين والأنصار، وإلا فإن الفرض المستقر، هو ما في الكتاب المحفوظ، من أن الإرث إنما يكون بالرحم.

وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿مَسْطُورًا﴾ خبر كان واسمها ذا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب تقديم محبة النبي ﷺ على النفس؛ لقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فهو أولى بك من نفسك.

٢- **ومنها:** عظم شفقة النبي ﷺ على أمته لكونه أولى بهم من أنفسهم.

٣ - **ومنها:** وجوب طاعة النبي ﷺ وتقديمها على طاعة النفس؛ لقوله: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يدخل في هذه المسألة، أنه إذا أمرك بالشيء، ودعتك نفسك إلى ضده، فقدم ما أمر به النبي ﷺ، فصار النبي أولى بهم من أنفسهم، بالنسبة لك، وبالنسبة له، أولًا بالنسبة لك، لابد أن تقدم محبته، وطاعته على محبة نفسك وطاعتها، وبالنسبه له؛ هو أرفق بك وأشفق عليك من نفسك.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾، قلنا: أمهات المؤمنين، ما قلنا إنهن أمهات الأمة كلها؛ لأنه قال ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقد استدل بعض العلماء على أن من أبغض عائشة، فليس بمؤمن؛ لأن الله قال: ﴿أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي: المؤمنين، ولا يمكن أن يبغض الإنسان أمه فإذا أبغضها فليس بمؤمن؛ لأنه لو كان مؤمنًا لكانت أمًّا له، ولو كانت أمًّا له ما أبغضها ولا سبَّها، وهذا استنباط جيد.

مسألة: اختلف العلماء هل يسمى أقاربُ زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما يقتضيه النسب، فيسمى إخوة زوجات الرسول أخوالًا للمؤمنين، أم لا، وهل يسمى أيضًا آباؤهن آباءً للمؤمنين، وأبناؤهن إخوة للمؤمنين؟

والصحيح: أنه لا يسمى هؤلاء بما يسمى نظيرهم في النسب؛ لأن هذه الأمومة خاصة بعلاقتهن بالنبي ﷺ، وأقاربهن ليس لهم علاقة برسول الله ﷺ، فلا يسمى أحد من إخوانهن بأخوال المؤمنين، ولا أحد من آبائهن بأبٍ للمؤمنين، ولا أحد من أبنائهن بأخ للمؤمنين.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ منزلته بالنسبة للمؤمنين أعلى من منزلة الأبوة؛ لأنه قال: ﴿أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، وعلى هذا فلا حاجة للقراءة التي قرأ بها بعض السلف، وهو قوله: ﴿وَهُوَ أَبٌ لَّهُمۡ﴾ بل هو أعلى من الأبوة مستفادة من قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لكونهن أمهات المؤمنين، وسيأتي في هذه السورة ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهذا من حماية الله لفراش النبي ﷺ، حتى بعد موته فلا أحد يتزوج واحدة من نسائه.

٧ - **ويستفاد من الآية الكريمة**: نسخ التوارث بالموالاة؛ لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ على أحد التفسيرين على أن (مِن) داخلة على المفضل عليه، أما إذا جعلنا (من) بيانية؛ لقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾، فإنها لا تدل على ذلك، وقد تدل عليه من باب اللزوم، لا من باب دلالة المطابقة اللفظية.

مسألة:إذا لم يوجد أحد من ذوي الأرحام، هل يعود الإرث بالموالاة والمناصرة؟ الجواب: أكثر أهل العلم على أنه لا يعود، وأن أسباب الإرث تنحصر في ثلاثة فقط وهي : النكاح والنسب والولد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يجوِّز إذا لم توجد الأسباب الثلاثة المجمَع عليها التوارث بالموالاة، والمناصرة، يقول: لأنه لما عُدِم الأرحام، زال السبب المانع من التوارث بالموالاة والمناصرة، لكن أكثر أهل العلم على خلاف هذا.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن صلة الرحم كما تكون في الحياة، تكون بعد الموت؛ لأن هذه الأولوية تكون في الحياة وفي الموت.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من كان أقرب من ذوي الأرحام فهو أحق بالإرث،؛ ووجْهُه: أنه إذا عُلِّق الحكم على وصف، فكل ما كان الوصف في شيء أقوى، كان الحكم فيه أولى، فما دام أولو الأرحام أولى؛ لأنهم ذوو أرحام، فمن كانت رَحِمه أقوى فهو أولى؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ، فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(١).

فمثلاً : لو قلت لك: إذا رأيتَ فاسقًا فاجلده، فهل هذا الأمر بالجلد يختلف باختلاف الفاسقين، أو أفسقهم، وأقلهم على حدٍّ سواء؟ يختلف؛ لأن القاعدة التي ذكرناها أنه إذا علق الحكم بوصف فإنه متى كان هذا الوصف في محل أقوى كان ذلك المحل في الحكم أولى.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة الهجرة، وتؤخذ من قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ لأن المهاجر مؤمن، تخصيصه بالعطف يدل على شرفه وفضله، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] فلروح جبريل، وتخصيصه بالعطف، وهو من الملائكة دليل على شرفه وتكريمه.

١١- **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا**: ثبوت الإرث لذوي الأرحام، وذوو الأرحام في اصطلاح الفرضيين: كل قريب ليس بذي فرض ولا عصبة.

١٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: جواز الوصية لمن بينك وبينهم موالاة؛ لقوله: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا﴾ وظاهر الآية الإطلاق لكنه مقيد بالنصوص الدالة على أن الوصية لا تزيد على الثلث، ومنه حديث سعد بن أبي وقاص، حين عاده النبي ﷺ من وجع كان به، فلما رآه النبي -

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، و مسلم (١٦١٥).

عليه الصلاة والسلام ـ استغل الفرصة ـ أعني سعدًا ـ وَقَالَ: «يَا رَسُوْلَ الله، إِنِّي ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي» ومُرَادُه: لَا يَرِثُنِي من صُلْبِي، وَإِلَّا فإنَّ له بني عم وعصبة، «أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَال: لا، قَالَ فَالشطر؟ قال: لا، قَالَ فَالثُّلُث؟ قال: الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ».

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإحسان من المعروف؛ لقوله: ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ يعني: إحسانًا بالوصية، وعلى هذا إذا أمرتَ بالمعروف فإنه يشمل الأمر بالإحسان، ولا شك أن الإحسان معروف عند الله، وعند الخلق.

١٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بلاغة القرآن في الاحتراز في موضع الإيهام، تؤخذ من قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾، فقد يتوهم الإنسان أن من بينه وبينهم موالاة، لا يمكن أن ينتفعوا بشيء من ماله، فاحترز بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾، ولهذا أمثلة مرت علينا كثيرًا، مثل ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

١٥ ـ **ويستفاد من هذه الآية**: أن اللوح المحفوظ قد كتبت فيه الأشياء مستقرة؛ لقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ وهو أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض.

وقد اختلف أهل العلم في الصحف التي في أيدي الملائكة، هل تغير وتبدل بالزيادة والنقص والتغيير؟

والصواب: أن ذلك ممكن؛ ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩] أصل الكتاب عند الله ما فيه تغيير ولا تبديل، لكن الصحف التي بأيدي الملائكة يمكن أن يقع فيها التغيير والتبديل، مثال ذلك: رجل فعل سيئة، تكتب، فإذا استغفر مُحيت، أو إنسان فعل حسنة ـ كصدقة مثلًا ـ ثم مَنَّ بها، فهي تمحى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] وهذا ما قرره شيخ الإسلام وغيره من المحققين، من أن ما في أُمِّ الكتاب ثابت لا يتغير؛ لأنه قد كُتب فيه استقرار الأشياء في الأزل إلى الأبد، وأما الذي في أيدي الملائكة، فهو الذي يمكن أن يقع فيه المحو والإثبات.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تمام عناية الله عز وجل بشرعه وتقديره، ويؤخذ ذلك من قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾، يعني: ليس الأمر ارتجاليًّا، بل كله مكتوب محكم عند الله عز وجل، لا الأمور الشرعية، ولا الأمور القدرية، وهذا من تمام حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ، أن كل شيء، فإنه مُحصىً عنده مرتب منظم لا تغيير فيه ولا تبديل.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف: [واذكر إذ]، وعلى هذا فتكون إذ: مفعولًا لفعل محذوف تقديره: اذكر، وهذا كثير في القرآن، تأتي (إذ) مفعولًا لفعل محذوف، مقدر بـ(اذكر)، اذكر للناس إذ أخذنا، أو اذكر لنفسك مُذَكِّرًا إياها.

وقوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، قال المؤلف: [ميثاقهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر، جمع ذرة، وهي أصغر النمل]؛ لأن الله - تعالى - استخرج من آدم ذريته أمثال الذَّر، وأخذ عليهم العهد والميثاق: أن يؤمنوا به، جاءت في ذلك أحاديث، بعضها صحيح وبعضها حسن، لكن كونه استخرجهم، وقال: «هَؤلَاءِ إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤلَاءِ إِلَى الجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي»، هذا صحيح، إنما أخذ الميثاق والإشهاد عليهم، هذا هو الذي اختلف العلماء في صحته، وعلى كل حال، فهذا موضع بحثه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وقد بسط البحث فيه شارح الطحاوية، فمن أراد أن يرجع إليه فليرجع، أما في هذه الآية، فلا يتعين أن يكون الميثاق ما أخذه الله - تعالى - على بني آدم حين استخرجهم من صلبه، بل إن الميثاق عهد بين الإنسان وبين ربه في كل نعمة أنعم الله بها عليه أن يؤدي هذه النعمة على ما أمره به ربه؛ لأن هذا من شكرها، فإذا أنعم الله عليك بالعلم صار الواجب عليك، عهد بينك وبين الله أن تبينه قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وإذا أنعم الله على إنسان بنبوة، والنبوة بعد محمد ﷺ متعذرة، لكن إذا أنعم الله على عبده بنبوة، وجب عليه أن يبلغ.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وفي أهل العلم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل ميثاقًا غليظًا؛ لأن الميثاق على الأنبياء أعظم، وأغلظ، أمَّا قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾، ﴿وَمِنكَ﴾ عطفًا على ﴿النَّبِيِّينَ﴾ بإعادة الجار ومنك، وإنما أعيد الجار، إما لأن الضمير متصل ولابد فيه من أن يظهر الجار، ويظهر العامل؛ لأن الضمير المتصل لابد له أن يكون عامله ظاهرًا، ولا يأتي منفصلًا عن

العامل إلا شذوذًا بعد إلَّا، ويقال من حيث المعنى: أعيد حرف الجر للتأكيد بالنسبة لهؤلاء الخمسة. وتخصيصهم بالذكر بعد العموم، يدل على فضلهم ولا شك فيهم.

وقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ وبين محمد ﷺ ونوح، أنبياء آخرون من أولي العزم، ولكنه - سبحانه وتعالى - بدأ بآخر واحدٍ منهم، وأول واحد، فبدأ بالطرفين ثم جاء بالوسط، ونوح هو أول رسول أرسله الله - تعالى - إلى أهل الأرض، أو أول نبي ورسول؛ لأن الصحيح أن آدم نبي، لكنه ليس برسول، فأول الرسل نوح - عليه الصلاة والسلام -، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وفي حديث الشفاعة الطويل «**أن الناس يأتون إلى نوح، فيقولون أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»، وليس نوح أفضل من إبراهيم، ولا من موسى ولكن كما قلت: قدمه ليتلاقى الطرفان الآخر والأول.

وقوله: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾فذكر إبراهيم ولم يذكر أباه، وموسى ولم يذكر أباه، وعيسى وذكر أمه؛ لبيان الآية والمعجزة في عيسى - عليه الصلاة والسلام - أنه خلق من أم بلا أب وخلقت حواء من أب بلا أم، وخلق آدم من غير أم ولا أب وخلق الناس من أب وأم، كل هذا يستفاد منه أو يستدل به على أن الطبيعة لا شأن لها في التكوين والخلق، وإلا لكانت على وتيرة واحدة.

قال: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، [شديدًا بالوفاء بما حملوه وهو اليمين بالله تعالى، ثم أخذ الميثاق] أي: العهد، لكن المؤلف يقول: [هو اليمين بالله]، كأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، ولكن هذا فيه نظر، والصواب: أن العهد الذي أُخِذَ على الرسل هو أن يبلغوا الرسالة، ويقوم أيضًا بالإيمان بما يجب الإيمان به من باب أولى؛ لأنهم إذا أرسلوا إلى غيرهم، فلأنفسهم أولى، فيكون قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، فردًا من أفراد هذا العهد والميثاق، وفي الآية التي معنا قدَّم الرسول محمدًا ﷺ ؛ لأنه ﷺ أشرف الرسل، وإبراهيم أشرف من نوح وجاء بالثاني، لمراعاة الطرفين، والأشرفية بالنسبة لمحمد - عليه الصلاة والسلام -.

قال الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، [شديدًا بالوفاء بما حملوه، وهو اليمين بالله سبحانه وتعالى]، قوله: هو اليمين، هو تفسيرٌ للميثاق الغليظ، وهل هذا الميثاق هو الأول، أو غيره؟

اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: إنه هو الميثاق الأول، وإنما أعيد من أجل الوصف، وهو قوله: غليظًا، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، وقال آخرون: إنه غير الأول؛ لأن القاعدة أن

الاسم إذا تكرر، فإن كان بلفظ المعرفة فالغالب أن الثاني هو الأول، وإن كان بلفظ النكرة فالغالب أن الثاني غير الأول، هذا الغالب وليس دائمًا، فإنك ترى قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] جاء معرفًا بـ(أل) والإحسان الثاني قطعًا غير الإحسان الأول، لكن الأكثر أنه إذا أُعِيدَ الاسم مُنَكَّرًا، صار غير الأول وإن أعيد منعطفًا، صار الأول، فهنا أعيد الميثاق منكرًا، قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، فيكون الميثاق الثاني غير الميثاق الأول، ما وجه المغايرة؟ يقول: إن الميثاق الأول: هو الميثاق الذي أخذ على جميع بني آدم، والميثاق الثاني: هو الميثاق الخاص بالرسل بما حُملوه من القيام في عبادة الله ـ عز وجل ـ وتبليغ شريعته والدعوة إليه.

وأما إذا قلنا: إن الميثاق الثاني هو الأول، فتكون فائدة إعادته هو وصفه بالغلظ، يعني: أنه ميثاق شديد، أشد من الميثاق الذي أُخذ على غيرهم، وهذا هو الميثاق العام، ولكنه ذكره من باب التنويه به بالنسبة لهؤلاء الأنبياء، ولهذا عقبه بقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: [ثم أخذ الميثاق ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾].

قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللام: للتعليل، من حيث المعنى، وهي من حيث الإعراب: حرف جر، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة جوازًا، بعد لام الجر، وقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ السائل: هو الله، والضمير هنا ضمير غيبة، وإذ أخذنا ضمير متكلم، ويكون فيه التفات من التكلم إلى الغيبة.

والالتفات أسلوب من أساليب اللغة البلاغية، ويختلف، فقد يكون من غيبة إلى حضور، ومن حضور إلى غيبة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، (هذا التفات من الغَيْبة إلى الحضور)، ولقد أخذ الله، ثم قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ثم قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، ولم يقل: (لنسأل)، فهو التفات.

وما فائدة الالتفات؟

الجواب: فائدة الالتفات العامة في كل موضع: هو التنبيه؛ تنبيه القارئ والمخاطب، وجه ذلك أن الكلام إذا كان على أسلوب واحد، فإن الإنسان يسير معه من غير أن يكون هناك شيء يوجب انتباهه، فإذا تغير الأسلوب، حصل حينئذٍ توقف؛ لأنه انتقل من هذا إلى هذا، فيكون في هذا تنبيه، للقارئ والمخاطب، هذه فائدة عامة في كل الالتفات، ثم إن هناك فوائد خاصة، تكون بحسب السياق والقرينة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس:١-٣]، ما قال: وما يدريه، موافقة لعبس، ولا قال: عبستَ، موافقة ليدريك، عللوا ذلك؟ بأن الله ـ عز وجل ـ كره أن يخاطِبَ نَبِيَّهُ بوصفٍ يقتضي الذم، وهو العبوس والتولي، فقال: ﴿عَبَسَ﴾، كأن التحدث عن غير الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا

يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، خاطبه بذلك، ليتبين أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس عنده علم من الغيب، وهذا ليس فيه قدح في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ألَّا يكون عالمًا للغيب؛ لأن هذا هو شأن جميع البشر.

والحاصل: أن الالتفات الفائدة العامة منه هو: التنبيه، ثم يكون في كل موضع فائدة خاصة بهذا موضع.

وفائدته هنا ـ والله أعلم ـ أنه لما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكان ميثاق الأنبياء دائرًا بين أمرٍ يقومون به، وأمر يُوَاجَهُون به من البشر، وكلا الأمرين يكون صدقًا، ويكون غير صدق، أمَّا غير الصدق في جانب الأنبياء مستحيل، لكن غير الصدق في جانب المدعوين ممكن، قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾؛ كراهية أن ينسب السؤال لنفسه ـ عز وجل ـ، مع أنه يدخل في علمه الأنبياء؛ لأن الخطاب أو التحدث بضمير الحضور، (لنسأل) أقوى في النفس من أن يكون التحدث بضمير الغيبة.

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال المؤلف: [الله]، تفسير للضمير المستتر، ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال المؤلف: [في تبليغ الرسالة]، وهذا بناءً على ما يراه في تفسير الآية، أن السؤال للأنبياء فقط، فالصواب: أن السؤال لهم، ولمن دعوا، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف:٦] وكل منهما يُسْأَل.

والصواب: أنه ليسأل الصادقين عن صدقهم، في تبليغ الرسالة بالنسبة للأنبياء، وفي قبول ذلك بالنسبة للمدعوين.

قال: [تبكيتًا للكافرين بهم]، تبكيتًا، هذا تعليل لسؤال الأنبياء، يقول المؤلف: إن الله يسأل الأنبياء، لا لأنهم يمكن ألَّا يقوموا بالواجب؛ ولكن تبكيتًا للكافرين بهم، يعني: تقريعًا ولومًا، للكافرين بهم؛ لأنه لو سأل الرسل، هل بلغتم الرسالة، أمام المدعوين، سيقولون: نعم، فيكون في هذا تبكيت لهؤلاء الكافرين، وسؤال الغير لتبكيت غيره جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩] الموؤدة: هي الطفلة، أو بلفظ أعم: هي الأنثى التي توؤد. وكان من طريق بعض الكفار، أنهم يئدون البنات، يدفنونهن أحياء؛ خوفًا من العار ـ من أن يُعَيَّر ـ فيقال هذا رجل ما عنده إلا بنت، أو هذا الرجل جاءته بنت، ولهذا إذا بشر بالأنثى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل:٥٨، ٥٩] أي: يستتر، ويخاف أن يُعَيَّر، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ ـ أعوذ بالله ـ، ثم يقول في نفسه: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾؟! ما يعدوا هذا، لا يمكن أن يمسكه على عِزٍّ وكرامة، أبدًا إذنْ، ـ على رأي المؤلف ـ، يكون المراد بسؤال النبيين عن تبليغ الرسالة تبكيت هؤلاء الكافرين بهم وتقريعهم.

قال: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾أي: مؤلمًا، قوله (يسأل، وأعد)، قد يقول قائل: بين

المعطوف والمعطوف عليه تنافر؛ لأنه لو كان بينهما ائتلاف، لكانت العبارة (ليسأل الصادقين عن صدقهم ويعد للكافرين)، لكنه قال وأعد، فكيف نقول فيها؟ يقول المؤلف: [مؤلمًا هو عطف على أخذنا] قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ يعني: (وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا، وأعد للكافرين) ـ وعلى رأي المؤلف ـ يكون فيها أيضًا التفات من الحضور إلى الغيب، ويمكن أن نقول: إنه معطوف على قوله: (ليسأل)، لكنه جاء بلفظ الماضي، تحقيقًا لوقوعه؛ لأنه أمرٌ ثابت.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، (أليمًا) أي: المؤلم، يعني: موجع فعيل، بمعنى: مُفْعِل تأتي في اللغة العربية، وإن كان الأكثر أن فعيلًا بمعنى فاعل، ففعيل بمعنى فاعل كثيرة جدًّا، مثل سميع، بصير، عزيز، عندنا أمثلة كثيرة، لكن فعيل بمعنى مُفْعِل: قليل، ومنه هذه الآية، أليم بمعنى مؤلم، وقول الشاعر:

أَمِنَ الرَّيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

(السميع) يعني: المسمِع.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** عِظَمُ المسئولية على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وجه ذلك: أن الله خصصهم بأخذ الميثاق، ويستفاد منها ـ فرعًا على هذه القاعدة ـ عظم المسؤلية على أهل العلم؛ لأنهم ورثة الأنبياء.

٢- **ويستفاد منها:** أن من أنعم الله عليه بنعمة، فإن لله عليها شكرًا خاصًا، غير النعمة العامة؛ لقوله: ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾، فإن الإضافة هنا: تدل على التخصيص، أي: الميثاق الخاص بهم، كل من أنعم الله عليه نعمة، فإن لله عليه فيها عهدًا أن يقوم بهذه النعمة.

وبهذا التقرير نَسْلَمُ مما ذكره المؤلف، من أن الميثاق هنا، يراد به: الميثاق الذي أخذ عليهم من ظهر أبيهم آدم، فإذا أنعم الله عليك بنعمة، فإن هذا عهد أعطاك الله إياه قال الله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ [البقرة:٤٠].

وكذلك هذا العهد الذي ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ [المائدة:١٢] صورة العقد قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ [المائدة:١٢] هذا عهد وميثاق.

إذنْ عهد النبيين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مسؤلية عظيمة، وهي تبليغ الرسالة والعمل

والدعوة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة هؤلاء الأنبياء الكرام الخمسة، ـ عليهم السلام ـ وجه الدلالة: تخصيصهم بالذكر، فإن تخصيص أفراد العام بالذِّكر يدل على شرف ذلك المخصص.

٤- **ومن فوائدها:** أن محمدًا ﷺ أفضل هؤلاء الخمسة، وجهه تقديمه عليهم ذِكرًا مع أنه متأخر عنهم زمنًا، وكان مقتضى الحال لو كانوا متساوين في الفضيلة أن يذكروا بحسب الترتيب الزمني.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ترتيب هؤلاء في الفضيلة: محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى ـ عليهم السلام ـ هل يستفاد هذا من هذه الآية أم لا؟

الجواب: الظاهر لي: أنه لا يستفاد من هذه الآية؛ لأننا لا نعلم أن إبراهيم أفضل من نوح إلا بدليل خارجي، صحيح أن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، نعلم أنه أفضلهم؛ لأنه لو كان المقصود هو الترتيب الذِّكري، لكان هو آخرهم، لكن جاءت الآية بعد ذكر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فهذا الترتيب زمني، ما يدل على الترتيب الفضلي.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل، عيسى أم نوح؟ بعد اتفاقهم على أن محمدًا ﷺ أفضل، ثم إبراهيم ثم موسى، فقال بعضهم: إن نوحًا أفضل؛ لأنه أول رسول أرسله الله؛ ولأنه كابد من قومه ما لم يكابده غيره؛ لأنه بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، لا يزيدهم دعاؤه إياهم إلا فرارًا، ـ والعياذ بالله ـ، وسخرية.

وقال بعضهم: بل إن عيسى أفضل؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوذي أيضًا، حتى إنه هُدِّدَ بالقتل، حتى قيل: إنه قُتِلَ، فإن اليهود يرون أنهم شفوا أنفسهم حين قَتَلُوا مَن ألقى الله شبه عيسى عليه، وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

وعندي في هذا التوقف؛ لأن لكل واحد منهما مزية يكون فيها أفضل من الثاني.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تغليظ المسؤلية على الأنبياء لقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

٧- **ومن فوائدها:** عظمة الرب ـ عز وجل ـ ذلك بالتحدث عن نفسه بضمير العظمة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ والله ـ تعالى ـ يتحدث عن نفسه تارةً بضمير العظمة، وتارةً بضمير الإفراد، وهو كثير في القرآن، ولا حاجة لذكر الأمثلة؛ لأنه واضح.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أنها تدل على أن مسئولية أولي العزم، أعظم من مسئولية غيرهم، ومن أجل أن مسئوليتهم أعظم، وأنهم قاموا بها سُمُّو أولو العزم.

فوائد قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

من فوائد هذه الآية:

١ـ **ومنها:** إثبات البعث؛ لأن هذا السؤال ما كان في الدنيا، وليس هناك إلا دنيا وأخرى، فكان من لازم ذلك ثبوت الآخرة.

٢- **ومن فوائدها:** أن السؤال ليس سؤالًا خاصًا بالكافرين والمعاندين، حتى الصادق يُسْأل عن صدقه؛ لقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، فيتفرع على هذه الفائدة، وجوب الحذر، ووجوب الاستعداد لهذا السؤال، ما دام الصادق يسأل فما بال الكاذب، فالكاذب جزاؤه قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأن الكافرين ما يسألون سؤالًا يحاسبون عليه كمحاسبة أهل الخير.

والسؤال هنا هل قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ خاص بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أو هو عام؟ قلنا: إنه عام؛ لأن النبيين الذين ذكروا رسل، وكل رسول لابد من مرسل إليه؛ والرسول لا شك أنه صادق. فبقي التقسيم إلى صادق، وغير صادق، محله المرسل إليهم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظ الماضي، والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في وجود النار الآن، ووجود الجنة، النصوص في هذا من القرآن والسنة كثيرة، فهما الآن موجودتان، وهما لا تفنيان، على معتقد أهل السنة، وإن كان ذُكِرَ خلاف عن السلف، في أبدية النار، هل هي مؤبدة أم لا، والصحيح أنها مؤبدة، بلا شك، فالعصاة هم الذين يخرجون منها، وهي باقية، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١].

والصواب بلا شك: أن النار مؤبدة، وفي ذلك ثلاث آيات من كتاب الله، آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن، فأما آية النساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]، وأما في الأحزاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وأما في سورة الجن، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كان هؤلاء خالدين فيها أبدًا، فإنه يلزم من تأبيد الخالد، تأبيد المكان الذي هو فيه حتى في الجنة أيضًا، يعني هذا أنه: كائنًا بمشيئة الله.

٥ ـ **وفي الآية دليل على** أن أهل النار يذوقون العذاب ويتألمون منه لقوله: ﴿أَلِيمًا﴾ فيكون في هذه الآية رد على قول من يقول: إن أهل النار يكونون جهنميين، فلا يحسون بعذاب ـ والعياذ

بالله ـ، ومعنى ذلك أنه إذا كانوا لا يحسون بعذاب، انتفى العذاب، أي: لا يكون هناك عذاب، وقد ذكر الله أن جلودهم تنضج قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦].
وأخبر أنها تُحْرق في قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢].

فبين الله ـ عز وجل ـ أن الجلود تنضج ليذوقوا العذاب.

فإن قيل: كيف يصبرون المُدد العظيمة، وهم في حريق، وجلودهم تُبَدَّل والعياذ بالله؟

قلنا: إن الله على كل شيء قدير، وأحوال الآخرة لا يمكن أن تقاس بأحوال الدنيا، ففي حال الدنيا يحترق الجسم، لكن الروح تخرج منه وتدعه ولا تحترق، لكن في الآخرة يبقى الجسم، وإن كان يحترق، وإن كان ينضج، والله ـ سبحانه ـ لا نهاية لقدرته، ولا يمكن الإحاطة بها.

٦- **وفي الآية الكريمة:** التحذير من الكفر؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٧- **وفي الآية الكريمة أيضًا:** التحذير من خصال الكفر، يعني: وردت في النصوص أعمال، وأقوال، وصفها الشارع بأنها كفر، فيجب الحذر منها.

ومن المؤسف، أن كثيرًا من طلبة العلم يبحثون المسألة أن هذا كفر، وهذا غير كفر، يبحثونها على أنها نظرية، فتجدهم يفرضون الخلاف مع المعتزلة والخوارج، لكن لا يشعرون، ولا يشعرون غيرهم أن مسألة أن كون هذا من الكفر، معناه أنه يعذب على هذه الخصلة عذاب الكافرين، وإن كان لا يخلد، لكن يعذب بحسب ذنبه عذاب الكافرين؛ لأنه فعل الكافرين، فنحن دائمًا، عندما نبحث هذه المسائل نبحثها من الناحية النظرية فقط، هل يكفر أم لا يكفر؟ لكن لا تجدنا، نسأل الله أن يتوب علينا، لا تجدنا نشعر بأن هذا العمل، عمل كفر، فيستحق فاعله جزاء الكفر، في هذه المسألة، وهذه المسألة عظيمة جدًّا، فينبغي لنا أن تكون على بالنا.

٨- **وفي الآية الكريمة أيضًا:** ـ بناءً على هذه القاعدة ـ على أن الذين يعذبون في النار على قدر معاصيهم، يجدون حرها، وألمها وعذابها، خلافًا لمن قال: إنهم لا يجدون ألمًا، الصواب: أنهم يجدون ألمًا، نعم الذين لا يجدون ألمًا، هم الذين يردونها، بناءً على أن الورود في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] هو الدخول، دون المرور على الصراط، والمسألة فيها قولان للمفسرين من السلف والخلف، والله أعلم.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ

أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:٩-١٢]

التفسير

صدَّر الله ـ عز وجل ـ هذا الأمر بالنداء المتصف المنادَى به بالإيمان، فأولًا تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب الانتباه، فلذلك إذا وجدت مثل هذا التعبير فاعلم أن الأمر مهم، ثم إن توجيه النداء والخطاب إلى من اتصفوا بالإيمان يدل على أن هذا من مقتضيات الإيمان؛ لأنه لا يوجه الخطاب لموصوف بصفة، إلا أن ذلك من مقتضيات صفته، فإذا قلت: يا رجل افعل كذا وكذا، فمعنى هذا أن هذا الأمر أو أن المأمور به من صفات الرجال، وإذا قلت: يا مؤمن افعل كذا وكذا، فمعنى هذا أن المأمور به من صفات المؤمنين، إذن توجيه النداء إلى من اتصفوا بالإيمان يدل على أن ما يوجه إليهم من مقتضيات إيمانهم.

ثم إن في وصفهم بالإيمان إغراءً لقبول ما وجه إليهم، يعني: إذا قلت يا مؤمن معناه أنني أغريك على أن تقبل، إذ إن الإيمان يقتضي أن تقبل، وفيه إغراء على قبول ما أمر الله به، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعتَ الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرْعِهَا سمعك، يعني: استمع لها، فإما خير تأمر به وإما شر تنهى عنه[1]، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:١٨،١٩]، الخطاب هنا عام موجه لأناس موصوفين بالإيمان، فهل يختص بالمؤمنين في زمن النزول، أو هو عائد إلى كل المؤمنين؟ الجواب: أنه شامل لكل المؤمنين، إذ إن الله تعالى إذا أنعم على سلف الأمة بنعمة، فهي نعمة على الأمة كلها، ولهذا يُذَكِّر الله بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بنعم أنعم الله بها على بني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم طائفة واحدة.

ولا شك أن نعمة الله ـ عز وجل ـ على نبينا محمد ﷺ وعلى أصحابه نعمة علينا، وأن نصر الله له ودفاعه عنه، نصر لنا ودفاع عنا.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عام؛ لأنه مفرد مضاف فيعم، والشاهد على أن المفرد المضاف يعم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] فليس المراد بنعمة الله واحدة، بل نِعَمٌ كثيرة لا تحصى، وقوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إحسانه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

وفضله.

ثم قال: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ هذا التقييد لا يعني تخصيص النعمة العامة، في قوله: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ لكنه كالتمثيل لشيء من هذه النعمة.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ (إذ) أي: حين جاءتكم جنود، وهذه النعمة خصها بالذكر؛ لأنها نعمة عظيمة، كما يتبين من تصوير الله ـ عز وجل ـ لها.

وكلمة ﴿جُنُودٌ﴾ نكرة لكنها يراد بها التعظيم والتكثير يعني: إذ جاءتكم جنود كثيرة، وهؤلاء الجنود هم الأحزاب من المشركين واليهود، الذين تحزبوا لقتال النبي ﷺ وكانت هذه الغزوة في السنة الخامسة من الهجرة في شوال، على الصحيح المشهور؛ لأنه من المعلوم أن أُحُدًا كانت في السنة الثالثة من الهجرة في شوال، وكانت السنة التي تليها ميعادًا لقريش، لكنهم ما حضروا، ثم في السنة الخامسة، صارت غزوة الأحزاب.

وسببها أن الأشراف من بني النضير ـ الذين أجلاهم النبي ﷺ من المدينة ـ لا شك أن قلوبهم امتلأت حقدًا على النبي ﷺ وعداوةً، فلما رأوا انتصار قريش في (أُحُد) أرادوا أن يستغلوا هذا الأمر، فذهبوا إلى قريش، وحرَّضُوهم على قتال النبي ﷺ ووعدوهم أن ينصروهم بكل ما يستطيعون، وأن يتصلوا ببني قريظة، الذين بقوا في المدينة؛ من أجل أن يساعدوهم في قتال النبي ﷺ، فاجتمعت أحزاب عظيمةٌ قُدِّرَت بعشرة آلاف مقاتل معهم السلاح والعتاد، وحضروا إلى المدينة، ولما علم بهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ اهتم لذلك اهتمامًا عظيمًا، لكن اهتمام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يعني الجبن والخور والضعف، ولكنه يعني: الاستعداد، وأخذ الحذر، أخذًا بتوجيهات الله ـ عز وجل ـ ؛ لأن الله تعالى دائمًا يحذر من الأعداء، ويأمر بأن نُعِدَّ لهم ما استطعنا من قوة، فخرج بأصحابه في ثلاثة آلاف مقاتل فقط، وقيل بأقل من ذلك حتى قال بعضهم: إلى سبعمائة مقاتل، ونزلوا عند (سَلْع)، وجعلوه خلف ظهورهم وحفروا الخندق، بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه من الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية مع ما بهم من الجهد، والتعب، والمشقة، والجوع، والبرد.

وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحفر معهم حتى إن التراب وارى جلدة بطنه، ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكان يردد معهم: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَةِ» ويردد أيضًا، «اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»(١)؛ لأن هذا الإنشاد في هذا الموطن يثير الهمم وينشط، وكان يمد صوته بقوله: (أبينا).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠٤)، و مسلم (١٨٠٣).

المهم: حصل فيه أشياء كثيرة ليس هذا موضع ذكرها؛ لكنها تدل على محنٍ عظيمة أصابت المسلمين، وهم مع ذلك صابرون.

ولما نزل الأحزاب، نزلوا من الشرق والغرب ﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ثم إن الله ـ عز وجل ـ بحكمته امتحن المسلمين بزيادة البلاء، وهو أن بني النضير اتصلوا ببني قريظة، وطلبوا منهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ، فتلكأت بنو قريظة، وقالوا: كيف ننقض العهد بيننا وبين محمد، وهؤلاء الجنود الذين أتيتم بهم، ليس هذا محل إقامتهم، ولا سكناهم، فإن رأوا نصرًا شاركونا بالغنائم، وإن رأوا هزيمة ذهبوا إلى بلادهم وبقينا نحن تحت سلطة محمد ـ وهذا كلام معقول ـ، لكنه معقول من الناحية الدنيوية فقط، وأبوا أن يشاركوهم، لكن ما زالوا بهم حتى أغروهم ونقضوا العهد، فازداد ذلك في مشقة المسلمين، ولكن الله ـ عز وجل ـ قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وإذا دافع الله عن شخص فلا تسأل عن حاله؛ لأنه في حصن حصين من مدافعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا يُذَكِّر المؤمنين بهذه النعمة.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ التنكير هنا للتعظيم، والكثرة، يعني: جنود كثيرة، لكن بماذا قوبلوا؟ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ سلط الله ـ عز وجل ـ هذه الريح الشرقية، وجعلها الله ـ عز وجل ـ ريحًا شديدةً وباردةً، حتى هدمت خيامهم وأكفأت قدورهم وصارت الحجارة ترميهم كأنما يُرجمون بها رجمًا، حيث بدأت الريح تحمل الحجارة وتضرب بها قدورهم، وتضرب بها خيلهم وإبلهم وأبدانهم أيضًا، وقلقوا قلقًا عظيمًا، والجنود الآخرون الملائكة، تزلزل بهم وتلقي في قلوبهم الرعب، ولم تقاتل؛ لأنه لم يحصل قتال لكنها زلزلت بهم بإذن الله ـ عز وجل ـ.

وقصة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في تلك الليلة العصيبة لما هبت الرياح طلب النبي ﷺ من أصحابه أن ينتدب أحد منهم وتضمَّن أن يرجع سالمًا، وأن يكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ضمن أمرين: السلامة، وأن يكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، لكن الصحابة معهم تعب عظيم، وجوع شديد وبرد شديد فما قام أحد، ثم ذهب النبي ﷺ يصلي ثم رجع فقال هذا الكلام مرة أخرى، فلم يقم أحد، ثم رجع يصلي، ثم رجع فقال هذا الكلام فلم يقم أحد، فنص على حذيفة رضي الله عنه، فقال: «قُمْ يَا حُذَيْفَةَ»، يقول: فلما ذكرني، لم يكن لي بُدٌّ من طاعة الله ورسوله، فقام رضي الله عنه، وأوصاه النبي ﷺ أن يذهب إلى القوم، وينظر خبرهم، وألا يُحدِث شيئًا أبدًا، يقول: لما انصرفت من عند الرسول ﷺ، صرت كأنما أنا في حِمام، لا أحس بريح ولا ببرد حتى وصلت إلى القوم، جعلتُ أشاهد أبا سفيان ـ لأنه رئيس قريش ـ وهو يَصْطَلي على النار؛ من شدة البرد ويؤذن بالرحيل، يأمرهم بأن يرحلوا، ووضع سهمًا في قوسه يريد أن يرميهم؛ لأنه قريب منه، لكنه رضي الله عنه، تذكر قول النبي ﷺ: «لَا تُحْدِث شَيْئًا» فامتنع، يقول: «فقال أبو سفيان: لِيَنْظُرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ

جَلِيْسِه»، خَافَ من الجواسيس والعيون، فأمسكتُ برجل بجنبي فقلت: من أنت؟ ابتدأ بها قبل أن يُسأل هو، قال: فلان بن فلان، المُهِمُّ أنه أخذ الخَبَر، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النبيّ ﷺ، كَأَنَّمَا هُو فِي حمام، لَا هواء وَلَا بَرْد، لَكِنْ لَمَّا وَصَل إِلَى الرَّسُوْلِ واسْتَقَرَّ، أَحَسَّ بالبرد، فلما أحس بالبرد وضع النبي ﷺ عليه لباسًا كان معه ليدفأ به ونام، والنبي ﷺ يصلي ويتهجد، يقول: فلما أصبح الصبح، أيقظني وقال: «يا نَوْمَان قُمْ، قُمْ يا نومان»(١).

فالحاصل: أن هذه الريح كانت شديدةً جدًّا وأرهقتهم حتى انصرفوا مع ما ألقت الملائكة في قلوبهم من الرعب، ولهذا قال: ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لماذا لا نراها؟ لأن الله حجب الملائكة عن أعين الناس؛ لأن الملائكة تحضر مجالس الذكر، والملائكة يتعاقبون في بني آدم بالليل والنهار، والملائكة عن اليمين والشمال قعيد، ومع ذلك لا نراهم، لأن الله - تعالى - حجبهم، وسيأتي إن شاء الله في الفوائد، أن في هذا دلالة بينة على ضعف بني آدم، ملائكة موجودة محسوسة بين أيديهم، بل عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومع ذلك لا يرونها، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، قال: [بالتاء من حفر الخندق، وبالياء من تحذير المشركين]، يعني: فيها قراءتان، ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، هي الريح الشرقية، ولهذا جاء في الحديث: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُوْر»(٢).

يقول المؤلف: [﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من حفر الخندق] ولكن هذا التخصيص للآية لا ينبغي؛ لأننا إذا خصصنا العموم في الآية قصرنا معنى اللفظ، أو قصرنا اللفظ على بعض معناه، والصواب أن ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق وغيره من كل ما عملتم في هذه الغزوة.

وقوله: ﴿بَصِيرًا﴾ أي: عليم، أو ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦] يعني: الجنود، ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، فالله تعالى بما يعملون بصير، من التحزب على النبي ﷺ، والقدوم على بلده - عليه الصلاة والسلام - من أجل القضاء عليه، على زعمهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال: [من أعلى الوادي وأسفله، من المشرق والمغرب]؛ حيث جاءت قريش من الناحية الشمالية الشرقية، وجاءت غطفان ويهود بني قريظة

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٨٢٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

من الناحية الجنوبية الغربية، فجاءوا من فوق المسلمين، ومن أسفل منهم؛ وكما قلنا: إن الخندق من الحرَّة الشرقية إلى الحرَّة الغربية؛ ليكونوا كفكيْ الأسد، حتى يطبقوا على المدينة هذا تخطيطهم، ولكن الله بما يعملون محيط.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، زاغ الشيء بمعنى: مَالَ، ومنه: زاغت الشمس، إذا مالت للزوال، ومنه قوله تعالى: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: ما مال.

وقوله: ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ (الـ)هنا، للعهد الذهني، يعني: زاغت الأبصار منكم، يقول المؤلف في تفسيرها: [مالت عن كل شيء إلى عدوها من كل جانب] يعني أن الأبصار ما صار لها نظر إلا هذا العدو، كل شيء أُغفلت النظر إليه إلا هذا العدو.

وقد فسر بعض المفسرين ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ بمعنى: مالت عن استقرارها، أي: شَخَصَت، من قوة الرعب، فصار الإنسان لا ينظر إلا إلى هذا الذي أمامه، يراقبه ويخشى منه، وهذا شيء مشاهد بطبيعة البشر أن الإنسان إذا خاف من شيء يتجه بصره إلى ناحية هذا الشيء، وتجد البصر كما يقول العامة: لا يغضي أبدًا، منفتح يخشى من المباغتة، فالأبصار زاغت.

وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ القلوب يعني: منكم قلوبكم، ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾ قال: [جمع حنجرة، وهي منتهى الحُلْقُوم من شدة الخوف]، وقوله: [من شدة الخوف] تعليل لقوله: ﴿زَاغَتِ﴾ و﴿وَبَلَغَتِ﴾.

وهل هذا حقيقة أي: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾؟ قال بعضهم: إنها حقيقة، وأن الخائف إذا اشتد خوفه، انتفخت رئته، فإذا انتفخت ضيقت على القلب، فيخرج ويرتفع؛ ولهذا يقال في الجبان أو الخائف: انتفخ سَحَرُه، يعني: رئته، والأصل حمل الشيء على حقيقته، ويجوز أن يكون هذا تصويرًا عن شدة الرعب، يعني: حتى إنها من شدة الرعب زالت القلوب عن أماكنها، فلا تتنفس طبيعيًّا، ولا تنبض طبيعيًّا؛ لأنها زالت عن أماكنها.

ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [المختلفة بالنصر واليأس] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: أنتم بالله.

وقوله: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، بالألف للإطلاق، والظنون هذه جمع ظن، والمصدر لا يجمع إلا إذا كان أنواعًا، أما إذا كان نوعًا واحدًا فلا يمكن جمعه وإن كثر، لكن إذا كان أنواعًا صح جمعه، فهنا جمع الظن، وهو مصدر لتنوعه، يعني ظنون تدور في أفهامهم، أو في أفكارهم مختلفة، طولًا وعرضًا، هل سيزول هؤلاء الأحزاب؟ هل سيقضون علينا؟ هل سننتصر؟ ومعلوم مقام الخوف ماذا يحدث للإنسان من الظنون والتفكيرات القريبة والبعيدة.

فمنهم من ظن اليأس، أو أيس، فقال: ما بعد هذا شيء، ومنهم من ظن النصر، مع أن المقام حالك جدًّا؛ لأنه يؤمن أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ويقول:

نحن على حق، فإذا كنا على حق وصبرنا، فإن النصر مضمون، فلذلك يُظن النصر، ومنهم أصحاب المادة والظواهر الحسية، يظنون الهلاك وييأسون من النصر؛ لأنهم ليس لهم رصيد من الإيمان يعتمدون عليه، ولا شك أن في الذين خرجوا لهذا فيهم منافقون كما سيُذْكَر في القصة، المهم: أن الله قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ وأطلق ذلك وأتى به بالجمع، لأجل أن يذهب الإنسان في تصور هذا الظن كل مذهب، فهي ظنون كثيرة مختلفة ومتضاربة.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة، إلى المكان أو إلى الزمان أو إليهما جميعًا؟ هنالك تصلح للمكان وللزمان، لكن الأصل أنها للمكان، وتأتي للزمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] أي: في ذلك الزمان خسر الكافرون، فـ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا صالحة للزمان، والمكان، و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: اختُبِروا، والذي ابتلاهم هو الله ـ عز وجل ـ، اختبرهم بما حصل لهم، من هذا الضيق العظيم، الذي لا يمكن أن نعبر عنه بالنطق، ولا يمكن أن يحس به إلا من وقع فيه، فنحن هنا نعجز عن تصور تلك الحال، ونعجز عن تصويرها، لكن الذي وقع فيها، يدري عنها.

قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول المؤلف: [اختُبروا ليتبين المخلص من غيره، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ حركوا ﴿زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، من شدة الفزع].

هذا ابتلاء عظيم، وزلزال عظيم ابتلوا به، هذا الزلزال الذي ابتلوا به ليس زلزال الأرض، إنما هو زلزال النفوس، فالنفوس تزلزلت وحصل عليها شيء عظيم؛ لأنه اجتمع في هذه الغزوة الأحزاب من العرب، ونقض بني قريظة، والجوع والتعب والإعياء والبرد، هذه خمسة أشياء، واحدة منها تكفي في زلزلة النفس، فكيف إذا اجتمعت أمور صعبة؟ وكان النبي ﷺ في ذلك المكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، فكيف تتصور الحال، ما يمكن الإنسان أن يعبر عنها في الواقع، ولهذا قال: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي قويًا، زَلـزَلَ نفوسهم، لتجمع هذه الابتلاءات عليهم رضي الله عنهم.

ولهذا بزغ النفاق، وتكلم المنافقون، ورأوا أن في هذا فرصة للكلام؛ لأن النبي ﷺ يَعِدُهم النصر، حتى في تلك الغزوة يعدهم النصر، وقصة الصخرة التي عجزوا عنها، وتكسرت الفئوس، وتعبوا حتى جاءوا للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالوا: يا رسول الله أنت خططت لنا؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، خط لهم مكان الخندق بقدمه، فمن حكمة الله ـ عز وجل ـ أن جاء الخط على هذه الصخرة التي عجزوا عنها، لكن لشدة امتثالهم رضي الله عنهم ما قالوا: نعطفه يمينًا أو يسارًا، لكنهم جاءوا إلى النبي ﷺ، وأخبروه، فنزل من عريشه الذي قد كان بُني

له، على تلٍّ هنالك، يشرف على القوم، وأخذ المعول، فضربها ضربةً، يقول ابن إسحاق لما ضربها ضربةً، أضاءت إضاءةً عظيمةً كأنما نحن في نهار، واندك منها ما اندك، فَكَبَّر النبي ﷺ، ثم ضربها الثانية فأضاءت، وكبر تكبيرة الفتح تكبيرةً عظيمةً، ثم ضربها الثالثة وَكَبَّر، فقالوا: يا رسول الله، لماذا فعلت هذا؟ قال: «**رَأَيْتُ فِي التَّكْبِيرَةِ الأُولَى قُصُورَ الرُّوم، وَفِي الثَّانِيَةِ قُصُورَ كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَةِ قُصُورَ صَنْعَاءَ فِي اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَح**»، وهذه بشارة للمؤمنين، وتقوية[1].

لكن المنافقون - والعياذ بالله - الذين لا يثقون في وعد الله ووعد رسوله، قالوا: كيف هذا؟ فالإنسان منا ما يستطيع أن يذهب إلى الغائط، ليقضي حاجته، فكيف نملك قصور كسرى، وقيصر، وتُبَّع، هذا ما هو صحيح؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: [ضعف اعتقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بالنصر]، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ نعوذ بالله كيف ينطق البشر بمثل هذا الكلام؟ لكن - والعياذ بالله - ما دامت قلوبهم منطوية على الكفر، أو على الشك؛ لأن الذين في قلوبهم مرض عندهم شك، وضعف اعتقاد، والمنافقون عندهم كفر، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ - سبحان الله العظيم - الله ورسوله يعدهم غرورًا، ويكذب عليهم ويخدعهم، هذا لا يمكن، بل ما وعد الله ورسوله إلا حقًّا، لكن لا يمكن أن تجني العسل إلا بعد ذوق شوك النحل، لابد من تعب، ولابد من صبر ومصابرةٍ؛ لأنه لولا هذا ما عُرِفَ الصادق من الكاذب، ولا عرف المؤمن من الكافر، فلابد من ابتلاء.

ولهذا بالمناسبة طلبة العلم قد يواجِهُون بعض المصاعب، في الدعوة إلى الله - عز وجل -، قد يواجهون ذلك حتى في أنفسهم، لكن عليهم أن يصبروا، وأن يتحملوا في الدعوة إلى الله، لأنهم ليسوا يدعون إلى سبيل فلان وفلان - من سبل الطاغوت - لكن يدعون إلى سبيل الله التي توصلهم إلى الله عز وجل، فعليهم أن يصبروا ليس بمجرد أن يقال لهم: أنت طَوَّع، أو: أنت متشدد، أنت فيك كذا وكذا، ينحسر ويدع، هذا ما هو صحيح، لابد أن يصبر ويصابر، ويعمل بالحكمة وليس بالعنف، ولكل شيء من الحالات منزلته.

والحاصل: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد وَعَد أصحابَه بالنصر، فآمن بذلك المؤمنون. وتكلم المنافقون، والذين في قلوبهم مرض بهذا الكلام ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكذبوا، والله ما وعدهم الله ورسوله إلا الحق والصدق، وقد صار والحمد لله، فإن هذه الأمة - ولله الحمد - بما خلفه لها النبي ﷺ من العلم والهدى، وبما قام به خلفاؤه رضي الله عنهم ففتحوا قصور قيصر، وكسرى، واليمن، وأنفقت كنوز كسرى، وقيصر في سبيل الله، وجيء بتاج كسرى من المدائن إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه، وتحقق ما وَعَد الله ورسوله، وإن كان النبي ﷺ توفي

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٧٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٠) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان».

قبل أن يحصل له، لكن في الحقيقة هو الذي فتح هذا، ولم يفتح هذا إلا بشريعة الله، فبشريعة الله فتحوها، فصار ذلك نصرًا للنبي ﷺ؛ لأن النصر، كما نقول كثيرًا ليس انتصار الإنسان بشخصه، بل انتصاره بما جاء به ودعا إليه، ولو كان ذلك على أيدي أتباعه، ولو كان ذلك من بعد موته، والله أعلم.

الفوائد:

يستفاد من الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾:

١- بيان منَّة الله - عز وجل - على هذه الأمة، أولها وآخرها بهذا الدفاع عن المؤمنين، وجهه: أن الله أمرنا أن نذكر هذه النعمة.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن نعمة الله عز وجل، إما إيجاد محبوب، وإما دفع مكروه، والذي في الآية من باب دفع المكروه.

٣- **ومن فوائدها:** بيان شدة عداوة الكفار للمؤمنين؛ لأنهم تحزبوا ضدهم، وقد تكون هذه القبائل ليس بينها رابطة، ولكن من أجل أنها اتفقت في عداوتها للإسلام، فلذلك اجتمعت.

٤- **ويستفاد منها:** أن اليهود لا عهد لهم، وأنهم أهل غدرٍ وخيانة، ووجهه: نَقْضُ بني قريظة للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، وكل من القبائل الثلاث من اليهود عاهدت النبي ﷺ، حين قدم المدينة ومع ذلك، فإنهم نقضوا العهد وهم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير؛ لأن اليهود من أشد الناس غدرًا وكذبًا.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - وهذا يؤخذ من قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾.

٦- **ويستفاد منها:** ما ذكره أهل العلم، من أن الريح إذا جاءت مفردةً، فإنها تكون في العذاب، وإذا جاءت مجموعةً: فإنها تكون في الرحمة، إلا أنها قد تأتي مفردةً في الرحمة إذا وصفت بما يدل على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الملائكة جنود لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فإذا قلت: هنا ما أضيفت إلى الله - عز وجل - فكيف تقول: إنهم جنود الله؟ نقول: لأنه يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أضاف إرسالهم إليه، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١] فإن قلت: هل الرب عز وجل، محتاج إلى جنود؟ نقول: بالطبع لا، لكن لماذا سُمُّوا جنودًا مع أنه لا حاجة به إليهم؟

نقول: لأنهم يقومون بأمره، ويدافعون عن أوليائه، فهم بمنزلة الجنود، وإلا فالله - عز وجل -

لا يحتاج إليهم، ولا إلى غيرهم فإنه غني عن كل أحد.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأصل أن الناس لا يرون الملائكة؛ لقوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهو كذلك، لكن قد يرونها، مثل ما رأى الناسُ جبريلَ حين جاء إلى النبي ﷺ، يسأله عن الإسلام، والإيمان والإحسان، والساعة وأماراتها[1].

٩- **ويستفاد من الآية الكريمة:** عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل ما نعمل، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وهل يشمل هذا عمل القلب؟

نقول: نعم يشمله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] وهو عمل القلب، أما عمل الجوارح فظاهر.

١٠- **ويستفاد من الآية الكريمة:** الترهيب والترغيب، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، لأن هذا فيه بالنسبة للعمل الصالح ترغيب، وأن هذا العمل لن يُهدر؛ لأنه معلوم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولابد أن يجازِيَ عليه، وترهيب لكل من عَمِلَ سيئة، فعندما تحدثك نفسُك يومًا من الأيام بأن تعمل سيئة؛ لأنه لا يطلع عليها أحدٌ من الخلق، فاذكر أن الله يطلع عليك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»، ليس معك في مكانك؛ ولكنه معك وهو على عرشه سبحانه محيط بك.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾. هذه خمسة أشياء ذَكَّرَهُم اللهُ بها، ليتبين وجه النعمة.

١- **يستفاد من هاتين الآيتين:** أنه ينبغي لمن ذُكِّر أن يُذْكَر له وجه ما ذُكِّر به، فالإجمال ليس كالتفصيل، إذنْ نأخذ من هذا: أنه ينبغي للمُذَكِّر أن يفصل فيما ذَكَّر به؛ ليكون ذلك أبلغ في تذكر المخاطب.

٢- **ومنها:** أن الحال التي وقعت للمسلمين حال عظيمة رهيبة، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم، وبهذا يتبين وجه نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم؛ لأن الأعداء يحيطون بهم، ولأن أبصارهم زاغت، وقلوبهم بلغت الحناجر، والأوهام والأفكار التي عندهم قد تكون دوَّختهم من هنا ومن هناك؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

٣- **ومنها:** أن المخاوف ترجف الإنسان حتى في تصوراته، لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن الإنسان المستقر، لا تكون عنده ظنون متباينة، متعارضة؛ لأنه مستقر، لكن عندما يحصل الفزع والخوف، تأتي الظنون من كل وجه.

٤- **ومنها:** أن خوف الإنسان ـ الخوف الطبيعي ـ من المخلوق، لا يعدُّ شِرْكًا، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فإن هذا من شدة الخوف، وهو خوف من مخلوق، لكن الباعث عليه الأمر الطبيعي، وإذا كان الأمر الطبيعي، فإنه لا يؤاخذ به الإنسان، ولهذا وصفت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل وصف به أولو العزم من الرسل، قال الله عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] ولما كلفه الله بالرسالة، قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣] فهذا خوف طبيعي لا يُلام عليه الإنسان.

٥- **ومنها:** أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على ما هم عليه من المرتبة العالية، قد تعترضهم الظنون بسبب الضيق؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وهو يخاطب المؤمنين، فهم لشدة الضيق، قد تعتريهم مثل هذه الوساوس، لكنها في الحقيقة سحابة صيف، عندما يرجع الإنسان إلى وعد الله ـ عز وجل ـ يزول عنه هذا كله ويتبدل ولهذا سيأتينا في سياق الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أنهم يرون هذه الأحزاب العظيمة ثم يُطَمْئِنون أنفسهم؛ لأن هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله؛ لأن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب، فهم لما رأوا هذه الأحزاب العظيمة، وما يترتب على وجودهم من الشدة والضيق، عرفوا أن النصر قريب؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في مثل هذه الحال ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾، إذا طبَّقتَ هذه على حال المؤمنين في (سورة الأحزاب) وجدت أنها تنطبق، وآخر آية سورة البقرة: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إذنْ صدق عليهم أن هذا ما وعده الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في قرب النصر، والحاصل أن في مثل هذه الأمور التي تأتي عارضة ما تؤثر على مرتبة الإنسان، وعلى حاله؛ لأنها تزول.

٦- **ومنها:** أن الإنسان إذا غلبته الحال حتى وردت عليه مثل هذه الظنون، فإنه لا يحط من مرتبته، لكن إذا استقرت به الحال، وهدأت هذه الظنون، عرف الحق.

٧- **ومنها:** تصوير الحال التي كان عليها المؤمنون في تلك اللحظة، وهو الابتلاء العظيم، وهذا ابتلاء بالنسبة لما حصل من الأحزاب، وبالنسبة لنفوسهم هل هي مستقرة؟

نقول: لا ؛ لقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، فاجتمع عليهم الابتلاء الظاهري الذي يُشاهد

بالعِيان، والابتلاء الباطني وهو زلزلة النفوس، وعدم استقرارها، ولهذا قال: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

٨- **ومنها**: بيان القاعدة العامة، وهي: أن الله تعالى يَذْكُر النِّعم مضافة إليه، ويَذْكُر النِّقم غالبًا للبناء للمجهول؛ لأنه هنا قال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ﴾، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ ذلك وقع من الله - سبحانه وتعالى - لكنه في مقام الخير يضيفه الله إلى نفسه تمدحًا، وفي مقام خلاف ذلك تأتي الأفعال مبنيةً للمجهول.

وانظر إلى قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] ففي الشر، قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، وفي الرشد أضافوه إلى الله - عز وجل -؛ لأن الشر لا يضاف إلى الله، كما قال النبي ﷺ: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فلا يجوز للإنسان أن يضيف الشر إلى الله أبدًا، فالشر يكون في المفعولات، لا في الفعل؛ لأن مفعولات الله - عز وجل - لها جهتان:

الأولى: جهة باعتبارها فعلًا لله.

الثانية: باعتبار ذاتها.

أما باعتبار ذاتها - باعتبار المفعولات - ففيها خير وشر بذاتها مثل قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١،٢]، وأما باعتبارها فعلًا لله، فليس فيها شر، وباعتبار ذاتها ففيها خير وشر.

باعتبار الفعل ليس فيها شر؛ لأن الله ما قدرها إلا الحكمة، ثم لو تأملت الأشياء التي هي شر، لوجدت أنها تتضمن خيرًا، ولو كانت شرًّا، أما الفساد في البر والبحر من الجدب والفقر وغير ذلك شر، لكن مآله الخير قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: بيان أن المنافقين ينتهزون الفرص، ووجهه: أنهم في هذه الفرصة وحالهم الحال الضيقة الحالكة، بدأوا نشاطهم وانتهزوا الفرصة، وقالوا: أين الوعد؟ ففيه دليل على: أن المنافق على اسمه منافق، إن لم يجد فرصةً سكت، وصانع وداهن، وإن وجد فرصةً نطق وتكلم، وهذا دأبهم، قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤].

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة**: الحذر من المنافقين؛ لأنهم لا يألون المؤمنين خبالًا، كلما وجدوا مطعنًا - أي: مكانًا للطعن - هجموا، نسأل الله أن يعيذنا منهم.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن القلوب تنقسم إلى صحيحة، ومريضة، لقوله:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك الأبدان تنقسم إلى صحيحة ومريضة، وانظر إلى حال الناس اليوم، هل هم أشد على مداواة القلوب من مداواة الأبدان، أو على مداواة الأبدان من مداواة القلوب؟ الصحيح: الأخير إلا ما شاء الله.

فأكثر الناس اليوم حريصون على مداواة الأبدان التي مآلها أن تكون جيفة يأكلها الديدان، دون القلوب التي عليها مدار سعادة الدنيا والآخرة، فتجد الإنسان يُمرض قلبُه، وربما يصل إلى درجة الاحتراق، ولكنه لا يبالي به، فإذا أُصيب بشوكة في بدنه هرع إلى الأطباء، ولو حصل في ذلك مشقة وتعب، ولكن العاقل المؤمن هو الذي يكون دائمًا في نظرٍ إلى قلبه ومرضه وصحته، وسلامته وعطبه، وهذا هو المؤمن حقًّا.

ولا شك أنه إذا صح القلب صح البدن، ولست أقول: صح البدن أن المؤمن لا يُمرض، لكن المؤمن لو مُرض يرى أن في هذا المرض منفعة له ومصلحة، وبهذا يكون مرض بدنه صحة لقلبه، لما يحصل عنده من الصبر، والرضا بالله ـ عز وجل ـ وانتظار الفرج، وفعل الأسباب التي جعلها الله أسبابًا، فيعتمد على الله ـ تعالى ـ بما جعله سببًا.

فالحاصل: أن مرض القلب أخطر من مرض البدن بكثير، والعاقل يعتني بهذا عنايةً أشد.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الله تعالى ورسوله قد وعدا المؤمنين بالنصر، لقوله: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، والوعد مذكور في القرآن والسُّنة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، فانظر للوعد العظيم، ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾، وهذا نصر للمؤمنين مؤكد، والملتزم بهذا هو الرب ـ عز وجل ـ الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، لكن مع الأسف الشديد، أن كثيرًا من المؤمنين، لا يلاحظون هذه الأشياء مع أن الله تكفل بهذا.

وفي السنة يقول النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»[1] ونَصرُهُ ﷺ ليس نصرًا لذاته، ولكنه نصرٌ لما جاء به، فيكون النصر له ولأمته من بعده.

٥- ويستفاد من الآية الكريمة: بيان أن المنافق نظره قاصر، وكذلك مَن في قلبه مرض، وجهه: أنهم ما نظروا إلا إلى الساعة الحاضرة، وما فكَّروا في العاقبة، ومثل هذه الأمور التي تَرِد، فهذه أمور عوارض، لكن العاقبة للمتقين، فالأمور العوارض لا يُبْنى عليها أحد إلا ضعيف البصيرة، حتى في أمور الدنيا أيضًا، لا تنظر إلى الأمور العارضة، فإنه كما قيل: (دوام الحال من المحال)، ولكن ما دُمْتَ واثقًا بوعد الله، فثق أنه يتحقق، لكن تعتريه عوارض لحكمة من حكم الله ـ عز وجل.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، و مسلم (٥٢١).

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٣-١٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَت ﴾ هذه معطوفة على ما سبق ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ يعني: واذكر هذه القولة المنكرة.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ الطائفة الجماعة من الناس، و ﴿مِّنْهُمْ ﴾ الضمير يعود على المنافقين، كما قال المؤلف.

وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قال: [هي أرض المدينة] وقيل: هي المدينة نفسها، وأهل العلم بالتاريخ اختلفوا هل يثرب اسم للمكان والمنطقة - التي فيها المدينة - أو أن يثرب هي نفس المدينة، وظاهر الآية: أن يثرب هي المدينة؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ قال: [هي أرض المدينة، ولم تصرف للعَلَمِيَّة ووزن الفعل]، يعني: أنها ممنوعة من الصرف لهاتين العلتين: العَلَمِيَّة، ووزن الفعل، ويدل على أنها ممنوعة من الصرف: أنها جُرَّت بالفتحة؛ لأنه مضاف إليها، وحق المضاف إليه أن يكون مجرورًا، وهنا الكلمة مفتوحة؛ لأنها تُجر بالفتحة كسائر الأسماء التي لا تنصرف.

وقول المؤلف: [للعَلَمِيَّة ووزن الفعل]؛ لأن يثرب التي هي اسم على وزن يثرب الذي هو فعله، ولها علة أخرى غير وزن الفعل، وهي التأنيث؛ لأنه اسم لبقعة، وكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: [للعلمية ووزن الفعل]؛ ليشير إلى أن هذه الكلمة (يثرب) مأخوذة من التثريب، وهو اللوم والتوبيخ، وما أشبه ذلك من الكلمات التي فيها عَتْبٌ، ولهذا قال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبَ، وَهِيَ المَدِينَةُ»(١)، وهذا دليل على أن النبي ﷺ كره أن تُسَمَّى يثرب، وهذا أحد القولين في المسألة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٧١)، و مسلم (١٣٨٢).

وأما الحديث الذي روي «مَنْ سَمَّى المَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ»[1] فهو ضعيف، لكن يكفي عنه هذا الحديث الذي في «الصحيحين» «يَقُولُونَ: يَثْرِبَ وَهِيَ المدِينةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ».

الحاصل: أن قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾، كأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ اختار أن يقول: [للعلمية ووزن الفعل]، لهذا السبب.

وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [بضم الميم وفتحها أي: لا إقامة ولا مكانة] (مقام) بضم الميم وفتحها، ومعنى كلام المؤلف: [لا إقامة ولا مكانة]: لا إقامة تفسير للضَّم؛ مُقام، لأنه من الرباعي، والرباعي يقال في مصدره الميمي: مُقام. ومَقام؛ لا مكانة، على أنها اسم مكان، واسم المكان بفتح الميم.

والمعنى: لا موضع للإقامة، على أنها اسم مكان، أو لا إقامة لكم، لماذا يقولون: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ لأنهم يريدون الفرار، ولا يريدون البقاء مع النبي ﷺ في القتال، إذ إنهم منافقون، والمنافق ليس صبورًا على القتال، بل لا يريد القتال، ولو كان الأمر في يده لقاتل المسلمين.

وفي قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ إشارة واضحة إلى القومية والعصبية؛ لأنه دعاهم باسم الوطن، فما قال: يا إخوتنا، ولا قال: يا أيها المسلمون، إنما قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾؛ لأنه ليس عنده دين يقاتل من أجله، وإنما هو قومي، يريد الحمية فقط.

وقوله: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ إلى أين؟ يقول المؤلف: [إلى منازلكم من المدينة، وكانوا خرجوا مع النبي ﷺ، إلى سَلْع ـ جبل خارج المدينة ـ للقتال].

وقوله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ حسب ما يعرف في اللغة العربية، أنه نفي عام؛ لأن (لا) النافية للجنس تفيد العموم، يعني: ما فيها أي مقام، على أي حال من الأحوال ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾، ومثل هذا التعبير، إذا قيل لقوم ليس في قلوبهم إيمان، لا يُبْقِي منهم أحدًا لابد أن يرجعوا.

ثم قال الله ـ عز وجل ـ بناءً على هذا الأمر، وأنه لا مقام لهم ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ هؤلاء أهون من الأولين؛ لأن الأولين دعوا إلى الفرار بدون استئذان، حيث قالوا: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾، أما هؤلاء فهم يستأذنون النبي ﷺ، لكن استئذانهم للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس كاستئذان المؤمنين الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، لكنهم يستأذنون خداعًا، وتمويهًا، ولهذا يقول: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ أي: من المنافقين إلى الرجوع، والاستئذان يقولون: استئذن بمعنى، اطلب الإذن؛ لأن استفعل تأتي كثيرًا بمعنى طلب الشيء، فمن استغفر طلب المغفرة، ومن استعتب طلب العُتب.

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٦٣٥).

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ الجملة إما أنها حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ يعني: حال كونهم يقولون، وإما أن تكون عطف بيان، أو بدلًا من قوله: ﴿وَيَسْتَئْذِنُ﴾، وكلاهما له وجه؛ أما على قولنا: إنها حال، فلأن النكرة هنا وصفت، والنكرة إذا وصفت تخصصت فجاز وقوع الحال منها، وأما على قولنا: بأنها بدل أو عطف بيان، فعلى حد قول ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَيُبْدَلُ الفِعْلُ مِنَ الفِعْلِ كَمَنْ ... يَصِلِ إِلَيْنَا يَسْتَعِن بِنَا يُعَن

إذنْ يجوز فيها وجهان: أن تكون بدلًا من قوله: ﴿يستأذن﴾، وأن تكون حالًا من فاعل ﴿يستأذن﴾.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال: [غير حصينة، يخشى عليها] يقولون للرسول - عليه الصلاة والسلام - يبررون الاستئذان: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، ونخشى عليها من العدو، والعورة هنا يعني: غير حصينة؛ لأن الحصن يحميها ويسترها، كما يستر الثوبُ عَورةَ الرَّجُل، هذا معنى قولهم: إنها عورة، يعني: مكشوفة، لا نأمن هجوم العدو عليها، وفي قراءة لكنها غير سبعية ﴿عَوِرَةٌ﴾ بكسر الواو، أي: معيبة.

قال الله تعالى مبطلًا دعواهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ هنا ينبغي الوقوف على قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنك لو وصلت، لأوهم أن قوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ من قول المنافقين، فيكون في ذلك تناقض، وفساد للمعنى، فتقف عند قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ثم تستأنف القراءة، وتقول: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ قال المؤلف: ﴿إِن﴾، قال: [ما]، يعني تفسير لـ (إن) هنا على أنها نافية؛ لأنها فسرت بـ(ما)، وما نافية، ويدل لذلك إتيان ﴿إِلَّا﴾ بعدها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، فهذا دليل على أنها نافية.

و(إن) تأتي نافية كما قلت، وتأتي شرطية، مثل قوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾، وتأتي مخففةً من الثقيلة، مثل قوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، وتأتي زائدةً، ومثال ذلك من كلام العرب:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

هنا إن زائدة؛ لأن (ما إن أنتم) أي: ما أنتم.

إذنْ ما الذي يعيِّن هذه المعاني؟ السياق، وهذا باتفاق العلماء، أي: أن وجود الألفاظ المشتركة التي تتعين بالسياق ثابت في اللغة العربية، لكنهم اختلفوا في مسألة الحقيقة، والمجاز؛ فمنهم من أثبت ذلك، ومنهم من نفى، وقال: إن المجاز والحقيقة كالاشتراك في المعنى، وهذا هو القول

الراجح ـ كما سبق عدة مرات ـ أن الصحيح: أنه لا مجاز في اللغة العربية [1].

يقول: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ يعني: ما يريدون إلا فرارًا، وهذه الجملة جملة حصرية، يعني: تفيد الحصر، يعني: أن هؤلاء ما لهم إرادة إلا الفرار من القتال، فالبيوت محصَّنة، ولا يُخشى عليها أكثر مما يخشى على المدينة، وليس لهم أي عذر، إلا عذرًا واحدًا؛ وهو الفرار من القتال؛ لأنهم لا يريدون مواجهة العدو؛ بل هم العدو كما قال الله عنهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ [لو] هذه شرطية، وفعل الشرط فيها: ﴿دُخِلَتْ﴾، وجواب الشرط ﴿لَآتَوْهَا﴾. الفاعل: فسره المؤلف: بالمدينة، يعني: لو دخلت عليهم المدينة من أقطارها، وتفسيره إياها بالمدينة يؤيده قوله في أول الآية: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ وفسرها بعضهم: بالبيوت، أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ البيوت من أقطارها، ويؤيد هذا التفسير قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، لكن يرجح الأول بأنها المدينة قوله: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ لأن الغالب أن كلمة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لا تأتي للبيوت؛ لأن البيوت صغيرة، فجهاتها لا يطلق عليها قطر، وإنما الأقطار تكون للشيء الكبير، ولهذا قال: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ [قال: نواحيها].

يعني: لو دخل العدو المدينة من نواحيها كلها، أو من أي ناحية منها، قال: [﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: سألهم الداخلون ﴿الْفِتْنَةَ﴾ الشرك، ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد والقصر، أي: أعطوها، وفعلوها].

قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ نائب الفاعل: المنافقون، لكن من السائل؟ الفاعل في المعنى، وهو الداخل المدينة من أقطارها، فلو سألهم هذا الداخِلُ الفتنةَ، يقول المؤلف عن الفتنة: [الشرك]، والدليل على أن الفتنة بمعنى الشرك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يكون شرك، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[النور:٦٣] قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنةُ: الشرك.

هؤلاء لو دُخلتْ عليهم المدينة، لم يكن عندهم إخلاص في الإسلام وبقاء عليه، بمجرد ما يسألهم الداخلون الكفر يوافقون عليه؛ لأنهم قوم لا يريدون إلا الدنيا فقط، يريدون أن يعيشوا في الدنيا، ولو عيشة الحمار، أما أن يعيشوا عيشة المؤمنين، فإنهم لا يريدون هذا، لذلك يقول: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾.

وقوله: ﴿لَآتَوْهَا﴾ هذا المد، والفرق بينهما، أن (أتى) بمعنى جاء، و(آتى) بمعنى أعطى، وتفسير القراءتين، أو مجموع التفسير يدل على أنهم يعطون ما سئلوا ويأتون إليه بانقياد، يعني:

(١) وهذا القول غير متفق عليه بين العلماء؛ لأن المجاز فن من فنون البلاغة العربية التي وضع أسسها العرب، وظلت حتى الآن تستمد لها شواهد من القرآن والسنة وشعر العرب قديمًا وحديثًا.

أتى الشيء، جاء باختياره، وآتاه بمعنى: أعطاه ولو عن كُره، ولكن مع ذلك هؤلاء القوم يعطون ما سُئلوا عن اختيار؛ ولهذا في القراءة الثانية: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ أي: لجاءوها، فصار هؤلاء القوم الذين يعتذرون أو يستأذنون النبي ﷺ بحجة أن بيوتهم عورة، صار الأمر بخلاف ما قالوا؛ لأن الله أخبر عنهم، وهو سبحانه أعلم بما في قلوبهم، وهذا من اطلاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما في القلوب أخبر عن أمر مستقبل لم يقع يصدر من قوم لا نعلم نحن ما في قلوبهم، ولكن الله يعلم، والله يعلم ماذا يحدث من عبده لو حصل له ما يحصل به هذا القصد، بل إنه ـ سبحانه ـ يعلم أبلغ من ذلك، قال عن الذين يقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعملوا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما في قلب الإنسان.

وقوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ ﴿تَلَبَّثُوا﴾ بمعنى: تريثوا، يعني: لا يتريثون في إعطاء الفتنة وقبولها إلا يسيرًا، وقوله: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾، قيل: إن هذا بمعنى إلا عدمًا؛ لأن اليسير والقليل قد يُراد به العدم، وقال بعضهم: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: إلا قليلًا على وجه الحقيقة، وهذا الزمن اليسير، هو ما بين السؤال والجواب، أي: ما بين أن يُسْأَلوا ثم يجيبوا، وهذه المسافة من المدة قصيرة جدًّا، وهي كالمسافة التي بين قول القائل: بِعْتُك هذا الشيء، فيقول المشتري: قبلت، يعني: أنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يتريثون أبدًا، بل يقبلون فورًا، ليس بين قبولهم وسؤال الفتنة إلا ما بين مدتي السؤال والجواب.

وفي الحقيقة: أن هذه المدة قصيرة كالعدم، ولهذا فُسِّرَ قوله: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يعني: إلا عدمًا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾، الجملة هذه مؤكَّدة باللام، وقد، والقسم المقدَّر، فكلما جاء مثل هذا التعبير في القرآن، فإنه مؤكد بالمؤكدات الثلاثة، يعني: والله لقد كانوا عاهدوا الله من قبل.

القَسَم تقدم لنا أن الله يقسم على الشيء، لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية، وقد يقسم عليه في جانب الإنكار مثل قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، هنا أكد الله تعالى هذا العهد منهم، أنهم عاهدوا الله من قبل لا يولُّون الأدبار، وهذا العهد بينهم وبين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمعاهدة مع النبي ﷺ معاهدة مع الله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، فهم عاهدوا الرسول ﷺ ألا يفروا، ولا يولون الأدبار، ولكنهم نقضوا العهد؛ لأن نقض العهد والخيانة والكذب من خصال المنافقين، وتلك سجية فيهم ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ما محل قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ من الإعراب؟

قال بعضهم: لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب لقوله: ﴿عَاهَدُوا﴾.

وقال بعضهم: إنها بيان للمعاهدة، يعني: أن المعاهدة التي وقعت أنهم لا يولون الأدبار، وكلمة ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ تحتاج إلى مفعولين: المفعول الأول: ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: لا يولون عدوهم أدبارهم، أو تولية الدُّبُر معناه: الانصراف والانحراف، فبدل من أن تكون وجوههم نحو العدو تكون أدبارهم نحو العدو، فهم أقسموا بالأول، وعاهدوا أنهم لا يولون الأدبار عند ملاقاة الأعداء، ولكنهم نقضوا العهد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ قال المؤلف: [عن الوفاء به].

فعلى هذا لا تكون المسئولية ما هي عن العهد نفسه فقط، بل عن الوفاء به، فالعهد مسئول عن الوفاء به، والسؤال عن الوفاء به سؤال عن وقوعه أيضًا، فيقال مثلًا: أليس بيني وبينك عهد؟ ألم تنقض العهد؟ فيكون السؤال عن نفس العهد، وعن الوفاء به.

هل هذه المسئولية تكون في الدنيا، أم في الآخرة؟

الجواب: أما المسئولية التي تكون بين العبد وبين ربه فتكون في الآخرة، وأما التي تكون بينه وبين الناس فهي في الدنيا، يطالب بالوفاء بالعهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قوله: ﴿لَّن﴾ تفيد لن ثلاثة أشياء: النفي، والنصب، والاستقبال، يعني: أن الفعل المضارع محتمل لأن يكون للحال أو للاستقبال، فإذا دَخَلَتْ عليه (لن) تعين أن يكون للاستقبال. وهل (لن) للنفي المؤبد، يعني: تستلزم وتقتضي النفي المؤبد؟

الجواب: تكون للتأبيد ولغير التأبيد، ومثالها للتأبيد قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤]، والآية التي معنا قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وتأتي لغير التأبيد كما في قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] هل هم قد يضرون المؤمنين بغير أذى؟ لا بل لن يضروهم إلا أذى، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة:٧] نعم هم يتمنون الموت وهم في النار، ولكن في الدنيا لا يتمنون الموت.

والصحيح: أنها لا تستلزم التأبيد، ولكن قد تفيده كما قال ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا ... فَقَوْلَهُ ارْدُدْ..........

فما يمكن أن تأتي للتأبيد أبدًا، يعني معناه: لا تستلزم التأبيد، وإلا قد تفيده.

ولهذا قال أهل السنة: إن قول الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] لا يستلزم أنه لا يرى الله لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وأما المعتزلة، ومنكرو نعمة الله ـ تعالى ـ فإنهم يقولون: إن (لن) تفيد التأبيد، فتفيد أن الله لا يُرَى أبدًا.

وقوله: ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: فإن لم تفروا من الموت أو القتل، نفعكم الفرار؟

الجواب: لا؛ لأن هذا القيد لبيان الواقع؛ لأنه لا فرار إلا إذا فروا، فهو لا ينفعهم أي شيء من الموت أو القتل، قال: ﴿وَإِذًا﴾، لو فرض أنكم فررتم من الموت أو القتل، [﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بقية آجالكم]، يعني: على فرض أنكم فررتم من الموت أو من القتل فهل ستبقون في الحياة؟

الجواب: لا، إن فروا ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو بقية آجالهم، هذا على تقدير فرارهم، وحينئذٍ ما الفائدة من أن يدع الإنسان القتال المفروض عليه ويولي الدبر لأمرٍ قد ينفعه، وقد لا ينفعه، قد يموت في حالة توليه، وقد يبقى ويعمر، لكن لو بقي وعمَّر، هل سيبقى أبدًا؟ لا، لا يمتع إلا قليلًا، مهما طال الأمد به، فإنه قليل، ولهذا الدنيا كلها بالنسبة للآخرة ليست بشيء، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]، وأخبر النبي ﷺ: «أَنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ الإِنْسَانِ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فالمتاع في الدنيا في الحقيقة ليس بشيء بالنسبة لوقت الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثم هناك شيء آخر، فلو قُتلوا في سبيل الله، فإنهم قتلوا ولكنهم أحياء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، هذا القول باللسان نهينا عنه، وحتى الظن بالقلب نهينا عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فلا يجوز القول ولا الحسبان بأن من قُتل في سبيل الله يكون ميتًا، بل هو ميت البدن، لكنه حي الروح؛ حياة برزخية، وليست كحياة الدنيا، ولو كانت كحياة الدنيا ما جاز أن يدفن هؤلاء، لأنا لو دفناهم وهم أحياء الحياة الدنيوية، لكنَّا قد قتلناهم وأهلكناهم.

وبهذا نعرف ضلال من قالوا: إنهم أحياء يسألون لك إذا سألتهم أن يدعوا الله، ويجيبونك، ويتوصلون بهذا الشيء إلى الإشراك بهم وبالأنبياء، وبمن يزعمونهم أولياء.

مسألة: هل قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] خاصة بالشهداء فقط؟

الجواب: هي خاصة بالشهداء ومن هو أفضل منهم هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يكون هذا خاص بالشهداء فقط؛ لأن الشهداء تعرضوا للموت؛ ابتغاء وجه الله، فبعض أهل العلم يقول: إذا ثبت هذا للشهداء ـ الحياة البرزخية ـ فلمن هو أفضل منهم أثبت، مثل الصديقين والأنبياء،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

ولكن عندي أن فيه احتمالًا بأن هذا خاص بالشهداء، وذلك لأن الشهيد ليس كغيره، فالشهيد عرض نفسه للموت وباع نفسه، فيُجازى أن يكون حيًّا [1]، لكن المشهور أن من هو أعلى من الشهداء له ذلك الحكم، والأنبياء لهم خصيصة أخرى أيضًا ما هي لغيرهم، وهي أن الأرض لا تأكل أجسادهم.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مثل هذا التعبير ذكر فيه المفسرون أنه يراد به العدم يعني: لا يؤمنون أبدًا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان إرجاف المنافقين للمؤمنين، والإرجاف هو: أن يُذكَر للإنسان ما يكون به الخوف والقلق، وفي باب القتال: مرجِف، ومُخذِّل، والفرق بينهما: أن المرجِف: من يخوف، والمخذِّل: من يقلل الرغبة في الخير، فالمرجف يرهبك، والمخذل يثبط عزيمتك، فبينهما فرق، فهل هؤلاء مرجفون أم مخذِّلون؟ هم مرجفون قالوا: لا يوجد مقام هنا، لأنه خطر عليكم، ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيستفاد منه: أن المنافقين من شأنهم الإرجاف بالمؤمنين.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاعتزاز بالوطن من صفات المنافقين؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، وقصدهم بذلك إحماء حميتهم الوطنية، وأما الحديث الذي يُروى «حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ» فإنه كذب على الرسول ﷺ، وليس من الإيمان.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تسمية المدينة بـ(يثرب)، هكذا استدل به بعضهم، ووجه قول هذا القائل: أن الله تعالى حكاه عنهم وأقره، ولكن بعض أهل العلم، قال: لا يدل على ذلك، بل إنما يدل على العكس، وأن تسميتها بيثرب، إنما يكون من المنافقين؛ لأن الله تعالى يحكي الكفر عن الكافرين، - يحكي كل ما يقول هؤلاء الكفار من المنافقين وغيرهم - وهل ما حكاه عنهم من الكفر إقرار له؟

الجواب: لا، إذنْ يستفاد من الآية: أن تسمية المدينة بـ(يثرب) من شأن المنافقين، ولهذا قال النبي ﷺ: «يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ المَدِينَةُ»، وهذا واضح؛ لأن الرسول ﷺ لم يرتض هذه التسمية، ويتفرع على هذه الفائدة: بيان ما كان عليه أولئك المؤرخين، - لا نقول العرب - بل الإسلاميين الذين هم إمعة، جاء المستشرقون، فكانوا يتحدثون باسم محمد فقط، قال محمد كما قال الكفار في عهد النبي ﷺ، ويتحدثون عن المدينة بأنها يثرب، فجاء هؤلاء المساكين يقلدون هؤلاء

---

(١) وقد قيل: إن الشهيد باع الحياة فجُوزي بالحياة.

المستشرقين، فصاروا يعبرون عن الرسول بكلمة محمد، ويعبرون عن المدينة بكلمة يثرب، وكأن هذا هو الفخر والرقي.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك المرجفين، لم يقتصروا على الإرجاف، بل ضلَّلوا الناس بقولهم: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيستفاد منه فائدة تتفرع على هذا: أن كل من دعا إلى الرجوع عن الحق ففيه شبه بالمنافقين؛ لقولهم: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ هؤلاء أرجفوا أولًا، ثم دَعوا إلى الترك.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان مكر المنافقين؛ حيث جاءوا يستأذنون النبي ﷺ تمويهًا، وإلا ليس في نيتهم البقاء، لكن يموهون ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾، ففيه دليل على: تمويه المنافق، وإظهار حاله بحال المؤمن المنقاد الذي لا ينصرف إلا بعد الاستئذان، مع أن الاستئذان في مثل هذه الحال من شأن المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من شأن المنافقين الكذب؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وهم كاذبون في ذلك.

٧- **ومن فوائدها:** بيان إحاطة علم الله ـ تعالى ـ بما في القلوب؛ لقوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أما قوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، فهذا قد يُعلم، لأنه ظاهر أن البيوت حصينة، ولا عليها أحدٌ من العدو، لكن ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾، والإرادة في القلب لا يعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ أو صاحبها، أو من أطلعه الله تعالى عليها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب تكذيب الناطق بالباطل، وهل يصح التعبير بكلمة وجوب أو نقول: مشروعية؟ هو إن نظرنا إلى أن الباطل يجب إبطاله، قلنا: يجب، لكن الكلام على هذا هل يؤخذ من الآية؟ نقول: الآية فيها مشروعية ذلك، أي: إبطال قول الناطق بالباطل؛ لأن الله ـ تعالى ـ أبطله في قوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المنافقين أشد الناس ذُعرًا؛ لقوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾؛ لأن عندهم ذعرًا من هؤلاء الذين دخلوا عليهم من أقطارها.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** قرب المنافقين من الكفر والشرك؛ لقوله: ﴿سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ مبادرين، فلا يتريثون ويقولون: ننظر في الأمر.

مسألة: وهل يستفاد من هذه الآية أنه لا حكم للإكراه، وأن الإنسان إذا كفر مُكرهًا، فإنه يترتب على كفره حكم الكافر، أم لا؟

الجواب: لا يستفاد، لأن هؤلاء سُئِلوا ما أُكرهوا، فبمجرد السؤال وافقوا، فليس فيه معارضة لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦]، فإنه لا يعارض هذه الآية.

٣ـ **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان أن المنافق، حياته حياة مادية يريد أن يعيش سواءٌ كان كافرًا أو غير كافر، لأن هؤلاء إذا سُئلوا الفتنة، أتوها؛ إذنْ فإيمانهم ليس إيمانًا حقيقيًا، إلا المؤمن الحقيقي، فإنه إذا سئل الشرك ما أشرك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المنافقين أصحاب غدرٍ وخيانة، لقوله: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ﴾ وهم الآن يحاولون الإدبار، لكنهم يموِّهون بسؤال النبي ﷺ واستئذانه.

إذنْ يتفرع على هذه الفائدة: أن كل من نقض العهد ففيه شبه من المنافقين واليهود، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ»[1] ومنها: «إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»، يتفرع على ذلك: أنه إذا كان الغدر من صفات المنافقين، فالواجب على المؤمن البعد عنه، ولو لم يكن من الغدر إلا أنه من صفات المنافقين، لكان ذلك كافيًا في وجوب البُعد والحذر منه.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** استهانة المنافق بحق الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ ﴾ يعني: نقض العهد مع الإنسان مثله، قد يكون أهون، لكن نقض العهد مع الله ـ عز وجل ـ أشد وأعظم.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تحريم تولية الأدبار عند ملاقاة العدو، ووجه ذلك: أن الله ـ تعالى ـ ذَكَرَ هذا عن المنافقين؛ تحذيرًا منه، وقد دلت الآية الكريمة في سورة الأنفال، على أنه من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٥، ١٦]، وجاءت الأحاديث في عد ذلك من الموبقات، يعني: المهلكات؛ لأنه من الكبائر[2].

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** إثبات الحساب:لقوله:﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾، فكل ما بينك وبين الله ـ عز وجل ـ من الحقوق، فإنك مسئول عنه يوم القيامة، قال تبارك تعالى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦،٧].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣)، و مسلم (٥٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، و مسلم (٨٩).

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

١ - **في الآية هذه دليل على**: أنه لا فرار من قدر الله، لقوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ وهل قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، متعلق بـ ﴿فَرَرْتُم﴾ أم بالفرار؟ بالفرار ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ﴾ الفرار ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ إن فررتم، فتكون الجملة الشرطية: ﴿إِن فَرَرْتُم﴾ جملة معترضة، وهذا أوضح في المعنى، فيستفاد: أنه لا فرار من قدر الله.

وهل يستفاد من الآية إبطال الأسباب، لأن الإنسان لو رأى نارًا تلتهم الشَّجر مقبلة عليه، هل يهرب أم لا؟ يهرب؛ ربما ينجو.

ولو قال قائل: هذه الآية تنفي العمل بالسبب.

فالجواب على ذلك أن نقول: إذا كان العمل بالسبب مبطل لحكم شرعي، فإنه لا يجوز، كهذه الآية، أو كهذه الحال.

فإبطال الأسباب القَدَرِيَّة بانتهاك الأحكام الشرعية، هذا لا يجوز، يعني: كون الإنسان يترك الحكم الشرعي الواجب؛ خوفًا من آثاره، فهذا ليس بجائز، لكن إذا كان سببًا حقيقيًّا مأذونًا فيه شرعًا، فلتفعلْه، لا نقول للرجل: إذا رأيت النار مقبلةً عليك فقف، فإن الفرار لا ينفعك، فهذا غير صحيح، بل نقول في هذه الحال: فِرَّ؛ لأن هذا سبب مباح، مأذون فيه شرعًا، وسبب حقيقي، لكن أن نجعل الأسباب معطلة للأحكام الشرعية هذا لا يجوز.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة**: بيان نفوذ حكم الله - عز وجل - الشرعي والقدري، أما القدري: فلا إرادة لك فيه، وأما الشرعي: فلك فيه إرادة، ولهذا نقول في الحكم الشرعي: وجوب تنفيذ حكم الله الشرعي؛ لأن الله تعالى عاب هؤلاء الفارِّين، لكون فرارهم يتضمن إسقاط حكم شرعي.

٤- **ومن الفوائد**: أن البقاء في الدنيا - وإن طال - فهو قليل؛ لقوله: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

٥- **ومن فوائد الآية**: توبيخ هؤلاء الذين فرُّوا؛ للإبقاء على حياتهم، هذا يؤخذ من أمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، ولهذا لا شك أنه على سبيل التوبيخ لهم، ولهذا قال: ﴿وَإِذًا﴾ أي: لو فررتم، ونجوتم من هذه الحادثة، لا تنجون من الموت؛ لأنه ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧-١٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

قال المؤلف في معنى ﴿يَعْصِمُكُم﴾ [يجركم] ولكن الصواب أن المراد بها: يمنعكم؛ لأن العصمة هي المنع، ومنه المعصوم، يعني: الممنوع من الخطأ، فالصواب أن ﴿يَعْصِمُكُم﴾ أي: يمنعكم من الله.

وقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي﴾ ﴿ذَا﴾ اختُلف في إعرابها على وجهين: الأول: أنها اسم إشارة، والآخر قال: إنها ملغاة، والصواب: أنها ملغاة؛ لأنها إذا جاء بعدها اسم موصول، فإنها تكون ملغاة، مثل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾.

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ الاستفهام هنا يراد به النفي، أي: لا أحد يعصمكم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام، فإنه أبلغ من النفي المجرد، لأنه يكون نفيًا مُشربًا بالتحدي، كأنه يقول: أخبروني أيعصمكم أحد من الله إن أراد بكم سوءًا؟! هذه قاعدة في كل ما يكون فيه الاستفهام بمعنى النفي، أن نقول: عُدل عن النفي المحض إلى الاستفهام؛ ليكون مُشربًا معنى التحدي.

وقوله: ﴿يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾؟ الجواب: لا أحد.

يقول: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ قال: [هلاكًا و هزيمة]، هلاكًا إذا لم يكن هناك قتال، أو كان قتال فقُتلتم، أو هزيمة إذا غلبتم، وبقيتم، وكل ذلك سوء، لكنه سوء بالنسبة للمكلَّف، أما بالنسبة لفعل الله -عز وجل- فإنه خيرٌ؛ لأنه لحكمة، قال المؤلف: [﴿أَوْ﴾ يصيبكم بسوءٍ إن أراد الله بكم رحمة].

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قدَّر هذه الجملة؛ لأنه ذكيٌّ جدًّا، قال: [أو يصيبكم بسوءٍ]، يصيبكم معطوفة على يعصمكم، يعني: أو من ذا الذي يصيبكم بسوء، إن أراد الله بكم رحمة، خيرًا؟ والجواب -

أيضًا ـ كالسابق، لا أحد، وإنما قدم المؤلف: أو يصيبكم بسوء، على خلاف ظاهر السياق؛ لأن الرحمة لا تعد مصيبة حتى تحتاج إلى العصمة، فإنه إذا أراد الله للإنسان رحمة، ما يقال من ذا الذي يعصمه منها؛ لأن الرحمة مطلوبة، لا يتطلب الإنسان فيها أحدًا يعصمه منها، فلهذا قدر قوله: أو يصيبكم بسوء يعني: أو يصيبكم أحد بسوء، إن أراد الله بكم رحمةً.

ولكن الصحيح أنه لا حاجة إلى هذا التقدير، إذا جعلنا العصمة بمعنى المنع، فالمعنى: من الذي يمنعكم من الله إن أراد بكم سوءًا، ومن الذي يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة، فالفرار لا يمنعكم من السوء الذي أراد الله بكم، والبقاء لا يجلب لكم الرحمة التي أراد الله بكم، فالكل بيد الله ـ عز وجل ـ لا ينفعكم الفرار ولا البقاء.

وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المؤلف: [خيرًا] وإذا كنا فسرنا الأول بالهلاك والهزيمة، فالمراد بالخير هنا النصر والبقاء.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: [أي: من غيره ﴿وَلِيًّا﴾ ينفعهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم].

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ أي: هؤلاء الذين فروا من القتال، لن يجدوا أحدًا ينفعهم، أو يجلب لهم الخير، أو يدفع عنهم الضرر، والولي هو الذي يتولى أمرك، ويعتني بك، فهؤلاء لا يجدون أحدًا سوى الله.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾، يعني: بالولاية العامة؛ لأن عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة، تشمل، كل أحد، وولاية خاصة للمؤمنين فقط، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، أما بالمعنى العام، فمثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، فإن هذه، الولاية العامة؛ لأن الله ـ تعالى ـ وليٌّ على كل أحد بالمعنى العام، الذي هو التدبير، والملك، والسلطان.

وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ النصير

هو الذي ينصرك عند ملاقاة الأعداء، فهؤلاء ليس لهم أحد يتولاهم بجلب الخير لهم، ولا ينصرهم بدفع الضرر عنهم؛ لأن الأمر كله لله.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال المؤلف: [﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿مِنكُمْ﴾ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾] قوله: ﴿قَدْ﴾ هنا، للتحقيق، والأصل: أنها إذا دخلت على الفعل المضارع، فتكون للتقليل، يقال: قد يجود البخيل، لكن هي هنا للتحقيق؛ لأن علم الله ـ عز وجل ـ محقق وليس للتقليل، وإنما جاءت

قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ﴾ دون قد علم، ليفيد أن علم الله - تعالى - مستمر بهم، من ذلك الوقت إلى يوم القيامة؛ لأن الله - تعالى - عالم بهم وبأحوالهم وتقلباتهم.

وقوله: ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ قال المؤلف: [المثبطين]؛ لأن المثبِّط يعوق الإنسان، أي: يحول دونه ودون مراده، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالمخذِّل، والفقهاء يقولون في باب الجهاد: يجب على الإمام أن يمنع المخذِّل والمرجِف، فالمخذل الذي يثبط العزائم، يقول: ما يوجد داعٍ للجهاد، وليس عندنا استعداد، وما أشبه ذلك، والمرجِف هو الذي يُرهب من الأعداء ويخوِّف منهم، يقول: الأعداء كثيرون، وأسلحتهم قوية، وما أشبه ذلك.

يقول تعالى: ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾، الخطاب للنبي ﷺ والصحابة، فُهِم أنه موجود في الصحابة من يعوِّق.

وقوله: ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ﴾ قال: [تعالوا ﴿إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ﴾ القتال، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعةً].

قوله: ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾ معطوفة على ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾، يعني: ويعلم القائلين لإخوانهم هلم إلينا، وهذا غير التعويق، لأن المعوق هو الذي يعرض الشيء، ولكن لا يدعوه، لكن هؤلاء يقولون لإخوانهم، فهو أبلغ من التعويق، وقول القائلين لإخوانهم هذه غير المعوقين، فليس عطف صفة، ولكنه عطف ذات، والأصل في التعاطف أن يكون لتغير الذوات، وقد يكون لتغير الصفات، وقد يكون لتغير اللفظ.

وقوله: ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَا﴾ هذا في المنافقين، وسمُّوا إخوانهم في النسب، وليسوا إخوانهم في الدين، اللهم إلا أن يراد الأخوة الظاهرة، فإن هؤلاء يتظاهرون بأنهم مؤمنون.

وقوله: ﴿هَلُمَّ﴾ تعالوا إلينا، هل هي فعل أمر أم اسم فعل أمر؟ ﴿هَلُمَّ﴾ اسم فعل أمر، لأنه ليس كل ما دل على الطلب، فهو فعل أمر، فالمصدر قد يدل على الطلب، كما لو قلت: ضربًا زيدًا، لكن ما دل على الطلب بذاته يعني: بغير أداة خارجية، فإما أن يقبل علامة فعل الأمر أو لا، فإن قبلها فهو فعل أمر، وإن لم يقبل فهو اسم فعل أمر، أو قد يكون مصدرًا نائبًا عن الأمر، وقولنا: بغير أداة خارجية؛ احترازًا من المضارع المقرون بلام الأمر، فالمضارع المقرون بلام الأمر، يدل على الأمر، لكن لا بذاته، بل بأداة أخرى خارجية، وهي لام الأمر، فـ ﴿هَلُمَّ﴾ هنا: اسم فعل أمر، لأن عيسى مثلًا، نقول له: هلم إلى الدرس، وهلم إلينا، وأحمد وعيسى نقول لهما: هلم إلينا، ونضم إليهما سيدًا ونقول لهم جميعًا: هلم إلى الدرس، فهو لم يتغير وظل مفردًا سواء كان: مثنى، جمعًا، أما إذا كنا نخاطب واحدًا، فنقول: هلم إلينا، وإذا كنا نخاطب اثنين، فنقول: هلما إلينا، ونخاطب ثلاثة فنقول: هلموا إلينا، لكان فعل أمر، ولهذا نقول: قم، وقوما، وقوموا.

فهي إذنْ اسم فعل أمر تخاطب بها الواحد، والاثنين، والجماعة، ولا تتغير، هذا على لغة

الحجاز، أما بنو تميم فإنها عندهم فعل أمر، ولهذا يقولون للواحد: هلم إلينا، وللاثنين: هلما إلينا، وللجماعة: هلموا إلينا، هذا يدلنا على أنها اسم فعل أمر؛ لأنها لو كانت فعل أمر، لقال: هلموا إلينا، أي: تعالوا إلينا، يدعون غيرهم لترك القتال.

قال: [﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ القتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾]، والقليل هنا قد يراد به العدم، وقد يكون المراد به: الشيء اليسير ـ القلة ـ ويمكن أن يراد به العدم بالنسبة لقوم، والقلة بالنسبة لآخرين من المنافقين؛ لأن من المنافقين من لا يحضر القتال أصلًا، ومنهم من يحضر قليلًا للرياء والسُّمعة، ومعلوم أن من يلاحظ الرياء والسمعة، فإنه إذا كان في محل يجد الرياء والسمعة حضر، وإذا كان في محل لا يجد رياء ولا سمعة لم يحضر، فما الفرق بين الرياء والسمعة؟

نقول: الرياء يعود إلى الأفعال، والسمعة، تعود إلى الأقوال؛ لأن الأفعال تُرى، والأقوال تُسمع، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ رَاءَىٰ، رَاءَىٰ اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ»[1] فإذا تكلم شخص بذكر، ورفع صوته ليُسمع، فيثنى عليه به، فنصف فعله بأنه سُمعة، وإذا قام يصلي ليراه الناس، فهو رياء، وقد يطلق الرياء عليهما جميعًا، لكن عندما يجتمعان، يكون الرياء في الأفعال، والسُّمعة في الأقوال.

يقول الله: [﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة، جمع شحيح، وهو حال من ضمير ﴿يَأْتُونَ﴾]، قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، والشحيح: هو المانع مع الحرص، والبخيل: هو المانع بدون حرص، فإذا كان الإنسان مَنوعًا جموعًا يعني: مع الحرص، يسمى ذلك شحيحًا، وإن كان بخيلًا، لكنه ليس ذات الرجل الذي يكون حريصًا على جمع المال مثلًا، فإنه يسمى: بخيلًا، ولهذا قال النبي ﷺ، محذرًا من الشُّح: «اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2].

يقول: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ نصبت على الحال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾، يعني: لا يأتون إلا قليلًا، ومع ذلك يأتون أشحة عليكم، يعني: وهم أشحاء عليكم، لا يريدون أن تصلوا إلى خير، بل يحبون أن يمنعوا كل خير عنكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخوف ليس ذاتًا تأتي، لكنه معنىً يأتي، والمجيء يكون للمعاني، ويكون للذوات، فتقول: جاءه المرض، وتقول: جاء زيد، فالمجيء هنا أسند إلى معنىً، جاء الخوف ممن؟ هو عام، إذا جاء الخوف سواءً كان من الأعداء الذين حضروا إلى المدينة، أو الخوف من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يطلع على أحوالهم، يخافون من أن يفضحهم الله ـ تعالى ـ بأفعالهم، أو أن يسلط عليهم رسوله.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٦).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

يقول: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخطاب هنا: هل هو للرسول ﷺ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب؟ نقول: يحتمل أن يكون للرسول ﷺ، وهو الأقرب، ويحتمل أن يكون لكل من يوجه إليه الخطاب.

وقوله: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الرؤية هنا بصرية، وعلى هذا فلا تنصب إلا مفعولًا واحدًا، وهو الهاء، وتكون جملة: ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالًا من الهاء.

وقوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لأن الخائف غالبًا يركز على جهة الخوف، سواء كان شخصًا، أو أشخاصًا عند الجهة التي هي مصدر الخوف، وتدور عينه على غير نظر سليم، يعني: كأنها تدور بغير اختياره من شدة الخوف، ثم شبه حالهم بعدما شبه أبصارهم، قال: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، قال المؤلف: [كنظر أو كدوران]، فإن كانت ﴿كَالَّذِي﴾ عائدة على ﴿يَنظُرُونَ﴾، قدَّرنا نظر، وإن كانت عائدة على الذين تدور أعينهم قدَّرنا كدوران، ولكن الذي يناسب القرآن الأول: نظر، كما قال تعالى في سورة القتال: ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠] وربما نقول: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ليس عائدًا على النظر، وإنما هو عائد على حاله، يعني: كالإنسان المغشي عليه من الموت لا يستطيع أن يتكلم، لأن أرياقهم يبست، ودماءهم غارت، بسبب الخوف، إذا جاء الخوف، فإنه تتغير أبصارهم وتتغير أحوالهم أيضًا.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ الذي يغشى عليه من الموت، لا شك أنه يصفر وجهه، ولا يستطيع أن ينطق في الغالب، ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ قال المؤلف: [أي: سكراته] ﴿مِنَ﴾ هنا: للسببية، وهل من تأتي للسببية؟ نعم تأتي في مواضع كثيرة، والأصل فيها أنها للابتداء، حتى زعم بعض النحويين أنها في كل مكان تكون للابتداء، حتى حين إذا جاءت سببية، قال: لأنها ابتداء السبب، لكن الصحيح ما ذهب إليه ابن مالك وغيره من النحويين أنها تأتي بمعانٍ كثيرة قال:

بَعِّضْ وَبَيِّنْ، وَابْتَدِئ فِي الْأَمْكِنَة ... بِمَنْ وقد تأتي ببدء الأزمنة

قال ابن مالك:

وَزِيدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهِ فَجَر ... نِكِرَةً كما لِبَاغٍ مِن مَفَر

قال: [﴿مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذوكم أو ضربوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: الغنيمة يطلبونها، ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ حقيقةً ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾]، إذا ذهب الخوف صار هؤلاء الذين كانوا حين الخوف كالمغشي عليه من الموت، ينطقون بطلاقة.

قوله: ﴿سَلَقُوكُم﴾ يعني: أصابوكم بشدة ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: شديدة قوية، والمراد

بالألسنة هنا الكلام، لأن الكلام يعبر عنه باللسان، والمعنى: أنهم يُجادلون ويناظرون، ويقولون: نحن معكم، ونحن نساعد، نحن خرجنا، وما أشبه ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١] وعادوا في غلبتهم للمسلمين؛ لأنه لا شك أن الإنسان قد يغلب خصمه في الكلام، كما قال الله عن قصة داوود: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غلبني، والإنسان اللَّسن، الذي عنده بيان، وعنده فصاحة قد يغلب، ولو كان على باطل، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فَأَقْضِي لَهُ بِنَحوِ مِمَّا أَسْمَعُ» يعني: ولو كان على باطل، فالإنسان قد يغلب ببيانه الحق، ولهذا كما تعلمون، في الحديث الصحيح «إِنَّ مِنْ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1] هؤلاء المنافقون الذين في حال الخوف، التي صورها الله ـ عز وجل ـ ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، لكن إذا ذهب الخوف، واطمأنوا ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، يعني: أصابوكم بشدة بهذه الألسنة الحداد.

وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ هذه حال من الواو في قوله ﴿سَلَقُوكُم﴾، ما المراد بالخير هنا؟ يقول المؤلف: أي: الغنيمة يطلبونها التي أصابها المسلمون بانتصارهم، قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، [حقيقةً]، ولو آمنوا، ما فعلوا هذا الفعل، ما كانوا يخافون من البأس، ولا كانوا يدَّعون ما لا يستحقون، فيما إذا انتهت المعركة.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أحبطها، يعني: أبطلها حتى لا ينتفعوا بها، وكان ذلك الإحباط على الله يسيرًا، [بإرادته]، لأنه سبحانه لا يخشى من أحد، كما قال في قوم صالح: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤] ما يخاف سبحانه من عاقبتها، بخلاف المخلوق، المخلوق قد ينكِّل بشخص، ويعاقبه، ولكنه يخشى من عاقبته، يخشى من قبيلته يخشى من الغدر به، وما أشبه ذلك، أما الرب ـ عز وجل ـ فإن كل أمر يسير عليه، ولا يخاف من أحد حين ينتقم منه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن حكم الله نافذ في الخلق، لا يمنعه أحد، وجه ذلك قوله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والاستفهام هنا ـ كما سبق ـ بمعنى النفي.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** الرد على بعض طوائف القدرية الذين يقولون: إن الله لا يريد السوء، فهو

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧).

يريد الخير، ولكن لا يريد السوء، وفي الآية إشكال، وهو: أن ظاهرها أن الله يريد السوء، مع النبي ﷺ، يقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1] فما هو الجواب؟

الجواب: أن السوء بالنسبة للمفعولات، أما بالنسبة لفعل الله نفسه، الذي هو فعله فليس بسوء، فالمرض ـ مثلًا ـ سوء بالنسبة للعبد، يسوؤه ولا يسره، لكنه بالنسبة لتقدير الله له، خير وحكمة، كما أشرنا إلى هذا كثيرًا.

إذنْ نقول في الجواب على هذا الإشكال: إن السوء عائد إلى المفعول، لا إلى الفعل الذي هو تقدير الله، ونظير ذلك لو أن أبًا شفيقًا رحيمًا، أصيب ولده داءٌ فكواه بالنار ـ بالحديدة المحماة على النار ـ لكان هذا ولا شك يسوء الولد؛ لأنه يؤلمه ويوجعه، لكنه إساءة إليه أم لا؟ لا، هو بالنسبة لفعل الأب ليس إساءة بل هو خير، وإن كان يؤلم الطفل.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ عز وجل ـ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع؛ لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فلا أحد يمنع ما أعطاه الله، ولا أحد يعطي ما منعه الله، وعلى هذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»[2].

٥- ومن فوائدها: أن فيها حثًّا على تعلق الإنسان بالله ـ سبحانه ـ دون غيره، لقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فإذا كان الأمر كله بيد الله فإن الإنسان يتعلق بربه، دون غيره.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة، أن أولئك الكفار لن يجدوا أحدًا ينصرهم أو يتولاهم من الله، لقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فيترتب على ذلك قطع كل عُلْقة تكون بين المشركين، وبين أصنامهم، وأن أصنامهم لا تنفعهم مهما كان الأمر، ولكنه يَرد على هذا إشكال وهو: أن هؤلاء الذين يدعون الأصنام قد يحصل لهم ما دعوا به هذه الأصنام، فكيف نقول: إنها لا تنفعهم؟

الجواب: أن هذا قد يقع ابتلاءً وامتحانًا من الله ـ عز وجل ـ، ونحن نعلم أن هذا لم يحصل بهذه الأصنام، أو بدعاء هذه الأصنام، وإنما حصل عندها، وما حصل يكون عند الشيء، ليس كالذي حصل في الشيء، فإن قلت: نحن لا نقبل مثل هذا، أنه حصل لا بدعائهم، فما دام الرجل دعا ثم حصل بدعائه، كيف تقول: إنه من أمر خارج ليس من دعائهم! فما هو الجواب؟

نقول مثلًا: رجل ذهب إلى القبر وقال: يا سيدي يا مولاي أنا فقير أريد مالًا، وفي نفس اليوم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، وأبو داود (٧٦٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

مات له قريب فخلف له ملايين، فما الجواب؟ الجواب: أنه ابتلاءٌ، وفتنةٌ، وامتحانٌ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قطع كل تعلق بغيره قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، لنعلم بالآية الكريمة أن هذا لا يستجيب لك إلى يوم القيامة، وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، هذه آيات واضحة جدًّا، أنه ما يمكن أن يستجيب، إذا لم يمكن أن يستجيب له، فنعلم علم اليقين أن هذا الذي حصل ليس بدعاء هذا الولي، لأن الله نفى أن يستجيب له.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخره.

١- يستفاد من الآية: إحاطة علم الله سبحانه بكل شيء؛ لأن هذه المسألة جزئية من العالم، فقول هؤلاء: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، وتعويقهم فرد من أفراد العالم جزء بسيط، لا ينسب إلى العالم، ومع ذلك يعلمه الله، والعالم بالدقيق، عالم بالجليل من باب أولى، ففيها إثبات إحاطة علم الله بكل شيء جملةً وتفصيلًا.

٢- **ومن فوائدها:** ثبوت علم الله في المستقبل؛ لأن ﴿يَعْلَمُ﴾ جاءت بصيغة المضارع.

٣- **ومن فوائدها:** التهديد والتحذير من التعويق عن القتال، لقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا من أجل تهديدهم حتى لا يفعلوا ذلك.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تعاون المنافقين بعضهم مع بعضهم، لقوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، وإذا كان كذلك، فإن ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ تكون عطفًا على ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾، من باب عطف الصفات، وذكرنا في التفسير، أنه محتمل أن تكون عطف الصفات أو عطف الذوات، فإن كان عطف الصفات، صار المعوقون هم القائلين، وإن كان عطف ذوات، فهو قسمين: معوق، وقائل، فالمعوِّق قد يدعو، وقد لا يدعو، ولكن على كل حال هي في المنافقين، لأن آخر الآية يُبطل الاحتمال الذي ذكرناه أن تكون في أحد من المؤمنين.

٥- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن أولئك المعوقين لغيرهم، هم بأنفسهم جبناء، لقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهم جبناء ومخذِّلون مرجِفون.

٦- **ومن فوائدها:** أن كل إنسان يصاحب غيره ويمتزج به؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، فإن هذه أخوة في الشر، وليست في الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

١- **في هذه الآية دليل على**: بخل المنافقين بما ينفع المؤمنين، وأنهم لا يأتونهم إلا عن كراهية، كالشحيح بدين ما، لقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

٢- **ومنها**: جبن المنافقين، وأنهم في غاية الجبن، لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، إلى آخره، وبهذا نعرف أنهم أحق الناس بما وصفوا به النبي ﷺ، وأصحابه، قالوا: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء**»، فنقول: إن هذه الأوصاف أنتم أحق الناس بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: شدة فزع المنافقين عند الخوف؛ لأن تصويرهم بهذه الصورة يدل على الفزع العظيم الذي ينالهم عند الخوف.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: شدة محبة المنافقين للحياة؛ لأنهم لما بلغوا هذا المبلغ من الخوف، حرصًا على الحياة، وذلك خوفًا من الموت بالقتال.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: قوة تصوير القرآن للأحوال الواقعة؛ لأن هذه الصورة التي ذكرها الله صورة مدهشة، تجعل الإنسان يتخيل شدة فزعهم، كأنها رأي عين.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للموت سكرات، لقوله: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، وهذا بالنسبة للموت العادي، أما الموت المباغت، قد لا يكون فيه سكرات، فقد يموت الإنسان بغتةً، كالذي يحدث في الحوادث وسكتات القلوب، وما أشبه ذلك.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الجبناء من المنافقين، إذا ذهب الخوف عنهم رأيتهم حين الخوف كالأموات، أو كالذي يغشى عليه من الموت، إذا ذهب صاروا أبطال الكلام وأمراء الفصاحة، والتسلط؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾، يعني: إذا ذهب الخوف بدأوا يتكلمون.

٨- **ومن فوائدها**: شدة حنق المنافقين على المؤمنين، وأنهم عليهم أشداء غلاظ لقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أن المنافقين كما قال الشاعر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوْبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ تَنْفِر مِنْ صَفِيْرِ الصَّافِرِ

فهم على المؤمنين أسود بالباطل، وعند الكفار نعامة، والنعامة جبنها شديد، إذا رأت الصياد، قالت: هذا يقتلني ثم تتراجع إلى الوراء.

١٠- **ومن فوائدها**: علم الله - سبحانه وتعالى - بما في القلوب؛ لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾؛ لأن الظاهر لنا أنهم مؤمنون، لكن في الواقع هم غير مؤمنين.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من هذه الصفات التي يتصف بها المنافق، حتى وإن كان الإنسان مؤمنًا، لأنها صفات غير المؤمنين، لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾، والمؤمن منهي عن الاتصاف بصفات غير المؤمنين.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكفر محبط للعمل، سواءٌ كان ظاهرًا أم باطنًا لقوله: ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾، وهذه الجملة من هذه الآية فيها إشكال، لأن الإحباط فرع عن قيام الشيء، وهم منافقون، أعمالهم باطلة من الأصل، فكيف نجيب عن هذا؟

الجواب أن يقال: إن الإحباط، نوعان: إحباط ما تم، وإحباط ما لم يتم، فإحباط ما تم ظاهر، وإحباط ما لم يتم أن يكون من الأصل حابطًا، ومنه قول بعض الفقهاء: إذا لم يكبر تكبيرة الإحرام بطلت صلاته، نحن نقول: ما صلى حتى تبطل، لكن هذا بطلان ما لم يتم، أو جواب ثانٍ أن نقول: إن أعمالهم ظاهرة في الصحة، لأنهم من قوم يدعون الإسلام، ويفعلونها على ظاهر الشرع، لكنها في الواقع باطلة، لعدم الأساس.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أهمية الإخلاص لله - عز وجل -، لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ﴾، فجعل الإحباط فرعًا عن عدم الإيمان، وهذا يدل على أن الركيزة الأصلية للأعمال هي الإيمان.

مسألة: هل يؤخذ من الآية الكريمة: أن الأعمال تزداد قوة بقوة الإيمان؟

الجواب: نعم؛ لأنه لما حبط العمل لعدم الإيمان، دل هذا على أنه يقوى بقوة الإيمان، ولهذا قال النبي ﷺ، في الصحابة «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١) العمل واحد، لكن العامل مختلف، ففرق بين من يعمل بإيمان راسخ قوي كأنما يشاهد الثواب له بعينه، وبين شخص ليس على هذه الحال.

فإذنْ تفاضل الأعمال يكون مبنيًّا على تفاضل ما في القلوب، ويُذكر عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: والله ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكنه سبقهم بما وقر في قلبه، رضي الله عنه، ولا يقال: إن هذا فتح بابًا للعاصي، الذي إذا قيل له: اتق الله، اترك المعصية، اتق الله أقم الواجب، قال: التقوى ها هنا، ثم ضرب على صدره ضربةً ينخرق بها، ماذا نقول له؟

نقول له: لو اتقى ما هاهنا(٢) لاتقى ما هاهنا(١)، لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - «لَوْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

(٢) إشارة إلى القلب.

صَلَحَتْ لَصَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه»[٢] فلو صلح الباطن لصلح الظاهر.

فالحاصل: أن هذه الآية الدليل فيها واضح على أن الأعمال تتفاضل بحسب ما في القلوب من الإيمان، وأتيت بشاهد من الحديث، وهو قوله ﷺ عن الصحابة: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا...» مد أحدهم من الذهب أم من الطعام؟ قالوا: من الذهب، ويحتمل مد أحدهم من الطعام؛ لأنه هو الذي جرت العادة أن يكال، يعني: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد واحد منهم من التمر، لأنه هو الذي يُكال عادة، وبعضهم يقول: ما بلغ مد أحدهم من الذهب، لأن التفاضل بين الطعام والذهب بعيد، لكن التفاضل يكون بين الذهب القليل والذهب الكثير.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٠، ٢١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بمعنى: يظنون، وهي تنصب مفعولين، أصلهما المبتدأ والخبر، والمفعول الأول هنا قوله: ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾، والمفعول الثاني جملة: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ يعني: يظن هؤلاء المنافقون أن الأحزاب لم يذهبوا وهذا يدل على جبنهم، وخوفهم، وذعرهم؛ لأنه حتى بعد ذهاب الأحزاب وتفريقهم، يظن هؤلاء المنافقون أنهم لم يذهبوا.

قال المؤلف: [﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ إلى مكة، لخوفهم منهم، ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرةً أخرى ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يتمنوا، ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: كائنون في البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار].

قوله: ﴿وَإِن يَأْتِ﴾ هذا على سبيل الفرد، والتقليل.

وقوله: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾، جمع حزب، وهي الطوائف التي تحزَّبت على النبي ﷺ من قريش وغطفان وأسد، وغيرهم، والمعنى: لو أتى هؤلاء الأحزاب مرةً أخرى، لود هؤلاء المنافقون

(١) إشارة إلى الجوارح.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

﴿أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾، البادي: هو الساكن البادية، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ»[1] فبادٍ هذه اسم فاعل، ومعناها: ساكن البادية، فيود هؤلاء لو أنهم بادون في الأعراب أي: ساكنون البادية، لماذا يودون أنهم ساكنون البادية؟ من أجل النجاة من هؤلاء الأحزاب.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ جملة حالية من الفاعل في قوله: ﴿بَادُونَ﴾ يعني: يود هؤلاء المنافقون لو أنهم في البادية، ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ ولا يشاركونكم في القتال، فبين الله -تعالى- ذُعر هؤلاء المنافقين من وجهين:

الوجه الأول: أنهم يظنون أن الأحزاب ما زالوا باقين، مع أن الأحزاب قد انصرفوا.

الثاني: أنه لو فرض أن الأحزاب رجعوا فإنهم يتمنون أنهم في البادية، لا يلحقهم مناوشات ولا قتال، وإنما يسألون عن أنبائكم.

إذنْ فجملة: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ نقول: إنها في موضع نصب على الحال من فاعل ﴿بَادُونَ﴾.

قال الله تعالى: [﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرة، ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفًا من التعيير].

قوله: ﴿لو﴾ هذه شرطية، وجوابها هنا مقرون بها، وإذا كانت (لو) الشرطية مقرونة بها، فإن الأكثر ألا يقترن الجواب باللام، لأن (ما) للنفي، واللام للتوكيد، واجتماع حَرْفٍ يدل على التوكيد، معحرف يدل على النفي، فيه شيء من التعارض والتناقض، فتقول: لو جاء زيد ما كلمتك، ولا تقول: لو جاء زيد لما كلمتك، لكن إذا كان جوابها مثبتًا، فإن الكثير أن تقترن به اللام، تقول: لو جاء زيد لكلمتك، هذا هو الأكثر، ويجوز، لو جاء زيد كلمتك، قال الله تبارك وتعالى في سورة الواقعة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، أما (ما) فلا تقترن بها اللام، لكن قد تقترن بها اللام قليلًا، ومنه قول الشاعر:

وَلَــوْ نُعْطَــى الخِيَــارَ لَمَــا افْتَرَقْنَــا ... وَلَكِــنْ لَا خِيَــارَ مَــعَ اللَّيَــالِي

الشاهد قوله: (ما افترقنا).

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ هنا بمعنى عدمًا، أو هي على ظاهرها، أنهم مقاتلون، ولكن قتالًا قليلًا هذا هو الأقرب؛ لأن الأصل إبقاء الكلام على ظاهره، إلا أن يقوم دليل على أن ظاهره غير مراد، فهؤلاء لو كانوا فينا، حينما يأتي الأحزاب، لوجدتهم من جبنهم لا يقاتلون إلا قليلًا، وفسر المؤلف هذه القلة: بأنها من أجل الرياء وخوف التعيير، يعني: يراءن الناس بأنهم يقاتلون في سبيل الله، ويخافون من تعيير الناس لهم، فهم لا يقاتلون من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا من أهم ما يكون -أعني: إخلاص الإنسان

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٥٩)، و مسلم (٤٤٩٧).

عبادته لله تعالى ـ هذا من أهم ما يكون، ومن أشد ما يكون علاجًا على النفس؛ لأن الأعمال الظاهرة، كل أحد يستطيع أن يجعلها على أحسن ما يرى، فكل أحد يستطيع أنه يقوم ويصلي بقراءة متأنية، وبركوعٍ متأنٍ، وبسجودٍ متأنٍ، وبقيام متأنٍ، لكن إصلاح القلب، هو الصعب، ولهذا كان صلاح القلب موجبًا لصلاح البدن، ولا عكس، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه وإِذَا فَسَدَتْ، فَسَد الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

فهؤلاء المنافقون، ليس لديهم رغبةٌ حقيقية في القتال الذي يرجون به إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الظفر والسعادة، لكنهم إنما يقاتلون، رياءً وخوفًا من التعيير فقط، ومن كانت هذه نيته، فإنه لم يقاتل القتال الذي ينبغي أن يكون، وسيكون فاترًا، بخلاف الإنسان صاحب النية الخالصة لله ـ عز وجل ـ فسيكون لديه دافع قوي يحدوه إلى العمل، لما يرى أنه من طاعة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قال: [بكسر الهمزة وضمها].

اللام موطئة للقسم، و(قد) للتحقيق وعلى هذا فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام، وقد.

وقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿كَانَ﴾ هذا فعل ماض وكيف يتوجه أن يكون فعلًا ماضيًا، والتأسي بالنبي ﷺ مستمر دائمًا والمعروف أن الفعل الماضي قد انقضى زمنه؟

فيقال ـ والله أعلم ـ: قد كان لكم في علم الله وفي شرع الله ـ عز وجل ـ أسوة حسنة، وقوله: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل في محمد أو في النبي، إشارة إلى أن الأسوة فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛لأنه رسول الله، فهذا الوصف يفيد العلية، أي أن علة الأسوة كونه رسول الله ﷺ، وإلا ما كان علينا أن نتأسى به؛ لأنه رجل من الناس؛ لكنه لأنه رسول الله كان لنا فيه أسوة حسنة.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ﴾ [بكسر الهمزة وضمها]، قراءتان سبعيتان؛ لأن طريق المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، إذا عبر بهذا التعبير، فالقراءتان سبعيتان متساويتان، أما إذا قال: قرئ، فالقراءة الثانية شاذة، إذنْ يجوز أن أقول: ﴿إِسْوَةٌ﴾، و ﴿أُسْوَةٌ﴾.

وهل الأفضل أن أقتصر على قراءة واحدة من القراءات أم أقرأ بهذه تارةً وبهذه تارةً أخرى؟

الجواب: سبق لنا أن الأفضل لمن علم القراءة وتأكدها أن يقرأ بهذه تارةً وبهذه أخرى، لكن لا عند العامة، فلو قرأنا بهذه القراءات عند العامة، حصل بذلك تشويش، ورد فعل، إذ يقولون:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

كيف يبدل هذا في القرآن ويحرف؟ لكن فيما بين الإنسان، وبين نفسه إذا كان يعرف أن هناك قراءتين، فإن الأفضل أن يقرأ بهذه مرة و بهذه أخرى؛ لأن كلتا القراءتين ثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا ينبغي أن نقتصر على واحدة فقط؛ لأننا إذا اقتصرنا على واحدة فقط هجرنا البقية.

وقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ [اقتداء به في القتال والثبات في مواطنه] هذا التفسير من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه نظر، أنه خصصه بالقتال، والصحيح: أنه فيه أسوة حسنة في كل ما يفعله، كل ما كان من سنته، فإن لنا فيه أسوة حسنة.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: أن التأسي بالرسول ﷺ كله حسن؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في التشريع، فكل التأسي به فهو حسن، بخلاف التأسي بغيره، فقد يكون حسنًا، وقد يكون غير حسن.

والمعنى الثاني: باعتبار تأسينا به، لا باعتبار ما هو عليه، والأسوة الحسنة باعتبار تأسينا به، هو أن نكون موافقين له في القول والفعل والقصد الذي هو العقيدة، فمن وافقه في قوله دون فعله، لم يتأسَ به أسوة حسنة، ومن وافقه في فعله دون قوله لم يتأس به أسوة حسنة، ومن تأسى به في قوله وفعله دون عقيدته وقصده، لم يتأس به أسوة حسنة، ويدخل في الأسوة الحسنة الدعوة إلى دين الله، فإن النبي ﷺ لا شك أنه يدعو إلى دين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وبهذا نعرف أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون حركيًا في مجتمعه، لا نسخة كتاب فقط، بمعنى أن يكون محركًا لضمائر الناس، ومشاعرهم، وتوجيهاتهم، ويكون لديه عزيمة في إصلاح الخلق، حتى لا يكون مجرد نسخة، ومجرد النسخة ما الفائدة منه؟! يقول - مثلًا - أنا حفظت بلوغ المرام، وحفظت المنتقى، وما أشبه ذلك، لكن ليس هناك عمل فما الفائدة إذنْ؟ أو تقول أجلس في بيتي إن جاء أحد علمته وإلا لا، ولكن يجب أن نبث الوعي بين المسلمين، ولاسيما في هذا الوقت؛ لأن الناس بدأوا يتحركون سئموا الحياة السابقة، وصاروا يتحركون، ولكن يحتاجون إلى هداية ودلالة؛ لأنهم قد يتحركون إلى شيءٍ سيئ، إنما إذا تولى طلبة العلم - الذين وهبهم الله تعالى العلم - توجيه الناس في هذه الأمور، حصل في هذا خير كثير، كما كان نبينا ﷺ يفعل، فالأسوة الحسنة في الرسول يدخل فيها الدعوة إلى دين الله - عز وجل -.

قال: ﴿كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ صار الحسنة في ذاتها، وفي تطبيقها، في ذاتها بمعنى أن التأسي به حسن، ولم يكن ﷺ شيئًا من أفعاله، غير موصوف بالحسن، وحسنة في تطبيق هذا التأسي في العقيدة، والقول والفعل.

لكن قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، ﴿لِّمَن﴾ قال المؤلف: [بدلًا من ﴿لَكُمْ﴾]،

لكن ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فهو بدل بعض من كل بإعادة العامل.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب يشمل من يرجو الله واليوم الآخر ومن لا يرجوه، ﴿لِّمَن كَانَ﴾، يخص من كان يرجو الله، واليوم الآخر، فهو بدل بعض من كل، وهل هو بدل من كل في الذات، أو في المعنى والصفات؟

إذا قلت: أكرم القوم بعضهم، هذا بدل بعض من كل في الذات، لكن هنا في الصفات: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، وقولنا بإعادة العامل، وهو اللام - حرف الجر - وإنها موجودة في البدل، والمبدل منه، في المبدل منه في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ وفي البدل في قوله: ﴿لِّمَن كَانَ﴾.

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال المؤلف: [يخاف الله]، ولعل قائلًا يقول: كيف يفسر الرجاء بالخوف؛ لأن الرجاء: هو طلب مكانة قريبة الحصول، فكيف يفسره بالخوف؟ يقال: إن الرجاء يطلق على الخوف ويطلق على الأمل، فالرجاء في المحبوب، والخوف في المكروه، ولا يلزم أن يُفسر بما فسر به المؤلف، بأن المراد بالرجاء الخوف؛ لأن رجاء الله واليوم الآخر ثابت أيضًا، الذي هو تمني حصول المطلوب، فإن ما عند الله من الثواب لمن تأسى بالرسول - عليه الصلاة والسلام - يوجب الرجاء، وما في اليوم الآخر - أيضًا - من السعادة، يوجب الرجاء أيضًا.

فالذي يظهر: أن المراد بالرجاء هنا، معناه الحقيقي، الذي هو أن يأمل الإنسان ما فيه مصلحة له، وخير له.

وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ المراد به: يوم القيامة، وسمي يومًا آخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ لأن هذا اليوم هو آخر مراحل الخلق؛ لأن للإنسان في هذه الدنيا، أربع مراحل: مرحلة في بطن أمه ومرحلة في الدنيا، ومرحلة في البرزخ، ومرحلة رابعة: وهي يوم القيامة.

يقرن الله - تعالى - دائمًا الإيمان به باليوم الآخر كثيرًا في القرآن قال تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٣٩]؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل؛ لأنك إذا آمنت أن هناك يومًا تُجازى فيه على عملك، فسوف تعمل لذلك اليوم، بخلاف الإنسان المنكر له، فالمنكر له لا يعمل؛ لأنه يعتقد أن ما هناك إلا دنيا فقط، أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء، لكن إذا آمن الإنسان باليوم الآخر أوجب له ذلك أن يعمل.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [بخلاف من ليس كذلك] الواو هنا حرف عطف، ﴿وَذَكَرَ﴾ معطوفة على كان؛ لأن الفعل الماضي يعطف على الفعل الماضي، وأيضًا إذا جعلته معطوفًا على ﴿كَانَ﴾، ظهر المعنى أكثر.

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾، هذا عمل قلبي، و﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ عمل الجوارح فقال: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿كَثِيرًا﴾ هذه مفعول مطلق، أي: ذكرًا كثيرًا، وذكر الله - عز وجل - يكون بالقلب

وباللسان وبالجوارح؛ يكون بالقلب بأن يتفكر الإنسان في آيات الله، وفي أسمائه وصفاته، هذا ذكر بالقلب، ويكون بالجوارح باللسان: كالتسبيح والتهليل، والتحميد، وما أشبه ذلك، ويكون بالجوارح بغير اللسان: مثل الصلاة، ففيها ركوع، وسجود، وقيام، وقعود وهي ذكر.

فالذكر إذنْ يكون في القلب، وفي اللسان، وفي الجوارح، والإنسان العاقل الحازم المؤمن لا يزال يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن في كل شيء من مخلوقاته آية تدل على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته، فأي شيء تُشاهد من هذا الكون، سيذكِّرك بالله ـ عز وجل ـ كذلك بالنسبة لأعمالك، إذا كنت حازمًا، فإنك تستطيع ألا تعمل عملًا إلا عبادة، فالإنسان الحازم يجعل من العادات عبادات، والإنسان الغافل يجعل من العبادات عادات، فإذا كان الإنسان حازمًا، فإنه لا يضيع عليه لحظة من عمره، ولابد أن يستغلها في ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

مسألة: هل من ذكر الله الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟

الجواب: نعم من ذكر الله، وقراءة القرآن من ذكر الله، فكل قولٍ أو فعل يقرب إلى الله ـ عز وجل ـ فإنه من ذكر الله ـ عز وجل ـ.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

١ ـ **يستفاد من هذه الآية:** قوة جبن هؤلاء المنافقين؛ حيث يظنون أن العدو باقٍ وهو قد ذهب، فإن قلت: هل لهذا شاهد؟ قلت: نعم، لو أن إنسانًا جبانًا رأى أسدًا في مغارة، وذهب الأسد من هذه المغارة وأُخرج، فقلت لهذا الرجل الجبان: اذهب من عند المغارة هذه، ماذا يقول؟ يقول: لا، إن فيها أسدًا؛ لأنه جبان، فالجبان يظن أن عدوه لم يبرح مكانه، ويخشى حتى من ظلِّه.

٢ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أن هؤلاء المنافقين لو عاد الأحزاب مرةً أخرى لودوا أنهم في الأعراب لا في المدن، لقوله: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾، وأيهما أحسن عيشًا، عيش البادية أم عيش المدن؟ عيش المدن، لكن لجبنهم يتمنون أن يذهبوا إلى الأعراب ـ إلى البادية ـ ولا يحضروا هؤلاء الأحزاب.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المنافقين لا يريدون أن يشاركوا المؤمنين في معاركهم، لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، فهم يحبون أن يكونوا بعيدين عن المعارك لا يتحسسون إلا الأخبار فقط.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المنافق لو شارك المؤمنين في القتال، فإنه لا يقاتل إلا قليلًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مسألة: هل يجوز لنا أن نشرك المنافقين في قتالنا، إذا عرفنا أنهم منافقون؟

نقول: لا نشركهم؛ لأن ضررهم علينا أكثر بكثير من نفعهم، أما من لا نعلم حاله فإن الأصل أن يؤاخذ الإنسان بظاهر حاله.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة:٧٥]، ورد في تفسير هذه الآية خبر ضعيف وهو مشهور عند العامة الآن يتحدث به كل من يعظ الناس كذب، وما هو بصحيح، وهو أن رجلًا يدعى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه أن يخرج عن المدينة لغُنيمة له، فالنبي ﷺ، منعه، فأصر وخرج وصار يتخلف؛ لأنه قد عاهد الله لئن آتاه من فضله أن يتصدق، ويكون من الصالحين، ثم إن الرجل ندم، وجاء إلى الرسول تائبًا، لكنه لم يقبل توبته، ثم جاء إلى أبي بكر تائبًا، ولم يقبل توبته، ثم جاء إلى عمر تائبًا ولم يقبل توبته. وهذه مشهورة عند العامة، وابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على تفسير «الزمخشري»، عند تخريج هذا الحديث، يقول: إن السند واهٍ جدًّا، وهناك أحد الإخوان من الجامعة الإسلامية كتب تحقيقًا في هذا، وبيَّن أن هذه القصة كذب، وباطل، وكيف يعقل أن الرجل يأتي تائبًا ثم لا يقبل النبي ﷺ توبته؟!!

ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: وجوب التأسي بالنبي ﷺ، يؤخذ هذا من قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ لأن رجاء الله واليوم الآخر واجب.

٢ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن محمدًا رسول الله، لقوله: ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

٣ - **ويستفاد منها**: أن جميع طريق النبي ﷺ حسن ليس فيها سيئ، لقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٤ - **ويستفاد منها**: أن الواجب علينا أن يكون تأسينا بالنبي ﷺ تأسيًا حسنًا، لا غلو فيه ولا تفريط، لقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ لأن الغلو زيادة، والتفريط نقصان، ودين الله - عز وجل - بين الغالي فيه، والمفرِّط فيه.

٥ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: وجوب رجاء الله - عز وجل - واليوم الآخر؛ لأن هذا من تمام الإيمان بالرسول، نتأسى به رجاء الله، واليوم الآخر.

٦ - **ويستفاد منها**: الإيمان بالله واليوم الآخر، وسمي باليوم الآخر؛ لأنه آخر أيام الدنيا.

٧ - **ويستفاد من هذه الآية الكريمة**: مشروعية كثرة الذكر، لقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وقد بين الله - تعالى - في سورة آل عمران، عن أولي الألباب، أنهم يذكرون الله، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، والإنسان: إما قائم، أو قاعد، أو على جنب، وهم يذكرون الله في كل هذه الأحوال.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب:٢٢-٢٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال: [من الابتلاء والنصر ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الوعد ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا بوعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره].

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ (لما) هذه: شرطية، لكنها لا تجزم، وفعل الشرط في الآية: ﴿رَءَا﴾، وجوابه: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾.

وقد مر علينا أن (لما) في اللغة العربية تأتي على عدة وجوه: منها الشرطية كما في هذه الآية، ومنها الجازمة كما في قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، هذه جازمة، ومنها: أن تكون بمعنى إلا: كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] يعني: إلا عليها حافظ.

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ والمراد بالأحزاب هنا: الأحزاب الذين تألفوا على النبي ﷺ من قريش وغطفان، وبني أسد، وغيرهم، لما رأوهم رؤية بصرية ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، كيف وعدنا الله ورسوله؟ أين الوعد من الله ورسوله أن هؤلاء الأحزاب سيأتون؟! قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

﴿ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، فإن الله ـ تعالى ـ بَيَّنَ في هذه الآية أنهم لا يمكن أن يدخلوا الجنة، إلا بعد هذه الأمور، فيكون متضمنًا لوعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم أن يروا مثل هذه الأشياء التي تزلزلهم، يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وهذا دليل على ثباتهم، وإيمانهم، وصدق نواياهم، لكن الكفار تقدم أنهم هم المنافقون، وأنهم يهزأون بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ضرب الحجر الذي اعترضهم في حفر الخندق، وقال: إنه رأى مدائن كسرى، وقصور قيصر، واليمن، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، هذا كذب وليس بصحيح؛ حيث قالوا: من هذا الذي يملك الشام واليمن ونحن الآن نغلق عليه الطريق؟!

لكن المؤمنين، قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ عكس هؤلاء المنافقين، والصدق هو الإخبار بالواقع على حسب ما هو واقع، وإن شئت فقل: هو الإخبار المطابق للواقع، هذا الصدق، وضده الكذب، ويقال: صَدَقَني الحديث، وصَدَّقَني الحديث، وبينهما فرق، صدَقَني الحديث يعني: أخبرني بالصدق، وصدَّقني الحديث يعني: قال: إن ما حدثته به صدق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] معنى ﴿صَدَقَكُمُ﴾ أخبركم بالصدق، وبَيَّنَ لكم أن ما وعدكم به صدق، حين حسستموهم.

يقول: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه الجملة سيق هذا الكلام على سبيل المدح، لا على سبيل الذم.

لكن قد يشكل علينا، كيف قُرِن وعد رسول الله بوعد الله بالواو، وقُرن أيضًا صدق رسول الله، بصدق الله بالواو، وقد قال النبي ﷺ لرجل حينما قال: ما شاء الله وشئت، قال له: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟» فكيف نجمع بين هذا، وبين ما في هذه الآية؟

والجواب أن يقال: ما كان من أمور الشرع، فلا بأس أن يُضاف إلى الله ورسوله بالواو؛ لأن ما شرعه النبي ﷺ، فهو من شرع الله، كما قال تعالى:﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وأما ما كان من أمور القدر، فإنه لا يجوز أن يضاف إلى الله، ورسوله بالواو، بل لا بد من أن يكون بـ (ثم)، وذلك؛ لأن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله وقدرته، فمثلًا تقول لرجل سألك: ما حكم صلاة الجماعة؟ وأنت لا تدري حكمها، فتقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن هذا حكم شرعي، وأما ما كان من أمورٍ قدرية، فإنه لا يمكن أن يشرَّك غير الله بالله بالواو؛ وذلك لأن مشيئة غير الله وقدرة غير الله تابعة لمشيئة الله، فلا يمكن أن تكون مساوية لها.

وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ يعود على رؤية هؤلاء الأحزاب وتحزبهم على رسول الله ﷺ ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾، يقول المؤلف: [تصديقًا بوعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره]، إيمانًا بالقلب وتسليمًا بالجوارح؛ لأن الإيمان محله القلب والتسليم، والانقياد محله الجوارح، والإنسان لا يتم دينه إلا بهذين الأمرين: الإيمان والتسليم، فمن استسلم

ولم يؤمن فهو منافق، ومن آمن ولم يستسلم، فهو مستكبر، فإذا اجتمع للإنسان الإيمان والتسليم صار مؤمنًا حقًا، عابدًا حقًا.

قال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ ﴿إِيمَـٰنًا﴾ هذه مفعول ثانٍ، والمفعول الأول: الهاء، فـ (زاد) تنصب مفعولين: أولها: الهاء، والثاني: ﴿إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ قال: [من الثبات مع النبي ﷺ].

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الجملة هذه مكونة من مبتدأ وخبر، الخبر مقدم، والمبتدأ مؤخر، المبتدأ قوله: ﴿رِجَالٌ﴾، والخبر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

والمبتدأ نكرة وليس بجمع فهل هذا جائز؟

والجواب: أن ابن مالك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِره مَا لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِره

والآية التي معنا مثل هذا المثال: (عند زيد نمرة) المسوغ للابتداء بالنكرة هنا: تأخير المبتدأ، وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ ﴾ المسوغ: تأخير المبتدأ، كما أن في الآية - أيضًا - مسوغًا آخر، وهو وصف هذا النكرة؛ لأن وصف النكرة يخصصها ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض؛ لأنها تقدَّر ببعض.

واختلف النحويون في (من التبعيضية)، فقال بعضهم: إنها اسم، وهي بحسب العوامل، لكن لا يظهر عليها عمل العامل؛ لأنها حرف، فينتقل العمل إلى ما بعدها.

ومنهم من قال: إنها حرف جر، ولكن معناها التبعيض، وهذا هو الذي عليه أكثر أهل النحو.

وقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ معنى ﴿صَدَقُوا۟ ﴾ أي: قاموا به، كما تقول: صدق لي بالوعد، أي: وفَّى لي به، فهم وفوا بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع النبي ﷺ، مثل أبو بكر، وعثمان، وعمر، ومصعب، وعلي رضي الله عنهم وكثير من هذا.

يقول الله - عز وجل - : [﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ مات، أو قتل في سبيل الله، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلك، ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ في العهد، وهم بخلاف حال المنافقين].

فقسم هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلى قسمين: قسم قضى نحبه، أي قضى حياته، وقتل في سبيل الله، كحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فإنه قتل شهيدًا كبقية شهداء أُحُد، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي: ينتظر القتال في سبيل الله؛ لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فهم ينتظرون أن يستشهدوا، ولكن هل يحصل لهم ذلك أم لا؟

الجواب: قد يحصل، وقد لا يحصل، ولهذا يقال: إن خالد بن الوليد رضي الله عنه تأسف في حال مرضه أنه لم يقتل شهيدًا في سبيل الله، فما ترك معركةً إلا خاضها، يقول: وَهَا أنا أموت على فراشي

كما يموت الحمار، لأنهم يريدون أن يستشهدوا في سبيل الله.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ المعطوف عليه ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، أي: ومنهم رجال ما بدلوا تبديلًا، يقول المؤلف: [في العهد]، والتبديل في العهد يشمل: نقضه بالكلية، ويشمل الإخلال بشيء من شروطه.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ يعني: ما حصل منهم تبديل، لا بالنقض بالكلية، ولا بالتغيير، ولهذا قال: ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ والتبديل يكون بالترك كلية، ويكون بالتغيير بالنقص، أو بالزيادة ولهذا قال: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ يقول المؤلف: [وهم بخلاف حال المنافقين]، فإن حال المنافقين على العكس، يعاهدون الله، ولا يوفون. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٥، ٧٦] أما المؤمن فإنه يفي بما عاهد الله عليه.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ اللام هذه للتعليل، يعني: أن الأمر وقع كذلك على الوفاء وعلى النقض على الوفاء من المؤمنين، وعلى النقض من المنافقين، وقع هذا ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾، ولولا اختلاف الناس في الأعمال ما اختلفوا في الجزاء، ولو لم يختلفوا في الجزاء، ما كان لخلق الجنة والنار فائدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩] فالله ـ عز وجل ـ حكيم، خلق الجنة وخلق لها سُكَّانًا، وخلق النار وخلق لها سكانًا، وسكان هذه وهذه لا بد أن يكون لهم أعمال يقومون بها، حتى يستحقوا أن يكونوا من أهلها.

وقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ الباء هنا للسببية، وليست للعِوضِ؛ لأن الجزاء على الأعمال ليس من باب المعاوضة، ولكنه من باب قرن المسبب بسببه، لقول النبي ﷺ، «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[1]، فالأعمال الصالحة أسباب، وإلا فلو أن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يعاوضنا على أعمالنا معاوضة ـ بمعنى المعاوضة ـ لكان لو قابلنا بنعمة واحدة علينا، ما قابلتها كل أعمالنا، ولكن الأعمال سبب.

وقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ إذا كان الجزاء بالصدق، فسيكون على حسب ذلك الصدق، فالذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يكون جزاؤهم على صدقهم بحسب ما قاموا به، فإذا كانوا أطوع لله ـ عز وجل ـ وأشد تنفيذًا لأوامره، وأكثر فعلًا لطاعته، صار جزاؤهم أكثر، والعكس بالعكس.

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ المنافق هو الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر، مأخوذ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

من النافقاء، وهي نافقاء اليربوع، التي يجعلها في جُحره، حتى إذا أتاه أحد من بابه، خرج من هذه النافقاء.

وقوله: [﴿إِن شَآءَ﴾ بأن يميتهم على نفاقهم]، أشار المؤلف في قوله: [بأن يميتهم على نفاقهم] إلى أن تعذيب المنافقين المعلق بالمشيئة هنا، ليس المعنى أنه إن شاء عذبهم وإن شاء لم يعذبهم إذا ماتوا على النفاق، فإن الله أخبرنا أنهم في الدرك الأسفل من النار، وليسوا تحت المشيئة، فيكون قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ بأن يبقوا على نفاقهم حتى يموتوا، فإذا بقوا على نفاقهم إلى الموت، علمنا أن الله قد شاء تعذيبهم، أما إن هداهم الله، فإن المنافقين قد اهتدوا، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة.

والصواب: كما مر علينا كثيرًا أن المنافق تصح توبته، وهي نص في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦] فقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يمن عليهم بالتوبة فيتوبوا وحينئذٍ لا يعذبون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفور هذه اسم فاعل، على صيغة المبالغة، يعني: كثير المغفرة، فتجوز أن تكون صفة مشبَّهة، أي: ذو مغفرة، والصفة المشبهة أبلغ من اسم الفاعل؛ لأن اسم الفاعل يدل على الفعل، والصفة المشبهة تدل على الوصف، أي: على اتصاف من هي وصفه بها دائمًا.

وقوله: [﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب] فيه شيء من النظر؛ لأن الله يغفر حتى لمن لم يتب، ممن هو تحت المشيئة، كفاعل المعاصي، ولو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبقاها على إطلاقها لكان أسلم له، حين يقول ﴿غَفُورًا﴾ أي: كثير المغفرة، أو ذو مغفرة متصفٌ بها دائمًا، وهذا أقرب كما قلت؛ لأنه يدل على الوصف الدائم، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ يقول: [به] أي: بمن تاب، والصواب: أنه رحيم بمن تاب وبغيره، وأن رحمة الله ـ عز وجل ـ بالمعنى العام تشمل المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، وكل أحد، هذا بالمعنى العام، وبالمعنى الخاص: فإن الرحمة تختص بالمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ردهم: أي أرجعهم على أدبارهم خائبين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الأحزاب من قريش وغيرهم.

وقوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ الباء هنا: للملابسة، أي: متلبسين بالغيظ، فالجار والمجرور في موضع

نصب على الحال، يعنى أنهم رجعوا مغتاظين غاية الغيظ، ووجه اغتياظهم: أنهم جاءوا بهذا الجمع الكثير، الذي لم يشهد له نظير في ذلك الوقت، يريدون القضاء على النبي ﷺ، ومع ذلك حصل لهم التعب، والعنت، والجوع، والبلاء، وآخر الأمر رجعوا هاربين، ولا شك أن مثل هذا سوف يعكر على الإنسان ويملأ قلبه غيظًا، وحسرة، وندمًا، كيف يأتي بهذا الجيش، الذي جمع له وأبدى فيه وأعاد وآخر الأمر أن ينقلب ولا تكون معركة؟! ولهذا قال: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ لا من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة، أما أمر الآخرة فإنهم لن ينالوا خيرًا بقتالهم للنبي ﷺ على كل حال، وأما أمر الدنيا الذي يرونه هم خيرًا لأنفسهم، فهل نالوه؟ لا، فهم لم ينالوا خيرًا، لا في الدين ولا في الدنيا ـ ولله الحمد ـ حتى ما يظنونه خيرًا من هزيمة النبي ﷺ، والقضاء عليه، وعلى أصحابه، ما حصل لهم ذلك.

وقوله: ﴿خَيْرًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، يعني: ما نالوا أي خير، لا قليلًا ولا كثيرًا، وهذه من نعمة الله ـ عز وجل ـ وأضاف الله الرد إلى نفسه، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأن رجوعهم ليس بحول النبي ﷺ ولا بقوته، ولا بحول أصحابه، ولا قوتهم، ولكنه بحول الله ـ تعالى ـ وقوته، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

يقول المؤلف: [﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ مرادهم من الظفر بالمؤمنين].

وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يعني: أراح الله المؤمنين من القتال، فلم يقاتلوا، وأما ما حصل من المناوشات التي حصلت لبعض الصحابة مع بعض المشركين، فهذا لا يُعد قتالًا؛ لأن الكلام على الجيش كله جمعاء، فإنه لم يحصل فيه قتال.

وقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ونعم الحسب والكفيل، ـ سبحانه وتعالى ـ قال: [بالريح والملائكة]، الريح سبق أن قلنا إن الله ـ تعالى ـ أرسل عليهم الريح الشرقية الباردة الشديدة، فأكفأت قدورهم، وزلزلت خيامهم ورمتهم بالحجارة التي تحملها مع البرد الشديد، حتى إنهم كانوا يصطلون بالنار، ويقولون: النجاء النجاء، هذه الريح.

أما الملائكة، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سلط الملائكة عليهم بأن تلقي في قلوبهم الرعب، والفزع، والخوف، وتدفعهم حتى ينصرفوا من المكان، وهذا من نصر الله ـ عز وجل ـ للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ [على إيجاد ما يريده، ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على أمره].

والقوة صفة يتمكن بها القوي من فعل ما يريد بدون ضعف، وهو أعلى من القدرة؛ لأن القدرة صفة يتمكن بها القادر من فعل ما يريد بدون عجز، فالقوة أعلى، وانظر إلى رجلين حملا صخرةً، أحدهما حملها، لكن مع نوع من المشقة، فنقول: هذا قادر، ولكن ليس بقوي، والآخر

حملها وكأنها شيء بسيط، نقول: هذا قوي، وقوة الله ـ عز وجل ـ لا منتهى لها، ولا مقياس لها، بل هي فوق ما يتصوره الإنسان، لما قالت عادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله ـ عز وجل ـ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

وأما قوله: ﴿عَزِيزًا﴾ يقول: [غالبًا على أمره]، فالعزيز من أسماء الله تعالى له ثلاث معانٍ: عزيز القَدْر، وعزيز القهر، وعزيز الامتناع، أما عزيز الامتناع، فمعناه أنه يمتنع أن يصيبه ـ سبحانه وتعالى ـ سوء أو نقص في جميع صفاته وجميع أفعاله، وأما عزة القدر فمعناه: أنه ذو قدر عظيم رفيع، مثلما تقول: فلان عزيز النفس، يعني: له عزة وترفع عن الدنايا، وأما عزة القهر التي معناها الغلبة، فمعناها: أنه غالب على كل شيء، حتى في الجاهلية يقول الشاعر:

أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ وَالأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

فالله ـ عز وجل ـ هو الغالب على أمره، وهو غالب على كل شيء، فلا شيء يكون أمام غلبته، فصار العزيز له ثلاثة معانٍ: عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع، وكلها ثابتةٌ لله ـ عز وجل ـ.

قال: [﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: قريظة، ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ حصونهم، جمع صيصة، وهو ما يتحصن به، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾] [الحشر:٢].

قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أنزل: الضمير يعود على الله.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: أعانوهم وساعدوهم، والمظاهرة بمعنى: المساعدة، وتظاهر على كذا، أي: تساند وتساعد عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التحريم: ٤] وقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] يعني: مساعدًا ومعينًا.

فقوله: ﴿ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: أعانوهم وساعدوهم.

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، لكن المراد بهم هنا في الآية طائفة من اليهود وهم بنو قريظة، وسبق أن بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع، ثلاث قبائل من اليهود، قدِم النبي ﷺ من المدينة، وهم ساكنون فيها، فأجرى بينه وبينهم عهدًا، ولكنهم نقضوا ذلك العهد، ولم يبق إلا بنو قريظة، ثم إن بني قريظة نقضوا العهد، لمساعدتهم الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولما رجع النبي ﷺ من الأحزاب، ودخل بيته واغتسل، جاءه جبريل، وقال له: اخرج إلى هؤلاء ـ يشير إلى بني قريظة ـ؛ فإنهم نقضوا العهد، فأمر النبي ﷺ، أصحابه

بالخروج، وقال: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»(١) فما تأخر الصحابة ﷺ مع ما هم فيه من التعب، والضعف، فخرجوا فحاصروا بني قريظة لمدة نحو عشرين يومًا، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه(٢).

يقول الله - عز وجل - هنا: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) يعني: أنزل هؤلاء ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من مآمنهم، والأصل في صياصي حظائر البقر؛ لأنها تؤمن فيها، فـ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: من مآمنهم، وحصونهم التي تحصنوا فيها، ولكن ذلك لم يغنهم من الله شيئًا.

وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ قذف بمعنى: رمى، وهو أشد وقعًا من قوله وضع، يعني: لو قال وضع في قلوبهم الرعب أفاد أن الرعب صار في القلوب، لكن إذا قال: قذف صار أشد، و﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بمعنى الخوف، وإذا وقع الخوف في القلب، فلا تسأل عن الخائف، يظن أن الشجر نفرًا، فلا يتصور الأمور على حقائقها، حتى لو ناداه أحد من أصحابه، ظن أنه عدوه يريد أن يقتله، ولا أشد من سلاح يفتك بالعدو من الرعب، ولهذا قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(٣)، أما إذا ثبت القلب واطمأن، فإن المقاتل سيثبت، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وذكر الله - تعالى - تقوية للقلوب، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وأخبر الله - عز وجل - أنه أنزل على أهل بدر المطر؛ ليثبت به الأقدام، وتكون به السكينة، والحاصل: أن الرعب من أشد الأسلحة فتكًا بالعدو.

وقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ قال المؤلف: [﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم، وهم المقاتلة، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ منهم أي الذراري].

فهم لما طال بهم الحصار، ونزلوا على حكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - خيَّرهم من تريدون أن تنزلون على حكمه؟ قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ حليفًا لهم، فظنوا أنه سيفعل مثل فعل عبد الله بن أبي لحلفائه من اليهود، حين شفع فيهم إلى رسول الله ﷺ، وتركهم، لكن سعدًا ﷺ لما جاء وكان في خيمة له في المسجد؛ لأنه أصيب في الأحزاب بأكحله، وضرب له النبي ﷺ خيمة في المسجد، ليعوده من قريب؛ لأنه سيد قومه - وهم الأوس - جاء على حمار إلى النبي ﷺ، إلى مكان الحصار.

فأخبره النبي ﷺ، أنهم حكَّموه، فقال: حكمي نافذ عليهم؟ ويشير إلى النبي ﷺ، وإليهم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٤٦)، و مسلم (١٧٧٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، و مسلم (١٧٦٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، و مسلم (٥٢١).

أيضًا، فقالوا: نعم، كلهم رضوا؛ النبي ﷺ واليهود رضوا، فقال: «آنَ لِسَعْدٍ، أَلَّا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ»، هذا مقام محنة عظيمة، فحكم فيهم رضي الله عنه بحكم عظيم، حكم صواب مطابق للحق، قال: أحكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذريتهم، وتُجمع أموالهم، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»(١).

ثم أمر النبي ﷺ بأن تقتل مقاتلتهم، وهم الكبار البالغون، وأما الذراري من النساء والرجال غير البالغين، فإنها تُسبى، والأموال تجمع، فقتلوا في المدينة ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة قتلوا في يوم واحد بناءً على حكم هم الذين رضوا به، فهذا هو معنى قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هنا قدم المفعول في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وأخر المفعول في قوله: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فهل الفائدة في ذلك مراعاة الفواصل فقط، فتكون الفائدة لفظية، أم هناك فائدة معنوية؟

الجواب: الأمران، هذا هو الظاهر؛ لأن الحكم الأول أشد وأبلغ، فلهذا قُدم مفعوله، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، والثاني دون ذلك، لأن الأسير ربما يمن عليه بإطلاقه، فقال: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هذا مع مراعاة اللفظ، الذي هو مراعاة فواصل الآيات، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠] لما كان التكذيب للرسل شديدًا: قدم فيه المفعول، كما قدم المفعول في قتله.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قال: [بعد؛ وهي خيبر، وأُخذت بعد قريظة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾].

قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾، هذه تنصب مفعولين، المفعول الأول: الكاف، والثاني: أرضهم، ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾، كيف الأرض والديار، أبينهما فرق؟

نقول: الديار: جمع دار، وهي المساكن والأحياء، أما الأرض: فهي أعم من ذلك، والأموال هي الأمتعة والدراهم والدنانير، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ يعني: ما وطأتموها بعد حتى الآن، ولكنكم سترثونها، وهي أرض خيبر؛ لأن النبي ﷺ فتحها بعد ذلك في السنة السادسة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، فلا يعجزه شيء، وقدم المفعول لتحقق وقوع الفعل به، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، ولا تقل كما يقول بعض الناس: إنه على ما يشاء قدير، لأنك إذا قلت: على ما يشاء، خصصت قدرته بما يشاء، مع أن القدرة تتعلق بالذي شاءه، والذي لم يشأه، حتى الذي لم يشأه فهو قادر عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، و مسلم (١٧٦٨).

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** تصديق المؤمنين بما أخبر الله به ورسوله، وكان مقتضى الحال، أن يلحق بهم الخوف والذعر، كما حصل للمنافقين.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال تصديقهم لله ورسوله، وذلك في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهم شاهدوا ما وعد الله، وأظهروا الإيقان بذلك بألسنتهم، بقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

استدل بعض الجهال بهذه الآية على مشروعية ختم القرآن بقولهم: صدق الله، وقالوا: كيف تنكرون علينا إذا أتممنا القراءة وقلنا: صدق الله العظيم، مع أن الله يقول: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ويقول: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥] ماذا نقول في جواب على هذه الشبهة؟

نقول: نحن لا ننكر أن يقول أحد: صدق الله ورسوله، لما نراه من الإيمان، بأن يقول الإنسان: صدق الله ورسوله، وأن من لم تكن عقيدته هذه فهو كافر، لكننا ننكر أن نجعل هذا الثناء على الله ـ عز وجل ـ عند الانتهاء من التلاوة، مع أنه لم يرد، فهل نحن أعلم بشريعة الله من رسول الله؟! وهل نحن أحرص منه على تطبيق شريعة الله؟! أبدًا، فإذا لم يكن كذلك، فإن الواجب علينا أن نحذو حذوه، وإذا كان يقول عند انتهاء تلاوته صدق الله، فإننا نقولها على العين والرأس، وإذا كان لا يقولها، فلا نقولها، ونقول لهم: إذا كنتم تعتقدون مشروعية ذلك، فقولوها ـ أيضًا ـ في الصلاة، إذا انتهيتم من القراءة في الصلاة، قبل أن تكبروا قولوا: صدق الله؛ لأن التلاوة في الصلاة أفضل من التلاوة خارج الصلاة، المهم: أنه لا دليل لهؤلاء في مثل هذه الآية.

٣- **ومن فوائد الآية:** أن المؤمن يزداد إيمانًا عند رؤية الآيات الكونية والشرعية، لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** صحة مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقد ذكرنا أن زيادة الإيمان باعتبارات، باعتبار قوة اليقين، وباعتبار قوة العمل، وباعتبار الإخلاص فيه، وباعتبار المتابعة للرسول ﷺ، وباعتبار العامل نفسه، كل هذه الاعتبارات يزيد بها الإيمان:

أولًا: اعتبار قوة اليقين، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فليس الخبر كالمعاينة، فلو أخبرك من تثق به تمام الثقة عن وجود شيء آمنت به، لكنك إذا رأيته بعينك، صار ذلك أقوى

إيمانًا.

ثانيًا: باعتبار كثرة العمل، فكلما كان الإنسان أكثر عملًا كان ذلك أزيد في الإيمان.

ثالثًا: بحسب الإخلاص في العبادة، فكلما كان الإنسان في العبادة أخلص لله، كان زيادة الإيمان بها أكمل وأقوى، ولهذا تجد الفرق إذا عبدت الله ـ عز وجل ـ بإخلاص، وإذا عبدته بغفلة، تجد الفرق العظيم في تأثر قلبك، مع أن العبادة واحدة، فكيف إذا عبدت الله برياء وسُمعة، ـ نسأل الله أن يعافينا وإياكم من ذلك ـ تكون أشد وأشد في عدم تأثر القلب بهذه العبادة.

رابعًا: باعتبار متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام، فكلما ازداد الإنسان اتباعًا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عبادته، ازداد إيمانه بذلك؛ لأنه عندما يزداد اتباعًا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشعر كأن الرسول ﷺ أمامه، يتابع أثره، وهذا لا شك أنه يزيد في الإيمان.

خامسًا: باعتبار حال العامل، فالنبي ﷺ يقول عن الصحابة: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه**»[1] رضي الله عنهم؛ لأنهم أقوى إيمانًا ممن بعدهم وأشد ثباتًا.

سادسًا: ترك المعاصي خوفًا من الله؛ لأن الإيمان يزداد به، وسيأتينا ـ إن شاء الله ـ في «**كتاب التوحيد**»، شرح ذلك على وجه أكمل.

المهم: أن أهل السنة والجماعة يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقالت المرجئة: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الإيمان في القلب، فالأعمال الصالحة ما لها دخل في الإيمان، وما في القلب لا يتفاوت، فنحن الآن نؤمن بالشمس جميعًا فإيماننا على حدٍّ سواء لا يتفاوت، فالناس عندهم كما قال ابن القيم عنهم:

النَّاسُ فِي الإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدُ ... كَالمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الأَسْنَانِ

وهذا القول، لا شك أنه خطأ يرده الواقع والشرع.

وقالت الخوارج والمعتزلة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، إما أن يوجد جملةً كاملًا، وإما أن يعدم بالكلية؛ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة خارج عن الإيمان، فهو إما كافر، وإما في منزلةٍ بين منزلتين، فالخوارج يقولون: فاعل الكبيرة كافر، ليس عنده إيمان أبدًا، والمعتزلة يقولون: لا إيمان عنده، لكن لا نقول: إنه كافر، بل هو في منزلة بين منزلتين، ومن لم يكن فاعل كبيرة، فالناس في الإيمان، كلهم على حدٍّ سواء، فالذين لا يرون زيادة الإيمان ولا نقصانه طائفتان: إما مرجئة، أو وعيدية، وهم الخوارج والمعتزلة.

وقال بعض أهل السنة، كمالك رحمه الله: الإيمان يزيد ولا نقول ينقص؛ لأن زيادة الإيمان في القرآن والسنة كثيرة، ولكن لا يوجد ذكر نقص الإيمان، لكن قوله رحمه الله ضعيف؛ لأن في السنة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[1].

والإيمان ـ لا شك ـ أنه من الدين، فيكون داخلة في هذا الحديث، وأيضًا فإن الزيادة، والنقصان من الأمور المتقاربة، التي إذا وجد أحدها انتفى الآخر، ولا يعقل وجود أحدهما، إلا بوجود الآخر، فمثل الزيادة لا تعقل إلا بنقص، فالصواب: أن الإيمان يزيد وينقص، وأسباب الزيادة والنقصان، كما شرحنا من قبل.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الناس يختلفون في الانقياد والتسليم، كما يختلفون في الإيمان، زيادة ونقصًا، لقوله: ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾؛ لأن عامة المؤمنين، كلهم منقادين للشرع، لكن منهم من ينقاد بطمأنينة، وانشراح، وقبول، ومحبة، ومنهم من يسلِّم على وجهٍ دون ذلك، ومنهم من يأتي للصلاة ـ مثلًا ـ وهو يرى أنها نعمة من الله ـ عز وجل ـ يأتي إليها مقبلًا غير مُدبر، نشطًا، منشرح الصدر، محبًّا لها، ينتظر الصلاة، بعد الصلاة بفارغ الصبر، ومنهم أناس بالعكس يأتون إلى الصلاة، لا يتخلفون، لكن ببطء، وتثاقل وعدم انقياد تام، إذنْ الناس يختلفون في التسليم، ولهذا قال: ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن التأمل في الآيات، ووضوح الآيات للعبد، تزيد في إيمانه وتسليمه، لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾ أي: ما رأوه من الأحزاب، ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسۡلِيمًا﴾ لشرعه.

ثم قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا﴾.

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: الثناء على أولئك المؤمنين الذين عاهدوا الله فصدقوه، وجه ذلك السياق، لقوله: ﴿رِجَالٌ﴾؛ لأن ﴿رِجَالٌ﴾ نكرة للتعظيم، يعني: رجال عظماء صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢- ومن فوائدها: أن أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله، منهم من توفي واستشهد، ومنهم من بقي، ومن الذين استشهدوا: أنس بن النضر رضي الله عنه، فإنه استشهد في أُحد، ووجد فيه بضع وثمانون ضربة.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أن الله أثنى على هؤلاء أنهم أتوا بما عاهدوا الله عليه على وجه الكمال بدون نقص ولا تغيير، لقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا﴾.

٤- ومن فوائد الآية: أن من مات سابقًا، ومن مات لاحقًا، إذا كانا سواءً فيما قاما به مما يجب، فإنه لا فرق بين المتقدم والمتأخر؛ لأنه قال: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ فجعل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

الثناء عليهم واحدًا، لكن في الأعمال الأخرى، من تأخر موته فازداد عملًا صالحًا، فإنه أكمل من الأول، لكنه بالنسبة لما اتفقا فيه من العمل الصالح، لا فرق بين الأول والآخر.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

١- يستفاد من هذه الآية: بيان حكمة الله تعالى في المجازاة على العمل؛ لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾

٢- ويستفاد من هذه الآية: أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾، فإن الباء للسببية، والمسبَّب مربوط بالسبب، يقوى بقوته ويضعف بضعفه، ويزداد بزيادته وينقص بنقصانه.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على الصادقين؛ لأنهم أهل للثناء الحسن، لقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الصادقين في العقيدة، وفي القول، وفي العمل، وقد أمر الله بالصدق، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال النبي ﷺ، حاثًّا على الصدق: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُوْرِ وَإِنَّ الفُجُوْرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[1].

والصدق كما أنه محل ثناء من الله عز وجل، ومحل ثواب جزيل، فإنه محل ثناء من الخلق ولهذا تجد الصادقين تنشر آثارهم، وتؤثر أقوالهم، ويثنى عليهم في المجالس حتى بعد موتهم، بخلاف أهل الكذب ـ والعياذ بالله ـ والنفاق، فإنهم على العكس من ذلك، فعليك بالصدق ولا تظن أن الصادق يخيب أبدًا، كما يصور الشيطان أحيانًا أنه لو صدق لكان في ذلك ضرر عليه، فهذا من وساوس الشيطان، فالصدق منجاة، ولهذا قال أحدهم: رأيت في الكذب نجاة، فقال الثاني له: الصدق أنجى، وصدق.

واعلم أن الصادق، وإن كان الأمر يكون مرًّا عليه في أول أمره، لكنه تكون العاقبة له في النهاية، وإن أردت مثلًا على ذلك، فانظر إلى حال الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك كيف كان أول أمرهم؟ كانوا في تلك المرارة العظيمة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليم أنفسهم، وتنكرت الأرض لهم، حتى قال كعب بن مالك: حتى الناس الذين على الأرض كأنهم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

ليسوا بالناس الذين أعرفهم، ضاقت عليهم الأرض، والنتيجة: أنهم نزلت فيهم آيات تتلى إلى يوم القيامة، ولولا هذا الصدق ما بقيت هذه الآيات، حتى قيل للناس: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] عندما ذكرت قصتهم، هذه نهاية عظيمة جدًّا للصادقين، فأنت اصدق وإن حصل عليك ضرر في أول أمرك، لكن العاقبة لك، لا تعوِّد نفسك الكذب.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ذم النفاق وأنه سبب للعذاب؛ لقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾

٥- **ويستفاد منها: أن المنافق له توبة**؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ إن شاء أن يعذبهم إذا ماتوا على النفاق، أما إذا تابوا فقد شاء ألا يعذبهم، ولكن توبة المنافق ذكر فيه شروط، لابد من مراعاتها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦] لابد أن تظهر هذه الأمور على المنافق، وإلا فإن توبته لا تقبل في الدنيا، أما في الآخرة، فأمره إلى الله، لكن في الدنيا لا نقبلها، إلا إذا ظهرت عليه هذه الأوصاف التي اشترطها الله عز وجل.

٦- **ويستفاد من الآية**: ترغيب المنافقين في التوبة؛ لقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ منافق، خادع، غادر، ماكر، ومع ذلك يقال له: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليل على أن الله عز وجل رحمته سبقت غضبه، ولهذا الذين يعذبون أولياءه، ويحرقونهم بالنار يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، وكذلك الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، عرض الله عليهم التوبة، كل هذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يحب العفو أكثر من الانتقام.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: الغفور والرحيم، وما تضمناه أيضًا من الصفتين، وهما المغفرة والرحمة، وما يتعلق بهما من حكم وأثر، وهو أنه يغفر ويرحم، فالاسمان الكريمان: الغفور والرحيم، من الأسماء المتعدية التي لا يتم الإيمان بها إلا بأمور ثلاثة، لأن أسماء الله عز وجل نوعان: متعدٍّ، ولازم، فالمتعدي لا يتم الإيمان به إلا بأمور ثلاثة، وهي:

أ ـ أن تؤمن بأنه اسم لله.

ب ـ وأن تؤمن بما تضمنه من صفة.

جـ ـ وأن تؤمن بما تضمنه من الحكم والأثر.

فالغفور تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، وأنه تعالى ذو مغفرة، والثالث: أنه يغفر.

النوع الثاني، وهو إذا كان غير متعدٍّ، فلا يتم الإيمان به إلا بأمرين:

أ- الإيمان بأنه اسم من أسماء الله.

ب- الإيمان بما تضمنه من الصفة، مثل: العلي، والكريم، والعظيم، وما أشبه ذلك، وربما نقول: إن الكريم من الاسم الأول.

مسألة: في الآية إشكال وهو كيف نجيب عن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأن كان في الماضي؟

نقول: إن كان يراد بها أحيانًا: اتصاف اسمها بخبرها، بقطع النظر عن الزمن، وهي ما تعرف بمسلوبة الزمن، يعني ما يراد بها الزمن إطلاقًا، بل يراد بها تحقق هذا الوصف، فكان يعني: ثبت، فكان الله غفورًا رحيمًا، يعني أنه عز وجل لم يزل ولا يزال كذلك غفورًا رحيمًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله سبحان وتعالى؛ حيث ردَّ هذه الأحزاب الكثيرة العظيمة مع ما في قلوبهم من الغيظ والحمق الشديد على النبي ﷺ وأصحابه، ردهم الله عز وجل بغيظهم، ما اشتفوا ولا نالوا مرادهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾؛ ولهذا أثنى النبي ﷺ على ربه في هزيمة الأحزاب فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»[1].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الأحزاب قد امتلأت قلوبهم غيظًا على رسول الله ﷺ، لقوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ فإن الباء للمصاحبة، والملابسة.

٣- **ومن فوائدها**: أنهم - أي الأحزاب - لم ينالوا مع هذا التعب الشديد خيرًا لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فما نالوا خيرًا في الدنيا من غنائم وغيرها، ولا نالوا خيرًا في الآخرة من الأجور والثواب.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله عز وجل كفى المؤمنين القتال بعد هذه الغزوة؛ ولهذا لم يقاتل النبي ﷺ أحدًا من المشركين بعد تلك الغزوة، حتى قال النبي ﷺ: «الْآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا»[2]؛ لأن الله قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ في هذه الغزوة وما بعدها، فإن العرب لم يقوموا بغزوٍ لرسول الله بعد هذه الغزوة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله عز وجل يدافع عن المؤمنين؛ لقوله ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ووجه اختصاص ذلك بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فخصه بالمؤمنين، يدل هذا على أنه كفاهم القتال لإيمانهم، فالمؤمنون يكفيهم الله عز وجل، ما أهمهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٠٩)، وأحمد (١٧٨٤٤).

ويدافع عنهم بإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزُّمَر:٦١].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القوة والعزة لله؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾.

٧- **وفيها:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله تعالى، وهما: القوي والعزيز.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** منة أخرى على المؤمنين: وهي إنزال هؤلاء الذين غدروا من اليهود من بني قريظة من حصونهم التي تحصَّنوا بها؛ لقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن اليهود والنصارى أعداء للمسلمين، موالون للمشركين؛ لأن بني قريظة والوا الأحزاب، وظاهروهم على النبي ﷺ، مع ما عليه من العهد والميثاق الذي بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن إلقاء الرعب في القلوب من أعظم الهزيمة؛ لقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى انحطاط هؤلاء اليهود وذلهم، ونزولهم من الأعلى إلى الأسفل، لقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾، وفعلًا فإنهم حصل لهم مع خروجهم من حصونهم من الذل والعار والخزي، ما هو باقٍ إلى يوم القيامة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ أباح للمؤمنين هؤلاء اليهود، قتلًا وأسرًا، لقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المؤمنين إذا فتحوا بلدًا ملكوا الأرض، لقوله: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾، وإذا ملكوا الأرض، فهل تقسم بين الغانمين، أو تُوقف لبيت المال أو توزع على المؤمنين بخراج؟

الجواب: فيه خلاف بين أهل العلم، والصحيح: أنه يجب على ولي الأمر أن ينظر إلى ما هو الأصلح، إن رأى أن يوزعها على الغانمين فعل، كما فعل النبي ﷺ في خيبر، وإن رأى أن يبقيها في مصالح المسلمين أبقاها، وإن رأى أن يوزعها على المسلمين بخراج يضرب عليها فعل مثلما فعل عمر رضي الله عنه فيقول مثلًا: نحن نقسمها عليكم على أن يكون على كل مائة متر كذا وكذا دراهم،

وتكون هذه الدراهم للمسلمين ينتفعون بها.

المهم: أن أرض الكفار إذا فتحت عنوة، فهي للمسلمين، لقوله ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾.

٢- ومنها أيضًا: حل أموال الكفار للمسلمين، لقوله: ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾، فإن الغنائم تحل للمسلمين، وهي من خصائص هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكَانَ النبيُّ يُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: البشارة بأن المسلمين سيستولون على أراضي أخرى للكفار، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، وهي خيبر، وغيرها من بلاد الكفار، إنما فيه بشارة بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيورث المسلمين أراضي الكافرين.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قدرة الله تعالى على كل شيء، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فكل شيء، فإن الله قادر عليه، لا يعجزه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فمهما ظننت من بُعد وقوع الشيء، فلا تستبعده على قدرة الله، فإن الأمر عليه هين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فالكل عليه هين ولكن هذا أهون.

فالحاصل: أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وقد قال المؤلف صاحب «**تفسير الجلالين**»، في سورة المائدة، لما قال ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: [وخص العقل ذاته، فليس عليها بقادر] أي: أن الله لا يقدر على ذاته، والذي خصص هذا العموم هو العقل على زعمه، فيقال: ما هذا العقل الذي يخصص هذا العموم، وكيف لا يكون الله قادرًا على ذاته؟! بل إن الله سبحانه قادر على كل شيء، حتى على ذاته، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يستوي على العرش، وينزل إلى السماء الدنيا، ويأتي للفصل بين عباده، ويفعل ما يشاء، وهذه قدرة على الذات، أما إن أراد أنه غير قادر على ذاته، فلا يعدمها مثلًا، فيقال: إن هذا شيء مستحيل، والمستحيل لا تتعلق به القدرة أصلًا، فهو غير وارد ولا داخل في الآية من الأصل.

٥- ويستفاد منها: إثبات غدر اليهود وأنهم أهل غدر وخيانة، وهذا شيء معلوم من اليهود من حالهم، منذ كان فيهم نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، وهم أشد الناس غدرًا ومكرًا وخيانة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

۞ قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢٨-٣١]

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾.

لم يخاطب الله نبيه محمدًا ﷺ إلا بوصف النبوة والرسالة، بينما كان يخاطب غيره من الأنبياء كثيرًا بأسمائهم مثل: يا موسى يا عيسى، يا نوح، يا إبراهيم، وما أشبه ذلك، وأما النبي ﷺ في القرآن فلم يخاطبه الله - تعالى - باسمه، يعني لم يقل: يا محمد، وإن كان جاء ذلك في الأحاديث، لكن في القرآن لا.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ والنبي مسهَّل من النبيء بالهمزة، وقيل: إنه غير مسهل، وأصل هذا الخلاف هو: هل النبي من النبأ أم من النَّبْوة؟ إذا قلنا: من النبوة، لم يكن فيه تسهيل؛ لأن الياء أصلية، وإذا قلنا: من النبأ، فإن فيه تسهيل، وأصله النبيء فسهلت الهمزة إلى ياء، والصحيح: أنه مشتق من المعنيين جميعًا، فإن النبيء مشتق من النبأ؛ لأنه مُنبأ منبِئ، ومشتق - أيضًا - من النبوة؛ لعلو مرتبة النبيين.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج في اللغة العربية يطلق على الأنثى والذكر، وفيه لغة لكنها قليلة رديئة، تقول للمرأة زوجة، ولكن هذه اللغة الرديئة، هي التي استخدمها الفرضيون، فيقول زوج: للذكر، وزوجة: للأنثى، من أجل البيان والإيضاح، وهذا أمر لابد منه في باب الفرائض.

قوله: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ قال: [وهن تسع] خمس منهن قرشيات، وأربع غير قرشيات، [وطلبن منه من زينة الدنيا، ما ليس عنده]، فطلبن منه نفقة وكسوة، وغير ذلك مما تريده النساء من الرجال من الأموال، والنبي ﷺ - كما نعلم جميعًا - كان قليل ذات اليد؛ لأنه كان ينفق ما عنده، فطلبن منه النفقة، وضيقن عليه، وآلى منهن شهرًا كاملًا، اعتزلهن، ثم نزل في آخر الشهر، فأنزل

الله عليه هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ إلى آخره.

وقوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إن شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنتُنَّ﴾، وجواب الشرط: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

وقوله: ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني: متعها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: ما فيها من الأموال، والقصور، والمراتب، وما أشبه ذلك، ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هذا فعل أمر؛ لأنه تلحقه العلامات، فإذا كان تلحقه العلامات فهو فعل أمرٍ، ولهذا يقال: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ ويقال: تعالوا، بخلاف هلمَّ، فإنها لا تلحقها العلامات فهي اسم فعل.

وقوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يعني: أقبلن إلي، ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ هذه جواب الأمر، جواب الطلب في قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أعطيكن متاعًا تتمتعن به، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، أطلِّقكن؛ لأن التسريح ضد التقييد، وهذا من الآداب العالية التي أمر الله بها نبيه - عليه الصلاة والسلام - وإلا كان مقتضى الحال أن يقول: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أطلقكن، ولا خير فيمن لا تريد إلا الدنيا، ولكن من كمال الرعاية، ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أعطيكن مالًا تتمتعن به، ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾، أطلقكن، ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، يعني: ليس فيه عداوة، ولا بغضاء، وليس فيه حجر بعد ذلك، ولهذا لو أن هذا وقع، لكان يحل لهن أن يتزوجن بغيره؛ لأن هذا من السراح الجميل، إذ لا فائدة من كونها تتسرح من الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم تبقى محبوسة، ولكن الأمر لم يقع.

ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ قال: [أي: الجنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ﴾ بإرادة الآخرة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجنة]، وإنما بدأ بالدنيا؛ لأنهن كن يطالبنه بالنفقة، وهي مما يتعلق بالدنيا، ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، وهذا هو الحال الثانية لهن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ﴾، ولم يقل: لكُنَّ بل قال: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾، فأظهر في موضع الإضمار، ليتبين أن هذه الإرادة إحسان، وأنهن إذا أردن الله ورسوله والدار الآخرة من الإحسان، وأن الله أعد للمحسنات منهن أجرًا عظيمًا.

و(من) هنا ليست للتبعيض، ولكن للبيان، فتشمل ما لو أردن كلهن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله يعد لهن جميعًا أجرًا عظيمًا، فبدأ أول ما بدأ بأحب نسائه إليه، وهي عائشة رضي الله عنها وقال لها: لا عليك ألا تستعجلي، فتستأمري أبويك، خاف من أنها شابة صغيرة، أنها تتعجل وتقول: أريد الدنيا، فطلب منها ألا تتعجل حتى تستأمر أبويها، أي: تستأذنهما، ومعلوم أن أبويها لا يريدان لها أن تختار الدنيا وزينتها على الله ورسوله، والدار الآخرة، ولكنها رضي الله عنها على صغر سنها كانت لها نظرة بعيدة، فقالت: يا رسول الله أفي هذا أستأمر أبوي؟! يعني: أفي هذا أشاور

أبوي، لا، إنما أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولكن لا تخبر نساءك بما قلت، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا ولا معنتًا[1] وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا».

لكن كل نساءه ما سألن، فكل امرأة تقول: إنها تريد الله ورسوله والدار الآخرة، فصرن على الحال الكاملة ـ رضي الله عنهن ـ على ما كان عليه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ضيق العيش، وقلة ذات اليد، ومع هذا وفقهن الله ومنَّ عليهن، وهذا ولا شك من عناية الله برسوله، أن يختار له مثل هؤلاء النساء، فكان جزاؤهن أن الله قال له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فهؤلاء النسوة اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد أن خُيرن، كان لهن مع جزاء الآخرة، هذا الجزاء الدنيوي: أن الرسول مُنع من أن يتزوج بأحد من النساء، أو يبدل واحدةً بامرأة جديدة ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

وقوله: ﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال: [بفتح الياء وكسرها] ـ ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾ و﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ـ [أي: بُينت أو هي بينة، ﴿يُضَٰعَفْ﴾، وفي قراءة، بالتشديد ﴿يُضعَّفُ﴾، وفي أخرى ﴿نُضعِّفُ﴾، بالنون معه، أي: مع التشديد، ونصب العذاب].

فقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ فيها إذنْ ثلاث قراءات: [يضاعف- يضعَّف- نضعِّف] فعلى القراءتين الأوليين يكون العذاب بالرفع، ﴿يُضَٰعَفْ﴾ أو ﴿يضعَّف﴾، وعلى القراءة الثالثة: ﴿نُضعِّف﴾، يكون العذاب بالنصب على أنه مفعول به.

يقول: [﴿لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفيْ عذاب غيرهن ـ أي مثليه ـ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾].

وقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ النداء من الله ـ عز وجل ـ موجَّهًا إلى زوجات الرسول ﷺ، وذلك لأهمية ما سيوجه إليهن، ولتنبيههن على ما سيُلقى إليهن.

وقوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ ﴿مَن﴾ هذه شرطية، وفعل الشرط: ﴿يَأْتِ﴾، و﴿يُضَٰعَفْ﴾ جواب الشرط، وما المراد الفاحشة، هل المراد بالفاحشة الزنا، أو المراد بالفاحشة الكلام البذيء والمتطاول فيه على الرسول ﷺ، والخارج عن المروءة، أو المراد هذا وهذا؟

قال بعض أهل العلم: المراد الأخير، ولا يراد به الزنا، مع أن الفاحشة تأتي في القرآن مرادًا بها الزنا، وتأتي مرادًا بها بذاءة اللسان، والتطاول، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥]، المراد بالفاحشة هنا: الزنا، وقال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١]

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧٨).

والمراد بالفاحشة هنا: بذاءة اللسان وسلاطته، فإذا كانت بذيئة اللسان سليطته، تأتي بكلمات خارجة عن المروءة، فلزوجها أن يخرجها من البيت، أثناء العدة.

هذه الآية إن قلنا بأنها تشمل الفاحشة التي هي الزنا، والفاحشة التي هي بذاءة اللسان، فإن ذلك لا يعني أنه يقع منهن؛ لأن الشرط لا يلزم وقوعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزُّخرُف:٨١] وهل يمكن ذلك؟ لا، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] هل يمكن ذلك؟ لا يمكن، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] لا يمكن هذا أيضًا، فالإتيان بالشيء معلقًا بالشرط لا يلزم منه جواز وقوع الشرط، وعلى هذا فلتكن الآية: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ شاملة للزنا، لكن هذا شيء محال.

أما إذا قلنا: المراد بالفاحشة سلاطة اللسان، والخروج بالقول عن المألوف والمروءة، فهذا قد يقع من النساء حتى من أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ ولا عيب عليهن في ذلك؛ لأنه من طبيعة النساء الغَيْرة، وعدم حفظ اللسان، وعدم التأني في الأمور، وأيًا كان، فإن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وذلك لشرفها، وعلو منزلها، فكان الذنب منها أعظم من الذنب من غيرها، ولهذا إذا زنت الحرة؛ تجلد أو ترجم، وإذا زنت الأمة، فليس عليها إلا نصف ما على المحصنات من العذاب؛ لشرف الأولى وانحطاط مرتبة الثانية.

فزوجات الرسول ﷺ لهن من المقام الرفيع، والحصن المنيع، ما يقتضي أن يضاعف العذاب عليهن، إن أتين بفاحشة مبينة، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فإذا كان جزاء سيئةٍ سيئة مثلها، فجزاء السيئة التي ذكر الله هنا، وهي الفاحشة المبينة، بالنسبة لزوجات الرسول سيئتان، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يكرر عليهم مرتين.

وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فالمشار إليه هو تضعيف العذاب، كان ذلك يسيرًا على الله، أي: ليس صعبًا عليه.

مسألة: لماذا قال: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾؟

الجواب: لئلا يظن ظان أن هذا أمر صعب على الله؛ لكون الأمر يتعلق بزوجات نبيه ﷺ، فبيَّن الله ـ عز وجل ـ أن هذا أمر يسيرٌ عليه؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بينه وبين خلقه نسب، فأكرم الخلق عنده أتقاهم له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ هذا عكس الأول،

لما كنّ إذا أتين بفاحشة مبينة ضُوعف العذاب عليهن جزاهم الله بالعدل من جهة أخرى، فقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿يَقْنُتْ﴾ أي: يطع، ولكن القنوت لله تعالى غير القنوت للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالقنوت لله قنوت عبادة وتذلل، وتعظيم، والقنوت للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قنوت طاعة زوج، وليس هو كقنوتهن لله ـ عز وجل ـ فقوله: ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، لله بالطاعة والعبادة، وللرسول ﷺ في أداء حقوقه التي تجب للزوج على زوجته.

وقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: تعمل عملًا صالحًا، والعمل الصالح ما كان خالصًا صوابًا، والخالص الصواب، يعني أنه جمع بين الشرطين الأساسين في كل عبادة، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فكل عبادة لابد فيها من هذين الشرطين، فمن اتبع الرسول ولم يخلص لله، فعبادته باطلة، لأنها رياء، ومن صلى لله ولم يتبع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصلاته باطلة، وعبادته باطلة، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»[1].

إذنْ الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال هما: الإخلاص والمتابعة، وهكذا كلما ذكر الله ـ عز وجل ـ عملًا صالحًا، فالمراد بالعمل الصالح: ما تضمن هذين الشرطين الأساسين.

قال الله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ لم يقل: نؤتيها، بالياء؛ لأن جواب الشرط يكون مجزومًا، والفعل هنا مجزوم بحذف حرف العلة، وأصلها: (نؤتيها)، فلما جُزم حذف حرف العلة، ومعنى ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نعطها، ولهذا نصبت مفعولين، المفعول الأول: الهاء، والمفعول الثاني: ﴿أَجْرَهَا﴾.

قال: [﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مثليْ ثواب غيرهن من النساء، وفي قراءةٍ بالتحتانية في ﴿تعمل﴾] فتكون: ﴿وَيَعْمَلُ﴾ [وفي ﴿نُّؤْتِهَآ﴾] يعني: ﴿يؤتها﴾، والقراءة هذه سبعية، حسب اصطلاح المؤلف، و﴿يؤتها﴾ أي: الله، و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نحن، والفوقانية تعود على الله، ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، كما أنها إذا أتت بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، فإذا قنتت لله ورسوله وعملت صالحًا، آتاها الله تعالى أجرها مرتين، وإيتاء الأجر مرتين ليس بغريب، فقد أثبت الله الأجر مرتين في عدة النساء، مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤] وأخبر النبي ﷺ، أن الرجل من أهل الكتاب إذا آمن برسوله، ثم آمن بمحمد ﷺ، فإن الله يؤتيه أجره مرتين.

وقال كثير من أهل العلم: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]، إن هذا أجر هذه الأمة، يضاعف على غيرها مرتين، والمهم: أن فضل الله تعالى واسع، قد يثيب العامل أجره مرتين، لسبب من الأسباب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، و مسلم (١٧١٨).

يقول: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: هيأنا لها، ﴿رِزْقًا﴾: عطاءً، ﴿كَرِيمًا﴾ حسنًا وكثيرًا؛ لأن الكرم في كل موطن بحسبه، فالكريمة من الشاء: الحسنة الجميلة الكثيرة اللبن، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم»[1] فهنا، المراد بالرزق الكريم: العطاء الكثير الحسن الجميل، وهذا إنما يكون كما قال المؤلف: [في الجنة زيادة].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** وجوب تخيير النبي ﷺ زوجاته لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** حماية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ﷺ، ودفاعه عنه، حيث أمره أن يخير أزواجه هذا التخيير لما ضيقن عليه، وطلبن منه النفقة.

٣- **ومن فوائدها:** بيان فضائل أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله، والدار الآخرة.

٤- **ومن فوائدها:** كمال خُلق النبي ﷺ، حيث أمره الله أن يقول: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ لأنه كان مقتضى الحال، أن يوبخن على ذلك، وأن يؤنبن عليه؛ لكن قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** حل زوجات النبي ﷺ لغيره لو اخترنا الحياة الدنيا وزينتها، لقوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، من الإحسان، لقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النية لها أثر عظيم في زيادة الثواب؛ لأنه رتب هذا الثواب على هذه الإرادة والنية الطيبة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الذنب من المقربين، أشد من الذنب من غير المقرَّبين، يؤخذ من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، و مسلم (١٩).

قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** حماية فراش النبي ﷺ الحماية التامة؛ لكون المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة من زوجاته، فإن الله يضاعف لها العذاب، كل ذلك من أجل حماية فراش النبي ﷺ، وسواء قلنا: إن المراد بالفاحشة الزنا، أو المراد بها بذاءة اللسان.

٣- **ومن فوائدها:** أن الله ـ عز وجل ـ له أن يفعل ما يشاء في مضاعفة الثواب، والعقاب وأن هذا الأمر عليه هين، لقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** مزية عظيمة لزوجات النبي ﷺ، حيث كانت المرأة إذا عملت عملًا صالحًا، وأطاعت الله ورسوله، آتاها الله أجرها مرتين.

٢- **ويستفاد منها:** كمال عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ، لما ضوعف لها العذاب، ضوعف لها الثواب، ولهذا قال: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله أعد لهؤلاء المؤمنات من أزواج النبي ﷺ أجرًا كريمًا، أي: كثيرًا جميلًا حسنًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢]

❁ التَفْسِيرُ ❁

قوله عز وجل: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ الخطاب هنا وجهه الله ـ بعد أن وجهه لرسوله ـ إلى نسائه قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا بعد التخيير، يدل على أن الزوجية استقرت لزوجات النبي ﷺ، ولهذا خاطبهم بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلها: ليس، لكنه لما سُكنت السين حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وحرف اللين عند التقاء الساكنين يحذف، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ :

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

وقوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ يعني أن زوجات الرسول ﷺ لسن كأحدٍ يقول المؤلف: [كجماعة

﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾]، وهذا القول فيه نظر؛ لأن (أحد) تطلق على الفرد، يعني: ليس هناك أحد من النساء مثلكن، أي: لا تشبهن أحدًا.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: سواكن، ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ [الله فإنكن أعظم]، يعني: لستن كأحد من النساء إن اتقيتن، والمراد بالشرط: هو الحث والإغراء على التقوى، يعني: إن كنتن متقيات لله حقيقة، فلا تقسن أنفسكن بغيركن، فلستن كأحد من النساء، لما لهن من المزية بالاتصال برسول الله ﷺ، فكان عليهن من حماية فراشه، أعظم مما على غيرهن من حماية فراش أزواجهن، لعظم حق النبي ﷺ، وعلوِّ مرتبته، فقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ المراد بالشرط هنا: الحث والإغراء على تقوى الله - عز وجل - حتى لا يقسن أنفسهن بغيرهن، فالفرق عظيم بين فراش النبي ﷺ، وفراش غيره؛ ولهذا من قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ، بالزنا كان كافرًا، ومن قذف زوجة غيره لم يكن كافرًا؛ لأن قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ معناه الطعن في رسول الله ﷺ وأنه - والعياذ بالله - خبيث؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾[النور:٢٦]

فعلى هذا: تكون حماية فراش النبي ﷺ أعظم وجوبًا من حماية فراش غيره، ولهذا قال: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال: [للرجال]، والخضوع: بمعنى التطامن والذل والخنوع، فالمعنى لا تَتَطامَنَّ، ولا تذلَّلن ولا تخنعن لأحد من الرجال بالقول، يعني: لا يكن قولكن في مخاطبة الرجال رقيقًا وضيعًا هينًا؛ لأن المرأة فتنة، فإذا خضعت بالقول دب الشيطان بينها وبين الرجل الذي تخاطبه، فمهما كان للإنسان من شرف ونزاهة، فإن المرأة إذا خاطبته بصوت خاضع، فإنها قد تغريه، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[1]، فالرجل الحازم الفطن الكيس، لا أحد يذهب بعقله مثل ما تذهبه المرأة، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، بل يجب على المرأة أن تكون عند مخاطبة الرجال من أبعد ما يكون عن الخضوع بالقول، ولين القول، وظرافته، بحيث تؤدي إلى هذا الأمر العظيم، وهو قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يطمع في ماذا؟ يطمع فيكن، إما بفعل الفاحشة، أو بالتمتع، والتلذذ بِخِطَابِكُن، فإن الإنسان الذي في قلبه مرض، إذا خضعت له امرأة بالقول، فإنه يستمر معها في مخاطبتها، حتى يغريَه الشيطان، وربما يحصل بعد ذلك موعد ولقاء وفاحشة، كما يوجد عند كثير من السفهاء الآن، تجد - والعياذ بالله - ولاسيما بعد وجود هذه الهواتف - تجده يفتح مثلًا - أي رقم هاتف، فإذا خاطبته امرأة، بدأ معها بالكلام اللين الخاضع حتى يغريه الشيطان بها، ويغريها به، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ قال المؤلف: [نفاق].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠).

والصواب: أن المراد بالمرض هنا: مرض الشهوة والتمتع، لا مرض النفاق؛ لأن بعض المنافقين قد لا يكون في نفوسهم هذا الشيء، كما أن بعض المؤمنين قد يكون في قلوبهم هذا الشيء، فالمراد بالمرض هنا: مرض التمتع والتلذذ، بصوت المرأة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿قلن﴾ فعل أمر مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة.

مع أنك لو قلت: النساء قلن كذا وكذا، صار فعلًا ماضيًا، لكن إذا وجهت الأمر إليهن، فقلت: قلن قولًا معروفًا صار فعل أمر، ونجد في الآية أن الله عز وجل لما نهاهن ـ سبحانه وتعالى ـ عن الخضوع بالقول، أمرهن بأن يقلن قولًا معروفًا؛ لئلا يظن ظانٌّ أن المرأة لا تكلم الرجل مطلقًا، وليس كذلك، بل المرأة مخاطبتها للرجال جائزة، لكن بالقول المعروف.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال: [من غير خضوع]، والمراد بالمعروف هل هو المتعارف عليه بين الناس، من مخاطبة الرجال والنساء، أو المراد بالمعروف ما ليس بمنكر؟ المراد: الأخير؛ لأن الأول، لو قلنا: أنه ما يتعارف عليه الناس من الخطاب بين الرجل والمرأة، لكان هذا خاضعًا لاختلاف الأعراف، فيوجد مثلًا من الناس من عرفهم أن المرأة تخاطب الرجل وتضحك إليه وتمازحه كما يوجد الآن مع الأسف في كثير من بلاد المسلمين، المرأة مع الرجل الأجنبي لا تعرفه تجدها تقف معه وتمازحه وتضحك كأنها تخاطب زوجها ـ والعياذ بالله ـ، وهذا لا شك أنه حرام وأنه دعوة إلى الفجور.

إذنْ المراد بالمعروف: ما ليس بمنكر، يعني: ما عرفه الشرع وأقره من الكلام الذي يكون بعيدًا عن الخضوع بالقول، وعن التمتع والتلذذ به، وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قولًا هذه: مصدر، ومعروفًا: صفته، فهي مبينة لنوع هذا القول، وهو أنه القول المعروف، لا القول المنكر، فالمعروف مثل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالقول المعروف، ما أقره الشارع، وعرفه.

الفوائد:

١ ـ يستفاد من هذه الآية الكريمة: الميزة والخصيصة لنساء النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾.

فإن قلت: ما الحكمة في أنهن لسن كأحد من النساء؟

فالجواب: لأنهن تحت النبي ﷺ الذي هو أطيب الطيبين من الخلق، وقال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يَشرف بشرف من اتصل به، تؤخذ من شرف أمهات المؤمنين، لاتصالهن بالنبي ﷺ، ولهذا حث النبي ﷺ على الجليس الصالح، وقال: «إِنَّ مَثَلَ

الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً»(١)، وحذر من جليس السوء، يعني: أن الإنسان ـ بلا شك ـ يشرف بشرف من يتصل به، وينزل بنزول من يتصل به.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب التقوى، حتى على زوجات النبي ﷺ لقوله: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** تحريم خضوع المرأة في مخاطبة الرجال، لقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، فإن قلت: أفلا يكون هذا خاصًّا بزوجات الرسول ﷺ لما لهن من المكانة والشرف، حتى يُبعدن عن مواضع الفتن، إن قلت هذا، فما الجواب؟

الجواب:أنه إذا كان نساء الرسول ﷺ، وهن أطهر النساء، وأبعدهن عن الفتنة منهيات عن الخضوع بالقول، معللًا ذلك النهي بخوف طمع الذي في قلبه مرض، فإن الحكم يدور مع علته، وجودًا وعدمًا، فإذا كان هذا في النساء الطاهرات المبرَّءات فغيرهن من باب أولى، وإذا كانت العلة خوف طمع من في قلبه مرض، فهذه العلة لا تختص بزوجات الرسول ﷺ وعلى هذا يحرم خضوع المرأة بالقول لأي أحد من الناس، اللهم إلا لمحارمها مع أمن الفتنة أيضًا، حتى مع المحارم؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فربما مع خضوعها بالقول تحصل الفتنة، ولاسيما المحارم في الرضاع والمصاهرة؛ لأن نفور الطبيعة عن المحارم من الرضاع والمصاهرة، أقل من نفورها عن محارم النسب والقرابة، وهذا أمر مشاهد، ولهذا يجب التحرز من المحارم في الرضاع والمصاهرة، أكثر من التحرز عن المحارم بالنسب.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا بأس من مخاطبة النساء للرجال، لكن بالمعروف، هذا يؤخذ من قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن صوت المرأة ليس بعورة، خلافًا لمن قال: إنه عورة، من أهل العلم، والصواب: أن صوت المرأة ليس بعورة؛ ولهذا كان النساء يأتين إلى رسول الله ﷺ يسألنه، وحوله أصحابه، ولا ينهاهن عن ذلك، ولو كان صوت المرأة عورة، لنهاهن النبي ﷺ عن الكلام مع حضور الرجال.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على الإنسان أن يكون متبعًا لما جاء به الشرع في أحواله وأقواله، لقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن فتنة النساء مرض في القلب، يحتاج فيه الإنسان إلى معالجة، وإلى مداواة، لقوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، وهذا المرض مرض فتاك ـ نسأل الله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

السلامة منه - مرض في القلب، كمرض السرطان في البدن، إذا لم يتداركْ الله العبد بعفوه، وتوفيقه، وتسديده، فإنه يهلك، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»(١)، فالواجب الحذر من هذا الأمر، وألا يملي الإنسان لنفسه، ويمهلها في هذا الباب.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من كان صحيح القلب، فإنه أبعد الناس عن مواضع الفتن، لقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من جعل الله قلبه صحيحًا فإن المرأة، لا تغريه، بما تفعله من أسباب الفتنة؛ لأنه قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، ولم يقل فلا تخضعن بالقول فيطمع الناس، بل قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، لكن مع ذلك، لو كان الإنسان صحيح القلب سليمًا ثم أحس في نفسه بشيء من الفتنة، فالواجب عليه البعد عن ذلك، لا يقل: إني سليم، إني والحمد لله لا يهمني هذا الأمر، لا يقل هكذا، فإن الإنسان قد يرى نفسه متحصنًا بحصن التقوى، ولكن الشيطان يخدعه في مواطن الفتن، ولهذا أمر النبي ﷺ أن من سمع بالدَّجَّال أن ينأى عنه، يعني: يبعد، فإن الإنسان يأتيه، وهو يرى أنه مؤمن، فلا يزال يقف له بالشبهات حتى يتبعه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأحزاب:٣٣، ٣٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَقَرْنَ﴾ [بكسر القاف وفتحها]، وهو من القرار، وهو البقاء مع السكون والاستقرار، وهو أبلغ من قوله: وابقين في بيوتكن؛ لأن القرار بقاء وزيادة مع سكون، ولهذا قال: [﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ من القرار، وأصله: اقرِرْن، بكسر الراء، وفتحها]، اقررن، واقرَرْن، من قررت، بفتح الراء وكسرها، قرَرت وقرِرت [نقلت حركة الراء إلى القاف، وحذفت مع همزة الوصل]، فأصل قرن: اقرَرْن، أو اقرِرن، فالذي حدث نقلت فتحة الراء إلى القاف الساكنة، فصارت هي ساكنة،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

وصارت القاف مفتوحة أو مكسورة، ثم حذفت همزة الوصل، فصارت: ﴿وَقَرْنَ﴾.

وقوله: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ هنا للإضافة، ويحتمل أنها للتمليك وأن بيوت زوجات النبي ﷺ ملك لهن، ويحتمل أنها للاختصاص، وأن البيوت ملك لرسول الله ﷺ، فأيها أقرب؟

الأقرب: أنه للتمليك، بدليل أن النبي ﷺ لما توفي بقيت هذه البيوت لزوجاته، وإن كانت البيوت لرسول الله ﷺ لا تُورث من بعده؛ لأن الأنبياء لا يورثون، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١)، والرافضة يقولون: إن لفظ الحديث، «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً**» لئلا يقولوا: إن الذي تركوه غير صدقة يورث، وإن أبا بكر، وعمر، وبقية الصحابة ظلموا ورثة النبي ﷺ؛ حيث لم يورثوهم.

لكن أهل السنة والجماعة يقولون: كذبتم أيها الرافضة، بل إن لفظ الحديث: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورث**» انتهت الجملة الأولى، ثم قال مبينًا ماذا يكون مآل المال بعدهم، قال:«**ما تركناه صدقةٌ**»، والمعنى الذي ذهبت إليه الرافضة باطل؛ لأن ما تُرك صدقة، لا يورث حتى في غير الأنبياء، فهم محرفون في الحديث لفظًا ومعنىً، يقولون: إنا لا نورِّث الذي تركناه صدقة، معناه مثلًا: إذا وقَّفنا شيئًا، وجعلناه في سبيل الله، فإننا لا نورث هذا الشيء، إنما نورث الأملاك الأخرى.

وهل هذا خاص بالرسل؟ لا ليس خاصًّا بهم، إذنْ قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، الأقرب أن الإضافة للتمليك.

وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ قال: [بترك إحدى التاءين من أصله]، ﴿تَبَرَّجْنَ﴾ هل هي فعل مضارع أم فعل ماض؟ فعل مضارع؛ لأن لا الناهية لا تدخل إلا على الفعل المضارع، وإلا فإن كلمة تبرج، والنساء تبرجن، هذه فعل ماض، لكن في الآية:﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ هذا فعل مضارع، يقول المؤلف: [بترك إحدى التاءين] وأصلها: تتبرجن، هذا أصلها، وحذف إحدى التاءين في المضارع كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤] أي: تتلظى إذنْ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة في محل جزم بلا الناهية.

وقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [أي: ما قبل الإسلام]، والتبرج في الأصل مأخوذ من التعالي والترفع، ومنه البُرج: وهو الحصن الرفيع المنيع، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، وكما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١] أي: جعل فيها كتلًا عظيمة من النجوم، كالبروج المشيدة.

يقول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي: تتعالين، وترفعن باللباس وغيره، وقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٣٦)، ومسلم (١٧٥٨).

ﭐلۡأُولَىٰ﴾ هذا مصدر مبين للنوع بالإضافة إلى الجاهلية، ومعلوم أن المصدر يكون لبيان العدد، والنوع، والتوكيد، وغير ذلك مما ذكره أهل العلم بالنحو.

وقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أضافه إلى الجاهلية؛ لأنه مبني على الجهل والسَّفه؛ لأن المرأة إذا تبرجت، فإن ذلك يعتبر جهلًا منها وسفهًا، ولهذا أضيف إلى الجاهلية، ثم أضيف إلى الأولى، وهل المراد الأولى زمنًا، أو الأولى مرتبة، أو كلاهما، يعني: هل المعنى الجاهلية الأولى الأعظم جهلًا من نوعها؟

نقول: كلاهما في الواقع، فهي جاهلية من الطراز الأول من الجهل، وهي جاهلية أولى؛ لأنها سبقت الإسلام، ولا يعني بذلك أنها الجاهلية المباشرة للإسلام؛ لأن الجاهلية المباشرة للإسلام امتداد لجاهلية سبقت منذ زمن بعيد، فالجاهلية الأولى استمرت إلى أن محاها الإسلام بالعلم والتقوى والحمد لله، ولهذا قال: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾، والمراد بالإضافة هنا بيان النوع، وما أقبح نوعًا يكون جهلًا.

وعلى هذا فالمراد به التقبيح، أي: تقبيح هذا التبرج، وأنه تبرج مبني على الجهل والسفه، والبعد عن الإيمان والعلم والرشد.

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾، أي: [ما قبل الإسلام، من إظهار النساء محاسنهن للرجال] ففي الجاهلية كانت تتبرج المرأة، وتخرج بأحسن ما عندها من اللباس والحلي، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، هذا التبرج يكون بنوع اللباس، ويكون بالطيب، ويكون بتحسين البدن بالحناء، والتحمير، وتسويد العين بالكُحل، وما يسمى عندنا في الوقت الحاضر بالمكياج، وما يسمى بمنكر المناكير، وعلى هذا فقس، كل هذا من التبرج الذي يعتبر من تبرج الجاهلية الأولى، ولهذا يقول المؤلف: [من إظهار النساء محاسنهن للرجال، والإظهار بعد الإسلام مذكور في آية: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ [النور:٣١]].

رحم الله المؤلف، فإن هذا ليس بصواب منه، فليس في الإسلام إظهار للزينة أبدًا، إلا في نوعين: النوع الأول: الإظهار العام لكل أحد، والنوع الثاني: الإظهار الخاص للبعولة والمحارم.

أمَّا الإظهار العام: فقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ [النور:٣١] المراد بما ظهر منها: ما جرت العادة أنه لابد من ظهوره، كالجلباب، والعباءة، وما أشبه، ذلك كما فسره بذلك ابن مسعود رضي الله عنه وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ استثناءً منقطعًا، وليس متصلًا؛ لأن ما ظهر ليس من الزينة، فما ظهر وما جرت العادة بظهوره ولابد منه، هذا أمر ليس من الزينة، حتى لو سُمي زينة ولباسًا، فإنه لابد من ظهوره.

أما الزينة الأخرى التي خصها الله بقوم معينين، فقال: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وهذه هي الزينة الباطنة، كالثياب التي تكون داخل الجلباب والعباءة، وما أشبه ذلك، وذلك في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخره.

والحاصل: أن التبرج لم يأذن الله فيه أبدًا، فالتبرج النهي عنه عام، أما التزين للزوج فهذا أمر مطلوب، فعلى المرأة أن تتجمل لزوجها، لما في ذلك من تأكيد الحكمة التي من أجلها شرع الزواج، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، ولا شك أن المرأة إذا تجملت لزوجها بأنواع الجمال، فإن ذلك يوجب سكونه إليها ومودته لها، فيكون هذا من باب تأكيد الحكمة التي من أجلها شُرع الزواج، ولهذا تؤمر المرأة بأن تتجمل لزوجها، كما أن الزوج أيضًا ـ كما قال بعض السلف ـ: من حقها عليَّ أن أتجمل لها، كما أن من حقي عليها أن تتجمل لي ـ أما أن يأتي الزوج لزوجته لابس الخيشة، وما أشبه ذلك، ويريد منها أن تلائمه، يقول لها: لماذا ما تتجملين لي؟ وهو يلبس أردأ اللباس، هذا من غير العدل، فالإنسان يجب عليه أن يراعي العدل، في كل معاملاته.

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ايتين بها مستقيمة، وذلك بفعل شروطها، وأركانها، وواجباتها، ومستحباتها، لكن الإتيان في الثلاثة الأُولَى على سبيل الوجوب، وبالرابع على سبيل الكمال والاستحباب، وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشمل الفريضة والنافلة.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطينها، والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، وفي الشرع: مال مقدر مخصوص في مال مخصوص، يعني: جزء من أموال مخصوصة، يُدفع لمستحقه.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ﴾ تنصب مفعولين؛ لأنها من باب كسا وأعطى، فالمفعول الأول: الزكاة، والمفعول الثاني: محذوف، أي: مستحقها، أي: آتين الزكاة لمستحقها؛ لأن إيتاء الزكاة لغير أهلها لا ينفع، كما لو صلى الإنسان في غير الوقت.

وقوله: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعد الأمر بإقامة الصلاة، فيه دليل على تأكد الزكاة، وهل يلزم منه: أن أمهات المؤمنين، عندهن مال يزكينه؟

إذا قلنا: لا يلزم، صار توجيه الخطاب إليهن بإيتاء الزكاة من باب اللغو، لأنهن سيقلن: ما عندنا مال، أو يقال: أُمرنَ بإيتاء الزكاة، إما التزامًا، وإما إعطاءً بالفعل؛ التزامًا إذا لم يكن عندهن شيء، وإعطاءً بالفعل: إذا كان عندهن شيء، ولا شك أن عندهن ما تجب الزكاة فيه، أو عند بعضهم من الحلي، كما في حديث أم سلمة أنها كانت تلبس أوضاحًا من ذهب فقالت: يا رسول الله: أكنزٌ هو؟ قال: «إِذَا أَدَّيْتِ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»[1] فهن عندهن ما يزكين به، قد لا يكون دراهم

(١) حسن: أخرجه أبو داود (١٥٦٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٥٩) بالشواهد.

ودنانير، ولكن من الحلي.

وقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الطاعة، قال العلماء: هي موافقة الأمر، يعني: عدم المعصية توافق أمر المطَاع إن كان مطلوبًا بالفعل، وإن كان منهيًّا عنه بالترك.

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عطف طاعة رسوله على طاعة الله بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ، من طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقد سبق لنا أن قلنا مرارًا وتكرارًا: إن المسائل الشرعية يجوز أن يقرن فيها بين الله وبين الرسول ﷺ؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ من المسائل الشرعية هو مما أمر الله به.

فقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هل المراد به هنا طاعة التعبد، أو المراد بها عدم المخالفة، أما بالنسبة لطاعة الله فهي طاعة التعبد، والتذلل، ورجاء الثواب، والخوف من العقاب، وأما طاعة الرسول ﷺ فإنها طاعة بمعنى: موافقة الأمر سواء كان فيما يأمر به من الشرع، أو فيما يأمر به من حوائجه الخاصة؛ لأن الرسول ﷺ يوجه الأمر إلى أهله، إما على سبيل العبادة مما أمره الله به، وإما على سبيل الأمور الخاصة المتعلقة به.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ قال: [﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: نساء النبي ﷺ].

قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، والحصر يقول العلماء: معناه إثبات الحكم بالمذكور، ونفيه عما سواه، والحصر هنا: حقيقي إضافي.

والحصر أربعة أقسام: إضافي أو حقيقي أو إضافي حقيقي، أو لا إضافي ولا حقيقي.

الإضافي: هو الذي لا يكون محصورًا بحسب الواقع في هذا الشيء، والحقيقي: هو الذي يكون محصورًا في هذا الشيء بحسب الواقع، فإذا قلت: لا طالب يلتفت إلا خالد، هل هذا حصر حقيقي أم إضافي؟ ننظر إن لم يلتفت غيره فهو حقيقي، وإن التفت غيره فهو إضافي، وفائدة الإضافي: كأن هذا الرجل لكثرة التفاته، لا يلتفت أحد سواه، كما لو قلت: لا شجاع إلا خالد، فهذا الحصر إضافي؛ لأنه يوجد شجعان كثيرون غير خالد بن الوليد رضي الله عنه أما أن تقول: لا خاتم للأنبياء إلا محمد ﷺ، فهذا حصر حقيقي.

إذنْ هنا قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ هل الله - عز وجل - لا يريد بأهل البيت إلا ذلك؟

الجواب: لا، يريد الله ليذهب عنهم الرجس، ويطهرهم، وأن ينعم عليهم، وأن يغدق عليهم الفضل إلى آخره.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإرادة هنا كونية لا شرعية، وهذه هي

الفائدة من اختصاص أهل البيت بذلك، أما إرادة عدم الرجس فهي لكل أحد من الناحية الشرعية، والإرادة كما سبق لنا نوعان: إرادة شرعية وكونية، وهل هما متلازمان؟ لا، قد توجد إحداهما بدون الأخرى، وقد تجتمعان.

فما الفرق بينهما حتى نعرف اجتماعهما وافتراقهما؟

أولًا: الإرادة الكونية تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه، والإرادة الشرعية: فيما يحبه الله فقط، فإذا قلت: يريد شرعًا، فمعناها: يحب.

ثانيًا: الإرادة الكونية: يلزم فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية: لا يلزم فيها وقوع المراد.

إذنْ الفرق من وجهين، ننظر الآن، قد تجتمع الإرادتان في شيء، وقد تنتفيان جميعًا، وقد توجد إحداهما دون الأخرى، فإذا سألنا: ما تقول في إيمان أبي بكر؟ أهو مراد لله شرعًا أم كونًا؟

الجواب:كونًا وشرعًا، كونًا؛ لأنه وقع، وشرعًا؛ لأن الله يحبه.

أما إيمان أبي لهب فهو غير مراد كونًا، ومراد شرعًا، فالله يريد منه أن يسلم.

ونقول في كفر أبي بكر: غير مراد كونًا ولا شرعًا، غير مراد كونًا: لأنه لم يقع، وغير مراد شرعًا؛ لأن الله لا يحبه.

أما كفر أبي لهب فهو غير مراد شرعًا، مراد كونًا، وأي إنسان يكفر، فقد أراد الله كفره كونًا، والأمثلة من القرآن كثيرة، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] من أي الإرادتين هذه الآية؟ من الإرادة الشرعية، لأن الله تعالى قد يعسر على الإنسان، فلو كانت إرادة كونية، لكان في الواقع تكذيب للآية، إذنْ ﴿يُرِيدُ﴾ هنا بمعنى: يحب الله بكم اليسر ولا يحب العسر، وأما كونًا فإن الله ـ تعالى ـ يريد بنا العسر، قال تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، وقال الله ـ تعالى ـ عن هود: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، إن كان يريد الله أن يغويكم، هذه إرادة كونية؛ لأن الله تعالى لا يحب الإغواء، والدليل أنه لا يحب الإغواء قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ اللام هنا: فيها إشكال، يريد لكذا؛ لأن المعروف أن أراد تتعدى بنفسها، لكن هنا جاءت في مفعول يريد، فهل نقول: أردت كذا، أم أردت لكذا؟ الأصوب: أردت كذا.

إذنْ فاللام هنا زائدة من حيث الإعراب، والتقدير: إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس، فاللام يقول النحويون: إنها زائدة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ يقول المؤلف: [الإثم]، والصواب: أن الرجس هو النجاسة؛ لأن الرجس في الأصل النَّجس، سواء كان نجاسة معنوية، أو نجاسة حسية، فمن الرجس بالمعنى الحسي: قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] هذا حسي، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠]، هذا رجس معنوي، هنا قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ من الرجس المعنوي طبعًا؛ لأن الرجس الحسي، ما أراد الله أن يذهبه عنهم، بل هو موجود فيهم، فهم يبولون ويتغوطون، وبولهم نجس، وغائطهم نجس، إذنْ المراد بالرجس الذي أراد الله أن يذهبه عن أهل البيت هو الرجس المعنوي، وهو السافل من الأخلاق والأعمال، قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] الرجس هنا معنوي، فكل خلق، أو عمل سافل، فإنه نجس. وقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أفادنا المؤلف، في قوله: [يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾]، أن ﴿أَهْلَ﴾ منصوب على النداء، حُذف منه حرف النداء.

وقوله: يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ لا شك أن المراد بأهل البيت نساء الرسول -عليه الصلاة والسلام- لأن الآيات كلها في سياق الرسول ﷺ

وهل ينافي ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ، من أنه وضع الكساء على عليٍّ وفاطمة، والحسن والحسين، وقال: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»؟

نقول: لا ينافيه؛ لأنَّ هؤلاء أهل البيت، من حيث القرابة، وهؤلاء أهل البيت من حيث الزوجية، فكلهم أهل البيت بلا شك، لا آل علي فقط، بل إن آل البيت أعم من هؤلاء الأربعة؛ لأن آل البيت تشمل كل من تَحرم عليه الصدقة من بني هاشم، فدخل فيهم آل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل الحارث بن عبد المطلب، وكل من كان من ذرية هاشم، فالرسول ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فكل من كان من آل هاشم، فإنه من آل البيت، لا تحل له الصدقة.

وعلى هذا نقول: إن تفسيرنا لآل البيت بأنهن زوجات الرسول ﷺ، الذي يعينه السياق؛ خلافًا للرافضة الذين أخرجوا الكلام عن سياقه، وجعلوا كلام الله -عز وجل- عضين متفرقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ يريد بهم: آل البيت الأربعة فقط، وأما زوجات الرسول ﷺ، فإن الله لا يريد أن يذهب عنهم الرجس، ولهذا يرمون عائشة بالفاحشة، -والعياذ بالله- ولا يبالون بذلك.

أقول: إن قوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ هنا وفي أصحاب الكساء الأربعة، وفي آل البيت الذين لا تحل

لهم الصدقة، كلها لا ينافي بعضها بعضًا، ولذلك كان القول الراجح أن زوجات الرسول ﷺ لا تحل لهن الصدقة، لقول الرسول ﷺ، «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ»(١)، وزوجاته بلا شك من آله، كما في هذا الحديث، وعلى هذا فإننا نقول: إنه لا تعارض بين الأدلة.

ونظير ذلك أن الرسول ﷺ سُئل: ما هو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال: «مَسْجِدِي هَذَا»(٢) مع أن المسجد الذي أسس من التقوى على أول يوم هو مسجد قُباء أيضًا، فكل منهما أسس التقوى من أول يوم، فإن الرسول ﷺ أسس مسجده من أول يوم قَدِمَ، وكان الصحابة ﷺ كل واحدٍ يقول: النزول عندي النزول عندي، فيقول:«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» يعني: ناقته، فلما وصلت إلى مكان مسجده بركت، فزجرها النبي ﷺ فقامت ثم التفتت يمينًا وشمالًا، ثم رجعت إلى مكانها الأول فبركت، فقال النبي ﷺ:«الْمَنْزِلُ هَهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ» ثُمَّ نَزَلَ، وكان أقرب البيوت إليه بيت أبي أيوب الأنصاري، فذهب إليه، ومن حين أول يوم نزل، وهو شارع في تخطيط المسجد، ولهذا ينبغي للمسؤلين في البلديات، وفي الأوقاف، أن يجعلوا أكبر همهم في المخططات الجديدة وضع المساجد، فيُعتنى بها قبل أي شيء.

على كل حال إني أقول: إن وصف الشيء بصفة، ووصف غيره بصفة، لا يقتضي أن يكون ذلك تناقضًا، فلكل منهما له نصيب من هذا الوصف.

وقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ (أل) هنا للعهد الذهني، يعني: أهل البيت المعهود المعروف، وهو هذا البيت الطاهر بيت رسول الله ﷺ.

قال: [﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ منه]، أي: من الرجس ﴿تَطْهِيرًا﴾، و﴿تَطْهِيرًا﴾ هنا مصدر للفعل السابق، والمراد به التوكيد، كما في قوله تعالى:﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] والتطهير من الرجس أبلغ من ذهاب الرجس؛ لأنه بعد ذهاب الرجس قد يكون له أثر فإذا قال: يذهبه ويطهركم، صار ذلك أبلغ؛ لأنه يَذهبُ ذلك الرجس، ويُطَهِّر مكانه بحيث لا يبقى له أثر، ولا ريب أن بيت الرسول ﷺ أبعد البيوت عن الرجس، وأطهر البيوت من الرجس، وهذا لا يشك فيه مؤمن أبدًا، وكل من قَدَحَ في بيت الرسول ﷺ - في زوجاته - فإنه يعتبر قادحًا في الرسول ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

ونحن نعلم علم اليقين أن الله - عز وجل - ما كان ليختار لنبيه إلا أفضل نساء العالمين، بلا شك، وقد ثبت في كتاب الله براءة عائشة ﷺ مما رماها به أصحاب الإفك من المنافقين وغيرهم ممن انخدعوا من المسلمين - عفا الله عنهم -.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧٢)، وأبو داود (٢٩٨٥)، والنسائي (٢٦٠٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧).

وقد قال الله - عز وجل - في حادثة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٥، ١٦] يعني: هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يعني: يمتنع غاية الامتناع ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] انظر كيف قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أين التنزيه في هذا الأمر؟ يعني: ننزهك يا ربنا أن يقع ذلك في إحدى أمهات المؤمنين - زوجات خاتم النبيين - ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: تنزيهًا لك أن يقع مثل هذا في زوجات نبيك، - عليه الصلاة والسلام - هذا التأكيد العظيم، نرى الآن ممن ينتسبون إلى الإسلام، وهم بريئون منه، والإسلام منهم براء، يقولون: إن عائشة، - والعياذ بالله - بغي، ومع ذلك قد برأها الله - تعالى - في القرآن الكريم.

فمن قذف واحدةً من زوجات الرسول ﷺ عائشة أو غيرها، فهو كافر بلا شك، ويجب أن يقتل ولو تاب، وإن تاب توبة نصوحًا، فبينه وبين الله، لكن نحن علينا أن نَغار على رسول الله ﷺ، وأن نقتل هذا الذي قذف واحدةً من أمهات المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ الأمر هنا للإرشاد، وبيان المنة، والفضل من الله تعالى عليهن، ويحتمل أن يكون المراد به: تذَكَّرْن وتدبرن هذا الأمر، واعرفن ما فيه من فضل الله عليكن.

وقوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ ﴿يُتْلَىٰ﴾ بمعنى: يُقرأ، والتلاوة نوعان: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، فإذا قلت: تلا كتاب الله حتى أكمله، فالمعنى: اللفظية، وإذا قلت: سجدة التلاوة، فهي التلاوة اللفظية، أما التلاوة المعنوية فهي اتباع القرآن، فتلاه يتلوه، إذا اتبعه، فالتلاوة المعنوية بمعنى: اتباع القرآن في عقائده، وفي أخلاقه، وفي أعماله، هذه التلاوة، فأيهما المقصود الأعظم؟

المقصود الأعظم: هو التلاوة المعنوية، والتلاوة اللفظية لا شك أنها مقصودة، وأن من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به عشر حسنات، لكن المهم هو التلاوة المعنوية فقد قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ آيات الله لا شك أنها القرآن، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فالآيات، آيات الله هي القرآن، والآيات هنا المراد بها الشرعية، فإن آيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وهي ما خلقه الله تعالى ويخلقه في هذا الكون، فإن كله آيات علامات على خالقه - عز وجل - لما فيه من بديع الصنعة والنظام الحكيم البالغ، الذي لا يتناقض ولا يتنافر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وإذا ذهب كل إله بما خلق، لم يكن الكون منتظمًا؛ لأن كل إله يخلق على ما يريد، ثم لابد من علو

أحدهما على الآخر؛ لأنهما إن تمانعا، وعجز كل واحد منهما عن الآخر، لم يصح أن يكونا إلهين، وإن غلب أحدهما الآخر، فالمغلوب لا يصح أن يكون إلهًا، وحينئذٍ، تكون الدلالة العقلية على أنه لابد من إله واحد فقط، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

المهم: أن الآيات الكونية، هي كل ما يخلق الله في الكون، أما الآيات الشرعية فهي ما جاء به الرسل من الوحي، وسميت آيات؛ لأنها علامات على مشرِّعها ومنزلها، لما فيها من انتظام المصالح، وانتفاء المفاسد، فإن الشرع كله تحصيل للمصالح، وتقليل للمفاسد، ولذلك ما من شيء يتضمن مصلحة راجحة أو خالصة إلا أمر به الشرع، وما من شيء يتضمن مفسدة خالصة، أو راجحة، إلا نهى عنه الشرع، لكن من المصالح، ما ندركه بعقولنا، ومنها ما لا ندركه، لكننا نعلم علم اليقين أن مقتضى حكمة الله ـ عز وجل ـ، والذي من أسمائه الحكيم، أنه لا يمكن أن يأمر إلا بما فيه مصلحة، إما خالصة، وإما راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة، إما خالصة وإما راجحة، ولهذا سميت الكتب النازلة من السماء آيات؛ لأنها علامات على من شرعها ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى من أنزلها، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ما يجدوا الاختلاف فيه مرة، أو مرتين، أو ثلاثًا، بل اختلافًا كثيرًا وتناقضًا كثيرًا.

وهنا مسألة خارجة عن الموضوع بدأ الناس يفعلونها، وهي أنهم يقسمون بآيات الله، فيقولون: قسمًا بآيات الله ما كان كذا وكذا، أو قسمًا بآيات الله لأفعلن كذا وكذا، فماذا في هذا القسم؟

نقول: فيه تفصيل، فإن قصد الآيات الكونية، فهو حرام؛ لأنه حلف بغير الله، إذا حلف بالمخلوقات، وإن أراد بذلك الآيات الشرعية، فهو حلف بكلمات الله، والحلف بكلمات الله جائز؛ لأن كلمات الله من صفاته، فما هو الغالب على العامة حين يقسمون هذا القسم؟

الغالب فيما أظن: أنها الآيات الشرعية، فإنهم لا يريدون قسمًا بآيات الله، قسمًا بالشمس، وبالقمر، وبالنجوم وبالنهار، هم لا يقصدون هذا، بل يريدون بذلك القرآن، وحينئذٍ يكون هذا القسم جائزًا باعتبار الدلالة العُرفية على المراد به، أما لو نظرنا إلى لفظه فلابد من التفصيل.

والحكمة التي ذُكرت في الآية قال المؤلف: [السنة]، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والأصل في العطف المغايرة، وإلا فلقائل أن يقول: إن القرآن الكريم، قد تضمن الحكمة، فيكون تعليم القرآن، تعليم الأحكام، وتعليم حكم الأحكام؛ لأن معرفة أحكام الشريعة أمر عظيم جدًا، فالإنسان إذا عرف الأحكام الشرعية، يستنير قلبه أكثر، ويقتنع بالأحكام الشرعية أكثر، ويعرف من صفات الله ـ عز وجل ـ وحِكمه ما هو أكثر، ويستطيع أيضًا أن يقنع

الخصم؛ لأن الخصوم، لو قلت لهم مثلًا : هذا حرام؛ لأن القرآن حرمه، فهو قد لا يكون ممن يؤمن بالقرآن أو يطمئن إليه، لكن إذا كان لديك معرفة بحِكَم الشريعة، أمكنك أن تقنع هذا الشخص.

ولهذا فمعرفة الحكمة - أي: حكمة الشرع - مهمة جدًّا، بل إن غالب القياس إنما جاء من معرفة الحكمة؛ لأنه إلحاق فرع بأصلٍ في حكم لعلةٍ جامعة.

وعلى هذا فربما يقول قائل: إن المراد بالحكمة: ما يعلم من أسرار أحكام الشريعة، وحكمها. ولكن أهل العلم من السلف وأئمة الخلف، فسروا الحكمة بأنها السنة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ ﴿لَطِيفًا﴾ قال المؤلف: [بأوليائه، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه]، واللطيف فسره أهل الباطل بأنه الذي لا يُدرَك لصغره، وكذبوا، وفسره أهل السنة فقالوا: إن اللطيف جاء في كتاب الله معدّى باللام، ومعدّى بالباء، فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ عُدِّي الباء [الشورى: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] عدي باللام.

وعلى هذا يكون اللطيف له معنيان:

أحدهما: اللطف للعبد، وهو أن الله - عز وجل - يقدر له مواقع الإحسان بمعنى: أنه يلطف به فييسر له الأمر، ويسهله عليه.

الثاني: اللطيف به أي: بالعبد فهو بمعنى إدراك الأمور الخفية؛ لأن اللطيف معناها: الذي يدرك ما لَطُفَ، فمعنى ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: مدرك لما خفي من أمورهم، ولهذا جمع الله بينهما فقال: ﴿لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ والخبير، قال العلماء: هو العالم ببواطن الأمور، يقول ابن القيم في «النونية»، وهي من أحسن ما نُظم في التوحيد وأجمعه:

وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِحِكْمَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

فهذا معنى اللطيف، فصار اللطيف له معنيان: اللطيف للعبد، واللطيف به، واللطيف به بمعنى الخبير ببواطن أموره، وما لطف من أمره والذي يقدر له من أسرار حكمته، أو من أسرار إحسانه وفضله، ما لا يدركه بعقله.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: وجوب قرار المرأة في بيتها، أو نقول مشروعية القرار؛ لأن وجوب القرار، يخالفه ما جاء في السنة من الإذن للنساء بالخروج، لكن بدون تبرج،

وعلى هذا فنقول مشروعيته؛ لأن كلمة مشروعية تتسع للواجب والمستحب.

٢- **ومن فوائد الآية**: أن بيوت أزواج النبي ﷺ مُلك لهن، لقوله: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

فإن قال قائل:الإضافة هنا للاختصاص وليست للتمليك، كما تقول: السرج للدابة، والمِقود للبعير، وهل هي تملكه؟ لا، إذن فبيوت النبي له ﷺ.

نقول: إن الواقع يخالف ذلك؛ لأن هذه البيوت لو كانت للرسول ﷺ، ما بقيت مع أمهات المؤمنين بعد موته، إذ إن النبي ﷺ لا يُورث.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الفائدة المأخوذة من الإضافة في قوله: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، فإن فيها الإغراء على لزوم البيت؛ لأنه بيتها وسترها، يعني: كلمة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، أبلغ من كلمة وقرن في البيوت، فكأنه يقول: هذا البيت ما بني إلا سترًا لكِ وصونًا، فالزمي هذا البيت الذي من أجلك بُني.

٤- **ومن فوائدها**: تحريم تبرج الجاهلية، لقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: جواز التبرج إذا كان مبنيًا على العلم والسُّنة؛ لأن المنهي عنه هو تبرج الجاهلية، ولهذا يجوز للمرأة أن تتبرج في بعض المواضع، وليس حرامًا عليها كلُّ تبرج.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ذم الجهل، لقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، فإن نسبة هذا إلى الجهل، لا شك أنه يراد به التنبيه.

٧- **ومن فوائدها**: مدح ما كان مبنيًا على العلم؛ لأن ذمَّ الضد يدل على مدح ضده، كما قيل: (وبضدها تتبين الأشياء)، فإذا كان التبرج مبنيًا على الجهل كان مذمومًا؛ لأن ما بني على العلم ليس بمذموم.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي عند الإغراء أو التحذير، أن يذكر كل وصفٍ يستلزم الإغراء والتحذير، لقوله: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾. والأولى كما قلنا هي الأولى نوعًا.

٩- **ومن فوائدها**: وجوب إقامة الصلاة على النساء، كما هو واجب على الرجال، لقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾، ووجوب الزكاة؛ لقوله: ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، من الموانع عن المحرمات؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾، فدل هذا على أن من أسباب عدم التبرج إقامة الصلاة، ولا ريب في هذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ويقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، تؤخذ من الأمر بهذا، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وطاعة الله ورسوله يدخل فيها إقام الصلاة وإيتاء

الزكاة، فالنص على بعض أفراد العام، يدل على العناية به، سواء تقدم الخاص، أو تأخر، فمثلًا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧]، هذا تقدم الخاص على العام، وقوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ ثم قال: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾. وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] هذا من باب تقدم العام على الخاص، وسواء تقدم العام على الخاص أو تأخر، فإنه يدل على العناية بالخاص، ولهذا نص عليه من بين أفراد العام.

١٢- **ومن فوائدها:** وجوب طاعة الله ورسوله، لقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، للعطف بالواو الدالة على الاشتراك، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

١٤- **ومن فوائدها:** أن الله ـ عز وجل ـ أراد بحكمته البالغة، أن يُذهب الرجس عن آل البيت، لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخضوع بالقول، وتبرج الجاهلية من الرجس، وأن القرار في البيوت، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، من أسباب زوال الرجس؛ لأن ما تقدم أوامر ونواهٍ، بيَّن الله أنه إنما أمر بها ونهى عنها من أجل أن يُذهب عن هذا البيت الرجس.

١٦- **ومن فوائدها:** أن زوجات الإنسان من آل بيته، فإذا قال: هذا وقف على آل بيتي، شمل النساء، وإذا قال: في الأضحية: اللهم هذا عني وعن أهل بيتي، شمل النساء؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل زوجات الرسول ﷺ، من آل بيته.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تفخيم هذا البيت، وتعظيمه، لقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ لأن (ألـ) للعهد الذهني، كأن هذا البيت معهود معلوم بأذهان الناس، لا يغيب عنها، لما لهذا البيت من المكانة الرفيعة، والخصلة الحميدة.

١٨- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله أراد أن يذهب الرجس، وأثر الرجس أيضًا، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وهذا فوق ذهاب الرجس؛ لأننا لو ضربنا هذا بمثال حسي وقلنا: إن هذا الثوب تلطخ بنجاسة، فحككنا هذه النجاسة حتى زالت عينها، فهذا يسمى إذهاب الرجس، فإذا صببنا الماء، حتى نظف المكان تمامًا، وزال الأثر، صار ذلك تطهيرًا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، في دعاء الاستفتاح «اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ

بالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ»(١) فذكر المباعدة، أولًا قبل التلبس بالخطيئة، ثم ذكر التنقية من الخطيئة بعد التلبس بها، ثم ذكر أبلغ من ذلك، وهو الغَسْلُ، أي: غسل هذه الخطيئة وآثارها بالماء، والثلج والبرد.

والحاصل أننا نقول: إن قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هذا فوق إذهاب الرجس.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

٢٠ - ومن فوائدها: أن البيت المطهر من الرجس، سواء كان بيت الرسول ﷺ، أو غيره من البيوت يعتبر من أفضل البيوت، ويعتبر تطهيره من أكبر النعم عليه، وهذا يؤخذ من أن الله امتن بذلك على آل بيت الرسول ﷺ، وهذا شيء معلوم في الناس، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فمن الناس معدن خبيث، ومن الناس معدن طيب، ولهذا لو أن أحدًا تلبَّس برجس من الأرجاس، وهو من حمولة طيبة، من قبيلة طيبة مثلًا، فالناس يستغربونه، ويستنكرونه، ويرون هذا أشد، لكن لو أن هناك أحدًا تلبس برجس من الأرجاس، وهو من قبيلة معروفة بذلك، فالناس لا يستغربون، بل يقولون: إن الغصن من الشجرة، وما هو بغريب أن يفعل هذا الفعل؛ لأن آباءه، وإخوانه، وأعمامه، وما أشبه ذلك فعلوا مثله، ولا شك أن الله إذا منَّ على آل بيت من البيوت بالتطهير والكرم، والنظافة والنزاهة، فإن ذلك من نعمة الله عليه.

واعلم أن الله قد يجعل على يد الشخص الواحد طهارة كل قبيلته، كما هو مشاهد، يخرج رجل واحد صالح مصلح ينذر عشيرته الأقربين، ويحرص على دعوتهم إلى الحق، فيصلح الله تعالى على يديه كل قبيلته، إذا جاء ذلك بإخلاص، وامتثال لأمره - سبحانه وتعالى - في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولكن! الإنسان الآن لا يتفقد أهله الذين في بيته، ولا يتفقد قرابته الذين هم خارج بيته، هذا هو الواقع؛ لأن الناس الآن غاية ما يتواصلون به - إن تواصلوا - في الأمور الدنيوية، لكن هدايا الدين، ما أقلهم، وإن كان - والحمد لله - يوجد - من إذا رأى في بيت أقرابه ما يكره، ينصحهم ويرشدهم، ويبين لهم ذلك، وربما بعض الناس يهجرهم، فما يذهب إليهم، كل هذا من أجل الحرص على تقويمهم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

١ - يستفاد من هذه الآية: تذكير أمهات المؤمنين بهذه النعمة العظيمة، لقوله:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن مَنْ أعطاه الله علمًا، كان طلب الاستقامة منه أوكد وأوثق، إذا أتى الله الإنسان علمًا، فإنه يطلب منه من الاستقامة أكثر ممن لم يؤت علمًا؛ لأنه قال: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ ﴾، فليس عليكن قاصر في العلم، بل إن العلم يُتلى في بيوتكن.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن البيت الذي يُتلى فيه كتاب الله خير من البيت الذي لا يتلى في كتاب الله، لقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»[1] يعني: لا تجعلوها مثل القبور، وفي الحديث: «**أَفضَلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ**»[2]، وكان من هدي الصحابة رضي الله عنهم أنه يسمع لبيوتهم من تلاوة كتاب الله دويٌّ كدوي النحل، من قراءة كتاب الله تعالى في البيوت.

٤- **ومن فوائدها**: أن القرآن من آيات الله، لقوله: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، وقد سبق في التفسير بيان كونه من آيات الله ـ عز وجل ـ لما يتضمن عليه من المصالح، والحِكَم والأسرار.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه إذا قرنت الحكمة بالكتاب، فالمراد بها السنة؛ لأن السنة ـ أيضًا ـ تتضمن الحكمة، والله ـ عز وجل ـ لم يصف السنَّة بالحكمة؛ لأن القرآن ليس فيه حكمة، ولكن لما كان القرآن من عند الله، وهو وكلام الله، فإن احتمال ألا يتضمن الحكمة بعيد جدًا، لكن لما كانت السنة من كلام الرسول ﷺ، فإن كلام البشر قد يرِدُ عليه احتمال ألا يكون مشتملًا على الحكمة، فبيَّن الله ـ عز وجل ـ أن السنة حكمة، وإن كانت من كلام الرسول ﷺ، أو من فعله، فإنها حكمة؛ لأنها موافقة للصواب.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: اللطيف والخبير.

٧- **ومن فوائدها**: أن ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ مسلوبة الدلالة على الزمان، وإنما يراد بها: اتصاف المبتدأ، أو الاسم بالخبر، بقطع النظر عن الزمان، إذنْ الفائدة منها: تحقق الاتصاف بهذا الوصف، يعني: قد تحقق ذلك في حقه، وهو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف خبير.

٨- **ومن فوائدها**: ما تضمنه هذان الاسمان من صفات الله ـ عز وجل ـ من اللطف والخِبرة.

٩- **ومن فوائدها**: أن فيها ردًّا على هؤلاء الذين ينكرون السنة، ويقولون: إننا نأخذ بالكتاب فقط، وفيه رد على آخرين يقابلونهم، يأخذون بالسنة، ولا يأخذون بالقرآن، لأنه يوجد أناس الآن يعتنون بالسنة، اعتناءً عظيمًا، حتى إنهم يغوصون على أشياء قد لا تكون صحيحة، ويأتون بها،

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، و صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).
(٢) **متفق عليه** : أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

لكن لو تخاطبهم في القرآن لا يعرفون شيئًا في القرآن، لا في تفسيره، ولا في إعرابه، ولا في شيء منه أبدًا، بينما هم في السنة، يذهبون ليلهم ونهارهم في ذلك، وهذا خطأ، لأنه أول ما يجب، أن نتعلم القرآن، ثم بعد ذلك السنة؛ لأن القرآن هو الأصل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]

❁ التفسير ❁

إن القرآن الكريم في غالب ما يتحدث عن الأحكام الجزائية، والأحكام العملية، أكثر مما يتحدث مخاطبًا الرجال؛ لأن الرجال أشرف من النساء، ولأن الرجال قوامون على النساء، فإذا صلح الرجال، صلحت النساء؛ ولأنه إذا اجتمع جنسان، فإنه يغلب أشرفهما وأعلاهما، فلهذا أكثر الخطابات الواردة في القرآن، توجه إلى الرجال، لهذه الأسباب الثلاثة ولغيرها، لكن في بعض الآيات تذكر الأحكام للرجال والنساء، إما على سبيل التفصيل، والتوفيق وإما على سبيل الإجمال، مثال الأول قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ومثال الثاني، قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فإن في هذا إجمالًا: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن الله تعالى إذا تكلم إنما يتكلم عن الرجال، ولا يذكر النساء، فأنزل الله هذه الآية.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هذه «إن» التوكيدية، التي تنصب المبتدأ وترفع الخبر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تقديم الذكور يدل على شرف الذكور، وهذا أمر لا يمتري فيه عاقل، لكن لما جاء الغرب الخبيث القبيح المقلوب فطرة، ودينًا، وصار يقدم النساء من أجل إثارة الفتنة بهن، وتشريفهن على الرجال، تبعه الذين يتبعون صيحة كل ناعق، وصاروا يقدمون النساء على الرجال، حتى كانوا لا يُطلقون على النساء إلا كلمة السيدات، يعني: أنهن سيدات للرجال، فقلبوا الحقائق والأوضاع؛ لأن الله - تعالى - قد قلَب فِطرَهم، فعبدوا المادة دون خالقهم، وكذلك تصرفوا في تصرفاتهم هذه، فيجب على المسلمين الحذر والتنبه من مغالطات أولئك الكفرة، لا في هذا ولا في غيره، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ودينهم - والحمد لله - قد بيَّن الله في هذا الكتاب كل شيء.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الإسلام في أعمال الجوارح الظاهرة، لأنه يراد به أن يستسلم الإنسان لله ظاهرًا بجوارحه، بلسانه، بيديه، برجليه، بعينيه، بأذنيه، هذا الاستسلام الظاهر يسمى إسلامًا، وقد يقع من غير المؤمن، فقد يقع من المنافق، وقد يقع من ضعيف الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وهذا الإسلام مرتبته دون الإيمان؛ لأنه يقع من المؤمن حقًا، ومن المنافق، ومن ضعيف الإيمان، لأن الاستسلام لله بالجوارح الظاهرة.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا الاستسلام لله يكون باطنًا، وذلك بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ولسنا بحاجة إلى تفسير أحد للإيمان بعد أن فسره النبي ﷺ، حين سأله جبريل: «مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وأَنْ تُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وتفاصيل هذه الجملة قد تكلمنا عليها مرارًا، وليس هذا موضع بسطه.

إذنْ فالإيمان هو الاستسلام لله باطنًا، بحيث يؤمن الإنسان بما يجب الإيمان به، وهو الإيمان بالله وملائكته...إلى آخره، والإيمان أعلى من الإسلام، لأن الإيمان يستلزم الإسلام، ولا عكس، فكل مؤمن، لابد أن يكون مسلمًا، لأنه إذا صَلَح القلب، صلحت الأعضاء، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(٢).

لكن بعض الناس يعمل المعاصي، ويحتج بقول الرسول ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وإذا قلت له:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩).

يا أخي اتق الله، صَلِّ، اتق الله، لا تحلق اللحية، اتق الله، اترك الغيبة، وما أشبه ذلك، يقول لك التقوى هاهنا، فكيف نرد عليه؟ نقول له: لو اتقى ما هاهنا لاتقى ما هاهنا، يعني لو اتقى الباطن، لاتقى الظاهر، لأن الرسول ﷺ، يقول: «إذا صَلَحَتْ صَلَحَ»، فجعل الأمر جملةً شرطيةً، والمعروف في اللغة، والعرف، والشرع: أن الجملة الشرطية، يتحقق فيها المشروط، إذا تحقق الشرط.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لم يشرحها المؤلف.

وقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ يقول المؤلف: [المطيعات]، الله يغفر له، كان عليه أن يقول: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المطيعين، وسيُعلم بمقتضى الفهم أن القانتات أيضًا مطيعات.

والقنوت: ليس مطلق الطاعة، كما يفهم من كلام المؤلف، ولكنه الطاعة بدوام، وذل وسكون، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ولما نزلت هذه الآية، أُمروا بالسكوت، ونُهوا عن الكلام، فدل هذا على أن القنوت ليس مجرد فعل الطاعة، بل هو طاعة مع ذل وخضوع ودوام.

والقنوت أعلى مما سبقه، لأن القانت معه الإيمان والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

قال الله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [في الإيمان]، والصدق هو الإخبار بما يطابق الواقع، هذا الأصل في معنى الصدق، مثل أن أقول لك: إن هذه المروحة تعمل - هذا صدق -؛ لأنه إخبار بما يطابق الواقع، ولو قلت: إن هذه المروحة لا تعمل، لم يكن صدقًا، لأنه إخبار بما يخالف الواقع، ولكن الصدق، هل هو في القول فقط، أو يكون الصدق في القول والعمل والعقيدة؟

الجواب: الأخير، يكون الصدق في القول، والعمل، والعقيدة، يكون الصدق في العقيدة: بأن يكون الإنسان صادق الإخلاص لله - عز وجل - في كل أعماله، صادق العقيدة، بحيث تكون مطابقة لما جاء به الشرع، ويكون الصدق كذلك في الأقوال: بألا يقول إلا صدقًا، وإن كان الأمر عليه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وانظر إلى نتيجة الصدق في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن تبوك، والمنافقون كانوا يأتون للرسول، ويقولون لنا عذر، ولنا عذر، فيستغفر لهم، ويَكِل سرائرهم إلى الله، لكن هؤلاء صدقوا، فخلفوا عن الحكم عليهم بما حكم على المنافقين، وليس المراد أنهم خُلفوا عن الغزوة، ولو كان كذلك لقال: الذين تخلفوا، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، هؤلاء صدقوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأشد من تكلم، وأبين من تكلم من هؤلاء الثلاثة كعب بن مالك، لأنه أشدهم رضي الله عنه، تكلم كلامًا عجيبًا،

ويحسن مراجعة قصتهم[1]، لأنها في الحقيقة تزيد في الإيمان؛ لأن هؤلاء صدقوا فكانت نتيجة صدقهم، أن الله أنزل فيهم كتابًا، يتلى إلى يوم القيامة في مدحهم، والثناء عليهم، حتى قال الله للناس كلهم قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أما الآخرون، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥]، انظر الفرق بين الأمرين، هؤلاء كذبوا، فأرجسوا ـ والعياذ بالله ـ وهؤلاء صدقوا فرفعوا، «**فَعَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**».

فالمهم: أنَ الصادقين، والصادقات نقول: في الإيمان، والقول، والعمل، والصدق في العمل أن يكون مطابقًا للباطن، فلا تعمل رياءً ولا سُمعةً، ولا مصانعة، ولا مجاملة، ولا لأجل شيء من الدنيا، مثال ذلك: رجل أخرج من جيبه ألف درهم وتصدق بها؛ لأن الناس يشاهدونه، فقال: أريد أن يقول الناس ما أكرم فلان، هل صدق في فعله؟ والظاهر في فعله أنه لله، صادق، لكن حقيقة أمره العكس فكان كاذبًا.

ومن الصدق في الأعمال: متابعة الرسول ﷺ، فإنها دليل على صدق محبة الإنسان لله، ورسوله قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فصار الصدق في العقيدة، وفي القول، والعمل، وما هو الصدق في الأصل؟ إذا قال لك إنسان قد طلع الفجر، فنظرت فإذا الفجر طالع، فقال لك آخر: إن الفجر لم يطلع، فنظرت فإذا هو طالع، إذنْ ما هو الصدق والكذب؟ الصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، والصدق في العقيدة: هو الإخلاص لله، وأن يكون ما يعتقده مطابقًا لما جاء به الشرع، والصدق في القول: هو الإخبار بما يطابق الواقع، ولو كان على نفسك، يقول واحد: إن الكذب منجا، فإذا فعلت جريمة، وسألك أحدٌ، فقلت: ما فعلت، تنجو، قال له الثاني: لكن الصدق أنجى، فأيها أصح؟ الأخير، أنت إذا كذبت، وقُدر أنك نجوت، فإن العاقبة وخيمة، لكن إذا صدقت، وقُدر أنك عوقبت، فإن العاقبة حميدة. والصدق في العمل: أن يكون مطابقًا لما في الباطن في القلب، بحيث يتطابق الظاهر والباطن.

وقوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾ لما كان الصدق قد يترتب عليه من مجاهدة النفس ما يترتب؛ لأن إخبار الإنسان بالصدق، ولاسيما عن نفسه أمر صعب، أعقبه بذكر الصبر، كأنه يقول: اصدق واصبر على صدقك، والصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: وُكل صبرًا يعني: حبسًا، وفي الشرع: حبس النفس عن الكراهة لحكم الله ـ عز وجل ـ والتضجر منه، فقولنا:

(١) والقصة أخرجها البخاري (٤٤١٨)، و مسلم (٢٧٦٩).

(لحكم الله) يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي، وهذا التعريف يشمل أنواع الصبر الثلاثة التي تكلم عليها أهل العلم، حيث قالوا: إن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عَنْ معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فنحن إذا قلنا حبس النفس التسخط والكراهة لحكم الله، يشمل الأنواع الثلاثة.

ونقول: إن الكوني يتعلق بالصبر على أقدار الله، والشرعي يتعلق بالصبر على طاعة الله، وعن معصيته. والصبر على طاعة الله، هو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه صبر النفس على عمل وحركة وتعب، والصبر عن معصية الله دونه في المرتبة؛ لأن فيه حبسًا للنفس عما تشتهيه، من أجل أنه معصية لله - عز وجل - لكن هل فيه عمل كالصبر على طاعة الله؟ ليس فيه عمل، ما فيه إلا كف النفس عن هذا المحرم، وبهذا تميز الصبر على طاعة الله عن الصبر عن معصيته؛ لأن في كل منهما جهادًا للنفس، لكن الصبر على الطاعة فيه تكليف النفس بالعمل، وهذا ليس فيه تكليف للنفس على العمل، ولكن فيه الكف عن معصية الله؛ ولهذا كان دون الأول في المرتبة، ولكننا نحن نقول دون الأول في المرتبة، باعتبار نفس النوع، لا باعتبار الصابرين، لأن بعض الصابرين يعاني من المشقة من الصبر على معصية الله، أكثر مما يعاني من الصبر على طاعة الله.

فلو فرضنا أن رجلًا تساوره نفسه، وتدعوه إلى فعل الفاحشة بضغط شديد، ولكنه عندما يصلي، يجد نفسه مستريحًا دون معاناة، ولا مشقة، لا شك أن معاناته الأولى أشد، ولكن نحن نتكلم عن أنواع الصبر من حيث هي نوع، بقطع النظر عن الصابر، وما يتعلق بحاله.

أما القسم الثالث: فهو صبر على أقدار الله المؤلمة، وهذا أدنى أنواع الصبر، لأنه صبر على ما لا فعل للإنسان فيه، صبر على فعل ليس من فعله، ولا من مقدوره، لكن الصبر على الطاعة، وعن المعصية من مقدوره، لكن الصبر على أقدار الله ليس من مقدوره، فهو صبر على أمر ليس بمقدوره، لهذا كان أدنى منه، ولهذا قال بعض أهل السلف في المصاب: (إِمَّا أَنْ يَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامْ، أَوْ يَسْلُوْ سُلُوَّ البَهَائِمِ)، وهذا صحيح، من منا لم يصب ببدنه، أو أهله أو ماله، ثم تكون المصيبة عظيمة جدًّا، وبعد مضي مدة من الزمان ينساها، كأنها ليس بشيء، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى»[1] هذا حقيقة الصبر، أما بعد ذلك تبرد النفس، وتتلهى بما يحدث لها من شئونها بحياتها، حتى تتسلى، وكأن شيئًا لم يحدث.

إذنْ الصبر ثلاثة، الأول: على طاعة الله، والثاني: عن معصية الله، والثالث: على أقدار الله، فصبر أيوب عليه السلام على ما مسه من الضر من باب الصبر على أقدار الله، وصبر يوسف عن فعل الفاحشة في امرأة العزيز صبر عن معصية الله، وصبر يوسف على ما ناله من ألم السجن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٨٣)، و مسلم (٩٢٦).

وأذيته، صبر على أقدار الله المؤلمة، لكن هل ليوسف صبر على طاعة الله؟ نعم دعوته لأهل السجن إلى عبادة الله، وإلى توحيده، من الصبر على طاعة الله، فاجتمع في حقه أنواع الصبر الثلاثة، وهكذا تكون أنواع الصبر الثلاثة لكثير من عباد الله، فالرسول ﷺ صبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره، وهذا شيء كثير.

إذنْ الصبر هل هو واجب أو مستحب؟ الصبر واجب، لأننا قلنا: الصبر حبس النفس عن التسخط والكراهة لأحكام الله، ما قلنا لشريعة الله، فالصبر إذنْ واجب، وفيه أجرٌ كثير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ولهذا قال الله في الصوم: «كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلاَّ الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(١)؛ لأن الصوم حقيقةً اجتمع فيه أنواع الصبر الثلاثة، فهو صبر على طاعة الله، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره المؤلمة، صبر على طاعة الله؛ لأنه صبر على الصوم، وحبس نفسه على الرضا به فصام، وصبر عن معصية الله، لأن الصائم مأمور أن يجتنب أشياء كثيرة، فاجتنب، وصبر على أقدار الله، لأنك إذا صمت جعت وعطشت وتألمت من هذا الجوع والعطش؛ إذنْ ففيه صبر على أقدار الله المؤلمة، وبذلك يكون الصوم يشمل أنواع الصبر الثلاثة.

قال المؤلف: [﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على الطاعات]، أقول في هذا نقص، والصواب: الصابرين على الطاعات وعن المعاصي، وعن أقدار الله المؤلمة، لأن حكم الله عام أعم مما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

لطيفة: من يقول: أنا صابر، ثم لا يصبر، فإنه لا ينال تلك المرتبة، ولهذا كان الرسول ﷺ يناله من أقدار الله المؤلمة أكثر من غيره، كما ثبت: «إِنَّهُ يُوْعَكُ كَمَا يُوْعَكُ الرَّجُلَانِ»(٢)، بمعنى أنه يصاب بالحمى، كما يصاب الرَّجلان، وفي سَكَرَاتِ الموت شُدِّد عليه، من أجل أن تتم له مرتبة الصابرين، حتى ينال أعلاها.

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ يقول المؤلف: [المتواضعين]، فالخاشع المتواضع المتطامن، وضده المتعال المستكبر، فالخُشوع إذنْ: تطامن وخضوع، وتواضع، وهو من أعلى مراتب الإيمان، ومن أكمل أحوال القلب، والخشوع له مواضع منها: الخشوع في الصلاة، وفسره العلماء بأنه: سكون في القلب يتبين على الجوارح.

وبعضهم قال: معنىً في النفس، يظهر منه خشوع الأطراف، فهو في القلب، ويظهر أثره على الجوارح، ولهذا يروى عن عمر، أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته، وهو يصلي، فقال: (لو سكن قلب هذا، لسكنت جوارحه)، وقد روي مرفوعًا ولا يصح، وإنما هو عن عمر، على ما فيه من ضعف عنه، فالخشوع في الصلاة: هو سكون القلب الذي يظهر أثره على الجوارح، أو معنى يقوم في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٠٤)، و مسلم (١١٥١).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، و مسلم (٢٥٧١).

النفس، يظهر منه سكون الأطراف، وهناك - أيضًا - خشوع في بقية الطاعات، بأن يؤديها الإنسان، وهو متواضع متطامن لله - عز وجل -.

ومنه ما حصل لرسول الله ﷺ حين فتح مكة، وانتصر على أهلها، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل دخول العالي المستكبر، وإنما دخل مطأطأً رأسه، خاضعًا لله - تبارك وتعالى -.

ومنه أيضًا: الخشوع في الحج والعمرة، حيث يؤديها الإنسان بتطامن وذل، وهو يعتقد أنه يعبد الله، فأنت إذا دخلت في العمرة أو الحج، فاعتقد أنك في عبادة، من حين أن تقول: لبيك اللهم لبيك إلى أن تنتهي، ولكننا مع الأسف الشديد لا نشعر بهذا، فتجد الإنسان يتلبس بمحظورات الإحرام، وبغيرها من المحرمات، وليس عنده ذلك إلا من شاء الله.

إذنْ الخشوع يشمل جميع الطاعات، بأن يؤديها الإنسان بتواضع، وذل، وتطامن، ليس في قلبه استكبار، ولا عُجب.

ولا فرق في هذا بين أن يكون الخشوع أثناء فعل العبادة، أو بعد فعل العبادة - أيضًا -؛ لأن من الناس من يخشع في العبادة، لكن إذا انتهى منها رأى نفسه في درجة عالية، وأنه مرتفع، وأنه نال درجة ما نالها غيره، وهذا من الإعجاب بالنفس وبالعمل، فالإنسان ينبغي له إذا أدى العبادة، أن يكون كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، إن نظروا إلى تقصيرهم خافوا، وإن نظروا إلى فضل الله طمعوا.

وقوله: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ المتصدقين: أي الباذلين للصدقة، والصدقة هي بذل المال تقربًا إلى الله - عز وجل -، ويشمل الزكاة، فإنها أعلى الصدقات، ويشمل بذل التطوع، كصدقة التطوع، وكالإنفاق على الضيف، وعلى الأهل، وعلى النفس، كل هذا من الصدقة، فما يجعله الإنسان في فم امرأته من الصدقة، وما يأكله من الصدقة، كل شيء من المال تبذله لله - عز وجل - فهو من الصدقة.

وقد يقال: إن المتصدقين أعم من الباذلين لمالهم فيما يرضي الله - عز وجل -، فيشمل فعلَ كل خير؛ لأن الرسول ﷺ، يقول: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وأَمْرٌ بالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، أَوْ تَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[1]، فإذا أخذنا بهذا العموم صار المتصدقون والمتصدقات، يشمل من قام بأي طاعة من طاعات الله - عز وجل -، ولكنه من المعروف: أن المتصدقين، والمتصدقات يتبادر إلى الذهن أنهم الباذلون لمالهم فيما يرضي الله - عز وجل -.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ لا حاجة بنا إلى التطويل في تفصيل الصدقات، وما ينبغي للإنسان أن يتصدق به، وهل يجوز أن يتصدق بكل ماله، ويدع عائلته فُقَرَاء، أو لا يجوز، فإن هذا له موضع آخر، المهم: أن الله أثنى على المتصدقين، والمتصدقات.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ في الصدقة بذل، وفي الصيام إمساك، والصائمون: هم الذين قاموا بالتعبد لله تعالى بالصيام، والصيام: هو التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو أنواع:

منه ما هو ركن من أركان الإسلام.

ومنه ما هو واجب وليس بركن.

ومنه ما هو سنة معينة مقيدة.

ومنه ما هو سنة مطلقة.

فالواجب الذي هو فرض من فروض الإسلام، هو صيام رمضان، والواجب الذي ليس من أركان الإسلام وهو صيام الكفَّارات، ومنه ما هو سنة معينة مقيدة بوقت معين، مثل صيام عاشوراء، وتسع من ذي الحجة، ويوم عرفة، ومنه ما هو مطلق، مثل أن يصوم الإنسان لله ـ تعالى ـ يومًا من الأيام، إلا أنه يُكره أن يصوم الإنسان يوم الجمعة منفردًا، بل إما أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده.

والصائمون والصائمات ممسكون عن ملذاتهم وشهواتهم عن الأكل والشرب، والجماع، وما أشبه ذلك، لكن هذه هي الأساسيات في الملاذ، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي في الصائم: «يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي»[1]، والصيام ألَا يدخل في الصبر؟ بلى، ولكنه عبادة مستقلة بنفسه، متضمن للصبر.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ قال المؤلف: [عن الحرام]، وهي كلمة جامعة، تشمل حفظ الفرج عن الزنا، وحفظ الفرج عن النظر، وحفظ الفرج عن العمل المحرم الذي هو دون الزنا، وقد بين الله ـ عز وجل ـ من يُحفظ عنه الفرج ومن لا يحفظ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ـ ٧]، فأعلى شيء يحفظ عنه الفرج، هو الزنا، وهو فعل الفاحشة في قُبُل أو دبر، إلا أنه إذا تعلق بذكر سمي لُواطًا، واللواط: أعظم من الزنا، ـ والعياذ بالله ـ، لأن اللواط عقوبته الإعدام بكل حال، بل الأصح أن عقوبته القتل بكل حال، سواء كان الفاعل محصنًا، أو غير محصن، لكن بشرط أن يكون مكلفًا ـ أي: بالغًا عاقلًا ـ فإذا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، و مسلم (١١٥١).

تلوط ذكر بآخر، وهما بالغان عاقلان، وجب قتلهما، وإن لم يكونا محصنين، لكن كيف يقتلان؟

الجواب: اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن بعدهم، فقيل: يُرجمان بالحجارة، كالزاني المحصَن، وقيل: يُلقيان من أعلى مكان في البلد، ويُتبعان بالحجارة، وقيل: يحرقان بالنار، كما فعل أبو بكر ﷺ، حين كتب إلى خالد بن الوليد، لما قال له إن عنده رجلًا يُنكح كما تُنكح المرأة، فكتب إليه أبو بكر أن يحرقه، مبالغة في عقوبته؛ إذنْ أشد ما يكون الخطأ من الفرج، هو الزنا.

كذلك النظر، فيجب أن يحفظ الإنسان فرجه عن النظر، حتى الجنس مع جنسه، لهذا قال النبي ﷺ: «لَا تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ»(١)، فيجب حفظ العورة عن النظر إلا على الزوجة وما ملكت يمينك.

كذلك حفظ الفرج عن الأفعال المحرمة غير الزنا، واللواط والنظر، كالاستمناء مثلًا، وهو ما يعرف عند الناس: بالعادة السرية، ويكون في الرجال، ويكون في الإناث أيضًا، حتى الإناث يستعملن ذلك! هذه أيضًا محرمة، لا تحل، وذلك لأنها ليس فيها حفظ للفرج، فإن الإنسان الذي يبتغي نيل شهوته بغير امرأته، وما ملكت يمينه، يدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]، فهو حرام بالقرآن، وبالسنة أيضًا، السنة ذكرنا أن من أدلتها قول الرسول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاء»، ووجه الدلالة أن الرسول ﷺ أرشد إلى الصوم، وهو أشق من هذه الفعلة، لو كانت هذه الفعلة جائزة، لأرشد إليها الرسول ﷺ، لأنها أسهل وأيسر، وقد قالت عائشة ﵂: (ما خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا)(٢)، فلما لم يختر هذا الأيسر، عُلم أنه إثم محرم.

وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ختم الآية الكريمة بهذا الوصف العظيم، وهو ذكر الله - عز وجل -، وهو شامل لكل عبادة، فكل عبادة ذكر لله - عز وجل -، حتى دراسة العلم هي من ذكر الله - عز وجل -، ولهذا تسمى حِلَق العلم، أو مجالس الذكر، فكل عبادة فهي من ذكر الله، وذكر الله - عز وجل - يكون بالقلب ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، فبالقلب التفكر، وباللسان النطق، وفي الجوارح: الفعل والعمل، وأيها أفضل، ذكر الله باللسان، أم ذكر الله بالقلب، أم ذكر الله بالجوارح؟

الجواب: ليس هناك شك أن الجمع أفضل، فالقلب وحده لا يكفي، واللسان وحده لا يكفي، والجوارح وحدها لا تكفي، يعني: لو أن إنسانًا قال: أتفكر في آيات الله - عز وجل -، وفي أسمائه،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٣٨).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، و مسلم (٢٣٢٧).

وصفاته، ولكنه لا يقول: لا إله إلا الله هل يكون مسلمًا؟ لا، لابد أن يقول: لا إله إلا الله، وكذلك بالنسبة للجوارح، لكن لا شك أن اختلال الذكر بالقلب له أثر عظيم جدًّا، لأن المدار على القلب، ولا شك ـ أيضًا ـ أن تأثير ذكر الله بالقلب أبلغ في تقوية الإيمان، وفي التقرب إلى الله ـ عز وجل ـ من الذكر بالجوارح، لأن المدار كلَّه على سلامة القلب، لا بالنسبة للأعمال وقوام الأعمال، ولا بالنسبة للجزاء، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

وذكر الله ـ عز وجل ـ يكون مطلقًا في كل وقت، ويكون مقيَّدًا بأحوال، ويكون مقيدًا بأماكن، ويكون مقيدًا بأزمان، فهو إذنْ أربعة أنواع.

أما المطلق، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، هذا في كل وقت وفي كل حال، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] كما في هذه الآية في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

أما المقيد بزمن مثل: أدبار الصلوات، وكذلك الدعاء والذكر في أول النهار وفي آخره، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

والمقيد بأمكنة: كدخول المسجد، ودخول المنزل، والخروج منه، ورمي الجمرات.

أما المقيد بحال من الأحوال: فهو أيضًا كثير، عند الهمِّ، والحَزَن، وعند الأكل، والشرب، وما أشبه ذلك فالذكر إما مقيد، وإما مطلق، والله ـ عز وجل ـ شرع لعباده ذلك، من أجل أن يكونوا دائمًا على ذكر الله ـ عز وجل ـ حتى عند لبس الثوب.

قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةٗ وَأَجْرًا عَظِيمٗا﴾ ﴿أَعَدَّ﴾ فعل ماض، ولفظ الجلالة، فاعل، والجملة من الفعل والفاعل خبر إن، واسم (إن) المسلمين، وما عطف عليها، وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي لهؤلاء، والميم علامة جمع الذكور، وفيه دلالة واضحة، على تفضيل الرجال على النساء، فلم يقل الله: أعد الله لهم ولهن، ولم يقل أعد الله لهن، وإنما قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾.

وقوله: ﴿أَعَدَّ﴾ بمعنى: هيأ، وقوله: ﴿مَّغْفِرَةٗ﴾ المغفرة مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية، لأن أصلها من المغفَر الذي يوضع على الرأس من أجل اتقاء السهام، والمغفَر الذي يوضع على الرأس؛ لاتقاء السهام يحصل به الستر، والوقاية.

إذنْ المغفرة: هي ستر الذنوب، والتجاوز عنها، ليس هي ستر الذنوب فقط، بل هي ستر مع التجاوز، ستر عن الخلق، وتجاوز عن العقوبة، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يُقَرِّرُه بِذُنُوبِهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، و مسلم (٢٧٦٨).

فقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إذنْ بإعداد المغفرة، يسلمون من الآثام وعواقبها.

وقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثوابًا ذا عظمة في نفسه، وهذا الأجر العظيم هو دخول الجنة، وهو أجر لا يمكن أن يحيط به البشر، لأن الله يقول في حديثه القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِيْنَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، ويقول تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ، هذا الأجر العظيم الذي لا يقدُر قدره إلا الله - عز وجل - يكون لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات، وإذا كان الله تعالى بيَّن هذه الصفات، أو بين القائمين بهذه الصفات، وبين ما أعدَّ لهم من الأجر والثواب، فهل المراد بذلك مجرد إعلام الناس بهذا، أم أن المراد شيء وراء ذلك؟

المراد شيء وراء ذلك، وهو: أن يقوم الناس بهذه الصفات العظيمة، حتى ينالوا ذلك الأجر العظيم والمغفرة.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ كلمة ﴿مَّغْفِرَةً﴾ نكرة، فهل نقول: إنها نكِّرت للتعظيم بدليل عطفه عليها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أم ماذا؟

الظاهر: أنها نكرت للتعظيم، أي: مغفرة عظيمة كما أن لهم أجرًا عظيمًا، يقول: [﴿مَّغْفِرَةً﴾ للمعاصي، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ على الطاعات]؛ لأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل المغفرة في مقابل المعاصي، والأجر في مقابل الطاعات، ولكن هل لترك المعاصي أجر؟ إن قلت لا، أخطأت، وإن قلت نعم، أخطأت، ولكن نقول: تارك المعاصي له ثلاث حالات: إما أن يتركها عجزًا عنها مع فعل الأسباب الموصلة إليها، وإما أن يتركها؛ لأنها لم تطرأ له على بال، وإما أن يتركها مع كونها على باله، لكن تركها لله - عز وجل -.

أما الحالة الأولى: الذي ترك المعصية عجزًا عنها، مع فعل الأسباب الموصلة إليها: فهذا له حكم الفاعل، مثال ذلك: رجل أتى بالسلم ليصعد إلى البيت ليسرق، لكن وهو يصعد سمع صوتًا ونظر إلى حوله فوجد أناسًا، فترك، نقول: هذا له حكم الفاعل عند الله، أما في الدنيا، فلا نقطع يديه، والدليل قول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ والمَقْتُوْلُ فِيْ النَّار»، قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُوْلِ؟ قَالَ: «لأَنَّهُ كَانَ حَرِيْصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِه»(١) حريصًا وفاعلًا للسببَ، ملتقٍ مع الآخر بالسيف، فحكم الرسول ﷺ بالنار؛ لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه.

وأما القسم الثاني: من تركها؛ لأنها لم تطرأ له على بال، مثل: رجل ما سرق، ولا زنا ولا شرب الخمر؛ لأن نفسه ما دعته إلى ذلك يومًا من الأيام، فالحكم أن هذا ليس له شيء، وليس عليه شيء، لأنه ما فعل إثمًا، ولا تقرب إلى الله بنية، فلا يكون له شيء، ولا عليه شيء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١)، و مسلم (٢٨٨٨).

والقسم الثالث: رجل هم بمعصية، وربما فعل أسبابها، ولكنه تركها لله -عز وجل- عندما تذكر عظمة الله، خشي الله -عز وجل- وخافه، فهذا حكمه: أن له أجرًا على الترك، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَةً كَامِلَةً»[1]، قال: لأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي» أي: من أجلي، فإذا تركتها لله فإنك تؤجر على ذلك، ولو أن الإنسان ترك الهم بالمعصية، وفعل الأسباب وتركها لا لله، ولا لعباد الله، هل يأثم، أو لا يأثم؟ يعني: واحد همَّ بالسرقة، وأتى بالسلم، ولما أراد أن يصعد، رجع لنفسه، وقال لماذا تسرق، ما دام الله مغنيك، وعندك مال، وليس بحاجة إلى السرقة، فتركها؟

نقول: هو ليس عليه إثم السرقة، ولا أجر، لكن يأثم على فعل السبب، وهو الظاهر، وإن كانت الغاية لم يصل إليها، لكن نقول هذا السبب الذي فعلت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فالأسباب الأولى ما تركها لله، إنما تركها لأنه نظر، أنه ليس بحاجة إلى السرقة، فتركها، فأما السرقة فلا يأثم، وإن كان قد نواها بالأول، لأنه ما فعلها، وأما فعل الأسباب، فإن الأسباب محرمة.

مسألة: رجل ترك المعصية لشرفه، يعني: ترك الزنا مع تيسره؛ لأنه رجل شريف، لا يحب أن يتلوث بهذه الأخلاق السافلة، هل يؤجر أو لا يؤجر؟

الجواب: أما على ترك الزنا، فالظاهر أنه لا يؤجر، لأنه ما تركه لله، وأما على حماية شرفه، فإنه يؤجر؛ لأن الإنسان ينبغي له أن يدافع عن شرفه، حتى إن النبي -عليه الصلاة والسلام- لما قال: «هَذِهِ صَفِيَّةُ»[2] على كل حال ما هو يدفع التهمة عن نفسه، لأن هذا شيء بعيد، لكن لئلا تقع التهمة في أولئك فيهلكوا، ولهذا قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا».

فالظاهر لي: أن الإنسان الذي يترك الشيء محافظة على شرفه، وعلى سمعته، فإنه يؤجر على ذلك؛ لأنه صان نفسه، وفي الحديث: «رَحِمَ اللهُ امرأً كَفَّ الغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ»، ولا أدري عن صحته، لكن الإنسان مأمور بحماية شرفه بلا شك، والذود عن نفسه، وإزالة التهمة عنها، فإذا كانت هذه نيته، فإنه يؤجر، لكنه لا يؤجر أجر من ترك الزنا لله؛ لأن بينهما فرقًا عظيمًا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** التفصيل في ذكر الرجال والنساء، لقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، و مسلم (١٣١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، و مسلم (٢١٧٥).

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وهذا وإن كان موجودًا في القرآن، لكنه قليل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإسلام غير الإيمان، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، والعطف يقتضي المغايرة، وقد اختلف الناس، هل الإسلام هو الإيمان أو غيره؟

والصواب في ذلك: التفصيل، فإذا أطلق الإسلام، دخل فيه الإيمان، وإذا أطلق الإيمان، دخل فيه الإسلام، ومعني أطلق: أنه لم يذكر مفردًا، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] يدخل فيه الإيمان ولا شك، وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالإيمان هنا يدخل فيه الإسلام ولا شك، وأما إذا ذُكرا جميعًا، فإنهما يختلفان، ولهذا سأل جبريل النبي ﷺ عن الإسلام، فذكر له أشياء، وسأله عن الإيمان، فذكر له أشياء تخالف الأولى، فإذا ذُكرا جميعًا، صار الإيمان في القلب، والإسلام علانية في الجوارح.

لكن الإيمان أكمل، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، هذا من القرآن، ومن السنة: أن رجلًا أثنى عند النبي ﷺ على رجل، فقال: إنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»[(١)]، فدل ذلك على أن الإسلام أضعف من الإيمان، لأن الرجل كان يمدحه، فقال مؤمن، قال: « أَوْ مُسْلِمٌ»، أظنه كررها، ولهذا نقول: إن الإيمان أعلى من الإسلام، وهو مغاير له إذا ذُكرا جميعًا.

٣- **ومن فوائد الآية:** فضيلة الإيمان والإسلام، وكل ما ذكر بعد ذلك، فإن قال قائل: إن الفضل جاء لمن اتصفوا بهذه الصفات كلها، قلنا: لكن لما جاء هذا الفضل لها مركبة، أو لها مجموعة، دل على أن كل واحدٍ منها له فضل، وإلا لَما كان لذكرها جميعًا فائدة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة القنوت، لقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾.

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** فضيلة الصدق، لقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، وإذا كان الصدق فضيلة، كان ضده ـ وهو الكذب ـ رذيلة، فإن النبي ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ والكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[(٢)].

فإن قلت: أفلا يجوز الكذب الأبيض، نقول: ليس هناك كذب أبيض، كل الكذب أسود، وعند العوام الكذب الأبيض: هو الذي لا يستلزم أكل المال، اكذب كما شئت، لكن لا تأكل أموال الناس بالكذب، ولكن هذا خلاف تحذير النبي ﷺ حين قال: «**إِيَّاكُمْ والكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧)، و مسلم (١٥٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ».

مسألة: هل رُخِّص في شيء من الكذب؟

الجواب: نعم في الإصلاح بين الناس، والحرب، وحديث الرجل مع امرأته، والمرأة مع زوجها، لكن بعض أهل العلم يقول: لم يرخص في شيء من الكذب إطلاقًا، وقال: إن المراد بالكذب في هذا الحديث التورية، فالتورية كما هو معلوم: صدق من وجه، وكذب باعتبار وجه آخر، فهي باعتبار نية القائل: صدق، وباعتبار ما فهمه المخاطَب: كذب، فيقولون: إن عمومات الحديث تدل على الكذب، ويُجمع بينها، وبين الحديث الذي فيه الاستثناء، بأن هذا من باب التورية، وقالوا: إن الإصلاح بين الناس إذا بُني على الكذب، فقد تكون النتيجة فيما بعد عكسية، إذا علم المتصالحان فيما بعد أن الأمر ليس على ما ذُكر، فيمكن أن يزيد الشر، وينتقض الصلح.

وقالوا أيضًا: إن الكذب في الحرب، ربما ينتج نتيجة سيئة، حيث يتبين للعدو أن الأمر ليس على ما قيل، مثل أن يقال له: إن عندنا جمعًا كثيرًا، أو ما أشبه ذلك بدون تورية، فهذا خطأ.

قالوا: وأيضًا حديث الرجل لزوجته، وحديث المرأة لزوجها، هذا أيضًا لو أجزنا الكذب، صارت مشاكل عظيمة، فيأتي الرجل يقول: أنا عندي مليون ريالًا، وعندي مائة سيارة، وما عنده إلا ثيابه، فتكون النتيجة سيئة، فتقول له: أنت كذاب، ولا تصلح زوجًا لي، وكذلك بالعكس الزوجة تحدث زوجها، يقول لها: تخرجي للسوق؟ تقول: ما عمري خرجت، ولا أعرف السوق، ولا أعرف الرجال، فإذا الأمر بالعكس، فيه خطورة.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بذلك التورية، والتورية لا تجوز إلا في حالين، وهما: الحاجة، أو المصلحة.

وعلى كل حال: ظاهر حديث الاستثناء، أن هذا من الكذب الصريح، وأنه لا بأس به، ولكن حتى على القول بأن الاستثناء يعود على الكذب الصريح دون التورية، يجب أن يقال: هذا من المباح، والمباح إذا تضمَّن ضررًا، كان حرامًا ، لأن القاعدة عندنا: كل المباحات يمكن أن تجري فيها الأحكام الخمسة، ولهذا ذهب بعض الأصوليين، إلى أنه ما في الشريعة شيء اسمه مباح؛ لأنه مستوي الطرفين، بل لابد من ترجح، لكن جمهور العلماء أن المباح ثابت في الشريعة.

والحاصل: أنه إذا كان الحديث صريحًا في جواز الكذب في هذه الأمور الثلاثة، فماذا نقول فيه؟ يجب أن يقيد بما إذا لم يتضمن ضررًا، فإن تضمن ضررًا مُنع منه.

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** فضيلة الصبر، لقوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾، وقد سبق لنا بيان أقسام الصبر.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** الخشوع في العبادات، لقوله: ﴿وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ﴾، ولاسيما في الصلاة التي نص الله ـ تعالى ـ على الخشوع فيها، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الصدقة، لقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، وهو شامل للواجب والمستحب، وهنا نسأل هل الواجب أفضل، أم المستحب أفضل؟

فنقول: الواجب أفضل بالنص والنظر، أي: بدلالة الأثر والنظر، أما الأثر فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُه عَلَيْه»(١) وهذا صريح، وأما النظر، فنقول: لولا أن الواجب أحب إلى الله ما فرضه الله على العباد، ولجعله تطوعًا لك الخيار فيه، فإيجاب الله له، دليل على محبته له.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الصوم، لقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، فرضِه ونفلِه، وأفضل النفل في الصوم: صوم يوم وفطر يوم، وهو صيام داود ـ عليه السلام ـ.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة حفظ الفرج، لقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ويستثنى من ذلك: حفظ الفرج عن الزوجة، وما ملكت اليمين، فإن الإنسان لا يُلام عليه.

١١- ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي اتخاذ الوسائل التي يكون بها حفظ الفرج؛ لأن الثناء على شيء ثناء عليه وعلى وسائله، فكل ما يحصل به حفظ الفرج، فإنه مطلوب ومشروع، ولهذا حرم النظر إلى الأجنبية، وحُرِّم التلذذ بمخاطبتها، والاستماع إلى صوتها، وحرُم أيضًا مصافحة المرأة الأجنبية، وحرمت الخلوة بها، وحرم سفرها بلا محرم، وما أشبه ذلك، مما يكون سببًا في خفظ الفروج.

فإذا كان الله أثنى على الحافظين فروجهم، فإن الوسائل التي تؤدي إلى حفظ الفرج من الأمور المطلوبة.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة كثرة ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وجدير بالمرء أن يكون دائمًا ذاكرًا لربه ـ عز وجل ـ؛ لأنه ما نعمة هو فيها، إلا وهي من الله، فإذا كان الله قد أدام عليك النعم، وأكثر عليك النعم، فلماذا لا تديم ذكره؟! وحقيقة الأمر أن الإنسان لو فكر، لوجد أنه لو يستوعب ليله ونهاره في ذكر الله ما كفى، ولهذا قال النبي ﷺ: «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(٢)، فالإنسان لا يمكن أن يحصي الثناء على الله تعالى مهما كان.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله أعد لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات المغفرة للذنوب، والأجر العظيم على الطاعات، وذلك في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١١٠٠).

والأوصاف التي ذُكرت: المسلمين، والمؤمنين، والقانتين، والصادقين، والصابرين، والخاشعين، والمتصدقين، والصائمين، والحافظين فروجهم، والذاكرين الله كثيرًا، مع المعطوف عليها تكون عشرين، هؤلاء العشرون، كفى عنها ضمير واحد، وهو وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾، ولو جاء يعدد هؤلاء، لكان يقول: أعد الله للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، ولكن هذا من فوائد الضمائر، أنها تختصر الكلام الكثير بضمير واحد.

١٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تفضيل الرجال على النساء، لأنه قدَّم في الذكر الرجال، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

١٥- ومن فوائدها أيضًا: أن التغليب في جانب المذكَّر، لقوله: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل لهم ولهن.

١٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي عند ذكر الرجال والنساء أن يقدَّم الرجال، كما في هذه الآية وغيرها من الآيات، وأما من تغرَّبوا، فصاروا يقدمون النساء على الرجال، هؤلاء ولاهم الله ما تولوا من مشابهة الكفار، وقلب الفطرة، وانتكاس الحال، أن يقدموا النساء على الرجال، عندما يقول ـ مثلًا ـ سيداته وساداته، سيداته يقدم النساء على الرجال، بل العجب من ذلك أنهم يسمون النساء سيدات، يقول: السيدة فلانة، والرجل ما يقال السيد فلان، من أين أخذوا ذلك؟ من الغرب الكفار، لأن الرجل في الحقيقة، هو السيد على المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، أما المرأة، ما هي سيدة على الرجل أبدًا، لكن هؤلاء كما قلت: قلب الله فطرتهم، بسبب أنهم تابعوا أعداء الله ـ عز وجل ـ، وكثير من المسلمين ـ مع الأسف الآن ـ لا يحسون بهذه المسائل، ولا يرونها شيئًا، سائرين مع العالم، حتى الألفاظ التي قد تكون محرمة، يسيرون فيها.

١٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن جزاء الله أعظم من عمل المرء، لأن هذه الأعمال التي ذكرها الله ـ عز وجل ـ، جعل الثواب عليها أمرين: مغفرة الذنوب، والأجر العظيم، وهذا الأجر العظيم المبهم هنا، قد بُيِّن في نصوص من الكتاب والسنة، وهي: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وهذا مما يدل على فضل الله سبحانه وتعالى.

ومن العجب: أن فضل الله عليك بالثواب، كفضله عليك بالعمل، فإن فضل الله على الإنسان بالعمل، فضل لا يعدله شيء، ولهذا جعل الله ذلك من إتمام النعمة، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وجعل ذلك من منته، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، انظر إلى أن الله هو الذي منَّ عليك بالعمل، ثم من عليك بالثواب، ثم قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:

٦٠]، مع أنه هو الذي أحسن إليك، وإحسان الله عليك بالعمل، مسبوق بإحسانه عليك بشيء آخر، مثل الهداية والعلم، لأنه لا عمل إلا بعلم، فيكون عمل الإنسان مسبوق بنعمة الله عليه بالعلم، ثم بنعمة الله عليه بالتوفيق، وملحوق بنعمة الله عليه بالقبول والجزاء، فتأمل مثل هذه الأمور، حتى يتضح لك فضل الله عليك.

١٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجنة موجودة الآن، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأن أعد فعل ماض، فيكون لازم ذلك: أن تكون الجنة موجودة، وهذا أمر معلوم عند أهل السنة والجماعة، ومدعوم بنصوص الكتاب والسنة، أن الجنة والنار موجودتان الآن.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا
لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٦-٣٩].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ﴿مَا﴾ هذه نافية، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، وخبرها ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ جار ومجرور، و﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ هذا هو اسمها مؤخر.

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني: هذا أمر لا يمكن أن يكون، فهو نفي للإمكان، ولكنه للإمكان الشرعي، دون القدري، إذ إن المؤمن، أو المؤمنة قد يكون لهما الخيرة من أمرهم، فيما قضاه الله ورسوله، ولكن شرعًا لا يكون هذا.

يقول المؤلف: [﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَن يَكُونَ﴾ بالتاء والياء.

﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: الاختيار من أمرهم، خلاف أمر الله ورسوله].

وقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ هو كما سبق فيه ذكر الذكور، والإناث.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ المراد بالقضاء هنا: القضاء الشرعي، إذ إن القضاء الكوني: لا يمكن لأحد أن يختار خلافه، لا مؤمن ولا كافر؛ لأن القضاء الكوني، لابد أن يقع، فالمراد هنا إذا قضى قضاءً شرعيًّا.

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عطف بالواو، لأن قضاء الرسول ﷺ الشرعي من قضاء الله.

وقوله: ﴿أَمْرًا﴾ هنا: واحد الأمور، أم واحد الأوامر؟ واحد الأمور، أي: إذا قضى شأنًا، سواء كان ذلك الشأن أمرًا أو نهيًا.

قال: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾، والقراءة الثانية: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ﴾، أما على قراءة التاء، فالأمر فيها ظاهر، لأن اسمها مؤنث، فأنَّث الفعل من أجل قوله: ﴿أن تكون﴾، وأما على قراءة الياء، فإن الفعل يكون مذكَّرًا، مع أن الاسم مؤنث، ولكن هنا لا يجب التأنيث لوجهين:

الوجه الأول: الفصل بين الفعل وفاعله، وهنا بين الفعل واسمه.

والثاني: أن التأنيث في ﴿الْخِيَرَةُ﴾، تأنيث مجازي، وابن مالك يقول:

وَإِنَّمَا تُلزِمُ فِعلَ مُضمَرِ مُتَّصِلٍ أو مُفهِم بِنتُ ذَاتَ حِرّ

وقوله: ﴿الْخِيَرَةُ﴾ قال: [أي: الاختيار]، أفادنا المؤلف، أن الخيرة هنا: اسم مصدر، بمعنى الاختيار، أو بمعنى التخير، كالطِّيرة بمعنى: التطير، فهي إذنْ اسم مصدر، بمعنى: الاختيار، وإن شئت فقل: بمعنى التخير.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قد يقول قائل: إن المتبادر أن يقول: من أمره، لأن ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مفرد، فالمتبادر أن يقول: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون له الخيرة من أمره، ولكنه جمع فلماذا؟

نقول: لأن مؤمن ومؤمنة، جاءا نكرة في سياق النفي، فيفيد العموم، فعاد الضمير إليه، باعتبار المعنى، لا باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ معناه: من شأنهم، ويجوز أن يكون من أمرهم، أي: من أمر الله إياهم، فعلى الأول: تكون الإضافة من باب إضافة الشيء إلى فاعله، وعلى الثاني: من باب إضافته إلى مفعوله، وقول المؤلف: [خلاف] هذه بالنصب، مفعول للخيرة بمعنى: [الاختيار]، يعني: ما كان لهم أن يختاروا خلاف أمر الله ورسوله، فتبين الآن معنى الآية، وهو أن الله يقول: لا يمكن لمؤمن ولا مؤمنة شرعًا، إذا قضى الله ورسوله أمرًا، أن يخالفوا أمر الله ورسوله، وأن يختاروا خلاف أمر

الله ورسوله، لأن ما في قلوبهم من الإيمان، يمنعهم من المخالفة، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١)؛ لأنه لو كان في قلبه إيمان حين الزنا، ما زنى، وقال: «لَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، فالإيمان إذا وقر في القلب، لا يمكن أن يكون صاحبه مخالفًا لأمر الله ورسوله.

قال المؤلف: [نزلت في «عبد الله بن جحش»، وأخته «زينب» خطبها النبي ﷺ، لزيد بن حارثة، فكرها ذلك حين علما لظنهما قبل أن النبي ﷺ، خطبها لنفسه، ثم رضي للآية] هكذا ذكر المؤلف أنها نزلت فيه، وهذه القصة ضعيفة، لأنها معضلة، ومنقطعة، فهي ضعيفة، ونحن لا يهمنا في الحقيقة سبب النزول، فسبب النزول صحيح أن فيه فائدة، وهو أنه يكشف أحيانًا المعنى ويبينه، ويوضحه، لكن المهم الحكم، وهو أنه لا يمكن لمؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا، أن يختار خلافَ أمر الله ورسوله، لأنهم لابد أن يوافقوا أمر الله ورسوله، لما في قلوبهم من الإيمان.

ولهذا كلما همَّ المؤمن بمعصية، ذكَّره إيمانه بالله، فكف عنها، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله قال: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»(٢)، وهذه الدعوة كانت في محل خالٍ لا يطلع عليهما أحد سوى الله، لكنه قال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»، فمنعه إيمانه من أن يفعل الفاحشة، مع سهولة أسبابها.

وكذلك أحد الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، حين مكَّنته ابنة عمه من نفسها، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته ـ وأعتقد في هذه الحال أن الرغبة ستكون شديدة وقوية، وأنه لا يفصمها إلا إيمان قوي ـ قالت له: يا هذا اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقام منها، وهي أحب الناس إليه، هذا من الإيمان بلا شك.

إذنْ نحن لا يهمنا أن تكون نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها عبد الله، أو في غيرهما، المهم: أن حال المؤمن تمنعه من مخالفة الله ورسوله، وأما ما ذكره المؤلف، فهو يقول: إن النبي ﷺ، خطب زينب بنت جحش، وقد خُطبت كما ذكره غيره، من رجال شرفاء، وذوي جاه، فخطبها النبي ﷺ، فظنوا أنه خطبها لنفسه، ثم بعد ذلك بيَّن لهم أنه خطبها لزيد بن حارثة، وزيد بن حارثة هو مولى رسول الله ﷺ، وكان حسبما ذكره أهل السير عبدًا لخديجة ﵂، فوهبته للنبي ﷺ، فأعتقه، لما علما أنه خطبها لزيد امتنعا، فلما نزلت الآية رضيا بذلك، وهذا ليس بغريب على الصحابة، لو صح الحديث، أن يقدموا أمر الله ورسوله على ما تهواه أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (من) شرطية، لأن فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة، والمعصية: مخالفة الأمر، وإن شئت فقل: المعصية خلاف الطاعة،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

سواء كانت وقوعًا في منهي عنه أو تركًا لمأمور به، لكن إذا قيل: طاعة ومعصية، صارت الطاعة: فعل المأمور، والمعصية: فعل المحظور، أما إذا قيل معصية وحدها، أو طاعة وحدها، فإنها تشمل الأمرين.

قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواء عصاهما جميعًا، يعني: في أمر من الله، وأمر من رسوله وقع في المعصية، أو عصى اللهَ وحده، أو عصى الرسولَ وحده؛ فإنه قد ضل ضلالًا مبينًا، ومعصيتهما جميعًا مثالها: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ، وقال النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم»[1]، ولو خالف الإنسان في ذلك، يكون قد خالف الله ورسوله، لأن الأمر هنا من الله، ومن رسوله، وأحيانًا يرد الأمر في القرآن دون السنة، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيًا لله، وأحيانًا يرد في السنة دون القرآن، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيًا للرسول.

ولكن لتعلم أن معصية الرسول ﷺ معصية لله، لأن الرسول يتكلم عمن أرسله، فإذا عصيته، فقد عصيت من أرسله، فلو أن رجلًا أتاك، وقال: إن رجلًا أرسلني إليك، وقال: ليفعل كذا وكذا، فخالفت الرسول، تكون مخالفًا في الواقع للمرسِل، ولهذا قال الله - عز وجل - ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواء على سبيل الانفراد أو على سبيل الاشتراك.

وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ هذا جواب الشرط، وقُرن بالفاء؛ لأنها اقترنت بـ(قد)، وهناك ضوابط لجواب الشرط الذي يجب اقترانه بالفعل، ذُكرت في بيت، وهو:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

فإذا كان جواب الشرط أحد هذه الأمور السبعة، فإنه يقترن بالفاء وجوبًا، ولا يشذُّ عن هذه القاعدة إلا أمر نادر، كقول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ، اللهُ يَشْكُرُهَا

ولم يقل: فالله يشكرها، لكن هذا نادر أو ضرورة، لكن هنا الذي معنا من هذه الأشياء السبعة: (قد) في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال المؤلف: [بيِّنًا]، ونحن تكلمنا من قبل، أن أبان الرباعية، تكون متعدية، وتكون لازمة، فإذا كانت لازمة، فهي بمعنى: بان، وإذا كانت متعدية، فهي بمعنى أظهر، هنا قال: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، هل تصلح بمعنى أظهر، يعني: بمعنى ضلالًا مظهرًا؟ لا تصلح، إذنْ فهي من أبان اللازم، الذي يكون منه الاسم على

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

بيِّن، لا على مبين، بمعنى: مظهر، إذنْ المبين بمعنى: المظهر مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩] هذا من المتعدي يقينًا، لأن القرآن مظهر للحقائق، ولهذا قال بعده: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال: [فزوجها النبي ﷺ لزيد، ثم وقع بصره عليها بعد حين، فبلغ في نفسه حبها، وفي نفس زيد كراهتها، ثم قال للنبي ﷺ: أريد فراقها، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»[1] كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾].

هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذُكر عن بعض المفسرين من السلف والخلف، لكنه كما قال ابن كثير: أقوال ينبغي أن يضرب الإنسان عنها صفحًا، لأنها أقوال باطلة، لا تليق بمقام النبي ﷺ، لأن القصة إذا قرأها الإنسان، يتصور أن النبي ﷺ كان عاشقًا من العشَّاق، وما أشبه هذه القصة الباطلة بقصة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي ذكروا أن داودَ طلب من أحد جنوده أن يتزوج امرأته، ولكنه أبى، فاحتال عليه بحيلة ـ انظر إلى الكذب ـ فما الحيلة؟ قال: نخرجه مع الجيش، لكي يقتل فأتزوج امرأته، هل هذا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله؟! أبدًا، هذه لو قال قائل: إنها وقعت من أحد السوقة من الناس، لقيل: ما أظلم هذا الرجل، وما أجهله، فكيف بنبي من أنبياء الله!!

والنبي ﷺ هل يمكن أن يتصور أحد أنه عشق هذه المرأة، لأن بعض الناس حتى بعض المفسرين، ـ والعياذ بالله ـ صار يتلفظ بهذا اللفظ، يقول: الرسول عشق المرأة زينب، ولكن هذا قول باطل، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير هذه الآية بيان معنى الآية، وأن معناها ناصع واضح، ولم يكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، قال له أمسك عليك زوجك، واتق الله، وأنه أخفى حبه، لأن الله قال في نفس الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فبين الله أنه سيبدي ما أخفاه في نفسه، ولو كان الذي أخفاه النبي ﷺ الجواب: في نفسه حبًّا، لكان الله يبديه، لكن ما الذي أبدى الله؟

الذي أبدى الله أنه زوجه إياها، فكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخفى في نفسه ما أعلمه الله أنه سيتزوجها، دون أن يكون هناك حب وعلاقة، لكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم بما أعلمه الله أنه سيتزوجها، فلما جاء هذا الرجل يستشيره، قال له: «اتق الله»، فعاتب الله رسوله، لماذا قال له: «اتق وأمسكها»، وقد علم أن الله ـ تعالى ـ سيزوجه إياها، فالمسألة واضحة، ما فيها أي إشكال.

أما المشكل: أن بعض المفسرين يأخذ عن بعض من غير تمحيص، ومن غير أن يكون هناك تروٍ في المسألة، حتى إن بعض الناس اعتذر، وقال: إن محبة الإنسان للمرأة ولو كانت عند زوج آخر،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، و مسلم (٨٦).

أمر لا ينكر، إنما ينكر إذا حاول التوصل إلى هذه المرأة، بطريق غير شرعي، وأما أن يقع في نفسه محبة امرأة عند زوج، فهذا لا بأس به، وهو أمر قد تدعو إليه الجبلة والطبيعة، هذا وإن كانت المسألة تحتاج إلى نظر في هذا القول، وهو أن محبة الإنسان لزوجة غيره، إما أن تكون مَحبة للجنس، أو مَحبة للشخص، فإن كان محبة للجنس، فهذا أمر جائز - وليس المقصود بالجنس الشهوة - بل هذا الطراز من النساء، هذا المراد بقول إن كان محبة للجنس، يعني أنه يرغب مثل هذه المرأة، فهذا لا بأس به، والإنسان دائمًا إذا سمع مثلًا: عن امرأة رجل، أنها امرأة صالحة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله يحبها، ويحب أن يكون له مثلها.

وأما إذا كان حبًّا شخصيًّا، فعندي: أن في جواز ذلك نظرًا، وأن الإنسان يجب عليه إذا تعلقت نفسه بامرأة تعلقًا شخصيًّا، أو محبة شخصية، يجب عليه أن يحاول التخلص من هذا؛ لأن هذا مشكلة؛ لأن المحبة في الحقيقة جذابة، فإذا تعلق قلبه بامرأة، فإن الغالب أن يحاول الوصول إليها، إن لم تكن متزوجة فيمكن أن يخطبها، وإن كانت متزوجة فهذه مشكلة، كالذي أرى في هذه المسألة، أنه إذا أحبها محبة جنس هذه المرأة، فهذا لا شك أنه ما فيه مانع، ولا يحصل فيه مفسدة، وأما إذا أحبها محبةً شخصيةً، فإن الأمر خطير.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

قوله: ﴿إذ﴾ يقول المؤلف: [منصوب باذكر]، وهي فعل أمر محذوف، أي: (اذكر يا محمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه...) اذكر هذا القول لكي تكون مستعدًّا لما يلقى إليك من الموعظة، لأن الله - تعالى - وعظه في هذه الآية موعظة عظيمة، حتى قالت عائشة ﷺ، لو كان محمد كاتمًا ما أنزل الله إليه لكتم هذه الآية، كما سترون.

وقوله: [﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق] بيّن الله - عز وجل - أن هذا الرجل الذي أبهم اسمه هنا، ثم أوضحه فيما بعد أن عليه نعمتين: النعمة الأولى لله، والثانية للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهنا قال: ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، فأتى بالواو الدالة على الاشتراك، مع أن هذا ليس من باب الشرع، أو من باب التشريع، حتى نقول: إنه يجوز إشراك الله مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - بل هو من باب النعمة والعطاء والفضل، فكيف جمع بين إنعام الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وإنعام الله بالواو الدالة على التشريك؟

الجواب: أن نقول جمع بينهما بالواو الدالة على التشريك، لأن النعمتين مختلفتان، النعمة الأولى من الله بالإسلام، والثانية من الرسول - عليه الصلاة والسلام -، بالعتق، فلما اختلفت النعمتان، صارت الواو لا تدل على الاشتراك، لامتناع الاشتراك بين شيئين مختلفين.

يقول: [وهو زيد بن حارثة، كان من سبي الجاهلية، اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه].

والمشهور أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان مملوكًا لخديجة، فوهبته للنبي ﷺ هذا هو المعروف في السير، وأيًا كان، فإن زيد بن حارثة كان مملوكًا للرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم أعتقه وتبناه أيضًا، فرفع معنويته بكونه أضافه إليه ابنًا له، وكان يُدعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله ذلك بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] وبقوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

وقوله: [﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمر طلاقها].

قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ هنا عُدي الفعل أمسك بعلى، لأنها بمعنى: اضمم عليك زوجك، يعني: اجعلها منضمة عليك ولا تفارقها، و﴿زَوْجَكَ﴾ المراد بها: زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان زيد قد تزوجها بمشورة النبي ﷺ، فجاء يستشيره في طلاقها، فقال له النبي ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»(١) يعني: لا تطلقها وأمره بأن يتقي الله، قال: واتق الله، إغراء له على إمساكها، وإن كان الرجل لم يفعل خطيئة، لأن الطلاق مما يباح للرجال، لكن من باب الإغراء على إمساكها.

وقال بعض المفسرين: إنه - أي: زيد بن حارثة - ذكر زينب بعينها، فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «اتَّقِ اللهَ» يعني: لا تصفها بالعيب، وليس معنى «اتَّقِ اللهَ» أي: لا تطلقها، لأن الأصل في الطلاق أنه مباح.

وقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الواو حرف عطف، ﴿وَتُخْفِى﴾ معطوفة على قوله: ﴿تَقُولُ﴾ يعني: واذكر أيضًا إذ تخفي في نفسك ما الله مبديه، وأبهم الله - تعالى - ما أخفاه، لكنه بيَّن أنه سيبديه، وننظر ماذا أبدى الله - عز وجل -؟ ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول في محل نصب مفعول لـ (تخفي)، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿مُبْدِيهِ﴾ خبره، والجملة صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب، يعني: وتخفي في نفسك الذي الله مبديه، وهنا لم يقل: وتخفي في نفسك ما يبديه الله، بل قال: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، كأن هذا أمر لابد منه، لابد أن يبديه الله - عز وجل -، وهذا هو الذي وقع.

ومعنى ﴿مُبْدِيهِ﴾ أي: مظهره، وهو مقابل لقوله: ﴿وَتُخْفِى﴾ إلا أن المقابلة اختلفت، من حيث الصيغة، فالصيغة في الإخفاء جاءت بالمضارع، وأما الصيغة في الإبداء فجاءت بالجملة الاسمية.

قال: [﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مظهره من محبتها، وأن لو فارقها زيد تزوجتها]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (٨٦).

هذا ما زعم المؤلف تَبعًا لكثير من المفسرين، أن الذي أخفاه النبي ﷺ، هو محبته لهذه المرأة، فأبدى الله ذلك، ولكنك إذا تأملت الآيات، وجدت أن الذي أخفاه هو نية الزواج بها بأمر الله ـ عز وجل ـ، فإن الله تعالى أمره أن يتزوجها بعد زيد بن حارثة، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من أجل جَبر قلبها، حيث تزوجت زيد بن حارثة، وهو مولى، وهي من صميم العرب، فأراد الله ـ عز وجل ـ أن يكافئها على خضوعها لمشورة النبي ﷺ بأن يتزوجها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: أمره الله أن يتزوجها، لأجل أن يزول ما كان مشهورًا عندهم في الجاهلية، من أن ابن التبني لا يجوز لمن تبناه أن يتزوج بامرأته، فيكون هذا من باب البيان بالفعل الذي هو أقوى من البيان بالقول.

قال: [﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مظهره من محبتها، وأن لو فارقها زيد لتزوجها]، وإذا نظرنا إلى الذي أبداه الله، وجدنا أنه زواجها، لا أنه يحبها، ما قال الله في القرآن: إنك تحبها أبدًا، ولا تعرض للحب، بل قال: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخاف من قولهم، ومن كلامهم، قال: [أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه]، وهذا عند العرب عيب، فهم يرونه من المنكرات.

قال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قال: [في كل شيء، وتزوَّجها ولا عليك من قول الناس، ثم طلقها زيد وانقضت عدتها].

قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ من الناس، ولكنه هنا أطلق، قال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، ولم يذكر المفضل عليه من أجل العموم؛ لأنه دائمًا يكون الحذف مفيدًا للعموم، يعني: أحق أن تخشاه من كل أحد، من الناس ومن الجن ومن غيرهم.

وقوله: ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾ يعني: أن تخافه، ولكن الخشية، خوف مع علم، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والخشية أيضًا خوف مع قوة المخشي وعظمته، فالخوف دون الخشية، لأن الخوف بدون علم، ولأن الخوف يقع من ضعف الخائف لا من قوة المَخوف، فلهذا كانت الخشية أرفع مرتبة وأقوى.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ قال: [حاجةً ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فدخل عليها النبي ﷺ، بدون إذنٍ وأشبعَ المسلمين خبزًا ولحمًا].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجة، وهذا دليل على أن زيدًا رضي الله عنه طلقها عن رغبة، وأنه انتهت حاجته منها، ولم يطلقها عن ضغط، وإكراه.

وقوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ شرعًا أم وقدرًا؟ شرعًا، وقدرًا لكن المهم: شرعًا، لأنه لو كان المراد قدرًا فقط، لم يكن بينها وبين أمهات المؤمنين فرق، لأن أمهات المؤمنين ـ أيضًا ـ ممن زوجهن الله قدرًا، وكانت هي ـ أي: زينب ـ تفتخر على نساء النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني

الله من فوق سبع سماوات، وهذا دليل على أنه تزويج شرعي، ولكنه قدري أيضًا في نفس الوقت.

وقوله: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ في هذا الفعل ضميران مفعولان متصلان، الضمير الأول: الكاف، والثاني: الهاء، وهو جارٍ على القاعدة، فابن مالك يقول:

وَقَدِّمِ الأَخَصَّ فِي اتِّصَالِ وَقَدِّمَنْ مَا شِئْتَ فِي انْفِصَالِ

وضمير المخاطب أخص من ضمير الغائب، ولهذا قال: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾.

الحكمة من ذلك: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ﴿لِكَىْ﴾ اللام هنا: للتعليل، و(كي) حرف مصدر؛ لأنها بعد اللام مصدرية محضة، أي: لأن، و﴿لَا﴾: نافية.

وقوله: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق ومشقة.

وقوله: ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ مَنْ أدعياؤهم؟ أبناؤهم الذين تبنوهم، هؤلاء هم الأدعياء، وهؤلاء الأدعياء ليسوا بأبناء، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، وتأمل قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، ولم يقل: أبنائهم الذين تبنوهم، لأن هذه البنوة، منتفية شرعًا، وباطلة شرعًا، ولهذا قال: ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ وبهذا نعرف أن قول من قال في قوله تعالى: ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] أن قوله: ﴿مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾؛ احتراز من ابن التبني، يتبين لنا أن هذا القول لا وجه له، لأن ابن التبني لم يسمه الله ابنًا أبدًا، بل نفى عنه البنوة، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وإذا كان ابن التبني لا يُسمى ابنًا شرعًا، فإنه لا حاجة إلى أن نأتي بصفة تخرجه، لأنه ليس بداخل أصلًا، حتى يخرج بهذه الصفة، ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾، ولكنها احتراز من ابن الرضاعة، كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾ الفاعل يعود على الأدعياء.

وفيه إشارة إلى أنه لو كان ذلك بضغط من الأب المدعي، لكان ذلك فيه حرج، بل لابد أن يكونوا قد قضوا منهن وطرًا، وأنهوا رغبتهم فيهن.

قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [مقضيًّا: ﴿مَفْعُولًا﴾]، أمر الله، أي: الكوني؛ لأن الشرعي، قد يُفعل، وقد لا يفعل، ولكن الأمر الذي لابد أن يفعل، هو أمر الله الكوني، فإذا أمر الله بشيء كونًا فلابد أن يقع.

وخلاصة تفسير هذه الآية: أن نقول: إن الله -عز وجل- ذكَّر نبيه ﷺ بهذا الأمر العظيم، وهو قوله لزيد بن حارثة حين جاء يستشيره في طلاق زوجته: **«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ»**، مع علم النبي ﷺ بأن الله سوف يزوجه إياها، وكان على النبي ﷺ أن يسكت على الأقل، ويقول: انظر ما يبدو لك في هذا الأمر، ولكنه أشار عليه أن يمسك، لأنه يخشى أن يقول الناس: تزوج

امرأة ابنه الذي تبناه، فكان النبي ﷺ، يخاف من هذا الأمر، ولكن الله ـ عز وجل ـ وجَّهه هذا التوجيه السليم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

قوله: ﴿ مَّا ﴾ نافية، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها: قوله ﴿ حَرَجٍ ﴾ لكن فيها: ﴿مِنْ﴾ الزائدة؛ لإثبات النفي وتوكيده.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا خبر كان مقدم.

وقوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ ومعنى ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ أي: فيما أحل الله له، أيًا كان، فكل ما أحل الله له فإنه لا حرج عليه عند الله وإذا كان لا حرج عليه عند الله، فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يتكلم في هذا الذي أحله الله له، ويقول: لم فعل لم صنع؟ وسيأتي إن شاء الله تعالى في الفوائد أن هذا عام للرسول ﷺ ولغيره.

وقوله ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ الفرض تارة يتعدى باللام، وتارة يتعدى بعلى، فيتعدى باللام مثل هذه الآية ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، ويتعدى بعلى مثل: فرض الله علينا كذا وكذا، فإن تعدى بعلى فهو بمعنى: أوجب، وإذا تعدى باللام، فهو بمعنى: أحل؛ لأن الفرض في الأصل بمعنى: التقدير، والمقدر قد يكون واجبًا، وقد يكون محللًا.

قال الله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ قال: [أي: كسنة الله، فنصب بنزع الخافض] يعني: أن الله تعالى نفى عنه الحرج فيما أحل له؛ لأن هذا هو سنة الله فيمن سبق، فسنة الله ـ أي: طريقته ـ، والمعنى: كطريقة الله تعالى فيمن سبق من الأنبياء.

وقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [من الأنبياء، ألا حرج عليهم في ذلك توسعة لهم في النكاح، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فعله ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ مقضيًا].

يقول الله عز وجل: إن الرسول عليه الصلاة والسلام، كغيره من الأنبياء السابقين، فما أحل الله له، فإنه لا حرج عليه فيه، وهكذا الأنبياء السابقون، ليس عليهم حرج فيما فرض الله لهم، يفعلون ما يشاءون مادام الأمر محللًا لهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

قال المؤلف في إعرابها: [﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ نعت للذين قبله] وهي قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الذين يبلغون.

وقوله: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع رسالة، والمراد بها: المرسَل به، فهم يبلغون ما أرسلهم الله به، والتبليغ معناه: الإيصال، ومنه ما جاء في الحديث: «لَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ».

وقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ ذلك لأن الخشية عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عز وجل، هذا في الأصل، مع أن الخشية قد تكون غير عبادة، فقد تكون خوفًا طبيعيًّا لا يتعبد به الإنسان للخائف، فيفرق بين خشية الإنسان للناس، وبين خشية الإنسان لله، قال: [فلا يخشون مقالة الناس فيما أحل الله لهم]، وكذلك في غيره.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ قال: [حافظًا لأعمال خلقه، ومحاسبتهم] إعراب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الله فاعل ﴿كفى﴾ والباء حرف جر زائد، و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز منصوب؛ وكفى تتعدى بالباء على أنه حرف جر زائد، وهو كثير، وقد تتعدى بنفسها، إلى الفاعل، كقول الشاعر:

كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا

فلم يأت بالباء، لكن الأكثر أن يأتي بها.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مقتضى الإيمان ألا يخالف المؤمن أمر الله ورسوله، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه كلما قوي الإيمان قويت الموافقة، لأن الحكم المترتب على وصف، يقوى بقوته ويضعف بضعفه، وعليه فتأتي الفائدة الثالثة:

٣- أنه كلما نقص الإيمان وضعف، كثرت المخالفة، ولهذا قال أهل العلم: الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما قضاه الرسول ﷺ من الأمور الشرعية، فهو كما قضاه الله، لقوله: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخير - كل الخير - فيما قضاه الله ورسوله، لقوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يعني: ما يختارون غيره؛ لأنهم يرون أن الخير فيما قضاه الله ورسوله.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعصية ضلال، لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أنه كلما كانت المعصية أكبر أو أكثر، كان الضلال أبينُ وأوضحُ، وجهه: أن الحكم المترتب على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، كمعصية الله؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ فإذا أتانا آتٍ ونهيناه عن أمر جاء به النهي في

السنة، وقال: هذا ليس في القرآن، ماذا نقول له؟

نقول له: الذي في السنة، كالذي في القرآن، وقد توقع النبي ﷺ ذلك، فقال: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُكُم مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي الكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[1]، وهذا الذي توقعه النبي ﷺ وقع، بل صرَّحوا بأنه لا احتجاج إلا بما جاء في القرآن، وكما ترون الآن لكن ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، وقال أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز تشريك الله ورسوله بالواو في الأحكام الشرعية، لقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بخلاف الأمور الكونية، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يشارك مع الله بالواو، ولهذا لما قال له الرجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[2].

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات رسالة النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ورسالة النبي ﷺ عامة لجميع البشر، منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة، ولهذا قال الله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، والخاتم لا شيء بعده، وكانت شريعة النبي ﷺ، لكونها عامة شاملة إلى يوم القيامة، كانت صالحة لكل زمان ومكان وأمة.

ومعنى كونها صالحة: أن العمل بها لا ينافي المصالح في أي زمان أو مكان، بل هو المصلحة، وعين المصلحة، وليس كما فعله بعض الناس وتصرف في هذه العبارة، حيث زعم أن الدين، أو أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، بمعنى أنه خاضع لكل زمان ومكان، فجعلوا الشرع تابعًا، لا متبوعًا، وقالوا: إن العصر إذا اقتضى - في زعمهم - المصلحة، فإن الدين لا يعارضه، أو فإن الشرع لا يعارضه، وبنوا على ذلك استحسان ما استحسنوه من الأمور التي لا شك في تحريمها، كتجويز الربا، وأن هذا ينمي الاقتصاد، ويقوي الأمة، وكتجويز التأمينات، التي هي الميسر حقيقة، والتي قرنها الله بالخمر، والأنصاب والأزلام إلى غير ذلك، مما يرونه أنه داخل في مسمى الدين الإسلامي، بحجة أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

نحن نقول صالح، ولا نقول خاضع، فأنت اعمل بالإسلام في أي زمان، أو مكان، أو أمة، وانظر هل ينافي المصالح، أو ينمي المصالح!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: تذكير النبي ﷺ، بالأمور التي يحسن أن يُوعظ فيها، لقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ حيث قلنا: إنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكر.

٢- **ومن فوائدها**: بيان منة الله على زيد بن حارثة في الإسلام، والتمسك به، حتى إن أباه وأعمامه لما جاءوا يطلبونه، وخيَّره النبي ﷺ بينهم وبينه، فاختار أن يكون مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- **ومن فوائدها أيضًا**: أن الإعتاق نعمة من المعتق على عتيقه وهو كذلك، والفَرَضيُّون يعبرون بالنعمة عن الإعتاق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجوز عطف الأمور غير الشرعية بالواو إذا اختلف المعنى، وقلنا: ما يسوى بين الله والرسول في الواو في غير الأمور الشرعية، وهنا عطف نعمة الله على نعمة الرسول بالواو، مع أنها ليست من الأمور الشرعية، لكن الذي سوَّغ ذلك اختلاف النعمتين، فالنعمة الأولى: الإسلام، والنعمة الثانية: العتق.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الزوجة تابعة للزوج، لقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ فكأنه يضمها، ويحرصها ويصونها، وكأنها تابعة له كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: استشارة ذوي الرأي، لأن زيدًا استشار النبي ﷺ.

٧- **ومن فوائدها**: أنه يجب على المستشَار أن يبذل ما يراه ـ ولو باجتهاده ـ لما يراه هو الأولى؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، أشار على زيد بإمساكها؛ اجتهادًا منه، خوفًا من إثارة المنافقين والمشركين عليه ولكن لا يعني ذلك أن يكون المشير مصيبًا فيما يتصرف فيه. قد يخطئ فيما يتصرف فيه، لكن هو في حال إشارته، يرى أن ذلك هو الصواب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأفضل للزوج ألا يتعجل في الطلاق، وأن يمسك عليه زوجته، لقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، فأشار عليه بعدم الطلاق، وإن كان للرسول عليه الصلاة والسلام أغراض أخرى، لكن لا يمنع أن تتعدد الأسباب في الأمر بإمساكها، ومعلوم أن الله عز وجل قال في كتابه المبين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

ومن فوائد الآية الكريمة: ثبوت رسالة النبي ﷺ، وأنها رسالة حق، لقوله: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، فلو كان النبي ﷺ، كاذبًا ـ وحاشاه من ذلك ـ لكان يخفي مثل هذه الأشياء؛ لأنها صعبة في حقه.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله عز وجل قد يفعل خلاف ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام عليه، بمعنى: أن اجتهاد النبي ﷺ، قد يكون مخالفًا لما يريده الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فالرسول أخفى في نفسه هذا الأمر، لكن الله خالفه في ذلك، فأبداه.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن خوف الناس قد يقع من الأنبياء، ولكنهم لا يُقِرُّون عليه، لقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾.

١١ـ **ومنها**: وجوب تقديم خشية الله عز وجل على خشية كل أحد، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فالواجب على المرء ألا يخاف في الله لومة لائم، وأن يتقي الله عز وجل في بيان الحق والعمل به، ولا يقول: إن الناس يشمتون بي، إن الناس يسخرون مني، إن الناس يستهزئون بي، وليكن ذلك، فإنه لا يزداد بهذه السخرية والاستهزاء إلا رفعة عند الله سبحانه وتعالى.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يصح التزويج، حتى ينتهي حق الزوج الأول من الزوجة بالكُلِّية، لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فكان التزويج بعد انتهاء زيد منها بالكلية، ولا يرد على ذلك أن يقال: إن ظاهر الآية جواز التزويج بعد الطلاق مباشرة، لأننا نقول: إن الوطر هو الحاجة، ما تنتهي إلا بانتهاء العدة، إذ إن الإنسان إن أراد أن يرجع إلى زوجته في العدة وهي رجعية، لحصل له ذلك.

١٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات العظمة لله عز وجل، والسلطان، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾؛ لما له من العظمة والسلطان.

١٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة زينب رضي الله عنها؛ حيث زوَّجها الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، ووجهه: أن غيرها يزوجها أولياؤها، وأهلها، وأما هي فقد تولى الله عز وجل تزويجها، وهذه منقبة عظيمة لها.

١٥ـ **ومن فوائدها**: أن الله سبحانه وتعالى يثيب عبده أكثر من عمله؛ لأن هذه المرأة ـ كما سبق ـ تزوجت زيد بن حارثة، مع أن زيدًا من الموالي، وهي من صميم العرب، وقد يكون في ذلك غض من حقها ومرتبتها، فرفع الله من شأنها؛ حيث زوجها رسوله محمدًا ﷺ، هو بنفسه تبارك وتعالى، ولا شك أن هذا رفعة من شأنها، بعد أن كانت تحت هذا المولى، وهي من صميم العرب، وكان في ذلك شيء من الغضاضة عليها، رفع الله من شأنها في هذا الأمر.

١٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما ثبت في حق النبي ﷺ من أحكام، فهو ثابت في حق الأمة؛ لأن هذا الحكم خُوطب به الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فدل ذلك على أن ما ثبت للرسول عليه الصلاة والسلام، من أحكام فأمته تبع له، إلا ما قام الدليل على تخصيصه.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تزوج الرجل بزوجة مَنْ تبناه، لقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.

١٨- **ومن فوائدها:** أن ابن التبني لا يُسمى ابنًا، وما سماه الله بالابن، لقوله: ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾، وقوله في أول السورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أن قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] أن هذا القيد ليس لإخراج ابن التبني؛ لأنه ما دخل في الأبناء، حتى يحتاج إلى إخراجه.

١٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أمر الله الكوني لابد أن يقع، لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فلو قال قائل: أمر الله مفرد مضاف، فيعم الأمر الكوني والشرعي، فبماذا نجيبه، ونحن خصصناه الآن بالأمر الكوني نقول: إن الأمر الشرعي ليس مفعولًا لكل أحد؛ بل هناك من لا يفعله.

ثم قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا حرج على النبي ﷺ فيما أحل الله له، وإن كان مخالفًا لما يعتاده الناس؛ لعموم قوله: ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾، وقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن ﴿ مَا ﴾ اسم موصول، فكل ما أحل الله للرسول، فلا حرج عليه فيه.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أنه لا حرج على الإنسان غير الرسول فيما أحل الله له؛ لأن ما ثبت في حق النبي ﷺ، ثبت في حق أمته إلا بدليل، ولكن يجب على الإنسان أن يراعي أحوال الناس، وما يستنكر عليه فيهم حتى لا يعرِّض نفسه للذم والقدح، فمراعاة أحوال الناس أمر لابد منه، إلا في الأمور الشرعية، فإن الواجب على المرء إبانتها وإظهارها.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** تكليف النبي ﷺ، وأنه يلحقه الحرج فيما لم يحلَّه الله له، لقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾؛ فيستفاد من هذا أن الرسول عليه الصلاة والسلام عبد من عباد الله، لا يخرج عن طاعته وشريعته، كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: إن الرسول محمدًا عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب، وهو كذلك.

٤- **ويستفاد منها:** أن البيان بالفعل أبلغ وأقوى من البيان بالقول، يؤخذ من كون الله تعالى زوَّج زينب بنت جحش رسوله ﷺ، فإن هذا أبلغ في الطمأنينة، وثبوت الحكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما شرعه الله لرسوله في هذه الآية؛ فهو مشروع لمن كان قبله، لقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، وربما يُؤخذ منها فائدة أيضًا وهي: أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ لأن الله جعل هذا سنة الأولين، وقد يُنازع في ذلك، فيقال: إن الله بيَّن أن ما

شرعه لنبيه، أو ما نفاه عنه من الحرج فيما فرض له، هو سنة مَن قبله، ولا يعني ذلك أن يوافقه.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أمر الله قد كُتب وقُدِّر، لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وهل المراد بالأمر هنا الكوني أو الشرعي؟ الكوني.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: الثناء على الرسل السابقين، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾.

٢- **ومن فوائدها أيضًا**: الثناء على من بلَّغ شيئًا من شريعة الله من غير الرسل، وجه ذلك: أنه إنما أُثني على الرسل، لكونهم بلَّغوا الرسالة، ولم يخشوا أحدًا، فمن كان مثلهم في ذلك، فهو محل الثناء.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام ألا يخشوا أحدًا في تبليغ الرسالة، وإنما يخشون الله في عدم تبليغها، ولا يخشون الناس في تبليغها، ويخشون الله في عدم تبليغها.

٤- **ومن فوائدها**: أن إبلاغ الرسالة من خشية الله، فإنه لولا خشية الله ما بلغوا رسالته.

٥- **ومن فوائدها**: إثبات الرسالات فيمن سبق، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، واعلم أنه ما من أمة من الأمم، إلا أرسل الله إليها رسولًا، من أجل أن تنتفي الحجَّة على الله، وتزول المعذرة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن حفظ الله عز وجل في غاية ما يكون من الحفظ، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، هذا إذا جعلنا الحسيب بمعنى: الحفيظ الكافي، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أما إذا جعلنا الحسيب بمعنى: المحاسب، فإنه يدل على كمال، فيؤخذ منها فائدة وهي: كمال محاسبة الله عز وجل لعباده، وأنه لا يفوته شيء.

٧- **ويستفاد من الآية الكريمة**: إثبات علم الله، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، سواء جاء هنا الحسيب بمعنى: المحاسب، أو بمعنى الحفيظ، فإنه لا محاسبة إلا عن علم، ولا حفظ إلا بعلم.

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠-٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿مَّا﴾ نافية، وهل هي حجازية، أو غير عاملة؟

الجواب: غير عاملة؛ لأن العمل لـ (كان)، وليس لها.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ يعني: رسول الله ﷺ، ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لم يقل: ما كان رسول الله، بل قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ فتحدث عنه باعتباره شخصًا من الناس، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فأثبت له الرسالة.

وقوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ﴿أَبَآ﴾ بالألف؛ لأنها خبر ﴿كَانَ﴾، قال: [فليس أبا زيد، أي: والده فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب].

وقوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تبنيًا، أو تبنيًا وولادة؟ تبنيًا وولادة؛ لأن أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام الثلاثة توفوا قبل أن يبلغوا الرجولة، كلهم توفوا وهم صغار، وقال بعض أهل العلم: إن المراد ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تبنيًا؛ لأنه قال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إليهم، ولم يقل: أبا أحد من الرجال، وعلى هذا فلا يكون في الآية دليل على أنه ليس أبًا لأحد من الرجال نسبًا وتبنيًا، وهذا هو الأقرب: أن المراد: أبا أحد من رجالكم تبنيًا، لأجل أن ينفي ما كان معروفًا عندهم من أن زيد بن حارثة ابن لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مر علينا فيما سبق: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أن بعض السلف قرأ: وهو أب لهم، فكيف يجمع بينه وبين هذه الآية؟

الجمع بينهما أن يقال هنا: ليس أبا أحد من الرجال بالتبني، ولكنه أبٌ للمؤمنين، باعتبار التعليم والتوجيه والإرشاد.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال: [﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾]، أفاد المؤلف: أن ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ منصوبة بفعل محذوف تقديره: كان رسول الله، و﴿رَّسُولَ﴾ بمعنى مرسل، أي: مرسل الله عز وجل لعباده.

وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يعني: وكان خاتم النبيين، قال المؤلف: [فلا يكون له ابن «رجل» بعده يكون نبيًّا]، وهذا التفسير الذي ذهب إليه المؤلف فيه نظر؛ لأنه يقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، إذنْ ليس له ولد بعده يكون رجلًا فيكون نبيًّا، وهذا بناءً على أنه يلزم أن يكون ابن النبي بعده نبيًّا، وهذا ليس بلازم، فإن بعض الأنبياء ليسوا أولادهم أنبياء، صحيح أن كثيرًا من الأنبياء صار

أولادهم أنبياء، كإبراهيم مثلًا، ولكن لا يعني ذلك أن جميع الأنبياء يلزم من كونهم أنبياء إذا خلَّفوا أولادًا أن يكونوا أنبياء.

ولكن معنى قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنه لا نبي بعده، هذا معنى الآية، ولا يحتمل غيره، ﴿وَخَاتَمَ﴾ فيها قراءتان: إحداهما بالكسر، والثانية بالفتح، وهي عندي بالكسر، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، على أن خاتم اسم فاعل، يعني: الذي يختمهم، [وفي قراءة بفتح التاء، كآلة الختم، أي: به ختموا] والخاتم ما يُختم به الشيء، مثل الخاتم الذي يكون في الأصبع، وكُتب عليه اسم صاحبه، فإذا أراد أن يختم الكتاب، ختمه بهذا الخاتم، والنبي ﷺ، خاتِم وخاتَم، خاتِم: لأنه آخرهم، وخاتَم: كأنه طُبع على الرسالات بعد ذلك، فلا يمكن أن تأتي بعده رسالة، وهذا هو فائدة القراءتين.

وقوله ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذا في القرآن، وفي السنة أيضًا أدلة كثيرة تدل على أنه خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فلا نبي بعده.

فإن قلت: ألم يثبت أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان وهو نبي؟

الجواب: بلى، ينزل وهو نبي، لكن نبوة عيسى لم تتجدد بعد، بل كان نبيًّا قبل أن يرفع، ولم يتجدد له نبوة بعد نبوة النبي ﷺ، فكان النبي ﷺ خاتم الأنبياء.

وهل يأتي عيسى بشريعة جديدة؟

الجواب: لا، فإن قلت: أليس يضع الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام؟

الجواب: بلى، وهذه الأحكام مخالفة لحكم الشريعة الآن، فهل معنى ذلك: أنه يأتي بأحكام متجددة؟

فالجواب: لا، لأن إخبار النبي ﷺ، بذلك يكون إقرارًا له، فيكون هذا من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه من المعلوم أن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هي قوله وفعله وإقراره، فإذا قال ذلك عن عيسى مقررًا له، صار ذلك من سنته، وحينئذٍ فلم يأت عيسى بنبوة جديدة، ولم يأتِ بتشريع جديد ولا إشكال في ذلك.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كان هنا مسلوبة الزمان، وإنما يؤتى بها لتحقق الصفة، وهي العلم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [منه بألا نبي بعده]، يعني: من العلم الذي علمه الله تعالى ألا نبي بعده، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يشمل حتى أعمال بني آدم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] قبل أن يعمله، قال: [وإذا نزل السيد عيسى يحكم بشريعته]، إذا نزل السيد، هل وصفه الله بالسيد؟ ما وصفه بالسيد، على كل حال أنا أخشى أن هذه الكلمة دخلت

على المؤلف وهي من عبارات النصارى؛ لأنهم دائمًا يقولون: السيد المسيح، ولا شك أنه سيد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه نبي من الأنبياء، يقول: [يحكم بشريعته]، وحينئذٍ لا يأتي بشريعة جديدة، فلا ينافي الآية: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقد علمنا أنه يرد على قضية نزول عيسى إيرادان:

أولًا: أنه نبي، فكيف يكون نبيًا، والرسول هو خاتم الأنبياء.

وثانيًا: أنه يحصل به تغيير لبعض أحكام الشريعة، وأجبنا عن ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

قال ابن مسعود: (إذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنه عنه)، وإذا نادى الله تعالى المؤمنين بوصف الإيمان، فإن هذا من باب الإغراء لهم على امتثال الأمر إن كان الموجه إليهم أمرًا، وعلى اجتناب النهي، إن كان الموجه إليهم نهيًا؛ لأنك إذا ذكرت الإنسان بوصف يقتضي الامتثال، فمعنى ذلك أنك تغريه بأن يمتثل، وإذا خاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان، كان ذلك دليلًا على أن ما خُوطبوا به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

وإذا صَدر الله الحكم بالنداء كان في ذلك دليل على أهميته والاعتناء به.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ على أي حال؟ الذكر كما سبق، يكون باللسان، ويكون بالقلب ويكون بالجوارح.

وقوله: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ غير مقيد بمائة، ولا مائتين، ولا ألف، ولا ألفين، والإنسان العاقل: يمكنه أن يذكر الله دائمًا، والإنسان الغافل يغفل عن ذكر الله دائمًا.

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا ذكر خاص بعد عام في العمل وفي الزمن.

أما في العمل: فإن التسبيح من الذكر، فهو تخصيص بعد تعميم.

وأما في الزمن: فهنا خصه بالبُكرة والأصيل، وأما الذكر فأطلق، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠].

يقول: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ﴾ التسبيح معناه: التنزيه عن كل نقص وعيب، ومن العيب مشابهة المخلوقين، أو مماثلة المخلوقين، فأنت إذا قلت: سبحان الله، فالمعنى: أنك تنزه الله عن كل نقص وعيب، ومنه - أي من العيوب - مماثلة المخلوقين، فهو منزه عن مماثلة المخلوقين، وعن كل نقص في صفاته، فهو سميع، ومنزه عن نقص السمع، وعليم منزه عن نقص العلم، وهكذا بقية الصفات.

فقوله سبحانه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أول النهار وآخره] يعني: بكرة أول النهار، والأصيل آخر النهار، وعلى هذا فيكون الله عز وجل قد أمرنا أن نسبحه في الصباح وفي المساء.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

قال المؤلف: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يرحمكم، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي: يستغفرون لكم].

فسر المؤلف الآن الصلاة بالنسبة إلى الله بالرحمة، وبالنسبة إلى الملائكة بالاستغفار، وهذا فيه نظر، والصواب أن معنى ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُثني عليكم في الملأ الأعلى، والملائكة أيضًا يثنون عليكم، هذا هو معنى الصلاة من الله، ومن الملائكة أيضًا.

وقوله: ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فيها إشكال من ناحية الإعراب، ملائكته مرفوعة، وابن مالك يقول:

وَإِن عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِل عَطَفْتَ فافْصِل بِالضَّمِيرِ المُنفَصِل

وهنا لم يجئ الضمير، فلم يقل: هو الذي يصلي عليكم هو وملائكته، أو فاصلٍ ما، وهذا داخل في قولنا: (أو فاصلٍ) ما هو الفاصل هنا؟ الجار، والمجرور، ولذلك إذا قلت: قمت وزيد، هذا ضعيف، والأرجح أن تقول: قمت وزيدًا، على أنها مفعول معه، أما إذا فصلت فقلت: قمت أنا وزيد، أو قمت في الناس خطيبًا وزيد، وفصلت، فهذا لا بأس به، وهنا فصل بالجار والمجرور.

وقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أضاف الله الملائكة إليه من باب التشريف لهم؛ لأنهم ملائكته، وهم أيضًا مخلوقون له.

والملائكة كما مر علينا: هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهل يمكن أن يكونوا من عالم الشهادة؟

الجواب: نعم، كما جاء جبريل عليه السلام إلى مريم، فتمثل لها بشرًا سويًّا، وجاء إلى النبي ﷺ ليسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة[1]، وكما جاء في صورة دحية الكلبي، وغير ذلك، لكن الأصل أنهم عالم غيبي، فهم ولهم أجساد، ولا جسد إلا بروح، لهم أجساد وأرواح، ولهذا سمى الله جبريل روحًا، ورآه النبي ﷺ على خلقته مرتين، وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ للتعليل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤلف: [ليديم إخراجه إياكم]، وإنما صرف اللفظ إلى معنى الإدامة؛ لأنه يخاطب المؤمنين، وإذا كان يخاطب المؤمنين، فإنهم قد أخرجوا من الظلمات إلى النور من الأصل، ولكن قد يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التأويل، وأن معنى قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي: ليزيدكم علمًا وإيمانًا.

وقوله: [﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: الإيمان]، لا شك أن الكفر ظلمات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ولا شك أيضًا أن الإيمان نور، ولكن الآية أعم مما قال المؤلف، فهو ليخرجكم من ظلمات الجهل، والكفر إلى نور العلم والإيمان، فيكون المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تقاصر في تفسيره للآية، والصواب: أنه يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (كان) يعني: الله عز وجل، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿رَحِيمًا﴾، قُدم عليه للحصر؛ لأن هذه الرحمة رحمة خاصة بالمؤمنين، تقتضي العناية بهم وتوفيقهم وهدايتهم إلى الخير، أما الرحمة العامة: فهي للمؤمنين، وغير المؤمنين، لكن الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين فقط.

ثم قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ الضمير يعود على المؤمنين، والتحية معناها: الدعاء بالبقاء، فإذا قال: حياك، أي: دعا لك بالبقاء، ثم صارت اسمًا، لما يستقبل به الضيف، أو الداخل أو ما أشبه ذلك، مما يدل على الإكرام، فالتحية إذنْ في الأصل: الدعاء بالبقاء والحياة، ثم نُقلت في العُرف إلى كل ما يُحيَّا به المرء، ويُستقبل به من عبارات التكريم، فتحيتهم أي: تحية المؤمنين، ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يلقون الله، وذلك يوم القيامة، سواء كان في عَرَصَات القيامة، أو كان بعد دخولهم الجنة، فتحيتهم حينئذٍ سلام.

قال المؤلف: [بلسان الملائكة] أي: أن الملائكة هم الذين يسلمون على هؤلاء بأمر الله، فإذا سلَّموا على هؤلاء بأمر الله، صار كأن المسلِّم هو الله، لكن هذا صرف للآية عن ظاهرها، فإن ظاهر الآية أن الذي يسلم هو الله عز وجل، وإذا كان السلام من الله فهو خبر محض، وليس دعاء؛ لأن الله تعالى لا يدعو أحدًا، ولكن يُخبر بالسلام الدائم الذي لا يعتريه أي نقص، أو أي خوف، أما إذا كان من الملائكة، فإنه يحتمل الخبر، ويحتمل الدعاء، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣].

إنما الصواب بلا شك: أن السلام من الله؛ لأنه يقول: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ فالملاقى هو الذي يسلم، وهو الذي يحيي هؤلاء، ولا شك أن الرب عز وجل إذا قال لهم: سلام عليكم، يزول عنهم كل خوف، ولهذا تُسمَّى الجنة دار السلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] ؛ لأنها دار سالمة من كل آفة لا فيها مرض ولا فيها

موت ولا فيها هرم ولا فيها نقص في الرزق، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يقولون: التحلية بعد التخلية، يعني: تحلية الماء بعد أن نخليه من الجراثيم، ومعناه: إلباس الحلي، بعد التخلية، فمثلًا بالنسبة للمرأة التي أريد إلباسها الحلي أن أزيل عنها العيوب والوسخ، وبعد ذلك أحلِّيها، لكن كيف تحليها وكلها أوساخ !!

إذنْ لما قال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: من الآفات، ذكر بعد ذلك: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وهذا تحلية بعد تخلية، بعد أن أخبرهم أنهم سالمون من كل آفة، بيَّن أنه أعد لهم أجرًا كريمًا، قال المؤلف: [هو الجنة] والأجر بمعنى: الثواب، وهو ما يُعطى الأجير في مقابلة عمله، ويسمى أجرًا، ويسمى أجرة، ولكن سبق لنا مرات كثيرة أن أجر العاملين على عملهم ليس من باب المعاوضة؛ لأنه لو كان من باب المعاوضة، لكان نعمة واحدة من نعم الله على العبد تستوعب جميع عمله، بل لو كان على سبيل المعاوضة، لكان توفيقك للعمل نعمة تحتاج إلى أجر؛ ولهذا قال بعضهم:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

وثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «لَنْ يَدخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١).

إذنْ العمل بماذا نصفه إذا لم يكن عوضًا؟ نصفه بأنه سبب، وليس بعوض؛ ولهذا صرَّح الله ـ تعالى ـ في عدة آيات، أن الثواب هذا جزاء بما كانوا يعملون، أي: بسبب ما كانوا يعملون، فالباء للسببية في قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] والباء للعوض في قول الرسول ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، وبهذا يجمع بين النصين.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هل الأجر هو الكريم، أم الكريم هو المتفضل بالأجر؟ يجب أن نعلم أن الكريم يطلق على الجواد الباذل للمال، ويطلق على الشيء الحسن، ومنه قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِم»(٢) يعني: حَسَنِها، فقوله: ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: حسنًا، فما وجه هذا الثواب، أو هذا الأجر؟ أن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن مدة بقاء الإنسان في الدنيا بالنسبة للآخرة ليس بشيء إطلاقًا، ولا يُنسب،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، و مسلم (١٩).

الرسول ﷺ، يقول: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، والمقصود الدنيا التي أنت فيها والتي قبلك، والتي بعدك، والسوط كما تعرفون حوالي متر، خير من الدنيا وما فيها.

إذنْ كرم هذا الثواب، لا ينسب إلى العمل، أو بالأصح، لا ينسب العمل إليه؛ لأنه كرم واسع لا نهاية له، خالدين فيها أبدًا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** إبطالُ بنوة الأدعياء، لقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهل يستفاد منه أن الرسول ﷺ ليس أبًا لأحد من الرضاع أو لأحد من النسب؟ لا يستفاد؛ لأنه ثبت أن له أبناءً، لكن بعض العلماء يقول: إن أبناءه لم يبلغوا أن يكونوا رجالًا، فالآية عامة، ولكنه تبين لي أن هذا لا يصح أيضًا؛ لأن الرسول ﷺ، له أبناء كانوا رجالًا ولهم ذرية، وهم الحسن والحسين، والرسول ﷺ، قال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»، فسماه ابنًا، وقد عقَّ النبي ﷺ، عن الحسن والحسين، هو بنفسه.

إذنْ هذه الآية في إبطال بنوة الأدعياء.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ثبوت رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنه أفضل الأنبياء؛ على قراءة ﴿وَخَاتَمَ﴾ بالفتح؛ لأن الخاتم هو الطابع على الشيء، وهو الشيء الذي يكمل به الشيء، ولهذا وصف النبي ﷺ نفسه مع الأنبياء بأنه كقصر مشيد، يطوف فيه الناس ويقولون: ما أجمل هذا القصر، إلا إن فيه موضع لبنة، لم يتم فقال الرسول ﷺ: «أَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ[2]»، فبه تمت الرسالات، وكَمُلَتْ، ولهذا ـ لاحظوا ـ أن دين الرسول ﷺ شامل لجميع محاسن الأديان، كل محاسن الأديان التي توجد فيها. من نوح إلى محمد ﷺ، فإن دينه شامل لجميع محاسنها، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] فكل هدى الأنبياء قد اقتدى به النبي ﷺ.

إذنْ فما من صلاح في جميع الأديان، وكمال، إلا وجاء به محمد ﷺ.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا نبي ولا رسول بعد محمد ﷺ، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، و مسلم (١٨٨١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، و مسلم (٢٢٨٦).

٦ **ومن فوائدها:** أن من ادعى النبوة بعده فهو كاذب، ولو جاء بما جاء به من الخوارق، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وهذا خبر، وخبر الله صدق، لا يمكن أن يتطرق إليه الكذب بوجه من الوجوه.

٧- **ومن فوائدها:** أن من صدق مدعي النبوة بعد محمد ﷺ، فهو كافر، لأنه مكذِّب للقرآن، والمكذب بالقرآن كافر.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات النبوات السابقة، لقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع نبي، وهم كثيرون جدًّا، لكن الرسل منهم: ثلاث مائة وبضعة عشر رجلًا، لم يذكر منهم في القرآن إلا خمسة وعشرون، وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهو رسول، حتى وإن لم يوصف بالرسالة، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فدل هذا على أن كل من قص الله علينا نبأه في القرآن فهو رسول، حتى وإن لم يوصف بالرسالة، مثل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وما أشبهها.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علم الله، لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن إقرار الله للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتأييده له شاهد لصدق رسالته، لأنه قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، فلو علم الله أن محمدًا غير رسول، ماذا يصنع به؟ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤، ٤٦]، والوتين عرق في القلب إذا قُطع مات الإنسان، فكون الله يؤيده، وينصره ويفتح على يديه، وهو يقول: إنه رسول الله، وأنه أذن له في استباحة أموالكم ورقابكم، إذا لم تدخلوا في الإسلام، ولم تؤدوا الجزية، يكون هذا آية من آيات الله له، ولهذا ختم الآية هذه التي أثبتت الرسالة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

١١- **ومن فوائدها:** وجوب مراقبة العبد ربَّه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، فأنت إذا علمت أن الله عالم بكل شيء، ومن الشيء: قولك وفعلك، وفكرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، والله لو كان عندنا هذا الإيمان ثابتًا راسخًا، لكان الإنسان تقل معاصيه، ومخالفته، لكن الإنسان في غفلة، إذا علمت أنك إن تحركت علم الله بك، وإن سكنت علم الله بك، وإن نطقت علم الله بك، وإن فكرت علم الله بك، هذا يوجب لك مراقبة الله ـ عز وجل ـ، وألا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على غلاة القدرية، تؤخذ من أنهم أنكروا علم الله بما يصنعه العباد قبل وقوعه منهم، والآية هذه فيها رد عليهم في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة الله ـ عز وجل ـ في كل شيء، في صفاته وفي أسمائه، وفي أفعاله، كما قال الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٣٠] ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾،

تؤخذ من قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فالذي بكل شيء عليم، لا شك أنه واسع.

ثم قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

١- **في الآية الكريمة:** بيان العناية بالذكر؛ لأن الله عند الأمر به صدر الآية بالنداء.

٢- **ومن فوائدها: أن الذكر من الإيمان بالله، ومن مقتضياته، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.**

٣- **ومنها: أن الإيمان يزيد به، وجهه: أن كل ما كان من مقتضيات الشيء فإنه يزداد به.**

٤- **ومن فوائدها: أن نقص الذكر نقص في الإيمان.**

٥- **ومن فوائدها:** مشروعية ذكر الله تعالى بكثرة، لقوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مشروعية التسبيح؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، لكن في الغدو والآصال، ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تنزه الله - تعالى - عن كل نقص وعيب، لقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ فأمرنا بأن ننزهه، لأنه مستحق لذلك.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الذكر حياة للقلب؛ لأن الله تعالى أمر به على وجه الكثرة، فلولا الفائدة العظيمة منه ما أمر به على سبيل الكثرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان، وأنه سبب لثناء الله وملائكته على عبده، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الكلام لله - تعالى -، تؤخذ من قوله: ﴿يُصَلِّى﴾؛ لأن **الصلاة هي الثناء على العبد في الملأ الأعلى.**

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** محبة الله للمؤمنين، ومحبة الملائكة لهم، تؤخذ من الثناء عليهم، ومن الصلاة عليهم؛ لأن من يحبك يثني عليك، ومن يبغضك يذمك.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا بل يجب علينا محبةُ الله - عز وجل -، وملائكته؛ لما لهم علينا من الفضل، والإحسان، فإنهم يصلون علينا، فهذا يقتضي أن نحبهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الملائكة، لقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

٦- **ومنها:** فضيلة الملائكة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، فالإضافة للتشريف والتكريم، ففيه: فضيلة الملائكة؛ لأن الله أضافهم إليه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلل والحِكَم لأفعال الله، لقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجهل والكفر ظلم، لقوله: ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الجهل ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة المؤمنين، وأن لهم عند الله ـ تعالى ـ رحمة خاصة، لقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** الحثُّ على الإيمان، والترغيب فيه، وتؤخذ من قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فإن الله ما أخبرنا هنا في الآية الكريمة لمجرد أن نعلم أنه رحيم بالمؤمنين، ولكن من أجل أن نتعرض لهذه الرحمة الخاصة، فنكونَ من المؤمنين.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله، لقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

١٢- **ومن فوائدها أيضًا:** الردُّ على الأشعرية ونحوهم ممن ينكرون وصف الله بالرحمة، لقوله: ﴿وَكَانَ﴾ فالضمير في قوله: (كان) يعود على الله، رحيمًا: خبر مبتدأ، فهو وصفه.

قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

١- **في الآية الكريمة:** إثبات البعث، من قوله: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾.

٢- **وفيها:** إثبات كلام الله، وأنه يتكلم، لقوله: ﴿سَلَامٌ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] فإنه يتكلم به ـ سبحانه وتعالى ـ ويقوله قولًا.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** البشرى العظيمة للمؤمنين، وأن الله نفسه جلّ وعلا يحييهم بهذه التحية، لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، فلو أن ملِكًا من ملوك الدنيا وعدك بهذا، وقال: إنه سيحييك بالسلام، ويقدِّم لك القرى الكريم الحسن، فسيكون فرحك شديد،وهنا الله ـ عز وجل ـ يخبر عن نفسه أنه سيحيي المؤمنين، بهذه التحية مع تقديم الأجر العظيم، ولهذا تعتبر الآية هذه فيها البشارة العظمى للمؤمنين، بأن الله يحييهم، ويعد لهم الأجر الكريم.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الآخرة فيها آفات وأذى، يسلم منها مَنْ يسلم، ويعطب فيها من يعطب؛ لقوله: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، أما غيرهم، فلا سلام لهم؛ لأنهم معذَّبون في النار، والعياذ بالله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء، لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الأجر الذي أعدَّه الله للمؤمنين أجرًا حسنًا، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ يعني: أحسن شيء.

❁ قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٩]

❁ التفسير ❁

قال الله هذا، تشريفًا له، وإظهارًا لنبوته.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ فجمع له بين الوصفين: النبوة والرسالة، على وجه صريح، وإلا فلو وُصف بالرسالة وحدها، لتضمنت وصفه بالنبوة؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، لكن الجمع بين الوصفين أولى على وجه النص والتعيين، وفي حديث البراء بن مالك، فيما يقال من الذكر عند النوم أن النبي ﷺ، علمه إذا أوى إلى فراشه أن يقول: آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فلما أعادها عليه البراء قال: آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت، فقال له: «وبنبيك الذي أرسلت»[1]، لماذا؟ قال العلماء: لأن الله أراد أن يجمع له بين وصفي النبوة والرسالة على وجه التعيين؛ لأن دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام، وأما دلالة النبوة على النبوة، فهو من باب دلالة النص والتعيين، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: أنه إذا قال: «ورسولك الذي أرسلت»، لم يكن نصًّا في الإيمان بمحمد ﷺ، إذ قد يجوز أن يقول: أن يراد به الرسول الملكي دون الرسول البشري، هنا يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾، ولم يقل: يا أيها الرسول إنا أرسلناك، لماذا؟ ليجمع له بين وصفي النبوة والرسالة، على سبيل التعيين والنص، لكن انظر إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ثم قال: ﴿بَلِّغْ﴾ لأنه إنما يأمره بالبلاغ، وهذا يناسب الرسالة.

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على من أرسلت إليهم، وكلمة ﴿شَاهِدًا﴾ حال من الكاف في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، والشاهد يطلق على المخبر وعلى الحاكم، والنبي ﷺ، شاهد مخبر حاكم، فهو مخبر عن الله - عز وجل - بما أرسله به، وكذلك مخبرٌ عمن أرسل إليهم بالقبول أو الرفض،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٧)، و مسلم (٢٧١٠).

وكذلك هو حاكم؛ فإن الحكم لله ورسوله.

والدليل على أن الشاهد بمعنى الحاكم، قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]؛ إذنْ شاهد بمعنى: مخبر، وحاكم فهو مخبر عن الله ومخبر عن عباد الله؛ مخبر عن الله بما أوحاه إليه، ومخبر عن عباد الله بالقبول أو الرفض، وكذلك هو شاهد على من سبقه من الأمم في تبليغ رسالات الرسل، وفي تكذيب قومهم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]؛ إذنْ هو شاهد بما أوحاه الله إليه وحاكم به، وشاهد على من أرسل إليهم، وشاهد على من سبقه من الأمم.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معطوف على ﴿شَاهِدًا﴾ يعني: وأرسلناك مبشرًا، والبشارة تقتضي أربعة أمور: مبشِّر، ومبشَّر، ومُبَشَّرٌ بِهِ، وسببًا يوصل إلى المبشر به، فإذا كان الرسول ﷺ، مبشِّرًا فلابد أن يكون هناك من يبشره، وهم الذين أرسل إليهم واتبعوه على ما دعا إليه، ولابد أن يكون هناك مبشَّرًا به، وهي الجنة، قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧]، ولابد أن يكون هناك سبب يوصل إلى المبشر به وهي الأعمال الصالحة، فالنبي ﷺ، قد بيَّن، وبلغ الرسالة إلى المبشرين، وبين المبشر به، وما يتضمنه من الثواب وأنواع النعيم، وبيَّن الأسباب الموصلة إلى ذلك وهي الأعمال الصالحة، ولهذا ترك الرسول ﷺ أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ النذير: هو من أتى بالإنذار؛ وهو: الإعلام المقرون بالتخويف، يسمى إنذارًا، وفي حديث جابر رضي الله عنه في صفة خطبة النبي ﷺ، يقول: (كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُوْلُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ)[1].

وقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ نقول فيها كما قلنا في ﴿بَشِيرًا﴾، لابد فيها من أمور أربعة: منذِر، ومنذَر، ومنذَر به، وأسباب توصل إلى ذلك، وكلها قد جاء بها النبي ﷺ، فما هو المنذَر؟ الأمة عمومًا، والمنذر به: النار، وأسبابه: الأعمال السيئة، والمنذِر: هو النبي ﷺ، فقد بيَّن النبي ﷺ كل هذه الأمور لكل المنذرين وأدى إليهم الأمانة.

قال: [﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من صدقك بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذرًا من كذبك بالنار، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى طاعته، ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره].

هذا الوصف الرابع: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: يدعو الناس إلى الله ـ عز وجل ـ، وقول المؤلف: [إلى طاعته]، فيه نظر، بل الأَوْلَىَ أن تبقى الآية على ظاهرها، وأن النبي ﷺ، يدعو إلى الله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٧)، و النسائي (١٥٧٨)، وأبو داود (٢٩٥٤).

ـ عز وجل ـ إلى الوصول إليه في دار كرامته، ولا وصول إليه في دار كرامته إلا بامتثال أمره، واجتناب نهيه، فهو داعٍ إلى الله تعالى لطاعته واجتناب نهيه.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ لم يبين هنا كيفية الدعوة، ولكنه بينها في آية أخرى في قوله: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، والدعوة لابد فيها من أمور أربعة: داعٍ، ومدعو، ومدعو إليه، وسبب يوصل إلى المدعو إليه، وكل هذا جاء به النبي ﷺ، وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو الناس سرًّا وجهرًا حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة، فكان أول دعوته سرًّا؛ لأنه كان يخشى أن تُصادم هذه الدعوة، حتى تدفن، ثم بعد ذلك جهر بالدعوة لما قال له الله: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، ثم صار يدعو من قرب، ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ثم من بَعُد، على حسب ما تقتضيه الدعوة.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني: لا إلى نفسك، ولهذا كان النبي ﷺ، لا ينتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حُرمات الله ـ عز وجل ـ فإنه كان أشد الناس غضبًا لله؛ لأنه ليس يدعو إلى نفسه، كما يوجد لدى كثير من الدعاة، يدعون إلى أنفسهم في الواقع يريدون أن يعظمهم الناس، وأن يأخذوا بقولهم، حتى إنهم إذا خولفوا في ذلك، تجد الإنسان يتكدر، لا لأنه خولف أمر الله، ولكن لأنه خولف هو، الذي هذا شأنه أنه يدعو إلى نفسه، وليس يدعو إلى ربه، ففتش عن نفسك، هل فيك شيء من هذا؟ إن كان فيك شيء من هذا فأصلح الأمر، وإن كنت لا تغضب إلا لله، ولا ترضى إلا لله، فهذا هو الداعية حقيقة.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ الإذن ـ هنا ـ يشمل الإذن الكوني، والإذن الشرعي، فإن كان المراد به ما يُدعى به، فهو الشرعي، يعني: إن كان المعنى داعيًا إلى الله تعالى بأمره الذي أمرك بالدعوة إليه، فالمراد به إذنُ الشرعي، وإن كان المراد: داعيًا إلى الله تعالى بقدره، يعني: قواك على ذلك، وهيأ لك الأسباب، فهو إذن كوني، والآية تشمل هذا وهذا، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يدعو بقضاء الله وقدره، ويدعو كذلك بدينه وشرعه، فهو داعٍ بالأمرين جميعًا.

الوصف الخامس قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ قال المؤلف: [أي: مثله في الاهتداء به].

قوله: ﴿وَسِرَاجًا﴾ والسراج ما يُستضاء به، ووصفه بأنه منير، إما لبيان الواقع؛ لأن كل سراج له إنارة، وإما لبيان أن هذا السراج كان له إضاءة قوية، فهو منير لما حوله، وهذا هو الأقرب؛ لأننا عندنا من القواعد المقررة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام تأسيسًا أو توكيدًا، فالأصل أنه تأسيس، لأن التأسيس فيه زيادة معنى بخلاف التوكيد، التوكيد ليس فيه إلا التقوية، لكن التأسيس فيه زيادة معنى.

وعلى هذا فالأظهر: أن هذا وصف للسراج باعتبار قوته، وإضاءته، ولا شك أن النبي ﷺ، عَلَمَ يهتدى به في الظلمات فهو قد فتح على الناس نور العلم، ونور الإيمان، حتى ترك أمته على

المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، هذه الأوصاف الخمسة التي بينها الله لرسوله ﷺ، ممكن أن نضيف إليها وصفًا سادسًا، ووصفًا سابعًا.

الوصف السادس قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، فإن هذا فيه إثبات الرسالة له.

والوصف السابع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإن فيه - أيضًا - إثباتًا للنبوة.

وعلى هذا فالآية تضمنت للرسول - عليه الصلاة والسلام - سبعة أوصاف: النبوة، والرسالة، والشهادة، والبشارة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، وكونه سراجًا منيرًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا عطف، ولكنه مبين للمبشَّر، في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بشر المؤمنين، ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ والمؤمنون هنا: يراد بهم المؤمنون والمسلمون جميعًا؛ لأنه مر علينا أن الإيمان إذا ذكر وحده شمل الإسلام، والإسلام إذا ذكر وحده شمل الإيمان، وإن ذكرا جميعًا صار الإيمان في القلب، والإسلام في الجوارح.

فقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يقل بشر المسلمين؛ لأن من المسلمين من يكون إسلامهم ظاهرًا، ويكون الإيمان في قلوبهم، إما مفقودًا، وإما ضعيفًا، فالذين لهم البشارة المطلقة المؤمنون، الذين وقر الإيمان في قلوبهم وصاروا ينفِّذون مقتضى ذلك الإيمان، ولهذا قال الله - عز وجل - : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤]، فالبشارة المطلقة لا تكون إلا للمؤمنين، وقولنا: المؤمنين، كلما جاءت لفظ المؤمنين، مفردة كما قلت قبل قليل، فإنها تشمل المؤمن والمسلم.

وقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ما الذي نصب ﴿فَضْلًا﴾؟ أن، فهي اسمها مؤخرًا.

وقوله: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ الفضل الكبير هو الجنة، ولا شيء أكبر من فضل الجنة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ولا نعيم أعظم من دخول الجنة، بما يكون في ضمنه بل هو أعلى شيء فيه، وهو النظر إلى وجه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لما كان الناس ينقسمون ثلاثة أقسام: مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وكافر ظاهرًا وباطنًا، ومؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، بين الله هذه الأقسام في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والله تعالى يَقرن بين هؤلاء الأصناف الثلاثة في عدة مواضع من القرآن؛ ففي أول سورة البقرة، ذكر الله الأصناف الثلاثة، وفي سورة الأحزاب لما ذكر الأمانة، وتحملها ذكر الأصناف الثلاثة، وهنا ذكر الأصناف الثلاثة.

وقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الكافر: كل من كفر بالله، سواء كان كفره عن جحود، أو عن استكبار؛ لأن مدار الكفر كله على هذين الأمرين: إما الجحود، وهو التكذيب، وإما

الاستكبار عن الطاعة، فمن كفر بالله، وأعلن كفره فهو من الكافرين، ومن ستر كفره فهو من المنافقين، فالمنافق إذنْ من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع، ونافقاء اليربوع هي بيته؛ لأن اليربوع له حيلة، يحفر في الأرض جُحرًا له، ويجعل له بابًا، ويجعل في أطراف الجُحر قشرة رقيقة، لأجل إذا حجر مع بابه، نفق مع هذه القشرة الرقيقة، فيقال: نافقاء اليربوع، المنافق، هكذا عمله، إذا حُجر فعل ما يتخلص به، لكن نفاقًا، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وهذا النهي، نهي عما لم يكن لئلا يكون، وليس نهيًا عما كان لئلا يستمر، وبينهما فرق، فإذا قلت لشخص: يا فلان لا تسرق، وهو يسرق، فهو نهي عما كان لئلا يستمر، وإذا قلت لمن لم يسرق، لكنه هم بالسرقة أو لم يهم، فهذا نهي عما لم يكن لئلا يكون.

فقوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ ﴾ ليس المعنى أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يطيعهم -حاشاه من ذلك- لكنه لأجل ألا يكون أذيتهم له، ومضايقتهم له، وإحراجهم إياه سببًا لأن يتنازل عن شيء مما أُمر به، من أجل دفع أذاهم، وإلا فإن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يمكن أن يطيع الكافرين أو المنافقين في معصية الله.

ولكن النفس البشرية قد تجتهد في أمر من الأمور، وترى أن من المصلحة التنازل عن بعض الأشياء لدفع ما هو أعظم في نظر المكلف، ويكون الأمر ليس كذلك، ولهذا قال: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: إنها مضافة إلى المفعول به، يعني: لا تؤذهم.

وقال بعض المفسرين: إنها مضافة إلى الفاعل، يعني: دع أذيتهم إياك، فلا تلتفت لها، ولا تهتم بها، فأيها أصح الأول أم الثاني؟ الثاني قطعًا؛ لأن الأول غير وارد، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يؤذهم، ولكنه يؤذى منهم، وعلى هذا يكون المصدر هنا مضافًا إلى الفاعل، يعني: دع أذيتهم إياك، وهذا الأمر إما أن يكون للتهديد، وإما أن يكون للتأييد والتقوية، وإما أن يكون لهما جميعًا، إما أن يكون للتهديد يعني: تهديد هؤلاء الكافرين والمنافقين، أي: دع أذيتهم إياك فسوف ينتقم الله منهم، بدليل قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أو أن المعنى: التأييد، يعني: اصبر عليهم، فيكون هذا من باب تأييد الله تعالى لرسوله الله ﷺ، بأن يأمره بأن يدع أذاهم، ولا يهتم به، ولا يبالي به؛ لأن العاقبة تكون للرسول ﷺ، حتى مع هذه الأذية التي قاموا بها بالنسبة للرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ التوكل، ذكروا في حدِّه أقوالًا متعددة، ولكن أقرب ما يقال فيه: أنه صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة بالله تعالى، وهذا أحسن ما قيل في تفسير التوكل؛ لأن الإنسان إذا اعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به، صار

ذلك أقوى له، وأكثر طمأنينة لقلبه، ولكن مع هذا فإن التوكل لا ينافي فعل الأسباب الشرعية، التي ثبتت إما عن طريق الشرع، وإما عن طريق الحس، ومن زعم أن هذا ينافي التوكل فقد أخطأ، وذلك لأن الرسول ﷺ، لا شك أنه إمام المتوكلين، وسيد بني آدم، ومع هذا فكان يفعل الأسباب، كان يتقي من الحر، ويتقي من البرد، ويتقي من البأس، فكان يلبس الدروع، كما ظاهر في يوم أُحد بين درعين، ومع هذا فإنه لا يقال: إن النبي ﷺ ضعيف التوكل.

إذنْ فعل الأسباب من تمام التوكل على الله؛ لأن درء ما تخافه يكون بأمرين: أمر من قبلك أنت، وأمر آخر من قِبَل الله، فالأشياء الخفية التي لا تدركها، ولا طاقة لك بها، هذه من قِبَل الله، والأشياء الظاهرة التي لك بها قِبَل، هذه من قبل نفسك، فعليك أن تفعل هذا، وأن تعتمد على الله - تعالى - فيما لا تدركه، ولا يصل إليه ذهنك.

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (كفى) فعل ماضٍ، والباء حرف جر زائد لتحسين اللفظ، و(الله) لفظ الجلالة: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، مَنَعَ من ظهورها اشتغالُ المحل بحركة حرف الجر الزائد، وكفى: تارة تتعدى بنفسها، يعني: يكون الفاعل فيها بدون الباء، مثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، وتارةً تتعدى بالباء، متى تتعدى بالباء، ومتى لا تتعدى بالباء؟

الجواب: إذا كان المراد بها معنى التعجب - يعني: ما أبلغ كفايته - فإنها تتعدى بالباء، مثل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وما أشبهها، وإذا كان المراد بيان الكفاية فقط، فإنها تتعدى بدون حرف الجر، مثل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] مثل أن تقول: كفاك الله شرَّ أعدائك، وما أشبهها، وهنا المراد بها التعجب، يعني: معناه أنه ما أشد كفاية الله - تعالى - وما أبلغ كفايته.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وكيلًا﴾ هذه حال من فاعل (كفى)، وهي بمعنى حفيظًا وكافيًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، واعلم أن الله أطلق على نفسه الوكيل، وأطلق على نفسه الموكِّل، يعني: وصف نفسه بالموكل، فأما الوكيل فكثير في كتاب الله، ومعناه: الكافي الحافظ، وما أشبه ذلك، وأما وصف الله بالتوكيل أنه موكل، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وهنا قال ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾.

ومناسبة قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أنك إذا توكلت عليه كفاك كل شيء وحفظك، وصار رقيبًا عليك.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تقدم لنا الكلام على تصدير الخطاب بمثل هذا النداء، وأنه يدل

على أهمية الموضوع، وأنه يدل على أن امتثال ما سيأتي من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته من نواقص الإيمان.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المراد بالنكاح هنا: العقد، والنكاح يطلق على العقد وعلى الجماع، وذلك لأن أصله في اللغة العربية الضم والجمع؛ لأن العقد يضم الزوجة إلى زوجها، والزوج إلى زوجته، وهو يطلق بمعنى هذا وهذا؛ ولكنه إذا أضيف إلى أجنبية، فهو بمعنى العقد: وإذا أضيف إلى زوجة، فهو بمعنى: الجماع، فإذا قيل: نكح الرجل زوجته ـ أي جامعها ـ وإذا قيل: نكح فلانة بنت فلان، فالمعنى: عقد عليها، وهي في القرآن كلما جاءت فهي بمعنى العقد، والغريب أن بعض أهل العلم يقول: إنها لم تأتِ بمعنى العقد إلا في هذه الآية، وأنها في القرآن بمعنى الجماع، ولكن هذا ليس بصواب، والصواب العكس: أنها ما جاءت في القرآن إلا بمعنى العقد، ومن الآيات الواردة في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] المعنى: العقد، وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] : العقد، ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] العقد: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]: العقد، لكن السنة بينت، أضافت إلى هذا شرطًا آخر، وهو أن يذوق عسيلتها، وأن تذوق عسيلته، وإلا فهو العقد، وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ أي: اعقدوا لهم.

المهم: كلما جاءت في القرآن فالمراد بها: العقد، حتى في هذه الآية، واضح بمعنى العقد، قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن، العقد، قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ﴾ لا يعقد إلا على زانية أو مشركة، ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، وفي آخر هذه الآية: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإذا كان نكاح الزانية حرامًا، ونكاح الزاني حرامًا، فإذا عقد على زانية ـ وهو حرام ـ فإما أن يعتقد التحريم، فيكون زانيًا؛ لأنه جامعها، وهو يعتقد أنه حرام، وإما ألَّا يعتقد التحريم، ويقول: هذا حلال، فتحليل ما حرم الله شرك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا هو معنى الآية التي لا تحتمل سواه، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام وابن القيم ـ رحمهما الله ـ.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: عقدتم عليهن، من تزوج بامرأة ثم علم أنها زانية هل يجب عليه أن يفارقها؟ لا، ما يجب عليه إلا إذا علم أنها لا تزال على إصرارها، أما إذا تابت فيجوز أن يتزوجها.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بناءً على الأغلب، لأن الأغلب أن المؤمن لا يتزوج إلا مؤمنة، ولكن لو كانت يهودية، أو نصرانية، فالحكم لا يختلف، فيكون هذا من باب الاقتصار، وليس من باب

الاختصار، من باب الاقتصار على أحد الصنفين، وأما الصنف الآخر؛ فلأنه قليل بالنسبة إلى نكاح المؤمنات.

وقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ولم يقل: وطلقتموهن، أو فطلقتموهن؛ وذلك ليتبين به أنه لو تأخر الطلاق عن العقد مدة طويلة، فالحكم لا يتغير، كما أنه لو طلقها مباشرة، فالحكم لا يتغير أيضًا، فقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بعد العقد.

والطلاق في اللغة: حلُّ قيد البعير ونحوه، يعني: حل القيد يسمى: طلاقًا، وهو اسم مصدر: طلق، والمصدر من طلق تطليقًا، مثل كلم، والمصدر: تكليمًا، واسم المصدر: كلام، فالطلاق إذنْ حل القيد.

أما في الاصطلاح أو في الشرع: فطلاق المرأة معناه: حل قيد النكاح أو بعضه، فإن كان الطلاق بائنًا، لا تحل به الزوجة، فهو حل لقيد النكاح مطلقًا، وإن كان رجعيًّا: فهو حل لبعضه، إذ إنه يجوز له أن يراجع.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: من قبل أن تجامعوهن، وهذا من باب الكناية عما يُستقبح ذكرُه بما يدل عليه، ولهذا لم يأت الجماع بلفظه الصريح في القرآن الكريم، وإنما كني عنه في كل موضع بما يتناسب المقام، فمرة يعبر عنه بالإتيان، ومرة بالإفضاء، ومرة بالمس، ومرة بالملامسة، وما أشبه ذلك، كل هذا من باب استعمال ما لا تمجه الأسماع من الكلمات.

قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال: [وفي قراءة: ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ أي: تجامعوهن].

يقول: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ (ما) هذه نافية، و﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد لمعنى زائد، وقد قلنا: إنه حرف زائد زائد، وهل كلمة زائد الثانية هل هي توكيد أم تأسيس؟ هي تأسيس، فهي حرف جر زائد لفظًا، لكنه يزيد المعنى، وزائد الأولى: من زاد اللازم، وزائد الثانية: من زاد المتعدي، زاد فعل ماضٍ متعدٍ ولازم، فإذا قلت: زاد إيمان الرجل، هذا لازم، وإذا قلت: زادهم إيمانًا، هذا متعد، فنقول: هذا حرف جر زائد من زاد اللازم، زائد من زاد المتعدي، يعني: زائد بنفسه، زائد معنىً في غيره.

المهم: أن قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ من: حرف جر زائد لفظًا لا معنى.

وقوله: ﴿عِدَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ ما هي العدة؟

الجواب: العدة في اللغة: اسم مأخوذ من العدد، ولكنها في الاصطلاح، أو في الشرع: تربص زوجة مفارقة في الحياة، أو في الممات محدود شرعًا.

لو قال لنا قائل: هل يجوز أن نجعل ما، هنا حجازية؟ لا يجوز؛ لأنها خبر مقدم، وابن مالك

يقول:

إِعْمَالُ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ ... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبِ ذُكِرْ (١)

وقوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ قال المؤلف: [تحصونها بالأقراء وغيرها]، بالأقراء إن كانت من ذوات الأقراء، كم عدتها؟ ثلاثة قروء، [وغيرها] إن لم تكن من ذوات الأقراء، وهن الحوامل، ومن لا تحيض لصغر، أو إياس، فالحامل عدتها وضع الحمل، ومن لا تحيض، عدتها ثلاثة أشهر.

قال: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به، أي: إن لم يسم لهن الصداق، وإلا فلهن نصف المسمى فقط، قاله ابن عباس، وعليه الشافعي].

والفاء: حرف عطف، و(متعوهن) أي: أعطوهن ما يستمتعن به من الدراهم، من الثياب، من المتاع، من العقار من أي شيء، فالله ـ عز وجل ـ أطلقها، ثم إنها مطلقة، من جهة الكمية، كما أنها مطلقة من جهة النوعية، الكمية: إذا أردت أن أعطيها دراهم، كم أعطيها؟ قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة:٢٣٦]، حسب حال الزوج.

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بعد قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يستثنى من ذلك من سُمي لها مهر، فإن من سمي لها مهرًا، لا يجب لها إلا نصفه، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] فبين الله أن لهن نصف ما فرضنا، وهذا إذا سُمي لها المهر، سواء قل أو كثر.

وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ قال: [خلوا سبيلهن من غير إضرار]، فأمر الله ـ عز وجل ـ بأمرين: التمتيع، وهو بذل المال، والسراح الجميل هو بذل الخلق، وهو أن تكون المفارقة عن رضىً، وبالقول اللين، الذي يجبر الخاطر؛ لأن المرأة إذا طُلقت بعد أن عقد عليها، ولم يدخل بها، لا شك أنه ينكسر خاطرُها، وأنها تتأثر، وأن الناس سوف يتكلمون، لماذا طلقت قبل أن يدخل بها؟ ما هو السبب؟ هل رأى فيها عيبًا؟ هل سمع عنها بشيء؟ ولا سيما إذا كانت هي راغبة أيضًا في الزوج، ثم طلقها من قبل أن يتصل بها، فإنه لابد أن يكون هناك ردود فعل في نفسها، فأرحم الراحمين ـ سبحانه ـ أمرنا أن نمتعهن بالمال، وأن نسرحهن سراحًا جميلًا بالقول، والمعاملة الطيبة، مثل أن نقول لها: هذا أمر لم يقدَّر، وهذا أمر أراده الله ـ عز وجل ـ، وأنا ما فارقتك ـ مثلًا ـ لسوء خلقك، أو لأني سمعت عنك ما يسوء، أو ما أشبه ذلك من الكلام، حتى تنفصل منه، وهي طيبة النفس، منشرحة الصدر، ثم بعد ذلك ما يحصل منها أو من أهلها كلام؛ لأنه ربما إذا طلقها ولم

---

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفية ابن مالك رحمه الله تعالى.

يمتعها، أو متعها بدون ما تستحق، أو سرَّحها سراحًا غير جميل، ربما أن يحصل منها أو من أهلها كلام في الرجل، يتكلمون فيه، وفي عرضه، وفي أهله، وما أشبه ذلك، وهذا من آداب الله - عز وجل - التي أدب بها عباده، إذا طلق المرأة قبل المسيس، فإن الواجب عليه أمران: التمتيع بالمال، والسراح الجميل بالقول، والفعل، وطلاقة الوجه، وانبساط القلب، وما أشبه ذلك.

قد يقول قائل: كيف يمكن هذا، والرجل لم يطلقها في هذه الحال، إلا وهو كاره لها ولا شك، ولو كان عنده أدنى محبة لدخل بها، وجامعها، ونظر ربما تتغير الأمور؛ لأنه لو زهد فيها بعض الزهد، لكان في قلبه محبة لها، فهل يغامر، ويطلقها قبل أن يجامع؟

نقول: العقل لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن تنتظر، وتجامعها؛ لأنه ربما تتغير الأمور، ومن ثَمَّ نُهي عن الطلاق في الحيض؛ لأن الإنسان إذا كانت امرأته حائضًا فإنه لا يجامعها، لكن يبقى كارهًا لها، ولا يوجد هناك سبب يدعو إلى المحبة، وهو الجماع، هذا من الحكم في النهي عن الطلاق في الحيض، وليست هي الحكمة الوحيدة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** ثبوت رسالة النبي وأنه ﷺ مبشر، وذلك من قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، ويتفرع على ذلك: أنه أتى بالأسباب التي توجب البشارة، من الأعمال الصالحة والطاعات.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ جمع بين البشارة والإنذار، لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وفائدة قبل هذا: أنه منذر أيضًا؛ لأن كونه منذرًا، وكونه مبشرًا فائدتان، والجمع بينهما فائدة ثالثة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رسول الله ﷺ، داعٍ إلى الله؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه يجب على الداعية أن تكون دعوته إلى الله - تعالى - لا إلى حظِّ نفسه؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن هذا وصف للرسول ﷺ.

٥- **ومن فوائدها:** أن دعوة رسول الله ﷺ، إلى الله كانت بإذنٍ منه، لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وهذه يتفرع عليها فائدة أخرى وهي: رضا الله عما كان الرسول ﷺ، يدعو إليه؛ لأن الله لا يأذن إلا بما يحبه ويرضاه.

٦- **ومنها:** أن دعوة النبي ﷺ، مبنية على شرع الله في كميتها

وفي كيفيتها، وفيما يدعو إليه، لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فهو داعٍ إلى الله بإذنه، على حسب أمره، وبشرعه، فيدعو إلى سَبِيلِ الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، وكذلك يدعو إلى شرع الله، ولا يتجاوزه.

٧- **ومنها:** أن النبي ﷺ، لا يمكن أن يشرع من عنده؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، لا بشيء

من عندك.

٨- ومنها: أن ما يدعو إليه الرسول ﷺ فهو من الله، فيتفرع على هذه الفائدة: أن طاعة الرسول طاعة لله، ومعصية الرسول معصية لله؛ ولهذا لما جاءت امرأة إلى ابن مسعود رضي الله عنه وقالت: إنك تقول: إن المتفلجات للحسن ملعونات في كتاب الله، فإنني فتحت المصحف، أو قرأت المصحف، من فاتحته إلى خاتمته فلم أجد ذلك، فقال: بلى، ثم قرأ عليه الحديث، وتلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧] (١).

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الإذن لله، الإذن غير الأُذن، وإذن الله تعالى - كما سبق - في التفسير، تنقسم إلى قسمين: شرعية وكونية.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما جاء به النبي ﷺ، فهو نور كالسراج يضيء الظُّلم، لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

١٠- ومنها: أن النبي ﷺ لا ظل له، وهذه الفائدة تحتاج لمناقشة، يعني: لو وقف في الشمس، والشمس مائلة، لا يكون له ظلال، لأنه سراج منير، والسراج يضيء وليس له ظل - سراجًا معنويًا - وهذا خطأ فالرسول ﷺ له ظل كغيره؛ لأنه بشر.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل مَنْ حكم بشريعة النبي ﷺ محمد، فهو على سراج منير، لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

١٢- ومنها: فضيلة النبي ﷺ؛ حيث جمع الله له هذه الأوصاف العظيمة: النبوة، والرسالة، والبشارة، والشهادة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، هذه ستة أوصاف، والسراج المنير سابعها.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: أنه يجب على النبي ﷺ أن يبشر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾، والأمر للوجوب، لاسيما للنبي ﷺ، فإن الأمر للوجوب على كل حال، لأن الله إذا أمر رسوله بشيء، فإنما يأمره أن يفعله، ويبلغه للناس، وتبليغ الرسول ﷺ الرسالة واجب، ولهذا نقول: إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يجب عليه أن يبلِّغ حتى السنن، فيجب عليه أن يخبر بالسنة، ويفعلها حتى يحصل البلاغ، ثم بعد ذلك تكون مندوبًا في حقه.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: فضيلة الإيمان، وجهه: أن المتصفين به هم أهل البَشَارة، لقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾.

٣- ومنها: ثواب المؤمنين بهذا الفضل الكبير، ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، و مسلم (٢١٢٥).

٤- **ومنها**: بيان منّة الله - عز وجل - على المؤمنين، وأن الفضل فضلُه، لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ لا من غيره، ولهذا قدم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ مع أنها متعلقة بـ ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء على الإيمان أكثر مما عمله العبد، من قوله: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وقوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: يؤخذ من الأمرين، أما وجه أخذه من الأول: فلقوله: ﴿كَبِيرًا﴾، والكبير: إذا وصف الشيء بالكبير فهو كبير جدًّا، وأما الثاني: فلأنه أضاف الفضل إلى الله، ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، وكما قال المثلُ: العطية على قدر معطيها، فإذا كان هذا الفضل من الله، فإنه سيكون فضلًا لا يخطر على البال، ولهذا الحديث الذي علمه النبي ﷺ أبا بكر أن يدعو به في صلاته، قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[1]، وكونها من عند الله لها مزية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: تحريم طاعة الكافرين والمنافقين، لكن ليس على إطلاقه، بل طاعتهم فيما يخالف أمر الله، فلو أمروا بشيء لا يخالف أمر الله، فإن طاعتهم ليست حرامًا، كما لو أمرك كافر بأن تُرَكِّب على الباب مفتاحًا مثلًا، فهل نقل: حرام عليك أن تطيعه؟ لا، إذنْ لا تطعهم فيما يخالف أمر الله.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن على أكمل ما يكون من البلاغة، فإننا نجده في مواضع يقدم المنافقين على الكافرين، وفي هذه الآية قدَّم الكافرين على المنافقين؛ لأنه في مقام الجزاء، وفي مقام الذم يقدِّم المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠] وقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]؛ لأن ذنب المنافق أعظم من ذنب الكافر الصريح، وأما هنا فالذي يعارض الرسول صراحة: الكافر، ولهذا قدمه على المنافق؛ لأن المنافق لا يأمر بمخالفة الشرع، كما يأمر بها الكافر، إذ إنه يتستر بنفاقه، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾، فبدأ بهم؛ لأن معارضتهم للشرع أبين وأظهر من المنافقين.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه قد يتوجه النهي عما لم يُفعل، لئلا يُفعل، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما كان يطيعهم، لكنه نُهي أن يطيعهم؛ لئلا يفعل في المستقبل.

٤- **ومنها**: أن النهي قد يرد على الأمور البعيدة، أو المستحيلة، وجهه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، فإن هذا بعيد، أو مستحيل على الرسول ﷺ.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهديد الكافرين والمنافقين، لقوله: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤)، و مسلم (٢٧٠٥).

٦- **ومنها**: تأييد النبي ﷺ، وتسليته، يؤخذ من قوله أيضًا: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

٧- **ومنها**: أن من طبيعة الكافرين والمنافقين أذية المؤمنين، لقوله: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

لكن قد يقول قائل: هذا آذى الرسول ﷺ، فهل أذاه ينال المؤمنين؟

فنقول: إن من آذى النبي ﷺ، فإنه مؤذٍ للمؤمنين، وأيضًا فإن من عادى الرسل، فإنه سيعادي أتباعهم، ويؤذيهم.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الصبر على أذى الكافرين والمنافقين؛ لقوله ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، فإن هذا أمر بالصبر على أذيتهم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب التوكل على الله، لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والأمر للوجوب.

١٠- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا لغيره من باب أولَى، لقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو مفتقر إلى ربه، مأمور بأن يتوكل عليه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: عِظَمُ كفاية الله ـ عز وجل ـ للمتوكلين عليه، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، لأننا ذكرنا ـ فيما سبق ـ أن هذا يراد به التعجب من كفاية الله لمن توكل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أهمية النكاح والطلاق؛ لأن الله صدَّره بالنداء، الذي يُطلب به تنبُّه المنادى لما سيلقى عليه.

٢- **ومنها**: أن التزام أحكام الشريعة في النكاح والطلاق من مقتضيات الإيمان، ووجهه من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإن هذا من مقتضيات إيمانهم أن يمتثلوا ما أمروا به.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا طلاق قبل النكاح، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ﴾، و(ثم) للترتيب، فلا طلاق قبل النكاح، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الطلاق لمعينة، أو على سبيل العموم، فإن قال رجل لامرأة: إن تزوجتك فأنت طالق، ثم تزوجها، فإنها لا تطلق، لأن الطلاق كان قبل النكاح، وكذلك لو قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فإنه إذا تزوج امرأة، فإنها لا تَطلق؛ لأنه لا طلاق إلا بعد النكاح.

٤- **ومن فوائدها**: أنه لا إيلاء، ولا ظهار، ولا تحريم على امرأة إلا بعد النكاح؛ لأنه إذا كان الطلاق وهو أعظم فرقة من الظهار، والإيلاء وما أشبهه، لا يكون إلا بعد النكاح، فكذلك ما دونه، إلا أن التحريم إذا حرَّم الرجل امرأةً معينةً، ثم تزوجها بعد ذلك، فإن عليه كفارة يمين، وكذلك الظِّهار إذا قصد به التحريم، وظاهر من امرأةٍ قبل أن يتزوجها، فإن عليه كفارة يمين،

وليس عليه كفارة ظهار؛ لأن الظهار لا يصح إلا من زوجة.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز الطلاق؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ولم يَلُم الله المؤمنين على الطلاق، ولو كان حرامًا للامهم عليه.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** جواز الطلاق قبل المسيس، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، وهذه فائدة غير فائدة جواز الطلاق مطلقًا، لأن الطلاق قبل المسيس قد يكون فيه شيء من غض حق المرأة، فيقال: هذا الرجل لولا أنه علم أن فيها بلاءً ما طلقها، قبل أن يدخل بها ويمسها؛ لأن العادة أن الإنسان إذا تزوج، فإنما يتزوج عن رغبة، فإذا طلقها قبل أن يمسَّها، فهو دليل على أن فيها شيئًا.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا طلقها، قبل الجماع فلا عدة عليها، وهذا فيه خلاف، فإن بعض أهل العلم - وهم الجمهور - على أنه إذا خلا بها، فإن عليها العدة، فجعلوا الخلوة بمنزلة الجماع، وهذا هو الذي قضى به الخلفاء الراشدون، وعليه جمهور الصحابة؛ بل جمهور الأمة، ولم يخالف في ذلك إلا نفر قليل منهم الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله الجديد: فإنه رأى أنه إذا لم يجامعها، فلا عدة عليها، ولو خلا بها، ولا شك أن هذا هو ظاهر الآية، لكن الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم ولاسيما الخلفاء الراشدون يثبت أن عليها العدة إذا خلا بها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب المتعة على مَنْ طلق قبل الدخول، لقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وهذا مقيد بالآية الأخرى، وهي ما إذا فرض لها فريضة، فإنه إذا فرض لها مهرًا، فليس عليه إلا نصف المهر، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التكنية عما يُستحيا من ذكره، لقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعتدة من وفاة عليها العدة مطلقًا، وإن لم يدخل بها، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الله هذا الحكم في الطلاق، فيبقى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤] على إطلاقها، أن المتوفى عنها تجب عليها العدة، وإن لم يدخل بها.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله - تعالى - بعباده، وخلقه؛ حيث أوجب المتعة لمن طُلقت قبل الدخول، وجه ذلك: أن فيه جبرًا لخاطرها، وإزالة للهمّ والغم الذي اعتراها بعد الطلاق.

١٢- **ومن فوائدها:** وجوب التسريح الجميل في المفارقة، لقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العدة حق للزوج، وجهه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾، فهي حق للزوج على المرأة.

١٤- **ومن فوائدها:** أن مما ينبغي أن يحصي الإنسان عدة زوجته، ويعتني بها، ولا يدعها هملًا لا يدري عنها، لقوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ فإن هذا دليل على أن من شأن الأزواج أن يعتدوا عدة أزواجهن، وأن يحصوها ويراقبوها؛ لأنها فراش له ما دامت في العدة إذا كانت رجعية.

مسألة: هل يؤخذ من مفهوم قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أنهم إذا نكحوا الكتابيات تغير الحكم؟

الجواب: لا، لأن هذا قيد أغلبي، وقد ذكر أهل العلم في «**الأصول**» أن ما كان قيدًا أغلبيًا فإنه لا مفهوم له، يؤخذ من قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ لأن هذا الحكم شامل للمؤمنات وغيرهم.

١٥- **ومن الفوائد:** أنه لا عدة في الطلاق قبل الدخول، ولو طالت المدة، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾.

١٦- **ومن الفوائد:** أن الطلاق بيد الزوج؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا يملك الأب، ولا الجد، ولا العم، ولا الخال، ولا غيرهم أن يطلقوا عن الإنسان.

١٧- **ومنها:** أنه لا عدة لغير المطلقة، كالمفسوخة بخلع أو غيره، ولكن عليها أن تستبرئ بحيضة.

١٨- **وفي الآية أيضًا:** الجمع بين الإحسان المالي والفعلي، لقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ هذا المالي، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ هذا الفعلي.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن]

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مثل هذه الصيغة تدل على تعظيم المخاطَب، حيث وُجِّه إليه الخطاب بالنداء، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه وصف بالنبوة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ففي ذلك تعظيم وتفخيم لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ أي: جعلناه حلًّا لك، وهل المراد أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن، أو المراد أزواجك اللاتي تزوجت بهن؟

في هذا قولان لأهل العلم: فمنهم من قال: إن ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اللاتي تريد أن تتزوج بهن وتؤتيهن أجورهن، وحجة هؤلاء أننا لو حملناها على من تزوج بهن، لكان ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ لأنه إذا كانت الزوجة معه وقد أقره الله عليها فلا حاجة إلى أن يقول: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾؛ لأنهن عنده متزوج بهن.

والقول الثاني: أن المراد أحللنا لك أزواجك اللاتي تزوجت بهن، بدليل قوله ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وهذا القول الثاني هو الموافق لظاهر الآية، لأن قوله ﴿ءَاتَيْتَ﴾ فعل ماض، وعلى القول الأول يجب أن نؤول الفعل الماضي بالفعل المضارع، يعني: اللاتي تؤتي أجورهن، وهذا خلاف ظاهر الآية، ويُجاب عما أيد به أولئك قولهم: أنه إذا كان المراد الزوجات اللاتي في حباله، فإن ذكر الإحلال من باب تحصيل الحاصل، يجاب: فذكر الإحلال من باب التوكيد، يعني: أن هؤلاء حلال لك ليس فيهن شبهة، وليس فيهن معارضة.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ﴿ءَاتَيْتَ﴾ بمعنى: أعطيت، وأما أتيت، بغير مد فهي بمعنى جئت، إذنْ نقول ﴿ءَاتَيْتَ﴾ أي أعطيت أجورهن، يقول المؤلف: [أي: مهورهن]، وسُمي المهر أجرًا، لأنه عوض عن الانتفاع بالزوجة والاستمتاع بها، وليس عوضًا عن ذاتها، لو كان عوضًا عن ذاتها لسمي ثمنًا، لكنه عوض عن الاستمتاع بها والانتفاع بها، ولهذا سمي أجرة.

وإذا كانت (آتيت) بمعنى أعطيت، فهي تنصب المفعولين، فأين المفعول الأول؟ المفعول الأول: محذوف، وتقديره آتيتهن، (وأجورهن) هو المفعول الثاني، وجائز حذف المفعول مع العلم به.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو حرف عطف، ﴿وَمَا﴾ معطوفة على قوله: ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾ يعني: أحللنا لك ما ملكت يمينك، أي ملكت ذاته، أم الانتفاع به؟ ملكت ذاته، وملك الذات، يستلزم ملك المنافع؛ لأن من ملك شيئًا، ملك منافعه، ومن ملك المنافع لم يلزم أن يملك الأعيان أو الذات.

قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يمينك ويداك وما أشبه ذلك يعبر بها عن الذات؛ لأنها غالبًا وسيلة الأخذ والإعطاء، فقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] أي: بما كسبتم، ﴿مما ملكت يمينك﴾ أي: مما ملكت، لكنه عبر باليمين عن الذات؛ لأن الغالب أن الأخذ والإعطاء باليد، واليمين أشرف من اليسار، فهي التي يؤخذ ويعطى بها.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من: هذه بيانية، وما هو المبيَّن؟ المبين الاسم الموصول، واسم الشرط، واسم الاستفهام، كلها من الأشياء المبهمة، فيأتي البيان بعدها، فيقال: من: بيان لـ (ما) في قوله ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال المؤلف: [من الكفار] بالسبي، أفاء: بمعنى: رد، ومنه الفيء، وهو الظل بعد الشمس، لأنه رجع بعد أن نسخته الشمس، فصار ظلًّا كما هو الحال قبل أن تأتيه الشمس.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ المراد به هنا: الغنيمة؛ لأن الغنيمة في الحقيقة رد للمال من غير أهله إلى أهله، فإننا ـ نحن المسلمون ـ المستحقون حقًّا لما رزق الله الخلق، والكفار يستمتعون به على وجه الظلم، ولهذا يؤاخذون به، وقد مر علينا أن الكفار يُحاسبون على الأكل والشرب واللباس، وذكرنا في ذلك دليلًا من القرآن، والدليل على أن الكفار يحاسبون على اللباس قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، هذه أيضًا فيها اللباس والأكل، والطيبات من الرزق، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه اللام للإباحة والاستحقاق، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لمن؟ للمؤمنين، أما أولئك فليست لهم، وليست خالصة لهم يوم القيامة، فهي في الدنيا حرام عليهم ويحاسبون عليها يوم القيامة.

إذن ما هي الآية التي فيها الدليل على أن الأكل والشرب حرام على الكفار؟

هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ [المائدة:٩٣] مفهومها: أن الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات عليهم جناح فيما طعموا، إذنْ بهذا يتبين وجه كون الغنيمة فيئًا، والفيء بمعنى: الرجوع والرد، فلهذا يكون المال الذي بأيدي الكفار إذا غنمه المسلمون قد عاد إلى أهله، كأنهم هم يأخذون المال بغير حق، فإذا أخذناه منهم عاد إلى مستحقه.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال: [من الكفار في السبي كصفية، وجويرية] صفية: من جواري خيبر، وجويرية: من سبايا غزوة بني المصطلق، وهما من أمهات المؤمنين.

وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ظاهره أن ما ملكت يمينه من غير ذلك، لا تحل له، ولكنه غير مقصود من الآية بدليل أن مارية القبطية استحلها النبي ﷺ، وأتت منه بولد.

قال المؤلف: [﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ بخلاف من لم يهاجرن].

وأما قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ هؤلاء الأربع هن الحلائل من الأقارب، وما عداهن من الأقارب فحرام كما في سورة النساء، فصارت الأقارب الآن محللات ومحرمات، المحرمات ما ذُكرن في سورة النساء، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] وعددهن سبع، والمحللات من الأقارب أربع، بنات العم، وبنات العمة، وبنات الخال،وبنات الخالة.

وهؤلاء المحللات من الأقارب، فبنات العم يعني: وإن نزلن، وبنات العمة وإن نزلن، وبنات الخال وإن نزلن، وبنات الخالة وإن نزلن، هؤلاء كلهن حلال.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ تكلم المفسرون عن قوله: بنات عمك وعماتك وخالك وخالاتك، فقالوا: لمَ أفرد في الذكور، وجمع في الإناث؟

فقال بعضهم: إن هذا من باب تشريف الذكورة، كأن الواحد يقابله من النساء جمع، وإلى هذا ذهب ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وقال بعضهم: إنه لما كان لفظ العم والخال كلفظ المصدر، صار الأنسب ألا يجمع؛ لأن المعروف أن المصادر لا تجمع ولا تثنّى، ولكن هذا في النفس منه شيء، والأقرب ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، أن قوة صلة العم بالإنسان أقوى من صلة العمة به؛ فلهذا جُمع، وإلا فمن المعلوم أن الإنسان له أعمام ليس له عم واحد فقط، وبنات أعمامه كلهن حلال.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ فيه زيادة قيد بالنسبة للرسول ﷺ وهو قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يعني: هاجرن من مكة إلى المدينة، وسواء كُنَّ في معيته مباشرة، أو في معيته بالمعنى - أي: بالهجرة - فليس بلازم، أن تكون بنت العم، وبنت الخال مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - مباشرة، يعني: تسير معه، بل لو هاجرت معه أو بعده فهي داخلة في هذا.

قال: [﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ يطلب نكاحها بغير صداق، ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾] النكاح بلفظ الهبة، [من غير صداق] يعني: الخالص هو النكاح.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ يعني: وأحللنا لك امرأة مؤمنة، وهذا نكرة في سياق الإثبات، والمعروف أن النكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم، لكن لما كان السياق سياق منّة صارت للعموم، والأصل في النكرة ألا تعم إذا كانت في سياق الإثبات، إذا قلت لك: اضرب رجلًا،

ليس معناه أني آمرك أن تضرب جميع الرجال، لكن إذا كانت النكرة في سياق الإثبات يراد بها الامتنان، صارت للعموم؛ لأنها لو قُيِّدت بالواحدة، لم تكمل بها المنة، فلا تكمل المنة إلا إذا كانت بها العموم.

إذنْ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ نقول: وإن كانت صيغتها صيغة الواحدة، لكن المراد بها العموم؛ لأنها سِيقت للامتنان، والامتنان بالواحدة لا يكمل إلا إذا كان امتنانًا بكل شيء، أو بكل فرد من أفراد هذه النكرة.

إذنْ يكون معنى الآية: وأحللنا لك أي امرأة.

وقوله ﴿مُّؤۡمِنَةً﴾ هذا قيد يخرج به غير المؤمنة، ولو كانت كتابية، فإنها لا تحل للنبي ﷺ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن من خصائص النبي ﷺ في النكاح ألا يتزوج امرأة كتابية، وهذا لم يقع أن النبي ﷺ تزوج امرأة كتابية.

ومن المعلوم أن من خصائص النبي ﷺ في النكاح ما هو توسعة، وما هو تضييق، فالتوسعة النكاح بالهبة، والتزوج بأكثر من أربع، والتضييق: أنه لا يحل له من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته إلا من هاجرن معه، وكذلك على القول الراجح أنه بعد تخيير النبي ﷺ لزوجاته لا يحل له النساء، كما سيأتي إن شاء الله.

وقوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وهبت هي بدون وليِّها، ﴿وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ أي: أعطتها للنبي ﷺ بلا عوض؛ لأن الهبة تعريفها: بذل المال بدون عوض، فمعنى ﴿وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ يعني: جاءت للرسول ﷺ وقالت له: قد وهبت نفسي لك، فتحل له، لكن لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مخيرًا في ذلك، وليس واجبًا عليه أن يقبل.

وقال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وهذا الشرط داخل في الشرط الأول، وقد عُلم أن الشرط الثاني قُيد في الشرط الأول، فهو متأخر لفظًا، متقدم معنىً- تداخل الشروط- كلما تتداخل الشروط فاجعل الشرط الأخير قيدًا فيما قبله، فهو متأخر رتبة، لكن متقدم معنىً، أي: إذا تعددت الشروط: إن الشرطية، أو إذا أو ما أشبهها، فإن الشرط التالي الأخير شرط فيما قبله، فيكون متأخرًا لفظًا متقدمًا معنى ورتبة، مثلًا إذا قلت: أخبرني إذا ضربك زيد إن ظلمك، صار الظلم سابقًا على الضرب، وإن كان متأخرًا عنه في الذكر، ويتضح ذلك تمامًا في قول الشاعر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا مِنَّا مَعَاقِلَ عِزٍّ زَانَهَا كَرَمُ

الشرط الأول هو: إن تستغيثوا، والثاني إن تُذعروا، الشرط الثاني متأخر عن الأول في اللفظ، لكنه متقدم عنه في المعنى والرتبة؛ لأن الذُّعر سابق على الاستغاثة، وهذه قاعدة: كلما تعددت الشروط فإن الشرط الثاني سابق على الشرط الأول، هو على الشرط الذي قبله، فلو تعددت بأن كانت ثلاثة شروط، أربعة شروط، فالثاني سابق الذي قبله، وإذا قدرنا أنهم ثلاثة شروط، فالثالث

سابق على الثاني، والثاني سابق على الأول، يعني: بالعكس.

هنا قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ﴾ الإرادة تسبق الحل والقبول، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وفائدة هذا الشرط: أنه لما كان ردُّ النبي ﷺ، للمرأة التي وهبت نفسها للنبي، وكان أمرًا شديدًا، وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً، كان عرض المرأة نفسها على النبي ﷺ قد يكون شبه ملزم له بمقتضى خُلقه، فلما كان كذلك فتح الله لرسوله ﷺ الباب على مصراعيه؛ حيث أثبت له التخيير والإرادة في هذه الحال فقال: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

إذنْ ما فائدة ذكر الإرادة مع أن الموهوب له إن شاء قبل الهبة، وإن شاء لم يقبل؟ يعني: هذا أمر معلوم، فما الفائدة من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؟

الفائدة: لئلا يلزم النبي ﷺ نفسه قبول هذه الهبة لما علم من خُلقه ﷺ أنه أشد الناس حياءً، ومعلوم أن ردَّ الإنسان هبة المرأة نفسها له أمر صعب.

كيف أن امرأة تهب نفسها لك وتأتي راغبة فيك أشد الرغبة، بحيث أنها فدتك بنفسها، فكيف تردها؟! هذا أمر فيه صعوبة في الواقع، وقد يكون ردها منافيًا للمروءة، والنبي عليه الصلاة والسلام أشد الناس حرصًا على المروءة، وأشد الناس حياءً في مثل هذه الأمور، لكن الله أراد أن يفتح له الباب حتى لا يعترض أحدٌ، أو يقول قائل: كيف ردها؟ ويكون الله أعطاه الحرية الكاملة في قبولها أو ردها.

وقوله:﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ قال المؤلف: [يطلب نكاحها] والصواب: يوافق على نكاحها؛ لأنه مطلوب، فالصواب أن المراد أن يستنكحها أي: أن يقبل نكاحها.

وقوله: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أسلمن معك، وقال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يحتمل أن تكون صفة؛ لقوله: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، ويحتمل أن تكون مفعولًا لفعل محذوف، والتقدير: جعلناها خالصة لك - أي هذه الشِّرعة - جعلناها خالصة لك، والخالص من الشيء هو الذي لا يخالطه غيره، فمعنى خالصة لك يعني: لا يشاركك أحد فيها فيما إذا وهبت امرأة نفسها لأحد، فإنها لا تحل له، وهل المراد بالخالص هنا أن يتزوج بلا مهر ولا ولي، أو أن يقع ذلك بلفظ الهبة؟ الصحيح: الأول أن الخالص أن يكون ذلك بدون مهر ولا ولي ولا شهود، على القول باشتراط الشهود؛ لأن الهبة هي التبرع بلا عوض، فالمقصود المعنى لا اللفظ، يعني: أن الذي اختص به الرسول ﷺ، هو أن المرأة تأتي إليه تقول: وهبت نفسي لك، ويأخذها، وهذا قد وقع فعلًا أكثر من مرة، حيث تأتي النساء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ويهبن أنفسهن له.

فالخالص للرسول ﷺ، والخاص به هو أن يكون النكاح مجَّانًا وبلا ولي ولا شهود، وأما الهبة فإن العلماء اختلفوا هل يصح النكاح بلفظ الهبة مثل أن يقول: وهبتك ابنتي على صداق قدره كذا

وكذا، أو ملَّكتك ابنتي على صداق كذا وكذا؟

اختلف العلماء في هذا على قولين: منهم من يرى أنه لايصح، وأنه لابد أن يكون عقد النكاح بلفظ التزويج، أو بلفظ الإنكاح، ومنهم من يرى أنه يصح، وهذا له محل آخر.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿دُونِ﴾ بمعنى: سوى، يعني: من سواهم، المعنى: أن المؤمنين لا يحل لهم ذلك، والكافرون من باب أولى؛ لأن الكافر لا يحل له أن يتزوج بالهبة، وكذلك المؤمن.

قال المؤلف: [﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: يطلب نكاحها بغير صَدَاق] وصوبنا من قبل أن المراد يستنكحها: أن يوافق.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال: [النكاح بلفظ الهبة بغير صداق] هذا خاص للرسول ﷺ، من دون المؤمنين.

قال: [﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المؤمنين في أزواجهم من الأحكام].

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ قد هذه للتحقيق، وقد قيل: إن (قد) إذا دخلت على الماضي فهي للتحقيق، وإن دخلت على المضارع فهي للتقليل، وقد يراد بها التحقيق، فإذا قلت: قد قمت، فهذا للتحقيق، وإذا قلت: قد يجود البخيل وقد يصدق الكذّاب، فهذا للتقليل، لكن تأتي للتحقيق في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤] وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٨] هذه لا شك أنها للتحقيق، وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أننا قد فرضنا عليهم أشياء، وعلمنا أن المصلحة تقتضي ما فرضنا دون سواه، فليس المراد بالآية مجرد العلم، أو مجرد الإخبار بأن الله قد علم ما فرض؛ لأن كون الله قد علم ما فرض أمر معلوم.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أقول: ليس المراد مجرد الإخبار بأن الله علم؛ لأن كون الله فرضه فمعلوم أنه صادر عن علم، لكن المراد: أن ما فرضناه قد صدر عن علم منا بما يناسبهم في أزواجهم، وليس عن جهل، ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ و﴿فَرَضْنَا﴾ هنا بمعنى: أوجبنا عليهم، أي: على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، وكلمة أزواجهم: جمع زوجة، أو جمع زوج من الأحكام، بألا يزيدوا على أربع نسوة، وألا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر، وغير ذلك من الأشياء التي تخالف الأحكام الثابتة للنبي ﷺ، فإن النبي ﷺ خُصَّ بالنكاح بأحكام، وخص المؤمنون بأحكام، وكل ذلك صادر عن علم من الله سبحانه وتعالى وعن حكمة.

وقول المؤلف:[بألا يزيدوا على أربع] فلا يحل لمؤمن أن يزيد على أربع زوجات، لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣] فجعل آخر شيء الرُّباع ـ أي الأربع ـ مع العلم أن المقام يقتضي الزيادة ـ لو كان هناك زيادة ـ بدليل أن الآية إنما ذكر الله فيها العدد الممكن؛ لأنها رُتبت على شرط، وهو إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى.

يعني: إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى في النساء اللاتي بين أيديكم، كبنت العم وشبهها، إن خفتم ألا تعدلوا فيها، فلديكم النساء كثير، فلو كان زيادة على الأربع لكان الله تعالى يذكرها حتى يكون المجال أوسع، فالآية نزلت مقيدة بشرط: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي: لا تعدلوا في نكاحهن، وكانوا في الجاهلية إذا كان الإنسان عنده ابنة عم يتيمة كان يظلمها في النكاح، إما بمنعها أو أن يعلقها على أنها تكون له، فأنزل الله هذه الآية،﴿فَانْكِحُوا﴾ يعني: فالنساء سواهن كثير، وقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فلو كان عدد زائد على الأربع جائزًا، لذكر هنا، ولقيل مثلًا: فانكحوا ما شئتم من النساء، أو لقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء ولم يقيد، فلما قيد علم أنه لا يجوز أكثر من أربع، ولم يخالف في ذلك إلا شذاذ من أهل العلم، أو الرافضة، والرافضة عندهم توسع في مسائل النكاح، منها هذه المسألة، فهم يجوزون أن يتزوج الإنسان إلى تسع، ومنها مسألة المتعة وهذا مما يوجب لضعفاء الإيمان أن يعتنقوا مذهبهم لأنهم يجدون فيه إشباعًا لرغباتهم، فإذا كانوا يجيزون المتعة، أن الإنسان إذا نزل ببلد، له أن يذهب إلى امرأة، ويقول لها: زوجيني نفسك لمدة سبعة أيام، أو لمدة شهر، هم يجوزون ذلك، ويجوزون أيضًا أن يتزوج الإنسان إلى تسع.

كذلك يقول المؤلف: [ولا يتزوج إلا بولي] والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ﴾ [النور:٣٢] زوجوا ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] لا تزوجوهم قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢] ولولا أن الولي شرط لم يكن لعضله حكم.

ثانيًا: [ولا شهود] الشهود مختلف في اشتراطه في النكاح، فالمشهور أنه لابد من الشروط؛ لأن عقد النكاح خطير، ويترتب عليه مسائل: نسب، ومال وحقوق، يعني: غيره من العقود الأخرى تجدها إما مالية، وإما حقوقية أخرى غيرَ المال، لكن هو جامع بين المال والنسب والحقوق، فمثل الحقوق المالية: كالمهر والنفقة والإرث، والنسب: كإلحاق الولد بأبيه في الزواج، والحقوق: ما يجب على الزوج وزوجته من المعاشرة بالمعروف، فلابد من شهود.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : لا يشترط الشهود، بل المشترط إعلان النكاح، أو الشهود، فإذا وُجِدَ الإعلان ـ ولو بلا شهود ـ كفى، ذكر الأقسام: إما أن يجتمع الإشهاد والإعلان، وهذا أعلى الأقسام، وإما أن يُفقد الإشهاد والإعلان، وهذا لا يصح، وإما أن يوجد الإشهاد بلا إعلان، قال: وفي صحة النكاح هنا تردد ونظر، وإما أن يوجد الإعلان بلا إشهاد وهذا عنده صحيح فالأقسام إذنْ أربعة.

والإشهاد على العقد واجب، أما الإشهاد على الرضا فهو سنة.

وقوله: [إلا بولي وشهود ومهر] فما هو المهر؟ المهر هو الصَّداق، فظاهر كلام المؤلف، أن المهر شرط في النكاح، واعلم أن للمهر ثلاث حالات: تارة يذكر معينًا، وتارة يُنفى، وتارة يُسكت عنه.

مثال الذي يذكر معينًا أن يقول: زوجتك ابنتي بعشرة ريالات، هذا يصح، ولو قال: زوجتك ابنتي بريال واحد، يصح أيضًا، هذا على سبيل المثال أن يقول زوجتك ابنتي بريال، أو بعشرة ريالات، أو بمائة ريال أو بأكثر أو بأقل.

الحالة الثانية: أن يُنفى ـ أي أن يقول ـ: زوجتك ابنتي ويقول: قبلت بلا مهر، فاختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في هذا العقد، هل يصح أو لا يصح؟

والمشهور من المذهب: أن العقد صحيح، ولها مهر المثل، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن العقد لا يصح، لأنه تزوج على غير الشرط الذي ذكر الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

الحال الثالثة: أن يسكت عنه فلا يذكر معينًا ولا ينفى، بأن يقول زوجتك ابنتي فيقول: قبلت فالعقد هنا صحيح، ولها مهر المثل، وقد نص على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦] فهنا يجب مهر المثل إذا دخل بها، فإن لم يدخل بها وطلقها قبل الدخول، وجبت المتعة، وظاهر كلام المؤلف قوله: [وشهود ومهر] أن المهر شرط في صحة العقد، فيكون ذلك موافقًا لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ (فرض) إذا تعدت باللام فهي بمعنى أحل، كما في قوله كما سبق ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي فيما أحل، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢] أي: أحلها وشرعها.

أما إذا تعدت بعلى فهي بمعنى الإيجاب، كما في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وذكر المؤلف: أن ما فرض الله علينا في الأزواج، ألا نزيد على أربع، وألا نتزوج إلا بولي وشهود ومهر، وسبق لنا الكلام فيما يتعلق بالمهر، وأن له ثلاثَ حالاتٍ.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال: [من الإماء] يعني: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من الإماء، خص المؤلف ما العامة بالإماء؛ لأن ﴿وَمَا مَلَكَتْ﴾ ما اسم موصول يفيد العموم، والإنسان يملك الإماء، ويملك المواشي، ويملك الدراهم، ويملك الأراضي، فهل ما هنا للعموم، يعني: وفيما ملكت أيمانهم من كل شيء، أو من الإماء، كما قال المؤلف؟

نقول: إن اللفظ العام لا يمكن أن نخصصه نحن إلا بدليل، وإلا فالواجب إبقاء العام على عمومه، وهنا خصصناه بالإماء بدليل قرنه بالأزواج، والكلام الآن فيما يتعلق بالحقوق الزوجية، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [من الإماء]، فتكون الدلالة على التخصيص من قوله ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

وعلى هذا فنقول: كل موضع ذكر فيه الأزواج وما ملكت اليمين، فالمراد بها ملكت اليمين: الإماء، يقول: [بشراء وغيره]، يعني: علمنا ما فرضنا عليهم من الإماء بالشراء وبغير الشراء، هل

يمكن أن يملك الإنسان الأمة بغير الشراء؟ يمكن بالسبي، وبالهبة، والإرث، وأسباب التملك كثيرة، المهم أن ملك اليمين أسبابه متعددة، بأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية، بخلاف المجوسية والوثنية.

أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بأنه لا يحل للإنسان الأمة غير الكتابية، لا يحل من الإماء إلا الأمة الكتابية، وهي: اليهودية والنصرانية، فأما الأمة المجوسية، فلا تحل، يعني: لو سبينا نساءً من المجوس، فإنه لا يحل لنا وطئهن، وكذلك الوثنية التي تعبد الأوثان فإنها لا تحل لنا بملك اليمين، أما المجوسية فالفرق بينها وبين الوثنية، أن المجوسية تعبد النار، والوثنية تعبد الأصنام من الأشجار والأحجار، وما أشبه ذلك، وكذلك من يعبد القبور، وكذلك من لا تصلي، لكن من لا تصلي مرتدة يجب أن تقتل، إذا لم تتب.

وقول المؤلف: [بخلاف المجوسية والوثنية] هذا أحد القولين في المسألة، والصحيح: أن الوثنية والمجوسية، حلال بملك اليمين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦] فكلمة ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ عام فيشمل ما ملكته من المجوسيات وما ملكته من الوثنيات والشيوعيات وغير ذلك، ولا دليل على التقييد بالكتابية، والنكاح هو الذي لا يحل إلا من الكتابية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] ما قال: إذا ملكتموهن، فدل هذا على أن المراد بذلك النكاح؛ لأن الزوجة هي التي تؤتى أجرها، أما المملوكة فتُشْتَرى.

فالصواب: أننا تحل لنا المملوكة إذا كانت مجوسية أو كتابية، لعموم الكتاب، قال: [وأن تستبرأ قبل الوطء]، هذا أيضًا مما فرض الله علينا أن تستبرأ الأمة التي ملكناها قبل أن نطأها، لأن النبي ﷺ في غزوة أوطاس نهى أن توطأ حامل حتى تضع، وألا توطأ ذات حيض حتى تحيض، فلابد من الاستبراء، إن كانت حاملًا فبوضع الحمل، وإن كانت تحيض فبحيضة، وهل الاستبراء واجب بكل حال، أو لا تُستبرأ البكر؟ ذهب بعض العلماء إلى أن الاستبراء واجب حتى في الأبكار.

وقال بعض أهل العلم ـ ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: إلى أن البكر لا تُستبرأ، لأن الغرض من الاستبراء العلم ببراءة الرحم، والبكر براءة رحمها معلوم، واحتمال أن تتحمل بعلاج غير الوطء وارد ولكنه بعيد، يعني: يحتمل أن تكون بكرًا، ولكنها تتحمل بمني رجل من الناس وتحمل، ولكنَّ هذا بعيد، لكن إذا ملكها من رجل أمين، وأخبره أنه استبرأها قبل البيع، هل يجب الاستبراء؟

المذهب: يجب الاستبراء، والقول الثاني في المسألة: أنه لا يجب الاستبراء لكون البائع أمينًا.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ﴿لِكَيْ﴾ إذا اقترنت باللام يتعين أن تكون مصدرية؛ لئلا يجمع بين حرفَيْ تعليل، فإن لم تسبق باللام صارت حرف تعليل والفعل بعدها منصوب بأن، إذنْ: ﴿لِكَيْ﴾ اللام حرف جر، و(كي) مصدرية، و(لا) نافية، و﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بكي، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ﴾ - يعني على النبي ﷺ لأن الخطاب للنبي ﷺ - ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضيق في النكاح قال المؤلف في لكيلا: [متعلق بما قبل ذلك]، قبل ذلك يحتمل أن يريد أنه متعلق بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ في قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، ويحتمل أن تكون متعلقة بخالصة لك، خالصة لك لكي لا يكون عليك حرج، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال بعضهم: إنها متعلقة بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾، وقال بعضهم إنها متعلقة بخالصة، وكلام المؤلف صالح للوجهين.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ يعني: أننا أحللنا لك هذا الحِلَّ حتى لا يكون عليك ضيق في النكاح، ومعلوم أن النبي ﷺ مطلوب، فالنساء قد يأتين إليه يعرضن أنفسهن عليه، فإذا لم تحل له الواهبة نفسها صار عليه في ذلك ضيق من وجهين: إن رغبها ففيه ضيق عليه ألا يتزوجها، وإن لم يرغبها ففيه ضيق عليه إن ردها، فالله - عز وجل - جعل الخيار له ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ حتى يتسع المجال، والرسول - عليه الصلاة والسلام - خُص بهذا - أي بأن يتزوج من شاء - حتى بمن وهبت نفسها له؛ لأن اتصاله بهن فيه مصلحة عظيمة، لهن، ولأهلهن، وللمسلمين؛ لهن ظاهر، ولأهلهن؛ لأنه ليس من شك في أن لمن تزوج النبي ﷺ، منهم الشرف في مصاهرة النبي ﷺ، وللمسلمين؛ لأن هذه المرأة سيكون عندها علم من سنة الرسول ﷺ، هذا العلم لولا اتصالها به ما حصَّلته، ولهذا كثير من السنن البيتية تلقيت من زوجات الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يجمع الله تعالى دائمًا بين هذين الاسمين الكريمين، لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، وإذا زال المكروه وحصل المطلوب فقد تمت الأمور، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ أكان فيما مضى وانقضى؟ لا، لأن كان هنا مسلوبة الدلالة على الزمن والمراد بها تحقق الموصوف بالصفة، الصفة هذه في هذا الموصوف حقيقة ﴿غَفُورًا﴾ هل هو صيغة مبالغة أو صفة مشبهة؟

يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، وأن تكون صفة مشبهة، وأيًّا كان فهي مشتقة من المغفرة وهي ستر الذنب والتجاوز عنه، و﴿رَّحِيمًا﴾ مشتقة من الرحمة، وهي صفة تتعلق بذات الله - عز وجل - من مقتضاها: الإحسان والإنعام، والغفور والرحيم من أسماء الله - سبحانه وتعالى - وكل اسم

من أسماء الله، فإنه دال على أمور ثلاثة إذا كان متعديًا، وعلى أمرين إذا كان غير متعدٍ.

الثلاثة إذا كان متعديًا: الاسم، والصفة، والأثر، مثال ذلك في الغفور، أن الغفور من أسماء الله، والصفة: في الغفور المغفرة، والأثر: أنه يغفر الذنوب جميعًا سبحانه وتعالى، والرحيم مثلها، الاسم: الرحيم، والصفة: الرحمة، والأثر: يرحم.

أما إذا كان لازمًا لا يتعدى يستفاد منه فائدتان: الاسم والصفة، الاسم مثل العلي العظيم، يستفاد من العلي الاسم، والصفة وهي العلو، ولا تتعدى لأحد فنقول: يستفاد منها الأثر، والعظيم كذلك.

الفوائد:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** علو شأن النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فإنها - كما سبق - تصديرها بالنداء مع وصف النبوة، يدل على رفعة شأنه ﷺ.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإحلال والتحريم إلى الله - عز وجل - ؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾، وهذا لا ينافي أن يكون النبي ﷺ، يجتهد أحيانًا ويحكم، فإن القول الراجح أن الرسول ﷺ له أن يشرع، ثم إن أقره الله على ذلك كان شريعة، وإن لم يقره، كان على حسب ما أراد الله - عز وجل - والدليل على أن النبي ﷺ يستقل بالتشريع عدة أحاديث، بل من القرآن، لقول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وهذا يدل على أن النبي ﷺ له أمرٌ مستقلٌ، ومن السنة مثل قوله ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[(١)] فإن هذا يدل على أنه يأمر وينهى، وإلا لقال: لولا أن الله لم يأمرني لأمرتكم، يعني: ما يعلقها بإرادته هو، بل بإرادة الله، ومنها قوله ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّومُ يَغِيلُون فَلا يَضُرُّهُم شَيْئًا**»[(٢)] وغير ذلك من الأمثلة، ومثل قوله في صلاة العشاء: «**إِنَّه لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»[(٣)].

والحاصل: أن النبي ﷺ له أن يأمر وينهى ويحلل ويحرم، ولكن إن أقره الله على ذلك كان ذلك من شريعة الله، وإلا فالأمر إلى الله - عز وجل -.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لابد في النكاح من المهر؛ لقوله: ﴿ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن النكاح عقد على المنفعة، وليس على العين؛ لقوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ والإجارة عقد على منافع، لا على أعيان، ولهذا تملك المرأة نفسها، بالبيع والشراء والهبة، وغير ذلك وليس لزوجها أن يعترض عليها في هذه الأمور، لأنه إنما يملك منفعة الاستمتاع فقط.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٤٠)، و مسلم (٢٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤٢)، و الترمذي (٢٠٧٦)، والنسائي (٣٣٢٦).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٣٩)، و مسلم (٦٣٨/ ٢١٩).

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز الوطء بملك اليمين، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** صحة إضافة الشيء إلى البعض، لقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، وهذا كثير في القرآن، ومنه قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة:٣]، فإن الإنسان لا يحرر الرقبة وحدها بل يحرر كل العبد.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن سبب ملك اليمين الفيء، لقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن أموال الكفار إذا عادت إلى المسلمين فقد عادت إلى أهلها، تؤخذ من قوله: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لأن الفيء بمعنى: الرجوع، فالكفار يتمتعون بأموالهم، لكن بغير حق، ولهذا يُحاسبون عليها يوم القيامة، أما الأموال فهي حقيقة للمسلمين.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز نكاح هؤلاء الأربع من الأقارب وهم: بنات العم وبنات العمات، وبنات الخال وبنات الخالات، وأما غيرهن من الأقارب فحرام، كما في آية النساء.

١٠- **ومن فوائدها:** أنه يُشترط لحلِّ هؤلاء الأقارب في حق النبي ﷺ أن يكنَّ هاجرن معه، لقوله: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة: أن النبي ﷺ قد يُخصُّ بأشياء في النكاح تضييقًا وتوسيعًا، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لأن غيره تحل له بنات العم والعمات والخال والخالات مطلقًا، بخلاف النبي ﷺ.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تزوج النبي ﷺ بالهبة، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ويشترط في هذه الواهبة أن تكون مؤمنة، فلو وهبت كتابية نفسها للنبي ﷺ لم تحلَّ له.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** لطف الله تعالى بنبيه ﷺ، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

١٣- **ومن فوائدها أيضًا:** بيان علو شأن النبي ﷺ، حيث قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، ولم يقل: إن أردت، مع أن مقتضى السياق أن يقول: وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها، لكنه أتى بالنبي لبيان علو شأنه ومرتبته.

١٤- **ومن الفوائد:** أن الإظهار ـ هنا ـ لبيان علة الحكم ـ الإظهار هنا في مقام الإضمار ـ من فوائده: بيان علة الحكم، كيف؟ لو قال: امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها ما تبين لنا وجه الخصوصية، لكن لما قال: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ تبين الآن وجه الخصوصية، لأنه كان نبيًا، فالعلة، أنه نبي، فأحلت له هذه الواهبة نفسها.

١٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية؛ لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ حيث أثبت للنبي ﷺ إرادة، والجبرية لا يثبتون إرادة للإنسان، إذ يقولون: إنه مجبر على عمله.

١٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جواز النكاح بالهبة من خصائص النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم الثابت للرسول ﷺ ثابت لأمته إلا بدليل، يؤخذ من قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلولا أن الحكم الثابت له ثابت لأمته لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لغوًا، لا فائدة منه، فلما أخرج المؤمنين من ذلك الحكم، علم أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام.

١٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لله تعالى أن يختص بأحكامه من شاء، تؤخذ من تخصيص النبي ﷺ بهذا الحكم، فالله تعالى له أن يختص بأحكامه من يشاء.

١٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التخصيص للحكم لابد أن يكون له علة تقتضي تخصيص ذلك المحكوم له، يؤخذ من قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، فإن العلة في ذلك أنه نبيٌّ، وهذه العلة لا تكون للمؤمنين.

٢٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلم لله ـ عز وجل ـ ؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

٢١- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى فرض علينا فرائض في أزواجنا علينا مراعاتها؛ لقوله: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، وكذلك نقول في ملك اليمين، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

٢٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أحكام الله عز وجل معللة بالحكمة، أو مقرونة بحكمة، لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٣- **ومن فوائدها:** عناية الله برسوله ولطفه به؛ حيث أحل له ما يزول به عنه الحرج؛ لقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

٢٤- **ومن الفوائد أيضًا:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من الوصف، أو من الصفة، أو من الأثر، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

مسألة: هل نأخذ منها فائدة أن النكاح بلفظ الهبة لا يصح؟

لو قال: وهبتك ابنتي، فقال: قبلت، الظاهر أنه يصح؛ لأن العلة ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنه يتزوج بدون مهر، فهذا هو الذي يكون خاصًّا بالنبي ﷺ، أما لفظ الهبة، فإنه قد جاء في أحد ألفاظ حديث سهل بن سعد في الواهبة نفسها، أن النبي ﷺ، قال للرجل: «مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»(١)، وهذا أحد ألفاظ البخاري، وهذا يدل على جواز عقد النكاح بمثل هذا اللفظ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٣٠)، و مسلم (١٤٢٥).

❁ قال الله تعالى:

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥١، ٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ يقول المؤلف: [بالهمزة والياء بدلها، تؤخر]، فتكون ﴿تُرْجِئُ﴾، و﴿تُرْجِي﴾، بمعنى: تؤخر.

وقوله: ﴿مَن تَشَاءُ﴾ هذه مفعول ﴿تُرْجِي﴾، قال: [﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: أزواجك عن نوبتها، ﴿وَتُؤْوِي﴾ تضم إليك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ منهن فتأتيها، ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ طلبت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ من القسمة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في طلبها وضمها إليك، خيِّر في ذلك بعد أن كان قسمه واجبًا عليه].

كلام المؤلف الآن يدل على أن قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أن الضمير يعود على زوجات النبي ﷺ اللاتي في حباله، وأن معنى ﴿تُرْجِي﴾: تؤخر فلا تقسم لها، ﴿وَتُؤْوِي﴾ تضم فتقسم لها، فتكون الآية نازلة في قسم النبي ﷺ لزوجاته، وأن الله - تعالى - خيَّره بين أن يرجئ، وبين أن يضم، يعني: خيره بين أن يقسم للزوجات وألا يقسم، فيكون في هذا توسعة للنبي ﷺ في القسم، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا هو أحد القولين في تفسير الآية الكريمة، وربما يدل عليه السياق في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إلى أن قال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ أي: من أزواجك، ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ فيكون الإرجاء بمعنى: ترك القسم، والإيواء بمعنى: القسم.

والقول الثاني في المسألة: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات أنفسهن لك، يعني: أنك إن

شئت قبلت، وإن شئت رددت، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يعني: لو أنك رددتها أولًا ثم أردتها ثانيًا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، وقد سبق لنا قاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان، فإن الواجب حملها على المعنيين، ولهذا اختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا، وأن النبي ﷺ خيِّر بين القسم وعدمه، وخيِّر بين قبول الهبة وعدمها، وأنه أيضًا إذا لم يقسم، ثم أراد أن يقسم فله ذلك، وإذا رد الهبة، ثم أراد أن يقبل فله ذلك، فليس للمرأة إذا لم يقسم لها، ثم أراد القسم أن تمتنع، لأن الخيار بيد النبي ﷺ.

قال الله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [التخيير]، ذلك المشار إليه التخيير ترجي من تشاء وتؤوي، أي ذلك التخيير المستفاد من الجملتين، ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ [أقرب إلى قوله] ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ [ما ذكر المخير فيه] ﴿كُلُّهُنَّ﴾ قوله: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ كيف ذلك، يعني: ما وجه كون ذلك أقرب إلى أن تقر أعينهن؛ لأنهن إذا علمن أن التخيير بين القسم وعدمه من الله -عز وجل- قرت أعينهن؛ لأنهن يرضين بحكم الله عز وجل، لكن لو كان هذا من النبي ﷺ، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، لكان في نفوسهن بعض الشيء؛ إذ تظن الواحدة منهن أن ذلك من قِبَل النبي ﷺ، وليس من شرع الله، فإذا علمت النساء بأن هذا من شرع الله فإن أعينهن تقر.

وقوله: ﴿تَقَرَّ﴾ مأخوذة إما من القرار، وإما من القروة والبرد، وذلك أن العين إذا بردت فمعناها أنها غير حزينة، وإذا حميت فمعناها الحزن، ولهذا يقولون: دمع الحزن حار، لأنه يخرج من العين إذا حميت من الحزن، أما إذا لم يكن هناك حزن فإنها تبرد وتستقر.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معطوفة على قوله ﴿تَقَرَّ﴾، وهل هو منصوب؟ لا، بل مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون الفعل مدغمة في نون النسوة؛ لأن ﴿يَحْزَنَّ﴾ هذا الفعل، والنون الثانية: هي نون النسوة وهي فاعل.

إذنْ فما وظيفة واو العطف؟ وظيفتها عطف فعل معرب على فعل مبني في محل نصب.

وقوله ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ هذه الواو حرف عطف ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوفة على ﴿تَقَرَّ﴾، وليس على ﴿يَحْزَنَّ﴾؛ لأنه لو كان على يحزن لفسد المعنى، ولكان المعنى: ولا يحزن ولا يرضين، والمراد خلاف ذلك، فالمراد: ذلك أدنى أن تقر أعينهن ويرضين، فإن قلت: ما الفائدة من اعتراض الجملة الثانية ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾؟

نقول: لأن صلتها بقوله: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أقوى، فإن قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ يراد به كمال قرار العين، يعني: أنها تقر أعينهن حتى لا يبقى فيهن حزن إطلاقًا، فلهذا اعترضت هذه الجملة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ بالمد بمعنى أعطيتهن؛ لأن (آتى) تنصب مفعولين: مفعولها الأول: الهاء، ومفعولها الثاني: محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [ما ذُكر]، وما الذي ذكر؟

قال: [المخير فيه] يعني: أنهن يرضين بما أعطيتهن من التخيير من القسم وعدمه، وسبق أن بينا العلة في كونهن يرضين بذلك، وهو أنه إذا جاء الحكم من الله تعالى رضين به، بخلاف ما لو كان من النبي ﷺ فقد لا يرضين بذلك، تظن الواحدة منهن أن هذا هوىً من النبي ﷺ.

قال: [﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد للفاعل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾] وإنما قال ذلك؛ لأنه لو كان تأكيدًا للهاء في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكانت منصوبة، ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾، ولكنها - كما قال - تأكيد للفاعل في قوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾.

مسألة: ألا يصح أن تكون تأكيدًا للضمير في قوله: ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾؟

نقول: لا يصح؛ لأنه لو كان توكيدًا لكان مجرورًا، [كلِّهن]، فإذًا يتعين أن يكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [من أمر النساء، والميل إلى بعضهن]، لما بين الله - عز وجل - أن النبي ﷺ مخير بين الله - عز وجل - أنه يعلم ما في القلوب من ميل الإنسان إلى بعض النساء دون بعض، وقد بيَّن الله تعالى هذا المعلوم بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٣] وهذا أمر يؤيده الواقع ويشهد له، فإن الإنسان لا يمكن أن تكون مودة زوجتيه على حد سواء أبدًا، حتى لو فُرض أن إحداهما كانت عنده أرجح من وجه، والأخرى أرجح من وجه آخر، فلا يمكن التساوي، وهذا هو ما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ هل يستفاد منها التهديد والوعيد، أو يستفاد منها أن هذا أمر لا تملكونه؟

الظاهر: الثاني، وأن هذا أمر لا نملكه،

وهذا كالتعليل لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فهو سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، ومنه ما في قلوبنا من الميل إلى بعض النساء دون بعض.

وقوله: ﴿حَلِيمًا﴾ الحلم هو: عدم التعجل بالعقوبة، وليس هو ترك العقوبة، ولهذا قال ابن القيم:

وَهُوَ الحَلِيْمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوْبَةٍ لِيَتُوْبَ مِنْ عِصْيَانِ

فالحلم إذنْ هو تأخير العقوبة، وليس العفو عنها، يؤخر العقوبة لعل هذا المذنب يتوب إلى الله عز وجل، فترتفع العقوبة عنه.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ [بالتاء والياء]، ﴿لا تحل﴾ و﴿لَّا يَحِلُّ﴾، فأما على قراءة ﴿لا تحل﴾ فلا إشكال؛ لأن النساء جمع نسوة، والنسوة جمع امرأة، لأن امرأة ليس لها جمع من لفظها، وإنما لها جمع من معناها، كالإبل جمع بعير، فليس لها جمع من لفظها - يعني: ليس لها مفرد من لفظها - فقوله: ﴿لا تحل لك النساء﴾ لا إشكال فيه، لكن قوله ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ كيف ذكَّر الفعل مع أن الفاعل مؤنث؟

فِعْلَ مُضْمَرٍ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمِ لَا تَحِلِ

هذا مع الاتصال، أما مع الفصل فيجوز.

وقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال المؤلف: [بعد التسع التي اخترنك]، كان مقتضى الكلام أن يقول: اللاتي اخترنك، والمعنى: أن النبي ﷺ لما خيَّر نساءه اخترن الله ورسوله، فلما اخترن الله ورسوله، شكر الله لهن، وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ وعلى هذا فيكون هذا من باب الجزاء العاجل، ولهن الجزاء الآجل أيضًا؛ لأنهن لما اخترن الله ورسوله على الدنيا وزينتها شكر الله لهن، فمنع نبيه ﷺ من أن يتزوج بسواهن، أو أن يطلق واحدة، فيتزوج بسواها، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ وهذا أحد القولين في الآية.

والقول الثاني: أن معنى الآية: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: بمعنى من بعد ما ذكرنا لك، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] والمعنى على هذا: لا يحل لك النساء من بعد ما ذكرنا لك، وعليه فلا يحل للنبي ﷺ أن يتزوج امرأة من العرب سوى بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ولا يحل له أن يتزوج امرأة من أهل الكتاب.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا؛ فلا يحل له أن يتزوج على أمهات المؤمنين، ولا أن يتزوج سوى هؤلاء، فإن قلت: أفلا يمكن أن نقول: إن المعنى الأول الذي هو لا يحل لك النساء سوى هؤلاء النساء، يدخل فيه المعنى الثاني، فلا حاجة إلى القول الثاني، إذا قلنا: لا يحل سوى هؤلاء اللاتي معك؛ فإن هذا يدخل فيه القول الثاني: أنه لا يحل له سوى من ذكر، ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ فما فائدة القول الثاني إذنْ؟

فالجواب: أنه لو قدِّر أن هؤلاء النساء مِتن في حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فهل يحل له أن يتزوج سوى هؤلاء اللاتي أحل الله له؟ فحينئذٍ يكون للقول الثاني فائدة، وهذه الفائدة تظهر فيما لو قدر أن زوجات الرسول ﷺ اللاتي معه يُتَوَفَّون قبله، فإنه لا يحل له من النساء إلا ما ذكر الله: بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ [بترك إحدى التاءين في الأصل] في الأصل وهي كلمة

تبدل أصلها تتبدل، والدليل على أن أصلها تتبدل، وأنها ليست فعلًا ماضيًا: أنَّ (أنْ) دخلت عليها ونصبتها، و(أن) لا تدخل وتنصب إلا المضارع، وإلا فإن كلمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ تصح أن تكون فعلًا ماضيًا، ولكنه لما دخلت عليها (إن)، وعملت فيها النصب، عُلِمَ أنها فعل مضارع، حذفت منه إحدى التاءين، وهل لهذا نظير؟

نعم له نظير مثل ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر:٤] أي: تتنزل، قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أي: تتلظى.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [بأن تطلقهن، أو بعضهن، وتنكح بدل من طلقت]، هذا أيضًا لا يحل له، ولم يفعل النبي ﷺ، بعد أن نزلت هذه الآية، فإنه ما طلق واحدة ليتزوج أخرى، ولا تزوج عليهن سواهن بل بقين معه إلى أن توفين، لكنه تُوفي له من زوجاته في حياته زوجتان هما: خديجة، وزينب بن خزيمة، هذه تزوجها بعد أن استشهد زوجها في أُحُد، وبقيت عنده أشهرًا ثم تُوفيت، والبقية من نساءه تُوفي عنهن.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ هل المراد الحسن الظاهر أو الباطن، أو كلاهما؟ يشمل هذا وهذا فالنبي ﷺ كغيره من البشر، قد يتزوج المرأة لجمالها، لكن مع الدين، وقد يتزوجها لدينها، أو لمعرفتها وفهمها، فقوله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يشمل الحسن الظاهر والحسن الباطن.

وقوله: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ أي: بلغ الإعجاب منك، وذلك لكمال حسنها الظاهر والباطن.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [من الإماء، فتحل لك]، إلى آخره، يعني: استثنى الله - عز وجل - ما ملكت يمينه؛ وذلك لأن ما ملكت يمينه لا يحصل للزوجة غَيرة منها بخلاف الزوجة، وإنما لا يحصل غيرة من ملك اليمين؛ لأنها لا تساميها ولا تساويها؛ ولأنها ليس لها قسم، فإن مُلك اليمين لا يجب لهن القسم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ لما بين الله - عز وجل - ما أحل لرسوله وما حرم عليه، ختم الآية بذكر رقابته على كل شيء؛ لأجل الحذر من مخالفة أمره؛ لأنه إذا كان - سبحانه وتعالى - رقيبًا على كل شيء فإن الإنسان يحذر ويخاف من مخالفته.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبق لنا نظيرها عدة مرات، وقلنا: إن الماضي هنا مسلوب الدلالة على الزمن؛ إذ ليس المعنى أن الله كان في زمن مضى، وتخلَّف الحكم عنه في هذا الزمن، وإنما هو لتحقيق اتصاف الله تعالى بالرقابة.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ يشمل ما كان خفيًّا، وما كان ظاهرًا، وما كان خاصًّا بالرسول ﷺ، وما كان عامًّا فيه وفي الأمة، ويشمل ما كان من أعمال الجوارح، وما كان من أعمال القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى أن يختص بأحكامه من يشاء، لقوله ﴿تُرْجِي﴾ و ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ على القول بأن المراد بذلك العدل أو القَسْم، لأن الله خيَّره بين التزام القَسْم وعدمه، وهذا من خصائص النبي ﷺ، أما الأمة، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[1] وهذا يدل على وجوب العدل بين الزوجات في الأمة.

وعلى القول الثاني في قوله: ﴿تُرْجِي﴾ ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾، أن المراد به قبول من وهبت نفسها وردها، فيكون فيه أيضًا دليل على توسيع الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ فيما يتعلق بالنكاح، أن له أن يقبل، وله ألا يقبل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يرجع في حقه بعد إسقاطه، لقوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، هذا إذا كان الحق متجددًا، أما إذا كان الحق غير متجدد، فإن الإنسان إذا أسقطه لا يمكن الرجوع فيه.

مثال ذلك: أسقطت المرأة نصيبها أو حقها من نفقة ماضية، يعني: يكون الزوج قد ترك الإنفاق عليها لمدة سنة، فأسقطت حقها، فليس لها الرجوع؛ لأن الحق هنا غير متجدد، بل هو في شيء مضى. أسقطت المرأة حقها من القسم، فلها أن ترجع؛ لأن حقها يتجدد، اللهم إلا أن يكون ذلك مشروطًا في العقد، بأن شرط الزوج على زوجته الجديدة، ألا يقسم لها فقبلت، ففي هذا الحال لا تملك الرجوع؛ لأنه صار شرطًا في العقد، والشرط في العقد يجب الوفاء به؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] بخلاف ما لو أسقطته بعد العقد، فإن هذا إسقاط لها أن ترجع فيه؛ لأنها لا تملك إسقاط المستقبل.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ داخل في التكليف؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾؛ لأن نفي الوصف عن شيء ما، يدل على إمكان اتصافه به، إذ لو كان منتفيًا من الأصل ما احتيج إلى نفيه، فدل هذا على أنه يمكن أن يكون على النبي ﷺ جناح، وهذا دليل على تكليفه بأحكام الرسالة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الردُّ على الجبرية، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبت وأرادت، والجبرية يرون أن الإنسان ليس له إرادة، وإنما يُجبر ويسخَّر على عمله بدون

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤٧)، وأبو داود (٢١٣٣)، والنسائي (٣٩٤٢)، والترمذي (١١٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٠١٧).

إرادة منه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العِلَل والحِكَم للأحكام، لأن الأحكام مربوطة بعللها وحكمها، تؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وإثبات الحكم في أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكونية والقدرية كثيرة جدًّا، وكلها ترد أيضًا على الجبرية؛ لأن الجبرية يرون أن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأحكامه غير معللة، وأنه تعالى يفعل لا لعلة وحكمة، بل لمجرد المشيئة.

هل فيه ما يؤيد مذهب المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح، أو الصلاح في حق الله عز وجل؟

الجواب: هذا مر علينا في «العقيدة السفارينية» حيث قال:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيهِ فِعْلُ الأَصْلَحِ ... وَلَا الصَّلَاحِ، وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ

والمعتزلة يقولون: يجب عليه فعل الأصلح فيما إذا تعارض الصالح والأصلح، وفعل الصالح، فيما إذا تعارض، الصالح والفاسد.

ولكن الصحيح أن في ذلك تفصيلًا: إن قلنا بالوجوب بمعنى: أن عقولنا أوجبت على الله ذلك، فهذا باطل؛ إذ إن العقول لا تُوجب على الله شيئًا، فهي أدنى وأحقر من أن توجب على الله شيئًا، وإن قلنا: إن ذلك واجب بمقتضى حكمته، فهذا حق وصحيح، فإن الله ـ عز وجل ـ لا يفعل شيئًا إلا وهو أصلح، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧] فإذا كان الله ـ عز وجل ـ أثنى على المصلحين، ونفى أن يكون محبًّا للفساد، أو للمفسدين، دل ذلك على أنه لا يمكن أن يريد الفساد.

وعلى هذا فنقول: المعتزلة أخطأوا حيث أوجبوا ذلك على الله، بعقولهم؛ لأن العقل أدنى وأحقر من أن يوجب على الله شيئًا، وقد يرى العقل أن هذا الشيء واجب، وهو في الحقيقة غير واجب؛ لأن العقول قاصرة، قد ترى أن هذا أصلح وليس بأصلح، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأما أن نقول: إنه واجب بمقتضى حكمته، فهذا حق، فهنا نقول: إن إثبات العلل فيه رد على الجبرية ـ وهم والجهمية أيضًا ـ في هذا الباب، وليس فيه تأييد لقول المعتزلة القائلين بوجوب الأصلح أو الصلاح.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مراعاة قلوب زوجات الرسول ﷺ وإدخال السرور عليهن، تؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾؛ فإن في هذا مراعاة لقلوب هؤلاء النساء حتى تقر أعينهن.

٧- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي مراعاة المؤمن بإدخال السرور عليه وانتفاء الحُزن عنه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أي: لا يدخلهن الحزن والغم مما مضى، وهذه الحال المؤمنة تنافي حال

الشيطان، فإن الشيطان يسعى بكل ما يُحزن بني آدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة:١٠]؛ ولهذا كل من حاول إدخال الحزن على أخيه المسلم، فإنه شبيه بالشيطان الذي يريد إدخال الأحزان على المؤمنين.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى يُدافع عن نبيه ﷺ، بأنواع من الأساليبِ الدِّفَاعِيَّةِ، وجهه: أن الله لما خيَّره بيَّن أن هذا الحكم من الله من أجل إذا علمت زوجات الرسول ﷺ أن هذا الحكم من الله زال ما في نفوسهن من عدم الرضا، أو من الحزن؛ لأنه بلا شك أن رضا الإنسان بما كان من الله أبلغ من رضاه بما كان من غير الله، هذا من جهة، وإن كان المؤمن يرضى بما كان من الرسول ﷺ كما يرضى بالشيء الذي من الله، لكن لما كان النبي ﷺ زوجًا لهؤلاء النساء، فإنه يمكن أن يرد في نفوسهن أن كون الرسول ﷺ يقسم ولا يقسم، أو يقبل ويرد، أن ذلك لمجرد هوىً في نفسه، وإذا اعتقدن أن ذلك لمجرد هوىً في نفسه دخل عليهن الحُزن، فإذا علمن أن ذلك من الله وأن الله هو الذي وسَّع له في هذا زال عنهن الحزن.

ربما يتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أنه ينبغي للإنسان أن يدفع عن نفسه ما يلام عليه به ـ كل شيء تخشى أن يلومك الناس فيه فادفع الشبهة عن نفسك ـ؛ ولهذا أصل وهو قول الرسول ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ»[1].

٩- ويستفاد من الآية الكريمة: استعمال أدوات التوكيد فيما تدعو الحاجة إليه؛ لقوله: ﴿كُلُّهُنَّ﴾، حتى لا يتوهم واهم أن رضا بعضهن وانتفاء الحزن عنهن كافٍ في ذلك، بل الرضا يكون للجميع.

١٠- ويستفاد من الآية الكريمة: عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالظواهر والبواطن؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

١١- ويستفاد من الآية الكريمة: أن ما في القلب مما لا يملكه الإنسان لا يؤاخذ عليه؛ لأنه لما ذكر أن الرسول ﷺ مخير قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: من الشيء الذي لا تملكونه؛ ولهذا لا يحرم على الإنسان أن يفضِّل إحدى نسائه على الأخرى في المحبة؛ لأن المحبة محلها القلب، ولا يمكن للإنسان أن يسلط قلبه ويسخره حتى يحب ويكره.

١٢- ويستفاد من الآية الكريمة: أن محل الإرادات هو القلب؛ لقوله ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وهل المراد بالقلب القلب الحسي أو القلب المعنوي الذي هو العقل؟ القلب الحسي؛ لأن الصحيح أن القلب الحسي هو الذي عليه المدار كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[2].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، و مسلم (٢١٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، و مسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقد اختلف العلماء هل العقل في القلب أو العقل في الدماغ؟

وظاهر القرآن الكريم أن العقل في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ويدل لهذا أيضًا من السنة قوله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ» دل هذا على أن العقل في القلب، ولكن قال الإمام أحمد: إن له اتصالًا بالدماغ، يعني: هو في القلب لكن له اتصال بالدِّماغ؛ ولهذا إذا فسد الدماغ فسد العقل، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مواطن من كلامه بأن الدماغ محل التصور، وتكييف الأشياء، وأن القلب محل التدبير والتصريف، فكأن الدماغ سكرتير القلب، يهيئ الأمور له ويصورها ويكيفها، ثم يرسلها إلى القلب، والقلب يأمر أو ينهى، أو يقر أو ينكر.

١٣ - ويستفاد من الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العليم والحليم؛ العليم: هو الذي أحاط بكل شيء علمًا، والعلم عند أهل الفقه أو عند الأصوليين: هو إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا.

فقولهم: (جازمًا) خرج به الشك والظن والوهم، فهذا لا يسمى علمًا، لأنه غير جازم، وخرج بقولهم: (مطابقًا) الجهل المركب؛ لأن الجهل المركب يدرك الإنسان به الشيء إدراكًا غير مطابق، وخرج بقولهم: (إدراك الشيء) الجهل البسيط، لأن الجهل البسيط ليس فيه إدراك إطلاقًا، فهذا هو العلم، والله - عز وجل - لا يتجدد له العلم، وإنما الذي يتجدد المعلوم، وتعلق علم الله عز وجل بالمعلوم له حالان: تعلق به قبل وقوعه، وتعلق به بعد وقوعه، فالتعلق به قبل وقوعه معناه: أنه عالم بأنه سيقع، والتعلق به بعد الوقوع أنه عالم بأنه وقع، والذي يترتب عليه الجزاء هو التعلق الثاني - التعلق المعلوم بعد وقوعه - وعلى هذا يزول الإشكال الذي أورده بعض أهل العلم في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ [محمد:٣١] هل ما علم الله المجاهدين؟ نقول: هو علم، لكن العلم الذي يترتب عليه الجزاء، هو العلم بالشيء بعد الوقوع، فالتجدد إذنْ ليس للعلم ولكن للمعلوم.

هل علم الله يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل، أو بالواجب والممكن دون المستحيل، أو بالممكن فقط؟

الجواب: بالجميع؛ بالواجب والممكن والمستحيل، أما علم الله - سبحانه وتعالى - بالواجب، فعلمه بما يستحقه من الأسماء والصفات، فإن هذا علم بالواجب، فإن الله قد وجب له من الكمال على ما هو أهله، وأما علم الله - تعالى - بالمستحيل ففي مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن هذا من العلم بالمستحيل، وأما الممكن فمعروف،

علمه بما يفعل الإنسان وما لا يفعله.

١٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** إثبات اسم الحليم؛ والحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة، وليس الذي لا يعاقب، الذي لا يعاقب هو العفوُّ، وهذا هو الفرق بين الحليم وبين العفو، فهو - سبحانه - حليم: لا يعاجل بالعقوبة، وعفو: يعفو عن الذنب، فلا يعاقب عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ مكلف كغيره من البشر، أي أنه يحلل له ويحرم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أن التكليف لا يسقط عن أحد، مهما بلغت منزلته في الدين، فيكون في ذلك رد على الذين يزعمون أن الأولياء إذا بلغوا مرتبة من المراتب سقط عنهم التكليف؛ لأننا نعلم أن أعلى درجات الخلق عند الله هم الأنبياء والرسل، وأن أعلاهم محمد ﷺ، فإذا كان هو محلًّا للتكليف، فمن دونه من باب أولى.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات شكر الله - عز وجل - لمن قام بطاعته واتبع مرضاته، وهذا من مقتضى اسمه الشَّكور؛ لأن الله سمى نفسه بالشكور في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧] فمن شكره أنه - سبحانه وتعالى - ينعم على من قام بطاعته حسب ما تقتضيه تلك الطاعة، بناءً على أن قوله: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد التخيير، أما عن الرأي الثاني أن المراد: من بعد هؤلاء النساء، فلا تتأتى هذه الفائدة، ولكننا ذكرنا أن الآية إذا صلحت لمعنيين لا يتنافيان، فإن الواجب حملها عليهما.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أنه لا يجوز للنبي ﷺ أن يطلق أحدًا من نسائه ليتزوج غيرها؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فالله لم يحرِّم عليه الطلاق، إنما حرم عليه أن يتبدل بهن من أزواج، وفرق بين الطلاق وبين أن يتبدل بهن من أزواج.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كغيره من البشر، يعجبه حُسن النساء الظاهر والباطن؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** جواز تزوج الرجل المرأة لحسنها، لقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»[1].

٦- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الوطء بملك اليمين أهون على المرأة من الوطء بالزواج؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، ولهذا أباح الله - عز وجل - للإنسان ألا يعدل بين سراريه؛ لأن الغَيرة بينهن ليست كالغيرة بين الزوجات؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، و مسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الرِّق؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ والرق ثابت في الإسلام، ومن أنكر ثبوت الرق، فقد كذَّب القرآن والسنة وإجماع المسلمين، فيكون مرتدًا حتى يتوب ويقر بثبوت الرِّق.

والناس في هذا الباب، طرفان ووسط؛ منهم من يسترق الأحرار، ومنهم من ينكر ثبوت الرق مطلقًا، ومنهم من يثبت الرِّق بأسبابه وشروطه، فنسمع عن بعض فئات من الناس، أنهم يسترقون أولادهم ويبيعونهم على غيرهم، وهذا كثير في أفريقيا، وفي شرق آسيا، حتى إن بعض الهمج والرعاع ظنوا أن ذلك يبيح الوطء بهذا المُلك الفاسد، فصاروا يشترون من هؤلاء بناتهم ويطئونهن بهذا الملك الفاسد وهذا لا يثبت به الملك وليس سببًا للرق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله قال: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[(١)].

القسم الثاني: من الناس من ينكر الرق مطلقًا حتى مع وجود أسبابه الشرعية، وهذا يقول به أولئك الدول المتمدنة التي تزعم الحضارة والتقدم لكن من العجب أنهم ينكرون هذا الرق الإسلامي الذي له أسباب شرعية، ولكنهم يسترقون عباد الله في كل الأرض بغير سبب شرعي، وما مشكلة جنوب أفريقيا إلا أنها أنموذج من ذلك فإنهم يسترقون السود استرقاقًا مشينًا ويحرمونهم من حقوقهم، وهذا أقبح بكثير من الاسترقاق الشرعي الإسلامي، على أن الاسترقاق الشرعي الإسلامي ليس فيه قبح؛ لأنك إذا تأملت النصوص الواردة في أحكام الرقيق وجدت أن الشرع أباح استرقاقهم لمصلحتهم؛ لأن سبب الرق واحد وأسباب الحرية متعددة، وأن الرقيق يجب على مالكه أن يعامله بالمعروف.

وعلى هذا يكون الطريق الثالث وهو إثبات الرق بالأسباب الشرعية الإلهية هو الحق، وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، ولا يمكن أن ينكره إلا مكابر، ومن أنكره فهو كافر.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز التعبير بالبعض عن الكل؛ لقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، ومنه تقديم اليمين على الشمال؛ حيث نسب الملكية إليها دون الشمال، ولم يعبر باليد الشمال عن الذات أبدًا، لكن عبر بالأيدي عمومًا وعبر باليمين.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسم من أسماء الله وهو الرقيب؛ لقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾، والرقيب بمعنى الحفيظ، والإيمان برقابة الله تعالى يوجب للعبد كمال مراقبة الله، وخوفه منه وألا يتخلف عن طاعته، وألا يتجرأ على معصيته، فلو أن أحد الملوك جعل عليك رقيبًا فهل يمكن أن تتكلم أو تفعل ما يكون سببًا لعقوبتك عند هذا الملك؟

الجواب: لا، وهذا بالنسبة للمخلوق فالرقابة بالنسبة للخالق أكمل وأعظم!!

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بلاغة القرآن، حيث يختم الآيات بما يناسب الأحكام الموجودة فيها؛ لأنه لما كان المقام مقام تحليل وتحريم ختمها بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ يعني: فهو يراقبك لو خالفت ما شرع لك.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣، ٥٤]

التفسير

قال المؤلف: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول بالدعاء إلى طعام، فتدخلوا ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ منتظرين إياه، ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضجه، مصدر أنى يأني إنًا].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبق لنا الكلام على مثل هذه العبارة، وبيَّنَّا أن تصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به؛ لأن النداء، يستلزم انتباه المنادى، وأن وصف هذا النداء بالإيمان يدل على أن التزام هذا الحكم من مقتضيات الإيمان، وأن التخلف عنه سبب لنقصان الإيمان، ثم إن التعبير بالإيمان فيه إغراء وحث؛ لأن المؤمن حقًّا يلتزم ما أُمر به، ويترك ما نُهي عنه، ومن ذلك إذا قلت: يا رجل افعل كذا، المعنى بمقتضى رجوليتك يلزمك أن تفعل كذا، يا مؤمن افعل كذا، أي: بمقتضى إيمانك يلزمك أن تفعل كذا، وفيه إغراء وحث.

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: لإيمانكم وجهنا إليكم هذا الخطاب ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ بيوت النبي جمع، ومضاف إلى النبي ﷺ؛ لأن بيوته كانت تسعة، كل امرأة من نسائه لها بيت، لم يجمعهن ﷺ في بيت واحد، بل جعل لكل امرأة بيتًا وإضافته للنبي ﷺ ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ مع أنه أضيف للنساء أنفسهن، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ

ٱللَّهِ﴾ هل هذا يتناقض مع ذاك؟

الجواب: لا يتناقض؛ فهو مضاف إلى كل شيءٍ منهما بنسبة معينة، فباعتبار أن هذه البيوت مأوى النبي ﷺ ومسكنه أُضيفت إليه، وباعتبار أنها مُلك لزوجاته أُضيفت البيوت إليهن.

والعلماء اختلفوا: هل بيوت زوجات الرسول ﷺ مُلك لهن، أو ملك للرسول ﷺ؟

والجواب: أن فيه قولين لأهل العلم وسبق لنا أن الأظهر أنها ملك للزوجات، بدليل أنهن ورثن هذه البيوت، ولو كان ملكًا للرسول ﷺ ما ورثنها؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَّثُ؛ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[1]، ولا يرد على هذا أن هذه البيوت أدخلت في المسجد فيما بعد؛ لأنها إما أن تكون أُدخلت بعوض، وإما أن تكون أدخلت برضا مستحقها، وهذا لا ينافي التمليك.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: إلا أن يأذن النبي، لأنه قد تأذن المرأة من نسائه لأحد فيدخل، فليس بشرط أن يكون الإذن من الرسول ﷺ ولكن الله - تعالى - اشترط ثلاثةَ شروطٍ: الإذن، وإلى طعام، والثالث: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، ولننظر هذه القيود هل هي معتبرة، أو لا؟

فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يشمل الإذن العرفي، والإذن اللفظي، فالإذن اللفظي: أن يقول ادخل، والإذن العرفي: أن يكون هناك علامة تدل على أن المقام مقامُ إذن كفتح الباب، وما أشبه ذلك فهل يمكن الدخول بدون إذن؟

الجواب: لا يمكن، فالإذن إذنٌ معتبر - قيد -.

قال: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ هل هذا يدل على أنه لو أُذن لهم بالدخول إلى غير طعام لا يحل، فلو دعي إلى غير طعام هل يدخل أو لا؟

الجواب: إن نظرنا إلى ظاهر قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قلنا: لا يدخل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ولكننا نقول: إن هذا القيد بيان للواقع، وما كان بيانًا للواقع، فإنه لا مفهوم له، ومعنى لا مفهوم له: أن الآية وردت في قضية معينة، وهي دخول هؤلاء إلى الطعام بدون دعوة؛ فلهذا قُيدت بقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾.

الثالث: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ناظر: إن تعدت بـ (إلى) فهي من النظر بالعين، وإن تعدت بنفسها، فهي بمعنى الانتظار، تقول: نظرت إليه، وتقول نظرته بمعنى: انتظرته، قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل:٣٣] المعنى: هل ينتظرون؛ لأنها تعدت بنفسها، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] هذا من النظر بالعين، هنا ﴿نَٰظِرِينَ﴾ متعدية، بنفسها فتكون بمعنى منتظرين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٣٦)، ومسلم (١٧٥٨).

وقوله ﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نضجه، هل هذا شرط، أو غير شرط؟ نقول: أن هذا شرط لجواز الدخول، أي: أن يدخلوا لطعام غير منتظرين نضجه، وكانوا يتحرون نضج الطعام، فإذا تحرَّوا أنه قد نضج وقارب أن يُقدم، أو قُدِّم، دخلوا البيوت، لأجل أن يأكلوا، ولا شك أن مفاجئة الإنسان عند أكله تؤذيه، ويسمى هذا الذي يفجأ الناس عند تقديمهم الطعام، يسمى طفيليًّا، وضيفنًا، ما هو بضيف، ضيفًا، بالنون، لأن النون هذه مثل الذي يتكئ على عصا، كأنه ثقيل، فإذا كان ضيف عندك وأنت ما تحب أن يكون عندك، فقلت لصاحبك: هل عندك ضيف، قلت: لا، عندي ضيفنًا، يعني ثقيلًا، طفيلي جاء بلا دعوة، ونام على نهض صاحب البيت لا يتزحزح، ولا يخرج، ويتطلب كثيرًا مثل: هات ماء، هات شراب، هات كذا... إلخ.

إذنْ قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ هذا شرط، يعني: لا يجوز لكم أن تتحروا إناء الطعام حتى تدخلوا؛ لما في ذلك من التضييق على النبي ﷺ، ويحتمل أن المعنى لا تدخلوا مبكرين، بحيث تبقون في البيوت حتى ينضج الطعام؛ لأن في هذا أيضًا إشقاقًا على صاحب البيت، إذا كان تجهيز الغداء في الساعة الواحدة، فجاء هؤلاء في الساعة الثانية عشرة، فهذا فيه تضييق على النبي ﷺ والنبي ﷺ حيي كريم، لو استأذنوا عليه قبل نضج الطعام بساعة لا يردهم ﷺ وإن كان يتأذى بذلك، لكن بكرمه وحيائه، لا يردهم، فتبين بهذا النهي عن بيوت الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلا بثلاثة شروط: الإذن، وأن يكون إلى طعام، وأن يكونوا غير ناظرين إناه.

لكن ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قلنا: إن هذا ليس بشرط؛ لأنه قيد ببيان الواقع، فلا مفهوم له، كل قيد في بيان الواقع؛ فإنه لا مفهوم له؛ ولهذا لو دُعُوا إلى غير الطعام، فلا بأس أن يدخلوا.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قال المؤلف: [في الدخول بالدعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾]، أفادنا المؤلف: أن قوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ لا يتعلق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ما يتعلق بـ ﴿يُؤْذَنَ﴾ إلا على وجه التضمين؛ لأن ﴿يُؤْذَنَ﴾ لا تتعدى بـ (إلى)، وإنما تتعدى بـ (في) أو باللام، لكنها باللام للمأذون له لا للمأذون إليه، فتتعدى بـ (في) إلا أن يؤذن لكم في طعام، لكنها جاءت بـ (إلى)؛ لأن الإذن هنا ضُمن معنى الدعاء، يعني: إلا أن تُدعون إلى طعام.

وقوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ لماذا جاءت منصوبةً، مع أن الذي قبلها مجرور، يعني لم تكن بلفظ ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ لأنها حال من الكاف في قوله: ﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ حال كونكم ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، فإن كنتم منتظرين نضجه، وتتحرون نضجه، فلا تدخلوا؛ لما في ذلك من الإشقاق والأذية.

وقوله: ﴿إِنَىٰهُ﴾ يقول المؤلف: [إنها مصدر، أنى، يأني إنًا] فهي ليس فيها شيء محذوف، يعني ليست إناءه في الأصل، بل هي إناه، أصلًا وفرعًا، مصدر أنى، يأني، إنًا.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ لما كان قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ

﴿أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قد يتوهم منه واهم بأنهم لا يدخلون أبدًا، فكان في قوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ فائدة، وهو أنه متى دعوا دخلوا، فكونهم هم يدخلون بأنفسهم لا يجوز إلا بالشروط السابقة، لكن إذا دُعوا فيدخلون، فإذا طعموا، فإنهم ينتشرون، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ولا تدخلوا بغير دعوة، وهذا غير قوله: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأن ﴿يُؤْذَنَ﴾ معناها: أنهم جاءوا فاستأذنوا، وأما التي معنا الجملة الثانية، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ فهذه هم الذين دعوا.

وقد كان الرسول ﷺ يدعو الناس إلى طعامه، كما دعا أبا هريرة رضي الله عنه حين وجده جائعًا في يوم من الأيام، فقد خرج أبو هريرة من بيته وهو جائع، حتى كاد يسقط مغشيًا عليه من الجوع، فلما خرج الناس، تبع عمر بن الخطاب يسأله عن آية من كتاب الله، وأبو هريرة حين سأله عن الآية يعرف الآية، لكن يؤمل لعل عمر يقول اتبعني، ولكن عمر رضي الله عنه ما فكَّر في هذا الأمر، بل أخبره بالآية ومضى، يقول: فلما جاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - ورآني عرف ما في وجهي، فدعاه، فدخل فجيء بلبن إلى النبي ﷺ فأمره أن يدعو أهل الصُّفة يقول: «**لما قال ادعوا أهل الصفة واللبن قليل**، يعني: كأنه تردد رضي الله عنه **قال ما يغني هذا اللبن لأهل الصفة، إذا دعوت أهل الصفة وشربوا اللبن بقيت أنا جائعًا**، يقول: **وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، فَذَهَبَ فَدَعَا أَهْلَ الصُّفَّةِ فَجَاءُوا، فَشَرِبُوا، كُلٌّ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَكُلٌّ يُشْبَعُ، فَلَمَّا بَقِي بَقِيَّةٌ، قَالَ: اشْرَبْ، يَقُولُ: فَشَرِبْتُ حَتَى رَوِيتُ، فَقَالَ: اشْرَب أبا هِر، فَقلْتُ: والله يَا رَسُولَ الله لَا أَجِدُ لَهُ مَسَاغًا، فَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ، فَشَرِبَهَا النَّبِيُّ ﷺ**»(١)، ففي هذه دعوة عامة، ودعوة خاصة، وكذلك في حديث أنس لما صنع النبي ﷺ طعامًا قال: «**اخْرُجْ فَادْعُ لِي مَنْ لَقَيْتَ**»(٢)، فإذا دعي المسلمون إلى طعام، ﴿فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، ولم يقل فإذا شبعتم؛ لأن الطعام قد يُشبع وقد لا يشبع.

وقوله: ﴿فَانتَشِرُوا﴾ قال: [أي: تفرقوا ﴿وَلَا﴾ تمكثوا ﴿مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾]، أفادنا المؤلف بقوله: [﴿وَلَا﴾ تمكثوا] أن كلمة مستأنسين: حال من فاعل محذوف مع فعله، والتقدير: ولا تمكثوا مستأنسين لحديث، والاستئناس بالشيء معناه: الاطمئنان إليه، يعني: لا تبقوا بعد الأكل تتحدثون، وتنبسطون، وتطمئنون، وأما الحديث العابر، فلا بأس به بعد الأكل، ولكن هذا ليس من آداب الطعام على كل حال؛ لأنه عُلل، قال: [﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ بعضكم لبعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المكث ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أن يخرجكم، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أن يخرجكم]، وعلى هذا فينهون عن البقاء مطمئنين للحديث، لعلة وهي الأذية للنبي ﷺ، وبناءً على هذه العلة، لو قُدر أنه لا يتأذى بذلك فلا حرج على الإنسان أن يبقى، وسيأتي - إن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي (٢٤٧٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٦٣)، ومسلم (١٤٢٨).

شاء الله ـ في الفوائد بيان أن رسول الله كان يقول لبعض الناس إذا طعم يقول: اجلس برهة.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أعاد الاسم الظاهر في موضع الضمير؛ تعلية لشأن الرسول ﷺ وإلا لكان المتوقع أن يقول إن ذلكم كان يؤذيه، ولكن قال يؤذي النبي؛ إعلاءً لشأنه ﷺ وإشارةً إلى أنه لنبوته يجب أن يتحاشى المرء أذيته، لما له من الفضل.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ لماذا جمع في الخطاب، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾؟

الجواب: لأن المخاطبين جمع، واسم الإشارة إذا اقترن بالكاف، فإنه يراعى فيه المخاطب والمشار إليه، والمشار إليه يتغير به اسم الإشارة، والمخاطب تتغير به الكاف، فلنفرض أني أشير إلى جماعة وأخاطب واحدًا، أقول: أولئك، وبالعكس لو أشير إلى واحد، وأخاطب جماعة، أقول: ذلكم، أشير إلى جماعة وأخاطب جماعة أقول: أولئكم، أشير إلى جماعة وأخاطب جماعة نساء، أقول: أولئكن، أشير إلى واحد، وأخاطب جماعة نساء، أقول: ذلكن، قال الله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

المهم: أن اسم الإشارة إذا اقترن بالكاف فإنه يراعى فيه كاف المخاطب، ويراعى في اسم الإشارة المشار إليه، إذا كان جمعًا اجمعها وإذا كان مثنى ثنِّها، وإذا كان مفردًا فأفردها وإذا كنت تشير إلى اثنين مخاطبًا اثنين، كيف تقول؟ تقول: ذانكما، تشير إلى اثنتين مخاطبًا اثنتين؟ تقول: تانكما؛ لأن مثنى المؤنث، يقال: تان، وهذه يخطأ فيها كثير من الطلبة، فيلتبس عليه المشار إليه بالمخاطب.

إذنْ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه هنا مفرد، والمخاطب: جمع؛ لأنه يخاطب جماعة المؤمنين، ويشير إلى شيء مذكور، أي: إن ذلك المذكور يؤذي النبي فيستحيي منكم.

وقوله: ﴿يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ الأذية ليست هي الضرر، إذ قد يتأذى المتأذي ولا يتضرر بذلك؛ ولهذا يُوصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالتأذي ولا يوصف بالضرر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وقال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِيْنِي ابْنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»(١)، أما في الضرر فقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوْنِي»(٢).

ونحن نشاهد الآن في أنفسنا أنا نتأذى بالشيء ولا نتضرر به، يتأذى الإنسان بالرائحة الكريهة كرائحة البصل، والوسخ والعرق، وما أشبه ذلك، ولكنه لا يتضرر به؛ إذنْ لا يلزم من الأذية الضرر.

وقال تعالى: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء عاطفة على قوله:﴿يُؤْذِي﴾ يعني: فكان أيضًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢)صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

يستحيي منكم أن يخرجكم إذا دخلتم في هذه الحال.

وقوله: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أي: معروف، ففي القاموس إذا جاءت كلمة معروفة كتب فوقها ميًا، يعني: معروف، ما يحتاج إلى أن نحدده، كما لو قيل لك: ما هي المحبة، ما تستطيع أن تقول، مثل ما قال ابن القيم في «روضة المحبين» يقول: إن المحبة لا تحد، بأوضح من لفظها، المحبة هي المحبة، ما هي الكراهة؟ هي الكراهة، فما تستطيع أن تحدها؛ لأن هذه انفعالات نفسية، يحس بها الإنسان من نفسه ولا يستطيع أن يعبر عنها، فالحياء هو الحياء، وما هو النوم؟ النوم معروف، وبعضهم يقول: إنها غشية ثقيلة، تهجم على المخ فتفقد الوعي والإحساس، هذا لو أتصور أن هذا هو النوم ما جاءني النوم، الحاصل أنك إذا قلت النوم معروف، فهو معروف لكل أحد، أما الجوع فهو خلو البطن من قلة الطعام، هذا أثره، أما هو فإنه معروف، فهذه من العوامل النفسية لا يمكن في الحقيقة أن يعرِّفها أحد، لا يمكن أن تعرف بأوضح من لفظها، إذنْ الحياء معروف.

والنبي ﷺ يستحيي من هؤلاء؛ لأنه ﷺ أكمل الناس إيمانًا، والحياء من الإيمان؛ ولأنه ﷺ أكرم الناس، والكريم يستحيي من ضيفه أن يخرجه، أو أن يتبرَّم بوجوده، أو أن يتكره له، فلهذا الرسول - عليه الصلاة والسلام - يصبر وإن كان متأذيًا من ذلك بما جبله الله عليه من كمال الإيمان وكمال الكرم، ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ قال المؤلف: [أن يخرجكم]، هذه في محل جر بدل اشتمال، يعني التقدير: فيستحيي من إخراجكم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فالله لا يستحيي من الحق، وهو العدل في الأحكام و الصدق في الأخبار، فالرب - عز وجل - لا يستحيي من الحق؛ لأن الحياء من الحق معناه: ترك الحق، أو يستلزم ترك الحق، والخور، وعدم الحزن، والله - عز وجل - لا يستحيي أن يبين الحق، يقول المؤلف: [﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يخرجكم]، هكذا قال المؤلف، وفيما قاله نظر، بل الصواب: لا يستحيي من الحق أن يبينه لكم؛ لأن المقام هنا ما هو مقام القرار، المقام مقام تبيين لما يجب على هؤلاء الذين استأذنوا على الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمعنى قلت: إن الحق هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، والمراد بالحق هنا على رأي المؤلف هو الإخراج، يعني: لا يستحيي أن يخرجكم، ولكن الصواب: لا يستحيي أن يبين لكم ما يلزمكم فتخرجوا.

ثم قال المؤلف - عفا الله عنه -: [أي: لا يترك بيانه]، أي: لا يترك بيان الحق، وهذا من التحريف، حيث فسر الحياء بلازمه وهو الترك؛ لأن من لازم الحياء من الشيء أن يدعه حيًّا منه، والمؤلف فسر الحياء بلازمه، وهو الترك، أي: لا يترك بيان الحق، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ مع قوله: [لا يستحيي أن يخرجكم] فيه شيء من التناقض؛ لأنه جعل المستحيا منه هنا: بيان الحق، وجعله في الأول الإخراج والصواب قوله الثاني، أي: لا يستحيي من بيان الحق، لكن

تفسيره للاستحياء بالترك هذا باطل؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، والواجب علينا ـ فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ـ أن نجريها على ظاهرها اللائق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ معتقدين أنه لا مثيل له في هذه الصفة، ومبتعدين عن تكييفها، أما وجوب إجرائها على ظاهرها، فلأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين، ولو أراد خلاف ذلك الظاهر لكان التعبير بهذا الذي يفيد ظاهره الكفر أو التمثيل خلاف البيان، والله يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] وكيف يتكلم ـ سبحانه ـ بخلاف البيان فيما يعتبر صميم العقيدة، وهو ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، ولهذا كانت طريق هؤلاء المنحرفين من أبلغ ما يكون طعنًا في كلام الله ـ عز وجل ـ، بل من أبلغ ما يكون طعنًا في الله نفسه، إذ إن طريقتهم تستلزم أن يكون الله لم يبين الحق فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، وجعلَ الحق موكولًا إلى ما تقتضيه عقولهم، ويحاولون بعد ذلك أن يردوا كلام الله ـ عز وجل ـ وكلام رسوله إلى ما تقتضيه هذه العقول الفاسدة المتناقضة.

والطريق الأسلم والأعلم والأحكم، هو طريق السلف: أن تأخذ كلام الله ورسوله على ظاهره؛ لأننا نعلم علم اليقين، أنه لا أحد أعلمُ من الله بنفسه، ولا أحد من الخلق أعلم بالله من رسول الله ﷺ، ونعلم أيضًا أنه لا أحد أصدق كلامًا من الله، ولا أحد من المخلوقين أصدق كلامًا من رسول الله ﷺ، ونعلم ـ الأمر الثالث ـ أنه لا أحد أوضح بيانًا في كلامه من الله ـ عز وجل ـ ولا أحد من المخلوقين أعظم بيانًا من رسول الله ﷺ، هذه ثلاثة أمور، والأمر الرابع: ونعلم أيضًا أنه لا أحد أصح إرادة وقصدًا من الله ـ عز وجل ـ ؛ لأن الله ما أراد من عباده إلا أن يبين لهم الحق، وكذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ لا نعلم أحدًا أنصح منه للخلق، وأصدق إرادة في بيان الحق، فإذا تمت هذه الأمور الأربعة في أي كلام صار ما يدل عليه ظاهره هو المراد الذي يجب علينا أن نأخذ به؛ وهذه أمور أربعة إذا اجتمعت في الكلام، صار الكلام واجبًا الأخذ بظاهره، وهي: العلم، والصدق والبيان، وصحة الإرادة، ضدها ما يؤخذ ولا يعتبر، إذا جاء إنسان لك جاهل يتكلم بكلام بأفصح الكلام، وهو رجل نعرف أنه من أنصح الخلق، وأصدقهم، هل تثق بقوله؟ ما نثق بقوله، ولو جاء رجل يتكلم عن الطب، ونحن نعلم أنه ما درس في الطب أبدًا، وقام يشرح لنا، لا نثق به، لأنه جاهل، لو جاءنا عالم، ونعلم أنه عالم بما يتكلم به لكنه كذوب، هل نثق بكلامه؟ لا نثق؛ لأنه كذوب، يمكن أن يكذب علينا، ولو جاءنا رجل عالم وصدوق، لكنه سيء الإرادة قد يغش، ويقصد ضلال الخلق، هذا أيضًا لا نثق به؛ لأننا نخشى أن يكون غشنا فيما قال، والرابع: لو جاءنا إنسان عالم وناصح وصدوق، لكن ما يحسن أن يعبر، مثل إنسان فارسي لا يعرف اللغة العربية، وقام يعبر باللغة العربية، هل نثق من قوله؟ لا، لا نثق؛ لأنه ما يعرف، أحيانًا يقول: إذا أراد أن يضيف الضمير إلى نفسه يقول: أنت أكلت، إذا أراد أن يقول: أنا أكلت يقول: أنت أكلت، وعندما يريد أن يقول أنت أكلت يقول: أنا أكلت، ما نفهم من كلامه فممكن أن

يقلب الكلام، لكن كلام الله وكلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - اجتمعت فيه صفات القبول الأربع، فلهذا يجب علينا أن نؤمن بكل صفة وصف الله بها نفسه.

فإن قال قائل: الآية وما أشبهها فيها نفي الحياء، والنفي ضد الإثبات، فكيف تقول: إن في الآية أنها إثبات للحياء.

نقول: منطوق الآية: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومفهومها: يستحيي من غير الحق، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لكان نفي الاستحياء عن الحق لغوًا من القول، لا معنى له، ثم نقول: إنه قد ثبتت صفة الحياء لله - عز وجل - بصيغة الإثبات، كما في الحديث الذي في «المسند» «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»[1] حيي هذه فيها إثبات الحياء لله - سبحانه وتعالى - فكل صفة أثبتها الله لنفسه، فإنه يجب علينا أن نأخذها بالقبول، ولكننا ننزه اعتقادنا عن محظورين عظيمين وهما: التمثيل والتكييف، والتمثيل أحسن من التشبيه، يعني: التعبير بالتمثيل أحسن من التعبير بالتشبيه؛ لأن هذا هو الذي نفاه الله عن نفسه؛ ولأن نفي التشبيه المطلق، هذا ليس بصواب؛ لأننا ذكرنا أنه ما من موجودين إلا ويشتركان في صفة الوجود، وإن كانا يتباينان فيما تقتضيه عليه الصفة في مقتضياتها ومستلزماتها، وما من سميعين إلا ويشتركان في صفة السمع، وإن كانا يختلفان في ملزوماتها ومقتضياتها، وما من بصيرين إلا ويشتركان في صفة البصر، فيكون بينهما مشابهة من بعض الوجوه فيما يشتركان فيه؛ ولهذا نفي التمثيل هو الذي ينبغي لنا - معشرَ طلبةِ العلم - أن نعبر به؛ لأنه هو الذي جاء في القرآن وهو أسلم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ [أي: لا يترك بيانه، وقرئ يستحيي بياء واحدة]، قراءة شاذة أو سبعية؟ شاذة؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: [وقرئ]، فهي قراءة شاذة بخلاف ما إذا قال: وفي قراءة، أو قال: بالياء والنون أو الياء والتاء، وما أشبه ذلك فهما قراءتان سبعيتان.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الفاعل يعود على الصحابة، والمفعول يعود على نساء النبي ﷺ، وهن لم يسبق لهن ذكر في الآية، لكن قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ يدل على ذلك؛ لأن ساكن بيوت النبي هن أزواج النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواج النبي ﷺ، أي هذه تفسيرية، وأزواج عطف بيان للهاء في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي أزواج النبي ﷺ ﴿مَتَٰعًا﴾ المراد بالمتاع ما يتمتع به من ملابس، ومطاعم، ومشارب، وغيرها، حتى الدراهم تعتبر متاعًا، فكل ما يتمتع به فهو متاع.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [ستر]، اسألوهن تنصب مفعولين: الأول: الهاء، في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾، والثاني محذوف دل عليه ما قبله، أي: فاسألوهن المتاع،

---

(١)صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٢٠٢)، والترمذي (٣٥٥٦)، وأبو داود (١٤٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

وقوله ﴿حِجَابٍ﴾ بمعنى: ستر، وكلمة: ﴿مِن﴾ تدل على أن الستر لابد أن ينفصل، وأنه غير ستر الوجه، أو البدن بالثياب، بل هو ستر آخر حجاب، وحجاب أمهات المؤمنين غير حجاب نساء المؤمنين، لأن حجاب نساء المؤمنين يصح أن يكون متصلًا بالبدن، كالخمار والملحفة، وما أشبههما، أما حجاب أمهات المؤمنين فإنه حجاب آخر منفصل، يحول بين الرجل وبين رؤية أمهات المؤمنين، ولهذا قال: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فتدل على أن هذا الحجاب منفصل عن المستتر به، ومنه قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المذكور، والخطاب للصحابة رضوان الله عليهم.

وقوله: ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ﴿أَطْهَرُ﴾ يعني: أبلغ في طهر القلوب، ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾ [أيها السائلون ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي المسئولات من الخواطر المريبة]، الخطاب للصحابة وهم أطهر هذه الأمة قلوبًا في جانب من؟ في جانب نساء النبي ﷺ، وهن أعظم النساء عفةً وبعدًا عن المكروه، فإن كان هذا الخطاب في مثل هذا القول لهؤلاء النساء، فما بالك بمن سواهن، إذا كان احتمال تدنس القلب بمخاطبة المرأة من دون حجاب، إذا كان احتمال هذا واردًا في مثل هؤلاء القوم، فما بالك بمن دونهم بمراحل، لا في الزمن ولا في الرتبة، يكون هذا أشد وأشد، ولذلك ينكر إنكارًا عظيمًا على من قال: إن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين، نقول: من أين الخصوصية؟ فإذا كان الله علل بأنه أطهر لقلوبهن أي: لقلوب المخاطبين والمخاطبات، وهن بلا شك أطهر النساء وأعفهن، وكذلك الذين يخاطبونهن، خير الناس، كما جاء في الحديث «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»(١)، فما بالك بمن دونهم؟! احتمال تنجس القلب بمخاطبة المرأة بدون حجاب فيمن بعد الصحابة أقرب وأقرب بكثير، وإذا كان هذا باعتبار الصحابة مع زوجات الرسول ﷺ فغيرهم مع نساء دونهن بكثير من باب أولى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: [من الخواطر المريبة]، الخواطر التي ترد على القلب، والخواطر التي ترد على القلب إذا لم يطمئن الإنسان إليها ويسترسل معها، فإنه لا يعاقب عليها؛ لأنها من حديث النفس، بل هي مما يصول على النفس، والتحرز منها أشد؛ لأن الرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ به أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(٢) فإذا كان هذا في حديث النفس، فما بالك فيما يهجم على النفس بدون قصد؟ يكون العفو عنه من باب أولى، فالخواطر التي ترد على القلب إذا لم يسترسل معها الإنسان ويطمئن إليها، فإنها لا تضره، سواءٌ أكانت هذه الخواطر فيما يتعلق بجلال الله ـ عز وجل ـ أو فيما يتعلق

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، و مسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

برسوله ﷺ أو فيما يتعلق بشهوة النفس وإراداتها، فإنها لا تضر الإنسان، بشرط ألا يسترسل معها، بل إن هذه الخواطر لا ترد إلا على قلب سليم يهاجم الشيطان بها القلب حتى يفسده، ولهذا لما شكا الصحابة للنبي ﷺ مثل هذه الخواطر، قال: «أَوَجَدْتُم ذَلِكَ؟» قالوا: نَعَم، قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»(١) أي: خالصه؛ لأن الشيطان ما يهجم على قلب فاسد، وإنما يهجم على القلوب الصالحة؛ ليفسدها، ودواء ذلك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي وأن تثني على الله - عز وجل - بما هو أهله، فتقول: الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الاستجارة بالله والانتهاء ووصف لله تعالى بالكمال، وبعد ذلك تزول عنك شيئًا.

إذن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ الخطاب للصحابة - رضوان الله عنهم - ولمن بعدهم من باب أولى، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ ومثل هذه العبارة تدل على الممتنع غاية الامتناع، ولهذا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في قوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ما بينها، يعني: ما يصلح ولا يستقيم ولا يمكن لكم أن تؤذوا رسول الله، ومثل هذا التعبير يدل على امتناع الشيء، مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] المعنى: أن ذلك ممتنع لا يصلح ولا يستقيم، فكل مؤمن لا يمكن في حقه ولا يستقيم ولا يصلح في حقه أن يؤذِيَ رسولَ الله ﷺ، لا بالقول ولا بالفعل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧] وأذية الرسول - عليه الصلاة والسلام - من أعمال المشركين، فهم الذين يؤذون الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالقول وبالفعل.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وفي أول الآية قال: ﴿النَّبِيِّ﴾ إشارة إلى أن الرسول ﷺ شرف لعظم من أرسله، وهو الله، فلما كان رسول الله، كان لا يمكن أن يؤذى؛ لأنه رسول من عند الله تعالى.

أذية الرسول - عليه الصلاة والسلام - في حياته ما يتصل بشخصه، وأذية الرسول بعد مماته ما يتصل بسنته؛ فإنه لا ينبغي ولا يصلح لأي مؤمن أن يكون في سنة رسول الله ﷺ على وجه يتأذى به الرسول مثل ردها وتحريفها وما أشبه ذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

إذنْ هل نجلس مستأنسين لحديث بعد الطعام؟

الجواب: لا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي﴾ إذنْ ما كان لنا أن نجلس مادام فيه أذية للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ يعني: ما كان لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا، ﴿تَنكِحُوا﴾ المراد بالنكاح هنا: العقد، يعني: ما يمكن أن تعقدوا على أزواجه من بعده، وكل نكاح في القرآن فإنه بمعنى العقد، خلافًا لمن قال: كل نكاح في القرآن فهو بمعنى الوطء إلا قوله:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤١)، وأبو داود (٥١١١).

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] والصواب: أن كل نكاح في القرآن فهو بمعنى العقد، وأما من قال: إنه بمعنى الجماع إلا في الآية هذه، وآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩] فليس بصحيح.

وقوله: ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾ تكون المرأة زوجة للإنسان بالعقد عليها.

وقوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد مفارقته لها، ومفارقة النبي ﷺ لها تكون في الحياة وتكون بالموت، والمفارقة في الحياة تكون قبل الدخول، وبعد الدخول، فها هنا ثلاث حالات:

الحالة الأولى: من فارقها بموته، فهذه لا تحل لأحد من بعده بالإجماع ولم يخالف في ذلك أحد.

والحالة الثانية: من فارقها في حياته بدون جماع، بدون دخول، فهذه تحل، ولا نزاع فيها كما ذكره ابن كثير في التفسير.

والثالثة: من فارقها في حياته بعد دخوله بها، فهذه موضع خلاف بين أهل العلم، فمنهم من قال: إنها تحل، ومنهم من قال: إنها لا تحل، وعلى هذا الرأي الذي يقول إنها لا تحل، يقول: إنه يصدُق عليها أنها زوجته وأنها من بعده، ولولا أن من عقد عليها ثم فارقها قبل الدخول لولا الإجماع لقلنا أيضًا: لا تحل لمن بعده.

ويقول: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه إيذاء النبي ﷺ، ونكاح زوجاته من بعده.

وقوله: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبةُ الدلالة على الزمن والمراد إثبات عِظم ذلك عند الله، وفي كون هذا الأمر عظيمًا عند الله ـ عز وجل ـ دليل على حماية الله تعالى لرسوله الله ﷺ، ولاسيما فيما يتعلق بالنكاح، ولهذا قال الله في قصة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥] وهنا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني: في قدره ورفعته، أم عظيمًا في إثمه وجرمه؟

الجواب: في إثمه وجرمه، وعلى هذا فعظم الشيء معناه: كبره، وهو شامل لما يكون مدحًا، ولما يكون ذمًّا، فهنا كان عند الله عظيمًا في إثمه، قال: [فيجازيكم عليه] على حسب الذنب الذي قمتم به؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فالتزوج من زوجات النبي ﷺ، من بعده عظيم عند الله، فلذلك حذر من مخالفة ذلك بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ والجملة هنا شرطية، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتكون دالة على العموم.

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال المؤلف: [في نكاحهن بعده]، والصواب في الآية عدم التقييد، وأنها عامة في كل شيء، في نكاح زوجات النبي ﷺ بعده وفي غير ذلك.

وقوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: فلا تظهروه لأحد، ﴿تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم أو تخفوه فيما بينكم وبين أقاربكم؛ لأن الإخفاء أو الإظهار أمر نسبي، أشده ما أخفاه الإنسان في نفسه، ثم ما أظهره لذويه

وأصحابه، وأخفاه عن غيرهم، ثم ما أظهره لأهل بلده، ثم ما أظهره لعموم الناس، وأيًا ما كان فإن كل ما أبداه الإنسان، أو أخفاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الجملة هنا جواب الشرط واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ فهي جملة اسمية، وإن قرنت بـ (إنَّ) الدالة على التوكيد، ووجه ارتباطها بما قبلها ـ أي بفعل الشرط ـ أنه إذا كان الله تعالى عالمًا به فسوف يجازيكم عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

الفوائد:

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا يحل لأحد من المؤمنين أن يدخل بيوت النبي ﷺ، إلا بالشروط المذكورة؛ لقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾ والأصل في النهي: التحريم حتى يقوم دليل على أنه لغير التحريم، ويؤيد التحريم هنا: أن هذا يتعلق بحق الآدمي، وما كان متعلقًا بحق الآدمي فإنه لا يُتسامح فيه.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن إضافة الشيء إلى الشيء تكون لأدنى ملابسة، سواءٌ كان ذلك على صفة الملكية أو الاختصاصية، أو الصحبة، أو القرب، أو غير ذلك؛ ولهذا من قواعدهم المعروفة: أن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، لكن لابد أن يكون بين المضاف والمضاف إليه شيء من الارتباط، تؤخذ هذه من قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأن إضافتها إلى النبي باعتبارها مأواه، وإلا فهي مُلك لزوجاته على القول الراجح.

٣- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن الإذن بالدخول معتبر، سواءٌ كان من صاحب البيت أو ممن أنابه؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ولم يقل: إلا أن يأذن لكم ـ أي النبي ـ فإذا أذن للإنسان بالدخول سواءٌ أكان من صاحب البيت أو من خادمه أو من ابنه أو ما أشبه ذلك، جاز الدخول.

وهل يستفاد منه جواز الدخول إذا وجدت الباب مفتوحًا وقد كان بينك وبين صاحبك وعد، أم لا يستفاد؟

الجواب: إن قلنا بأن الإذن العرفي كالإذن اللفظي، فهو يستفاد من ذلك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾

[النور:٢٧]، فإن الاستئناس ـ وهو الاطمئنان ـ يشمل الإذن أو الاستئذان باللفظ، والاستئذان بالفعل والعُرف.

٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أنه يجوز دخول بيوت النبي ﷺ بهذه الشروط: الإذن، وألا يكون ذلك بانتظار نضج الطعام، لما في المفاجئة من الإيذاء، يعني: إذا نضج طعامك ثم جاء إنسان يستأذن، صار فيها نوع من الإيذاء؛ لأنك إن منعته شقَّ عليك وإن أذنت له شقَّ عليك أيضًا، فلهذا لا يجوز الدخول لمنتظر نضج الطعام.

٥- ويستفاد من الآية: تحريمُ التطفل؛ لأن الطفيلي عادته أنه ينتظر متى يُقدم الطعام، فإذا قُدم الطعام استأذن، أو هجم هجومًا بدون استئذان؛ لأنه قبل أن ينضج الطعام ويقدم يمكن أن يدخل، ثم يقال له: اخرج، لكن بعد أن يقدم الطعام لابد أن يأكل.

٦- ويستفاد من الآية الكريمة: مشروعية إجابة الدعوة؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾.

وهل يستفاد منه دخول الإنسان المدعو، وإن لم يؤذن له، إذا وجد الباب على هيئة تدل على الإذن؟

الجواب: نعم، وهو واضح؛ لأنه قال: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾، ولم يقل وإذا دعيتم فأجيبوا، والدخول أخص، وعلى هذا فإذا كنت مدعوًّا، وأحضرت إلى الباب فلي أن أدخل إذا علمنا بالقرينة، أن الباب وضع موضع الإذن كما لو كان مفتوحًا.

٧- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الإنسان ينبغي له إذا قضى حاجته من الطعام أن ينصرف؛ لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، وهذا كما أنه في بيوت النبي ﷺ فهو أيضًا في بيوت غيره، فإن الأفضل لمن دُعي إلى طعام إذا طعم أن ينتشر؛ لأن بقاءه قد يشق على صاحب البيت، ولأن الحاجة التي جاء من أجلها قد انتهت، وإذا تأملت الشريعة وجدت أن الإنسان من حسن أدبه وسلوكه أنه كلما فرغ من حاجته التي يريد أن ينتهي منها ينصرف إلى حاجات أخرى، ولهذا قال النبي ﷺ في المسافر إذا قضى حاجته: «**إِذَا قَضَى أَحَدُكُم حَاجَتَه فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ**»[1]، ولو أننا حفظنا أوقاتنا بمثل هذا الأدب، لكانت أوقاتنا مباركة، لكن تجدنا نضيع أوقاتنا، ولسنا نراعي هذه الحال أنه كلما انتهى الشغل لا ننتظر نمشي إلى شغل آخر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧، ٨] فلا تضيع الوقت.

٨- ويستفاد من الآية الكريمة: أن من دخل بيوت النبي ﷺ بدعوة، ثم طَعِم فإنه لا يجلس للحديث؛ لقوله: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ وهذا فوق قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾؛ لأن هذا أمر، أما هذا فَنَهيٌ يُنْهَى أن يبقى هؤلاء المدعوون مستأنسين للحديث بعد فراغهم من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤٢٩)، و مسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الطعام.

٩- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن هذا الحكم إنما يكون في حال تأذي صاحب البيت؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، أما إذا كان لا يتأذى به بل يُسَرُّ به بل قد يكون بطلبه إذا فرغوا من الطعام قال: اجلسوا نتحدث، فإن هذا جائز ولا بأس به؛ لأن القاعدة عند أهل العلم: أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا وجدت العلة وُجِدَ المعلولُ وإذا انتفت العلة انتفى المعلول.

١٠- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ كغيره من البشر يتأذى كما يتأذى غيرُه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، لكنه يختلف عن غيره في قوة صبره وتحمله ﷺ بخلاف غيره من البشر، فإنه لا يصبر ولا يتحمل كما يتحمل الرسول ﷺ؛ ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتأذى من بقائهم مستأنسين للحديث، ولا ينهاهم حتى نهاهم الله - عز وجل -.

١١- **ويستفاد من الآية الكريمة**: عناية الله - عز وجل - لنبيه ﷺ، وذلك بالدفاع عن كل ما يؤذيه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

١٢- **ويستفاد من الآية الكريمة**: كمال حياء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكرمه؛ لقوله: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾، وإنما كان يستحيي لشدة حيائه؛ فإنه كما وصف أشد حياءً من العذراء في خِدْرِهَا، والحياء من الإيمان كما ثبت في الحديث عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أيضًا دليل على كَرمه؛ لأن الكريم يستحيي أن يخجِّل أضيافه بقوله: اخرجوا، أو يخجلهم بالتبرم منهم، والتكره لتصرفهم، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعاملهم وكأنه مسرور منهم، حتى بيَّن الله ذلك للصحابة.

١٣- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن القرآن شاملٌ لكل شيء، يعني: حتى آداب الدخول والجلوس والطعام وما أشبه ذلك، قد بينه القرآن، فيكون في ذلك إيضاح لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

ودلالة القرآن على الأشياء نوعان: دلالة عينية بمعنى: أنها تدل على الشيء بعينه، وهذا واضح، ودلالة شمول لفظي، أو معنوي، فالشمول اللفظي: بمعنى أن يكون اللفظ عامًّا بصيغته يشمل كل ما يحتمله ذلك اللفظ من المعنى، والعموم المعنوي: هو ما يُعرف عند أهل العلم بالقياس؛ لأنه يكون المقيس والمقيس عليه متفقيْن في العلة فيكون بينهما عموم في المعنى، فدلالة القرآن على الشيء تكون على هذا الوجه، إما دلالة لفظية، وإما دلالة معنوية بالشمول اللفظي أو المعنوي.

وهناك أيضًا دلالة الالتزام، وهي متفرعة أو داخلة فيما ذكرنا من الدلالتين، فإن قلت: يردُ عليك أنه لا يوجد في القرآن مقدار أنصبة للزكاة، ولا مقدار الواجب ولا يوجد عدد الركعات

ولا مقدار ما يسن فيها من الذكر، فما الجواب؟

الجواب: أن السنة قد بيَّنت ذلك، وقد أمرنا الله في كتابه أن نأخذ بما جاء عن رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ يشمل ما آتانا من المال، وما آتانا من العلم، والعلم يسمى إيتاءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ فكما أن إعطاء المال يسمى إيتاءً، فإعطاء العلم أيضًا يسمى إيتاءً، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وكل هذا يدل على أن ما جاءت به السنة فهو مما جاء به القرآن.

١٤- **ويستفاد من الآية الكريمة**: وصف الله تعالى بالحياء، يؤخذ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وجه الدلالة - مع أن هذا نفي - أنه لو كان الله - تعالى - لا يُوصف بالحياء ما صح أن يُنفى عنه الحياء في حال من الأحوال دون الحال الأخرى، وعلى هذا فمفهوم الآية دليل على أن الله تعالى موصوف بالحياء، لكن حياء الله تعالى ليس كحياء الإنسان؛ لأن الله يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

١٥- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل، فالحق في الأخبار هو الصدق، وفي الأحكام العدل، والباطل فيهما عكس ذلك، فالباطل في الأخبار هو الكذب، وفي الأحكام هو الجور.

١٦- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أنه لا يجوز سؤال زوجات النبي ﷺ شيئًا إلا من وراء حجاب، والآية في ذلك صريحة: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

١٧- **ويستفاد من الآية الكريمة**: جواز تكليم زوجات النبي ﷺ، وجهه: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ فأباح الله - تعالى - سؤالهن، والسؤال هنا: سؤال استخبار أم سؤال استجداء؟

الجواب: هو سؤال استجداء، ولكن سؤال العلم من باب أولى.

وهل يستفاد منه جواز مكالمة النساء غير زوجات الرسول ﷺ؟

الجواب: نعم يستفاد؛ لأنه إذا جاز مع زوجات الرسول - عليه الصلاة والسلام - مع ما لهن من الاحترام، والتعظيم، ففي غيرهن من باب أولى، ولكنه يشترط في ذلك الأمن من الفتنة، فإن خيفت الفتنة من المكلِّم أو من المرأة، كان ذلك حرامًا، وكذلك يشترط ألا يتمتع الإنسان بمكالمة المرأة، وإن لم يكن تمتع شهوة؛ لأنه قد يكون الإنسان - مثلًا - يتمتع بمخاطبة المرأة ما هو من الناحية الجنسية الغريزية، ولكنه يحب أن يستمر معها في الكلام، فهذا أيضًا لا يجوز، اللهم إلا إذا كانت من محارمه، وأراد أن يتحدث معها ليؤنسها أو ليأنس بها، فهذا لا بأس به.

١٨- **ويستفاد من الآية الكريمة**: أن الحجاب المذكور هنا ليس هو ستر الوجه فقط، بل هو شيء فوق ذلك لقوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ولم يقل: (متحجبات). وهذا يدل على أن هذا

الحجاب منفصل، وليس من ثياب المرأة بل هو شيء منفصل، مثل أن تكون في خدرها فيتحدث الناس إليها.

١٩- ومن فوائد الآية الكريمة: ثبوت تعليل الأحكام الشرعية، يؤخذ من قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومن قوله - فيما سبق -: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾.

٢٠- ويستفاد منها: أنه يجب على المرء أن يسعى في كل ما فيه تطهير قلبه، وأن يبتعد عن كل ما فيه تدنيس قلبه؛ لأنه علل الأمر بالحجاب بكونه أطهر للقلوب، ولا فرق في ذلك بين طهارة القلب من الأخلاق الرذيلة كالزنا واللواط، أو الطهارة من الاعتقادات الفاسدة أو الإرادات السيئة، كل هذا يجب على المرء أن يطهر قلبه منها، وأن يبتعد عن كل ما يدنِّس قلبه من ذلك.

٢١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الفتنة في مخاطبة النساء قد تكون من الرجل وحده، ومن المرأة وحدها ومنهما جميعًا؛ لقوله: ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فقد يكون الرجل هو الذي يتلذذ بمخاطبة المرأة، والمرأة ليس على بالها هذا الأمر، ولا اهتمت به ولا فكرت في هذا الموضوع، لكن هو يتلذذ بهذه المخاطبة، فيكون الدنس في قلب الرجل، وقد يكون الأمر بالعكس، فتتحدث المرأة إلى الرجل، وهي تتلذذ بهذه المخاطبة، والرجل ليس على باله هذا الأمر، فيكون هنا الدنس في قلبها هي، وقد يكون من الطرفين، فيكون الدنس في قلبيهما جميعًا.

٢٢- ويستفاد من الآية الكريمة: تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لقوله: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾.

٢٣- ويستفاد منها: أن التحريم فيهن مؤبد؛ لقوله: ﴿أَبَدًا﴾، وعلى هذا فالمحرمات إلى الأبد محرمات بالنسب، وبالرضاع، وبالصهر، وبالملاعنة، وبالاحترام، خمسة؛ المحرمات بالنسب، سبع ذكرن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾، وبالرضاع في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾، وقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١)، وبالصهر، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وفي قوله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، أما المحرمات باللعان: هو أن الرجل إذا قذف امرأته بالزنا ولم تقر به ولم يثبت ببينة، فإنه يلاعنها، فإذا تم اللعان حرمت عليه على التأبيد، وأما المحرمات إلى الأبد بالاحترام فهن زوجات النبي ﷺ.

٢٤- ويستفاد من الآية الكريمة: عظم إثم من تزوج واحدة من زوجات الرسول - عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١١١)، و مسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الصلاة والسلام - من بعده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

٢٥- ويستفاد منها: أن الذنوب تتفاوت في العِظَم؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وهو كذلك فإن في الذنوب كبائر وصغائر، والكبائر فيها ما هو أكبر وما هو دون ذلك، والصغائر كذلك تختلف، وكذلك الطاعات تختلف، منها ما هو من أصول الإسلام ومنها ما هو دون ذلك.

مسألة: هل يستفاد من الآية الكريمة أنه لا ينبغي للضيف أن يسأل عن طعام المضيف إذا قدمه له أو لا، يعني لو سأل الضيف مضيفه عن طعامه إذا قدمه له فيقول مثلًا لو قدم له دجاجًا: هذا الدجاج مستورد أو لا؟

الجواب: لا يستفاد، وذلك لقوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ولم يأمر الله تعالى بالسؤال عن الطعام، فإنه ليس من المشروع، ولا من الأدب أيضًا أن تسأل صاحبك الذي قدم لك الطعام، تقول: من أين هذا؟ وحلال أم حرام؟ لأن هذا خلاف هدي النبي ﷺ؛ النبي ﷺ، قدمت له امرأة من اليهود شاة فأكل منها ولم يسأل، ودعاه يهودي إلى طعام فأكل منه ولم يسأل، ثم إنك إذا سألت أخجلت صاحبك، وإذا فتحنا هذا الباب انفتحت علينا أبواب كثيرة؛ ولهذا كان حكمة الشرع أن الإنسان لا يشرع له السؤال أبدًا مهما كان، حتى لو كان الطعام من يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فلا تسأل عن طعامه؛ لأن هذا من التعنت والتعمق، وفيه إشقاق على صاحبك وإشقاق على نفسك؛ لأنك إذا عودت نفسك ألا تأكل إلا بعد البحث معناه: أن كل شيء تأكله تكون شاكًّا فيه.

٢٦- ومن فوائد الآية: تشوف الشرع إلى ما يكون سببًا لطهارة القلوب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

٢٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا أوجب الله في ذلك العصر ما يكون سببًا لكمال طهارة القلوب، ففي عصرنا من باب أولى، فكل ما يكون سببًا لطهارة القلوب وبعدها عن دناءة الأخلاق، فإنه يكون واجبًا.

وتعليقًا على ما سبق من قرن الأحكام بِحِكَمِهَا نقول: إن من فوائد ذلك:

أولًا: طمأنينة الإنسان إلى الحكم.

ثانيًا: وبيان سمو الشريعة، وأن أحكامها ليست لغوًا ولا باطلًا.

ثالثًا: إلحاق ما وافق الحكم في علته بحكمه، معناه: أن يُلحق بهذا الحكم ما وافقه في تلك العلة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: عموم علم الله - تعالى - بكل شيء؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢- **ويستفاد منها:** تحذير المكلَّف من مخالفة الله ـ عز وجل ـ بقليل أو كثير؛ لأن الفائدة من ذكر علمه هو التحذير من المخالفة.

٣- **ومن فوائدها:** الردُّ على غلاة القدرية المنكرين لعلم الله سبحانه وتعالى بأفعال العبد؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ إذ إنه يشمل ما سيفعله الإنسان وما قد فعله.

٤- **ويستفاد من الآية الكريمة:** أن ما يفعله العبد من خير أو شر، فإنه محاسَب عليه، إما له وإما عليه، لعموم كلمة ﴿شَيْءٍ﴾، وفي آية أخرى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، لكن هذه الآية أعم.

قال الله تعالى:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥]

التفسير

يقول عز وجل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الضمير في قوله: ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ يعود على زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ اللاتي قال الله في حقهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فكأن هذه الآية استثناء لما سبق، أو استثناء مما سبق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ حيث إن الآية سألتموهن تشمل المحارم وغيرهم، فاستثنى المحارم، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الجناح بمعنى: الإثم، أي: لا جناح عليهن أن يَبْرُزْنَ لآبائهن، وأن يسألهن آبائهن بدون حجاب، وهذا كقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ آباء يشمل الآباء من جهة الأم، والآباء من جهة الأب، فالجد من جهة الأم في باب النكاح، كالجد من جهة الأب، ولقد كان الناس يسألون كثيرًا عن أبِ الأم هل هو مَحْرم لزوجة ابن ابنته أم لا؟

والجواب: يكون محرمًا؛ لأن باب النكاح لا يفرق فيه بين الأبوة من جهة الأم، والأبوة من جهة الأب، فليس كالابن، وأبو الأم لا يرث بخلاف أبي الأب، لكن أبا الأم في باب النكاح كأبي الأب.

فقوله إذنْ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يشمل الأجداد من جهة الأب، ومن جهة الأم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يعني: أبنائهن للصلب، وأبنائهن للبطن، أي: أبناء الأبناء، وأبناء البنات وإن نزلوا، وفي هذه الحال يكن جدَّات لهؤلاء الأبناء.

وقوله: ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يعني: ولا جناح عليهن في إخوانهن، سواء كانوا أشقاء، أم لأب أم لأم.

وقوله: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يعني: وإن نزلوا، ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يعني: وإن نزلوا، سواء كانوا أشقاء، أمْ لأب، أمْ لأم، ولم يذكر ولا أبناء أعمامهن، لأنهم ليسوا محارمًا ـ أبناء الأعمام، وأبناء العمات، وأبناء الأخوال، وأبناء الخالات، ليسوا محارم ـ لكن لم يذكر العم والخال، مع أن العم والخال محرم، ولم يُذكرا في هذه الآية ولا في آية النور أيضًا وذلك في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١]، ولم يذكر العم ولا الخال، وهنا كذلك لم يذكر العم ولا الخال، مع أن العم والخال محارم.

أبدى بعض العلماء مناسبة في هذا وقالوا: إنه لم يذكر لا لأنه يحرم إبداء الزينة لهما، ولكن لبيان التحرز منهما، لئلا يصفا المرأة لأبنائهن؛ لأن العم والخال، أبنائهما يجوز أن يتزوجوا بهن، فلما كان يُخشى العم والخال يصف المرأة لابنه، لم يُذكر، للتحرز لا للمخالفة في الحكم، وهذا التعليل له بعض الأوجه ـ والله أعلم بما أراد ـ.

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في هؤلاء، وفيما عدا هؤلاء، عليهن جناح يعني ما عدا هؤلاء من الأقارب فإن عليهن جناح في عدم التحجب منهم.

هنا سؤال يقول: الأخ من الرضاع وابن الأخ من الرضاع وما أشبه ذلك ما ذكر في هذه الآية.

نقول: صحيح ما ذكر، لكنه ذكر في قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(١).

قوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قال المؤلف: [أي المؤمنات]، يعني: ولا جناح عليهن في نسائهن، أي: المؤمنات؛ لأن النساء أُضيفت إلى ضمير المؤمنات، فيكون المضاف من جنس المضاف إليه، أي:

(١)متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١١١)، و مسلم (١٤٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ولا النساء المؤمنات، فللمرأة أن تكشف وجهها للمرأة المؤمنة، ومفهومه أن الكافرة لا يحل لها أن تكشف وجهها لها، وأن المرأة الكافرة بالنسبة للمرأة المؤمنة كالرجل مع المرأة، وهذا أحد القولين في هذه المسألة، على أن الإضافة هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بمعنى أنها إضافة صفة، أي: ولا النساء اللاتي شاركهن في الإيمان، وعللوا ذلك أيضًا بأن المرأة الكافرة، لا يُؤمن أن تفشي ما تراه من المرأة المؤمنة؛ لأنها ليس عندها إيمان يردَعُها، وبناءً على هذا القول، فإنه يجب على الجماعة الذين عندهم من الخدم الكافرات، يجب على نسائهم أن يحتجبوا عن هؤلاء الخادمات؛ لأنهن كافرات.

ونحن نقول: هذا مع بالغ الأسف أن يكون لدى المؤمنين خدم من غير المسلمين؛ لأن معنى ذلك أن الرجل أو المرأة يتصبح ويتمسى، وفي كل وقت ينظر بملء عينيه إلى من هو عدو لله ورسوله وعدو له أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١] ما هو عدو لله فقط، بل هو عدو لله، ولرسوله وللمؤمنين، ومع ذلك تجد هؤلاء يحتضنون مثل هؤلاء الكفار، ومع ذلك يحتضنونهم غير مبالين بهم، وغير مبالين بكونهم مخالفين لهم في الدين والعقيدة والعمل، بل إن بعضهم يحتضنهم فرحًا بهم؛ لأن الشيطان زيَّن لهم أنهم أنصح في العمل وأتقن، وأجلد وأصبر، وهذا من البلية والمحنة التي امتُحِن بها الناسُ في هذا الزمن، ولا سيما في هذه الجزيرة العربية، مع قول الرسول ﷺ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِيْنَ مِنْ جَزِيْرَةِ العَرَبِ، وأَخْرِجُوا اليَهُوْدَ والنَّصَارَى مِنْ جَزِيْرَةِ العَرَبِ»(١).

وهؤلاء بدل أن يخرجوهم يحتضنونهم، ثم إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء الخدم الكافرات إلا أن هؤلاء الذين يقولون إنهم مسلمون ـ وهم كما قالوا ـ تذهب عنهم الغيرة من نفوسهم وكراهة الكفار، حتى يكون هؤلاء كغيرهم كأنهم مسلمون، لأنهم يألفونهم، ويرونهم ويشاهدونهم وكما قيل: إذا كثر المساسُ قلَّ الإحساس.

وهذه المسألة خطيرة جدًّا ـ نسأل الله تعالى أن يسلط ولاة الأمور على منعها من هذه البلاد ـ لأنه أولًا: قد لا يكون داعيًا لوجود الخادم في البيت، هذا وإن دعت الحاجة فلتكن مسلمةً، لتكن من أندونيسيا أو من باكستان من هذه الدول المسلمة الفقيرة التي ينتفع المسلمون بما يُدفع إلى هذا الخادم من الأجرة، أما أن يجعل الكفار يؤخذ من أجورهم ما تُعْمَرُ به الكنائسُ وما يقوى به دعوة التنصير، فإن هذا لا شك عند التأمل فيه يجد هؤلاء القوم الذين استخدموا هؤلاء الكافرات والكافرين يجدون أنهم مخطئون خطأً عظيمًا فادحًا، إن كان لهم قلوب، فأما إن كانت قلوبهم قد عميت، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] يمكن أن تكون

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، و مسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قلوبهم قد مرضت، وصدأت من المعاصي وعدم المبالاة وعدم الغَيرة، فلا يحسون بهذا الأمر الخطير.

وبلغني أن رجلًا كان من أهل الخير واغتر ببعض هؤلاء الخدم، وكان يجلس مع أولاده ويعلمهم مبادئ الإسلام، فقال لواحد من الصغار: من ربك؟ قال: ربي عيسى ابن مريم، فمن أين جاء هذا الطفل وهو عائش في بلاد المسلمين أن رَبَّهُ عيسى ابن مريم، إلا من هذه الخادمة! هذه الخادمة قد تكون مغرورة، ومخدوعة في بني قومها ولا تعرف إلا هذا، لكن هذا الطفل الذي عاش وهو من المسلمين، كيف ما يعرف الله؟! فهذا من الخطر العظيم بالنسبة لهؤلاء الخدم من الكفار والكافرات.

المهم: أن كثيرًا من أهل العلم يقول: إن معنى قوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، أي ولا النساء المشاركات لهن في الإيمان، لأن المضاف من جنس المضاف إليه.

وقال بعض العلماء: المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: ما كان من جنسهن، أي: النساء اللاتي يشاركهن في النسوة أو في الأنوثة، فهو من باب إضافة الجنس إلى جنسه، وهذا القول هو مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ المشهور من مذهبه، وهو أقرب إلى الصواب؛ لأن تعلق المرأة بالمرأة لا يختلف باختلاف الدِّين، وليس كتعلق الرجل بالمرأة.

فالصواب: أن المراد بـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: النساء اللاتي من جنسهن في الأنوثة.

وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ يعني: ولا جناح عليهن فيما ملكت أيمانهن، قال: [من الإماء والعبيد].

قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ أي: ملكته ملكًا تامًّا لا ملكًا مشتركًا، فلو كان عبد بين امرأتين، فإنه لا يحل لواحدة منهما أن تكشف وجهها له، وذلك لأنه ليس مُلكًا لإحداهما، بل هو ملك لهما جميعًا، والآية: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ أضاف المُلك إلى اليمين؛ لأن الأخذ والعطاء يكون باليمين غالبًا.

وقوله: [من الإماء والعبيد]، أما قوله: [من العبيد] فظاهر، وأما قوله: [من الإماء] فبناءً على أن قوله: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، فإذا كان للمرأة أَمَةٌ كافرة، فلا يلزمها أن تحتجب عنها؛ لأنها مما ملكت يمينها، وكل هؤلاء المستثنين كلهم محارم إلا ما ملكت أيمانهن، فليسوا بمحارم؛ لأن التحريم فيهم إلى أمد، والمحرمية إنما تثبت فيما إذا كان التحريم مؤبدًا؛ ولهذا أخت الزوجة حرام، وليست بمحرم، والمملوك حرام على مملوكته، ولا يلزمها أن تحتجب عنه، لكنه ليس بمحرم لها، بدليل أنه إذا خرج عن ملكها لزمها أن تحتجب.

قوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ يعني: [من الإماء والعبيد أن يروهن ويكلموهن من غير

حجاب].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ [فيما أُمرتن به] والواو: حرف عطف، ﴿وَٱتَّقِينَ﴾ فعل أمر، لكن حد الفعل: الياء، والنون: فاعل، وفي الجملة: التفات من الغيبة إلى الحضور، أو إلى الخطاب أخص.

وقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ هذا ضمير غائب، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ ضمير مخاطب، وقد ذكرنا أن من فوائد الالتفات: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فقد لا يكون من الإنسان انتباه، فإذا اختلف النسق حصل التنبه.

ثم إن في الالتفات هنا فائدة أخرى وهي مواجهتهن بالأمر بتقوى الله عز وجل، وهذا الخطاب موجه لأطهر النساء على الإطلاق، وهن زوجات النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أن ترين أحدًا سوى هؤلاء، أو أن يراكُنَّ أحد سوى هؤلاء، فإذا كان هذا الخطاب موجه إلى زوجات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهن أطهر النساء وأكرمهن عفةً، فما بالك بمن دونهن، فإنه يُوجه إليهن من الأمر بالتقوى أكثر مما يوجه إلى نساء النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه شيء، وهنا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ لأن الحجاب وعدمه مما يُرى، فناسب أن يختم الآية بذكر شهادة الله على كل شيء؛ تحذيرًا من مخالفته في عدم الاحتجاب ممن يجب الاحتجاب عنه.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجب الاحتجاب عمن ذكر في هذه الآية، لقوله ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

٢- ومن فوائدها: أن نساء النبي ﷺ مكلفات، يعني: يلحقهن التكليف كغيرهن من النساء؛ لقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المحرمات في النكاح محارم؛ لأن هؤلاء المذكورات، أو هؤلاء المذكورين محرمون في النكاح فهم محارم، وهذه قاعدة: كل من يحرم في النكاح تحريمًا مؤبدًا فهن محارم، أما من يحرم تحريمًا إلى أمد، فليسوا بمحارم، وعلى هذا فقوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمحارم؛ لأن التحريم يكون إلى أمد.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجب على المرأة أن تحتجب عن المرأة؛ لقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، وهل يشترط أن تكون مؤمنة؟

الجواب: فيه قولان لأهل العلم، والراجح: أنه لا يشترط، وأنَّ العِلَّةَ لَيْسَت الكُفْر، وإنما العلة الجنس، فما دامت من جنسها، فإنها لا تتعلق بها كما يتعلق الرجال بالنساء.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب تقوى الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾، والعناية بها، حيث انتقل فيها من أسلوب إلى آخر للتنبه لها.

٦- ومن فوائدها: أن الأمر الموجه للإنسان بالتقوى لا يعني أنه غير متقٍ؛ لأنه قد يُراد به الاستمرار على التقوى، ويدل على ذلك أيضًا قوله في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، مع أن بعض الناس لو قلت له: يا أخي اتق الله، لاشتاط غضبًا، فيقال له: إن الله أمر نبيه ـ وهو أتقى منك ـ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١] وهذه ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أمر لنساء النبي ﷺ.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: تحذير الإنسان من مخالفة تقوى الله؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، فإن خالفتن ولم تتقين الله، فالله تعالى شهيد عليكن.

٨- ومن فوائدها: إثبات اسم الشهيد لله، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ والشهيد معناه: الحاضر الذي لا يغيب، المطلع الذي لا يخفى عليه شيء فهو ـ سبحانه وتعالى ـ حاضر لا يغيب، ولكن ليس حاضرًا معناها أنه في الأرض، بل هو في السماء على عرشه، وهو مطلع لا يخفى عليه شيء.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: عناية الله سبحانه برسوله محمد ﷺ، وذلك بتوجيه هذه الإرشادات إلى نسائه.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٦-٥٨]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا خبر مؤكد بـ ﴿إِنَّ﴾، وعطف الملائكة على الله ـ عز وجل ـ بالواو؛ لأنهم مشاركون الله سبحانه في هذا الفعل؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾، والملائكة تقدم أنهم جمع ملك، وأن أصل ملك مألك من الألوكة وهي الرسالة، ولكنه حصل فيها إعلال بالتقديم والتأخير، فصارت بدلَ مألكٍ صارت ملئك، ثم حذفت الهمزة للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، فصارت ملك، أما الجمع فإنها رُدت الهمزة، وقيل فيها: ملائكة.

والملائكة هم الذين جعلهم الله رسلًا، وهم عالم غيبي مخلوقون من نور، ممتثلون لأمر الله - عز وجل - قائمون بعبادته آناء الليل والنهار، كما ذكر الله عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وهم مع ذلك ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦]؛ لقوة امتثالهم لأمر الله، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، لقوتهم على التنفيذ، وهم - أي: الملائكة - أصناف في أشكالهم وفي أعمالهم، وفي صفاتهم - ما نعلم من هذا إلا ما أعلمنا الله تعالى به ورسوله والباقي مجهول لنا، فنؤمن بما علمنا من أسمائهم وأشكالهم وأوصافهم وأعمالهم، وما لم نعلمه نؤمن به على سبيل الإجمال نقول: (آمنا بالله وملائكته).

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الخبر: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال: [محمد ﷺ]، ومعنى ﴿يُصَلُّونَ﴾ اشتهر عند كثير من أهل العلم أن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، وعلى هذا يفسر ﴿يُصَلُّونَ﴾ باعتباره إلى الله، بمعنى الرحمة، وإلى الملائكة الاستغفار ولكن هذا التفسير خطأ، فإن الرحمة أعمُّ من الصلاة؛ لأن الرحمة يُدعى بها لكل أحد والصلاة خاصة بالأنبياء، فهي شعارهم ولا تُقال لأحد سواهم إلا على سبيل لا يكون شعارًا، وأما الرحمة فهي عامة، حتى إن بعض أهل العلم يقول: إنه لا يجوز أن تدعو للرسول ﷺ بالرحمة، ما تقول محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال رسول الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكن هذا القول ضعيف؛ لأن النبي ﷺ نفسه كان يدعو لنفسه بالرحمة يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي» وفي قصة الأعرابي قال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا»، ولم ينكر عليه النبي ﷺ، لكنها عند السلف، يُدعى للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرحمة والرضا وما أشبه ذلك.

والصواب: أن صلاة الله على رسوله معناها: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وليست رحمته إياه بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧] قال: ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فدل هذا على أن الرحمة غير الصلاة وهو كذلك، أما صلاة الملائكة على الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيحتمل أن تكون بمعنى الدعاء أنهم يدعون له بالصلاة، ويحتمل أن المعنى أنهم يُثنون عليه مع الله، وهذا أقرب حتى لا يتوزع المعنى في كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ ويكون المعنى: أن الله يثني عليه والملائكة كذلك يثنون عليه وهذا من تعلية شأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ ولهذا قدم الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾؛ لأن النفس إذا علمت شرفَ هذا النبي، وأن الله - سبحانه وتعالى - نفسه وملائكته المقربين وغير المقربين من الملائكة الآخرين، فإنهم يصلون عليه، وأنا قلت: الملائكة المقربين؛ لأن الملائكة كلهم مقربون بالمعنى العام، لكنه هناك ملائكة مقربون عند الله كحملة العرش ونحوهم، وكل هؤلاء يصلون على النبي ﷺ، وفي إضافة الملائكة إلى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ من باب التشريف.

ولما تقرر في النفوس علو شأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الجملة وجَّه الله الخطاب للمؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ وتصدير الجملة بالنداء يدل على الأهمية والعناية بها؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادَى، ولا داعي لتنبيه المخاطب إلا لأمر هام.

ثم النداء بهذا الوصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيه إغراء للامتثال، لامتثال الخطاب الموجه، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: (إذا قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأَرْعِهَا سمعك ـ يعني: استمع لها ـ فإما خير تؤمر به وإما شر تُنْهَى عنه)، وفي وصف الإيمان مع كونه إغراءً دليل على أن امتثال هذا الأمر من مقتضيات الإيمان، وأن معصيته نقص في الإيمان.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: ادعوا له بالصلاة، فليس المراد بالصلاة، إذا قلت: صلِّ على فلان، ليس معناها: الدعاء المطلق، بل الدعاء بالصلاة؛ ولهذا لما أمر الله نبيه أن يصلي على من أعطاه الصدقة صار يقول: «اللهم صلِّ عليه»، فالصلاة في اللغة الدعاء، لكن إذا أمرتك أن تصلي على شخص، فالمعنى أن تدعو له بصلاة الله عليه، فالمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾، أمر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وهو أمر مطلق غير مقيد.

إذنْ تكون الصلاة على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مطلقة غير مقيدة، فنصلي عليه بأي صيغة صلينا، ونصلي عليه في كل وقت، وفي كل مكان، لكن هناك أمكنة تتأكد فيها الصلاة، وأمكنة لا تنبغي فيها الصلاة، وأمكنة تُستحب فيها الصلاة مطلقًا، يعني: ما هو بتأكد.

الأول: مما تتأكد الصلاة على النبي ﷺ فيه أي: وجوب الصلاة على النبي ﷺ، وذلك في مواضع:

أولًا: إذا ذكر اسمه، فإن الصلاة واجبة عليه؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة قال «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ»[1]، وهذا دعاء عليه بأن يرغم الله أنفه في التراب، وإرغام الأنف في التراب دليل على الذل والإهانة، وهذا يدل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ، إذا ذكر اسمه.

ثانيًا: الصلاة عليه في التشهد الأخير ركن، ولا تصح الصلاة إلا به، على مذهب الحنابلة والشافعية، ولا فرق بين الفريضة والنافلة.

الثاني: استحباب الصلاة على النبي ﷺ، ويكون في الدعاء مقدمة عليه أو مؤخرة عنه، ومنها عند الأذان، «فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثمَّ صَلُّوا عَلَيَّ»[2] والمواضع متعددة، لكن منها ما هو على سبيل

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤)، و الترمذي (٣٦١٤)، والنسائي (٦٨٧)، وأبو داود (٥٢٣).

الوجوب، ومنها ما هو على سبيل الاستحباب.

الثالث: كراهة الصلاة على النبي ﷺ وذكروا أنها تكره عند الذبح، إذا قلت: باسم الله، الله أكبر، لا تقل: اللهم صلِّ على محمد، قالوا: لأن المقام مقام إخلاص وتوحيد، فلا ينبغي أن يُذكر مع اسم الله غيره، فتقول: باسم الله والله أكبر ولا تصلِّ على النبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ قلت: إنه مطلق بأي صفة كانت؟ بما ورد عن النبي ﷺ حين سأله الصحابة، فقال: قولوا: «اللهم صلِّ على محمد»، هذا على سبيل الاستحباب، وليس على سبيل الوجوب، ولهذا أجمع العلماء على أن الصلاة على آل الرسول ﷺ لا تجب، مع أن الصيغة التي علمها النبي ﷺ أمته، فيها الصلاة على آله مع أنها ليست بواجبة، مما يدل على أنها على سبيل الاستحباب، وربما يُستدل لذلك أيضًا، بأن الصيغة التي أمر بها الرسول ﷺ في كيفية الصلاة عليه مختلفة ليست كلها على صيغة واحدة، وهذا يدل على أن أي صيغة أتيت بها فهي مجزئة.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي قولوا: السلام عليك، ادعوا له بالسلام، تقول السلام عليك أيها النبي، والسلام على النبي ﷺ مع كونه غائبًا أمر مشهور، ولهذا نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي مع أنه غائب، والصحابة يقولون: السلام عليك أيها النبي مع أنه غائب، ولا يسمعهم، حتى لو كان معهم في الصلاة فهو لا يسمعهم؛ لكن لأن هناك ملائكة سيَّاحين يبلِّغون النبي ﷺ السلام من أمته، ولأنه لما كان الإنسان قويَّ الإيمان بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ صار كأنه حاضر عنده يخاطبه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الآية فيها تقديم الصلاة على السلام، مع أنه في التشهد يقدم السلام على الصلاة، فهل بين الآية وما ثبت في حديث التشهد، بينهما تناقض؟

الجواب: لا، لأن العطف بالواو لا يستلزم وجوب التقديم، وإن كان قد يقتضيه، لكنه لا يستلزمه؛ لأن الواو ـ كما قال أهل اللغة ـ تدل على مطلق الاشتراك بدون تقديم، ولهذا إذا قلت: ما شاء الله وشئت مع أنك قدمت مشيئة الله صار نوعًا من الشرك؛ لأن الواو تقتضي التسوية، وليست تستلزم الترتيب.

إذا قال قائل: لماذا أكد التسليم بالمصدر، قال: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ولم يؤكد الصلاة؟

فالجواب: أن الصلاة تقدَّم ما يؤكدها، وهو إخبار الله تعالى بأنه يصلي عليه وملائكته، وهذا يعطي الإنسان قوة في الصلاة عليه متى علم أن الرسول ﷺ يصلي الله وملائكته عليه؛ فلهذا جاء التوكيد في التسليم دون الصلاة؛ لأن الصلاة أُكدت تأكيدًا معنويًّا بذكر أن الله وملائكته يصلون على النبي، وأما التسليم فأُكد تأكيدًا لفظيًّا؛ لأن قوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾، مصدر مؤكد لقوله:

﴿وَسَلِّمُوا﴾.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ]، ولم يفسر ﴿يُصَلُّونَ﴾ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهذا نقص في التفسير، ثم قال: [﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا اللهم صلِّ على سيدنا محمد وسلم]، ولم يفسر التسليم، فما معنى التسليم؟

قال بعض العلماء: إنك إذا قلت: السلام عليك، فالسلام من أسماء الله، يعني: الله عليك، وما معنى الله عليك؟ أي: الله حفيظ عليك، يراقبك ويحفظك.

وقال بعض العلماء: السلام عليك أي: التسليم عليك، فهي جملة خبرية بمعنى الدعاء، والسلام اسم مصدر سلَّم، مثل: الكلام اسم مصدر كلَّم، فمعنى السلام عليك، أي: تسليم الله عليك بتسليمك من الآفات، وهذا المعنى أصح، أنك إذا قلت لإنسان السلام عليك، أنك تسأل الله تعالى أن يسلمه من الآفات - الآفات الحسية والمعنوية - فالسلامة الحسية من الآفات سلامة البدن، والعِرض، والمال، والسلامة المعنوية سلامة الدين من الآفات؛ لأن الإنسان محوط بآفتين: آفة في الدين، وآفة في الدنيا، والسلامة منهما جميعًا من أكبر نعم الله على العبد.

ولابد أن يستحضر المسلم معاني هذا التسليم وإلا كان لغوًا من القول، وأكثر الناس عندما يسلم يستحضر أنها تحية فقط وهذا لا ينبغي، بل الذي ينبغي أن تستحضر أنه دعاء وبأنه السلامة من الآفات؛ لأنك إذا كنت لا تستحضر إلا أنها تحية، صار لا فرق بينها وبين قولك: أهلًا وسهلًا، بل ربما تكون التحية بأهلًا وسهلًا مرحبًا يا أبا فلان، حَيَّاكَ اللهُ وَبَيَّاكَ، وما أشبه ذلك من الكلمات الترحيبية، أبلغَ من هذا؛ ولهذا ينبغي لنا إذا سلمنا على أحد أن نستحضر أننا ندعو له بالسلامة من الآفات؛ ولهذا لو أتيت بكل ترحيب ما قابل هذه الجملة الدعائية، أن تدعو الله له بالسلامة.

فالحاصل: أنه صحيح أن أكثر الناس يقول: السلام عليكم من باب التحية فقط، والردُّ كذلك، فينبغي علينا أن نستحضر المعاني في كل ما نقول حتى الآن التحيات لله، الله يتوب علينا وعليكم، هل نحن نستحضر معنى التحيات، ومعنى الصلوات، ومعنى الطيبات، أو تمشي ألفاظ تقضى؟ أحيانًا، وأحيانًا، هذا أيضًا لا ينبغي، يعني: ينبغي أن تستحضر لكل لفظ معناه، وإلا صارت ألفاظًا جوفاء، ثياب ما فيها أجسام، أو أجسام ما فيها أرواح، وما هي الفائدة، أنك تقرأ التحيات لله والصلوات والطيبات، وأنت غافل، ما عندك إلا ألفاظ تمر على القلب فقط؟ فينبغي كلما قرأت هذا أن تستحضره وأنت تصلي، ما معنى التحيات؟ ما معنى الصلوات؟ما معنى الطيبات؟ وهكذا.

فما معنى التحيات؟ هو كل لفظ دال على البقاء والتعظيم والتكريم؛ لأن التحية معروفة: تعظيم للمحيى وتكريم له، لله: معروف أنها مستحقة لله وأنها خاصة به.

والصلوات: الفريضة والنافلة، أم الصلاة المخصوصة، أو حتى الدعاء يدخل فيها؟

الصلوات بمعنى العبادة المخصوصة، وبمعنى الدعاء أيضًا كله لله - عز وجل - ما يدعى إلا لله ولا يتعبد بالصلوات إلا لله.

والطيبات: وكذلك الأوصاف، فالطيبات منا والطيبات منهم، فكل صفاته طيبة وكل أفعاله طيبة، وكل أقواله طيبة، ومنها أيضًا ما يكون لله ولا يقبل الله إلا ما كان طيبًا، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[1]، من يستحضر هذين المعنيين عندما يصلي: أن الطيبات باعتبارها صفة لله وباعتبارها وصفًا لفعل المخلوق؟

قيل: الغالب الثاني أن معناها أن الطيبات الواقعة منا تكون لله، لا يقبل الله سواها، ولكن كلا المعنيين حق، إن الله طيب، هذا باعتبار ما يتعلق بالله، ولا يقبل إلا طيبًا باعتبار ما يفعله العبد.

ورحمة الله وبركاته: الرحمة: الدعوة له بالرحمة، وهي حصول المطلوب، وبالسلام زوال المكروه، وبركاته: يعني الخير الثابت الكثير، فأنت بعدما دعوت له بالرحمة، سألت الله تعالى أن يجعل ذلك بركة عليه مستمرة.

وأما السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقد فسرها النبي ﷺ، وقال: «إِذَا قُلْتُم ذَلِكَ فَقَد سَلَّمْتُم عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[2]، من يستحضر إذا سلمنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فمعناه: سلمنا على الأنبياء، والملائكة، والأولياء، والصالحين من هذه الأمة، ومن غيرها، حتى نسلم بهذا الكلام على الحواريين الذين اختارهم عيسى، والسبعين الذين اختارهم موسى، والقليل الذين آمنوا بنوح، وأصحاب الكهف وغيرهم، هل نستحضر هذا؟

الغالب: أننا لا نستحضر.

وقوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أشهد: يعني أقر، لكن إقرارًا كالمشاهد بالعين، يعني أشهد: أصل الشهود أو الشهادة لما رُؤِي أو سُمِع بالأُذن، لكن هنا عبر عما في القلب بالشهادة كأن الإنسان يشاهد ما أقر به.

وأما أن لا إله إلا الله: فالعامة يخطئون فيها فيقولون: أشهد أنَّ لا إله إلا الله، أشهد أنْ، وهذا خطأ من حيث اللغة؛ لأن أنَّ المشددة، لا يُحذف اسمها، ولكنها أن المخففة، أما لا إله إلا الله يعني: لا إلهَ حقٌّ - أي لا معبود حق إلا الله - عز وجل - ، والمعبودات التي تُعبد من دونه باطلة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيها أيضًا الإقرار المتيقن كأنما يشاهد، بأن محمدًا عبد الله ورسوله، فهو عبد ليس له حق الربوبية، ورسول ليس فيه شيء من الخيانة، فهو رسول حقًّا، هذا هو معنى التشهد، وليس هذا هو كل المعنى، بل هذه معانٍ ظاهرة عابرة، ومع ذلك أكثر الناس ما يستحضرونها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

قال المؤلف: [﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم الكفار يصفون الله بما هو منزه عنه من الولد ومن الشريك، ويكذبون رسوله]، هذا من الإيذاء.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ جملة خبرية مؤكدة بإنَّ، وخبر إنَّ قوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ بماذا يؤذون الله؟ يؤذون الله بوصفه بالعيوب التي لا تليق به، مثل قول بعضهم: إن الله فقير، ومثل سب الدهر قال الله: «يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأَنَا الدَّهْرُ»[1]، ومثل أن يقولوا: إن الله اتخذ صاحبة وولدًا، أو ولدًا، أو إن الله - تعالى - لما خلق السماوات والأرض تعب واستراح يوم السبت، وما أشبه ذلك، فإيذاء الله تعالى يكون بأن يوصف بما لا يليق به.

ومنه إنكار أسمائه وصفاته، فإن هذا لا شك من أن سلب الكمال عنه يتضمن النقص؛ لأن الكمال والنقص متضادان، ما من شيء إلا موصوف بالكمال، أو بالنقص، فإذا سلبت عنه صفات الكمال لزم من ذلك اتصافه بالنقص، وهو نوع من الإيذاء.

وأما إيذاء الرسول ﷺ، فيكون بالقول وبالفعل، فبالقول أن يُوصف الرسول ﷺ، بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، والغريب أن الساحر والمجنون، وُصِفَ به كل الأنبياء السابقين المرسلين إلى قومهم، وُصفوا بهذا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢] هذه الأوصاف لا شك أنها تؤذي الرسول ﷺ، وتؤذي كل وليٍّ لله ورسوله، وكذلك إيذاء الرسول بالفعل كما صنعت قريش به، حين أتوا بسلا الناقة، وهو ساجد في المسجد الحرام أمام بيت الله - عز وجل -، فوضعوا سلا الناقة على ظهره وهو ساجد، أي أذية أبلغ من هذا، رجل لم يتعرض لهم، وإنما يعبد الله تعالى في آمَنِ مكان على وجه الأرض، أمام بيت الله - سبحانه وتعالى - وأقرب ما يكون من ربه، ثم يأتي هؤلاء الظلمة المعتدون فيضعون عليه هذه القاذورات!! أعتقد أن هذا من أبلغ ما يكون من الأذية، حتى جاءت ابنته الطفلة الصغيرة فأزالته عنه.

كذلك من الأذية ما ذكروا أنهم كانوا يلقون الأنتان والقاذورات على عتبة بابه ﷺ في مكة، حتى كان يخرج ويقول: أَيُّ جِوَارٍ هَذَا! يعني: لو كنت جارًا لكم ولست منكم ما كنتم تفعلون بي هذا الفعل، فهؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ - والعياذ بالله - يعني: أبعدهم الله عن رحمته في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن اللعن بمعنى الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ ولم يقل: آذوا الله؛ لأنهم مستمرون في الأذية فما داموا مستمرين في الأذية، فإن لهم اللَّعْنَ في الدنيا والآخرة، أما إذا مَنَّ الله عليهم بالهداية ورجعوا إلى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله تعالى وتابوا من شركهم، فإن اللعنة سترتفع عنهم؛ لأن الحكم يدور مع علته ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [أبعدهم].

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (أعد) بمعنى: هيأ، والعذاب بمعنى العقوبة، و﴿مُّهِينًا﴾ قال المؤلف: [ذا إهانة، وهو النار]، فعذاب النار ـ والعياذ بالله ـ إهانة بدنية حسية، وإهانة نفسية، ولهذا يُقال لأصحاب النار: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧] يعني: ادفعوه بشدة وعنف، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني: قعرها وأصلها، ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ [الدخان:٤٨] الرأس الذي كان لا ينحني لأحد، ولا لله، ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨[الحميم: الماء الشديد الحرارة، ثم يقال له بعد الإهانة بالفعل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا تهكم به ـ غاية التهكم ـ يعني: أنك كنت في نفسك عزيزًا كريمًا، لكنك الآن ذليل مَهين، خلاف العز والكرم.

فهذا هو العذاب المهين الذي أُعِدَّ للكافرين، فصارت عقوبة هؤلاء المؤذين لله ورسوله، عقوبتهم أمران عظيمان، أحدهما: اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، والثاني: العذاب المهين الذي يوقعهم في الهوان والذل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

قال المؤلف: [يرمونهم بغير ما عملوا ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تحملوا كذبًا، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بينًا].

تأمل الفرق بين أذية الله ورسوله وأذية المؤمنين تجد بينهما فرقًا كبيرًا في العقوبة، فالذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا هذا لم يُذكر في الآية الأولى، والسبب أنه لا يمكن أن يكون من فعل الله، أو من فعل رسوله ما يستحقون به الأذية، لكن المؤمنون يمكن أن يقع منهم ما يستحقون به الأذية؛ ولهذا قال: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾؛ لأن المؤمن قد يكتسب شيئًا يستحق الأذية عليه.

وأيضًا قال: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ولم يقل: لعنهم الله، ولا أعد لهم عذابًا مهينًا، بل قال: ﴿ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا﴾ يعني: كذبًا وتحملوه، والبهتان: هو أن تذكر أخاك بما ليس فيه، ولهذا لما سُئِلَ النبي ﷺ، عن الغِيبة قال: «هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَه» قيل: يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّه»(1)، فيتبين لنا أن أذية المؤمنين تكون بالقول وبالفعل، وهي كثيرة لا حصر لها، منها أذية الجار، حتى إن العلماء يقولون: لا يجوز للإنسان أن يدق وتدًا في الجدار المشترك بينه وبين داره على وجه يؤذي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٩)الترمذي (١٩٣٤)أبو داود (٤٨٧٤).

جاره، ولا يجوز أن يسقي نخله إذا كان الماء يتسرب إلى جاره، ولا يجوز أن يجعل رحىً تطحن حول جاره؛ لأن ذلك يؤذيه، فالأذية كثيرة.

ومن هذا النوع أن نهينه عندما يأتي لطلب حقه، فإن بعض الموظفين - والعياذ بالله - إذا جاءهم الناس لإجراء معاملاتهم تجدهم يمتهنونهم ويؤذونهم، وهذا أيضًا من أذية المؤمنين بغير ما اكتسبوا، وأفرادها بل وأنواعها لا يمكن حصرها، والشيء العام هو أن يحصل للمؤمن أذية من فعل أو قول، فالذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا - نسأل الله العافية -.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾

١- **في هذه الآية فوائد منها:** إثبات الملائكة، لقوله ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾.

٢- **ومنها:** شرف الملائكة؛ بإضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾، فإضافتهم إلى الله إضافة تشريف.

٣- **ومن فوائدها:** بيان علو شأن النبي ﷺ؛ لكون الله وملائكته يصلون عليه، فهذا بلا شك من علو شأنه ورفعة ذكره.

٤- **ومن فوائدها:** الأمر بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الصلاة والسلام عليه من مقتضيات الإيمان، وأنه زيادة في الإيمان؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٦- **ومنها:** أن الصلاة والسلام عليه واجبان؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ ولأن ذلك من قضاء حق النبي ﷺ الذي له على أمته، فإن حقَّه على أمته أعظم من حق الوالدين على أولادهما، ولكن الوجوب يحصل بفعل ذلك مرة واحدة، فإذا دل دليل على التكرار وجب أن نأخذ بمقتضى الدليل، وقد قال كثير من أهل العلم بوجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة، وذلك في التشهد، فإن الإنسان يقول: السلام عليك أيها النبي، ويقول: اللهم صلِّ على محمد.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المشروع أن يُصلي الإنسان عليه باللفظ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ولا يكفي السلام أو الصلاة بالقلب، وعلى هذا فينبغي عندما نكتب الأحاديث نكتب ﷺ، وأما ما يفعله بعض الناس من كتابته (ص) أو كتابته (صلعم) فإن أهل العلم كرهوا ذلك، وقالوا: إن الأفضل أن يكتب ﷺ، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ربما كتب الحديث، ولم يذكر ﷺ، وأجاب بعض العلماء عن ذلك بأنه كان يتركها حرصًا على اغتنام الوقت، وأنه كان يصلي عليه بلسانه دون قلمه.

وقد مر علينا في التفسير، أن الصلاة على النبي ﷺ، تنقسم قسمين: مطلقة، ومقيدة، وأنها في المواضع المقيدة قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، وأنها في بعض الأماكن، قد تكون مكروهة.

مسألة: هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء؟

الجواب: في هذا للعلماء أقوال ثلاثة: الجواز والمنع، والجواز إذا لم يكن شعارًا، وهذا هو الصحيح، أنه يجوز أن تصلي على شخص بشرط ألا تجعل ذلك شعارًا له، كلما ذكرته صليت عليه، أو سلمت عليه، وقد نص أهل العلم أن ما يوجد في بعض الكتب عند ذكر علي رضي الله عنه، يقولون: علي - عليه السلام -، أو علي - كرم الله وجهه -، أن ذلك من عمل بعض النساخ، وأن الأفضل أن يقال له كما يقال لغيره من الصحابة، علي رضي الله عنه، مع أن عليًّا رضي الله عنه أكمل من علي - عليه السلام -، وأكمل من علي - كرم الله وجهه -؛ لأن الرضا مرتبة عظيمة.

أما إذا صُلي على غير الأنبياء بالتبع فهذا جائز بالاتفاق، وقد علَّم النبي ﷺ أمته أن يقولوا: **«اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد»**، وسبق لنا أيضًا الدعاء بالرحمة للرسول، هل يُدعى له بالرحمة؟ وأن من أهل العلم من كره ذلك، والصحيح أنه ليس بمكروه.

فائدة: الذين يقولون عن عليٍّ هذا القول - كرم الله وجهه - يقولون: إنه لم يسجد لصنم وأنه كرم الله وجهه بهذا، وهم يريدون أن يجعلوا ميزة لعلي بن أبي طالب فقط، هذا هو أهم شيء عندهم، سواء كان ذلك أحسن أو ليس بأحسن.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن أذية الله ورسوله من كبائر الذنوب، وجه ذلك: أن الله توعد عليه باللعن أو العذاب، وكل شيء توعد الله عليه باللعن أو العذاب، فإنه من كبائر الذنوب، وقد اختلف العلماء في الكبائر، هل تعد أو تحد؟ فمنهم من عدها عدًّا، ومنهم من حدها حدًّا، وقال: إن الكبيرة كل ما رتب عليه عقوبة خاصة فهو كبيرة، وهذا حدٌّ لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل شيء أو كل ذنب رتِّب عليه عقوبة خاصة دنيوية أو أخروية، فإنه من كبائر الذنوب، سواء كان ذلك لعنةً، أو غضبًا، أو نفي إيمان، أو تبرأ منه، أو عذابًا، أو ما أشبه ذلك، فإنه من كبائر الذنوب.

٢- **ويستفاد من الآية الكريمة**: وصف الله تبارك وتعالى بأنه يتأذى؛ لقوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣- **ويستفاد منها**: بيان كمال الله - عز وجل -؛ لأنه إذا كان يتأذى من الأشياء المنكَرة التي لا تليق به، دل ذلك على كماله، ولهذا عند الناس من العيب أن الإنسان لا يتأذى بما يوصف به من عيب، ولهذا يسمون مثل هذا الرجل: الحمار، لبلادته وعدم أهميته، يعني: لا يفرق بين من يمدحه ومن يقدح فيه، كله سواء عنده، لكن الإنسان الذي يتأذى بالعيب، هذا هو الذي له شعور وله

عاطفة، ثم إذا صبر واحتسب واستعمل الحكمة في ذلك، كان خيرًا.

إذن أن الأذية مما ليس بمحمود تعتبر كمالًا.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن أذية الرسول ﷺ كأذية الله؛ لأن الله جمع بينهما بالواو في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فكما أن طاعة الرسول كطاعة الله ومعصية الرسول كمعصية الله، فأذية الرسول كأذية الله، يعني: من حيث التحريم، وأنها من الكبائر، وإلا فإن أذية الله أعظم من حيث الجهة التي نُسب إليها الذم والعيب.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اللعنة ـ أي: لعنة الله ـ وهي طرده وإبعاده، وهي من الصفات الفعلية؛ لأن كل صفة لله معلقة بسبب، فهي من الصفات الفعلية، والعذاب المهين كلنا يعرف أنه في النار، لأنها هي التي عذابها مهين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل، فكما تعالى هؤلاء وتعاظموا، وأهانوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأذيته، عاقبهم الله بما يُهينهم ويذلهم من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

١- يستفاد من هذه الآية الكريمة: تحريم أذية المؤمنين بغير حق، لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

٢- ويستفاد منها: تحريم كل أذية أيًا كان نوعها، سواء كانت قولية، أم فعلية، لعموم اللفظ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾، واسم الموصول من صيغ العموم.

٣- ويستفاد منها: أن أذية المؤمن بما هو من كسبه، ليس فيها وعيد، وليست إثمًا، ولا بهتانًا؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

٤- ويستفاد منها: أنه لا يجوز أن يُؤذى بأكثر مما يستحق، فلو أنه سبَّك فلا تسبه أكثر؛ لأنك إذا سببته أكثر، فقد آذيته بغير ما اكتسب، وإذا سببته بمثل ما سبك، فقد آذيته بقدر ما اكتسب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

٥- ومن فوائد الآية: الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، فأضاف الفعل إليهم، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله، وأنه لا حول له ولا قوة، يفعل الشيء بغير اختياره، ويدعه بغير اختياره.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: ذم الكذب؛ لقوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾، ولاسيما إذا كان الكذب يؤدّي إلى أذية الغير.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز أذية غير المؤمنين، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، لكن إن كان الإنسان غير المؤمن ذميًا، أو معاهدًا،

أو مستأمنًا، فإنه لا يجوز أذيته بما يخالف عهده.

إذنْ غير المؤمن فيه تفصيل، المؤمن أذيته حرام بكل حال، وغير المؤمن فيه تفصيل، وهذا التفصيل: إذا آذيناه أكثر مما يقتضيه العهد، فهو حرام لا يجوز، وإن آذيناه في حد ما يقتضيه العهد، فإنه لا حرمة له إلا فيما يقتضيه عهده.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذنب قد يجمع بين وصفين ذميمين؛ لقوله: ﴿ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فهم بكذبهم احتملوا بهتانا، وبعدوانهم احتملوا الإثم المبين.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]

❀ التفسير ❀

الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ تقدم التنبيه عليه، وهو أن الله ـ عز وجل ـ نادى محمدًا ﷺ بوصفه نبيًّا، والنبي ينفذ ما يُوحى إليه، ولا يتأخر عنه، وسبق أن النبي مأخوذ من النبأ، أو النَّبوة، أو منهما جميعًا، فإنه منبئ، منبأ، وذو رفعة، فهو مشتق من النبأ سواء كان واقعًا منه، أو واقعًا عليه، ومن النَّبوة، وهي الرفعة، فالشيء النابي: هو الشيء المرتفع.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ ﴿قُل﴾ هذه فعل أمر، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ، قد أمر أن يقول جميع القرآن وأن يبلغه، لكن إذا كان الحكم مصدَّرًا بـ ﴿قُل﴾، فهو دليل على العناية به؛ لأن أمر أن يبلغه بخصوصه، فيكون هذا دليل على أنه ـ أي: هذا الشيء الذي أمر أن يقوله النبي ﷺ ـ أمر هام.

وقوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ جمع زوج، وزوج يطلق على الرجل، وعلى المرأة؛ لأنه مأخوذ من الازدواج، وهو الاختلاط، واللغة الفصحى فيه: ألا تفريق بين الذكر والأنثى، ولكن الفرضيون ـ رحمهم الله ـ التزموا أن يجعلوا الأنثى بالهاء والرجل أو الذكر بدونها، تفريقًا بين المسائل، لأنهم إذا قالوا مات ميت عن زوج، وابن، وأرادوا بالزوج الأنثى، اشتبه هل يراد به الزوج الذكر أو الأنثى؟ فالتزموا أن يفرقوا بين الذكر والأنثى بالتاء، على أنه قد قيل: إنها لغة، لكنها قليلة.

وفي قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ بدأ بالأزواج؛ لأن الحماية لهن والغَيرة فيهن أشد وأبلغ.

﴿وَبَنَاتِكَ﴾ كن أربعًا، لكن إذا كانت الآية نزلت في السنة السادسة من الهجرة فإن بعضهن قد مات، وعلى هذا فيكون المراد الموجود منهن.

وقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عام، في كل امرأة من المؤمنين، وإنما قال: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أن يقول: والنساء، من أجل الإغراء والحث، كقوله: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»[1]، وإلا فالكافرات يجب عليهن من الحجاب ما يجب على المؤمنات، لئلا يفتتن الناس بهن.

وقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل زوجات المؤمنين، ومن للمؤمنين عليهن ولاية من البنات والأخوات والعمات والخالات والأمهات، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الرجال قوامون على النساء، وإلا لاكتفى بقوله: والنساء المؤمنات.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ هذه الجملة يحتمل أن تكون مرفوعة، وأن تكون مجزومة، وعلى كل حال فهي مبنية الآن؛ لاتصالها بنون النسوة، والفعل المضارع يكون مبنيًّا في موضعين: إذا اتصلت به نون النسوة، أو نون التوكيد، وهنا اتصلت به نون النسوة، فهو مبني على السكون، لكن هل هو في محل رفع، أو في محل جزم؟

الجواب: إن كانت ﴿يُدْنِينَ﴾ مقول القول، فهي في محل رفع، يعني قل لهؤلاء أدنين، وإن كانت جوابًا للأمر، فهي في محل جزم؛ لأن جواب الأمر يكون مجزومًا.

وقيل: إنها مجزومة على تقدير اللام، أي: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ليدنين عليهن من جلابيبهن أي: على تقدير لام الأمر، كقول الشاعر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ....

تفد على تقدير اللام، أي: لتفد نفسك، أي الاحتمالين أرجح أن تكون مقول للقول في محل رفع، أو تكون في محل جزم؟

الجواب: القرآن قد يبين ذلك قال الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] هذا يدل على أنها مجزومة على أنها جواب الأمر، إذ لو كانت مرفوعة لقال: يقولون التي هي أحسن، فلما قال: ﴿يَقُولُوا۟﴾ دل ذلك على أنها جواب الأمر، وهي أيضًا من حيث المعنى فهي أبلغ، إذا كانت جوابًا للأمر، كأنهم يفعلون ذلك مباشرة، يعني: كأن فعلهم هذا جواب للأمر أي: أنه متسبب عنهم فيكون ذلك أبلغ في الامتثال من أنهم يؤمروا أمرًا قد يمتثلونه، وقد لا يمتثلونه، وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠] وهذه تؤيد أنها جواب الأمر، ولهذا قال: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾، فجزمها بحذف النون، ولم يقل: يغضون من أبصارهم، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] ما فيه تأييد؛ لأنه مبني، فليس فيه دليل على هذا، ولا هذا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المهم: أن الأولى أن نجعل قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جوابًا للأمر، ويؤيد ذلك السياق في كتاب الله، ويؤيد ذلك أنه أقوى في الامتثال والتنفيذ، حيث كان جوابًا لمجرد القول كأنهن يفعلن، ويمتثلن.

وقوله: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، قوله: ﴿مِن﴾، ليست زائدة ـ كما قيل ـ؛ لأن من لا تُزاد إلا في النفي كما قال ابن مالك:

وزِيْدَ فِي نَفْيٍ وَشِبْهِهُ فَجَر نكِرةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَر

وعلى هذا فمن ليست بزائدة، يعني: ليس المعنى يدنين عليهن جلابيبهن، بل (من) للتبعيض، أي: يدنين عليهن بعض جلابيبهن، وهل التبعيض هنا تبعيض جزء من كل، أو تبعيض فرد من فرد؟ بمعنى: هل إن قوله ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: من الجلابيب التي عندهن، لأن الواحدة، قد يكون عندها جلباب، أو جلبابان، أو أكثر، أو أن المعنى بعض الجلباب الذي عليها؟

الجواب: هذا الأخير هو الأقرب، أي: تدني عليها بعض جلبابها، والجلباب هو الرداء، أو الملاءة، أو الملحفة، يعني: الشيء الواسع الذي يشمل جميع البدن أو أكثره، وقال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾، ولم يقل: إليهن، ليكون الإدناء ملاصقًا لهن، فكأنه ضمن معنى يضممن، أي: يقربنه حتى يضممنه عليهن.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ لم يقل: على وجوههن، ولا على نحورهن، ولا على صدورهن، فيكون شاملًا لجميع البدن، ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على جميع البدن، ولكن من المعروف أن الجلباب ساتر لأكثر البدن، والعادة عندهم أن المرأة تكشف وجهها، وتخرج مكشوفة الوجه، ومكشوفة النحر، فأمر الله ـ عز وجل ـ أن يدنين عليهن من جلابيبهن، أي: على هذا المكشوف الذي يُكشف عادة، وهو الوجه والنحر، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، بأن تغطي وجهها، ولا تبدي إلا عينًا واحدة، تنظر بها للضرورة، وهذا فيما إذا كان الجلباب صفيقًا، بحيث إذا غطَّت وجهها لا ترى، أما إذا كان خفيفًا ـ كما هو المعروف عندنا في الوقت الحاضر ـ فلا حاجة إلى إبداء العين، لأن إبداء العين إنما هو للضرورة، بدليل أن الصحابة، كابن عباس، وغيره، رخصوا في إبداء العين الواحدة؛ لأنها بقدر الضرورة، وإلا لكانوا يقولون تخرج العينين جميعًا.

وعلى كل حال فالمعنى: يدنين عليهن من جلابيبهن فيما يكشفنه من أبدانهن، وهو الوجه، وهذا ما جرت به العادة، وكان هذا الكشف عامًّا للإماء والحرائر، فصار بعض من في قلبه من مرض من المنافقين الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات صاروا يلاحقونهن فإذا عثر عليهم، قالوا: هذه أمة، حسبناها أمة فعيرناها، وهي حرة، فشُكي ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، هكذا قال بعضهم في سبب النزول، لكنه غير مسند، ونحن لا يهمنا أن تكون الآية لها سبب في نزولها أم ليس لها سبب، المهم هو الحكم الذي دلت عليه.

قال: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ قال: [جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة، أي يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن، إلا عينًا واحدة] لماذا؟ لضرورة النظر.

قوله: [جمع جلباب وهي الملاءة]، وهو كما قال، وهي تشبه العباءة عندنا، ولما أمر النبي ﷺ بخروج النساء في العيد للصلاة، قالت أم عطية: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب، فقال: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»(1)، ولم يقل تخرج بدون جلباب، وهذا يدل على أنه لابد أن تخرج المرأة بما يسترها، ولا يبين حجم جسمها.

وقوله: [﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أقرب إلى ﴿أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ بأنهن حرائر، ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ بالتعرض لهن].

قوله: [﴿أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ بأنهن حرائر] هذا بناءً على ما قلت، ولكن لنا أن نقول: ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ بأنهن محتشمات، وبعيدات عن الرِّيب، ولا يردن السوء، ولا الفاحشة؛ لأن المرأة، إذا كانت محتشمة، محتجبة، دل هذا على كمال عفتها، وأنها لا تريد أن تقع في مواضع الرِّيب، بخلاف المرأة العاهر، - والعياذ بالله - فإنها تتبرج، وتكشف وجهها، وتخرج يديها وذراعيها، وحليّها، وما أشبه ذلك، فإذا كانت المرأة متحجبة، عُلم أنها امرأة محتشمة عفيفة، ولهذا قال: ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾، وإذا كانت عفيفة محتشمة، فإن الفسّاق لا يتعرضون لها، لأنهم يعلمون أنها ليست من أصحابهم، وإنما هي امرأة حامية نفسها محتفظة، هذا من جهة، ويحتمل أن ما قاله المؤلف: [﴿أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ بأنهن حرائر]، والآية صالحة لهذا ولهذا.

قال: [بخلاف الإماء فلا يغطين وجوههن، فكان المنافقون يتعرضون لهن]، وهكذا كانت الإماء في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الخلفاء لا يحتجبن؛ لأنهن مملوكات، ولا يتعلق بهن إلا رديء النفس، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنما هذا في الإماء اللاتي لا يُخشى منهن الفتنة، وأما الإماء الجميلات اللاتي يفتن، فإنه يجب عليهن أن يغطين وجوههن، وذلك لخوف الفتنة، لا لإلحاقهن بالحرائر، وما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، والمعنى يؤيده، فإنَّ كل ما يُخشى منه الفتنة، فإنه يجب البعد عنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]؛ لأن الخلخال الذي يُسمع إذا ضربت المرأة برجلها، يُخشى منه الفتنة، وخشية الفتنة بخلخال مخفي عند ضرب المرأة برجلها أقل بكثير من أن تخرج المرأة وجهها، ذلك الوجه الجميل المجمل بالكحل، والتحمير وغير ذلك وكل يعلم أن هذا أعظم فتنة من خلخال مستور، يُسمع صوته عند الضرب بالرجل، وتأبى حكمة الله - عز وجل - أن ينهى عن ضرب المرأة برجلها، لئلا يسمع خلخالها ثم يرخص لامرأة من أجمل النساء أن تخرج وجهها وكفيها، فإن هذا تأباه حكمة الله - عز وجل -.

وما فعله عمر رضي الله عنه عندما ضرب المرأة حين غطت رأسها؛ ذلك لئلا تتشبه بالحرائر،

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥١)، ومسلم (٨٩٠) من حديث أم عطية رضي الله عنها.

وخوفًا من أن يختلط هؤلاء بهؤلاء ثم يبقى الفرق، والميزة بينهما لا أثر له، لأنه إذا كانت الإماء يغطين وجوههن بقيت الحرائر غير معلومات.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال: [لما سلف منهن من ترك الستر، ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن إذا سترهن]، سبق لنا تفسير الغفور والرحيم، وأن الله يجمع بينهما دائمًا، لأجل أن يتركب من الاسمين زوال المكروه، وحصول المطلوب، فزوال المكروه بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة، والله - عز وجل - يذكر دائمًا المغفرة والرحمة عن أمر قد سلف، ولم ينزل به حكم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه لولا مغفرة الله ورحمته لكان يعاقبنا على المخالفة التي لا تليق، لكن الله - عز وجل - من مغفرته ورحمته، لا يؤاخذنا بما لم يشرع لنا.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أهمية ما أمر الله به رسوله في هذه الآية، وجه ذلك: أن الله أمره أن يبلغها أمرًا خاصًّا في قوله: ﴿قُل﴾، وإلا كل القرآن مأمور بأن يقوله للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن بعض الأحكام يصدرها الله - عز وجل - بـ (قل) فيكون كأنه أُرسل بهذه الآية إرسالًا خاصًّا، فيكون في هذا دليل على أهمية هذا الأمر الذي أمر الله به رسوله ﷺ.

٢- **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان أن يَغار على زوجته أكثر من غيرها؛ لأنها فراشه، وفي فسادها فساد لفراشه، وتشكيك في نسله، وجه ذلك: أن الله بدأ بالأزواج، فقال: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان مسئول عمن تحت رعايته، سواء كانت تلك مسئولية عامة، أم خاصة، وفي هذه الآية مسئوليتان على رسول الله ﷺ خاصة وعامة، الخاصة: قوله: ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ والعامة قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان مقتضٍ للعمل بهذه الآية، لقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن على المؤمنين مسئولية في نسائهم، لقوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: ونساء المؤمنات، إشارة إلى أن المؤمن يجب أن يكون ملاحظًا لنسائه.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الحجاب - حجاب الوجه - لقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ويتفرع على هذا: أنه يجب أن نعرف مفهوم الحجاب الشرعي؛ لأن أكثر الناس يظنون أن الحجاب الشرعي هو أن تغطي المرأة جميع جسدها إلا وجهها وكفَّيها، وهذا نحن فهمناه من الأسئلة التي ترد علينا، أنهم إذا قالوا: الحجاب الشرعي يعني: الحجب، وستر جميع البدن إلا الوجه والكفين، وهذا خطأ، فالحجاب الشرعي أول وأولى ما يدخل فيه حجاب الوجه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من عادة نساء الصحابة لبس الجلابيب، لقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ لما أمرهن بالخروج يوم العيد قلن: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب، فقال: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا» ويتفرع على هذه الفائدة: أن الشرع يتشوف إلى أن تكون المرأة بعيدة عن إبراز مفاتنها؛ لأن الجلباب يكون ـ غالبًا ـ واسعًا، لا تظهر منه مفاتن الجسم.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: رأفة الله بعباده، حيث يبين لهم علل الأحكام الشرعية، وجه ذلك: أن ذكر العلل له فوائد منها:

أولًا: أنه يفيد طمأنينة النفس، واقتناعها اقتناعًا أكثر بذلك الحكم المعلَّل.

ثانيًا: سمو الشريعة، وأنها لا تأمر بشيءٍ عبثًا، بل لابد لكل شيء تأمر به من الحكمة المناسبة التي ينبني عليها الحكم.

ثالثًا: أن العلة إذا كانت عامة أمكن أن نقيس على المعلل ما وافقه في تلك العلة، فنلحقه به في الحكم.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: عناية الله ـ عز وجل ـ بالمرأة، وذلك بدفع ما يمكن أن يكون فيه أذىً عليها، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن في الحجاب كفَّ الأذى عن المرأة، فيكون في ذلك كرامة لها، وإعزازًا لها ورفعة لها من أن تُؤذى، ويتفرع على هذه القاعدة: بيان قصور نظر أولئك الذين يقولون: إن الحجاب ونحوه إذلال للمرأة، وغض من كرامتها، وإهانة لها، فنقول لهم:كذبتم أعظم الكذب، وافتريتم أعظم الافتراء لا، حجابها هو الذي يدفع عنها الأذى ـ أذى الفُسَّاق وتتبعهم لها ـ ؛ لأن المرأة الجميلة تكون بالنسبة لهؤلاء الأراذل كالجيفة أمام الكلاب، ولابد أن يتبعوها، ولو على الرائحة، وبهذا نعرف ما انزلق فيه كثير من الشعوب الإسلامية في رفع الحجاب الشرعي عن المرأة، حيث أدى إلى مفاسد كبيرة، ولو فتشت ما فتشت في أولئك الأمم الذين يدعون التمدن والتحضر لوجدت كثيرًا وكثيرًا من الحوامل من البغاء، والزنى، هذا فضلًا عمن يستعملن الحبوب المانعة من الحمل، وفضلًا عمن يجهضن الحمل قبل أن يستتم، وهذا يدل على أن مناهج الإسلام أسمى كل المناهج، وأحسن من كل الأنظمة.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المغفرة والرحمة لله ـ عز وجل ـ، وهي مأخوذة من هذين الاسمين الكريمين في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذان الوصفان دل عليهما الاسمان دلالة تضمن أو دلالة مطابقة؟ مطابقة، فهما يدلان على الكرم دلالة التزام؛ لأن الكريم هو الذي يغفر، وهو الذي يرحم.

قال الله تعالى:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠]

التفسير

قوله: ﴿لَّئِن﴾ يقول المؤلف: [لام قسم]، يعني: لام موطأة للقسم، وليست هي أداة القسم، بل القسم محذوف، والتقدير: والله لئن لم ينته، أو وربك لئن لم ينته، فهي موطئة للقسم، وإنما قال المؤلف: [لام قسم] لئلا يتوهم واهم أنها لا الابتداء.

وقوله: (إن) هذه شرطية.

وقوله: ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ مجزومة أم مرفوعة؟ مجزومة، والدليل حذف حرف العلة الياء، والجازم لها إن أم لم؟ لم لأنها هي المباشرة ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ يعني: [عن نفاقهم]، كما قال المؤلف، وإنما قال المؤلف: [عن نفاقهم]؛ لأنه هو الوصف الذي اشتُق منه وصف المنافقين، وإلا قد يكون المعنى: لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم، وعن أذيتهم للمؤمنين، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: [بالزنا]، وهذا بناءً على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أن المراد الأذية بالتعرض لهن بالفاحشة، فالذين في قلوبهم مرض هم الذي يتعرضون للنساء بطلب الفاحشة والزنا، ويحتمل أن يكون المعنى أعم مما قال المؤلف أي: في قلوبهم مرض من الشك، وسوء الخلق وغير ذلك، وهو أعم وأحسن.

وقوله: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: [المؤمنين]، فتكون المؤمنين مفعول المرجفون؛ لأنها من أرجف يرجف، وهي مأخوذة من الرجفة، والرجفة هي الزلزلة، والمرجِف هو الذي يقول: قد أتاكم العدو، وإن لكم عدوًا كثيرًا، وسراياكم قد قتلت، وهزمت الجنود، وما أشبه ذلك، فيدخل الخوف والرعب في قلوب الناس، وسُمي ذلك إرجافًا؛ لأنه يزلزل ثقة الإنسان بنفسه وبإخوانه، ولأنه يزلزل أمنهم وطمأنينتهم.

قال بعضهم: ولأنه لا ثبات له؛ لأنه قول كذب، كل هذه المعاني يحتمل أن يكون الإرجاف مشتقًا منها، أو دالًا عليها.

إذنْ فالمرجف هو: الذي يخبر بها يزلزل طمأنينة المؤمنين من هزيمة، أو قتل عدو، أو كثرة جنود، أو ما أشبه ذلك، ويوجد أناس من هذا النوع في المدينة، إذا بعث النبي ﷺ، السرايا صاروا

يبثون مثل هذه الأقوال، بأن السرية قد هزمت، وأسرت، وقتلت، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ واقعة في جواب القسم المقدر، فالجملة إذنْ جواب للقسم، وليست للشرط؛ لأن القاعدة إذا اجتمع قسم وشرط فالجواب للسابق منهما كما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتزم[1]

قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ قال المؤلف: [لنسلطنَّك عليهم]، وهذا التفسير تفسير باللازم؛ لأن الإغراء معناه: الحث بإزعاج على أن ينكِّل بهم، ومنه إغراء الإنسان بالعدو، بمعنى أنه يحثه عليه بإزعاج،؛ ليوقع به ويقتله، أو يهزمه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ [يساكنونك] ﴿فِيهَآ﴾ يعني: في المدينة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [ثم يخرجون ملعونين]، ملعونين: مبعدين من الرحمة، يعني: نغرينك بهم بالتسلط عليهم، إما بالتعزير، أو بالتأديب، أو بالقتل، أو بغير ذلك، فإذا ضاقت عليهم المدينة، خرجوا ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾، ولم يقل: فلا يجاورونك، وذلك لتأخر انتفاء المجاورة عن الإغراء، لأن الله يغريه بهم، فيحصل لهم من التأديب، والتعزير والإهانة ما لا يتمكنون معه من البقاء في المدينة، ولهذا جاءت بـ (ثم).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن المعنى: إلا قليلًا من الزمن، أو: إلا قليلًا منهم، وعلى كلا الاحتمالين فإن قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من الفاعل في يجاورونك، وعلى تقدير المؤلف: هي حال من فاعل حُذف مع عامله، حيث قال: [ثم يخرجون ملعونين]، ولكن الأقرب ألا نقدِّر، بل المعنى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حال كونهم ملعونين حال المجاورة، يعني: حتى في بقائهم عندك، يكونون ملعونين مطرودين، مبعدين لا يألفهم أحد، ولا يحنو عليهم.

ثم قال: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ قال: [وجدوا]، أخذوا وقتلوا تقتيلًا.

قوله: ﴿أَيْنَمَا﴾ هذه أداة شرط تفيد العموم في المكان، وفعل الشرط قوله: ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجواب الشرط: ﴿أُخِذُواْ﴾.

وقوله: ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ يقول: [أي: الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به]، وجملة: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ جملة خبرية؛ لأنها شرطية، والجملة الشرطية خبرية، لكنها خبرية بمعنى: الإنشاء، أي: بمعنى الأمر والطلب، أي: أينما وجدتموهم فخذوهم واقتلوهم.

وفي قوله: ﴿تَقْتِيلًا﴾ المصدر المؤكَّد دليل على أنهم يُقَتَّلُونَ أفرادًا وجماعات، هذه الآية لا

---

(١) البيت رقم (٧٠٦) من ألفية ابن مالك.

شك أن فيها وعيدًا لمن جمعوا هذه الأوصاف، المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، والبحث فيها، أولًا: هل هذه الأوصاف لموصوف واحد، أو أنها لأناس متعددين؟ هل المعنى أنهم منافقون، وفي قلوبهم مرض، ومرجفون؟ فالأوصاف هذه لموصوف واحد، وصح العطف؛ لأنه من باب عطف الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:١: ٤] وهو واحد أم متعدد؟

واحد، فالعطف هنا عطف صفات، هل نقول: إن هذه عطف صفات، وأنها لموصوف واحد، أو نقول: إنها عطف أعيان موصوفين، ليست لموصوف واحد؟ هذا الأخير هو الأصح، وهو أعم أيضًا؛ لأن المنافق قد يكون في قلبه مرض، يميل إلى الفاحشة والزنا، وقد لا يكون، وقد يكون مرجفًا وقد لا يكون، وقد يجمع بين النفاق والمرض القلبي والإرجاف، وقد يكون الإنسان في قلبه مرض، وليس منافقًا، وقد يكون مرجفًا، وليس منافقًا، ولا في قلبه مرض؛ فحينئذٍ نتبين أن الأولى أن هذا العطف عطف لموصوف على موصوف، وليست عطفًا على موصوف واحد، يعني: ليست وصفًا لموصوف واحد، حتى نجعل العطف من باب عطف الصفات بعضها على بعض.

البحث الثاني: هل هؤلاء انتهوا أم لم ينتهوا؟

الواقع أن الإغراء لم يحصل؛ ولهذا بقي المنافقون فما قتّلوا، ولا أخذوا، فهم باقون، فهل نقول: إنهم انتهوا حين رأوا هذا الوعيد، أو نقول: إنهم لم ينتهوا، لكن الله - عز وجل - عفا عنهم فيما بعد، وأن هذا من باب إخلاف الوعيد، وإخلاف الوعيد من الكرم، بخلاف إخلاف الوعد، أيهما أرجح؟

الجواب: هما قولان للعلماء:

فبعضهم يقول: إنهم لما رأوا هذا الوعيد، وكانوا من أخوف الناس، وأرعن الناس انتهوا، وتركوا هذا الأمر.

وبعضهم قال: إنهم لم ينتهوا، لكن الله - عز وجل - لم يغر نبيه بهم لحكمة اقتضت ذلك.

والذي يظهر لي - والله أعلم - : أنهم انتهوا؛ لأن المعروف من حال المنافقين أنهم جبناء، وأنهم يخافون، ويحذرون، ولهذا يحلفون عند النبي ﷺ أنهم مؤمنون، ولما تخلفوا عن غزوة تبوك جاءوا يحلفون ويعتذرون، فهم جبناء، ويعلمون أن وعد الله حق، وأنهم لو استمروا في أعمالهم العدوانية هذه، لأغرى الله بهم نبيه، وحصل الجلاء ثم القتل.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد: شدة عناية الله - عز وجل - لنساء المؤمنين، فإن علاقة هذه الآية بالتي قبلها ظاهرة، فإن المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، هم أكثر الناس تعرضًا لأذية المؤمنات، فلهذا أعقب الآية السابقة بهذه الآية، ففيه كمال عناية الله تعالى بنساء

المؤمنين.

٢- **ومن فوائدها:** الوعيد الشديد لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات الثلاث الذميمة، النفاق، ومرض القلب، والإرجاف.

٣- **ومن فوائدها:** أنه إذا ظهر نفاق المنافق، وتبين عداؤه، فإنه يجوز أن يعامل بما يقتضيه نفاقه، لقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ وقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وسبق لنا البحث هل هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون انتهوا من أعمالهم أم لا؟ وقلنا: إن في ذلك رأيين لأهل العلم، وأن الأقرب من هذين الرأيين: أنهم انتهوا عن ذلك؛ لأننا لم نرَ أن الله ـ عز وجل ـ سلَّط رسوله عليهم، وأغراه بهم، وهذا أقرب بكثير من القول بأن الله لم يغره من باب إخلاف الوعيد.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من النفاق، ومرض القلب، والإرجاف؛ لأن الله توعَّد هؤلاء إذا لم ينتهوا بأن يسلط الله رسوله عليهم، ويغريه بهم، وقُبح هذه الصفات معلوم، أما النفاق فظاهر، فإنه من أرذل الأخلاق؛ لأن من الصفات التي يتصف بها المنافق كما جاء في الحديث أنه: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، وهذه من أرذل الصفات الاجتماعية، وأما الذين في قلوبهم مرض، فإن مرض القلب أشد من مرض البدن؛ لأن مرض البدن يوجب الألم الحِسِّيَّ الذي قد يتحمله الإنسان، وأما مرض القلب ـ والعياذ بالله ـ فإنه يوجب القلق النفسي، وضياع الحياة كلها، والموت المعنوي، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وما أكثر الأوقات التي تضيع على من غفل عن ذكر الله تضيع بلا فائدة، وأنت إذا رأيت من نفسك أن أوقاتك ضائعة بلا فائدة، فيجب عليك أن تلاحظ قلبك، فإن هذا لا يكون إلا من غفلة القلب عن ذكر الله.

ولو نظرت فيما سبق من التاريخ، كيف أنتج العلماء ما أنتجوا من المؤلفات، ومن فطاحل العلماء الذين تخرجوا على أيديهم، في أوقات قد تكون أقل من الوقت الذي عشته أنت، وذلك بسبب ما ملأ الله به قلوبهم من ذكره حتى صارت أعمارهم لا يضيع منها لحظة واحدة، فعليك أن تنتبه لمرض القلب، وأن تبادر بمداواته، لأنه إذا تفشى المرض في القلب ـ نسأل الله العافية ـ قد يموت، ويُطبع عليه فلا يحق حقًّا ولا يبطل باطلًا.

وأما الإرجاف، وتخويف الناس المؤمنين، وإلقاء الذعر في قلوبهم، فهذا أيضًا من الأخلاق الذميمة؛ لأن الواجب على المرء ـ على الأقل ـ أن يكون موقفه موقف المحايد، أما أن يذهب ويرجف بالمؤمنين، ويقول: عدوكم أكثر منكم، ولا يمكن أن تغلبوه، وعدوكم فعل وفعل، فإن هذا من علامات النفاق.

٥ ـ **ويستفاد من الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يدخل على المؤمن ما يقوِّي عزيمته وينشطه،

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

سواء في جهاد في سبيل الله، أو غيره من الأعمال النافعة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ مكلف - عبد - يؤمر وينهى، لقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ إذنْ إذا لم يغرينه الله بهم، فالواجب عليه الكف والتوقف حتى يؤذن له فيه.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: مشروعية إجلاء من في بقائه ضرر، تؤخذ من قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد ثبت نحو هذا الإجلاء في الزاني إذا لم يكن محصنًا، فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن وطنه، أو عن البلد الذي زنى فيه لمدة سنة، وثبت أيضًا الإجلاء في قطَّاع الطريق إذا أخافوا الناس ولم يأخذوا مالًا ولم يقتلوا نفسًا، فإنهم ينفون من الأرض، ويبعدون، وثبت الإجلاء أيضًا في التعزير، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نفى نصر بن الحجاج، وكان رجلًا وسيمًا، حتى إن النساء بدأن يتغزلن به، يقول قائل:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبُهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فأمره عمر أن يحلق رأسه، حتى لا تفتتن الناس به، فلما حلق رأسه، صرن يتغزلن به من وجه آخر بعد الحلق، فرأى عمر رضي الله عنه أن يُنفى، فنفاه إلى البصرة، وكذلك أيضًا نفى الحُطَيْئَةَ.

إذنْ فأصل النفي والإبعاد عن الأرض ثابت في القرآن، يعني: دل عليه القرآن، وهو قوله ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الأوصاف الثلاثة سبب للَّعن: النفاق، ومرض القلب، والإرجاف، لقوله ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ يعني: إذا لم ينتهوا فإنهم يتصفون بهذا الوصف.

٩- **ومن فوائدها**: أن المنافق إذا أظهر نفاقه، فإنه يجوز قتله؛ لقوله: ﴿أُخِذُوٓاْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، هذا إذا لم ينته عن أذية المؤمنين، فإنه يُؤخذ ويقتَّل، ولا يرد على ذلك أن النبي ﷺ كان يعلم من المنافقين أقوامًا بأعيانهم، لأن النبي ﷺ كفَّ عن قتلهم، قال: «**لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، فيكون في ذلك تنفير عن الإسلام، والإسلام ما زال في ابتداء الدعوة إليه، ثم إن المنافقين في عهد النبي ﷺ، يتسترون، ما يعرفون إلا في لحن القول، أو بوحيٍ أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: استعمال المبالغة في الألفاظ لفظًا ومعنىً، أما معنىً ففي قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُوٓاْ﴾ في أي مكان، في بر، أو بحر، أو جو، قريبًا كان أو بعيدًا، أخذًا من عموم الشرط في قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُوٓاْ﴾، والوجه الثاني من المبالغة في اللفظ قوله: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾؛ لأن هذا أبلغ من قوله: وقُتِلُوا قتلًا، ففيه استعمال المبالغة في الألفاظ، والمعاني أيضًا، فالمبالغة في المعاني مأخوذة من الشرط، والمبالغة في الألفاظ مأخوذة من قوله: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]

التفسير

قوله: ﴿سُنَّةَ﴾ السنة بمعنى: الطريقة، وسنة الله، ـ عز وجل ـ نوعان: سنة كونية، وسنة شرعية، أما السنة الشرعية، فإنها تكون بحسب مصالح العباد، وتختلف باختلاف الأمم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وإن كانت هذه الشرائع كلها تتفق في أصول التوحيد فيما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته متفقة، وكذلك في القواعد العامة في الشريعة، وقد أشار الله إليها في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] كم هذه؟ الفواحش، ما ظهر منها ما بطن، والإثم، والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، هذه الأصول الخمس، ذكر أهل العلم أن جميع الشرائع متفقة عليها، لكن من الشرائع التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان، والمكان، والأمم، هذه لابد أن تختلف أحكامها بحسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ.

أما السنة الكونية: فهي ما يجريه الله ـ تبارك وتعالى ـ قدرًا من العقوبات وغيرها، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتغير، وإن كان الله ـ عز وجل ـ قد يُضاعف العقوبة على بعض الناس دون بعض، كما سبق لنا في نساء النبي في قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وقد يجزي الله تعالى بعض العاملين على العمل أكثر من البعض الآخر، كما في هذه الأمة، فإنها أعطيت كفلين من الأجر على من سبقها من الأمم، وكما في أصحاب الرسول ﷺ الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

لكن في العقوبات يقول الله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ قال المؤلف:[أي سن الله ذلك]، وأفادنا المؤلف بهذا التفسير أن ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المصدر المحذوف عامله، أي: سننا بهم سنة الله، أي: سننا بهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين في المدينة سنة الله فيمن سبق، فإن كل من نابذ عباد الله وأولياءه سلط الله عليهم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

وقوله: ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ قال: [من الأمم]، و ﴿خَلَوْا﴾ بمعنى: مضوا، ولهذا قال المؤلف: [من الأمم الماضية، في منافقيهم المرجفين بالمؤمنين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ منه] ولا من غيره، وذلك في السنن الكونية، أما الشرعية فيمحو الله ما يشاء ويثبت، وربما تبدل، لكن سنة الله الكونية، لن تجد لها تبديلًا، لا منه ولا من غيره، في إنزال العقوبة بمن يستحقها، وإن كانت هذه العقوبة لن تختلف، لكن لابد للمخالفين من عقوبة - والله أعلم -.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ
قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٣-٦٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ قال المؤلف: [أي: أهل مكة]، والصواب: أنه أعم، وفي قوله: ﴿يَسْأَلُكَ﴾، ولم يقل: سألك، دليل على أن هذا السؤال ما زال مستمرًا على النبي ﷺ، يسأله الناس عن الساعة، والسؤال عن الساعة يحتمل أن يكون الحامل عليه التكذيب بها، واستبعادها، وهذا إذا كان الحامل عليه التكذيب والاستبعاد يورد من الكفار، وتارةً يسأل عنها سؤال استفهام، متى تكون؟ مع الإيقان بها، وهذا قد يرد من المؤمنين، وتارةً يُسأل عنها، ليبين للناس أنه لا يمكن العلم بها، كما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة، قال: «متى الساعة؟»[1]، وما سأل استبعادًا، ولا استنكارًا، ولا استرشادًا متى يكون وقتها، ولكن إعلامًا بأن وقتها لا يعلمه إلا الله.

ولكن قد يقول قائل: إن قوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ لا يدخل فيه سؤال جبريل؛ لأن جبريل ليس من الناس.

فيُجاب عنه بأن جبريل حين سأل كان على صورة الناس.

(١) رواه مسلم (٨)، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأبو داود (٤٦٩٥).

قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكون، أمر الله نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ بالجواب، وهذا تلقين من الله -عز وجل- لرسوله ﷺ بالجواب، أن يقول هذا، وإنما لقَّنه الله -عز وجل- ليتبين للناس عامة أن قوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ صادر من الله وليس من تلقاء نفسه، حتى يقتنع الناس بذلك ويؤمنوا به.

وقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة فيها حصر، طريقه: ﴿إِنَّمَا﴾ يعني: ما علمها إلا عند الله وحده، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، فلا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله -عز وجل-، وكل ما قيل عن وقت قيامها، من السابقين واللاحقين، فما هو إلا تخرص كاذب، اعلموا ذلك علم اليقين؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأعلم الرسل بالله البشري والملكي محمد ﷺ، وجبريل، وكلاهما لا يعلم، لما سأل جبريل النبي ﷺ، قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١) فإذا كنت تجهل أيها السائل، فأنا مثلك أجهل منك.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا كما يشمل الساعة العامة التي تقوم، ويحشر الناس فيها من قبورهم إلى رب العالمين، تشمل أيضًا الساعة الخاصة، التي هي موت كل إنسان، فإن من مات قامت قيامته، وقامت ساعته؛ لأنه انتهى من الدنيا إلى دار الجزاء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] وجه الدلالة: أنه إذا انتفى علمه بأي أرض يموت، ففي أي زمن من باب أولى، وذلك لأن الأرض يتمكن الإنسان من أن يذهب إليها، أو لا يذهب، والزمن ما له فيه تصرف، فإذا انتفى علمه بما له فيه التصرف، وهو الانتقال من مكان إلى آخر، فانتفاء علمه بما لا يتصرف فيه من باب أولى.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قال: [يعلمك بها، أي: أنت لا تعلمها].

قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ (ما) يحتمل أن تكون نافيةً، يعني: لا يدريك عنها شيء، ويحتمل أن تكون استفهامية، يعني: أي شيء يعلمك بها حتى تسأل عنها، وأيًّا كان، فالله تعالى ينفي علم رسوله ﷺ بها، ويقول له: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

وقوله: [﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ توجد ﴿قَرِيبًا﴾] ظاهر صنيع المفسر أن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جملة مستأنفة لا علاقة لها بالفعل الذي قبلها، وأنها جملة مستأنفة من الله، يعني: لا تدري عنها أنت ولكنها قريبة.

وقوله: ﴿لَعَلَّ﴾ هنا للتوقع، أي: أنها متوقعة، وذهب بعض المعربين إلى أن قوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ مفعول لقوله: ﴿يُدْرِيكَ﴾، مفعول ثان وثالث، لكنه عُلِّق بـ﴿لَعَلَّ﴾؛ لأن ﴿لَعَلَّ﴾ من المُعلِّقات، يعني: وما يدريك عن توقع قربها، يعني: لا تدري عن قربها -أيضًا- ومن لم يدرِ عن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قربها، لا يدري عن وقوعها من باب أولى، وأيًا كان فالله ـ عز وجل ـ نفى أن يكون النبي ﷺ عالمًا بها أو بقربها، وإذا انتفى علم النبي ﷺ، بذلك فعلم غيره من باب أولى أن ينتفي.

ثم إن السؤال عن الساعة ليس بذي قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة ما أشار إليه النبي ﷺ حيث قال حين سأله رجل عن الساعة: «انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدتَّ لَهَا»(١)، هذه هي القيمة، أما متى تأتي؟ أو لا تأتي، ليس ذا قيمة كبيرة، لكن القيمة الحقيقية أن ينظر الإنسان ماذا أعد لها.

ومن ثم أعقب الله تعالى هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يعني: احذر أن تقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللعن قال أهل العلم معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذه الجملة مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الكافرين بالله وبما يجب الإيمان به، وقوله: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أبعدهم عن الرحمة.

ثم قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يعني: ليسوا مبعدين عن الرحمة فقط، وسالمين من الإثم، بل إنهم جُمع لهم بين الإبعاد عن ـ رحمة الله ـ، وبين العقوبة.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيأ لهم ﴿سَعِيرًا﴾ يقول: [نارًا شديدةً يدخلونها]، نارًا يسعرون بها، ـ والعياذ بالله ـ، فهم وقودها والحجارة، نارًا تطلع على الأفئدة، تصل إلى قلوبهم، التي في أجوافهم ـ والعياذ بالله ـ هذه النار ليسوا باقين فيها يومًا، أو يومين، أو سنة، أو سنتين، بل يقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قال: [مقدرًا خلودهم] أشار المؤلف إلى أن الحال هنا: حال مقدرة؛ لأن الخلود ليس حال كفرهم، ولكن حال مجازاتهم يوم القيامة، فالحال هذه حال مقدرة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، و﴿أَبَدًا﴾ هذه تفيد استمرار الزمن في المستقبل، وأزلًا تفيد استمراره في الماضي، ولهذا نقول: إن علم الله علم ثابت لله أزلًا وأبدًا.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذه إحدى آيات ثلاث صرَّح الله فيها بأبدية خلود أهل النار، والآية الثانية في سورة النساء قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]، والآية الثالثة في سورة الجن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]، وفي بعض هذه الآيات، بل في واحدة منها رد واضح على قول من قال: إن النار غير مؤبدة، ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن النار مؤبدة كالجنة، وليس في هذا منافاة لرحمة الله ـ عز وجل ـ وحكمته، وليس فيها إبطال لقوله تعالى في الحديث القدسي «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(٢)؛ لأن هذه العقوبة قد أُنذر بها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أولئك الذين فعلوا ما يستحقونها، وقامت عليهم الحجة بها، فليس لهم عذر، فيكونون قد أُمروا بمقتضى العدل، فعقوبتهم هذه عدل من الله ـ عز وجل ـ وليس فيها ظلم، ومن أُنذر بشيء ففعل السبب الموصل إليه باختياره، فهو الذي جنى على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ قال: [يحفظهم عنها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعها عنهم].

قوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولاهم بحصول المطلوب، ولا نصيرًا ينصرهم بدفع المكروه، فهم لا يجدون أحدًا يوم القيامة يتولاهم ويحصِّل لهم مطلوبهم بحمايتهم من النار وإدخالهم الجنة، ولا يجدون أحدًا ينصرهم من هذه النار، ويدفعهم عنها، ويخرجهم منها بعد الدخول؛ لأن هؤلاء الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

أما العصاة من المؤمنين: فإنهم قد يجدون شفعاء في ذلك اليوم يشفعون فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يُخرج منها.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦]

قوله: ﴿يَوْمَ﴾ هذه ظرف، والظرف والجار والمجرور لابد له من عامل وهو الذي يسمى المتعلق، فأين عاملها؟ يحتمل أن العامل قوله: ﴿أعد﴾ في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، ويحتمل أنها ﴿خَالِدِينَ﴾، ويحتمل أنها: ﴿يَجِدُونَ﴾ فتكون تنازعت فيها العوامل الثلاثة، ويحتمل أن العامل محذوف، أي: اذكر يوم تقلب وجوههم، وكل هذا محتمل، وكل هذا هو الواقع.

فائدة: هنا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مع أن السعير مذكر؛ لأن المراد بالسعير هنا سعير النار وهي مؤنثة.

وقوله: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: تصرف من جهة إلى جهة، كما يقلب اللحم على النار لينضج ـ والعياذ بالله ـ وفي قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ولم يقل يوم يقلبون، لأن هذا الأمر يقع منهم على سبيل الكره ـ والعياذ بالله ـ وأنه ليس باختيارهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يحتمل أنها حال، وهو الأقرب من الهاء في وجوههم، يعني: تقلب، وهم يتحسرون هذا التحسر، ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا﴾، ويحتمل أن تكون استئنافية، حكاية الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم ما يقولون.

قال المؤلف: [﴿يا﴾ للتنبيه ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾] قال المؤلف: ﴿يا﴾ للتنبيه وليست للنداء، لأن ياء النداء لا تدخل إلا على من يصح نداؤه حقيقة أو حكمًا، وليت لا يصح نداؤها؛ لأنها حرف، وهي للتمني، يقول المؤلف: [إنها للتنبيه]، وقيل: إنها نداءٌ لمنادىً محذوف يناسب المقام، يقول: يا ربنا ليتنا أطعنا الله، المنادى محذوف تقديره: يا ربنا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا، فعلى الأول: يكون التنبيه هنا يراد به زيادة التحسر كأنهم ينبهون أنفسهم بهذا التمني

الذي تمنوه، وعلى الثاني: يكون المنادى محذوفًا للمبادرة بذكر التمني دون ذكر من وجَّه الخطاب إليه، وأيًّا كان فإنه يدل على شدة تحسرهم.

وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ هذا التمني ما يعثر حصوله، أو ما يتعذر في ذلك الوقت؟ يتعذر في ذلك الوقت، وهذا أشد تعذرًا من قول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُــودُ يَوْمًا ... فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَــعَــلَ المَشِيبُ

وقوله: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ نحذف الألف في ﴿أَطَعۡنَا﴾؛ لأنها أصلًا جاءت بالألف فنقول: أطعنَ الله، وأطعنَ الرسولا، ولا تقل: إنه يجب أن أشير إلى الألف، لئلا تشتبه النون بنون النسوة؛ لأن السياق يدل على المعنى، فهم ينبهون السامع على أنهم يتمنون هذا، والألف هنا موجودة خطًّا لكن ما ينطق بها لفظًا.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ بالألف، والألف هنا للإطلاق، ومر علينا في هذه السورة نظيرها، قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وسيأتي بعدها كلمة أخرى ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، فهذه ثلاث كلمات فيها ألف تسمى ألف الإطلاق، ثلاث ألفات فيها ثلاث قراءات، قراءة بإثبات الألف وصلًا ووقفًا، وقراءة بحذفها وصلًا ووقفًا،وقراءة بحذفها وصلًا وإبقائها وقفًا، نرى الآن وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ هذا على قراءتين ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ قراءة واحدة، ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ قراءة واحدة، يعني: يجوز أن نقرأها على الثلاث على النشر فنقرأ: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولا وقالوا﴾ هذه قراءة، يعني: أثبتنا الألف وصلًا ووقفًا، والقراءة الثانية: ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنا الرسولَ وقالوا﴾ و ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولْ وقالوا﴾ هذا أيضًا القراءة الثانية، فيها حذف الألف وصلًا ووقفًا، والقراءة الثالثة: ﴿يا ليتنا أطعنَا الله وأطعنَا الرسولَ وقالوا﴾ ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ﴾ هذه التي تثبتها وقفًا لا وصلًا.

وقوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ الرسول هنا اسم جنس يشمل كل رسول أُرسل إلى هؤلاء؛ لأن أهل النار ليسوا مختصين بأمة محمد ﷺ، بل جميع الأمم، فيقصدون بالرسول الجنس، وبالله واحدًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ قال: [أي: الأتباع منهم]، صحيح ما قال المؤلف، الأتباع دون المتبوعين، ربنا، يعني: يا ربنا، فحرف النداء محذوف، إنا أطعنا سادتنا، [وفي قراءة ﴿سَادَتَنَا﴾ جمع الجمع]، وقوله: في قراءة يعني سبعية، وسادة جمع سيد، وسادات جمع سادة، فهي جمع الجمع، قراءتان: ﴿سَادَتَنَا﴾، و ﴿سَادَاتِنَا﴾، وإنما جمعت لكثرة الإتيان في الأمم، والسيد: هو ذو الشرف والقدر في قومه، المقدم فيهم.

وقوله: ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ وهم الذين فوق الأسياد، كالأمراء ونحوهم، فالناس لهم أسياد مُطاعون،

ولهم كبراء فوق هؤلاء، فيقولون: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾، الصنفين جميعًا، وبطاعتهم أضلونا السبيلا.

وقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: فبسبب طاعتنا لهم أضلونا السبيل، والضلال هنا بمعنى الضياع عن الصواب وعن الحق أو التيهان، يعني: تُهنا.

والمراد بالسبيل: الطريق الذي هو طريق الله، فـ (أل) للعهد الذهني، أي: السبيل المعهود الموصل إلى الله، قال المؤلف: [﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ طريق الهدى].

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾

قال المؤلف: [أي: مثليْ عذابنا]، الله أكبر، كانوا في الدنيا يجلونهم ويحترمونهم، ويعظمونهم، ويؤثرونهم على أنفسهم، وفي الآخرة على العكس، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٦،١٦٧] فالمتبوعون يتبرأون وهؤلاء أيضًا يشتمون، ويلعنون يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وهم بهذا الدعاء ليسوا جائرين، لأنهم أرادوا بالضعفين، أن هؤلاء الكبراء ضلوا وأضلوا، فيكون عليهم إثمان: إثم الضلال بأنفسهم، وإثم الإضلال لغيرهم، ولهذا النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزرُهَا ، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١) وقال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت:١٣] فدعاء هؤلاء الأتباع دعاء عدل، وليس دعاء جور؛ لأن هؤلاء المتبوعين مستحقون للعذاب مرتين.

وقوله: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ يقول: [﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ﴾ عذبهم]، لماذا فسر اللعنة بالعذاب؟ لأنهم في النار فهم مطرودون عن رحمة الله، ولكن لو أن المؤلف أبقاها على ما هي عليه لكان حقًا، ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ﴾ يعني: أبعدهم إبعادًا كبيرًا عن رحمتك؛ حتى لا ترحمهم يومًا من الدهر.

وقوله: ﴿كَبِيرٗا﴾ يقول: [عدده، وفي قراءة بالموحدة، أي: عظيمًا] فيها قراءتان: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَثِيرٗا﴾ وهذا باعتبار الكمية، ﴿ولعنًا كبيرًا﴾ باعتبار الكيفية، أي عظيمًا، فإن قلت: كيف يكون فيها قراءتان، والقول واحد صادر من هؤلاء، فهم إما أن يقولوا قالوا كبيرًا، وإما أن يكونوا قالوا كثيرًا، والله ـ عز وجل ـ يحكي عنهم، فما الجواب عن هذا؟

الجواب من أحد وجهين: إما أن بعضهم يقول: كثيرًا، والآخر يقول: كبيرًا، وإما أنهم يقولون أحيانًا كبيرًا، وأحيانًا كثيرًا، فإن قلت: ألا يحتمل أن الواحد منهم يجمع بينهما في كلمة واحدة، بمعنى أن يقول: العنهم لعنًا كبيرًا كثيرًا؟

الجواب: لا، لأن الله ما حكي هذا، بل الكلمة واحدة، إما كبيرًا وإما كثيرًا، ولهذا لا نجمع بين

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

الكلمتين، لا في الآية هذه ولا في قوله ﷺ حين علَّم أبا بكر: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»[1]، وفي لفظ «كبيرًا» ما يجمع بينهما، ما نقول: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا كثيرًا، بل نقول أحد اللفظين، لأن السنة لم ترد بالجمع بينهما، كذلك هنا في القرآن لا يجوز لأحد أن يقول: والعنهم لعنًا كثيرًا كبيرا ، حرام؛ لأنه إذا قال ذلك فقد زاد في القرآن، فنقول إما هذا وإما هذا.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟﴾ قال المؤلف: [مع نبيكم ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ بقولهم مثلًا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ تقدم الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ على أنها صدرت بالنداء، وعلى أنها فيها وصف الإيمان.

وقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ الكاف هنا اسم بمعنى: مثل فهي خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾.

وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ ولكنهم آذوه بدون ضرر، وهذه الآية لها صلة بما سبق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وفي قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ فيها تحذير، وفيها تسلية، أما التحذير فللمؤمنين، لأنهم إذا آذوا نبيهم استحقوا ما استحقه مَنْ آذوا موسى، وفيها تسلية للرسول ﷺ؛ لأنه إن أوذي فقد أوذي من قبله، ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ»[2].

وقوله: ﴿مُوسَىٰ﴾ هو موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل أنبياء بني إسرائيل، وبماذا آذوه؟ قال المؤلف: [بقولهم: مثلًا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر]، هم يؤذونه بغير هذا الكلام، ويؤذونه بالفعل أيضًا، لكن المثل الذي ذكره المؤلف؛ لأنه قال مثلًا كان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما فيه من الشدة، كان حييًّا، وكان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ولكنه هو يغتسل وحده، لا يغتسل معهم، لا يتعرى، فقال بنوا إسرائيل لماذا هذا الرجل يشذ عنا؟ هذا لو لا أن فيه آفة برص، أو أدرة ما انفرد عنا، والآدر كبير الخصيتين، فيقولون: هذا السبب أنه كان يغتسل وحده، ما يغتسل معنا، أو فيه برص، أو غير ذلك وإلا كان يغتسل مع الناس، فأراد الله ـ عز وجل ـ أن يتبين لبني إسرائيل أن الرجل من أحسن خلق الله وأسلمهم، فاغتسل ذات يوم وحده، ووضع ثوبه على حجر، ولما خرج ليلبسه فرَّ الحجر بثوبه، فجعل يلحقه، ثوبي حجر ثوبي حجر[3]، كان يخاطبه، ولكن الحجر مأمور بأمر الله ـ عز وجل ـ ما وقف حتى وصل ملأً من بني إسرائيل، وموسى يمشي وراءه عُريانًا، يقول: لما وصل بني إسرائيل رأوا الرجل، وإذا الرجل سليم ما فيه شيء أبدًا، من أحسن خلق الله، وأسلمهم من العيب، وقف الحجر، فأخذ ثوبه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥٩)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فلبسه، وجعل يضرب الحجر بعصاه، حتى صار فيه أثر من ضرب العصا.

إذن لماذا يضرب الحجر؛ لأنه لما عمل عمل العاقل، بهروبه بالثوب، استحق تأديب العاقل وإلا كان الحجر ما يستفيد، ولهذا الآن صار لنا فيه نوع من التأسي بموسى، حينما يعثر الصبي بالحجر، فإذا ضربت الحجر يهدأ الصبي، ويقف عن البكاء، لكن شتان ما بين المسألتين، نقول: يعني نوع من الأصل.

على كل حال أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أراد الله أن يبين لبني إسرائيل أنه ليس كما قالوا وأنه سليم، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في الفوائد ما في هذه القصة من الحكمة.

قال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ قال المؤلف: [بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل ففر الحجر به حتى وقف على ملإٍ من بني إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه فاستتر به فرأوه ولا أدرة به، وهي نفخة في الخِصية].

رأوا أنه سليم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أفادنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مِمَّا قَالُوا۟﴾ أن الأذية التي أشار الله إليها هي قول.

وقوله: ﴿مِمَّا قَالُوا۟﴾ (ما) اسم موصول والعائد محذوف، والعائد مما قالوه.

قال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ قال: [ذا جاه]، والجاه بمعنى القدر، وعلو المنزلة، فكان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجيهًا عند الله، يعني: ذا قدر ومنزلة رفيعة، وهل وصف الله غيره من الأنبياء بالوجاهة؟

نعم عيسى، حيث قال: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٥، ٥٥] إذا كان موسى وجيهًا عند الله وعيسى، فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم جاهًا منهم، لأنه أفضل الرسل، ولكن هل يلزم من الجاه، أن يتوسل الإنسان بجاه النبي إلى الله؟

الجواب: لا، لأن جاه النبي قدر ومنزلة خاصة بالنبي، ما تنتفع بجاهه، لأن مجرد وجاهة النبي عند الله لا تنفع أحدًا من الناس؛ ولهذا القول الراجح من أقوال أهل العلم أن التوسل بجاه النبي ﷺ محرم.

قال المؤلف: [ومما أوذي به نبينا ﷺ، أنه قسم قسمًا، فقال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله]، وهذا من أعظم ما يكون من السب، لكن سب النبي ﷺ حق له إذا عفا عنه وأسقطه فله الحق، ولا أحد يتهم النبي ﷺ بأنه ما أراد بها وجه الله على الإطلاق، وإن قاله بعض الناس غيرة، كما قاله بعض من قاله من الأنصار حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، قالوا: إن الرجل وجد قومه وأراد أن يُغدق عليهم المال، ونحن قاتلنا، وفعلنا، وفعلنا، ولم يعطنا شيئًا، لكن قاله شبَّان من الأنصار، مالهم قيمة بالنسبة للكبار منهم، ومع ذلك النبي ﷺ خطب فيهم كما تعرفون تلك

الخطبة العظيمة التي بيَّن فيها فضلهم، وبيَّن الحكمة في إعطاء هؤلاء القوم دونهم، وأنه يعطي هؤلاء ليتألفهم على الإسلام، وكي يقوى إيمانهم أو ينكف شرهم، أما الأنصار فليسوا بحاجة إلى ذلك؛ لأن الناس يذهبون بالشاة والبعير، وهم يذهبون برسول الله ﷺ، وشتان ما بين هذا وهذا، حتى قال لهم: «لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا، وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، أَوْ وَادِيًا لَسَلَكْتُ شعبَ الأَنْصَارِ»، وقال لهم: «النَّاسُ شِعَارٌ وَالأَنْصَارُ دِثَارٌ»(١) وقال لهم: «لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ»(٢)، كل هذا أقنعهم حتى جعلهم يبكون، وابتلت لحاهم بالبكاء رضي الله عنهم، لأن هذا يساوي الدنيا ومثل ما قال النبي ﷺ، الذي يذهب بالشاة والبعير، والذي يذهب برسول الله، فرق عظيم بينهم، فهذا فيه حكمة من الله - عز وجل -، أن الله قد يقدر للإنسان ما يكرهه، ليكون بعد ذلك ما يحبه، فموسى ﷺ كره أن يفر الحجر بثوبه بلا شك، ولكن صار فيه حكمة عظيمة، أن ما يتكلم به بنو إسرائيل من الكلام، والاتهام كله زال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الناس ما زالوا يسألون عن تلك الساعة، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى، وهي: أن شأن الساعة عظيم، لأنه إنما يكثر التساؤل عن الأمور العظيمة دون الأمور السافلة.

٢- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب لعلم متى تقوم الساعة.

٣- **ومن فوائدها:** أن علم الساعة عند الله لا يعلمه أحد؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا حصل.

٤- **ومن فوائدها:** أن الساعة قريب، لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ويدل لقربها أن النبي ﷺ كان آخر الأنبياء، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»(٣)، وأشار بالسبابة والتي تليها، يعني: أننا مقترنان، أو أنه ليس بيني وبين الساعة إلا كما بين الأصبع الوسطى والسبابة في القرب.

٥- **ومن فوائدها:** أن الله خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو دليل على أن النبي ﷺ بشر كغيره من البشر، يخاطب كغيره من البشر، فلا يقال" كيف يخاطب الله نبيه، ويقول وما يدريك؟ لو خاطبت إنسانًا وقلت: ماذا يدريك عن هذا الأمر لعد ذلك من باب التنقص، ولكن الله - عز وجل - يخاطب نبيه بما هو أهله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤، ٦٥]

١- من فوائد الآية: أن الله تعالى لعن الكافرين، وأبعدهم وطردهم عن رحمته.

٢- ومن فوائدها: التحذير من الكفر؛ لأنه سبب للعنة.

٣- ومن فوائدها: إثبات العلل والأسباب، يؤخذ من قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ يعني: الكافرين وصف عُلق به اللعن، فهو ربط للعن بالكفر، فيكون في هذا إثبات العلل والأسباب، وهذا كثير.

٤- ومن فوائدها: الردُّ على الجهمية، الذين يقولون: إن الله عز وجل يفعل الأشياء لا لحكمة، بل لمجرد المشيئة.

٥- ومن فوائدها: إثبات وجود النار؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

٦- ومن فوائدها: عظم النار؛ لأن السعير إنما يقال للنار العظيمة المسَّعرة، وهذا أمر ثبت في عدة آيات وأحاديث.

٧- ومن فوائد الآية: تأبيد خلود الكافرين في النار، لقوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وفيها رد على من قال بفناء النار، والذين قالوا بفناء النار طائفة من السلف والخلف، لكن قولهم ضعيف، أما أبدية النار، فقد أجمع عليها السلف، وأهل السنة، ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من المعتزلة الذين يمنعون تـأبيد أفعال الله، ويقولون: إن التسلسل في الأبد ممتنع، كما يرون أن التسلسل في الأزل ممتنع.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المعذَّبين في النار لن يجدوا أحدًا يتولاهم بدفع العذاب عنهم، ولا بمنعه قبل أن ينزل بهم، لقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، الولي الذي يتولاهم، ويحميهم، ويحفظهم من أن ينالهم سوء، والنصير هو الذي يدفع عنهم البلاء بعد نزوله.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾:

١- يستفاد من هذه الآية: شدة عذاب الكافرين ـ والعياذ بالله ـ في النار، حيث إنه ذكر التعذيب على الوجه الذي يكون تعذيبه أعظم إهانة من بقية البدن، ولأن الوجه يُحس بالألم أكثر مما يُحس غيرُه من الأعضاء الظاهرة، ولأن الوجه هو شرف الإنسان وظاهرته، فإذا وقع التعذيب عليه صار هذا أشد في الألم النفسي؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾.

٢- ومن فوائد الآية: أن هذا التقليب بغير اختيار منهم، لقوله: ﴿تُقَلَّبُ﴾ فهم يقلبون فيها ـ العياذ بالله ـ كما تقلب اللحم على النار لشيِّه.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: ظهور التحسر من أولئك الكافرين حين عذابهم، لقوله: ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾، ولكن هذا أمر فات أوانه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن طاعة الله ورسوله سبب للنجاة من النار، لأنهم لم يتمنوا

شيئًا سوى طاعة الله ورسوله التي ينجون بها من هذا العذاب.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

١- في هذه الآية: دليل على اعترافهم أنهم مقلدون، وليسوا متبوعين، لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾.

٢- ومن فوائدها: أن التقليد لا يغني من العذاب، يعني: حتى لو كانوا كبراء وزعماء، وبُيِّن لهم الحق، فإذا خالفوه لأجل موافقة زعمائهم، فإن ذلك لا ينجيهم من العذاب.

٣- ومن فوائدها: تحريم تقليد العالم إذا تبين النص، يؤخذ من أن الله عذب هؤلاء على تقليد كبرائهم، وزعمائهم في مخالفة الحق، فإذا تبين لك الحق، فلا تقل: والله قال العالم الفلاني، وقال الإمام الفلاني، فتكون مشابهًا لأهل النار الذين قالوا: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾.

٤- ومن فوائدها: جواز نسبة الشيء إلى سببه، لقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، مع أن الذي يضل، ويهدي ـ حقيقة ـ هو الله عز وجل، لكن هؤلاء الكبراء صاروا سببًا للإضلال فنسب الإضلال إليهم.

٥- ومن فوائدها: الرد على القدرية، في قولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾ وقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾.

٦- ومن فوائدها: أن موالاتهم لهؤلاء الكبراء والسادة، ستنقلب يوم القيامة عداوة، لقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

٧- ومن فوائدها: تحذير من حول ولاة الأمور، الولاة سواء كانوا وزراء، أو أكبر من ذلك، تحذير من كان حولهم أن يتبعهم في معصية الله، وأنه سيأتي اليوم الذي يندم فيه ويتبرأ، ويدعو عليهم بمثل هذا الدعاء.

٨- ومن فوائدها: أن السادة والكبراء المضلِّين، لا ينفعون أتباعهم يوم القيامة، لقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولأنهم دعوا على هؤلاء، وقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، ولو كانوا ينفعونهم، ما دعوا عليهم.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: التحذير من جلساء السوء، وجهه: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، وأن كل إنسان ترى أنه سيضلك عن سبيل الله، فالواجب عليك البعد عنه، وقد قال الله ـ عز وجل ـ مخبرًا عن هذه الحالة: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧، ٢٨] فلانًا هذا ما هو من الكبراء والسادة، بل أي فلان، قال:

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان:٢٩]، وهذه هي النقطة، فيكون قوله هنا: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ يعني: بعد أن جاءهم الذكر، وتبين لهم الحق تابعوا هؤلاء، فصارت عليهم هذه العقوبة.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الدار الآخرة لا ينقطع فيها التكليف انقطاعًا تامًّا؛ لأن الله أثبت أن هؤلاء يدعون الله، والدعاء نوع من العبادة، ولا نقول: إن الآخرة ليس فيها دعاء، ولا فيها سجود، ولا فيها عمل، بل فيها، لكنها ليست كالدنيا، وإلا فإن الله يقول في سورة نون: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢] هذا تكليف، قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٣].

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة بغض هؤلاء الأتباع للمتبوعين؛ لأنهم دعوا الله أن يضاعف عليهم العذاب، ويلعنهم أيضًا، وليس لعنًا قليلًا، بل كثيرًا وكبيرًا أيضًا، قال: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** تحريم أذية الرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾، ويقصد في النهي التحريم، وقد سبق أن أذية الرسول من كبائر الذنوب، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عناية الله ـ تعالى ـ برسوله؛ حيث يضرب له الأمثال بمن سبقه من الرسل لأجل التسلية، وتهوين الأمر عليهم وأن هذا أمر قد سبقك، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

٣- **ومنها:** تحذير المؤمنين أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم حين تجرأوا على رسل الله، لقوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عناية الله تعالى برسله، لقوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن التبرأة تكون بالقول وتكون بالفعل، تكون بالقول مثل قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]، فنفى عنه الجنون الذي رماه به أعداؤه، وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩] هذه التبرأة بالقول، والتبرأة بالفعل كما جرى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لأن الله تعالى ما قال لبني إسرائيل إنه ليس بآدر، لكنه هيّأ

له هذا الأمر الواقع الذي يكون تبرأة من الله -عز وجل- لرسوله بالفعل.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة موسى، حيث برأه الله مما عيب عليه، هذا من وجه، وحيث قال فيه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى أن العبرة بوجاهة الإنسان عند الله لا عند الخلق؛ لأنه قال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾، فقدم ﴿عِندَ﴾ على قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ إشارة إلى أن المهم أن تكون وجيهًا عند الله، وبماذا يكون الإنسان وجيهًا عند الله؟ يكون الإنسان وجيهًا عند الله تعالى بعبادته، كلما كان الإنسان أعبد لله وأطوع له كان عند الله أوجه، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، فكل من كان أتقى فهو أكرم عند الله وأرفع منزلة.

هذا ما انتهى إليه الشيخ رحمه الله من تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة سبأ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

قال المؤلف: [سورة سبأ مكية إلا الآية السادسة نزلت بعد لقمان فمدنية وهي قوله تعالى:﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية، وهي أربعة وخمسون على الصواب أو خمس وخمسون آية]، الصواب أن تقول: أربع، قوله: مكية إلا كذا المكي: المشهور هو الذي نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة فيعتبر الجمهور المكي والمدني بالزمن لا بالمكان.

وقوله: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ سبق لنا بيان أنه لا يُقبل استثناء شيء من السور المدنية والمكية إلا بدليل، أي أنه إذا كانت السورة مكية فجميع آياتها مكية إلا بدليل، وإذا كانت مدنية فجميع آياتها مدنية إلا بدليل، فاستثناء المؤلف هذه الآية ننظر ـ إن شاء الله تعالى ـ إذا وصلنا لها إذا كان هناك دليل يدل على أنها نزلت في المدينة قبلناه وإلا فلا.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ البسملة تقدم أنها آية مستقلة من كتاب الله ـ عز وجل ـ يؤتي بها للفصل بين السور أو يؤتي بها لبدء السورة إلا في براءة فإنه ليس فيها بسملة؛ لأنها لم تنزل بسملة بينها وبين الأنفال فتركت، وسبق أن قلنا: أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ لأن كل جار ومجرور لابد أن يتعلق بشيء إذ أن الجر والمجرور معمول وكل معمول فلابد له من عامل، وعليه فكل جار أو مجرور لابد له من متعلق أي من شيء يتعلق به وكذلك الظرف، والمتعلق إما أن يكون فعلًا أو مبنيًا على الفعل، هنا يقدر المتعلق فعلًا؛ لأنه الأصل في العمل ولذلك لا يعمل غير الفعل عمل الفعل إلا بشروط وكل شيء لا يتم عمله إلا بشروط؛ لأن الأصل عدم العمل، فكل جار ومجرور لابد له من متعلق؛ لأن الجار والمجرور معمول وكل معمول لابد له من عامل متعلق إما أن يكون فعلًا، أو ما بمعني الفعل، وهنا نقدره فعل ؛ لأنه الأصل في عمل الأفعال، ولهذا غير الأفعال كالأسماء والمصادر وشبهها لا تعمل عمل الفعل إلا بشروط.

أما الفعل يعمل بدون شروط ونقدره متأخرًا أي: لفعل متأخر عن الجار والمجرور لفائدتين،

الفائدة الأولى: التيمن بالابتداء (باسم الله)، والفائدة الثانية: الدلالة على الحصر فنقدر العامل متأخرًا نظرًا لهاتين الفائدتين ونقدره فعلًا خاصًا فنقول مثلًا عند ابتداء القراءة: التقدير باسم الله أقرأ وعند الوضوء التقدير باسم الله أتوضأ وعند الأكل باسم الله آكل وهكذا، وإنما نقدره خاصًا؛ لأنه أدل على المقصود فصلح أن نقدمه عامًّا فنقول التقدير: باسم الله ابتداء أو باسم الله أبدأ، ولكن الخاص أولى فيصير عندنا الآن ثلاثة أمور: لابد من متعلق ومتأخر خاص وهنا باسم الله مفرد مضاف فيعم ويكون المعني بكل اسم من أسماء الله أبدأ وهكذا ذكر الرحمن الرحيم دون غيرهما من الأسماء؛ لأنها البسملة يؤتى بها للاستعانة وأنسب ما يكون للاستعانة هي الرحمة، ولهذا أتبع لفظ الجلالة بهذين الاسمين الكريمين، و(الله) أصله الإله هذا أصلح ما قيل فيه وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، كما حذفت الهمزة من الناس، وأصلها أناس وحذفت الهمزة من شر وخير وأصلها أشر وأخير، وأما الرحمن فهو اسم من أسماء الله دال على سعة رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأن الرحمن على وزن فعلان وهو يدل على السعة والامتلاء، وانظر ذلك في كلمة غضبان وندمان وسكران وعطشان وريان وما أشبه ذلك، تجد أن هذه الصيغة دالة على السعة والامتلاء.

وهذا قال بعض السلف: إن (الرحمن) دال على الرحمة العامة لجميع الخلق، وأما الرحيم: فهي دالة على الفعل أي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يرحم برحمته الواسعة، فالرحيم دال على الفعل، وهو إيصال الرحمة إلى المرحوم، والرحمن دال على الصفة وهي اتصاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الرحمة الواسعة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [حمد تعالى نفسه بذلك، والمراد به الثناء بمضمونه من ثبوت الحمد، وهو الوصف بالجميل لله تعالى].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الحمدُ لله، (أل) يقول العلماء: إنها للاستغراق أي كل و(أل) التي هي للاستغراق، هي التي يحل محلها كل مثل ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: كل إنسان لفي خسر وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي كل إنسان،إذن

فهو معناه أن كل حمد فهو لله، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص، للاستحقاق؛ لأن لا أحد يستحق أن يحمد لذاته إلا الله عز وجل، والاختصاص؛ لأن الحمد المستغرق لكل المحامد لا يكون إلا لله.

يقول المؤلف: [حمد تعالى نفسه بذلك] يعني: حمد الله تعالى نفسه بهذا الوصف، [والمراد به الثناء بمضمونه من ثبوت الحمد] يعني: ليس هذا تجديدًا لحمد الله، ولكنه ثناء على الله تعالى بمضمون الحمد وهو الوصف بالجميل لله تعالى، لو قال المؤلف: الوصف بالكمال لكان أعم، فالحمد وصف المحمود بالكمال فإن كرر وصفه بالكمال صار ثناءً قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيجيب الله: حمدني عبدي: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أثنى عليَّ عبدي، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد على ما له من الكمال الذاتي، والكمال المتعدي للغير أي: على كماله بذاته وعلى كماله بفعله وإحسانه ـ سبحانه وتعالى ـ ويحمد على الأمرين جميعًا، أما غيره فلا يحمد إلا على فعله إن كان فعله مما يحمد عليه، أما حمدًا للذات نفسها فهذا لا يكون إلا لله، فمثلًا إذا حمدنا الله ـ عز وجل ـ على ما له من صفات الكمال كالسمع والبصر والعلم والقدرة والعظمة وما أشبه ذلك فهذا حمد على الكمال الذاتي، وإذا حمدنا الله ـ تعالى ـ على ما له من الإحسان والإنعام، فهو حمد على الكمال المتعدي، إذا حمدناه ـ سبحانه وتعالى ـ على إنزال الغيث وإنزال الكتب وإرسال الرسل ودفع الضرر، فهذا حمد على الكمال المتعدي.

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكًا وخلقًا ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتعليل للحمد؛ لأن هذا الوصف يدل على العلية، أي يحمد الله نفسه؛ لأنه مالك لما في السموات وما في الأرض وقول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يشمل العقلاء وغير العقلاء ولهذا أتي بـ(ما) لأجل أن يشمل هؤلاء وهؤلاء وإنما غلب غير العقلاء؛ لأنهم أكثر من حيث النوع، أما من حيث العدد فإن في هذا شك؛ لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا شك أنهم من العقلاء، وهم لا يحصيهم إلا الله، ما من موضع أربع أصابع في السماء إلا وفيه ملك.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ السموات جمع وجمعت؛ لأنها متعددة فهي سبع سموات، كل واحدة فوق الأخرى وهي مأخوذة من السمو، وهو العلو والرفعة، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أفردت، لكن المراد بها الجنس فتشمل الأراضين السبع؛ لأن الأراضين سبع بصريح السنة وسبع بظاهر القرآن، فهي سبع بصريح السنة لقول النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مِنَ الأَرْضِ شِبْرًا ظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(1) وبظاهر القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ فإن المثلية هنا قطعًا ليست بالصفة، فتكون بالعدد وقول المؤلف: [ملكًا وخلقًا] يعني أنه هو الذي خلقها ـ سبحانه وتعالى ـ وهو المالك لها المدبر، ولو قال المؤلف:

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢) ومسلم (١٣٧/ ١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(وتدبيرًا) لكان أبين وإن كان كلمة ملكًا ليتضمن التدبير، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى ما في السموات والأرض خلقًا، فلم يخلقها إلا الله، وملكًا فلا مالك لها إلا الله وتدبيرًا فلا تدبير لأحد فيها على وجه الإطلاق إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [كالدنيا يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة]، قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ هنا خص الحمد في الآخرة مع أنه محمود في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ لكنه ذكر ذلك؛ لأن ظهور حمده في الآخرة أبين وأوضح فإن في الدنيا من ينكر حمد الله ـ عز وجل ـ ويكفر به ولا يري إلا أن هذه الدنيا طبيعة تتفاعل بذاتها وليس لها مدبر، ومن اعتقد هذا الاعتقاد فهل يمكن أن يحمد الله؟

الجواب: أبدًا لا يمكن حتى لو رأي الخير واندفع عنه الشر فإنه لا يحمد الله؛ لأنه لا يقر به، لكن في الآخرة لا يمكن لأحد إلا أن يحمد الله فالحمد في الآخرة لله كما أنه أيضًا في الآخرة لا أحد يحمد إلا النادر قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أما بقية الناس ممن لم يحمدوا الله عز وجل ليس لهم حمد في الآخرة، فأنت في الدنيا تحمد من يُحسن إليك لكن في الآخرة ما تحمد صديقك ولا صاحبك، اللهم إلا أن يكون ذلك بابًا لدخول الجنة، يقول: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ كالدنيا يعني: كما أن له الحمد في الدنيا، وكأن المؤلف بهذا التقدير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنه حذف الشق الآخر لدلالة السياق عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يعني: والبرد قوله: [يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة]، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾، ولكن الصحيح أنه يحمد حتى على جزائه الكافرين، فإن الله ـ تعالى ـ قال في آخر سورة الزمر لما ذكر سوق أهل النار إلى النار وسوق أهل الجنة إلى الجنة قال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الله تعالى يحمد على كمال عدله وكمال فضله ومجازاته لأهل النار من باب العدل فيحمد عليه قال: [يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة وهو الحكيم في فعله الخبير بخلقه] الحكيم يقول المؤلف: [في فعله] وهذا فيه قصور؛ لأنه حكيم في شرعه وفعله أيضًا الذي هو القدر فليست الحكمة هي خاصة بالفعل، بل حتى في الشرع الذي يكون بكلامه؛ لأن الشرع هو الوحي وهو كلام الله ليس فعلًا له، بل هو كلام، وكذلك فعله هو حكيم فيه والحكمة مأخوذة من الإحكام، وهو الإتقان ولهذا يقال في تفسيرها: إنها وضع الشيء موضعه.

وهذا هو الإتقان ولكنه سبق لنا أن الحكيم له معنيان: الحاكم والمحكم؛ لأنها مأخوذة من الحكم ومن الإحكام وأن حكم الله حكم شرعي وكوني، وأن الحكمة نوعان أيضًا: صورية ـ وغائية، الصورية بمعنى: أن يكون هذا الشيء على صورة معينة موافق للحكمة، والغائية بأن الغاية من هذا الشيء حكمة نحمد الله عليها، فمثلًا كون الصلاة على هذا الوجه، والصيام على

هذا الوجه والوضوء على هذا الوجه، حيث الأمور الشرعية وكذلك في الأمور الكونية كون خلق الإنسان على هذا الوجه والشمس والقمر وما أشبه ذلك هذه حكمة صورية كونه خلق هذا الشيء المعين هذا موافق للحكمة، ثم الغاية من خلق ذلك الشيء حكمة أخرى تكون هذه الحكمة الصورية والغائية في الشرع وفي القدر وإذا أضاف اثنين إلى اثنين تكون أربع حكم غائية في الشرع، حكمة صورية في الشرع، وحكمة غائية في القدر وحكمة صورية في القدر وحكمة غائية في الشرع، وكل ذلك ثابت لله عز وجل، وإذا آمن الإنسان بهذا اطمئن إلى أحكام الله الكونية والشرعية ولم ينقدح في ذهنه أي اعتراض؛ لأنه يعلم أن هذا صادر عن حكمة، وإذا علم أنه صادر عن حكمة؛ فإنه لا يبقى في قلبه شك من أن هذا هو عين الصواب وهو الذي تقتضيه الحكمة، وبهذا يطمئن الإنسان إلي شريعة الله ويطمئن الإنسان أيضًا إلى قدر الله ـ عز وجل ـ ويعلم أن هذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره.

وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ يقول المؤلف: [بخلقه] والخبير معناه: ذو الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور ومنه سمي الزارع خبير؛ لأنه يستر الحب في الحرث، فالخبير ذو الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور وهل ينافي ذلك العلم في ظواهر الأمور؟

الجواب: لا بل إنه يؤيده؛ لأن الذي يعلم البواطن من باب أولى أن يعلم بظواهرها، والحكمة دائمًا يقرنها الله ـ عز وجل ـ بالعزة وبالعلم، هنا قرنها بالعلم الذي تضمنته الخبرة وإنما يقرنها الله بذلك، ليتبين أن حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ مبنية على علمه، وأنه إذا تراءى لك أن هذا الشيء ليس بحكمة فذلك لنقصان علمك وإلا لو كان عندك علم وفهم لعرفت لحكمة فيها شرعه الله وفيها قدره ثم فصل شيئًا من علمه كما في الآيات التالية.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[سبأ:٢]

۞ التفسير ۞

فقال: [﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كماء وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كنبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رزق وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد فيها من عمل وغيره]، هذا من باب التفصيل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما اسم موصول تفيد العموم و﴿يَلِجُ﴾ بمعنى: يدخل

فكل ما يدخل في الأرض فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمه يقول المؤلف: [كالماء وغيره] يدخل في الأرض أو يخرج منها؟ يدخل ويخرج فإذا أنزل الله الماء من السماء أدخله في الأرض ينابيع وإذا أراد الله تعالى أن يخرج خرج بآلة أو بغير آلة وقوله: [وغيره] وما غير الماء يدخل في الأرض؟ الأموات والأشياء التي لها جحور في الأرض نقول: والنبات أيضًا بذوره كلها داخلة في الأرض، المهم أن كل ما يلج في الأرض لا يحصى ـ أصنافه فضلًا عن أفراده ـ وهو واسع، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمه حتى الذرة التي تدخل في جحرها يعلمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يقول المؤلف: [كنبات وغيره]، النبات واضح وغيره كالماء والمعادن والحيوانات التي تنتشر في الأرض، وهل نقول: أمِن ذلك الإنسان؟ نعم، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ الإخراج والإدخال ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يقول: [﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق وغيره].

الرزق كيف ينزل من السماء، هل أنت تبقى في البيت كل يوم ويعطيك التمر وينزل عليك من السماء أو الثياب؟ لا ولكن الرزق يكون بالمطر مثلًا ينزل الله المطر فتنبت الأرض، ويخرج منها الماء والمرعى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، وغير هذا، وينزل أمر الله عز وجل ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] وتنزل أيضًا الملائكة، وتنزل الشهب ترمى بها الشياطين، وأشياء كثيرة من هذا والله يعلمها.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يقول: [يصعد ﴿فِيهَا﴾ من عمل وغيره]، هنا يعرج بمعني يفعل كذا ويعرج تعدى بإلى كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] وهنا قال: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾، والنحويون اختلفوا في مثل هذا فمنهم من قال: إن الحرف بمعني أنه ينافذ الفعل، يعني: يجعل حرفًا بمعنى حرف آخر ينافذ الفعل، كمثل (في) بمعني (إلى)، ومنهم من يقول: بل الحرف باقٍ على معناه الأصلي ويضمن الفعل معنى ينافذ ذلك الحرف وهذا مذهب البصريين فيقول: يعرج مضمن مع معناه الظاهر وهو العروج معني الدخول، يعني: (يعرج) فيدخل فيها، ليس المراد أنه يعرج فقط لا يدخل يعرج ويدخل فيها.

وسبق لنا في «شرح مقدمة التفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية: أن هذا المذهب هو المذهب الصحيح المحقق، وهو أن نُضَمِّن الفعل معنى يناسب الحرف؛ لأن هذا التضمين يجعل للفعل معنيين أحدهما المعني الظاهر من اللفظ والثاني المعني الذي تضمنه ليناسب الحرف الذي تعلق به، ويظهر لك ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (يشرب بها عباد الله) معلوم أننا لا نشرب بالعين من معرفتنا أن الإناء من آلة الشرب أنت تقول: أنا أشرب من الإناء صح، لكن

يشرب بها وهي عين لا يمكن أن تكون إناءً له يرى بعض العلماء أن نجعل الباء بمعنى من أي يشرب منها ويرى آخرون متضمن يشرب معنى يروى إذا ضمنا يشرب بمعني يروى استفدنا فائدتين: الشرب والري، لكن إذا قلنا: إن الباء بمعني من لم نثبت هذه الفائدة فالمهم أن المذهب الصحيح هو أننا نضمن الفعل معني يناسب الحرف ولا نجعل الحرف معني حرف آخر قال: [﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لهم]، هذا أيضًا من التخصيص بلا دليل، كلمة الرحيم لم يذكر متعلقها والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: بأوليائه فعليه يكون أعداؤه لا رحمة لهم هذا كلام المؤلف! والغفور أيضًا لأوليائه فأعداؤه لا مغفرة لهم ولكن الصحيح العموم؛ لأن هذين الاسمين مطلقان فيبقيان على مطلقهما فهو رحيم حتى بأعدائه؛ الكافر قد أعطاه الله تعالى صحة ورزقًا من اللباس والطعام والشراب والمسكن والزوجة والأهل وكل هذا رحمة لكنها رحمة عامة يعني أنها لا تكون خاصة كرحمة المؤمنين والمغفرة أيضًا يستحقها من تاب من عداوته لله، وإذا تاب فهو ولي من أولياء الله عز وجل ولكن قد يكون في الإنسان عداوة وولاية لقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهم مستحقون لمغفرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله أعلم.

مسألة: هل الرحمة عامة أو خاصة؟

الجواب: عامة كما قلنا قبل قليل: الرحيم معناه أن الرحمة تختص بالفعل يعني إيصال الرحمة بالمرحوم.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

١ ـ **من فوائد الآية السابقة:** ثبوت الحمد الكامل لله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الحمد الذي ثبت له هو أهل له؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأن اللام كما قلنا: للاستحقاق والاختصاص.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ثناء الله ـ عز وجل ـ على نفسه لأجل مصلحة العباد؛ لأننا لا نستطيع أن نثني على الله أو نحصي ثناء عليه، فإذا حمد الله نفسه فهذا من مصلحتنا؛ لأنه يعلمنا ـ عز وجل ـ كيف نحمده وكيف نثني عليه وهو أهل لأن يمدح نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ ويثني عليها لمصلحة عباده؛ وإلا فهو في غني عن كونه يظهر لنا من صفات الكمال ما يظهر، وفي غني أن نعرف ذلك ولكن هذا من أجل مصلحتنا، وهذه الفائدة قد تكون مبنية على سؤال المقدر كيف يثني الله تعالى على نفسه؟! وهل مدح الشخص نفسه يعتبر منقبة أو لا؟

والجواب: أن يقال: أن الله يمدح نفسه لا لحاجته إلى أن نثني عليه أو أن نعرف كماله؛ لأنه كامل لكن من أجل مصلحتنا؛ إذ أننا لا نحصي ثناء عليه، ولا نعرف ماذا نثني به عليه إلا عن طريق وحيه.

٤ - **ومن فوائدها**: عموم ملك الله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حمد نفسه على عموم ملكه، وقد يحمد نفسه على فعله مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقد يحمد نفسه على شرعه مثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن السماوات جمع - يعني أكثر من واحدة -؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ومن أدلة أخرى قد ثبت أنها سبع، وكذلك الأرض.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ظهور كمال الله - عز وجل - يوم القيامة أظهر مما يكون في الدنيا لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فالملك عام وظهور الحمد جليًا واضحًا يكون في الآخرة ومنها ثبوت البعث لقوله: (الآخرة).

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات حكم الله - عز وجل - الكوني والشرعي، وإثبات حكمته المتعلقة بالكون والمتعلقة بالشرع، ويتفرع على هذه القاعدة: وجوب التسليم بقضائه الكوني والشرعي، بحيث لا نريد أي اعتراض، حتى وإن جاء على ظاهره خلاف الحكمة فإنه يجب أن نتهم عقولنا؛ لأنه إذا ثبت أنه - سبحانه وتعالى - حكيم في الحكمين الكوني والشرعي لزم من ذلك التسليم للقضاء الكوني والشرعي؛ لأنه صادر عن حكمة، لكن هذه الحكمة قد تخفى علينا.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: عموم علم الله، يؤخذ من قوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ وما جاء من تفصيل بعدها؛ لأن الخبير هو العليم بالبواطن والعالم بالبواطن عالم بالظواهر من باب أولى.

٩ - **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عز وجل - وهما الحكيم والخبير.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من الأساليب البلاغية: الإجمال ثم التفصيل، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ يعلم إلى آخره من الآيات، وفائدة هذه الطريقة البلاغية هي: أن الشيء إذا جاء مجملًا تشوقت النفوس إلى تفصيله فجاء التفصيل وارد على نفوس تتطلع إليه، فإذا ورد التفصيل على نفوس تتطلع إليه كان أوقع في النفس وأرسخ في القلب، لو قلت لك: حصل البارحة شيء عظيم أو ما دريت البارحة الساعة الواحدة من الليل حدث أمر عظيم ما علمت؟ فإنك تتشوق لهذا وتتطلع إليه ما هذا الشيء العظيم؛ لكن لو قلت لك: حصل البارحة مثلا أن رمي بنجم فاستنار نور عظيم على كل حال تقبل هذا الخبر، لكن ليس كالأول؛ لأنك ستقول: وما هذا الشيء العظيم؛ حتى يرد على قلبك وقد تشوقت إليه كثيرًا.

١١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام تصرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ في مخلوقاته هذا يلج وهذا يدخل وهذا ينزل وهذا يعرج ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** وهي فائدة بلاغية وهي: البداءة فيما يمس الإنسان وإن كان غيره أشرف منه؛ لأنك ستتحدث عما يلج في الأرض وما يخرج منها قبل أن تتحدث عما ينزل من السماء وما يعرج فيها هذه الفائدة بناءً على أن السماء أشرف من الأرض وهل هذا مُسلَّم؟ هل هو مُسلَّم أن السماء أشرف من الأرض أو الأرض أشرف من السماء؟ هناك خلاف بين العلماء ويوجد جدل كثير منهم من يرى أن السماء أشرف ويقول: أن السماء لو لم يكن فيها إلا الملائكة المقربون وهي جهة علو والسماء فيها أيضًا الله ـ عز وجل ـ فوقها فهي أشرف، ومنهم من يرى أن الأرض أشرف يقول: لأن الله تعالى خلق منها أفضل المخلوقات وهم الأنبياء والرسول، فهي أشرف وهذا النزاع وإن كان نزاعًا قد يكون من فضول العلم، لكنه على كل حال في أول وهلة يرى الإنسان أن السماء أشرف من الأرض، ولكن ذكرت الأرض هنا؛ لأنها تمسنا أكثر ونعرف عنها أكثر.

١٣ ـ **وفيها أيضًا من الفوائد:** إثبات الرحمة والمغفرة لله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ وهنا قدم الرحيم على الغفور، وإن كان الأكثر تقديم الغفور على الرحيم لما يكون في السماء والأرض من المصالح والمنافع والمصالح والمنافع، من آثار الرحمة، ودفع المصائب من آثار المغفرة؛ لأن المغفرة محو الذنب التي تزول فيه المكروهات والرحمة حصول الخير، الرحمة عند أهل السنة والجماعة صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ حقيقة ثابتة له وعند الأشاعرة يقولون: أن الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإحسان فيفسرونها بالشيء المفعول لله يعني بالنعم، أو بإرادة النعم؛ لأنهم يقرون بصفة الإرادة فيفسرون الرحمة بإرادة الإنعام والإحسان أو بالإنعام والإحسان نفسهما ولكن سبق لنا القول الصواب المقطوع به هو أن تجرى نصوص الكتاب والسنة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على ظاهرها ولا نقول اللائق بالله إلا على سبيل الإيضاح فقط؛ لأننا نعلم علم اليقين أن ظاهرها غير مراد؛ لأنه لو كان ظاهر نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته التشبيه أو التمثيل، لكان ظاهر القرآن والسنة في هذا الباب هو الكفر ؛لأن من شبه الله بخلق فقد كفر حيث كذب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

ومحال أن يكون ظاهر الحق باطلًا وكفرًا، ولهذا إذا قلنا :أن نصوص الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته تجرى على ظاهرها اللائق بالله، فهذا من باب الإيضاح وإلا فنعلم علم اليقين الذي هو عندنا أيقن من الشمس أن ظاهرها هو ما يليق بالله، فلا حاجة إلى التقيد به لكننا قد نقيده على سبيل الإيضاح فقط، والرحمة هل هي صفة كمال من حيث هي بقطع النظر عن موصوفها أو

صفة نقص؟ هي صفة كمال في الواقع.

قال الشاعر ـ المتنبي ـ:

وَضْعُ النَّدَى في مَوْضِع السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

حكمة هذا يقول: وضع الندي في موضع السيف مضر بالعلا والأخلاق؛ لأن الذي يستحق السيف أحسن ما نضع له السيف فمثلًا ، واحد مجرم مفسد في الأرض أمسكناه وقدرنا عليه نقول له يا ولد هذا المنزل لك وهذه السيارة لك وهذا المستودع المملوء بالخزائن من الذهب والفضة لك؛ لأنك مجرم، هل هذا حكمة أو لا؟ ليس حكمة؛ لأن وَضْعَ السيف في موضع الندى، ولو أن إنسانا صاحب خير وإحسان ومستحق لأن يكرم فجيء به فوضعنه على نطع القتل ونقول له: نريد أن نقتلك؛ لأنك محسن هل هذه حكمة أو لا؟ ليس بحكمة، فالبيت هذا من أعظم ما يكون من أبيات الحكمة، والمتنبي معروف أنه حكيم الشعراء.

إذن نقول: إن الرحمة صفة كمال، فإذا أضيفت إلى الله صارت أكمل وأكمل.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الذين كفروا بالله ـ عز وجل ـ وبقدرته وبحكمته قالوا: لا تأتينا الساعة قالوا: هذا اللفظ أو قالوا: معنى هذا اللفظ؟

الجواب: قالوا هذا اللفظ لأن الأصل أن ما نقوله: عن الغير فإنه منقول بنصه فهم قالوا: لا تأتينا الساعة وقالوا في موضع آخر: ﴿يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وتنوعت عباراتهم في إنكار القيامة قالوا لا تأتينا الساعة يعني لا يمكن أن تأتينا الساعة مع أن الله يقول ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، فكذبوا بذلك قول الله مستندين إلى استبعاد عقولهم أن ترجع هذه العظام النخرة حتى تعود إنسانًا حيًا وما علموا أن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فشبهتهم إذن في هذا الإنكار، هي الاستبعاد هذه واحدة ثانيًا يقولون: إذا كنتم صادقين في إننا سنبعث ايتوا بآبائنا ابعثوهم لنا، وهذا

تحدٍ في غير موضعه؛ لأن الرسل لم تقل لهم أنكم تبعثون الآن تبعثون متى؟ إذا مات الخلق، وانتهت الخلائق ومات الخلق كله بعثوا، فهل هذا التحدي في غير موضعه؟ لا هذا التحدي يكون في موضعه إذا كانت الرسل تقول: إن الناس سيبعث أولهم الآن مع وجود آخرهم صح أن يقال: أيتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أم وقد قالوا أنهم سيبعثون بعد أن يفنى الخلق كله ثم يبعث فهذا ليس في التحدي؛ إذن شبهتهم الاستبعاد والتحدي في غير موضعه حيث قالوا: ايتوا بآبائنا يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بلى هذه يؤتى بها لإبطال النفي قل: بلى وربي أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يبدأ بخلاف ما قالوا مؤكدًا ذلك بالقسم واللام والنون ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قلت: بلى، جواب لإبطال النفي وربي قسم والنون للتوكيد واللام أيضًا للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي الساعة وهذا أحد المواضع الثلاثة التي أمر الله بها نبيه أن يقسم عليها والموضع الثاني قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

والموضع الثالث قوله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإنما أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقسم على ذلك لأهميته وعظمه؛ ولأنه مقتضى البلاغة فإن مقتضى البلاغة، أن المنكر يؤتى له بالكلام مؤكدًا بمؤكدٍ واحد أو اثنين أو ثلاثة حسب ما يقتضيه المقام ولأهمية هذا الموضوع أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقسم عليهم فإن قلت ما فائدة القسم أمام من ينكر؛ لأن من أنكرك بدون قسم أنكرك مع القسم فما الفائدة؟

الجواب:من وجهين الوجه الأول أن هذا هو مقتض ى اللسان العربي، ومقتضي اللسان العربي أن الأخبار تؤكد بأنواع المؤكدات.

ثانيًا: أن التأكيد يدل على أن المتكلم جازم بما أقسم به، جازم بهذا المقسم عليه، فبما أننا جازمون بالله ـ عز وجل ـ بوجوده وكماله، فنحن جازمون أيضًا بما أقسم عليه وهو إتيان الساعة قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ عالم الغيب بالجر يقول: بالجر صفة والرفع خبر مبتدأ و(علام) بالجر ففيها إذن ثلاث قراءات عالم مرفوعة ومجرورة علام مجرورة فقط .

وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ مناسبة ذكر هذه الصفة لإثبات القيامة ظاهر؛ لأن قيام الساعة من الغيب، والذي أخبر به هو علام الغيب فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب وجب علينا قبوله ولهذا فإن الخبر إذا صدر من جاهل لا يدري فإننا نرفضه، وإذا صدر من عالم فإننا نقبله، وعلم الله الغيب أمر معلوم حتى عند الكفار، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر بأشياء تقع ويشاهدونها، وهذا شيء لا يمترون فيه فلهذا وصف الله نفسه بهذه الصفة بعد إثبات إتيان الساعة؛ لأنه أمر معلوم عندهم، فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب الذي يقرون بعلمه الغيب صار الخبر مؤكدًا واقعًا.

وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالجر صفة لرب؛ لأن (رب) مجرور فنقول في إعرابه: الواو حرف قسم

وجر، (ربي) مقسم به مجرور بالكسرة الظاهرة، ورب مضاف أو مضاف إليه مبني على السكون في محل جر، هل هذا صحيح ؟ لا، يكون معربًا مجرورًا بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة مناسبة فليست، الكسرة هذه كسرة العراق وإنما قلنا ذلك ربما يرد علينا مثل قولنا ربي الله كيف تكون مجرورة؟ ما هي مجرورة كسرت لأجل المناسبة، فالكسرة إذن ثابتة قبل أن يدخلها حرف الجر، فلذلك تكون الكسرة الإعرابية مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، إذن هو مجرور ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ صفة لرب وصفة المجرور مجرور، أما بالرفع فيكون خبر مبتدأ يعني: هو عالم الغيب والجملة كلها إما حال من رب وإما نافية لبيان اتصاف الله تعالى بهذا العلم والغيب ما غاب عن الإنسان وهو أمر نسبي، لكن الغيب المطلق لا يكون إلا لله ـ عز وجل ـ أقول: إن الغيب أمر نسبي؛ لأنه قد يغيب عنك ما لا يغيب عن غيرك، فصاحب الدكان الذي عند المسجد الآن تصرفه الذي يتصرفه الآن بالنسبة لنا غيب بالنسبة لمن عنده شهادة، فالغيب أمر نسبي ولذلك الخبر عن الشيء الواقع هل يعتبر من الغيب الذي يختص به الله؟ لا، لأنه يعلمه من وقع عنده وحدث عنده لكن الغيب المستقبل، هذا هو الذي من خصائص علم الله عز وجل ولهذا من ادعى علم الغيب في المستقبل صار مكذبًا لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومن ادعى علم غيب واقع فهذا الغيب ليس غيبًا مطلقًا ولكن غيبًا نسبيًا يعلمه من شاهده ولا يعلمه من لم يشاهده فغيب الله في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ يشمل الأمرين؛ لأن كل ما حدث ولو في أزمان بعيدة جدًا فالله عالم به وكل ما سيحدث فالله عالم به، فالغيب المطلق للواقع والمنتظر هذا من خصائص علم الله والغيب المقيد بالواقع هذا ليس من خصائص علم الله بل هو حاصل لكل من شاهده، قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ يقول: [يغيب عنه] يعني عن الله ـ عز وجل ـ [﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ مثقال وزن ذرة أصغر من النملة] ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هذا كقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ صفة من الصفات السلبية، وعالم الغيب من الصفات الثبوتية، والصفات الثبوتية كما تقرر كلها صفات كمال والصفات السلبية تأكيد لصفات الكمال؛ لأنها تتضمن ثبوت الصفات الكمالية الخالية من هذه الصفة التي بالنقص، ولهذا ما من نفي في صفات الله إلا وهو متضمن لإثبات ضده، بل لإثبات كمال ضده مثل إذا قلنا: لا يعزب عن علم الله شيء فذلك لكمال علم الله وإذا قلنا: أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يمسه لغوب فذلك لكمال قدرته وعلى هذا فقس كل صفات النفي في المضاف إلى الله عز وجل يراد بها إثبات كمال الضد، كأنه وصف الله بالكمال الخالي عن هذا النقص وقوله ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ يقول المؤلف: [أنها صغار النمل] أفادنا المؤلف أن من النمل ما

هو صغير وما هو كبير ونحن في عرفنا على خلاف ذلك، عندنا أن النملة نوع معين من الذر أم لا؟ عندنا الذر وعندنا شيء يسمونه نمل النمل هذا معروف أكبر من الذر ودون ذلك فكلها نمل وكلها ذر ولهذا نهي الرسول ﷺ يشمل هذا كله وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، وهو اللوح المحفوظ هل في هذا علم ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ نعم يكون فيه إثبات العلم؛ لأنه لا كتابة إلا بعد العلم؛ لأن كتابة المجهول لا تتصور، فيكون فيه فائدة زائدة على إثبات العلم وهو أن معلوم الله ـ عز وجل ـ مكتوب في اللوح المحفوظ.

الثالث: بيان ما يلزم على نفيه من لوازم باطلة فإن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

الرابع: لا تحتمل التأويل وهي مكملة بعضها بعضه فليس فيه ما يمنع إرادة الظاهر، فتعين المصير إليه، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بأن الساعة تأتيهم هل لها نظير في القرآن؟

نعم، الإقسام على هذا المعنى، قوله ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ في موضع ثالث أيضًا أمر الله نبيه أن يقسم به قوله ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إنكار الكافرين للبعث لقوله: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن إنكار البعث كفر لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فإن قلت ما وجه الدلالة؟ فوجه الدلالة: أنه لو لا أن لهذا الوصف تأثيرًا لما قاله الله تعالى بهذا الوصف وهو قولهم: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، فلما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ علم أن هذا القول لا يصدر إلا عن كافر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تعظيم شأن القيامة لأمر الله نبيه محمد ﷺ أن يقسم على أنها ستقع ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال رحمة الله عز وجل لعباده حيث أخبرهم بالبعث وأكده بالمؤكدات اللفظية والمعنوية والحسية؛ لأن الإيمان بالبعث هو الذي يحمل الإنسان على القيام بطاعة الله إذ لو لم يكن هناك بعث ما عمل الإنسان للآخرة أبدًا فنقول: إن هذا دليل على رحمة الله تعالى بالعباد أن يؤكد لهم البعث الذي يكون فيه الجزاء عن العمل من أجل أن يعملوا لهذا اليوم.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن إخفاءها موكل إلى علم الله؛ لقوله: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، فهي خبر من أخبار الله ـ سبحانه وتعالى ـ الغيبية التي لا يطلع عليها إلا الله والآيات في هذا المعنى، والأحاديث أيضًا كثيرة، فمن ادعى علم الساعة فهو كافر لأنه مكذب للقرآن والسنة وإجماع المسلمين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: شمول علم الله لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾.

٧- **ومنها**: إثبات السماوات، وأنها عدة يؤخذ من قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجمعها ففيه إثبات للسموات وأنها عدة، والأرض هل هي كالسموات؟ الجواب: نعم كما تدل عليه نصوص أخرى غير هذه الآية.

٨ - **ومن فوائدها**: أن هناك شيء أصغر من الذرة لقوله﴿وَلَآ أَصْغَرُ﴾ وهو الوغث، فإن في مخلوقات الله عز وجل ما لا تكاد تراه بعينك، ما لا تراه إلا بالمجهر ومع ذلك إذا رأيت هذا الشيء - سبحان الله العظيم - في مجهر يكبر يجعل الشيء كبر مليون مرة إذا رأيت الذي لا تراه بعينك تجد له جميع مصالحه أيدي وأرجل وأعين وكل شيء حتى الزغب الذي على ظهره لوقايته تجده موجود وهذا دليل على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى - وأنه لطيف خبير.

٩ - **وفيها أيضًا**: إثبات اللوح المحفوظ؛ لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها**: أن هذا اللوح كتب فيه مقادير كل شيء الصغير والكبير في قوله ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

١١ - **ومنها**: أن هذا الكتاب مبين أي مفصل لكل شيء، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ففي هذا اللوح المحفوظ كل ما يكون إلى يوم القيامة كما جاءت بذلك السنة موضحة هذا.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إباحة القسم بل وجوبه إذا دعت الحاجة إليه من أين يأخذ من أمر الله نبيه أن يقسم على قيام الساعة، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ولهذا نجد بعض الأئمة رحمهم الله إذا ذكروا حكم مسألة من المسائل أحيانًا يقسمون عليها وهذا يوجد في كلام الإمام أحمد وربما في كلام غيره لكن لم نطلع عليه يعني أحد يسأل هل تقول بكذا وكذا فيقول إي والله فيقسم على الشيء تثبيتًا له وتأييدًا وإيحاءًا بطمأنينته إليه بالنسبة للمخاطب، وعلى هذا فيجوز للمفتي أن يحلف على الحكم إذا دعت الحاجة إلى ذلك بل قد يكون ذلك واجبًا حسب ما تقتضيه الحالة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، هل يستفاد من هذه الآية الكريمة أن الخطاب الخاص بالرسول ﷺ يشمله والأمة؟ ليس في هذا دلالة ظاهرة على هذا، ولكنه سبق لنا أن الخطاب الموجه إلى الرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام قسم فيه الدلالة الصريحة على أن المراد به الأمة: يعني: مع الرسول ﷺ، والقسم الثاني دلالة صريحة على أنه خاص بالرسول ﷺ، والقسم الثالث ما ليس فيه دلالة ولا قرينة فهذا مختلف فيه عند أهل العلم هل هذا الخطاب الموجه لرسول ﷺ، يشمل الأمة مقتضى الصيغة أم يشمل الأمة في مقتضى الأسوة؟ مثال الذي فيه الدلالة على ما

اختص به الرسول عليه الصلاة والسلام مثل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢]، فهذا بلا شك خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، ومثال ما قام الدليل على عمومه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، ففي قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، دلالة واضحة على أن الخطاب للرسول ﷺ مراد به الأمة وما عدا ذلك فهو كثير فهل يشمل الأمة الحكم بمقتضي الخطاب أو بمقتضى الأسوة؟ فمنهم من يقول: إنه يشمل الأمة في مقتضى الخطاب لكنه وجه للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إمامها وأن نظير ذلك أن تقول لقائد الجيش: اذهب إلى الجبهة الفلانية، فالمراد اذهب ومن معك من يتبعك من الجنود ومنهم من يقول: إنه خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يشمل الأمة لكن الأمة مأمورة بالتأسي به؛ لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

والخلاف في هذا قريب من اللفظ للاتفاق على أن هذا الحكم يشمل الأمة إذن لو سمعنا شخصًا ينكر الساعة، لنا أن نحلف هل نحن مأمورون على أن نحلف على ثبوتها؟ نعم مأمورون على أن نحلف على ثبوتها.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تأكيد الحكم على حسب ما تقتضيه الحاجة أو تأكيد الخبر على حسب ما تقتضيه الحاجة، وقد ذكر البلاغيون أن الخبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يلقى إلى خالي الذهن أو إلى المتردد أو إلى المنكر فإن ألقي إلى خالي الذهن، فإنه لا حاجة إلى تأكيده ولا يمكن أن يؤكد حسب قواعد البلاغة إلا لنكرانه وإن نقل إلى متردد حسن توكيده ليزول عنه هذا التردد والشك، وإن نقل إلى منكر وجب توكيده فالأول: ابتدائي والثاني: طلبي والثالث: إنكاري، مر علينا هذا في البلاغة، هذه المسألة تأكيد هذا الخبر ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ من أي الأقسام الثلاثة الإنكاري، أو الطلبي، أو الابتدائي؟الإنكاري؛ لأنه يخاطب به قوم منكرون، فكان تأكيده واجبًا ذكرنا أثناء الشرح إيرادًا وهو أنه إذا كان هؤلاء منكرين فلا فائدة من القسم لهم؛ لأن المنكر للخبر سواء أقسمت أم لم تقسم ما يصدقك وأجبنا عن ذلك.

مسألة: هل القسم قد يمنع فعل البر والتقوى؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أصح ما قيل فيه ألا تجعلوا اليمين مانعًا لكم من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

❁ قال الله تعالى:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٤ – ٦]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: ليجزي [فيها] الضمير يعود على الساعة ليجزي (اللام) هنا للتعليل وقد علمنا من قواعد اللغة العربية أن حروف الجر لابد لها من متعلق فأين متعلق هذه اللام؟ متعلق هذه اللام قوله﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: (لتأتينكم) ليجزي، فهذه اللام لتعليل وهي متعلقة بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ويجزي بمعنى: يكافئ، أو يثيب، والفاعل هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقوله: [فيها] أشار المؤلف لقوله فيها إلى أن الجر والمجرور متعلق بـ (ليأتينكم)؛ لأن الضمير في قوله: [فيها] تعود على الساعة ليجزي فيها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بالقلب وعملوا الصالحات بالجوارح، والإيمان إذا أطلق شمل الأعمال الظاهرة، وأعمال الجوارح، وكذلك العمل إذا أطلق يشمل الإيمان بالقلب لأن الإيمان بالقلب من أعمال القلوب فإذا قرنا جميعًا صار الإيمان في القلب والعمل في الجوارح الإيمان سر والعمل علانية.

وقوله ﴿ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع التصديق المستلزم للقبول والإذعان ليس مجرد تصديق بل هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان القبول في الأخبار والإذعان في الطلب، فيقبل مثلا ما أخبر الله به ورسوله ويقبل كون هذا الحكم فرضًا وكونه تطوعًا وما أشبه ذلك ويذعن لذلك بمعني أنه يتعبد لله بمقتضى ما آمن به وبمقتضى ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وفي قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عملوا الصالحات يعني عملوا الأعمال الصالحات فتكون الصالحات وصفًا لموصوف محذوف وحذف المنعوت جائز إذا قامت القرينة عليه.

قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ المَنعُوتِ والنَّعْتِ عُقِل ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعتِ يَقِلْ[1]

(١) البيت رقم (٥١٩) من ألفية ابن مالك.

ومن حد المنعوت قوله تعالى ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي دروعًا سابغات، فعلى هذا تكون الصالحات صفة لموصوف محذوف أي الأعمال الصالحات وما هي الأعمال الصالحات؟ العمل الصالح هو الذي جمع بين أمرين الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ والمتابعة للرسول ﷺ فإن فقد الأول لم يكن صالحًا وكان مردودًا على العامل وإن فقد الثاني لم يكن صالحًا وكان مردودًا على العامل أيضًا، الدليل في الأول قال الله تعالى في الحديث القدسي «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» (١) وفي الثاني: قال النبي ﷺ «مِنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْس عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ» (٢) أو «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْس مِنْهُ فَهُو رَدٌّ» (٣) فلا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلا بهذين الشرطَيْنِ (الإخلاص والمتابعة) للرسول ﷺ، لو أن رجلًا أحدث بدعة من البدع يتدين بها لله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجد من قلبه الاطمئنان إليها والخشوع والبكاء لكنه مبتدع في دين الله هل تكون عملا صالحًا؟ لا تكون، حتى وإن زين للإنسان هذا العمل واطمأن إليه فإنه ليس من العمل الصالح، فلا يكون مقبولًا، ولا نافعًا، بل يأثم به الإنسان ؛ لأنه من التقرب إلى الله تعالى بما يكره والتقرب إلى الله تعالى بما يكرهه نوع من الاستهزاء بالله عز وجل أرأيت لو أتيت إلى ملك من الملوك وأهديت إليه قارورة فيها – أعزكم الله – بول ما تريد أن تذهب به إلى التحليل – هل تكون مكرمًا له؟ لا، لأنه يكره هذا الشيء كيف أهدي إليه طيبًا لا بأس بذلك أن أما تهدي إليه هذا الشيء تتقرب إليه بذلك فهذا ضد ما يريد وهو نوع من الاستهزاء بهذا المكرَّم أو المعظَّم، إذن الأعمال الصالحات التي جمعت بين شَرْطَيِ الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ والمتابعة لرسول ﷺ يوجد بعض الأعمال مما يكره في الشرع، لكن الإنسان يطمئن إليها ويرتاح لها فنقول: لا تغتر بهذه الراحة وهذه الطمأنينة فإن ذلك من تزيين الشيطان عباد الأصنام الذين جعلوها شفعاء لهم عند الله يرتاحون لهذا ويرون أنها واسطة بينهم وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع ذلك فهي من الشرك مثال هذا يوجد بعض الناس يغمض عينه في الصلاة ويقول إن ذلك أدعى للخشوع وهذا مِنْ تزيين الشيطان؛ لأن تغميض العين في الصلاة لغير سبب مكروه، وخلاف هدي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد كان لا يغمض عينه، ولكنه إما أن ينظر إلى موضع سجوده أو إلى تلقاء وجهه، أما أنه يغمض عينيه فهذا خلاف السنة ولهذا كرهه الفقهاء ـ رحمهم الله ـ نعم لو كان هناك سبب، للتغميض كما لو كان أمامك شيء يجهد عينيك، فغمض عينيك فإنه لا بأس بذلك.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٦/ ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان جزائهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبهم فبين هذا الجزاء بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والإشارة في قوله ﴿أُولَئِكَ﴾ تعود إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهو مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، و﴿مَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، والجملة الثانية من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول فعندنا الآن مبتدآن ﴿أُولَئِكَ﴾ و﴿مَغْفِرَةٌ﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ولهم جار ومجرور خبر مقدم لمغفرة و﴿مَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، أين الرابط؟ الضمير في ﴿لَهُمْ﴾؛ لأنه يعود على المشار إليهم قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تنبيهًا على علو مرتبتهم؛ لأن هذا الصنف من الناس هو أعلى طبقات الناس الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقوله: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾بها زوال المكروه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ به حصول المطلوب فلهم مغفرة لذنوبهم وخطاياهم، فيغفر الله لهم الخطايا والذنوب؛ بأن يتجاوز عنهم ويسترها عليهم؛ لأن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه وهي مُشتقة من المِغْفَر: وهو الذي يُلْبَسُ على الرأس عند الحرب، وفيه فائدتان: ستر الرأس ووقايته من السهام، فالمغفرة إذن فيها ستر الذنوب، والتجاوز عنها، وعدم العقوبة عليها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرزق بمعني العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم، والكريم بمعنى الحسن في كيفيته وفي كميته، وقد أشار الله تعالى إلى أن حُسن هذا الرزق لا تبلغه العقول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾فثواب هؤلاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات ثوابهم أن تغفر سيئاتهم وأن يجازوا على عملهم بالرزق الكريم قلت في ﴿كَرِيمٌ﴾ أنه حسن في كميته وكيفيته، فكميته لا تحصى، ولا تفنى ولا تبيد وكيفيتها أيضًا لا يدركها العقل، أو القلب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ تكلمنا سابقًا وقلنا: أن القرآن مثاني كما وصفه الله به، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ ومثاني هذه غير المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾؛ لأن المراد بـ (السبع من المثاني) الفاتحة كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ فالمثاني معناه كتاب متشابه، مثاني: أنه تُثَنَّى فيه المعاني فغالبًا إذا ذكر جزاء المتقين، ذكر جزاء الكافرين، وإذا ذكر وصف الجنة، ذكر وصف النار، إذا ذكرت الأوصاف المحبوبة إلى الله ذكرت الأوصاف المكروهة إليه لماذا؟ لأنه لو ذكر المطلوب فقط من أوصاف، أو جزاء أخذ الإنسان الرجاء حتى أمن مكر الله وإن ذكر المكروه من ذلك أخذه القنوت واليأس

فكان الله ـ عز وجل ـ يذكر هذا، ثم يذكر إلى جانبه الشيء الأخر، حتى يكون الإنسان سائر إلى ربه بين الخوف والرجاء؛ لأن هذا هو الاعتدال أن تكون خائفًا راجيًا في سَيْرِكَ إلى ربك؛ لأنك إن غلَّبتَ الرجاء كنت من الآمنين مكر الله؛ لأن مَنْ غلَّب الرجاء صار يعمل الذنب ويقول: أن الله يغفر لي، ويتهاون بالواجب، ويقول أرجو الله أن يغفر لي، وَمَنْ غلَّب الخوف دخل في القنوت من رحمة الله وذكرنا أن بعض العلماء خالف في هذا، وقال: أنه ينبغي أن تغلب الرجاء؛ لأنك قمتَ بما أمرتَ به فارجُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثوابه؛ لأن هذا من باب إحسان الظن بالله، وإذا كنت في مقام المعصية فغلّب جانب الخوف لتردع نفسك عمَّا تريد أن تفعله من معصية، وأن بعض العلماء ذهب مذهب آخر وقال: في حال المرض تقدّم جانب الرجاء؛ لأنك الآن في مقام الضعف فتغلِّب جانب الرجاء وإحسان الظن بالله ـ عز وجل ـ، فلا تموتن إلا وأنت تحسن الظن بربك ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا كنت في حال الصحة غلّب جانب الخوف، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه، والإنسان طبيب نفسه، في الواقع لا شك أنك إذا رأيت نفسك تميل إلى الباطل، فإنه يجب عليك أن تخوفها بالله عز وجل، لا ترجها لأنك إن رجوتها في هذه الحال ماذا تصنع؟ تُقْدِمُ على المعاصي.

ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: [في إبطال آيات القرآن] فجعل في الآية محذوف تقديره (في إبطالها) ومعني سعوا أي مشوا بشدة هذا في الأصل ومنه السعي أي الركض، فالمراد أن هؤلاء يسابقون ويتسارعون إلى إبطال آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، إبطالها بالنسبة لهم لا يقومون بها، وإبطالها بالنسبة لغيرهم يصدون الناس عن دين الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فهؤلاء سعوا غاية السعي في آيات الله ـ عز وجل ـ لإبطالها وإخفاقها.

وقوله: ﴿سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لم يبين بماذا سعوا؟ لأن هؤلاء يسعون في إبطال آيات الله أحيانًا بالصراع المسلح، يعني: يهاجمون الديار ويقاتلونهم حتى يردوهم عن تدينهم، وأحيانًا بالسلاح الفكري فيبثون فيهم الشبهات في دينهم، وفي نبيهم، وفي ربهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأحيانًا يسعون في ذلك بالشهوات؛ فيبثون في الناس حب اللهو والشهوة، ومن هذا ما تبثه وسائل الإعلام الخبيثة في الدول الكافرة، والآن تشبهت البلاد الإسلامية بها فتجدهم يدعون إلى أسافل الأخلاق، يدعون بالقلم وبالصورة، ويصورون النساء الفاتنات، وعلى صفة مذرية ـ والعياذ بالله ـ ويكتبون بالدعوة إلى ذلك، هذا الأمر هل تظنون أنه يمس العقيدة أو البدن فقط؟ يمس العقيدة في الواقع؛ لأن الإنسان إذا أصبح بهيميًا ليس له إلا إشباع بطنه، وإشباع غريزته، فإنه يبقى لا صلة له بالله، أهم شيء عند هذا الذي انغمس فيه من الشهوات واللهوات، فتجده يُعرِض عن دين الله ولا يهتم به، ولذلك مِنْ أَضَرّ ما يكون على البلاد الإسلامية بعد بثّ السموم

الفكرية، بث السموم الشهوانية؛ لأن الشهوانية هذه يميل إليها الإنسان بفطرته التي تمليها عليه نفسه الأمارة بالسوء؛ فيدخل فيها مكرهًا، فإذا انغمس ـ نسأل الله العافية ـ فيها، فإنه يندر أن ينتشل نفسه منها، المهم أن الذين كفروا يسعون سعيًا حثيثًا في إبطال آيات الله أن تنشر، أو أن يعمل بها، أو يتجه الناس إليها بكل ما يستطيعون من قوة، إما بالصراع المسلح، وإما ببث الأفكار المشككة المشبهة، وإما ببث الشهوات حتى يُعرِض الناس عن دينهم.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ قال: [القرآن] الصواب أن ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا أعم من [القرآن]؛ لأن الساعين في آيات الله ليسوا في هذه الأمة فقط حتى في الأمم السابقة فإن فيهم من يسعى في آيات الله أليس كذلك؟ مثل فرعون يحدث قومه يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] ويحثهم على أن يكفروا بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وغير ذلك أيضًا من الأمم الأخرى كلهم يسعون في آيات الله أي في إبطالها وصد الناس عنها وعلى هذا فنقول: إن المراد بآيات الله هنا أعم من القرآن يشمل السعي في أي آية من آيات الله [وقوله﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وفي قراءة هنا وفيها يأتي إذن معجزين] الأصل معجزين يسعون في آياتنا معجزين، [وفيها يأتي معجزين أي مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا فيفوتونا لظنهم أن لا بعث ولا عقاب] وهناك قراءة ثانية سبعيتان أو أحداهما شاذة سبعيتان كذا؛ لأن من اصطلاح المؤلف [أنه إذا قال: وهناك قراءة فهي سبعية، أما إذا قال (وقرئ) فهي شاذة] هذا اصطلاح خاص للمؤلف لو وجد في هذا التفسير وفي قراءه تعلم أنها قراءة سبعية، وإذا وجدت (وقرئ) فهي قراءة شاذة والفرق بينهما: أن القراءة السبعية يجوز أن يقرأ الإنسان بها في صلاته ويتعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ بها، وأما الشاذة فهي على اسمها شاذة، لكن هل يحتج بها في الأحكام؟ يوجد خلاف بين العلماء. إذن فيها قراءتان (معجزين) و(معاجزين) المعجز معناه: الذي يريد أن يعجز غيره بدون أن يكون من الغير مقابلة له، فيكون الإعجاز من طرف واحد، أي أنهم يريدون بهذا أن يعجزوا الله ـ عز وجل ـ في عدم مؤاخذتهم وعقابهم، لأنهم آمنون من مكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، (معاجزين) تكون مِنْ طرفيْنِ، كل واحد منهم يريد إعجاز الأخر، فكأنهم لطغيانهم وعدوانهم جعلوا أنفسهم في مقام الصراع مع الله ـ عز وجل ـ وإن كان الله ـ عز وجل ـ، يريد أن يعجزهم فهم أيضًا يريدون أن يعجزوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد سبق أن القراءتيْنِ قد تدلّ كل واحدة منها على معني يُكمّل القراءة الأخرى، فأيهم أبلغ المعجز أو المعاجز؟ المعاجز أبلغ في الطغيان؛ لأنه أراد أن يجعل نفسه حربًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ مقابل له – سبحانه وتعالى – فما جزاؤهم؟قال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الجملة نقول في إعرابها كما قلنا في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فهي مبتدأ وخبر، والجملة بعده ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ العذاب: بمعنى العقاب، والرجز يقول المؤلف: [سيء العذاب] الرجز: هو السيئ من كل شيء، فإذا قال:

عذاب من رجز، فمعناه: سيئ العذاب، فعذابهم هذا - والعياذ بالله - سيء العذاب بل إنه أسوأ العذاب، فإن أعظم عذاب يُعذَّب به البشر هو عذاب النار فهو أسوأ العذاب، وقوله ﴿أَلِيمٌ﴾ أي [مؤلم بالجر والرفع] يعني قراءتان: صفة لرجز أو صفة لعذاب، لأن كلمة (أليم) فيها قراءتان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أو ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أما كون (أليم) صفة (لعذاب) فهي كثيرة في القرآن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثير يعني: ما يصف الله العذاب إلَّا بالألم، وأما الرجز فإنها صفة له؛ لأنها أقرب من عذاب، وعليه، فإذا قلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قلنا إنها صفة لعذاب، وإذا قلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، قلنا إنها صفة لرجز، ويجوز أن تقرأ بهذا وبهذا، بل يستحب لك أن تقرأ بالقراءتيْن جميعًا، والثلاثة إذا كان فيها ثلاث قراءات؛ لأن اختلاف القراءات كاختلاف الصفات في العبادات وقد مر علينا أن الأفضل فيما جاء من العبادات على صفات متعددة، الأفضل أن تعمل بهذا مرة، وبهذا مرة حتى تحصل على السنن كلها وتعمل بها، وهكذا القراءات، ولكن إياك أن تقرأ وأنت شاك في القراءة يعني لا يجوز أن نقرأ إلا ونحن متيقنون أن هذه القراءة الصحيحة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ (يرى) بمعني [يعلم]؛ لأن الرؤية تكون بمعني الرؤية بالعين، وتكون الرؤية بالقلب؛ والرؤية بالقلب هي العلم، ورأي بمعني علم تأتي في القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ نراه بمعني نعلمه، يعني ليس المعني نراه بأعيننا؛ لأنه لم يقع وليس المعني نظنه؛ لأن الله منزه عن الظن وعلى هذا فيكون نراه بمعني نعلمه هنا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي يعلم، لكنه إذا جاءت (يري) بمعني يعلم دلَّت على أن العلم في أعلى مقامات العلم، وأنَّ المشاهد بالعين يرى رؤية بالغة كالذي يشاهد، وقوله ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أعطوه وهل المراد بهم أهل الكتاب أو هو عام؟ يقول المؤلف: [الذين أوتوا العلم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه] والصواب: أنها أعم من ذلك وأن المراد بالذين أوتوا العلم: كل من أعطاهم الله تعالى العلم، فيشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والنجاشي - رَحِمَهُ اللهُ - من النصارى، ورأي أن الذي أُنزِلَ إلى النبي ﷺ حقّ وعبد الله بن سلام من أحبار اليهود رأي أن الذي أُنزل على النبي ﷺ هو الحقّ، وكذلك أيضًا مَنْ أعطاه الله علمًا من هذه الأمة، فإنه يرى أن الذي أنزل إلى النبي ﷺ هو الحق، بخلاف من كان جاهلًا، فإن إيمانه إيمان تقليد، وهو ليس كإيمان الذي آتاه الله العلم، ويدل على أن المراد بالذين أوتوا العلم ما هو أعم، قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فالذين أوتوا العلم هم الذين يَرَوْنَ أن ما أنزل إلى النبي ﷺ هو الحقّ؛ وذلك بما آتاهم الله تعالى من العلم الراسخ في قلوبهم، ولهذا تجد عبادة العامي يعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ

عبادة أشبه ما تكون بالعادة وإن كان في قلبه الإنابة والخشوع والاستحضار، لكنه ليس كالذي يعبد الله تعالى على بصيرة وعلى علم؛ لأن في قلب هذا من اليقين ما ليس في قلب الأول، فيكون عامًا، يرى الذين أوتوا العلم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إذا كانت (يرى) علمية فإنها تنصب مفعولين أين المفعول الأول؟ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ اسم موصول، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ ، المفعول الثاني، أما ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى فهي فاعل قوله ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني [القرآن] فإن الله تعالى أنزله إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ؛ لأن الوحي ربوبية خاصة إذ لا أحد يشارك النبي ﷺ من هذه الأمة في ذلك فلهذا أضاف إليه الربوبية وحده.

فقال﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ للعناية بهذا المنزل إليه والمنزل أيضا وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقدم أن معني الربوبية هو: الخلق والملك والتدبير، فالله تعالى خالق النبي ﷺ ومالكه ومدبره قال المؤلف: أي [القرآن] هو الحق، الحق هذا هو المفعول الثاني، و(هو) ضمير فصل لفظه لفظ الضمير، لكنه ليس ضميرًا، ولذلك لا نقول: أنه اسم، وأيضًا لا نقول: له محل من الإعراب يعني: لا محل له من الإعراب وليس باسم لكنه جيء به للفصل والدليل على أنه لا محل له من الإعراب، قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لو كان له محل من الإعراب لقال: (هم الغالبون)، ولكنه قال: (هم الغالبين) وتأتي الغالبين خبر كان، فدل ذلك على أن الضمير ليس له محل من الإعراب، لكن ما فائدته؟ ذكر العلماء أن له ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: الفصل بين الصفة والخبر والفائدة الثانية: الحصر والفائدة الثالثة: التوكيد فهو فيه ثلاثة أشياء الحصر والتوكيد والتفريق، أما الفصل بين الخبر والصفة، فمثاله: زيد الفاضل، كلمة (الفاضل) هنا يحتمل أنها صفة لـ (زيد) وأن الخبر لم يأتِ، فيكون الإنسان الآن مترقب للخبر، كأن يكون تقديره: زيد الفاضل حاضر، إذا قلت زيد الفاضل حاضر، صارت (الفاضل) هنا صفة لا شك و(حاضر) خبر، فإذا قلت: (زيد الفاضل) فقط، يحتمل أنك تريد أن تصف زيدًا بأنه فاضل، والخبر لم يأتِ أليس كذلك؟ فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن يكون الفاضل الآن خبرًا أم لا؟ نعم، يتعين هذا وجه كونه فاصل بين الصفة والخبر،وهو مؤكد أيضًا؛ لأنك إذا قلت: (زيد الفاضل) و(زيد هو الفاضل) هذه آكد بلا شك، كذلك أيضًا مفيد للحصر؛ لأنك إذا قلت: (زيد هو الفاضل) معناه، لا غيره، فضمير الفصل إذن يفيد ثلاث فوائد: الحصر، والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

يقول ـ عز وجل ـ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الحق بمعني: الشيء الثابت، فقولك: أحقّ الشيء؟ أي أثبته، (حقت كلمة ربك) أي: ثبتت ووجبت، فما هو الثبوت في القرآن؟ هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فالحق إذا أضيف إلى الحكم فمعناه: أنه حكم عادل، ولهذا لو تنازع خصمان

عند القاضي، وحكم لأحدهما بما تقتضيه الشريعة قلنا: هذا حق؛ لأنه عدل، ولو حكم بخلافه قلنا: هذا ليس بحق هذا باطل؛ لأنه حكم بغير حق، فالحق في الأحكام هو العدل، وفي الأخبار الصدق، فالذين آتاهم الله العلم يعلمون أن هذا القرآن حق في أحكامه، وحق في أخباره، فأحكامه كلها عدل؛ لأنها وضعت الشيء في نصابه، وجعلت الحق لمستحقيه، وهي أخباره أيضًا حق يعني ثابتة، ما فيها كذب، فإذا قلت: هذا خبر حق أي صدق، هذا حكم حق أي: عدل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال العلماء: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ [طريق ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الله ذو العزة المحمودة] يهدي بمعني: يدل، فالهداية هنا: هداية دلالة وإرشاد، والهداية نوعان: هداية توفيق، وهداية دلالة، أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا الله عز وجل قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وأما هداية الدلالة فثابتة لكل ما يكون به الإرشاد والدلالة، فالقرآن يهدي إلى صراط مستقيم والنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾، يعني يهدي أي: يدل وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يعني: الله، وهنا قال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فأضافه إلى هذا الاسم العظيم وهو الدال على العزة، إشارة إلى أن مَنْ تمسك بهذا الصراط كانت له العزة، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أيضًا إشارة إلى من لزم هذا الصراط فيكون له من الحمد بقدر تمسكه بهذا الصراط هذا الوجه الأول.

وأما الوجه الثاني: أن من لزم الصراط كان في مقام محمود، أما العزيز الذي هو اسم الله فإن العزيز مَنْ له العزة، والله تعالى له العزة جميعًا ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العزة التي وصف الله بها تتضمن ثلاثة معانٍ: عزة القدْر، وعزة القهْر، وعزة الامتناع، أما عزة القدر معناها: أن الله تعالى ذو قدر عظيم، وأما عزة القهر: ذو قهر عظيم، وغلبة لا يغلبه أحد، وأما عزة الامتناع فمعناها: أن الله -عز وجل- يمتنع عليه النقص بوجه من الوجوه فلا يمكن أن يناله نقص أبدًا، هذه هي العزة المضافة إلى الله -عز وجل- عزة قدر، وعزة قهر، وعز امتناع، يُقَال مثلًا: هذا عزيز عَلَيّ، أي ذو قدْر شريف عندي، وقال تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ يعني: غلبني، هذه عزة القهر والغلبة ويُقَالُ: أرضٌ عِزَاز، أي: قوية شديدة ما يؤثر فيها وَطْءُ الأقدام، وهذه عزة الامتناع، فالله -عز وجل- موصوف بالعزة بمعانيها الثلاثة.

وأما الحميد فيقول المؤلف: [أنه بمعني المحمود] وصحيح أن فَعِيل تأتي بمعني: مفعول ومنه قولهم: قَتِيل بمعني: مَقْتُول، وجَرِيح بمعني مَجْرُوح، لكنها تأتي بمعني الفاعل أيضًا، مثل: عَلِيم

بمعني: عَالِم، عَزِيز عازٍ، حكيم بمعني مُحْكِم، وهكذا تأتي بهذا المعني، فإذا كانت تأتي بالوجهيْنِ جميعًا أي بالفاعل والمفعول فهل الأولى أن نجعلها مقصورة على المفعول أو نجعلها شاملة؟ شاملة فهو - سبحانه وتعالى - بمعني حامد وبمعني محمود، أما كونه حامدًا فما أكثر ما يُثْنِي الله عزّ وجلّ على عباده المؤمنين أم لا ؟ هل الله يثني أو لا يثني؟ يُثْنِي إذن هذا حمد فهو حامد - سبحانه وتعالى -، أما كونه محمودًا فظاهر، فإن الله له الحمد على كل حال، والحاصل أن تفسير المؤلف الحميد بالمحمود فيه قصور، والصواب أنه بمعني محمود وبمعني حامد، وأن له الحمد - سبحانه وتعالى - في الدنيا والآخرة هل إضافة الصراط إلى اسم الله الحميد فيه فائدة؟ قلتُ: إن فائدته أنه يدل على أنه مَنْ تمسك بهذا الصراط فإنه عزيز ومحمود على التزامه بهذا الصراط.

سؤال: هل تظهر للمغفرة آثار؟

الجواب: لا، هو لما ذكر المغفرة، فإن المغفرة ما تظهر أثارها إلا هناك، ولكن كما قلت الأحسن أن نقول أن هذا عام، فإن قلتَ إننا نجد من المؤمنين العاملين الصالحات مَنْ هو فقير، فأين الكرم في الرزق؟! نقول كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[1]، فقد يكون الإنسان عنده مال كثير ولكن حاله حال الفقراء.

سؤال:هل يُوجد مِنْ أهل العلم مَنْ لا يرضى أن ما أُنزِل هو الحقّ؟

الجواب: فنقول: لا يمكن هذا، كل مَنْ أُوتِيَ عِلمًا فإنه يرى أن ما جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - هو الحقّ، لكن يكون معاندًا مستكبرًا، هذه مشكلة، يعني مكابرة، أمرٌ ما فيه إلا السيف ليسحق، وأن كل إنسان يُؤتَي العلم لابد أن يشهد بما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛لأن ما جاء به الرسول مطابق للواقع، فلابد أن يعلم أنه الحق، وقد قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فهم يستيقنون بها ويعلمون أنها الحق، لكنهم يجحدون وقال عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

الفوائد:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

١- **من الفوائد في الآية الكريمة:** أن أفعال الله - سبحانه وتعالى - معللة، بمعني أن لها علّة، فمن أين يُفهم ذلك؟ من اللام ﴿لِّيَجْزِيَ﴾؛ لأن اللام للتعليل وهذا يؤيد مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، وتعلمون أن الجهمية وكذلك بعض الأشاعرة يُنكرون أن تكون أفعال الله تعالى لحكمة، ويقولون: إن أفعاله لمجرد المشيئة، قالوا: لأن الحكمة غرض من الأغراض التي تحمل على الفعل والله - سبحانه وتعالى - منزه عن

(١) متفق عليه: البخاري: ٦٤٤٦ - مسلم: ١٠٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

الأغراض، ونقول لهم إن هذا الذي تقولونه مصادمة للنصوص، ولو تأملنا القرآن لوجدنا فيه كثيرًا من الآيات تدل على إثبات الحكمة لله ـ عز وجل ـ ،ثم إن الغرض إن كان لمصلحة الغير فهو مدح وثناء، وإن كان لحاجة ليس بها نقص بوجه من الوجوه فهذا من تمام الحكمة، وقد سبق لكم القاعدة الخبيثة الذين يقولون فيها: أن الله منزه عن الأعْرَاض والأغْرَاض والأبْعَاض، فإذا سمعت هذا الكلام تقول: هذا كلام طيب منزه عن الأعراض، يعنون بذلك: نفي أفعاله الاختيارية، يعني أنه لا يَنْزِل ولا يأتي ولا يتكلم وما إلى ذلك؛ لأن هذه أعراض تحدث وتزول، ومنزه عن الأبعاض يعنون بذلك نفي الوجه واليدين والعينين وما أشبه ذلك، لأن هذه أبعاض بالنسبة لنا، والأغراض يعنون بذلك: نفي الحكمة، والقرآن يرد قولهم هذا.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: فضل الإيمان والعمل الصالح وترتب الثواب الجزيل عليه كما في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الفرق بين الإيمان و العمل الصالح عند الجمع بينهما؛ لأن هنا ما قال الذين آمنوا فقط، ولا عملوا الصالحات فقط، بل جمع بينهما، وقد سبق لنا أنْ قلنا: أنه إذا جُمِعَ بينهما صار الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الجوارح.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الإيمان فقط يعني الذي في القلب فقط لا يكفي، بل لا بد مِنَ العمل الصالح؛ لأنه رتب الجزاء على قيام الوصفيْنِ وهما الإيمان والعمل الصالح، لكني أقول: إن كان الإيمان صادقًا فلابد أن يكون العمل صالحًا؛ لقول النبي ﷺ « **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١).

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن العمل ليس مقبولًا ولا محمودًا ولا مثابًا عليه حتى يكون صالحًا؛ لقوله﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومتى يكون صالحًا؟ إذا جمع شرطي الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فإن فقد الإخلاص فليس بصالح، وهو مردود على فاعله، قال الله تعالى: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢)، وإن فقد المتابعة فهو مردود غير مقبول؛ لقول النبي ﷺ « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، ولا تتحقق المتابعة إلا بشروط ستة: أن يكون العمل موافق للشرع في (سببه وجنسه وقدره وكيفيته وزمانه ومكانه)، لا تتحقق المتابعة حتى يكون العمل موافق للشرع في الأمور الستة، فلو أحدث الإنسان عبادة لسبب غير شرعي فهي مردودة، لو قال: كلما سمعت نباح الكلاب صليت ركعتين تقبل أو لا ؟ لا تقبل؛ لأنه علّقها بسبب غير مشروع فلا تُقْبَلُ، لو أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

أحدًا من الناس ضَحَّى بفرس - أنثى الخيل - قال أنا عندي شاة تساوي مائتين ريال، وعندي فرس تساوي عشرون ألف ريال، هل لو ضَحَّى بالفرس تُقْبَلُ؟ لا؛ لأنه مخالف للشرع في الجنس، لو أن أحدًا تعبد لله عز وجل بعبادة محددة بقدْر معين، فزاد في قدْرها كما لو صلّى سِتَّ صلوات قال: إن المدة بين العشاء والفجر طويلة تحتاج إلى زيادة في الصلاة، والمدة بين الفجر والظهر طويلة تحتاج إلى زيادة في الصلاة، فجعلها سبع مرات ما تقولون؟ لا تقبل؛ لأنه خالف القدْر، وإذا صلّى خمسًا في الرباعية، أو ثلاثًا في الثنائية، فإنها لا تقبل، لو قال قائل: إذا سبح الرجل دبر الصلاة مائتي مرة فهل ترفضون هذا التسبيح كلّه، أم تقولون ما وافق الشرع فهو مقبول، وما زاد عليه فهو مردود؟ إذا كانت العبادة التي حصل فيها الزيادة تتجزأ، بمعني أنه يصح أولها، دون آخرها؛ فإننا لا نبطل أولها بما طرأ عليها أما إذا كانت لا تتجزأ، فإنه إذا بطل آخرها بطل أولها فلو صلى الظهر خمسًا بطلت صلاته؛ لأنه لا يمكن أن يصح أولها مع فساد آخرها، لكن في زيادة العدد لا نبطل العدد الأول، لكننا نقول لهذا الرجل: إن كنت تعتقد أن المائتين هي المشروعة فأنت ضال؛ لأنك مبتدع، وإن كنت تريد أن تقول: أنا أعترف بالمشروع مائة، ولكن زدتُ على أنه تطوع، فهذا يكتب لك لأجل التسبيح المطلق لا المقيد، وأما فيما يختص بالكيفية فلو أن أحدًا صلّى وصار يسجد، ثم يركع، ثم يسجد، ما تقولون؟ لا تُقْبَلُ لاختلاف الكيفية، وفي الزمن، لو أن أحدًا قال: أنا سوف أحج في ذي القعدة، أخرج إلى منى في ليلة التاسع من ذي القعدة، وأبيت فيها، وفي التاسع أذهب إلى عرفة، وأقف ... إلى آخره، كما هي أفعال الحج، ما تقولون في هذا؟ لا تُقبل؛ لأنها لم توافق الشرع في الزمن، يقال أن رجلًا بدويًا كان يبيع المواشي في الأضاحي، يأتي بها يجلبها إلى السوق، وهو ما أدى الفريضة، فقيل له: لماذا لم تؤدِ الفريضة؟ قال الفريضة تأتي في وقت الموسم، وأنا ما أحج، ولكن سأذهب إلى الشيخ أسأله، هل يجوز أن أحج في عيد رمضان؟ فذهب إلى الشيخ يستأذنه أن يحج في عيد رمضان بدلًا من عيد الضحية؛ لأن عيد الضحية فيه موسم لنا، فقال له الشيخ: إن أذنت لك أن تحج فإني آذن لك أن تضحي، وحينئذٍ يكون الموسم تابعًا للحج ما يتخلص منه، فأقول: إن هذا الذي حَجَّ في ذي القعدة حتى لو وافق التاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر، فإنها لا تقبل لمخالفتها للزمن، ورجل في العشر الأواخر من رمضان: قال سأعتكف في بيتي هل يقبل منه؟لا، لأنه خالف الشرع في المكان، فتبين الآن: أن تحقيق المتابعة لا يكون إلا إذا وافق العمل الشريعة في الأمور الستة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** علو مرتبة المؤمنين العاملين الصالحات لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأن الإشارة هنا للبعيد وذلك لعلو مرتبتهم، مثل قوله تعالى﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مع أن الكتاب بين أيديهم، لكن الإشارة للبعيد لعلو مرتبته.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن في الإيمان والعمل الصالح حصول المطلوب وزوال المكروه، لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ هذا زوال المكروه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذا حصول المطلوب، واعْلَمْ أن الله تعالى إذا غفر لك فتح لك أبواب المعرفة وانشرح صدرك بالإيمان؛ لأن الذي يُوجب ضيق الصدر وتشتت الفكر هو المعاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما يعرف قدْرَ القرآن، إذا قُرِئ عليه القرآن قال أساطير الأولين، فلا يعرف قدره، لماذا؟ ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ لما ران على قلبه صار لا يرى هذا القرآن العظيم إلا أساطير الأولين؛ ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي لمن نزلت به نازلة وطلب حكمها سواء كانت هذه النازلة خاصة به أم كان مسؤلا عنها، ينبغي أن يستغفر الله، وَاسْتدل بذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهذا ليس ببعيد، إذن من فوائد الإيمان والعمل الصالح: حصول المطلوب، والنجاة من المكروه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن رزق الجنة رزق كريم، أي: واسعٌ كثيرٌ دائمٌ حسنٌ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

١- **يستفاد من هذه الآية**: تحقق ما وصف الله به القرآن من أنه مثاني، إذا ذكر فيه المعني ذكر ما يقابله، وإذا ذكر فيه العامل ذكر ما يقابله.

٢- **ويستفاد منها أيضًا**: الحكمة في الخطاب، وأنه ينبغي في الخطاب أن يكون جامعٌ بين أسباب الخوف وأسباب الرجاء، لماذا؟ ليكون جامعًا؛ ولأنه إذا ذكر الخوف فقط، فقد يستولي على القلب القنوطُ من رحمة الله وإذا ذكر الرجاء فقط فقد يستولي عليه الأمن من مكر الله - سبحانه وتعالى -.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكفار يسعون جادين لإبطال آيات الله عز وجل؛ لقوله ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ والسعي كما نعلم هو الجري بشدة، فهؤلاء يسعون جادين لإبطال آيات الله - سبحانه وتعالى -.

٤- **ومن فوائدها أيضًا**: أن هؤلاء الكفار كأنما يعاجزون الله ويغالبونه، لقوله ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾

٥- **ومن فوائدها أيضًا**: أن هؤلاء الذين سعوا في آيات الله معاجزين يُعَاقَبُونَ بها العقاب الأليم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقوله ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أي من عذاب سيئ مؤلم، كما مرّ علينا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من سعي الإنسان في إبطال آيات الله، فإذا قلنا على القاعدة التي مرت علينا في قواعد التفسير، أنه إذا نُهِيَ عن شيء فهو أمر لضده، فتكون متضمنة للحث على السعي إلى آيات الله لتقريرها وتثبيتها، فإننا مأمورون بأن نسعى في تثبيت آيات الله قدر استطاعتنا ونشرها بين الأمة حتى تقوم المنة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء والحكمة فيه؛ لأن المؤمنين الذين عملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم، وهؤلاء لهم عذاب من رجز أليم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾:

١- **في هذه الآية:** فضيلة العلم، العالم يرى الحقائق على ما هي عليها، فيرى أن الذي أُنزِلَ على الرسول هو الحق، وهذا لا شك أنه من فضيلة العلم، عكس الذي يتردد في كونه حقًا، أو يمكن أن يكون حقًا - والعياذ بالله -.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يعجب بعلمه، من أين تؤخذ؟ من قوله تعالى: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني ما أدركوه بأنفسهم، ولكن الله تعالى مَنَّ عليهم به، لا تَقُلْ هذا مِنْ عندي، مثل المال، فمِنَ الناس من يُعجب بنفسه إذا حصّل مالًا والله وهو الذي أعطاه المال، فماذا صنع الله بالذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ خسف به الأرض، فالآن ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ دليل على ألا ينبغي للإنسان أن يعجب بنفسه، ويقول: أن هذا العلم حصلته أنا بفهمي وحرصي ومثابرتي.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى في تحصيل العلم من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فإذا كنا نأتي لتحصيل العلم، فلنسأل أنفسنا مَنِ الذي مَنَّ به علينا؟

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن كلام الله والدليل قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كيف يكون في ذلك دليل على أنه كلام الله؟ نقول ليس كل نازل كلامًا، فالكلام لا يمكن إلا للمتكلم، فيكون غير مخلوق، فيكون كلام الله غير مخلوق، وهناك أشياء ينزلها الله يقول: أنزلناها وهي مخلوقة، أنزل من السماء ماء ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وكل هذه الأشياء مخلوقة؛ لأنها أعيان قائمة بذاتها، بخلاف القول، فإن القول لا يكون إلا بقائل، فإذا قال الله: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو قول، صار هذا القول من كلام الله.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة النبي ﷺ لأنه هو المخاطب بالوحي.

وكذلك فضيلة القرآن وأنه منارٌ وهدًى، يهتدي به الناس ويقتدون به؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ

صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من ابتغى الهدى من غيره ضلّ؛ لأنه إذا كان هو الذي يهدي إلى صراط العزيز الحميد، فإذا ابتغيت الهدى من غيره المخالف له، فإنك لا تُهْدَى إلى صراط العزيز الحميد، ولهذا لما طلب أهل البدع الوصول إلى الخالق عن طريق غير القرآن ماذا حصل لهم؟ ضلّوا وتاهوا وبقوا متحيرين مضطربين.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من تمسك بهذا القرآن نال العزة والحمد، أي صار عزيزًا محمودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ ولم يقل: إلى صراط الله، بل قال: العزيز الحميد، إشارة إلى أن من تمسك بهذا القرآن، فله العزة والحمد، يحمد على فعله وقوله وتركه.

٨- **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمَيْنِ لله -عز وجل- وهما العزيز والحميد، وقلنا إن العزة التي اتصف الله بها -سبحانه وتعالى- لها ثلاثة أنواع: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وشرحها بأن تقول: هذا إنسان عزيز عَلَيّ، أي كبير القدر عندي، وأما عزة القهر، تقول قال الله -سبحانه وتعالى- عزني في الخطاب أي غلبني، وأما الامتناع فتقول هذه الأرض امتنعت عن ذلك، أي قوية صلبة ممتنعة.

الحميد من أسماء الله أيضًا، وهو مشتق من الحمد، فهل هو بمعنى اسم الفاعل أو بمعنى اسم المفعول؟ العزة وإثبات الحمد لله، نجد عبارة عند الناس يقولون: الحمد لله الذي لا يُحْمَدُ على مكروه سواه، أي شيء تكون هذه العبارة ؟ هذه ليست مناسبة؛ لأنك تعلن إعلانًا تامًّا بأنك تكره ما قضى الله والرسول -عليه الصلاة والسلام- كان إذا أصابه أمرٌ يُسَرُّ به قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أصابه ما يكره قال: الحمد لله على كل حال، ولم يذكر شيئًا مكروهًا ولهذا ينبغي لنا أن ننبه مَنْ تكلّم بهذه العبارة؛ لا تقل هذا لأنه يشعر بأنك لا ترضى بقضاء الله، قل: الحمد لله على كل حال، الآن نحن نعلم أن الله رب كل شيء، ويدخل في ذلك الكلاب والخنازير والحشرات وما أشبه ذلك، لكن هل من اللائق أن تقول: الله رب الكلاب، ورب الخنازير، ورب الحشرات، هذا ليس من الأدب أن تخصص كما نصّ على ذلك شيخ الإسلام بن تيمية وغيره، فهناك فرق بين التعميم وبين التخصيص، ولهذا قال الرسول ﷺ: الحمد لله على كل حال.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ

فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٧ - ٩]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

أولًا: في الإعراب، والمعاني البلاغية: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ المقصود بالاستفهام هنا: السخرية ورجل نكرة تدل على التحقير يعني: أنه رجل حقير، كقوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ عمّن كذبوا الرسل عمومًا ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وقوله ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ فإن (هذا) للتحقير وقوله ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ تنصب ثلاثة مفاعيل المفعول الأول: الكاف، والمفعول الثاني والثالث: معلق بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يقول الله - عز وجل - عن الكافرين: أن بعضهم يقول لبعض على جهة التعجب كما قال المؤلف: بل على جهة التحقير ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فقال بعضهم على جهة التعجب لبعض: هل ندلكم على رجلٍ هو محمد ﷺ؟، الاستفهام هنا قلت إنه للسخرية والمؤلف زاد معنًى آخر وهو التعجب، يعني ألاّ تتعجبون مما سندلكم عليه، وقوله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يقول: هو (محمد) لكنهم قالوه: بالتنكير على سبيل التحقير لم يذكروه باسمه؛ لأن ذكر الشخص باسمه قد يعني تعلية منزلته، ولكنهم قالوه بهذا اللفظ المنكر تحقيرًا له، (ينبئكم) يخبركم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مزقتم قطعتم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بمعنى تمزيق ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هذا ما نبدأ به يقول ينبئكم أي يخبركم، فالنبأ بمعنى الخبر وقد يكون النبأ في الأشياء الهامة والخبر فيما هو أعم فتخبر عن الشيء الهام وعن الشيء الحقير ولكنك لا تنبئ إلا بشيءٍ عظيم كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ فالنبأ قد يستعمل في الأشياء العظيمة، بخلاف الخبر، فإنه يكون أعم وقوله ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يقول: إذا قطعتم، وهذا التمزيق يعني تمزيق الأرض للحوم البشر، فإن الإنسان إذا دفن مزقته الأرض وقطعته وصارت عظامه الصلبة رميمًا، فهم يقولون: ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق قال المؤلف: بمعنى تمزيق، وعلى هذا فكلمة (ممزق) مصدر.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هذا هو محل النبأ، وهو في محل نصب سد مسد مفعولي ينبئكم الثاني والثالث وقوله: ﴿ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ كلمة (إذا) هذه ظرفية، فهل هي متعلقة بـ ينبئكم أو متعلقة بشيء محذوف يدل عليه السياق الأخير؛ لأن إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تمزيقهم؛ ولكنه أنبأهم في الحياة الدنيا، إنما تمزيقهم إذا دفنوا يعني أنكم إذا دفنتم ومزقتم تكونوا في خلق

جديد وهذا الخلق الجديد هو البعث وهل البعث إعادة لما مضى أو ابتداء خلق غير الأول؟ الصواب: أنه إعادة ما مضى كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لكنه سمي خلقًا جديدًا؛ لأن الإنسان إذا بعث فإنه لا يبعث كحاله في الدنيا، بل يبعث في حالٍ أشد وأقوى، إذ أنه سيبعث على أنه مؤبد لا يموت، ولهذا يتحمل الناس يوم القيامة من الكرب والهم والغم ما لا يتحملونه في الدنيا، فالناس مثلًا لو دنت الشمس منهم قدر ميل في الدنيا، لأحرقتهم ولكنها في الآخرة تدنو منهم ومع ذلك لا تحرقهم، يقول: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ إذا جديد بماذا جديد في ذاته وأجزائه أو في أوصافه؟ جديد في أوصافه؛ لأن الصحيح أن الخلق هو إعادة ما مضى.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِى ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾.

[﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغني بها عن همزة الوصل] ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ أصلها أافترى لكن همزة الوصل مع همزة الاستفهام تسقط ومثالها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ أصطفى بمعنى أاصطفى سقطت الهمزة؛ لأنها وقعت بعد همزة الاستفهام وأظن سقوطها معلومًا؛ لأن همزة الوصل تسقط في الوصل، فإذا جاءت همزة الاستفهام سار الكلام متصلًا، وإذا كان متصلًا سقطت همزة الوصل ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ (أن اصنع الفلك) أين ذهبت همزة الوصل في اصنع سقطت لاتصال الكلام، ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ذلك أي في قوله: إنكم ستبعثون وتنشرون خلقًا جديدًا هل هذا افتراء على الله؟ يبين الله ذلك لكنهم يقولون: إن حاله دائرة بين أمرين: إما رجل مفتر على الله ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ جنون تخيل به ذلك إذن هم - والعياذ بالله - قسموا حال النبي ﷺ إلى حالين لا ثالث لهما: وهما الافتراء على الله والثاني الجنون ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ أي جنون تخيل له ذلك به هل هنا حالٌ ثالثة؟ نعم هنا حالٌ ثالثة، ولكنهم لا يقرون بها وهي أنه صادقٌ عاقل صادقٌ لم يفترِ وعاقل ليس به جنة وهذا هو الواقع لكنهم هم والعياذ بالله أسقطوا هذا القسم الثالث لأنهم لا يقرون به ومن العجب أن هؤلاء الذين يقولون في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الوصف أنه إما مفترٍ، أو مجنون، أو شاعر، أو كاهن، أو ما أشبه ذلك، وكانوا يسمونه قبل النبوة بالأمين، ويرونه أنه من أصدق الناس وأعظمهم أمانة، لكن - والعياذ بالله - لما جاء بما لم يوافق أهواءهم صاروا يلقبونه هذه الألقاب، وهذه الألقاب السيئة التي لقب بها المشركون رسول الله ﷺ موروثة ورثها أعداء المؤمنين وأولياء المجرمين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ فهذه الألقاب السيئة موجودة الآن، كل أعداء الرسل يلقبون أتباع الرسل بمثل ما لُقِّبَ به

الرسل، تعلمون أنه مر علينا في العقيدة أن من الناس من يلقب أهل السنة والجماعة بالحشوية، والنوابذ، والغثاء، والمجسمة، وما أشبه ذلك كل هذا تنفيرًا للناس عن سلوك مذهبهم يقول تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾.

قال الله تعالى مبطلًا ذلك: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ في العذاب فيها والضلال البعيد عن الحق في الدنيا قوله ﴿بَلِ﴾ هذه للإضراب وهل هو إضراب الإبطال أو الانتقال؟ الإضراب الإبطالي معناه: أن ما قبل بل باطل والإضراب الانتقالي معناه: أن ما قبل بل مرحلة انتقل منها إلى مرحلة أخرى بدون إبطال لها فهنا بل للإضراب الإبطالي يعني: أن الله أبطل هذين القسمين اللذين ردد هؤلاء الكفار، وحال النبي ﷺ بينهم يعني: بل هو غير مفترٍ وليس به جنة، ولكن هؤلاء الذين لا يؤمنون في العذاب والضلال البعيد، ولا يمكن أن يقروا ومثال الإضراب الانتقالي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ فإن هذا انتقالي يعني: أنهم أولًا بعد عنهم في الآخرة، ثم شكوا فيها، ثم بعد ذلك عموا عنها - والعياذ بالله - فهذه أحوالهم الانتقالية.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بها ولا يعترفون قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا يؤمنون بوجودها ولا يؤمنون بما يحصل فيها وقد مر علينا أن اليوم الآخر يدخل فيه كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فكل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت كفتنة القبر ونعيمه وعذابه، فإنها داخلة في الآخرة قال: [المشتملة على البعث والعذاب] في العذاب فيها وفي الضلال البعيد، والعذاب البعيد عن الحق في الدنيا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قيد المطلق في الموضعين فهنا قال الله ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ والمؤلف قال في الآخرة وقال ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ وقال [في الدنيا] والأصح: أن الآية مطلقة في العذاب في الدنيا وفي الآخرة أما عذاب الآخرة فظاهر، وأما عذاب الدنيا فما في قلوبهم من الحرج والضيق وما يحصل عليهم أيضًا من العذاب من الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وكذلك العذاب الذي يجري على أيدي الرسل كالعذاب الذي يحصل لهم بالهزائم، فإن هذا من عذاب الدنيا أما الآخرة فظاهر في العذاب يشمل الدنيا والآخرة، وتقييده بالآخرة فيه نظر، بل إنه ينبغي لنا، بل يجب علينا ألا نقيد شيئًا أطلقه الله إلا بدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع وقوله تعالى: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ يقول: في الدنيا فهم في ضلال بعيد عن الحق، وهم أيضًا في ضلال في الآخرة، فإنهم لا يهتدون إلى الصراط الذي ينجون به من عبوره من النار، ولكنهم يهدون إلى صراط الجحيم، فيضلون عن الصراط الذي به النجاة قال الله تعالى:

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وقال - سبحانه وتعالى - عن المؤمنين: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ فدل ذلك على أن الضلال كما يكون في الدنيا يكون كذلك في الآخرة فالأولى إذن إبقاء النص على عمومه في الدنيا وفي الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾

[قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ وما فوقهم وما تحتهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾] إلى آخره الاستفهام هنا للتهديد، يعني أن الله هدد هؤلاء الذين كذبوا النبي ﷺ في قوله: (إنهم سيبعثون) هددهم بأحد أمرين بالخسف، أو إسقاط الكسف، أي القطع من العذاب من فوقهم وإنما ذكر الفوق والتحت؛ لأنه لا يمكن الفرار منهما أما اليمين والشمال والخلف والأمام، فيمكن الفرار لو جاءك عدو من الخلف أمكنك أن تفر إلى الأمام، ولو جاءك من الأمام أمكنك أن تفر إلى الخلف، لكن إذا جاءك من أسفل إلى أين تذهب؟ تقفز ما تستطيع وإذا جاءك من فوق أين تذهب؟ لا تستطيع لهذا هددهم الله تعالى بأمرين لا يمكنهم الفرار منهما، وقول المؤلف: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ فسر يروا بمعنى ينظروا، والأولى أن تكون شاملة للرؤيا البصرية التي بمعنى النظر، والرؤية القلبية بمعنى العلم والتفكر يعني أن الله - عز وجل - يحثهم على أن يتفكروا حثًا يراد به التهديد، فالرؤيا هنا شاملة لرؤية النظر بالعين ورؤية القلب بالتفكر وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ فسرها المؤلف أيضًا: [ما فوقهم وتحتهم]: أيهما الذي بين الأيدي؟ على كلام المؤلف يكون ما فوقهم هو الذي بين أيديهم وما خلفهم هو الذي تحتهم، ولكن قد يقول قائل: إن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، بل نقول: لما ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي ما أمامهم ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾ وما وراء ظهورهم، فيحتمل أن المراد بما بين أيديهم أمامهم من الزمن ويحتمل أن يكون ما بين أيديهم أي المكان وكذلك نقول فيما خلفهم، قد يكون ما بين اليد هو ما أمامك من الزمان، وما خلفك ما خلفته من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي ما بين أيديهم ما يستقبل، وما خلفهم ما مضى، وقد يكون به المكان كما تقول: مررت بين يدي المصلي أي أمامه، وتقول: المأموم يقف خلف الإمام، أي وراءه في المكان أو في الزمان؟ في المكان.

هنا ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ نقول فيها: يحتمل أن يكون المراد المكان، ويحتمل أن يكون المراد الزمان، والمراد أن يتفكروا في الأمر، هل نجا أحد من عذاب الله؟ انظر ما بين يديك في المكان أو ما بين يديك في الزمان وما خلفك من المكان والزمان هل نجى أحدٌ من عذاب الله؟ والجواب: لا، لم ينجُ إذن هم أيضًا لا ينجون من عذاب الله.

وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الجملة هنا شرطية وفعل الشرط فيها وجوابه مضارع مجزوم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾ وقوله ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ معطوفة على نخسف يعني أو إن نشأ نسقط عليهم كسفًا، قال المؤلف: [في قراءة بسكون السين وفتحها، قطعًا] يعني أن فيها قراءتَيْنِ سمعيتَيْنِ سكون السين كِسْفًا أو كِسَفًا بفتح السين، ويجوز القراءة بها جميعًا، وقد سبق أن قلنا: أن القراءات إذا تعددت فالأفضل أن يقرأ بهذه تارة وبهذه تارة؛ لأن كلها حق وكونه يلتزم قراءة واحدة هذا فيه قصور، إلا أن القراءات التي لم تتيقن أنها ثابتة، لا يجوز لك أن تقرأ بها؛ لأنه يجب أن تقرأ بما ثبت عندك.

[قال ﴿كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وفي قراءة في الأفعال الثلاثة بالياء] أين الأفعال؟ (يشاء ونخسف ونسقط)فيقول تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والفاعل في الضمائر هنا يعود على الله عز وجل، أما على قراءة النون إن نشأ فالأمر ظاهر؛ لأن الضمير فيها ضمير متكلم، لكن على قراءة الياء الضمير فيها ضمير الغائب، وضمير الغائب لابد فيه من مرجع، يرجع إليه إما سابق، وإما لاحق فأين مرجع الضمير ﴿إِن نَّشَأْ﴾ يقال إنه معلوم من السياق كما في قوله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ من الذي خلقه؟ الله فهنا يعلم كل أحد أنه لا يستطيع أحدٌ من البشر ولا من غير البشر أن يخسف الأرض بالناس، أو يسقط عليهم قطعًا من العذاب فيكون مرجع الضمير معلومًا بالسياق.

قوله: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المرأي ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه تدل على قدرة الله على البعث]، يعني: إن الآية تدل على ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما بين أيديهم من السماء والأرض ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ ذكرنا أن ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض يشمل كل ما سبق، وكل ما مضى، وكل ما أمامهم من المكان، وكل ما كان خلفهم، من ذلك أننا نرى الآية في السماء ينزل المطر من السماء على الأرض الهامدة اليابسة فترجع مسرة حية أفلا يكون في ذلك دليل على إمكان إعادة الخلق؟ الجواب: بلى؛ ولهذا قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي المنظور مما بين أيدينا وما خلفنا من السماء والأرض ﴿لَءَايَةً﴾ أي علامة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعلى علمه وحكمته، لكن هذه الآية ليست آية عامة لكل أحد، بل ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عبد مأخوذٌ من العبودية وهي: التذلل، وقد سبق لنا أن التذلل نوعان: تذلل للأمر الشرعي، وتذلل للأمر الكوني وأيهما المحمود المثاب عليه؟ التذلل للأمر الشرعي أما التذلل للأمر الكوني؛ فإن هذا لا طاقة للإنسان به راجع إلى الله من أين؟ من معصيته إلى طاعته فيشمل القائم بالعبادة ولو بدون أن يذنب ويشمل التائب من الذنب، فإن الرجل إذا قام يصلي يتعبد لله ـ عز وجل ـ وقال: إنه أناب إلى الله، وإذا أذنب، ثم استغفر وعاد يقال: إنه أناب إلى الله أيضًا، فالإنابة هنا تشمل كل ذنب فعله، فتكون بمعنى التوبة، وتشمل الإنابة إلى الله القيام بطاعته، فتكون أشمل وأعم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو أمر نسيت أن أنبه عليه في الإعراب الذي اختلف فيه علماء النحو وهو أن النحويين اختلفوا في إعراب جملة إذا كانت مصدرة بهمزة الاستفهام وبعدها حرف عطف فقيل: إن الهمزة أعني همزة الاستفهام داخلة على شيءٍ مقدر بحسب السياق، وقيل: إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة بدون تقديم وأن حرف العطف كان من حقه أن يتقدم على الهمزة، لكنها قدمت عليه؛ لأن لها الصدارة على الوجه الأول: يكون التقدير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ غفلوا أو أعرضوا وما أشبه ذلك وأما على الثاني: فلا حاجة إلى هذا التقديم، بل نقول: إن الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف وتأخرت عن الهمزة؛ لأن لها الصدارة أيها أحسن؟ الثاني أحسن يعني كونه يقول: إن الهمزة داخلة على هذه الجملة نفسها أولا، وذلك لأن القول الأول قد يعوزك تقدير المحذوف، يعني بمعنى: أنه يصعب عليك أن تقدر المحذوف، أما هذا فبناء على أن الجملة هذه معطوفة على ما سبق، لا تحتاج إلى تقدير، فلا تتعب فيه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ دعا إلى الإيمان باليوم الآخر من أين تؤخذ؟ من قوله ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عتو الكافرين واستعلائهم واستكبارهم، حيث عبّروا بهذا التعبير ساخرين بما أخبر به النبي ﷺ، وجه علوهم واستكبارهم أولًا: السخرية بهذا النبأ والثاني: تحقير النبي ﷺ، والثالث: وصفه بأنه لا تخلو حاله من أحد أمرين، إما كاذب، وإما مجنون، هذه ثلاثة أوجه كلها تدل على هؤلاء الكافرين واستكبارهم وعنادهم.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان ما حصل للنبي ﷺ من الأذى وأنه صبر؛ لأن أمرًا يصل إلى هذا الحد في الاستخفاف به والاستهانة بخبره لاشك أنه يؤثر على نفسه تأثيرًا بالغًا، وأعتقد أن صاحب الدعوة إذا أوذي بمثل هذا الإيذاء كان أشد عليه من أن يضرب ويحبس.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ حيث يعيد هذا الخلق بعد أن يتمزق كل تمزق؛ لأنه ظاهر من قوله: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾:

١- **ومن فوائد هذا الآية الكريمة:** أن الكافرين الذين كفروا برسول الله ﷺ كانوا يقرون بالله

من أين تؤخذ؟ قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٢- **ومن فوائدها**: بيان قبح الافتراء على الله، حتى إن الكافرين يستقبحونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أيضًا أن أعداء الرسل بل أعداء دعوة الرسل يكيلون السب والقدح والعيب لما جاءت به الرسل أو بالرسل وبما جاءوا به لقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ومعلوم أن كلام الكاذب وكلام المجنون ليس بمقبول، فهم يأتون بعبارات التشويه والتقبيح، حتى لا يقبل الحق، وهل هذا جارٍ إلى وقتنا هذا؟ نعم جارٍ إلى وقتنا هذا؛ لأن أعداء دعوة الرسل لا يزالون إلى يوم القيامة، ولكن على أتباع الرسل أن يصبروا ولا يثني عزمهم مثل هذا الكلام؛ لأنهم على الحق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان أن الله -عز وجل- تكفل ببيان الحق وإظهاره وإبطال الباطل واندحاره لقوله ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾

٥- **ومن فوائدها**: أيضًا أن الكفر يوجب عدم قبول الحق والاهتداء به، تُؤخذ من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وفي للظرفية ومعناه أن الضلال محيط بهم من كل جانب؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فإذا لم يؤمن الإنسان بالحق، بقي في ضلال، والشواهد على هذا كثيرة، استمع إلى مثل هذه الآية وإلى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يعني مضطرب مختلف فكل من كذب الحق فإنه لا يزداد إلَّا ضلالًا حتى لو جاءته الآيات البينات الظاهرات، فإنه لا ينتفع بذلك ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ مع أنها آيات بينات واضحات.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ وجوب النظر والاعتبار فيما حصل من الآيات في السماء والأرض لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن هذا الاستفهام للتوبيخ، ولا يُوَبَّخ إلا على ترْك واجب.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن في السموات والأرض؛ آيات لكنها لمن؟ للعبد المنيب إلى الله، وأما من لا يريد الإنابة إلى ربه، فإنه لا ينتفع بهذه الآيات حتى لو رآها ونظر فيها وفكر فإنه لا ينتبه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المشيئة إلى الله لقوله ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** إن ما يحصل من الخسف والزلازل والنوازل فإنه بإذن الله - عز وجل - عقوبة للعباد واعتبارًا، خلافًا لمن قال إن هذه أمور طبيعية لا تدل على غضب الله - عز وجل - ولا على إنذاره كما هو رَأْيُ مَنْ لا يؤمن بالله، فالخسف في الأرض عقوبة، وما يأتي من الصواعق والكوراث الأفقية فهي أيضًا عقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى محيط بالعباد، لا يمكنهم الفرار من قضائه وقدره الله تعالى محيط بكل شيء لا مفر للعباد منه لقوله ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - يمن على العبد بظهور الآيات له حتى يتبين له الحق لقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وإذا منَّ الله على العبد بالنظر في آياته والتدبر، ازداد بذلك إيمانًا بالله - عز وجل - وإيمانًا بما تقتضيه هذه الآيات من صفاته؛ فإن كل آية تدل على صفة معينة من صفات الله، فإنزال المطر مثلًا يدل على القدرة والعلم والرحمة، وكونه في وقت مناسب يدل على الحكمة في كل شيء مما يقع في السماء والأرض؛ فإنه يدل على صفة من صفات الله تعالى تناسبه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في السماء والأرض آيات لمن نظر وتدبر، وهذا أثبته الله تعالى في القرآن في مواضع كثيرة ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة فكل من تدبر ما في السماء، وما في الأرض، وما بينهما، تبين له من آيات الله ما يقوي إيمانه ويزيده طمعًا في فضل الله تعالى وخوفًا من عقابه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ الواو حرف عطف، ويجوز أن تكون للاستئناف، واللام موطئه للقسم، وقد للتحقيق، ومثل هذا التقييد يأتي في القرآن كثيرًا ويقال فيه: إن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات القسم المقدر، واللام، وقد، فتقدير هذه الجملة: والله لقد آتينا داود منا فضلًا، هل يجوز أن تحذف اللام؟ نعم يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا (١) وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا (٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ إلى أن قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جواب القسم، ويجوز في قوله ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ في غير القرآن أن نقول لقد أفلح، وهل يجوز أن تحذف اللام وقد؟ الجواب: نعم يجوز، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ (فقتل) هذا جواب القسم ليس فيه (قد) و(لا) (اللام) فصار جواب القسم إذا كان فعلًا ماضيًا، جاز فيه ثلاثة أوجه: أن يقترن باللام وقد، أن يقترن بقد، أن تحذف اللام وقد، لكن لا تحذف اللام ولا تحذف قد في الغالب إلا إذا طال القسم، أما إذا لم يطل فإنها لا تحذف، إذا قلت: (والله لقد قام زيد) صحيح وهذا هو الأصل، (والله قد قام زيدٌ) هذا أيضًا صحيح حذفنا اللام، (والله قام زيدٌ) هذا أيضًا صحيح حذف منه اللام وقد والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ آتينا بمعنى: أعطينا، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وكل فعل ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، يسمى من باب أعطى وكسا فهنا آتينا داود منا فضلًا، (داود) المفعول الأول، و(فضلًا) المفعول الثاني، ولا يمكن أن يكون هذا مبتدأ وخبرًا، ولو قلت: (داود فضل) يصلح ؟ما يصلح ويقال (أتينا) ولكنها يختلف معناها عن (آتينا) بمعنى أعطينا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وقال تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي جاء أمر الله، قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ داود هو أحد أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى أم قبله؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي القصة أن داود كان منهم، إذن فهو بعد موسى وهو نبي من الأنبياء، وقد أنكرت اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ كونه نبيًّا ووصفوه بأنه ملك، وقد كذبوا في ذلك فإنه كان نبيًّا من أنبياء الله الذين يجب علينا أن نؤمن بهم ولا يتم إيماننا إلا بالإيمان بهم؛ لأن أركان الإيمان كما نعلم الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وهو أيضًا رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول قال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ (منا) فبدأ بالجهة قبل الفضل ليتبين عظم ذلك الفضل؛ لأن الشيء إذا نسب إلى جهة

عظيمة كان ذلك عظيمًا كما في قوله في الحديث الصحيح: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1] فأضافها إلى الله، حتى يتبين بذلك عظمها.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [نبوة وكتابًا] وهذا الذي فسر المؤلف الآية به من باب التمثيل فإن الله أعطاه النبوة والرسالة أيضًا وأعطاه الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ وهل أعطاه شيئًا آخر غير هذا؟ نعم، ولهذا نكَّر كلمة (فضل) جاءت منكرة؛ ليشمل كل ما أُعْطِيهِ من فضل سواء كان ذلك دينيًا أم دنيويًا، وكان داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أحسن الناس صوتًا وترنمًا بالذكر حتى أن الله ـ عز وجل ـ أمر الجبال أمرًا إما كونيًا، وإما شرعيًا قال لها: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أوّب بمعنى: رجع، ومنه الأواب أي: الرَّجاع إلى الله ومنه آب يؤوب أوبًا بمعنى: رجع (فأوبي معه) أي: رجِّعي معه، والترجيع معناه: تردد الصوت الذي يقوله، فمثلًا إذا قرأ سمعتَ كأنَّ الجبال التي حوله كلها تقرأ بقراءته، وهذا غير ما نسمعه نحن من الصدى الذي يحصل لكل إنسان؛ لأن هذا الصدى الذي يحصل لكل إنسان يكون إذا أحاطت به الجبال، هذا أمرٌ طبيعي، لكن هذا الذي أوتي داود فوق ذلك فكانت الجبال ترجِّع معه؛ وذلك لحسن صوته ونغماته، حتى إن الجبال ترجع معه بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ [يقول بالنص عطفًا على محل الجبال] ﴿يَٰجِبَالُ﴾ (جبال) مُنادى مبني على الضم في محل نصب؛ وإنما بني على الضم وهو نكرة؛ لأنه مقصود والنكرة المقصودة بمعنى العلم فلهذا بنيت على الضم، (الطير) لو عطفت على اللفظ ﴿يَٰجِبَالُ﴾ لكان مرفوعًا مبني على الضم، لكنها عطفت على محل الجبال وهو النصب، يعني وكذلك أمر الله الطير بأن ترجِّع معه فكانت الطيور في جو السماء تقف عند سماع قراءة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وترجِّع معه، وأنت إذا تصورت هذا الأمر وأن رجلًا يقرأ الزبور بهذه القراءة والنغمات الجميلة، ثم الطيور من فوق تسبح والجبال لاشك أنه مشهد عظيم ورهيب، كل شيء يقرأ بقراءة هذا الرجل بأمر مَن؟ بأمر الله ـ عز وجل ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [فكان في يده كالعجين] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليِّنًا بيده حتى إنه كالعجين في يد أحدنا، وهل المراد أن الله ألانه له بالوسائل التي تلين الحديد؟ سخرت له وهيئت له، أو أن الله ألان له الحديد بغير السبب المعلوم، يرى بعض الناس أنه الأول، وأن المراد بقوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي يسرنا له الأسباب التي تلين ذلك الحديد؛ لأن تيسير الأسباب لا شك أنه من نعمة الله ،أرأيت لو أنك تريد أن تعقف سيخًا من الحديد وعندك نار ضعيفة فإنك تتعب في ذلك، لكن لو كان عندك نار قوية جدًّا كان في خلال دقائق قليلة يلين هذا

---

(١) متفق عليه: البخاري: (٨٣٤) – مسلم: (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

الحديد، كما يفعل الحداد، فيرى بعض العلماء: أن المراد بتلين الحديد لداود تيسير الأسباب التي يسهل بها لينه، ولكن بعض أهل العلم يقول: إن الله ألان له الحديد بغير سبب، بل بقدرة الله ـ عز وجل ـ وجعل الله ذلك آية له، كما جعل الله عصا موسى إذا نزلت في الأرض صارت حية، وإذا رفعها صارت عصا في آن واحد في لحظة واحدة، فالله على كل شيء قدير، والذي جعل الحديد صلبًا قادر على أن يجعله لينًا، وعندي أن هذا أقرب إلى المعنى وذلك لأمور أولها: لأن الله قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ فجعل التليين مضافًا إليه، إشارة إلى أن لين هذا الحديد بمجرد القدرة، وكوننا نقول: إن هذا بأسبابٍ عادية، لكنها يُسِّرت له، هذا خلاف ظاهر الآية، ثم لو قلنا بهذا القول، هل تكون هذه آية له؟ لا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

قوله: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ هذه هي الحكمة من كون الله ألان له الحديد أن يعمل منه الدروع للمجاهدين في سبيل الله، قال: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ أفادنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [وقلنا أن اعمل] أنَّ (أنْ) مصدرية حذف عاملها، والتقدير [وقلنا أن اعمل] أي بأن اعمل أي بالعمل، ويحتمل أن يكون (أنْ) تفسيرية، وأن يقدر المحذوف (بأوحينا) أي: وأوحينا إليه أن اعمل؛ لأن أن التفسيرية هي التي سبقها معنى القول دون حروفه، وهذا من تقدير المؤلف ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أي: وأوحينا إليه أن اعمل سابغات، اعمل بمعنى اصنع، مِنْ أين؟ قال: [منه] أي من الحديد، ﴿سَٰبِغَٰتٍ ﴾ [دروعًا] بالنصب وعندي ما هي منصوبة [كوامل يجرها لابسها على الأرض] سابغاتٍ فسرها المؤلف بقوله: [كوامل يجرها صاحبها على الأرض] وأفاد هنا بقوله: [دروعًا] أفادنا بأن سابغاتٍ صفةٌ لموصوف محذوف وهذا المحذوف تقديره دروعًا، وحذف الموصوف جائز، قال ابن مالك [1]:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ   يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلْ

والسابغ من كل شيء هو الكامل الصافي التام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ أي أتمها وأكملها، ومنه إسباغ الوضوء أي إتمامه وإكماله، فهذه الدروع السابغات يعني الوافيات الكوامل التي تمنع لابسها من أن يناله أذى، وأما قول المؤلف: [يجرها لابسها على الأرض] ففيها نظر لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يجرها على الأرض؛ ولأنها إذا بلغت إلى هذا المستوى فربما تعوقه مِنَ الكرِّ والفرِّ.

ومعروف أن الدروع تصل إلى الركبة فقط، هذه غايتها لأنها حديد، وإذا لبس الإنسان حديدًا يصل إلى الأرض فإنه سيكون مُكبّل بالأغلال، فالواجب أن نقول (سابغات) أي

(١) البيت رقم (٥١٩) من الألفية.

كاملات ليس فيها نقص وكمال كل شيء بحسبه، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [أي نسج الدروع قيل لصانعها سرّاج أي اجعله بحيث تتناسب حلقه]، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ معناه: نسج الدروع كما ينسج الثوب من القطن ومن الصوف، ينسج الدرع من الحديد، ومعني التقدير في السرد: أي اجعل هذا السرد أي النسج مقدرًا متناسبًا، من التقدير: أن تجعل الحلقات متناسبة، ما تأتي بحلقة كبيرة وحلقة صغيرة ومنها أن تجعل الحلقات ضيقة؛ لأنها إذا كانت ضيقة وقف الدرع ولم يكن سهل الحركة، ولا تجعلها واسعة جدًا لأنك إذا جعلتها واسعة جدًا لا تقي، ثم هي تكبر إذا جعلتها واسعة، كبرت وآذت لابسها، ولكن اجعلها مقدرة متناسبة، الدرع قميص مثل ثوبنا، هذا قميص من حديد تلبسه كما أنك تلبس الثوب هذا إلا أنه لا يصل ذراعه إلى الكف، فهو إلى العضد فقط، وهذا الدرع منسوج من حِلَق حديد، حلق صغيرة مشبوك بعضها ببعض حتى يتم النسج، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ معني التقدير في السرد الآن: أن تكون الحلقات متناسبة وألّا تكون ضيقة ولا واسعة، لأنها إذا لم تتناسب فإنها تؤذي ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [اعملوا أي آل داود معه صالحًا] ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فأجازيكم به] بعد أن بيّن الله ـ عز وجل ـ ما مَنَّ به على داود من تعليم صنعة الدروع، ولين الحديد وتوجيهه وكيف يصنع هذه الدروع، قال: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ اعملوا، كيف عدل عن ضمير المفرد في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾؟؛ لأن تقدير السرد خاص بداود، والعمل الصالح عام له ولغيره، فوجّه الخطاب إلى جميع آل داود، قال: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ وقوله ﴿صَٰلِحًا﴾ هو صفة للموصوف المحذوف، والتقدير: عملًا صالحًا، والعمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعته، فلابد فيه من هذيْنِ الشرطيْنِ: الإخلاص لله، والموافقة للشريعة، فإن فقد الإخلاص فليس بصالح لوجود الشرك، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١) والثاني: الموافقة لشريعة الله، فإن لم يوافق شريعة الله فإنه ليس بصالح ولا يُقْبَل والدليل قول رسول الله ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فلابد لكونه عمل صالح، مِنْ وجود هذيْنِ الشرطيْنِ.

﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذه الآية فيها تقديم وتأخير، وما التقديم؟ (بصير) مؤخّر، والمقدَّم المعمول، فإن قلت: من القواعد المقررة أن تقديم المعمول يدل على الحصر، هنا إذا قلنا أنه يدل على الحصر، صار الله بصيرًا بما يعملون دون غيره، مع أنه ـ عز وجل ـ بصير بكل شيء فما هو

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

السبب؟ السبب في ذلك التقديم، حيث جاء بصيغة الحصر؛ للردع عن المخالفة، كأنه لو لم يكن الله بصير بشيء لكان بصير بماذا؟ بأعمالكم، فلما كان الإنسان قد يقول: إن الله تعالى لا يبصر عملي، جعل الله تعالى الصيغة دالة بظاهرها على الحصر، حتى لا يدَّعي مدَّعٍ أن الله تعالى ليس عالمًا بعمله، هذا من وجه، ومن وجهٍ آخر مناسبة خواص الآيات، والله أعلم.

سؤال: هل يجوز الدخول إلى مكان العذاب؟

الجواب: لا يجوز الدخول إلى مكان العذابْ إلا بشرط أن يكون الإنسان باكيًا، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها».

سؤال: هل يصح أن تسبح الجبال؟

الجواب: يصح؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - أمرها بأن تسبح بحمد الله تعبدًا لله - عز وجل - وتذللًا له.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أولًا: بيان منة الله - سبحانه وتعالى - على داود؛ لقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، ثانيًا: عناية الله تعالى ببيان هذا الفضل، حيث أكَّده بالقسم، واللام، وقد.

٢- **ومن فوائدها:** أن هذا الفضل فضل عظيم؛ لأن الله تعالى عرفه إليه في قوله ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ والمضاف إلى العظيم يكون عظيمًا، ونظير ذلك الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** توجيه الخطاب إلى الجماعات من الله - سبحانه وتعالى - لقوله﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الجماد يحس بخطاب الله - سبحانه وتعالى - وجه ذلك لولا أنه يحس لكان توجيه الخطاب إليه عبثًا، والله - سبحانه وتعالى - مُنزَّه عن العبث في أقواله وأفعاله، ويدل على أنه يحس بذلك، أنها أوَّبت معه ورجَّعَتْ.

٥- **ومن فوائدها:** أيضًا أن من فضائل داود أن الله أمر الجبال أن توجه معه التسبيح وقراءة الزبور هي والطير، وهل الأمر في قوله ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أمر كوني أو أمر شرعي؟ يحتمل المعنيين، فإذا نظرت أنها مأمورة بعبادة قلت: إن هذا أمر شرعي، وإذا نظرت إلى أن هذه الجبال لو فرض أنها عَصَتْ، هل تعاقب؟ الله أعلم، ربما تعاقب وربما لا تعاقب؛ لأنه ليس لها عقل تدرك به

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٤٨/ ٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كما يدرك ابنُ آدم قلتُ: إنه أمر كوني، ونستخلص من هذيْنِ الاحتمالَيْنِ أنَّ الله أمر الجبال أن ترجِّع معه، ولا نقول: أمرًا كونيًا ولا أمرًا شرعيًا.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** ظهور آية الله - عز وجل - في تمام القدرة حيث ألان الحديد لدواد؛ لقوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وهذه الإلانة ليس لها سبب حسي معلوم؛ لأنه لو كانت لأسباب معروفة، لم يكن فرق بين داود وغيره، هذا هو الصحيح، وإن كان بعض العلماء يقول: ألنّا له أي: هيأنا له الأسباب التي يلين بها الحديد، ولكننا هيأنا له أسباب عظيمة قوية لا تحصل لغيره.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحديد بطبيعته قاسيًا، ولكن الله تعالى يلينه بما جعله من الأسباب التي تلينه حتى ينتفع الناس به، وهل هو أقسى أو الحجارة؟ الحجارة ولهذا لا تلين الحجارة بالنار، والحديد يلين بالنار، قال العلماء: فدل ذلك على أن الحجارة أقسى، ولذلك شبَّه الله تعالى القلوب القاسية بالحجارة، قال تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

ثم قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله - سبحانه وتعالى - مَنَّ على داود وعلى غيره، لتعليمه هذه الصنعة، صنعة الدروع، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ وهذا التعليم الذي علمه الله لداود بقي إلى يومنا هذا، وهذا كما علَّم الله نوحًا صنع السفينة وإشارة الله تعالى إلى مواد بنائها ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾أي مسامير.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمن صنع شيئًا أن يكمله، لقوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ يكمله ولا ينقص منه شيئًا، وينبغي لمن صنع شيئًا أن يتقنه، وهذه فائدة جديدة لقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ إكمال وإتقان.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ينبغي بل يجب على من أنعم الله عليه بنعمة أن يقوم بشكرها بالعمل الصالح لقوله ﴿وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الله إذا أنعم على شخص من القبيلة بنعمة، فإنه إنعام على القبيلة كلها، كيف ذلك؟، لقوله:﴿وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ فوجه الخطاب إلى آل داود كلهم مع أن الفضل خاص بداود، ولهذا إذا نبغت نابغة في قبيلة من القبائل، فإنه يرفع قدر هذه القبيلة كلها، كما أن العكس بالعكس إذا سفل أحد من القبيلة عُيِّرت القبيلة به كلها، وهذا أمر معلوم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من المخالفة لقوله:﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى بصير بكل ما نعمل من خير وشر، وقليل وكثير، وظاهر

وباطن، حتى أعمال القلوب يعلمها الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ لا تُضْمِر في قلبك شيئًا يُغضب الله، إنك إذا فعلت فإن الله تعالى سوف يعلمه، ولا يخفى عليه شيء ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

❀ قال الله تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]

❀ التفسير ❀

قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ قال المؤلف: [وسخرنا] لسليمان ولماذا قَدَّر [وسخرنا]؟؛ لأن الريح منصوبة، فلابد من تقدير عامل يتم به اللفظ، وهنا نقدر ما يناسب وهو (سخرنا له) كما جاء ذلك في آيات أخرى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وقوله ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ مَنْ سليمان؟ هو ابن داود وقد أتاه الله تعالى الرسالة والملك، ملكًا عظيمًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ لأن الله سخر له الإنس والجن.

وقوله ﴿ٱلرِّيحَ﴾ هي الهواء، سخرها الله له أي ذللها بحيث تجري بأمره، يأمرها تتجه إلى الشمال إذا كان يريد ناحية الشمال، ويأمره تأتي في الجنوب إذا كان يريد ناحية الجنوب، ويأمرها أن تذهب شرقًا فتذهب، وأن تذهب غربًا فتذهب، وأن تسرع فتسرع، وأن تبطئ فتبطئ، تجري بأمره ولا يُقَالُ أَنَّ هذا يدل على أن سليمان مشارك لله في الخلق؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يصرف الهواء، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يصرفوا الهواء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسليمان يستطيع أو لا؟ يستطيع؛ لقوله تعالى في الآيات، فلا يقال: أنه شريك لله؛ لأن الذي سخر الريح له هو الله، ولهذا لا نقول: أن عيسى شريك مع الله في الخلق، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾؛ لأن قدرة هؤلاء الخلق على ما يقدرون عليه مِمَّا لا يقدر عليه غيرهم من المخلوقين، إنما هي بأمر الله - عز وجل -، فهم لا يستقلون بذلك، ولكن الله تعالى أعطاهم قدرة كما أن الله يمن على بعض العباد بقدرة هائلة في الحفظ، أو في الفهم، أو في قوة السمع، أو في البصر، أو البدن، أو غير ذلك، إذن نقول: الريح هي الهواء سُخِّرَتْ

لسليمان.

قال: الريح [وقراءة الرفع على تقدير تسخير] تركيب المؤلف هنا ببيان القراءة الثانية غريب، ما كان معهود منه، وكان الأولى أن يقول: وفي قراءة بالرفع على تقدير تسخير هذا هو الأَوْلَى؛ لأن الآن قوله وقراءة الرفع لم نستفد هل هذه القراءة سبعية أو شاذة؛ لأن المعهود أنه يقول في السبعية وفي قراءة وفي الشاذة يقول: قرئ، وهنا يقول: وقراءة الرفع لكن على كل حال القراءة سبعية ففي قراءة ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ كيف نعرب ﴿ٱلرِّيحُ﴾ على هذه القراءة؟ نقول: إنها مبتدأ مؤخر، وأصل الكلام تسخير الريح فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وابن مالك يقول(١):

وَمَا يَلِي الْمُضَافَ يَأْتِي خَلَفَا عَنْهُ فِي الإِعْرَابِ إِذَا مَا حُذِفَا

أي لسليمان تسخير الريح، ولو قال قائل: ولسليمان الريحُ، إنَّ الريح مبتدأ بدون تقدير لم يكن بعيد، ويكون معنى كون الريح له أنها مسخرة له فيكون له التصرف فيها.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ غدوها: [مسيرها من الغُدوة يعني معناه الصباح إلى الزوال شهر]، ورواحها [سيرها من الزوال إلى الغروب] شهر أي: [مسيرة شهر]، الريح سخرها الله له إذا صارت به من الصباح إلى الزوال فهي مسيرة شهر بسير الإبل، وعلى هذا فإنها تكون سريعة رواحها شهر، فيستطيع أن يذهب إلى مكان مسيرته شهر ويرجع إلى بلده في نفس اليوم؛ لأن غدوها شهر ورواحها شهر، ومع ذلك فقد وصفها الله تعالى بأنها عاصفة، ولكنها غير مؤثرة، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وأيضًا: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فهي سريعة لكنها غير مزعجة، لكن كيف يطير بالريح؟ قال العلماء: أنه يضع بساطًا معتدًا عاديًا ويجلس هو وحاشيته عليه، ثم يأمر الريح تطير بهم بهذا البساط، والله على كل شيء قدير، ولا عادةً أن يكون الإنسان مع حاشيته على بساط ويرتفع، العادة أنه يُسْقِطُ هذه العادة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير، هل يمكن أن نقول: إن قانون الطيران بالطائرات الحديثة مبني على هذا أو لا يمكن؟ إنَّ قانون الطيران مبني على هذا، على الهواء الذي تولده هذه المولدات.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أسلنا [أذبنا] له عين القطر، أي [النحاس] هذا أيضًا قد يكون مما أوتيه داود؛ لأن داود قال الله له: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أما هذا فأسال الله له عين القطر، يعني فجر له عين من النحاس تسيل كما تسيل الماء مع أنها نحاس، وهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل؛

(١) في البيت رقم (٤١٣) من ألفيته.

لأن المعروف أن النحاس معدن جامد، فجعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسليمان عين سائله كأنها الماء؛ ولهذا قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وقوله ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ يدفع ما قيل إن سليمان يُذِيبُ النحاس فيسيل، كما تشاهدون الآن الرصاص إذا أذبناه يصير سائل كالزئبق، فنقول: لا، بل إن الله قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ فجعل هذا عينًا يندفع من الأسفل، ويسيل، ونحن نعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق الأشياء جامدها ومائعها، وأن الله قادر على أن يجعل الجامدَ مائعًا والمائعَ جامدًا، وهذا الماء المائع المتدفق الجاري لما ضرب موسى بعصاه البحر، انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم كالجبل العظيم، وهو ماء سائل ضربه مرة واحدة فقط فتفرق البحر وصار اثني عشر طريقًا، كل طريق بينه وبين الطريق الأخر مثل الجبل من الماء وهذا بأمر الله تعالى؛ لأن خالق الأشياء قادر على كل شيء ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ [فأجريت له ثلاثة أيام بليلهن كجري الماء] هذا التقدير يحتاج إلى توقيف، يعني أن الله أجراها له ثلاثة أيام فقط، قد نقول: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أسال له عين القطر يتصرف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكون هذه الإسالة مستمرة، وقتما أرادها وجدها وهذا هو الأقرب، ولا يمكن أن نحددها بثلاثة أيام إلا بدليل من الشرع، أو من السنة، وليس في الكتاب تحديد وكذلك ليس في السنة، فالأَوْلَى أن نجعلها على ظاهرها، قال المؤلف: [وعمل الناس إلى اليوم مما أعطي سليمان]، ولماذا عمل الناس إلى اليوم؟يعني أن انتفاع الناس بهذا النحاس وتذويبه حتى يكون كالماء هذا أثره من عمل سليمان، يعني أن النحاس إنما ذاب من وقت سليمان إلى اليوم، وقد قيل إن النحاس كان من قبل لا يذوب أبدًا، ولكنه في عهد سليمان ذاب، ثم صار مستمر الذوبان.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بإذن: [بأمر] ربه ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ (مِنْ) للتبعيض، والجن عالم غيبي مستتر عن الأعين، ولهذا جاء بلفظ الجن وأصل هذه المادة (جيم ونون) الإستتار ومنه سُمِّيت الجنة التي يستدعي بها الإنسان، وسميت الجنة للبستان الكثير الأشجار؛ لأنه يجن ما فيه أي يغطيه، ويُسَمَّى الجنة لهذا السبب، وسُمِّيَ الجنين جنينًا لاستتاره وتخفيه في بطن أمه؛ لأنه مستتر.

والجن ربما يتلبسون بالإنسان، أي يدخلون في جوفه حتى يكون كاللباس لهم، فيصرعونه ويؤذونه وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله:﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾يعني:مثل المصروع الذي صرعه الشيطان، وهذا الصرع أي: صرع الجن للإنس لا ينكره إلا الملاحدة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد: إنهم لم يصلوا إلى هذا النوع من الصرع فجعلوا ينكرونه ويحيلون جميع أنواع الصرع إلى صرع الأعصاب والمخ وما أشبه ذلك، وصرع الجن للإنس معلوم بالمشاهدة أيضًا فلا ينكره إلا مكابر، كيف ذلك؟ لأنه شوهد

من يصرع ويخاطب الجني الذي صرعه مخاطبة صريحة واضحة، وجرى ذلك على أيدي أئمة الإسلام كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم إلى يومنا هذا، جيء مرة بمصروع إلى شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فوعظ الجني الذي صرعه ونصحه وقال له: اخرج وقال: إني لا أخرج إني أحبه، وكانت امرأة التي صرعته صرعتِ الرجلَ امرأةٌ قالت: إني أحبه، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكنه لا يحبك، فقالت: إني أُريد أن أحج به، كيف؟ تحمله إلى مكة فقال: إنه لا يريد أن يحج معك ثم وعظها فلم تتعظ، ثم ضربها شيخ الإسلام ابن تيمية جعل يضربها على رقبة هذا المصروع يقول: حتى تعبت يدي من الضرب فقالت: أنا أخرج كرامة للشيخ فقال: لا تخرجي كرامة لي، اخرجي طاعة لله ولرسوله، فخرجت على ألا تعود، فأفاق الرجل فلما أفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؟ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية فقيل له: إنه قد فعل كذا وفعل كذا قال: والله ما أحسستُ بشيء من هذا لا أني خاطبته ولا أنه ضربني، وهذه القصة ذكرها ابن القيم في زاد المعاد عن شيخه، وابن القيم ثقة، وشيخ الإسلام كذلك ثقة وقد ورد مثل ذلك عن الإمام أحمد، إذن الجن نقول في تعريفهم: عالمٌ غيبي مستترون عن الإنس وربما يظهرون، ومنهم صالح ومنهم دون ذلك، ومنهم قاسط ومنهم مسلم، ويأكلون ويشربون ويبولون ويتقيئون، كل هذا ثبت في القرآن وفي السنة.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ (مَنْ) بمعنى (الذي) يعمل بين يديه، فهي اسم موصول، وما محلها من الإعراب ؟يحتمل أن يكون محلها الرفع على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره (من الجن)، ويحتمل أنها في محل نصب يعني: وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه، وأيها أولى؟ نحن ذكرنا قاعدة أنه إذا دار الأمر بين التقدير، وعدم التقدير فعدم التقدير أولى؛ لأنه الأصل، الأصل أن الكلام لم يحذف منه شيء، وعلى هذا فنقول: (من الجن) جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يدي سليمان يعني: أمامه، لكن الإذن بأمر ربه، والإذن كوني أو شرعي؟ كوني بإذن الله،الكوني يعني:أن الله سخر الجن يعملون بين يدي سليمان بإذنه بأمره الكوني، وقد يقال: إنه إذنٌ شرعي بدليل.

قوله ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [يعدل] وقيل:يميل وهذا أقرب، ومنه: زاغت الشمس أي مالت عن وسط السماء ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يعني:من يميل ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ [له بطاعته] له أي الجن بطاعته أي بطاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [النار في الآخرة] ﴿نُذِقْهُ﴾ جزمت بِمَنْ؛ لأنها جواب الشرط، وفعل الشرط يزغ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي:نعذبه بالنار حتى يذوق عذابها ،فهل هذه نار الدنيا أو الآخرة؟ قال المؤلف:[في الآخرة وقيل في الدنيا بأن يضربه مَلَكٌ بسوط منها ضربة تحرقه] والله أعلم،هل إن عذابه في الدنيا بواسطة الملك ،أو أن سليمان أُذِنَ له بتعذيبهم في النار.

على كل حال: الذي يزغ من الجن عن أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعته سليمان، هذا يُعَذَّبُ بالنار إما في الدنيا وإما في الآخرة ،ولكن إذا قلنا إنه في الدنيا فإنه لا يتعين أن يكون الأمر كما قال المؤلف: [إنه ملك يضربه بسوط منها ضربه تحرقه والله أعلم].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأمور الكونية لبعض عباده آية له؛ لأن الريح كما تعلمون لا أحد يستطيع أن يصرفها كما يشاء، وسليمان سُخرت له تجري بأمره، فيستفاد من هذا أن الله قد يسخر بعض الأمور الكونية آيةً لبعض عباده كهذا،وهل يمكن أن يأتي مثل ذلك لغير الرسل؟ الظاهر أنه لا يمكن، وما ذكر عن بعض الخلفاء أن الله تعالى سخر له الريح يأمرها كما يشاء فتنقل جنده، فإن هذا في صحته نظر،والظاهر أن آيات الأنبياء لا تكون كرامة للأولياء، صحيح أن آيات بعض الأنبياء تكون كرامة لبعض الأولياء، أما الآيات الكبيرة كهذه، فالظاهر والله أعلم أنها لا تكون.

٢- **من فوائد الآية الكريمة:** أن للريح سرعة عظيمة كما قال ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجن أو وجود الجن وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ولهذا مَنْ أنكر وجود الجن فقد كذَّب القرآن، ويحكم بكفره ،لكن هل الجن يعملون للإنس أو لا يعملون؟ نقول: إن الجن يعملون للإنس لقوله:﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا شك أن عملهم بين يديه آية له دلالة على نبوته وعلى رسالته، لكن هل يعملون لغير الأنبياء؟ يقول شيخ الإسلام: نعم إنهم يعملون لغير الأنبياء، وعملهم لغير الأنبياء له سبب إما أن يكون سببه الشرك بمعنى أن الجن تأمره أن يُشْرِكَ فيعبدهم، أو تأمره أن يشرك فيعبد من يعظمونها هذا واحد ،وقد يكون سببه أنهم يعشقون هذا الإنسان فيحبونه حبًّا ليس لله، لكن مثلًا لجمال صورته أو ما أشبه ذلك، ومنها أنهم يعملون له مثال ذلك يعملون له محبة لله لكونهم صالحين، فأحبوا هذا الرجل الصالح فعملوا له عملهم له، يقول شيخ الإسلام: إن عملوا له أمرًا محرمًا كان ذلك حرامًا، مثل أن يستخدمهم في أذية المسلمين أو في الاعتداء على شخص معين يروعونه أو ينفرون إبله أو ما أشبه ذلك فهذا حرام، فإذا استعان به بطريق المعصية أو من أجل المعصية كان ذلك حرامًا بلا شك، أما إذا استعان به في الأمر المباح فإن هذا لا بأس به إذا خلا من شرك أو عدوان على الغير، فإن قلت إن القول بإباحة الاستعانة بهم في غير المعصية يشكل عليه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فإن ظاهر هذا أنه لا يجوز أن يستمتع الجن بالإنس ولا الإنس بالجن.

فلا بأس به وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «النبوات» وفي كتاب «إيضاح الدلالة على عموم الرسالة» ذكر أشياء وردت عن السلف؛ لأنهم ربما ينتفعون بالجن في الإخبار عن الأشياء البعيدة، والأمر الواقع شاهد بذلك، فإنا نسمع قضايا عن بعض الناس أن الجن يساعدونهم على ما يريدون مع صلاحهم وعدم شركهم وعدم معصيتهم.

فإذا قلت: هل يمكن أن يعتدي الجني على الإنسي؟

فالجواب: نعم يمكن، وهل يمكن أن يعتدي الإنسي على الجني؟ نعم يمكن، أما الأول فظاهر كثيرًا أن الجن يعتدون على الإنس أحيانًا يروعونهم في الطرقات بل وربما في البيوت، وأحيانًا يفسدون عليهم شئونهم، وأحيانًا يرمونهم بالحجارة، وأحيانًا يؤذونهم بأصوات، وهذا شيء لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه أمرٌ واقع مُشَاهَد، وكذلك الإنس ربما يعتدون على الجن فلو أن أحدًا استجمر بعظم أو استجمر بروث، لكان معتديًا على الجن ؛ لِأَنَّ العَظْمَ طَعَامُ الجِنِّ [1] ، والروث طعام دوابهم، فيكون في هذا عدوان من الإنس على الجن، وهل يمكن أن يدخل الجن في بدن الإنسي؟ نعم، ولا يحتاج إلى طلب الدليل؛ لأن هذا أمر واقع محسوس ثبتت به الأخبار وتواترت، وشاهده الناس؛ وقد ذكر أن الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- يؤتى إليهما المصروع فيخاطبونه ويكون الخطاب على لسان مَنْ صرعه ويضربونه أيضًا، ويكون الضرب على مَنْ صرعه أي: على الصارع لا على المصروع، وفي القرآن ما يشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ والمس معناه الصرع ولهذا يقال: به مس من الجن أي: الصرع، والذي يتخبطه الشيطان من المس يكون مخبلًا لا يحس ولا يعرف، قال أهل العلم: إن هؤلاء يقومون من قبورهم كمثل المجانين الذين أصابتهم الشياطين، وأما إنكار بعض الناس لهذا فقد قال شيخ الإسلام: إن هؤلاء الفلاسفة الذين أنكروا ذلك، لا يعلمون من الشرع كما يعلمه أهل الشرع، فهم يُنكِرون ما غاب عنهم ولا يقرون إلا بالشيء المحسوس، وأنكر عليهم إنكارًا عظيمًا في «زاد المعاد».

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة

أن الجن قد يُشَاهَدُون من قوله ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن الظاهر أنهم يُشَاهَدُون وهم يعملون بين يدي سليمان يعني أمامه

٥ - ومن فوائدها: أن الجن مكلفون بمعنى أنهم إذا خالفوا عُذِّبوا، ومن تمام عدل الله أنهم إذا وافقوا نُعِّمُوا، أما كونهم يُعذَّبون إذا خالفوا فهذا أمرٌ متفق عليه بين العلماء، وأن كافرهم يدخل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النار، وأما دخول مؤمنهم الجنة ففيه خلاف بين العلماء، والصواب أنهم يدخلون الجنة لقوله تعالى في سورة الرحمن وهو يخاطب الجن والإنس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيكون هؤلاء الجن إذا خافوا الله فلهم الجنة وقال في أثناء ذلك ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كلمة ولا جان لا تتناسب مع الإنس وإنما تتناسب مع الجن، وهذا هو القول الحق المتعين، ولا يعارض ذلك قوله تعالى عن الجن الذين صرفهم الله لنبيه ﷺ يستمعون القرآن حين ولّوا إلى قومهم منذرين فقالوا ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيقال إن الله إذا أجارهم من عذابٍ أليم فلازم لذلك أن يدخلوا الجنة؛ لأن الآخرة ليس فيها إلا داران هما الجنة أو النار، فمن نجا من النار دخل الجنة ولابد، إذن الجن مُكلَّفون لكن هل تكليفهم كتكليف الإنس، بمعنى أن صلاتهم كصلاتنا، وصيامهم كصيامنا، وحجهم كحجنا أو يختلف عنا؟

في هذا احتمالان: أحدهما أن يكون ما كُلِّفُوا به مساويًا لما كُلِّفْنَا به من كل وجه، مادام الرسول ﷺ مبعوثًا للجن والإنس، ولم تأتِ السنة بالتفريق بل والقرآن بالتفريق بين أحكام الإنس والجن والواجب إجراؤها على ما هي عليه، وأن تكون هذه الأحكام ثابتة في حق الإنس والجن على حد سواء، والاحتمال الثاني: أن تكون الواجبات بالنسبة للجن موافقة لما هم عليه مناسبة لهم فلا يلزم على هذا أن يكونوا مساوين للإنس؛ لأن الله - عز وجل - يجعل الأحكام مناسبة لمن شرعت له، فهذا المريض مثلًا هل عليه صوم؟ إذا كان المريض لا يُرْجَى زوال مرضه ففرضه الإطعام، والفقير ليس عليه زكاة وليس عليه حج، فلما كان اختلاف الشرائع ظاهرًا بالنسبة للإنس لاختلاف أحوالهم، فإنه يلزم أن تكون الشرائع أيضًا مختلفة في الجن عن الإنس؛ لأن الجن لا شك - كما ذكر شيخ الإسلام - مخالفون للإنس في الحد والحقيقة، فحقيقة الجن وحدودهم وطاقاتهم، ليست كحدود البشر وطاقاتهم، فإذا كانوا مخالفين للبشر في الحد والحقيقة لزم أن يكونوا مخالفين لهم في الأحكام الشرعية وهذا فيما يمكن الاختلاف فيه أما، ما لا يمكن كالتوحيد والرسالة، وأصل الرسالة وما أشبه ذلك، فهذا أمرٌ نعلم علم اليقين أن الجن مساوون للإنس في تلك الأحكام، لكن الكلام على المسائل الفرعية التي يُخَاطَبُ بها المخاطبون باختلاف أحوالهم فالمسألة، فيها احتمالان ولكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزم بأن الأحكام التي كلف بها الجن، تخالف الأحكام التي كلف بها الإنس؛ لأنهم مكلفون بالجملة، بدون أن يساووا الإنس، والعلم عند الله.

قال الله تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ إلى آخره ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾ لِمَنْ؟ لسليمان وهذا كالتفصيل لقوله ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنه يقول ماذا يعملون؟ ففصّل وقال ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ (مِنْ) بيانية مبينة للإبهام في الاسم الموصول وهو قوله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يعني ﴿مَا﴾ اسم موصول ونحن نعلم جميعًا أن الاسم الموصول من الأسماء المبهمة فقوله ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان يقول المؤلف: [أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج] هذه المحاريب، فالمحاريب عبارة عن أبنية مرتفعة ذات أسوار منيعة قال الله تعالى في داود ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ هذا واحد، وكما قيل تماثيل جمع تمثال [وهو كل شيء مثلته بشيء أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حرامًا في شريعتهم]، التماثيل جمع تمثال، وهو ما صُوِّر على مثال شيء آخر، فكل ما صُوِّر على مثل شيء آخر فإنه يقال: تمثال له، وعلى هذا فيمكن أن نقول لمن صَوَّرَ صورة شجرة ونحتها من جسم نقول: إن هذا تمثال للشجرة، وكذلك نقول لمن نحت خشبًا أو حجرًا على صورة حيوان نقول إن هذا تمثال، والمؤلف جزم أن المراد بالتماثيل ما كان تمثالًا لحيوان، ولهذا قال كل شيء مثلته بشيء هذا أصل التمثال أو صور من نحاس وزجاج ورخام، النحاس معروف والزجاج أيضًا معروف والرخام كذلك يقول: [ولم يكن اتخاذ الصور حرامًا في شريعتهم] وهذا مبنيٌّ على أن المراد بالتماثيل: تماثيل ما يُحَرَّمُ تصويره كالحيوان من إنسان وغيره ولكن نقول: إن هذا لا يلزم أي لا يلزم، أن يكون المراد بالتماثيل هي صور الحيوان، فمن الجائز أن ينحتوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام أن ينحتوا له أشياء على صور شجر، وَيُقَالُ إن هذا تمثال، يوجد الآن مجسمات يجعلونها على صورة نخلة، على صورة سيف، على صورة قصر، وما أشبه ذلك نقول هذا تمثال أو لا؟ تمثال ويوجد أيضًا مجسمات على صورة حيوان، أسد، أو جمل، أو بقر أو ما أشبه ذلك، هذا أيضًا تمثال، فنحن الآن نقول: إن كان قوله ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عام لتمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذٍ أن نجيب بما أجاب به المؤلف: وهو أن الصور في شريعتهم ليست حرامًا ولكن ما دام الأمر غير لازم إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بعملها تماثيل أشياء، يجوز تصويرها، فلا حاجة إلى هذا الجواب.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجفان ما هي؟ الصحفة التي يُوضَعُ بها الطعام ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ [جمع جابية]

والجواب: هي [الحوض الكبير]، ومنه البركة تسمى جابية حتى الآن يسمون البرك جوابي، هل الجفان على ما تقتضيه الآية الكريمة جفان كبيرة وافرة؟

يقول المؤلف مبينًا سعتها: [يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها] وهذا قد يكون واقعًا، وقد يكون الأمر أكبر من هذا، وقد يكون دون هذا، المهم أن هذه الجفان لعظمها وسعتها وكبرها مثل الجوابي وهي الأحواض الكبيرة يعني البرك ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها تتخذ من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلالم] ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال العلماء: الراسي الثابت، والقدور جمع القدر وهو ما يطبخ به الطعام، وإنما كانت راسية لكبرها كبيرة راسية في الأرض فهي لكبرها لا يستطيع أحد أن يتناولها أو يقلدها، والعادة أن القدور منقولة مقلبة، لكن هذه لكبرها وسعتها وعزمها راسية لا تتحرك، وقول المؤلف: لها قوائم ما المراد بالقوائم؟ المناصب التي تنصب عليها أرجل.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [تتخذ من الجبال باليمن] هذا ليس بلازم، أنها تتخذ من الجبال، وإن كانت القدور تتخذ من النحاس والحديد وكذلك من الأحجار يمكن تنحت وتكون قدرًا، وممكن أن تجعل طينًا ويتخذ منها الفخار، ولكن ليس بلازم يعني تتخذ من الحديد والنحاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

وقلنا: [﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ يا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ بطاعة الله ﴿شُكْرًا﴾ له على ما آتاكم]، أفاد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن اعملوا جملة في محل نصب لقول محذوف تقديره قلنا اعملوا آل داود، وأما آل داود فهي منصوبة بيا النداء محذوفة أي [يا آل داود] وآل داود هنا ذريته وقرابته؛ لأن الله تعالى أنعم على هذه القبيلة عائلة داود بنعم عظيمة أنعم على أبيهم وعلى ابنه سليمان وقوله ﴿شُكْرًا﴾ أفادنا بتقدير الشكر لله على أن شكرًا مفعول من أجله، وأن مفعول (اعملوا) محذوف تقديره (بطاعة الله) يعني (أن اعملوا بطاعة الله)؛ لأجل الشكر لله، ويحتمل أن تكون (شكرًا) مفعول به لـ (اعملوا) يعني (اعملوا الشكر)، والشكر هو الطاعة ولكن هذا الوجه فيه من التقدير، أما على الوجه الأول فإنه لابد أن نقدر مفعول (اعملوا)، الشكر عرفه العلماء بأنه: القيام بطاعة المنعم في القلب واللسان والجوارح، أما في القلب بأن تعتقد بأن ما بك من نعمة فهي من الله، وأما باللسان بأن تثني على الله بالنعمة، ولا تذكر النعمة افتخارًا بها على الناس، وأما الجوارح بأن تقوم بطاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يختص بتلك النعمة، أو بطاعته على سبيل العموم، والفرق بين هذا وذاك، إذا قلنا أن تقوم بطاعة الله فيما يختص بهذه النعمة، فإذا أنعم الله عليك بمال فشكره الزكاة والإنفاق وما أشبه ذلك، فإذا عصيتَ الله في غير ذلك لا يقال: إنك لم تقم بشكر المال، أما إذا قلنا: أن الشكر هو أن تقوم بطاعة الله فيما يختص بهذه النعمة وفي غيره، فإن الإنسان إذا أُنعم عليه

بالمال وقام بحقه على الوجه الكامل، لكنه يعصي الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أمور أخرى يقال: إن هذا ليس بشاكر، ولكن قد نقول: إن الشكر نوعان، شكر مطلق: وهو الذي يقوم بطاعة المنعِم فيما أنعم به عليه فيه وفي غيره، وشكر خاص: مقيد بهذه النعمة المعينة فيكون هذا الشاكر قام بما يجب عليه في هذه النعمة المعينة شاكرًا؛ لكنه لا يُعْطَى وصف الشكور، ويبين ذلك ما سبق لنا في التوبة، أن التوبة تصح من الذنب مع الإصرار على غيره، لكن لا يستحق التائب وصف التوبة المطلقة، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [العامل بطاعتي شكرًا لنعمتي] (قليل) خبر مقدم و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ لأن المقصود الإخبار عن الشكور بأنه قليل، والشكور من عبادي قليل، فلما قدم عليه صارت موضع نصب على الحال، يعني الشكور حال كونه من عبادي قليل، وتعليل ذلك أن أكثر بني آدم غير شكور بل هم ضالون، فبنو آدم يكون منهم تسعمائة وتسع وتسعون في النار وواحد في الجنة ولا شك أن واحدًا إذا نسب إلى المائة يكون قليلًا وقوله ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ المراد بالعبودية هنا العامة أم الخاصة؟ العامة الشاملة للكافرين والمؤمنين.

الفوائد:

١- **في هذه الآية فوائد منها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخر الجن لسليمان يعملون له ما يشاء وهذا لا يتأتى لأحد من البشر، نعم تعمل الجن لبعض البشر أشياءً، لكن لا تكون قائمة بما شاء.

٢- **ومن فوائدها:** جواز البناء العالي لقوله ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** جواز التماثيل في شرع من قبلنا وهي مُتعلقة بمبحث شرع من قبلنا في أصول الفقه، وهل يشمل التماثيل للحيوانات والأشجار والبحار والأنهار على كلام المؤلف؟ يشمل، بل يقال: هذا قبل تحريم الصور، وعلى الاحتمال الثاني: لا يشمل؛ لأن التماثيل تطلق على كل ما كان مثالًا على غيره ولا يلزم أن يكون على صورة الحيوان، فعلى رأي المؤلف يكون الحكم منسوخًا بشريعة النبي ﷺ، فيستفاد منه فائدة: وهي جواز النسخ في الأحكام الشرعية، وعلى الرأي الثاني والاحتمال الثاني: لا يكون دالًّا على جواز تماثيل الحيوانات.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان كثرة جنود سليمان وكرمه؛ لأن الجفان كالجواني والقدور راسيات.

٥- **ومن فوائدها:** وجوب القيام بشكر الله عز وجل لقوله ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، والأمر في الأصل للوجوب.

٦- **ومن فوائدها:** أن الشاكر على النعمة قليل لقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ والمراد بهذه الجملة الحث على الشكر.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العبودية العامة الشاملة لقوله ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ فإن المراد بها العبودية

العامة الشاملة.

٨- **ومن فوائدها:** أن داود - عليه الصلاة والسلام - أبٌ أي فخذٍ كامل من بني إسرائيل؛ لقوله ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ كما قال بني تميم، بني زهرة وما أشبه ذلك.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٤-١٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي [على سليمان] الموت [أي مات] إلى آخره ﴿قَضَيۡنَا﴾ أي قدرنا عليه الموت فمات، والقضاء هنا قضاء قدري، وقضاء الله - سبحانه وتعالى - نوعان: قدري وشرعي، فهنا ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ قضاء قدري ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ هذا أيضًا قضاء قدري قدرنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شرعي، وهذا إذا تعلق بما أمر الله به، فمنه قضاء شرعي كقوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فالقضاء هنا قضاء شرعي، إذا لو كان قضاءً قدريًّا لوقع ولعبد الناسُ اللهَ كُلُّهم بدون إشراك، وهنا القضاء قدري ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي قدرناه عليه فمات قال: [ومكث قائمًا على عصاه حولًا ميتًا والجن تعمل في الأعمال الشاقة على عادتها لا تشعر بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتًا] كل هذا الذي ذكره المؤلف واضحًا من الآية لما قضى الله عليه الموت بقي مدة لا تعلم الجن أنه مات، وهم يعملون دائبين؛ لأنه قد كلفهم بذلك فمات وبقي متكئًا على عصاه.

أولًا: المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: بقي [حولًا] تقيِّد هذا البقاء بالحول ليس عليه دليل، لكن لا شك أنه بقي مدة وهم يعملون بين يديه وهم لا يدرون أنه ميت، أما أن يقيده بحول، أو بأقل، أو

بأكثر، هذا يحتاج إلى دليل، وقولنا إنه متكئ على عصاه فيه دليل من الآية ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وهذا لا يمكن إلا وهو متكئ.

يقول ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أكلتها الأرضة]، كلمة الأرضة، هل المراد بها الجنس أي الدابة التي تكون في الأرض أو المراد بها المصدر؟ المؤلف يرى أن المراد بها المصدر، مأخوذ من قوله أرضت الخشبة يعني أكلتها الأرضة، يعني ما دلهم على موته إلا الدابة التي تأرض الخشب تأرضها، فعليه تكون كلمة أرض مصدر أي شيء؟ أَرَضَ يَأْرِضُ أَرْضًا مثل ضَرَبَ يَضْرِبُ ضَرْبًا، هذا تقرير كلام المؤلف، وما قرره رَحِمَهُ اللهُ بعيد من مفهوم الآية؛ لأنك عندما تفهم ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ ما تفهم الذي قرره المؤلف أبدًا، بل الذي يتبادر إلى الذهن أن المراد بالدابة الجنس، يعني إلا الدابة التي تخرج من الأرض.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [بالهمز وتركه بألف] يعني فيها قراءتان: ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾، والقراءة الثانية: جعل الهمزة ألفًا أي: منساته، ولهذا قال: [بالهمز وتركه] ولكن إذا تركناه يكون ألفًا؛ [لأنها ينسأ يطرد ويزجر بها] كأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يبين اشتقاق هذه الكلمة وأنها من النسأ أي الطرد والزجر، والإنسان يزجر بعصاه بحزلها عَلَى مَنْ يوجه إليه الخطاب، ويطرد بها بالضرب، وهذا يدل على أن الكلمة عربية، ولكن بعض المفسرين يقول: إن الكلمة غير عربية وأنها من الكلام الذي عُرِّب، وإذا كانت الكلمة من المعرب، فإنها لا يشتق لها من الاسم وفي اللغة العربية كل كلمة لها اشتقاق، وعلى كل حال فهذا سهل، المهم أن المنسأة هي العصا يطرد بها الشيء ويزجر بها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [ميتًا] ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾، الجملة كما تشاهدون جملة شرطية، وأداة الشرط فيها [لما] وقد مر علينا أن [لما] تأتي لعدة معان: تكون شرطية، وتكون للنفي، وبمعنى إلا، والرابع أن تكون ظرفًا بمعنى حين، فهنا شرطية بدليل أنه جاء بعدها شرط وجواب ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ﴾، ونافية كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي لم يذوقوا عذابي، وتأتي بمعنى إلا كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي إلا عليها حافظ، وتأتي بمعنى حين أي ظرف مثل أن تقول: أكرمتني لما زرتك، أي حين زرتك، إذن لها أربعة معانٍ؛ أو تأتي على أربعة أوجه.

﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ تبينت أي علمت وبان لها بقوله [انكشف لهم] ﴿أَن﴾ [مخففة أي أنهم] ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾، أن مخففة من الثقيلة، وإذا خففت الثقيلة وجب حذف اسمها وكان خبرها جملة فهنا الخبر ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وإعرابها أن تقول: أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان مستتر، وجملة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ في محل رفع خبرها.

وفي قول المؤلف: إشارة إلى ما سبق أن قلنا إن ضمير الشان ينبغي أن يكون مناسبًا للمقام، فقد يكون مفردًا، وقد يكون جمعًا، وقد يكون للغائب، وقد يكون للمُخَاطَب، خلافًا لما عليه

أكثر النحويين، حيث يقدرونه مفردًا للغائب ويقولون: أنه أي الحال ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ [سبأ: ١٤] لو شرطية وجوابها ﴿مَا لَبِثُوا﴾ و«لو» تأتي شرطية، وتأتي مصدرية، وتأتي بعد وَدَّ كذلك فتأتي شرطية، مثل هذه الآية ومثل أن تقول: لو زرتني لأكرمتك، وتأتي مصدرية إذا جاءت بعد وَدَّ في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي أن تدهن وهذا معناه فقط هنا شريطة فعل الشرط فيها ﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وجوابه ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ العمل الشاق لهم لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب] وهذا واضح؛ لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أنه مات قبل أن يخر بسبب تآكل عصاه، ولعلهم كانوا يظنون أو يدَّعون أنهم كانوا يعلمون الغيب، فأراد الله تعالى أن يبين حالهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يعلمون الغيب مع أن الغيب الذي حصل هنا ليس غيبًا مطلقًا، ولكنه غيب نسبي، إذ أن مَنْ كان قريبًا جدًّا من سليمان فقد يعرف أنه مات، يقول المؤلف: [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان] ﴿مَا لَبِثُوا﴾ أي ما بقوا في العذاب المهين الذي ألحق بهم المهانة والذل، وقال المؤلف: [العمل الشاق لهم لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب]، يعني كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، فلما خرَّ ميِّتًا تبين لهم أنهم لا يعلمون الغيب قال: [وعلم كونه سنة بحساب ما أكلته الأرضة من العصا بعد موته يومًا وليلة]، مثلًا هذا جوابٌ عما قيل إنه بقي سنة وهو ميت ولم يعلم به، يعني كأن قال قائل: ما الذي أعلمكم بأنه سَنَة؟ قال: علمنا ذلك بالحساب؛ لأننا حسبنا ما أكلته الأرضة يومًا وليلة من العصا فقسنا عليه ما مَضَى، مثلًا إذا كانت تأكل في اليوم والليلة مثلًا ستيمتر، عرفنا أنها تأكل في السنة ثلاثمائة وستين سنتيمتر، وعرفنا هذا من طول العصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس متعينًا، إذ قد تأكل اليوم أكثر مما تأكله بالأمس أو بالعكس، وحتى نقول أيضًا: من الذي قال أنها أكلت في اليوم والليلة هذا المقدار حتى عرف به ما مضى؟ يحتاج أيضًا إلى دليل، أو بالعكس قلنا: بأنه لا حاجة لنا إلى تقدير المدة التي لبثها سليمان، وأن مثل هذه الأمور لا يُرْكَنُ إليها ولا يُعتمد عليها إلا إذا جاءت عن الشارع عن النبي ﷺ أو جاءت في كتاب الله، وأما ما يأتي عن بني إسرائيل في مثل هذه الأمور فإننا نقول نقف فيها لا نصدّق ولا نكذّب.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ إلى آخره، الجملة هذه كما تعلمون مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات وهي اللام، وقد، والقسم المقدر؛ لأن هذه على تقدير القسم: أي: (والله لقد كان لسبأٍ وكان هنا تدل على مجرد الحدوث، أي أنها مسلوبة الدلالة على الزمن فإن هذه الآية باقية، حتى الآن كل من قرأ خبرها تبين كمال الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف وعدمه، قبيلة سميت باسم جدٍّ لهم من

العرب، سبأ اسم في الأصل اسم رجل يسمى سبأ وكان من قحطان، واختلف المؤرخون النسَّابون في قحطان هل هو من العرب العاربة أو من العرب المستعربة، والمشهور أنهم من العرب العاربة الذين قبل إبراهيم، لكن رَوَى البخاري: أن النبي ﷺ مرَّ على قبيلتيْنِ من الأنصار كانوا يترامون بالنبل فقال لهم النبي ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»[1] وهذا يدل على أنهم عرب مستعربة؛ لأن الأنصار معروف أنهم الأوس والخزرج كلهم من قبائل اليمن من قحطان، تفرقوا في البلاد بعد الغرق ونزلوا المدينة، وعلى هذا فيكون ظاهر حديث البخاري أن هؤلاء من قحطان كلهم من بني إسماعيل، والحاصل أن العلماء في النسب يقسمون العرب إلى قسميْنِ: ما كان قبل إبراهيم فهم عرب عاربة، وما كان بعده من ذريته فهم عرب مستعربة، المهم أن سبأ اسم لرجل كان له أولاد كثيرون، جاء في الحديث أنهم عشرة بقي منهم ستة في اليمن، وأربعة في الشام، وانتشروا في الأرض وكثروا، وفيها قراءة يرويها المؤلف بالصرف وعدمه ﴿لِسَبَإٍ﴾. هذا الصرف، وعدمه ﴿لسبأ﴾ يقول: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ [باليمن] آية. المؤلف يقول: في [مساكنهم] أتى بالقراءة قراءة الجمع ولم أره ذكر قراءة الإفراد، وفيها قراءتان سبعيتان: قراءة الإفراد في (مسكنهم)، وقراءة الجمع في (مساكنهم) ولا خلاف بينهما في المعنى؛ لأن مسكن مفرد، والمفرد المضاف يعم ويشمل كل ما يدخل تحت هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فهنا نعمة مفرد، وقال فيها لا تحصوها إذن هي كثيرة، فمسكن من حيث المعنى بمعنى مساكن؛ لأنه مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم، على كل حال مساكنهم قراءة سبعية، ومسكنهم قراءة سبعية أيضًا، والمسكن ما يسكنه الإنسان، فيسكن فيه ويطمئن، كالبيوت والحدائق والبساتين وما إلى ذلك ﴿وَءَايَةٌ﴾ آية بمعنى علامة قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فالآية بمعنى العلامة الدالة على الشيء، هذه الآية دالة على أي شيء؟ دالة على قدرة الله - عز وجل - وعلى نعمته وعلى حكمته في النهاية، و(آية) من حيث الإعراب اسم كان مؤخر، و(لسبأ) خبر مقدم، قال المؤلف: ﴿ءَايَةٌ﴾ [دالة على قدرة الله] وعلى إحسانه وإنعامه وعلى حكمته في النهاية، يعني هذه المساكن كما سيأتي دُمِّرت بسبب إعراضهم، قال: ﴿جَنَّتَانِ﴾ [بدل] من ﴿ءَايَةٌ﴾ ويجوز أن تكون عطف بيان؛ لأنها بينت الآية ووضحتها، والجنة هي البستان الكثير الأشجار سميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها أي تستره، وقد علمنا سابقًا أن هذه المادة وهي الجيم والنون تدل على معنى الاستتار والخفاء.

وقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يقول: [عن يمين واديهم وشماله] وكان هذا الوادي بين جبال، وكان على أطراف هذا الوادي هذه الجنان العظيمة من الأشجار المتنوعة الكثيرة الثمار، وكانوا في أحسن ما يكون من الرغد والهناء والأمن يقول: عن يمين وشمال، يعني إذا كانت على

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٩) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

يمين الوادي وشماله، صار لها أيضًا منظر بديع جذاب يقول عز وجل: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [على ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ] إلى آخره، يعني أن الله - سبحانه وتعالى - جعل في هاتيْنِ الجنتيْنِ خيرًا كثيرًا، وجعل تناولها ميسرًا ولهذا قال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ مما يدل على أن الأمر مُيَسَّر، كما لو قدمت لك طعامًا، وقلت: كُلْ، إذن فهذه الجنات تعطي ثمارها بدون مشقة، بل باليسر والسهولة.

وقوله: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرزق بمعنى العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ وقوله: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرب تقدم لنا أن معناه الخالق المالك المدبر، والربوبية هنا ربوبية خاصة بعنايته - سبحانه وتعالى - بهم بما أعطاهم في هذه الجنات، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ هذا هو الذي يطالبون به جزاءً أو إظهارًا لنعمة الله - سبحانه وتعالى - عليهم، والشكر تقدم أنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، يعني فاعْتَرِفُوا بأن هذه النعمة من الله، وَأَثْنُوا على الله بها، وَقُومُوا بجوارحكم بطاعته حتى تؤدوا الشكر على الوجه المطلوب منكم، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ على [ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ] ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أحيانًا تتعدى (شكر) بنفسها فيقال: شكرت الله، ويقال: شكرت له، فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازمةً ومتعدية، متى تكون لازمة؟ تقول: لازمة إذا جاء حرف جر له، وتكون متعدية إذا لم يأتِ حرف الجر، فإذا قلت: شكرت الله صارت متعدية، وإذا قلت: شكرت لله صارت لازمة.

قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، بلدة طيبة [ليس فيها سباخٌ، ولا بعوضة، ولا ذبابة، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حية ويمر الغريب فيها وفي ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها، إنما نقول: هي بلدةٌ طيبة، أما كون الغريب يأتِ من البر وفي ثيابه القمل، فيموت لطيب الهواء] فالله أعلم، لكن نقول لا شك أن وصف الله إيَّاها بالطيبة، أنها من أحسن البلاد في هوائها، وفي قرِّها، وفي حرِّها ليس فيها الحر الشديد ولا البرد القارس، وليس فيها عفونة الهواء والماء وما أشبه ذلك، فخذ بما شئت من طيب المسكن في كل ما يسمى طيبًا ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يعني يقول: [والله] ﴿ربٌّ غفور﴾ للذنوب، فَمَنَّ الله عليهم بنعمتيْنِ، نعمة السكن وطيبه، ونعمة المغفرة، فيكون في نعمة المغفرة السلامة من الآثام، وعقوباتها في الآخرة، وفي البلدة الطيبة السلامة من الآفات في الدنيا، و(الغفور) صيغة مبالغة، واسم الفاعل منها غافر وهي مأخوذة من الغَفْر وهي الستر مع الوقاية، ومنه قولهم: (المِغْفَر) الذي يلبسه الإنسان ليتقي به السهام في الحرب ففيه تغطية وستر، وفيه أيضًا وقاية، وهكذا مغفرة الذنوب فإن معناها: أن الله يستر عليك الذنب ويقيك عقوبته ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [فأعرضوا عن شكره وكفروا] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخره، الفاء عاطفة، يعني أنهم مع هذه النعم جنات وبساتين عظيمة وبلد طيب ومغفرة للذنوب، إذا قاموا بطاعة الله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ

وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

قوله: ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ يقول: [أعرضوا عن شكر الله، وكفروا] فأعرضوا عن الشكر، وقابلوا هذه النعمة بالكفر، فماذا كانت عاقبتهم؟ قال ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ الفاء هنا عاطفة، وتفيد السببية أيضًا، أي فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم وهذه سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ هؤلاء أعرضوا فدمر الله ديارهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ [جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته أي سيل واديهم المسموك بما ذكر فأغرق جنتيهم وأموالهم] ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ العرم بمعنى السد، يعني أن هذا السيل منسوب إلى السد، أو بمعنى سيل العرم من باب إضافة الشيء إلى صفته، أي السيل العارم الجارف الذي يتلف كل ما مَرَّ عليه، والمعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل عليهم سيلًا عظيمًا وذلك بفساد السد الذي جعلوه بين هذه الجبال، وكان هذا السد المنيع تجتمع فيه السيول وتمتصها الأرض وتخرج في العيون فلما تصدع هذا السد جرت المياه بغير تقدير، وذلك بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

يقول: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ الجنتان السابقتان كلها ثمار طيبة تؤكل وينتفع بها بالبيع والشراء وغير ذلك، أما البدل فيقول: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ ﴾ [تثنية ذوات مفرد على الأصل]، هو في الأصل (ذات) للمفرد، و(ذوات) للجمع، فثني الجمع وصارت ذواتي أكل، ويمكن أن يقال: خلاف كلام المؤلف يقال: إن الأصل ذات لكن لما ثني عادت الواو فصارت ذواتي، ومعنى ذواتي أي صاحبتي؛ لأن ذات بمعنى صاحبة، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ أي صاحبة البروج ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قال المؤلف: [مُرٍّ بشع بإضافة أُكل بمعنى مأكول وتركها، ويعطف عليه] يعني أن فيها قراءتين: (ذواتي أكلِ خمطٍ) هذه الإضافة، وتركها (ذواتي أُكلٍ خمطٍ)، ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ أي أن الأكل يخمط خمطًا وهو شجر الأراك كما فسره بذلك ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والأراك هي المساويك، هذه لها أوراق بسيطة جدًّا وليست لذيذة، ولهذا يقول المؤلف: [مُرٍّ بَشِع] بدل الفواكه والخضر والزروع وغيرها ويقول ﴿أُكُلٍ﴾ بمعنى مأكول، يعني ذواتي مأكول يخمط خمطًا ﴿وَأَثْلٍ﴾ بدل الأشجار المثمرة البهيجة، صار بدلها أثل، والأثل بعضهم قال: هو الطرفة والصحيح أنه غير الطرفة؛ لأن الطرفة تكون صغيرة ما تكبر، والأثل معروفة.

سؤال: الآراك هو الأثل أم الخمط؟ الجواب: الخمط، قال ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ هنا قال: وشيء من سدر: وهناك خمط وأثل؛ لأن السدر أحسن هذه الأنواع الثلاثة، ولم يُعطَوا منه إلا

الشيء القليل شيء من سدر، وأيضًا قليل مع أن كلمة شيء من سدر، تدل على القلة لكن أُكِّدت هذه القلة بقوله ﴿قَلِيلٍ﴾.

الخلاصة الآن: أن هؤلاء لما أعرضوا ولم يقوموا بشكر الله - عز وجل - أرسل الله عليهم السيل؛ فأغرق أموالهم وهدم بناءهم، وأبدلهم بهاتين الجنتين جنتين لا يساويان ولا يقاربان ما سبق، ذواتي أكل ليس بالقليل، خمط والمؤلف قال: [إنه مرٌ بشع] وأثل هو شيء من سدر قليل بدل تلك الجنات العظيمة المفيدة النافعة.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ ذلك [التبديل] جزيناهم، ولو قال المؤلف: ذلك التبديل وإرسال السيل لكان أعم وأشمل، أو لو قال: ذلك المذكور لكان أشمل ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [بكفرهم] ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال المؤلف: [بكفرهم] فأفاد أن ما مصدرية، وأما (الباء) فهي للسببية أي جزيناهم هذا الجزاء بإغراق أموالهم وهدم بنائهم وإبدال الجنتين بهاتين الجنتين ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي [بسبب كفرهم] ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [بالياء والنون مع كسر الزاي ونصب الكفور، أي ما يناقش إلا هو] في قوله: (هل نجازي) قراءةً نُجَازِي، وعلى هذه القراءة يجب نصب ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ على أنها مفعول به، والقراءة الثانية (يُجَازَى) وعليه ترفع (الكفورُ) على أنها نائب فاعل، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ لأنه عُقِّب بإلَّا، فيكون هل نجازي إلا الكفور؟ أي ما نجازي إلا الكفور، والمجازاة هنا بمعنى المناقشة، أو بمعنى المكافأة على الفعل، والكفور صيغة مبالغة، أي ذو الكفر بالله - سبحانه وتعالى - والله أعلم.

يعني ما نجازي بالعقوبات إلا مَنْ كفر بالله، سواء كان كفْر نعمة، فَيُجَازَى على قَدْر ذنبه، أو كُفْرٌ مُخْرِجٌ عن الملة، ليس المراد جنتان يعني بستانان واحد يمين وواحد يسار المراد بساتين، لكن قال العلماء: لما كانت هذه البساتين متصلة، صارت كأنها بستان واحد، ومعلوم أنه لو كان بستان وبستان ما هي بآية، لكنها بساتين متصل بعضها ببعض، على يمين الوادي وشمال الوادي، فلما كانت متصلة بعضها ببعض، صارت كأنها واحدة، كأنها جنة واحدة عن اليمين، وجنة واحدة عن الشمال.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** أولًا: أن الموت غاية كل حي، وإن عَظُم ملكه، فإن سليمان كان من أعظم الملوك ملكًا، ومع ذلك لم ينقذه ملكه من الموت، ومنها أن الأمور كلها إلى الله؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾. ومنها: أن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بالعظمة والجلال

والكمال؛ لأن (ما) هنا ليست للتعدد، ولكنها للتعظيم؛ لأن كلمة (ما) تدل إما على التعدد، وإما على التعظيم، والتعدد هنا ممتنع، فيتعين أن تكون للتعظيم.

٢- **ومنها**: أن الشيء الحقير قد يفعل شيئًا عظيمًا كبيرًا، يؤخذ من قوله ﴿مَادَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا شيء جرت به سنة الله - عز وجل -، أن الشيء قد يكون حقيرًا لكن يترتب عليه أمرٌ عظيم، فنحن الآن لا نعرف كيف نقبر موتانا إلا بدلالة الغراب، أليس كذلك؟ بلى، أيضًا جميع المباني الهندسية الفخمة الجميلة عُرِفَتْ مِنْ صنيع النحل، أيضًا كل ما حدث من الآلات التي يحدثها الناس الآن تجدهم يشبهونها بمخلوقات الله - عز وجل - كالطائرات وغيرها؛ بهذا نعرف أن الأشياء الحقيرة قد تكون مفيدة للإنسان فائدة عظيمة، ويترتب عليها أمور خطيرة، ومنها: أن إضافة الشيء إلى سبب معلوم جائزة: لقوله: ﴿مَادَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فأضاف الدلالة إلى دابة الأرض، مع أن الدابة هل هي أكلت العصا؛ لأجل أن تدل الجن على موت سليمان؟ لا، لكنها كانت سببًا للشيء وإضافة الشيء إلى سببه المعلوم شرعًا أو حسًا جائزة، حتى ولو لم يذكر فيها اسم الجلالة، فمثلًا إذا قلت: لو لا فلان لهلكت، وصحيحٌ أنَّ فلانًا هو الذي أنقذك فهذا جائز، إذا لم تعتقد أن هذا السبب هو الفاعل الوحيد، والممنوع أن تضيف الشيء إلى سببه مع الله مقرونًا بالواو، أو تضيف الشيء إلى سبب غير معلوم سببيته لا من الشرع.ولا من الحس؛ لأن هذا يكون من باب الأوهام والتخيلات.

٣- **ومن فوائد الآية**: الحذر أو التحذير من دابة الأرض لأنها مادامت تأكل الأخشاب وتأكل هذه الأشياء فاحذر منها، وكم من إنسان أفسدت عليه دابة الأرض مكتبته القيمة التي تساوي شيئًا كثيرًا؛ ولهذا انتبهوا لا تأكل الأَرَضَة عليكم كتبكم وتُفسدها.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**:إضافة الفعل أو إضافة الشيء إلى من لم يقم به باختياره لقوله ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾، فالخرور قد يضاف إلى الفاعل بالاختيار، وقد يضاف إلى الفاعل بغير اختيار، فتقول خَرّ الماء، وتقول خَرّ ميتًا، وقال الله عز وجل ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذا بلا اختيار.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الجن لا يعلمون الغيب والدلالة على ذلك واضحة، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، ومنها أن الأمور الحسية الواقعة يُستدل بها وهذه الفائدة معناها الاستدلال بالأمور الحسية؛ لأن الله استدل على كونهم لا يعلمون الغيب بأنهم بقوا معذبين بما يعملونه من الأعمال الشاقة، فلك أن تستدل على الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، وهذا شيء معروف.

٦- **ومن فوائد الآية**: أن الجن ذوو عقول؛ لقوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ وهو كذلك؛ فإن الله

أعطاهم عقولا يهتدون بها إلى مصالح دينهم ودنياهم، ومنها: تسمية الأعمال الشاقة عذابًا، لقوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ مع أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يجعلوا له ما يشاء عقوبة لهم، ولكنه تكليف، وبهذا نعرف أن العذاب قد يُطلَق على ما ليس بعقوبة، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»[1].

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن فيها دليل على استعمال التأكيد في الأمور الهامة، وإن لم يكن المخاطب مُنكِرًا أو مترددًا، تُؤخذ من قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾؛ لأن التأكيد – كما نعلم – إنما يجب في مخاطبة المُنكِر، ويحسن في مخاطبة المتردد، ويكون على خلاف البلاغة فيما عدا ذلك، هذا هو المعروف عند علماء البلاغة، ولكن بتأمل ما ورد في القرآن الكريم، نجد أن الأمور الهامة وإن خُوطِبَ بها مَنْ لا ينكرها أو يتردد فيها، نجد أن الله تعالى يؤكدها.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: هذه العبرة العظيمة الدالة على قدرة الله وحكمته، وهي قصتهم على سبيل العموم أنهم منعمون في ديارهم وبساتينهم وقصورهم وغير ذلك، فلما أعرضوا انقلبت الحال، ففيها عبرة وفيها آية من وجوه كثيرة، آية دالة على قدرة الله، آية يعني عبرة لمن عصى الله ـ عز وجل ـ، وعبرة لمن أطاع الله، آية دالة على حكمة الله، فبتأمل هذه الآية تجد فيها أصناف وأنواع من العِبَر والعظات، الآن شرحنا هذه الآيات قلنا: آية دالة على قدرة الله حيث خلق لهم هذه البساتين، ثم أبدلها بأخرى لا تساويها بشيء، دالة على حكمته ـ عز وجل ـ حيث أعطاهم ذلك الخير حين كانوا مقبلين على الله، وسلبهم إياه حين أعرضوا واستكبروا عن طاعته، آية للمعتبرين من أهل المعاصي؛ لأن فيها تحذير مِن أن تزول نعمة الله عليهم بسبب معاصيهم؛ آية للطائعين حيث يعتبرون بها بأنهم ما داموا على طاعة الله؛ فإن نعمة الله تدر عليهم، هذه أربعة أوجه على كونها آية.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الجنات تُؤتي أكلها على وجه واسع؛ لقوله ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾

٤- **ومن فوائدها**: وجوب الشكر لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ والشكر واجب عقلاً كما هو واجب شرعًا، أما وجوبه الشرعي فالآيات بالأمر به كثيرة، وأما وجوبه العقلي؛ فلأن العقل الصريح يقتضي أن كل مَنْ أحسن إليك فإنك تشكره على ذلك، «وَمَنْ لَا يَشْكُرِ الناس فلا يشكر الله» يعني كلٍ أحد يرى أنه من الخطأ أن يُسْدِي إليك إنسانٌ ما يسدي مِنَ الخيرِ ثم تتنكر له، ولا تقم بشكره كلٌّ يعرف أن هذا خطأ، وأن الواجب أن تشكر.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧/١٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن بلاد الله تنقسم إلى: طيب، وخبيث؛ لقوله ﴿بلدة طيبة﴾ وما نوع الطيب في هذه البلدة هل هو طيب الأرض، أو طيب الهواء، أو طيب الثمار؟ الجواب: يعم كل ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات ربوبية الله - عز وجل - ومغفرته في قوله ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان حال هؤلاء القوم، وأنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، وكان عليهم لمَّا أنعم الله عليهم بهذه النعم، أن يقوموا بطاعة الله، لكنهم أعرضوا.

٢- **ومن فوائدها**: عقوبة المعرضين بما تقتضيه حكمة الله؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فالعقوبات دائمًا تكون من جنس العمل، فهؤلاء لما بطروا نعمة الله وكفروا به بسبب هذه الجنات، ابتلوا بجنات سيئة بالنسبة لما نُعِّمُوا به مِن قَبْلُ.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أيضًا إثبات الأسبابُ من قوله ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا﴾ فجعل الله تعالى سبب الإرسال إعراضهم.

٤- **ومن فوائدها**: أن المعاصي سبب لزوال النعم؛ لقوله ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا﴾ بينما كانوا مُنَعَّمِين، فلما أعرضوا أرسل الله عليهم هذا السيل المدمر، وهذا له شواهد في القرآن كثيرة منها قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: أن المطر الذي هو نعمة ورحمة، قد يكون نقمة وعذاب لقوله: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ فإن السيل في الأصل هو اجتماع المطر حتى يتدفق، الأصل أنه خير، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ وهذا خير أو لا؟ خير ولكن أحيانًا يكون عذابًا.

٦- **ومن فوائدها**: بيان ضلال أولئك القوم الذين إذا أصابتهم مثل هذه المصائب من

الفيضانات وأشبهها لم يتأثروا لذلك، فإن هذه الفيضانات التي تدمر، إنما هي عقوبة من الله عز وجل، عقوبة ليبتلي به أولئك المعذبين، ويرتدع بها مَنْ كان على شاكلتهم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله - عز وجل - بإرسال هذه السيول الجارفة التي أغرقت ثمارهم وزروعهم، ونبت بعد هذه الثمار والزروع نبت خمط وأثل وشيء من سدر، فبعد هذه الجنات العظيمة صار سدرًا أي حلّ محلها.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحكمة في أن الله - عز وجل - جعل بدل جنتيْنِ جنتين أخرتين؛ لأن الطاعة نور وصلاح وفلاح فيناسبه الجزاء بالعطاء، والمعصية ظلمة وفساد فناسبه أن يكون فيها البدل السيء بالنسبة لما قبله.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾

١ - **في هذا دليل على**: أن الله - عز وجل - لا يجازي أحد بعقوبة إلا بفعله؛ لقوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وفيها أيضًا إثبات الأسباب؛ لأن (الباء) هنا للسببية، وفيها الفرق بين يجزي ويجازي فهنا قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ لكن نجزي في الثواب، ونجازي في العقاب هكذا قال بعض العلماء فتقول للكافر: جزاك الله، وتقول للمسلم: جازاك الله، ففي الخير نقول: جازاك، وفي الشر: جزاك، ووجه ذلك: أن الخير عطاء محض، وإن العقوبة مجازة ومكافأة؛ ولهذا نقول: جازاه يصاغ الفعل على صيغة المفاعلة، والمفاعلة تكون في الأصل من طرفيْنِ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٨، ١٩]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

(جعلنا بينهم) كل الإضافات كلها فيها نسبة الفعل إلى (نا) الدالة على العظمة (جعلنا بينهم) الضمير يعود على سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ القرى جمع قرية سواء كانت كبيرة أم

صغيرة وسميت قرية؛ لأنها تجمع وما اشتهر عند الناس: أن القرية هي المدن الصغار، هذا اصطلاح عرفي وإلا فإن الله يقول في أم القرى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ فالقرية اسم للبلد سواء كان كثيرا أم قليلا سمي بذلك؛ لأنه يجمع الناس وقوله: ﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ ما هي القرى التي بارك الله فيها؟ قيل: إنها قرى اليمن كصنعاء ونحوها، وقيل: أنها قرى الشام، ولكلٍّ من القولَيْنِ وجه؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بارك في الشام وبارك في اليمن قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا»(١) ولهذا اختلف المفسرون هل المراد بالقرى التي بارك الله فيها قرى الشام أم قرى اليمن؟ قرى الشام، لبعدها، فهم يذهبون إلى الشام ويرجعون منها فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ قال المؤلف: [باركنا فيها بالماء والشجر] يعني والثمار [وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة] ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [متواصلة من اليمن إلى الشام] ﴿ظَاهِرَةً﴾ يعني بينة يُرى بعضها من بعض؛ لأن القرى إذا كانت بعيدة عن الثانية ما ترى الظاهرة، إذا خرجت من قرية إلى قرية، وهي بعيدة منها فهل تكون القرية الثانية ظاهرة لك؟ لا، وتحتاج لأحد يدلك، لكن إذا كانت متواصلة متقاربة صارت ظاهره بادية للعين، فهذه قرى متصل بعضها ببعض من اليمن إلى الشام، والذين قالوا: إن المراد قرى اليمن لأنه لا يُعْلَمُ أنه هناك قرى متصلة من اليمن إلى الشام، وقالوا: إن الواقع يدل على خلاف ذلك، وأن المراد بالقرى قرى اليمن، وعلى كل حال لكل واحد من القولين وجه.

قال: [﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة من اليمن إلى الشام] ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ يعني جعلناه مقدرًا بمراحل، ينزلون من قرية إلى أخرى مرحلة مرحلة يقول: ﴿قدرنا فيها السير﴾ [بحيث يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى إلى انتهاء سفرهم ولا يحتاجون فيه إلى حمل زاد وماء]، وهذا معني تقدير السير: أن يكون مقدّر بمراحل، حسب هذا التقدير يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ثم يقيلون في الثانية ويبيتون في الأخرى وهكذا، ولا شك أن تقدير السير على هذا الوجه، لا شك أنه من نِعَمِ الله على الناس فإن الخطوط الطويلةَ التي ليس فيها مدن تكون في الغالب طرق مهلكه ومخيفة، لكن إذا كانت متواصلة صارت أيسر للسالك وأشد طمأنينة، بل وأقرب للسير؛ لأنك إذا مشيت من قرية إلى أخرى تحس أنك قطعت مرحلة، مثل القرآن الكريم الآن لما جعل آيات وسور وأجزاء صار أسهل للقارئ، والكتاب إذا كان مفصلًا بأبواب وفصول، صار أيسر، أيضًا الطريق الحسي طريق الأرض، إذا كان فيه قرى متوالية كان أيسر من الطريق الطويل الذي يمل فيه الإنسان ولا يرى أنه قطع مسافة فيه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال المؤلف: [قلنا سيروا] وعليه فتكون هذه الجملة في موضع نصب مقولاً لقولٍ محذوف قلنا: سيروا، وهذا القول شرعي أو قدري؟ يعني أنه تعالى قال لهم: سيروا في هذه الطرق فيها ليالي، أي في هذه القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [لا تخافون ولا في ليل ولا في نهار]، وهذا من نعم الله أنهم يسيرون ليلا ونهارًا آمنين، لا يخافون من أحد، ولا يخافون من تلف، ولا من انقطاع ماء، ولا من فقد طعام، ولكن ماذا صار؟ ما صبروا على هذه النعمة والعياذ بالله قالوا:

﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ما شكروا النعمة وكان عليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة ويغتبطوا بها، ولكنهم لم يصبروا عليها، حتى سألوا الله أن يباعد بين أسفارهم فتكون الأسفار طويلة، ما فيها طرق، وهذا نظير قول أصحاب موسى له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بينما كانوا في الأول يأكلون رغدا من المن والسلوى، لا تعب، وطعام طيب، لكن لم يصبروا عليه، هؤلاء ما صبروا على هذه النعمة التي هي من أحسن النعم في الأسفار ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [وفي قراءة سبعية بَعِّدْ] ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [إلى الشام اجعلها مفاوز]، المفاوز جمع مفازة وهي الأراضي التي يُخْشَى فيها من الهلاك، وسميت مفازة من باب التفاؤل، إلا أنه في الحقيقة ما هي مفازة بل هي هلاك ومهلكة، لكن العرب تطلق الشيء على ضده تفاؤلًا، كما قالوا في الكثير: إنه كبير هذا أيضًا مثلها، يقول المؤلف في تفسير مفازة: اجعلها مفاوز لماذا؟ قال: [ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء، فبطروا النعمة] لما كانت القرى ظاهرة ومتقاربة ولا تجد فيها حمل زاد صار الأغنياء والفقراء فيها على حد سواء في هذه الطرق، فإذا تباعدت صار ذلك مِنْ حَظِّ مَنْ؟ الأغنياء، فسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم من أجل أن يتطاولوا على فقرائهم، فهؤلاء الأغنياء يركبون ما شاء من الزاد، وأما الفقراء فلا يستطيعون، ذلك هذا هو السبب في أنهم دَعَوْا الله أن يباعد بين أسفارهم.

يقول ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بماذا إما [بالكفر]، وإما بدعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يباعد بين أسفارهم، فلم يقبلوا نعمته لهذه الراحة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ [لمن بعدهم في ذلك].

إن قصتهم كانت أحاديث للناس يتحدثون بها أنه حصل «كَيْتَ وكَيْتَ» ولهذا من الأمثال المعروفة (تفرقوا أيدي سبأ) يعني: أنهم تفرقوا كتفرق سبأ، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بعد أن كانوا أشياء حقيقية ثابتة، صاروا أحاديث.

وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يعني [فرقناهم في البلاد كل التفرق] وشُرِّدوا وتشتتوا؛ لأنهم كفروا النعمة وظلموا أنفسهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى كل ما سبق من هذه القرى الظاهرة وصورة السفر، ثم سؤالهم أن يباعد الله بين أسفارهم، ثم تمزيقهم في البلاد كل ممزق.

قوله: ﴿لَأَيَٰتٖ﴾ [عِبَرًا] كيف قال لآيات وهي قصة واحد؟ لأنه قصة واحد لكنها تشتمل على أجزاء، كل جزء منها يستحق أن يكون آية.

وقوله ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ صبَّار صيغة مبالغة أي ذي صبر على البلية، والصبر في اللغة: المنع والحبس، وفي الشرع المنع والحبس عما يحرم عند المصائب[1]، والناس في المصائب لهم أربع مراتب: مرتبة السخط، ومرتبة الصبر، ومرتبة الرضا، ومرتبة الشكر وهو أعلاها، فالتسخط حرام، والصبر واجب، والرضا مستحبٌ على القول الراجح، والشكر كذلك مستحب، ولهذا قال هنا: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على أي شيء؟ عن المعاصي، بل وعلى أقدار الله، بل وعلى أوامر الله؛ لأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله ﴿شَكُورٖ﴾ أي قائم بشكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه، فيشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه، وأما كونها آيات لأن شكر الله موجب لبقاء نعمته على العبد.

وأما كونها آيات؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى حالهم، سلك مسلك الشاكرين، واجتنب مسلك الجاحدين المُنكرين.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سبأ حيث جعل القرى ممتدة من اليمن إلى الشام قريب بعضها من بعض، وفيه أيضًا أن الطرق إذا كانت بين قرى متجاورة فهي آلأمن وأقرب إلى السلامة لقوله ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن السير فيها مقدر مرحلة مرحلة بين هذه القرى، وأن تقدير السير أنشط للمسافر وأسهل له؛ لأنه إذا كان بين القرى تباين بعيد تعب المسافر وَمَلَّ، لكن إذا صار يقطعها مرحلة مرحلة، صار ذلك أنشط له وأهون عليه، - وذكرنا من هذا تجزئة القرآن ومسائل العلم في الكتب المصنفة - حتى يقطعها الإنسان مرحلة مرحلة، فيكون ذلك أسهل عليه، وربما نأخذ منها فائدة لمن أراد حفظ القرآن أن يحفظه شيئًا فشيئًا؛ لأن بعض الناس ربما يكتب له ورقة كاملة ثم يرجع يحفظها فيصعب عليه، لكن إذا حفظها آية آية كان هذا أسهل في الغالب.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأمن في الأوطان من أكثر النعم، لقوله ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ والأمن لا أحد يخفى عليه أنه من أكبر النعم.

---

(١) قال الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه الماتع «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» في معنى الصبر (أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما).

ثم قال الله تعالى على لسانهم: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

١ - **في هذا دليل على**: أن هؤلاء القوم لم يصبروا على هذه النعم، بل طلبوا زوالها وتغيرها وهل هذا القول باللسان، أو بالفعل بمعني هل قالوا فعلًا: ربنا باعد بين أسفارنا أو أنهم لمَّا ظلموا أنفسهم وكفروا صار ذلك سببًا لتباعد مابين هذه القرى حيث دُمرت وفسدت وخربت؟ الأول هو ظاهر الأمر أنهم قالوا ذلك فعلًا فباعد الله بينهم.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء القوم لما بطروا النعمة وعجزوا عن شكرها وأضافوا إلى ذلك ظلم أنفسم بالكفر لقوله: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء القوم صاروا أحاديثًا للناس من بعدهم، وهذا نوع من الخزي والعار والعياذ بالله أن يشتهر أمر الناس أو أمر الإنسان حتى يكون أحدوثة لمن بعده، ولهذا قال ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾

٤- **ومن فوائدها**: أيضًا أن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالاجتماع في قراهم وقبائلهم مزقوا كل ممزق، فشردوا في البلاد وتفرقوا لقوله﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: أن ما يفعله الله - عز وجل - بالعصاة والظالمين يكون آية للمعتبرين سواء إن كان في ضراء فيصبرون أو سراء فيشكرون لقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: فضيلة الصبر والشكر، الصبر على الضراء، والشكر على السراء، والإنسان دائمًا مصاب بهاتين الفتنتين: إما ضراء، وإما سراء؛ قال الله تعالى:﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ والموفق من أعطى كل حال ما يجب لها، ففي الضراء يجب عليه الصبر وانتظار الفرج، وليعلم أن الله - عز وجل - إذا قدَّر عليه الضراء، فإن ذلك نعمة مِنَ الله عليه، كيف ذلك؟ لأن الصبر - كما نعلم - درجة عالية، ومنزلة الصابرين من أعلى ما يكون من المراتب والمنازل، هذه الدرجة أو المرتبة أو المنزلة إذا لم يكن هناك شيء يُمتَحن به العبد، فإنه لن ينالها، لابد من أذى، ولابد من مصائب يصبر عليها الإنسان، حتى ينال بذلك درجة الصابرين، وكذلك أيضًا الشكر درجة عالية لا ينالها إلا من وُفِّق فإن الإنسان إذا أذاقه الله النعماء من بعد الضراء فالغالب عليه أن يفخر ويفرح ويبطر، فإذا أضاف إلى ذلك الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، نال هذا درجة الصابرين الشاكرين، قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»، وانتظار الفرج معونة على الصبر؛ فإن الإنسان إذا أيس ولم ينتظر الفرج، ضاقت عليه الدنيا وتضاعفت عليه المصيبة، لكن إذا كان ينتظر الفرج مؤمنٌ بذلك، هان عليه الأمر.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ صدَّق [بالتخفيف والتشديد] صدّق بمعنى أُخْبِرَ بالصدق، وصدَق أَخْبَرَ بالصدق، فالإنسان إما مُخبِر، وأما مُخبَر فالمخبِر نقول: صَدَق، والمخبَر نقول: صدَّق، يقول الله ـ عز وجل ـ صَدَقَ، وصدَّق والقراءتان هنا تحملان معنيين: معنى الصدق والتصديق، فالفائدة من هاتيْنِ القراءتيْنِ أنهما تدلان على معنيين، يتبين ذلك بشرحهما.

قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ ﴾ عليهم [أي الكفار منهم سبأ] ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [أنهم بإغوائه يتبعونه] فاتبعوه، فصدق بالتخفيف في ظنه، أو صدق بالتشديد ظنه [أي وجده صادقًا]، إبليس له ظن في بني آدم ما هو ظنه؟ ظنه أنه يغريهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ هذا ما كان يأمله ويرجوه، ويظن إما ظنًا راجحًا وإما ظنًا متيقنًا، لكن لا يمكن أن يتيقن، وإنما يظن ظن الراجح فهنا صدق ظنه، وما ظنه؟ أنه كان يقول: أنه سيغويهم فصدقه؛ لأنه أغواهم، أو صدق عليهم إبليس ظنه أنه لمَّا ظن نفذ ما قال، فيكون صدق، والحاصل أن الظن الذي ظنه إبليس إغواؤهم، هذا هو الظن، هذا الظن إما أن يكون بإغوائه إياهم قد صدقه، حيث وقع منه أولا فصدقه بتصديقه فعلا، أو صدق عليهم إبليس ظنه أنه لمَّا ظن ذلك الظن صدقه وفعله، والمعنى أن ما توقعه الشيطان وظنه من إغواء الكفار - ومنهم سبأ - وقع مؤكدًا باللام، وقد، والقسم، فتبعوا الشيطان، والشيطان - لو نظرنا - ما هو الجامع لما يأمر به؟ يأمر بالفحشاء ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ فهو يأمر بالفحشاء والمنكر، وكل فعل قبيح إذا اتبعه الإنسان في الفحشاء والمنكر وفعل الخبيث فقد تبعه وَضَلَّ عن هدى، وإن خالفه فقد نجا.

ولهذا قال: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ﴿إِلَّا﴾ [بمعني لكن] ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [للبيان] قال المؤلف:

﴿إِلَّآ﴾ بمعنى لكن إشارة إلى أن الاستثناء هنا منقطع؛ لأن الاستثناء بإلا بمعني لكن صار منقطعًا، ولكن الذي حمل المؤلف على هذا لأن قوله ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهره أن صدق عليهم جميعًا، وعليه فالمؤمنون لم يدخلوا في ذلك فيكون الاستثناء هنا منقطع؛ لأن إبليس لم يصدق الظن إلا على الكفار، أما لو جعلنا صدق عليهم إبليس ظنه عام للقبيلة كلها، أو لبني آدم كلهم، ثم قال: إلا فريقًا من المؤمنين؟ لكان هذا الاستثناء متصل، والحاصل إذا جعلنا الضمير عائد على الكفار الذين اتبعوا إبليس، فإن الاستثناء يجب أن يكون منقطعًا، وإن جعلناه عامًا لبني آدم، أو جنس هذه القبيلة (سبأ) صار الاستثناء متصلًا، وقوله ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤلف يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المؤمنين [للبيان] كيف للبيان يعني (مِنْ) بيانية وليس تبعيضية؛ لأنها لو كانت للتبعيض لكان المعني: إلا فريقًا من المؤمنين نجا منه وفريقًا آخر لم ينجوا، وهذا المعني فاسد، وعلى هذا تكون من للبيان، إلا فريقًا من هؤلاء فريق المؤمنين قال المؤلف: [أي هم المؤمنون لم يتبعوه] ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا قلت جاء فريق من القوم، كلهم جاءوا أم لا؟ لا، فمِنْ للتبعيض (إلا فريقًا من المؤمنين) إذا جعلنا مِنْ للتبعيض، فسد المعني؛ لأن المؤمنين كلهم لم يتبعوه، ولهذا احتاج المؤلف أن يجعل (مِنْ) بيانية وتكون (المؤمنين) بيانًا لقوله (فريقًا)، كأنه قال فاتبعوه إلا المؤمنين، هذا معني الآية.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على إبليس ﴿عَلَيْهِم﴾أي: على القوم الذين أغواهم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ (مِنْ) زائدة لفظًا، لا معنىً، و﴿سُلْطَٰنٍ﴾ اسم كان مؤخر، أي: (ما كان له سلطان عليهم) والمراد بالسلطان هنا التسلط، أو التسليط، ولهذا قال [تسليط] فهي إذن اسم مصدر، وليس المراد بها السلطان الذي هو القوة والقهر والمعنى: ما كان للشيطان عليهم تسليط (إلا لنعلم، وهذا تقدير المؤلف أن السلطان مع التقدير يكون الاستثناء متصلًا، أي: ما جعلنا للشيطان تسليطًا عليهم إلا لنعلم، وإذا جعلنا السلطان بمعنى التسلط، أو القدرة، فالاستثناء هنا منقطعًا، أي: ما كان له عليهم سلطة، لكن لنعلم من يتبعه إلى آخره.

وقوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن﴾ (اللام) هنا للتعليل أم للعاقبة؟ يحتمل أن تكون للتعليل أو للعاقبة، وعلى كلا التقديرَيْنِ فيها إشكال: هو أن ظاهرها يدل على تجدد علم الله، ومعلوم أن علم الله أزلي أبدي أي قديم مستمر لابد أن يستمر، فكيف أن تكون اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟ يقول المؤلف في تفسيرها: [علم ظهور] وذلك لأن تعلق علم الله بالشيء له حالان، الحال الأولى: قبل وجوده، والحال الثاني: بعد وجوده، فتعلق علم الله به بعد الوجود يسمي علم ظهور، أي: عَلِمَهُ بعد أن ظَهَرَ وبان، وعلْم الله قبل وجوده علْم تقدير أي أنه قدَّر أن يكون، وعلم التقدير هو أنَّ الله

لم يزل ولا يزال عالمًا بكل ما يكون، إذا قلنا: إن العلم علم تقدير وعلم ظهور، زال الإشكال وصار علْم الله لشيء بعد وقوعه علمًا بأنه ظهر ووقع، وعلْم الله قبل وقوعه علمًا بأنه سيقع، وفرْقٌ بين المتعلّقين.

وقيل: أن المراد بالعلم هنا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علْمٌ لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم يُنْهَ، فإذا أُمر ففعل، أو أُمر فلم يفعل حينئذٍ صار مثابًا، أو معاقبًا كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علمينِ، علم معناه أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به، وهل يقع وهل يفعل، أو لا يفعل، يعني هل يمتثل، أو لا يمتثل؟ فتبين أن في هذه المسألة التي ظاهرها تجدد علم الله، أن عنها جوابيْنِ، الجواب الأول: العلم الذي يتبين له الخفي؛ لأن الأمر لم يزل ولا يزال أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ واضحًا وظاهرًا قال: إلا أن يعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك، هنا ضَمَّن نعلم معنى نميز، ولهذا قال: مَنْ هو؟ يعني إلا لنميز مَنْ يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، والناس بالنسبة للآخرة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا بها، وقسم كفروا بها وأنكروا، وقسم في شكّ، الذين آمنوا بها أمرهم واضح والذين كفروا بها.

وقوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا: هذا لا يمكن، هذا أمرهم واضح، والذين ترددوا قالوا: يمكن أن تكون حقًا أو أن تكون باطلًا، بأي القسمين يُلحَقون بالكافر أو بالمؤمن؟ بالكافر؛ لأن الواجب أن يؤمن بالكلّ ولهذا قال عز وجل: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ فكيف بِمَنْ هو منها منكرٌ وجاحدٌ ومكذبٌ؟ فالله ـ عز وجل ـ جعل للشيطان سلطة على بني آدم لأجل أن يمتحن هؤلاء الناس، فيعلم مَنْ يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، الذي في شك من الآخرة يتبع مَنْ؟ يتبع الشيطان قطعًا؛ لأنه لا يؤمن بأنَّ هناك يوم آخر يثاب الناس فيه ويعاقبون، فهو يرى أن لنفسه الحرية المطلقة، وهي في الحقيقة حرية مِن شيء وَرِقّ في شيء، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هربوا من الرِّقِّ الذي خُلقوا له، ما هو الرِّق الذي خُلِقْنَا له؟ العبودية لله ـ عز وجل ـ وبُلُوا برق النفس والشيطان ـ نسأل الله العافية ـ يعني صاروا عبيدًا لأنفسهم وشياطينهم، فلا يمكن أن يتحرر الإنسان من عبادة الله على زعمه إلا إذا كان رقيقًا لغيره للنفس والشيطان، والحاصل أن هؤلاء الذين كانوا في شك من الآخرة لا يمكن أن يعملوا، ولا أن يقوموا بطاعة الله، ذلك لأن الذي يقوم بطاعة الله هو الذي يؤمن بأنه سوف يحشر ويثاب، أو يعاقب.

قال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ الجملة خبرية تفيد لازم ذلك المعنى،

فهي خبرية تفيد أن الله على كل شيء حفيظ، أو مراقب ومطلع ومهيمن على كل شيء، سواء كان ذلك مما يتعلق بفعله أو يتعلق بفعل الخلق، فهو جل وعلا رقيب على كل شيء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هذا المعنى يستلزم معنى آخر، وهو التحذير من المخالفة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله حفيظ على كل شيء خاف ولم يخالف، أما إذا كان في شك من هذا فإنه سوف يعمل كما يشاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾

قوله: ﴿قُلِ﴾ [يا محمد لكفار مكة]، فهنا المؤلف جعل الخطاب خاص من وجهين، من جهة المخاطِب، ومن جهة المدعُوّ المخاطَب. قال قل: [يا محمد] والمدعو كفار مكة، ولكن هذا غير مسلم به للمؤلف، أو للمفسر بل نقول: (قل) يمكن أن تكون موجهة لكل مَنْ يُتوجَّه الخطاب إليه من الرسول ﷺ أو مَنْ ورثه مِنْ أمته، أي قل: (أيها الناس) أما بالنسبة للمدعوين فنقول الأصح: أنه أعم لكل مَنْ دعا مع الله غيره من كفار مكة وغيرهم، وهكذا يجب أن يكون لدينا قاعدة، وهو أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الخطاب خاصًا، أو عامًا، وجب أن يكون عامًا؛ لأن العام يدخل فيه الخاص ولا عكس، وكلما كان معنى القرآن أوسع كان أوجب، إذن نقول: قل (أيها المخاطب) ممن تدعو إلى الله قل للذين يدعون مع الله غيره ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة، ادعوهم، هل المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة أو دعاء الإحضار؟ ادعوهم أي احضروهم، أو دعاء المسألة يعني اسألهم أي اطلبوا منهم الحوائج، هل يستجيبون لكم أو لا؟ يحتمل المعنيين يحتمل معنى أحضروهم لنناقشهم، أو ادعوهم دعاء مسألة اسألهم، كما تقول: ادع الله أي اسأله.

المشركون يدعون هذه الآلهة أن تنفعهم فهل تنفعهم؟ لا يمكن أن تنفعهم؛ وذلك لانتفاء أسباب النفع من عدة أوجه، أولًا: لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض استقلالًا، ولا يملكون ذلك مشاركة، وليس لهم معونة ولا شفاعة إلا بعد إذن الله، فبين الله ـ تعالى ـ أن أسباب النفع في هذه الآلهة منتفية فقوله ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الآلهة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ وزن ذرة من خير أو شر في السموات ولا في الأرض ولا دون المثقال؛ لأن التقدير إذا قصد به المبالغة فلا مفهوم له، سواء كان في الكثرة أم في القلة، فهنا لا يملكون مثقال ذرة يعني ولا دونها ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ ولو أكثر من سبعين فلن يغفر الله لهم، ولهذا قال في آية المنافقين: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ فإذا جاء القيد للمبالغة قلة أو كثرة فليس له مفهوم، إذن لا يملكون مثقال ذرة ولا دونها في السموات ولا في الأرض، ولو كانوا

يملكون ذلك لقلت: نتعلق بهم لعلهم يعطوننا مما يملكون، هل لهم شرك في السموات أو في الأرض؟ لا، ولو كان لهم شرك لقلتم لعلهم يعطوننا من نصيبهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [شركة] (مِنْ) هذه زائدة لفظًا لا معنىً، وعلى هذا فشرك مبتدأ مؤخر وخبره جاء مقدم، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ يعني ما لهم شرك في السموات ولا في الأرض، ﴿وَمَا لَهُ﴾ [تعالى] ﴿مِنْهُم﴾ [من الآلهة] ﴿مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ ﴿مِن ظَهِيرٍ﴾ أيضًا نقول فيها كما قلنا في ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي من زائدة لفظًا لا معنىً، وظهير مبتدأ مؤخر والظهير بمعني [المعين] كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ إذن ليس لهم مع الله معونة حتى يدلوا على الله بها ويقولون: اعطنا عوض معونتنا لننفع من يدعونا، ما لهم مساعدة مع الله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾ معين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

١- **يستفاد من هذا:** أن إبليس يوصف بالصدق ويوصف بالكذب، وما هو الوصف اللازم له؟ الكذب، قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقال النبي ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1] ولكن قد يصدق.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ في تسليط الشيطان على بني آدم، وهي أن يُعْلَمَ مَنْ يؤمن بالآخرة فيعمل لها، ممن لا يؤمن ويكون في شك فلا يعمل؛ لقوله ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإيمان حاجر عن اتباع الشيطان لقوله ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولهذا يمر بكم كثيرًا فيما يمر بكم، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون كذا وكذا»، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل كذا وكذا»، «أو فليفعل كذا وكذا» مما يدل على أن الإيمان حاجز عن اتباع الشيطان وموجب لاتباع هدي الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشيطان إمامٌ لكل ضال لقوله ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ فكل الضالين إمامهم الشيطان وهم متبعون له.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إذا قلنا أن (مِنْ) للتبعيض وأن المراد بالاتباع الاتباع المطلق.

٦- **ومن فوائدها:** أن بعض المؤمنين قد يتبع الشيطان في بعض الأمور؛ لأننا من قبل قلنا: ربما يكون الاستثناء متصلًا وتكون (مِنْ) للتبعيض إذ أن بعض المؤمنين قد يتبعون الشيطان في بعض

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأمور مثال ذلك: «لَا يَأْكُل أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ وَلَا يَشرَبْ بِشِمَالِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»(١)، إذا فعل أحد ذلك صار متبعًا للشيطان، ولهذا كان القول الراجح تحريم الأكل بالشمال والشرب بالشمال وأنه ليس مكروهًا فقط، بل هو حرام، والإنسان يكون عاصيًا بذلك إلا إذا كان أفنديًا تقدميًا حضاريًا فإنه يأكل بالشمال، الشوكة ما فيها شيء لكن الكلام عن اليد الشمال إذا أكلت باليمين ما في مشكل لكن إذا أكلت بالشمال هذه هي المشكلة التي يزعم فاعلوها أنهم تقدميون وحضاريون ولكن ليس كل تقدم محمودًا فإن الله تعالى يقول عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ إذن على هذا القول الأخير أن ﴿مِن﴾ للتعبيض يكون الاستثناء متصلًا ويكون لبعض المؤمنين شيء من اتباع الشيطان لا الاتباع الكامل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾

١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات علم الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ وتعلق علم الله تعالى بالموجودات سبق لنا أنه ينقسم إلى قسمين: تعلق بها قبل الوجود وتعلق بها بعد الوجود، فالتعلق بها بعد الوجود يكون علمه بها علم أمرٍ واقعٍ، والأول يكون تعلق علمه بها أنه علم بما سيقع وبهذا يزول الإشكال في مثل هذه الآية حيث أن ظاهرها يفيد تجدد علم الله - سبحانه وتعالى - لأننا نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - محيط بكل شيء علمًا أزلًا وأبدًا ومن ظن أن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وجوده فقد كفر.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الآخرة ووجوب الإيمان بها.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشك فيما يجب فيه اليقين كفر؛ لقوله ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ (ولم يقل ممن هو منكر لها) لكن قال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ لنستفيد من فوائدها: وهو أنه ما يطلب فيه اليقين يكون الشك فيه كالإنكار وكلاهما كفر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: عموم رعاية الله ومراقبته لكل شيء تؤخذ من ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٥- **ومن فوائدها**: أن ربوبية الله - عز وجل - تنقسم إلى خاصة وعامة والخاصة إلى أخص وإلى خاصة كقوله ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فهذه ربوبية أخص من الخاصة فإن ربوبية الله - عز وجل - لخواص عباده كالأنبياء أخص من ربوبيته لعموم المؤمنين وخصوصيته للمؤمنين أخص من ربوبيته لعامة الناس ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ خاصة أو عامة؟ خاصة إذن لما كانت الربوبية الخاصة هنا قد توهم باختصاص ربوبيته بهذه البلدة قال بعدها ﴿وَلَهُۥ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٥/ ٢٠٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية دليل على:** أنه ينبغي في المناظرة التحدي للمناظر فيما يعلم أنه لن يكون لقوله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فيجب على كل دعاة الحق أن يتحدُّوا هؤلاء المبطلين بإن يبرزوا لباطلهم شيئًا من النفي وهذا كما أنه في الشرك يكون أيضًا فيما دونه فإنه ينبغي أن يكون الداعي إلى الله - عز وجل - على علم بالأمور حتى يستطيع الجدل فيها؛ لأن من لم يكن على علم فيها فإنه سيقف حيران ولا يتمكن من مقابلة الخصم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الأصنام المدعوة من دون الله لا تملك شيئًا لنفسها فلا تملك شيئًا لغيرها ليس لها ملك ولا شرك في الملك ولا معاونة على تصرف ولا شفاعة والأمر في هذا واضح ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي ماله منهم ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها** إثبات الشفاعة بإذن الله لقوله﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ولو كانت لا تنفع مطلقًا ما صح الاستثناء ولو كانت تنفع مطلقًا ما صح النفي لو كانت الشفاعة مطلقًا تنفع أذن الله فيها أو لم يأذن ما صح النفي ولو كانت تنفع مطلقًا ما صح الاستثناء، إذن فهي تنفع بإذن الله، ولا تنفع الشفاعة عنده أي عند الله إلا لمن أذن له، وهنا لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له لكمال سلطانه فالنفي هنا متضمن الإثبات وهو كمال السلطان؛ لأن من كمال السلطان ألَّا يتكلم أحد عند الملك المشفوع إليه أبدًا إلا بإذن ولهذا تجد الإنسان إذا كان ذا هيبة عند الناس وكان في مجلس تجد الناس ما يتكلمون هيبةً له وتجد السلطان إذا كان ذا هيبة ما أحد يقدر يتكلم في مكان جلوسه ولا مع أخيه سرًا؛ لأنهم يهابونه فلكمال سلطان الله - عز وجل - لا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه حتى أخص عباده به وهم الأنبياء وأخصهم محمد ﷺ لا يمكن أن يشفع إلا إذا أذن الله حتى في مقام الرحمة يوم القيامة فإن الله تعالى «يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةَ رَحْمَةٍ يَرْحَمُ بِهَا الْخَلْقَ»[1] في مقام الرحمة وعند شدة الهم والغم المقترن برحمة الله ما يمكن أن يشفع الرسول ﷺ إلا بإذن الله أبدًا، لماذا؟ لكمال سلطان الله - عز وجل - إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذن الله فهل هذه الأصنام المقبوحة المنحطة عند الله المنحطة عنده قدرًا، تشفع؟!

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (١٨/ ٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

❁ التفسير ❁

[قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ تعالى ردًا لقولهم إن آلهتهم تشفع عنده ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة وضمها] أُذِن له فيها إذا قالوا: نعم آلهتنا لا تملك شيئًا لا في السموات ولا في الأرض آلهتنا ليس لها مشاركة مع الله آلهتنا لم تعن الله لكنها تشفع كما قالوا ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع قطع الله هذه الوسيلة الأخيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إذن هذه الآلهة لا تستطيع أن تشفع إلا بعد إذن الله وهل يمكن أن يأذن؟ لا يمكن؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويقول عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ومعلوم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يرضى عن الكافرين، لا أن يشفعوا، ولا أن يشفع فيهم فتبين أن جميع ما يتعلق به المشركون في شركهم مع الله كله باطل وكله ممتنع، فإن الأسباب التي يمكن أن ينتفعوا بها واحد من أمور أربعة. نعدها:ـ

الملك استقلالًا، الملك مشاركة، الإعانة، الشفاعة، وكل هذه الأربعة منتفية في عبادة هذه المدعوة من دون الله فانقطع كل سبب يتشبث به المشركون، وحينئذٍ فيجب أن تكون العبادة والدعاء لمن؟ لله تعالى وحده؛ لأنه الذي له ملك السموات والأرض فما هي الشفاعة؟ الشفاعة في اللغة: جعل الفرد شفعًا وجعل الوتر شفعًا ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ فضم واحد إلى واحد شفع وضم واحد إلى ثلاثة شفع وهكذا لكنها في الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة، هذه الشفاعة: أن تتوسط لغيرك إما بجلب منفعة له أو دفع مضرة فالشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة في جلب منفعة، والشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج هذه شفاعة لدفع الضرر فلا تخرج الشفاعة عن هذين الأمرين إما لجلب النفع وإما لدفع الضرر، إنسان شفع لشخص في أن تعلو مرتبته، جلب منفعة، شفع لشخص كُتِبَ عليه غرامة أن تُرْفَعَ عنه الغرامة هذا دفع مضرة، وقوله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الإذن هنا الكوني أو الشرعي؟ الكوني، يعني إلا لمن أذن الله له في أن يشفع، وشرط الإذن أن يكون الله تعالى راضيًا عن الشافع والمشفوع له فيأذن فيها ـ سبحانه وتعالى ـ كرامة للشافع وبيانًا لفضله ورحمة بالمشفوع له وإحسانًا إليه.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ [وهو العلي فوق خلقه بالقهر] هذا فيه إما تقصير وإما قصور؛ لأن علو

الله ـ عز وجل ـ ليس بالقهر فقط، بل علوه ثلاثة أقسام: علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، لكن المؤلف ـ عفا الله عنا وعنه ـ كأنه لا يرى علو الذات.

والمنكر لعلو ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسمون إلى قسمين: حلولية، ومعطلة محض تعطيلًا محضًا.

فالحلولية يقولون: أنه يجب عليك أن تؤمن بأن الله في كل مكان بذاته وتنفي علوه، إن كنت في المسجد، أو في السوق، أو في البر، أو في البحر فالله ـ سبحانه وتعالى ـ بذاته في ذلك المكان وإن كنت في الحش فهو في الحش مكان التخلي - والعياذ بالله - ما نزهوا الله عن الانتان والأقذار ـ نسأل الله العافية ـ ولا شك أن هذا كفر محض ولا يشك أحد في كفر من اعتقد هذه العقيدة.

والطائفة الثانية المنكرة للعلو وهم المعطلة يقولون: أنه لا يجوز أن نقول: أن الله فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا متصل ولا منفصل وهذا تعطيل محض يعني لو قيل صِفْ لنا المعدوم ما وجدت أشد إحاطة بالمعدوم من هذا الوصف الذي لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا خلف ولا أمام ولا متصل ولا منفصل هذا ليس بموجود قطعًا.

أما الرسل وأتباعهم فيؤمنون بأن الله ـ عز وجل ـ بذاته فوق كل شيء وهذا الذي دل عليه العقل والفطرة والإجماع والكتاب والسنة ولنستعرض لهذا الأمر وإن كان الأمر ظاهر لكن الكتاب دل على أن الله بذاته فوق عرشه من وجوه متنوعة فتارة بذكر العلو مثل ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وتارة بذكر الفوقية ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وتارة بذكر صعود الأشياء إليه مثل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتارة بذكر نزول الأشياء منه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فقد تنوعت الأدلة من كتاب الله على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأما السنة فكذلك دلّت السنة على علو الله بذاته من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ربنا الله الذي في السماء»[1] وقال: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2] وأما فعله فإنه في يوم عرفة وهو يخطب الناس عندما خطب تلك الخطبة العظيمة قال لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ» يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللَّهمَّ اشْهَدْ»[3] هذا سنة فعلية بإشارته ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين ذكر الله وأما الإقرارية، فإنه أوتي إليه بجارية فسألها فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود». وصح ما هو خير منه ما أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢١/ ١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٤٤/ ١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) صحيح: مسلم (١٤٧/ ١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

قالت: في السماء قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1] هكذا قال ويعتبر هذا إقرارًا فقد تنوعت السنة في الدلالة على علو الله تعالى بذاته، وأما الإجماع فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الأمة على أن الله تعالى في السماء بذاته ولم يقل أحد منهم بحرف واحد إن الله ليس في السماء، أو أن الله في كل مكان بذاته أبدًا، وأما العقل فاسأل عقلك هل الكمال في علو الذات، أو في نفي العلو عنها؟

الأول بلا شك علو الذات تدل على كمال بل هي الكمال فإذا كان العلو هو الكمال فإن من المعلوم عقلًا أن الرب متصف بالكمال وحينئذٍ يثبت له العلو عقلاً، أما الفطرة فاسأل فطرتك عندما تسأل الله شيئًا أين ينصرف قلبك؟ إلى الأعلى ولهذا كان (أبو المعالي الجويني) كان يقرر فيقول: كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء يريد بذلك أن ينكر استواء الله على العرش الذي من إلزامه الإقرار بالعلو فقال له أبو العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ دعنا من ذكر العرش وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو فلطم الجويني على رأسه وصرخ وقال: حيرني الهمداني[2]. حيرني لماذا؟ لأن الدليل الفطري لا يمكن أن يُنَازَعَ فيه، ولو نازعه منازع قلت: هذا مجنون، لا لما قال: أنه كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ[3] ينفي الاستواء على العرش هذا يريد أن يقرر أن الله تعالى لم يستوِ على العرش فينتفي علوه، فالآن نقول أن الأمر الفطري لا يمكن أبدًا لأحد أن ينكره ولهذا تحير أبو المعالي الجويني وعجز عن الإجابة؛ لأن هذا دليل فطري لا ينازع فيه أحد، إذن فقد تطابقت الأدلة على علو الله تعالى بذاته، أما علوه بصفاته سواء كانت صفات قدر أم قهر فهذا يقر به جميع المنتسبين إلى الإسلام حتى الجهمية والأشاعرة وغيرهم يقرون بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عال علوًا معنويًا وهو علو الصفات.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ [فوق خلقه بالقهر] ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ [العظيم]، الكبير العظيم لا شك أن هذا ليس تفسيرًا مطابقًا ولكنه كأن المؤلف أخذه من قرن العظيم بالعلي في آية الكرسي حيث قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهنا قال وهو العلي الكبير ففسر الكبير بالعظيم ولكن الصحيح أن الكبير أعم يعني أن الكبير ليس معناه العظيم بل معناه ذو الكبرياء ومعناه أن الله تعالى لا يماثله شيء في ذاته السموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا وهذا أيضًا تمثيل على سبيل التقليد وإلا فالله تعالى أعظم وأجل فكل المخلوقات

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٣/ ٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي اله عنه.

(٢) أسند القصة أبو منصور بن الوليد الحافظ في رسالة له إلى الزنجاني كما في «العلو» للذهبي ص (٢٥٩) وسنده صحيح.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

بالنسبة له ـ سبحانه وتعالى ـ ليست بشيء فينبغي أن نقول أن الكبير ليس هو العظيم بل يفيد معني آخر وهو الذي له الكبرياء وهو الذي لا يُنْسَبُ له شيءٌ من خلقه فالسموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا، وفي هذه الآية دليل على إثبات الشفاعة، لقوله ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإن قلت: ما وجه الدلالة على إثبات الشفاعة مع أنها نفي أي لا تنفع الشفاعة؟ الجواب: أن الله – سبحانه وتعالى – لم يقلْ (ولا تكون الشفاعة)، وإنما قال: (لا تنفع الشفاعة) فهذا دال على إثباتها لكن لا تنفع إلا بإذن الله.

الفوائد:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عظمة الله تعالى وقوة سلطانه هذه ما فيها ما قال (إن الله قوي ذو سلطان أو عظيم ذو سلطان) لكن هي تدل على ذلك باللازم فما وجه الدلالة؟كلما عظم السلطان ازدادت الهيبة وصار لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** قطع كل سبب يتعلق به المشركون في آلهتهم ما وجهه؟ قطع كل الأسباب التي يستدلون بها على أنها شفاعة.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان كرم الله ـ عز وجل ـ على كل من الشافع والمشفوع له.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم بكلام مسموع والآن نأخذ الفوائد بناءً على القول الراجح.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أيضًا أن كلام الله ـ عز وجل ـ ليس ككلام المخلوقين بل هو أعظم؛ لأن السامع له يصعق إلا أن يثبته الله ـ عز وجل ـ لقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن قول الله عز وجل كله حق لقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية؛ لقوله ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات علوه ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ وهو ينقسم إلى علو ذات وعلو صفات وكلاهما ثابت لله ـ عز وجل ـ.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات الكبرياء لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٩- **ومن فوائدها أيضًا:** أن للملائكة عقول وفهم وإدراك وقلوب لقوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ ولكن هل قلوبهم كقلوب الآدميين؟ الله أعلم لا نعلم كيفيته والملائكة لا يشربون ولا يأكلون وليس لهم أجواف ولا أمعاء؛ لأنه لا يحتاج إلى الجوف والأمعاء إلا من يأكل ويشرب.

١٠- **ومن فوائد الآية:** أن الملائكة يتكلمون ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (مَنْ) اسم استفهام والمراد به التحدي تحدي هؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله غيره هل هذه الأصنام ترزقهم من السموات والأرض؟ لا ولكن الذي يرزق هو الله فيتحداهم بالسؤال ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقوله ﴿مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ لابتداء الغاية أي أن الرزق يأتي من السموات والرزق بمعني العطاء فما هو الرزق من السموات؟ قال المؤلف: [المطر] فإن المطر رزق ينزل للأرض فتنبت وأن الرزق من الأرض فأمره ظاهر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ثم أننا قد نقول: أن الرزق من السموات أشمل من المطر فإن السموات ينزل منها المطر وينزل منها المنّ والسلوى وربما نقول: أن الطيور في جو السماء إنها من رزق السماء؛ لأنها تأتي من فوق فكل ما يأتي من فوق فإنه يطلق عليه أنه رزق من السموات.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخطاب في قوله ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله ﴿يَرْزُقُكُم﴾ المشركون فبماذا يجيبون؟ أحيانًا يُجيبون بالصواب فمثل قوله في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، هذا جواب صحيح وأحيانًا لا يجيبون، أو يأبون أن يتكلموا عنادًا وخوفًا من الإلزام؛ لأنهم إذا قالوا الله ألزموا بألا يعبدوا إلا الله إذن كيف تعبدون مَنْ لا يرزق؟وهم أحيانًا يجيبون بالصواب ويقولون: الله ثم يكابرون ويعاندون ويقولون: إنما نعبدهم شفعاء لنا عند الله ليقربونا إلى الله زلفى ما نعبدهم لذواتهم وأحيانًا يأبون الجواب يتلعثمون؛ لأن الحق ثقيل عليهم، وإذا لم يقولوا شيئًا فقل: الله، ولهذا قال ﴿قُلْ﴾ الله هو الذي ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن أبوْا قالوا: (لا هو غيره) ولكن لا يمكن أن يقولوا (هو غيره) فقل مَنْ؟أعاد عليهم السؤال مرة ثانية، قال الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قال المؤلف: [إن لم يقولوه] يعني إن لم يقولوا هو الله.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ وجوب مناظرة المشركين ومحاجتهم ويؤخذ من قوله ﴿قُلْ﴾ لأن الأصل في الأمر الوجوب.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي أن يستدل بالأوضح والأبين فإن الرزق من الله ـ عز وجل ـ أمر معلوم، لا بد على المؤلف أن يقول أنه ينزل المطر أو أنه ينبت النبات ففي باب المناظرة ينبغي على الإنسان أن يستدل بما هو أبين وأوضح وهذه طريقة القرآن كما مر علينا في (قواعد التفسير).

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز إجابة السائل بما هو واضح لقوله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ومثاله في الأمور العادية أن أسألك مثلا ما الذي جاء بكذا وكذا ؟ فتتوقف إما جهلا أو مكابرة فأقول أليس فلان هو الذي جاء ؟ فأقرره وهذه أعني إجابة السائل إنما هي في الأمور الواضحة أما في الأمور الغير واضحة فقد يعرض ولا يكون جوابه ممتنعًا ولكن في الأمور الواضحة للسائل أن يجيب نفسه إذا تلعثم الخصم ولم يُجِبْ أما إذا أجاب فالأمر واضح، وهذا الاستفهام في الآية الكريمة هذه هل أجاب عنه المشركون بالحق في موضع آخر؟ نعم في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز محاجة الخصم بما يعرف في باب المناظرة بالسبر والتقسيم بالسبر يعني تتبع الشيء والتقسيم يعني الترديد يعني هذا أو هذا فمثلا هنا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ تتبعنا الحال وجدنا أن حال كل منا لا تخرج عن حالين: إما هدى، وإما ضلال وهي إما لنا وإما لكم وليس هناك شيء ثالث هذا يعرف بالسبر والتقسيم ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هذه دعواه ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال الله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يعني هل يعلم الغيب؟ يعني سيأتي مالا وولدا ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله أعلمه بذلك وعهد به إليه وفي قسم ثالث الكذب ولهذا قال ﴿كَلَّا﴾ أي أنه لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا ينتفي هذا وهذا، وما يبقى إلا الكذب أنها دعوة كاذبة لا حقيقة لها ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ومنها أيضا ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وما الجواب ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ إن كان عندكم عهد من الله فإن الله لا يخلف عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والجواب: أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون.

٥- **ويستفاد من الآية:** الاستدلال بما يعرف عند علماء المناظرة أو علماء المناظرة والجدل بالسبر والتقسيم والتنزل معه للوصول إلى الإقرار بالحق، من قوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى

أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن هذا تنزل في غاية التنزل مع الخصم ليقر بالحق لمن؟ للرسول ﷺ.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان لا يُسْأَلُ عن عمل غيره ولا يُسْأَلُ غيره عن عمله لقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وغير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ لكل إنسان عمل وَيُسْتثنى من ذلك ما إذا كان عمل الغير ناشئًا عن عملك بأن تكون أنت الدال عليه، أو المعين عليه فإن لك من وزره بقدر عملك قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1] فهل هذا مخالف للآية الكريمة في المعنى؟ لا؛ لأن حقيقة الأمر أن وزر الغير مزيد على وزره فيكون من فعله فيدخل في إجرامه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات السؤال عن العمل؛ لأن قوله ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ يعني من الذي يسئل؟ الإنسان كلٌ مسئول عن عمله ولو كان السؤال منتفيًا مطلقًا ما صح أن يقول الله تعالى: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ فكل إنسان مسئول عن عمله ولابد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ وما دام الإنسان يؤمن بذلك؛ لأنه سيُسْأَلُ عن عمله فسوف يحرص غاية الحرص على أن يكون عمله موافقًا لشرع الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾

١- **في هذه الآية**: إثبات البعث والجمع لقوله ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ وهذا الجمع ثابت بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ ويدخل فيه أيضًا الجمع في الدنيا والحساب لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على القدرية لقوله ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ ومعلوم أن اجتماعنا من فعلنا فأضافه الله إلى نفسه؛ لأنه هو المدبر له ـ سبحانه وتعالى ـ المقدر له.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن حكم الله ـ عز وجل ـ كله حقٌ وعدل لقوله ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل الذي ليس فيه ظلم ولا جور.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات ما قرره أهل السنة والجماعة من أن اسم الله إذا كان متعديًا لم يتم الإيمان به إلا بالإيمان بكونه اسمًا وبما تضمنه من صفة وبما تضمنه من أثر وحكم لقوله ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، ثم قال بعد ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ دَلَّ هذا على أن أسماء الله ـ عز وجل ـ متعدية تتضمن الأحكام والآثار المترتبة على ذلك.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩/ ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما الفتاح، والعليم، وكما سبق في الشرح أن الفتاح تشمل معانٍ كثيرة الفتح بالنصر وبالعلم وبالفهم وبالفصل الحسن وبغير ذلك، يعني أنها اسم واحد.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات العلم لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وأنه صفة من صفاته الثابتة اللازمة؛ لأنه موصوف به أزلًا وأبدًا ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد المناظر بالجزاء المجزوم به لقوله ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لأن هذا يتضمن التهديد لأننا نعلم أن الله إذا فتح بينهم فسيكون الحق مع المسلمين بهذا عرفنا الترديد في قوله ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ الذين على هدًى مَنْ؟ هم المسلمون وأن أولئك على الضلال؛ لأنه لو قال قائل: الآية في ترديد ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ما عرفنا مَنِ الذين على الهدى؟ نقول الذين على الهدى هم الذين يفتح الله عليهم وينصرهم على أعدائهم بالحق.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ:٢٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في هذا ما سبق من أنه من آداب المناظرة سلوك التحدي فيما يعلم امتناعه من الخصم؛ لأنك إذا تحديته بأمر لا يمكن وظهر عجزه تبين بطلان دعواه بخلاف ما إذا تحديته بأمر يمكنه أن يفعله فإن هذا ضرر عليك لا تتحدى الخصم إلا بأمر يعجزه ولا يتمكن منه هنا يقول: أروني الذين ألحقتم به شركاء يعني [أعلموني] ماذا خلقوا ؟ماذا نفعوا ؟ لم يخلقوا شيئًا ولم يرفعوا ضررًا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ وقوله ﴿أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

الفوائد:

١- **يستفاد منها:** أن الشرك يكون في العبادة كما يكون في الخلق والتدبير يعني أن الشرك

يكون في الألوهية كما يكون في الربوبية وجه ذلك أن هؤلاء المشركين لم يكونوا يشركون في الربوبية، ولكنهم يشركون في الألوهية والعبادة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يمكن أن نري أحدًا من الناس يَدَّعي أن لهذه الأصنام شيئًا من الخلق أو الرد أو التدبير تؤخذ من قوله ﴿كَلَّا﴾ يعني لا يمكن، أروني شيئًا من هذه الأصنام.

٣- **ومن فوائد الآية أيضًا:** إثبات اسمينِ من أسماء الله وهما العزيز والحكيم وما تضمناه من صفة وهي العزة والحكمة يعني الحكيم قلنا ذو الحكم والحكمة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكن أن تقع سفهًا لقوله الحكيم، والحكيم هو الذي لا يعرف به السفه وهذا شيءٌ معلوم بالضرورة قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله ـ عز وجل ـ لا يُغْلَبُ، لقوله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وإذا آمنت بذلك واستعززت به ـ تبارك وتعالى ـ علمت أنك لا تغلب.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره العزيز، وفي قوله الحكيم [في تدبيره لخلقه] وأخطأ في قوله ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾في ملكه؛ لأنه ليس المقام مقام نفي الشريك في الملك وإنما المقام مقام الشريك في العبادة إذ أن هؤلاء المشركين يعترفون أن الله لا شبيه له في ملكه.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾ حالٌ من الناس قدم للاهتمام قوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾ هذا الاستثناء يسمونه استثناءً مفرغًا من أعم الأحوال يعني ما أرسلناك لأي حالٍ من الأحوال إلا لهذه الحال يعني إلَّا للناس كافة، كافةً بمعنى جميعًا وقوله ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإرسال معناه الأمر بتبليغ الشيء، فأنت إذا أرسلت شخصًا من الناس إلى شخص آخر معناه أنك أمرته أن يبلغ شيئًا ما إلى المرسل إليه ولهذا قال العلماء في تفسير الرسول: هو الذي بعث إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، قوله ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الناس معناه: هم البشر وسموا ناسًا من قولهم أنس إذا

تحرك وعمل وعلى هذا فيكون الناس اسمًا مشتقًا وليس اسمًا جامدًا قالوا: وأصلهم أُناس، أصله الأُناس لكنها حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال قالوا: ومثل ذلك قولهم (شر) و(خير). فأن تقول هذا خير من هذا بمعنى أخير من هذا فحذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال قالوا: ومن ذلك (الله)، وأصله (الإله) حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال على أن هذه المسألة الأخيرة فيها شيءٌ من النظر لأن الإله تأتي إلى جانب الله فتقول هو الله الإله العظيم إلى آخره.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي كفار مكة وهذا قصور من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لأننا إذا قلنا إنك أرسلت إلى كفار مكة فغيرهم لم يرسل إليهم وهذا قصور عظيم جدًّا كيف تأتي كلمة الناس في مقام الرسالة ونقول المراد بها كفار مكة الصواب أن المراد بها كل البشر كفار مكة وكفار واشنطن وكفار موسكو وكفار الصين وكل الكفار إلى يوم القيامة للناس عمومًا.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيرًا مبشرًا للمؤمنين بالجنة ونذيرًا منذرًا للكافرين بالعذاب بشيرًا حال أيضًا من الكاف في قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ فعيل بمعنى مُفعِل أو بشيرًا بمعنى البشارة وفَعِيل تأتي بمعنى مُفعِل، كما أسلفنا ذلك كثيرًا، وقوله بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين بالنار ينبغي أن يقال؛ بشيرًا للمؤمنين بالجنة كما قال المؤلف ونذيرًا للعاصين بالعقوبة ليشمل الإنذار عن الكفر والإنذار عن المعاصي يعني حتى المعاصي رتبت عليها عقوبات من أجل أن تردع الإنسان عن فعلها والله أعلم.

الفوائد:

١- **فيها دليل على:** أن محمدًا ﷺ عبدٌ مأمورٌ لا ربٌ آمرٌ، لقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾.

٢- **وفيها أيضًا:** عموم رسالة النبي ﷺ كافة للناس فهو كقوله ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاس عَامَّةً»(١) أو نقول كقوله ﴿لِّلنَّاسِ﴾ فإن الناس هذه من صيغ العموم؛ لأن فيها رأيٍ آخر يقول ﴿كَآفَّةً﴾ بمعنى (كافٍ) يعني إلا تكف الناس عن الشرك والعصيان، أو إلا كافًّا للناس أي جامعًا لهم على التوحيد والإخلاص، وعلى هذا فتكون حالًا من الكاف في قوله أرسلناك والتاء فيها على هذا المعنى للمبالغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إمامًا، وكما يقال: هذا عَلاَّمَة أي بمعنى كثير العلم لكن تكون التاء للمبالغة فصار عندنا في كافة معنيان أو قولان: وأنا ما ذكرتها في الشرح نعم للقصور لا للتقصير ﴿كَآفَّةً﴾، فيها وجهان: أن تكون حالا من الناس وأنه مقدمة عليها، وأن تكون حالًا من الكاف في أصل المعني وعلى هذا الوجه تكون كافة بمعني كافٍ أي جامع، أو كاف أي مانع تكف الناس.

٣- **ومن فوائد الآية:** أن رسالة النبي ﷺ تتضمن شيئين هما البشارة والإنذار البشارة للطائع

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بالثواب والإنذار للعاصي بالعقوبة.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى الحكمة من إرسال الرسل وهي التبشير والتنذير كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣ - ١٦٥].

٥- **ومن فوائدها:** أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا يعلمون أنه رسول أما الأول فواضح أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسل، وأما الثاني ففيه نظر.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأكثرية لا يلزم أن يكون الصواب معها؛ لأن أكثر الناس لا يعلمون فهم في جهل إذ أن المتمسك بالأديان قليل، والمتمسك بالدين هو صاحب العلم وهو صاحب اليقين.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب تأخذ من قوله ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي على المعنى الأخير فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبب وليس بموجب فهو سببٌ للهداية ولكن ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وهل يستفاد منها إثبات أفعال الله الإختيارية؟ نعم من قوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ فإن هذا فعل من الأفعال المتعلقة بمشيئته ـ سبحانه وتعالى ـ.

٨- **ومن فوائد الآية أيضًا:** إقامة الحجة على الخلق لقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلم يبق لأحد حجةٌ على الله بعد الرسل وهل يؤخذ منها عذر لمن لم تبلغه الرسالة؟ الجواب: نعم ، من أين تؤخذ من قوله ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فإن من لم تبلغه الرسالة لم يحصل له بشارة ولا نذارة فما حكم من لم تبلغه الرسالة؟ نقول لا يخلو من أمرين: إما أن يكون مقصرًا في طلب الحق فهذا لا عذر له؛ لأنه مقصر، وإما ألا يكون مقصرًا بحيث لم يبلغه اي شيء عن الرسالة ولم يطرأ في قلبه أي شيء من ذكر الرسالة فهذا نقول إنه يحسب له في الدنيا بما هو عليه من دين وأما في الآخرة فأمره إلى الله ما نحكم عليه بشيء.

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٩-٣٣]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(يقولون) يعني: المكذبين للرسول ﷺ الذين توعدوا بالعذاب والنكال فيقولون متحدين ومستبعدين ومنكرين متى هذا الوعد؟ متى اسم استفهام ويراد به الإنكار والتحدي والوعد أي بالعذاب الذي وعدتمونا به ويحتمل أن يكون متى هذا الوعد بالنصر لكم؛ لأن المعروف أن الوعد بالخير وأن الشر بالوعيد، ولكن قد يقال: إن الوعيد لهؤلاء الكفار هو بالنسبة للمؤمنين وعد (متى هذا الوعد بالعذاب إن كنتم صادقين) فيه يعني إن كنتم صادقين بما تقولون من أن العذاب سيحل بنا وسنعاقب والصدق هو الإخبار بما يوافق الوعد والكذب هو الإخبار بما يخالف الوعد فإذا قلت: قدم زيد البلد ولم يكن قدم فهو كذب؛ لأنه خلاف الوعد وإذا قلت قدم زيد البلد وقد قدم فهو صدق بما نطق بالوعد فيقولون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمتى يكون هذا؟ وهذا كقوله تعالى في الساعة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ فالكفار يستعجلون العذاب تكذيبًا للرسل - عليهم الصلاة والسلام - قال الله تعالى ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ يعني أي شيء يغني عنهم فمهما طال بالكفار الأمد فإن المسألة محدودة معدودة ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ فهنا تحدُّوا ومع ذلك أحيانًا يتحدُّون كذبًا فإنهم قالوا حين أُخبروا

بالبعث قالوا: متحدِّين للرسل - عليهم الصلاة والسلام - ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهل قيل لهم إن آباءهم يأتون الآن؟! فالذي قيل لهم إن آباءهم سيبعثون يوم القيامة لكنهم يموهون على العامة بمثل هذه الدعاوى.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وهذا الميعاد هو يوم القيامة، ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ﴾: ميعاد يحتمل أن يكون ظرف مكان أو زمان ويحتمل أن يكون مصدرًا والمعنى أن لكم ميعادًا يكون لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون عليه وذلك لأن الله - عز وجل - بحكمته البالغة قدر لكل شيء أجلًا معينًا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ كل شيء بمقدار عند الله ومحدد بأجل فالعذاب لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر وفي هذا من التهديد لهم ما هو ظاهر كما يقول الإنسان: إن لك عندي موعدًا لا يتقدم ولا يتأخر فالمعنى احذر من هذا اليوم وقول المؤلف: [هو يوم القيامة] هذا لا شك أنه محتمل لكن فيه احتمال آخر أنه يوم القيامة ويوم موتهم أيضًا فإنهم يشهدون على ذلك قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فهذا اليوم يجدون فيه العذاب قبل يوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وفي سورة الدخان ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فهذا متى حصل؟ حصل في بدر حين قتل شرفاؤهم وشبابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [من أهل مكة] بالكفر قبل أن يكونوا مؤمنين لكن لا ينبغي أن نخصص ما عممه الله - عز وجل - فالصواب وقال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم.

قالوا: (لن نؤمن) يؤكدون انتفاء إيمانهم بالقرآن في المستقبل ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ هذه الإشارة للقريب تحقيرًا له كما في قوله تعالى ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كيف أن الإشارة هنا للقريب؟تحقيرا له وقوله ﴿الْقُرْآنِ﴾ على وزن فعلان، فهل هو بمعنى المقروء، أو بمعنى القارئ؛ أو هو مصدر

بمعنى الجمع؟ فيه اختلافٌ لعلماء العربية، والصواب أنه متضمن للمعاني كلها فهو بمعنى قارئ أي جامع؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة وجميع ما فيها من النصائح موجود فيه وهو مقروء يتناوله؛ لأن الناس يقرأونه ويتلونه وهو جمع أيضًا؛ لأنه جامع لكل شيء والفعلان بمعنى المصدر وموجود في اللغة العربية مثل الشكران والكفران والنقصان وما أشبه ذلك، والمراد بالقرآن هنا الكتاب الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ وهو اسم خاصٌ به ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ولا نؤمن بالذي بين يديه أي تقدمه كالتوراة والإنجيل الدَّالَيْنِ على البعث بإنكارهم له يعني ولا نؤمن أيضًا بالذي بين يديه فالمراد يديه ما سبقه وليس ما يأتي بعده ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بما يأتي بما أخبر به، فإن ما بين يدي الشيء يستقبله كما قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ والمعنيان صحيحان وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين الصحيحين لا يتنافيان وجب حملها على الجميع؛ لأن القرآن شامل.

وقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولا بالذي يأتي بعده بما أخبر به أو بالذي بين يديه ما تقدمه من كتب كالتوراة والإنجيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ قال المؤلف: [يا محمد] ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الكافرون] ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هذه لو الشرطية فعل شرطها (ترى) وهي غير جازمة وجوابها محذوف أي: إذا رأيت أمرًا فظيعًا، وجواب الشرط في مثل هذا التركيب حذفه أفضل من ذكره؛ لأن النفس تذهب في تقديره كل مذهب من الفظاعة والبشاعة (ولو) تأتي في العربية على عدة معانٍ: تأتي بمعنى الشرطية كما هنا، وتأتي مصدرية كما في قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقول المؤلف: [يا محمد] قصر المؤلف الضميرَ على الرسول ﷺ مع أنه يحتمل أن يكون المراد به كل مخاطب يعني: ولو ترى أيها المخاطب حال هؤلاء لرأيت أمرًا فظيعًا وقوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿إِذِ﴾ ظرف زمان و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأ و﴿مَوْقُوفُونَ﴾ خبر والمراد بالظالمين هنا قال المؤلف: [الكافرون] وإنما خصها بالكافرين مع أن الظلم أعم بقرينة السياق، حيث قال الله تعالى في آخرها: [وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا] فسار المراد بالظالمين هنا الكافرين هل كل كافر ظالم؟ نعم، هل كل ظالم كافر؟ لا. ولهذا لما قال الله تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال العلماء: نحمد الله أنه لم يقل والظالمون هم الكافرون.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي محبوسون فمعنى وقفه أي حبسه ومنه سمي الوقْف للمال الحبيس الذي تحبس عينه وتسبل منفعته فمعنى موقوفون أي محبوسون عند الله عز وجل.

وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل عند الله؛ لأن مثل هذا القول العظيم الدال على العظمة يتناسب مع الربوبية لكمال ربوبيته عز وجل وكمال ملكه وسلطانه تجد هؤلاء الظلمة الذين عندهم من العتو والاستكبار والعناد في الدنيا تجدهم في أذل شيء أمام ربوبية الله ـ عز وجل ـ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يرجع بمعنى يرد، وعلى هذا فتكون متعدية؛ لأن رجع تأتي لازمة وتأتي متعدية فقولك رجعت من مكة إلى المدينة هذه لازمة؛ لأنها لم تأتِ بمفعول وقوله تعالى ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ هذه متعدية وهنا قال: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ متعدية أي يرد وقوله ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ القول هنا مبهم مجمل ثم فصّلَه بقوله ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ إلى آخره وفائدة الإبهام المفصل فائدته عظيمة؛ لأنه إذا أَجْمَلَ أولًا وأبهم فإن النفس تتطلع إلى بيان ذلك الشيء وتفصيله عندما تقرأ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يكون في ذهنك؟ يكون ذهنك متطلعًا إلى بيان هذا القول الذي يتراجعونه لكن لو قال (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يقول الذين استضعفوا) هكذا جاءت لم يكن لها في الذهن مثل ما كان لها حينما أبهم القول ثم بين أو أجمل ثم فصل ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يقولون ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [الأتباع] ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [الرؤساء]، ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ [صددتمونا عن الإيمان] ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [بالنبي] ﴿لَوْلَآ﴾ هذه شرطية، ويقال: فيها حرف امتناع لوجود؛ لأنه امتنع جوابها لوجود شرطها وتأتي لولا الشرطية كما هنا وتأتي للتحضيض كما في قوله ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وتأتي للنفي كما في قوله ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ المعنى كما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا هنا يقول ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتمًا.

إذن هنا المبتدأ موجود وهو (أنتم) فأين الخبر؟ محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [صددتمونا] من أين عرف أنه في هذه اللفظة؟ من قولهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ إذن ما نقدر هنا (لولا أنتم موجودون)؛ لأن الصد أخف من مطلق الوجود وإذا كان لنا طريق إلى تقدير آخر فهو أولى من تقدير الأعم ولهذا قلنا إن القارئ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم يقدر المتعلق بقوله (اقرأ) لا بقوله (ابتدئ)؛ لأن (ابتدئ) عامة و(اقرأ) خاصة هنا يمكن أن نقول: لولا أنتم موجودون، لكن ما دمنا نجد فعلًا أخف وهو الصد المدلول عليه بقوله ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ فيجب أن (يقدر لولا أنتم صددتمونا) ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فلهذا جواب الشرط فهذا اقترن باللام ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لكن بمن؟ قال بالنبي والأصح أنه أعم أي لكنا مؤمنين بما تشمله رسالة النبي ﷺ من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبغير ذلك مما يجب الإيمان به.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ هذا رد لقولهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي يعني لم نصدكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل أنتم الذين

اخترتم الكفر وهنا صدق قول الله - عز وجل - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ فهنا قال ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ يعني ولا أجبرناكم على الكفر بل أنتم الذين اخترتم ذلك.

وقوله: ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ أي صرفناكم وقوله ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ هذا من باب تحقيق مجيء الهدى ووضوحه وهذا من هؤلاء الرؤساء المستكبرين إقرار منهم على أن الهدى قد جاء وبان ووضح بعد إذْ جاءهم، والمؤلف يرى أن الاستفهام للنفي، كلما جاءت لا بعد الاستفهام فإن ترجمتها أن المؤلف يرى أن الاستفهام هنا للنفي ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [في أنفسكم] في الدنيا يأتي إليهم المستكبر هذا الرئيس يدعوه بلطف تام وفي الآخرة يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض انظر إلى ملك غسَّان لما بلغه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَجَر كَعْبَ بنَ مَالِكٍ - أَرْسَلَ إِلَيْهِ خِطَابًا رقيقًا لطيفًا - وَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ هَجَرَكَ فَأْتِ إِلَيْكَ نُوَاسِكَ» انظر التلطف ولكن لم ينخدع كعب رضي الله عنه بلطفه وخاف أن ينخدع في المستقبل فماذا صنع؟ ذَهَبَ إِلَى التَّنُّورِ وَأَوْقَدَ هَذِهِ الوَرَقَةَ[1] وهكذا كل شيء تخشى على نفسك منه في المستقبل يجب عليك أن تتلفه لا تقل إني الآن ما يمكن أفعل هذا الشيء أبدًا ولا يمكن أن أضل به صحيح أنك في بادئ الأمر قد لا تنخدع، لكن الشيطان يعمل عمله ولهذا يجب عليك أن تتلف كل ما تخشى أن تكون عاقبته عليك وخيمة الحاصل أن هؤلاء في الآخرة ما يتوددون ولا يتلطفون هؤلاء الأتباع بل كانوا مجرمين والإجرام هو الذنب قال: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

وقوله: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ جواب عن قولهم بل ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ثم هؤلاء أضربوا عنهم يعني قاموا منهم بإضراب آخر ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي [مكر فيهما منكم بنا] مكر الليل والنهار هنا المكر مضاف إلى الليل على تقدير (في) لأن الإضافة قد تكون على تقدير (مِنْ)، وعلى تقدير (اللام)، وعلى تقدير (في) فإن كان الأول من الثاني يعني إذا كان الثاني جنسًا للأول فهو على تقدير (مِنْ)؛ وإذا كان الثاني ظرفًا للأول فهو على تقدير (في) وما عدا ذلك فعلى تقدير (اللام).

تكون الإضافة على تقدير (من) إذا كان الثاني جنسًا للأول وعلى تقدير (في) إذا كان الثاني وعلى تقدير (اللام) فيما عدا ذلك. على تقدير (مِنْ)، كذا ثوب خز، وعلى تقدير (من) في مكر الليل، أي مكرٌ في الليل ما هو المكر؟ قالوا في تعريف المكر: أنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالمقابل هذا المكر توصل بأسباب خفية إلى الإيقاع بالمقابل يعني بالذي قابلك أو إن شئت فقل بالخصم كذا مكر الليل أضيف مكرٌ هنا إلى الليل؛ لأنه ظرف[2].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٥٣/ ٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٢) تفسير الآيات (٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦) غير موجود.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]

التفسير

يقول نحن أكثر أموالًا وأولادًا ولإن رجعنا إلى الله فإنا لن نعذب، وهذا على أحد الاحتمالين، والاحتمال الثاني: أن قولهم وما نحن بمعذبين أي أننا لن نبعث ونعذب ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إلى آخره في هذا إثبات المشيئة لله لقوله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لقوله ﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وفيه أيضًا أن كثرة المال والولد لا يدل على الرضا وإنما هو تابع لماذا؟ لمشيئة الله ومنها الحكمة العظيمة البالغة في اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه لولا ذلك ما قامت مصارع الخلق لو كان الناس على حد سواء في الغنى هل يخدم بعضهم بعضًا ولا يقوم بعضهم بمصالح بعض؟ وانظر إلى قوله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ لماذا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ولولا هذا الاختلاف في بسط الرزق وسعته ما حصلت هذه الفائدة العظيمة وهي تسخير الناس بعضهم لبعض.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[سبأ:٣٧]

١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أكثر الناس جهال بحكمة الله تعالى في أفعاله لقوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ ﴾ في هذه الآية دليل على أن كثرة الأموال والأولاد لا تستلزم القرب من الله فإن مَنْ الناس من يكون كثير المال والولد وهو من أبعد الناس عن الله ومِنَ الناس مَنْ يكون قليل المال والولد وهو من أقرب الناس إلى الله فهذا النبي - عليه الصلاة والسلام - هل كان أكثر الناس أموالًا وأولادًا؟ الجواب: لا، ومع ذلك فهو أقرب الناس إلى الله وهذا الرجل الذي افتخر بماله وولده وقال ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إذا أتاه الله المال والولد فإنه لا ينفعه قال الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ

﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فالأموال والأولاد لا تقرب إلى الله.

٢- **ومن فوائدها:** أن المؤمن الذي يعمل الصالحات فإن أمواله وأولاده تقربه إلى الله ـ عز وجل ـ ؛لأنه يكتسبها من حلال ويصرفها فيما يرضي الله ـ عز وجل ـ فيكون منتفع بها والأولاد كذلك يقوم عليهم بالتربية والتعليم وغير ذلك من مصالحهم وأن تدعو بذلك الله ولذلك قال ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء على الإيمان والعمل الصالح مضاعف لقوله ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾

٥- **ومن فوائدها:** أن منازل الجنة عالية لقوله ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَٰتِ﴾ والغرفة المنزل العالي أما الذي في الأرض فيسمى حجرة لا يسمى غرفة فالمنازل فوق غرف والمنازل تحت حجر.

٦- **ومن فوائدها:** أن من دخل الجنة فهو آمن، آمن من ماذا؟ آمن من كل مخوف آمن من الموت من المرض من انقطاع النعيم من فساد الثمار من كل شيء ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

لما ذكر جزاء المؤمنين ذكر جزاء غيرهم؛ لأن القرآن مثاني تثنى فيه المعاني فإذا ذكر الثواب ذكر العقاب وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر وذلك لئلا تسأم النفس إذا بقيت في موضوع واحد ولأجل أن يكون الإنسان عند تلاوة القرآن دائرًا بين الخوف والرجاء ومعلوم لنا جميعا أن الموضوع إذا كان واحدًا فإن النفس تمله وتسأم منه فإذا نُوِّعَ صار في ذلك تنشيط لها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ:٣٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال المؤلف: [القرآن] ﴿يَسْعَوْنَ﴾ السعي يطلق على مجرد الحركة ويطلق على الركض ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فالمراد بذلك مطلق الحركة وليس المراد الفرقة، وإذا قلت يسعي في الطواف بين الصفا والمروة يسعى بين العَلَمَيْنِ، فالمراد بذلك الركض هنا ﴿يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك مطلق الحركة ويحتمل أن يراد به الحركة بشدة وإقدام، وهذه الآخيرة

أبلغ فإن هؤلاء يسعون جاهدين في آيات الله وقول المؤلف ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي [القرآن] وجهه: أن الذين كفروا لا ينكرون آيات الله الكونية، وإنما ينكرون آيات الله الشرعية على أنهم أحيانًا يطلبون آياته الكونية تعجيزًا للرسول ﷺ كما حكى الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كم آية طلبوها من الآيات الكونية هنا ومع ذلك قال الله (قل سبحان ربي) يعني تنزيهًا له أن يبعث رسولا بدون آيات يؤمن على مثلها البشر وما أنا إلا بشر رسولا كما أن الآيات هنا خصها المؤلف بالآيات الشرعية وقال إن المراد بها: [القرآن] ويحتمل أن يراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعًا؛ لأن هؤلاء كما يعجزون في القرآن يعجزون أيضًا في الآيات الكونية ولما كان القرآن آية من آيات الله لاشتماله على ما يعجز عليه البشر فإن الله ـ عز وجل ـ تحدى البشر وغيرهم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ معاجزين [لنا مقدرين عجزنا] لأنهم معاجزون المعاجز: هو الطالب لإعجاز غيره فهي عاجزه مثل قاتله المعني أنهم يعاجزون الله أي يطلبون على زعمهم ما به العجز ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أي [مقدرين عجزنا] وهؤلاء الذين فعلوا ذلك يعاجزون الله ويطلبون ما به عجز، عجزه على زعمهم ويقولون: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾هذا تعجيز لله ـ عز وجل ـ لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم لا يجيبهم لما أرادوا وهو يجعل هذه الأمور حسبما تقتضي الحكمة قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إن هذه الجملة هي خبر ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ فخبر المبتدأ الآن جملة خبرية وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي محضرون في العذاب في نفس العذاب، لا أن يحضرون حتى يوقعوا في نفس العذاب، والعذاب بمعني العقوبة والنكال، وهذا الخبر يراد به التهديد، لا هو مجرد أن نعلم أن هؤلاء سيحضرون في العذاب ويعذبون بل المراد التهديد والتحذير من صنيعهم .

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ هنا الخطاب للنبي ﷺ ويكون المراد به كل من يتعدى خطابه، أو كل من يصح توجيه الخطاب إليه يخاطب هؤلاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين ويطلبون عجز الله فيما يدعون ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ [يوسعه] أي يبسطه من البسط وهو التوسعة ولهذا يقال بسط الكلام واختصر الكلام، بسطه بمعني وسعه وطوله والرزق هنا العطاء لمن يشاء من عباده امتحان ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيقه] له [بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً].

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قوله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ مر علينا كثيرًا بأن كل فعل علقه الله بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فمشيئته - سبحانه وتعالى - تابعة لحكمته فهو إذا اقتضت حكمته أن يوسع الرزق لأحد وسعه وإذا اقتضت حكمته أن يضيقه ضيقه وقوله ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية العامة؛ لأننا نشاهد أن الكافرين والمؤمنين على السواء منهم من يبسط الله له الرزق ومنهم من يضيقه فالمراد بالعباد إذن العبودية العامة وقد مر علينا أن العبودية تنقسم إلى: عامة وخاصة، فالعامة التي تشمل جميع الخلق والمراد بها العبودية الكونية التي قال الله عنها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وأما الخاصة فهي عبودية الطاعة الشرعية وهي التي قال الله فيها :﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخره من عباده قال المؤلف [امتحانًا] كيف يعني امتحان؟ يعني اختبار يختبره هل يشكر أو يكفر، ولهذا قال - سليمان عليه الصلاة والسلام - ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ حين رأي عرش بلقيس حاضرًا بين يديه في هذه المدة الوجيزة ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يعني ابتلاءً واختبارًا وكم من إنسان كان في حال الفقر أصلح مما كان بعد الغني!! وكم من إنسان بالعكس كان فقيرًا مسرفًا على نفسه ولما أغناه الله هداه الله! والله عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء حسب ما يقتضيه الحكمة قال ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ له حال يعود على الموصوف له أو يعود على من يشاء، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر المعنيين قال: [ويقدر يضيق له بعد البسط] يعني أن الله - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء، ثم يضيقه عليه ليبلوه يُعْطِي النعم، ثم يزيلها امتحانًا واختبارًا يمن الله على

إنسان بالأولاد وبالمال فيهلك هذا تضييق بعد بسط، أو كان المعني يبسط ويقدر له أي لمن يشاء لا لهذا الذي كان مبسوطًا له الرزق يعني أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يبسط الرزق لقوم ويقبضه لآخرين وهل المعنيان يتنافيان؟ لا، وإذا كانا لا يتنافيان فقد مرَّ علينا في القاعدة في التفسير أن المعنيْن إذا كانا لا يتنافيان فإن الآية تحمل عليهما جميعًا يبسط لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [في الخير] ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يقال: [إن الإنسان يرزق عائلته أي من رزق الله] ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ما هذه شرطية وفعل الشرط ﴿أَنفَقْتُم﴾ وجوابه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ واقترن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ﴾ أي الله ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يأتي بخلفه واعلم أن هناك فرق بين يخلُف ويُخلِف فيخلُف يراد به الشيء الذي خلف غيره، قال الله تعالى عن موسى ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ أي صار خلف عني في قومي وأما أخلَفَ الرباعي المراد أعطى الخلف فالمخلف معطي الخلف والخالف الذي خلف غيره،فانتبه للفرق بين الثلاثي والرباعي فالثلاثي الذي خلف غيره والرباعي أعطى الخلف ومنه الحديث حديث أبي سلمة قال: «واخلفني في عقدي»، وحديث أم سلمة في نفس الشيء قالت: «وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهُ»(١) فاجتمع في الحديث الكلام جميعًا حديث أم سلمة «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَجَرَهُ الله فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» هنا من الرباعي أو الثلاثي؟ من الرباعي هو يخلفه أي يعطي ما يكون خلفًا عنه وقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ الإنفاق بمعنى بذل المال والمؤلف رَحِمَهُ الله قيده بقوله وما أنفقتم [في الخير] وهذا القيد الذي قيده به المؤلف دلت عليه آيات متعددة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ والآيات في هذا كثيرة؛ لأن من أنفق في غير الخير فالخلف غير مضمون له لكن من أنفق في الخير فالخلف مضمون له ويشمل هذا النفقات الواجبة كإنفاق الإنسان على زوجته وأمه وأبيه وابنه وابنته وما أشبه ذلك، ويشمل أيضًا الإنفاق في الزكاة؛ لأنها هي أم الإنفاقات؛ لأن إنفاق الزكاة أحد أركان الإسلام ويشمل الإنفاق الجهاد في سبيل الله ويشمل الإنفاق في وجوه الخير وغير ذلك وقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ هذا الإخلاف هل هو في الكمية أو في الكيفية بمعني هل أن الله ـ عز وجل ـ يعطيك بدلًا عنه في الكمية؟ إذا أنفقت عشرة أعطاك عشرة أو بالكيفية؟ بمعني أن الباطن ينزل الله به البركة حتى يكون مقابلًا.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٩١٨) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]

التفسير

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [أي المشركين].

ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم [بتحقيق الهمزتين وإبدال الأولى ياء وإسقاطها].

يعني الهمزة الأولى من الهمزتين المتجاورتين وهي همزة أولاء تعي وهمزة إياك فهذه ثلاثة قراءات وبأيها قرأت صَحَّت قراءتك وشذَّ مَن يقول كانوا يُعْبَدُون، كانوا متى؟ في الدنيا يقول الله تعالى ذلك توبيخًا وتقريعًا لهؤلاء العابدين الذين كانوا يعبدون الملائكة والملائكة تقدم لنا كثيرًا أنها جمع ملك وأصل ملك ملأك وأصل الملأك مألك كذا فهي رسول لكنها وصلت إلى هذا الشكل، قالوا الضمير يعني الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [تنزيهًا لك عن الشريك] يعني أننا ننزهك عن أن نكون شركاء لك لا نحن ولا غيرنا وتنزيه الله - سبحانه وتعالى - يكون عن شيئين، أحدهما النقص والثاني مشابهة المخلوقين، وإن كان مشابهة المخلوقين من النقص لكن هذا من باب التقصير في القول ينزه الله عن النقص فمثلًا لا يوصف الله بالعمى والصمم والعجز والضعف وما أشبه ذلك، فلا يقال علمه كعلم المخلوقين، أو وجهه كوجه المخلوقين، أو يده كيد المخلوقين وما أشبه ذلك ننزه عنه الأمرين هنا ينزه على أن يكون له شريك؛ لأنه لو كان له شريك لكان ناقصًا إذ أن الشريك معين لمن شاركه، أو مالك لما يملكه فالله تعالى منزه عن هذا وتقول الملائكة سبحانك أي [تنزيهًا لك عن الشريك] وأفاد المؤلف في قوله: [تنزيهًا] أفادنا أن سبحان منصوبة على أنها اسم مصدر فتكون مفعولًا مطلقًا وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة فعلا وملازمة أيضًا للإيضاح فلا تقع إلا مضافة وإلا منصوبة على المفعولية المطلقة.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم

﴿مُّؤْمِنُونَ﴾ أي لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا يعني أن هذه الجملة خبرية ثبوتية :﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ معناها جملة سلبية أي لا نتولاهم بل أنت ولينا من دونهم [فلا موالاة بيننا وبينهم]، وإذا انتفت الموالاة ثبت ضدها وهي المعاداة يعني فهؤلاء أعداؤنا وأنت ولينا من دونهم وهذا كقوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ (بل) للانتقال كانوا يعبدون الجن أي [الشياطين أي يطيعونهم في عبادتهم إيانا] ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [مصدقون فيما يقولون] ﴿بَلْ كَانُوا﴾ للانتقال؛ لأن بل تأتي للاضراب الانتقالي والإضراب الإبطالي فإن كان المقصود بها إبطال ما سبق وإثبات ما ذكر، فالإضراب للظاهر، وإذا كان المقصود بها الإنتقال من معني إلى آخر فوقه أو دونه يسمى إضرابًا انتقاليًا نقول: إن هذا الإضراب انتقالي يعني أنهم لم يبطلوا ما سبق فهم باقون على قولهم: (سبحانك أنت ولينا من دونهم] (ولا موالاة بيننا وبينهم ولا نواليهم ولا يوالونا بل نزيد على ذلك كانوا يعبدون الجن).

والمراد بالجن هنا [الشياطين]؛ لأن الجن هم الشياطين قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٤ - ٣٦] فهم يعبدون الجن بماذا؟

• إذا كانوا يعبدون الملائكة كما هو وارد في السياق فكيف عبادتهم للجن هنا؟ عبادتهم للجن عبادة طاعة أي أنهم يطيعونهم في الإشراك، فالجن تأمرهم أن يجعلوا الملائكة شركاء مع الله في العبادة فيطيعونهم ومن أطاع غير الله في معصية الله فقد اتخذهم إله قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وقد روي أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ أَحَلُّوهَا، وَإِذا حَرَّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ حَرَّمُوهُ [(١)] فجعلوهم آلهة مع الله - سبحانه وتعالى - في التحليل والتحريم والطاعة فيكون المعنى قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي يطيعونهم في عبادة مَنْ؟ عبادة الملائكة، ومَنْ أطاع غيره في معصية الله فقد اتخذه إلهًا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ مصدقون فيما يأمرونهم قال ﴿أَكْثَرُهُم﴾ ولم يقل كلهم مع أن الجميع يعبدون الملائكة طاعة للجن فلماذا عبَّروا بقولهم أكثرهم ولم يقولوا كلهم؟ الجواب : يقال إن هؤلاء المشركين ينقسمون إلى قسمين قسم عام من أتباعهم لا يعرفون شيئًا وجدوا أباءهم على دين فمشوا عليه، والقسم الآخر مجتهدون يعرفون الأمر ولكنهم يؤمنون بهؤلاء الجن ويصدقونهم ويكفرون بالرسل، وهؤلاء هم الأكثر ومع ذلك فإن الأتباع وهم القسم الأول إذا تبين لهم الحق وأصروا على اتباع هؤلاء وقالوا كما قالت الأمم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) من حديث عدي بن حاتم وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ءَاثَرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فإنهم مستحقون للعذاب؛ لأنهم كفروا عن بصيرة.

الفوائد:

قال الله عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد:

أن من عباد الله مَنْ يسعى في إبطال آيات الله - عز وجل - بكل ما يستطيع من قوة دليل ذلك أن الله أثبته وأثبت عذابه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وليس شيئًا مفروضًا مقدرًا بل هو شيء واقع.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة:

بيان ما يصل إليه عتو الإنسان وطغيانه، حيث يسعى في آيات الله معاجز لله - عز وجل - فمن أنت حتى تعاجز الله وتطلب تعجيزه وتتحداه.

٣- ومن فوائدها:

أن هؤلاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين سوف يكونون يوم القيامة في العذاب لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وربما يقول قائل إنهم في العذاب محضرون حتى في الدنيا، ويكون المراد بالعذاب هنا العذاب القلبي؛ لأن الكافر مهما نعم في الدنيا فإنه في ألم وعذاب في قلبه؛ لأن الكافر لا يشبع من الدنيا فهو في حزن خوفًا من ذهاب الموجود وفي هَمٍّ طلبًا لوجود المفقود؛ لأنه يريد أن تنمو له الدنيا وتزدهر ويخشى أيضًا من أن تفوت بخلاف المؤمن.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة:

إثبات الجزاء والعقوبة لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١- من فوائد هذه الآية:

طلب الإعلان لأن الأمور كلها بيد الله من بسط وتضييق لقوله ﴿قُلْ﴾ إذ أنه ليس المراد أن تقولها في نفسك بل تقولها في نفسك ولغيرك.

٢- ومن فوائدها:

أن الأرزاق بيد الله لقوله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويترتب على هذا فائدة: وهي أن نطلب الرزق من الله؛ لأنه هو الذي يبسط الرزق ويقدر.

٣- يترتب عليه فائدة أخرى وهي:

أن لا نطلب رزق الله بمعاصيه؛ لأن طلب زرق الله بمعاصيه منافي للأدب كيف تطلب الرزق مِن بيده الرزق بمعصيته؟! ولهذا حَذَّرَ النبي - عليه الصلاة والسلام - مِنْ ذلك فقال: «إِنَّهُ لَنْ

تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1] يعني: اطلبوا الرزق طلبًا جميلًا، وهو ما وافق الشرع وعلى هذا فطلب الرزق بالغش والكذب والظلم طلب مشروع أو غير مشروع ؟ غير مشروع وينافي الأدب مع الله ـ عز وجل ـ

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسلطانه لكونه يبسط ويقدر، ولا أحد يمكن أن يعترض عليه وحتى لو اعترض عليه هل ينفع هذا الاعتراض؟ لا ينفع لأن الله مدبر لما يشاء.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:**

الحثُّ على الإنفاق لقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ووجه ذلك أن الإنسان إذا أنفق فإن نفسه الأمارة بالسوء تقول له إذا أنفقت نقصت منه فلا تنفق فيقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإنفاق وإن قلَّ فإنه مخلوف مِنْ أين تؤخذ؟﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فإنه نكرة في سياق الشرط مؤكدة بـ (من) الزائدة هذا إن لم تكن (مِنْ) بيان لما في قول ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خير الرازقين بكثرة العطاء وبدوام العطاء فمن سوى الله من الرازقين لا يعطي الكثير، وإذا أعطى الكثير فإنه يمل فلا يستمر في عطائه أما الله ـ عز وجل ـ فإنه خير الرازقين في عطائه كثرة واستمرارًا.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات أنه لا رازق سوى الله من أين تؤخذ؛ من قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن هذا يدل على وجود مفضل ومفضل عليه مشتركين في أصل المفضل به، وهو الرزق ولكن رزق غير الله من رزق الله؛ لأن هذا الذي أعطاني مثلًا مِنْ أين له العطاء؟ مِنَ الله، فيكون إعطاؤه إياي من رزق الله الذي أعطاه، وأيضًا فإن رزق غير الله رزق محدود ليس شاملًا لكل أحد، وليس شاملًا لكل زمن.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:**

أن أفعال العباد مخلوقة لله وفيه رَدٌّ عَلَى مَنْ؟ القدرية، مِنْ أين تؤخذ الفائدة هذه؟ مِنْ قوله﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ونحن نعلم أن الرزق الذي يأتينا يكون كثيرًا من كسبنا نتجر ونحرث ونعمل ونحصل على الرزق فيكون في هذا دليل على أن فعل العبد مخلوق لله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) من حديث جابر بن عبد الله ﵄ وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

١٠- وفيها أيضًا:
رد على الجبرية وهم الجهمية أيضًا لقوله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ حيث أضاف الفعل إلى العبد والجبرية يقولون: إن الإنسان مسلوب القدرة والاختيار وفعله لا ينسب إليه إلا على سبيل المجاز، وإلا فإنه لا اختيار له في فعله.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾

١- يستفاد من الآية الكريمة: أنه ينبغي تذكير الناس بيوم المعاد وجه الدلالة أن (يوم يحشرهم) متعلق بمحذوف تقديره (اذكر)، (واذكر يوم يحشرهم) وهل هذا يشمل تذكير النفس؟ يعني بمعنى أن نفسك إذا رَكَنَتْ ينبغي أن تُذَكِّرها يوم الحشر ويوم الموت أولا؟ نعم يشمل لأن قوله (اذكر) المقدر يحتمل أن المعني: اذكر في نفسك هذا اليوم أو اذكر لغيرك هذا اليوم، وكلاهما حق فينبغي للإنسان أن يذكر نفسه، كلما رَكَنَتْ إلى الدنيا وأرادت الانغماس فيها فَلْيُذَكِّرها، ليذكرها يوم أن نقلع من هذه الدنيا، ويذكرها قومًا انتقلوا عن هذه الدنيا وكانوا أشد منه قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، ثم يذكرها ما وراء ذلك من الحساب والعقاب وهو اليوم المشهود الذي يجمع له الناس.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة:
إثبات البعث لقوله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

٣- ومن فوائدها: أيضًا أن الحشر عام لكل أحد حتى من أكلته السباع وأحرقته النيران مِنْ أين يؤخذ؟ من قوله ﴿جَمِيعًا﴾ وهو كذلك فالذي أكلته السباع أو أحرقته النيران لابد أن يحشر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

٤ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قول الله ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذا أعني إثبات الكلام والقول لله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الأشاعرة ومذهب المعتزلة، لكنهم مختلفون في تفسير هذا الكلام، فالكلام عند أهل السنة والجماعة كلام حقيقي بحروف وأصوات مسموعة، وهو غير مخلوق، والكلام عند المعتزلة كلام بحروف وأصوات مسموعة، لكنه ليس من صفات الله، فهو مخلوق عندهم يقولون: إن الله تعالى يخلق كلامًا فينسبه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كنسبة البيت إليه، ونسبة المساجد إليه، ونسبة الناقة إليه، ونسبة الأرواح إليه، وما أشبه ذلك، والأشاعرة يثبتون لله كلامًا لكن يقولون: هو بغير حروف وبغير أصوات مسموعة، بل هو المعنى القائم في نفسه وهذا الذي سمعه موسى وسمعه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسمعه الناس يوم القيامة هذه أصوات يخلقها الله ـ عز وجل ـ لتعبر عما في نفسه وليست هي كلام الله، بل هي عبارة عنه أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن كلام الله تعالى كلام حقيقي بحرف وصوت مسموع، لكن هذا الصوت لا يشبه أصوات المخلوقين؛ لأنه من كلام

الله، وكلامه تعالى صفة من صفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تقريع أولئك المشركين وتوبيخهم بسؤال من يدعونهم آلهة حتى يظهر البراءة منهم لقوله ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فسؤال المعبودين عن عبادة العابدين يراد به التقريع والتوبيخ لأولئك العابدين، وأن هؤلاء المعبودين تبرأوا منهم وقالوا ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ وهذا من أشد ما يكون من التخجيل والتوبيخ والتنديم؛ لأنه يظهر كذب هؤلاء العابدين وافتراءهم.

٦- **ومن فوائدها**: إثبات وجود الملائكة وأن مِنَ الناس مَنْ عبدهم من دون الله لقوله﴿يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

٧- **ومن فوائدها أيضًا**: بيان ما عند الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مِنْ تعظيم الله، حيث قالوا ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا على أن يكون لك شريك لا منا ولا من غيرنا.

٨- **ومنها**:

إثبات ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ للملائكة.

قال الله تعالى:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾فاليوم (ال) هنا للعهد ما نوعه؟ العهد الذكري والمذكور هو قوله ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي فاليوم الذي نحشرهم فيه لا يملك بعضهم لبعض نفعًا ولا ضرا وقوله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ بماذا نصبت؟ على الظرفية، والعامل فيها قوله ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ يعني فلا يملك اليوم بعضكم لبعض نفعًا ولا ضرا﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ [أي بعض المعبودين لبعض العابدين] نفعًا [شفاعةً] ولا ضرًا [تعذيبًا] ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ من الذي لا يملك العابدين أو المعبودين؟ الذي لا يملك المعبود؛ لأن العابد يرجو من وراء المعبود النفع أو الضرر فنقول: لا يملك العابد للمعبود ضرًا ولا نافعا، كما أنه لايملك المعبود للعابد ضرًا ولا نفعًا وهذا ـ والله أعلم ـ هو الحكمة يعني أن الله عز وجل قال﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾وجعله مبهمًا يشمل العابد والمعبود والتابع والمتبوع.

فكل أحد يوم القيامة لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا المؤلف يقول: [شفاعة]مع أن كلمة نفع

أعم من الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ اللهُ قيدها بالشفاعة في قولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فادَّعوا أن عبادتهم إياهم من أجل أن تشفع لهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتقربهم إليه ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعني نفعًا في عبادتكم إياهم في الشفاعة، وإذا لم تعبدوهم فإنهم لن يضروكم وكما أنهم لا يملكون في ذلك اليوم نفعًا ولا ضرًا فكذلك لا يملكون في الدنيا نفعا ولا ضرًا فإن قلت إنه قد يعبد الإنسان غير الله فيدعوه لكشف ضر فينكشف ذلك الضر فما الجواب عن هذه الآية وغيرها؟ نقول: إن هذا الذي حصل لم يحصل بالدعاء، أو بالعبادة، ولكن حصل عنده فليس ذلك سببًا فإذا قلت: قولك إنه حصل عنده دعوى بلا برهان وإلا لكان الواجب أن يحال الأمر على الشيء ، أو على السبب الضاغط وهو دعاء هذه الأصنام، يعني قد تقول: إن هذا الشيء حصل عند الدعاء لا بالدعاء فيقال لك: هذه دعوة ما دام دعا هذا الصنم أن يشفيه فشفي هل الأصل في هذه الحالة الحكم على الظاهر وهو هذا الدعاء؟ فدعوى بأنه حصل بغير هذا الخلاف الظاهر تحتاج إلى دليل فالجواب أن لدينا دليل على ذلك وهو قوله تعالى:﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ فهاتان الآيتان وما أشبهها كلها تدل على أن هذه الأصنام لا تنفع لا بجلب نفع، ولا دفع ضرر، فإن وجد شيئًا حصل بعد الدعاء عنده لا به فإن قلت كيف يكون هذا الشيء وما الحكمة من أن الله ـ عز وجل ـ يجعل حضور هذا النفع، أو اندفاع هذا الضرر عند دعاء هذه الأصنام؟ نقول الفتنة والامتحان فإن الله تعالى قد يمتحن العبد بالشيء المحرَّم يصر عليه أو يبتليه بالشيء المحرم، والله على كل شيء قدير.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يعني واليوم ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الظلم في اللغة: النقص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص، وأما في الاصطلاح وفي الشرع فهو نقص ذوي الحق حقه، إما بالمطالة بالواجب، وإما بانتهاك المحرم،بالمماطلة بالواجب مثل قول النبي ﷺ «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ»[1] ، وإما بالاعتداء على حقه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فإذن الظلم في الأصل النقص ودليله ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ وأما شرعًا فهو نقص ذوي الحق حقه إما انتهاك محرم في حقه، أو في مماطلة في واجب وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فسرها المؤلف: [بكفروا]وهذا تفسير بالمعني أو بالمراد؟ بالمراد لأن الظلم من حيث المعني أعم من الكفر، لكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٣٣/ ١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤلف يقول: [إنه يراد بالظلم هنا ظلم الكفر] كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ فالظلم قد يراد به الكفر، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص الظلم بالكفر هنا بدليل السياق: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هذا مما يدل على أن الظلم هنا ظلم كفر؛ لأن الذي يكذب بالنار حكمه كافر، لتكذيبه خبر الله ورسوله ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ذوقوا فعل أمر، لكنه يراد به الإهانة يعني يقال له: إهانة، ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي النار ستصيبكم حتى تذوقوها كما تذوقون الطعام، وقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كيف كانوا يكذبون بالنار؟ لأنهم ينكرون البعث والنار إنما تكون بعد البعث وهم يكذبون بذلك، ومن باب أولى بما يكون في القبر من العذاب، فهم يكذبون تكذيبًا كاملًا ويقولون: إن الروح إذا خرجت من الجسد لن تعود إليه وهنا قال: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة قال: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠] فعليه - أي: على الآيتين - يكون الوصف بالتكذيب، مرة بالنار ومرة بعذابها، فهم أحيانًا ينكرون وجود النار ووجود الآخرة، وأحيانًا يكذبون التعذيب بالنار ويقولون: كيف نعذب بالنار وكيف نبقى أحقابًا ونحن في النار؟ الإنسان إذا دخل في النار احترق وانتهى فيكذبون بالعذاب، وأحيانًا يكذبون بالنار نفسها وقوله: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الجواب الموجود متعلق بـ ﴿تكذبون﴾، ولكنه قدم للفواصل لا شك هذه من جهة وللحصر ولكننا إذا قلنا إنه للحصر، يرد علينا إشكال وهو أنهم كذبوا بالنار وبغيرها فيقال لما كان العذاب بالنار ذكروا بتكذيبهم بها خاصة؛ لأنهم عُذِّبوا بها، فكأنهم قيل لهم عذبتم بشيء أنتم كنتم تكذبون به، وإلا فلهم تكذيب آخر ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن بينات واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ قالوا في هذه الجملة الشرطية، وهي إذا فعل الشرط تتلى جوابه، قال: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ﴾ وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ﴾ هذه ما النافية وهنا لم تعمل لانتقاض النفي.

قال الله تعالى:﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ﴾فقال: ونقول للذين ظلموا: والإظهار في موضع الإضمار ذكرنا أن له فائدة مستمرة، وهي: التنبيه، وفائدة خاصة في كل سياق بحسبه، فهنا يقصد بها التعميم يعني: للذين ظلموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبب الحكم وهو قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ للذين ظلموا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ والتعميم والإشارة إلى علة الحكم وهو الظلم.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٣-٤٥]

التفسير

نبدأ بالإعراب أولًا، قوله: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بينات حال من آياتنا؛ لأنه وصف بعد معرفة، والوصف بعد المعرفة إذا كان نكرة يكون حالًا، وكذلك إذا كان جملة، فالأوصاف بعد المعارف إذا كانت نكرة، أو جملة تكون حالًا، والأوصاف بعد المعرفة تكون نعتًا، الحال والنعت كلاهما وصف، ولكن إن وافق متبوعه في التعريف والتنكير فهو نعت، فإن كان المتبوع معرفة والثاني نكرة أو جملة فهو حال، وقوله: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ جواب الشرط، يقول الله - عز وجل - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي إذا تقرأ عليهم آياتنا، ولم يبين القارئ، فيشمل أن يكون القارئ النبي ﷺ أو غيره، إذا تليت عليهم آيات الله ﴿بينات﴾ أي: ظاهرات، فما ظهورها هنا، هل ظهورها بمعنى أنها واضحة أنها كلام الله لعجزهم عنها،أو بينات فيما تدل عليه من معاني سامية لا يمكن أن يأتي بمثلها البشر أو الأمران؟ يشمل هذا وهذا، فهي بينة في ذاتها واضحة،أنها ليست من كلام البشر، بل هي بينة في موضوعها وما تدل عليه من أنها ليست من أحكام البشر؛لأنها لا تتناقض ولا يكذب بعضها بعضًا، وهذا يدل على أنها من عند الله، لو كانت هذه الآيات خفية كان لهم شيء من العذر في ردها، ولكنها آيات بينات ومع هذا يقول الله عز وجل ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يقول المؤلف في تفسيره: [واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ].

قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ما هذا؟ أي الذي جاء بها وادعى أنها من عند الله ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ وانظر كيف تحمل هذه الجملة من الاحتقار والإنكار ما هو معلوم فقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أتوا به بصيغة الحاضر وإن كان غائبًا للاحتقار، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذا للإنكار؛ لأنهم أتوا به بصيغة النكرة كأنهم لا يعرفونه، كأنه رجل أجنبي منهم ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ ولم يقولوا ما ذلك الرجل إلا رجل، بل قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ احتقارًا

وإنكارًا ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعني: لا يريد أن يهديكم سبيل الرشاد، ولكن يريد أن يصدكم، أي يصرفكم ويمنعكم عما كان يعبد آباؤكم وما الذي يعبد آباؤكم ؟ الأصنام من الأشجار والأحجار وغيرهما، هذا هو غرض هذا الرجل الذي جاء بهذه الآيات التي تليت عليهم، وليس غرضه الصلاح ولا الإصلاح، هكذا ردَّ الحق بهذه الدعوى الباطلة.

وقوله: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ولم يقولوا عما كنتم تعبدون؛ لإثارة الحمية في نفسهم؛ لأن الإنسان يصعب عليه أن يدَعْ ما كان آباؤه عليه، لاسيما مثل هؤلاء الجهلة، لو قال: عما كنتم تعبدون لكان يمكن أن يقال: إنهم عبدوا على غير أساس، لكن لما قالوا: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأن هذه العبادة لهذه الأصنام كأنها أمر مستقر كان عليه الآباء ولا ينبغي أن تتركوا ملة آبائكم، ولهذا يقولون كما حكاه الله عنهم في آيات أخرى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: مقتدون آية أخرى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والمراد بالآباء هنا ما يشمل أباء الصلب وهو الأب الأدنى والآباء الأعلون، وهم الأجداد وإن علوا.

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ هل أمهاتهم كذلك؟ نعم، لكن الإنسان تأخذه الحمية لأبيه أكثر مما تأخذه لأمه؛ لأنه من المعلوم أن العبد رجل، والرجل أعقل من المرأة، فإذا كان آباؤكم يعبدون هذه الأصنام ويصرون على عبادتها وهم العقلاء، فإنه لا ينبغي لكم أن تتبعوا هذا الرجل الذي كان يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا في القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب مفترى على الله، فطعنوا في الرسول وطعنوا في القرآن، طعنوا في الرسول ﷺ بسوء قصده، وأنه لا يقصد الإصلاح وإنما يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، وطعنوا في الوحي الذي جاء به هذا الرسول.

وقالوا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الصيغة صيغة حصر، فعلى زعمهم ليس في القرآن شيء صدق، كل القرآن جملةً وتفصيلًا إفك مفترى، أي كذب وبنفسه كذب؛ لأن هناك كذبًا مطلقًا يكذبه الإنسان ينسبه إلى أحد، وهنا كذب يفتريه الإنسان على غيره، فالقرآن يقولون أنه كذب وأنه مفترى على الله، ولا ريب أن هذه دعوى باطلة، فالقرآن كما وصفه الله في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وكذلك القرآن من عند الله ـ عز وجل ـ بدليل أن الله ـ عز وجل ـ تحدى هؤلاء أن يأتوا بمثله، فلم يأتوا، فهو دليل إذن أنه من عند الله وكل أخباره صدق وحق، خلاف ما طعن به هؤلاء ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ فطعنوا في الرسول، وطعنوا في المرسل به والطعن فيهما طعن في الله ـ عز وجل ـ؛ لأن تمكين الله لهذا الرسول وتأييده له تنزيل الآيات عليه وهو كاذب سفه والله ـ عز وجل ـ يؤيد رسوله بما ينزل عليه ويشهد له بأنه حق، والرسول ﷺ يدعو الناس علنًا وسرًّا فلو كان كاذبًا على الله ـ عز وجل ـ والله يؤيده ويمكنه،

لكان تمكين الله له كله في غاية ما يكون من السفه وهذا طعن في الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا أيضًا دعوى ثالثة كاذبة، لكنه أتى بالإظهار في موضع الإضمار لم يقل وقالوا، بل قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليشمل هؤلاء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

فقوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يشمل هؤلاء وغيرهم، ويفيد أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول كفار؛ لأنه وصفهم بالكفر مسند إليهم هذا القول فيكون ذلك سببًا لكفرهم، قال المؤلف في تفسيرها: [ما] أي: أن (إن) نافية، (إن) تقع نافية وهل يشترط لكونها نافية أن تأتي بعدها إلا؟ الجواب: لا، لكن إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، كلما أتت (إلا) بعد (إن)، فإن نافية ولا نقول إنها لا تكون نافية إلا إذا وقعت بعدها إلا لأنها قد تأتي نافية ليس بعدها إلا، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي: (ما عندكم من سلطان بهذا) ومع ذلك فإن الجملة هذه ليس بها إلا، والخلاصة: إذا أتت (إلا) بعد (إن) كانت (إن) نافية، ولا يلزم أن تأتي بعدها (إلا)، بل قد تكون نافية بدون (إلا) ولنا أن نستطرد حتى نذكر معاني (إن) فتأتي نافية كما هنا، وتأتي شرطية كقوله: ﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ وتأتي زائدة كقول الشاعر:

بَنِي غُدَانَــةَ مَا إِنْ أَنْتُـمُ ذَهَــبٌ ... وَلَا صَرِيــفٌ وَلَكِـنْ أَنْتُـمُ الخَزَفُ

وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: (وإن مالك كانت كرام المعادن) هذه مخففة من الثقيلة، إذن فتستعمل في اللغة العربية على أربعة أوجه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السحر في اللغة هو: كل شيء خفي وسمي سحرًا لمطابقة السحر وهو آخر الليل؛ لأن أخر الليل تقع فيه أشياء خفية لكون الناس مستترين في بيوتهم، فالسحر في اللغة الشيء الخفي الذي يخفى أمره وسببه، ولهذا أول ما ظهرت الساعات هذه يقال: إنها سحر، وإذا جاءت أشياء غريبة على الناس خارقة للعادة قالوا هذاسحر، فهم يقولون: الذي جاء به محمد ﷺ هذا سحر فعصى موسى على رأيهم سحر، وإحياء عيسى الموتى ـ بإذن الله ـ سحر، وهذا الكلام الذي جاء به محمد ﷺ سحر، (إن من البيان لسحرًا) فقالوا: هذا كلام فصيح، سحر عقول الناس.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ هذا من باب التمويه يعني أنه سحر بيِّن لا ينبغي المجادلة فيه لبيانه وظهوره، وهذا كما تؤكد الشيء هذا أمر بين واضح، وإن كان ليس بينًا واضحًا، فإن هذا الذي جاءت به الرسل من الآيات ليس بينًا أنه السحر، بل البيِّن أنه حق وآيات حقيقية، لكن المكذبين ـ والعياذ بالله ـ يجادلون في الحق.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف بمعني: [بيِّن]؛ لأن أبان تأتي لازمة ومتعدية، فتقول: بان الفجر بمعني: ظهر الفجر وتقول: ظهر الفجر فهنا كلمة مبين بمعني: بيِّن هذا هو الأقرب، أما مبين بمعني أبان أي أوضح وأظهر فمثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأن القرآن

مبين الحق، فتكون مبين هناك مِن (أبان) المتعدي ومبين هنا من (أبان) اللازم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

قال المؤلف: [فمن أين كذبوك؟!]

قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقال بعضهم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يناقض ما قلت: فإذا لم يكن عندهم علم من كتب يدرسونها ولا علم من نذور أتتهم يخالف ما أنت عليه فكيف يكذبونك، وعليه فيكون المراد بهذه الآية: أن تكذيبهم إياك صادر عن جهل؛ لأنهم يقولون: إياك ما أتيناهم من كتب يدرسونها تدل على أن ما قالوه في وصفك حق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يناقض ما جئت به حتى يقول: إنك كذاب وساحر، فيكون المراد بالآية أن هؤلاء الذين كذبوك لم يستندوا في تكذيبك على علم لا من كتب، ولا من وحي، يعني كتب يدرسونها ويفهمون ما فيها ويعلمون أن ما جئت به مناقضًا لها، ولا من نذير أنذرهم وحذرهم مما جئت به وقال: إنه سيأتي كاذب مفتري فلا تطيعوه.

نحن الآن لو جاءنا نبي وقال: إنه نبي من عند الله؛ لأننا قد أنذرنا من هؤلاء كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام لكن لما جاء النبي ﷺ هل هؤلاء مكذبون له هل أنذروا به وحذروا منه؟ لا، هل هناك كتب درسها هؤلاء تبين أن الرسول ﷺ على باطل؟ لا، هذا وجه وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف؛ لهذا قال فمن أين كذبوك؟ القول الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث محمدًا ﷺ في قوم أميين لا يقرءون ولم يبعث إليهم نبي، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أن هؤلاء كان الأليق بهم أن يفرحوا برسالتك، وأن يقبلوا ما جاءت به؛ لأنه ليس عندهم كتب يدرسونها كما عند اليهود والنصارى، ولم يبعث إليهم نبي قبلك فكانوا في أشد الحاجة إليك، ومن كان محتاجًا إلى الشيء، كان به أفرح ولخبره أشد تصديقًا، فيكون المراد بهذه الجملة توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ وأنه كان الأليق بهم أن يفرحوا بذلك وأن يصدقوا؛ لأنه ليس عندهم كتب تدرس ولم يبعث لهم نذير من قبلك، فكانوا في أشد الحاجة إلى تصديقك وقبول ما جئت به.

فتتضمن هذه الآية توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ، ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾. ولا أنذرهم أحد منه، وكذلك هم لم يكونوا عالمين بالكتب السابقة، ولم يرسل إليهم رسول، إذن حالهم قابلة لهذين الوجهين، يعني تنزيلها على الوجهين لا يتنافى مع حال هؤلاء المكذبين لرسول ﷺ، فالوجهان كلاهما يسقط عليهم وإذا كان الوجهان كلاهما يسقط عليهم، فلا مانع أن نقول: أن الآية يراد بها هذا، وهذا؛ لأن حال الذين كذبوا

الرسول ﷺ قابلة للوجهين جميعًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾.

قوله: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ ﴾ أي: [هؤلاء] ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: [من القوة وطول العمر وكثرة المال] هذا فيه تسلية للرسول ﷺ وفيه تهديد للمكذبين ففيه معنيان: التسلية والتهديد، كما كذب الذين من قبلهم مثل عاد وثمود وفرعون وأصحاب الأيكة كثير، وهؤلاء المكذبون السابقون أشد قوة من هؤلاء وأكثر أموالًا وأولادًا، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ وقال أيضًا: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾، فالآيات في هذا تدل على أن الذين كذبوا الرسل السابقين كانوا أعظم من الذين كذبوا الرسول ﷺ في قوة الأجسام وكثرة الأموال وكثرة البنين، وهل أغنى ذلك عنهم شيئًا؟ لا، لم يغنِ عنهم شيئًا، ولهذا قال الله تعالى ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ إليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك] يعني: أن هؤلاء السابقين كذبوا رسل الله حصل عليهم إنكار الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالتعذيب والإهلاك، لم يقرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على تكذيبهم بل أنكر عليهم إنكارًا بالفعل أهلكهم وأبادهم، هذا الاستفهام في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ للتعظيم والتفخيم، أي فما أعظم إنكاري عليهم؛ لأنه إنكار أدى بهم إلى الهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ولهذا قال المؤلف أي: [أنه واقع موقعه].

الفوائد:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة منها: أن الوحي آية من آيات الله عز وجل ووجه كونه آية، من عدة وجوه:

أولًا: أنه أعجز البشر وغير البشر وهذا دليل على أنه من عند الله.

ثانيًا: أن أحكامه عادلة مصلحة للقلوب، والأبدان، والأفراد، والجماعات في كل زمان، وفي كل مكان، وهذا لا يمكن أن يكون في كلام البشر، وترانيم البشر مهما عظمت، فإنها تكون سارحة في نطاق محدود، وتجدها كذلك مع كونها صالحة في نطاق محدود تجد فيها أمورًا ضارة قد تعادل المصالح التي فيها، بخلاف آيات الله.

ثالثًا: ما يشتمل عليه الوحي أو القرآن بالذات من الأخبار الصادقة التي ليس فيها ما يخالف الواقع بوجه من الوجوه، سواء كانت تلك الأخبار ماضية أم حاضرة أم مستقبلة، هذا وجه كونها

من آيات الله.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن آيات الله ـ عز وجل ـ بينات ليس فيها خفاء، وعلى هذا فمن يشكل على بعض أهل العلم من أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ فليس مصدره أن الوحي خفي، ولكن مصدره قصور الناظر في الوحي أو تقصيره، قصوره بحيث لا يكون عنده علم، أو لا يكون عنده فهم، أو تقصيره بحيث لا يطلب العلم ولا يطلب الفهم، وإلا فإن آيات الله بينات لا يمكن أن تحدث حادثة إلى يوم القيامة إلا وفي كتاب الله تعالى بيانها، ولكن ليس كل أحد يستطيع أن يتبينها من القرآن، تجد الآية الواحدة يتلوها جماعة ويتفكرون فيها يستنبط أحدهم منها مسائل عديدة والآخر لا يستنبط منها إلا مسألة أو مسألتين وهذا أمر ظاهر وكثيرًا ما تشكل علينا مسألة، ونراجع كتب العلماء من الفقهاء وغيرهم، ثم عند التأمل في الكتاب والسنة نجد أنها قريبة موجودة إما داخلة في عموم لفظ، أو إشارة، أو إيماء، أو ما أشبه ذلك، بيان الآيات إما أن يكون بذاتها، وإما أن يكون عن طريق السنة، يعني بيان آيات القرآن إما أن تكون بذاتها هي بينة واضحة، وإما أن يكون عن طريق السنة تبين المجمل، وتفسر المشكل، وتقيد المطلق، وتخصص العام، وتنسخ المحكم هذا محل خلاف بين العلماء، والصحيح أنها تنسخ ذلك؛ لأن كله من عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسول ﷺ بين القرآن بلفظه ومعناه سواء بينه بقوله أو بفعله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عتو المكذبين للرسول ﷺ بيان عتوهم؛ حيث كانوا مع هذه الآية يدّعون هذه الدعوى الباطلة وهي أن الرسول ﷺ لا يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا شبهة لهؤلاء المكذبين لرسوله ﷺ وإنما هي اعتداء بالدعوى الباطلة؛ لأن غاية ما عندهم أن يقولوا: هذا ما كان عليه آباؤنا، وهذا ليس بحجة فإن الحق ما وافق الشرع سواء كان عليه الآباء أم لم يكن.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** غلط هؤلاء المكذبين بصوغ الأساليب أو العبارات الدالة على الحط من قدر النبي ﷺ لقولهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المكذبين كانوا على ضلال هم وآباؤهم؛ حيث كانوا يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم؛ لأنهم يعبدون الأشجار والأحجار ويدّعون أنها تنفع أو تضر، إما بذاتها وإما بشفاعتها.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنهم ادَّعوا أن النبي ﷺ كذب على الله في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الدعوى هم بأنفسهم يكذبونها؛ لأنهم كانوا يسمون الرسول ﷺ قبل أن يوحى إلى الأمين، ويرون أنه أعظم الناس أمانة وصدقًا، فما الذي قلبه عن ذلك الوصف

الذي أنتم تقرون به حتى قلتم: إنه مفترى على الله ـ عز وجل ؟!

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: ألا نستغرب من يجادل بالباطل ويدَّعي الأقاويل الكاذبة؛ لأن هناك أناسًا الآن إذا رفضوا شيئًا من الأشياء صاروا يقولون ويتقولون على الذي قاله ما لم يقله فيقولون: أنه كاذب، أنه متناقض، أنه كذا، أنه فعل كذا، وهو برئ من ذلك، فلهؤلاء سلف من أولئك الكفار.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما جاء به النبي ﷺ من الآيات من أفصح الكلام وأبلغه وأدينه لقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهم لم يصفوه بالسحر إلا لأنه يعصف بالقلوب ويجر الناس إليه جرًّا، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من نسب الكذب إلى رسول الله ﷺ فيما أوحى الله إليه فهو كافر في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١١- ومن فوائدها أيضًا: أن هؤلاء ادّعوا أن الوحي سحر بعد أن وصل إليهم وعرفوه لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعرفوا أنه حق حتى أن زعماءهم كانوا يتسللون لواذًا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا القرآن؛ لأنه أخذ بمجامع قلوبهم وصاروا يحبون أن يستمعوا إليه، لكن الحمية والعياذ بالله والعصبية منعتهم أن يهتدوا بهذا القرآن.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ سنشرحها على أن المعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُعطِ قريشًا بل والعرب جميعًا لم يعطهم كتبًا ولم يرسل إليهم رسولا نأخذ الفوائد على هذا المعنى فنقول:

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ العظيمة على العرب بما بعث إليهم وهو محمد ﷺ وجه ذلك أنهم كانوا أمة جاهلة ليس عندهم كتب تدرس ولم يأتهم نذير يخبرهم ويعلمهم، فهم أشد الناس حاجة إلى الرسول، وإذا اشتدت الحاجة ثم جاء ما يزيل هذه الحاجة كان أعظم من أي شيء؛ ففي الآية إذن بيان عظيم منة الله ـ عز وجل ـ على العرب حيث بعث فيهم هذا الرسول الكريم ﷺ.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: أن العرب كانوا جاهلين من أجهل الناس قبل بعثة الرسول ﷺ تؤخذ من قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ليس في العرب رسول إلا محمد ﷺ وهو كذلك وما ذكر بعض المؤرخين من أنه وجد في الجاهلية رسلًا منهم خالد بن سنان فهذا لا أصل له ولا صحة له؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وأخبر النبي ﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى رسول[1] وعلى هذا فإنه لم يبعث فيهم رسول إلا محمد ﷺ.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن حقيقة الرسالة هي الإنذار، وكذلك البشارة الإنذار للمخالفين بالعقوبة والبشارة للموفقين بالثواب والجزاء، وفيه أيضًا على المعني الثاني يستفاد من الآية أن هؤلاء الذين كذبوا الرسول ﷺ ليس لديهم ما يستندون إليه في تكذيبه؛ لأنهم لم يقرأوا كتبًا تدل علي كذبه ولم يبعث إليهم رسولًا تقتضي رسالته أن محمدًا ﷺ كاذب، هذا على المعني الثاني.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة: تحذير لمكذب الرسول ﷺ، وجهه: أن الله أخبر أنه كذب من قبلهم مَنْ هُم أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا من هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ.

٢- ومن فوائدها: أن من كذب الرسل فقد حقت عليه كلمة العذاب؛ لقوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

٣- ومن فوائدها: شرف الأنبياء أي شرف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ؛ لأن الله أضاف رسالتهم إليه فقال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ ومن المعلوم أن مرتبة الرسالة أعلى مراتب البشر، فإن مراتب البشر أربع، النبوة المتضمنة للرسالة، والصديقية، والشهداء، والصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فأعلى المراتب النبوة، ثم الصديقية، ثم الشهادة، ثم الصلاح، خلافًا للزنادقة الذين يقولون: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، والأنبياء أفضل من الرسل ويقول قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِي

يزعمون ـ قبَّحهم الله ـ أن الأولياء أفضل من الرسل والأنبياء هو كذلك عندهم؛ لأن أولياءهم الطاغوت، والطاغوت يملي عليهم أنه أفضل من الرسل والأنبياء.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤/ ٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ حيث جعل العقوبة من جنس العمل فلما كان عمل هؤلاء عظيمًا ـ وهو تكذيب رسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان جزاؤهم عظيمًا يتعجب منه ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي ما أعظمه وما أشده.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنكار يكون بالفعل كما يكون بالقول، وجه ذلك أن إنكار الله عليهم ليس بالقول فقط بل بالفعل والأخذ بالعقوبة فهذا إنكار بالفعل، وهذا موجود أيضًا في أعمالنا نحن، عندما يخالفك صبيك في أمر من الأمور أحيانًا توبخه تقول لماذا تفعل هذا ألم آمرك أن تتركه؟ وأحيانًا إذا جئت وجدته قد فعله تضربه هذا إنكار ويكون بالفعل، فإنكار الله ـ عز وجل ـ يكون بالقول، ويكون بالفعل، فعقوبة المجرمين هي إنكار بالفعل، وفي هذه الآية وفي غيرها من الآيات التي تضيف الفعل إلى الفاعل رد على من لا يثبت للعباد أفعالًا ـ مثل ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما أشبه ذلك ـ؟ هي رد على الجبرية الذين يقولون: إن فعل العبد مجبر عليه ليس له فيه اختيار .

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: استعمال قياس الأولى، تؤخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني إذا أخذ الله هؤلاء الأقوياء الأشداء الأكثر أموالا وأولادا إذا أخذهم الله تعالى بجرمهم هؤلاء الذين دونهم من باب أولى، ولا شك أن القياس دليل صحيح ثبت اعتباره بالكتاب والسنة والعقل، ولكن القياس نوعان: صحيح وفاسد، فالفاسد دل الكتاب والسنة والعقل على عدم اعتباره، والصحيح دلّ الكتاب والسنة والعقل على اعتباره مثال فاسد قول إبليس مستعملًا قياس الأولى لما أمره الله أن يسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فكيف يكون الأخير عبدا لمن دونه، ومثال القياس المثلية قولهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا﴾ هذا قياس فاسد؛ لأنه قياس ما حرم الله على ما أحله الله عز وجل، إن القياس قد سبق اعتباره بالكتاب والسنة والعقل، ومن أنكره فقد أنكر ما يدل عليه الكتاب والسنة نعم الذي ينكر منه القياس الفاسد.

مسألة: هل نأخذ من هذه الآية أن تكذيب الرسل تكذيب لله؟

الجواب: نعم هو الظاهر؛ لأنه قال في الأول: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يذكر المكذب ثم قال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فدل ذلك على أن تكذيب الرسل تكذيب لله ـ عز وجل ـ وهو كذلك عند التأمل؛ لأن الرسول إذا جاء وقال إنه رسول الله وأيده الله بالآيات، ثم كذبته فقد كذبت الله ـ عز وجل ـ ؛لأن الآيات التي يعطيها الله الرسول ما هي إلا براهين تدل على صدق فكأن المكذب يقول إن هذه الآيات كذب؛ لأنه يكذب الرسول.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ انظر إنصاف الله - عز وجل - في مخاطبة الخلق ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد موجه الخطاب إلى هؤلاء المكذبين ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ الجملة هذه فيها حصر، وتقديرها ما أعظكم إلا بواحدة، يعني ما أدعوكم دعاءً واعظًا ناصحًا لكم إلا واحدة فقط بمعني أنصحكم، يعني أنا أدعوكم ناصحًا لكم وواعظًا إلى هذه الخصلة بواحدة أن تقوموا قال: هي أن تقوموا، وعلى هذا فأن تقوموا في موضع جر عطف بيان على قوله ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني أنه بين هذه الواحدة بقوله ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾، وأن تقوموا هنا المراد بها: أن تثبتوا على الشيء، وليس المراد القيام ضد القعود فهو في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ ليس المراد أن تقوموا يعني يقف الواحد وهكذا قوله: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ ليس المراد أن تقفوا قيامًا، بل أن تثبتوا وتنظروا في الأمر.

وقوله ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ قال المؤلف: [أي: لأجله]، اللام هنا للإخلاص أي أن تقوموا مخلصين لله لا مقلدين لآبائكم ولا متعصبين لآرائكم، جردوا نياتكم من كل شيء إلا لله، أن تقوموا لله وحده لا مراعاة لي، ولا مراعاة لآبائكم ولا لحمايتكم، ولكن لله ﴿مَثْنَىٰ﴾قال المؤلف: [اثنين اثنين] وهل المراد حقيقة التثنية؟ يعني أن يقوموا اثنين اثنين، أو المراد مجرد الزيادة على واحد يعني: أنه مثنى لا يريد به حقيقة الاثنين، بل المراد أن تقوموا لله مجتمعين سواء كنتم اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو عشرة، نعم هذا هو الظاهر، وقال بعض المفسرين: المراد بالمثنى هنا حقيقة الاثنين وعللوا ذلك بأن الناس إذا كثروا اضطربت أراؤهم، وكثر الشجار بينهم وفات المقصود؛ لأنك الآن لو وضعت رأيًا بين عشرة كما يأتيكم رأيًا عشرة آراء، وبين اثنين يأتيك رأيان، قالوا: فالاثنين أقرب للحصر، وأقرب إلى تصور المسألة مما إذا كانوا أكثر من اثنين، ولكن قد يقال: إن هذا حقيقة لكن أحيانًا يكون الثلاثة والأربعة أسد رأيًا من الاثنين فقط، فتقبل الآية أن المراد بالمثنى مطلق الجمع اثنين أو أكثر، والمثنى قد يراد به مطلق الجمع كما في قوله تعالى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي كرة بعد كرة وليس المراد حقيقة الاثنين وكقول الإنسان وهو يلبي بالحج أو العمرة لبيك أي الإجابة مرتين، أو المراد إيجابه بعد إيجابه الأخير، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي: في شأنكم وفي حالكم ثم استأنف فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ وهذا من كلام الله وليس مفعولًا لما يقتضيه التذكر وهو العلم وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ صاحبكم المراد به محمد رسول الله ﷺ، لكنه عبر بالصاحب المضاف إليهم زيادة في التشنيع عليهم والتوبيخ، كأنه يقول هذا صاحبكم الذي تعرفونه ليس رجل منكر عليكم بل هو صاحبكم الذي تعرفون عقله، وصدقه، وأمانته، فكيف تقولون: أنه ساحر وأنه مجنون وأنه شاعر وأنه كاهن وما أشبه ذلك الإضافة إليهم للتشنيع عليهم، والتوبيخ لهم هذه واحدة، وفيه أيضًا الإشارة أنه كان ينذر أن يكونوا أول من يصدقوا به وأول من يناصره؛ لأنه صاحبهم وصاحب الإنسان مستحق للنصر منه والمساعدة والمعاونة، فكان في الإضافة فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التشنيع عليهم في أنهم يصفون صاحبهم الذي يعرفونه بهذا الوصف.

الثانية: أنه كان أولى بهم وهو صاحبهم أن يكونوا أول الناس تصديقًا به، وأشد الناس معونة له، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم، و﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مبتدأ مؤخر قرنت به (مِنْ) الزائدة من حيث الإعراب المفيدة لمعني من حيث المعني، والفائدة منها: هو المبالغة أو التأكيد في النفي؛ لأن (مِنْ) إذا دخلت على المنفي أفادت العموم وصارت نصًّا فيه.

وقوله: ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ يقول المؤلف: [جنون] فالجنة هنا بمعني الجنون، ويمكن أن يكون المراد به الجن الذي إذا خالط الإنسان جُن: ﴿مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ ﴿إِنْ﴾ تستخدم في اللغة على أربعة أوجه إن بمعني ما فهي نافية و﴿هُوَ﴾ أي محمد ﷺ الذي هو صاحبهم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ﴾ أي: قبل ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة إن عصيتموه يعني ما محمد ﷺ إلا رجل من أعقل الناس ومن أحن الناس على قومه؛ لأنه نذير لكم من ماذا؟ ينذرهم من العذاب الشديد القريب لهم إذ قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وبين يدي الشيء هو أن يكون قريبًا منه.

فالنبي ﷺ هذه حاله رجل عاقل ناصح لقومه حانٍ عليهم؛ لأن الذي ينذرك من العذاب يعتبر محسنًا إليك، لو أن رجلًا جاء يصيح أيها الناس جاءكم العدو، أيها الناس جاءتكم نار السعير، أيها الناس جاءكم الماء الفيضان بماذا تصف هذا الرجل؟ ناصح أو غشاش؟ ناصح، ولا تصفه بأنه مجنون، تصفه بأنه عاقل ناصح حانٍ عليك يحب لك السلامة من الشرور فالنبي ﷺ بالنسبة لنا ما هو إلا نذير ينذرنا من العذاب الشديد القريب ولهذا قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والشديد بمعني القوي، وهل يراد عذاب الآخرة أو يشمل عذاب الدنيا والآخرة؟ الصحيح أنه يشمل عذاب الدنيا والآخرة؛ ولذلك عذب المكذبون رسول ﷺ في الدنيا قبل الآخرة فزعماء قريش وصناديدهم قتلوا في بدر وألقوا جيف منتنة قريب من بدر، ومن بقي منهم كان آخر أمرهم أن دخلت عليهم البلد من أقطارها وذلُّوا حتى كان الواحد لا يأمن إلا بتأمين من دخل

داره وأغلق عليه بابه، فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[(١)]، ومن لم يكن في هذا فليس بآمن، وهذا من أكبر الذل أن تستحل بلدك ولا تأمن فيها إلا بتأمين هذا، لا شك أنه ذل وعار وآخر الأمر أن النبي ﷺ هو الذي منَّ عليهم وقال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[(٢)]، وهذا بلا شك أنه عذاب في الدنيا لكن إذا أسلموا كان مثل هذا العذاب كافيًا، ومن أبى وكفر كان له عذاب شديد أيضًا في الآخرة والله أعلم.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** دعوة الإنسان المعاند للتأمل في الأمر والنظر فيه حتى لا يتعجل بالرد لقوله ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن طلب الحق أن يكون مخلصًا لله بعيدًا عن الهوى؛ لقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** جواز التعاون في طلب الوصول للحق، وذلك من قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

٤ ـ **ومنها:** أن الإنسان قد لا يصل إلى الحق إلا بمساعدة غيره؛ لقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾فإنه إذا أمكن أن يصل للحق بنفسه فذاك وإلا استعان بغيره.

٥ ـ **ومنها:** أن التفكير كما يكون في الآيات الكونية، يكون كذلك في الآيات الشرعية؛ لأنه هنا طلب منه التفكر في ما جاء به الرسول ﷺ وفي عقول نفسه أيضًا.

٦- **ومن فوائدها:** انتفاء الجنون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ لقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

٧- **ومنها:** بيان عتو قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ مع أنه صاحبهم الذي يعرفونه وكان أولى بهم أن يصدقوه.

٨- **ومنها:** أننا إذا أردنا استكشاف حال الشخص فإننا نسأل مصاحبه الذي يصاحبه ويلازمه؛ لأنه أعلم الناس به، وقد شاهد بعض صفاته إذا أردت أن تسأل عن حال الشخص يسأل المسئول يقول: هل سافرت معه؟ فإن قال: لا، ترك تعديله له، وإن قال: نعم قُبِل تعديله إياه؛ لأن السفر يظهر حقيقة الرجال، حتى قيل: إنه إنما كان سفرًا لا يسافر ويبتعد عن البلد ويخرج إلى الفضاء؛ ولكن لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ولا شك أن السفر من أكبر ما يدل على الرجل؛ لأن في البلد الناس كلهم لهم شأن يغنيهم عن الآخرين، لكن في السفر محك للأخلاق الفاضلة من عدمها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨٠ /٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: قال الألباني رحمه الله في كتابه: «دفاع عن الحديث النبوي» ص (٣٢): هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت وهو عند ابن هشام معضل.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ منذر للناس من عذاب قريب إذا خالفته؛ لقوله: ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

١٠ - **ومنها:** استعمال الأسلوب المناسب للحال، وهذا معروف في علم البلاغة أن يستعمل الإنسان ما يوافق مقتضى الحاجة فهنا ذكر الإنذار دون البشارة؛ لأن المقام مقام تخويف وإنذار؛ لأنه يخاطب المكذبين لكن عند وصف الرسول ﷺ الوصف المطلق يقول: إنه شاهد ومبشر ونذير، فبدأ بالبشارة قبل الإنذار وهذا من حيث حال النبي - صلى الله عليه وسلم - المطلقة، أما في المقامات التي تقتضي ذكر الإنذار دون غيره فيستعمل فيها الإنذار دون غيره.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء وعقوبة المخالفين لقوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

١٢- **ومنها:**

استعمال الأوصاف التي تستلزم الموافقة والمتابعة؛ لقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فأنت عندما تخاطب الإنسان لذاته لا تأتي له بالألفاظ التي تبعده، بل ينبغي أن تأتي له بالألفاظ التي تدنيه وتقربه لتألف قلبه.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٧-٥٠]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾ الخطاب معلوم أنه للرسول ﷺ ؛لأنه هو النذير لهؤلاء ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ (ما) يحتمل أن تكون شرطية يعني: أي أجر أسأله منكم فهو لكم ويحتمل أن تكون (ما) موصولة يعني قل: الذي سألتكم من الأجر فهو لكم، ويكون اقتران الفاء بالخبر؛ لأن اسم الموصول يشبه الشرط في العموم، فأوضح حكمه ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على [الإنذار والتبليغ] ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ (مِن) هذه بيان لما فعلته وليست زائدة؛ لأن ما غير نافية وقوله: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ الأجر هو ما يعطى في مقابلة عمل أو في مقابلة منفعة، كما لو استأجرت رجلًا

يعمل لي عملًا أو أستأجرت شيئًا، كما لو استأجرت منك بيتك يعني هذا هو ما يعطى على العمل أو استعمال المنفعة يعني هذا العمل الذي قمت به، إن كنت سألتكم عليه أجرا وقلت: أعطوني مالا، أو أعطوني كذا فهو لكم وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا فرض على أن يكون هذا موجودًا، وإلا فإنه غير موجود كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فالرسول ﷺ قال لهم: إن كنت سألتكم أجرًا فهو لكم لا تعطوني إياه قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿إِنْ﴾ بمعني (ما) ومن علامات إن النافية أن يقع بعدها إلا وذلك ليس بشرط.

وقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي: [ثوابي] على تبليغي وإنذاري إلا على الله وحده - سبحانه وتعالى - فإن أجري علي الله فإنه سيجد الثواب العظيم؛ لأن عطاء أكرم الأكرمين سيكون أعظم عطاء ولهذا يجزي الله - سبحانه وتعالى - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ثم الداعي إلى الله يؤجر على دعوته سواء قبلت أم رفضت، يؤجر أيضًا على ما يناله منها من أذى سواء كان الأذى قوليًا أم فعليًا، وسواء كان يعود الأذى إذا ما رد ما جاء به أم يعود الأذى إلى اتهام هذا الإنسان بما يخدش كرامته.

وكل هذا قد وقع للرسول ﷺ أوذي على دعوته وأُوذي فيما يخدش كرامته ونزاهته فأصحاب الإفك [1] لما رموا عائشة رضي الله عنها ما رموا عائشة لأنها عائشة، لكن رموها لأنها زوج النبي ﷺ فالرسول ﷺ أوذي في عرضه، وأوذي في بدنه، وأوذي في مهمته التي جاء من أجلها فأجره على الله - سبحانه وتعالى -.

واعلم أنك كلما أوذيت في الدعوة إلى الله فإن ذلك زيادة أجر لك من جهة، وزيادة قوة الدعوة من جهة أخرى؛ لأن الإنسان إذا أوذي على شيء لابد أن يجد ما يتعاون معه كما تقتضيه سنة الله - عز وجل -، حتى الذين يتكلمون بالباطل إذا أوذوا على باطلهم وجدوا من يتعاطف معهم فكيف بمن يتكلم بالحق؟! ولهذا أدعو نفسي وإياكم إلى أن يكون علمنا منسابًا إلى غيرنا، بمعني أن ننشر العلم، وأن ندعو الناس إليه، صحيح أن حضورنا إلى هذا المجلس وتعلمنا لاشك أنه فائدة عظيمة وأنه مجلس من مجالس الذكر ينبغي أن ننشر هذا العلم وندعو الناس بقدر المستطاع، وأما أن نبقى ننسخ من الكتب الفائدة لا تعدو صدورنا، فهذا لا شك أنه ضعيف ولا يليق بطالب العلم، وعلينا أن نعرف ما جرى في أئمة المسلمين من علماء المسلمين من الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - ولست بذلك أريد أن تكرسوا جهودكم كلها في الدعوة؛ لأن الدعوة بلا علم ضررها أكثر من نفعها، كما يوجد من بعض الأخوة الحريصين على الخير تجدهم يضيعون أوقاتهم في

---

(١) قصة الإفك مشهورة أخرجها الشيخان في صحيحهما فأخرجه البخاري برقم (٤٧٥٠) ومسلم برقم (٥٦/ ٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الزيارات إلى فلان وإلى فلان، وفي الخروج، حتى إن العلم عندهم ليس بشيء، بل تجدهم يكرهون العلم والتعمق فيه ويريدون أن تكون دعوتهم دعوة سطحية مهلهلة، أي إنسان يحكيهم، أنا أريد منكم أن تكونوا علماء ربانين دعاة إلى الخير ما استطعتم ويكون أجركم على الله - سبحانه وتعالى - ؛لأن الإنسان مسؤل عن علمه، فإن الله تعالى ما أعطاك العلم إلا بميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [مطلع يعلم صدقي] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ كل شيء الله شهيد عليه يعني مطلع عليه ومنه حالي معكم فهو مطلع عليه، مطلع على أني بلغتكم وأنذرتكم ومطلع على أنكم كذبتموني وخالفتموني فأجري على الله وعقوبتكم على الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ وهل الله - عز وجل - شهيد على ما في نفس الإنسان؟ نعم شهيد حتى على معرفة ما لا يطلع عليه أحد، فالله تعالى شهيد عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [يلقيه إلى أنبيائه] ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [ما غاب عن خلقه] قال: ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ﴾ هذه جملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، واسم إن (رب)، وخبرها جملة ﴿يَقْذِفُ﴾، و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ خبر ثانٍ يعني هو أيضًا علام الغيوب.

وقوله: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ القذف هو الرمي بقوة يسمى قذف وقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بقول الحق وهو الوحي الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه، وظاهر كلام المؤلف أن القذف هنا: لازم لا يتعدى الأنبياء، وأن المراد به الوحي المنزل على الرسل ولكن قول المؤلف فيه نظر، والصواب أن هذه الآية تفسرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وأن ما في الآية ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وهو إشارة إلى أن حقه سوف يمحو باطلهم ويزهقه ويهلكه، بدليل أنه قال فيما بعد: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ قال: نقذف بالحق ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قال علام بصيغة المبالغة؛ لأن الغيوب كثيرة فناسب أن يضاف إليها العلم على سبيل المبالغة كما أن في المبالغة تكون أيضًا من حيث الكيفية لا من حيث الكمية فقط، من حيث الكيفية فإن علم الله - عز وجل - للغيوب ليس علمًا سطحيًا، بل هو علم عميق يصل إلى أخفى شيء من الغيوب قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ والغيوب جمع غيب وهو ما غاب عن الإنسان، وهذا خاص بالمستقبل والحاضر والماضي؛ أما المستقبل فإنه لا أحد يمكنه أن يعلم الغيب إلا في المستقبل، بل من ادَّعى أنه يعلم المستقبل فهو كافر؛ لأن الله يقول ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيكون منتهى الغيب في المستقبل تكذيبًا للقرآن، وتكذيب القرآن كفر، أما الحاضر فهو في الحقيقة غيب نسبي يكون غيبًا عني وليس غيبًا عمن شاهده فلو أن حادثة وقعت في بلد ما وأنا لست في هذا البلد فهي بالنسبة لي غيب وبالنسبة لمن

شاهدها ليست بغيب؛ فإذن المستقبل غيب مطلق، والحاضر والماضي غيب نسبيًّا يظهر لمن رآه ولا يظهر لمن لم يره.

قال: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [ما غاب عن خلقه في السموات والأرض].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال المؤلف: [الإسلام] والإسلام لا شك أنه دين الحق وأنه عال وسيعلو على جميع الأديان، كما قال الله - عز وجل -: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ولو أن المؤلف عمم وقال: الحق كل ما أخبر به الرسول ﷺ وما جاء به من الأحكام فهو حق.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: [الكفر] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: [لم يبق له أثر] هذه الجملة ما يبدأ الباطل وما يعيد، أو ما يبدأ فلان وما يعيد أسلوب من أساليب العرب كناية عن هلاك هذا الشيء وعدم وجوده؛ لأن الذي لا يبدأ يعني لا يأتي بالشيء ابتداءً ولا يعيد ما صنع أو لا، هذا غير موجود في الوقت ما له حراك لا حراك به فهو كالهالك، والمعني (ما يبدأ الباطل) أي: ما يتبين ابتداءً (وما يعيد) ما يتبين إعادة، فهو إذن هالك لا أثر له لا ابتداء ولا إعادة، فإذا كان (الحق) إذا جاء، والباطل (ما يبدئ ولا يعيد)، فمعناه أن الدولة ستكون للحق لما جاء به النبي ﷺ وإن كذبوه، الباطل إن كان في الأخبار فهو الكذب، وإن كان في الأركان فهو الجور والظلم.

وكل ما خالف حكم الله فهو جور وظلم وإن زعم أهله أنهم عادلون فيه، فهم كاذبون فالقوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله نقول: إنها باطل، ونقول: إنها ظلم وجور، وأما ما وافق الشرع فإنه وإن سمّي قانونًا أو نظامًا فهو شرع، يعني: لو أن أحدًا صنع موادًا معينة في الحكم لكنها مأخوذة من الكتاب والسنة، لا نقول: إن هذه قوانين وضعية أو نظم وضعية بل نقول: هي أحكام شرعية لكنها ركبت على مواد، كما أن الفقهاء - رحمهم الله - رتبوا الفقه على أبواب فالخلاف في كيفية العرض، وإلا فهو حق، أما أن يقنن الشريعة بمعني أن ندخل عليها أحكامًا تخالف أحكامها، فهذا كفر، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وأما تقنينها بمعني: تبويبها وجعلها مواد معينة فهذا لا بأس به، بشرط ألَّا يكون الحكم لازمًا بهذه المواد؛ لأن إلزام القضاة مثلًا أو الحكام بأن يحكموا بهذه المواد معناه بأنهم يلزموا وأن يحكموا بما يعتقدون أن الحق في خلافه؛ لأن الناس يختلفون في اجتهادهم، فقد ترى اللجنة أن الحكم في هذا هو كذا وكذا، ويرى القاضي أن الحكم خلاف ذلك فوضعها على أنها موضحة أو كاشفة أو دالة هذا لا بأس به بلا شك، لكن وضعها على أنها ملزمة هذا لا يجوز؛ لأن الناس يختلفون في الاجتهاد.

وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: إثم ضلالي عليها ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من القرآن والحكمة ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ [للدعاء] ﴿قَرِيبٌ﴾، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ هذا من باب

التنزل مع الخصم، وإلا فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كان أهدى الناس أليس كذلك؟ بلى، وهذا كقول الرجل المؤمن من آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]، مع أن المؤمن هذا يؤمن بأنه صادق، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم لإلزامه بقول الحق يقول الله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ ومعلوم أن الإنسان لا يريد أن يتمادى في إضلال نفسه، ومثل النبي ﷺ إذا ضل لا يكون ضلاله أيضًا، بل عليه وعلى من اتبعه؛ ولهذا كان ضلال العالم أو زلة العالم من أعظم ما يفسد الناس، زلة العالم يست بهينة؛ لأنه قدوة وأمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وليس عليكم بذلك شيء ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ لم يقل: فإن ذلك من نفسه بل وكله، وأضافه إلى ما جاء به الوحي النازل من عند الله ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ والباء للسببية و(ما) إما أن تكون مصدرية، وإما أن تكون موصولة إن كانت موصولة، فإن عائدها محذوف تقديره فبما يوحيه إلي ربي، وإن كانت مصدرية فلا تحتاج إلى عائد.

وقوله ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ الوحي في اللغة هو: الإعلام بخفاء وسرعة هذا في اللغة سواء كان الإعلام بالهمس، أم بإشعار العين أم بإشعار اليد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وما يتكلم؛ لأنه قال له: ﴿آيتك ألَّا تتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾؛ إذن أوحى إليهم بمعني أشار إليهم، أما في الشرع فهو: إعلام الله - سبحانه وتعالى - أحدًا من خلقه بشرع يُؤمر بتبليغه إن أمر بتبليغه، فهو رسول، وإن لم يأمر فهو نبي.

وقوله: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ الإضافة هنا إضافة خاصة؛ لأن الله ربه ورب غيره، لكن الإضافة هنا إضافة خاصة تفيد العناية؛ لأن من أفضل نعم الله على العبد أن يرسل إليه بالرسالة حتى ينال المرتبة العليا من بني آدم، وكذلك من نعمة الله على العبد أن يلهمه هذه الرسالة لتعلم، ولهذا كان العلماء ورثة الأنبياء فهذا من أفضل النعم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾، فأضاف الربوبية إلى نفسه؛ لأن هذه الربوبية خاصة تقتضي العناية والتأييد والرحمة واللطف ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ إنه سميع قال المؤلف: [للدعاء]، والصواب: أن الآية هنا عامة سميع لكل شيء وليس للدعاء فقط، بل هو سميع لما أقول لكم، وسميع لما تقولون لي، وسميع لدعائي بمعني: مجيب، وقد مَرَّ علينا أن السمع المضاف إلى الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين، سمع بمعني: إدراك المسموع، وسمع بمعني إجابة المسموع، السمع بمعني إدراك المسموع تارة المراد به التهديد وتارة يراد به التأييد، وتارة يراد به الإحاطة، أي إحاطة الله - عز وجل - بكل مسموع فهذه ثلاثة أشياء تارة يراد به التهديد، وتارة يراد به التأييد، مثل قوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وَأَرَىٰ﴾ وتارة يراد به بيان الإحاطة مثل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أما السمع الذي بمعني الإجابة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وقول المصلين: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»[(١)].

وقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ هذه اسم فاعل أو صفة مشبهه، والضمير المستتر فيها يعود على الله - عز وجل - وكل فعل أو وصف يكون عائدًا إلى الله، فالمراد به ذات الله فإذنْ هذه القاعدة ذكرها ابن القيم يقول: كل فعل أو وصف يحمل ضميرًا يعود إلى الله، فالمراد به ذات الله، لكن يجب أن يكون في ذهنك تنزه الله عما لا يليق به فيكون القرب هنا قرب رحمته، أو قرب علمه، أو قرب سمعه، أو بصره، أو هو ذاته قريب؟ هو ذاته؛ ولهذا قال ابن القيم بأنه قريب بذاته لكن يجب أن تعلم مع قربه بذاته فهو مستوٍ على عرشه حتى قال النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[(٢)]، لكن مع هذا يجب أن ننزه الله عما لا يليق به؛ بحيث يتوهم أنه معنا في المكان هذا لا يمكن بل هو قريب بذاته مع علوه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الوسطية» قال: هو عليٌّ في دنوه قريب في علوه ولا تظن أن الجمع بين القرب والعلو فوق السموات متناقض لماذا؟

أولًا: لأن الله تعالى جمع بينهما لنفسه ودل عليهما كتاب الله، وكتاب الله - عز وجل - لا يمكن أن يدل على متناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

ثانيًا: أن الله - سبحانه وتعالى - ليس كمثله شيء يعني: لو قلت أن بين القرب والعلو تناقضًا في حق المخلوق، فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء ولهذا نقول: إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة وهو مع ذلك مستوٍ على عرشه لا تقل: هذا محال نقول: هذا محال بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فيجب أن نؤمن بما أخبر النبي عن صفات الله وهو استواؤه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا ونقول: أن هذا ممكن في حق الخالق.

أما الوجه الثالث: مما يجمع فيه بين القرب والعلو أنه قد يكون الشيء عاليًا وهو قريب، حتى من المخلوقات مثل القمر عالٍ لكنه قريب كأنه معك، كأنه في المكان الذي أنت فيه وضوؤه واصل إلى الأرض وهو في السماء.

إنَّ الله إذا أضاف الشيء إلى نفسه سواء كان فعلًا أم وصفًا فإننا لا يجوز لنا العدول عن تحويل هذا الشيء من مراد الله إلى شيء آخر؛ لأننا إذا سلكنا ذلك احتج علينا أهل التأويل من المعتزلة والأشاعرة وقالوا: كيف تؤولون هذه الآية مثلا وتنكرون علينا التأويل في آيات أخرى، أو في نصوص أخرى، فإذا قلت لهم: إن هذا لا يمنعه العقل قالوا: ونحن نرى أن هذه الآيات

(١) قول المصلي سمع الله لمن حمده هذه سنة من سنن الصلاة واردة عن نبينا ﷺ في الصحيحين وغيرهما.
(٢) صحيح: أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٤٦/ ٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

والأحاديث يمنعها العقل، لكن إذا أبقيت النصوص على ما هي عليه على ظاهر جلالته مع ما لا يليق به، سَلِمْت في دينك وسلمت أمام الله ـ عز وجل ـ حين يسألك يوم القيامة كيف تطرقت في كلامي وكيف أخرجته عن ظاهره؟ وسلمت أيضًا من معارضة أهل التأويل وقد مر علينا أن الفلاسفة الذين ينكرون الميعاد بل وينكرون كل شيء احتدّوا على المعتزلة، وأهل التعطيل وقالوا: كيف تجوزون التأويل في آيات الصفات وأحاديثها، ولا تجوزون التأويل في نصوص الميعاد، إذا أولتم في هذا أولوا في هذا، وإلا فقد ظهر تناقضكم وسبق لنا إجابة المعتزلة لأهل الكلام ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إنا قد علمنا بالاضطرار أن الرسل جاءت بإثبات الميعاد وعلمنا أن الشبهة المانعة منه واهية فوجب القول بثبوته، هذه من أهم المسائل في جوانب التوحيد، وذكرنا أن هذه الحجة التي دفع بها المعتزلة اعتراض الفلاسفة، احتج بها أهل السنة على المعتزلة وقالوا: قد علمنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الذات لله وعلمنا إثبات الشبهات المانعة منه فوجب القول بثبوته وأن ترك القاعدة في هذا وهذا هو الذي فيه السلامة، أما أن نتناقض ونؤول في شيء ونترك النصوص، فإن هذا وهم وضعف في الطريقة، وأن القريب هنا إنه قريب في علمه، أو قريب في رحمته، أو قريب في سمعه، أو ما أشبه ذلك فنخصص هذا بشيء؛ لأنك لو قلت قريب في رحمته أو سمعه أو بصره أو علمه أو ما أشبه ذلك، خصصته فإذن قريب شمل كل ما تقتضيه هذه الذات من الصفات فكان أعم.

وقد صرح شيخ الإسلام بن تيمية في شرح حديث النزول بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قريب بنفسه، وتلميذه ابن القيم قال: إنه قريب بذاته ولكن مع ذلك يجب علينا أن نعلم علم اليقين بأنه قريب ولكنه في السماء على عرشه، وهذا لا تناقض فيه، وقد علمتم الجواب على ما يوصف أنه متناقض وأن الجواب من ثلاثة وجوه، والله أعلم.

لم يطلب من أحد أجرًا على تبليغه للرسالة وإنذارهم؛ لأنه قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

١- **من الفوائد أيضًا:** التنزل مع الخصم أي: على فرض إن سألت فهو لكم.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** تحريم أخذ الأجر على إبلاغ العلم الشرعي، ووجهه أنه مخالف لهدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تبليغ الشرع واجب على الإنسان.

والواجب لا يجوز أن يتخذ الإنسان عليه أجرًا، فإن قلت: هل يجوز الأخذ على تعليم القرآن؟ فالجواب: أن العلماء اختلفوا في ذلك على قولين لاختلاف ظواهر النصوص، ومنهم من قال: إنه

جائز لقول النبي ﷺ «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»(١) ؛ لأن هذا الرجل لا يأخذ أجرًا على قراءة القرآن، لو أخذ أجرًا على قراءة القرآن قلنا: هذا حرام، لكنه أخذ أجرًا على التعليم والتعب وتلقين هذا الرجل، ولذلك لو كان في مسألة واجبة عليه، بمعنى أنه لو كان يجب عليه أن يعلم هذا الرجل لكان أخذ الأجر عليه حرام، الوجه الثالث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعله عوضًا للنكاح فقال: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»(٢) ، وعوض النكاح أجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فلما جعل النبي ﷺ عوضًا في النكاح دل ذلك على جواز أخذ العوض على تعليمه؛ ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجاز أخذ قطيع الغنم للجماعة الذين قرأوا على سيد القوم الذي لدغ وأخذوا عليه قطيعًا من الغنم، فأجاز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لا لأنهم قرأوا القرآن، ولكن لأنهم عالجوا هذا اللديغ، وهذا هو الصحيح أي أنه يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لكن إن كان تعليم القرآن واجبًا فإن أخذ الأجرة عليه حرام، وهل يجوز على القول بأن أخذ الأجرة عليه حرام هل يأخذ راتبًا من بيت المال؟

الجواب: نعم؛ لأن هذا ليس بأجرة، ولذلك جاز للمؤذن والإمام أن يأخذ من بيت المال مالًا يستعين به على أذانه وعلى إمامته.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إخلاص النبي ﷺ في تبليغه لدعوته؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه واضح بأنه إنما يريد الأجر من الله وهذا هو الإخلاص.

٤- ومن فوائدها أيضًا: علو همة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث اختار الأجر الأوفى على الأجر الأدنى؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ .

٥- ومن فوائدها أيضًا: تهديد الخصم بما تقتضيه أسماء الله وصفاته؛ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإن في ذلك تهديدًا لهم يعني فسيشهد على تكذيبكم وعلى تبليغي.

٦- ومن فوائدها أيضًا: الاستشهاد بإقرار الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان على صدق ما قال، يؤخذ من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ قال العلماء: شهادة الله تعالى لرسوله بأن ما جاء به حق، تشمل الشهادة القولية والشهادة الفعلية وهي إقراره على ما دعا إليه الناس واستباحة أموالهم ودماؤهم إذا لم يستجيبوا له.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: قضية الرسول ﷺ وذلك بإضافة الربوبية إليه ـ ربوبية الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٧) ومسلم (٧٦/ ١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

إليه ـ؛ حيث قال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي ﴾ وهذه ربوبية خاصة.

٢- **ومن فوائدها:** بيان قوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يرمي بالحق على الباطل على وجه القوة بل ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أي يرمي به بقوة وشدة على الباطل.

٣- **ومن فوائدها:** عموم علم الله بما شوهد وبما غاب وما شوهد من باب أولى يعني أنه إذا كان يعلم الغيب فالمشهود من باب أولى.

٤- **ومنها:** إثبات أن ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق.

٥- **ومنها أيضًا:** تهديد هؤلاء المكذبين بيان باطلهم سوف يُقضى عليه بطريق الإسلام في الحق سيقضى على باطلهم ويؤيده قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ جاء الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ في هذا تحديد هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ؛ لأنه لو كان ضالًا لظهر أثر ضلاله على نفسه ولأهلكه الله ـ عز وجل ـ ولم يمكنه قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ فلو كان ضالًّا بما جاء به لكان ضلاله على نفسه ولتبين أمره، ولعلكم بلغكم ما أنزل الله تعالى بالمكذبين الذين ادّعوا الرسالة فأهلكهم الله مثل: مسيلمة الكذاب، والأسود العَنْسِي وغيرهم، كلهم يظهر الله ـ تعالى ـ ضلالهم وكذبهم، وذكرت عليكم مرات ما ذكر من آيات مسيلمة، يقولون: إن مسيلمة يدّعي أنه رسول وأن بئرًا من آبار قومه غار ماؤها ولم يبق إلا قليل فجاءوا إليه يشكون هذا الأمر فأراد أن يقتدي بالرسول ﷺ فأخذ منها ماءً وأدخله في فمه ثم مجه في الماء فجعل ينتظر فوران الماء حتى يصل إلى يديه لكن الماء الذي كان فيها غار ونفد هذه آية على كذبه، وجيء إليه بصبي أصلع، أصلع يعني: ما عليه شعر إلا شعرًا قليلًا فجاءوا إليه ليمسح رأسه فيظهر له شعر كثيف فلما مسح رأسه تساقط الشعر الموجود وكان هذا آية على كذبه فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يمكن أبدًا أن يمكن لكاذب مهما كان حتى الكاذب بعد الرسول ﷺ لو كذب ثم دعا الناس إليه، وكان يدعو الناس إلى الحق رياءً وسمعة، فلابد أن يظهر الله تعالى أمره للناس، قال الشاعر:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴾ أي: فيتبين أمري وضلالي.

الفوائد:

١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الاعتراف لله ـ عز وجل ـ بالجميل؛ لقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾.

٢- **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن ينسب الخطأ إلى نفسه، وينسب الصواب إلى الله ـ عز وجل ـ؛لأنه بنعمته ونحن إذا أصبنا هل نقول: فبما يوحي إلينا ربنا، أو فبما أوحاه ربنا إلى نبينا؟ هذا هو

الصواب، فإذا أصبنا فإن الواجب أن نضيف النعمة إلى معطيها ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الله ـ عز وجل ـ لا نفتخر ونجعلها من ذات أنفسنا، أما الضلال فإنه على أنفسنا فإننا سببه.

٣ ـ **وفيها أيضًا**: إثبات أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول؛ لقوله: ﴿فِيمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن النظر في الوحي القرآن والسنة سبب للهداية؛ لأن الباء في (بما يوحي إلي ربي) سببية وإذا كان سبب للهداية كان من العقل والبصيرة أن ننظر في وحي الله وشرعه، وألَّا نطلب الصواب من غيرهما لا نطلب الصواب مما قال فلان وقال فلان، لكن مما قال الله ورسوله ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

العِلْــمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُـــولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُو العِرْفَانِ
مَا العِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً بَيْنَ الرَّسُــولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُلَانِ

وقال في موضع آخر:

الْعِلْـمُ مَعْرِفَــةُ الهُـدَى بِدَلِيلِــهِ مَــا ذَاكَ وَالتَّقْلِيــدُ يَسْتَوِيَــانِ

المهم: أن الهداية لها سبب وهي النظر فيما أوحى الله به إلى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

٥- **ومن فوائد الآية**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فِيمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ وأنها مؤثرة بإذن الله لا مؤثرة بنفسها، ففي ذلك الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الأسباب لا تؤثر بنفسها حتى أنهم يقولون إن الورق إذا احترق بالنار فإنه لم يحترق بالنار لكن احترق عند النار، لا بها.

وإذا ضربت الزجاجة بالحجر فانكسرت قالوا: لم تنكسر بالحجر لكن انكسرت عنده،قالوا: لأنك لو أثبت لسبب أثرًا ذاتيًا لأشركت بالله العظيم؛لأنه لاشيء يؤثر بنفسه إلا الله ـ عز وجل ـ فأنت إن أثبت أن الحجر هو الذي كسر الزجاجة (هي نفسها تكسر الزجاجة) فهذا شرك بالله فمثلًا رجل أوتي بلحم فجعل يقطعه بالسكين نقول: تقطع بالسكين، أو عند السكين لا بها انظر كيف العقول وصلت إلى هذا الحد؟ الآن الزجاجة ضع عندها الحصاة بل ضعها فوقها بهدوء تنكسر؟ لا، أقبل الحجر على الزجاجة ولم يمسه لكنه حف من حوله، عنده، ما ينكسر، كيف؟ هو يقول: إنه انكسر عنده فنقول أن الأسباب مؤثرة بنفسها لكن من خلق فيها هذا التأثير؟ الله ـ عز وجل ـ والله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير، لو أنك قلت لصبي: أدخل الورق في النار واحترقت ترى النار ما حرقتها، وليست سبب لإحراق، وإنما عندها النار لا بالنار قل له: ما هذا الكلام؟ كلام سخف، إذن نقول: إثبات الأسباب دل عليه السمع والعقل، ولكنها تؤثر بذاتها أو تؤثر بأن الله خلق فيها التأثير؟ خلق فيها التأثير الدليل على ذلك النار محرقة فقال الله ـ عز وجل ـ لها حين ألقي فيها إبراهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فكانت بردًا وسلامًا، إذن هذا السبب المؤثر زال تأثيره بقول الله وبأمر الله، ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت بردًا وسلامًا، والماء جوهر

سيال فكان بإذن الله كالجبال حين ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات سمع الله وقربه، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين أيضًا: السميع والقريب.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١-٥٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هذه (لو) شرطية وفعل الشرط فيها ترى، وجواب الشرط محذوف تقديره (لرأيت أمرًا عظيمًا)، وحذف للتفخيم والتعظيم ولأجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، أو لأنك مهما قدرت فالأمر أعظم مما قدرت وقول المؤلف: [يا محمد] هذا لا شك أنه محتمل أي أن الخطاب للنبي ﷺ وفيه احتمال أن الخطاب لمن يصح توجه الخطاب إليه الرسول ﷺ وغيره وهذا أحسن؛ لأنه أعم، وإن وجد الأعم والأخص، فإن الأولى الأخذ بالأعم لدخول الأخص فيه ولا عكس.

وقوله: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ متى هذا؟ هذا يوم القيامة إذا نفخ في الصور قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يعني لو رأيت فزعوا لرأيت أمرًا عظيمًا وقوله ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ فزعوا هذه فعل ماضي مقترن بواو الجماعة، واضح، نعم يجعلون التعبير في الماضي عن المستقبل قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهذه صريحة أتى أمر الله فلا تستعجلوه لأنه لو كان قد وقع ما قال فلا تستعجلوه.

﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ قال المؤلف: [عند البعث لرأيت أمرًا عظيمًا] ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ هذه لا نافية للجنس و﴿فَوْتَ﴾ اسمها وخبرها محذوف، وقد قال ابن مالك في ألفيته:

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرِ

يعني: كثر إذ المراد مع سقوطه ظهر ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا فوت لهم، وهذا يعني: حذف الخبر في مثل هذا التركيب أبلغ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: ما في أبدًا فوات، لو قلت فلا فوت لهم لكان أرق أم ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فهي أشد وقعًا نعم، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ قال لهم منا أي لا يفوتنا قال: ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أخذوا معطوفة على ﴿فَزِعُوا﴾ يعني أنهم يفزعون ويأخذون من مكان قريب يأخذون بالعذاب ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال المؤلف: [هي القبور] وهذا احتمال بلا شك؛ لأنهم يخرجون من حين ما يخرجون يجدون والعياذ بالله أمرًا عظيمًا ولهذا يقولون إذا خرجوا من قبورهم يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ فهم يؤخذون من قريب من حين يؤخذون من القبور يكشف لهم عن أمر أعظم مما كانوا يشاهدونه في القبور وإلا فإنهم يعذبون في قبورهم على القول الراجح قال: ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي القبور - والله أعلم -.

(إذ) لما مضى، (وإذن) للمستقبل، وإذ تأتي أيضًا تعليلية في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزُّخرُف:٣٩]

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ قالوا: يعني عند فزعهم وعند أخذهم من هذا المكان القريب﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ آمنا به أي بما كنا كافرين به في الأول فيشمل الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والإيمان بموسى وعيسى وإبراهيم، وغيرهم من الرسل، هذا إذا كان الكلام عامًا في جميع الكفار، فإذا كان خاصًّا في كفار قريش فالمراد بآمنا به أي: بمحمد ﷺ الذي قالوا عنه أنه: كذاب، وبالقرآن الذي قالوا عنه أنه سحر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ [بواو والهمزة بدلها] التناوش والتناؤش، والهمزة بدلًا من الواو، والتناوش معناه: أخذ الشيء من بعيد يقول: تناوشت الشيء يعني: أخذته بأطراف أصابعي على بعد، أي أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ما أرادوه من الإيمان ولا من بعد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾، (وأنى) هنا استفهام بمعني الاستبعاد يعني أنه يبعد لهم التناوش من المكان البعيد؛ لأن الذي يتناول الشيء إذا كان عن قرب يقال: تناوله وأدركه، أما إذا كان من بعد فهو يقال: تناوشه ومع ذلك فإنه لا يتمكن منه، فهؤلاء يبعد عنهم كل البعد أن ينالوا ما يريدونه من هذا الإيمان؛ لأن هذا الإيمان ضروري يعني أنهم اضطروا إليه حين رأوا العذاب ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾، بل كانوا يقولون: إنهم لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا، ولكن الله كذبهم بقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فهم بإيمانهم هذا إنما يريدون الخلاص من العذاب، ولكن العذاب بعد وقوعه لا خلاص منه، وهذا له شواهد في القرآن كثيرة قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [النساء:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ يقول ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن محله إذ هم في الآخرة ومحله في الدنيا وهذا بعيد؛ لأنه ماض من الزمن لن يرجع حتى الأيام في الدنيا الماضية لا يمكن أن ترجع، فيوم الأحد اليوم ليس هو يوم الأحد الماضي، وإن وافقه في الاسم لكنه غيره فالشيء الماضي بعيد، والشيء المستقبل قريب، والماضي بعيد وإن قرب، والمستقبل قريب وإن بعد؛ لأن كل آتٍ قريب، إذن نقول: إن هؤلاء حكى الله عنهم أنهم يقولون حين يفزعون ويؤخذون بالعذاب يقولون: آمنا ولكن هذا الإيمان لا ينفعهم؛ لأنهم يتناولونه من مكان بعيد قال ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية، ويحتمل أن تكون حالية من قوله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ يعني وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، والحال أنهم قد كفروا به من قبل.

[﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا] ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: بالنبي ﷺ أو بالقرآن وهم أيضًا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: يرمون، والقذف كما سبق هو الرمي بشدة، وما معني يقذفون بالغيب؟ أي: يتكلمون بأمر غائب عنهم يدعونه وهم فيه كاذبون مثل أن ينكروا البعث ويقولون: كيف يبعث الناس وقد كانوا عظامًا رميًا ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ يقذفون بالغيب يقولون: إن محمدًا ﷺ شاعر وكاهن ومجنون وما أشبه ذلك، هذا من القذف بالغيب؛ إذن هم يتكلمون بكلام لا حقيقة له ليس بواقع ملموس مشهود، بل هو أمر غائب عنهم، وهم لا يعلمونه والغيب هنا شبيه بقولنا: يتكلمون بالظن ويقولون: الظن وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ [أي: بما غاب علمه عنهم غيبةً بعيدة حيث قالوا في النبي ﷺ ساحر وشاعر وكاهن، وفي القرآن سحر وشعر وكهانة، وكذلك قالوا في البعث: إنه مستحيل أن يحي العظام وهي رميم]، حال هؤلاء إذن الكفر والكلام بالغيب من مكان بعيد يعني: أنهم يتكلمون بأمر غائب عنهم والغائب بعيد عن الإنسان وكيف يتكلمون به وهم لا يعلمون؟

ثم قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [من الإيمان] (حيل) فعل ماضٍ مبني للمجهول أين نائب الفاعل؟ الظرف لكن هل ينوب الظرف مناب الفاعل أين الدليل ؟

نقول: هذا النائب هو الظرف؛ لأن المفعول به لم يوجد حيل بينهم وبين ما يشتهون ما الذي يشتهونه؟ الذي يشتهونه هو النجاة، النجاة من العذاب الذي حل بهم، ولكن هذه النجاة إنما تكون لو قبل الإيمان منهم، والإيمان منهم غير مقبول في هذه الحالة، فلهذا لم يتمكنوا مما يريدونه والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: [أي قبوله ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان] أي: قبوله ولكن هم في

الحقيقة يشتهون شيئًا قبل قبول الإيمان وهو: النجاة من العذاب وهذا فرع عن قبول الإيمان، وقبول الإيمان غير ممكن؛ لأنه فات محله إذن حيل بينهم وبين ما يشتهون، ما الذي يشتهونه؟ النجاة من العذاب، والنجاة من العذاب لا تكون إلا بعد قبول الإيمان منهم، وقد وصلوا إلى هذه الحالة غير ممكن إذن النجاة من النار غير ممكن؛ ولهذا قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فالذي حال بينهم وبين ما يشتهون هو تأخر الإيمان والتوبة ولو أن ذلك حصل في الدنيا قبل أن يعانوا من العذاب لكان هذا ممكنًا.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ كما فعل بأشياعهم بأشباههم في الكفر ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: قبلهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ يعني: حيل بينهم وبين ما يشتهون كما حيل بين أشباههم في الكفر من قبل أي: من قبل هؤلاء مثل من؟ قوم نوح وعاد وصالح وغيرهم، وهذا يؤيد ما ذكره بعض المفسرين بأن قوله ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: عند الموت؛ لأنه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ وهذا فعل ماضٍ يدل على أن هذا أمرٌ قد مضى على من سبق ولو كان يوم القيامة، لم يكن قد مضى من قبل، أما على رأي المؤلف ومن تابعه من المفسرين، بأن الفزع هذا هو فزع يوم القيامة ويدل عليه الآية التي استشهدنا بها من قبل، فيقول: (كما فعل) أي كما قدر أن يفعل بأشياعهم من قبل، وقوله -عز وجل-: ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ كيف نعرب (ما) (ما) مصدرية يعني كالمفعول بأشياعهم من قبل، فما مصدرية أي كفعلنا أو كالمفعول بأشياعهم من قبل.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ الجملة هذه تعليل لما قبلها، فصلتها بما قبلها أنها تعليل، أي إن هؤلاء الذين لم ينجوا من العذاب كانوا في الدنيا في شك، والشك هو التردد بين الإثبات والنفي، والإيمان يجب أن يكون جازمًا لا شك فيه، ولهذا مَن شك في ما يجب الإيمان به لم يكن مؤمنًا، وقوله ﴿مُّرِيبٍ﴾ قال المؤلف: [موقع في الريبة لهم فيما آمنوا به الآن ولم يعتنوا بدلائله في الدنيا] يعني أنهم في الدنيا غفلوا عن دلائل الإيمان ولم يتفكروا بها، بل أنكروها، إما مكابرة، وإما شكًّا وترددًا، فلم ينفعهم.

والحاصل: أن هذه الآيات كلها فيها إنذار هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، وتذكيرهم بهذه الأحوال التي ستكون واردة عليهم عند الموت وفي الآخرة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** إشارة إلى عظيم ما سيقع بهؤلاء عند الموت، أو يوم القيامة، مأخوذة من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾؛ حيث حذف جواب الشرط؛ لأن ذلك أعظم في التهويل والتفخيم، حتى يذهب الذهن كل مذهب في تقدير ما يمكن أن يكون جوابًا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المكذبين لله -عز وجل- ولرسله لا يفوتون الله ولا

يعجزونه؛ لقوله: ﴿فلا فوت﴾.

٣- **ومن فوائدها:** بيان ما يقع بهؤلاء عند معاينة العذاب من الفزع الشديد الذي لا ينفعهم ولا يستفيدون منه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنهم يؤخذون بالعذاب من مكان قريب لا من مكان بعيد؛ لأن من قدر على الهرب ربما لا نصل إليه لأخذه بالعقوبة، إلا من مكان بعيد لو أن لصًّا أمسكته ـ ضبطته ـ بجريمته فهرب فإذا هرب لن يؤخذ بالعقوبة، إلا من مكان بعيد، أما هؤلاء فيؤخذون من مكان قريب؛ لأنهم لا فوت لهم.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء على الأعمال وهذا هو الحكمة من الأمر والنهي، فإن الأمر والنهي لو لم يترتب عليه الثواب والعقاب لكان عبثًا ينزه الله تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ لا يؤمر ولا يُنهى.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾:

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** أن هؤلاء المكذبين إذا عاينوا العذاب آمنوا لقوله ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ويؤيد ذلك آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤ - ٨٥].

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الإيمان بعد معاينة العذاب لا يفيد؛ لقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وإنما كان غير مفيد؛ لأن الإيمان بالمشاهد لا قيمة له فالشيء المشاهد لابد أن يؤمن به كل إنسان، لكن المحنة والابتلاء إنما تكون في الإيمان بالغيب قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أما إنسان تقول له مثلا: ترى هذه حقيبة وترى هذه كراسة وهذا مكبر صوت وهذه مسجلات ينكر أو لا ينكر وهي أمامه؟ لا ينكر حين أنكر فهو مكابر لكن شيء غائب تخبره به ربما ينكر، هؤلاء إذا آمنوا بعد مشاهدة العذاب فإن إيمانهم لا ينفعهم؛ لأن إيمانهم حينئذٍ إيمان مشاهدة لا إيمان بالغيب، والإيمان بالمشاهد ليس فيه مدح ولا ثناء ولا يستحق صاحبه جزاءً.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بُعد الإيمان عمن لم يؤمن إلا إذا شاهد العذاب المراد بعد الإيمان يعني بعد قبول الإيمان يعني ما قال الله ـ عز وجل ـ لا ينفعه فقط بل قال: إن هذا أمر بعيد ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾:

الفوائد:

١- **في هذه الآية**: الإشارة إلى أن إيمانهم الحاضر لا ينفعهم؛ لأنهم كفروا من قبل حين كان الإيمان نافعًا كانوا كفارًا، وحين كان الإيمان غير نافع كانوا مؤمنين، ولهذا إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم لكن الله يقول: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٢- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الذين يتكلمون في حق النبي ﷺ أو ما جاء به من الوحي - بالسب والعيب إنما يتكلمون رجمًا بالغيب لقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

٣- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء لم يحاولوا القرب والنظر فيما جاء به الرسول ﷺ بل كانوا كالذي يرمي بالحجارة من بعد ولا يريد أن يقترب ليتبين الأمر وهذا سوء أدب منهم؛ لأن العقل يقتضي أن يدنوا من الشيء ليتعرفوا إليه حتى لا يقذفوه من بعيد، لكن هم كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد وهذا يبعد أن يكون الإيمان مقبولًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة**: في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أن الكفار إذا عاينوا العذاب يشتهون بل يتمنون أن يردوا إلى الدنيا يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولكن هذا الذي يشتهونه ويتمنونه لا ينفعهم قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وأن يقال في عدم بيان الفاعل ما قال (وحال الله بينهم)، ولم يقل: (وحال الكفر) في هذا، لأجل أن يكون الحائل صالحًا؛ لئن تقدره بكل ما يناسب الحال إن شئت فقل: حال بينهم وبين ما يشتهون كفرهم في الدنيا، وإن شئت فقل حال بينهم وبين ما يشتهون تقديم شهواتهم في الدنيا منعهم شهواتهم في الآخرة وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ بدل عما أذهبتموه من الطيبات في الدنيا.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: استعمال القياس؛ يؤخذ من قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٣- **ومن فوائدها أيضًا**: الإشارة إلى الاعتبار بمن مضى وسبق، سواء كان من أهل الخير أم من أهل الشر لقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى يقرن أحيانًا الحكم بعلته لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ وقرن الحكم بالعلة له فوائد سبق لنا عدة مرات ذكرها وهي:

أولًا: بيان الحكمة وأن الله - عز وجل - لا يحكم بشيء سواء كان كونيًا أو قدريًا إلا بحكمة.

ثانيًا: إذا ذكرت العلة ألحق بهذا الشيء ما يجتمع معه في العلة.

ثالثًا: اطمئنان النفس إلى الحكم والرضا به وإن كان الواجب على المسلم أن يرضى بحكم الله مطلقًا، لكن لا شك أن مشاهدة الإنسان لحكمة، الحكم أبلغ في الطمأنينة من عدم ذلك؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا الشك الحاصل لهؤلاء أوقعهم في ريبة، والريبة ليست مجرد شك، بل قال شيخ الإسلام: إن الريب شك مع قلق واضطراب، يعني: أن الشاك عنده تردد في الأمور لكن ما عنده تشوش فكر، لكن المرتاب يكون عنده شيء من التشويش الفكري والقلق النفسي وعدم الاتجاه السليم ولهذا قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشك منافٍ للإيمان فيما يجب الإيمان به، فلو أن أحدًا شك في يوم القيامة أو في البعث ما نفى وجذم بالنفي ولا أقر وجذم بالإقرار نقول: إن هذا في حكم المنكر تمامًا فهو كافر.

إنهم سيشتهون الجنة والنجاة من العذاب، وإذا نجوا من العذاب، ما في إلا الفوز بالجنة، إنما يشتهون من النجاة من العذاب، والنجاة من العذاب ما تكون إلا بعد قبول الإيمان وقبول الإيمان غير ممكن هكذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: [من الإيمان] أي: قبوله لكننا قلنا: لأنهم يشتهون في هذا الحال هو النجاة من العذاب الذي وقعوا فيه.

التناوش ممن؟ تناوش شيء من بُعد، عندنا باللغة العامية يقول تناوشت الشيء يعني تناولته من بعد وأيضًا ما تمكن فيها التمكن التام مثلما نقول مثلًا من بعيد من دون تمكن.

تم الانتهاء من سورة سبأ

الفهرس

تفسير سورة سبأ

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة فاطر
تفسير سورة يس
تفسير سورة الصافات

اعتنى به
أشرف بن كمال

الجزء الحادي عشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنةُ الطَبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقمُ الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقمُ الطَبعة : الأولى

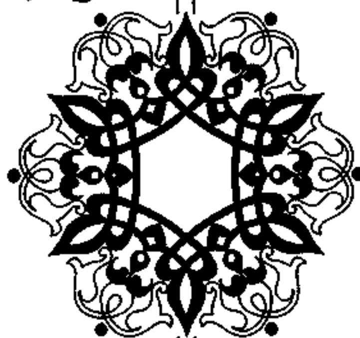

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر: ١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ جمع رسول، يقول المؤلف: [إلى الأنبياء]، والأصح إلى الأنبياء وغيرهم. يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] رسل الله - عز وجل - إلى هذا المحتضر؛ ليقبضوا روحه، فهم رسل إلى الأنبياء وإلى غيرهم، فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصورًا في التفسير.

قوله: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾، ﴿أُو۟لِىٓ﴾ بمعنى: أصحاب يعني: الملائكة لهم أجنحة، وهو جمع جناح، هذه الأجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة، أسرع من الجن، بدليل أن العفريت من الجن قال لسليمان لما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[النمل: ٣٨]، وكأن له عادة يقوم في وقت معين، فقال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. يعني: في الوقت المعين، وإلا لكان الأمر مبهمًا، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ يعني مثلًا: إن نظر إلى أبعد شيء ينظر هكذا قبل أن يرتد إليه طرفه فإنه يأتيه به، وفعلًا أتاه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾.

قال العلماء: إن الذي عنده علم من الكتاب كان يعرف اسم الله الأعظم، وأنه دعا باسم الله الأعظم فحملته الملائكة وألقته بين يدي سليمان.

وهذا يدل على أن الملائكة أسرع من الجن، ولا شك في هذا، أنهم أسرع وأقوى، فهم لهم أجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة عظيمة، جبريل عليه الصلاة والسلام كان له ستمائة جناح، ستمائة جناح[1]! كل جناح له قوة عظيمة في الحمل والطيران، فكيف تكون سرعته؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

لا شك أنها سرعة فائقة جدًّا؛ لأننا إذا رأينا الآن الطائرات النفاثة، وأجنحتها التي تحملها، وهي المراوح التي تُدخِل الهواء ليحمل الطائرة ما تبلغ هذا المبلغ ولا عُشْرَهُ، ومع ذلك تطير بهذه السرعة العظيمة وهذا الارتفاع العظيم.

فجبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح قد سد الأفق، وهذا يدلك على أنهم لهم سرعة فائقة عظيمة، هذه الأجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وأكثر.

قوله: ﴿مَّثْنَىٰ﴾، ظاهرها أن ذلك في العدد لا في الصنف؛ لأن هذا هو الأصل، ويحتمل أن يكون في الصنف؛ لأننا - مثلًا - نرى الطائر مثلًا له أجنحة؛ له جناحان، لكن كل ريشة من هذه الأجنحة لها عمل خاص في تكييف الطيران، منها مثلًا ما ينصبه حتى يرتفع، ويخفضه حتى ينزل، ويفرشه حتى يستقر، هذا شيء مشاهد؛ ولهذا بعض الأحيان تنتف أشياء معينة من الجناح ثم لا يطير، مع أن الباقي في جناحها أكثر مما نتفتَ بكثير.

فيحتمل أن قوله: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ باعتبار الصنف، ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، ويحتمل أنه باعتبار العدد، وأن الملائكة بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ولا ينافي ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح؛ لأن الله يقول: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾، ويكون مما زاده أن جعل لجبريل ستمائة جناح.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ فإذا قلت: هل نعرف كيفية هذه الأجنحة؟

فالجواب: لا نعرف كيفية هذه الأجنحة لا نعلمها، وهذا نظيره تمامًا ما جاء في صفات الله - عز وجل -، فإننا نعلم معنى الصفة ولكننا نجهل كيفية الصفة لله - عز وجل - وجه، نعلم ما معنى الوجه، لكن هل نعلم كيفيته؟ لا؛ لأن ما غاب عنك لا يخاطبك الله به إلا ببيان معناه فقط، وأما كيفيته فلا يمكنك إدراكها؛ لأنه غائب، ولا نظير له، والشيء لا يعرف إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه.

يقول: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾. ما إعراب مثنى؟

هي بدل أو صفة لأجنحة، يصلح أن تكون صفة وبدل المجرور مجرور وعلامة جره فتحة مقدرة على الألف نيابة عن الكسرة؛ لأن الاسم ممنوع من الصرف، والمانع من الصرف هو: الوصف والعدد، وكذلك نقول في ثلاث ورباع؛ ولهذا قال: ﴿وَثُلَٰثَ﴾ ولم يقل: ثلاثًا، ﴿وَرُبَٰعَ﴾ ولم يقل: رباعًا أو رباعٍ.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ [في الملائكة وغيرها]، نعم يزيد في الخلق سواء كان في الملائكة أو غيرهم، يزيد ما يشاء مما تقتضيه حكمته - سبحانه وتعالى -؛ ولذلك تجد المخلوقات لها أيد وأرجل بحسب حاجتها إلى هذه الأيدي والأرجل، فبنوا آدم لهم أرجل يمشون بها ولهم أيد يبطشون بها ولا يمشون بها؛ لأن هذه الأيدي محل الأخذ والعطاء، فأكرم الإنسان بأن تكون يداه غير

مستعملة في المشي بخلاف الحيوان، الحيوان يداه مستعملة في المشي؛ لأنه يأخذ بفمه، ويعطي بفمه،وينقل بفمه حتى الهرة إذا أرادت أن تنقل أولادها تنقلهم بفمها، لكن الآدمي مكرم، فجعل الله تعالى يديه غير مستعملتين في المشي، فهو ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

على حسب ما تقتضيه الحكمة وحاجة ذلك المخلوق، وكل ما ذكره الله ـ عز وجل ـ مما هو معلق بمشيئته، فقد سبق لنا أنه مقرون بالحكمة،

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تعليل لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: كأن سائلًا يسأل وهل ذلك صعب عليه؟ فكان الجواب: من هذه الجملة – أنه سهل؛ لأن الله كل شيء قدير إذ كل شيء موجود قادر على إعدامه، وكل معدوم قادر على إيجاده.

لكن لو قال لك قائل: هل يقدر على أن يجعل المتحرك ساكنًا في آن واحد؟ يجعل المتحرك ساكنًا ويحرك الساكن، هذا واضح، لكن في آن واحد!هل يقدر؟ نحن نقول: يقدر أن يجعل المتحرك ساكنًا لكنه لا ساكن في حال تحركه؛ لأن المتحرك ساكن ممتنع.

يقدر – عز وجل – أنَّه يطلع الشمس الساعة اثنا عشر من الليل، لكن ما جرت به العادة، لكن كلمة متحرك ضد أو نقيض ساكن، أنت لو وصفته بالمتحرك يقينًا ليس بساكن، وصفته بأنه ساكن يقينًا ليس بمتحرك، فلذلك قال العلماء: إن المستحيل غير وارد؛ لأن المستحيل يعني: ما يمكن وجوده، نعم ما يمكن باعتبار قدرة الله، لكن الله ـ عز وجل ـ إذا أراد أن يجعل هذا المتحرك متحركًا صار متحركًا لا ساكنًا، أما أن يكون متحركًا ساكنًا؛ كيف يكون متحركًا ساكنًا؟ المتحرك غير ساكن.

يُقال: إن الشيطان كان يفرح بموت العالم، إذا قيل: مات فلان العالم فرح واستأنس، لكن إذا قيل: مات عابد. يقول: هين ما يهم يموت أو لا يموت. فقال له جنوده: يا سيدنا لماذا تفرح بموت العالم هذا الفرح العظيم؛ وموت العابد ما يهمك؟ مع أن العابد منقطع عن الدنيا وزاهد في الدنيا، ويكثر الذكر والصلاة وغيرها، قال: لأن العالم أشد عليَّ من العابد. قالوا: كيف؟ قال: أنا أعرفكم الآن، اذهبوا للعابد، وقولوا له: هل يقدر الله ـ عز وجل ـ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟

فذهبوا للعابد، قالوا له: هل الله يقدر على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: لا هذا مستحيل هذه السموات والأرض على كبرهما ما يصيرا في بيضة، رأسي لو يصير في بيضة فقسها، ورأسي هو شيء بالنسبة للسماوات والأرض ما يصلح هذا ما يمكن هذا، ولا يقدر الله على هذا.

قال: قولوا له: هل يقدر الله أن يخلق مثله. أن يخلق مثل الله، فذهبوا له، قالوا: ما تقول؟ هل يقدر الله أن يخلق مثل الله؟ قال لهم: نعم بسيط هذا، إن الله على كل شيء قدير، يقدر الله أن يخلق ربًّا مثله.

إذن كفر هذا العابد سلبًا وإيجابًا، نفيه القدرة في الأول كُفر، وإثباته القدرة في الثاني كُفر:

اذهبوا للعالم اسألوه عن السؤالين فذهبوا للعالم فسألوه: هل يقدر الله ـ عز وجل ـ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: نعم، يقول: كن فيكون، إما أن تصغر السموات والأرض ولا تكبر البيضة، المهم إذا أراد قال فكان. قال: هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قال: هذا مستحيل، هذا أمر مستحيل، والمثلية لا يمكن أن تتطابق أبدًا، لو لم يكن من الفارق العظيم إلا أن هذا حادث، وذاك واجب الوجود، هذا مستحيل.

فالمهم أن الله ـ عز وجل ـ على كل شيء قدير، لكن الشيء المستحيل الذي لا يتصور. وليس المراد هنا المستحيل عادة، المستحيل عادة يخلقه الله ـ عز وجل ـ لأنه خالق العادة وقادر على تغييرها، وهذه النار التي تحرق كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، وهذا الماء السيال صار جامدًا كالطود العظيم، والعادة ممكن أن الله يغيرها ـ عز وجل ـ، وبكل سهولة، لكن الكلام على الأمر الممتنع المستحيل، يقول العلماء: إنه لا تتعلق به القدرة؛ لأنه مستحيل؛ ولهذا قال السفاريني في العقيدة السفارينية: بقدرة تعلَّقت بمُمكن وهذا أمر متفق عليه عند العقلاء.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ ما فيه استثناء، كتب الجلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو السيوطي، على هذه الآية في سورة المائدة، قال: [وخص العقل ذاتَه فليس عليها بقادر]، يعني: على كل شيء قدير إلا على ذاته فليس عليها بقادر .

و هذا كذب لا شك أنه باطل؛ لأن الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ ﴿كُلِّ شَيْءٖ﴾ وقولك: إن العقل خص ذاته فليس عليها بقادر.

نقول: إن العقل لا يمكنه أن يخصص هذا الخبر بدون دليل، ولو ذهبنا نخصص مثل هذه العمومات بالعقول لأبطلنا كثيرًا من دلالات الكتاب والسنة، وماذا تريد بقولك: خص العقل ذاته فليس عليها بقادر؟ إن أردت أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن قادرًا على ذاته بمعنى أنه لا يقدر مثلًا أن يمرض نفسه، أو أن يعدم نفسه، ـ سبحانه وتعالى ـ، فهذا أصلًا لم تتعلق به القدرة؛ لأن هذا من الأمور المستحيلة، وإن أردت أنه لا يقدر على أن يفعل، ولعل هذا مراده، إن أردت أنه ليس قادرًا على أن يفعل؟ لأن الأشاعرة ومن شابههم ينكرون الأفعال الاختيارية، فهذا كذب، بل العقل يدل على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد.

هناك عبارة تقع كثيرًا بين الناس، يقولون: إن الله على ما يشاء قدير. فكأنه على غير ما يشاء غير قدير.

أولًا: نفي القدرة على غير مشيئة الله سبحانه هذا يوهم أن ما لا يشاؤه فليس قادرًا عليه .وأما قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾، هنا المشيئة عائدة على الجمع لا القدرة، إذا شاء جمعهم

فهو على ذلك قدير ردًا على من أنكروا البعث.

ثانيًا: أنك إذا قلت: إنه على ما يشاء قدير. فقد خالفت التعبير القرآني الذي أطلق الله به وعمم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثالثًا: أن هذا مأخوذ من مذهب القدرية؛ لأن القدرية يقولون: إن الله لا يقدر على عمل العبد فهو غير داخل في قدرة الله، وإذا لم يقدر عليه فإنه لا يشاؤه، وكذلك يقولون: إنه ـ سبحانه وتعالى ـ إذا كان فعل العبد في غير مشيئته فإنه غير قادر عليه؛ لأن الله قادر على ما يشاء فقط.

فلأجل هذا نقول: إن هذه العبارة لا تنبغي، وإن كان صاحبها يريد بها معنى صحيحًا، قد يريد بها معنى صحيحًا كما هو الظاهر في عبارة كثير من المسلمين اليوم تكون بهذا الشيء ونقول: إن الأكمل أن تقول: إن الله على كل شيء قدير.

فإن قلت: إنه ورد في قصة الرجل الذي يدخله الله الجنة، آخِر مَنْ يَدْخُل الجنة، فيقول الله له لما قال: «هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ». قال الله له: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] هذا الحديث قدسي، فالجواب: أن هذا في قضية معينة، يعني: لو وقع شيء يستغرب الإنسان وقوعه ويستبعده، هل لنا أن نقول: إن الله تعالى إذا شاء شيئًا فهو قادر عليه، بمعنى أنه فاعله، كقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم: ٢٧]، بخلاف القدرة المجردة عن الفعل فإن هذه لا تقيد بالمشيئة.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من الآية الكريمة:** أن جميع الملائكة رسل، فهل هذا الظاهر المراد؟ تقول: غير مراد بدليل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

٢ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** بيان كمال الله ـ عز وجل ـ؛ حيث أثنى على نفسه بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٣ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ رحيم بعباده يعلمهم كيف يحمدونه؛ لأن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبر لكن معناه: الإرشاد والتوجيه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]؛ ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنه كل ما جاءت الحمد لله فهي على تقدير: قل، حتى قالوا في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٢]، المعنى: قل الحمد لله، ولكن الصواب خلاف ذلك، وأن هذا خبر من الله، ونحن نتلوه نثني به على الله، ولا حاجة إلى أن يأمرنا بذلك.

٤ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** إثبات اسم الله للرب ـ عز وجل ـ، وهو الاسم الخاص به لا يقال لغيره وهو أصل الأسماء؛ ولذلك تأتي الأسماء بعده في الغالب صفة له، ولا تأتي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧).

سابقة عليه إلا نادرًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] وإلا فإن الغالب أن الأسماء تأتي تابعة له فهو أصل الأسماء؛ ولهذا لا يسمى به غيره أبدًا لا علمًا ولا صفة، بأي حال من الأحوال.

وهل هو مشتق أو اسم جامد؟ الصحيح - بلا شك - أنه: مشتق؛ لأن جميع أسماء الله تعالى مشتقة، بمعنى: أنها دالة على المعاني التي أخذت منها، فما مشتق (الله)؟ من الألوهية، الاشتقاقات تكون بمصدر، ما هو أصله؟ الإله، لكن الإله ليست مشتقة من الألوهية.

٥ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن الله ـ عز وجل ـ هو فاطر السماوات والأرض، لم يشاركه أحد في ذلك؛ لقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٦ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: كمال قدرته وحكمته، حيث ابتدع خلق هذه السموات العظيمة والأرض على هذا النظام البديع من غير أن يسبق مثال يحتذيه ويقتدي به، ومعلوم أن مبدع الصنعة يُشهد له بالخبرة والقدرة، يعني: من أنشأ شيئًا جديدًا وصار هذا الشيء الجديد منتظمًا على تمام الانتظام وغاية الإحكام فإنه يشهد له بالكمال وبالخبرة، ففي كونه ابتدع السماوات والأرض دليل على القدرة وعلى الحكمة؛ لأنه خلقهما على غير مثال سبق.

٧ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن السماوات متعددة، وقد بين الله تعالى في آية أخرى أنها سبع، فقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: ٨٦]. وأما الأرض فذكرت مفردة باعتبار الجنس، وهي سبع أراضين.، والدليل من القرآن والسنة:

من القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن السنة: «**مِنَ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ**».

٨ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ .

٩ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن مِن الملائكة مَن اصطفاهم الله تعالى رسلًا إلى الخلق بالوحي، وغير الوحي؛ لقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

١٠ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن هؤلاء الرسل لهم أجنحة، أجنحة متعددة الأصناف، ومتعددة الأعداد، يعني: أنها متعددة كمية، وفي الكيفية لقوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ .

١١ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن فيها إشارة إلى سرعة تنقل الملائكة؛ لقوة أجنحتهم؛ لقوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾. وإنما قلت: بقوة أجنحتهم؛ لأنه لولا أن لهذه الأجنحة مزية عظيمة استحقت أن ينص عليها لَذَكَرَ غير الأجنحة كالرءوس مثلًا، ولكن ذكَرَ الأجنحة بما فيها من القوة لحملها هؤلاء الملائكة؛ ولأنها تكون أسرع، وقد ضربنا مثالًا لذلك يدل على أن الملائكة أسرع من غيرها في الطيران في قصة عرش بلقيس.

١٢ - **ويُستفاد من الآية الكريمة**: أن الله ـ عز وجل ـ يزيد على الاثنين والثلاثة والأربعة

ما شاء؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ .

١٣- ويُستفاد من الآية الكريمة: أن الله تعالى فضل المخلوقات بعضها على بعض؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ والزيادة مقابلها النقص، إذن فهناك مفاضلة بين المخلوقات بعضها مع بعض، ولكن هل المراد القوة أو كبر الجسم، أو العقل، أو العلم أو بعضهم؟ الجواب: العموم؛ لأنه قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. فهذا يزيده قوة في الجسم، وهذا يزيده قوة في العقل، وهذا يزيده قوة في السمع، وهذا يزيده قوة في العلم إلى آخره.

١٤- ويُستفاد من الآية الكريمة: أنك إذا وجدت من نفسك نقصًا في خلقك فاطلبه ممن؟ اطلب كماله من الله، لأن قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. معناه: لا تسأل الزيادة في خَلق ولا خُلق إلا من الله ـ عز وجل ـ، لأنه هو المانُّ بما يزيد به ـ سبحانه وتعالى ـ .

١٥- ويُستفاد من الآية الكريمة: إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ وقد مر علينا أن المشيئة في كل ما وردت معلقة بالحكمة واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان: ٣٠] .

١٦- ويُستفاد من الآية الكريمة: إثبات القدرة العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على أن يزيد في الخلق ما يشاء، وقادر على الإيجاد والإعدام.

١٧ - ويُستفاد من الآية الكريمة: الرد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العبد غير مخلوقة ولا مقدورة لله، من أين يؤخذ؟ ﴿مَا يَشَاءُ﴾؛ لأن كل (ما) عموم سواء نكرة أو معرفة؛ لعموم قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأفعال العبد من الأشياء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]

❁ التفسير ❁

يقول: ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾ ما شرطية تجزم بدليل الفعل بعدها يفتح، ولكن الفعل بعدها مكسور ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾، فنقول: إن هذه الكسرة عارضة من أجل توقي التقاء الساكنين، وإلا فإنه مجزوم، فأصله ما يفتح، حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ﴾ [البيِّنة: ١]،(لم يكنِ الذين)، وأصلها لم يكنْ.

وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ يفتح من رحمة، فتح الشيء: إزالة الحواجز دونه، يعني:

متى فتحت البيت يعني: أزلت الحاجز المانع من دخوله وهو الباب، والرحمة إذا فتحت فإن الإنسان يدخل إليها ويلج فيها.

وقوله ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ من بيان لـ (ما)، وما شرطية مفيدة للعموم، وعلى هذا فيكون في الآية عموم، أيْ: أيُّ رحمة يفتحها الله ـ عز وجل ـ للناس فلا أحد يستطيع إمساكها.

وقوله: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كالرزق، كرزق ومطر، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر؛ لأن رحمة الله أكثر من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨]، فنعم الله ـ عز وجل ـ لا تُحصى، ورحمة الله ـ عز وجل ـ لا تحصى في أنواعها فضلًا عن أفرادها.

وقوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يمسكها، ولا يردها أحد، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد الرفع من الركوع: «اللهمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيتَ وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ»[2]. فلا أحد يستطيع أن يمسك رحمة الله مهما عمل، حتى لو حاول الحسد والتشويه ومنع الرزق ما يستطيع، إذا فتح الله الرحمة للعبد لا أحد يستطيع أن يحول بينه وبينها؛ ولهذا جاءت ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ولا نافية للجنس، وهي أنص شيء على العموم ولهذا عموم لا النافية للجنس لا تخصيص فيه أبدًا، قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وهنا قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، والضمير في ﴿لَهَا﴾ يعود على الرحمة.

قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾. لأنك تتوقع أن يكون لفظ الآية الكريمة، وما يمسك فلا مرسل لها؛ لأن الكلام آتٍ في الرحمة، وفي الجملة الأولى بعد ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا يقتضي أن تكون الجملة الثانية كالأولى؛ أي: وما يمسك فلا مرسل لها، هكذا تتوقع، ولكن ليس الأمر كذلك؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لم يخصص بالرحمة، حتى نقول: إن المتوقع أن يقول: فلا مرسل لها.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ وحَذَفَ المتعلق؛ ليفيد العموم، أي: ما يمسك من رحمة وما يمسك من شر، فلا مرسل له، حتى الضرر الذي يمسكه الله ـ عز وجل ـ لا أحد يوْصله إليه أو يوصله إليه حتى الرحمة التي يمسكها الله عنك لا يمكن أن يوصلها أحد إليك؛ ولهذا أحيانًا يسعى الإنسان إلى ما يراه من رحمة الله من رزق أو غيره، ثم يحول القدر بينه وبينه، أحيانًا يتعرض الإنسان لأخطار ولكن يسلم منها، قد تحصل بالسيارة صدمة فيموت أناس أطول منك أجسامًا وأقوى منك منعة،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤).

وتبقى أنت، إذن الله أمسك عنك الضرر، ولولا هذا الإمساك لهلكت فيمن هلك.

إذن نقول: ما يمسك فلا مرسل له أي: لما أمسكه، فعاد الضمير في (لا مرسل له) على لفظ (ما)، ولكن لفظ (ما)مذكر، بخلافه في الأول فعاد على رحمة؛ لأنها مؤنثة.

الآن تبين لنا أن السياق على أتم ما يكون من البلاغة، وأن ما كنا نتوقعه من أن يقال: فلا مرسل لها ليس على ما نتوقع؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لا يعني الرحمة ولهذا نقول: إن قول المؤلف: [وما يمسك من ذلك] فيه قصور؛ لأن قوله: من ذلك يعود إلى الرحمة، ولكن نقول: وما يمسك من ذلك وغيره ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال المؤلف: [أي بعد إمساكه]. وهذا لا شك أنه احتمال، وأنه يحتمل أن يكون الضمير راجعًا إلى إمساك المستفاد من قوله: ﴿يُمْسِكْ﴾ .

إذا قيل: هل لهذا نظير أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل قبله؛ لأنه من المعلوم أن مرجع الضمير لابد أن يكون اسمًا مذكورًا قبل أو بعد أو مقدر؟ المهم أن مرجع الضمير اسم، الاسم لا بد أن يذكر بلفظه الصريح مقدمًا أو مؤخرًا أو مقدرًا، وإما أن يؤخذ من مصدر فعل سابق، هنا أرى أن كلام المؤلف من بعده يقول: [أي: بعد إمساكه]، فنقول: أين كلمة إمساك؟ هل سبقت؟ نعم سبقت؛ لأن ممسك فعل مأخوذ من أين؟ من إمساك، إذن فقد تَضَمَّن الفعل ذلك المرجع، وهو إمساك، ونظيره: قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. هو أي: العدل المفهوم من قوله: ﴿اعْدِلُوا﴾ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

إذنْ نقول: الأصل في مرجع الضمير أن يكون اسمًا مذكورًا متقدمًا، مطابقًا أيضًا، وقد يتأخر، وقد يقدر، وقد يكون مفهومًا من مصدر فعل سابق، كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. وكما في هذه الآية على تقدير المؤلف، هل يمكن أن يحتمل عود الضمير على غير الإمساك؟ على الله - عز وجل - لأنه قال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾. أي: من بعد الله، وتكون كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]. ويكون الضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، عائدًا إلى الله - عز وجل -، وهذا أقرب؛ لأنه أدل على كمال التصرف في حق الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال المؤلف: ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الغالب على أمره]، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [في فعله]، أظن أن كل واحد منكم بإمكانه أن يقول: إن هذا التفسير قاصر، تفسير المؤلف الآن قاصر؛ لأن قولنا: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره هذا أحد معاني العزيز، فإن العزيز له ثلاث معانٍ:

عزة القَدْرِ والقَهْرِ والامتناع، القهر ما معنى قوله: الغالب على أمره؟ نقول: إنه يشمل الغالب على أمره الذي لا يغلب، وهذا هو القهر، ذو القدر الرفيع العالي، وهذا هو معنى قولنا: عزة

القَدْرِ، وعزة الامتناع يعني: أنه يمتنع أن يناله سوء أو نقص أو عيب، فللعِزَّة إذن ثلاثة معان وليس معنى واحدًا، أما الحكيم، فقال المؤلف: [في فعله]، وهذا أيضًا قصور، فإن الله تعالى حكيم في فعله وقوله وفي قدره وشرعه، في الكل، بل إن الحكيم لها معنى آخر؛ لأنها مأخوذة من الحكم والإحكام، فهو ذو حكم وذو إحكام، والحكم كوني وشرعي، والإحكام في الغاية أو في الصورة التي عليها الشيء، فالجميع أربعة أنواع، ولكن يقرن الله تعالى دائمًا بين العزة والحكمة، لما في ذلك من كمال عزته.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [فاطر: ٣، ٤]

❁ التَفسِيرُ ❁

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [فاطر: ٣] تصدير الخطاب، بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به؛ لأن النداء يتضمن التنبيه، ولهذا إذا قلت للطالب: يا ولد. فإنه ينتبه، فتصدير الحكم بالنداء يدل على العناية به؛ لأن النداء يفيد التنبيه.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال المؤلف: [أهل مكة]، وهذا بلا شك قصور؛ لأن ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عام، والواجب علينا في القرآن والسنة أن نبقي العام على عمومه، حتى يقوم دليل على إرادة الخصوص، وإلا فإن الواجب إبقاؤه على عمومه؛ لأنه ليس لنا حق في أن نتصرف بمدلولات الألفاظ المخالفة لظاهرها إلا بدليل من المتكلم، أو من يتكلم مبينًا كلامه كالرسول عليه الصلاة والسلام، فالنداء إذن عام لجميع الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ المراد بالذكر: هنا ذكر النعمة بالقلب، وذكرها باللسان، وذكرها بالفعل بالجوارح، ذكرها بالقلب: بأن يتأمل الإنسان من أين هذه النعمة أتت؟ من الذي خلقه؟ من الذي أمده بالرزق وهو في بطن أمه لم يخرج بعد؟ من الذي أعده لقبول ما يمر به وتصوره وتعقله وتمثيله؟

فالجواب: الله. فأنت إذن تذكرت في قلبك - ونسأل الله - أن يعافينا وإياكم من الغفلة - إذا تذكرت في قلبك هذه الأمور عرفت أن ما بك من نعمة فهو من الله - عز وجل - فذكرالنعمة بالقلب أن الإنسان يتأمل، ويقول: من الذي أوجدني؟ الله، من الذي أمدني بالنعم، وأنا في بطن أمي لا يستطيع أحد أن يوصل إليَّ لقمة العيش أو جرعة الماء؟ هو الله عز وجل. ثم من الذي

أعدني وهيأني لأن أكون قابلًا لما فيه منفعتي في الدنيا والآخرة؟ الله - عز وجل -. فالنعم إيجاد وإمداد، والشيء الثالث إعداد، إيجاد وإمداد وإعداد، كل ذلك من الله - سبحانه وتعالى -، هذا ذكرها بالقلب.

ذكرها باللسان: أن نثني على الله بها، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى: ١١]. فيتحدث بالنعم، لا على سبيل الافتخار، ولكن على سبيل الثناء.

ذكرها بالجوارح: أن يرى أثر هذه النعمة عليه، فإن كانت هذه النعمة علمًا رؤي أثر هذا العلم عليه بحسن التصرف والوقار والسكينة والأدب ونشر العلم والدعوة إلى الله - عز وجل -، وإذا كان بمال يرى أثر النعمة عليه، بالإنفاق فيما يحبه الله - عز وجل -، من الزكاة والنفقات الواجبة والصدقات المستحبة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه، هذا ذكر بالجوارح، فصار الذكر يشمل ثلاثة أمور: الذكر بالقلب، واللسان والجوارح، ومن ذكر النعمة بالجوارح أيضًا: أن يقوم بشكرها، والله - عز وجل - أمرنا بذكر نعمته للغاية وهي قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة: ١٥٢]. ولابد من قرن هذا الذكر بالشكر، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نعمة هنا، مصدر مضاف، فيشمل جميع النعم، وهي واحدة أو أكثر، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، قال المؤلف: [بإسكانكم الحرم، ومنع الغارات عنه]، هذا التفسير بناء على أن المخاطب أهلُ مكة، ولكن نقول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالنعم التي لا تحصى، وهي كثيرة جدًّا، كما أسلفنا الأمثلة عليها، تكون نعمة بالإيجاد، والإمداد والإعداد، كل هذه من الله - عز وجل -، قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعني: إذا تقرر أن ذكرتم نعمة الله عليكم، فإننا نوجه إليكم هذا السؤال المتضمن للنفي: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؟ ﴿مِنْ﴾ زائدة، و﴿خَالِقٍ﴾ مبتدأ، ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ بالرفع والجر، نعت لخالق لفظًا ومحلًا، وخبر المبتدأ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾، ﴿هَلْ﴾ أداة استفهام، و﴿مِنْ﴾ زائدة لفظًا، وزائدة للمعنى؛ لأنها تفيد توكيد النفي والتنصيص على العموم، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾، فخالق إذن مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره لاشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيه قراءتان؛ ﴿غَيْرُ﴾ و(غيرِ)، وكلاهما صحيح، أما على قراءة الجر (غيرِ الله) فهي صفة تابعة للفظ، لفظ خالق؛ لأن خالق مجرور، وأما على قراءة الرفع فهي صفة تابعة لمحل خالق؛ لأن محله الرفع على الابتداء، ولهذا قال المؤلف: [بالرفع والجر نعت لخالق، لفظًا ومحلًا]، في كلام المؤلف لف ونشر مشوش.

نقول: غير مرتب إذا صار في القرآن أو في الحديث، أما في كلام الناس، بالرفع والجر نعت

لخالق، لو كان مرتبًا، لقال: نعت لخالق محلًا ولفظًا؛ لأنه بالرفع يكون في المحل، بالجر يكون نعتًا للفظ.

إذنْ ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيها قراءتان ولكل منهما وجه في اللغة العربية.

وقوله: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يقول المؤلف: [خبر المبتدأ] هل الفعل نفسه خبر المبتدأ أو الجملة؟ الجملة، لكنهم عند الإعراب يتساهلون في تبيين هذا، فمثلًا يقول: فلان في المسجد، يقول في المسجد جار ومجرور خبر المبتدأ ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ يقول: [يرزقكم خبر المبتدأ] وإن كانت الجملة قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ هو استفهام بمعنى النفي، وقد ذكرنا سابقًا أن الاستفهام إذا كان بمعنى النفي فإنه مشرب معنى التحدي، يعني لو قال: لا خالق غير الله يرزقكم لاستقام الكلام، لكن قال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ صار أبلغ؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأنه يقول: أروني خالقًا غير الله يرزقكم من السماء والأرض، ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] يقول: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿خَٰلِقٍ﴾ الخلق في اللغة: التقدير، ومنه قول الشاعر:

وَ لَأَنْـتَ تَفْـرِي مَـا خَلَقْـتَ وَبَعْـــ ـــضُ النَّـاسِ يَخلُـقُ ثُـمَّ لَا يَفْـرِي

(تفري ما خلقت) يعني: ما قدَّرت، ولكنه يُطلق على الإيجاد المسبوق بتقدير، فهنا ﴿خَٰلِقٍ﴾ بمعنى: موجد إيجادًا مسبوقًا بتقدير ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ الجواب: لا خالق غير الله يرزقنا من السماء والأرض، وقد سبق لنا إيراد على نفي الخلق عما سوى الله، وقلنا: إنه قد جاءت نصوص تدل على أن غير الله يخلق، وأجبنا عن ذلك: بأن خلق غير الله، ليس إيجادًا، ولكنه تحويل من صورة إلى صورة، وأيضًا ليس عامًّا، وشيء ثالث: أن خلق غير الله هو من خلق الله في الواقع ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] خَلَقْتُ الشيءَ يعني أَوْجَدْتُه بمعنى: غيرته من حال إلى حال، فإن فعلي هذا مخلوق لله - عز وجل -، فعليه نقول: إن الخالق الحقيقي هو الله.

وقوله: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ بمعنى: يعطيكم؛ لأن الرزق بمعنى: العطاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فسر المؤلف الرزق من السماء بالمطر، وهذا لا شك أنه داخل فيه، فإن المطر من الرزق النازل من السماء، وهل هناك غيره رزق ينزل من السماء؟ نعم، الوحي، وهنا الرزق معنا، وهناك شيء آخر وهو المنُّ والسَّلْوَى، على بني إسرائيل، ولماذا لا نقول: الطيور مطلقة، مثلًا ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ [النحل: ٧٩] فهي تنزل من السماء، وهي رزق للعباد أيضًا، ومن الأرض، هي من الأرض ومن السماء، ممكن أن نقول: إن الطَّلَ من الرزق الذي دون المطر يعني: الرطوبة هي من السماء أيضًا، وهي رزق؛ لأنها تنفع الأشجار، وقوله: [﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المطر ومن ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات] قدر المؤلف [من] إشارة إلى أن

الأرض معطوفة على السماء لأن الرزق من الأرض أكثر من النبات، فهو يشمل النبات والمعادن والمياه وغير ذلك، كثير من الأرض، وقوله: [والاستفهام للتقرير أي: لا خالق رازق غيره]، قوله: للتقرير، ثم قال: [أي لا خالق]؛ هذا لأن قوله: (لا خالق) يقتضي أن يكون معناه: النفي، وهو كذلك، فهو للنفي المشرب التحدي، وأنه لا خالق إلا الله، إذا كان لا خالق إلا الله - سبحانه وتعالى - فمن الواجب أن نعبد الله وحده، قال الله عز وجل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، وكيف تعلمون أنه لا رازق يرزقنا من السماء والأرض إلا الله ثم تذهبون تعبدون غيره؟ هل هذا إلا نقص في التصور؟ ونقص في العقل أيضًا والتصرف، نقص في التصور والعقل والتصرف، أليس كذلك؟ إذا كان لا رازق إلا الله؛ كيف تعبد اللات والعزى ومناة وهُبَل والأشجار والأحجار والشمس والقمر والبقر أيضًا؟ يوجد ناس يعبدون البقر في الهند، وأنه إذا مرت البقرة على طريق القطار الحديد، فإنه يجب أن يقف ولو تكسر كل من فيه.

فالبقرة تأكل ما شاءت وتعمل ما شاءت، المهم هل هذه عقول؟!! في الجاهلية يصنعون إلهًا من التمر، فإذا جاعوا أكلوه، أكلوا الإله، فإذا كان الله - عز وجل - هو الرازق وحده بإقراركم واعترافكم، فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، إعراب هذه الجملة العظيمة التي بها يدخل الإنسان في الإسلام أو يخرج، يدخل إن أقر بها، ويخرج إن أنكرها، إعرابها فيه ستة أوجه للنحويين، وألف بعض العلماء رسالة في ذلك، ولكن أحسن ما يقال في إعرابها:

أن (لا) نافية للجنس، و(إله) اسمها، وخبرها محذوف، تقديره (حق)، لا إله حق، و(إلا)أداة استثناء، و(الله) بدل من الخبر المحذوف، وهل النفي هنا مسلط على الوجود، أو الوجود بحق؟ على الوجود بحق؛ لأن هناك آلهة دون الله تعبد، لكن ليست بحق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]. وقال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]. فالآلهة موجودة لكنها لا تستحق أن تكون آلهة؛ لأنها ليس لها ربوبية.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾، [من أين تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟] لو قال المؤلف: عن عبادته لكان أحسن؛ لأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه توحيد ألوهية، وكلمة توحيد تشمل: الربوبية أيضًا، ولو قال: فأنى تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم أنه الخالق وحده؛ لكان أحسن.

وقوله: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ قال: أي: تصرفون، فالأفك بمعنى: الصرف، ماضيه أفِك، ومضارعه يأفَك، أفكًا، ما هي إفكًا، أفكًا بالفتح أما الإفك بالكسر فهو: الكذب، والكذب في الواقع يتفق مع الأفك من حيث المعنى؛ لأن الكذب هو الإخطار بخلاف الواقع، فهو صرف للشيء عن حقيقته، قال الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٩] أي: يصرف عن مَنْ صرف، إذن

﴿تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم بأنه الخالق وحده، والاستفهام في قوله: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؟ الاستفهام للتوبيخ وللتقريع، يعني: كيف تقرون بأنه الخالق وحده ثم تعبدون معه غيره؟

ثم قال المؤلف: [وإن يكذبوك يا محمد في مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب؛ فقد كذبت رسل من قبلك].

قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ إن هنا شرطية، وفعل الشرط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ وجوابه﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، واقترن بالفاء لأنه مصدّر بقد، (إن يكذبوك) بأن ينسبوك إلى الكذب، فيقولون: إنك كاذب ولست رسولًا لله ـ عز وجل ـ، بل أنت ساحر ومجنون وكاهن وشاعر، وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب، إن كذبوك فهذا أمر ليس ببدع وليس ببدع من بني آدم، وليس غريبًا من صنيع بني آدم، ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، مَنْ كذبهم؟ كذبهم أقوامهم، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ والنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ والنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(١). ما معه أحد، حتى إن نوحًا عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ يدعوهم سرًّا وجهرًا، وبالتوبيخ وبالوعيد وبالوعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل.

وقوله: ﴿رُسُلٌ﴾ التنكير هنا للتكثير والتعظيم، يعني: رسل كثيرة، ورسل عظيمة أيضًا كُذِّبَتْ، وكُذِّبَ أيضًا نوح وكُذِّبَ إبراهيم وَكُذِّبَ موسى وكُذِّبَ هارون وكذب عيسى، وهؤلاء أولوا العزم من الرسل، وأفضل الرسل كُذِّبُوا.

فتكذيبك إذن ليس ببدع، ويراد بهذا أمران أحدهما: تسلية النبي ﷺ فإن الإنسان إذا علم أن غيره أصيب بمثل مصيبته تسلى بذلك، فلو أن أحدًا أصيب بحادث ثم رأينا الحوادث، واحد منكسر يده، وواحد منكسر إصبعه، وواحد منكسر فخذه، وواحد انكسر صلبه، فقام الذي انكسر أصبعه يصيح ويتوجع، قلنا له: فلان انكسر صلبه، يخف عليه الألم وينساه؛ لأن تسلي النفس بالغير له أثر عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)﴾ [الزُّخرُف: ٣٩]. اشتراككم في العذاب لن يخفف عنكم، كما هو الشأن في حال الناس في الدنيا، وقالت الخنساء تبكي أخاها صخرًا:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

تقول: أسلي النفس عنه بالتأسي. أقول: هذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، وهذه مات

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٠).

أخوها، فأنتِ وغيرك سواء.

قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ الجار والمجرور متعلق بترجع، وقدم لإفادة الحصر، يعني: إلى الله لا غيره ترجع الأمور، وقد رأيته قدم أيضًا لفائدة لفظية وهي: مراعاة الفواصل، قال المؤلف: [﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ في الآخرة فيجازي المكذبين وينصر المرسلين]، وهذا أيضًا من القصور؛ لأنه ترجع الأمور في الآخرة وفي الدنيا أيضًا، نعم فإن الله ينصر المرسلين في الدنيا، ويعاقب المكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، إذن (ترجع الأمور)، عام أمور الدنيا والآخرة، وأمور الشرع وأمور القدر، فكل الأمور ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ، هو الأول والآخر، منه المبتدأ وإليه المنتهى، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال ابن عمر رضي الله عنه: من كان له شيء فليأت به؛ لأن الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وماذا يبقى إذا كان الخلق وهو الإيجاد لله، والأمر في التصرف والتصرف لله؟ ما بقي شيء؛ ولهذا لم يبق شيء ما يمكنه الآخر لأحد أبدًا.

فالأمور كلها لله، والأمور هنا جمع أمر، وما معنى الأمر هنا؟ طلب الفعل على وجه الاستعلاء، الأمور بمعنى: الشئون؛ لأن الأمر الذي بمعنى طلب الفعل على وجه الاستعلاء جمعه أوامر، لا أمور، فالأمور هنا جمع أمر بمعنى: الشأن، أي: شئون الدنيا والآخرة، وشئون القدرية والشرعية كلها ترجع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا كانت ترجع إلى الله، وقد كذبت الرسل، فما مصير الرسل والمكذبين؟ مصير الرسل: النصر في الدنيا والآخرة، ومصير المكذبين الخذلان والخزي والعار في الدنيا وفي الآخرة والله أعلم.

الفوائد:

١ - وجوب ذكر نعمة الله ـ عز وجل ـ أشرنا إليها من قبل، بالقلب واللسان والجوارح.

٢ - ويستفاد منه أهمية ذكر النعمة؛ لأنها صُدِّرت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا يدل على الأهمية؛ لأن ما صدر بالنداء معناه: تنبيه المخاطب على الاستماع.

٣ - ويستفاد من هذه الآية: أن الكفار مخاطبون بالشرائع، من أين يؤخذ؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وكما يجب على المسلم أن يذكر نعمة الله، يجب على الكافر أيضًا أن يذكر نعمة الله، وبناءً عليه فإنه يعاقب على عدم ذكر النعمة في الآخرة، وقد يعاقب عليه أيضًا في الدنيا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده بالنعم، ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وليس نعمة فقط، ولكنها جنس فيشمل جميع ما أنعم الله علينا من نعم الدين والدنيا، سواء البدن أو العقل أو العرض أو المال. .

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لا خالق إلا الله، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وجه

ذلك، إنه لا خالق إلا الله.

والاستفهام بمعنى النفي، كأنه قال لا خالق إلا الله.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرزق يأتي الإنسان من فوق ومن تحت، من أين يؤخذ؟ يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان أن الله - عز وجل - له الإيجاد والإعداد والإمداد، من أين تؤخذ؟ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

نعم هذه فيها الإمدا د، لأن الرزق إمداد للإنسان.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ هذا إيجاد.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ كيف ذلك؟

يعني: كما أنه خالق وحده فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ ولهذا نقول: توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية والأسماء والصفات، يتضمنها؛ لأنه لا يُعبد إلا من علم بأنه الرب الخالق الكامل في صفاته، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

٩ - **من فوائد الآية الكريمة**: بطلان ألوهية ما سوى الله.

أقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كيف تجمع بين هذا النفي وبين إثبات الآلهة لغير الله في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾؟ [هود: ١٠١].

أن الألوهية الحق ليست إلا لله، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: سفاهة أولئك القوم الذين يعبدون مع الله غيره، مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لأن الاستفهام هنا بمعنى: الإنكار والتوبيخ.

ثم قال الله - عز وجل - : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن تكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس ببدع، فالرسل قد كذبت من قبل وهذا واضح.

٢ - **ومن فوائدها**: عناية الله - عز وجل - برسوله ﷺ من أين تؤخذ؟ تؤخذ من إن الله - سبحانه وتعالى - سلى رسوله بذكر من كذب من قبل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن سنن الله تعالى في خلقه واحدة، كيف هذا؟ أنهم كذبوا الرسل كما كُذب الرسول، هذه السنن؛ لأن التكذيب من فعل الغير ما هو من فعل الله قلنا: فيها تسلية للرسول وتهديد للكفار، ولا يمكن أن يثبت التهديد حتى نقول: إن سنن الله تعالى في الأمم

واحدة؛ لأنه لولا ذلك لقال الكفار: وإذا كذبت القوم وأهلكوا ما لنا ولهم، يعني: ما يمكن أن يصفه بأن في هذه الآية تهديدًا حتى نقول: إن سنن الله تعالى واحدة، فإذنْ نقول: يستفاد أن سنن الله تعالى في الناس واحدة؛ لأنه أهلك من كذبوا الرسل، وهدد من كذبوا محمدًا ﷺ وهل يستفاد من الآية أن محمدًا رسول الله؟

نعم من قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾. يعني: رسول وهم رسل. ولولا ذلك لم يكن لقوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فائدة.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن مرجع الأمور (الشئون) كلها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. وجه اختصاص هذا بالله؟ تقديم الجار والمجرور: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ وتقديم المعمول يفيد الحصر، إذن إلى الله لا إلى غيره ترجع الأمور.

٥ - **من فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي للإنسان إذا أصابته الضراء أن يلجأ إلى ربه وأن يتعلق به.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كيف ذلك؟ إذا كانت الأمور ترجع إلى الله؛ فليكن طلب إزالة الضرر من الله.

٦ - **وفيه أيضًا**: وجوب تحكيم الكتاب والسنة، وأنه لا يجوز العدول عما دل عليه الكتاب والسنة؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

كيف ذلك؟ إن الأمور والشئون جميعًا ترجع إلى الله.ومنها الحكم بين الناس، فيجب أن يكون مرجعه إلى الله.

٧ - **ومنها**: أن من حكم بغير الكتاب والسنة فقد اعتدى على حق الله.

٨ - **ومنها أيضًا**: أنه لا يجوز للإنسان أن يسند ما رزقه الله من رزق؛ علم أو مال أو جاه أو ولد أو زوجة إلى نفسه، فيقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. لأنه إذا أرجعها إلى نفسه أو إلى غيره ما أرجعها إلى الله.

٩ - **ومنها**: إثبات نعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد بإرسال الرسل، في قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾. والرسل إرسالهم من أكبر النعم؛ لأننا لا نستطيع أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الرسل، الإنسان يعرف بفطرته أن الله تعالى موجود، وأن له ربًّا خالقًا مدبرًا، لكن لا يعرف كيف يصل إلى هذا الرب إلا عن طريق الرسل.

١٠ - **ومن فوائد الآية أيضًا**: إثبات حكمة الله عز وجل؛ حيث جعل للرسل من يكذبهم؛ لأنه لولا تكذيب من كذب الرسل ما حصل الامتحان، فهذه من الحِكَم العظيمة أن يجعل الله للرسل من يكذبهم، لولا تكذيبهم لم يحصل الامتحان، إذ لو كان الناس كلهم على الطاعة ما تميز الخبيث من الطيب، ولا تميز المؤمن من الكافر، ولا قامت سوق الجهاد، ولا الأمر بالمعروف ولا

النهي عن المنكر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فهذه من الحكمة في وجود المكذبين للرسل.

فيه أيضًا: حكم كثيرة:

١١ - **منها أيضًا:** أنه لا يتبين الحق حتى يعرف الباطل، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الباطل الذي ينازع الحق ما عرفنا الحق، لكان كله سواء، ولا نعرف حقًا من باطل.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٥-٨]

التفسير

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. الخطاب هنا موجه، أو النداء موجه لعموم الناس، كل الناس، المؤمن والكافر، قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. قال المؤلف: [بالبعث وغيره]. وصدق فكل ما وعد الله به فإنه حق، سواء البعث أو العقاب أو الثواب أو النصر أو الخذلان أو غير ذلك مما وعد الله به فإنه حق، حق هنا بمعنى: صدق وثابت، فهو باعتبار الإخبار به صدق وأنه سيكون، وباعتبار وقوعه ثابت، وباعتبار وقوعه ثابت ولا بد، فالحق هنا بمعنى: الصادق من حيث الخبر به، الواقع من حيث ثبوته، وأنه أمر كائن لا محالة، ليس وعد الله - عز وجل - كوعد غيره.

والنهي هنا مؤكد بالنون ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾، ولولا تأكيده لقيل: فلا تغركم أي: تخدعكم، وهذا مفرع على ما قبله؛ لأن الإنسان الذي تخدعه الدنيا يكون إيمانه بوعد الله تعالى ضعيفًا إذن الدنيا تلهيه وتخدعه حتى ينجرف وراءها.

وقوله: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. لا شك أن ما نحن فيه الآن حياة، وضده الموت، وهي دنيا اسم تفضيل، مذكره: أدنى، مثل: عليا وأعلى، سميت الدنيا لوجهين؛ الأول: أنها متقدمة على الآخرة، فهي أدنى إلى الناس من الآخرة؛ ولهذا تسمى الحياة الأولى، وسميت دنيا أيضًا من دنو مرتبتها،

فهي دانية بمعنى: قريبة؛ لأنها الأولى، وهي دانية بمعنى: دنو المرتبة؛ لأن ما فيها من النعيم - إن قدر - فإنه ينغص، منغص تنغيصًا مستقبلًا، أو تنغيصًا حاضرًا؛ لأن نفس النعيم الذي تنعم به في الدنيا لا بد أن يشاب بكدر، كما قال الشاعر:

فَيَــومٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُــسَاءُ وَيَــومٌ نُــسَرُّ

وهذا لو تأملته لوجدته كذلك، كل يوم في الأسبوع ناظر نفسك؛ في يوم منبسط ومسرور، ويوم تغتم، ويوم أشياء خارجية تفرحك، ويوم آخر بالعكس، ثم لو قدر أن صفوها خلا من ذلك - يعني لم يشب بأذى - فإن المستقبل ينغص عليك هذا الصفاء، كما قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُــهُ بِادِّكَــارِ المَــوْتِ وَالهَــرَمِ

فلابد من أحد الأمرين إما موت عاجل وإما هرم مذهل، فالإنسان إذا كبر إذا قدر أن الله تعالى مد له في العمر فإنه يرجع إلى حاله الأولى قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: يرجع إلى حاله الأولى؛ فيسقط تمييزه، ويكون أشد من الصبي، يعني: كونه عالة على غيره؛ أشد من كون الصبي عالة على غيره؛ لأن الصبي ما عنده عقل وتمييز غاية ما هنالك أنه يصيح، لكن هذا الهرم عنده شيء من التمييز تجده يشرح على أهله مثلًا ويزعق عليهم ويصيح، ويقول: كيف تنسون حالتي أنا يومها شاب وأكد عليكم وآتي لكم بالطعام والشراب ويفزعهم أكثر، ثم هو أيضًا ثقيل، الصبي يقدر الواحد أن يحمله على يديه، ويمشي به يمينًا ويسارًا حتى يسكت، لكن هذا مشكل؛ لذلك إذا تذكر الإنسان أنه إما أن يموت أو يصل إلى هذا الحال فمهما كان عيشه فسوف يتنغص ولهذا نقول: هذه الحياة دنيا، مأخوذة من دنو الزمن ودنو المرتبة والقدر ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [عن الإيمان بذلك]، أي: وعد الله، وما أكثر الذين غفلوا عن وعد الله، وما أكثر الذين اعتمدوا على الأسباب الظاهرة فنسوا الأسباب التي وراءها، كثير من الناس يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]. كيف إن الله ينصر المسلمين وهم قلة على أعدائهم الكفار وهم بهذه الكثرة وبهذه القوة، كيف هذا يكون؟ فيعتمد على الحياة الدنيا وعلى الأسباب المادية دون ما وراءها، والواجب علينا أن نؤمن بوعد الله، فالله وعد أن ينصر مَنْ ينصره، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

فيقول قائل: كيف أن الله يستخلفني في الأرض وعندنا الروس وعندنا الأمريكان وعندنا الانجليز وغيرهم من الأمم القوية الكثيرة، فما الجواب على ذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. لا تغرك الدنيا حتى بالنصر، أسباب النصر ليست هي المادة فقط، بل هناك شيء وراءها وهي قوة العزيز - عز وجل - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ [في حلمه وإمهاله]، ﴿الْغَرُورُ﴾ [الشيطان]، يعني: لا يخدعكم أيضًا من وصفه الخداع؛ ولهذا جاء في الوصف الغرور، وغرور فعول صفة مشبهة؛ لأن غروره كان وصفًا لازمًا له لزومًا وجوبيًا والغَرورغير الغُرور بالضم، الغُرور بالضم مصدر، والغَرور صفة مشبهة دالة على المعنى، ومن قام به المعنى، فالغرور إذن هو الشيطان، أي الشياطين: الإنس أم الجن؟ كلهم، جميعًا ومن شياطين الجن من يغر، وهو معروف، وهو الشيطان الذي يلقي في قلبك ما يحتاله ومن شياطين الإنس أيضًا من يغر، وهم جلساء السوء، الذين يأتون الإنسان فيدخلون فيه كما يدخل الماء في المدر، أو النار في الفحم، ما يدري، يدخلون دخولًا بحيث يكون كالنائم أو كالميت بين يدي المغسل، فالله ـ عز وجل ـ حذرنا من هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

قال المؤلف: [في حلمه وإمهاله]. صحيح إن الإنسان قد يغتر بالله في حلمه وإمهاله، فيقول لنفسه: لو كنت على خطأ لعاقبني الله، وما دام الله ـ عزو جل ـ يرزقني ويعافيني فهذا دليل على أني على حق، لكن هذا من الأماني الباطلة، التي حذر منها رسول الله ص، فقال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتبعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيّ»(١). وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيث الصحة لكن معناه صحيح بلا شك، فإن الكيس الحازم هو الذي يعمل لما بعد الموت.

قال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: لا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وغير ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه، لا ﴿يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: الخادع وهو الشيطان، قوله: الشيطان. على اسم للشيطان الذي هو إبليس، وهو مشتق من شاط يشيط إذا غضب، أو من شطن يشطن إذا (بعد)، والوصفان ثابتان للشيطان؛ لأن عنده طيش، وسوء تصرف كالغضبان، كالذي يشيط غضبًا، وهو أيضًا شاطن، أي: بعيد عن رحمة الله ـ عز وجل ـ ، فإن الله تعالى لعنه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٨].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الجملة هذه مؤكدة بإن، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولم يقل: إن الشيطان عدوكم؛ لثبوت هذه العداوة، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولهذا أتى بالجملة الاسمية المكونة من مبتدأ وخبر، فعدو مبتدأ مؤخر، ولكم خبر مقدم، تقديمه للخبر هنا يفيد الحصر، يعني: كأنه قال: ليس عدوًّا إلا لكم. ومعلوم أن من انحصرت عداوته في شخص فإنه يجب عليه أن يحترز منه أكثر وأكثر، وقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾ على وزن فعول، فهي صفة مشبهة، والعدو ضد الولي فإذا كان الولي هو الناصر

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

المتولي لأمرك المعتني به، فالعدو هو الخاذل الذي لا يهمه أمرك لا يهمه أمركم، فالشيطان عدو، يقول الله عز وجل: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. لما أكد أنه عدوًا لنا؛ رتب على ذلك قال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، والفاء هنا يسمونها فاء التحريض، أي: فبسبب ثبوت كونه عدو اتخذوه عدوًّا، يعني: اجعلوه عدوًّا لكم بحيث تنفرون منه نفوركم من الأعداء.

فإذا قال قائل: ما الذي يدلنا على عداوته؟ أو كيف نتخذه عدوًّا؟

الجواب: أن نتخذه عدوًّا بكراهته وبغضه وبعدم الانصياع لأمره. وسوسته؛ لأنه هو كما قال الله عنه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. هو لا يأمر إلا بالفحشاء والسوء ومعصية الله - عز وجل -، فإذا أحسست من نفسك أنك تهوى المعصية؛ فاعلم أن هذا من إضلال إبليس من أبناء الشيطان، فيجب عليك أن تنفر من هذا؛ لأن هذا صادر من عدو لك لا يريد إلا إضرارك وخذلانك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. قال المؤلف: [فاتخذوه عدوًّا بطاعة الله ولا تطيعوه]. يعني: أطيعوا الله ولا تطيعوا الشيطان، وأنتم إذا أطعتم الله فإن هذا أعظم سلاح يغيظ هذا الشيطان، الذي هو عدو لكم، فإذا أطعت الله - عز وجل - فإنك بذلك تغيظ الشيطان وتدحره وتذله، كما أنك تذل أولياءه أيضًا وتغيظهم، قال الله - عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾. إلى أن قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهؤلاء القوم بصفتهم المذكورة يغيظون الكفار، والكفار أولياء الشيطان، وإذا كانوا يغيظون الكفار فإنهم يغيظون أيضًا الشيطان، فأعظم شيء لإغاظة الشيطان هو أن تقوم بطاعة الله - عز وجل -.

يُرْوَى أن الشيطان يقول عن بني آدم: أهلكتهم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله، والاستغفار؛ فالتوحيد وسؤال المغفرة لا شك أنه يغيظ الشيطان.

يقول الله - عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ .[أتباعه في الكفر، ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الشديدة]، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ إنما: أداة حصر، تفيد إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما سواه، يعني: ما يدعو حزبه إلا لهذا الأمر؛ لأن يكونوا من أصحاب السعير، واللام في قوله: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ اللام هذه للعاقبة، يعني: يدعو حزبه للشر والفحشاء لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير، وقول المؤلف: [﴿حِزْبَهُۥ﴾: أي: أتباعه في الكفر].

قد يقال: إن فيه قصورًا؛ لأن حزب الشيطان، الحزب المطلق، لا شك أنهم الكفار لكن من عصى الله - عز وجل - ولو لم يكن كافرًا في معصية من المعاصي، فله من حزبية الشيطان بقدر ما عصى الله، لكن الحزب المطلق هم الكفار، قال: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. يعني: من أصحاب النار والسعير هو: النار الشديدة، وإنما يدعوهم لذلك؛ لأنه لما غوى والعياذ بالله وتكبر عن طاعة

الله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحِجر: ٣٩]، لما خُذِلَ والعياذ بالله وطرد، وصار غاويًا، حرص على أن يكون له أتباع في غيِّه، وهذا أمر مشاهد، أهل الحق يودون أن يكون لهم أتباع في الحق، وأهل الباطل يودون أن يكون لهم أتباع في الباطل، فالشيطان والعياذ بالله لما كان من أصحاب النار أحب أن يكون الناس ـ أي بنو آدم ـ، كلهم من أصحاب النار، هؤلاء الذرية ذرية آدم، وشقاء إبليس إنما كان لتركه السجود لآدم، فلا زال أن يضلل ذريته، وأن يحاول بكل ما يستطيع إغواءهم حتى يكونوا من أصحاب النار.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ، خبره جملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. والعذاب: العقوبة، وأتى بالجملة الاسمية ؛ للتحقق من أجل ثبوت هذا العذاب واستمراره؛ لأن الكافرين مخلدون في نار جهنم، والشديد بمعنى: القوي، وأما غيرهم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. الإيمان محله القلب، أي: صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، فالإيمان ليس مجرد التصديق؛ بل هو تصديق مقرون بقبول وإذعان، قبول بما آمن به وإذعان يقتضيه هذا الإيمان، أما مجرد التصديق فليس إيمانًا، ولو شئتم لضربنا مثلًا بأبي طالب، فإن أبا طالب كان مصدقًا بالنبي ﷺ ولكنه لم يقبل ولم يذعن، فلم ينفعه هذا التصديق، فالذين آمنوا أي: صدقوا بما يجب الإيمان به تصديقًا مستلزمًا للقبول والإذعان.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. فلابد من العمل الصالح، حتى يتم الإيمان ويتحقق ويتبين.

العمل الصالح قال العلماء: هو الذي كان خالصًا صوابًا، خالصًا لله، صوابًا في موافقة شريعة الله، وهذا التعريف يعم هذه الكلمة وغيرها، فما كان خالصًا لله موافقًا لشريعته فهو صالح، ومالم يكن كذلك فهو فاسد، فلو فرغ الإخلاص من العمل لم يكن صالحًا، ولو وُجِدَ الإخلاص لكن لم يكن على وفق الشريعة لم يكن صالحًا، وعلى هذا فالأعمال البدعية وإن أخلص فيها صاحبها ليست بصالحة، والأعمال الشرعية إذا شاركها الرياء وإرادة الخلق لم تكن صالحة.

وقوله: ﴿عملوا الصالحات﴾. هذه تتكرر في القرآن كثيرًا، وهي على ما قال النحويون: من باب حذف المنعوت ووجود النعت للدلالة عليه؛ لأنه أصل، وعملوا الأعمال الصالحات.

قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر عملين لهم وذكر لهم جزائين، الذين كفروا ذكر عملًا واحدًا، وجزاءً واحدًا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ العمل الكفر، والجزاء العذاب الشديد، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهذا عملان، والجزاء: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. مغفرة لذنوبهم وأجر كبير على أعمالهم الصالحات، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغفر، وهو: ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا إذا كان قويًا يمنع، وليست المغفرة مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر والعقوبة ليس

بمغفرة، بل لابد من أمرين؛ الستر، وعدم المآخذة.

وقوله: ﴿وَأَجْرٌ﴾. الأجر: الثواب الذي يجازى به العامل، حتى الأجرة - مثلًا - إذا استأجرت رجلًا يعمل لك عملًا وأعطيته أجرة فهذا أجر، وسمى الله ـ عز وجل ـ الثواب أجرًا؛ لأنه لابد أن يناله العامل، فهو كأجرة المستأجَر، أو كأجرة الأجير، فلابد أن يناله العمال، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]. فسمى العمل لله قرضًا؛ لأن القرض يجب إيفاؤه، فمثل هذه الآيات تدل على أن الله ـ عز وجل ـ أوجب على نفسه أن يثيب العامل.

وقوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. كبير في حجمه، أو كبير في معناه؟ الاثنين؛ لأن الإنسان في الجنة ينظر إلى أدناهم ما أوتي له بل ينظر إلى ملكه مسيرة ألفي عام، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، وهذا لا شك أنه كبير واسع، وكذلك في المعنى؛ لأنه دائم وثابت، قال المؤلف: [هذا بيان؛ بيان ما لموافقي الشيطان وما لمخالفيه]، موافقو الشيطان مَنْ هم؟ الذين كفروا، ومخالفوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إذن يجب علينا أن نتخذ الشيطان عدوًّا بالإيمان والعمل الصالح، وقال المؤلف: [ونزل في أبي جهل وغيره ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ إلى آخره].

أبو جهل كان يسمي في الجاهلية: أبا الحكم، يعني أنه ذو حكمة وعقل وروية، لكنه سمي في الإسلام أبا جهل؛ لأن أعظم الجهل أن يبقى على كفره ولا يؤمن بالله، نزل ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ ﴿أَفَمَن﴾: الهمزة هنا للاستفهام، والفاء حرف عطف، والمعطوف عليه مختلف فيه؛ فمنهم من قال: إنه مقدر بين الهمزة وحرف العطف، ويكون بحسب السياق، ومنهم من قال: إنه المعطوف عليه ما سبق، فعلى الأول: نقدر المحذوف بما يناسب المقام، فمثلًا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. التقدير: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض، وهنا نقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ نقدرها بما يناسبه فنقول للتقدير: أتدركون هذا الشيء فمن زين له سوء عمله؟ أو نقول: أيستوي المؤمن والكافر كمن زين له سوء عمله، ولكن القول الثاني في المسألة أنه معطوف على ما سبق أحسن؛ لأن الأصل عدم التقدير، ولأنه في بعض الأحيان يصعب على الإنسان أن يقدر المحذوف، وعلى هذا القول يقولون: إن الفاء تقدر سابقة للهمزة، الحرف حرف العطف يقد ر سابقًا للهمزة، ويكون فيه تقديم وتأخير، والتقدير على هذا: فأمن زين له سوء علمه.

وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ من المزين؟ ذكر الله ـ عز وجل ـ أن المزين الشيطان، وذكر أن المزين هو الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وفي بعض الآيات يكون المزين مبهمًا؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ إلى آخره،

فالمزين الله، والمزين الشيطان، فإذا قلت: كيف تجمع بين هذا وهذا؟

فالجواب: أن المزين المباشر هو الشيطان، أما الله ـ عز وجل ـ فهو مزين بالتقدير، يعني: هو الذي قدر على الشيطان أن يزين لهم، ومعلوم أن الله تعالى خالق الشيطان، وما نتج من أعماله فهو مضاف إلى الله، كما نقول في الإنسان: إنه مخلوق لله، وما نتج من أعماله فهو مخلوق لله ـ عز وجل ـ ، فيكون تزيين الله تعالى بحسب التقدير، يعني: هو الذي قدر أن يزين الشيطان لهم أعمالهم، وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عمل هو مضاف مفرد، مضاف فيشمل كل الأعمال، سواء كان الشرك أو العدوان على الغير، أو سوء السلوك وفساد الأخلاق، أو غير ذلك، المهم أنه شامل لكل الأعمال.

وقال المؤلف: [بالتمويه]. ومعنى بالتمويه؟ أنه يموه على الناس أن هذا العمل الذي يقوم به عمل حسن.

قوله: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: رأى سوء عمله حسنًا، وهذا أشد ما يكون أن يكون الإنسان على خطأ ويرى أنه على صواب؛ لأن مثل هذا لا يكاد يقلع عن غيِّه، حيث إنه يعتبره صوابًا، ومن ذلك مثلًا أصحاب الحيل المخادعون، فالمنافق مثلًا زين له سوء عمله؛ لأنه يرى أنه ذكي ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤]، وهذا من سوء العمل، المتحيلون على الربا بأنواع الحيل هؤلاء أيضًا زين لهم سوء أعمالهم؛ ولهذا لا تكاد تجدهم يقلعون عما هم عليه؛ لأنه قد زين ذلك في نفوسهم فلا يقلعون عنه، المهم هذا له أمثلة كثيرة، بقي علينا أن نقول: مَنْ مبتدأ، فأين خبره؟

قال المؤلف رحمه لله تعالى: [من مبتدأ، خبره كمن هداه الله] ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. يعني: كمن لم يزين له سوء علمه، ورأى سوء عمله سيئًا، لأن الذي زين له سوء عمله سيستمر عليه، والذي رآه سيئًا سوف يتجنبه وهذا لما يقول المؤلف: [كمن هداه الله]، ومثل هذا التعبير يأتي في القرآن كثيرًا كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩]. فالخبر محذوف أي: كمن ليس كذلك، يعني: ليس هذا كهذا؛ لأن بينهما فرقًا، فإن مَنْ زين له سوء عمله سيبقى على ضلاله، ومَنْ لم يزين له سوء علمه ورآه سيئًا فسيتجنبه ولا يقع فيه، قال المؤلف: [لا دل عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾]دل عليه فسرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، وعلى هذا فالفاء هنا ليست واقعة في خبر المبتدأ، بل خبر المبتدأ محذوف، لكنها عطف على ذلك الخبر، أي: فإن الله يضل من يشاء عن الحق، فلا يهتدي إليه، ويهدى من يشاء إلى الحق فيلتزمه، وهنا يقول: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ مر علينا كثيرًا تعليق الأشياء بالمشيئة، ولكننا قلنا ونقول: إن هذه المشيئة مقرونة بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يضل أضله، ومن اقتضت حكمته أن يهديه هداه، من الذي تقتضي حكمة

الله ـ عز وجل ـ أن يضله؟ هو الذي أراد الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فإذن إضلال الله تعالى العبد في محله، وذلك بأن يكون هذا الرجل لا يريد الخير وإنما يريد الشر، واعلم أن الهداية والضلال إما عدل وإما فضل، الضلال عدل؛ لأنه جُوزِيَ بحسب ما أراد، لما أراد الضلال ـ والعياذ بالله ـ وزاغ قلبه؛ أزيغ، وأما الهداية فإنها فضل؛ فضل من الله ـ عز وجل ـ؛ يتفضل به على من شاء من عباده.

ولهذا نقول: لو قال قائل: كيف يجعل الله تعالى هذا مهتديًا وهذا ضالًا، أليس هذا ظلمًا؟ فالجواب لا؛ لأن منع الهداية من هذا الضال إنما هو بمقتضى عدله، أما هداية المهتدي فهو بفضله، فنقول: إن منعك ما هو لك فقد ظلمك، وإن منعك فضله ففضل الله يؤتيه من يشاء، ولولا أنك لست أهلًا للهداية ما منعك الله الهداية.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. تقدم في هذه الآية أن هذه المشيئة تابعة للحكمة، فمن اقتضت حكمة الله أن يضله أضله وهو الذي لا يريد الخير؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. يهدي من يشاء المراد به: هداية التوفيق، وربما نقول: هداية التوفيق والدلالة، ولكن الأهم هداية التوفيق ولعل هذا هو المراد هنا؛ لأن الذين أضلهم الله قد هداهم الله هداية الدلالة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] وهذا عام، ولكن الهداية، قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فما كل الناس منهم مهتدٍ.

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هذا نهي عما كان أم عما لم يكن؟ الظاهر أنه نهي عما كان وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحسر على هؤلاء المكذبين الذين كانوا يكذبونه، والنهي عن الشيء قد يكون نهيًا عما كان وقد يكون نهيًا عما لم يكن، فقوله للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣، ٢١٤] هذا نهي عما لم يكن؛ لأن الرسول ما دعا، قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].ما قتلنا أنفسنا هو يخاطب الواحد لا تقتلوا أنفسكم، إن كان المعنى لا يقتل بعضكم بعضًا فهذا صالح، نهي عما لم يكن وعما كان، لكن إذا كان نهي أن يقتل الإنسان نفسه فهذا قطعًا لم يكن؛ لأنه لا يمكن أن يقتل نفسه إلا وهو موجود.

الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحسر على فوات هذا ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾] [هود: ١٢] يقول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾. أي: مهلك نفسك. ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣] فالرسول عليه الصلاة والسلام يتحسر لهؤلاء لعدم إيمانهم، يقول هنا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يعني: لا تذهب نفسك من أجلهم كما يقال: بكيت عليك الدهر أي: من أجلك، والمعنى لا تذهب نفسك من أجلهم حسرات، قوله: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ قيل: إنها حال على أنها مصدر أريد به اسم

الفاعل، أي: حاسرة، والحسرة: الهم الشديد والغم على ما فات، فكل من فاته شيء يحبه ويطلبه واهتم لذلك واغتم يقال: تحسر، وقيل: إن حسرات مصدر وأنه مفعول من أجله، المعنى: فلا تذهب نفسك. أي: تهلك من أجل الحسرات عليهم، قال: [﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ حيث نزين لهم حسرات كاغتمامك ألا يؤمنوا]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه، في هذه الجملة تهديد وتسلية؛ تهديد لهؤلاء المخالفين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام يعني: لا يهمنك أمرهم فإن حسابهم على الله وسوف يجازيهم.

الفوائد:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إلى آخره.

في هذه الآية فوائد عديدة:

١ - **فمن فوائد الآية الكريمة:** أهمية التصديق بوعد الله - عز وجل -، وجه ذلك لما صدره بالنداء، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار مخاطبون بالفروض أو بفروع الدين وأصوله؛ لأن الخطاب هنا عام، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن وعد الله لابد أن يقع؛ لأنه خبر من صادق قادر، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صدق في حال الخبر عنه، واقع في حال إيقاعه، فمن فوائدها هنا: أن ما وعد الله به فهو حق لابد أن يقع.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان ألا يغتر بالدنيا مهما حصل له من زهرتها ونعيمها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن مَنْ خُدِع في الدنيا فإنه مخدوع؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾. أي: تخدعنكم؛ لأن العاقل لا ينخدع بها.

٦ - **ومنها:** الإشارة إلى وجوب العناية بالآخرة؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وإذا نهينا عن الاغترار بالدنيا فمعناه: أننا نلزم أو نؤمر بالعناية بالآخرة؛ لأنها الحقيقة وهي المنتهى، أما هذه الدنيا فإن الإنسان يمربها عابرًا فقط، حتى القبور التي يبقى فيها الإنسان من السنوات ما لا يعلمه إلا الله هي محل عبور، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]. سمع أعرابي رجلًا يقرأ هذه الآية، فقال: والله ما الزائر بالمقيم، أي: إن الزائر لظاعن، والمعروف أن الزائر يبقى مدة ثم ينصرف.

٧ - **ومن فوائدها أيضًا:** دنو الدنيا مرتبة دناءةً؛ لقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فهي وإن كانت الحياة؛ لكنها دنيا، ويستلزم ذلك الثناء على الآخرة؛ لأن وصف الضرة بعيب؛ يدل على وصف ضرتها بكمال، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز تنعم الإنسان بالدنيا على وجه لا تغره؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾، ولم يقل: فلا تتنعموا في الدنيا بشيء، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾.

٩ - ومنها أيضًا: عظم الخطر من كثرة المال، ويسر العيش؛ لأن هذا قد يخدع المرء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «واللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُم وإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا»[1].

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الحذر من الشيطان ووساوسه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. وسواء كان الشيطان إنسيًا أو جنيًا؛ لأن الشيطان الإنسي يغر الإنسان كما يغره الشيطان الجني.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: الحذر الشديد من هذا الذي يغرنا من شياطين الإنس والجن؛ لأنه وصفه بقوله: ﴿الْغَرُورُ﴾ والغرور كما قلنا: إما صفة مشبهة، وإما صيغة مبالغة، وإما صيغة مبالغة ما قلنا إنه مصدر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ إلى آخره.

١ - من فوائد الآية الكريمة: إثبات الشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

٢ - ومنها: إثبات عداوته المؤكدة للإنسان؛ لقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

٣ - ومنها: أهمية إيماننا بذلك، وجهه: كونه مؤكد صار إلى أهمية علمنا بذلك.

و مر علينا في البلاغة أن الخطاب الخبري هو الخطاب الذي يلقى إلى المخاطب بدون توكيد، وأنه لا يؤكد في مقام الخطاب الخبري إلا لسبب، والخطاب الخبري إذا ألقي إلى الإنسان الخالي الذهن، فإنه لا يحسه؛ لأنه لم يعرف توكيدًا، فالتوكيد ليس فيه إلا زيادة كلمات لا فائدة منها، لكن إذا كان الأمر ذا أهمية فإنه يؤكد، يؤكد ولو كان لإنسان خالي الذهن، فإذا كان عالمًا بالأمر صار أيضًا توكيده أدعى ولا نحتاج إلى التوكيد على كل حال.

فالآن نقول: كون الله أكد هذا الكلام والمخاطب خالي الذهن أو عالمًا به من قبل يدل على أهمية الإيمان بهذا الأمر الذي عليه الشيطان، وهو أنه لنا عدو، وقد قال قديمًا علماء البلاغة: إن الخبر إذا ألقي إلى عالم به مؤكدًا، كان ذلك من أجل أن هذا المخاطب نزل منزلة المنكر بكونه لم يقل بما يقتضيه هذا الخطاب ومثّلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٥]. كلنا يعلم إنه سيموت، لكن لماذا أكد لنا الموت ونحن نعلم به ونتأكد منه؟ لأن فعلنا فعل المنكر بالموت؛ حيث إننا لا نصدق ولا نعمل لما بعد الموت، إذن نأخذ من هذه الآية أهمية إيماننا بأن الشيطان لنا عدو، ولكن من أين علمنا ذلك؟ بأنه أكد الخبر مع أنه ملقيّ إلى إنسان خالي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

الذهن لا يدري بأن الشيطان عدو، أو إلى إنسان عالمٍ به ولكنه نزل منزلة المنكر بكونه لم يتخذ الشيطان عدوًّا له.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب البعد عما يأمر به الشيطان، لقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا**: ذكر الأوصاف المذمومة إذا كان المقصود بها نصح المخاطب؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. فلو رأيت شخصًا مغترًّا بآخر، يحسبه صديقًا، وهذا الشخص الذي اغتر به صاحبه عدو له، نعلم أنه يريد أن يوقع به كل سو ء، فإنه يجب علينا أن ننصحه عنه ونذكر معايب هذا الشخص، حتى إنه لا يغتر به، فنقول: إنك تصاحب فلانًا وهو عدو لك، حتى وإن كانت عداوته من كونه يهديه إلى صراط الجحيم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان رحمة الله تعالى بعباده؛ لأن العلم بعداوة الشيطان غير مدرك لنا ولكنه تعالى هو الذي أخبرنا به ثم حثنا بل أمرنا بمخالفته؛ لقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشيطان له في بني آدم إرادات سيئة صريحة، لكن ما فيها دليل على أن من الناس من يدخل النار ولا يخلد فيها، فلا يكون من أصحابها، نقول: ممكن فإن الشيطان يريد من الناس أن يبلغوا الذروة في المخالفة، وإذا بلغوا ذروة المخالفة وكفروا حينئذ يكونون من أصحاب النار الذين يخلدون فيها، أما المعاصي التي دون ذلك فإن أصحابها وإن دخلوا النار كما دلت عليه النصوص لا يكونون من أصحابها.

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ... إلى آخره.

١ — **من فوائد هذه الآية**: إثبات الثواب والعقاب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: بلاغة القرآن؛ حيث يقرن بين الشيء وضده، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]. قال العلماء معنى قوله مثاني: أنه تثنى به المعاني، وهنا لما ذكر عذاب الكافرين ذكر ثواب المؤمنين.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بلاغة القرآن من وجه آخر حيث بدأ بذكر عذاب الكافرين بعد أن ذكر: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. فبدأ بما فيه التحذير قبل ما فيه التوحيد من أجل المناسبة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكافر عذابه شديد، يعني: ليس بالعذاب السهل من أين يؤخذ؟ يؤخذ من كيفيته وكميته؛ لأنه دائم ولأنه عذاب لا نظير له.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأجر لا يثبت إلا باتصاف الفاعل بوصفين: أحدهما الإيمان، والثاني العمل الصالح.

٦ - **ومنها من فوائد الآية**: تقسيم الأعمال إلى صالح وفاسد يؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾. فما هو الضابط؟ قلنا فيما سبق: إن الضابط أن ما كان خالصًا صوابًا فهو صالح، وما كان فيه شرك أو بدعة فليس بصالح.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ينالون أجرهم من زوال المكروه الثابت في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وحصول المطلوب الثابت في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا**: بلاغة القرآن؛ لأنه لما ذكر عملًا واحدًا في الكفار ذكر جزاءً واحدًا، ولما ذكر وصفين في المؤمنين ذكر وصفين في ثوابهم، وهذا ظاهر أيضًا في مثل سورة الإنسان، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. إذا تأملتها وجدت الله - عز وجل - لم يذكر في الكافرين وعذابهم إلا قليلًا بالنسبة للأبرار، السبب ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤]، قال للكافرين فقط ولم يقل: شيئًا من عذابهم. فكان جزاءً مختصرًا سلاسل وأغلالًا وسعيرًا، وذكر الأبرار وأطال في ذكر ما لهم من النعيم؛ لأنه ذكر عدة أعمال من أعمالهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٥، ٦] فالأبرار عباد الله ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ الإخلاص التام ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ فذكرعدة أوصاف من أوصافهم، فأطال في ذكر جزائهم، لما أطال في ذكر أعمالهم، بخلاف الكافرين، وهذا - بلا شك - من البيان من بلاغة القرآن.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأجور تختلف؛ لقوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. باختلاف أي شيء؟ تختلف باختلاف العمل، وتختلف باختلاف العامل، وإذا كانت متعدية؛ فإنها تختلف باختلاف من انتفع بها، فمثلًا تختلف باختلاف العمل: فأفضل الأعمال الصلاة على وقتها، الواجب أفضل من المستحب، وباختلاف العامل: مر علينا «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى**». وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهِ**»(١). هذا اختلافه باختلاف العامل، تختلف أيضًا: باختلاف المحل، إذا كانت متعدية فالصدقة على القريب صدقة وصلة، والصدقة على من هو أشد حاجة أفضل من الصدقة على غنى وهكذا، فاختلاف الأعمال يستلزم اختلاف الأجور أيضًا.

وتحتمل أيضًا الوجه الرابع: باختلاف في الإخلاص، يعني: أنه كلما كان الإنسان في عمله أخلص كان علمه أفضل، ويمكن أن يقول أيضًا: تختلف باختلاف الاتباع، فكلما كانت عبادة الإنسان أتبع لله ولرسول الله كانت أكمل، وعلى كل حال فالاختلافات هذه يختلف بها الأجور

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إلى آخره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن من الناس من يعمى قلبه حتى يرى السيئ حسنًا، وفي مقابل ذلك يرى الحسن سيئًا لقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إبهام الفاعل ليشمل كل ما يمكن أن يقع منه هذا الفعل، لقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقد مر علينا أن المزين هو الله ـ عز وجل ـ في الأصل والشياطين في المباشرة.

٣ - **ومن فوائدها:** انقسام الأعمال إلى سيئ وصالح؛ لقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فأضاف العمل إليه، وهم يقولون: إن الأعمال لا تضاف للإنسان؛ لأنه مجبر عليها.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من هذه حاله لا يستوي مع من ليس كذلك بحيث يرى السيئ سيئًا والحسن حسنًا ونأخذها من أن المحذوف يكون مقابلًا للمذكور؛ لأن الهمزة هنا للتسوية يعني: أيستوي هذا وهذا؟ والجواب: لا يستويان.

٦ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** ـ وهي تتفرع على هذه الفائدة ـ أننا إذا علمنا ذلك فإننا نسأل الهداية من الله، ونستعيذ من الضلال بالله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** إثبات مشيئة الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾. ولكنه مر علينا أن كل فعل علقه الله بمشيئته فإنه مقرون بالحكمة ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

٩ - **ومن فوائدها:** الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. فإن القدرية يقولون: إن أفعال العبد من ضلالة أو هداية لا تتعلق بها مشيئة الله؛ لأن القدرية مذهبهم أن الإنسان مستقل بعمله ليس لله تعالى فيه تعلق إطلاقًا حتى إن غلاتهم يزعمون أن الله لا يعلم عمل العبد حتى يقع، ويقولون: إن الأمر أنف. أي: مستأنف أي: إن علم الله ـ عز وجل ـ يحدث بعد أن لم يكن.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رسول الله ﷺ عز من أرسله، كان يحزن حزنًا عظيمًا، تكاد تذهب نفسه من شدته؛ لقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وجه ذلك أن الأصل في النهي أن يكون عما وقع، وقد يكون عما لم يقع، وهو كثير أيضًا، ويدل على أن هذا أمر واقع قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

١١ - **ومن فوائدها:** شفقة النبي ﷺ على أمته.

١٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يحزن لعدم إيمانهم أو طاعتهم لمصلحته هو؛ ولكن لمصلحتهم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

١٣ - **ومنها**: أن النبي ﷺ بشر يتأثر بما يتأثر به البشر من أسباب الفرح وأسباب الحزن، وهذا أمر واقع، وقد دخل النبي - عليه الصلاة والسلام - على عائشة ذات يوم مستبشرًا تبرق أسارير وجهه، فسألته عن ذلك، فقال: «**أَلَمْ تَرَي إِلَى مُجَزِّزٍ الْمُدْلِجِيِّ دَخَلَ عَلَى أُسَامَةَ بن زَيْدٍ وزَيْدِ بن حَارِثَةَ وهُمَا يعني: متغطيان برداء قد ظهرت أقدامهما فقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»(١)، ففرح عليه الصلاة والسلام حتى ظهر ذلك على وجهه، فالأعراض البشرية تطرأ على النبي ﷺ كغيره من البشر؛ من الفرح والحزن والغم والاستبشار والنسيان وعدم العلم وغير ذلك؛ لأنه لا يتميز عن البشر إلا بشيء واحد؛ وهو الوحي، قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٦] فبشر تغني عن مثلكم، لكن هذا من باب التأكيد، لئلا يذهب ذاهب إلى أنه بشر قد خصص بشيء، فقال: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. ثم ذكر الميزة، فقال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. وفي هذا رد واضح على أولئك القوم الذين يدعون أن للنبي ﷺ تأثيرًا في الخلق كتأثير ربوبية الله - عز وجل -؛ لأنه لو كان كذلك ما ذهبت نفسه عليهم حسرات لهداهم وسلم من هذه الحسرات التي تكون على نفسه.

١٤ - **ومن فوائدها**: إثبات علم الله - عز وجل - بكل من نعمل؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

١٥ - **ومن فوائدها**: عناية الله برسوله ﷺ في مثل هذه الجملة التي تفيد تسليته وتهوين الأمر عليه، وأنه ما من حساب هؤلاء عليه من شيء، كما أنه ليس من حسابه هو عليهم من شيء.

قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ٩، ١٠]

التفسير

ثم قال - عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [وفي قراءة: (الريح)] ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الله وحده هو الذي يرسل هذه الرياح دون غيره فلم يستطع أحد أن يرسل شيئًا من هذه الرياح،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).

حتى الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن يرسلوا الريح ما استطاعوا، لو اجتمعوا على أن يهوِّنوا عصفها ما استطاعوا، ولكن ذلك بيد الله ـ عز وجل ـ، فالله وحده الذي يرسل الرياح، وتأمل قوله: يرسل. حيث جعلها رسولًا، أو أرسل حيث جعلها رسولًا، كأنها تبلغ أو كأنها تفعل ما أمرت به كما أن الرسول يبلغ ما أرسل به، فهي مرسلة؛ ولهذا ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام النهي عن سب الريح؛ لأن سب الريح حقيقة يعود إلى الله ـ عز وجل ـ، فإنه هو الذي أرسلها، فهي مدبرة مسخرة، وقوله: [﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ وفي قراءة: (الريح)]. والقراءة هنا سبعية والفرق بينهما أن الرياح جمع، والريح مفرد لكن هذا المفرد في معنى الجمع؛ لأنه مُحلًى بأل وهي للاستغراق فيشمل كل الرياح؛ سواء أتت من الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب، فالله تعالى هو الذي أرسلها.

واعلم أن الغالب أن الرياح مجموعة تكون في الخير، والريح المفردة تكون في ضده، هذا الغالب؛ ولهذا يُرْوَى عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعاء الريح: اللهُمَّ اجعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا». ولكن مع ذلك تأتي هذه محل هذه، ويكون هناك قرينة، ففي قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١] هذه في الشر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] هذه في الخير؛ لأنها وصفت ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] هذه في الخير وهنا تكون في الخير أيضًا.

يرسل ﴿ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تثير، عطف المضارع على الماضي، وكان مقتضى النسق أن يعطف على الماضي ماضيًا مثله، ويقول: والله الذي أرسل الرياح فأثارت، لكن لماذا عدل عن الماضي للمضارع بينها المؤلف قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المضارع لحكاية الحال الماضية]، يعني: عبر بالمضارع للماضي حكاية للحال حين إرسالها؛ لأنه أبلغ في التصور، كأنها الآن أمامك تثير هذه السحاب، وهذا أبلغ في تصور الإنسان؛ لأنه يستحضر الحال الماضية كأنها الآن، إذن المضارع كما نعرف جميعًا يصلح للحال وللاستقبال، ولكنه قد يقترن به ما يعينه للحال، ويقترن به ما يعينه للاستقبال، ويقترن به ما يعينه للماضي، إنما الأصل فيه أنه للحاضر والمستقبل ولا يكون للماضي إلا بقرينة، فعليه نقول: عدل عن التعبير بالماضي هنا لحكاية الحال الماضية حتى كأنك تشاهدها الآن وهي تثير هذا السحاب.

وقال المؤلف في معنى تثير: [أي: تزعجه]. وهذا معنىً قد يناقش فيه؛ لأن الإزعاج أخص من الإثارة، وإنما الإثارة بمعنى: إنهاض الشيء، كما يقال: أثرت البعير أي: أنهضته حتى صار قائمًا بعد أن كان باركًا.

وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾. كأن هذا السحاب في الأصل في الأرض؛ ثم أثارته هذه الرياح ومعلوم أن السحاب يكون من بخار البحر ويكون أحيانًا من الجو المتلبب بالرطوبة، حسب ما

تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ، وهذا أمر يرجع إلى معرفة العلوم الطبيعية، وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ السحاب: هو هذا الغيم المعروف عندنا، ينسحب في الجو كما تشاهدونه فلذاك سمي سحابًا لانسحابه في الجو.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، وفيه - أيضًا - التفات من المضارع إلى الماضي، ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ﴾ عدل عن المضارع إلى الماضي لاختلاف الفاعل في الفعلين؛ لأن تثير الفاعل فيها الرياح، وسقناه الفاعل فيها الله، إذن يحسن أن تكون بلفظ الماضي عطفًا على قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾؛ لأن المرسل هو الله، فلما اتحد الفاعل في الفعلين [أرسل وسقنا] كان الأفصح أن يكون جميعًا بلفظ الماضي لكن فيه عدول عن لفظ الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾. إلى التكلم في قوله: ﴿فَسُقْنَهُ﴾ لماذا؟ مر علينا أن الالتفات له فائدة دائمة، وهي التنبيه، كيف التنبيه؟ لأن سياق الكلام على نسق واحد يقتضي أن الذهن ينساب معه ولا يتوقف، لكن إذا اختلف السياق كأنه يقف الذهن، يقف لينظر ما الذي حدث، وحينئذ يكون في تغييره تنبيه للمخاطب، فهذا واحد، لكن هنا - أيضًا - فيه فائدة ثانية وهي: بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ ﴿فَسُقْنَهُ﴾ أي: نحن فأضافه إلى نفسه لأنه أدل على القدرة فإن اجتمع الله الذي أرسل ثم هو - سبحانه وتعالى - ساقه هذا السحاب الذي أثارته الريح فهو أدل على القدرة مما لو جاء على نسق واحد ﴿فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد والتخفيف.

الفائدة الثانية: بيان تمام القدرة؛ لأنه إذا كان بالأول للغائب ثم جاء للمتكلم صار هذا أدل على القدرة وأعظم.

هذا من حيث الالتفات من الأصل، يقول: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾. فيها قراءتان: ميِّت وميْت. وقد قيل: إن الميْت لمن مات بالفعل، والميِّت لمن سيموت، وجعلوا على ذلك شاهدًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٠]. أي: ستموت، وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فميتا هنا لمن قد مات، هكذا فرق بعضهم، والظاهر أن اللغة العربية تأتي بالوجهين على المعنيين، ومنها هذه الآية؟ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد مات، ومع هذا قد جاءت بالتشديد ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [بالتشديد والتخفيف لا نبات بها]، هذا هو موت البلد، والمراد بالبلد هنا: ليس المسكون من الأرض؛ بل ما هو أعم فيشمل المسكون وغير المسكون، وتخصيص البلد بالمسكون تخصيص عرفي وإلا فإن كل الأرض بلد من بلادها وتسطحها؛ ولهذا نقول: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أحيينا به، سقناه فأحيينا، هنا الأفعال والضمائر على نسق واحد، وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [يقول من البلد]، معنى من البلد يعني: أرض البلد هذه التي كانت ميتة أحياها الله ـ عز وجل ـ أحياها بالنبات؛ ولهذا

قال: [﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها]، أي: أنبتنا به الزرع والكلأ، وهذا أمر مشاهد تأتي الأرض يابسة هامدة.. عيدان تتكسر ،فينزل الله المطر عليها ثم تهتز خضراء فيها من كل زوج بهيج، من الذي أحياها؟ الله ـ عز وجل ـ ، لا يستطيع الخلق أن يحيوها أبدًا، مهما كان، حتى الكلأ الذي ينبت بالمطر لا ينبته الماء الجاري، كما هو مشاهد، يعني: لو تسقي هذه الأرض، مهما سقيتها بالماء الجاري، فإن الكلأ الذي ينبت من المطر لا ينبت بهذا الماء، إذن فالله - عز وجل - هو الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها، أي: بعد أن كانت يابسة هامدة، ليس بها نبات، أحياها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقدرته.

قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. أي: البعث والإحياء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف هنا اسم بمعنى: مثل وهي خبر مقدم، ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مبتدأ مؤخر، أي: النشورمثل ذلك، ويجوز أن تقول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف حرف جر ليست بمعنى مثل يعني: ليس على تقدير المثل وتجعلها جارًّا ومجرورًا، خبرًا مقدمًا، والنشور مبتدأ مؤخر، والتقدير: النشور كائن كذلك، والنشور: هو نشر الأموات على وجه الأرض وإحياؤهم بعد أن كانوا أمواتًا، والتشبيه هنا هل هو تشبيه للسبب والنتيجة أو للنتيجة فقط؟ أي: هل المعنى أن النشور الذي يكون للأموات يكون بواسطة ماء ينزله الله ـ عز وجل ـ فتنبت هذه الأجسام ثم تحيا أو أن التشبيه للنتيجة فقط، أي: أن إحياء الموتى كإحياء الأرض بقطع النظر عن السبب؟ الأول؛ لأنه ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى يرسل على الأرض مطرًا من تحت العرش مطرًا غليظًا حتى يصل إلى الأجسام فتنبت في القبور كما تنبت الحبة في الأرض فإذا تكاملت الأجسام نفخ في الصور فخرجت الأرواح إلى أجسامها، وعلى هذا فيكون التشبيه هنا عائدًا إلى السبب والنتيجة أيضًا، هذا هو المشهور عند أهل العلم، يقول: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ ﴿مَن﴾ شرطية الدليل: الجواب، والشرط فيها ظاهر، يعني: أيُّ إنسان يريد العزة فلله العزة جميعًا، ﴿مَن كَانَ﴾ لكنها عامة؛ لأن أسماء الاستفهام وأسماء الشرط والأسماء الموصولة كلها تفيد العموم، يعني: أي أحد يريد العزة أي: يطلبها ويحرص عليها والعزة هي: الغلبة والمنعة وقهر الأعداء، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها منه ما دامت العزة له ملكًا وتصرفًا فإنها لا تطلب إلا منه، كما لو قلت: من كان يريد المال فالمال عند زيد، والمعنى: فليطلب المال من زيد، هنا: من كان يريد العزة فليطلب العزة من الله لا من غيره، وهذا يراد به الرد. فالكفار يعبدون الأصنام لأجل أن يتخذوا منها العزة ففي هذه الآية إشارة إلى أنه لا عزة لهذه الأصنام ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، الجواب: ﴿كَلَّا ۚ﴾[مريم: ٨٢]. لن يكونوا لهم عزًّا بل بالعكس سيذلونهم في موقع هم أحوج ما يكونون إلى العزة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[مريم: ٨٢]، فأين العزة في هذه الأصنام، أو في

هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله؟

وردت العزة في آيات كثيرة من القرآن، ووردت في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ولا منافاة بينها وبين هذه الآية فإن العزة لله أصلًا، ولرسوله من أين؟ من الله، وللمؤمنين من الله، وحينئذ فالعزة كلها لله كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فكل مَنْ عنده عزة فإنها ليست عزة ذاتية له من ذات نفسه ولكنها من الله - عز وجل - وبماذا تكون العزة التي يكتسبها الإنسان وهي من الله؟ تكون بما علق الله العزة عليه وهي: الإيمان، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فمتى أراد الإنسان العزة فليكن مؤمنًا، وكلما كان أكثر إيمانًا بالله وأقوى إيمانًا بالله كان أكثر عزة وأقوى عزة.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إننا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمتى أردنا العزة بسواه أذلنا الله. وصدق رضي الله عنه، والعرب لما كانوا عربًا ليس عندهم إسلام ماذا كانوا؟ كانوا أذلة فقراء يذهبون إلى اليمن في الشتاء ليأتوا بالسلع منه، ويذهبون إلى الشام في الصيف ليأتوا بالسلع منه، فهم فقراء يأكلون من غيرهم، ولكن لما آمنوا صاروا هم الأغنياء وصارت كنوز كسرى وقيصر تأتي إلى المدينة لتنفق عليهم من المدينة، إذن نحن مهما أردنا العزة لن نستعز إلا بالإسلام، لن يكون أعداء الله سببًا لعزنا أبدًا، بل إن تولينا إياهم؛ وموالاتنا لهم سبب للذل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإذا تتبعت الواقع وجدته شاهدًا لقول الله تعالى هذا وأن أعداء المسلمين لا يمكن أبدًا أن يسعوا في إعزاز المسلمين بل يسعون بكل جهدهم إلى إذلال المؤمنين وخذلان المؤمنين، لكنهم يمكرون ويخادعون، يسخرون ويستهزئون لينالوا مآربهم ويضربوا الناس بعضهم ببعض، فالحاصل أنه إذا كانت العزة لله فمن أين نطلبها؟ من الله لا من غيره ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. ﴿جَمِيعًا﴾ هذه حال من العزة التي هي المبتدأ المؤخر وفي قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ فيها حصر العزة لله - عز وجل -، وجهه: تقديم الخبر،إذن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن لدينا قاعدة مرت علينا؛ وهي تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يراد به الأنواع، يعني: عموم الأنواع وعموم الأزمان وعموم الأمكنة، عموم الأنواع التي هي عزة القدر والقهر، والامتناع، الأحوال قصدي: الأزمان الدنيا والآخرة، المكان في مشارق الأرض ومغاربها لله العزة جميعًا، قال المؤلف: [أي في الدنيا والآخرة فلا تنال منه] أي: فلا تنال العزة من الله [إلا بطاعته فليطعه من عندكم]، أي: من كان يريد العزة، أفادنا المؤلف أن جواب الشرط محذوف وهو قوله: فليطعه، ولكن الصواب أن التقدير فليطلبها من الله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فليطلبها منه ويشمل الطلب بلسان

الحال وبلسان المقال، أما على رأي المؤلف، فإنه يختص الطلب بلسان الحال فقط، فالصواب إذن أن جواب الشرط محذوف تقديره فليطلبها منه ليشمل ذلك طلب الحال وطلب المقال، فطلب المقال أن تقول: اللهم أعزني، اللهم اجعل لي العزة على كذا. مثلًا على عدوي، وطلب الحال أن تقوم بطاعة الله، بل بطاعة الله مع تحقيق الإيمان؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ذُكرت العزة في مواضع كثيرة من القرآن ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] آخر الآية، قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] والله أعلم

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ جار ومجرور مقدم على عامله، وهو يصعد والضمير في إليه يعود إلى الله - عز وجل -، لما ذكر أن العزة لله جميعًا، بين - سبحانه وتعالى - ما يكون من أسباب العزة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قوله: يصعد أي: يرتفع. ويعرج، ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يقول: المؤلف [يعلمه]، ففسر صعود الكلم الطيب: بعلم الله إياه، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل المراد بالآية ما هو ظاهرها؛ أن الكلم الطيب يصعد إلى الله، يعني: يعرج إلى الله - عز وجل -، لكن المؤلف - غفر الله لنا وله - أراد أن يبعد عن إثبات العلو الذاتي؛ فقال: يعلمه، ولو كان المراد العلم؛ ما قال إليه يصعد؛ لأن العلم لا يلزم منه الصعود، بل قد يكون العالم بالشيء أنزل من الشيء، أليس كذلك؟ كما لو كنت في أسفل البئر؛ وأنت تعلم ما فوق.

على كل حال، هذه هفوة من المؤلف - نسأل الله أن يعفو عنه -، ونقول: إلى الله يصعد أي: يرتفع الكلم الطيب؛ لأن الله - عز وجل - في العلو، وأدلة العلو قد بينت في العقائد؛ وأنها خمسة أنواع الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كلها متفقة على علو الله - سبحانه وتعالى - بذاته، وقد مر علينا في كتاب «الإقناع» أن شيخ الإسلام رحمة الله يقول: من زعم أن الله معنا بذاته بالمكان فهو كافر. يقول هنا: الكلم الطيب، كلم اسم جمع كلمة، فهو دال على الجمع، وما المراد بالكلم الطيب؟ الكلم الطيب: هو كل كلم يقرب إلى الله - عز وجل -، كل كلم يقرب إلى الله فهو كلم طيب، فلا إله إلا الله من الكلم الطيب، وسبحان الله والحمد لله والله أكبر كلها من الكلم الطيب، والقرآن من الكلم الطيب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الكلم الطيب، وقراءة العلم من الكلم الطيب، وكل قول يقرب إلى الله فهو من الكلم الطيب، والكلم الطيب يقابله نوعان من الكلام؛ كلم رديء خبيث، وكلم لا هذا ولا هذا، لا يوصف بأنه طيب ولا يوصف بأنه خبيث.

أما الكلم الخبيث فككلمة الكفر والسب والشتم واللعن لمن لا يحل سبه ولا شتمه ولا لعنه، وأما الكلم الذي لا هذا ولا هذا فهو أكثر كلام الناس، والصنفان جميعًا لا يُرْفَعَان إلى الله، أما

الأول: فلأنه خبيث، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأما الثاني: فلأنه لم يقصد به الله - عز وجل - حتى يرفع إلى الله، وهذا الثاني - أعني الذي ليس هذا ولا هذا - قد يكون طيبًا لا لذاته ولكن لغيره، لما يوصل إليه من المقاصد الحسنة، فإن الإنسان قد يتحدث إلى شخص كلامًا ليس هو خيرًا في نفسه؛ لكن يقصد به التأليف لهذا الرجل، وإدخال الأنس عليه والسرور، فيكون هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه يكون محمودًا لما قصد به، كما أن هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه إذا قصد به الإساءة إلى من لا تحل الإساءة إليه صار كلامًا خبيثًا لغيره أي: لما قصد به، وعلى كلٍّ، فالكلم الطيب لذاته أو لغيره يصعد إلى الله - عز وجل -.

فإن قلت: كيف يصعد الكلم الطيب؛ والكلم ليس جُرمًا؟ الكلم ليس جرمًا، بل أصوات تسمع بحركات معينة في الفم واللسان والشفة **فالجواب:** أن الله - سبحانه وتعالى - قادر على أن يجعل المعقول شيئًا محسوسًا، كما ثبت في الحديث الصحيح أن الموت يؤتى به على صورة كبش أبيض فيذبح بين الجنة والنار، ويقال لأهل الجنة خلود ولا موت، ولأهل النار خلود ولا موت.

وقوله: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إنما جمعه لكثرة أنواعه، وكثرة الأنواع تدل على كثرة الأفراد من باب أولى، الأنواع كثيرة، والأفراد في كل نوع كذلك كثيرة فلهذا جمعه، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [يقبله]، أفادنا المؤلف بقوله: [يقبله] أن الفاعل في يرفعه يعود إلى الله، يرفعه يعني: الله، وأن الهاء في يرفعه تعود إلى العمل الصالح، يعني: والعمل الصالح يقبله الله، فكون الضمير يعود على الله، ضمير الفاعل، وضمير المفعول يعود إلى العمل، هذا لا نناقش المؤلف فيه؛ لأنه محتمل، لكننا نناقشه في تفسيره الرفع بالقبول، وكل هذا فرارًا من إثبات العلو الذاتي، غفر الله له.

بل نقول: معنى: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يرفع هذا العمل، من الرفع الذي هو ضد النزول، يرفعه إليه - سبحانه وتعالى -؛ لأنه فوق، وهذا التفسير في مرجع الضمائر - الذي ذكره المؤلف - هو أحد التفاسير المذكورة في هذه الآية.

التفسير الثاني: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، فجعل ضمير الفاعل يعود على الكلم الطيب، وجعل الهاء تعود على العمل الصالح، فيكون العمل الصالح مرفوعًا بالكلم الطيب، واحتج هؤلاء بأن العمل الصالح لا يقبل إلا بالإسلام، وهو الكلم الطيب الذي هو لا إله إلا الله، فإن الإنسان لو عمل من العمل الصالح الشيء الكثير ولكنه غير مسلم لا يرتفع هذا العمل، فلا يرفع العمل الصالح إلا الكلم الطيب.

والقول الثالث بالعكس يقول: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون الفاعل في (يرفع) العمل الصالح، والمفعول (الكلم الطيب)، عكس الذي قبله، ما وجه ذلك؟ يقول: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ لأن الكلم الطيب بدون عمل لا ينفع صاحبه، فلابد في

الكلم الطيب من عمل صالح؛ يرفع ذلك القول الطيب، والأقرب - والله أعلم - أن ما ذهب إليه المؤلف هو الصواب، أي: أن الله يرفع العمل الصالح، كما أن الكلم الطيب يصعد إلى الله، فإذا صعد الكلم الطيب إلى الله امتن الله على هذا المتكلم بأن رفع العمل الصالح الذي يعمله، إلا أننا لا نوافق المؤلف في تفسير الرفع بالقبول، نوافقه على مرجع الضمائر، لكن لا نوافقه على تفسير الرفع بالقبول، وحينئذ نقول: والعمل الصالح يرفعه الله ـ عز وجل ـ، العمل الصالح يرفعه الله، فيكون الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية ذكر القول والعمل، فذكر أن القول يصعد، وأن العمل يرفع؛ لأنه - أي: رفع العملِ - كالجزاء على الكلم الطيب، فإذا تكلم الإنسان بالكلمة الطيبة فصعدت إلى الله ـ عز وجل ـ قبلها، ثم رفع العمل الصالح، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

ويقول: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنبي] إلى آخره، الواو: للاستئناف، والذين: مبتدأ، وجملة: لهم عذاب شديد خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. فيه نوع من الإشكال؛ لأن السيئات لا تمكر وإنما يمكر بها، يعني: يمكر بسبب السيئات، فلماذا تعدى الفعل إليها؟ أفادنا المؤلف أن السيئات صفة لمصدر محذوف، التقدير: السيئات، فيكون الوصف هنا للفعل لا لما حصل به المكر للفعل؛ لأن فعلهم نفسه مكر سيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] تكون هنا السيئات صفة لمصدر محذوف تقديره المكرات، وسمى الله ـ عز وجل ـ السيئات مكرًا؛ لأن الإنسان في الواقع يخدع نفسه بها، ويخدع غيره بها، فيمني نفسه بالتوبة، وأنه سيتوب، أو يمني نفسه سعة حلم الله ومغفرته وأن الله واسع الحلم والمغفرة والرحمة فلن يؤاخذه بهذه العقوبة، فتمني الإنسان في هذا الباب من وجهين: الوجه الأول: أنه يمني نفسه التوبة، وما يدريه فلعله لا يتمكن منها، لعل سيئاته تحيط به ثم لا يتمكن من التوبة، أو لعله يفجؤه الموت ثم لا يتمكن من التوبة.

والنوع الثاني من المكر بالنفس بالسيئات: أنه يتمنى على الله الأماني، فيقول: إن الله غفور رحيم، والله واسع الرحمة، وسوف يعفو عني، كما يوجد من كثير من الناس عندما تنهاه عن معصية ويقول لك؟ الله غفور رحيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾. بعضهم يحتج بالآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ويقول: أنا لم أشرك، وما دون الشرك فإن الله تعالى يغفره، وجوابنا على هذا يسير جدًّا، وهو أن نقول له: أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؛ لأن الله - عز وجل - ما قال ويغفر ما دون ذلك وسكت، بل قيده لمن يشاء، فأنت أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له، وحينئذ يكون لك حجة، أما أن تفعل المعصية التي هي سبب العقوبة، ثم تتمنى على الله أمرًا لم يعدك الله به، بل قال: لمن يشاء، فهذا لا شك أنه ضلال منك.

وقوله: الذين ﴿يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ السيئات: هي ما يسوء الإنسان فعله، ما يسوء الإنسان فعله، مثل: معصية شرب الخمر والسرقة والزنا والربا وما أشبه ذلك، فإن قلت: هذا لا يسوء الإنسان فعله، فجوابنا على هذا أن نقول: إن أردت أنه لا يسوء الإنسان فعله أبدًا؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأنه يوم القيامة سوف يندم، وسوف يسوء الإنسان فعله في ذلك اليوم، أما في الدنيا فإنه يسوء الإنسان فعله، لأن للذنوب آثارًا على القلوب، فإن المعاصي تُكَوِّنُ نكتة سوداء في القلب، فإن تاب الإنسان انصقل قلبه وعاد إلى بياضه وإلا توسعت هذه النكتة السوداء، فأصبح القلب مظلمًا والعياذ بالله، بل يختم عليه حتى لا يصل إليه الخير، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، فللذنوب آثار عظمية على القلب، توجب أن يكون منقبضًا، وإذا تلذذ بعض الشيء في هذه المعصية؛ فإنه يعقب ذلك حسرة عظيمة في القلب، وضيقًا، واقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]. يتبين لك أن المعصية تسوء فاعلها؛ وإن كان قد لا يشعر بها؛ لأنه قد ران على قلبه ما كان يعمل، إذن السيئات سيئات بكل حال، تسوء صاحبها في الدنيا، ولكن قد لا يظهر وقد لا يتبين له، وفي الآخرة يظهر له ويتبين، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ﴾. المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنبي في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذكر في الأنفال]. هذا في الحقيقة إن أراد المؤلف أنه المراد بالآية دون غيره فقصور، وإن أراد بذلك التمثيل فصحيح، فإنه لا شك أن هؤلاء مكروا بالنبي - عليه الصلاة والسلام - كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. معنى ليثبتوك أي: يقيدوك، ويحبسوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك من مكة، ولكن الله - عز وجل - قال: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. فهم - الحمد لله - ما أثبتوه ولا قتلوه ولا أخرجوه، كل هذه انتفت، ومع حرصهم الشديد على تنفذيها يحصل منها شيء.

قال: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾. الجملة هذه جملة خبرية، وهي في محل رفع خبرالذين يمكرون، و﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ العذاب بمعنى: العقوبة؛ والشديد أي: القوي؛ قوي في إيلامه وإيجاعه، وفي أنواعه المتنوعة من حرور وبرد وعطش وجوع وغير ذلك من شدته، لهم والعياذ بالله سرابيل من قطران، و﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ قال الله تعالى: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. وانظر إلى ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ﴾ يتبين لك أن الزيادة، تأتي فورًا والله - عز وجل - قادر على أن تبقى بزيادتها، لكنها تخبو ليكون في قلوبهم شيء من الطمع في خفة العذاب، أو الخروج، ثم يعود، فيكون هذا أشد، لأن ضرب الإنسان بعقوبة بعد الطمع في زوالها يكون أشد عليه مما لو كان الأمر

مستمرًّا، وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. هذا مفصل في الكتاب والسنة، فمن تتبعه من القرآن يكون جيدًا.

أما أنواع العذاب التي للكافرين في النار، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَمَكْرُ﴾ مبتدأ، أين خبره؟ جملة﴿هُوَ يَبُورُ﴾، و﴿هُوَ﴾ لا تصح هنا أن تكون ضمير فصل؛ لأن القاعدة أن ضمير الفصل يكون بين اسمين، لا بين اسم وفعل، لكنها مبتدأ خبرها جملة يبور، والجملة من المبتدأ والخبر خبر مكر، وأتى بها للتركيب من باب تعظيم هذا الشي وتهويله.

وقوله: ﴿مكر أولئك﴾. ولم يقل: مكر هؤلاء، إما استبعادًا لهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا لأن يقربوا، أو لأنهم جعلوا أنفسهم في محل العالين الذين يشار إليهم من بُعْدٍ، فبيّن أن هؤلاء الذين تعالوا بمكرهم ـ وإن كانوا في القمة على حسب زعمهم ـ فإن هذا المكر يبور، والبوار بمعنى: الهلاك كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، فهؤلاء مكرهم يبور أي: يتلاشى ويضمحل، ولا يفيدهم شيئًا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد منها:** بيان قدرة الله - عز وجل - بإرساله هذا الرياح اللطيفة التي تحمل أو تثير هذا السحاب الثقيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢].

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات الأسباب، وأن المسببات مربوطة بأسبابها، لقوله: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾، فإن الفا هنا للسببية.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي في الأمور الهامة أن يصاغ الماضي بصيغة الحاضر استحضارًا له في الذهن، لقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾. فإن تصوير الماضي بصيغة الحاضر لا شك أنه يشد الإنسان إلى تصوره أكثر من الشيء الماضي.

٤ - **ومن فوائدها:** أن هذا السحاب يجري بأمر الله، لقوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

٥ - **ومنها:** أن هذا السحاب له شعور، يعني: يعرف ويدري، يمكن أن تؤخذ من قوله للرياح: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، كما تساق البعير، وعلى هذا جاء الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي سمع مناديًا من السحاب يقول: اسقي حديقة فلان، فإن توجيه الأمر إليه يدل على أنه ذو شعور، ولا شك أن جميع الكائنات بالنسبة لأمر الله ـ عز وجل ـ أنها ذات شعور، قال الله تعالى في الأرض والسماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١١].

٦ - **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - بإحياء الأرض بعد موته، من قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٧ - **ومنها**: صحة وصف الأرض بالحياة والموت، مع أنها ليست من الحيوان؛ لقوله: ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

٨ - **ومنها**: الرد على أهل الكلام الذين يقولون: إنه لا يوصف بالحياة والموت شيء من الجمادات؛ لأنه هنا أثبت الحياة والموت للأرض، وهي من الجمادات، وقال تعالى في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١].

٩ - **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- بإحياء الأرض بعد موتها، فإن هذه الأرض التي كانت يابسة هامدة تعود فتهتز خضرةً وازدهارًا؛ لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾، فأضاف الفعل إلى نفسه.

١٠ - **ومنها**: أيضًا إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾. فإن الباء هنا للسببية.

١١ - **ومنها**: جواز إضافة الشيء إلى سببه المعلوم، لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، وإضافة الشيء إلى سببه المعلوم أمر واقع في القرآن وفي السنة، بمعنى: أنه لا يشترط أن تقرن معه الله - عز وجل -، فإذا أضفت الشيء إلى سببه المعلوم وإن لم تقرن الله به فلا بأس، لكن المحرم أن يضاف إلى سبب غير معلوم لا شرعًا ولا حسًّا، أو أن يضاف إلى سببه المعلوم مقرونًا مع الله بحرف يقتضي التسوية مثال، فمثلًا: إضافة الشفاء إلى التمائم والحلق والخيوط وما أشبهها، هذا لا يجوز؛ لأن هذا السبب غير معلوم، فلا يصلح، وإضافة تليين البطن إلى العقار الذي تناولته حتى يلين بطنك صحيح لأنه سبب معلوم، معلوم بالحس، وإضافة الشفاء إلى قراءة الفاتحة جائز؛ لأنه سبب معلوم بالحس وبالشرع: «**وما يدريك أنها رقية**»[1]. فالمحظور إذن أن يضاف الشيء إلى غير سبب شرعي أو حسي، أو أن يضاف إلى سبب شرعي أو حسي مقرونًا مع الله بحرف يقتضي التسوية، مثل: لولا الله وكذا، فإن هذا لا يجوز؛ لأن هذا من الشرك؛ حيث قرن الله مع غيره بالواو التي تقتضي التسوية، ولكن قل: لولا الله ثم كذا.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات صحة القياس؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾. وإثبات القياس كثير في القرآن، فكل مثل ضربه الله فهو دليل على القياس سواءٌ للدنيا أوللإنسان أو للأوثان أو لأي شيء، فإنه دليل على ثبوت القياس وصحته؛ لأن المقصود بالمثل قياس المضروب بالمضروب فيه، وهذا هو القياس.

١٣ - **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن إحياء الموتى كإحياء الأرض بعد موتها، أي: أن المطر ينزل - كما جاء في الآثار - على الأرض كمني الرجال، يبقى أربعين يومًا تنبت منه الأجسام، ثم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

بعد ذلك ينفخ في الصور، فتعود الأرواح إلى أجسامها.

ثم قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الحث على طلب العزة من الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه ليس المعنى أن من أراد العزة فليطلبها من الله، يعني: أن المراد بذلك العرض فقط، كل أحد يريد العزة، لكن إذا أردت العزة فممن تطلبها؟ من الله، ففيه إثبات أن العزة تطلب من الله ـ عز وجل ـ.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا عزة بدون الله، وذلك بالقيام بطاعة الله والاستعانة به والاعتماد عليه، فإذا اعتز الإنسان بكثرته فإنه يهزم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. ولو اعتز الإنسان بقوته المادية؛ كقوة السلاح مثلًا فإنه يهزم، وإذا استعان بالله فإنه لا يهزم، اللهم إلا الحكمة تكون مقترنة بتلك القضية المعينة فقد يكون.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزة لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن العزة لها كل وبعض، من أين تؤخذ؟ تؤخذ من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنه يدل على أن هناك كلاً وبعضًا، وذلك أن العلماء قسموا العزة التي اتصف الله بها إلى ثلاث أقسام؛ عزة امتناع وعزة قدر وعزة قهر.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علو الله من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾؛ لأن الصعود هو العلو.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكلم غير الطيب لا يصعد إلى الله، لقوله: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(١).

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى انقسام الكلام؛ لقوله: ﴿الطَّيِّبُ﴾ فإن هذا الوصف إخراج لما سواه، وقد ذكرنا أن الذي يقابل الكلام الطيب نوعان من الكلام: الخبيث، وما ليس بطيب ولا خبيث، أما الخبيث فمردود بكل حال؛ لأنه خبيث لذاته، وأما ما ليس بطيب ولا خبيث فقلنا: إن هذا القسم من الكلام قد يكون طيبًا لغيره، وخبيثًا لغيره، وسالمًا من الوصفين، إذا كان طيبًا لغيره فإنه يصعد إلى الله؛ لعموم قوله: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ لا يرفع من الأعمال إلا ما كان صالحًا؛ لقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. والعمل الصالح ما اشتمل على وصفين: الإخلاص والمتابعة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).

الإخلاص لله - سبحانه وتعالى - والمتابعة لشرعه، فإن فقد الإخلاص، فليس بعمل صالح؛ لأنه شرك، وإن فقدت المتابعة فليس بعمل صالح؛ لأنه بدعة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأعمال السيئة مكر؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هذا إذا أخذناها على سبيل العموم، إما إذا قلنا: أن السيئات عام أريد به الخاص فالمكر الذي حصل من غزو قريش للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه يكون خاصًّا، لكن الأصل في الكلام العام أن يكون مرادًا به العموم، وأن يكون باقيًا على عمومه حتى يرد دليل على أنه أريد به الخصوص أو على أنه مخصص.

١٠ - **من فوائد الآية الكريمة:** الوعيد الشديد على أولئك الذين يمكرون السيئات؛ لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

١١ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن مكر هؤلاء هالك زائل لا فائدة فيه؛ لقوله: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. حتى أعمالهم لا تنفعهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. هذه هي الفوائد الظاهرة من هذه الآية الكريمة وربما عند التأمل يجد الإنسان أكثر؛ لأن كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحاط به، ولكن الناس يختلفون في الفهم.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١١، ١٢]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ ما سبق من الآيات الدالة على قدرته من إرسال الرياح وإثارة السحاب وسوقه إلى الأرض الميت وإحياؤه بعد موتها، وأن الأعمال ترفع إلى الله - عز وجل - وكذلك الأقوال.

قال هنا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾. هذا باعتبار الأصل الذي هو آدم؛ ولهذا قال المؤلف: [بخلق أبيكم آدم منه].

فإن الله تعالى خلقه من تراب، وهذه الآية فيها أن الله خلقه من تراب، وفي آية أخرى أنه خلقه من طين، وفي آية ثالثة أنه خلقه من صلصال كالفخار، وفي آية رابعة من حمإ مسنون، فما هو الجواب عن هذا التغير؟ الجواب: أن هذا تغير أوصاف وليس تغير ذوات، وحينئذ فلا تناقض، إذ يجوز أن تتعدد الأوصاف على موصوف واحد.

قال الله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١، ٢، ٣، ٤]. مع أنه واحد، فالحاصل أن يقال: في هذا التغير تغير أوصاف، لا تغير ذوات وأعيان، فالعين واحدة، لكن أولها التراب فإذا أضيف إليها الماء فصارت طينًا، فإذا أبطأ وأخذ مدة صار حمأ مسنونًا متغيرًا، يعني: أي الطين أبقى فيه الماء فبه يسبق ويكون له رائحة. والرابع من صلصال كالفخار هذا بعد أن كان حمأ مسنونًا يبس وصار صلصالًا كالفخار فيكون هنا التغير، تغير أوصاف، والأصل فيه التراب.

قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. ثم أتى بثم الدالة على التراخي والترتيب، والفاء تدل على الترتيب بدون تراخي، هنا قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ لأنه لما خلق آدم ـ سبحانه وتعالى ـ وخلق ذريته تناسل هؤلاء الذرية بواسطة هذا الماء، الذي هو النطفة، والنطفة هي: الماء القليل.

قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَني يخلق عندكم[بخلق ذريته منها]، أي: من هذه النطفة، والغريب أن هذه النطفة القليلة يذكر علماء الطب أنها تشتمل على ملايين من الحيوانات المنوية، وهذه الحيوانات التي يزعمون أنها ملايين ـ وهم أعلم منا بذلك ـ لا يصلح منها إلا واحد في الغالب، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، هذا أنهى ما سمعت، أنه يرد في المرأة أربعة أولاد في بطن واحد، والله على كل شيء قدير، قد ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

يقول: [﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكورًا وإناثًا].

قوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ فسر المؤلف هنا الأزواج بالذكورية والإناث، بقرينة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، فالأزواج هنا باعتبار الجنسين الذكر والأنثى، ويؤيد تخصيص الأزواج هنا بالذكور والإناث، والأنوثة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾، أما إذا نظرنا إلى لفظ أزواج فإن الأزواج معناها: الأصناف والأصناف أعم من الذكورة والأنوثة فإنه يشمل الشقي والسعيد والأسود والأبيض والطويل والقصير وغير ذلك، لكن الذي جعل المؤلف يحمل الكلام على الذكورة والأنوثة فقط قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾. فالله ـ عز وجل ـ بقدرته وحكمته جعل هذه الذرية التي خرجت من هذا الرجل الواحد ذكورًا وإناثًا، لبقاء النسل؛ لأنه لا يمكن بقاء النسل إلا بهذا، وإن كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادرًا على أن يبقي النسل بدون هذا، فإنه يقال: إن البشرية منها ما خلق بلا أم ولا أب، ومنها ما خلق من أب بلا أم، ومنها ما خلق من أم بلا أب، ومنها ما خلق من أبوين.

فالذي خُلِقَ بلا أم ولا أب: آدم ومن أب بلا أم: حواء، ومن أم بلا أب: عيسى، وسائر الناس بين أبوين من ذكر وأنثى.

يقول - عز وجل -: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ (ما) هذه شرطية (من) زائدة (وأنثى) فاعل تحمل مرفوع بضم مقدر منع من ظهوره التعذرلكنه واقع من حيث اللفظ مجرور لفظًا.

قوله: ﴿مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: الأنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [حال أي: معلومة له].

انظر ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾، أي أنثى تحمل، من بني آدم أو منهم ومن غيرهم.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالله - عز وجل - يعلم ما تحمل كل أنثى، في ابتداء الحمل، وتطور الحمل، ومآل الحمل، وكل ما يتعلق به، ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فأول ما ينشأ الحمل في الرحم معلوم عند الله، وإذا وضعت فهو معلوم عند الله - عز وجل - وقول المؤلف: [حال]، معنى حال يعني: أن الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، فمعنى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: إلا معلومة له، ويمكن أن نقول: إن الباء هنا للمصاحبة والمقارنة، أي: لا يحصل الحمل ولا الوضع إلا بعلم الله - عز وجل -، ونرد على ذلك أيضًا أنه بعلمه وإرادته ،و فيها دليل على أن من أثبت العلم لزم أن يثبت الإرادة، ولهذا قال أهل السنة بالنسبة للقدرية قالوا:

ناظروهم بالعلم قال الشافعي وغيره: ناظروهم بالعلم فإن أنكروه كفروا وإن أقروه خصموا، إن قالوا: الله ما يعلم أعمال العباد كفروا وإن قالوا: يعلم خصموا؛ لأنه إذا علمه ذلك فإما أن يقع الشيء على خلاف معلومه أو على وفاقه، فإن كان على وفاقه فبإرادته وإن كان على خلافه فإنها لم ينكروا العلم.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما هذه نافية أيضًا بدليل قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾. ودليل آخر قطع الفعل له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يزاد في عمر طويل العمر ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: ذلك المعمر أو معمر آخر إلا في كتاب، قوله: ﴿يُعَمَّرُ﴾ أي: من معمر. معنى التعمير: الزيادة في العمر.

المعنى: ما يزاد في عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب.

فقوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾. من هذه زائدة داخلة على نائب الفاعل، فنقول في المعمر: نائب فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع ظهورها الاشتغال بحركة حرف الجر الزائد.

و قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هنا يقول: من عمره قال المؤلف: [أي ذلك المعمر أو معمر آخر]، أما كون الضمير في قول المؤلف: يعود على معمر آخر فهذا لا إشكال فيه؛ لأنه يكون معمرًا فيكون الثاني ناقصًا، لكن إشكالًا إذا قلنا: إن الضمير يعود على نفس المعمر، فكيف

يكون معمرًا وهو في نفس الوقت منقوص من عمره، ما ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

هذا محل إشكال بما يظهر، إذا قلنا: الضمير يعود على ذلك المعمر فيكون زيد معمرًا منقوصًا من عمره إذا قلنا: إنه عائد على معمر آخر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عمر معمر آخر، لا يلزم هنا الأول فصار النقص يعود على شخص آخر فعندنا زيد معمر، وعمرو منقوص من عمره، وهذا لا إشكال فيه.

لكن الإشكال الأول اختلف المفسرون في توجيهه، فقال بعضهم: ما ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إن النقص هنا في مقابل الزيادة؛ لأن الإنسان كلما تقدم يومًا في الدنيا نقص عمره باعتبار آخر عمره، مثلًا أنا له أربع عشرة سنة إذا صار له أحد عشرة فقدر إنه سيموت في عشرين سنة نقص أم ماذا؟ كلما زاد من وجه نقص من وجه آخر، فالمعنى أنه يكتب نقصه كما تكتب زيادته، فيقال مثلًا:

يكتب مثلًا فلان بلغ من العمر عشر سنين، ونقص من عمره يعني: من آخر عمره عشر سنين، بلغ أحد عشر ونقص من عمره إحدى عشر، فبقي تسع، وهكذا، وإلى هذا ذهب بعض التابعين.

ولكن آخرين من أهل العلم من المفسرين قالوا: إن هذا فيما أخبر به النبي - عليه الصلاة والسلام - في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١).

يعني: أن الإنسان ينقص عمره ويزاد بحسب صلة الرحم، ثم ينقص من عمره إذا لم يصل رحمه ويزاد في عمره إذا وصله، والمعنى على هذا التفسير: أن زيادة العمر أو نقصه مكتوب عند الله - عز وجل - فمن قدر له أن عمره يطول بصلة رحمه فسوف يقدر له أن يصل رحمه، ومن قدر له أن ينقص عمره بقطيعة الرحم فسوف يكون قاطعًا لرحمه؛ لأن المسببات مربوطة بأسبابها، معلومة عند الله.

وهذا يزيل عنا الإشكال الذي أورده بعض العلماء في هذا الحديث، وحاولوا أن يفسروا زيادة العمر بالبركة في عمر الإنسان، بينما الله أنزل بركة في العمر وإن كان قصيرًا صار أحسن أو صار خيرًا من عمر طويل بلا بركة.

ولكن تقدم لنا أن هذا لا يخرجهم من الإشكال؛ لأن البركة أيضًا مكتوبة وكذلك نوعها مكتوب، فلا يخرجهم ذلك من الإشكال، لا يخرج من الإشكال إلا أن نقول: إن عمر الإنسان المطول بسبب صلة الرحم قد كتب أن يصل رحمه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٨٥)، ومسلم (٢٥٥٧).

إذن ما الفائدة من قول الرسول «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

الجواب: الفائدة من ذلك، الحث على صلة الرحم، كما أننا نقول: من أحب أن يدخل الجنة فليعمل عملًا صالحًا، فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة كيف إذا لم يعمل كتبت له الجنة ؟

نقول: هي مكتوبة من قبل أن يعمل لكن قد كتبت له الجنة وكتب أن يعمل لها عملها.

وعلى هذا كل ما حصل من تقديرات الله ـ عز وجل ـ فإنه لا يختص هذا بالعمر الإشكال وارد على الجميع، ولكن الجواب عنه بسيط: هو أن يقال: إن هذا المكتوب نتيجة لهذا السبب وهو معلوم عند الله، أما عندنا فليس بمعلوم.

إذن يكون أحسن احتمال في هذه الآية أن المراد من (عمره) أي: من معمر، وأن الإنسان قد يزاد في عمره لسبب من الأسباب وقد ينقص من عمره لسبب آخر.

قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ كتاب: فعال بمعنى: مفعول، كفراش بمعنى، مفروش، وغراس بمعنى: مغروس وبناء بمعنى: مبني، فكتاب بمعنى: مكتوب، فما هو هذا الكتاب؟

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو اللوح المحفوظ]، اللوح المحفوظ هذا السند محفوظ من عدة أوجه:

محفوظ أن يناله أحد؛ لأنه خاص بتقدير الله ـ عز وجل ـ محفوظ من أن يغير أو يبدل، ولهذا لو كتب اختلاف المعمول فإنه سيكون كما قال الله تعالى للقلم: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]، وكذلك أيضًا محفوظ عن الخلل، بحيث لا يجبر ما لا يكتب فيه ولا يتخلف ما يكتب فيه يعني: لا يأتيه السهو فهو متمم كل وجه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: هين.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق؛ الزيادة في العمر والنقص والكتاب، كله يسير على الله أي: هين عليه، وإن كان عند المخلوقين صعبًا وعسيرًا لكنه عند الله سهل ويسير؛ لأنه ـ عز وجل ـ إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾، ﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿يَسْتَوِي﴾ بمعنى: يتساوى ويتلاقى ﴿الْبَحْرَانِ﴾، وهذا كما ترون مجملًا، والبحر: هو الماء الكثير، فكل ماء كثير يسمى بحرًا، البحران هنا مجمل فصله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ العذب: بمعنى: الحلو المستساغ شربه والفرات: يقول المؤلف: في تفسيره [شديد العذوبة].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: شربه، سائغ بمعنى: سهل وميسر؛ لأنه حلو وعذب وليس فيهما كدر من وساخة أو حرارة زائدة أو برودة زائدة، المهم أنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾.

الثاني: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: شديد الملوحة، ملح شديد الملوحة، هل يستويان؟ لا، وهل هذا يراد به الحقيقة أو هو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر؟

قيل: إنه يراد به الحقيقة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

وقيل: إن المراد به: مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن بمنزلة العذب الفرات، والكافر بمنزلة الملح الأجاج، ولكن لدينا قاعدة في الكلام؛ أنه إذا دار الأمر بين أن يكون حقيقة أو غير حقيقة؛ وجب أن يحمل على الحقيقة، فهو أيضًا حقيقة ويؤيده أيضًا قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

فإن مثل هذا الترشيح يدل على أنه حقيقة وليس بمجاز، على أننا نقول: إنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره، كما مر علينا كثيرًا، ولكن مع هذا لا بأس أن يتصل من نفي اتصال بين هذين البحرين، ونفي التساوي بين كل شيئين متغايرين.

قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَأْكُلُونَ﴾.

قوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو: السمك، الطري معناه: الذي لم يتغير بنتن وهذه من صفات السمك؛ أنه وإن مات فإنه طري كما قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: صيده ما أكل حيًّا وطعامه ما أكل ميتًا.

ثانيًا: من فوائد هذين البحرين ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من الملح وقيل: منهما ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي: اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢]، وقد اختلف الناس؛ هل هذا لا يخرج إلا من المالح أو يخرج من المالح والعذب، فأكثر المفسرين على أنه لا يخرج إلا من المالح، وحملوا قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] على أن المراد: من مجموعهما لا من جميعهما، من مجموعهما لا من الجميع، فهنا إذا قلنا: عندنا بحران عذب، ومالح يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، منهما أي: من المجموع لا من الجميع بحيث أن يكون من كل واحد، ولكن الصحيح أنه يخرج من الجميع؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن والله - سبحانه وتعالى - أعلم بما خلق.

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وقد ثبت الآن أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من هذا ومن هذا، ولهذا قال المؤلف: [وقيل منهما].

وقوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وذكر اللُّبس؛ لأنه غاية ما ينتفع به من هذه الحلية، وأننا نستخرج هذه الحلية، ونتخذها تجارة، وتجارة اللؤلؤ والمرجان فيما سبق وإلى الآن لم تزل تجارة قوية، لكن التجار الذين يتجرون بها ماذا أرادوا بذلك؟ اللبس؛ لأن الذي يشتريها منهم يريد بها اللبس؛

يلبسها فذكر الله في هذين البحرين كسوة للبدن في باطنه وكسوة للبدن في ظاهره للبدن في الباطن أكل اللحم أكل اللحم كسوة للبدن في باطنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] ولم يقل: تظمأ، بل قال: ولا تعرى؛ لأن الجوع عري الباطن، والعري عري الظاهر.

ثم نقول: ذكر الله لباسين؛ اللباس الباطن بأكل اللحم، واللباس الظاهر في هذه الحلية.

[﴿وَتَرَى﴾: تبصر ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: السفن ﴿فِيهِ﴾: في كل منهما].

قال: ﴿وَتَرَى﴾ أي: تبصر الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب، والرؤية هنا بصرية، فإننا نشاهد البواخر في البحار تمخر الماء أي: تشقه، وقوله: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ﴿فِيهِ﴾ قال المؤلف: [في كل منهما].

أشار المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إلى إشكال؛ لأنه هنا يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ ومقتضى السياق أن يكون التعبير هكذا: (وترى الفلك فيهما)، ولكن الضمير هنا لا يعود على البحرين؛ وإنما يعود على ﴿كُلٍّ﴾، والكل كلمة لفظها مفرد، فعاد الضمير في هذه الآية على كل باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، ومن هنا قال المؤلف: [في كل منهما]، فزال الإشكال.

و قوله: ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: [تمخر الماء، أي: تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة، بريح واحدة].

وهذا من نعمة الله - عز وجل - أن سخر الفلك لنا تجري على هذا الماء، وتمخر عباب الماء حاملة أنواع الأرزاق، وحاملة البشر الكثير، ولذلك ترون الفلك الآن يعتبر بلدًا كاملًا إذا دخلتها فإذا هي كالبلد، هذا من نعمة الله - سبحانه وتعالى - .

فذكر ثلاث نعم:

الأولى: أكل اللحم، والثانية: الحلية، والثالثة: البواخر التي تعبر أو تشق الماء من ناحية إلى أخرى لتنقل الأرزاق والآدميين.

و تأمل قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ و﴿تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ لأن السمك أخذه هين ما يحتاج إلى كلفة، فذكر الأكل مباشرة، اللؤلؤ والمرجان يحتاج إلى كلفة وإلى تعب؛ لأنه يحتاج إلى غوص وطول نفس أو قل: أشياء تعين على النفس، ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: تطلبون حلية. الفلك قال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ لأن مشاهدتها بالعين، وهي تشق الماء يرى الإنسان فيها من أعظم فضل الله - عز وجل - عليه.

قال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [﴿ف﴾: تطلبوا ﴿ف ﴾ تعالى بالتجارة ﴿ة تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك].

يعني: سخر الفلك وجعله مواخر في هذا البحر لأمرين، أولها: لتبتغوا من فضله، أي: تطلبوا الرزق بما تحمله هذه البواخر، ولو تأملنا مثلًا الأرزاق من أمريكا ومن اليابان ومن المناطق الأخرى البعيدة؛ إلا بواسطة هذه البواخر التي تحمل الشيء الكثير، هذا من فضل الله عز وجل

أما قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن (لعل) تأتي للترجي، وتأتي للتوقع، وتأت للإشهاد

وتأتي للتعريض، فلأي المعاني كانت في هذه الآية؟ التعليل يعني: لأجل أن تشكروا الله - عز وجل -، إذا رأيتم هذه البواخر تمخر الماء، وتأتي بالأرزاق من ناحية إلى ناحية .

فإن هذا يستوجب أن تشكروا الله - سبحانه وتعالى - على هذه النعم والشكر؛ قال العلماء في تفسيره: هو القيام بطاعة المنعم، اعترافًا بالقلب، وتحدثا باللسان، وطاعة بالأركان جعل في مواضعه الثلاثة القلب واللسان والجوارح ولهذا قال الشاعر:

أَصَابَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّلِ

وهذا الشكر يكون بهذه المواضع الثلاثة، والحمد يكون باللسان،، فمتعلق الشكر أعم، وسببه أخص، ومتعلق الحمد أخص وسببه أعم، وأن الحمد يكون في مقابلة النعمة ويكون في مقابلة الكمال المحمود، فهو أعم من حيث المتعلق، فالشكر أعم في المتعلق وأخص في السبب والحمد بالعكس.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى آخره.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - بابتداء خلق بني آدم، فهو خلقهم من تراب ثم من نطفة إلى آخره.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله بحكمته ورحمته جعل بني آدم أزواجًا ذكرًا وأنثى وذلك لبقاء النسل وحصول المتعة .

٣ - **ومن فوائدها:** إحاطة علم الله بكل شيء، في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات القدرة لله - عز وجل - من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، لأن الخلق لا يكون إلا بعد علم وقدرة.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الأعمار الطويل منها والقصير كله مكتوب عند الله - عز وجل - في كتاب.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات مرتبتين من مراتب القدر، وهما: العلم والكتابة.

٧ - ومن فوائدها أيضًا: سهولة هذا الشيء على الله سبحانه وتعالى، وهو الخلق والكتابة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٨ - **فيها أيضًا:** من المرتبة الثالثة من مراتب القدر، وهي الخلق، إذن هي أربع مراتب: العلم والكتابة والخلق، والمشيئة، يمكن نأخذها من الآية، كيف ذلك؟ قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا كله بالمشيئة، فيكون المعنى بأن المراد في الآية: إثبات مواطن القدر الأربعة، العلم ثم الكتابة

ثم المشيئة ثم الخلق، وقد جمعت هذه المراتب الأربعة في بيت أنشدتكموه من قبل: علم كتابة مشيئة وخلقه وهو إيجاد وتكوين هذه مراتب القدر الأربعة.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى آخره في هذه الآية من **الفوائد:**

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الأشياء المفترقة لا يمكن أن تكون متساوية لقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى آخره يتفرع من هذه الفائدة: أنه لا يمكن التسوية بين الرجل والمرأة في الحقوق ولا في غيرها؛ لأن تكوين خلقة المرأة يختلف عن تكوين خلقة الرجل ولهذا جعل الله للمرأة أعمالًا تليق بها وللرجل أعمالًا تليق به.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** فقد سألت عائشة النبي عليه الصلاة والسلام: هل على النساء جهاد قال: «**عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الحَجُّ والعُمْرَةُ**»[1]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَمْرَهُم امْرَأَة**»[2]، ومنع النبي ﷺ من تزويج المرأة نفسها، إلى آخر ما تعرفون من الفروق بين الرجل وبين المرأة، وفي الميراث جعل للمرأة نصف الرجل إذا كان من جنسها، كالإخوة، والأعمام.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** أننا نعتبر المجموع لا نعتبر الجميع لقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع هذا هو إمضاء ظاهر القرآن يقول: من هذا ومن هذا أما السمك فهو موجود ما فيه إشكال، ولا أحد يقول: إنه ممنوع، لكن الذى فيه خلاف هو مسألة اللؤلؤ والمرجان، هل يخرج من واحد أم لا، وسيأتي - إن شاء الله - بيان أيضًا أنه ليس المراد اللؤلؤ والمرجان فقط قد يتحلى الناس مما يأخذون من البحر من غير هذين النوعين.

٤ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - حيث جعل من هذا الماء هذين الصنفين المتباعدين هما: بحران من الماء أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ﴾ والثاني: ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فهما شيء واحد ومع ذلك يختلف عنه هذا الاختلاف.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الماء العذب يكون سائغ الشرب، ويتفرع على ذلك أنه لا ينبغي للإنسان أن يشرب ما لا يستسيغه؛ لأن ذلك يؤثر عليه ويضره.

كما أنه لا مانع من أن يتناول ما تشتهيه نفسه؛ وإن كان في بعض الحالات ضررًا عليه، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» أن لطلب النفس الشيء أثرًا كبيرًا في انتفاء مضرته، وضرب لذلك مثلًا بالميتة: فهى خبيثة مضرة، فإذا اضطر الإنسان إليها، واشتدت حاجته وضرورته صارت

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٦٥)، وابن ماجه (٢٩٠١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٨١).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

النفس تقبلها وتستسيغها ثم تهضمها، فلا تضرها؛ لأنها لو كانت تضر – ميتة -؛ تضر المضطر ضرر غير المضطر، لكان حلها له يتضمن قتل نفسه، ولذلك لو اضطر إلى أكل وليس عنده إلا سم لم يحل له أن يأكل السم.

وضرب مثلًا لذلك أيضًا: بقصة صهيب الرومي كان أرمد يعني: عينه بها رمد، فجيء إلى النبي ﷺ بتمر فأكل منه النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب صهيب يأكل، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ أَرْمَدُ» والمعروف أن الذي في عينه رمد لا يأكل التمر، فقال: يا رسول الله أمضغه من الجانب الآخر[1]. مثلًا إذا كانت عينه اليمنى فيها الرمد يمضغه على الجانب الأيسر، فضحك النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: « كُلْ » .

قال لأن نفسه الآن كانت تطلبه طلبًا قويًّا وهذا الطلب يزيل ضررها فالمهم أن الشيء الذي لا يستساغ لا ينبغي للإنسان أن يتناوله ويكره نفسه عليه ولهذا قيل: «**كُل ما يشتهي بطنك ولا تأكل ما يشتهي فمك**» ما أدري هل يصلح هذا أم لا؟ نعم يصلح؛ لأن بعض الناس يتلذذ بنوع من الطعام، لكن بطنه لا تقبله، تجده إذا أكل يتعب بطنه، نقول: هذا لا تأكل لو اشتهته بطنك؛ لأن هذا ضرر عليك .

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بما يستخرجونه من هذه البحار من اللحوم لقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدون مشقة، وبدون تعب ومع ذلك فإن لحوم السمك من أحسن اللحوم، وكذلك نعمة الله - عز وجل - بما نستخرجه من هذه البحار الحلية التي نلبسها.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان الفرق بين تناول اللحوم من هذ ه البحار وتناول الحلي؛ لأنه في اللحوم قال: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ولم يذكر العلاج الذي نتوصل به إلى هذا الأكل؛ لأنه سهل هين لا يبطيء لكن في الحلية قال: تستخرجون؛ لأنها تحتاج إلى مشقة وعناء.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله - عز وجل - بحمل هذا الفلك الثقيل المملوء بالبضائع على متن الماء، ومع ذلك يستطيع أن يقطع الماء ويمخره لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وإلا فإن الماء ثقيل ليس بالهين، ولهذا عندما يسبح الإنسان في الماء يحتاج إلى قوة حتى يدفع الماء، لكن هذه السفن تمخر الماء، وتظهر هذه النعمة إذا تذكر الإنسان السفن القديمة التي تجري بالرياح .

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان نعمة الله علينا بنيل ما نطلبه من فضله بواسطة هذه البواخر لقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

١٠ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي يتوصل بها إلى المقصود لقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أما أن نقول: الإنسان يبقى في البيت ورزقه يأتيه ويقول: إنه متوكل على الله، هل نوافقه على قوله؟ لا. نقول: إذا كنت متوكلًا على الله، لا تكن متواكلًا، فرق بين التواكل والتوكل، افعل السبب.

هذا النبي عليه الصلاة والسلام سيد المتوكلين، ومع ذلك كان يفعل الأسباب الجالبة للخير الدافعة للشر، أليس كذلك؟ إذن ابتغ من فضل الله وافعل السبب، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة؛ وإنما يأتي الرزق بطلب الإنسان، والأمر أظهر من أن يحتاج إلى أمثلة: من فإن قال قائل: إذا كان الله قد قدر لي ولدًا فسيأتي ولم يتزوج، نقول: هذا الكلام كلام رجل مجنون، كيف يمكن أن يأتيك الولد وأنت لم تتزوج، ما علمنا أن الأولاد تنبت من السلالم أبدًا، وإنما تأتي بفعل أسبابها بالزواج ،لكن بعض أبواب الرزق يحتاج إلى طلب ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾

١١ - **ومن فوائدها:** وجوب شكر نعمة الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن الله جعل هذه النعم وسخرها لنا لنقوم بشكره سبحانه وتعالى، وقد مر علينا كثيرًا أن الشكر موضعه اللسان والقلب والجوارح.

❁ قال الله تعالى:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٣، ١٤]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - مبينًا كمال قدرته ونعمته أيضًا، قال: [﴿يُولِجُ﴾ يدخل الله ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فيزيد ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يدخله في الليل فيزيد]، انتبه لكلام المؤلف هل يوافق الظاهر أم لا ؟، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فيزيد وما الذى يزيد؟ النهار

أدخل الله النهار زاد الليل، وإن كان يعود على أقرب مذكور وهو النهار، فيزيد، فهذا فيه نظر، لكن توجيهه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أن شيئًا من الليل يكون جزءًا من النهار، هذا توجيهه،

أن شيئًا من الليل يكون جزءًا من النهار، فإذا كان شيء من الليل جزءًا من النهار؛ معناه: زاد النهار، يعني: كأنه يقول مثلًا: دخل الليل في النهار فصار نهارًا، وحينئذ، وما الذي يزيد؟ النهار، والعكس بالعكس.

لكن الظاهر من الآيات الكريمة: أنه يدخل الليل في النهار فيكون جزءًا من النهار ليلًا، الآن لو قلت: أدخلت هذه الساقية في هذه الأرض، أدخلتها في الأرض الجزء الذي دخل من الساقية جعل الأرض ساقية، إذن: أدخلت الليل في النهار، جعلت جزءًا من النهار ليلًا، وحينئذٍ يكون الليل هو الذي يطول.

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل لا شك أنه دال على تمام قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن يولجوا جزءًا يسيرًا من الليل في النهار أو بالعكس ما استطاعوا أبدًا ثم هذا الإيلاج أيضًا إيلاج بنظام معنى: بنظام؟ أي: أنه يأتي شيئًا فشيئًا، حتى تتكيف طباع البشر لهذا الإيلاج، ما ظنكم لو أنه جاء الليل بنهايته دفعة واحدة، يعني: مثلًا اليوم صار الليل ثمان ساعات وخمس وثلاثين دقيقة، في الليلة القادمة صار اثني عشر ساعة وخمس دقائق، ماذا تكون حال الناس؟ تضطرب، لكنه - سبحانه وتعالى - يولجه شيئًا فشيئًا، هذا من جهة الاضطراب.

من جهة أخرى لو ولج هكذا دفعة أنتم تعرفون أن سبب طول النهار غروب الشمس من(مستأنفة الرءوس) وإذا غربت الشمس من(مستأنفة الرءوس) فلابد أن تكون شديدة الحرارة، معنى ذلك: أن يكون اليوم هذا في عز الشتاء، واليوم الذي يليه في عز الصيف، وهذا ضرر عظيم.

لكنه - سبحانه وتعالى - يولجه شيئًا فشيئًا، وهذا من تمام القدرة والحكمة والرحمة.

أيضًا إيلاج الليل في النهار وبالعكس له تأثير عظيم على الجو؛ لأنه ينقلب الجو من بارد شديد على طول الزمن إلى حار شديد على طول الزمن أيضًا، ألم تعلموا أن هذه الحرارة الشديدة تقتل من الجراثيم الضارة مالا يعلم به إلا الله - عز وجل -، ولهذا نضرب مثلًا بسيطًا كلنا يشاهده البعوض إذا اشتد الحر مات، مات فلم يبق له أثر، ولهذا أكثر ما يكثر في الزمن الذي بين الحر والشتاء، الشتاء كذلك شدة البرودة تقتل جراثيم تعيش على الحرارة، ولا يعلم بها إلا الله عز وجل.

ومن ثم قال العلماء: إن أكثر أهل الأرض أمراضًا هم الذين على خط الاستواء وما قاربه؛ لأنه ليس عندهم شتاء يقتل أو صيف حار يقتل أيضًا، وهذا أمر مشاهد.

إذن إيلاج الليل في النهار فيه عدة حكم.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذللها لعباده.

قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ الشمس معروفة، والقمر معروف، فمعنى: سخرهما أي: ذللهما، ذللهما لمصالح العباد، فإن في الشمس والقمر من المصالح العظيمة للعباد ما يعرفه أهل العلم بهذا الشأن، مصالح عظيمة، هذه الشمس والقمر ما بين الله لنا ثقلهما، ولا حجمهما؛ لأن ذلك ليس بالعلم النافع المفيد لنا فالجهل به لا يضر، والعلم به من فضول العلم، إن لم يشغلك عما هو أهم منه فاشتغل به، إنما بيّن المصالح التي تترتب على تسخير الشمس والقمر، قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، فبالشمس يكون النهار والليل، ويكون أيضًا نضج الثمار، وتكون الأنوار العظيمة.

ماذا يتوفر للعالم من الطاقة بعد خروج الشمس؟ كثير، كثير لا يحصى؛ لأنها توفر الكهرباء، وتوفر أيضًا تليين الأشياء التى تحتاج إلى تليين، وإلى حرارة، ثم إنه في الأزمنة الأخيرة صاروا يستنتجون من حرارة الشمس طاقة كبيرة عظيمة. أما القمر فسخر لنا أيضًا بما يحصل من نوره في الليل، وبما يحصل منه من العلم بالحساب وعدد السنين، وما إلى ذلك، وإن شئتم مزيدًا من هذا فراجعوا كتاب« مفتاح دار السعادة»، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر من مصالح الشمس والقمر أشياء عظيمة كبيرة، وذكر غيره أيضًا ذلك، لكن يجد الإنسان فرقًا بين بحث ابن القيم مثلًا وبحث العلماء؛ علماء الطبيعة؛ لأن علماء الطبيعة ينظرون إلى هذه الأشياء من زاوية مظلمة حالكة مادية محضة، لا يتربى فيها الإنسان تربية دينية، ولا يعرف بها قدرة الله ونعمته، لكن إذا تكلم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك يقرن هذا دائما برحمة الله وقدرته وحكمته، فيجد الإنسان مع علمه بهذا الفن من العلوم يجد مع ذلك خشية لله - عز وجل - وتعظيمًا له ومحبة له.

قال: [﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجۡرِي﴾ في فلكه ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يوم القيامة] كلٌّ من الشمس والقمر، ﴿يَجۡرِي﴾ يعني: يسير في فلكه لأجل مسمى، الفَلَك شبهه ابن عباس رضي الله عنهما بفلكة المغزل، فلكة المغزل عبارة عن قرص، قرص في أعلاه، وفي أسفله عود، عود ينطوي عليه الحبل الذي يغزل، هذه تدور لأن المرأة التى تغزل تبرمها هكذا حتى يدور ويحكم الحبل، الفَلَك هذا، للشمس فلك تدور به، وللقمر فلك يدور به.

وفي إسناد الجريان إلى كل منهما دليل على أنهما يسيران بذاتهما، ويدوران على الأرض، وهذا شيء مشاهد، أن الشمس تدور على الأرض، وكذلك القمر، وما ادعاه علماء الهيئة من أن الأرض هي التي تدور، والشمس لا تدور حول الأرض؛ فإننا نكذبه، حتى يقوم لنا دليل حسي؛ يكون لنا حجة أمام الله - عز وجل - في الخروج عن ظاهر كلامه، وإلا فالواجب علينا نحو هذه الأمور ألا نخرج عن ظاهر كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الخالق، والخالق أعلم بما خلق من غيره، هذا مُسَلَّم، ولأن كلام الله - عز وجل - أوضح الكلام وأبينه، فلا يمكن أن يكون فيه شيء من التعقيد، لا اللفظي ولا المعنوي، بل هو واضح في معناه ظاهر.

ولأن كلام الله - عز وجل - أصدق الكلام، فلا يمكن أن يخبرنا الله - عز وجل - بأمر لم يكن، أو بأمر يكو ن الواقع على خلافه، ولأن الله - عز وجل - أحبُّ أحد يكون البيان إليه، يعني: أنه يحب البيان لعباده أكثر من أي أحد، واقرأ قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] وما أشبهها من الآيات الدالة على أن الله - عز وجل - يريد أن يبين لعباده ما يهتدون به.

فإذا كان - سبحانه وتعالى - هو أحبُّ من تكلم إليه البيان أو هو أحبُّ من يكون البيان إليه، وهو الله - عز وجل -، فإن الله تعالى لا يمكن أن يقول في كلامه ما ليس فيه بيان لنا،إذن فنحن نكذبهم، ونقول: كذبتم أن يكون تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الأرض، بل تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الشمس على الأرض، ولا غرابة بذلك، هم يقولون: كيف أن الكبير يدور على الصغير؟ ما في مانع، نحن معكم بأن الشمس أكبر من الأرض، لكن ما المانع من أن يكون الجزء الكبير أو الجرم الكبير هو الذي يدور على الصغير، ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدنا أن الله - سبحانه وتعالى - يضيف هذه الحركة إلى الشمس نفسها، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧] ويقول الله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] وفي القرآن يقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] هذه ست مواضع.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] مثل: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، كلها تدل على أن هذه الأفعال تقع من الشمس، لو كان هذا يأتي بدوران الأرض لقال: وترى الشمس إذا طلعوا عليها؛ لأنه إذا دارت الأرض؛ فنحن الذين نطلع على الشمس أم هي الشمس التى تطلع علينا، وأما قولهم: إن هذا خطاب للناس بما يشاهدونه بأعينهم؛ والأمر على خلافه، يعني: إذا طلعت حسب رؤية العين، وفي الواقع أننا نحن الذين نطلع عليها؛ فبماذا نجيبهم؟

نقول: هذاخلاف ظاهر اللفظ، ولا يمكن أن نحيد عن هذا الظاهر إلا بدليل محسوس، يمكننا أن نحتج به أمام الله - عز وجل -، لأن الله سيحاسبنا، يقول: لما ذا عدلتم عن كلامي إلى كلام غيري، والخطاب من الله سبحانه وتعالى، ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ تزاور هي أي: تميل، ولو كان ذلك بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تميل، وإذا غربت لو كان هذا بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تغرب عن الشمس.

أما في السنة فقد قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» أسند الذهاب إليها عندما غربت، ولو كانت الأرض هي التي دارت حتى اختفت الشمس؛ لكان يقول: أتدري أين تذهب الأرض مثلًا، والحاصل أنه يجب علينا، يجب علينا وجوبًا، أن نأخذ

بظاهر القرآن، وأن الشمس هي التي تدور على الأرض، وأنه بدورانها يحصل اختلاف الليل والنهار، هذا الواجب، ولا يجوز أن نحيد عن هذا أبدًا، إلا إذا قام الدليل الحسي على خلاف ذلك؛ فإنه حينئذ يتعين التأويل، وصرف الكلام عن ظاهره؛ لأننا نعلم علم اليقين أن القرآن لا يخالف الواقع، أما شيء يقولونه وأوهامهم، ويقدرونه، فإننا لا نوافقهم على ذلك، ولا يسع المؤمن أن يحيد عن ظاهر كلام الله لمجرد قولهم أبدًا، أما مسألة الأرض؛ هل تدور أو ما تدور ؟

فنحن نقول: لا نصد ق ولا نكذب،، فيمكن أن يكون لها دروة، ومع ذلك للشمس دورة، هم يقولون: إذا أقررتم بدوران الأرض؛ لزمكم أن تقولوا إن الشمس ثابتة، فنقول: ليس ذلك بلازم، يمكن أن يكون للشمس دورة، وللأرض دورة أخرى، ولا مانع من ذلك، ولكن مع هذا نقول: إن الكلام في دوران الأرض من فضول العلم؛ الذي لا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته به، إلا رجلًا يحتاج إلى معرفة ذلك، كما يذكر أنهم يحتاجون إليه في الصواريخ الموجهة، وما أشبه ذلك مما هو معروف عند أهله، فحينئذ إذا احتاج إليه فلا حرج أن يبحث فيه، أما إذا لم يحتج إليه فنقول: هذا ضياع وقت، وما الفائدة من أن تعلم إنها تدور أو لا تدور؟ احمد الله إن الله جعلها قرارًا سواء كانت تدور أو لا تدور.

قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، يحتمل أن تكون لام العاقبة، أي: كل يجري حتى ينتهي إلى هذا الأجل، ويحتمل أن تكون اللام بمعنى: إلى، كما جاءت به في موضع آخر، ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]و على كل حال، فهي تدل على أن لهذا الجريان غاية، وهو كذلك، هذه الغاية فسرها المؤلف، بقوله: [يوم القيامة]، [وقوله: ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: معين عند الله سبحانه وتعالى، وهو معلوم عنده، وليس معلومًا عندنا.

إذن: فهذه الشمس والقمر ليستا أبديتين لكنهما دائبان، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: مستمرين، لكن لهما أجل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الإشارة تعود إلى ما ذكر؛ من التسخير والجريان، أو تعود إلى الفاعل في قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾؟ إذن ذلكم المسخِّر الله، فالمشار إليه الآن مفرد مذكر، والمخاطب جماعة ذكور، وهنا نسأل ما ذا يراعى في اسم الإشارة وكاف الخطاب؟ هل يراعى المخاطب أو المشار إليه، نقول: أما اسم الإشارة فيراعى فيها المشار إليه، وأما الكاف فيراعى فيها المخاطب.

هل الأفصح في المخاطب أن يكون الضمير على حسب المخاطب، يعني: جماعة ذكور إذا كان المخاطب جماعة ذكور، جماعة إناث إذا كان المخاطب جماعة إناث، مثنى إذا كان المخاطب مثنى، مفرد مفتوح إذا كان المخاطب مذكرًا، مفرد مكسور إذا كان المخاطب مؤنثًا، أو الأفصح أن يكون بلفظ الإفراد دائما مفرد: مذكر ؟

نقول: فيه ثلاث لغات

أولًا: أن يكون باعتبار المخاطب مطلقًا، هذا واحد، ثانيًا: أن يكون بالفتح دائمًا، ثالثًا: أن يكون بالفتح لمفرد في المذكر، وبالكسر لمفرد في المؤنث مطلقًا

اللغة الأولى وهي المشهورة الفصحى، أن تكون الكاف بحسب المخاطب مطلقًا، تخاطب مفردًا مذكرًا تقول ذلكَ، مفردة مؤنثة ذلكِ، مثنى ذلكما، جماعة ذكور ذلكم، جماعة إناث ذلكن، هذا الأفصح، ثانيًا: أن تجعله مفردًا مفتوحًا في المذكر مطلقًا،

فتقول: ذلكَ سواء كنت تخاطب مفردًا أو مثنًى أو جمعًا، لكن بشرط أن يكون مذكرًا، وتقول في المؤنث ذلكِ، سواء كنت تخاطب واحدة أو جماعة أو مثنى، الثالث: أن تجعله مفتوحًا بصيغة المذكر دائمًا، أيًا خاطبت، فتقول: ذلكَ، سواء كنت تخاطب رجلًا أو امرأة، جماعة أو مثنى أو مفرد . هنا يقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشار إليه في الآية ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه ما نوعه؟ المشار إليه مفرد مذكر، والمخاطب جماعة؛ لأن الله يخاطب الناس جميعًا، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، الرب يطلق على معانٍ كثيرة في اللغة العربية، منها الخالق المالك المدبر، فالربوبية معناه: أن الله سبحانه خالق مالك مدبر، ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملة خبرية قدم فيها الخبر للدلالة على الحصر، يعني: له وحده الملك دون غيره، الملك المطلق الشامل، الملك المطلق الشامل لله وحده، ملك الذوات والأعيان، وملك التصرف في هذه الأعيان، فهو المالك لكل مخلوق، وهو المتصرف في كل مخلوق.

فإذا قلت: كيف يصح الحصر مع أن الله - عز وجل - أثبت الملك لغيره فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]فأثبت الملك لغيره وأنت تقول: إ ن هذه الجملة فيها حصر ؟

فالجواب: من وجهين، الوجه الأول: أن ملكنا ليس ملكًا مطلق؛ بل هو ملك مقيد بحسب الشريعة، فأنا مثلًا مالك لهذه الحقيبة، لكن لا أملك أن أتلفها، هل أملك أن أتلفها؟ أبدا، يعني: حرام على أن أتلفها مالك لهذه البعير مثلًا، لكن هل أملك أن أعذبها؟ هل أملك أن أجرحها؟ ما أملك هذا، إلا بإذن من الشرع، ولهذا لما أذن الشرع بالوسم، وسم البعير، مع أنه مؤذ لها، جاز، ولما أذن بإشعار الإبل والبقر في الهدي؛ جاز، والإشعار: أن يشق السنام، يشق السنام في السكين، في الهدي، حتى يسيل الدم على الشعر والجلد، وماالفائدة من هذا؟ الفائدة: ليعرف أن هذه هدي، ولذلك نحن نشعرها الإبل والبقر، ونقلد الإبل والبقر والغنم، الغنم ما فيها إشعار؛ فيها تقليد فقط وما هو التقليد؟ التقليد: أننا نضع عليها قلادة في العنق، نعلق فيها النعال، النعال القديمة المتقطعة، وآذان القرب، القرب معروفة، القربة واحدها قربة، آذان القرب يعني تقطع القرب

لتعلق بها، النعال يلقوه على هذه البعير أو البقرة أو الشاة، لماذا؟ ليعرف أنها هدي؛ لأن النعال المتقطعة وقطع القرب تدل على الرثاثة والفقر، إشارة إلى أن هذه للفقراء.

لكن قصدنا أن ملكنا للشيء مقيد، ثانيًا: أنه ملك قاصر، يعني: ليس شاملًا فأنا مثلًا أملك هذه الحقيبة لكن أنت لا تملكها، وأنت تملك هذا الكتاب وأنا لا أملكه،إذن فهو ملك قاصر، لا يتعدى، أما ملك الله - عز وجل - فإنه ملك مطلق، يتصرف في ملكه كما يشاء، وهو ملك عام شامل، أليس كذلك؟ الله - عز وجل - ينزل الأمراض، وينزل الجروح في مخلوقاته أليس الله تعالى يبتلي الإنسان، يظهر فيه الجروح تألمه وتزعجه، وآلام في أعصابه وفي عظامه لو أن أحدًا من المخلوقين أراد أن يفعل ذلك؛ لكان ممنوعًا ولا يجوز.

لكن الله - عز وجل - له أن يفعل ما شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، إذن الله هو الرب، وهو الذي له الملك، وهذا الملك أيضًا شامل للأعيان والذوات، وشامل للتصرف فيها، ومنه التصرف في الحكم، فالأحكام الشرعية لا تتلقى إلا من الله - عز وجل -، ويجب أن نؤمن ونطبق جميع أحكام الله، سواء كان ذلك في العبادات أو في المعاملات أو الأحوال، يجب أن يطبق الجميع، فإن قال أحد من الناس: العبادة حق الله فهي بيني وبينه، ولا أتجاوز ما شرع، والمعاملة حق الإنسان، له أن يتجاوز الشرع فيها، فأنا لي أن أعدل عن شريعة الله إلى حكم الطواغيت، يجوز أم لا؟ البيع والشراء لي أنا، لمصلحتي، فأي نوع من البيع والشراء يتفق مع المصلحة والكسب فلي أن أفعله، ربا غش مكر، كل شيء هذا التصرف لنا، المسجد لله والو طن للشعب أو للجميع!!!!

نقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ليس لأحد الملك، الملك لله - عز وجل -، يتصرف في هذا الملك كما يشاء، حلًا وحرمة وإيجادًا، ولا أحد يدخل في ذلك، والذي يقول هذا ويعمل بالشرع في العبادات وينكر الشرع في المعاملات نقول: إنه كافر، مرتد عن الإسلام، لا يجوز إقراره على هذا الشيء؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠] فالإيمان ببعض الرسل دون بعض، كالإيمان ببعض الشريعة دون بعض؛ لأن الأول تجزئته في الرسل، وهذا تجزئته في المرسل به، ولا فرق، كالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه هو في الحقيقة كافر بالجميع؛ لأننا نقول: لو سلمت أنه من الله وأنه شرعه؛ ما كفرت به، فإذا كفرت به؛ فهو كفر بالجميع، وشرع الله تعالى لا يتبعض، ومن هنا نأخذ خطورة الأمر في كثير من بلدان المسلمين؛ الذين يحكمون فيما بينهم غير شريعة الله، ويرون أن هذه القوانين الوضعية الطاغوتية أفضل من شرع الله، وأقوم لمصالح عباد الله مما شرعه الله، نسأل الله العافية، وهذا بلا شك نقص في عقولهم،

وذهاب لأديانهم.

كيف يكون هذا الوضع الطاغوتي المحدث المبني على العقل القاصر أفضل وأنفع للعباد من شرع الله - عز وجل - الذي شرعه لعباده وهو أعلم بمصالحهم وأحكم بما يرشدهم ؟، أي إنسان عنده عقل فضلًا عن أن يكون عنده إيمان لا يمكن أبدًا أن يدور في فكره أن هذه الأحكام الوضعية المخالفة لشرع الله خير لعباد الله من شرع الله، إلا مخبل ومجنون، والعياذ بالله، وما ذلك بغريب على بني آدم، فالذين كانوا يعبدون الأحجار في الجاهلية مثل هؤلاء في السفه، هؤلاء أيضًا عبدوا آراء غيرهم، وقدموها على شريعة الله.

والقول: بأن الدين لله والوطن للخلق: هذا خطأ باطل، يقال: الدين لله والبلاد لله ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ما هي لك، الأرض لله، والشعب لله، والدين لله، وكل شيء فهو لله، وإذا كان لله ؛ فالواجب علينا أن نسير على هدي الله - والله الموفق.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ الواو إما استئنافية أوعاطفة من باب عطف الجمل بعضها على بعض، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خبرها وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾.

قال المؤلف: [تعبدون]؛ لأن الدعاء عبادة، والعابد لله - عز وجل - قد تتضمن عبادته الدعاء؛ كالصلاة مثلًا، منها دعاء وهي عبادة وقد تكون دعاءً بلسان الحال؛ لأن العابد ماذا يريد؟ الفوز بالجنة والنجاة من النار، فهو وإن لم يقل: أسألك الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ فهو لا يريد إلا ذلك، إذن فهو داع بلسان الحال، ولهذا نقول: إن الدعاء عبادة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] بعد قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فدل هذا على أن الدعاء عبادة، هنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال المؤلف: [يعبدون] إما بالعبادة بالفعل، كالركوع للصنم، والسجود للصنم، والذبح له، والنذر له، فما أشبه ذلك، أو يدعونه دعاء مسألة لا دعاء عبادة، فيأتون إلى الصنم وإلى القبر ويسألونه حاجاتهم ويستغيثون بهم فشمل قوله: يدعون دعاء المسألة ودعاء العبادة، وقلت: إن دعاء العبادة دعاء مسألة لكن بلسان الحال .

وكيف يدعون هؤلاء؟ أقول: يدعون هذه الأصنام على وجهين إما بدعاء المسألة وإما بدعاء عبادة ودعاء العبادة دعاء بالحال، بلسان الحال، قال: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غيره وهم الأصنام.

الأصنام تارة يعبر الله عنها بصيغة المؤنث، وتارة يعبر عنها بصيغة المذكر، هنا عبر عنها بصيغة المذكر العاقل، الذين يدعون، هذا للمذكر العاقل، وإنما وصف هذه مع أنها جماد ميتة؛ للتنزل مع هؤلاء العابدين لها، وذكرها على أكمل حال يعتقدونها فيها، يعني: هي مع كمالها على زعمكم، كونها من ذوات العقل لا تملك شيئًا، قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، من زائدة زائدة، ولهذا

نقول: قطمير مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على آخره يشتغل محل حركة حرف الجر الزائد، أي: ما يملكون قطميرًا، القطمير يقول: [لفافة النواة]، وسبق لنا أن في النواة ثلاثة أشياء يضرب بها المثل في الحقارة: قطمير ونقير وفتيل ويدل على هذا أنهم لا يملكون شيئًا قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ إن هذه شرطية، وفعل الشرط ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ وهو مجزوم بحذف النون، وجواب الشرط: ﴿لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ وهو مجزوم أيضًا بحذف النون، يعني: هذه الأصنام إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، لو تدعون هذه الأصنام إلى يوم القيامة ما سمعوا؛ لأنها جماد.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ قال المؤلف: [فرضًا ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ ما أجابوكم]، يعني: لو سمعت هذه الأصنام دعاءكم ما استجابت لكم، أي: ما أجابتكم، سواء قلتم: يا لات، يا عزى، يا مناة، يا يعوق، ويا يغوث، يا نسرا، لو سمعت هذا الدعاء هل تجيبكم؛ لا ولا تعطيكم المطلوب أيضًا، حتى لو سكتت ما أصبتم المطلوب ولهذا قال: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ يشمل الاستجابة بالقول، بأن تقول هذه الأصنام: نعم ماذا تريدون ؟، والاستجابة بالفعل وهي: إيصال المطلوب إلى هؤلاء الطالبين، لا تستجيب لا هذا ولا هذا، وقال المؤلف: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ أي: [أجابوكم] مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: أجابهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: فليجيبوني، وأمثال هذا كثير، فالاستجابة هنا بمعنى: الإجابة، أي: أن هؤلاء، هذه الأصنام لا تجيبهم.

وزيد على ذلك ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم إياهم مع الله، أي: يتبرءون منكم، ومن عبادتكم إياهم، إذن انتفى عنها إجابة الدعاء، ومع ذلك ليتهم سلموا من شرها، يوم القيامة في هذا الموقف العظيم المشهود[يكفرون بشرككم ويتبرءون منكم]، وهذا غاية ما يكون من الخذلان؛ لأن يوم القيامة الناس فيه أحوج ما يكونون إلى النصر والعزة، وهؤلاء الأصنام يوم القيامة تذلهم.

كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] يقوله من؟ إبراهيم، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[العنكبوت: ٢٥].

في هذه الآية أن هذه الأصنام لا تملك نفعًا لعابديها هذه واحدة، ثانيًا: وتزيد عابديها ذلًا وخذلانًا في الموضع الذي يكونون فيه أحوج ما يكونون إلى العز والنصر، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾،

ثم قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي: يخبرك بأحوال الدارين﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: عالم وهو الله تعالى، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ هذه جملة خبرية منفية، يعني: لا ينبئك أحد بأخبار هؤلاء

سواء في الدنيا أو في الآخرة، وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الآخرة: [بأحوال الدارين] يشمل يعني: أنه فسرها على ما هي عليه.

يعني: لا ينبئك بأحوال الدنيا والآخرة وما يكون لهؤلاء العابدين من هذه الأصنام، لا ينبئك أحد مثل من هو خبير بالأحوال، وليس خبير بالأحوال إلا الله.

وهذه الجملة صارت مصدر المثل عند العرب، إذا أرادوا أن يؤكدوا الشيء؛ قالوا: لا ينبئك مثل خبير، أو أحيانًا يقولون: على الخبير سقطتَ، يعني: إنك وصلت إلى العلم اليقين الذي يصدر عن خبرة، إذا كان لا ينبؤنا مثل خبير وهو الله وقد أنبأنا بحال هذه الأصنام مع عابديها، فهل يليق بنا ونحن عقلاء.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - في إيلاج الليل في النهار والعكس، وذلك لأن أحدًا من الخلق لا يستطيع أن يفعل ذلك، مهما عظمت قوته.

٢ - **ويستفاد منها أيضًا:** بيان رحمته بعباده؛ لأن في هذا الإيلاج من المصالح والمنافع ما لا يحصل مع عدمه، وقد ضربنا لكم مثلًا فيما سبق بالذين على خط الاستواء، الذين لا يزيد عندهم النهار والليل، ماذا يكون عندهم من الأمراض والفتور في الأجسام وعدم النشاط.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** نعمة الله - عز وجل - بتسخيره الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾

٤ - **ومنها أيضًا:** بيان هذه الآية العظيمة بل هاتين الآيتين العظمتين من آياته وهما الشمس والقمر، والليل أيضًا والنهار، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]، وظهور الآيات فيهما واضح، لما فيهما من تمام الحكمة والقدرة والرحمة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس والقمر يجريان، أي: يسيران، ففيها رد على أرباب الهيئة الجديدة، الذين يدعون أن الشمس والقمر لا يجريان على الأرض، ولا يدوران عليها، ونحن قلنا: إنه يجب علينا أن نتمسك بهذا الظاهر ما لم نجد دليلًا يقينيًا يدل على أن هذا الظاهر غير مراد، وحينئذ لنا مساغ في مخالفة هذا الظاهر.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء مضبوط، ومحكم، ومقدر بأجل محدود، لا يزيد عليه ولا يتأخر؛ لقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا الأجل الذي تسير عليه الشمس والقمر، يقول المؤلف إنه يوم القيامة، ويمكن أن نجعله أعم، فنقول: يسيران إلى أجل مسمى حتى في الفلك،

فمثلًا الشمس تنزل عل مدار الجدي في أيام الشتاء، ثم تتنقل منه شيئًا فشيئًا إلى أن تصل إلى مدار السرطان، لا يمكن أن تتجاوز هذا ولا هذا؛ لأنها تسير إلى أجل معين، كل يوم محدد مكان الطلوع وزمان الطلوع، وهذا لا شك أنه سير إلى أجل مسمى .

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن فاعل هذه الأشياء هو الله، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، ففيه إبطال لقول أهل الطبيعة؛ الذين يقولون: إن اختلاف الليل والنهار والشمس والقمر كان بمقتضى الطبيعة، طبيعة الأفلاك، فيرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: فاعل هذا ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** عموم ملك الله لكل شيء، لقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و(ال)هنا للعموم، وضابط (ال) التي للعموم أن يحل محلها كل، فإذا صح أن يحل محلها كل فهي للعموم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢] اجعل بدل(ال) إن كل إنسان لفي خسر ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨] اجعل بدلها كل، خلق كل إنسان ضعيفًا، فإذا كانت (أل) يحل محلها كل فهي للعموم، وهنا: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ هل يصح أن يحل محلها كل؟ نعم، نقول: (له كل ملك).

٩ - **ومن فوائدها أيضًا:** اختصاص الله تعالى بالملك لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، حيث قدم الخبر وحقه التأخير، وقد ذكرنا في أثناء التفسير الجمع بين هذه الآية وبين إثبات الملك لغير الله، وبينا أنه لا تعارض بينهما؛ لأن الملك الذي لله له شأن، والملك الذي للآدميين له شأن آخر.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما يدعى من دون الله لا يجلب خيرًا لداعيه، بأي وجه من الوجوه؛ لأن الله نفى عنه كل طريق يمكن أن يصل به الخير أو يندفع به الضرر، قال: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا في انتفاء الخير، وعدم إزالة الضرر والشر، زد على ذلك أنه يوم القيامة يكفرون بشرك هؤلاء، وهذا ضرر أعظم.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء الواضح على سفه هؤلاء المشركين، وجهه أنهم يدعون ما لا يسمع دعاءهم، يدعون ما لو سمع دعاءهم على الفرض والتقدير لم يستجب لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] من أضل يعني: لا أحد أضل، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وما ملة إبراهيم؟ استمع إليها: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] هذه ملة إبراهيم: التوحيد، وعدم الشرك، هؤلاء سفهاء، يدعون مالا يستجيب ولا ينفع بل يضر.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من تعلق بغير الله خاب أمله، كيف ذلك؟ لأن هذه الأصنام لا تنفعه في الدنيا، ولا تنفعه يوم القيامة، إذن خاب أمله هم يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ولكن ما قربتهم، هذه ما زادتهم إلا بعدًا، فأملهم قد خاب - والعياذ بالله -

وخسروا الدنيا والآخرة. قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ وما وجه هذا الكفر؟ التبرؤ.

١٣ - **ويستفاد منه:** أن هذه الأصنام المعبودة تتبرأ من عابديها يوم القيامة، بل إن الله - عز وجل - يجمع الأصنام وعبادها ويلقيهم في جهنم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩] ولكنها ليست آلهة، ما تنفع، فإن قلت: قد يبتلى داعي هذه الأصنام فتستجيب له ظاهرًا، بمعنى: أن يدعو الصنم أن يشفيه من المرض الفلاني فيشفى، أو أن يجلب له الخير الفلاني فيجلبه، فما هو الجواب؟

الدعاء ما أفاد، لكن الله - عز وجل - جعل هذا الشيء يقع عند دعائه امتحانًا، امتحان لهؤلاء العابدين.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

١٥ - **ومنها:** إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

١٦ - **ومنها أيضًا:** إثبات علم الله وإحاطته بكل شيء لقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

١٧ - وهل نأخذ منها الرد على الجبرية؟ نعم، من قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾.

وهل نأخذ منها أن هذه الأصنام من العقلاء؟ لا.

لكن ذكرت على سبيل التنزل، وعلى ذكرها بأكمل أوصافها عندهم وهي العقل.

❁ قال الله تعالى:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٥-١٨]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [في كل حال، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود في صنعه بهم].

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا النداء عام، للمؤمن والكافر والبر والفاجر،

والصغير والكبير، والذكر والأنثى، الناس عمومًا، وصدر الله هذا الحكم بهذا الخطاب، الذي هو النداء؛ لأجل التنبيه وبيان الاهتمام به، وفي الحقيقة أنه قد يقال: كل أحد يعلم أنه فقير إلى الله، لكن هل نحن عملنا بمقتضى هذا العلم ؟لا.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧] فقرر الله تعالى هذه الحال الثابتة التي لا ينفك عنها الإنسان، وهي الفقر إلى الله، من أجل أن يعمل بمقتضى هذه الحال، فيلجأ إلى الله – عز وجل –، ولا يسأل إلا الله .﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الجملة هذه جملة اسمية مفيدة الحصر؛ لأن طرفيها معرفتان﴿أَنتُمُ﴾ هذا ضمير معرفة، ﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ مُحلى بأل فهو معرفة.

أنتم الفقراء وغير الناس أغنياء عن الله؟ لا، لكن لما كان الإنسان هو الذي قد يرى نفسه مستغنيًا عن الله؛ حصر الفقر فيه، كأنه يقول: إن لم يكن أحد فقيرًا إلى الله فأنتم فقراء.

وإذا كان الإنسان العاقل المدبر لنفسه فقيرًا إلى الله فما بالك بالبهيمة، أليست أشد فقرًا؟ بلى هي أشد فقرًا إلى الله – عز وجل – من الإنسان لكنه خاطب الإنسان بذلك؛ لأنه هوالذي يرى أنه قد استغنى عن الله، وأنه غني عن الله؛ بل بعض بني آدم عكس القضية، قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، والعياذ بالله، فعكس القضية والواقع الذي تشهد به الفطرة.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ إِلَى﴾ ﴿إِلَى﴾ هذه للغاية، أي: أن فقركم منته إلى الله – عز وجل –، لا يسد عوزكم إلا الله.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: ضد الفقر، هوالغني أي: المستغني عن غيره، كما قال الله تعالى في سورة التغابن: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، فالله – عز وجل – ذو الغنى الواسع، ومع ذلك فإن غناه مقرون بحمده، ولهذا قال: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فهو غني يحمد على غناه؛ لأنه يجود به على غيره، لكن بنو آدم قد يكون الإنسان منهم غنيًّا ولكن ليس حميدًا، فإذا كان غنيًّا وتسلط بغناه على غيره، وفخر به على الناس ولم يقم بما يجب عليه صار غنيًّا غير حميد . لكن الله – عز وجل – غني حميد، وكلمة حميد يصح أن تكون بمعنى: اسم الفاعل، ويصح أن تكون بمعنى: اسم المفعول، اسم الفاعل؛ لأنه – سبحانه وتعالى – حامد، يحمد من عباده كل من يستحق الحمد منهم ولهذا يثني على رسله وأنبيائه وعباده الصالحين، والثناء عليهم هو الحمد، وهو أيضًا محمود، محمود على أمرين؛ على ما له من كمال الصفات، وعلى ما له من تمام الإنعام، فهو محمود لكمال صفاته، ومحمود لكمال إنعامه، وهنا نقول: الحميد محمود لكمال غناه، وكمال جوده بهذا الغنى؛ لأنه ليس كل غني يكون محمودًا بالذي عنده من الغنى، لكن الله – عز وجل – غني حميد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل

وضمير الفصل له ثلاث فوائد: الحصر، وما معنى الحصر؟ الله هو الغني ليس غيره الله هو لا غير، كما إذ ا قلت: زيد هو الفاضل، يعني لا غير، الفائدة الثانية: يفصل بين الخبر والصفة يعني:

التمييز بينهما.

الثالثة: التوكيد، يقول: زيد هو القائم فهو أوكد من قوله: زيد قائم، فهذا فيه توكيد .

ثم قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، جملة شرطية، فعل الشرط: ﴿يَشَأْ﴾، وجواب الشرط: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: بالإهلاك ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يأت غريب أن تكون مكسورة وهي فعل مضارع !

مجزومة بحذف حرف العلة وأصله يأتي، لكن حذفت الياء؛ لأنها معطوفة على مجزوم؛ يذهبكم.

وقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [بدلكم]، ﴿بِخَلْقٍ﴾ أي: بمخلوق، بدليل قوله: ﴿وَيَأْتِ﴾ أي: بمخلوق جديد، فهذا مصدر أريد به اسم المفعول، كقوله عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١) وكقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] خلقه أي: مخلوقه.

وقد يراد بالخلق المصدر كما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] لكن هنا المراد به: اسم المفعول.

قال تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بمخلوق جديد غيركم، كيف يذهبنا ويأت بخلق جديد؟ بالإهلاك وإذا أهلكنا من يأت بخلق غيرنا؟ يخلقهم الله، يُخلق قبل الإذهاب أم بعده؟ من بعده.

الآن قدرنا أن فريق الأمس ذهب من الذى يأتى بعده؟ الله قادر على أن يأت بخلق جديد مستقل، ثم هو أيضًا يمكن أن يذهب الموجودين بعد أن يأتي خلفهم منهم يكون النشأ الصغار يعتبر خلقًا جديدًا بالنسبة للكبار الذين هلكوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيل: لما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة وقالوا: إن فيها قومًا جبارين، ابتلاهم الله - عز وجل - وقال: إنها ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] فضاعوا ما بين مصر والشام مسيرة شهر، جلسوا فيه أربعين سنة، ما اهتدوا إلى الطريق، تائهين.

قال: بعض العلماء ولاسيما المعاصر منهم: لأجل أن يفنى ذلك الجيل المتغطرس الذليل ويأتي جيل ناشئ في الصحراء قوي يريد أن يدخل البلاد المقدسة؛ لأنه ماش في الصحراء يريد مدنًا، فعنده قوة وإرادة تؤهله إلى دخول تلك الأرض؛ لأن الجيل الأول المتغطرس المعاند هانيء هكذا قال بعض العلماء ولا سيما المعاصرون منهم،

قالوا: إن الحكمة في أن الله تعالى ضربهم بهذا التيه لأجل أن يفنى الكبار، ويستجد الصغار،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

فالله أعلم، إنها الله - عز وجل - قادر على أن يمحو الناس ويذهبهم ويأت بخلق جديد، إما خلق مستقل أو من ذرية هؤلاء، أو يفني من في هذه الأرض مثلًا، يفني من في هذه الأرض ويأتي آخرون يحتلون الأرض.

فالآن لها ثلاثة وجوه: إما خلق جديد ومستقل، وإما ذرية القوم الذي ذهبوا، وإما قوم آخرون يأتون من بلاد أخرى ويحلون محل هؤلاء الذين ذهبوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]

قوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ ما حجازية، لتمام شروط عملها؛ لأن اسمها ذا، وخبرها عزيز، لكن دخل على خبرها الباء الزائدة في الإعراب، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم وإتيان بخلق جديد، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بعزيز، مقدم عليه، وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المؤلف: [شديد]، والصواب ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بمعنى: ممتنع؛ لأن عز تأتي بمعنى: امتنع، كما مر علينا، وتأتي بمعنى: غلب، وتأتي بمعنى: قهر، وغلب، وقهر معناهما واحد وتأتي بمعنى: العزة والقدرة هنا ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [بشديد]لأن الشديد في حد ذاته ممتنع، لقوته وصلابته، إذا لم يكن عزيزًا على الله فهو سهل، وعليه فنقول:

إن هذه الصفة من الصفات السلبية، التي نصف الله تعالى بها مع إثبات كمال ضدها، فنقول: وما ذلك على الله بعزيز لكمال سهولته عليه، فهو أمر هين عليه سبحانه وتعالى، أن يهلك هؤلاء ويأتي ببدلهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لما بين - سبحانه وتعالى - ما يؤول إليه أمر هؤلاء الكفار، وهدد من خرج عن طاعته، بأنه قادر على أن يذهبهم ويأت بخلق جديد، ذكر براءة غير الوازرين من الوازرين، يعني: أن شرك هؤلاء المشركين لا يؤثر على أولئك المؤمنين الموحدين قال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ قال المؤلف: [نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وازرة].

أفادنا المؤلف بالتقدير: [نفس] أن وازرة صفة لموصوف محذوف تقديره نفس.

وقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: آثمة، وهل المراد آثمة بفعل أو أنها من ذوات الوزر والإثم، وهو المكلف أي: البالغ العاقل؟ يعني: أن من يكون أهلًا لأن يأثم إذا فعل لا يتحمل إثم غيره، ويكون الفائدة من ذكر الوازرة أن الصغير مثلًا لا يتحمل إثمًا لا له ولا لغيره، بخلاف الكبير الذي يتحمل الإثم، فهل يتحمل إثم غيره.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ قال المؤلف: [آثمة أي: لا تحمل]، كلمة ﴿تَزِرُ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [أي لا تحمل]، وهذا تفسير بالمراد لا بالمعنى المطابق للفظ؛ لأن المعنى المطابق للفظ في تزر أي: تأثم، إذ إن الوزر هو: الإثم، ولكن مر علينا كثيرًا أن تفسير القرآن قد يراد به التفسير

المطابق للفظ وقد يراد به التفسير بالمعنى المراد لا المطابق للفظ، أي: لا تحمل وزر نفس أخرى.

أفادنا أيضًا بقوله: [وزر نفس]، أن ﴿أُخۡرَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: نفس، أي: أن زيدًا لا يحمل إثم عمرو وهندًا لا تحمل وزر فاطمة مثلًا، كلٌ يحمل وزره، قال الله تعالى مبينا ذلك في جملة تعتبر قاعدة: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١] من لم يكسب شيئًا فليس عليه من إثم الآخرين شيئًا، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) لأن سَنَّهُ إياه يعتبر وزرًا؛ لأنه هو الذي شق الطريق له، ومهد له السبل.

فلهذا كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فالآية هنا لا تنافي الحديث.

قال: [﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ إن تدع نفس ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ بالوزر ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ منه أحدًا ليحمل بعضه ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾].

﴿وَإِن تَدۡعُ﴾ أي: تطلب، ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ بالأوزار ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ ليحمل عنها بعضه ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾، وجملتا لا يحمل كما تعرفون جواب الشرط، الشرط قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُ﴾، وهو مجزوم بحذف الواو، والضم مقدر عليه و﴿لَا يُحۡمَلۡ﴾ هذا هو جواب الشرط، و﴿شَيۡءٞ﴾ نائب فاعل، يعني: أنه كما أن الغالب لا يحمل عن الغيب وزره، فإنه حتى وإن دعي واستنجد ليحمل أو يخفف عن الوازر شيئًا، لم يك ذلك، في الدنيا ربما يؤخذ الإنسان بكبيرة غيره، في الدنيا أيضًا إذا استغاث بك إنسان قد حمل شيئًا ثقيلًا فقال إنسان أحمل شيئًا ثقيلًا هل تنجده؟ تنجده، لكن في الآخرة لو دعت نفس مثقلة إلى حملها أن يحمل أحد منه شيئًا فإنها لا تجاب إلى ذلك ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ وقوله: ﴿شَيۡءٞ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم القليل والكثير، وقوله: ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ هي أيضًا نكرة في سياق النفي فتعم أي مثقلة، مهما كانت هذه المثقلة فإنها إذا دعت أحدًا من الناس أن يحمل عنها من أثقالها لا يحمل منه شيء، ثم قال: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ ولو كان قال المؤلف: [المدعو ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ قرابة كالأب والابن]، قوله: [ولو كان المدعو] ألا يمكن أن نقول: ولو كان الداعي؟ يمكن لكن متلازمان؛ لأن المدعو إذا كان قريبًا للداعي كان الداعي قريبًا له، لكن أيها أنسب من حيث السياق، ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾، المدعو.

لكن قول: إن تدع مثقلة المذكور هنا: الداعي ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ نقول: المدعو أقرب؛ لأنه لو كان المراد الداعي لكان والله أعلم الأنسب أن نقول: ولو كانت ذا قربى قال: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾، ومعلوم أن ضمير المؤنث ولو مجازًا يكون المؤنث مؤنثًا.

إذن: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ ولو كانت الداعية، لكن لما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ وذكر، علم أن الفاعل غير الداعية، كما قال المؤلف، وقوله: ﴿قُرْبَىٰٓ﴾ أي: قرابة، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] أي: القرابة، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فالقربى هنا بمعنى: القرابة، لو أن الأب استنجد بابنه يوم القيامة أن يحمل عنه من أوزاره ما يجيب، بل ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥، ٣٦] لماذا؟ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله]، قوله: [عدم الحمل في الشقين]، أين الشقان؟ قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾، وإذا كان من الله فإنه لا يمكن أحدًا أن يحمل عن أحد شيئًا ولو رضوا، فلو أن أحدًا قال لشخص: آثامك علي، يمكن يكون هذا؟ ما يصح؛ لأن الذي لا يحمل هو الله، فالحكم من الله - عز وجل -، لو أن أحدًا استنجد بأحد أن يحمل عنه ووافق على نجدته، هل له ذلك ؟لا؛ لأن هذا حكم من الله - عز وجل -، هذه الفائدة من قوله: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله]، أي: فليس لأحد أن يتجاوزه، يعني: الحكم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢] يعني: يقولون ذلك ولكنهم ليسوا بصادقين وإنهم لكاذبون.

ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] لا بالتزامهم ولكن؛ لأنهم هم الأسوة والقدوة فكانوا يحملون أثقالهم وأثقال من أضلوهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾هذه جملة فيها حصر، طريقه إنما، والحصر أي: حصر الشيء في الشيء.

وما معنى حصر الشيء في الشيء؟

إثبات الحكم في الشيء ونفيه عما سواه، إثبات الحكم في المذكور وإن شئت فقل: في المحصور فيه ونفيه عما سواه.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كأن يقال: ما تنذر إلا الذين يخشون ربهم، و﴿تُنذِرُ﴾ من الإنذار، وهو: الإعلام المقرون بالتخويف، هذا الإنذار، وإن شئت فقل: الإعلام المراد به التخويف؛ لأنه يظهر من هيئة الكلام والصياح مثلًا أنه للتخويف، فمنذر الجيش يقول: واصباحاه، فيعلم الناس أن هذا الإنذار للجيش، إذن الإنذار: معناه الإعلام المراد به التخويف، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول الله له: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾

وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ الخشية هي: الخوف النابع عن تعظيم المخوف والعلم به قال الله

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقولنا: إنه الخوف النابع عن تعظيم المخوف؛ ليشمل من كان خائفًا ولو كان هو قويًا، يعني معناه: القوي قد يخاف منه الآخرين فتكون هذه الخشية، فإن خاف الضعيف من قوي فهو خوف، ولهذا نقول: إن الخشية أعظم من الخوف قال الله تعا لى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: يخافونه خوفًا نابعًا من تعظيمهم له مع علمهم بأنه مستحق للتعظيم.

وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ الغيب ضد الشاهد والمعلوم أي: [يخافونه وما رأوه] فأفادنا المؤلف بالغيب أفادنا أن قوله: بالغيب حال من المفعول به، أي: يخشون ربهم حال كونه غائبًا عنهم، لم يروه، هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ حال كونهم غائبين عن غيره، فيكون الجار والمجرور حالًا من الفاعل؛ لأن من الناس من يظهر خشية الله أمام الناس لكنه إذا غاب عن الناس لم يخش الله، هل يمدح هذا على خشيته؟ لا لأنه مراءٍ لكن الذى يخشى ربه بالغيب هذا هو الذي يمدح، فإن قلت: هل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين ويكون هؤلاء الذين مدحهم الله يخشون الله مع أنهم لم يروه، ويخشون الله في حال الغيبة عن الناس؟ الجواب: نعم، وهذا من بلاغة القرآن، أن يعبر بتعبير صالح لمعنيين لا يتنافيان.

فهؤلاء القوم يخشون الله تعالى وهم لم يروه، ولكنهم يخشونه كأنهم يرونه؛ لأنهم يخشونه بالغيب والشهادة، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لا ينافي أنه منذر لجميع الناس ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٣] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على عموم إنذاره؛ لأن المراد بالإنذار هنا: الإنذار النافع، أي: إنما يؤثر إنذارك في الذين يخشون ربهم بالغيب أما من لا يخشى الله بالغيب فإنه وإن أنذر لا ينتفع بالإنذار، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مشيرًا إلى ذلك: [لأنهم المنتفعون بالإنذار]، لأنهم أي: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، المنتفعون بالإنذار فلهذا خص الإنذار بهم، إذن الحصر هنا - حصر الإنذار في الذين يخشون ربهم بالغيب - المراد به: حصر الانتفاع به أو حصر نفعه، إنما يكون لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، أما من لا يخشى الله فإنهم لا ينتفعون به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿يَخْشَوْنَ﴾ على صلة الموصول وهنا قا ل: يخشون وأقاموا الصلاة فعطف الماضي على المضارع؛ لأن الخشية من عموم الأعمال كلها، إقامة الصلاة وغيرها، وقوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال المؤلف: [أداموها]، والحقيقة أن إقامة الصلاة أعم مما قال، ففي تفسيره قصور؛ لأن إقامة

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الصلاة تشمل إتمامها وإكمالها والمحافظة عليها والمداومة عليها،واقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢] هذا من إقامتها، الخشوع فيها، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: ٩] هذا أيضًا من إقامتها، يحافظ عليها ويحرص عليها، على واجباتها ومكملاتها وأوقاتها، وقال في سورة سأل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: ٢٣] وفي آخرها قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ [المعارج: ٣٤]فإقامة الصلاة يشمل كل ما فيه إكمالها وإتمامها وإزانتها، فهو أعم مما قال المؤلف، وقوله: ﴿الصَّلَاةَ﴾ يشمل الفرض والنفل؛ لأن(ال) تفيد العموم أي: أقاموا كل صلاة، والصلاة معروفة هي في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله - سبحانه وتعالى - بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ الجملة هذه شرطية، وفعل الشرط فيها: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، وجوابه: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾.

وقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ قال المؤلف: [تطهر من الشرك وغيره]، ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من الشرك وغيره؛ لأن الزكاة تفيد معنى: الطهر والمراد بالتزكي هنا: هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] أي: من زكى نفسه، أي: طهرها من الشرك، وقول المؤلف: [وغيره] كإرداة السوء مثلًا والمعاصي وإرادة الإساءة إلى الخلق، وغير هذا مما يجب على الإنسان أن يطهر نفسه منه، فهي إذن عامة، هل يدخل في ذلك أداء الزكاة؟ نعم يدخل في ذلك؛ لأن أداء الزكاة تطهر من البخل فهي داخلة في قوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ والمراد بهذا: الحث على التزكي؛ لأنك إذا تزكيت فإنها تنفع نفسك ومن لم يتزك فضرره على نفسه، فأنت إذا تزكيت فالذي ينتفع بتزكيك أنت، نفسك، فالله - عز وجل - لا ينتفع بطاعتك، أما غير الله فقد ينتفع بطاعتك، لا لأن حسناتك له، ولكن قد ينتفع بطاعتك بالقدوة بك، وبما يحصل من علم، أو غير ذلك، مما هو داخل في التزكية.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي: فعليه أن يحرص على التزكي.

قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المصير بمعنى: المرجع، كما قال المؤلف، وجملة: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ه مقدم،و ﴿الْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنه قد م فيها الخبر، وحقه التأخير، يعني: إلى الله وحده المصير، أي: المرجع.

هل هو في الدنيا، أو الدنيا والآخرة؟ في الدنيا والآخرة، إلى الله المصير في الدنيا والآخرة، فمرجع الأمور كلها إلى الله - عز وجل - في الدنيا وفي الآخرة، الأحكام الشرعية مرجعها إلى الله، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] الأحكام الكونية مرجعها إلى الله، يرتبها على ما يريد الأحكام الجزائية التي تكون يوم القيامة مرجعها إلى الله، فمصير كل شيء إلى

من أبدع وأحدث كل شيء، فالذي أبدع الأمور، وأحدثها هو الله، إذن مرجعها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى، قال المؤلف تفريعًا على قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فيجزي بالعمل في الآخرة]، وهذا إشارة من المؤلف إلى أنه قصر المصير هنا في المرجع إلى يوم القيامة، والصواب العموم، وعلى هذا فهو - سبحانه وتعالى - يجازي ويحكم قدرًا ويحكم شرعًا بين عباده.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ في هذه الآية فوائد كثيرة:

١ - **منها:** أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - عز وجل -، مهما بلغوا في الغنى والقوة فإنهم مفتقرون إلى الله، لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا لفظ عام لا يخرج منه شيء.

٢ - **ومنها:** بيان شدة حاجة الناس إلى الله لقوله: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ بأل، الفقراء، لو قال: فقراء لكان أهون، لكن الفقراء معناه: جميع أحوالنا، بجميع أحوالنا كلنا مفتقرون إلى ربنا - سبحانه وتعالى -.

٣ - **ومنها:** بيان غنى الله، غنى الله عن كل أحد، لقوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾.

٤ - **ومنها:** أن لله الغنى المطلق من جميع الوجوه، يستفاد هذا من قوله: ﴿الْغَنِيُّ﴾، (ال) الدالة على العموم والاستيعاب، فإن قلت: كيف تقول: إن الغنى لله وحده، هو الغني؟ لأن ضمير الفصل يدل على الحصر، ولعلنا نأخذ هذه الفائدة أولًا.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الغني الكامل المطلق خاص بالله سبحانه وتعالى، بدليل قوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين ثبوت الغنى لغير الله في الكتاب وفي السنة، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»[1] فثبت بالكتاب والسنة أن البشر فيهم غني كيف نجمع ؟

الجواب: أن غنى البشر غنىً محدود نسبي قاصر قابل للزوال أما غنى الله فهو غنىً مطلق كامل أزلي أبدي، وما ثبت في الملك والخلق والتدبير وما أشبه ذلك.

٦ - **ومن فوائد الكريمة:** القرن بين قول الفقراء والغني، فيها نوع كمال الله - سبحانه وتعالى - يتبين به نقص البشر تجاه كمال الله، ونظيره قوله الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ثم قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فإن وصف المخلوق بالنقص ثم إثبات الكمال لله هذا فيه دليل على كمال الله - عز وجل -، وأن كماله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

واضح جدًّا؛ لأنك إذا ذكرت عيب الآخر تبين لك كما ل مقابله.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن غنى الله - سبحانه وتعالى - مقرون بالحمد؛ لقوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، بخلاف غنى البشر فإنه قد لا يكون محمودًا، كيف لا يكون محمودًا؟ يكون محمودًا، إما بالبخل وإما بكونه يأتي بدون استحقاق، كالسراق واللصوص قد يكونون أغنياء، لكن اكتسبوه على غير وجهه المباح، أما غني الله فهو غنى كامل يحمد عليه، إذن يحمد من جهة الغنى ومن جهة الكرم بما هو غني فيه.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الغني والحميد، كذا الغني يدل على صفة الغنى.

والحميد يدل على صفة، وهي: الحمد، ومجموعهما يدل على صفة ثالثة وهو كما ل غناه.

ذكرنا في« **القواعد المثلى**» أنه قد ينشأ من الجمع بين الاسمين أو الوصفين صفة ثالثة تحصل باقترانهما، ومثلنا هناك بالعزيز والحكيم، أنها تقترن دائمًا في كتاب الله؛ لأنه يحصل باجتماعهما وصف أكمل قوي.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: تمام قدرة الله - - عز وجل - -، حيث بين أنه قادر على أن يذهبنا ثم يأتي بخلق جديد .

٢ - **ومن فوائدها**: إثبات المشيئة لله ﴿إِن يَشَأْ﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: التحذير من مخالفته - تعالى - يعني: المقصود بهذا التهديد وتحذيرنا من مخالفته.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الخلق حادث، ليس أزليًا لقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾هذه فيها دلالة، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾فيها أيضًا دلالة أما الأولى فوجه الدلالة: أن من كان قابلًا لعدم فهو قابل للحدوث، وأما الثانية: فلقوله: ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٥ - **هل نستفيد منها**: ثبوت حدوث أفعال الله باعتبار المفعولات؟ نعم؛ لأن كل مخلوق به كائن بالخلق، فإذا كان المخلوق جديدًا لزم أن يكون الخلق أيضًا جديدًا، فمثلًا خلق الله الجنين في بطن أمه حادث أم لا؟ حادث، ضرورة أن المخلوق حادث، أما جنس فعل الله فهو أزلي، فإن الله - تعالى - لم يزل فعالًا، فهناك فرق بين وصف الله - تعالى - بالفعل على الإطلاق وبين وصف الله - تعالى - بالفعل مقرونًا بالمفعول.

فالفعل المقرون بالمفعول لا شك أنه حادث، والفعل المطلق أن الله لم يزل فعالًا لما يريد هذا أزلي.

٦ - **هل نستفيد منها**: جواز تهديد الإنسان بالأشياء المحسوسة ليستقيم على أمر الله

؟نعم، من هذا تهديد من الله - - عز وجل - - لنستقيم على أمره، إذن نقول: إن العقوبات الحسية وإن حملت على الاستقامة فإنها محمودة، العقوبة لو حسية وإن حملت على الاستقامة فإنها محمودة، لأنها من فعل الله، ولهذا أوجب الله علينا أن نحد الزاني، ونقطع السارق حتى يرتدع، لا يقول قائل: إنك إذا فعلت ذلك فإنك قد حملت الناس على أن يتركوا الأمر لا لله؛ لأن بعض الناس يقول: كيف هذا؟ كيف تقع الحدود ؟هذا معناه: أن الإنسان ما يرتكب الزنا أو السرقة إلا خوفًا من العقوبة، ومعنى ذلك أنك تحمل الناس على أن يدعوا المحارم لا خوفًا من الله ولكن خوفًا من العقوبة.

فنقول: إن هذا فيه إصلاح، ووسيلة الإصلاح ما على المؤمن من نية الذي يحاول إصلاحه.

٧ - **هل يستفاد منها:** جواز إعطاء الجائزة تشجيعًا لمن عمل صالحاأم لا؟ يعني: بمعنى القياس العكسي؟ نعم

قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩] لا تداهنون، هل يؤخذ من هذه الآية جواز إعطاء المكافآت لمن يعمل صالحًا من باب قياس العكس؟ نقول: فيه تفصيل

المكافأة على العمل ثابتة في السنة وفي غير السنة أيضًا، الرسول قال: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ**»(١) في الجهاد في سبيل الله، وسلبه: ما عليه من الثياب ونحوه وهذه مكافأة، والعلماء قالوا: يجوز أن يجعل لمن دلهم على حصن أو ما أشبه ذلك من الأمور التي فيها مصلحة للمجاهدين يجوز أن يجعل له جعلًا، كل هذا من باب المكافأة على فعل الخير، وهذا ثابت.

لكن أنا قصدي هل نأخذه من الآية؟ نقول: يمكن أن نأخذه من الآية، على سبيل القياس العكسي، فإن قلت: أثبت لنا قياس العكس، لأننا في شك من إثبات القياس أولًا، نقول: عندنا إثبات قياس العكس.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ**»(٢) يعني: أن الرجل إذا أتى أهله فذلك صدقة، الصحابة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: «**أَرَأَيتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ**»، قالوا: نعم، قال: «**كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».

٨ - **وفي الآية أيضًا:** دليل على كمال القدرة لقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

٩ - **وفيها:** صحة تقسيم أهل السنة لصفات الله إلى ثبوتية، وسلبية، وقد ذكرت لكم أن بعض الناس شك في كلمة سلبية وقال: ينبغي أن نقول منفية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إلى آخره.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان لا يحمل آثام غيره، لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وينبني على هذه الفائدة ثبوت كمال عدل الله - عز وجل - ، حيث لا يحمل أحدًا وزر أحد.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا**: أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلًا له؛ لقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأن غير الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلًا عن إثم غيرها، لكن الوازرة تحمل إثم نفسها لا تحمل إثم غيرها.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا**: منع الاتكالية على الغير؛ لأن الإنسان قد يعمل وسيهيئ الله لي أحدًا يدعو لي أو يستغفر لي أو ما أشبه ذلك، فنقول: هذا لا تعتمد عليه، فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟

لأنهم قدوة في إضلال غيرهم، فباقتداء غيرهم بهم يحملوا أثقال غيرهم.

لأن أثقال غيرهم في الحقيقة ناشئة عن أثقالهم، فصاروا كأنهم هم الذين عملوه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: (قياس العكس)، إذا كانت النفس لا تحمل إثم غيرها فهل تلزم بالواجب على غيرها، أو تقوم بأوامر غيرها؟

معناه: كما أن الإنسان لا يحمل إثم غيره بالمعصية لا يحمل إثم غيره بترك الواجب، فإذا ترك أبوك أو ابنك أو خالك أو عمك واجبًا فليس عليك إثم فالإثم على نفس هذا الرجل.

٥ — **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الغير لا يحمل وزر الغير وإن دعاه إلى ذلك؛ لقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾، بخلافه في الدنيا فإنه في الدنيا إذا دعاك أحد أن تعينه على ما حمل أو أن تحمله عنه أجبته لكن في الآخرة، لا. إن ﴿تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾، وحتى ولو كان أقرب الناس إليك ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن رسول الله ﷺ نذير؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وأنه لا ينتفع به بإنذاره إلا من يخشى الله - - عز وجل - -، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ إلى آخره.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الخشية التي هي محل الثناء: ما كانت خشية في الغيب، لقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾؛ لأن الخشية في الظاهر قد يكون الحامل عليها مراعاة عباد الله، لكن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

إذا كانت بالغيب فإن هذا دليل واضح على أن صاحبها مخلص في خشيته لله - - عز وجل - -.

٩ - **ومن فوائدها أيضًا**: فضيلة الصلاة، وأنها - أي: الصلاة - سبب للانتفاع بإنذار النبي ﷺ كالخشية لقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الرجل، أو إن شئت فقل: أن الإنسان إذا تزكى فإن نفع تزكيه لنفسه، ولا ينال الله - سبحانه وتعالى - من ذلك شيء، لا ينال الله من ذلك شيء، لقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، ويتفرع عن هذ ه الفائدة أن أوامر الله - عز وجل - ليس من أجل مصلحة ينالها بامتثالنا، ولكن من أجل رحمتنا ومصلحتنا نحن، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٧].

١١ - **ومنها**: الحث على تزكية النفس لقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وكل إنسان عاقل إذا علم أن مصلحة العمل تعود إليه فإنه سوف يهتم به ويقوم به، فإذا علمت أن تزكيك لنفسك حرصت عليه غاية الحرص، والتزكي كما أشرنا إليه يشمل تزكية القلب من جميع الشرك والشك والضغائن والأحقاد والبغضاء وما أشبه ذلك.

وتزكية الأقوال من كل قول منكر، يعني: كل إنسان لا يقول إلا خيرًا، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]، وتزكية الأفعال أيضًا من فعل الفواحش والأخلاق السيئة وما إلى ذلك مما يجب على الإنسان أن يتطهر منه.

١٢ - فمن فوائد الآية الكريمة أيضًا: كمال هذا الدين الإسلامي حيث حث على تزكية النفس ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا بالأقوال والأفعال وباطنًا (بالفروض).

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مرجع الخلائق إلى الله في أحكامهم الكونية والشرعية والجزائية، أما الأحكام الكونية فظاهر أن المرجع إلى الله؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يرد قضاء الله الكوني، وأما للشرعية فكذلك، فإن العباد مربوبون، متعبدون لله - عز وجل -، فكان مقتضى ذلك أن يتمشَّوا على أحكامه الشرعية، وأما الجزائية فالأمر ظاهر، فإنه لا يجازي العاملين على عملهم إلى الله - سبحانه وتعالى -.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: منع الرجوع إلى غير الله فيما هو مختص بالله، لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فلا يجوز أن نرجع إلى النظم الوضعية التي من وضع البشر وعندنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:١٩-٢٤]

❁ التفسير ❁

يعني: لا يستويان في إدراك المبصرات، ليس المعنى نفي التساوي مطلقًا؛ لأن الأعمى قد يفضل البصير في أمور أخر، لكن لا يستويان في إدراك المرئيات أو المبصرات وهذا ظاهر، الأعمى إذا قام يمشي وأمامه حفرة أو حجر؛ وقع في الحفرة وعثر في الحجر، البصير بالعكس، فلا يستوي هذا وهذا، فأيهما أكمل؟ البصير، وهذا مثل حسي يجب أن ننتقل منه إلى المثل المعنوي، وأما قول المؤلف: [المؤمن والكافر] ففيه نظر، يعني: كأنه يريد أن يقول: إن الأعمى هو: الكافر، والبصير هو: المؤمن ولكننا نقول: لا، الآية يراد بها: نفي المساواة في الأمور الحسية الظاهرة، التي لا ينكرها أحد، إذ إن الكافر والزنديق والمعاند والمستكبر لا يمكن أن يدعيا تساوي الأعمى والبصير، لكن قد يدعي تساوي المؤمن والكافر.

قال: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، قال المؤلف: [﴿الظُّلُمَاتُ﴾: الكفر و﴿النُّورُ﴾: الإيمان]، وهذا أيضًا فيه نظر. والظاهر إن الله - سبحانه وتعالى - أراد الظلمات الحسية والنور الحسي، لأن نفي الاستواء بين هذين أمر لا يمكن إنكاره، لأنه يدرك بالحس، فالظلمات لا تستوي والنور، ولكن لا شك أن المراد بذلك: ظلمات الكفر ونور الإيمان، يعني: أنها إشارة إلى هذا، ولذلك جمع الظلمات وأفرد للنور، لأن سبل الكفر كثيرة، وأما سبل الإيمان فسبيلهم واحد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وإنما كان الكفر ظلمات لأن فيه الجهل، الجهل بالله - عز وجل -، وبما يجب له، وفيه أيضًا أن الإنسان يسير على غير هدى، ويسير باتجاهات متعددة منحرفة، قلبه متشعب في كل واد، ولهذا تجد الكافرين أشد الناس قلقًا، وأبعدهم عن الثبات على خط مستقيم، بخلاف المؤمن، المؤمن مؤمن، خطه مستقيم وعارف، وعارف أنه يريد الوصول إلى مَن؟ إلى الله، فتجده يحول جميع الأفعال إلى طريق واحد، وهو الوصول إلى الله، حتى أنه إذا لبس ثوبه يشعر بأنه ينال بذلك مرضاة الله، إذا أكل أو شرب أو نام أو سافر أو تكلم كل ذلك يرى أنه في سبيل الله، لكن الكافر

متشعب ولهذا كان منهجه ظلمات، لأنه متشعب، ما هناك هدف واحد يسعى إليه أهدافه كثيرة، مغرور في الدنيا، مغرور في رؤسائه، مغرور بالناس، لا يهتم إلا برضاهم، نسأل الله السلامة والعافية، ولا يهمه أن يرضى الله - عز وجل -، فلهذا كان مستحقًا أن تجعل طريق الكافر على سبيل الجمع، لتشتتها وتفرقها.

قال: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ قال المؤلف: [الجنة والنار]، يعني المراد بالظل عند المؤلف: الجنة والمراد بالحرور: النار، ولكن كما قلت: الظاهر أن هذا مثل بأمر حسي لا يمكن إنكاره، لكن ينتقل منه إلى أمر معنوي، الظل والحرور لا يستويان، أيهما أحسن؟ ما في شك الظل، فالظل معروف، والفيء الذي تقلصت عنه الشمس، هذا ظل، وإن شئت فقل: الظل هو: المكان الذي ليس فيه أشعة للشمس، وإنما نقول ذلك؛ لأن الجنة ما فيها شمس وقد قال الله تعالى فيها: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] مع أنه ليس فيها شمس، وأما الحرور، فالحرور على وزن فعول وهو: الهواء الحار.

وبعضهم يقول: إنه الهوا ء الحار في النهار، والسموم الهواء الحار في الليل، وبعضهم يقول: كلاهما بمعنى واحد، فالحرور والسموم هما الهواء الحار، وهذا معروف يكون في أيام الصيف، وإذا كان معه شمس ازداد شدة في الحرارة.

الآن عندنا الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، على كلام المؤلف، نقول: هذه المنفيات الثلاثة، أو هذا النفي في المواضع الثلاثة، الأول: يعود إلى ذات المؤمن والكافر، والثاني: يعود إلى عمل المؤمن والكافر، والثالث: يعود إلى مستقر المؤمن والكافر.

فالأول: نفي في الذوات، والثاني: نفي في الأفعال والمنهج، والثالث: في المستقر والمأوى.

الرابع: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [المؤمنون والكافرون]، فعلى كلام المؤلف يكون في الآية تكرار؛ لأنه فسر ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾: بالمؤمن والكافر وهنا قال: الأحياء والأموات: المؤمنون والكافرون، ولو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: الأحياء ذوي العلم، والأموات: ذوي الجهل، لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولأن الله - تعالى - جعل الوحي روحًا، أحيا به القلوب والنفوس، ولكني لا أسلك مسلكه، إنما لو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: العلماء والجهال؛ لأني إذا سلكت هذا المسلك فعندي على ذلك برهان، وهو قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ إلى آخره، إذا سلكت هذا المسلك سلمت الآية من التكرار.

ونحن نعلم جميعًا أن من القواعد المعروفة في الكلام، أنه إذا دار الأمر بين حمل الكلام على التأسيس أو على التوكيد؛ وجب حمله على التأسيس؛ لأنه هو الأصل، الأصل في الكلام أن يكون مستقلًا مؤسسًا لا مؤكدًا، التأسيس يعني: الأصل، والأساس، يعني: هذا معنى جديد

غير المعنى الأول.

فإذا قال قائل مثلًا: هذه جملة مؤكدة للأولى، وقال الثاني: هذه جملة مستقلة بنفسها فيحمل على أنها مستقلة بنفسها .

أنا أقول: إن الأحياء والأموات يراد به: الحياة الحسية، والموت الحسي، كل يعرف الفرق بين الحي والميت حتى الكفار يعرفون الفرق بين الحي والميت، ما يشابه هذه المعاني المحسوسة الأربعة من المعاني المعقولة فهو مثلها فالذي يماثل هذه الأشياء المحسوسة من الأمور المعقولة هو مثلها .

يقول: [وزيادة لا في الثلاثة التأكيد] هذه الجملة أفادت أن لدينا زيادة، وأن الفائدة من الزيادة التوكيد وأين الزيادة؟ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ما فيها شيء ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الاثنين ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: كم؟

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾

خمسة لكن جعلها المؤلف ثلاثة؛ لأن المتقابل فيها ثلاثة (الظلمات والنور) هذه يريد أن تكون واحدة،(والظل والحرور) واحدة، والأحياء والأموات واحدة.

المهم أن زيادة (لا)في المواضع كلها سواء قلنا: ثلاثة أو خمسة هي للتوكيد، إذ لو قيل: وما يستوي الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات لاستقام الكلام، لكن يؤتى بلا الزائدة للتوكيد، وفيها أيضًا فائدة ثانية وهي: عدم السآمة والملل؛ لأنها لو حذفت لطالت المعطوفات بعضها مع بعض، فكرر فيها عامل النفي ليكون أبعد عن السآمة.

فإن قلت: هل لذلك نظير في زيادة (لا)، قلنا: نعم لهذا نظير في مواضع كثيرة منها ما نقرؤه في كل صلاة وهي: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧] إذ لو قال: غير المغضوب عليهم والضالين لاستقام، لكن زيدت (لا) للتوكيد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ قال المؤلف: [هدايته فيجيبه] - أي: المسمع - [بالإيمان].

يعني: إن الله - تعالى - يدعو إلى دار السلام، كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، دعاء الله - تعالى - إلى دار السلام هل يسمعه كل أحد؟ أما من حيث الإدراك الحسي فإن كل أحد يسمعه، أما من حيث الإجابة فلا، من الناس من يجيب، ومنهم من لا يجيب، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] فالله - تعالى - يسمع من يشاء يعني: (لاتباع) هؤلاء الرسل، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ (ما) هذه إعرابها نقول إنها: حجازية، واسمها: الضمير (أنت) والباء في ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ زائدة للتوكيد، و(مسمع) خبرها منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، ﴿مَن﴾ مفعول لمسمع؛ لأن مسمع اسم فاعل﴿بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ قال المؤلف: أي: [الكفار] شبههم بالموتى فيجيبون، يعني: ما أنت بمسمعهم[فلا يجيبون]؛ لأنها إذا كانت [(فيجيبون)] فيجب أن تحذف النون؛ لأنه جواب النفي في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾لأنها منفصلة عما قبلها أي: فهم في عدم إسماعهم[لا يجيبون].

على كل حال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ قال: [أي: الكفار]، والذي يظهر لي أن المراد بهم: الموتى حقيقة، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يسمع الموتى حقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠].

فلو أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذهب إلى المقبرة - مقبرة الكفار - وقال: يا أيها الناس اتقوا الله واعبدوه وما أشبه ذلك، هل يسمعون هذه الموعظة فينتفعون بها؟ لا ما يسمعوها فينتفعوا بها.

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يسمع الكفار لموت قلوبهم ؛ لأن قلوبهم ميتة ومن قلبه ميت - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بما يسمع من المواعظ فكأنه لا يسمع.

ثم قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فسر المؤلف﴿إِنْ﴾ [بما]، وهذا يدل على أن ﴿إِنْ﴾نافية، وقد ذكرنا فيما مضى أن من علامات إن النافية الاستثناء بعده نعم أن تتبع بإلا، يعني: ما أنت إلا نذير قال: [منذر لهم].

والنذير كما سبق هو: المعلم إعلامًا يتضمن التخويف، فالإعلام المتضمن للتخويف يسمى إنذارًا، وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هل هذا الحصر حقيقي أو إضافي؟ إضافي؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نذير وبشير، لكن المقام هنا يقتضي أن يذكر الإنذار فقط؛ لأنه في مقارعة الكفار، ومقارعة الكفار تحتاج إلى الإنذار أكثر مما تحتاج إلى التبشير، وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ كيف يكون مقابلة بينها وبين الجملة التى قبلها؟ كأنه يقول: أنت لا تستطيع أن توصل الهداية إلى قلوب الكافرين، ولكن تستطيع أن تنذرهم؛ لأن هذا المقام مقامك مقام إنذار، أما أن توصل الهداية إلى قلوب هؤلاء الكفار الذين يشبهون الموتى فهذا ليس إليك، وصدق الله - عز وجل -، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - ما استطاع أن يهدي أقرب الناس إليه، وأشفق الناس إليه، وهو عمه أبو طالب وشاء الله - عز وجل - أن يهدي أقوامًا من فارس والروم، من أبعد الناس عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نسبًا ومكانًا؛ لأن الأمر بيد الله - عز وجل - ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإرسال بمعنى: الأمر بالتبليغ، أو بقضاء الحاجة، فمثلًا تقول: أرسلت غلامي يخبر فلانًا بكذا وكذا، يعني: أمرته بالتبليغ،أما: أرسلت غلامي يشتري كذا وكذا أي: أمرته أن يشتري لي حاجة، لكن معناه: بعث.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ هذه يحتمل أن تكون الباء للتعدية، أي: أننا أعطيناك حقًّا وأرسلناك به، ويحتمل أن تكون وصفًا للرسالة، يعني: أرسلناك رسالة حق، والمعنى يختلف.

فعلى المعنى الثاني يكون معنى الآية: أن رسالة النبي ﷺ حق، وعلى المعنى الأول: يكون معناها أن الرسول ﷺ جاء بالحق، وإن كان المعنيان متلازمين؛ لكنهما مختلفان من حيث المورد فعلى الأول: يكون مورده: الوصف نفس الرسالة، وعلى الثاني: يكون مورد ذلك مورد الوصف المرسل به.

﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: أعطيناك حقًّا تبلغه للناس، ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني: أن رسالتنا إليك حق، فيكون الوصف للرسالة نفسها، يعني: لست بكاذب بل أنت صادق، هذا على جعلنا الوصف عائدًا إلى الرسالة، أما إذا جعلناه عائدًا إلى المرسل به فالمعنى: أن ما جئت به ليس بباطل، بل هو صدق في الأخبار وعدل في الأحكام.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا﴾ قال المؤلف: [في الهدى، ﴿بَشِيرٗا﴾ من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من لم يجب إليه] ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يعني: أنك تبشر وتنذر، لكن تبشر بالخير من أجاب، وتنذر العقوبة من لم يجب وعصى، وذلك؛ لأن الشرع يتضمن أوامر ونواهي فمن ارتكب النواهي أو ترك الأوامر واجهناه بالإنذار، ومن فعل الأوامر واجتنب النواهي قابلناه بالبشارة.

﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [﴿وَإِن﴾: ما] يعني: نافية، ﴿مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ من حرف جر زائد زائد: زائد لفظًا زائد معنى، و﴿أُمَّةٍ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ خبره ما من أمة، ما هي الأمة؟ هي: الطائفة؛ الطائفة من الناس التي على منهج واحد كدين واحد، أو قومية واحدة كما أشبه ذلك هذه الأمة، ليست كل طائفة نسميها أمة، فمثلًا أنتم الآن ما نسميكم أمة إلا لأنكم على طريق واحد، لكن لو اجتمعت جماعة في المكان متشتتين كل واحد له منهج لا نقول: هؤلاء أمة، إلا إذا كانوا من قبيلة واحدة أو ما أشبه ذلك.

[﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٞ﴾ ينذرها]؛ لأن كل الأمم أرسل إليهم نذيرًا، لتقوم عليهم الحجة؛ لأنه إذا لم يكن للناس نذير فإن لهم حجةً على ربهم، يقولون: يا ربنا ما أرسلت إلينا رسولًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ في هذه الآية فوائد:

١ - منها: بلاغة القرآن حيث ينتقل بسامعه وقارئه من الأمثال الحسية إلى الأمثال المعنوية، ذلك لأن الأمثال الحسية لا يمتري بها أحد، فينتقل من المحسوس إلى المعقول المعنى.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة البصر؛ فضيلة البصر، لأن نفي الاستواء بين الأعمى والبصير معناه: تفضيل من؟ تفضيل البصير، ولهذا أكثر من دعاء الله - عز وجل -: اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، وكذلك أيضًا نقول في ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فإن فيها من بلاغة القرآن الكريم ما في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وفيها الانتقال من المثل الحسي إلى المثل المعنوي.

٣ - **فيها أيضًا:** تفضيل النور على الظلمة؛ لأن نفي الاستواء فيهما معناه: تفضيل النور على الظلمة.

٤ - **ومنها أيضًا:** إذا انتقلنا من المثل الحسي إلى المعنوي أن طريق الهدى واحد، وطرق الضلال متفرقة، لقوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر: ٢٠].

وذكرنا شاهدًا من القرآن على هذا، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] في طاغوت يجرهم إلى نوع من الكفر والفسق - نسأل الله العافية -.

٥ - **ومنها أيضا:** أنه لا يستوي الظل والحرور، وهذا مثل حسي انتقل منه إلى المثل المعنوي، وهو ظل الجنة وحر النار، لا يستويان، أيهما أفضل؟ معلوم ظل الجنة - اللهم اجعلنا منها -.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** التحذير من عمل أهل النار؛ لأن نفي الاستواء بين الظل والحرور أمر معلوم، وتأذي الإنسان بالحرور أيضًا أمر معلوم، ففيه التحذير من عمل أهل النار.

٧ - **هل يؤخذ من الآية الكريمة:** أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب الظل؟ نعم، وأن يطلب النوركذلك؛ لأنه مادمنا ذكرنا أن هذا النفي معناه: تفضيل النور على الظلمات وتفضيل الظل على الحرور؛ فلا حرج على الإنسان أن يطلب الأفضل، بل قد يجب أحيانًا، ولهذا لما رأى النبي - عليه الصلاة والسلام - زحامًا ورجلًا قد ظلل عليه في صيام رمضان في السفر، ما قال: لا تظللوا عليه، ولكن قال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيها أيضًا ما سبق في نظائرها.

٨ - **وفيها:** فضيلة العلم، وهو كذلك وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] والعلم جهاد في سبيل الله، وإن شئت فقل على الأصح: العلم سلاح للجهاد في سبيل الله؛ لأنه قد يحمل العلم من لا ينتفع به ولا ينفع غيره، فهو سلاح لكن إذا نفعت نفسك وغيرك صرت مجاهدًا به، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

﴿ ٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢] فالعلم سلاح، سلاح يتوصل به الإنسان إلى الجهاد في سبيل الله.

٩ - **ومن فوائد قولنا:** الأحياء والأموات أن فيه الحث على طلب العلم، وأنه حياة الأمة، كما أنه حياة الفرد فلا يمكن أن تحيا الأمة حياة لا أقول حياة دنيا يمكن أن تحيا حياة دنيوية بدون علم، لكن لا يمكن أن تحيا حياة طيبة إلا بالعلم وكل الناس ينشدون الحياة الطيبة، لكن ما طريقها العلم إذا أثمر ثمرته، وهو الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[النحل: ٩٧].

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾

١- **من فوائدها:** أن الله - عز وجل - هو الذي بيده مقاليد الأمور، حتى أنت يا محمد لا تستطيع أن تسمع أحدًا، بل المسمع هو الله.

٢ - وفيه إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وفيه رد على القدرية الذين ينكرون أن يكون لأفعال العباد مشيئة لله - عز وجل - لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، ولكن هذه المشيئة المطلقة قلنا: إنها في كل موضع جاءت مطلقة مقيدة بالحكمة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان بل يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله - عز وجل - وحده في جلب المنافع ودرء المفاسد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ فإذا كان يسمعهم الله فلا تسأله إلا من الله، ولهذا ينبغي لنا دائما أن نكون داعين لله - عز وجل -، ونحن نشعر بأننا مفتقرون إلى الله، وأن الله - سبحانه وتعالى - قادرعلى أن يحقق لنا ما نرجوه وما ندعوه به، لا تعتمد على نفسك وتنسى الله، افزع إلى الله دائمًا في الدعاء، في السجود، وبين الأذان والإقامة، وفي كل مواطن الإجابة الزمنية والمكانية والحالية؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثم اعلم أيضًا أن الدعاء مع كونك تطلب حاجتك من الله هو نفسه أيضًا عبادة، عبادة تتقرب به إلى الله فهذا الدعاء فيه ثمرتان، الثمرة الأولى: الثواب على هذه العبادة والثمرة الثانية: حصول المطلوب أو دفع المكروه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول الله ﷺ لا يستطيع أن يسمع من في القبور، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فلو أن الرسول ﷺ ذهب إلى أهل مقبرة ودعاهم وقال: يا أهل القبور آمنوا بالله ورسوله، يا أهل القبور اعملوا صالحًا، يسمعون؟ لا يسمعون، فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الصحيح من أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقف على قتلى المشركين في قليب بدر وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: « **يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَل وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِّي حَقًّا، فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أناس جيفوا** » أو كلام هذا معناه،

فقال: «مَا أَنْتُم بِأَسْمَعَ لما أَقُولُ مِنْهُم»[(١)] يعني أنهم يسمعون، فما هو الجواب؟

الجواب قول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ : أن الله أحياهم فأسمعهم كلام النبي ﷺ تنكيلًا لهم لما أماتهم، وتقول عائشة: إن أهل القليب لا يسمعون الرسول ﷺ ولكن يخاطبهم الرسول ﷺ لما يجدون من العذاب في القبر.

فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصحيح أيضًا من أن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم وهم منصرفون عنه[(٢)]؟

الجواب: هذا عند الدفن وأيضًا لا يلزم من سماع قرع النعال أن يسمع الكلام والدعوة، فإن قلت: ما الجواب عما رواه أبو داود وغيره وصححه ابن عبد البر ووافقه أو لم يخالفه ابن القيم، من أنه ما من مسلم يسلم على قبر كان يعرفه في الدنيا إلا رد الله عليه روحه فرد عليه السلام؟

فالجواب: أن يقال هذا في حال مخصوصة دل عليها الحديث، ولا يلزم من هذا إذا رد السلا م عليك وهو دعاء له أن يرد السلام على من سلم أن يسمع كل ما تكلم عنده.

فإن قلت: ما الجواب على قول الفقهاء من أن الميت يتأذى بقول المنكر عند قبره أو فعل المنكر عند قبره؟ فالجواب: أن قول الواحد من الناس غير الرسول - عليه الصلاة والسلام - فليس بحجة، وإنما يحتج له لا به، ثم على رأيهم - رحمهم الله - يحملون معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: مسمع من تدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح، فإنك لا تسمعهم سماعًا يستجيبون له، وهذا هو الجواب الأخير عن قول من يقول: إن الموتى لا يسمعون ما يقال عندهم وما يخاطبون به لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: سماعًا ينتفعون به ويستجيبون له والله أعلم والواجب على المؤمن نحو هذه الأمور الغيبية أن يؤمن بما جاء به النص فقط، يجب عليه أن يقول: العلم عند الله، فلا يجزم بالنفي ولا يجزم بالإثبات، نعم له أن يجزم بالنفي ويجعل ما ثبت به الحديث من السماع مخصصًا؛ لأنه قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

٥ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن محمدًا رسول الله ﷺ ليس إلا مبلغًا ومنذرًا، وليس في يده جلب الهداية لأحد، ولا دفع الضرر عنه؛ لأنه قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: ما أنت هادٍ للناس، أي: هداية توفيق ورشاد، ولكنك منذر فأنت هاد هداية دلالة فقط، يقول: ﴿إِنَّ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٣)، ومسلم (٢٨٧٠).

أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: أن فيها دليلًا على أن رسالة النبي ﷺ حق وأنه ليس بكاذب؛ لأنه قال: ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الرسول ﷺ أهل للرسالة إذا جعلنا بالحق حال من الفاعل فيكون فيه دلالة على أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أهل للرسالة، وهذا معلوم من أدلة أخرى كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤] لكن نريد أن نأخذها من هذه الآية.

٣ - **ومنها أيضًا**: أن ما جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - فهو حق ليس بباطل، فإذا نظرت إلى أخباره وجدتها صدقًا، وإذا نظرت إلى أحكامه وجدتها عدلًا، وهذا هو الحق؛ لأن الحق بالنسبة للخبر هو الصدق والحق بالنسبة للحكم هو العدل.

٤ - **ومن فوائدها**: أن رسالة النبي - عليه الصلاة والسلام - جمعت بين البشارة والإنذار، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الإنسان يجتمع فيه الخصلتان، متضادتان في المعنى، وإن كانتا متفقتين في المراد، بشير ونذير؛ لأن المبشر هو الذي يعد الناس بالخير، ويفتح لهم والمنذر هو الذي يخوفهم الضرر فبينهما من حيث المعنى تقابل وهنا يجتمعان من عين واحدة.

٦ - هل ننتقل من هذه الفائدة إلى أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال كفر؟ نعم.

والمعروف من مذهب أهل السنة والجماعة وهو الحق أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال كفر، فيكون مؤمنًا بوجه وكافرًا من وجه، فقوله - عليه الصلاة والسلام -: «**خِصْلَتَانِ مِنَ الْكُفْرِ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**» وقال النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» مع أن قتاله لا يخرجه من الإيمان لقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[الحُجُرات: ٩] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

٧ - **فيها أيضًا من الفوائد**: أن الأمر كله لله، ليس لأحد مشاركة فيه، حتى أعظم الناس منزلة لا يشارك الله - تعالى - فيما يختص به، لقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ ومعلوم أن مقام المرسِل أعلى من مقام المرسَل، والله أعلم.

٨ - **ومنها**: بيان ما يشتمل عليه دين الرسول - عليه الصلاة والسلام - من الحق الذي ضده الباطل، والباطل إن كان في الأخبار فهو الكذب، وإن كان في الأحكام فهو الجور والظلم، وعليه فرسالة النبي ﷺ متضمنة للحق في الأخبار وبالأحكام، ففيه بيان أيضًا فضيلة هذه الشريعة الإسلامية التي جاء به النبي ﷺ.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل ما كان حقًا فإن الشريعة جاءت به سواء نصت

عليه بمعناه الخاص أو بالمعنى العام، ومن ثم أثبت بعض الفقهاء أو بعض الأصوليين ما يسمى بالمصالح المرسلة، وجعلوها دليلًا مستقلًا والصواب أنها ليست دليلًا مستقلًا؛ لأن هذه المصالح إن شهد الشرع لها فهي من الشرع، ولا حاجة إلى أن نجعلها دليلًا مستقلًا، وإن لم يشهد لها فليست بمصلحة، وصاحبها الذي زعمها مصلحة يعتبر واهمًا، فكوننا نثبت دليلًا خامسًا نسميه المصالح المرسلة هذا خطأ؛ لأن هذه المصلحة إن شهد لها الشرع فهي من الشرع، دل عليها الكتاب والسنة، وإن لم يشهد لها فليست بمصلحة فلا تعتبر، ومن ذلك أيضًا زعم بعضهم إحداث دليل سادس وهو: استصحاب الحال، بمعنى: أن الأمر يبقى على ما كان عليه حتى يتبين ارتفاعه وانتفاؤه، هذا أيضًا ليست بصواب، يعني: لا يصلح أن نجعله دليلًا مستقلًا؛ لأنه قد دلت عليه السنة، فقد شُكِي إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - الرجل يخيل له أنه يجد الشيء في الصلاة فقال: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوتًا أَوْ يَجِدُ رِيحًا»[1] إذن: مبنى على بقاء الأصل، واستصحاب الحال، وحينئذ لا يحتاج أن يجعل هذا دليلًا مستقلًا.

و إنما جعل العلماء هذين دليلين مستقلين؛ لأن الإنسان ينقطع في ذهنه أن هذا شيء منفصل عن دلالة الكتاب والسنة، فيذهب ويجعله دليلًا مستقلًا، وإلا فلو تأمل لوجد أن ذلك موجود في الكتاب والسنة، وأنه لا حاجة إلى أن نثبته دليلًا مستقلًا.

ولقد تجرأ بعض المتأخرين على الدليل الأول وهو المصالح المرسلة، حتى أدخل فيه ما شهد الشرع ببطلانه، ومن ذلك قولهم: بإجازة الربا البنكي، وأنه يجوز بناء على ما يتوهمونه من المصالح المرسلة، وقالوا: إن اقتصاديات العالم في العصر الحاضر لا تتم إلا باستعمال هذه الطريقة، فالألفاظ والأساليب إذا جاءت على غير ما جاء في الكتاب والسنة يحصل بها مفسدة، فهنا أدخلوا شيئًا شهد الشرع ببطلانه، وإذا شهد الشرع ببطلانه فإننا نشهد أنه ليس فيه مصلحة، وأن المصلحة الموهومة منه يخلفها مفاسد كثيرة، فلهذا نحن نرى ألا يجعل دليلًا مستقلًا، وإلا ليس من الشرع وليس فيه مصلحة، والمصالح الموهومة فيه إذا كانت مخالفة للشرع لا بد أن يخلفها مفاسد كثيرة.

١٠ - من فوائد الآية الكريمة: إن رسالة النبي - عليه الصلاة والسلام - تتضمن من حيث الجزاء أمرين، هما البشارة والإنذار، البشارة لمن أطاع والإنذار لمن خالف، سواء كانت تلك الطاعة عامة أو في بعض الأشيا ء، وكذلك نقول في المخالفة .

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن مآل الناس إما إلى جنة وأما إلى نار، وليس ثمت دار ثالثة؛ لأن البشارة بالجنة والإنذار بالنار، وليس هناك دار ثالثة يصل الناس إليها.

١٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: الترغيب في طاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، والتخويف من مخالفته لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** لطف الله تعالى بعباده بإرسال الرسل إلى جميع الخلق، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - ذلك في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يعني: إلا لنرحم بك العالمين، وليس الرسول نفسه هو الرحمة، ولكنه أرسل لرحمة الخلق، ليرحم الله الخلق برسالته.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** بطلان الاحتجاج بالقدر على معصية الله لقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي والمخالفات، لو كان ثابتًا لم يرتفع بإرسال الرسل؛ لأن القدر لا يرتفع بإرسال الرسل، فالرسل أرسلهم الله تعالى إقامة للحجة على الخلق، ورحمة بهم أيضًا، لهذا ولهذا.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن النبي ﷺ ليس بدع من الرسل حتى تنكر رسالته، ويقال كيف جاء هذا الرجل برسالة من عند الله؟ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** قصور العقول عن معرفة ما يجب لله تعالى، لأنها لو استقلت بذلك ما احتاجت إلى إرسال الرسل .

١٧ - **ومنها أيضًا:** بطلان ما ذهب إليه المتكلمون من أهل البدع الذين بنوا عقيدتهم على ما يقتضيه العقل، وقالوا: ما اقتضى العقل إثباته لله أثبتناه، سواء كان مذكورًا في الكتاب والسنة، أم لم يذكر، وما نفاه العقل وجب علينا نفيه وإن ذكر في الكتاب والسنة، وما لم يدل العقل على نفيه وإثباته فإننا نتوقف فيه وأكثرهم قال: ننفيه؛ لأنه لابد من دلالة العقل على إثباته، فإذا لم يدل على إثباته وجب نفيه لعدم وجود الدليل. تؤخذ من قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ووجه ذلك أنه لو كانت العقول هي المرجع ما احتيج إلى إرسال الرسل.

❁ ❁ ❁

❁ ثم قال الله تعالى:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].

❁ التفسير ❁

ثم قال الله تعالى: [﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهل مكة]، هذا تفسير للواو في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: فليس ببدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من

قبلهم كذبوا الرسل كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤] يعني: ليس الأمر مقتصرًا على التكذيب فقط؛ بل تكذيب وأذية بالقول وأذية بالفعل، بل أعظم من ذلك: القتل، فإن كثيرًا ممن أرسل الله إليهم الرسل قتلوهم.

يقول: [﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهل مكة]، لماذا نخصه بأهل مكة؟ الصحيح أنه ليس خاصًّا بأهل مكة؛ بل أهل مكة وغيرهم، فالرسول كذبه أهل مكة وكذبه أهل الطائف، وغيرهم من المشركين، فالصواب العموم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل

فاعل، وأين المفعول؟ محذوف، أي: فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم.

قال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ ومع ذلك كفروا، ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البا ء هذه للمصاحبة، ويحتمل أنها للتعدية، يعني: أتوا بالبينة التي تبين صدقهم، وقول المؤلف: [المعجزات] هذا هو تعبير كثير من المتأخرين، ولكن الصواب أن يقال: بالآيات وأن البينات هذه هي صفة لموصوف محذوف، تقديره: بالآيات البينات، أي: الظاهرة.

و الآيات التي جاءت بها الرسل حسية ومعنوية، فمن الآيات الحسية ما جاء به موسى - عليه الصلاة والسلام - من العصا واليد وغير ذلك، ومن الآيات المعنوية ما جاء به من التوراة، وكذلك عيسى وغيرهما من الرسل كل رسول لم يأت إلا ببينة، وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه ما من رسول أرسله الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وإنما كان كذلك؛ لأنه ليس من الحكمة ولا من الحجة ولا من الرحمة أن يرسل رسول إلى الخلق يستبيح دماء المخالفين له وأموالهم ونساءهم بدون، بينة، حتى لو فرض أن أحدًا كذبه وهو لم يأت ببينة لكان المكذب معذورًا؛ لأن البينة على المدعي، فكان من حكمة الله ورحمته وإقامة حجته أن يجعل مع الرسل آياتٍ تشهد بصدق ما جاءوا به.

وقد ذكر أهل العلم - رحمهم الله - أن الآيات التي جاءت بها الرسل ولا سيما الآيات الحسية تكون مناسبة لمكان في عصرهم، أو لأبرز الأمور في عصرهم، وضربوا لذلك مثلًا بأن موسى - عليه الصلاة والسلام -، جاء بالعصا واليد لأنه اشتهر في عصره، وبرز في عصره صناعة السحر، فجاء بأمر فوق ما تجيء به السحرة، السحرة إنما يموهون ويخيلون، وهو جاء بالحقيقة، وألقوا حبالهم وعصيهم فإذا هو يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، يخيل إليه ولكنه ليس بحقيقة، هو ألقى عصاه فصارت حقيقة فعلية تلقف ما يأفكون، قالوا: وعيسى - عليه الصلاة والسلام - أتى في وقت ترقت فيه صناعة الطب، فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء ولا يستطيعونه، جاء بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وخلق صورة من الطين ينفخ فيها فتطير، تكون طيرًا حقيقيًّا، وهذا يعجز عنه الطب، لا يمكن لأي طبيب يكون أمامه رجل ميت فيقول قم فيقوم، أبدًا، لا يمكن

لأي طبيب يأتي إلى المقابر ويقف على القبر ويقول اخرج فيخرج، وعيسى يفعل ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، تخرجهم من مدافنهم، ولا يمكن لأي إنسان من الأطباء أو غيرهم أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، أبدًا، الأكمه والأبرص لا يمكن لأحد أن يبرئه من المرض الذي أصابه بمثل ما يبرئه عيسى - عليه الصلاة والسلام -، يؤتى إليه بذوي العاهات ويمسح بيده عليه فيبرأ يزول عنه ما به يعني هذا البرص الذي قد ملأ الجلد أو أكثره يمر يده عليه فلا تتعدى يده مكانًا إلا عاد إلى طبيعته، هذا لا يستطيع أحد من الأطباء مهما بلغ في الطب أن يصل إلى هذا الحال.

قالوا: ومحمد ﷺ أتى إلى قوم قد بلغوا في الغاية ذروتها، قد بلغوا في البلاغة ذروتها، فجاء بكلام لا يستطيعون مباراته أبدًا، وهو كلام الله، وتحداهم الله تعالى في عدة آيات أن يأتوا بسورة مثلها أو بعشر سور مثلها أو بحديث مثله، فلم يستطيعوا المهم أن جميع ما جاءت به الرسل آيات بينات.

يقول: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ قال: [كصحف إبراهيم]، الزبر جمع زبور وهو ما يزبر ويؤثر، يعني: الكتاب، ولو أن المؤلف قال: كزبور داود لكان أنسب للآية؛ لأن صحف إبراهيم ما ذكر الله أنها زبرٌ ولكن ذكر ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [هو التوراة والإنجيل]، الكتاب المنير الصواب: أنه ليس التوراة والإنجيل، بل كل كتاب بعث الله به الرسول ينير الطريق لأمته، فيشمل التوراة والإنجيل والزبور.

ما من رسول أرسله الله إلا معه كتاب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ٢١٣] فلا يمكن أن نقول: إن نوحًا - عليه الصلاة والسلام - أرسل بدون كتاب، أبدًا، لا بد أنه أرسل بكتاب لكن لا يلزم من كونه أرسل به أن يذكر لنا هذا الكتاب، يقول المؤلف: [فاصبر كما صبروا] وهل صبر الرسول؟ نعم صبر صبرًا لا يصبره إلا أولوا العزم، قال الله تعالى: [﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتكذيبهم] في كلام المؤلف ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بماذا أخذهم؟ بالعقاب، فقوم نوح أغرقهم، وقوم هود أتلفهم بالريح وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط جعل عالي قراهم سافلها، كل المكذبين أخذهم الله - عز وجل -، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾،[أي: إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك]، أي: هو واقع موقعه، يعني: أن الاستفهام هنا للتقرير، يعني: فكان نكيري أي إنكاري عليهم بالعقوبة كان واقعًا موقعه.

و لهذا لو سألت كيف كان إنكار الله لهم؟ الجواب أن نقول: كان شديدًا، وكان واقعًا موقعه،

فهو مطابق للحكمة تمامًا وهو عقاب شديد لم يبق منهم أحدًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن تكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس ببدع من البشر، فقد كَذبت الأمم قبله ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢ - **ومنها:** عناية الله تعالى بالرسول ﷺ بذكر ما يسليه ويهون عليه الأمر وذكر المصيبة المماثلة تقتضي تسلية الإنسان وتهوين الأمر عليه، ولهذا لو جئت إلى مريض، وقلت: والله أنت اليوم طيب، ومرضك أهون من مرض فلان، فلان أصيب بمرض فيه كذا وكذا، يتسلى يتسلى بلا شك، وكذلك لو أصيب بحادث، وقلت: إن فلا ن أصيب بحادث أعظم؛ يتسلى، إذن ففيه عناية الله تعالى برسوله ﷺ حيث يذكر له ما يهون عليه المصائب ويسليه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** إنذار المكذبين لرسول الله ﷺ؛ لأن الله ذكر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكان عاقبتهم الدمار والهلاك، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠] يعني: لا تظنوا أن الدمار الذي لحق المكذبين السابقين لا تظنوا أنه خاص بهم، بل إذا كذبتم أصابكم ما أصابهم .

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - لم يترك الرسل هملًا، بل آتاهم من البينات ما يؤمن على مثله البشر لقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٥ - **ومنها أيضًا:** تمام حكمة الله - عز وجل - ورحمته وإقامة حجته تؤخذ من قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنه إنما أعطى هؤلاء الرسل البينات لتمام إقامة الحجة والرحمة والحكمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من أعظم البينات ما جاءت به الرسل من الشرائع التي تضمنتها الكتب، وجه ذلك التنصيص عليها مع أنها من البينات أيضًا هو تنصيص أعيد معه العامل، بالبينات وبالزبر فكأنها مستقلة .

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكتب السماوية متضمنة للنور، وأن كل من أخذ بها فقد أخذ بنور يمشي به في الظلمات؛ لقوله: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٨ - **ومنها:** أن المفرد إذا أريد به الجنس صار عامًّا؛ لأن قوله: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا مفرد ولكن هل الكتب التي جاءت الرسل كتاب واحد؟ لا، بل هي كتب كثيرة بحسب الرسل.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[فاطر:٢٧،٢٨]

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ إلى آخره، الاستفهام هنا للتقرير وهذا هو الغالب فيها إذا أتى حرف النفي، أو إذا أتت أداة النفي بعد همزة الاستفهام، أن يكون للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشَّرح: ١] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة٤٠] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداة النفي بعد همزة الاستفهام فالغالب أن يكون الاستفهام للتقرير.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حذفت الألف للجازم؛ لأن اللام تجزم، والفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة، وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، وهو قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾.

وقوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ صفة لجدد، وقوله: ﴿سُودٌ﴾ قيل: إنه على التقديم والتأخير أي: وسود غرابيب، وقيل: إنه على الأصل، وأن سود تقع موقع التوكيد مما قبلها؛ لأن الغرابيب هو: الشديد السواد.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال المؤلف: [تعلم] فالرؤية هنا علمية، وعلقت عن العمل بأن وما دخلت عليه، فإن (أن) وما دخلت عليه تعلق أفعال القلوب عن العمل، ويحتمل أن تكون الرؤية هنا بصرية، يعني: ألم تنظر وتبصر؛ لأن ما ذكر يرى بالعين، وما كان يرى بالعين فإنه يجوز أن يراد به الرؤية بالعين، لكن إذا جعلناها علمية كان ذلك أعم؛ لأن هذا الأمر قد لا تراه بعينك، ولكن تسمعه في بلاد أخرى غير بلادك.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسماء هنا: العلو، والمراد بالماء: المطر، وليس المراد بالسماء الأجرام السماوية المعروفة؛ لأن الماء إنما ينزل من السحاب، والسحاب عال ولكنه بين السماء والأرض.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ قال: [فيه التفات عن الغيبة]، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، لو كان الكلام على نسق واحد لقال فأخرج به، بضمير الغيبة، لكنه صار فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، والالتفات فيه فائدة؛ بل فوائد، فيه فائدة مشتركة في جميع موارده ومواضعه، وهي: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان معه، ولم يكن هناك شيء يوجب أن ينتبه ويتفطن، فإذا اختلف السياق من غيبة إلى تكلم أو إلى خطاب أو ما أشبه ذلك فإن الإنسان ينتبه، يعني كأنه يقول: عَلَّمًا على تغير الأسلوب لينتبه المخاطب.

الفائدة الثانية هنا قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ فإن (نا) هذه تفيد التعظيم؛ لأن الإخراج أعظم من الإنزال بالنسبة للنعمة علينا، فإنه لو أنزل المطر ولم يخرج النبات لم نستفد من المطر، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «**لَيْسَتِ السَّنَةُ أَلَّا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا فَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا**»[1] فلما كان إنعام الله تعالى بإخراجنا النبات أعظم، صار الالتفات إلى التكلم أولى بعظم المنة فيه.

قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، وهنا قال: أخرجنا به ثمرات، ولم يقل: أخرجنا به نبات، وقد قاله في آية أخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، لكن هنا قال: ثمرات؛ لأن المقصود من هذا الخارج هو الثمرة، فبين الله - سبحانه وتعالى - الغاية المقصودة وهي: الثمرات.

قال: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها] وهذا يدل على قدرة الله، هذه الثمرات مختلفًا ألوانها، وكلمة ألوان يحتمل أن يكون المراد ما ذكره المؤلف وهو: اللون المختلف ذو الحمرة والصفرة والخضرة وما أشبه ذلك، ويحتمل أن المراد بالألوان: الأصناف، فإن الألوان تطلق على الأصناف، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في صلاة الليل في قيام رمضان، قال: روي في ذلك ألوان أي: أنواع وأصناف، وإذا نظرت إلى الخارج من الأرض وجدت أنه ذو ألوان في شكله، وذو ألوان في أنواعه وأصنافه، ما بين حلو ومر، ومتوسط وحامض، وغير ذلك مما هو معلوم، وهذا الأخير إذا قلنا: إن المراد بالألوان ما يعم الأنواع، أشمل مما إذا قلنا: إن المراد بالألوان الاختلاف في الشكل وقد مر علينا قاعدة بأنه كلما كان المعنى أشمل في التفسير كان أولى؛ لأن الأشمل يعم الأخص وغيره بخلاف الأخص.

قال: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ هذه جملة استئنافية، يبين الله - عز وجل - فيها كمال قدرته أيضًا بالنسبة للأرض وطبقاتها.

قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ جمع جُدَّة: طريق في الجبل وغيره، من الجبال جدد يعني: الطرق، يعني: الشيء يشبه الطرق لاختلافه عن بقية الجبل، وهو مختلف في اللون، ومختلف في الماهية - أيضًا -، نحن نرى بعض الجبال الآن، ولا سيما إذا فتح الجبل، نرى في أثنائه خطوطًا قد تكون سوداء وقد تكون حمراء وقد تكون بنية وقد تكون بيضاء، المهم أننا نجد فيه خطوطًا تخالف بقية الجبل، هذه الجدد التي ذكرها الله - عز وجل - هنا، فالجبال تختلف أيضًا ألوانها وهذا الاختلاف في اللون يعني الاختلاف في الماهية والحقيقة، ليست الحصاة السوداء كالحصاة البيضاء أو الحمراء أو ما أشبهها مما يخالفها في اللون، بل لابد أن يكون اختلاف في طبيعة هذه الحصاة، كما كان اختلاف في الثمرات في ألوانها يدل على اختلافها في طعومها وفي ماهيتها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٩٤).

قال: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ ذكر الله - عز وجل - بيض وحمر وكان من المتوقع أن يقول: بيض وسود؛ لأن هذا هو المعروف في مقابلة البياض، أن يقابل بالسواد، لكنه قال: ﴿وَحُمْرٌ﴾؛ لأن الحمر أقرب إلى البياض من السود، وستذكر في قوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ هذه الجدد بيض وحمر، قال المؤلف: [وصفر]، ونحن ربما نقول أيضًا: وزرق، وغير ذلك من الألوان والله - عز وجل - لم يذكر هذين اللونين للحصر، وإنما هو علي سبيل التمثيل، قال: [جدد مختلف ألونها بالشدة والضعف]، هنا فسر المؤلف الألوان بماذا؟ بالماهية أم بالأشكال؟ بالماهية لأنه قال: [بالشدة والضعف] ولم يقل: باللون الذى هو أحمر وأبيض - على كل حال - الألوان كما قلنا آنفا تطلق على الأنواع أحيانًا .

هذا الاختلاف في ألوان أحجار الجبال كالاختلاف في ألوان الثمار ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطف على جدد أي: صخور شديدة السواد، يقال كثيرًا: أسود غربيب، ويقال قليلًا: غربيب أسود، أولًا الغرابيب جمع غربيب، والغربيب شديد السواد، وكان مقتضى الترتيب أن يقال: وسود غرابيب ولكن الله تعالى قدم، قال: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، فعلى هذا زعم بعضهم أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وقال بعضهم: بل هو على ترتيبه، ليس فيه تقديم وتأخير، ولكن الله - سبحانه وتعالى - بين الأسود الشديد السواد قبل بيان مطلق السواد، هذا أيضًا مشاهد ،نجد في الجبال طرقًا يعني: كالطريق أو كالخط أسود وإلى جانبه طريق أبيض أو أحمر أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله - عز وجل-.

فنجد نحن أن هذا الاختلاف في الجبال هو كالاختلاف في الثمرات .

الفوائد:

١ - **في هذه الآية:** التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يتفكر في خلق الله - عز وجل -، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ فإن هذا تقرير، والتقرير لا يكون إلا بعد أن ينظر المقرر في ما قرر به حتى يقر به ويعترف.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - وحكمته ورحمته، وذلك بإنزال الماء من السماء ففيه قدرة عظيمة أن ينزل هذا الماء الذي يكون بحارًا، أحيانًا يدمر ما مر عليه من البناء ويجترف الأراضي، مع أنه ينزل من هذا السحاب الرقيق الذي تخترقه الطائرة، كما نشاهد، ويتمزق عندما يمر بالجبال وبالبناء وما أشبه ذلك، تنزل منه هذه المياه العظيمة هذا تمام القدرة.

تمام الرحمة ما يحصل من هذا المطر من الآثار النافعة للعباد، تمام الحكمة؛ لأن هذ ا المطر ينزل من أعلى حتى يشمل المرتفع والمنخفض من الأرض، ولو كان يمشي مشيًا كالأنهار لكان الأسفل من الأرض يروى بالماء بل يغرق، وأما الأعلى فلا يصيبه شيء، وهذا من تمام حكمة الله - عز

وجل - أنه ينزل من فوق.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فإن الباء هنا للسببية، ففي الآية إثبات الأسباب، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد قرن الأشياء بأسبابها، وهذا من تمام حكمته أن تكون الأسباب والمسببات متلازماتٍ، من المعلوم أن الله قادر على أن يخرج هذه الثمرات بدون ماء، ولكن قد جعل لكل شيء سببًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله - عز وجل - بإخراج هذه الثمرات المختلفة الألوان، مع أنها في أرض واحدة وتسقى بماء واحد، ويظهر لك ذلك جليًّا إذا نظرت إلى الزهور، كيف تجد هذا الاختلاف العجيب بينها، مع أنها تسقى بما ء واحد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحكمة في اختلاف هذ ه الثمرات؛ لأنه لو كانت هذ ه الثمرات طبيعتها واحدة لمل الناس منها ولم يحصل لهم كمال اللذة، فإذا اختلفت حصل كمال اللذة وعدم الملل والسآمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: بيان قدرة الله - عز وجل - ورحمته وحكمته فيما نرى من الجبال أو فيما نرى في الجبال من الجدد المختلفة؛ لأن هذا دليل على القدرة حيث جعل هذا بين هذا، ودليل على الحكمة؛ لأن الغالب أن ما في بطون هذه الجبال يكون معادنًا مفيدة للإنسان، كذلك بيان الرحمة بالخلق لإيداع هذه الأشياء في بطون هذه الجبال.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: بيان قدرة الله - عز وجل -، حيث إنه يجعل بعض الجبال فيها السواد الخالص وقد يكون الجبل كله أسودَ، وأحيانًا نرى جبلًا أسودَ وإلى جانبه جبلًا أبيضًا، فهذا كله من تمام قدرة الله - عز وجل -.

٨ - **ومن فوائد الآية**: ما يترتب على النظر في هذه المخلوقات من الاعتبار والاستدلال بها على ما تتضمنه من صفات الله - سبحانه وتعالى -.

❁ ❁ ❁

❁ ثم قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]

❁ التفسير ❁

جملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ جملة خبرية قدم فيها الخبر على المبتدأ، و﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل ﴿مُخْتَلِفٌ﴾؛ لأن مختلف اسم فاعل، واسم الفاعل يعمل عمل فعله،

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة، لقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، يعني: مختلف كاختلاف ما ذكر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ هي جملة أيضًا مكونة من فعل وفاعل ومفعول به، وفيها حصر وطريقه إنما وجملة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ كالتعليل لما قبلها كما سيأتي إن شاء الله.

قال الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، الناس هم: البشر، قالوا: وأصلها أناس، ولكنها حذفت الهمزة تخفيفًا، لكثرة الاستعمال، كما حذفت من شر وخير، وأصلهما أشر وأخير، وحذفت - أيضًا - من الله على قول كثير من علماء اللغة، وأصلها يقول: الإله، والمراد بالناس: بنو آدم، وسموا بذلك؛ لأنه يأنس بعضهم إلى بعض.

قال: ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وتطلق على عدة معان، تطلق على كل ما دب على الأرض كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] وكما في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، يشمل كل ما دب على الأرض، من إنسان وحيوان وحشرات وغير ذلك، وتطلق الدابة على ما يدب على بطنه مثل الحيات، وتطلق الدابة على ذوات الأربع كالحمار، فما المراد بها في هذه الآية؟

نقول: المراد بها ما عدا الناس والأنعام، فتشمل كل ما دب على الأرض إلا الناس والأنعام، فإن قلت: لماذا لا تجعلها شاملة وتجعل هذا من باب عطف العام على الخاص بالنسبة للناس، ومن باب عطف الخاص على العام بالنسبة للأنعام، يعني لو قال قائل: المراد بالدواب: كل ما دب على الأرض، لكنها عطفت على الناس من باب عطف العام على الخاص، وعطفت الأنعام عليها من باب عطف الخاص على العام، قلنا: هذا ممكن لكن التقسيم يبعده، فيكون المراد بالدواب: ما عدا الناس والأنعام، والمراد بالأنعام: ما ينتفع الناس به، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٢] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١] فيكون المراد: بالأنعام هنا: ما ينتفع الناس به كالإبل والبقر والغنم والطيور الحلال وغير ذلك.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ هل المراد باللون الشكل أو الصنف أيضًا؟ يشمل، فالناس مثلًا تختلف ألوانهم، هذا أبيض وهذا أسود وهذا أحمر وهذا بين ذلك، واختلاف اللون ظاهر، تختلف أجناسهم أيضًا، هذا ذكر وهذه أنثى هذا عالم وهذا جاهل، هذا أحمق وهذا حليم، وعلى هذا فقس، الدواب كذلك، تختلف ألوانها بالشكل، وتختلف أصنافها وأنواعها، منها المؤذي ومنها الضار ومنها النافع، ومنها ما ليس بضار ولا نافع ولا مؤذٍ، فهي أربعة أصناف، منها النافع ومنها الضار، ومنها المؤذي ولكن لا يضر، ومنها ما ليس مؤذيًا ولا ضارًّا، مثال النافع: الأنعام، ومثال

الضار: الحيات والعقارب والسباع وما أشبهها، ومثال المؤذي: الصراصير والخنفساء والجعلان وما أشبه ذلك، الناموس قد يكون ضارًّا، ومثال ما ليس بمؤذٍ ولا ضار النمل وغيره أيضًا من الدواب الكثيرة التي نراها نرى طيورًا تطير في الجو ليست حلالًا مثلًا ولكنها لا تضر.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المؤلف: [كاختلاف الثمار والجبال]، فصار الاختلاف في مخلوقات الله تعالى شاملًا، شاملًا للحيوان ولما ينتفع به الحيوان من الثمار وغيرها ولطبقات الأرض كالجبال.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ لما ذكر هذه الأصناف، وفيها ما يدل على كمال الله - عز وجل - في صفاته التي تتضمنها هذه الأصناف المذكورة، بين أن العالم بذلك هو الذي يخشى الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ يعني: لا يخشى الله إلى العلماء، والخشية هي أعلى الخوف، أو إن شئت فقل هي: الخوف المبني على العلم، وبعضهم قال: هي الخوف المبني على عظم المخوف، ولا يمتنع أن تكون الخشية هي الخوف بكل الأنواع الثلاثة، يعني: هي أعلى أنواع الخوف، أو الخوف المبني على العلم، أو الخوف المبني على عظم المخوف، أما الخوف المجرد عن الخشية فهو قد يكون عن جهل، يخاف الإنسان من شيء؛ لأنه جاهل به وإلا فليس أهلًا لئن يُخاف منه.

[ككفار مكة]، وصدق المؤلف في قوله في خلاف الجهال، وأما التمثيل بكفار مكة فليس على سبيل الحصر، بل هو على سبيل المثال، فكل كافر فهو في الحقيقة جاهل، وهي جهالة العلم، أم جهالة التصرف؟ جهالة التصرف في الغالب، في الغالب إنها جهالة تصرف، وإلا فإن الكافر يكون عنده علم، لكنه - والعياذ بالله - يستمر على طغيانه ولا يؤمن.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ الاستفهام هنا؛ لإثبات الأسباب لزم علينا القول بوجوب الفعل؛ لأن السبب يستلزم وجود المسبب، وهذا يقتضي أن نوجب على الله - عز وجل - وجود المسبب لوجود السبب.

علماء الكلمة أنكروا الحكمة كالجبرية مثلًا أنكروا حكمة الله، يقولون: لأنه لو قلنا بثبوت الحكمة والسببية: لزم من ذلك أن نوجب على الله تعالى أن يفعل، كما قال ذلك خصومهم من المعتزلة، المعتزلة يقولون: بوجوب الأصلح، بعضهم يقول: بوجوب الصلاح على الله - عز وجل -، لأن هذا مقتضى الحكمة.

وأولئك الجهمية بالعكس يقولون: إن الله - عز وجل - يخلق الشيء بدون سبب وبدون حكمة، لأنك لو أُثبتت الحكمة والسبب لزم إيجاد المسبب أو الفعل الذي يكون مسببًا بهذا السبب، وهذا يقتضى أن نوجب على الله - عز وجل - فعل الشيء، فما هو الجواب؟ نقول: إن إثبات الحكمة أو السبب لا يستلزم أن نوجب على الله، ولكن مقتضى كونه حكيمًا أن يفعل، وأن

يوجد المسبب عند وجود السبب، ونحن لم نوجبه ولكن الذي أوجبه الله على نفسه، بمقتضى اسمه الحكيم ووصفه بالحكمة، وإيجاب الله على نفسه ليس بممتنع، كما أن تحريمه على نفسه ليس بممتنع، فقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1]، فلله أن يحرم على نفسه وأن يوجب على نفسه ما شاء أما نحن فلا.

فإذا قيل مثلًا: هذا مصلحة، فيجب أن يكون، فإننا نقول: نعم نلتزم بهذا، ولكن هل نحن الذين أوجبناه على الله ؟لا، بل الله هو الذي أوجبه على نفسه، وهذا لا ينافي كماله، بل هو من مقتضى كماله، إلا أن المحظور هنا في هذا الباب، أن نظن أن المصلحة في كذا وحقيقة الأمر أن المصلحة في عدمه هذا هو الذي يُخشى منه، وحينئذ نعتقد أن هذا واجب على الله وهو لم يجب، نعتقد لأنه واجب على الله بمقتضى فهمنا، أن هذا مصلحة وخير، ثم نوجبه على الله، هذا هو المحظور أما إذا أطلقت المصلحة فلا مانع من أن نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - أوجب على نفسه أن تكون المصلحة؛ لأن هذا هو مقتضى اسم الله الحكيم، وفي هذه الحال لم يحصل منا أي عدوان أو ظلم، بل قلنا بمقتضى حكمة الله - سبحانه وتعالى -.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عزة، قال العلماء: والعزة ثلاثة أنواع، عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فأما عزة القدر فمعناه: أن الله تعالى ذو قد ر عزيز والقدر بمعنى: المكانة والشرف والسؤدد ونحو ذلك.

عزة القهر أي: أن الله تعالى غالب، غير مغلوب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾[ص: ٢٣] أي: غلبني .

عزة الامتناع أي: أن الله - سبحانه وتعالى - يمتنع عليه النقص في ذاته أو في صفاته، ومنه قولهم: أرض عزاز أي: شديدة صلبة لا يتجاوزها شيء لصلابتها، ولا يؤثر فيها شيء لقوتها وشدتها، فالعزة إذن ثلاثة، ثلاثة معانٍ، عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، يدل على ذلك اشتقاقها، فإنها مشتقة من المغفر، وهو ما يغطى به الرأس وتتقى به السها م، وفي المغفر ستر ووقاية، وعلى هذا فنقول: الغفور ذو المغفرة، وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه، ويدل لهذا المعنى زيادة على دلالة الاشتقاق ما ثبت في الحديث الصحيح أن الله - عز وجل - يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه حتى يقر بها، ثم يقول: قد سترتها عليك في الدنيا،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه(٤٢٥٧).

وأنا أغفرها لك اليوم[1]»، يعني: أتجاوز عنها وفي الدنيا سترها الله على العبد، ومناسبة ذكر العزة والمغفرة هنا بعد ذكر الخشية؛ الإشارة إلى أن الله - سبحانه وتعالى - أهل لأن يُخشى لأنه عزيز، وأنه إذا نقص شيء من الخشية فإنه يقابل بالمغفرة، فهو عزيز، فبذلك كان أهلًا للخشية، وهو غفور إذا نقص شيء مما يجب له من خشيته - سبحانه وتعالى -. وقول المؤلف: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه]، هذا مبني على أن العزة بمعنى: الغلبة، كما يفسرها كثير من المفسرين بذلك، فيقولون: العزيز أي: الغالب، ولكن هذا التفسير الذي ذكرناه ما نطلقه على ملكه، تقول: هو عزيز ولا نقيدها في ملكه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - عزيز في ملكه وعزيز في صفاته كلها، وعزيز في شرعه، فالعزة عامة، ما دمنا نقول: إنها عزة الامتناع والقدر والقهر، وأما [غفور لذنوب عباده المؤمنين]، فتقييدها بذلك أيضًا فيه نظر، ولو قال المؤلف: غفور لمن تاب إليه أو لمن استغفره لكان أشمل، لأن الله تعالى يغفر حتى لغير المؤمنين إذا تابوا إلى الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فالتعميم أولى من التخصيص.

الفوائد:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - سبحانه تعالى - باختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام أي: أصنافها وأشكالها؛ لأن اختلاف هذه الألوان وهي شيء واحد أو نوع واحد دليل على القدرة، فبنو آدم مثلًا لا يمكن أن يشترك شخصان أو أن يتماثل شخصان في كل شيء أبدًا، إن قدر تماثلهما في الخلقة فسيختلفان في الخلق، والتساوي في الخلق أمر مستحيل؛ لأن الناس يتباينون فيه تباينًا عظيمًا، يتباينون فيه تباينًا أشد من التباين الخلقي، وإن كان التبيان الخلقي أظهر؛ لأنه يشاهد ويرى، لكن التباين الخلقي أشد؛ لأنه لا يمكن أن يتفق الناس فيه، أو أن يتساوى الناس فيه أبدًا؛ لأن أي كلمة تحصل من أحدهما دون الآخر يحصل فيها التباين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة خشية الله - عز وجل - حيث لا يتصف بها إلا العلماء.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** فضيلة العلم لكونه سببًا لخشية الله - عز وجل -، والخشية صفة لها آثار حميدة؛ لأن الإنسان إذا خشي ربه فإنه يتجنب معاصيه ويفعل أوامره خوفًا منه - سبحانه وتعالى -، ولهذا لما ذكر الله - عز وجل - ثواب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيِّنة: ٧] وهو دليل على أن الخشية توجب الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز والغفور، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي العزة والمغفرة، وإثبات ما تضمناه من الحكم وهو الأثر أما الغفور فنعم لها أثر وحكم، كما قال تعالى: في آخر سورة البقرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] العزيز هل لها حكم؟ قلنا: إنها من معانيها الغلبة، وإذا كانت عز بمعنى: غلب صارت متعدية، فيكون لها حكم أي: أثر، إذن إثبات ما تضمنه الاسمان من الصفة والحكم الذي نعبر عنه أحيانا بالأثر، ومر علينا فيما سبق أن أسماء الله - عز وجل - إما لازمة وإما متعدية، فاللازمة يُثبت منها الاسم والصفة والمتعدية يثبت منها الاسم والصفة والأثر.

❁ ❁ ❁

❁ ثم قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾[فاطر:٢٩]

❁ التفسير ❁

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [زكاة وغيرها] ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ تهلك، الإعراب في هذه الآية واضح ما فيه إشكال، إلا أن قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ تحتاج إلى خبر، فما هو الخبر؟ الخبر جملة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ فهذا هو الصحيح من أقوال المعربين، يعني: إن هؤلاء فعلوا ذلك يرجون تجارة لن تبور، فجملة ﴿يَرْجُونَ ﴾ هي خبر إن، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [يقرءون]، والصواب أن التلاوة أعم من القراءة.

فالتلاوة نوعان: تلاوة لفظية وهي القراءة وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن، تصديقًا للخبر وامتثالًا للأمر، ولهذا يقال: تلاه بمعنى: تبعه، أي: جاء بعده فالتلاوة أعم من القراءة.

التلاوة اللفظية: أن يقرأ الإنسان القرآن، والتلاوة العملية أن يتبعه بامتثال أوامره وتصديق أخباره أو بموافقته وتصديق أخباره، التلاوة العملية تستلزم فهم المعنى؛ لأنه لا يمكن أن يعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة ﭫ تطبيقًا لهذه الآية تمامًا؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَتْلُونَ ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، بخلاف ما لو قال: إن الذين تلوا، بالماضي، فإنه لا يفيد المعنى الذي يفيده المضارع يتلونه، وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، هل هو القرآن أو هو أعم من ذلك؟ الجواب: أعم من

ذلك، كتاب الله الكتب التي أنزلها الله تعالى على الرسل، فيشمل جميع الكتب؛ لأن هذا الحكم يشمل المؤمنين من هذه الأمة والمؤمنين ممن سبقهم، فيكون المراد بالكتاب هنا: كل كتاب أنزله الله تعالى على رسله.

﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوفة على ﴿يَتْلُونَ﴾، قال المؤلف: [أداموها]، والصواب: خلاف ما قاله المؤلف، يعني معناه: أننا نختار كلمة أشد مطابقة للفظ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتوا بها مستقيمة، فيشمل فعل الصلاة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويشمل الإدامة، يشمل الإدامة أيضًا؛ لأن الإدامة من الإقامة، وعلى هذا نقول: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فعلوها قائمة، أي: مستقيمة، على الوجه المطلوب منهم، لو أن الإنسان أدام الصلاة لكن يخل بأركانها أو واجباتها، فهل يقال إنه أقام الصلاة؟ لا، فالرجل الذي جاء يصلي ولا يطمئن كان يصلي هذه الصلاة منذ أسلم، والرسول - عليه الصلاة والسلام - قال له: «صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[1] مع أنه يديم الصلاة، ويصلي، لكنه لم يصل حيث إنه لم يأت بها قائمة على الوجه المطلوب، فالصواب أن الإقامة هنا بمعنى: أن يفعلها على الوجه المطلوب منه.

والصلاة معروفة للجميع لا تحتاج إلى تعريف؛ لأنها عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قال: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ﴿وَأَنفَقُوا﴾ بمعنى: بذلوا وأخرجوا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: مما أعطيناهم؛ لأن الرزق بمعنى: العطاء.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، هل (من)لبيان الجنس أو هي للتبعيض؟ الأولى أن نجعلها لبيان الجنس لتشمل ما لو أنفقوا جميع أموالهم على الوجه الذي يرضاه الله ورسوله، فإنهم يدخلون في هذا الوصف.

وقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ﴿سِرًّا﴾مصدر، ولكنها في موضع الحال، أي: مسرين ومعلنين، الإسرار أن يخفوا الإنفاق فلا يعلم به إلا المنفق عليه، والإعلان أن يظهره للناس، إما إظهارًا كاملًا شاملًا، وإما أن يكون إظهارًا نسبيًّا، يعلم به من حوله، كل ذلك يُمدحون عليه، وسيأتي - إن شاء الله - في ذكر الفوائد أن هذا يكون بحسب الحال، قال: [زكاة وغيرها]، غير الزكاة كالإنفاق الواجب على الأقارب، وكصدقات التطوع فالإنفاق هنا شامل.

قال: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾،﴿يَرْجُونَ﴾ يعني: يؤملون ويطلبون من هذه التجارة ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن [تهلك]، كما قال المؤلف.

ما هذه التجارة؟ التجارة ذكرها الله - عز وجل - في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).

تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] فهنا عوض ومعوض، العوض الإيمان بالله والجهاد في سبيله، المعوض ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، هذه التجارة لا شك أنها أربح التجارات، وأنها أبقى التجارات، أربح التجارات؛ لأن الربح فيها العشر مائة والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأبقى كذلك هي أبقى التجارات بلا شك؛ لأنها في جنات عدن أي: في جنات إقامة لا ظعن فيها، والله أعلم.

الفوائد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخره.

١ - يستفاد من هذه الآية فوائد منها: فضل تلاوة كتاب الله - عز وجل -، لقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾.

٢ - ومنها: أن الرجاء ينبغي أن يكون في محله، بحيث يكون الإنسان قد عمل عملًا يرجو الثواب عليه، أما الرجاء بدون عمل فهو من التمني الذي لا ينفع العبد، وفي الحديث: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْموتِ، والْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى الله الْأَمَانِي**»[1] فلا رجاء إلا بعمل، وفي الحديث الصحيح أيضًا: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله**»[2] وفي الحديث الصحيح: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[3]، وكل هذه النصوص وما أشبهها إنما تكون فيمن يعمل ما يمكن أن يرجو به ذلك، وأن يحسن به الظن، لو أن أحدًا أساء واستكبر عن عبادة الله، وقال: أنا أحسن الظن بالله لكان هذا ظنًّ وهم، لابد من شيء يبني عليه هذا الظن، لو قال: أنا أرجو رحمة الله قلنا: هذا وهم حتى تعمل ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] هؤلاء هم الذين يرجون، وهنا أيضًا مثلها.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: أن الثواب في الآخرة لا ينقطع، لقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾، بل ربما نقول: إن هذا أعم، بحيث يثاب الإنسان في الدنيا ثوابًا مستمرًّا إلى الآخرة؛ لأن الحسنات قد يرى الإنسان ثوابها في الدنيا، وثوابها في الدنيا يستمر إلى ثواب في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣١، ٣٢].

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضل إقامة الصلاة؛ لقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾، وهو شامل كما قلنا في التفسير، شامل لفرض الصلاة ونفلها، فما تقام به الفريضة تقام به النافلة، وما تقام به النافلة تقام به الفريضة، إلا بدليل يدل على الفرق بينهما، وأظننا قد جمعنا الفروق بين فرض الصلاة ونفلها فبلغت ثمانية وعشرين فرقًا، منها ما هو واضح دلت عليه السنة، ومنها ما هو دون ذلك، المهم أن الأصل أن إقامة الفريضة إقامة للنافلة، وإقامة النافلة إقامة للفريضة، هذا الأصل، فما ثبت في إحداهما ثبت في الثاني إلا بدليل.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** فضيلة الإنفاق؛ لأنه أعقبه أو أعقب الصلاة به، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا﴾ وهو يدل على أن هذا الإنفاق يشمل الزكاة وغير الزكاة؛ لأن الله تعالى يقرن دائمًا في الذكر بين الصلاة والزكاة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المنفق ليس مانًّا على الله - عز وجل -، لأنه إنما ينفق مما رزقه الله، فمهما بلغت بك نفسك من الإعجاب والكبرياء على إنفاقك، فاذكر قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، كل شيء تنفقه فليس لك فيه منة على الله - عز وجل -، بل لله المنة عليك به في إيجاده وفي إنفاقه، في إيجاده؛ لأنه لولا أن الله رزقك ما حصل لك، وفي إنفاقه؛ لأن كثيرًا من الناس يبخلون بما آتاهم الله من فضله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠] فمن نعمة الله عليك أن يمن عليك بالإنفاق بعد أن من عليك بالرزق والعطاء.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الإنفاق لا نقول: إن الإسرار فيه أفضل ولا إن الإعلان فيه أفضل، بل هو بحسب الحال فتارة يكون الإنفاق سرًّا أفضل وتارة يكون الإنفاق علنًا أفضل، حسب ما تقتضيه الحال، بخلاف الصدقة فالأصل فيها السر، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ لأن الصدقة فيها نوع منة على المعطى، فربما ينكسر أمام الناس إذا أُعلنت الصدقة له، فصار إخفاؤها أفضل، وفي الحديث الصحيح في الذين يظلهم الله في ظله: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا»[1]، أما الأشياء العامة والمعلنة، كما لو أردنا أن ننفق في مشروع خيري عام لا يظهر فيه المنة على شخص معين فهنا قد يكون الإعلان فيه أفضل، وكذلك لو أن شخصًا جاء إلينا، وقال: أرجو أن تجمعوا لي من الناس، فهنا ربما يكون الإعلان أفضل من أجل أن يقتدي بك غيرك، وهذا الرجل الذي طلب منا أن نجمع له لا يهمه أن يعلم الناس بأنه يتصدق عليه أو لا يتصدق.

المهم أن نقول: إن السر والإعلان في الإنفاق كله خير، لكن الصدقة الأفضل فيها السر لما في إظهارها من كسر قلب المعطى، وأما الأشياء العامة أو الصدقة على شخص معين الذي طلب منا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

أن نجمع له مثلًا فهذا قد يكون الإعلان فيه أفضل.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التنبيه على الإخلاص لقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ لا يريدون تجارة تبور وتهلك، يعني: لا يريدون مثلًا سمعة؛ لأن السمعة والجاه بين الناس لا شك أنه كسب للمرء، ويعتبر تجارة، لكن هذه تجارة هالكة، هالكة تزول بزوال الشخص، أو تزول بزوال ما اشتهر به؛ لأن من حمد على شيء ذم على فقده، لكن الذي يرجو ثواب الله ويحسن النية والقصد هذا هو الذي حصل على تجارة لن تبور، ففيه التنبيه على الإخلاص وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مخلصًا لله تعالى في عمله اللازم أو القاصر والمتعدي، القاصر كالصلاة والمتعدي كالصدقة.

ثم قال الله تعالى:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٠].

التَّفسِير

ثم قال الله عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ أي: يعطيهم أجورهم وافية كاملة، والضمير ضمير الفاعل يعود على الله، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ اللام هذه للعاقبة، وقيل للتعليل، فعلى القول بأنها للعاقبة تكون متعلقة بـ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ عاقبتهم أن يوفيهم الله أجورهم، وعلى أنها للتعليل متعلقة بيتلون وأقاموا وأنفقوا، يعني: يتلونه ليوفيهم أجورهم، أقاموا الصلاة ليوفيهم أجورهم، أنفقوا مما رزقناهم ليوفيهم أجورهم، يعني: قصدوا ما رتب الله على هذه الأعمال من الأجور، وهذا الفعل ينصب مفعولين، أحدهما هنا الهاء، والثاني أجور، وهو من أخوات كسا وأعطى؛ لأنه نصب ما لا يصح أن يكون مبتدأ وخبرًا، وكل فعل ينصب مفعولين لا يصح أن يكون أحدهما خبرًا عن الآخر، فهو من باب كسا.

قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم المذكورة، والتوفية هذه معروفة لنا جميعًا، وهو أن الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فمثلًا الصلاة حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومع الجماعة تكون كم حسنة؟ سبعًا وعشرين حسنة كل حسنة بعشر أمثالها.

قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ معطوفة على يوفيهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾

يعني: يزيدهم عطاءً وأجرًا من فضله، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ يشمل الفضل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الإنسان إذاعمل العمل الصالح مخلصًا لله به حبب الله إليه العمل حتى يزيد في العمل، وهذا شيء مشاهد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فضله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سبأ: ٣٩] أي: يأتي بخلفه، فالزيادة إذن تشمل زيادة الأجور وزيادة الأعمال وزيادة المال المنفق منه، زيادة الأعمال؛ لأني قلت: كلما عمل الإنسان عملًا صالحًا حبب الله إليه العمل، وزاده فيه، زيادة المال ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: ٣٩] ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: ٣٩]

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أي: عطائه الذي يتفضل به عليهم، [إنه ﴿غَفُورٞ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٞ﴾ لطاعتهم]، هذا تعليل لما سبق من توفية الأجور والزيادة من الفضل، يعني: أن الله - عز وجل - لكونه غفورًا رحيمًا صار يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وفي هذا إشارة إلى مغفرة الله - سبحانه وتعالى - للعامل وإلى شكره إياه.

الغفور صيغة مبالغة أو صفة مشبهة، مأخوذة من الغفر وهو الستر مع الوقاية؛ لأن أصل هذه المادة المغفر، والمغفر يحصل به الستر والوقاية.

إذن ما معنى: أن الله غفور، معناه: أن الله يستر الذنوب، ويتجاوز عن العقوبة، وما أدري ما أكثر ما نذنب فيما بيننا وبين ربنا، ومع ذلك يسترها الله - عز وجل -، وإذا كا ن يوم القيامة عفا عن عقوبتها، وبذلك تتحقق المغفرة، أما الشكور فنقول في تصريفه: كما قلنا في غفور، إنه إما صيغة مبالغة، وإما صفة مشبهة، فهو - سبحانه وتعالى - شكور، أي: يشكر من عمل العمل الصالح، ومن شكره إياه أنه يضاعف له الأجر، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وانظر إلى كمال الله - عز وجل - في صفته، أنه هو الذي يمن عليك بالعمل ثم يشكرك عليه، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - سبحان الله العظيم- ربنا يحسن إلينا ثم يقول: ما جزاء إحسانكم إلا أن نحسن إليكم، وهو الذي تفضل به أولًا وهذا يدلك على سعة كرم الله والحمد لله، وأنه - عز وجل - واسع الكرم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية عدة فوائد منها:** أن طلب الإنسان للثواب غاية عظيمة؛ لأن اللام كما أشرنا إليه آنفًا، ما هي للعاقبة، اللام للتعليل في هذا إذا قلنا: إنها للتعليل، وهي صالحة للتعليل،

فكون الإنسان يعمل من أجل الأجر هذا لا يعد نقصًا، خلافًا للصوفية الذين يقولون: لا تعبد الله لثواب الله ولكن اعبد الله لله، فنقول لهم: هذا خطأ، فالله تعالى وصف أشرف هذه الأمة وخير هذه الأمة بأنهم يريدون فضلًا من الله ورضوانًا، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] ومع ذلك لا نقول: إنك لا تعبد الله لله، اعبد الله لله ولثواب الله، فإنك لن تصل إلى الله إلا بعد وصولك إلى ثواب الله، فإن لقاء الله اللقاء الذي هو الرضا التام إنما يحصل متى؟ في الجنة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز الكامل، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد: ٢٢] متى يرون وجه الله؟ إذا دخلوا الجنة رؤيتهم وجه الله الرؤية التامة بعد دخول الجنة.

الحاصل أن في هذه الآية وأمثالها ما يدل على ضعف ذلك المسلك الذي سلكه أولئك الصوفية بألا تعبد الله لثواب الله ولكن اعبد الله لله، فنقول: ما أكثر الآيات الدالة على أن العبادة تكون لفضل الله وثوابه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ضمان الثواب يعني: أن الثواب مضمون للعامل الذي يتعامل مع الله - عز وجل -، بناء على أن اللام للعاقبة، أي أن: هذا العمل سوف يوفى، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٣ - **وفيها أيضًا**: وجه آخر لضمان الثواب، أن الله سماه أجرًا، والأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل، بل جاء في الحديث الصحيح قال الله تعالى، في الحديث القدسي: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَا بِي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ولَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»(١) فإذا كان الله خصم هؤلاء؛ لأنهم لم يعطوا الأجر، فإنه يدل على أن الأجر الذي ضمنه الله لعباده سوف يحصل قطعًا، ولكن لابد أن يكون العمل صحيحًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن جزاء الحسنات أكثر مما يجب؛ لقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وزيادة الفضل شرحناها في التفسير.

٥ - **ومن فوائدها**: إثبات الاسمين الكريمين الغفور والشكور، وما تضمناه من صفة وهي: المغفرة والشكر، وما تضمنا ه أيضًا من أثر، وهو الحكم، فإن غفور يؤخذ منها أنه يغفر، وشكور يؤخذ منها أنه يشكر من يستحق الشكر.

٦ - **وفي الآية الكريمة**: دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية لله - عز وجل - لقوله:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٧٠)، وابن ماجه (٢٤٤٢).

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ و﴿وَيَزِيدَهُم ﴾، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله تعالى الأفعال الاختيارية أي: التي تقع بمشيئته، فإنه تعالى فعال لما يريد، خلافًا لمن زعم أن الله تعالى لا يوصف بشيء حادث أبدًا.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣١-٣٥].

۞ التفسير ۞

الجملة هنا ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ جاءت بالصيغة الاسمية المحصورة، وطريق حصرها أمران، الأمر الأول: تعريف ركنيها، وهما المبتدأ والخبر، ﴿وَالَّذِي﴾ مبتدأ، ﴿الْحَقُّ﴾ خبر، وقد قال أهل البلاغة: إن تعريف الركنين من الجملة الاسمية يفيد الحصر.

الطريق الثاني من طرق الحصر هو: ضمير الفصل، وهو قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾، فضمير الفصل من فوائده الحصر، وله فائدة ثانية: التوكيد، وله فائدة ثالثة: الفصل بين الخبر والصفة.

يقول: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، الوحي: إعلام الله - سبحانه وتعالى - أنبياءه ورسله بشريعة من شرائعه، هذا هو الوحي شرعًا، أما في اللغة فقالوا: إن الوحي هو الإعلام بسرعة وخفاء، يعني: مثل الإشارة والهمس وما أشبهه يسمى وحيًا.

أحيانًا يُسأل النبي -عليه الصلاة والسلام- عن شيء، ولا يجيب، فينزل عليه الوحي، فيجيب بحديث نبوي، مثل قصة يعلى بن أمية، الذي كان أحرم بالعمرة وهو متغمس بالخلوق، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، ولكنه لم يجبه حتى جاءه الوحي، وأحيانًا يسأل عن الشيء ثم ينزل به الوحي على أنه كلام الله، قرآن، فيبلغه النبي ﷺ.

يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والمراد به هنا: القرآن قطعًا بدليل قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأن﴿مِنَ﴾ بيانية، تبين الإبهام في اسم الموصول الذي؛ لأن اسم الموصول فيه الإبهام، فإذا جاءت(من) بعده بعد اسم الموصول فهي تبيينية، [﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ القرآن]، وهو كتاب بمعنى: مكتوب؛ لأن هذه الصيغة فعال تأتي كثيرًا بمعنى مفعول، وأمثلتها غراس، بناء، فراش، بمعنى مغروس، ومبني، ومفروش، فالكتاب بمعنى: مكتوب، مكتوب في أي شيء؟ مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١] مكتوب في المصاحف التي بأيدينا، إذن هو مكتوب على ثلاثة أوجه، اللوح المحفوظ، الصحف التي بأيدي الملائكة، الصحف التي بأيدينا . قال: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، هو: ضمير فصل، والحق: خبر الذي، فالذي أوحى الله إلى رسوله ﷺ هو الحق، أكد الله ذلك بمؤكدين، ضمير الفصل، وتعريف ركني الجملة، الذي ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: الشيء الثابت، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، فأحكام القرآن كلها عدل، وأخباره كلها صدق، ليس فيها كذب بوجه من الوجوه، وليس في أحكامه جور بوجه من الوجوه؛ لأنك إذا تأملت أحكامه؛ وجدته قد أعطى كل ذي حق حقه، فلهذا كان عدلًا في الأحكام، وإذا تأملت أخباره وجدتها كلها صدقًا وهذا هو الصدق في الأخبار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١١٥].

قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ قال المؤلف: [تقدمة من الكتب]، يعني: مصدقًا لما تقدمه الكتب؛ لأن الكتب التي سبقته تكون بين يديه، ألا ترى إلى الرجل يكون أمامك فهو قد سبقك، وتقول: إن الرجل بين يدي، وربما يقول لما بين اليدين للشيء المستقبل؛ لأنه أمامك أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: مستقبلهم وماضيهم.

وقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كيفية التصديق للكتب السابقة من وجهين، الوجه الأول: أنه صدقها، أي: أثبت أنها صادقة، فالقرآن يثبت صحة التوراة، والإنجيل، والزبور، وغير ذلك من الكتب ويبين أنها صدق كذلك.

الوجه الثاني: مصدق لما بين يديه؛ لأن الكتب السابقة أخبرت به، فنزوله يكون تصديقًا لها، فهو مصدق لما بين يديه من وجهين، الوجه الأول: أنه صدق ما سبقه، أي قال: إنها كتب صادقة ثابتة، وأوجب الإيمان بها، والوجه الثاني: أنه صدق ما أخبرت به، أي: نزل مطابقًا لما أخبرت به، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ﴾ [الشعراء: ١٩٦] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: القرآن، ﴿زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: كتبهم، يعني: أنه موجود في كتبهم، وأنه سوف ينزل كما أن محمدًا ﷺ كذلك قد أخذ العهد والميثاق على كل نبي، أن يصدق به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ﴾[آل عمران: ٨١].

المهم أن تصديقه لما بين يديه من من وجهين.

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [عالم بالبواطن والظواهر]، هذه الجملة تعلقها بما قبلها أنها تفيد تحذيرًا وإنذارًا وترغيبًا، فهي ترغيب وترهيب؛ لأنه لما أخبر بأن هذا القرآن هو الحق، فقد انقسم الناس في هذا الحق إلى قسمين، قسم صدق به، وقسم كفر به، كل هؤلاء نقول لهم: إن الله تعالى بكم خبير بصير، فالذين صدقوا به لن يضيع تصديقهم وعملهم بما جاء به؛ لأن الله خبير به وبصير به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذبوا به أيضًا لن تخفى حالهم على الله - عز وجل -، فسوف يعاقبهم بما يقتضيه تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم، فالجملة إذن هي باعتبار المصدقين بهذا القرآن للبشارة، وباعتبار المكذبين للإنذار والتحذير، وقوله: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ خبير: اسم فاعل على صيغة مبالغة، وإن شئت فقل: إنه صفة مشبهة، وهو أحسن بالنسبة لما يتعلق بالعلم، الأحسن في هذا أن نقول: إنه من باب الصفة المشبهة؛ لأن الصفة المشبهة تدل على الثبوت، لكن صيغة المبالغة قد تدل على الحدوث، وحدوث الخبرة في جانب الله - عز وجل - مستحيل حدوث الخبرة مستحيل؛ لأنه لم يزل ولا يزال خبيرًا، إذن نعود فنقول: إنه يتعين أن نجعل خبير صفة مشبهة؛ لأننا لو جعلناها صيغة مبالغة من خابر لكانت موهمة لتجدد الخبرة والعلم، وهذا شيء مستحيل في جانب الله - عز وجل - وقوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ كلمة بصير قد يراد بها العلم، وقد يراد بها الإدراك بالرؤية، وكلا الأمرين لا يناقض بعضهما بعضًا، وقد مر علينا في قواعد التفسير، أن الآية إذا احتملت معنيين لا يتناقضان فإنها تحمل عليهما؛ لأن ذلك أوسع في معناها وأبلغ، فالله - عز وجل - بصير بعباده من حيث النظر والرؤية ومن حيث العلم، في جانب المعمولات المفعولات الظاهرة تكون الرؤية والعلم أيضًا، وفي جانب المسموعات يكون العلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ عِبَادِنَا﴾ كلمة(أورث)هنا نصبت مفعولين ليس أصلها المبتدأ والخبر، وعلى هذا فهي من باب كسا وأعطى، أين المفعول الأول وأين المفعول الثاني؟ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾﴿ٱلَّذِينَ﴾ هي الأول، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو الثاني؛ لأن الوارث من؟ هل الكتاب وارث الذين؟ أم الذين ورثوا الكتاب؟ الذين هم الذين ورثوا الكتاب، يعني: أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا الكتاب.

وما معنى أورثناهم إياه؟ أي: جعلناهم يرثونه، فالذين اصطفاهم الله أورثهم الله الكتاب، أي: جعلهم يرثونه، وكلمة الكتاب قال المؤلف: [القرآن]، وينبغي أن نجعله أعم؛ لأننا لو قلنا:

إن الكتاب هو القرآن، وقلنا: إنه موروث عمن سبقنا؛ لكان القرآن قد نزل على من سبقنا، وليس الأمر كذلك، فالمراد بالكتاب هنا: الجنس، المراد به: الجنس لا خصوص القرآن.

يعني: أن الكتب السابقة كل ما فيها من الخير موجود في القرآن، فنحن ورثنا عمن سبقنا كل ما أوتوه من خير، فالأصول التي تجب على كل مسلم في أي زمان ومكان موجودة في القرآن، والشرائع التي تختلف باختلاف الأمم وباختلاف الزمان والمكان هذه تختلف عمن سبق، قد يجب علينا ما يجب عليهم، وقد يحرم علينا ما لا يحرم عليهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أما الأصول فقد ورثناها عنهم فالأصول التي هي أم الدين قد ورثناها عمن سبقنا.

قال: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: اخترنا، وهو مأخوذ من الصفوة، وأصله اصتفينا، لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاءً، فقيل: اصطفينا من عبادنا أي: اخترناهم.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾هل المراد بذلك العبودية العامة أو الخاصة؟

يعني: الذين اصطفيناهم من المؤمنين أو اصطفيناهم من جميع العباد؟ يظهر أنها من العبودية العامة، يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده، الذين يخضعون له كونًا ،و المراد بهم: هذه الأمة، بدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالذين اصطفاهم الله من عباده هم هذه الأمة، للآية التي سقناها وهي في آل عمران، ولدليل آخر من هذه الآية نفسها؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم.

إذن: فلا يمكن أن يورث ما عندها من الكتاب، فهي وارثة غير موروثة، إذا كانت وارثة غير موروثة فهي التي اصطفيت.

وقوله: [﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به، أي: بالكتاب ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل به أغلب الأوقات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾].

قسم الله تعالى هذه الأمة التي أورثها الكتاب إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل فالأقل، الأقل في المرتبة فالأقل، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الظالم لنفسه هو: الذي ترك شيئًا من الواجبات أو فعل شيئًا من المحرمات، ترك صلاة الجماعة مع وجوبها عليه، ترك بعض الزكاة لم يخرجها، ترك الحج على الفور مع وجوبه عليه على الفور، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه، فعل المحرمات شرب الخمر، زنا، سرقة، نظر نظرًا محرمًا، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه، كذا؟ معنى الظالم في الأصل هو الناقص؛ لأن الظلم هو النقص.

قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] يعني: لم تنقص، وكل من أساء فقد نقص فيما يجب عليه، ولهذا كل عمل سيء يعتبر نقصًا فيما يجب عليه، لأن الواجب عليك لنفسك أن ترعاها حق رعايتها، فأنت مسئول أول ما تسأل عن نفسك، قال

النبي ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1] فبدأ بالنفس، فكما يجب عليك أن ترعى مصالح ولدك، ومالك، وأهلك، يجب عليك أن ترعى مصلحة نفسك، بل هو الواجب الأول من حقوق المخلوقين بعد حق الله ورسوله .

إذن من فعل محرمًا فقد ظلم نفسه؛ لأنه أنقصها حقها في الأمانة، أنت مؤتمن عليها يجب أن ترعاها حق رعايتها، من ترك واجبًا فقد ظلم نفسه؛ لأن الواجب عليه أن يفعل الواجب، ليقوم بحق الأمانة فيما يتعلق في نفسه، هذا الظالم لنفسه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ المقتصد هو: الذي لم يقع منه ظلم لنفسه، ولا تقدم في الخير، أي: قائم بالواجبات، تارك للمحرمات، لكنه لا يكثر من النوافل، ولا يحرص على إكما ل الواجبات على الوجه الأكمل، ولا يتجنب المكروهات، مقتصد، لا نقص، ولا زاد، يصلي مع الجماعة، ويزكي بدون نقص، لكن لا يأتي بنوافل، ولا بالصدقات التطوع، يؤدي فريضة الحج لكن لا يعود، يصوم رمضان لكن لا يصوم نفلًا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المعاملات بين الناس على الوجه الواجب فقط، لا يتسامح عن فقير، ولا ينزل من قيمة أو ثمن، لكنه ماشٍ على ما يجب عليه.

نقول: هذا مقتصد، هذا لا له ولا عليه، يعني: ليس له ثواب إلا ثواب فعل الواجب فقط.

الثالث: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، هذا يأتي بالواجبات، ويزيد ما شاء الله تعالى من الخيرات، ويأتي بالواجبات - أيضًا - على الوجه الأكمل الأتم، فالصلاة مثلًا لا يقتصر فيها على تسبيحة واحدة، بل يزيد، لا يقتصر على الفاتحة بل يزيد، لا يقتصر على أن يضع يديه مثلًا مطلقة هكذا بل يضعها في موضعها في حال القيام وفي حال الركوع وفي حال السجود وهكذا، نقول: هذا سابق بالخيرات، يؤدي الزكاة ويتصدق، يحج الواجب ويتطوع، يصوم رمضان ويتنفل بغيره من الصيام، هذا نقول: إنه سابق بالخيرات، أما قول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ : إن معنى سابق بالخيرات [يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل]، ففي هذا نظر ظاهر؛ لأن التعليم قد يكون واجبًا، وإذا قام بالتعليم الواجب صار من المقتصد، وإن تركه صار من الظالم لنفسه، وكذلك نقول في الإرشاد، الواجب إذا قام به صار مقتصدًا، وإن تركه صار ظالمًا لنفسه، ولكن ما قلنا هو الصواب.

اختلف المفسرون في هذه الآية فمنهم من يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كالمانع للزكاة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ كالمقتصر عليها، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ كالزائد عليها.

وآخر يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مؤخر للصلاة عن وقتها، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فاعل لها في وقتها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾فاعل لها في أول وقتها، أي: في الوقت الذي يستحب أن تقام فيه، هل بين القولين خلاف؟ لا، ليس بينهما خلاف، هذا يسمى اختلاف تنوع، يعني أن كل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٦٨)، والترمذي (٢٤١٣).

واحد منهما، من القائلين ذكر نوعًا، فيكون هذا علي سبيل التمثيل، ولا يعد هذا خلافًا في الواقع، ولكنه تمثيل، هذا مثل بالزكاة وهذا مثل بالصلاة.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

قال المؤلف: [بإرادته] الكونية أم الشرعية؟ الظاهر أننا نغلب هنا الكونية، يعني: أن هؤلاء الأقسام الثلاثة الظالم والمقتصد والسابق كلهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أذن للظالم لنفسه أن يظلم نفسه، وللمقتصد أن يقتصر على ما يجب، وللسابق أن يزيد، وتقييد هذا بإذن الله لئلا يفتخر مفتخر بكونه سابقًا بالخيرات، فيضيف الشيء إلى نفسه ويمن به على ربه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحُجُرات: ١٧].

فأنت إذًا مَنَّ الله عليك بسبقك في الخيرات؛ لا تظن أن هذا من نفسك، لو وكلت إلى نفسك لكنت ظالمًا لنفسك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

هذه حقيقة الإنسان، الظلم والجهالة، لكن مَنْ مَنَّ الله عليه وهداه فهو من فضله - سبحانه وتعالى -.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إرثهم الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ صدق الله، الفضل الكبير الذي لا يدانيه فضل، هو منة الله على عبده بالعلم بهذا الكتاب، هذا هو الفضل الكبير، ليس الفضل الكبير بأن يعطى الإنسان قصورًا أو مراكب فخمة أو زوجات حسناوات أو أبناء كثيرين، لا، الفضل الكبير أن يورث هذا الكتاب، كل من ورث هذا الكتاب علمًا وعملًا ودعوة فهو الذي حاز الفضل الكبير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

و في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ فيها أداة حصر، وهو ضمير الفصل.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ وضمير الفصل نذكره هنا لمن فاته العلم به، ضمير الفصل هو ضمير يأتي مطابقًا للسياق، يأتي بصورة الغائب كهو، وبصورة المخاطب كأنت، وبصورة المتكلم كأنا،، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ هذا أتى بصيغة؟ المتكلم، وتقول لمن تخاطبه: إنك أنت القائل، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، هذا في صيغة المخاطب، وفي صيغة الغائب كثير، منه هذه الآية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، إذن فضمير الفصل، ضمير يؤتى به مطابقًا للسياق من حيث التكلم والخطاب والغيبة، وهو من حيث الإعراب لا محل له - ليس له محل من الإعراب - أما من حيث المعنى فيفيد ثلاثة أمور: يفيد التوكيد والحصر والتمييز بين الخبر والصفة

تقول مثلًا: زيد الفاضل ما فيها ضمير فصل، هنا يحتمل أن تكون الفاضل خبرًا، ويحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت، ممكن أن نقول: تقدير الكلام زيد الفاضل قائم، فتكون الفاضل صفة، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكو ن الفاضل هنا خبرًا، ما يمكن أن تقول: صفة، إذن فهو يميز بين الصفة والخبر، فيكون ما بعده خبرًا لا صفة، ولولاه لكان محتملًا أن يكون خبرًا أو صفة.

هذا شرح قولنا: التمييز بين الخبر والصفة ،و يفيد الحصر إذا قلت: زيد فاضل، هل يمنع أن يكون غيره فاضلًا، لا يمنع، فإذا قلت: زيد هو فاضل، أو زيد هو الفاضل تعين أن يكون زيد وحده هو الفاضل،لا شك أن قولك: زيد الفاضل، تريد المبتدأ والخبر، لا شك أن الجملة تامة ومعناها واضح، لكن إذا قلت: زيد هو الفاضل، كأنك اتكأت عليها، وزدتها توكيدًا.

قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، الفضل بمعنى: العطاء، العطاء من الله، الكبير من حيث الحجم، فهو كبير في كيفيته، ونحن نعلم من جهة أخرى أنه كثير في كميته، فيجتمع في هذا العطاء الكمية والكيفية، فهو فضل كبير في ذاته وكيفيته، وفضل كثير أيضًا في عدده وكميته، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾هذا بيان لثواب هؤلاء الأصناف الثلاثة، [﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة، يدخلونها عند الثلاثة بالبناء للفاعل والمفعول خبر ﴿جَنَّٰتُ﴾، المبتدأ] بالبناء للفاعل يَدخلونها، وبالبناء للمفعول يُدخلونها، وهم إذا أُدخلوا فقد دخلوا وإذا أدخلوا فقد دخلوا، فكأن القراءتين واحد، لكن يستفاد من كلمة يُدخلونها بيان أنهم يُعطَونها كرامة، فتقدم إليهم حتى يدخلوها، لكن يَدخلونها بدون أن يقال يُدخلونها، فإن الداخل قد يدخل كرامة وقد يدخل من ذات نفسه، لكن إذا أُدخلها كأنها قدمت لهم على سبيل الكرامة، حتى يدخلو ها.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جنات جمع جنة، قال العلماء: والجنة البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يستر من كان داخله، والله أعلم .

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ عدن بمعنى: إقامة، يعني أن هذه الجنات جنات إقامة، لا ظعن فيها، بل هم خالدون فيها أبدًا، ومع ذلك ليس واحد منهم يتمنى أن يتحول عما هو فيه، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] بخلاف الجنة فإن الإنسان لو كان في أحسن ما يكون من البساتين لتمنى أن يتحول إلى ما هو أحسن منه وأفضل منه، لكن في الآخرة كل واحد منهم يرى أنه في مكان إقامة لا يريد أن يتحول عنه.

وهذا لا شك أنه من كمال النعيم، أن يستقر الإنسان، وأن يرى أنه في أكمل ما يكون، حتى لا تتشوق نفسه إلى نعيم أعلى فيتنغص نعيمه؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا رأى أنه دون غيره وإن كان في مقام أمين وإن كان في مقام منعم فيه، لكن يتنغص عليه ذلك بكونه

يرى أن غيره أفضل منه.

قال: [يدخلونها بالبناء للفاعل وللمفعول خبر جنات، مبتدأ]، وجملة يُدخلونها أو يَدخلونها خبر، يحلون [خبر ثان]، ولا تصح أن تكون حالًا من الفاعل؛ وذلك لأن تحليتهم بذلك بعد الدخول، ولو قلنا: يُدخلونها حال كونهم يحلون؛ للزم من ذلك أن يكون التحلية حين الدخول أو قبله،، يحلون خبر ثانٍ، وهل يجوز أن يتعدد الخبر؟ الجواب: نعم، وهذا في القرآن كثير، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤] الخبر الآن أربعة، الغفور، والودود، وذو العرش، والمجيد، فتعدد الأخبار جائز في اللغة العربية.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنات﴿فِيهَا مِنْ﴾ قال المؤلف: [بعض]، فأفادنا أن﴿مِنْ﴾ هنا ليست بيانية، بل هي تبعيضية، ولو قيل: إنها بيانية لكان له وجه جيد؛ لأن التحلية لا تتعين في الأساور، إذ قد يحلى الإنسان بالخروص مثلًا أو بالقلائد أو ما أشبه ذلك، فجعلها بيانية أولى من جعلها تبعيضية؛ لأنك إذا قلت: يحلون بعض أساور لم تكمل التحلية بالأساور وإنها يحلون بعضها، إلا إذا قلت: إنها للتبعيضية؛ لأن الأساور المذكورة هنا نوعان فقط، ذهب ولؤلؤ، مع أنهم لهم حلية أخرى، وهي الفضة كما قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فإذا جعلتها تبعيضية باعتبار أن الأساور المذكورة من نوعين وبقي نوع ثالث لم يذكر؛ صار القول: بأنها للتبعيض له وجه وقد ذكرنا مرارًا كثيرة أنه إذا احتمل اللفظ معنيين لا يتنافيان فإنه يحمل عليهما، فيمكن أن نجعل (من) هنا مشتركة بين كونها بيانية وبين كونها تبعيضية، بين كونها بيانية؛ لأن التحلية تكون من الأساور وغيرها، فتكون (من) هنا مبينة ما يتحلون به، وتبعيضية؛ لأنه ذكر من الأساور هنا نوعان وبقي نوع ثالث لم يذكر.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [مرصع بالذهب].

قوله: ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أما ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فهي مجرورة لا شك فيها، لأنها دخلت عليها (من)، وأما﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ فهي منصوبة

و لكن قوله: [مرصع] يدل على أنها مجرورة، كما هي القراءة الثانية.

ولو أنه أراد قراءة النصب لقال: مرصعًا، إذن نقول: لؤلؤ فيها قراءتان سبعيتان، إحداهما بالنصب ولؤلؤًا، وعلى هذا تكون معطوفة على محل أساور، يعني: يحلون فيها أساور ولؤلؤًا أساور من ذهب، ويحلون لؤلؤًا أيضًا، وأما بالجر ولؤلؤٍ فهي معطوفة على من ذهب، يعني: يحلون فيها أساور من نوعين، من ذهب ولؤلؤ.

أضف إليها حُلوا أساور من فضة تكون أساورهم من ثلاثة أنواع، من الذهب واللؤلؤ والفضة، ولا نشك أن السوار من الذهب مجمِّل، وفيه جمال بذاته، وكذلك السوار من الفضة، وكذلك السوار من اللؤلؤ، فكل واحد منها على حدة فيه جمال وتجميل، فإذا اجتمعت الثلاثة،

وصك بعضها إلى بعض تولد من ذلك تجميل أكبر، ولا أحد يتصور كيف تجمع هذه الثلاثة، هل يكون اللؤلؤ بين الذهب والفضة، أو الذهب بين اللؤلؤ والفضة، أو اللؤلؤ بينهما؟ المهم أن ترتيبها هذا لا أحد يتصوره الآن، لكن الذي نؤمن به أن هذه الثلاثة تجمع، أما كيف تجمع؟ فالله أعلم به، لكننا أيضًا نعلم بأن جمعها - أي: الثلاثة - له زيادة في التجميل.

واعلم أن الذهب الذي يذكر في نعيم الجنة، والفضة، واللؤلؤ، ليست كالذهب الذي نشاهده الآن، أو الفضة، أو اللؤلؤ، بل هو ذهب أعظم، ذهب يليق بنعيم الجنة، كما أن النخل والرمان والفاكهة والعسل واللبن والخمر وما أشبه ذلك ليس كالذي يوجد في الدنيا، لأن النعيم يناسب الدار، فإذا كانت دار الدنيا لا تشابه دار الآخرة، فالنعيم الذي في الآخرة لا يساويه النعيم الذي في الدنيا، هذا من حيث المعقول، أما من حيث المنقول فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وفي الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١) وأنتم تشاهدون الآن أنه لو دعاكم رجل فقير وصنع لكم أعلى ما يمكنه من الطعام الذي هو أحسن شيء عنده، ودعاكم ورجل غني وصنع لكم أعلى ما يجد من الطعام عنده لعرفتم الفرق، الفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أن كل واحد منهم أتى بكل ما يستطيع، كذلك الفرق بين نعيم الآخرة ونعيم الدنيا، فالذهب إذن يوافق الذهب في الدنيا في الاسم ولا يوافقه في الحقيقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط(٢)، أما الحقائق فتختلف.

يقول: [من ذهب ولؤلؤ مرصع بالذهب] وقوله: مرصع بالذهب، قد يعارَض المؤلف في ذلك، إذ قد يقال: إن اللؤلؤ مستقل، حلية مستقلة، نعم ويدل لذلك قراءة النصب، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾، يعني: يحلون لؤلؤًا، أما على قراءة الجر فما ذهب إليه المؤلف محتمل، غير متعين هو يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أن اللؤلؤ ليس مستقلًا، بل هو مرصع بالذهب، كما يوجد في حلي الدنيا، ولكننا لا نسلم ما قال، بل ظاهر الآية الكريمة أن اللؤلؤ سوار مستقر، ويؤيد هذا ويبين هذا قراءة النصب، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني: يحلون لؤلؤًا، فجعل حلية اللؤلؤ حلية مستقلة

قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما ذكر ما يلبس في اليد ذكر اللباس العام، على جميع البدن، فقال: ﴿حَرِيرٌ﴾، لباسهم في الجنة حرير، وحرير الجنة، ليس كحرير الدنيا الذي تفرزه أو تصنعه دودة القز، وقابل لكل آفة، بل حرير الآخرة حرير لا يماثل شيئًا من حرير الدنيا أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، قالوا: يعني أهل الجنة ومتى يقولون ذلك؟ يقولون ذلك بعد دخول الجنة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، الحزن الكائن في النفوس، وهو الهم أو الغم لما مضى، والخوف: الهم لما يستقبل، فهنا هل نقول: إن الحزن يشمل الغم مما مضى والهم مما يستقبل؟ نعم نقول: نعم كذلك في الجنة جميع ما مضى عليهم من الأحزان والهموم وغيرها ينسونه، كما جاء في في الحديث الصحيح، أن الإنسان يغمس في الجنة، يصبغ صبغة واحدة، يغمس فيها فيقال له: هل رأيت شرًّا قط؟ فيقول: لا[1]، كل ما مضى من الشرور والأحزان والهموم كلها ينسونه.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

و الفرق بين الحمد والشكر، الحمد قلنا: له سببان فهو أعم من الشكر من حيث السبب، إذ إن سببه: كما ل المحمود وإنعام المحمود، الشكر ليس له إلا سبب واحد، وهو إنعام المشكور، فأيهما أعم؟ الحمد أعم؛ لأنه يكون على هذا وهذا، الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح؛ بالقلب أن يعترف الإنسان بقلبه بنعمة المنعم، باللسان أن يشكره بلسانه ويثني عليه بلسانه، بالجوارح أن يقوم بطاعته، فلا يخالفه وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَ

أما الحمد فلا يكون إلا باللسان؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال، فلا يكون إلا باللسان، فأيهما أعم من هذه الناحية؟ الشكر، إذن الشكر أعم متعلقًا؛ لأنه تعلق بالقلب واللسان والجوارح.

الحمد ما يتعلق بالقلب؟

ربما يتعلق بالقلب، لكنه ما يُسمى حمدًا، يعني: من أضمر في نفسه الثناء على الله - عز وجل - ما يقال: حمد، إذ إنه لم يظهر، وربما يقول قائل: إنه يكون بالقلب لكنه ليس بظاهر.

يقول: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال المؤلف: [جميعه]، يشير إلى أن (ال) هنا لاستغراق العموم، و(ال) تكون لاستغراق العموم إذا صح أن يحل محلها كُلّ بالتشديد من الكلية، إذا صح أن يحل محل (أل) كلّ بالتشديد فهي للاستغراق، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فهذه للاستغراق.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] للاستغراق ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] لا ما هي للاستغراق، ما كل رجل قوام، أحيانًا تكون المرأة قوامة على الرجل، فهذه لبيان الحقيقة فقط، المؤلف أفادنا بقوله: [جميعه] أن (ال) هنا للاستغراق.

[﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعة]، هذه الجملة كما تشاهدون مؤكدة بمؤكدين، بإن واللام، فهم أكدوا بالثناء هذا على الله أنه - سبحانه وتعالى - غفور للذنوب،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٠٧).،

شكور للطاعة، الغفور هنا صيغة مبالغة أم صفة مشبهة؟ هي تشمل الأمرين جميعًا، هي صيغة مبالغة لكثرة غفران الله تعالى للذنوب، وكثرة من يغفر لهم، فهو كثير المغفرة للذنوب، إذ إن الذنوب تتكرر من الإنسان عدة مرات فيغفرها الله، والذين يغفر الله لهم كثيرون أو قليلون؟ كثيرون، ومن جهة أخرى باعتبار أن الله تعالى لم يزل غفورًا؛ نقول: هي صفة مشبهة.

وقوله: ﴿شَكُورٌ﴾، نقول فيها كما قلنا في غفور: بأنه - عز وجل - لم يزل شكورًا على طاعة عباده، وامتثالهم أمره، ومن شكره أنه يعطي العامل الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وهو أيضًا شكور باعتباره صيغة مبالغة؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الشكر.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هنا يجوز أن تكون صفة لما سبق وهو الله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾، ويحتمل أن تكون استئنافًا، يعني: أنها في محل رفع على القطع؛ لأن المنعوت إذا علم وتعدد النعت له جاز في النعت الثاني القطع والإتباع، كما قال ابن مالك:

وَإِنْ نُعوتٌ كَثُرَتْ وقَدْ تَلَتْ مُفْتَقِرًا لِذِكْرِهِنَّ أُتْبِعَتْ

و إن لم يكن مفتقرًا جاز القطع. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دار المقامة المقامة هنا بمعنى: الإقامة، فهي إذن ظرف مكان، أو أنها مصدر، مصدر ميمي، دخلته التاء، ودار المقامة هي: دار الجنة، ووصفت بذلك؛ لأن ساكنيها مقيمون فيها أبدًا، ولأنهم لا يريدون الإقامة بغيرها، كل واحد منهم لا يبغي حولًا عما هو فيه؛ لأنه يرى أنه أكمل أهل الجنة، نعم، بل إن الله قنعهم بما هم عليه من النعيم، حتى لا يتطلعوا إلى نعيم أكبر فيحتقروا ما هم فيه، بخلاف أهل النار فإن أهل النار كل واحد منهم يرى أنه أشد أهل النار عذابًا؛ لأنه لو يرى أن غيره يماثله، أو أن غيره أشد منه، لهان عليه العذاب.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من: سببية هنا، أي: بسبب فضله، أي: تفضله علينا؛ لأنه لولا فضل الله عليهم ما وصلوا إلى هذا المقام العظيم، فكل ما في الإنسان من خير ونعمة فمن الله - سبحانه وتعالى -، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] فإحلالهم دار المقامة هو من فضل الله تعالى، وهذا من تمام شكرهم لله حيث اعترفوا له بالفضل، بخلاف الذي إذا أصابته النعماء قال: هذا لي، أو هذا من عندي، أو ما أشبه ذلك.

قال تعالى: [﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب، ومعنى يمسنا أي: يصيبنا، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

فالمس بمعنى: الإصابة.

وقوله: [﴿نَصَبٌ﴾: تعب، ﴿لُغُوبٌ﴾: إعياء]؛ لأن هناك تعبًا مباشرًا ينال الإنسان حين الفعل، وإعياءً يكون أثرًا للتعب، أليس كذلك؟ أنت إذا مارست عملًا شاقًا فإنك حين ممارسته تتعب، ثم بعد انتهائه تعيا، يعني تضعف وتخلد إلى الراحة وإلى النوم، في الجنة ليس فيها نصب، يعني: تعب بدني، حين مزاولة الأعمال، ولا لغوب أي: إعياء، وهو الناتج عن التعب.

قال: [إعياء من التعب لعدم التكليف فيها] هذا تعليل عليل؛ لأن التكليف حتى في الدنيا غالبه ليس فيه تعب، بل إن بعضه يكون راحة للبد ن وراحة للقلب، وتنشيطًا للبدن وصحة له، وليس هذا هو المقصود الأول في العبادات، لكنه يحصل من ممارسة العبادة، يحصل من ذلك النشاط والصحة، كما هو موجود مثلًا في الصلاة، موجود في الصيام، موجود في الحج، فليس هناك تعب في الأعمال الصالحة، بل نقول: لا يسمنا فيها نصب هذا من باب الصفات السلبية المتضمنة لكمال ضدها، فلا يسمنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب لكمال نعيمهم وراحتهم وأنسهم وفرحهم وما أشبه ذلك.

يقول: [لعدم التكليف فيها، وذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه]، ذكر الثاني وهو: اللغوب، التابع للأول وهو التعب؛ لأن اللغوب كما قلنا قبل قليل: نتيجة التعب، فكأن المؤلف أجاب عن سؤال، كأنه قيل: إذا انتفى التعب انتفى اللغوب الذي هو نتيجته، فلماذا لم يُقتصر على نفي التعب وقيل: لا يمسنا فيها نصب وإذا انتفى النصب انتفى اللغوب؟ أجاب عن ذلك بأنه ذكر من أجل التصريح بنفيه، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولا شك أنه وجه حسن، لكن ربما نقول: إن الإنسان أحيانًا يجد إعياءً وكسلًا وموتَ قوىً، بدون عمل، وبدون تعب، وهذا مشاهد، وعليه فيكون نفي اللغوب أمرًا ليس تأكيدًا، وإنما هو أمر أساسي؛ لأن الإنسان قد يجد إعياءً أحيانًا وهو ما فعل شيئًا ما اشتغل إذن نقول: إن ذكره أساسي وليس من باب التصريح بنفيه الذي لا يقصد منه إلا مجرد التوكيد.

المهم: أن أهل الجنة لكمال نعيمهم لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

الفوائد:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات أن القرآن كلام الله - عز وجل -، لقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ والوحي إعلام الله - سبحانه وتعالى - أحد أنبيائه بشريعة من شرائعه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن القرآن كلام الله تعالى، تكلم به حقيقة، بحروفه وبصوت مسموع، لكنه لا يشبه أصوات المخلوقين.

٢ - **ومن فوائدها:** فضيلة رسول الله ﷺ بما أوحى الله إليه هذا القرآن العظيم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** اشتمال القرآن الكريم على الحق، على الحق في أخباره وفي أحكامه، فأخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.

٤ - **ومن فوائدها:** أن ما خالف القرآن فهو باطل لقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فحصر الحق فيه، والحصر إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فكل ما خالف القرآن فهو باطل بلا شك.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إنذار المخالفين لهذا القرآن وبشارة الموافقين له، مستفادة هذه الفائدة من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين لله - عز وجل - وما تضمناه من صفة وحكم، خبير وبصير.

٧ - **ومن فوائدها:** عموم علم الله وشموله حتى لما يقوم به العباد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** علم الله تعالى بما تكنه الصدور، من أي الاسمين يؤخذ؟ من قوله: خبير، وربما نقول أيضًا: وبصير؛ لأن بصير بمعنى: العليم والمبصر.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جميع الخلق معبودون أو عابدون؟ عابدون لله كل الخلق، كلهم عباد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾، فلا حق لأحد من المخلوقين في شيء من خصائص الرب، بل الكل عبد ذليل لله - سبحانه وتعالى -.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن كتاب، أي: مكتوب، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ و، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن مصدق لما سبقه من الكتب، لقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أن الذي يؤمن بهذا القرآن مؤمن بالكتب السابقة؛ لأن هذا القرآن مصدق لها، فيكون الإيمان به إيمانًا بما سبق من الكتب.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الاستشهاد بالأمر الواقع، حتى وإن كان من عند الله، بمعنى: أن الله تعالى يستشهد بالأمر الواقع ليزداد إيمان المؤمنين، وجه ذلك: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ على أحد المعنيين، وهما أنه وقع مطابقًا لما أخبرت به فإنه إذا أخبرت به ثم جاء فهذا دليل على صدقه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] فاستشهد الله تعالى بعلم علماء بني إسرائيل زيادة في التثبيت وإقامة للحجة على المنكرين من أهل الكتاب.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمة الله تعالى بعباده حيث لم يدعهم هملا بل أنزل إليهم الكتب التي يستنيرون بها في سيرهم إلى الله - عز وجل -، لقوله: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة التعبير في اللغة العربية، وأن المقصود المعنى دون مجرد اللفظ، لقوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لأنه قد يقول قائل: وهل للقرآن يد، فالجواب: أن هذا من باب التوسع في التعبير في اللغة العربية، وأن المقصود هو المعنى، والألفاظ قوالب، قوالب تدل على المعنى، قوالب الشيء يعني: معناه أوانيه التي يجعل فيها، فأنت مثلًا إذا قدم إليك كرتون مزخرف مزين بالذهب تستدل بهذا، على ما في باطنه وأنه شيء غال قيم، فالألفاظ في الواقع قوالب يستدل بها على ما تضمنته من المعاني، وليس لها أي: للألفاظ معنًى ذاتيًا حتى لا تتغير بأي تركيب كانت، بل هي تتغير بحسب التركيبات والسياق.

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية:** فضل الله - عز وجل - على هذه الأمة حيث أورثها هذا الكتاب العظيم، الذي وصفه الله بأنه الحق وأنه مصدق لما بين يديه، أورثه الله تعالى هذه الأمة، ففي ذلك بيان فضل الله علينا بهذا الإرث.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذه الأمة أفضل الأمم، لقوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة، واستدللنا لذلك أيضًا بآية أخرى، وهي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، من أين تؤخذ؟ من ثم الدالة على التراخي، وهو كذلك، ولا نعلم فترة أطول منها بالنسبة لما بين الرسالات والكتب المنزلة، فقد قيل: إن أطول ما كان بين آدم ونوح، وهذا أمر قد يشك فيه الإنسان، لكن ما بين عيسى ومحمد - عليه الصلاة والسلام - حوالي ستمائة سنة، وإنما طالت الفترة لتشدد حال الناس إلى إرسال الرسل، فتأتي الرسالة المحمدية إلى قوم في غاية الضرورة إلى الرسالة والوحي، ويكون لرسالته مزية عظيمة، حيث جاءت كالمطر ينزل على أرض مجدبة، فتكون أشد قابلية له وأشد تأثرًا به.

٤ - **أيضًا:** تقسيم هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام، ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات.

٥ - **ومنها:** الرد على الخوارج والمعتزلة؛ لقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وجعلهم من الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده، ولو خرجوا من الإسلام لم يكونوا من المصطفين، قد يقول قائل: يمكن أن يعارض الخوارج والمعتزلة هذا الاستدلال بأن يقولوا: إن المراد بالظلم هنا ما دون الكبائر، فيقال: إن ما دون الكبائر يقع مغفورًا بفعل الطاعات، كالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وحينئذ ينتفي الظلم بمجرد فعل هذه الطاعات، ثم نقول قولًا آخر بأن الآية مطلقة، تشمل الظلم الأصغر والظلم الأكبر، ففيها رد على الخوارج والمعتزلة، الذين يكفرون أو يخرجون الإنسان بالكبيرة من الإسلام، وحينئذ لا يكون العباد الذين اصطفوا.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل عمل يقوم به الإنسان فهو بإذن الله - عز وجل - وإرادته، لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٧ - **وفيها:** الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله يقول ويفعل ويترك بغير إذن الله، بل هو مستقل بمشيئته وفعله .

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** كبح النفس عن الاستعلاء والفخر بالطاعة؛ لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى لا يقول الإنسان: فعلت ذلك من نفسي، وأنا الذي فعلت وفعلت، وهذا خلافًا لما يسير عليه بعض الناس، إذا فعل المعصية كان جبريًّا، وإذا فعل الطاعة كان قدريًّا، إذا فعل الطاعة قال: هذا مني وأنا الذي فعلت وأنا الذي فعلت، وإذا فعل المعصية قال: هذا من الله وأنا مجبر عليه، فبعض الناس يسلك هذا المسلك، وهذا مسلك بعيد من العدل.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عموم مشيئة الله - عز وجل - حتى في أفعال العبد، لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** تفاضل الناس في العمل، ويتفرع عليه تفاضلهم في الإيمان، أين الدليل على تفاضلهم في العمل؟ تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام، ويلزم من تفاضلهم في العمل أن يتفاضلوا في الإيمان، فيكون في ذلك دليل لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بزيادة الإيمان ونقص الإيمان.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكبر فضل يتفضل الله به على عبده أن يوفقه للقيام بطاعته، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

١٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن إفضال الله تعالى على عباده يتفاضل، فمنه الكبير، ومنه الصغير، وهذا أمر مشاهد، ففضل الله على الرسل أعلى من فضله على الأنبياء، وفضله على الأنبياء أعلى من فضله على الصديقين، وعلى الصديقين أعلى من فضله على الشهداء، وعلى الشهداء أعلى من الصالحين، وهذا لا شك فيه .

ثم قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن جزاء أولئك القوم الذين أورثوا الكتاب على اختلاف طبقاتهم الثلاث، أن جزاءهم جنات عدن لقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أو يُدخلونها على القراءتين.

٢ - **ومنها:** الإشارة إلى كمال نعيم الجنة، لكونها جنات بهيجة، وكونها محل إقامة لا ظعن منها أبدًا؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** ما ينعم الله به على عباده في هذه الجنات من أنواع الفواكه والمطاعم بدخوله في كلمة ﴿جَنَّٰتُ﴾، وكذلك من الملابس؛ لقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

وَلُؤۡلُؤٗا﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الجنة ليست دار تكليف، أي: دارًا يمنع منها العبد مما يتنعم به، بل يتنعم بكل ما شاء؛ لأننا نعلم جميعًا أن تحلى الرجال في الدنيا بالذهب ممنوع وحرام، لكنه في الجنة مباح وممنوح، وليس بممنوع؛ لأن الجنة لهم فيها ما يشاءون، بل أكثر مما يشاءون ويريدون.

٥ - **ومنها:** ما يحصل من الجمال بتنويع الحلي بكونه من ذهب ولؤلؤ، وفي الآية الأخرى فضة، وهنا لم يذكر الله تعالى تحديد هذه الحلية لكن جاءت بها السنة، حيث قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»(١).

٦ - **ومنها:** نعومة لباسهم، وأنه أنعم ما يكون من اللباس؛ لقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ حرير لا يخلق ولا يتدنس، بل هو دائمًا على جدته ونظافته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلة أهل الجنة في ثنائهم على ربهم، في قولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن حمد الله تعالى يكون على إنعامه وإفضاله، وعلى كمال صفاته فهنا قالوا: ﴿ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ فحمدوا الله على إنعامه عليهم، وعلى كونه غفورًا شكورًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال الفرح والسرور لأهل الجنة، لقولهم: ﴿أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾.

فإن هذه الصفة السلبية تدل على كمال ضدها، فإذا كان الحزن منفيًا عنهم كان ذلك دليلًا على كمال سرورهم، وأنه سرور لا يشاب بحزن أبدًا، بخلاف سرور الدنيا، فإن سرور الدنيا مهما عظم مشوب بالكدر، ولهذا يقول الشاعر الحكيم:

لَا طِيبَ لِلْعَيشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوتِ والهَرَمِ

نعم الإنسان مهما كان في الدنيا من النعيم فإنه إذا تذكر أن أمامه شيئين لا بد منهما، لابد من أحدهما قطعًا، فإن طالت به الحياة فلابد من الأمرين جميعًا، وهو الهرم والموت، وحينئذ تتنغص عليه حياته، ثم هو أيضًا يعرف أنه كل يوم يمضي عليه يعلم فإنه يبعده من الدنيا ويقربه من الآخرة، وهذا تنغيص آخر، ولهذا قال الشاعر:

وَالمَرْءُ يَفْرَحُ بِالأَيَّامِ يَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَومٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ

على كل حال في الآخرة نعيم لا كدر فيه، لقوله: ﴿أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١٤٩).

٤ - **ومن فوائدها:** أن نعيم الآخرة ينسي كل ما سبقه من حزن؛ لقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وذهاب الحزن هنا ذهاب لما قد وجد ولما يتوقع وجوده، فلا يمكن أن يمسهم فيها حزن.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما الغفور والشكور، الغفور في جانب المعاصي والشكور في جانب الطاعات، أما في المعاصي فإنه - عز وجل - قال في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

لغفرت لك، وأما في الطاعات فإن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**إنما فاعل الحسنة تكتب له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**».

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

١ - **فيها:** فضيلة أهل الجنة في إضافتهم النعيم إلى المنعم به، من أين؟ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ فنسبوا الأمر إلى الله وإلى فضله ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾، وهذا غاية الثناء والحمد.

٢ - **ومن فوائدها:** أن دار الجنة دار إقامة كل إنسان لا يتمنى أن يزول عن مكانه منها، حتى من كانوا في الدرجات غير العالية يرون أنهم في أكمل النعيم؛ لقوله دار المقامة.

٣ - **ومنها:** تأبيد الجنة لإطلاق قوله المقامة ولم تقيد بزمن.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن بلوغهم إلى هذه الدار ليس بحولهم وقوتهم، ولكن بفضل الله - عز وجل - لقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب؛ لأن من هنا سببية، أي: بفضل الله، ففيها رد على من ينكرون الأسباب، ويقولون: إن الأسباب لا تأثير لها، وإنما يحصل الشيء عندها لا بها.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا يدخل الجنة بعمله؛ لقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾، ولكن قد يشكل على هذا قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وأشباههما من الآيات.

وقد جمع العلماء بينهما بأن الباء في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] الباء للسببية، وأن الباء في قول الرسول عليه الصلاة والسلام «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**»(٢) للعوض يعني: أن دخول الإنسان الجنة ليس بعمله، إذ لو أنه أريدت المعاوضة، لهلك الإنسان، لو أن

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٢٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الإنسان نوقش في عمله بالإضافة إلى نعمة الله عليه لكانت نعمة واحدة تقابل كل العمل، بل لكان العمل نفسه نعمة، يحتاج إلى شكر؛ لأن توفيق الله - عز وجل - العبد للعمل الصالح نعمة من الله.

وهذا حق، كل عمل صالح توفق له فهو نعمة من الله عليك يحتاج إلى شكر، فإن شكرته صار الشكر نعمة يحتاج إلى شكر آخر، ثم لا تستطيع أن تثني على ربك؛ بل تقف، تقول: سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: كما ل الراحة في الجنة؛ لقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وكمال القوة والنشاط؛ لأن التعب إنما يلحق البدن الضعيف، إذا قال قائل: من أين عرفنا الكمال؟ من النفي؛ لأن نفي النقص إثبات لكما ل ضده .

٨ - وهل يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الجنة ليس فيها نوم؟

أخذ نفي النوم من هذه الآية فيه شيء من الإشكال، لكن إذا أردنا أن نتوسع في الاستدلال فيمكن أن نقول: إن النوم إنما يحتاج إليه لراحة من تعب سابق، وتجديد نشاط لعمل لاحق، أليس كذلك؟ وإذا كان الإنسان في محل إقامته لا يمسه النصب ولا اللغوب، فإنه لا يحتاج إلى النوم، يرد علينا الأكل والشرب، الأكل والشرب في الجنة ثابت مع أنه يحتاج إليه في الدنيا لحاجة البدن إلى النمو وإلى العمل، فيقال: إن أكلهم في الآخرة ليس للحاجة ولكن على سبيل التلذذ، ولهذا يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، إنما يخرج ذلك رشحًا، يعني: عرقًا، أطيب من ريح المسك، ولهذا يأكلون دائمًا، لكن في الدنيا إذا امتلأ الإناء لم آكل أكثر.

على كل حال لا شك أنهم لا ينامون من نصوص أخرى، والعلماء يقولون: إن النوم أخو الموت، وقد نفي الله عنهم الموت، فإذا انتفى الموت فإن النوم ينتفي أيضًا؛ لأنه وفاة صغرى، ثم إنهم لو كانوا ينامون لأدى ذلك إلى تعطل نعيمهم وقت نومهم، والجنة نعيمها دائم مستمر.

و قد يقال: إن النوم نفسه، لكن هو لذة ومتعة لما نحتاج إليه مثل الأكل هو لذة ومتعة لما نحتاج إليه.

فالنوم ليس متعة إلا لمن يحتاجه فقط، أما من لا يحتاجه فليس فيه فائدة هذا استنباطًا من الأدلةالتى ذكرت ليس هناك أدلة صريحة.

٩ - من فوائد الآية أيضًا: أن أهل الجنة لا يتعبون في مزاولة الأعمال، ولا يلحقهم إعياء بعد ذلك، لقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، لكن هل هم يتعبون؟ نقول: لا يتعبون قطعًا كما في الآية، لكنهم يعملون ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦] يعملون

في نعيمهم يفجرون الأنهار، ويجنون الثمار، نعم إلا أنه بدون كلافة ولا مشقة، كما قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٨]

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فثنى بذكر عقاب أهل النار؛ لأن القرآن مثاني، كلما ذكر فيه معنى ذكر فيه ما يقابله، ولا تكاد تجد آيات في القرآن يذكر فيها معنى إلا وذكر ما يقابله؛ لأن القرآن مثاني، لئلا تتمادى النفس في الرجاء، إذا ذكر النعيم وحده فإن النفس تتمادى في الرجاء، وحينئذ تأمن مكر الله، ولو ذكر الوعيد وحده لتمادت النفس في الخوف فقنطت من رحمة الله، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يذكر هذا تارة وهذا تارة حتى يكون الإنسان سائرًا من غير ميل إلى الرجاء، ومن غير ميل إلى القنوط، وهذه المسألة اختلف العباد فيها هل الأولى أن يسير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء، فيكون خائفًا راجيًا، أو الأولى أن يغلب الرجاء، إحسانًا للظن بالله - عز وجل -، أو الأولى أن يغلب الخوف؟

في هذا خلاف بين العلماء، الإمام أحمد روي عنه أنه قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب الرجاء أمن الإنسان من مكر الله، وإن غلب الخوف قنط من رحمة الله، فيكون خوفه ورجاؤه واحدًا، قالوا: فالخوف والرجاء كالجناحين للطائر، إن هبط أحدهما؛ مال الطائر إليه، واختل توازنه، وإن تساويا؛ استقام الطائر، واعتدل توازنه.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا يختلف باختلاف الأحوال، فإذا فعل الإنسان الطاعة فليغلب الرجاء، وأن الذي وفقه لها سوف يقبلها منه ويثيبه عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] إذا وفقت للدعاء وفقت للإجابة، إذا وفقت للعمل ووفقت

للقبول، وإذا عمل المعصية فليغلب جانب الخوف، وليرجع إلى ربه؛ لأنه إن غلب جانب الرجاء بعد فعل المعصية فإنه لا يتوب منها، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ويقول: الله غفور رحيم، وما أشبه ذلك، فيكون تغليب الرجاء في حال، وتغليب الخوف في حال أخرى.

وقال بعض العلماء: نعم يغلب الخوف في حال والرجاء في حال، لكن لا باعتبار العمل بل باعتبار الحال، فإذا كان مريضًا؛ فليغلب جانب الرجاء، لقول النبي ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله**»[1]، وإن كان صحيحًا فليغلب جانب الخوف، والمناسبة قالوا: لأن المريض تضعف نفسه، وتنكسر، وليس يميل إلى الدنيا، ولكنه يهتم بما أمامه، فليغلب جانب الرجاء، ليس هناك نفس تتطلع إلى الدنيا وتنغمس في الترف، بل نفسه قد رقت وآوت إلى الآخرة وأما إذا كان صحيحًا فإن النفس الآن فيها شرى وتطلع للدنيا وإترافها، فيغلب جانب الخوف.

على كل حال ممكن أن نقول: إذا وجدت أسبابًا يخاف الإنسان على نفسه من تغليب جانب الرجاء فليقدم الخوف، وإن وجدت أسبابًا تقتضي أن يخاف الإنسان وييأس من رحمة الله فليغلب جانب الرجاء، يعني: إذا فعل أسباب الرجاء فليغلب الرجاء، وإذا وجدت أسباب الخوف فليغلب جانب الخوف.

هنا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى أولًا بالمبتدأ، ثم أتى بمبتدأ وخبر آخر، وهذا يفيد التوكيد، فهو أشد توكيدًا من مثل قوله تعالى ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المُلك: ٦]، لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بقي الذهن متشوفًا متطلعًا إلى الخبر، ما الذي يكون لهؤلاء؟ قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ - أعوذ بالله -، يعني: ليس لهم إلا ذلك، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وهذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ لأن النار أحيانًا تطلق على النار، لأن النار يعبر عنها أحيانًا وحدها، يعبر عن النار بالنار وحدها، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١] وأحيانًا يعبر بجهنم عن النار، مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البيِّنة: ٦] وحينئذٍ يقع الإنسان في إشكال، يقول: كيف يُضاف الشيء إلى ذاته أو إلى نفسه؟ فالنار هي جهنم وجهنم هي النار، نقول: إضافتها هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، ولهذا لا يقال: جهنم نار، ولكن يقال: نار جهنم، فجهنم علم من باب اللقب، وأنتم تعرفون أن العلَم اسم وكنية ولقب، فجهنم اسم علم لكنه من باب اللقب، والعلم اللقب بمنزلة الصفة، يعني: بمنزلة النعت؛ لأن اللقب عندهم: ما أشعر بمدح أو ذم، وبناءً على ذلك يتبين أن مثل هذا التركيب نار جهنم من باب إضافة الموصوف إلى صفته، كيف ذلك؟ النار هي هذا الجوهر الحار المعروف، جهنم أصلها من الجهمة، وهي الظلمة، لبعد قعرها وخلوها من النور، ومن هنا نعرف أن هذا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الاسم فيه شيء من الاشتقاق، فيكون دالًا على وصف.

قوله: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، [لا يقضى عليهم بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾: يستريحوا].

قال الله تعالى في ذلك. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] لا هو ميت فيستريح، ولا حي حياة يتنعم فيها، بل في شقاء دائم، يتمنون الموت ولكن لا يحصل لهم، ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخرُف: ٧٧].

فهنا يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا، ويستريحوا، والفاء في قوله: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فاء السببية والفعل بعدها منصوب، بحذف النون، والواو فاعل لوقوعه بعد النفي الكائن في قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قال: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ طرفة عين]، فهم في عذاب مستمر، لا يستريحون منه، لا بموت، ولا بنوم، ولا بتخفيف، - والعياذ بالله - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩] هذا هو الذل - والعياذ بالله -، ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ كأنهم آيسون أن يدعوا الله؛ لأن الله قد قال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيطلبون الوسائط ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم هذا دعاء يعني: استجداء ضعيف، ﴿يُخَفِّفْ﴾ ولم يقولوا: يمنع، فطلبوا التخفيف، يومًا ولم يقولوا دائمًا، فهنا يظهر أثر الضعف عليهم والذل والهوان من ثلاثة وجوه:

أولًا: أنهم طلبوا الشفعاء، فلا يستطيعون أن يتكلموا.

ثانيًا: طلبوا التخفيف دون المنع النهائي.

ثالثًا: أنهم طلبوا ذلك يومًا من الأيام، لا دائمًا، ولكن هل تجيبهم الملائكة؟ تجيبهم بالتوبيخ - والعياذ بالله - ﴿قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَٱدْعُوا﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٥٠] فهم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا تجاب دعوتهم في ذلك، ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يومًا واحدًا؛ لأنهم قد أنذروا وقامت عليهم الحجة من كل وجه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ [كما جزيناهم ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ كافر، بالياء والنون المفتوحة، مع كسر الزاي، ونصب كل] المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أجمل في بيان هاتين القراءتين إجمالًا مخلًا، القراءتان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ بالنون المفتوحة، والزاي المكسور ونصب كل، ووجه هذه القراءة ظاهر؛ لأن ﴿نَجْزِى﴾ فعل مضارع وفاعله مستتر، و﴿كُلَّ﴾ مفعول به، القراءة الثانية يُجزَى كلُّ كفور، (كذلك يُجزَى كلُّ كفور)، وصنيع المؤلف لا يؤدي هذا المعنى، بل ظاهره أن كل منصوبة على القراءتين وأيضًا ظاهره أن الزاي مكسورة على القراءتين، وأن الياء مفتوحة

على القراءتين، يَجزي كلَّ كفور والقراءة (يُجزَى كلُّ كفور).

كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ترد كثيرًا في القرآن الكريم، ويقول المعربون: إن الكاف مفعول مطلق، وأن تقدير الكلام مثل ذلك الجزاء نجزي، عامل هذا المفعول المطلق ما بعده من الفعل، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] أي: مثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي كل كفور.

وقوله: ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾، قال المؤلف: [كافر]، يعني: أن صيغة المبالغة هنا لا تراد، بل مطلق الكفر موجب لهذا الجزاء؛ لأنك لو اعتبرت صيغة المبالغة بظاهر معناها لكان لا يجزى هذا الجزاء إلا من تكرر كفره، ولكن لا نمنع أن نقول: إن كفور هنا صفة مشبهة، ويكون المعنى كل من اتصف بالكفر، - والله أعلم -.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال المؤلف: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [يستغيثون بشدة وعويل]، قوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: هذه من الصراخ، والصراخ معروف، وهو رفع الإنسان صوته أشد ما يرفع، وقيل: يصطرخون فأتي بالتاء للمبالغة في الصراخ، كما يقال: خطب واختطب، أيهما أبلغ؟ اختطب أبلغ من خطب صرخ واصطرخ، اصطرخ أبلغ من صرخ.

وقد ذكروا قاعدة أغلبية في هذا المقام فقالوا: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذه القاعدة أغلبية؛ لأنها تنتقض بشجرة وشجر، وبقرة وبقر، فإن شجرة زائدة المبنى على شجر، ناقصة المعنى؛ لأن الشجرة تدل على واحد وشجر على جمع، لكن ما الغالب؟ أن ما زاد في المبنى زاد في المعنى، فاصطرخ لا شك أنها أبلغ من صرخ.

فهم - والعياذ بالله - يصطرخون هذا الاصطراخ العظيم في النار يصطرخون فيها يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ﴿رَبَّنَآ﴾ الآن يقرون بالربوبية وأنه لا يغيثهم من الشدة إلا الله، وكانوا في الدنيا يستغيثون بغير الله، بأصنامهم، وما يعبدون من دون الله، أما الآن فقد عرفوا أنه لا يمكن أن ينجيهم مما هم فيه إلا الله، وقولهم: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أتت نعمل بالجزم؛ لأنها جواب للطلب في قوله: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وإذا كان جوابًا للطلب كان كالشرط المقدر، أخرجنا إن تخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، هكذا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾، يعني: من النار، نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، ولكن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا كلام الله - عز وجل - العالم بما سيكون لو أخرجهم، فهؤلاء يقولون ذلك من باب الاعتذار، وإلا فإن قلوبهم خاربة، خربت بالأول وستخرب في الثاني، فإذا نجوا من النار عادوا إلى ما كانوا عليه.

قال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الأولى

﴿نَعۡمَلۡ﴾ مجزومة على أنها جواب الطلب، والثانية مرفوعة لتجردها من الناصب والجازم.

﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ ما الذي كانوا يعملون؟ يعملون عملًا سيئًا؛ لأنهم يشركون بالله - عز وجل -، ويستكبرون عن عبادته، ولو ردوا لعادوا لما كانوا عليه من قبل، ولهذا قيل لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا﴾ أي: وقتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾: الرسول، فما أجبتم، يقال لهم: توبيخًا وتنديمًا وإقامة للحجة، ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ فمن القائل؟

إن نظرنا إلى ظاهر الفعل قلنا: إن القائل هو الله؛ لأن الذي عمرهم هو الله - عز وجل -، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة، لكن لما كانت الملائكة تقول: بأمر الله صار كأن القائل هوالله، فالملائكة تقول؛ لأنهم جنود الله ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وأيًا كان فالمقصود بهذا إقامة الحجة عليهم وتوبيخهم وتنديمهم.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ هذه الصيغة تجيء أو هذا السياق يوجد كثيرًا في القرآن، تأتي همزة الاستفهام وبعدها حرف العطف، وقد اختلف المعربون في مثل هذا التركيب، فقيل: إن الهمزة داخلة على مقدر يستفاد من الكلام، وهذا المقدر عطفت عليه الجملة التي بعد حرف العطف، وقال بعضهم: بل إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة، لا على شيء محذوف، لكنها قدمت على حرف العطف؛ لأن لها الصدارة، فيكون التقدير في قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ وألم نعمركم، وتكون الواو هنا عاطفة على قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ هذا من حيث الإعراب أما من حيث المعنى فكما أشرنا أولًا إلى أن المراد بذلك: التوبيخ والتنديم وإقامة الحجة، يعني: قد عمرناكم تعميرًا واسعًا ووقتًا طويلًا، ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ لأن الرسل جاءتهم وأمهلتهم ودعتهم ولكن أبوا وأصروا على كفرهم، وكان أول من أرسل من الرسل نوح - عليه الصلاة والسلام -، فماذا يقول له قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: ٧] يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا، استغشوا ثيابهم لئلا يروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يقول، لا يحبون أن يسمعوه، ولا أن يروا نوحًا وهو يلقيه عليهم، ثم أصروا، يعني: بقوا على ما هم عليه، واستمروا فيه، واستكبروا استكبارًا، يعني: استكبارًا عظيمًا عن قبول الحق، هذا أول الرسل، آخر الرسل قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص: ٥]، وآذوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالقول والفعل بل استباحوا أن يقاتلوه، ورضوا أن يبذلوا رقابهم للسيوف معارضة لدعوته - عليه الصلاة والسلام -، فهؤلاء الذين تبلغ بهم هذه الحال بعد أن عمروا ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وجاءتهم الرسل هل يرجى منهم لو خرجوا من النار أن يعودوا إلى الحق؟ أبدًا؛ لأن الأمر واحد، لكن قد يقول قائل: إنه ليس الخبر كالمعاينة، فالنار التي تَوعَدوا بها؛ أدركوها عن طريق الخبر قبل أن يكونوا فيها، أما لما كانوا فيها فقد عرفوها عن

طريق الحس والمشاهدة.

فالجواب: أن خبر الرسل المؤيدة بالآيات الدالة على رسالتهم يفيد العلم اليقيني؛ لأن الرسل ما جاءت تدعو الناس وتنذرهم وتبشرهم إلا بآيات يؤمن على مثلها البشر، وهؤلاء - والعياذ بالله - طبيعتهم التكذيب والإنكار، فلن يؤمنوا ولو خرجوا.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ النذير يقول المؤلف: [الرسول]، والمراد به: الجنس؛ لأن كل رسول قد أنذر قومه، وحذرهم من معصية الله، وبشرهم ورغبهم في طاعة الله، ولكنهم - والعياذ بالله - أصروا واستكبروا، فقد قامت عليهم الحجة، ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، ﴿فَذُوقُوا﴾ الأمر هنا للإهانة، ومفعول ذوقوا محذوف، التقدير: ذوقوا عذابكم، أو ذوقوا عاقبة تكذيبكم، [﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنهم]، ما للظالمين من نصير، الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، أين الخبر؟ للظالمين، والمبتدأ: نصير، ودخلت عليه(من) الزائدة لتوكيد النفي.

(ما) هنا هل هي عاملة عمل ليس أم لا؟ لا، لماذا؟ لتقدم الخبر، وهي لا تعمل عمل ليس إلا مع الترتيب فلو قلت مثلًا: ما زيد قائمًا صح، ولو قلت: ما في الدار زيد، نعم ما في الدار زيد فهذا صحيح لكن ما نجعل الدار في محل نصب، لماذا؟ لتقدم الخبر.

قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ قال: [ليدفع العذاب عنهم]، والنصير بمعنى: الناصر، والناصر هو: المانع من الشر، المعين على الخير، فكل من منع الشر عنك فهو ناصر لك، وكل من أعانك على الخير فهو ناصر لك، ويدل لهذا قول رسول الله ﷺ: **«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»**، قالوا: يا رسول الله، هذا المظلوم، كيف نصر المظلوم؟ تمنع عنه الشر، فكيف نصر الظالم؟ قال: **«تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»**[1]، منع الظالم من الظلم ليس إسداء خير إليه؛ ولكن منعه من شر، فالنصر إذن إما أن يكون بجلب خير وإما أن يكون بدفع شر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: ما غاب في السموات والأرض غيبًا مطلقًا عن كل أحد، وقولنا: غيبًا مطلقًا احترازًا من الغيب النسبي، فإن الغيب النسبي لا يختص علمه بالله - عز وجل -، بل يعلمه الله ومَنْ عَلَّمَهُ من عباد الله.

مثال الغيب النسبي الذي يكون ظاهرًا بالنسبة لقوم خفيًا بالنسبة لآخرين، فنحن هنا نعلم ما بين أيدينا، لكن هل نعلم ما كان في السوق أو في البيوت ؟، الجواب: لا، هذا نسميه: غيبًا نسبيًا؛ لأن الذي في البيوت أو في السوق يعلمونه، فالغيب المطلق هذا لله - عز وجل - وحده، يعلم ما

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٥٢)، والترمذي (٢٢٥٥).

غاب عن الخلق مطلقًا، حتى الأمور المستقبلة يعلمها - عز وجل -، يعلمها متى تكون وأين تكون وكيف تكون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ أي: بصاحبة الصدور وهي: القلوب، والقلوب هي محل العقل والتفكير والإرادة فهو عليم بها - عز وجل -، وإخبار الله تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض يقصد منه التحذير من المخالفة، والترغيب في الموافقة، فأنت إذا وافقت الله - عز وجل - فلن يضيع عملك؛ لأنه معلوم لله، وإن خالفت فلن يضيع؛ لأنه معلوم لله، لكنه بشارة بالنسبة للطائعين، وإنذار بالنسبة للمخالفين العاصين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن جزاء الكافرين النار، وهذا ما دلت عليه آيات كثيرة.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا**: أنهم لن يدخلوا الجنة لقوله: ﴿لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أهل النار يتألمون، يتألمون منها ومن عذابها وعقابها، لقوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾؛ لأنه لو ماتوا لاستراحوا، فيكون في هذا رد على قول من يقول من المعتزلة وغيرهم إن أهل النار يكونون أو تكون النار فيهم طبيعة فلا يحترقون فيها ولا يتألمون منها، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن، وخلاف ما دل عليه العقل، أما القرآن فإن الله تعالى يقول: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] أي: ذوقوا العذاب الذي يحرقكم، ويقول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وهذا نص صريح في أن الجلود تحترق ولكن تبدل لأجل أن يذوقوا العذاب، وفيها - أيضًا - دليل على أنها لو احترقت وبقيت محترقة فإنها لا تحس بالعذاب، فيفرق بينها وبين ما إذا بدلت، فالصواب بلا شك أن أهل النار يتألمون من عذابها، وأنهم لا تكون النار طبيعة لهم فلا تهمهم بعد ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: حسن بلاغة القرآن إذا ذكر شيئًا ذكر ما يقابله، حتى تكون النفس بين هذا وهذا، فإذا ذكر ثناء على أهل الخير ذكر بلاء على أهل الشر، وإذا ذكر جزاء أهل الخير ذكر جزاء أهل الشر.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء - أعني أهل النار - لا يخفف عنهم من عذاب النار أبدًا، لا في كيفيته، ولا في نوعه، ولا في زمنه، لا يخفف عنهم من عذابها.

٦ - **وفيه أيضًا**: دليل على كمال قدرة الله - عز وجل -، حيث تبقى هذه النار أبد الآبدين - والعياذ بالله -، لا تتغير، والمعروف في نار الدنيا أنها مع طول الزمن تتغير وتنقص وتطفأ، حتى لا

يكون لها أثر، أما في نار جهنم فإنها تبقى أبد الآبدين لا ينقص عذابها ولا حرارتها.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا الجزاء ثابت لكل من اتصف بالكفر يعني: لا تختص به قبيلة دون أخرى، فلا يقال مثلًا إنه خاص بقريش المكذبين لرسول الله ﷺ، أو بالقبيلة الفلانية ،بل كل كفور، حتى وإن كان من قرابة النبي ﷺ.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأسباب وربط مسبباتها بها، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾.

٩ - **ومن فوائدها**: أن أهل النار تتفاوت منازلهم وعذابهم، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ووجه الأخذ أن كل معلق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف وينقص بنقصانه.

قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: بيان شدة عذاب أهل النار، وجه ذلك في قوله: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا**: إقرارهم واعترافهم بأنه لا يملك دفع الضر عنهم إلا الله، لتوجيههم النداء إلى الله - سبحانه وتعالى - والاستغاثة به، في قوله: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ .

٣ - **ومن فوائدها**: إقرارهم بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة؛ لقولهم: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وهم كما يقرون بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة، يقرون بأنهم غير عقلاء أيضًا لقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [المُلك: ١٠] ولكن لا ينفعهم هذا؛ لأنه بعد فوات الأوان، وانظر إلى جوابهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ إلى آخره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله - عز وجل - أقام على الكافرين الحجة من وجهين، أنه عمرهم وقتًا يمكنهم أن يتذكروا فيه، وثانيًا: أنهم جاءتهم رسل فلا عذر لهم.

٥ - **ومن فوائدها**: ؛ توبيخ أهل النار بمثل هذا الكلام؛ لأن هذا الكلام قد يكون أشد عليهم من العذاب، لما فيه من التنديم وتجديد الحزن عليهم، والتمني الذي لا ينفعهم .

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على الجبرية، الذين يحتجون بالقدر على المعاصي، يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وجه الرد قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، ولو كان القدر حجة لم يكفي ما ذُكر في الاحتجاج عليهم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات رحمة الله - عز وجل - وإعذاره لخلقه، حيث

أرسل إليهم الرسل فإن إرسال الرسل فيه رحمة، وفيه أيضًا إعذار، وإقامة حجة.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إهانة هؤلاء الذين في النار لقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾، فإن الأمر هنا للإهانة، فيهانون - والعياذ بالله - بالعذاب والتوبيخ وغيرها من أنواع الإهانات.

٩ - **ومن فوائدها:** تيئيس هؤلاء من الخلاص من النار؛ لقوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان أن الكفر ظلم؛ لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإظهار في موضع الإضمار؛ لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ولم يقل: فما لكم من نصير، فذوقوا لو أن السياق جرى على ما هو عليه لقال: فما لكم، لكنه قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** أن التفنن في الأسلوب أو اختيار الوصف الذي يكون أبلغ في إقامة الحجة، كيف ذلك؟ لأنه عدل عن قوله: فما للكافرين إلى ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ فإما أن يكون هذا من باب التفنن في التعبير، حتى لا يلحق المخاطب سآمة لتكرار الألفاظ عليه، وإما أن يكون هذا من باب العدول عن الوصف إلى وصف أبين منه في إقامة الحجة، والثاني: أقوم في المعنى؛ لأنه إذا قال: فما للكافرين لم يبين أنهم ظلمة بكفرهم، لكن لما قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ صار فيه إشارة إلى أنهم بكفرهم كانوا ظلمة غير مظلومين ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

١٣ - **فيه دليل:** على أن الكفار لا تنفع فيهم الشفاعة لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهذا عام يعني: لا أحد يدافع عنهم ولا يشفع لهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ صلة هذه الآية بما قبلها بيناه فيما سبق، أنه لما ذكر أحوال الطائعين ومثوبتهم وأحوال العاصين وعقوبتهم بين أن هذا صادر عن علم تام، فإن الله تعالى عالم غيب السماوات والأرض وعالم ما في الصدور.

١ - **فمن فوائد هذه الآية:** إثبات عموم علم الله لقوله: ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات علم الله بما في قلوب بني آدم، وغير بني آدم لقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** التحذير من أن يضمر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله، ثم تحدثه نفسه بأن هذا لا يطلع عليه إلا الله فيغتر بإمهال الله له، وجه ذلك ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** العكس وهو أن الإنسان إذا أضمر في قلبه خيرًا فإن الله يعلمه

وسوف يثيبه عليه.

٥ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن المدار على ما في القلب؛ لقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وذات الصدور هي: القلوب؛ لأنها الساكنة فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

❁ قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ
ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا
﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ
لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: ٣٩-٤٣]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [جمع: خليفة، يخلف بعضكم بعضًا].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ الضمير يعود على الله، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾

وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ صيركم: خلائف، وخلائف جمع خليفة، والخليفة بمعنى: الخالف الذي يخلف من سبقه، وهذه الخلافة تشمل خلافة القرون بعضها بعضًا، كالشباب مثلًا يخلف الشيوخ والكبار، والأحياء يخلفون الأموات، وتشمل خلافة السلطة، بأن يذهب سلطان شخص إلى سلطان شخص آخر، ينتقل الملك من شخص إلى شخص بالقوة، مع بقاء الأول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالخلافة إذن خلافة القرون بعضها بعضًا،

وخلافة الملوك بعضهم بعضًا، الذين يخلف بعضهم بعضًا في السلطة والإمرة على الخلق،

[﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ﴾ منكم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾] من كفر فعليه كفره، ولا يضر غيره شيئًا، ولا يضر الله شيئا أيضًا وهذا كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ فكفر الإنسان على نفسه وليس يضر غيره شيئًا.

وأما قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فإن هذا من باب تعميم العقوبة التي لا يخلو أهل الإحسان من التقصير، أما لو قاموا بما يجب عليهم فإن العقوبة لا تعمهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١] ولأن الواقع شاهد بذلك، فنوح وهود وغيرهما من الرسل أنجاهم الله مع أنه أخذ أقوامهم بالعقوبة.

يقول عز وجل: [﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ وبال كفره، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾] كفر الكافرين عند الله لا يزيدهم إلا مقتًا، لا يزيدهم عند الله محاباة لهم أو رحمة بهم؛ لأن الحجة قامت عليهم، فكلما ازدادوا كفرًا ازدادوا بغضًا، قال المؤلف في ﴿مَقْتًا﴾: غضبًا، والمعروف أن المقت أشد البغض إن المقت أشد البغض، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠] وهذا يدل على أن المقت هو البغض، لكنهم قالوا: إنه أشد البغض، فتفسير المؤلف له: بالغضب فيه نظر، قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فبين هنا أن الكفر سبب لشيئين

الشيء الأول: نزول مرتبة الكافر، فإن كفره لا يزيده عند الله إلا بغضًا. والثاني: العقوبة التي تحصل له وذلك بالخسارة، فماذا يخسر؟ يخسر نفسه وأهله ودنياه وآخرته، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزُّمَر: ١٥] فهو خسر نفسه؛ لأنه لو آمن لربح ونال ثواب، الآخرة بالجنة وهذا ربح، أما الآن فقد أهلك نفسه، ففاتت عليه، خسر أهله؛ لأنه لو آمن واتبعه أهله بالإيمان صاروا في الجنة، في منزلة واحدة، خسر دنياه؛ لأنه لم يستفد من وجوده في الدنيا شيئًا، بل استفاد الخسارة والعمل السيء، خسر الآخرة أيضًا؛ لأنه فاته النعيم المقيم في الآخرة وصار من أصحاب الجحيم، فلا أحد أعظم خسارة من الكافر - والعياذ بالله -.

حتى وإن كان في الدنيا مُنعمًا نعمة جسد، فهو في الحقيقة مُعذب عذاب قلب؛ لأنه ليس عند الكافر انشراح الصدر كما عند المسلم، يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] يعني: كمن لم يكن كذلك فهو على ظلمة.

الفوائد:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخره.

١ - يستفاد منها: تمام قدرة الله - عز وجل - وسلطانه، حيث إنه هو الذي يدبر خلقه بجعلهم خلائف.

٢ - ومنها بشارة المؤمنين وإنذار الكافرين؛ لأن من جملة الخلافة أن يخلف المؤمنون الكافرين في أرضهم قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]وقال موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨].

وقال لهم: إن الله استخلفكم الأرض، ففي هذا بشارة للمؤمن، فلا ييأس من الله - سبحانه وتعالى - يجعل له الخلافة في الأرض، وإنذار للكافر بأن تجتاح أرضه على أيدي المؤمنين.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** حكمة الله - عز وجل - في توارث الأمم بعضها بعضًا، فإنه لولا ذلك لضاقت الأرض بأهلها، لو كان كل من أوجده الله بقي كم يكون عدد العالم؟ ما يحصون، وحينئذ تضيق بهم الأرض، ويشق عليهم تحصيل الأرزاق، وإن كان الله - عز وجل - قد يجعل لهم من الرزق ما لا يخطر بالبال، لكن لا شك أن كون الناس يخلف بعضهم بعضًا هذا يموت وهذا يحيا هو الحكمة والرحمة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شؤم الكفر وعاقبته؛ لقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن كفر الكافر على نفسه لا على غيره، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات صفة البغض لله - عز وجل -، بل إثبات صفة المقت الذي هو أشد البغض؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾، والمقت من صفات الله الذاتية أو الفعلية؟ الفعلية؛ لأن كل صفة تقرن بسبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها حينئذٍ تتعلق بمشيئة الله، إذ إن السبب واقع بمشيئته، والسبب هو الذي علقت به الصفة فتكون الصفة إذن واقعة بمشيئته، والقاعدة عند أهل السنة:

أن الصفات التي تكون بمشيئة الله تسمى صفة فعلية، وذكرنا أن الصفات ذاتية وفعلية وخبرية، فالذاتية هي الصفات التي لا ينفك الله عنها، لم يزل ولا يزال متصفًا بها، مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة وغير ذلك كثير، والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، سواء كانت صفة ظاهرة أم غير ظاهرة مثل المحبة والكراهة والرضا والبغض والضحك والاستواء والنزول وغير ذلك.

والصفات الخبرية هي التي نظير مسماها أبعاض لنا، مثل الوجه واليدين والعين والساق

والإصبع وما أشبهها، وهنا لا نقول: إنها أجزاء بالنسبة لله، هي لنا أجزاء، ولكن نتحاشى أن نقول: إنها أجزاء، بل نقول: نظير مسماها أجزاء لنا، ولا يمكن أن نجعل هذه صفات معنوية، إذ لو قلنا: بأنها صفات معنوية لساوينا أهل التعطيل؛ لأنهم يجعلون هذه الصفات صفات معنوية، ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ من الصفات الفعلية .

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه كلما ازداد الإنسان كفرًا ازداد عند الله مقتًا، وجه ذلك القاعدة التي ذكرناها، ونكررها دائمًا، وهي أن الحكم المعلق على وصف يزداد بزيادته وينقص بنقصانه، وهنا الحكم المعلق على الكفر، فإذًا يزداد مقت الله - عز وجل - على الكافر بزيادة كفره وينقص بنقصان كفره .

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكافر أيضًا خاسر، خاسر في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولم يقيد، لم يقل: في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الله، بل أطلق، فأخسر الناس هم الكفار، خسروا - كما قلنا: في التفسير - أنفسهم وأهليهم ودنياهم وآخرتهم وشخص خسر كل هذه الجهات ليس له ربح.

فأعظم الناس خسرانا هم الكافرون.

إذا قال قائل: هل نستعمل هنا قياس العكس، فنقول: إذا كان الكافر أخسر الناس فأربح الناس المؤمن؟ الجواب: نعم، نستعمل هنا قياس العكس؛ لأن قياس العكس جاءت به السنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: أَرَأَيْتُم لَو وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيهِ وِزْرٌ؟ قالوا: نعم، قال: كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١).

فكل عمل حلال تستغني به عن حرام يكون لك فيه أجر، إذن المؤمن رابح في مقابل أن الكافر خاسر، وإن شئت تلونا آية صريحة في هذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ١، ٢، ٣] يعني: فليسوا في خسر بل في ربح ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣] وتجارة المؤمنين تجارة رابحة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] لن تهلك، ولن تخسر شيئًا، وقال النبي ﷺ لأبي طلحة لما قال: يا رسول الله إن الله أنزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن أحب مالي إلي بيرحة، وإني أضعها، يعني عند الرسول - عليه الصلاة والسلام - صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ، ذَاكَ مَالُ الرَّابِحِ، ذَاكَ مَالُ الرَّابِحِ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦١١)، ومسلم (٩٩٨).

ثم قال تعالى: [﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره، وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء لله].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني، وشركاء: مفعول أول؛ لأن(أرأيت) تنصب ثلاثة مفاعيل، مفعول أول صريح منطوق به، والمفعول الثاني والثالث معلق بهمزة الاستفهام، فهنا أروني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكن هنا قال: أروني من باب التحدي، أخبروني عن شركائكم، وقوله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ يعني: الذين جعلتموهم شركاء، فالإضافة هنا باعتبار جعلهم - أي: جعل العابدين لها - شريكة مع الله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، قال المؤلف: [تعبدون]، فحول الدعاء إلى معنى العبادة ولا شك أن الدعاء يأتي بمعنى: العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل: عن دعائي فهذا دليل على أن الدعاء بمعنى العبادة.

ولكن لو قال قائل: إن قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ شامل لدعاء المسألة، وهو طلب الحاجة ودعاء العبادة لكان أولى؛ لأن هذه الأصنام التي يدعونها أحيانًا يجمعون بين الأمرين، فيركعون لها ويسجدون ويذبحون وينذرون، وأحيانًا يدعونها دعاء، وأحيانًا يجمعون بين الأمرين، فالأولى أن نجعل الآية شاملة لدعاء المسألة ودعاء العبادة والله أعلم.

يامحمد أرأيتم، والخطاب(بقل)هنا خطاب لمفرد، وإذا جاء مثل هذا في القرآن فإما أن يكون مما يختص به الرسول ﷺ فالأمر فيه واضح كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] وما أشبهها فهذا خاص بالرسول والأمر فيه واضح، إذ ا جاء مفردًا وليس خاصًّا بالرسول - عليه الصلاة والسلام -، يعني: لم يقم دليل على اختصاصه به، فهل نقول: إن الخطاب موجه لكل من يتأتى خطابه، أو إنه موجه إلى الرسول، وأمته تبع له، وإنما وجه إليه وحده باعتباره الإمام المتبوع؟

في هذا خلاف بين أهل العلم، والخلاف هنا قريب من اللفظي؛ لأن الكل متفقون أن هذا الحكم يشمل الأمة إذ لا دليل على اختصاص الرسول ﷺ به، وخلاف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١] فهذا خاص بالرسول؛ لأنه ليس كل أحد قد شرح الله له صدره.

هنا يقول: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾، الخطاب لمفرد، فهل هو للرسول - عليه الصلاة والسلام -، أو لكل من يتأتى خطابه؟ قيل: إنه لكل من يتأتى خطابه، وقيل: للرسول باعتباره الإمام، وغيره مثله، حتى مثل في زمننا هذا، نقول للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وسبق أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فسر الدعاء هنا: بالعبادة، وقلنا: إنه تفسير ناقص؛ لأن الدعاء يكون بالعبادة ويكون بالمسألة، والمشركون أشركوا بشركائهم بالنوعين جميعًا، فقد

يدعون هؤلاء الشركاء وقد يعبدونهم، وسبق أنهم يقولون: إن الأصنام شركاء لله - عز وجل -، حتى إن المشركين في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

يقول: [﴿أَرُونِي﴾ أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾]

قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حيث الإعراب يجوز فيها وجهان، الوجه الأول: أن نعرب ﴿مَاذَا﴾ على أنها اسم استفهام مفعول مقدم ل﴿خَلَقُوا﴾ .

والثاني: أن نعرب(ما) وحدها، على أنها اسم استفهام، و(ذا) بمعنى: الذي، وعلى هذا فيكون في ﴿خَلَقُوا﴾ ضمير محذوف، هو العائد لاسم الموصول والتقدير: ماذا خلقوه من الأرض، والمعنى لا يختلف، فهؤلاء يُتحدون.

ويقال: أرونا ماذا خلقوا من الأرض، هل خلقوا الجبال؟ هل خلقوا الأشجار؟ هل خلقوا الرمال؟ الأنهار البحار؟ الجواب: ما خلقوا شيئًا، ما خلقوا شيئًا من هذا .

ينتقل إلى أعلى، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وهنا ما قال: أم خلقوا شيئًا من السماوات، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ لأن السماوات، ليست في متناول أيديهم، لكن يحتمل أن يكون لهم فيها مشاركة، فالذي لهم متناول فيه قيل: ماذا خلقوا؟ لجواز أن يقول قائل: لهم شرك في الأرض، فهذا له مثلًا مساحة، يأتي الناس إليه، وهي حريم قبره مثلًا، فنقول: هل خلقوا هذا، إذا ادعيتم أن هذه الأرض ملك له، وأنها وقفت على هذا القبر، لزائريه، أو ما أشبه ذلك، فهل خلقوها؟ لكن في السماوات ما قال: ماذا خلقوا من السماوات، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ لا على سبيل الخلق، ولا على سبيل التملك.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ شركة مع الله في السماوات.

وقول المؤلف: [في خلق السماوات] فيه نظر، بل الصواب أن نقول: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ سواء كان ذلك عن طريق التملك أو عن طريق الخلق، وما الجواب؟ لا هذا ولا هذا.

قوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ بأن لهم معي شركة، يعني: أو عندهم إذا قلتم: لم يخلقوا شيئًا من الأرض، وليس لهم شركة في السماوات، نقول: هل عندهم كتاب، وهم على بينة: حجة منه بأنهم شركاء مع الله؟ ومالجواب؟ لا، فكل هذه التقسيمات كلها منتفية بالنسبة للأصنام، فلم يخلقوا شيئًا من الأرض وليس لهم شركة في السماوات، وليس معهم بينة من الله - كتاب -، بأنهم شركاء مع الله، وإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لا خلق، ولا مشاركة، ولا وثيقة تبين بطلانها، قال: [﴿بَلْ إِن﴾ ما].

يعني: أن﴿إِن﴾ هنا نافية بمعنى: ما، [﴿يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا، لقولهم: الأصنام تشفع لهم].

يعني: أن ما يعد الظالمون بعضهم بعضًا فهو غرور، أي: تغرير وخداع، وليس له حقيقة،

والوعد الذي يعد به الظالمون بعضهم بعضًا: أنهم يقولون: هذه الأصنام تشفع لكم عند الله، اعبدوا محمدًا ﷺ، اعبدوا جبريل، اعبدوا الشجر، اعبدوا اللات، اعبدوا العزى، فإنها تشفع لكم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كيف يعبدونهم ثم يكونوا شفعاء؟!!

الشافع هل ينال درجة المشفوع إليه؟ لا، الشافع درجته دون درجة المشفوع إليه،إذ لو كان مساويًا أو أعلى ما احتاج أن يشفع، إن كان أعلى أَمَرَ، وإن كان مساويًا غَالَبَهُ، فأيهما غلب عاد تكون السلطة له.

على كل حال نقول: إن الظالمين يضر بعضهم بعضًا في الباطل حتى يخدعوا، ويظنوا أن الباطل حق، وأن الحق باطل، التغرير تارة يكون بالأقوال الكاذبة الملفقة، التي ليس لها أصل، وتارة يكون بالألقاب السيئة التي تشوه السمعة، فأما الأقوال الكاذبة فمثل قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا كذب وزور ولهذا قال الله تعالى مبطلًا لهذه الدعوى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] هذا من جملة التغرير أن يدعو قولًا كذبًا وزورًا، أو بالألقاب السيئة ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥] فأتوا بالألقاب السيئة ساحر وكذاب.

العامة إذا قيل لهم - ولا سيما إذا كان القائل زعماء -: هذا ساحر أو كذاب يتبعونه أم لا؟ لا يتبعونه، وإذا قيل لهم - أي للعامة -: إنكم إذا عبدتم الولي الفلاني أو القبر الفلاني فإن ذلك ينفعكم، فإن العامة تنخدع؛ لأنه ليس عندها علم، وليس عندها عقل ولب، فتنخدع.

الفوائد:

هذه الآية يستفاد منها عدة فوائد:

١- **منها**: قوة القرآن في أسلوب المناظرة، وذلك بالترديد والتقسيم، وجهه: أن الله تحداهم بثلاثة أمور:

هل خلقوا شيئًا من الأرض ؟

هل شاركوا الله في السماء ؟

هل عندهم كتاب من الله أن هذه الأصنام تنفعهم وإن لم تكن شريكة لله في السماوات ولم تخلق شيئًا من الأرض ؟

الجواب: لا.

لو خلقت شيئًا من الأرض لكان لها الحق؛ لأنها تخلق، ولو شاركت الله في ملكه في السماء لكان لها الحق؛ لأنها شريك لله - عز وجل - في ملكه، لو أن الله أنزل كتابًا يقول: بأن هذه

الأصنام لها الحق أن تعبد وتدعى من دون الله لكان لهم شبهة أو حجة، فلما انتفت الأمور الثلاثة تبين أنهم لا حجة لهم.

٢ - **ومنها:** أنه ينبغي في المناظرة أن تُذكر جميع الأقسام التي يمكن أن ترد في الذهن ثم تبطل؛ احترازًا من أي شيء مما لو ذكرت شيئًا واحدًا ثم بينت بطلانه، فقد يورد عليك شيء آخر؛ لأنه كما أن القول الحق لا ينحصر إثباته بدليل واحد فكذلك الباطل لا ينحصر إيراد الشبه فيه في شبهة واحدة، فإذا أردت أن تفحم خصمك لا تأتي بشبهة واحدة، ائت بجميع ما يمكن ويحتمل أن يكون شبهة لتبطلها، حتى يكون عندك القوة الكاملة التي لا يمكن أن يورد عليك أحد منها خللًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يخلق مع الله، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، فإن قلت: يرد عليك أن الله أثبت أن هناك خالقين، في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وفي قول الرسول ﷺ: «**يُقَالُ لَهم - أي المصورين - أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم**»[1] **فالجواب:** أنهم لم يخلقوا هذا، ولكن حولوه من صورة إلى صورة، فهنا ليس منهم إيجاد، بل تحويل من صورة إلى صورة، فالمصور مثلًا الذي أخذ الطين وجعل منه صورة على صورة الإنسان أو صورة طير أو صورة دابة، ماذا نقول؟ هل خلق هذا الشيء؟ لا، لكن حوله من كونه كتلة من الطين إلى كونه صورة، وليس خلقًا جديدًا.

النجار مثلًا إذا أتى على الخشب ونجره على صورة معينة، ما نقول: إنه خلقه؛ لأنه لم يوجده، لكن حوله من صورة إلى أخرى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بطلان ألوهية هذه الأصنام ومن باب أولى ربوبيتها، وجه هذا أن الله تحدى أن تكون هذه الأصنام صالحة للمشاركة بكل وجه من الوجوه؛ الخلق والمشاركة والوثيقة، كل هذه منتفية، إذن، فيبطل جعلها آلهةً مع الله.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الظالمين، ويشمل الكافرين ومن دونهم، أن الظالمين لا يَعِدُ بعضهم بعضًا إلا غرورًا وخداعًا، فيشمل ذلك الكافرين الذين يزينون الكفر، ويشمل ذلك أهل الخلاعة الذين يزينون الخلاعة، ويشمل أهل اللهو الذين يزينون اللهو، فكل باطل يزينه أصحابه نقول فيه: لا يعد الظالمون بعضهم بعضًا إلا غرورًا.

٦ - **ومن فوائد الآية:** الحذر من أن يتمنى الإنسان على الله الأماني، بل الذي ينبغي أو يجب أن يكون الإنسان كيِّسًا فطنًا حازمًا، كما يُروى عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ**»[2]

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

فالوعو د التي يُوعد بها الإنسان من قِبَل الظالمين أو من قِبَل نفسه إذا كانت مخالفة للشرع فما هي إلا غرور وباطل فليحذر الإنسان منها.

ثم قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر: ٤١]

التفسير

قال الله - تبارك وتعالى - مبينا تمام قدرته ومنته على عباده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [أي: يمنعهما من الزوال].

قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الإمساك بمعنى: القبض على الشيءو التمكن منه، وفسره المؤلف: بالمنع وهو لازم للإمساك.

وقوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ ﴿أَن﴾ مصدرية حذف منها حرف الجر؛ لأنه يطرد حذف حرف الجر مع أنّ وأن، إذا أمن اللبس، وهنا اللبس مأمون، وإذا كان الكلام على تقدير من، فحول أن وما دخلت عليها إلى مصدر، ليكن سبق الكلام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ من الزوال.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ترد هذه العبارة كثيرًا في القرآن وهي جمع السماوات وإفراد الأرض، ولم تأت الأرض مجموعة في القرآن بلفظها، لكن جاءت بلفظ يدل على التعدد، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا تتعين أن تكون في العدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماوات في الحجم، ولا مثلها في الصفة، وإذا امتنع أن تكون مماثلة للسماء في الحجم وفي الصفة تعين أن تكون مماثلة للسماء في العدد.

والسنة جاءت باللفظ الصريح في أن الأراضين سبع أراضين، كما في قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(١).

قوله: ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قال: [لام القسم]، واللام لام القسم، وإن شرطية، و﴿زَالَتَآ﴾ الفعل هنا فعل الشرط ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ الجملة جواب الشرط، و﴿إِنْ﴾ هنا يقول المؤلف: [ما]، أي: تكون نافية.

﴿أَمْسَكَهُمَا﴾، قال المؤلف: [يمسكهما]، إشارة إلى أن ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ فعل ماضٍ لكنه بمعنى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

المضارع؛ لأنه وقع جوابًا للشرط، ومعلوم أن جواب الشرط يكون للمستقبل لا يكون للماضي؛ لأنه لا يكون إلا بعد تحقق الشرط، وتحقق الشرط أمر مستقبل.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة زائدة، كيف ذلك؟ زائدة في الإعراب ولكنها تزيد في المعنى، وزائدة اسم فاعل من زاد يزيد، ونحن نعرف أن زاد يأتي متعديًا ويأتي لازمًا.

فإذا قلت: زاد الشيء يعني: ارتفع وكثر وما أشبه ذلك فهي لازمة، وإذا قلت: زدته خيرًا صارت متعدية لهذا نقول: هي زائدة زائدة، قد يقول بعض الناس: - إذا رأى مثل هذا الكلام - هذا تناقض كيف يكون الشيء زائدًا زائدًا نقول: ﴿مِنْ﴾ زائدة إعرابًا، زائدة معنىً؛ لأنها تزيد في المعنى وهو تأكيد النفي.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ فاعل ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ فاعل أمسك، مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

المعنى: لأن قُدِّرَ أن تزول السماوات والأرض، فإنه لا أحد يستطيع أن يمسكهما سوى الله - عز وجل -، وهو كذلك هذا هو الواقع، بل لو زال ما دون السماوات والأرض من النجوم والكواكب والشمس والقمر ما استطاع أحد أن يمسكه سوى الله - عز وجل -، بل لا يستطيع أحد أن يصرف شيئًا من هذه الكواكب أو النجوم أو الشمس أوالقمر أن يصرفه عن جهة سيره إلا الله - عز وجل -، ولا أن يمنعه من سيره إلا الله - عز وجل - .

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ جواب الشرط أم جواب القسم؟ جواب القسم، لماذا؟ لأن لدينا قاعدة إذا اجتمع الشرط والقسم حذف جواب المتأخر منهما قال ابن مالك مقررًا هذه القاعدة:

وَ احْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمِ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

إذن المؤخر هنا: الشرط، فيكون جوابه هو المحذوف، دل عليه جواب القسم.

يقول: [﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: في تأخير عقاب الكفار].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ هذه الجملة مناسبتها لما قبلها أنها: تعليل، تعليل لما قبلها، فارتباطها به ارتباط العلة بالمعلول، يعني: إنه بإمساكه للسماوات والأرض كان حليمًا غفورًا، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السماوات والأرض، وهلك من فيهما.

الحليم اسم من أسماء الله ومعناه: ذو الحلم، والحلم هو تأخير العقوبة عن مستحقها، تأخير العقوبة، وليس ترك العقوبة؛ لأن ترك العقوبة عفو، ولكن تأخير العقوبة عن المسيء يسمى هذا حلمًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

فبحلمه - عز وجل - تتأخر العقوبات، لعل الناس يتوبون إلى الله - سبحانه وتعالى -.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر الذنب ويمحو أثره بالكلية، وسبق لنا أن المغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه؛ وذلك لأنها مأخوذة من المغفر الذي يغطي الرأس ويقيه السهام، وليست كما قيل: مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر لا تحصل به الوقاية، بل لا بد مع الستر من الوقاية، ويدل لهذا المعنى قوله - سبحانه وتعالى - لعبده إذا خلا به وقرره بذنوبه: «**يقول: كنت سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»[1]، فإن هذا يدل على أن الستر غير المغفرة، وأن المغفرة لا بد فيها من عدم المؤاخذة، وعدم العقوبة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** بيان قدرة الله - عز وجل - على إمساك السماوات والأرض، فهذه الأجرام العظيمة أمسكها الله تعالى بقدرته، بدون معاناة، وبدون تعب، وإنما يقول للشيء كن فيكون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] قال الله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١].

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان رحمة الله - عز وجل - بعباده، حيث سخر لهم السماوات والأرض، بل سخر لهم ما في السماوات والأرض، أيضًا، وهذا من كما ل رحمته، فلولا رحمة الله - عز وجل - بعباده لوقعت السماوات على الأرض وهلك الناس وما ترك عليها من دابة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن السماوات والأرض مخلوقتان، من جملة المخلوقات، مسخرتان بأمر الله، ففيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم العالم، وقدم الأفلاك، وأن الفلك التاسع كما يزعمون هو المدبر لما تحته، بل نقول: هذه الأفلاك كلها مخلوقة لله، مسخرة بأمره، لو شاء الله - عز وجل - أن تزول لزالت ولا استطاع أحد، ولم يستطع أحد أن يمسكها، وجه الفائدة أنها مخلوقة من مخلوقات الله فليست قديمة.

ومن الآية ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فإن إمساكها دليل على أنها قائمة بأمره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أنه لا أحد يستطيع أن يدبر هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة، لقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** توجيه الخلق، أنه إذا رأوا في هذه الآيات السماوات والأرض إذا رأوا ما يزعجهم ويقلقهم ألا يرجعوا إلى أحد إلا إلى الله - عز وجل -، فالزلازل والبراكين والكسوف والصواعق وغيرها مما يخوف العالم لا نرجع فيه إلا إلى الله؛ لأنه هو الذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولا أحد يمسكهما إذا زالتا إلا الله.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأمور، هل نلجأ إليه بالصفة التي أرشدنا إليها النبي - عليه الصلاة والسلام - في صلاة الكسوف فقط، وما عداه فإنما نلجأ إلى الله تعالى بالدعاء المطلق ؟

هذا محل خلاف بين العلماء فمنهم من قال: إنه إذا وجدت آيات أفقية تخيف العباد فإنه يشرع للعباد أن يصلوا صلاة الكسوف حتى يذهب ما بهم.

واستدلوا بقول النبي ﷺ: «إِنَّ الشَمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا - يعني: كاسفتين - فَصَلُّوا وَادْعُوا»[1] إلى آخره.

قالوا: وتخويف العباد بالصواعق والزلازل أشد وقعًا في نفوسهم من الكسوف، فإذا شرعت الصلاة للكسوف فمشروعيتها لهذه الآيات من باب أولى، وهذا اختيار شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله، واستدل بفعل ابن عباس رضي الله عنهما حين صلى صلاة الكسوف في زلزلة، ولكن المذهب يقول: إنه لا تصلى صلاة الكسوف إلا للكسوف أو للزلزلة احتجاجًا بفعل ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن الصواب ما اختاره شيخ الإسلام« ابن تيمية»، فإن هذا الذي ذهب إليه يدل عليه التعليل في الحديث، « آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده ».

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلة والسبب في أفعال الله - عز وجل -، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وإثبات العلل في أفعال الله أو في أحكامه تدل على كماله لا على نقصه خلافًا للناقصين الذين زعموا أن إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه تدل على النقص، ولهذا نفوا الحكمة عن أفعال الله وأحكامه.

يقولون: لأن ذلك يقتضي النقص، وأنه فعل لغرض، فعل لغرض أو حكم لغرض، والفاعل لغرض ناقص بدونه، وعلى هذا فيكون نفي الحكمة عن الله وأحكامه من تنزيه الله تعالى عن النقص، وفي الحقيقة أن أي إنسان يعتقد أن إثبات الحكمة في أفعال الله وأحكامه نقص فهو الناقص، حتى إن الإنسان بمجرد ما يتأمل في المسألة يعرف أن من فعل لغير الحكمة فقد أتى سفهًا، ومن فعل لحكمة فقد أتى رشدًا؛ لأن الرشيد هو الذي يفعل الشيء لحكمة وحسن تصرف، والسفيه بالعكس ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وعلى هذا ففي الآية هذه وغيرها من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة والعقل الصريح ما يدل على إثبات الحكمة لله - عز وجل -، وأن الحكمة من أجل صفات الله - سبحانه وتعالى -، وبيانها في أحكام الله وأفعاله من أعظم الأمور وأظهرها.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٤٨)، والنسائي (١٤٥٩).

نقول: في الآية إثبات الحكمة؛ لأنه علل إمساك السماوات والأرض بكون ذلك مقتضى حلمه ومغفرته.

٧ - وفي الآية أيضًا: إثبات هذين الاسمين لله وهما الحليم والغفور، وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، ليس في أسماء الله اسم جامد أبدًا، حتى اسم الجلالة الله ليس بجامد، بل هو مشتق من الألوهية، وكذلك بقية الأسماء كلها ليست جامدة بل هي مشتقة من معانٍ تدل عليها، والمعاني التي تدل عليها أسماء الله، قد تكون متعددة في اسم واحد، كما مر علينا في الدلالة أنها تكون دلالة مطابقة ودلالة تضمن ودلالة التزام.

ثم قال الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر:٤٢،٤٣]

التفسير

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال المؤلف: [كفار مكة]، وهذا يحتمل ما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الضمير يعود على كفار مكة ويحتمل أنه أعم وأن من الناس من أقسموا وهم من غير كفار مكة.

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: حلفوا به.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: غاية الأيمان، يعني: الأيمان التي بذلوا فيها الجهد، وهي أيمان مغلظة بصيغتها كمية وكيفية، فالأيمان المغلظة بصيغتها كمية وكيفية هي الأيمان التي بلغت الجهد، أي: غاية الطاقة بالنسبة للمقسم.

والأيمان كما قال العلماء: تغلظ بالكمية، والكيفية، والزمان، والمكان، والهيئة، خمسة أشياء؛ بالكمية مثل أن يقول: والله والله الذي لا إله إلا الله العظيم العزيز الغالب، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تدل على الانتقام، فيما لو كان الإنسان كاذبًا، هذا التغليظ بماذا؟ بالكمية، التغليظ بالكيفية بأن يأتي بها يعني بانفعال شديد، يدل على تأثره بالقسم، وأما في الزمان بأن تكون بعد صلاة العصر، كما قال الله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي: من بعد صلاة العصر، وفي المكان بحيث يكون الإقسام في مكان فاضل، وأفضل الأماكن في البلدان المساجد، قالوا: وتكون عند المحراب أو المنبر في الجوامع، وعند الكعبة بعضهم قا ل:

تحت الميزاد، وفي الروضة في المدينة، هذا في المكان.

وفي الهيئة بأن يكون قائمًا؛ لأنه يُحلف وهو قائم، قال العلماء: لأن العقوبة أقرب إلى القائم منها القاعد، فهذه خمسة أشياء في تغليظ اليمين.

لكن هل هؤلاء الكفار أقسموا جهد أيمانهم بهذه التغليظات الخمسة؟ الله أعلم، على كل حال هم بذلوا أقصى ما يستطيعون من اليمين قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ هذه الجملة نقول في إعرابها كما قلنا في الجملة الأولى، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ فقد اجتمع فيها شرط وقسم، وحذف جواب الشرط، ولهذا جاءت اللام في الجواب ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ ولو كان المحذوف جواب القسم لم تأت اللام في الجواب؛ لأن جواب الشرط لا يحتاج إلى اللام، وإنما يربط بالفاء في محله، ولا يحتج إلى رابط إذا لم يكن من المواضع السبعة المعروفة.

يقول الله عز وجل: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بمعنى: منذر، وهو الرسول، ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، قوله: ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ بضم النون، وهو مشكل، كيف ضمت النون، والمعروف أن الفعل المضارع مع نون التوكيد يبنى على الفتح كما في قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهُمَزة: ٤] وهنا قال ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾؟ والجواب على ذلك: أن نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظًا وتقديرًا، والنون هنا مباشرة للفعل لفظًا، لكنها غير مباشرة له تقديرًا؛ لأن الفعل هنا للجماعة، وليس للمفرد، وأصله يكونونن، فحذفت النون بتوالي الأمثال، لأنهم يقولون: إن العرب يكرهون أن تجتمع ثلاث كلمات من نوع واحد بعضها إلى بعض، فيحذفون أولاها بالحذف، وأولا ها بالحذف على حسب قياسهم: نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد، ولأن نون التوكيد جاءت لمعنىً لو حذفت لاختل ذلك المعنى إذ جاءت للتوكيد فلا نحذفها، لكن نحذف نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد ولذلك حذفنا نون الرفع، وهي النون الأولى من الثلاثة بقيت الواو تلي النون، والنون حرف مشدد في هذا التركيب، والحرف المشدد أوله ساكن فحذفنا الواو لالتقاء الساكنين، فصارت ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ حذفنا الواو التي بين نون الفعل؛ لأن النون التي في يكون النون التي معنا الآن نون الفعل، ولهذا ما حذفناها؛ لأنها أصيلة، حذفنا الواو لالتقاء الساكنين، فلو قال قائل: عندنا الآن ثلاث نونات وأرى تحذفوا واحدة منها !

نقول أولًا: أن هذه النونات ليست متصلة تقديرًا، يعني ليس بعضها متصلًا بالبعض الآخر من حيث التقدير؛ لأن كان قد فصل بينها الواو الذي حذفناها لالتقاء الساكنين، ثانيًا: أن النون التي بعد الواو في ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ النون الموجودة الآن نون الفعل، فهي من بنية الكلمة ولا يمكن أن تحذف، على كل حال يجب أن نعرف الفرق بين ليكونَن وبين ليكونُن في القرآن ليكونَن ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢].

فعندي فرق بين (ليكونَن) وبين(ليكونُن):

(ليكونَن) هذه للواحد، ولهذا بني الفعل معها على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظًا وتقديرًا.

(وليكونُن) للجماعة، ولهذا لم يبن الفعل معها؛ لأن نون التوكيد لم تباشره تقديرًا.

إذن نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظًا وتقديرًا، في هذه الجملة(ليكونن)لم تباشره تقديرًا، أما لفظًا فقد باشرته.

وإنما قلنا: لم تباشره تقديرًا؛ لأنه حذف منها واو الجماعة، فلم تباشره تقديرًا.

وقوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ﴿أَهْدَىٰ﴾ خبر يكون فهي منصوبة بالفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وهو اسم تفضيل، وقوله: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، قال المؤلف: [اليهود والنصارى وغيرهم أي واحدة منها، لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضًا، إذ قالت اليهود: ليست النصارى على شيء وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء].

يقول: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ فأتوا بإحدى الدالة على الإبهام، لم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، قال: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾؛ لأن الأمر التبس عليهم، حيث إن اليهود يقولون: ليست النصارى على شيء، والنصارى يقولون: ليست اليهود على شيء، وهؤلاء المشركون - كفار مكة - أمة جاهلية لا يدرون مَنْ الحق معه، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهما، أهدى من أي واحدة؛ لأن الأمر عندهم التبس.

ولكن يبقى النظر ما هو الدليل على تخصيص كلمة الأمم بالأمتين اليهودية والنصرانية؟ ولماذا لا يقال: إنها أعم من اليهود والنصارى؛ لأن هناك مجوسًا يدينون بعبادة النيران ويمكن أن يوجد أناس آخرون يدينون بديانات أخرى؟

لهذا نقول الجواب: إما أن نلتزم بالعموم ونقول: إنهم يقولون: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: أيُّ أمة كانت، من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الوثنيين الذين يعتقدون أنهم على دين، أو ما أشبه ذلك، فكأنهم يقولون: أهدى من كل الأمم لكن لم يعينوا، لأنهم لم يدروا من هو الذي على حق، وإما أن يقال: خص هذا الجمع بأمتين فقط لأن المعروف أنهم على دين وهم اليهود والنصارى.

هذا هو الصحيح لكن آخر كلامه يدل على أنه أراد اليهود والنصارى فقط؛ لأنه اشتبه عليهم الحق ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، هنا قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ولم يقل: فلما جاءهم الرسول ليطابق ما قالوه، حتى يكون أبلغ في إلزامهم بما قالوا؛ لأنهم قالوا: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ على حسب ما فرضوه وما قدروه جاء الأمر كذلك.

فلما جاءهم نذير، كما يقولون هم، والمراد به: محمد ﷺ بلا شك، لكن كما أشرت نكر ولم يعرف متابعة لكلامهم حيث قالوا: جاءنا نذير، يعني: فلما جاءهم نذير كما طلبوا تمامًا وباللفظ،

﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ (لما) هنا: شرطية، وفعل الشرط: ﴿جَآءَهُمۡ﴾، وجوابه: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

و(لما) تأتي في اللغة العربية على أوجه، أحدها كما هنا: شرطية، والثاني: أن تأتي جازمة إلا أن بينهما فروقًا ليس هذا موضع ذكرها.

كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨﴾ [ص: ٨] أي: بل لم يذوقوا عذاب، ولكنهم حريون بأن يذوقوه، والثالث: أن تكون بمعنى: إلا كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾ [الطارق: ٤] أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بمعنى: حين، مجردة عن الشرط، مثل أن تقول: زرتك لما طلع الصبح أي: حين طلع الصبح، فهذه أربعة معانٍ لـ (لما).

يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ قال المؤلف: [مجيئه].

يعني: أنهم جاءهم نذير كما فرضوا ولكنهم ما كانوا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يزدهم إلا نفورًا عن الحق وبعدًا عن اتباعه، قال: [تباعدًا عن الهدى] - والعياذ بالله -.

وهذا أمر مشاهد فإن قريشًا لما بعث فيهم النبي ﷺ نفروا منه وآذوه بالقول وبالفعل ووصموه بكل عيب، وكانوا قبل أن يبعث يجلونه ويحترمونه ويسمونه الأمين، فلما بعث لم يكن أمينًا، وكأنه رجل غير الرجل الذي كانوا يعرفونه!! كل هذا يكذب قولهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾.

قال: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [عن الإيمان به مفعول له]، يعني: أن كلمة ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ مفعول له، أي: منصوبة على أنها مفعول له، يعني ما زادهم إلا نفورًا لأجل الاستكبار في الأرض، وهذا أحد الاحتمالين في الآية الكريمة.

والاحتمال الثاني: أن ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ بدل من كلمة نفورًا أي: ما زادهم إلا نفورًا هذا النفور هو الاستكبار في الأرض، وهو احتمال قوي جدًّا أن تكون استكبارًا بدلًا أو عطف بيان من كلمة نفور، إذن ما زادهم هذا المجيء إلا البعد عن الحق والاستكبار في الأرض.

قال: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ معطوف على ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

﴿وَمَكۡرَ﴾ قال المؤلف: [العمل ﴿ٱلسَّيِّيِٕ﴾ من الشرك وغيره] ،فقدر العمل قبل السيئ، ليكون السوء موصوفًا به العمل، والعمل السيئ يكون مكرًا، هذا ما ذهب إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فجعل

مكر مضافة إلى شيء محذوف، وهو العمل، وجعل السيئ صفة لذلك الشيء المحذوف، أي: مكر العمل السيئ، أي أنهم ما زادهم إلا نفورًا واستكبارًا في الأرض، وأن يمكروا مكر العمل السيئ.

والمكر هو الخديعة، وهو: التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم، هذا المكر، أن تتوصل بأسباب خفية إلى الإيقاع بخصمك وعدوك، فأما التوصل بالأسباب الظاهرة فليس بمكر، فإن قلت: هذا المعنى لا ينطبق على عمل هؤلاء؛ لأن هؤلاء يظهرون عملهم السيئ، فالجواب: أن هؤلاء تارة يظهرونه وتارة يخفونه، كما في اجتماعهم في دار الندوة ماذا يصنعون بالرسول ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠] وإنما ذكر المكر دون الشيء المعلن الظاهر؛ لأنه أعظم قبحًا من الشيء المعلن الظاهر، فصار هؤلاء جمعوا إلى الكذب المكر والخداع - والعياذ بالله -.

قال الله تعالى: [﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر] إلى آخره.

يعني: أن هؤلاء مكروا السوء، وعملوا السوء بصفة علنية وبصفة خفية، وهل الماكر بغيره ينجو ؟الجواب: إذا كان مكرًا سيئًا فإنه لا ينجو، بل سيحيق به مكره، ويهلكه، ويدمره، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أما إذا كان المكر بحق فإنه لا يحيق بأهله، بل يحيق بعدوه، ولا يحيق به؛ ذلك لأن المكر بحق ممدوح وليس بمذموم.

وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾] وهنا لم يقل: إلا بالماكر، بل قال: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، إشارة إلى بيان الاستحقاق لهذه الجريمة التي وقعت منه وأنه أهل لأن يحيق به مكره، فكل ماكر بغير حق فإنه أهل أن يحيق به مكره، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل، وإضافته إليه قبلُ استعمال آخر قدر فيه مضاف؛ حذرًا من الإضافة إلى الصفة].

هذا كلام قليل الفائدة معقد المعنى بالواقع، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل] فأين المكر؟ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ يقول المؤلف: [أصل] يعني: جار على الأصل؛ لأن الأصل أن الوصف ينفصل عن الموصوف ولا يضاف إليه الموصوف، هذا الأصل.

مثل أن تقول: مررت بزيد الفاضل، فتجعل الصفة منفصلة عن الموصوف تابعة له، وليس مضافًا إليها، فقول المؤلف: [أصل] يعني: أنه على الأصل، [وصف المكر بالسيئ أصل]وما معنى أصل؟ أي: جار على الأصل، لأن الأصل أن الصفة تتبع الموصوف، لا أن الموصوف يضاف إليها .

ولهذا دائمًا يمر قول العلماء: هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، مثل قولهم: هذا مسجد

الجامع، أصله: هذا المسجد الجامع، لكن أضيف إلى صفته، وهو كثير، كما أن الصفة تضاف إلى الموصوف أحيانًا، مثل طاهر القلب، فهذه صفة مضافة إلى موصوفها، طاهر القلب، كما قال ابن مالك في الألفية:

كطاهر القلب جميل الظاهر

هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، إذن نأخذ من هنا أنه يجوز إضافة الصفة إلى الموصوف، وإضافة الموصوف إلى صفته، وما هو الأصل من ذلك؟ الأصل من ذلك أن تقع الصفة تبعًا للموصوف على أنها نعت له وتعرب بإعرابه.

في الآية الكريمة إضافة الموصوف إلى الصفة، ووصف الموصوف بالصفة.

قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أيها الأصل؟ هنا بين المؤلف، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل]، لو قال: بدل (أصل): جار على الأصل لكان أوضح وهذا هو مراده.

وماذا يعني به من الآية؟ قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، يقول: [استعمال آخر]، يعني: جار على استعمال آخر في اللغة العربية؛ لأن اللغة العربية أحيانًا تضيف الموصوف إلى صفته.

قال: [قدر فيه مضاف] حسب شرحه هو وتفسيره، حيث قال: ومكر العمل السي ء يقول: [حذرًا من الإضافة إلى الصفة].

وهذا الذي قاله الأخير ينازع فيه، وذلك؛ لأنه لا داعي إلى ذلك، لا حاجة إلى أن نقدر محذوفًا لأجل أن نمنع إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لأن إضافة الموصوف إلى الصفة في اللغة العربية كثير شائع، ليس هذا أمرًا محذورًا في اللغة العربية حتى نحتاج إلى تقدير ما يصححه، ولهذا نقول: مكر السيئ جار على أصله بمعنى: أنه لا حاجة إلى أن يقدر فيه شيء محذوف.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ [ينتظرون] هذا تفسير﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، وهناك ضابط وليس قاعدة أن(ينظر) إن تعدت بإلى فهي بمعنى: النظر بالعين ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغاشية: ١٧] وإن تعدت بفي فهي بمعنى: النظر الفكري، كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الاعراف: ١٨٥] وإن تعدت بنفسها فهي بمعنى: الانتظار،مثل هنا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناها: هل ينتظرون من الانتظار وهو: الترقب ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون يعني: يترقبون.

﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

سُنَّة بمعنى: الطريقة، والإضافة هنا إلى الأولين من باب الاختصاص، يعني: إلا السنة التي

جرت للأولين، وليس المراد السنة التي فعلها الأولون؛ لأن الأولين مفعول بهم وليسوا هم الفاعلين، وإنما الفاعل من؟ الله - عز وجل - ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال المؤلف: [سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم].

يعني: ما ينتظر هؤلاء الذين كذبوا الرسول ﷺ إلا سنة الأولين، وهي أي: سنة الأولين التعذيب، تعذيبهم بتكذيب الرسل، قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لن تجد لسنة الله ﴿تَبْدِيلًا﴾ برفعها،أو﴿تَحْوِيلًا﴾ بتغييرها إلى قوم آخرين، يعني: أن سنة الله ستقع في أعيان الذين يستحقونها، فلن تبدل فترفع ولن تحول إلى قوم آخرين فيسلم منها من استحقوها بل هي واقعة على من استحقوها عينًا، مثال ذلك: المشركون كذبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - من قريش، والتحويل معناه: أن تحول عقوبتهم إلى بني تميم مثلًا، يمكن هذا أم ما يمكن؟ لا يمكن؛ لأن هذا ظلم، أن يؤاخذ قوم بجريمة آخرين، هذا معنى قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

كذبت قريش الرسول - عليه الصلاة والسلام - فبدلًا من أن يعاقبهم الله نعمهم، يمكن هذا؟ هذا معنى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فالعذاب لن يبدل بنعيم ولن يحول عن مستحقه إلى قوم آخرين بل سنة الله - عز وجل - لا بد أن تقع في من يستحقها بدون تبديل لها بنعمة، وبدون تحويل لها إلى غيرهم؛ لأن الله - عز وجل - كامل الحكمة كامل العدل؛ كامل الحكمة فلن يبدل النقمة بنعمة على من استحقها، ثانيًا: كامل العدل لا يمكن أن يحول الانتقام إلى قوم آخرين لا يستحقونه.

فهذه الصفة لن تجد لسنة الله تبديلًا إلى آخره هي من باب الصفات السلبية، لكنها تتضمن كمال عدل الله وكمال حكمته، ويمكن أن نقول: وتمام سلطانه أيضًا، بحيث لا يكرهه أحد على أن يحول النقمة إلى آخرين، أو أن يبدلها بنعمة.

قال المؤلف: [أي لا يبدل بالعذاب غيره ولا يحول العذاب إلى غير مستحقه].

الفوائد:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إلى آخره يستفاد من هذه الآية الكريمة.

١ - يُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الإنسان إذا كان في عافية، أو إذا كان قبل أن ينزل به الأمر قد يجد من نفسه القوة على تنفيذه، فإذا نزل به الأمر تغيرت حاله، وجه الدلالة أن هؤلاء أقسموا بالله ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ النذير، نعم تغيرت حالهم، وهذا يقع كثيرًا للبشر، ما دام الإنسان لم ينزل به الأمر يظن أنه قادر عليه فإذا نزل، إذا نزل به الأمر عجز عنه، ولهذا ينبغي للإنسان ألا يتعجل فيحكم على نفسه بالحال التي كان فيها سالمًا

من نزول الأمر به، بل ينتظر حتى ينزل به الأمر. كثير من الناس مثلًا يقول:

أنا أستطيع الصبر على الحج مثلًا، وسأحج، ولكن عندما يحين الأمر يجد من نفسه العجز، يقول: أنا أستطيع أن أقوم ثلث الليل الآخر كله، ولكن إذا جد الجد وجد نفسه عاجزًا، فالمهم أنه ينبغي للإنسان ألا يكون متسرعًا، فيقيس حاله في حال الرخاء على حاله بحال نزول الأمر به؛ لأن الإنسان بشر تختلف حاله بين سلامته من الأمر وبين وقوع الأمر فيه - والله أعلم -.

٢ - **وفيها أيضًا**: دليل على عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ، حيث كانوا قبل أن يبعث إليهم يقسمون أغلظ الأيمان بأنهم سيكونون أهدى من غيرهم، ولكن لما جاءهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما زادهم مجيؤه إلا نفورًا.

٣ - **وفيه**: الإشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان النذر، أي: أن ينذر الطاعة؛ لأنه قد لا يوفق للقيام بها، هؤلاء أقسموا ولما وجد موجب الطاعة لم يقوموا بطاعة الله، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] فهم أقسموا بالله أن لو أمرهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - لخرجوا فنهاهم الله، بل أمر نبيه أن يقول لهم: لا تقسموا، ونظير ذلك.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦] ولهذا جاء النهي من النبي ﷺ عن النذر، وبيان أنه لا يأت بخير.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء ردوا الحق استكبارًا في الأرض، أي: يريدون الاستكبار، وهذا على وجه إعرابها بأنها مفعول لأجله، أي: أنهم ما ردوا الحق إلا من أجل أن يكون لهم الكبرياء والعلو في الأرض.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تسمية أعمال الكافرين مكرًا؛ لقوله: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وقد ذكرنا في التفسير أن أعمال الكافرين تنقسم إلى قسمين: قسم يجاهرون فيه بكفرهم ولا يأتون به على سبيل المكر، وقسم آخر يأتون به على سبيل المكر، وأيها أشد؟ الثاني أشد، ولهذا ما مكر قوم بأنبيائهم إلا مكر الله بهم، وآخرهم محمد ﷺ حيث اجتمع القوم في دار الندوة يتشاورون ماذا يفعلون به؟ فمكر الله بهم - سبحانه وتعالى -.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من أراد السوء حاق به السوء لقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ومن قواعد العامة يقولون: من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فالإنسان إذا أراد المكر - والعياذ بالله - فإن مكره يحيق به.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن المكر يكون سيئًا ويكون حسنا، لقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وقوله قبل: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، وهو كذلك، فإن مكر الله تعالى بأعدائه الذين يمكرون به مكر حسن، يثنى عليه به ومكر أولئك مكرٌ سيئ.

فالفاعل للسبب منتظر للمسبب شاء أم أبى، فالإنسان العاصي نقول له: أنت منتظر للعقوبة الآن مترقب لها، حتى وإن كان لا يقع على باله أنه سيعاقب؛ لأن فاعل السبب منتظر للمسبب ولابد.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ثبوت القياس، أو إن شئت فقل: استعمال القياس، لقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيقيس حال هؤلاء بحال الأولين، الذين كذبوا فعوقبوا.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن سنة الله - عز وجل - في عباده واحدة، فكل من أطاع الله أثابه وكل من عصى الله عاقبه لقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لا يقال مثلًا: إننا أمة شرفنا الله - عز وجل - وعظمنا وكرمنا فلا يؤاخذنا كما آخذ من قبلنا، بل نقول: إن مقتضى التشريف أن نكون نحن أشد عبادة له ممن سبقنا؛ لأن الإنسان إذا كرم ينبغي أن يقوم بمقتضى هذا التكريم، وليس إساءة من لم تكرمه إليك كإساءة من أكرمته، بلا شك، ولهذا كل من كان مغتبطًا بنعمة الله - عز وجل - وجب عليه من شكر نعمة الله ما لا يجب على من سواه.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال قدرة الله - عز وجل - وحكمته حيث إن سنته لا تبدل ولا تغير ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وجه كونها من تمام القدرة أن العاجز لا يستطيع أن يجعل أفعاله على وتيرة واحدة بل قد تتخلف وتتغير لعجزه عن الاطراد وأما كونه من تمام الحكمة ؛ فلأن معاقبة السابقين كانت لسبب، وهذا السبب إذا وجد في الآخرين فإنه يعمل عمله؛ لأن مقتضى الحكمة أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها، ففي قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فيها إثبات تمام القدرة وتمام الحكمة.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الشيء الذي يستمر ويؤخذ به يسمى سنة، فيقال هذه سنة فلان أي: طريقته، ولهذا يفرق بين السنة وبين العارض.

العارض: الشيء العارض لا يمكن أن يجعل طريقة متبعة، والشيء المضطرد يسمى سنة، ويدل على هذا التفريق قوله ﷺ: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ ثم قال: في الثالثة لِمَنْ شَاءَ**» كراهية أن يتخذها الناس سنة[1] يعني: سنة مضطردة يفعلونها دائما.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٨٣)، وأبو داود (١٢٨١).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الهمزة هنا للاستفهام والمراد به: التوبيخ والتقريع، وهذه الهمزة الاستفهامية هل هي داخلة على الجملة الموجودة المذكورة أو على جملة محذوفة يعيِّنها السياق؟

في هذا قولان لأهل العلم في النحو: فمنهم من يقول: إنها داخلة على هذه الجملة المذكورة، وعلى هذا الوجه يقولون: إن التقدير وألم يسيروا، فيجعلون الواو مقدمة على الهمزة؛ لأنه لا يمكن أن تجعل الهمزة مقدمة على الواو، والواو حرف عطف تقتضي معطوفًا عليه، فيقولون: إن الهمزة متأخرة والواو حرف عطف، وهذه الجملة معطوفة على ما سبق، وهذا الوجه لا شك أنه أسهل وأيسر إذ لا يتكلف الإنسان فيه العناء في ذلك الشيء المحذوف المقدر.

القول الثاني: أن الهمزة داخلة على محذوف يعينه السياق، ففي مثل هذه الآية نقول: تقدير الكلام أَغَفِلُوا ولم يسيروا في الأرض، أو كلمة نحوها، وهذا التقدير قد يكون سهلًا في بعض المواضع بمعنى: أن بعض المواضع يكون المعنى فيها ظاهرًا ويمكنك بكل سهولة أن تقدر ذلك المحذوف، لكن أحيانًا يصعب عليك أن تقدر ذلك المحذوف لاحتمال السياق لأوجه متعددة .

إن القول الآخر أقرب وأسهل، أن نجعل الواو حرف عطف، والجملة هذه معطوفة على ما سبق، والأصل تقديم ذلك الحرف العاطف على الجملة، والتقدير وألم يسيروا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السير هنا هل هو سير القلوب أو سير الأقدام أو كلاهما؟.

الأولى أن نقول: إنه شامل، فيكون سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو: بالنظر في تاريخ الأمم السابقة، وما جرى عليهم، وما جرى لأهل الخير العاملين بالقسط، فيسير الإنسان بقلبه في أرجاء العالم وهو جالس على كرسيه لا يتحرك، وأما السير البدني أو السير

بالأقدام فهو: أن يتقدم الإنسان إلى هذه المواضع ليعتبر، ومن ذلك قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «زُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»(١).

فإن زيارة القبور سير بالأقدام، يذهب الرجل إلى المقبرة ويقف ويشاهد أهل القبور ويعتبر، هؤلاء القوم الذين كانوا أشد منه قوة وكانوا أكثر منه مالًا، ومع ذلك آلوا إلى ما آلوا إليه، حتى يعرف أنه سوف يؤول إلى ما آل إليه هؤلاء، طالت المدة أم قصرت.

إذن السير في الأرض يكون بالقلب ويكون بالقدم، يكون بالقلب وبالقدم، أيها أنفع للمرء؟ السير بالقلب أو السير بالقدم؟ السير بالقلب أشمل وأهون؛ لأنه بإمكان الإنسان أن يطوف الدنيا كلها في ساعة واحدة السير بالقدم أشد تأثيرًا؛ لأنه يشاهد وليس من رأى كمن سمع، ولهذا أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - إذا دخلنا على ديار المعذبين أمرنا ألا ندخل إلا ونحن باكون أن يصيبنا ما أصابهم، حتى نعتبر ونصحح المسير ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿فِي﴾ هنا قال العلماء: إنها بمعنى: على، ولا تصح أن تكون للظرفية؛ لأن الظرفية تقتضي أن يكون السائر في جوف الظرف، ومعلوم أن السائر على الأرض لا يسير في جوف الأرض، هل هو يفتح نفق ليسير فيه؟ لا، يسير على ظهرها، قالوا: ففي بمعنى: على، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يحتمل أن يراد بها: الجنس، ويحتمل أن يراد بها: العهد،(ال)هنا يحتمل أن تكون جنسية أو عهدية، فعلى الأول يكون المراد: السير في جنس الأرض، التي أصيبت بغضب، والتي لم تصب، وعلى الثاني يكون المراد: الأرض التي أصيبت بالغضب، فتكون(ال) هنا للعهد الذهني؛ لأن العهد الذكري لابد أن يكون هناك مذكور تعود عليه(ال)، أما إذا لم يكن مذكور فهو عهد ذهني.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُوا﴾ الفاء هنا قيل: إنها عاطفة، وقيل: إنها سببية، فعلى أنها عاطفة تكون في محل جزم، يكون الفعل بعدها مجزومًا، وعلى أنها سببية يكون الفعل بعدها منصوبًا، فعلى كونها سببية يكون التقدير: أولم يسيروا في الأرض فبسبب سيرهم ينظروا، وعلى أنها عاطفة يكون المعنى: أو لم يسيروا في الأرض ولم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، والنظر هنا هل هو نظر القلب أو نظر العين؟ إذا قلنا: إن السير سير القدم فالنظر نظر العين، وإذا قلنا: إن السير سير القلب فالنظر نظر القلب، إذن تكون شاملة للأمرين حسب ما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٧)، والترمذي (١٠٥٤) واللفظ له.

نفسر السير فيما سبق.

﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذه الجملة الاستفهامية علّقت ﴿فَيَنظُرُوا﴾ عن العمل، يعني: فينظروا كيف عاقبتهم، يعني: أي عاقبة كانت لهم، هل أكرموا، أو عذبوا وأهلكوا؟ انظروا، فإذا نظر الإنسان العاقل فسوف يعتبر ويقيس الحاضر على الغائب.

قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ عاقبة الشيء: مآله، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ما هي العاقبة للذين من قبلهم؟ الهلاك، عاقبتهم الهلاك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فانظروا إلى آثارهم ماذا كانت؟ كانت الدمار، فإذا كانت الدمار وسببه التكذيب والاستكبار، فإن السبب الذي كان فيما سبق مؤديًا إلى هذا الهلاك فإنه سيكون مؤديًا إليه فيما لحق، إذ لا فرق.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا الضمير يعود على السابقين ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: أقوى منهم قوة، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم، ولم تمنعهم، أهلكوا، وانظر إلى قول عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥] وكانت عاد من أقوى الأمم أجسامًا وصلابة وعزمًا، حتى إنهم تحدوا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥] وأهلكهم بألطف الأشياء، أهلكهم بالريح.

قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزُّخرُف: ٥١] فافتخر بجريان الأنهار وهي المياه من تحته، فأهلك بالغرق بالماء الذي كان يفتخر به، فالإنسان العاقل إذا رأى حال هذه الأمم وقوتها وأن هذا لم ينفعهم ولم يمنعهم من عقاب الله فلابد أن يعتبر.

قال: ﴿وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الواو هنا في قوله: ﴿وَكَانُوٓا﴾ يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال، والتقدير: وقد كانوا أشد منهم قوة، فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هنا إذا تأمل الإنسان الآية يقول: إن الله - سبحانه وتعالى - لم يذكر عاقبة هؤلاء المكذبين في الآية انظر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلماذا لم يذكرها؟ اعتمادًا على هذا السائر الذي يسير فينظر، فمعناه: احكم أنت بنفسك على هؤلاء، فلا حاجة إلى أن أذكرك بأن الله أهلكهم؛ لأنك سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ قال: [يسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾].

قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ اللام هنا يسميها النحويون لام الجحود، وهو النفي؛ لأنها وقعت بعده أي بعد النفي، وضابطها - أي ضابط لام الجحود - أن تقع بعد كون منفي وإذا أردنا أن نقربها إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد ما كان أو لم يكن.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، اللام نقول: هي لام الجحود، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] نقول اللام: لام الجحود، فإذا وقعت اللام بعد ما كان أو لم يكن داخلة على الفعل المضارع فإنها تنصب الفعل المضارع أو ينصبه أن مقدرة بعد اللام على الخلاف، إنما نسمي هذه اللام لام الجحود، لكن الضابط الذي قلت أولًا وهي الواقعة بعد كون منفي أعم من قولنا: هي المسبوقة بما كان أو لم يكن، لماذا كان أعم؟ لأنه يمكن أن تأتي بعد كائن تقول: لست بكائن ليعذبك، مثلًا، أو غير كائن ليقوم، وما أشبه ذلك، فإذا قلنا: بعد كون منفي كان أعم، لكن إذا كنا نخاطب شخصًا مبتدئًا في النحو فقد يصعب عليه تصور كلمة كون منفي، فنقول له: إذا وقعت بعد ما كان أو لم يكن فهي لام الجحود، وتنصب الفعل المضارع إما بنفسها كما هو مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة بعد اللام.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ حرف جر زائد زائد، زائد في الإعراب وزائد في المعنى، أي: أنه يزيد في المعنى، ما هي زيادة المعنى توكيد النفي، يعني: أن هذا النفي مؤكد.

وقوله: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ إذا قلنا: ﴿مِن﴾ حرف جر زائد، فنعرب ﴿شَيْءٍ﴾ على أنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

﴿مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال المؤلف: [يسبقه ويفوته]، وهذا تفسير لا بأس ببعض اللوازم كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤] ولكن العجز في الواقع، العجز هو عدم القدرة، العجز عدم القدرة على الشيء، وهذا أولى من تفسير المؤلف، نقول: ما كان الله تعالى ليحول بينه وبين ما يريد عجز في قدرته، بل هو قادر على كل شيء من إيجاد معدوم أو إعدام موجود أو تغيير حال، أو غير ذلك، فالله تعالى لا يعجزه شيء، لا في السماوات، ولا في الأرض؛ لأن أمره - عز وجل - إذا أراد شيئًا أن يقول: كن فيكون، بدون أي عمل، كلمة واحدة تجعل الشيء على حسب مراده - تبارك وتعالى - فلا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، وإذا كان لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض فإنه لن يعجز عن إهلاك المكذبين الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

يقول: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها].

الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل، لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ علل هذا الحكم المنفي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه.

والقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز فهذه القدرة.

والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف فهي أخص من القدرة من وجه وأعم منها من وجه آخر، كما سنذكره.

ما وجه كونه - عز وجل - لعلمه وقدرته لا يعجزه شيء؟ لأن العاجز عن الشيء إما أن يكون لعدم علمه بالأسباب التي تغيرها به، وإما أن يكون لعدم قدرته، فلو تأملت عجز أي عاجز لوجدت السبب في عجزه إما أنه لا يعلم، وإما أنه لا يقدر، فلو قيل لرجل: نريد أن تصلح هذه الساعة الخربة، قال: اعطني إياها وهو ما يعرف أبدًا ما درس هل يقدر أن يصلحها؟ عنده آلات، عنده آلات للصناعة وعنده قوة بدنية، هل يقدر أن يصلحها أم لا؟ لا يقدر لماذا ؟لأنه ليس عنده علم، لا يقدر أن يصلحها، يمكن يفسدها أكثر .

رجل آخر عنده علم وقد درس علم تصليح الساعات، مثلًا، لكن ما عنده قدرة بدنية مشلول، هل يمكن أن يصلحها؟ لا يمكن، لعدم القدرة، إذن انتفاء عجز الله - عز وجل - لكمال علمه وكمال قدرته، وبهذا نعرف أنه لا يوجد نفي محض في صفات الله، بل كل نفي في صفات الله فهو متضمن لثبوت كمال لا يمكن أن يوجد نفي محض، ولهذا لما نفي العجز بين السبب قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ - والله أعلم -.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** السير في الأرض قلبًا وقدمًا، وجه الدلالة أن الله وبَّخ الذين لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لنا أن ننظر إلى عاقبة السابقين نظر اعتبار، اعتبار بمآلهم، حين كذبوا رسلهم، وليس اعتبارًا بقوتهم وصناعتهم وطرازهم وما أشبه ذلك، وإذا طبقنا هذا على واقع الناس اليوم الذين يذهبون إلى ديار ثمود وجدنا أنهم يذهبون إليها لا ليعتبروا بما صنع الله بهم من العقوبة لتكذيبهم الرسل، ولكن ينظروا كيف كانت قوتهم وصناعتهم وزخارفهم!! وما أشبه ذلك وهذا حرام لا يجوز أن يذهب الإنسان إلى ديار هؤلاء المكذبين لهذا الغرض، لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ**

تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيهِم»[1]

٣ - **ومن فوائد الكريمة**: أن في التاريخ عِبرًا يعتبر بها العاقل لقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية**: استعمال القياس الأولى لقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فإذا كان الله تعالى أهلكهم مع كونهم أشد منهم قوة فإن إهلاك هؤلاء من باب أولى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن قوة البشر مهما عظمت لا تمنع من الله شيئًا، لقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولهذا لما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن في السير في الأرض قلبًا أو قدمًا عبرةً لا للمرسل إليهم بل للرسل أيضًا، فإن إهلاك المكذبين للرسل انتصار للرسل، معلوم أن الله إذا أهلك عدوك فإنه انتصار لك بلا شك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: نفي العجز عن الله - عز وجل - لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإن فيها نفي العجز عنه لكمال علمه وقدرته.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من صفات الله تعالى ما يكون سلبيًا، أي منفيًا عن الله، وضابطه أن كل صفة نقص فهي منفية عن الله - عز وجل -، فهي منفية عن الله، هذه قاعدة عامة كما أن كل صفة كمال فهي ثابتة له، ولكن التفصيل لا بد فيه من دليل أن هذه قاعدة عامة؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] لكن التفصيل بأن هذه الصفة المعينة ثابتة لله أو منتفية لا بد فيها من دليل.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينفي شيئًا عن نفسه إلا لثبوت كمال ضده؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فيستفاد من ذلك أن كل صفة منفية عن الله لا يراد بها مجرد النفي؛ لأن مجرد النفي ما فيه فائدة، إذ إن النفي المحض عدم محض والعدم ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون كمالًا؛ ولأن النفي قد يكون سببه العجز، كما في قول الشاعر:

قُبيلةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

هذا مدح أم ذم؟ ذم؛ لأنهم لعجزهم لا يستطيعون أن يظلموا الناس، ولا يغدروا بالذمم، وقد يكون سببه عدم القابلية، لا للكمال ولكن؛ لأنه غير قابل لهذه الصفة،

كما لو قلت: إن جدار بيتنا لا يظلم، واحد يمدح بيته مثلًا يقول: إن الجدارما يظلم أحد لكن لا لأنه عدل، كامل العدل، لكن؛ لأنه لا يقبل كلمة ظلم، فنفيها عنه كثبوتها له، حتى لو قلت: جدارنا يظلم ما أحد يصدقك.

إذن صفات الله المنفية التي يسميها العلماء السلبية تتضمن كمال الضد، يعني: لكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات أن السماوت أكثر من واحدة لوجود الجمع؛ لأنها جاءت بصيغة الجمع(السماوات)، وهي سبع بنص القرآن والسنة ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥] والسنة كذلك ظاهرة في أن السماوات السبع، كقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: « **اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ** »(١)

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما العليم والقدير، وما تضمناه من صفة أو حكم، من صفة وهي العلم أو قدرة، هذا صفة أو حكم وهو أنه يعلم ويقدر على كل شيء، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

مسألة: السير في الأرض للاعتبار لا بأس به، وإذا كانت مصلحته أكثر من نقصه كان محمودًا، وإن كان نقصه أكثر من مصلحته فإنه لا ينبغي، فمثلًا: لو ذهب ينظر في آيات الله تعالى في الجبال الشاهقة وفي الأنهار وفي البحار وما أشبه ذلك فهذا حسن محمود، لكن إذا كان يكلف من النفقة أكثر مما ينتفع به الإنسان فإنه ينهى عنه؛ لأن في ذلك إضاعة مال، أما إذا كانت النفقة قليلة، أو كان هذا الرجل ذا مال كثير لا يتضرر به، ولكنه ينتفع به من الناحية الإيمانية، فلا بأس به .

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٧/ ٢٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥) وقال: «رواه الطبراني وفيه رجل لم يسم وبقية رجاله ثقات».

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[فاطر:٤٥].

❁ التفسير ❁

﴿وَلَوْ﴾ شرطية، ولو تأتي شرطية كما هنا، وتأتي للتمني مثل قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وتقول مثلًا: لو كان لي مثل مال فلان، يعني: أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شرطية، وتأتي للتمني، وتأتي أيضًا مصدرية بمعنى: أن.

هنا هي شرطية، وإذا كانت شرطية فإما أن يكون جوابها مثبتًا وإما أن يكون منفيًّا، فإن كان مثبتًا فالأكثر فيه إثبات اللام وإن كان منفيًّا فالأكثر فيه حذف اللام، مثال ذلك في الإثبات قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] أين الجواب؟ ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ وفيه اللام، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] الجواب: جعلناه، وحذفت منها اللام، أما إذا كان جوابها منفيًّا بما، فإن الأكثر عدم اقترانها باللام ،فتقول مثلًا: لو جاءني ما أهنته، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وقد تقترن اللام بها، لكنها قليلة كقول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارُ لَمَا افْتَرَقْنَا ولكن لا خيار مع الليالي

يقول الله تعالى: [﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي] ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

قوله: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ أي: يعاقب، والمؤاخذة بالذنب: العقوبة عليه، وقوله: ﴿ٱلنَّاسَ﴾عام، يشمل الكفار، ويشمل العصاة من المؤمنين، فلو يؤاخذ الله الناس كلهم بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ (ما) يجوز أن تكون مصدرية أي: بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا كانت موصولة فلا بد من تقدير العائد، وتقديره بما كسبوه.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بما اكتسبوا من المعاصي، وسمى الله تعالى المعاصي كسبًا؛ لأن العامل ينال جزاؤها، فكأنه كسب هذا الجزاء، مع أنه كسب رابح أم كسب خاسر؟ خاسر، ولهذا إذا اقترن مع العمل الصالح، أتى بغير هذا اللفظ، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ففرق بينهما، أما إذا أفرد أحدهما عن الآخر فصح الكسب في الخيرات وفي السيئات.

وقوله: [﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ الأرض]، كيف قال المؤلف: أي: الأرض، وأعاد الضمير على غير مذكور؟ قال بعضهم: إنه أعاده على مذكور، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ والكلام كله في سياق واحد، في سياق العاصين ومآلهم وعقوبتهم، فالكلام نسق واحد، فالأرض إذن مذكورة.

وقال بعضهم: هي غير مذكورة لكنها معلومة من السياق؛ لأن الدواب إنما هم على ظهر الأرض، فهي معلومة من السياق، وما علم من السياق فإنه لا يحتاج إلى مرجع مذكور، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] توارت ما هي؟ الشمس، مع أنه لم يسبق لها ذكر، لكنها معلومة فإنها هي التي تتوارى بالحجاب.

يقول: [﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، نسمة تدب عليها]، ﴿مِن﴾ حرف جر زائد زائد؛ لأنها جاءت بعد النفي، ما ترك عليها من دابة أي ما ترك عليها دابة لكنها دخلت عليها (من) لتفيد العموم أو لتؤكد العموم.

وقال المؤلف: [نسمة تدب عليها]، النسمة هي: كل ذاتٍ تتنفس؛ لأنها مأخوذة من النسم، وهو التنفس، وكل شيء فيه روح فإنه يتنفس، المعنى: لهلك كل شيء على الأرض، أما البشر العاصون فهلاكهم واضح، وأما غيرهم فبشؤمهم - بشؤم العصاة - تموت هذه الدواب، إما بأن يمنع الله - عز وجل - المطر والنبات فتموت هذه الدواب؛ لأنها لا تجد عيشًا، أو أنها تموت بأوبئة تجتاحها بسبب أعمال الناس.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: [يوم القيامة] ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: الناس، والفاعل هو الله، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي: مدة، ﴿مُّسَمًّى﴾ معين، وما هو؟ يو م القيامة.

كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة هود: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٣] أجل مسمى: معين عند الله - سبحانه وتعالى -، ولا يعلم هذا الأجل إلا الله، فإن علم الساعة لا يكون

إلا لله - سبحانه وتعالى -، عجز عنه أعلم البشر وأعلم الملائكة، حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة: «قال: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[1].

والأجل المسمى لابد أن يجيء كل شيء مسمى فهو قريب، لكن الأجل المبهم هو الذي ينتظره الإنسان إذا لم يحصل، أما المسمى فلا بد أن يوصل إليه.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انتهت المدة، وصار يوم القيامة سواء كانت القيامة الكبرى أو القيامة الصغرى، القيامة الكبرى العامة لجميع الناس، والصغرى موت كل إنسان.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فيجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين] جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإن قال قائل: ما وجه ارتباط الجواب بالشرط ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾؟ يعني: قد تتوقع فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله فيقال: إن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أبلغ من: فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله؛ لأن من هؤلاء مَن قد يعفو الله عنه فلا يعاقبه، ولكنه ذكر أنه بصير بأعمالهم يجازيهم عليها وإن شاء ألا يعاقبهم فعل فيمن يستحق العفو.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** سعة حلم الله - سبحانه وتعالى -، وجهه: أنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك عليها من دابة ولكن يحلم - عز وجل - ويمهل، لعل الناس يتوبون.

٢ - **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله تعالى، حيث يقدر على إهلاك العالم بلحظة، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

٣ - **ومنها:** بيان شؤم المعاصي وأنها قد تعم العاصي وغيره، بل المكلف وغير المكلف، وإلا فإن هذه الدواب التي هي أكثر بكثير من البشر ومن الجن ما ذنبها، وهي غير مكلفة، لكن هذا من شؤم المعاصي، وأنها تشمل حتى من ليس بمكلف.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية بقوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، فأثبت للعبد كسبًا، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على العمل ما يستطيع أن يكتسب، يجبر على أن يعمل خيرًا أو شرًّا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله - عز وجل - في مجازاة العاملين بعملهم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقوله: لو يؤاخذهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن﴾ لحلمه ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه مهما حلت بالبشر من عقوبة مدمرة أو منقصة فإنما ذلك بما كسبت أيديهم.

تم - بحمد الله - تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة يس

قال المؤلف – رحمه الله تعالى: سورة (يس) مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ الآية، فمدنية.

والمكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة، وليس ما نزل بمكةَ، إذ قد ينزل بمكة بعد الهجرة ويكون مدنيًّا، فما نزل قبل الهجرة فهو مكيٌّ، وما نزل بعدها فهو مدنٌّي، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم، والأقوال في هذه السورة ثلاثة:

الأول: أنها مكية.

الثانية: أنها مدنية.

الثالثة: أنها مكية إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾.

والذي يظهر أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي، والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة اللفظ، بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها ألين؛ لأنه يُخاطِب قومًا آمنوا، ويُخاطب أيضًا قومًا فيهم أهل كتاب، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب، فالظاهر – والله أعلم – أنها مكية، وإذا جعلناها مكية فإننا لا نقول باستثناء شيء منها؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكية، وأن السورة المدنية كلها مدنية، فمن ادَّعى استثناء آية أو آيتين، أو أكثر فعليه الدليل، أما مُجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلًا، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى قد يذكر معنىً يليق بأهل المدينة توْطِئةً وتمهيدًا حتى يكون الناس على بصيرة؛ ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أوْلى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فلم يكن فيها يهود، فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدنية، أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا. وهذا غير مُسَلَّم.

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

التفسير

البسملة آية من كتاب الله مُستقلة، يُؤتَى بها في ابتداء كل سورة، ما عدا سورة براءة، وليست البسملة من الفاتحة ولا من غيرها، هذا هو القول الراجح، وأما من قال: أنها من الفاتحة وليست من غيرها، فقوله ضعيف لوجهين:

الأول: للتفريق بدون دليل.

الثاني: أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه الثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»(١)، يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تذكر في هذا الحديث؛ ولأن النبي ﷺ كان لا يجهر بالبسملة في صلاته، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجَهَرَ بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فهي: جار ومجرور، وصفة وموصوف، وهذا الجار والمجرور مُتعلق بمحذوف، وهذا المحذوف يُقدَّر فعلًا مُتأخرًا مُناسبًا، وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العوامل الأفعال، ولذلك تعمل الأفعال فعلها بدون شرط، والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد فيها من شروط، وقدَّرْناه مناسبًا أو خاصًّا؛ لأنه أَدَلُّ على المقصود، وقدرناه مُتأخرًا لفائدتين:

الأولى: تقديم اسم الله عز وجل.

الثانية: إفادة الحصر، فعندما تُسَمِّي على الوضوء فالتقدير: باسم الله أتوضأُ، ولو قلتَ: باسم الله أبتدِئُ صحَّ، لكنه ابتداءً عامًّا، وأتوضأ أخصَّ، والإتيان بالأخص أدل على المقصود، ولو قلت: أبتدئ باسم الله صَّح،لكن فاتك التأخير والتخصيص والفعلية؛ لأنك قلتَ: أبتدئُ. وإذا قلت: أبتدئ باسم الله. فاتك التأخير والتخصيص، وإذا قلت: أتوضأ باسم الله. فاتك التأخير فقط.

ولو قال قائل: هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من النص؟

نقول: نعم، قال النبي عليه الصلاة والسلام-وهو يخطب الناس في عيد الأضحى: «مَنْ لَمْ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي(٩٠٩).

يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله»[1] أو «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ الله»[2]. فخص الفعل.

لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ اسم لله رب العالمين، وهو أعلم الأعلام، أعلم حتى من الضمير؛ لأنه اسم يختص بالله لا يمكن أن يُشاركه فيه أحد؛ ولهذا قالوا: أعْرَفُ المَعَارِفِ على الإطلاق اسم الله؛ لأنه لا يُشاركه فيه أحد، والضمير إذا قلتُ :قمتُ. فلا يُشاركني أحدٌ فيه، لكنَّه يصلح أن يستعمله غيري، أما اسم الله فلا تصلح الشِرْكَةُ فيه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله، والرحمن والرحيم معناهما ذو الرحمة، لكن الرحمن باعتبارها وصفًا لله، والرحيم باعتبارها فعلًا له؛ ولهذا كان الرحمن عامًّا، والرحيم خاصًّا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] فالرحمن لُوْحِظَ فيه الوصف، والرحيم لُوْحِظَ فيه الفعل؛ ولهذا لما لوحظ في الرحمن الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسَّعة، فصارت على وزن (فَعْلَانْ).

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقية الثابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز، وقد أنكرها أهل التعطيل، ومنهم الأشاعرة، وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رِقَّة ولِين، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وفسروها إما بالإرادة؛ لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإما بالفعل؛ لأن الفعل منفصل عن الفاعل- يعني المفعول منفصل عن الفاعل – فهم أهل التعطيل - يُفسرونها: إما بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يُقرُّون بالإرادة، ولا شك أن قولهم هذا باطل، وأنه إنكار صفة من أعظم صفات الله عز وجل وهي من أبرز صفاته، فقد قال الله تعالى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[3]. والعجب كل العجب أنهم يقولون: إن الإرادة دلَّ عليها العقل، والرحمة دلَّ العقل على انتفائها، قالوا: لأن التخصيص دَالٌّ على الإرادة، فمثلًا هذه سماء، وهذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر، إلى آخره، يدل على الإرادة ؛لأنه لا مُخَصِّص إلا بإرادة، أما الرحمة فيقولون: إن العقل لا يدل عليها، بل يدل على انتفائها.

فنقول: عجبًا لكم، دِلالةُ العقل على الرحمة أبلغُ وأظهرُ وأوضحُ من دلالته على الإرادة؛ ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواصُّ الناس، فلو سألتَ طالب علمٍ بدون أن يعرف البحث، ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم! لكن الرحمة كلٌّ يعرف أن لله تعالى رحمة، ويُسْتَدَلُّ عليها بالعقل، تأتي العاميَّ في السوق فتقول: نزل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١٩٦٠).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

المطر، واخضرت الأرض، ورُوِيَتْ الزروع، وما أشبه ذلك، من أين هذا؟فيقول لك مباشرة: من رحمة الله. فَيَسْتَدِلُّ بالنعم التي هي من آثار الرحمة على الرحمة، ولكن نسأل الله لنا ولهم الهداية، من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يسٓ﴾ [يس:١]

❁ التَفسِير ❁

قال المؤلف - رحمه الله تعالى: [﴿يسٓ﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شك أن الله أعلم بمراده ومراد غيره، وأعلم بكل شيء، ولكن ما المُراد بهذين الحرفَيْن الهجائيَّيْن؟ في هذا خلاف بين العلماء - رحمهم الله تعالى:

القول الأول: ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله: «الله أعلم بمراده به». أي: لا ندري ماذا أراد الله عز وجل.

القول الثاني: أن معنى «يس» يا إنسان فـ «يا» حرف نداء على زعمهم، و «س» كلمة يُعبر بها عن الإنسان.

وبعضهم أتى بغير ذلك أيضًا مما لا طائل تحته ولا دليل عليه، لكن يبقى النظر، هل نقول كما قال المؤلف: [الله أعلم بمراده] بجميع الحروف الهجائية التي أُبْتُدِئَتْ بها السور، أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣:١٩٥]؟ فإن مُقتضى اللسان العربي المُبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ على كل كلمة أو حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن «يس» ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المُبين، فـ «يا» حرف هجاء ليس له معنى، و «س» حرف هجاء ليس له معنى أيضًا، وهذا القول ذكره ابن كثير - رحمه الله - عن مجاهد وهو قول قوي، ويشهد له الآية التي استشهدتُ بها، إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف. فيردُ علينا إشكال: إذا قلنا لا معنى لها، فكيف يأتي الله عز وجل في كتابه العظيم بكلام لغو لا معنى له!؟

والجواب على هذا أن يُقال: إن له مغزىً عظيمًا، هذا المغزى هو أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن مُعارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك، لا لأن القرآن أتى بحروف جديدة، أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكونوِّن منها كلامكم فهو حروف هجائية؛ ولهذا قلَّ أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدل على أن هذا هو المُراد بها، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وقبله الزمخشريُّ أيضًا في تفسيره،

وغيرهما من العلماء، على أن هذه حروف هجائية جِيءَ بها ؛لأجل إظهار عجز العرب عن مُعارضة هذا القرآن، مع أنه لم يأتِ بجديد في كلامهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس:٢].

❁ التفسير ❁

الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر مُعظَّم على صورة مخصوصة، ولا بد أن يكون المحلوف به مُعظَّمًا ولو تقديرًا في ذهن المُقسِم، كأنَّ المُقسِم المُعظِّم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكُّدِي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه. ولهذا لا بد أن يكون المحلوف به مُعظَّمًا، وإلا لكان الحَلِفُ لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيمًا في ذاته حقيقة، وقد يكون مُعظَّمًا باعتبار المُقسِم به، فالذين يحلفون باللات والعُزى يحلفون بمُعظَّم لا بعظيم؛ لأنه مُعظَّم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يُقسمون بالله وآياته، يحلفون بعظيم وبمُعظَّم في قلوبهم، وهو مُعظَّم في نفسه. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾،المُراد هذا القرآن الذي نقرؤه كلام الله عز وجل، وهو مُشْتَقٌّ من قرأ بمعنى تلا لأنه مَتْلُوٌّ، أو من قرى بمعنى جمع؛ لأنه مجموع وجامع، فهو مُشتق من المعنيَيْن، من القراءة بمعنى التلاوة، ومن قرى بمعنى جمع، ومنه القرية لأنها مُجتمع الناس، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلوٌّ، وجامع ومجموع؛ كلمات مجموع بعضها إلى بعض، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة للقرآن وهي بمعنى مُحكِم، أو بمعنى مُحكَم، أو بمعنى حاكِم كلها تُحتمل، فالقرآن حاكِم؛ لأنه يجب الرجوع إليه قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. وقال أيضاً:﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].على القول بأن القرآن مُحكِم؛لأنه متقن للأشياءقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]. وكذلك أيضًا مُحكَم؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وهو أيضًا مُشتمِل على الحكمة، ففيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

أولًا: حكيم في ترتيبه، فكل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو لتقصيرنا، فمثلًا لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ

ﭐلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، جاء في سياق آيات العدد فما هو الارتباط.

نقول: إنه لا بد أن هناك حكمة، لكنْ قصُرتْ أفهامنا عنها، أو قصَّرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانيًا: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدْل، موافِقة للفطرة وللعقل الصريح؛ ولهذا لا تجد شيئًا من أحكام القرآن مُناقضًا للفطرة أبدًا، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئًا في القرآن يُكذِّبه العقل، أو يُحيله أبدًا، بل إن العقل يُقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثًا: حكيم في أسلوبه يشتد في مواضع الشِّدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العربِ، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي؛ من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوبٍ إلى آخر، وهو ما يُسمى بالالتفات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف - مُقتصرًا على واحد منها: [المُحْكَم بعجيب النظم، وبديع المعاني]. فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم، ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومُحكِم، ومُحكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المؤلف.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣]

❁ التَفْسِيرُ ❁

وإقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحكم، ثم ذكر عز وجل المُقسَم عليه فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمدًا ﷺ من المُرسلين، وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنه سبقه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرُسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ليُتمم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصرًا وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: «فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»[1].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

والجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، وإن، واللام.

قال المؤلف: [﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] متعلق بما قبله]. الذي قبله ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، و مُرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلق به المعمول، فالمعنى: إنك لمن الذين أُرْسِلُوا على صراطٍ مُستقيم لأن جميع الرسل على صراطٍ مستقيم بلا شك، ولكن يُحتمل وجهًا آخر أحسن مما قال المؤلف، وهو أن تكون ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] خبرًا ثانيًا لـ (إن)، أي: إنك على صراطٍ مستقيم، وهذا أنسب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢،٥٣]. فالوجه الثاني في إعراب ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أنها خبر ثانٍ لـ (إنَّ)، وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال المؤلف: [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره ردٌّ لقول الكفار له: لست مُرسلًا]. كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:٤٣]. إذن فالكلام مُطابق لُمقتضى الحال؛ لأنه يُخاطب المُنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمُخاطب ثلاث مراحل: أن يكون مُنكرًا أو أن يكون مُترددًا، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد، قالوا: فإن كان مُنكرًا وجب تأكيد الخبر له، وإن كان مُترددًا حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء، فإنك تُلقي إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل. فتُخاطب إنسانًا ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد، تقول: زيد قائم، وإذا كنت تُخاطب مُترددًا في صحة الخبر فأكده له استحسانًا، وإذا كنت تُخاطب مُنكرًا فإنه يجب أن تؤكد له الخبر. هذا هو الأصل، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق. فهنا الكفار يقولون: لست مُرسلًا. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجبًا يعني مما توجبه البلاغة، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه، بل وجوب من حيث البلاغة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:٤]

❁ التفسير ❁

الصراط فِعَال بمعنى مفعول؛ لأن فعالًا تأتي بمعنى مفعول كثيرًا، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش. فصراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصراط: المرور بسرعة. ومنه قولهم: صراط اللقمة أي:ابتلعها بسرعة. وفي اللهجة العامية

عندنا نقول: «زرط» وهي لغة عربية في صراط، و «سراط» بالسين و «زراط» بالزاي فكلها لغة عربية، والصراط لا يكون صراطًا إلا إذا كان طريقًا واسعًا يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضًا من صفاته أن يكون مستويًا ليس فيه طلوع ولا نزول ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراطٌ مستقيم؛ لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضًا صراط واسع لا يمكن أبدًا أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بُعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لا بد أن يوجد حل لمشكلتها - إن كانت مشكلة - فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسُّنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضًا واسع لا يمكن أن يُضيَّق بأي جزئية تقع إلى يوم القيامة، إذن ليس هناك مُشْكِلٌ في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قِبَل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقصير في طلب العلم والهدى، أو الأشياء رانت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تُبصر الحق، فقد يكون الإنسان غير مُقصر ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تحُول بينه وبين رؤية الصواب؛ ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يُكثِرَ من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مُستنيرًا، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [النساء:١٠٥، ١٠٦]، ويُستدل له أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣،١٤]. فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقية هذا الكتاب حتى قال القائل -كما قال تعالى: إنها ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] فهذا الدين صراطٌ مُستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقصيرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١- بيان أنَّ هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بِدْعًا من لسانهم، وإنما من الحروف التي يركِّبون منها كلامهم، يُشير إلى هذا قوله: ﴿يسٓ﴾؛ ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أول السورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

٢- **ومن فوائدها:** عظمة القرآن العظيم؛ لأن الله تعالى أقسم به، ولا يقسم إلا بشيء مُعظَّم. والقرآن الكريم عظيم في نفسه.

٣- **ومن فوائدها:** الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها عند قوله:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤- **من فوائدها**: العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها، وأكدها زيادة على القسم بإن واللام.

٥- ثبوت رسالة النبي ﷺ، فمن أنكرها فهو كافر؛ لأنه مُكذب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

٦- **من فوائدها**: إثبات الرسل وأن ثَمَّة رسلًا غير محمد ﷺ؛ لقوله تعالى هنا: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، يعني لست أول رسول فإنه ﷺ قد سبقه رسل من قبله.

٧- **من فوائدها**: أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المستقيم؛لقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. والصراط المُخالف للشرع فيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس:٥].

❁ التفسير ❁

خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن منزَّل يعني: ينزل شيئًا فشيئًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فإنه ينزل شيئًا فشيئًا، ويعبر أحيانًا عن القرآن بأنه أنزل باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدريج في تنزيله يكون مُنزلًا، وهكذا في القرآن نزل المطر، أحيانًا يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]،وأحيانًا يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الرعد:١٧]، فباعتبار أن المطر ينزل شيئًا فشيئًا يُقال: «نزلنا».وباعتبار النهاية واجتماعه كله يُقال: «أنزلنا».وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾. قال المؤلف: [في ملكه]. يعني: الغالب في ملكه الذي لا يُغلب فيه، وقد مر علينا في باب العقيدة أن العزيز من أسماء الله، وأن العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القَدْرِ، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

فعزة القدر بمعنى أنه ذو قَدْرٍ عظيم رفيع، وعزة القهر بمعنى أنه قاهر غالب، وعزة الامتناع أي أنه قوي لا يناله شيء. قال ابن القيم – رحمه الله:

وَهُوَ الْعزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّي يُرامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

فالله عز وجل عزيز ممتنع أن يناله السوء، ومنه (الأرض العزاز) لقوتها وشدتها، فقول المؤلف: [العزيز: في مُلكه]. فيه قصور، قال المؤلف: [الرحيم: بخلقه]. وهنا نقول: إن الرحيم عامة؛ لأنها لم تُقَيَّدْ، فالمُراد به الرحمة العامة، فالله سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم،قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]،وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإنه إمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مُقتضى رحمته - سبحانه وتعالى - بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارةً إلى أن هذا القرآن من مُقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المؤلف رحمه الله: [خبر مبتدأ مُقدر، أي: القرآن]. يعني بخبر مبتدأ مُقدر ﴿تَنزِيلَ﴾ بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزيلُ العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية :﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وعلى هذه القراءة يكون منصوبًا على أنه مصدر عامله محذوف، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

الفوائد:

١ - أن القرآن منزل من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٢ - يُستفاد منها أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

٣- إثبات علو الله تعالى، لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾. والنزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عز وجل دلَّ عليه الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على علوِّ الله عز وجل.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله الحسنى، وإثبات ما تضمناه من الوصف، وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم، والعزيز في بعض معانيه وهو الغالب.

٥- **ومن فوائد الآية:** إنذار المخالفين لهذا القرآن وذلك بإضافة ﴿تَنزِيلَ﴾ إلى العزيز؛ لأنه إذا قيل: جاء هذا من عزيز، دل على إنذار من خالفه وتحذيره، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المنَزَّل؛ لأنه نزل من عزيز.

٦- أن القرآن بل إن الشرع كله من آثار رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

فإن قلت: أين الرحمة في قطع يد السارق؟ وفي رجم الزاني المُحْصَن؟ وفي قتل القاتل؟ وما أشبه ذلك.

فالجواب: أن الرحمة في ذلك واضحة جدًّا، فقطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وغيره: رحمة بالسارق؛ لتردعه عن السرقة مرة أخرى، ولتكون كفارة لذنبه؛ لأن الحدود كفارة، يُكَفِّرُ بها عن فاعلها، وفيها أيضًا إصلاح المجتمع وحمايته من الفوضى، فهذه رحمة، وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص إنه من رحمة الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦].

التفسير

قال المؤلف: [﴿ لِتُنذِرَ ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل]. ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ اللام هذه تُسمى لام التعليل، والفعل بعدها منصوب باللام، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مُضْمَرة بعد اللام، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى مُتعلَّق، ومتعلَّقها قوله: ﴿ تَنزِيلَ ﴾، يعني: إنما نزل لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. «تنذر»: قال العلماء: الإنذار هو الإخبار المقرون بالتخويف، أو المتضمن للتخويف، فالإنسان مثلًا يأتي إلى قوم يصيح بهم: العدو، العدو. يُقال: هذا منذر ونذير، فالنذير عن شيء يخوف، فهو إعلام متضمن للتخويف، وهذا القرآن أنزله الله عز وجل ليُنذر النبي ﷺ به قال تعالى ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾، أي: لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا فـ (ما) نافية، يعني: لتنذر قومًا لم ينذَرُوا ولم يخوَّفوا، لكن هذا في زمن الفترة، وأما قبل فقد أُنذِروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فإنه مُرسَل إلى العرب إلى قومه، وبعد ذلك لم يُنذَرْ هؤلاء، قال بعض المُعربين الذين يجمعون الأقوال – صحت أو لم تصح، أي أنهم يقولون أي احتمال – قالوا: ويجوز أن تكون «ما» موصولة، أي: (لتنذر قومًا الذي أنذره آباؤهم)، فيجعلون ما موصولة، ويجعلون العائد محذوفًا تقديره (الذي أُنذره آباؤهم) أي: لتنذرهم الذي أُنذره آباؤهم، ولكن هذا وإن كان مُحتملًا من قِبَل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعنى؛ لأن الآيات الكثيرة المُتعددة تدل على أن قريشًا الذين بُعِثَ فيهم النبي محمد ﷺ لم يُنذَر آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [السجدة:٣]، وهذا صريح في أن «ما» هنا للنفي لا غير.

قال المؤلف – رحمه الله : [﴿فَهُمْ﴾ أي: القوم ﴿غَٰفِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرُّشد]. غافلون لأنهم

ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النُّذُر يوجب حياة القلوب والانتباه؛ ولهذا يجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكأنهم ما خُلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها من دون الله؛ يركعون لها، ويسجدون، ويُنذرون ويوفون، فهم غافلون لعُدْم مَن يوقظهم، ولكن مِن هؤلاء الذين في زمن الفترة مَنْ عنده علم من الرسالة؛ لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحُجة، ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

الأول: نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة؛ لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

الثاني: نوع لا ندري عنهم شيئًا، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

وأصح الأقوال فيهم أنهم يُمتَحَنُون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن الرسول ﷺ منذر، أي معلم إعلامًا يتضمن التخويف.

فإن قيل: وهل هو مبشِّر؟

فالجواب: نعم مبشِّر. ولكن لِمَ ذُكِرَ هنا الإنذار دون البشارة؟ والجواب على ذلك أن يقال: إما لأن المقام يقتضي ذلك؛ لأنه يخاطب قوماً طاغين، فالأَلْيَقُ في حقهم الإنذار والتخويف؛ لأنهم مخالفون وطاغون.

وإما أن يقال: إن هذا من باب ذكر أحد المتقابلَيْن استغناءً بذكره عن ذكر الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] .يعني :والبرد.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ مرسل إلى العرب خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ وهي نكرة مقصودة، والذين ما أنذر أبائهم هم العرب، إذًا فاليهود والنصارى ما أرسل إليهم؛ لأنهم أنذر آبائهم، ولكن نقول: إن الآيات الأخرى تدل على عموم رسالته ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. ومثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].وكقوله ﷺ: «بُعِثْتُ

إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»[1]. والنصوص في هذا كثيرة متوافرة، ومن كذَّبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضًا؛ لأن الجنس واحد.

لكن قد يُقال: لماذا خص العرب؟

فيُقال: خصهم لأمرين:

الأول: أنه منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة:٢].

والثاني: أنه باشر دعوتهم بنفسه، وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثم انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - هنا قاعدة وهي: «ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه لا يقتضي التخصيص». كما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي - رحمه الله - في تفسيره وغيره، وهذا هو رأي الجمهور، وهو الحق، فذكر بعض أفراد العام بحكم لا يقتضي التخصيص إذا كان يُطابق حكم العام، فإذا قلت: أكرم الطلبة. ثم قلت: أكرم زيدًا. وهو منهم، فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العام، وذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام ليس تخصيصًا له.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سب هؤلاء الذين غفلوا عن الرسالات، لقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾. وأن الغفلة عن البحث عن الرسالة يُعتبر ذمًّا، وكذلك نقول فيمن غفل عن البحث في جزئيات الشريعة. فمثلًا من غفل عن البحث في أحكام الصلاة فإنه يُذَم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو يحتاج لذلك نقول فإنه يُذَّم. ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادةٍ من العبادات كان تعلم أحكامها فرض عين. وبناءً على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائمون بفرض كفاية؛ ولهذا يحسن بهم أن يستحضروا هذا الأمر، وأننا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية نُثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[2]. وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الطلبة في مجالس الذكر والعلم و في المجالس الأخرى

مجالس المراجعة، تجد الإنسان يُراجع الكتاب لكنه لا يستحضر أنه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يُفَوِّتُ خيرًا كثيرًا؛ لهذا نسأل الله أن يُعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكسب خيرًا بما نقرؤه أو نراجعه.

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الحكمة لله المُستفاد من قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يس:٧]

التفسير

اللام موطئة للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسمًا محذوفًا تقديره: والله لقد حق. و «قد» للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن كثيرًا وطريقه ما أشرنا إليه.وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾. أي: وجب ﴿الْقَوْلُ﴾ هو القول بالعذاب ،كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٦]. فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أوتي من آية، ولكن لا تحق كلمة العذاب إلا على من استحقها؛ حتى لا يُقال: أن الله تعالى قد أجبره على العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] .والله عز وجل ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلًا للهداية هداه، ومن لم يكن أهلًا لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ – والعياذ بالله – فإنه لا يؤمن، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾. يعني: على أكثر الذين بُعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب، وليس على كلهم؛ ولذا فقد كُذِّبَ النبي ﷺ من قريش ومن أمم كثيرة وماتوا على الكفر، ولا سيما الصناديد منهم والأشراف. وقوله تعالى:﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (هم) الضمير يعود على أكثر، لا على «الهاء» في ﴿فَهُمْ﴾،﴿فَهُمْ﴾ أي: الأكثر لا يؤمنون؛ حتى وإن جئتَ بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون؛لأنهم حقَّتْ عليهم كلمة العذاب.

*** الفوائد:**

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن المُخاطب مُنكرًا؛ لأن الله سبحانه هنا يخبر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهم لا ينكرون ذلك، لكن لأهميته أُكِدَ.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] أي: فقد ثبت أنه في النار فلا تنقذه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ مَن لم تحق عليه

الكلمة فيؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه ينبغي بل يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلًا، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب إليه هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائمًا لاجئًا إلى الله تعالى سائلًا الثبات؛لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾. فالأمر كله بيد الله.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ [يس:٨].

التفسير

قوله تعالى﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ أي: صيَّرنا؛ ولهذا نصبت مفعولين: المفعول الأول: أغلالًا، والمفعول الثاني: مُقدم، ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾ الغُل يكون باليد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة:٦٤]. وهنا قال تعالى: ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ فمعناه: أن اليد سوف تُشدُّ إلى العنق؛ ولهذا قال المؤلف: [بأن تُضَمَّ إليها الأيدي؛ لأن الغُل يجمع اليد إلى العنق، ﴿فَهِيَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾]. قول: «مجموعة» أخذها من قوله: ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾. ويجوز أن نقدر بدل «مجموعة» منتهية أو بالغة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، واللحيان هما العظمان اللذان عليهما الأسنان، ومجمعهما يُسمى الذقن، ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ يقول المؤلف – رحمه الله: [رافعون رؤوسهم]. والأحسن أن يُقال: مرفوعو الرؤوس؛ لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس، قال المؤلف: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها]. لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداه بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لا بد أن يرتفع رأسه اضطرارًا، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مُغمضةٌ أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، فالمهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرُّف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون تنزيل رؤوسهم، فهي دائمًا مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المُكذبين كما قال المؤلف: [وهذا تمثيل، والمُراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له].

قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس:٩].

التفسير

قال المؤلف: [﴿سَدًّا﴾بفتح السين وضمها في الموضعين]. قراءتان سبعيتان، أي: سُدًّا وسَدًّا. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تُبصر؛ ولهذا قال المؤلف: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم]. ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلًا، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان – والعياذ بالله – وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جُعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فتأملْ أيضًا حالهم الآن؛ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

فنستفيد من هاتين الآيتين الكريمتين فوائد:

١- أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولةِ يدُه إلى عنقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾.

٢- أن هذا الذي جُعلت يده إلى عنقه على سبيل الغُل ؛كأنه مُكْرَهٌ أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يوقعه في الهلاك كأنه مُكره على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى للأبوين حين جاء إليهما الشيطان ووسوس إليهما، ولم يكتف بمجرد الوسواس، بل قاسمهما وصار يحلف لهما بشتى الأيمان أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يُغويه.

٣- **ومن فوائد الآيتين الكريمتين:** أن هؤلاء قد حُجِبَ عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** أن أبصارهم قد أُغشيَت، وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

٥- **ومن فوائد الآيتين:** تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه، وحِيلَ بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت

من نفسك أن الهدى ينفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير،ؤ نحن نقيس هذا بحال هؤلاء إذ جُعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يبصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر؛ فتداركها.

٦ - إن من بلاغة القرآن الكريم تمثيل المعقول بالمحسوس.

قال الله تعالى:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس:١٠]

التفسير

﴿وَسَوَآءٌ﴾ خبر مُقدم بمعنى مستوٍ، و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوق بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية، لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبق وما بعدها. بمصدر، وتقدير الكلام: «وإنذارك وعدمه سواء عليهم». ﴿وَسَوَآءٌ﴾ هنا لم يقل فيها: «سواءان»؛ لأنها مصدر، والمصدر لا يُثنَّى ولا يُجمع. قال المؤلف في بيان القراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا وتسهيليها، وإدخال ألف بين المُسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المُسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل تجعل فيها ألفًا أو تحذف الألف إدخال الألف بين الهمزة المُحققة والمُسهلة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى مُحققة، والألف، والهمزة الثانية مُسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستُحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المؤلف من عادته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: (وقُرِئت). وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.

والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بيَّن وجه التسوية فقال تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. هذا معنى التسوية، يعني معناه: أنذرت أم لم تُنذر فإنهم لا يؤمنون؛ ولهذا فالجملة هنا استئنافية لبيان الجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مُشاهد أن الإنسان الذي قُضي عليه بالضلالة - والعياذ بالله - تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى، وتبين له وتُحذره، ولكنه لا يزداد إلا نفورًا - والعياذ بالله - حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزئ، فعلى كل حال هذا الذي يُنذَر ولا يتأثر بالإنذار يُخشى عليه، كما اسلفنا من أن يكون قد طُبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبدًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المُكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لا يُبالون

ولا تتغير حالهم، سواء أنذرهم أم لم يُنذرهم.

٢- **ومن فوائدها**: تسلية النبي ﷺ؛ حيث إنه يتأثر بعدم الإيمان، فسلَّاه سبحانه وتعالى بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، سواء أأنذرت أم لم تنذر. والرسول ﷺ إذا لم يهتد الناس فإنه يشق عليه ذلك ويضيق به صدره، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مُهلكها إذا لم يؤمنوا، وهذا ليس عليه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرسول ﷺ كان يُنذرهم مع أنه قد أيس منهم، فيُستفاد منه الإنذار حتى وإن يئستَ، وهذا أحد القولين في المسألة، فإن من أهل العلم من يقول: إذا أيست فلا تنذر؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] .وإن لم تنفع فلا تُذكِّرْ.

وقال بعض العلماء: بل تذكر وتنذر، سواء نفع أم لم ينفع، بل يقولون: إنه لا يخلو من النفع مهما كان؛ لأن أقل ما فيها من النفع أن يتبين للناس أن العمل الذي عليه هذا الرجل مُنكَر؛ ولأنه ربما يهديه الله عز وجل، فكم من أُناس كانوا أئمةً في الكفر ثم هداهم الله عز وجل ،فكانوا أئمةً في الدين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، ومن حقت عليه الكلمة فلا يمكن أن يؤمن، سواء أُنذر أم لم يُنذر.

٥- أن الأمر كله بيد الله عز وجل، فهو الذي يهدي من يشاء، ويُضل من يشاء، ولكن هذا مقرون بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يهتدي هداه الله، ومن اقتضت حكمته أن يضل أضله الله، وهذا مبني على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]. وحينئذٍ يكون حرمان الله الهداية للشخص، يكون الشخص هو السبب في حرمان نفسه الهداية؛ لأنه ليس أهلًا لها، فالله عز وجل ينظر في قلوب العباد؛ فمن وجد في قلبه صلاحية للهدى هداه، ومَن وجد في قلبه عدم الصلاحية لم يهده، فأصل بلائك من نفسك.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الضال - والعياذ بالله - الذي كُتبتْ عليه الضلالة لا يُبصر الحق، وإن كان الحق بَيِّنًا واضحًا فإنه لا يُبصره، يكون على بصره غشاوة، كما أنه لا يعقله أيضًا ؛لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣، ١٤].فالذي يعتقد أن القرآن أساطير الأولين وأنه لا يفيده، وأنه بمنزلة سواليفا العجائز، فيرى هذه الرؤية في كتاب الله عز وجل؛ لأنه فاسد القلب، قلبه قد ران عليه ما كان يكسبه من الأعمال السيئة فلم ير الحق حقًّا.

وَمَنْ يَكُ ذَا فمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ

الماء الزلال الصافي الحلو العذب يجده المريض مرًّا، فإذا مرض الإنسان ذاق الماء الذي كان عذبًا في مذاقه من قبل مرًّا، لا لأن الماء مرٌّ؛ ولكن لأن المحل غير قابل، فيجد هذه العذوبة مرارة.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١].

التَفسِير

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجملة فيها حصْر، طريقه: «إنما»، والتقدير: «لا تنذر إلا من اتبع الذكر». وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. المُراد بذلك:إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر؛ ولهذا قال المؤلف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن].

والمراد با تباع الذكر في قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ شيئان:

الشيء الأول: تصديق الخبر، واعتقاد مُقتضاه.

والثاني: امتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر، فمَن استكبر عما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومَن لم يصدق أخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار، واتباع الأحكام فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور، وقوله: ﴿الذِّكْرَ﴾ المُراد به القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فسمَّى القرآن ذكرًا:

أولًا:لما فيه من التذكير والموعظة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ثانيًا: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

ثالثًا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعًا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]. فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم الأمة التي ترجع

إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم؛ فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم.

خامسًا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي؛ لأن هذا هو عديل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل؛ فلهذا سمَّى القرآن ذكرًا.

قال الله عز وجل: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. «خشي» يقول المؤلف: [خافه ولم يره]. وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فَسَّرَ بمرادفه، فتفسير الشيء بمرادفه يُسمى حدًّا لفظيًّا، فإذا قلت: القمح هو البُّر. فهذا حدٌّ لفظي، وتفسير الخشية بالخوْف فيه نظر؛ لأن هذا الحد غير مانع؛ لأن الخشية ليست مجرد الخوف، بل الخشية هي: الخوف عن علم بالمخوف وعظمته؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. فالخوف قد لا يكون لعظمة المخوِّف، ولكن لضعف الخائف. لكن الخشية لا تكون إلا لعظمة المخوِّف، إذا عرف الخاشي عِظَمَ هذا المخشيِّ فَخَشِيَهُ، إذن بينهما فرق، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر، والصواب أن يُقال: الخشية هي الخوف عن علم بعظمة المخوف. فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أما الخوف فقد يكون ناشئًا عن ذلك، وقد يكون ناشئًا عن ضعف الخائف.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾. اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم، فَطَمْأَنَ اللهُ الخائفَ والخاشي بأنه إنما يخشى رحمانًا يرحمه، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله – عز وجل – إذا خافه الإنسان وخشيه، فإنه يرحمه؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه، وحينئذٍ يكون مُتعرِّضًا للرحمة، هذه هي المناسِبة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة: (الله)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾. قال المؤلف: [ولم يره]. كأنه يُفسر أن المُراد بالغيب: أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه، فيكون بالغيب حالًا من المخشي، يعني يخشى الله والله غائب عنه، هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالًا من الخاشي، يعني أن هذا الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب ،حال كونه غائبًا عن الناس، فخشي الله بالغيب، أي: بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مُراءاة الناس، ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يُرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في

مكان لا يطَّلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي، ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها.

فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله عز وجل؛ لأن الذي يخشى الله لا بد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضرة الناس، أو بغيبة الناس، أيضًا يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأبصار نظرًا، وعن الآذان سمعًا، وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم ملاحظةً من خشية الجوارح؛ لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مُراقِبًا لله عز وجل ولحقِّه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يُصلي ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يُراقبها الإنسان ويحرص عليها حرصًا تامًّا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾. إذًا الراجح من القولين أن قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي، أي: يخشى الله تعالى غائبًا عن الخلق، ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الآذان، وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: [ولم يره] .فاعْتَبَرَ أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله عز وجل لا يُري في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة،فكأن الإنسان يرى ربه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». فآيات الله سواءً الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق سبحانه و تعالى، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاته، ظهورًا بينًا كأنما يُشاهد الله عز وجل، فالصواب إذًا المعنى الأول؛ لأننا نقول: وإن لم نر الله سبحانه و تعالى لكننا نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿تُنذِرُ﴾ .هذا من باب المتقابلات؛ تُنذر فينتفع بالإنذار، وإذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. هو الجنة بمغفرةٍ للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكريم يتضمن:

١ - كرم الذات العيني.

٢ - وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1]. يعني: الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نَسبتَ هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته وبصفاته، أيضًا طعمه ورائحته وغير

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

ذلك هو أيضًا أكرم.

٣ - كريم أيضًا من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تبيع إليَّ سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة، أجر الآخرة أكرم وأعظم؛ لأنك تبذل واحدًا وتُعطَى عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه :في عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا. [وأجر كريم هو الجنة]. هذا تفسير للمراد، لا للمعنى، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أنه لا ينتفع من إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من اتصف بهذين الوصفين: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** صحة نفي الشيء إذا كان لا يُنتفع به وإن كان موجودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. فإن إنذاره لغيرهم حاصل، لكن لما لم ينتفعوا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أما المنذر فقد قام بما يجب عليه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما كان الإنسان متبعاً للقرآن كان أشدَّ تأثرًا به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. وبهذا نعرف القاعدة التي ذكرها بعض العلماء: (الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تجلب المعصية).

٤- **ومن فوائد الآية:** الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر، وسبقت الأوجه في كونه ذِكرًا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخشية لله سبب عظيم للتأثر بالقرآن و الانتذار به ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** بيان فوائد الخشية لله، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشى لربه كان أفهم لكلامه.

٧- **ومن فوائدها:** أن الخشية إنما تكون خشية حقيقية إذا كانت بالغيب، أما من خشي الله تعالى بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة، فقد يكون خشي الله عز وجل من أجل أن الناس يرونه، لكن إذا كان بالغيب كان أدلَّ على الإخلاص.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنها تبشر من اتصف بهذين الوصفين: وهما اتباع الذكر، والخشية لله عز وجل بالغيب بالجنة؛ لقوله تعالى:﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. ولكن هل تنطبق هذه البشارة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العموم، وكل شخص اتصف بما تثبت به الجنة على سبيل

العموم فإننا لا نشهد له بعينه ولكن يُرجَى له ذلك؛ لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سبب الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»(١). لهذا نقول في كل مَن ينطبق عليه وصفٌ يستحق به دخول الجنة نقول: إننا لا نشهد له بعينه؛ لأن الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل معين، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظاهر الأمر أنه يستحقه؛ لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهدله ؛لأنه يُخشى أن يكون باطنه غير ظاهره.

وهذه القاعدة مهمة مفيدة، مثلًا: قُتِلَ رجل ممن يُجاهد مع جيش،وظاهرُ جميع المجاهدين أنهم يُجاهدون؛ لتكون كلمة الله هي العُليا، فهل إذا قُتل على أيدي الأعداء نشهد بأنه شهيد؟ لا نشهد بأنه شهيد، ولكن نقول: نرجو أن يكون شهيدًا. يعني: من الشهداء عند الله عز وجل؛ لأن ظاهر فعله ينطبق على الشهداء عند الله عز وجل، ولكن لا نشهد له بعينه؛ ولهذا ترجم البخاري – رحمه الله – على هذه المسألة في الصحيح قال: «باب: لا يقال فلان شهيد». ولكن كلمة شهيد صارت الآن رخيصة تُبذَلُ بأبخس الأثمان، فأي واحد يُقتَل ولو في قِتْلة جاهلية يقولون: هو شهيد!. وهذا لا يجوز، أتدري ما يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم بأنك شهدتَ له بأنه من أهل الجنة، وهذه مسألة صعبة، لكن كما قلنا آنفًا في القاعدة النافعة: (إن من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجو له ذلك) أما أن نجزم فلا.

فهذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم؟ نقول: نعم، من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم، لكن على سبيل التخصيص نرجو له ذلك.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم؛ فإن ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٣٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

التَّفْسِيرُ

مناسبة هذه الآية لما قبلها لها مناسبتان:

المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول ﷺ ومن لا ينتفع، بيَّن أن كلًّا منهم سوف يحيا بعد موته، وسوف يُجازَى على عمله، فالمناسبة ظاهرة ففيها بشارة للمؤمن المتذر، وفيها إنذار وتخويف لمن خالف.

المناسبة الثانية: أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المُكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادرًا على إحياء الموتى إحياءً حسيًّا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنويًّا. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾. و﴿إِنَّا﴾ ضمير جمع، والله عز وجل واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعًا. والضمير في﴿نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾وهو ﴿نَحْنُ﴾ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنانحيي الموتى». استقام الكلام، فهي ضمير فصل للتخصيص،يعني: نحن لا غيرنا. و ﴿الْمَوْتَى﴾ جمع ميت، ويشمل الموتى من بنى آدم وغيرهم، لكن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾. يدَل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسُّنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفراده، فهل هذا يخصص العموم أو لا يُخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرف العلماء - رحمهم الله - وجدنا أنهم أحيانًا يجعلونه مُخصصًا للعموم، وأحيانًا لا يجعلونه مُخصصًا للعموم، فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة:٢٢٨]. هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. يشمل مَن لها رجعة، ومن ليس لها رجعة، فهذا العموم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، أي: بعولة المُطلقات .﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. هذا الحكم يختص بالرجعيات،فهل نقول: إن المُراد بالمطلقات في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾. المُراد بها الرجعيات أو هو عام؟ أكثر العلماء على أنه عام.

ومن السُّنة قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما: (قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة) (١) في هذا عموم، وفي هذا حكم يعقبه مختص ببعض أفراد هذا العموم، فهل نأخذ بالعموم، أو نأخذ بما يقتضيه الحكم المعقب؟ فقوله رضي الله عنهما: (قضي النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم) يشمل كل ما لم يقسم، حتى لو كان بينك وبينه سيارة فبِعْتَ نصيبك منها ففيها الشُّفعة، أخذًا بالعموم (بكل ما لم يقسم). وقوله رضي الله عنه: (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شُفعة). هذا يختص بالأراضي، فهل نقول: إن قوله: (في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٤) واللفظ له وأحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٦)، وأبو داود (٣٥١٤).

كل ما لم يقسم) يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرع، ونقول: إذا كان شريكان في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شُفعة للثاني، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به؟ فيه أيضًا خلاف في هذه المسألة.

والذي نحن فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾، يشمل كل ميت حتى البهائم، وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ خاص بالمُكلفين، فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾. أي: من المكلفين بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾،أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ ينبني على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يُقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموا وآثارهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم ﴿الْمَوْتَى﴾ كل ميت،﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما قدم بعضهم وهم المُكلفون.

قوله تعالى:﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. قال المؤلف: [وكل شيء نصبَهُ بفعل يُفسره: أحصيناه] . ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ (كل) هذه مفعول لفعل محذوف يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾، وعلى هذا فيكون التقدير: «أحصينا كل شيء»، ولا تجمع بين المُفسِّر والمُفسَّر، ولا تقل التقدير: «أحصينا كل شيءٍ أحصيناه»؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تُقدِّر فقل التقدير: وأحصينا كل شيءٍ في إمام مُبين. لكن جُعِلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المُسند إليه مرتين؛لأن ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ والضمير في ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ يعودان على شيءٍ واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مُقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله تعالى: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾، وهذا التركيب يُسمى عند النحويين الاشتغال، والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكراهة، والمنع، لكن هذا وجوب نحوي وليس وجوبًا شرعيًّا، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يترجح نصبه، وتارة يترجح رفعه، وتارة يستوي الأمران، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾، فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفعنا – والرفع هنا جائز – وقلنا: «وكل شيءٍ أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تَناسُبَ الجملتين أولى من تضادهما.

ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكلُّ شيءٍ أحصيناه؛ ولهذا لو قلنا:زيدٌ ضربتُه،و يجوز أن أقول: «زيدًا ضربته». لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: ضربت زيدًا وعمروٌ

أكرمته يجوز في «عمرو أكرمته» النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتَناسُب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة: إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة اسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ هل الذي يكتب الله عز وجل، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩:١٢]. وإسناد الكتابة إلى الآمر موجود في اللغة العربية كثيرًا، يقول السيد: كتبت كذا وكذا. والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَنَكْتُبُ﴾. والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩:١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾. أي: ما قدموه في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملًا صالحًا في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يُقدم الثمن، فأنت الآن مُقدم الثمن، والمُثمن يكون يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيامة جميعًا، فأنت الآن إذا عملت عملًا صالحًا فقد قدمت لنفسك ثمنًا تأخذ عوضه يوم القيامة، ثق بهذا وأن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملًا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾. يقول المؤلف - رحمه الله: [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم]. هذا ما مشى عليه المؤلف أن المُراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مُخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فعل مُضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ (لم) مثلًا: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضيًا، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المُراد ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]. فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تُصاغ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بشيء انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون هم الملائكة بأمر الله - عز وجل - ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليُجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون؛ لأن الخير لا يمكن أن يُهدَرَ منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]. وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، وقوله تعالى: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾. الآثار جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المُراد بآثارهم؟ قال المؤلف: [ما استن به بعدهم]. وهذا التفسير كمثال وليس حصرًا؛ لأن الذي يكتب بالآثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ

انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»(١). فمثلًا الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بُستانًا على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد الصالح أيضًا من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولدًا صالحًا يدعو لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدى به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضًا من الآثار، فما ذكره المؤلف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المؤلف - رحمه الله - أن المُراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح.

وذهب بعض المُفسرين إلى أن المُراد بالآثار: الآثار التي يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات؛ فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبني سلمة: «دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»(٢).فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الآثار تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول الرسول ﷺ«تكْتُبُ آثَارَكُمْ».هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سمّاه أثرًا لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال المؤلف أن المُراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وآثارهم ما كان بعد موتهم. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾. قال المؤلف: [﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ضبطناه]. والإحصاء بمعنى الضبط مأخوذ من الحصى؛ لأن العرب أمة أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى ... وَإِنَّمَا الْعِـــزَّةُ لِلْكَاثِرِ

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا بكثيرين، ويُضرب المثل فيُقال: جاء قوم كُثُر الحصى، فأحصيناه ضبطناه، وسُمي الضبط إحصاءً؛ لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى،و قوله تعالى: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [كتاب مُبين]. هذا صحيح ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ فالإمام يُطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، فإمام الصلاة مثلًا إمام؛ لأنه مرجع للمأمومين يقتدون به، وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. إذًا ﴿فِيٓ إِمَامٖ﴾: في كتاب،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٦٧)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والنسائي (٣٦٥١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٣٢).

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾. يقول المؤلف - رحمه الله:[بَيِّنٌ]؛ لأن مبين هنا من الرُباعي، مِن أبان يبين فهو مُبين. أما بين فهي من الثلاثي، من بان يبين، فهو بين، وكلمة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنى واحد فيُقال: بان الصبح، وأبان الصبح. وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه. فإذا جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلح بأن تكون بمعنى (بين)؛ وتصلح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح)، لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعًا، قد تكون في موضع لا تصلح إلا بين، فمثلًا ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].معناها بين ظاهر، وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان:١،٢]. بمعنى الموضِّح المظهِر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مُبين بمعنى مُظهِر، أبين في المعنى، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر؛ لأن المظهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل.

وقول المؤلف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ]. وهذا صحيح يعني مُحتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف بَيِّن، أو مُبِين بمعنى مظهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يُظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمور موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بيِّن،فهي صالحة لما يقول المؤلف: [هو اللوح المحفوظ] ؛لأنه يقول: ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾. أي: إنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بأدلة عقلية، وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. فهذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى،و وجهه أن الإعادة أهون من الابتداء، فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. هذا مثله أيضًا استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة.

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق:٩ : ١١]. والآيات في ذلك كثيرة، فقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية والحسية؛ لتكون لذوي العقول دليلًا ولذوي الأبصار، والأدلة الظاهرة دليلًا أيضًا، فالإنسان العقلاني كما يقولون نستدل له أو عليه بالعقل، والإنسان السطحي الذي لا يستدل إلا بما يُشاهد نستدل عليه بالأدلة الحسية.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن مَنْ لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يُحيي قلبه فيخشى الله ويتبع الذكر، ووجه الدلالة أن الله تعالى ذكر هذا بعد أن ذكر انقسام الناس إلى مَن يخشى الله بالغيب ويتبع الذكر، ومَن لم يكن كذلك، فيه إشارة إلى أن الله قادر على أن يرد هؤلاء إلى الحق.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء مكتوب للإنسان إما له وإما عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يكتب كل شيء القليل والكثير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾. (وما) اسم موصول، والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف:٤٩]. ويدل عليه أيضًا في آخر الآية: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأعمال لا تنقطع بالموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾. والآثار ذكرنا أنها أنواع: العلم، والصدقة الجارية، والولد الصالح يدعو له، وسُنة يحييها فيتبعه الناس عليها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله عز وجل في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن ما يكتب على الإنسان فإنه حق بَيِّن واضح لا يمتري فيه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبِينٖ﴾. والشيء المبين هو الذي يوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه وهو كذلك؛ ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

قال الله تعالى:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٣].

التفسير

(اضرب) قال المؤلف: [اجعل]. وهذا لا شك أنه معنى مُقرِّب للمعنى، أي اجعل مثلًا، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتمًا، وضرب الذهب حُليًّا، وضرب الذهب سكة، يعني: نقودًا، بمعنى اتخذه حُليًّا، اتخذه سكة وما أشبه ذلك، فشُبِّه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالبًا على هيئة مُتكاملة مُركبة من أجزاء مُتعددة؛ ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مُفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مُشتملة على أجزاء مُتعددة بصورة؛فلهذا سُمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المؤلف - رحمه الله: [﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مفعول أول، ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ مفعول ثان]. وهذا ظاهر أنه سهو من المؤلف، والصواب العكس؛ لأن المضروب أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و ﴿مَّثَلًا﴾ هو المفعول الثاني، ففي إعراب المؤلف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثانٍ، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المُكذبين لك اجلعهم مثلًا يعتبرون به، والمَثَل والمِثل كالشبه والشِّبه، أي: جعله أمرًا مُشابهًا حتى يتعظوا.

وكلمة ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾، الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحًا؛ أنه عام، وتارة يكون صريحًا أنه خاص بالرسول ﷺ، وتارة يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾. [الشّرح:١]؛ فهنا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام قطعًا.

ومن الأشياء الصريحة أنه عام مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١]. ولم يقل: «إذا طلقت»، فدل على أن الخطاب الأول يُراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصًا بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عامًّا فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عامًّا؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عامًّا شمل الرسول ﷺ وغيره، إذًا نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلًا للمكذبين بهذه القرية ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾. قال المؤلف: [أنطاكية]. فجعل (ال) للعهد الذهني، يعني :كأنها قرية معروفة مفهومة، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية،

كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا، أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة - مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أُهلِكَت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم).

وعلى هذا فيكون المُراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني، يعني: اضرب مثلًا لهم في قرية غير مُعينة، وهذا هو الصحيح؛ وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها، وليس المقصود كما مر علينا كثيرًا تعيين الأشخاص، أو الأماكن، أو الأزمان، ليس فيه كثير فائدة في الغالب، المقصود العبرة في القصة وما وقع، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلفون مثلًا فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مُبهم يتكلفون في طلب تعيينه، وليس هذا بلازم، إلا أن يترتب على تعيينه اختلاف للحكم، أو إظهار للمعنى فهذا شيء آخر، وهنا لا يعنينا أن نعرف ما هي القرية، ومن هم أهلها، الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصة، فالصواب عدم تعيينها بأنطاكية.

﴿إِذْ جَآءَهَا﴾. [بدل اشتمال من أصحاب القرية]، فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب، والبدل يتبع في الإعراب المُبدل منه، فيكون ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. في محل نصب على أنه بدل من أصحاب القرية، ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي: أصحاب القرية، ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [أي رُسل عيسى]. وهذا القول ليس بصحيح، ولا دليل عليه، بل جاءها المرسلون الذين هم من جنس قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. جاءها المرسلون الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله عز وجل، وليسوا من قبل عيسى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾. وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسل عيسى. مع أن الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾. ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾. وعلى هذا فيتعين أن يكون المُراد بالرسل المرسلون هنا رسلًا من عند الله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾. أي: إلى أصحاب القرية.﴿ٱثْنَيْنِ﴾،من هؤلاء الثلاثة ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، التكذيب: رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع، هذا هو التكذيب، فهؤلاء كذبوهما وقالوا: هذا أمر ليس بصحيح، ولستم برسل، فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾. قال المؤلف: [بالتخفيف والتشديد]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التشديد،و (عزَزنا) التخفيف، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حدٍ سواء، معنى (عززنا) قال: [قوينا الاثنين بثالث]. يعني: لما كُذِّب الاثنان أرسل الله ثالثًا معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٣٢:٢٩]. فزيادة الواحد يقوي بلا شك، ونحن نُشاهد حتى في أمرنا الواقع إذا

قال شخص قولًا، ثم أيده آخر ازداد قوةً ونشاطًا في تقرير هذا القول وتثبيته، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾. الضمير يعود على الثلاثة، ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾. أتوا بالجملة المؤكدة بـ (إنا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كُذِّبوا وأُنكروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

«ولكن لو قال قائل»: لماذا لم تؤكد بأكثر من مؤكد؟

«قلنا»: هي أكدت بأكثر من مؤكد، أكدت بمؤكد واحد لفظي وهو (إنا)، وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول.

«ولو قال قائل»: هل المقام مقام تأكيد على سبيل الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

«قلنا»: على سبيل الوجوب. فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بإن، واللام، والقسم، قلنا: هذا المؤكد مكرر، لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ (إنا)،وتأكيد بالمعنى وهو تقويتهم بثالث قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾. مرسلون من قبل الله عز وجل، وهم يعلمون ذلك أنهم ما دعوا الرسالة من شخص وإنما هي من الله، فكان جواب هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين، والمكذبون يردون أقوال الرسول، أحيانًا بنفي، وأحيانًا بإثبات، ففي النفي يقولون: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ﴾. وكما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم:١٠-١١]. يعني: نسلم إنا بشر مثلكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾. هذا جواب بالنفي. يعني أنتم بشر لستم ملائكة حتى نقبل، وأحيانًا بالإثبات ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]. فصاروا أحيانًا يتهمون الرسل بالسحر والجنون، وأحيانًا بالنفي يقولون: ما أنتم ملائكة حتى تكونوا رُسلًا إلينا، ما أنتم إلا بشر مثلنا، فليس ببدع أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرسل: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾. فقالوا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. فأنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول، وأنه بشر، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر،فقالوا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. مَنْ الذي يمنع، فلم يذكروا حجة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. هذه الجملة نفي و ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ (مِن) الزائدة؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾. بمعنى: (شيئًا). وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ قوله ﴿إِنۡ﴾ بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقُه: النفي والإثبات ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يعني ما أنتم إلا تكذبون، وهذا الحصر - والعياذ بالله - حصر هم يرونه إضافيًّا، بمعنى: ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعون من الرسالة، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة، فصار إنكارهم مبنيًّا على أمرين:

الأول: أنهم بشر، يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رُسلًا لكنتم ملائكة.

الثاني: النفي الذي لم ين على شيء، وإنما هو مجرد إنكار ومكابرة،وهو قولهم ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

وهذا لا شك من سفههم؛ لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلًا عن الشرع، لأن العباد لا يمكن أن يتعبدوا لله سبحانه وتعالى إلا بشيءٍ شرعه ونصبه لهم دليل عليه وإلا فكيف يتعبدون؟! فإنزال الله عز وجل الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه، مع أن الله قد أوجبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]. فالله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه أن يُبلغ عباده ما يوصلهم إليه، وإلا لضلوا، إذًا هذه المكابرة: وهي دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيءٍ يُكذبها العقل والشرع؛ لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتعبدون بها له لتوصلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢،١٣]. وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]. حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. الكذب: الإخبار بخلاف الواقع. إذًا أنتم أخبرتمونا أنكم رسل، والواقع أنكم لستم برسل، ماذا قالوا لهم، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكدات:

الأولى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ لأن هذا جاري مجرى القسم.

والثاني: ﴿إِنَّا﴾.

والثالث: اللام. لشدة إنكارهم.

فإذا قلنا: إن هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، صار أكدت الرسالة بأربعة مؤكدات.قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ﴾. قال المؤلف: [جاري مجرى القسم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار]فهذه أربعة مؤكدات، لكن المؤلف لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنه بلا شك مؤكد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. قال المؤلف – رحمه الله: [التبليغ المبين الظاهر، بالأدلة الواضحة]. هذا حصر حقيقي، أي: ما عليهم في جانب الرسالة إلا البلاغ المبين في جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة)، يقتضي أن يكون حصرًا إضافيًا؛ لأن عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبليغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم إلا البلاغ المبين، قال المؤلف: [التبليغ]. كلمة بلاغ بمعنى: تبليغ، فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يُقال: كلم يُكلم، المصدر كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يُبلغ تبليغًا هذا مصدر، واسم المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين، فهذا قد يُقال: إن فيه نظر؛ لأن الظاهر أن، المبين بمعنى المظهر، يعني البلاغ المظهر لحقيقة الأمر الواقع، وهو أننا رسل من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا المبين بالمظهر على وجهٍ

صحيح صار متضمنًا لكونه بيِّنًا، إذ لا يكون الشيء مبينًا إلا وهو بين في نفسه، أما قوله - رحمه الله: [التبليغ البين الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأكمه، والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى]. هذا ليس بصحيح؛ لأن هذا مبني على أنهم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البين بالرسالة فيبلغون تبليغًا بينًا.

في القصة فوائد كثيرة منها:

١ - بيان ضرب الأمثال ليعتَبَر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾. والخطاب كما سبق؛ إما للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه.

٢ - أن العبرة بما في القصة من ضرب الأمثال، وأنه ليس من الضروري أن يُعين المثل المضروب، فهنا قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾. ولم يعين القرية، ولم يعين أولئك الأصحاب بأعيانهم؛ لأنه ليس هذا محل عبرة، بل العبرة في القصة كلها.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الله عز وجل لن يدع الخلق بلا رسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** بيان رحمة الله عز وجل في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد؛ لأنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾. فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية، والتأكيد بـ ﴿إِنَّآ﴾ تقوية لفظية.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تعدد الرسل مع اتحاد المرسَل إليه؛ لأن الله أرسل لهذه القرية اثنين ثم عززهما بثالث.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الذين يُكذبون الرسل ليس عندهم إلا المكابرة، وليس عندهم حجة عقلية أو نقلية؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حجة تسوغ تكذيب هؤلاء الرسل؛ لأنك إذا رأيت هذه الحجج الثلاث أو الشبه لم تجد فيها حجة:

الأولى: أنهم ردوهم لأنهم بشر مثلهم، وقد سبق في التفسير بيان الرد عليها، وأنه لا يمكن أن يرسل للبشر إلا بشر مثلهم، حتى لو أنزل إليهم ملائكة فإن الملائكة لا بد أن يكونوا على صورة البشر، وحينئذٍ تعود الشبهة.

الثانية: ما أنزل الرحمن من شيء، فهذا نفي مُجرد بدون ذكر حجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقًا؛ لأن نفي قول الخصم بدون حجة ما هو إلا مُكابرة.

الثالثة: وكذلك قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن المعاندين للرسل ليس عندهم إلا المكابرة المحضة كقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾. وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٨ – **ومن فوائد الآية الكريمة** أن حكمة الله عز وجل تقتضي أن يرسل للبشر بشرًا مثلهم.

٩ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز التأكيد بما يشبه القسم؛ لقولهم: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوى؟ الظاهر أن هذا أقوى من التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. و لم يكونوا مُرسَلين، استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم يكونوا مُرسلين، معناه: أن الله علم الحال على خلاف ما كانت عليه، إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مرسلون وهم غير مرسلين في الواقع، لزم من ذلك أن يكون الله جاهلًا ـ علا الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ بحالهم، وأن يكون الله تعالى عاجزًا عن الانتقام منهم وبيان كذبهم؛ لأنهم سيقولون: إنا مرسلون، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة، والله تعالى يعلم أنهم غير مُرسلين، وهذا يستلزم الجهل، إذًا فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم؛ لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة؛ ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: الله يعلم أني ما فعلت كذا .وهو فاعل، قالوا: إن هذا يقتضي الكفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله، ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفًا من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلًا وعاجزًا.

١٠ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز التأكيد بعدة مؤكدات في جانب المنكر، بل قد نقول: إن التأكيد واجب إلا لفائدة؛ لقوله تعالى هنا: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. وقد سبق أن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

١١ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس عليهم هداية الخلق، وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط؛ لقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

١٢ – **ومن فوائدها أيضًا**: أنه يلزم الرسل أن يكون بلاغهم مبينًا مُظهرًا للأمر على حقيقته.

ويتفرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع، وأن الشرائع كلها واضحة، فإن جاء إبهام في نص، فهو مبين موضح في نص آخر، وإن بقي الإبهام قائمًا فالعلة في فهم المخاطب؛ إما لقصوره، أو لتقصيره، أما ما جاءت به الرسل فإنه يحصل به البلاغ المبين المُظهر لكل ما تحتاج إليه الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس:١٨].

التفسير

﴿تَطَيَّرْنَا﴾ أي: تشاءمنا، وأصل التطير مأخوذ من الطير؛ لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاءلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاءلوا على اختلاف بينهم فيما يكون التشاؤم، أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر على أن تكون الطيرة في كل شيء، وهي: «التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان. وهذا التطير له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل؛ وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنما هو دعوى مُجردة من هؤلاء المُكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤمًا وتضييقًا، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهو يهوون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون: ضَيَّقْتَ علينا العبادة، فيجعلون هذا التضييق بزعمهم شؤمًا، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاث حالات:

الأولى: تطيُّر بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم، فيقولون: هذا تضييق علينا. وهو شؤم في زعمهم.

الثانية: تطيُّر بما يصيبهم من العقوبات بسبب المخالفة، فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة: دعوى مُجردة لا أصل لها، فيقولون: إنا تطيرنا بكم لمجرد التشويه لما جاءت به الرسل.

وقول المؤلف - رحمه الله: [انقطاع المطر عنَّا بسببكم]. هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفًا، بأنهم يتطيرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتطيرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم، وشهواتهم، ومعاملاتهم، ومأكولاتهم، ومشروباتهم، فيقولون: ضُيِّقَتْ علينا. الوجه الثالث: تطير المدعي الذي ليس له أصل. وقولهم: لانقطاع المطر عنا بسببكم. لتنفير الناس عن متابعتهم. يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون، فأرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضًا.

قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ يعني: عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾. الجملة هذه جواب القسم، وليست جواب الشرط؛ لأنها قُرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم، لا جواب

الشرط؛ ولهذا أشار ابن مالك رحمه الله في الألفية حيث قال:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الرجم الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني المُحصن، أي: يُرمى بالحجارة حتى يموت، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ﴾: ليصيبنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المُكذبين المُعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضًا فإنه عذاب ،﴿أَلِيمٌ﴾. بمعنى: مؤلم فهو فعيل، بمعنى مُفعِل، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى المسمع، لا بمعنى السامع، وأليم بمعنى مؤلم، لا بمعنى آلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ﴾. هل هذا على سبيل التنويع، أو على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرجمونهم ويُعذبونهم قبل الرجم، أو أنه على سبيل التنويع، وأن الواو بمعنى «أو»، أي: نرجمنكم حتى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب؛ لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع؛ لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أو» للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس:١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. ﴿قَالُوا﴾: الضمير يعود على الرسل، يُخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: شؤمكم ملازم لكم؛ وذلك بسبب كفرهم،فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء، ولو شاءوا لآمنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقص. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، قال المؤلف - رحمه الله[همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأخرى]. سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيُقال «إن» هذا التحقيق، والتسهيل، «أئِن » بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهيها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول أئِن ذكرتم،

وبالتسهيل أثن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعية ، وقوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾. قال المؤلف: [وُعِظتُم وَخُوِّفتُم، وجواب الشرط محذوف، أي: تطيرتم وكفرتم]. قوله تعالى: ﴿أَئِن﴾ حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله:

﴿ذُكِّرْتُم﴾. أما جواب الشرط محذوف، تقديره يقول المؤلف رحمه الله: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير؛ لنعرف جواب الشرط، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. فالذي حصل منهم أنهم تطيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مُطابقًا للمذكور، أي: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم؟! قال المؤلف: [وهو محل استفهام. والمراد به التوبيخ]. وهو أي: جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذكير؛ لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم، واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يُراد به التوبيخ، يعني: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم، وقالوا: أتتشاءمون وتتوعدون؛ لأننا ذكرناكم. فهذا هو محل الاستفهام، وإنما نص المؤلف على ذلك ؛لأنه قد يظن الظان أن محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ والواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط، لا الشرط المذكور وهو- أي الاستفهام- للتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾. هذا إضراب انتقال، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطيرون بهم إلى وصفهم الحقيقي؛ وهو أنهم قومٌ مسرفون، والإضراب يكون للإبطال، ويكون للانتقال، فإذا قلت: جاء زيدٌ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلت: زيد في شك بل هو مُنكر، فهذا إبطال انتقال، ومنه قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]. ومنه هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾. أي: متجاوزن للحد، ووجوه التجاوز:

أولًا: أنهم كذبوا الرسل بلا بينة وبلا دليل؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجة لهم،قال تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾. وقالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. وقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾،وهذا إسراف جاوز الحد.

ثانيًا: أنهم تطيروا بالرسل، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير؛لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]. وهؤلاء تطيروا بالرسل

وليسو محل ليُتطيَّر بهم.

ثالثًا: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فكل هذا من الإسراف.

وهو كذلك من العدوان أيضًا، ووجوه ذلك:

أولًا: أنه لا يجوز للإنسان عقلًا أن يرد شيئًا بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل- لا شك- أتوا بآية تدل على صدقهم، فما بعث الله رسولًا إلا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانيًا: تطيرهم بالرسل، والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: «طائركم معكم». فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة؛ لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل فقالوا:﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ – أن هؤلاء المُكذبين تشاءموا بالرسل، وهذه دعوى باطلة، يدعيها كل مُكذب بالرسل.

٢ – أن المُكذبين بالرسل يدعون على الرسل ما لم يكن منهم، تشويهًا وتنفيرًا.

٣ – **يُستفاد منها:** بيان عدوان هؤلاء المُكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث توعدوا الرسل إن لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرجم المؤدي إلى الهلاك، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجوهم. وهذا فيه غاية العدوان العظيم على عباد الله، فهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]. فهؤلاء المكذبون للرسل الذين يتهددونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم من أشد الناس عدوانًا؛ لأنهم اعتدوا على الحق وعلى حامل الحق.

٤ – **ومن فوائدها:** أن الإنسان شؤمه بعمله، وليس بدعوته إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

٥ – **ومن فوائدها:** أن الذنوب والتكذيب للرسل يكون سببًا للمحق والبلاء؛ لقوله تعالى: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. وهذه هي سُنة الله عز وجل في جميع المُكذبين للرسل، أن الله يبتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون.

٦ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإنكار على من ذُكِّر فأعرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: جواز حذف ما عُلم بالسياق، ولا يُعد هذا نقصًا في الكلام وبلاغته؛ لأن جواب الشرط محذوف لدلالته عليه، وربما يكون الحذف أبلغ.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء القوم كانوا مُسرفين على أنفسهم متجاوزين للحد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد.

قال الله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:٢٠-٢٢].

التفسير

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠] قال المؤلف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسل، ومنزله بأقصى البلد] . قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾. أي: من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسل والمُكذبون لهم، وهو وسط المدينة؛ لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة،فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسل وكان- رحمه الله - قد آمن فجاء ينصح قومه، والله عز وجل يقول: ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير مُعرف، والمؤلف يقول: [حبيب النجار]. وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ، ولعله مُتلقى عن بني إسرائيل، وموقفنا في مثل هذا ألا نُنكر وألا نُثبت، وقوله تعالى:﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾. هنا بدأ بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى **حين قتل القبطي ذكر الرجل قبل مكانه**، فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص:٢٠]. وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾؛ وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمنًا، فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد، فذكر مكانه لبُعده؛ ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾، وفي أول الآية قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾. وهذا يدل على أن القرية تُسمى مدينة، والمدينة أيضًا تُسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أُم القُرى، قال تعالى:﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [محمد:١٣].

فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة؛ ولذلك لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القِري، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سُميت في عُرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سُميت في عُرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عُرفي فقط.

قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾. أي: يشتد و يركض؛ لئلا تفوته الفرصة حين سمع بتكذيبهم.

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾ هذه جملة مفصولة عما قبلها، أي أنها أتت بدون حرف العطف كأنها جواب عن سؤال مُقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. و﴿يَٰقَوْمِ﴾ مُنادى منصوب بالنداء؛ لأنه مُضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلم، وأصلها (يا قومي)، ولكن حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوءة بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ولم يقل: يا أيها السُفهاء، يا أيها الجُهال. بل قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ توددًا وتعطُّفًا لهم، ولم يقل: يا إخواني؛ لأنه لا أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن ﴿يَٰقَوْمِ﴾، يصح أن يُقال: يا قوم ولو كانوا كُفارًا. قال الله تعالى مُخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦].

قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. فهم دعوا إلى هذا؛ إلى الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾. فكرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ثم قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ﴾ ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجرًا. لصح الكلام لكن كررت للتأكيد؛ لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المُرسلين.

﴿وَجَآءَ مِنْ﴾ أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس أجرًا، لكنهم يرجون من الله الأجر، أما من الناس فلا يأخذون أجرًا، فهم لا يتخذون أجرًا على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير، فإنما يرجون الأجر والثواب من الله ﴿أَجْرًا﴾ هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذان المفعولان من باب مفعولي كسا وأخواتها،ثم قال تعالى: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. فبين هنا أن هؤلاء الرسل على هُدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجرًا على ما دعوا إليه، وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. يُحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدُعاة أنهم على هُدى، ويُحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجرًا مع كونهم مُهتدين.

ثم قال المؤلف: [فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى]. ما قدره

المؤلف – رحمه الله – من أنه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: «وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني». على أن المُراد به هؤلاء القوم كأنه قال:وما لكم لا تعبدون الذي فطركم.لكن أضافه إلى نفسه من باب التلطُف بالخطاب، هذا هو الأقرب لأمور:

أولًا: أن ما ذكره المؤلف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزمه فالأصل عدمه.

ثانيًا: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلًا أن يقول: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم).لكنه قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾. فأضاف الأمر هنا إلى نفسه تلطفًا.

وقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾. الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني: أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده. ولهذا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾. أي: لا أتذلل للذي ﴿فَطَرَنِي﴾. قال المؤلف: [أي خلقني. أي لا مانع لي من عبادته الموجود مُقتضيها، وأنتم كذلك].وقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾. تقدم لنا أن العبادة هي التذلُل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبةً وتعظيمًا، وأن العبادة تُطلق على التعبد الذي ذكرناه، وعلى المُتعبد به وهي الأفعال التي يتعبد بها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حدها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى بأنها : اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة.،

وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. ولم يقل: لأعبد الله؛ ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: «أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي» مُقتضى لكونه هو المعبود، إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]. فقوله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنه الخالق وحده؛ فيجب أن يكون المعبود وحده، ولهذا قال المؤلف [الموجود مُقتضيها]. وما مُقتضيها أنه هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، فلزم أن يكون هو المُستحق للعبادة وأن يُعبد، وقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:١]. وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١١٧]. فالذي فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذن يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق، كما قال الله عز وجل: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[النحل:٢٠]. فكيف يصح أن يعبد هؤلاء؟! فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحُسن دعوته أنه قرن الحكم بالدليل.

قوله تعالى:﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. كما تُخاطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: ما لي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضًا، قال المؤلف –

رحمه الله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [بعد الموت فيُجازيكم بكفركم]. لو قال المؤلف: بعملكم، لكان أشمل؛ لأنه يُجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويُجازيهم بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المؤلف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكان أولى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نصح هذا الرجل لقومه من وجهين:

الوجه الأول: أنه جاء من مكانٍ بعيد،قال تعالى :﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾.

الوجه الثاني: أنه جاء يشتد ﴿يَسْعَىٰ﴾، فيُستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفرص في إنذار قومه ومُناصحتهم، وأ لَّا يتوانى، فيقول: غدًا أذهب إليهم، أو في آخر النهار، أو ما أشبه ذلك، فيُبادر بالنصيحة والموعظة؛ لأن هذا الرجل جاء يسعى.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يُبادر بالإنذار قبل أن يُقدم له مُقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾. فأمرهم من أول الأمر، ولم يأتِ بمقدمة تهيئهم للقبول؛ لأن الحال تستدعي ذلك.

٣ - **ومنها أيضًا:** أنه ينبغي التلطف بالقول في دعوة الغير؛ لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. فإن هذا يستوجب اتباعه، وقبول نصحه؛ لأن للإنسان حدبًا وشفقة على قومه.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجرًا على ما أتوا به من الدلالة والهداية؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي أن يُقدم الوصف الموجب للقبول، قبل الوصف المُفضل للقبول، فهنا قال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. والرسالة وصف يقتضي وجوب قبول المُرسل.ثم قال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ هذا من باب الكمال.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية إليا الله عز وجل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يُعطى من أجل دعوته وموعظته؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجرًا لا بلسان الحال، ولا بلسان المقال، وبه نعرف قبح ما يعمله بعض الناس - وإن كان والحمد لله قد قل - يقوم ويعظ الناس موعظةً قد تكون بليغة، فإذا انتهى قال: إني في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك، فصارت الموعظة للدنيا.

فهل يُستفاد من هذا أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم، لما فيه من المخالفة لطريق الرُّسل، أو يُقال لا؟ الذي لا يجوز الأخذ عنه: الدعوة لله عز وجل، فهذه لا يجوز أخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان، أما التعليم الذي يحتاج إلى مُعاناة وإلى تعب وإلى تفهيم

خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»(١).

هل يُستفاد من الآية: أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يُستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى؛ فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عز وجل بدون أن يأخذ مقابلًا ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الإخلاص، وأشد وقعًا في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يُلقي ذلك في قلوب الناس، أي يُلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لا يأخذ شيئًا.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من طريق الدعوة أن يذكر الإنسان حال الداعية بوصفه بما يوجب قبول قوله؛ لقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقد ذكر ما يوجب قبول قولهم في أول الدعوة.فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون إلى الله على هُدىً منه، وأما من يدعو على غير هُدى فإنه قد يُفسد أكثر مما يُصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالًا، والحلال حرامًا وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا بأس للإنسان أن يُضيف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. يعني:على فرض أنني أتخذ من دون الله آلهةً ،فما الذي يمنعني أن أعبد الله عز وجل وحده؟!

١٠ - **ومن فوائدها**: الإرشاد إلى وجوب الإخلاص في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. فإن الله تعالى مُنفرد بفطر الخلق؛ فيجب أن يُفرد بالعبادة، فلا يدَّعي أحد أن الآلهة تخلق، إذًا لا يجوز أن تُعطى شيئًا من العبادة التي يختص بها من يخلق وهو الله عز وجل.

١١ - ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. فإن هذا كتعليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾. ولهذا عدل عن قوله: (ما لي لا أعبد الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ ليكون هذا كدليل وتعليل لوجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا في القرآن الكريم والسُّنة كثير.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يُذكر ما

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

يكون الترغيب والحث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه، وأنه كله إلى الله عز وجل، وهنا نجد الفرق بين التعليل الأول: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. ولم يقل «وإليه أرجع»؛ لأنه - كما قلنا - إنما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه، لكنه أضافه تلطفًا وتوبيخًا لهم، وكأنه يقول: «أنا لا أعبد إلا الذي فطرني»، فلماذا تعبدون أنتم معه غيره وإليه تُرجعون؟!

قال الله تعالى:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ [يس:٢٣].

التفسير

قال المؤلف: [أأتخذ في الهمزتين منه ما تقدم في ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ هو استفهام بمعنى النفي]. فيكون معنى ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ أي: لا أتخذ. وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النفي فإنه يُفيد معنى التحدي، ولكنه هنا يُفيد معنى الامتناع، غاية الامتناع، يعني أنه لا يمكن أن أتخذ من دونه - أي غيره - آلهة. فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. معروف أن أتخذ تنصب مفعولين؛ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ المفعول الثاني، ﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الأول، ويجوز أن نجعل ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ في موضع النصب على الحال من ﴿ءَالِهَةً﴾، ويكون الثاني محذوفًا، أي: (أأتخذ أصنامًا آلهة). وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف؛ لقوله: [أصنامًا] قال: [﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ صفة آلهة]. يريد المؤلف في الإعراب أن قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة، يعني: لا أتخذ آلهة هذا شأنها، وهو أن الله لو أراده بضر لم تنفع شفاعتهم ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، هذا معنى كلام المؤلف.

وقيل: إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلهة، أي: أأتخذ من دونه آلهة ثم قال: هذه الآلهة لا تُغني شفاعتها شيئًا من دون الله، ولا تنقذُ.

ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظهر، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلهة، قال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾. يعني: إن يُردن الله عز وجل، وذكر الرحمن؛ لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة، ولما كان الضُّر قد يُفهم منه من يَفهم من الناس انتفاء الرحمة؛ عن المُريد، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان، أو يتوهم الواهم هذا الوهم، أن إرادة الله الضر للإنسان تُنافي الرحمة، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ

وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. فما يُصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة؛ وهي الرجوع إلى الله عز وجل، والاعتبار بما جرى،قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾. أي: لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. فهذه الأصنام التي عُبدوها من دون الله يَدَّعي عابدوها أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]. إذًا فهم يَدَّعون أنهم يعبدونها؛ لتشفع لهم، وهل هذا وهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: هذاوَهْم لأنهم عبدوها ولم يتخذوها وسيلة، بل جعلوها غاية؛ ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التعبد لها إلا التعظيم لهذه الأصنام، وينسون الخالق عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

الفوائد:

١ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان الإنكار والتسفيه والتوبيخ للذين يتخذون مع الله آلهة؛ لأن المراد من الاستفهام: الإنكار والتسفيه والتوبيخ لهؤلاء.

٢ – **ومن فوائدها:** أنه ينبغي قرن الحكم بالتعليل؛ لأنه قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، إلى آخره، فهذه الآلهة لا تنفع، ولا تضر، ولا تدفع، فهي لا تنفع مَن عبدها، ولا تضر من عدل عنها، ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير، يقول عز وجل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾. فهم لا يستطيعون دفع ضرر الغير، وهم – أي الآلهة – لا ينفعون عابديهم، ولا يضرون من عدل عن عبادتهم، فهي قاصرة بنفسها لا تجلب نفعًا ولا ضرًّا، ولاتدفع الضر عن عابديها؛ فتكون عبادتها خسران.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل معبود فهو آلهة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. لكن إن كان يستحق العبادة فهو إله حق، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، وإن كان لا يستحق العبادة وهو مَنْ سوى الله فعبادته باطلة وألوهيته باطلة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

٤ – **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الإرادة لله – عز وجل – لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾. وإرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية.

القسم الثاني: إرادة شرعية.

فالإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المُراد، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى.

والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، ولا يتعين فيها وقوع المُراد، ويتعين أن يكون فيها محبوبًا لله عز وجل.

فإذا قال قائل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، والضر شر على الإنسان، فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[(١)]؟

فالجواب: أن النبي ﷺ لم يقل: «الشر ليس مِنك»، بل قال: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». والله عز وجل قد يريد الشر، لكن إرادته الشر خير، فالشر في مفعوله، لا في فعله، فقد يريد الله وقوع الشر، لكنه لمصلحة عظيمة، هذه المصلحة نفت نسبة الشر لله؛ ولهذا يفرق بين الشر منك، والشر إليك، فالشر لا يُضاف إلى الرب، ولكن يُضاف إلى المفعولات والمخلوقات، مع أن هذه المفعولات والمخلوقات شر من وجه، وخير من وجه، ففعله سبحانه وتعالى كله لحكمة وغاية محمودة، وانظر مثلًا إلى المرض إذا أصاب الإنسان، فلا شك أنه شر بالنسبة لصحته، ولكن لا تشعر بنعمة الصحة، لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة. وبضدها تتبين الأشياء، فأنت الآن تتنفس النفس، تتنفس وأنت تأكل، تتنفس وأنت تتكلم، تتنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مُضطجع، لا تحس بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك، ويُصبح عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس، فالحاصل أن هذا الشر شر نسبي في الواقع حتى بالنسبة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفيضانات، والزلازل، والجدب شرور. لكن بالنسبة إلى تقدير الله لها هي خير، فهي شر بالنسبة لمن أصابتهم، لكن خير بالنسبة للآخرين يتعظون ويخافون، وقد تكون خيرًا لأولئك المُصابين بحيث يرجعون إلى الله عز وجل، ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة؛ لقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. إذًا فلا منافاة بين قوله ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». وبين مثل هذه الآية: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات صفة الرحمة لله عز وجل مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأن الرحمن وصف مشتق، والوصف المشتق يدل على المعنى المُشتق منه، ولا بد، بخلاف الأسماء الجامدة، كأسد، وحجر، وتراب، وما أشبهها، فهذه لا تدل على معنى، لكن الأسماء المشتقة لا بد أن تدل على معنى، هذا بالنسبة إلى أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه، أما بالنسبة لمن تسمى بها من المخلوقين فقد تدل على المعنى وقد لا تدل، فقد نسمي شخصًا عبد الله وهو كافر بالله، وقد نُسمي شخصًا مُحمدًا وهو مُذمم، وقد نسمي خالدًا وهو سيموت، وقد نُسمي صالحًا وهو من أفسد الناس.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٤٣٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

٧ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن عابدي الأصنام يموِّهون على الناس بعبادتهم، فيدعون أنهم يعبدونها لتكون شفيعًا لهم عند الله، وهذا عندما يسمعه السامع يظن أنهم يجعلون الآلهة في مرتبة دون الله؛ لأن مرتبة الشافع دون مرتبة المشفوع إليه.

فيقولون: إنهم شفعاء لنا إلى الله. والحقيقة أنهم لم يجعلوهم شفعاء، بل جعلوهم شركاء لله؛ لأنهم يعبدونهم كما يعبدون الله، فيُستفاد منه الحذر من التلبيس في الأسماء أو بالتسمية، وأن صاحب الباطل قد يُسمي نفسه بما يقتضي أن يكون على حق، وليس كذلك. فالمعتزلة – مثلًا – يسمون أنفسهم «أهل التوحيد»، والمُعطلة يسمون أنفسهم «أهل التنزيه»، يقولون: نحن نُنزه الله، أما أنتم أهل السُّنة لا تُنزهون الله جعلتموه صنمًا؛ فمثلتموه بالخلق في إثبات الصفات. وهؤلاء أيضًا المعتزلة يقولون: نحن نفينا الصفات لنوحد الله؛ لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، فهذا تمويه، والمُعتزلة يُنكرون أن يكون لله تعالى تعلق بفعل العبد، فيُسمون أنفسهم أهل العدل، ويقولون أنتم يا أهل السُّنة أهل الظُّلم؛ حيث جعلتم الله ظالمًا حيث هو الذي يُقدر المعاصي على العبد ثم يُعاقبه عليها، أما نحن فنحن أهل العدل نقول: الإنسان هو المستقل بنفسه وعمله، فإذا جوزي على معصيته فقد استحق الجزاء؛ لأنه فعله.

والنصارى سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لحالهم؛ ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إذ لو كانوا على دينه وقابلين له لقبلوا بشارته بمُحمد ﷺ، فإن عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]. ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمُحمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل، لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لما هم عليه من الباطل؛ ليصبغوا نحلتهم بصبغة القبول، فيجب الحذر من التلبيس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون: نعبد الآلهة ليكونوا شفعاء لنا. وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

٨ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا أحد يُنقِذ من أراده الله تعالى بضُرٍّ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه، فهذا أنقذه مما أراده الله عز وجل به من السوء؟

فالجواب أن نقول: أن إنقاذه بتقدير الله عز وجل، لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك هذا الرجل لم يكن عنده أحد، ولو شاء الله أن يهلكه لكان عنده من لا يجيد السباحة، ولو أراد الله أن يهلكه لكان عنده مَن لا يريد الإحسان، فإذا قيَّض الله له شخصًا قادرًا على إنقاذه مُحبًّا للإحسان

أنقذه بقدَر الله عز وجل، ونحن نؤمن بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنها مُستقلة، فنكونُ وسطًا بين الذين يُنكرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثرة، لكن بجعلِ الله لها تأثيرًا، ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها، فالنار مُحرقة، وقال الله تعالى لها حين أُلقيَ فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فصارت بردًا وسلامًا ولم تكن سببًا للإحراق، والماء جوهر سيال لا يمكن حجزه إلا بحاجز، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر صار الماء كالجبال، بدون حواجز، وهذا خلاف الأسباب المعتادة، لكنه بقدر الله عز وجل، وبه نعرف أن الأسباب مؤثرة بجعل الله تعالى لها تأثيرًا، وإلا لسقط تأثيرها؛ لأن الكل بيد الله.

وبمناسبة ذكرنا نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال بعض المُفسرين: إن الله عزوجل ـ لما قال لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك وقالوا: ما لهذه النار ما غلا القدر عليها، ولكن هذا لا شك أنه قولٌ خاطيء بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰنَارُ﴾. ونار نكرة مقصودة؛ ولهذا بنيت على الضم، فهي كالعلم يُراد بها شيء مُعين، وهي النار التي أُلقي فيها، ثم قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. فهذا القول خلاف الآية الكريمة، وسبحان الله بعض الناس – رحمة الله عليهم وعفا عنهم – يذهبون المذاهب، فنقول: كيف تقع هذه من عالم، والغالب أن هذه تجدها عن بني إسرائيل فتُؤْخَذُ مسلمة ولا يُنْتَبَهُ لمعارضتها لآي الكتاب.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٤].

❁ التفسير ❁

﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن؛ لأن المقام يقتضي التوكيد، وقوله: ﴿إِذًا﴾. قال المؤلف: [أي: إن عبدت غير الله]. لقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي﴾. ويجوز أن نقدر ﴿إِذًا﴾، أي: إذا اتخذت من دونه آله؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. و(إذا) ظرف يدل على الحال، و(إذا) تدل على المستقبل، و(إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذًا) للحال و(إذا) للمستقبل و(إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلًا.

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، اللام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدين، يعني: إنْ اتخذت معه

آلهة، أو عبدت غيره ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. قال المؤلف: [بيِّن]. والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة الفاتحة، فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦،٧]، والمغضوب عليهم هم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم. هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالًا مُبينًا أنه حيدة عن الواجب شرعًا وعقلًا، فالواجب شرعًا أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلًا أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر، وقوله: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾، أعلن - رحمه الله - أنه آمن بالله عز وجل، فقال: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ ﴾. وهناك قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾. إشارة إلى أنه ليس الله ربًّا له وحده بل هو رب الجميع. والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته، وهنا صرح به في قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي أنه متفرد بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾، الإيمان في اللغة: التصديق. عند كثير من المفسرين الذين يُفسرون الإيمان، وقيل: إن معناه الإقرار والاعتراف، فهو أخص من التصديق. قال: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾. الفاء هذه عاطفة على قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أو على الجملة كلها، وقول: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه - رحمه الله - بإيمانه مراغمةً لقولهم، وإقامة الحُجة عليهم؛ ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه، وقال المؤلف: [فرجموه فمات، ﴿ قِيلَ ﴾ له عند موته وقيل: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ دخلها حيًّا].

لما أعلن - رحمه الله - هذا الإعلان، وراغمهم ولم يأبه بهم، ولم يهمه، والظاهر - والله أعلم - أنهم توعدوه، حينئذٍ رجموه فقتلوه، فقيل له بعد موته: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. الأمر هنا للتكريم، والجنة هي: الدار التي أعدَّها الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. بعد موته لأن الإنسان يُعذَّب في قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه يُنعَّم، وإن كان من أهل الشر فإنه يُعذب قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾. لما قيل له: ادخل الجنة، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال المؤلف: [حرف تنبيه]. يعني: (يا) حرف تنبيه

وليست حرف نداء؛ لأنها دخلت على حرف و(يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون لنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان:

أحدهما: أنها للتنبيه.

والثاني: أنها للنداء، والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب السياق. وقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تُستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحيانًا لعل وأحيانًا ليت، بحسب قُربه من التعذر أو من القرب.

قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.قال المؤلف: [بغفرانه]. أي: بما حصل لي؛ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، والباء هنا مُتعلقة بـ (يعلمون)، والعلم هنا بمعنى المعرفة، فلا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، و(ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه]. وهنا نذكر معاني (ما)، معاني (ما) عشرة:

١ - استفهامية. ٢ - شرطية. ٣ - موصولة. ٤ - تعجبية. ٥ - نكرة. ٦ - كافة. ٧ - نافية. ٨ - زائدة. ٩ - للتعظيم. ١٠ - مصدرية. والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغْفر، والمغفر فيه شيئان:

أحدهما: الستر؛ لأنه يستر الرأس.

والثاني: الوقاية؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط.

ثم قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾. فأضاف الربوبية، وهي من الربوبية الخاصة، لأن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق، التي مُقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته، والخاصة هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة، والثانية: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة، ويُقابل ذلك العبودية فإنها عامة، وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]. والخاصة كقوله

تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، جعلني من المُكرمين لدخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان مِن قِبل الله تعالى، وإكرام من قبل الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار. وإكرام من جهة الولدان المُخلدون الذين هم خدم لأهل الجنة، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هُن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان، وإكرام من جهة بعضهم لبعض، فإنهم إخوان على سُررٍ متقابلين، قد نزع الله ما في قلوبهم من غِلٍّ، ومثل هذا لا بد أن يكون فيه إكرام من بعضهم لبعض، فأهل الجنة مُكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المُخلص فإنه مُكرم بدخول الجنة، قال الله عز وجل لما ذكر المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥]. ولهذا قال هنا: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن من أعظم الضلال وأشده تيهًا أن يتخذ الإنسان مع الله آلهةً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٢ - ومنها: أنه ينبغي التأكيد إذا كان المُخاطب مُنكرًا، أو حاله حال المُنكر؛ لأنه يُخاطب قومه الذين اتخذوا مع الله آلهة، ويقول: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ولهذا أكد الجملة بمؤكدين؛ إن، واللام.

وربما يُؤْخَذُ من الآية الكريمة أن كل من ضل عن الحق، أو كل من خالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق؛ لقولهتعالى: ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فيفيد أن الضلال قد يكون خفيًّا، وقد يكون بيِّنًا واضحًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال نصح هذا الرجل؛ لأنه قرر وحدانية الله عز وجل بعدة أمور، منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. ومنها: التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلالٍ مبين، وهكذا ينبغي للداعية لله عز وجل إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء؛ حتى يجمع بين الترغيب والترهيب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من وحد الله فهو على هدى مبين أي: بين واضح؛ لأنه أصاب الفطرة، وأصاب ما جاءت به الرسل.

٥ – يُستفاد من هذه الآية: قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾. فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله عز وجل، فكل إنسان يؤمن ويعلن إيمانه بالله فإن ذلك له ميزة وفضيلة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، أعلن أنه من المسلمين، ولم يخف أحدًا سوى الله.

٦ – ومنها: قوة شخصية هذا الرجل؛ حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن، وآمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مُخلصين له بالعبادة إذا كان ربًّا لهم، كأنه أقام الحُجة عليهم بذلك، فإذا كان الله ربكم فواجب أن توحدوه، ولا تتخذوا معه آلهة، وهذا يدل على قوة شخصيته، زد على ذلك أنه تحداهم فقال: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾. فأنا لا أُبالي بكم، فاسمعوا إني آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه؛ لأنه ربكم.

٧ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان ربوبية الله تعالى العامة؛ حيث قال ذلك مع كونهم مُشركين كُفارًا، وهذا من الربوبية العامة.

٨ – يُستفاد من هذه الآية الكريمة: في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾. مع أن الساعة لم تقم بعد، ولم يدخل الناس الجنة، ويدل ذلك آيات من القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢]. تتوفاهم الملائكة ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من الهاء، و ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين تتوفاهم ادخلوا الجنة، فيُستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر. ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة:٨٣ : ٨٩]. فهنا قال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾. حين الموت، ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة:٨٨،٨٩]، ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ لأن هذا قيل له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾. ولم تقم الساعة الآن، فهو دليل على أن الميت يُنعم في قبره كأنه دخل الجنة؛ لأنه يلبس من الجنة، ويفرش من الجنة، ويُفتح له باب من الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها فكأنه دخلها.

٩ – **ومن فوائدها**: أن هذا الرجل ناصح في حياته وبعد مماته، في حياته دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وهذا دليل أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحًا حتى بعد موته يكون ناصحًا، وهذا الرجل تمنى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

١٠ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات وجود الجنة، وقد دل على ذلك آيات، وأحاديث كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]. والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في هذا كثيرة، وقد عُرِضَتْ الجنةُ والنار على النبي ﷺ وهو يُصلي صلاة الكسوف[1].

وهل تبقى الجنة أبدًا؟

الجواب: نعم، وهذا مُتفقٌ عليه بين أهل السُّنة. والنار موجودة الآن وهو مُتفقٌ عليه، بين أهل السُّنة، وهل تفنى؟ الصحيح المقطوع به أنها لا تفنى؛ لأن الآيات صريحة في ذلك،فقد ذكر الله تعالى تأبيد الخلود فيها في ثلاث آيات من كتابه، في سورة النساء، والأحزاب، والجن، في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]. في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥،٦٤]. الثالثة في سورة الجن قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٣]. فهذه ثلاث آيات صريحة في تأبيد أهل النار، ومع التصريح بالتأبيد فقد ذُكِر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفنى، ولكن هذا القول لا شك – مهما قاله من قاله – فإن قوله مردودٌ عليه.

١١ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: مِنَّةُ الله عز وجل على من آمن بالمغفرة والإكرام، فيتفرع على هذه الفائدة: أن الإيمان سبب المغفرة، وسبب لإكرام الله تعالى للعبد.

١٢ – **ومن فوائدها**: أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكروه، ويُستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾.

١٣ – **ومنها**: ما أشار إليه بعض الأدباء أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾. وهذا تخلية وإزالة، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾. هذا تحلية، ولهذا قيل: التخلية قبل التحلية.

١٤ – **ويُستفاد منها**: أن المغفرة تسبق الإكرام والرحمة ويدل لهذه القاعدة التتبع، فإن الغالب أن الله عز وجل إذا قرن بين الاسمين: الغفور والرحيم، يُقدم الغفور على الرحيم.

١٥ – **ومن فوائد الآية أيضًا**: إثبات الربوبية الخاصة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهذا من الربوبية الخاصة.

١٦ – **ومن فوائدها**: أن إكرام الله عز وجل لا يختص بهذا الرجل، بل هناك عالم يكرمهم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾. ففيه حث على أن يفعل الإنسان كفعله لينال ما ناله، ولم يقل (بما غفر لي ربي وأكرمني) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾. ليبيِّن أن الإكرام ليس خاصًا به، بل الإكرام موجود لكل من قام بعمل كعمله.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٥)، والنسائي (١٤٩٨)، وابن ماجه (١٢٦٥).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس:٢٨].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [(ما) نافية: ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾. أي: حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد أن هلك ومات على أيديهم، وقوله تعالى: ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ملائكة، فإن الملائكة جنود الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدَّثر:٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، فجنده الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، قال المؤلف: [ملائكة لإهلاك أحد]. وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء؛ لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصًّا بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها، ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: جنودًا لهؤلاء احتقارًا لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف مِن أن المراد بالجند الملائكة هو الصحيح، خلافًا لقول بعض العلماء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. أي: من وحي ورسل؛ لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المؤلف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

و﴿إِن﴾ قال المؤلف: [أي: (إن) بمعنى (ما)]. وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن)وهي:

١ - تأتي نافية.

٢ -شرطية، كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر).

٣ - وتأتي مُخففة من الثقيلة، مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن.

٤ - تأتي زائدة كقوله:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]. أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنه إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ﴾. قال المؤلف: [عقوبتهم]. يعني: ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. قال المؤلف: [صاح بهم جبريل]. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني: ما احتاجوا إلى عناء ولا جُند، ما هي إلا صيحة، ولم يُبيِّن الله سبحانه وتعالى الصائح، والمؤلف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا أن يَرِد تعيينه بدليلٍ صحيح، ولم يرد تعيين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صِيحَ بهم، ولا نجزم مَن هذا الصائح، المهم أنها صيحة واحدة، صِيح بهم فهلكوا عن آخرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. (إذا) هنا: فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرةً، ولهذا سُميت فُجائية؛ لأنها تُفاجيء وتأتي فورًا، فحين صِيح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم؛ لأن ﴿هُمْ﴾ ضمير يُفيد الجمع والشمول.

الفوائد:

١ - أن الله عز وجل قد يُنزل الملائكة لإهلاك المُكذبين، ووجهه أن نفي إنزال الملائكة على هؤلاء القوم يدل على إمكانه في غيرهم، وإلا لما صح النفي.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الملائكة جُند لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِن جُندٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الملائكة محلهم السماوات؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]. وكالملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يكتبون أعمالهم، والذين يكتبون المتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد وما أشبه ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حقارة هؤلاء القوم المُكذبين لهؤلاء الرُسل الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل؛ وذلك لذكره بصيغة الجمع، فقال ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ولا يُقال إن هذا يفيد التعدد، كما استدلت بذلك النصارى، وقالوا: إن الآلهة مُتعددة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات. ويُقال لهم: إن هذا التعدد للتعظيم، وكيف تستدلون بهذه الآيات المتشابهة، وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات:٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]. لكن النصارى كغيرهم من أهل الزَيغ يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، ومن رأى اتباع المتشابهات من النصارى وغيرهم في نصوص الكتاب والسُّنة تبين له العجب العُجاب، وأنه يجب علينا وجوبًا مؤكدًا طلب العلم لدفع شبهات هؤلاء؛ لأن هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»(١). هؤلاء يبثون في

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١/ ٣٤٩)، وأبو بكر بن أبي شيبة في «الآحاد والمثاني» (١/ ١٨٤)، والحديث أخرجه مسلم

الناس سمومهم، وهم الآن كما سمعنا يوصلون نشرات تدعو إلى النصرانية، ويرسلون أشرطة تدعو إلى النصرانية؛ لأنهم بدأوا يعرفون المحلات، ويعرفون العناوين ثم يُرسلون إليها، وعندنا من هذا عدد، يؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مُسجلة تدعو إلى النصرانية، هذه إذا وقعت في أيدي أُناس لا يعرفون، جُهلاء، على الأقل تركن نفوسهم، وإن كنت أستبعد جدًّا أن يتنصر أحد من المسلمين؛ لأن دين النصارى الذي هم عليه الآن كله ضلال، لكن لا شك أنه يوقع الشُبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أنه يجب على شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني على الأثر والنظر؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لا بد من أثر ونظر، فالأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]. لكن المُكذِّب لا يكفيه الأثر؛ لأنه لا يؤمن أصلًا بالأثر، ويحتاج إلى نظر وعقل تُدْحَضُ به حجته، والمهم أن مثل هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، يشبه بها النصارى على أن الله سبحانه وتعالى مُتعدد أكثر من واحد، وقد ذكرنا أنهم غفلوا بل عموا عن الآيات الواضحة الصريحة أن الله إله واحد، وأن الله كفَّر مَنْ زعم أن الله مُتعدد، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

٦ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: في هذه الآية دليل على أن الله أهلك هؤلاء القوم بصيحةٍ واحدة لم تكرر مرة أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها، لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل أهلكوا؟ نقول: الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصيحة أبهمها الله، يحتمل أنها صرخة، ويحتمل أنهم أُمروا بالهلاك، المهم أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

٧ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عز وجل، وأن من عارض الله أو ضاد الله مهما عظم فإن إهلاكه يسير على الله عز وجل، كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر:٤٩ – ٥٠] وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلَمْحٍۭ بِالْبَصَرِ﴾ لا يتباطأ ولا يتأخر، فلمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئًا قال له: كن. فيكون كلمح البصر، وهذا يدل على عظمة الله وقدرته.

٨ – **ومن فوائدها أيضًا** بيان قدرة الله تعالى، وأنه قادر على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقط بدون أي فعل، بل صوت مزعج يقطع القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

٩ – ومنها: بيان ذُلّ كل شيء لعظمته بحيث لا يكرر ولا يعيد ما أراده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾. لهذا أكدها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية، وهكذا جميع ما أمر الله تعالى به كونًا فإنه لا يحتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا

بلفظ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الصيحة أهلكتهم جميعًا لم ينجُ منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. وعلى هذا ترتيب فائدة أخرى وهي:

أن قبض ملك الموت لأرواح بني آدم أكبر مما نتصور، فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض هذه الأرواح وهي تموت في آنٍ واحد؟

فنقول: إنَّ (كيف) في الأمور الغيبية لا ترد؛ لأن هذه أمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبي لا تقل فيه: كيف؟ ولهذا لما قيل للإمام مالك- رحمه الله تعالى: كيف استوى؟ قال: (الكيف غير معقول). أي: لا يمكن أن نُدركه بالعقل حتى نسأل عنه.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل الثلاثة هلكوا جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة هي أنطاكية فإن زعمه باطل؛ لأن رُسل عيسى عليه الصلاة والسلام الذين أُرسلوا إلى أنطاكية، كانوا بعد موسى عليه الصلاة والسلام ولم يُهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة، هكذا قال كثير من العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]. قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة، وهذه الآية ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تدل على أنهم هلكوا.

قال الله تعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

التفسير

- قال المؤلف - رحمه الله: [هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأُهلِكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانُكِ فاحضري]. قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾، الحسرة: شدة الندم والتألم والحزن على ما مضى، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] أي: ندمات وعناء، وقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾. قيل: إن القائل هم المُكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرةً على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من أتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

وقيل: إن التحسر من الله عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنى أنه يبين حسرة

العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنى ﴿مِّن﴾، يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المُكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم، وهذا أقرب إلى السياق، لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾. فالكلام كلام الله عز وجل، لكن لما كان التحسر ندمًا وألمًا صار الله تعالى مُنزهًا عنه، فوجب أن يكون المُراد: يا حسرةً واقعةً عليهم. أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبينه آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المُراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليست الخاصة؛ لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة. فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مُكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسل، قال المؤلف: [ونداؤها مجاز]. يعني: ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى مَن يعقل، وما لا يعقل فليس نداؤه على سبيل الحقيقة؛ ولهذا قالوا في قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّـــوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَـــاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

قالوا: أن هذا يُراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور؛ لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء يأتي ويذهب، يقول تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. (ما) نافية و(مِن) زائدة؛ لوقوعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظًا، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة). وليس في القرآن حرف واحد لا يُفيد معنى أبدًا، فكل ما في القرآن فإنه يشتمل على المعاني، ولكن قد يكون زائدًا من حيث الإعراب فقط؛ ولهذا فإعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضمة مُقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائدتها التنصيص على العموم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعُم، فإذا جاءت (مِن) صارت أدله على العموم مما لو حُذفت، ولهذا قالوا: إن فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾. الرسول عند عامة أهل العلم هو: بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمى جبريل عليه الصلاة والسلام رسولًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩،٢٠]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أي: إلا كانوا يستهزءون به، ولكن قدم المعمول وهو (به) لإفادة الحصر، ولمناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين: فائدة لفظية، وهي مُراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، كأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا الرسول). وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزؤون إلا بالرسل، والاستهزاء هو

السخرية والهزء.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** في هذه الآية دليل على شدة تحسر العباد المُكذبين للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾؛ ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يفيد أحيانًا التعظيم والشدة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المُكذبين للرسل سيجدون أعمالهم حسرات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عدل الله عز وجل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾. فلن يُعاقب الله أحدًا إلا بذنب، بل إنه عز وجل قد يعفو عن الذنب إذا كان دون الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. وأن الرسالة عامة في كل أمة؛ لأنه قال: ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾. ثم قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. فكل العباد قد قامت عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسول فأهلكوا جميعًا، ثم قيل: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسل كفر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٥،٦٦]. فالاستهزاء بالكتب كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾. والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعيرة واحدة كفر؛ لأن الاستهزاء بالشعيرة الواحدة استهزاء بكل الشريعة، كما أن الكفر بالشعيرة الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة:٨٥]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء:١٥٠،١٥١]؛ فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعيرة واحدة منها، فقد كفر كُفرًا تامًّا بالجميع، ومن استهزأ بشيءٍ من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب، حتى بالشيء المندوب لو استهزأ فقد كفر؛ لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض، بل من كره ما أنزل الله فقد كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٩]. ولا تحبط الأعمال

إلا بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهيِّنة؛ ولهذا يجب على المرء الرضى بكل ما شرع الله تعالى، فيرضى مثلًا بوجوب الصلاة، وتحريم الخمر، ووجوب الزكاة، وتحريم الربا، وعلى هذا فقِسْ؛ فكل شيء يجب أن ترضى به وتقبله، ثم إن عملت به اثبْتْ، وإن لم تعمل به عوقبت واستحققت العذاب إذا كان واجبًا، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنه إذا تركته كفرت، فمثلًا يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه كفر، وإذا آمن بتحريمه وقبله ورضي بالتحريم ولكن فعل الربا فلا يكفر، وحكمه حكم العُصاة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ما من رسول أُرسل إلا وجد من يستهزيء به ومن يؤمن به، ولكن منهم من لا يجد من يؤمن به؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث السبعين ألفًا: «وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١). فالاستهزاء حاصل لكل رسول.

مسألة: واختلف العلماء فيمن سب الله تعالى أو رسوله ﷺ هل تُقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: إنه لا تُقبل توبته، بل يقتل قتل المُرتد فلا يُغسل، ولا يُكفن، ولا يُصلى عليه، ولا يُدفن مع المسلمين، وفي الآخرة أمره إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يعذبه، وإن كان الله تعالى علم منه كذبها فإنه يُعذب في الآخرة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد - رحمه الله تعالى.

والقول الثاني: تصح توبة من استهزأ بالله تعالى أو رسوله ﷺ، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يُقتل، وأما من سب الله تعالى أو استهزأ به فإنه لا يُقتل، وهذا هو الصحيح أن الإنسان إذا سب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فأن تاب قُبلت توبته، لكنه يُقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يُقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالله تعالى، والفرق بينهما، أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه حق شخصي، وأما الاستهزاء بالله تعالى وسبه فهو حق لله عز وجل، وقد أخبرنا الله عز وجل أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب، وإذا قبل الله توبته ارتفع عنه مُقتضاها وهو القتل، أما الساب للرسول عليه الصلاة والسلام فإننا لا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفى عن حقه؛ لذا وجب علينا أن نأخذ به.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

التفسير

قال المؤلف: [أي: أهل مكة القائلون للنبي ﷺ لست مُرسلًا، والاستفهام للتقرير أي: علموا]. الرؤية هنا فسرها المؤلف برؤية العلم؛ وذلك لأنهم لم يُشاهدوا هذا بأعينهم، وإنها علموه بها بلغهم من الخبر، وقوله: [أي: أهل مكة]. الصحيح أن هذا ليس خاصًّا بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المؤلف - رحمه الله - جعله خاصًّا بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يُقال: حتى وإن كانت الآية مكية، فإن المُكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أفواجًا إلا بعد فتح مكة، وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ﴾. يقول المؤلف: [(كم) خبرية بمعنى: كثيرًا، معمولة لما بعدها، مُعلقةٌ لما قبلها عن عمل]. ﴿يَرَوْا﴾ بمعني: العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله: علقتها عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظًا؛ لأن التعليق يبطل العمل لفظًا فقط لا محلًّا، والإلغاء يُبطله لفظًا ومحلًّا، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وإما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يُسمى الغاءً، والثاني: يُسمى تعليقًا، والأول: يُسمى إعمالًا، فكم هنا علقت ﴿يَرَوْا﴾ عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي ﴿يَرَوْا﴾ ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدر كما قال المؤلف [بمعنى: كثيرًا].

ثم قال: [والمعنى إن ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كثيرًا ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان الإبهام الواقع في كم، و﴿الْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكون دون ذلك، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يُهلكها الله عز وجل قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين، لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [أي المُهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المُكذبين]. وفي نسخة [﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكيين]. لأن الخطاب لأهل مكة، فالمكذبون هم المكيون، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين أعم، فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا، بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال المؤلف: [أفلا يعتبرون بهم، وأنهم ... - إلى آخره - بدل مما قبله

برعاية المعنى المذكور]. الذي قبله هو قوله: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾. كأنه قال: «ألم يروا أنهم لا يرجعون»، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى، أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنها جملة مستقلة، وليست تابعة لها في الإعراب، ولكنها تابعة لها في المعنى.

والخلاصة: أن الله بين في هذه الآية بيانًا يُقرر به هؤلاء المُكذبين بأنه أُهلك كثيرًا من الأمم السابقة، وأن هؤلاء المُهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المُكذبين؛ لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الرجوع إليها حتى يُستعتبوا، فالواجب على هؤلاء المُكذبين أن يعتبروا بهم.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير المكذبين بما يقرون به، أنه أهلك من سبقهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾.

٢ – **ومن فوائد الآية:** أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة؛ لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مفيد للتوبيخ؛ لأن الواجب على من نظر في عاقبة المُكذبين أن يرتدع عن الكذب.

٣ – **من فوائد الآية أيضًا:** أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾. فلا أحد يُبعث قبل يوم القيامة،اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يُحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله الدجال ثم يُكلمه ويُخاطبه فيقوم حيًّا، وإلا فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [إن نافية، أو مُخففة]، قوله: نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن)، لكنها خففت و(أو) في كلام المؤلف ليست للتخيير بل هي للتنويع؛ لأنها على حسب القراءة الآتية في ﴿لَّمَّا﴾. ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل الخلائق، وهي مبتدأ على التقديرين، أي على أنها نافية وعلى أنها مُخففة؛ لأن المخففة تعمل في الجملة، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ على كلا الوجهين،

أي: على أنَّ (إن) نافية، أو مُخففة، و﴿لَّمَّا﴾. قال المؤلف: [بالتشديد بمعنى إلا، أو بالتخفيف فاللام فارقة و(ما) مزيدة]. ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا، وعلى هذا تكون إن نافية، والتقدير: (وما كل إلا جميع لدينا مُحضرون). وبالتخفيف فاللام فارقة بين «إن» النافية و «إن» المخففة و(ما) مزيدة، والتقدير على هذا: (وإن كلٌّ لجميعٌ لدينا مُحضرون)؛ لأن (ما) زائدة، فإذا أردنا أن نُعرب هذه الآية نقول: (إن): نافية على قراءة التشديد، و(لما) بمعنى إلا.

الإعراب الثاني: (إن) مُخففة على قراءة التخفيف، واللام فارقة وهي للتوكيد، و(ما) زائدة، والتقدير على هذا: (وإن كلٌّ لجميع لدينا). ﴿جَمِيعٌ﴾ قال المؤلف: [خبر المبتدأ أي: مجموعون]. المبتدأ ﴿كُلٌّ﴾.

فإن قال قائل: كيف يكون خبر لـ (كل)، و(كل) تدل على الشمول؟

فالجواب: أن (كلًّا) تدل على الشمول، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع، فتقول: أكرم كل القوم، وقد يكون القوم متشتين كل واحد بجانب، لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الاجتماع ففيها زيادة على الشمول، وهي جميع الناس، فكل الناس يحضرون إلى الله عز وجل، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية ﴿جَمِيعٌ﴾. إذًا فلا يقول قائل: إن المبتدأ هو نفس الخبر؛ لأن كلمة ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول و ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشمول، نقول: لا؛ لأن الفرق بينهما أن (كل) تدل على الشمول، وإن كانوا متفرقين، و(جميع) تدل على الشمول مع الاجتماع.

قال المؤلف: [مجموعون ﴿لَّدَيْنَا﴾ عندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب خبر ثان]. أي: خبر ثان لـ (كل) فصار ﴿كُلٌّ﴾، لها الآن خبران الأول: ﴿جَمِيعٌ﴾ والثاني: ﴿مُحْضَرُونَ﴾، ومعنى هذه الآية: ما كان واحد من هؤلاء إلا مُحضر لدى الله عز وجل يوم القيامة، والناس جميع.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: إثبات البعث لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث يجمع هذه الخلائق جميعًا في مكانٍ واحد؛ لقوله: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية**: وجوب الاستعداد لهذا اليوم؛ لأن الله تعالى لم يُخبرنا به لمجرد الاطلاع، ولكنه أخبرنا به من أجل أن نستعد له؛ حتى نكون على أهبة لما سنُحاسب عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث خبر مُقدم، ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد، ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالماء، مبتدأ]. الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء. وقول المؤلف: [خبر مُقدم]. المبتدأ الأرض، وقوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد يعني أن فيها قراءتين (المَيِّتة) و(المَيْتَة)، وهذا دليل على أن الميتة كما يُطلق على الميت الذي قد فارقت روحه جسده، يُطلق أيضًا على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن المَيّت لمن سيموت) و(المَيْتَ لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميتة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميّتة، والميتة، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ و ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفة و ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة للأرض؛ ولهذا قال المؤلف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها)؛ ليُبين أن الميتة وأحييناها كلاهما صفة للأرض، ولكن الصحيح أن ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ جملة استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض؛ لأن محط الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحياها بعد موتها، أما على رأي المؤلف فإذا جعل ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة، فإنه يشكل علينا أن هذا مُخالف للقاعدة المعروفة: (أن الجمل بعد المعارف أحوال). والجواب على ذلك أن يُقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس، فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني). ومنه أيضًا على قول بعض المُعربين: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]. على أن جملة ﴿يَحْمِلُ﴾ صفة الحمار؛ لأن المُراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمار يحمل أسفارًا، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحياها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وعليه فنقول: وجه الآية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ معطوف على ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾، يعني الأرض ميتة أحييناها بالزرع، فقام

الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعًا لا يفيد الآدمي، وإنما يفيد البهائم، ويفيد الآدمي عند الضرورة، لكن الفائدة العظمى منه ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض. ﴿حَبًّا﴾ كالحِنطة، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾وقوله: ﴿فَمِنْهُ﴾، أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول؛ لأنه لو كان صعبًا لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، فقدم المعمول لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المتيسر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾، أي: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حبًّا، ويكون ثمرًا، الحب من الزروع، والثمر من الأشجار، قال:﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين: المفعول الأول: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، والثاني: ﴿فِيهَا﴾، و ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سُميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستتارته به، وأصل هذه المادة – الجيم والنون – تدور على هذا المعنى، أي: على الاستتار والخفاء، ومنه سُمي القلب: جنانًا؛ لاستتاره، ومنه سُمي: الجن؛ لاستتارهم وخفائهم، ومنه سُمي الجُنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستتار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره، وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ النخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوت لا يحتاج إلى مؤونة؛ ولهذا يُقْتَاتُ رطبًا ويابسًا، فَيُقْتَاتُ رطبًا كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، ويابسٌ كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤونة طبخ، وينتفع به رطبًا ويابسًا.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾، قال المؤلف [بعضها] . ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس ويكون هذا عامًّا، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيونًا كثيرة، وأصنافًا متنوعة، فمنها العيون الجارية الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالذي يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل وعلى رحمته بعباده.

يقول الله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. لقوله:﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مُضمرة على مذهب البصريين، وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال المؤلف – رحمه الله: [فتحتين وبضمتين]. أي: ثَمَره، وثُمُرِهِ. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما)؛ لأن الله عز وجل ذكرنخلًا وأعنابًا فهما

صنفان، ولم يقل (من ثمرهما)، بل قال: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾. أي: ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المؤلف: [﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لم تعمل الثمر، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله تعالى عليهم]. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، في ﴿وَمَا﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف، يعني أن هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم تعمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنها بمعنى: الذي أي: (مِن الذي عملته أيديهم)؛ لأن الناس قد يعملون شيئًا يُصلحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون ويتفكهون به، فهناك أنواع الحلوى تُصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرين: امتن بما يخرجه هو عز وجل من هذه الثمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نحدث فيه شيئًا نأكله كما يقولون طازجًا، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلًا من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله عز وجل امتن على العباد بالأمرين جميعًا، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: (أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما). فنقول: أن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدينا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضًا ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد، فكل هذا نعمة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. الاستفهام هنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مُقدر يُعلم من السياق، يعني: أَغفِلوا عن ذلك فلا يشكرون؟ أو أَكفِروا به فلا يشكرون؟ لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المُتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم:

إما غافل ويرى هذا أمرًا مُعتادًا وكأنها شيء جارٍ على العادة بدون أن يكون لله فيه مِنَّة، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم؛ لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيث يُصاب ضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلا من جاع، ولا قدر الري إلا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأُنس إلا مَنْ فقد الأنيس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن يكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ﴾ [النحل:٨٣].

كُفرًا بالنعمة وبطرًا يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]. وما

أشبه ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. الشكر: القيام بطاعة المُنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له. فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النعم عونًا له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكرًا؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنما أنعم الله علينا هذه النعم؛ لنقوم بعبادته والتقوى عليها، والشكر مُتعلق بثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فشكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَّ بها، إن كانت نعمة إيجادية، أو كانت دفع نقمة فإنها من الله وهو المانّ بها، فلا يجعل ذلك من أسباب عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وشكر اللسان: أن يثني الإنسان بها على الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١]. لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفرًا لا شكرًا.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المُنعم عز وجل، ومن شكر الجوارح: أن يُظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنيًّا ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره؛ لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمةٍ أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما مُتفقان؟

فالجواب: أن بينهما فرقًا:

أولًا: أن الحمد متعلقه اللسان فقط؛ لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.

ثانيًا: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المُتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: أشكر الله على كمال صفاته، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيث المتعلق.

الفوائد:

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل على إحياء الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

٢ - ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن إحياء الأرض بعد الموت مُشاهَد، ويُستدل به على إحياء الله الموتى عند بعثهم يوم القيامة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩:١١] والآيات في هذا كثيرة.

٣ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** جواز وصف الجماد بالموت والحياة، فإنه ليس خاصًّا بذي الروح المتحرك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾. فوصَفَها بالموت، ووَصَفَها بالحياة.

٤ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾. بضمير العظمة.

٥ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان نعمة الله عز وجل بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار، الحبوب في قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾. والثمار في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان حاجة العبد لربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾. وكأن هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان أنه لا يمكن أن يأكل إلا من هذا الذي أخرجه الله له، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادرًا فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخرجناه لك.

٧ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المُظلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾. فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب!

٨ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمر يؤكل بلا تعب، وثمر يُقتات رطبًا ويابسًا.

٩ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في تفجير الأرض عيونًا، هذه الأرض اليابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [البقرة:٧٤]. وهذا من عظيم قدرة

الله، وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس، إما حجرٌ مُعينًا - كما قيل - يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه فيتفجر اثنتي عشرة عينًا، على قدر قبائل بني إسرائيل، وهذه من تمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

١٠ - ومنها: بيان احتياج النخيل والأعناب إلى الماء، وأن ثمره يكثر بحسب الماء؛ لأنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. فدل هذا على أن الماء له أثر في كثرة الثمار وطيبها، وهذا هو الواقع.

١١ - ومنها: الرد على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. والنصوص الدالة على إثبات حكمة الله عز وجل كثيرة جدًّا: منها ما صرح الله تعالى به مثل قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥]. ومنها ما صرح الله به على وجه السلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]. ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدها، فإن إثباتها يدل على الثبوت، ونفي ضدها يدل على كمالها، وأنها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدها، أو بفقد كمالها، ولا شك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله عز وجل، أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم، وأن يكون الله عز وجل يفعل الشيء سفهًا وعبثًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

١٢ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يؤكل، أرأيت لو أن هذا الثمر صار مُرًّا، هل يُنتفع به؟! ولهذا قال الله عز وجل في الماء: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٦٨:٧٠]. فلم تستطيعوا شربه، هذا الثمر جعله الله شهيًّا للنفوس، تأكل منه، وتتغذى به الأبدان؛ ولهذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. فلو شاء الله عز وجل لجعل هذا الثمر فاسدًا، فقد يكون حلوًا لذيذًا شهيًّا، لكن يجعل الله فيه آفة تُفسده، وهذا موجود بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويؤكل من ثمره.

١٣ - **ومن فوائدها:** أننا لا نملك لأنفسنا أن نوجد هذا الثمر، وأن ذلك مُجرد فضل من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. فإن هذا ليس من صنعنا، فلو اجتمع الناس كلهم على أن يُخرجوا رطبة واحدة أو حبة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ومع هذا يخلق الله عز وجل هذه العناقيد التي لا تُحصى كثرةً، وهذه الأعذاق التي لا تُحصى كثرةً، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غاية ما هنالك أننا نوجه هذا الثمر حسب ما علمنا الله عز وجل، فنأخذ من طلع الفحل ما نجعله في طلع النخلة حتى يطيب الثمر، أما أننا خلقناه وأوجدناه فلا. وهذا على جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ نافية.

١٤ - **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله عز وجل بها علمنا مما نصنعه من هذه الثمار، وعلى وجهٍ يُخالف ما خُلقت عليه، حتى يتكون من هذا طيب على طيب؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. فإن الله تعالى علمنا كيف نصنع هذه الثمار على وجهٍ نتلذذ بها، وننتفع بها أكثر مما هي عليه في الخلقة، وهذا على جعل (ما) موصولة.

١٥ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** وجوب شكر نعمة الله عز وجل؛ لأن الله وبخ من لا يشكر، والشكر مع كونه طاعة الله يُثاب الإنسان عليه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه، فهو سبب للمزيد من هذه النعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

فإن قال قائل: نحن نرى كثيرًا من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها؟ فبماذا نُجيب عن هذه الآية؟

الجواب: على هذا أن نقول:

أولًا: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة، بل العقوبة تكون بفقدان النعمة، وتكون بقسوة القلب، وبمرض القلب، وإن كان أكثر الناس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله سبحانه وتعالى وعن ذكره هذه أكبر عقوبة، ثم هؤلاء المُنعَّمون في أبدانهم لا تظنون أنهم مُنعَّمون في قلوبهم أبدًا، ففي قلوبهم من الضيق والحرج، وعدم الصبر على القضاء والقدر ما يجعلهم دائمًا في نار، ولا تجد أطيب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. فهؤلاء قد عوقبوا عقوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها، وهي قسوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر، والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضى بالله ربًّا، ولا بشرعه دينًا.

ثانيًا: نقول أن هذه النعم عجلت لهم عقوبة واستدراجًا؛ ولهذا لما جاء عمر ﷺ إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو على سرير مُخيط من الليف فإذا هو قد أثر في جنبه، فبكى فقال له عليه الصلاة والسلام: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: يا رسول الله، فارس والروم يُنعمون بما نُعموا من الدنيا وأنت على هذه الحال؟ فقال: «يَا عُمَرُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»[1]. فهؤلاء يُعاقبون بهذه النعمة التي تدر عليهم؛ لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشد عليهم؛ لأنهم فارقوا دنيا تعلقت بها قلوبهم، ونُعِّموا بها ثم أعقبها هذا العذاب - والعياذ بالله - فصاروا أشد حسرة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

ويُذكر عن ابن حجر العسقلاني – رحمه الله – وهو قاضي القضاة في مصر أنه مر ذات يوم بيهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تعب من الزيت، وثيابه وسخة، وقاضي القضاة بمصر يمشي على عربة تجره الخيول، والناس حوله يمينًا وشمالًا، فأوقف اليهودي الموكب وقال: يا قاضي القضاة كيف تكون أنت في هذا الحال وأنا في هذا الحال ورسولكم يقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»(1). فقال له ابن حجر – رحمه الله: ما أنا فيه من النعيم في الدنيا هو سجن بالنسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيه من التعب والبلاء هو بالنسبة لعذاب الآخرة جنة، فأنت الآن في جنة؛ لأنك سوف تنتقل إلى عذاب لا تتصوره. فلما قال ذلك قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحمدًا رسول الله فأسلم. فهؤلاء المُنعَّمون نعيمهم في الحقيقة شقاء وعذاب، وإن نعمت أجسادهم، لكن أكثر الناس في غفلة عن هذا، ومع الأسف أن هذا الداء دب إلى المسلمين، فصار أكثر المسلمين اليوم لا ينشدون إلا هذا النعيم؛ أعني: نعيم الدنيا، وفي غفلة عن نعيم الآخرة؛ ولهذا تجدهم يتحدثون دائمًا عن الترف واللهو وما أشبه ذلك، كأنهم ما خُلقوا إلا لهذا، وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبه مُعلقًا بالدنيا، ولا ينظر إلا إلى التنعم بها، ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إن الدنيا إذا جعلت وسيلة للآخرة، فصارت من الآخرة في الحقيقة، لكن ننكر أن تكون الدنيا أكبر هَمِّ الإنسان، كأنها خلق لها فقط، وهذا من نقص دينه، ونقص عقله، فكيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعلها مهمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمضمون، وليس بمُخلَّد؟! قال الله تعالى مُنكرًا على قوم هود على لسان هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩]. فأنت لست بخالد، فكيف تجعل هذا الممر الذي أنت تعيش فيه أكبر همك، مع أنك لا تدري متى تُفارقه؟! كل من هؤلاء المُترفين لا يدري متى يموت، لكنه يدري أنه سوف يبقى في الآخرة – إن كان مؤمنًا بها – ومع هذا يعمل للدنيا التي لم يُخلق لها، ويدع الآخرة التي خُلق لها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف – رحمه الله: [الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الحبوب وغيرها،

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة].
﴿سُبْحَٰنَ﴾ تأتي دائمً منصوبة على أنها مفعول مُطلق حذف منها العامل وجوبًا، وأصلها تسبيحًا لله، وتسبيحًا مصدر سبح، فالعامل محذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسبيح حُوِّل إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعد في الماء، فمعنى التسبيح في سبحان الله تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله عز وجل أمران:

أحدهما: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]. فكل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبدًا، فكل شيء سواء مما تنبت الأرض، أو من بني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون، فإنه مكون من شيئين وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾. فيه تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به؛ ولهذا جاءت الآية هنا: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾. فالمخلوق لا بد فيه من تعدد، والخالق مُنزه عن التعدد، وهذه هي الحكمة -والله أعلم- في أنه قال: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾. ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج)، بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾. لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المتفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبنو آدم لا بد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق عز وجل واحد منفرد، لا يُماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: تنزيه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيب؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: التنبيه على وحدانيته عز وجل، ومخالفته للمخلوقات لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾. فلم يقل: (سبحان الله) بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾. والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزه الله عنه قد ورد في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]. فلما ذكر حال الخلائق ذكر حال الخالق؛ لأنه عز وجل يبقى مع فناء غيره، كذلك هنا المخلوق كله مزدوج لا بد فيه من زوجين؛ لقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]. أما الرب عز وجل فإنه واحد؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ

كُلَّهَا﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ما من شيء مخلوق إلا وفيه زوجان؛ لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهذا لفظ من أعم ما يكون من الكلمات.

٤ - **ومن فوائد الآية أيضًا**: أن بني آدم على أصناف متنوعة كما كان ذلك أيضًا فيما تنبته الأرض، بل وفي الأرض نفسها قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد:٤]. فإثبات التجاور لها يقتضي أن كل واحد منها يُخالف الآخر؛ لأن الجار غير جاره، وكذلك هنا في قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾. يدل على أن في الأرض أصنافًا منوعة من النباتات، كذلك فيما أي: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. أي:خلق الله عز وجل من بني آدم أصنافًا: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه، وهكذا ليعتبر الإنسان قدرة الله عز وجل على خلق هذه الأشياء المتضادة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجهل للإنسان، وأنه لا يحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهذا إذا أضفتها إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. تبيَّن لك مدى جهل الإنسان في الأمور.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

❁ التفسير ❁

نقول في إعرابها ما قلنا في آية ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾: فيكون الليل مبتدأ، وآية خبر مُقدم، ونقول في ﴿نَسْلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾، أي أنه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية، قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. «﴿نَسْلَخُ﴾» يقول المؤلف [نَفْصِل]. وسمى الله هذا الفصل سلخًا؛ لأنه يُشبه سلخ الجلد من البهيمة وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾؛ لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يُسلخ من البهيمة، وأنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئًا فشيئًا، هكذا ضوء النهار بالنسبة لليل يسلخ الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يُسلخ الجلد من البهيمة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. أي: داخلون في الظلام. ﴿فَإِذَا﴾ فجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئًا فشيئًا، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظُلمة كاملة،

وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، ويكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئًا فشيئًا، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظُلمة شيئًا فشيئًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** هذه الآية العظيمة في الليل؛ حيث يسلخ الله تعالى منه النهار سلخًا، كما يُسلخ الجلد من الشاة، وهذا يدل على أنه يأتي شيئًا فشيئًا.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الأصل هو الظلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، فهذا يدل على أن الأصل هو الظلام، وأن النهار طارئ عليه؛ ولهذا يُسلخ منه وهو كذلك، فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثة وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلام ويأتي النور بعده.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تذكير الخلق بهذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾. وأنه لولا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يُسْلَخ من الليل لكنا دائمًا في ظُلمة، وهذا بلا شك مُتعب للناس وضار بهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

❁ التفسير ❁

الواو حرف عطف، و(الشمس) أيضًا معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضًا ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، ويجوز أن تكون الواو استئنافية، والشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المؤلف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك].

أي: سواء قلنا الجملة استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا أن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المُضيئة التي يصل ضوؤها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟! الجواب: لا أحد يستطيع. إذًا فهي آية من آيات الله، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمر، وتدفئة الأرض، والنور العظيم، كم طاقة يستفيدها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء، طاقة عظيمة

سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغني بالشمس عند تدفئة المنازل، أو فيما يحصل بالإضاءة، فإذًا هذا أمرٌ لا يُقدر له ثمن، أما إنضاج الثمر، وإيباس الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدِّث ولا حرج، فهي آية عظيمة من آيات الله عز وجل.

وهي آية في مسيرها، قال تعالى: ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ يعني تسير جريًا، والجري هو المشي بشدة، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جدًّا لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، أو قد يُعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها، لكن تأمل الطائرة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا، ومع ذلك نراها تمشي ببطء؛ لبُعدها عنا، فما بالك بالشمس؟! نحن نراها تسير لا شك في هذا، حتى إنك إن نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعد، وهذا يدل على أنها تمشي مشيًا عظيمًا، ومع هذا وهي بعيدة جدًّا ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريانها سريع جدًّا، وقد عُلم تقديره عند الفلكيين الآن، وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾. قال المؤلف: [إليه لا تتجاوزه].

والمستقر موضع القرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]. وقال: ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١]. فالمستقَر موضع القرار، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]. فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زمني؟ أو قرار مكاني؟ أو هما جميعًا؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر ﷺ أنه كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ وَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَتَسْتَأْذِنُ فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا»(١)، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكاني؛ لأنها تسجد تحت العرش، وهذا السجود لا نعلم كيفيته؛ لأن الشمس ليست كالبشر حتى يُقاس سجودها بسجود البشر، بل هي مخلوق أعظم، ولا ندري كيف تسجد؟ فإذًا لا يرد علينا السؤال: هل هي تسجد وهي سائرة أو تقف؟ وكيف يصح أن نقول: إنها تسجد وتستأذن وهي لا تزال مستمرة في الأفق؟ كل هذه الأسئلة إيرادات نجيب عليها عند ذكر الفوائد.

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيامة. أي: عند مُنتهى سيرها في يوم القيامة، أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر مُنتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا؛ لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مُستقر زمني مكاني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلا الذي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

خلقها سُبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾. كل شيء له غاية، وكل شيء له مُنتهى إلى الله عز وجل. قال المؤلف: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جريها، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جريانها لمستقرها. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر؛ فلهذا أتى باسم ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معانٍ:

أولًا: العزيز في قدره.

ثانيًا: العزيز في قهره.

ثالثًا: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يُماثله أحد، وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المُطلق، يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأما في امتناعه فالمعنى: أنه ممتنع عن كل نقصٍ وعيب.

أما ﴿الْعَلِيمِ﴾ فمعناه: ذو العلم الكامل الشامل، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وشاملٌ لكل صغير وكبير، قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وما كتب في كتاب مبين إلا بعد أن كان معلومًا عند الله عز وجل، إذ المجهول لا يُكتب، فهذا يدل على سعة علم الله عز وجل، وأنه مُحيط بكل شيءٍ جملةً وتفصيلًا.

فذكر الله هذين الاسمين: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لمناسبة المقام؛ لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن الشمس تجري أي تسير، وهذا هو الواقع، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي، وليس المُراد أنها تجري برأي العين، وأن الذي يدور هو الأرض، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه، فإذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وجب أن نقول: إن الشمس تجري، ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

٢ - **ومن فوائدها**: أن هذه الشمس - التي هي دائمة ودائبة- لا بد لها من مُنتهى؛ لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ن جميع الخلائق لها مُنتهى، فكل ما في الدنيا من خلائق له مُنتهى، وسوف

يزول، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

٣ – ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشمس مُقدرة تقديرًا بالغًا مُنظمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾. ويشهد لهذا الواقع، فإن هذه الشمس منذ خلقها الله إلى أن تزول وهي في فلكها لا تتقدم ولا تتأخر عن السُّنة التي أمرها الله عز وجل أن تكون عليها، ولا ترتفع ولا تنخفض، حتى قيل: إنها لو تنخفض مقدار شعرة لأحرقت الأرض، ولو ارتفعت مقدار شعرة لجمدت الأرض، ولكن الله عز وجل جعلها على هذا التقدير البديع المُحكم الذي لا يتغير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

٤ – ومن فوائد الآية الكريمة : إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز العليم، ويؤخذ منهما: إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم، ويؤخذ منهما أيضًا: إثبات الأثر، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد، وعليم بكل شيء.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩].

التفسير

يقول المؤلف – رحمه الله: [القمر بالرفع، والنصب]. ففيه وجهان في الإعراب: القمرُ بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ﴿قَدَّرْنَٰهُ ﴾. والقمرَ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور، فيكون من باب الاشتغال، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرُّجحان؛ لأن الجملة التي قبله ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ جملة اسمية، خبرها فعل، فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنه يترجح الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية.
قال المؤلف: [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده]. يعني: يُفسره المذكور. والتقدير على هذا: (وقدرنا القمر منازل). ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس: التقدير وقدرنا القمر قدرناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تُقدر فقل: التقدير (وقدرنا القمر منازل).

فإذا قلت: لماذا لم يقل عز وجل (وقدرنا القمر منازل).

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسند هذا إليه مرتين، أي: أسند الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين: مرة بذكره اسمًا ظاهرًا، ومرة بذكره اسمًا مُضمرًا ﴿قَدَّرْنَٰهُ ﴾. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾. وتقدير الله عز وجل للقمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نشاهده، يتغير كل ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التقدير ما

تغير، لكنه مُقدر منازل ثمانية وعشرين منزلًا، على حسب النجوم المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحد إن كان تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتُسمى هاتان الليلتان ليالي الاستسرار - يعني: الاختفاء - فيختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير.

والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى؛ ولهذا يبدو صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره؛ لأن نور القمر مُستمد من نور الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة؛ لأنه جرم مُظلم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]. فهو جرم مظلم لا يستفيد نورًا إلا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة؛ ولهذا يمتلىء نورًا فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذٍ؛ فيمتلىء نورًا، والجزء المنير من القمر هو الذي يلي الشمس؛ ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالًا، ويكون عنها جنوبًا فنجد فتحته نحو الجنوب؛ ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر - أي فتحة قوسه - دائمًا إلى المشرق أو الجنوب، هذا ليس بصواب، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره، وقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾. أي: عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم، والعرجون هو: أصل الشماريخ الذي في طلع النخل، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر، فشبه الله عز وجل القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم، أي: أنه يبدو دقيقًا أصفرًا متقوسًا.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القمر آية من آيات الله عز وجل؛ حيث هو موضوع في فلكه، ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة، فليس مُطلقًا ولكنه مُقدر بمنازل ينزلها كل ليلة، والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عدد السنين والحساب، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]. حتى إن العالمين بمنازل القمر يعرفون الليلة من الشهر، وإن كانوا لم يحسبوا من أول الأمر، بناءً على معرفة المنازل؛ لأن هذه المنازل لا تتغير، وحلول القمر فيها أيضًا لا يتغير، فهي مُنظمة من عند الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القياس؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾. وكل تشبيه، أو مثل في القرآن الكريم فإنه يدل على القياس؛ لأن التشبيه، أو المثل إلحاق شيء

بشيء لعلة، وهي التي تُسمى في البلاغة وجه الشبه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إطلاق القديم على غير الله خلافًا للمتفلسفة، أو الفلاسفة الذين يقولون: إن أخص وصف لله سبحانه وتعالى هو القِدَم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله، والقدم لا يدل على الأزلية، فهذا العرجون وصفه الله بأنه قديم، ومع ذلك فإنه ليس أزليًّا، إذ إنه حادث بعد أن لم يكن، وبه يتبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إن أخص وصف لله عز وجل هو القدم. ولو قالوا: أخص وصف هو الأولية، لكنا نوافقهم على ما قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، أما أن نقول: إن القدم أخص وصف لله مع أنه يوصف به الحادث فهذا لا يكون، ولا يصح.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** فيها دليل على قدرة الله من حيث نور القمر، حيث يبتدئ ضعيفًا، ثم يزداد في القوة، ثم يرجع إلى الضعف، فإن هذا من قدرة الله عز وجل، إذ لو شاء لجعله ممتلئًا دائمًا، أو ناقصًا دائمًا.

٥ - **وفيها أيضًا من الفوائد:** الإشارة إلى حال الإنسان، فإن الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مطابق لحال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم:٥٤]. فحال الإنسان مساوية تمامًا لحال القمر، فالقمر يبدو ضعيفًا، ثم يزداد في القوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسبة لحياته.

۞ قال الله تعالى:

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠].

۞ التَّفْسِيرُ ۞

لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقرٍ لها، وأن هذا أمر مُقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود بعد امتلائه نورًا فيصير كالعرجون القديم، بَيّن أن هذا النظام لا يمكن أن يتصادم أبدًا؛ لأنه مُقدَّر من عند الله عز وجل العزيز العليم منازل لا يتجاوزها ولا يتعداها، قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾. يقول المؤلف: [يسهل ويصح]. لكن الأَولى أن نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تُدرك القمر. وقد مر علينا أنه إذا جاءت كلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى:

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ﴾ [مريم:٩٢]. يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»(١). أي أن ذلك مستحيل. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي﴾ أصلها: (الشمس لا ينبغي لها). ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية كلها، فقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾. يعني: لا يمكن أن تُدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدَّرنا أنها تغيب في الساعة الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، فبين غروبها وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة الثامنة، فيكون بين غروبها وطلوعها ثمان ساعات؛ لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها، والذي جعلها تسير عليه لتمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، وهنا قال: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾. كان الليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفى الله عز وجل أن يسبق الليل النهار، قيل: المُراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله عز وجل ذكر الشروق في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾. يعني: لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾. أي: لا يمكن لليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن تغرب الساعة التاسعة مثلًا؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾، أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن لليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا يُنافي تقدير الله عز وجل الذي سمى نفسه بأنه العزيز العليم. قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. (كلٌّ) قال المؤلف: [تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾: مستدير ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يسيرون، نزلوا منزلة العقلاء]. ذكر المؤلف النجوم، والنجوم في الآية غير مذكورة، فالصواب من الشمس والقمر، والمعنى: كل من الشمس والقمر، والليل والنهار يسبح في فلكه، والفلك هو الشيء المستدير، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلاه، والذي تغزل به النساء الصوف، له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل. فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر، والليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾. قال المؤلف: [يسيرون]. ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف -

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥).

رحمه الله - لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع، تدور وليست تسير على أرض مُسطحة، أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. وقول المؤلف: [يسيرون، نزلوا منزلةالعقلاء]. أي: الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا منزلة العقلاء؛ وذلك بأن أُتي بالواو التي هي للعقلاء، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلا للعقلاء، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئًا على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة، والعقلاء نأتي بالواو، أو الميم، فنقول مثلًا: الإبل ركبهن أربابهن، ولا تقول: الإبل ركبهم أربابهم؛ لأن الميم للعاقل، وتقول: الإبل شربن ولا تقول شربوا؛ لأن الواو للعاقل، وهنا ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ أُتي بالواو التي للعاقل، يقول المؤلف: إنها نزلت منزلة العقلاء. وذلك بإضافة السبح والجريان إليها، والجريان والسبح إنها يكون من ذي الإرادة والعقل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** في الآية دليل على أن سُنة الله عز وجل لا تتغير، هذا هو الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]. فسُنة الله سبحانه وتعالى لا تتغير في الكون، ولكن هل هي سُنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟ الجواب: لا، ولكن الله تعالى أخبرنا بأن هذه السُّنة لا تتغير، لكنها تتغير بتغيره؛ ولهذا حُبست الشمس ليوشع بن نون كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ ولهذا أيضًا إذا كان قرب الساعة فإنها تخرج من مغربها؛ ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فرقتين، فهذه السُّنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الله قادر على أن يُبدلها، أو يُغيرها ويكون هذا السبب.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس لا يمكن أن تخرج ليلًا بحسب السُّنة الإلهية، أما بحسب قدرة الله تعالى فإنه يُمكن أن تخرج ليلًا؛ لأن الله يقول للشيء: كن؛ فيكون.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الليل لا يسبق النهار فلا يدخل عليه، ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليلتان جميعًا، لقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾. وهذا ما يظهر لنا من الآية الكريمة، وقد يكون لها معنى غير ما نفهمه من ظاهرها؛ ولهذا ربما يكون الذين يدرسون في علم الفلك يتبين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس والقمر والليل والنهار في فلك، يعني في شيء مستدير كفلكة المغزل، وأنها تدور؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** ضعف قول من يقول: إن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا. فيجعلون الكواكب والشمس والقمر، كواكب معينة في كل سماء كوكب على هذا الترتيب من الأعلى للأدنى: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر، هذه سبعة، يقولون كل واحد في سماء (زحل) هو أعلاها في السماء السابعة - على كلام السابقين من علماء الفلك -

(المشتري) في السماء السادسة، (المريخ) في السماء الخامسة. (الشمس) في السماء الرابعة، (الزهرة) في السماء الثالثة. (عطارد) في السماء الثانية. (القمر) في السماء الدنيا كما قيل:

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت بعطارد الأقمار

فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب، وهذا الترتيب لا نعلمه من كتاب الله، ولا من سُّنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن نعرف أن هذه الكواكب بعضها فوق بعض بالكسوف، فإذا كان القمر يكسف الشمس عرفنا أنه تحتها، كما نعرف أن الغيم تحت الشمس؛ لأنه يحجبها، فإذا كسف القمر شيئًا من النجوم عرفنا أن القمر تحتها؛ ولهذا القمر يكسف كل النجوم، والشمس، ولا شيء يكسفه منهما إلا الأرض؛ لأن الأرض تحته فتحجب نور الشمس عنه، فحينئذٍ ينكسف القمر، وقد شاهدت أنا وغيري أن القمر يكسف بعض النجوم تجري يسير حولها، ثم يُغطيها، وهذا يدل على أن القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على قول من يقول: إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور.والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة، وأن القمر يدور على الأرض. وهذا غلط؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحدًا، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. فإذا فسرنا السبح بالدوران، وأثبتنا ذلك للقمر فلنثبته أيضًا للشمس.

قال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ على قدرتنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وفي قراءة ﴿ذرياتهم﴾ أي: آباءهم الأصول في ﴿الْفُلْكِ﴾ أي: سفينة نوح عليه السلام ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: للناس جميعًا. يقول المؤلف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضًا آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عز وجل بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عز وجل يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته، وقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. هذه الجملة في تأويل مصدر وهي المبتدأ، يعني: (وآية لهم حملنا ذريتهم). قال المؤلف: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [أي: آباءهم الأصول]. فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي

ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]. والمؤلف - رحمه الله - ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مُشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضًا: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المُراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول؛ لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يُحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يُشاهدها، فتعين أن يكون المُراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المؤلف - رحمه الله تعالى - يوافق ظاهر الآية، لكنه يُخالف ما كان معهودًا في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع؛ ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المُراد بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، فهو من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢ ، ١٣]. ﴿جعلناه﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جُعل نطفة ليس آدم الذي خُلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نُطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وآدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أنَّا خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام؛ حيث حُملت ذريته في الفلك المشحون، وخُلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جدًّا ولا يُخالف ظاهر الآية، ويشير على أن هذه السفينة جُعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون). وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأباه السياق.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾. أي: سفينة نوح. فـ (ال) هنا للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليست للاستغراق؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود:٣٧]. والفلك يُطلق على الجمع، ويُطلق على المُفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]. أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد؛ ولهذا قال بعض الفقهاء - رحمهم الله: (إن الأحدب

الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفلك في العربية). لا يدري هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنية، فالأحدب المقوس الظهر يركع بالنية ينوي الركوع، لأنه ما زال راكعًا أحدب، وقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾. أي: المملوء بأناس من البشر الذين آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠].

الفوائد:

في الآية الكريمة من **الفوائد:**

١ - بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فإنه لولا أن الله أبقى هؤلاء لزالت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحًا عليه الصلاة والسلام ومَن معه، ومع هذا لم يبق من نسل الذين معه أحد، وإنما الذين بقوا هم نسل نوح عليه الصلاة والسلام فقط، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]. أما غيرهم فلم يبق منهم أحد؛ ولهذا يُسمى نوحًا أبا البشر الثاني.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله عز وجل بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر، لولا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء، ولكن الله تعالى أعلمهم بصناعة هذه؛ حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السفينة التي كان فيها نوح عليه الصلاة والسلام كانت مملوءة من البشر وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [أي: مثل فلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ فيه].

يُذكرهم الله عز وجل:

أولًا: بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام.

وثانيًا: بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]. فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]. فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك لأجل أن يتعلم الناس؛ لأنه لم يقل (حملناه على فلك). بل قال:

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]. كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير؛ حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾. ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾. المُراد: بمثله هنا الجنس، وليس المُراد المماثلة من كل وجه؛ وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون مُتعذرة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، وما زالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر، قال المؤلف - رحمه الله تعالى: [بتعليم الله تعالى]. إشارةً إلى سؤال مُقدر كأنه قال: كيف قال الله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر، وليست بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابهها؟ فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه؛ لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾. وليست السفن الموجودة والتي كانت في عهد نزول القرآن ليست كمثل سفينة نوح من كل وجه، ويدل على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه. فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]. فإن المُراد هنا المماثلة في العدد فقط، وإلا فإن بين السماء والأرض من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى الراحة الحاصلة بهذه السفن، وأنها محل ركوب واستقرار؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾.

٣ - **وفيها أيضًا:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى باستقرار الراكبين على هذه السفن.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس:٤٣، ٤٤]

التفسير

في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها ﴿نَّشَأْ﴾ وجوابه ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾، وفيها أيضًا استثناء مُفرغ من أعم الأحوال، وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾. وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. يعني: إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٢ - ٣٤]. فحذر الله عز وجل من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإما أن يغرقها، وهنا يقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. يعني: وهم في سفنهم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ: بمعنى المغيث، وسُمي المغيث صريخًا؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، ومنه حديث غزوة بدر أنا أبا سفيان بعث صارخًا إلى أهل مكة يستغيثهم، وقوله:﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: لا أحد يغيثهم، ولا أحد ينقذهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يُغرقهم. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: لا ينجيهم أحد إلا رحمة الله عز وجل، والاستثناء هنا قيل: إنه مُنقطع؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بمعنى: لكن رحمة منا ينجون وينقذون، وقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾. أي: إنهم يُمتعون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيءٍ قدرًا، أي لا ينجيهم إلا رحمتنا لهم، وتمتيعنا إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

الفوائد:

في الآيتين الكريمتين فوائد:

١ - منها: إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

٢ - ومنها: أن الله إذا أراد بقومٍ سوءًا فلا مرد له؛ لقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

٣ - ومنها: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بإنجائهم من الغرق، وأن نجاتهم من الغرق ليست بكسبهم وعملهم، ولكنها من رحمة الله عز وجل.

٤ - ومنها: إثبات رحمة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

٥ - ومنها: أن الله تعالى قد ينقذ الإنسان من الهلاك إلى أن يأتي أجله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٦ - ومنها: أن الخلود في هذه الدنيا مُتعذر ومستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾. وما كان له غاية فلا بد أن ينقضي.

٧ - ومنها: أنه يجب على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنقاذ من الشدائد، أو بحصول المحبوب على أنها فضل من الله عز وجل وليست بكسبه، ولكنها من الله تعالى لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [من عذاب هَمٌ الدنيا كغيرهم، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أعرضوا]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾. هذه الجملة شرطية، فعل الشرط فيها ﴿قِيلَ﴾، وجوابه محذوف، قدره المؤلف بقوله: (أعرضوا). وهذا التقدير لا شك أنه التماس من المؤلف – رحمه الله – وإلا فقد يكون الأمر أوسع مما قال المؤلف، وحذف مثل هذا فيه من البلاغة أن الذهن يقدر كل ما يمكن أن يُقدره مما يترتب على هذا القول، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى أن الناس إذا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلف إجاباتهم منهم من يعرض ويسكت، ومنهم من يستكبر ويسب، ومنهم من يُقاتل: إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى، فكان في حذف هذا من البلاغة ما هو ظاهر؛ ليذهب الذهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾. القائل هنا مُبهم؛ لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عز وجل في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سُنته، أو كان من قول الدُعاة بعد ذلك.

﴿لَهُمُ اتَّقُوا﴾. أي: الكفار. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾، قال المؤلف: [من عذاب هَمٌ الدنيا].

ولكن الهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد يُعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضًا لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]. كانت هذه في غزوة بدر حين قُتل صناديد قريش، فسماها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا: العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله عز وجل، كالقحط والزلازل والغرق وغير ذلك، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشق، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب على الصواب، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يُجاب عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي الدنيا، وأما خلفهم فإن الخلف هو الوراء،وقد يُطلق بمعنى الأمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

[الكهف:٧٩]. قال العلماء: معناه: أمامهم. وكقوله تعالى: ﴿وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧]. أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾: المعاصي التي في مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: المعاصي الماضية، فيجعلون المُراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من عذاب الله، وقد سبق أن قلنا: إن الآية إذا كانت تحتمل المعاني المقولة فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. لعل هنا للتعليل، أي: لأجل أن يرحمهم الله عز وجل إذا قيل لهم هذا الشيء، فجمع لهم بين الترغيب والترهيب، الترغيب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والترهيب في قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾. فهؤلاء جمع لهم بين الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون، بل يعرضون ويستكبرون ويسخرون، ويقولون: هذا أساطير الأولين، وما أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دُعُوا إلى الله تعالى.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة من **الفوائد:**

١ - أن هؤلاء الكفار قد أقيمت عليهم الحجة وبَلَغَتْهُم الدعوة ووُعِظُوا، ولكن لم ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عُرضةً للعذاب إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته سبب للرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾. فإن لعل هذا للتعليل، ولا أحد ينكر أن للأسباب تأثيرًا إلا من صرف عن مقتضى الفطرة، والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إن الأسباب والعلل مؤثرة بذاتها، وأنه لا بد لكل سبب من تأثيره في مُسببه، ولا بد في كل علة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: إنه لا تأثير للعلل والأسباب، وإنما هي علامات وأمارات فقط، فإذا وجد المُسبب أو المعلول لم يقولوا: إن ذلك من أجل السبب أو العلة، ولكن يقولون: إن ذلك حصل عنده لا به. ولا ريب أن هؤلاء يُخالفون المنقول والمعقول. ولا أحد يوافقهم على ما ذهبوا إليه.

القول الثالث الوسط يقولون: إن الأسباب والعلل تؤثر في معلولاتها ومُسبباتها، ولكن بجعل الله ذلك فيها، فهي ليست مؤثرة بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسبب، أو للمعلول. وهذا القول هو المُتعين، وهو الصواب؛ بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة، أو هذا

السبب التأثير فلا يبقى له تأثير إطلاقًا، وما قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بغريبة حيث أُلقي في نار تتأجج، فقال الله عز وجل لهذه النار: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فكانت بردًا وسلامًا، مع أنها هي سبب للإحراق، ولكنها صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أن الأسباب والعلل إنما تؤثر بإرادة الله عز وجل وجعل هذه العلة أو السبب مؤثرًا.

٥ - ومن فوائد هذه الآية: إثبات رحمة الله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الفعلية: فهي من الصفات الذاتية، لأن الله لم يزل رحيمًا بعباده ولا يزال، ومن الصفات الفعلية باعتبار تعلقها بالمرحوم، فإنها تتجدد باعتبار المرحوم، لا باعتبار أنها صفة من صفات الله، فهذا الذي رحمه الله من البشر حادث بعد أن لم يكن؛ فتعلقت به الرحمة، ولا يخفى ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرحمة على وجه الحقيقة، وادعائهم أنه يُراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان. ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون أن لله تعالى الإرادة، وبالإحسان؛ لأنه مخلوق منفصل ليس من صفات الله، وهذا بلا شك قولٌ باطل، وقد مر علينا بيان تعليلهم لإنكاره والرد عليهم. قالوا: إن الرحمة تقتضي رقة ولينًا وضعفًا، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وأيضًا الرحمة لا يدل عليها العقل، ونحن لا نُثبت من الصفات إلا ما دل عليه العقل، وقد بينا أن هذا القول ليس بالصواب حيث:

أولًا: أن الرحمة قد تقع من إنسان قوي، وذي سلطان ويوصف بالرحمة.

ثانيًا: ادعاؤهم أن العقل لا يدل عليها قول باطل؛ فإن العقل يدل عليها أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، وقد مر علينا هذا كثيرًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

❁ التَفْسِيرُ ❁

لقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾، الضمير يعود هنا على المُكذبين للرسل، و ﴿مِّنْ﴾ هنا زائدة لفظًا، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنىً جديدًا، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتنصيص على عمومه، أي: أيُّ آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها، بل يُعرضون عنها ويستكبرون، والآيات التي تأتي من الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية. الثاني: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكنًا، وأن لا يوجل منها قبله، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]. أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمرًا مُخيفًا؛ لأنه شيءٌ طبيعيٌّ،ولا ينبغي أن يُخيف – نسأل الله العافية – أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يُحرك له ساكنًا، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإلا فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المُبالاة بها، وعدم الاكتراث بها، وأن لا تُحرك من الإنسان ساكنًا، ولا تهز له عاطفة، وقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبوها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكبروا عنها، ولم يُذعنوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكترثون بها ولا يهتمون بها.

الفوائد:

١ – **في هذه الآية دليل على:** أن الله عز وجل يذكر، أو يبين لعباده من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ووجه ذلك أنه لولا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

٢ – **من فوائدها:** أن بني آدم قد يعتون عن الآيات فيعرضون عنها بدون نظر، والواجب على الإنسان أن ينظر أولًا، ثم يحكم ثانيًا؛ ولهذا يُقال: الحكم على الشيء فرع عن تصوره. فانظر أولًا في الآيات هل هي مُقنعة، موجبة للصلاح، فلتكن صالحًا بها، هل هي لا تنفع، فحينئذٍ تعذر بالإعراض عنها.

٣ – **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قسوة قلوب هؤلاء، فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

٤ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الربوبية العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾. فأثبت الله تعالى أنه رب هؤلاء، وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٩١]. فكل شيء فالله ربه، حتى الكفار، وقد تكون الربوبية خاصة، أي: أنه يُراد بها ربوبية خاصة، فيها مزيد عناية واعتناء، مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]. فإن هذه الربوبية غير الربوبية العامة.

٥ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** تقبيح حال هؤلاء والتحذير من فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. مع أنها جاءت من ربهم الذي هو مالكهم، وخالقهم، وأمرهم إليه، ومع ذلك يُعرِضون.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

التَّفْسِيرُ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾. قال المؤلف: [أي قال فقراء الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]. هكذا سار المؤلف في تفسير الآية فجعل القائل هم الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفقراء من الأغنياء أن يُنفقوا، أي: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن يُنفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نُطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نُطعمكم، ولو شاء أن نُطعمكم لأعطيناكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المؤلف - رحمه الله.

لكن الذي ينبغي هو أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يُراد به في بعض الأحيان التعميم، فـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: قال لهم أحد من الناس، سواء كان الفقراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق؛ لأن الأغنياء من الصحابة - رضي الله عنهم - مثلًا يُنفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن يُنفقوا أيضًا، فالصواب أن نُبقي الآية على إبهامها؛ ليكون أعم، وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا﴾، الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي: مما أعطاكم الله، وفي قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾. دون قول: (أنفقوا من أموالكم)، فيه تنبيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تُنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تُنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تُنفقون؟! هذه هي الفائدة من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

فما كان الجواب؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾، قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ...﴾ اللام هنا الأصح أن المُراد بها الصلة، يعني: قالوا قولًا يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، قال المؤلف: [استهزاءً بهم]. يحتمل ما ذكره المؤلف أنه استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عنادًا وتبجحًا؛ لأنهم يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾. و﴿مَن﴾. هنا بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: نُطعم أحدًا لو يشاء الله أطعمه من دوننا؟ أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم؟ و﴿لَوْ﴾. هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: ﴿يَشَاءُ﴾ وجوابها: ﴿أَطْعَمَهُ﴾، وقد أتت على خلاف الأكثر حيث حُذفت اللام من الجواب، والأصل

(من لو يشاء الله لأطعمه)، فإن جواب (لو) إذا كان مُثبتًا فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تحذف اللام، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥]. ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨ : ٧٠]. فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة يس من باب محذوف اللام، وهي: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، قال المؤلف: إنهم يقولون ذلك [استهزاءً بهم]. يعني: أنطعم قومًا لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فرارًا من اللوم، يعني: أنطعم قومًا أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله تعالى لم يشاء أن نُطعمهم فلا نُطعمهم.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضًا على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيرًا، ولا يُعطه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يُطعمهم، والمسؤول عنهم هو الله، وكان على الله أن يُطعمهم، لكن لم يشأ ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

الأول: الاستهزاء.

الثاني: الاحتجاج بالقدر.

الثالث: الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾. قال المؤلف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن]. يعني: هؤلاء الكفار الذين أُمروا أن يُنفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعمهم. فيقول: نعم أعتقد ذلك. فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نُطعمهم، والأمر بمشيئة الله، فما أنت إلا في ضلال مبين. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾. ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية، و(إن) تَرِد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

الأول: تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

الثاني: تأتي شرطية، مثاله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

الثالث: تأتي نافية، مثاله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر: (وإن مالك كانت كرام المعادن).

وقال المؤلف: [مبين أي: بيّن]. فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي مُتعدية، ولازمة، فيُقال: أبان الشيء، أي: أظهره، ويُقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن ﴿مُّبِينٍ﴾ من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين، ويحتمل أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر.

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١]. ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق.

قال المؤلف: [وللتصريح بكفرهم موقع عظيم]. أي: في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ولم يقل: (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فله موقع عظيم لأنه:

أولًا: التصريح بكفر هؤلاء، لو قال (قالوا). لقلنا: لعلهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم.

الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر، فيكون الكفر عامًّا لكل من قال هذه المقالة.

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التصريح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير.

الفائدة الثانية: أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق.

الفائدة الثالثة: العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف.

اللام بمعنى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا. يعني قالوا في حق الذي أُمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين كفروا يوعظون وينبهون، ولكنهم يستكبرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، فالحجة قائمة عليهم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان إذا أنفق بأمر الله تعالى فلا مِنة له على الله عز وجل؛ لأن الله تعالى هو الذي أعطاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي للمتكلم الواعظ أن يبين الأسباب التي تحث على فعل ما وعظ به؛ لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه كفار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن البخل من صفات الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وإذا كان من صفات الكافرين فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتصف به، فكل ما كان من صفات الكافرين

من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن اللائق بالمسلم أن لا يفعله؛ لأنه إذا فعله صار مُتشبهًا بالكافرين في هذه الخصلة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يريد بها الباطل؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته عز وجل اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء، وهؤلاء أغنياء.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المُشركين يقرون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء؛ لقولهم ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. والمشركون أو الكافرون لا يُنكرون ربوبية الله عز وجل، بل يُقرون بها، حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنها يُنكرونها بألسنتهم؛ لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]. ولقول موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. لكن ينكرون الربوبية استكبارًا ومكابرةً، وإلا فإن قرارة نفوسهم تشهد بها.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأساليب الدعائية التي يستعملها المشركون من قديم الزمان؛حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلين: أنفقوا مما رزقكم الله. قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا الوصف المُشين للمؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجودًا إلى يومنا هذا، فهم يصفون أهل الخير بالأوصاف العديدة المنفرة منهم، أو التي يقصدون بها استعداء الحكام على هؤلاء المؤمنين، يقولون: هؤلاء رجعيون، وهؤلاء متخلفون، هؤلاء مُتشددون، هؤلاء مُتزمتون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يصفون بها أولياء الله عز وجل، ونحن لا ننكر أنه يوجد من أهل الخير وأهل الدين من يغلو ويُبالغ في عمله، أو في وصفه لغيره من التكفير والتفسيق، حتى يكفر من لم يكفره الله، ويفسق من لم يفسقه الله، فنحن لا ننكر أن هذا موجود، ولكن يبدو لي - والله أعلم - أن وجود مثل هؤلاء المُتشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفسوق، فيريدون أن يُحدثوا ردة فعل بالنسبة لهؤلاء، ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانبًا مُتطرفًا في الفسوق والعصيان، وأنه مستمر على ذلك ومُقر على ذلك من بعض ولاة الأمور، حصل رد فعل مُقابل لهؤلاء، فتشدد هؤلاء في مقابل تراخي هؤلاء، ولكن التوسط هو الخير. ومع هذا فإن المتوسطين المُعتدلين لا يسلمون من ألسنة المُتطرفين الضالين، ولا من ألسنة المُتطرفين الغالين، فالغالون مثلًا يقولون لهؤلاء المتوسطين: أنتم مفرطون، أنتم مُداهنون، أنتم تُقرون أهل الشر. وأهل الشر يقولون: هؤلاء متشددون، هؤلاء يريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم، وإلا فهم كافرون. وما أشبه ذلك، والمهم أن ألقاب السوء التي يُلقب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة ولا تزال موجودة

إلى يومنا هذا، حتى أهل البدع يلقبون أهل السُّنة بألقاب السوء يقولون: هؤلاء مُشبهة. إذا أثبتوا الصفات على الحقيقة، وهؤلاء حشوية، هؤلاء نوابت. وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب النفور منهم، والنيل من قدرهم، ولكن هذا لا يضر أهل الخير، ولكن يؤذيهم، والأذية غير الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولكن لا يتضرر به، فها هو الإنسان يتأذى من رائحة البصل والكراث، والشيء المُستقذر، ومع ذلك لا يتضرر به، وقد أثبت الله لنفسه أنه يؤذى من المنافقين وغيرهم، ونفى عن نفسه التضرر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]. وقال في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»(١). وقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»(٢).

المهم أن مثل هذه الألقاب ـ لا شك ـ تؤذي المؤمنين، ويتأذون منهم، وتضيق بها صدورهم، لكنها لا تضرهم، بل هي نافعة لهم؛ لأنهم إذا صبروا عليها أُجروا على الصبر، وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفَّارة لهم؛ لأنه لا يصيب المؤمن من هم ولا أذىً ولا غم إلا كَفَّرَ الله به عنه حتى الشوكة يُشاكها، لا سيما وأنه يؤذىَ هنا في ذات الله عز وجل، فيكون هذا منقبة لهم، ويكون هذا الإنسان الذي أوذي في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصديقين والشهداء، وقد أخبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه يُبتلى الصالحون الأمثل فالأمثل، فإذا كان فيه قوة في دينه فإنه يؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل، فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذية ما يحصل للآخر، وقد يبتليه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]. نسأل الله السلامة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** المبالغة من أعداء الله بما يُسمون به أولياء الله؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. كأنهم حصروا حالهم من كل وجه في الضلال المبين، كأنه لا هداية فيهم إطلاقًا، فمعنى قولهم هو: (ما أنتم إلا في ضلال). وهذا غاية ما يكون من العدوان من هؤلاء.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله، وهي كثيرة في القرآن، ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مُقيدة بالحكمة إذ ليست مشيئة الله مُجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.

(١)متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢)صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس:٤٨].

التفسير

أي: يقول الكفار المُكذبون بوعد الله -عز وجل- ومنه القيامة: ﴿مَتَىٰ﴾ هنا استفهام استبعاد وتحدي، أي: يقولون مُستبعِدين هذا الأمر مُتحدِّين مَن يقوله، فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و ﴿مَتَىٰ﴾ خبر مُقدم و ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن ﴿مَتَىٰ﴾ واقعة موقع النكرة و ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وُجد نكرة ومعرفة، وأمكن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلا بد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلا بد أن يكون المحكوم عليه معلومًا؛ ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة: إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ.

وتعليل ذلك أن المبتدأ محكوم عليه، فلا بد أن يكون معلومًا مُتعينًا يقول الله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأننا نبعث، فمتى يكون؟

ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعينوه بيوم مُعين، وانظر إلى حُجتهم في آية أخرى تكن أبين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

وهل الذين قالوا: إنهم يُبعثون، قالوا يُبعثون في الدنيا حتى يقولوا: ائتوا بآبائنا، أم قالوا ستُبعثون يوم القيامة، وقولهم: ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ. أي: ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله؛ لأنه ما قيل لهم: إنكم ستُبعثون في الدنيا، بل في يوم القيامة، وهنا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ فالجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦]. فالوعد لم يحن وقته بعد، فانتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن بني آدم يصل إلى حد التحدي لرب العالمين، ولمن بلَّغ رسالته؛ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟

٢ - **ومن فوائدها:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بلَّغوا البلاغ المبين، وبينوا للناس أنهم سيُبعثون ويُجازون، وأنهم وعدوا بذلك لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحديًا واستبعادًا لم يصدقوا الرسل، بل

كذبوهم، وليتهم نظروا في الأمر وفكروا؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:٤٩].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿مَا يَنظُرُونَ﴾. أي: ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ وهي نفخة إسرافيل الأولى]. (نظر) تستعمل مُتعدية بنفسها، بمعنى الانتظار مثل قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر:٤٣]. ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدت بـ (في)، فصار المُراد بها نظر الفكر تقول: نظر في كذا. أي: فكر فيه وتأمله، وإذا تعدت بـ (إلى) فهي النظر بالعين، تقول: نظرت إليه ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣]. ﴿صَيْحَةً﴾ يعني: يُصاح بهم؛ وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مُزعج يفزع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]. فكل الخلائق تفزع إلا ما شاء الله عز وجل، فيفزعون فزعًا شديدًا يؤدي إلى الصعق و إلى الموت، وحينئذٍ تكون نفخة واحدة فيها فزع، وفيها صعقة، وقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾. أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تُمهلهم ولا تنظرهم، ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾. قال المؤلف - رحمه الله: [بالتشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأُدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبايع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخْصِمون) كيضربون، أي: يخصم بعضهم بعضًا].

القراءات التي ذكر المؤلف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأُدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخَصِّمُونَ)، والقراءة التي في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخْصِمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشِّي هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة خالصة، ولا مكسورة خالصة، وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه القراءة الرابع، والثالثة التي في المصحف لم يُشر إليها المُفسر، ووجَّه المحشّي القراءة الموجودة في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بأن الحركة أُزيلت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم أن معنى كلام المؤلف - رحمه الله: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتبايع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لاهون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم

بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم؛ ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عز وجل سوى التخاصم، كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابر؛ لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضها بعضًا، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق؛ لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروءة، ولا خُلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه - والعياذ بالله - حالهم عند قيام الساعة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الله عز وجل وسمعه؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تهديد هؤلاء المُكذبين بهذه الصيحة التي تأخذهم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** قدرة الله عز وجل حيث يأخذ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة؛ لقوله تعالى : ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾. وهنا أكد الصيحة بـ (واحدة)؛ ليبين أنه لا يعيدها مرة ثانية، بل بأول مرة يؤخذون.

٤ - **من فوائدة الآية الكريمة:** أن هذه الصيحة تأتيهم بغتةً؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾. أي: وهم غافلون عنها.

٥ - **من فوائدة الآية الكريمة:** بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا همَّ لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شُحًّا وطمعًا في الدنيا، وغفلةً عن الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ»[1]. وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون، لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن.

قال الله تعالى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

التَفْسِيرُ

أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم فيه من الفزع.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٤).

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾. أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهليهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحدًا، وهذا يدل على أن الأمم الذي أخذهم أمرٌ عظيم، وهو كذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. قال المؤلف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة]. قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، النفخ في الصور يذكره الله عز وجل دائمًا بالبناء للمجهول (نُفِخَ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل؛ ولهذا تجد قول الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]. أبلغ مما لو بين هذا الذي غشيهم، فالإبهام أحيانًا يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ، مُبهم البيان فعظم هذا الأمر، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وُكِّلَ بالنفخ في الصور هو إسرافيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها، وقد اختلف العلماء -رحمهم الله- في النفخات؛ هل هن ثلاث أو هما اثنتان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاث.النفخة الأولى: فزع، والنفخة الثانية: صعق وموت، والنفخة الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٨]. فذكر اثنتين، وفي سورة النمل قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. ثم ذكر يوم القيامة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا الفزع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث.

ومنهم من قال: إنها اثنتان.

والظاهر أنها اثنتان فقط، لكن الأولى منها فيها فزع وصعق، والثانية فيها بعث، وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلف حيث قال: [النفخة الثانية للبعث].

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: الصور قرنٌ عظيم واسع، وورد في الحديث أن سعته كما بين السماء والأرض، يُنْفَخُ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه، وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا تخطؤه على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر أن عشرات الناس دُفنوا في مكانٍ واحد، فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده، هذا تقدير العزيز العليم عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. ﴿فَإِذَا هُم﴾ الفاء عاطفة، و (إذا) حرف دال على المفاجأة، و﴿هُم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾ خبره، و﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. مُتعلقة بـ﴿يَنسِلُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم﴾، أي: بمجرد ما يحصل النفخ لا يحصل وقت بين النفخ في الصور والخروج من القبور، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مُسرعين، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، الضمير في ﴿هُم﴾. قال المؤلف: [أي: المقبورون]. وعلمنا أن المُراد المقبورين؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ هذا بناء على الأغلب الكثير؛ لأن من الناس من لا يكون في جدث بل يُلقى في اليم، أو يُلقى في الأرض على ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب والأكثر أنهم في القبور، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى صديق، وإنما ينسلون إلى الله عز وجل، والنسلان معناه: السير بسرعة، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦]. أي: يخرجون بسرعة.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن النفخ في الصور إذا وقع لم يستطع أحد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكلام، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. أي: لا يتزحزحون من مكانهم.

٢ - **ومن فوائدها:** قوة هذه الصدمة التي تصيبهم من هذه الصيحة؛ لأن الإنسان إذا قويت الصدمة أعجم على لسانه فصار لا يقدر على التكلم، وكذلك رجلاه تضعف حتى لا يستطيع الوقوف، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في قصة وفاة رسول الله ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر:٣٠]. قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها.

٣ - وكذلك يدل على عظم هذه الصيحة أنهم لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم مع شدة تشوقهم إليهم، لكن لا يستطيعون؛ لأن الأمر أعظم من أن يتمكنوا من ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الثانية:** إثبات النفخ في الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها. فلو قال قائل: كيف يكون النفخ في الصور؟ قلنا: هذا أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل؛ لأنه غيبي ولم يخبر بكيفيته.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله عز وجل؛ حيث كان مُجرد النفخ يوجب أن يخرج الناس جميعًا من قبورهم مُسرعين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث وأنه حياة حقيقية؛ لقوله تعالى:

﴿يَنسِلُونَ﴾؛ لأن الإسراع لا يكون إلا بحياة حقيقية.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الناس يُسرعون إلى مكان مُعين ينزل الله تعالى فيه للفصل بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: الإشارة إلى الأجداث التي جعلها الله تعالى منازل للأموات، فامتن الله عز وجل بها على عباده، كما امتن عليهم بالقصور في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات:٢٥،٢٦]. فكما أن الله عز وجل منَّ علينا بهذه القصور نستتر بها ونقضي بها حوائجنا ونكون مع أهلنا فكذلك منَّ علينا سبحانه وتعالى بالقبور التي يستتر بها الإنسان عن الرؤية، ويحتمي بها عن الوحوش إلى غير ذلك مما تتضمنه هذه النعمة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الربوبية العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. فهذه عامة لكل من يخرج من الأجداث، وقد مرَّ علينا أن الربوبية تنقسم إلى قسمين عامة وخاصة.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف رحمه الله: [يا للتنبيه، ﴿ويلنا﴾. هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؛ لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يُعذبوا].

قوله - رحمه الله - يا للتنبيه. بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبيه.

ولكن لو قيل: إن (يا) للنداء، بدليل أنها عملت فيما بعدها؛ لأن ﴿ويلنا﴾ منصوب بياء النداء، كأنه قال: يا ويلنا أحضر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٦]. ونظير قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾.

والويل هو الهلاك، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مُفرد من لفظها، كإبل ليس لها مفرد من لفظها، وتكون بعض الأفعال ليس له مصدر مثل (يذروا) فإن أكثر النحويين يقولون: إنه ليس لها مصدر. وبعضهم يقول: لها مصدر وهو الوذر.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ﴾ للاستفهام التعجبي، أي: ما الذي أخرجنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ والمرقد مكان الرقادة، والمُراد بها القبور، أي: من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها. واختلف العلماء في

هذا: هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يُشاهدونه في القيامة كأنه رقود؛ لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هيِّنًا؟

القول الأخير هو الأصح، وهو الذي مشى عليه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره؛ لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون بين النفختين؛ كما ذكره المؤلف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يُعذبوا]. وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتألم بعض التألم، فها هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلامًا مُزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يُقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال المؤلف: [﴿هذا﴾ أي: البعث، ﴿ما﴾ أي: الذي، ﴿وعد﴾ به ﴿الرحمن وصدق﴾ فيه ﴿المرسلون﴾، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل: يُقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيُقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وهذه الجملة قيل: إنها تُقال جوابًا لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم فيقرون إذا شاهدوا، فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. والآية مُحتملة: يُحتمل أنهم يقولون ذلك، ويُحتمل أنه يُقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠ - ٢١]. فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء، وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تُكذبون. فآية الصافات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادرًا منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس ببعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. ﴿هذا﴾ المشار إليه البعث، ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ما اسم موصول والصلة قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقدر المؤلف العائد بقوله: [به]. والمعروف أن العائد المجرور لا يُحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقًا لعامل المحذوف لفظًا ومعنىً، هذا هو المعروف عند النحويين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس عامل الموصول، وأو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: وحذف ما يُعلم جائز. أنها عامة لكل شيء وليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل المختصة به، التي لا تطلق على غيره، فلا يُسمى أحد ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال «الرحمن» يعني: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ولم يقل: (ما وعد الله)؛ لأن رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجليًا أكثر منها في الدنيا، فإن لله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة، التسعة والتسعون الباقية، والرحمة الأولى، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم، وما دل عليه من الصفة، والأثر المترتب على ذلك، ويجوز أن نقول والحكم، فهنا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسمه، والرحمة صفته، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى، وهو أثر الرحمة قال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يُبعث فيه الناس، فيجزي فيه المُحسن بإحسانه، والمُسيء بإساءته، ومُجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب، فالصدق من المتكلم، يُقال: صَدَقَ، ويُقال: صَدَّقَ بمعنى أخبر بالصدق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢]. وصدق القائل، أي: أقر بقوله واعترف به، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر:٣٣]. فهو صادق وصدق والله أعلم.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية دليل على شدة حسرة المُكذبين الذين يُكذبون بالبعث، إذا بُعثوا يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، ودليل ذلك قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾، وهذه الكلمة دعاء بالثبور والحسرة على مَن نطق بها.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عذاب البرزخ بالنسبة إلى عذاب الآخرة هيِّن، حتى إنه مثل النوم عند النائم.

٣ - **ومن فوائدها:** أن البقاء في القبور ما هو إلا كنوم النائم، ثم يستيقظ ويُغادر المكان لقوله تعالى: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** توبيخ هؤلاء المُكذبين حين يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى صادق الوعد لا يخلفه؛ وذلك لأن إخلاف

الموعد يكون لأحد أمرين: إما الكذب، وإما العجز، وكلاهما مُنتفيان عن الله عز وجل فلا كذب في وعده، ولا عجز عن تنفيذه؛ ولهذا فهو عز وجل لا يُخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يُخبرون به عن الله سبحانه وتعالى وعن غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية**: أن المشركين يقرون إذا شاهدوا الحق، بأن ما وعد الله تعالى به فسيقع بناءً على أن قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من كلامهم، والإقرار بالحق بعد مُشاهدته لا ينفع؛ لأن الإقرار بالحق إذا لم يكن غيبًا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالغيب، بل يكون مؤمنًا بالشهادة.

فإن قلت: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فهنا أنكروا الشرك مع أنهم كانوا مُشركين، بل إنهم يُقرون بشركهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. فكيف الجمع؟

الجمع بينهما أنه يُقال: إن يوم القيامة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة، فهم يتقلبون أحيانًا يُقرون بكل ما عملوا، وأحيانًا يُنكرون، إذا رأوا نجاة المؤمن قالوا: ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ لعلهم ينجون كما نجا غيرهم، ولكن يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم، وحينئذٍ يُقرون ولا يكتمون الله حديثًا، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

التفسير

الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه يُصاح بأصحاب القبور صيحة واحدة، فيخرجون جميعًا لا يتخلف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء لا يعيد الأمر مرة ثانية، بل كون الشيء بأول أمر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. والذي يعيد الأمر والكلام هو العاجز، وأما القادر فلا يُعيده.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا**: الإشارة إلى أن الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. أي: عندنا، والعند يدل على القرب، وقد ثبت بالنصوص أن الله عز وجل ينزل للقضاء بين عباده فيقضي بينهم.

قال الله تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

التفسير

(اليوم) أي: يوم القيامة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، فـ (ال) هنا للعهد الحضوري، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تنقص، والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكلا الأمرين مُنتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. أي: لا يخاف هضمًا من حقه من الحسنات، ولا ظلمًا بزيادة السيئات، يقول: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، (نَفْسٌ) نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: لا تُكافؤون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المؤلف رحمه الله: [لا تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون]. إنما قدَّر - رحمه الله - (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس الفعل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيامة هو الجزاء؛ ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]. أي: لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيامة، والذي في يوم القيامة هو الجزاء؛ فلهذا قدر المؤلف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا: أفلا يكون مُنتقدًا؛ لأنه كالاستدراك على كلام الله عز وجل؟

فالجواب على هذا أن يُقال: ليس بمنتقد، وليس مقتضاه الاستدراك على كلام الله؛ لأن المؤلف أراد أن يُفسر المعنى المُراد، ولم يُرد أن في الكلام نقصًا، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يُعلم من السياق، وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف.

فإذا قال قائل: إن هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيء من الركاكة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فالجواب: نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسدُّ؛ لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيُجزاه يوم القيامة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف - رحمه الله؛ لأن

جعل العمل هو الذي يُجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قررناه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: هذا في الدنيا،و ﴿تَعْمَلُونَ﴾. خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد محذوف، أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويُطلق على القول، ويُطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى الشيء، والاطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى الشيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا إذا أطلق العمل، أما إذا قيل: عمل وقول، أو قيل: اعتقاد وعمل، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح، وهذا يكون كثيرًا في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملًا، وإذا قرن بغيره صار خاصًا؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم، والتقسيم لا بد فيه من مقسم، والمقسم يكون كل قسيم منه ضد القسيم الآخر، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب، والجوارح، واللسان الذي هو القول؛ لأن هذا كله يُجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هل يشمل العمل الكفُّ، أي: إذا ترك الإنسان المعصية، هل يُقال: إن هذا عمل يُجزى عليه؟

الجواب: نعم، يُقال إنه عمل يُجزى عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»(1)؛ لأنه تركها لله، فما وجه كون الترك عملًا؟ فالجواب: لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل، وحينئذٍ نقول كلمة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ تشمل أربعة أشياء هي: عمل القلب، واللسان، والجوارح، والترك. ويُجزى عليها الإنسان.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** انتفاء الظلم مُطلقًا في يوم القيامة؛ لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان لا يُظلم لا بقليل ولا بكثير؛ لأن ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النفي فتكون للعموم.

فإذا قال قائل: في غير هذا اليوم هل يظلم أحد؟

فالجواب: لا يُظلم، لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع؛ لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء، فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو الجزاء ليس فيه ظلم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيُستفاد منه:

٤ - ومنها كمال عدل الله عز وجل. وهذه فائدة مُتفرعة على الفائدة التي قبلها.

فإن قال قائل: أليس الإنسان العامل الحسنة يُجزى بعشر حسنات؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا من الجزاء الذي وعد الله به، فلا يكون مُنافيًا لظاهر الآية؛ لأن الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عشر أمثالها، فتكون داخلةً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز التعبير بالسبب عن المُسبب؛ لأن العمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسبب عن المُسبب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس:٥٥].

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله عز وجل أن ذلك اليوم يُجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سببًا لدخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾. ﴿أصحاب﴾. جمع صحب، وصحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو الملازِم لمصحوبه، ولا يُسمى الشيء صاحبًا للشيء إلا بعد المُلازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئًا واحدًا استثناه العلماء وهو صحابة رسول الله ﷺ، فإن صحبته تثبت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل مَن اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمنًا به ومات على ذلك فهو صحابي له، وقوله ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبستان الكثير الأشجار، وسُمي بذلك لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر؛ لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستتار، ومنه سُمي الجنين؛ لاستتاره في بطن أمه، وسُمي الجن؛ لاستتارهم عن الأعين، وسُميت الجُنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجَنَّة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسُمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعًا هي: الدار التي أعدَّها الله سبحانه وتعالى للمتقين، وفيهاما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿ ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل

عمران:١٣٣].

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافزًا للعمل لها، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة، و(ال) هنا للعهد الذكري؛ لأن سبق ذكره و(ال) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزَّمل: ١٥ - ١٦]. فإذا كان مدخول (ال) سبق ذكره فهي للعهد الذكري.وقوله: ﴿فِى شُغْلٍ﴾ الجار والمجرور وهو خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿فِى شُغُلٍ﴾. يقول المؤلف: [بسكون الغين وضمها]. شغْل وشغُل، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف - رحمه الله - من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاهما قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرِيء. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ و﴿شُغْلٍ﴾.

وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟

الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة؛ لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ، ونحن إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأَولى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه، إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك؛ لأنك إذا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله عز وجل، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا.

قال المؤلف رحمه الله: [في «شغل» بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به]. إذًا هم منشغلون عما فيه أهل النار، ولو أن المؤلف جعلها مُطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر؛ لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهم، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]. أي: لا يبغون تحولًا أو نزولًا عما هم فيه، بل ولا صعودًا، حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيمًا، فالأَولى أن نُطلق ونقول: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي: أنهم مشتغلون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظر أحدهم نعيمًا أرقى مما هو فيه، بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبدًا، قال المؤلف: [كافتضاض الأبكار]. والكاف للتشبيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مَثَّل المؤلف بذلك لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾. قال المؤلف: [كافتضاض الأبكار لا شغل يتعبون فيه؛ لأن الجنة لا نصب فيها]. أي: لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلًا يتعبون فيه، ولكنه

شغل يستريحون فيه؛ لأنه شغل فيما يسر وفيما يحصل به التنعم.

قوله تعالى: ﴿فَٰكِهُونَ﴾، قال المؤلف: [ناعمون خبر ثان، لـ (إن)، والأول ﴿فِى شُغُلٍ﴾]. أي قوله: ﴿فَٰكِهُونَ﴾. خبر ثان لـ (إن)، والخبر الأول هو ﴿فِى شُغُلٍ﴾ الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤ - ١٦]. فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مُستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلًا إذا قلت: هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى كلمة واحدة وهي: مُز. أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مُستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المؤلف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخًا كما في الآية، أم غير منسوخ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم هم أصحاب الجنة، وقسم هم أصحاب النار، أصحاب الجنة جزاؤهم قول الله: ﴿شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾.

٢ - **ويُستفاد من قوله:** ﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ كمال النعيم؛ لأنه كل ما كمل النعيم كمل التفكه بهذه النعمة التي يتنعم بها الإنسان.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٦].

❁ التفسير ❁

﴿هم﴾ أي: أصحاب الجنة ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ جمع زوج، وتُطلق على الذكر والأنثى، فيُقال: هذا زوج فلانة، ويُقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق - وإن كان لغة ضعيفة - في باب الفرائض فيُقال: زوجة للأنثى، ويُقال: زوج للرجل، لئلا يُشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحى حذف التاء من زوج، سواء كان للأنثى أو الذكر، وقوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيرًا، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم، أو تسخن الجو، وإنما هي أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف؛ لأن ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾. قال المؤلف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها]. ﴿الأرائك﴾ جمع الأريكة وهي السرير في

الحجلة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، وهي بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيها نعرفه بيننا، فالدار مثلًا تشمل حُجُرًا كثيرة مُتعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها.

قوله: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾. قال المؤلف: [خبر ثانٍ مُتعلق على]. أي: على الأرائك مُتعلقة بمتكئون، وعلى كلام المؤلف يكون المبتدأ (هم)، و(في ظلال) خبر، و(متكئون) خبر ثان، فالجملة على كلامه واحدة لكنها مُتعددة الخبر: (هم في ظلال متكئون). و ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلقة بمتكئون، ومناسبة تقديمها على عاملها: مراعاة فواصل الآيات، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفواصل حتى وإن أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]. فقدم هارون على موسى، مع أن موسى أفضل، مُراعاة للفواصل؛ لأن الفواصل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء، والقرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولنا رأي ثانٍ في الإعراب، وهو أن تكون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خبر مقدم، و ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان: جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾، والثانية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون متكئين على الأرائك مع الزوجات، أو بدون زوجاتهم، وعلى كلام المؤلف - رحمه الله - يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن لأهل الجنة زوجات؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾. وقد وصف الله هؤلاء الزوجات بصفات كثيرة، فقال عز وجل في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]. وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]. فقاصرات الطرف يعني أنها تقصر طرفها على زوجها لا تنظر إلى غيره؛ لأنها ترى أن زوجها أكمل الأزواج فلا يمتد نظرها إلى غيره، وهي أيضًا قاصرات لطرف زوجها عليها، فزوجها لا يمتد بصره إلى غيرها، فكل منهما راضٍ بصاحبه، وهن أيضًا ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيرات الطباع، حسان الوجوه والأجسام، وصفاتهن كثيرة في القرآن الكريم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة**: أن الجنة ليس فيها شمس؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: كمال راحة أهل الجنة؛ لقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. فإن المُتكيء عادةً يكون مستريحًا مُطمئنًا، وكلما اطمأن الإنسان ازدادت راحته، والاتكاء على الأرائك لا شك أنه دليل على راحة البال وعدم الانشغال.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن لأهل الجنة فيها الفاكهة وهي كل ما يتفكه به، وقد ذكرنا أن جميع طعامهم فاكهة يتفكهون بها.

٥ - و **من فوائد الآية الكريمة**: أن لأهل الجنة كل ما يتمنونه، بل يعطون أكثر مما يتمنون، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٦ - و **من فوائد الآية الكريمة**: أن هذا القرآن الكريم مثاني، تُثنى فيه المعاني، فيذكر الشيء ويُذكر ضده؛ لأنه لو ذكر ما يكون به الرجاء دون ما يكون فيه الخوف، لغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، ووقع الإنسان في الأمن من مكر الله، ولو ذكر فيه جانب الخوف دون جانب الرجاء، لوقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، فكان الله عز وجل إذا ذكر النعيم ذكر ضده، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وهكذا، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر:٢٣]. يعني أنه تُثنى فيه المعاني؛ حتى يكون اليُسر لله تعالى على الوجه المطلوب.

قال الله تعالى:

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧].

التفسير

أي: لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾، أي: الجنة. ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ أي: ما يتفكهون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة؛ لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحيانًا تفكهًا، وأحيانًا للحاجة، وأحيانًا للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة؛ ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحًا مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

فإذا قال قائل: إذا جعلت الفاكهة اسمًا لكل ما يأكلون؛ لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيب عن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن:٦٨]. والأصل في العطف أن يكون للمغايرة، والنخل والرمان يؤكلان.

فالجواب: يعلم مما ذكرنا آنفًا، وهو أن الشيء إذا أفرد صار له معنىً عامًّا، وإذا قُرن بغيره صار له معنىً خاصًّا مقابلًا لما قرن معه؛ لأن التقسيم يقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة، فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام في اللغة العربية كثير، مثل قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]. والروح هو جبريل عليه

السلام وهو من الملائكة، ثم قال المؤلف: [﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يتمنون]. فكل ما يتمنونه فإنه حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمنون؛ لأن أمنية الإنسان محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يُعطى كل ما يتمنى، بل يُزاد على ما يتمنى.

فإذا قال قائل: هل إذا اشتهى الإنسان الشيء في الجنة يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لا بد من الطلب؟

فالجواب: أن هذا الأمر مُحتمل، يُحتمل أن الإنسان إذا اشتهى شيئًا حصل له، ويحتمل أنه لا بد أن يدعوه، والدعوى بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحدًا من الناس قال: أريد أن أزور فلانًا، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإلا فما دام لم يقم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١]. فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه - وإن لم تطلبه - يحصل لك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقول خبره]. على أنه منصوب بنزع الخافض؛ لأنه قال: أي: بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و(أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، فإن سُمِع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوبًا، ويُقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك - رحمه الله:

في أن وأنا يطرد ومع أم   نلبس كعجبت أن يدم

فالمؤلف مشى على أن ﴿قَوْلًا﴾ منصوب بنزع الخافض، أي: سلام بالقول من ربٍّ رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام، يعني الجنة سلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]. ويجوز أيضًا أن يكون الخبر قوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. أي: سلام بالقول واقع من الله عز وجل، وهذه الوجوه لا يُنافي بعضها بعضًا من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يُسلم عليهم بالقول،

ويقول لأهل الجنة: سلامٌ عليكم، وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. الرب في اللغة العربية يُطلق على عدة معانٍ:

فيُطلق على رب العالمين عز وجل، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المُدبر.

ويُطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا». أي: صاحبها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ المُراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المُدبر، و ﴿رَّحِيمٍ﴾. من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزال مُتصفًا بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله عز وجل يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمة الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال رحيمًا، وأهل السُّنة والجماعة وهم السلف يُفسرون «الرحمة» بمعنى يليق بالله عز وجل. وأهل التحريف يُفسرون «الرحمة» إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان، فيقولون: معنى رحيم، أي:مُحسن، أو مُريد للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. وفسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان مُنفصل عن الله عز وجل وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأنا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئًا، لكن لو سلمنا جدلًا أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** دليل على ما يتمتع به أهل الجنة من السلامة من كل الآفات، ومن الأمراض، ومن الموت، ومن غيره؛ لأن الله تعالى يقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾. وهذا اللفظ الصادر من الله عز وجل ليس دُعاء ولكنه خبر من الله، وإنما يكون مثل هذا دُعاء إذا وقع من المخلوق، أما إذا كان من الخالق فهو خبر، أي: أن الله تعالى يُخبرهم بأنه سيُسلمهم من كل آفة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الله يقول ويتكلم وهذا حق، وقد اختلف أهل القبلة في كلام الله عز وجل:

فمنهم من قال: يتكلم بحرف وصوت على وجه يليق به، ولا يُشبه صوته أصوات المخلوقين.

ومنهم من قال: إنه لا يتكلم، ولكن يخلق كلامًا ينسبه إليه تشريفًا وتكريمًا.

ومنهم من قال: إنه يتكلم، لكن كلامه ما يقدره في نفسه، وأما ما يُسمع فهو مخلوق.

فالأول مذهب أهل السُّنة والجماعة، والثاني مذهب المُعتزلة ومن وافقهم، والثالث مذهب الأشاعرة، وحقيقة الأمر أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة؛ لأن الكل منهم متفقون على أن ما بين أيدينا من المصحف مخلوق، لكن الجهمية والمعتزلة قالوا: هو كلام الله. وأولئك قالوا: عبارة عن كلام الله. فهم أسوأ منهم في هذه الناحية؛ لأن المعتزلة والجهمية يقولون: إن القرآن كلام الله، كما قال الله عنه كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦]. لكن هم يقولون: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾. أي: الكلام الذي هو عبارة عن كلام الله.

والجهمية والمعتزلة أقرب إلى الحقيقة من الأشاعرة، ولكن كل منهم في ضلال مبين.

والصواب أنه كلام الله تكلم به بنفسه، وسمعه منه جبريل – عليه الصلاة والسلام – وألقاه إلى مُحمد ﷺ.

٣ – **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية، وهي هنا فيما يظهر – والله أعلم – من الربوبية الخاصة؛ لأن الذي يُخاطب به من القوم المخلصين، والربوبية كما تقدم، تنقسم إلى قسمين: خاصة، وعامة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، فإن جميع الخلق مربوبون لله عز وجل، هو خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، ومنها قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. أما الربوبية الخاصة فهي مختصة بعباد الله المُخلصين من عباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم، وهي أخص من الأولى؛ لأنها تقتضي عناية خاصة بالمربوب، وتوفيقًا له، وإصلاحًا لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]. فإن موسى وهارون – عليهما الصلاة والسلام – من عباد الله المُخلصين، فكانت الربوبية في حقهما خاصة، ومنه دعاء المؤمنين لله عز وجل بهذا الاسم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:١٦]. فالمراد به الربوبية الخاصة؛ لأن التوسل بالأخص، أخص بالدعاء من التوسل بالأعم، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢]. فالأُولى عامة، والثانية خاصة.

والرب من أسماء الله دل على ذلك قوله ﷺ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»[1]. وقوله ﷺ في السواك: «مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[2].

٤ – في هذه الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾. وكون (الرحيم) من أسماء الله لا يخفى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٧)، والنسائي (١/ ٥٠)، والبيهقي(١/ ٣٤) كذا قال الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٦٦).

٥ – وفي هذه الآية: إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمة الله؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[1]. أو قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ». اللهم تغمدنا برحمتك، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن لا أحد يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله برحمته، أي: يُسبغ عليه الرحمة، فحينئذٍ يدخل.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف – رحمه الله: [ويقول: ﴿امتازوا﴾]. يعني: أن القائل الله عز وجل، وفي الجزم بذلك نظر، فقد يكون الله عز وجل هو الذي يقول للمجرمين: امتازوا، وقد يكون القائل ملك من الملائكة؛ ولهذا لو قال المؤلف: (ويُقال) لكان أَوْلى؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف، أي: إلى النص من الشارع، قوله: ﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾. ﴿الْيَوْمَ﴾ المُراد باليوم يوم القيامة، فـ(أل) هنا فيه للعهد الذكري، ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، قال المؤلف: [أي: انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم]. يعني: يُقال يوم القيامة: امتازوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ لأن طريق المجرمين غيرُ طريق الأبرار، فالأبرار طريقهم إلى الجنة، وهؤلاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يُقال لهم: ﴿وَامْتَٰزُوا﴾ على سبيل التوبيخ والإهانة؛ لأنك إذا رأيت مُجتمعًا فقلت مثلًا: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابتعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المُذنبون امتازوا عن المؤمنين المُطيعين.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** أن المجرمين يُهانون يوم القيامة؛ بحيث يُميَّزون من المؤمنين بلفظ الطرد ﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ﴾. أي: انفردوا وأبعدوا.

٢ – **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يميِّز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة، كما ميَّز بينهم في الدنيا، فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

٣ - و **من فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسب لهذا العمل، فهنا لما أُمروا بالانصراف وطُردوا ناسب أن يذكر سبب ذلك، حيث قال: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. كأنه قال: (امتازوا لإجرامكم)، ولا شك أن ذكر سبب الحكم يزيل الشُّبهة واللبس والاعتراض، وينبني على هذه الفائدة:

أن تعليق الحكم بوصف يدل على أن هذا الوصف هو عِلَّة ذلك الحكم، فإذا قلت مثلًا: أكرم المجتهد من الطلبة، فهنا علق الإكرام بالاجتهاد، وهذا يفيد أن علة الإكرام هو الاجتهاد، فهذه القاعدة مفيدة لطالب العلم، وهي أن تعليق الحكم بوصف يدل على عليته، أي: أنه علة ذلك الحكم.

٤ - حذفت ياء النداء من قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. فلماذا؟ يمكن أن يقول علماء البلاغة: إنها حذفت من باب الإهانة لهم حتى لا يُطيل الكلام؛ لأن طول الكلام مع المُخاطب من باب التبسط إليه والانشراح لمخاطبته، فإذا اُختُصِر فهو نوع من الإهانة، وليس هذا على إطلاقه، بل هذا على حسب السياق، قد يكون من الإكرام أن تختصر الكلام، وقد يكون من الإكرام أن تبسط الكلام، لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن اختصار الكلام وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [آمركم ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ على لسان رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطيعوه، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ العداوة، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾: وحدوني وأطيعوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾. طريق ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؟ الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١]. فهذا للتقرير، فقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ للتقرير، وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٧١] للتقرير، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦] للتقرير، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أداة الاستفهام فإن

الاستفهام يكون فيه غالبًا للتقرير، فهنا يُقرر الله عز وجل أنه عهد إليهم؛ ولهذا يصح أن تحول - في غير القرآن - إلى فعل ماض، فيُقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المُراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المُراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبيخًا لهم، وإقامة للحجة عليهم؛ لأن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسره المؤلف أنه الأمر، فقال: [آمركم]. ولكنه في الحقيقة أبلغ من الأمر؛ لأن العهد إليه كأنه مُتضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾. تشمل الذَكَر والأنثى، وإن كان الابن يُقال في الأصل للذكر، والبنون تُقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يُراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء - رحمهم الله - قالوا: إذا وقف على بني تميم، شمل ذكورهم وإناثهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكور فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإناث، وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾. فسر المؤلف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]. قال عدي بن حاتم ﷺ: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم . يعني: لسنا نُصلي، أو نركع، أو نسجد لهم، قال: «أَوَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ»(١) قال: نعم. قال ﷺ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١). وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾. هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى رأسهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان وقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾ العدو ضد الوليِّ، والوليُّ مَنْ يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾. قال المؤلف: [بَيِّن العداوة]. ففسر ﴿مبين﴾ ببين؛ لأنها من (أبان)، و(أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي مُتعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

أن نقول: إنها من المتعدي، أو اللازم، إلا بقرينة من السياق، فهنا نقول: ﴿مُبِين﴾ إذا فسرناها بما فسرها المؤلف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدي، ونقول ﴿مبين﴾ مُظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يُغْرِ الناسَ؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]. إذن فجعل ﴿مبين﴾ هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. فـ ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾. ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾. هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾. (أن) هنا مصدرية، ويصح أن تكون مفسِّرة؛ لأن أعهد متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]. قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾.أي: أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللوا لي بالطاعة، والمؤلف قال: [وحدوني وأطيعوني]. وهذا المعنى صحيح، فالعبادة توحيد الله عز وجل بالطاعة، والتذلل له بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

قوله: ﴿هَـٰذَا﴾. المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. الصراط فسره المؤلف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مُطلق الطريق صراطًا، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصّرط أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاع الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقًا ذا سرعة إلا إذا كان واسعًا وكان سهلًا، وأما قوله: ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾. فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضًا انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يمينًا وشمالًا، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفعات ومنخفضات فليس بمستقيم؛ لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خالٍ من الانحراف يمينًا وشمالًا، وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه، وقوله: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. أي: إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه، فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦ - ٧]. فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢ - ٥٣].

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل على مكة، وتقول: هذا طريق فلان - إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم - أو هو الذي

سلكه ومشى عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعذار من نفسه، أي: يحب أن يُقيم العذر لنفسه؛ لتقوم الحُجة على خلقه لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾. فإن مَن عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن نعبده وحده، قد أقام علينا الحُجة، وأقام العذر لنفسه، وهذا كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٢ - **من فوائدها:** إثبات رحمة الله عز وجل بالخلق؛ حيث لم يجعل إخلاصهم له موكولًا إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على ألسنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأن الله لو جعل الإخلاص موكولًا إلى العقول لاختلفت العقول في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل الله عز وجل ذلك مما تكفل به هو نفسه لعباده، ففيه إثبات رحمة الله عز وجل بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي التصفية قبل التحلية؛ أو يُقال التخلية قبل التحلية؛ لأنه قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾. وهذا تخلية، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ تحلية، يعني نفي وإثبات، وهذا هو التوحيد، فالتوحيد مبني على نفي وإثبات؛ لأن النفي المُجرد تعطيل محض وعدم، والإثبات المُجرد لا يمنع المشاركة، فلا يتم التوحيد إلا بنفي وإثبات، ولهذا لو قلت: لا قائم في البيت. فهذا نفي مُجرد معناه العدم، وإذا قلت: زيدٌ قائم في البيت. فهذا إثبات مُجرد لا يمنع المشاركة، أي: قد يكون رجل آخر في البيت قائم، فإذا قلت: لا قائم في البيت إلا زيد. فحينئذٍ تحقق الانفراد وتحقق التوحيد، وصار لا يوجد قائم في البيت إلا زيد، إذًا التوحيد لا بد فيه من هذين الأمرين: النفي والإثبات، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولًا بالنفي ليرد الإثبات فيه؛ ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزُّخرُف:٢٦ -٢٧]. فتبرأ أولًا من كل معبود، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن طاعة الشيطان في معصية الله - ولا تكون طاعة الشيطان إلا في معصية الله - نوع من العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾. لأن الطاعة فيها نوع من التذلل، والعبادة هي التذلل، فمن أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.

٥ - **ومن فوائدها:** أن العبادة لا تختص بالركوع والسجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، بل هي عامة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمال التذلل.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الحذر من طاعة الشيطان، حيث سمى الله تعالى طاعته عبادة، وكل إنسان يحذر من أن يعبد مع الله غيره، ففيه التحذير من طاعة الشيطان في

معصية الله عز وجل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**:قوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾. فيه وجوب عبادة الله وحده لقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾. والعبادة تُطلق على معنيين:

أحدهما: التعبد.

الثاني: المتعبَّد به.

التعبد يعني: التذلل لله عز وجل، وهي بهذا المعنى فعل العبد يعني صلاته وزكاته، وقيامه، وحجه، وما أشبه ذلك، وتطلق العبادة على المتعبَّد به وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، القلبية والجوارحية.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الصراط المستقيم هو التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. ﴿هَذَا﴾ أي تَرْكِ عبادة الشيطان والالتزام بعبادة الله ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق مستقيم لا عِوَج فيه، وإنما كان كذلك؛ لأنه موصِّل إلى رضا الله تعالى وجنته، فهو صراطٌ مستقيم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الصراط قد يكون مستقيمًا وقد يكون معوجًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فكل واحد من البشر له طريق، فإن كان على شرع الله - عزوجل - فهو مستقيم، وإن كان على خلافه فهو معوج.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢].

التَفسِير

﴿وَلَقَدْ﴾. هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي: القسم المُقَّدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يُقسم الله عز وجل وهو الصادق بالقول بلا قسم؟نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول:ذ الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه؛ لأنه لولا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أُريد إثباته وتحقيقه فإنه يُقسَم عليه.

الوجه الثالث: أن المُقسَم به إذا كان مُصرَّحًا به، فإن الإقسام به يدل على عظمته فإن الله لا يُقسم بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء، مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:١ ، ٢]. وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمة المُقسم.

قوله: ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ﴾. بمعنى: أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادكم إلى ضلال ليس فيه هُدى ﴿جِبِلًّا ﴾، قال المؤلف – رحمه الله: [جِبِلًّا: خلقًا. جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبُلًا بضم الباء]. والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلًا بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقُرئ، فهي شاذة. إذًا فيها قراءتان سبعيتان: جِبِلًّا، وجُبُلًا، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المؤلف (جُبْلًا) وفيها قراءة رابعة (جِبِلًا) بدون تشديد اللام، ولكن المؤلف – رحمه الله – ليس تفسيره جمعًا للقراءات، إنما يذكر ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره، ولكن لا شك أنه لو ذكرها لكان أحسن؛ لأنه أحيانًا يذكر قراءات متعددة في صفة الحرف كما ذكر القراءات المتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ من التسهيل، والتحقيق، والحذف وما أشبه ذلك، ولكن الإنسان بشر، أحيانًا يغفل ويهمل ما ينبغي أن يذكر، أو يذكر ما لا يحتاج أن يُذكر.

قوله: ﴿جِبِلًّا ﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ولا يعني ذلك أن الأكثر لم يضل من قبل الشيطان، بل هو أضلَّ أكثر الخلقَ. لأنه ثبت في الحديث الصحيح أن الله يوم القيامة يقول: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ»[1]. هؤلاء كلهم في النار من بني آدم وواحد في الجنة، فشق ذلك على الصحابة وعظم ذلك. وقالوا: أينا ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّكُمْ فِي أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»[1]. وهو كذلك فإن من شاهد الخلق الآن ونحن في جزء يسير من العصور وجد أن تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام: إذًا المُراد بالكثير هنا الأكثر، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. الهمزة هنا للاستفهام، والمُراد بالاستفهام التوبيخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مُقدرة مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطف ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهمزة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهمزة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مُقدر يُفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تُقدر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

شيئًا، ولا تعلم أي شيء يُناسب، وحينئذٍ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذٍ لا نتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن ما دام المعنى مستقيمًا على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تُعسروا).

قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم، فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل)، والمُراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعًا؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مُكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يُحسنوا التصرف، فصاروا عُقلاء غير عقلاء، عُقلاء باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاء باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أُعطُوا ذكاء ولم يُعطَوا عقلًا، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام - رحمه الله - في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاءً، وأوتوا فهومًا، ولم يؤتوا علومًا، وأوتوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون). أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً - نسأل الله العافية - فكان ذكاؤهم حجة عليهم، وأوتوا فهومًا أي: عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلا بد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهؤلاء أوتوا عقولًا تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حُرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحُسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمؤلف - رحمه الله - يقول: [﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عداوته وإضلاله، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون]. يعني: لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنكال لكنتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولآمنتم بالله وحده، ولكن الهوى غطى الهدى كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فُصِّلَت:١٧].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان عداوة الشيطان لبني آدم؛ حيث أضل منهم جبلًا كثيرًا. أي: خلقًا كثيرًا عظيمًا.

٢ - ومنها: التحذير من الشيطان وإغوائه؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية بني آدم، ولكنه يسعى لإضلالهم.

٣ - ومنها: أن من اتبع الشيطان في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا

تَعۡقِلُونَ﴾.

٤ - ومنها: أن من ساء تصرفه صح أن يُنفى عنه العقل، وإن كان عاقلًا عقلًا ظاهرًا؛ لقوله هنا: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾. وقد مر علينا أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف وهو عقل الإدراك، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو عقل التصرف الذي يكون به الرُّشد.

٥ - ومنها: توبيخ ولوم من تبع الشيطان في إضلاله لكونه غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [يس:٦٣].

التفسير

قال المؤلف في تقدير الكلام: [ويُقال لهم في الآخرة: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾].

﴿هَٰذِهِۦ﴾ الإشارة هنا إلى قريب؛ لأن إشارة البعيد (تلك) وهنا يقول: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قربها منهم؛ لأنه يؤتَى بها يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تُقاد ويؤتى بها ويُشاهدها الناس، ويلحقهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويُقال لهؤلاء المُجرمين: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. وفي آية أخرى قال الله عزوجل فيها: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور:١٣ : ١٦]. كانوا قبل أن يُدعوا إليها يُقال لهم: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. فإذا دُعوا إليها، والدَّع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفًا منها، ولكنهم يُدفعون دفعًا بقوة – والعياذ بالله – إليها ويُقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. والتكذيب عنف في رد الحق، والدَّع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. أي: توعدون بها ولكنهم يُكذبون كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]. فهم تُوعِّدوا بها لكنهم كَذَّبوا – والعياذ بالله – ويوم القيامة يُوبَّخون على هذا التكذيب ويُقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. و﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وهنا إشكال وهو: أنه قيل: إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومُنجزُ موعدي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ (٦٣)﴾؟

فنقول: الأمر - كما قال المُفسر - على حذف معلوم، وهو قوله: (بها) أي: توعدون بها، لا توعدونها. لو قال: (توعدونها) لصار للإشكال محل؛ لأن الجنة قال الله فيها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. وقال أيضًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. لكن هؤلاء وُعدوا بها، يعني أنه قيل لهم: إنكم سوف تُلاقونها، وهذا هو الواقع.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات نار جهنم، وأنها تُشاهد عينًا يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ﴾. والإشارة تكون إلى مُشار إليه محسوس.

٢ - **ومنها:** بيان صفة النار وأنها - والعياذ بالله - كلها ظلمة، وكلها سواد؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ لأنها من الجهمة، أي: الظلمة والسواد.

٣ - **ومنها أيضًا:** تقريع هؤلاء، وإظهار خطأهم في تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** صِدْق وعد الله سبحانه وتعالى؛ حيث صدق وعده بما وعد به هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وعدوا به عيانًا.

قال الله تعالى:

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٤].

التفسير

هذا الأمر كوني - إن كان من الله - وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضًا أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، إذ من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يُصْلَوْها، لكن يُقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ (أل) هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد الحضوري، يعني: هذا اليوم (للحاضر) اصلوا النار فيه.

ويتردد علينا كثيرًا العهد الحضوري، والذكري، والذهني، فما الفرق بينها؟

العهد الحضوري: ما كان معهودًا لحضوره، والذكري: ما كان معهودًا لذكره، والذهني: ما كان معهودًا في الأذهان.

مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلًا في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرمك، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزَّمل: ١٥، ١٦]. يعني: الرسول المذكور وليس رسولًا آخر.

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. أي: تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبكل ما أخبر الله به؛ ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يُقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. لإقامة الحُجة عليهم، وبيان أنهم لم يُظلموا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [المُلك:٨، ٩].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء المُكذبين يُؤمرون أمر إهانة وإذلال؛ ليصلوا النار لقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وإثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، ولا ينكرُ إثباتَ الأسباب إلا جاهل بحقيقة الواقع، فإنه لا أحد يُنكر أنك إذا رميت الزجاجة بحجر انكسرت به، وإذا أُلقيت الخرق في النار احترقت بها، ولا يُنكر هذا إلا شخص مُكابر في الواقع، ومع هذا فالأسباب لا تفعل بذاتها، ولا تؤثر بذاتها بل بخلق الله سبحانه وتعالى التأثير فيها، وحينئذٍ لا يكون في إثبات الأسباب شيء من الشرك، خلافًا لمن زعم أن إثبات تأثير الأسباب نوع من الشرك؛ لأننا نقول: إن هذه الأسباب إنما تؤثر بخلق الله عز وجل التأثير فيها، ولهذا إذا شاء الله أن لا تؤثر لم تؤثر، فإن النار طبيعتها الإحراق ومع ذلك لم تحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت بردًا وسلامًا عليه، لأن الله قال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** كمال عدل الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فلم تُظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم.

قال الله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

التفسير

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة. قال المؤلف - رحمه الله: [﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: الكفار؛ لقولهم: والله ربنا ما كنا مُشركين. وقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وغيرها. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فكل عضو ينطق بما صدر منه]. قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. الختم على الشيء بمعنى: إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: نسدها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرؤا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مُشركين. أي: أقررنا بأننا غير مُشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذٍ يُختم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختم عليها، وتنطق الجوارح بما عملت، والجلود بما مسَّت، فإن الجلد يمس المحرمات كمس المرأة لشهوة مثلًا، فتشهد عليهم الجوارح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾. فنفس اليد تتكلم تقول: عملت كذا، عملت كذا. ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وكذلك نفس الأرجل تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا. وتأملْ الفرق بين اليد والرجل، في اليد قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾، وفي الأرجل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾. قال بعض العلماء: لأن اليد تُخبر عما فعلت، والرجل تُخبر عما فعل غيرها؛ لأن الأصل في المباشرة اليد؛ ولهذا دائمًا يُعلق الكسب باليد فيُقال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]؛ فلهذا كانت الأيدي مباشرة، والأرجل شاهدة؛ لأن الشاهد هو الذي يُخبر عما فعل غيره، والفاعل هو الذي يُخبر عما فعله هو بنفسه - هكذا قال بعض أهل العلم - وهو فرق لا بأس به، مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]. فإقرار الإنسان على نفسه شهادة عليه، لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء وذكرناه آنفًا فرق لا بأس به.

قال المؤلف: [وتشهد أرجلهم وغيرها]. قوله: (وغيرها) لا يعني ذلك أنه يستدرك على القرآن، لكنه يُنبه على موضع آخر من القرآن، ففي آية أخرى بيَّن الله تعالى أنه تشهد عليهم

الجلود، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ [فصلت:٢٠ : ٢٢]. فالسمع والبصر والجلود لم تُذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل؛ ولهذا قال المؤلف (وغيرها) إشارةً إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل،وهي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾. فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس، قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾. ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم)؛ لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر؛ ولهذا قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾. لأن العذاب سيكون على الجلود، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦].

والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]. فاللسان أيضًا يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطرًا؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١). وكل صباح تكفر الجوارح اللسان، يعني: أنها تجعل الأمر مُناطًا به، ولهذا قال تعالى في سورة النور: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾. ونص على الألسن في سورة النور؛ لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلًا، وأعظمه قذف عائشة – رضي الله عنها – ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول، فقال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. تنازعه عاملان: الأول: (وتكلم)، والثاني: (تشهد)، والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيدًا، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيها يعمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة ... واختار عكسًا غيرهم ذا أصبح

فالعامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ولم يقل: (بما كانوا يعملون)؛ لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأ فلا يؤاخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]. ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت)، فالكسب أخص من العمل؛ لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسبًا، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤاخذ به الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤاخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحيانًا يُطلق العمل ويُراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

يقول المؤلف: [﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فكل عضو ينطق بما صدر منه]. فاليد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يختم على أفواه المُكذبين يوم القيامة فلا يتكلمون، وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]. وهو أن للقيامة أحوالًا: حال يكذبون، وحال يُقِرُّون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وأرجلهم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾. فإنه خلاف العادة أن تتكلم الأيدي والأرجل، ولكن الله على كل شيءٍ قدير؛ ولهذا لما ذكر الله عنهم أنهم قالوا لجلودهم وأعضائهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان يمكن أن يشهد بعضه على بعض؛ لأن هذا الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، فهل يتفرع على هذا: أن الإنسان في الدنيا يمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم يمكن، وشهادته على نفسه هي إقراره على نفسه.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨]. وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. لأن مجرد العمل قد لا يكون كسبًا كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٦٦].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. لأعميناهم طمسًا ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟﴾ ابتدروا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق ذاهبين كعادتهم، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿يُبْصِرُونَ﴾ حينئذٍ؟ أي: لا يُبصرون].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾. (لو) حرف امتناع لامتناع، والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئة، فإذًا هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمته، امتنع المجيء والإكرام، و(لولا) حرف امتناع لوجود، و(لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم، فقولنا: (لو جاء زيد لأكرمتك). امتناع لامتناع، وقولنا: (لولا زيد لأكرمتك) امتناع لوجود، فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمتك). لكي ينطبق المثلان هنا، قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله عز وجل يُعبر عن نفسه بنحن و(نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذًا فهو مُتعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد؛ لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المُحكمة الدالة على أن الله إله واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]. ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]. إذًا الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعًا؛ لأن الله واحد

قوله: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالمها نهائيًا، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. والله عز وجل على كل شيءٍ قدير، فكما كان قادرًا على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشق، وإذا كان البشر ربما يخيط الشق حتى يتلاءم فما بالك بالخالق عز وجل، الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]. وقوله: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾. يعني: طمس على أعينهم، فصاروا يتسابقون لعلهم يُدركون الطريق الذي يوصلهم إلى مقصودهم، وكأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحُمُرُ لعلهم يهتدون إلى الطريق، وهل يمكن للأعمى أن يدل الطريق من حيث الدلالة البصرية؟! لا يمكن؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ

﴿يُبْصِرُونَ﴾. يعني: كيف يُبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم؟! والمقصود بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى طمس قلوب هؤلاء، ولو شاء لطمس أعينهم، فصار الطمس حسيًّا معلومًا، وكما أن المطموسة عينه لا يُبصر، فكذلك المطموسة بصيرته لا يُبصر الحق، كيف يمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يُبصر الحق ويهتدي؟ هذا شيء مُتعذِّر كما أن مَنْ طمس الله بصره لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة**: في هذه الآية الكريمة إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾. ولكن كل شيء مُعلق بمشيئة الله فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يشاء مشيئة مُجردة بل مشيئته تابعة لحكمته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]. فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. يدل على أن مشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: بيان تمام قدرة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. فهذه الأعين مُبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة، فإن هؤلاء لو طمست أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل، فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب - والعياذ بالله - لم يستطع الوصول إلى الحق، ولم يعرف الحق.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال بلاغة القرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما استطاعوا أن يذهبوا ولا يرجعوا)، لكن أتى به على هذا السياق الذي فيه توسع؛ لأنه أبلغ في التأثير، ولأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتستلذ بسماعه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٦٧].

❁ التفسير ❁

وفي الآية السابقة قال تعالى: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. انتفاء الدلالة، وفي هذه الآية انتفاء السَيْر. وقوله: ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾. قيل: المراد بالمسخ - كما قال المؤلف: [قردةً وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني: يُمسَخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأيًّا كان فالله على كل شيءٍ قدير، فقد قلب الله تعالى بني إسرائيل قردةً وخنازير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠]. والله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ»(١).

والأمر هين على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾. أي: حولنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير، أو جعلناهم حجارة، أو أننا أبقيناهم ماكثين كالجماد. المهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾. أي: فما استطاعوا أن يمضوا؛ لأنهم مُسخوا على مكانتهم وبقوا ثابتين، ولا يستطيعون أن يرجعوا، والذي لا يستطيع أن يمضي ولا يرجع ثابت، كالعمود لا يتقدم أمامًا ولا يتأخر خلفًا، لو شاء الله عز وجل لمسخهم على هذا حتى ظهر أمرهم محسوسًا، أما بالنسبة للخير والتقدم إليه فهم لم يتقدموا للخير، ولكن تأخروا عنه إلى الشر؛ ولهذا كان سيرهم الذي يسيرون عليه في العمل عكس الاتجاه الصحيح، بل مُضاد له تمامًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾. وقد سبق الكلام عن المشيئة، وأنها مقرونة بالحكمة في فوائد الآية السابقة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع؛ لقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧).

قال الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

التَفسِير

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله تعالى: ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾، وجوابه قوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ فمعنى قول الله عز وجل ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أي: نجعل عمره طويلًا؛ ولهذا قال المؤلف – رحمه الله: [بإطالة أجله، (نُنْكِسْهُ) وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]. القراءة التي جعلها المؤلف أصلًا (نُنْكِسْهُ) من الإنكاس، والقراءة التي في المصحف ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من التنكيس، والإنكاس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، أو ﴿نُنْكِسْهُ﴾.وقوله: ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾، يقول المؤلف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفًا وهرمًا]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعُف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٠]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]. والغرض من هذا التنبيه – وإن كان أمرًا واقعًا وكل يعرفه –أن يُبادر الإنسان عمره ما دام في قوته وشبابه؛ لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية ويكون تفكيره محدودًا كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يُحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدودًا لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضًا يكون حفظه للأشياء محدودًا، فيمر به الشيء في الصباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يُسْلب عقله نهائيًا، وربما يصل إلى حد يُشبه الجنون فيؤذي أهله بالصراخ والعويل والأناشيد وما أشبه ذلك، حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جَمَّالًا مثلًا، وكان يُنشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لا بد منه؛ ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

فكل إنسان عاقل إذا تذكر أن مآله إما موت عاجل، وإما هرم، فإنه لا يطيب له العيش، ولكن العاقل ليس مَعْنَى أنه لا يطيب له العيش أنه يبقى في ندم وفي حزن، بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لا بد منها، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾. قال المؤلف – رحمه الله: [إن القادر على ذلك المعلوم عندهم قادر على البعث فيؤمنون به، وفي قراءة بالتاء]. أي: (أفلا تعقلون)؟ وهي سبعية كما تقدم

من اصطلاح المؤلف. هكذا قال المؤلف رحمه الله: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممكن، لكن أحسن منه أن يُقال: إن معنى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ فتبادرونها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، وغالبًا أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ، أو تجده يُصلي دائمًا، أو تجده يقرأ القرآن دائمًا، أو يذكر الله تعالى دائمًا، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيئ، نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان حال الإنسان وأنه ينتقل من طور إلى طور، وقد بيّن الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]. لكن هذه الآية فيها دليل على أن الإنسان إذا تقادم في السن فإنه يرجع إلى الوراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾.

٢ - **يتفرع على الفائدة السابقة:** أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فرص العمر وقوته وشبابه قبل أن ينكس في الخلق.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التنديد بهؤلاء المُكذبين؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على التعقل والتفكر وحُسن التصرف؛ حتى يكون الإنسان من العقلاء.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العقل غير الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكيًا ولكنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾. ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله - في تفسيره: [﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿الشِّعْرَ﴾؛ ردًّا لقولهم: إنما أتى به من القرآن شعرًا، ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ يسهل ﴿لَهُ﴾ الشعر، ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة، ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ مظهر للأحكام وغيرها]. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: أين مرجع الضمير؛ لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهومًا عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾. ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو مُحمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المُكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه؛ ولهذا لم يعلم الشعر ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. فالنبي ﷺ لم يقل شعرًا أبدًا، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفوًا، والذي يأتي عفوًا ليس مقصودًا فلا يكون معلومًا، مثل قوله ﷺ:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ».

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شعرًا، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المُقفى الذي يأخذ باللُّب، وسُمي شعرًا لأنه يأخذ بالشعور؛ ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللُّب أكثر من أن يأخذ النثر، فربما تسمع خطبة بليغة جيدة جدًّا، وتجد ما يماثلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور ؛ ولهذا سُمي شعرًا، وبه نعرف أن ما يُسمى الآن بالشعر المنثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بنثر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه مَنْ يطربون إلى النثر والخطب، ولا يطرب إليه مَنْ يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل امريء من دهره ما تعود، والذين أحدثوه يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر امريء القيس.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قال المؤلف: [رد لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعرًا)]. والمكذبون والذين يقومون ضد أي إنسان لا بد أن يَصِفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة:٣٢]، وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]. فكل الرسل وُصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومُحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضًا وُصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن يُنفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر؟ وهل نفر الناس؟ أبدًا؛ لأن الحق – والحمد لله – سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

فإذا قال قائل هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام هل يتعدى إلى أتباعه؟

فالجواب: نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطفِّفين:٣٢]. فيصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السُّنة والجماعة بألقاب السوء فيقولون: إنهم نوابت، غُثاء، حشوية، مُجسمة، مُشبهة، وما أشبه ذلك. كل هذا من أجل التنفير عما هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثوابًا لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحانًا لهم بالصبر على ما هم عليه من الحق، ثم العاقبة تكون لهم، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يعني: الشعر، قال المؤلف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاءً، وصعب عليه إنشادًا، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنشد شعر غيره ينشده أحيانًا على غير الوزن المعروف؛ لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به؛ لأنه كل ما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾، فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]. أي: مستحيل غاية الاستحالة، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾. يعني هذا شيء مستحيل أن تدرك القمر، هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعرًا. فلا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجًا من المُبطلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

سؤال: لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنثر واضح

لدى عامتهم فضلًا عن خواصهم؟

الجواب: المبطل يموِّه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجهٍ جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعايتهم حتى يشتبه الأمر.

سؤال: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعتوا القرآن بالشعر وليس موزونًا ولا مُقفى؟

الجواب: هذا من باب الترويج، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبدًا على مثل شعرهم هذا.

كما أنه ﷺ لو كان يَكتُب لقالوا: إنَّ هذا شيء مما كتبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. قال المؤلف: [ليس الذي أتى به إلا ذكر]. فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي: ما هو إلا ذكر، و(إن) تأتي لعدة معانٍ: تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومخففة من الثقيلة. والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معانٍ مُتعددة أنه يعينها السياق، وقرينة الحال، وهي هنا نافية، قال تعالى: ﴿هو﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿علمناه﴾، وكون مرجع الضمير مصدرًا معلومًا من الفعل السابق أمر لا يُستغرب، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ﴿هو﴾ أي: العدل المفهوم من كلمة: (اعدلوا)، وهنا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين. وقوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: [عظة]. يعني: موعظة يتذكر بها من تذكر، والذي يتذكر بهذا القرآن بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ﴾ [ق:٣٧]. وهذا باعتبار الاستعداد والقبول، وجاء في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة «ق» بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل، وكلما ازداد الإنسان عملًا بالقرآن ازداد تذكرًا به، وهذا الذي ذكره المؤلف – رحمه الله – في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معانٍ:

المعنى الأول: ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكر به.

المعنى الثاني: إنه ذكر يُذكَر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله عز وجل، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته عز وجل؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدُن حكيمٍ خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها

لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذِكْر لله عز وجل؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بيَّنها الله تعالى في كتابه.

المعنى الثالث: أنه رِفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]. والذكر بمعنى: الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشَّرح:٤]. أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق؛ ولهذا فإني أحثكم على أن تتمسكوا بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدةً، وعملًا، وهديًا فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون - لو كنتم قليلين - فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمُهتدي به حتى يكثروا شيئًا فشيئًا، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارئ ومقروء، أما كونه قارئًا؛ فلأنه من القرْ يعني: الجمع، فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والآداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة:٤٨]. وجامع أيضًا لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضًا مقروء أي: متلوّ؛ لأنه يُتلى، والقراءة بمعنى التلاوة.

قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾. قال المؤلف - رحمه الله - [مُظهر للأحكام وغيرها]. فـ ﴿مبين﴾ هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مرارًا أن (أبان) يكون لازمًا، ويكون متعديًا، يكون لازمًا بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. أي: بَيِّن ظاهر، وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: ﴿مُّبِينٌ﴾، أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]. فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وُجِدَ في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجهٍ صريح، أو على وجهٍ ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارةً يذكر الدليل على المسألة، وتارةً يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلًا: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير أنصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها

لكن في القرآن ما يشير إليها مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]. فهذه الآية إذا وجهتها إلى السُّنة شملت جميع السنة، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسُّنة.

إذًا فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضًا مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المُكذبين للرسل وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يُذكر موكولًا إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجيولوجية، أو غير ذلك فنجد أن القرآن لم يفصلها ولم يبينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يُدركوها؛ ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجهٍ صريح، ولو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثباتًا أو نفيًا لكان الله عز وجل يُبينه بيانًا واضحًا، كما بين الأمور التي لا بد لنا من الاعتقاد فيها على وجهٍ صريح، إذًا هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يُطَّلع عليها إلا أخيرًا هذه أيضًا لم تُذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنها لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤]، وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: إنها ملايين القطع. فلن يخرج عن دلالتها، هذه القطع لولا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله: ﴿قطعٌ متجاورات﴾. إذًا هي متباينة. وفي هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض؛ لأن الله بَيَّنَ أنها قطع، وليست القطع التي فوق التراب فقط، ففيه أشياء كثيرة ما تُعلم وربما تُعلم في المستقبل، وربما بعضها عُلم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرةً ثانية إلا ظهر لك معنى جديدًا غير الأول، ولا يمكن لأحدٍ أن يُحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالبًا للحق، مُريدًا للصواب فإنه يهتدي إلى معانٍ كثيرة.

سُئل علي بن أبي طالب ﷺ: هل عَهِدَ إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ لأنه كان يُرَوَّج في ذلك الوقت: من وقت علي والشيعة يروجون بأن النبي ﷺ عهِدَ بالخلافة لعلي بن أبي طالب ﷺ، فسُئل: هل عَهِدَ إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتمها عن الناس؟ فقال: لا والذي برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى مَن شاء في كتابه، وما في

هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر[1].
الشاهد قوله ﷺ: (إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من كتابه). وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافًا كثيرًا جدًّا جدًّا، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يَستخرج منها فوائد محدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافًا مُضاعفة بالنسبة لما استخرجه الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا وتقوى ازداد هدىً بالقرآن؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** في هذه الآية رد وتكذيب للمشركين الذين قالوا: إن مُحمدًا ﷺ شاعر؛ حيث قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يصلح ولا يليق برسول الله ﷺ أن يكون شاعرًا؛ لأن مقام النبوة أسمى وأعلى من أن ينحط الإنسان إلى رُتبة الشعراء.

وقد يُقال: إن فيها مُلاحظة البُعد عن الشبه، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يبتعد عن كل ما يوجب الشُّبهة حوله، ويؤيد هذا أن النبي ﷺ لما كان يمشي مع صفية - رضي الله عنها - فمر به رجلان فأسرعا، فقال: «عَلَى رِسْلِكُمَا فَإِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»[2]. وهذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يقول: ما دمت نزيهًا فلا يهمني أن يُسيء الناس الظن بي. وهذا ليس بصحيح، وليس من حُسن الرعاية لنفسه أن ينزل بها إلى هذا الحد، بل الإنسان مأمور أن يدفع عن نفسه الشبهات واللوم والظن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن العظيم الذي علمه رسول الله ﷺ ذكر، وقد تقدم في التفسير أنه ذكر من ثلاثة أوجه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما تمسك المسلمون بهذا الكتاب العزيز فإنهم يزدادون عزةً وشرفًا؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن مبين لكل شيء، فكل شيء يحتاج الناس إليه فهو مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٣٧٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

قال الله تعالى:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

التفسير

قال المؤلف: [بالياء والتاء]. ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء، الضمير يعود على القرآن، ﴿لتنذر﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المؤلف: [لتنذر به]. فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية؛ وهي: ﴿لتنذر﴾، أما القراءة الأولى ﴿لينذر﴾ فلا تحتاج على هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه مُنذِر، وأن النبي ﷺ مُنذَرٌ به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافًا للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوَّف به، ورغَّب به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾، قال المؤلف: [يعقل ما يُخاطب به وهم المؤمنون]. ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ هل المُراد هنا بالحياة: الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين؛ ولهذا قال ابن كثير - رحمه الله: من كان حيًّا على وجه الأرض. يعني مَنْ كان حيًّا حياةً جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو يُنذر من كان حيًّا، أي: يُنذر كل حي، أو من كان حيًّا حياةً معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يُراد به: مَنْ يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت: ميت الجسم، وميت القلب. أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن؛ لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طُبع على قلبه - والعياذ بالله - فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق، وقوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾.

قال المؤلف: [بالعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم كالميتين لا يعقلون ما يُخاطبون به]. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. كان من المتوقع أن يُقال: ويحق القول على من كان ميتًا، أو على الأموات؛ لأن هذا مُقتضى المقابلة، لكن عُدِل عن هذا إلى ذكر الكافرين فقال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمران:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر؛ ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عَدَل الله عز وجل - والله أعلم - عن هذا إلى قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. دون قوله: «ويحق القول على الميتين»، بل قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ومن الأمثلة على هذا - وهو كثير بالقرآن - قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر:٢٠]. لم يقل: (يقضون بالباطل)، بل قال: ﴿لا يقضون بشيء﴾. ليشمل الباطل وغير الباطل، يعني: ليس لهم قضاء إطلاقًا؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم لا يَنتفع به وينتذر إلا من كان حيًّا، أي حي القلب.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من كان ميت القلب - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بالقرآن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم حُجة على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. لأنه لن يحق عليهم القول إلا بعد أن تقوم عليهم الحُجة، ويكون كفرهم عن عناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر لا ينتفع بالقرآن وإنما يكون حُجة عليه، وهكذا كل من كان فيه خصلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتذاره به.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلة، وإن شئت فقل: الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾. اللام فكلما رأيت التعليل في كتاب الله عز وجل فهو مُثبت للحكمة في أفعاله تعالى ومشروعاته.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١].

التفسير

﴿أَوَلَمْ﴾؟ الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أداة النفي حرفًا مثل: (لم)، أو فعلًا مثل: (ليس)، فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مُقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المؤلف: [﴿يَرَوْا۟﴾: يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤية العلم، ويمكن أن يُراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد يُنكرها الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن يُنكر، والحقيقة أنها مُحتملة لهذا وهذا، فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١]. وباعتبار

المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يُشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المؤلف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف]. هل الواو داخلة أو مدخولة؟ المؤلف يقول: (الواو على الهمزة). لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت: سوف يقوم. فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمؤلف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب وهو أن التقدير: (وألم يروا أنا خلقنا لهم)؟ وهذا أحد القولين، فهنا المؤلف - رحمه الله - جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه - رحمه الله - يرى أن في المسألة تقديمًا وتأخيرًا، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وألم يروا).

وقوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ قال المؤلف: [في جملة الناس، ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ عملناه بلا شريك ولا مُعين]. ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: أوجدنا لهم من العدم أنعامًا، والله سبحانه وتعالى مُختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نُجِّرَتْ الخشبة بابًا فقد خلقتها بابًا، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيَّرتها إلى هيئة مُعيَّنة، وهذا نوع من الخلق؛ ولهذا يُقال للمصورين يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم. مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط، ﴿لَهُم﴾ اللام في ﴿لَهُم﴾ للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها.

قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾. أي: مما عملنا. وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى. وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا)، كما قال تعالى في آدم يُخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]. فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليد فقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. وما أشبهها مما يُضاف فيه الفعل إلى اليد، والمُراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمُراد نفسه، أي: مما عملنا. ولو قلنا: بأنه خلقها بيديه لكانت الأنعام أشرف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. بالجمع فهل الله عز وجل له أكثر من يَدَيْن؟ الجواب: لا، ليس لله أكثر من يَدَيْن، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأنه الأفصح في المُثنى إذا أُضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]. مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المُفيد للجمع - وهنا للتعظيم بلا شك - ناسب الجمع، وأيضًا فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جُمِعَت، وأيضًا فإن هذه الأنعام لا يُحصيها

إلا الله عز وجل فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضًا باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك أنها تفيد إثبات اليد لله عز وجل، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟

قلنا: الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]. ولو كان له أكثر من واحدة لقال: (بل أيديه)؛ لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخلق عز وجل فعطاؤه لا ينفد، ولا يُعَدُّ، وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السُّنة والجماعة.

قوله: ﴿أَنْعَـٰمًا﴾. قال المؤلف: [هي الإبل والبقر والغنم]. كأن المؤلف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١]. ولو قيل: بأن الآية أعم من ذلك؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، وقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾. الفاء مُفرعة على قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾. أي: فعلى كونها خُلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون، وأتى بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار، أي: أن هذا الملك مستمر، وهذا الملك الذي ذكره الله عز وجل يقول فيه المؤلف: [ضابطون]. فهو من ملك التصرف، وليس من الملك الشرعي الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها. أي: أنهم يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير نعمة الله عز وجل على عباده، بهذه الأنعام؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾.

٢ – **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذه الأنعام ملك لنا ننتفع بها بجميع وجوه الانتفاعات لقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾. فكل وجوه الانتفاعات، فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها؛ لأنها ما دامت لنا، فنحن فيها أحرار إلا ما قام الدليل على منعه. ويتفرع على هذه الفائدة:

أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادة بركوبه، مثل أن نركب البقر؛ ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خُلقت له.

فإن قلت: ما الجواب عن الحديث الصحيح: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ بَقَرَةً يَسُوقُهَا، إِذِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا». قال النبي ﷺ: «فَأَنَا أُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[1].

فالجواب على هذا أن نقول: إن هذا الرجل ركبها ركوبًا يشق عليها، وهي ما خُلقت لتُعذب، وهو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

كذلك حتى لو أن الإنسان ركب الإبل على وجه يُعذبها قلنا له: إنها لم تُخلق لهذا.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. لكن لا يُسمى الله بالعامل، كما لا يُسمى بالصانع أخذًا من قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]. وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشتق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسمًا؛ ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء. أي: باب صفات الله أوسع من باب الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسمًا.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾. وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؛ لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلًا وسمعًا، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]. وأما العقل: فإن كل عاقل يُدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، فمثلًا: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويُسميها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، وصفات غير لازمة، ويُسميها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولا يزال خالقًا، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق، فإنه يكون حادثًا بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس؛ لأن الله لم يزل ولا يزال خالقًا. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستوٍ عليه، والذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله عز وجل لا يتجزأ ولا يتبعض، إذ إن الجزء ما جاز وجود أصله بعدمه، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلًا - وحاشا لله عز وجل - أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل؛ ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعاض لله؛ لأن هذا مُنكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقية، ثابتة له على الوجه اللائق به، ولكن لا تُماثِل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتُلي قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصف الله عز وجل باليد الحقيقية، ولا شك أن هذا ضلال

وجناية على النصوص. أما كونه ضلالًا؛ فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق عز وجل يقول عن نفسه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]. ويقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]. ويقول: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾. وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله، ولولا تأويلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيبًا للنصوص، ونحن نعلم أن المكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يُرد كذا، وأراد كذا، فنفوا ما أراد الله، وأثبتوا ما لم يُرده، فكان جناية على النصوص من الوجهين: السلبي والإيجابي. السلبي: حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي: حيث أثبتوا ما لم يُرده الله. إذ قال الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]. قالوا: أراد باليدين النعمة أو القوة. نقول - سبحان الله - من الذي أعلمك؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾. وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة. من الذي قال لك هذا؟ فنفيك قول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جناية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهودٌ لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله - عز وجل - وأن الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر، وإلا فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقية لائقة به، لا تُماثل أيدي المخلوقين بأي حالٍ من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نُجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات:٤٧]. أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح، (أيد) هنا بمعنى قوة؛ لأن أيدِ مصدر أد، يئيد، أيدًا، كباع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، ولا يجوز أن نقول هي كقوله تعالى: ﴿أَيۡدِينَآ﴾؛ لأن الله لم ينسبها إلى نفسه، فلم يقل: (والسماء بنيناها بأيدينا). وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتعين أن نفسر قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾، أي: بقوة. وإذا لم يُضف الله شيئًا إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه. لأنا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكنا نقول على الله بلا علم. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]. اختلف السلف في قوله: ﴿عن ساق﴾، هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه عز وجل؟ فنحن إذا أخذنا بالقاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولا بد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم نكشف عن ساقنا)، بل قال: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾. ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في

الصحيحين في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المُراد به ساق الله؛ فإنه في حديث أبي سعيد الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا[1]، فهنا قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢ - ٤٣]، نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحينئذٍ نقول: إن كلام الله تعالى يُفسَر بكلام الله تعالى، ويُفسَّر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذٍ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المُراد به ساق الله عز وجل، ولكنه نُكِّرَ للتعظيم؛ لأن التنكير قد يُراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة «يس» يقول تعالى فيها: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السُّنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان، وحينئذٍ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٦]، وبين هذه الآية: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾، وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلك:١]. وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهم مُتيسر - ولله الحمد - لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضًا، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضًا، فالخلق مُنسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشرع مُنسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المُضاف يشمل؛ لأنه للعموم؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]. نعم لا تُحصى مع أنه قال: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فهي واحدة، لكن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد المضاف وإن كثر، إذًا ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فتدخل، واليدان فإنه تدخل، إذًا لا مُنافاة بين المفرد وبين العدد جمعًا كان أو مُثنى، فقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ اليد مُفرد مُضاف. والضمير مُضاف إليه، والمفرد المضاف يفيد العموم. أي: مُفرد مضاف فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يُطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عُتق الجميع، ما لم يُرد واحدًا.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت بيوته كلها وقفًا ما لم يُرد واحدًا. فالمفرد المضاف يعم.

بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين، والجمع الذي هو (أيدينا) فكيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢).

الوجه الأول: أن كثيرًا من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١] (إخوة) جمع. مع أن الأم تحجب من الثلث إلى السدس باثنين. وبقول النبي ﷺ: «الاثْنَانِ وَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ»(١) أي: في الصلاة.

ولكن أكثر علماء اللغة – وهو المشهور – يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وحينئذٍ يمكن الجمع.

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إن المُراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ التعظيم، لأن الجمع يدل على التعظيم؛ ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في مقام التعظيم. فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المُراد به الجمع، بل المُراد به التعظيم. فهنا الجمع للتعظيم، وللمناسبة أيضًا؛ لأنه أُضيف إلى ما يُفيد الجمع، فكان الأنسب أن يكون مجموعًا، فهذه المناسبة لفظية، وإرادة التعظيم مناسبة، معنوية. وبهذا يزول الإشكال.

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون: إن لله أيادي كثيرة؟

فالجواب: إن هذا يمنعه المعنى، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر؛ لأنه أبلغ في المدح. فلما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]. فعُلم أنه ليس له إلا يدان اثنتان، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧]، فأثبت القبضة بيد، والسماوات مطويات بيمينه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة؛ ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول في صفة العين: العين وردت مجموعة، ووردت مُفردة، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. فنقول: عين مفرد مضاف فيعم ﴿تجري بأعيننا﴾، وإما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس لله أكثر من عينين اثنتين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبين تمويهاته قال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(٢). فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن المُراد بالعور هنا العيب، يُريد أن يُثبت أن لله تعالى أعيُنًا كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾. ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال النبي ﷺ: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى». ولم يقل: (أعور) فقط، فلو قال: (أعور)

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٩٧٢)، والطحاوي (١/ ١٨٢)، والدارقطني (صـ ١٠٥) كذا قال الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٤٨٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٠٣)، ومسلم (٦٦).

فقط، فربما يُحتمل ما قاله هذا القائل، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تُعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأَضَاحِي: الْمَرِيضَةُ، وَالْعَجْفَاءُ، وَالْعَوْرَاءُ، وَالْعَرْجَاءُ»[1]. فجعل العور غير العيب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين، ثم إذا جاء الحديث: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى». صار قاطعًا للاحتمال قطعًا نهائيًّا لايمكن أن يُراد به العيب.

فإذا قال قائل: ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان لله عزوجل أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يُقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب عز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبين أن دلالة حديث الدجال – وهو صحيح – دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم – رحمه الله – في مختصر الصواعق المُرسلة «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ»[2]. وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجةٍ إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

٥ – **و من فوائد الآية الكريمة**: أننا نملك هذه الأنعام ملكًا شرعيًّا، وملكًا حسيًّا قدريًّا.

أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها، ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، أما الكوني الحسي؛ فلأننا نملك زمامها وضبطها، وهي مُسخرة لنا نقيمها ونبيخها، ونذهب بها ونرجع بها، وهذا من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بهذا الملك.

٦ – **و من فوائد الآية الكريمة**: أنه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار، أي: ملك مستقر تام.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي: سخرناها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاءون؛ ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذُلّل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله عز وجل وجوه الانتفاع فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾. الركوب فعول، بمعنى: مركوب، أي: فمنها ما يركبونه، مثل الإبل.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٠٢)، والنسائي (٢/ ٢٠٣)، والترمذي (١/ ٢٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١١٤٨).

﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يُركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يُركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المؤلف، فإننا نقول: منها ما يُركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله عز وجل جعل لهذه الأنعام فوائد مُتعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضًا من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾. ﴿مِنۡ﴾ في الموضعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟

مُقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكَّنا من الانتفاع بها؛ ولهذا لما ندَّ بعير من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ لِهَذِهِ الإِبِلِ أَوَابِدُ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فَمَا نَدَّ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا»[1]. فهذه البعير تمردت على أهلها ولم يُدركوها إلا بالسهم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله؛ لقوله: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾. لكنها مفعولة للفاعل مباشرةً. فهي تنسب لله عز وجل تقديرًا وخلقًا، وتنسب إلى الفاعل كسبًا وعملًا، فهذه الإبل المُذللة الذي ذللها هو الله، إذًا أفعالها صادرة بخلق الله عز وجل. وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد: هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالًا؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالريح ليس باختياره، فيُقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء، ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضًا: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالمًا له، ويلزم عليه أن مدح الطائعين لغو لا فائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يُجبر عليه بدون اختياره، ويترتب عليه أيضًا: أن ذم العاصين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضًا مُخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمأنينة واختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعًا، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية إن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غرّ أصحابه أن الله عز وجل ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد، إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٠٧)، ومسلم (١٩٦٨).

نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

أصحاب المذهب الثاني: الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون لله عز وجل إرادة ، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس لله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبدًا بأن أحدًا يُجبره على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله عز وجل وخلقه عن أفعال الخلق، واعتقادهم أن الإنسان مستقل بها يُحدثه؛ ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث التي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مُستقلًا بها؛ فلهذا سُمُّوا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئاً في ملك الله عن ملك الله.

المذهب الثالث: أهل السُّنة والجماعة توسطوا بين القولين وأخذوا بالدليلين، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة؛ ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترتب على فعله حكم، فالمجنون – مثلًا – لا يؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يُكلف؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. إذًا فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانا مخلوقين لله تعالى فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيُضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلًا. كما أن الإحراق مثلًا بالنار يُنسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله عز وجل؛ فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرةً، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقًا، وهذا الذي ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة، هو المُطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية.

فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريقٍ واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد لشُلت الحركة، ولصار الإنسان اتكاليًّا لا يقول ولا يفعل، ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه عز وجل في مهماته ومُلماته، فهو باعتبار أنه مُريد

فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مُدبر، يرجع إلى الله عز وجل، فلا يكون اتكاليًّا، ولا يكون أنانيًّا.

يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكاليًّا يقول: إن قُدر لي شيء صار، بل هو يعمل مُستعينًا بالله مُعتمدًا عليه.

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة**: أنه لنا أن نتتفع بهذه الأنعام بالركوب، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها، فإن كان في ذلك مشقة كان حرامًا؛ لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة**: جاز الإرداف على الدابة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾. ولكنه مُقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون في ذلك مشقة.

٥ - **و من فوائد الآية الكريمة**: حل هذه الأنعام، أو حل بعضها إذا جعلنا (مِن) للتبعيض، وجعلنا (الأنعام) أعم من (بهيمة الأنعام)، والحل في الأنعام كلها هو الأصل؛ ولهذا لو تنازع شخصان في أن هذا الحيوان حلال أو حرام، لكان القول قول من يقول بالحل حتى يقوم دليل على التحريم وذلك:

أولًا: لعموم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

ثانيًا: لعموم قوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾. فالأصل هو الحل حتى يقوم دليل على المنع، لكن هذا الحل مقيد بشروط الذكاة المعروفة؛ لأنها إذا لم تذك البهيمة الحلال ذكاة شرعية صارت حرامًا لا تحل، فهذا لإطلاق ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾. مقيد بشروط وهو أن يكون مذكًا بذكاة شرعية، ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حَلَّ له ولو لم يذك؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تتم المصلحة إلا به؛ لأن الأكل مصلحة، ولكن لا أكل إلا بعد الذبح، والذبح من أعظم ما يكون من الإيذاء؛ ولأن الشرع جاء بإباحة وَسْمِ البهائم بالنار من أجل حفظ ماليتها، ولأن الشرع جاء بمشروعية إشعار الإبل والبقر في الهدي؛ ليعلم أنها هدي، وإشعارها هو شق صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم، وعلى هذا إذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنه لا بأس به، مثل ما يفعله بعض الناس الآن في الحَمام إذا أراد أن تُربى عنده؛ فإنه ينتف مُقدم الأجنحة لئلا تطير، حتى تألَف المكان وتُربى فيه، يقولون: لو أننا قصصناها قصًّا ما نبت لها ريش بسرعة. فلهذا يختارون أن ينتفوها نتفًا من أجل أن ينبت الريش بسرعة وتستعد للطيران.

قال الله تعالى:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿وَمَشَارِبُ﴾. من لبنها، جمع مشرب بمعنى شرب، أو موضعه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم عليهم بها فيؤمنون. أي ما فعلوا ذلك].

المنافع أعم مما قاله المؤلف: [كأصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتشبيه، والأصواف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للبقر والغنم، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تُحصى، ولهذا أتى بصيغة مُنتهى الجموع ﴿مَنَافِعُ﴾.
﴿وَمَشَارِبُ﴾ إما موضع الشرب كما قال المؤلف، أو الشرب، ولكن الأوْلَى أن نقول: إن لهم فيها مشارب أي: شربًا، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها، وينتفعون بها شربًا وبيعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. والهمزة للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي: أنهم لم يشكروا الله عز وجل فهم موبَّخون على عدم شكرهم.

وقول المؤلف - رحمه الله: [أي: ما فعلوا ذلك]؛ لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل.

وقد تقدم الكلام على معنى الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

الفوائد

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فأي منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مُباحة لنا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾. لكن بشرط كما أسلفنا أن لا يكون في ذلك مشقة فإن كان فيها مشقة فإنها ممنوعة.

٢ - **ومن فوائدها:** حل ألبان هذه البهائم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

٣ - **يُستفاد من قوله تعالى:** ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. وجوب شكر الله تعالى على هذه النعم، ووجهه أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل مُحرم، أو ترك واجب. وشكر المنعم كما دل عليه الشرع فقد دل عليه العقل، فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ

فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُم كَافَأْتُمُوه»[1].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

❁ التَفْسِيرُ ❁

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غيره، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا آلهة مع الله، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله آلهة، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أنهم لم يتخذوا الله إلهًا، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا ألوهية الله تعالى، مع أن هؤلاء يتألهون إلى الله تعالى وإلى غيره، ولكن قد يُقال: إن الفائدة من التعبير بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مع أنهم يُألِّهون الله تعالى ويألهون الأصنام أن الإنسان إذا اتخذ شريكًا مع الله؛ فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأله الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2].

قوله: ﴿آلِهَةً﴾ جمع إله، والإله بمعنى مألوه. أي: معبود، وفِعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة، منها: غِراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وفِراش بمعنى مفروش. فهؤلاء - والعياذ بالله - يتألهون لهذه الأصنام كما يتألهون لله عز وجل يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾. قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء، أي: لعلهم يغلبون. والواقع أن مُتخذي الأصنام يتخذونها للأمرين: لتشفع لهم عند الله تعالى فينجو من عذاب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر:٣].

وهم أيضًا ينتصرون بها عند الحرب والقتال، كما قال أبو سفيان في غزوة أُحد: أُعْلُ هبل. فانتصَر بإلهه واعتزَّ به.

فهم اتخذوا هذه الآلهة للأمرين جميعًا: لدفع ما يكره، وحصول ما يحب. وهذا هو المناسب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٨٢) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ٤٦ (٢٩٨٥).

لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾. لأن إطلاق النصر على مُجرد دفع المكروه هذا وإن كان واردًا ـ لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة والرفعة أكثر في اللغة العربية. ولكن هل هؤلاء يُنصرون بهذه الأصنام؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. أي: هذه الآلهة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودليل ذلك أنهم يضعون الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى، ويذهبون إلى الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيامة فإنهم كلهم يحصبون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥،٦]. فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعو الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروه، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكروه فما الجواب؟

قلنا: الجواب: أن هذا فتنة من الله عز وجل يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم يحصل بدعاء الصنم وإنما حصل عند دعاء الصنم، أي حصل عنده لا به، فالله عز وجل جعل هذا يحصل عند دعاء هذا الصنم ابتلاءً وامتحانًا، والله عز وجل بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليبلو الإنسان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية لله عز وجل، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]. فابتلى الله الصحابة وهم مُحرمون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير، ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشيةً لله لا عجزًا عن الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعًا طافية على وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، وهذا امتحان من الله عز وجل، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون الله عز وجل معاملة الغر الجاهل يُخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبهم الله تعالى قردة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]. فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو دفع ضرر يمتحنون

ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقينًا؛ لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

قال المؤلف: [﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: آلهتهم. نزلوا منزلة العقلاء ﴿وَهُمْ﴾أي: آلهتهم من الأصنام ﴿لَهُمْ جُندٌ﴾ بزعمهم نصرهم ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ في النار معهم]. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن واو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو (لا يستطعن نصرهم). لكن قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تنزيلًا لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخوطبوا بما يعتقدون.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ المؤلف - رحمه الله تعالى - مشى على أن ﴿وَهُمْ﴾ الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم ﴿مُّحْضَرُونَ﴾. أي: معهم في النار، فهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع مُحضرون في نار جهنم يُعذبون. وهذا قول فيه بُعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على العابدين ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الأصنام ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: حاضرون. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جندًا لها كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]. فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

الوجه الأول: أنهم ينصرون هذه الأصنام وينتصرون لها ويدافعون عنها.

الوجه الثاني: أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفه والضلال.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾: صحة إطلاق الإله على غير الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ ولكن هل هذه الآلهة حق؟

الجواب: لا، هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]. فهي وإن سموها آلهة وعبدوها كما يعبدون الرب عز وجل فإنها لن تكون آلهة؛قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾

[النجم:٢٣].

٢ - و **من فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم، ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان المبطل لا بد أن يتعلق بشيء يبرر به باطله، وهو هنا رجاء النصر ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، وكل إنسان مبطل لا بد أن يعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مر كثيرًا في أقوال أهل البدع.

٤ - **من فوائد قوله تعالى**: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أن هذه الآلهة لا يمكن أن تنصر عابديها لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلهة فيُغاثون أحيانًا؟

فالجواب: نعم، يمكن وهو امتحان وفتنة، ولكن هذا الغوث حصل عندها لا بها، وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده، والسبب غيره، فسبب هذا الغوث الفتنة، وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

٥ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء العابدين جند مُحضرون لأصنامهم، يُدافعون عن الأصنام وينتصرون لها، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. وفي هذا من المناداة بسفههم ما هو ظاهر، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفه كيف تنصر شيئًا لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه، ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كالدليل على سفه هؤلاء. أي: أنهم ينتصرون لهذه الآلهة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء على ما اخترناه من أن معنى الآية: (وهؤلاء العابدون للمعبودين جندٌ مُحضرون) أما على رأي المؤلف فهو يرى خلاف ذلك، يرى أن هذه الأصنام جند لهؤلاء، لكنهم مُحضرون في النار جميعًا، وسبق بيان ضعف هذا القول.

قال الله تعالى:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦].

التفسير

الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي: لا يوقعك في الحزن، والحزن: هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف: هو الهم والترقب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء

المُكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله عز وجل، ويقولون في رسول الله ﷺ قولًا عظيمًا، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنصح الخلق للخلق، فيُحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مُهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. والآيات في تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة:

قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. وهذا طعن في الألوهية.

وقالوا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:٤٣]. وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن مُحمدًا ﷺ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضًا عيب في شخصية الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صُودِمَتْ دعوته في لُبها وأصلها وقيل: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلًا يحس في نفسه بضغط، لكن إذا كان سيُهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عِيب عيبًا ذاتيًا يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلي الله نبيه مُحمدًا ﷺ في مثل هذه التوجيهات ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. هنا يجب الوقوف على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لأنك لو وصلت لأَوْهَمت أن تكون جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾. من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولونه في رسول الله ﷺ وما جاء به ما يقولون، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يُبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

الإسرار الأول: إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

الإسرار الثاني: إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلًا:

هؤلاء قومٌ عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمرٍ من الأمور، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئًا لم يخبر به زملاءه فهذا أيضًا إسرار.

فقوله تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يُجازيهم على ذلك يوم القيامة.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يرى بمعنى: يعلم، والمعنى: أو لم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مُقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وألم ير) وقوله: ﴿الْإِنسَانُ﴾. قال المؤلف: [وهو العاصي بن وائل]. وعلى رأي المؤلف تكون (أل) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (أل) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (أل) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني: جنس الإنسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ١ : ٣]. ووجه كون ذلك هو الأصل؛ أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومه، فإذا قال قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾. إنه فلان بن فلان، فنقول الله عز وجل، قال: ﴿الْإِنسَانُ﴾؛ وهو شامل، إذًا فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصي بن وائل مثالًا لمن قال هذا القول، أو لمن رأي هذا الرأي،قوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾. قال المؤلف: [مَنِيٍّ إلى أن صيرناه شديدًا قويًّا. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: شديد الخصومة لنا. ﴿مُّبِينٌ﴾: بينها في نفي البعث]؛ فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المني المهين كما وصفه الله عز وجل، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا يُنشئه الله عز وجل حتى يُعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صَدْر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيمًا، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾. أي: شديد الخصومة؛ لأن فعيل بمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾. أي: بيِّن، والذي يظهرأنها ﴿مُّبِينٌ﴾. بمعنى مُظهر، يعني مُظهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاء الله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، فـ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهر للخصومة، خلافًا لقول المؤلف: بينها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وهو كذلك.

٢ – **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النُطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيمًا لله عز وجل بيِّن الخصومة؟! لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مُخاصمًا لربه عز وجل.

٤ – **من فوائد الآية الكريمة:** أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سيقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلا بد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جدال محمود، مأمور به: إما وجوبًا، أو استحبابًا.

القسم الثاني: جدال مذموم، منهي عنه.

القسم الثالث: جدال بين بين.

أما الجدال الممدوح فهو الذي يُقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المُجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهيٌّ عنه قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المِراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًّا عنه، وذلك إذا كان مع الجدال والمراء والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزُّب.وإن أفضى إلى مصلحة كان مأمورًا به، مثل: أن يكون المجادل مغرورًا بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهيًا في نفسه، مترفعًا على غيره.

قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

التفسير

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾. يعني: هذا الإنسان الذي كان خصيمًا مُبينًا ضرب مثلًا لله عز وجل، يُريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل يبينه بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بيانًا لمُبهم في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يعني: ابتداء خلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾. جملة يحتمل أن تكون جملة خبرية، ويحتمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني: أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مَنيٍّ ثم كان إنسانًا سويًّا خصيمًا مُبينًا.

المثل بيّنه بقوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. يقول المؤلف ـ رحمه الله: [ونسي خلقه من المني وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن، وخلقه من المني ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعًا لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالًّا من وجهين:

الوجه الأول: استغرابه قدرة الله عز وجل على الإعادة.

الوجه الثاني: نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من ماء مهين، حتى صار إنسانًا قويًّا خصيمًا مُبينًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. أي: بالية و ﴿مَنْ﴾ استفهامية، والمراد به النفي، أو الإنكار، يعني لا أحد يُحيي العظام وهي رميم. فالإنسان إذا مات و رَمَّ ، أي: ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذًا رميم، هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟! هذا وجه استغراب هذا الرجل المُنكر. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. قال المؤلف: [أي بالية، ولم يقل رميمة بالتاء لأنه اسم لا صفة] الرميم: تارة يُراد به الصفة، يعني: اسم المفعول، أو اسم الفاعل مرمومة، أو رامة.

وتارة يُراد بها الاسم يعني: أن العظم إذا بلي يُسمى رميمًا، فلما قصد به الاسم لم يحتج إلى التاء فقيل: (رميم)؛ لأنه مثل أسد، وحجر، وشجر وما أشبه ذلك، لكن لو أريد الصفة لكان يؤنث

فيُقال: (رميمة)؛ لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث؛ لا سيما وأنه قال: ﴿وَهِىَ﴾ وهذه ضمير مؤنث.

قال المؤلف: [روي أنه أخذ عظمًا رميًا ففته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعد ما بلي و رَمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نَعَمْ وَيُدخِلُكَ النَارَ»[1]، المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف؛ (روي) وهو جدير بذلك، لأن هذا الرجل المُنكر سواء أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه مُنكر بكل حال، وليس من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: «نعم ويُدخلك النار» فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده، وفي صحته.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن المجادل بالباطل يأتي بالشبهات التي ينصر بها باطله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾. فإن هذه شُبهة تلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: (من يُحيي العظام) فقط، بل قال: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾. فكيف تحيا بعد أن رُمَّت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليلبسوا على الناس.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الإنسان استهان بربه حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أضرب لكم مثلًا بهذا الشيء الذي يُعجز: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعارض للحق قد يُصرح بالإنكار بدون مراوغة لقوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ وأحيانًا «يراوغ». فأيهما أهون؟

الذي يُصَرِّح ويُبَيِّن أهون؛ لأن هذا يمكن أن يُتقى شره، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر، ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أشد من خطر الكافرين الذين يُصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرون الناس ولا يمكن التحرز منهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]

❁ التفسير ❁

يقول الله تعالى مبينًا قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهذا الذي أنكر أن يُحيي الله العظام وهي رميم ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، واعلم أن الله عز

(١) ابن جرير الطبري في تفسيره ج ٢٢ ص ٣١.

وجل إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام «قل» فهو أمر له بالإبلاغ. ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عمومًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]. فإذا خص شيئًا من الأحكام، أو من الأخبار بـ (قل) كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبليغ هذه المسألة، سواء كانت خبرًا، أو كانت حكمًا. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. لم يقل: (يحيها الله) ليكون الجواب مُتضمنًا للدليل، لأنه لو قال: (يحيها الله) فَهِمَ الإنسان أن الله هو الذي يُحييها، لكن إذا قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجواب مُتضمنًا للدليل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والذي أنشأها أول مرة هو الله عز وجل، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم يُنشئها أول مرة، فإذا كان الله عز وجل أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. ووجه الاستدلال بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانيًا: قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. قال المؤلف: [﴿خَلْقٍ﴾ بمعنى: مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المُراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. صار في هذا نص على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعصِ عليه، لأنه إذا كان عالمًا لم يبق إلا الإرادة، وإذا أراده وهو بكل خلق عليم، صنع ما علم عز وجل، فكونه بكل خلقٍ عليم دليل على أنه قادر على أن يُعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. هذه القدرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المُستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وانتفى الجهل المُستفاد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار الخلق ممكنًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. فأقوى ما يسوق الحجج ويبينها هو كلام الله، لأن كلام الله عز وجل أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، فحديث الله عز وجل لا شك أنه أصدق الحديث وأتمه، وأحسنه في الإقناع، وإقامة الحجة.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف، فالأشد إحياؤها أول مرة، والأخف الإعادة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يقر به خصمه، من أجل أن تقوم عليه الحُجة؛ لأنه قال: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والخصم هنا لا ينكر أن الله تعالى أنشأها أول مرة.

فينبغي أن تأتي بالشيء الذي يُقر به خصمك لتقيم الحُجة عليه بإقراره، وهذا أدب من آداب المناظرة، لأنه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر منها:

- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظر الذي حاجه في ربه فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فعدل إبراهيم عن ذلك، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. وهذا يُقر به الخصم، ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وهذا لا يمكن للخصم أن يقوم به.

- فالحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة والمحاجة، وأن يأتي خصمه من الوجهة التي يقر بها حتى يُقيم عليه الحُجة؛ لأن المناظرة والمحاجة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]. مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك فهم على ما هو أعظم أعجز.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، وسبق لنا في التفسير هل الخلق هنا بمعنى المخلوق، أو بمعنى الفعل؟ وذكرنا أنه يُحتمل الأمرين، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني كل خلق فالله عليم به، ومن المعلوم أن العالم بالخلق عالم بالمخلوق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤]. إذًا يُستفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور، ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالم بالمخلوق.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [أي: في جملة الناس ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العناب ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾. ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا هو الله عز وجل، وأراد المؤلف بقوله: [في جملة الناس]؛ أن هذا الجعل ليس خاصًّا بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المؤلف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (أل) للعهد الذهني، ويكون عامًّا أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (أل) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.

فالصواب أن المراد ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾، أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العناب] لا نعرف عن هذا شيئًا هل إنه مُستثنى، وأن العناب لا يمكن أن تأتي منه النار - الله أعلم - على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامةً، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد من رطبٍ بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليبوسة من التنافر العظيم.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذًا هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. «الفاء» هنا عاطفة و«إذا» فجائية، يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عودًا بعود من هذا الشجر تقدح النار، فتوقد منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجئ للعملية، والمفاجأة استفدناها من كلمة ﴿فَإِذَآ﴾ وفي قولنا: ﴿أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد يُنكره، فلا أحد يُنكر أنه يتولد من الشجر الأخضر نارًا يوقد الناس منها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله: [تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يُطفيء النار، ولا النار تحرق الخشب].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد، شيء حار يابس. فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أن الضدين متنافران، لا يلتقيان أبدًا، وهنا صار أحدهما يتولد من الآخر

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن التنافر بين الرطب واليابس، والحار والبارد، أعظم من أن يُعاد الخلق، أو تُعاد العظام بعد رميمها، فالقادر على هذا الشيء قادر على إحياء الموتى.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله علينا بجعله من الشجر الأخضر نارًا، ووجه الدلالة أنه قال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم ﴾، وإلا لكان يكتفي فيُقال: (الذي جعل من الشجر الأخضر نارًا)، لكن ذلك لمصلحتنا، ففيه نعمة من الله عز وجل على عباده بهذه النار. وقد قرر الله هذه النعمة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١،٧٢] ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق، فأنواعها بل أجناسها لا تُحصى، فضلًا عن أفرادها.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تقرير الشيء بالواقع؛ فبدلًا أن نلقيه تصورًا في الذهن، نذكر واقعه بالفعل، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، فهو سبحانه وتعالى بيَّن أنه جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا، وهذا يُعطينا تصورًا بأن الله سبحانه وتعالى جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا، نستفيد منها، ثم حقق ذلك بذكر الأمر الواقع ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. أي: تحسونه بواقعكم، وتلمسونه بأيديكم.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

❁ التفسير ❁

أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]. وهذا أمر معلوم

بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يُساوون كوكبًا من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يُحصيها إلا الله عز وجل، والسماوات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]. ؟ والذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادرًا على خلق الناس؟ الجواب: بلى والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأَوْلى والأحرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال المؤلف: [الخلاق: الكثير الخلق] فجعل فعَّالًا من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله عز وجل كثير الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضًا: إن فعّالًا هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أننا لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير النجارة، فنجار يعني كثير النجارة، ولكن هل هو مجيدها؟ وهل هو مُستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيُقال نجار؟ وهل النجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق مُتقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

أما إذا قلت: (نجار) على أنها نسبة، أي: صاحب صنعة، فهو أبلغ في الوصف، والنجار، أي: ذو الصنعة المُتقن لها سواء نجر كثيرًا أو قليلًا فهو نجار متقن. فهنا يمكن أن نقول: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾. نحملها على النسبة المفيدة لوصف، الله عز وجل بهذه الصفة العظيمة، أي: ذو الخلق المتقن على أكمل وجه، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق، فلا شك أن خلق الله عز وجل لا يُحصى أجناسًا، فضلًا عن الأنواع، فضلًا عن الأفراد، من ذا الذي يُحصي أجناس الخلق؟ من ذا الذي يُحصي أنواع هذه الأجناس؟ ومن الذي يُحصي أفراد هذه الأنواع؟ لا يستطيع أحد أن يُحصي ذلك.

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة الوصفية كمال الوصف، والثاني: الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلّاقًا، أي: من وصفه الخلق اللازم له، وكذلك كثير الخلق، هل يعجز عن أن يُحيي العظام وهي رميم؟ لا.

قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾. العلم دليل على القدرة على الإعادة؛ لأننا قلنا: إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للجهل، فكلما وصف الله نفسه بالعليم؛ فإن ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق، وكيف ينشئ.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن الله تعالى استدل بقدرته على خلق السموات والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته حيث خلق هذه

السماوات والأرض، بما فيهما من المصالح والمنافع، والأجرام الثابتة وغير الثابتة، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، ومع عظمتها وسعتها وكبرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. أي: من تعب وإعياء.

٣ - و **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الرد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم الأفلاك وجه ذلك؛ أنه قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أوجدها من العدم، ومعلوم أن الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلي الذي لا بداية له، فالسماوات والأرض كانت معدومة، ثم أُوْجِدَت بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأما من قال: بقدم الأفلاك، وأنه لم تزل ولا تزال هذه الطبيعة، فإنه ظالم لا يعلم عن هذا شيئًا؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نقلي، بل إن الدليل العقلي والنقلي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك، وأنها حادثة.

٤ - و **من فوائد الآية الكريمة:** جواز إجابة السائل نفسه في الأمر المُحقق المتقرر لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

إذ قد يقول قائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها؛ لأن إجابته دعوى، أو تقرير لدعوى ادعاها.

فيُقال في الجواب: إذا كان الأمر ثابتًا واقعًا فإن إجابته نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يُقرر ما كان واقعًا معلومًا للمخاطب؛ ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٥ - **في هذه الآية فائدة نحوية وهي:** أن جواب الاستفهام المقرون بالنفي، إذا أُريد إثباته يُقال فيه: ﴿بَلَىٰ﴾، ولا يُقال: نعم؛ لأنك لو أجبت بنعم، لكان ذلك تقريرًا لنفي المنفي، مثاله:

لو قلت: أليس زيد بقائم؟ فقلت: نعم، يعني قررت النفي ليس بقائم، فإن قلت: بلى، فقد أثبت القيام.

٦ - و **من فوائد الآية الكريمة:** أن الخلق وصف الله عز وجل الذي هو متصف به أزلًا وأبدًا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية والمخلوق حادث، فهو عز وجل مُتصف بالخلق، ولهذا قلنا: إن النسبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

٧ - و **من فوائد الآية الكريمة:** وصف الله تعالى بالعلم الأزلي؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، ولا شك أن الله تعالى موصوف بالعلم أزلًا وأبدًا، فإن لم يزل ولا يزال عالمًا، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شأنه] يعني: شأنه وحاله إذا أراد شيئًا أن يقول له: ﴿كُن﴾، فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلًا، أو إلى جنود يُساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده عز وجل، بل يقول: ﴿كُن﴾ فيكون. وقوله – رحمه الله: [شأنه] قد ينازع فيها، ويُقال: إن المراد بالأمر أمر التكوين، يعني أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يُكرر كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فجعل الأمر واحد الأوامر. والمؤلف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرين جميعًا نقول: شأنه عز وجل في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله: [أي خلق شيء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد ﴿شَيْـًٔا﴾ بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئًا خلقًا، أو إعدامًا، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها ﴿شيئًا﴾ سواء كان خلقًا، أو إيجادًا، أو إعدامًا وإتلافًا. ولكن الذي حمل المؤلف – رحمه الله – على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يُقال: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أي: إيجاد شيء وخلقه، أو إعدامه.

وقد يعتذر عن المؤلف فيُقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك:٢]. مع أن الموت عدم وفناء، والأمر في هذا سهل، قال: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ﴿كُن﴾ هنا الظاهر أنها: تامة، وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلًا. يعني: ﴿كُن﴾ أي: أن يوجد ويتكون، أو (كن كذا) أي: بأن يكون الطويل قصيرًا، والقصير طويلًا وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل ﴿فَيَكُونُ﴾. قال المؤلف: يقول: [فهو يكون، وفي قراءة بالنصب عطفًا على ﴿يقول﴾]. قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المؤلف – رحمه الله – إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قُرِئَ). في

قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أَن يَقُولَ﴾ للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعقيب، يعني أن الشيء يكون فورًا بدون تأخير، وقد بيّن الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]. ولمح البصر ليس شيء أسرع منه، وأمر الله عز وجل واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرميمة: كوني إنسانًا سويًّا هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٤،١٣]، وقال في هذه السورة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

الفوائد:

١ – من فوائد هذه الآية الكريمة: الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.

٢ – **ومن فوائدها أيضًا**: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يُضاهيها، ولا يُقاربها قدرة؛ لأنه إذا أراد شيئًا لم يتكلف لإحضار المواد، أو غيرها مما يتكون به هذا الشيء، وإنما يقول: ﴿كُن﴾ فيكون.

٣ – **ومن فوائدها**: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾، وإرادة الله سبحانه وتعالى كما قال أهل العلم تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية.

فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة.

والكونية: هي التي بمعنى المشيئة.

والفرق بينهما من حيث الأثر:

(١) أن الإرادة الكونية لا بد فيها من وقوع المُراد.

(٢) أن المُراد فيها قد يكون محبوبًا لله، وقد يكون غير محبوب لله.

أما الإراد الشرعية: فقد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، ولا يكون المُراد فيها إلا محبوبًا لله.

فإذا قال لك قائل: هل الله يريد الكفر؟

فقل له: أما شرعًا، فلا، وأما كونًا، فنعم.

ولو قال لك قائل: هل الله يُريد الإيمان؟

فقل: نعم يُريده شرعًا، وقدرًا إن وقع، لأنه إذا وقع فقد أراده قدرًا، وإذا لم يقع فلا نعلم هل أراده قدرًا أو لا؟ بل نقول: إنه الآن لم يُرده قدرًا.

٤ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن كلام الله عز وجل يكون بحرف؛ لقوله: ﴿كُن﴾ فإن «كن» كلمة مكونة من حرفين، وإثبات أنه بصوت لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فهذا الخطاب موجه لما أراده الله، وهو يقتضي أن يكون هذا المُراد سامعًا لهذا القول، ولا سماع إلا بصوت.

فيكون في الآية رد على الأشاعرة في كلام الله عز وجل حيث يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يسمع من الأصوات والحروف وهو عبارة عن كلام الله، ويرون أن هذا المسموع مخلوق، ولهذا قال بعض المُحققين منهم، أو المنصفين منهم: إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المُعتزلة في كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف فهو مخلوق. فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون خيرًا من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إن ما بين دفتي المصحف كلام الله. فكلهم يقولون: إنه مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون: إنه عبارة عن كلام الله، فإضافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة، وعلى كل حال في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، وحقيقة الأمر أنهم لا يُثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أمر الله عز وجل إذا وجه لشيء فإن هذا الشيء يكون كما أمر؛ لقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ .أي: فيكون على ما أمر الله به، في العين، والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿كُن﴾، فكان على حسب ما أراده الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

التفسير

(سبحان) بمعنى: تنزيهًا، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المُطلقة دائمًا، ومُلازمة أيضًا للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظًا فهي مضافة تقديرًا. و(سبحان) معناها: التنزيه أي: أن الله مُنزه عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلًا يُنزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق، ويُنزه أن يعتري صفاته نقص بأي وجه، فمثلًا: العلم، علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا، ابتداءً؛ لأنه مسبوق بالجهل، وانتهاءً؛ لأنه ملحوق بالنسيان، وشمولًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. لكن علم الله عز وجل كامل من هذه الوجوه كلها ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلمه

الذي هو موصوف به أزلًا وابدًا، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وعلمه شامل لكل شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥] . ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاته الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مُشابهة والفرق واضح:

أولًا: أن المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]. ولم يقل: «ليس كشبهه شيء» وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

ثانيًا: أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئًا.

فمثلًا: الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مُطلقًا فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثًا: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفيًا للصفات؛ لأن كثيرًا من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبه من ثلاثة أوجه.

فتنزيه الله عن كل نقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم نقص يُنافي التنزيه، فإذا ثبت أن الله عز وجل مُنزه عن كل نقص، لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.

قوله:﴿بِيَدِهِۦ﴾ أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك:١].وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله عز وجل، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله عز وجل حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن تثبت اليد، أما إذا قلت بيده بتصرفه وتدبيره مع ثبوت اليد فهذا هو المُراد.

قوله:﴿مَلَكُوتُ﴾ كما قال المؤلف في أصل ﴿مَلَكُوتُ﴾: [ملك لكن زيدت الواو والتاء

للمبالغة] أي: زيدت للمبالغة في مُلك الله لكل شيء، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعدم، ولا يلحق بزوال، بينما ملك غير ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا الشيء ثم ملكه بعد، ومع ملكه إياه فإن هذا الملك قابل للزوال، ثم إن ملكه إياه ليس ملكًا مُطلقًا يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك مقيد، أما ملك الله فهو تام. ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملك كل شيء.

وقوله: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكًا مُطلقًا – مبالغًا فيه بالواو والتاء – قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما شاء، ولهذا فسر المؤلف – رحمه الله – الملكية هنا بالقدرة، فقال: [أي: القدرة على كل شيء]، ولكن هذا الكلام فيه نظر، بل نقول: مالك لكل شيء، وإذا ملكه ملكًا مُطلقًا فهو قادر على أن يتصرف فيه كما شاء.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال المؤلف: [تردون في الآخرة] أي: إليه لا إلى غيره ليُجازيكم، ووجه الدلالة من هذه الجملة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم، ولو قلنا: بعدم القدرة لانتفى الرجوع إلى الله عز وجل، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار وجود الدنيا كلها عبثًا ولعبًا، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله عز وجل، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأننا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثًا، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيءٍ قدير، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧]. لكان كافيًا في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقصٍ وعيب، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ﴾ ومرَّ علينا في التفسير أن الذي يُنزه الله عنه أمران:

الأول: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

فعلمه عز وجل لا يناله نقص، لا من حيث الشمول، ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللحوق، ولا يُماثل علم المخلوقين، وهكذا بقية الصفات.

٢ - **ومن فوائدها**: أن ملكوت السماوات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مرجع الخلائق إلى الله لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله يوم القيامة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية، والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى؛ وذلك بكون الرجوع إليه، وأنه لا بد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لولا هذا الرجوع لكان خلق الخلق عبثًا لا فائدة منه، إذ إنه لولا هذا الرجوع والمجازاة على هذا العمل في هذا الرجوع لكانت الخليقة خلقت ليفسد في الأرض من يفسد، ويحصل الفتن والشرور والنهاية لا شيء.

٥ - **في هذه الآيات كلها**: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم وذلك من عشرة أوجه:

الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه فيه استدلالًا بالأشد على الأخف.

الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وعلمه بكل خلق يقتضي أنه سبحانه وتعالى قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الثالث: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب نارًا وهي يابسة محرقة قادر على أن يُعيد الخلق؛ لأن جعل النار من الشجر الأخضر أبلغ في القدرة.

الرابع: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فقدرته على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم،قال تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾.

الخامس والسادس: قوله: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، والخلاق صفة لازمة له، وكونه خلاقًا يشمل أن يخلق كل شيء، وكونه عليمًا يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه.

السابع: أنه لا يستعصي عليه شيء، بل إذا أمر بشيء كان في الحال؛ لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثامن: تنزيه الله عز وجل عن كل نقص، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص، فإذا كان الله تعالى مُنزهًا عن كل نقص، كان ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم واقعًا.

التاسع: قوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومن بيده ملكوت كل شيء فإنه مالك لكل شيء، والمالك لكل شيء قادر على أن يوجد المعدوم، ويعدم الموجود.

العاشر: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فإن هذا هو نتيجة الخلق أن يبعث الخلق ويرجعون إلى الله، ليُجازيهم بما عملوا.

وإلى هنا انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تفسير سورة يس

تفسير سورة الصَّافَّات

تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قال الله تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]

التفسير

قال المؤلف -رحمه الله تعالى:

[سورة الصافات مكية، وآياتها ١٨٢]؛ والمكية هي التي نزلت قبل الهجرة، فكل ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وإن نزل في غير مكة.

وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة.

وعليه، فإن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] التي نزلت على النبي ﷺ وهو واقف في عرفة، من المدني، هذا أصح الأقوال في المكي والمدني. أن ما نزل بعد الهجرة مدني، وما نزل قبلها مكي.

أما البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنها آية من كتاب الله مستقلة؛ ولهذا لا تحسب من آيات السورة التي بعدها، حتى في الفاتحة على القول الراجح: إنها ليست من السورة، وعلى هذا فالترقيم الموجود في المصاحف على خلاف القول الراجح، فإن الترقيم الموجود في المصاحف في الفاتحة عدت فيه البسملة آية من آياتها، والصحيح أنها كغيرها من السور أن البسملة فيها آية مستقلة لا تحسب من آياتها، وهي مذكورة قبل كل سورة إلا سورة براءة، فإن سورة براءة لم يتقدمها بسملة، قيل؛ لأنها نزلت بالسيف، والبسملة رحمة فلا يناسب أن يذكر قبلها بسملة.

ولكن هذا ليس بصحيح، بل الصحيح أن الصحابة -رضي الله عنهم- لما كتبوا المصحف أشكل عليهم: هل براءة من الأنفال أو ليست من الأنفال، فتركوا البسملة ووضعوا خطًّا فاصلاً بينها وبين سورة الأنفال دون أن يضعوا البسملة.

ونحن نعلم أن البسملة لو نزلت قبل سور براءة لثبتت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فيكون اجتهاد الصحابة -رضي الله عنهم- في ذلك مطابقًا للواقع؛ أي: مطابقًا لكونها لم تنزل في أول هذه السورة.

أما فمن حيث معناها فإن قول القائل: بسم الله. يعني: بكل اسم ما أسماء الله، وإنما قلنا: بكل اسم من أسماء الله؛ لأن اسم مفرد مضاف فيكون للعموم، فليس قول القائل: بسم الله. يعني: اسمًا واحدًا من أسماء الله، بل يعني: جميع أسماء الله، وهذا يدلك على عظمة هذه البسملة، حيث إنك تبتدئ متبركًا ومستعينًا بكل اسم من أسماء الله عز وجل.

والباء فيها للمصاحبة والاستعانة، فللمصاحبة من أجل حصول بركتها: فإن البسملة فيها بركة؛ ولذلك إذا ذُكِرت على الذبيحة صارت الذبيحة حلالاً طاهرة، وإذا لم تُذكر صارت حرامًا نجسة. إذا ذُكرت قبل الوضوء صار الوضوء صحيحًا، وإذا لم تُذكر صار الوضوء فاسدًا، على قول من يرى أن البسملة من شروط الوضوء، أو من واجبات الوضوء، ولكن القول الراجح في البسملة في الوضوء أنها سنة؛ لقول الإمام أحمد -رحمه الله: لا يثبت في هذا الباب -أي: في باب التسمية في الوضوء- شيء.

وهي إذا ذكرت على الطعام طردت الشيطان عنه، وإن لم تذكر فإن الشيطان يشارك الآكل والشارب.

فالمهم أنها بركة؛ ولهذا نقول: الباء للمصاحبة أي: أن المبسمل يصطحب في بسملته البركة والاستعانة؛ لأنها تعين الإنسان على مهماته.

وأما (الله) فهو العلم الخاص بالله سبحانه وتعالى، لا يسمى به غير الله ومعناها: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. أي: أن إله بمعنى مألوه، أي: معبود.

فإذا قال قائل: أي:ن الهمزة في الله؟

فالجواب: أنها حذفت للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال. كما حذفت من ناس، وأصلها أُناس، وحذفت من شر وخير، وأصلها أشر وأخير.

أما (الرحمن) فهو اسم من أسماء الله، و(الرحيم) كذلك اسم من أسمائه، والفرق بينهما أن الرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل؛ ولهذا جاءت الرحمن بهذه الصيغة الدالة على السعة، فرحمة الله واسعة شاملة لكل شيء، وأما (الرحيم) فهو الموصول رحمته إلى خلقه.

وتقسم الرحمة باعتبار اسم (الرحيم) إلى قسمين: عامة وخاصة.

أما (الرحمن) باعتبار الوصف فهو عام؛ لأنه ذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] هذه البسملة مشتملة على جار ومجرور، والجار والمجرور معمول لابد له من عامل، وهو المسمى بالمتعلق، فيقال مثلاً: الجار والمجرور متعلق بكذا، فأين متعلَّق البسملة؟ قال أهل العلم: متعلق البسملة فعل مقدر، متأخر، موافق للمبدوء به في مادته.

فإذا كنت تريد أن تتوضأ كان تقدير هذا المحذوف: باسم الله أتوضأ، وإذا كنت تريد أن تقرأ كان تقديره: باسم الله أقرأ، وعلى هذا فقس، قال النبي ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[1] فقدر الفعل يعني: ليقول: ذبحت باسم الله.

لكن لماذا قدر فعلاً؟ ؛ لأنه الأصل في العمل؛ ولهذا كانت الأفعال تعمل بدون شرط، والأسماء لا تعمل إلا بشروط، كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة وغير ذلك.

وقدر متأخرًا لوجهين:

الوجه الأول: تيمنًا بالبداءة باسم الله.

والوجه الثاني: من أجل الاختصاص؛ لأن تأخير العامل عن المعمول يفيد الاختصاص والحصر.

وقدر موافقًا للمبدوء في مادته؛ لأنه أخص وأدل على المقصود، فأنت إذا أردت أن تتوضأ وقلت: باسم الله أتوضأ، كان أخص مما لو قدرت باسم الله أبتدئ.

قال الله عز وجل: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الواو هنا للقسم، والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة.

فقولنا: «تأكيد الشيء» هذه هي فائدة القسم، أنه يفيد التوكيد بذكر معظم، كأن المقسم يقول: إنني أؤكد هذا، كما أؤكد عظمة المحلوف به، ولا يمكن أن أحلف بهذا العظيم عندي إلا على أمر مؤكد.

وقولنا: «بصيغة مخصوصة» هي صيغة القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

فالواو: أكثرها استعمالاً، والباء أكثرها صيغة، يعني: أن الباء يُحلف بها مع وجود الفعل وحذفه، وتدخل على الظاهرة وعلى المضمر، والتاء أخص من الواو.

فإذًا أعم حروف القسم بالنسبة للاستعمال الباء؛ لأنها تستعمل مع وجود الفعل فتقول: أحلف بالله لتفعلنَّ كذا، ومع حذفه فتقول: بالله لتفعلنَّ كذا.

وتستعمل أيضًا مع الاسم الظاهر مثل: أحلف بالله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

ومع الاسم المضمر مثل: إن الله -وبه أحلف- لعَلَى كل شيء قدير، فهنا دخلت الباء على الضمير.

أما الواو فهي أكثرها استعمالاً، لكنها لا تدخل إلا على الظاهر، ولا يذكر معها فعل القسم.

والتاء هي أقلها استعمالاً وتختص بالظاهر، وتختص أيضًا بأسماء معينة، وهي: الله ورب، قال ابن مالك: والتاء لله ورب. فتقول: تالله لأفعلنَّ كذا، وتقول: ترب الكعبة لأفعلنَّ كذا، أو تالرب لأفعلنَّ كذا، ولا يذكر معها فعل القسم، فهي أضيقها استعمالاً.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ الصافات اسم مجرور بواو القسم؛ لأن حروف القسم تجر، والصافات لها معنى ولها مراد، فما دل عليه اللفظ باعتبار اللغة فهو معنى، وما كان مرادًا للمتكلم فهو المراد.

والمعنى في الصافات: أن الأشياء القائمات على خط واحد مستقيم، كل شيء متعدد يقوم على خط واحد مستقيم يسمى صافًّا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] يعني: على خط مستقيم. هذا المعنى للصافات.

لكن ما المراد به؟ قال المؤلف: [الملائكة]، وأُنِّث باعتبارها جماعات، وجماعات مؤنث.

وقد أخذ الزائغون بهذا الاشتباه أي: تأنيث الملائكة، وقالوا: إن الملائكة بنات الله؛ ولهذا تذكر بصيغة التأنيث، ولكن لاشك أن هذا من باب التلبيس والتشبيه. فإن الله تعالى ذكر الملائكة بصيغة المذكر قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يقل: يسبحن بحمد ربهن، وعلى كل حال أنث الملائكة باعتبارها جماعات؛ لأن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- جماعات مختلفة، كل جماعة لها وظيفة معينة، فمنها من وظيفتهم العبادة الخاصة لله من التسبيح والركوع والسجود وغير ذلك، ومنهم ملائكة موكلون بحفظ بني آدم، وملائكة موكلون بحفظ أعمالهم وكتابتها، وملائكة موكلون بأشياء أخرى، منها ما نعلم ومنها ما لا نعلم.

فإذا قال قائل: من هم الملائكة؟

فالجواب: أنهم عالم غيبي خلقوا من نور، واستعبدهم الله -سبحانه وتعالى- في طاعته، فقاموا بها على أتم وجه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قال قائل: هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، وله ستمائة جناح قد سد الأفق، وأحيانًا يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب: أن هذا على سبيل الندرة، وما كان نادرًا فإنها لا يخرم القاعدة، أو لا يبطل التعريف، والنادر كما يقول العلماء: ليس له حكم.

ما وجه كون الملائكة توصف بالصافات؟

قال المؤلف:

١- [تصف نفوسها في العبادة، أو أجنحتها في الهواء، تنتظر ما تؤمر به]. هذا الصافات، وصفت بها الملائكة؛ لأنها تصف أنفسها للعبادة، يعني: تهيئها لها.

٢- أو يصفون عند الله -عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]

٣- أو تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]

فالطير إذا كان في الهواء وقد وضع أجنحته، لا تتحرك. يقال: إنه صاف.

فإذا قال قائل: (أو) في قول المؤلف هنا للتنويع أو للشك أو ماذا؟

يحتمل أن هذا للتنويع، يعني: أنها تصف هكذا وهكذا أو أنها للشك وللتردد بين قولين، قال بهما المفسرون.

ولكن المعنى الأول أحسن؛ لأن هذا وصف للملائكة، فهي تصف أنفسها للعبادة، وكذا تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به.

وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [الملائكة تزجر السحاب، أي: تسوقه].

إذًا فالموصوف شيء واحد، فالصافات هُنَّ الزاجرات، وقوله: [تزجر السحاب (أي: تسوقه) ولعل هذا على سبيل المثال من زجر الملائكة؛ لأن الملائكة تزجر السحاب أي: تسوقه، وكذلك تزجر الميت الكافر عند موته، تزجر نفسه لتخرج، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، وكذلك لعلها تزجر أشياء أخرى لا نعلمها.

المهم أن المراد بالزاجرات الملائكة.

فإن قيل: وكيف كانت زاجرة؟

نقل: لهذا عدة أوجه منها: زجر السحاب، وزجر النفوس الكافرة عند الموت، عند ذلك مما يأمرها الله به أن تزجره.

وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [أي: قُرَّاء القرآن يتلونه، ﴿ذِكْرًا﴾ مصدر من معنى التاليات]، قوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ عدل المؤلف بهذا الوصف عن الموصوف الأول فقال: [قراءة القرآن يتلونه] أي: النفوس التاليات ولو قيل: إن المراد بها الملائكة أيضًا؛ لأن الملائكة تتلوا القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١-١٦] فالملائكة تتلوا القرآن، فيمكن أن نجعل هذه الأوصاف الثلاثة كلها للملائكة.

والمؤلف -رحمه الله- أعرب ﴿ذِكْرًا﴾ على أنها مصدر من معنى التاليات. فاستفدنا من هذا

فائدة نحوية، وهي أن المصدر قد يكون من اللفظ، وقد يكون من المعنى، فإن كان من اللفظ، فهو مصدر لفظي، وإذا كان من المعنى فهو مصدر معنوي، فإذا قلت: قعدت جلوسًا، فجلوسًا مصدر معنوي. قعدت قعودًا مصدر لفظي، يقول المؤلف: [ذكرًا مصدر من معنى التاليات]، يعني: الذاكرات ذكرًا، فالتاليات عنده بمعنى الذاكرات، وذكرًا مصدر لها من معناها، ولكن الذي يظهر خلاف كلام المؤلف -رحمه الله- وأن ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول للتاليات؛ لأن التاليات اسم فاعل قد استوفى شروط العمل لكونه محلى بأل، وذكرًا مفعول به، أي: فاللاتي يتلين الذكر، والمراد بالذكر: القرآن وسمي ذكرًا:

١- لأنه ذكر لله -عز وجل- فإنه من أفضل الذكر.

٢- ولأنه يذكِّر الإنسان بربه.

٣- ولأنه يذكر الإنسان بأحكام ربه.

٤- ولأنه يذكر الإنسان بنعم ربه.

٥- ولأنه ذكر لمن عمل به أي: شرف ورفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

٦- ولأنه يعظ صاحبه ويذكره، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] فالقرآن ذكر من هذه الوجوه.

الفوائد:

١- **في الآيات الثلاث يقسم الله -عز وجل- بالملائكة باعتبار صفاتها:** صافات، وزاجرات، وتاليات؛ لأن كل صفة منها تدل على عظمة الخالق عز وجل.

٢- **ومنها:** فضيلة الملائكة في أحوالهم الثلاث: الصف، والزجر، والتلو؛ لأنه لا يحلف إلا بما كان أهلاً؛ لأن يحلف به.

فإذا قال قائل: كيف حلف الله -عز وجل- بالمخلوق؟

فالجواب على ذلك: أن الله -سبحانه وتعالى- له أن يحلف بما شاء من خلقه؛ لأنه المالك كما أنه -سبحانه وتعالى- يأمر بما شاء، أرأيت أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم والسجود لغير الله شرك، لكن الله يأمر بما شاء، أرأيت أمره إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- أن يذبح ابنه وذبح ابنه من أعظم الكبائر وصار بأمر الله طاعة لله -عز وجل- كذلك الحلف بغير الله شرك، ولكن مع هذا لله أن يحلف بما شاء من خلقه، ولكن يجب أن نعلم أن الله لا يحلف بشيء من خلقه إلا كان هذا الشيء من أعظم آياته، فيكون الحلف بهذا المخلوق متضمنًا للحلف بآيات الله -عز وجل- التي هي فعله؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق.

٣- **ومن فوائدها:** أن من صفات الملائكة الصف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:

١٦٥] وقال النبي -عليه الصلاة والسلام: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا»(١).

٤- **ومن فوائدها:** أن الملائكة موكلة بالتصرف: بالزجر كزجر السحاب وزجر الكفار عند احتضارهم لقوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الملائكة تتلو الذكر أي: تتلو القرآن، وهذا يدل على قيام الملائكة بعبادة الله، وعلى فضيلة القرآن حيث تتلوه الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ الجملة هذه جواب القسم؛ ولذلك كسرت إنَّ هنا لوقوعها في جواب القسم؛ ولأنه اقترن خبرها باللام.

وإذا وقعت إنَّ جوابًا للقسم وجب كسرها، وإذا اقترن خبرها باللام، أو اسمها المؤخر، أو معمول أحدهما باللام وجب كسرها.

قوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ﴾ الخطاب يقول المؤلف: [يا أهل مكة]، ولكن الصحيح أنه عام يشمل كل من خوطب، ولكن الذي أوجب المؤلف أن يجعله خاصًّا بأهل مكة؛ لأن هذه الآية مكية والمشركون هم أهل مكة.

ولكن لا ينبغي أن يقيد المعنى العام بمكان نزوله، وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المكان.

فالصواب ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ﴾ يعني: أيها الناس ﴿لَوَاحِدٌ﴾ يعني: لا شريك له، والواحد والأحد وما أشبههما تدل على الأنفراد، أي: أنه -عز وجل- لا شريك له، ﴿إِلَهَكُمْ﴾ فِعال بمعنى مفعول، أي: مألوهكم، والمألوه هو الذي يعبد محبة وتعظيمًا، فبمحبته يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبتعظيمه ينتهي عن النواهي، إذًا إن معبودكم أيها الناس لواحد لا شريك له، فالله -عز وجل- لا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، دليل الربوبية قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٠)، والنسائي (٨١٦).

٨٦-٨٧] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الرعد: ١٦] ودليل الألوهية قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]

ودليل الأسماء والصفات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] فالله تعالى واحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، سبحانه وتعالى.

ويرد على هذا أن للمشركين آلهة متعددة؟

والجواب: أن نقول: نعم لهم آلهة لكنها آلهة باطلة، والدليل على أنها باطلة قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [لقمان: ٣٠] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣]

ثم قال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (رب) إما أن تكون عطف بيان، أو خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هو رب السماوات والأرض.

ورب بمعنى خالق، ومالك، ومدبر، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملك السماوات والأرض، وهو المدبر للسماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهذا انفراده بالخلق والتدبير، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الجاثية: ٢٧] وهذا انفراده بالملك.

والسماوات جمع سماء وهي معروفة، وعددها سبع سماوات بنص القرآن. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]. أي: الأرض كذلك سبع لظاهر القرآن وصريح السنة.

أما ظاهر القرآن ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾، [الطلاق: ١٢] فالمثلية هنا بالعدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماء في ذاتها ولا في سعتها وعظمتها، فالسماء أوسع وأعظم، ومادتها غير مادة الأرض؛ ولهذا يصف الله تعالى السماء بالقوة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] ولم يرد ذلك في الأرض. إذًا يتعين أن تكون مماثلة في العدد.

أما السنة فصريحة مثل قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شبرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: ورب ما بينهما، ولاشك أن الذي بينهما مخلوقات عظيمة بدليل أنها جعلت قسيمة وعديلة للسماوات والأرض. فلابد أن تكون شيئًا عظيمًا، ليس هي مجرد ما نرى من السحاب المسخر بين السماء والأرض، بل هناك أشياء عظيمة بين السماء والأرض من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

آيات الله -عز وجل-. نعرف منها السحاب فإنه بين السماء والأرض، والنجوم بين السماء والأرض، والشمس بين السماء والأرض، والقمر بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وما اشتهر عن علماء الفلك سابقًا من أن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا، وعطارد وزحل والمشتري في السماوات الأخرى، وهي على هذا الترتيب.

زُحَلٌ شَرِيٌّ مَرِّيخُهُ مِـــنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ بِعُــطَـــارِدِ الأَقْمَارُ

أعلاها زحل في السماء السابعة، (شرى) المشتري في السادسة، (مريخه) المريخ في السماء الخامسة، (من شمسه) الشمس في الرابعة، (فتزاهرت) الزهرة في الثالثة، بعطارد في الثانية، الأقمار في السماء الدنيا.

هذا هو المشهور عند علماء الفلك سابقًا، ولكن هذا خلاف الصواب؛ لأن ظاهر النصوص أن الشمس والقمر والنجوم كلها دون السماء ليست ملصقة في السماوات، بل هي في فلك يدور بين السماء والأرض، والقمر هو أقربها إلى الأرض بدليل أنه يكسف ما فوقه كما شاهدناه وشاهده غيرنا، أحيانًا تجده يمر من تحت النجمة فتغيب به، وهذا يدل على أنه تحت النجوم، على كل حال نقول: ما بين السماوات السبع السحاب والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها من أمور لا نعلمها، قد لا نعلم هذه الأمور، ويمكن أن العلم فيما بعد يطلعنا على شيء كثير منها.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: والمغارب للشمس، لها كل يوم مشرق ومغرب]، فكأنه من باب الاكتفاء بذكر المقابل عن مقابله، نظير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني: والبرد، فإن السرابيل التي هي القمص وشبهها تقي الحر والبرد.

والمشارق جمع مشرق، فما المراد بالمشارق؟ هل المراد كما قال المؤلف: مشارق الشمس؛ لأنها كل يوم لها مشرق؟ أو نقول: إن المشارق أعم فتشمل مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما شرق. أيهما أعم؟ الثاني أعم. فتقول: رب المشارق يعني: مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما يشرق، وذكر الله المشارق دون المغارب؛ لأن المشارق أدل على القدرة من المغارب، إذ إن الشروق ابتداء والغروب انتهاء.

وفي الشروق -أيضًا- ولاسيما في شروق الشمس إضاءة ونور يظهر فيه تمامًا كمال النعمة، وقوله: ﴿الْمَشَارِقِ﴾ هنا بالجمع، وفي بعض الآيات جاءت بالتثنية، مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] وفي بعض الآيات جاءت بالإفراد كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فهل هذا تناقض أم ماذا؟

الجواب: لا، وليس في القرآن شيء من التناقض قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فالقرآن لا يمكن أن يتناقض بنفسه، ولا أن يتناقض مع صحيح

السنة، وانتبه نقول: مع صحيح السنة؛ لأنه قد تأتي سنة ضعيفة تناقض القرآن، ومناقضتها للقرآن يدل على ضعفها، لكن مع صحيح السنة لا يمكن، فإن وجد شيء ظاهره التعارض فإنه لابد أن يكون هناك وجه لتصحيح التعارض: إما بإمكان الجمع وهو المرتبة الأولى للعمل بالنصوص التي ظاهرها التعارض، وإما بالنسخ إن علم التاريخ وكان النص مما يدخله النسخ، وإما الترجيح بكون أحدهما أرجح من الآخر، ولابد من هذه المراتب الثلاث. لكن أحيانًا قد لا يتسنى للناظر وجه من هذه الوجوه، فقد يعجز عن الجمع، وقد لا يعرف النسخ، وقد لا يمكنه الترجيح، فموقفه حينئذ التوقف، وأن يقول: الله أعلم، ولا يجوز أن يعتقد بأي: حال من الأحوال أن في القرآن أو صحيح السنة تناقضًا أبدًا، لكن هل له أن يحاول معرفة هذه المراتب، أو إذا أشكل عليه أول مرة وقف؟ يجب أن يحاول النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين، لئلا يقع في نفسه شك فيزيغ والعياذ بالله، فهذه الفائدة جاءت عرضًا، وهي أنه ليس في القرآن تناقضًا لا في نفسه ولا مع صحيح السنة، فإن وجد شيء ظاهره التناقض والتعارض وجب أن نستعمل المراتب الثلاث.

أولًا: (الجمع): فإن لم يمكن (فالنسخ)، فإن لم يمكن (فالترجيح)، فإن لم نصل إلى ذلك (فالتوقف) لكن مع محاولة الوصول إلى مرتبة من هذا المراتب.

فبناءً على هذه القاعدة يمكن أن ننزل الاختلاف الوارد في المشرق والمغرب فنقول: المشرق باعتبار الجهة يعني: جهة الشرق، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] يعني: جهة الشرق والمغرب جهة الغرب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: جهة الله على أحد التفسيرين، وأما المشرقين والمغربين فالمراد مشرقا الصيف والشتاء، ومغربا الصيف والشتاء، فالشمس مثلًا لها منتهى في مشرقها صيفًا، وهو مدار السرطان، ولها منتهى في مدارها شتاء وهو مدار الجدي.

فالفرق بين المشرقين فرق كبير، لا يستطيع أحد من المخلوقين أن يحول الشمس من مدار السرطان إلى مدار الجدي ولا شعرة واحدة، وكذلك نقول بالنسبة للقمر؛ لأنه يدور على هذه المعالم: المشرقين والمغربين.

فالمشارق والمغارب الجمع فيها واضح، إما باعتبار مشارق، كل ما يشرق ومغارب كل ما يغرب من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وإما أنها المشارق اليومية للشمس؛ لأن كل يوم لها مشرق، وهذه المرتبة مرتبة الجمع، فالجمع بينها أن نقول: المشارق باعتبار مشارق كل ما يشرق، أو باعتبار المشارق مشارق الشمس كل يوم، والمشرقين باعتبار مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيها المشرق والمغرب الجهة.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآيات:** وحدانية الله -عز وجل- في ألوهيته لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** بطلان ألوهية ما سوى الله لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ فإذا كان واحدًا فما سواه فهو باطل.

٣- **ومن فوائدها:** أهمية التوحيد؛ ولأن الله تعالى أقسم بالملائكة على ثبوت هذا التوحيد؛ ولأن الله تعالى أكده بثلاثة مؤكدات: القسم، إن، اللام. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** التناسب بين المقسم به وعليه، فالمقسم به الملائكة في حال تلك الأوصاف: الصف والزجر والتلو، والمقسم عليه وحدانية الله، والتناسب بينهما: أن الملائكة إنما تفعل ذلك توحيدًا لله -سبحانه وتعالى- وتعظيمًا له.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية لله -سبحانه وتعالى- لقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** عموم ربوبيته في قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فإن قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ كالدليل على توحده بالألوهية، وذلك أنه إذا كان متوحدًا بالربوبية لزم أن يكون متوحدًا في الألوهية. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فكيف تعبدون غيره ممن لم يخلقكم ولا خلق أحدًا؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]

ولهذا قال أهل العلم: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقضًا؛ لأنه يقال له: كيف تقر بأن الله وحده هو الرب الخالق ثم تعبد معه من لا يخلق؟ وهل هذا لا تناقض؟

وهذه الآية وما شابهها من آيات الكتاب العزيز تدل على التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ولكن كيف تلزمه؟ ؛ لأنه إذا قال: إن الله -سبحانه وتعالى- واحد في الخلق فيجب ألا يعبده غيره.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات أن للسماوات عددًا لقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ وقد بين في مواضع أُخرى بأنها سبع، وكذلك الأرض.

٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى عظم السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن الله أضاف الربوبية إليها في مقام إقامة الحجة، وهذا يدل على عظمتها، وأنها لعظمتها صارت كالدليل الملزم لتوحيد الألوهية.

١٠- **ومن فوائدها:** أن بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما اقتضى أن يكون ما بين السماء والأرض قسيمًا للسماوات والأرض.

١١- **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله -سبحانه وتعالى- بتصريف المشارق والمغارب لقوله:

﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ولا أحد يستطيع أن يتصرف في هذه المشارق والمغارب لا بتقديم ولا بتأخير ولا بتغيير مكان، لو أن الخلق كلهم اجتمعوا على أن يقدموا طلوع الشمس بدقيقة واحدة، أو يؤخروها، أو يزحزحوها عن مكانها ما استطاعوا، إنما ذلك إلى الله -عز وجل- هو الذي يتصرف فيها، وقد أمرها أن تسير كما أمرها بحكمته فسارت إلى أجل مسمى. فإذا أراد الله تعالى أن يغيرها غيَّرها وردها من حيث جاءت فشرقت من حيث غربت.

❁ قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]

❁ التَفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ يعني: أن الكواكب تزين السماء، وسنورد على هذا أي:رادًا، وهو أننا ذكرنا قبل آنفًا أن النجوم والكواكب في فلك بين السماء والأرض، وظاهر الآية أن تزين السماء الدنيا بشي لاصق به.

والجواب على ذلك أن يقال: إن الشيء قد يزين بالشيء ولو كان منفصلًا عنه. أرأيت لو وضعت ثريات خارج القصر فإذا نظرت إلى القصر والثريات بينك وبينه فإن هذه الثريات ستكون زينة للقصر مع أنها في الواقع ليست لاصقة به، فكل شيء يحول يكون بينك وبين شيء آخر فإنه سيتصف به الشيء الثاني، وسيكون في نظرك ملاصقًا له.

قال تعالى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ يقول المؤلف: [حفظًا منصوب بفعل مقدر: أي: حفظناها بالشهب] أي: حفظنا السماء الدنيا حفظًا بالشُّهُب كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥] وقال هنا: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ (من كل) قال المؤلف: متعلق بالمقدر وهو حفظناها.

وقوله: ﴿شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ عاتٍ خارج عن الطاعة، وكلمة شيطان نكرة يشمل كل شيطان، بل هو نكرة مضافة إليه.

وقوله: ﴿كُلِّ﴾ فيكون فيه نوعان من أسباب العموم وهو التنكير وإضافة (كل) إليه.

وشيطان قيل: إنه مأخوذ من شاط يشيط، وعلى هذا فالنون زائدة، وقيل: إنه من شطن بمعنى

بَعُدَ، فالنون أصلية، وهذا هو الظاهر أن النون أصلية وهو مأخوذ من شطن إذا بعد؛ لأن الشيطان قد بَعُدَ من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥].

وقوله: ﴿مَّارِدٍ﴾، المارد: هو العاتي القوي العتو، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: الشياطين مستأنف وسماعهم هو في المعنى المحفوظ عنه ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ الجملة -كما قال المؤلف- استئنافية، يعني: أن الشياطين المردة لا يسمعون إلى الملأ الأعلى هذه الجملة المستأنفة هي في المعنى المحفوظ عنه في قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ عن سماعهم إلى الملأ الأعلى، يعني: أن السماء حفظت من الشياطين ألا يسمعوا إلى الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة في السماء، وعُدِّي قال المؤلف: [السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء].

الملأ في الأصل الجماعة، ويطلق في الغالب على الأشراف، كما يمر كثيرًا في المكذبين للرسل أن الله يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾، فالغالب أن الملأ هم الجماعة الأشراف والأعيان في قومهم.

ولا ريب أن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- أشراف؛ لأنهم عباد مسخرون لعبادة الله في طاعة الله وسيأتينا إن شاء الله في الفوائد هل هم أفضل من البشر، أو البشر أفضل منهم، وهنا يقول: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الأعلى مكانًا، فإن السماء أعلى من الأرض، ويمكن أن يراد به الأعلى وصفًا فيجمع بين الأمرين، كما أن الله -سبحانه وتعالى- إذا وصف بالأعلى فهو الأعلى مكانًا والأعلى وصفًا.

قال: [وعُدِّي السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء]، هذا جواب عن سؤال مقدر، وهو أن ﴿سَمِعَ﴾ في اللغة العربية تتعدى بنفسها، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] وهنا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ ولم يقل: لا يسمعون الملأ، أجاب المؤلف عنه بأن الفعل ضمن معنى الإصغاء، والتضمين معناه أن يكون الفعل متضمنًا لمعنى يناسب المعمول، سواء كان مفعولًا به أو مجرورًا، وهل التجوز إذا جاء مثل هذا التعبير هل يكون التجوز بالفعل أي: أنه ضمن معنًى يناسب المعمول الذي تعدى إليه الفعل، أو التجوز في الحرف؟ ذكر أهل النحو في ذلك قولين:

القول الأول: وهو للكوفيين أن التجوز في الحرف.

والقول الثاني: أن الفعل متضمن معنى يناسب الحرف المتعدي إليه.

وأبين مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الأنسان: ٦] لو أننا أخذنا بظاهر اللفظ لكان المعنى أن هذه العين يُشرب بها، ومعلوم أن العين لا يمكن أن يشرب بها؛ لأنه لا يشرب إلا بالإناء من العين، فالعين لا يُشرب بها وإنما يشرب منها، فهل نقول: إن الباء هنا بمعنى (من)

فيكون تجوز بالحرف، أو نقول: أن يشرب متضمن معنى يروى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى بها عباد الله بعد شربهم منها، ذكرنا في هذا قولين لأهل العلم، ولا ريب أن جعل التضمين في الفعل أولى من جعله في المعمول؛ لأنك إذا جعلت التضمين في الفعل استفدت فائدتين:

الفائدة الأولى: ما دل عليه لفظ الفعل.

الفائدة الثانية: ما دل عليه معنى الفعل المتضمن أياه.

أما إذا جعلت التجوز في الحرف فإنك لا تستفيد إلا معنى واحدًا، وهو نزع الحرف وإحلال حرف آخر مكانه، ولم نستفد شيئًا ويبقي الفعل على ما هو عليه بمقتضى دلالة اللفظ، فالحاصل أن القول بأن الفعل يتضمن معنى يناسب الحرف، أو يناسب المعمول أولى من القول بأن المعمول هو الذي فيه التجوز.

هنا ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ نقول: الفعل يتضمن معنى الإصغاء. يعني: لا يصغون إليهم مستمعين.

وفي قراءة بتشديد الميم والسين: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وأصله يتسمعون، أدغمت التاء في السين فصارت يسَّمَّعون، والقراءة هذه سبعية؛ لأن في اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: في قراءة، فهي سبعية وإذا قال: قُرِئَ، فهي شاذة.

قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [أي: الشياطين بالشهب من كل جانب من آفاق السماء، ﴿دُحُورًا﴾ مصدر دحره، أي: طرده وأبعده وهو مفعول له]، ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، الضمير يعود على الشياطين.

فإذا قال قائل: إنه لم يتقدم ذكر الشياطين؟

فالجواب: بلى، تقدم في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ﴾؛ لأن كل شيطان عام، فيكون دالاً على الجمع، إذًا يقذفون أي: الشياطين المعلوم جمعهم من قوله: ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، الذي يقذفهم الله -عز وجل- بأمره، يأمر هذه الشهب فتقذفهم، فالقذف هو الرمي بشدة.

قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من الجوانب التي تصيبهم من آفاق السماء، كما قال المؤلف: ﴿دُحُورًا﴾ يعني: طردًا وإبعادًا، وهي كما قال المؤلف مفعول له؛ أي: لأجل الدحور، والمفاعيل خمسة: المطلق، والمفعول به، والمفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه، وأمثلتها:

ضَربتُ ضَربًا أَبَا عَمْرو غَدَاةَ أَتَى   وَسِرْتُ وَالنِّيلَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِكَ لِي

ضربت ضربًا مفعول مطلق، أبا عمرو مفعول به، غداة أتى المفعول فيه، وسرت والنيل المفعول معه، خوفًا من عقابك لي المفعول له.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم فهم يعذبون في هذه الدنيا بهذه الشهب، ويعذبون

في الآخرة بالعذاب الدائم؛ لأن الشياطين من أصحاب النار.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [مصدر أي: المرة، والاستثناء من ضمير (يسمعون) أي: لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ كوكب مضيء ﴿ثَاقِبٌ﴾ يثقبه أو يحرقه أو يخبله]، لما قال: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ وكان هذا النفي عامًّا: يعني: لا يسمع أي: واحد من هؤلاء الشياطين إلى الملأ الأعلى، استثنى الشياطين المردة الذي يخطفون الخطفة؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ يعني: أخذ الشيء بسرعة، وخطفة مصدر يدل على الوحدة، يعني: إلا شيطانًا يخطف الخطفة فهذا يسمع، ولكن هل إذا خطف الخطفة ينجو؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فهنا استثنى من نفي سماعهم إلى السماء، استثنى الذي يخطف الخطفة فهو يسمع، ولكن هل ينجو حتى يصل إلى الأرض؟ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تبعه شهاب ثاقب يعني: كوكب مضيء ثاقب أي: نافذ ينفذ فيه فيخرقه أو يحرقه أو يخبله، وربما ينجو من هذا الشهاب إذا أراد الله -عز وجل-، ويصل على الكاهن ويوحي إليه بما سمع، ثم الكاهن يكذب مع ما سمع كذب مع ما سمع كذبات كثيرة مئة كذبة أو أكثر أو أقل، ثم يحدث الكاهن الناس بما سيكون، فإذا وقع قال: إنه يعلم الغيب، واتخذ من هذا دعاية لنفسه؛ ولهذا كان الكهان في العرب في الجاهلية كانوا معظمين يتحاكم الناس إليهم؛ لأنهم إذا أخبروا من هذه الأمور من علم الغيب وقع ما أخبروا به وصار لهم شأن كبير عند الناس، فصار الشياطين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم لا يمكنه السماع إطلاقًا.

القسم الثاني: قسم آخر يمكن أن يسمع على سبيع الخطف ويحرقه الشهاب.

والقسم الثالث: قسم يسمع على سبيل الخطف، وينجو، وكل هذا بإذن الله -عز وجل- وإرادته تبعًا لحكمته.

وكل هذه الآيات في بيان عظمة السماء، وأن السماء محفوظة محروسة لا يمكن أن يصل إليها أحد.

في هذه الآيات من الفوائد:

١ - بيان أن الله تعالى زين السماء بهذه الكواكب، فإنك إذا رأيت السماء في ليلة صافية ليس فيها قمر ولا حولك إضاءة وجدت لها من الحسن ما لا تتصوره من حسن هذه النجوم، فيها اللامع والخفي والقريب بعضه من بعض والمتباعد بعضه من بعض، والمختلف الأشكال مما يدل على عظمة الخالق عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى جعل هذه النجوم زينة للسماء، وفيها أيضًا فائدة غير الزينة أشار إليها بقولن: ﴿وَحِفْظًا﴾، وفيها فائدة ثالثة غير الحفظ والزينة: الاهتداء ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] فهذه النجوم فيها الفوائد الثلاث.

٢- **ومن فوائدها**: أن السماوات متطابقة بعضها أدنى من بعض؛ لقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ مما يدل على أن هناك سماوات فوقها، وهو كذلك.

٣- **ومن فوائدها**: عناية الله -سبحانه وتعالى- بخلقه حيث زين لهم السقف الذي فوق رؤسهم؛ لأنه لو كان مظلمًا حالكًا لا يرون فيه شيئًا منيرًا لكان في ذلك شيء من الأي:حاش، ولكن الله تعالى اعتنى بهذا فزينه لهم.

٤- ومنها عناية الله من وجه آخر حيث حفظ السماء الدنيا بهذه الكواكب.

فإذا قال قائل: ما فائدة هذا الحفظ؟

قلنا: الفائدة لئلا تعبث الشياطين بما ينزل من السماء من الوحي، أو تعبث الشياطين بتغرير الخلق بالكهان وأنهم يعلمون الغيب.

٥- **ومن فوائدها**: أن الشياطين مردة لقوله: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ بناءً على أن كلمة مارد صفة كاشفة، فإن جعلت صفة مقيدة ففيها دليل على أن الشياطين منهم مردة، ومنهم دون ذلك، والآية محتملة لأن تكون مارد صفة لكل شيطان، ومحتملة لن تكون صفة لبعض الشياطين، وأن يكون بعضهم غير مارد.

٦- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى السماع الكامل بحيث ينالون مرادهم، بسبب هذه الشهب التي تحرقهم فلا يستطيع الواحد منهم أن يسمع سماعًا كاملًا يصغي إلى الملأ الأعلى كما يصغي الإنسان إلى شيخه وإلى محدثه، بل تجدهم يأتون إلى السماء خطفًا فيخطفون ما يسمعون دون أن يكون هناك مهلة وتأنٍّ؛ لأنها تخشى من الشهب.

٧- **ومن فوائدها**: أن الشياطين أجسام لقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ لأنه لا يخرق ولا يحرق إلا ما كان جسمًا وهو كذلك، فإن الشياطين أجسام، لكنهم أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة أجسام البشر؛ ولهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ»(١).

كما أن الروح تجري من الجسد مجرى الدم، والروح جسم لطيف فكذلك الشياطين أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة.

٩- **ومن فوائدها**: أن الله - سبحانه وتعالى- قد يعطي هذه الأجسام اللطيفة قدرة يصلون بها إلى السماء؛ لقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، ولا شك أنهم قد يصلون إلى السماء، وأن لديهم من القوة ما هو أشد من قوة البشر ذوي الأجسام الكثيفة، أرأيتم لما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] وكان له وقت معين يقوم فيه من مقامه، فقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، يعني: قبل أن يأتي الوقت الذي تقوم فيه، وكان سليمان عليه الصلاة والسلام في الشام، وعرش ملكة سبأ في اليمن، ويقول: آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب والذي دعا الله -عز وجل- بما دعاه به: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. يعني: قبل أن ترسل طرفك ثم ترده؛ لأن الذي تأتي به الملائكة، والملائكة أقوى من الشياطين، فلهذا رآه في الحال. فلما رآه مستقرًّا عنده قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ إلى آخر الآيات.

المهم: أن الشياطين لهم قوة وقدرة توصلهم إلى السماء، والذي أعطاهم هذه القوة والقدرة هو الله عز وجل.

١٠- **ومن فوائدها:** فضيلة الملائكة، حيث وصفوا بأنهم الملأ الأعلى لعلو مكانهم ومكانتهم، ففيهم العلو الحسي والعلو المعنوي.

١١- **ومن فوائدها:** أن الشهب التي تقذف بها الشياطين تأتيهم من كل جانب، فإلى أي: جهة حاولوا الفرار يجدون الشهب، ولا يلزم أن تجتمع هذه الشهب عليهم، قد يكون شهاب واحد يأتيهم من جهة، لكن لو حاولوا الفرار أتاهم شهاب ثانٍ، وهكذا أي: جهة يحاولون الفرار منها سيجدون الشهاب، قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الشياطين ليست أهلًا ؛ لأن تحل السماء أو تقعد فيها أو تقرب منها؛ ولهذا يقذفون لإبعادهم دحورًا.

١٣- **ومن فوائدها:** أن الشياطين مكلفون، يقع عليهم العقاب الدائم لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ يعني: دائم.

١٤- **ومن فوائدها:** أن الشياطين قد تأتي بخبر السماء لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ولكن قد يقول قائل: إن الله قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾

لكن قد يقول قائل: إن الله قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وحينئذ لا يصل إلى مراده؟

فالجواب: أنه قد دلت النصوص الأخرى على أنه قد يصل إلى مراده، فيصل إلى الكاهن قبل أن يدركه الشهاب.

قال الله تعالى:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]

التفسير

قال الله -عز وجل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾: قال المؤلف -رحمه الله: [استخبر كفار مكة تقريرًا أو توبيخًا ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ من الملائكة والسموات والأراضين وما فيهما، وفي الإتيان بمن تغليب للعقلاء].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: اطلب منهم الفتوى، والفتوى في الأصل هي الإخبار بالشيء، ولكنها في اصطلاح الفقهاء: هي الإخبار عن حكم شرعي.

وهنا ليس المراد بذلك الفتوى الشرعية، وإنما المراد بها الفتوى اللغوية، يعني: استخبرهم واسألهم أهم أشد خلقًا أم من خلقنا؟ فسيقولون من خلق الله أشد، كل يعرف أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكذلك الذين يؤمنون بالغيب يقرون بأن ما غاب عنا من مخلوقات الله أعظم مما نشاهد. اللهم إلا أحدًا يريد أن يكابر، ويقول: أنا أشد خلقًا، كما قال الشيطان لله -عز وجل: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وكما قال فرعون لقومه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وإلا فكل يعلم أن المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض والشمس والقمر أعظم من خلق الإنسان.

قال المؤلف: [وفي الإتيان بمن تغليب العقلاء]، أي: في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ ولم يقل: أما خلقنا تغليبًا للعقلاء، وذلك أن ما خلقهم الله -عز وجل- فيهم العقلاء وفيهم غير العقلاء، يعني: فيهم من يعقل وفيهم من لا يعقل. فالملائكة والجن يعقلون، والبهائم والجمادات لا تعقل، وإن كانت البهائم أقرب إلى العقل من الجمادات، ومع هذا كل هذه الأشياء لها عقل تدرك بها خالقها -عز وجل-، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أن جبل أحد يحب النبي ﷺ والنبي ﷺ يحبه، وغلب العقلاء مع أنهم الأقل؛ لأنهم أفضل وأشرف.

قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: أصلهم آدم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لازب يلصق باليد، المعنى أن خلقهم ضعيف فلا يتكبرون بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير].

لما قال: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ بيّن أصل خلقهم ليبين هل هم أشد أم من خلق الله؟

والحقيقة أن الجملة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ تحتاج إلى وقفة بالنسبة للإعراب. الهمزة للاستفهام و(هم): مبتدأ و(أشد): خبر، (خلقًا): تمييز؛ لأن أفعل إذا جاء الاسم بعدها منصوبًا فهو تمييز، وأما (من خلقنا) فهذا هو المعادل؛ ولهذا فالهمزة هنا للتسوية يعني: أي:ستوي هم ومن خلقنا؟ والجواب: لا، لا يستوون. بل من خلق الله أعظم والله أعلم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** ما يدل على أن الرسول ﷺ مكلف بالإبلاغ والمحاجة؛ لقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ وهو كذلك، فإن الله أمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وأمره أن يجادل قومه قال: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وأخبر بأنه يحاجهم لقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

٢- **ويتفرع على هذه الفائدة:** أن وظيفة أهل العلم الذين ورثوا علمه كوظيفته في هذا الباب فيلزمهم محاجّة أهل الباطل ومقارعتهم.

٣- **ويتفرع على ذلك:** أن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله؛ لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق؛ ليدحض به باطلهم، وأحيانًا يكون الغزو الفكري أعظم فتكًا من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم -أحيانًا- بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه، وأحيانًا بالغزو الفكري وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحًا كاملًا، وهم لا يشعرون؛ لأنهم يغرون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات: نسي ما خُلِقَ له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله -عز وجل-. فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشهوات، ولا يسعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يخلق لغيرها.

كذلك يغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدمًا وأشد حضارة وأقوم طريقًا وما شابه ذلك. فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لاشك أنه موجود، وأن كثيرًا من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري. إنهم لو غزوا البلاد الإسلامية غزوًا عسكريًّا لحلوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلوب الناس نافرة منهم مبغضة لهم، لكن المشكل أن يغزو الناس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم، وهم جالسون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشكل، وهذا هو الدمار؛ ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من

كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مساويًا إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغزو العسكري، فأنا أحثكم - بارك الله فيكم- وأحث نفسي على أن نعد العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة؛ حتى نحمي المسلمين من شر هؤلاء؛ لأن سلاحهم أعظم فتكًا وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر، وربما من خرج منكم إلى البلاد الأخرى، عرف أكثر مما أعرف مما أدى إلى الأنحراف في العقيدة، والانجراف وراء الشهوات التي أصبحت بعض البلاد الإسلامية كأنها بلاد كافرة، وهم الآن يحاولون أن يغزو هذه البلاد بكل ما استطاعوا، حتى إننا نجد -أحيانًا- في الصحف ينشر الدعوة إلى اضمحلال أخلاق المسلمين وعاداتهم، ينشر أحيانًا دعاية للأزياء الأوربية والإفرنجية، وبهذا اللفظ يفتح معرض للأزياء الغربية، أو الأزياء الأوربية، أو الموضات الأوربية، أو ما أشبهه، كل هذا لأجل أن يفسدوا أخلاقنا، وإذا فسد الخلق فسدت العقيدة، وإذا فسدت العقيدة زال تعلق المسلمين بربهم، وحينئذ صاروا أضعف الأمم، نسأل الله الحماية والسلامة.

٤- **ومن فوائدها:** أمر الله -تعالى- النبي ﷺ أن يتحدى هؤلاء المكذبين بالاستفتاء: أهم أشد خلقًا من خلقنا؟

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي في المجادلة أن يؤتي بما يقر به الخصم؛ ليكون حجة عليهم؛ لأنهم سيقرون بأن من خلق الله أشد خلقًا منهم، فإذا أقروا بذلك قامت عليهم الحجة.

٦- **ومن فوائدها:** عظمة الله -سبحانه وتعالى- بعظمة خلقه؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق؛ ولهذا إذا شاهدنا قصرًا جيدًا في بنائه وهندسته، عرفنا أن الذي بناه كان جيدًا ماهرًا، والعكس بالعكس.

٧- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى خلق بني آدم أو إلى أصل خلقهم بأنهم خلقوا من طين لازب، يلصق باليد مهين لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- حيث خلق هذا الإنسان الخصيم المبين من هذا الطين ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى إمكان البعث، وأن الله قادر عليه، وأنه القادر على هذه المخلوقات التي هي أشد خلقًا منهم، وعلى خلقهم من الطين قادر على إعادتهم قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات الخلق لله في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾.

١١- **ومن فوائدها أيضًا:** تفاوت الخلق في العظم؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ فتكون المخلوقات متفاوتة في عظمها ودلالتها على قدرة الله؛ لأن ما كانت أعظم كان أدل على القدرة.

١٢- **ويتفرع على هذه الفائدة:** أنه كما تتفاضل الآيات الكونية كذلك تتفاضل الآيات الشرعية؛ ولهذا كان أعظم السور في كتاب الله سورة (الفاتحة) وأعظم آية (آية الكرسي) و(قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، فالآيات الكونية تتفاضل بعضها أدل على القدرة من بعض، وكلها دليل على القدرة حتى الذباب أهون شيء يدل على قدرة الله -عز وجل-، وكذلك الآيات الشرعية.

قال الله تعالى:

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ١٢-١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ في هذه الآية قراءتان بفتح التاء، فيعود الضمير على رسول الله ﷺ، وبالضم على الله سبحانه وتعالى، هذا هو القول الصحيح، وإذا كان عائدًا إلى الله -عز وجل- فهل هو عجب حقيقي أو مجازي؟ الصحيح أنه حقيقي وأنه كسائر الصفات، فإذا قال قائل: إن العجب هو حالة تطرأ على الإنسان لفعل مالا يخطر له على بال، أو لحصول ما لا يخطر له على بال، فكيف يمكن أن يوصف الله به؟

فالجواب أن نقول: إن أنواع العجب ثلاثة أقسام: عجب استحسان، وعجب إنكار، وعجب استفهام، والعجب الذي بمعنى الاستفهام لا يكون في حق الله؛ لأنه يكون لخفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم. مثال: للعجب الذي يحمل عليه الاستحسان «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»، مثال عجب الأنكار من الله ﴿عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ هذا عجب إنكار.

قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ المراد بالآية أي: آية؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وأما قول المؤلف كانشقاق القمر فهذا للتمثيل فقط.

قال: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ ولم يقل: يسخرون؛ أي: سخرية مع تكبر وتعالٍ.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (إن) نافية بمعنى ما، وخبرها ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ صفة لسحر، وهذا النوع من الاستثناء يسميه النحويون استثناء مفرغًا؛ لأن ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها، فإذا كان ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها سمي استثناء مفرغًا. تقول: ما قام إلا زيد، وما أكرمت إلا المجتهد، وما مررت إلا بعلي، فإذا كان الذي قبل (إلا) يتطلب ما بعدها

سمي استثناء مفرغًا. فـ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى بيّن ظاهر، وأبان تأتي لازمة ومتعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى «بان»، تقول: أبان الصبح، (أي: بان وظهر)، وإذا استعمل متعديًا بمعنى أظهر. تقول: أبان الحق، (أي: أظهر).

الفوائد:

١- في هذه الآيات من **الفوائد:** إثبات العجب لله -عز وجل- على قراءة ضم التاء، وهو من صفات الله الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، وكل شيء يتعلق بمشيئته فهو من الصفات الفعلية عند أهل العلم.

فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمنا أنه يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن كل صفة علقت على سبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأن الأسباب حادثة، وما يترتب على الحادث فإنه حادث، وعلى هذا فنقول: الرضا من الصفات الفعلية؛ لأن له سببًا، والغضب والكراهة والسخط وما أشبهه، وطريق أهل السنة والجماعة في مثل هذه الصفة، إثباتها لله على الوجه اللائق به لا وجه القصور والنقص.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** علو منزلة الرسول ﷺ على قراءة الفتح، حيث اعتبر الله -عز وجل- تعجبه تعجبًا ينوه عنه في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ومعلوم أن الذي يُنَوَّهُ عن أحواله عظيم عند من نوّه عنه، بخلاف من لا يُؤْبه له ولا يُهتم به؛ ولهذا في أوساط الناس إذا غضب الملك ليس كغضب سائر الناس، تجده مثلًا يقال: تحدث الملك فغضب، لكن لو يأتي واحد من عامة الناس لو تفجر من الغضب ما تحدث الناس عنه، فتحدث الله -عز وجل- عن عجب الرسول ﷺ يدل على علو منزلته عند الله وعلى عظم شأنه ﷺ.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء القوم الذي أنكروا الحق زادوا في طغيانهم حتى صاروا يسخرون من الحق وأهل الحق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ يعني: من تعجبك من أحوالهم يسخرون مما جئت به، ويسخرون بك، وهذه عادة أعداء الرسل، ويسخرون من الرسل ومما جاءوا به، ومما يفعلونه أيضًا.

قال الله تعالى عن نوح: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]

٤- من هذه الفائدة نأخذ فائدة أخرى: وهو أنه يجب على الدعاة إلى الحق أن يصبروا على ما ينالهم من الناس من السخرية؛ لأن أعداء الرسل أكثر من أولياء الرسل. فالدعاة إلى الحق يجب عليهم الصبر إذا سمعوا من يسخر بهم، سواء كان هؤلاء الساخرون من الكفار، أو من أولياء الكفار؛ لأنه يوجد من المسلمين من هو من أولياء الكافرين، فالواجب على الدعاة أن يصبروا؛

لأن الرسل الذين هم أهل الحق، وقادة الحق، وأئمة الحق قد سخر الناس منهم، فكيف بك أنت، فالواجب عليك أن تصبر، والواجب على كل داعية أن يصبر على ما يحصل له من السخرية، وليعلم أن العاقبة للمتقين.

٥- **ومن فوائدها:** عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ لكونهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتعظون، وذلك لقسوة قلوبهم وعتوهم -نسال الله العافية- عكس المؤمنين الذي إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليهم صمًّا وعميانًا.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء المكذبين إذا رأوا الآية الدالة على صدق الرسل ازدادوا سخرية وترفعًا ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وهذا فوق السخرية السابقة الذي قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾، وكان المفروض أنهم إذا رأوا الآيات أن يستسلموا، ولكنهم على العكس من ذلك إذا رأوا البية يستسخرون والعجب من قوم النبي -عليه الصلاة والسلام- الذي كذبوه أنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فانظر إلى العتو -والعياذ بالله- كان الذي ينبغي أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له، أما أن يقولوا هكذا فهذا أكبر دليل على أنهم -والعياذ بالله- طاغون معتدون.

٧- **ومن فوائد الآيات:** أن المعادين للرسل يصفون ما جاءوا به بالصفات القبيحة تنفيرًا للناس منهم، يؤخذ من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم في ذلك كاذبون يعلمون أنه ليس بسحر، لكن قالوا هذا تنفيرًا للناس عن طريق الرسل.

وهل وُرِّثَتْ هذه المقالة؟ الجواب: نعم، ورثت هذه المقالة، من أول من جاء من الرسل إلى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة، قال الله -تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] كل أعداء الرسل يقولون: هذا ساحر أو مجنون.

هذه الكلمة وأريد جنس هذه الكلمة لا نوعها ورثت، فصار أهل الباطل الأن يلقبون أهل الحق بألقاب السوء، انظر مثلًا إلى أهل التعطيل يلقبون أهل الإثبات بقولهم: حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك، فهم يقولون مثل هذا الكلام من أجل أن ينفروا الناس عن طريق الحق، كذلك -أيضًا- أعداء أهل الحق يقولون هؤلاء رجعيون، هؤلاء متحجرون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، هؤلاء متنطعون إلى غير ذلك من الألقاب، لكن أهل الحق الذين هم أهله لا يزدادون بهذه الألقاب إلا قوة وثباتًا على ما هم عليه؛ لأنهم يعلمون أنهم منصورون بنصر الله -عز وجل-، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] و،ا كررت كثيرًا بأن انتصار الإنسان ليس انتصار شخصه فقط، قد ينصر الإنسان في حياته ويتبين له النصر، وقد ينصر

بعد مماته، بنصر ما قاله من الحق، ويكون كل من عمل بالحق الذي جاء به أو الذي بينه يكون له مثل أجره، وهذا انتصار. كل إنسان يجب أن ينتصر الحق بينَّه للناس في حياته أو بعد مماته.

قال الله تعالى:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المراد بهذا الاستفهام الاستبعاد وا؛ لأنكار، يعني: أننا ننكر ونستبعد أننا نبعث إذا كنا ترابًا وعظامًا، وفي قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ عدة قراءات.

أولًا: تحقيق الهمزتين تقول: أإذا.

ثانيًا: تسهيل الثانية.

ثالثًا: إدخال الألف في التحقيق.

رابعًا: إدخال الألف في التسهيل.

قوله: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فيها قراءتان أيضًا:

١- تسهيل الواو.

٢- فتحها.

الفوائد:

١- في هاتين الآيتين: دليل على قوة إنكار هؤلاء المكذبين للبعث؛ وذلك لأنهم أتوا به بصيغة الاستفهام المؤكد بإن، وهذا كقول أخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] يعني: أتؤكد أنك يوسف. فهؤلاء قالوا: أي:ؤكد لنا أننا مبعوثون، وإذا دخلت همزة الاستفهام على هذا دل على أنهم يؤكدون إنكارهم بالبعث.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يأتون بالشبه؛ لأنهم يقولون: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعني: أويبعث أيضًا آباؤنا الأولون، وهذا لقوة إنكارهم؛ لأنهم كما قال الله عنهم في سورة الجاثية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهل الذين قالوا: إنكم تبعثون قالوا: إن البعث يكون في الدنيا حتى تقولوا ائتوا بآبائنا؟ نعم لو قالت الرسل:

إنكم يبعثون في الدنيا، أو إن آباءكم يبعثون في الدنيا صحَّ أن يقولوا: ائتوا بآبائنا، لكن الرسل يقولون: إن البعث لهم ولآبائهم يكون يوم القيامة، فهذه الشبهة التي أوردوها لا تزيدهم إلا سفهًا إلى سفههم، حجتهم التي ادعوها قالوا: إنكم تقولون إن آباءنا يبعثون هاتوهم أو ابعثوهم، وهذه ليست حجة؛ لأن الرسل ما قالوا إن آباءكم يبعثون الآن في الدنيا حتى تتحدوا بقولكم ائتوا بآبائنا، إنما قالوا يبعثون يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠] فهم يقولون: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؛ ليتوصلوا إلى الحجة الداحضة، فيقول الناس: إن هؤلاء يقولون: إن الناس يبعثون نحن وآباؤنا دعوهم يأتوا بآبائنا، والجواب على هذه الشبهة واضح جدًا، وهو أن الرسل لم يقولوا: إن آباءهم يبعثون الآن، وإنما يكون البعث يوم القيامة، وحينئذ تبطل حجتهم وينادون على أنفسهم بالسفه والعدوان، فإنهم ألزموا الرسل ما لم يلتزموه وما لم يقولوه.

٣- من فوائدها: أن الجدَّ يسمى أبًا؛ لأنهم قالوا: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وآباؤهم الأولون أجداد سابقون، فالجد يسمى أبًا، ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أن الجد يسقط الأخوة أشقاء كانوا أم لأب أم لأم، وإسقاط الجد للإخوة من الأم بالإجماع، أم الأخوة الأشقاء، أو لأب ففي إرثهم معه خلاف، والصحيح بلا شك أنهم لا يرثون مع الجد، وأنه لم هلك هالك عن أب أب أب أب أب، أي: الجد السادس وعن أخ شقيق فلا شيء للأخ الشقيق؛ لأن الجد أب، والأب يحجب الأخوة؛ ولأن هذا الابن النازل بعض من الجد السابق، بخلاف الأخ فليس بعضًا منه، ومعلوم أن الأصل الذي هذا فرعه أولى بالميراث من شخص ليس أصلًا له ولا فرعًا له، وهذه المسألة تحقق إن شاء الله في الفرائض.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أمر الله نبيه أن يجيب عن الاستفهام السابق بقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾، يعني: تبعثون، ونعم حرف جواب يجاب به الإثبات للتصديق، ويجاب به النفي كذلك للتصديق، فهو حرف جواب للتصديق: سواء كان الكلام نفيا أو إثباتًا.

والخلاصة: أن (نعم) يجاب بها للتصديق سواء كان نفيا أو إثباتًا.

فإذا قلت: أقام زيد؟ وأجبت: بنعم، فهذا لتصديق القيام، يعني: أنه قد قام.

وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فأجبت: نعم يعني: لم يقم. فصدقت النفي.

و(بلى) لا يجا ب بها في الإثبات، وإنما يجاب بها في النفي لتكذيبه، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فالجواب: بلى، يعني: قد قام، خلافًا لما نفيت.

وأما (لا) فلا يجاب بها إلا في الإثبات لتكذيبه، فإذا قلت: أقام زيد؟ فقلت: لا، يعني: لم يقم.

فهذه أحرف الجواب الثلاثة وأعمها (نعم)؛ لأنها تكون في الإثبات وتكون في النفي، وأما (بلى) و(لا) فكل واحدة مختصة بشيء (بلى) في النفي و(لا) في الإثبات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ هذه للتصديق يعني: نعم تبعثون؛ ولهذا قدر المؤلف ذلك في قوله تبعثون، يعني: أنكم ستبعثون يوم القيامة بعد أن كنتم ترابًا وعظامًا ولكنكم لا تبعثون كما أنتم عليه في الدنيا في عزة وترف، بل ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، والجملة هنا حال من نائب الفاعل في الفعل المقدر بعد الجواب، نعم تبعثون وأنتم داخرون.

والدخور بمعنى الصغار والذل، يعني: أنهم يبعثون يوم القيامة على وجه الصغار لا على ما كانوا عليه في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] بعد أن كان الواحد منهم في الدنيا يقلب مقلتيه كما شاء، فهم في الآخرة ينظرون في طرف خفي، مملوء بالخجل والخزي والعار -والعياذ بالله-.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة دليل على أهمية جواب هؤلاء الذين يتساءلون إذا ماتوا وكانوا ترابًا وعظامًا أي:بعثون أو لا؟ وجه ذلك أن الله أمر نبيه أمرًا خاصًّا بجوابه، وإذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأمر خاص فإنه دليل على أهمية ذلك الأمر؛ لأن الأصل أن جميع القرآن قد أمر أن يبلغه -عليه الصلاة والسلام-. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فإذا جاءت آية يقول الله فيها «قل» فهذا أمر خاص بتبليغهم، فيدل على العناية بهذا الشيء وأنه ذو أهمية.

٢- **ومن فوائدها:** أنه يجب الرد على شبهات أهل الباطل؛ لأن الله لم يقل: اتركهم، بل قال: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن المكذبين بالبعث يحشرون يوم القيامة صاغرين لقوله: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾، وقد ذكرنا في أثناء التفسير عدة آيات تدل على أنهم يحشرون يوم القيامة أذلاء، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]

٤- ومن فوائد الآية: أن المؤمنين بذلك يحشرون يوم القيامة أعزة، ووجهه أنه إذا كان جزاء هؤلاء المكذبين أنهم يحشرون على وجه الصغار والذل، فإن العكس يكون بالعكس، والجزاء من جنس العمل، فيحشر المؤمنون يوم القيامة أعزاء.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٩-٢٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يعني: إذا كان الأمر كذلك أنهم يبعثون فهل يحتاج الأمر إلى علاج وإلى مدة؟ الجواب: لا، فإنما هي أي: زجرتهم للبعث زجرة واحدة، هذا هو الأصح في مرجع الضمير؛ ولهذا قال المؤلف [ضمير مبهم يفسره زجرة] فيكون الضمير مرجعه مستفاد من الخبر، أي: فإنما الزجرة لبعثهم زجرة واحدة، وهذا الذي قدره المؤلف لمرجع الضمير هو الصواب فيكون مرجع الضمير هو الخبر، وقال بعضهم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: البعثة التي يبعثونها؛ أي: ما بعثتهم إلا زجرة واحدة أي: بزجرة واحدة، ولكن ما قدره المؤلف أولى ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، قال المؤلف: [أي صيحة يزجرون بها]، فيقال: اخرجوا يعني: من القبور. إذا قيل اخرجوا من القبور. خرجوا خروج رجل واحد لا يتخلف منهم أحد، ولأي:خرجون ببطء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] فالمسألة لا تحتاج إلى تكرار طلب للخروج ولا إلى مهلة في زمان، بل بمجرد ما يقال: اخرجوا. فإذا هم قيام ينظرون، وهذا من تمام قدرة الرب -عز وجل-.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (الفاء) حرف عطف و(إذا) فجائية؛ أي: ففي الحال مفاجئة، هم ينظرون، و(إذا) الفجائية اختلف النحويون فيها: هل هي حرف لا محل لها من الإعراب أو هي ظرف؟ ونحن لا يهمنا أن نقدرها حرفًا أو ظرفًا، المهم أن نعرف المعنى، وهي أنها تدل على المفاجئة يعني: يأتي بسرعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يدل على أنهم بمجرد أن يخرجون يكونون أحياء يشعرون، وليس كالطفل الذي يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فالناس في الدنيا يخرجون من بطون أمهاتهم لا

يعلمون شيئًا، ولكن بعدئذ يجعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة. سمعًا يسمعون به ويعرفون، وإلا فالسمع موجود به منذ خلق، وبصرًا يبصرون به ويعرفون؛ ولهذا تجد الصبي أول ما يولد لا يلتفت إلى شيء، تمر من عنده بالمصباح من أسطع ما يكون ولا يدري ما هو؟ ثم شيئًا فشيئًا يبدأ يعرف الألوان إذا اختلفت عليه ويتابع النظر، ولكن الذي يبعثون من القبور لا ينتظر بهم هكذا؛ أي: لا تنمو أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم شيئًا فشيئًا، ولكن بمجرد ما يخرجون فإذا هم ينظرون.

قال المؤلف: [فإذا هم أي: الخلائق أحياء ينظرون ما يفعل بهم] فإذا قال قائل: إن المؤلف قال [الخلائق] مع أن سياق الآية يقتضي أن المراد هؤلاء المنكرون ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فإذا أخذنا بالسياق قلنا: إن الضمير يرجع إلى هؤلاء وآبائهم، وإذا نظرنا إلى الواقع قلنا: إن الضمير يرجع إلى جميع الخلائق، والواقع أن جميع الخلائق تخرج بهذه الصيحة فإذا هم ينظرون، وأفادنا المؤلف بقوله ما يفعل بهم، أفادنا أن النظر هنا نظر العين، وليس بمعنى الأنتظار، مع أن الآية تحتمل أن يكون المعنى النظر بالعين وأن يكون المعنى الأنتظار.

والنظر يأتي بمعنى الأنتظار، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى ينتظرون.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قالوا أتى بالفعل الماضي مع أن القول مستقبل، لتحقق وقوعه، وهذا كثير في اللغة العربية، والقرآن الكريم يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] فإن أمر الله لم يأت بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] لكن أتى هنا بمعنى يأتي، وعبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

فقوله عز وجل هنا: ﴿وَقَالُوا۟﴾ ؛ أي: ويقولون، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

وقول المؤلف -رحمه الله: [قالوا أي: الكفار] صحيح ولو أنه قال: وقالوا أي: المنكرون للبعث الذي قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ لكان أدق في التفسير؛ لأن الكافر أعم من المنكر للبعث، قد يكفر بغير إنكار للبعث، لكن المسألة فيها شيء من التسامح في التعبير.

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قال المؤلف: [ياء للتنبيه ويل مصدر لا فعل له من لفظه]، ولكن يحتمل أن تكون ياء حرف نداء، وأنهم نادوا الويل، كأنهم قالوا: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك، والويل معناه هنا شدة التحسر والعذاب، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]؛ أي: حسرة وعذاب. فهنا يا ويلنا؛ أي: يا حسرتنا ويا عذابنا احضر فهذا أوانك، ويحتمل كما قال المؤلف: إن (ياء) للتنبيه، ولكن إذا قال قائل: هل تأتي ياء للتنبيه؟ الجواب: نعم، فإذا طلب منا مثال لا يحتمل إلا التنبيه، قلنا كقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] فإن ياء هنا للتنبيه؛

لأن ياء لا تدخل على الحروف، وإنما تدخل على الأسماء، ولكن جيء بها للتنبيه، وقوله -رحمه الله: [ويلنا هلاكنا]، ولكن الويل كما قلت أخص من مجرد الهلاك، بل هو التحسر والعذاب، والويل مصدر لا فعل له من لفظه، ولكن من معناه.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، قال المؤلف: [وتقول لهم الملائكة هذا يوم الدين] فجعل المفسر -رحمه الله- (هذا يوم الدين) من كلام الملائكة.

ولكن الصحيح أنه من كلام المنكرين يعني: أنهم في ذلك اليوم يقرون بيوم الدين، ولكن لا ينفعهم الإقرار حينئذ، فهم يقرون بهذا اليوم إذا شاهدوه، ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ المشار عليه الوقت الذي هم فيه ذلك اليوم الحاضر، والدين يعني: الجزاء، واعلم أن الدين يطلق على الجزاء، ويطلق أحيانًا على العمل، وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وقوله تعالى: ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الأنفطار: ١٨، ١٩] المراد بالدين الجزاء.

وهنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ المراد به الجزاء؛ أي: هذا يوم الجزاء، قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

الجملة هذه يحتمل أن تكون من كلامهم، ويحتمل أن تكون من كلام الملائكة، فإن كانت من كلامهم فالمعنى أن بعضهم يقول لبعض: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ توبيخًا وتقريعًا وتنديمًا.

وإذا كان من كلام الملائكة فلا إشكال فيه؛ لأنهم يخاطبون قومًا يكذبون به، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بعد ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ لأنه إذا أدين الناس وحوسبوا وجوزوا انفصلوا، انفصل بعضهم عن بعض: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قد يفصل بين المرء وأبيه، وبين المرء وأمه، وبين المرء وأقاربه: هؤلاء في الجنة وهؤلاء إلى النار. فإذًا سُمي يوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بن الخلائق، فيصرف قوم إلى النار، ويصرف قوم إلى الجنة، وسُمِّي يوم الفصل أيضًا؛ لأنه يفصل بين الخلائق بالحكم بينهم بالعدل، بأخذ حق المظلوم من الظالم، كما يفصل القاضي في الدنيا بين المتخاصمين، فيعطي المظلوم حقه من الظالم.

وقوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ كنتم أي: فيما مضى، أما الآن فيصدقون به؛ لأنهم قالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ لكن فيما مضى يكذبون بهذا اليوم، ويقولون: كيف يمكن أن تبعث الخلائق بعد أن كانوا عظامًا وترابًا؟!

فإذا قال قائل: ما الفائدة من قوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؟

قلنا: الفائدة من أجل زيادة التحسر على هؤلاء؛ لأنهم إذا قيل لهم: الذي كنتم به تكذبون فسوف يتحسرون، ويقولون: يا ليتنا لم نكذب، فيكون في هذا زيادة الم في نفوسهم، ومن جهة

أخرى: التوبيخ لهؤلاء ولومهم على تكذيبهم حيث كذبوا بالحق، ففي ذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التحسر فيه.

والفائدة الثانية: التوبيخ واللوم على تكذيبهم بالحق.

قال المؤلف -رحمه الله: [ويقال للملائكة: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قرناءهم من الشياطين ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غيره من الأوثان ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وسوقوهم على ﴿صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ طريق النار]. أعوذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، الخطاب من الله -والعلم عنده- إلى الملائكة، ومعنى احشروا؛ أي: اجمعوا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وسُمِّي يوم الجمع وسُمِّي يوم الحشر؛ لأن الناس يحشرون فيه ويجتمعون، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

قال المؤلف: [ظلموا أنفسهم بالشرك] ولكن ينبغي أن يقال: ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- حذف المفعول به، وحذف المفعول به يؤذن بالعموم، فهم في الحقيقة ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، ولاسيما الرؤساء منهم الذين أضلوا أتباعهم فإنهم ظلموهم بتلبيس الحق بالباطل وإضلالهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، قال المؤلف: [قرناءهم من الشياطين] كل زوج قرين، ومنه الزوج وزوجته فإنهما قرينان، وقيل المراد بالأزواج: الأصناف والأشكال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]؛ أي: أصناف، والمعنى متقارب؛ لأن الغالب أن القرين من جنس المقارن، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: والذي كانوا يعبدون في الدنيا؛ ولهذا أتى بالفعل الماضي ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؛ أي في الدنيا، وجملة (كانوا يعبدون) صلة الموصول، والعائد محذوف، وتقديره: وما كانوا يعبدونه من دون الله.

وقول المؤلف: من الأوثان، إذا قال قائل: كيف تحشر الأوثان وهي جماد؟ وليس عليها حسبا ولا عقاب؟

فالجواب: أنها تحشر إلى النار وتلقى في النار إهانة لعابديها، أما هي فلا شعور لها، لا تشعر بإهانة ولا كرامة، ولكن عابديها هم الذين يشعرون بالإهانة إذا كانت معبوداتهم تلقى في النار، فتلقى هذه المعبودات في النار؛ إهانة لعابديهم وبيانًا لكونها لا تنفعهم في أحوج ما يكونون إلى

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٧).

نفعها، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذه الآية عامة، وخصت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأننا لو أخذناها على عمومها لكان في الناس من يعبد الأنبياء، وكان في الناس من يعبد الملائكة، فهل يحشر هؤلاء المعبودون مع هؤلاء العابدين؟ فالجواب: لا، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وعلى هذا فالعموم هنا مخصص بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾.[الأنبياء: ١٠١]

وقيل: إن العموم باق على ما هو عليه، لكنه عام أريد به الخاص، أريد به هؤلاء الذين أنكروا البعث، والذين أنكروا البعث لم يعبدوا الملائكة ولا الرسل إنما كانوا يعبدون هبل واللات والعزى ومناة، وهبل واللات والعزى ومناة كلها في النار.

وعلى كل حال سواء قلنا: إن هذا عام أريد به الخاص؛ أي: الذين يخاطبون الرسول -عليه الصلاة والسلام- وينكرون البعث. أو قلنا: إنه عام مخصوص، فإنه لاشك أن الذين يُعبدون من دون الله وهم من أولياء الله لن يحشروا إلى النار ولن يدخلوها.

قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: دلوهم، وهذه هدآية الدلالة وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] فإن الذي يساق يهدي أيضًا، أرأيت الرجل يسوق بعيره ويهديها، هؤلاء يساقون وفي نفس الوقت يقال اذهبوا من هنا، اذهبوا من هنا حتى يصلوا إلى النار، وقد ذكر الله أن هؤلاء يساقون إلى النار في حال يحتاجون معها إلى الماء، بل يضطرون إلى الماء، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] عطاشًا، فإذا جاءوا لم يجدوا إلا النار المحرقة -والعياذ بالله- وهذا يكون كالصفعة على وجوههم حيث جاءوا وهم يرجون أن يشربوا، ولكنهم يفاجئون بما يزيدهم لهبًا وعطشًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ صراط بمعنى طريق، والصراط نوعان: صراط حسي وهو ما تمشي عليه الأقدام، وصراط معنوي وهو ما تمشي عليه القلوب، فمن استقام في الصراط المعنوي على دين الله استقام في الصراط الحسي يوم القيامة حتى يصل إلى الجنة، ومن كان غير مستقيم في الدنيا على شريعة الله لم يكن مستقيمًا في الآخرة على طريق الجنة ولكن على طريق النار.

والصراط هنا حسي ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار، فالجحيم إذًا من أسماء النار، وأسماء النار في القرآن كثيرة متعددة.

الفوائد:

١- بيان قدرة الله -عز وجل- حيث تخرج الخلائق كلها بزجرة واحدة، وتخرج الخلائق كلها فورًا بدون تأخير، ففيه دليل على القدرة من وجهين:

الوجه الأول: عدم تكرار الأمر.

والوجه الثاني: سرعة الائتمار والامتثال لأمر الله -عز وجل-.

٢- **ومن فوائدها:** أنَّ الناس يخرجون يوم القيامة فينظرون، إما من نظر العين أو من الأنتظار، وأيًا كان فإنه يدل على أنهم يخرجون إلى أمر غريب لم يألفوه؛ لأنهم كانوا في الأول في قبورهم ثم حشروا إلى شيء غريب لم يكونوا يعرفونه من قبل؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يدعون يوم القيامة بالويل والثبور والهلاك؛ لقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤]

٤- **ومن فوائدها:** تحقق هذا القول وأنه أمر واقع كالحاضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ فعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

٥- **ومن فوائدها:** أن الناس يحشرون يوم القيامة فيجازون على أعمالهم، يؤخذ من قوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وتكون هذه النتيجة للخلائق أن يحشروا يوم القيامة وأن يجازوا على أعمالهم وأن يكون هذا الجزاء نهائيًا ليس وراءه عمل ولا دونه أجل؛ لقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن يوم القيامة يوم فصل؛ أي: حكم بين الناس وتميز بعضهم عن بعض؛ لقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** تقرير هؤلاء المكذبين لقوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ووجه التقرير أن الإنسان إذا شاهد ما كذب به سوف يقول لمن حمله على هذا التكذيب أو وافقه عليه: هذا الذي كنت به تكذب، فيكون في ذلك زيادة في التحسر والندم على عدم التصديق بهذا اليوم.

٨- **ومن فوائدها:** أن الناس يوم القيامة يميز بعضهم من بعض، ويجمع بعض الأصناف والأشكال والنظراء إلى بعض؛ لقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وهذا من الفصل الذي ذكره الله في كتابه لقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين لا ينفعهم اجتماعهم وحشر بعضهم إلى بعض؛ لقول الله -سبحانه وتعالى- في آية أخرى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] في الدنيا إذا شاركك أحد في العذاب نفعك، إما بأن يتحمل عنك جزءًا من هذا العذاب، وإما أن تتسلى به، إما بأن يتحمل عنك جزءًا من هذا العذاب، وإما أن تتسلى به؛ لأن وقوع المصائب على غيرك تسليك، وتساعدك على تحمل هذه المصيبة والصبر عليها، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

١٠- **ومن فوائدها:** إهانة هؤلاء المشركين بحشر أصنامهم إلى النار، وجه ذلك أن إهانة

المعبود إهانة للعابد، وأنا أضرب لكم مثلًا: لو أن سيدًا تحته أرقاء أو رجلًا تحته عائلة، أهين هذا الرجل الذي تحته العائلة، أو الرجل الذي تحته الأرقاء فإن ذلك إهانة للعائلة وللأرقاء؛ لأنهم يقولون: هذا كبيرنا وعظيمنا الذي نعظمه، فإذا أهين فهو إهانة لنا، وإن لم يكن إهانة حسية، لكنها إهانة نفسية معنوية، فتهان هذه الأصنام إهانة لعابديها.

١١- **ومن فوائدها:** جواز ذكر العموم، وإن دخل فيه من ليس فيه إذا بين في موضع آخر، ويتفرع على هذا أنه لا يشترط في البيان مقارنته للمبين؛ لأن الذي يمتنع في البيان هو تأخيره عن وقت الحاجة، فإذا بين في وقت الحاجة زال هذا المحظور، وهذا قد بين في آيات كثيرة في القرآن بأن المؤمنين لا يدخلون النار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وكل الآيات التي في وعد المؤمنين والمتقين تمنع من دخول هؤلاء في النار وإن كانوا يُعبدون من دون الله.

١٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين المشركين يحشرون إلى طريق جنهم، كما أنهم في الدنيا اختاروا طريق أهل النار، فإنهم في الآخرة يجازون بمثل ذلك، فيدلون إلى طريق الجحيم، ويصدون عن طريق أهل النعيم.

قال الله تعالى:

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٩]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قفوهم يعني: أوقفوهم، من وقف يقف، والأمر: قف، ووقف تستعمل لازمة ومتعدية، فإذا قلت: مشي ف؛ لأن، فوقف، هذا لازم، وإذا قلت: وقفت القول، أو وقفت زيدًا عند المكان الف؛ لأني فهذا متعد.

قفوهم لاشك أنه متعد، ووجه أن نصبالمفعول به الهاء، والواو في ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فاعل.

وهنا فائدة: أن حرفالمضارعة لا تحسب من بنية الفعل؛ ولهذا يقال: إذا أردت أن تصوغ فعل الأمر: فأتِ بفعله مضارعًا مجزومًا، ثم احذف حرف المضارعة، وهذه تفيد طالب العلم، فمثلًا: إذا أردت أن تأتي بفعل الأمر من: خاف. فتقول: خف؛ لأن المضارع المجزوم: يخف. احذف

حرف المضارعة: خف.

مثال آخر: نامَ الأمر: نَم، نجريها على القاعدة لم يَنَمْ. احذف ياء المضارعة. نَمْ.

الأمر من: مَال؟ مِلْ. على القاعدة. لم يَمِل. احذف ياء المضارعة (مِلْ)؛ لأن الأمر مقتطع من المضارع، ووجه ذلك أنك تأتي بالمضارع مجزومًا ثم تحذف حرف المضارعة. الأمر من «خَشِيَ»: اخْشَ. لماذا؟ ؛ لأنه لا يمكن أن تبدأ بالسكون؛ لأنه لو حذفنا ياء المضارعة لبقي خاء ساكنة، والشين مفتوحة، والخاء الساكنة لا يمكن أن تنطق بها. إذا وجدت كلمة أولها ساكن، تأتي بهمزة الوصل، فتقول: «اخْشَ»، وفعل الأمر من رمى: «ارْمِ»؛ لأن المضارع (لم يَرْمِ) أوله ساكن لابد أن يؤتي بالهمزة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [احبسوهم عند الصراط]؛ الأمر من الله -عز وجل- والخطاب للملائكة فيما يظهر؛ لأن الملائكة هي التي تدبر الخلائق بأمر الله، فيقال للملائكة: قفوا هؤلاء المكذبين المشركين بالله ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ يعني: وقفوهم؛ أي: احبسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [عن جميع أقوالهم وأفعالهم] وكلمة ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ إما أن تكون كما قال المؤلف عامة يعني: إنهم مسئولون عن أقوالهم، وأفعالهم، وشركهم، وانحرافهم، وعن كل أحوالهم أو إنها مبينة بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ فيكون المسئول عنه شيئًا واحدًا وهي أنهم يوقفون ويسألون هذا السؤال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا كما قال المؤلف: [ويقال لهم توبيخًا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضًا]، فالآية في الحقيقة محتملة المعنيين:

المعنى الأول: أنكم مسؤولون عن كل الأحوال والأعمال.

المعنى الثاني: أنكم مسؤولون هذا السؤال وهو: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ كنتم في الدنيا تتناصرون والذي ينصرهم العابدون، ينصرون هذه الأصنام كما مر علينا في آخر سورة يس، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] فالعابدون ينتصرون للآلهة، كما قال أبو سفيان قبل أن يسلم في غزوة أحد قال: اعلُ هبل، يفتخر به وينتصر له، فيقال لهم يوم القيامة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يعني: أي شيء لكم يمنعكم من التناصر؟ والجواب واضح يفيده قوله: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون أذلاء، وهذه الجملة المصدرة بـ«بل» تفيد الأنتقال من أسلوب إلى آخر، يعني: أنهم لا يتناصرون؛ لأنهم اليوم مستسلمون هم وأصنامهم أذلاء صاغرون.

الاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ المراد به التوبيخ والتهكم يعني: أي:ن نصر بعضكم بعضًا الذي كان في الدنيا أفلا تتناصرون اليوم؟ والجواب: لا يمكن أن يتناصروا؛ لأنهم أذلاء مستسلمون ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون لحكم الله فيهم جزاءً ولحكم الله فيهم قدرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: أقبل بعضهم أي: اتجه بعضهم إلى بعض،

وجملة يتساءلون حال من الفاعل والمجرور، والفاعل في (بعضهم) والمجرور في (على بعض). أقبلوا يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا تلاومًا وتخاصمًا، فصاروا بعد أن كانوا في الدنيا على وفاق وأخلاء صاروا في الآخرة أعداء ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا على وجه التوبيخ وا؛ لأنكار، ﴿قَالُوٓا۟ ﴾؛ أي: الأتباع منهم للمتبوعين، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله- [عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق فصدقنا واتبعناكم، المعنى أنكم أضللتمونا]؛ أي: صار بعضهم يسال بعضًا، الأتباع يسألون المتبوعين، والمتبوعون يسألون الأتباع، وكل يسال بعضهم بعضًا؛ لأنهم وقعوا في حيرة.

يقول بعضهم لبعض وهم الأتباع يقولون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للمتبوعين ﴿إِنَّكُمْ﴾ يعني: في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا﴾ يعني: في خطابكم لنا ودعوتكم أي:انا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾، عن للمجاوزة يعني: تأتوننا إتيانًا صادرًا عن اليمين، فما المراد باليمين؟

قيل: إن المراد باليمين الحلف؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٤] جمع يمين، فمعنى عن اليمين عن الحلف؛ أي: أن المتبوعين يحلفون للأتباع أنهم على حق، وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقيل: إن المراد باليمين هو التفاؤل، يعني: أنكم تعدوننا خيرًا، وتقولون: اتبعونا فإنكم إن اتبعتمونا؛ نلتم العزة والغلبة فتعدوننا بالخير وأنتم كاذبون علينا.

وقيل: المراد باليمين القوة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ أي: القوة، وقيل: باليد اليمنى على كل حال.

إذنْ باليمين فيها ثلاثة أقوال:

١ - الحلف.

٢- الخير.

٣- القوة.

والحقيقة أن كل هذه الوجوه واقعة من المتبوعين، فهم يقسمون للأتباع أنهم على حق، وهم يتكلمون معهم عن طريق القوة؛ لأنهم متبوعون، وهم كذلك يعدونهم بالخير، يقولون: اتبعونا تكن لكم العزة والغلبة وما أشبه ذلك، فالآية شاملة لهذه الوجوه الثلاثة. يقول الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا عن هذه الجهة الحلف أو القوة أو الخير.

والمؤلف -رحمه الله- يقول في تفسيرها [عن الجهة التي كنا نأمنكم بها]، وكلامه هذا صالح للوجوه الثلاثة؛ لأن الناس يؤمنون إذا حلفوا، ويؤمنون إذا وعدوا بالخير، ويؤمنون إذا كانوا أقوياء؛ لأن الغالب أن الضعيف يرى أن القوي على حق، وأنه بلغ هذه المرتبة لكونه محقًّا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: المتَّبَعون] لو

عبر -رحمه الله- بقوله المتبوعون لكان أوضح؛ لأن المتَّبَعون قد يقرأها الإنسان المتَّبِعُوْن يعني: الأتباع، والواقع أن الذي قال هم المتبوعون. ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: المتبوعون للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَل﴾ هنا في إبطال ما ادّعوه في قولهم: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، يعني: بل لم نأتكم عن اليمين ولكنكم لم تكونوا مؤمنين ولو كنتم مؤمنين لصدق قولكم إنا أضللناكم، أما أنكم غير مؤمنين من الأصل فالجناية منكم على أنفسكم.

ولهذا يقول المؤلف -رحمه الله: [﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الأيمان إلينا]، وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الأيمان إلينا]، تبرأ المتّبوعون الأن من الأتباع وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم، قالوا كما يقول الشيطان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] هؤلاء المتبعون يقولون كما قال الشيطان، يقولون للأتباع: أنتم الذين أضللتم أنفسكم، أما نحن فلم نضلكم؛ لأننا لم نخاطب قومًا مؤمنين، فأضللناهم بعد أيمانهم، إنما نخاطب قومًا انقادوا إلى الكفر باختيارهم، فاللوم عليهم ؛ لأنفسهم أما نحن فلا، وهذا مبين لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

الفوائد:

في الأيات المتقدمة فوائد:

١- منها: أن هؤلاء المكذبين إذا ساقتهم الملائكة إلى النار فإنهم يهينونهم عدة إهانات، فيقفونهم على الصراط، يعني: عنده، ومن المعلوم أن الأيقاف فيه إهانة للأنسان، بحيث يكون في يد غيره كالآلة.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أنهم يهانون إهانة أخرى معنوية، فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يعني: أي شيء يمنعكم اليوم من التناصر بعد أن كنتم في الدنيا تتناصرون؟ وفي هذا من الإهانة والتوبيخ والتنديم ما هو ظاهر.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء في ذلك الموقف أذلاء مستسلمون كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ وكانوا في الدنيا مستكبرين لا يقبلون الحق، بل يجادلون ويقدمون رقابهم للقتل ضد الحق والعياذ بالله، لكنهم في الآخرة مستسلمون.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يلوم بعضهم بعضًا، ويسب بعضهم بعضًا، قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ لقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** بيان الأساليب التي يستعملها المضللون، وأنها أساليب متنوعة تارة بالقوة، وتارة بالتغرير والتلطف والأيعاد بالخير، وتارة بالتغرير والتوكيد على أن ما هم عليه حق، وإذا نظرت إلى واقع النصارى اليوم وغيرهم من أهل الضلال المضلين عرفت كيف تنطبق هذه الآية على هؤلاء الدعاة إلى الشر؟ فالنصارى -مثلًا- المضللون الذين يسمون أنفسهم بالمبشرين، لكننا نقول إنهم مبشرون بالعذاب الأليم، يعدون الناس الخير ويفتحون المدارس ويغدقون الأموال على الناس من أجل تضليلهم، وإخراجهم، ويستغلون فرصة الفقر والجهل في مثل هذه الأمور.

٦- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المتبوعين يعيدون التوبيخ على التابعين، حيث يقولون لهم: بل لم تكونوا مؤمنين، فالبلاء من عند أنفسكم لا من عندنا.

٧- **ومن فوائدها:** أن من لم يكن أي:مانه راسخًا، فإن الدعاية الباطلة تؤثر عليه؛ لأن المؤمن أي:مانًا راسخًا تضلله الدعاية ولا يمكن أن يتحول عن أي:مانه الذي كان عليه لقوله: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ولو كنتم مؤمنين حقًا أي:مانًا ثابتًا ما أثَّر عليكم إضلالنا.

والمؤمن يرضى أن يموت ولو بأن يلقى من شاهق ولا يكفر بالله -عز وجل-، لكن الذي أي:مانه غير راسخ ولا ثابت هو الذي تضلله هذه الدعايات.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٠ - ٣٢]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ (ما) نافية و(كان) فعل ماض يرفع المبتدأ وينصب الخبر، و(من سلطان) اسمها المؤخر مجرور بحرف من الزائد إعرابًا، و(لنا) خبر مقدم. خلافًا لمن قال: إن (ما) حجازية و(كان) زائدة؛ لأنك لو قلت: (وما لنا عليكم من سلطان) لصح الكلام؛ لأن (كان) هنا مراد وجودها؛ لأنها تدل على زمن مضى، بخلاف ما لو سقطت فإنها لا تدل على الزمن الماضي، فإن الجملة لا تدل على الزمن الماضي، فيتعين هنا أن تكون (ما) نافية و(كان) فعل ماض غير زائد.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: من قوة وقدرة تقهركم على متابعتنا]، واعلم أن السلطان بمعنى السلطة، وهو في كل موضع بحسبه فتارةً يراد بالسلطان العلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:

٢٣]؛ أي: من دليل وبرهان، وتارةً يراد به القدرة والقوة والغلبة كما في هذه الآية، يعني: ليس لنا عليكم من سلطان نقهركم حتى تتبعونا، بل أنتم اتبعتمونا باختياركم وإرادتكم فكأنهم يقولون: لا تلومونا ولوموا أنفسكم، كما قال الشيطان لما قضي الأمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فهؤلاء المتبوعين يجعلون اللوم كله على الأتباع، ونحن إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن اللوم يكون على الأتباع وعلى المتبوعون، أما المتبوعون فإنهم زينوا لهم أعمالهم ودعوهم واستضعفوهم حتى أمالوهم إلى الباطل، وأما الأتباع فإنهم لم يجبروا على ذلك ولم يسخروا عليه، بل هم الذين تبعوا هذا باختيارهم، فكان على كل واحد من اللوم ما يتناسب وفعله، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، ﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الأنتقالي لا لإبطال ما سبق، بل للأنتقال من شيء إلى آخر فكرروا عليهم، قالوا في الأول: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وقالوا الآن: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ والطاغي هو الذي تجاوز حده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يعني: لما تجاوز حده، فهم يصفونهم بأنهم طاغون أي: متجاوزون لحدهم الذي ينبغي أن يكونوا عليه وهو اتباع الرسل لا اتباع هؤلاء المضلين، وقول المؤلف [ضالين] فيه نظر؛ لأن الطغيان أمر زائد على الضلال.

فالصواب: أن ﴿طَٰغِينَ﴾ بمعنى المتجاوزون للحد الذي ينبغي أن يكونوا عليه من أتباع الرسل.

قوله تعالى: [﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعًا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ بالعذاب أي: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] [السجدة: ١٣].

هذا على ما قال المؤلف هو المراد بقولهم: ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ولكن الظاهر أن المراد بقول الله المشار إليه هو قوله لإبليس ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]؛ لأن الآية التي أشار إليها المؤلف فيها بيان أن الله -سبحانه وتعالى- قدر بحكمته أن يملأ النار من الكافرين، لكن ليس في الخطاب الموجه للشيطان وأتباعه، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فإن هذا هو الذي فيه الوعيد المباشر لمن اتبع الشيطان، فتفسير قولنا بالآية الثانية أولى من تفسيرها بما قال المؤلف، ثم قال: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [﴿إِنَّا﴾ جميعًا ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب بذلك القول، ونشأ عنه قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ المعلل بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ علينا الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين، ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أيضًا يعود الضمير على الأتباع والمتبوعين. كأنهم يقولون إنا لم نخلص أنفسنا فكيف نخلصكم، ثم قال: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ يعني: جعلناكم من أهل الغي بصدكم عن طريق الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ هذا تعليل لقولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛لقولهم أي:

بقول هؤلاء الذي نقله الله عنهم.

الفوائد:

في هذه الآيات عدة من الفوائد:

١- تبرأ كل من التابع والمتبوع يوم القيامة من هؤلاء الضلال، فالمتبوعون أو الأتباع يجعلون اللوم على المتبوعين والمتبوعون يجعلون اللوم على الأتباع.

٢- **ومن فوائدها:** أن المتبوعين ليس لهم سلطان يكرهون به الأتباع، بل الأتباع هم الذين اختاروا؛ لأنفسهم الضلالة.

٣- **ومن فوائدها:** فيها دليل على أن هؤلاء المشركين والكافرين أعلم بالواقع من الجبرية وأشباههم الذين يقولون: إن الإنسان يجبر على عمله. فإن هؤلاء يقرون بأن الإنسان يفعل باختياره لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الأتباع يوم القيامة لا ينتفعون باتباع المتبوعين، بل إن المتبوعين يوبخونهم على طغيانهم فيقولون: أنتم الذين تجاوزتم الحد بترككم أتباع الرسل ثم اتباعنا.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات قول الله -عز وجل- وأنه يقول: لقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، والقول هو الكلام الذي يستفاد منه فائدة، فيتفرع على ذلك أن كلام الله بحرف وصوت، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للأشعرية الذي يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأن ما يسمع من هذه الحروف والصوت فإنما هو مخلوق خلقه الله تعالى تعبيرًا عما في نفسه.

٦- **ومن فوائدها:** إقرار المكذبين للرسل بالربوبية لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ويتفرع على ذلك الرد على عامة المتكلمين، الذين يفسرون التوحيد بتوحيد الربوبية فقط، فيقولون: إن التوحيد هو أن تؤمن بأن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له.

ففي هذه الجمل الثلاث لم يذكروا توحيد الألوهية، يعني: لم يقولوا: واحد في ألوهيته لا شريك له،، وإنما جعلوا التوحيد ما يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الصفات فقط، على ما في هذا الكلام من إجمال يحتاج إلى تفصيل، لكن فيه حذف توحيد الألوهية، وهذا التوحيد الذي زعم عامة المتكلمين أنه هو التوحيد الذي جاءت به الرسل. لاشك أن المشركين كانوا يقرون به ولا ينكرونه، ومع هذا حكم عليهم النبي ﷺ بالشرك واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وأراضيهم.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين من أتباع ومتبوعين كلهم ينالهم العذاب لقوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي: ذائقون عذاب ربنا الذي حق علينا.

٨- **ومن فوائدها:** التحذير من مصاحبة أهل الغواية لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، وقد حذر النبي ﷺ من مصاحبة الصاحب السوء فقال: «مثل الجليس الصالح كحامل المسك وإما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[1].

٩- **ومن فوائدها:** إطلاق الشيء على مسببه لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ لأنهم ليسوا هم الذين أغووهم، وإنها هم سبب إغوائهم، فإن الهداية والإضلال بيد الله -عز وجل-،لكن هؤلاء كانوا سببًا في غواية هؤلاء فأضافوا الفعل إليهم في قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٣-٣٧]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا من قول الله - تبارك وتعالى - وإن واسمها في إنهم، ومشتركون خبرها، وفي العذاب متعلق بـ(مشتركون)، ويومئذ يجوز أن تكون متعلقة بـ(مشتركون)، ويجوز أن تكون متعلقة بحال من الضمير في إنهم.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تقوم القيامة، فالتنوين عوضًا عن جملة محذوفة، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين يشتركون يوم القيامة في العذاب؛ أي: في أصله، وإن كان بعضهم أشد عذابًا من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]

واشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم؟ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] بينما الناس في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب أو المصائب فإن بعضهم يسلي بعضًا ويقويه ربما يتحمل جزءًا من العذاب. لكن في الآخرة لا ينفع هذا، كل منهم يرى أنه أشد الناس عذابًا -والعياذ بالله- ولا ينفعه مشاركة غيره له.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أي: لاشتراكهم في الغواية].

تفسير المؤلف تعليل لاشتراكهم في العذاب؛ لأنهم اشتركوا في الغواية.

والمعنى: أن هؤلاء مشتركون في العذاب كل يعذب بقدر ذنبه فلا يظلم ربك أحدًا، ولا يمكن أن يسلم الأتباع من التبعة، وأن يسلم المتبوعون من التبعة، وأن هؤلاء انقادوا للضلال باختيارهم، وهؤلاء خدعوهم وغروهم، فكان على كل واحد من العذاب ما يستحقه وإن اشتركوا في أصله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ [إنا كذلك كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين]، هكذا قدر المؤلف كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين.

ويحتمل أن يكون المعنى: إنا كهذا الفعل نفعل بالمجرمين وهم مجرمون. إعراب هذه الجملة ﴿إِنَّا﴾ إن واسمها وجملة ﴿نَفْعَلُ﴾ خبرها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى (مثل) منصوبة على المفعولية المطلقة، يعني: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، وهذا التركيب يرد كثيرًا في القرآن، وإعرابه أن تجعل الكاف اسم بمعنى (مثل) وأن تجعلها منصوبة على أنها مفعول مطلق للفعل الذي يليها.

وقوله: ﴿نَفْعَلُ﴾ وصف الله نفسه بالفعل على سبيل التعظيم، حيث عاد الضمير إليه بصيغة الجمع، ومعلوم أنه سبحانه واحد، ولكنه وصف نفسه بهذا من باب التعظيم.

وقوله: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المجرم هو الذي اكتسب الجرم وهو الإثم، فكل مجرم فإن الله تعالى يفعل به هكذا، ولكن الجرم نوعان: جرم لا عمل صالح معه فهذا يفعل به هكذا قطعًا وليس أهلًا للعفو، وجرم معه عمل صالح فهذا تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ [النساء: ٤٨].

قال المؤلف: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ غير هؤلاء أي: نعذبهم، التابع منهم والمتبوع]، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا مجرمين؛ لأنهم استحقوا من العذاب ما استحقه غيرهم.

[﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: هؤلاء بقرينة ما بعدهم ﴿كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾] ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، القائل الرسل بدليل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وربما نختار العموم يعني: إذا قالت لهم الرسل أو غيرهم حتى غير الرسل ربما ينصحونهم ويقولون لهم: قولوا لا إله إلا الله، ولكنهم يجيبون بها الجواب الباطل.

وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة هي كلمة التوحيد، التي دعت إليها جميع

الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وإعرابها أن نقول: لا نافية للجنس، وإله اسمه، وخبرها محذوف تقديره حق، وإلا أداة استثناء، ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إله بمعنى مألوه، والمألوه هو المعبود حبًّا وتعظيمًا، الذي تألهه القلوب وتنيب إليه وتخشع له، وإله أعني هذه الصفة فعال بمعنى مفعول تأتي كثيرًا في اللغة العربية مثل: البناء الفراش، بمعنى المبني، المفروش.

فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

ولو أورد علينا مورد، بأن هناك آلهة دون الله تعالى فالجواب: أن ألوهيتهم ليست حقًّا، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وقد فسر عامة المتكلمين (لا إله إلا الله) بقولهم: لا قادر على الاختراع إلا الله. هذا تفسيرهم لها، كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في التدمرية يقولون: (لا إله إلا الله)؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا الله، ففسروها بما يقتضي توحيد الربوبية، وهذا التفسير غير حق. فإذا فسرنا معنى لا (إله إلا الله)؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا الله يعني: على الخلق إلا الله، وهذا التفسير غير صحيح وباطل من أصله.

والدليل: أن المشركين لا يستكبرون عن أن يقولوا: إنه لا خالق إلا الله، بل يقرون بذلك، إذًا من فسره بهذا التفسير فقد أخطأ.

والمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ ما فسروه بهذا؛ لأنه لو فسروا بهذا ما استكبروا عنه.

إذنْ فهذا التفسير يعتبر تفسيرًا باطلًا، ليس فيه قصور ولا نقص، بل في البطـ؛ لأن من الأصل.

مسألة: ما الفرق بين قولنا: لا معبود بحق إلا الله، وقولنا: لا معبود حق إلا الله؟

الجواب: إذا قلنا: لا معبود بحق إلا الله لم يأتِ الخبر، وصار (بحق) تعلق بمعبود، يعني: لا أحد يعبد بحق إلا الله، ويكون الخبر على هذا هو (الله)، وهذا مشكل على قواعد النحو؛ لأن (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات.

وإذا قلنا: لا معبود حق. صارت (حق) خبر (لا) ولا تكون متعلقة بالمعبود؛ ولهذا قال بعضهم في تقديرها: لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح؛ لأن هناك موجودًا يعبد سوى الله، ولكن الصحيح أن نقول: لا معبود حق. كما لو قلت: لا أحد قائم إلا زيد. تكون قائم هي الخبر. لا معبود حق إلا الله.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (الله) علم على الذات المقدسة لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي أسماء الله تعالى غالبًا تبعًا له، ولا يأتي هو تبعًا لغيره إلا نادرًا، فالأكثر أن الأسماء تأتي

كلها صفة لله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٢-٤] بسم الله الرحمن الرحيم، وربما تبعًا لها في مثل قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١-٢] فهنا أتت هذه الكلمة العظيمة (الله) تبعًا لما قبلها. أي:ن جواب ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؟ جواب (إذا) ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ولكن قد يقول قائل: لماذا لم تجزم؟ كيف جعلتموها جوابًا لـ أن (إذا) ولم تجزموها مع أنها فعل مضارع، الجواب أن (إذا) حرف شرط غير جازم.

وقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يتعالون كبرًا وفخرًا، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويأنفون من ذلك أي: من قول هذه الكلمة؛ لأنهم يرون في أنفسهم أنهم أعظم وأكبر؛ ولهذا قال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يستكبرون عن قولها فلا يقولونها ويستكبرون عمن قالها فلا يستجيبون له، فكبرياؤهم -والعياذ بالله- من الناحيتين.

الناحية الأولى: الاستكبار عن قول هذه الكلمة.

والثانية: الاستكبار عن الاستجابة لمن دعاهم إليها، ويقولون مع استكبارهم النفسي يقولون بألسنتهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ في همزتيه أربع قراءات على حسب ما قال المؤلف:

١- أن تحقق الهمزتين.

٢- أن تسهل الثانية.

٣- أن تدخل ألفًا بينهما في حال التحقيق.

٤- أن تدخل ألفًا بينهما في حال التسهيل.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ الاستفهام هنا للنفي، وأكدوا هذا النفي بقوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ﴾ أكدوه بإن واللام، يعني: هل يمكن أن نترك آلهتنا لهذا القائل الذي وصفوه بهذين الأمرين: شاعر ومجنون؟ أي: لأجل قول محمد ﷺ يعني: لا يمكن أن نترك آلهتنا من أجل قول هذا الشاعر المجنون، والشاعر هو من يقول الشعر، والمجنون ضد العاقل، ومن المعلوم أن قولهم هذا كذب، ومع كونه كذبًا فهو متناقض، وجه التناقض أن المجنون كيف يكون شاعرًا؟ المجنون لا يمكن أن يأتي بكلام نثر منتظم، فكيف يأتي بكلام نظم يهز المشاعر؟ ويقال: إنه صدر من شاعر؟! لكن -والعياذ بالله- العمى إذا حل في القلب صار الإنسان لا يدري ما يقول، ربما يقول قولًا يتناقض وهو لا يدري.

ومن المعلوم أن الله تعالى كذبهم في هذا القول، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٢] بل أنت أعقل العقلاء، فكذبهم الله -عز وجل- في قولهم هذا، وهم بلا شك كاذبون، فالنبي ﷺ أعقل الناس، والنبي ﷺ أتى بقول ليس بشعر، بل أتى بكلام الله -عز وجل-

؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ (بل) هذه للإضراب الإبطالي؛ أي: بل كذبتم فيما قلتم، وإنما جاء رسول الله ﷺ بالحق، والباء هنا للمصاحبة يعني: جاء مصحوبًا بالحق، فقوله حق وما جاء به أيضًا حق، فكون النبي ﷺ يقول: هذا من عند الله . نقول: هذا حق هو صادق، وما يشتمل عليه القرآن فهو حق وضده الباطل، فالحق هنا وصف لقول النبي -عليه الصلاة والسلام- إنه رسول الله، ووصف لما جاء به، فيكون وصفًا للخبر والمخبر به، فخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن هذا القرآن من عند الله نقول: حق، وما جاء به أيضًا فهو حق؛ وذلك ؛ لأن القرآن مشتمل على كمال العدل وكمال الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فتكون الأحقية هنا من جهتين: من جهة الخبر، ومن جهة المخبر به، الخبر أن قول النبي ﷺ: هذا من عند الله حق ليس فيه كذب، المخبر به: أن ما جاء به الرسول ﷺ فكله حق متضمن للحق، ليس فيه باطل، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فالصدق وصف للأخبار، والعدل وصف للأحكام، والقرآن كله إما خبر وإما حكم، فخبره صدق وحكمه عدل.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [الجائين به، وهو أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صدّق أي: النبي ﷺ المرسلين الذين أرسلوا من قبله] وكيف صدقهم؟ نقول لتصديقه المرسلين وجهان:

الوجه الأول: أن مجيئه مطابقًا لما أخبروا به، فيكون ذلك تصديقًا، كما لو قلت: سيقدم زيد غدًا، فإذا قدم صار مصدقًا لقولك وصار مجيئه مصدقًا لقولك.

الوجه الثاني: صدق المرسلين؛ أي: قال: إن الرسل صادقون، وكلنا يعلم أن من دين رسول الله ﷺ أن يقول الأنسان: آمنا بالله وبرسل الله ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، [البقرة: ٢٨٥] فتصديق رسول الله ﷺ لمن سبقه يكون على هذين الوجهين:

أولًا: أن مجيئه تصديق لما أخبروا به من أن سيبعث، وآخرهم عيسى -عليه الصلاة والسلام-، قال لقومه، ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

والثاني: أنه وصف ما جاءت به الرسل السابقون بأنه صدق.

قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: [الجائين به، وهو أن لا إله إلا الله] في تفسير المؤلف -رحمه الله- شيء من القصور؛ لأنه صدّق المرسلين في هذا وفي غيره، وكأن المؤلف -رحمه الله- خصها بقول (لا إله إلا الله) بناءً على السياق، حيث كان السياق في التحدث عن (لا إله إلا الله) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: صدَّقهم بأن لا إله إلا الله، ولكن الأولى الأخذ بالعموم فصدقهم

في هذا وفي غيره.

الفوائد:

١- أن الأتباع والمتبوعين كل منهم مشترك في العذاب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، والفائدة من ذلك أنه لن ينجو الأتباع ولا المتبوعين.

فإن قال قائل: هل الاشتراك يقتضي المساواة؟

فالجواب: لا. بل لكلٍّ درجاتٌ مما عملوا.

٢- **ومن فوائدها:** إذلال هؤلاء المتبوعين الذين كانوا في الدنيا يعتلون على الخلق؛ لأنه جمع بينهم وبين من يستعبدونهم في الدنيا، ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لأن الآخرة دار عدل.

٣- **ومنها:** أن الله -سبحانه وتعالى- لم يظلمهم بهذا العذاب؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ فهم لم يعذبوا إلا لجرمهم.

٤- **ومن فوائدها:** أن الناس عند الله سواء، فكل من استحق عقابًا أو ثوابًا فهو له؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾؛ يعني: لم نفعل بهؤلاء وحدهم، بل حكمنا هذا شامل لكل مجرم.

وكذلك يقال في الثواب: إن الله -سبحانه وتعالى- يثيب كل عامل بعمله بمقتضى الأوصاف التي يستحق بها هذا الثواب.

٥- **ومنها:** إثبات الفعل لله -عز وجل-؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ﴾ والله -سبحانه وتعالى- فعَّالٌ لما يريد، والفعل يقتضي التجدد بحسب المفعول، فخلق الله للسماوات والأرض لم يكن أزليًّا، وإنما كان حين خلق السماوات والأرض، وخلق الله للجنين في بطن أمه لم يكن أزليًّا، بل هو حادث حين حدوث هذا الجنين.

٦- **ونتنقل من هذه الفائدة إلى فائدة تتفرع عنها وهي:** إثبات أفعال الله الاختيارية خلافًا لمن أنكر ذلك، وقال: إن الله لا يقوم به فعل اختياري، وعللوا ذلك بعلة باطلة، قالوا: ؛ لأن الفعل الاختيار يقتضي الحدوث، والحادث لا يقوم إلا بحادث، والله -سبحانه وتعالى- أزلي أبدي، ولاشك أن هذا القول قول باطل. فإن الحادث قد يقوم بغير الحادث كما في أفعال الله. أليس الله تعالى خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش، فحدث الاستواء بعد خلق السماوات والأرض؟ أوليس الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير؟ بلى، فحصل النزول بعد مضي ثلثي الليل، ومع ذلك فإن الله لم يزل ولا يزال موجودًا. ثم إن الإنسان بنفسه يجد أن أفعالًا منه تتجدد مع سبقه عليها. فا؛ لأنسان مثلًا فعله اليوم ليس فعله بالأمس وهو سابق على أفعاله فتقوم به الأفعال الحدوثية مع سبقه عليها، فإذا جاز هذا في المخلوق، فهو في الخالق من باب أولى؛ لأنه كمال.

٧- **ومن الفوائد:** تمام سلطان الله -عز وجل- وقوته، وجه ذلك أن هؤلاء المجرمين

معروفون بالعتو والكبرياء والغطرسة، كما في فرعون وغيره من الملأ، ومع ذلك فإن الله قاهرهم، يعذبهم ويفعل بهم ما يشاء مما تقتضيه حكمته.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أن هؤلاء المجرمين في غاية ما يكون من العتو، فإنهم إذا قيل لهم هذه الكلمة العظيمة التي لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بهن، يستكبرون عنها، ويرون أنهم أكبر قدرًا من أن يقولوها، أو أن يصدقوا من قال بها؛ لأنه قد سبق أن قلنا في التفسير يستكبرون عن الخبر والمخبر به.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الخضوع لما تقتضيه هذه الكلمة؛ لأن الله ساقها في القوم المستكبرين عنها مساق الذم، وعلى هذا فمن قبلها وخضع لها فقد نفي عن نفسه الذم وقام بما يجب عليه.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قال: (لا إله إلا الله) بإخلاص فلابد أن يخضع لأوامر الله ولا يستكبر، ومن ثم جاءت نصوص كثيرة تعلق دخول الجنة على قول (لا إله إلا الله)، ومن المعلوم أن دخول الجنة لا يترتب على مجرد قولها، إذ إن المنافقين يقولونها ومع ذلك لا يدخلون الجنة، لكن المراد بمن قالها خاضعًا لما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة من اتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله لا صلاة ولا نذر ولا سجود ولا ركوع ولا حج، كله يجب أن يصرف لله -عز وجل-؛ لأنه هو المعبود حقًّا.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أن هؤلاء كذبوا بما تقتضيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فالأول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، والثاني إذا قيل: آمنوا بمحمد قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾. فلم يقوموا بـ (لا إله إلا الله)، ولم يقوموا بمحمد رسول الله، والله -عز وجل- يقرن دائمًا بين هاتين الكلمتين في آيات كثيرة، انظر إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨-٦٩] ففي الأول الإشارة شهادة أن لا إله الله، وفي الثاني ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ شهادة أن محمدًا رسول الله؛ ولهذا أيضًا جعل النبي ﷺ هاتين الشهادتين ركنًا واحدًا من أركان الإسلام، فقال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وأيتاء الزكاة..» [1]؛ لتلازم هاتين الشهادتين؛ ولأن مبنى العبادة كلها على الأي:مان بهاتين الشهادتين إذ إن مبنى العبادة على الإخلاص والمتابعة، اللذين يتحقق بهما شهادة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

١٣- **ومن الفوائد:** أن هؤلاء المستكبرين لم يكفهم الاستكبار عن الحق حتى قدحوا فيمن جاء بالحق. يؤخذ من قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ فلم يكفهم أن تركوا الحق حتى هاجموا وقدحوا فيمن جاء به، وقد ورثت هذه الطريقة -أي: القدح بمن جاء بالحق- فأهل البدع يسمون أهل السنة بكل عيب ووصف قبيح، سموهم المشبهة والمجسمة والحشوية والغثاء والنوابت والعامة، وما أشبه ذلك من الكلمات التي تفيد القدح، ولكن جعل الله -سبحانه وتعالى- لكل نبي عدوًّا من المجرمين، ولكل متبع نبي عدوًّا من المجرمين، فورث هؤلاء الأصفياء صفوة الخلق وهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وورث هؤلاء الأشقياء أشقى الخلق الذين يقدحون في الرسل.

١٤- **ومن الفوائد:** شدة انتصار هؤلاء المشركين لآلهتهم، انظر كيف قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ وهذا يدل على شدة انتصارهم لها وحميتهم الجاهلية، وقد سبق في سورة «يس» أن الله تعالى قال عن هذه الآلهة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] فالأصنام والآلهة لا تنصرهم، وهؤلاء جند محضرون لنصر هذه الآلهة.

١٥- **ومنها:** وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أن رسول الله ﷺ جاء بالحق، فكل دينه مشتمل على الحق فيما يتعلق بمعاملة الله تعالى أو فيما يتعلق بمعاملة عباد الله.

وقد قال الله تعالى في وصف القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] هذه الكلمة لو صنفت عليها مجلدات ما استوعبت مدلولها ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أي: جادًا أو تركًا ولو أنك تتبعت الشريعة بقدر ما تستطيع لوجدت أن هذا الوصف منطبق على جميع خصال الشريعة، كل خصال الشريعة أقوم من كل شيء، وهنا يقول: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ ضد الحق هو الباطل، والباطل إما كذب في الأخبار، وإما جور في الأحكام؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وذكرنا لقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معنى آخر غير كون ما جاء به حقًّا، وهو أنه ﷺ صادق فيما جاء به فما جاء به حق، وهو صادق في قوله: إنه من عند الله، وليس بكاذب.

١٦- **ومن فوائدها:** الثناء على ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسم -؛ لقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ بل والثناء على الرسول ﷺ حيث وصفه بأنه جاء بالحق ولاشك أن من وصف من عند الله بأنه جاء بالحق لاشك أن هذا من أعظم المناقب والأوصاف الحميدة.

١٧- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن النبي ﷺ آخر الرسل؛ لقوله؛ ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فإن «أل» للعموم فتقتضي كل رسول، وهذا يشير وليس بصريح إلى خاتم النبيين، كما قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، الآية لها مدلول عظيم، قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وكان مقتضى السياق أن يقول: «ولكن رسول الله وخاتم الرسل»، أو يقول: «ولكن نبي الله وخاتم النبيين»، لكن قال رسول الله؛ لأن وصف الرسالة أعلى من وصف النبوة، وخاتم النبيين يعني: لن يأتي بعده لا رسول ولا نبي وهو كذلك، فهو -عليه الصلاة والسلام- أفضل الرسل، ولن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

١٨- **ومن فوائدها:** أنه يجب علينا أن نصدق من سبق من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن نبينا ﷺ صدق المرسلين؛ فيجب علينا نحن أن نصدق؛ لأنه يجب على المأموم متابعة الإمام، فإمامنا محمد -صلوات الله وسلامه عليه- فيجب علينا أن نتبعه.

١٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن الرسل السابقين أخبروا به؛ لقوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولاشك أن الرسل السابقين أُعلموا به، وأن آخرهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- بشر به، أما الأول فدليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فإن المراد بذلك محمد ﷺ.

فإنه جاء مصدقًا لما معهم، فكان عليهم أن يؤمنوا به بمقتضى هذا العهد، وانظر إلى ليلة المعراج حيث صلى الرسل، بل الأنبياء صلوا جماعة، وكان إمامهم محمدًا ﷺ مما يدل على أنه أفضلهم، فإن الإمامة في الصلاة تقتضي الإمامة التي فوق الصلاة.

٢٠- **ومن فوائدها:** تناقض هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ حيث وصفوه بأنه شاعر مجنون؛ لأن المجنون لا يمكن أن يكون شاعرًا فهم يتخبطون خبط عشواء، إلا أن يدعي مدع بأن الكلام مقسم؛ أي: أن بعضهم يقول: شاعر، وبعضهم يقول: مجنون، وينسب القول للجميع، وإن كانوا لم يقولوا به ؛ لأنهم راضون به، إن ادعى مدع ذلك فله وجه، لكن إن كان القائل يجمع بين الوصفين فقد تناقض.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٥]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: أحدهما (إن) والثاني: اللام، وقوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾ هي الخبر وحذفت النون منها من أجل الإضافة؛ لأن المضاف تحذف منه النون إذا كان مثنى أو جمعًا، ويحذف منه التنوين إن كان مفردًا.

وقوله: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأليم هنا بمعنى المؤلم، وفعيل تأتي بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ ... تُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع بمعنى: المسمع.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ فيه التفات، وذلك أن مقتضى السياق أن يقول: «إنهم لذائقو العذاب»؛ لأن الحديث كله جاء عن الغائب. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ فكان مقتضى السياق أن يقول: إنهم لذائقوا العذاب الأليم، ولكن كان في السياق التفات من الغيبة إلى الخطاب فما فائدة هذا الالتفات؟

ذكرنا فيما سبق أن كل التفات فإن له فائدة مشتركة، وهي تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد سها المخاطب أو القارئ، ولكن إذا تغير الأسلوب فإنه ينتبه لماذا تغير؟ وما وجه التغير؟ فتشترك جميع الالتفاتات في كل موضع بأن الغرض من ذلك التنبيه، ثم ينفرد كل موضع بما يختص به، فهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الخطاب أبلغ في الزجر، ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ أبلغ من إنهم لذائقوا العذاب الأليم؛ ولهذا إذا تأملنا قصة الخضر مع موسى -عليه الصلاة والسلام-، أول ما عتب عليه قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] الخطاب لاشك أن فيه قرعًا للذهن مباشرًا، فيكون اشد وقعًا من ضمير الغيبة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ هذا فيه حق اليقين؛ لأن هؤلاء تُوُعِّدوا بهذا العذاب وتوعدهم بالعذاب هو علم يقين ثم رأوا النار كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، وهذا عين اليقين ثم قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ وهذا حق اليقين، فاجتمع في وعيد هؤلاء المراتب الثلاث: العلم، والعين، والحق.

قوله تعالى: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ المراد به عذاب جهنم -والعياذ بالله-؛ لأنه مؤلم، وقد أخبر الله -عز وجل- عن أي:لام هذا العذاب بأنواع عظيمة، ذكرها الله في كتابه، وذكر منها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا في السنة، قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ما تجزون من هذا العذاب إلا شيئًا قدمتموه أنتم ؛ لأنفسكم، وهنا قال المؤلف في تقدير الآية: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]، وهذا أمر

معلوم؛ لأن الذي عملوه كان وبان، إذ إن العمل كان في الدنيا ومضى، والجزاء في الآخرة، فهم لم يجزوا العمل نفسه، وإنما جوزوا جزاء العمل، ومن ثمَّ قال المؤلف: إلا جزاء ما كنتم تعملون.

وإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يُعبَّرَ عن الجزاء بالعمل؟

قلنا: الفائدة في ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يعلم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما تدين تدان، فإذا عبر عن الجزاء بالعمل فإن هذا معناه أو مقتضاه أن هذا الجزاء بقدر العمل.

الفائدة الثانية: قوة التوبيخ لهؤلاء؛ لأن الجزاء من فعل غيرهم، فإذا عبر عنه بالجزاء فإنه يكون أهون بعض الشيء، لكن إذا عبر بالعمل عن الجزاء صار أشد في التوبيخ، كأنه يقال لهم: هذا فعلكم أنتم بأنفسكم؛ ولهذا عبر عن الجزاء بالعمل.

وقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من حيث الإعراب: نقول: إن (الواو) نائب فاعل في (تجزون)، و(ما): اسم موصول في محل نصب مفعول آخر؛ لأن جزاء تنصب مفعولين، ولكن هل هي من باب ظن التي مفعولاها أصلهما المبتدأ والخبر، أو من باب (كسا) التي مفعولاها ليس أصلهما المبتدأ والخبر؟

الجواب الثاني: ؛ لأنه لو قدرت أن الواو مبتدأ، و(ما) خبر، ما صح الكلام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: المؤمنين استثناء منقطع]، قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ هذا استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يحل محله، (لكن).

فإن قيل: لماذا لم يعبر بـ(لكن بدل إلا؟ ما دام أن المعنى على الاستدراك؛ لأن الاستثناء منقطع فلماذا لم يؤت بحرف الاستدراك الأصلي الذي هو لكن؟

قلنا في الجواب على ذلك: إنه أتى ليفيد قوة اتصال الثاني بما بعده؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، والأصل في (لكن) الأنقطاع. فإذا جاءت (لكن) فصلت بين ما قبلها وما بعدها، لكن إذا جاءت (إلا) صار في ذلك إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها وهو كذلك، فإنه لما ذكر جزاء المجرمين، ذكر جزاء المخلصين، وهذا من كون القرآن العظيم مثاني تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكر الوعيد ذكرالوعد، وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وإذا ذكرت الجنة ذكر النار، وهكذا، فهو مثاني؛ لأنه لو جاء الكلام على نسق واحد في ذكر الخوف والنار لغلب على القارئ جانب الخوف وأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، ولو جاء الكلام على نسق واحد في الوعد والترغيب لأدى ذلك إلى الرجاء فيقع الإنسان في الأمن من مكر الله -عز وجل-. فكان القرآن يأتي بهذا وبهذا، جنبًا إلى جنب، من أجل أن يكون الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ المراد بالعبودية هنا عبودية الشرع؛ لأن العبودية نوعان:

عبودية القدر، وعبودية الشرع.

فعبودية القدر شاملة لكل أحد. يعني: للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فالكل خاضعون لقدر الله -عز وجل-، لا يمكنهم الفرار منه ولا مصادمته ولا الاستكبار عنه.

أما عبودية الشرع فهي خاصة بمن أطاع الله -عز وجل- وتعبد لله بشرعه، فيخرج منها الكافرون؛ لأن الكافر لا يتعبد لله بشرعه، بل هو مستكبر عن شرعه، هذه الآية: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من عبودية الشرع يعني: إلا الذين تعبدوا لله بشرعه وأخلصهم الله تعالى لطاعته، فهؤلاء ليسوا كمن سبق.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [أي: المؤمنين] ولكن المخلص فيه نوع اصطفاء أخلصهم الله لنفسه فكانوا عبادًا لله لا لغيره؛ لأن التزام طاعة الله هو تحقيق عبادة الله تعالى، وا؛ لأنسان العاصي لله تعالى عنده من الخروج عن عبادة الله بقدر ما حصل منه من المعصية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فهذا يدل على أن كل إنسان عصى الله فهو إنما يعصيه لهوى في نفسه، فإنه قد نقص من عبودية الله بقدر ما فعل من المعصية.

إذًا فالمخلص فيه نوع من الاصطفاء. أخلصهم الله لنفسه فكانوا عبادًا لله تعالى حقًّا؛ ولهذا قال: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، وعباد الله المخلصون هم الذين أخلصهم الله لنفسه، فلم يجعل للشيطان عليهم سلطانًا، كما قال تعالى في حق الشيطان: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فالمخلص محفوف برعاية الله سبحانه وتعالى وحمايته عن الشيطان، والمخلص أشد وقعًا من المؤمن.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أولئك الضمير يعود على عباد الله المخلصين، وأتى بأولئك الدال على البعد مع قرب ذكرهم ولم يقل: (هؤلاء)، بل قال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ تعظيمًا لشأنهم وبيانًا لعلو مرتبتهم، والإشارة بالبعيد تأتي لتعلية الشأن وتعظيمه، كما قال الفرزدق يخاطب جريرًا:

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِم ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ المَجَامِعُ

قال: أولئك آبائي أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لشأنهم وتعلية لهم.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (أي: عطاء)، قال المؤلف -رحمه الله- [في الجنة]، والأولى أن تطلق كما أطلق الله -عز وجل-.

وقد يقال: يجازون أيضًا في الدنيا، لكن ظاهر سياق الآية: ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يدل على أنه المراد الرزق الحاصل لهم في الجنة.

وقوله: ﴿رِزْقٌ﴾ بمعنى عطاء ﴿مَّعْلُومٌ﴾، يقول المؤلف: [بكرة وعشيًّا]، فكأنه يشير على أن

المراد بالمعلوم معلوم الوقت ولو قيل: إنه أعم فهو معلوم الوقت ومعلوم النوع ومعلوم في الدنيا ومعلوم عند ملاقاته لكان أشمل، فإن هذا الرزق معلوم في الدنيا؛ لأن الله تعالى أعلمنا به وهو أيضًا معلوم الوقت؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وهو معلوم العين والنوع إذا لا قوة. كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فهو معلوم لديهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، ﴿فَوَاكِهُ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [بدل أو بيان للرزق وهو ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ الصحة]، ﴿فَوَاكِهُ﴾ بالرفع بدل، أو بيان للرزق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون ﴿فَوَاكِهُ﴾ بالرفع بدل، أو بيان للزرق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل بعض من كل؛ لأن الرزق أعم.

قوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ هنا لم تنون؛ لأنها ممنوعة من الصرف صيغة منتهى الجموع. ﴿فَوَاكِهُ﴾ على وزن فواعل.

وقال المؤلف -رحمه الله- في الفاكهة: [هي ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ صحة]؛ يعني: أن الفاكهة ما يأكله الإنسان للتلذذ لا للتقوت به، فهو عبارة عن أكل كمالي، وهكذا أهل الجنة يأكلون ما يأكلون فيها من باب التفكه لا لحفظ الصحة؛ لأن صحتهم مضمونة، فإن لهم أن يصحوا فلا يسقموا أبدًا، وأن يعيشوا فلا يموتوا أبدًا، فيكون كل ما يأكلونه في الجنة من قسم الفاكهة؛ لأن أهل الجنة؛ كما يقول المؤلف: [مستغنون عن حفظها -أي: حفظ الصحة- بخلق أجسامهم للأبد]؛ ولهذا جاء في الحديث «أنهم لا يبلون ولا يتغوطون، وإنما يخرج ما يأكلونه رشحًا -يعني: عرقًا- كريح المسك» فيتنعمون بهذا الأكل عند أكله وعند خروجه؛ لأنه يخرج رشحًا كرائحة المسك، كما لو طُلِي الإنسان بالمسك، فإنه يجد لذة ورائحة طيبة.

قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله في جنات النعيم، وجملة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار؛ يعني: هم مكرمون في هذه الجنة من كل وجه من قبل الله -عز وجل-، يكرمهم الله -سبحانه وتعالى- فينظرون إليه، ويحلهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ومكرمون من قبل الملائكة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

مكرمون من جهة الخدم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مكرمون من كل وجه لا يجدون يومًا من الأيام أو لحظة من اللحظات شيئًا من الإهانة، بل هم في غاية الإكرام من كل وجه، فإن الله -عز وجل- أكرمهم وأباح لهم النظر إلى وجهه، ويتحدث إليهم عز وجل، وهذا غاية ما يكون من السرور، لا شيء أسر ولا أنعم ولا أفضل من مناجاة الله -عز وجل-، وهم ينظرون إلى وجهه.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الجنات جمع جنة، والجنة في اللغة العربية البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه، أي: يستره ويغطيه، وأصل هذه المادة الجيم والنون

أصلها من الستر؛ ولذلك تجد كل معانيها تعود إلى هذا، فالجنان القلب وهو مستتر، والجنة ما يجتن به المقاتل ويستتر به عن السهام، والجن عالم غيبي مستتر، والجنة بستان مستور بالأشجار، ولكن لا نفسر جنَّة النعيم بهذا، بل نقول: هي «الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»؛ لأنك لو قلت: إنها البستان الكثير الأشجار فإن الشوق إليها والنظر إليها يضعف، إذ إن المخاطب يتصور أن هذه الجنة كبساتين الدنيا، فيجول في بساتين الناس أي: بستان أعظم؟ بستان ف؛ لأن بن ف؛ لأن فلا يتجاوز قلبه أو يتصوره هذا البستان، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله -عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1]. فالأحسن أن نفسر جنة الخلد بأنها الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه؛ أي: جنات نعيم لا بؤس فيها ولا شقاء، نعيم للقلب وهو السرور، نعيم للبدن؛ لأنهم يحلون فيها في أبدانهم، ومنعمون في قلوبهم، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الأنسان: ١٢] وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الأنسان: ١١] فالنضرة في الوجه وهو الحسن، والسرور في القلب، فكان الحسن فيهم ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا سميت جنة النعيم لتنعم الإنسان فيها ظاهرًا وباطنًا، فقلبه منعَّم بالسرور، وبدنه منعَّم بالنضرة ولباس الحرير.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير وهي الكراسي التي يجلس عليها، ولكن ليست كسرر الدنيا، بل ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥] مخروزة من الذهب، ولا يمكن أن تتصور حسن هذه السرر؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وما لم يخطر على قلب بشر لا يمكن أن يتصوره الإنسان؛ لأنه فوق ما يتصور، فكل شيء تقدره من النعيم والحسن فالجنة أعلى وأعظم، وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال من الضمير المستتر في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾؛ يعني: حال كونهم متقابلين، وهذا يدل على كمال أدبهم وسعة مجالسهم. على كمال الأدب؛ لأنهم متقابلون لا يولي أحدهم قفاه للآخر، كذلك أيضًا يدل على سعة المجالس؛ لأنهم إذا كانوا كثيرين وصاروا متقابلين لابد أن تكون الدائرة واسعة، إذًا فالمجالس واسعة مهما جاء من الناس، فإنها تسعهم ويتقابلون فيها، والظاهر أن جلوس الإنسان مع أهله وخاصته على هذا الوجه متقابلين لكمال أدبهم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ يطاف: فعل مضارع مبني للمجهول، ولم يذكر من يطوف عليهم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

لكن ذكر في آية أخرى أنه ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الأنسان: ١٩] نسأل الله من فضله، ولدان يعني: غلمان صغار كأنهم لؤلؤ مكنون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا من جمالهم وصفائهم وحسنهم. منثورًا لتفرقهم في خدمة أسيادهم، واللؤلؤ إذا نثر تبعثر في الأرض فهم متبعثرون في خدمة أسيادهم كل له عمل، وهذا يَسرُّ الإنسان أن يجد هؤلاء الغلمان كل في عمله، ليس فيهم متعطل، وليس فيهم منتظر للآخر. ليسوا كغلمان الدنيا يتزاحمون كل واحد ينتظر الأجر، بل كلٌّ في خدمة معينة، وهذا ألذ ما يكون للسيد إذا رأى هؤلاء الغلمان قائمين بخدمته على هذا الوجه، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الأنسان: ١٩]

وقوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [هو الأناء بشرابه]، الكأس معروف وهو الأناء بشرابه، وقد بين الله -سبحانه وتعالى- أن هذا الكأس دهاق ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]؛ أي: مملوءة، ومع ذلك مملوءة بقدر معلوم ليست كبيرة، فإذا شربها الإنسان تعب، وإن أبقى منها فضلة صارت غير شهية، وليست صغيرة بحيث لا ترويه، وهم لا يعطشون، ولكن تلذذًا، بل قال الله تعالى: ﴿مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]؛ يعني: جُعِلَتْ بقدر ما يتلذذ به الشارب لا كبيرة ولا صغيرة.

وقوله:﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [من خمر يجري على وجه الأرض كأنهار الماء]، المعين في الأصل الماء الجاري، والمراد هنا بكأس من معين أي: من خمر ﴿مَّعِينٍ﴾ كعين الماء يجري، وقد بين الله -سبحانه وتعالى- في سورة القتال أنهار الجنة ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، أنهار تجري، والذي خلق من هذا الطائر الذي يشبه الذباب هذه الكميات الكثيرة من العسل قادر على أن يخلق أنهارًا من العسل في الجنة وليس هذا بغريب، وليست هذه الأنهار تأتي من نحل، لكن تأتي بقول الله: كن فيكون، عسل مصفى لا شمع فيه ولا شوائب من أحسن ما يكون رؤية وطعمًا ورائحة، وقد قال ابن القيم -رحمه الله- في النونية بناءً على حديث ورد في ذلك:

أنهارُهَا في غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سبحانَ مُمْسِكُهَا عَن الفيضانِ

يعني: ليست كأنهار الدنيا تحتاج إلى أخدود تمنعها من الذهاب يمينًا وشمالًا، أو حفرة تحفر للنهر؛ لئلا تجري على سطح الأرض، بل على حسب ما يريده أهلها من غير عمال يوجهونها حفرًا أو إقامة أخدود، بل تجري على ما تريد من غير تعب.

قال: سبحان ممسكها عن الفيضان، والذي أمسك البحر أن يغرق أهل الأرض -وهو ليس بشيء بالنسبة للجنة- قادر على أن يمسك هذه الأنهار لا تزيغ يمينًا ولا شمالًا.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد كثيرة منها:

١- أن هؤلاء المكذبين أو المستكبرين عن قول (لا إله إلا الله) سيذوقون العذاب؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين وهما: إن، واللام.

٢- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء عذاب مباشر، كما يباشر الإنسان الأكل؛ لقوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾، والأصل في الذوق أن يكون في الطعام الذي يؤكل، ثم أُطْلِقَ على كل شيء محقق وقوعه.

٣- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء -والعياذ بالله- أليم؛ أي: مؤلم، وهو ألم لا يمكن للأبدان في الدنيا أن تتحمل جزءًا منه؛ لأنهم -والعياذ بالله- يعذبون بنار أشد من نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب. فهو عذاب أليم ألمًا لا نظير له في الدنيا، ولا يمكن أن يتخيله الإنسان لشدته، نسأل الله أن يجيرنا منه.

٤- **ومن فوائدها:** كمال عدل الله -عز وجل- حيث جعل الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بخلاف الملوك في الدنيا أو أولياء الأمور في الدنيا فإن جزاءهم على العمل قد يكون أكثر مما يستحق، قد يغضب الإنسان فيجازي من له سلطة عليه بأكثر مما يستحق، أما الله -عز وجل- فإنه لا يجازي الإنسان إلا بعمله.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء، ولازمه إثبات البعث؛ لأن الجزاء الكامل على العمل إنما يكون يوم القيامة، فيكون في الآية دليل على إثبات البعث وإثبات الجزاء.

٦- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبر عليه فتحرك الإنسان بالقول أو بالفعل كتحركه الاضطراري، بل كتحرك الريشة بالهواء، ولكن هذا القول ترده النصوص والعقول.

٧- **ومن فوائدها:** أن القرآن مثاني، تثنى فيه المعاني، حتى يكون الإنسان بين الخوف والرجاء فيما إذا ثني الترغيب والترهيب كما في هذه الآيات ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** شرف القائمين بأمر الله تعالى حيث أضافهم الله إلى عبوديته في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، ولاشك أن فخرًا ل؛ لأنسان أن ينسب إلى عبادة الله؛ ولهذا يذكر الله -سبحانه وتعالى- وصف نبيه محمد ﷺ في أشرف مقاماته بالعبودية عند ذكر إنزال القرآن عليه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ووصفه بالعبودية في مقام الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال في المعراج: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾

[البقرة: ٢٣] هذا تحدي للمكذبين للرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يأتوا بمثل ما جاء به.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله -سبحانه وتعالى- يمنّ على من يشاء فيخلصهم لنفسه حتى لا يكونوا عبيدًا لغيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا أبلغ من المخلصين، وإن كان لكل منهما مزية، ولكن المخلص الذي أخلصه الله -عز وجل- لنفسه فلم يكن له إرادة سوى ربه هذا أبلغ.

١٠- **ومن فوائدها:** أن عباد الله -عز وجل- ينقسمون قسمين:

عباد مخلصون، وعباد غير مخلصين.

فالعباد بمعنى: عبودية القدر هؤلاء غير مخلصين، بل هم كا؛ لأنعام، بل هم أضل، وأما العباد لله تَعبُّد شَرْع فإن هؤلاء هم المخلصون.

١١- **من فوائدها:** أن هؤلاء المخلصين لهم عطاء عند الله -عز وجل- معلوم عنده وعندهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فإن الله تعالى أخبر عباده بما ينالونه يوم القيامة من أنواع الثواب.

فإن قال قائل: هل هو معلوم بالحقيقة أو بالمعنى؟

فالجواب: أنه معلوم بالمعنى، أما الحقيقة فليس بمعلوم يعني: أننا لا نعلم كنه هذا النعيم، أو هذا الرزق؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رأَتْ، وَ لاَ أُذنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ»[1].

إذًا لا نعلم من نعيم الآخرة إلا الأسماء فقط، أما الحقائق فإنها ليست معلومة، كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»[2]، لكن الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا.

فهو معلوم المعنى لا معلوم الحقيقة والكنه؛ لأن ذلك يدرك إلا بحق اليقين.

١٢- **ومن فوائدها:** أن أهل الجنة يأكلون هذا الرزق تفكهًا وتنعمًا لا اقتياتًا يحتاجون إليه؛ لقوله: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وفي الدنيا يأكل الإنسان الطعام أحيانًا اقتياتًا للحاجة إليه، وأحيانًا تفكهًا وتلذذًا. أما في الآخرة فكل طعامها تلذذ.

١٣- **ومن فوائد الأيات:** أن أهل الجنة مكرمون من وجوه ثلاثة:

١- من قبل الله -عز وجل-.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

٢- من قبل الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-.

٣- من قبل الخدم، الغلمان.

فهم مكرمون من كل وجه.

١٤- **ومن فوائدها:** أن جزاء الله تعالى للمحسن أكثر من عمله بكثير؛ لأن إحساننا نحن للعمل لو نسب إلى ثواب الله -عز وجل- لم يكن شيئًا. قال النبي -عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم فِي الجَنةِ خَيرٌ مِنْ الدُّنيَا وَمَا فِيْهَا»[1]. ثم إحساننا مهما بلغ فهو منتهي بالموت، لكن ثواب الله لا انتهاء له. ثواب الآخرة لا منتهى له. إذًا يتبين من ذلك أن فضل الله -عز وجل- وجزاءه أكثر بكثير من عمل العامل، فيكون هذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

١٥- **ومن فوائدها:** أن الجنة أصناف وأنواع تؤخذ من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾ ولكنها تشترك كلها في أنها جنات نعيم.

١٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الجنة كلها نعيم، نعيم للبدن، ونعيم للقلب، فنعيم القلب بالسرور وا؛ لأنبساط والفرح الدائم الذي لا يعتريه هم ولا غم ولا حزن، والبدن ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنعم نفس البدن، وما يلبسه أيضًا من الزينة والحلي كذلك منعم فيه.

١٧- **ومن فوائدها:** سعة محلات أهل الجنة لكونهم متقابلين على السرر؛ لأن التقابل يؤدي إلى سعة المكان لاسيما مع كثرتهم.

١٨- **ومن فوائدها:** كما أدب أهل الجنة حيث كانوا يتقابلون بحيث لا يقفو أحدهم الآخر، بل كلهم يكونون مستقبلي بعضهم بعضًا، وهذا لاشك أنه من كمال الأدب، والأدب كما أنه حسن في أهل الجنة فهو حسن في أهل الدنيا أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ولاشك أن الإنسان إذا كان مؤدبًا كان محبوبًا عند الناس، فالجفاء وعدم المبالاة بالناس خلق ذميم، ومن ثم ننظر في مسائل نعلمها:

الأولى: مسألة السلام نجد كثيرًا من الناس مع أنهم حريصون على العبادة لكنهم لا يبالون بالسلام لا ابتداء ولا ردًّا، وهذا خلاف حال المؤمن مع أخيه، فمن حق المسلم على أخيه إذا لقيه أن يسلم عليه، ويسلم عليه سلامًا حقيقيًّا مقرونًا بالبشاشة، أما أن يسلم عليه برأس أنفه لولا حرف الصفير ما علمت أنه يسلم، فهذا ليس بسلام، وأقبح من ذلك أن يسلم الإنسان على أخيه بصوت بين واضح المخارج مسموع، ثم يرد ذلك عليه بصوت لا يسمع، بل يرد عليه بأنفه أو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

بيده... فإن هذا لاشك أنه حرام عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فلابد أن يكون إما مثل وهو أدنى الواجب، أو أحسن وهو الأكمل.

الثانية: نجد بعض الناس يستدبر إخوانه ولا يهتم بهم، وهذا خطأ، ولا ينبغي، وأنا أراه بعض الأحيان إذا سلمت من الصلاة يأتي واحد من الناس يتقدم ما يشعر أن وراءه بشر مثله لماذا تتقدم عليه؟ هذا مما يوجب اختلاف القلوب؛ ولهذا قال الرسول -عليه الصلاة والسلام- في القوم عند صف الصلاة قال: «لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبِكُم»(1) فعل الاختلاف في التقدم والتأخر سببًا لاختلاف القلوب، أنا لو كنت بجنب هذا الرجل شعرت بأن هذا الرجل أهانني، حيث تقدم عليَّ وو؛ لأني ظهره.

ويتعلل بعض الناس بأنه فيه ضيق وأنه يحب أن يريح رجليه، فيتقدم ليتربع.

فنقول: إذا كنت هكذا: إما أن تتقدم كثيرًا ثم تكون بعيدًا وإما أن تتأخر. يقول: لا أقدر أتأخر؛ لأن ورائي صفًّا يقضون الصلاة، نقول: إذن قم وتقدم بعيدًا حتى لا تستدبر الناس، أما إن تستدبر عباد الله بعد أن فرغوا من الصلاة وتجعلهم وراء ظهرك فهذا لاشك أنه سوء أدب وأن الذي إلى جانبك سوف يشعر بأنك أهنته.

الثالثة: يوجد عند بعضنا، أن الصغير لا يقدر الكبير، يتقابل اثنان عند باب المسجد أو عند باب الدار ثم يتقدم الصغير بعجلة ليدخل قبل الكبير وهذا ليس فيه توقير الكبير، فتوقير واحترام الكبير من الخصال الطيبة ومن صفات المؤمن. فكون الإنسان لا يبالي ولا يهتم بغيره لاشك أنه خلاف الأدب.

فأهل الجنة -اللهم اجعلنا منهم- يكونون على السرر متقابلين، يجعلونها دائرة حتى يقابل بعضهم بعضًا.

١٩- **ومن فوائدها:** راحة أهل الجنة حيث كانوا متفرغين على السرر، يتحدث بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم إلى بعض على وجه التقابل.

٢٠- **ومن فوائدها:** أنه في حال جلوسهم على السرر فالخدم تطوف عليهم بأنواع الملذات والمشروبات، ومنها أنها تطوف عليهم بكأس معين، كأس الخمر الصافي الخالي من الشوائب، وهذا الكأس يكون مقدرًا على حسب ما يحتاجه الشارب، ليس كبيرًا فيتعبه، ولا صغيرًا فينقص من لذته، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الانسان: ١٥-١٦]

(١)صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٢)، وأبو داود (٦٧٤)، والنسائي (٨٠٧).

قال الله تعالى:

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٦ - ٤٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ ﴿بَيْضَآءَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أشد بياضًا من اللبن] هكذا قال المؤلف: إنها أشد بياضًا من اللبن، والواقع أن الآية لا تدل على أنها أشد بياضًا، وإنما جاء أشد بياضًا من اللبن في وصف حوض النبي ﷺ الذي يكون في عرصات القيامة، فقد جاء في وصفه أنه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، أما الخمر في الجنة فوصفه الله تعالى بالبياض فقط، قال: ﴿بَيْضَآءَ﴾ و﴿لَذَّةٍ﴾ لذيذة وهنا عبّر بلذة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لأن لذيذ يصلح لاسم الفاعل واسم المفعول؛ لأن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالمشتق من المصدر، فأنت إذا قلت: ف؛ لأن عدل. أبلغ من إذا قلت: ف؛ لأن عادل. كأنك جعلته هو العدل بنفسه، فهنا وصف هذا الخمر أو هذه الكأس بأنها لذة يعني: كأنها هذه اللذة لا الشيء المتصف باللذة، فالتعبير بالوصف عن الموصوف أبلغ من التعبير بالموصوف؛ لأنه تعبير بالأصل عما تفرع منه، فالمشتق متفرع من المصدر، ﴿لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ هذا من باب التوكيد يعني: أنهم في حال شربهم إياها يتلذذون بها. قال المؤلف: [بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب]، أما خمر الآخرة فهي لذة للشاربين، وهي سالمة من الآثار السيئة كما قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُنزَفُونَ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [بفتح الزاي: وكسرها من نزف الشارب وأنزف؛ أي: يسكرون بخلاف خمر الدنيا].

قال الله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ يعني: ليس في هذه الكأس، والمراد الخمر الذي فيها غول، ورفعت غول مع أن (لا) نافية؛ لأنه يشترط لعملها عمل (إنّ) الترتيب؛ يعني: أن يتقدم الاسم على الخبر، فإن تأخر وجب الرفع، وقوله: ﴿غَوْلٌ﴾؛ أي: [ما يغتال عقولهم]، ففسر المؤلف الغول بأنه ما يؤثر على العقل؛ أي: يسكرون، والسكر هو اغتيال العقل، فالقول الراجح في هذه الآية أن المراد بالغول ما يغتال أبدانهم من صداع في الرأس ووجع في البطن فخمر الآخرة لا غول فيها بخلاف خمر الدنيا، فإنه يكون فيها صداع، ويكون فيها وجع للبطن، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره، أما النزف فقال: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يقولالمؤلف: [من نزف الشارب وأنزف إذا سكر

بخلاف خمر الدنيا]، فإن الإنسان يسكر فيها ويزول عقله. أما في الآخرة فهي خالية من هذا، إذًا يصدق عليها ما وصفها الله -عز وجل- في قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الأنسان: ٢١]؛ أي: مطهرًا من كل ما يحصل من خمر الدنيا.

قال: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ (عندهم)؛ أي: عند أصحاب الجنة الذين هم عباد الله المخلصون؛ لأن الله قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ثم ذكر ما لهم من الثواب فيكون الضمير عائدًا على عباد الله المخلصين، ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [حابسات الأعين على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن].

قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قاصرات اسم فاعل مضاف إلى فاعله؛ أي: التي قصرت أطرافهن على أزواجهن؛ يعني: أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهذا لاشك أنه من نعمة الله على الزوج، ومن كمال السعادة ألا تنظر المرأة إلى غير زوجها؛ لأنها إذا نظرت إلى غير زوجها فسوف يلقى الشيطان في قلبها مودة هذا المنظور وكراهة الزوج، فإذا كانت قد قصرت طرفها على زوجها فإن هذا من كمال السعادة الزوجية.

ومن وجه آخر أنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾؛ أي: قاصرات أطراف أزواجهن؛ أي: أن الزوج لا ينظر إلى سواها، فهو قد قصر طرفه عليها، وذلك لكمالها وحسنها في نظره، وحيئئذ يكون لقاصرات الطرف معنيان:

المعنى الأول: أنهن قد قصرن أطرافهن على أزواجهن.

المعنى الثاني: أن أزواجهن قد قصروا أطرافهم عليهن وكلا المعنيين صحيح.

قوله تعالى: ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء: والمعنى أنهن حسنات العيون، وحسن العين يكون بأمرين:

١- سعة الأعين.

٢- حسن الأعين؛ يعني: أن العين واسعة مع سعتها فإنها جميلة حسنة، ولاشك أن حسن العين يوجب حسن الوجه ويزيده حسنًا إلى حسنة، كالقلادة مثلًا تزيد المرأة حسنًا إلى حسنها، وقال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: في اللون بيض للنعام ﴿مَّكْنُونٌ ﴾ مستور بريشه لا يصل إليه غبار ولونه وهو البياض فيه صفرة أحسن ألوان النساء]. لما وصف هؤلاء النساء بأنهن عين وصف بقية أجسامهن فقال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وكأنَّ هذه للتشبيه، والبيض في الآية الكريمة مُنكَّر، ولكن المؤلف حمله على بيض معين، وهو بيض النعام، وبيض النعام أبيض في صفرة، قالوا: وهذا أحسن ألوان النساء، والذي خصصه ببيض النعام؛ لأن هذا هو المعروف عند العرب.

وقيل: إن البيض مطلق، والمعنى أنهن يشبهن في البياض والرقة البيض، وليس المراد البيض المقشور، بل البيض الذي هو بياض البيضة لرقته وبيانه وحسنه، وهو ﴿مَّكْنُونٌ ﴾ بما على البيضة

من القشرة، وهذا الأخير هو الأقرب لظاهر اللفظ؛ لأن الله -عز وجل- أطلق قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ ولو كان المراد ما قاله المؤلف -رحمه الله تعالى- بيضًا معينًا لقال: كأنهن البيض المكنون، لتكون «ال» دالة على معهود ذهني، فالصواب أنه عام، وأنهن لرقتهن وبياضهن ونعومة الملمس كأنها البيض؛ أي: البياض الذي في البيض وهو مكنون بقشره، أما على رأي: المؤلف فهو المكنون بالريش الذي تضعه النعامة على بيضها حتى لا يأتيه الغبار.

الفوائد: يستفاد من هذه الآية:

١- صفة هذا الخمر أو الكأس من المعين وأنه أبيض؛ لقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن خمر الآخرة في غاية ما يكون من اللذة، ووجه ذلك أنه عبَّر باللذة عنه، والتعبير بالمعنى عن المتصف به أقوى من التعبير بالمشتق من ذلك المعنى، فإذا قلنا: ف؛ لأن عدل فهو أقوى من قولنا ف؛ لأن عادل؛ ولهذا يرون أن النعت بالمصدر أوكد من النعت باسم الفاعل.

٣- **ومن فوائدها:** أنها لذيذة حين الشرب خلافًا لخمر الدنيا فإنها كريهة حين الشرب؛ ولهذا قال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ فتفيد أنهم في هذه الحال يتلذذون بها غاية اللذة. أما خمر الدنيا فإنها كريهة، ولكن الإنسان يتلذذ بها بما ينتج عنها من السكر نسأل الله العافية.

٤- **ومن فوائدها:** أن خمر الآخرة ليس فيها ضرر عقلي ولا بدني. قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كما يتلذذون بالشراب، يتلذذون أيضًا بالنساء والزوجات؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾.

٦- **ويستفاد أيضًا:** أن هؤلاء النساء حاضرات لا يغبن عن أزواجهن؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾. أما في الدنيا فإن الزوجات قد يكن عند الإنسان، وقد يغبن باختياره، وقد يغبن بغير اختياره. أما في الجنة فإنهن حاضرات لا يغبن عن أزواجهن؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ﴾.

٧- **ربما نأخذ من هذا أيضًا فائدة:** أنهن لا يذهبن إلى غير أزواجهن، وذلك بتقديم الخبر ﴿وَعِندَهُمْ﴾ والمعروف في قواعد البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٨- **ومن فوائدها:** كمال أدب هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

٩- **ومن فوائدها:** أن المرأة إذا نظرت إلى غير زوجها فإن ذلك فتنة؛ لأن الله امتدح نساء الجنة بكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

ويتفرع على ذلك أنه يجب على الإنسان أن يراعي زوجته في هذا الباب بحيث يمنعها من التطلع إلى غيره، سواء كان هذا التطلع إلى الرجل مباشرة، أو بواسطة الوسائل الإعلامية. فيمنعها من مشاهدة مجلات الأزياء الخبيثة التي يحصل بها الشر والفساد.

ويتفرع على هذه الفائدة أيضًا: أن يمنعها من الخروج إلى الأسواق إلا لحاجة؛ لأن المرأة إذا

خرجت إلى الأسواق ورأت الناس فربما تعجب بأحدهم ويتعلق قلبها به فتعزف عن زوجها، وينقلب حبها لزوجها ضعيفًا، أو ربما يفقد، لكن نساء أهل الجنة لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

١٠- **ومن فوائدها:** بناء على المعنى الثاني في ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أن نساء أهل الجنة في غاية الكمال والجمال بحيث لا ينظر الرجل إلى سواها؛ لأنها تقصر طرفه عن غيرها، وهنا ذكر الله -عز وجل- صفتهن الحسية، ولهن صفة معنوية ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خيرات الأخلاق، حسان الأجسام، فتكون نساء أهل الجنة جامعات بين الحسن الظاهر والحسن الباطن.

١١- **ومن فوائدها:** حسن أعين هؤلاء النساء؛ لقوله: ﴿عِينٌ﴾ وحسن العين يكون بجمال الشكل والسعة والاستدارة، وشدة السواد في شدة البياض، وغير ذلك مما يكون جمالًا في العين.

١٢- **ومن فوائدها:** استعمال التشبيه التحسيني؛ لقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وهذا تشبيه تحسين وعكس ذلك التشبيه التقبيحي قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يراد به تحسين هؤلاء النساء.

١٣- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالقياس بالتشبيه، فالتشبيه يؤخذ منه استعمال القياس؛ لأن القياس إلحاق فرع بأصل؛ أي: تشبيه في الحكم وإعطاؤه حكمه.

قال الله تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

سبق أن أهل الجنة على سرر متقابلين، لكن الإقبال هنا فسر بقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ يعني: صار بعضهم يسأل بعضًا مع اتجاه بعضهم إلى بعض، كما هو الأدب في المخاطبة أنك إذا خاطبت شخصًا فلا تخاطبه إلا وأنت مقبل عليه، بجملتك، فهم كذلك ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [عمَّا مر بهم في الدنيا] وإن شئت فقل: يتساءلون عن كل أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الآية مطلقة، وما أطلقه الله فإنه لا ينبغي أن يقيد، ويكون ما ذكر من القصة مثلًا من الأمثال التي يتحدثون بها.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾؛ يعني: من جملة ما يتحدثون به ما يجري لبعضهم من محاولة صده عن سبيل الله تعالى وكفره بالله -عز وجل-.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: من أهل الجنة ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ في الدنيا؛ لأن (كان) فعل ماضٍ ﴿لِى قَرِينٌ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله- [صاحب ينكر البعث] هذا القرين هل هو قرين جني أو إنسي؟.

قيل: إنه جني؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾.

وقيل: إنه إنسي يعني: يقارنه ويوسوس له، والآية تحتمل معنيين، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، ولا مرجح لأحدهما فإن الواجب حملها عليهما، ولاشك أن ل؛ لأنس شياطين كما أن للجن شياطين، وأن شياطين الأنس يوسوسون كما يوسوس شياطين الجن، إذًا فالآية عامة، قرين إما من الأنس، أو من الجن، أو منهما جميعًا، وقول المؤلف: [قرين صاحب] مشكل إذ كيف يكون المؤمن مصاحبًا لمشرك؛ لأن الواجب أن يكون بين المؤمنين والكافرين التباعد وعدم المصاحبة؛ لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]؛ ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]

لكن قيل: إن المراد بالقرين هنا هو الشريك في المال، أو سفر أو ما أشبه ذلك، وليس المراد بذلك الصحبة التي تستوجب الموالاة أو المحبة. يقول هذا القرين: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾.

قال المؤلف: [تبكيتًا]؛ يعني: يبكته ويلومه ويوبخه كيف تصدق بذلك؟

وقيل: بل يقول هذا نفيا، وإنكارًا والآية تحتمل هذا وهذا، تحتمل أن هذا الفريق إذا عرض عليه المؤمن أن يؤمن بالبعث قال له هذا الكلام استبعادًا وإنكارًا له، ويحتمل أنه يبكته ويلومه ويوبخه على أن يصدق، يقول: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾. ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ مرَّ علينا أن مثل هذا الاستفهام المقرون بإن أو غيرها من أدوات التوكيد أنه استفهام يؤكد فيه المستفهم الأنكار، يقول: كيف تثبت وتصدق وتؤكد كذا وكذا مع أنه ليس بصحيح؟ ومنه قول أخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾. هذا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾؛ يعني: كيف تصدق تصديقًا مؤكدًا بأن واللام في هذا الأمر البعيد المنكر؟ وقوله: [بالبعث] إنما قيّد المؤلف ذلك بالبعث؛ لقوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ فيكون الذي خصص التصديق بالبعث قرينة السياق.

قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [في الهمزتين في الثلاثة مواضع ما تقدم]؛ أي: أربع قراءات:

١- تحقيق الهمزتين.

٢- تسهيل الثانية.
٣- إدخال ألف في التحقيق.
٤- إدخال ألف في التسهيل.

يقول: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾، أنكر ذلك أيضًا فانظر إلى هذا القرين المشؤوم -والعياذ بالله- الذي يبكّت ويوبخ وينكر هذا الامر المؤكد الذي دل عليه الكتاب والسنة والعقل، فيقول كيف نبعث ونجازي بعد أن كنا ترابًا وعظامًا؟ ومناسبة الابتداء بالتراب قبل العظام؛ لأنه أبلغ في الحيلولة؛ أي: بدأ بالأبعد فالأبعد فكونهم تراب أبعد من أن يخلقوا من كونهم عظامًا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ يقول هذا الرجل لأصحابه الذين معه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾، والاستفهام هنا للعرض يعني: يعرض عليهم أن يطلعوا معه إلى هذا القرين، وإنما عرض عليهم ذلك من أجل أن يتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم؛ لأن الإنسان إذا رأى هذا القرين الذي كان معه في الدنيا. يقول له ما ذكر، إذا رآه في النار وهو في أكمل النعيم لاشك أنه يزداد شكرًا لله -عز وجل- على نعمته إذ لو شاء لجعله مثله، لاسيما وأن هذا الرجل يحاول بكل ما يستطيع أن يصد هذا عن سبيل الله -عز وجل-، فيكون للاطلاع فائدة عظيمة، وهي معرفة قدر نعمة الله عليهم بهذا النعيم، وليس المراد بهذا الاطلاع الشماتة بهذا الرجل؛ لأنه لو كان المراد الشماتة لكان في هذا نوع فخر على هذا الرجل واستطالة، ولكن المراد أن يعرفوا قدر نعمة الله عليهم؛ لأن الأشياء تتبين بضدها. ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾. قال المؤلف -رحمه الله: [فيقولون: لا].

أتى بهذا من قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ولم يقل: فاطلعوا.

ولكن الجزم بأنهم قالوا: لا. فيه نظر، لاحتمال أنهم سكتوا، ولما علم أنه لا رغبة لهم في الاطلاع ذهب واطلع، ويحتمل أنهم مشوا معه ووقفوا ولكن لم يطلعوا؛ فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنهم قالوا: لا. لاسيما وأن المعروف من أدب أهل الجنة بعضهم مع بعض أنه فوق هذا المستوى الذي يطلب منهم ويعرض عليهم عرضًا أن يطلعوا إلى هذا الرجل الذي كان يبكته وينكر البعث؛ لينظر ماذا فعل الله به؟ وما فعل الله بهذا المصدق حتى يتبين بذلك قدر نعمة الله عليه، وكمال حكمته بتعذيب هذا الرجل المنكر، يبعد أن يقولوا: لا، فإما أن يقال: إنهم قاموا واطلعوا، ولكنه لما كان هو المعني بهذا الأمر نسب الأمر إليه، فقال: ﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾، ويحتمل أنهم قاموا معه ولم يطلعوا، بل وقفوا عند المكان الذي وقف عليه، ويحتمل أنهم سكتوا وعرف أنهم يريدون ذلك، ثم تقدم. المهم أن لا نجزم بهذا القول الذي قاله المؤلف -رحمه الله-.

قوله تعالى: ﴿ فَٱطَّلَعَ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [ذلك القائل من بعض كوى الجنة]، كُوّة؛ يعني: أن هذا الرجل اطلع على هذا ﴿ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ رأى قرينه رؤية عين ﴿ فِي سَوَآءِ

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: وسط النار يعذب؛ ولهذا قال له: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

قال المؤلف: [قال له تشميتًا]، هذا ما ذهب إليه -رحمه الله- إنه قال ذلك يشمت به، ويحتمل أنه قال: تحدثًا بنعمة الله ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ولكن الله منَّ عليَّ فلم تستطع أن ترديني، وهذا هو الأقرب، وقوله: ﴿تَاللَّهِ﴾ هذا قسم بحرف التاء، والقسم هو: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، وكان القسم تأكيدًا؛ لأن المقسم كأنه يقول بلسان حاله: إن منزله هذا عندي وقدره عندي أؤكد به ما أخبرت به إذا كان خبرًا، أو ما سأفعله إن كان إنشاء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ﴾ يقول المؤلف: [إن من مخففة من الثقيلة]؛ أي: فأصلها إنَّ، وهي تفيد التوكيد، وإنما قال مخففة من الثقيلة؛ لأن (إن) تأتي على أوجه متعددة:

و﴿كِدتَّ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [قاربت]؛ لأن كاد تدل على المقاربة، فهي من أفعال المقاربة، وقد اشتهر عند النحويين أن نفيها إثبات، وإثباتها نفي.

فإذا قلت: كاد يفعل، فهذا إثبات لكنه يدل على أنه لم يفعل.

وإذا قلت: لم يكد يفعل كذا، فهذا نفي لكنه يدل على أنه فعل؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]

لكن هذا الذي اشتهر ليس بصحيح، فهي كغيرها من الأفعال: إثباتها إثبات، ونفيها نفي. فإذا قلت: كاد يفعل كذا، فإنها إذا كانت بمعنى قارب تدل بمادتها على أنه لم يفعل؛ لأن من قارب الشيء لم يدخل فيه.

وعلى هذا فإثباتها إثبات.

فهي أثبتت المقاربة: والمقاربة تدل على عدم الفعل.

وأما لم يكد يفعل كذا، فهذه تدل أيضًا على انتفاء الفعل، وأنه ما قارب أن يفعل هذا الشيء، لكن إن وجد قرينة تدل على الفعل مثل: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فالإثبات جاء من كلمة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ لا من كلمة ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، فهل نقول إنه يراها؟ لا، بل نقول لا يقارب أن يراها، يعني: هذا الظلمات العظيمة لو تضع يدك إلى جنب عينك ما رأيتها. فهذا القول المشهور ليس بصحيح، بل نقول: إن (كاد) كغيرها من الأفعال إثباتها إثبات، ونفيها نفي، لكن معناها معنى قرب. قال: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ (اللام) هذه للتوكيد، لكن يعبر عنها بعض النحويين بقولهم: اللام فارقة، أو اللام لا الفرق، يعنون بذلك أنها تفرق بين «إن» فإنها تدل على أنها مخففة من الثقيلة وليس بنافية؛ لأن النفي لا يؤكد باللام.

وهل تجب هذه اللام الفارقة في خبر «إن»؟

نقول في هذا تفصيل: إن كان المعنى واضحًا فإنها لا تجب، وإن كان المعنى خفيا فإنها تجب؛ أي: إن احتمل السياق أن تكون «إن» للنفي وجب الإتيان بها باللام الفارقة، وإن لم يكن يحتمل لم يجب.

فقول الشاعر:

وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

هذه لم تأتِ بها اللام؛ لأن السياق يراد به مدح هؤلاء الجماعة أو هؤلاء القبيلة، والمدح لا يناسبه النفي، وإنما يناسبه الإثبات، لكن إذا قلت إنْ زيد قائم؛ وجب عليك الإتيان باللام فتقول: إنْ زيد لقائم ؛ لأنك لو لم تأتِ باللام لاحتمل أن يكون معنى قولك: إنْ زيد قائم. ما زيد قائم؛ ولها سماها بعض النحويين (لام الفرق) أو (اللام الفارقة).

ولهذا قال ابن مالك:

وَخُفِّفَتْ إِنْ فَقَلَّ العَمَلُ وَتَلْزِمِ اللَامُ إِذَا مَا تُهْمَلْ
وَرُبَّمَا اسْتُغْنِيَ عَنْهَا إِنْ بَدَا مَا نَاطِقٌ أَرَادَهُ مُعْتَمِدَا

فبيّن -رحمه الله- أن اللام تلزم إذا أهملت، أما إذا أعملت فالأمر واضح.

وخلاصة هذه المسالة النحوية أن نقول: «إن» المخففة من الثقيلة تعمل ولكن عملها قليل، فإذا أهملت وجبت اللام في خبرها إلا إذا كان المعنى واضحًا. فإذا قلت: إن زيدًا قائمًا، لم تجب اللام؛ لأن إن النافية لا تنصب المبتدأ فالمعنى واضح أنها مخففة، وإذا قلت: إن زيد قائم: وجب الإتيان باللام؛ لأنك لو حذفتها احتمل أن يكون للنفي وأن يكون للإثبات.

وإذا كان الرجل يمتدح شخصًا ويقول: إنْ زيد كريم، فلا يحتاج إلى اللام؛ لأن المدح يقتضي أن تكون «إن» مخففة من الثقيلة لا نافية والله أعلم.

الفوائد:

١- كمال سرور أهل الجنة، وأنهم يتحادثون ويتساءلون عما جرى في الدنيا، والتحدث عما جرى على الإنسان فيما سبق فيه لذة وراحة للنفس. أرأيت إذا تحدثت عن صباك ماذا تفعل وأنت صبي تجد في ذلك لذة وراحة ويذهب عنك الوقت وأنت لا تشعر به، فهم يتساءلون: ماذا حصل لنا في الدنيا؟ وكيف وصلنا إلى هذه النعمة؟ إلى غير ذلك من الأحاديث الممتعة الشيقة؛ ولهذا قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** كمال أدب أهل الجنة في أنهم عند المحادثة يقبل بعضهم على بعض؛ لقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وهذا من كمال الأدب أن تقبل إلى محدثك خلافًا لمن عندهم سوء أدب تجده عن المحادثة: وهو على يمينك تصد عن اليسار، وأنت تسأل عن حاله، حتى مهما

كان الأمر فإنه من سوء الأدب ولو فرض أنك تنظر إلى اليسار لاشتغالك بأمر مهم كأنك تنظر إلى طفل صغير تخشى عليه أن يقع في بئر، أو ما أشبه ذلك فإننا نقول: لا تحدثه وأنت صادٌّ عنه، إذا فرغت من هذا النظر فأقبل عليه.

وهل يؤخذ من ذلك أن من سوء الأدب أن تسلم على الإنسان من ورائه؟ فأحيانًا يكون الإنسان واقفًا حوله جماعة يسلمون عليه كلهم أمامه، ولكن يأتي واحد من ورائه يسلم عليه، فهذا المسلم عليه بين أمرين: إما أن يقبل عليه فيستدبر الآخرين، وإما أن يبقى مستقبل الآخرين، ويسلم عليه مستدبرًا له. فنقول: ليس له حق أن يُسلم من ورائه، والناس يسلمون من أمامه، وأقول: إذا أردت أن تسلم فاذهب مع الناس، وربما أنه يريد أن يتجاوز الآخرين حتى يسلم ويمشي، وأعتقد أنه من سوء الأدب ما دام الناس كلهم مقبلين على الإنسان كيف تسلم عليه من وراء، فأنت تريد أن تقطع حديثه مع هؤلاء لأجل أن يقبل عليك، وإذا كان انتظار الدور معروفًا في مصالح الناس فليكن حتى في السلام.

وعلى كل حال: كون أهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يدل على أن الإنسان إذا أراد أن يحادث غيره فليكن مقبلًا عليه، أما أن يحادثه من وراء فهذا ليس من الأدب.

٣- **ومن فوائدها:** جواز التحدث بنعمة الله، بل نقول جواز في الأصل وإلا فإن التحدث من الأمور المطلوبة، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لأن هذا الرجل تحدث عما أنعم الله به عليه من الهداية مع أنه كان له قرين يريد أن يغويه.

٤- **ومن فوائدها:** جواز غيبة الشخص الداعي إلى الضلالة، من قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ولاشك أن هذا القرين يدعو إلى الكفر، فتجوز غيبة الداعي إلى الضلال أو الكفر في الدنيا، للمصلحة العظيمة وهي تحذير الناس منه، حتى لا يقعوا في شركه.

٥- **فيها أيضًا من الفوائد:** أن دعاة الضلال يأتون بالشبه التي توجب ضلال الناس؛ لأن هذا الداعية إلى الضلال يقول: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ فيلبس عليه ويقول: كيف يبعث من كان ترابًا وعظامًا من أجل أن يجازى؟! ولاشك أن مثل هذه الشبهة تنطلي على عامة الناس.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب الحذر من تشبيه أهل الضلال، وأن لا تدخل شبههم إلى قلب الإنسان، وقد ذكر ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- أنه قال: اجعل قلبك بمنزلة الزجاجة الصافية، أو القارورة الصافية، ولا تجعله كالإسفنج يتشرب كل ما ورد عليه؛ لأن الزجاجة الصافية يرى الشيء من ورائها صافيًا، ولكن ما يدخل إليها شيء، لو تضعها وسط الماء ما دخل إليها شيء، لكن الإسفنج يتشرب ويقبل كل ما يرد عليه ولو نقطة واحدة انتفخ منها، فا؛ لأنسان يجب عليه أن لا يتشرب الشبهات، وأن يكون قلبه صافيا خالصًا لا يدخل

إليه شيء من هذه الأشياء.

فإن قال قائل: قد لا أملك هذا الأمر فما موقفي إذا أورد عليَّ شخص شبهة من الشبه؟

الجواب على ذلك أن نقول: إن أي:راد شيطان الأنس للشبه كأي:راد شيطان الجن، وقد أمر النبي ﷺ إذا وردت على قلب الإنسان شبهات أن ينتهي عنها، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وعلى هذا فالدواء أن أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقوم عن المكان ولا أبقى في جدال وصراع، وليس عندي علم أدفع به شبهاته، بل أقوم عن المجلس، أما أن أبقى وأنا ليس عندي علم أدفع به الشبهات فإنه ربما يؤثر عليّ، والقيام من هذا المكان الذي تلقى فيه الشبهات هو الإعراض، أو الأنتهاء الذي أمر به النبي -عليه الصلاة والسلام- من ورد على قلبه شيء من الشبهات.

٦- **ومن فوائد الأيات،** أنه قد يكون أعدى عدو ل؛ لأنسان من كان مقارنًا له؛ لقوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

ويتفرع على هذا الفائدة:

٧- **الاحتراس من القرناء:** وألا نلقي إليهم بالمودة والإسرار إلا بعد أن نخبر حالهم؛ لأن كثيرًا من الناس يتلطف إليك ويمشي معك لا من أجل أن يستفيد منك ولا من أجل أن تستفيد منه، بل من أجل أن يرى ما عندك فيقومك إما في نفسه وإما عند غيره.

فليس كل قرين ل؛ لأنسان يكون ناصحًا له. بدليل هذا ﴿لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ فاحذر القرناء لا تركن إليهم إلا بعد أن تعرف صدق نصحهم ومودتهم، وحينئذ فا؛ لأنسان مدني بالطبع، لابد ل؛ لأنسان من قرين وصاحب يشكو إليه أموره، ويفضي إليه بأسراره، ويستشيره في أموره، لابد من هذا، لكن احذر، لا تركن إلى شخص إلا وقد عرفت صدقه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: مجزيون ومحاسبون كما مر.

٩- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أن هذا الذي أنعم الله عليه بالنجاة يطلب من إخوانه في الجنة ويعرض عليهم الاطلاع من أجل معرفة قدر نعمة الله عليهم، فإن الشيء لا يتبين إلا بضده.

هذه فائدة نقول في خلاصتها: إنه يندب ل؛ لأنسان أن ينظر في ضلال من ضل ليتبين في ذلك قدر نعمة الله عليه في الهدآية. فإن الأشياء إنما تتبين بضدها.

١٠- **ومن فوائدها،** أن أحوال يوم القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، فإن هذا ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحبه في سواء الجحيم.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن كل ما ورد من أحوال يوم القيامة مما تستبعده النفوس لعدم مشاهدة

نظيره في الدنيا لا ينبغي أن يكون محل استبعاد، فمثلًا ثبت في الصحيح أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل[1] ولو أن الشمس دنت إلى الخلائق في هذه الدنيا من ذلك لأحرقتهم، لا يقول قائل: كيف يمكن أن يبقوا والشمس تدنو منهم إلى هذا الحد؟! كذلك أيضًا ورد أن الناس يختلفون يوم القيامة بالنسبة للعرق. فمنهم يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حقويه، ومنهم من يلجمه، وهم في مكان واحد ربما يستبعد الإنسان وجود هذا؛ لأنه لا يشاهد نظيره في الدنيا، فنقول: لا تستبعد؛ لأن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا. ففي يوم القيامة المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكافرون في ظلمة، والمكان واحد فلا يستفيد هؤلاء من نور هؤلاء، مع أنه في الدنيا لو كان أحدنا معه نور في يده ليضيء طريقه ؛ لأنتفع به من كان حوله، فلا تستبعد في الآخرة أن يكون مثل هذا الأمر؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، فهذا الرجل ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحب، ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

١١- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذا المطلع يخاطب صاحبه في أسفل السافلين، ويكلمه فكل واحد منهم يخاطب الآخر، وهذا أيضًا لا يجوز أن يستبعد؛ لأن أحوال الآخرة غير أحوال الدنيا؛ ولأننا ربما شاهدنا في هذه الدنيا ما يشابه هذه الحال بواسطة الاتصالات الحديثة، فا؛ لأنسان قد يخاطب صاحبه وهو في مشرق الأرض والآخر في مغربها ويخاطبه وينظر إليه.

١٢- **ومن فوائدها:** بيان توبيخ هؤلاء المفسدين في يوم القيامة؛ لأنه وبخهم بقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ وقد جاء في آية أخرى بأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا، قال الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]

١٣- **ومن فوائدها:** أن هذا القرين السيئ كان يحاول بكل جهده أن يهلك صاحبه؛ ولهذا من شدة دعأيته كاد أن يهلك هذا ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** أن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين؛ لأنه وصف ذلك بالردى ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ وهذا هو الحق، فإن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين، أما الدنيا فإنها إنما خلقت للفناء، وما خلق الناس للبقاء في الدنيا ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] فالهلاك الحقيقي هو هلاك الدين: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٧ - ٦١]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ لولا: حرف امتناع لوجود. إذا قلت: لولا زيد لقمت. امتنع القيام لوجود زيد؛ لأنها حرف امتناع لوجود.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ قلنا: إن لولا حرف امتناع لوجود. فالموجود النعمة، والممتنع: كونه من المحضرين.

قال أهل النحو: ولولا: خبر المبتدأ بعدها يحذف وجوبًا في الغالب. قال ابن مالك: وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتم.

إذًا (نعمة) مبتدأ والخبر محذوف، وتقديره ولولا نعمة ربي عليّ، أو كائنة أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾. النعمة: هي ما يكون با؛ لأنعام؛ أي: أثر إنعام الله -عز وجل- على العبد، وتنقسم إلى قسمين: نعمة عامة، ونعمة خاصة:

أما النعمة العامة فهي الشاملة لكل أحد من المؤمن والكفار، والبر والفاجر، فكل الناس يعيشون بنعمة الله عز وجل، وأما النعمة الخاصة فهي التي أنعم الله بها على المؤمنين، ومنها قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ثم هذه النعمة الخاصة أيضًا فيها ما هو أخص، وهي نعمة الله على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومنها قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] فإن هذه النعمة أخص النعم.

والنعمة في هذه الآية ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ من الخاصة؛ لأن نعمة الله العامة كائنة حتى على هذا القرين الرديء، ولكن هذه نعمة خاصة.

قال المؤلف -رحمه الله: [﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليَّ بالأي:مان لكنت من المحضرين معك في النار]. اللام واقعة في جواب لولا؛ لأن (لكنت) هي جواب لولا، ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، وإن شئت فقل: لكنت من المحضرين معك في العذاب؛ ليكون أشد، فإن العذاب أعم وأشد من عذاب النار، وإن كان من في النار فهو معذب -والعياذ بالله-.

قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ الهمزة في ﴿أَفَمَا﴾ للاستفهام، والفاء: عاطفة

و(ما): نافية حجازية ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي هنا عاملة لتمام الشروط.

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ هذا الاستفهام يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ : [هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله ـ تعالى ـ من تأبيد الحياة وعدم التعذيب]. أي أنهم يتلذذون بانتفاء الموت عنهم، ولا شك أن انتفاء الموت والخلود والتأبيد من أكبر ما يسر به الإنسان. ولهذا جاء في الحديث: «أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ جِيءَ بِالْمَوْتِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُنَادَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُون نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتَ، فَيُذْبَح، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، فَيَزْدَادَ أَهْلَ النَّارِ غَمًّا إِلَى غَمِّهِم، وَيَزْدَادَ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِم»[1]؛ لأنهم أمنوا من الموت، فهنا يتحدثون بهذه النعمة، وهي انتفاء الموت عنهم ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ هذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦] وعلى هذا فالاستثناء منقطع، يعني لكن موتتنا الأولى حصلت وتمت في الدنيا.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ معطوفة على: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ أي: وكذلك ما نحن بمعذبين، فانتفى عنهم الموت المستلزم للتأبيد، والعذاب المستلزم للتنعيم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه ما ذكر من النعيم لأهل الجنة، ومنه انتفاء الموت والتعذيب ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

اللام: مؤكدة وإن: مؤكدة وهو: ضمير فصل.

وعلى هذه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات «إن»، و «اللام» «ضمير الفصل» ثم إن المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فيدل على أن هذا الفوز فوز خاص بأهل الجنة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الخاص على هذا الوجه هو الفوز العظيم، فإذا قيل: ما هو الفوز؟ قلنا: إن الفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وقوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾ مأخوذ من العظمة؛ لأنه لا فوز أعظم من ذلك، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١ ـ التوكيد. ٢ ـ الحصر. ٣ ـ التمييز بين الخبر والصفة؛ لأنك إذا قلت مثلاً: (زيد فضال) فإن الفاضل يحتمل أن تكون صفة وتكون خبرًا، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون خبرًا، وحصل بذلك التمييز بين الخبر والصفة، ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ لمثل هذا المشار إليه ما ذكر من النعيم، وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ قال بعضهم: إن (مثل) هنا زائدة أي: لهذا فليعمل.

وقيل: بل هي غير زائدة بل أصلية، وأن (مثل) يؤتى بها للتعظيم والمبالغة، إذا كان الإنسان يطلب منه أن يعمل العمل لمثل هذا، فما بالك بنفس هذا.

يقولون: إن المثل ملحق بمثيله إلحاقًا، كالمشبه ملحق بالمشبه به. فمرتبة المشبه به أعلى من مرتبة المشبه.

المثيل الذي قيل: هذا مثل هذا أعلى من مماثله؛ لأنك إذا قلت: هذا مثل هذا، فقد ألحقت الأول بالثاني.

فإذا قيل: لمثل هذا وصار الإنسان مطلوبًا منه أن يعمل لمثل هذا الشيء، فطلبه أن يعمل لهذا الشيء نفسه من باب أولى.

فيقولون: إن هذا من باب التوكيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فإن مثل ليست بزائدة، ولكنه جيء بها للمبالغة إذا كان مثله ـ سبحانه وتعالى ـ لو فرض له مثل ـ لا يماثله شيء، فما بالك به هو نفسه؟ فيكون هذا من باب التوكيد.

إذن: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ نقول: هذا من باب التوكيد والمبالغة أي أن الإنسان مطلوب منه أن يعمل لمثل هذا، فكيف بنفس هذا الشيء، فتكون مثل على هذا ليست بزائدة، بل هي أصلية، وفائدتها، التوكيد والمبالغة.

ولهذا يقال للشخص: مثلك لا يبخل، ويريدون: أنه لا يبخل، لكن أتوا بمثل من باب المبالغة يعني إذا كان المتشبه بك لا يبخل فأنت من باب أولى وأحرى، فمثل هذا التركيب في اللغة العربية يقصد به المبالغة، وليس هناك زيادة.

إذن لمثل هذا الفوز العظيم والنعيم العظيم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ و (الفاء) عاطفة و (اللام) لام الأمر.

وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي: بشرع الله فإن هذا لو تذهب فيه النفوس والأنفاس والنفائس لكان ذلك رخيصًا في جانب هذا الفوز العظيم.

فالواحد منا يسعى جهده ليحصل الدرهم والدينار فيشبع به بطنه، ويكسو به عورته، وينعم به بدنه ذلك النعيم الزائف الزائل، وتجده يسهر في الليل ويتعب في النهار من أجل الوصول إلى هذا الغرض، لكن ثواب الآخرة أعظم وأعظم، ومع ذلك فعملنا قليل، وقد وبخنا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] فالذي ينبغي له العمل حقيقة بل الذي يجب على العاقل أن يعمل له هو ثواب الآخرة.

وهذه الآية: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] هذا هو محل التنافس، وهذا هو محل العمل، وهو الجدير بذلك.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: قيل: يقال لهم ذلك، وقيل: هم يقولونه ـ وعلى كل حال ـ فسواء هم الذين يقولونه، أو يقال لهم فإنه يفيد أن هذا الجزاء وهذا النعيم، وهذا الفوز هو الذي ينبغي أن تفنى فيه النفوس والأنفاس والنفائس.

الفوائد:

١ ـ أن التحدث بنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مشروع ومأمور به بشرط أن يكون المقصود به الثناء على الله ـ تعالى ـ لا الافتخار على عباد الله.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن نجاة الإنسان من عذاب الله من أكبر النعم، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣] حيث جعل إكمال الدين من إتمام النعمة، وبالدين تكون النجاة من النار والفوز بدار القرار، فمن أكبر النعم بلا شك بل هي أكبر النعم أن يمن الله على الإنسان بالنجاة من النار ودخول الجنة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا المؤمن قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى الله، وهذه الربوبية من الربوبيات الخاصة، وقد مرَّ علينا أن الربوبية عامة وخاصة، وقد اجتمع في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:٤٧ ـ ٤٨] الأولى عامة، والثانية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي تربية أخص من الربوبية العامة؛ لأن الله ـ تعالى ـ يربي هذا العبد تربية خاصة أكثر من الربوبية العامة.

٤ ـ **ومن فوائدها:** جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ولم يقل: ولولا ربي.

لكن قد يقول قائل: إن نعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا كان المراد بها فعل الله فهي من صفات الله فإضافة الشيء إليها كإضافته إلى الله، لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[(١)]. لكن إضافة الشيء إلى سببه على أقسام:

القسم الأول: أن يكون السبب معلومًا حقيقة حسًا أو شرعًا فنقول: مثلاً: لولا فلان أنقذني من الغرق لهلكت.

ولا بأس بذلك، لكن بشرط أن تشعر في قلبك أن فلانًا قد سخره الله لك ولم يستقل بفعله، ومن ذلك أي: من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عمه أبي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، مسلم (٢٨١٦).

طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١) فقال: «لو لا أنا» فأضاف الشيء إلى السبب المعلوم.

القسم الثاني: أن نضيف الشيء إلى الله ـ تعالى ـ وإلى سببه المعلوم فهذا جائز، ولكن بشرط أن يكون معطوفًا بحرف لا يقتضي التسوية، فلا يقول: لولا الله وفلان؛ لأن هذا شرك، لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرجل الذي قال له: ما شاء الله وشئت: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟»؛ لأن الواو تقتضي التسوية، فلا يجوز أن يسوى غير الله بالله، بل هو شرك، لكنه شرك أصغر إن كان شركًا لفظيًا، وأكبر إن اعتقد أن هذا السبب مساوٍ لله ـ سبحانه وتعالى ـ في حصول المسبب؛ لأنه إذا جعل شيئًا غير الله مساويًا له فهو شرك أكبر.

أما إذا أضيف بحرف لا يقتضي التسوية بل يقتضي الترتيب، فهذا نوعان: نوع جائز لا إشكال فيه، ونوع فيه بعض الشبهة، فإذا عطف بثم مثل: لولا الله ثم فلان فهذا جائز لا إشكال فيه؛ لأنك جعلت فلانًا تابعًا تبعية متأخرة، حيث عطفته بثم الدالة على التراخي.

أما إذا عطفته بفاء التي تقتضي الترتيب والتعقيب مثل: لولا الله ففلان.

فهذا محل نظر، لكن الأقرب أنه جائز؛ لأنك أتيت بالفاء الدالة على الترتيب.

القسم الثالث ـ أن تضيفه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحده، وتغفل السبب بالكلية، فتقول: لولا الله لهلكت فهذا جائز.

القسم الرابع: أن تضيفه إلى الله بذكر السبب، وتبين أن السبب مجرد سبب، مثل أن تقول: لولا أن الله أنقذني بفلان لهلكت، فهذا جائز.

القسم الخامس: أن يضيفه إلى سبب غير معلوم لا شرعًا ولا حسًا فهذا شرك، لكن قد يكون أكبر وقد يكون أصغر.

فإذا قال: لولا فلان، يعني صاحب القبر أنقذني لهلكت فهذا شرك أكبر؛ لأن فلانًا لا يستطيع أن ينقذ.

وإن أضافه إلى سبب غير معلوم شرعًا ولا عرفًا ولا حسًا لكنه ليس كالأول مثل: التمائم المعلقة على المريض من غير القرآن، فهذا شرك لكنه أصغر وليس بأكبر.

وهذا ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ إذا كان المراد بذلك فعل الله فهو من باب إضافة الشيء إلى فعل الله، وهو كإضافته إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وإن كان المقصود بذلك المنعم به فهو إضافة إلى شيء مخلوق، لكنه سبب صحيح، وإضافة الشيء إلى سببه الصحيح جائز.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

٥ ـ من فوائد الآيات: أن أهل الجنة لا يموتون فيها؛ لقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ وهذا غاية ما يكون من النعيم، فهو نعيم لا يشوبه تنغيص؛ لأن نعيم الدنيا مهما بلغ يشوبه

التنغيص: إذا ذكر الإنسان أن هذا النعيم سوف يزول، أو يزول هو عنه، لا شك أنه يتكدر عليه صفوه، ولهذا قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً   لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

ما دام الإنسان يتذكر إما موتًا وإما هرمًا فإن العيش لن يطيب له، لكن من نعمة الله أن الإنسان يغفل عن هذا الشيء ولا يتذكر إلا الحالة التي هو عليها. لكن العاقل يكون حازمًا فيعمل لمستقبله.

فإذا قال قائل: هل لهذه الآية نظير في القرآن؟

فالجواب: نعم، قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦] والاستثناء في هذه الآية كالاستثناء في الأولى، أي أنه منقطع. يعني لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

وقد يقول قائل: إن الاستثناء فيها متصل.

وإذا قيل: ما وجهه؟ قلنا: إن قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ استثناء من حال هؤلاء الذين قال الله عنهم: إنهم لا يذوقون الموت؛ لأن نعيم أهل الجنة متصل آخره بأوله، فإن أهل الجنة منعمون حتى في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فلا تظن أن الحياة الطيبة للمؤمنين في الآخرة فقط، بل هي في الآخرة وفي الدنيا أيضًا لكن المشهور أن الاستثناء منقطع.

٦ ـ **ومن فوائدها:** انتفاء التعذيب عن أهل الجنة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ومن المعلوم أن هذه صفة سلبية، والصفة السلبية في مقام المدح لابد أن تتضمن ثبوتًا؛ لأن الصفة السلبية في غير مقام المدح ليست مدحًا، فإنه قد يقال: الجدار لا يُعذب.

وليس في هذا مدح للجدار. فلابد أن تكون هذه الصفة متضمنة لثبوت كمال، فما هو كمال النعيم؟ لما ذكروا انتفاء الموت فزال عنهم التنغيص به وذكروا أيضًا انتفاء التعذيب؛ لأن الإنسان قد يبقى في حياته معذبًا، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لكمال حياتهم وكمال نعيمهم؛ لأنهم لا يلحقهم مع البقاء تعذيب.

٧ ـ **من فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أن الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار كرامة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيترتب على هذه الفائدة: أن الإنسان مهما فاز في الدنيا فإن فوزه ليس بشيء بالنسبة إلى فوز الآخرة؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وهذا نظير في القرآن مثل قوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز ليس بحصول المال ولا الجاه ولا الرئاسة ولا بحصول الأولاد والزوجات، الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار النعيم المقيم. أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلني وإياكم ممن وصلها.

٨ ـ **ومن الفوائد:** أن الذي ينبغي أن يعمل له العامل، ويكدح له الكادح، ويتعب فيه التاعب هو هذا النعيم؛ لقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فغيره لا تعمل ولا تتعب نفسك في أمر لا ينفعك في الآخرة، وليس معنى هذا أن نقول: لا تعمل للدنيا، بل اعمل للدنيا لكن اجعل عملك في الدنيا من أعمال الآخرة.

فكيف يمكن هذا؟ يمكن أن تطلب المال من أجل أن تتعفف به عن الناس، من أجل الإنفاق على أهلك، تطلبه من أجل الصدقة به، تطلبه من أجل الاستعانة به في طلب العلم، تطلبه من أجل الجهاد في سبيل الله، فيكون طلب الدنيا طلبًا للآخرة ويكون هذا العمل عملاً للوصول إلى الجنة.

٩ ـ **ومن فوائدها:** وصف غير الله ـ تعالى ـ بالعظم فيقال: العظيم للشيء العظيم، أيًا كان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] ويدل عليه ـ أيضًا ـ أن الله وصف العرش بأنه عظيم ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] وعلى هذا فالصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق لا بأس أن يوصف بها المخلوق، ولكن يجب أن يعلم بأن بين وصف المخلوق بها ووصف الخالق بها كما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وأنه لا يلزم من الاشتراك في الاسم الاتفاق في المسمى.

١٠ ـ **ومن الفوائد:** سفه أولئك القوم الذين يعملون للدنيا دون الآخرة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فالذين يعملون للدنيا وهم في غفلة عن الآخرة لا شك أنهم سفهاء، وأنهم أمضوا أعمارهم فيما ليس فيه فائدة، بل فيها فيه خسارة، وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يحكي الله ـ تعالى ـ عن الكفار بأن قلوبهم في غمرة، يعني مغمورة، وأتي بفي الدالة على الظرفية، للدلالة على أن الغمرة ـ والعياذ بالله ـ قد أحاطت بهذه القلوب، في غمرة من هذا، لكن أعمال الدنيا ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾. لا يعملون لغيرها وهي من دون ذلك، وأتى بمن الدالة على البعد في الدون عما خلق له الإنسان، هؤلاء قلوبهم في غمرة مما وعد الله به أهل الجنة، وتوعد به أهل النار، لكن أعمال الدنيا التي هي دون ذلك بمراحل كثيرة هم لها عاملون، وهذا كقوله ـ تعالى ـ في توبيخ من يعذب يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] في الدنيا في غفلة عن اليوم الآخر، وكأن هذا اليوم لا يأتي، أما اليوم فقد كشف عنك الغطاء، فبصرك حديد قوي، تبصر الأشياء على حقيقتها في الآخرة، فهنا أمر الله أن نعمل لهذا، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ

ﵟٱلۡعَٰمِلُونَﵞ وأما ما دون هذا فلا ينبغي للإنسان العاقل أن يفني عمره ويتعب جسده وفكره في العمل له. فإذا قال قائل: هل معنى ذلك أن أترك العمل للدنيا؟

فالجواب: لا. ولو قلنا: بهذا لكان قول الله - تعالى - : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥] وكان قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠] وكان وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٩٨] عبثًا ولغوًا، بل نقول: اعمل للدنيا، لكن الموفق يستطيع أن يجعل عمل الدنيا عملاً للآخرة.

والغافل بالعكس يجعل عمل الآخرة عملاً للدنيا.

١١ - ومنها أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم يحتاج إليه الإنسان من أجل أن يستعد لنشاط المستقبل، وأن يستريح من تعب الماضي، وأما أهل الجنة فلا ينامون؛ لكمال حياتهم، فليس عندهم تعب، ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فهم لا ينامون؛ لأنهم لا يحتاجون إليه، ولأن النوم يصد عن النعيم والتنعم بما أعد الله لهم.

١٢ - ما أشرنا إليه آنفًا في قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾:

أنه ينبغي للعاقل أن يذهب أنفاسه ونفيسه ونفسه في العمل لهذه الغاية الحميدة، ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾.

١٣ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن العمل لغير هذا ليس من الحكمة وليس من العقل، بل العقل والحكمة تقتضي أن يكون عمله للغاية العظيمة: للوصول إلى الجنة.

١٤ - في الآية رد على الجبرية حيث وجه الأمر إليهم ونسب العمل إليهم؛ لأن الأمر بالشيء لمن لا يستطيعه لا شك أنه ظلم وتكليف بما لا يطاق، وإثبات العمل - أيضًا - لمن لا إرادة له يعتبر مدحًا لغوًا؛ لأن هؤلاء إذا كانوا مجبرين فلا ينبغي أن يُمدحوا على محبوب ولا أن يذموا على مكروه.

قال الله تعالى:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات:٦٢].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله -: [المذكور لهم ﴿خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ وهو ما يعد للنازل من ضيف وغيره ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.]

(أم) هنا متصلة و (أم) المتصلة هي التي تذكر بين متعادلين، ويحل محلها «أو».

والمنقطعة التي تذكر بين شيئين متجانبين، ويحل محلها «بل» مثل ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بمعنى بل، أي: لا تأمرهم أحلامهم بهذا، ولكن هم قوم طاغون.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

(الجواب: ذلك بلا شك، ولكنه ذكر إما على سبيل التهكم بمن تنعموا في الدنيا ونسوا نعيم الآخرة، وإلا فلا أحد يشكل عليه أن ذلك خير من شجرة الزقوم، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] فإنه من المعلوم لكل أحد أن الله خير، لكن هذا ذكر على سبيل التهكم بهؤلاء، وأن معبوداتهم ليس فيها خيرٌ إطلاقًا.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿نُّزُلًا﴾ تميز؛ لأنها جاءت بعد اسم التفضيل، فإن خير اسم تفضيل، حذفت منها الهمزة لكثرة الاستعمال، وأصل خير «أخير»، مثل شر أصلها «أشر»، ﴿نُّزُلًا﴾.

النزل: هو ما يعد للضيف من التكرمة: كالأكل والشرب والفراش والمسكن وما أشبه ذلك، ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المعدّة لأهل النار، وهي من أخبث الشجر المرّ بتهامة، ينبتها الله في الجحيم كما سيأتي].

شجرة الزقوم: شجرة خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، مرة الطعم، إن نظر إليها إنسان لم يسرّ بها، وإن تذوقها فهي مرة، وإن شمها فهي كريهة، فهي إذن بشعة المذاق، كريهة الرائحة، مشوهة المنظر، ومع ذلك إذا وصلت إلى بطونهم فإنها لا تفيدهم شيئًا فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، فيتزقمونها تزقمًا، والعياذ بالله.

الفوائد:

١ ـ من فوائدها: التهكم بعقول هؤلاء الذين يفضلون عمل الدنيا على عمل الآخرة.

حيث قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ ولا شك أن الجواب عند كل إنسان أن يقول: ذلك خير.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إقامة الدليل على ضلال الإنسان بالغاية التي يؤول إليها أمره، فهؤلاء الذين فضلوا طريق أصحاب الجحيم اختاروا أن يكون نزلهم يوم القيامة شجرة الزقوم، ولا شك أن هذا ضلال بيّن، وسفه بعيد.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لأن شجرة الزقوم تكون في يوم القيامة.

٤ ـ **ومن فوائدها:** القدح والثناء بالسوء على هذه الشجرة؛ لأنه وصفها بأنها شجرة زقوم يتزقمها الإنسان تزقمًا يعني يبتلعها ابتلاعًا مكروهًا؛ لأنها ـ أي: هذه الشجرة ـ كريهة المنظر، مُرَّةُ الطعمِ، قبيحة الرائحة، ولهذا يتكرهونها لكن لضرورتهم إليها وشدة جوعهم يأكلونها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: للكافرين من أهل مكة، إذ قالوا: النار تحرق الشجر فكيف تنبته.]

شجرة الزقوم جعلها الله فتنة للظالمين أي: اختبارًا يُختبرون بها، وفتنة أي: سببًا للضلال؛ لأن الفتنة تطلق على الاختبار وتطلق على ما كان سببًا للضلال، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] أي: كانوا سببًا في إضلالهم، ويقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] أي: اختبرناهم. أو إن شئت قل أضللناهم؛ لأن الله اختبر آل فرعون ولكنهم ضلوا ـ والعياذ بالله ـ فأضلهم الله.

وقوله: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أي: اختبارًا لهم وسببًا لضلالهم، اختبارًا لهم؛ لأنهم لو آمنوا لصدقوا ولم يعترضوا، وسببًا لضلالهم ؛ لأنها جعلتهم يتخذون من هذا طعنًا فيما أخبر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، يقولون: (هذا محمد يزعم أن الأشجار تنبت في النار، والعادة أن النار تحرق الأشجار فكيف تنبت في النار؟!)

ومعلوم أن الجواب على هذا يسير بالنسبة لنا، نقول: إن الله على كل شيء قدير، وهي شجرة نارية توافق طبيعتها النار ولا تناقضها، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ المراد بالظالمين هنا الكفار، ولا شك أن الكفر ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ومعلوم أيضًا أن الظلم يختلف، فهو درجات متفاوتة عظيمة، منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما يصل إلى الفسق، ومنها ما هو دون ذلك.

سؤال: يقول بعض الناس: كيف يعذب الله إبليس وهو مخلوق من النار في النار؟!.

الجواب أن يقال: إن مادته لم تجعله نارًا. كما أن مادة الطين لم تجعل الآدمي طينًا.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان الحكمة في مخلوقات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد

يفتن العبد بما يظهره من آياته.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن المكذب بما أخبر الله به يعتبر من المفتونين الذين فتنهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأضلهم.

٣ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن ذلك من الظلم، ولكن هذا الظلم هل هو ظلم لله ورسله أو ظلم؛ لأنفسهم؟

الجواب: أنه ظلم؛ لأنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] فكل من حاد عن الصراط المستقيم فإنه ظالم لنفسه؛ لأن الواجب عليه أن يحسن رعاية هذه النفس، فيقودها إلى ما فيه الخير والصلاح، ويذودها عما فيه الشر والفساد، وإذا كان الإنسان يجب عليه أن يرعى من ولاَّه الله عليهم من بني آدم ومن البهائم، فوجوب رعاية نفسه من باب أولى، ولهذا بدأ بالنفس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

٤ ـ ومن فوائد الآية: إطلاق الظلم على الكفر، مع أن الظلم أعم من الكفر، ولكن المراد به هنا الظلم المطلق الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فالظلم المطلق هو ظلم الكافر، والظلم المقيد هو ظلم الفاسق، فالمعاصي ظلم لكنها ظلم مقيد، فمثلاً يقال: هذا ظالم نفسه بأكل الربا، هذا ظالم نفسه بفعل الزنا، هذا ظالم نفسه بالاعتداء على الخلق، وهكذا، أما الظلم المطلق فهو ظلم الكافر؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ لم يأتِ بعدل إطلاقًا حتى يقال: إن ظلمه ظلم مقيد.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]

❁ التفسير ❁

هذه الجمل عن شجرة الزقوم بينها انقطاع بلاغي؛ لأن الاتصال هو العطف بالواو، وهنا كل جملة مستقلة، والحكمة من ذلك أن يعلم الإنسان عن هذه الشجرة من كل آية بصفة مستقلة، كأن كل صفة مستقلة تغني عن بقية الصفات.

فكونها فتنةً للظالمين هذا من أعظم ما يكون من الأوصاف التي يخاف منها عند إنكار هذه الشجرة، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها]، وهل هذه الشجرة واحدة للشخص، أو هي واحدة بالنوع والجنس؟ في ذلك احتمالان:

الأول: يحتمل أنه شجرة كبيرة تملأ النار كلها، ويتفرع منها أغصان في دركاتها كما هو ظاهر كلام المؤلف.

الثاني: يحتمل أنها شجرة متعددة، لكن أفردت باعتبار نوعها، كما تقول ـ مثلاً ـ إذا شاهدت شجرة: هذه مذاقها مر، مذاقها حلو، مذاقها كذا، لا تريد هذه الشجرة الواحدة، بل تريد هذا الجنس وهذا النوع، فشجرة الزقوم يحتمل أنها شجرة واحدة قد ملأت النار بأغصانها والله على كل شيء قدير، وإلا فإن النار بعيدة القعر، كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ فسمعنا وجبة فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[1] يعني سبعين سنة وهو يهوي في النار ما وصل إلى قعرها، هذه الشجرة إذا قلنا: إنها واحدة وأن أغصانها ملأت دركات النار فالله على كل شيء قدير، وإن قلنا: إنها واحدة بالجنس والنوع فليس في ذلك إشكال.

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وما ظنك بهذه الشجرة النارية التي تخرج في أصل الجحيم، فيكون لمنبتها أثر فيها؛ لأن المنبت يؤثر على النابت، حتى إن النوع الواحد إذا غرس في هذه الأرض اختلف عما إذا غرس في أرض أخرى وهو نوع واحد، هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم سوف يكون لمنبتها أثر فيها، ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ :﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ولم يقل: في الجحيم، ليبين أنها عميقة الجذور ـ والعياذ بالله ـ في النار.

الفوائد:

١ ـ أن شجرة الزقوم خبيثة المنبت؛ لقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والخبيث المنبت يكون هو خبيثًا أيضًا؛ لأن العادة أن النبات يكون على حسب أرضه، كما يكون على حسب مائه أيضًا.

٢ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حيث خلق هذه الشجرة في وسط النار، مع أن المعروف أن النار تحرق الأشجار، ولكن الله على كل شيء قدير، فها هي نار إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحرق الأجسام بلا شك، ولكن لما قال الله لها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] لم تحرقه، بل كانت بردًا وسلامًا عليه.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الشجرة تنتشر إما أغصانها ـ كما قال المؤلف ـ أو أنواعها في النار كلها؛ لأن الله أخبر أن أهل النار يأكلون منها، ومعلوم أن النار دركات بعضها أسفل من بعض، فيلزم من ذلك أن تكون هذه الشجرة إما ذاتها ومنتشرة أغصانها، وإما نوعها موجودًا في جميع النار.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧١).

قال الله تعالى:

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]

التفسير

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المشبه بطلع النخل كأنه رءوس الشياطين أي: الحيات القبيحة المنظر].

قوله: ﴿طَلْعُهَا﴾ يعني: الثمر الذي يشبه طلع النخل كأنه رءوس الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهل المراد الشيطان الحقيقي، أو المراد نوع من الحيات كما قال المؤلف؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: إن المراد الشيطان الحقيقي، واحتمال أن يكون المراد نوع من الحيات قبيحة المنظر وارد؛ لأن السيء من الحيوان قد يسمى شيطانًا، كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الكلب الأسود شيطان»(١).

ولكن الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول: المراد بالشيطان: الشيطان المعروف، وإنما شبهت برءوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها؛ لأن كل أحد يعرف أن ما ينسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يتخيل فكرًا، لا بما يعلم حسًّا، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه في القبح ولا حاجة إلى أن نقول: إنها حيات، حتى لو قلنا: بأنها حيات فهل هذه الحيات معلومة لكل أحد؟ إن حيات لا يعرفها إلا النادر من الناس لا ينفر الناس منها، بل إن المؤلف لما قال: [إنها حيات]، هبطت قيمة هذا القبح في نفس الإنسان، لكن كأنها رءوس الشياطين، يقشعر جسم الإنسان ويقف شعره عندما يسمع هذا التشبيه القبيح، وعلى هذا فالصحيح أن المراد بذلك رءوس الشياطين الحقيقية، ولكنها شبهت بها للعلم بأنها قبيحة عند جميع الناس وأنها منفرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: بيان أن هذه الشجرة لها طلع، ولكن طلعها أقبح ما يكون من الطلع؛ لأنه يشبه رءوس الشياطين.

٢ ـ **ومنها**: أن من أغراض التشبيه ما يسمى عند البلاغين بالتقبيح، فيشبه الشيء بما يستقبح نفسيًّا، وإن لم يكن معلومًا حسيًّا؛ لقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن رءوس الشياطين مستكرهة مستقبحة؛ لأنه شبه بها القبح، والتشبيه

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، والترمذي (٣٣٨)، والنسائي (٧٥٠)، وأبو داود (٧٠٢).

إلحاق الشيء بما هو أعلى منه في الصفة التي ألحق فيها؛ لأن المشبه دون المشبه به.

٤ ـ **ومن فوائدها:** إثبات أن للشياطين رءوسا.

٥ ـ **ومن فوائدها:** الرد على من يقول: إن الشياطين والجن هي قوى الشر، والملائكة قوى الخير، وليس هناك أجسام تحس، ووجه الدلالة أنه أثبت للشياطين رءوسا، ولا يمكن أن يكون في الأمور المعنوية التي لها قوى.

٦ ـ **ومن فوائدها:** ضلال من يعتمد على العقل في إثبات الأشياء أو نفيها؛ لأن الاعتماد على العقل يؤدي إلى أن يرد الإنسان ما ثبت في الكتاب والسنة من أجل ما يدعي أنه عقل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات:٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار.

﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ مع قبحها لشدة جوعهم، الجملة هنا اسمية مؤكدة بـ (إنّ) و (اللام) لإفادة أن أكلهم مستمر؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأكدت بـ (إنّ) و (اللام) للدلالة على أنهم يأكلون منها أكلاً مؤكدًا مع أنها قبيحة المنظر، كريهة الطعم والرائحة، لكن ـ والعياذ بالله ـ الجوع الشديد يضطرهم إلى أن يأكلوا منها قصرًا من غير شهوة ومن غير لذة، لكن لملء بطونهم فقط، وأكد أكلهم منها لئلا يقول قائل: إنها ما دامت على هذا الوصف فلن يأكل منها أحد، ومع ذلك فإن الإنسان لو كان في الدنيا ربما يفضل الموت على الأكل من هذا.

لكن في النار يعذبون بالأكل فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ يعني: أنهم لا يشبعون ولا يقتصرون على الضرورة، وأنت عندما يعرض لك في الدنيا وأنت جائع جوعًا شديدًا لحم منتن لا تملأ منه البطن وإنما تأكل بقدر الضرورة فقط، لو حاولت أن تملأ بطنك أبت عليك نفسك، ولو أنك ملأته لأوشك أن تتقيأه، لكن في النار يعذبون بذلك فلا يأكلون بقدر الحاجة بل يملأون بطونهم، يأكل ويقول: هات هات، كما أنهم يجبرون على شرب الحميم ويشربونه شرب الهيم، شرب الإبل الهائمة العطشى، وهذا من شدة عذابهم ـ والعياذ بالله ـ أن تصل بهم الحال إلى الجوع الشديد الذي يضطرهم إلى أكل هذه الشجرة الخبيثة يملأون بطونهم منها، وإلى العطش الشديد الذي يضطرهم إلى شرب الحميم، وهو الماء الحار الذي لا يستفيدون منه، بل قد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في اغتسالهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ ـ ٢٠] تصل حرارته إلى ما في البطون مع حيلولة بقية الجسم دونها لكن تصل الحرارة إلى ذلك، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦ ـ ٧] تصل إلى القلوب، ـ نسأل الله السلامة، اللهم نجنا من النار ـ.

يقول تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ قوله: ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ «ال» هنا للعهد الذهني، ولا يمكن أن نقول: إن «ال» للعهد الذكري؛ لأنه؛ سبق ما يدل على البطن؛ لأن العهد الذكري لابد أن يتقدم نفس اللفظ، وهنا لم يتقدم اللفظ، لكن تقدم ما يدل عليه في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ﴾؛ لأنه لا يأكل إلا من له بطن.

الفوائد:

١ ـ **من فوائدها:** إثبات أكلهم منها على سبيل التأكيد ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي تأكيد الشيء المستبعد أمام المخاطب من أجل اطمئنان نفسه وإقراره به، ولهذا قال علماء البلاغة: إن المخاطب له ثلاث حالات:

١ ـ ابتداء. ٢ ـ وشك. ٣ ـ وإنكار.

١ ـ ففي الابتداء لا يحسن أن تؤكد له الخبر، بل تلقيه إليه غير مؤكد؛ لأنك إذا أكدته بدون سبب للتأكيد فقد يشك، ويقول: لولا أن هذا الرجل كاذب ما ذهب يؤكد الخبر بدون سبب، فالفصاحة أن تلقيه إليه مجردًا من التأكيد.

فمثلاً: إذا أردت أن تخبر بقدوم زيد، تقول: قدم زيد، إذا كنت تخاطب رجلاً خطاب ابتداء، ليس عنده شك في قدومه ولا إنكار.

٢ ـ أن يكون عند المخاطب شك في الأمر فهنا يحسن أن يؤكد، ولكن لا يجب، فهذا الرجل الذي تخشى أن يكون شاكًا بقدوم زيد لاستبعاده إياه، يحسن عندما تخبره أنه قادم أن تؤكد له، فتقول: قد قدم زيد، أو إن زيدًا قادم.

٣ ـ أن يكون منكرًا ففي هذه الحال يجب أن يؤكد له الخبر من أجل أن يزول عنه الإنكار ويطمئن إلى مدلول الخبر، كما لو كنت تخاطب شخصًا ينكر أن يكون فلان قدم البلد فتقول له: لقد قدم، وإن رأيت أنه يحتاج إلى زيادة.قلت: والله لقد قدم.

هذا باعتبار حال المخاطب أي أنه يحسن توكيد الخبر، أو تجريده من التأكيد، وعدمه باعتبار حال مدلول الخبر فإذا كان المدلول أمرًا هامًّا فإنه يؤكد حتى وإن كنت تخاطب من لا ينكر، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ ـ ٢] وأشباه ذلك مما أقسم الله به على البعث وهو يخاطب المؤمنين، فهنا نقول: تأكيد هذا الخبر مع إقرار المخاطب به يقصد بذلك بيان أهميته، وأنه أمر يجب أن يتأكد في قلب الإنسان، وأن يثبت فيه ويرسخ.

قال أهل العلم: وقد ينزل المقر منزلة المنكر لفعله فعل المنكر مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥] وهل الموت متردد فيه أو منكر؟ أبدًا، لا يتردد فيه ولا ينكره أي أحد من الناس، إذن فلماذا يؤكد؟؛ لأن المخاطب قد تكون حاله حال المنكر لعدم استعداده للموت، فيؤكد له الخبر.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ هنا أكد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنهم سيأكلون؛ لأن المقام مقام استبعاد للأكل، فقد يستبعد الإنسان أن يأكل هؤلاء من هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم وطلعها كأنه رءوس الشياطين.

فأكد الله ذلك بـ (إن) و (اللام) وأتى أيضًا بالجملة الاسمية الدالة على استمرار أكله.

٣ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الله يعذب أهل النار بالأكل من هذه الشجرة بكونهم لا يشبعون؛ لقوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فلا يأكلون منها بقدر الضرورة كما يأكل المضطر من الميتة بقدر الضرورة، ولكن يأكلون أكلاً يملأ بطونهم، كلما فرغ البطن قليلاً أكلوا.

❁ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:٦٧]

❁ التفسير ❁

(ثم): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، مما يدل على أنهم إذا أكلوا عطشوا، وإذا عطشوا لا يأتيهم الماء في الحال، بل يأتيهم بعد مهلة بيّنها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] فهم ليسوا إذا أكلوها وعطشوا بها أُعْطُوا الماء بسرعة، بل يستغيثون ويدعون أن يأتيهم ماء يبرد عليهم لهيب العطش، ولكن إذا أعطوا هذا الماء يعطونه شوبًا من الحميم، يعني: ماءً حارًّا حرارة عظيمة، والشوب: وهج النار.

وهذا الوهج يبينه الله في الآية التي سقتها إذا قرب الماء من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم ـ والعياذ بالله ـ شواها حتى إن لحومها لتتساقط من شدة حرارته، فإذا شربوه فإن أمعاءهم تستقبله لكنها تتقطع به ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] كل هذا سيكون، ليس خبر الأولين، ولهذا يجب علينا إذا قرأنا مثل هذه الآيات أن نشعر بأن هذا هو علم اليقين، وأنه سيكون حق اليقين، هذا الأمر بعد أن يعطشوا ويستغيثوا لا يغاثون بماء بارد ولا بماء عذب، بل بشوب من حميم أي: ماءً حارًّا، فيشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبًا له، فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ

الشوب هنا بالخلط، ومنه شبت الماء باللبن أي: خلطته، وهو يصلح بهذا وهذا، فهو خلط، وهو أيضًا وهج حرارة هذا الحميم كل ذلك يكون، فالوهج يكون قبل الشرب، والشوب بعد الشرب.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]

التفسير

يعني ثم بعد ذلك مرجعهم

إلى الجحيم، والجملة جملة اسمية لم يقل: ثم يرجعون، بل قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ مؤكدة بمؤكدين وهما: (إنّ) و (اللام)، وهذا الترتيب فيه إشكال، فهل هو ترتيب ذكري أو معنوي؟ المؤلف يرى: أنه ترتيب معنوي، أي أنهم يخرجون من النار لشرب الحميم، ويحتمل أن يكون ترتيبًا ذكريًّا يعني بعد أن ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما لهم من هذا العذاب بين أن مرجعهم يوم القيامة إلى هذا الجحيم لا يرجعون إلى سواه.

أما المؤلف ـ رحمه الله ـ فيقول: [يفيد أنهم يخرجون منها لشرب الحميم وأنه خارجها،] وهذه الفائدة فائدة ضعيفة بالواقع، وكوننا نستفيد هذه الفائدة من هذه الجملة ليس بمتعين، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فكيف يقال: إنهم يخرجون ويشربون الحميم ثم يردون، هذا بعيد جدًا، لكن إما أن نجعل الترتيب هنا للترتيب الذكري، أي أن الله بعد أن ذكر أنواعًا من العقوبات لهم بين أن مآلهم إلى الجحيم الذي فيه هذه العقوبات.

والترتيب الذكري موجود في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ سَادَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جَدُّهُ

وسيادة الأب سابقة على سيادته، وسيادة الجد سابقة على سيادة الأب.

أو يقال: إنهم كما قال الله عنهم: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠] وأنهم يقربون من أبوابها ويسقون هذا الحميم فيقربون لتتطلع نفوسهم إلى الخروج، فيكون عندهم بعض الأمل، فإذا أمّلوا هذا الأمل ثم ردوا إلى أصل الجحيم صار هذا أشد عذابًا عليهم؛ لأن حصول اليأس بعد الأمل أشد من بقاء اليأس؛ لأن الأمل يرفع اليأس، وإذا أعيد إلى العذاب عاد اليأس، فكان أشد وقعًا.

أرأيت لو أن رجلاً مغلولاً بين يديك، وصرت تحاول فك عنقه، فإنه يفرح، لكن إذا عدت ثم شددته ربطًا وأتيت بغلٍّ آخر ازداد يأسًا وغمًّا إلى غمِّه، بعد أن رأى بصيص الأمل يعاد فيهان.

هؤلاء - والعياذ بالله - كلما أرادوا أن يخرجوا منها حصل لهم بعض الأمل أعيدوا فيها، فيكون ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: إلى أصل الجحيم الذي كانوا قد أملوا أن يخرجوا منه حين قربوا من أبوابها.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشجرة إذا أكلوها - والعياذ بالله - عطشوا وطلبوا الماء طلب المضطر إليه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف:٢٩] فهم يعطشون كثيرًا ويسألون سؤال المضطر، يستغيثون بالله - عَزَّ وَجَلَّ - فإذا أُغيثُوا أُغِيثُوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - والعياذ بالله - ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يعني: مع هذا الأكل القبيح المستكره المبتلى بمحبته يشربون عليه من الحميم الذي يخالطه، وقد سبق أن هذا الحميم يُقَطِّع أمعاءهم

٢ - **ومن فوائد قوله:** ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أن هؤلاء الذين في النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وهذا فيه زيادة تعذيبهم؛ لأن الإنسان إذا انفتح له باب الأمل والرجاء، ثم عاد إلى الخيبة صار ذلك أشق وأشد عليه مما لو استمر في خيبته، فيكون في هذا زيادة تعذيب له. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء لن يذوقوا نعيمًا أبدًا؛ لأن مرجعهم ومآلهم إلى الجحيم، فلا يمكن أن يخرجوا منها، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن ظاهرها يفيد تأبيد النار؛ لأنه المرجع النهائي، وهذا يقتضي أنه ليس هناك سواه، وهذا القول أعني: أن النار مؤبدة هو القول المتعين الذي لا يجوز اعتقاد سواه، وذلك؛ لأن الله - تعالى - ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن.

ففي سورة النساء يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨ - ١٦٩].

وفي سورة الأحزاب يقول الله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤ - ٦٥].

وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبعد هذه الآيات الثلاث من عالم الغيب والشهادة لا يجوز العدول عن القول بمدلولها، فإذا كان الساكن خالدًا خلودًا مؤبدًا لزم أن يكون المسكون كذلك، أي: مؤبدًا لا يمكن فناؤه، والقول بجواز فناء النار أو بوجوب فناء النار، قول ضعيف جدًا، وقد علق شيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله - على ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «شفاء العليل» حيث ذكر الخلاف عن

بعض السلف بأنه قول ضعيف جدًا، واستغرب أن يقع هذا من ابن القيم ـ رحمه الله ـ ؛ لأنه قول منافٍ للقرآن، ولكن لكل جواد كبوة.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]

التفسير

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء الظالمون الذين يعذبون بهذا العذاب ﴿أَلْفَوْا﴾ أي: وجدوا آباءهم ضالين تائهين عن الحق، وألفى بمعنى وجد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥] ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا سيدها.

ثم قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ هم وجدوا آباءهم ضالين بعد أن قامت عليهم الحجة بضلال آبائهم، ولكن لم يتبعوا الحجة.

قال: ﴿فَهُمْ﴾ يعني: بعد أن وجدوا آباءهم ضالين ـ والعياذ بالله ـ هم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

أي: يساقون ويزعجون، وهرع بمعنى عجّل وأسرع في الشيء، فهم على آثار آبائهم وعلى ما كانوا عليه من الشرك والظلم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أي: يساقون بشدة ويسرعون إلى اقتفاء آثارهم، وقد جاءتهم الرسل بالحجة، ولكن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]

فهم علموا أن آباءهم ضالون، ومع ذلك بقوا على ما هم عليه، بل صاروا يسابقون ويتمسكون أشد بما كان عليه آباؤهم.

الفوائد:

١ ـ أن هؤلاء المكذبين اتبعوا آباءهم على الضلال؛ لقوله: ﴿أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ فضلوا مثلهم.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى ذم التقليد المخالف للحق؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر هذا تنديدًا بهم وتوبيخًا لهم أن يجدوا آباءهم ضالين ثم يتبعوهم ويدعوا طريق الحق.

فإذا كان التقليد للضرورة بحيث إن الإنسان لا يتمكن من الوصول إلى الحكم عن طريق الاستدلال، فهنا يجوز التقليد للضرورة؛ لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] ولم يقل: فاستنبطوا من القرآن والسنة إن كنتم لا تعلمون؛ لأن من لا علم

عنده لا يمكن أن يستنبط بنفسه، ولو حاول استنباط الأحكام من الأدلة وهو ليس عنده علم فسوف يضل ويتخبط خبط عشواء، فالإنسان الذي ليس عنده علم فرضه التقليد، والذي عنده علم فرضه الاجتهاد، وهذا القول وسط بين من يشددون في الإنكار على التقليد، وبين من يشددون في الإنكار على المجتهدين، فيكون التقليد للضرورة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إطلاق الآباء على الأجداد؛ لأن الظاهر أن قوله: ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى.

وإطلاق الأب على الجد ولو كان بعيدًا معروف في الكتاب والسنة، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾

[الحج:٧٨] فسمى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبًا مع أنه جد بعيد، ويتفرع على هذه القاعدة: ترجيح القول بأن الجد من قِبَلِ الأب يسقط الإخوة مطلقًا أي: سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم في باب الميراث، وهو القول الراجح؛ لأنه أب، وهذا القول هو قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، وروي عن ثلاثة عشر صحابيًّا، وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو القول الراجح المتعين، ووجه ذلك أن القائلين بالتوريث أتوا بتفصيلات لو كانت هي الشرع لوجب أن تبين في كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

٤ ـ **ومن فوائدها:** قبح عمل هؤلاء المقلدين، حيث كانوا يهرعون على آثار آبائهم في الضلال، أما في الحق فإنهم ينكصون على أعقابهم.

فيتفرع على هذا حظر هؤلاء الناس الذين إذا جاء الحق موافقًا لأهوائهم أسرعوا إليه، وإذا كان غير موافق نكصوا عنه، وصاروا يتباطئون فيه، وهؤلاء فيهم شبه ممن قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩].

إذا كان الحق لهم أتوا إليه مذعنين، وإذا كان الحق عليهم نكصوا، وحاولوا أن يلووا أعناق النصوص لتوافق أهواءهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

❁ التفسير ❁

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، ففي هذه الآية الكريمة تأكيد

ضلال من خالف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وفيها تسلية النبي ﷺ؛ لأن كل ما سبق فيه التحدث عن أخبار قريش، فأراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يسلي رسوله ﷺ بأن قومك ليسوا أول من ضل، بل قد ضل قبلهم أكثر الأولين.

وفيها تأكيد لخبر هؤلاء الأمم الماضية التي قد يشك في خبرها من يشك.

كما أن فيها أيضًا زيادة تهديد لهؤلاء المكذبين؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ وأكد ـ أيضًا ـ هذه الجملة بالوجوه الثلاثة التي قد أشرنا إليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: لا كلهم، فإن من الأولين من اهتدى، ولكن أكثرهم ضل حتى قال رسول الله ﷺ حين عرضت عليه الأمم: «رأيت النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» وقوله: ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقين، فكل من سبق هذه الأمة فإنه يعتبر من الأولين.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة:** دليل على أن الأمم السابقة قد ضل أكثرهم، وهو كذلك، وقد تقدم أن الرسول ﷺ رأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.

٢ ـ **ومن فوائدها:** تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذكر المماثل للذين كذبوه؛ لأن الإنسان يتسلى ويتأسى بغيره.

٣ ـ **ومن فوائدها:** عناية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ برسوله ﷺ حيث كان، يضرب له من الأمثلة ما يسليه بها؛ لأن سلو الإنسان بغيره يهون عليه الأمر ويزيده قوة واندفاعًا فيما يدعو إليه.

٤ ـ **ومن فوائدها:** تهديد هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢]

التفسير

هذه الجملة مؤكدة بما سبق بالقسم، واللام، وقد.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾

يعني رسلاً منذرين، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

[النساء:١٦٥] لكنه هنا لم يذكر البشارة؛ لأن المقام مقام تهديد، فكان طي البشارة أنسب والاقتصار على الإنذار أنسب، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾

والرسول قال أهل العلم: الذي أوحي إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، فإن قلت: ماذا نصنع في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] فهو يقتضي أيضًا أن النبي وهو الذي أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بالتبليغ قد أرسل.

فالجواب: أن تقدير الآية: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبأنا من نبي. فهو على حد قول الشاعر:

(عَلَفْتُها تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا)

فالماء البارد لا يعلف ولكنه يسقى، وهو على تقدير: وسقيتها ماء باردًا.

ومن المعلوم أن حذف ما يعلم جائز، كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيته:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ بَعْدَمَا عِنْكُمَا

وقوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ اسم فاعل من أنذر ينذر، والمنذر المخوف، أي: مخوفين من خالف بالعقوبة وحرمان الثواب، فالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كلهم ينذرون من خالفهم بالعقوبة، وحرمان الثواب؛ لأن العاصي يحرم من ثواب الطاعة، إذ لو شاء لأحل محل المعصية طاعة، وكذلك يعاقب بما تقتضيه هذه المعصية.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة دليل على أن الله ـ تعالى ـ أقام الحجة على كل أمة ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] فكل الأمم قامت عليهم الحجة.

٢ ـ **ويستفاد من الآية:** أن من لم تبلغه الرسالة فلا حجة عليه؛ لأنه لم يبلغه الإنذار، وهو كذلك، ولكن ما حكمه في الدنيا والآخرة؟

فنقول: أما في الدنيا فَيُحْكَم بما يتعبد به ويتدين به، فإن كان يتدين باليهودية فهو يهودي، وإن كان بالنصرانية فهو نصراني، أو بالمجوسية فهو مجوسي، أو بالشيوعية فهو شيوعي، أي أننا لا نجري عليه أحكام المسلمين في هذه الحال؛ لأنه يدين بغير الإسلام، وليس لنا إلا الظاهر.

أما في الآخرة فحكمه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأصح الأقوال في هذا: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمتحنهم بما يشاء، فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

فإذا قال قائل: وهل في الآخرة تكليف؟ أليس التكليف ينقطع بالموت؟

فالجواب: نعم، في الآخرة تكليف، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢] ودعوتهم إلى السجود تكليف.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي في الخطاب أن يذكر ما يناسب المقام، وأن يحذف ما تكون الفصاحة في حذفه، وجهه أنه اقتصر هنا على ذكر الإنذار بالنسبة للرسل مع أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حالهم الإنذار والتبشير، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالخلق، حيث لم يكلهم إلى عقولهم في تعبدهم لربهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وجهه أنه أرسل إليهم الرسل، وأرسل إليهم الرسل أيضًا ليس مجرد أن يقولوا: اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير، بل قرن دعوتهم بالإنذار والتبشير، ليكون ذلك حافزًا لهم على فعل الأوامر واجتناب النواهي.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:٧٣].

الخطاب هنا موجه لواحد مذكر فمن هو أهو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم من يصح أن يوجه إليه الخطاب؟ الجواب: الثاني أعم.

أي: فانظر أيها المخاطب، أو أيها السامع كيف كان عاقبة المنذرين، وهنا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

ولم يقل: (ماذا كان) أي: انظر إلى الكيفية وإلى الغاية؛ لأن من نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، لو قال: ماذا كان عقابهم؟ لكان الجواب: الهلاك.

لكن كيف عقابهم؟ انظر إليه: إلى الكيفية. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت:٤٠] فانظر إلى كيفية العاقبة لتستفيد بهذا النظر شدة العقوبة وملاءمتها للذنب؛ لأن الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠] أي إن عقوبته ملائمة لذنبه، وأنت إذا تأملت هذا وجدت الأمر كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، فمثلاً كانت عاد تفتخر بقوتها وتقول: من أشد منا قوة؟ فأُهلِكوا بألطف الأشياء وهي الريح، أرسل الله عليهم ريحًا فدمرتهم، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ، وكان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأهلك بما كان يفتخر به وهو الماء،

وهكذا كلما تأملت هلاك القوم المكذبين للرسل وجدت أن عقوبتهم مناسبة تمامًا لذنوبهم.

إذن (انظر كيف) أبلغ من (انظر ماذا كان عاقبتهم)، وجه ذلك أنها تدل على شدة الأخذ وعلى مناسبته للذنب، ثم إنك إذا نظرت إلى الكيفية ستنظر إلى العاقبة لكن إذا قيل: انظر إلى عاقبتهم، لم تأمر إلا بالنظر إلى عاقبتهم فقط.

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الجملة هنا استفهامية ولكنها في حل نصب مفعول، (انظر)، وهذا النظر بالقلب، والغالب أن النظر بالعين يعدي بـ (إلى) فيقال: نظر إليه، وأن نظر القلب يكون متعديًا بنفسه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] يعني بالقلوب، أما بالأعين فلا يفيد إذا لم يتأثر بذلك القلب.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المنذرين هنا اسم مفعول، الذين أنذوا وخوفوا، ولكن لم يخافوا ولم يؤثر فيهم الإنذار، فكيف كان عاقبتهم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: عاقبتهم العذاب]. يعني: أن العاقبة كانت وخيمة ـ والعياذ بالله ـ، عوقبوا بالعذاب المدمر المهلك.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة**: تنبيه العاقل إلى النظر في عواقب المكذبين، وكذلك النظر في عواقب المجيبين، فإن الإنسان مأمور بالنظر في حال هؤلاء وهؤلاء، فإذا نظر في عواقب المجيبين وأنها عواقب حميدة صار منهم، وإذا نظر إلى عواقب المكذبين حذر منهم وابتعد عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الله لا يعاقب على الذنب إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فهم أنذروا فكانت العاقبة.

٣ ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أنه ينبغي للناظر أن ينظر إلى كيفية العقوبة، لتكون أعظم في تصوره من وجه، وليعرف حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في مناسبة العقوبة للذنب من وجه آخر.

فينظر إلى هذين الأمرين لبيان هذه العقوبة وشدتها ولبيان مناسبتها للذنب، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٤]

❁ التفسير ❁

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فسرها المؤلف: باسم الفاعل أي:

المؤمنين، إشارة إلى أن المخلص هنا اسم فاعل؛ لأن المفسِّر يطابق المفسَّر فيقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء هنا منقطع؛ لأن ما بعده من غير جنس ما قبله.

وإذا كان ما بعد إلا من غير جنس ما قبلها فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع يكون علامته أن يحل محل لكن، ولكن لماذا يؤتى بـ (إلا) بدل لكن؟ إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها، فهي تفيد الاستدراك مع ارتباط ما قبلها بما بعدها، من حيث المعنى وإن كان هذا يختلف عن ذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المراد بالعبودية هنا الخاصة.

بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وسبق لنا قريبًا بيان أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة.

أي: المؤمنين، فإنهم نجوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة.

وهذا على قراءة كسر اللام، أو؛ لأن الله أخلصهم له على قراءة فتح اللام، فأفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن في الآية قراءتين:

المخلصين والمخلَصين، لكن لم يصرح بهما، وإنما أتى بمضمونهما.

ففي الآية قراءتان ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والمخلَصين لإخلاصهم لله؛ لأنهم أخلصوا القصد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رب العباد، إليه الوجه والعمل، فلم يلتفتوا إلى ما سوى الله، والإنسان المخلص لله الذي أخلص قلبه له يوفق وتكون عاداته عبادات؛ لأنه دائمًا مع الله ودائمًا يتفكر في آيات الله، ودائمًا يحب القرب من الله، فيسعى إلى أن يكون قوله وفعله وتركه كله لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا في الحقيقة هو الرابح الذي ربح الوقت وربح العمر، ولم تضع عليه لحظة من اللحظات إلا وهو كاسب فيها، ولكن أكثر الناس في غفلة عن هذا الشيء، لم يخلصوا أنفسهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل إن من الناس من قد تكون العبادات في حقه عادات يقوم ويتوضأ ويصلي؛ لأن هذه عادته كأن هذه العبادات عمل يومي يقوم به، ولهذا لا نجدها تؤثر في القلب للغفلة الشديدة عن الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فهم مخلصون لله بالعبادة، وكذلك مخلصون أخلصهم الله، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [لها] أي: العبادة ولو قيل: معنى أسمى من هذا لكان أولى، أخلصهم الله لنفسه واختصهم من بين سائر العباد، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧] الذين اصطفاهم الله وجعلهم صفوة عبادة لنفسه، وهذا أبلغ في الثناء مما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: من أن الله أخلصهم للعبادة، بل نقول: أخلصهم له من بين سائر العباد.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة**: إشارة إلى أن المخلِص أو المخلَص ـ وهما متلازمان إخلاصهم هم وإخلاص الله لهم ـ إلى أن عاقبتهم النجاة، وجهه الاستثناء، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإن هؤلاء

عاقبتهم النجاة وعاقبتهم حميدة.

٢ - **ومن فوائدها:** حث الإنسان على أن يكون من هؤلاء العباد لينجو.

٣ - **ومن فوائدها:** فضيلة الإخلاص؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ والإخلاص هو الذي أمرنا به ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:١٤] ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

٤ - **ومن فوائدها:** تشريف هؤلاء المخلصين بإضافة عبوديتهم إلى الله - تعالى - ، فإنه لا شك أنه مني ضاف إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ينال الشرف، ولهذا شرف الله - تعالى - بيته بإضافته إليه فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦] وشرف الله المساجد بإضافتها إليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:١١٤] وسماها النبي - عليه الصلاة والسلام - بيوت الله «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ» وهذا لا شك تشريف للمضاف.

٥ - **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله على هؤلاء العباد، حيث أخلصهم لنفسه فلم يكن لهم مقصود إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

فإن قال قائل: أليس هؤلاء العباد لهم مقصود؟ فهم يأكلون قصدًا ويشربون قصدًا ويتمتعون بالمساكن وبالنساء قصدًا، فقد دخل في قصدهم قصد ما سوى الله، فما الجواب؟

الجواب: أنهم يتقربون إلى الله بهذا القصد. فمثلاً في الأكل: يأكل الإنسان تشهيًا بلا شك شهوة ودفعًا للضرورة، لكن يمكن أن يكون هذا الأكل عبادة من وجوه:

أولاً: إذا قصد به امتثال أمر الله؛ لأن الله أمر بالأكل والشرب.

ثانيًا: إذا قصد به حفظ صحته وقيام بنيته؛ لأن الإنسان مأمور بمراعاة نفسه، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(١).

ثالثًا: إذا قصد بذلك الاستعانة بهذا الأكل والشرب على طاعة الله، ولاسيما إذا كان معينًا إعانة مباشرة، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - : «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»(٢).

رابعًا: إذا قصد بذلك التبسط بنعم الله - تعالى - ، فإن الله - تعالى - يحب من عبده أن يتبسط بنعمته؛ لأن الكريم يحب أن يتبسط الناس بكرمه، ومن أشرف وقت عند الكريم أن تطرق بابه الضيوف ليكرمهم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٣٩)، الترمذي (٢٤١٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري(١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥) .

لكن البخيل بالعكس فإذا قصد الإنسان التنعم بنعمة الله والتبسط بها لا شك أن هذا قربة لله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لأن الله يحب إذا أنعم على أحد نعمة أن يرى أثر نعمته عليه.

فمن العلماء من يقول إذا قامت الحجة سواء فهم المدعو أو لم يفهم فلا عذر له، ومنهم من يقول: لابد أن تقام عليه الحجة ويفهمها، أما إذا قيل لهم: بعث رسول يدعو إلى الهدى ولكنه ما فهم هذا الشيء فإنها لا تقوم عليه الحجة؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٤] بعد أن بين أنه ينقسم الناس بهؤلاء الرسل إلى ضال ومهتدٍ، والمسألة تحتاج إلى تأمل في الواقع: هل يكتفى بمجرد قيام الحجة؟ وعليه أن يبحث عن المعنى، فيقال: أنت فرطت، لماذا لم تأتِ تستفهم؟ فأنت مقصر.

أو يقال: إن الرجل إذا قامت عليه الحجة وبلغته لكن على وجه مهوش فهذا معذور لاسيما إذا مات في زمن لم يتمكن فيه من البحث والاستفسار، - على كل حال - هي مسألة لها غور عظيم، وتحتاج إلى مراجعة كلام أهل العلم في هذه المسألة مراجعة تامة؛ لأنها في وقتنا الحاضر تدعو الحاجة إلى فهمها، إذ إن فيه كثيرًا من المسلمين على هذا الوجه، يعنيك بُين لهم الحق أو عرض لهم الحق عرضًا مهوشًا كما يوجد بين أهل البدع الآن، مثلاً فيه ناس عندها بدعة الرافضة أو بدعة الخوارج أو بدعة الأشعرية أو بدعة المعتزلة.

بدع كثيرة مهوش على الناس فيها، ولبس فيها الحق بالباطل، فكثير من الناس يقولون: إن الحق معهم، وهم على بدعة وضلالة.

فالمسألة في الحقيقة تحتاج إلى بحث تام في هذا الموضوع ومراجعة كلام أهل العلم، لاسيما العلماء المتحررون في أفكارهم مثل شيخ الإسلام - ابن تيمية - والشيخ محمد بن عبدالوهاب ومن أشبههم - رحمهم الله.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات:٧٥ - ٨٢]

التفسير

هذه الجملة كالتفصيل؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهنا شرع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يبين كيف كان هذا الضلال؟ ومتى كان؟ كان من أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وهو نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونوح أ ول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدليل الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣] إذن ليس هناك نبي مرسل قبل نوح ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

فإذا كانت النبوة والكتاب في ذريتهم، فليس قبل نوح أحد أوتي النبوة والكتاب، والمراد بالنبوة نبوة الرسالة، أما نبوة الوحي والعبادة فقد سبقت لآدم، فإن آدم نبي مكلم لكنه ليس نبيًا مرسلاً.

وأما من السنة فقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ وَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأرضِ»[1].

فنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أول الرسل ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم ليلاً ونهارًا، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥، ٦] يدعوهم سرًا وعلنًا ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٩] ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يزيدهم ذلك إلا نفورًا واستكبارًا مع قوة الرسالة والآيات العظيمة نكصوا واستكبروا، وما آمن معه إلا قليل، ولما رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ما حصل من قومه وأيس منهم دعا عليهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦ـ٢٧].

وقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠] فأجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ فانتصر الله له وأجاب دعاءه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١ـ١٢] ماء ينزل من السماء، وماء ينبع ويفور من الأرض فورانًا عظيمًا، يشمل كل الأرض حتى التنور الذي هو موضع إيقاد النار صار يتفجر ماء، والسماء تهطل بماء منهمر عظيم، فالتقى الماء حتى بلغ قمم الجبال، ولم ينجُ منه أحد إلا من كان مؤمنًا فإنه مع نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السفينة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٤).

فنوح هو أول الرسل وآخرهم محمد ﷺ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ولم يقل: وخاتم المرسلين، مع قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٤٠] إشارة أنه لا يمكن أن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

الجملة: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات كما سبق: القسم، واللام، وقد، ونقول: في توجيه التوكيد ما قلنا: فيما سبق.

وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ﴾ الفاء: حرف عطف تفيد الترتيب والتعقيب، واللام: موطئة للقسم، وتقدير الكلام: فوالله لنعم المجيبون.

والمجيبون: فاعل نعم، ونعم وبئس وشبهها. تحتاجان إلى فاعل وإلى مبتدأ لتكون جملتهما خبرًا عنه. هذا المبتدأ يسمى المخصوص. بالمدح أو بالذم.

فأين المخصوص في هذه الآية؟ يقول المؤلف رحمه الله (نحن) أي: فلنعم المجيبون نحن، وصدق ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نعم المجيب: الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن إجابته ليست كإجابة غيره؛ إجابة محققة، لكن بشرط أن تتم شروط الإجابة وأن تنتفي الموانع.

فإن لم تتم شروط الإجابة فإنه لا يجيب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ لأن إجابته كسائر أفعاله مبنية على الحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه، فإذا تمت شروط الاستجابة صار للاستجابة محل فحلت الإجابة. وإذا لم تتم لم يكن للإجابة محل، فلم تتحقق الإجابة.

ولابد من انتفاء الموانع وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تعالى ـ ذكر هذه الشروط والموانع عند ذكر الفوائد، فالله ـ تعالى ـ أثنى على نفسه بأنه نعم المجيب وصدق ا لله العظيم، فإنه ـ تعالى ـ نعم المجيب: يجيب عباده إذا اقتضت الحكمة ذلك بوجود الشروط وانتفاء الموانع.

وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [له نحن أيدعانا على قومه فأهلكناهم بالغرق]. دعا الله على قومه فأهلكهم بالغرق، فغرقوا عن آخرهم.

وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لَوْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مُنْجِيًا أَحَدًا مِنَ الْغَرَقِ لأَنْجَى أُمَّ الصَّبِيِّ»[1].

وأم الصبي امرأة كان معها صبي فلما رأت الماء يتزايد خافت على نفسها من الغرق، فلجأت إلى جبل فارتفع الماء حتى وصل إليها، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء حتى بلغت قمة الجبل فوصلها الماء، فلما رأت الماء قد وصلها وألجمها رفعت الصبي فوق يدها لتغرق قبله، قال النبي ﷺ فيما يذكر عنه: «لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ»[2]؛ لأن هذا

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم وموسى ليس بذاك».

(٢) انظر ما قبله.

من أبلغ ما يكون في الرحمة، أن تجعل موتها قبل موته، ترفعه على يديها حتى يدركها الغرق قبله.

فهؤلاء وغيرهم من الأمم ولا ينفعهم الإيمان إذا رأوا البأس، وانظر إلى فرعون لما أدركه الغرق قال الله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] لكن ما نفعه ذلك، قيل: له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس:٩١] لم يكن أحد من الأمم نفعهم إيمانهم لما رأوا البأس ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس:٩٨].

قال **أهل العلم**: والحكمة من ذلك: أن نبيهم خرج منهم مغاضبًا أن قبل أن يؤذن له، فلم تحق عليهم الكلمة لعدم تمام الإنذار في حقهم، فلهذا لما آمنوا كشف الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين، وسيجدون ما يستحقونه من العقوبة أو المثوبة.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

الأهل هنا هل نقول: المراد المؤمنون؟ أو نقول: إن الأهل هم خاصة الرجل؟؛ لأن هناك فرقًا بين آل وأهل، آل: أتباع، وأهل: هم الخواص، خاصة الرجل كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب:٣٣] أهل البيت الخاصة لا يشمل الأمة كلها.

فهل نقول: المراد أهله الذين هم خاصته؟ هذا هو الأقرب من الآية، لكن في آيات أخرى تدل على أن الذي نجا هو ومن آمن معهم.

يستثنى من أهل نوح ابنه الذي كفر به فإنه أدركه الغرق، ولما سأل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥ ـ ٤٦] ويستثنى من ذلك امرأته كما قال الله ـ تعالى ـ في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] أي: بالكفر لا بالفاحشة والزنا؛ لأنه من المستحيل أن يجعل الله امرأة نبي تزني؛ لأن الزنا خبث، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِ﴾ [النور:٢٦] فخيانة امرأة نوح وامرأة لوط كانت بالكفر، والكفر قد يكون في امرأة النبي وهو لا يعلم، ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني: أخفت الكفر عن نوح وعن لوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

فـ (أهل) هنا ليس على عمومه، وإنما هو عام مخصوص؛ لأن العام الذي أريد به الخاص لابد أن يكون معلومًا للمخاطب أنه لم يرد به إلا الخاص من أول الأمر، فأما الشيء الذي لم يعلم إلا بنص آخر فإن هذا يسمى عامًا مخصوصًا.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الكرب: ضد السعة، والإنسان المكروب هو الذي أصابه ما يُكْرَب به، ولا شيء أعظم من كرب الموت.

وهذا الكرب الذي أصاب قومه كرب عظيم؛ لأنه غرق، يموت الإنسان وهو ينظر، وموت الإنسان بمرض يعلم أنه لا قدرة له على إزالته، لكن بالغرق يموت وهو يؤمل أن ينجو، ولهذا تجده بكل قواه يحاول النجاة ولكن لا تحصل، فكأنه يموت ويقطعه الموت وهو ينظر إليه، فلهذا صار كربًا عظيمًا؛ لأنه بالغرق، ومثله الموت بالحرق بالنار فإن الإنسان يموت بأمر يشعر بنفسه أنه يستطيع التخلص منه، ولكن يعجز فيكون وقع الموت عليه أشد، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ في الآية إشكال إعرابي، وهو أن الباقين منصوبة مع أنها بعد ﴿هُمُ﴾ وهم يكون مبتدأ، والمبتدأ خبره مرفوع، وجاءت منصوبة هنا؛ لأن (هم) ضمير فصل وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، وعلى هذا فتكون الباقين المفعول الثاني لجعلنا؛ لأن جعلنا من أفعال التصيير، فهي بمعنى صيرنا وتنصب مفعولين: المفعول الأول ذريته، والمفعول الثاني الباقين.

وقوله: ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (هم): ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، لكن له محل من المعنى، فهو يميز بين الخبر والصفة، ويفيد التوكيد، ويفيد الحصر.

﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: نسله فقد جعل نسل نوح - عليه الصلاة والسلام - هم الباقين، ولهذا يقال: إن نوحًا - عليه الصلاة والسلام - هو الأب الثاني للبشرية، والأب الأول آدم - عليه الصلاة والسلام.

ويقال: إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أبو الأنبياء ولا يقال: أبو البشرية؛ لأن البشر لم ينحصروا في ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لكنه أبو الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بعده كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦] فما قبل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من الأنبياء فهم من ذرية نوح - عليه الصلاة والسلام - ؛ وما بعد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من ذرية إبراهيم ونوح - عليهما الصلاة والسلام - ؛ لأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من ذرية نوح - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [فالناس كلهم من نسله - عليه السلام - وكان له ثلاثة أولاد: سام، وهو أبو العرب والفرس والروم، وحام: وهو أبو السودان، ويافث: وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك].

ما ذكره - رحمه الله - هو المشهور عند المؤرخين أن أولاد نوح - عليه الصلاة والسلام - كانوا ثلاثة: سام، وحام، ويافث، لكن لم يأتِ هذا بسنة صحيحة عن النبي ﷺ ولا في القرآن ما يدل على ذلك، فالأولى أن نقول: إن الناس بعد نوح من ذريته، وأما هذا التقسيم فيحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من كتاب الله - تعالى - ولا سنة رسوله ﷺ على ذلك، والله - سبحانه وتعالى - ذكر أن الأمم السابقة لا يعلمهم إلا الله، فقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فإذا نفى الله علم

أحد بهم إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجب أن يتلقى علمهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا من غيره، فنرجع إلى الوحي، وعلى هذا ما في كتب المؤرخين من أحوال الأمم الماضية إذا لم يكن عليه دليل من الكتاب والسنة فإنه مما يتوقف فيه، ولا يلزم به، كحديث بني إسرائيل، فهؤلاء الثلاثة الأبناء لنوح ممن يتوقف فيهم، ونحن لا يهمنا الباقون من أولاده ثلاثة أو ثلاثون، المهم أن نؤمن بما دل عليه كتاب الله وهو أن ذرية نوح هم الذين بقوا، وأما من آمن معه فإما أنه ليس له ذرية أو قد يكون لهم ذرية ولكن لم تبق، فالله أعلم، ومن الجائز أن يكون له ابن ثم ينقطع نسله، فلا نعلم لكن الذي بقي نسله هو نوح.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني: أبقينا له ثناء حسنًا، ولم يقل: تركنا له بل قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إشارة إلى أن تركنا مضمنة معنى يناسب حرف الجر المذكور، فلابد أن يضمن تركنا معنى مناسب لعلى، والمعنى المناسب لعلى هو الثناء، يعني: أثنينا عليه ثناءً متروكًا في الآخرين، وهو كذلك.

فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليه ثناء من أفضل الثناء، قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ :﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] هذا ثناء أعظم ما يكون من الثناء، وأشرف ما يكون من الفخر أن الله يصف واحدًا من بني آدم فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يعنيك قائمًا بالعبودية، وقائمًا بالشكر، ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فالله أبقى عليه ثناء حسنًا في الآخرين إلى آخر الأمم بل إلى يوم القيامة؛ لأن هذا الكتاب سيبقى إلى أن يرفعه الله عند قرب قيام الساعة.

وقوله: ﴿الْآخِرِينَ﴾ [من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة]، والظاهر من الآيات الكريمة أن جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يذكر فيهم نوح بالثناء الحسن، فتكون الأنبياء كلهم والأمم يطرون نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أثنى الله به عليه؛ لأنه مذكور في كل الكتب ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (سلام) مبتدأ، ونُكِّر من أجل التعظيم أي: سلام عظيم؛ لأنه سلام من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وهذا السلام معناه: أن الله سلَّمه من القوادح التي تقدح فيه، وحل محل هذه القوادح من البشر الثناء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، فجمع الله له بين أمرين: الثناء، وبين تسليمه مما يقدح فيه، ولهذا نقول: ﴿سَلَامٌ﴾ بمعنى تسليم، أي أن ا لله سلمه من كل ما يضره من القوادح التي تقدح فيه من بني آدم.

وقوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ المراد بالعالمين هنا: مَن بعد نوح لا مَن قبله فيما يظهر، وعلى هذا فيكون عامًّا يراد به الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ المراد بالجمع ﴿إِنَّا﴾ التعظيم، فإن الله واحد ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه إذا ذكر اسمه بما يدل على الجمع فالمراد به التعظيم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكل من أحسن فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجزيه كما جزى نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد جزى الله نوحًا بأمرين: بما ترك عليه في الآخرين، وبما سلمه في العالمين.

فكذلك من كان مؤمنًا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، محسنًا في عبادته، وإلى عباده فإن الله ـ تعالى ـ يجزيه كما جزى نوحًا، وذلك تجد أن الله ـ تعالى ـ وضع في قلوب الناس وألسنتهم الثناء على أئمة المسلمين على الرغم من أن الناس منهم من يقدح فيهم؛ لأن كل واحد من أهل الخير لابد أن يقدح فيه واحد من أهل الشر ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] وكذلك كل من تمسك بهدي نبي فإن له عددًا من المجرمين ـ بلا شك ـ.

لكن يقيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا المؤمن من يبدل هذا القدح بالثناء، ومن يدفع هذا القدح.

ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا، والإحسان ينقسم ـ كما تقدم ـ إلى قسمين:

١ ـ إحسان في عبادة الله ـ تعالى ـ.

٢ ـ إحسان إلى عباد الله ـ تعالى ـ.

فالإحسان في عبادة الله لا نفسره بأحسن من تفسير رسول ا لله ﷺ حيث قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

والعبادة في قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» عباد طلب كأنك تراه، ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تشتاق إليه النفوس، فإذا كان يعبد الله كأنه يراه فسوف يلح في العبادة ليصل إلى محبوبه وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» يعني إن لم تصل إلى هذه الدرجة وهي عبادة الرغبة والطلب، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فاعبده عبادة هرب وخوف منه، وهذا ليس كالأول؛ لأن هذا يعبد الله خوفًا منه، والأول يعبده طمعًا، فالمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثانية، ولهذا جعلها النبي ﷺ في الدرجة الثانية، إن لم تكن تراه وتعبده كأنك تراه فإنه يراك. فإياك أن تخالفه أو تقع في معصيته.

أما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه، وبعضهم قال: (هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه).

بذل الندى: يعني العطاء، وكف الأذى: ألا تؤذي أحدًا لا بقولك ولا فعلك، وطلاقة الوجه: ألا تقابل الناس بوجه عابس مكفهر؛ لأن الإنسان مهما كان إذا لقي الناس بوجه عابس مكفهر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فليس محسنًا إليهم، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتب النبي ﷺ وهو أفضل الخلق حين حصل له ما حصل مع عبد الله بن أم مكتوم، ـ رضي الله عنه ـ مع أن الرسول ﷺ حصل له ما حصل اجتهادًا منه، فقال الله ـ تعالى ـ في ذلك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس:١ ـ ١٠] كلمات عظيمة لكنها مع ذلك خففها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن بدأها بضمير الغيبة فقال: ﴿عَبَسَ﴾ كأنما يتحدث عن شخص آخر لا عن الرسول ﷺ، ولم يقل: عبست وتوليت؛ لأنه كما مر علينا كثيرًا بأن المخاطب بصيغة الخطاب أعظم وأشد من التحدث بضمير الغيبة.

أما قولهم: الإحسان إلى عباد الله هو: بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه.

أما بالمال فظاهر، وبالبدن أن تخدمهم، ومع هذا إذا خدمت الإنسان وأعنته فأنت مأجور، كما قال الرسول ﷺ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»[١].

ومن البذل البدني: طلاقة الوجه؛ لأنها تتعلق بالبدن.

أما الجاه بأن تنفع الناس بالتوسط والشفاعة فيما فيه الخير لهم ولك.

الفوائد:

١ ـ في هذه الآية من **الفوائد:** بيان تأكيد الشيء بالقسم إذا دعت الحاجة إليه، وأن هذا من فصيح الكلام؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكد هذا بالقسم واللام وقد.

٢ ـ ومن **الفوائد:** حث النبي ﷺ وغيره على دعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأن الله إذا ناداه عبده بالدعاء أجابه.

٣ ـ ومن فوائدها : إثبات سمع الله ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٤ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بلجوئه إلى ربه عند حلول المضايق.

٥ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكمال الإجابة؛ لأن الثناء على المجيب يستلزم الثناء على الإجابة. فإجابة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليست كإجابة غيره، بل هي إجابة فضل وإحسان، قد يعطي الإنسان أكثر مما سأل.

٦ ـ **ومن فوائدها:** بيان رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في إجابة دعوة الداعي. ولكن لإجابة الدعاء شروط لابد أن تتحقق، وهي:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

الشرط الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يخلص الإنسان في دعائه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلب حاضر صادق في اللجوء إليه، عالم بأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قادر على إجابة الدعوة، مؤمل الإجابة في الله. ـ سبحانه وتعالى ـ.

الشرط الثاني: أن يشعر الإنسان حال دعائه بأنه في أمس الحاجة، بل في أمس الضرورة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

الشرط الثالث: أن يكون متجنبًا لأكل الحرام، فإن أكل الحرام حائل بين الإنسان والإجابة.

فهذه الشروط لإجابة الدعاء، إذ لم تتوفر فإن الإجابة تبدو بعيدة، فإذا توافرت ولم يستجب الله للداعي، فإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولا يعلمها هذا الداعي، فعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، وإذا تمت هذه الشروط ولم يستجب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإنه إما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخرها له يوم القيامة فيوفيه الأجر أكثر وأكثر؛ لأن هذا الداعي الذي دعا بتوفر الشروط ولم يصرف عنه السوء ما هو أعظم، يكون قد فعل الأسباب ومنع الجواب لحكمة، فيعطي الأجر مرتين مرة على دعائه ومرة على مصيبته بعدم الإجابة فيدخر له عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما هو أعظم وأكمل.

٧ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على إجابة الدعوة؛ لأن الإجابة تستلزم القدرة عليها؛ لأن العاجز لا يمكن أن يجيب.

٨ ـ **ومن فوائدها:** بيان عظمة الله، وذلك بالإتيان بالواو في صفته بقوله: ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ فإن هذه قطعًا ليست للجمع؛ لأن الله واحد ولكنها للتعظيم.

ومن فوائد قوله: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

١ ـ بيان أن قومه أصيبوا بكرب عظيم وهو الهلاك بالغرق، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجَّى نوحًا وأهله.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث حل العذاب بهذه الأمة، فنجى قومًا وغرق قومًا.

٣ ـ **ومن الفوائد:** كمال عدله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث جازى كل واحد بما يستحق، فمن استحق النجاة نجَّاه، ومن استحق الهلاك أهلكه.

٤ ـ جواز إطلاق العام وإن كان مخصوصًا؛ لأن قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ يشمل المؤمن والكافر منهم، وقد دلت آية أخرى على أن من أهله ممن لم ينجُ.

ومن فوائدا قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

١ ـ أن نوحًا هو الذي بقي نسله من بني آدم فكل من بقي من بعد نوح فهو من نسله، ولهذا يسمى الأب الثاني للبشرية.

وهنا سؤال وهو أن يقال: إن النبي ﷺ ذكر أن الله خصه أنه بعثه إلى الناس كافة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وظاهر هذه الآية الكريمة أن نوحًا بعث إلى البشر جميعًا ؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وذريته كانوا مباشرين له لم يكونوا في مكان آخر؟ ما وجه ذلك؟

والجواب على ذلك: أن هذه الآية لا تستلزم ما ذكر، فقد يكون هناك أمم في أماكن بعيدة لكنها فنيت ولم يبق إلا ذرية نوح، وتكون الأمم البعيدة التي لم تشملها دعوة نوح لها رسل ثم فنيت هذه الأمم والرسل الذين بعثوا إليها ولم يبق إلا ذرية نوح.

ومن فوائد قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾

١ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العبد بثناء الآخرين عليه؛ لأن الإنسان إذا مات انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم يثني ثناءً حسنًا، وقسم يثني ثناء سيئًا، وكل من تتفق الأمة عليه بالثناء وأعني بالأمة أمة الإجابة، فأمة الإجابة كثيرًا ما يتفقون على الثناء على شخص معين، لكن أمة الدعوة التي فيهم الكافر والمؤمن والفاسق والعاصي لا يتفقون على الثناء على شخص؛ لأن كل من قوي إيمانه ودعوته إلى الله فسيجد مضادًا من أعداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ، لكن أهل الخير والإيمان يحبون الداعية إلى الله ويثنون عليه ما يستحق.

وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من **الفوائد:**

١ ـ أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد برأه الله في الآخرين، حيث يقولون القول الذي فيه سلامته من القدح، فيكون الله قد جمع له بين الثناء الحسن ودفع الثناء السيئ ؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إطلاق العام وإرادة الخاص؛ لأن قوله: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا يتناول مَنْ قبل نوح، فإن الظاهر أنه لم يسبق له ذكر فيما سبق.

ومن فوائد قصة نوح ـ عليه السلام ـ ككل:

*ـ إدخال البشارة على رسول الله ﷺ وأصحابه، حيث يكون لهم أسوة في نوح ومن نجا معه، وتهديد المكذبين له، حيث يكون لهم إنذار لما جرى للمكذبين لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن فوائد قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

١ ـ أن المحسن يجازى بمثل ما جوزي به نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بإنجائه من الهلاك وسلامة عرضه من الذكر السيئ، وكلما كان الإنسان أكثر إحسانًا كان أكثر ثوابًا وأسلم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات القياس ؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: مثل هذا الجزاء نجزي كل محسن.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الجزاء والعقوبة والثناء والقدح على الأوصاف لا على الأشخاص؛ لأنه هنا علّق الجزاء على الإحسان، ولهذا لم يأتِ شيء من أحكام

الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقيدًا بشخص لشخصه أبدًا حتى خصائص الرسل ليست من باب خصائص الأشخاص، لكن من باب خصائص الأوصاف؛ لأن فيهم وصفًا زائدًا على غيرهم، وهو وصف النبوة والرسالة فخصوا ببعض الأحكام المناسبة لمقامهم، أما أن يخص شخص بعينه؛ لأنه فلان ابن فلان مثلاً فهذا لا يوجد في الشريعة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الأحكام ويعلقها على الأوصاف لا على الأشخاص.

٤ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة إلى كمال هذين الوصفين وهما العبودية والإيمان، وأنهما أشرف وصف يتصف به الإنسان أن يكون عبدًا لله مؤمنًا به؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: نوحًا، ونوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أولي العزم من الرسل، فإذا كان من مناقبه وفضائله أن يكون من عباد الله المؤمنين دَلَّ ذلك على فضيلة العبودية والإيمان.

ومن فوائد قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾:

١ ـ بيان حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث أغرق هؤلاء المكذبين لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بل المكذبين لرسله؛ لأن الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

وتكذيب قوم نوح ليس من أجل نوح، ولكن من أجل ما جاء به، ولهذا كان تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل؛ لأنه تكذيب لجنس الرسالة وليس لشخص المرسل.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إقامة العدل بإغراق هؤلاء المكذبين؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يغرقهم ظلمًا، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣]

❁ التفسير ❁

هذه الجملة مكونة من (إنَّ) واسمها وخبرها، واسمها متأخر: إبراهيم والخبر مقدم «من شيعته»، واللام هنا لام التوكيد، أي أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والشيعة تطلق في اللغة على كل من شايع الإنسان وتابعه وأعانه وناصره فهو شيعته.

وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: من أتباعه وأشكاله وناصري ما جاء به من الشرع، فإن نصر الشرع في أي: زمان ومكان فإنه ناصر لجميع

الشرائع؛ لأن تأييد الشرع الذي جاء من الله في أي: زمان ومكان تأييد لشرع الله كله، ولهذا نحن نفرح بانتصار الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم ولو كانوا في زمن بعيد، ولو كانوا ليسوا من الذين أرسلوا إلينا خاصة، فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من شيعة نوح أي: من مؤيديه وأتباعه فيما جاء به، وليس في نفس الشريعة، ولكن في الجنس أي أنه يؤيد وينصر الوحي الذي هو من جنس الوحي الذي جاء به نوح - عليه الصلاة والسلام -، ولهذا قال المؤلف: - رحمه الله - [أي: ممن تابعه في أصل الدين] وهو قبول وحي الله - عَزَّ وَجَلَّ - والعمل به والدعوة إليه، إذ جميع الرسل بعضهم لبعض شيعة؛ لأنهم كلهم يتناصرون ويؤمنون بالوحي كله.

وقوله - رحمه الله - : [وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح]. وقوله: [وإن طال الزمان بينهما] هذا صحيح ولا شك أن بين نوح - عليه الصلاة والسلام - وإبراهيم زمانًا طويلاً، لكن تقييدها بما ذكره المؤلف يحتاج إلى دليل صحيح، إما من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، ولا نعلم لهذا أصلاً في القرآن ولا في السنة، فإن قيل: فإنما هو ما نقل عن بني إسرائيل فإننا لا نصدق به ولا نكذب به.

وقوله: [وكان بينهما هود وصالح]، دليل ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - يقرن قصة هود دائمًا بقصة نوح، ومن بعدها قصة صالح، وهذا مما يدل على أن هؤلاء الثلاثة قبل إبراهيم.

أما نبي الله إدريس فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان قبل نوح، ولكنه قول ضعيف جدًا؛ لأنه سبق لنا أن نوحًا - عليه الصلاة والسلام - هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، والقول بأن إدريس قبله قول ضعيف، بل هو باطل في الواقع، فنوح أول الرسل، وإدريس يظهر - والله أعلم - أنه من أنبياء بني إسرائيل.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٤ - ٩٦]

التفسير

قال المؤلف ـ رحمه الله [أي: تابعه وقت مجيئه] يحتمل ما قال المؤلف، وأن ﴿إِذْ﴾ متعلقة بقول ﴿شيعته﴾ أي: وممن شايعه حين جاء ربه بقلب سليم إبراهيم.

ويحتمل أن ﴿إِذْ﴾ استئنافية، وأن تقدير الكلام: اذكر إذ جاء ربه بقلب سليم، وهذا هو الأصح، فالصحيح أنها ليست متعلقة بذلك، وأنه من شيعته وقت المجيء، بل هو من شيعته وقت المجيء وغيره، لكن أراد الله ـ تعالى ـ أن ينوه بهذا الوصف العظيم لإبراهيم، ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ومتى مجيئه لربه فالمراد جاء ربه حين لاقاه بعد الموت، أو جاء ربه حين آذاه قومه وهددوه بالإحراق، أم نطلق كما أطلق الله.

الأولى أن نطلق كما أطلق الله ونقول: جاء ربه في الوقت الذي يعلم الله مجيئه فيه بقلب سليم.

قال المؤلف: [سليم من الشك وغيره]، والصحيح أن السلامة أعم مما قال المؤلف، فهو سليم من الشبهات، ليس فيه شك بأي وجه من الوجوه، بل هو على علم ويقين بما آمن به.

وسليم من الشهوات ليس في قلبه هوى يخالف ما جاء به الوحي، وهذه هي سلامة القلب أن يكون سالمًا من الشبهات التي تعرض له، والشكوك فيكون مؤمنًا حقًّا، ويكون سالمًا من الشهوات، والشهوات هي: الإرادات المخالفة لما جاء به الوحي، وليس كل قلب يهوى ما جاء به الوحي.

فالقلوب جوَّالة يمينًا وشمالاً، أحيانًا قلب الإنسان نفسه يتجول، في بعض الأحيان يكون مقبلاً غاية الإقبال على الوحي محبًّا له مطبقًا له، وأحيانًا يجد فتورًا عن الإقبال على الوحي وفتورًا عن تطبيق ما جاء به الوحي، ولهذا ينبغي للإنسان دائمًا أن يسأل الله ـ تعالى ـ الثبات على الأمر وثبات القلب؛ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء.

فعلى الإنسان ألا يغتر بنفسه ولا يعجب بعقيدته، بل عليه أن يسأل الله دائمًا الثبات؛ لأن القلب يعتريه شبهات ويعتريه شهوات، فأحيانًا يكون الإنسان مؤمنًا حقًّا ثم يلقي الشيطان في قلبه شبهة فيعمى ـ والعياذ بالله ـ، ويضل، وأحيانًا يكون الإنسان صالحًا مستقيمًا على أمر الله فيلقي الشيطان

في قلبه شهوة فيضل، ويتبع الشهوات، فالقلب السليم: هو السالم من الشبهات والشهوات، فيكون إذا سلم من ذلك مستقيمًا على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ نقول: فيه كما قلنا: في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أنه جملة استئنافية لبيان حال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فكان قلبه سليمًا صالحًا في نفسه، ومع ذلك يحاول إصلاح غيره قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [موبخًا لهم]، فالاستفهام هنا

بمعنى التوبيخ، والتوبيخ يستلزم الإنكار عليهم وزيادة؛ لأنك قد تنكر على الإنسان بدون توبيخ، ولكن إذا وبخته فإن توبيخك مستلزم للإنكار عليهم.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ سمى الله هذا الأب في سورة الأنعام فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام:٧٤] وكان أبوه مشركًا ووعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستغفر له، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] فاستغفر له، ولكنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ومحاورته بينه وبين أبيه في سورة مريم واضحة كيف كان يخاطبه بالرفق واللين، ولكن ذلك يخاطبه بالشدة والعنف، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى﴾ [مريم:٤٦] أيدعني واتركني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمنًا طويلاً.

وقوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذه الجملة استفهامية، ولكن هل (ذا) ملغاة، أو اسم موصول؟ يجوز الوجهان، فإن جعلناها اسمًا موصولاً أعربنا «ما»: مبتدأ، و «ذا» خبره، وجعلنا العائد محذوفًا، والتقدير: ما الذي تعبدونه.

وإن جعلناها ملغاة فإننا نعرب «ماذا» جميعًا، ونقول: «ماذا» اسم استفهام، مفعول مقدم لتعبدون، أو نقول: «ما» اسم استفهام مقدم لتعبدوه و (ذا) لا محل لها من الإعراب، حرف أو بمنزلة الحرف، ليس لها محل من الإعراب، والمعنى أنه أنكر عليهم وقال: ما الذي تعبدون؟ هل تعبدون إلهًا حقًّا أو تعبدون إلهًا باطلاً؟ ﴿أَئِفْكًا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [في همزتيه ما تقدم] وهو التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال الفاء بينهما في التحقيق والتسهيل، فتكون القراءات أربعًا.

قال المؤلف: [إفكا مفعول له، وآلهة مفعول به لتريدون. والإفك أسوأ الكذب أي: تعبدون غير الله].

المؤلف ـ رحمه الله ـ أعرب لنا هذه الجملة فقال: إن «إفكًا» مفعول له أي: مفعول لأجله، وأن قوله: «آلهة» مفعول لتريدون، و «دون الله» صفة لآلهة والاستفهام في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ كالذي قبله، يعني أتريدون آلهة غير الله من أجل الإفك والكذب، ويحملكم على هذا الإفك، وهو أسوأ الكذب.

والمعنى: أتريدون آلهة دون الله تعبدونها، فالإرادة هنا بمعنى القصد، والآلهة بمعنى المألوهة أي: المعبودة تريدون ذلك للإفك الذي أفكتموه وهو أسوأ الكذب، ولا شك أن أسوأ الكذب وأظلم الكذب من جعل مع الله إلهًا آخر فإنه أكذب الكاذبين، وأظلم الكاذبين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وهنا قال: ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ أي: سواه وغيره، وربما تشعر بدون المنزلة أنها لا تساوي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فكيف تريدونها آلهة وتقصدونها.

وقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستفهام هنا استفهام تهديد على كلام المؤلف، يعني ماذا تظنون أن الله فاعل بكم إذا عبدتم غيره، أتظنون أن يترككم؟ والجواب: لا.

ويحتمل أن المعنى إذا اتخذتم مع الله غيره إلهًا فما ظنكم به؟ أتظنون أنه يقبل هذه الشركة؟ فالله -عَزَّ وَجَلَّ- لن يقبل، قال الله -تعالى-: في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَه»(١).

أو ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ فما ظنكم بعظمته وجلاله، لو كنتم عظمتموه حق تعظيمه ما أشركتم به غيره.

فالاستفهام في قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ تشمل كل هذه المعاني:

١- ما ظنكم به أن يترككم هملاً بدون عقاب.

٢- ما ظنكم به إذا اتخذتم معه غيره أنكم تنقصتموه.

٣- ما ظنكم به أنه يرضى أن تعبدوا معه غيره، كل هذا أمر إن كانوا يظنونه فقد أساءوا الظن بالله، ولم يقدروا الله حق قدره، ولك هذه الظنون تلزمهم إذا اتخذوا مع الله غيره ولا يمكن أن يفروا عنها.

وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبق لنا أن المراد بالعالم هنا ما سوى الله -عَزَّ وَجَلَّ- فكل ما سوى الله فهو عالم، وسُمّوا عالمًا؛ لأنهم علم على الله، فيستدل بمخلوقاته، -سبحانه وتعالى- عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، [فصلت:٣٧]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] إلى آخر ما استدل الله به على نفسه من آياته.

فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربوبية هنا عامة، ولم يقل: ما ظنكم بالله إشارة إلى أن هذه الآلهة المعبودة مربوبة لله -عز وجل-، فكيف تكون معبودة من دونه؟

وقد ضرب الله -سبحانه وتعالى- مثلاً في الإنسان المملوك هل يرضى سيده أن يشاركه أحد فيما يختص به؟ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨] الجواب: لا، فليس لنا مما ملكت أيماننا من شركاء فيما رزقنا الله.

وتأمل قوله: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يتبين لك أن هذا رزق الله ومع ذلك يحتكره الأسياد عن العبيد ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ وهذا هو محط الاستفهام، والجواب: لا.

وإنما قلنا: هذا محط الاستفهام؛ لأنهم شركاء فيما رزقهم الله، لكن بقدر القوت والضرورة، فالعبد يشارك سيده، يأكل ويشرب ويلبس كما يفعل السيد، وهذا كله مشاركة في رزق الله لكن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

هل هم مساوون لأسيادهم في ذلك؟ لا، إذا كان هكذا فلماذا تساوون غير الله مع الله في عبادته؟ فالمهم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد إقامة البرهان على أن هذه الآلهة لا تصح أن تكون آلهة؛ لأنها مربوبة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والمربوب عبد لا يصح أن يكون ربًّا.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم، زعموا التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيد إبراهيم: اخرج معنا ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾. إيهامًا لهم أنه يعتمد عليها ليعتمدوه].

قوله ـ رحمه الله ـ: [قالوا للسيد إبراهيم]. تسمية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسيد فيه نظر، ولو أنه قال: إبراهيم الخليل أو الرسول، أما السيد في هذا المقام فمما لم يرد، ولا شك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد من سادات الخلق، لكن أن نعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية فهذا فيه نظر.

وهذا الكلام المتقدم الذي ذكره المؤلف أنه محذوف من باب الإيجاز بالحذف يحتاج إلى دليل يثبت أن هؤلاء القوم صنعوا طعامًا ووضعوه عند هذه الأصنام للتبرك عليه، وأنهم أرادوا أن يأكلوه بعد رجوعهم وطلبوا خروج إبراهيم معهم، كل هذا يحتاج إلى دليل، وذكرنا فيما سبق أن قصص الأنبياء السابقين لا يعلمها إلا الله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نتلقى أخبار هؤلاء إلا من الوحي، إما بالكتاب وإما بالسنة، وما جاء من أخبارهم من غير هذا الطريق ـ أي: طريق الوحي ـ فإننا نتوقف فيه ما لم نعلم مناقضته للشرائع، فإن علمنا مناقضته للشرائع وجب علينا رده، فإذن نقتصر في القصة على ما ذكره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ في يوم من الأيام نظر نظرة في النجوم من أجل محاجة قومه وإظهار عجزهم، فهو كما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الأنعام عن محاجة إبراهيم لقومه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا فقال: (هذا ربي)، فلما أفل ـ أي: غاب ـ قال: لا أحب الآفلين؛ لأن الرب لا يمكن أن يغيب عن مربوبه، فلما غاب هذا النجم علم أنه ليس برب؛ لأن الرب لابد أن يكون له كمال الرعاية لمن كان ربًّا له، فلما رأى القمر بازغًا، قال: هذا ربي والقمر أظهر وأبين من الكوكب، فلما أفل قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، وهذا تعريض لقومه بالضلال.

فانظر التدرج كيف يكون؟ قال: لا أحب الآفلين، يعني هو تبرأ من ذلك، ثم عرَّض بأن قومه ضالون ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] وهو صحيح، فالشمس أعظم من القمر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، فأعلن بشركهم وبالبراءة منهم، وهذا من كمال محاجته.

فلا يبعد أن تكون هذه الآية ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ من جنس المحاجة المذكورة في سورة الأنعام.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أي: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك؛ لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم فلما نظر قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من باب التورية، وهذا تورية بالفعل، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنه يرى شيئًا وهو لا يريده، أو أنه معرضًا عن شيء وهو قد وضع باله عليه.

فهذا من التورية بالفعل؛ لأنك أظهرت لغيرك خلاف ما يراه، والتورية بالقول أظهرت لغيرك خلاف ما يسمعه، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورّى بالنظر بالنجوم ثم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وفسّر المؤلف ـ رحمه الله ـ (سقيم) بمعنى سأسقم وهذه تورية قولية؛ لأن ظاهر اللفظ (إني سقيم) يعني الآن، ولا أستطيع الخروج معكم، ولكنه يريد سأسقم؛ لأن اسم الفاعل صالح للزمان الحاضر والزمان المستقبل، فيصح أن تقول: إني حاضر الآن، وإني حاضر غدًا، فلما كان صالحًا للأمرين، ونظر نظرة في النجوم وقال: إني سقيم، تولوا عنه وتركوه وهو يريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بفعله هذا أمرًا سيتبين فيما بعد ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال في خفية إلى آلهتهم وهي الأصنام التي يعبدونها.

قال المؤلف: [وعندها الطعام]. فأخذ المؤلف من قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أن الطعام عندها؛ لأن عرض الأكل عليهم يدل على أن الأكل كان موجودًا.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال بخفية وانطلق بخفية، والروغان كما هو معروف هو: سرعة الإنسان لكن على وجه لا أحد يحسن به، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ و «ألا» هنا للعرض، وهذا القول ليس على سبيل الإلزام، ولا يمكن أن يلزمها بأن تأكل؛ لأنه يعلم أنها لن تأكل، ولكنه قاله على سبيل الاستهزاء والسخرية، وإلزام هؤلاء العابدين بأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، لا؛ لأنها مستغنية عن الطعام ولكن؛ لأنها لا تعقل ولا تعلم، والذي لا يعقل ولا يعلم لا يمكن أن يكون معبودًا، ثم إن صح وضع الطعام عندها من قبلهم فإن هذا دليل على أنها ليست صالحة للألوهية؛ لأن الإلة مستغن عن غيره، ولهذا أقام الله ـ تعالى ـ الدليل على أن عيسى ابن مريم وأمه ليس بإلهين بكونهما يأكلان الطعام، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده الإله الحق بكونه يُطْعِم ولا يُطْعَم، فاحتياج ما يعبد إلى الطعام دليل على نقص وأنه لا يصح أن يكون إلهًا.

لكن هم من سخافتهم يجعلون هذا الطعام عندها كأنها تحتاجه وتأكله وتتصرف فيه.

وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ الاستفهام هنا للتحقير، أي أنه يحقرها لكونها لا تنطق، وخاطب هذه الأصنام مخاطبة العقلاء في قوله: ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ ولم يقل: ما لكن. تنزلاً مع أصحابها الذين يجعلونها من ذوات العلم وذوات القبول الدفع عنهم

وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ يعني: أي: شيء يمنعكم من النطق إن كنتم آلهة؟

فإذا قال قائل: هذا الخطاب لهذه الأصنام هل كان في غيبة عابديها؟ إن قلت: نعم، فما فائدة هذا الخطاب؟ وإن قلت: لا، فكيف الجواب عن قوله: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾؟

والجواب: أن نقول: إن عابديها لم ينصرفوا كلهم عنها، بل كان عندها من الحراس ما يقتضي أن يتكلم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هذه الأصنام بمثل هذا الكلام، وإلا لو لم يكن عندها أحد لكان كلامه هذا لغوًا لا فائدة منه، لكن عندها من الحراس من يستطيع أن يعلم عنها ما علمه إبراهيم، بسبب أنه عرض عليهم الأكل، وإن هذه لم تنطق، وإذا كانت لم تنطق وليس لها إرادة ولا شعور لم تكن صالحة للعبادة.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ في أول الآيات يقول: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ أي: مال بخفية (وإلى) للغاية أما هنا فقال: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا ﴾ وإنما قال: «عليهم» دون «إليهم» لوقوع ذلك الضرب على هذه الأصنام ليكسرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على هذه الآلهة، وكما أشرت أولاً أنه خاطبها مخاطبة العاقل فأتى بميم الجمع.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾، قوله: «ضربًا» مصدر في موضع الحال، أي: فراغ عليهم ضاربًا باليمين، ويجوز أن تكون مصدرًا لفعل محذوف، والتقدير: فراغ عليهم يضرب ضربًا.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ ﴿بِالْيَمِينِ﴾ [بالقوة] لا يتعين، بل يجوز أن يكون باليمين أي: باليد اليمنى، وضرب بها؛ لأن اليد اليمنى هي آلة العمل غالبًا، ولأن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى في الغالب، ولهذا تجد من النادر أن يكون بعض الناس أعسر ـ يعمل بيده اليسرى عمله بيده اليمنى ـ، ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ لما بلغ قومه ما صنع أقبلوا ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يسرعون على وجه الجماعات بدليل قوله: ﴿ فَأَقْبَلُوا ﴾ بالواو فهم أقبلوا إليه مسرعين للإنكار عليه، لماذا كسرها؟ وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء عنهم: ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٩] فجعلوا ذلك ظلمًا وعدوانًا، فجاءوا يزفون لينتصروا لآلهتهم، وهكذا العابدون للأصنام ينتصرون للأصنام، والأصنام لا يستطيعون نصرهم، لكن هم جند محضرون لها.

فهؤلاء أقبلوا يزفون إلى إبراهيم لينتصروا لآلهتهم، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قويًا في ذات الله، ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، والاستهزاء بهم: كيف تعبدون شيئًا أنتم تنحتونه بأيديكم؟ وهل يليق عقلاً أن يكون المعبود مصنوعًا لعابده؟ هذا لا يليق، ولا يفعل هذا إلا أسفه السفهاء.

شيء تصنعه أنت بيدك ثم تعبده وتتضرع إليه وتنيب وتتعلق به وترجو منه النفع والضرر، هذا من السفه، لكن ـ والعياذ بالله ـ الإنسان إذا أعمى الله بصيرته لا يغنيه بصر العين، وكانوا في الجاهلية يفعلون شبه هذا الفعل، كانوا إذا نزلوا أرضًا في سفر جمعوا أربعة أحجار، ثلاثة منها للقدر، وواحدًا للعبادة، فصار هذا الحجر المعبود مساويًا لمناصب القدور، وبعضهم كانوا يعجنون إلهًا من العجوة يعني: من التمر، يعبدونه من دون الله، فإذا جاعوا أكلوه، ولم يقولوا: أطعمنا، أو هيئ لنا طعامًا.

هو نفسه يؤكل، هذا من السفه، كذلك قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ صنعوا أصنامًا بأيديهم ثم صاروا يعبدونها.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أصنامًا] إشارة إلى أن ﴿تَنۡحِتُونَ﴾ تنصب مفعولين:

أحدهما: العائد للموصول الذي تقديره: ما تنحتونه.

والثاني: هذا المحذوف الذي قدره المؤلف: أتعبدون ما تنحتون أصنامًا.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [من نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده، وما مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ إذا كان الله هو الخالق فهو أحق بالعبادة، هل الأحق بالعبادة من خلقكم أو من خلقتموه؟ من خلقكم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قول المؤلف: [من نحتكم ومنحوتكم]. أتى ـ رحمه الله ـ بالمصدر وأتى باسم المفعول من نحتكم إشارة إلى أن (ما) يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا جعلناها مصدرية صار التقدير: من نحتكم، وإذا جعلناها موصولة صارت: من منحوتكم.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم وعملكم، صارت (ما) مصدرية.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم ومعمولكم، صارت (ما) موصول.

وإذا جعلنا (ما) موصولة فلابد من عائد يعود على (ما) وهو في الآية محذوف؛ أي: وما تعملونه، واللازم واحد على الاحتمالين، فإذا قلنا: إن المعنى: «والله خلقكم وعملكم» فإن خالق العمل خالق للمعمول.

وإذا جعلنا المعنى: «والله خلقكم ومعمولكم»، فإنه إذا كان الله قد خلق المعمول وهم الذين باشروا عمله دل ذلك على خلق العمل وخلق العامل أيضًا.

وعلى كل تقدير في الآية إقامة الحجة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها معمولة، وقوله: [وقيل: موصوفة].

الموصوفة هي التي يعبر عنها بالنكرة بالموصوف.

يعني خلقكم وصنمًا تعملونه، أو وأصنامًا تعملونها، ولا نقول: والذي تعملون بل نقول:

وأصنامًا تعملونها، وأفادنا المؤلف - الآن - أن لـ (ما) ثلاثة معانٍ: أن تكون مصدرية، وموصولة، وموصوفة، وهذه ثلاثة من عشرة؛ لأن (ما) لها عشرة معان كما قال الناظم.

مَحَامِلُ مَا عَشْرٌ إِذَا رُمْتَ عَدَّها فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِن الشِّعْرِ
سَتَفْهِم شَرْطُ الوَصْلُ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا بِكَفٍّ وَنَفْيٌ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِ

(ستفهم) الاستفهامية مثل: ما هذا؟

(شرط) الشرطية ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] (الوصل): موصولة.

(فاعجب): التعجبية مثل: ما أحسن هذا!!

(لنكرها): النكرة الموصوفة. أو النكرة الواصفة.

تقول: مررت بما معجب لك، أي: بشيء معجب لك.

وتقول: عرفته نوعًا ما، يعني نوعًا قليلاً، فهي نكرة واصفة.

(بكف): كافة مثل: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] فهنا كفت (ما) عن العمل.

(ونفي): نافية: ما حضر زيد.

(زيد): زائدة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧] ويا طالبًا خذ فائدة: ما بعد إذن زائدة.

(تعظيم) يعني أنها تأتي للتعظيم، وهذه غير التعجب مثل أن تقول: مررت بما مذهل، أي: بعظيم مذهل.

وربما نقول: إن ما التعجبية فيها نوع من التعظيم فإنها تدل على التعظيم والتعجب.

(مصدر): المصدرية ومنه هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

فهذه محامل (ما) عشرة وينبغي لطالب النحو أن يحفظ مثل هذه الأبيات؛ لأنه تحصل له المعاني.

الفوائد:

١ - ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ من فوائد هذه الآية وما بعدها: أن أصل دين الأنبياء واحد، فكلهم شيعة للآخر مقوٍّ لدعوته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، أي: رسول كان إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون.

٢ - أن الأنبياء وإن طال الزمن بينهم، فإنهم إنما يأتون بالوحي من الله؛ لأنه إذا طال الزمن تناسى الناس العهد واضمحل وانتهى، ولكن إذا كان بوحي من الله فإنه يتجدد بحسب تجدد هذا الوحي؛ لأن بين إبراهيم ونوح أزمانًا طويلة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووجهه أنه كان شيعة لمن كان يدعو إلى توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وكل من كان شيعة لمن يدعو إلى الله فإنه بلا شك محل ثناء.

٤ ـ (١) ومن فوائد قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الثناء على إبراهيم ـ أيضًا ـ بكونه جاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلب سليم، وهذه الصفة وإن كانت سلبية لكنها تتضمن كمالاً؛ لأن القلب إذا سلم من الشبهات والشهوات صار خالصًا لله تعالى: قصدًا وإرادة وعملاً، ففيها الثناء على إبراهيم بسلامة القلب.

٥ ـ (٢)**ومن فوائدها:** عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإبراهيم، ـ عليه السلام ـ وذلك بإضافة الربوبية إليه ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ وهذه ربوبية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر من الربوبية العامة؛ لأن المربوبين بالربوبية العامة شملتهم الرحمة العامة، لكن الربوبية الخاصة يكون لهم الرحمة الخاصة.

٦ ـ ١ ـ **ومن فوائد قوله:** ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بيان قوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه لم تأخذه في الله لومة لائم؛ لأن رجلاً يخاطب أباه وقومه بهذه العبارة قوي في ذات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، إذ إن العادة أن الإنسان يحابي أباه وقومه، لكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يحابهم، بل أنكر عليهم، وقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾.

٧ ـ ٢ ـ **ومن فوائدها:** أن قرب النسب من أهل الخير لا يفيد الإنسان شيئًا، فإبراهيم بالنسبة لأبيه أقرب شيء؛ لأنه بضعة منه، ومع ذلك لم ينتفع به أبوه، بل كان مشركًا، يحاج ولده على ذلك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:١٤ ـ ١٥] فهذا يدل على تباين ما بين الابن والأبوين، حتى إنهما ليجاهدانه على الإشراك بالله، ومع ذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿عِلْمٌ فَلَا﴾.

٨ ـ ٣ ـ **ومن فوائدها:** صحة نسبة القوم إلى الرسول وإن كذبوه؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ والانتساب بالنسب لا يعني التبرؤ من الدين فيصح أن ينتسب الإنسان إلى أبيه الكافر، ولا يقال: إن هذا من باب الموالاة، بل هذا من باب الحقيقة، والنسب لا يزول باختلاف الدين أبدًا، وانظر إلى قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦] فأضافهم إليه مع نسبة تكذيبه إليهم، وهذا يدل على أن الإنسان قد يكون من قوم كافرين وينسب إليهم، وأن ذلك لا يخدش في دينه.

٩ ـ ٤ ـ **ومن فوائدها:** سفه هؤلاء القوم حيث كانوا يعبدون مع الله غيره، ولهذا أنكر عليهم من كان من أعقل الخلق إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ وقد أرشد الله إلى هذا في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وملة إبراهيم هي

الحنيفية المبنية على الإخلاص، فكل من خالف ذلك فقد سفه نفسه، أي: أوقعها في السفه، الذي هو ضد الرشد والعقل.

١ - ومن فوائد قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أن كل من زعم أن مع الله إلهًا يعبده فهو آفك كاذب؛ لقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

٢ - ومن فوائدها: أن دعوى كون هذه آلهة لا يعطيها سمة الألوهية؛ لأن الكذب لا يقلب الحقائق عن أصلها، فلو قلت مثلاً: قدم زيد، وهو لم يقدم لم يكن قادمًا، فهذه الآلهة وإن جعلوها آلهة لن تكون آلهة، كما قال الله - تعالى - في آية آخرى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣].

٣ - ومن فوائدها: أن عابدي الآلهة من دون الله يقصدونها قصدًا حقيقيًا بقلوبهم، كما يتجهون إليها بجوارحهم ولهذا قال: ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

فليسوا يعبدونها مجرد عادة، ولكنهم يعبدونها قصدًا وعبادة، حتى إنهم نسوا الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

١ - ومن فوائد قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ الإنكار الشديد من إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على قومه، حيث سألهم موبخًا لهم: ما الذي تظنونه برب العالمين إذا عبدتم غيره؟ هل تظنونه ناقصًا لا يستحق أن يعبد وحده؟ هل تظنونه غافلاً عن عملكم فيدعكم بدون عقوبة؟ هل تظنونه يرضى بأن يُعبد معه غيره؟ كل هذا لم يكن، فظنكم ظنٌّ خاطئ.

٢ - ومن فوائدها: عموم ربوبية الله - سبحانه وتعالى - ؛ لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ - ومن فوائدها: إقامة الحجة على الخصم بما لا ينكره ؛ لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن العالم تشمل حتى آلهتهم التي يعبدونها، فإذا كانت آلهتهم مربوبة فكيف يمكن أن تكون معبودة؟

هذا تناقض، وقد مرّ علينا أن من أقر بانفراد الله بالربوبية لزمه أن يقر بانفراده بالألوهية وإلا صار متناقضًا.

إذ لا يستحق العبادة إلا الرب الخالق المالك المدبر، ومن لم يكن كذلك فإنه لا يستحق أن يُعبد.

١٤ - ومن فوائدها: أن الخلق علم وآية ودليل على خالقهم، والخلق باعتبار كونه آية على وجود الله وقدرته وكمال سلطانه وتدبيره أمر معلوم، لكن قد يكون آية على معنى خاص، فمثلاً نزول المطر آية على الرحمة، والنكبات والخوف والنقص في الأموال والأنفس آية على عقوبته وغيرته وانتقامه ممن عصاه، فهناك معنىً عامًا تشترك فيه جميع الآيات، وهو كونها دالة على وجود الخالق - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال ربوبيته وسلطانه، وأنه لا يعارضه شيء من هذه المخلوقات.

وهناك معنىً خاص للآية وما تدل عليه بعينها، كدلالة الغيث على الرحمة، ودلالة الجدب على الانتقام ممن عصاه.

١ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ جواز التورية، وهي أن يظهر للمخاطب ما لا يريده، ويفهم منه المخاطب معنىً غير المراد، والتورية قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون جائزة، وقد تكون مكروهة، وقد تكون محرمة، فتجري فيها الأحكام الخمسة.

فإذا توقف على التورية إنقاذ معصوم من هلكة صارت واجبة، مثل أن يأتي شخص ظالم يسأل عن إنسان يريد أن يقتله وأنت تعرف مكان هذا الإنسان فهنا يجب عليك أن توري؛ لأن في ذلك إنقاذن للمعصوم من الهلاك، وقد تكون مستحبة كما لو سألك سائل عن عمل صالح عملته تخشى أن تقع في الرياء إن أخبرته به فهنا التورية مستحبة.

وقد تكون مباحة، كما لو ورّيت على شخص يريد منك شيئًا لا تريد أن تعطيه، مثل أن يقول: يا أخي أقرضني مثلاً مائة ألف ريال. وأنت تعرف أن هذا الرجل مماطل لا يفي بالواجب، فهنا تكون التورية مباحة.

وقد تكون مكروهة كما إذا كانت لغير سبب، فالصحيح أنها مكروهة لما يخشى فيه من نسبة الإنسان إلى الكذب؛ لأن الإنسان إذا ورّى ثم ظهر الأمر على خلاف ما فهمه السامع نسبه إلى الكذب، فهذه مكروهة لا يبيحها إلا السبب.

وقد تكون محرمة كما لو تخاصم رجلان إلى القاضي فادّعى أحدهما على الآخر بدعوى، فالمدعي عليه البينة، والمنكر عليه اليمين، فعجز المدعي عن البينة فحلف المدعي عليه عند القاضي وقال: والله ما له عندي شيء. فالقاضي في مثل هذا التعبير يفهم براءة هذا المدعي عليه.

والمدعى عليه أراد بها أن تكون اسم موصول. يعني: «والله الذي له عندي شيء»؟ هذه التورية نقول: إنها حرام؛ لأنها تتضمن جحد الحق الواجب عليه أداؤه.

فإذا قال قائل: ما الأصل فيها الإباحة أو الكراهة؟

فالأقرب أن الأصل فيها الكراهة، ولكن قد تكون مباحة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون واجبة، وقد تكون حرامًا.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز إسناد الوصف إلى الإنسان باعتبار المستقبل، تؤخذ من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فإنه الآن ليس بسقيم، لكن كل إنسان عرضة؛ لأن يسقم، على أنه يمكن أن يريد بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف باعتبار قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] فيكون الوصف هنا حاليًّا.

١ - **ومن الفوائد في قوله:** ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أن هؤلاء القوم لما قال لهم هذا القول، وبعد أن نظر نظرة في النجوم اقتنعوا، فيتفرع على ذلك أن الإنسان المبطل قد يقتنع بالشيء ولو كان باطلاً في حقيقته وهو كذلك، فالإنسان المبطل إذا ورّى له في باطله ظن أنه حق فأخذ به واعتبره.

١ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ إلى آخر الآيات بيان قوة

إبراهيم ـ كما سبق ـ حيث ذهب بسرعة وخفاء إلى هذه الآلهة ليكسرها، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكسرها إلا بعد أن أقام البينة على من كان عندها بأن هذه ا لآلهة لا تصلح أن تكون آلهة. لأنها لا تعقل، لا تنطق، ولا تعرف ما ينفعها ولا تجلب لنفسها نفعًا، فلغيرها من باب أولى، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** جواز التورية كما سبق؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم أن هذه الأصنام لا تأكل ولا تنطق، لكن أراد بهذا السؤال إقامة الحجة على من كانوا عندها يحرسونها وينتصرون لها: بأن هذه الأصنام غير صالحة للعبادة؛ لأنها لا تعرف ما ينفعها ولا يضرها، ولا تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع عن نفسها ضُرًّا.

١ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ بيان قوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لما ينبغي للإنسان إذا عمل عملاً أن يكون فيه جادًّا وحازمًا، فيفعله بقوة لا بتوان وكسل، خلاف لا يقوم به بعض الناس من الأعمال، حيث تجده يواجه عمله بضعف وتوانٍ وكسل.

والإنسان في الحقيقة مع نفسه على ما اعتاد، إذا اعتاد الحزم والقوة وألا يدع عملاً لوقت مستقبل صار حازمًا في أعماله مدركًا لآماله، أما إذا كان كسولاً متهاونًا يقول: أدع هذا الشيء إلى غدٍ. فإن الأعمال سوف تتراكم عليه، وسوف يجد في النهاية أنه عاجز عنها؛ لأنه إذا أخر عمل يوم إلى غد اجتمع عليه غدًا عملان: عمل الماضي وعمل الحاضر، فإن أخَّره مرة أخرى اجتمع عليه ثلاثة أعمال، وهكذا حتى يعجز ويكل، ولهذا منع الإنسان الذي عليه قضاء رمضان أن يؤخره إلى ما بعد رمضان الثاني؛ لأنه إذا أخره إلى الثاني تراكمت عليه الديون ثم عجز بالتالي عن قضاء هذه الديون.

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ بيان شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم؛ لأن قوله: ﴿فَأَقْبَلُوا﴾ يدل على الترتيب والتعقيب والسببية أيضًا، أي: بسبب ما عمل بهذه الآلهة أقبلوا إليه ﴿يَزِفُّونَ﴾. والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها دليل على شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم مع بطلان هذه لآلهة.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الاجتماع له أثر حتى في الباطل ؛ لقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: جميعًا، والناس إذا اجتمعوا صار بعضهم لبعض ظهيرًا. ومعلوم أن الإنسان ينتصر ويقوى بغيره.

٣ ـ ويتفرع على هذه الفائدة أن الإنسان إذا أراد عملاً مهمًا وخشي أن يعجز عنه بنفسه فالأفضل أن يستعين بغيره ولا يقول: إن هذا استعانة بغير الله ـ تعالى ـ ؛ لأن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٢ ـ ٦٣] ولا يعد هذا نقصًا في التوكل على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد المتوكلين، ومع

ذلك فإن الله ـ تعالى ـ قال له: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وهذه مسألة يغفل عنها بعض الناس، تجده يهم بالأمر العظيم ولكن لا يتخذ له مناصرًا، هذا التصرف فيه نظر ولكن يجب أن تراعي الحكمة في هؤلاء المناصرين، هل الحكمة أن يذهبوا جميعًا، أو أن يتفقوا على رأي وإن تفرقوا في الذهاب؟ أقول: إنه يجب أن تستعمل الحكمة هنا؛ لأنه قد يكون من الحكمة أن يذهبوا جميعًا، وقد يكون من الحكمة أن يذهبوا متفرقين لكن يتفقون على رأي واحد، وهذه ترجع في الواقع إلى العمل الذي يريدون الاتفاق عليه، وإلى المواجه التي يريدون أن يواجهوه.

فإن بعض الناس قد يتأثر بالجماعة الكثيرة، ويخضع لهم، وبعض الناس قد تأخذه العزة بالإثم، ويظن أن هذا من باب التظاهر عليه، فلا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً.

والمهم أن الاجتماع على الشيء سبب للعزة والانتصار، ولكن كيف يعالج الشيء الذي اجتمعنا عليه؟ هل يعالج على سبيل الاجتماع أو الانفراد؟ هذا يرجع إلى ما تقتضيه الحال، والإنسان ينبغي أن يستعمل الحكمة في ذلك.

٤ ـ من فوائدها: أن أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم ؛ لقوله: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ وإذا كان أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم فينبغي أن يكون أهل الحق أسرع منهم؛ لأن أهل الحق منصورون وأهل الباطل مخذولون.

٥ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم يتصرون لأصنامهم ومعبوداتهم مع أنها باطلة، فينبغي أن يكون أهل الحق الذين ينتصرون لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أشد منهم انتصارًا في دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا نظرت إلى واقع المسلمين اليوم وجدت أنهم متفرقون، فكل عالم لا يأوي إلى عالم ولا يشاوره ولا يأخذ برأي ه، بل إنه مع الأسف بما يضاده في رأي ه مع علمه بأنه على حق، لكن يكون فيه شبه من اليهود الذين حسدوا العرب على ما أعطاهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من النبوة العظيمة التي جعلها فيهم، فإن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويؤملون النصر عليهم باتباع محمد ﷺ فلما جاء محمد كفروا بمحمد؛ لأنهم يظنون أنه يأتي من بني إسرائيل وأتى من العرب، وهم يظنون هذا تمنيًا وإلا فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

١ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ الإنكار على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، والاحتجاج على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، أي: كيف تنحتونه أنتم وتصنعونه أنتم، ثم بعد ذلك تعبدونه أليس الأولى من الناحية العقلية أن يكون هذا المنحوت هو الذي يعبدكم؛ لأنكم أنتم الذين نحتموه، وأوجدتموه، ولكن عقولهم منتكسة فصار الأمر بالعكس يعبدون ما ينحتون.

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إقامة الدليل على أن الله وحده هو الذي يستحق أن يعبد؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخالق هو الذي يجب أن يُعبد.

كيف تعبد من لم يخلقك وتدع من خلقك؟ أو تعبد من لم يخلقك مشركًا له مع من خلقك؟ ولهذا أقام الله البرهان على أنه لا يصح أن يعبد سواه في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] ولم يقل: اعبدوا الله، إقامة للدليل عليهم بالربوبية.

٢ - **ومن فوائدها:** أن أعمال العباد مخلوقة لله؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سواء جعلنا (ما) مصدرية، أم موصولة، إن جعلناها مصدرية فالأمر واضح: خلقكم وخلق عملكم، وإن جعلناها موصولة فلأن خلق المعمول فرع عن خلق العمل، فإذا كان معمولك الذي باشرت أنت عمله مخلوق لله فكيف بعملك الذي كان من عند الله، وفي هذه الآية رد على القدرية الذين أنكروا أن يكون لله -- سبحانه وتعالى - شأن في أعمال بني آدم، وقالوا: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه إرادة ولا خلق.

٣ - وفي الآية رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ حيث أضاف العمل إليهم، وإضافة العمل إلى الإنسان تقتضي أنه هو العامل وهو الفاعل حقيقة وهو كذلك.

فالإنسان حقيقة هو الذي يعمل ويفعل ويريد ويختار، ففي الآية الكريمة رد على الطائفتين المنحرفتين، وأهل السنة والجماعة قالوا: إن الإنسان له قدرة واختيار وإيجاد لعمله، ولكن الذي خلقه وخلق هذه القدرة والإرادة هو الله، ففعله يضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا، ويضاف إليه إيجادًا ومباشرة، فهو مضاف إلى العبد باعتبار، ومضاف إلى الله باعتبار آخر.

٤ - **ومن فوائدها:** ما سبقت الإشارة إليه وهو إقامة الحجة على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، فإذا كان الله خلقهم وخلق ما يعملون فكيف يعبدون هذا المخلوق لله ويجعلونه شريكًا مع الله في العبادة؟!

تم بحمد الجزء الحادي عشر

ويليه الجزء الثاني عشر ويبدأ بتفسير قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩]

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعًا وترتيبًا وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين
والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمهما الله تعالى

اعتنى به
أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

التَّفْسِيرُ الثَّمِينُ

لِلعَلَّامَةِ العُثَيْمِين

تفسير سورة الصَّافَّات
تفسير سورة ص
تفسير سورة الزُّمَر

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثاني عشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الصافات
تفسير سورة ص
تفسير سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨
رقم الطبعة : الأولى

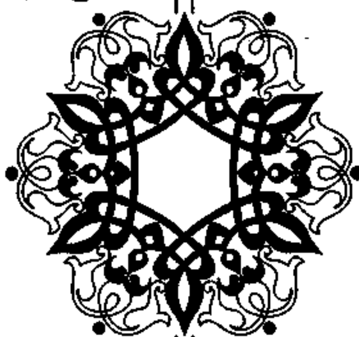

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس
١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة
تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣
tabari24@gmail.com

تفسير سورة الصافات

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩]

التفسير

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ الأمر هنا إن كان من الرؤساء فهو أمر حقيقي، وإن كان من غير الرؤساء أو من الرؤساء بعضهم لبعض فهو أمر مشورة والتزام، وليس أمر إلزام، وذلك؛ لأن أمر الإلزام إنما يكون من الأعلى إلى من دونه.

وقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ﴾ اللام هنا ليست للملك، ولكنه للتعليل أي: ابنوا لأجله بنيانًا هذا البنيان بنوه من أجل أن يملؤوه حطبًا ثم يوقدوه على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فبنوا بنيانًا وأضرموا النار في الحطب، كما أشار بعضهم على بعض، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ يقول المؤلف: [ابنوا له بنيانًا فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم في النار الشديدة]، قوله: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ هذه الآية فيها إيجاز حذف قدره المفسر، التقدير: [فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم]، وفي الإتيان بالفاء عقب قوله: ابنوا له بنيانًا، وحذف ما توسط بينهما إشارة إلى أنهم أرادوا الإسراع العظيم في هذا الأمر، كأنهم قالوا: ابنوا بنيانًا وألقوه مباشرة، وليس يلقى بالبنيان فقط ليتمتع فيه، ولكن بعد إيقاد النار فيه، وإنما أرادوا بهذا الإسراع والمبادرة كأنهم طووا ذكر ما بين البناء والإلقاء لعدم وجوده من سرعة المبادرة.

ويدل على ذلك - أيضًا - قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، قال: ﴿فِي الْجَحِيمِ﴾ أي: النار الشديدة.

ففعلوا ذلك وألقوه في النار، ولكن خالق النار قال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، لم تكن بردًا شديدة البروة حتى يهلك، ولم تكن حارة،

بل كانت على عكس ما يريد به الأعداء أرادوا بالنار أن تكون حارة مهلكة، والله ـ عز وجل ـ أراد أن تكون باردة مسلّمة، ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، وهنا نقف لنبين أن بعض المفسرين قالوا: إنه في تلك اللحظة صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة، ولكن هذا قول ضعيف جدًا، مخالف للقرآن؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿يَا نَارُ﴾ وهذا النداء يكون موجه للمقصود بالنداء، ولهذا يسميها أهل النحو: نكرة مقصودة، فالمراد تلك النار التي خوطبت فقط، فصارت تلك النار التي خوطبت بردًا وسلامًا، وأما الزعم أن جميع النيران في جميع أقطار الدنيا صارت بردًا مخالف لظاهر القرآن، وليس له أي: فائدة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الكيد في الأصل: «التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يدري» والكيد والمكر والخداع بمعنى واحد، أو بمعنى متقارب، لكنها كلها تدل على أن الإنسان يوقع خصمه من حيث لا يشعر، هذا في الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥ ـ ١٦] ولكنهم أرادوا بذلك إهلاكًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ويحتمل أنهم لما بنوا هذا البناء والنار في وسطه لا تشاهد فيظن الإنسان إذا رآه أنه قصر فيقدم على أن يستسلم للإلقاء؛ لأنه لو علم ما في جوفه لكان يهرب أو يدافع، فيكون هذا معنى الكيد أي أنهم لم يشقوا الأرض كما فعل أصحاب الأخدود ويضعوا فيها الحطب ويوقدوه، ولكن بنوا بنيانًا من رآه من الخارج ظن أنه منزل سكن، ولكنه في الواقع حسب صنعهم نار تتأجج. فيمكن أن يقال: إن هذا هو المراد من قولهم: ﴿كَيْدًا﴾؛ لأن الكيد كما أسلفنا هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ولكن الله ـ تعالى ـ جعلهم ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ وذلك بعدم نيل مرادهم بخروج إبراهيم سالمًا، فكان العلو له من وجهين:

الوجه الأول: أنه سلم ما أرادوا من إهلاكه.

الوجه الثاني: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أكرمه بأمر له يكن معهودًا عند البشر، وهو سلامته من النار التي ظنوا أنها ستحرقه، فصاروا أسفلين من هذين الوجهين أنه سلم، وأن الله ـ تعالى ـ أكرمه بأمر لم يكن معهودًا، وهذا ـ بلا شك ـ يوجب أن يكون عاليًا عليهم، بل عاليًا علوًّا بالغًا؛ لأنه قال: ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ والأسفلين هذه اسم تفضيل أي: البالغ في السفل غايته.

الفوائد:

١ ـ شدة كيد هؤلاء المكذبين لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث أروا الناس أنهم يبنون له بنيانًا دون أن يروه أنهم يريدون أن يحرقوه؛ لقوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾.

٢ ـ **من فوائدها:** أن النار التي أضرموها في هذا البنيان كانت عظيمة؛ لقوله: ﴿فِي الْجَحِيمِ﴾ والجحيم هي النار العظيمة.

٣ـ **ومن فوائدها:** عتوهم؛ لأنهم قالوا: ألقوه، والإلقاء يدل على العنف وعدم الرحمة، وهم كذلك إذ لو كانوا يريدون رحمته ما هموا بإحراقه.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن نيتهم هذه نية عدوان؛ لأنهم قالوا: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ﴾ واللام ذكرنا أنها للتعليل، يعني ما بنوا هذا البنيان إلا بهذه النية السيئة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾.

١ ـ بيان ما يكنه أعداء الإسلام للمسلمين وللإسلام من إرادة الكيد بالإسلام وأهله، وهذا كما أنه في الأمم السابقة فيكون في الأمم اللاحقة، لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

٢ ـ **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية ؛ لقوله: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾، والجبرية ينفون أن يكون للإنسان إرادة في فعله؛ لأنهم يرون أن الإنسان مجبر على الفعل، وأن فعله الواقع بإرادته كفعله الواقع بغير إرادته، والكل عندهم سواء.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين كادوا كاد الله بهم، فجعلهم هم الأسفلين.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن من يتعالى على الحق فإن الله ـ تعالى ـ يجازيه بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء أرادوا العلو والفساد في الأرض، فعاملهم الله ـ تعالى ـ بنقيض قصدهم فجعلهم الأسفلين.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وأن بني آدم مهما بلغوا من الطغيان فإنهم تحت حكم الله ـ تعالى ـ وسلطانه؛ لقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾.

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما طغوا واعتدوا وتعالوا عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالسفل المناقض لما أرادوا، فكانت العقوبة مناسبة للفعل.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات:٩٩].

أي: قال إبراهيم معلنًا هجرته من بلدهم إلى بلد الشام، وإنما قال ذلك؛ لأنهم بلغوا إلى حد يكون به اليأس من هدايتهم، فإن قومًا أضرموا النار ليحرقوا بها داعيهم إلى الله قوم لا يرجى فيهم خير، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.

فإن قلت: هل أُمر بذلك أو أُذن له بذلك؟

فالجواب: نعم، أُذن له بذلك، والدليل أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أقره فلم ينكر عليه، لكن يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ذهب من غير أن يُؤذن له بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذهابه عن غير إذن، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ولما ذكر هجرة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يذكر ما فيه انتقاد عليه، ولهذا قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ قال المؤلف: [مهاجر إليه من دار الكفر ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ إلى حيث أمرني ربي بالمصير إليه وهو الشام، فلما وصل إلى الأرض المقدسة قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾].

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ولم يقل: إلى الله، لأن المقام يختص بالربوبية أكثر، إذ إن الربوبية مقتضاها التدبير، وهو الآن يحتاج إلى مدبر يدبره إلى ما فيه مصلحته، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ والإضافة هنا إضافة تعطف وتحنن، وهي من الربوبية الخاصة، يعني إلى الرب الذي أرجو منه أن يهديني ويدلني لما فيه الخير.

وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ السين هذه للتنفيس وتفيد أمرين: تحقق الوقوع وقربه.

والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة، أي: سيهدين إلى ما فيه الخير والصلاح لهذه الدعوة، وربما يقال: إنها تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

الفوائد:

١ ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإعلانه الهجرة من بلده الذي يتضمن تحدي قومه وعدم مبالاته بهم؛ لأنهم لم يمسكوه ولم يمنعوه عن الهجره، وهذا من حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يظهر التحدي في مثل هذا ولا يقع.

٢ ـ **ومنها:** ثقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بربه حيث قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى الإخلاص في العمل ؛ لقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وهذا فيه إخلاص القصد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وهذه هي النية الصالحة أن يكون قاصدًا بعمله الوصول إلى رضوان الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ .

٤ ـ **ومن فوائدها:** تحنن الإنسان إلى ربه بالدعاء بأن يأتي بالعبارات الدالة على التحنن والتعطف والافتقار إلى الرب ؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى نفسه من باب التلطف والتحنن إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ .

٥ ـ ومنها: أنه ينبغي بل يجب على الإنسان أن لا يعتمد على نفسه، بل يعتمد على ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ لقوله هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠٤].

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [هب لي ولدًا من الصالحين]، أشار المؤلف بقوله: ﴿ولدًا] إلى أن المفعول الثاني لهب محذوف تقديره: ولدًا.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصالح، هو الذي صلح ظاهره وباطنه، ولزم من صلاحه أن يكون قائمًا بحقوق الله وحقوق عبادة، وهو ضد الفاسد، وفساد كل شيء بحسبه، وصلاح كل شيء بحسبه، فصلاح الإنسان أن يكون مستعدًا لما أمر به قائمًا بأمر الله في حقوقه وحقوق عباده.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ تدل على الترتيب والتعقيب.

وربما أيضًا تدل على السببية أي: بسبب دعائه لله، أجاب الله دعوته وبشره ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، هذا هو الأصل إذا أخبر الإنسان بما يسر قيل: بُشر، وإذا أخبر بما يخوف قيل: له: أُنذر، ولهذا يذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دائمًا التقابل بين البشارة والإنذار ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] فالبشارة في الأصل هي الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤] إما من باب التهكم بهم كما تقول مثلاً للشخص: أبشر بالعقوبة.

تتهكم به، وإما من باب الجامع بينهما، وهو أن كلاً منهما يؤثر على البشرة تأثيرًا يظهر، فالبشارة تؤثر سرورًا وفرحًا واستنارة وجه وراحة قلب والإنذار بالعكس يظلم الوجه ويصفر، ويحصل فيه الغم.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ أي: بشرنا إبراهيم ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ [أي: ذي حلم كثير]. وأشار بذلك إلى أن ﴿حَلِيمٍ﴾ صيغة مبالغة ولكن يحتمل أن يكون صفة مشبهة، أي: بغلام صفته الدائمة المستمرة الحلم.

والحلم: هو التأني وعدم التسرع في مقابلة الأمور، بل يتلقاها الإنسان بطمأنينة واتزان وتصرف رشيد.

وضد الحليم سريع الغضب سريع الانفعال الذي لا يتأنى في الأمور ولا يتروى فيها فتجده يرد الشيء مبادرة.

أو يقبله مبادرة، فالحلم في الحقيقة هو غاية ما يكون من الرشد.

ووصف الله هذا الغلام هنا بالحلم، وفي آيتين من كتاب الله وصف الغلام الذي لإبراهيم بالعلم، وذلك؛ لأن الغلامين اثنان: أحدهما وصف بالعلم، والثاني: وصف بالحلم.

والذي وصف بالحلم سيأتينا ـ إن شاء الله ـ بيان منه، وأما الذي وصف بالعلم فهو إسحق ـ

عليه الصلاة والسلام -، كما تفيد الآيات التي جاء في سياقها.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ الضمير في ﴿بَلَغَ﴾ يعود على الغلام والضمير في ﴿مَعَهُ﴾ يعود على إبراهيم. والسعي إما أن يراد به الكسب وإما أن يراد به المشي، وكلاهما صحيح، ولكن الأقرب عندي أن المراد به المشي، فإن السعي يطلق على المشي كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] وكذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٠٥] فالمراد بالسعي: يعني المشي، ولكن كلمة مع: تفيد المصاحبة، يعني صار تابعًا لأبيه يسير معه؛ لأنه ليس صغيرًا، قد مكث في مكانه، وليس كبيرًا انفرد بنفسه، فالصغير الذي في المهد لا يبلغ السعي مع أبيه، والكبير الذي انفرد يبلغ السعي لا مع أبيه؛ لأنه منفرد، أما هذا فقد بلغ مع أبيه السعي، وكان ملازمًا له، وهذا أشد ما يكون الأب تعلقًا بابنه إذا كان في مثل هذا السن؛ لأن الصغير الذي في المهد لا تتعلق به النفس تمامًا، والكبير الذي انفرد كذلك لا تتعلق به النفس تمامًا، وإنما تتعلق بمن كان في مثل هذا السن، وهذه من حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن ابتلي إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهذا البلاء المبين.

قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي أن يسعى معه ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة] ويحتمل أن يكون ما بين السبع إلى ثلاث عشرة سنة؛ لأنه إذا زاد على ذلك فقد يستقل بنفسه، وما دون السبع يحتاج إلى من يعوله، ولا تتعلق به النفس كثيرًا لاسيما نفس الأب، أما الأم فقد يكون تعلق نفسها بالصغير أكثر من تعلقها بالكبير، ولكن الأب تتعلق نفسه بمن في مثل هذا السن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ امتحن الله إبراهيم بمحنة عظيمة لا يصبر عليها إلا من كان في مثل حاله، واعلم أن هذا الولد هو بكر إبراهيم، يعني أنه أول مولود وُلد له.

وولد له كما قيل: على كبر السن، يعني أنه كان كبيرًا، ولد له هذا المولود البكر الذي ليس له ولد سواه فامتحنه الله، فأراه الله - سبحانه وتعالى - في المنام أنه يذبح هذا الولد، وهذا خبر بمعنى الأمر؛ لأن الذبح هنا مجرد فعل، رأى في المنام أنه يذبح ولده، فهو كما لو أُخْبِرَ بأنه يذبح ولده.

والإراءة إخبار بالفعل، ولهذا قيل: الخبر ما ترى لا ما تسمع.

فالله - عَزَّ وَجَلَّ - أراه أنه يذبحه، وهذا خبر بمعنى الأمر، كما سيأتي - إن شاء الله - في قوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أراه الله ذلك فلم ينزعج إبراهيم ولم يتأثر واطمأن إلى هذا، ثم عرض الأمر على هذا الابن لا للاستشارة ولكن للاختبار، وإذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه فيما أمره الله به.

وإنما عرض عليه الأمر ليختبره بهذا وينظر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم.

فلما بلغ معه السعي وأُري ما رأى، ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾ أي: رأيت في المنام ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ انظر هذا التلطف

﴿يَبُنَيَّ﴾، ليبعد عن ابنه أنه ذكر ذلك عن جفاء؛ لأن الإنسان إذا كان يبغض ابنه فإنه لا يهمه أن يعذبه أو أن يذبحه ولا يتأثر بذلك، لكنه قال: ﴿يَبُنَيَّ﴾ من باب التلطف، قال: ﴿يَبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ قال المفسر: [أي: رأيت] ولكنه عبر بالمضارع عن الماضي ليدل على استمرار حكم هذه الرؤية.

وأنه مستمر على تنفيذ حكم هذه الرؤية، أو أنه نَزَّل الماضي منزلة الحال، كأنه الآن يرى أنه يذبحه، ـ وعلى كل حال ـ فإن أرى هنا أبلغ من رأيت؛ لأن (رأيت) شيء مضى، أما (أرى) فهو شيء حاضر يدل على الاستمرار، وأنه سينفذ حكم ما رأى.

قال المؤلف: [ورؤيا الأنبياء حق، وأفعالهم بأمر الله ـ تعالى ـ].

هاتان كلمتان تعبران عن سؤال مقدر، أولاً: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ قد يقول قائل: رؤيا المنام أضغاث أحلام، فأجاب عن ذلك بقوله: رؤيا الأنبياء حق، أنا لو رأيت في منامي أني أعتقت عبدي أو أوقفت دوري فلا يكون ذلك نافذًا؟ ولا أومر بذلك من أجل هذه الرؤيا، لكن رؤيا الأنبياء حق يعني أنها وحي.

والثاني: [وأفعالهم بأمر الله] وهو أيضًا جواب عن سؤال مقدر، وإذا كانت هذه الرؤيا حقًّا فهل يثبت بها حكم شرعي؟

فأجاب المؤلف بما يقتضي لأن أفعال الأنبياء بأمر الله لا سيما مثل هذا الفعل العظيم.

هذا الفعل العظيم هو من أكبر الكبائر؛ لأنه قتل نفس بغير حق، وليست نفسًا بعيدة، بل قتل نفس قريبة، فهو جامع بين قتل النفس وبين قطيعة الرحم؛ لأن من قتل أجنبيًّا ليس كمن قتل قريبًا، لكن هذا القتل، هذا الذنب العظيم إذا كان بأمر الرب الذي له ملكوت السموات والأرض صار طاعة

كما أن السجود لغير الله شرك، ولما كان بأمر الله ـ تعالى ـ كان تركه كفرًا، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

والمهم أن المؤلف أجاب عن هذه الرؤيا بأنها فعل من نبي، وأفعال الأنبياء تقع بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنهم معصومون.

قال: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ من الرأي، يعني فكر في أمرك وانظر ماذا ترى؟ فكان جوابه جوابًا عجيبًا عظيمًا، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ وهذا شبيه بما وقع من عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين خيّرها النبي ﷺ بين أن تبقى معه وأن تفارقه للدنيا، وقال لها: «استأمري أبويك»، يعني استشيريهم فقالت ـ رضي الله عنها ـ: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ، إِنِّي أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَه وَالدَّارَ

الآخِرَةَ(١).

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وهذا من باب الاختبار في حال هذا الابن وتهيئته لتنفيذ ما أمر الله به أباه.

قال المؤلف: [من الرأي، شاوره ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به].

أي: لو أنه حين قام من النوم جَرَّ ابنه وذبحه بدون أن يخبره لفات في ذلك فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: عدم ظهور تقبل هذا الابن لأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

الفائدة الثانية: أنه إذا أتاه بغتة صار أشد وقعًا في نفسه وأشد ألمًا مما لو اخبر به؛ لأن الإنسان إذا أخبر بالشيء قبل أن يقع واستعدت نفسه له وتهيأت، صار الوارد العظيم يرد على النفس وهي متهيأة فيسهل عليها، بخلاف ما إذا ورد على غرة فإنه يكون أشد وقعًا، وأشد ألمًا، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به].

قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوضًا عن ياء الإضافة، وأصلها يا أبي، ولكن العرب قد يبدلون الياء تاءً فيقولون: يا أبت، وعلى هذا فالتاء بدلاً عن الياء فهي ياء المتكلم.

﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ سبحان الله! لم يقل: يا أبت لا مانع عندي، بل قال: «افعل» فحثه على أن يفعل ولم يقل: افعل ما رأيت، بل قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حثًا لإبراهيم على أن يفعل؛ لأنه إذا ذكره أن هذا أمر الله فإنه يزيده قوة في تنفيذ هذا الأمر؛ لأن إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاف أن تدرك إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة الولد فيراجع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في ذلك، فأشار عليه أن يبادر بفعل ما أُمر به ﴿ٱفْعَلْ﴾، ولم يقل: ما رأيت، ليكون هذا أشد حثًا لإبراهيم على الإقدام، ولهذا ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، السين كما قلنا: فيما سبق قريبًا للتنفيس، وتفيد شيئين: التوكيد، وقرب الوقوع.

والتأكيد يعني تحقق هذا الشيء، ولكنه لما كان أمرًا مستقبلاً والإنسان لا يثق أن يقوم بالأمر المستقبل، قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وأتى بالاستثناء قبل ذكر المفعول الثاني للمبادرة به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: ستجدني من الصابرين إن شاء الله فبدأ بالاستثناء الدال على الاستدراك يعني إن لم يشأ الله تجدني كذلك، ولكن ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جملة معترضة بين مفعولي تجد؛ لأن المفعول الأول الياء، والثاني من الصابرين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥).

أي: من الصابرين على بلاء الله، وعلى هذا الأمر العظيم؛ لأن هذا من البلاء العظيم أن يصبر الإنسان على أن يقتل امتثالاً لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهنا لم يقل: ستجدني إن شاء الله صابرًا، بل قال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إشارة إلى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيكون له تأسٍ بمن سبق حتى يكون من جملة المتصفين بهذا الوصف وهو الصبر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ يعني: استسلما لأمر الله وانقادا لأمره، عن رضيً ورغبة من الأب الذي عزم على أن ينفذ أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والابن الذي تقبل هذا الأمر بانشراح صدر، وحث لأبيه على أن يفعل ما أمره الله به ـ تعالى ـ، وهذا غاية ما يكون من الاستسلام، وهذا استسلام القلب ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح يعني أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تل ابنه للجبين، يعني صرعه على الأرض على جبينه ليذبحه، وإنما صرعه على جبينه من أجل أن لا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع، ومعلوم أن رؤية المذبوح السكين تريعه، ويروى عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يحد الشفرة ليذبح شاة فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَيْتَتَانِ»[1] وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تل ابنه للجبين بسرعة وقوة في تنفيذ أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [صرعه عليه، ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة، وكان ذلك بمنى، وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] ونحن نقول: وقلنا: سابقًا: إن قصص الأنبياء السابقين إنما تؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [إبراهيم:٩] ونحن في قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينبغي لنا أن نتجاوز القرآن ولا أن نقدر شيئًا لا يقتضيه السياق فهنا نقول: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على جبينه، والجبين هو طرف الجبهة يعني القرنين، وتقدم ذكر الحكمة في تله هكذا، وأما قول المؤلف: [وذلك بمنى]، فهذا يحتاج إلى دليل، وهو لا شك أنه بمكة؛ لأن إسماعيل نشأ بمكة من صغره، ولكن كونه في منى هذا يحتاج إلى دليل من الكتاب أو السنة، وإلا وجب التوقف فيه، وقوله: [وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] هذا أيضًا يحتاج إلى دليل، وليس في القرآن الكريم أنه أمرَّ السكين على حلقه، فالواجب علينا أن نتوقف في هذا، لا نصدق ولا نكذب؛ لأن القرآن لم يصدق ذلك ولم يكذبه، لكن عندي ـ والله أعلم ـ أن هذا لو وقع لكان من الحكمة أن يذكر؛ لأن فيه دلالة على آية من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهي عدم تأثير السكين في حلقه، ولو وقع مثل هذا

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٣١)، والبيهقي (٩/ ٢٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤).

لذكره الله - عَزَّ وَجَلَّ - لما فيه من الدلالة على آية عظيمة من آيات الله، والذي نجزم به أنه تله للجبين ليذبحه فقط، وكفى بذلك فخرًا أنه لم يبق إلا أن يمر السكين على حلقه فما كان.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ لما شرطية تحتاج إلى شرط وجوابه، فشرطها قوله: ﴿أَسْلَمَا﴾ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ معطوف عليه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ لا يستقيم أن نجعله معطوفًا على ﴿أَسْلَمَا﴾ ولكن اختلف العلماء في الواو هنا فقيل: إنها زائدة وتقدير الكلام: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وقال آخرون: ليست بزائدة؛ لأن زيادة الحروف المعنوية التي تقتضي المغايرة لا يمكن أن يقع في القرآن الكريم، بل هي معطوفة على شيء مقدر والتقدير: فلما أسلما وتله للجبين، تحقق تنفيذ أمر الله، أو ما أشبه ذلك من الكلام المناسب، ثم عطف على الجواب المحذوف قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]

١ - أن كل أحد وإن علا قدره من البشر مفتقر إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ومفتقر إلى من يعينه؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

والمؤلف - رحمه الله -: قدر أن في الآية محذوفًا تقديره ولدًا، وكأنه خص هذا الطلب بالولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ على أن الآية تحتمل أن المحذوف ليس كلمة ولد، وأنه حذف المعمول لإفادة العموم أي: هب لي من الصالحين من يكون عونًا لي من الأولاد وغيرهم؛ لأن القوم الذين كان فيهم غير صالحين، فسأل الله أن يهب له من الصالحين من يعينه ويساعده، فكانت الإجابة من الله أن بشره بمن يعينه من صلبه في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ فيكون هذا الوجه الذي ذكرنا أعم من الوجه الذي قاله المؤلف - رحمه الله -.

٢ - **ومن فوائد الآية:** الحث على الاستعانة بالصالحين؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون قرناؤه من الصالحين؛ لأن القرين الصالح يعينك على الخير، ويحذرك من الشر، وكما مثَّل الرسول - عليه الصلاة والسلام - الجليس الصالح بحامل المسك، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ يُبِيعُكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْه رَائِحَةً طَيِّبَةً[1].

من فوائد الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

١ - إجابة الله - سبحانه وتعالى - للدعاء ؛ لقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ ﴾ والفاء تفيد التعقيب والترتيب والسببية، أي: فبسبب دعائه بشارته.

ويلزم من هذه الفائدة وهي إجابة الله - عَزَّ وَجَلَّ - لمن دعاه صدق وعده - تعالى - ؛ لقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] وقدرته على تحقيق ما وعد به؛ لأنه لو كان عاجزًا لم يعطِ ما دُعي به، ولكنه - عَزَّ وَجَلَّ - على كل شيء قدير.

٢ - ومن فوائد هذه الآية: الثناء على إسماعيل - عليه السلام - لوصفه بالحلم.

٣ - **ومن فوائدها:** تبشير المرء بما ولد له من ولد، ولاسيما إذا كان ذكرًا؛ لأن الله عبر عن إخباره إبراهيم بأنه سيولد له بالبشارة فأخذ العلماء من هذا أنه تشرع بشارة من ولد له ولد ولاسيما إذا كان ذكرًا.

وهل يستفاد من الآية الكريمة إثبات كلام الله؟ لو كانت البشارة من الله لكان يستفاد من ذلك إثبات الكلام، لكن قد يكون بشرناه على لسان الملائكة يعني الملائكة هي التي بشرته فالله أعلم.

ومن فوائد الآية في قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

١ - أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد يبتلي العبد المؤمن ببلوى عظيمة شديدة على النفوس، وذلك بما أرى الله نبيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من ذبح ولده، ونحن نعلم أن الله لو قدر على ولدك أن يموت لكان هذا مصيبة عظيمة، لكن إذا أمرك الله - سبحانه وتعالى - أن تذبحه أنت بنفسك صار هذا أعظم وأشد، وصار الصبر على هذا الأمر أشد وأفضل من الصبر على موته بقدر من الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذا الوقت الذي أمر إبراهيم فيه بذبح ابنه فيه كان وقتًا يكون فيه تنفيذ الأمر شديدًا؛ لأنه بلغ معه السعي، فتنفيذ الأمر في هذا الحال يدل على كمال عبودية المأمور حيث نفذها في أشد ما يكون تعلقًا بابنه.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن أراد أن ينفذ شيئًا مكروهًا لشخص أن يأتي بأسلوب يدل على أنه لا يريد الإضرار به، وإنما هو أمر لابد منه ؛ لقوله: ﴿ يَٰبُنَىَّ ﴾ فإن إتيانه على صيغة التلطف من أجل أن يبعد عنه تهمة أنه لا يحبه.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه يجوز امتحان الشخص بما لا يؤخذ رأي ه فيه، ولكن للاستعلام ؛ لقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ فإن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا

يريد أن ينظر إلى ابنه إن قال: لا تذبحني، ترك الذبح، بل يريد أن يعرف مدى قبوله واستعداده، فيكون في هذا تورية، والتورية لا شك أنها جائزة للاستعلام والاستخبار، ولاسيما عند الحكم في القضاء، وفي قصة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المرأتين اللتين تخاصمتا في ولد بينهما، حيث تخاصمتا عند داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فحكم به للكبرى، ثم تخاصمتا عند سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدعا بالسكين ليشقه نصفين بينهما، وسليمان لن يفعل أبدًا، ولكن هذا من باب التورية واستطلاع الحقيقة، فلما دعا بالسكين وأراهما أنه يريد أن يشقه نصفين، قالت الصغرى: هو ولدها يا نبي الله، فعرف أنه لها؛ لأنها أدركها حب الولد فتنازلت عن حقها منه ودعواها، والكبيرة رضيت؛ لأنه لا يهمها أن يقتل ابن هذه المرأة، كما أكل الذئب ولدها[1].

إذن نأخذ من هذا أنه يجوز للإنسان أن يورّي للشيء لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال لابنه: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن ظاهر ذلك أنه يريد أن يستشيره ويأخذ رأي ه إن وافق وإلا لم ينفذ، وليس الأمر كذلك، بل أراد أن يختبره لينظر مدى قبوله لهذا الأمر واستعداده لتنفيذه.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن رؤيا الأنبياء حق، وذلك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتمدها ولو لم تكن حقًّا لم يعتمدها، ولكن لو رأى أحدنا مثل هذه الرؤيا أنه يذبح ابنه فهل هذا حق؟

الجواب: لا، ليس بحق قطعًا؛ لأننا لا نؤمر أبدًا عن طريق المنام ولا عن طريق اليقظة بذبح أبنائنا، لكن إما أن تكون رؤيا ويكون فيها إشارة إلى شيء مشابه، وإما أن تكون من الشيطان ليحزنك، أما أن تكون أمرًا يجب تنفيذه فهذا لا يمكن.

٦ ـ **ومن فوائدها:** حسن أدب إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث قال في جواب أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ولم يقل: يا هذا، أو يسكت، بل قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن الخبر قد يكون بمعنى الأمر؛ لأن هذه الرؤيا كما مر علينا بمنزلة الخبر، حيث لم يقل له في الرؤيا: اذبح ولدك، بل رأى نفسه يذبح الولد، ولكن الخبر قد يكون بمعنى الأمر، وهل يحتاج إلى قرينة في هذا أم لا؟

الجواب: نعم، يحتاج إلى قرينة؛ لأن الأصل في الخبر أنه لا يدل على الطلب، ولكن إذا وجد قرينة تقتضي ذلك كان أمرًا.

٨ ـ جواز حث المفضول للفاضل على فعل الأوامر؛ لقوله: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ ويتفرع على هذه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يحقر نفسه في الأمر بالخير، فيقول: هذا أجل مني، هذا أعلم مني، هذا أكبر مني، فلن آمره بشيء، بل نقول: مر بالخير سواء كنت أصغر سنًّا أو شأنًا من المأمور، أو مثله، أو أكبر منه.

٩ ـ أنه ينبغي للإنسان أن يعلق كل أمر مستقبل على مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فإن هذا أمر مستقبل، وينبغي أن يعلق الإنسان كل أمر مستقبل بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فإن قال قائل: كيف نفهم هذا الحكم من قول إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؟.

فالجواب: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصه علينا لنعتبر به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] ويؤيد هذا أيضًا شرعنا، فإن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

١٠ ـ **ومن فوائدها**: أن الصبر يكون على امتثال الأوامر وعلى المصائب، فإن قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصابرين على تنفيذ هذا الأمر، وعلى ما يقتضيه من الآلام؛ لأنه ذبح.

والصبر ثلاثة أقسام دلت الآية على قسمين منها، والثالث: الصبر عن معصية الله.

١١ ـ ومن فوائد هذه الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فضيلة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حيث استسلما لأمر الله في هذا الأمر العظيم، الذي لا يُقدم عليه إلا أمثالهما، ولا شك أن هذا من مناقبهما.

١٢ ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي للإنسان أن يحول بين نفسه وبين كل شيء قد يعيقه عن تنفيذ أمر الله؛ لقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فإن هذا يهون عليهما الأمر فيهون عليهما التنفيذ.

وربما يتفرع على هذه الفائدة العمل بسد الذرائع ومنعها، أي: الذرائع التي تحول بين المرء وبين تنفيذ أمر الله، أو توجب أن يقع فيما نهى الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

والنداء يكون بالصوت العالي للمنادى، بخلاف المناجاة، فتكون بالصوت المنخفض، ولا شك أن الصوت العالي يقال لمن كان بعيدًا، والصوت المنخفض يقال لمن كان قريبًا.

وقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أن هذه تفسيرية؛ لأن التفسيرية هي التي تأتي بعد فعل، أو بعد عامل يتضمن معنى القول دون حروفه، فهي بمعنى: أي: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ صدقتها أي: فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا، وقد رأى أنه يذبح ابنه وعزم على ذلك، وقام ببعض العمل الذي يكون بين يدي الذبح، فجعل الله -سبحانه وتعالى- ذلك تصديقًا.

والرؤيا: ما يراه الإنسان في منامه.

وما يراه الإنسان في منامه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رؤيا.

القسم الثاني: حلم.

القسم الثالث: يكون عن حديث النفس، لقول النبي ﷺ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَى مِن الله، وَرُؤْيَا تَخْوِيفٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ المَرْءُ نَفْسَه»(١).

أما الأولَ فإنه من الله، وقد أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة(٢).

وأما الثاني فهو من الشيطان، وغالبًا ما يكون هذا فيما يمتنع شرعًا، أو حسًّا، أو عقلاً، أي أن الشيطان يصور للشخص شيئًا ممتنعًا في الشرع، أو ممتنعًا في العقل، أو ممتنعًا بالحس.

أو من أجل إحزان الرائي وإخلال عقله، وقد حدَّث رجل النبي ﷺ أنه رأى في منامه أنه قد ذبح وأن رأسه تدحرج وأنه يشتد وراء رأسه، فقال النبي ﷺ: «لَا تُحَدِّثْ النَّاسَ بِمَا يَتَلَاعَبُ بِكَ الشَّيْطَانُ فِي مَنَامِكَ»(٣)؛ لأن هذا الشيء غير معقول، إنسان قطع رأسه وهرب الرأس وذهب يشتد وراءه ليأخذه ويضعه على رقبته، هذا شيء ينافي العقل.

وأحيانًا يضرب لك الشيطان مثلاً بما يمتنع شرعًا كما يذكر عن عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- أنه رأى نورًا عظيمًا وسمع من هذا النور قولاً يقول: إني أنا ربك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٦٣)، والترمذي (٢٢٧٠)، وأبو داود (٥٠١٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٨٨)،ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٦٨)، وابن ماجه (٣٩١٢).

وحدثه، فقال: إنه قد وضع عنه الصلاة فقال له: كذبت ولكنك الشيطان وعرف أنه كاذب؛ لأنه حدثه بما يمتنع شرعًا، فإن وضع الصلاة لا يمكن أن يكون أبدًا وهي أهم أركان الإسلام، والوحي قد انقطع، فإذا رأى إنسان في منامه ما يمتنع شرعًا فإنه من الشيطان.

الثالث ما يريه الشيطان للإنسان في منامه، لأجل أن يحزن، وهذا كثير جدًّا، ودواء هذا ما أخبرنا به رسول الله ﷺ أن الإنسان إذا رأى في منامه ما يكره، فليقم وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت، ثم ينقلب إلى الجنب الآخر، ولا يحدث الناس بما رأى، وبعد ذلك لا يضره هذا الحلم[1].

القسم الثالث: ما يحدث به الإنسان نفسه في اليقظة، فإنه لشدة تعلق نفسه به قد يراه في منامه وهذا كثير.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بما أتيت به مما أمكنك من أمر الذبح، أي: يكفيك ذلك]، فجملة (ناديناه) جواب (لما) بزيادة الواو] هذا سبق البحث فيه، وبينا أن الصحيح فيه أن الواو ليست زائدة، ولكنها عاطفة على مقدر مناسب للمقام؛ لأن الواو من حروف المعاني وتفيد فائدة لا نستفيدها إذا قلنا: بزيادتها، وما كان كذلك فإنه لا يمكن أن يكون زائدًا.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل جزائنا إياك ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك بإزالة الشدة عنهم إذا فعلوا ما أمروا به، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

فهاتان آيتان تدلان أن الإنسان كلما اتقى الله زالت عنه الهموم وفرجت عنه.

وقوله: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ يشمل الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. وقد تقدم ذلك.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١٠٦ـ١١٣].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١).

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات أولها إن، والثاني: اللام، والثالث: ضمير الفصل.

ولا شك أن الأمر كما قال ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: إنه (بلاء مبين)، اختبار عظيم ظاهر أن أمر بذبح ابنه الذي فيه هلاكه وموته على يديه، والواحد منا قد لا يطيق الصبر على موت ابنه الذي جرى بفعل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فكيف يصبر على أن يذبح ابنه بيده؟! ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ وفسر المؤلف المبين هنا بالبين، ولكن يحتمل أن يكون المراد به المبين: المظهر يعني الذي أظهر حقيقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه يقدم محبة الله على ما يحب، قال أهل العلم: ولهذا جعله الله ـ تعالى ـ خليلاً له، والخلة هي أعلى أنواع المحبة، حيث قدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: المأمور بذبحه وهو إسماعيل أو إسحاق قولان (بِذبح) بكبش عظيم من الجنة، وهو الذي قربه هابيل جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ فذبحه السيد إبراهيم مكبرًا].

تسمية إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالسيد فيه نظر، ولا شك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد من سادات الخلق، لكن كونه يعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية وما أشبه ذلك فيه نظر.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، أي: فدينا الذبيح، والذبيح الذي أمر بذبحه، أي: جعل الله له فداء، فنقل الأمر من ذبح هذا الولد إلى ذبح الكبش؛ لأن الشيء الذي يقع فداء للشيء يكون بدلاً عنه ونائبًا منابه.

فانتقل الأمر من ذبح هذا المولود إلى ذبح الكبش فصار فداءً له، وقول المؤلف: [بكبش عظيم] الكبش: هو الكبير من الضأن، أي: الكبير الجسم، وزيد في ذلك قوله: (عظيم) يعني أنه من عظيم الكباش، ويقول المؤلف: [إنه الذي قرَّبه هابيل]، وهابيل هو أخو قابيل وكان هابيل قد قرب قربانًا فتُقُبِّل منه، وقرب قابيل قربانًا فلم يتقبل منه، فحسده قابيل وقال له: لأقتلنك، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] يعني فلو اتقيت الله لقبل منك، والقصة معروفة في ابني آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن ما قاله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ دعوى تحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من الكتاب والسنة، بل إن الدليل على خلافه؛ لأن القربان الذي تقرب به هابيل لا يتعين أن يكون كبشًا، ثم على فرض أنه كبش فإنه قد ذُبح وأُكل ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

لكن هذا مما يأخذه بعض المفسرين - رحمهم الله - عن الإسرائيليات، ولا يجوز أن يؤخذ عن الإسرائيليات مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام يقطع بكذبه، وأخبار بني إسرائيل إذا كان يقطع بكذبها لا يجوز نقلها، إلا على سبيل التكذيب لها.

وقول المؤلف - رحمه الله - : [إن الكبش من الجنة] ليس هناك دليل على أنه من الجنة.

ولا على أن في الجنة كباشًا، فالصواب أنه ذَبْحٌ من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداءً عن إسماعيل، ويجوز أيضًا أن يكون مع الفداء شكرًا لله - سبحانه وتعالى - على نعمته بزوال هذا البلاء المبين.

وأما قول المؤلف رحمه الله: [وهو إسماعيل أو إسحاق قولان] فالأمر كما ذكر اختلف العلماء - رحمهم الله - من هو الذي أُمر بذبحه هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ والصحيح أنه إسماعيل بل إنه هو المتعين لعدة أوجه:

١ - منها ما سيأتي في كلام المؤلف في قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ حيث قال المؤلف: [استدل بذلك على أن الذبيح غيره].

٢ - ومنها أن الله - تعالى - قال في إسحاق: [وبشروه بغلام عليم] [الذاريات:٢٨] وفي الذبيح قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ] [الصافات:١٠١] وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وتنفيذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

٣ - ومنها أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤] وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد وفَّى بذلك.

٤ - ومنها أن الله - تعالى - وصف إسماعيل بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق، فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥] ولم يذكر إسحاق ولم يصفه بالصبر، ومعلوم أن الصبر الذي صبره إسماعيل هو الصبر الذي يستحق أن يثنى به عليه؛ لأنه صبر عظيم.

٥ - ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١] ولو كان إسحاق الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بابن له أي: لإسحاق؛ لأن يعقوب بن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولدًا اسمه يعقوب، فلا يليق أن يؤمر بذبحه.

وقد يقول قائل: إنه بشر بيعقوب باعتبار المآل؛ لأنه إذا نسخ وجوب الذبح بقي هذا الولد ورزق ولدًا.

فيقال: نعم هذا يمكن أن يرد به لكن تفوت البشارة عندما يؤمر بالذبح، ومعلوم أن الإنسان

المبشر بالشيء لا يمكن أن يزعج بضده، فإذا أزعج بضده انقلبت البشارة سوءًا.

٦ ـ قوله تعالى هنا: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار.

٧ ـ أن الله ـ تعالى ـ ذكر البشارة بإسحاق للأم ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ ولم يذكر ذلك في إسماعيل.

٨ ـ أن الله ـ تعالى ـ قال في إسحاق: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وإذا كان قد بُشر بأنه نبي، فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يؤمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته.

٩ ـ أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنَا ابنُ الذَّبِيحَيْنِ»(١) يعني إسماعيل وأباه عبد الله بن عبد المطلب.

فإن صح هذا الحديث فهو أيضًا دليل واضح على أن الذبيح إسماعيل؛ لأن النبي ﷺ كان من ذرية إسماعيل ولم يكن من ذرية إسحاق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ تركنا: قال المؤلف: [أبقينا عليه في الآخرين ثناء حسنًا ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ منا ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾].

أفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الترك هنا بمعنى الإبقاء، وأن مفعوله محذوف تقديره ثناءً حسنًا، وهذا أحد القولين في المسألة.

والقول الثاني: إن المفعول لتركنا هو قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يعني: أن الله ترك عليه في الآخرين السلام، أي أن يسلم من الثناء القبيح، ورجح هذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «جلاء الأفهام» وقال: إن مفعول تركنا هو الجملة في قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ولهذا يثنى عليه إلى يوم القيامة، ويقال: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». كما يقرأ في القرآن الكريم صفاته التي يثنى بها عليه.

وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ السلام يعني السلامة من النقائص والعيوب التي تعتري البشر، ومن الثناء القبيح الواقع عليه من غيرهم، ولهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان الناس كلهم يفخرون بالانتساب إليه حتى اليهود قالوا: نحن على ملة إبراهيم، والنصارى قالوا: نحن على ملة إبراهيم، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

ثم قال : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الجملة هذه استئنافية يقصد بها الثناء على إبراهيم بغاية ما يثنى به وهو الإيمان والعبودية.

(١) ضعيف: لا أصل له بهذا اللفظ ، وانظر الكلام عليه في «الضعيفة» (٣٣١).

فالعبودية في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، والعبودية هنا العبودية الخاصة بل خاصة الخاصة؛ لأن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وخاصة: مثل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣].

ومنها ما هو أخص وهي عبودية الرسالة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وكلما كان أخص فهو أكمل، والأخص ينافي الأعم؛ لأن العبودية الخاصة في ضمن العبودية العامة، فكل من كان عبدًا لله بالمعنى الخاص فهو عبد له بالمعنى العام، ولا العكس يعني ليس كل من كان عبدًا لله في المعنى العام يكون عبدًا لله في المعنى الخاص.

وقوله: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ بشرنا إبراهيم بإسحاق يعني أعلمناه به على وجه يسر به بعد البشارة الأولى بإسماعيل، ولهذا كان إسماعيل أكبر من إسحاق - عليهما الصلاة والسلام -.

وقوله: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا] قال المؤلف - رحمه الله -: [نبيًا: حال مقدرة أي: يوجد مقدرًا نبوته]. أي: بولادته ووجوده نبيًّا حال من إسحاق، وأفادنا المؤلف بأنها حال مقدرة، لكن لما كانت أمرًا واقعًا لا محالة وصف بها حال البشارة وإلا فإنه حال البشارة ليس بنبي إذ إنه صغير، ولكن سيكون نبيًّا، ولما كا هذا الأمر محققًا جعل كأنه حال واقعة وأمر واقع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: القائمين بحق الله - تعالى - وحق عباده.

وقوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: على إبراهيم قال المؤلف - رحمه الله -: [بتكثير ذريته ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله].

أي: بارك الله على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حيث جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعد إبراهيم من نسله وعلى إسحاق - عليه الصلاة والسلام - أيضًا؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ.

قال: [﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ كافر ﴿مُبِينٞ﴾، بين الكفر].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية إبراهيم وإسحاق.

﴿مُحۡسِنٞ﴾ أي: قائم بحق الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحق عباده، ومنهم ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بارتكاب المعاصي والعدوان على الحق وعلى الخلق.

﴿مُبِينٞ﴾ أي: بيّن الظلم كما قال المؤلف. وعلى هذا فهي من أبان اللازم، ويجوز أن تكون من أبان المتعدي، ويكون المعنى: مظهر لظلمه، والواقع أن ذرية إسماعيل وإسحاق يتصفون بهذا الوصف: ظالم ومحسن. ولهذا لما قال إبراهيم حين قال له الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فكان في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] إشارة أنه سيكون من ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق أن يكون

إمامًا في دين الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

الفوائد:

١ - إثبات الكلام لله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لقوله: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ أي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وأنه بصوت ؛ لقوله ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ وبحرف ؛ لقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى آخره.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الآية شهدت لما دل عليه الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب»(١) فإن أشد كرب وقع لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالنسبة لهذه القضية ما حصل منه حين تل ابنه على جبينه ليذبحه، فما تتصورون لهذه الحال؟ إنه لكرب عظيم، وفي هذا الكرب العظيم جاء الفرج من الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

فالفرج يكون مع الكرب، وكلما اشتد الكرب والتجأ الإنسان إلى ربه كان الفرج إليه أسرع.

٣ - **ومن فوائدها:** أن فيها شاهدًا للحديث الصحيح أن الإنسان إذا قصد العمل وسعى به كتب له أجره ؛ لقوله: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ مع أنه لم يذبح، لكنه فعل ما أمر به، ولم يبق إلا أن ينفذه.

والأحاديث التي تشهد لها هذه الآية:

أولاً: ما ثبت في الصحيح في قصة الرجل الذي قال: «لَيْتَ لِي مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ فَأَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلَ فُلَانٌ، وَكَانَ يُنْفِقُ مَالَه فِي الخَيْرِ»(٢).

وكذلك في قصة الرجلين يقتتلان كلاهما يدخل النار، فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «لأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(٣) فإذا كان من فعل السيئة ولم يتمها يؤزر عليها فمن فعل الحسنة ولم يتمها من باب أولى أن يؤجر عليها.

٤ - **ومن فوائدها:** أن العبادة ما أمر الله به وإن كانت في غير هذا الموضع معصية، فإن قتل الابن من أكبر الكبائر، فإذا أمر الله به صار طاعة، ومن أفضل الطاعات؛ لأن تنفيذه من أشق ما يكون على النفس، فإذا نفذه الإنسان مع قوة الداعي لمنعه كان ذلك أكمل وأفضل.

ولهذا نظير، فالسجود لغير الله شرك، ولما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم صار السجود لآدم طاعة، فالحاصل أن العبادة ما أمر الله به، وإن كان جنسها قد يكون معصية في موضع آخر.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٢٦).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

٥ - **ومن فوائدها:** العمل بالرؤيا إذا كانت صالحة، ولكن هل هذا في كل رؤيا؟

والجواب: أما رؤيا الأنبياء فيعمل بها؛ لأن رؤياهم وحي، وأما رؤيا غيرهم فإن شهدت النصوص الشرعية باعتبارها، أو وجدت قرائن حسية تشهد لها عُمل بها وإلا فلا.

مثال الأول: ما ذكره ابن القيم - رحمه الله - عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أنه رأى النبي ﷺ في المنام فسأله عن مسائل أشكلت عليه، ومنها أنه يقدم إليه جنائز لا يدري أمسلمون هم أم كافرون، فقال له النبي ﷺ: «عَلَيْكَ بِالشَّرْطِ يَا أَحْمَد». أي: أرشده إلى أن يشترط فيقول مثلاً: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه.

فهذه الرؤيا شهد الشرع باعتبارها، وهو جواز الدعاء المعلق على شرط مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:٥ - ٩] فهنا دعاء معلق بالشرط.

مثال الثاني: ما ذكر عن ثابت بن قيس - رضي الله عنه - الذي استشهد في اليمامة وأتاه رجل من الجيش فأخذ درعه ووضعه في رحله تحت قدر، فرأى أحد أصحاب ثابت بن قيس ثابتًا في المنام وأخبره بأنه مر به رجل وأخذ درعه ووضعه تحت قدر من الفخار وعنده فرس تستن، وذكر أشياء أوصى بها فلما بلغ ذلك أبا بكر - رضي الله عنه - أنفذ وصيته؛ لأن الرجل الذي رأى هذه الرؤيا ذهب إلى المكان الذي ذكره ثابت، فوجد الأمر كما قال.

فهنا وجدت قرينة حسية تدل على صدق الرؤيا.

من فوائد قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

١ - أن كل محسن فإن الله - تعالى - يجعل له من كل هم فرجًا، ويكتب له أجر العبادة وإن لم يفعلها إذا سعى في أسبابها، وهذا له أمثلة كثيرة، نذكر منها ماجرى لرسول الله ﷺ في حجة الوداع، فإن النبي ﷺ حج قارنًا بلا شك وساق الهدي، ومع ذلك قال: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَجَعَلْتُها عُمْرَةً»(١). فهنا تمنى ﷺ أن يكون قد تمتع ولكنه قرن، فيكتب له أجر التمتع، الذي قال عنه: «لَوْ اسْتَدْبَرْتُ مِن أَمْرِي مَا اسْتَقْبَلْتُ لَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً».

فالإنسان الحريص على الخير قد يكتب الله له من الأجور ما هم أن يفعله وإن لم يفعله، وأن الله يفرج له كل كرب، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٥١)، ومسلم (١٢٤٠).

يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣] ولكن لابد في هذه الحال من قيد، وهو أن ينتظر الإنسان فرج الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فلا يبعد بنفسه عن الله وييأس بل ينتظر الفرج، فإذا انتظر الفرج مع تقواه وإحسانه فما أقرب الفرج إليه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢ ـ ومن فوائدها: بيان عظمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حيث أسند الفعل إليه بضمير العظمة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا شك أن الله ـ تعالى ـ أثنى على نفسه بالعظمة والإحسان والفضل.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكما أحسن في عبادة الله أحسن الله إليه، وقد قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة الرحمن: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وبهذا يتبين لك كمال فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الذي أحسن إليك، أولاً بتوفيقك للطاعات والإحسان، ثم أحسن إليك ثانيًا بالجزاء عليه.

فاعرف ـ أيها المؤمن ـ قدر نعمة الله عليك بالإحسانين: إحسان سابق للهداية، هداك الله ووفقك، وإحسان لاحق وهو الثواب العظيم، ونحن في الحقيقة في غفلة عن هذا، كثيرًا ما يعتمد الإنسان على نفسه بفعل الخير ولا يرى نعمة الله عليه به، مع أن الواجب أن ترى نعمة الله عليك به، إذا أتيت مثلاً إلى المسجد فاعرف قدر نعمة الله عليك، حيث سهل عليك المجيء إلى المسجد للصلاة، أو لقراءة العلم؛ لأن الله حرم أممًا كثيرة مما منّ الله به عليك، فما أكثر الذين لا يحضرون إلى المساجد، وما أكثر الذين يحضرون بأبدانهم لا بقلوبهم، وما أكثر الذين يحضرون عادة لا عبادة، وما أكثر الذين حرموا التردد إلى المساجد لطلب العلم أو قراءة القرآن، فكل هذه يجب أن يتفطن لها الإنسان وأن يعرف قدر نعمة الله عليه بها، ثم يرجو ثواب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليها، ويحسن الظن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»(١).

فوائد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾:

١ ـ ومن فوائدها: بيان أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد يختبر عبده المؤمن بمصائب يفعلها هو بنفسه، أو بمصائب يقدرها الله عليه لا اختيار له فيها، والأول أكمل من الثاني يعني أن يبتلي الله الإنسان بمصائب يفعلها هو بنفسه هذا أكمل من الثاني؛ لأن الثاني الذي يجري عليه بغير اختيار كما قال بعض السلف: «إما أن يصبر صبر الكرام، وإما أن يسلو سلوا البهائم». لكن الشيء الذي يفعله بنفسه أعظم وأكمل، وما جرى لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الاختبار من النوع الأول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الذي قدر عليه المصيبة يفعلها هو بنفسه، وهو ذبح ابنه، فإنه سيفقده، وفقد الابن في هذا السن - وهو أيضًا وحيده الذي ليس له ولد سواه - ، لا شك مصيبة عظيمة، ولهذا وصفة الله بأنه بلاء مبين.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيما يقدره على عبده المؤمن من مكروه، فلا يقول الإنسان: لماذا ابتلاني الله - تعالى - بهذا دون غيري؟ بل يقول: لله في ذلك حكم عظيمة، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يبتلي المؤمن بالمصائب، فإذا صبر نال بذلك درجة الصابرين، وإذا احتسب الأجر بهذا الصبر نال بذلك ثواب الصابرين، والصبر مرتبة عالية يُوفَّى فيها العامل أجره بلا حساب، ولا يمكن صبر بلا مصبور عليه، بل لابد من ابتلاء وامتحان يعلم به قدر صبر الإنسان حتى يثاب على قدر ما حصل منه من الصبر.

٣ - **ومن فوائدها:** فضيلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ، وقد سبق، لكن من هذه الآية يتبين فضيلتهما بأنهما صبرا على هذا الابتلاء، صبرا صبر الكرام، وأسلما ولم يبق إلا التنفيذ حتى جاء الفرج من الله - سبحانه وتعالى -.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾:

١ - بيان أن رفع الذبح عن الابن جعل له مقابلاً لتكميل التنفيذ والامتثال، وذلك بأن أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأن يذبح فداءً عن ابنه، ويكون هذا الذبح أي: المذبوح عظيمًا، فلهذا قال: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني: أمرناه أن يذبح ذبحًا عظيمًا فداءً له.

٢ - **ومن فوائدها - على ما استنبطه بعض العلماء - :** أن الإنسان إذا نذر ذبح ابنه وجب عليه أن يذبح فدية عنه كبشًا، قال:؛ لأن هذا هو الذي أمر الله به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليكون فداءً عن ابنه، ومعلوم أن الإنسان إذا نذر أن يذبح ابنه فإنه لا يحل له أن يوفي به؛ لأنه نذر معصية، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِه»[1].

وهذا الاستنباط جيد لولا مخالفته لظاهر السنة، وهو أن من نذر معصية فإنه يحرم عليه فعلها، ولكن يُكَفِّرُ كفارة يمين، فإذا قال شخص: لله عليَّ نذر أن أذبح أول ولد يأتيني، ثم أتاه ولد فإنه لا يحل له أن يذبحه ولكن نقول: عليك - على القول الراجح - أن تكفر كفارة يمين.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾:

أن الله - تعالى - أبقى لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ثناءً حسنًا وسلامًا في الآخرين: ثناء حسنًا يثني عليه بما حصل منه من الدعوة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - والصبر على البلاء الذي حصل له بغير اختياره، والصبر على البلاء الذي حصل له باختياره.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦).

فمن البلاء الذي حصل له بغير اختياره الإحراق حين قال قومه: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨] ومن المعلوم ما يحصل للإنسان عندما يعزم على تحريقه لقاء الدعوة إلى الله؛ لأنه سيتألم لذلك ألمًا بدنيًا وألمًا قلبيًا. إن من الدعاة من إذا رأى عدم قبول الناس لدعوته تألم بمجرد أنهم لم يقبلوها فكيف إذا ردوها وأحرقوه من أجلها فهذا أشد ألمًا على القلب، ولا شك أن هذا بلاء ومع ذلك صبر وأُلقي في النار، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أمرها أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

البلاء الثاني الذي حصل باختياره هو الأمر بذبح ابنه وعزمه على أن ينفذ ذلك. هذا من الثناء الحسن على إبراهيم.

كذلك أيضًا إبراهيم اتفقت الأمم على الثناء عليه وعلى ألا يعاب، ولهذا قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإن قلت: إننا ـ نحن هذه الأمة ـ نسلم على إبراهيم وغيره فإننا نقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُم ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُم عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(١).

فالجواب: نعم إننا نسلم على كل عبد صالح في السماء والأرض، ولكن سلامنا على إبراهيم وأمثاله من أولي العزم من الرسل أشد وأبلغ من سلامنا على عامة الصالحين.

ومن فوائد الآية في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أن الله ـ تعالى ـ كرر هذه الجملة المفيدة لهذا الحكم ترغيبًا للناس في الإحسان.

فيستفاد منها: أنه ينبغي لمن تكلم في أمر يرغب فيه أن يكرر؛ لأن لنفوس كلما تكرر لها الحكم ازدادت طمأنينة فيه ورغبة فيه، وفي مقام الترهيب كذلك يكرر، ألم تروا إلى قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] حيث كررت عدة مرات تحذيرًا وإنذارًا، فلكل مقام مقال.

والتكرار قد يكون من الركاكة ومن البعد عن البلاغة، لكن إذا كان في موضع يحسن فيه كان ذلك من البلاغة، وهنا كرر الله هذه الجملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عدة آيات.

ومن الفوائد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

١ ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذين الوصفين، وهما العبودية والإيمان، ويتفرع على ذلك: أن من اتصف بالعبودية والإيمان ناله من الثناء بقدر ما اتصف به منهما، فكلما كان الإنسان لله أعبد وبه آمن كان الثناء عليه أكثر وأعظم، ولا تغتر بما تلاقيه في الدنيا من مجابهات، فإن هذا قد يرد ولكن يكون امتحانًا وابتلاءً واختبارًا، ويكون الثناء ولو بعد موت الإنسان، كم من أئمة من هذه الأمة أوذوا في حياتهم، ولكن بعد مماتهم صار جزاء هذه الأذية أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٤٠٢).

الله ـ تعالى ـ رفع لهم الذكر. وصارت العاقبة لهم، والثناء الحسن بعد مماتهم، والشواهد على ذلك كثيرة.

٢ ـ **ومن فوائدها:** فضيلة العبودية لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والإيمان به؛ لأنه لا شك أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الثناء عليه، وإذا علق الحكم على وصف فإنه يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

فإذا كان الثناء معلقًا بالعبودية والإيمان فكلما كان الإنسان أشد عبادة وأقوى عبادة كان أحق بالثناء، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أحق بالثناء، والعكس بالعكس.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

١ ـ مشروعية البشارة بالولد ـ وقد سبقت ـ وذلك؛ لأن الولد يسر به الإنسان بلا شك، لا سيما إذا بشر بأنه نبي كما في هذه الآية ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أو بأنه غلام حليم كما في الآية التي في إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الدليل الظاهر على أن الذي أُمر إبراهيم بذبحه إسماعيل وليس إسحاق، وقد بينا فيما تقدم تسعة أوجه تدل على أن الذي أُمر بذبحه هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات نبوة إسحاق؛ لقوله: ﴿بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا﴾.

٤ ـ أنه ينبغي عند البشارة أن يذكر ما يرجى من مستقبل ما بشر به، سواء كان ولدًا، أم مالاً، أم زوجة، أم بيتًا، أم غير ذلك، فالإنسان إذا توقع خيرًا في المستقبل فيما بشر به، فإنه ينبغي أن يقرن ذلك بالبشارة؛ لأن الله قرن نبوته بالبشارة به.

٥ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكونه ﴿نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جمعوا بين الصلاح بأنفسهم والإصلاح لأممهم، فهم صالحون مصلحون.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبوة وصف كمال؛ لأن الله ـ تعالى ـ قرنها بالبشارة، فلولا أنها وصف كمال يستبشر به الإنسان لكان ذكرها لغوًا لا فائدة منه.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾:

١ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بارك على إبراهيم وعلى إسحاق فمن بركات إبراهيم أن جميع الأنبياء من بعده كانوا من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد:٢٦] فمن سبق إبراهيم فهو من ذرية نوح، وأما من بعده فهو من ذرية إسحاق وإبراهيم، والذي ليس من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم، والذي من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم وإسحاق.

مثال: من لم يكن من ذرية إسحاق: إسماعيل ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ. فإنهما من ذرية

إبراهيم وليس من ذرية إسحاق.

أما أنبياء بني إسرائيل فكلهم من ذرية إسحاق.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن ذرية إبراهيم وإسحاق انقسموا إلى قسمين: محسن وظالم، وهذا يشمل: الإحسان المطلق، ومطلق الإحسان، والظلم المطلق، ومطلق الظلم.

فمطلق الإحسان يشترك معه مطلق الظلم؛ لأن من جمع حسنات وسيئات ففيه مطلق الإحسان ومطلق الظلم. أي: ليس فيه الإحسان الكامل؛ لأن عنده ظلمًا، وليس فيه الظلم المطلق؛ لأن عنده إحسانًا.

فيكون الإحسان المطلق والظلم المطلق متقابلان.

الإحسان المطلق هو الذي إذا فعل معصية ذكر الله، فاستغفر فرفع عنه أثر المعصية، والظلم المطلق هو الكافر الذي ظلم بالكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فذرية إبراهيم وإسحاق ينقسمون إلى ثلاثة أقسام عند التفصيل:

أ ـ المحسن المطلق هو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ومن يغفر الذنوب إلا الله.

ب ـ الظالم المطلق وهذا الكافر.

جـ ـ من عنده مطلق الإحسان وهو المسلم الذي عنده معاصي، ومطلق الظلم وهو كذلك المسلم الذي عنده معاصي، فإن كثرت معاصيه على طاعاته صار إلى الظلم أقرب، وإن كثرت طاعاته على معاصية صار إلى الإحسان أقرب.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أن الظلم يكون بيِّنًا أو مظهرًا لصاحبه، على حسب القول في ﴿مُبِينٌ﴾ هل هي بمعنى بيِّن أي: ظاهر، أو بمعنى مظهر لظلم صاحبه؛ لأن الظلم: قد يكون ظلمًا بيِّنًا واضحًا كالعدوان على الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، فهذا يكون الرجل فيه مظهرًا لظلمه، وقد يكون خفيًّا يستتر به الإنسان، فهذا ظلم بيِّن بالنسبة له، ولكنه ليس مظهرًا له؛ لأنه قد أخفاه عن الناس ـ والله أعلم ـ.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من ذرية إسحاق، وأكد الله ـ تعالى ـ منته عليهما باللام، وقد، والقسم المقدر.

والمنة هي: العطاء بلا ثمن، وأعظم عطاء يعطيه الله ـ تعالى ـ الإنسان هو النبوة، ولهذا قال المؤلف: [بالنبوة].

قال الله تعالى:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١١٥-١٢٢].

التَفسِير

ذكر الله منته على موسى وهارون بالنبوة ثم بنجاتها وقومهما من الكرب العظيم.

والكرب يحتمل أنه الهلاك كما سبق في نظيرها، ويحتمل أنه ما لحقهما من الشدة من فرعون، فإن فرعون استعبد بني إسرائيل، وصار يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، يذبح أبناءهم فأحيانًا يذبحهم ذبحًا كالغنم، وأحيانًا يقتلهم قتلاً؛ إما بأحجار، أو بغيرها، وكان يؤ ذيهم أشد الإيذاء، يسومهم سوء العذاب، ولا شك أن هذا سيكون فيه كرب عظيم على هؤلاء القوم، فنجاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك. فذكر الله منته عليهم به.

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما أي: نصرناهم على عدوهم، وأعظم انتصار ما حصل في النهاية حيث أمر موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يخرج من مصر فاتجه إلى البحر الأحمر، ولما بلغه أمر بضربه فضربه فانفلق، فخرج موسى وقومه سالمين، ودخل فرعون وقومه فهلكوا حتى أراهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ جثة فرعون فوق الماء؛ ليطمئنوا بموته ويتيقنوا ذلك، فلهذا كان ذلك نصرًا لهم.

وقوله: ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ الغالبين في النهاية، وإلا فإن أول الأمر كان فرعون قد سامهم سوء العذاب، لكن العبرة بالنهاية، والنهاية أنهم غلبوا؛ لأن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول في آل فرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧] يعني الأمر، كذلك مؤكد، مثل قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٨] وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل كما في آية الشعراء، فهذا من النصر العظيم أن الله ـ تعالى ـ يورث هؤلاء القوم الذين استضعفوا في الأرض، أرض هؤلاء العتاة الطغاة الفراعنة بكل سهولة.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أي: أعطيناهما الكتاب المستبين، وهو التوراة وسماه كتابًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتبه بيده كما جاء ذلك في بعض الآثار، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كتب

التوراة بيده، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥] فهي إذن كتاب بمعنى مكتوب، ووصفه بأنه مستبين؛ لأنه فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل، والمستبين أبلغ من المبين أو البيّن؛ لأنه كلما كثرت الحروف كثرت المعاني في الغالب، ولهذا يقال: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذا ليس دائمًا، بل في الغالب، فمثلاً كلمة (شجرة) حروفها أكثر من شجر ومع ذلك شجر أكثر من شجرة، وكذلك بقر ونمل وما أشبهه.

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [البليغ البيان] أتى المؤلف بكلمة: البليغ: البيان من قوله: ﴿الْمُسْتَبِينَ﴾؛ لأن زيادة حروفها تدل على زيادة معناها [فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها]، ولهذا يقال: إن أشمل كتاب بعد القرآن هو التوراة، وقد جعلها الله ـ تعالى ـ عمدة لبني إسرائيل ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الصراط: الطريق لكن قال العلماء: إنه ليس كل طريق صراطًا، بل هو الطريق الواسع المستقيم المعتدل، الذي ليس فيه اعوجاج، وذلك؛ لأنه مأخوذ من سرط أو زرط بمعنى التقمته بسرعة، فالطريق الواسع المستقيم العدل يسمى صراطًا، ولا شك أن صراط الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي وضعه لعباده طريق واسع يسع كل من تمسك به.

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ ﴾ ولم يقل: إلى الصراط؛ لأن المراد بذلك هداية التوفيق وهداية الدلالة، وإذا كان المراد بالهداية، الهدايتان فإنه يتعدى بنفسه، فيقال: اهدنا الصراط.

وانظر إلى قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] فإذا كانت الهداية بمعنى الدلالة تعدت بإلى، وإذا كانت بمعنى الدلالة والتوفيق تعدت بنفسها.

ثم إنها إذا تعدت بنفسها تفيد الهداية إلى الصراط والهداية في الصراط، فتفيد المعنيين جميعًا: إلى الصراط بحيث يصل الإنسان إليه، وفيه بحيث لا يتجاوزه ولا يخرج عنه.

فحذف الجار فيه هذه الفائدة أن يكون أعم مما لو تعين الجار، فيكون شاملاً لهدايته إليه وللهداية فيه.

وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ إذا جعلنا الصراط هو الطريق الواسع المعتدل صارت المستقيم بيانًا للواقع وصفة كاشفة؛ لأنه لو حذفت وقيل: الصراط. لاستغني عنها إذا فسرنا الصراط بما ذكرنا. أما إن فسر الصراط بمطلق الطريق فلابد من ذكرها.

وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: الذي استقام فليس فيه اعوجاج ولا انحراف، قال الله ـ تعالى ـ :

﴿وأن هذا صراطي مستقيًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالصراط المستقيم معتدل قائم، والسبل تخرج يمينًا وشمالاً؛ ولذلك من خرج عن الصراط المستقيم ضاع وتاه، قال الله - تعالى - : ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أبقينا عليهما في الآخرين ثناءً حسنًا ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾] يقال في هاتين الآيتين ما سبق، قال: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناهما ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾] أيضًا نقول: فيها كما سبق.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة** عظيم منة الله - عَزَّ وَجَلَّ - على موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - بالرسالة؛ لأن الرسالة من أعلى مقامات البشر، قال الله - تعالى - : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد رسالتهما؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن من منّ الله عليه بإرث الأنبياء بالعلم، فإن ذلك من أعظم المنن، ولهذا قال أهل العلم: إن العلم أفضل من المال، فلو اجتمع عالم وغني، فالعالم أفضل من الغني حتى وإن بذل الغني ماله في سبيل الله، فالعالم المنتفع بعلمه والمعلم لغيره أفضل من صاحب المال.

٤ - **ومن فوائدها:** جواز تعدد الرسل في آنٍ واحد، وهذا قبل بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، أما بعد بعثته فهو خاتم النبيين ولا نبي بعده.

٥ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيان منة الله على موسى وهارون وقومهما بالنجاة من الهلاك، سواء كان على أيدي الفراعنة، أو بعذاب من عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فإن الله نجاهما، وقد ذكَّر الله قوم موسى بهذه النعمة: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] وفي آية أخرى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: ٦]؛ لأنهم تارة يقتلونهم، وتارة يذبحونهم، كما تذبح الشاة - والعياذ بالله - إرهابًا وإزعاجًا، فأنجاهم الله منهم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة** في قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أن بني إسرائيل أصابهم كرب عظيم بسبب ما حصل لهم من استعباد فرعون لهم؛ لأنه كان قد استذلهم استذلالاً عظيمًا، فمن العلماء من قال: إنه فعل ذلك؛ لأنه قيل: له: إنه سيولد منهم ولد يكون ذهاب ملكك على يده.

ومنهم من قال: بل فعل ذلك لمجرد إذلالهم خشية من أن يكثروا، ويكون لهم عزة وشوكة ومنعة، وكونه فعل ذلك من أجل الخوف من هذا الذي قيل: عنه ما ـ قيل: ـ يحتاج إلى دليل.

٧ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ بيان منة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الإنسان بالنصر، فإن النصر من أعظم النعم؛ لأن الإنسان يكون له عزة وغلبة، ويكون عدوه خائفًا منه، ذليلاً أمامه.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الغلبة صارت في النهاية لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقومه، ويتفرع على هذه الفائدة: أخذ العبرة من ذلك بأن النصر بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد ينصر من هو ضعيف، وقد يذل من هو قوي، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هلاك عدوك يعتبر غلبة لك، سواء كان هلاكه على يدك أو بعذاب من عند الله، فإنه بلا شك لم يكن هلاك فرعون وقومه على يد موسى وقومه، بل كان بفعل الله، ومع ذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنجاء موسى وقومه من فرعون غلبة.

والتخلص من العدو يسمى نصرًا وفتحًا وغلبة، كما قال النبي ﷺ في غزوة مؤتة حين كانت الراية مع زيد بن حارثة، ثم كانت مع جعفر بن أبي طالب، ثم كانت مع عبد الله بن رواحة، وكلهم قتلوا ـ رضي الله عنهم ـ قال: «ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدٌ فَفَتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، وخالد ـ رضي الله عنه ـ لم ينتصر على الروم ولم يغلبهم، ولكن نجا منهم، فسمى النبي ﷺ هذه النجاة فتحًا، كما سمى الله ـ تعالى ـ هنا نجاة موسى وهارون وقومه من فرعون أنها نصر وغلبة.

١٠ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ بيان عظيم منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإيتاء الكتاب لموسى وهارون وهو من عطف الخاص على العام في قوله: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ لأن إيتاء الكتاب أعظم منه، ويتفرع على هذا: أن من آتاه الله علم كتابه وسنة رسوله ﷺ فله نصيب من هذه المنة.

١١ ـ **ومن فوائد الآية:** الثناء على التوراة في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أي: البالغ البيان، ولا شك أن التوراة هي أعظم كتاب أنزله الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينزل الكتب تبيانًا للناس، فيؤخذ من ذلك أن العقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله من الحقوق، ولا بمعرفة ما يجب له من الصفات، ولا بمعرفة ما يجوز عليه ولا ما يمتنع فيكون في ذلك رد على من حكموا العقول في باب أسماء الله وصفاته.

١٣ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أن كل إنسان مفتقر إلى الله ـ تعالى ـ في الهداية مهما بلغت مرتبته، فهذا موسى وهارون منَّ الله عليهما بهدايتهما الصراط المستقيم، فلا يقول قائل: أنا عالم، أنا عابد. فيعتمد على نفسه ويعجب بها، بل يجب عليه أن يرى

قدر نعمة الله عليه بالهداية، فكم من أناس أضلهم الله وهم أقوى منه ذكاء.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** أن صراط الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صراط مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا ارتفاع ولا انخفاض، فهو سهل لسالكه، ومن المعلوم أن الصراط إذا كان معوجًا أو فيه انخفاض أو ارتفاع فإنه يعيق سالكه، لكن صراط الله ـ على العكس من ذلك ـ مستقيم.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان محتاج في الهداية إلى الصراط المستقيم إلى هدايتين: هداية دلالة وهي التي تتعدى بـ (إلى)، وهداية توفيق وهي التي تتعدى بنفسها، ولهذا قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ولم يقل: إلى الصراط.

١٦ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في الآخرين وأثنى عليهما بما يستحقانه.

١٧ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ دافع عن موسى وهارون، حيث سلمهما من الثناء القبيح في الآخرين، هذا على القول بأن سلام على موسى وهارون متعلق بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ يعني: أنه ترك ـ عليهما السلام ـ في الآخرين، أما إذا قلنا: بأنه ترك عليهما ثناءً حسنًا، وجعلنا السلام من الله ، فهو جملة مستأنفة لا تتعلق بما قبلها.

١٨ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده الذين أحسنوا، حيث يجزيهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

١٩ ـ ومنها أيضًا بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العباد من وجه آخر، وهو أنه هو الذي منّ عليهم بالإحسان أي: جعلهم يحسنون، ثم منّ عليهم مرة ثانية بمجازاتهم على هذا الإحسان، وعلى هذا فكل إحسان تفعله فإن لله عليك فيه منتين.

المنة الأولى: توفيقك لهذا الإحسان.

والمنة الثانية: ثوابك على هذا الإحسان.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يجزي العامل لشخصه، وإنما يجزيه لعمله؛ لهذا بين أن هذا الجزاء لا يختص بموسى وهارون، بل هو لكل إنسان محسن.

٢١ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الثناء على المؤمن الذي حقق عبودية الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٢ ـ **ومن فوائدها:** أن البشر مهما علت منزلتهم ومرتبتهم فهم داخلون ضمن العبودية؛ لأن موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من أكابر الأنبياء، ومع ذلك فإن الله ـ تعالى ـ وصفهما بالعبودية له ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن المعلوم أن وصف الإنسان بالعبودية لله شرف له وعز؛ لأنه ما من إنسان إلا وهو عبد،

إما أن يكون عبدًا لهواه، وإما أن يكون عبدًا لمولاه، وكل إنسان له إرادة، وكل إنسان متحرك ولكن ما هي الإرادة؟ وإلى أين التحرك؟ إن كانت الإرادة إرادة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والتحرك لدينه فهذه هي الحرية، وإذا كانت الإرادة لغيره والتحرك لغير شرعه فهذه رق.

ولهذا نرى أن هؤلاء الفوضويين الذين يريدون أن يكون الناس فوضى مُدَّعين أن هذه هي الحرية ـ نرى أن هؤلاء هم الذين ابتلوا بالرق؛ لأن الشيطان استرقهم وجعلهم عبيدًا له، ولو عبدوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسلموا من هذا الرق، فهم تركوا الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

هَرَبُوا مِن الرِّقِ الَّذِي خُلِقُوا لَه ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

الرق الذي خلقوا له هو العبودية لله، لكنهم بلوا برق النفس والشيطان، فما من إنسان يهرب من عبادة الله إلا وقع في عبادة الشيطان ولابد.

فالعبودية وصف كمال للإنسان إذا كانت له، وإذا كانت للشيطان فهي وصف نقص.

٢٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة فضيلة الإيمان**؛ لقوله: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٢٤ ـ **ومن فوائدها:** أن كل جزاء وكل وصف علق بالإيمان فإن للأنبياء منه الحظ الأوفر والأكمل.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٣ ـ ١٣٢].

التفسير

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ (إن) و (اللام).

ويؤكد الله مثل هذه الأشياء التي يكفي فيها خبره ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل توكيد جريًا على عادة العرب في توكيدهم الأمور الهامة، أو الأمور التي يكون المخاطب فيه شاكًا، أو يكون

المخاطب فيها منكرًا، فهم يؤكدون الخبر لأسباب منها هذه الأسباب الثلاثة: أن يكون المخبر به أمرًا هامًّا، أو أن يكون المخبر شاكًّا في الخبر، أو أن يكون منكرًا له، فيؤكدونه زيادة في طمأنينة المخاطب، وإلا فإن مجرد خبر الله ـ تعالى ـ في الشيء يغني عن كل توكيد، وقوله: ﴿إِلْيَاسَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بالهمز أوله وتركه] يعني أن فيه قراءتين إلياس بهمزة قطع، وترك الهمزة ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذي يظهر أنه من أنبياء بني إسرائيل، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قيل: هو ابن أخي هارون أخي موسى، وقيل: غيره، أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها] ليس هناك دليل على أنه ابن أخي هارون أخي موسى لا من القرآن ولا من السنة، وذكر قصته بعد قصتهما لا يفيد ذلك فالله ـ تعالى ـ يذكر قصة هود بعد نوح ومع ذلك بينهما زمن طويل، ونحن لا يهمنا صلة هذا النبي بالنبي الآخر من حيث النسب، لكن الذي يهمنا صلة دعوتهما ببعض، كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣]، فإن الأنبياء دعواهم واحدة، كلهم يدعون إلى توحيد الله، أما النسب فليس بهام.

فإلياس رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى بعلبك ـ كما هو كلام المؤلف ـ.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [إذ منصوب باذكر مقدرًا] أي: اذكر إذ قال لقومه، وإذا منصوب باذكر مقدرًا فهل الخطاب للرسول ﷺ؟ يعني اذكر إلياس لقومك، أو الخطاب لكل واحد يصح خطابه، ويكون المراد بقوله: اذكر المقدر أي: تذكر، يحتمل هذا وهذا، ـ وعلى كل حال ـ فإن الله أمر نبيه أن يذكر للناس هذه القصة، وأمر كل واحد أن يتذكر هذه القصة؛ لأن في ذلك عبرة.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ هنا: أداة تحضيض وليست أداة عرض؛ لأنه لا يقصد عرض التقوى عليهم، ولكن يحضهم على هذا، قال المؤلف: [ألا تتقون الله] فقدر المفعول المحذوف باسم الجلالة، ولكن الأولى أن يقال: إنه أعم من ذلك، ألا تتقون الله، ألا تتقون النار، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران:١٣١]، ألا تتقون يوم الحساب كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] فحذف المفعول أعم، ولا ينبغي إذا دلت الآية على معنى أعم أن نقيدها بمعنى أخص؛ لأن هذا يعتبر نقصًا في تفسير الآية، بل إذا جاءت الآية عامة فلتبقى على عمومها، وإذا جاءت مطلقة فلتبقى على إطلاقها.

والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار والتسفيه، وتدعون بمعنى: تعبدون، فإن الدعاء يسمى عبادة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠] ولم يقل: عن دعائي، وهذا يدل على أن الدعاء يراد به العبادة وهو كذلك، ويحتمل أن يكون المراد بدعوتهم لهذا الصنم دعوة المسألة، وأنهم يستغيثون بهذا الصنم،

وإن لم يركعوا له ويسجدوا له، ـ كما يوجد الآن ـ في كثير من المسلمين ـ مع الأسف ـ من يدعو الأولياء في قبورهم وإن كانوا لا يركعون لهم، ولا يسجدون، فكوننا نجعل الدعاء بمعنى العبادة أعم من أن نجعله بمعنى السؤال؛ لأن السؤال نفسه عبادة كل إنسان يسأل الله ولو حاجة دنيوية، فإنه يعتبر عابدًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مثنيًا عليه؛ لأنه جعله المرجع ـ سبحانه وتعالى ـ وجعله ملاذه.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [اسم صنم لهم من ذهب، وبه سمي البلد أيضًا مضافًا إلى (بك) أي: أتعبدونه و ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: تتركون أحسن الخالقين].

وهنا قال: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ولم يقل: تذرون الله، بل قال: أحسن الخالقين، فلابد أن يكون هناك نكتة، فالعدول عن اسم الله الذي يختص به وهو الله لابد أن يكون هناك نكتة، النكتة هنا هي: إقامة الحجة عليهم بعدم صلاحية معبودهم للعبادة؛ لأنه لا يستطيع الخلق، والله وحده هو الذي يقدر على الخلق وعلى أحسن الخلق، فالله ـ تعالى ـ أحسن الخالقين، وكل من خلق شيئًا فالله ـ تعالى ـ أحسن منه خلقًا حتى الذين يضاهئون بخلق الله لا يمكن أن يخلقوا مثل خلق الله، بل هم يقلدون على خلق الله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ولا أحسن منه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أحسن الخالقين.

وفي قوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ ﴾ إشكال، وهو أنه قد يفهم فاهم من هذه الآية أنهم لو دعوا البعل ولم يذروا الله فلا إنكار عليهم، فما الجواب؟

الجواب أن يقال: يحتمل أن هؤلاء القوم يدعون البعل، ولا يدعون الله ولا يعبدون الله، كما يوجد ـ الآن ـ في طوائف الكفر من لا يرون أحدًا يطاع ويتقى إلا زعماؤهم ورؤساؤهم، فالدول الشيوعية مثلاً كانوا لا يعرفون إلا ستالين ومن سن لهم هذه القوانين، ويرون أنه هو الرب الذي يجب أن يطاع وأن يخشى، ولا يعرفون الله، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ على ظاهره، أي أنهم يدعون هذا البعل، ولا يدعون الله.

ويحتمل أنهم يدعون البعل، ويدعون الله، ولكن من دعا غير الله ودعا الله فإن الله غني عنه، فيكون كالتارك لدعاء الله، كما صح الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1] وعلى هذا فيكون إلياس جعلهم تاركين لله؛ لأنهم أشركوا به، ومن أشرك بالله معه غيره فالله غني عنه كأنه لم يعبد الله.

وعلى هذا فإما أن يكونوا قد تركوا الله على سبيل الحقيقة إذا كانوا يعبدون البعل ولا يعبدون الله، أو يكونوا تركوا الله على سبيل الحكم إذا كانوا يعبدون البعل ويعبدون الله، فإن هؤلاء حقيقة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

تركوا عبادة الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ غني عنهم.

وقوله: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قال المؤلف: [برفع الثلاثة على إضمار هو، ونصبها على البدل من أحسن].

الثلاثة: الله، ربكم، ورب آبائكم.

يقول: فيها قراءتان الأولى: الرفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف يعني هو رب، وتكون هذه الجملة منقطعة عما قبلها، استئنافية لبيان من هو أحسن الخالقين.

والقراءة الثانية بالنصب ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ على أنها بدل من أحسن.

أي: وتذرون ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

ومعنى الآية: فـ ﴿ ٱللَّهَ ﴾ بمعنى المألوه، وأصلها الإله، لكنها حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال، ﴿رَبَّكُمْ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمدبر لأموركم؛ لأن الرب كما تقدم هو الخالق، المالك، المدبر، ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يعني السابقين وهم: الأجداد، وإنما قال: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إشارة إلى:

أولاً: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الذي بيده خلق الحياة والموت، فإن هؤلاء الآباء الأولين قد أماتهم الله، فيذكر هؤلاء بأنهم سوف يموتون كما مات آباؤهم الأولون، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان له قلب وذكر بالموت وأنه سوف ينتقل من هذه الحياة التي هي حياة العمل إلى حياة أخرى وهي حياة الجزاء فلابد أن يلين قلبه، وأن يعمل للدار المستقبلة التي لابد أن يصير إليها، فكونه يذكر الآباء الأولين إشارة إلى تذكيرهم بأنهم سيموتون كما مات هؤلاء فليستعدوا.

ثانيًا: أن الله ـ تعالى ـ هو الخالق لموتهم وحياتهم، فإذا كان هو الخالق لذلك فإن الواجب أن يعبد وحده دون غيره، وهذا الصنم لا يخلق الموت ولا الحياة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذبوا ما جاء به خبرًا وطلبًا.

كذبوه أنه رسول، وقالوا كما قال غيرهم ـ والعلم عند الله ـ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء:١٨٦] بل كل الذين سبقوه من الرسل قيل لهم: ذلك، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٩ ، ١٠] فكل من سبق يكذبون رسلهم يقولون: أنتم بشر، يعني: ولو شاء الله أن يرسل رسولاً لجعله ملكًا، ولكن الله رد على هؤلاء قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام:٩] أي: في صورة الرجل؛ لأنه لا يتلاءم أن ينزل مَلَكٌ لبشر ليدلهم ويقودهم، وكيف يتبع الناس هذا الملك وهو على صورته الأصلية؟ لا يمكن؛ لأنه لابد من التلاؤم، فلو

أرسل الله ملكًا إلى البشر لجعله رجلاً مثلهم، وإذا جعله رجلاً عاد الأمر كما كان قالوا: نريد ملكًا، ولهذا قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الفاء): هنا للسببية، أي: فبسبب تكذيبهم أنهم لمحضرون، أي: محضرون إلينا يوم القيامة وسيجازون على ذلك.

وأما قول المؤلف: [لمحضرون في النار] ففيه نظر؛ لأنه لم يسبق النار ذكر، اللهم إلا إن يقال: إن الاستثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قد يدل على ذلك، لكن المعنى الذي أشرت إليه أولى: أي: لمحضرون عندنا، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] والمهم أن الله ـ تعالى ـ أخبر عن هؤلاء بأنهم سوف يحضرون إلى الله، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إنّ، واللام

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله لنفسه، فأخلصهم من الشرك ومن تكذيب الرسل، والعبودية هنا عبودية خاصة.

والاستثناء هنا متصل على كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ، وعلى ما أشرت إليه يكون منقطعًا، وجه ذلك أنه إذا قلنا: إنهم محضرون إلى الله فإنه لا يستثني أحد، كل سيحضر، وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعًا يعني: لكن عباد الله المخلصين سوف ينجون من هذا الحضور، أي: من العذاب الذي يترتب على هذا الحضور والمجازاة.

أما على قول المؤلف ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار، فإن الاستثناء متصل، يعني أن قومه يحضرون في النار إلا المؤمن منهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ثناءً حسنًا]

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾هو [إلياس المتقدم ذكره، وقيل: هو ومن آمن معه، فجمعوا معه تغليبًا، كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وعلى قراءة (آل ياسين) بالمد، أي: أهله المراد به إلياس أيضًا].

أفادنا المؤلف أن في الآية قراءتين: الأولى إلياسين، والقراءة الثانية: آل ياسين، أما على القراءة الأولى إلياسين فهل إلياسين، هو إلياس؟ أو من قومه؟

فيه قولان للعلماء: فمن العلماء من قال: إن إلياسين هو إلياس، فيكون كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وهنا لم يذكر إلياس قال: سلام على إلياس، لكن اختلف اللفظ؛ لأن الاسم أعجمي، والعرب إذا عربت الاسم الأعجمي صار فيه شيء من التصرف، مثل جهنم يقال أصلها جهنام، وأصلها الفارسي كهنام، وعلى هذا لا نحتاج إلى التعب، فنقول: من أين اشتقت جهنم؟

وعلى كل حال: إذا جعلنا إلياسين هو إلياس نفسه صار جاء مرة بإلياس ومرة بإلياسين بناء

على أن العرب يتصرفون في الأسماء الأعجمية المعربة، وفيه معنى آخر على القراءة الأولى إلياسين على أن المراد قومه، وأن الياء والنون زيدت كما تزاد في مسلم فيقال: مسلمين، فتكون إلياسين جمع لإلياس كما قال ا لمؤلف: [المهلبون]، وأصلها يقال: المهلبيون، نسبة إلى المهلب، فآل ياسين أصلها إلياس ثم زيدت الياء والنون، وصار المراد بذلك قومه.

هذا على قراءة إلياسين. فيكون فيها معنيان:

المعنى الأول: أنه إلياس نفسه، وهذا التصرف في اللفظ بناء على أنه اسم أعجمي، والعرب تتصرف بالأسماء الأعجمية عند تعريبها.

المعنى الثاني: أن المراد قومه وأنهم جمعوا باعتبار قومه.

أما على القراءة الثانية (آل ياسين) فهي أيضًا في كلمة ياسين تصرف تعريبي؛ لأن ياسين هو إلياس، وعلى هذا فيكون المراد بآل ياسين: إلياس وقومه، فآل الشخص يدخل فيهم، الشخص إلا إن ذكر معهم لم يدخل فيهم، كما تقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، أما إذا لم يذكر معهم فإنه يدخل فيهم كما في قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] ومنهم فرعون بل هو أولهم: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة من فوائد قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إثبات رسالة إلياس، وسبق لنا أن إلياس فيما يظهر من أنبياء بني إسرائيل.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يثني على عباده بما يستحقون من الأوصاف في الآخرين ليبقى ذكرهم مخلدًا، فإنه لولا أن الله ذكر هؤلاء الأنبياء لطويت صحائفهم وما علم عنهم شيء.

٣ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾: دليل على أن التقوى تطلق على فعل الأوامر وترك النواهي، قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يعني بعبادة الله، ويدل لهذا قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

٤ ـ ومن وفوائدها: بيان تلطف الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في دعوة قومهم؛ لأنه قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذا للعرض والحث، ولم يقل لهم: اتقوا الله، مع أن الرسل قد يقولون: اتقوا الله، لكن ينزل كل مخاطب منزلته بما يليق به.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية ـ وهي في الحقيقة فائدة في كل ما سبق من الآيات ـ: اختصاص رسالة الرسول فيما سبق بقومه؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

فإن قال قائل: إذا أخذتم من إضافة القوم إلى الرسول اختصاص الرسالة بقومه، فإن الله ـ

تعالى - وصف النبي ﷺ بمثل ذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] فهل تقولون: إن النبي ﷺ مرسل إلى العرب فقط؟

فالجواب: لا، لكننا نأخذ عموم رسالته من أدلة أخرى كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأعراف:١٥٨] وكقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وكقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

٦ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾: بيان سفه هؤلاء القوم؛ لأنهم يعبدون البعل وهو صنم ربما صنعوه بأيديهم فكان مخلوقًا، ويذرون الخالق - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو أحسن الخالقين، وهذا لا شك أنه غاية السفه، فإن أحق من يعبد هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أحسن الخالقين خلقًا، في كل ما يعود إلى صفة الخلق من كمال الخلقة وجمالها ومناسبتها لطبيعتها وغير ذلك، ومن أراد أن يتوسع في هذا المجال فليقرأ كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم - رحمه الله - فإنه ذكر من ذلك العجب العجاب، في خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن غير الله - تعالى - يوصف بأنه خالق؛ لقوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، ووجه ذلك أن في هذه الآية مفضلاً ومفضلاً عليه والمفضل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والمفضل عليه ما سواه.

ونقول: هذا هو الواقع أن هناك خالقين غير الله، لكن هذا الخلق ليس كخلق الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن خلق الله خلق إيجاد وأما خلق غيره فخلق تغيير وتحويل فقط.

مثال ذلك: الذي خلق الخشب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ثم يخلقه الآدمي فيحوله إلى أبواب وسرر وما أشبه ذلك، ويقال: خالق.

والذي خلق الحديد الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويحوله الآدمي إلى أواني ومعدات ومراكب وما أشبه ذلك، فهذا ليس خلق إيجاد حتى نقول: إنه مشاركة مع الله، ولكنه خلق تغيير وتحويل، يحول الشيء من شيء إلى شيء، ولهذا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - في المصورين يقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»(٢) وهم في الحقيقة ما خلقوا حتى وإن صوروا وأبدعوا في الصورة فإنهم لم يخلقوا كخلق الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣] حتى وإن أبدع المصور في تصويره الذي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢١٠٧).

جعله على مثال الآدمي أو مثال الحيوان، فإنه لن يكون كخلق الله.

٩ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنه ينبغي للداعية أن يذكر الإنسان بما يكون سببًا لاتعاظه ؛ لقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيذكرهم بأن آباءهم قد فنوا وذهبوا، وإنكم أنتم سوف تذهبون كما ذهب الآباء.

١٠ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دليل على أن الإنسان مهما بلغ في عرض الدعوة إلى الله وبيانها والبلاغة في العظة فإنه لا يستلزم أن يؤثر فيمن وجه الخطاب إليه؛ لأن إلياس عرض الدعوة عليهم عرضًا رقيقًا، وبيَّن لهم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة ومع ذلك كذبوه. ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للداعية إذا رُدّ قوله ألا يعتبر نفسه مقصرًا أو فاشلاً؛ لأنه أدى ما عليه وهو البلاغ، والهداية على الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، فلو أراد الله بهؤلاء خيرًا لانقادوا للهدى، أما أنت فقد أراد الله بك خيرًا؛ لأنك بلغت ما عليك.

١١ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ترتب الجزاء على العمل، وتؤخذ من الفاء الدالة على السببية: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فالجزاء مترتب على العمل، وقد ذكر الله في آية أخرى أن الجزاء يكون من جنس العمل، فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠] قدرًا وكيفية ثم فصل الله هذا الأخذ.

١٢ - ومن فوائدها: إثبات الجزاء المتسبب على العمل في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

١٣ - ومن فوائدها: إهانة هؤلاء وأمثالهم، حيث قال: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ ولم يقل: نحضرهم، ولكنه في آية أخرى قد يضيف العقوبة إلى نفسه - عَزَّ وَجَلَّ - ، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨].

١٤ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بيان أن العباد المخلصين لا ينالهم عذاب هؤلاء في الآخرة قطعًا، وفي الدنيا فإنه يوشك أن يعم الله - تعالى - الصالح والفاسد بالعذاب، ولاسيما إذا قصر الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

١٥ - ومن فوائدها: الثناء على هؤلاء الذين اتبعوا الرسل؛ لكونهم عبادًا لله ومخلصين.

١٦ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ بيان أن الله - تعالى - يجازي المحسن بالإحسان حتى بعد موته؛ لقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، والواقع شاهد بذلك،

فإن أئمة الإسلام أبقى الله عليهم ثناء حسنًا في الآخرين، وصدّ كل لسان يقدح فيهم فجعل فيهم الثناء وسلمهم من القدح.

١٧ - ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يستفاد منها ما سبق في قصة موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام -.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٣ - ١٣٨].

التفسير

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سبق نظيرها في آيات أخرى وأن فيها توكيدًا من وجهين إن واللام، وأن التي للتوكيد يؤتى به عند إنكار المخاطب أو شكه، أو أهمية المخبر به وإن لم يكن هناك شك أو إنكار.

وقوله: ﴿لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لمن الذين أرسلهم الله - تعالى -، أرسل الله - تعالى - لوطًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه وكانوا - والعياذ بالله - يأتون الفاحشة وهي اللواط: يأتي الذكرُ الذكرَ، وهذه من أسفل الأخلاق - نسأل الله العافية -، ولهذا قال الله - تعالى - عن الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسرا:٣٢] وقال عن اللواط على لسان لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]. يعني التي استقر فحشها في فطر الناس و (أل) تفيد التقبيح والتعظيم، ولا شك أن فاحشة اللواط أعظم من فاحشة الزنا؛ لأنها قلب للفطرة التي فطر الله - تعالى - الخلق عليها، ولأن فيها عزوفًا عما أحل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهكذا الإنسان المبتلى بالمحرم يبتلى - والعياذ بالله - بالعزوف عن الحلال، فتجده مستغنيًا بما حرم الله عما أحل الله، بخلاف الذي استغنى بالحلال عن الحرام، فإن الله - تعالى - يعينه ويجمل الحلال في عينه، ففي هذه الفاحشة عزوف الناس عن النساء، وبذلك يقل النسل وتقل الأمة وتضعف، وفي هذه الفاحشة أيضًا أسباب لأمراض كثيرة، فإن الإنسان - والعياذ بالله - إذا استعمل هذه الفاحشة فقد أتى الدبر الذي هو محل النجاسة والأذى، وإذا كان الله - تعالى - قال في المحيض ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] فإن أذى العذرة أخبث من أذى الدم،

فكان في هذا أذى وسبب لأمراض لا يعلم مداها إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وفيها أيضًا قتل لمعنويات الرجال، فإن هذا المفعول به لن يبقى على حاله التي هو عليها، فسوف يكبر ويكون رجلاً فما مدى شعوره إذا قابل من كان يفعل به فعل الرجل بالمرأة؟! إنه ذل وخزي وعار - والعياذ بالله - ، لهذا كانت هذه الفاحشة جديرة بأن يرسل الله - تعالى - رسولاً من أجل القضاء عليها، فإن لوطًا - عليه الصلاة والسلام - أرسله الله - تعالى - بالتوحيد وبالقضاء على هذه الفاحشة العظيمة، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، حتى أهله الذين هم أهله لم يتمحض إيمانهم، بل كان فيهم من ليس بمؤمن وهي امرأته، وبهذا نعرف مدى ما يناله الدعاة إلى الحق من الأذى والرد، ولا ينبغي للإنسان أن يستحسر إذا لم يجد قبولاً من الناس، فإن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهم أكرم الخلق على الله لا يجدون قبولاً من كل أحد، قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1].

بل إن من الأنبياء من يقتل، فجدير بنا ونحن نسمع هذه القصص أن لا نضجر إذا لم نجد قبولاً، وأن لا نضجر إن رأينا أذى، وأن لا نضجر إن رأينا عدوانًا، فلنصبر ولنحتسب، والوعد بالثواب أو بالعقاب يكون غدًا.

فلوط أرسله الله - تعالى - إلى قومه، ولكنهم لم يقبلوا قوله حتى إن الرسل الذين جاءوا إلى لوط جاءوا قومه يهرعون إليه، يسرعون يريدون هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - على صورة شبان فتنة لهؤلاء، فراودوه عن ضيفه، فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

أي: خذوا النساء تزوجوهن، قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد.

ولكن قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ [القمر:٣٧] فهؤلاء الرجال الذين جاءوا قيل: إن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه.

وقيل: إن الله - تعالى - طمس على أعينهم - والله أعلم - بكيفية ذلك، وهذا القول أحسن إلا أن يصح عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، أن جبريل ضربهم، فهؤلاء رجعوا عميًا، طمس الله أعينهم حتى صاروا لا يبصرون، والحاصل أنه لم يستجب له أحد من قومه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ (إذ) ظرف لفعل محذوف تقديره: «اذكر» ولا يصح أن تتعلق بالمرسلين؛ لأنه كان مرسلاً قبل أن ينجي ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ أي: أهل بيته ﴿إِلَّا عَجُوزٗا﴾ مستثنى من أهل، فإنها لم تنج، وذلك؛ لأنها كانت كافرة على دين قومها، ولهذا وصفها الله - تعالى - في سورة التحريم بالخيانة، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين لا في العرض ﴿عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٠).

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: الباقين في العذاب] وذلك أن لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر أن يخرج من القرية هو وأهله إلا امرأته، فبقيت المرأة فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي: من جملة الغابرين الذين هلكوا ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ كلمة دمرنا تفيد معنى عظيمًا وهو أن هذا الإهلاك كان إهلاك تدمير لم يبق لهم قائمة بعده، وهي أشد وقعًا في النفوس من (أهلكنا) فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، وأمر الله مترفيها أمر قدري وليس شرعيًّا كما قاله بعض الناس، وليس المعنى كما قال بعضهم: أمرناهم بالشرع ففسقوا؛ لأن هذا يقتضي أن الله ـ تعالى ـ أمر بالشرع من أجل الفسق، والله ـ تعالى ـ أمر بالشرع من أجل الطاعة، ولكن الأمر هنا أمر كوني ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ﴿الْآخَرِينَ﴾ أي: كفار قومه، وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل عليهم حجارة من سجيل تضرب بيوتهم وتهدمها حتى جعل عاليها سافلها؛ لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله، فدمروا حتى هلكوا عن آخرهم، وهذا الجزاء موافق ومناسب للعمل؛ لأن هؤلاء كما قلبوا فطرتهم التي خلقهم الله ـ تعالى ـ عليها قلبت منازلهم فجعل عاليها سافلها

وقال بعض أهل العلم: إن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حمل قراهم وهي سبع قرى حتى بلغ بها جو السماء ثم قلبها ثم أرسلت عليهم الحجارة.

ولكن في هذا نظر؛ لأن إرسال الحجارة عليهم بعد أن يقلبوا من السماء لا فائدة منه، إذ سيهلكون بدون هذه الحجارة، فالظاهر ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذه الحجارة ضربت بيوتهم حتى هدمتها فصار أعلاها أسفلها.

وقولهم: إن القرى سبع. ظاهر القرآن أنها قرية واحدة قال الله ـ تعالى ـ عن الملائكة الذين أرسلوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، [العنكبوت:٣١] وفي قوله: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ دليل على أن التدمير كان بعد أن نُجِّيَ لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو كذلك، فإن لوطًا لما فارق هذه القرى وأهله نزل بهم العذاب، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم] ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ الخطاب في هذه الآية الكريمة قال المؤلف: [إنه لأهل مكة]، ويمكن أن يقال: إنه عام لكل من يمر بقراهم إلى يوم القيامة؛ لأن هذا القرآن للأمة إلى يوم القيامة ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ أكد المرور بمؤكدين: (إن) و (اللام).

فإن قال قائل: لماذا أكده بمؤكدين مع أنهم لا ينكرون أنهم يمرون؟

قيل: الجواب على ذلك، أن استمرارهم في تكذيب الرسول ﷺ مع أنهم يمرون على ديار الذين أهلكوا يشبه المنكر والمكذب، فنزلوا منزلة المنكر المكذب؛ لأنهم لم يعتبروا، ولم ينتفعوا بهذا المرور، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]. فالموت لا ينكر، فكل يقر

بالموت، لكن العاصي فعله فعل المنكر؛ لأنه لم يرتدع ولم يقم بما يجب عليه.

وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، وأوّل المؤلف ـ رحمه الله ـ الإصباح هنا إلى النهار، فيكون من باب التعبير بالبعض عن الكل، ولكن قد ينازع في ذلك، ويقال: إن الناس يمرون عليهم مصبحين؛ لأن أكثر سير الناس في السفر يكون في الليل وفي أول النهار، ولهذا قال النبي ﷺ: «اسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»(١) والغدوة أول النهار، والروحة آخر النهار، فوسط النهار يكون المسافر نازلاً للراحة «وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» يعني أول الليل وفي آخر الليل يكون مستريحًا «والقصد القصد تبلغوا» يعني لا ترهقوا أنفسكم فتعجزوا «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

فالأولى إبقاء الآية على ظاهرها وأنهم يمرون عليهم في الصباح أول النهار حين يكون السير أطيب ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ قال النحويون: إن الباء هنا بمعنى (في) فتكون للظرفية، و (في) تأتي بمعنى الباء فتكون للسببية مثل قوله ﷺ: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ»(٢) ففي هنا بمعنى الباء، أي: بسبب هرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، والمراد بالعقول هنا عقول الرشد لا عقول الإدراك؛ لأن عقل الإدراك موجود عند هؤلاء، وهم في الإدراك عقلاء أذكياء، ولكن عقول الرشد غير موجودة عندهم؛ لأن كل شخص يكفر بالله أو يعصي الله فإنه لا عقل عنده، لكن إن كان كافرًا فقد انتفى عنه العقل بالكلية، وإن كان عاصيًا فقد انتفى عنه من العقل بقدر معصيته.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ؛ لأن شخصًا يمر على ديار المكذبين ويرى آثارهم ولا يتعظ يستحق أن يوبخ، و (الفاء) هنا حرف عطف، والمعطوف عليه قيل: على ما سبق أي على: ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ وعلى هذا الوجه تكون الهمزة في غير محلها، أي أن الفاء تقدر قبل الهمزة فيكون التقدير: «إنكم لتمرون عليهم أفلا تعقلون».

وقيل: إن الهمزة مدخولها محذوف والتقدير: أسفهتم أو جهلتهم أو ما أشبه ذلك مما يقتضيه المعنى، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف.

وقد سبق لنا أن القول بأنها معطوفة على ما سبق أسهل؛ لأنه أحيانًا يصعب عليك أو يتعذر أن تدرك المعنى المناسب الذي يمكن أن يكون معطوفًا عليه، فلهذا نقول: إن القول بأنها معطوفة على ما سبق على تقدير تأخير الهمزة الأولى.

مسألة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ألا يدل أنهم قلبوا ثم أتبعوا بالحجارة؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

الجواب: لو كان العطف بـ (ثمَّ) لكان يدل على ذلك، لما أمطروا بالحجارة تهدمت بيوتهم فصار عاليها سافلها؟ ولكن العطف هنا بالواو، والواو لا تفيد الترتيب.

مسألة: أين مكان قرى لوط؟

الجواب: يقال: إن البحر الميت هو محل قرية قوم لوط.

مسألة: إذا كانت قرية قوم لوط البحر الميت فكيف تمر عليهم قريش؟

الجواب: يقولون: إنهم في ذهابهم إلى الشام يمرون عليهم.

مسألة: كيف يمرون على البحر هل هم في سفينة؟

الجواب: يمرون عليهم أي: من عندهم في البر لا في السفينة.

الفوائد:

١ - أن لوطًا - عليه الصلاة والسلام - كان من الرسل، وقد مر علينا في التفسير أنه أرسل إلى قوم يأتون الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، ويتركون ما خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهم من الأزواج.

٢ - **ومن الفوائد:** عناية الرب - عَزَّ وَجَلَّ - بالقضاء على سفاسف الأخلاق؛ لأن فاحشتهم هذه أوجبت أن يرسل الله إليهم رسولاً لدحضها والقضاء عليها.

٣ - ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أن الله - سبحانه وتعالى - ينجي الذين اتقوا بمفازتهم، وأن الله نجى لوطًا وأهله إلا امرأته، ويتفرع على ذلك: أنه ينبغي للإنسان المؤمن أن يغلب جانب الرجاء إذا كان قد قام بحق الله - تعالى -، وذلك حيث نجّى الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين المخلصين من عباده من عقوبة المكذبين المستكبرين.

٤ - **ومن الفوائد:** أنه قد تكون المرأة الكافرة تحت الرجل المؤمن من غير أن يعلم بها؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقد بيَّن الله سبب ذلك، أي: سبب وقوع العذاب عليها بأنها كانت قد خانت زوجها بالكفر من غير أن يعلم، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يتفقد أهله، وأن يتحرى، وأن يسبر أمورهم.

٥ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾: التحذير من أن يفعل الإنسان كفعل هؤلاء فيدمر، وتدمير قوم لوط حسي، ولكن ربما يدمر من شابههم تدميرًا معنويًّا، وقد يدمر تدميرًا حسيًّا، فيرسل الله - مثلاً - عليهم الصواعق والبرد وغير ذلك مما يدمرهم، لكن التدمير المعنوي محقق، وذلك بانقلاب الذكور إناثًا؛ لأن هؤلاء المفعول بهم - والعياذ بالله - يكونون كالمرأة تمامًا هو نفسه يطلب الرجال ويتتبعهم، لعلهم يفعلون به - والعياذ بالله -؛ لأنه انقلب وصار كالمرأة تمامًا، ولا شك أن هذا تدمير للرجولة وقلب للمجتمع.

٦ - **ومن وفوائد قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾: الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى

الشيء بعينه كان ذلك أقوى يقينًا، مما إذا أخبر به ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ وتشاهدون آثارهم، وهذا يسمى حق اليقين، والخبر به يسمى علم اليقين.

٧ ـ قد يقال إن قوله: ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ إشارة على أن السير في الصباح أحسن منه في آخر النهار؛ لقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ هذا إن قلنا: إن المراد بالإصباح الوقت الخاص وهو أول النهار، أما إذا قلنا: إن المراد بالإصباح كل النهار وأنه عبر بالبعض عن الكل، كما أشار إليه المؤلف فليس في ذلك دليل.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** جواز المسير بالليل. ووجه ذلك أن الله أقرهم فقال: ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ ولكن هذه الفائدة فيها نظر؛ لأن الله يتحدث عن فعل هؤلاء المكذبين، فقد يقال: إن المراد بيان إقامة الحجة لا إقرارهم، ولكن السنة قد دلت على جواز المشي بالليل.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء على من لم يتعظ بالسفة وعدم العقل ؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أن العقل حقيقة هو ما أرشد صاحبه إلى فعل الخير وترك الشر، وليس العقل هو الذكاء، فالعقل شيء، والذكاء شيء آخر، وكل من كان مكذبًا للرسل مستكبرًا عما جاءوا به فإنه ليس بعاقل، حتى وإن كان من أدهى الناس، فالإنسان المكذب للرسل المستكبر عما جاءوا به ليس بعاقل وإن كان ذكيًا حتى وإن كان ذا شرف وجاه، فإنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقد قال الله مثل هذا في بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والله الموفق.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين:

الأول: إن. والثاني: اللام.

وسبب التأكيد أن إثبات الرسالة أمر ينكره كثير من الناس، والشيء الذي ينكر يجب أن يؤكد بما يدل على ثبوته، سواء كان ذلك عن طريق التأكيد اللفظي بأدوات مؤكدات، أو عن طريق التأكيد المعنوي بذكر الآيات والشواهد الدالة على ثبوته، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد ثبتت رسالتهم: أي بالتوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، فأيدهم الله - تعالى - بالآيات الكونية والشرعية، وأيد الله رسالتهم بالمؤكدات اللفظية، كما في هذه الآية.

﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: لمن القوم الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى عبادة، ولم يبين إلى من أرسلوا، لكن قد ذكر في آيات أخرى أنه أرسل إلى قومه، وكذلك صح عن رسول الله ﷺ أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة إلا النبي ﷺ فإنه بعث إلى الناس عامة، ويونس - عليه الصلاة والسلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله - تعالى - إلى قومه، وسيأتي - إن شاء الله - تعالى - بيان قصته هنا.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [هرب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: السفينة المملوءة حين غاضب قومه] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿إِذْ﴾ متعلقة بالمرسلين، أي: لمن المرسلين في هذه الحال، أي أن إباقه لم يسلبه الرسالة، ويحتمل أنها متعلقة بمحذوف؛ لأنه لما أثبت رسالته بين حالاً من حالاته وهو إباقه - عليه الصلاة والسلام -، وعلى هذا فنقول: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ ليست متعلقة بالمرسلين؛ لأن رسالته كانت قبل أن يأبق، لكنها متعلقة بمحذوف، التقدير، اذكر إذ أبق، والإباق هو الهرب، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - خرج مسرعًا؛ لأنه خرج مغاضبًا لقومه حين لم يؤمنوا ولم ينزل بهم العذاب.

قال: [﴿الْفُلْكِ﴾ يعني: السفينة وهي مراكب الماء]، وقد أنعم الله على العباد بالفلك تجري في البحر بأمره، تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، وامتن الله بها على العباد وعظمت منته في عصرنا الحاضر، فإن الفلك في عصرنا الحاضر ليس كالفلك فيما سبق، فالفلك كان على الشراعات والهواء، وكان له معوقات وفيه مخاطر عظيمة.

أما الفلك الآن فعلى العكس من ذلك، ومنَّ الله - أيضًا - بالفلك على عباده في عصرنا الحاضر بأن تنوعت هذه الفلك فصارت فلكًا مائيًا، وفلكًا بريًّا، وفلكًا هوائيًا، فالهوائي الطائرات، والبري السيارات، والمائي السفن، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا

كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢، ١٣].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ يعني: المملوء من الركاب، فركب البحر مغاضبًا لقومه لما لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفت في لجة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، هكذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن السفينة وقفت في لجة البحر، وأن وقوفها كان بسبب إيباق يونس. [فقال الملاحون وهم قواد السفينة: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة]، ولكن ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس عليه دليل، وهو من الإسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلابد من أحد أمرين: إما أن يخفف الحمل، وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف الحمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي، فاقترعوا إذ ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة، فاقترعوا ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ اقترعوا أيهم الذي يلقي.

ومن المعلوم أننا إذا علمنا من يلقى علمنا من يبقى، ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ساهم أي: قارع أهل السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر].

وظاهر صنيع المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه لم يلق أحد سوى يونس، ولكن الآية تدل على خلاف ما يدل عليه كلام المؤلف؛ لأنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ (من) هنا للتبعيض أي: بعضًا منهم، وهذا يدل على أن القرعة أصابته وأصابت غيره أيضًا، فالمسألة ـ الآن ـ واضحة فالفلك كان مملوءًا، ولابد أن يغرق إلا أن يلقى بعض ركابه، وإلقاء بعض الركاب أولى من هلاك الجميع.

ولا سبيل إلى إلقاء البعض على التعيين؛ لأننا لو عينا أحدًا دون أحد كان في ذلك ظلم، وامتنع من عيناه، وصار في هذا خصومة، وربما غرقت السفينة في أثناء هذه الخصومة، إذن فالطريق إلى تعيين من يلقي هو القرعة، فاقترعوا فأصابت القرعة قومًا ونجا منها قوم، وكان يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جملة الذين أصابتهم القرعة، فكان من المدحضين فألقي في البحر، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [آيات بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربه].

التقمه الحوت التقامًا ولم يمضغه؛ لأنه لو مضغه لتكسر وهلك، لكن الله ـ تعالى ـ سخر له هذا الحوت فالتقمه التقامًا وابتلعه حتى وصل إلى مقر بطنه دون أن يصيبه أذى.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الجملة هنا في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ لا من الفاعل في التقمه؛ لأن الفاعل الحوت، والحوت ليس بمليم، بل المليم الملتقَم ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ

مُلِيمٌ﴾ أي: يونس ومعنى (مليم): آت بما يلام عليه، كما يقال: (منجد) لمن دخل نجدًا مثلا، فمفعل قد تأتي بمعنى التلبس بالشيء، فالمليم هو الذي فعل ما يلام عليه، والذي يلام عليه أنه خرج من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٥٠].

فيونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ التقمه الحوت في حال يلام عليها، ووجه ذلك أنه خرج مغاضبًا من عند قومه بدون إذن من ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(لولا) ترد كثيرًا في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وفي كلام الناس وهي ثلاث أدوات: (لو) و (لما) و (لولا):

لو حرف امتناع لامتناع: لو جاء زيد لأكرمته، فالممتنع الإكرام لامتناع وجوده.

ولما حرف وجود لوجود، لما جاء زيد أكرمته، فالذي وجد الإكرام لوجود المجيء.

ولولا حرف امتناع لوجود تقول: لولا مجيء زيد لأكرمت فلانًا. فالذي امتنع إكرام فلان لوجود مجيء زيد.

وهنا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ﴾ الذي امتنع اللبث لوجود التسبيح، لولا أنه أي: يونس ﴿كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [الذاكرين بقوله كثيرًا في بطن الحوت ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

يعني لولا أنه أنه كان من المسبحين بهذا بهذا اللفظ أو بغيره، وهذا أولى أن نقول: بهذا اللفظ أو بغيره، أي: كان ممن يسبح الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

إما قبل أن يلتقمه الحوت، أو في أثناء وجوده في بطن الحوت لولا هذا ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ أي: في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لصار بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة.

ولكن لوجود التسبيح السابق أنجاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ النبذ بمعنى الطرح والإلقاء، وهنا قال، ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ بصيغة الجمع مع أن النابذ واحد، ولكن أتى بصيغة الجمع من باب التعظيم، وذلك لكمال صفاته وكثرة صفاته عظم نفسه، ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: ألقيناه من بطن الحوت بالعراء بوجه الأرض أي: بالساحل من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة أيام، أو عشرين، أو أربعين يومًا].

(العراء) وجه الأرض، والمراد به وجه الأرض الذي ليس فيه ما يظل من شجر ولا بناء، وسمي عراء لعروه عما يكسوه من الأشجار والبناء، فبقي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الساحل ليس عنده بناء ولا أشجار تظلة بل عراء، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطف به؛ لأن رحمة الله

سبقت غضبه. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] وأما قول المؤلف: [إنه من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة، أو عشرين، أو أربعين يومًا] فهذه أقاويل وكلها ليس عليها دليل، لكن لا شك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبقاه في بطن الحوت ما شاء الله أن يبقى، وأما تعيين ذلك فلابد فيه من دليل عمن قوله حجة وهو الرسول ﷺ وما عدا ذلك في مثل هذه الأمور فإنها لا تقبل.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [عليل كالفرخ الممعط]، قوله: عليل تفسير للسقيم، والسقم بمعنى: المرض والعلة، وأما كونه كالفرخ الممعط، يعني: المنتوف شعره، فهذا ليس في الآية ما يدل عليه، لكن لا شك أن المريض يكون ضعيف البدن وليس عنده قدرة على مقاومة الشمس والهواء، وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ يدل بظاهره على أن يونس بقي في بطن الحوت مدة أدت إلى سقمه.

وقوله: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: (أنبتنا له)؛ لأنه بحاجة إلى ظل، فأنبت الله عليه ظلاً، ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾، (من) لبيان الجنس، كما يقال: خاتم من حديد، واليقطين هو: القرع، والقرع أنواع منها قرع يسمى عندنا (قرع نجد) هذا له شجر، وأشجاره لينة كالإِبْرَيْسَم ويقال: إنه لا يقع عليه الذباب.

النوع الثاني: من القرع فهو قرع ورقه خشن، حتى إن الإنسان إذا لمسه بيده يحس بالخشونة، والظاهر أن الذي أنبت الله عليه من النوع الأول اللين الذي يكون كالإبريسم، وهو ـ أيضًا ـ بارد الظل، فأنبت الله عليه هذه الشجرة، وأما قول المؤلف: [تظله بساقٍ على خلاف العادة] فهذا يحتاج إلى دليل، لكن لا شك أن الله أنبت عليه شجرة تظله، ولابد أن يكون لها نوع من الارتفاع، قال ـ رحمه الله ـ: [وكانت تأتيه وعلة صباحًا ومساء يشرب من لبنها حتى قوي].

الوعلة: الأنثى من الظباء يعني أنثى الأوعال، فكانت تأتيه ويشرب من لبنها حتى قوي.

وهذا الخبر يحتاج إلى دليل عن المعصوم، وليس فيه دليل عن رسول الله ﷺ، فهو خبر إسرائيلي نتوقف فيه لا نصدق ولا نكذب، إن كان الله ـ تعالى ـ قيض له ذلك، فالله على كل شيء قدير، وهذا سبب حسي؛ لأن الإنسان يحتاج إلى غذاء، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد قواه على تحمل الجوع والعطش، فهذا أيضًا ليس ببعيد، وحينئذ نجعل الآية فيه: أن الله قواه على خلاف العادة.

أما إذا جعلناها وعلة فهنا يكون بقاؤه وتغذيته على حسب العادة من وجه، ومعجزة من وجه آخر، حسب العادة، حيث تغذي باللبن كغيره من البشر، وعلى خلاف العادة حيث قيض الله له هذه الوعلة التي ليست من جنسه، تأتي حتى يشرب من لبنها، لكن إذا قلنا: إن الله قوّاه على تحمل الجوع والعطش صار هذا آية محضة، وليس هذا ببعيد، فإن النبي ﷺ لما نهى عن الوصال قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، والوصال يعني أن يقرن الصائم بين يومين لا يفطر بينهما، قال: «إِنِّي

لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»(١) يعني بلا أكل ولا شرب، ومع ذلك يكتفي بما أودع الله في قلبه من محبة الله وذكره عن الغذاء الجسدي، أي: يكتفي بالغذاء الروحي عن الغذاء الجسدي، فالله على كل شيء قدير، ونظير هذا من بعض الوجوه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فهنا لم يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ كيف نصره على قريش وهو في الغار، فعلى أي: شيء يحمل؟ وردت أحاديث ضعيفة بأنه عششت عليه العنكبوت، وأنه صار على فم الغار حمامة، وأن الله أنبت شجرة تحجز رؤية المشركين للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فهذه الثلاث أمور حسية تمنع من رؤية النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ولكن وجودها في هذا الوقت آية، فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنبت هذه الشجرة، وسخر هذه الحمامة لتقف على باب الغار، وسخر العنكبوت لتنسج على بابه، وهذه آية لا شك، ولكن هناك آية أعظم من هذا، وهي آية محضة، وهي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعمى أبصارهم عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه؛ لأنهم وقفوا على الغار على أقدامهم حتى قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُم إِلَى قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنا»(٢) كما صح ذلك عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا مما يدل على ضعف قصة العنكبوت والحمامة والشجرة؛ لأن هذا الثاني أبلغ آية من الأول، وكلام أبي بكر رضي الله عنه يدل على أنه ليس هناك حاجز حسي يمنع من الرؤيا لا شجرة ولا عش عنكبوت، وليس هناك ما يبعد أن يوجد في الغار أحد من وقوع الحمامة على بابه، والحمامة قد تقع على باب الحجرة ولو كان فيها أحد ـ كما هو مشاهد كثير.

فالحاصل أن بعض الناس يأتون بمثل هذه البينات ولا يفكرون بأنها تضعف جانب الآية؛ لأن كون الآية أن الله أعمى أبصار قريش عن رؤية الرسول ﷺ مع أنهم واقفون على الغار أبلغ بكثير من نسيج العنكبوت، أو الشجرة، أو الحمامة، وأحسن هذه الروايات من حيث السند نسج العنكبوت ومع ذلك فهو ضعيف، وإذا كان ضعيف السند وشاذ المتن لمخالفته ما جاء في الصحيحين فإنه لا يكون مقبولاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: أرسله الله ـ تعالى ـ بعد ذلك إلى قومه، وأتم رسالته إلى مئة ألف، وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ اختلف العلماء هنا:

فقيل: إن (أو) بمعنى بل، كما قاله المؤلف: [بل يزيدون عشرين، أو ثلاثين، أو سبعين] وتعيين الزيادة بعشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفًا لا دليل عليه، ولا يمكن أن تكون الزيادة سبعين ألفًا؛ لأنه لو كانت الزيادة سبعين ألفًا ما صح أن يقال: مئة ألف أو يزيدون، بل يقال: إلى مئة وسبعين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ألفًا؛ لأن الفارق بين العدد الأول والثاني كثير، فعلى كلام المؤلف يكون الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أكثر من مئة ألف وتكون (أو) هنا بمعنى (بل)، والمراد ببل التي كانت (أو) بمعناها الإضراب الانتقالي، وليس الإضراب الإبطالي.

وذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا للتحقيق، وليست للإضراب، أي إن لم يزيدوا على مئة ألف، لم ينقصوا، فكأن ما بعد (أو) لتأكيد ما قبلها، وليس للزيادة عليه، كما لو سألك سائل عن قوم: كم عددهم؟ فقلت: مئة ألف أو أكثر.

يعني: أنهم إن لم يزيدوا لم ينقصوا، وليس المراد إثبات الأكثرية أو الزيادة على هذا العدد، بل المراد تأكيد هذا العدد.

وعلى هذا تكون (أو) هنا إما بمعنى (بل) وإما للتحقيق، أي: تحقيق العدد السابق.

فعلى القول الأول يكون المرسل إليهم زائدين على مئة ألف، وعلى الثاني يكون المرسل إليهم مئة ألف، لكن أكد ذلك بقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: أبقيناهم إلى حين، وهذا الحين هو وقت آجالهم التي قدرها الله لهم، يعني أنهم لم يهلكوا بهذا العذاب الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

في هذه الآيات فوائد:

١ ـ إثبات رسالة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويتفرع على هذه الفائدة: وجوب الإيمان به رسولاً من عند الله.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على يونس؛ لقوله: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنه لا شك أن مقام الرسالة أعلى مقامات البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] وهذا الذي عليه أمة الإسلام: أن مقام الرسالة أفضل من كل مقام، وأنها أعلى مقامات البشر خلافًا لمن زعم أن أعلى مقامات البشر الولاية ثم النبوة ثم الرسالة، وقال في ذلك بعض الصوفية قولاً منكرًا، فقال: «مقام النبوة في برزخ، فويق الرسول ودون الولي»، فالولي أعلى شيء، ولقد كذبوا في ذلك، فمقام الرسالة أعلى المقامات، وكل رسول فهو ولي، ولا عكس، ثم النبوة ثم الولاية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يجوز القدح في يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجل ما حصل منه من عدم الصبر، فإن الله قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] لكنه لا يجوز أن نقدح فيه لذلك؛ لأنه أحد الرسل، والقدح بالرسل كفر، بل إن النبي

ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى»(١)؛ لئلا يؤدي تفضيل الرسول ﷺ إلى احتقار يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات جماعة الرسل؛ لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ويقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] أي: ما من أمة من الأمم إلا جاءها رسول تقوم به عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٥ ـ **ومن فوائد الآيات:** أن مقام النبوة لا يمنع من فعل بعض ما لا يكون محبوبًا إلى الله، أي أن الرسول قد يفعل بعض المعاصي، أو يقوم بشيء لم يؤمر به، دليل ذلك قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والإيباق هرب العبد من سيده، والعبد إذا أبق من سيده فقد هرب منه تمردًا عليه، ولكن لا شك أن هذا الوصف إنما ينطبق على العبد المملوك للبشر لا على يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لكن الله عبر عن خروجه بالإيباق؛ لأنه خروجٌ لم يؤمر به، وهذه المسألة أعني مسألة عصمة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ محل خلاف طويل عريض بين العلماء ـ وقد سبق لنا في غير هذه الموضع بيان ذلك على وجه التفصيل ـ فذكرنا أنهم معصومون من كل ما يخدش الرسالة وينافي الرسالة مثل: الكذب والخيانة والشرك وما أشبه هذا، فهذا معصومون منه قطعًا؛ لأنهم إنما جاءوا لهدم الشرك، ولا يمكن أن يصدر منهم الكذب والخيانة؛ لأن هذا يؤدي إلى الشك فيما جاءوا به.

وثانيًا: هم معصومون أيضًا من كل ما يخل بالشرف، كالسرقة وشبهها مما يعد دناءة وخسة، وذلك؛ لأن النبوة أعلى مقامات البشر، فلا ينبغي أن يتخلق من اتصفوا بها بأرذل أخلاق البشر.

ثالثًا: أنهم معصومون من الاستمرار في المعصية، ولا يمكن أن يقروا عليها، بل لابد أن ينبهوا عليها ويحصل منهم التوبة بخلاف غيرهم من الناس فإنهم قد يفعلون المعصية، ويقرون عليها ولا يوفقون للتوبة منها.

وأما القول بأنه لا ذنوب لهم مطلقًا، فهذا قول يخالف الكتاب والسنة، فإن الله ـ تعالى ـ قال في كتابه لأشرف الرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩] وقال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١ ـ ٢] وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِر لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجُلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوْلَهُ وَآخِرَه»(٢) وكل هذا صريح في أن الرسول ﷺ قد يقع منه الذنب، ولكن الشأن كل الشأن أنه لا يقر عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (١٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٦)، وأبو داود (٨٧٨).

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ييسر للعبد ما لا يكون له في الحسبان، وذلك من قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ حيث قدر له أن يركب هذا الفلك المملوء من أجل الغاية التي أرادها الله، وهي أن يلتقمه الحوت ويغيبه ويضيق عليه حتى يتبين له أنه لا مفر من قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

٧ ـ **ومن فوائدها:** جواز المساهمة يعني: القرعة ؛ لقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فإن قال قائل: هذا من شرع من قبلنا، فالجواب، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، فكيف وقد ورد شرعنا بوفاقه، فإن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيها خرج سهمها خرج بها[1]، إذن: يستفاد منه جواز المساهمة يعني: القرعة.

فإن قال قائل: المساهمة فيها خطر فهي ميسر؛ لأن الإنسان قد يكون غانمًا وقد يكون غارمًا.

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

الأول: المنع بأن نقول: إن الإنسان لا يمكن في القرعة أن يكون غانمًا أو غارمًا، بل هو إما غانم وإما سالم.

الثاني: التسليم بأنها فيها غرر، لكن الضرورة دعت إليها، إذ لا يمكن التوصل إلى التمييز بين المشتركين في حق من الحقوق إلا بالقرعة؛ ولذلك إذا أمكن التمييز بينهما بغير القرعة فإنه يجب التمييز بينهما بدون القرعة.

فمثلاً أقرع النبي ﷺ بين زوجاته إذا أراد السفر؛ لأنه لا يمكن أن يذهب بهن جميعًا؛ لأنه لو أمكن لذهب بهن جميعًا، إذن لابد أن نميز من الذي يستحق أن يخرج، فهنَّ متساويات في الحقوق، ولا سبيل إلى التعيين إلا بالقرعة، فإذا خرجت القرعة لواحدة فالباقيات لم يغرمن من شيئًا، غاية ما هنالك أنه فاتهنَّ ما يرغبن فقط، ولهذا إذا خرجت القرعة عن هذا إلى الميسر صارت حرامًا.

مثال ذلك: أراد اثنان مشتركان في قمح أن يقتسما القمح بينهما وهما شريكان بقدر النصف كل واحد له نصف، فقسم القمح أثلاثًا، أي: جعل ثلثان في جهة وثلث في جهة أخرى، وأرادوا القرعة أيها يأخذ الثلثين فالقرعة هنا حرام؛ لأن أحدهما إما غانم وإما غارم، إما أن يأتيه أكثر من حقه، وإما أن ينقص حقه، فهذه تكون حرامًا؛ لأنها صارت ميسرًا، وإذا قسمنا القمح نصفين، وأردنا أن نميز كل واحد في حقه فما هو الطريق إذا لم يتنازل أحدهما للآخر ويخيره؟ فلا طريق لنا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

إلى التمييز بينهما إلا بالقرعة وقد ذكرت القرعة في القرآن في سورة آل عمران، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤].

٨ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أنه ليس للمساهمة طريق معين فيسلك فيها ما يحصل به التميز: إما بكتب رقاع، أو بأحجار، أو بلفائف خرق أو بأي: طريق؛ لأن المساهمة وردت في النصوص، ولم تعين طريقًا خاصًّا لها، فأي: طريق توصلنا به إليها جاز.

٩ ـ **من فوائدها**: ارتكاب أدنى الضررين؛ لدفع أعلاهما، ووجه ذلك: أن هذه القرعة سيكون فيها هلاك بعض الركاب وهو أهون من هلاك الجميع، إذن فالواجب إذا كان لابد من الضررين ارتكاب الأدنى؛ لأن ارتكاب الأدنى يسقط عنا ارتكاب المفسدة الزائدة، واجتناب المفسدة الزائدة واجب، ولهذا نقول: يجب ارتكاب أدنى الضررين لدفع أعلاهما.

١٠ ـ **وفي هذه الآيات**: دليل على العمل بمثل هذه القضية يعني لو كان الناس في مركب، وكان المركب مشحونًا وكان لابد من إلقاء بعض الركاب أو هلاك الجميع، فإنه يجوز أن يلقى بعض الركاب لكن عن طريق القرعة، ليبقى البقية.

فإن قال قائل: كيف نلقي هذا الرجل في البحر في الهلاك؟ وهل هذا إلا قتل نفس، فما الجواب؟

فالجواب: نعم هو قتل نفس لكن لإبقاء نفوس، وأي: ما أولى أن يقتل الجميع، أو أن ينجو البعض، الثاني بلا شك أولى، وهذا أمر لابد منه؛ لأننا لو أبقينا الجميع لكنا تسببنا لهلاك الجميع، وكوننا نتسبب لهلاك البعض أهون من كوننا نتسبب لهلاك الجميع، لكن هذا بشرط ألا يكون هناك احتمال ولو ضعيفًا بالنجاة، فإذا كان هناك احتمال فإنه لا يجوز ارتكاب مثل هذا، وإذا كانت الفلك مشحونة بأمتعة وأطعمة وأغنام وآدميين، فنبدأ بإلقاء بالأمتعة الشيء الذي ليس فيه روح، فإن أمنا، وإلا ألقينا الأطعمة، فإن أمنا وإلا ألقينا الحيوان، فإن أمنا وإلا أقرعنا بين البشر.

١١ ـ **من فوائدها**: حصول آية من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وذلك بتسخير هذا الحوت ليونس حتى التقمه بدون مضغ، ولا شك أن هذا من آيات الله؛ لأن مثل هذا بعيد في العادة؛ لأن العادة أنه يمضغ، لكن هذا التقمه جميعًا، لم يُكسر له عظم ولم يُهشم له شيء من أضلاعه أو غيرها.

١٢ ـ **ومن فوائدها**: حب الإعذار من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه يحب الإعذار من خلقه، أي: إقامة العذر لما فعله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتى لا ينسب فعله للظلم وللسفه، وتؤخذ من قوله: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني: ليس في حال لا يلام عليها، حتى يقال: إن في هذا ظلمًا له أو سفهًا في حقه،

بل التقمه الحوت في حال هو مستحق فيها لذلك، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الأنبياء قد يأتون ما يلامون عليه، ولكن ييسر لهم الخروج من ذلك؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الطاعات السابقة تكون سببًا للنجاة من المهلكات اللاحقة؛ لقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيكون في هذا شاهد لقول النبي ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١).

وهذا كما أنه مقتضى النصوص القولية فهو مقتضى النصوص الحالية، فإن أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار نفعهم الله ـ تعالى ـ بما سبق من أعمالهم الصالحة(٢)، فأنت إذا عملت عملاً صالحًا، فإن هذا العمل قد يكون سببًا لنجاتك من مكاره عظيمة، «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»، وهنا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه لو بقي في بطنه لكان فيه آية من آيات الله، أن يبقى هذا الحوت من ذلك الوقت إلى يوم القيامة؛ لأن هذا ظاهر اللفظ أنه يبقى في بطنه إلى البعث.

١٦ ـ **ومن فوائدها:** أن أفعال المخلوقات تنسب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تقديرًا وقضاء، وتنسب إلى العامل مباشرة وكسبًا وتؤخذ من قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ لأنه من المعلوم أن الذي لفظه هو الحوت، ومع ذلك لا نجزم بهذا؛ لأنه ربما أن الحوت لفظة، وييسر الله له من الريح ما يحمله إلى أن يصل إلى الأرض اليابسة، ويحتمل أن الحوت لفظة في الأرض اليابسة ـ والله أعلم ـ، المهم أن الله يسر له من أسباب الوصول إلى الأرض اليابسة ما أوصله إليها.

١٧ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من الشفاء ولو بلغ به من المرض ما بلغ؛ لقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فهذا الرجل السقيم الذي بقي في بطن الحوت ـ ما شاء الله ـ وخرج سقيمًا عافاه الله وشفاه فلا تيأس من رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما يصيبك من المرض، فإن الله قد ييسر لك ما يكون سببًا لشفائك.

١٨ ـ **ومن فوائدها:** إثبات تأثير الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ لأن هذه الشجرة تظله وتبرد عليه وهي ـ كما أسلفنا ـ لينة الملمس، ويقال: إن الذباب لا يقع عليها، والله قادر على أن يظله بغمامة، وقادر على أن يبقيه في الشمس في العراء، ولا يتأثر، لكن الله

---

(١) صحيح: صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يبين لعباده أن الأشياء تكون بأسبابها، ومرّ علينا في أصول الفقه بيان أن الأسباب مؤثرة، لكن لا بنفسها ولكن بما أودعه بها من أسباب التأثير

١٩ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرسل الرسل السابقين إلى قوم مخصوصين ؛ لقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

٢٠ ـ استدل بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ على إثبات الإحصاء السكاني؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ فأحصاهم عددًا، مع أنه لو قال: فأرسلناه إلى قومه كفى لكن عدهم عدًّا، ولا نعلم لهذا فائدة إلا الإحصاء، ولا شك أن الإحصاء إذا كان فيه فائدة فإنه داخل في عمومات النصوص الدالة على وجود ما فيه الفائدة، أما إذا لم يكن فيه فائدة وإنما يكون تطويلاً للمدة وإضاعة للوقت، وإتلافًا للمال بما ينفق عليه، فإنه كغيره مما لا فائدة منه لا يكون مطلوبًا.

٢١ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنجى قوم يونس بعد أن عاينوا العذاب ؛ لقوله: ﴿فامنوا فمتعنهم إلى حين﴾.

فإذا قال قائل: ما الحكمة أن يخص قوم يونس بأنه تقبل منهم التوبة بعد نزول العذاب؟

فالجواب: أن الحكمة من هذا أن نبيهم لم يصبر حتى تتم إقامة الحجة عليهم، بل خرج منهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له فلم تتم إقامة الحجة، فكان لهم شبه عذر في تأخير العذاب عنهم.

٢٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان وإن نجا من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت، بل لابد أن يموت طال الزمن أم قصر؛ لقوله: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

٢٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الإيمان سبب لطول الحياة ؛ لقوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ ﴾ ولاشك أن الإيمان سبب لطول الحياة؛ لأن نوحًا قال لقومه: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح:٤] فبين لهم أنه إذا حصل منهم الإيمان والتوبة غفر الله لهم وأخرهم إلى أجل مسمى، وإن لم يفعلوا أهلكهم الله.

٢٤ ـ **ومن فوائد الآيات كلها:** إثبات عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكونه يضيف الأفعال إلى نفسه بضمير الجمع، ومن المعلوم أن الله واحد، وقد اشتبه هذا على النصارى ـ عليهم لعنة الله ـ فقالوا بتعدد الآلهة لجمع الضمير الذي يضاف إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وهذا من اتباع المتشابه فإنهم اتبعوا هذا المتشابه وأعرضوا عن الصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال الله تعالى:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا
وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا
لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات:١٤٩ـ ١٦٠].

التَفسِير

الأمر في قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ يعود إلى رسول الله ﷺ والهاء في قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ تعود إلى المشركين الذين جعلوا لله البنات ولهم البنون.

وقوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي: اطلب منهم أن يفتوك.

والفتوى في الأصل: بيان الحكم الشرعي.

وتوجيه الاستفتاء إليهم من باب التهكم بهم، كأنهم نصبوا أنفسهم حكمًا يحكمون بما يشاءون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩] على أحد القولين في تفسيرها، وإلا فإن هؤلاء ليسوا أهلاً للاستفتاء فضلاً على أن يستفتوا عن هذا الأمر العظيم، لكن هذا من باب التهكم ثم بين المستفتي عنه فقال: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني يوبخهم على هذا الحكم المعلوم من قبل؛ لأنهم جعلوا لله البنات، وجعلوا لهم البنين، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ استخبر كفار مكة توبيخًا لهم] هذا يعود على الاستفهام، وأما التهكم فتوجيه الاستفتاء إليهم قال: [﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله، ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ فيختصون بالأسنى] أي: بالأشرف، يعني هل هذا حكم صحيح عادل، أو حكم باطل جائر؟

والجواب: معلوم لكل أحد أن هذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في سورة النجم: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم:٢١ ـ ٢٢] أي: جائرة.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ليست الجملة حالية، بل هي معطوفة على الجملة التي قبلها، فهي

داخلة في ضمن الاستفهام، يعني كيف يكون لله البنات ولهم البنون، فإن هذا حكم جائر، ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ (أم) هنا منقطعة، و (أم) المنقطعة هي التي تكون للإضراب، ولهذا تقدر بـ (بل) والهمزة، فمثلاً: أم خلقنا الملائكة، تقدير الكلام: بل أخلقنا الملائكة إناثًا، و (أم) تكون متصلة وتكون منقطعة، فإذا حل محلها بل وهمزة الاستفهام فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلة، تقول: أعندك زيد أم عمرو؟ يعني أو عمرًا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦] يعني أو لم تستغفر لهم، والمتصلة تأتي بعد همزة التسوية غالبًا.

وقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾ أي: جعلناهم إناثًا، وعلى هذا فتكون إناثًا مفعولاً ثانيًا لخلقنا، ويجوز أن نجعل خلقنا على بابها، وتكون إناثًا منصوبة على الحال، يعني أم خلقنا الملائكة حال كونها إناثًا، والجواب: لا ما خلق الله الملائكة إناثًا، بل ولا ذكورًا، ولهذا لا نصف الملائكة بالأنوثة ولا بالذكورة؛ لأن الملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون.

قالوا: إن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة إناثًا.

﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ في موضع نصب على الحال، يعني هل خلقنا الملائكة إناثًا حال كون هؤلاء شاهدين على خلقنا إياهم إناثًا؟ والجواب: لا، فما خلق الله الملائكة إناثًا ولا شهدوا خلقهم، وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

والحاصل: أن الله - سبحانه وتعالى - بين لهؤلاء حالين:

الحال الأول: الحكم الجائر الذي حكموا به بينهم وبين الله، حيث جعلوا لله الملائكة وجعلوا؛ لأنفسهم البنين، وهذا جور، كما تدل عليه آية النجم.

الحال الثانية: جعلهم الملائكة إناثًا، سواء جعلوا؛ لأنفسهم البنين أم لم يجعلوا، وهذا أيضًا كذب وافتراء؛ لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم بأنهم إناثٌ، ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

والملائكة: عالم غيبي خلقهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فهم عالم غيبي لا نشاهدهم إلا أن يرينا الله إياهم على سبيل الكرامة، أو على سبيل الآية؛ لأنه ما من إنسان إلا لديه ملكان عن اليمين وعن الشمال قعيد، وملائكة يحفظونه من بين يديه، يحفظونه من أمر الله، ومن خلفه، ونحن لا نشاهدهم، وملائكة يحضرون مجالس الذكر ولا نشاهدهم؛ لأنهم عالمٌ غيبي، والملائكة خلقوا من نور، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، وخلقوا صمدًا يعني لا يأكلون ولا يشربون؛ لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، والملائكة منهم من علمنا بأعيانهم ومنهم من لم نعلم، فمن علمنا بأعيانهم جبريل وميكائيل وإسرافيل الذي كان

النبي ﷺ يسميهم في افتتاح صلاة الليل، فيقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١) فجبريل ـ عليه السلام ـ موكل بما في حياة القلوب وهو الوحي.

وميكائيل موكل بما فيه حياة الأرض وهو المطر والنبات، وإسرافيل بما فيه حياة الأجساد عند نفخ الصور، فإنه قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إجمالاً فيمن لم نعلم اسمه، وتعييناً فيمن علمنا اسمه، ونؤمن أيضًا بما نعلم من أوصافهم كجبرائيل له ست مئة جناح قد سد الأفق، وبما نعلم من أحوالهم وعباداتهم؛ لأن هذا من أصول الإيمان التي بينها الرسول ﷺ لجبريل ـ عليه السلام ـ حين سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ»(٢) وعلينا أيضًا أن نحب هؤلاء الملائكة وأن نجلهم ونعظمهم؛ لأنهم عباد الله، عباد مكرمون منقادون لأمر الله، فنحبهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلينا أن نكرمهم فنبغض من عاداهم كاليهود مثلاً الذين عادوا جبريل، ونبغض أيضًا كل من سبهم أو تعرض لأذاهم؛ لأنهم من أشرف عباد الله.

وقد اختلف العلماء: هل الملائكة أفضل أم صالح البشر أفضل؟

والخلاف في هذا معروف مشهور، وأكثره خلاف جدلي؛ لأن المقام والمرتبة عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تدل على أن البشر أفضل؛ لأن البشر يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣ ـ ٢٤].

ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: البشر أفضل باعتبار النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ لأن البشر خلقوا من طين والملائكة من نور، والنور أشرف من الطين.

ثم قال الله ـ تعالى ـ مبينًا حكمهم الباطل الذي قد علم مسبقًا قبل أن يستفتوا قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ألا، وإن، واللام.

أما (ألا) فإنها تأتي بلا شك للتوكيد، كما تأتي كذلك للتنبيه والاستفتاح، ولهذا يقال: ألا أداة استفتاح يراد بها التنبيه، والتوكيد، والتحقيق أي: تحقق ما بعدها.

﴿أَلَآ إِنَّهُم﴾ أي: هؤلاء الذين جعلوا الملائكة إناثًا، وهؤلاء الذين جعلوا لله البنات ولهم ما يشتهون ﴿إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ليقولون: ولد الله، وهنا قدم السبب على المسبب.

السبب هو: الإفك، على القول لأهميته، ومن أجل أن يتبين للإنسان بطلانه من قبل أن يؤتى به، وإلا فمقتضي السياق أن يقال: «ألا إنهم ليقولون ولد الله»؛ لأن (ليقولون) خبر إن، وكان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وأبو داود (٧٦٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مقتضى السياق أن تباشر الاسم، لكن أخرت لبيان أن هذا القول باطل، حتى يرد على الذهن، وقد علم بطلانه، و (من) للسببية، أي: ألا إنهم بسبب إفكهم.

ويجوز أن تكون للتبعيض، يعني: ألا إنهم ليقولون هذا القول المأفوك من جملة إفكهم؛ لأن إفكهم كثير، فهم جعلوا لله ولدًا، وجعلوا لله شريكًا، وجعلوا لله زوجة، وكل هذا من الإفك.

فالحاصل أن ﴿مِّنْ﴾: يجوز أن تكون للتبعيض، ويجوز أن تكون سببية، وقوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: كذبهم؛ لأن الإفك هو الكذب، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١] أي: بالكذب.

﴿لَيَقُولُونَ﴾ الجملة خبر إن، ومقول القول: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ وعلى هذا فنقول: إن ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ في محل نصب مقول القول.

وكيف قالوا: ولد الله؟ وبأي: صيغة؟ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بقولهم الملائكة بنات الله]، ومعلوم أن البنت من الولد فإن الولد في اللغة العربية يطلق على البنت والابن، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والمراد بها إبطال هذا القول، فيكون الله أبطل هذا القول قبل التحدث عن مقوله، وبعده، فأبطله قبل التحدث عن مقوله في قوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ وبعده بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ونحن نشهد أنهم كذابون في هذا، فإن الله ـ تعالى ـ واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وقد برهن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على بطلان هذا في سورة الأنعام. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١] كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، يعني زوجة؟ هذا مستحيل.

والثانية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والخالق لكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وإذا كان جزءًا منه لم يكن شيئًا مخلوقًا؛ لأن جزء الخالق يكون خالقًا مثله، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١] وقد أعلمنا أنه ليس له ولد فكيف يكون خبره غير مطابق للواقع. فبرهن الله على امتناع وجود الولد من وجوه ثلاثة:

امتناع الصاحبة، وأنه خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء وقد أخبرنا بأنه لم يلد يقتضي أنه لم يلد كذلك حقًا؛ لأن هذا الخبر لابد أن يكون مطابقًا لعلمه.

وقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ اصطفى أصلها اصتفى، وهي مأخوذة من الصفوة،

وصفوة الشيء خياره، وعلى هذا فيكون معنى اصطفى اختار.

وهنا قال: ﴿أَصْطَفَى﴾، والمعروف أن همزة اصطفى همزة ووصل لا همزة قطع، فلماذا كانت هنا همزة قطع؟ قال ـ رحمه الله ـ: [بفتح الهمزة للاستفهام].

فالهمزة هنا ليست همزة الوصل التي يؤتى بها للتوصل إلى النطق بالساكن، ولهذا لا يكون ما بعدها إلا ساكنًا، فالهمزة هنا ليست همزة وصل، ولكنها همزة استفهام، فاستغني بها عن همزة الوصل؛ لأنها أي: ـ همزة الاستفهام، مفتوحة فيسهل النطق بالساكن بعدها، وأصل همزة الوصل جيء بها من أجل التوصل إلى النطق بالساكن، وإذا كان لدينا همزة قطع فإننا نستغني بها عن همزة الوصل، مع أنه يجوز وجه آخر في غير هذه الآية ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾، فتقلب همزة الوصل إلى مد، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، [يونس:٥٩] قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿أَصْطَفَى﴾ أي: أختار] أي: هل يختار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ البنات على البنين؟ يعني لو فرض فرضًا ممتنعًا غاية الامتناع أن الله يتخذ ولدًا فهل يصطفي البنات على البنين؟ لا؛ لأن البنين أشرف من البنات، ولا يمكن أن يختار الله البنات على البنين، لو فرض الفرض الممتنع المقطوع بامتناعه أن الله يختار ولدًا ما اختار البنات على البنين، كما أنكم أنتم لم تختاروا البنات على البنين، جعلتم البنين لكم ولله البنات، ولهذا قال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ الجواب: لا، لا يمكن.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (ما) استفهامية وليست نافية وهي مبتدأ، والجار والمجرور (لكم) خبر.

والمعنى: أي: شيء لكم حتى تحكموا هذا الحكم فتقولوا: إن لله البنات وهم الملائكة، وهذا الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: هذا الحكم الفاسد، وهذا الحكم الجائر ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:٢٢] فهو حكم فاسد جائر.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا أيضًا للتوبيخ وكل الاستفهامات هنا تفيد التوبيخ والتقريع مع فائدة أخرى إذا دل المقام عليها

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بإدغام التاء في الذال] أصلها (تتذكرون)، فأدغمت التاء في الذال فصارت: تذكرون.

وفي قراءة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ قراءة سبعية، وهي الموجودة عندنا في المصحف، ومر علينا أنه إذا جاءت قراءتان في آية فإن الأفضل أن تقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، لنحافظ على ما جاء في القرآن الكريم؛ لأن الكل من عند الله، إلا أننا قلنا: إن هذا لا ينبغي عند العامة؛ لأنه يحصل به فتنة العامي؛ لأنه لا يفهم، وربما يكون عاميًا عاطفيًا غيورًا، فيرى أنك تحرّف القرآن، فطالب العلم الذي يعلم أن هذه قراءة سبعية ينبغي له أن يقرأ بها مرة، وبما في المصحف مرة أخرى، حتى يأتي بالقرآن على الوجوه

التي نزل بها.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ التذكر يعني الاتعاظ، أي: أفلا تتعظون، فتدركوا أن ما حكمتم به حكم جائر غير مقبول منكم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: [أنه ـ سبحانه ـ منزه عن الولد]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الولد بدليل العقل ودليل النقل.

أما دليل النقل فما أكثر الآيات التي يكثر الله فيها أنه لم يتخذ ولدًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١ ـ ٤].

أما الدليل العقلي فنقول:

أولاً: لو كان لله ولد لكان جزءًا منه، وكان مستحقًّا للعبادة، كما استحق ذلك والده.

ثانيًا: لو اتخذ الله ولدًا لكان هذا الولد حادثًا، والحدوث يمتنع أن يكون جزءًا من الله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال موجودًا بذاته ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا قدر أنه اتخذ ولدًا صار هذا الولد حادثًا، فكيف يكون حادثًا وهو جزء من الله؛ لأن الولد جزء من الوالد، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] وكما قال النبي ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني»(١).

ثالثًا: يمتنع أيضًا أن يتخذ الله ولدًا؛ لأن الولد لابد أن يكون مشبهًا لأبيه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس له شبيه ولا يماثله أحد.

رابعًا: الولد إنما يتخذه من يحتاج إليه لبقاء النوع، والله ـ سبحانه وتعالى ـ غير محتاج لأحد، ولهذا إذا كان الإنسان عقيمًا انقطع أثره من الدنيا، لكن إذا كان ولودًا وولد له ولد بعد ولد بقي أثره في الدنيا، ولهذا كان التوالد بين البشر هو السبب الوحيد لبقاء النوع الإنساني، فهذه وجوه أربعة عقلية تدل على امتناع الولد على الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ هذا إضراب انتقالي، بل ألكم؛ والإضراب الانتقالي انتقل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من توبيخهم على ما حكموا به من الولد لله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى طلب الحجة، أي: بل ألكم سلطان مبين، والمراد بالسلطان هنا ما تكون به السلطة، والسلطان في كل موضع بحسبه.

ففي باب الولايات تكون السلطة بالإمارة، فالأمير: سلطان، وفي باب الأعمال تكون السلطة بالقوة، القوي القادر له سلطة على العمل.

وفي باب المحاجة وطلب الدليل تكون السلطة بالدليل، فهنا ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ أيدليل، يعني هل لكم دليل؟؛ لأن الدليل تكون به السلطة للمحاج يعني إذا حاجك إنسان وصار معه دليل صار له سلطان عليك أي: سلطة، ولهذا قال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ وكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا يحتمل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

أن تكون من أبان اللازم ومن أبان المتعدي؛ لأن أبان الرباعي يكون لازمًا ويكون متعديًا، فإذا قلت: أبان الصبح؛ فهو لازم، وإذا قلت: أبان فلان الحق.

فكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا هل هي لازم أي إن المعنى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ بين، أم متعدٍّ أي: ألكم سلطان يبين ما تقولون أو يبين الحجة لكم؟ المتعدي هنا أحسن؛ لأن المعتدي متضمن للازم؛ لأن ما أبان غيره فهو بين في نفسه ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [حجة واضحة أن لله ولدًا].

وصنيع المؤلف في قوله: [واضحة] يدل على أنه جعل مبين من اللازم أي: بين، ولكن الأرجح أنه من أبان المتعدي أي: مبين، وذلك؛ لأننا إذا جعلناه من المتعدي لزم منه وجود اللازم بخلاف العكس.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ هذا مفرع على قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: إن كان لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم الذي به السلطان، والأمر هنا للتحدي والإعجاز مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] فقوله: ﴿بِكِتَابِكُمْ﴾ أي: بكتابكم الذي به الحجة والسلطان، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [التوراة] هذا لا شك أنه وهم؛ لأن هذه الآية ليست تخاصم اليهود حتى نقول: إن المراد بذلك التوراة، إنما تخاصم المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، ولهذا في بعض نسخ المؤلف كلمة (التوراة) ساقطة، والنسخة التي سقطت منها أصح من النسخة التي ثبتت فيها، قال: [فأروني ذلك فيه] يعني: أروني أن لله البنات في ذلك الكتاب الذي تأتون به، ثم أظهر إعجازهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ذلك، وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب فيه أن الله جعل الملائكة بنات له، فهذا شيء مستحيل.

و(إن) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطية، وتحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، ففعل الشرط موجود: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجوابه قيل: إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله، وهو: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ والتقدير: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ فيكون محذوفًا دل عليه ما قبله، ولا ينبغي ذكره أيضًا؛ لأن ذكره تطويل مستغنى عنه.

وقيل: إنَّ (إنْ) الشرطية في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب أصلاً فتكون مسلوبة الجواب، وعلى هذا القول لا يكون في مثل هذا الترتيب تقدير، ويكون هذا المحذوف لما كان معلومًا كان لا يحتاج إلى ذكره، وإذا لم نحتج إلى ذكره لم نحتج إلى تقديره.

﴿وَجَعَلُوا﴾ الضمير يعود على المشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

فإن قال قائل: كيف يرجع الضمير إلى غير مذكور.

قلنا: إنه مذكور بالسياق فالسياق يعين مرجع الضمير، ولا يلزم في مرجع الضمير أن يكون اسمًا ظاهرًا بينًا، فإذا دل السياق على أن المراد به كذا عمل به.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] فالفاعل في قوله: ﴿تَوَارَتْ﴾ يعود على الشمس مع أنه لم يسبق لها ذكر؛ لأنه معروف.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] (عليها) أي: على الأرض مع أنه لم يسبق لها ذكر قريب، ولكن السياق يدل عليها، إذن مرجع الضمير قد يكون متعينًا بالسياق.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ أي: بين الله ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يقال: والجِنَّة والجَنَّة، وكلها تدور حول الاستتار والخفاء؛ لأن هذه المادة الجيم والنون تدور على هذا المعنى: الاستتار والخفاء، ومنه الجنان: القلب، ومنه الجنين: الحمل، ومنه الجِنة: الجن، ومنه الجَنة: البستان ذو الأشجار الكثيرة، ومنه الجُنَّة: ما يستتر به المقاتل عن السهام كالترس.

فما المراد بالجنة هنا؟ يقول المؤلف : [الجنة أي: الملائكة لاجتنانهم عن الأبصار] فهم عالم غيبي كالجن الذين هم ذرية الشيطان، هذا ما ذهب إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ ولكن هذا القول ضعيف جدًا؛ لأن الجنة اسم للجن لا للملائكة، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥ ، ٦] يعني الجن، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي: جن أصابه بمس، ولا يمكن أن يعبر بالجن الذين خلقوا من نار عن الملائكة الذين خلقوا من نور، وهم من أشرف خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦ ـ ٢٨] فالمراد بالجنة هنا الجن الذين هم: خلق غيبي خلقوا من نار، ولكن كيف جعلوا نسبًا؟

الجواب: المراد بالنسب مجرد الصلة وليس النسب الذي هو القرابة، بل النسب الذي هو الصلة، وذلك أن المشركين لما قالوا: إن الملائكة بنات الله قيل لهم: لا بنات إلا بزوجة، قالوا: نعم إن الله ـ جل وعلا وسبحانه عما يصفون ـ تزوج من الجن جنية فولدت الملائكة ـ قاتلهم الله ـ هذا هو النسب الذي جعلوه بين الله وبين الجنة، فالمراد أن النسب هنا مطلق الصلة، لا صلة القرابة فقط، هذا هو المعنى الذي يدل عليه استعمال الجنة في كلام الله، وأن المراد بالجنة الجن، يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ موجهًا ما ذهب إليه من أن المراد بالجنة الملائكة قال: [لاجتنانهم عن الإبصار] وهذا لا يبرر أن نسمي الملائكة جنًّا.

يقول: [نسبًا بقولهم: إنها بنات الله] فجعل النسب هنا بمعنى القرابة، ولكن هذا القول ليس بصحيح.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:اللام، وقد، وهما ظاهران، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، والتأكيد هنا ـ لا شك ـ أنه في غاية ما يكون من البلاغة، يعني أن هؤلاء الجن الذين جعلوا بينهم وبين الله نسبًا تعلم في حكم الله ما لا

يعلمه هؤلاء، فإنهم يعلمون أن هؤلاء الذين كذبوا على الله - عَزَّ وَجَلَّ - سوف يحضرون يوم القيامة، ويبعثون ويعذبون بما يقتضيه جرمهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ [أي: قائلي ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للنار يعذبون فيها].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ اسم مصدر سبح، ومعنى قولنا: اسم مصدر سبح، يعني أنه اسم مصدر فعله سبح، والمصدر من سبح تسبيحًا، لكن سبحان بمعنى تسبيح فهي اسم مصدر؛ لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، وأمثلته كثيرة منها: كلام بمعنى تكليم، وسلام بمعنى تسليم وسبحان الله يقول المؤلف - رحمه الله - : [تنزيهًا له]. والذي ينزه الله عنه:

الأول: النقص فيما أثبت لنفسه من الكمال.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

قال الله - تعالى - عن الأول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق:٣٨] وهذا يدل على كمال القدرة والقوة، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] نفي لنقص القوة، يعني مع عظم هذه المخلوقات العظيمة وقصر المدة في خلقها لم يمس الله - سبحانه وتعالى - شيء من اللغوب يعني من التعب والإعياء وهذا تنزيه عن النقص، وقال تعالى عن الثاني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] تنزيه عن مماثلة المخلوقين.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عن النقص عما يصفون من النقص والمماثلة، بأن قالوا: إن لله ولدًا، وهذا وصف لا يليق بالله - سبحانه وتعالى - ؛ لأن ثبوت الولد يتضمن المماثلة ويتضمن النقص - أيضًا -، فهم بدعواهم الولد لله وصفوا الله بالنقص ووصفوه بمماثلة المخلوقين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ العبودية مأخوذة من الذل، فالعابد بمعنى الذليل، والتعبد بمعنى التذلل، والعبودية نوعان: عبودية للقدر، وعبودية للشرع.

يعني تذلل للقدر، وتذلل للشرع.

أما عبودية القدر فإنها عامة لكل أحد، فما من إنسان إلا وهو متذلل لقدر الله - تعالى - لا يمكن أن يتخلص منه إطلاقًا، ودليل هذه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

كل من في السماوات والأرض فهو عابد لله ذليل له، ولا يمكن أن يخرج عن ذلة القدر، حتى أعتى الناس وأطغى الناس عبدالله بهذا المعنى، ففرعون عبدالله في هذا المعنى، ولهذا أدركه الغرق.

الثاني: عبودية الشرع يعني التعبد بشرع الله، وهذا خاص بالمؤمنين؛ لأن الكافرين لم يتعبدوا لله بشرعه، بل هم مستكبرون، ومن أمثلة ذلك وأدلته قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] فالمراد بالعبودية هنا عبودية الشرع.

يعني الذين تعبدوا بشرع الله، وهذه خاصة بالمسلمين المنقادين لأمر الله، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم أخص من الآخر، فعبودية الرسالة والنبوة أخص من عموم عبودية الإسلام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] هذه عبودية رسالة فهي أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١] هذه أيضًا عبودية خاصة الخاصة، أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] إن جعلنا الاستثناء منقطعًا فالعبودية عبودية الشرع خاصة، وإن جعلنا الاستثناء متصلاً فهي عبودية القدر؛ ولذلك اختلف العلماء فيما هل الاستثناء منقطع أو متصل؟ هذه الآية أيضًا نظيرها ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين الذين أخلصهم الله ـ تعالى ـ لنفسه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [استثناء منقطع] والاستثناء المنقطع علامته: أن يكون ما بعد (إلا) من غير جنس ما قبلها، وأن تكون (إلا) بمعنى (لكن)، ولهذا نسميه استثناء منقطعًا، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعًا، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعًا كما قال المؤلف نقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ معناها لكن عباد الله المخلصين لم يصفوه بهذا الوصف.

ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فإنهم ينزهون الله ـ تعالى ـ عما يصفه هؤلاء].

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا متصل، فهو مستثنى من الواو في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويكون المعنى: سبحان الله عما يصفه الناس كلهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: إلا ما يصفه به عباد الله المخلصون، فإنه متصف به، وهذا احتمال، لكن ظاهر السياق ما ذهب إليه المؤلف، وأن قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى المشركين الذين وصفوه بأن له بنات، وهؤلاء لا يدخل فيهم المؤمنون، فالمؤمنون ليسوا من جنس المستثنى منه، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعًا، ويكون فائدة هذا الاستثناء المنقطع الثناء على عباد الله المخلصين، حيث لم يصفوه بما وصفه به هؤلاء.

الفوائد:

١ ـ في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾: تحدي أهل الكفر والشرك ببيان الدليل على ما يقولون من الكذب والافتراء.

٢ ـ **ومن فوائدها:** التهكم بهؤلاء المشركين؛ حيث جعلهم بمنزلة العلماء الذين يستفتون، وهم أجهل الناس بلا شك.

٣ ـ **ومن فوائدها:** بيان جور هؤلاء المشركين، حيث جعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات،

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] مع أن البنين والبنات كلها ممتنعة عن الله؛ لأن الله لم يلد ولم يولد.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات**: الإنكار على هؤلاء الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله؛ لقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: تحدي هؤلاء الذين ادعوا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الملائكة بنات له؛ لأنه يقال: لهم هل شهدتم خلق الله للملائكة حتى تعلموا أنها بنات الله؟ والجواب: ما شهدوا، ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: إثبات الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة كما هو معروف.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن كل من ادعى دعوى فإنه يطالب بالبينة عليها؛ لقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ فهل هم شاهدون حتى يدعوا ذلك؟

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تأكيد إفك هؤلاء الكاذبين، الذين ادعوا أن لله ولدًا؛ لقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء لهم إفك متعدد، بناء على أن (من) للتبعيض ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد الآيات**: أن الله ـ تعالى ـ منزه عن الولد؛ لأن الله جعل هذه الدعوة إفكًا وكذبًا، وأكد الله ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

١١ ـ **ومن فوائد الآيات أيضًا**: الاستدلال على هؤلاء بدلالة العقل، وهو أن يقال: كيف يصطفي الله البنات على البنين؟

هذا ليس بعقل وليس بمعقول، ولكن هم يجعلون هذا الشيء أمرًا معقولاً، وواجبًا أيضًا أن يكون لله البنات ولهم البنون.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين حكموا بهذا الحكم أشبه ما يكونون بالمجانين، ولهذا خوطبوا بمخاطبة المجنون حيث قيل لهم: ﴿مَا لَكُمْ ﴾؟ ما هذا العمل؟ هل هذا عمل عاقل؟

١٣ ـ **ومن فوائدها**: الإنكار على كل حكم باطل ؛ لقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فإن هذا إنكار عليهم بهذا الحكم الذي يعلم بطلانه بضرورة العقل والنقل.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإعلان بسفه هؤلاء، وإنهم لا ينتفعون بالآيات ؛ لقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

١٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: توبيخ من لم يتذكر؛ لأن المراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴾ هنا التوبيخ، فكل من لم يتذكر بآيات الله فلا شك أنه مستحق للوم والتوبيخ.

١٦ ـ **ومن فوائدها:** إظهار عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في مجادلة العدو والخصم ؛ لقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ فلم يقتصر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على أن كذبهم، بل طلب منهم الحجة إن كانوا صادقين في دعواهم، ومن المعلوم أنهم لن يقيموا الحجة، ولهذا قال: ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

١٧ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** جواز تحدي الخصم بما يعجز عنه، وأن ذلك طريقًا من طرق إفحامه، وذلك أن الخصم عند المناظرة يمكن إبطال حجته بعدة أساليب منها: التحدي؛ ولكن يجب أن يكون التحدي بما لا يمكن أن يقيم عليه البرهان والدليل؛ لأنك لو تحديته بشيء يمكنه أن يقيم عليه الدليل والبرهان، فأقام عليه الدليل والبرهان لخصمك ولضعف جانبك، فإياك أن تتحدى عند المناظرة إلا بشيء تعلم أنه لا يمكن أن يكون، ولهذا ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في محاجة إبراهيم مع الرجل، حين قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:٢٥٨] فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحداه أولاً بأن الله يحيي ويميت، وأنت أيها المحاج لا تحيي ولا تميت، فلما ادعى كذبًا أنه يحيي ويميت، وكان في ذلك تلبيس على العامة؛ لأنه قال: أنا أحيي وأميت، آتي بالرجل المستحق للقتل فلا أقتله، فهذا على زعمه إحياء، والحقيقة أن هذا ليس إحياءً ولكنه رفع سببًا يكون به الموت، وقد يبقى هذا الذي رفعنا عنه سبب الموت وقد لا يبقى.

وقال: إني أوتى بالرجل البريء فأقتله، فهذا إماتة على زعمه، وهذا ليس بإماتة، ولكنه فعل سبب يكون به الموت، وقد لا يكون به الموت، فالحاصل أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد قصر الطريق واختصاره، قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:٢٥٨] فانقطعت الحجة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، وهذا من آداب المناظرة وهو إفحام الخصم بما لا يمكن أن يقيم عليه الحجة والبرهان. ولكن كما قلت: يجب أن تلاحظ أن إذا أفحمته أو تحديته بشيء يمكنه أن يقوم به فقام به، فهذا إضعاف لجانبك، وسيكون هذا أحد طرق هزيمتك ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾.

١٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحجة سلطان لصاحبها؛ لأنه يكون بها السلطة على خصمه الذي يحاجه.

١٩ ـ **من فوائدها:** أن من تحدي غيره فله طلب البينة على ما قال ذلك الغير ؛ لقوله: ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن حجة القرآن حجة دامغة ملزمة، لا يمكن التخلص منها، ولهذا تأتي دائمًا بصورة التحدي إظهارًا لعجز المعارض، وعدم قدرته على المعارضة.

٢١ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كاذبون فيما ادعوه عاجزون عن إقامة البرهان عليهم ؛ لقوله:

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٢٢ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: بيان عتو هؤلاء وطغيانهم، حيث وصفوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما لا يليق به، فجعلوا بينه وبين الجن نسبًا.

٢٣ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين جعلوا بينها وبين الله نسبًا يعلمون أن هؤلاء معذبون على ما قالوا، محضرون في النار؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

٢٤ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الجنة متبرئة مما يدعيه هؤلاء بجانبها؛ لأنها إذا علمت أنهم محضرون في العذاب فإنها لن تقرهم على ما ادعوه لله ـ سبحانه وتعالى ـ من الولد.

٢٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: تنزيه الله عما وصفه الظالمون المعتدون ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٢٦ ـ **ومن فوائدها:** أن صفات الله تكون سلبية ـ أيدالة على النفي ـ وتكون ثبوتية ـ أيدالة على الإيجاب ـ.

فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفات النفي؛ لأنه تنزيه، وصفات النفي التي وصف الله بها نفسه لا تدل على النفي المجرد؛ لأن النفي المجرد ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحًا، وإنما تدل على ثبوت كماله المنزه عن هذا العيب، فتنزيه الله عما لا يليق به يتضمن كماله المنزة عن هذا العيب فيما يختص به ـ سبحانه وتعالى ـ، وهذه قاعدة في جميع الصفات المنفية: أنه لا يراد بها النفي المجرد؛ لأن النفي المجرد ليس بشيء؛ لأنه نفي، فضلاً عن أن يكون مدحًا إنما يراد بها إثبات كماله ـ سبحانه وتعالى ـ في صفاته حتى انتفى عنه كل صفة نقص.

٢٧ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن من عباد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ منَّ عليهم فأخلصهم وأخلصوا له الحق؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله مما أصيب به غيرهم، والذين أخلصوا الله فيما يصفونه به.

٢٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه الأشياء، فإذا ذكر فيه صفة قوم مذمومة ذكر بعدها صفة الأقوام المحمودة، فلما ذكر ما وصفه به هؤلاء الظالمون المعتدون بين أن هناك أناسًا ليسوا على هذه الحال، وهم عباد الله الذين أخلصهم الله ـ تعالى ـ لنفسه، وأخلصوا له ما يجب له.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]

❁ التفسير ❁

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ الخطاب هنا للكافرين، وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور؛ لأن الكاف للمخاطب، والمخاطب حاضر، وما سبق الضمير فيه عائد على غائب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فكلها بضمير الغيبة.

والالتفات من الغيبة أو العكس له فائدة، وهي تنبيه المخاطب، ووجه ذلك أن الخطاب إذا كان على وتيرة واحدة لم يكن فيه ما يدعو إلى الانتباه، فإذا تغير الأسلوب انتبه الإنسان، وهذه الفائدة مطردة في كل موضع فيه التفات.

وهناك فائدة أخرى تكون بحسب السياق، وليست مطردة في كل موضع، والفائدة هنا: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما تحدث عنهم بصيغة الغيبة، وكان الذي بعد ضمائر الغيبة أمرًا يظن صاحبه أنه قادر عليه خاطبه مخاطبة الحاضر إفادة إلى ذله وعدم قدرته على ما يقصد، فالكفار يحاولون فتن الناس عن دينهم بكل وسيلة، تارة بالدعاية لمعبوداتهم، وتارة بالقدح في عبادة الله، وتارة بالقدح في المسلمين وغير ذلك، فيظنون أنه على شيء فخاطبهم الله ـ تعالى ـ بخطاب صريح إذلالاً لهم فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام وعبر بـ (ما) التي تستعمل غالبًا في غير العاقل؛ لأن أكثر معبود المشركين من غير العاقل، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: فإنكم وعبادتكم ما أنتم فاتنين عليه أحدًا، والمعنى على الوجهين واحد.

يعني: أنتم وأصنامكم لا تفتنون الناس ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾.

أو أنتم وعبادتكم لا تفتنون الناس عليها ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ والكفار يعبدون الأصنام فينذرون لها ويركعون ويسجدون ويستغيثون بها ويجعلونها كالإله سواءً، ومع هذا فإن عقولهم قد لعبت بهم بل شياطينهم قد لعبت بهم حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

والحقيقة: أن عبادتهم إياها تبعدهم من الله ولا تقربهم منه، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ أي: على معبودكم، و (عليه) متعلق بقوله: ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ أي: أحدًا] و (إن) تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها الكاف في: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ معطوف عليه وجملة ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ

بِفَٰتِنِينَ ﴾ هي الخبر.

يعني أنتم ومعبوداتكم لا تفتنون أحدًا عن دين الله ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾.

وقوله ـ رحمه الله ـ [أي: على معبودكم] ولم يقل: ما أنتم عليها أي: معبوداتكم من أجل أن يشمل كل واحد على حدة، يعني أي: واحد من هذه المعبودات لا يمكن أن تفتنوا عليه أحدًا من الناس، وقوله: ﴿بِفَٰتِنِينَ ﴾ أي: بصادين؛ لأن الفتنة تأتي بمعنى الصد، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [البروج:١٠] أي: صدوهم كما تأتي بمعنى الاختبار مثل: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢] ولها معانٍ أخرى، لكن المراد بها هنا الصادّين، وقول المؤلف: [عليه متعلق بفاتنين] فيكون التقدير: ما أنتم بفاتنين عليه، وفاتن اسم فاعل من فتن، وهو فعل متعدٍّ ومفعوله محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [أي: أحدًا].

ومعنى الآية على سبيل العموم أن الله خاطب هؤلاء المشركين بأنهم ومعبوداتهم مهما عملوا من الحيل والدعاية لن يفتنوا أحدًا حتى يعبدوا هذه الأصنام ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ يعني: إلا الذي هو صال الجحيم، وصال اسم فاعل، وحذفت الياء التي في آخر الفعل لالتقاء الساكنين.

وهما: الياء وهمزة الوصل ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾.

وعلى كلام المؤلف تكون (من) في محل نصب بدلاً من المفعول المحذوف (أحدًا) ما أنتم بفاتنين أحدًا إلا من هو.

وذهب بعض المعربين إلى أن (من) مفعول لفاتنين، على أنه استثناء مفرّغًا، والاستثناء المفرغ هو الذي يكون ما بعد إلا معمولاً لما قبلها.

سواء كان فاعلاً أو مفعولاً أو مجرورًا.

فإذا قلت: ما قام إلا زيد.

فهذا استثناء مفرغ.

فتقول: (ما قام) ما نافية، وقام فعل ماض، و (إلا) أداة حصر وليست أداة استثناء، وزيد فاعل.

وتقول: ما رأيت إلا عمرًا رأيت فعل وفاعل و (إلا) أداة حصر، وعمرًا مفعول.

وتقول: ما مررت إلا بزيد.

(إلا) أداة حصر، بزيد جار ومجرور متعلق بمررت.

فعلى هذا تكون الآية: ﴿أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ كالمثال الذي مثلنا وهو ما رأيت إلا زيدًا.

وهذا الذي ذهب إليه بعض المعربين أصح مما ذهب إليه المؤلف، أي أن الاستثناء مفرغ، وعليه فلا نحتاج إلى تقدير المفعول به، فيكون (أحدًا) الذي قدره المؤلف مستغنى عنه؛ لأن الاستثناء

مفرغ فكما أنك لو قلت ما رأيت إلا زيدًا لا تحتاج إلى تقدير ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، فكذلك: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وخلاصة المقام أن نقول: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ (ما) نافية و (أن) اسمها (بفاتنين) خبرها.

وفاتن اسم فاعل يحتاج إلى مفعول، والمفعول (من) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف: [في علم الله ـ تعالى ـ]، والمفعول (من) في قوله: ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾.

وقوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف: [في علم الله ـ تعالى ـ]، وإنما احتاج إلى تقدير في علم الله؛ لأن صال اسم فاعل وهم لم يصلوها حتى الآن؛ لأنهم ما ماتوا، فالمفتون حي فكيف يقال: صال الجحيم، وهو لم يمت بعد.

لذا قال المؤلف: المراد صال الجحيم في علم الله، أي: من علم الله أنه سيصلى الجحيم فهو الذي يفتنونه، وأما من علم الله أنه مؤمن فلن تفتنونه، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨].

الفوائد:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بيان أن هؤلاء المجرمين الذين يصفون الله بما لا يليق به، ويصدون عن سبيل الله لن يستطيعوا أن يضلوا من هداهم الله، وإنما يضلون من هو صال الجحيم، أي: من هو تابع لهم على إضلالهم حتى يصلى الجحيم.

٢ ـ ومن **الفوائد:** الإشارة إلى أن من تابع أهل السوء في سوئهم فإنه يخشى أن يكون ممن كتب عليه أنه من أصحاب الجحيم. ؛ لقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن أهل البصيرة لا يمكن أن يكونوا من أصحاب النار؛ وذلك لأنهم يعرفون الحق ويعرفون الباطل، فيأخذون بالحق ويتجنبون الباطل، ووجه ذلك أن الله أخبر بأن هؤلاء المجرمين الضالين المضلين، لن يستطيعوا أن يفتنوا أحدًا عن دينه إلا من هو صال الجحيم، فليحذر الإنسان من فتنة أهل الشر والفساد؛ لئلا يكون من هو صال الجحيم.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العذاب في الآخرة؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والمراد جحيم الآخرة ونارها، وليس جحيم الدنيا.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** انقسام الناس إلى قسمين:

صال للجحيم، وناج منها؛ لأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يدل على أن هناك شيئًا مستثنى منه وهو القسم الثاني الذي قدر الله له النجاة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦].

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هؤلاء المجرمين الظالمين قالوا: إن الملائكة بنات الله، بيّن - سبحانه وتعالى - على لسان الملائكة ما حال الملائكة وما مقامهم وما عملهم تجاه الله - سبحانه وتعالى -، فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

قال المؤلف - رحمه الله -: [قال جبريل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة أحد] معشر يعني: جماعة، وأحد قدرها المؤلف لدلالة السياق عليها، وهي مبتدأ خبره (منا) السابق وقوله: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا الاستثناء مستثنى من أحد وهي جملة يمكن أن نجعلها دالة على الحال: حال هؤلاء الملائكة.

وقوله: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ﴾ أي: موضع قيام؛ لأن المقام مفعل يصح أن يكون اسم زمان واسم مكان، وهنا الظاهر أنه اسم مكان يعني إلا مكان قيام يقوم فيه يتعبد فيه لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

ويجوز أن نجعله اسم زمان أيضًا أي: وقتًا يقوم فيه لله، ومكانًا يقوم فيه لله، فتكون عبادة الملائكة مؤقتة بزمن، ومقيدة بمكان، ولا منافاة بين القولين، والقاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا ينافي أحدهما الآخر حملت عليهما جميعًا، ولأن حملها عليهما جميعًا أوسع في المعنى من تخصيصها بأحدهما، فإن كان أحدهما ينافي الآخر طلب الترجيح، فما رجحه المرجح أخذ به وترك الآخر.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ (وإنا) الضمير يعود على الملائكة، ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ يعني: الذين يصفون عند الله - سبحانه وتعالى -، كما جاء عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»(١) هذا شأن الملائكة عند الله في مقام تعبدهم يصفون لله تعظيمًا له يكملون الأول فالأول، أقدمهم وأسبقهم أقربهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهكذا صفوف الصلاة، كلما كان أقدم وأقرب إلى الإمام فهو أفضل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أقدامنا في الصلاة] وكلمة [أقدامنا في الصلاة]

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٠)، والنسائي (٨١٦).

تحتاج إلى دليل؛ لأن ظاهر الوصف ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أنه يعود على الملك نفسه لا على القدم، ثم إنا إذا قلنا: أقدامنا نحتاج إلى إثبات أن للملائكة أقدامًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف الملائكة أنهم أولو أجنحة، فيحتاج هذا إلى دليل.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ فيها مؤكدان: المؤكد الأول: إنا، والثاني: اللام في قوله: ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦] الجملة مؤكدة بمثل ما أكدت الأولى.

يعني وإنا معشر الملائكة لنحن المسبحون، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المنزهون الله عما لا يليق به]؛ لأن التسبيح بمعنى التنزيه.

وتنزيه الله معناه تنزيهه عما لا يليق به ومداره على أمرين:

أحدهما: أن ينزه عن مماثلة المخلوقين، ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الثاني: أن ينزه عن نقص في كماله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] فلما ذكر خلقه لهذه السماوات العظيمة والأرض في هذه المدة الوجيزة بين أنه لم يلحقه في ذلك تعب ولا إعياء، وهذا تنزيه لله عن النقص في كماله.

قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الجملتان اسميتان، قال أهل العلم: والجملة الإسمية تدل على الثبوت والاستمرار، يعني أن هذا دأبهم، ويدل لذلك قوله تعالى في وصفهم: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩ ـ ٢٠] فالملائكة دائمًا في عبادة ليسوا كالبشر عندهم غفلة ولهو وسهو، بل هم دائمًا في عبادة الله، فهنا ثلاثة أقسام من الخلق.

١ ـ شياطين، فهؤلاء دائمًا في معصية.

٢ ـ وملائكة، وهؤلاء دائمًا في طاعة.

٣ ـ وبشر، وهؤلاء أحيانًا في طاعة، وأحيانًا في معصية، وأحيانًا في غفلة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ بيان أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ منزهون عما يدعيه هؤلاء من كونهم بنات الله، ووجه ذلك أنهم مكلفون بالعبادة على حد معلوم، ومن كان مكلفًا بالعبادة لا يمكن أن يكون ابنًا أو ولدًا للمعبود.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال انتظام الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بكونهم يلتزمون بالمقامات المعلومة التي عينها الله لهم ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون وقته منظمًا، وأن يجعل لكل شيء عملاً معلومًا حتى لا يضيع عليه الوقت؛ لأن الإنسان الذي يعمل بالوقت جزافًا لا ينتفع به، ولكن لا يعني قولنا هذا أن الإنسان يستمر على حال واحدة؛ لأنه قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل من الفاضل، بمعنى أنك لو رتبت نفسك ثم طرأ ما يوجب مخالفة هذا النظام فلا حرج عليك أن تخرق هذا النظام؛ لأن الرسول ﷺ كان يصوم حتى يقال: لا يفطر، وكان يقوم حتى يقال لا ينام[1]، أو بالعكس حسب ما تقتضيه المصلحة.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة عمومًا:** أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أكمل الناس عبادة، حيث يجتمعون على عبادة الله، فيصفون له تعظيمًا له ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي تأكيد الخطاب إذا كان المخاطب منكرًا، أو مترددًا، أو كان المعنى ذا أهمية يحتاج إلى التوكيد ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ من أجل تقرير هؤلاء المنكرين الذين يدعون أن الملائكة بنات الله فيقولون: نحن نصف لله تعبدًا له وتعظيمًا.

٦ ـ ومن **الفوائد:** كمال تنزيه الملائكة لله في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن دأبهم أيضًا التسبيح، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ونستدل بهذه الآية؛ لأن الجملة جاءت اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

٨ ـ **ومن فوائدها:** تنزيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ألسنة الملائكة عن كل ما لا يليق به، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن كل ما لا يليق به، ولهذا جاءت الآيات الكثيرة في نفي المماثلة عن الله، ونفي النقص وإثبات الحكمة ونفي اللعب والباطل في حقه تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على كماله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وانتفاء اللعب والبطلان عن أفعاله.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٨ ـ ١٧٠].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٧٢)، ومسلم (١١٥٨).

التفسير

قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ إن هنا: مخففة من الثقيلة.

فأصلها: وإنّهم كانوا، لكن خففت فقيل: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾.

واسمها يكون محذوفًا، ويسمى ضمير الشأن، وضمير الشأن قالوا: إنه يكون مفردًا مذكرًا؛ لأن كلمة الشأن مفرد مذكر والتقدير: وإن كانوا، وإنه أي: شأنهم ليقولون.

وقيل: إن ضمير الشأن يقدر بحسب السياق إن كان مفردًا مذكرًا فهو مفرد مذكر، وإن كان جمعًا فهو جمع، وبناء على هذا يكون تقدير الآية هنا: وإنهم كانوا ليقولون.

(كانوا) فعل ناقص، الواو هي الاسم، واللام في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ لام التوكيد، وجملة يقولون: خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبر إن المخففة من الثقيلة.

﴿كَانُوا﴾ أي: كفار مكة ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: لو نزل علينا الكتاب ككتب الأولين لكنا عباد الله المنقادين لشرعه المخلصين له.

ولكن هذه الحجة مردود بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧] إذن هذه الدعوة منهم مكابرة؛ لأنه أنزل عليهم كتاب أهدى الكتب وأقوم الكتب، ومع ذلك كفروا به ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يذكرنا، والذي يذكر هو الكتاب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] فالمراد بالذكر هنا ما يتذكر به الإنسان وهو الكتاب، وقوله: ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال المؤلف: [من كتب الأمم الماضية] فيكون على تقدير مضاف من الأولين أي: من كتبهم، وليس منهم أنفسهم، بل من الكتب التي نزلت إليهم، لو أن عندنا من هذا شيئًا ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ اللام واقعة في جواب (لو)، و (لو) هنا شرطية، أو مصدرية؟ شرطية، والشرطية لا يليها إلا فعل، وهنا وليتها أن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾. فقالوا: وليتها أن ولكنها على تقدير فعل، يعني: لو ثبت أن عندنا ذكرًا ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ [الحجرات:٥] يعني: لو ثبت أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم.

وقوله: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: بالعبودية الشرعية؛ لأنهم بالعبودية القدرية كائنون فهم عبيد الله قدرًا، ولا يمكن أن يحيدوا عن قضاء الله وقدره، لكن لو كنا عباد الله شرعًا.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المخلصين العبادة له]، المخلصين بكسر اللام هكذا فسر المؤلف، ولهذا قال: العبادة له.

﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بالفتح الذين أخلصهم الله واصطفاهم.

فصار في المخلصين قراءتان: فتح اللام وكسرها، فعلى قراءة الفتح يكون المعنى: الذين أخلصهم الله ـ تعالى ـ لنفسه واصطفاهم، وعلى قراءة الكسر يكون معناه: الذين أخلصوا له العبادة، والمعنيان متلازمان؛ لأن كل من أخلص لله العبادة قد أخلصه الله لنفسه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [بالكتاب الذي جاءهم، وهو القرآن الذي أشرف من تلك الكتب ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم].

تقدير الآية: فقد جاءهم كتاب وجاءهم الذكر، ولكن لم يقبلوا هذا الذكر وكفروا به تكذيبًا في الخبر، واستكبارًا عن الأمر، فهم كذبوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال: إنكم ستبعثون فقالوا: لا بعث، وقال: إنه حق.

فقالوا: كاذب، وقال: اعبدوا الله وحده لا شريك له.

فعبدوا الأصنام، فهم ما صدقوا بما أخبر الله به في كتابه، ولا امتثلوا الأمر وانقادوا له، بل جمعوا بين كفر الجحود والاستكبار، ـ والعياذ بالله ـ مع أن القرآن أشرف من الكتب التي ادعوا أنه لو أتاهم من جنسها لكانوا عباد الله المخلصين، ومع هذا كفروا بهذا الكتاب، وهذا يدل على أن دعواهم هذه من أكذب الدعاوي. فقيل لهم: هذا ذكر، جاءكم ذكر من أشرف الأذكار وأعظم الكتب السابقة، ومع ذلك كفرتم به.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ للترتيب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للترتيب والسببية، أي: فبسبب كفرهم سوف يعلمون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهذا الأمر حصل ـ ولله الحمد ـ فإن الله أذلهم في أعظم موقعة كانوا يفتخرون بها ويظنون فيها العزة والنصر في عزوة بدر، فإنهم خرجوا بصناديدهم وأشرافهم وكبرائهم، حتى قال أبو جهل لما أشير عليه بالرجوع قال: (والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا فننحر فيها الجزور، ونشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا). فانظر إلى البطر والكبر. حصل أن قتل هو والزعماء والأشراف الذين معه، وسمعت بهم العرب، وتحدثت العرب بأخبارهم بما فيه العار والخزي إلى يوم القيامة، فهذا من العواقب الوخيمة، وفي بلدهم مكة خرج النبي ﷺ منها خائفًا مستترًا، ودخلها ظافرًا منصورًا مؤزرًا، رفعت الراية عند مدخل مكة عند الحجون ودخل البيت وكسّر الأصنام، ووقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ماذا يفعل.

فقال: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُم مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم[1]، فعفى

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

عنهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسموا الطلقاء، أي: من القتل والأسر، فانظر كيف كانت هذه العاقبة، فالنبي ﷺ حماه الله منهم.

تآمروا أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه، ولكن صارت المؤامرة عليهم، هم الذين منَّ عليهم الرسول ﷺ فأطلقهم على أن ما في الآخرة أشد وأعظم، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١] فعذاب الآخرة أشق ـ والعياذ بالله ـ والغرض من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، تهديد المكذبين للرسول ﷺ.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن هؤلاء المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعون أنه لم يأتهم ذكر يتذكرون به، ولهذا يعترضون هذا الاعتراض يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن حجج الكفار حجج مكابرة ليست مبنية على حق، فمثلاً قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ماذا نقول: باطل، بل عندكم ذكر من أفضل الأذكار على الإطلاق.

٣ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الناس لا يمكن أن يكون لهم استقامة إلا بكتب نازلة من السماء حتى المشركون الكفار يقرون بهذا؛ لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهذه الفائدة يشهد لها الواقع، فإن الأمم الذين لم يتنزل عليهم الكتب، تجدهم في فوضى مطردة، لايستقيم لهم حال، ولا يمشون على خط مستقيم، بخلاف الأمم التي تنزل عليها الكتب، فإنها تكون مستقيمة بقدر تمسكها بهذه الكتب.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الكتب المنزلة ذكر لمن نزلت إليهم ومعنى كونها ﴿ذِكْرًا﴾ على ثلاثة أوجه: فهي ذكر أي: شرف لمن نزلت إليهم، وهي ذكر يتذكرون بها ويتعظون بها، وهي ذكر يتقربون إلى الله ـ تعالى ـ بها؛ لأنها أفضل أنواع الذكر.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** أن هؤلاء الذين ادعوا لو أن عندهم ذكرًا من الأولين ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ كانوا كذبة بدليل أن عندهم ذكرًا من الأولين، ولكن كفروا به، وسبق لنا أن كفرهم به، يشمل النوعين من الكفر، وهما: الجحد والاستكبار.

٦ ـ **ومن فوائد الآيات:** تهديد الكافرين؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وتهديد الكافرين لا شك أنه مطابق للحكمة؛ لأن الحجة قد قامت عليهم، وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧١ـ١٨٢]

❁ التفسير ❁

ثم قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدمت في الأزل، وكلمة الله بينها هنا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾، هذه هي الكلمة السابقة التي قضى بها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الأزل.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ الجملة هنا فيها عدة مؤكدات وهي: اللام، وقد، والقسم المقدر.

والتقدير: وتالله لقد سبقت، أو ووالله لقد سبقت، وكل جملة تأتي على هذا الوجه، ففيها هذه المؤكدات: القسم، واللام، وقد.

وقوله: ﴿كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ المراد بالعباد هنا: العبودية الخاصة، بل أخص الخاصة وهي عبودية الرسالة.

وعبودية الخلق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عبودية كونية، وهذه عامة شاملة لجميع الخلق فما من مخلوق إلا وهو ذال لله قدرًا، وعبودية الرسالة؛ لأن الرسل مكلفون بما لم يكلف به غيرهم، فهم مكلفون بتحمل الرسالة وإبلاغها إلى الخلق ودعوة الناس إليها، ولهذا لا يرسل الله رسولاً إلا وهو يعلم أنه أهل للرسالة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقال الله لنبيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٣ ـ ٢٤] فلما ذكر أنه نزل عليه القرآن لم يقل: فاشكر الله على هذه النعمة، بل قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤] إشارة إلى أن تنزيل القرآن عليه أمرٌ يحتاج إلى صبر؛ لأنه يحتاج إلى معاناة ومجابة الناس، ومن تأمل ما حصل للرسول ﷺ من منابذة قومه له، وإيذائهم إياه تبين له الحكمة في أنه قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤].

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ وهي: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١] أو هي قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾] فـ(أو): هنا للتردد يعني هل الكلمة هي قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ والاحتمال الثاني أولى؛ لأن الاحتمال الثاني يجعل تفسير الكلام في ضمن الكلام، والأول يجعل تفسير الكلام منفصلاً عنه، وإذا كان تفسيره متصلاً كان أولى، وعلى هذا فتكون الكلمة﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وهي جزء من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

الأول: إن.

والثاني: اللام في (لهم).

والثالث: هم؛ لأن (هم) ضمير فصل، ثم هي أيضًا من حيث بنيتها.

جملة توكيدية؛ لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

فـ (إن) للتوكيد، واللام للتوكيد، وهم ضمير الفصل للتوكيد، وضمير الفصل من حيث الإعراب ليس له محل من الإعراب، ومن حيث المعنى يفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة، ولهذا سمي ضمير فصل، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ الهاء اسم إنّ، واللام للتوكيد، وهم ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والمنصورون خبر إن.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ﴾ يعني: لا غيرهم ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي: الذين ينصرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يقدره من الآيات، أو بما يرسله من الجنود، ففي بدر أرسل الله الملائكة فقاتلت مع النبي ﷺ، وفي الأحزاب أرسل الله ـ تعالى ـ الريح الشديدة ومعها جنود، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩] فجمع الله في الأحزاب بين الملائكة تدخل الرعب في قلوب هؤلاء الأعداء، وبين الريح التي تزلزلهم حتى لم يقر لهم قرار فهربوا، فهم منصورون من قبل الله بما يرسل من الآيات، أو من الملائكة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ الجند هم المدافعون عمَّن هم جند له، الذين ينصرونه ويدافعون عنه، ومنه جنود الأمير والسلطان وما أشبه ذلك، وهنا يقول: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ أي: جند الله، وهؤلاء الجند ليسوا جندًا لله لحاجة الله إليهم.

ولكن؛ لأنهم يدافعون عن شرعه فصاروا جندًا له، وهؤلاء الجند هم الغالبون ؛ لكونهم جند الله، والله ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١] فجند الله الذين يذبون عن شريعته لابد أن تكون لهم الغلبة.

ولهذا قال: ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ والجملة كالأولى مؤكدة بثلاثة مؤكدات: إن، واللام، وضمير الفصل.

والغالبون اسم فاعل من غلب، وغلب فعل متعد، والفعل المتعدي لابد فيه من فاعل ومفعول.

فالفاعل الجند ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لكن الغالبون بأمر الله لا شك، والمفعول محذوف والتقدير: كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿الغالبون الكفار بالحجة والنصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة].

أشار المؤلف إلى إشكال كنا نريد أن نؤخره إلى الفوائد، لكن الآن لابد من الكلام عليه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فبين الله بيانًا مؤكدًا بثلاثة، وأكد فيما قبل أن الرسل هم المنصورون، فإذا قال قائل: هل هذا الكلام المؤكد من الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مطابق للواقع، أو أن في الواقع ما يخالفه؟

فإذا قلت: مطابق للواقع ورد عليه في أحد كانت الغلبة للمشركين، وفي الأنبياء من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢] وفي أهل الخير من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٢١] فما هو الجواب عن هذا؟

الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يكون النصر الذي وعد الله به الرسل، بناء على أكثر، فإن الأغلب الأكثر بلا شك انتصار الرسل على أعدائهم واقرأ الآيات في الرسل تجد أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٥ ـ ٦٦] وهذا انتصار بلا شك.

الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد بالنصر نصر من أمروا بالجهاد، فمن أمر بالجهاد فإن الله قد تكفل لهم بالنصر، وأما من لم يؤمروا به فليس هناك مغالبة بينهم وبين أعدائهم حتى يقال: إنهم انتصروا، ويكون قتلهم غير منافٍ للآية.

الوجه الثالث: أن يقال: إن المراد بالنصر المطلق هو نصر الآخرة، أما نصر الدنيا فليس بمضمون.

الوجه الرابع: أن المراد بالنصر انتصارهم بالحجة لا بالشخص، يعني انتصار ما جاءوا به، وظهوره دون الغلبة الحسية، فإن ذلك ليس بذي أهمية بالنسبة لغلبة ما جاءوا به من الشريعة.

فهذه أربعة أوجه في الجواب عن الواقع، الذي قد يخالف ظاهر الآية، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع.

وتأمل القيد في قولنا بالنسبة للسنة: «صحيح»؛ لأنه قد يأتي في السنة أحاديث غير صحيحة، فلهذا احتجنا أن نقول: صحيح، أما في القرآن فلا يحتاج أن نقول: صحيح؛ لأنه منقول: بالتواتر فكله صحيح إذن لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع، فإن وجد ما ظاهره مخالفة الواقع،فاعلم أنه إما أن يكون مخالفة ولكن المخالفة من وهمك، بمعنى أن يكون الواقع،غير مخالف لظاهر القرآن، أو يكون ما ظننته

صريحًا من القرآن غير صريح، فمثلاً كثير من العلماء ـ وليس أكثر العلماء ـ يقولون: إن الأرض ليست كروية؛ لأن الله يقول ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧ ـ ٢٠].

والسطحية تنافي الكروية فإذن من قال: إن الأرض كروية فقد خالف صريح القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿سُطِحَتْ﴾ فأنكروا أن تكون الأرض كروية بناء على فهمهم أن القرآن صريح في ذلك.

ومن العلماء من قال: ﴿إنها كروية، والواقع يشهد لقول هؤلاء؛ لأنه لا يمكن أن نقول: الآن: إنها غير كروية، إذ لو أنك قمت من مطار جدة متجهًا إلى الغرب في طائرة فيكون منتهاك إلى جدة فترجع إلى جدة، إذن هي كروية، فالشاهد الواقع المحسوس يشهد لهذا، فنقول: إذن لابد أن يكون القرآن الذي زعموا أنه صريح بأنها ليست كروية لابد أن يكون على خلاف ما فهموا ولا يمكن أن يقول قائل: إن الواقع المحسوس كذب ولو قال: إن الواقع المحسوس كذب؛ لرماه الناس بالحجارة فضلاً عن حجارة الأفواه، وحينئذ يتعين علينا أن نقول: إن القرآن ليس صريحًا في هذا، فتحمل السطحية فيه على ما يحتاج الإنسان إليه من الأرض، فكل ما تحتاجه إليه من الأرض فهو سطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعودًا أبدًا، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعودًا أبدًا، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، ثم نقول: في القرآن ما يدل على أنها كروية، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:١ ـ ٤] فيفهم من قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:٣] أنها غير ممدودة، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَإِنَّ اللهَ يَمُدُّ الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ»[1] مد الأديم يعني: الجلد، فتكون سطحًا واحدًا.

وأيضًا دليل آخر مثل قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يدور على الأرض، فإذا كان هذا يدور فالذي يدور عليه يكون مستديرًا ولابد

المهم: القاعدة عندنا أنه لا يمكن أبدًا أن يوجد في الواقع المحسوس ما يخالف صريح المنقول: أبدًا، فالأولى نخاطب بها أهل المادة، والثانية نخاطب بها أهل العقول الذين يدعون أنهم أصحاب العقول كالمتكلمين وغيرهم، نقول: ليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المعقول.

ونخاطب بهذا أهل الكلام وغيرهم ممن يتكلمون في العقائد في المعقولات.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٧٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٠٩).

وليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المحسوس، ونخاطب به أصحاب المادة الذين ليس عندهم إلا ما يشاهدونه بأعينهم، أو يسمعونه بآذانهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ محمول على أحد المحامل الأربعة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

الخطاب للرسول ﷺ ﴿عَنْهُمْ﴾ الضمير يعود على أهل مكة، والمراد بالتولي ما فسره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: [أي: أعرض عن كفار مكة].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني: إلى حين غير مبين، لكن علمه عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولهذا قال المؤلف: [﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تؤمر فيه بقتالهم] وعلى هذا فتكون الآية منسوخة بآيات السيف، فإن الرسول ﷺ لم يؤمر بالقتال إلا حين كان له قوة، وكان له شوكة، وذلك بعد هجرته إلى المدينة، أما في مكة فلم يؤمر بالقتال؛ لأن الحكمة لا تقتضيه وعلى هذا فيكون الحين الذي أُجل عليه التولي هو الأمر بقتالهم.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني: انظر إليهم إذا نزل بهم العذاب، وعلى هذا فيكون الإبصار البصر بالرؤية، يعني أنك ستبصرهم إذا نزل بهم العذاب، فيكون أمرًا للنبي ﷺ بالإبصار حينما ينزل بهم العذاب، والمراد بقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تسلية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطمينه بأن هؤلاء سوف يرون جزاءهم.

وقيل: إن المراد بالإبصار هنا الإنظار، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني أنظرهم أيامهلهم، كما في قوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:٢٩] وغاية القولين واحدة، يعني سواء قلنا: أبصرهم بعينك حين ينزل بهم العذاب، أو أنظرهم حتى يأتيهم العذاب.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ هذه الجملة يراد بها: تهديد هؤلاء بأنهم سوف يبصرون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل والخزي والعار في الدنيا، وكذلك، في الآخرة بالعذاب.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فقالوا استهزاء: متى نزول هذا العذاب؟ قال الله ـ تعالى ـ تهديدًا لهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾] الهمزة في قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ للاستفهام، والفاء عاطفة، وقد ذكر أهل العلم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف العطف، فإنه يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن يكون المعطوف عليه مقدرًا بين الهمزة وحرف العطف، ويقدر بما يناسب.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة معطوفة على ما سبق بدون تقدير، ويكون محل الهمزة بعد حرف العطف، وعلى هذا يكون التقدير: فـ(أبعذابنا) يستعجلون.

وعلى الأول تقدر ما يناسب المقام فتقول: أسخروا فبعذابنا يستعجلون.

واستعجالهم العذاب على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون بالقول، فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك:٢٥] أين العذاب الذي تعدوننا به؟!

الوجه الثاني: أن يكون بالفعل وذلك بتماديهم بالمعصية؛ لأن المتمادي بالمعصية هو مستعجل للعذاب في حقيقة الأمر؛ لأن المعاصي سبب للعذاب، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فاستمرار هؤلاء بتكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقتضي أن يتعجل لهم العذاب، وهذا استعجال بالفعل، فهؤلاء جمعوا بين الوجهين: الاستعجال بالفعل وبالقول.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (نا) هنا للتعظيم وليست للجمع؛ لأن الله ـ تعالى ـ واحد، وكل ضمير أضافه الله إلى نفسه بصيغة الجمع فالمراد به التعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ الفاء تعود على العذاب، أي: إذا نزل العذاب بساحتهم، والساحة ساحة القوم أي: فناءهم، وهو ما قرب من بيوتهم وأرضهم، وهذا يعبر عنه بالتهديد والوعيد، فيقال: نزل العدو بساحتهم، كما في الحديث الصحيح في قصة خيبر أن النبي ﷺ لما أقبل عليهم جعلوا يركضون إلى مخابئهم يقولون: جاء محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[1].

فهنا يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: حل العذاب بهم، وبساحتهم أي: بفنائهم، وهذه الكلمة يقولها العرب للتهديد، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم]، (الفراء أحد علماء اللغة العربية وهو حجة فيما يقول).

فكأنه يقول: تقدير الآية: فإذا نزل بهم، ولكن لا حاجة إلى أن نقول: هذا القول؛ لأنه من المعروف أن العدو إذا نزل في القوم ليس ينزل في دورهم من أول وهلة، ولكنه ينزل بساحتهم ومنازلهم، ثم يهجم عليهم ويغير عليهم، وفي هذا استعارة ـ كما يقول البلاغيون ـ حيث شبه العذاب بعدو ينزل بهم يعني: بساحتهم، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النزول بالساحة، ومثل هذه الاستعارة يسمونها استعارة مكنية؛ لأنه حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

وقوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: في (فساء) [بئس صباحًا، ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾] وذلك؛ لأن ساء من أفعال الذم، وأفعال الذم تحتاج إلى شيئين:

فاعل، وتمييز، فقدر المؤلف التمييز بقوله: [صباحًا]، وأما الفاعل فهو في الآية، وهو قوله:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥).

﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباح المنذرين صباحًا، أو ساء صباح المنذرين صباحًا، فالمؤلف قدّر التمييز، ولكن هل هذا التقدير لازم؟ الصحيح أنه ليس بلازم، وأن الفاعل يسد مسده، كما في هذه الآية وفي كثير من الآيات أيضًا مثل: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١١] ولم يقل: نعم العبد عبدًا.

وقوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: المنذرين اسم مفعول أي: ساء صباح القوم الذين لا حجة لهم؛ لأنهم أُنذروا وقامت عليهم الحجة فليس لهم عذر.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فيه إقامة الظاهر مقام المضمر]؛ لأن مقتضى السياق أن يقول: فإذا نزل بساحتهم فساء صباحهم، لكنه قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فأقام الظاهر مقام المضمر.

وإقامة الظاهر مقام المضمر لابد لها من فائدة: إما لفظية، وإما معنوية، وإما لفظية معنوية، وهنا إقامة الظاهر مقام المضمر له فائدة لفظية ومعنوية، فاللفظية هي: مراعاة فواصل الآيات.

لأن الله ـ تعالى ـ يعبر بالكلمة والظاهر خلاف التعبير بها من أجل مراعاة الفواصل.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] ومن المعلوم أن موسى أفضل من هارون، وهو يقدم عليه في كتاب الله، لكن في هذه الآية قدم هارون على موسى مراعاة للفواصل؛ لأن سورة طه فواصلها غالبها بالألف.

وهنا نقول: (فساء صباحهم) لم تنسجم الفاصلة مع التي قبلها والتي بعدها، فقال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهذه فائدة لفظية.

أما المعنوية فهي التعميم وانطباق الوصف عليهم وإقامة الحجة على هؤلاء الذين نزل العذاب بساحتهم، وهي أنهم قد أنذروا ولم يكن لهم عذر، واستحقوا العذاب بعدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

والإنذار يقول العلماء: هو: الإعلام المقرون بالتخويف.

والبشارة هي: الإعلام المقرون بما يفرح ويسر.

فالبشارة بالسار، والإنذار بخلافه.

إذن: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذروا بإقامة الحجة عليهم أي: أعلموا بما يخوفهم إذا خالفوا أمر الله.

قال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرر تأكيدًا لتهديدهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، والآية التي قبلها يقول: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وهنا قال ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فلم تختلف عنها إلا بحرف العطف الأول (فتول) والثاني و (تول)، والأولى قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ والثانية (وأبصر)، فأطلق وإلا فهي هي، والفائدة من التكرار هو تكرار إنذارهم وذلك بتهديدهم، وتسلية الرسول ﷺ؛ لأنه كلما كرر الكلام ازداد توكيدًا.

وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ سبحان: اسم مصدر سبح.

وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف وجوبًا، ولهذا لا يجمع بين سبحانه وسبح، ما يقال: سبح سبحان، و ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ أي: تنزيهًا له، وقد تقدم ماذا ينزه الله عنه، وقوله: ﴿رَبِّكَ ﴾ أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ فيكون المراد بها ربوبية خاصة؛ لأن الربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة لجميع الخلق وهذه ربوبية السلطة والتدبير، وخاصة وهي ربوبية التربية والعناية، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٧ ـ ٤٨] فالأولى عامة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، والثانية خاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، ولهذا صار من مقتضى هذه الربوبية أن الله ـ تعالى ـ قال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] قال: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ والخطاب للرسول ﷺ أي: تنزيهًا لربك الذي شملك برعايته وعنايته ثم قال: [رب العزة] أي: الغلبة، ورب هنا بمعنى صاحب، وليست بمعنى خالق، وهي في القرآن تأتي بمعنى خالق ومالك مدبر إلا في هذا الموضع فالمراد بها صاحب فقط، ولا يمكن أن تكون بمعنى خالق؛ لأن، العزة صفة من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وصفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غير مخلوقة فيتعين أن يكون المراد بالرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ صاحب العزة، وليس خالقًا للعزة؛ لأن صفات الرب غير مخلوقة وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ أضاف الرب هنا إلى العزة دون غيرهما من صفاته؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن المقام الآن في ذكر مآل النبي ﷺ ومآل المكذبين له، وأن مآله أن ينصره الله وأن تكون الغلبة له، وأن يكون الذل والخذلان لأعدائه، فالمقام هنا يقتضي الصفة التي تكون بها الغلبة وهي العزة، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة المنافقين: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون:٨] وهذه حقيقة يخرج الأعز الأذل، لكن من الأعز ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨] وأما المنافقون فلا عزة لهم، وعلى هذا فنقول: إن الله ذكر هنا صفة العزة دون غيرها؛ لأن المقام يقتضي ذلك، حيث أنه في سياق الغلبة للرسول ﷺ والذل لأعدائه، ومن أسماء الله ـ تعالى ـ : العزيز، وما أكثر وروده في الكتاب العزيز، قال العلماء: وللعزة ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة الغلبة. الثاني:) عزة القدر. الثالث: عزة الامتناع.

فعزة الغلبة معناها: أن الله ـ تعالى ـ غالب لكل شيء.

وعزة القدر أن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء قدرًا.

وعزة الامتناع أن الله ـ تعالى ـ ممتنع أن يناله أحد بسوء.

ومن الثالث قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية ما تؤثر فيها المعاول.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يجوز في (ما) أن تكون مصدرية ويكون تقدير الكلام: سبحان ربك رب العزة عن وصفهم.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون العائد محذوفًا، والتقدير: عما يصفونه به.

وقول المؤلف: [بأن له ولدًا] هذا كالمثال لما يصفون الله به مما ينزه عنه، وإلا فهم يقولون: إن له ولدًا، وله زوجة، وله شريكًا، وله معينًا وهكذا، فكل وصف لا يليق بالله فإن الله - عَزَّ وَجَلَّ - منزه عنه، وإن وصفه به هؤلاء الأفاكون الكذابون.

ثم قال ختامًا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، و ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبره، والسلام هنا بمعنى التسليم، فهو اسم مصدر سلم مثل: كلام بمعنى التكليم ومعنى السلام عليهم: أن ما قالوه في ذات الله وفي صفات الله سلام من كل نقص.

فيكون الله - تعالى - قد سبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، ثم سلم على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لسلامة ما قالوه من نقص وعيب، فليس فيه كذب، وليس فيه سوء، ولهذا قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع].

ولما ذكر التنزيه فيما وصف به نفسه وفيما وصفته به رسله - عليهم الصلاة والسلام -، ذكر بعد ذلك الحمد الذي هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيكون في الآيات جمع بين التنزيه عن صفات النقص وبين إثبات صفات الكمال، وأتى بإثبات صفات الكمال بعد التنزيه؛ لتكون التحلية بعد التخلية، يعني التزين بعد إزالة الأذى.

وقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحمد: وصف المحمود بالكمال المحبة والتعظيم، وكمال الله - سبحانه وتعالى - يدور على أمرين: كمال ذاتي، وكمال فعلي:

أما الكمال الذاتي فهو - سبحانه وتعالى - كامل في ذاته المتصفة بكل صفة كمال.

والكمال الفعلي أن الله - تعالى - كامل في أفعاله، فله الفضل على عباده بجلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ولهذا شرع للإنسان إذا انتهى من الأكل والشرب أن يحمد الله - سبحانه وتعالى - على ما رزقه من الطعام والشراب، وإن شئت فقل: إنك تحمد الله الذي لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه من الأكل والشرب.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم.

والعالم كل من سوى الله، وسموا عالمًا؛ لأنهم علم على خالقهم - عَزَّ وَجَلَّ -، ففي كل شيء من مخلوقات الله آية تدل على وحدانيته وكماله.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [على نصرهم - أي: نصر الرسل - وهلاك الكافرين] ولو أن المؤلف جعلها مطلقة ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على كل شيء حتى على ما يقدره أحيانًا من غلبة أعدائه على أوليائه فإنه يحمد على ذلك، لما يترتب عليه من المصالح العظيمة كما في غزوة أحد التي ذكر الله - تعالى - فيها من الحكم أشياء كثيرة، ذكر منها جزءًا كبيرًا ابن القيم

ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد.

والفائدة من قوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أن يثبت لنفسه صفات الكمال بعد أن نفى عن نفسه صفات النقص، ليجمع فيما وصفه به نفسه بين النفي والإثبات.

الفوائد:

١ ـ **من الفوائد** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كتب لعباده المرسلين النصر؛ لقوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا﴾، وكلمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الكونية لا تتبدل.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: تسلية الرسول ﷺ وتثبيته على ما كان عليه من الرسالة.

٣ ـ **ومن فوائدها**: تهديد أعداء الرسل وأنهم مخذولون؛ لأنه إذا كتب النصر للرسول فسيكون الخذلان لأعدائهم.

٤ ـ ومنها: أن نصر الرسل يكون من الله وبما يسره ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من مخلوقاته وآياته، ولهذا قال: ﴿لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ ولم يبين من الناصر ليكون هذا أشمل، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

٥ ـ ومنها: أن الغلبة لجنود الله الذين قاموا بنصر شريعته والذود عنها؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

٦ ـ **ومن وفوائدها**: تثبيت من دعا إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن لهم الغلبة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين ما حصل لبعض الرسل وبعض أتباعهم مما ينافي ظاهر الآية؟ سبق لنا الجواب عليه من عدة أوجه فلتكن معلومة.

٧ ـ **ومن فوائد قوله تعالى**: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ تهديد هؤلاء المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن طغيانهم لن يدوم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ فسينتهي هذا الطغيان، إما على يد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يؤمر بالقتال، وإما بالموت بتقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فهم لابد أن ينتهي أمرهم، ولا يمكن أن يستمر طغيانهم.

٨ ـ **ومن فوائدها**: تسلية الرسول ﷺ حيث أخبر أن أذاهم سينتهي أمره بعد حين.

٩ ـ ومنها: تهديد هؤلاء الأعداء الذين بلغوا من الطغيان والعدوان على رسول الله ﷺ ما بلغوا.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآيات**: تحقيق هلاكهم وزوالهم؛ لقوله: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ يعني: إذا نزل بهم العذاب فسوف تبصر وتشاهد بعينك.

١١ ـ ومنها: إعادة التهديد مرة ثانية بأسلوب آخر بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها**: تأكيد المعنى بالعبارات المختلفة، ليكون ذلك أبلغ، وليترقب هؤلاء المهددون العذاب من كل وجه؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة**: بيان سفه هؤلاء المكذبين وطغيانهم، حيث كانوا يستعجلون العذاب.

ووجه هذا أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا يخشون العذاب ولا يستعجلونه، وأنهم لو كان عندهم نوع من الاعتدال ما صاروا يتحدون الرسل فيقولون: هاتوا العذاب إن كنتم صادقين.

فهم عندهم سفه، وعندهم مبالغة بالطغيان والعدوان، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] وهذا يدل على سفه قريش، وأنهم من أبلغ ما يكون في السفه، وأنهم لو كانوا علماء راشدين لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليك.

فهذ هو الصواب، أما فأمطر علينا حجارة من السماء. فهذا من أسفه ما يقوله البشر.

١٤ ـ ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتحدث عن نفسه في مقام الوعيد بصيغة العظمة، إرهابًا وإزعاجًا لهؤلاء المتوعدين؛ لقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ولم يقل: (أفبالعذاب)، ولهذا لما جاء العذاب على سبيل الخبر قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩ ـ ٥٠] ولم يقل: وأن عذابنا.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه إذا نزل العذاب بقوم فلن يفلتهم؛ لقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

١٦ ـ **ومن فوائدها**: أنهم لو آمنوا في هذا الوقت فلن ينفعهم؛ لأنه لو نفعهم الإيمان لم تصدق عليهم هذه الجملة صدقًا كاملاً وهي قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لأنه لو نفعهم الإيمان لزال عنهم هذا السوء، ولكن الإيمان لن ينفعهم، وهذه سنة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في عباده إذا نزل بهم العذاب، فآمنوا، أن لا ينفعهم إيمانهم، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤ ـ ٨٥] وقال فرعون لما أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فقيل: له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] يعني: لن ينفعك، وقال الله ـ تعالى ـ في سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:٨١] وكل هذا يوجب للإنسان العاقل أن يبادر بالتوبة وألا يتأخر وألا يهمل؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، وإذا نزل به الموت فإنه لن تنفعه التوبة، فلابد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه، ويستثنى من هذا قرية واحدة آمنت بعد نزول العذاب فيها ونفعها إيمانها وهم قوم

يونس ـ عليه السلام ـ، والدليل على أنه نفعها إيمانها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] والحكمة أن هؤلاء نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم؛ لأن نبيهم ـ عليه السلام ـ خرج مغاضبًا قبل أن يؤذن له بالخروج فكان هذا عذرًا لهم.

١٧ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يهلك قومًا حتى يقيم عليهم الحجة بالإنذار ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وهذا موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]

والصحيح: أن هذا عام، في التوحيد وما دونه، فهو شامل لفروع الإسلام كالصلاة والزكاه والطهارة وما إلى ذلك، فإن الإنسان لا يلزمه شيء منها إلا بعد قيام الحجة وبلوغ الرسالة، ولهذا كان القول الراجح أن من عاش في بادية بعيدًا عن الناس، ولم يصم، ولم يصل، ولم يزك، وهو جاهل، فإنه لا قضاء عليه، ولو بقي سنوات، والدليل على هذا نصوص كثيرة من السنة تدل على أن من كان جاهلاً نشأ في بادية بعيدة لا يدري عن الشرع شيئًا فإنه لا قضاء عليه، فمثلاً الرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته، بقي على هذا مدة الله أعلم بها، لا يحسن إلا هذا: إلا صلاة لا يطمئن فيها، ولم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما مضى من صلاته، إنما أمره بإعادة صلاة الوقت الحاضر(١)؛ لأن مطالبته بها في هذا الوقت قائمة، فلهذا أمره أن يعيد حتى تكون صلاته صحيحه، أما ما قبل فلم يأمره بالإعادة، ولم يأمر المرأة التي قالت: إنها تحيض حيضة كبيرة شديدة تمنع من الصلاة، لم يأمرها أن تعيد الصلاة مع أنها مستحاضة، والمستحاضة تصلي، والأمثله على هذا كثيرة.

ولا فرق بين التوحيد وما دونه، فلو فرضنا: أن رجلاً مسلمًا كان قد نشأ في بلد بعيد يعبد هذا القبر، ولا يدري أنه كفر، فإنه لا يرمى بالكفر؛ لأنه مسلم ارتكب هذا خطأ ولم يتعمد بقلبه، فليس عليه شيء، كما أن من ارتكب محظورًا: شركًا فما دونه متأولاً، ولم يجد من يفتح عليه، فإنه لا يكون كافرًا؛ لأنه لابد من القصد، ومما ورد الرجل الذي ضاعت ناقته في فلاة من الأرض، وطلبها ولم يجدها، وأيس منها، واضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة، فأخذ بخطامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك(٢)، فجعل نفسه ربًا، وجعل رب العالمين عبدًا، وهذه كلمة كفر، ولا شك في هذا، لكن هذا الرجل أخطأ من شدة الفرح، ولم يقصد الكلام، فلم يكن كافرًا لعدم قصده الكفر، وكذلك الرجل الذي كان مسرفًا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٥٦)، والترمذي (٣٠٢)، والنسائي (١٠٥٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

على نفسه وقال لأهله: إذا مت فأحرقوني وذروني في اليم، ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك نجا من عذاب الله، ولكن الله قال له: كن فكان، فاجتمع فسأله - عَزَّ وَجَلَّ - : لم فعلت هذا؟ قال: خوفًا من عذابك يا رب.

قال له: خوفك من عذابي أنجاك من عذابي[1]، فأنجاه الله من العذاب، مع أن هذا كان شاكًّا في قدرة الله، لكن ليس عن قصد بل متأولاً، فلم يكن كافرًا، ومثل هذه المسائل لا يجوز الإنسان أن يتسرع فيها. - أعني مسألة التكفير والتفسيق أيضًا - ؛ لأن بعض الأخوة يسارع في التكفير، ويلاحظ المقالة دون القائل، ويلاحظ الفعل دون الفاعل.

فإذا كان هذا القول كفرًا، قال: من قال به فهو كافر مطلقًا، وإذا كان هذا الفعل كفرًا، قال: من فعله فهو كافر مطلقًا، ولم ينظر إلى الموانع؛ لأن هذا القول مثلاً: إذا كان مكفرًا كان سببًا للكفر، لا شك، وهذا الفعل إذا كان مكفرًا كان سببًا للكفر، لكن هل الأسباب يعتريها موانع أو لا؟

قد يكون هناك مانع في هذا الشخص المعين يمنع من الحكم بكفره، فمنه الجهل والإكراه والنسيان والغلبة على النفس بحيث لا يتمكن، ولهذا لو أن أحدًا سها وقال كلمة الكفر لا نقول: إنه يكفر، والنسيان والجهل صنوان في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وفي سنة رسول الله ﷺ.

إذن يجب على طالب العلم أن يفرق بين القول والقائل، والفعل والفاعل، فقد يكون القول كفرًا لكن القائل ليس بكافر، وقد يكون الفعل كفرًا، لكن الفاعل ليس بكافر، أرأيت لو أكره رجل أن يسجد لصنم، وقيل: إما أن تسجد وإما تضرب بالسيف.

فسجد دفعًا للإكراه لا تقربًا للصنم، أي: كفر؟ فلا يكفر؛ لأن الله يقول: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل:١٠٦] يعني: اختاره منشرحًا به صدره، فهذا الذي يقطع بكفره، وأما من ليس كذلك، فلا.

لهذا يجب علينا ألا نسارع في التكفير والتفسيق.

وبعض الناس لغيرته يسارع في التكفير والتفسيق، فاتق الله، واعلم أنك إذا كفرت شخصًا ليس بكافر عاد الكفر عليك، كما ثبت ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ[2]، أتريد أن تكون كافرًا؟ فلا تكفر إلا من قامت الحجة على كفره.

ولا تقوم الحجة على كفره إلا بأمرين:

١ - ثبوت أن هذا الشيء كفر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

٢ ـ تحقق شروط الكفر بحق هذا الفاعل أو هذا القائل.

وهذه المسألة أكررها لأهميتها؛ لأنه يبلغني أن قومًا من الناس لمجرد ما يقال إن فلانًا فعل كذا، يقول: أعوذ بالله، هذا كافر، ونبرأ إلى الله منه، وهذا غلط، فقتل النفس من كبائر الذنوب، ولما قتل أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ الرجل الذي قال: لا إله إلا الله متأولاً، ما قتله الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وغاية ما هنالك: أنه قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله»؟ فقال أسامة: «يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا»[1].

والقصة: أن رجلاً من الكفار قالها فهرب، فلما أدركه أسامة قال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، ظنًّا منه أنه قالها تعوذًا، يعني خوفًا من القتل.

والقرينة قوية جدًّا، ولكن الرسول ﷺ لا يريد منا أن نحكم بها نظن، بل يريد أن نحكم بالظاهر، إنما أقضي بنحو مما أسمع.

قال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذًا من القتل، قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله؟» قال: إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله؟» يقول: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت بعد.

فالحاصل: أنه يجب علينا أن نرفق بأنفسنا وبالناس، وأن لا نكفر أحدًا حتى يتبين لنا أن هذا الشيء كفر، وأن هذا الذي قاله أو فعله ينطبق عليه شروط التكفير حتى لا نبؤ نحن بالكفر أو الفسق، والحمد لله الحكم إلى الله، فإذا كان الله لم يكفر هذا الشخص فلماذا نكفره؟

وإذا كفرنا من لم يكفره الله لم يكفر هذا الشخص فلماذا نكفره؟

وإذا كفرنا من لم يكفره الله، فكأنما حرمنا ما أباحه الله، أو أبحنا ما حرمه الله، فعلينا أن نتق الله، والأصل في المسلم الإسلام، فما دام يدين بالإسلام، لكن يفعل خصلة من الكفر، أو يقول قولاً هو كفر وهو جاهل، لم ينشأ في بلد استتب فيه الإسلام، فكيف نقول: إن هذا كافر؟

رجل بدوي ناشيء في أرض بعيدة عن العلوم الشرعية، لكن مسكين، كل صباح ينصب حجرًا ويسجد له وهو لا يدري فهل نقول: هذا كافر؟ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولهذا نص العلماء ـ رحمهم الله ـ: على أنه لو أن رجلاً جحد وجوب الصلاة، لكان كافرًا، لكن قالوا لو جحد وجوب الصلاة وهو ناشيء في بلد بعيد عن العلم الشرعي أو كان حديث عهد بالإسلام لم يكن كافرًا؛ لأنه جاهل.

إذن قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يدل على أنه لا يمكن أن يعذب أحد إلا بعد إبلاغه.

وهل يكفي بلوغ الحجة أو لابد من فهم الحجة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

لابد من فهم الحجة. ولهذا قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٨ ـ ١٩٩]؛ لأنهم لا يفهمونه، وإذا لم يؤمنوا به لعدم فهمهم فهم معذورون.

وقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٤] أي: بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، فلابد من بيان الحجة.

فلو قلت لإنسان أعجمي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهو لا يدري معناها. فلا تقوم عليه الحجة، ولو قلت له: يا فلان أطلقت امرأتك؟ فقال: نعم.

قلت: ثلاثًا قال: نعم، وأربعًا وخمسًا، وفهم أن أطلقت امرأتك جعلتها طليقة تروح وتجي ؛ لأنه أعجمي؛ لأنه لا يفهم معناها فلا تطلق.

فهذه المسائل مهمة ينبغي للإنسان أن يعتني بها، وألا يوقع نفسه في هلكة، ويوقع غيره في هلكة على غير وجه شرعي، ويوالي ويعادي على وجه غير شرعي، فهذا شرع فمن حكم الله بكفره كفّرناه، ومن حكم بفسقه فسّقناه، ومن لم يحكم بكفره لم نكفره، ومن لم يحكم بفسقه لم نفسقه ـ والله أعلم ـ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تفسير سورة الصافات

تفسير سورة ص

تفسير سورة ص

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾

قال المؤلف – رحمه الله تعالى -: [سورة (ص) مكية] والقرآن الكريم مكي ومدني، وأصح الأقوال في تمييز المكي من المدني: أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني وإن نزل في غير المدينة، فالحد الفاصل زمني وليس مكاني، فما بعد الهجرة مدني وما قبلها مكي.

قال: [ستٌّ أو ثمانٌ آية] والآيات هي عبارة عن الفواصل التي تكون بين جملة أو جملتين فأكثر، وسُمِّيت آية لأنها معجزة، فإن القرآن – كما سبق – قد تحدى اللهُ فيه الناسَ أن يأتوا بحديث مثله وإن قَلَّ .

قال: [بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ] هذه البسملة آية من كتاب الله يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة فإنه لا يؤتى بها، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا المصحف أشكل عليهم هل براءة بقية الأنفال، أم هي سورة مستقلة؟ فوضعوا فاصلًا دون بسملة؛ لأن لو جزموا بأنها من الأنفال لم يضعوا فاصلًا، ولو جزموا بأنها مستقلة لوضعوا البسملة، ولكن هذا الاجتهاد منهم نعلم أنه هو المطابق للواقع، وأنهم مصيبون فيه قطعاً، وذلك لأن البسملة لو نزلت بين الأنفال وبراءة لبقيت؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فلما لم تبق باجتهادٍ من الصحابة عُلِم أنهم كانوا مصيبين للواقع.

والبسملة جار ومجرور، ومضاف إليه، وصفة، أي: نعت.

والقاعدة النحوية: أن كل جار ومجرور لا بد له من متعلَّق، أي: من شيء يتعلق به، والشيء الذي يتعلق به الجار والمجرور هو العامل، والجار والمجرور معمول، ولهذا قال ناظم الجمل:

لا بد لِلجارِ وَالمجرورِ مِنَ التَّعلّق بِفِعلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتقي
واستثنى كلَّ زائدٍ له عملْ كالباءِ ومن والكافِ أيضاً ولعلْ

فكل حرف أصلي غير زائد فلا بد له من متعلق بفعل، أو بما كان بمعنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول. إذًا البسملة لا بد لها من متعلَّق، فما هو هذا المتعلَّق؟ أصح ما قيل في متعلَّق البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام، فإذا كنت تريد أن تقرأ كان التقدير بسم الله أقرأ، وإذا أردت أن تأكل كان التقدير بسم الله آكل، وإذا أردت أن تذبح ذبيحة كان التقدير بسم الله أذبح. ولهذا قال الرسول ﷺ وهو يخطب في الناس يوم النحر: «مَنْ لَمْ يذبحْ فَلْيَذْبَحْ بسمِ الله» (١) وإنما يُقدّر فعلًا لأن الأصل في العمل هو الفعل، ولذلك يعمل في معموله بدون شرط ، وأما اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل والمصدر فلا يعمل إلا بشرط.

ونقدّره متأخرًا فنقول: بسم الله أقرأ لسببين:

السبب الأول: التبرك بالبداءة باسم الله.

والسبب الثاني: إفادة الحصر، لأن تأخير العامل يفيد الحصر، فإن من طرق الحصر: تقديم ما حقه التأخير، وقدرناه مناسبًا للمقام؛ لأنه أدلّ على المقصود مما لو قدرناه فعلًا عامّاً كما لو قيل: إن التقدير باسم الله أبتدئ، أو بسم الله أبدأ؛ لأن بسم الله أبدأ أو أبتدئ لم تعين الفعل الذي ابتدأت به، فالحاصل أننا نقدر المتعلَّق في البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي الابتداء بها في الأمور الهامة، ولهذا يبتدئ الله بها كل سورة إلا براءة، ومن المعلوم أن السورة من الأمور الهامة، وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «كُلُّ أمْرٍ ذِي بالٍ لَا يُبْدأُ فيه ببسمِ الله فهو أَبْتَرْ» (٢) والحديث حسن.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الألوهيةَ الله في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات أسماء الله لقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهذا مفرد مضاف في كل اسم لله عزَّ وجلَّ، ولهذا يفسرها بعض المفسرين بقولهم: أي: بكلِ اسم من أسماء الله أبتدئ.

٤- **ومن فوائدها:** التبرك بذكر اسم الله عزَّ وجلَّ، فتكون أسماء الله مما يدعى الله بها لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومما يُتبرك به ويُستعان به؛ لأنها قدمت بين يدي الأمور الهامة.

وإذا أردت أن تعرف مدى بركة هذه التسمية فانظر على الذبيحة يُسمّى عليها فتكون طيبة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).
(٢) ضعيف: انظر «إرواء الغليل» (١).

حلالًا، ولا يُسمّى عليها فتكون خبيثة حرامًا مع أن الذابح واحد، والآلة المذبوح بها واحدة، ومكان الذبح واحد، وإنهار الدم واحد، لكن لما فقدت التسمية صارت خبيثة ميتة لا يحل أكلها، فإذا سُمِّي عليها صارت طيبة.

وإذا أتى الرجل أهله فقال: "بسم الله اللهم جَنِّبنا الشيطانَ، وجَنِّب الشيطان أبدًا"[1] وإنْ لم يُسمِّ بهذه التسمية كان عُرْضَة لأن يصاب ولده بالشيطان ويضر به.

٥- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنها رحمة واسعة لقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لأن الرحمة صفة تدل على السعة والامتلاء.

٦- **ومنها:** إثبات الأسماء الثلاثة لله، وهي: الله والرحمن والرحيم.

قال الله تعالى:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾﴾ [ص: ١، ٢]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿صٓۚ﴾ قال المؤلف: [الله أعلم بمراده به] وذلك لأن كلمة (ص) حرف هجائي لا يدل على معنى في اللغة العربية، فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذه الحروف الهجائية التي ابتُدِئتْ بها بعضُ السور رموز إلى معانٍ، وعيَّنها كل إنسان بما يرى أنه مناسب. وذهب آخرون إلى أنها أسماء من أسماء الله، أو من أسماء الرسول ﷺ، وذهب آخرون إلى ما ذهب إليه المؤلف، بأنها مجهولة المعنى، لا ندري ما معناها، ولكن القول الراجح ما ذهب إليه إمام المفسرين في عهده مجاهد – رحمه الله – أن نقول: ليس لها معنى، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] واللسانُ العربي لا يُثْبِت معنىً لهذه الحروف الهجائية، وعلى هذا فتكون هذه الحروف الهجائية مثل نٓ، قٓ، صٓ، الٓمٓ وما أشبهها ليس لها معنى في اللغة العربية، إذًا ليس لها معنى في القرآن، لأن القرآن باللغة العربية.

ولكن يشكل عليَّ هذا القول مع رُجحانه أنه يقتضي أن يكون في القرآن كلمات لغو ليس منها فائدة!

والجواب عن هذا أن نقول: هي ليست لغوًا في سياقها، فإنها جاءت لمغزىً عظيمٍ، وهذا المغزى أن هذا القرآن العظيم الذي أعجز فصحاءَ اللغة وأمراءَ البيان لم يكن بحروف غيرِ مألوفة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

عندهم حتى يقولوا: لا نعرف هذه الحروف، بل كان بالحروف التي يتكون منها كلامهم.

قال الذين ذهبوا هذا المذهب، ودليل ذلك أنك لا تكاد ترى سورة مبدوءة بحرف هجائي إلا وجدتَ بعد هذا الحرف ذكر القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢]، ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، فكل سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية ذكرُ من القرآن، ما عدا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣]، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأن يُقال:

أما قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾فلأنه ذكر صفة عظيمة من صفات مَن تمسك بالقرآن وهي الصبر على الأذى في ذات الله.

وأما الثانية: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فقد ذكر شيئًا من خصائص الوحي، وهو علم الغيب، فإن كون الروم غُلِبت الآن وستَغلبِ في بضع سنين، من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، وهو من خصائص الوحي، وسواء كان هذا الجواب سديدًا مقبولًا أم لم يكن، فإن النادر لا حكم له.

قال الله تعالى: ﴿صٓ ۚ﴾ نقول فيها: "ص" حرف هجائي ليس له معنى، لكن جيء به للإشارة إلى أن هذا القرآن الكريم الذي أعجز العرب كان من هذا الحروف التي يتركب منها كلامهم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ الواو هنا: حرف قسم لهذا جَرَّت الكلمة التي بعدها "القرآن". والواو حرف قسم لا تدخل إلا على الاسم الظاهر، ولا يُذكر معها فعل القسم، بخلاف باء القسم، فإنها تدخل على الاسم الظاهر، وعلى الضمير، ويُذكر معها فعل القسم، ويُحذَف، وتدخل على كل اسم، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام:١٠٩] فَذُكِر معها فعلُ القسم. وتقول: ربي به لأفعلنَّ، أو أقسم به لأفعلن، فهنا دخلت على الضمير. أما التاء فهي أخص أدوات القسم، لا تدخل إلا على لفظ الجلالة "الله"، ولا يُذكر معها فعلُ القسم. وقيل: تدخل على لفظ الجلالة "الله" وعلى "ربّ" قال ابن مالك: والتاء لله وربّ، وأكثر ما يُقسم اللهُ به الواو، وذلك لأنها الأكثر على الألسن، فجاءت الأكثر في القرآن. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي بمعنى صاحب، وهي مجرورة، لكنها مجرورة بالحرف نيابة عن الكسرة، وقوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال المؤلف: [أي: البيان أو الشرف] يعني أن القرآن ذو ذكر، أي: ذو بيان للناس، يُذكِّرهم ويتذكَّرون به، أو ذو شرف لشرفه وشرف من يعمل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤] فهو ذكر: يُذْكَرُ به ما ينفع الناسَ في معاشهم ومعادهم. وذكر: يتذكَّر به الناس

ويتعظون به، وهو أعظم موعظة. وذكر: أي شرف لمن تمسك به.

قال المؤلف: [وجواب هذا القسم محذوف] إنما قال المؤلف: وجواب هذا القسم؛ لأنه ما من قسم إلا وله جواب. إذ إن القسم أركانه أربعة: مُقسِم، ومُقسَم به، ومُقسَم عليه، وصيغة. فكل قَسَم لا بد فيه من هذه الأركان، والمقسم عليه هو جواب القسم إذن لا بد لكل قسم من جواب، والجواب إن كان مذكورًا فهو معلوم، وإن كان محذوفًا فيعيّنه السياق. قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور:٥٣] الجواب هنا مذكور ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] مذكور، جواب القسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾.

وفي هذه الآية قد وجد المُقسَم به والصيغة ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ والمُقسِم هو الله عز وجل. بقي المَقْسَم عليه، وهو جواب القسم.

يقول المؤلف: [إنه محذوف، وتقديره ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة] وحسب هذا التقدير يكون جواب القسم جملة منفية: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة، لكن الأمر أن الإله واحد، وهو الله، وهذا التقدير الذي ذكره المؤلف لا يتعين، يعني لو قال قائل: التقدير والقرآن ذي الذكر إن إلهكم لواحد. لو قال قائل هكذا، حصل به ما حصل من قول المؤلف: ما الأمر كما قال كُفارُ مكة من تعدد الآلهة.

وذهب بعض العلماء إلى أن مثل هذا القسم لا يحتاج إلى جواب؛ لأن جوابه معلوم منه كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، جواب القسم محذوف، فيكون المُقسَم به متضمنًا للجواب، كيف يكون متضمنا للجواب في هذه الجملة القسمية ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؟ يعني أنكم قد ذكرتم بهذا القرآن الذي من جملة ما ذكر به أن الله واحد، ولهذا ذهب ابن القيم – رحمه الله – في كتبه "التبيان في أقسام القرآن" إلى أن القسم أحيانًا لا يحتاج إلى ذكر الجواب، بل ولا يحتاج إلى تقديره؛ لأنه يعلم من السياق المقسم عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ بل: هنا للإضراب، والإضراب نوعان: إبطالي وانتقالي، فالإبطالي إبطال لما قد سبق كأنه مسحه وأتى ببدله، والانتقالي إقرار لما سبق لكن انتقل من شيء إلى آخر، وما قبل هذا الإضراب يبقى كما هو لا يبطل.

قال المؤلف: [﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة] وتقييد المؤلف للذين كفروا بأهل مكة فيه نظر، والأولى الأخذ بالعموم، وسلوك هذه الطريق، أعني أن يُخصَّ القرآن ببعض أفراد العام ليس بسديد ولا جيد، وذلك أنه نقص في التفسير، إلا أن يقوم دليل على ذلك، فإذا قام دليل على ذلك وجب الأخذ بالدليل، أما إذا لم يقم دليل على ذلك فالواجب الأخذ بالعموم، لأنه أعم وأكثر

معنىً، فالذين كفروا من أهل مكة وغيرهم إلى يوم القيامة ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ ولكنها ليست عزة غلبة كالعزة التي في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وإنما هي عزة أنفة وكبرياء وعناد، ولهذا قال المؤلف: [﴿فِي عِزَّةٍ﴾ حمية وَتكبُّرٍ عن الإيمان]، وهذه العزة مذمومة؛ لأنها عزة تمنع صاحبها من قبول الحق. وأما العزة التي هي عزة النصر فهي تأييد لصاحبها. وبينهما فرق كبير.

قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ يعني: مشاقة، فالشقاق مصدر شاقَّ، كقتال مصدر قاتل، والمعنى مشاقة لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] وهنا قال المؤلف: [خلاف وعداوة للنبي ﷺ] وهذا أيضًا فيه نظر. لأنه خصَّ الشقاق بالنبي ﷺ مع أن الكافرين يشاقون الله ورسوله، فهم في أنفه وكبرياء وحمية ومشاقة لله ورسوله. يعني أنهم يجانبون ما أمر الله به ورسوله، كأنما يكونون في شِقٍّ، وما جاء به الوحي في شِقٍّ آخر، وربما يقول قائل: إنهم أيضًا في شقاق فيما بينهم، ولا سيما اليهود، فإن الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

الفوائد:

١- **من فوائدها:** أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى بحرف، تكلم به بالحروف العربية التي يتكلم الناس بها ويتركب منها كلامهم؛ لقوله: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة القرآن وشرفه، حيث أقسم الله به، ولا يقسم الله إلا بالشيء العظيم.

٣- **ومن فوائدها:** جواز الإقسام بالقرآن، من أين يؤخذ؟ هل يؤخذ من القرآن؟ هذا خطأ ليس في القرآن دليل على جواز الإقسام بالقرآن؛ لأن الله تعالى يقسم بما لا يجوز أن يقسم به المخلوق كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] فإذا أقسم الله بشيء فإنه لا يلزم أنه يجوز لنا الإقسام به؛ لأن الله يقسم بما شاء، لكننا نقسم بالقرآن بدليل آخر لا بهذه الآية، وهو أن القرآن كلام الله، فهو صفة من صفاته، والإقسام بصفات الله جائز.

٤- **ومن فوائدها:** أن القرآن ذِكرٌ على الوجوه التي ذكرناها في معنى الذكر، فهو موعظة يُتَذَكَّر به، وهو ذِكر يتذكر به الإنسان ويتعلم، وهو ذكر ينال به الشرف، وهو ذكر لله يُتَعَبَّدُ لله تعالى بتلاوته كما يُتَعَبَّدُ بغيره من الأذكار، مثل: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله.

٥- **ومن فوائدها:** بيان ما في نفوس الكفار من الحمية والأنفة الباطلة؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الكفار لا يسكتون على كفرهم ويستمرون في طغيانهم وأنفتهم، بل يحاولون أن يصدوا عباد الله عن دين الله، لأنهم في شقاق دائم، يشاقون الله ورسوله.

٧- **ومن فوائدها:** أن لنا أن نقول: إنهم في عزة وشقاق مع الحق دائمًا، سواء مع الله، أو مع

الرسول، أو مع ورثة الرسول وهم العلماء، أو مع أتباع الرسول عمومًا وهم المؤمنون، فهم في شقاق دائم مع الحق.

قال الله تعالى:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]

التفسير

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ قال المؤلف: [﴿كَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أُمَّةٌ من الأمم الماضية].

قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قدره المؤلف بقوله: كثيرًا، وعلى هذا تكون كم تكثيرية، وهي في محل نصب على أنها مفعول مُقَدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ ﴿كَمْ﴾، لأن كم اسم مبهم تحتاج إلى تمييز، أي: إلى شيء يبينها ويميزها، فلو قيل: كم أهلكنا من قبلهم، لم يتبين الكلام، ماذا أهلك؟ فإذا قال: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، تبين الكلام، ولهذا نقول: إن﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾.

وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من قبل الكفار الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة. والمعنى أن الله أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء، وَمَن أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء فإنه حَرِيّ أن يُهلك هؤلاء، لكن إهلاك الأمم السابقة كان بعذاب من الله، وإهلاك المكذبين لرسول الله ﷺ كان بأيدي المؤمنين، فالحروب والقتال التي وقعت بينهم وبين الرسول ﷺ كان عذابًا لهؤلاء المكذبين، وكان على يدي النبي ﷺ وأصحابه، كما قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] ولا شك أن عذاب الأعداء على يد النبي ﷺ وأصحابه أشفى لصدورهم مما لو كان العذاب من الله سبحانه وتعالى. وهذا شيء مشاهد. إذا كان غلبة عدوك على يدك، كان ذلك أشفى لصدرك، وأحيا لنفسك وأقوى وأعز، مما لو أهلكه الله بعذاب من عنده. فلهذا كان عذاب المكذبين لرسول الله ﷺ على يد الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا﴾، الضمائر تعود على الألفاظ باعتبار لفظها، ويجوز أن تعود على الألفاظ باعتبار معناها. ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] قال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل: اقتتلا، لو قال: اقتتلا لكان الضمير عائدًا على اللفظ ﴿طَائِفَتَانِ﴾،

ولما قال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ صار عائدًا على المعنى، لأن الطائفة جماعة. إذًا قوله: ﴿فَنَادَوا﴾ أي: القرن، فأعاد الضمير عليها باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿فَنَادَوا﴾ يقول المؤلف: [حين نزول العذاب بهم] ولكن نادوا مَنْ؟ هل المعنى نادى بعضهم بعضًا؟ يستغيث بعضُهم ببعض، أو المعنى أنهم نادوا الله، أي: دعوه أن يغيثهم، أو المعنى أنه حصل منهم الأمران؟

القاعدة عندنا في التفسير متى كان اللفظ صالحًا لمعنيين فأكثر فإنه يحمل عليهما جميعًا. وعلى هذا يكون (نادوا) محذوف المفعول من أجل العموم، أي: أن بعضهم ينادي بعضًا: يا فلان أغثني أغثني، وكذلك ينادون الله؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤].

ولكن قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾ لات: (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ، كما زيدت تاءُ التأنيث في "رُبَّتَ" وفي "ثُمَّتَ" لتأنيث اللفظ. تقول: رُبَّ رجلٍ لقيتُه، وتقول: رُبَّت رجل لقيته، وتقول: قام زيدٌ ثُمَّ قام عمرو، وتقول: قام زيد ثُمَّت قام عمرو. فإذًا هي (لا) النافية زيدت عليها تاءُ التأنيث، لتأنيث اللفظ فتصبح "لات"، و(لا) النافية تعمل عمل ليس، واسمها محذوف في هذه الآية، وخبرها: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والتقدير: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار] فَسَّره المؤلف بالمعنى، فعليه تكون "لا" بمعنى "ليس" واسمها محذوف تقديره الحينُ، وخبرها موجود، وهو قوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والغالب أن خبر "لا" يكون زمانًا نحو: لات حين، ولات أوان، قال الشاعر:

نَدِمَ البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مندمٍ والبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيه وَخِيمُ

يعني وليست الساعةُ ساعةَ مندمٍ.

وقوله: ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الفرارُ والنجاة. يعني ليس الحينُ حين فِرارٍ ونجاة، لأنه بعد نزول العذاب لا ينفع نفس إيمانُها. قال المؤلف - رحمه الله تعالى -: [أي: ليس الحينُ حين فرار، والتاء زائدة لتأنيث اللفظ، والجملة حال من فاعل "نادوا"] وعلى هذا تكون في محل نصب؛ لأن الجملة الحالية دائمًا في محل نصب. يعني نادوا في حال لا مناص لهم مما نزل بهم، ولهذا قدَّر المؤلف: [أي: استغاثوا والحال أن لا مهرب ولا منجى]. هذا ما قدره المؤلف في جملة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: أنها حالية، فتكون مقيدة بحال مناداتهم، ولكن يجوز أن تكون استئنافية، فنادوا، ثم يخبر الله عزَّ وجل أن هذا الوقتَ ليس وقتَ مفرٍ، والفرق بين قولنا استئنافية أو حالية: أنه إذا كانت حالية صارت قيدًا للمُناداةِ. يعني نادوا في حال لا ينفعهم فيه النداء، وإذا كانت استئنافية تكون منفصلةً من حيث القيدية عما قبلها، فيكون الله قد أخبر بأنهم نادوا، ثم أخبر بأنهم في حال ليسوا متمكنين من الفرار.

قال المؤلف: [وما اعتبر بهم كفار مكة] وهذه الثمرة من ذكر أن الله أهلك قرونًا كثيرة فيما

سبق، ومع هذا لم يعتبر بذلك أهلُ مكة، بل كذبوا الرسول ﷺ وآذوه وقالوا: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه كذاب، وإنه شاعر، وإنه كاهن، وَكُلّ وصف ينفِّرُ الناسَ عنه وصفوه به ﷺ، ولم يعتبروا بمن سبق، بل زادوا على هذا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** تسليةُ الرسول عليه الصلاة والسلام في أن الله تعالى أهلك المكذبين قبلهم فَحَرِيّ أن يهلك هؤلاء. وقد بَيَّنا أثناء التفسير أن الله تعالى أهلك هؤلاء لكن على يد الرسول ﷺ وأصحابه في الغزوات التي انتصر فيها، وقلنا: إن هذا النصرَ والتأييدَ أبلغُ من النصر الذي يأتي به الله من عنده؛ لأن الله يعذب هؤلاء بأيدي عباده المؤمنين وحزبه.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير هؤلاء المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله في شيء كما لم يعجزه من سبقهم ممن كان قبلهم من الأمم التي أهلكت ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التكذيب للرسل كان كثيرًا، لأن إهلاك القرون إنما كان بسبب تكذيبهم، فإذا كثرت القرون فلازم ذلك أن يكثر التكذيب، أي: إذا كثرت القرون المهلكة، كان لازم ذلك أن يكثر التكذيب.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قوة الله وعظمته، حيث أهلك أممًا كثيرة وقرونًا عظيمة، قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٥-١٦] فبيَّن اللهُ عزَّ وجل أن الذي خلقهم أشدُّ منهم قوةً، وأنه عذبهم بما هو من ألطف الأشياء، وهي الريح.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن الأمم المُهْلَكَةَ إذا نزل بهم العذاب لم يستفيدوا من الاستغاثة بالله ولا بأنفسهم؛ لقوله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ليس هناك فرارٌ من هذا العذاب الذي نزل بهم.

قال الله تعالى:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ العجب يكون له سببان: السبب الأول: الإنكار، والسبب الثاني: الاستحسان، يعني يقال: عجبت من كذا، أي: أستحسنه، وأعجب من كذا، أي:

أنكره، فهو شبيه بأفعال الأضداد، لأن في اللغة العربية كلماتٍ تدل على المعنى وضده، تسمى عند علماء العربية: الأضداد في اللغة.

فالعجب تارة يكون استحسانًا، وتارة يكون استنكارًا، فقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يعجبه التيامُن في تنعله وترجله [1]. المراد بالإعجاب هنا الاستحسان، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ هذا عجب استنكار وَرَدٍّ، وليس عجب رضًى واستحسان، وهذا نظير قوله تعالى في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أن مصدرية على تقدير مِنْ، أي عجبوا مِنْ أن جاءهم، وقلنا: إنها مصدرية؛ لأن ما بعدها يُحَوَّلُ إلى مصدر، أي عجبوا من مجيء المنذر منهم، وقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ المنذر: هو المخبر بالخبر للتخويف، ولهذا نقول: إن الإنذار خبر مقرون بتخويف، والنبي ﷺ كان منذرًا، وكان مبشرًا، ولكنَّ الكفارَ يليق بحالهم الإنذارُ، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٢] والتبشير يكون للمؤمنين. وهنا قال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأن هذا هو اللائق بحالهم، وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ نسبًا وجنسًا، فهو منهم جنسا، لأنه بشر، ولم ينزِل الله رسوله على البشر من الملائكة. ونسبًا؛ لأنه من قريش فهو منهم جنسًا ونسبًا، ومع ذلك عجبوا.

قال المؤلف: [رسولٌ من أنفسهم ينذرهم ويخوِّفهم النارَ بعد البعث] أي: بعد أن يبعثوا [وهو النبي ﷺ] عجبوا عجب استنكار ورفض وردٍّ مع أنهم كانوا يصفون الرسول ﷺ بالصادق الأمين، ولما جاءهم بالرسالة صار كاذبًا خائنًا - والعياذ بالله - إذًا معاداتهم له ليس لشخصه، ولكن لِمَا جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر، ويكون الكلام لو أتى بالمضمر، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقالوا: هذا ساحرٌ كذاب، لكن قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والفائدة من الإظهار في موضع الإضمار:

أولًا: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا تغير نسقُه أوجب للسامع أن ينتبه بخلاف ما إذا كان على نسق واحد، فقد يأتيه النوم، لكن إذا اختلف انتبه.

ثانيًا: التسجيل على هؤلاء بالكفر؛ لأنه لو قال: وقالوا هذا ساحر كذاب، لم نعرف حكمهم، أما إذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عرفنا أنهم كافرون.

ثالثًا: أن الحامل لهم على هذا هو الكفرُ، فلا يبعد أن يأتي مِن غيرهم مثل ما أتى منهم، لأن العلة واحدةٌ، فمتى وُجِدَت هذه العلة حصل المعلول من أي شخص كان، فهذه فوائد الإظهار في مواضع الإضمار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يشيرون إلى أن المنذر منهم، وهو الرسول ﷺ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ جمعوا بين وصفين ذميمين: ساحر؛ لأنه يسبي عقول الناس، وكذاب؛ لأن ما جاء به كذب غير مطابق للواقع، فصار الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أصدق الخلق، عندهم كذابًا، ولم يقولوا: كاذبًا؛ لأن كذابا تكون صفة لازمة للمتصف بصفة الكذب، كما تقول: نجار وحداد وما أشبه ذلك مما يكون صفةً لازمة، فهم قالوا: إنه ساحر لقوة تأثيره على سامعه، فإن الرسول ﷺ كان إذا سمع الناسُ قراءَته تأثروا بها تأثرًا عظيمًا، وكانت النساء والصبيان يجتمعون إلى بيت الرسول ﷺ ليسمعوا قراءته، وكانوا يتأثرون بهذه القراءة، فكان كفار قريش يقولون: إن محمدًا سحر أبناءنا ونساءنا، وإنه ساحر؛ لقوة تأثيره فيهم، وكذاب، يعني أن ما جاء به فهو كذب لا حقيقة له. والكاذب هو المخبر بخلاف الواقع. فكل مَن أخبرك بخلاف الواقع فقد كَذَبَكَ.

الفوائد:

١- **في هذا دليلٌ على:** سفه قريش الذين كذَّبوا الرسول ﷺ، واستنكروا ما جاء به. ووجه ذلك أنه لم يأتهم أحدٌ غريب عليهم لا في جنسه، ولا في نسبه، فالذي جاءهم جِنسُه بشر مثلهم، ونسبه منهم من قريش، ومع ذلك يعجبون استنكارًا مما جاءهم.

٢- **ومن فوائد الآية:** إقامة الحجة للرسل ﷺ على هؤلاء؛ لقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ يعني لقد أقام عليهم الحجةَ بالإنذار، وقد قامت الحجة للرسول ﷺ بأنه لم يُفَرِّط في رسالته، بل أنذر، وقام بما قام به من البلاغ.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين عجبوا استنكارًا كفارٌ؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن كل من قال مثلَ قولهم، وعجب مثل عجبهم فإنه كافر، من أي جنس كان من البشر.

٥- **ومن فوائدها:** بيانُ قوةِ تأثير كلام الرسول ﷺ في نفوس القوم؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ والساحر يؤثر في المسحور.

٦- **ومن فوائدها:** كذبهم في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام حيث قالوا: إنه ساحر كذَّاب، والحقيقة أنهم هم الكذابون بما وصفوا به الرسول ﷺ.

٧- **ومن فوائدها:** أن أعداء الرسل لا يعادونهم عداءً شخصيًّا، ولكن يعادونهم عداءً معنويًّا، لما جاءوا به من الرسالة. ويتفرع على هذه الفائدة أن الكافرين سيكونون أعداءً لكل من يتبع الرسول. كل مَنْ اتبع الرسول سيجد له أعداءً من الكافرين والمنافقين. ويتفرع على ذلك تسليةُ من وجد عداء من أعداء الله لتمسكه بكتاب الله وسنة رسوله، فإنه يقال: هذا العداء الذي حصل

لك قد حصل لِمَنْ هو خير منك فلا تعجب.

٨- **ومن فوائد هذه الآية:** أن أعداءَ الرسل بل أعداء الرسالة يطلقون ألقاب السوء على من تمسك بالشريعة؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقد حصل هذا، فإن أهل التعطيل مثلًا يصفون أهل الإثبات من السلف بأنهم حشويةٌ مجسمة مُمَثِّلَةٌ رعاع غوغاء وما أشبه ذلك من ألقاب السوء من أجل أن ينفروا الناس، والعجب أن هؤلاء الذين يضعون ألقاب السوء لو تأملْنا لوجدنا هذا اللقب الذي وضعوه للمتمسكين بشريعة الله، يصدق عليهم هم، ألم يبلغكم قولُ المنافقين في الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، قالوا: «ما رأينا مثلَ قُرَّائنا هؤلاء أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ لسانًا ولا أجبنَ عند لقاء من هؤلاء القرَّاء»[1]. وهذه الأوصاف الثلاثة تنطبق عليهم هم، فهم أكذبُ الناس لسانًا، وأجبنُ الناس عند اللقاء، وأرغبُ الناس بطونًا، وليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم.

٩- **ومن فوائد هذه الآيات:** أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لم يقيموا حجةً فيما كذَّبوه فيه، وليس عندهم إلا السبُّ والعيب، وهذا يدل على ضعف حجة مَنْ ناوأك، فإذا وجدت الذي ناوأك ليس عنده إلا الصراخُ والعويلُ، ولطمُ الخدِّ، ونتف الشعر وما أشبَهَ ذلك، فاعلمْ أنه ليس له حجةٌ إنما يريد أن يشوِّش عليك، لعلك تنهزم، وإلا فصاحبُ الحجة يدلي بحجته بهدوء وبدون إثارة، وأما أن يسب ويشتم ويثور فإن هذا دليلٌ على أنه مهزوم ومخذول، وأنه يريد أن يتخذ من هذا السلاح مهربًا ومَخْلَصًا مما هو عليه من الضيق، الذي عجز أن يدفعَ به حجة خصمه.

قال الله تعالى:

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا مصبُّ الإنكار.

هذا الاستفهام يحمل معنيين:

المعنى الأول: التعجب الاستنكاري.

(١) أورده الطبري في "تفسيره" (١٤/ ٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٥٥٢)،وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠).

والثاني، الإنكار البليغ على رسول الله ﷺ، حيث جعل الآلهة إلهًا واحدًا. هنا قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ جعل نصبت مفعولين: الأول: الآلهة، والثاني: إلهًا واحدًا. يعني أصيَّر محمدٌ الآلهة إلهًا واحدًا! وهم يعبدون آلهةً متعددة: اللات والعُزّى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام. كيف يأتي محمدٌ ويقول: ليس هناك آلهةٌ إلا الله. هذا عندهم من أكبر الكذب، حيث قال لهم: "قولوا: لا إله إلا الله" أي: كيف يسع الخلقَ كلَّهم إلهٌ واحد؟ وهذا من جهلهم وغباوتهم أن ينكروا كونَ الآلهة إلهًا واحدًا، فنقول لهم: مَن الخالق؟ وكم؟ يقولون: الخالق هو الله؟ وإنه واحدٌ. فإذا كان الخالقُ هو الله، وهو واحدٌ كما تؤمنون به، فإنه لا غرابة أن يكون الإلهُ هو الله وهو واحد، ومن وَسَعَ الخلقَ خلقًا وَسِعَهُم تعبُّدًا، فإذا كانت الآلهةُ لم تخلق شيئًا بإقراركم، فكيف تستحق أن تكون آلهة؟!، وإذا كان يمكن انحصارُ الخلق في واحد، فإنه يمكن أن تنحصر العبادةُ في واحد، ولهذا قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ إنَّ هذا: المشار إليه جَعله الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب، لكنَّ كلمةَ عجابٍ أبلغُ من كلمة عجيب؛ لأنها تدل على المبالغة، أي: لا شيء يتعجب منه الإنسان عجبا عظيما كثيرًا، ولهذا عدلوا عن عجيبٍ إلى عُجاب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ لم يُذكرَ مكانُ الانطلاق؛ لِيَعُمَّ كل مكان يجتمعون فيه ويذكرون مِثْل هذا الشيء، فكلما اجتمعوا في مكانٍ وتذاكروا فيما بينهم ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، انطلقوا من هذا المكان وهم يتواصون بالباطل والصبر عليه، ولهذا قال: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ والملأ هم الأشراف والكبراء والوجهاء، وهم الذين كانوا يقابلون الرسل بالردِّ والرفض خوفًا على مكانتهم من أن تزول باتباع الرسل.

ولو تأملتم القرآنَ لوجدتم أن الذين يقومون في وجوه الرسل هم الملأ والأشراف. أما الضعفاءُ من النساء والأولاد والفقراء فهم الذين يكونون أول من ينقاد للرسل.

وأمَّا قولُ المؤلف: [﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم فيه من النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» (1)] فهذا تقييدٌ لمطلق، وقد ذكرْنا أن تفسير القرآن بما هو أخص تفسير قاصر؛ لأنه يقصر المعنى المطلق على هذا المعنى المقيد، أو المعنى العامّ على المعنى الخاصّ، وهذا نقص بلا شك، إلا إذا قام الدليل على ذلك فليُتّبَع الدليل.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] هذا عامّ، ولكن إذا طبّقْنا هذا الكلام على الواقع وجدْنا أن المرادَ بالناس الخاصّ.

﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ القائل واحد ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أيضًا ليس كُلُّ الناس قد جمعوا

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٠٥٦)، والبيهقي في «سننه»(١/ ٧٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩/ ٤٤٨).

لرسول الله ﷺ، الذين لم تبلغهم الدعوةُ لم يجمعوا له، فيكون تفسيرُنا الناس بخاصٍ في هذه الآية، تفسيرًا دل عليه الواقع، أما إذا لم يكن دليلٌ فإن الواجبَ إبقاءُ القرآن على عمومه إنْ كان من العام، وعلى إطلاقه إن كان من المطلق.

هنا نقول: إن المؤلف - رحمه الله - جعلَ الانطلاقَ من مجلسٍ خاصٍ، وهو المجلس الذي اجتمعوا فيه مع رسول الله ﷺ عند أبي طالب حين قال: «قولوا لا إله إلا الله» ولكنَّ الأَوْلى أن نجعله عامًّا يشمل هذا المجلس وغيره.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ هل المراد هنا المشي بالقدم؟ أو المراد المشي على الطريقة؟ بمعنى سيروا على طريقتكم واصبروا على آلهتكم، من نظر إلى الانطلاق، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال: إن المراد بذلك المشي بالقدم، بمعنى أنهم إذا انطلقوا حثَّ بعضُهم بعضًا على المشي والسير؛ لئلا يعودوا فيعرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنهم إنها ينطلقون فرارًا، فيوصي بعضهم بعضا بالمشي. وإذا نظرنا إلى المعنى أو إلى عموم أحوالهم قلنا: إن المراد بذلك المشي على الطريقة، يعني سيروا على طريقتكم ولا يهمّنكم أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني: احبسوا أنفسكم عليها لا تحيدوا عنها. وهذا من باب التواصي بالباطل، يقول بعضُهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتِكم واثبتوا على عبادتها. إن هذا المذكور من التوحيد لشيءٍ يراد ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني اثبتوا عليها في عبادتها، والدفاع عنها، وعدم قبول كل شيء يبطلها. اصبروا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ هذا المشار إليه، ما جاء به النبي ﷺ من التوحيد.

﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريده مَنْ جاء به، وهذا يدلُّ على صدقِ الرسول ﷺ. معناه أن هذا الرجل قال قولًا يريده، فهو جادٌّ في قوله، والشيء الذي يُرادُ لا بد أن يسعى مُريدُهُ ليُحقِّقَه، بخلاف الإنسان الذي يقول القول باللسان لا بالقلب، ولهذا تجد الذي يقول القول بلسانه وقلبه، يصمم ويعزم على أن ينفذ ما قال، لكن الذي لا يريد يكون قولُه بلسانه سطحيًّا، فقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي يريده قائلُه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا صدر القول عن إرادةٍ فهذا يعني أن صاحبه مصمم عليه، وعلى غلبته، وأن يكون هذا القول هو القول السائد الذي يمشي عليه الناسُ، بخلاف مَن قال قولًا لا يريده، مثل أن يقول القول مجاملةً، أو من أجل إمضاء الوقت أو ما شابه ذلك. فإنه لا يكون عنده العزم الصادق على تنفيذ ما قاله.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** أن النبيَّ ﷺ كان يدعو هؤلاء إلى توحيد الله عزَّ وجل في ألوهيَّته وهو مع هؤلاء يُجادلُهم في ألوهيته تعالى، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية، لأن توحيد الربوبية عندهم ثابت مُقرّون به، يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] لا ينكرون توحيدَ الربوبية لكنهم ينكرون توحيد الألوهية، ولذلك قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ فكان الصراعُ بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش على توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية فقد أقرُّوا به.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب تقديم الأهمِّ فالأهم في الدعوة إلى الله؛ لأن الرسول ﷺ أول ما دعا هؤلاء إلى التوحيد لم يقل: صلُّوا ولا زكُّوا ولا صوموا ولا حجُّوا، بل دعاهم إلى التوحيد، وهذا هو شأنُ القرآن، وهذا هو شأن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام العملية، فإنه لما بعث معاذًا إلى اليمن أمره أن يدعوهم أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مكابرةُ هؤلاء الذين أنكروا توحيد الألوهيّة حيث ادَّعوا أن الدعوة إليه من الأمور العجيبة جدًّا لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ وكما قلت آنفًا: إن مَن وصف الحقَّ بأوصاف الباطل فإن حقيقتَه أن تعود هذه الأوصافُ إليه، فأيُّهما أشد عجبًا رجلٌ يدعو إلى توحيد الله، وآخر يدعو إلى الإشراك به وفي التوحيد؟ أيها أعجب؟ ولهذا نقول: والله إن الشيء العُجاب أن تنكروا توحيد الله، وأن تَدَّعوا أن لله شريكًا. هذا هو الشيء العُجاب. أما رَجل يدعو إلى توحيد الله الذي دلَّت عليه الفطرةُ، ودلت عليه الآياتُ الكونيةُ والشرعية، فإنَّ هذا ليس بعجاب، بل العُجابُ فعلكم أنتم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** استعمال المؤكدات في الكلام، وأنه من الأساليب اللغوية، لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ﴾ فهم أكَّدوا هذه الجملة بمؤكدين بـ"إنَّ" واللام ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

١- **في هذه الآية دليل** على تخوّف هؤلاء من تأثير دعوة الرسول ﷺ فيهم، ولهذا كانوا يتواصون بالصبر على آلهتهم، وكانوا يتواصون بالبقاء والثبات على طريقتهم، وكانوا يتواصون بالهروب من الأماكن التي يدعى فيها إلى التوحيد. كل هذا يؤخذ من قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾.

٢- **ومن فوائد الاية:** أن أهل الباطل يَحِنّون على باطلهم، ويحافظون عليه ويخافون من تزعزعه، لقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ وهكذا أهل الباطل تجدهم دائمًا يحوطون باطلهم بالسياج الذي يمنع من الوصول إليه على وجه يُمزِّق هذا الباطل.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن للاجتماع على الشيء تأثيرٌ في بقائه وثباته. تؤخذ من التواصي بالثبات على ما هم عليه، والصبر على آلهتهم. ولا شك أن العمل الجماعي أكثر تأثيرًا من العمل الفردي مهما كان الفرد في القوة، ولهذا أمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بأن نتزوج الودود

الولود من أجل كثرة الأمة [1]، فإن الكثرة لها تأثير عظيم، ولهذا امتنَّ الله بها في كتابه على بني إسرائيل حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وذكَّر شعيب قومه بها حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، والعامة يقولون: الكثرة تغلب الشجاعة.

٤- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ كان يقول قولًا يعني به ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

٥- **ومن فوائدها أيضا**: أن الإنسان إذا عنى ما يقول فإن تأثيره في المُخَاطَب أكثر؛ لأن الخطاب يكون باللسان، واللسان وسيلة للتعبير عما في القلب، ثم إن كان اللسان يعبر عما في القلب حقيقة، فإن الوسيلة التي تتلقى هذا القول وهي الأذن، توصل ما تسمع إلى القلب، ولهذا يقول العامة: إذا خرج الكلامُ من اللسان فلن يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب نفذ إلى القلب، وهذا صحيح أن القول الخارج من القلب يؤثر أكثر بكثير من القول الخارج من اللسان، وأضرب لذلك مثلًا: لو قام رجلان يعظان الناس، أحدهما يعظ من قلبه، وتشعر أنه يتكلم من أعماق قلبه، ويظهر أثرُ قوله على صفحات وجهه، والآخر أبلغ منه واشدُّ ترصيعًا للكلام وتنميقًا له، لكنَّ قوله يخرج من لسانه فقط، وقلبُهُ على خلاف ذلك، أو على الأقل لا يؤمن بما يقول، فالأول أشدُّ تأثيرًا.

ولو قام عاميٌّ يتكلم بكلام عاميٍّ لكنْ من أعماق قلبه تأثر الناسُ به أكثر مما لو تكلم رجل فصيح اللسان قويُّ البيان، لكن قلبه خالٍ مما يقول، وهذا الشيء مُشاهَد، ولهذا قال الكافرون: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يعني يُقال ويراد حقيقة، فَهم لقوة إرادة النبي ﷺ لما يقول، كانوا يخافون من هذه الإرداة ويقولون: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٧، ٨].

التفسير

قال الله تبارك وتعالى حاكيًا عن قريش ما كانوا يتواصون به من الصبر على آلهتهم، والثبات

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٤٠).

عليها، نقل عنهم من جملة كلامهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ ما سمعْنا بهذا، والمشار إليه التوحيد، أي: أنه لا إله إلا الله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملةُ: هي الدين الذي يكون عليه الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وتُطلَق الملة على الحق وعلى الباطل، فالكفار على مِلّةٍ والمسلمين على ملة، وفي كلام أهل الفقه في الفرائض:

لا يتوارث أهل مِلَّتين، وجاء في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ[1]، فالملة هي الدين الذي يكون عليه المَرْء من عقائد وعبادات وأخلاق.

وقوله: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [أي: ملة عيسى عليه السلام] لأن عيسى هو آخر الرسل قبل محمد ﷺ، لم يكن بينه وبين محمد ﷺ نبيٌّ، وما قيل عن نبوة بعض العرب مثل خالد بن سنان أو غيره فإنه لا صحة له، وذلك لأن العرب ليس فيهم رسول إلا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ، وما سوى ذلك فكلُّ ما يُدَّعَى من أن في العرب رسولًا أو نبيًّا فهو كَذِب.

يقول: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ملة عيسى عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الذي سمعوه في ملة عيسى هو أن الله ثالثُ ثلاثة، وهذا ليس بتوحيد. والعجب من ضلال النصارى حيث يقولون: إننا نوحِّدُ الله، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، فأين التوحيدُ في ثلاثة، لا يمكن أن نجعل الثلاثة واحدا؟! ولهذا يعتبر هذا من أضل ما ضل فيه النصارى، وهم كما هو معلوم ضالون، ولكن هذا من أشد ما يكون من الضلال. كيف تقول: إنك موحد وأنت تقول: إن الله ثالث ثلاثة: مريم وابنها والله، فالعرب الذين في عهد الرسول ﷺ ما سمعوا في ملة عيسى توحيدًا، وإنما سمعوا فيها تثليثًا، فكأنهم يقولون: أنت يا محمد أتيت بملة لم تكن لمن قبلك، فالذين من قبلك آخرهم الملة النصرانية، وهم لا يقولون بالتوحيد.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ إن يقول المؤلف: [ما] وعلى هذا فهي نافية، وعلامة "إِنْ" النافية أن يأتي بعدها الإثبات بـ"إِلَّا" أو نحوها، وهنا أتى بعدها الإثبات بـ "إلا" ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: ما هذا إلا اختلاق، و"إن" تأتي في اللغة العربية على أوجه: نافية، وزائدة، وشرطية، ومُخَفَّفَةٌ من الثقيلة، فهنا "إن" نافية وفي قولك: إن أكرمتَني أكرمْتُك؛ شرطية، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] نافية: إذا أثبت "إلَّا" فهي نافية. وفي قول الشاعر:

أَنَا ابنُ أُبَاةِ الضيمِ مِن آلِ مَالِكٍ ... وإنْ مالكٌ كانتْ كِرامَ المعادِنِ

إِنَ مَالِكَ مخففة من الثقيلة، وفي قول الشاعر:

بني غُدانةِ مَا إِنْ أَنْتُم ذهبٌ ... ولا صَرِيفٌ ولكنْ أَنتُمُ الخزفُ

قال المؤلف هنا: [﴿إِنْ﴾: ما ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: كذب] هذا المشار إليه ما جاء الرسول ﷺ

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٨)، وأبو داود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٧١٩).

من التوحيد، وقوله: ﴿إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ أي إلا كذب، يقال: اختلق الكلامَ، أي: افتراه وكذبه، وهذا بناء مبني على قوله فيما سبق ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾، والكذَّاب لا يأتي إلا بالكذب والاختلاق، ولما أنكروا التوحيدَ أنكروا الرسالةَ أيضًا فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ هذا الاستفهام للنفي لكنَّه أتى بصيغة الاستفهام مبالغةً في نفيه، كأنهم يتعجبون كيف ينزل عليه الذكر من بيننا ولم ينزل على أحد غيره؟! وهذا كقوله تعالى حكاية لقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] القريتان: هما مكة والطائف.

يقولون: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من الأكابر والأشراف، لا على هذا الغلام الذي يعتبر من أصغر القوم، فكيف ينزل عليه الذكرُ بيننا.

وقوله: ﴿أَءُنزِلَ﴾ ذكر المؤلف فيها قراءاتٍ قال: [بتحقيق الهمزتين]: أي: همزة الاستفهام وهمزة الفعل، والتحقيق أن تقرأه هكذا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ [وتسهيل الثانية] تسهيل الثانية بأن تمرَّ عليها مرًّا فلا يظهر أنك حذفتَها ولا أنك بيَّنتها، [وإدخال ألف بينهما على الوجهين] أي: وجهي التحقيق والتسهيل. ألف بينهما، أي: بين الهمزتين فتقول على قراءة التحقيق ﴿آأُنزِلَ﴾ وعلى قراءة التسهيل ﴿آأنزِلَ﴾ فالقراءات إذن أربع: تحقيق الهمزتين بلا ألف، وتحقيق الهمزتين بألف، وتسهيل الثانية بدون ألف، وتسهيلها مع ألف.

وقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ عليه: على محمد ﷺ الذي جاء بهذا القرآن الذي يُذكِّرُهم به. ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ القرآن. وهذا إقرار منهم بأن القرآن ذِكر، وإن كان يحتمل أن يكونوا قالوه على سبيل الاستهزاء والتهكم، وأنهم لا يؤمنون بأنه ذكر، وأيًّا كان فالمقصود بذلك نفي أن يكون محمدٌ ﷺ هو الرسول.

يقول المؤلف: [﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ وليس بأكبرنا ولا لأشرفنا] ويريدون أن يكون نزول القرآن على أكبرهم وأشرفهم، ولكن الذي نتيقن- أنه لو نزل على أشرفهم وأكبرهم لكذَّبوا أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩] فهم معاندون لا يريدون الحق، وعلم أنه لو نزل على غير محمد ﷺ لطلبوا أن يكون نزل على غيره؛ لأنهم لم ينفوا الرسالة حقيقة من أجل شخصية محمد ﷺ، فإن شخصيته عندهم من أفضل الشخصيات، وأقواها أمانةً، وأحسنها خُلقًا، ولكن يقولون هذا على سبيل العناد والمكابرة، فهو كقولهم لما حُدِّثوا بالبعث: ﴿قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهذا مكابرة منهم، لأنهم لم يحدثوا بالبعث الآن،وإنما حدثوا بالبعث يوم القيامة، فلم يأت الموعدُ الذي حُدِّدَ للبعث حتى يتحدوا بهذا التحدي فيقال لهم: إن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة، والرسل ما قالت لهم: إنكم تبعثون الآن حتى تقولوا: هاتوا آباءنا، وإنما يقولون: ستبعثون يوم القيامة، وسيأتي الله

بآبائهم ومن سبقهم.

وقول المؤلف رحمه الله: [ليس بأكبرنا ولا أشرفنا]، أما قوله: ليس بأكبرنا، إن كانوا قالوه فهم صادقون، فالرسول ليس بأكبرهم سنًا، فيهم من يكبره سنًا، وأما قولهم: ولا أشرفنا، فهم كاذبون، فإن محمدا ﷺ أشرف الخلق. وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله اصْطفى بني إسماعيلَ، واصطفى من بني إسماعيل كِنانة، واصطفى من كنانةَ قُريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلم يجعل رسالته إلا في أحقِّ الناس بها، وأجدرهم بها، وأولاهم بها.

يقول المؤلف: [أي: لم ينزل عليه] هذا تفسير للاستفهام في قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أن الاستفهام للنفي، لكنَّه جاء على سبيل الاستفهام؛ للتعجب والاستبعاد من أن يُنَزَّلَ عليه الذِكرُ من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ بل : إغراء لإبطال ما ادعوه من كونهم يريدون أن ينزل القرآن على أشرفهم. يقول: هم في شك من ذكري، فكيف يقولون: لو نُزِّل على أشرفنا، لو نزل على غير محمد، والشاكُّ في الأصل لا يطلب الفرع أصلًا، فإذا كانوا في شكٍّ من نزول هذا الذكر، بقطع النظر عن كونه من محمد ﷺ فكيف يقولون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وعلى هذا فقولهم ليس مبني على أصل. يعني أنهم لم يؤمنوا بهذا الذكر أصلًا فضلًا عن أن يكون أنزل على محمد أو غيره.

وقوله: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ قال المؤلف: [وَحْيِي، أي: القرآن، حيث كذبوا الجائي به]، فإن مَنْ كَذَّبَ مَنْ جاء بالشيء فإنه منكر للشيء؛ لأنه لو قال لك قائل: قَدِمَ فُلانٌ اليوم، فقلت: أنت كاذب، هل تكون مؤمنًا بقدومه؟ لا، لا تكون مؤمنًا بقدومه، وكيف تكون مؤمنا بقدومه وهو لم يأتك إلا من هذا الطريق الذي زعمت أن صاحبها كذَّاب، ولهذا إذا كان هذا الذكر لم يأتِ إلا عن طريق محمد ﷺ، وقالوا: إنه كاذب، وإنه ليس برسول، وليس له حق في الرسالة؛ لأنه يوجد مَن هو أحقّ منه، فكيف تقولون بأنه ذِكر. إذًا هم في شكٍ من هذا الذكر، وهل هذا الشك حقيقة أو على سبيل العناد؟

الظاهر - والله أعلم - : أنه على سبيل العناد، لكن منهم مَنْ يشك لقوة الدعاية المضادة، ولا سيما إذا جاءت من أكابر،فسوف يلحق العامةَ شكٌّ من هذا القول.

وقوله: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ أي: من الذكر الذي أنزلتُ، وهو القرآن، والشكُّ هو التردد وعدم الجزم.

وقد قيل: إن الإدراك ينقسم إلى خمسة أقسام: إدراكُ الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا،

---

(١)صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٢٦٠٥).

وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه، وإدراك الشيء برجحان، وإدراك الشيء بمرجوحية، وإدراك الشيء على السواء، فهذه خمسة أقسام.

فإدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا يُسمَّى علمًا، كإدراكنا أن الواحد نصف الاثنين، هذا علم. وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه جهل مُرَكَّب، مثل: أن تدركَ أن غزوة بدر مثلًا في السنة الثالثة للهجرة، هذا نسميه جهلًا مركبًا، وعدم إدراكه بالكلية هذا جهل بسيط، وإدراك الشيء مع رجحان ظن، وإدراكه مع المرجوحية وَهْم، وإدراكه مع التساوي شك، فهذه ستة أقسام. إدراكه على ما هو عليه، وعدم الإدراك بالكلية، والإدراك برجحان، والإدراك بمرجوحية، والإدراك بالتساوي.

والشك أحيانًا يُراد به التساوي، وأحيانًا يُطلق على الراجح والمرجوح والمساوي، ففي كلام الفقهاء عندما يتحدثون عن الشك في الحدث أو الشك في نجاسة الطاهر، فإنهم يريدون الشكَّ الراجح والمرجوح والمساوي، أي: بمعنى أنه إذا شككت في نجاسة الماء الطاهر ولو غلب على ظنِّك أنه ناجس فهو طاهر، وإذا شككت هل أحدثت، ولو غلب على ظنك أنك أحدَثْت فأنت طاهر، وعللوا ذلك بأن الرسول ﷺ قال: «لَا ينصَرفُ حتى يَسْمَعَ صوتًا أو يجد ريحًا»[1] يعني حتى يتيقن ولا عبرةَ بالظن.

يقول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بل: للإضراب الانتقالي لا الإبطالي ﴿لَمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ قال المؤلف: أي: [لم] وهذا تفسير ببعض المعنى؛ لأن "لما" و"لم" تشتركان في النفي لكنهما تختلفان فيما عداه؛ لأن "لم" لنفي غير المُتوقَّع، و"لما" لنفي المتوقع القريب، فإذا قلت: لم يقمْ زيدٌ، فهذا نفي لقيامه على وجه لا يُتوقع منه القيام، وإذا قُلتَ: لما يقم زيدٌ، فهو نفي لقيامه على وجه يُتوقع منه القيام عن قرب، وعلى هذا فقوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريبًا.

قالوا: و"لَمَّا" تأتي على أوجه: تأتي نافية فتجزم الفعل المضارع كما تجزمه "لم"، وتأتي بمعنى حين، وتأتي شرطية، وتأتي استثنائية. هذه أربعة أوجه. تأتي نافية كنفي "لم" لكنها تختلف عنها بأن منفي "لم" لا يتوقع، ومنفيها يتوقع قريبًا، مثل هذه الآية، وتأتي شرطيَّة كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، وتأتي استثنائية لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق: ٤] أي: ما كل نفس إلا حافظ، وتأتي بمعنى "حين" فتقول: قَدِمْتُ البلد لما طلعتْ الشمس، أي: حين طَلَعَتْ الشمس. قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ يذوقوا أصلها يذوقون لكن حذفت النون للجزم؛ لأن "لما" من حروف الجزم.

وقوله: ﴿عَذَابِ﴾ قد يشكل على طالب العلم، وهو أن الفعل واقع عليه، وهو مع ذلك لم يُنصَب، أي لم يقل: بل لَمَّا يذوقوا عذابًا، فكيف توجيه ذلك؟ كيف لم ينصب ﴿عَذَابِ﴾ مع أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

الفعل واقع عليها؟ والجواب عن ذلك أن نقول: إن ﴿عَذَابِ﴾ أصلها: عذابي بالياء، والمضاف إلى ياء المتكلم تقدر عليه الحركات ، ولذلك لا بد أنه يُكسر من أجل مناسبة الياء، فتكون الحركات مقدرةً عليه، وعلى هذا فنقول: عذاب مفعول يذوق، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفًا، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والياء هنا حذفت للتخفيف، وهذا كثير في القرآن واللغة العربية أن تُحذف ياء المتلكم للتخفيف، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] والتقدير: المتعالي، ومن والي.

وقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ العذاب ليس مطعومًا يذاق، ولكن الإصابةُ به ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فإذا أعطيتُك قطعة لحم ومضغتها فهذا ذوق، وإذا ضربتُك وأحسستَ بالضرب فهذا ذوق، فذوق كل شيء بحسبه، وليس ذوق العذاب كذوق الطعام والشراب، بل هو ذوق مناسب له ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾. قال المؤلف: [ولو ذاقوه لصدَّقوا النبي ﷺ فيما جاء به] ولكنَّ هذا التصديق لا ينفعهم؛ لأنه إذا صدَّق الجاحدُ بعد نزول العذاب به فإن ذلك لا ينفعه، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

الفوائد:

١- **من فوائد قوله تعالى:** ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾: أنَّ المُكذِّبين للرسول ﷺ فيما جاء به من التوحيد ليس عندهم دليلٌ إلا ما كان عليه آباؤهم؛ لقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء مكابرون معاندون فمع كونهم لا دليل عندهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن كلَّ إنسان ليس عنده عِلْمٌ شرعي فإنه يلجأ إلى ما كان الناس عليه في العادة، وهذا كما هو فِيمَنْ سبق فهو فِيمَنْ حضر، كثير من الناس تنهاه عن المنكر فيقول: هذا الذي مشى عليه الناس، وهذا ليس بحجة، وهذا كما أنه سابق فهو أيضًا لاحق، فمن الناس مَنْ إذا أنكرتَ عليه المنكر قال: هذا ما زال الناسُ عليه، أو يقول: ما سمعْنا بهذا، ومنه قول بعض العامة إذا نُبِّهُوا على شيء لم يكونوا يعرفونه، قالوا: هذا دِينٌ جديد، ما سمعْنا بهذا، وهذا ليس بحجة. وإنما الحُجةُ الدليل القائم من كتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

٤- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾: أن هؤلاء يريدون أن يكون الشرع تابعًا لأهوائهم، يأتي الوحيُ مَن يشاءون، ويمتنع عَمَّنْ يشاءون؛ لقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن صاحب الباطل لا يعرف أن حجته حجةٌ عليه؛ لأن قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هي حجة فيما لو نزل الذكرُ على من يشاءون، لأنه لو نزل على مَن عيَّنوه وأرادوه، لقال غيرهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ويتفرع على هذه الفائدة كل مُبطِل يحتج بحق، لكن استدلاله به باطل، فإنه لا حجة له، ومن ذلك ما يحتج به أهل التحريف في باب الصفات أو غيرها من الأدلة الصحيحة التي ليس لهم فيها استدلالٌ، فمثلًا أهل التعطيل يستدلون لتعطيلهم بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن المعلوم أنه عند التأمل يكون هذا الدليل حجة عليهم؛ لأن نفي المماثلة يدل على ثبوت أصل المعنى، ولو لم يكن أصل المعنى ثابتًا لم يكن لنفي المماثلة فائدة. وهكذا كل مبطل يحتج لباطله بحجة صحيحة، لكن استدلاله بها غير صحيح، نجد أن هذه الحجة حجةٌ عليه. وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه "دَرْء تعارض العقل والنقل" المعروف بالعقل والنقل أنه ملتزم بأنه ما من صاحب باطل يحتج بآية أو حديث صحيح إلا كان دليلُه حجةً عليه وليس له.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقتراح وأنكروا أن ينزل الوحي على النبي محمد ﷺ هم في شك مما يدَّعون، فإذا كانوا في شك فكيف يقترحون؟ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن المكذبين للرسل يوشك أن ينزل بهم العذابُ، لقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن العذاب إذا نزل فإنه يكون ماسًا للإنسان مؤثرًا فيه، لأنه عبر عن ذلك بقوله: ﴿يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الكلماتِ تُفسَّر بحسب السياق، فالذوق في الأصل إنما هو للطعام والشراب، ولكن قد يُراد به ما أصاب الإنسان إصابةً مباشرة فإنه يسمى مذوقًا.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٩، ١٠].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال بعدها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾

[الزخرف: ٣٢] حتى يقولوا نجعل النبوة في فلان دون فلان وهنا لما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ قال بعدها: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ يعني هل هم الذين يقسمون هذه الخزائن فيجعلون الرسالة في فلان دون فلان. و"أم" هنا بمعنى "بل"، والاستفهام يراد به النفي، وعلى هذا فتقدير الكلام: بل أعندهم خزائن رحمة ربك، أي: ليست خزائن رحمة الله عندهم حتى يقولوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ولماذا لم ينزل على فلان أو فلان؟

قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾ جمع خزينة، والخزينة: مُستودَع الشيء يسمى خزينة، والرحمة: رحمة ربك، أي: ما يكون برحمته من الأرزاق الحسية والمعنوية؛ والجواب: لا ليس عندهم خزائن ربك.

وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ قال المؤلف: [الغالب] ﴿الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي: الكثير الهبات، وهي العطايا. قال: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ فأضاف الرحمة إلى رب، ثم أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ اعتناءً به وبيانًا أنَّ ما حصل له من الرسالة فهو بمقتضى ربوبية الله الخاصة له، ولهذا نقول: أخصُّ أنواع الربوبية ما كان للرسل، كما أن أخص العبودية عبودية الرسل، ولهذا أضاف الربوبية إليه، لأن أخصَّ الربوبية ربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وعلى رأسهم محمد ﷺ، فكأنه يشير إلى أن رسالة الله للرسول ﷺ من رحمته به. وقوله: ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ فيه مناسبة عظيمة. العزيز لمقابلة هؤلاء الذين كانوا في عِزَّةٍ وشقاق، ليُبيِّن أن عِزَّةَ الله فوق عزتهم وأنفتهم وحميتهم، وأنه غالب لهم وقاهر لهم. والوهَّابُ بالنسبة للرسول ﷺ، يعني أنه وهبه النبوة.

العزيز: يقول المؤلف: إنه الغالب، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب. وعزة القدر: تعني عزة الشرف والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، والعزة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أين المفرُّ والإله الطـــالبُ ... والأشــرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

فإذنْ يكون تفسير المؤلف رحمه الله للعزيز بالغالب تفسيرٌ للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر؛ لأننا ذكرنا فيما سبق أن كل من فسر القرآن ببعض ما يدل عليه فإنه تفسير قاصر، لكن أحيانًا يُفَسَّر القرآن ببعض ما دلَّ عليه تمثيلًا لا حصرًا، كتفسير بعضهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فَسَّرَ الظالم لنفسه بأنه الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصليها في أول الوقت، وبعضُهم فَسَّرَ الظالم لنفسه بالذي لا يُزكِّي،

والمقتصد بالذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات بالذي يزكي ويتصدق. فهذا التفسير نقول: لا شكَّ أنه قاصر، لكن لم يرد المفسر أن المعنى منحصر في هذا، وإنما أراد بذلك التمثيل، يعني مَثَلُ الظالم لنفسه مثل الذي لا يزكي، والمقتصد مثل الذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات مثل الذي يزكي ويتصدق.

قال المؤلف: [﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ من النبوة وغيرها، فيعطونها من شاءوا؟] هذا مفرع على النفي، يعني هل عندهم خزائن الله من النبوة وغيرها فيعطونها من شاءوا ويمنعونها من شاءوا؟ الجواب: لا.

ثم قال الله عزَّ وجل: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم هنا للإضراب فهي بمعنى بل والهمزة، يعني بل ألهم ملك السماوات والأرض؟ وهذا الاستفهام للنفي، يعني ليس لهم ملك السماوات والأرض، وقوله: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السموات: جمع سماء، وهو في اللغة العربية كل ما علا، فكل ما علاك فهو سماء، ولكنَّ المراد به هنا السماوات المعروفة المحفوظة، والمعروف أنها سبع سماوات كما صرَّح الله به في عدة آيات، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي هذه الأرض المعروفة، وهي سبع أراضين كما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا في العدد لا في الحجم ولا في الكيفية، وكما جاءت السنة بذلك صريحًا في قول النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبرًا من الأرض بِغَيْرِ حَقِّهِ، طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(١).

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين السماء والأرض من المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، وجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا لهما يدل على أن ما بينهما مخلوقات عظيمة تقابل السماوات والأرض.

قال المؤلف: [إن زعموا ذلك] أي: أن لهم مُلكَ السماوات والأرض فهل يملكون ذلك؟ لا، لا يمكن.

قال المؤلف رحمه الله: [إن زعموا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ وكَأنَّ المؤلف - رحمه الله - جعل قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جوابًا لشرطٍ مُقَدَّر، يعني إن زعموا أن لهم ملك السماوات والأرض، ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاءوا].

قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مُقَدَّر، أي: فإن زعموا ذلك فليرتقوا، واللام: لام الأمر، سُكِّنَتْ لوقوعها بعد فاء العطف، لأن لَام الأمر تُسَكَّن إذا وقعت بعد الفاء وثم والواو، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد ثُمَّ، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد الواو، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] هذه بعد الفاء،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

بخلاف لام التعليل فإن لام التعليل تكون مكسورةً ولو وقعت بعد هذه الحروف، كما قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦] وَلَمْ يقل: وليتمتعوا؛ لأنَّ اللام للتعليل، فلام التعليل تكون مكسورة دائمًا، ولام الأمر تكون مكسورة إلا إذا وقعت بعد الواو والفاء وثم، ولهذا قال: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] فاللام هنا للأمر، والظاهر أن المراد بالأمر هنا التحدي. يعني: إن كانوا صادقين فليرتقوا في الأسباب، والأسباب: جمع سبب وهو كلُّ ما يوصل إلى المقصود، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: بشيء يوصله إلى السماء كالحبل ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] فهنا قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فليجعلوا أسبابًا يرتقون بها، ويصلون إلى السماء. ومعلوم أن هذا التحدي لا يمكن لهم أن يحققوه.

ثم قال المؤلف: [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصُّوا به من شاءوا] بناء على قولهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني إذًا فارتقوا إلى السماء، وأنزلوا الوحي، وخصوا به من شئتم.

ثم قال المؤلف: [و"أم" في الموضعين بمعنى همزة الإنكار]، الإنكار الذي بمعنى النفي. ثم قال: ليس عندهم خزائن الله وليس لهم ملك السماوات والأرض بل هم خالون من هذا كله.

الفوائد:

١- **من فوائد هاتين الآيتين:** إبطال حجة هؤلاء الذين قالوا: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك لأن إنزال الوحي على شخص ما هو من فضل الله عليه، ومن خزائن رحمته، وهذا لا يملكه هؤلاء المقترحون؛ لأن الأمر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

٢- **ومن الفوائد:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: العزيز والوهَّاب، وإثبات ما تضمَّناه من صفة، فالعزيز تضمن صفة هي العزة، وأقسامها ثلاثة كما مر علينا في التفسير، والوهاب تضمن صفة هي الهبة الكثيرة، وما أكثر هبات الله عزَّ وجلَّ، وتضمن القدرة؛ لأنه لا يهب إلا القادر، وتضمن الغنى؛ لأن مَنْ لا شيء عنده لا يكن لأن يهب، وتضمن الكرم، لأن البخيل لا يهب. ودلالة الوهَّاب على الهبة من باب دلالة التضمن، وعلى الهبة والوهاب من باب دلالة المطابقة، وعلى القدرة والغنى والكرم من باب دلالة الالتزام.

فإذًا في هذا الاسم أنواعُ الدلالة الثلاثة، وهي الالتزام والمطابقة والتضمن، والفرق بين هذه الثلاثة أنَّ دلالة اللفظ على جميع معناه دلالةٌ مطابقة، وعلى جزء معناه دلالة تضمن، وعلى اللازم الخارج الذي لا يدل عليه بلفظه لكن من لوازمه دلالة التزام. وأضرب لها مثلًا في أمر حسي ليتبين به الأمرُ المعنوي. هذا بيت يشتمل على غرف ومجالس وبراحات، أي: أحواش. دلالة هذا البيت على جميع ما فيه من الغرف والمجالس والأحواش دلالة مطابقة، ودلالته على كل حجرة واحدة، ولكل مجلس وحده، ولكل حوش وحده، دلالة تضمن، ودلالته على أن بانيًا دلالةُ التزام، لأن

البيت لا بد له من بانٍ، فنقول: هذا قد بناه بانٍ، ما هو الدليل؟ لأن البيت لا بد له من بان. فالوهَّاب مثلًا دلالته على الاسم والصفة التي هي الهبة دلالة مطابقة، وعلى الاسم وحده أو الهبة وحدها دلالة تضمن، وعلى القدرة والغنى والكرم دلالة التزام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مراعاة فواصل الآيات لسياق الآية، لأن العزيز الوهاب يناسب قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ومناسبة فواصل الآيات لمضمون الآية دليل على البلاغة، ولا يشذُّ عن هذا شيء، ولهذا لما قرأ رجل عند أعرابي: [(والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم)] استغرب الأعرابيُّ كيف يقول: نكالًا من الله، ثم يقول: والله غفور رحيم؟ المغفرة والرحمة لا تتناسب مع النكال، فقال الأعرابي للقارئ: أعد، قال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم) قال: أعد ما هكذا الآية، قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] قال: الآن عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع سبحانه وتعالى.

ولهذا قال الله تعالى في سورة المائدة في الذين يحاربون الله ورسولَه ويسعون في الأرض فسادًا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤] فأخذ العلماء من هذه الآية أنهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحدُّ، لأن الله قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإذا غفر لهم ورحمهم، فإنهم لا يقام عليهم الحدُّ.

وفي هذه الآية ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ مناسبة ظاهرة؛ لأنَّ الله ذو رحمة، وذو عِزَّةٍ وغلبةٍ، وذو هبةٍ وعطاء، فيعطي مَن شاء بما تقتضيه عزَّتُه من خزائن رحمته.

لكن بعض الآياتِ تكون فواصلها مخالفة لمضمونها فيما يظهر، مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨] فهنا جاء قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ جوابًا لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكان المتوقع أن تكون الآية: وإن تغفرْ لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، فاستشكل بعضُ العلماء هذا، قالوا: كيف يقول: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؟

وأجيب عن ذلك بأن عيسى عليه السلام لم يقتصر على ذكر المغفرة، بل ذكر المغفرة

والتعذيب، قال: إن تعذبهم، وإن تغفر لهم، فكان الحكم الآن مترددًا بين المغفرة والرحمة، إن نظرنا إلى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وبين العزة والحكمة والحكم إذا نظرنا إلى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، فصار ختام القول بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنسب لأن المغفرة إن حصلت فهي من عِزَّةٍ وحكمة.

٤- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾ أنَّ الخلق لا يملكون خزائن رحمة الله، ولا يملكون السموات والأرض وما بينهما؛ لأن ذلك لله عزَّ وجلَّ. ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»[1] فخزائن رحمة الله الذي يملكها هو الله عزَّ وجلَّ، وفي حديث ابن عباس «وَاعْلَمْ أَنَّ الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتَبه الله لك، وإن اجتمعوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ، لم يَضرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك»[2]. ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يُعَلِّقَ رجاءه إلا بالله عزَّ وجلَّ، ولا يعلق رجاءه بمخلوق إلا في الحدود الضعيفة المرسومة. يجعل الرجاء كلَّه والتعلق كلَّه بالله عزَّ وجلَّ، وإذا جعل هذا في الله، سخَّر الله له المخلوقات، حتى البشر يسخرهم له، لكن إذا تعلق بغير الله وُكِلَ إلى من تعلق به وضاع.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات ملكية الله للسماوات والأرض وما بينهما؛ لأن نفي ملك هؤلاء لها دليل على ثبوت الملكية لغيرهم ولا مالك لهذه إلا الله.

٦- **ومن فوائدها:** عظم ما بين السماء والأرض، ووجهه أن الله جعل ما بينهما قسيمًا لهما، والقسيم لا بد أن يكون معادلًا أو مقاربًا لقسيمه، لا يمكن أن تأتي بشيء عظيم تقارن بينه وبين شيء بعيد منه في العِظَم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحديه هؤلاء المكذبين أن يأتوا بما يدل على أن لهم شيئا من ملك السموات والأرض، لقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أنه لا ينبغي التحدي إلا بما لا يستطيعه المُتحدَّى، لماذا؟ لأنك لو تحديته بشيء يستطيعه ثم قام به بطلت حجتك نهائيًا، وهذا يفيدك في باب المناظرة، وفي باب النظر، لأن الناس ناظر ومناظر، فالناظر هو الذي يتأمل الأدلة من ذات نفسه ويُحكِّمُ عليها، والمناظر هو الذي يناقشها مع غيره، فمن فوائد النظر والمناظرة أن الإنسان لا يفرض شيئًا على وجه التحدي إلا إذا علم أنه غير ممكن للمُتحدَّى، لأنه لو فرض شيئًا يتحدى به، ثم أتى به المتحدى، بطلت حجتُه وانهارت، وانهارت قوة المدافعة والمهاجمة، كما هو معلوم، من أن يرتقوا إلى السماء والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي(٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

٩- **ومن فوائد هذه الآية:** أن بعض العلماء أخذ منها أنه لا يمكن الوصول إلى القمر؛ لأن الله قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾.

ومعلوم أن القمر في السماء، فإذا كان هؤلاء الذين يحاولون أن يرتقوا في الأسباب إلى السماء، جندًا حقيرين مهزومين، فإنه لا يمكن أن يصلوا إلى القمر، فهل يمكن أن يؤخذ هذا من هذه الآية؟ ظاهر الآية أنه ممكن أن نأخذ من هذه الآية دليلًا على أن الناس يصلون إلى القمر، إذا كان هذا ظاهر الآية فمعناه أن الآية دلَّت على إمكان الوصول إلى القمر، وهذا عكس ما استدل به بعضُ الناس.

والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون فيها دليلٌ على الامتناع من الوصول إلى القمر؛ لأن القمر في السماء، التي بمعنى العلو، وليس في السماء التي جعلت سقفًا محفوظًا، وهذا أمر مُؤَكَّدٌ لا يختلف فيه اثنان، وإذا كان السحاب في السماء، ويطلق عليه سماء، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] والناس الآن يصعدون فوق السماء الذي هو السحاب. كثير منكم ركب الطائرة وهي فوق السحاب، والسحاب تحتها، فكذلك القمر في السماء، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] فلا شكَّ أن القمر في السماء، ولكن هل هو في السماء التي هي السقف المحفوظ الذي لا يدخل إليه أشرف الملائكة وأشرف البشر إلا باستئذان؟ لا، قطعًا، بل هو تحتها بكثير، إذن نقول: إنه ليس في الآية دليلٌ على استحالة الوصول إلى القمر، كما إنه ليس فيها دليل على إمكان الوصول إلى القمر، ويترك هذا الأمر للواقع، فإذا صحَّ أنهم وصلوا إلى القمر فإن الشرع لم يقل باستحالة ذلك، وإذا لم يصحّ فإن الشرع لم يثبته. فإذا قالوا: وصلْنا إلى القمر وثبَت ذلك، قلنا: الحمد لله، هذا لا يعارض شرعَنا، لا يعارض كتاب الله ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أن القمر تحت النجوم، والنجوم قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[الملك: ٥].

لكنَّ القمر تحتها، وأنا وغيري شاهدنا أن القمر حجَب النجوم، وأنا شاهدت ذلك بعيني، كان القمر يساير النجمةَ التي تسمى نجمة الصباح، ومعروف أن القمر يتأخر فإذا بها تختفي، لم نعد نشاهدُها، فصار كما لو جاءت سحابةٌ فحالت بيننا وبين القمر. وحدَّثني من أثق به، قال: إن هذا قد يقع أحيانًا ونشاهده. إذًا القمر ليس في السماء التي هي السقف المحفوظ، فإذا ثبت أنهم وصلوا إليه فلا غرابة في ذلك. إذًا ليس في الآية دليل على انتفاء الوصول إلى القمر.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأن الجنود مهما عظموا، حقيرون بالنسبة إلى قوة الله عزَّ وجل وعِزَّته، مهزومون أمام قوته، ولهذا قال: ﴿مَهْزُومٌ﴾.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة

والسلام أن يعتبروا بمن سبقهم، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هم جند حقيرون مهزومون كما هُزِم غيرُهم من الأحزاب. قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

قال الله تعالى:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١١-١٤].

التفسير

قال تعالى: [﴿جُندٌ مَّا﴾ أيْ: هم جندٌ حقير ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تكذيبهم لك ﴿مَهْزُومٌ﴾ صفة جند ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ صفة جند أيضًا] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ جند: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم جند، وما: نكرة واصفة، لأن "ما" لها عشر معان جمعت في قول الشاعر:

محامل ما عشر إذا رُمْتَ عَدَّها فحافظْ على بيتٍ سليْمٍ من الشِّعرِ
ستفهِم شَرْط الوصْل فاعجب لنكرها بكفٍّ ونفيٍ زِيدَ تعظيمِ مصدرِ

نوضح ذلك: ستفهم: استفهامية، شرط: شرطية، الوصل: موصولة، فاعجب: تعجبية، لنكرها: نكرة سواء واصفة أو موصوفة، بكف: كافة، ونفي: نافية، زيد: زائدة، تعظيم: للتعظيم، مصدر: مصدرية.

﴿جُندٌ مَّا﴾ قال المؤلف: [هم جند حقير] فعلى هذا تكون "ما" هنا واصفة، يعني موصوف بها، لكن المراد بهذا التحقير، والدليل على ذلك التحقير قوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ والمهزوم حقير.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا إشارةٌ للمكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، ومعنى هُنالك أي: في ذلك المكان، والمؤلف يقول: [أي: في تكذيبهم لك] فجعل الظرفية المكانية هنا بمعنى: التكذيب، ولكن يبدو أن الأمر على خلاف ما قال المؤلف رحمه الله، وأن المشار إليه المكان الحسي، لا المكان المعنويّ، أي: أنهم إن ارتقوا في الأسباب، فسوف يهزمون، فيكون «هنالك» أي: في المكان الذين يرتقون إليه، فإذا قدر أنهم ارتقوا إلى السماء فهل ستكون لهم الغلبة؟ أبدًا، بل بالعكس، حتى لو ظنُّوا أنهم لو وصلوا إلى السماء، وصعدوا إلى السماء أنهم انتصروا، وصارت لهم العزّةُ فالأمر بالعكس. هذا هو الذي يظهر من الآية الكريمة. أمّا جعل الظرف هو التكذيب فهذا بعيد، بل التكذيب سبب للخذلان.

وقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ (مهزوم) يقول المؤلف: [صفة جند] صفة ثانية والأولى "ما" و﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ صفة جند أيضًا، يعني جند من الأحزاب مهزوم.

واعلمْ أنه إذا تكررت الصفةُ للنكرة فإن ما بعد الصفة الأولى يجوز أن يكون حالًا، فإذا قلت: مررتُ برجلٍ عظيمٍ كريمٍ شجاعٍ، جاز لك أن تقول: مررتُ برجل عظيم كريمًا شجاعًا، ولكن الأولى أن تكون صفة، أي: نعتًا؛ لتناسق الكلام، وكونه على وتيرةٍ واحدة، فهنا عندنا ثلاث صفات لجند: "ما" و"مهزوم"، و"من الأحزاب"، ما الذي يجوز أن يكون منصوبًا على الحال؟ مهزوم، لكن لا يمكن هنا لأن حركةَ الإعراب ظهرَت على أنه مرفوع صفة، وكذلك من الأحزاب مثله يعني يجوز أن يكون صفةً وهو الأصل، ويجوز أن نجعلَه في موضع نصب على الحال.

قال المؤلف رحمه الله: [أي: كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك، وأولئك قد قُهِروا وأُهلِكوا فكذلك نُهلِك هؤلاء] يعني أن هؤلاء جند من الأجناد الأخرى، والأجناد الأخرى الأحزاب الذين كذَّبوا الرسل كان مآلهم الهلاك والدمار، وقد مر علينا في أول السورة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ثم بدأ الله عزَّ وجلَّ الإشارة إلى قصة أولئك الأجناد أو أولئك الأحزاب فقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل الذين كذَّبوك من قريش ومن اليهود وغيرهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ ونوح هو أول رسول أرسله الله عزَّ وجلَّ بدلالة القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] ولو كان أحد قبل نوح لخرج من ذريتهما، وبه نعرف أن ما يوجد من شجرة الأنبياء التي كتب فيها أن إدريس قبل نوح خطأ، فإن إدريس بعد نوح بلا شك، أما السنة فصريحة في ذلك فإنه ثبت في حديث الشفاعة الطويل [«أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»[1] وهذا صريح، وبه أيضًا نعرف أن ما يذكر في كتب التاريخ من أن إدريس جد لنوح فهو خطأ بلا شك، فإدريس فيما يظهر – والعلم عن الله – من أنبياء بني إسرائيل.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوح عليه الصلاة والسلام بُعِثَ إلى البشر حين اختلف الناسُ، وكان الناسُ في الأول على مِلَّةٍ واحدة، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يدعوهم إلى الله، ويأتيهم بالآيات، ويتحدَّاهم، ولكنَّهم – والعياذ بالله – كلما دعاهم ازدادوا عتوًّا ونفورًا، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] ولما أَذِنَ الله تعالى بهلاكهم دعا نوح ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فانتصر الله له ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١١- ١٤] وأمره اللهُ أن يحمل معه مَنْ آمنَ من قومه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

فتصوروا أيها الدُعاةُ كيف لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو رسول الله، والناس لم يكثروا بعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، حتى أحد نسله قد كفر به وهو ابنه الذي كان من المغرقين.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [تأنيث "قوم" باعتبار المعنى] هل قوم مؤنث؟ أو الفعل الذي كان القوم يفعلونه هو الذي أُنِّثَ؟ نقول: الفعل هو الذي أُنِّثَ ﴿كَذَّبَتْ﴾، أما قوم فليس فيها تاء التأنيث، لكن من المعلوم أن الفعل إذا أُنِّثَ فالفاعل مؤنث، فإذا وقع الفاعلُ لفعل مؤنث فهو مؤنث، لكن هل هذا اللفظ هل هو مؤنث لفظًا أو باعتبار المعنى؟ قال المؤلف: باعتبار المعنى، وهنا نسأل كيف يكون مؤنث باعتبار المعنى؟ لأن القوم جماعة، وكل جمع يجوز تأنيثه، قال ابن مالك رحمه الله:

والتَّاءُ مع جَمْعٍ سوى السالم مِنْ ... مذكَّر كالتاءِ مع إحدى اللَّبِنْ

إحدى اللَّبِنْ: هي لَبِنَة، فَلَبِنَة يجوز فيها التذكير والتأنيث، لكن التأنيث أرجح، كذلك جميع الجموع ما عدا جمع المذكر السالم يجوز فيه وجود التاء في الفعل.

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ عادٌ قوم هود، كانوا بالأحقاف، وكانوا ذوي شدّة وقوة، من أشد الناس قوةً، فأُعجبوا بقوتهم واستكبروا وعصوا رسولهم عليه الصلاة والسلام، وافتخروا بما أعطاهم الله من القوة، كما قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فتأمل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ لأن فيها إشارة إلى أنهم ضعفاء أمام خالقهم، ولم يقل: أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات، قال: خلقهم، فهم مخلوقون، والخالق أعلى من المخلوق، وأشد منه قوةً ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله.

أهلكهم الله وعلى حين طمع في رحمته، أرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، ولما رأوا ما تحمله الريحُ من الرمال العظيمة ظنُّوا أن ذلك سحاب. لما رأوا هذا قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥] فعصفت بهم الريحُ العقيمُ حتى كانت تحمل الواحد منهم إلى جوِّ السماء ثم تقلبه على رأسه، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، أعجاز النخل يعنى أصولها وجذوعها؛ خاوية متنكسة،

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومع ذلك ما آمن معه إلا نفرٌ قليل.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال المؤلف: [كان يَتِدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه] فرعون الذي أُرسل إليه موسى، وكان ملكًا لمصر جبارًا عنيدًا، استعبد أهل مصر وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وسخر بموسى وقال لهم: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وفخر بما أعطاه الله تعالى من الأنهار، قال لهم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] وكذَّب موسى وحاربه، لكن ليس بالسلاح بل بما جَمَع من السحرة، لأنه أَوْهَم الناس أن موسى كان ساحرًا، قال: هذا ساحرٌ يرمي العصا في الأرض فتكون حيَّةً، ويُدخِل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، هذا ساحر.

وجمع السحرَة، وألقوا ما عندهم من السحر العظيم الذي أرْهبَ الناس، حتى موسى عليه السلام رهب وخاف، فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٨- ٦٩] فأيّده الله، وألقى ما في يمينه وهي العصا، فصارت حيَّةً عظيمة التهمت الحبال والعصيَّ التي ملئوا بها الأرض، وصار يُخَيَّل للناس أنها حيات وثعابين تسعى، فالتهمتها كلَّها، وسبحان الله كيف هذه الحية التي كانت عصا تلتهم كل هذا؟! هذا من آيات الله.

فلما رأى السحرةُ هذا الأمر دهشوا، وعلموا أن هذا ليس بساحر؛ لأن الساحر لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الأمر، بل هو حقيقة، وهو آية أيّدَ الله بها موسى، فآمنوا كلهم، وسجدوا لله ذُلًا وعبادةً، وقالوا معلنين: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢].

فماذا يكون تأثير هؤلاء القوم الذين انتصر بهم فرعون بين الناس؟ سيكون تأثيرُهم على الناس كبيرًا وعظيمًا. أرأيتم لو أنَّ أحدًا من الملوك جمع أكبر ما عنده من المهندسين في حشد عظيم، ثم أقرُّوا وأذعنوا لخصوم هذا الملك، ماذا يكون شعور الناس؟ سيكون شعورهم أن الملك مهزوم.

ولهذا لما حصل إيمانُ السحرة لجأ فرعون إلى القوّة والقهر، وهددهم بأنه سيُقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل حتى يذوقوا العذاب، ولكنهم بإيمانهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢- ٧٣] فصمدوا أمام هذا الطاغية العنيد. لقد كانوا في أول النهار من السحرة الكفرة، وصاروا في آخر النهار من المؤمنين البررة، وبقي فرعون مستمرًا على طغيانه - والعياذ بالله - حتى أهلكه اللهُ بالغرق بجنس ما كان يفتخر به على قومه وعلى موسى حين قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:

٥١] فأُهلِكَ بالماء الذي كان يفتخر به.

وقول المؤلف في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال: [كانَ يتِدُ ...] إلى آخره. الذي يظهر أنَّ هذا ليس سببَ الوصف بذي الأوتاد، وإنَّما السببُ الحقيقي أن يُراد بالأوتاد القوة التي ثَبَّتَ بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة، ولا يبعد أن يكون من جبروته أن يضع أوتادًا أربعة يصلب عليها الإنسان ويعذبه، لكن هذا لا يمكن أن يمتدح بها فرعون على أنه ذو قوة، بل الصحيح المراد بالأوتاد هنا ما كان عليه من القوة التي ثبَّت بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ قوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ معطوفة على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ يعني: وكذَّبت قبلهم ثمودُ أصحابَ صالح، وهم في مكان يقال له: الحِجْر، وتسمى الآن بمدائن صالح. أرسلَه اللهُ سبحانه وتعالى إليهم ولكنَّهم كفروا به، ولم يؤمن معه إلا قليلٌ، وآتاهم الله تعالى آيةً عظيمةً، وهي ناقة يحلبونها يومًا وتشرب الماء يومًا آخر. وقيل: إن الواحد منهم يأتي إليها فيسقيها ويأخذ من لبنها بقدر ما أسقاها، والله أعلم. والمهم أنَّ هؤلاء القوم عندهم قوةٌ مكَّنتهم من أن يتخذوا من الجبال بيوتًا. ولا تزال آثارهم باقية إلى اليوم. وقد مرَّ النبي ﷺ بها وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه ﷺ - يعني غطاه - وأسرع في السير، وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ المُعَذَّبِينِ إِلَا وَأَنْتُم بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِم، أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُم»(١).

قال: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوط: ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى قومه، وكانوا قد ارتكبوا الفاحشة - والعياذ بالله - فكانوا يأتون الرجال ويَدَعُون النساء. فوبَّخهم لوطٌ على ذلك وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦] فأنتم الآن تركتُم الحلال إلى الحرام، وتركتم النزيه إلى الخسيس. ولكنهم أبوا واستكبروا حتى إن زوجَتَه كانت منهم، فأمره الله أن يسري بأهله، وأرسل على قومه حجارةً من سجيل، حتى جعل عاليَها سافلَها، وهذا من المناسبة بوضوح، فإن هؤلاء لما انقلبوا عن الحقيقة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق، جعل الله أعالي قريتهم سافلها. واختلف العلماء في معنى هذا، فقال بعضهم: إن الأرض حُمِلت ثم نُكِّست فصار عاليَّها سافلَها، وقال بعضهم: بل إنها تهدَّمت من الحجارة التي أُرسِلَت عليهم حتى صار عاليَّها سافلَها.

قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ والأيكة فيها قراءتان، قال المؤلف: [﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغَيْضة وهو قوم شعيب عليه السلام] والغيضة: هي الأشجار المُلتَف بعضها إلى بعض، وكانوا في نعيم ولكنهم عصوا شعيبًا وسخروا منه ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤١٩)، ومسلم (٢٩٨٠).

نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] يسخرون منه، وقال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] قال أهل العلم: إنهم أصيبوا بحَرٍّ شديد جدًا، فأرسل الله غمامةً لها ظلٌ، فتنادوا إليها يستظلون بظلها، فكان ظلها أكثر إحراقًا من الشمس – والعياذ بالله – فأُتوا من حيث أمنوا.

هؤلاء يقول الله عزَّ وجل فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ يعني: أولئك الأحزاب العظماء الذين طغَوْا واستكبروا وكذَّبوا الرسل، فالإشارةُ هنا بصيغة البعد إما لدنوِّ منزلتهم وبعدها عن الصواب، وإما لعلوِّها باعتبار حالهم التي كانوا عليها من الطغيان والعتوّ، وذلك لأن "أولئك" لا يشار بها إلا إلى الشيء البعيد علوّاً، أو نزولًا أو مساحة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ جمع حزب، والحزب هو الطائفة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢] أي: كلُ طائفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ يحتمل أن تكون مبتدأ وخبر، يعني: أولئك هم الأحزاب الذين كذبوا الرسل فأهلكناهم، ويحتمل أن تكون الأحزاب صفة لأولئك.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ﴾ الجملة خبر المبتدأ، قال المؤلف: [﴿ إِن﴾ ما ﴿كُلٌّ﴾] أي: أن "إنْ" نافية، وقد سبق لنا أن قلنا: إن "أنْ" تستعمل في اللغة العربية على وجوه: النفي، والشرط، والمُخفَّفة من الثقيلة، والزائدة. قال المؤلف: [﴿ إِن كُلٌّ﴾ ما كل من الأحزاب ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾] كُلٌ من هؤلاء الأحزاب كذب الرسل، والرسل: جمع رسول، ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلّ حزب كذَّب رسولَه، وعلى هذا فالجمع موزَّع على الجمع الذي قبله توزيع أفراد، أو هو توزيع جملة؟ أي: كل حزب كذَّب جميعَ الرسل؟ المؤلف مشى على الثاني، قال: [لأنهم إذا كذَّبوا واحدًا منهم، فقد كذبوا جميعَهم، لأن دعوتَهم واحدةٌ، وهي دعوة التوحيد] فمشى – رحمه الله – على أن الجمع موزَّع على الأفراد توزيع جمع، يعني كل حزب كذَّب جميع الرسل، ويؤيد ما ذهب إليه – رحمه الله – قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فإن الله ذكر أن قوم نوح كذبوا المرسلين، ومن المعلوم أنه لم يُبعث رسولٌ قبل نوح حتى نقول: إنهم كذبوا من سبق، وعلى هذا فيكون ما ذهب إليه المؤلف أرجح مما يحتمله اللفظ احتمالًا مرجوحاً، وهو أن يكون الجمعُ موَّزعًا على ما قبله توزيع أفراد.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني سبحانه وتعالى باعتبار الجملة؛ لأن بعض القوم آمنوا لكنهم كانوا قلةً، والقلة مع الكثرة تنغمر فيها، فلهذا قال: إن كل من الأحزاب إلا كذَّب الرسل، ويحتمل أن يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التقدير، أي: لا حاجة إلى أن نقول: إن هذا باعتبار الكثير من هؤلاء الأقوام، لأنه قال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فيكون قوله: ﴿ إِن كُلٌّ﴾ أي: من المكذبين إلا كذَّب الرسل، وعلى هذا فلا حاجة إلى استثناء الذين آمنوا، وإلى القول بأن الآية جاءت على الأغلب.

قال الله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ الرسل الذين أُرسِلوا إليهم، وهنا نحتاج إلى الفرق بين الرسل والنبيين فنقول: أولًا: كل من ذكر في القرآن من النبيين فهو رسول، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وعلى هذا فيكون كلُّ من ذُكِر في القرآن من الرسل؛ لأنهم قُصّوا علينا، وكل من قُصَّ علينا فهو رسول، أما على سبيل العموم فإن العلماء يقولون على المشهور عندهم: إن الرسول مَنْ أُوحِي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه والدعوة إليه، لأنه رسول، والرسول ليس عليه إلا البلاغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المادة: ٦٧] وأما النبيُّ هو الذي أُوحِي إليه بوحي لكن لم يُؤمَر بالتبليغ، فيكون كالمُجدِّد من هذه الأمة، فالمُجدِّد من هذه الأمة صالح في نفسه لكنه يدعو بحسب استطاعته، فالنبي لم يُكلَّفْ بالرسالة، وإنما أُوحِي إليه بما يُصلِحه ويَصْلَحُ به غيره لا على سبيل الإلزام بالرسالة.

وذهب بعضُ أهل العِلْم إلى الفرق: أن النبيَّ هو من جدَّد شرع مَن قبله ولم يستقلَّ بوحي، فهو يأتي بالشريعة السابقة، وأما الرسول فهو الذي يُجدِّد له الوحيُ، ويأتي بشريعة مستقلةٍ، وهذا القول قد نقول: إنه جيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] ولكنَّه ينتقض بآدم عليه الصلاة والسلام، فإن آدم نبي ولم يكن تابعًا لشريعة سابقة، والقولُ إذًا انتقض فهو ضعيف غير مُعْتَمِدٍ عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حقَّ، أي: وجب وثبت، وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ فاعل "حق" مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، أي: يكسر ما قبل ياء المتكلم ليُناسب الياء، فالكسرة التي يؤتى بها لمناسبة الياء تسمى حركة المناسبة أو كسرة المناسبة، وهي تمنع من ظهور ضمة الإعراب وفتحته على آخر الكلمة.

والعقاب: هو المؤاخذة على الذنب، ولهذا سُميَّ عقابًا؛ لأنه يأتي عقب الجريمة، فَكُلُّ عذاب على جريمة فإنه يسمى عقابًا. وهذا العقاب الذي أنزله الله بهم هو عقاب مبني على العدل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، ونحن نعلم أن الرَّبَّ عزَّ وجلَّ لا يظلم أحدًا أبدًا، لا يزيد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته، لكن لو كان العقاب من غير الله لكان يمكن أن يزداد على الجريمة، أما العقاب الذي أضافه الله لنفسه فهو عقاب عدل.

الفوائد:

١- في هذه الآية تسلية وتهديد، تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، وتهديد للمكذبين له أن يصيبَهم مثل ما أصاب من قبلهم.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الرسالة لنوح عليه الصلاة والسلام لقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو كذلك،

فإن نوحًا هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض.

٣- **ومن فوائدها أيضًا**: إثبات الرسالة لهود لقوله: ﴿وَعَادٌ﴾ وعاد هم قوم هود، فإنهم كذبوا هودًا.

٤- **وفي الآية**: إثبات رسالة موسى لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ومعلوم أن الذي أُرسل لفرعون هو موسى، ففي الآية إثبات لرسالة موسى.

٥- **ومن فوائدها**: أنَّه مهما عظم سلطانُ المكذبين للرسل فإنهم أذِلَّاء بالنسبة لسلطان الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾.

٦- **من فوائد الآية**: إثبات رسالة صالح لقوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ والمرسل إلى ثمود أخوهم صالح.

٧- **ومن فوائدها**: إثبات رسالة لوط لقوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: إثبات رسالة شعيب لقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام.

٩- **ومن فوائدها**: أن جميع هؤلاء الأحزاب كذَّبوا الرسل لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

ومن فوائدها: الاعتبار بالأغلب، وأن الكُلَّ قد يطلق على الأغلب، لأن قومَ نوحٍ لم يكذبوا كلُّهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وكذلك عادٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٥٨] وكذلك لوط آمن معه مَن آمن مِنْ أهله، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات:٣٥] كذلك فرعون لم يُؤمن إلا حينما أدركه الغرقُ إيمانًا لا ينفعه، وكذلك صالح آمن معه مَن آمن، وعلى هذا فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ إن كل، أي: من هؤلاء إلا كذب الرسل.

١١ – **ومن فوائد الآية**: أنه من كذَّب رسولًا من الرسل فهو مُكَذِّب باعتبار الأغلب لجميع الرسل لقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وقد ذكرنا في تفسيرها أنها محتملة أن تكون عائدةً لكل فرد باعتبار الجمع أو باعتبار الأفراد، أي: هل هو من توزيع الجمل أو من توزيع الأفراد، وذكَرنا أنه من الراجح أنها من توزيع الجمل على الأفراد، وذكرنا الدليل على ذلك.

١٢ – **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن تكذيبَ الرسل سببٌ للعقوبة لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ والفاء هنا سببية وهي عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها سببية وتعقيب، وأن العقاب حَلَّ بهم، وهم ما زالوا على تكذيبهم.

- **وقوله**: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤخذ منه فائدة وهي شدة هذه العقوبة لأنَّ الله أضافها إلى نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة:٩٨] و﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٩٨].

قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [ص: ١٥]

التفسير

ينظر إذا تعدَّت بـ «إلى» فهي نظر العين، وإن جاءت متعدية بنفسها صارت بمعنى الانتظار، وإن جاءت مُطلقة فهي على حسب السياق، يعني إذا جاءت غير مُقيدة بحرف جر ولا مُقيدة بمفعول، فهي على حسب السياق، مثال التي قيدت بـ «إلى» قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة:٢٣] فإن ناظرة هنا بمعنى باصرة بالعين؛ لأنها تعدت بـ «إلى» وأُضيفت إلى الوجوه أيضًا التي هي مكان العيون، وإذا جاءت مُتعدِّية بنفسها فإنها تكون بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾[محمد:١٨] وقد تأتي مُتعدية ويكون المُراد بها نظر العبرة والتفكر كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[يونس:١٠١] وإن جاءت مُطلقة غير مُتعدية بنفسها ولا بـ «إلى» فهي بحسب السياق، مثل قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطفِّفين:٢٣] منهم من قال: ينظرون بمعنى ينتظرون النعيم الذي يُؤتى به إليهم، ومنهم من قال: ينظرون، أي: ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم، ومنه النظر إلى وجه الله.

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ مُتعدِّية بنفسها، فهي بمعنى ينتظر، أي: ما ينتظر هؤلاء، أي كُفَّار أهلِ مكة، كما قال المؤلف: [أي: كفار مكة] ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يُصاح بهم، واحدة لا تُعاد مرةً أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر:٤٦]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾[القمر:٤٩ - ٥٠]، وقال: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾[يس:٥٣] فالصيحةُ هي التي تكون يوم القيامة، كما قال المؤلف: [هي نفخة القيامة تحل بهم العذاب] وهي الساعة، هذه الصيحة الواحدة ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ [بفتح الفاء وضمها، أي: رجوع].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ما: نافية، وليست هنا حجازية لاتفاق التميميين والحجازيين على عدم عملها، لأن الحجازيين يعملونها بشرط الترتيب، أي: تقدم الاسم على الخبر، وهنا لم يتقدم الاسم على الخبر، بل تأخر، فهي إذًا نافية، ولها: جار ومجرور خبر مُقدم. و ﴿مِن فَوَاقٖ﴾ من: حرف جر زائد للتأكيد، و ﴿فَوَاقٖ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مُقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أمَّا من حيث التصريف قال المؤلف: [إنها بفتح الفاء وضمها] فَواق وفُواق، ومعناه الرجوع وقيل: معناه الإمهال، يعني إنها لا تُمهلهم، بل تأخذُهم بسرعة، وقيل:

إنها إن كانت فَواق فهي بمعنى الرجوع لأنها من أفاق يفيق إذا رجع إلى عقله، وإذا كانت فُواق فهي بمعنى الإمهال مأخوذ من قولهم: فُواق الناقة، وفُواق الناقة: هو ما بين الحَلْبَتيْنِ أو ما بين الرَّضْعَتينِ. ما بين الحلبتين إذا كانت تُحلب، وهي مدة وجيزة، مثاله: يعصر الإنسان الثدي ثم يتوقف ثم يعود ويعصره، فالمدة بين الحلبتين قليلة، وكذلك بين الرضعتين. الطفل الرضيع إذا كان يرضع ثدي الأم، يمص ثم يمص. وهم يُطلقون هذا على سرعة الشيء وعدم إمهاله، ويمكن أن نقول: إن القراءتين تجمعان المعنيين، فيكون معنى أي: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ ما لها من رجوع ولا إمهال.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة** في هذا أشد التهديد للمُكذبين لرسول الله ﷺ، ولازم ذلك إثبات رسالته ﷺ، ووجه أن الله توعدَّ المكذبين له، ولولا أن رسالته حق لكان الوعيد عليه هو كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة:٤٧] الله أكبر، انظر إلى هذا الأسلوب الشديد للآيات المُوجَّهة للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بالقوة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ حتى لا يبقى به حياة. والوتين هو عرق يتصل بالقلب إذا قُطِع مات الإنسان فورًا ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ هذا وهو الرسول ﷺ، لو تقوَّل على الله كلمةً واحدة لأخذَه الله باليمين، فكيف بالذين يتقولون على الله كلماتٍ، ولا يُبالون أن يقولوا: قال الله، وهو لم يقل.

ولهذا كان الإمام أحمد - رحمه الله - مِنْ ورعه لا يمكن أن يقول: هذا حرام إلا إن كان قد نُصَّ على تحريمه، وإلا تجده يقول: أكره هذا، أو لا يعجبني، أو لا يُفْعَل، أو تركه أحبُ إليَّ أو ما أشبه ذلك، ولكن كان إمامًا، وصار الناس يتداولون هذه الكلمات ويحللونها، هل إذا قال: لا تعجبني، يعني التحريم أو الكراهة، ثم بدأ الناس يتلقون كلامه ويُحللونه، لأنه - رحمه الله - خاف الله واتقاه فجعل الله لكلماته نورًا، بخلاف الذين يقولون الآن: الإسلام يُحرم كذا وكذا، وإذا رأيت الإسلام يُحلله، ويمكن أن يوجبه في بعض الأحيان، وهذا يقول: يُحرمه الإسلام، يتكلم واحد مُعرَّض للخطأ باسم الإسلام. وأنت لو قلت: أرى أن هذا حرام، قلنا: هذا رأيك، ويمكن أن تُخطيء وتُصيب. أما أن تقول: حرَّم الإسلام، وقال الإسلام، وفعل الإسلام، فهذه الأقوال خطيرة، لأن أعداء المسلمين إذا أخذوا مثل هذه الأقوال، وقالوا: هذا الإسلام وكانت تُخالف الإسلام، أخذوا من هذا سببًا للقدح في الإسلام. والإسلام بريء منه، لكن بعض الناس يجعل لنفسه منصبًا عاليًا فوق مستواه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إذا قيل له: سنهلك أعداءك، سوف يتسلى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن العذاب إذا أخذهم فإنه لن يرجع ولن يتأخر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[غافر: ٨٤ - ٨٥].

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]

التفسير

لما توعَّدهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام بيوم القيامة، وأنَّ لهم العذاب فيه، تحدوا الرسول عليه الصلاة والسلام، بل تحدوا الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ بمعنى نصيبنا، يقولون ذلك تحديًا واستكبارًا وعنادًا - والعياذ بالله - وهذا كقولهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال:٣٢] هذا قول مُعاند مُستكبر، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له. هذا الواجب، أما أن يقولوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا لا شك أنه في غاية الاستكبار - والعياذ بالله -.

قال المؤلف: [وقالوا لمَّا نزلت ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[الحاقة:١٩] ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: كتاب أعمالنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قالوا ذلك استهزاءً] ما ذهب إليه المؤلف يحتمله اللفظ، لكن لا دليل عليه فيه، والصحيح أن المراد بقطِّنا، أي: نصيبنا من العذاب الذي توعدتَنا به، وقلت إنه سيأتيكم عذاب كما أتى الأحزاب من قبلكم، فكأنهم يقولون: إذا كان الأحزاب قد أُوتوا العذاب من قبلنا فليأتنا نصيبُنا. وهذا لا شك أنه في غاية ما يكون من التحدي والسخرية والاستكبار - والعياذ بالله - وأنت تعجب أن تصل الحالُ بالبشر، إلى هذا التحدي - والعياذ بالله - ولكن الشيطان عدو للإنسان، فإذا أطاعه حمله على شيء، يكاد الإنسان أن يقول: إن هذا الشيء لا يمكن أن يقع.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** اعتراف المشركين بالربوبية لقولهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ وهم مُقرُّون بالربوبية، ومُقرُّون بانفراد الله تعالى بها، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزُّخرُف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان:٢٥].

٢ - **ومن فوائدها**: أن الإقرار بالربوبية لا يُخرج الإنسانَ من الكفر إذا كان لم يُقر بتوحيد الألوهية؛ لأن هؤلاء مُقروُّن بالربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق والمنفرد بالخلق والرزق، لكنَّهم يُشركون به في العبادة، أي يعبدون معه غيره، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام.

٣ - **ومن فوائدها**: بطلان ما ذهب إليه كثير من المتكلمين في تفسير التوحيد، حيث قالوا في تفسير التوحيد: [(أن تؤمنَ بأنَّ الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في أفعاله لا شريك له، واحد في صفاته لا شبيه له)]، فإنَّ هذا لم يتعرضوا فيه لذكر الألوهية إطلاقًا، قالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له ... إلخ هذا هو التوحيد عند عامة المتكلمين، ولا شك أن هذا التوحيد لم يَدْخُل فيه توحيد الألوهية الذي جاءت الرسل بتحقيقه وإثباته والقتال عليه، لم يقولوا واحد في ألوهيته لا يُعبد غيره، أسقطوا هذا نهائيًا، ولا شك أن هذا قولٌ باطل في أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرُسل، بل هذا من التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وليس هو التوحيد كله، بل فيه أيضًا إجمال في قولهم: واحد في صفاته لا شبيه له، ولكن هذا ليس موضوعنا، لأننا نتكلم عن التفسير.

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ، واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، كانوا يُقرون بما يدعي المتكلمون أنه هو التوحيد.

٤ - **ومن فوائدها**: استكبار هؤلاء المُكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام حيث تحدوه هذا التحدي وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار والعناد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إيمانهم بيوم الحساب. يُؤخذُ من قوله: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ممكن أن نقول هكذا ويمكن أن نقول: إنهم قالوا ذلك على سبيل التهكم، فيكون هذا أشد في العناد والاستكبار، أي: قبل يوم الحساب الذي يزعمه محمد، فيكون المُراد بهذا: التهكم برسول الله ﷺ، وبما أخبر به من يوم الحساب، وهذا هو الظاهر، أي: كأنهم يقولون: عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل هذا اليوم الذي يقوله هذا الرجل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هم بقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ يريدون بذلك مضايقةَ الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى يضجر ويتعب نفسيًا وفكريًا وربما جسميًا، ولا شك أن

هذا يؤذي الداعية.

وأنت لو دعوت إلى الله وقام واحد وقال: أهذا ما تتوعدنا به! ائتنا به، عجل لنا به، لا شك أنك تضيق، فالرسول ﷺ بشر، لكن الرب عزَّ وجلَّ يُصبره شرعًا، ويعينه على ذلك قدرًا، يصبره شرعًا بالأمر اصبر اصبر ويُعينه على ذلك قدرًا، فقد صبر النبي صبرًا لا يصبره أحد، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[الأحقاف:٣٥].

والعجيب أن مِنْ صبره أنه صبر حين المقدرة عليهم، صبر على العذاب الذي يكون بيده، وعلى العذاب الذي يكون من عند الله، صبر على العذاب الذي يكون بيده حين فتح مكة، ووقف على باب الكعبة وقريش تحته وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُم؟» قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريم، قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءِ»[1] في هذا الحال يستطيع أن يبطش بهم فكلهم أذِلَّة بين يديه، لكنْ قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءِ» بل قال قبل ذلك: «مَنْ دَخَلَ دَارهَ فَهُو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» كل هذا من باب التسامح والعفو مع المقدرة.

أما عفوه وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله سبحانه وتعالى فيهم، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال: إن الله يُقرئك السلامَ وهذا مَلَك الجبال يفعل ما تأمر به، فقال له ملك الجبال: إن شِئْت أن أُطبق عليهم الأخشبين لفعلت، ولكن الرسول ﷺ قال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِم مَنْ يَعْبُدَ الله وَحْدَه، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2] اللهم صلِّ وسلم عليه.

انظر إلى العفو وإلى النظر البعيد، فأخرج الله -ولله الحمد- مِنْ أصلاب هؤلاء مَنْ عَبَدَ الله ولم يُشرك به، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يجد المضايقات العظيمة من قريش لكنه يصبر على كل أذى، ولهذا قال الله له: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[ص:١٧].

اصبر على ما يقولون من أقوال الاستهزاء والسخرية والكذب، قالوا: إنه ساحرٌ مجنون كذاب كاهن، ولكنه يصبر، صبر على ما يقولون، وصبر على ما يفعلون أيضًا، أعظم شيء علمْتُ به أنه كان ذات يوم ساجدًا عند الكعبة في آمِن مكان، وأعظمه حُرمةً، وأقرب ما يكون من ربه ساجدًا لله، وكان حوله ملأ من قريش، فقالوا: من ينتدب لنا يأتي بسلا جزور بني فلان يضعه على محمد وهو ساجد، فانتدب أشقاهم، وذهب وأتى بسلا الجزور ووضعه على ظهره، دم وروث وقذر ونجاسة على ظهره وهو ساجد، ولكن لم يقم من السجود حتى جاءت ابنته فاطمة وهي صغيرة

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

فأزاحته عنه، فقام ﷺ، ثم لما فرغ من الصلاة دعا الله عليهم، فأجاب الله دعوته، فعذبهم بيده، وسُحبوا في قُليب بدر في غزوة بدر جُثثًا مُنتنة خبيثة، وطُرحوا في أحد الآبار هنالك(١). اللهم انصر الحق أينما كان يا رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخطاب في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لرسول الله ﷺ، أمره الله أن يصبر على ما يقوله له أعداؤه مما يتعلق بجانب الرب عزَّ وجلَّ من إنكار توحيده، ومما يتعلق بالرسول ﷺ مِن وصفه بأنه كذَّاب وساحر ومجنون، ومما يتعلق بأصحابه، وكل ما يقولون مما يسوءُ الرسول عليه الصلاة والسلام. أمره الله تعالى أن يصبر عليه، وكذلك أيضًا أن يصبر على ما يفعلون؛ لأن أذية المُشركين له كانت بالقول وبالفعل جمعًا وإفرادًا.

والصبر هو حبس النفس عما لا يجوز في مقابلة البلية والمصيبة. وقد قَسَّم العلماء رحمهم الله الصبر إلى ثلاثة أقسام فقالوا: صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر عن محارم الله، وصبر على طاعة الله، وهذا الأخير هو أعلى أنواع الصبر؛ لأن الصبر الأول هو صبر قهري. فالصبر على المصائب صبر قهري؛ لأن المصائب لم تقع باختيارك، وإنما هي بغير إرادتك فأنت أمامها إما أن تصبر صَبْر الكرام، وإما أن تسلوا سلوَّ البهائم، ثم الصبر عن محارم الله دون الصبر على أوامره، وذلك أنَّ الصبر على محارم الله ليس فيه إلا كفُّ النفس فقط، والكفُّ أسهل من الفعل، وأما الصبر على الطاعة فهو أعلاها؛ لأن فيه صبرًا على كفِّ النفس وعلى فعلها، على كفِّ النفس عن ترك هذا المأمور به، وعلى الفعل يرغمها على أن تفعل؛ ولهذا قال أهل العلم: إنَّ الصبر على أوامر الله أفضل من الصبر عن نواهيه، والصبر عن نواهي الله أفضل من الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ومن ثم لو سألنا سائلٌ: أيُّها أعلى مقامًا وأفضل، صبر يوسف عليه الصلاة السلام على الحبس، أو صبره عن فعل الفاحشة بامرأة العزيز؟ قلنا: صبره عن الفاحشة أعظم وأعلى مرتبة.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: في الله أولًا، لأن السورة من أولها في إنكار توحيد ألوهية الله، وفي الرسول، وفيما جاء به، وفي أصحابه. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ اذكر يُحتمل أن يكون من الذكر، أي: الإخبار عن حاله، أي: اذكر للناس قصةَ داود، ويُحتمل أن ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ بمعنى تذكر داود، وإذا كان اللفظ يحمل معنيين لا يتنافيان، فالقاعدة التفسيرية أن يُحمل عليهما جميعًا؛ لأنه كلما كانت دلالة الآية أشمل وأعمَّ كان أولى. ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وصف الله داود عليه الصلاة والسلام بالعبودية، وهذه أخص أنواع العبودية؛ لأن العبودية إما عامة، وإما خاصة، وإما خاصة الخاصة، فوصف الرسل بالعبودية تكون خاصة الخاصة، ووصف المؤمنين بالعبودية تكون خاصة، ووصف عموم الناس بالعبودية تكون عامة، وعليه فالعبودية في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم:٩٣] هذه عامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] هذه خاصة، وفي قوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ هذه خاصة الخاصة، وداود من أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾[البقرة:٢٤٦] وفي أثناء القصة قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ إذًا فهو من بني إسرائيل من بعد موسى عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة] إذًا فالأيد ليست جمع يد، بل هي مُفرد مصدر آد يئيد أيدًا، ونظيره في التصريف باع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، إذًا الأيد: القوة، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[الذاريات:٤٧] أي: بقوة، وقول المؤلف رحمه الله: [القوة في العبادة]، ينبغي أن يُقال: القوة مُطلقًا في العبادة وغير العبادة حتى في الملك؛ لأن الله قال في هذه الآيات: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾[ص:٢٠] فهو ذو أيد في كل ما تكون القوة فيه صفة مدح، إذًا الأيد الأَوْلى أن نجعلها عامة في كل ما تكون القوة فيه، وهذه صفة مدح؛ لأن المقام مقام مدح لداود عليه الصلاة والسلام، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يذكره.

قال المؤلف: [﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ويقوم نصف الليل، وينام ثُلثه، ويقوم سُدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: «كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[(1)] فالعبارة فيها انقلاب على المؤلف؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينام نصف الليل؛ ليعطي نفسه حظَّها من الراحة، وليُجدِّد نشاطه؛ لأن في النوم فائدتين للجسم: الأولى: قطع التعب السابق والاستراحة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[النبأ:٩] أي: قطعًا لما حصل من المشقة والتعب، واستعداد الجسم للقوة في المستقبل، ولهذا إذا نام الإنسان وهو مُشتهٍ للنوم، ثم قام وجد نفسه نشيطًا، فكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه؛ لِأَجْلِ أن يُعطي نفسه راحتها من تعب قيام الليل، وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل، فكان لا تُلفِيه السحرَ إلا نائمًا، أي غالب أحيانه ينام عليه الصلاة والسلام في آخر الليل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾ الجملة استئنافية لبيان حال داود: أنه قوي، وأنه رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى، كلما حدَّثته نفسُه بالكسل عاد فنشط، وكلما حصل منه زلةٌ عاد فتاب إلى الله. والأواب صيغة مبالغة من آب يؤوب، واسم الفاعل «آيِب»، وصيغة المبالغة أَوَّاب. قال المؤلف: [رجاع إلى مرضاة الله].

الفوائد:

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

١ - أنَّ الرسول ﷺ يتأثر بتكذيبهم، ولهذا أمره الله بالصبر؛ لأجل أن يُعينه على صبره عليهم،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وهذا أمرٌ لا شك فيه، أي: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتأثر من تكذيبهم ويتألم؛ لأنه عليه الصلاة السلام جاء رسولًا من عند الله، فإذا كذَّبه هؤلاء، فإنهم يكونون قد كذَّبوا الله عزَّ وجلَّ، فيتألم النبي ﷺ لذلك، كما أنه بشر يتألم بمقتضى الطبيعة البشرية أيضًا، فإن البشر لا بد أن يتألم إذا رُد قولُه وكُذب وعُورض وقُدح فيه من أجله، لا بد أن يتأثر مهما كانت حاله.

٢ - **ومن الفوائد**: وجوب الصبر على أذى الكفار، لقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

٣ - **ومن الفوائد**: أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور، يُؤمر ويُنهى، وليس ربًّا آمرًا ناهيًا، ولولا أن الله أمرنا بطاعته لكان كغيره من البشر، لا تجب طاعته، لكنَّه رسولُ الله، أمرَنا الله بطاعته ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩].

٤ - **ومن الفوائد**: أن هذا الأمر الصادر صادر منهم جميعًا، أو من أكثرهم، أو من أشرافهم ووجهائهم، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فأضاف القول إلى الجميع، فإما أن يكون الجميع كلُّهم يقولون هذا، وإما أن يكون الأكثر يقول بذلك، فنُسب إلى الجميع اعتبارًا بالأكثر، وإما أن يكون القائل هم الأشراف والوجهاء، فيكون قول هؤلاء قولًا للجميع؛ لأن الأتباع سوف يُقلدونهم.

٥ - **ومن الفوائد**: ذكر ما يتسلَّى به العبد، وتذكيره بذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: فضيلة داود عليه الصلاة والسلام، وأنه عبد.

٧ - **ومن فوائدها**: أن داود قويٌّ في عبادته لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا الأيد أي: القوة في الوصف الذي وصفْناه به وهو العبودية.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الثناء على القوي في العبادة لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة في العبادة، وعليه يتنزلُ قولُ الرسول ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1] فإن المراد بالقوة هنا القوة في الإيمان، يعني القوي في إيمانه، لأن القويَ وصف يعود على المؤمن، فيكون المراد القوي في هذا الوصف، وليس قويَّ البدن؛ لأن قوة البدن قد تنفع وقد تضر، بخلاف قوة الإيمان فإنها نافعةٌ لا مضرة فيها.

٩ - **ومن الفوائد**: فضيلة داود أيضًا من جهةٍ أخرى وهو أنه مع قوته في العبادة رجَّاع إلى الله من ذنبه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: رجَّاع إلى ربه لو أذنَب فإنه يرجع إليه كما تدل عليه القصة التي ستأتي.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: إثبات العلل والأسباب، لأن الجملة في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ تعليلية لكون داود عليه الصلاة والسلام موصوفًا بالقوَّة والعبودية؛ لأنه رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ، وكل من كان رجاعًا إلى الله فسوف يكون قويًا في عبوديته.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨، ١٩]

التفسير

ثم ذكر الله تعالى ما مَنَّ به عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أي: ذللناها له، والله سبحانه وتعالى يَذُلُّ له كل شيء، فسخر الله الجبال، أي: ذللها حتى تُسبِّح بتسبيح داود، وهي، أي: الجبال تسبح تسبيحًا مُطلقًا، وهذا هو التسبيح العام، وتسبح تسبيحًا خاصًا، كما أُمِرت أن تُسبح مع داود عليه الصلاة والسلام، وإلا فهي تُسبِّح تسبيحًا عامًّا مُطلقًا، كما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء:٤٤] أي: ما من شيء إلا يُسبِّحُ بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:٤٤].

أما التسبيح الذي سخر الله الجبال عليه مع داود فهو تسبيح خاص ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ والجبال جمع جبل وهو معروف، ﴿مَعَهُ﴾، أي: مع داود قال المؤلف رحمه الله: [يُسبحن بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾: وقت صلاة العشاء ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وقت الضُحى]. قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في» لكن يظهر - والله أعلم - أنّه إذا أُريد بالظرفية استيعاب الوقت أُتي بدل «في» بالباء، لأن الباء تدل على الاستيعاب والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ﴾[الحج:٢٩] وكما قال: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] ولهذا لا بُدَّ من استيعاب البيت بالطواف، واستيعاب ما بين الصفا والمروة في السعي. إذًا الباء هنا للظرفية لكنها جاءت مكان «في» للدلالة على الاستيعاب، يعني كل العشي.

وقول المؤلف: [﴿بِالْعَشِيِّ﴾: وقت صلاة العشاء] هذا فيه نظر، والصحيح أن المُراد بالعشي آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب:٤٢]. فالمراد بالعشي آخر النهار، وفي حديث أبي هريرة المشهور بحديث ذي اليدين، قال: صلَّى بنا الرسول ﷺ إحدى صلاتي العشي[1]. يعني الظهر أو العصر.

قال المؤلف: [﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وقت صلاة الضحى، وهو أن تُشرق الشمس ويتناهى ضوؤها] هناك إشراقٌ، وهناك شروقٌ، وبينهما فرق، فالشروق ظهور الشمس، يُقال: شرقت الشمس،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

يعني ظهرت، والإشراق: ارتفاع الشمس حتى يصحو ضوؤها وتكون بيضاء، فالإشراق معناه دخول الشمس في الإضاءة الكاملة البيضاء، والشروق ظهور الشمس، فإذا طلع حاجب الشمس من المشرق، يُقال له: شروق، وإذا ارتفعت حتى زادت حُمرتها أو صُفرتها، يُقال: إشراق. ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: بعد أن ترتفعَ الشمس ويحسُنَ ضوؤها.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ قال المؤلف رحمه الله: [وسخَّرْنا الطير] أفادنا المؤلف أن الطير معطوفة على الجبال. أي: سخرنا الجبال وسخرنا الطير، وليست معطوفةً على الضمير المُستتر في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على أنها مفعول معه، وقد يقول القائل: يُسبحن والطيرَ، كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبأ:١٠] فالمؤلف – رحمه الله – أفادَنا بتقدير: سخرْنا، أن الطير معطوفة على الجبال، وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ منصوبة على الحال، يعني والطير حال كونها محشورة.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلونها صفةً للطير؟ قلنا: الذي يمنع من أن تكون صفةً أنها لم توافق الموصوف في التعريف، والصفة تتبع الموصوف في التنكير والتعريف، و(محشورة) نكرة، بينما (الطير) معرفة.

﴿مَحْشُورَةً﴾ يقول المؤلف: [مجموعة إليه تُسبِّح معه] لو قال قائل: أليست الحال صفةً؟ فلماذا لا نقول: محشورة صفة للطير؟ نقول: هي صفة في المعنى، وخبر مبتدأ صفة في المعنى، وما يعرف بالنعت عند النحويين صفة، لكن لا يلزم من الصفة في المعنى أن تكون صفة له في اللفظ.

قال المؤلف: [﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح]. ﴿كُلٌّ﴾ منونة تنوينًا يُسمَّى تنوين العوض. وكلّ وبعض تنوينهما تنوين عوض، وذلك لأنه لا بد من إضافة، ولكن قد يُحذف المُضاف إليه ويعوض عنه التنوين. كمثل ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ والتقدير بدون قطع الإضافة: كلهن، أي: الجبال والطير، لأنها لا تَعقِل، كلهن له أواب، فحذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين. قال المؤلف:[من الجبال والطير] هذه بيان للمضاف إليه، يعني أنها على تقدير كلهن، أي: الجبال والطير، ﴿لَّهُۥٓ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح، ويحتمل أن يكون رجَّاع بمعنى أن هذه الطيور تذهب وتعيش ثم ترجع لأجل أن تُؤَوِّب معه، والسياق والمعنى لا يمنعه، فكلٌّ من الجبال والطير أواب إلى داود بمعنى مُطيع له، وبمعنى آخر بالنسبة للطير أنها ترجع إليه بعد أن تذهب لتقوم بقوتها ثم تعود إليه.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية الكريمة** بيان أن الأمور كلها بيد الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ﴾ أي: ذلَّلناها، والجبال خَلْقٌ عظيم لا يستطيع أحد أن يؤثر فيه، ولكن الله تعالى بقدرته يُسخرُها ويُذللها.

٢ – **ومن الفوائد أيضًا:** أن للجماد إرادةً، يدل عليه قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ لأن التسبيح لا بد أن

يكون بإرادة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ويترتب على هذه الفائدة ردُّ قول من يقول: إن قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف:٧٧] فيه مجاز حيث قالوا: إنه لا إرادة للجدار، ونحن نقول: بل له إرادةٌ، لأن الله تعالى أثبت له الإرادة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء خاضع لأمر الله، الطير التي تسبح في الهواء خاضعة لأمر الله، وهذا هو ما أكده الله في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾[المُلك:١٩].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الجبال والطير تُسبِّح مع داود عليه السلام وترجّع معه؛ لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: كل لداود رجّاع، أي: مُرجِّع معه، إذا سبَّح سبَّحت الجبال، إذا سبَّح سبَّحت الطيور المجموعة إليه، وقيل: إن الأوَّاب: الرجَّاع وليس المرجِّع الذي يرجع إلى داود، والمعنيان مُتلازمان؛ لأنه إذا كان رجَّاع يرجع إلى داود ليسبح معه فهو مرجِّع معه، على أن في الآية قولًا آخر في مَرجِع والضمير في قوله تعالى: ﴿لَّهُ أَوَّابٌ﴾ فإن من أهل العلم من قال: إن الضمير في قوله: «له» يعود إلى الله، وأنه من باب الالتفات بدلًا من أن يقول: كل لنا أواب، قال: كل له أواب، ولكن هذا المعنى لا يتعين، بل المعنى الأول أظهر كما مشى عليه المؤلف رحمه الله.

قال الله تعالى:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قَوَّينا مُلكَه؛ لأن الشدَّ يأتي بمعنى التقوية، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ:١٢] أي: قوية بدليل قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾[الذاريات:٤٧] أي: بقوة، فالشدُّ هنا بمعنى القوة، أي: قَوَّينا مُلكَه، وتقوية المُلك فسَّرها المؤلف بقوله: [قَوّيناه بالحرس والجنود] وهذا لا شكَّ نوع من التقوية أن يكون لدى الملك حُرَّاس وجنود، الحراس هم الموالون له، والجنود هم التابعون له وإن لم يوالوه، لكنهم جنود له، متى أمرهم ائتمروا، وأما الحراس فهم المباشرون للملك، فالله شدَّ مُلكه بالحراس والجنود، هذا وجه من شدِّ المُلك، وشد ملكه بقوة السلطان؛ لأن السلطان إذا كان ضعيفًا مهما كان عنده من الحرس والجنود فإنه ضعيف، لكن إذا أعطاه الله القوة والعزيمة وعدم المبالاة بأعدائه فهذا شُدَّ ملك. وإن كان الملك عنده آلاف الجنود والحراس ولكنه ضعيف، يخاف من ظله، ولا يحمي

حدوده، هذا لا شك أنه وإن كان عنده حراس كثيرون وجنود، فإن مُلكَه ضعيف؛ لأن غاية ما ينفعه الجنود به أن يكونوا مُدافعين فقط، لكن إذا قَوَّى الله مُلكه بما عنده من قوة العزيمة والجلد والصبر والتحمل وعدم المبالاة بالأعداء، صار حينئذٍ عنده قوة مُهاجمة ومُدافعة، الأمرين جميعًا. أما من عنده جنود فالغالب أنه يُحرَس لضعفه، ولا أحد يشك بأن عمر بن الخطاب ﷺ من أقوى الناس مُلكًا لكن خلافة، ومع ذلك ليس عنده جنود يحرسونه، بل هو بنفسه كان يجمع الحصباء في المسجد، ويضع رداءه عليها وينام عليه، ليس عنده أحد ومع ذلك فقد حماه الله عز وجل.

إذنْ شدُّ المُلكِ ليس مُقتصرًا على كثرة الحرس والجنود، بل قد يكون في الحرس والجنود ما يؤدي إلى الضعف، إذا كان الإنسان لا يقوى ولا يتحرك إلا بالحرس والجنود، فهذا قد يكون دليلًا على ضعفه وخوفه وعدم أمنه، لذلك فإن اقتصار المؤلف - رحمه الله - على كثرة الحرس والجنود في شَدِّ المُلك، لا شك أنه ضعيف جدًّا، وأهم شيء أن يُقوِّى مُلكه بما لديه من الشخصية وقوة العزيمة وعدم المبالاة بأعدائه.

قال رحمه الله: [﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه بالحرس والجنود، وكان يحرس محرابه في كل ليلة ثلاثون ألف رجل] هذه إسرائيلية بلا شك، لم ترد عن معصوم، وبناءً على ذلك، فإن كانت قريبةً من التصور فإننا لا نصدقها ولا نُكذِّبها، وإن كانت بعيدةً من التصور فإننا نُكذِّبها. والبعيد من الواقع الذي لم يرد عن معصوم يُكذَّب؛ لأنه ليس فيه خبر ثابت، فإذا لم يكن هناك خبر ثابت رجعْنا إلى تحكيم العقل. فهل يُعقل مثلًا أن يكون عند داود كل ليلة ثلاثون ألفًا يحرسون محرابه! على كل حال هذا خبر إسرائيلي، وأقرب ما يكون عندي أنه كذب، وأنه إن صحَّ أن عنده حرسًا فليكونوا خمسة أو عشرة وما أشبه ذلك، ثم إنه سيأتينا في قصة الخصوم أنهم تسوروا المحراب، فهل يتسورون المحراب وحوله ثلاثون ألفًا؟

فالحاصل أن مثل هذه القصص الإسرائيلية تكون عندنا على ثلاثة أوجه:

الأول: ما شهد شرعُنا ببطلانه فهو باطل.

الثاني: ما شهد شرعُنا بصدقه فهو حق بشهادة شرعنا.

الثالث: ما لم يشهد شرعنا بخلافه فإننا نرجع إلى العقل إن كان قريبًا فإننا لا نصدق ولا نكذب، وإن كان بعيدًا فإننا نكذب؛ لأن هذا لَمَّا انتفى فيه الدليل الشرعي، نرجع فيه إلى الدليل العقلي، فإذا كان العقل يستبعده أبعدْناه.

يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ آتيناه: أعطيناه، وهناك فرق بين آتيناه وأتيناه، آتيناه بمعنى أعطيناه، وتنصب مفعولين، من باب كسى، وأتيناه بمعنى جئناه، وتنصب مفعولًا واحدًا ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت:١١] أي: جئنا طائعين، ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحِجر:٦٤] أي: جئناك بالحق، أما آتى بالمد بمعنى أعطى، فتنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ

والخبر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هنا نصبت مفعولين: الأول: الهاء، والثاني: الحكمة. وما هي الحكمة؟ قال المؤلف: [النبوة والإصابة في الأمور]؛ لأن النبوة حكمة بلا شك. كل نبي فإنه مؤتىً للحكمة، قال الله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[البقرة:٢٦٩] والإصابة في الأمور أيضًا حكمة، كون الإنسان يُوفَّق للإصابة في الأمور مثل أن يكون ذا رأي سديد، فإن هذا لا شك أنه حكمة، ولهذا يُقال: فلان حكيم زمانه، أي: لإصابته في الأمور.

وقوله: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال المؤلف: [البيان الشافي في كل قصد] فصل الخطاب، هل المعنى أنه يفصِل الخطاب الصادر من غيره بمعنى أنه يفصِل بين الخصوم، ما تخاطبوا فيه، كما يدل عليه قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ لأن المتخاصمين كل منهما يأتي بحجة، يتكلم ويقول، ولهذا قال ﷺ: «إِنَّكُم تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحِجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ»(١).

إذًا فصل الخطاب يعني فصل الخطاب الحاصل من غيره، أي: يفصل في خطاب الناس، أو فصل الخطاب يعني خطابه هو، يعني أن خطابه كان فصلًا، أي: ذا بيان وفصاحة، نقول: المعنيان محتملان، فالآية تحتمل هذا وهذا، وهما لا يتنافيان، فيجب أن تكون الآية محمولةً عليهما، حتى إن بعضهم قال: إن فصل الخطاب هو قوله: أما بعد؛ لأن «أما بعد» تفصل ما قبلها عمّا بعدها، ولكن هذا ليس بصحيح، أما بعد لا شك أنها تُعطي الكلام رونقًا وجمالًا وتفصيلًا، لكن كوننا نجلعها هي فصل الخطاب فيه نظر، والله أعلم.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية:** أن الله سبحانه وتعالى قَوَّى ملك داود بما ذكرْنا من التقوية المعنوية والحسية.

٢ - **ومن فوائدها:** أن تقوية المُلْك من أكبر أوصاف المَلِك التي يتمتع بها؛ لأن الله تعالى مَنَّ بها على داود عليه السلام في قوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾.

٣ – **ومن فوائدها:** الثناء على داود عليه السلام بأن الله تعالى مع تقوية مُلكِهِ آتاه الحكمة في تصرفه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

٤ – **ومن فوائدها:** أن الله تعالى مَنَّ على داود عليه السلام بفصل الخطاب، أي: الخطاب الفصل البين الذي يفصل به بين الناس، ويفصُل به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

❁ قال الله تعالى:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢١-٢٥]

❁ التفسير ❁

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما سبق لأن الكلام كلُّه في شأن داود، والاستفهام هنا يقول المؤلف: [للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده] يعني أن هذه القصة عجيبة، وأنها لكونها عجيبة مما يشوق إليه، والاستفهام كما نعلم جميعًا تختلف معانيه بحسب السياق، وإلا فإن الأصل فيه أنه الاستخبار عن الشيء، أي: طلب الإفهام عنه، يُقال: استفهم عن كذا، أي: طلب الإفهام عنه. هذا الأصل، لكن سياق الكلام يُغير المعاني الأصلية إلى ما يقتضيه السياق، فالمُراد به هنا التشويق، وله نظير، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف:١٠] المُراد به هنا التشويق، وقد يكون المُراد بالاستفهام التهويل مثل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[الغاشية:١] يقول: [﴿هَلْ﴾ استفهام هنا للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿أَتَىٰكَ﴾ يا محمد] جعل المؤلف الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن يجوز أن يكون الأمر كما ذهب إليه المؤلف، ويجوز أن تكون الكاف لكل مَن يصحّ خطابه، أي: وهل أتاك أيها المُخاطب، وإذا قلنا بهذا القول صارت دلالة الآية أعمَّ.

والقاعدة عندنا في التفسير أنه كلَّما كان أعمّ فإنه أولى، وعليه فيكون المُراد بالكاف هنا المخاطبة لكل من يصحّ خطابه، واعلم أن كل خطاب في القرآن الكريم موجَّه إلى مُخاطب فإنه على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يدل الدليلُ على أنه عامٌّ فيؤخذ بعمومه.

الثاني: أن يدل الدليلُ على أنه خاصٌّ فيؤخذ بخصوصه.

الثالث: ألَّا يكون هناك دليل لهذا ولا لهذا فيؤخذ بعمومه.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق:١] فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خطاب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن حكمه عامٌّ؛ لقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فجعل الحكمَ عامًّا لجميع الأمة.

وما دل الدليلُ على خصوصه فمثل قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[يس:١ - ٣] هذا خطاب خاصٌّ بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يَشْرَكُهُ غيره.

وما كان مُحتملًا لهذا وهذا، فهو كثير ومنه هذه الآية ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ مرَّ علينا قريبًا الفرق بين أتاك وآتاك، ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ نبأ بمعنى خبر، ولكنه لا يُقال غالبًا إلا في الخبر الهام ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النبأ:١ - ٢]. فهنا نبأ بمعنى خبر، لكنه في أمرٍ هام، وقوله: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ أي: المتخاصمين بدليل قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ فالخصم لفظه مفرد لكن معناه الجمع، وسُمِّي المتخاصمون خصمًا؛ لأن كل واحد منهما يريد أن يَخْصِم صاحبه، أي: أن يغلبه في الحجة، ويقطع حجته ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قوله: إذ متعلقة ولا يصح أن تتعلق بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لأن تسورهم للمحراب سابق ولا بـ (النبأ)؛ لأن تسورهم للمحراب أيضًا سابق، ولكنها تتعلق بشيء مُقدر يدل عليه السياق، يعني اذكر إذ تسوروا المحراب. قال المؤلف: [محراب داود، أي: مسجده، حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة] ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ بمعنى دخلوا مع سوره لأن المكان مُسور، لأنه بيت يتعبد فيه، فهو مُسور وله أبواب، فجاءوا ذات يوم - أي الخصم - فوجدوا الباب مُغلقًا، والخصوم كما تعرفون كل ذي حاجة فهو أعمى، قالوا: هذا الذي أغلق باب بيته أو محرابه نتسلق أو نتسور عليه، نأتيه من فوق، فتسوروا المحراب، يقول المؤلف: [حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشَغَلِهِ بالعبادة، أي: خبرُهم وقصتُهم] فهو عليه الصلاة والسلام أغلق الباب؛ لأنه أراد أن يتعبد لله، وهذا لا شك أنه يمنع من وصول الخصوم إليه، لكن الله سبحانه وتعالى سلَّط هؤلاء حيث جاءوا فوجدوا الباب مُغلقًا، أو مُنعوا من الدخول، فتسوروا المحراب من السور.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ» بدل من «إذْ» الأولى، ويحتمل أن تكون متعلقة بتسوروا، وأنا أقول هكذا؛ لأن إذ: ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد لهم من متعلَّق، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: خاف، وذلك لأنهم جماعة وتسوروا المحراب، ومثل هؤلاء يخيفون. أرأيت لو أن

أحدًا تسوَّر عليك البيت وهم جماعة، لا شك أنك ستخاف، والخوف هنا طبيعي تقضيه الطبيعةُ والجبلةُ، ففزع منهم، فلما رأوه قد فزع ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ يعني أننا ما جئنا لقتل ولا نهب ولا تخريب ﴿خَصْمَانِ﴾ أي: نحن خصمان، [قيل: فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع، وقيل: اثنان، والضمير بمعناهما]، يعني خصمان، أي: طائفتان مُختصمتان، والذين قالوا: إن المُراد هنا بالخصمين الطائفتان استدلوا بدليل الجمع السابق، وهو قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و ﴿دَخَلُواْ﴾ وقيل: إنهم خصمان، أي: رجلان اثنان اختصموا، [والضمير بمعناهما]، أي: ضمير الجمع السابق بمعنى هما، أي: بمعنى الاثنين، ولكن الذي يظهر الأول، خصمان، أي: فريقان مختصمان؛ لأن ذلك هو المطابق لضمير الجمع، ولأن ذلك هو الذي يحصل منه الفزع، لأنهم إذا كانوا جماعةً صار الفزع منهم أكثر.

وقول المؤلف: [والخَصم يُطلق على الواحد وأكثر] صحيح فيُقال لِمُدَّعٍ خصم ومدعى عليه خصم، ولو كان واحدًا، ويُقال لجماعة مع جماعة: هم أيضًا خصم.

يقول المؤلف رحمه الله: [وهما مَلَكان جاءا في صورة خصمين، وقع لهما ما ذُكر على سبيل الفرض لتنبيه داود على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها، وتزوجها ودخل بها] يقول المؤلف: إن هذين الخصمين مَلَكان أرسلهما الله سبحانه وتعالى إلى داود من أجل أن يُنبهه على قضية معينة. هذه القضية كما تقول الإسرائيليات: إنه عشق امرأة رجل، فأمر زوجها أن يخرج للجهاد لعله يُقتل، فإذا قُتل تزوجها، فأرسل الله تعالى إليه الملكين من أجل أن يُنبهاه على بشاعة هذه القضية؛ لأنها بشعة من أدنى الناس فكيف تكون من نبي ؟! وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يُنبهه بالوحي فيقول: يا داود لِمَ تفعل كذا؟ كما نبَّه الله آدم حينما أكل من الشجرة بدون ضرب مثل، وكذلك نبَّه الله مُحمدًا عليه الصلاة والسلام حين عفى عن قوم من المنافقين بدون أن يتبيَّن أمرهم بدون ضرب مثل، ونبّهه على تحريمه ما أحل الله له لابتغاء مرضاة أزواجه بدون ضرب مثل، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى يُنبه على ما يحصل من الرُسل بدون أن يضرب لهم أمثالًا، لكن هذه القصة الإسرائيلية أبتْ إلا أن يُضرب مثلًا لفعل داود المُدّعي المزعوم.

والحقيقة أن هذه القصة باطلة، لا يحل لأحد أن يعتقدَها في داود عليه الصلاة والسلام، أنه عشق امرأة رجلٍ وأراد أن يتزوجها، وأنه كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل بها المئة. هذا غير لائق بأدنى واحد من الناس فضلًا عن نبي من أنبياء الله، لكن اليهود - لعنة الله عليهم - لا يُبالون أن يُلطخوا الأنبياء كما لطخوا مَنْ أرسل الأنبياء فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وقالوا: إن الله يتعب، فليس غريب أن يُلطخوا الأنبياء بالعشق والحيل والمكر، فلهذا لطخوا داود عليه السلام بهذه الكذبة.

والصحيح الذي لا شك فيه: أنهم خصمان من البشر وليسوا ملائكة، خصمان من البشر تنازعا في قضية بينهما ستأتي في القرآن الكريم، وكل ما سوى ذلك فإنه كذب، لأن القرآن يُكذِّبه فإن القرآن إذا أتى بالقصة فلا بد أن يأتي بها على وجه الكمال؛ لتكون عبرة، وعلى وجه الصراحة؛ لئلا يكون فيها التباسٌ أو اشتباه، فالقصة كما هي في القرآن تمامًا، لا يوجد ملائكة ولا يوجد رجل له زوجة حسناء أرادها داود أبدًا، ولا يجوز للمسلم أن يعتقد هذا في أحد من أنبياء الله.

والقصة هي: أنهم دخلوا عليه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ خصمان بغى بعضهما على بعض، أي: اعتدى عليه؛ لأن البغي هو العدوان، وطلبوا منه: أن يحكم بينهم لكنهم أضافوا كلمة ليست بجيدة قالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ومثل هذا لا ينبغي أن يُقال لنبي من الأنبياء، بل ولا ينبغي أن يُقال لأي حَكَم يُتحاكم إليه، لأنك إذا تحاكمت إلى رجل مع خصمك فإنكما تعتقدان أن ما يقوله هو الحق. ليس الحَكَم في مقام تهمة حتى يُقال: احكم بيننا بالحق، ولهذا انتقد الصحابة رضي الله عنهم في قصة العسيف(1) الذي زنى بامرأة من استأجره لما حضر أبو الولد الزاني وزوج المرأة، قال أحدهما: للرسول ﷺ: أَنْشُدُكَ اللهَ إلا قضيتَ بيننا بكتاب الله، فناشد الرسول ﷺ أن يقضيَ بينهم بكتاب الله، قالوا: وقال الآخر، وكان أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، ولم يُناشد الرسول ﷺ، لأن طلب المناشدة في هذا المقام خطأ. فأنت ما جئت إليه إلا وأنت تعلم أنه يحكم بكتاب الله، فلا حاجة لأن تُناشده.

هؤلاء قالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو لن يحكم إلا به حتى بإقرارهم، لأنهما جعلاه حكمًا ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ الشطط يعني النقص أو الجور، ولهذا قال المؤلف في تفسيره: [لا تجُر] أي: لا تجُر بالحكم فتميل مع أحدنا [﴿وَٱهْدِنَآ﴾ أرشدنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسط الطريق الصواب] يعني إذا حكمتَ فاحكم بالحق، بالعدل، وبدون جور ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: دُلَّنا إلى الصراط السواء، يعني إلى وسط الصراط، أو إلى الصراط المستقيم، وعليه فتكون ﴿سَوَآءِ﴾ من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. يعني اهدنا إلى الطريق السوي العدل، والهداية هنا هداية دلالة وإرشاد لأنه لا يستطيع أن يُجبرَهم على ما يحكم به، لكن هي دلالة، فلو قال المؤلف في ﴿وَٱهْدِنَآ﴾ لو قال: دلنا لكان أحسن.

والقضية هي: أن أحدَ الخصمين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ سبحان الله، هذان الخصمان غريبان، يتخاصمان ثم يقول أحدهما للآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ والخصومة عادةً، أن الخصم يَسُبُّ خِصمه فيقول: هذا المعتدي الظالم الفاجر، أما هذا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ وهو يدل على أن الخصومة ليست تحمل وراءها شيئًا من العداوة والبغضاء.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي: على ديني] وقال المؤلف هذا؛ ليفيدَ أن الأخوة هنا ليست

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٥٩)، ومسلم (١٦٩٧).

أخوة نسب، بل هي أخوة الدين، ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ أي: مئة إلا واحدة.

و ﴿نَعۡجَةٗ﴾ منصوبة على أنها تمييز، وكل عدد له تمييز؛ لأن العدد إذا لم يذكر المعدود كان مُبهمًا، وإذا ذُكر المعدود كان هذا تمييزه، ثم هذا التمييز قد يكون مجرورًا وقد يكون منصوبًا ففي قولنا: عشرة رجال، التمييز مجرور، وفي قولنا: عشرون رجلًا، التمييز منصوب، هنا ﴿نَعۡجَةٗ﴾ التمييز منصوب؛ لأن كل ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين كلها يكون تمييزها منصوبًا.

قال المؤلف في تفسير ﴿نَعۡجَةٗ﴾: [يعبر بها عن المرأة] يفيد بأن هذا ليس هو الأصل في النعجة، وهو كذلك، فالأصل أن النعجة أنثى الغنم، أنثى الشياه وليست هي المرأة، فإذا كان هذا هو الأصل فمن ادعى أن المراد بالنعجة هنا المرأة فعليه الدليل، فالنعجة ليست هي المرأة، في هذه الآية، بل هي واحدة الضأن.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: مئة إلا واحدة ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ وأكَّدها بقوله: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ من أجل تقليلها، وإلا فإن الواحدة مفهومة من قوله: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ﴾ لكنه قال: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ تأكيدًا للقلة، أي: ليس لي إلا واحدة ثم قال: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلها، وذلك بأن تضمها إلى نعاجي؛ لأنه إذا ضمها إلى نعاجه صارت في ملكه، وهو الكافل لها، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾ غلبني في الخطاب، قال المؤلف: [أي: الجدال] يعني أنه صار يُجادلني حتى غلبني فأقررت له [واقره الآخر على ذلك] الآخر يعني المُدَّعَى عليه، وليس في الآية ما يدل على أن المُدَّعَى عليه أقرَّ أو أنه أنكر. المدعى عليه مسكوت عنه، فدعوى أنه أقرَّه يحتاج إلى دليل، ولو كان هذا هو الواقع لذكرَه الله عزَّ وجلَّ، لما في حذفه من الإيهام الذي يجعل حُكْم داود حُكمًا فيه شيء من الجور. لأن حذفه يؤدي إلى سوء الظن بداود عليه الصلاة والسلام، حيث لم يستكمل مُجريات القضية.

فالظاهر - والله أعلم -: أن داود عليه الصلاة والسلام لَمَّا سمع هذا العدوان من هذا الشخص الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، ثم ذهب يحاول أن يستلب حقّ هذا الفقير الذي ليس عنده إلا نعجة واحدة، كأنه عليه الصلاة والسلام غضب وحكم للمدعي فقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر واللام وقد، لأن تقدير الكلام: والله لقد ظلمك.

وقوله: ﴿ظَلَمَكَ﴾ أصل الظلم في اللغة: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[الكهف:٣٣] ويُطلق في الشرع على النقص والعدوان، يعني على نقص الحق والعدوان في طلب ما ليس للإنسان، فهو في الحقيقة العدوان سواء كان بنقص ما يجب أو بادعاء ما لا يستحق، فمن ضرب شخصًا أو أخذ ماله، قيل: إنه ظلمَه، ومن جحد ما هو له وأنكر، قيل: إنه ظلمَه. والظلم في قوله ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ من العدوان، ولهذا قال المؤلف: [﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ

نَعۡجَتِكَ﴾ ليضمها ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾] قدر المؤلف: ليضمها، من أجل أن يصح التعبير بـ «إلى» لأن السؤال لا يتعدى بـ «إلى» لكنه مُضمَن معنى الضم، أي: بسؤاله أن يضم نعجتك إلى نعاجه.

وجه الظلم في هذا ظاهر؛ لأن صاحب التسعة والتسعين قد أنعم الله عليه نعمة كبيرة، وصاحب الواحدة مُعدم فقير، وأيضًا فإن هذه الواحدة ملك له، فكيف يعتدي هذا ويقول: أعطنيها، ويلحُّ عليه حتى يغلبه في الحجاج والمخاصمة.

ثم قال داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ عندنا كثير وقليل، كثير يبغي بعضهم على بعض، وقليل لا يبغي بعضهم على بعض، فالقليل الذي لا يبغي بعضهم على بعض هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمؤمن العامل للصالحات لا يحدث منه البغي لما معه من الإيمان والعمل الصالح، ومَنْ فاته شيء من هذا الوصف حصل منه من البغي بمقدار ما فاته من الوصف، فمن نقص إيمانه حصل منه البغي، ومن قلَّت أعماله الصالحة حصل منه البغي؛ لأن الأعمال الصالحة يجرُّ بعضها بعضًا، فإذا عمل الإنسان عملًا صالحًا أتبعه بعمل آخر؛ لأن للطاعة لذةً وسرورًا في القلب، إذا قام الإنسان بها ازداد رغبةً فيها، وإذا أعرض قلَّت أهميةُ الطاعات عنده وضعف قصدُه للطاعات وتجرَّأ على المعاصي.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ يعني الشركاء ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ اللام في قوله: ﴿لَيَبۡغِي﴾ للتوكيد، ويبغي: من البغي، وهو العدوان، وهذا هو الواقع: أن كثيرًا من الشركاء يبغي بعضُهم على بعض، إما بأخذ بعض من مال الشركة، أو بكتمان الربح لو ربحت، أو التغرير بالمال بحيث يتصرف فيه على وجه ليس فيه حظ للشركة، أو بادعاء أن المشترك ملك خاص له. وأنواع العدوان بين الشركاء كثيرةٌ، ولكن كثيرًا من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، ولهذا إذا أصلح الشركاء النيةَ، ونصح بعضهم بعضًا أفلحوا، وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخنْ أحدُهما صاحبَه فإذا خانَه خرجْتُ من بينهما»(١).

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلا: أداة استثناء وما بعدها في محل نصب؛ لأن الجملة السابقة كلام تام موجب، وإذا سبق الاستثناء كلام تام موجب وجب النصب. قال ابن مالك:

ما اسْتَثْنَتْ إِلَّا مـــع تمامٍ يَنْتَصِبْ وَبَعْـدَ نَفْيٍ أو كَنَفْيٍ انْتُخِـــبْ
إتباعُ ما اتَّصَلَ وانْصِبْ مـــا انْقَطَعْ وَعَنْ تميمٍ فيـــه إبدالٌ وَقَعْ

ولتمام الفائدة: إذا جاءت «إلا» بعد كلام تام موجب وجب نصب ما بعدها على الاستثناء،

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٣٨٣)، والدارقطني (٣٠٣) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢) كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٤٦٨).

وإذا جاءت بعد كلام تام منفي، أي: مستكمل المفاعلة لكنَّه منفي، جاز فيما بعدها وجهان: الأول: النصب على الاستثناء، وإتباع ما بعدها لما قبلها في الإعراب، إلا إذا كان الاستثناء مُنقطعًا، أي: أن ما بعد «إلا» ليس من جنس ما قبلها فيجب النصب، وإذا وقعت «إلا» بعد كلام منفي ناقص كانت بحسب العوامل التي قبلها، إن كان العامل يقتضي رفعًا رُفع، وإن كان يقتضي نصبًا نُصب، وإن كان يقتضي جرًّا جُر.

ونضرب لذلك أمثلة: (قام القوم إلا زيدًا)، بالنصب، لأن الكلام تام موجب. قام القومُ تم الكلام، موجب ليس به نفي، فتقول: إلا زيدًا، وإذا قلت: (ما قام القوم إلا زيدًا، أو إلا زيدٌ) جاز الوجهان الرفع على البدل، والنصب على الاستثناء، فيجوز أن تقول: (ما قام القوم إلا زيدٌ) بتنوين ضم، أو (ما قام القوم إلا زيدًا) بتنوين الفتح.

أما قولنا: (ما قام القوم إلا بعيرًا)، هنا يتعين النصب، لأن البعير ليس من جنس القوم، فالاستثناء منقطع، فيجب النصب هنا لتعذر البدلية، وعلى هذا إذا قال قائل: ما قام القوم إلا بعيرٌ قلنا: هذا خطأ، لأن الاستثناء مُنقطع فيجب النصب، وإذا قلت: (ما قام إلا زيدٌ) بالرفع؛ لأن ما قبلها ناقص منفي، فيجب أن تقول: (ما قام إلا زيدٌ)، وفي قولنا: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا) هذا تام منفي، وهذا منصوب على كل حال، ويجوز الوجهان، لكنه منصوب لأنك إن قلت: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، هو مُستثنى فهو منصوب، وإن أعربته بدلًا فهو منصوب، إذًا يجوز الوجهان إعرابًا أما شكلًا فلا يجوز إلا وجهًا واحدًا وهو النصب؛ لأنك حتى وإن جعلته بدلًا سيكون منصوبًا.

وفي الآية هنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تام موجب، فالذين إذًا في محل نصب. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

والعمل يُطلق على القول والفعل، بخلاف الفعل فإنه يطلق على فعل الجوارح والقول على قول اللسان. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه صفة لموصوف محذوف، أي: عملوا الأعمال الصالحات، وجمعها باعتبار أنواع الصالحات: صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وبر، وصلة، وأنواع كثيرةٌ فلهذا جُمعت. وأحيانًا يقول: عَمِلَ صالحًا فيفرد باعتبار جنس العمل على سبيل العموم.

والأعمال الصالحات قال أهل العلم: هي ما جمعت شرطين، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فلا صلاح مع شرك، ولا صلاح مع بدعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠] وعلى هذا لو أن رجلًا صلَّى رياءً فعمله غير صالح لفقد الإخلاص. ولو أن رجلًا تعبد لله بما لم يُشرّعه الله، ولكنه مُخلص يُريد التقرب إليه، لا يُريد شيئًا من الدنيا، فعمله غير صالح لعدم المتابعة.

وقد دلَّ على بطلان ما فيه الشرك آياتٌ من القرآن متعددة، وأحاديثُ من السُنة متعددة، مثل قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «قال اللهُ تباركَ وتعالى: أنا أغْنى الشركاءِ عن الشركِ،

مَن عَمِل عملًا أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه»(١).

ودل أيضًا على اشتراط المتابعة آيات وأحاديث منها قوله ﷺ: «مَنْ عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردّ»(٢) أي: مردود عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الواو: حالية، وقليل: خبر مُقدم، وهم: مبتدأ مؤخر، يعني وهم قليل، و «ما» في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة لفظًا وزائدة معنى، والمقصود بها تأكيد القلة، أي: قلة قليلة من العباد الصالحين من المؤمنين العاملين للصالحات.

وإذا تدبَّرنا الواقع وجدنا الآيةَ مُنطبقة تمامًا عليه، فإن الله يقول يوم القيامة: «يا آدمُ، فيقول: لبَّيك وسعديك. فيقول: أَخرج بعثَ جَهْنَمَ من ذرّيتك فيقول: يا ربِّ كم أُخرجُ؟ فيقول: أخرج من كل مئة تسعةً وتسعين»(٣) هؤلاء كلهم في النار وواحد في الجنة، إذًا القلة قليلة، واحد من مئة قليل جدًا. قال ابن القيم في النونية:

يا سلعةَ الرحمنِ ليس ينالُها في الألفِ إلا واحدٌ لا اثنانِ

إذن نقول: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من بني آدم قليلون جدًا، ويؤكد القلة قوله: ﴿مَّا﴾ في ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة، فقال الملكان صاعدين في صورتيهما إلى السماء: قضى الرجلُ على نفسه، فتنبَّه داود] الرجل يعني داود؛ لأنه حسب القصة الإسرائيلية المزعومة أن له تسعًا وتسعين امرأة، فطلب من رجل ليس عنده إلا امرأة واحدة أن يطلِّق امرأته ليتزوجها داود. وفي وجه آخر للقصة أنه أمرَه أن يخرج في الجيش من أجل أن يُقتل حتى يتزوج امرأته. وقد بيَّنا أن هذا لا دليلَ عليه، وأنه لا يليق بمقام العقلاء فضلًا عن الأنبياء، وأن هذه قصة مزعومة من اليهود، فهم الذين ركَّبوها على داود عليه السلام؛ لأن اليهود لا يعتقدون داود نبيًا، وإنما هو على زعمهم مَلِك.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ قال المؤلف: [أي: أيقن أنما أوقعْناه في فتنة، أي: بلِّية بمحبته تلك المرأة] ظن، أي: أيقن، وإنما نفسره باليقين لأن الأمر أمر واقع من داود حسب القصة، والشيء الواقع لا يُقال: إنه ظن، بل يُقال: إنه علم، فإن قال قائل: هل لديك شاهد على أن الظن يأتي بمعنى العلم؟ قلت: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[البقرة:٤٦] فإن يظنون هنا بمعنى يتيقنون؛ لأن الظن الذي هو الراجح لا يكون إيمانًا بملاقاة الله عزَّ وجلَّ، بل يجب على الإنسان أن يؤمن إيمانًا يقينيًا بأنه مُلاقٍ ربَّه، والظنُّ لا يكفي فيه، وإذا كان الظن لا يكفي فلا يمكن أن يكون مدحًا.

(١)صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).
(٢)متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).
(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢)..

[﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ قال: أوقعْناه في فتنة، أي: بلية]. هذا ما ذهب إليه المؤلف رحمه الله بناءً على صحة القصة، ولكنَّ الصحيح أن المراد بالفتنة الاختبار، فتناه، أي: اختبرناه؛ لأن الفتنة من معانيها الاختبار، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: اختبارًا وابتلاء، كما قال تعالى عن سُليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل:٤٠] إذًا ﴿أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ أي: اختبرْناه، وعلى رأي المؤلف، أي: ابتليْناه بمحبة تلك المرأة، ولكن هذا ليس بصحيح. ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ الصحيح أنها اختبرْناه، ولكن بأي شيء اختبرناه، لننظر:

أولًا: داود عليه السلام مأمور بأن يحكم بين الناس، فإنها وظيفته عامة، واختصاصه في الوقت بدخوله المحراب، وإغلاق الباب عليه، هذا يُخالف مُقتضى وظيفته. إذ مُقتضى وظيفته أن يتفرغ للناس حتى يُقابلَ الخصوم ويحكم بينهم، هذه واحدة، ولهذا سيأتينا - إن شاء الله - في الفوائد، أنه لا يجوز للحاكم بين الناس، ولمن كان في وظيفة عامة أن يشتغل بشيء خاص لنفسه.

ثانيًا: أن داود عليه السلام سمع كلام الخِصم الأول ولم يستمع إلى كلام الخصم الآخر، لأن القرآن ليس فيه أنه سمع إلى كلام الخصم الآخر.

ثالثًا: أنه حكم وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والحكْم قبل سماع جوابِ الخِصم الآخر فيه شيء من التسرع ما دام الخصم حاضرًا.

لهذا علم داود عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بهذه الخصومة التي جاءت وهو يتعبد في محرابه وتسوروا عليه المحراب، فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي: طلب المغفرة، والمغفرة لغةً: مأخوذة من المِغفَر، وهو ما يُستر به الرأس ليتقي بها السهام. أما شرعًا: فالمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، أي: إن الله يستر على العبد ذنبه فيما بينه وبين الخلْق، ويتجاوز عنه فيما بينه وبين العبد، وهنا تتحقق الوقاية مع الإخفاء؛ لأنه إذا سُتِر عن الخلْق، ثم عُفي عنه من جانب الخالق عزَّ وجلَّ، حصلت الوقاية بالعفو من الخالق، والثاني الستر بعدم إظهار الخلق عليها.

فداود عليه الصلاة والسلام طلب من ربه أن يغفر له ما جرى منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ خرَّ بمعنى نزل من أعلى إلى أسفل، ومنه خرير الماء من الميزاب أو من الشلال. وقوله: ﴿رَاكِعًا﴾ حال من فاعل خر، ولكن المؤلف - رحمه الله - فسَّر الركوع بالسجود، فقال: [أي: ساجدًا] وذلك لأن الركوع الذي هو الانحناء لا يمكن أن يكون فيه خرور؛ لأن الراكع يبقى ثابتًا، ولا يُتصور الخرور إلا بالسجود، ولكنَّ التعبير بالركوع عن السجود من باب التعبير بالمعنى العام عن المعنى الخاص، لأن أصل الركوع في اللغة العربية هو الذُل، كما قال الشاعر:

لا تُهين الفقيرَ علَّك أنْ ... تَركَعَ يومًا والدهرُ قد رفَعهْ

يعني أن تذل، والدهر قد رفعه: أي قد رفع هذا الفقير. إذًا فالذي عُين أن يكون الركوع هنا

بمعنى السجود هو قوله: ﴿وَخَرَّ﴾ ولكنه عبر بالركوع عن السجود لإظهار أن هذا الركوع ركوع ذُلّ لله عزَّ وجلَّ، ثم قال: ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: رجع إلى الله، والإنابة: الرجوع مع الخشية فهو رجع إلى الله مع خشية الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: سترْنا وتجاوزْنا، له أي: لداود، واللام في ﴿لَهُۥ﴾ يُحتمل أن تكون للتعدية، أو أن تكون للتعليل، لكنها للتعدية أولى، وفي كونها للتعليل تأمل، أي: أننا غفرنا لداود ذلك الذي وقع منه، وهي الفتنة التي افتُتن بها، ولم يتخذْ الإجراء اللازم في الحكم.

قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مع المغفرة. أضاف الله له هذه المنقبة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لداود عندنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [أي: زيادة خير في الدنيا]، ويُحتمل أن المُراد بالزُلفى زيادة القرب، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[ق:٣١] أي: قُرِّبت، فالزُلفى تفسيرها بزيادة الخير فيه شيء من النظر، والصواب أن المُراد بالزُلفى القُربى، أما حُسن المآب، فهو زيادة الخير، قال المؤلف رحمه الله تعالى: [﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع في الآخرة]. هذا هو زيادةُ الخير، فصارت النتيجة بعد أن وقع من داود ما وقع ثم رجع إلى الله واستغفره، أن الله سبحانه وتعالى رفع عنه آثار هذا الذنب، فغفر له، وزاده على ذلك زيادتين عظيمتين مهمتين إحداهما: القرب من الله، والثانية: حُسن المآب.

الفوائد:

١ - **أن هذه القصة عجيبة**، وأنها مثار للعجب ولهذا شَوَّق الله إليها بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** بلاغة القرآن حيث يأتي بمثل هذه الصيغة في الأشياء التي ينبغي للإنسان أن يتشوق إليها، ويهتم بها.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الخَصْم يطلق على الواحد والمتعدد اعتبارًا بالمعنى، فإن الجماعة إذا كانت دعواهم واحدة صاروا كأنهم رجل واحد.

٤ - **ومن فوائدها:** أن من أتى البيوت من غير أبوابها فإنَّ فعله هذا سبب للخوف والفزع، لقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن داود عليه الصلاة والسلام في هذه الحال كان قد أغلق الباب، أو جعل عليه حاجبًا يمنع الناس من الدخول عليه.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الحُكْم بين الناس أفضل من العبادات الخاصة، لأن نفعه متعدٍّ، والعبادات الخاصة نفعها قاصر.

٧ - **ومن فوائدها:** أن الأنبياء يلحقهم من الطبائع البشرية ما يلحق غيرهم؛ لقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ حيث لحقه الفزع كما يلحق سائر الناس.

٨ - **ومن فوائدها**: أنه ينبغي إن لم نقل يجب، أن يطمئن المُفزِع مَنْ فزع منه بنفي سبب الفزع قبل كل شيء، حيث قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم ذكروا القصة ولم يبدؤوا بالقصة مباشرة.

٩ - **ومن فوائد القصة**: بيان أن هذين الخصمين قد اعتدى بعضهم على بعض، أي أن المسألة ليست مسألة كلامية، أو ليس فيها عدوان، بل فيها عدوان اعتدى بعضهم على بعض بما ذكروا من السبب.

١٠ - **ومن الفوائد**: أن هذين الخصمين أساءا الأدبَ مِن بعض الوجوه، حيث قالا: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ووجه الإساءة أنهم ما جاءا إلى الحكم إلا وهما يعتقدان أنه سيحْكُم بينهم بالحق، فإذا قالا: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ فإن هذا قد يولد تهمةً من أنه لن يحكم بالحق.

١١ - **ومن الفوائد**: أن الحُكم يحتاج إلى إلزام لقولهم: ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ فإن هذا أمر زائد على الحُكم؛ لأن الحُكم أن يُفصل بينهم، والهدايةُ أن يدلهم على ذلك من أجل إلزامهم به.

١٢ - **ومن فوائدها**: أنَّ كلَّ البشر يطلب الصراط السوي الذي ليس فيه ميلٌ ولا إجحافٌ، لقولهم: ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

١٣ - **ومن فوائد هذه القصة**: لباقة هذين الخصمين حيث لم تثر الخصومة ضغينتيهما، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ مع أنه قال في الأول: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكن هذا البغي لم تُفقد به الأخوة؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾.

١٤ - **ومن الفوائد لهذه القصة**: أن هذه الخصومةَ غريبةٌ، فإن أحدهما كان له تسع وتسعون نعجةً، والآخر له نعجةٌ واحدة، ومع هذا طمع الأولُ في الثاني، وكان الذي يتبادر في الذهن أن يضيف الأول صاحب النعاج الكثيرة إلى الثاني ما تيسر.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن بعض الخصوم قد يكون أقوى في المخاصمة من الآخر حتى يغلبه لقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّكم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع منه، فمن قطعْت له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذْه، فإنما أقطع له به قطعةً من النار»[1].

١٦ - **ومن الفوائد**: أنه ينبغي أن يكون الإنسان قوي الحجة، قوي البيان حتى يحصل له الغلبة على صاحبه، هذا إذا كان بحق، أما إذا كان بغير حق فإن الواجب على الإنسان أن يصمت لنطقَ غيرُه بالحق.

١٧ - **ومن الفوائد في القصة**: أن داود عليه الصلاة والسلام حكم بينهم دون أن يسمع دفاع الخصم الآخر لقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ ولعلَّ داود عليه الصلاة والسلام أراد السرعة في إنهاء القضية؛ ليتفرغ لما احتجب له عن الناس من عبادة الله، وخاف أن يُدلي هذا بشيء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

وهذا بشيء فيطول النزاعُ والخصامُ فبادر بالحكم.

١٨ - **ومن فوائد القصة:** أن أكثر الشركاء يحصل من أحدهم بغيٌ على الآخر لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا من الغريب أن يكون الإنسان كلما قرب إلى الشخص تَقَعَ منه البغيُّ أكثر مما لو كان بعيدًا؛ لأن البعيد ليس بينه وبينه صلة، لكن الذي بينه وبينه صلة وهو الشريك، هو الذي ربما يجحده أو ينكره، أو يفعل شيئًا لم يأذن به أو ما شابه ذلك.

١٩ - **ومن الفوائد في القصة:** أنه ليس جميعُ الخلطاء يحصل منهم البغيُّ، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾.

٢٠ - **ومن فوائد القصة:** أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا وأكثر عملًا من الصالحات كان أبعد عن الظلم والبغي.

٢١ - **ومن فوائدها:** أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحصل منهم البغي، والذي يمنعهم من ذلك هو إيمانهم بالله وبالحساب، وعملهم الصالح الذي يكون درعًا بينهم وبين العدوان والبغي، ووجهه أن استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنما كان من أجل إيمانهم وعملهم للصالحات، والحُكم إذا عُلق بوصفٍ ازداد قوةً بقوة ذلك الوصف. وهذه قاعدة.

٢٢ - **ومن الفوائد:** أن العمل لا ينفع إلا إذا بُني على الإيمان وكان صالحًا، فعملٌ بلا إيمان لا يُقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾[التوبة:٥٤] وكذلك لو كان هناك إيمان، لكن لم يكن العمل صالحًا لِفَقْد الإخلاص أو الاتباع فيه فإنه لا ينفع.

٢٣ - **ومن فوائد هذه القصة:** أن الجمع بين هذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها:** أن الحاكم لا يَحكُم حتى يستوعبَ حجج الخصمين لقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.

٢٥ - **ومن فوائدها:** أن الحاكم الذي نصَّب نفسَه ليكون حكمًا بين العباد لا يَحِلُّ له أن يختفي عنهم في الوقت الذي يكون وقتًا للتحاكم.

٢٦ - **ومن فوائدها:** أن الاشتغال بما فيه مصلحةٌ عامة أفضل من الاشتغال بما فيه مصلحة خاصة.

٢٧ - **ومن الفوائد:** أن الأنبياء قد يُفتنون ويُختبرون لقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ولكنَّ الفتنة التي يُفتن بها الأنبياءُ لا يمكن أن تعود إلى إبطال مقومات الرسالة والنبوة، كالفتنة التي تعود إلى الكذب أو الشرك أو الأخلاق الرديئة وما أشبهها، هذا لا يمكن أن يقع من الأنبياء.

٢٨ - **ومن فوائد القصة:** أن كلَّ شخص مُحتاج إلى الله عزَّ وجلَّ مُفتقِر إليه؛ لقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرَ

رَبَّهُۥ﴾.

٢٩ - **ومن فوائد هذه القصة**: أن الاستغفار سببٌ لمحو ما حصل من الذنوب؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ﴾ مبنية على قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

٣٠ - **ومن فوائد القصة**: أن السجود خضوعًا لله من سنن الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾، وهل يشرع لمن أذنب أن يفعل كما فعل داود، أو أن يصلي ركعتين تامتين؟

الجواب: المشروع إذا أذنب الإنسان أن يتوضأ ويسبغَ الوضوء، ويصلي ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، فمن فعل ذلك فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه.

٣١ - **ومن فوائد هذه القصة**: إجابة الله سبحانه دعاء مَنْ دعاه؛ لقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ وهذا يستلزم عدَة صفاتٍ، منها العلم والسمع والبصر، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لأن الذي حصل من داود قول يسمع، وفعل يُرى، فالقول الذي يسمع قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ والفعل الذي يرى قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ فلما قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، عُلم أن الله قد سمع ما قال ورأى ما فعل، وتستلزم هذه الصفةُ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ من الصفات - إضافة إلى العلم والسمع والبصر - القدرة؛ لأن المغفرة لا تقع إلا من قادر على الغفران، وتستلزم كذلك كرم الله عزَّ وجلَّ ولطفه بعباده، حيث يغفر لكل من استغفر مهما عظم ذنبه، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزُّمَر:٥٣].

٣٢ - **ومن فوائد هذه القصة**: أن الله تعالى غفر لداود عليه السلام، وبيَّن ما لديه من الثواب لداود في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

٣٣ - **ومن الفوائد لهذه الآية**: إثبات العندية لله، وهي عندية قرب وعندية علم، ففي قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[الأنعام:٥٩] هذه عندية علم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[الأنبياء:١٩] هذه عندية قرب، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٣٤ - **ومن فوائدها أيضًا**: الثناءُ على داود عليه الصلاة والسلام بحسْن مآبه، أي: مرجعه إلى الله، لقوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قال الله تعالى:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦]

التَفسِير

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ يُخاطب الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام بالنداء، والمخاطبة بالنداء يُراد بها التنبيه؛ لأن هناك فرقًا بين أن تقول: محمد قام وبين أن تقول: يا علي محمد قام، ففي القول الثاني تنبيه، وإذا كان الكلام يحتاج إلى تنبيه فإنه دليل على أهميته. إذ إن الكلام الذي يهتم به يقدم بين يديه ما يكون به التنبيه، فالله عزَّ وجل يُنادي داود عليه الصلاة والسلام تنبيهًا لما سيلقي عليه فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: صيَّرناك، لأن جعل تارة يكون للتصبير، وتارة يكون للإيجاد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[الأنعام:١] أي: أوجدهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[الزُّخرُف:٣] أي: صيَّرناه، والفرق بينهما أنه إن تعدى إلى مفعول واحد، صار بمعنى الإيجاد، وإن تعدى إلى مفعولين صار بمعنى التصيير، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعدى إلى مفعولين، الكاف وخليفه، فتكون بمعنى التصيير، ﴿خَلِيفَةٗ﴾ أي: خالفًا لنا في تبليغ شرعنا، وليس المُراد أنه خالفًا لله أنه يأتي بعده، لأن الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لكن خليفةً لله في تبليغ شرعه وحكمه بين الناس.

وقوله: ﴿فَٱحۡكُم﴾ الفاء هذه للتفريع، أي: فبناء على كونك خليفةً في الأرض احكم. قال المؤلف رحمه الله: [﴿فَٱحۡكُم﴾ تدبَّر أمر الناس] كما يدبر الخلفاءُ أمر مَنْ جعلهم الله راعين له، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ لأن الحق إن كان في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن كان في مقابلة الحُكم فهو بمعنى العدل، فإذا قيل: أخبرَني محمدٌ بكذا وهو حق يعني صدق، وإذا قلت: حكم فلان بكذا وهو حق يعني عدلًا. هنا يقول: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ لأن الحق هنا وصف به الحكم فصار بمعنى العدل، وهذا يتضمن الحكم، وطريق الحكم، ولوازمه، فالحكم بأن تحكم بالشرع، وطريق الحق أن تعدل بين الخصمين في كل شيء، حتى إن العلماء يقولون: يجب على القاضي أن يعدل بين الخصمين في لفظه ولحظه وكلامه، وجلوسهما ودخولهما عليه، يعدل في كل شيء، ففي لفظه لا يغلظ القول لأحد الخصمين ويلين القول للآخر، وفي لحظه لا ينظر إلى أحد الخصمين نظرةَ غضبٍ وإلى الثاني نظرة رضا، وفي مجلسه لا يُجلس أحد الخصمين إلى جانبه والآخر بعيد عنه، وفي دخولهما عليه لا يقول لأحدهما: ادخل، قبل الآخر حتى ولو كان كافرًا، فإنه لا يُقدَّم المسلم عليه في الدخول، وإن كان بعض العلماء قد قال: إذا كان أحدهما كافرًا فإنه يُقدَّم المسلم عليه في الدخول، ولكن المقام مقام حُكم فالواجب فيه العدل، وهذا كفره عليه، وهذا إسلامه له، هذا إذا كان الدخول يحتاج إلى تقديم وتأخير. أما إذا كان الباب مفتوحًا فإنه لا يلزمه أن يجعل عند الباب رجلًا يقول: ادخلا جميعًا. يجعل الأمر موكولًا إلى الخصوم. مَن جاء

فليدخل، قبل الآخر أو بعده، لكن إذا كان هناك ترتيب الدخول فلا يقدِّم أحدهما على الآخر، هذا طريق الحكم.

أما الحُكم فإذا عَلِم أن الحق مع أحدهما وجب عليه أن يحكم له به مهما كان، سواء كان عدوًّا أم صديقًا.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ الناس: أصلها الأناس، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت من شر وخير، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾[المائدة:٦٠] أي: بما هو أشر من ذلك، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس، وإنَّما نهاه عن اتباع الهوى تعظيمًا لهذا الأمر، ولا يلزم من نهيه عنه أن يكون ممكنًا في حقه، كما قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزُّمَر:٦٥] ولا يلزم من هذا أن يكون الإشراك في حقه ممكنًا. وقد يُقال: إن الله نهاه عن اتباع الهوى لقوة الهوى في البشر، فإن الهوى في البشر أمر مفطور عليه، لأنه يندر أن شخصًا يتقدم إليه أبوه مع شخص آخر عدوٍّ له، يندر ألا يكون له هوى، أو يتقدم إليه شخص من أصدقائه الحميمين مع آخر من أعدائه الألداء ثم لا يميل مع الأول، يندر هذا، فلقوة الداعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يمكن في حقه.

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيضلك الفعل هنا مضارع ولكنه منصوب لأنه وقع بعد النهي، والمضارع إذا اقترنت به الفاء – وهذه الفاء تُدعى فاء السببية – بعد النهي صار منصوبًا بأن مُضمرة وجوبًا.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يجعلك تضلُّ وتحيدُ يمينًا وشمالًا، وقوله ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف – رحمه الله –: [أي: عن الدلائل الدالة على توحيده] وهذا التفسير ضعيف جدًا، بل المُراد بسبيل الله طريقه الموصل إليه؛ لأن السبيل في الأصل هو الطريق، وأُضيف إلى الله لأن الله هو الذي وضعه، وهو الذي شرعه، ولأن هذا السبيل يؤدي إلى الله، فأُضيف إلى الله باعتبار وضعه، وباعتبار نهايته، وإذا قلنا: إن المُراد بسبيل الله، أي: طريقه وشرعه، صار أعمّ مما قال المؤلف، والصق باللفظ؛ لأن السبيل في اللغة الطريق، وليست الدلائل الدالة على التوحيد، لكن الدلائل الدالة على التوحيد لا شك أن النظر فيها من شريعة الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ لم يقل الله: إنك إن تتبع الهوى أو إن تضل عن سبيل الله فلك عذابٌ شديد، بل أتى بالجملة الاستئنافية الاستقلالية، أولًا: تفاديًا لمخاطبة داود عليه السلام بذلك، وثانيًا: ليكون أعمّ. إذن فيه فائدتان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾[عبس:٣] فعبَّر بالفعل الماضي الدال على الغائب، ولم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمى وما يُدريك لعله يزَّكى، بل قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تفاديًا لمخاطبة الرسول ﷺ بمثل هذا الوصف.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإيمان بالله] وهذا أيضًا فيه نظر، والصحيح أن سبيل الله هنا هو سبيل الله الأول، والمُراد به شريعته؛ لأنها هي الطريق الموصل إليه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ الجملة خبر إن، واسمها (الذين) و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ خبرها، فالجملة هنا خبر لـ «إنَّ»، وكل جملة تقع خبرًا فلا بد فيها من رابط يربط بين هذه الجملة وبين المبتدأ، والرابط هنا الضمير في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ وقوله ﴿شَدِيدٌۢ﴾ أي: قويّ وعظيم، ويدلك على قوته وعظمته ما وصفه الله به في القرآن العظيم من صفات تنزعج لها القلوبُ، وتنفطر لها الأكباد.

وقوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بسبب نسيانهم يوم الحساب، فالباء هنا للسببية، وما: مصدرية، ولهذا قال المؤلف: [بنسيانهم ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ المرتب عليه تركهم الإيمان، ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا] وقوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ المراد بيوم الحساب يوم القيامة، وأضيف إلى الحساب؛ لأن الناس يُحاسبون فيه على أعمالهم، وأول ما يُحاسب عليه الإنسان فيما يتعلق بحق الله هو الصلاة، وأول ما يُحاسب عليه فيما يتعلق بحق العالمين هو الدماء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أولُ ما يُقضى بين الناس بالدماء»(١).

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات كلام الله، وأنه بحرف وصوت، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ فإن هذه الجملة مُركبة من حروف، ولا بد أن تكون بصوت، لأنه يُخاطَبُ بها داود، ولا بد أن يكون المُخاطَبُ سامعًا ولا سماع إلا بصوت، فيؤخذ منه الرد على الأشاعرة وغيرهم ممن قالوا: إن الله سبحانه وتعالى يتكم، وأن كلامه هو المعنى القائم بذاته، المُلازم له أزلًا وأبدًا.

٢ - **ومن الفوائد:** أن الأمر أمر الله، هو الذي يُنَصِّبُ من شاء ويعزل من شاء.

٣ - **ومنها:** أنه لا مانع من أن يقول القائل للسلطان صاحب السلطة العليا في الأرض، أن يقول له: إنه خليفة الله، ولا يعني ذلك أن الله مُحتاج إلى أن يستخلف أحدًا ليقوم عنه بتدبير الخلق، ولكنه خلَّفه، أي: جعله حاكمًا بين الناس بما شرع الله سبحانه وتعالى.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الحكم بين الناس بالحق لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ - **ويتفرع عن هذه الفائدة:** أن مَنصِبَ القضاء فرض كفاية، كما قال ذلك أهل العلم، وإذا لم يوجد إلا الشخص المُعين المؤهل فإنه يكون في حقه فرض عين.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للشخص إذا وُكِّل إليه تولِّي القضاء أن يَفِرَّ منه ما دام يعرف من نفسه الكفاءة؛ وذلك لأنه إذا فر منه، وفر الثاني والثالث والرابع تعطل هذا المنصب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، ومسلم (١٦٧٨).

العظيم الذي هو منصب الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن إذا أتى الإنسان هذا الشيء بدون سؤال فليستعن بالله والله يُعينه عليه.

٧ - **ومن الفوائد:** أنه يجب أن يحكَم بين الناس بالحق، سواء كان ذلك في طريق الحُكْم، أو في نفس الحكم، أما طريق الحكم فهو معاملة الخصمين بحيث تكون المعاملة بينهما على وجه العدل، وأما في الحكم فأن يحكم بما تقتضيه الشريعة.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا يجوز للقاضي الحاكم بين الناس أن يُحابي أحدًا لقرابة، أو صداقة، أو غِنىً، أو فقرٍ، أو جاه، أو غير ذلك لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

٩ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أنه في المقام المهم ينبغي أن يُذكر الإثبات المطلوب ويذكر ضدّه، كأن يُقال: احكم بالحق حكمًا لا يدخله الهوى؛ لأنَّ من الكمال إثبات الكمال ونفي ضده، فمثلًا: احكم بين الناس بالحق، هذا إثبات كمال، ولا تتبع الهوى نفي ضده، وإنما يؤتى بنفي الضد من أجل أن يتبين أنَّ المطلوب ينبغي أن يكون مُجردًا عن كل ما يُنافيه.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنَّ اتباعَ الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله لقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولكنْ هل الإضلالُ في نفس المخالفة؟ أم أن المخالفة نفسها ضلال، وتكون سببًا لإضلال آخر؟ الجواب هو الثاني؛ فإن الهوى يجلب للإنسان الضلالَ كما أنه هو نفسه ضلال، فإذا اتبعت الهوى في قضيةٍ ما، فانتظر اتباع الهوى في القضية التي تليها؛ لأن المعصية قبل أن يقع فيها الإنسان يجد نفسه تستوحش منها وتنفر، فإذا فعلها مرة هانت عليه، وانكسر الحجاب، فإذا هانت عليه أول مرة هانت عليه الثانية ثم الثالثة، حتى تصبح وكأنها لا شيء، ولهذا يضرب العامة مثلًا له فائدة، يقولون: بكثرة الإمساس يقل الإحساس، يعني إذا أكثر الإنسان مماسة الشيء قل إحساسه به.

والحاصلُ: أن اتباع الهوى ضلال بنفسه، وسبب للضلال، ووجه ذلك أن المعصية تنفِّر منها النفس، فإذا فعَلتَها مرة هانت عليها، ثم الثانية تكون أهون، ثم الثالثة أهون، والرابعة أهون، حتى تصبح المعصية وكأنها ليست بمعصية؛ ولهذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فتجد القاضي مثلًا لا يمكن أن يحكم بالحيف والجور، وتجده نافرًا من ذلك، فإذا حكم مرة هان عليه، ثم الثانية هان عليه، ثم الثالثة والرابعة وهكذا؛ لذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ويمكن أن يُقال: إن هذا لا يختص بالحكم بين الناس، أي: أن اتباع الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله في كل شيء، حتى في غير الحكم، حتى في المعاصي الخاصة التي في نفسك إذا اتبعت هواك فيها فاعلم أن هذا سبب في الإضلال عن سبيل الله، فعليك أن تتوقى المعاصي فإنها شرٌّ كلها.

١١ – **ومن الفوائد:** أن دين الله تعالى واحدٌ لا يتشعب لقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأفردها، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣] فسبيل الله واحدة، وما خالفها فهو المُتشتت. فهذا سببه الهوى، وهذا سببه خشية الناس، وهذا سببه كذا، وهذا سببه كذا، فتفرق السُبل.

١٢ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء العظيم على شريعة الله، وذلك بإضافتها إلى الله، لأن كل ما أضيف إلى الله فإنه إذا كانت الإضافة خاصة فإن الإضافة تدل على شرفه.

١٣ – **ومن الفوائد:** أن الضالِّين عن سبيل الله متوعدون بهذا الوعيد ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: قوي، ويتفرع من هذه الفائدة الحذر من الضلال عن سبيل الله.

١٤ – **ومن الفوائد:** أن من أسباب الضلال عن سبيل الله نسيانَ يوم الحساب، والغفلة عنه، والانغماس في الدنيا حتى تُنسي الإنسان ما خُلق له، وما هو مُقبلٌ عليه؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: غفلوا عنه. وليس المُراد بالنسيان الذهول الذي يُعفى عنه، بل المُراد بالنسيان الترك الذي هو الغفلة وعدم المبالاة به.

١٥ – **ومن فوائد الآية:** الحذر من الانغماس في الدنيا الذي يوجب نسيان يوم الحساب. ومن ثم حَرَّم الشرعُ كلَّ لهوٍ يلهو به الإنسان – إلا ما استثنى – يعني باطلًا ليس فيه خير، ثم قد يكون مُحرمًا، وقد يكون ضياعًا للوقت بدون تحريم، لكن كل لهوٍ يصد عن سبيل الله يُنسي يوم الحساب؛ ولذلك تجد أقل الناس إيمانًا بيوم الحساب أكثرهم ممارسةً للملاهي. ولا يمكن أن يقع في قلبه تذكر ليوم الحساب إلا نادرًا. إن وُفِّق لسماع موعظة أو ما أشبه ذلك وإلا فهو غافل لاهٍ.

١٦ – **ويتفرع على هذا:** أن يعرف الإنسان عداوة أعداء الله الذين أغرقونا بالملاهي وأنواعها حتى صرفوا الشباب عن ما ينبغي أن يُؤهِل نفسه له، فأغرقوه بالملاهي بأنواعها حتى صار الإنسان كأنما خُلق لهذا اللهو، وصار رأس ماله وعقب ماله كله هو هذا اللهو، لا يتكلم إلا به، ومن فاز به، ومن لم يفز، فضاع الشباب بسبب هذا اللهو الذي انغمسوا فيه، ونسوا يوم الحساب إلا من شاء الله.

١٧ – **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ الأسباب. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ لأن الباء هذه للسببية.

ويتفرع عن هذه الفائدة إثبات حكمة الله عزَّ وجلَّ، وأنه تعالى لا يفعل شيئًا إلا لسبب يقتضيه، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن كون الله عزَّ وجل خلق السماوات والأرض في ستة أيام دون أن يخلقها بلحظة من أجل ترتب هذا الخلق بعضه على بعض، حتى تكون الأسباب فاعلة فعلها فتنتج الشيء شيئًا فشيئًا حتى يتم، وهذا ليس ببعيد ما دمنا نؤمن أن الله عزَّ وجلَّ حكيم، وأن كل شيء يكون بسبب، فلا يستبعد أن يكون بقاء خلق السماوات والأرض ممتدًا إلى

ستة أيام هو من أجل هذا، من أجل أن يترتب الخلق بعضُه على بعض، وينبني بعضُه على بعض، حتى يكون مُطابقًا للحكمة، وإلا فنحن نعلم علم اليقين أنه لو شاء الله تعالى لقال: كن فيكون بلحظة، لكن الله تعالى حكيم.

١٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الحساب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ الحساب يختلف، حساب المؤمن أن يخلو الله به من غير أن يَطَّلِع عليه أحد فيُقرره بذنوبه، فيقول: فعلت كذا، وفعلت كذا، حتى إذا رأى أنه هلك، قال الله له: «إنّي قد سترْتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم»(١)، هذا حساب المؤمن، وهذا حسابٌ يسير، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧ - ٨] وما أيسر أن يخلو بك الله عزَّ وجلَّ وحدك، وليس عندكما أحد، ويُكلمك وليس بينكما تُرجمان، ويقول: إني قد سترتها لك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، الحمد لله على هذه النعمة.

أما الكافرُ فليس كذلك، الكافر يُنادى عليه على رؤوس الخلائق ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود:١٨] يخزون ويفضحون ﴿كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فهم يخزون بأعمالهم ويُفضحون بها.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧،٢٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ﴾ قال المؤلف: [أي: عبثًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق ما ذُكر لا لشيء ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ﴾ من أهل مكة ﴿فَوَيْلٌ﴾ واد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾].

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ﴾ خلقْنا أي: أوجدنا، فالخلق بمعنى الإيجاد، لكنه إيجاد عن تقدير؛ لأن الإيجاد قد لا يكون عن تقدير ولا عن ترتيب، ولكن الخلق لا بد أن يكون عن ترتيب وتقدير، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ السماء المُراد بها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

الجنس، ويشمل جميع السموات، وكذلك الأرض، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ معطوف على السماء، أي: ما خلقنا ما بينهما باطلًا، والذي بين السماء والأرض من المخلوقات مخلوقات عظيمة، بعضها معلوم لنا، وبعضها مجهول لنا لم نعلمْه حتى الآن، لكن يغلب على الظن أنها مخلوقاتٌ عظيمة؛ لأن الله تعالى جعلها قسيمة لخلق السماء والأرض، وقسيم الشيء لا بد أن يكون مُقارِبًا له، أو مساويًا له.

وقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ هذا محطُّ النفي؛ ولهذا نقول: لا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأنك لو وقفت لأدى ذلك إلى أن يكون المعنى معنىً باطلًا، بل لا بد أن تصل فتقول: ﴿... وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾؛ لأن ذلك هو محط النفي، يعني ما خلقناهم باطلًا، أي: لأجل الباطل، وهذا كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] فالباطل هنا بمعنى اللهو الذي لا فائدة فيه، فالله لم يخلقْ السماء والأرض باطلًا، ولو كان خلقها باطلًا لكان ذلك في غاية السفه أن تخلق هذه المخلوقات العظيمة بما فيها لا لشيء بل للعب واللهو.

وقوله: ﴿بَٰطِلًاۚ﴾ قال المؤلف: [أي: عبثًا] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اعتقاد أن خلق السماء والأرض باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ يعني هذا ظن الكافرين الذين يظنون أن خلق السموات والأرض لمجرد اللعب واللهو، ولا يترتب على ذلك شيء، ومن هذا قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾[الجاثية:٢٤] ومن ذلك ما يظنه بعض الناس أن المقصود من خلق السماء والأرض وجود هذه الخليقة ثم فناؤها إلى غير رجعة، فنقول: من ظن ذلك أي أن الله خلقها عبثًا ولعبًا فهو كافر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ هم الذين يظنون: أن خلق السماء والأرض كان باطلًا، وقول المؤلف: [﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ من أهل مكة] فيه نظر؛ لأنه قصر للدليل على بعض أفراده، والصواب أنه عامّ لأهل مكة وغيرهم، فالذين كفروا لا يظنون بالله إلا ظن السوء، فيظنون أن أفعاله عبث وباطل وليست لحكمة.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال المؤلف: [﴿فَوَيْلٌ﴾ وادٍ] في جهنم، ولكن هذا ليس صحيحًا بالنسبة للآية هذه، بل كلمة «ويل» كلمة وعيد بأمرٍ شديد؛ لأنه قيل: ويل له من النار فهو يتوعد بها، كما تقول: ويلٌ لك من فلان. وليس معنى ويلٌ لك من فلان يعني وادٍ في فلان، بل هي كلمة وعيد على أمرٍ شديد فقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: وعيدٌ شديدٌ للذين كفروا من النار، يعني ما أعظم ويلهم من نار جهنم – والعياذ بالله – وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر ويل، وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانٌ لويل، أي: أن هذا الشيء العظيم يكون للذين كفروا من النار.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أم: هنا مُنقطعة؛ لأنه لم يذكر لها مُعادل، فهي بمعنى (بل) والهمزة، يعني بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا الاستفهام المقصود به النفي والاستنكار، يعني لا يمكن

أبدًا أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، والمُراد بالاستفهام النفي والإنكار، والإضراب هنا انتقالي ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ أي: نُصيِّر، فهي تنصب مفعولين: الأول: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والثاني: ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يمكن أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا بما يجب التصديق به على وجه القبول والإذعان، أي: تصديقًا مُستلزمًا للقبول والإذعان، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي اجتمع فيها شيئان: الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والثاني: المتابعة لشريعة الله، فمن عمل عملًا موافقًا للشريعة في ظاهره لكنه يُرائي فيه، فعمله ليس بصالح، لاختلال الإخلاص لله، والذي عمل عملًا مُخلِصًا فيه لله يريد به وجه الله، لكنه على غير الشريعة، ليس بصالح لأنه غير موافق لشريعة الله. فلا بد من أن يكون العمل خالصًا لله، وموافقًا لشريعة الله.

وقوله: ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، المُفسِد مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكون المُراد بالمفسدين في الأرض: الكفَّار الذين يعملون السيئات.

فكلُّ كافرٍ فهو مُفسِد في الأرض، في مقابل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وكل عاصٍ، فهو مُفسد في الأرض، في مقابل: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فالشيء يُعرَف بمقابله.

ولهذا فسَّر أهل العلم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦] فسَّروا ذلك بالمعاصي، قالوا: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي وهذا التفسير صحيح، يشهد له قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

فإن قيل: هل هدْمُ البيوت فسادٌ في الأرض؟

فالجواب: أنها لا تُنفي ولا تُثبت، إن هدمها الإنسان ظُلمًا وعدوانًا، فهو فساد في الأرض؛ لأنه معصية لا يجوز للإنسان أن يعتدي على بيت أخيه، فيهدمه، وإن هدمَها لإصلاحها، فهذا ليس فسادًا في الأرض.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ أم هنا أيضًا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام الذي يُراد بها الإنكار والنفي.

قال المؤلف رحمه الله: [﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾ - لَمَّا قال كفار مكة للمؤمنين: إنَّا نُعطي في الآخرة مثل ما تُعطون] هذا قد يكون صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، لكن إن كان صحيحًا فهو كقول اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة:٨٠]، فكلُّ أحدٍ يَدعي أنه على حق، وكل أحد يدعي أن الثوابَ له وأن الآخرة له، ولكن الشأن كل

الشأن بمن شهد الله له بذلك.

يقول: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار] أم، يعني قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ لكن يُقدَّر قبلها، بل لأن أم هذه تفيد الإضراب.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: نُصيِّر المتقين كالفجار، أي: لا يمكن أن نجعل المتقي كالفاجر.

والمتقي مَنْ اتخذ وقايةً من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في تعريف المتقي. والفجار خلاف المتقين، يعني الذي فجروا وخرجوا عن طاعة الله إلى معصيته.

وهنا قابل المتقي بالفاجر، وفي سورة المطففين قابل الفاجر بالبَرّ، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[المطففين:٧]، ثم قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[المطففين:١٨]. ومنه نأخذ أن التَّقوى والبِرَّ إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني أن البِرَّ كلمة إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للتقوى، والتقوى إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للبِرّ، وإن جُمعتا جميعًا، البِرُّ والتقوى، صار البِرُّ فعل الطاعة، والتقوى اجتناب المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[المائدة:٢] يعني على فعل الطاعات، وترك المعاصي.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات خلق السماء والأرض، وأنها حادثة بعد العدم، وليس في الكون شيء يكون أزليًا أبديًا أبدًا. فالسموات ليست أزليةً، بل هي مُبتَدَعَة، وسوف تفنى، وكذلك كل شيء سوف يفنى إلا ما استثنى الله عزَّ وجلَّ وخلقه للبقاء، مثل الأرواح، فإنها خُلقت للبقاء، ومثل ذلك ما في الجنة من النعيم والوِلدان والحور، وما أشبهها، فما دلَّ الكتابُ والسُّنة على بقائه وأبديته، فهو باقٍ أبدي، ولكن كلُّ شيء لا يمكن أن يكون أزليًا أي: ليس له أول إلا الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الذي خلقها هو الله؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[الطور:٣٦] يتحداهم: هل هم الذين خلقوا السموات والأرض؟

٣ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى خلَقَها لحكمة عظيمة، ليس فيها سفه؛ لقوله: ﴿بَاطِلًا﴾ فإن نفي خَلْقِها باطلًا يستلزم أنها خُلقت لحكمة عظيمة بالغة، وهو كذلك، وهذا فرد من أفراد مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، ولم يُشرِّعْ شيئًا عبثًا، بل كل ما خلَقَه وشرَّعه الله ودَبَّره، فهو لحكمة عظيمة، أحيانًا نعرفها، وأحيانًا لا نعرفها.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ إذ لو انتفت الحكمة لأمكن أن تُخلق السماء والأرض باطلًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لا أحد يظنُّ أن ذلك باطلًا إلا الكافر؛ لقوله:

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن من ظنَّ ذلك، فهو كافر.

والفرق بين الفائدتين: أن الفائدة الأولى يكون الكفر سابقًا، على هذا الظنّ، فيكون الكفرُ سببًا لهذا الظن.

أما الفائدة الثانية: أنَّ الظنَّ سابقٌ على الكُفر، فيكون هذا الظنُّ سببًا للكفر.

إذًا، لا يَظن أحد أن الله خلق السماء والأرض باطلًا إلا الكفار، وإذا ظنَّ أحد أن الله خلق ذلك باطلًا، صار كافرًا.

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات الوعيد للكفَّار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وأنهم سيدخلون النار، وهم أيضًا مُخلدون فيها أبدًا، كما ذكر الله تعالى ذلك في ثلاث آيات من كتاب الله في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[النساء:١٦٨ - ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الأحزاب:٦٥]، وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

وبعد هذه الآيات الثلاث، لا ينبغي أن يلحقَنا شكٌّ في أبدية النار، وإن قال ذلك من قاله من الناس؛ لأن هذا كلام الله، وهو خبر، والخبر في كتاب الله لا يمكن أن يَكْذِب، ولا يمكن أن يلحقه النَّسخُ، فلا عبرة بقول مَن قال: إن النار لا تُؤبد، بل قوله مرفوض، باطل، مردود عليه، بدلالة القرآن الصريحة.

٨ - **من فوائد الآيات كلها:** أنَّ من جملة الحكمة، التي هي من صفات الله عزَّ وجل أنَّه لا يمكن أن يجعل المؤمن العامل للصالحات كالمفسد في الأرض؛ لأن ذلك ينافي الحكمةَ مُنافاةً بالغةً، لا يمكن أن يستوي المؤمنون والكافرون، كما لا يستوي الأعمى والبصير، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤].

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمان والعملُ الصالح سبب لصلاح الأرض، وهذا يؤيده آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦].

١٠ - **ومن فوائدها:** أن المعاصي سبب للفساد في الأرض؛ لأنه قابل هذا بالإيمان والعمل الصالح، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، فكلُّ فسادٍ يحدث في الأرض من جدبٍ وفقر ومرض وفساد ثمار، وغير ذلك؛ فإنه بسبب المعاصي، بما كسبت أيدي الناس.

١١ - **ومن فوائدها**: أنَّ الله لا يمكن أن يجعل المُتَّقين كالفجار في مآلهم، فالمتقي في جنات النعيم، والفاجر في عذاب الجحيم ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص:٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾.

﴿كِتَابٌ﴾ قال المؤلف: [خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا] والمُشارُ إليه القرآن الكريم.

وكتاب بمعنى: مكتوب. ووُصف القرآن بأنه كتاب لعدة أوجه:

الأول: أنَّه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾[البروج:٢٢].

الثاني: أنَّه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[عبس:١٦].

الثالث: أنَّه يُكتب في المصاحف، كما هو معروف، وربما يَدّعي مُدّعٍ أنه بمعنى مفروض على الأمة الإيمان به، والعمل به. فيكون هذا معنى رابعًا لكلمة (مكتوب).

وقوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أنزله الله إلى مُحمد ﷺ، وإنزاله إلى محمد ﷺ من الله يدل على أنه كلام الله. ووجه ذلك: أن هذا الكتاب كلام، والكلام لا بد له من مُتكلِّم، فإذا كان الله هو الذي أنزله، لزِم أن يكون هو المتكلِّم به، فيكون في هذا إثبات أن القرآن كلام الله.

وأحيانًا يأتي التعبير بـ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾[النحل: ٦٤، طه:٢] والجمع بينهما: أن «إلى» تفيد الغاية، أي: أن غاية هذا الإنزال إلى مُحمد ﷺ، و «على» تفيد الاستعلاء.

وذلك لأن هذا القرآن جاء من (عَلٍ)، أي: من فوق، من الله عزَّ وجلَّ، ثم إن في «على» إفادة التحمل للشيء.

أنزله عليك: يعني لتتحملَه، وتقوم به.

فالفرق إذًا من وجهين:

الوجه الأول: أن (إلى) تفيد الغاية، أي: أن غاية الإنزال إلى مُحمد ﷺ، لا يتعداه إلى غيره، ولا نبي بعده، وأما (على) فتفيد الاستعلاء، أي: أنه نزل إلى الرسول ﷺ من فوق، وتفيد أيضًا

التحمل لأنه نزل عليه كأنه فوقه، والشيء الذي فوقك لا بد أن تتحمله، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٣ - ٢٤] مما يدلُّ على ثقله، وهو كذلك.

قال: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ مبارك: صفة لكتاب. و ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أيضًا صفة لكتاب، هذا بناءً على إعراب المؤلف: أن ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ، و ﴿مُبَارَكٌ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ صفة لكتاب، وسوّغ الابتداء به وهو نكرة؛ وَصْفُهُ بجملة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾.

وبركة القرآن من عدة أوجه:

١ - **الوجه الأول:** في الثواب الحاصل بتلاوته، فإنَّ من قرأ حرفًا واحدًا منه، فله بكل حرف عشر حسنات، وهذه بركة عظيمة.

٢ - **مبارك:** من حيث الأثر المُترتِّب على تلاوته، سواء كان عامًّا أم خاصًّا. فالخاصُّ ما يحصل للإنسان بتلاوة القرآن من انشراح الصدر، ونور القلب وطمأنينته، كما هو مُجرب لمن قرأ القرآن بتدبر. وأمَّا العام، فإن الله تعالى فتح بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها، فإن المسلمين لما كانوا متمسكين بهذا الكتاب، سادوا العالم كلَّه، ولا شك أن هذا من البركة بهذا القرآن.

٣ - ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغةٍ واحدة، صاروا إلى الاجتماع أقرب، وإذا تفرَّقت لغاتهم، صاروا إلى التفرق أقرب؛ لأنه إذا اتفقت لغاتهم، استطاعوا أن يتفاهموا فيما بينهم، وأن يعرف بعضهم ما عند بعض، وإذا اختلفت اللغات لم تحصل هذه الفائدة، فهذا من بركة القرآن الكريم.

وله أوجه أخرى ربما لا نستطيع أن نستوعبها في هذا المكان، لكنَّها ظاهرةٌ لمن تأملها.

وقوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ هذه مُتعلِّقة بأنزلناه، يعني أنزلناه ليدبروا آياته، ليدبروا: اللام: لام التعليل، ويدبروا: فعل مضارع منصوب بأن مُضمرة بعد لام التعليل، والواو: فاعل والجار والمجرور مُتعلقان بـ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: أنزلناه ليتدبروا آياته. والتدبُّر معناه التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، وتكرار اللفظ على القلب، مرة بعد مرة، حتى يتضح المعنى، أي معناه: التأمل في معاني القرآن، وترديد هذا التأمل، حتى يتضح ما فيه المعنى. وأصل هذه الكلمة: ليتدبَّروا، فأُدغمت التاء في الدال، وإذا أُدغمت التاء في الدال جعلنا التاء دالًا، فصارت ليدَّبروا آياته، وقوله: ﴿آيَاتِهِ﴾ جمع آية، والآية هي ما تنتهي بفاصلة.

ومن حفظ الله لهذا القرآن أن آياتِه محفوظةٌ مُرقَّمَةٌ، أو محجوزة بعضها عن بعض، إلى يومنا هذا.

والآيات هي: العلامات، وهي علامات على أن هذا القرآن من عند الله عزَّ وجل بما تحويه من

اللفظ والمعنى.

ولهذا كانت الآية الواحدة مُعجزة للبشر، بل مُعجزة للخلق كلهم؛ لأنها آية من آيات الله.

قال المؤلف: [﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ينظروا في معانيها، فيؤمنوا]. هذه حكمة من حِكم إنزال القرآن أن يتدبرَ الإنسان في الآيات، الثانية: قال: [﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾: يتعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ أصحاب العقول] هذه فائدة ثانية، جعل التذكر بعد التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمنه، فيتدبر أولًا، ثم يتذكر ثانيًا.

ففي المرحلة الأولى يقرأ الإنسانُ القرآن، وفي المرحلة الثانية يتدبَّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتعظ به، والاتعاظ بالقرآن هو التأثر به في القلب والجوارح.

والتأثر بالقلب: إخلاص العبد لله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم، وغير ذلك.

فالفائدة من إنزال هذا القرآن المبارك تتركز على شيئين، هما: التدبر والتذكر.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ أولو: بمعنى أصحاب، وهي مُلحقة بجمع المُذكر السالم؛ لأنه ليس لها مُفرد من لفظها، بل لها مُفرد من معناها. إذا قلنا: إنها بمعنى أصحاب، صار مُفردها من المعنى صاحب، فأولو: جمع صاحب باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال المؤلف: [أصحاب العقول] لأن صاحب العقل هو الذي يتعظ أما مَنْ لا عقل له، فإنه لا ينتفع بذلك.

والعقول هنا، هي عقول الرُشد؛ لأن العقل عقلان: عقل إدراك، وعقل رُشد. فعقل الإدراك هو ما يتعلق به التكليف. وعقل الرشد ما يكون بحُسن التصرُّف. فالكفار مثلًا لهم عقول إدراك؛ لأن هذا هو الذي يتعلق به التكليف وليس لهم عقول رُشد؛ لأنهم لم يُحسنوا التصرف. وكل مَنْ لا يَحسُن التصرف، فإنه يصح أن يُنفى عنه العقل، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤] ونحن فيما بيننا إذا وجدنا شخصًا يُسيء التصرف، قلنا: إنه غير عاقل، وإن كان عاقلًا من حيث الإدراك، لكنَّه غير عاقل من حيث التصرف.

والعقل الذي يُمدح، هو عقل الرُشد. أما عقل الإدراك، فهذا يحصل لكل أحد، حتى الكفار والفُجَّار.

وقوله: ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ألباب: جمع لُبّ، ولُبِ كل شيء المقصود منه. فالحَبَّةُ مثلًا لُبها كان بداخلها، المخ الذي بداخلها هو اللب، وما فوقه قشور، والبيضة الذي بداخلها هو اللب وما فوقه قشور.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية:** أن هذا القرآن كلام الله؛ لأن الله أضافه لنفسه في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ والقرآن كلامٌ، وإذا أُضيف الكلام إلى أحد، لزم أن يكون صفةً له، لأن الكلام معنى لا يقوم إلا بغيره.

٢ – **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. والإنزال لا يكون إلا من العُلو. وقد قررنا هذا كثيرًا في عدة مجالس، قرّرنا علوَّ الله بذاته فوق خلقه، وبيَّنا أنه ثابتٌ بجميع أنواع الأدلة السمعية: الكتاب، والسُنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٣ – **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن كتاب، أي: مكتوب. وقد بينا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع:

أ – اللوح المحفوظ.

ب – والكتب التي بأيدي الملائكة.

جـ – والكتب التي بأيدي الإنسان.

٤ – **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

٥ – **ومن فوائدها:** فضيلة رسول الله ﷺ حيث كان أهلًا لأن يُنزَّلَ عليه القرآن. والقرآن لا يُنزَّل إلا على من هو أهلٌ لإنزاله عليه لجمعه صفات الكمال البشرية.

٦ – **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن الكريم مُبارك، حسب الوجوه التي ذكرناه.

٧ – **ومن فوائدها:** الحث على العناية به والتزامه؛ لأنه إذا كان مُباركًا، فإن كل أحد من البشر يريد أن ينال بركة هذا الشيء المُبارك.

٨ – **ومن الفوائد:** أن القرآن يُستشفى به، كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة أخرى، يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٥٧].

إذًا فمن بركة القرآن؛ أنه يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان.

والاستشفاء به من أمراض الأبدان يقع على وجوه متنوعة:

أ – منها: أن يُقرأ على المريض به، كقراءة الفاتحة على المريض، فإنها مُفيدة جدًا.

ب – ومنها: أن يُكتب في إناء ويُصبُّ عليه الماء، ويُدار عليه الماء حتى يتغير بهذه الكتابة، ثم يُشرب، وهذا مُجرَّب.

جـ – ومنها – على رأي بعض العلماء من السلف والخلف –: أن يُعلَّق بصفة تميمة، أي: يُكتب في جلد أو ما شابهه، ثم يُعلَّق على المريض، فإن هذا قد اختلف فيه السلف، فرخَّصَ فيه بعضُهم، ومنعه بعضُهم. ومن رخَّص فيه، استدلَّ بعموم الأدلة الدالة على أن القرآن فيه الشفاء.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن من أعظم الحِكَم في إنزال القرآن؛ تدبر القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** حثُّ الإنسان على تدبُّرِ الآيات. وأن لا يُقرأ القرآن قراءةً لفظيةً فقط، فإن الله تعالى قد ذمَّ هذا الجنس من الناس، أعني الذين يقرؤونه قراءةً لفظيةً، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[البقرة:٧٨]. ﴿أَمَانِيَّ﴾: يعني قراءة لفظية فقط، فوصفهم الله بأنهم أميُّون لأنهم لم ينتفعوا بالقرآن، إذ لا يمكن أن يُنتفع بالقرآن إلا بفهم معانيه. فإذا لم تُفهم معانيه، صار العربيُّ والعجميُّ على حدٍّ سواء.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن تدبُّر القرآن فرض؛ لأن العمل بالقرآن فرض، ولا يَتِمُّ العمل إلا بالتدبُّر، وما لا يتم الفرضُ إلا به، فهو فرض.

ولكن هل التدبر فرض عين، أم فرض كفاية؟ حسب الحال. قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، فما لا يتمُّ دينُ العبد إلا به، فهو فرض عين، وما زاد على ذلك، فهو فرض كفاية. ولا بد أن يكون في الأمة الإسلامية مَنْ يفهم القرآن.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنَّ القرآن كله آيات دالة على المتكلمِّ به سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ولم يقل: آيات منه، أو عشر آيات، بل كل الآيات.

١٣ - **ومن الفوائد أيضًا:** أنَّ مِنْ أعظم ما نزل القرآن لأجله: التذكر؛ لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾.

١٤ - **ومن فوائدها:** أن القرآن الكريم نزل موعظةً للناس، كما قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[يونس:٥٧] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨] فالقرآن نزل ليُؤثِّر، ولم ينزل ليَتَبَرَّكَ الإنسانُ بقراءته، أو ينالَ الأجر بقراءته فقط، هذا سهل، ولكن لا بد أن يؤثر تذكرًا وموعظة.

١٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يتذكر بالقرآن إلا أصحابُ العقول؛ لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

١٦ - **من فوائدها:** أن من تذكَّر بالقرآن، فهو صاحب عقلٍ، ومَنْ لم يتذكر، فليس له عقل رشد؛ وجه ذلك أن الله جعل التذكر لمن اتصفوا بالعقول.

١٧ - **ومن فوائدها:** أن لُب الإنسان وروحه هو العقل؛ عقل الرُشد لأن الله تعالى سمى هذه العقول ألباب، جمع لُب، كأسباب: جمع سبب.

قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٠-٣٣]

التفسير

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ وهبنا: أعطينا. ووصف الله ذلك بأنه هبة؛ لأنه محض فضل منه لا يحتاج منا إلى شيء. قال الله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[الشورى:٤٩ - ٥٠] إذًا وهبْنا لداود: أعطيناه هبة فضلًا منا.

وقوله: ﴿سُلَيْمَانَ﴾ لم يُنوَّن، لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، ولزيادة الألف والنون.

وداود: ممنوع من الصرف للعجمية والعلمية. قال المؤلف: [﴿سُلَيْمَانَ﴾ ابنه]، من أين عرف المؤلف أنه ابنه؟ ألَّا يجوز أن يكون المراد وهبْنا لداود سليمان يعني خادمه؟ الجواب: لا؛ لأن الله سبحانه وتعالى سمى الأولاد هبة في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يعني: يُصنِّفهم ذُكرانًا وإناثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[الشورى:٥٠].

قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي: سليمان، ونعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والجملة أُتي بها للمدح والثناء، وعلى نقيضها (بئس) فإنّها كلمة لإنشاء الذم.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ المعروف أن (نعم أو بئس) تحتاج إلى فاعل، ومخصوص بالمدح في (نعم)، والذم في (بئس)، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ العبد: هو الفاعل، نعم في الماضي والعبد فاعل والمخصوص بالمدح: إما أن نقدره اسمًا ظاهرًا، أو ضميرًا.

وقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ هذا سبب ثناء الله عزَّ وجلَّ على سُليمان ﴿إِنَّهُ﴾ أي: سليمان.

﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ، سواء كان ذلك بترجيع الصوت بالذِّكْر، أو بالرجوع إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ.

والظاهر: أنَّ الآيةَ شاملة للمعنيين: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى طاعة الله، و ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع بالتسبيح، أي: يُرجِّع الصوت به ويُرَدِّدُهُ.

يقول المؤلف - رحمه الله -: [رجَّاع بالتسبيح والذكر في جميع الأوقات] ولكنَّ الصحيح أنَّه

أعمّ مما قال المؤلف؛ أنه رجّاع بالتسبيح والذكر، وكذلك رجّاع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

وقوله: ﴿عُرِضَ﴾ العارض، أبهمه للتفخيم؛ لأن الفعل هنا مبني للمجهول. يعني كأنّه يوحي بأن له جنودًا كثيرة يعرضون عليه ما يعرضون.

وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ هو ما بعد الزَّوال إلى غروب الشمس، وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ الباء هنا للظرفية؛ أي: فيه، ولكن الغالب أن الباء إذا جاءت في مكان «في» أنها تكون مستوعبة لجميع الوقت، كأن العشي صار كله مُستوعبًا؛ لهذا العرض، لكثرة الخيول التي تُعرض عليه.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافنات مرفوعة وهي نائب فاعل ﴿عُرِضَ﴾. فإذا قال قائل: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع، والفعل مذكر ﴿عُرِضَ﴾ وهذا جمع ذات حِرٍ، يعني جمع مؤنث حقيقي، وابن مالك يقول في تاء التأنيث:

وتاءُ تأنيثٍ تلِي الماضي إذا ... كان لأنثى كأَبَت هندُ الأذى

وإنَّما تَلزمُ فعلَ مُضمَرِ ... مُتَّصِلٍ أو مُفْهِمٍ ذاتَ حِرِ

نقول: إنما لم يجب التأنيث لوجود الفاصل، وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ قال المؤلف: [الخيل، جمع صافنة، وهي القائمة على ثلاث، وإقامة الأخرى على طرف الحافر، وهو من صَفَنَ يَصْفِنُ صُفونًا].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ هي: الخيل تقوم على ثلاث أرجل، وترفع الرابعة قليلًا، بحيث يكون طرف الحافر على الأرض، وهذا يدل على قوتها. وهو أيضًا من ناحية الجمال أجمل عند رؤيتها. ولو تصوَّرتَ الخيل مصفوفة صافنة، لكان لها أُبهّة، وتشعر بشيءٍ من العَظَمة من هذا المشهد الذي تُشاهده.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ قال المؤلف: [جمع جواد، وهو السابق، المعنى: أنها إذا استُوقِفَت سكنت، وإن ركضت سبقت] يعني: أنَّ هذه الخيل التي عُرضت عليه موصوفة بهذين الوصفين: أنَّها من الصوافن، وأنها من الجياد؛ فهي إذا استُوقِفت وقفت على أحسن هيئة، وهو الصّفون، وإذا ركضتْ؛ ركضتْ على أكمل هيئة، وهي الجود. جيدة في السَّبق، وتتحمل المشاق، ولو طال السير، وهذا غاية ما يكون من جمال الخيل؛ أن تكون هيئتُها حين الوقوف مما يسر النفس، وأن يكون فعلها وأداؤها حين السير مما ينفع؛ لكونها من ذوات الجود.

وقول المؤلف: [كانت ألف فرس، عُرِضَتْ عليه، بعد أن صلَّى الظهر؛ لإرادته جهاد العدوِّ عليها، فعند بلوغ العرض منها تسع مئة، غربت الشمس، ولم يكن صلى العصر، فاغتم].

تقديره هذه الخيل بألف فرس يحتاج إلى دليل عن معصوم، عن النبي ﷺ، وليس هناك دليل عن رسول الله ﷺ بأنها ألف أو ألفان أو أقل أو أكثر؛ وحينئذٍ تكون مسؤوليتنا أن نقفَ حيثُ

يقف القرآن، فلا نُحددها بألف ولا بأكثر ولا بأقل، إنما هو عُرضت عليه في آخر النهار هذه الخيول الصافنات الجياد، فلما عرضت عليه نسي أن يُصلِّي لقوة ما في قلبه من التعلق بهذه الخيول التي أعدَّها للجهاد في سبيل الله، أو أعدها للزينة والتمتع؛ لأن سليمان كان من الأنبياء الملوك، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[ص:٣٥].

والملوك من عادتهم أن يُسرّوا ويبتهجوا بالنظر إلى الخيول، وسواء كان أعدَّها للجهاد إن كان قد أُمِر به، أو أعدها للتمتع بها بصفته أنه ملك ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾. أحببت، أي: أردت، حب الخير. يعني محبة الخير، والخير يُطلَق على المال عمومًا، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨] أي: لحب المال، والدَّليل على أن الخير هو المال قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾[البقرة:١٨٠].

فقوله: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: حب المال، وتفسير المؤلف – رحمه الله – لهذا الخير بالخيل أخصّ من دلالة اللفظ، وقد مرَّ علينا أنه لا يجوز أن يُفسر اللفظ الأعمَّ بالمعنى الأخصِّ؛ لأن هذا قصور في التفسير، لكن قد يكون عُذر المؤلف أن السياق في الخيل، فيكون حمله لهذا العامّ على الخاصّ بقرينة السياق.

وهنا إشكال، وهو قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ هل الحب يُحب، أي: لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: إني أحببت الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨]؟

لقد أوّل المؤلف – رحمه الله – المحبَّة التي جاءت بلفظ الفعل بالإرادة فقال: [﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ﴾ أي: أردت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾] لكنه – رحمه الله – وإن تخلص من تضارب اللفظ لم يتخلص من فساد المعنى؛ لأنه إذا قال: أردت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ فالمراد قد يحصل، وقد لا يحصل مع أن حبَّه حاصل.

والجواب أن نقول: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابها و ﴿حُبَّ﴾ الثانية على بابها من باب التوكيد، كأنه أحب حُب الخير فضلًا عن الخيل، ومن أحب حب الشيء لزم أن يكون مُحبًا للشيء، كما لو قلت: أنا أحب أن أحب فلانًا، أو أنا أحب أن أحب قراءة الكتاب الفلاني، فيكون هذا من باب التوكيد، كأنه كرر المحبة مرتين، وبهذا نتخلص من الإيراد الذي يَرِدُ على تفسير المؤلف – رحمه الله –.

وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، قال المؤلف: [أي: صلاة العصر]، وهذا أيضًا فيه تفسير للعام بما هو أخصّ، وهو قصور في التفسير؛ وذلك لأن الذكر أعمّ من الصلاة، فكلُّ صلاةٍ ذكر، وليس كلُّ ذكرٍ صلاة، إذًا إذا فسَّرنا الذكر بالصلاة فقد فسَّرنا الأعمّ بالأخصّ، وهذا قصور، لكن ربما يُعتذَر عن المؤلف بسياق الآية، ولكن هذا العذر لا يُقبل؛ من الذي يقول: إن سليمان أراد بذكر ربه صلاة العصر؟ إذ قد يكون أنه أراد ذكر الله في المساء؛ لأن المساء له أذكار مُعيَّنة، وتكون صلاة

العصر داخلة في هذا الذكر، وهذا هو الصحيح، أن المراد بالذكر في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ عموم الذكر، الذي يدخل فيه صلاة العصر.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يشمل التَّذكُرَ الذي هو ذكر القلب، ويشمل القول الذي هو ذكر اللسان، ويشمل الفعل الذي هو أفعال الجوارح، وإذا أدخلنا صلاة العصر في هذا؛ لأن صلاة العصر تشتمل على أنواع الذكر الثلاثة، فيها ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر بالجوارح.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ في إضافة الربوبية إلى الله، استعطاف من سليمان لله عزَّ وجلَّ حيث أذعن له في الربوبية التي تقتضي أن يكون مشغولًا بذكره سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ استشكل بعضُ العلماء تعدِّي الفعل بـ «عن».

قيل: إن «عن» تعني البدلية هنا، أي: بدل ذكر ربي، وقال بعض العلماء: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ ضُمِّن معنى آثرت، أي: آثرت حب الخير عن ذكر ربي. ومرّ علينا فيما سبق أنَّه إذا جِيء بمُتعلَّق لا يُناسب المتعلَّق ظاهرًا فإن لعلماء النحو في ذلك قولين:

الأول: تضمين المتعلَّق معنى يُناسب المتعلَّق.

والثاني: أن يضمَّن الحرفُ الذي لا يُناسب المتعلَّق حرفًا يناسب المتعلَّق. وذكرنا أن الأولى أن يكون التجوُّز بالفعل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ قال المؤلف: [أي: الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: استترتْ بما يحجِبُها عن الأبصار].

إذا قال قائل: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الفاعل ضمير مستتر، والشمس لم يسبق لها ذِكْرٌ، فلماذا لا يُقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيل ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني أنها أُبعدت حتى استترت عنه، وكأنه شُغل بالنظر إليها، وهي تتطارد وتتسابق حتى وصلت إلى مسافة بعيدة بحيث غابت عنه؟

نقول: لا شك أنه معنى مُحتمل في الآية: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: هذه الخيول أُبعِدَت واستُتِرَت. ولكن وردت أحاديثُ تؤيد ما ذهب إليه المؤلف من أن التي توارت هي الشمس. ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: بما يحجبها عن الأبصار.

فما هو هذا الحجاب؟ الحجاب هو الأرض، كما قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[الكهف:٨٦] أي: في البحر، إذًا، الذي يسترها إذا غابت هي الأرض؛ لأن الأرض كروية الشكل؛ إذا دارت الشمس عليها ووصلت الجانب المُنحني؛ لا بد أن تغيب، وهكذا تغيب عن كل قوم شيئًا فشيئًا، حتى تطلع على مَنْ غابت عنهم أولًا.

ثم قال تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ الضمير راجع إلى الخيل التي عُرِضت عليه. أمر أن تُردَّ عليه، وترجع عليه مرة ثانية، من أجل أن يقضي عليها غضبًا لله عزَّ وجلَّ، وتنكيلًا لنفسه التي تعلَّقت بهذه الخيول،

وأعرضت بها عن ذكر الله. ﴿فَطَفِقَ﴾، طفق: فعل ماضٍ من أفعال الشروع، ويكون خبرها فعلًا. وبناءً على ذلك فإن قوله: ﴿مَسْحًا﴾ ليست خبرًا لها، بل مصدرًا (مفعولًا مُطلقًا) للفعل المحذوف الذي هو الخبر، والتقدير: فطفق يمسح مسحًا، والجملة: خبر طفق.

وقوله: ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ يعني يضربها مع سوقها جمع ساق و ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ مع العنق؛ لأن الخيل تتعلق بها النفس، باعتبار المشي، وباعتبار الصفون عند الوقوف، وباعتبار الرقبة وطولها، وما عليها من الشعر وحُسن العنق وهو دالٌّ على فراهتها؛ ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مواقع الحُسن في الخيل، وهي سوقها وأعناقها.

يقول المؤلف - رحمه الله -: [ذبحها وقطع أرجلها تقربًا إلى الله حيث اشتغل بها عن الصلاة، وتصدَّق بلحمها فعوضه الله خيرًا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء] يُحتمل ما قالها لمؤلف، ويُحتمل أنه لم يتصدق بها؛ لأنه ذبحها تقربًا إلى الله تعالى بإتلافها، وما كان كذلك فإنه لا يُؤكل. وعلى كل حال يُحتمل أن سُليمان تصدق بها كما قال المؤلف، أو أكلها، أو تركها، والله أعلم.

الفوائد:

١ - أن الأولاد هبة من الله عزَّ وجلَّ للعبد، ويتفرع على ذلك أنه يجب على العبد شكرُ الله على هذه النعمة.

٢ - الثناء على سليمان في قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ والعبودية هنا: العبودية الخاصة.

٣ - إثبات العلل والأسباب لقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ فإن هذا هو سبب الثناء عليه.

٤ - فضيلة الأوبة إلى الله عزَّ وجلَّ، والرجوع إليه بالقلب والعمل؛ لأن الله أثنى على سُليمان بسبب ذلك.

٥ - **من فوائد هذه الآية:** ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ بيانُ عظمةِ مُلك سليمان عليه السلام، حيث كان الناس يُعرِضون عليه هذه الخيول للتمتُّع بها، ومن أجل الاطِّلاع عليها وتفقدها؛ ووجه ذلك أنه قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أُناسًا يُعرِضون عليه هذه الخيول.

٦ - أنَّ هذه العادة، وهي عَرْضُ الخيول والتمتُّع بجريها في آخر النهار، عادة قديمة ما زال الناس عليها إلى اليوم. يعني لا تكاد تجد أحدًا يُجري مسابقة على الخيل في أول النهار إنما يكون في آخر النهار؛ وهذا من العادات القديمة في الناس إلى اليوم.

٧ - أنه ينبغي اختيار الخيل الجيدة الجميلة، التي تَسُرُّ النفس في رؤيتها، وفي جريها لقوله: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

٨ - ينبغي اقتناء الخيل؛ حيث كان هذا من دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد قال

الرسول ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[1]. فمتى كانت الخيل أداة حرب، فالخير في نواصيها إلى يوم القيامة.

٩ - ذكر أنموذج من وصف سليمان عليه السلام بالأوَّاب، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾.

١٠ - أن المال خير، وهو كذلك؛ لأن الإنسان إذا رُزق المالَ تمكَّن من أن يتمتع تمتعًا كاملًا فيما يختص بالمال، بخلاف إذا ما ضُيِّق عليه المال، فإنه لا يستطيع أن يتمتع.

١١ - أن الإعراض عن ذكر الله بأمور الدنيا أمرٌ مذمومٌ؛ لأن سليمان عليه الصلاة والسلام وَبَّخ نَفْسَه في كونه أحبَّ الخير وقدَّمه على ذكر الله.

١٢ - إثبات أن الشمس تجري دائمًا، وليست تغيب بمعنى أنها تحتجب عن الأنظار في السماء؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

١٣ - إثبات أن الشمس هي التي تدور على الأرض في طلوعها وغروبها؛ لأنه أضاف الفعل إليها فقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ ولو كان الأمر كما يقول أهل الجغرافيا اليوم: إن الأرض هي التي تدور وتحتجب الشمس بسبب دورانها لقال: حتى توارينْا بحجاب، أو حتى توارى بالحجاب؛ لأنه إذا كنت أنت الذي تدور، ومقابلك ثابت؛ فالذي يتوارى هو الدائر.

فإذا كان الله تعالى أثبتَ أنَّ التواري للشمس، دلَّ هذا على أنها هي التي تدور، وهذا كقوله: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[الكهف:١٧]، وهذه أربعة أفعال أُضيفت كلها إلى الشمس.

وفي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ حين غربت الشمس، قال له: «أتدري أينَ تذهب؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تسجدُ تحت العرشِ، فتستأذن، فإن أُذن لها وإلا قيل: فارجعي من حيثُ جئتِ، فتخرجُ من مغربها»[2]. هذا هو ظاهر القرآن. والواجب على المؤمن أن يتَّبع ظاهرَ القرآن؛ لأن هذا هو الطريق في كل شيء، كما في أسماء الله وصفاته نتبع ظاهر القرآن؛ وكما في الأحكام الشرعية نتبع ظاهر القرآن. إذًا في الأمور الكونية نتبع ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن صدر من الخالق العليم، فهو أعلم مِن خَلقِه بخَلْقِه، قال الله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[الكهف:٥١] فإذا كان هذا صادرًا من رب العالمين، يجب علينا أن نصدقه.

فالواجب علينا إذًا إجراء ظواهر الكتاب والسُنة على ما هي عليه حتى يقوم لنا دليلٌ حسي واضح يبين أن اللفظ ليس على ظاهره، فلو فُرِض أنه تبيَّن تبينًا واضحًا مثل الشمس، أن الأرض

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

هي التي تدور، فإننا نقول: عبّر بهذه الأفعال التي ظاهرها أن الشمس هي التي تدور باعتبار ما نشاهد، فتكون غربت باعتبار مشاهدتنا؛ لأن المُشاهَدَ المحسوس حسب الأمر الظاهر لعامة الناس أن الأرض ثابتةٌ والشمس تدور عليها، فيكون التعبير بحسب ما يُشاهد الناس في الظاهر ولكن لا نحتاج إلى تأويل الآيات إلا إذا ثبت ثبوتًا حسّيًا قطعيًا لا إشكال فيه؛ لأن الظاهر دلالته ظنية، ولا يمكن زحزحة هذه الدلالة إلا بدليل قطعي يكون أقوى منها.

١٤ - **ومن فوائد الآية**: أن الأرض كروية؛ لأنه لما أثبت أنها تتوارى بالحجاب، دل هذا على أن الأرض هي التي تحجبها، وهي كما نُشاهد تنزل شيئًا فشيئًا حتى تكون في الأرض فيدلُّ ذلك على أن الأرض كروية، وهذا أيضًا أمر مقطوع به ولا إشكال فيه، فهو ظاهر من القرآن، وظاهر في الواقع، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[الانشقاق: ٤]. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ وذلك يكون يوم القيامة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ يدل على أنها قبل هذا ليست ممدودة، بل هي كروية، وهذا لا يُعارض قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية: ٢٠]؛ لأن سطحها باعتبار المشاهدة، فأنت الآن إذا وقفت على الأرض تجدها مستوية إلى مد البصر.

١٥ - **ومن فوائد الآية في قوله**: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾: جواز التعزير بإتلاف المال، وهذه مسألة اختلف فيها الفقهاء، هل يجوز أن نعزر الإنسان بإتلاف ماله؟ أو لا يجوز؟ فمن العلماء من قال: إنه لا يجوز؛ لأن إتلاف المال إفساد له، ويمكن أن نعزره بأخذ المال دون إتلافه. نأخذه منه وننفقه في جهةٍ نافعة.

ومنهم من قال: بل إن ذلك جائز، واستدلوا لذلك بأن الغالَّ من الغنيمة الذي يكتم ما غنم يُحرَّق رحلُه، وهذا إتلاف له، مع أن الجيش قد يكون فيه حاجة إلى ماله، ومع هذا أُتلف، وهذا هو القول الراجح: أنه يجوز التعزير بإتلاف المال؛ أولًا: لدلالة السُنة على ذلك. ثانيًا: لأن إتلافه أنكى وأعظم أثرًا؛ لأنه لو أُخذ وجُعل في مصالح صار التنكيل خفيًا، ثم قد يكون فتَح بابًا للولاة الظلمة إذا أرادوا المال أقاموا دعوى على شخص ما ثم قالوا: نعزره بأخذ ماله، ثم يأخذون ماله على أن يكون في بيت المال، ولكنه سيكون في جيوب هؤلاء الظلمة، فإذا قلنا: بأنه يُحرق ويُتلف أمام الناس، زال هذا المحظور، وبناءً على ذلك إذا وجدنا مع الإنسان آلة لهو تصلح أن تُستخدم في غير اللهو، وعزرناه بتكسيرها. كان ذلك سائغًا ولا نقول: حوِّلها إلى آلة غير آلة اللهو؛ لأن إتلافها أمام الناس أنكى وأشد مما لو أتلفت بإنفاقها في جهةٍ ما.

١٦ - **ومن فوائد الآية**: أنَّ الإنسان لا بأس أن يُعزِّر نفسه بإتلاف ماله بنفسه لفعل سليمان عليه الصلاة والسلام. فلو فرضْنا أن الإنسان اشتغل بشيء معه عن ذكر الله تعالى وأراد أن

يكسره، لكان ذلك سائغًا جائزًا؛ لأن هذا يؤدي إلى ألَّا يعود مرَّةً أخرى إلى التشاغل عن ذكر الله عزَّ وجلَّ بشيءٍ من المال.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** قوة سلطان سليمان عليه الصلاة والسلام في أمره ونهيه لقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فإن هذا يدلُّ على أنَّ له جنودًا كثيرة تأتمر بأمره، إذ لم يقل: رُدَّها، لو قال: رُدَّها، لكان الخادم واحدًا، لكن لما قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ دلَّ على أن له جنودًا وخدمًا كثيرون يخدمونه.

١٨ - **ومن فوائدها:** سرعة مبادرة سليمان عليه السلام في تنفيذ ما أراد من إتلاف هذا المال لقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قد يقول قائل: أليس في هذا تعذيب للحيوان إذا جعل يضرب سوقه بالسيف، فيُقال: بلى، ولكن الظاهر أنه يعقرها أولًا، ثم يقطع عنقها ثانيًا، وهذا لا بأس به؛ لأن الألم لا يدوم. وإنما خصَّ السوق بالضرب؛ لأنها صافنات، والصافنة إذا رفعت حافرها بعض الشيء، صار لسوقها منظر جميل، فهو مُتعلِّق الرغبة؛ ولهذا جعل يضرب السوق، وأما الأعناق فظاهر من أجل إتلافها نهائيًا.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٤-٤٠]

التفسير

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي القسم المُقدَّر، واللام المؤكِّدة للقسم، والثالث قد في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾. ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، أي: اختبرْناه، والضمير في ﴿فَتَنَّا﴾ يعود على الرب عزَّ وجلَّ، وجاء بضمير الجمع تعظيمًا، لا تعديدًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى واحد، ولكنه تارةً يُعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد، وتارةً يُعبِّر عن نفسه بلفظ الجمع، ولم يُبين سبحانه وتعالى هذه الفتنة، لا عينها ولا نوعها، ولهذا ينبغي لنا أن نُبهم ما أبهمه الله، ونُجمل ما أجمله، ونعلم أنه إذا كان هنالك فائدة لنا في تعيين ما أبهمه لذكره؛ لأن الله تعالى

يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل:٨٩] فكل شيء فيه مصلحة لا بد أن يُبينه الله عزَّ وجلَّ لنا، ولهذا نقول: إن هذه الفتنة إذا سألَنا سائل: ما نوعُها، وما عينُها؟ نقول: الله أعلم؛ لأن الله تعالى لم يُبيِّنها لنا، ولم تَرد في خبر عن معصوم، فوجب علينا أن نسكت.

وأما ما ذُكر في هذا الموضع من الإسرائيليات؛ فإنها إسرائيليات كاذبة لا تليق بمقام النبوة، ولكن الإسرائيليون أتوا بها لأنهم لا يعتقدون أن داود وسليمان رسولان، بل يعتقدون أنهما ملكان، والملك يجوز عليه كل شيء.

يقول المؤلف: [﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ابتليناه بسلب مُلكه] ثم بدأ المؤلف بذكر القصة الإسرائيلية بسلْب مُلكه؛ وذلك لتزوجه بامرأة هواها، وكانت تعبد الأصنام – نسأل الله العافية –، هم جعلوا داود وسليمان كليهما عشيقين، ليس لهما هم إلا النساء. وداود، – كما قالوا – أراد أن يتزوَّج امرأة شخص، وكان عنده تسع وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل المئة.

أما سليمان فيقول حسب القصة الكاذبة: إنه هوى امرأة وعشقها، وكانت تعبد الأصنام في داره من غير علمه إذن صارت الدار دارَ كفر وشرك، وهذا نقطع بأنه كذب؛ لأنه لو كان كذلك لبيَّنه الله عزَّ وجلَّ كما بيَّنه في قصة امرأتي نوح ولوط.

وقال: [وكان مُلكُه في خاتمه، فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المُسماة بالأمينة على عادته، فجاءها جِنيٌّ في صورة سليمان، فأخذه منها]. ومما يدل على كذبِ هذه القصة قولهم: (فإذا أراد دخول الخلاء، نزعه) لماذا ينزعه؟ واسم سليمان ليس فيه لفظ الجلالة حتى يقول قائل: إنه تحرَّزَ من الدخول بشيء فيه ذكر الله، وأيضًا يضعه عند امرأته المُسماة بالأمينة على عادته. وهذا أيضًا يدل على كذب القصة.

ثانيًا: كيف يكون المُلك في الخاتم فقط؟

ثالثًا: إذا كان مُلكه في خاتمه فهل يمكن أن يُفرِّط فيه هذا التفريط، يُلقيه عند امرأة. وقد يقول قائل: إنها أمينة. ولكن نقول: ما هو الدليل على هذا؟ [فجاءها جنيّ في صورة سليمان، فأخذه منها] فلما أخذ الخاتم، صار سليمان بلا مُلك؛ لأنَّ المُلك يتبع هذا الخاتم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال المؤلف: [هو ذلك الجِنيّ، وهو صخر أو غيره، جلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيه، وقال للناس: أنا سليمان، فأنكروه]. لما جاء وجد هذا الجني المُسمى بصخر أو غيره على الكرسي، فجعل يقول للناس: أنا سليمان، ويقولون له: لست سليمان؛ لأن سليمان جالس على كرسي المُلك، فأما أنت، فلستَ سليمان. فكيف ستكون حسرته؟ لا بد أن تكون حسرةً شديدةً وهذا هو القول الأول.

وقال بعض العلماء: إن الله سلط شيطانًا دون أخذ الخاتم وبقطع النظر عن كون المُلك في

الخاتم، وأنه أعطاه امرأته، وأن الجِنِّي جاءها، وأخذه منها، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني في غيبة سليمان؛ لأن سليمان ليس دائمًا على الكرسي، ولكنَّ الله تعالى سلط عليه شيطانًا، جلس على الكرسي، جعل يُدبِّر شئون الدولة، وسليمان لما جاء إلى مكان جلوسه وجده مشغولًا بهذا العفريت، وعجز عن إنزاله عن الكرسي، وعن تولي تدبير شئون الدولة، فعرف أنه مفتون، وأن الله تعالى سلط عليه هذا الشيطان ليختبرَه. هذا قول بعض العلماء.

وقد رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه شيطان، ولكن ابن عباس - كما هو معلوم - كان قد أخذ عن بني إسرائيل كثيرًا، وربما يكون هذا مما أخذه.

والقول الثالث: أنَّ الجسَدَ هو شقُّ الولد، الذي اختبر الله تعالى به سليمان عليه السلام، حيث قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً تلد كل واحدة منهن غُلامًا يُقاتل في سبيل الله». حلف أن يطوف - يعني يُجامع تسعين امرأة - وأنَّ كل امرأة تلد غلامًا يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَكُ: قل: إن شاء الله، فلم يقل اعتمادًا على ما في نفسه من العزم على تنفيذ ما أراد، فنفذ ما أراد، وجامع تسعين امرأة، ولكن ما أراده لم يتمكن منه، وهو أن تلد كل امرأة غلامًا يُقاتل في سبيل الله؛ لأن إرادة الله هي النافذة، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، فولدت شقَّ إنسان(١)؛ لأجل أن يعرف سليمان وغيره أن الأمر بيد الله، وأنَّهُ لا يجوز أن يتألَّى أحد على ربه سبحانه وتعالى.

يقول بعض المفسرين: إن هذا الولد هو الجسد؛ لأن هذا الولد ليس كامل التدبير، نصف إنسان كيف يُدبِّر؟ هذا هو الذي أُلقي على الكرسي ففتن به سليمان عليه السلام.

القول الرابع: أن قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني بها سليمان نفسه، أي: ألقيْناه هو نفسه على الكرسي جسدًا، والجسدُ هو الذي لا يُدبِّر، وليس عنده تفكير، أي: أن الله سلبَ من سليمان تفكيرَه الذي يُدبِّر به شئون مملكته فصار لا يُحسن التدبير، ومَنْ لا يُحسن التدبير كالجسد بلا روح، فيكون المُراد بالجسد سليمان نفسه، ويكون تقدير الكلام: وألقيْناه جسدًا على كرسيه لا يُحسن التدبير، وهذا أيضًا قريب، أنَّ الله تعالى يسلب عن الإنسان عقله وتفكيره حتى يكون جسدًا بلا روح، ومن المعلوم أن مملكةً عظيمةً كمملكة سليمان إذا فُقد منها المُدبِّر سوف تتخلخل وتتزعزع.

فهذه أربعة أقوال في معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

أما ما ذكره المؤلف فهو باطل بلا شك، وأمَّا ما ذكر من أنه الولد الشق فالظاهر أنه ضعيف.

بقي عندنا قولان:

الأول: أنه شيطان سُلِّط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يُدبِّر شئون مملكته.

والثاني: أنه سليمان نفسُه سَلَبَ الله منه التفكير وتدبير شئون المملكة فصار لا يُحسن التدبير.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤).

هذان القولان مُحتملان، أقربهما إلى اللفظ الأول، أي: أنه شيطان أُلقي على الكرسي؛ لأن جسدًا نكرة تقتضي أن يكون المُلقى غير المُلقى على كرسيه، ولكن الثاني أقرب من حيث المعنى، أي: أن الله تعالى إذا سلب من الإنسان عقله وتفكيره وسلطته فهو بمنزلة الجسد.

وعلى كل حال هذه الفتنة التي حصلت لسليمان عليه السلام بإلقاء الجسد على كرسيه، سواء أكان هو نفسه أم شيطان جلس على الكرسي، لا شك أنها فتنة عظيمة، ولا يتصوَّرها أحد لم تمسَّه هذه الفتنة؛ لأن ما نسمع من المصائب والفتن وغيرها نسمعها على أنها تمرُّ علينا مرورًا ذهنيًا، وليس هذا كالذي يُباشر المصيبة والقضية نفسها.

وعلى كل حال سليمان عليه السلام لما وصل به الأمر إلى هذه الحال أناب إلى الله؛ لأن من طبيعة الإنسان إذا أُصيب بمصيبة أن يُحاسب نفسه. أما قبل أن يُصاب فقد يغفل، لكن إذا أُصيب صار يُحاسب نفسه، ورجع إلى الله، حتى المشركون إذا ركبوا في الفُلك، وأصابتهم الأمواج التي يضرب بعضها بعضًا، يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى، يدعونه مخلصين له الدين أن يُنجيهم. فمن طبيعة الإنسان أن يعود إلى القوة التي يُمكنها أن تدفع عنه المُصيبة التي نزلت به، إلا مَنْ خرج عن هذه الطبيعة، وقد يخرج عن هذه الطبيعة ناس كثيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦] فقد يخرج بعضُ الناس عن هذه الطبيعة الفطرية فتصيبه المصائبُ والنكباتُ والعذابُ، ولكن قلبُه يكون قاسيًا لا يتأثر. نسأل الله العافية.

قال المؤلف: [﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجع سليمان إلى مُلكه بعد أيام، بأن وصل إلى الخاتم فلبسه، وجلس على كرسيه] هذا من أبعد ما يكون في التحريف لكلام الله عزَّ وجلَّ، والمتعيِّن أن المعنى: أناب إلى الله، أي: أنه عَرِف أن هذا الذي نزل به لأمرٍ صدر منه، فرجع إلى الله وأناب إليه، وأحسن التوبة، وأصلح العمل.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ بدأ بطلب المغفرة قبل طلب المُلك العظيم، الذي لا ينبغي لأحد من بعده؛ وذلك لأن زوال أثر الذنوب هو الذي يحصُل به المقصودُ، فالذنوب في الحقيقة تتراكم على القلب، وتمنعه من كثير من المصالح، فيسأل الإنسانُ التخلُّصَ من آثار هذه الذنوب، قبل أن يسأل ما يريد.

والمغفرة مأخوذة من المِغْفَر، وهو الذي يُوضَع على الرأس، لاتِّقاء السهام في حال القتال، وهو شيء من حديد يُلبس تحت البيضة، أي: الخوذة، فهو يقي الرأس، وفي نفس الوقت يستره.

ولهذا نقول: إنَّ مغفرة الذنوب ستْرها عن الخلق، مع التجاوز عن عقوبتها، أي: أنَّ المغفرة جامعة لمعنيين هما: السَّتْر والتجاوز عن الذنب، أي: أنَّ الله تعالى لا يُعاقِب عليه.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ يعني أعطني مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، أي: لا يصلح أن يكون لأحد من بعدي. يُعني مُلكًا عظيمًا، لا يفكر فيه أحدٌ من بعدي، فغفر الله له واستجاب له.

قال المؤلف: [﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: سوى الله]، وليس المُراد من بعدي زمنًا، بل لا ينبغي لأحد في زمني أو زمن بعد زمني، ولكن المُراد بـ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾: سواي، واستشهد لذلك بقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾[الجاثية:٢٣] ومعلوم أنه لا أحد بعد الله، فالله هو الآخر الذي ليس بعده شيء، ولكن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سوى الله.

والقول الثاني: أن المُراد ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: مُلكًا لا يغلبه عليه أحد، ويؤيد القول الأول قوله عليه الصلاة والسلام حين تفلَّت عليه عفريت وهو يُصلي، وأراد أن يمسكه وأن يربطه بسارية المسجد ليلعب به صبيان أهل المدينة، وقال: «لولا أنِّي ذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لفعلت»[1]، وهذا يدلُّ على المُراد ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ زمنًا.

والمُرجَّحُ أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل مُلكًا عظيمًا لا يكون لأحد من بعده، وبناءً عليه، فإنه يحصل الإشكال: لماذا تحجَّر هذا المُلك؟ قد نقول: إن القول الثاني أصح، وإن النبي ﷺ ترك ذلك تورُّعًا؛ لأنه خاف أن يكون مُراد سُليمان زمنًا، فترك هذا من باب التورُّع، ولكن هذا الجواب فيه أيضًا بعض الشيء؛ لأن النبي ﷺ إذا فسَّر الآيةَ بشيء أو أتى بشيء يقتضي تفسيرها على وجهٍ ما، فإنه لا شك أولى من الاحتمال الآخر، وأن يكون المُراد ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: من سواه، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ : هذه جملة تَعلُّقها بما قبلها، أنها من باب التوسل. لما سأل الله مُلكًا توسَّل إلى الله بالاسم الذي يُناسب ما دعا به: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ (أنت): يُسمِّيها العلماء ضمير الفصل، وتفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر.

وقوله: ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة هبات الله، وكثرة من يهبه الله، كل ما في الخلق من نعمة فهو من هبات الله، وما أكثر النعم على الإنسان، وما أكثر من أنعم الله عليه؛ ولهذا جاءت صورة المبالغة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾.

الفاء: للسببية من وجه، وللتعقيب من وجهٍ آخر، أي: بسبب دعائه، وفور دُعائه يعني ذلَّلْناها له، والريح: الهواء.

يقول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾: تجري أي: تسير، ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: على وفق أمره. ﴿رُخَآءً﴾ أي: ليِّنة في سيرها وهبوبها، ليِّنة في طاعتها، لا تستعصي، مثلًا: إذا كانت الريح جنوبًا وهو يريد أن يذهب إلى الجنوب يأمرها أن تهب شمالًا، فتهب شمالًا، فتحمله حيث أراد.

قد يقول قائل: كيف يتم الجمع بين قوله: ﴿رُخَآءً﴾ وبين قوله في آيات أخرى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١]؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

والجواب: أنَّ الجمع بينهما سهل، فهي رخاء، أي: ليس فيها زعزعةٌ، وهي عاصفة، أي: سريعة؛ لأن غُدوَّها شهر ورواحها شهر، يعني تمشي في الصباح، ولا يأتي زوال الشمس إلا وقد قطعت مسافة شهر. وبعد الزوال تمشي ولا يأتي الغروب، إلا وقد قطعت مسافة شهر، قال أهل العلم: إنه يضع على الأرض شيئًا كالبساط، ويجلس هو وحاشيته على البساط ثم يأمر الريح فتحمله فيطير بين السماء والأرض، ومع ذلك هي رُخاء، وكان المُتبادر إلى الذهن أنَّ مثل هذا الطيران يُزعج الراكبين، على هذا البساط، ولكنَّ الله تعالى جعلها رُخاءً ليِّنة، حتى كأنهم لا يطيرون، وليس فيها إزعاج، وهذا من آيات الله.

﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: حيث أراد، أي: الجهة التي يريد، وهذا لم يحصلْ لرسول غيره فيما نعلم، ولا لملك من الملوك يأمر الريح فتسير به حيث أراد.

ثم قال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعني سخَّرنا له الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهم عفاريت الجن. سخَّر له ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾، يبني الأبنية العجيبة، ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ في البحر يستخرج اللؤلؤ.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: مشدودين في الأصفاد، وهي القيود، بجمع أيديهم إلى أعناقهم، سخَّرَ الله له الشياطين، أي: ذلَّلهم له، يُطيعونه، وينفذون أوامره، وقد صنَّفهم ورتَّبهم حسب قدراتهم واختصاصاتهم، منهم من يُبني له البناء الشامخُ العجيب، و﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾[سبأ:١٣].

والقسم الآخر: ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يغوصون في البحار؛ يأتون له بأنواع اللؤلؤ والمرجان والدُّرر وغيرها، يأتون بكل ما يريد.

وفيهم قوم مَردة من الشياطين يؤذون الناس، وربما يتمردون عليه ويعصونه، هؤلاء يُقرنهم في الأصفاد، ويشدُّ أيديهم إلى أعناقهم، ويحبسهم في الأصفاد.

وقد يقول قائل: هل هذا من التسخير؟

نقول: نعم، هذا من التسخير. أنَّ الله تعالى جعل له سلطةً عليهم، فالله تعالى جعلهم يعصونه ويتمرَّدون عليه، ويؤذون مَنْ في مملكته من أجل أن يُنزل بهم هذا العذاب؛ حتى يتبين بذلك كمال سلطانه على هؤلاء الشياطين؛ لأنه لا يُعرف تمام السلطان إلا بإنزال العقوبات على المتمردين.

أما إذا كان السلطان يُداهن المتمرِّدين، فإن هذا يدلُّ على ضعْف السلطان، وأنه ليس عنده قدرة على تدبير مملكته. وجعل الله تعالى هؤلاء يتمردون على سليمان، أو يؤذون من في مملكته؛ لأجل أن يُنزل بهم بطشَه، ويُعرف أنه قوي، وذو سلطة، وسيطرة على هؤلاء الجن.

قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾، ﴿هَذَا﴾ المشار إليه ما سخَّره الله له من الريح والسلطة على الشياطين.

﴿عَطَآؤُنَا﴾ يعني الذي أعطيناك إياه؛ لأنه قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥] فأعطاه الله هذا العطاء، والذي فهمنا مما أعطاه تسخير الريح، وتسخير الشياطين.

قال المؤلف: [﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ أعط منه من شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك].

أعطاه الله تعالى هذا المُلك، وقال له: أنت بالخيار، امنن على مَنْ شئت، وأمسك المنة عمَّن شئت، لا حساب عليك في ذلك. وهذا من التخيير المُطلق في التصرف.

وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، لما ذكر الله ما منَّ على سليمان عليه السلام في الدنيا؛ ذكر ما مَنَّ عليه في الآخرة، وهو أن له عند الله مرتبة عالية في الآخرة، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قريبة من الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حُسن مرجع؛ لأن مرجعه على الجنة، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ ذكرْنا فيما سبق أن العندية المُضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: عندية علم (عندية الصفة)، وعندية قُرْب، كما في هذه الآية. أما عندية العلم (عندية الصفة) كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩] فإن هذه عندية علم (عندية صفة).

أما عندية القرب فتكون منفصلةً عن الله، يكون الشيء عند الله، أي: قريب منه، وقوله: ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الزلفى، أي: القربى؛ لأن أعلى مراتب الخلق هي مراتب الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النساء:٦٩].

فوائد الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أنَّ الله قد يَختبر عباده المُصطفين عنده بما يشاء من اختبار، وينبغي أن نُبهِم ما أبهمه الله تعالى، وألَّا نبحث عنه، ونتكلف ذلك كما يفعل بعض الناس.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لسليمان عليه السلام كرسيًا يجلس عليه كما يجلس الملوك؛ لأن الله جمع له بين النبوة والمُلك.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان قد يُسلب بعضُ النِّعم؛ إما جزاء على عمل عمله، واستحق عليه أن يُسلب بعض النِّعم، وإما من أجل أن يترقَّى إلى درجة الصابرين؛ لأن الصبر درجة عالية لا تُنال إلا بأسبابها.

والصبر ثلاثة أقسام:

١ - صبر على طاعة الله.

٢ – وصبر على معصيته.

٣ – وصبر على أقداره.

أما الصبر على طاعة الله، وعن المعصية فهو باختيار الإنسان، وأما الصبر على أقدار الله، فالأقدار بغير اختياره، فقد يَبتلي اللهُ العبدَ بأقدار تحتاج إلى صبر ومصابرة من أجل أن يستكمل مراتب الصبر. ومنه إلقاء الجسد على كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام.

٤ – **ومن فوائدها:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بدَّ أن يرجعوا إلى الله، وينتبهوا، وهذا مُستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ بخلاف غيرهم، فإنهم قد يُبتلون بالذنوب، ولا يرجعون عنها، وهذا هو الفرق بين الأنبياء وغيرهم: أن الأنبياء معصومون عن الاستمرار في المعاصي، أما غيرهم، فلا.

٥ – **ومن فوائدها:** أن مسلوب التصرف والسُّلطة كأنه جسدٌ بلا روح، لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، وهذا على أحد الأقوال الأربعة التي ذكرناها.

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

١ – **من فوائد هذه الآية:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معنيون أكثر بأمور الآخرة، ولهذا طلب من الله المغفرة قبل أن يطلب المُلك.

٢ – **ومن فوائدها:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُحتاجون إلى مغفرة الله، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٣ – **ومن فوائدها** أنهم مربوبون، وليسوا أربابًا لقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٤ – **ومن فوائدها:** جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا مُستفاد من قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، وذلك أنه لو لم يكن ذنب لما استغفر.

٥ – **ومن فوائدها:** جواز طلب الإنسان المُلك، لقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، ولكن يُشترط في ذلك أن يكون لدى الإنسان استعداد للقيام بما سأل، أما أن يقول: رب هب لي مُلكًا، وبِنِيَّته أن يضيِّعه؛ فإن هذا لا يجوز.

وقد اختلف أهل العلم في جواز سؤال الإمارة، هل يجوز للإنسان أن يسأل الإمارة أو القضاء أو ما أشبهها من الولايات؟! منهم مَنْ قال: إن ذلك جائز، ومنهم مَنْ قال: إنه مُحرَّم، ومنهم مَنْ فصَّل.

أما من قال: إنه جائز، فاستدلُّوا بقصة يوسف، حيث قال لملك مصر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥] فسأل الولاية، وشرعُ من قبلنا شرعٌ لنا، ما لم يرد في شرعنا ما يُخالفه.

كما استدلُّوا بحديث عثمان بن أبي العاص حين قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي. قال: «أنت إمامُهم»[(١)].

أمَّا مَنْ منع ذلك، فاستدل بحديث عبد الرحمن بن سمرة - ﷺ - أن النبي ﷺ قال له: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أُعطيتها من غير مسألة، أُعِنت عليها»[(٢)].

فنهاه النبي ﷺ أن يسأل الإمارة، وَبَيَّنَ له السبب؛ أنَّ مَنْ أُعطِيَها عن مسألة، وُكِّلَ إليها، ولم يعنه الله، ومن أتته من دون مسألة، أعانه الله عليها.

واستدلوا أيضًا بأن رجلًا طلب من الرسول ﷺ أن يكون عاملًا، فقال: «إنَّا لا نولِّي هذا الأمر أحدًا سأله»[(٣)]. وهذا يَدُلُّ على أنه لا يُسأل، وأن من سأل، فليس أهلًا لأن يُولَّى.

وفصَّل آخرون، فقالوا: إن سألها لإصلاح ما فَسَدَ منها، فإن ذلك جائز، إذا علم من نفسه القدرة، وإلا فلا يجوز؛ لأن السلامة للإنسان أسلم.

وهذا القول التفصيلي هو الصَّحيح؛ لأن به تجتمع الأدلة، فإن الإنسان، مثلًا، إذا رأى ولايةً قام عليها شخص ليس أهلًا لها، إمَّا في دينه، أو أمانته، وتصرفه، وهو يعلمُ من نفسه القدرة على القيام بها على أحسنِ حالٍ، أو على الأقل بوجهٍ أحسن مما كانت عليه، فلا بأس أن يسألها؛ لأن غرضَه بذلك غرضٌ عملي وإصلاحي وليس غرضه شخصيًا.

أمَّا إذا لم يكن هنالك سببٌ، أو يعرف الإنسان من نفسه أنه ضعيفٌ لا يستطيع القيام به، فلا يسأل، ولا يجوز أن يسأل.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية**: الثناءُ على الله تعالى بأنه وهَّاب يُعطي العطاءَ الكثيرَ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: التوسُّل إلى الله تعالى بالاسم المناسب لما يدعو به لأن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ يناسب قوله: ﴿وَهَبْ لِى﴾ وهذا هو أحد معاني قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] فإنَّ أحد معانيها أن تجعلها وسيلة لما تدعو به؛ فإن أردت أن تسأل المغفرة تقول: يا غفور، أو الرحمة فتقول: يا رحيم ... وهكذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ، وكمال سُلطانه، حيث سخرَّ الريح وذللها.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢١)، أبو داود (٥٣١)، والنسائي (١/ ١٠٩)، والطحاوي (٢/ ٢٧٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٤٩٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧١٤٩)، وأبو داود (٢٩٣٠)، والنسائي (٥٣٨٢).

٢ - **ومن فوائدها**: عموم سلطان الله عزَّ وجل على الجماد والحي وغير ذلك؛ لأنه أمر الريح، وهي جماد، فامتثلت.

٣ - **ومن فوائدها**: أن الله تعالى قد يُسخِّر شيئًا من الكون لعبدٍ من عباده، كما سخَّر الريح لسُليمان عليه السلام، فإنه من الجائز أن يُسخِّرها لغيره، إذ دُعي.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن الرياح لها شعور واختيار؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ لأنه إذا كان يأمرها وتشعر بالأمر، ثم تمتثل، فهو دليلٌ أن لها شعورًا ولها إرادة.

وهكذا كل شيء في الكون له شعور، وله إرادة، بحسب ما يليق به؛ لقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[الإسراء:٤٤] ولا تسبيح إلا بإرادة، ولا تسبيح إلا بشعور بعظمة المُسبَّح. ومن هنا نَردُّ على من قالوا: إنَّ المُراد بقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف:٧٧] أنَّه مجازٌ، لأننا نقول لهم: ما الذي يمنع من إرادة الجدار؟ هو له إرادة، ولكن ليست كإرادة البشر، أو إرادة الحيوان المتحرك الذي يتحرك بإرادة، لكن الجدار له إرادة وهو ساكن لا يتحرك.

٥ - **ومن فوائدها**: أنَّ هذه الريح المُسخرة تجري بسهولة ولين، وليس بعصف مُقلق، كما هي عادة الرياح، إنما هي رُخاء ولينة سهلة، كأنهم على سطح.

٦ - **ومن فوائدها**: أنَّ مَنْ ترك شيئًا لله، عوَّضه الله شيئًا خيرًا منه؛ لأن كثيرًا من المفسرين جعلوا تسخير الريح لسليمان عليه الصلاة والسلام، تنقله حيث يشاء، عوضًا عن الخيل التي أتلفها غضبًا لله عزَّ وجلَّ، حينما ألهته عن ذكر الله.

وهذا قد يكون حقيقةً، أن هذا الذي أعطاه الله تعالى من تسخير الريح، كان جزاء له على فعله بالخيل. ولا شك أن من ترك شيئًا لله، عوَّضه الله خيرًا منه، وهذا يقع كثيرًا في مسائل عديدة. وإن أردت أن تطبق هذا على نفسك، فجرِّب.

٧ - **ومن فوائدها**: أنَّ هذه الريح تتجه حيث أراد سليمانُ عليه الصلاة والسلام، ولو كانت في الأصل على وجهٍ آخر. بمعنى أنه إذا كانت الريح جنوبية، وأراد أن يذهب بها إلى الجنوب، فإنه يأمرها أن تكون شمالية، لتحملَه إلى الجنوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَالشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: بيان ما بسَط الله لسليمان عليه الصلاة والسلام من السلطان، حيث كانت الشياطين المؤذية لبني آدم مُسخَّرة له على هذا الوجه العظيم، وعلى هذا التقسيم.

٢ - **ومن فوائدها**: حُسن تدبير سليمان عليه الصلاة والسلام؛ حيث وَزَّع هذا الجُند من الشياطين حسب ما يليق بهم؛ فمنهم البنَّاء، ومنهم الغواص.

٣ - **ومن فوائدها**: جواز تفخيم الأبنية وتكثيرها، والبناء الذي تبنيه الشياطين لا بد أن يكون

فخمًا مُحكمًا، ولكن هل يُقال: إنَّ هذا كان في شريعة سليمان؟ لأنه مَلِك يحتاج إلى أُبَّهةٍ وعظمةٍ، وإظهار قوة، وإظهار غِنىً، وإظهار سلطة، أم أنها عامة؟

أم أنها عامة للناس فلا. ولهذا جاءت شريعتنا بذمِّ من يجعل ماله في البناء. ورُبَّما يُقال: إنَّه يُفرَّقُ بين المَلِك السلطان وبين غيره؛ لأنَّ إظهار المَلِكِ السلطان نفسه بمظهر العظمة أمام أعدائه؛ لا شك أن ذلك أمرٌ مطلوب.

ويُذكر أنَّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وكان أميرًا على الشام، في إمارة عمر بن الخطاب ﷺ، وكان معاوية إذا أتى الإنسانُ إليه يجد حُجابًا وحُرَّاسًا وشيئًا من الأبهة، وإذا جاء إلى الخليفة الذي فوقه، يجد أمرًا بخلاف ذلك، يجد رداءً مُرقَّعًا، وشخصًا ينام في المسجد، يكوِّم كتلةً من الرمل والحصباء ويتوسَّدها وليس بين يديه حاجب، ولا حوله جنود، فيتعجب كيف أمير هذا الرجل بهذه الأبَّهة؟ وهذا الخليفة الذي فوقه بهذا التواضع؟!

أجاب العلماء عن ذلك بأنَّ معاوية ﷺ كان في بلاد الشام، وكانوا لا يخضعون لأمرائهم وسلاطينهم إلا إذا كانوا أمامهم على وجهٍ فيه أُبَّهةٍ وعَظَمةٍ، فرأى معاوية أنه من المناسب للحال أن يُكوِّن نفسه هذا التكوين، وليس قصدُه أن يتعاظم، والدليلُ على هذا أنه لما أتاه كتاب عمر ﷺ، وأظنُّه في كِسْرةِ عظم، في قصة اليهودي الذي أدخل معاوية بيته في بيت المال، بعد أن أُعطي عنه عِوضًا كثيرًا؛ فرأى أنَّ ذلك ظلم، فركب إلى عمر في المدينة يشكو معاوية، يقول: إنَّ معاوية غصبني، وأخذ بيتي، وأدخله في بيت المال، فكتب عمر إلى معاوية يأمره بأن يرد عليه بيته، فلما جاءه الكتاب، أخذه معاوية ووضعه على رأسه تعظيمًا للكتاب، وقال لليهودي: الآن افعل ما تشاء، تُريد أن نعيد إليك بيتك ونبنيه بأحسن ما تريد، أو تأخذ قيمته؟ فلما رأى هذا الأمر انبهر؛ كيف أن معاوية يفعل في كتاب عمر هذا الفعل، فشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله، وقال: بيتي لبيت مال المسلمين، لما رأى العدل، انبهر وأسلم.

ونقول: قد يكون سليمان عليه السلام أراد بهذا العمل أن يُظهر قوةَ سلطانه وعظمته أمام أعدائه، وأن يفصل بين ما يكون فيه غرضٌ مقصود وبين ما ليس فيه غرض، والإنسان بشكل عام لا يشرع له أن يُذهب مالَه ببناء القصور وتفخيمها. أما ذو السلطة الذي يُريد أن يُظهر سلطته ليكون مهيبًا أمام الناس حتى يتم له الأمر؛ لا حرج عليه في هذا.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾.

١ - **من فوائد هذه الآيات:** كمال مُلك سليمان عليه السلام وسلطانه وتنظيمه لعمله وعمَّاله؛ حيث جعل لكل طائفةٍ ما يختص بها من العمل، فمنهم البنَّاء، ومنهم الغوَّاص. ومن تمام سلطانه؛ أن العاصي منهم والمتمرد قد صفَّده وقرنه مما يدل على عقوبة هؤلاء المخالفين.

٢ - **ومن فوائدها**: جواز التعزيرُ بمثل هذا العمل، أي: بالشدِّ والغلِّ؛ وذلك لأن التعزير لا يختص بعقوبة معينة؛ لأن المقصود به الإصلاح، فأي عقوبة كان بها الإصلاح، فهي الواجبة.

وقد يكون التعزير بالضرب وبالحبس وبالحرمان من بعض الحقوق، وبالتغريم المالي، وبالتوبيخ أمام الناس، والتعزير يُقصَد به الإصلاح، فأي طريق يُقصد به الإصلاح كان به التعزير.

٣ - **ومن فوائدها**: أنَّ الله تعالى أباح لسليمان العطاءَ والإمساك كما يشاء، بدون أن يُحاسبَه على اختياره، ولكنَّا نعلم أن سليمان لن يتجرَّأ على الإعطاء في معصية الله، ولا الإمساك عما أوجب الله؛ لأنه نبيٌّ من الأنبياء لا يُقرّ على خطأ، وتكون الإباحة له هنا في الأشياء التي يُباح له فعلها أو تركها، ويكون هذا من باب التوسعة الصريحة له أن يُمسك أو يُعطي.

٤ - **ومن فوائدها**: أنَّ الله لما ذكر بأنه أنعمَ عليه في هذه الدنيا، وكان الواهم قد يتوهم أن ذلك يُنقِص من ثوابه يوم القيامة؛ بيَّن أن ثوابه في الآخرة لا ينقص بهذا العطاء الذي أعطاه له في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنَّ الناس يختلفون في القرب من الله تعالى لقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وأقربهم من الله جوارًا يوم القيامة أقربهم من عبادته في الدنيا، فكلما كان الإنسان في الدنيا أقوم بطاعة الله، وأقرب إلى الله؛ كان في الآخرة كذلك؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٦ - **ومن فوائدها**: أنَّه ينبغي للإنسان أن ينظر إلى مآبه ومآله، هل هو حسن أو سيئ؛ حتى إذا كان سيئًا سعى في إصلاحه، وإن كان حسنًا حمد الله وازداد من فضله.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

التفسير

الخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون موجَّهًا لكل من يتأتى خطابُه من البشر، وقوله:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ﴾ أعاد الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ مع أنَّه في قصة سليمان لم يعده بل قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾[ص:٣٠] ولم يقل (اذكر). قال بعض العلماء: لأنَّ سليمان بن داود فقصتهما مُتقارِبة، وكأنها هي قصة نبيٍّ واحد، أما أيوب فهو منفصل عنهما، ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ والمراد بالعبد هنا المتذلل لطاعة الله، وهذه العبودية من عبودية أخصّ الخاصة؛ لأنها عبودية الرسالة.

وقوله: ﴿أَيُّوبَ﴾: عطف بيان أو بدل من ﴿عَبۡدَنَآ﴾.

وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ : إذ: متعلقة بـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ ويجوز أن تُعلَّق بمحذوف حالًا من عبد، يعني في حال نداء ربه، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعاه بصوت مرتفع؛ لأن النداء يكون بالصوت المرتفع، والمُناجاة تكون بالصوت المنخفض، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[مريم:٥٢]، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [أي: بأني ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾] قدَّر المؤلف الباء هنا لأن همزة (أن) مفتوحة، والقاعدة: أن همزة (أن) تكون مكسورة إذا جاءت بعد القول، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[مريم:٣٠] ولكنَّها هنا مفتوحةٌ، فقدر المؤلف الباء؛ لأنه إذا قدرنا الباء صارت تُسبَك هي وما بعدها بمصدر، وإذا سبكت (أن) وما بعدها بمصدر، صارت مفتوحة الهمزة، كما قال ابن مالك:

وهَمْزَ إِنَّ افْتَحْ لِسَدِّ مصدرِ مَسَدَّها وفي سِوى ذاكَ اكْسِرِ

و﴿مَسَّنِيَ﴾ يعني أصابني، و ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هو شيطان الجن.

وكان الشيطان قد آذاه. ولكن هل هو إيذاء نفسيّ بأن ألقى في قلبه الوساوس التي أنهكت بدنه، أو أنَّه إيذاء حسي كما قال بعضهم: إنَّ الشيطان نَفَثَ في جسده، حتى أصبح جسدُه كلُّه جدري يعني حبوبًا ضارةً، فالله أعلم؛ يُحتمل هذا وهذا.

قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ النصب يعني الضرر، والعذاب يعني الألم.

يقول المؤلف: [ونسبَ ذلك إلى الشيطان، وإن كانت الأشياء كلُّها من الله تعالى؛ تأدبًا معه تعالى] نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه السبب، وإلَّا فالأمر كله بقدر الله، والله تعالى بحكمته سلَّط عليه الشيطان، ولكنَّ تسلطَه كان بقضاء الله وقدره. وأقول: نَسَبه إلى الشيطان؛ لأنه هو المباشر للعلة، وهو سبب لا شك، ولكنَّه سبب مباشر. وفي الحقيقة أنَّ الشيطان إنَّما سُلِّط عليه بقضاء الله وقدره. والمؤلف يرى أنَّه نُسبَ إلى الشيطان تأدبًا، وإلا فالأصل نسبته إلى الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾[الجن:١٠] فالجن قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعلوم أنَّ مُريدَ الشرِّ هو الله عزَّ وجل لحكمة، ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، فهم حذفوا الفاعل تأدبًا مع الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الشر ليس إليه.

على كلِّ حالٍ الشيطان هو الذي مسَّ أيوبَ، ومسَّه إمَّا أن يكون مسًّا نفسيًا أو حسيًا.

ولما نادى ربَه عزَّ وجلَّ، وتضرع إليه، وعلم ألَّا ملجأ من الله إلا إليه، وبعد أن تفرغ قلبُهُ مِن

كل شيء سوى الله، جاءه الفرج فقيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ...﴾ أي: اضرب برجل الأرض، فضرب الأرض بها فنبع منها الماء بإذن الله، ولم يحتجْ إلى حفَّار ولا إلى أحد يُساعده. بل ضرب الأرضَ برجله ضربةً واحدةً فنبع الماءُ، والله على كل شيء قدير، وهذه إحدى الضربات التي نبع بها الماء على أنه آية من آيات الله.

والثانية: موسى ضرب الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا.

والثالثة: جبريل ضرب بجناحيه مكان زمزم، فنبع الماء، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

قال المؤلف - رحمه الله -: [فنبعت عين ماء فقيل له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾ أي: ماءٌ تغتسل به ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: تشرب منه، فاغتسل وشرب فذهب عنه كلُّ داءٍ كان بباطنه وظاهره] أي: أُبيح له أن يغتسل ويشرب من الماء الذي نبع من الأرض، والغالب أن الماء النابع من الأرض يكون ساخنًا، ولكن هذا بارد، فشرب منه واغتسل به، فذهب عنه كل داء كان في باطنه وظاهره بقدرة الله عزَّ وجلَّ وإرادته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

قال المؤلف: [أحيا الله له مَنْ مات مِن أولاده، ورزقه مثلهم]. فجعل المؤلف الهبةَ بمعنى الإحياء، ولكن هذا فيه نظر؛ لأن الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبله، وليس في الآية ما يدلُّ على هذا، بل إنَّ الله تعالى وهب له أهله حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه؛ لأن الرجل بسبب مرضه الحسي البدني أو النفسي، شُرِّدَ منه أهلُه، وعجزوا عن أن يعيشوا معه، ولما عافاه الله، أوى إليه أهله، فتكون هذه الهبة إعادة ما سبق، كما سمَّى عمرُ بن الخطاب ﷺ إعادةَ قيام رمضان جماعة سمَّاها بدعةً، وهي ليست بدعة في الواقع، وهذه هبة مع أنها ليست هبة، ولكنها إعادة موهوب شرد.

وأمَّا القولُ بإحيائهم بعد إماتتهم فهذا يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبل، ولكن الصحيح أنه لم تثبت الإماتة ولا الإحياء، وإنَّما هذه الهبة إعادة موهوب سابق؛ لأنهم نَفروا منه، وشَردوا عنه.

وقوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ نقول: إنَّ الله رَزَقَهُ أولادًا جُددًا؛ لأنَّ زوجتَه رجعتْ، وصلَحتْ حاله، وصار يُنجب، فبارك الله له في ولده.

ثم قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ﴿رَحْمَةً﴾ قال المؤلف: [نعمة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة]، قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ إنْ كان عائدًا على الأهل ومَنْ وُهب له من جديد؛ فهي رحمةٌ مخلوقة. والرحمة قد تُطلق على المخلوق، كما قال الله تبارك وتعالى: «أَنتَ رحمتي أرحمُ بِكَ مَنْ أشاء»(١) ولذلك، فإن تفسير المؤلف للرحمة بالنعمة تفسير صحيح؛ إذا جعلْنا الرحمةَ هنا عائدة على الأهل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

والأولاد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فإن تفسيرَه صحيح؛ لأن الرحمة مخلوقة.

وإن أُريد بالرحمة صفة الله عزَّ وجلَّ؛ يعني: أن هذا من رحمتنا؛ أي: ناشيء عن رحمة الله، فالرحمة هنا غير مخلوقة؛ لأن صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة.

إذًا كلام المؤلف لا يمكن أن يُخطَّأ على الإطلاق؛ حيث فسَّر الرحمةَ بالنعمة، ومعلوم أن الأشاعرة يُفسِّرون رحمة الله بالنعمة والإحسان، ولا يرون أن لله رحمةً هي صفتُهُ، فكلام المؤلف لا يُنتقد من كلِّ وجه لاحتمال أن يكون المُراد بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومثْلهم معهم، يعني أراد بها الموهوب، والموهوب لا شك أنه مخلوق، أما إذا أردنا أن نفسِّر قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ برحمة من عندنا، أي: الرحمة التي هي صفة الله عزَّ وجلَّ، أي: أن هذا ناشيء من رحمتنا، الرحمة التي نحن متصفون بها، فإن تفسير المؤلف هنا ليس صحيحًا؛ لأن الرحمة هنا تكون صفةً من صفات الله، وليست بمعنى نعمة يعني خلقًا بائنًا عن الله عزَّ وجلَّ.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ تُعرب مفعول لأجله، وهذه عِلةٌ سابقة، والعلل قسمان: علل غائية مُنتظَرة، وعلل سابقة مُوجبة، فمثلًا إذا غَضِب الإنسان وضرَب ولده، الضرب هنا من الغضب؛ لأن العلة سابقة موجبة. أما إذا سافر الإنسان ليتَّجر، فهنا العلة غائية لاحقة.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾، ﴿مِّنَّا﴾ يعني نفسه تبارك وتعالى، وأتى بصيغة الجمع، تعظيمًا لله عز وجل. والغريب أن الجمع من الألفاظ المتشابهة التي استدلَّ بها النصراني على تعدُّد الآلهة؛ لأن النصراني يقول: إن الله ثالث ثلاثة، ليس إلهًا واحدًا، ويقول عندي دليل: خلقْنا، أنزلْنا، من لدنا، منا، عندنا، كل هذه تدل على الجمع، فنقول له: إنَّ في قلبك لزيغًا؛ لأنك اتَّبعت المتشابه، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٧]، ما الذي أعمى بصيرتَك عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]؟ هذا مُحكم، والإتيان بصيغة الجمع للتعظيم أمرٌ واردٌ في اللغة العربية، حتى الناس أنفسهم وهم بشر - لا يستحقون من العظمة ما يستحقه الخالق - يعبرون عن أنفسهم بصيغة الجمع تعظيمًا لأنفسهم.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: من عند الله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عِظة لأصحاب العقول، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ هذه خاصّة بأيوب وأهله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عامَّة، يتذكَّر بها أصحاب العقول، يتذكرون بأن المصائب تكون على الرسل وعلى غيرهم، وبأنَّ الشيطان يمكن أن يُسلَّط على الرسول، ويتذكرون بها أن الإنسانَ إذا لجأ إلى ربه، ودعا ربه، فإنَّ الله يُجيبه، ويتذكرون بها أنه كلما اشتد الكربُ، قَرُب الفرج، وقال رسول الله ﷺ: «اعْلموا أنَّ النَّصر مع الصبرِ، وأن الفرجَ مع الكرْب، وأن مع العسر يُسرًا»[1]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ

(١) متفق عليه: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة:٢١٤]، يعني قريب من هذه الحال التي وصلت بالرسل إلى أن يقولوا: متى نصر الله؟ يعني يطلبونه شوقًا، لا استبعادًا، كأنهم يقولون: يا رب عَجِّل لنا بالنصر، فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إذنْ ذكرى لأولي الألباب فيما يلي:

أولًا: أنَّ البلَاء يشمل الأنبياء.

ثانيًا: أنَّ الشيطَان قد يُسلَّط على الأنبياء.

ثالثًا أنَّ الله تعالى يُجيب دعوَة المُضطرين إليه، إذا صدق الإنسان في دعوته.

رابعًا: أنَّه كلما اشتدت الأمور؛ فانتظر الفرجَ، فهذا أيوّب لما اشتد به الأمر، ولجأ إلى الله، أجاب الله تعالى دُعاءَه.

خامسًا: زوالُ كرب النبي أيوب عليه السلام كان على يده؛ لأن الله تعالى لم يُنزل شفاءً دون سبب ظاهر، بل بسبب هو الذي يُباشره. قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فضرب برجله فخرج الدواء، وقيل له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل فعالج نفسه إذًا هو الذي استخرج الدواء، وباشر العلاجَ، وكان علاجُه على يده باستخراج الدواء واستعماله.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، قال المؤلف: [﴿ضِغْثًا﴾ هو حزمةٌ مِن حشيش أو قضبان ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك، وكان قد حلف ليضربنَّها مئة ضربةٍ لإبطائها عليه يومًا ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بترك ضربها، فأخذ مئة عود من الإذخر أو غيره، فضرب بها ضربة واحدة].

وهذه الفتوى من الله عزَّ وجلَّ لأيوب، أفتاه بها تسهيلًا عليه وعلى أهله. وقد أشرْنا قبل قليل أنَّه لما أُصيب بهذه المُصيبةِ مِن قِبَلِ الشيطان، مُصيبة نفسية ومصيبة بدنية ظاهرة شرَّد أهله، ومن ضِمْنهم زوجته التي كان ينبغي أن تبقى معه على السرَّاء والضرَّاء، فحلف أن يضربها مئة ضربةٍ؛ لأنها أغضبته وتركته. فلما شفاه الله عزَّ وجلَّ من المرض وجب عليه أن يفي بيمينه فيضرب زوجته مئة ضربة. والمئة ضربة قد يكون فيها شيء من الاشمئزاز بالنسبة لزوجته، ومن الإحراج بالنسبة له؛ فأفتاه الله تعالى هذه الفتوى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ فيه مئة شمراخ، واضربها به مرة واحدة، تكفي عن مئة ضربة، فأخذ بيده ضغثًا وضربها به ضربةً واحدةً، فصار ذلك برًا بيمينه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، ومفعول ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوف وحذف - والعلم عند الله - للستر؛ لأنه ليس في القرآن أمرٌ بضرب الزوجة، ولكنَّه جاء في القصص المعروفة عن بني إسرائيل. وليس المقصود أنْ نعرف عينَ المضروب، ولكنَّ المقصود أنْ الضربَ الذي كان قد حلف عليه؛ يحصل بأخذ هذا الضِغث والضرب به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أصل الحنث: الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة:٤٦] يعني على الإثم العظيم. والمُراد به هنا ألَّا يبر بيمينه، وعدم البرّ باليمين أن

يُترك ما حلف على فعله، أو يفعل ما حلف على تركه، وهذا هو الحنث.

على سبيل المثال: حلف ليشترينَّ كتابًا قال: والله لأشترين كتابًا ولم يشترِ، حنث بترك ما حلف على فعله. أو حلف ألَّا يبيع الكتاب قال: والله لا أبيع الكتاب وباعه، حنث بفعل ما حلف على تركه، أو حلف ليشترينَّ هذا الكتاب، فاشتراه، فهذا برّ بيمينه، أو حلف ألا يبيع هذا الكتاب، فلم يبعه؛ بر بيمينه، إذًا موافقة اليمين برّ، ومخالفتها حنث.

قال أهل العلم: يُؤخذ من هذا أنَّ عدم إبرار اليمين مكروهٌ إلى الله تعالى؛ لأنه يُسمى حِنثًا، ولكن من نعم الله أنَّهُ رخَّص لعباده بفعله، ولكن إذا فعلوه كفَّروا بكفارة عن الحنث؛ لأنه لو كانت الكفارةُ عن اليمين لكان كل من يَحلف يُكفِّر، لكنها عن الحنث؛ لأنَّ الأصل الإثم في مخالفة اليمين. ولكن من رحمة الله عزَّ وجلَّ أن رخصَّ لنا الحنثَ وأن نُكفِّر عنه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: وجدنا أيوبَ عليه الصلاة والسلام، يعني ألفيْناه صابرًا، و(وجدَ) فعل ينصب مفعولين: الأول: (الهاء) في قوله: ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾، والثاني: ﴿صَابِرًا﴾.

وصبرُ أيوب عليه الصلاة والسلام كان صبرًا على قدرِ الله، وهذا ظاهر؛ لأنه صبر على ما مسَّه من الشيطان، وكان صبرًا عن معصية الله؛ لأنه لم يجزع ولم يسخط، وكان صبرًا على طاعة الله؛ لأنه لجأ إلى الله، ودعا الله عزَّ وجلَّ فأجابه. وأحيانًا يكون الدواء بالدعاء أنجح بكثير من الدواء الحسّي المادي، وفيما سبق إذا تعسَّرتْ الولادة، يُؤتى إلى شخص، ويُطلب منه أن يقرأ للحامل عند تعسُّر الولادة، فيقرأ في ماء، ويذهبون به ويمسحون به ما حول المنطقة، وتشرب منه الحامل، فتضع بدون ألم، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد، وهذا أهون بكثير من المعالجة بالأدوية الحسية المادية، فهو عليه الصلاة والسلام لجأ إلى الله، وطلب الشفاء منه، وهذا صبرٌ على طاعة الله، فحصل له أنواعُ الصبر كلها.

ثم قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. صبرُ أيوب عليه السلام هذا الصبر العظيم على المرض وفقد الأولاد وفقد الأهل، ومع ذلك لم ينس الله عزَّ وجلَّ، لجأ إليه عند الشدائد.

وقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ نعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والعبد: فاعل. وهذا الفعل وشبهه، يحتاج إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص بالمدح، فإن تقدَّم ما يدل على المخصوص، اُستُغني بما تقدم، وإلا فإنه يُقدَّر، وإن كان ظاهرًا، فظاهر، فمثلًا هنا ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ السياق يدلُّ على المخصوص، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقديره؛ لأنه من المعروف أن العبد هو أيوب، فلا حاجة إلى التقدير. ولكن بعض النحويين يُقدِّر ولو عُلِم؛ لأنه يرى أنه لا بُدَّ من ذكر الفاعل والمخصوص. فيقول المؤلف: [﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب] أيوب هو المخصوص، والعبد فاعل.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذه جملة استئنافية تعليلية، تعليلًا للثناء على أيوب أنه نعم العبد؛ لأنه كان

﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله عزَّ وجلَّ.

فوائد الآيات:

١ - في هذه الآيات الثناءُ على أيُّوب عليه الصلاة والسلام بما ذُكر من أوصاف، وفيها الإشادة بمناقبه، حيث أمر اللهُ نبيه محمدًا ﷺ أن يَذكرَ عبده أيوب.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

٣ - بيان صدق لجوء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى في كونهم يفزعون إليه عند الشدائد لقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** جواز إضافة الأشياء إلى أسبابها؛ لأن أيوب عليه السلام أضاف هذا الضُرَّ إلى الشيطان لأنه سببه.

٥ - **ومن فوائدها:** جواز التوسُّل إلى الله تعالى بحال العبد؛ لأن أيوب عليه الصلاة والسلام توسَّلَ إلى الله تعالى بحاله؛ وهو أنه مسَّه الشيطان بنُصبٍ وعذاب. ونظير هذا قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤] فتوسَّلَ إلى الله تعالى بذكر حاله وأنه فقير إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا أحد أنواع التوسُّل الجائز.

ويحسُن هنا ذكر أنواع التوسل وهي:

أولًا: التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه.

ثانيًا: التوسُّل إلى الله تعالى بصفاته.

ثالثًا: التوسُّل إلى الله تعالى بأفعاله.

رابعًا: التوسُّل إلى الله تعالى بذكر حال الداعي.

خامسًا: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء من تُرجى إجابتُه.

سادسًا: التوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان.

سابعًا: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

كل هذه الأنواع من التوسُّلِ جائزةٌ.

فالتوسُّل إلى الله بأسمائه مثل أن نقول: اللهُمَّ يا غفور اغفر لي.

والتوسُّل إلى الله بصفاته مثل قولك: اللهُمَّ برحمتك أستغيثُ، اللهُمَّ بعلمكَ الغيبُ وقدرتك على الخلق، أحيني إذا علمْت الحياة خيرًا لي.

والتوسُّل إلى الله بأفعاله مثل: اللهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

والتوسُّل إلى الله بذكر حال الداعي: كما في هذه الآية: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

والتوسُّل على الله تعالى بدعاء مَنْ تُرجى إجابتُه: كتوسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ.

والتوسُّل إلى الله تعالى بدعاء مَنْ تُرجى إجابتُه: كتوسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ.

والتوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣].

والتوسُّل إلى الله بالعمل الصالح: كقصة الثلاثة الذين لجأوا إلى الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسَّلَ كل منهم بعمله الصالح[1].

أما التوسُّل الممنوع: فهو التوسُّل إلى الله تعالى بما لم يجعله وسيلة، لا شرعًا ولا قدرًا، وهذا التوسل مُحَرَّم. وهو نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ، كأنَّ الإنسان يتقدَّم بشيء يجعله وسيلة، وهو ليس بوسيلة، فكأنَّه يستجهل الله عزَّ وجلَّ.

٦ - **ومن الفوائد:** بيان إجابة الله عزَّ وجل للدعاء، وهو دليل على مِنَّته على عباده لقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

٧ - بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ حيث أنبع الماءَ من ضرب الرِّجل.

٨ - إثبات الأسباب لقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ولو شاء الله تعالى لأنبع له الماء بدون الركض بالرِّجل، ولكن الله تعالى جعل ذلك سببًا.

٩ - أن الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف الذي لا يقوم بالمسبَّب سببًا مؤثِّرًا، كما أنَّه قادر على أن يمنع السبب المؤثِّر فلا يؤثِّر؛ فالركض بالرِّجل ليس من العادة أن يُنبع الماء، والإلقاء في النار من العادة أن يُحرق، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أُلقي في النار ولم يحترق، وأيوب عليه الصلاة والسلام ركض برجله الأرض فنبع الماء. ففيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف قويًا مؤثرًا، ويجعل السبب القوي المؤثِّر غير مؤثِّر.

١٠ - بيان القدرة الإلهية بكون هذا الماء النابع من جوف الأرض باردًا وصالحًا للشرب.

١١- الإشارة إلى المطهر للباطن، وهو ما يُعرف عند الناس الآن بالهلول، أي يتخذون أشياء مُليِّنة للبطن، تُنظِّفه، لقوله، لقوله: ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

١٢ - أنَّ الله تعالى يَمُنُّ على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب؛ لأن أيوب عليه الصلاة والسلام وهب الله له أهله ومثلهم معهم، فأنت اصبر، تظفر.

١٣ - أنَّ ما حصل للإنسان من نعمةٍ فإنه بمقتضى رحمة الله تعالى، لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

١٤ - أن في هذه القصة العظيمة ذكرى لأولي الألباب، وقد بيَّنا وجوه هذه الذكرى.

١٥ - جواز استعمال الحِيل المُباحة لقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهذا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

الحُكم ثابت حتى في الشريعة الإسلامية، فلو حلف رجلٌ على أن يضرب شخصًا مئة مرة، وكان هذا الشخص لا يتحمل الضرب مئة مرة، قال أهل العلم: فله أن يأخذ ضغثًا به مئة شمراخ؛ ويضرب به ضربةً واحدة، وبنوا على هذا ما لو زنى رجلٌ مريضٌ مرضًا لا يُرجى زواله، ولا يتحمَّل الضرب مئة على انفراد، قالوا: فإنه يُجمع له ضغث به مئة عود، ويُضرب به ضربة واحدة؛ أخذًا بما أفتى الله عزَّ وجلَّ به أيوب عليه الصلاة والسلام.

١٦ - أن الحِنثَ في اليمين في الأصل حرام؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، ولكنَّ الله تعالى يسَّرَ لعباده، وأجاز لهم الحِنثَ مع الكفَّارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾[المائدة:٨٩]، إلى قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩] قال العلماء: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: لا تُكثروا اليمين، وقال بعضهم: أي: احفظوها من الحنث، فلا تحنثوا فيها، والوجهان كلاهما لا يتنافيان.

والإنسان ينبغي له أن يحفظَ يمينه فلا يحنث، ولكن مع ذلك أحيانًا يكون الحنث خيرًا.

وقد قسَّم العلماء الحنثَ في اليمين إلى الأحكام الخمسة فقالوا: قد يجب الحنث، وقد يَحرُم، وقد يُكرَه، وقد يُستحَب، وقد يُباح.

فإذا حلف ألا يُصلي مع الجماعة؛ فالحنث واجب؛ لأنه يجب أن يُصلِّي ويُكفِّر. ولو حلف أن يشرب الخمر، فالحنث واجب، يجب أن يدعه وأن يُكفر. ولو حلف على ألا يشرب الخمر، كان الحنث مُحرم؛ لأنه لو شربها لفعل مُحرَّمًا، ووقع في المُحرم. ولو حلف ألا يُصلِّي راتبةَ الظهر، فالحنث هنا مُستحَب. ولو حَلَف أن يأكلَ بصلًا أو ثومًا، وهو ممن يحضر المسجد؛ كان الحنث مُستحبًا. ولو حَلَف على ألا يأكل البصل، يكون الحنث مكروهًا. المهم أن المكروه والمستحب مُتضادان، والواجب والمحرم متضادان، أما المباح فهو إذا تساوت المصلحة والمفسدة، فهو مُباح.

١٧ - الثناء على أيوب عليه الصلاة والسلام بالصبر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ وهذا يتعدى إلى غيره أيضًا، فإن من كان صابرًا فهو محل للثناء.

١٨ - الثناء على أيُّوب عليه السلام بهذا الوصف: والعبودية لله عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنها تمام الحرية، وكل من كان لله أعبد، فهو أشد تحرُّرًا ممن كان على العكس.

وقد قال ابنُ القيم - رحمه الله - بيتًا في النونية مفيدًا، قال:

هربوا من الرِّقِّ الذي خُلقُوا له ... وبُلُوا بِرِقِّ النَّفْس والشَّيْطانِ

هؤلاء هربوا من عبادة الله سبحانه وتعالى وصاروا عبيدًا لنفوسهم وشياطينهم، فأشرف أوصاف الإنسان أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ، أسألُ الله تعالى أن يجعلَني وإيَّاكم من عباده الصالحين.

١٩ - الثناء على أيوب عليه السلام بكونه رجَّاعًا إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصي لقوله:

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وعلى هذا يكون هذا الوصف لكل مَنْ اتصف به، وكل من كان رجَّاعًا إلى الله فإنه يُثنى عليه.

٢٠ - إثبات الأسباب، وجواز نسبة الشيء إلى سببه المعلوم حِسًا، أو شرعًا بدون أن يُنسب إلى الله. فلو قلت مثلًا: سقطتُ في البحر، ولولا فلان لغرقت، لكان هذا صحيحًا؛ لأنه أضافه إلى سبب معلوم، لأنه هو الذي انتشله من الماء. ومن ذلك قول الرسول ﷺ في عمه أبي طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1] فأضاف الشيءَ إلى سببه المعلوم.

أمَّا إذا أضافه إلى سببٍ غير معلوم، فهذا نوعٌ من الشرك، ثم قد يكون شِركًا أكبر، وقد يكون شِركًا أصغر، بحسب الحال. فإذا قال: سقطْت في البحر ولوْلا فلان - الولي الميت - لهلكْت، لكان هذا شِركًا، وهو شرك أكبر في هذه الحالة.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

التفسير

اذكر يا محمد، وتذكَّر أيها المُخاطَب هؤلاء السادةُ الأبرار، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم بدل من عبادنا، بدل بعض من كل، وما عطف عليه يُكمِّل الكل. والعبادة هنا أخصُّ الخاصّة؛ لأنها عبودية الرسالة والنبوة، وإبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام إمام الحنفاء، الذي أُمرنا باتباع ملته: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وإسحاق ابنه، ويعقوب حفيده ابن ابنه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ قال المؤلف: [أصحاب القوى في العبادة، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ البصائر في الدين] يعني اذكرهم مُشيرًا إلى قوتهم في الدين؛ لأن الأيدي جمع يد والمُراد باليد هنا القوة، وكذلك الأبصار أي: البصائر في دين الله؛ لأنهم رسل، وأبصرُ النَّاس في عبادة الله هم الرسل.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ قال المؤلف: [وفي قراءة ﴿عَبْدَنا﴾، وإبراهيم بيان له، وما بعده عطف على عبدنا]، أي: أنها تُقرأ بالجمع وبالإفراد، والقراءة هنا سبعية؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ المؤلف إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي: نقيناهم وصفيناهم؛ لأن إخلاص الشيء أن تزيل شوائبه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

حتى يبقى خالصًا، ومنه إخلاص الدين لله وهو أن تزيد عنه شوائب الشرك.

وقوله: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بيَّنها المؤلف بقوله: [هي ذكرى الدار] أفادَ المؤلفُ أنَّ ﴿ذِكْرَى﴾ خبر لُمبتدأ محذوف تقديره: هي ذكرى، ويجوز أن تكون (ذكرى) بدلًا من (خالصة) أو عطف بيان لها. والمُراد بالدَّار هنا الآخرة، أي: ذكرى الدار الآخرة. ذكرها والعمل لها. وفي قراءة بالإضافة، أي: «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» وهي للبيان، أي الإضافة هنا بيانية على تقدير مِنْ؛ لأن الإضافة البيانيةَ تكون على تقدير مِنْ، كما تقول: خاتم فضة، أي: من فضة، أو تقول: ثوب خَزٍّ، أي: من خز. باب خشب، أي: من خشب، وهكذا قال: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي: الدَّار الآخرة، أي: تذكرها والعمل لها.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الضمير يعود على الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿عِندَنَا﴾ عند الله. والعندية هنا عندية المرتبة لا عندي المكان؛ لأن مرتبتهم عند الله أنهم من هؤلاء ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾.

المصطفى اسم مفعول بمعنى المختار، وهنا ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ جمع مذكر سالم، ولكن فيه إشكال، وهو أن من المعروف أن جمع المذكر السالم بكسر ما قبل الياء، نقول: المسلِمِين والمؤمنِين والقانتِين والصابرين والصادقين، وهنا ما قبل الياء مفتوح، والمعروف أنَّ الذي يفتح فيه ما قبل الياء هو المُثنى، كما تقول: الرجلَيْن والمسلمَيْن والمؤمنَيْن وهكذا، فلماذا فتح ما قبل الياء في ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾؟ قال النحويون: لأنَّ أصله المصطفى بالألف فَحُذِفَت الألف لأنها ساكنة؛ ولأن الياء بعدها ساكنة فتُحذف، كما قال ابن مالك:

إنْ ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإنْ يكن ليِّنًا فحذْفه استحق

فالآن التقى ألفٌ وياء فتُحذف الأولى منهما وهي هنا الألف وتبقى الفتحةُ دليل عليها، ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ يعني في العبادة والعلم والرسالة ﴿الْأَخْيَارِ﴾ [جمع خيِّر بالتشديد]، والخيِّر على وزن فَيْعِل، وهو كثير الخير، ولا شك أن هؤلاء الرسل الثلاثة فيهم خير كثير، وجاء من نسلهم رسل كرام، وأمم من أفضل الأمم. جاء من نسْل إبراهيم أمَّة مُحمد ﷺ، وهي أفضل الأمم وأكرمها عند الله.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** الثناء على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بأنهم أصحاب قوة في عبادة الله، وبصيرة في دين الله تعالى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّه ينبغي ذِكْر أهل الخير بالثناء؛ لأن في ذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: إحياء ذكر هؤلاء ليتبين فضلُهم ويُدعى لهم.

والفائدة الثانية: الاقتداء بهم واتباعهم فيما هم عليه مما استحقوا به الثناء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ الله تعالى أخلصَ هؤلاء بخالصة، وهي أن تُذكُّر الدار

الآخرة، بحيث لا ينغمسون في ترف الدنيا.

٤ - **ويتفرع عن هذه الفائدة:** أن من أنعم الله عليه بهذه الصفة وهي أن تُذكِّر الدار الآخرة فإنَّ هذا من الأمر الذي يستحق الثناء عليه هو، ويستحق الربَّ عزَّ وجلَّ عليه الشكر، حيث لم يجعل هذا ممن ينطوي في سلك أهل الدنيا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ لله تعالى عبادًا مُصطَفَين لقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ لأنَّ «مِن» هنا إمَّا للجنس أو للتبعيض، فتدلُّ دلالةً واحدة.

٦ - **ومن فوائدها:** أنَّه إذا كان العامل له مراتب فإنَّ العمل كذلك له مراتب؛ لأن العامل إنما ينال المراتب بحسب عمله. ويتفرع عن هذه الفائدة ما فيه دليل لمذهب أهل السُنة والجماعة: مِن أن الإيمان يزيد وينقص.

٧ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المُصطَفين.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنَّ مَن اصطفاهم الله فإنهم أصحاب خير وفضل لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ فرتَّب الخيِّرين على الاصطفاء.

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٨].

التفسير

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ إسماعيل ابن إبراهيم أفرده بالذكر؛ لأنَّ سلالته تختلف عن سلالة إسحاق ويعقوب، فإسحاق ويعقوب سلالتهما بنو إسرائيل، وهؤلاء سلالتهم العرب، ولهذا أفرده. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وهو نبيٌّ، واللام زائدة، فإذا كانت اللام زائدةً فإن الأصل هو يسع، وهو نبي ولكنَّه نبي رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مختلف في نبوته، فقيل: إنه نبيٌّ، والكفل يعني العمل والنصيب، يعني صاحب العمل الكثير والنصيب. هذا على القول بأنه رسول، أما على القول بأنه غير رسول فقد قال المؤلف: [قيل: إنه كفل مئة نبي فروا إليه من القتل]، وكلمة قيل: تدلُّ على أنه ضعيف، فالظاهر أنَّ معنى ذا الكفل صاحب العمل الكثير، والجدِّ والنشاط.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلهم، وعلى هذا فإن التنوين عوض عن اسم كلهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [جمع خيِّر بالتثقيل]. وقول المؤلف: [جمع خيِّر بالتثقيل] مثل قوله السابق: [جمع خيِّر بالتشديد].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** الثناءُ على إسماعيلَ واليسعَ وذي الكفل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله أمر بذكرهم للثناء عليهم، وبيان فضيلة هؤلاء الرُّسل الثلاثة: إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّ لله عبادًا أخيارًا منهم هؤلاء الثلاثة، لقوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أنَّ الله تعالى فضلًا على بعض العباد، يُحرمه على البعض الآخر. حيث يجعل هؤلاء من المصطفين الأخيار، والآخرين على العكس من ذلك.

قال الله تعالى:

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[ص:٤٩-٥٤].

التفسير

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ ﴾ قال المؤلف: [لهم بالثناء الجميل هنا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ مرجع في الآخرة].

قوله: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ ﴾ يُحتمل ما قال المؤلف، أي: أنَّ هذا ذكر لهؤلاء السادة بالثناء الجميل، ويحتمل أنَّ المراد هذا ذِكر للناس، أي: تذكيرٌ لهم، كما قال الله تعالى في أول السورة: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ وهذا الأخير أرجح، يعني هذا المذكور في آخر السورة ذكر لجميع الناس، ثم الناس ينقسمون إلى مُتَّقٍ وغير مُتَّقٍ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ومنهم الرسل بل سادة المتقين وعلى رءوسهم، ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي: مرجع، وهنا قال: ﴿لَحُسْنَ ﴾ ففيه إشكالٌ حيث إنَه منصوب مع دخول اللام عليه؛ لأنها لام الابتداء، وتُسمَّى باللام المُزحلقة دخلت على «حُسْن» اسم «إن» مؤخر، و ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾: خبر مُقدم.

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾: بدل أو عطف بيان ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ ولهذا نُصبت ﴿ جَنَّٰتِ ﴾ لكن نُصبت بالكسرة نيابة عن الفتحة، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، سُمي به لأن يَجُنُّ من كان فيه أي: يستره، والمُراد بها دارُ النعيم التي أعدَّها الله للمتقين في الآخرة، وعدن بمعنى إقامة، أي: الجنات التي يقيم فيها ساكنُها ولا يتَحول عنها، ولا يبغي عنها حِولًا، ولا يرى أن لغيره فضلًا

عليه، كلٌّ واحدٍ من أهل الجنة يَرى أنّه لا فضل لأحد عليه، وهذا هو تمام النعيم؛ لأن الإنسان إذا رأى أنَّ غيره أفضل منه احتقر ما أعطاه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَن هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُم وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُو فَوْقَكُم»(١).

قال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مفتحة ولم يقل: مفتوحة، وذلك لكثرة الفاتحين أو لكثرة الأبواب أو لهما جميعًا. فعلى الأول كثرة الفاتحين، يكون المعنى أنَّ لهم خَدمًا كثيرين يفتحون لهم الأبواب، وعلى الثاني يدل على أنَّ أبوابها كثيرة لكثرة مَنْ يدخلها. ومن المعلوم أن أبوابَ الجنة الأصلية الكبيرة ثمانية، ولكن هناك غُرف في وسط الجنة تجري من تحتها الأنهار لها أبوابٌ فتفتح لهم الأبواب.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ أي: في هذه الجنات، والاتكاء يدل على الهدوء والطمأنينة وعدم القلق، وأيضًا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ ذو سلطان يُخدم ولا يَخدِم. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنات. وبيَّن المؤلفُ على أي شيءٍ يتكئون فقال: [على الأرائك]، كما جاء ذلك في آيات أخرى.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ يدعون، أي: يطلبون يعني يقولون: هاتوا فاكهة ﴿كَثِيرَةٍ﴾ كثيرة النوع وكثيرة العين، أي: أنواع كثيرة، وكذلك أعيان كثيرة. فأيًّا تطلب حصل لك.

﴿وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ هذا الشراب بيَّن الله أنواعه وأجناسه بأنه أربعة ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد:١٥] هذه أربعة أنواع مِن شراب الجنة، ولكن هذه الأصناف تختلف عمَّا في الدنيا اختلافًا عظيمًا، أي: فلا تظن أن الماء كالماء الذي في الدنيا، أو أنَّ العسل كالعسل الذي في الدنيا، أو أن اللبن كاللبن الذي في الدنيا، أو أن الخمرَ كالخمرِ الذي في الدنيا، بل تختلف اختلافًا عظيمًا لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] ولو كان لا يختلف لكنَّا نعلم هذا، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٢) اللهم اجعلْنا من أهلها.

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قال المؤلف: [حابسات العين على أزواجهن] قاصراتُ الطَّرف، أي: حابسات، والطرف: النظر، أي: أنهن يقصرن النظر على أزواجهن. هذا معنى من المعاني. والمعنى الثاني: قاصرات طرف أزواجهن فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن، والفرق بينهما ظاهر، ولكنَّ اللفظ صالح للأمرين، فهن قاصرات طرفهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهن قاصرات طرف أزواجهن، فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن.

أما نساء الدنيا فإن بعضَ النساء إذا خرجت إلى السوق أخذتْ تنظر إلى الرجال، وتقارن بين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩٠)،و مسلم (٢٩٦٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

هذا الرجل وبين زوجها، وكذلك الرجل إذا خرج إلى السوق فبعض الرجال يتطلع إلى النساء ويُقارن بين من يرى من النساء وبين زوجته، وتجده إذا وجد من النساء مَن هي أجمل مِن امرأته انشغل قلبه بها، وأعرضَ عن امرأته، وزهدَ فيها، ولهذا كان من الحكمة العظيمة وجوب ستر الوجه لأن الرجل إذا لم يرَ وجه المرأة لم يتغيَّر نظره بالنسبة إلى امرأته، لكن إذا رأى امرأة كالشمس، وزوجته على خلاف ذلك، تعلَّق قلبُه بهذه المرأة التي كالشمس، وزهد في امرأته.

وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني أنهن على سنٍ واحدة شابات بنات ثلاث وثلاثين سنة. كذلك أهل الجنة يدخلون الجنة وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنةً، ولا يتغير أحد منهم، يبقى على ما هو عليه، وكونهن أتراب يُقال: إنَّهُنَّ أتراب في السن، وأتراب في الجمال، وفي كل شيء؛ لئلا يميل الإنسان إلى مَن فاقت غيرها، ويكون نظره إليهن على حدٍ سواء.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قال المؤلف: في قراءات في ﴿تُوعَدُونَ﴾ [بالغيبة والخطاب التفاتًا] الخطاب (ما توعدون)، والغيبة (ما يوعدون)، والقراءتان سبعيتان قال المؤلف: [التفاتًا] أيُّهم الذي فيه التفات الغيبة أم الخطاب؟ قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ «لهم» غيبة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ «يدعون» غيبة «وَعِندَهُمْ» غيبة إذًا الالتفات في أي شيء؟ الالتفات في الخطاب ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على ضمير الخطاب وعلى ضمير الغيبة يكون هذا خبر من الله عزَّ وجلَّ بأنَّ المذكور هو الذي يوعدون به يوم القيامة.

﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي: لأجله] هذا ما مشى عليه المؤلف، أي: أن اللام في قوله: ﴿لِيَوْمِ﴾ للتعليل، ولكنَّ الصحيحَ أن اللام للتوقيت فهي كقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[الطلاق:١] فاللام هنا بمعنى «في» لأنها للتوقيت، أي: هذا ما توعدون في ذلك اليوم ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ وهو يوم القيامة، وسُمِّي يوم الحساب؛ لأن الناس يُحاسبون فيه على أعمالهم.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ إنَّ هذا يعني المشار إليه ما ذكر من نعيم الجنة ﴿لَرِزْقُنَا﴾ لعطاؤنا، واللام في قوله: ﴿لَرِزْقُنَا﴾ للتوكيد، ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ من: حرف جر زائد لفظًا ومعنىً، نفاد: اسم مجرور لفظًا بـ «من» في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، و «ما» هنا يتفق فيها التميميون والحجازيون لتقدُّم الخبر، ولا تكون ما حجازية إلا مع الترتيب، لقول ابن مالك:

إِعمالَ ليس أُعمِلت ما دونَ إنْ ... مع بقا النفي وترتيبٍ ذُكِنْ

قال المؤلف: [﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، والجملة حال من (رزقنا) أو خبر ثانٍ لـ «إن» أي: دائمًا أو دائم]. اختصار شديد من المؤلف رَحمه الله. والجملة حال من (رزقنا) وعلى هذا يكون

المعنى ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع دائمًا أو نقول: خبر ثانٍ لـ «إن» هذا لرزقنا، إن هذا ما له من نفاد، ويكون التقدير دائم إذًا في الكلام لف ونشر مُرتب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** أنَّ القرآن الكريم ذِكرٌ يُذكرَ به الله لتلاوته، وذِكرٌ يتذكر به الإنسان معادَه ومعاشه. وذكرٌ يُذكَّر به غيره. وقد ذكرْنا هذا في أول السورة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** بشارة المتقين بأنَّ لهم حُسنَ المآب، أي: المرجع، وعلى العكس من ذلك غير المتقين لهم سوء المآب؛ لأن الله إذا حكم للشيء بصفة من الصفات، فإنه يُحكم له بضده إذا انتفت هذه الصفة. لو قال قائل: لماذا لا تقولون: إنَّه إذا انتفت هذه الصفة ولم تثبت الصفة المُتضادة، فلا يُستحق الثناء المُثبت بالصفة، ولا القدح الذي يكون بضدها؟ فالجواب على ذلك أن نقول: لا شك أنَّ الأمور طرفان ووسط، الطرفان مُتضادان، والوسط بينهما، لكن قد دلَّ الكتابُ والسُّنةُ على أنَّ التقوى وضدها ليست طرفًا ووسطًا بل هما طرفان متقابلان، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢] فإذا ثبت للمتقين حُسن المآب فلغيرهم سوء المآب، ولا نجعل هنا شيئًا وسطًا؛ لأنه لا وساطة بين الإيمان والكفر، والتقوى والفسوق.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** الحثُّ على التقوى وذلك بذكر ثوابها. لأن الحثَّ على الشيء بالأمر به كما هو ظاهر، ويكون بالوعيد على تركِهِ والثناء على فعله. وطرق الحث على الشيء متنوعة ومنها ذِكر حُسن المآب.

٤ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾: إثبات الجنات لهؤلاء، وأنها هي حُسن المآب لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ولا شكَّ أن أحسن مآب يؤوب إليه البشر هو الجنات، فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وكل إنسان مؤمن إنما يسعى إلى الوصول إلى هذه الغاية العظيمة.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الجنات دار إقامة؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فالناس مُقيمون فيها لا يرحلون عنها، ولا يبغون عنها حولًا ففيها إقامتان: إقامة لا ارتحال عنها. والإقامة الثانية لا يبغي المقيم عنها حولًا. يرى أنها محل إقامة وأنها أشرف مكان؛ وذلك لأنه لو رأى أن غيره أشرف منه لم يتم نعيمه؛ لأنه يرى أنه قاصر، وهذا بخلاف أهل النار فكل واحد يرى أنه لا أحد أشد منه عذابًا؛ لأنه لو رأى أن أحدًا أشد منه عذابًا لتسلَّى به، لكنه بالعكس يرى أنه أشد الناس عذابًا.

وأهل الجنة لا يرى أحدهم أن أحدًا آخر أكمل منه نعيمًا، على وجهٍ يفوقه، بل يرى أنه هو في أكمل ما يكون من النعيم حتى لا يتنغص عليه نعيمه.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن للجنة أبوابًا لقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** كثرةُ الخدَم المستفاد من قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يقل: مفتوحة، بل هي تفتح

ويستقبلون بها، كلما دنوا من غرفة فتحت لهم الأبواب.

٨ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾: أنَّ أهل الجنة يطلبون كل ما يشتهون من الفواكه لقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ وفي سورة الدخان: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان:٥٥].

٩ - **ومن فوائدها:** أنَّ لأهل الجنة شرابًا، يدعون فيها بكل شراب، وقد مرَّ علينا في التفسير أنَّ أنواع الشراب أربعة.

١٠ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ يعني: في الجنة الأزواج المُطهرات العفيفات البالغات في الحُسْن غايته لقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** أنَّ هؤلاء قاصراتٌ الطرف، خيِّرات الأخلاق، طيبات ليس فيهن نشوز إطلاقًا لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ في الدنيا الزوجة تارةً تكون عندك، وتارةً تغضب وتذهب إلى أهلها. لكن في الجنة زوجاتهم دائمًا عندهم، ليس هناك نشوز ولا غضب، بل أخلاق طيبة على ما ينبغي.

١٢ - **ومن فوائدها:** كمالُ عفة هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرْن إلى غير أزواجهن، وفيها كمال جمال هؤلاء النساء؛ لأنهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن، فالزوج لا ينظر إلى غيرها؛ لأنها قد ملأت عينه، وسرت قلبه.

١٣ - **ومن فوائدها:** أنَّ هؤلاء النساء أو هؤلاء الأزواج أتراب متساويات في السن والخلق، بحيث لا تَغار واحدة من الأخرى لكونها أجمل منها، أو أسن منها، أو ما أشبه ذلك لقوله: ﴿أَتْرَابٌ ﴾.

١٤ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾: أنَّهم يُخاطبون بما يسرهم، ويدخل السرور في قلوبهم لقوله: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ عكس أهل النار فإنهم يوبخون ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾[غافر:٥٠] وما أشبه ذلك، أما هؤلاء فيدخل في قلوبهم السرور فيُقال لهم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ به أخذتموه، ووصلتم إليه، وجنيتموه.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ يوم القيامة، وأنَّه يوم الحساب لقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

١٦ - **ومن فوائدها:** حثُّ الناس على العمل؛ لأنه كلما تذكر الإنسان أنه سوف يُحاسب عن عمله، فإنه سوف يحرص ويجتهد في العمل حتى لا يُحاسب على شيء يكون عليه.

١٧ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ أنَّ هذه الجنات التي وُعد بها هؤلاء المتقون فضلٌ من الله ومِنَّة لقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا ﴾.

١٨ - **ومن فوائدها:** أنَّ هذا الرزق لا ينفد أبدًا، ولا ينقطع أبدًا. فالفاكهة في كل وقت، ولحم

الطير في كل وقت، والشراب في كل وقت، والزوجات في كل وقت، وليس في الجنة فصل صيف ليس فيه فاكهة شتاء، ولا فيها فصل شتاء ليس فيه فاكهة صيف. بل كلُّ شيء ليس له نفاد.

قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٥٥ - ٦٤].

التفسير

قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ هذا: مبتدأ، لا بد له من خبر، وخبرُه محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [للمؤمنين]، ولكنَّ الصحيح أن نقدِّر: للمتقين؛ لأن الله قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فالأولى أن نقول: هذا للمتقين، فما لغيرهم؟ قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ كلام مُستأنف ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ الطاغين: جمع طاغية، والطاغي مَن تجاوز الحدَّ، وحدُّ الإنسان أن يكون عبدًا لله ممتثلًا لأمره مُجتنِبًا لنهيه، فمن لم يَمتثل للأمر فهو طاغٍ، ومن ارتكب النهي فهو طاغ. قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

فإن قال قائل: ما الشاهد على أنَّ الطغيان تجاوزَ الحد؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١]. أي: لما تجاوز الماءُ حدَّه.

﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي: شرُّ مرجع، وشر منصوبة على أنها اسم إن مؤخر. ما هو شر المآب؟ قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذا عطف بيان ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ وهي نار جهنم، سُمِّيت بهذا الاسم لأنها تتضمن الجهمة لسوادها؛ لأنه ليس فيها نور، ولبعد قعرها - والعياذ بالله - فقد سمع النبي ﷺ ذاتَ يوم وهو وأصحابه رضي الله عنهم في المدينة وجبة، يعني وقعة شيء، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي

النَّارِ حَتَى انْتَهَى إِلى قَعْرِهَا»(١) سبعين سنةً، وَهو حَجَرٌ كَبير لَهُ صَوتٌ عَظيم يَهْوِي فِي النار؛ لأَنَّهَا بعيدةُ القَعْر جدًّا، ولهذا صارت مُدلهمَة - والعياذ بالله - سوداء.

وقيل: إن لفظ جهنم ليس عربيًّا وأنَّ أصلَه في الفارسية كهنام، ولكنَّه عُرِّب فصار جهنم. وعلى هذا فلا يُرد علينا أنه من الجهمة، وهو السواد والبُعد، فيُقال: جهنَّم اسم للنار علم غير مُشتق، وأيًّا كان فهو اسم من أسماء النار نعوذ بالله منها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ لأن جهنَّم معرفةٌ، والمعرفة تكون الجملة بعدها حالًا. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ قال المؤلف: [أي: يدخلونها]، لكن هذا لا يكفي، بل يصلونها، يُعذبون بصلاها، وهو شدة الحرارة ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾: الفراش، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾[النبأ:٦] وفي آية أخرى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[البقرة:٢٢] ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هي؛ لأنه - والعياذ بالله - افتراشها شديد، ولحافها شديد، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزُّمَر:١٦] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي: العذابُ المفهوم مما بعده ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾] اللام في قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ للأمر، والدليل على أنها لام الأمر وليست لامَ التعليل، أنها سُكِّنت بعد الفاء، ولام الأمر تُسكَّن بعد الفاء والواو وثم. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: فليكتووا بحره، والاكتواء بحره هو ذوقه، وذوق كل شيء بحسبه، فالطعام والشراب يذوقه الإنسان بمذاق الفمِّ، والنار يذوقها بحرارتها في أي موضع من مواضع الجسم، والبرْد كذلك يذوقه بلسعه في أي موضع من الجسم ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ قال المؤلف: [أي: ماء حار مُحرق، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، و ﴿حَمِيمٌ﴾: خبر، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: معطوف عليه، وتكون جملة ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعترضة بين المبتدأ والخبر للمبادرة بإهانتهم، فإن قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ لا شكَّ أنه إهانة، فمن أجل المبادرة قدم هذا على الخبر، أي: قدَّم قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وأصلُ الكلام على الترتيب: هذا حميم وغساق فليذوقوه.

انظر للشراب ﴿حَمِيمٌ﴾: ماءٌ حار وليست حرارته سهلةً أو يسيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[الكهف:٢٩] أولًا لا يأتيهم هذا الشراب بسهولة، إنما يأتيهم بعد أن يعطشوا عطشًا شديدًا ثم يسألوا الله أن يُغيثَهم من هذا العطش، وإذا أُغيثوا يغاثوا بهذا الماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا دنى من وجوه من يشربوه شواها، قال العلماء: تتساقط لحومُ الوجه، ثم إذا شربوا في البطون قطَّع أمعاءهم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد:١٥] فيُقطِّع ظاهرَهم وباطنَهم والعياذ بالله، قارِن بين هذا الشراب وبين شراب أهل الجنة: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧١).

﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد:١٥] ومع ذلك يشربون ما يشاءون، وهذه الأنهار لا تجري في أخاديد، ولا ضمن جدران تمنع سيلان الماء، إنما تجري على وجه الأرض، قال ابن القيم في النونية:

أنهارُها في غير أخدودٍ جرتْ سُبحانَ مُمْسِكِها عن الفيضان

والغِساق أيضًا – والعياذ بالله – بمجرَّد ما تسمع معناه تشمئز، صديد أهل النار، الصديد الذي يجري من أجسامهم من احتراقها هذا أيضًا نوع من شرابِهم، فصار شرابُهم إمَّا ماءٌ حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وإمَّا صديد أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[إبراهيم: ١٧].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ قال المؤلف – رحمه الله –: [بالجمع والإفراد] ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفرد و «أُخَر» جمع، ففيها قراءتان سبعيتان، ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من جنسه، [أي: مثل المذكور من الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أصناف، أي عذابهم من أنواع مختلفة]. ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مِن جنسه، ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أصناف من العذاب يُعذَّبون بها كما أراد الله عزَّ وجلَّ، ويُهانون غاية الإهانة، يُقرَّعون ويُوبَّخون، ثم يُمَنَّون بالخروج، ترتفع بهم النارُ حتى يقتربوا من أبوابها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[السجدة:٢٠] وهذا من شدة العذاب. لو أن شخصًا محبوسًا، وكان يقرب من الباب، يظن أنه سيخرج فإذا به يُرد، فهذا أشد عذابًا عليه مما لو بقي في مكانه، فهم يُنَوَّع عليهم العذاب أنواعًا عظيمة لا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال.

قال المؤلف: [﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أصناف، أي: عذابُهم من أنواع مختلفة. ويُقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمع ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ النار بشدة، فيقول المتبوعون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي: لا سعةَ عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكفر ﴿لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم النار] أعوذُ بالله ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزُّخرُف:٦٧]، انظر كيف العداوةُ بين أهل النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨] وهكذا المجرمون في الدنيا الذين يوالي بعضُهم بعضًا سوف يكونون يوم القيامة أعداء. فلا ولايةَ لأحد في الآخرة إلا من كان مُتقيًا، هؤلاء هم الذين تبقى ولايتهم، وأما غير المتقين فهم وإن كانوا أولياء في الدنيا فإنَّ ولايتَهم في الآخرة تزول نهائيًا.

وقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج: الطائفة، والغالب أنَّها تكون لطائفةِ الكبيرة ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل بمشقة؛ لأن الاقتحام لا بُدَّ أن يكون هناك ازدحامٌ شديدٌ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[البلد:١١] أي: صعدها بشدة، هؤلاء أيضًا يدخلون النار بزحامٍ شديد، فهو فوج مُقتحمٌ معكم، أي: يُقال لهم، إذا دخلوا النار، وهذا من قبل أهل النار بعضَهم لبعض، أو قبل خزنة جهنم للقادة: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾: يعنون الأتباع، داخل معكم النار. فيقول القادةُ والرؤساءُ المتبوعون:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نريدُهم، نتبرأ منهم، ولا تتسع صدوُرنا ولا أمكنتُنا لهم، والمرحب مأخوذ من الرحبة، وهي السعة فيقولون: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نرحب بهم ولا نريدهم، بل نحن ننابذهم غاية المُنابذة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ إنهم، أي: هؤلاء الذين اقتحموا معنا ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ كما صلينّاها، فيجيبُ أتباعُ هؤلاء الرؤساء المتبوعين، ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ بل إضراب إبطال، يعني أبطلوا قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني: قدَّمتم لنا الكفر، وسهلتم لنا سلوك سُبله، وزيَّنتموه في نفوسِنا حتى تبعناكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم النار. أعوذ بالله كل منهم الآن يتبرأ من الآخر.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [أي: مثل عذابه على كفره في النار]. ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: مَن قدَّم لنا الكفر، وهم المتبوعون ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ ضعفًا يعني زائدًا على عذاب الأصلِ، يعني عذِّبهم لكونهم كفروا، وعذِّبهم لكونهم قدَّموا لنا هذا الكفر، ولكن هذا ليس إليهم لكلِّ امرئٍ منهم ما عمل، وهؤلاء المتبوعون هل أجبروا الأتباعَ على اتباعهم؟ أبدًا لم يجبروهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[غافر:٤٨] حكم بينهم بعدله فجازى كل واحد منهم ما يستحق.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ يقول المؤلف: [﴿وَقَالُوا﴾ أي: كفار مكة وهم في النار] والصواب: أنَّ المراد بهم كل الكفار. الكفارُ يرون أن المؤمنين كلهم ضالون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾[المطفِّفين:٢٩ - ٣٢] وليس هذا خاصٌ بكفار مكة، كلُّ الكفَّار إلى اليوم يروْن أن المؤمنين أشرار ضالون. ويصفونهم بأنهم طُغاة مُفسدون في الأرض، والحقيقة أنَّ الأمر بالعكس. الطُغاة المُفسدون في الأرض الضالون الظالمون المُعتدون هم الكافرون، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤] فلا أحدَ أشدُّ فسادًا وعدوانًا وظُلمًا وطُغيانًا من الكافر؛ لأنه يتمتع بنعم الله ويُبارز الله بالكفر به.

ثم يقول الكفار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ كنا، أي: في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ نعدهم يعني باعتقادنا ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] يقول بعضهم لبعض: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ ما لنا لا نرى فلانًا وفلانًا الذين كُنَّا نعدُّهم من الأشرار؟ هل نحن اتخذناهم في الدنيا سخريًا، نسخر بهم ونقول: أنتم الأشرار، وأنتم الطُغاة وما أشبه ذلك، وهم

ليسوا كذلك؟ أم أنَّهم كما تصوَّرناهم في الدنيا وعددناهم من الأشرار وأنهم الآن في النار، لكن أبصارنا زاغت عنهم.

فانظر كيف الاهتمام، يقولون: هل نحن اتخذناهم سخريًا في الدنيا وقلنا: إنَّهم من الأشرار وهم ليسوا منهم؟ هذا أولًا، وإذا كانوا ليسوا منهم فلن يدخلوا النار، أم أنَّهم كانوا أشرارًا حقيقة، وإنَّ قولنا: إنَّهم كانوا أشرارًا كلامٌ جَدٌّ، وهم الآن في النار، ولكن زاغت عنهم أبصارنا؟ والجواب الأول هو الحقيقي.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، سقطت لأجلها همزةُ الوصل، استغناء عنها، واتَّخذناهم: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به أول، وسخريًا: مفعول به ثانٍ، والياء للنسب فالسخري أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية، للدلالة على قوة ذلك، فافهمه؛ فإنه جيد.

وقوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: أمفقودون هم ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] والجواب أن يُقال: إنَّكم اتخذتموهم سِخريًا وسخرتم بهم، واستهزأتم بهم، ووصفتموهم بالعيب والشر، وهم براء منه.

قال المؤلف: : [﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلم نرهم؟ وهم فقراء المسلمين، كعمَّار وبلال وصهيب وسلمان] هذا بناء على أن القائلين كُفَّار مكة، أمَّا إذا قلنا بالعموم، فكل زمان له أهل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: المشار إليه من كل ما ذُكِر مِن تخاصم أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾، أي: أمرٌ ثابت واقع، وهذا تأكيد لخبر الله عزَّ وجلَّ، مع أنَّ خبر الله كله حق وصدق وثابتٌ. والمراد بالحق هنا الصدق؛ لأنه إخبار عن أمر سيقع.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ تخاصم: بدل أو عطف بيان لقوله: «حقٌّ» والمؤلف – رحمه الله – قدَّرَهُ خبرًا لمبتدأ محذوف فقال: [وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ كما تقدم] يتخاصم الأتباعُ مع المتبوعين.

الفوائد:

١ – **ومن فوائد الآيات:** كمال القرآن في التعليم والتبليغ، وأنَّه مثاني إذا ذكر المتقون وثوابهم ذكر المجرمون وعقابهم، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ الطاغين ضد المتقين لهم شر مآب.

٢ – **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّه ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوتُه تارةً بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوتَه مُشتملة على الترغيب والترهيب؛ وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مُقتصرة على الترغيب صارت سببًا للأمن من مكر الله، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله، وإذا كانت مُشتمِلةً على الترهيب صارت سببًا للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا

ضرر، بل ينبغي أن يكون الداعيةُ جامعًا بين هذا وهذا؛ ليحملَ الناسَ على الرجاء وعلى الخوف. ولهذا قال الإمامُ أحمد: ينبغي أن يكونَ خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهم غلب هلك صاحبه. وقال بعض أهلُ العلم: الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إنْ انخفض أحدُهما سقط الطائر، وإن تساويا صار طيرانه مُتزنًا.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي للإنسان عند فِعْل الطاعة أن يُغلِّب جانب الرجاء، وعند الهمِّ بالمعصية أن يُغلِّب جانب الخوف؛ لأنَّه إذا فعل الطاعةَ فقد فعل سبب الرجاء، وإذا فعل المعصية فقد فعل ما يكون سببًا للخوف.

وقال بعض العلماء: ينبغي في حال الصِّحة أن يُغلِّب جانب الخوف، وفي حال المرض أن يُغلِّب جانب الرجاء حتى يموتَ وهو يُحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ.

ولعلَّ القول الوسط هو أنَّ الإنسان إذا فعل المعصية أو هَمّ بها غلَّب جانب الخوف، وإذا فعل الطاعةَ أو هَمَّ بها غلَّب جانب الرجاء. وهذا قول طيب، ولكن ليس قولُنا: أن يُغلِّب جانب الرجاء أو الخوف ألا يكون لديه شيء من الطرف الآخر، بل يجمع بين هذا وهذا، لكنَّ الكلام على التغليب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ الطاغين مآبهم شر مآب، بخلاف المُتَّقين فإن مآلهم أحسن مآب. الطاغون مآلهم شر مآب؛ لأنَّ مآلهم إلى جهنم - والعياذ بالله - وقد ذكر الله تعالى من أنواع العقوبات في هذه الدار ما يكفِي ردعًا للمؤمن عن المعصية.

٤ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أنَّ من أسماء النار جهنمَّ.

٥ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء يَصلونها، أي: يقعون في صلاها، أي: حرها الذي لا يمكن أن يُبَرَّدَ أبدًا، لكنْ مع ذلك ورد أنهم يُطاف بهم أحيانًا في زمهرير شديد البرودة وأحيانًا في نار شديدة الحرارة.

٦ - **ومن فوائدها:** الثناءُ بالقدح على هذه الدار، أي: ذمَّ هذه الدار، أما الجنة فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[النحل:٣٠] فمدحَ دار المتقين، أما هذه فقال هنا: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ فأثنى عليها بالقدح والقبح والسوء.

٧ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أن أهل النار - والعياذ بالله - يذوقونه، أي: العذاب، بين حميم وغسَّاق، أي: يسقون ماءً حارًا وصديد أهل النار الغساق - والعياذ بالله -، والإنسان منهم ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[إبراهيم:١٧].

٨ - **ومن فوائدها:** تنويع العذاب للطُغاة لقوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي: أصناف متنوعة من العذاب، وهذه الأصناف مذكورة في الكتاب والسُّنة فمن

أحب أن يُراجعها فليُراجعها في الكتب المؤلفة في ذلك.

٩ - **ومن فوائد الآيات**، أنّ أهل النار يتنازعون فيما بينهم ويتخاصمون ويتلاعنون، كلَّما دخل فوج لعن الثاني ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨] وهنا يقول الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها**، أنّ الأتباع والمتبوعين من أهل النَّار كلهم يكونون في النار، فلا يَعذر هؤلاء بتبعيتهم للسادة والكبراء، ولكن هذا ليس على إطلاقه؛ فإنَّه قد دلت النصوص على أنَّه لا يُعذَّب أحد حتى تقوم عليه الحُجةُ، وعلى هذا فيحمل الأتباع هنا على الأتباع الذين بلَغَتْهم الحجة وبلغتهم الرُسل، ولكن قالوا: إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ، ولهذا قال تعالى في الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٦٦ - ٦٨] فدلَّ هذا على أنَّ هؤلاء الأتباع قد قامتْ عليهم الحُجةُ، ولهذا يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾.

١١ - **ومن فوائد هذه الآيات**، أنَّ أهل النار يُكلِمُ بعضُهم بعضًا، ويَنظر بعضُهم إلى بعض، وهم ليسوا أحياءً ولا أمواتًا، ليسوا أحياءً مُنعَّمين، ولا أمواتًا مُستريحين، بل هُم أحياء مُعذبون.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآيات**، تبرؤ التابع من المتبوع، وبالعكس كما دلَّتْ آياتُ سورة البقرة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٦ - ١٦٧].

١٣ - **ومن فوائد الآيات**، أنَّ أهل النَّار يتذكَّرون ما جرى لهم في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ وكذلك أهلُ الجنَّة يتذكرون ما كان لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يقول لصحبه الذين معه في الجنة ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ رأى قرينه ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ وهو يسمع هذا في أعلى عليين وهذا في أسفل السافلين يسمع ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٧] أي: من المُحضرين في العذاب كما أنت مُحضَر في العذاب.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية**، قصور عقل أهل النار حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ لأنَّهم إذا لم يروهم الآن فهم إما إنهم ليسوا في النار، وإمَّا إنَّ هؤلاء قد زاغت أبصارهم، وقد صرحوا بذلك في قولهم: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ فيُقال: إنَّ الواقع أنكم الآن مُقصرون إما في الدنيا وإما في الآخرة، إن كنتم اتخذتموهم سخريًا فهذا تقصير في الدنيا، وإنْ

كانت أبصاركم زاغتْ عنهم فهذا قصور في الآخرة.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ هذا الخصام الذي يقع بين أهل النار حق لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ ويتفرع عن هذه الفائدة: أنَّه يجب على كلِّ أحدٍ ألا يغتر بالسادة والمتبوعين، بل يكون همه نفسه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٥، ٦٦].

❁ التَفسِير ❁

ثم أمر الله رسوله مُحمدًا ﷺ أن يقول لكفار مكة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ﴿قُلْ﴾ لا شكَّ أنَّ الخطابَ للرسول ﷺ، وأنَّه من الخطاب الخاصّ به؛ لأن الإنذار الذي هو إنذار الرسالة خاصّ بالرسول ﷺ، وقول المؤلف: [﴿قُلْ﴾ يا مُحمد لكفار مكة] وجه التخصيص أنَّ هذه السورة مكيةٌ قبل أن يُهاجر النبي ﷺ، فيكون الخطاب الموجه إليه بالإعلام بأنه مُنذِر خاصٌّ بأهل مكة، ولكنه يُقال: إن الأولى أن يجعلها عامة، وأن يُقال: العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمكان.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مخوف بالنار الكفار، فالإنذار بالنار للكفار، والبشارة بالجنة للمؤمنين، لكن المقام هنا يقتضي الإنذار.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ هذا حصر من أعظم أنواع الحصر؛ لأنه مبني على النفي والإثبات، النفي المؤكد بـ «مِنْ» ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأن «مِنْ» حرف جر زائد، والزائد يفيد زيادةَ المعنى في القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ما من معبود حقّ إلا الله، وإلا فهناك آلهة تُعبد لكن ليست بآلهة حقًا، بل هي أسماء سماها أصحابها ما أنزل الله بها من سُلطان، ولهذا لا يعبدونها العبادة الحقة. إذا أصابهم الضُرُّ يدعون الله وحده، وهم بلسان حالهم يشهدون بأن هذه الأصنام التي يعبدونها ليست آلهة.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: ما مِن إله حقٌّ إلا الله خالق السماوات والأرض عزَّ وجلَّ، الواحد الذي لا شريك له، القهَّار الذي لا غالب له، بل هو قاهر لخلقه. والقهَّار هنا يجوز أن يكون التضعيف فيها للنسبة، ويجوز أن يكون التضعيف فيها للتكثير فتكون صيغة مبالغة، ويمكن أن نقول: إنها للأمرين جميعًا، فالله تعالى من صفاته اللازمة له أنَّه قهار، ولكثرة مَن يقهرهم مِن الجبابرة يكثر قهره، فتكون هذه للنسبة وللتكثير الذي يُسمَّى المبالغة.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ رَبُّ: هذه بدل من ﴿ٱللَّهُ﴾ ويجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هو رَبُّ.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سبق الكلام عليهما كثيرًا.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات العظيمة التي نعلمها والتي لا نعلمها. وقد سبق لنا أن بيَّنا أن كون الله تعالى يجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا للسماوات والأرض يدلُّ على عظم ما بينهما من المخلوقات التي لم نصل إلى الآن إلى غايتها.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب على أمره] وهذا أحد معاني العزيز؛ لأن العزيز له ثلاثة معانٍ: العزيز بمعنى ذي القدر والشرف، والعزيز بمعنى القهر والغلبة، والعزيز بمعنى الذي يمتنع أن يناله السوء، مأخوذ من أرض عزاز، أي: صلبة لا تؤثر فيها الفئوس. إذًا العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، أي: يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: الكثير المغفرة، ولنا أن نجعلها نسبة، أي: أنَّه موصوف بالمغفرة دائمًا فما أكثر مَنْ يَغفرَ الله لهم، وما أكثر الذنوب التي يغفرُها الله عزَّ وجلَّ، وهنا قرن العِزَّةَ بالمغفرةِ فأكسب معنىً ثالثًا غَير العزةِ والمغفرة، وهو أنه مع عزَّته وغلبته وقهره هو مع ذلك غفار بخلاف من يتصف بالعزة من المخلوقين فإنه في الغالب تكون عزته تغلب مغفرته، أو من اتصف بالمغفرة فتجد عنده ضعفًا وليس عنده عِزَّةٌ، فإذا اجتمعت العزَّة والمغفرة حصل من ذلك معنى مركب من اجتماعها، وهو أكمل مما لو انفرد أحدهما، ولا شكَّ أن غلبة المغفرة على العزة فيها نقص، وغلبة العزة على المغفرة فيها نقص، فإذا اجتمعا جميعًا صار هذا أكمل، أي: أن عزَّته وغلبته وقهره لا تخلو من المغفرة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أمر النبي ﷺ بإعلان رسالته لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّه ينبغي في الكلام مراعاةُ الحال حيث إنَّ المقام هنا مقام تهديد، فلهذا اقتصر على الإنذار فقط مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة:١١٩].

٣ - **ومن فوائدها:** توحيدُ الله تعالى بالألوهية ونفيها عما سواه لقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أنَّ الأسماء لا تُغيِّرُ المُسمَّيات؛ فإن هناك من يُسمى إلهًا ولكنه حقًّا ليس بإله، ويتفرع عن هذه الفائدة أننا لو سمَّينا الشيء المُحرم باسم حلال فإنه لا يتغير الحكم فيه، ولهذا جاء في الحديث «أنَّه يشرب الخمرَ أُناسٌ يسمُّونها بغير اسمها»[1] وهذا يدلُّ على أنَّ الأسماء لا تُغيِّرُ المسميات والحقائق.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الوحدانية لله في قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٣٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤١٤).

٦ - **ومن فوائدها**: الردُّ على النصارى القائلين بأنَّ الله تعالى ثالثُ ثلاثة، ويتفرع عن هذه الفائدة أيضًا أن دينَهم كَذِبٌ، وأعني دينهم الذي يدينون به الآن، لأنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يأتي بآلهةٍ مُتعدِّدة، ولهذا يقول له الله عز وجل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[المائدة: ١١٦ - ١١٧].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثباتُ القهْر التام لله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا يستلزم للمؤمن به أن يخافَ من الله عزَّ وجلَّ من قهره، ويستلزم أيضًا تقوية المؤمن الواثق بالله في قهر أعدائه؛ لأنك إذا وثقت بأن الله هو القهار، وأنَّ الله معك لكونك أتيتَ بالأوصاف التي تستوجب معيَّة الله لك، فإنَّ هذا يُقوِّيك على عدوِّك، وتعلم أن هذا العدو لا بُدَّ أن يكون مقهورًا بقهر الله عزَّ وجلَّ.

٨ - **وفي قوله عز وجل**: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ إثبات عموم ربوبية الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لأنَّ السماواتِ والأرض وما بينهما هي كل الكون الذي نعلم به، ولعلَّ العرشَ والكرسي داخل في السماوات من حيث العلو.

٩ - **ومن فوائدها**: إثباتُ اسمين من أسماء الله وهما: العزيزُ والغفار، وإثباتُ ما تضمناه من الصفة مُجتمعين ومنفردين، وهما أي: العزَّة والمغفرة مُجتمعين أقوى وأشدُّ وأعظم في كمال العزة والمغفرة.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٧-٧٠].

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ هو، أي: النبأ الذي أنبأتُكم به والذي جِئْت به مُنذِرًا؛ نبأ عظيم، والنبأ بمعنى الخبر، لكنَّه لا يكون إلا في الأمر الهام. قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النبأ:١ - ٢] ووصف الله هذا النبأ بأنه عظيم، وهو القرآن، وقد وصفَ الله القرآن بأنَّه عظيم وكريم ومجيد؛ لأنَّه يتصف بهذه الصفات، ومن أخذ به نال من هذه

الأوصاف بقدر ما أخذ به.

وقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ جملة استئنافية يُراد بها لفْت الانتباه إلى فداحة ما يرتكبونه من جريرة الإعراض عن ذلك النبأ، وهو القرآن، وشدة الشناعة على هؤلاء المُكذبين لرسول الله ﷺ فهم مع هذا النبأ العظيم لم يقبلوا عليه، بل أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه، ولم يقيموا له وزنًا.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني: هذا النبأ العظيم لا يمكن أن آتي به من عند نفسي؛ لأنه ليس لي علم بالملأ الأعلى، يعني: الملائكة فهم ملأ لكنهم فوق، إذ إن الأصل في مساكنهم السماوات، ولكن ينزلون إلى الأرض لأداء الوظائف التي كُلِّفوا بها ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ قال المؤلف: [أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة:٣٠)] والصحيح أنَّ معنى الآية أعمُّ مما قاله المؤلف؛ لأن ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم، وفي الدرجات العُلى وغيرها مما يختصم فيه الملائكة، ويرجعون فيه إلى الله.

قال المؤلف: [﴿إِن﴾: ما ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ بين الإنذار]. نقول: إنما أفادنا المؤلف أن «إنْ» هنا نافية، وهو أحد معانيها، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قوله؛ [أي: أني] تفسير لـ ﴿أَنَّمَا أَنَا﴾ لأنَّ أصله أنِّي، لكن دخلت ما الكافة على «أن» فأبطلت عملها. ثم لما دخلت عليها لزم أن ينفصل الضمير المتصل، دخلت (ما) على (أن) ففصلت بين (أن) والضمير، والضمير المتصل إذا وُجد ما يفصله عما اتصل به صار منفصلًا، فهنا تكون ﴿أَنَا﴾ هي الياء في قول المؤلف: [أني].

قوله: ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ هذه الصيغة تكون أشدَّ تأكيدًا للحصْر؛ لأن الحصر استفدناه من قوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ واستثناه أيضًا من قوله: ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فحُصِرَ حالُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بأنَّه نذير مبين، وهذا الحصر حصْر إضافي، أي: إنما أنا في هذه المسألة خاصَّة، وهو الوحي نذير مبين، وإلا فإنه بشر ينسى ويأكل ويشرب، فالحصر إذًا إضافي بحسب السياق. وقوله ﴿مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ قال المؤلف: [بين الإنذار] والصواب: مُظهر، وليست من أبان اللازم، بل هي من أبان المُتعدي؛ لأنَّ كلمة أبان تكون لازمة، كما تقول: أبان الصبح، أي: ظهر، وتكون مُتعدية، كما لو قلت: هذا مبين لهذا، أي: مُظهر له، فالصواب: أن مُبين هنا بمعنى مُظهِر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** عِظم ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - مِنْ الوحي، وأنه نبأ عظيم، وهذا كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ:٣].

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّه متى عظُم هذا النبأ العظيم، عظُم مَنْ يأخذ بهذا النبأ لأنه أساس

ومنهاج وطريق، فإذا عظُم، عَظُم الآخذ به؛ ولهذا كانت الأمةُ الإسلامية عظيمة مرموقة مهيبة حين كانت آخذةً به.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** القدح في من أعرضَ عن هذا النبأ العظيم لقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني كيف يليق بكم أن تُعرضوا عنه مع أنه نبأ عظيم؟!

٤ - **ومن فوائد قول الله عزَّ وجلَّ:** ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ نفْي عِلْم الرسول ﷺ بالغيب سواء كان مستقبلًا أم حاضرًا ولكنَّه غائب عنه لقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ نفي عِلْم بملأ موجود لكنَّه غائب عنه، فإذا كان لا يَعلم الغائبُ الموجود، فالغائب عنه المنتظر من باب أولى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الملأ الأعلى وهم الملائكة عليهم السلام.

٦ - **ومن فوائدها:** بيان علوِّ مرتبة الملائكة، كما أن مكانهم كذلك عالٍ؛ لأنهم في السماوات، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم:٢٦] وعلوُّ المرتبة فيهم اختلف العلماء هل هي أعلى من البشر الصالحين أم صالحو البشر أعلى من الملائكة وأفضل؟ فمنهم من قال: إن الملائكة أفضل، ومنهم من قال: إن صالحي البشر أفضل، والنزاع هنا قليل الفائدة؛ لأننا نعلم أن الملائكة لهم خصائص لا يلحقهم فيها البشر، وللبشر خصائصُ لا يلحقهم فيها الملائكة، فالتفضيل على الإطلاق لا يصحُّ؛ لأن هؤلاء لهم ميْزة وهؤلاء لهم ميزة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الملائكة أفضل باعتبار كمال البداية؛ لأنهم خُلقوا من نور، والنور أكمل وأفضل من الطين والتراب، وإن البشر أفضل باعتبار النهاية؛ لأن البشر يكونون في رحمة الله، والملائكة أنفسهم يدخلون عليهم من كل باب يُهنئونهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٢٤].

ولكن الذي أرى أنه ينبغي أن يُقال: إن التفضيلَ ليس باعتبار البداية والنهاية بل باعتبار بعض الخصائص التي تكون لهؤلاء دون هؤلاء.

٧ - **ومن فوائد الآية:** إثباتُ أنَّ الملائكة عليهم السلام ذوو عقول لقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** إثباتُ المناظرةِ والمخاصمة بين الملائكة، كما هي أيضًا تكون بين الرسل وأقوامهم، وبين أتباع الرسل بعضهم مع بعض.

٩ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ إثبات الرسالة للرسول ﷺ لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ والوحْيُ يكون للرسول إذا كان أُوحي إليه أن يُنذر الناس ويُبشِّر الناس، ولكنَّ الوحي يكون أحيانًا بالإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[النحل:٦٨] فهذا وحيُ إلهام، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

[القصص:٧] هذا أيضًا وحيُّ إلهام وليس وحيُّ نبوةٍ وإرسال.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أنَّ الرسول ﷺ نذير.

١١ - **ومن فوائدها:** أنَّ الرسول ﷺ مبيِّن لكلِّ ما أنْذرَ به؛ لأنَّ معنى مُبيِّن مُظهر للحق والوحيُّ الذي جاء به.

١٢- **ومن فوائدها:** أنَّه لا يمكن أن يكون في شريعة النبي - عليه الصلاة والسلام - شيء مجهول أبدًا، بل كل ما جاء به فهو بيِّن، لكنَّ الجهل أمرٌ نسبي قد يكون المجهول شيئًا مُعَيَّنًا لبعض الناس، وهوَ بيِّن معلوم لأُناس آخرين.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١-٨٥]

التفسير

قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ قال المؤلف: [اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾] فأفادنا - رحمه الله - أنَّ ﴿إِذْ قَالَ﴾ مُتعلِّق بمحذوف تقديره: اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ هو آدم، وقوله: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ بشرًا: مفعول به لخالق لاستكمال شروط العمل [﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أتممْته ﴿وَنَفَخْتُ﴾: أجريت ﴿فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فصارَ حيًّا ...] إلى آخره. قال المؤلف:

[﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أجريت] وكأنَّه - رحمه الله - أَوَّل النفخَ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أنَّ الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النَّفخُ نثْبته على ظاهره، لكن بدون أن يكون مُماثلًا لنفخ المخلوقين. وتفسيرُه بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنَّه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه.

وقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [إضافة الروح إليه تشريف لآدم] يعني من روحي، ليس المُراد جُزْء من روحي، أي: من الأرواح التي خلقْتها، وأضافها الله على نفسه تشريفًا وتعظيمًا، كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[الحج:٢٦] وكما أضاف المساجد إليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾[البقرة:١١٤] وكما أضاف الناقةَ إليه في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾[الأعراف:٧٣] فالمضاف إلى الله إذا كان مخلوقًا فإن إضافتَه إليه تكون من باب التشريف والتعظيم، إذا كان هذا خاصًّا، أما إذا كان عامًّا فهو من باب الشمول والعموم، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣].

ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه] لو قال المؤلف: يحيا به الكائن الحيّ لكان أعمَّ؛ لأن الإنسان له روح، والبهائم لها روح، وقول المؤلف: [جسم لطيف] أمَّا كونه جسمًا فلأنه ثبت في القرآن الكريم أنها تُقبض وتتوفى، وثبت في السُّنة أنها تُكفن، تُلف في الكفن إمَّا من الجنة أو النار، وهذا يدل على أنها جسم، لكنَّه جسمٌ لطيف لا يُرى بالعين، إذا حلَّ في الجسد حَيِيَ، وإذا فُقد من الجسد صار الجسم جمادًا.

ونحن نشاهد مما يصنعه الآدمي ما يكون مثل هذا، إذا كان عندك سالب وموجب في الكهرباء واتصل بعضهما ببعض يسري التيار الكهربائي في المصباح الكهربائي فيُضيء، والتيار الكهربائي شيء لا يُرى بالعين، وإذا فقد أو قطع التيار أظلم المصباح. هذا وهو من صنع البشر، فكيف بالأمور الخارقة التي لا يعلمُها إلا الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء:٨٥]. وهذا الذي فسَّر المؤلف الروحَ به هو أحسن ما قيل في تفسير الروح.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[ص:٧٢] قعوا: فعل أمر، والوقوع معناه: خرُّوا على الأرض ساجدين، قال المؤلف: [سجود تحية بالانحناء] أما قوله: سجود تحية، فلا شك أن هذا هو المُراد، يعني لا سجود عبادة، وأما قوله: بالانحناء ففيه نظر؛ لأنَّ السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يُقال: إنَّ هذا السجود تحيةً كان جائزًا، ولكنه نسخ بعد ذلك ﴿سَاجِدِينَ (٧٢)﴾ محلها من الإعراب حال من الفاعل في قعوا.

قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [فيه تأكيدان] وهما: كل وأجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قال المؤلف: [هو أبو الجن كان بين الملائكة] قوله: هو أبو الجن دليلُه قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾[الكهف:٥٠] والدليل على أنه من الجنِّ قوله تعالى:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] إذن فالجن ذرية الشيطان، والإنس ذرية آدم. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال المؤلف: [﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ كان بين الملائكة] ولم يقل المؤلف: كان من الملائكة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] إذن هو كان بينهم، ومن كان بين الناس فهو من الناس، قال النبي ﷺ: «إِنَّ مَوْلى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِم»[1] فهذا إبليس كان مع الملائكة يتعبد بعبادتهم فصحَّ أن يشملَه الخطابُ الموجَّه إلى الملائكة، ولهذا لامه الله على عدم السجود، فدلَّ على أن الخطاب كان شاملًا له.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [في علم الله]، قول المؤلف: [في علم الله] بناءً على أن «كان» تدلُّ على الماضي، ولكنَّه قد مرَّ علينا أن «كان» قد تكون مسلوبة الدلالة على الزمان، ويكون المُراد بها الاتصاف بخبرها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٩٦﴾[النساء:٩٦] المعنى اتصف بالرحمة. إذًا نقول في هذه الآية ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ أي: واتصف بالكفر، ولا حاجةَ أن نقول: كان في عِلْم الله؛ لأننا نقول: إن «كان» هنا مسلوبة الدلالة على الزمن فالمُراد بها مُجرَّد الاتصاف.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ الفاعل في قال هو الله؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ قال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ يعني: أي شيء منعك؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتعجب. يعني: كيف تمتنع أن تسجد لمن خلقْته بيديَّ، فالله تعالى خلق آدم بيديه، وهذا شرفٌ له، وأمرَ الملائكة، وكان بينهم إبليس، بالسجود له تشريفًا له، فما الذي منعك أن تسجد؟

قال المؤلف في تفسير قوله: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ [أي: توليْتُ خلقَه، وهذا تشريف لآدم، فإنَّ كل مخلوق تولَّى الله خلقه] عفا الله عنك أيها المؤلف يقول: [توليت خلقه] فرارًا من إثبات اليد لله، ولا شكَّ أن هذا تحريف، وأجاب عن الإضافة في قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ بأنَّ هذا تشريف لآدم، وإلا فكلُّ مخلوق فإن الله قد تولَّى خلْقه.

وبناءً على كلام المؤلف لا يبقى لآدم عليه السلام فضلٌ على سائر المخلوقات ما دُمنا نُفسِّر ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أي: توليْتُ خلقه؛ لأن الله تولَّى خلْقَ بني آدم، وخلْق الإبل والبقر والغنم وغير ذلك، فلم يبق لآدم فضْل على أي أحد، بل لم يبقَ لآدم فضل على الشيطان الذي أبى أن يسجد؛ لأنَّ الشيطان تولَّى خلقَه الله عزَّ وجلَّ، ولهذا نقول إن المؤلف: أخطأ في هذا، وأن معنى الآية: أن الله تعالى خلقَ آدم بيده، وخلقَ غير آدم من الشياطين والملائكة بكلمته، أي: بقول كن، أما آدم

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٨)، وأبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٢٦١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٨١).

فبيده، وهذا هو وجه الميزة والخصيصة لآدم عليه السلام أن الله خلقه بيده.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [الآن عن السجود؟ استفهام للتوبيخ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ المتكبرين، فتكبرت عن السجود] مع الذين منزلتهم فوق؛ لأن الذي يأبى إمَّا أن يكون في مكان أرفع فيكون مُستحقًا للإباء، أو يكون مُستكبرًا وموضعه دُون، فيجعل نفسه في محلٍّ عالٍ، والله يقول له: هل أنت مُستكبرٌ أو أنك عالٍ في مرتبة أعلى من آدم، بل أعلى ممن أمرك؟ الجواب:

قال المؤلف: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ المتكبرين، فتكبرتَ عن السجود لكونك منهم] أي: من العالين، وأما قول المؤلف: إن العالين هم المتكبرون فإنه يؤدي إلى ألا يكون فرق بين المتقابلين؛ لأنه قال: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ولم يقل: من المتكبرين، ولذلك يُعتبر تفسير المتعالين بالمتكبرين خطأ بل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: الذين علت منزلتُهم بحيث لا يُوجه إليهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم، فإباء الشيطان عن السجود لآدم إمَّا أن يكون لوصف يستحقه، وهذا يدلُّ عليه ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ أو لِوصْفٍ لا يستحقه ولكنَّه استكبر، ورأى نفسه كبيرًا، وهذا في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾.

قال الشيطان جوابًا على سؤال الله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ أي: مِن آدم، وهذه دعوى، وكلُّ إنسان يضيف الشيء إلى نفسه فإن مُدَّعٍ، وهذه قاعدة في الفقه، والمدعي عليه البيِّنة. أتى إبليس ببينته فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ ولهذا نقول الجملة هنا استئنافية لبيان وجه الخيرية ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾، سبحان الله، الذي يُخلق من النار خير من الذي يُخلق من الطين، مع أن النار التي خُلِق منها الشيطان ليستْ هي نارًا مُضيئة إنما هي ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن:١٥] أي: النار التي تكون في أعلى اللهب بين الدُخان وبين النار المُضيئة، حمراء مُعتمة، إنه اللهب المُختلط بسواد النار، هذا المخلوق من هذه النار أيكون خيرًا من المخلوق من الطين البارد النافع؟ سبحان الله، هذا قلب للحقائق، ولهذا نقول: هذه دعوى مُستندة إلى بينة زائفة باطلة الدعوى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ والبيِّنة ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهذه ليست بينة، هذه حُجَّة عليه وليست حُجة له، وقد ذكر أهلُ العلم في هذا المقام بيان أن ما خُلِق منه آدم خير مما خُلق منه إبليس.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: من الجنة، وقيل: من السماوات. والملائكة كلهم في الجنة في السماوات ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماوات هو أقرب للفظ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ رجيم، أي: مرجوم فهي فعيل بمعنى مفعول، ومعنى مرجوم، أي: مطرود مُبعد، كما يُبعد الإنسان إذا رُجِم، ومن المعلوم أن الرجل إذا أردْنا أن نُبعده كثيرًا صِحْنا به أولًا، فإذا هرب أتبعْناه الحجارة فكان هذا أشد إبعادًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ حاقة عليك لعنة الله، أي: طرده وإبعاده ﴿إِلَىٰ يَوْمِ

﴿ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وبَعد يوم الدين لا تزول اللعنة لكنَّها إذا امتدت إلى يوم الدين فمعناه أنه قانط من رحمة الله، لا يمكن أن يُرحَم. والذي تبقى معه اللعنة إلى يوم الدين لا يمكن أن تناله الرحمة.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: الناس ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ طلب من الله أن يُنظِرَه إلى يوم بعث الناس، فهل أجابه الله إلى طلبه؟ أجابه الله إلى يوم الوقت المعلوم، قال المؤلف: [وقت النفخة الأولى] أي: قبل البعث؛ لأن الناس لا يُبعثون إلا في النفخة الثانية، لكنَّهم يُصعقون في النفخة الأولى، وهو أي: الشيطان إنها يريد أن يبقى حتى لا يبقى من بني آدم أحد، لأنه صار في نفسه غِلّ وحِقد عظيم على آدم وذريته، كيف أُمر أن يسجد له؟ وكيف حُكم بكفره لما أبى؟ صار في نفسه غِلٌّ وحِقد، فسأل الله أن يبقيَه إلى يوم البعث، فأجابه الله أن يبقى إلى يوم الوقت المعلوم، وإجابة الله إياه لِحكَم عظيمة نذكرها إن شاء الله مع الفوائد.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يحتمل أن تكون الباء للقسم، ويُحتمل أن تكون للإستعانة، فإن قلنا: إنَّها للقسم فقد أقسم بعزة الله، واختياره الإقسام بالعزة؛ لأنَّ العزَة فيها الغلبَة، فأقسم بوصف لله يكون به الغلبة، وإن قلنا: إنها للاستعانة فظاهر أن الاستعانة بعزَّة الله التي إذا أعان الله بها العبد غلب. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ اللام الواقعة في جواب القسم في قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ تؤيِّد أنَّ الباء هنا للقسم؛ لأنَّ هذا هو جواب القسم، وأغوينهم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وهو خلاف طريق الرشد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أي: من بني آدم الذين هم ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أخلصتهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر:٤٢].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ الحق: مُبتدأ لأنه مُتضمِن معنى القسم بدليل أنه أُخبر عنه بجواب القسم وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقد أعربه المؤلف فقال: [بنصبهما ورفع الأول ونصب الثاني] ﴿قَالَ فَٱلْحَقَّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ فنصبَه بالفعل بعده، أي: أن ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مفعول مُقدم لأقول، أي: لا أقول إلا الحق، وتقديم المفعول أفاد الحصر، [ونصب الأول، قيل: بالفعل المذكور، وقيل: على المصدر، أي: أُحِقُّ الحقَّ، وقيل: على نزْع حرف القسم، ورفعه على أنه مُبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وقيل: فالحقُّ قسمي، وجواب القسم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾].

إعرابات مُتعددة بنصبهما، نقول الثاني نصبه بالفعل بعده وهو واضح ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ لأنَّ الفعل بعده لم يستكمل مفعولَه، ولم نجد مفعولًا له إلا الحق الذي سَبق، إذًا الحق الثانية منصوبة بأقول على كل حال، والخلاف في الأولى، الأولى إما منصوبةً وإما مرفوعةً، نصبُها فيه أوجه: قيل: بالفعل المذكور، أي: فالحقَّ أقول والحقَّ أقول، فيكون الحق الأولى والثانية منصوبة بأقول، كما لو

قلت:زيدًا وعَمْرًا ضربتُ، فزيدًا وعمرًا منصوبان بضربت، إذن الحق، والحق منصوبان كلاهما بأقول، وقيل على المصدر أي: فأُحِقُّ الحقَّ، وعلى هذا فيكون مصدرًا عامله محذوف تقديره: فأحق الحق، وقيل: على نزْع حرف القسم، يعني فبالحق أقسم؛ لأنه إذا نزع الخافض نصب المخفوض، ولهذا يَرد كثيرًا قولهم: منصوب بنزع الخافض، هذه ثلاثة أوجه، ورفع (الحقُّ) الأولى على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وهذا ضعيف، وقيل: فالحقُّ قسمي، وهذا أقل ضعفًا من الأول، والذي يظهر له أنه لا حاجة إلى هذا، والأحسن أن نقول: الحق: مبتدأ ضُمِّنَ معنى القسم، وأجيب بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وصار في جواب القسم كفايةٌ عن خبر المبتدأ، واستغني بجواب القسم عن خبر المبتدأ كما يُستغنى بجواب القسم عن جواب الشرط فيما إذا اجتمع شرط وقسم.

قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المُراد الجنس ولهذا قال المؤلف: [بذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: الناس] الذين أقسمْتَ أن تُغويهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. ولهذا كانت النار دارًا لصنفين من المخلوقات فقط، وهما الجن والإنس، فالملائكة ليسوا من أهلها، والوحوش والحشرات وغيرها ليسوا من أهلها، لا يدخل النار إلا صنفين من المخلوقات، وهما الناس والجن.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ وإثبات أن كلامَه بصوتٍ مسموع تسمعه الملائكة في هذه القصة، وإثبات أنه بحرف، أي: بحروف مُتتابعة يتبع بعضها بعضًا لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ وكلُّ هذا تأكيد لمذهب أهلِ السُّنة والجماعة، وفي هذا إثبات أنَّ الكلام يتعلق بمشيئته.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** إثبات الخلق لله تعالى وأنه مُتعلِّق بمشيئته لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سأخلقه.

٣ - **ومن الفوائد:** إثباتُ أنَّ أصل بني آدم هو الطين، ولهذا جاءت طبائع بني آدم وألوانهم مُختلفة كاختلاف الأرض، أو كاختلاف تربة الأرض فيها السهل واللين، والأحمر والأبيض والأسود، والحزن والصعب؛ لأنهم خُلقوا من هذه التُّربة فصار اختلافهم كاختلاف الأصل الذي خُلقوا منه.

وقلنا هنا: إن في هذه الآية إثبات أن بني آدم خُلقوا من الطين، وفي آيات أخرى أنَّهم خُلقوا من التراب، وفي آيةٍ ثالثة من صلصال كالفخار، ولا منافَة بين هذه الآيات؛ لأن التراب أصلُه طين، والطين أصل الصلصال الذي كالفخار، فالتراب يصير طينًا وحين يمكث مُدة يتحجر فيكون صلصالًا.

٤ - **ومن فوائد الآيات:** إثباتُ الأفعال لله تعالى لقوله: وأنَّ أفعاله تتعلق بمشيئته؛ لأن (إذا)

شرطية تفيد المستقبل.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الله تعالى أتم خلْقَ آدم فسواه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]. -

٦ - **ومن فوائدها:** تشريف الروح التي نُفخت في آدم عليه السلام لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذا تشريف من وجهين:

الأول: أنَّ الله هو الذي نفخها ولم يأمر أحدًا من الملائكة بنفخها.

والثاني: أنَّ الله أضاف هذه الروح إلى نفسه المُقدسة.

٧ - **ومن فوائد الآية:** أنَّ العبادة طاعةَ الله على أي وجه كانت، حتى وإن كانت مُحرَّمة في وقتٍ من الأوقات لقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فالسجود لغير الله علامةُ شرك، لكن لما أمر الله به صار طاعةً، والاستكبار عنه كفر.

٨ - **ومن فوائد الآية:** جواز تعليق الأمر بالشرط لقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: إذا جاز تعليقُ الأمر بالشرط فإنَّ المأمور به يُمكن أن يُنفذ فيه الشرط، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لضُباعة بنت الزبير وقد اشتكت إليه عند إرادة الحج قال: «حُجِّي واشْتَرِطِي أن مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتِنِي»(1) «فإنَّ لَكِ عَلى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيتِ»(2).

٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الملائكة عليهم السلام ذوو عقول يصحُّ توجيه الخطاب إليهم وائتمارهم لقوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

١٠ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ أنَّ الملائكة كلهم سجدوا؛ لأنَّ الآية عامةٌ مُؤكدٌ عمومها بمؤكدين وهما: كل وأجمعون في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية:** جواز تَوجُّه الأمر (الخطاب) إلى العموم، وإنْ كان فيهم من غير جنسهم؛ لقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإن إبليس بلا شك أنه من غير الملائكة أصلًا ونهايةً، لكنه كان فيهم، فصح أن يتوجه الخطاب إليه، وهذا ظاهر. لو أنك أمرْتَ جماعةً بالسجود، وفيهم من ليس منهم، ولكنه على صفتهم، ويعمل بعملهم، فتخلف لا بد أن تلومه؛ لأن الخطاب موجه للجميع.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الاسم قد يحمل معنى المُسمَّى؛ لأنَّ إبليس يبدو أنه اسم عربي من الإبلاس، وهو اليأس لأنه أيس من رحمة الله عزَّ وجلَّ، وَرُدَّ بأنه لو كان عربيًا لانصرف.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** ذم الاستكبار عن أمر الله لقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْ﴾؛ لأنَّ الاستفهام في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ للتوبيخ وذم الاستكبار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٢/ ٢٠)، والدارمي (٢/ ٣٤-٣٥) كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٠١٠).

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنَّ الاستكبار عن أمر الله كُفْر لقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ جزاء لاستكباره كان من الكافرين. وفرع بعض العلماء على هذا أن تارك الصلاة يكون كافرًا؛ لأن إبليس كفر؛ لأنه ترك سجدة، فما بالك بالذي يترك سجدات وركوعات وقيامٌ وقعودًا، وهذا ليس بعيد، أي: أن الاستدلال بهذه الآية على كفر تارك الصلاة ليس ببعيد.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: توبيخ إبليس لتَرْك السجود لِمَنْ شرَّفه الله عزَّ وجلَّ وأمَرَه بالسجود له لقوله: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

١٦ - **ومن فوائدها**: أنَّ كلام الله تعالى يتعلق بمشيئته حيثُ صدر هذا القول بعد استكبار إبليس وتركه السجود.

١٧ - **ومن الفوائد**: إثباتُ اليدين لله تعالى لقوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ وهذه صيغة تثنية تفيد أنَّ لله يدين اثنتين تليق بجلاله.

١٨ - **ومن فوائدها**: شُرف آدم عليه السلام من حيث إن الله خلَقَه بيديه وفضَّلَه على غيره بهذا، إلا أنَّ أهل العلم يقولون: إنَّ الله غرس جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده.

١٩ - **ومن فوائد هذه الآية**: الردُّ على أهل التعطيل الذين قالوا: إنَّ المُراد باليدِّ النعمة أو القوة، وذلك أن النعمة أو القوة لا تأتي بصيغة التثنية؛ لأن صيغة التثنية تدل على الحصْر، وقوة الله غير محصورة، ونعمه أيضًا غير محصورة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

٢٠ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنَّ يد الله لا تُماثِلَ أيدي المخلوقين؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، والمُضاف يكون حسب المُضاف إليه، فكما أنَّ ذات الله مُقدسة لا تُماثِل ذوات المخلوقين، كذلك صفاته.

٢١ - **ومن فوائد هذه الآية**: استعمال الحصْر، أو كما يقولون: السبر والتقسيم في المناظرة والمجادلة لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ وقد سبق تفسيرها. بأنَّ المعنى: هل أنت استكبرت في نفسك، وأنت لست أهلًا للعلو، أو كنت عاليًا في أصلك حتى تمتنع عن السجود، أم أنت أكبر وفي مرتبة عالية أعلى من آدم حتى تمتنع عن السجود؟

٢٢ - **ومن فوائدها**: تنزيل الأشياء منازلها كقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ لأنَّ العالي إذا كان عاليًا على غيره فإنه لا يمكن أن يُنزَّل حتى يكون أنزل من غيره، بل كل أحد يُنزَّل في منزلته.

٢٣ - **ومن فوائدها**: بيان الدعوة الكاذبة التي ادعاها إبليس في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها**: أن الإنسان قد يُعمى عن الحق فيستدل بما هو حُجة عليه، يظن أنه حُجة له لقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

٢٥ - **ومن الفوائد**: أنَّ مَن قدم العقل على السمع فإنما هو مُتَّبع لخطوات الشيطان؛ لأن

الشيطان قدَّم العقل على السمع فإنما هو مُتبع لخطوات الشيطان؛ لأن الشيطان قدَّم ما يدعي أنه عقل على السمع فأخطأ في ذلك، فهكذا كلُّ من قدَّم العقل على السمع سواء في العلميات وهي علم العقائد، أو في العمليات فإنه مُشابه لإبليس، مُتبع لخطواته، واعلم أنَّ كلَّ بليه تقع من تحريف الكلم عن مواضعه، والاستكبار عن عبادة الله وغير ذلك فأصله من إبليس.

٢٦ – **ومن الفوائد:** إقرار إبليس بأنَّ الله هو الخالق لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي﴾ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾.

٢٧ – **ومن الفوائد في هذه الآية:** أنَّ إبليس كان قد أقرَّ بانحطاط منزلته عن الربوبية لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي﴾ والمخلوق لا يمكن أن يكون ربًّا.

٢٨ – **ومن الفوائد في الآيات:** أنَّ إبليس أعلَم بحقائق صفات الله تعالى من كثير من أهل التعطيل، فالذين فسَّروا اليدَ بالقوة هنا لو كان تفسيرهم صحيحًا لقال إبليس: يا رب وأنا خلقتني بيديك؛ لأن الله خلق إبليس بقوته كما خلق آدم، لكنَّ إبليس فَهِم أن المُراد باليد غير القوة، ولهذا لم ينقض فضيلة آدم بأنه هو خُلِق بيد الله.

٢٩ – **ومن فوائدها:** أنَّ إبليس في استكباره وإبائه صار مُستحقًا للطرد والإبعاد ولهذا قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

٣٠ – **ومن فوائدها:** أنَّ إبليس لما أُخرج أُبلغ بأنه مرجوم، والرجم زيادة على الطرد.

٣١ – **ومن الفوائد:** أنَّ إبليس ملعون لقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾[الحِجر:٣٥] فهل نقول: إن اللعنة المُطلقة في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هي المقيدة في قوله هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ أو نقول: إنَّ اللعنة هناك أعمّ فعلى إبليس لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، يُحتمل هذا وهذا، يحتمل أن نأخذَ بالمُطلق؛ لأنه أعمَّ، ويُحتمل أن نَحمل المطلق هناك على المُقيَّد هنا.

٣٢ – **ومن الفوائد في الآية:** أننا لا ندعو على إبليس باللعنة؛ لأنه قد استحق هذه اللعنة بأمر الله أو بخبر الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ فلا حاجةَ إلى أن تقول: إبليس لعنه الله، لأنَّه ملعون. وقد قال ابن القيم رحمه الله على قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِذَا قِيلَ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ»(١) قال: إنَّ مِثْل ذلك إذا دُعي عليه باللعنة والتقبيح وما أشبه ذلك، فإنه يتعاظم في نفسه، أي: كأنه لم يُقدر عليه ذلك، فإذا كان قد قُدِّر عليه فلا حاجة أن أدعو الله عليه، ولكن أستعمل ما أمرني الله به في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠]. فإن قيل: أليس النبي ﷺ قال لإبليس لما جاءه في الصلاة بشهابٍ من نار

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٥٩)، وأبو داود (٤٩٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠١).

ليجعله في وجهه، قال: «أَعُوذُ بِالله مِنْكَ» ثلاثَ مراتٍ، ثم قال: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله»[1].

فالجواب: بلى، لكن الرسول قيَدها فقال: « أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله».

٣٣ - **ومن الفوائد في هذه الآية:** إثبات الجزاء لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ والدين هنا بمعنى الجزاء.

٣٤ - **ومن الفوائد في هذه الآيات:** أنَّ الله أجاب طلب إبليس ودعاءَه لكن لا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بل ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ويوم الوقت المعلوم، هو يوم موت الناس أجمعين حين يُنفخ في الصور فيُصعقون جميعًا.

٣٥ - **ومن الفوائد في هذه الآيات:** أنَّ الله قد يُقدِّر أسباب الشر لحكمة، وذلك بإجابة دعاء إبليس أن يُنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وإبليس لا شك أنه مبدأ كل شر، ولكنَّ الله تعالى أبقاه لحكمة عظيمة، ولولا بقاء إبليس ما وُجد عاصٍ في الأرض، وإذا انتفى العصيان صار الناس أمةً واحدة، ولم يكن الإيمان مزية، ولم يكن جهاد ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، ولو كان الناسُ أمة واحدة لتعطل كثير من شعائر الإسلام، فكان من الحكمة بقاء إبليس، وبقاء ما يدعو إليه إبليس.

٣٦ - **ومن فوائد هذه الآيات:** مَعْرفة إبليس بالله حيث أقسم بعزة الله أن يُغوي بني آدم لقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

٣٧ - **ومن فوائدها:** أنَّ من أسباب الإعانة أن يستعينَ الإنسان بما يُناسبُ المقام من أسماء الله وصفاته؛ لأنه لم يقل: فبمغفرتك لأغوينهم، لو قال: فبمغفرتك لم يُناسب المقام؛ لأنه يريد أن يتسلط والسلطة يُناسبها من الصفات العزَّة دون المغفرة.

٣٨ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ إبليس وعد متوسلًا بعزَّةِ الله أن يغوي جميع بني آدم. ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب الحذرُ من إبليس ووساوسه، فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمُني بوساوس الشيطان؟

الجواب سهل: كلُّ شيء يأمرك بمنكر فهو من إبليس، وكل ما يُثبِّطك عن الخير فهو من إبليس، فاحذر. فإذا وجدت في نفسك تأخرًا في الخير فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا وجدت في نفسك إقدامًا على الشر فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾[البقرة:٢٦٨].

٣٩ - **ومن فوائد هذه الآيات:** مزية عباد الله تعالى المُخلصين حيث سَلِمُوا من إغواء إبليس.

٤٠ - **ومن فوائدها:** أنَّ كلَّ من كان لله تعالى أعبدَ كان أشد عِصمة من الشيطان ووساوسه؛ لأنه استثنى من إغواء بني آدم عباده المُخلصين، والمعلَّق بوصف يقوى بقوة ذلك الوصف.

---

(١) صحيح: أخرجه مُسلم (٥٤٢)، والنسائي (١٢١٥).

٤١ - **ومن فوائد الآيات**، أنَّ الله تعالى يَمُنُّ على من يشاء من عباده فيخلصهم له لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

٤٢ - **ومن فوائد هذه الآيات**، أنَّ قوله الله تعالى كلَّه حقٌّ لقوله: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ قدَّم المعمولَ لإفادة الحصر.

٤٣ - **ومن فوائدها**، أنَّ كل ما قدَّره الله تعالى فهو حق، سواء كان مُلائمًا لبشر أو غير مُلائم. وجه ذلك أنَّ كل شيء قدره الله كائن بقوله: كن، وكن قول، فإذا كان كل ما قاله الله حقًّا لَزِم أن يكون كل ما قضاه حقًّا، وهو كذلك، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الخيرُ كُلُّه بيديك، والشَّرُ ليس إليك»(١).

٤٤ - **ومن فوائد هذه الآيات**، أنَّ الشيطان في جهنم لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾.

٤٥ - **ومن فوائدها**، أنَّ الله تعالى وعد جهنمَ بملئها، ويتفرع عن هذه الفائدة الحذرُ الشديد من أن يكون الإنسان من أهل جهنم، نعوذ بالله منها، وقد ثبت في الصحيحين: «أَنَّ جَهَنَّم لَا تَزَالُ يُلْقى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَه فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُول: قَطْ قَطْ»(٢).

٤٦ - **ومن فوائد هذه الآيات**، أنَّ للشيطان أتباعًا لقوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ فإذا قيل: مَن أتباعه؟ قيل: المستكبرون عن عبادة الله؛ لأن أعظم ميزة يتميز بها الشيطان أنه مُستكبر عن طاعة الله، فكل من استكبر عن طاعة الله فإنه من أتباع الشيطان.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٦-٨٨].

التفسير

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما جئت به وعلى تبليغه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن: زائدة، وأجر: مجرور لفظًا منصوب محلًا على أنَّها مفعولٌ به

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨).

ثانٍ لقوله: ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾.

واعلم أن سأل إن تعدت بـ «عن» فهي بمعنى الاستفهام، وإنْ تعدَّتْ بنفسها نصبَت مفعولين، فهي بمعنى طلب العطاء، فإنَّ قولك: سألته عن كذا، يعني: الاستفهام، وإذا قلت: سألْتُه كذا، فهو طلب العطاء، وهنا سأل طلب عطاء وعلى هذا فإن ﴿أَجْرٍ﴾ محلَّها النصب، وقول المؤلف: [جُعل] تفسير لأجر، يعني لست أطلب منكم أن تعطوني دراهم، أو تعطوني أرزاقًا، أو تزوِّجوني بناتكم، أو تُسكنوني قصوركم على تبليغ الرسالة، ولكنَّه ﷺ إنها يسأل الأجر مِن الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتقولين القرآن من تلقاء نفسي، أي: وما أنا من المتقولين، ولكن عدل عن المتقولين إلى المتكلفين؛ لأن القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله البشر حتى لو تكلفَ الإنسان وبذلك الجهد، فإنه لا يمكن أن يأتي بمثله، ولما كان هذا القرآن لا يأتي بمثله البشر صار مَن أتى به مُتكلفًا لو كان جاء به من عنده، فهو يقول: ألا أتقول القرآن لا عن يُسر ولا عن كلفة.

﴿إِنْ هُوَ﴾ [أي: ما القرآن]. ﴿إِنْ﴾ فسرها المؤلف بـ «ما»، وقد ذكرْنا علامة «إن» التي بمعنى «ما» أن يأتي بعدها «إلا». [﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧)﴾ للإنس والجن العُقلاء دون الملائكة] وقول المؤلف: [دون الملائكة]، إن أرادَ بإخراج الملائكة أنَّهم لا يُكلفّون بالعمل به فقد يكون مُسلمًا، وإن أرادَ أنهم لا يتذكرون به ولا يتقرَّبون به فهذا غير مسلم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦] والمراد بهم الملائكة.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧)﴾ تقدَّم معنى الذِكْر في أول السورة، وتقدم قريبًا ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص:٤٩] وهذه الثالثة، والمعنى أنَّه ذكر بنفسه وشرفه وذكر بالوعظ به.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خبر صِدقه ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: يوم القيامة] قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ جعل المؤلف الضمير في تعلمن عائدًا إلى كفَّار مكَّة بناءً على أن الخطاب المذكور في هذه السورة لأهل مكة؛ لأنها مكية، ولكن قد ذكرْنا أن العبرة بالعموم لا بخصوص المكان أو السبب، والخطاب لجميع الناس ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فإن هذا النبأ الذي أنبأ الله به بواسطة هذا القرآن الكريم سيعلمه الناس كلهم، وذلك ما أخبر به عما يكون يوم القيامة، فإنَّ هذا القرآن أخبر عن ما يكون يوم القيامة، وهذا سيعلمه الناس كلهم بعد حين.

وهناك أشياءُ أخبر عنها القرآن مضت وانقضت، فهذه عَلِمَها بعد حين مَن سبق هذه الحوادث وأدركها، وهناك حوادث ستأتي يعلمها بعد حين مَنْ يُدركها، وأمَّا الذي يُدركه جميع الناس فهو ما يكون يوم القيامة قال: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [أي: يوم القيامة، وعَلِمَ بمعنى عرف]، قال: علم بمعنى

عَرف؛ لأنَّه تعدى إلى واحد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وعَلِم إذا تعدَّت إلى واحد فهي بمعنى عرف، كما تقول: علمت المسألة يعني عرفتها، قال: [واللام قبلها: لام قسم مُقدر، أي: والله] لتعلمُن نبأه.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعلن بأنَّه لا يُسأل عن الرسالة أجرًا، أي: أجرًا دنيويًا، وأمَّا أجر الآخرة فلا شكَّ أنَّ النبي ﷺ يرجوه؛ لأنه هو الدال على الخير، الآمر به، ولهذا مُنع ورثة الرسل مِن أن يرثوا شيئًا من أموالهم خوفًا من أن يُقال إنما اكتسبه الرسل من أجل الرسالة. قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «لا نُورَثُ، ما تركْنا صدقٌ»[1] بتنوين الضم، أما قول الرافضة: صدقة، بتنوين النصب «لا نورث ما تركنا صدقةً» فهذا تحريفٌ لفظي ومعنوي؛ وذلك لأن ما ترك صدقة لا يورث من الأنبياء ولا من غيرهم. لو أوصى الإنسانُ بشيء يُجعل صدقةً بعد موته نَفَذَ ولم يُورث لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢] إلا أن ما زاد على الثُلث يكون راجعًا إلى اختيار الورثة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** أنَّ النبي ﷺ لا يسأل الناس أجرًا على دعوة الخلق إلى الحق، وهل هذا خاص به أو عامّ له وللأمة، أي: أنَّه يُحرم على الإنسان أن يأخذَ شيئًا على تبليغ الشريعة؟ الجواب: أنه متى وجب الإبلاغ حَرُم أخذ الأجر عليه؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجرًا على قيامه بالواجب، أما إذا كان ليس بواجب فلا بأس أن يأخذ أجرًا؛ لأنه يكون تطوعًا إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. فإذا قال: أنا لا أحبس نفسي إلا بأجر، قلْنا له: لا حرج ما دام الإبلاغ ليس بواجب، ويدلُّ لهذا قول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إنَّ أحقَّ ما أخذتُم عليه أجرًا كتابُ الله»[2] لكن متى وجب تعليمُ القرآن على شخص فإن أخذَ أجرة على هذا التعليم يكون حرامًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنَّ النبي ﷺ صادق فيما أخبر به مِن الوحي لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** الإشارةُ إلى أن مِن الناس من يتقوَّل على الله، فيدَّعي أنه رسول، وهو ليس كذلك، وحينئذٍ نقول: من ادعى الرسالة فإن جاء بآية تدل على صدقة فهو رسول، وإلا فليس برسول، هذا قبل النبي محمد ﷺ أمَّا ما بعد النبي عليه الصلاة والسلام فمن ادَّعى الرسالة فهو كاذب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] فَمَنْ ادَّعى الرسالة، وأنَّ الله تعالى أرسله بعد محمد - عليه الصلاة والسلام - فهو كاذب مُرتد عن الإسلام ويجب قتلُه، ولا يُرد على هذا أنَّ عيسى عليه السلام ينزل آخر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

الزمان بصفته رسولًا؛ لأنَّهُ كان رسولًا قبل مُحمد ﷺ، ثم هو أيضًا لا يأتي بشيء جديد، بل يأتي بشيء أقرَّه النبي ﷺ وأخبر به من قبل، وهو أنَّه يقتل الخنزير، ويكسُر الصليبَ، ويضع الجزيةَ، ولا يقبل إلا الإسلام[(١)] يعني أنَّ أخذَ الجزية من غير المسلمين لإقرارهم على دينهم له أمدٌ في الشريعة الإسلامية.

٥ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ أنَّ هذا القرآن الكريم ذكرَ للعالمين عمومًا يتذكرون به، لكن لا ينتفع به إلا المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[يونس:٥٧] وهذا عام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧] وهذا خاصّ إذا جعلْنا الهدى بمعنى التوفيق، وإذا قلْنا الهداية هدايةُ الإرشاد صار عامًّا.

٦ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ أن آياتِ النبي ﷺ تأتي متتابعة منها ما علم في عهده، ومنها ما علم بعد ذلك، ومنها ما لا يعلم إلا يوم القيامة، والذي يُعلم يوم القيامة يكون معلومًا لكل أحد، والذي يعلم في وقته يكون معلومًا لِمَنْ أدركه ولمن أتى من بعده، وكذلك نقول في الذي يأتي بعد الرسول ﷺ.

٧ - **ومن الفوائد:** أنَّ الله تعالى تكفَّل بأنَّ يُعلِّم الناسَ صدق نبأ الرسول ﷺ لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ فإنَّ هذه الجملة خبرية مُؤكَّدة بثلاثة مؤكدات: اللام والقسم المُقدَّر ونون التوكيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾.

وإلى هنا انتهتْ هذه السورةُ الكريمةُ ونسأل اللهَ تعالى أن يُعيدنَا عودًا حميدًا مُستزيدين مِن الإيمان والعمل الصالح والعلم، إنه جوادٌ كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[تم تفسير سورة ص
والحمد لله رب العالمين]

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة الزمر

هذه السورة تُسمَّى «سورة الزمر»، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فيها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١]، وتسمية السور تكون لأدنى مُلابَسة وأدنى مناسبة، ولهذا سُمِّيت «سورة البقرة» دون أن تُسمَّى سورة الدَّين مثلًا، أو سورة العِدَد، مع أنَّ ذكر الدَّين وما يتعلَّق به قد يكون كآياتِ البقرة، لكن التسمية تكون لأدنى مُناسبة ومُلابسة.

يقول (المؤلف): [مكية] يعني: أنها من السور المكية، وأصحُّ ما يُقال في السور المكية: إنَّها ما نُزِّل قبل الهجرة، فما نُزِّل قبل الهجرة فهو مكيٌّ، وما نزل بعدها فهو مدنيٌّ[1]، حتى لو نزل في مكة، وهو بعد الهجرة، ولهذا نقول: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ نقول: إنها مدنية، مع أنها نزلت في عرفة[2].

قال المؤلف: [مكية إلا الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾] [الزمر:٥٢، ٥٣].

هذا الاستثناء يحتاج إلى دليلٍ، والقاعدة: أن كلَّ مَن استثنى آياتٍ من سُورٍ مكية قال: إنها مدنية، فعليه الدليل، والعكس بالعكس، من استثنى آيات من سور مدنية وقال: إنها مكية، فعليه الدليل؛ لأن الأصل أن السورة إذا كانت مكية فهي مكية بجميع آياتها، هذا هو الأصل، حتى يقوم دليلٌ على الاستثناء، ولا أعلمُ لهذا الاستثناء الذي ذكره (المؤلِّف) دليلًا؛ بل إن ظاهره من حيث المعنى يقتضي أن يكون من المكيَّات قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كلُّه يتعلَّق بالتوحيد والتوبة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٨٧ و ١٨٨)، ومباحث في علوم القرآن (ص٦٠ و ٦١).

(٢) كما رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) من حديث أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

[قوله: وهي خمسٌ وسبعون آية].

والآيات مُقسَّمةٌ تقسيمًا توقيفيًّا؛ يعني: أن الذي يُحدِّد الآيات هو الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فهو يُحدِّد الآيات، ويُحدِّد مكانها وترتيبها، ولهذا نقول: إن ترتيب الآيات توقيفيٌّ، وترتيب السور منه توقيفيٌّ، ومنه الاجتهاديٌّ من الصحابة؛ فمثلًا: سورتا (الجمعة والمنافقون) ترتيبها توقيفيٌّ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يقرأ في صلاة الجمعة، (بالجمعة) و(المنافقين) [1]، (سبِّح) و(الغاشية) كذلك، والبقرة وآل عمران كذلك توقيفيٌّ،

ومنه شيءٌ اجتهاديٌّ ثبت باجتهاد الصحابة قد تختلف فيه مصاحف الصحابة؛ لأنه عن اجتهاد.

وترتيب الآيات؛ حيث قلنا: إنه توقيفي لا يجوز الإخلالُ به، فلا يجوز أن تُقدِّم آية على آية في التلاوة؛ لأن الذي وضع الآية في مكانها هو الرسول ﷺ، ترتيب الكلمات أيضًا توقيفي، لا يجوز أن تُقدِّم كلمةً على كلمة، ترتيب الحروف توقيفي، لا يجوز أن تُقدِّم حرفًا في كلمة على حرف، فعندنا الآن ترتيبات عدة: (ترتيب الحروف)، و(ترتيب الكلمات)، و(ترتيب الآيات) كله توقيفي لا يجوز الإخلال به، وترتيب السور منه توقيفي، ومنه اجتهادي.

(١) كما روى مسلم (٨٧٩)، والنسائي (١٤٢١)، والطيالسي في مسنده (٢٦٣٦)، وأحمد في مسنده (٣١٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

۞ قال الله تعالى:

[redacted]

۞ التفسير ۞

البسملة آيةٌ مُستقلة في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ، ليست من الفاتحة، ولا من غير الفاتحة على القول الراجح[1]، فهي آيةٌ مُستقلَّة يُؤتَى بها للبدء بالسورة، ولا نقول: للفصل بين السورتين؟ للبدء؛ لأننا لو قلنا: للفصل بين السورتين أُورِد علينا سورة الفاتحة؛ لأنها ليس قبلها سورة، إذنْ للبدء في السورة، وسقطت بين الأنفال والتوبة؛ لأنها لم تَرِد عن النبي ﷺ، ولو ثبتت ما أهملها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

والبسملة ـ كما نشاهد ونقرأ ـ شبه جملة، وليست بجملة؛ لأنها جار ومجرور، والجار والمجرور، والظرف يُسمَّى شبه جملة، ولا يُسمَّى جملة؛ لأنه لم توجد فيه أركان الجملة، ولكنَّ الجملة مُقدَّرة فيه.

فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، وصفة مُتعلِّقة بمحذوف ولكن شبه جملة لأنه لأبدَّ من تقدير تتم به الجملة، ولهذا قيل في نظم الجمل:

لَابُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي
وَاسْتَثْنِ كُلَّ زَائِدٍ لَهُ عَمَلْ ... كَالْبَا وَمِنَ الْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلْ

مُرتَقِي بمعنى الفعل؛ لأنه اسم فاعل.

وذلك لأن الذي فيه حروف جر زائدة يُقدَّر كأنه لا حرف فيه، لو قلتَ: ليس زيدٌ بقائم، فإنك تقول: قائم: خبر ليس، ما تقول: مجرور بالباء، هو جار ومجرور والجار والمجرور متعلِّق بمحذوف. على كل حال البسملة مُتعلِّقة بمحذوف، فما هو المحذوف؟

الجواب: أحسنُ ما يُقدَّر به هذا المحذوف أن يُقدَّر: فعلًا متأخِّرًا مناسبًا للمبدوء به؛ فمثلًا: إذا كنت تريد أن تقرأ، تقول: التقدير: باسم الله أقرأ، إذا أردت أن تتوضَّأ، التقدير: باسم الله أتوضَّأ، أردتَ أن تدخل، باسم الله أدخل وهكذا.

قدَّرناه فعلًا؛ لأنه الأصل في العمل، فالأصل في العمل الأفعال.

واسم الفاعل واسم المفعول والمصدر العامل مُلحق بالفعل، فلذلك اخترنا أن نُقدِّرَهُ فعلًا لا

(١) راجع تفسير ابن كثير (١/ ١٠١ و ١٠٢).

اسمًا؛ لأنه الأصل في العمل.

واخترنا أن يكون متأخِّرًا لوجهين:

الوجه الأول: التبرُّك بالابتداء باسم الله، والجملة: بسم الله، تبرُّكًا.

والوجه الثاني: إفادة الحصر؛ لأن تأخير العامل يُفيد الحصر.

واخترنا أن يكون مناسبًا لما ابتُدئ به أو للموضوع؛ لأنه أدلُّ على المقصود؛ حيث يُعيِّن أن البسملة لهذا الشيء.

فلو قلنا: تقدير الكلام: باسم الله أبتدئُ، ما الذي فاتنا؟

فاتنا أنه غير مُناسبٍ للمقام، أو للموضوع.

إذا قدَّرنا: أقرأُ باسم الله، ما الذي فاتنا؟

فات التأخير، لكن فائدة التأخير: هي الحصر والتبرُّك بالبداءة باسم الله.

إذا قلنا: باسم الله قراءتي، ما الذي فات؟

فات أن يكون فعلًا عاملًا في العبارة.

قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (اسم) مفرد مُضاف، والمفرد المُضاف يفيد العموم، وعلى هذا يكون المعنى: بكلِّ اسمٍ من أسماء الله؛ لأن المفرد المُضاف يكون للعموم، والدليل على أن يكون للعموم: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] فنعمة: مفرد، ومع ذلك قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾، و ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فدلَّ ذلك على أنها عامة في كل نعمة.

والباء في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ للاستعانة، والمُصاحبة والمُلابسة؛ يعني: مُستعينًا أو مُصطحبًا أو مُتلبِّسًا بسم الله، و﴿ٱللَّهِ﴾ علَمٌ على ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاصٌّ به لا يُسمَّى به غيرُه.

واختلف العلماء هل هو مُشتقٌّ أو جامد؟

والصحيح: أنّه مُشتقٌّ، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] ولو جعلناه اسمًا جامدًا لكان غير دالٍّ على الوصف؛ بل كان علَمًا محضًا، وحينئذٍ لا يكون دالًّا على الأحسن؛ بل لا يكون دالًّا على الحَسَن فضلًا على الأحسن، فالصحيح الذي لا شكَّ فيه أنه مُشتقٌّ، من أي شيءٍ مشتق؟ مُشتقٌّ من الألوهية، وهي: التقرُّب والتعبُّد للمألوه على وجه المحبة والتعظيم.

وأما قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو أيضًا علَمٌ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لا يُسمَّى به أحدٌ غيرُه، فهو من أسماء الله الخاصة به، ولا يُوصَفُ به غيرُه، وهو مُشتقٌّ من الرحمة، وكان بصيغة فَعلان لدلالة هذه

الصيغة على السَّعة والامتلاء، فهو دالٌّ على سعة رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وشمولها لكل شيء.

وأما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: فهو اسمٌ من أسماء الله، لكن يُوصَفُ به غيرُه، قال الله ـ تعالى ـ عن النبي ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو مُشتقٌّ من الرحمة، لكنه إذا قُرِن بالرحمن؛ أي: إذا ذُكِرا جميعًا كانت الرحمن دالَّةً على الوصف، والرحيم دالةً على الفعل؛ أي: إنَّهُ يرحم برحمته ـ عزَّ وجلَّ ـ من يشاء.

قال الله تعالى:

التفسير

الكتاب: هو القرآن، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدينا، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]، وعلى هذا ففِعال بمعنى: مفعول، وهذه الصيغة – أعني: فِعالًا – تأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية كثيرًا.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال المؤلف: [القرآن مبتدأ] يعني: ﴿تَنزِيلُ﴾، قال: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبره] إذن معنى الآية: أن الله يُخبِر ـ عزَّ وجلَّ ـ بأن تنزيل الكتاب من عنده من الله؛ أي: أنه نازلٌ من عند الله، لا من جبريل، ولا من محمد، ولا من أي مصدرٍ كان؛ بل هو نازلٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، تكلَّم به، وألقاه إلى جبريل، ثم إنَّ جبريل نزل به على قلب النبي ﷺ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، وتأمَّل قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتعلم أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعي القرآن وعيًا تامًّا؛ لأن ما نزل على القلب لابد أن يعيَه القلب.

قال المؤلف: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه]:

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لها معان:

أولًا: عزيز بمعنى: غالب، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قاله الله ـ تعالى ـ جوابًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فسلَّم الله ذلك أنَّ الأعزَّ يُخرِجُ الأذلَّ، ولكن العزَّة لمن؟ لله، ولرسوله، وللمؤمنين، أما المنافقون فلا عزَّة لهم، حتى يستطيعوا أن يُخرِجوا المؤمنين

منها.

ثانيًا: عزيز بمعنى: قوي شديد القوة، ومنه: قولهم: أرضٌ عَزازٌ؛ يعني: صلبة قوية، ومن المعلوم أن الله ـ تعالى ـ في صفاته كلها شديدٌ قويٌّ، كل الصفات كاملة ليس فيها نقص، ولا وهن، ولا ضعف.

ثالثًا: بمعنى: الامتناع؛ يعني: أنه ممتنع عن أن ينالَه سوء، وممتنع من كل نقص.

وأما قول (المؤلِّف): [في مُلكِه] فإنه قاصرٌ في الحقيقة، قاصرٌ جدًّا؛ لأنه إذا قُيِّدت العزَّة بالمُلك فإنها لا تتناول إلا العزيز بمعنى: الغالب أو القوي.

وأما الحكيم فيقول: [الحكيم في صُنْعه]؛ في صنعه أي: فيما صنع، وهل يُوصَف الله ـ تعالى ـ بأنه صانع، وأن له صنعًا؟

الجواب: نعم، يُوصَف بأنه صانع، وأن له صُنعًا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، لكن يجب أن نعلم أننا إذا وصفنا الله بالصُّنْع فليس كصفتنا للمخلوق بالصُّنْع، المخلوق إذا كان صانعًا يحتاج إلى أدوات، إن كان نجّارًا يحتاج إلى منشار، وقدُّوم، ومخراط، وما أشبه ذلك، لكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يحتاج، فعندما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] هل يؤخذ منها أن بناء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كبناء المخلوق يحتاج إلى زنبيل، وإلى لبِن، وإلى طين؟ لا، فالبناء غير البناء، والصُّنْع غير الصُّنْع، قد يتوهَّم الإنسان أنه إذا وصف الله بالصُّنْع، وأنه صانع قد يتوهَّم أنه يحتاج إلى آلات يصنع بها، ولكنَّ هذا خطأ؛ لأن صُنع الله ليس كصُنع البشر.

وقول (المؤلِّف): [الحكيم في صُنْعه] تقييدُها بالصُّنْع فيه قُصُور، والصواب: أنه حكيمٌ في صُنْعه، وفي شرعه، ولهذا قد يختم الله أحيانًا آيات التشريع بالحكمة، كما في قوله ـ تعالى ـ في سورة (الممتحنة): ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]، فهو حكيمٌ في صُنْعه، حكيمٌ في شرعه، في صُنْعه يعني: جميع مصنوعاته كلها مُحكَمة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ [الملك:٣] قلِّب فكِّر ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣، ٤] يعني: كرَّةً بعد أخرى، وفي النهاية: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤]، هذا من الإحكام في الصُّنْع.

أما في الشرع: فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وتناقُضًا، القرآن لا يمكن أن يتناقض أبدًا، وإذا رأيتَ آيةً ظاهرُها يُناقِض الآية الأخرى، فاعلم أن ذلك إما من سوء فهمك، أو من قصور علمك.

إمَّا من قُصور علمك: بأن تكون الآية هذه ناسخة لآية أخرى، وأنت لا تعلم، أو من سوء فهمك: بأن تكون كلتا الآيتين مُحكمة، ولكن لم تفهم الجمع بينهما، وإلا فلا يمكن أبدًا أن يكون في كلام الله تناقُض، ولا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ تناقُض أبدًا، هذا لا يمكن؛ لأنه شرعُ الله، والله

ـ تعالى ـ قد أحكم شرعَه، إذنْ الله حكيمٌ في صُنْعه، وفي شرعه.

وبناءً على هذا تكون ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى: مُحكِم، لا بمعنى: حاكم، فالحكيم هو المحكِم في صنعه وشرعه. وهنا نقول: هل تأتي فعيل في اللغة العربية بمعنى: مُفعِل؟

الجواب: نعم، تأتي فعيل بمعنى: مُفعِل، ومنه قول الشاعر(1):

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيْعِ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِى هُجُوعِ

هل السميع بمعني: الذي يسمع، أو السميع بمعنى: المُسمِع؟ بمعنى: المُسمِع؛حينئذ تكون حكيم بمعني محكِم.

وهل يمكن أن تكون حكيم بمعنى: حاكم؟

الجواب: نعم، يمكن أن تكون بمعنى: حاكم، وعلى هذا فتكون حكيم بمعنى: أن له الحكم، والحكم المُضاف إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي.

الحكم الكوني هو: إيجادُه للأشياء وخلْقُه للأشياء، والحكم عليها بالفناء والبقاء، والتحوُّل والتغير، وما أشبه ذلك.

والحكم الشرعي هو: ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أحكام الله التي يُلزم بها المُكلَّف، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ حكم شرعي، وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ هذا حكم كوني، قوله: ﴿الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] حكم شرعي، وكذا قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] حكم شرعي، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] كوني.

الفوائد:

١ـ في هذه الآية: يُخبِر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تنزيل الكتاب من عنده، وعلى هذا فتفيد الآية الكريمة: أن القرآن مُنزَّلٌ غير مخلوق، أما إفادتها لكونه مُنزَّلًا فظاهر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾، ولكن كيف تُفيد أنه غير مخلوق؟

لأن هذه الفائدة قد يُعارِضُ فيها مُعارِض، ويقول: ليس كل مُنزَّل غير مخلوق؛ بل في المُنزَّل ما هو مخلوق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩] والماء مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] والأنعام مخلوقة، فلا يلزمُ من الإنزال، أو التنزيل أن يكون المُنزَّل غير مخلوق، فما هو الجواب عن هذا الإيراد؟ لأن هذا الإيراد قوي، يُورِدُه الجهمية

(١) وهو : عمرو الزبيدي ، عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبير، فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ، ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية .

الذين مسألة: قالوا: إن كلام الله مخلوق؟

الجواب: عن هذا الإيراد سهل: أن يُقال: إن الإنزال إذا أُضِيفَ إلى عينٍ قائمةٍ بنفسها، فهذه العين مخلوق، وإذا أُضيفَ إلى وصفٍ كان هذا الوصف حسب الموصوف، والكلام وصفٌ، فإذا كان الله أنزل القرآن وهو كلام، وأضافه إلى نفسه، فهو ـ عزَّ وجلَّ ـ بصفاته أزليُّ الوجود، واجب الوجود، إذنْ يتمُّ الاستدلال أن نقول أن في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أن القرآن مُنزَّلٌ غير مخلوق.

٢ـ **وفيها دليلٌ على:** عُلُوِّ الله، ووجهُه: أنه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ومِنْ للابتداء، فإذا كان ابتداء الكتاب من عند الله وهو مُنزَّل دلَّ على علُوِّ من كان من عنده، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** تعظيمُ القرآن، وجهُه: أنه نازلٌ من عند الله، وأنه كلام الله، فيكون عظيمًا كعِظَمِ المُتكلِّم به.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله، وهي: الله، والعزيز، والحكيم، ويتفرَّع على هذه الفائدة: إثبات ثلاث صفات من صفات الله عز وجل، وهي: الألوهية، والعِزَّة، والحكمة؛ بل أربع: الحِكْمة، والحُكْم.

إذا قيل: كيف استفدنا أربع صفات؟

نقول: لأن لدينا قاعدة، وهي: أن الأسماء الحُسنى كلُّ اسمٍ منها مُتضمِّن لصفة. واستفدنا مما سبق: أن القرآن منزَّل غير مخلوق.

قال العلماء: والحكمة تكون في صورة الشيء، وهيئة الشيء، وذات الشيء، وتكون في غايته.

الحكمة في نفس الشيء؛ يعني: أن الشيء نفسه مُشتمل على الحكمة، فإذا تأمَّلتَ الشرائع وجدتَ أنها مُشتملة على الحكمة، وإذا تأمَّلتَ الغاية منها وجدتها أيضًا في غاية الحكمة، كذلك أيضًا إذا تأمَّلتَ الصنائع التي صنعها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهي: الحكمة التي تكون في الكون وجدتَ أنها مُشتملة على الحكمة، وإذا تأمَّلتَ الغاية منها وجدت أنها حكمة أيضًا.

فالعبادات المقصود بها: إصلاحُ الخلق، وهي موضوعة على وفق الحكمة، الصلوات كونها بهذه الهيئة حكمة، وكذا الزكاة، والحج، وبقية العبادات، الكون، السماء، الأرض، الشمس، القمر، كونها على هذا النظام البديع هذا حكمة، والغاية منها أيضًا حكمة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] لما بيَّن أنَّ تنزيل الكتاب من الله بيَّن إلى مَن أُنزِل، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] يا محمد، أنزلنا: (نا) ضمير جمع، لكنه إذا كان عائدًا إلى الله فليس للجمع قطعًا؛ بل هو للتعظيم.

وقد اشتبه على النصارى مثل هذا الجمع، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ لأن الله يذكر الضمير عائدًا إليه بصيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة!

فنقول في الردِّ عليه: إن هذا من زيغ النصارى، قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فاتبعوا المتشابه من القرآن، ولو أنهم ردُّوا هذا المُتشابِه إلى المُحكَم لعلموا أنهم مُخطِئون غاية الخطأ، وذلك أنَّ الله صرَّح في آيات كثيرة بأنه إلهٌ واحد، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وهذا نصٌّ صريحٌ مُحكَم.

وأما (نا) التي هي ضمير الجمع: فإنها في اللغة العربية التي نزل بها القرآن صالحةٌ للجمع، وللمُعَظِّم نفسه، إذن هي من المُتشابِه؛ لأن اللفظ إذا احتمل معنيَيْنِ فإنه يُقال فيه: مُتشابه، والمُتشابِه يُردُّ إلى المُحكَم.

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] إليك: هذه الغاية، والخطاب للرسول ﷺ، الكتاب؛ أي: المكتوب، وهو القرآن، وسبق وجهُ كونه كتابًا.

[بالحق] مُتعلِّقٌ بـا (أنزل)، الباء ـ هنا ـ للمُلابسة وللتعدية؛ يعني: أن الكتاب نفسه نزل حقًّا من عند الله، لا من عند غيره، أنزلنا بالحق؛ يعني: بالتأكيد أننا أنزلناه إليك من عندنا.

وقلنا أيضًا: للتعدية؛ بمعنى: أن الكتاب نزل بالحق؛ أي: أن ما اشتمل عليه القرآن فهو حقٌّ، فعلى الوجه الأول يكون المراد بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: تأكيد أنه نزل من الله.

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أن كل ما اشتمل عليه القرآن من أخبار وأوامر ونواهٍ وغيرها فهو حق.

إذن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أن القرآن نزل من عند الله حقًّا، لا باطلًا.

الثاني: أن ما اشتمل عليه القرآن فهو حقٌّ؛ سواء أوامر، أو نواهٍ، أو أخبار، أو قصص، فإنه كله حق.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال المؤلف: [مُتعلِّق بأنزل]، ولم يقل: مُتعلِّق بأنزلنا؛ لأن المُتعلِّق إنما يتعلَّق بالفعل، أما (نا) فهي ضمير خارج عن الفعل.

قال - تعالى -: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الفاء للتفريع، وعلامة التفريع: أن ما بعدها يكون مُرتَّبًا على ما قبلها، فالمعنى: فلإنزالنا إليك الكتاب اعبد الله مخلصًا له الدين، والخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل ﴿فَٱعْبُدِ﴾ وإخلاصُ الشيء: تنقيتُه من الشوائب، وإزالة ما يُخالِطُه، فإذا كان مُخلصًا له الدين فالمعنى: أن تُنقِّي دينَك من كل شيءٍ، ولهذا قال المؤلف: [مخلصًا له الدين من الشرك؛ أي: مُوحِّدًا له] أي: لله.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الدين يعني: العمل، والمراد به هنا: العمل المخصوص، وهو العبادة، لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾.

﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يقل: مُخلصًا له العبادة؛ لأن الدين هو العمل الذي يُريد العامل عليه مكافأة.

ومنه قولهم: (كما تدين تُدان).

واعلم أن الدين يُطلق على العمل الذي يُراد به المكافأة، ويُطلَق على نفس المُكافأة، وهي الثواب على العمل.

فمن الأول: مثل هذه الآية: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ومثل قوله - تعالى -: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ومثل قوله - تعالى -: ﴿نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] أي: عملًا تتعبَّدون به.

ومثال الثاني: قوله - تبارك وتعالى -: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني: يوم الجزاء على العمل، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧، ١٨] أي: يوم الجزاء على العمل.

قال الله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [ألا] أداة استفتاح، وهي حرفٌ يُراد به التنبيه؛ لأن المُتكلِّم إذا قال: ألا، انتبه المُخاطَب، وقوله: ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الجار والمجرور خبر مُقدَّم، والدين مبتدأ مؤخَّر، ويُفيد تقديم الخبر: الحصر؛ أي: لله وحده، وقوله: ﴿الدِّينُ﴾ يعني: العمل الذي يُراد الثواب عليه.

وقوله: ﴿الْخَالِصُ﴾ يعني: النقي من الشوائب والشرك؛ أي:إنَّه يجب على العاقل أن يجعل الدين الخالص لله وحده، فكيف يليقُ بالعاقل أن يتعبَّد بحقٍّ لله من أجل التقرُّب إلى غيره، هذا خلاف العقل، فإذا قام الإنسان يُصلِّي من أجل أن يراه الناس، فهو سفيهٌ في عقله، ضالٌّ في دينه، كيف تجعل الحق الخالص الذي هو لله تجعله للناس، نعم العمل الذي للناس يكون للناس، لكن العمل الذي لله يجب أن يكون لله، ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ وحده ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فلا يجوز أن نجعله لغيره، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الواو ـ هنا ـ للاستئناف، والذين مبتدأ، واتخذوا صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديرُه: يقولون: ما نعبدهم، أو قالوا: ما نعبدهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ اتخذوا بمعنى: صيَّروا، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] يعني: صيَّره، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] أي: صيَّر إلهه هواه، إذا كانت اتخذ بمعنى: صيَّر فإنها تحتاج إلى مفعولين: مُصيَّر، ومُصيَّر إليه.

أين المفعول الأول؟

يقول (المؤلف) ـ رحمه الله ـ: [الأصنام أولياء] وعليه فيكون المفعول الأول محذوفًا، والثاني: أولياء، وحذف المفعول إذا دلَّ عليه الدليل جائز، قال (ابن مالك) ـ رحمه الله ـ في باب المبتدأ والخبر:

وَحَــذْفُ مَا يُعلَمُ جَــائِزٌ كَما تَقُولُ: زَيْــدٌ بَعْدَ مَــنْ عِنْدَكُمَا[1]

الواقع أن هذا البيت في المبتدأ والخبر، لكن هل هو عام؟ نعم، هو عام، حذف ما يُعلم جائز، وقد يكون من الفصاحة والبلاغة أن يُحذَف، إنما الأصل أن ما يُعلَم يجوز حذفُه، وما لا يُعلَم لا يجوز حذفُه؛ لأن الكلام لابد أن يكون مُبيِّنًا مراد المُتكلِّم، وهذا لا يكون مع حذف ما لا يُعلَم.

إذن المفعول الأول: محذوف، والتقدير: الأصنام، والثاني: موجود، وهو قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي؛ أي: يتولونها ولاية عبادة يتضرَّعون إليها، يسجُدون لها، ينذُرُون لها، يتصدَّقون لها، لكن لا يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم أو تضرُّهم بذاتها، ولا أنها تخلق، ولا أنها ترزق، لكن يدَّعون أنهم اتخذوها وسيلة، وفي هذا يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: [﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وهم كفار مكة].

وتخصيص هذا بكفَّار مكة فيه قُصور، ولا ينبغي أن نُفسِّر العام بما هو أخصُّ إلا على سبيل التمثيل، أما على سبيل تحديد المعنى؛ بحيث يأتي اللفظُ في القرآن عامًّا ثم نُفسِّره بمعنى أخص، فإن هذا قُصور في الحقيقة، لكن إن أراد الإنسان بهذا التفسير التمثيل؛ يعني: مثل كفَّار مكة، فهذا لا بأس به، لكن القارئ الذي يقرأ مثل هذه العبارة من كلام المُؤلِّف لا يشُكُّ أن المؤلِّف أراد بهذا: التخصيص، وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، فالواجب إبقاء دلالة عموم الآيات، وكذلك الأحاديث على ما هي عليه حتى يقوم دليل عقلي، أو قرينة لفظية على أن المراد الخاص.

يقول: [قالوا: وهم كفار مكة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾]، قالوا هذه الجملة محذوفة؛ لأنها معلومةٌ من السياق، ويصحُّ أن نُقدِّر: يقولون: ما نعبدهم، ولعلَّها أنسب من قول المؤلِّف: قالوا حكايةً للحال التي هم عليها، وعلى كلٍّ فالجملة المحذوفة هي خبر المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، ولا يجوز أن نجعل جملة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هي الخبر لفساد المعنى.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذا حصرٌ لمُرادهم بعبادة هذه الأصنام؛ يعني: ما نعبُدُهم إلا لهذا الغرض: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفَى، وهذا إقرارٌ منهم، واعتراف بأنهم يعبدون الأصنام، لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ وأن هذه العبادة وسيلة لغايةٍ أشرف منها، وهي: القُربَى إلى الله عز وجل، وهذا من جهلهم؛ لأنهم الآن إذا عبَدُوهم جعلوها غاية؛ لأن المقصود هو الوصول إلى الله عز وجل، والوصول إلى الله لا يكون إلا بعبادته، فهم إذا عبَدوهم جعلوهم الغاية.

قوله:[﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قُربى مصدر بمعنى: تقريبًا].

﴿زُلْفَىٰٓ﴾ يقول (المؤلف): إنها مصدر، لكنها مصدرٌ معنويٌّ لموافقته العامل بالمعنى دون اللفظ؛ لأن المصدر قد يكون لفظيًّا، وقد يكون معنويًّا، فإن وافق عاملَه في اللفظ فإنه لفظيٌّ؛ مثل: قُمتُ قيامًا، وإن خالَفَه في اللفظ دون المعنى صار معنويًّا، كقولك: قُمتُ وقوفًا.

(١) شرح ابن عقيل (١/ ٢٤٣).

يقول: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [بمعنى: تقريبًا]، وقُربى أيضًا يُراد بها التقريب، وإنما قال المؤلف: يُرادُ بها التقريب من أجل أن يُطابِق الفعل، الفعل قرَّب، مُضارعه يُقرِّب، المصدر المُطابِق تقريبًا، لا قُربَى، ولكن من المعلوم أنه قد يُوافق المصدر عامِلَه في اللفظ، ولكن لا يُطابِقه بالحروف، ومثل هذا يُسمَّى عندهم: اسم مصدر، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] لو كان مصدرًا لقال: إنباتًا، فلما قال: نباتًا، ونقصت حروفه عن حروف فعله سُمِّي اسم مصدر.

المهم أنهم يقولون: نحن لا نعبُد هذه الأصنام إلا من أجل أن تُقرِّبنا إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قُربَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الجملة استئنافية لبيان مآل هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام أولياء؛ يعني: فماذا تكون نهايتُهم؟ يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ قال (المؤلف): [وبين المسلمين] فأشار إلى أن الطرف الآخر من البينيَّة محذوف: وبين المسلمين، وهذا التقدير ليس في السياق ما يدُلُّ عليه، لو قال: بينكم لكان صحيحًا المراد: بينكم وبينهم، لكن هو قال: بينهم؛ أي: بين هؤلاء الكفار ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكأنَّ (المؤلف) ـ رحمه الله ـ ظنَّ أنه لا اختلاف بين الكفار، وليس كذلك؛ بل الخلاف بينهم حاصِل في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٨، ٣٩] إلى آخر آيات المحاورة، محاورة، منازعة، مُخاصمة، فيحكم الله بينهم، وقد ذكر الله ذلك في عدَّة آيات.

فالصواب: أن الضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعود على الكفار، وأن الاختلاف حاصلٌ بينهم أنفسهم، فالنصارى واليهود بينهم خلاف، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، وهذا خلافٌ ثابت بين الأمم الكافرة.

قوله: [﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين] فيُدخِل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، هذا بناءً على ما ذهب إليه (المؤلِّف)، ولكن على القول الذي هو ظاهر الآية الكريمة قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجعل كل إنسانٍ في منزلته، وقد بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] لما ذكر المُحاورة بين المُستضعفين والمُستكبرين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بـ (إنَّ)، وقوله: ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ المراد بذلك: هداية التوفيق، وأما هداية الدلالة فإنها حُجَّة الله على خلقه، لابد أن تنال

كلَّ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] هديناهم هداية دلالة، إذن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ هذه هداية توفيق، لا هداية دلالة؛ بل هداية الدلالة ثابتة لكل أحد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي: الذي هو كاذبٌ، قال المؤلف: [في نسبة الولد إليه)] والذين نسبوا الولد إليه هم اليهود، والنصارى، والمشركون.

أما اليهود، فقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]، وأما النصارى، فقالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وأما المشركون، فقالوا: الملائكة بنات الله.

والآية: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عامة، لكن المؤلف خصَّصها بنسبة الولد إلى الله، لقوله فيما بعد: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الزمر:٤]، وإلا فلو نظرنا إلى الآية: ﴿كَٰذِبٌ﴾.

لكانت مطلقة، لم تُقيَّد بنسبة الولد إلى الله عز وجل، لكن المؤلِّف قيَّدها بقرينة السياق.

وقوله: ﴿كَفَّارٌ ﴾: يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون للنسبة، فإن كانت للنسبة صارت صفةً لازمة؛ كما نقول: نجَّار، وحدَّاد، وخشَّاب، وبنَّاء، وما أشبه ذلك، وإن كانت صيغة مبالغة لم تكن صفةً لازمة لكنها تدلُّ على الكثرة، وعلى كل حال، فسواءٌ للمبالغة أو للنسبة فالمراد بها: الكفر بالله عز وجل، وقال المؤلف: [بعبادته غير الله] ولا شكَّ أن هذا كفر، عبادة غير الله، تخصيص الكفر هنا بعبادة غير الله يُؤيِّده السياق، وهو قوله فيما سبق: ﴿ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾.

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلةُ رسول الله ﷺ، وعلُوُّ مرتبته، وذلك بإنزال كتاب الله إليه، لقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وهنا نسأل: مسألة: هل إنزال القرآن إلى الرسول إنزالٌ إلينا؟ الجواب: نعم، إنزالٌ إلينا؛ لأنه رسولنا، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [المائدة:١٧٤] فالنازل إلى رسول الله نازلٌ إلينا، ولكنه هو المُباشِر لهذا الإنزال، ويُبلِّغُه لنا.

٢ ـ **من فوائد الآية:** ما سبق من أن القرآن نازلٌ من عند الله، فيكون كلامه أي ـ كلام الله ـ.

٣ ـ **ومنها:** علُوُّ الله؛ لأن النزول إنما يكون من أعلى، والعُلُوُّ دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، خمسة أنواع من الأدلة كلها تُثبِت علُوَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على خلقه، وقد خالَفَ في هذا طائفتان:

الطائفة الأولى: طائفة الحُلُولية الذين يقولون: إن الله بذاته بنفسه في كل مكان؛ في المسجد،

وفي السوق، في البيت وفي السطح، وفي الحُجرة، في أقبح مكان - والعياذ بالله - وهؤلاء أقول: إنهم كفَّار، لكن من كان مُتأوِّلًا وجَبَ إعلامُه وبيان الحقيقة له، فإن أصَرَّ فهو كافرٌ.

الطائفة الثانية: المخالفة المُعطِّلة الجاحدة الذين يقولون: إن الله ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متصل، ولا منفصل، هؤلاء وصفوا الله بالعدم، كما قال (محمود بن سبكتكين) رحمه الله (لابن فورك) لما قال: إن الله لا موجود، ولا معدوم.. إلخ، قال له (محمود بن سبكتكين): إنك وصفتَ الله تعالى بالعدم، وصدق، لو أردنا أن نصِف معدومًا ما وجدنا أشدَّ إحاطةً من هذا الوصف للمعدوم.

أما أهل السنة فقد هداهم الله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، وقالوا: إن الله تعالى نفسَه فوق كل شيء، كما دلَّ على هذا الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الكتاب حقٌّ من عند الله، لم يتقوَّله النبي ﷺ على ربه؛ بل هو من عند الله، لقوله: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنه حقٌّ من عند الله عز وجل، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٦].

ولا بأس أن نتكلَّم عن هذه الآية:

قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ بعد أن قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحاقة:٤٠] لئلا يتوهَّم واهم أنه لما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ صار القرآن من عند الرسول - عليه الصلاة والسلام، وأنه هو الذي قاله، فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٧].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن جميع ما في القرآن حقٌّ على الوجه الثاني: أخباره، وقصصه، وأوامره، ونواهيه، إذن أخبارُه ليس فيها كذِب بوجه من الوجوه، قصصه ليس المراد منها: إمضاء الوقت، وإتلافه؛ بل هي قصص نافعة.

٦ - قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ يستفاد منه: أن إنزال القرآن حُجَّة على الناس يُلزِمهم بعبادة الله، والفاء هذه للتفريع؛ أي: فلأجل إنزال الكتاب إليك اعبُد الله.

٧ - **ومن فوائدها:** أن من لم يبلغه الكتاب لم تلزمه العبادة، ويدلُّ لهذا آيات أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ومثل قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، ومثل قول النبي ﷺ: «وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ

هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، فقال: «لَا يَسْمَعُ بِي»، والنصوص في هذا المعنى كثيرة في أن من لم تبلُغه دعوة الرسل لا تلزمه العبادة، والدليل التطبيقي لهذه المسألة عدَّة شواهد؛ منها: حديثُ عمار بن ياسر - رضي الله عنه - بعثه النبي ﷺ في سرية فأجنَبَ، فلم يجد الماء، فتمرَّغَ في الصعيد كما تتمرَّغ الدابَّة، ظنًّا منه أن هذا لازمٌ له، وصلَّى، وأخبر النبيَّ ﷺ عن هذا، فبيَّن له النبي ﷺ أنه يكفيه عن الغُسْل أن يضرِب الأرض بيديه، ثم يمسح وجهه وكفَّيْه(٢)، ولم يأمره بإعادة الصلاة.

وكذلك الرجل الذي جاء فصلَّى ولم يطمئنَّ في صلاته، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»(٣)، فقال: والذي بعثك بالحق لا أُحسِنُ غير هذا، فعلَّمَه النبي ﷺ، ولم يأمُره بإعادة ما مضى من صلاته، مع أنه كان لا يُصلِّي، يُصلِّي صلاةً لا تُجزئُه.

وكذلك المرأة التي كانت تُستحاض، فتظنُّ أن هذا حيضٌ، فلا تُصلِّي، فلم يأمُرها النبي ﷺ بالإعادة، وأمثال هذا كثير.

وعليه فلو أن رجلًا أسلم في بلاد الكفر، أو في بلادٍ نائية لا يصِلُها أحكام الشرع، وترك الصلاة مُدَّة، ثم علِمَ بعد ذلك بوجوب الصلاة، فإننا لا نأمُرُه بإعادة ما ترك، وإنما نأمُرُه بصلاة ما حضر وقتُه فقط، وكذلك إذا كانت امرأة بلَغَت بالحيض وهي صغيرة، ولم تصُم رمضان، ولكنها في محلٍّ ليس حولها علماء تسألُهم، قد غلَبَ عليها الجهل؛ كالبادية مثلًا، فإننا لا نأمُرُها بقضاء ما تركَتْ من الصوم للجهل، وهذا هو اللائق بالشريعة الإسلامية المبنية على اليُسْر والسهولة، وعلى أن الله تعالى لا يُكلِّفُ نفسًا إلا وسعها، ولا يُكلِّفُ نفسًا إلا ما آتاها.

وهنا الآية التي معنا يمكن أن يكون فيها إشارة إلى ما ذُكِر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾، ﴿فَٱعْبُدِ﴾ بعد الإنزال أُمِر بالعبادة.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب الإخلاص لله في العبادة، لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص: تنقية الشيء مما يشوبُه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٤)، فلو تصدَّق الإنسان بمالٍ لكنه مُراءٍ بذلك من أجل أن يُمدَح، فإنه لم يعبُد الله، وهو آثمٌ وليس بمأجور، ولو صلَّى ليُمدَح فإنه لم يعبُد الله، وهو آثمٌ وليس بمأجور؛ لأن الله أمر بعبادةٍ خاصَّةٍ وهي: الإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في مسنده (٨١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠)، ومسلم (٣٦٨) من حديث أبي موسى الأشعري وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٩٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن العبادة دين يدين به الإنسان، ومعنى كونه دينًا: أنه يعمل ليُثاب، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنه ينبغي على الإنسان حين العبادة أن يُلاحِظَ هذا المعنى، وهو: أنه يعمل ليُثاب؛ لأنه إذا شعُر بهذا الشعور فسوف يُتقِن العمل؛ إذن العقل يهدي الإنسان إلى أن الثواب على قدر العمل، إن أحسنتَ العمل حسُن الثواب، وإن قصَّرتَ فالثواب ينقُص.

وهذه المسألة – أعني: شعور كون الإنسان يعمل من أجل الثواب – أعتقدُ أنها تفوتُ كثيرًا من الناس، لا ينتبهون لها.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى نية المعمول له، حينما تعمل تُريد التقرُّب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بامتثال أمرِه، فمثلًا: عندما تُريد أن تتوضَّأ، تنوي بأنك تتوضَّأ امتثالًا لأمر الله حينما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦] من أجل أن تشعر بالعبادة، ولذَّة العبادة، لا من أجل أن تُبرِئ ذمَّتك بفعل ما هو فرضٌ عليك من الطهارة للصلاة، هذا لا شك نية طيبة، لكن أطيب منها: أن تستشعر بأنك تمتثِل أمر الله لتشعُر بلذَّة العبادة، وأنك حقيقةً عبدٌ لربك عز وجل، هذه مسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها في عبادته، ولهذا قال: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

ثم قال الله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر:٣]

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أن الله لا يقبل إلا دينًا خالصًا، أما ما سواه فليس لله، حتى وإن أشركتَ به مع الله؛ لأن الدين لله ما هو؟ الخالص النقي من شوائب الشرك.

فإن قال قائل: إذا كان العمل خالصًا في أوله مُشرَكًا فيه في آخره، المسألة الأولى: فهل يبطُل العمل كله، أو يبطُل ما فيه الشرك، أم ماذا؟

نقول: في هذا تفصيل: إذا كانت العبادة التي وقع الشرك في أثنائها ينبني بعضها على بعض، فإنها تبطُل؛ مثل: الصلاة، فمثلاً رجلٌ أحرَمَ بالصلاة مُخلِصًا لله، وفي أثنائها سمِع حوله أحدًا، فراءى في ذلك في صلاته، في أثنائها، ماذا نقول؟

نقول: الصلاة تبطُل كلها؛ لأن أولها وآخرها مبني بعضُه على بعض.

أما إذا كانت لا ينبني بعضُها على بعض، فإن ما كان خالصًا يصحُّ، وما كان مشوبًا فإنه لا يصحُّ؛ مثل: رجلٌ كان يتصدَّق عنده ألف ريال، كلما جاءه فقيرٌ أعطاه، أنفق خمسمائة ريال خالصة لله، وفي أثناء الإنفاق حضَرَه ناسٌ فراءاهم، فهل تبطُل الصدقة الأولى التي بها الإخلاص؟

لا؛ لأن بعضها لا ينبني على بعض، كل ريال منفصل عن الذي قبله، هذه مسألة مهمة.

المسألة الثانية: أحيانًا يُهاجِمُ الرياءُ القلبَ، ويُدافِعُه الإنسان، فهل يُؤثِّر هذا على إخلاصه؟

الجواب: لا، لا يُؤثِّر على إخلاصه، ما دام يُدافِعُه ويُعرِضُ عنه؛ لأنه الآن في جهادٍ لعدُوِّه، والشيطان دائمًا يأتي الإنسان من كل وجهٍ، قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: في كل مكان، يأتي الإنسانَ يُثبِّطُه عن العبادة، يُثبِّطُه عن طلب العلم، يُثبِّطُه عن صلة الرَّحِم، عن برِّ الوالدَيْن، وما أشبه ذلك مما أوجَبَ الله عليه، فإذا رأى منه تصميمًا على القيام بالعبادة أتاه من جهةٍ أخرى، وهو: الغُلُوُّ في العبادة، والزيادة فيها، والتنطُّع، والتكلُّف.

فإذا عجز من هذه الناحية، أتاه من جهة النية أنك مُراءٍ، ولكن الإنسان يجب عليه أن يُدافِع الشيطان بقدر ما يستطيع مُستعينًا بالله عز وجل.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ غِنَى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الغنى التام، ووجه ذلك: أنه إذا كان الله لا يقبلُ إلا ما كان خالصًا دلَّ على غِناه عن عمل العباد؛ لأنه – وحاشاه من ذلك – لو كان مُحتاجًا لذلك لاكتفى بما يأتيه منهم ولو على سبيل المُشاركة، فالإنسان المُحتاج يقبل منك ما كان خاصًا له، وما كان مُشتركًا، فلما كان الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا عُلِم بهذا غِناه عن العباد، وإلى هذا يُشيرُ قوله تعالى في الحديث القُدُسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ».

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾

٣ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن عابدِي الأصنام قد تولوا الأصنام، واتخذوها أولياء.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنهم – أي: عُبَّاد الأصنام – يُموِّهون على الناس، يقول: نحن ما نعبُدهم إلا لغاية، وهي: أن يُقرِّبونا إلى الله زُلفَى.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أنه يمكن أن نُعدِّي هذا الحكم إلى جميع أهل الباطل، يدَّعون أنهم يُحسِنون صُنْعًا وهم كذَبَة، ولنضرب لهذا مثلًا بأهل التعطيل، أهل التعطيل يدَّعون أنهم بتعطيلِهم هذا مُنزِّهون لله، وأن قصدَهم تنزيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن النقص، وعن مُشابهة المخلوقين، وهم كاذِبون في ذلك؛ لأنهم إذا عطَّلوه عن كمال صفاته، فهو ضدُّ التنزيه، هؤلاء يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ والحقيقة أن هذه العبادة تُبعِدُهم من الله مسافات كثيرة.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: إقرارُ المُشركين بأنهم يعبُدون أصنامًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، فهم يُصرِّحون بأنهم يعبدونهم، لكن ما يقولون: نعبدهم لنتقرَّب إليهم؛ بل ليُقرِّبونا.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن المُشركين في عهد الرسول ﷺ يُقرُّون بوجود الله، وأنه أعظم من كل عظيم، لقولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهم مُعترِفون بالله عز وجل، وأنه أعظم من أصنامهم، ولهذا جعلوها وسيلةً له، أو للتقرُّب إليه.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أنه سيكون بين هؤلاء المشركين، وبين أوليائهم نزاعٌ وخصومة يوم القيامة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن الحكم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده في ذلك اليوم – أعني: يوم القيامة – وأن المرجع إليه.

٨ ـ **من فوائد هذه الآية**: أن من كان كاذبًا كفَّارًا فإن الله لا يُوفِّقُه، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

٩ ـ **ومن فوائدها**: التحذير من الكذب وخِصال الكفر، وأن الكذب سببٌ لمنع الهداية؛ وذلك لأن الحكم إذا عُلِّق بوصفٍ – هذه القاعدة التي يمكن أن نُطبِّق عليها هذه الفائدة – وُجِد بوجود ذلك الوصف، وانتفى بانتفائه، يدلُّ لهذا: أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ[1]، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ».

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الصدق سببٌ للهداية، وجهه: أنه إذا كان الكذب سببًا للغواية، فضِدُّه سببٌ لضِدِّه، يكون الصدق سببًا للهداية، ويتفرَّع على هذه الفائدة:

أ ـ الترغيب في الصدق، ولكن الصدق مع من؟ مع الله، ومع رسول الله، ومع عباد الله.

ب ـ الصدق مع الله بالإخلاص له، ومع الرسول باتباعه، ومع عباد الله بحُسن المعاملة، فعليك بالصدق «فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ[2]، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي[3] إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ[4] عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»[5] جعلنا الله وإياكم منهم.

يقول بعض السفهاء: الكذب منجاة، ويقولَ بعض الباعة: الكذِب مسامير السِّلَع.

نقول: الكذب مهلكة، والصدق منجاة، وبالنسبة للسِّلَع الذين يبيعون ويشترون يقولون: اكذب لأجل أن تُحكِم السِّلَع مثل المسامير للأبواب.

(١) اسم جامع لكل شر أي الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصي.
(٢) اسم جامع لكل خير أي العمل الصالح الخالص من كل ذم.
(٣) أي يوصل.
(٤) يحكم له.
(٥) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ماذا نقول له؟

نقول له: بل اصدُق، فإن هذا الصدق هو مَسَامِرُ التَّثبيتِ حقًّا والذي يُثبِت البَرَكَة، لكن الكذب منفقةٌ للسلعة، ممحقةٌ للكسب.

١١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الكفر سببٌ للغواية، لقوله: ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

١٢ ـ **ومن فوائدها:** التحذير من خِصال الكفر؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصفٍ ثبت بوجوده، وانتفى بانتفاءه، خِصال الكفر التي لا تُؤدِّي إلى الكفر المُطلق قد تكون سببًا – والعياذ بالله – للغواية؛ مثل: الطعن في النسب، النياحة على الميت، قتل المعصوم المسلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سِبَابُ المُسْلِمِ[1] فُسُوقٌ[2]، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ[3]»[4].

❁ قال الله تعالى:

﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨]، ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لو هذه: شرطية، والشرط الذي فيها أراد، وجوابُه: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، واعلم أن لو الشرطية إذا كان جواب الشرط فيها مُثبَتًا فالأكثر اقترانُه باللام مثل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾، وقد يأتي غير مُقترِنٍ باللام، كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧]، أما إذا كان منفيًّا فإنه لا يقترن باللام، كما قال الشاعر[5]:

---

(١) شتمه والتكلم في عرضه بما يعيبه ويؤذيه.

(٢) فجور وخروج عن الحق.

(٣) أي إن استحله. والمراد إثبات ضرر المعصية مع وجود الإيمان.

(٤) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) ينسب هذا البيت إلى: الشلبي، أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن هشام الشلبي المالقي. وقال عنه ابن خميس أنه كان كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً وهو المذكور ضمن شعراء المقامة المحسنية باسم عبد الله الشلبي. وترجمته ضمن أدباء مالقة تعني أنه شلبي من الوافدين على مالقة. وأبو العباس والد الشاعر هو أبو

ولـــــو نُعطَى الخيـــــار لما افترقْنا ولكن لا خيــــار مع الليــــالي

قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أراد إرادةً كونية، فتكون بمعنى: المشيئة؛ يعني: لو شاء الله أن يتخذ ولدًا؛ يعني: أن يجعل لنفسه ولدًا، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ من الصفوة، وهو خيار الشيء، فيكون معنى اصطفى: اختار.

وقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مِنَ الذي يخلق ﴿مَا يَشَآءُ﴾ و(ما) هنا مفعول اصطفى؛ أي: لاصطفى ما يشاء مما يخلق، وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾: هذه اسم موصول - أعني: ما، والعائد محذوف، والتقدير: مما يخلُقُه، وعبَّر بـ (ما) دون (مَنْ) مع أنهم قالوا: الملائكة بنات الله، قوله: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فعبَّر بـ (ما)؛ لأنها أعمُّ من (مَنْ)، هذا من وجه.

والوجه الآخر: أنه إذا أُريدَ ملاحظة الصفة فإنه يُعبَّر بـ (ما) عن (مَنْ)، وهنا يُراد ملاحظة الصفة، وهي العبادة.

وهذا مثال يتضح به ما قلنا: قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولم يقل: (مَنْ)؛ لأنه ليس المقصود امرأة بعينها، إنما المقصود الوصف، ولهذا عُبِّر بـ(ما) عن (مَنْ).

وقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من مخلوقاته ذات الإرادة والشعور؛ كعُزير، والمسيح، والملائكة، وغيرهم؛ كالجمادات من الأصنام المنحوتة، وغيرها.

وقوله: ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾ نقول في: ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾، كما قلنا في ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

[واتخذه ولدًا غير من قالوا: من الملائكة بنات الله، وعُزيرُ ابن الله، والمسيح ابن الله] يعني: أنه - عزَّ وجلَّ - لو أراد أن يتخذ ولدًا ما منعه أحد، لاصطفى مما يخلق ما يشاء مما قالوه أو غيره، فهو - عزَّ وجلَّ - له الملك الكامل، ولكنه لا يتخذ ولدًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يتخذ ولدًا، ولهذا قال هنا: [﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له عن اتخاذ الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لخلقه].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا له، وسبحانه هذه اسم مصدر من سبَّحَ، والمصدر تسبيح، واعلم أن سبحان ملازمة للإضافة دائمًا، ولكن ربما تأتي نادرًا أو شُذُوذًا بغير إضافة، وربما تقترن بـ (ال)، فيُقال: ذا السُّبْحان، ولكن الأصل أنها مُلازمة للإضافة، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة، وعاملها يكون محذوفًا دائمًا، والمراد: تنزيهًا له.

وقول المؤلف: [عن اتخاذ الولد] إنما خصَّه باتخاذ الولد؛ لأن السياق في ذلك، وإلَّا فإنه مُنزَّه عن اتخاذ الولد، وعن كل عيبٍ ونقصٍ.

مسألة: فإذا قال قائل: هل في اتخاذ الولد من عيبٍ؟

العباس أحمد بن محمد بن هشام الشلبي الذي ترجم له ابن عبد الملك ترجمة مختصرة. والشلبي من شعراء القرن السادس.

فالجواب: نعم، فيه عيبٌ؛ لأنه:

أولًا: يدلُّ على احتياج الوالد للولد، ولهذا تجد الإنسان إذا لم يأته ولد يرى أنه ناقص، ويتمنَّى كل الأمنية أن يأتيه ولد يُساعده على شئون الحياة، ويُبقِي ذِكْره بعد موته، فاتخاذ الولد نقص، ولهذا نزَّه الله نفسَه عنه.

ثانيًا: الولد إنما يأتي من أجل بقاء النوع الذي تولَّد منه، والله سبحانه وتعالى غير مُحتاج لذلك؛ لأنه هو الواحد الباقي عز وجل.

ثالثًا: أن الولد يكون مُماثلًا لأبيه، وما سمعنا أن بشرًا جاءه تيسٌ، وإنما يأتيه ولدٌ مثلُه، فلو فُرِض أن الله اتخذ ولدًا لكان الولد مثل الله عز وجل، والله تعالى مُنزَّه عن أن يُماثِلَه أحد.

إذن ففي هذه الوجوه الثلاثة يتبيَّن أن الولد ممتنع على الله غاية الامتناع، ثم إن الله ذكر مانعًا رابعًا، وهو أنه ليس له زوجة، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، فبيَّن أنه ليس له زوجة، كيف يأتي الولد؟! وإنما جاء الولد من آدم مثلًا؛ لأنه آية مُعجِزة.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ ولو كان له ولد لشارَكَه في الألوهية، والألوهية ليست إلا له، ولو كان له ولد لكانا اثنين؛ لأنه لابد أن يكون الولد مُماثلًا لوالده، والله واحد لا ثاني له عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ صيغة مبالغة، وصيغة نسبة؛ أي: إنَّهُ ذو القهر الدائم المُتكرِّر، فكم من ذي جَبَروت قهرَه الله - عزَّ وجلَّ - ما أكثر الرجال والأمم ذوات الجبروت التي قهرَها الله عز وجل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: بيان كمال سلطان الله سبحانه وتعالى، وأنه لو أراد شيئًا لم يمتنع عليه، لقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ومن وجهٍ آخر: أنَّ فيه ردًّا لافتراءاتهم أو دعواهم أن الملائكة بنات الله، أو المسيح، أو العُزَير، فيقول: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ دون أن يتَّخذ ما ادَّعوه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات إرادة الله عز وجل، لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾، وإرادة الله تعالى في فعله متفقٌ عليها، لا نظنُّ أن أحدًا يُخالف في أن الله تعالى يُريدُ فِعْلَه، مسألة: ولكن هل تتعدَّى إلى فعل المخلوق أو لا؟

الجواب: في هذا خلافٌ بين أهل السنة وأهل البدعة:

أ - فمنهم من قال: إنها تتعدَّى إلى فعل المخلوق، وغلا في ذلك، وقال: إن المخلوق ليس له إرادة، وهذا قولُ الجبرية.

ب - ومنهم من قال: إنها تتعدَّى إلى فعل المخلوق، لكن لا على سبيل الجبر، وهذا مذهب أهل

السنة والجماعة.

جـ - ومنهم من قال: إنها لا تتعدَّى إلى فعل المخلوق، وأن المخلوق مُستقلٌّ بفعله، ولا إرادة لله تعالى فيه، وهذا مذهب القدَرية مجوس هذه الأمة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، والأفعال الاختيارية لله ثابتة بالسمع والعقل، أما السمع؛ فما أكثر الأفعال التي يُضيفها الله لنفسه، وأما العقل فلأن الفاعل بالاختيار أكمل ممن لا يفعل.

وذهبت الأشاعرة وغيرهم من المُعطِّلة إلى أن الأفعال الاختيارية لا تقوم بالله عز وجل، بحُجَّة أن الفعل الحادث يستلزم حُدُوث الفاعل، ولا شكَّ أن هذا قولٌ باطلٌ، يستلزم لوازم باطلة؛ منها: أن الله سبحانه وتعالى غير قادرٍ على الفعل، وهذا تنقُّص لله عز وجل، وتكذيبٌ لأخباره الكثيرة التي لا تُحصَى في إثبات الفعل له.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ المشيئة لله، لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، والمشيئة نقول فيها كما قلنا في الإرادة؛ من حيث تعلُّقُها، هي تتعلَّق بأفعال الله، وهذه تتعلَّق بأفعال المخلوق على الخلاف السابق الذي شرحناه في الإرادة، لكن هنا أمرٌ يجب التنبُّه له، وهو: أن الإرادة تنقسِمُ إلى قسمين:

إرادة شرعية، وإرادة كونية، أما المشيئة فهي قسمٌ واحدٌ فقط.

الإرادة الكونية: تُرادِف المشيئة، فهي بمعناها، فإذا قلت: ما أراد الله كان، فهو بمعنى: ما شاء الله كان، أما الإرادة الشرعية: فإنها تُرادِف المحبة؛ أي: إنَّها تتعلَّق بما يُحبُّه الله عز وجل، فتقول: إن الله يُريدُ منَّا أن نشكُرَه، هذه الإرادة شرعية.

والفرق بين الإرادة الشرعية والكونية من وجهين:

الوجه الأول: أن الإرادة الكونية شاملة لما يُحبه الله وما لا يُحبُّه، فهو يُريدُ الإيمان ويُريدُ الكفر، ويُريدُ الطاعة ويُريدُ الفِسْق، أما الشرعية: فإنها لا تتعلَّق إلا بما يُحبُّه فقط، فلا يمكن أن تقول: إن الله يُريدُ الفِسقَ؛ أي: يُحبُّه، هذا مستحيل.

والوجه الثاني: الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد؛ يعني: إذا أراد شيئًا كونًا لابد أن يقع، والإرادة الشرعية قد يقع، وقد لا يقع.

يُريدُ منَّا سبحانه وتعالى الإيمان والطاعة، قد توجد، وقد لا توجد، هذا هو الفرق بينهما، وبهذا تنحلُّ إشكالات أوردها القَدَرية على أهل السنة، فقالوا لهم: إذا أثبتُّم تعلُّق إرادة الله بكل شيء حتى بالمعاصي لزِمَكم أن الله يُريد الشر، فيكون الله على تقدير قولهم شريرًا - نسأل الله العافية - !

مسألة: ماذا نقول؟

الجواب: نقول: أما الإرادة الشرعية: فإن الله تعالى لا يمكن أن يُريد الشر أبدًا، وأما الإرادة

الكونية: فإنه يُريدُ ما شاء، لكن إرادته كونًا للشر له حكمةٌ بالغةٌ كبيرة معروفة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: تنزيهُ الله سبحانه وتعالى عن كل ما وصفه به الكافرون الجاحدون، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: إثبات ثلاثة أسماء لله: (الله، والواحد، والقهار)، وكل اسم يُثبِتُه الله لنفسه فإنه يتضمَّن الصفة التي اشتقَّ منها، فالله مُشتقٌّ من الألوهية؛ ففيه: إثبات الألوهية صفة من صفاته، الواحد؛ الوحدانية، وفيه: إثبات الوحدانية لله عز وجل، القهار؛ القهر، ففيه: إثبات القهر لله عز وجل، وأنه القهَّار الغالب لكل شيءٍ.

قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر:٥].

التفسير

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [بالحق] مُتعلِّقٌ بـ ﴿خَلَقَ﴾ هذه الآية جاءت عقِب ردِّ قول من يقول: إن لله ولدًا؛ ليُبيِّن أن الخالق للسماوات والأرض غنيٌّ عن الولد، ولا يحتاج إليه؛ لأن الكل مُلكُه، ولا يحتاج إلى الولد إلَّا من كان غير مالكٍ تمام المُلْك.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السماوات جمع سماء، والسماء يُطلَق على معنيين:

المعنى الأول: العلوّ، وإن كان دون السماوات.

والمعنى الثاني: السماوات: المعروفة وهي السقف التي بناها الله عز وجل.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزمر:٢١] من السماء يعني: من السحاب، والسماء ليست لاصقة في السقف، ولكنه في العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] أي: إلى العلو.

وأما الثاني الذي هو البناء فهو كثير، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١، ١٢]، ومنه هذه الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وجمعها؛ لأنها جمع سبع سماوات، كما في القرآن الكريم، وكما في السنة النبوية.

والأرض: هي الأرض التي وضعها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لخلقه يعيشون عليها، كما قال تعالى:

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، ولم يأت في القرآن ذِكْرُ عددها صريحًا؛ يعني: ليس في القرآن أن الأراضين سبع، لكن جاء ذِكْرُها بهذا العدد لا على سبيل التصريح، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] أي: مثلهن في العدد، وليس مثلهن في الصفة للتباين ما بين السماوات والأرض في الصفة.

أما السنة؛ فصريحةٌ في أن الأراضين سبع، قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ(١) شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ(٢) يومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(٣)، والظاهر من النصوص: أن هذه الأراضين مُتطابقة؛ يعني: بعضها تحت بعض كالسماوات؛ لأن قوله عليه الصلاة والسلام: «طُوِّقَهُ يومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ» لولا إنها مُتطابقة لم يُعذَّب بها تحت الأرض العُليا، فهي مُتطابقة.

ولكن هل هذه الأرضون مُتباينة، مُنفصلٌ بعضها عن بعض، مسألة: أو هي كتلة واحدة؟

نقول في الجواب عن هذا: الله أعلم، لا ندري، لكن يجب أن نُؤمن بأنَّ هناك سبع أراضين، كما جاء ذلك في النصوص.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿خَلَقَ﴾ يعني: أن خلْقَه إياها بالحق، الحق؛ أي: أنه خلقها حقًّا لا خالق لها غيره، هذه واحدة.

والثانية: بالحق؛ أي: من أجل الحق، لا باطلًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩] وصدق الله عز وجل، فإن في خلق السماء والأرض من الحق ما هو ظاهرٌ، فبهما يُعرَفُ الله عز وجل، وتظهر آياته الكونية، وآياتُه الشرعية، وبهما يعيش الخلق، ولا يمكننا في هذا المجلس أن نحصُر ما في خلق السماوات والأرض من الحق.

قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ﴾.

قال المؤلف: [(﴿يُكَوِّرُ﴾ يُدخِل)] ولا شكَّ أن الله يُولِجُ الليل في النهار، ويُولِجُ النهار في الليل، كما في الآية الأخرى، مسألة: ولكن هل معنى التكوير هنا: الإيلاج؛ أنه يُدخِل النهار على الليل فيطول، ويُدخِل الليل على النهار فيطول؟

الجواب: ظاهر اللفظ يأبى ذلك؛ لأن الله قال: ﴿يُكَوِّرُ﴾ والتكوير هو: التدوير، ومنه: كَوْرُ العِمامة؛ أي: ليُّها، ليَّاتُها تُسمَّى: أكوارًا، فيُكوِّر يعني: يُديرُ الليل على النهار، وهذا يُشبِه قوله

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي جعله طوقا في عنقه.

(٣) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبويعلى فى مسنده (٩٥٩) من حديث سعيد بن زيد رضى الله عنه، وأحمد فى مسنده (٩٥٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾، وإذا كان هذا ظاهر اللفظ فإن الواجب أن نُجرِيَ اللفظ على ظاهره؛ لأنه – أي: الظاهر – هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلون الأمر كما قال المؤلف من أجل أن نُفسِّر القرآن بالقرآن، فنجعل يُكوِّر؛ يعني: يُولِج؟

قلنا: هذا لا يصحُّ، لوجهين:

الوجه الأول: أنه خلاف ظاهر اللفظ.

والوجه الثاني: أنه يفوتُ به المعنى المُستفاد من كلمة ﴿يُكَوِّرُ﴾، أما المعنى المُستفاد من الإدخال فهذا يُعرَف من الآيات الثانية، حينئذٍ نستفيدُ فائدةً جديدةً غير فائدة الإدخال.

قوله: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [الرعد:٢] أي: ذلَّلهما].

التسخير بمعنى: التذليل؛ يعني: ذلَّلهما، لأي شيء؟ لمصالح العباد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [النحل:١٢] إذن التذليل هنا لمصلحة العباد، والشمس والقمر معروفان لا يحتاجان إلى تعريف، ولو أننا أردنا أن نُعرِّفهما بما يُعرِّفُه أهلُ الفلك لزِدناهما غُمُوضًا، لو قلنا: إن الشمس كتلة نارية ملتهبة.. إلخ ما قالوا، لقال الناس: ما الشمس؟ أين الكتلة النارية؟

القمر أيضًا كتلة صخرية جامدة باردة.. إلخ ما قالوا، أيضًا يذهب الذهن كل مذهب، لكن إذا قلنا: الشمس ما نراها آية النهار، والقمر آية الليل كلٌّ يعرفها أوضح من كل شيء.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلَّل، في جريانهما، وفي اختلاف هذا الجري. كونهما يدوران على الأرض، ويختلفان طولًا وقِصَرًا، هذا لا شك أنه لمصالح العباد.

قوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:١٣] كل من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ أي: يسير في فلكه، الفلك الشيء المُستدير، وهما يدوران باستدارة واضحة، لكنها تختلف باختلاف الليل والنهار.

وقوله: ﴿لِأَجَلٖ﴾ أي: إلى أجل؛ أي: لغاية.

﴿مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن من قِبَل الله عز وجل، وهذا الأجل المُسمَّى، قال المؤلف: [ليوم القيامة] ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير:١ - ١٤] ومتى يكون هذا؟ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران:٣٠].

فهذان يجريان إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة ذهبت حاجة الناس إليهما، وذهبا.

وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ألا: أداة استفتاح، وتأتي للتنبيه، وقوله: ﴿هُوَ﴾ يعود على الله عز وجل، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب على أمره، المُنتقِم من أعدائه]، وهذا أحدُ معاني العِزَّة التي أثبتها الله لنفسه، وسبق أن لها معنى ثانٍ وثالثٍ: عزة القدر، وعزة الامتناع بالإضافة إلى عزة القهر، فالله سبحانه وتعالى مُتصفٌ بالعزة كاملةً، قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فجميع أنواع العِزَّة ثابتةٌ لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ صيغة مبالغة من الغَفْر، والغَفْر أو الغُفران ستر الذنب والتجاوُز عنه، ولا يكفي أن نقول: إن المغفرة، أو المغفرة هو التجاوُز عن الذنب؛ لأن المعنى المُشتق منه يأبى ذلك، فالمغفرة: مُشتقة من المِغْفَر، والمِغْفَر شيءٌ يُوضَع على الرأس يقيه من سِهامِ الأعداء، ففي هذا المِغْفَر سترٌ ووقاية، ولهذا نقول في معنى الغفار: هو غافرُ الذنب؛ أي: الذي يستُر الذنب ويتجاوزُ عنه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات خلق السماوات والأرض، وهذه الفائدة: يترتَّب عليها الردُّ على الطبيعيين الذين هم الفلاسفة، الذين يقولون بِقِدَم العالم، وأن العالم أزليّ، وأن هذه السماوات ليس لها أول، هي موجودةٌ بالأزَل، فإن هذه الآية تَرُدُّ عليهم، فإنه يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أوجَدَها بعد العدم.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن للسماوات عدد؛ وجهه: الجمع؛ لأن الجمع يدلُّ على العدد، وقد بيَّنت نصوص أخرى أنها سبع.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن خلق السماوات والأرض بالحق، وضِدُّه الباطل، فلم تُخلَق باطلًا، وسُدًى، ولعبًا.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الخالق للسماوات والأرض هو الله، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أحد المعنيين الذَيْن أشرنا إليهما.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ كروية الأرض، من قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، ومعلومٌ أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كان سيرُهما تكويرًا دلَّ على أن الأرض كُروية.

٦ - **ومن فوائدها:** إثباتُ قُدرة الله - عزَّ وجلَّ - بتكوير الليل والنهار، وقد أشار الله - عزَّ وجلَّ - إلى ذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١، ٧٢] لو اجتمع الخلق كلهم على أن يأتوا بالليل في موضع النهار، أو النهار في موضع الليل ما استطاعوا، ففي هذا بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث يُكوِّر الليل على النهار، ويُكوِّرُ النهار على الليل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية**: بيان نعمة الله علينا بتسخير الشمس والقمر، لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [العنكبوت:٦١].

٨ - **ومن فوائدها**: أن الشمس والقمر يجريان في فلكهما، ففيه الردُّ على من زعم أن تعاقُب الليل والنهار يكون بدوران الأرض، فإن الآية صريحة في أن الشمس تجري، والقمر يجري، وعلى الأقل نقول: هي ظاهرة في ذلك.

وإذا كان لدينا ظاهرٌ من الكتاب والسنة، فإنه لا يجوز لنا أن نعدو هذا الظاهر،

إلا بدليل بيِّن يُسوِّغُ لنا أن نخالف هذا الظاهر؛ لأن الله خاطَبنا في كلامه باللسان العربي، فوجَبَ علينا أن نأخذ بمُقتضى هذا اللسان العربي ما لم يُوجد دليل على خلافه، هم يقولون الآن: إن الشمس والقمر لا يجريان، وأن القمر يدور حول الشمس، وأن الأرض - أيضًا - تدور حول الشمس، وأن تعاقُب الليل والنهار يكون بدوران الأرض، وكل هذا خلاف ظاهر القرآن، فلا عبرة به، إلا إذا علِمنا شيئًا نُقابِل به الله - عزَّ وجلَّ - بإخراج كلامه عن ظاهره، وإلَّا فالواجب إبقاؤه على الظاهر، حتى لو فَرَضنا أننا أقررنا بأن الأرض تدور، فإنه لا يلزمُ من ذلك ألاَّ تكون الشمس تدور عليها؛ لأن بعض الناس يقول: إذا أقررتم بأن الأرض تدور، فإنه يلزمُكُم أن يكون اختلاف الليل، والنهار بسبب دوران الأرض.

نقول: لا يلزم؛ لأنه إذا اختلفت دورة الأرض مع دورة الشمس حصل تعاقُب الليل والنهار، ولا مانع.

على كل حال؛ المهم: أنه يجبُ علينا أن نأخُذ بظاهر كلام الله؛ لأن الله هو الخالق، وخبرُه هو الصادق، وقد خاطَبنا بما نفهمُه من لغتنا لغة العرب، فلا يجوز لنا العدول عن الظاهر إلا بدليلٍ حِسِّي نُخاطِب به الله - عزَّ وجلَّ - يوم القيامة، إذا سألَنا: لم اعتقدتم أن الأرض هي التي تدور، وأن الليل والنهار يكون بسبب دورانها؟

يكون لنا حُجَّة، نقول: لأننا لَمَسْنا هذا.

فإذا قُدِّر أنه ثبت أن الليل والنهار يكون بدوران الأرض لا بدوران الشمس، فكيف نُجيبُ عن الظواهر؟

نقول: تجري بحسب مرأى الإنسان؛ لأن الشيء إذا كان قارًّا وهو يدور، فالذي فوقه ساكنًا يُظنُّ أنه هو الذي يتحرَّك ويدور، فإذا ثبت هذا قلنا: إنها تجري بحسب نظر الإنسان، وإن كانت هي ثابتة والأرض هي التي تدور.

٩- **من فوائد هذه الآية**: بيان أهمية معرفة أسماء الله وصفاته، لقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ لأن (ألا) هنا للتنبيه، ولا يُحتاج إلى التنبيه إلَّا في أمرٍ هام ينبغي التنبُّه له.

١٠- **ومن فوائدها**: إثباتُ هذين الاسمين وما دلَّا عليه من صفة وحكم، وهما: العزيز،

والغفار.

والقاعدة في باب أصول العقيدة: أن كل اسم من أسماء الله فهو مُتضمِّنٌ لصفة، وقد يتضمَّن مع الصفة حكمًا، وهو ما يُسمَّى بالأثر إذا كان مُتعدِّيًا، وإن لم يكن مُتعدِّيًا ففيه الاسم والصفة؛ فمثلًا: الحي من أسماء الله مُتضمِّنٌ لصفة وهي الحياة، ولكنه لا يتعدَّى لغيره؛ لأن الحي وصف لازم؛ يعني: لا يتعدَّى الموصوف.

فالغفار مثلًا اسمٌ من أسماء الله، مُتضمِّنٌ لصفة وهي المغفرة، مُتعدٍّ للغير، وهو أنه يغفر الذنوب.

فهذه قاعدة في أسماء الله سبحانه وتعالى: أن كل اسمٍ منها مُتضمِّنٌ لصفة، وقد يكون مُتضمِّنًا للحكم الناتج من هذه الصفة إذا كان مُتعدِّيًا، أما إذا كان لازمًا لا يتعدَّى الموصوف، فإنه ليس له حكم؛ يعني: ليس له حكم مُتعدٍّ لغيره.

❁ قال الله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:٦]

❁ التفسير ❁

الخطاب هنا لبني آدم ﴿خَلَقَكُم﴾ يعني: يا بني آدم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وصفة خلق آدم: أن الله سبحانه وتعالى خلَقَه من تراب، والتراب هذا صار طينًا بإذن الله، وبقي حتى صار كالفخَّار له صلصلة، وصوت عند دقِّه، ثم بعد ذلك خلق الله منه آدم، وبعد أن خلق جُثَّة آدم نفخ فيه الروح فصار حيًّا سويًّا بشرًا، هذا هو أول خِلْقة الإنسان، كما دلَّ على ذلك كتاب الله عز وجل.

وأما القرود، الذين زعموا أن أصل الآدمي قرد، فنحنُ نُسلِّمُ لهم ذلك بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنا فنحن - ولله الحمد - من بني آدم بشر، خلق الله تعالى أبانا (آدم) بيده، وعلَّمَه أسماء كل شيء، وأسجَدَ له ملائكته، وأما هم فلهم ما أحبُّوا أن يرُدُّوا أنفسَهم إليه.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[ثم] للترتيب بمُهْلة؛ لأن خلق هذه الزوج متأخِّر عن خلق آدم، فإن الله سبحانه وتعالى أبقاه مُدَّة حتى عرف أنه مُحتاج إلى زوجة ليسكُن إليها، فخلق الله له زوجة،

وجعل هذه الزوجة من نفس آدم، وقول النبي ﷺ في النساء: «إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ»[1] يقتضي أن حواء خُلِقَت من ضَلَعِ آدم، والله على كل شيء قدير، أن يخلق بشرًا من غير زوجة؛ بل ومن غير زوج، فإن حواء خُلِقَت بلا أمٍّ ولا أب.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا يُنافِي ما ذكر الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] لأن الواو لُمطلق الجمع، لا تستلزم الترتيب، فإذا جاءت آية أخرى فيها التصريح بالترتيب، حُمِلَت الآية التي فيها الواو الدالَّة على مُطلق الجمع، حُمِلَت على الترتيب، على أن تقديم الشيء على الشيء في الذِّكر وإن كان بالواو يقتضي أن يُقدَّم، هذا هو الأصل، ولهذا لما دنا النبي ﷺ من الصفا حين أتى إلى السعي قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»[2]، فبدأ بالصفا، وهذا يدلُّ على أن ما قُدِّم في الذِّكر فهو مُتقدِّمٌ على ما بعده رُتبة، أو زمنًا، أو مكانًا حسب ما يقتضي الحال، لكن ليس هذا بلازم، قد يتقدَّم ما بعد الواو على ما قبلها ولا يُعدُّ هذا تناقُضًا، لكن في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا يمكن أن نقول: إن الجَعْل هنا قبل خلق آدم.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ للابتداء، ومنها عينًا، أو منها وصفًا؟

الظاهر: الأمران؛ لأنها من آدم خُلِقَت، وهي مثل آدم، فهي من نوعه، وهي أيضًا منه عينًا، فهي جزءٌ منه وبَضعة منه، ولهذا خطب النبي ﷺ في الناس وأخبر أن فاطمة بَضعةٌ منه[3].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزوج يُطلَق على عدة معانٍ؛ منها: الصِّنف، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، وكقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أي: أصنافهم.

ويُطلق الزوج على ما سوى الفرد؛ فيُقال: فرد وزوج.

وكلمة زوج هنا تشمل المعنيين؛ فهي صِنفٌ من البشر، وهي أيضًا زوج فقد شفعت آدم بعد أن كان فريدًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: هذا ابتداءُ خلق الإنسان.

قال: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم والضَّأن والمَعْز ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾].

الإنزال هنا بمعنى: الخلق؛ لأنها أُضيفَت إلى أعيان، وهي الأنعام، والأنعام: جمعُ نَعَم؛ كأسباب جمع: سبب.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٩٠)، وأحمد في مسنده (١٠٤٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨)، وعبد بن حميد في مسنده (١١٣٥)، والدارمي (١٨٥٠)، وابن خزيمة (٢٧٥٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٤٤) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) كما روى ذلك البخاري (٣٥٢٣)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: ثمانية أصناف، وقد بيَّن الله هذه الأزواج في «سورة الأنعام»، فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ من الضَّأن اثنين، ومن المَعْز اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الإبل اثنين، فالجميع ثمانية ذكر، وأنثى من كل صِنفٍ من الأصناف الأربعة، وإذا ضربت اثنين في أربعة صارت ثمانية.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [من كلٍّ زوجان ذكرٌ وأنثى كما بُيِّن في «سورة الأنعام»].

ثم قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

لما ذكر ابتداء الخلق الأول، وهو آدم ذكر ابتداء الخلق الثاني، وهو النوع الإنساني، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ في: للظرفية، والبطون: جمع بطن، والأصل أن هذه المادة: الباء والطاء والنون خلاف الظهور، فالبطون خفيَّة، والظهور ظاهرة، من أسماء الله: (الظاهر، الباطن)، الظاهر: العالي، والباطن: الذي لا يحولُ دونه شيءٌ، فهنا البطون جمعُ بطن، وهو مُشتقٌّ من البطونة، بطن الشيء بطونًا؛ أي: خفي.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ جمع: أم، ويُقال: أمَّات لغير العاقل، ويُقال في العاقل: أمهات.

قوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا﴾ مصدر يخلق ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: خلقًا مُتطوِّرًا؛ قال المؤلف: [أي: نُطَفًا، ثم علَقًا، ثم مُضغًا].

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأصول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥] من تراب باعتبار آدم، من نُطفة باعتبار النوع الإنساني، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المُضغة: هي قطعة اللحم بقدر ما يُمضَغ، وقد بيَّن النبي ﷺ مُدَّة هذا التطوُّر في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ(١) أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً(٢) مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً(٣) مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ(٤)»(٥) أربعين يومًا نطفة يعني: ماءً، وهو المني، لكنه في هذه المُدَّة يتطوَّر تطوُّرًا خفيًّا إلى أن يصِل إلى الغاية في تمام أربعين يومًا، حتى يكون علَقَة؛ أي: دمًا أحمر، والظاهر أنه ليس المراد: إنه يبقى نُطفةً إلى تمام الأربعين، ثم ينقلِب في لحظة

(١) يضم بعضه إلى بعض أو المراد بالجمع مكث البويضة بالرحم بعد تلقيحها بالنطفة.

(٢) دما غليظا جامدا.

(٣) قطعة لحم قدر ما يمضغ.

(٤) حسب ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته وما علمه سبحانه مما سيكون من هذا المكلف من أسباب السعادة أو الشقاوة.

(٥) رواه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

إلى دم؛ بل هو يتطوَّر، وينقلب شيئًا فشيئًا إلى أن يتم كونه دمًا في أربعين يومًا، ثم يبقى هكذا علَقَة، لكنه أيضًا يتجمَّد شيئًا فشيئًا، وينمو حتى ثمانين يومًا، ثم بعد ذلك يكون مُضغةً قطعة لحم مُخلَّقة، وغير مُخلَّقة، يحتمل - والله أعلم - أن مُخلَّقة عند انتهاء الطور الثالث، غير مُخلَّقة في ابتداء الطور؛ يعني: فتكون في هذا الطور في الابتداء غير مُخلَّقة، وفي النهاية مُخلَّقة.

ويحتمل أن تختلف الأجِنَّة في ذلك، فيكون بعضُها مُخلَّقًا من حين أن تنتقل من العلَقَة إلى مُضغة، وبعضُها يتأخَّر، فالله أعلم، ويُرجع في هذه المسألة إلى العلماء.

ثم قال عز وجل: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ لا يصل إليها الضوء، فسَّرها المؤلف بقوله: [هي ظُلمةُ البطن، وظُلمةُ الرحم وظُلمةُ المشيمة] هذه ثلاث ظُلُمات جعلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقايةً لهذا الجنين؛ لأن أشعة الضوء لو وصلَت إليه لأفسَدَته، ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعله في هذه الظُّلُمات الثلاث.

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل ظهره إلى بطن أمِّه، ووجهه إلى ظهر الأم، وهذا من أجل ألَّا يتضرَّر وجهُه بالصَّدَمات التي تكون على بطن الأم، ليكون الظهر وقاية للوجه، وخلف الجنين الذي يلي البطن قوي؛ لأن فيه الظهر والأضلاع، فهو قويٌّ مُتحمِّل للصدمات، فإذا أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إخراجه انقلب هذا الجنين، تحرَّك واضطرب بإذن الله عز وجل، ثم انقلب حتى يكون رأسُه هو الأسفل، ويخرج الرأس أولًا من أجل أن يكون خروجُه مُنسلًّا؛ إذ لو خرج من عند قدَمَيْه لكان في ذلك ضرر وخطأ، قد تعلقُ مثلًا إحدى اليدين في أحد الجوانب فيحصل في هذا ضرر، وربما يحصل تلف على الجنين، ولله سبحانه وتعالى في خلقه شئون.

المهم: أن الله سبحانه وتعالى اعتنى بنا عنايةً كاملةً، ونحن في بطون أمهاتنا وعند الخروج منها، ولهذا قال: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ونعم الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلكم: المُشار إليه ربُّنا، والمُخاطَب في [ذلكم]: البشر، وإنما أتى باسم الإشارة المُفيد للبُعْد (ذلكم)، ولم يقُل: (هذا) إشارةً إلى علو منزلته عز وجل، وأن له العلو: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ربٌّ: إما أن تكون صفة، أو بدل، وفي ذكر الربوبية بعد الألوهية إشارة إلى التربية الخاصة في حال الحمل والعناية التامة؛ لأن الحمل في بطن أمِّه لا يمكن لأحدٍ أن يصِل إليه لا بجلبِ منفعة، ولا بدفع مضرَّة، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى العناية به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الجملة هذه جملة خبرية، قُدِّم فيها الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر.

وقوله: ﴿لَهُ﴾ أي: وحده لا يُشاركه أحد ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يعني: الملك المُطلق؛ مُلك الأعيان،

ومُلك الأوصاف، فهو مالكُ الأعيان كلها، ومالكُ أوصافها وتصريفها وتدبيرها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا توحيد الألوهية، الجملة مُكوَّنة من نفي وإثبات؛ نفيٍ من أبلغ أنواع النفي؛ لأنه مُصدَّرٌ بـ (لا) النافية للجنس، ولا النافية للجنس يقول علماء النحو والبلاغة: إنها نصٌّ في العموم؛ يعني: ليست ظاهرةً في العموم؛ بل هي أبلغ من الظاهر هي نص في العموم، ولهذا يُقال فيها: نافية للجنس، لا للوحدة، للجنس كلِّه، إذن لا يوجد إله إلا الله، ولكن يجب أن نعلم أن المنفيَّ ـ هنا ـ الإله الحق؛ يعني: لا إله حقٌّ إلا الله، أما الآلهة الباطلة فإنها موجودة، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]سمَّاها آلهة، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨] فسمَّاه إلهًا، لكنَّه إلهٌ باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سبأ: ٣٠].

مسألة: فإذا سألَنا سائل: هل مع الله إله؟

فالجواب: يكون بالتفصيل، وهو:

إن أردتَ إلهًا حقًّا فلا، وإن أردتَ إلهًا باطلًا يُسمَّى إلهٍ وليس بإلهٍ، فهذا موجود.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذا قال قائل: مسألة: أين خبر (لا)؛ هل هو (هو) أم ماذا؟

نقول: لا يمكن أن يكون خبر (لا) هو؛ لأن لا النافية للجنس لا تعمل إلا في النَّكِرات، قال «ابن مالك»:

عملُ إنَّ اجعل لـ (لا) في نكرة   مفرَدَةً جاءَتْكَ أوْ مكرَّرهْ

لا تعمل (إلا) في النكرات، و(هو) معرفة إذن أين الخبر؟

نقول: الخبر محذوف، تقديرُه: لا إله حقٌّ إلا الله، هكذا يجب.

وأخطأ من قال: لا إله موجودٌ إلا الله؛ لأن هذا يتضمَّنُ أمرًا إمرًا؛ إذ إنَّك إذا قلتَ: لا إله موجود إلا الله جعلتَ الآلهة الموجودة جعلتَها الله، وهذا خطأٌ عظيم؛ بل الواجب أن نقول: لا إله حقٌّ إلا الله، أما في الآية: ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

إذن ما محلُّه من الإعراب؟ هو بدلٌ من الخبر المحذوف.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أنَّى: اسم استفهام، والمراد به: التوبيخ والتعجُّب؛ يعني: كيف تُصرَفون عن عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا هو؟! هذا سفَهٌ في العقل، وضلالٌ في الدين.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ قال المُفسِّر: [عن عبادته إلى عبادة غيره].

إذا كان هذا الاستفهام للتوبيخ والتعجُّب، فإنه يقتضي أن يكون هذا الانصراف حرامًا؛ لأنه لا يُوبَّخ إلا على شيءٍ مُحرَّم، وكلمة «تصرفون» تدل على الانصراف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن أصل البشرية من آدم، وليس كما يُقَال القرود: إن أصلها قرد ثم تطوَّر، لقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى كيف خلق هذه النفس في مواضع من القرآن.

٢ - **ومن فوائدها:** أن البشرية حادِثة وليست أزليَّة، لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والخلق يقتضي الحُدوث.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله جعل أزواج بني آدم من جِنسِه، لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولو كانت الزوجة من غير الجِنس لم تحصُل الألفة والمودة، ولكن الله جعلها من الجِنس.

٤ - **ومن فوائدها:** ما منَّ الله به علينا، من إنزال الأنعام الأصناف الثمانية.

٥ - **ومنها:** أن إنعام الله بهذه الأصناف الثمانية أكثر من إنعامه بغيرها؛ كالظِّباء والأرانب، وما أشبهها؛ لأن الله امتنَّ بهذه الأصناف الثمانية دون غيرها؛ لأنها أشد، و إنَّ نعمة الله أظهر وأبيَن، ولأنها أنعامٌ مألوفة وأليفة، بخلاف الأنعام الأخرى.

٦ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن تكوين هذه الخليقة من زوجين، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] فكل شيء من الخليقة فلابد لتركيبه من زوجين، حتى المياه، وحتى الهواء، وكل شيء، وهنا يقول: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** بيانُ حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في تطوير الخلق، لقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، ولو شاء لخلَقَنا طورًا واحدًا، ولكن حكمته تأبى ذلك؛ بل يتطوَّر الإنسان من طورٍ إلى آخر للتدرُّج في الخلق، كما أن التدرُّج أيضًا في التشريع هو الحكمة، فالشرع لم ينزل جملة واحدة يُكلَّف الناس به من أوله إلى آخره، ولكنه نزل بالتدريج، وما نحن فيه من الحمل، لو أن هذا الحمل نشأ في بطن الأم دُفعةً واحدة لكان في ذلك ضررٌ عليها، لكن يتطوَّر وينمو شيئًا فشيئًا حتى يتَّسِع البطن شيئًا فشيئًا بدون مشقة على الأم.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** منَّة الله سبحانه وتعالى على البشر في أنَّه يُطوِّرُهم في هذا الخلق في مكانٍ لا يمكن أن يصِل إليه أحدٌ، لقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢١، ٢٢].

٩ - **ومن فوائدها:** حماية الله الجنين بكونه في هذه الظلمات الثلاث؛ لأن أشعة الضوء ربما تضُرُّه، فجعله الله سبحانه وتعالى في هذه الظلمات الثلاث.

١٠ - **ومن فوائدها:** أن القادر على هذا هو المُستحقّ للألوهية والعبادة، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** انفراد الله سبحانه وتعالى بالمُلْك، لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فلا مالك إلا الله،

وهل المُلك مُلك التصرُّف الكوني، مسألة: أو الكوني والشرعي؟

الجواب: الكوني والشرعي، فلا مالك إلا الله كونًا، ولا مالك إلا الله شرعًا، ولهذا له الحكم الكوني والشرعي عز وجل.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** النداء الصارخ في تسفيه هؤلاء القوم الذين اتخذوا من دونه أولياء بعد ظهور هذه الآيات العظيمة، لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يعني: كيف تُصرَفون عن الحق مع وُضوحه وبيانه.

قال الله تعالى:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

التفسير

قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ تكفروا بمن؟ تكفروا بالله، وبما يجب الإيمان به فإنكم لن تضُرُّوا الله؛ لأن الله ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ ولم يأمر الله سبحانه وتعالى العباد بعبادته والإخلاص له لحاجته إليهم، ولكن لمنفعتهم هم؛ لأنهم يُثابُون على هذا أعظم الثواب، وينجون به من العقاب، أما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لا يضُرُّه إذا كفر كل الخلق، ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ ولو كل الخلق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[1] لو كان الناس كلهم؛ بل البشر وغير البشر لو كانوا على أفجر قلب رجلٍ لم ينقص ذلك من مُلك الله شيئًا، ولن يضُرَّ الله شيئًا، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ولا يرضى لهم أن يكفروا بالله، وتأمَّل قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ يعني: أن الكفر أمرٌ لا يليقُ بالعباد، فلا يرضى لهم أن يقوموا به؛ وذلك لأن الله خلَقَهم؛ فكيف يرضى الإنسان العاقل أن يصرِف العبادة لغير الخالق؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾، ولم يُقل: من عباده، أو عن عباده؛ لأن اللام أبلغ في كون هذا الشيء لا يليقُ بهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والحاكم في مستدركه (٧٦٠٦)، والبيهقي في الكبرى (١١٢٨٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وقوله: ﴿يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ العبودية تنقسم إلى قسمين:

* عبودية عامة.
* عبودية خاصة.

فمن الأول - أي: من العام -: قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] (إن) هنا بمعنى: ما، وعلامة إن التي بمعنى: ما أن يأتي بعدها: إلا، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] يعني: ما أنت إلا نذير، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ هذه من العبودية العامة، حتى الشياطين والكفار كلهم عباد الله بالمعنى العام.

المعنى الخاص للعبادة: عبادة المؤمنين، وهي العبادة الشرعية؛ أي: التعبُّد لله تعالى شرعًا، وهذه خاصَّةٌ بمن أطاعه فقط، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله في الرسل: إنهم عباد الله قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥] هذه عبودية خاصة.

قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾: هل هي من العامة أو من الخاصة؟

من العامة؛ يعني: لا يرضى الكفر لأي واحد من عباد الله.

قال: [وإن أراده من بعضهم] هذا كلامٌ جيِّدٌ؛ يعني: هو لا يرضاه لكن يريده من بعضهم، يُريدُه بالإرادة الكونية لا الإرادة الشرعية، وهذا ردٌّ على قولٍ مُبتدع، يقولون: إن الله لا يُريدُ إلا ما يرضى، وأما ما لا يرضاه فلا يُريده، وعلى هذا القول الباطل تكون المعاصي واقعةً بغير إرادة الله، ولا شكَّ أن هذا قولٌ يُبطِلُه نصوص كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُريدٌ لهذا وهذا لكن بالإرادة الكونية؛ لأن الكل مُلكُه سبحانه وتعالى، ولهذا قال: [وإن أراده من بعضهم] يعني: فإرادته من بعضهم لا يقتضي أن يكون راضيًا به؛ إذ قد يريد ما لا يرضاه.

فإن قال قائل مسألة: كيف يُريد ما لا يرضاه؟ وهل أحد يُكرِهُه؟

الجواب: قلنا: لا، لا يُكرِهُه أحد، لكن يُريد ما لا يرضى لحكمةٍ بالغة، لو كان الله تعالى لا يُريد إلا ما يرضى لأصبح الناس كلهم مؤمنين، ولم يكن هناك ميزة للمؤمن من الكافر، ولم يُقَم علَمُ الجهاد، ولا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا مُلِئَت النار كما وعدها الله عز وجل، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة التي تنتُج عن وجود الكفر في عباد الله.

قال المؤلف: [﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ الله فتؤمنوا: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾].

وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ مُقابل: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾؛ لأن الإنسان في نعم الله بين كافرٍ وشاكر، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وهو ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وتأمَّل كيف قال في الكفر: إن ﴿ٱللَّهَ

غَنِيٌّ﴾، و ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فبدأ في جواب الشرط في ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ ببيان غِناه عن الخلق عز وجل، أما الشكر فإنه هو الذي يُثيبُه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فإذا رضيَه فسوف يُثيبُه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة:٧، ٨] ولهذا أثابَهم الجنات، نسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

قال: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ في هذا الفعل إشكالٌ من الناحية النحوية، فإنه جوابُ الشرط ومع ذلك فهو مفتوح؛ لأنه مجزوم بحذف الألف، وأصلها يرضى، ولكن حُذِفَت الألف للجزم [يرضى] جواب الشرط هو مجزوم بحذف الألف.

وقوله: ﴿يَرْضَهُ﴾ [بسكون الهاء]، وهذا خفيف جدًّا، تسكينُها تقرأه بخفَّة.

الثاني يقول: [وضمِّها] يرضَهُ في حال الضم [مع إشباعٍ ودونه]، فإنك تُشبِعها حتى يخرج منها الواو، ودونه تحذِف الواو، كل هذا جائز وهذه قراءات سبعية مُتواترة، وكما مرَّ علينا أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن بجميع القراءات؛ لأن الكل حقٌّ، فلا ينبغي أن يهجُر حقًّا من الحقوق، ولكن بشرط أن يكون مُتيقِّنًا القراءة، فلا يكفي غلَبة الظن، لابد يتيقَّن وإلا قرأ في المُتيقَّن.

شرطٌ آخر: ألَّا يكون عند العامة؛ لأن العامة إذا قرأتَ عندهم قراءة تُخالِف مُصحفهم صار في ذلك تشويشٌ عليهم بالنسبة للقرآن، وسوء ظنٍّ بالنسبة إليك، ورحِمَ الله امرأً كفَّ الغِيْبَة عن نفسِه، أما في مقام التعليم، أو في القراءة بينك وبين نفسك، فإنه ينبغي إذا كنت عالمًا بالقراءة أن تقرأ بها أحيانًا، بهذا أحيانًا، وبهذا أحيانًا؛ فمثلًا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيها قراءة، وقراءة ﴿مَٰلِكِ﴾ تقرأ مرة بهذا، ومرةً بهذا.

وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قال المؤلف: [أي: الشكر].

مسألة: فما هو الشكر؟

الجواب: الشكر حدَّه بعضُهم بحدٍّ جامعٍ مانعٍ، فقال: الشكر: هو القيام بطاعة المُنعِم اعترافًا له بالجميل، ويكون بالقلب، واللسان، والجوارح، وعلى هذا قول الشاعر:

أفادتكُمُ النَّعماءُ منِّي ثلاثةً يَدِيَ وَلِسَانِي وَ الضَّمِيرَ المُحجَّبا[1]

بالقلب: أن يؤمن الإنسان بقلبه أن هذه النِّعَم من الله - عزَّ وجلَّ - تفضُّلًا منه، ولا يقول: هذا لي أوتيتُه على علم عندي؛ بل يقول: هذا من فضل ربِّي.

وباللسان: أنْ يتعبَّد لله تعالى بكلِّ قولٍ شرَعَه، ومن ذلك: أن يتحدَّث بنعمة الله، فإن هذا من الشكر؛ لأنه قولٌ مشروعٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وأما بالجوارح: فظاهرة، أن تُظهِر نعمَة الله عليك بالجوارح؛ فمثلًا: إذا أعطاك الله قوةً،

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٢٧٤).

وشجاعةً تُظهِر ذلك بالقوة في عبادة الله، من جهة الكفار، والمنافقين، وغيرهم، المهم: أن تظهر عليك أثر النعمة في أفعالك، فتقوم بعبادة المُنعِم عز وجل.

يقول: [﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ الله فتؤمنوا] يعني: الإيمان المُستلزِم للعمل الصالح، لا مُجرَّد الإيمان بالله عز وجل، الإيمان بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًّا حتى يستلزم القبول والإذعان، كثيرٌ من العامة يظنُّون أن الإيمان بالله أن تؤمن بوجود الله فقط؛ بل الإيمان بالله هو الإيمان المُستلزم للقبول والإذعان، القبول لما أمر به، وانشراح الصدر به، والإذعان والانقياد التام، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

على رأي من يقول: إن الإيمان هو الإيمان بوجود الله، يظنُّون أن اليهود والنصارى مؤمنون، وقد يُصرِّحون بهذا، يقول: النصراني مؤمن يُؤمن بالله، وإذا مات له شخص قال: رحمه الله، واليهود كذلك.

نقول: ليس هذا هو الإيمان بالله، الإيمان بالله لا يصحُّ إلا بالقبول والإذعان، القبول لما جاء به الوحي، والإذعان والانقياد التام.

وقوله: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ قال المؤلف في التفسير: [﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٞ وِزۡرَ﴾ نفس ﴿أُخۡرَىٰ﴾ أي: لا تحمله].

(لا) نافية، وازرةٌ: فاعل وهو نكرة في سياق النفي، فيعُم كل وازرة، والوازرة: التي تتحمَّل الإثم وتقوم به، وعلى هذا فمن دون البلوغ ليس نفسًا وازرة؛ لأنها لا تتحمَّل الإثم، ومن كان بالغًا ولم يفعل الإثم فليس بوازر، إذن فالوازرة يعني: القابلة للوزر، وهي النفس المُكلَّفة، وإذا أردنا أن نقول: وازرة بالفعل، نقول: هي الفاعلة للإثم، فـ(وازرة) هنا: تشمل الوازرة حكمًا، وقد تشمل الوازرة فعلًا أيضًا، الوازرة حكمًا وحقيقة.

١ - الوازرة حكمًا هي: القابلة للإثم؛ يعني: التي يمكن أن تتحمَّل الإثم وإن لم تعمل الإثم.

٢ - أما الوازرة حقيقةً هي: التي فعلت الإثم.

مثال ذلك: رجل بالغ عاقل، لكنه صالح، نقول: هذا وازرٌ حكمًا، ورجلٌ آخر زنى أو سرق، نقول: هذا وازرٌ فعلًا إذا كان بالغًا عاقلًا، وهذا هو السر في أن الله قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ ولم يقل: ولا تزر نفسٌ وِزر أخرى؛ لأن من ليست وازرة لا تزِرُ شيئًا لا عن نفسها، ولا عن غيرها.

وقوله: ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: إثم نفسٍ أخرى، ومعنى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي: لا يلحقها وِزرٌ؛ أي: الإثم، ولهذا فسَّرها المؤلف بقوله: [أي: لا تحمله] لا تحمل وازرةٌ وِزرَ أخرى.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ [ثم] يعني: بعد الشكر من الشاكر، والكفر من الكافر يكون إلى الله وحده المرجع.

وفي هذه الجملة حصرٌ، طريقُه: تقديمُ ما حقُّه التأخير؛ لأن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ خبرٌ مُقدَّم، و﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخَّر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ ولم يقل: إلى الله؛ لأن المقام هنا: مقام ربوبية؛ لأن الرب: هو المالك المُتصرِّف الخالق، فكان المُناسب أن يقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ولو قال: إلى الله مرجعكم لصحَّ؛ لأن الله تعالى هو المُستحقّ للعبادة ،ولا يستحقُّ العبادة إلا من كان ربًّا.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ متى؟ يوم القيامة، ولكن اعلموا أن كل من مات فقد قامت قيامتُه؛ لأنه انتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

قال «شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: (ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت) مع أن الذي يكون بعد الموت قبل قيام الساعة، لكن من مات فقد قامت قيامتُه.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُنبئكم: يُخبِرُكم، لكن قد قيل: إن النبأ لا يكون إلا في الأمر الهام، بخلاف الخبر، فيكون حتى في الأمور التوافه، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) اسم موصول بمعنى: الذي، وعائدُها محذوف وهو المفعول به في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تعملون، وما الموصولة؛ بل وجميع الأسماء الموصولة تُفيدُ العموم، والدليل على أن الأسماء الموصولة تفيد العموم: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] فأعاد الإشارة إليه جمعًا، مع أنه مفرد، وهذا يدلُّ على أنه يُفيدُ العموم، إذن كل ما نعمل من خيرٍ، وشرٍ، وصغيرٍ، وكبيرٍ، وسابقٍ، ولاحقٍ، فإن الله تعالى يُنبِّئنا به؛ أي: يُخبِرُنا به.

وتأمَّل اللُّطف والإحسان؛ حيث قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقُل: يُؤاخِذُكم؛ لأنه ثبت في الصحيح أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يخلو بعبده المؤمن فيُقرِّرُه بذنوبه، ويقول: عمِلتَ كذا في يوم كذا، وعمِلتَ كذا في يوم كذا، حتى يعترف، ثم يقول الله له: قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، إنباءٌ بدون مُؤاخذة، ولهذا قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم المُؤاخَذة إليه، الإنباء وعدٌ عليه، والمُؤاخذة إليه، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، ولهذا كان الكفار لا يُنبَّئون بعملهم كما يُنبأُ المؤمن؛ يعني: أن الله يخلو به، ويسترُ عليه، ويُقرِّرُه بذنوبه معه وحده؛ بل إنه – والعياذ بالله – يُنادَى على رؤوس الأشهاد: قال تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨].والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليمٌ بذات الصدور، وهي القلوب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج:٤٦] فالمراد بذات الصدور؛ أي: صاحبة الصدور «القلوب»، وإنما ذكر الله هذه الجملة بعد قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإشارة إلى أن الحساب يكون على ما في القلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[العاديات:٩، ١٠] فالمدارُ يوم القيامة على ما في القلب، أما في الدنيا فالمدار على الأعمال الظاهرة، ولهذا كان النبي ﷺ يُعامِل المنافقين معاملة المسلمين؛ لأنهم كانوا يتظاهرون بالإسلام، ونحن نُحاسِب الناس في الدنيا على ما يظهر من أعمالهم، ونكِلُ سرائرهم إلى الله، أما في الآخرة فإن الحساب على ما في القلب، ولهذا يجب على الإنسان أن يعتني بصلاح قلبه قبل صلاح الجسم؛ لأن صلاح جسمه واجهة أمام الخلق، لكن صلاح القلب هو الذي يكون بين الإنسان وبين ربِّه عز وجل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** بيان أن الله - عزَّ وجلَّ - إنما أمر العباد بعبادته لحاجتهم لذلك ومنفعتهم به، وليس لحاجته إلى ذلك، لقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات اسم (الغني) لله عز وجل، وإثبات ما دلَّ عليه من صفة؛ لأن كل اسمٍ من أسماء الله مُتضمِّنٌ لصفة، وليست كل صفةٍ مُتضمِّنة لاسم، ولهذا نقول: إن صفات الله أوسع من أسماء الله؛ بمعنى: أنها أكثر، ووجه ذلك ظاهر، إذا قلنا: كل اسمٍ مُتضمِّن لصفة، تساوَت الأسماء والصفات، على أن الاسم الواحد يمكن أن يتضمَّن عدَّة صفات، لكن لنقُل على أدنى تقدير: إنه لم يتضمَّن إلا صفةً واحدةً، فإذا قلنا: كل اسمٍ مُتضمِّنٌ لصفة تساوَت الأسماء والصفات، هناك صفاتٌ لا يمكن أن يُشتقَّ منها أسماء كثيرة جدًّا، وبهذا تبيَّن أن الصفات أوسع وأكثر من الأسماء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله - عزَّ وجلَّ - لا يرضى الكفر للعباد؛ لأنه غير لائقٍ بهم؛ إذ هم عبادُ الله، فاللائقُ بهم أن يقوموا بطاعته وعبادته، ولا يليقُ بهم أن يكفروا به.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات الرضا لله، لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾، وقوله فيما بعدها: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، والرضا: صفة من صفات الله الفعلية؛ لأنه مُتعلِّق بمشيئته، وكل وصفٍ يتعلَّقُ بمشيئة الله فإنه يُسمَّى عند أهل السنة: صفةً فعلية، وكل وصفٍ مُعلَّقٌ بسبب فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يوجد عند وجود السبب، والحق أن الرضا صفة حقيقية لله عز وجل؛ كالفرح، والعجب، والضحك، وما أشبه ذلك.

وزعم أهل التعطيل أن المراد بالرضا: الثواب، ففسَّروه بشيءٍ بائنٍ عن الله، مُنفصِلٍ عنه مخافة أن تتعلَّق به الأفعال الاختيارية؛ وهذا من جهلهم وذلك لأننا إذا فسَّرناه بالثواب، فالثواب لا يقع إلا بإرادة، والإرادة لا تكون إلا حين يوجد سبب الرضا، وحينئذٍ تكون الإرادة حادثة، فهم فرُّوا

من شيء ووقعوا في مثله، مع تحريفهم للنصوص بصرفها عن ظاهرها، وتعطيلهم للصفة التي دلَّ عليها النص، فهذه ثلاثة محاذير:

المحذور الأول: أنهم وقعوا ـ وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ـ في مثل ما فرُّوا منه، فإن كان ما فرُّوا منه محذورًا، فما وقعوا فيه محذور.

الثاني: أنهم حرَّفوا النص عن ظاهره أي: صرفوه إلى معنى آخر.

الثالث: أنهم عطَّلوا الله عن الصفة التي دلَّ عليها النص الذي حرَّفوه.

فهم مثلًا عطَّلوا الله عن صفة الرضا، وحرَّفوا النص عن ظاهره، ووقعوا فيما فرُّوا منه، وهكذا في جميع الصفات التي حرَّفوها عن ظاهرها.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا تلازُم بين الرضا والإرادة، ووجهه: أنه قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع إنَّه أخبر في آياتٍ كثيرة أن الكفر واقعٌ بإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فإذا جمعنا بين هذا، وهذا عرفنا أنه لا تلازُم بين الرضا والإرادة، فقد يُريدُ ما لا يرضاه، وقد يرضى ما لا يُريدُه، فهو مثلًا يرضى من كل واحد من الناس أن يشكر لله، وهل أراد ذلك؟ لا.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى أن الكفر غير مرضيٍّ لله، لقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ والعبد يجب أن يكون مؤمنًا بسيِّده، مُطيعًا له، كيف يكون عبدًا لله ثم يكفُر به؟!

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** فضيلة الشكر، وأن الشاكر ينال رضا ربِّه، لقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[1] الأكلة هل المراد الوجبة من الطعام، أو المراد كل لقمة؟

يوجد من يرى أن المراد: الوجبة، ويوجد من يرى أن المراد: اللقمة، وكان «الإمام» أحمد رحمه الله يأكل كل ما أكل لُقمةً حمِدَ الله، فقيل له في ذلك، فقال: أكلٌ وحمدٌ خيرٌ من أكلٍ وصمتٍ؛ لأن لفظ الحديث: «يَأْكُلُ الأَكْلَةَ» يحتمل أن يكون المراد به: اللقمة، أو الوجبة من الطعام، وكذلك يُقال في الشرب، والإنسان ينبغي له في الشرب أن يشرب بثلاثة أنفاس كل نفسٍ يحمدُ الله عليه إذا قلنا: المراد بالشربة: النفس.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الله يرضى الشكر لعباده، وإذا رضِيَ الله عن العبد كان ذلك سببًا في إرضاء العبد، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فيرضى الله عنهم بعبادتهم إياه، ويرضَون عنه بما أثابهم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، أن الإنسان يرضى عن ربه، ويرضى الله عنه.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذى (١٨١٦)، وأحمد فى مسنده (١١٩٩٢) من حديث أنس رضى الله عنه.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنه لا تحمل نفسٌ إثم نفسٍ أخرى، حتى وإن ضمِنَت النفس الأخرى ذلك الذنب؛ يعني: مثلًا لو قال شخصٌ لآخر: افعل كذا من الذنوب والإثم عليَّ؛ هل يصح؟!

فإذا كان كذلك؛ لماذا لا يصح أن يضمن إثم من فعل الإثم؟

نقول: لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]؛ بل إنه يوم القيامة يكون الأمر أشدَّ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦] يتبرَّأون منهم، ويتحاجُّون في النار، كل طائفة تتبرَّأ من الأخرى، فلا يمكن لأحدٍ أن يحمل إثم أحدٍ أبدًا.

إذا قال قائل: مسألة: كيف يُجمَع بين هذه الآية الكريمة، وبين قول الرسول ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ»[1]، وإخباره أنه ما قُتِلَت نفسٌ بغير حقٍّ إلا كان على ابن آدم الأول الذي قتل أخاه كِفلٌ من ذلك؟

الجواب: أنَّ مَنْ سَنَّ السُّنَّة السيئة فإن آثام من استنَّ بها عليه؛ لأن هذا من فعله، فهو في الحقيقة لم يحمل إثم غيره إلا لأنه هو السبب الذي جرَّ الناس إلى هذا الإثم، قد يكون الناس مُستوحشين من هذا الإثم، يخشون منه ويهابُونه، فإذا فعله شخصٌ هانَ عليهم الأمر، واقتدوا به، لاسيَّما إذا كان الشخص ذا كلمةٍ مُطاعة؛ كالأمير، والعالم، وما أشبه ذلك، إذن لا تعارُضَ بين الآية والحديث، وجهُه: أن من سنَّ السُّنَّة السيئة فإنه عمِلَ العمل الذي به الإثم والسبب، فاقتدَت الناسُ به.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى أن الإثم إنَّما يتحمَّله من كان قابلًا له، لقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ والوازرة هي التي تكون أهلًا لتحمُّل الوِزر، والذي يكون أهلًا لتحمُّل الوِزْر هو من جمع وصفَيْن: البلوغ، والعقل، لقوله في الحديث الصحيح: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ» صحَّحه كثيرٌ من أهل العلم.

فإن قال قائل: أليس الأب الراعي على أولاده، إذا أهملوا شيئًا كان عليه إثمٌ من إهمالهم؟

فالجواب: بلى، ولكنَّ إهمالَه إيَّاهم وِزرٌ وإثم، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، ولأن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أهله، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2].

ثم قال عز وجل: ﴿أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ...﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٣٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣) من حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٧١٩)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١١ـ **من فوائد هذه الجملة**: أن المرجع إلى الله يوم القيامة، ويتفرَّع على هذه الفائدة:

* وجوبُ الاستعداد لهذا اللقاء وهذا المرجع؛ والاستعدادُ له يكون بتركِ المعاصي، وفعل الطاعات.

١٢ ـ **ومن فوائدها**: بيان شمول علم الله؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالذي كنتم تعملون كلِّه، صغيره وكبيره، والخطاب لجميع الناس، وهذا يدُلُّ على شُمُولِ علم الله عز وجل، وهو كذلك، فعلم الله تعالى واسعٌ مُحيطٌ بكل شيء، وقد نبَّه الله سبحانه وتعالى على بيان كيف كان واسعًا، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يعني: إذا كان الله هو الخالق - وهذا شيءٌ مُقرٌّ به - لزِمَ أن يكون عالمًا بما خلق؛ إذ كيف يُمكن أن يخلُق ما لا يعلم، هذا مُستحيل. «ألا يعلم من خلق»: (من) تجوز أن تكون فاعلًا أو مفعولًا؛ أن تكون فاعلًا أي: ألا يعلم الذي خلق من خلق، أو مفعولًا به أي: ألا يعلم الله من خلق.

١٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الله سبحانه وتعالى عالمٌ بأسرار العبد، لقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ بل يعلم ما يستقبل للمرء، الإنسان يعلم ما تُوسوسُ به نفسُه، لكن لا يعلم ماذا يكسِبُ غدًا، لكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلمُ ماذا يكسِبُه العبدُ غدًا.

١٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى أن الحساب يوم القيامة يكون على ما في الصدور؛ لأنه لما ذكر الإنباء قال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: فالمرجع في الحساب إلى ما في القلب، صحِّح ما في قلبك؛ لأن المدار عليه، ولهذا شواهد من الآيات.

١٥ ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن القلب هو الذي عليه مدار الصلاح؛ لأنه إذا كان الحساب على ما في القلب فإن عليه مدار الصلاح، ويُؤيِّده قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨].

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

التَفْسِيرُ

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أي: أصاب، والإنسان يقول المؤلف: [المراد به: الكافر] وإنما جعل هذا العام خاصًّا لظاهر سياق الآية كما يتبيَّن، وإلاَّ فالأصل: أن الإنسان من ألفاظ العموم، فـ(ال) فيه لاستغراق الجنس، وعلامة (ال) التي لاستغراق الجنس أن يحِلّ محلَّها (كلُّ) أي: كل إنسان، لكن المؤلف رحمه الله جعله عامًّا أُريدَ به الخاص بقرينةِ السياق، فإن السياق يدُلّ على أن المراد به: الكافر؛ لأنه لا يمكن أن يتأتّى ما يدُلّ عليه السياقُ من مؤمن.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ ضُرٌّ نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة؛ أي ضُرٍّ يكون، في بدنه، في أهله، في ماله، عام، خاص، أي ضُرٍ يكون يدخل في قوله: ﴿ضُرٌّ﴾.

وقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، ولم يقُل: دعا الله، ففي هذه الحال - أي: في إصابة الضُّرّ - عرَفَ ربَّه، وأنه لا ملجأ منه إلا إليه، فيدعو ربَّه مُعتقدًا أنه ربه يملُك ما يشاء، ويتصرَّف بما شاء.

قال المؤلف: [تضرَّع] يعني: فسَّر ﴿دَعَا﴾ بمعنى: تضرَّع، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ والتضرُّع هو الاستكانة والذُّل أمام الله عز وجل.

﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا إليه، فإذا دعا الله مُنيبًا إليه كشف الله ضُرَّه؛ لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، وإجابة الله للمُضطر تشمل الكافر والمسلم، حتى الكافر الذي يعلم الله أنه سيكفر بعد زوال اضطراره يُجيبُ دعوته، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] فهو يعلم - عزَّ وجلَّ - أنهم سيُشرِكون بعد النجاة، ومع ذلك يُجيبُهم؛ لأن رحمَته سبقَت غضبَه، ففي حال الضرورة يصْدُق لجوء الإنسان إلى ربه؛ لأنه يعلم أنه لا يكشف الضُرَّ إلا الله، فإذا رجع إلى ربه سبحانه وتعالى فإنَّ رحمته سبقت غضبه يُجيبُه رحمةً به.

فهنا يقول عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

يعني: كأنَّ هذا - والله أعلم - إشارة إلى أنه بعد أن تغمُرَه النعمة ويستمر فيها وقتًا ينعم به، بعد ذلك يكفر.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ قال: (المؤلف) [أعطاه إنعامًا].

أما تفسيرُ ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ بأعطاه فواضح، وأما تفسيرُه ﴿نِعْمَةً﴾ بإنعام فلا وجه له؛ لأن المُعطَى ليس الإنعام، وإنما المُعطَى النعمة، وعلى هذا فإبقاءُ الآية على ظاهرها أولى مما ذهب إليه المؤلف رحمه الله.

إذا أعطيناه إنعامًا لا يستقيم الكلام؛ لأن الإنعام فعل الله، والمُعطَى هو النعمة، وليس فعل

الله، فإبقاءُ الآية على ظاهرها لا شكَّ أنه هو الموافق للواقع.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ منه للابتداء؛ أي: نعمة صادرة من الله عز وجل، يتبيَّن بها أنها فضلٌ محضٌ من الله.

[﴿نَسِيَ﴾ ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ يتضرع ﴿إِلَيْهِ﴾ من قبل وهو الله] كان يتضرَّع إلى الله في أن يكشف عنه الضُّرَّ، كشف عنه الضُّرَّ وأعطاه نعمة زائدة على كشف الضُّرِّ، ماذا تكون حالُه؟

قال: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ والنسيان هنا بمعنى: الغفلة، وليس المراد به ذُهُول القلب، وإنما المراد: الغفلة المُتضمِّنة للترك، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ «ساهون» أي: غافلون عن صلاتهم.

قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [إليه] الضمير يعود على الله عز وجل، و(ما) تعود على الله، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ف(ما) في موضع (من)] يعني: مراد المؤلف: أن (ما) بمعنى: من؛ أي: نسِيَ من كان يدعو إليه من قبل من يوجه الدعاء إليه، كأنَّ الله أنعم عليه بكشف الضُّرِّ وتخويله النعمة.

قوله: ﴿مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد ما غفل عنهم، والواحد القهار غفل عنه ـ والعياذ بالله ـ مع أن الأنداد لم تنفعه، ولم يتضرَّع إليها حينما أصابه الضُّر، ومع ذلك يُقبِل عليها ويدَع من أنعم عليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء، والأنداد: جمع نِد، والنِّد: هو المُسامي لندِّه المُماثِل له، فيجعلوا لله أندادًا في العبادة، يعبد هذه الأصنام كما يعبد الله عز وجل، ينذُر لها كما ينذر لله، يذبح لها كما يذبح لله وهكذا.

قال: [﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ بفتح الياء وضمِّها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دين الإسلام] (اللام) هذه في «ليضل» إما أن تكون للتعليل، وإما أن تكون للعاقبة.

فعلى قراءة الفتح فاللام للعاقبة؛ يعني: جعل لله أندادًا أدَّت به إلى الضلال، وإن كانت بضمِّ الياء فاللام للتعليل؛ يعني: جعل لله أندادًا ليقتدي به الناس فيضِلُّون، والآية فيها قراءتان بفتح الياء وضمِّها، فعلى الأولى: تعود إلى نفسه، والثانية: تعود إلى غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيح، وكلُّ واحدة تُفيد معنى يُكمِّل معنى الأخرى، فهو يَضِلُّ بنفسه ويُضِلُّ غيرَه.

لام العاقبة هل تأتي في اللغة العربية؟

نعم، تأتي، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] هل آل فرعون التقطوا موسى من أجل أن يكون لهم عدُوًّا وحزَنًا؟ أبدًا بل قالوا: عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، لكن العاقبة صار عدُوًّا وحزنًا.

وتأتي اللام زائدة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]

أي: أن يذهب، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] أي: أن يُبيِّن، وإنما قالوا: إنها زائدة؛ لأن أراد تتعدَّى بنفسها لا باللام، ولا تصلُح أن تكون للتعليل؛ لأن التعليل مُستفادٌ من الإرادة، وعلى هذا فيُعرِبُونها على أنها زائدة، فتبيَّن أن اللام التي تدخل على المُضارع تكون زائدة، وتكون تعليلية - وهي الأكثر - وتكون للعاقبة.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سبيله] أي: طريقه المُوصِل إليه طريق الله، والسبيل يُضاف إلى الله تارةً - كما في هذه الآية، وكما في آيات أخرى كثيرة - ويُضافُ إلى المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] فما هو الجمع بينهما؟

الجمع بينهما: أنه يُضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي وضعه وأنه مُوصِلٌ إليه، ويُضاف إلى غير الله - للمخلوق - باعتبار أنه هو السالك له، إذن الله هو الذي شرع هذا السبيل ووضعه للعباد، وهو يُوصِل إلى الله، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: طريقي الذي أسلُكه، ومثل ذلك يقال في الصراط: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٣]، و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فصراطُ الله باعتبار أنه هو الذي وضعه، وأنه مُوصِلٌ إليه، و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ باعتبار أنهم هم الذين يسلُكُونه.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال المؤلف: [دين الإسلام] وهذا تفسيرٌ للكلمة بمُرادها؛ لأن التفسير للقرآن أحيانًا يكون تفسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا، التفسيرُ اللفظي: أن تُفسِّر اللفظة بمعناها، والتفسير المعنوي: أن تُفسِّر اللفظة بالمُراد بها.

فمثلًا: دين الإسلام لا يُطابِق بالمعنى اللفظي لسبيل؛ لأن السبيل في اللغة الطريق، لكن السبيل المراد به دين الإسلام؛ لأن دين الإسلام - وهو شرائع الإسلام - يُوصِل إلى الله عز وجل، والذي وضعه هو الله سبحانه وتعالى، إذن المؤلف فسَّر السبيل هنا بالمعنى المُراد؛ يعني: أن المراد بذلك كذا وكذا.

وقول المؤلف: (دين الإسلام) واضح أنه هو سبيل الله؛ لأن الله هو الذي شرعه سبحانه وتعالى، ولأن من سلكه أوصله إلى الله.

قال الله تعالى: [﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ بقية أجلك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾].

الخطاب للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من يصحُّ خِطابُه لهذا الكافر، أو لهذا الإنسان الموصوف بهذه الصفات: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ هذا أمر، ولكنه ليس على ظاهره؛ بل المراد بالأمر هنا: التهديد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، معلومٌ أن الإنسان ليس بالخيار بين الإيمان والكفر، لكن هذا من باب التهديد.

فهنا قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ليس معناها: أننا نُبيحُ له أن يتمتَّع بالكفر، أو نأمره أن يتمتع بالكفر؛ بل نُهدِّدُه، فالأمر هنا للتهديد.

مسألة: فإن قال قائل: ما الذي أخرجه عن المعنى الأصلي؟

فالجواب: أخرجه عن المعنى الأصلي قرينةُ السياق.

وقوله: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾ أي: اكفر وتمتَّع بالكفر؛ لأن الكافر يتمتَّع بكفره تمتُّع البهائم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد:١٢]، فالكافر – والعياذ بالله – لا يُقيِّد نفسه بعبادة، لا بصلاة، ولا بزكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا غير ذلك من العبادات؛ بل هو قد اتبع هواه، وتمتَّع كما يتمتَّع الحمار.

وفي النهاية قال: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ وما أسرع وصولهم إلى النار؛ لأن الدنيا قليلة، أي: زمن قليل مهما طال بك العمر، فإنه إذا وافَاكَ الأجل كأن لم تلبث إلا ساعةً من نهار، وإذا شئتَ تصديق هذا فاعتبر بما مضى من عمرك فيما بقي، الآن كلنا يختلف سنُّه عن الآخر، لكن كلنا كأننا ولادة هذه الساعة؛ يعني: كل الذي مضى كأنه لم يكن، هكذا يكون بقية العمر، مهما طال بالإنسان العمر فإنه إذا جاء أجلُه كأنه لم يكن، ولهذا قال: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾ وإن طال بك العمر.

يقول: [بقية أجلك ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾].

هذه الجملة مُؤكَّدة بـ (إنَّ)؛ يعني: ومهما تمتَّعتَ فمآلُك إلى النار، وأصحاب النار إنما تُطلَق على الذين يُخلَّدون فيها، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحقُّ العذاب بالنار – فإنه لا يُسمَّى من أصحاب النار؛ لأن الأصل في الصُّحْبة: طول المُلازمة، إلا في مسألة واحدة وهي الصحابة، لو اجتمع بالرسول ﷺ مؤمنًا به ولو لحظة، صار من أصحابه.

يقول: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ النار هي الدار التي أعدَّها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للكافرين، وقد بيَّن الله تعالى في الكتاب، وبيَّن رسولُه ﷺ في السنة ما فيها من ألوان العذاب، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣: ٤٨] الماء الحار شديد الحرارة قوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا من باب التهكُّم به؛ يعني: وأين عزَّتُك وأين كرمُك؟! في الدنيا يرى نفسه سيِّدًا شريفًا، ولكنه في الآخرة يُهان هذه الإهانة الشديدة، المهم: أن أنواع العذاب – والعياذ بالله ـ شيءٌ إذا تصوَّره الإنسان فإنه يتبيَّن له شدَّة ما يُلاقِي هؤلاء من العقوبة الشديدة.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

❁ التفسير ❁

قال: ﴿أَمَّنْ﴾ بتخفيف الميم، وعلى هذا فتكون الكلمة مُركَّبة من همزة الاستفهام و(مَن) الموصولة؛ أي: الذي هو قانت.

قوله: [﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائف الطاعات] القنوت يُطلق على معانٍ مُتعدِّدة؛ منها:

الخُشوع: كقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: خاشعين.

ومنها: الدعاء في الوتر، أو في الفرائض عند النوازل.

ومنها: دوام الطاعة: كقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] ولهذا لما نزلت الآية؛ أمر الصحابة بالسكوت ونهوا عن الكلام، وهنا (قانت) معناها مِن دوام الطاعة.

قال المؤلف: [قائمٌ بوظائف الطاعات] يعني: مُديمٌ لها.

وقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني: ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصلاة، نصَّ على السجود والقيام دون القعود والركوع؛ لأن السجود شريفٌ بهيئته، والقيام شريفٌ بذِكْره.

فأفضل هيئة للمُصلِّي أن يكون ساجدًا، ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، والقيام شريفٌ بذكره، وما هو ذكره؟

القرآن كلام الله، وكلام الله تعالى أشرف الكلام، فلهذا نصَّ على هذين الرُّكنَيْن من أركان الصلاة: القيام والسجود، وكان الرسول ﷺ إذا سجد يُسمَعُ لصدره أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل[1]: أي القِدْر الذي يغلي.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا بآية تعوُّذ إلا تعوَّذ، ولا بآية

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٢١٤)، وأحمد في مسنده (١٦٣٦٠) من حديث مطرف بن عبدالله رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٨٤٠).

تسبيح إلا سبَّح[1]، وهذا يدلُّ على أن القائم بالليل ينبغي له أن يُلاحِظ قوة الخُشوع في حال السجود، والبكاء، ويُلاحِظ أيضًا حُضور القلب أثناء القراءة؛ ليُتابع فإذا مرَّ بآية رحمةٍ سأل، وبآية وعيدٍ تعوَّذ، وبآية تسبيح سبَّح.

[﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: يخافُ عذابها ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ جنَّة ربِّه].

قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾: هذه حال، حال كونه يحذر الآخرة، وحالٌ مُقارنة لقوله: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ يعني: حال كونه في سُجُوده وقيامه يحذرُ الآخرة؛ أي: يخافُها، وليس يخاف وقوعها؛ لأن وقوعها لابد، لكن يخاف عذابها، يخاف أن يُعذَّب.

وقوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يقول المؤلف: (جنة ربه) ولا شكَّ أن الرحمة يُرادُ بها الجنة، كما قال الله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[2]، ولكن يُراد بالرحمة معنى آخر، وهو فعل الله بالعبد؛ أي: رحمتُه بالعبد؛ فأيُّهما أولى بهذه الآية؟ لماذا لا نقول: يرجو أن يرحمه الله، ويكون المراد بالرحمة هنا: رحمة الله التي هي فعله؛ يعني: يرجو أن يرحمه الله بالأمرَين: بالنجاة من النار، وبدخول الجنة، هذا المعنى أحسن؛ لأن المُتبادِر في الغالب لمعنى الرحمة أن تكون فعل الله أن الله يرحمه، وأيضًا إذا قلنا: رحمة الله، صار يرجو أن ينجو من النار، أو من عذاب الآخرة، وأن يفوز بالجنة.

وقوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يقول المؤلف: [كمن هو عاصٍ بالكفر أو غيره].

أفادنا المؤلف رحمه الله بهذا التقدير أن الآية يُبيِّن الله فيها أنه لا يستوي هذا وهذا، هل يستوي من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا كمن هو عاصٍ بالكفر وغيره؟ الجواب: لا، وهذا من بلاغة القرآن.

القرآن فيه أشياء كثيرة تحذف لدلالة المذكور على المحذوف، وهذا من البلاغة، كيف يكون من البلاغة؟

لأنه إذا حذف الشيء استفاد المخاطب فائدتين: الفائدة الأولى اختصار الكلام.

الفائدة الثانية: قوة الانتباه؛ لأن الآية إذا كان فيها شيء محذوف فإن الذهن يتطلع إلى هذا الشيء المحذوف، فتجد الإنسان يتوقف، يفكر ويتأمل ما الذي حذف وما تقديره؟، لكن جاء الكلام مرسلًا هكذا لم يحصل له هذا التوقف وهذا التفكير، أنت الآن لو قرأت الآية الكريمة ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لوجدت نفسك متشوقًا إلى شيءٍ آخر، الكلام ما تم، لابد أن

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢)، والنسائي (١٦٦٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦٠٤٠)، وأحمد في مسنده (٢٣٣٠٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك شيء آخر، وحينئذٍ يشتد انتباهك، وتزداد تأملًا في المعنى، فصار وجه البلاغة: الاختصار، وشدة الانتباه أعني أنه أحيانًا يَحْذِفُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشياء يحتاج المخاطب إليها من أجل هذه الفائدة، بل من أجل هاتين الفائدتين.

قال المؤلف رحمه الله: [وفي قراءة: أم من]، وتزيد هذه القراءة على الأولى بـ (أم)، ومن اصطلاح المؤلف رحمه الله: أنه إذا قال: في قراءة، أو قال: بفتح كذا وضم كذا، أو قال بالتاء والياء، فإن القراءة سَبْعيَّة، وأما إذا قال: وقُرِئ، فالقراءة شاذة، غير سبعية، وإذا أتى بقراءتين متساويتين، مثل أن يقول في قراءة، أو بالضم والفتح، أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك من العبارات، فالقراءة سبعية، أما إذا قال وقرئ بصيغة المبني للمجهول، فالقراءة شاذة.

بناءً على هذه القاعدة تكون القراءة أم من؟ سبعية، لأنه قال وفي قراءة أم من، فأم بمعنى [بل والهمزة]، أي (بل أمن هو قانت آناء الليل)، فتكون للإضراب، والإضراب هنا إبطالي أم انتقالي؟ انتقالي، والفرق بين الإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي أنه في الإضراب الإبطالي يكون الأول ملغى، والعمدة على الثاني، وأما في الانتقالي: فالأول باقٍ على ما هو عليه، والثاني استئنافي، لا علاقة له بالأول.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قل يا محمد أو قل يا من يصح منه الخطاب هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، استفهام بمعنى النفي، والجواب: لا، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وهذا عام في كل علم، فلا يستوي العالم والجاهل، حتى في علم النجارة والحدادة، والكيمياء وغيرها، لا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن هذا لا يقتضي أن يكون العالم ممدوحًا، لأن من العلوم مَنْ جَهْلُهُ خيرٌ من عِلْمِه، فإذا كان العلم مذمومًا، وقلنا: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، صار غير العالم أفضل، وإذا كان العلم ممدوحًا، وقلنا هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، صار العالِم أفضل، فإذا جاءت هذه الجملة في علم الشريعة فالعالِم أفضل، في علم النحو فالعالِم أفضل، في علم الكلام فالجاهل أفضل، كما قال بعض السلف: الجهل بالكلام علم، لأن علم الكلام أدَّى بأصحابه إلى مهالك، حتى إن فطاحل علمائهم، يَتمنَّون وهم في سياق الموت أنهم ماتوا على دين العجائز، ودين العجائز أسلم، وإن كان جهلًا، لكنه أسلم من علم يؤدي بهم والعياذ بالله إلى الشرك والحَيْرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذه من الآيات القليلة اللفظ، الكثيرة المعنى؛ لأنه يمكن أن تطبقها على كل علم، لكن هل هذا العلم محمود، أو مذموم؟ على حسب الحال، أي لا يستويان كما لا يستوي العالم والجاهل، لو قال العلم والجهل كان أوضح.

وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾، قوله: [بتخفيف الميم] أي: فالهمزة للاستفهام الإنكاري كما سيشير له بقوله: [أي: لا يستويان]، ومن اسم موصول بمعنى: الذي وتعرب هو مبتدأ في محل رفع خبره محذوف، قدَّره بقوله: [كمن هو عاصٍ]، وقوله: ﴿قَـٰنِتٌ﴾ جملة اسمية صلة الموصول، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالان من ﴿قَـٰنِتٌ﴾ وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ حال أخرى متداخلة أو مترادفة أو جملة استئنافية معترضة، وقوله: [بمعنى: بل] التي للإضراب الانتقالي، [والهمزة] (أي) التي للاستفهام الإنكاري، وعلى هذه القراءة ترسم الميم في النون كرسمها على قراءة التخفيف، وهذا اتباع لخط مصحف الإمام، كما يؤخذ من الجزرية وشرحها لشيخ الإسلام، وهذا بالنظر لرسم المصحف، وأمَّا في غيره فترسم ميم (أَمْ) مفصولة من ميم (مَنْ)، كما في عبارة الشارح، ومن على هذه القراءة مبتدأ أيضًا، والخبر: مُقَدَّرٌ كما تقدم في الإعراب بعينه، وقوله: [أي لا يستويان] أي: القانت والعاصي، فهذا تفسير للنفي المستفاد من همزة الإنكار في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ سواءٌ مصرَّحٌ بها على القراءة الأولى، والتي في ضمن أم على الثانية، وقوله: [وكما لا يستوي العالم والجاهل] تفسير لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالاستفهام فيه أيضًا إنكاري، قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾، قرأ الحرميان «نافع وابن كثير» بتخفيف الميم والباقون بتشديدها، فأما الأولى ففيها وجهان: أحدهما: أنها همزة الاستفهام دخلت على (مَنْ)، بمعنى: الذي، والاستفهام: للتقرير، ومقابله: محذوف تقديره: أمن هو قانت كمن جعل لله أندادًا، أو أَمَّنْ هو قانت كغيره، أو التقدير أهذا القانت خير أم الكافر المخاطب، لقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ويدل عليه قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فحذَفخبر المبتدأ، وما يعادل المستفهم عنه، والتقدير أن الأولين أول: لقلة الحذف، والثاني: أي تكون الهمزة للنداء، ومن المنادى؟ ويكون المنادي هو النبي ﷺ، وهو المأمور بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه قيل: يا من هو قانت، قل كيت وكيت.

وأما القراءة الثانية فهي (أَمْ) داخلة على من الموصولة، أيضًا، فأدغمت الميم في الميم، وفي (أَمْ) حينئذٍ قولان: أحدهما أنها متصلة ومعادلها محذوف، تقديره: الكافر خير أم الذي هو قانت، والثاني: أنها منقطعة، فتقدر ببل والهمزة، أي بل أمن هو قانت كغيره، أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك،انتهى.

على كل حال: تبين لنا من هذا البحث، أن قوله: [لا يستويان] أي القانت والكافر، كما لا

يستوي العالم والجاهل، فيكون قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ليس عائدًا على قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ - ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ إنما: أداة حصر، والحصر: هو إثبات الحكم في المحصور فيه، ونفيه عما سواه، فإذا قيل: إنما القائم زيد، فهو كقولنا: لا قائم إلا زيد، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾: يقول المؤلف: [يتعظ، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول]، أصحاب تفسير لأولوا، والعقول تفسير للألباب، والألباب: جمع لُبٍّ هو العقل، لأن الإنسان بلا عقل قشور، ولا يكون إنسانًا حقيقةً إلاَّ بالعقل، وعلى هذا فالكفار بجميع أنواعهم، قشور لا خَيْر فيهم، لأنهم ليسوا بعقلاء، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]؛ والعقل الذي يحمد فاعله، هو عقل الرُّشد، أي الذيَ يَحْجِزُك عماَ يضُرُّك، أما عقل الإدراك فإنه يستوي فيه المحمود والمذموم، عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وهو الذي يأتي في كلام الفقهاء، يقولون في شروط العبادة: العقل، يعني: عقل الإدراك، أما عقل الرشد الذي يحجز صاحبه عما يضره، فهذا لا علاقة بالتكليف به، بل إنما يقال من حجزه عقله عما يضره فهو العاقل حقًا، ومن لم يحجزه عقله عما يضره فلا عقل له ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يتذكر إلا هؤلاء.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الكافر لا يَعْرِفُ ربه إلا عند الضرورة، لقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن عبادة الضرورة لا تَنْفَعُ غالبًا، أي: أن الإنسان إذا عرف ربه عند الضرورة فقط، فالغالب أنه لا ينتفع بهذه العبادة؛ لأنها ليست عبادة عن رغبة، ولكنها عبادة من أجل إنجاء الإنسان من الهلكة، وإن كان أحيانًا يَنْتَفِع، ربما يكون هذا سببًا لفتح الله له، كما يوجد الآن من الناس - مثلًا - من يصاب بمرض شديد ويخاف منه الهلاك فينيب إلى الله عز وجل، ويدعو الله سبحانه وتعالى ثم يمن الله عليه بالاستمرار، لكن الغالب أن التعبد للضرورة لا يُفِيد.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الكافر يؤمن بالله، وأن إيمانه بالله لا يخرجه من الكفر، لقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ فالإيمان بالله وبربوبيته لا يكفي، ولا يخرج الإنسان من الكفر، ودليل ذلك أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرون بالله قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: يقرون بأن الذي خلق هو الله، ويصفونه بالصفات الكاملة، ومع ذلك فهم كفار استباح النبي ﷺ دماءهم ونساءهم وأموالهم، وذريتهم.

وبه نعرف أن من قال عن النصارى: إنهم مؤمنون فهو جاهل، بل إن كان عالمًا بما يدل عليه الشرع من كفرهم فهو مرتد؛ لأن من حَكَمَ بالإيمانِ لِمَن كفّره الله فإنه مرتد مكذب لله عز وجل، وكذلك من قال عن اليهود إنهم مؤمنون بالله فإن هذا الكلام صادر إما عن جهل وإما عن ردة والعياذ بالله، فإذا قال إنهم يؤمنون بالله، يقولون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الكاشف للضر، وهو المدبر للأمور، قلنا هذا لا ينفعهم، ولهذا تجد عند العامة، عندما التبس على بعضهم هذا الأمر تجدهم إذا قيل لهم إنَّ تارك الصلاة كافر قالوا: كيف يكون كافرًا وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أين الكفر، فيقال ليس كل من شهد بهذا يكون مؤمنًا، وكان المنافقون يأتون إلى رسول الله ﷺ، يقولون نشهد إنك لرسول الله، ويؤكدون هذا، فيؤكد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كذبهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، وإن شهدوا بألسنتهم فهم كاذبون بقلوبهم، على كل حال هذه الآية تدل على أن مجرد اعتراف الإنسان بالرب لا يُخْرِجُهُ عن الكفر.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ فإن قال قائل: كيف يجيب الله دعوته وهو كافر؟ قلنا: هذا من آثار سبق رحمته لغضبه، فإن رحمته سبقت غضبه، فالكفر موجب للغضب، والضرورة موجبة للرحمة، فتسبق الرحمة الغضب، فيجيبه الله عز وجل، وهذا كإجابة المظلوم ولو كان كافرًا، المظلوم تجاب دعوته ولو كان كافرًا، إقامة للعدل، وانتصارًا للحق، قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ[1] فَإِنَّهُ ليسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ[2]»[1]، إذن فهذان شخصان تجاب دعوتها مع الكفر، هما المظلوم ومن وقع

(١) تجنب الظلم لئلا يدعو عليك مظلوم.
(٢) حاجز يحول دون وصولها واستجابتها.

في ضرورة إذا دعا الله، لماذا؟ لابد أن نعلل كيف يخرج هذا عن القاعدة بأن الكافر مغضوب عليه، نقول: أما إجابة المظلوم فمن أجل العدل والانتصار للحق، وأما إجابة المضطر: فلأن المضطر اجتمع في حقه سببان: سبب موجب للرحمة وهو الضرورة، وسبب موجب للغضب والانتقام وهو الكفر، ورحمة الله تعالى قد سبقت غضبه.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن النعمة محض فضل من الله، لقوله: ﴿إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ خوله نعمة، فالنعمة محض فضل من الله عز وجل؛ لأنها لا يمكن أن تكون مكافأة عن عمل، فإن الإنسان لو حوسب على عمله محاسبة دقيقة، لكان عمله لا يقابل واحد بالملايين من نعم الله عز وجل، فيخرج مغلوبًا؛ بل إن بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ يقولون: إن العمل الصالح من نعمة الله، نفس العمل من النعمة، فإذا شكر العمل، صار الشكرُ نعمة، وإن شكر الشكر، صار نعمة أخرى، وعلى هذا قول الشاعر(٢):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نَعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بلوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَت الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

صحيح هذا أو لا؟ صحيح؛ لأنك إذا أنعم الله عليك نعمة ثم شكرتها، فشكرك إياه نعمة، ثم إن شكرته على الشكر، فهو نعمة أخرى، وَهَلُمَّ جَرًّا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكافر إن شئت فقل الإنسان يَنْسى النعمة، إذا أنعم الله عليه نعمة بعد ضرورة، نسي، ثم عاد إلى غيِّه، وهذا خطير جدًا على الإنسان، هذا هو واقع الإنسان، أن الله إذا أنعم عليه نعمة بإنجائه من ضرورة، نسي ذلك ثم عاد إلى غيِّه، وهذا يقع، نجد الأحداث الآن تمر بالناس، يمكن في حال حلول هذه الأحداث يمكن أن يكون لهم رجعة بعض الشيء، لكن إذا زالت الضرورة عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، بل ربما يَحْمِلُهُم الأَشَرُ والبَطَرُ على أن يزيدوا في غيِّهم، وهذا له خطورته، فإن الله تعالى ذكر في القرآن أن الإنسان إذا عاد

(١) رواه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينسب هذا البيت إلى: محمود الوراق، محمود بن حسن الوراق أبو الحسن. شاعر عباسي مشهور من شعراء القرنين الثاني والثالث المرموقين، وقد ذكر أنه كان مولى لبني زهرة وهو شاعر من بغداد لذلك علق به لقب البغدادي. وأكثر شعره في المواعظ والحكم وقد اشتهر بلقبين أحدها الوراق والآخر النخاس فأما الوراق فهو الناسخ بالأجرة ولعلها مهنة عمل بها. وأما اللقب الآخر النخاس فقد جاء من المهنة كذلك قال البغدادي: وقد كان نخاساً يبيع الرقيق وكان له رقيق.

إلى غيِّه بعد إنقاذه من الهلاك فإن الله يصيبه بعذاب أشد من الأول.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الكافر يعود إلى كفره، ولا يذكر ما دعا الله إليه من قبل، وهو إنقاذه من الضرورة، لقوله تعالى: ﴿مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا نِدَّ له؛ لأن الله أنكر على من جعل له أندادًا، فيكون في هذا ردٌّ على أهل التمثيل، الذين أثبتوا لله الصفات، مع التمثيل، فقالوا: إن الله تعالى له وجه كوجوهنا، ويد كأيدينا، وعين كأعيننا، وساق كسوقنا، وهكذا، نقول: كلامهم هذا كذب، وأنتم وأهل التعطيل سواء؛ لأنكم عطلتم النص عن مدلوله الصحيح، إذ إن مدلول النصوص في صفات الله، صفات لائقة بالله عز وجل، فإذا جعلتموها للتمثيل حرفتموها، وعلى هذا فيكون في الآية رد على أهل التمثيل الذين أثبتوا الصفات لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع التمثيل، نقول: هذا الفعل منكم تعطيل في الحقيقة لمدلول النص الصحيح؛ لأن مدلول النص فيما يتعلق بالصفات صفات لائقة بالله عز وجل.

٩ ـ **ومن الفوائد**: أن هؤلاء الكفار يحرصون على أن يضل الناس بفعلهم، لقوله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءة الضم.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: أنه كما يكون الاقتداء بالقول، يكون الاقتداء بالفعل، كيف ذلك؟ لأن هذا الكافر جعل لله أندادًا، وكان جَعْلُه الأنداد سببًا لضلال غيره، ويتفرع على هذه الفائدة: وهي تحذير الإنسان ولا سيما القدوة من المخالفة؛ لأن الناس سوف يقتدون به ويحتجُّون بفعله، فمثلًا طالب العلم، إذا قام إلى الصلاة يكثر الحركة، مرة يحك رأسه، ومرة يحك ظهره، ومرة يحك بطنه، ومرة يفرك عينه، ومرة ينظر إلى ساعته، ومرة يكتب ما تذكر في صلاته، إذا كان هذا طالب العلم يفعل هذا الشيء فإن الناس سوف يقتدون به، لو أُنكر على واحد من الناس كثرة الحركة لقال فلان يفعل، ولهذا أحيانًا ننكر على بعض الناس المعاملات الربوية التَحَيُّلِيَّة، فيقولون فلان يفعل كذا، من الناس ممن هو من طلبة العلم، فالناس يحتجون، وهذه الآية تدل على أن الاقتداء يكون بالفعل، لقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولم يقل ودعا الناس ليضلوا عن سبيل الله، بل جعل فعله سببًا لضلال الناس، وهذا يدل على الاقتداء بالفعل كالقول، وأما على قراءة الفتح، فيؤخذ منه فائدة، وهي أن جعل الأنداد لله ضلال، لقوله: ﴿لِّيَضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

١١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تهديد هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دون الله

أندادًا، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وقد بين الله صفة هذا التمتع، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ البهائم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الدنيا مهما طالت، فهي قصيرة، ولا تُنْسَب إلى الآخرة، ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ يقول للرسول ﷺ، ويقول للعموم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٦، ١٧] وقال النبي ﷺ، «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] السوط: عصا قصيرة، موضعه خير من الدنيا وما فيها، أي دنيا؟ كلها منذ نشأت إلى قيام الساعة، بما فيها من الزخارف واللهو والزينة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا قال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، فهذه المتعة للكافر، وإن كان ينال شهوته، هي قليلة، زمنًا، وقليلة كمية، وقليلة كيفية.

١٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الكفار ملازمون للنار لا يخرجون منها، لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ لأن الصاحب هو الملازم.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** مخاطبة الإنسان بما يليق بحاله، فهذا الكافر المعاند الذي بدَّل نعمة الله كفرًا، يخاطب بهذا الخطاب القاسي، وهو ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، بينما لو كانت المسألة مسألة دعوة ما قابلناه هذه المقابلة، لا نقول لمن ندعوه إلى الإسلام: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، لكن نقوله: لمن عاند وكابر وبدل نعمة الله كفرًا.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات النار، لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ويجب علينا في إثبات النار شيئان:

الأول: إثبات وجودها الآن، وأنها موجودة، فإن النبي ﷺ عُرِضت عليه الجنة وعرضت عليه النار في صلاة الكسوف، وشاهدها ورأى من يعذَّب فيها، رأى فيها امرأة تعذب في هرة[2] حبستها حتى ماتت، ورأى فيها صاحب المِحْجَنِ يُعَذَّب[3]، صاحب المحجن رجل معه محجن، والمحجن تعرفونه، هو عندنا في اللغة العامية محجان، محجان: عصا محنية الرأس، هذا الرجل يمر

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٥)، والترمذي (١٦٦٤)، وأحمد في مسنده (١٥٦٠١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) أي بسبب هرة لها.

(٣) رواه مسلم (٩٠٤)، وأحمد في مسنده (١٥٠٦٠) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

بالحجاج فيشبك متاع الحاج برأس المحجن فإن تفطَّن له صاحبُ المتاع قال والله هذا المحجن، المحجن أمْسَكَ به، سامحني، يمكن أن يقول: سامحني أو ما يقوله، وإن لم يتفطن له أخذه، فرآه النبي ﷺ، يعذب في النار بمحجنه وهو يصلي صلاة الكسوف، ثم تأخر النبي ﷺ، تأخر مخافة أن يصيبه من لفح النار، إذن فرؤيته إياها حسية، هذا واحد.

الشيء الثاني: يجب أن نؤمن بأن النار مؤبدة أبد الآبدين يعذب فيها أهلها، ما هم عنها بمخرجين، وهي مؤبدة دائمًا؛ لأن الله تعالى ذكر تأبيدها في ثلاثة مواضع من القرآن، الموضع الأول: في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] والموضع الثاني: في سورة الأحزاب، في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤، ٦٥] والموضع الثالث: في سورة الجن، في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] بعد هذا لا يمكن أن نقبل قولًا من أي عالم كان بأن النار غير مؤبدة، ولا نقابل هذا النص الصريح بقياسات، لأن قوله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»، هذا صحيح نص محكم وخبر صادق، لكن الخبر يجوز تخصيصه، فنقول: أهل النار ليسوا أهلًا للرحمة، وعقوبة الله إياهم على التأبيد هي من كمال عدله وحكمته، فكما أمضوا أعمارهم بالكفر، كل الدنيا أفنوها بالكفر، فالآخرة أيضًا تذهب عليهم بالجزاء والعقوبة، هذا هو العدل، وهذه هي الحكمة، أليس كذلك؟ نقول: عمرك بالدنيا كله مضى في الكفر، إذن حياتك في الآخرة، تمضي بالجزاء والعقوبة، لا حياة لك في الآخرة كما أنه لم يكن لك حياة في الدنيا بطاعة الله.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن القرآن الكريم يفتح للإنسان الاستدلال العقلي، يعني أنه يعرض الأشياء عرضًا عقليًّا، وذلك بطلب التدبّر والتفهّم، فمثلًا: من هو قانت ومن هو عاصٍ؟ بكل بساطة إذا عُرِضَت حال هذا وحال هذا على العقل ماذا يقول؟ يقول: لا يستويان، من هو قانت آناء الليل ليس كمن هو عاص، وهذه من الطرق التي ينبغي لطالب العلم عند المناظرة أن يتخذها سبيلًا إلى إفحام الخصم؛ لأن كثيرًا من الخصوم قد لا يقتنعون بمجرد الدليل الأثري،

فنسوق إليهم الدليل النظري، ولا سيما في الوقت الحاضر، حيث اتخذ كثير من الناس إن لم أقل أكثرهم طريق إبليس سبيلًا، وهو معارضة السمع بما يظنه عقلًا، يعني: معارضة النصوص بما يظنون أنه عقل، ونحن نعلم علم اليقين أنه ليس في النصوص ما يخالف العقل الصريح أبدًا، بل في النصوص ما يؤيده العقل الصريح، ويكون هذا شاهدًا لهذا، كل منهما يقوى بالآخر، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في النونية، أن لدينا أربعة أدلة كلها يشهد بعضها لبعض، هي الكتاب والسنة والعقل والفطرة، هذه الأدلة الأربعة لا يمكن أن تتناقض أو تتنافى، بل بعضها يؤيد بعضًا ويشهد له، والله أعلم.

وأما ما قيل عن شيخ الإسلام أنه قال بفناء النار؟ الجواب: هذا ليس صحيحًا ولنفرض أن الذي قال بفناء النار وحاشاه من ذلك أبو بكر، أفضل من شيخ الإسلام بألف مرة، هل نقبله مع وجود الآيات؟ لا نقبله، الحقيقة إذا وجدنا قولًا مخالفًا للكتاب والسنة من أي قائل به، فإن موقفنا أن نعتذر عنه، لا أن نجعل قوله حجة على كلام الله ورسوله، مهما كان، يعني لا يوجد أحد معصوم، لا يوجد أحد معصوم من الخطأ أبدًا إلا من عصمه الله - عزَّ وجلَّ - كالرسل.

مسألة: يمكن أن نقول إن قراءة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ أبلغ من قراءة ﴿لِيَضَلَّ﴾؟

الجواب: لا، لكن ممكن أن نقول إنه أَضَلَّ، و(يُضل) متعدي ضرره للغير، لكن إذا قلنا إنه ضَلَّ أول فَأَضَلَّ ثانيًا، يكون مجموع القراءتين فيهما فائدة ما تحصل بانفراد أحدهما.

قال الله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

٢ - **ومن فوائد هذه الآية**: بيان الفرق بين الناس في عبادة الله عز وجل، وأنه لا سواء بين من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا إلى آخره، ومن هو عاصٍ بعيد عن الله عز وجل.

٣ - **ومن فوائد الآية**: أن ظاهرها: دوام الطاعة آناء الليل في السجود والقيام، أي في الصلاة، ولكن السنة بينت ذلك، وأن الأفضل في قيام الليل أن ينام نصفه، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وهذا من تقييد القرآن بالسنة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: فضيلة صلاة الليل، لقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وقد دلت على ذلك السنة،

فقال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ المَكْتُوبَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»[1].

٥ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة القيام والسجود من بين أركان الصلاة، أن القيام شريف بذكره، والسجود شريف بهيئته.

٦ ـ **ومن الفوائد**: أنه ينبغي للإنسان أن يكون في سيره إلى الله جامعًا بين الخوف والرجاء، لقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ولكن هل يكونان سواءً؟ أو تُغَلَّب جانب الرجاء؟ أو يُغَلِّب جانب الخوف؟

في هذا أقوال لأرباب السلوك، فمنهم من قال: ينبغي أن يكون رجاءه وخوفه واحدًا، كجناحي الطير، إذا مال أحدهما اختل طيرانه، قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف أَدْخَلَهُ في اليأس والقنوط، وإن غلَّب جانب الرجاء أدخله في الأمن من مكر الله.

وقال بعض أرباب السلوك: ينبغي أن يغلب جانب الرجاء، لقول الله تعالى في الحديث القدسي «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ»[2] وعلى هذا فيُغَلِّب جانب الرجاء، وقال بعض العلماء: يُغلِّب عند فعل الطاعات جانب الرجاء، فإذا فعل طاعة فليُغلِّب جانب القبول، دون جانب الرد، أما في فعل المعصية فإن الأَوْلَى أن يُغلِّب جانب الخوف، لئلاً يقع في المعصية.

وقال بعضهم: في حال المرض يُغلِّب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلِّب جانب الخوف؛ لأن النبي ﷺ، قال: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهو يُحْسِن الظَّنَّ بِالله»[3] والمريض، قد وجد فيه سبب الموت وهو المرض، فيغلب جانب الرجاء، ليموت وهو يُحْسِن الظن بالله، ولو قال قائل: إنه يُرْجَعُ في ذلك إلى نَفْس الإنسان، والإنسان هو طبيب نفسه، إن رأى من نفسه جنوحًا إلى انتهاك المعاصي والمحرمات فليعدها، بل فليتوعدها بالعذاب، حتى يرتدع، وإن رأى من نفسه قوة على طاعة الله ومثابرة عليها وقيامًا بها، فليغلب جانب الرجاء، حتى يُحْسِن الظن بالله، وهذا يرجع إلى الإنسان نفسه، والإنسان في بعض الأحيان يغلب هذا وفي بعض الأحيان يغلب هذا.

٧ ـ **ومن فوائدها**: إثبات عذاب الآخرة، لقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ ولا يُحذر الشيء إلا بثبوته، أما ما ليس بثابت فلا يحذر.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أنه في باب الجزاء والأحكام يغلب جانب الربوبية، لقوله: ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ لأن الربوبية هي التي بها التصرف والسلطان.

---

(١) رواه مسلم (١١٦٣)، وأحمد في مسنده (٨٠١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: انظر السلسة الصحيحة (١٦٦٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبوداود (٣١١٣)، وأحمد في مسنده (١٤٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

٩ ـ **ومن الفوائد**: أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: أن هذا النفي أمر معترف به؛ لأنه جاء بصيغة الاستفهام، ونحن ذكرنا أنه إذا جاء الاستفهام مرادًا به النفي، صار مُشْرَبًا معنى التحدي.

١١ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة العلم، ولكن يجب أن نعلم أن العلم يشرف بشرف موضوعه، وعلى هذا فأفضل العلوم العلم بأسماء الله وصفاته؛ لأن هذا أشرف موضوعات العلم، ثم العلم بأحكامه، لقوله ﷺ «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يفقههُ[1] في الدينِ»[2] ثم تتلو العلوم حسب مراتبها، وأخس العلوم هو ما يصد عن سبيل الله، وعن طريق السلف الصالح، مثل علم الفلسفة، علم الكلام، وما أشبهها، إلا إذا تعلمه الإنسان من أجل أن يَرُدَّبه على أهله، فهنا قد يكون تعلمه واجبًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا أمر النبي ﷺ، «زيد بن ثابت» رضي الله عنه أن يتعلم لغة اليهود[3]، مع أن تعلم اللغات الأجنبية ليس محمودًا ولا مأمورًا به، لكن لما كان وسيلة إلى معرفة ما يأتي من الكتابات من اليهود، والرد عليهم بلغتهم، أمره النبي ﷺ أن يتعلم لغة اليهود، وتعلم لغة اليهود في ستة عشر يومًا؛ «لأن زيد بن ثابت» رضي الله عنه من الأذكياء، فتعلمها، ثم إن اللغة العبرية قريبة من اللغة العربية فسهل تعلمها.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أصحاب العقول هم أهل الاتعاظ، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها**: أن من لايتذكر فهو ناقص العقل؛ لأنه إذا كان لا يتذكر إلا أصحاب العقول، فمن لا يتذكر يكون ناقص العقل ولا شك، ونقصان عقله بحسب نقصه في التذكر، ووجه ذلك من الناحية العقلية النظرية، أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يختار لنفسه إلا ما فيه النجاة، ولا نجاة من عذاب الله إلا بالتذكر والاتعاظ، فلهذا كان العقل السليم يستلزم أن يتذكر الإنسان ويتعظ من أجل طلب ما هو أحظ للنفس وأنفع، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

١٤ ـ **ومن فوائدها**: الثناء على ذوي العقول حيث جعلهم هم المتذكرين، المتعظين المنتفعين بما يسمعون.

(١) يجعله فقيها والفقه الفهم.

(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) صحيح: رواه البيهقي في الكبرى (١١٩٧٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧).

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

❁ التفسير ❁

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يَصِحّ توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون التقدير: قل يا محمد، وعلى الثاني: يكون التقدير: قل يا أيها الإنسان، ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ (عبادِ): هنا فيها شيء محذوف، وهو الياء التي دلت عليها الكسرة، في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ وحذفت الياء تخفيفًا، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، الذين:عطف بيان أو وصف، الذين آمنوا: الإيمان في اللغة التصديق أو الإقرار؟ بل نقول الإقرار؛ لأنه هو المطابق للإيمان في التعدي والعمل، يُقال: أقر بكذا، وآمن بكذا، التصديق لا يطابقه تمامًا، وعلى هذا فنقول: الإيمان هو الإقرار، لكنه ليس مجرد الإقرار، كما قاله بعض طوائف المبتدعة، مثل مرجئة الجهمية، نقول هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، هذا الإيمان، إذا لم يستلزم للقبول والإذعان، فإنه ليس بإيمان.

وقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قال المؤلف: [أي عذابه] وفي هذا نظر، بل المراد تقوى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يضيف التقوى إلى نفسه، وأحيانًا إلى النار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾، فلو فسرت تقوى الله بتقوى عذابه، لكان في الآية تكرار، فالصواب أن الله يضيف التقوى إلى نفسه وأحيانًا إلى النار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، كما في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والصحيح أنها تفسر بما تضاف إليه، فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله نفسه؛ لعظمته، وكمال سلطانه عز وجل، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: عذابه بأن تطيعوه]، أي عذابه نقول الصحيح: أي الله نفسه، وقوله بأن تطيعوه: هذا تفسير للتقوى، وعلى هذا فنقول التقوى طاعة الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لأن أصل التقوى مأخوذ من الوقاية، ولهذا يقولون: إن أصلها قوى من الوقاية، والوقاية: هي اتخاذ ما يقي الإنسان، وما يقي الإنسان من عذاب الله إلا طاعة الله، ولهذا نقول: إن أجمع ما قيل في التقوى أنها طاعة الله كما قال المؤلف رحمه الله، أو اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل:٣٠]، للذين: خبر مقدم، وحسنة:

مبتدأ مؤخر، للذين أحسنوا في هذه الدنيا، أحسنوا بماذا؟ الإحسان يكون في عبادة الله ويكون إلى عباد الله.

أما الإحسان في عبادة الله، فلا أجمع ولا أصدق من تفسير النبي ﷺ، له، حين سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، إذا عَبَدَ الإنسان ربه كأنه يراه، فسوف يعبده حق العبادة؛ لأنه يَعْبُد الله كأنه يرى الله وبهذا تكون عبادته مبنية على كمال اليقين، وإذا كانت كذلك فلابد أن تكون موافقة للأمر، ولابد أن تكون خالصة، إذن الإحسان تمام الإخلاص، وتمام المتابعة، من أين عرفنا أن هذا حده؟ لقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه»، وعبادة الله على هذا الوجه، مبنية على تمام اليقين، أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الثانية، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، يعني: فإن لم تعبده على هذا الوجه، فاعلم أنه يراك، ويقال: إن الأول إحسان في الطلب، والثاني: إحسان في الهرب، يعني العابد طلبًا، أكمل حالًا من العابد هربًا، إذن الإحسان في عبادة الله، بأي شيء نحده؟ بما حده النبي ﷺ، في قوله لجبريل:« الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أي: أن تعبده عبادة مبنية على تمام اليقين، وهذا يلزم منه أن تكون العبادة خالصة لله متابعًا فيها شريعة الله.

وأما الإحسان إلى عباد الله يكون بالمال، والبدن، وهو كثير، قد تحسن إلى عباد الله بالمال، كالصدقات والهدايا والهبات، وقد تحسن إلى عباد الله بالبدن كالمساعدة وما أشبه ذلك، وتُعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه، تعين عباد الله بالجاه، والشفاعة عند الحاجة إلى ذلك؛ المهم أن الإحسان إلى عباد الله متنوع كثير، وقد فسره بعضهم، بأنه كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه، كف الأذى عن الناس؛ لأن من لم يكف أذاه فإنه لم يحسن، والثاني: بذل الندى أي المعروف، والثالث: طلاقة الوجه، بأن تلقى الناس بوجه منطلق منشرح، لا بوجه مقطم معبس، إذن الإحسان إحسان في عبادة الله، وإحسان إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هذا يقول المؤلف: [للذين أحسنوا في هذه الدنيا بالطاعة]، يعني ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلقة بماذا؟ بـ﴿أَحْسَنُوا﴾ وقول المؤلف: [بالطاعة] فيه قصور، وجهه أننا قلنا: إن الإحسان يشمل الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله، على كلام المؤلف في العبادة فقط، ولكن الصحيح ما ذكرنا، لهم حسنة: قال المؤلف: [هي الجنة]، ولعله اعتمد في هذا التفسير، على قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٩] فإن الحسنى هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ، ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، كيف المناسبة بين قوله:

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، وبين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، المناسبة أن من جملة الإحسان في الدنيا الهجرة، لا شك، لأن الهجرة من أكبر ما يدل على صدق العامل، إذ إن المهاجر، يدع أهله ووطنه وعشيرته، وماله، لله، يهاجرون إلى الله، فهذه هي المناسبة، وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، فهاجِروا إليها من بين الكفار، ومشاهدة المنكرات، صدق الله - عزَّ وجلَّ - أرض الله واسعة، إذا ضاقت بك الأرض يومًا فَثَمَّ السَّعَة، اخرج، تسلم في دينك وعرضك، ولا تشح بمالك ودارك، وأهلك وعشيرتك، فإن الدين أغلى من ذلك كله.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، لو أن الدار التي كانوا فيها ضيقة، نعم هي كانت ضيقة لكنه ضيق معنوي، لأن السعة والضيق، - في الحقيقة - إنما يكون بالقلب، كم من إنسان في بيت ضيق حجره بقدر فراشه وتجده مسرورًا منشرح الصدر، وكم من إنسان في قصور مَشِيْدَة ولكنه في ضيق وغم، فسَعَةَ الأرض - في الحقيقة - بالنسبة للمهاجر واضحَّة جدًا؛ لأن بقاءه يشاهد المنكرات ويشاهد ما يؤذيه وما يؤلمه لا شك أن هذا ضيق.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ﴿يُوَفَّى﴾: أي يُعْطَى، وإنما: أداة حصر، والمعنى ما يوفى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب، أي أجرًا كثيرًا أكثر من الأعمال، وقوله: ﴿يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾، لماذا قال: الصابرون وهم موفون؟، ولم يقل الصابرين؟ ونائب الفاعل يكون مفعولاً به في المعنى فاعلاً في اللفظ، ومعناه أنه يعرب إعراب الفاعل، ولكنه في المعنى مفعول به.

قال (ابن مالك):

يَنُوبُ مَفْعُولٌ بِهِ عِنْ فَاعِلِهْ ... فيما لَهُ كَنِيْلَ خَيْرُ نَائِلِه

وقوله: ﴿الصَّابِرُونَ﴾ قال المؤلف: [على الطاعة، وما يُبْتَلُونَ به]، فذكر نوعين من أنواع الصبر، وبقي عليه واحد، وهو الصبر عن معصية الله، إلا أن يقال إن الطاعة بالمعنى الأعم تشمل امتثال الأمر واجتناب النهي فيكون قد وَفَّى المؤلف أنواع الصبر.

حيث إن أنواع الصبر ثلاثة:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، أعلاها: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله، هذا من حيث نوع الصبر نفسه.

أما من حيث الصابر، فإن الإنسان أحيانًا يعاني من الصبر عن المعصية، أكثر مما يعاني من الصبر على الطاعة، وكذلك الصبر على البلاء قد يعاني منه أكثر مما يعاني على الصبر عن المعصية وعلى الطاعة.

لكن نقول: من حيث النوع، نوع الصبر، بقطع النظر عن الصابر أفضله، الصبر على الطاعة، ثم عن المعصية، ثم على الأقدار، لماذا؟ لأن الصبر على الطاعة يحتاج إلى جهد نفسي وجهد بدني، أما الصبر عن المعصية يحتاج إلى جهد نفسي فقط، لماذا؟ لأنه ترك، ما عليك أي تعب، لكن النفس

تعب، إذا كانت المعصية مما تدعو إليه النفس، وكففت، عنها تعبت النفس ولا شك، إذن ليس فيها إلا تعب واحد وهو مجاهدة النفس على الترك.

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة، هو أدناها، لماذا؟ لأن الأمر ليس إليك، الأمر تَمَّ، فهو كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلوَ سلوَ البهائم، ليس منك أي عمل، شيء لابد أن يصيبك أصابك. يقولون: إن يوسف عليه الصلاة والسلام ابتلي بأنواع الصبر الثلاثة، الصبر على الطاعة إلى الله وهو في السجن، حيث قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠]، هذا لا شك صبر، إنسان مسجون ويدعوا الناس إلى التوحيد. والصبر عن المعصية: امتناعه عن موافقة امرأة العزيز حين راودته عن نفسه.

والصبر على أقدار الله ما حدث له من إخوته، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أجرهم، أي: ثوابهم، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ بكرمه سمى الثواب أجرًا، من باب اطمئنان العامل إلى استيفائه، لأن الأجر مقابل عمل لابد أن يسلم، كأن العمل والجزاء معاوضة، وعقد بين الله وبين العامل، إن الله يعطيه الثمن الأجر، مع أن الله تعالى هو المتفضل أولًا وآخرًا، هو المتفضل أولًا بالتوفيق للعمل، ولولا أن الله أعانك وسددك ما قدرت، ثم المتفضل ثانيًا بالأجر، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقول: بغير مكيال ولا ميزان، يعني: أن الأجر الذي يعطيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على العمل ليس على سبيل التدقيق، والمعاوضة التي تكون بين العباد، المعاوضة بين العباد عدل، يعني ما يعطيك أكثر مما تستحق.

وأما ثواب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الصبر فهو أكثر، بدون حساب، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، والصبر لا حساب له، إذن يتوقع الصابر بأن له جزاءً لا يدركه عقله من كثرته؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، كما أن الصبر فيه فائدة عظيمة للإنسان نفسه، وهو ترويض النفس على التحمل.

كثير من الناس يريد أن تكون الأمور بسرعة، يدعو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بكشف ضر وتتأخر الإجابة، فيقول لماذا؟ وييأس، نقول اصبر، وطِّن نفسك على الصبر، هذه تربية، أن توطن نفسك على الصبر، والصبر مع انتظار الفرج، يعتبر من أعظم العبادات؛ لأنك إذا كنت تنتظر الفرج فإنك تنتظر الفرج من الله عز وجل، هذه عبادة، وقد قال النبي ﷺ، «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ**»[1] النصر قال مع الصبر، والفرج مع الكرب، فكلما اكتربت الأمور، فإن الفرج أقرب إليك، وأن مع العسر يسرًا.

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢٨٠٤) ، والطبراني فى الكبير (١١/ ١٢٣) ، والحاكم فى المستدرك (٦٣٠٤) ، والقضاعى فى مسند الشهاب (٧٤٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٧٥٢) .

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِ الذَينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: ١ ـ في هذه الآية: أمر للنبي ﷺ أن يقول للناس: ﴿قُلْ يا عِبادِ الذَينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، أي يأمرهم بتقوى الله تعالى وأن يقول لهم: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أنه لابد مع الإيمان من التقوى، لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذه الصيغة ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لن يقولها النبي ﷺ، بهذا اللفظ، لكن سيقول: يا عباد الله، أو كلمة نحوها، ولكن الله أضاف ذلك إلى نفسه، ليبين الإخلاص لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه العبادة.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الرب وهو الخالق المالك المدبر، هو أهل التقوى دون غيره، كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن للمحسنين في هذه الدنيا حسنة، لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن الله بفضله وكرمه يعجل الثواب لمن يستحق الثواب في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن حسنات الدنيا دون حسنات الآخرة بكثير.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: وجوب المهاجرة إلى الله ورسوله، إذا كان الإنسان في بلد كفرٍ لا يقدر على إظهار دينه، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أنه من الدعوة إلى الله ومن حسن الدعوة إقامة الحجة، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فإنه لا عذر لأحد أن يقول لا أجد ملجئًا أو لا أجد مهاجرًا.

٨ ـ **ومن فوائدها**، أن الأرض لله، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وهذا كما قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

٩ ـ **ومن فوائدها**: فضيلة الصبر، وأن صاحبه يوفى أجره بغير حساب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: كرم الله عز وجل، حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر كأنه معاوضة يعاوض به العامل؛ لقوله: ﴿أَجْرَهُمْ﴾.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١]

التفسير

﴿قُلْ﴾: أي يا محمد، ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ : أي أمرني ربي، وهذه الصيغة تأتي بالبناء للمجهول؛ لأن الفاعل معلوم، وهذا يشبه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام، قال «**أمرتُ أنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أعظم**». ﴿أُمِرْتُ﴾، لأن الآمر معلوم وهو الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وجاء بكلمة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، للإشارة إلى مقام النبي ﷺ، وأنه عبد يُؤمر وينهى وليس له من حق الربوبية شيء.

وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ أي أتذلل له، والعبادة تطلق على معنيين:

الأول: التذلل لله، الذي هو فعل العابد.

والثاني: المُتَعَبَّد به، وهي العبادات على جميع أنواعها، وعلى هذا يكون تعريف شيخ الإسلام (ابن تيمية) للعبادة في قوله: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة)، وذلك؛ لأن العبادة كما قلت: تطلق على معنيين: الأول: التعبد الذي هو فعل العبد، الثاني: المتعبَد به وهي العبادات، وهنا ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ يشمل المعنيين، يعني أن أتعبد له بالعبادة.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل أعبد، أي حال كونه مخلصًا لله، من الشرك، لأن الإخلاص يعني التنقية، وينقى من أي شيء؟ ينقى من الشرك، لأن العمل إذا شابه الشرك أفسده وأبطله، قال الله في الحديث القدسي «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

وقوله: ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، قال: [من الشرك]، والمراد بالدين هنا: العمل الذي يعمله الإنسان لأجل أن يدان به، وأما عمل لا يؤمل أن يدان به، فهذا لا يسمى مدينًا وإن كان عملًا، لابد أن يكون عاملًا من أجل أن يدان بهذا العمل حيث يقول الله عز وجل: ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ومر علينا كثيرًا أن الدين يطلق على العمل ويطلق على الجزاء، ففي قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] الجزاء، وفي قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي العمل.

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢].

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف المفسر: أي [بأن]، فجعل اللام بمعنى الباء، وذلك؛ لأن أمر إنما تتعدى بالباء، ولا تتعدى باللام، فلهذا فسرها المؤلف بالباء، وهذا أحد المسلكين للنحاة، فيما إذا تلا الفعل حرف لا يتعدى به غالبًا، فإنهم يجعلون هذا الحرف بمعنى الحرف الذي يتعدى به العامل، فمثلًا هنا [أُمِرْتُ لأن أكون] يجعلون اللام بمعنى الباء، وفي قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] يجعلون الباء بمعنى من، أي: يشرب منه، والمسلك الثاني للنحاة: أنهم يحولون الفعل إلى فعل يناسب المتعلق، ويسمون هذا تضمينًا، أي أن الفعل المذكور ضُمِّن فعلًا يتعدى بالحرف المذكور، فمثلًا ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، يقولون: المعنى يروى بها، فضمن الشرب معنى الري، ولا شك أن هذا يعطي الآية أو النص معنىً أكثر؛ لأنه يبقي الحرف ما هو عليه ويعطي الفعل المذكور معنىً زائدًا على ما يدل عليه لفظه، فيكون هذا المسلك أولى، لكن أحيانًا يصعب على طالب العلم ولا سيما المبتدئ أن يقدر الفعل المناسب الذي يكون مضمونًا للفعل المذكور، حينئذٍ يلجأ إلى الأسهل وهو تحويل الحرف إلى حرف يناسب الفعل المذكور، فهنا ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ لا شك أنه من السهل أن نقول إن اللام بمعنى الباء، يعني أمرت بأن أكون، لكن لو أردنا أن نضمن أمرت معنىً يناسب اللام، (أُمِرتُ لأن أكون) يحتاج إلى تأمل وتفكير في المعنى، لماذا قال أُمِرتُ لأن أكون؟ ممكن أن نقدر؛ فنقول: (أمرت أن أعبد الله لأن أكون أول المسلمين)، فتكون اللام تعليلًا للفعل المحذوف وهو (أن أعبد الله لأن أكون أول المسلمين)، يعني: وجه الأمر إلي أولًا لأن أكون أول المسلمين، أي: المنقادين لأمر الله، وحينئذٍ نستفيد من هذا معنيين: معنى الأمر ومعنى العبادة التي حذفت ليصح تعليق الحرف به.

قال: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ من هذه الأمة)، قال المؤلف: [من هذه الأمة]، وكلمة أول المسلمين، الإسلام يطلق على الانقياد؛ لأنه مأخوذ من أسلم أمره إلى غيره، ومن الاستسلام في الحرب، لأن المستسلم ينقاد للغالب الذي غلبه، فالإسلام هو الانقياد ظاهرًا، وبناءً على هذا يكون المنافقون مسلمين ظاهرًا، ولهذا يطلق الإسلام على ضعيف الإيمان، كما قال تعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] أحيانًا يطلق الإسلام على الشريعة كلها، فيشمل الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، وهو الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ليس المراد الاستسلام الظاهر وإنما المراد الشرائع كلها، رضيت لكم الإسلام: أي شرائع الإسلام كلها، ويقول أهل العلم: الإسلام إذا قرن بالإيمان فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة، قالوا: ومن ذلك حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ وتَحُجَّ البَيْتَ»، ولما سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بَالله ومَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، أما إذا أطلق إي إذا أُفرِد أحدهما فإنه يشمل الآخر، فالإسلام إذا ذكر وحده شمل جميع الشرائع ومنها الإيمان، والإيمان إذا ذكر وحده شمل جميع الشرائع ومنه الإسلام.

قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال: [من هذه الأمة]، لماذا قيد الآية مع أنها مطلقة؟ أول المسلمين، قيدها؛ لأنه رحمه الله، فهم أن الأولية هنا أولية الزمن، وإذا كانت أولية الزمن فإنه لا يصح أن يكون النبي ﷺ أول المسلمين، لماذا؟؛ لأن قبله أممًا مسلمة كثيرة، فكان لابد أن يقيد هذا بأول المسلمين من هذه الأمة، ومنه قوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، على ما مشى عليه المؤلف من الفهم نقول: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة.

هناك احتمال آخر أن الأولية هنا أولية الصفة، يعني: أنني أسبق المسلمين من حيث التقدم إلى الإسلام، كما تقول مثلًا لمن يخاطبك إن كان هذا الذي قُلتَه حقًا فأنا أول من يساهم، مثلًا لو قال أنه فتح مشروعًا في البلد الخيري، فقلت: إذا كان حقًا فأنا أول من يساهم، يعني: أول من حيث الانقياد والصفة، هذا فيه احتمال، وإذا كان هذا المعنى في الآية الكريمة فإننا لا نحتاج إلى القيد الذي قاله المؤلف لأننا نعلم أن رسولنا ﷺ، هو أول من ينقاد إلى الله تعالى وأنه أعظم الناس انقيادًا وأشدهم.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣].

التفسير

لماذا ﴿عَذَابَ﴾ مفعول لـ ﴿أَخَافُ﴾، وليست مفعولًا لعصيت؟ لأن العذاب لا يُعصَى.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، الخوف: لا يمكن أن نُعرِّفه بأبين من لفظه، كلٌ يعرف الخوف، ولهذا نقول: إنَّ الانفعالات النفسية لا يمكن لأحد أن يعرفها، لأنها ليست أبين من لفظها، لو قال

إنسان عرف لي الكراهة، ماذا أقول؟ الكراهة هي الكراهة، عرف لي المحبة، المحبة هي المحبة، ولهذا يقول ابن القيم في «روضة المحبين»، والله أعلم هي له أو لا؟ يقول: (لا يمكن أن نحد المحبة بأبين من لفظها أبدًا، كلّ الذين عرفوها، فيها أكثر من عشرين تعريف، كلهم إنما يفسرونها بلوازمها ونتائجها،) وصدق رحمه الله حين قال: (الانفعالات النفسية لا يستطيع الإنسان أن يعرفها بأكثر من لفظها)، أخاف لو تسأل صبيًا لا يعرف التعريفات تقول له ما معنى الخوف؟ يقول: الخوف أني أرتعش أنتفض، لا يمكن، هذا من آثاره، الخوف أن أهرب، هذا من آثاره، إذن نقول الخوف معروف هو الخوف قال تعالى: ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، المعصية معناها: المخالفة، وتكون بأمرين: إما بترك مأمور، وإما بفعل محذور، هذا إذا أُفرِدَت عن الطاعة، فإن قُرِنَت بالطاعة صارت الطاعة فعل المأمور، والمعصية ارتكاب المحذور.

هنا نقول: عصيت: مفردة عن الطاعة، فماذا يكون معناها؟ تشمل المعنيين: مخالفته؛ عصيت ربي أي خالفته بفعل المنهي عنه.

أو بترك المأمور به.

وفي قوله: ﴿رَبِّي﴾، إشارة إلى أنه عز جل هو الذي له الأمر والنهي، لأنه رب، والرب خالق مالك مدبر.

وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بعدة أوصاف، منها العظم: وذلك لشدته، وشدة أهواله، وشدة ما يكون فيه، وإذا سمعت الأوصاف التي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذا اليوم العظيم، فإنه لا شك يعتريك من الخوف بقدر ما أنت مؤمن به، كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا واليوم الآخر، كان منه أشد خوفًا، وكلما ضعف إيمانه باليوم الآخر، ضعف خوفه منه، ولهذا لدينا عبارة مشهورة، (كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف)، وكل من كان أيضًا باليوم الآخر أعرف وأقوى إيمانًا كان أقوى مخافة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]

في الأول قال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أمر، في الثاني أَمَره أن يُعلِن بأنه مخلص لله الدين، ففي الأول يفعل هو، يعبد الله مخلصًا له الدين، في الثاني أُمِر أن يُعلِن للملأ أنه يخلص، وإعلانه أنه

مخلص يعني أنه متبرئ من شركه لأنه مخلص لله.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إعراب اسم الجلالة: مفعول به لأعبد، قل الله أعبد، قدم المفعول به للحصر، يعني لا أبد غيره، ونظيره من حيث الترتيب مثل قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقدم المفعول به، هنا ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ قدم المفعول به لإفادة الحصر، ثم أكد هذا أيضًا بقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ يعني لا أعبد غير الله، وفي عبادتي له أيضًا أكون مخلصًا له، لا يشوب عبادتي إياه شيءٌ من الشرك.

وقوله: ﴿دِينِى﴾ يعني عملي، قال المؤلف: من الشرك، إذا جمعت بين الآيتين، الآية الأولى وهي قوله: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والثانية عرفت شدة امتثال الرسول ﷺ لربه، وأنه عبد الله مخلصًا له الدين، وأعلن ذلك للملأ، غير مبال بمخالفته.

قال الله تعالى:

﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

التفسير

﴿فَٱعْبُدُوا۟﴾: هذا يَحْتَمِل أن يكون تهديدًا ويَحْتَمِل أن يكون تحديًا، المؤلف يقول: إن فيه تهديدًا، ويمكن أن يكون تحديًا ظاهرًا، أمَّا كونه تهديدًا فظاهر، فاعبدوا ما شئتم من دونه؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلى آخره، وأما كونه تحديًا؛ فلأنه لما ذكر أنه يعبد الله وحده مخلصًا تحداهم، قال: أنا لا أبالي أنتم اعبدوا ما شئتم، وأنا لا أبالي بكم فسوف لا أشرك بالله، سوف أعبد الله وحده مخلصًا، والقاعدة عندنا في التفسير أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يتنافيان، يحمل عليهما جميعًا.

قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني: الذي شئتم، من دونه: يعني: من سواه، اعبدوا ما تشاءون من سواه، ملك، ولي، شجر، حجر، شمس، قمر، أي شيء، يقول المؤلف: [من دونه: من غيره]، أي سواه، [فيه تهديد لهم وإيذانٌ بأنهم لا يعبدون الله]، إيذان: يعني إعلان، يعني هذه الجملة فيها التهديد، وفيها أنهم لا يعبدون الله وإنما يعبدون غيره، قل: يعني قل لهم مع تحديك إياهم وتهديدك إياهم، ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، الجملة فيها تأكيد، وفيها حصر، أين التأكيد؟ إن الخاسرين، والحصر: أن طرفي الجملة مَعْرِفَتان: الخاسرين الذين خسروا، فكأنه قال: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فإذن فيها، تأكيد وحصر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مَنْ الخاسِر؟ الخاسر بيَّنه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٢، ٣] يعني: الخُسران ضد الربح؛ وذلك أن المُعامِل إما أن يأخذ رأس ماله، وإما أن يخسر فيأتيه أقل من رأس ماله، وإما أن يربح، فيأتيه أكثر، الخسران الحقيقي ما ذكره الله هنا، في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هؤلاء هم الذين خسروا، ليس الخاسر من فقد ملايين الدراهم، وليس الخاسر من فقد أهله في الدنيا، وليس الخاسر من فقد نفسه في الدنيا، ولكن الخاسر من خسر نفسه وأهله يوم القيامة، يقول: [بتخليد الأنفس في النار، وبعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا]، قوله: [بتخليد الأنفس في النار]، هذا بيان لخسرانهم أنفسهم، لأنهم خسروا أنفسهم في الحقيقة، ما وجه الخسران؟ وجه الخسران: أن حياته في الدنيا لم يستفد منها في الآخرة، إطلاقًا، فخسر نفسه، خسر عمره كله راح هباءً منثورًا، لو أنه مؤمن مخلص لاستفاد، لكانت كل حياته الدنيا ربح؛ لأنه سوف يخلد في الجنة التي فيها (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، أما الآن فسيُخَلَّد في النار، هذه خسارة النفس.

خسارة الأهل: فسرها المؤلف بأنه يفوته الحور العين في الجنة لو آمن، وهذا وإن كان له وجه، لكنه بعيد عن الصواب، وذلك؛ لأن الحور في الجنة لم تكن أهلاً له، حتى يقال: خسرها، وإنما المراد خسروا أهليهم؛ لأن أهليهم إن كانوا مؤمنين فَهُمْ في الجنة ولن يجتمعوا بهم، وإن كانوا كفارًا فهم في النار ولن يجتمعوا بهم أيضًا، ولو كانوا مؤمنين وذريتهم مؤمنة لكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، يعني: لن يجتمع أحد مع أهله في الآخرة إلا إذا كان هو وهم مؤمنين، فسيجتمعون اجتماعًا لا فراق بعده، أما من لم يكن كذلك، فلا اجتماع، فالصحيح أن المراد بأهليهم: يعني أهليهم الذين في الدنيا حيث خسروا الاجتماع بهم في الآخرة، ووجه الخسران: لأن الأهل في الجنة وهؤلاء في النار، وإن كانوا كافرين، فكذلك لن يلتقوا بهم، لأن كل واحد مشغول بنفسه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾: تأكيد، ﴿أَلَآ﴾ أداة استفتاح، والفائدة منها: التوكيد والتنبيه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة للبعد، لأنه خسران سحيق والعياذ بالله، يعني لم يقل ألا هذا، مع أن ذكره قريب، لكنه خسران صحيح، فأشير إليه إشارة البعد، ثم حُصِر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ﴾ يعني: لا غيره، ثم أُكِّد بفداحةٍ قال ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي البيِّن الذي لا يَخْفَى على أحد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرابحين.

قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿عَذَابَ﴾ مفعول به لأخاف، ما المراد باليوم؟ اليوم الآخر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان مأمور بأن يُعْلِن ما أَمَرَ الله به من عبادته، في قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على اتباعه في هذا المأمور به.

٣ـ ومنها أيضًا: بيان استحقاق الله سبحانه وتعالى لذلك، وأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب في العبادة الإخلاص؛ لأنه أُمِرَ بأن يعبد الله على هذا الوصف، ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن من لم يخلص لم يكن قد أتى بالأمر، ويتفرع على هذه القاعدة أن عمله يكون مردودًا عليه، إذا أشرك يكون قد عمل عملًا ليس عليه أمر الله وأمر رسوله، وقد قال النبي ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1].

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب المبادرة بالإسلام من غير توقف؛ لأن الله أمر بذلك، وهذا بناءً على أن المراد بالأولية هنا: أولية الصفة، يعني: السبق.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرسول ﷺ، عبد مأمور، ويتفرع على هذا أنه ليس له من الأمر شيء، وقد صَرَّح الله بذلك في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، ويتفرع عليه أيضًا ضلال أولئك القوم الذين يدعون رسول الله ﷺ أن يغيثهم، أو أن يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أنه يجب على الرسول ﷺ، أن يعلن هذا الإعلان للملأ أنه يخاف عذاب يوم عظيم إن عصى الله، وفائدته كما ذكرنا قبل قليل من أجل التأسي به في ذلك، ومن أجل بيان عظمة الله، وأنه مستحق لأن يخاف منه.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إثبات اليوم الآخر، لقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهل يمكن أن يستفاد منها أن النبي ﷺ تجوز عليه المعصية؟ نعم، لقوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ ولكن قد يقول قائل في هذا نظر، لأن الشرط قد يتحقق وقد لا يتحقق، وقد يكون تحققه ممتنعًا مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦]، إذن هذه الفائدة فيها نظر؛ لأن قوله إن عصيت،

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (٢٥١٧١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

لا يدل على أن المعصية تقع منه، لكن على فرض أن تقع، فإني أخاف.

وقد يقول قائل: إن كونه يخاف أمر محقق، إني أخاف، وإذا كان الأمر محققًا فإن المعلق عليه وهو المعصية يكون كذلك، أي يمكن أن يكون، يعني: معنى أنني إن عصيت فإني وعلى كل حال فإن الرسول ﷺ، أنه كان يدعو الله أن يغفر له ذنبه ـ أوله وآخره ـ كان يقول: «**أللهُم بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، اللهُمَ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ**»(١).

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تعظيم يوم القيامة، وأنه يوم عظيم، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للعاقل أن يحذر منه.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز وصف غير الله بالعظم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقد قال الله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ووصف الإفك بأنه عظيم، إلى غير ذلك، فَوَصْفُ غير الله بالعظم لا بأس به، لكن العِظَمُ المطلق إنما يكون لله عز وجل.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾:

١ـ **يستفاد من هاتين الآيتين**: أنه ينبغي للإنسان أن يعلن بالحق الذي هو عليه، ولا يبالي بمن خالفه، لقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، يعني: فلا أبالي بكم، أنا سأعبد الله وأسير على الطريقة المستقيمة، وأنتم سيروا على ما شئتم.

٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن النبي ﷺ، من أشد الناس امتثالًا لأمر الله؛ لأنه قال فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾، ثم قال هنا: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن النبي ﷺ، محتاج للعمل الذي ينجيه من عذاب الله، لقوله تعالى: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾، بالياء بالإضافة، وهو كذلك، ولما حدَّث أصحابه بأنه «**لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِه**»(٢).

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين**: تحريم عبادة غير الله، تؤخذ من قوله جل وعلا: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ لأن ذكرنا أن الأمر هنا للتهديد، ولا تهديد إلا على شيء مخالف ومعصية.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، بيان أن الخسارة الفادحة التي ليس معها ربح هي خسارة هؤلاء الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وفيه الإشارة في الآية هذه، الإشارة إلى أن الشرك هو سبب هذه الخسارة؛ لأنه تلا قوله عز وجل: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أن أهل الشرك يوم القيامة لا يجتمعون بأهليهم لقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ

(١) رواه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَهْلِيهِمْ﴾.

٧ـ ومنها: أن عمر الإنسان حقيقة هو ما أمضاه في طاعة الله، ولهذا وصف الله هؤلاء بأنهم قد خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا خيرًا.

٨ ـ **ومن فوائد الآية**: أن هذه الخسارة أعظم خسارة تكون، لقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

التفسير

﴿لَهُم﴾: الضمير يعود على الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وهم الكفار في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾، من فوق رؤوسهم، وكلمة ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: تدل على أن هذه الظلل محيطة بهم، وقوله: ﴿ظُلَلٌ﴾: قال المؤلف: [طباق من النار]، وهذه الطباق من النار لا نعلم كيفيتها، لا نعلم هل هي حديد محمى أو حجارة أو غير ذلك، لكن إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] فقد نقول: إنها من الحجارة، وليست أيضًا كحجارتنا، بل هي حجارة لا تُعلم كيفيتها.

وقوله: ﴿النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: من النار، كما قال المؤلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، أي: شيء يغشاهم يغطيهم، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك: أي المشار إليه من ذكر هذه الظلل، يخوف الله به عباده، به: الضمير يعود على العذاب المذكور، والباء للسببية، أي يُخَوِّف بسببه، ويجوز أن تكون للتعدية، أي يُخَوِّف به نفسه، ﴿عِبَادَهُ﴾: قال المؤلف: [أي المؤمنين ليتقوه]، يدل عليه، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، المؤلف رحمه الله سلك في تفسير الآية أن المراد بالعباد هنا شيء خاص، وهم المؤمنون، مع أن ظاهر الآية العموم، وأن المراد بالعباد هنا من يتعبدون لله بالمعنى العام، وهي العبودية الكونية، لأن العبادة نوعان:

عبادة يتعبد الإنسان لله بالشرع، وهذه خاصة بالمؤمنين.

وعبادة: يعني يتعبد الإنسان لله بالكون، أي يكون عبدًا لله كونًا وقدرًا، يفعل الله فيه ما يشاء، وهذه عامة، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]

فهل المراد بالآية هنا العبادة العامة؟ وأن الله يوجه الخطاب إلى جميع العباد، جميع الناس أن يتقوه؟ أو هي خاصة؟ يرى المؤلف رحمه الله أنها خاصة، ولكن لا دليل على ذلك، وإذا لم يكن هناك دليل فالأولى إبقاء النص على عمومه، فكما أن المؤمن يخوف بهذا الوعيد، فكذلك الكافر، الكافر أيضًا يخوف، بل إن تخويف الكافر أَوْكَدُ من تخويف المؤمن؛ لأن مع المؤمن ما ينجيه من الخلود في النار، لكن الكافر ليس معه ما ينجيه من الخلد في النار، إذن المراد بذلك العموم أم الخصوص؟ العموم، ووجهه أن هذا هو ظاهر النص، ثانيًا: أن الكافر أولى أن يخوف من النار من المؤمن، لأن مع المؤمن ما ينجو به من الخلد في النار، وليس مع الكافر شيء ينجو به، فكيف نصرف التخويف عمن هو أحق بالتخويف؟ إذن فالصحيح أن المراد بالعباد العموم، يعني يخوف الله بهذا العذاب جميع الناس.

ثم وجه الله الخطاب إلى الناس عمومًا فقال: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾، ﴿يَٰعِبَادِ﴾ يعني: جميع العباد، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان:٣٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١]، والآيات كثيرة في توجيه الأمر بالتقوى إلى جميع الناس، والكافر محتاج إلى التقوى كما أن المؤمن كذلك، فقول المؤلف يدل عليه: فيه نظر، ففي حكم المؤلف نظر، وفي الاستدلال لهذا الحكم نظر.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧].

التفسير

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟﴾: أي ابتعدوا عن الطاغوت؛ لأنه مأخوذ من الجَنْب، وهو الشيء المنفصل عن الشيء، تقول إلى جانبي فلان أي أنه منفصل، غير متصل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: (الطاغوت): اسم من الطغيان، والتاء فيه للمبالغة، فما هو الطاغوت الذي اشتق من الطغيان؟ يقول (ابن القيم) ـ رحمه الله ـ: (الطاغوت) كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، ما تجاوز به حده: من أجل أن يصدق عليه أنه طغيان من معبود أو متبوع، أو مطاع، فمثلًا الأصنام التي يعبدها الكفار تسمى طواغيت، والمتبوعين من العلماء طواغيت، والمطاعين من الأمراء كذلك أيضًا طواغيت، لكنه ليس على ظاهره، أي كلام (ابن القيم)، مراده بالمعبود الذي لا إرادة له، كالأصنام من الجمادات، أو المعبود الذي رضي بعبادته وأما المعبود الذي عُبِد وهو لا يرضى بالعبادة، فلا يسمى طاغوتًا، ولهذا لا يمكن أن نسمي عيسى ابن مريم طاغوتًا، وكذلك

أيضًا المتبوع، العلماء الذين لا يرضون أن يعبدهم الناس ليسو طواغيت، المطاع أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْن أن يعبدهم الناس لا يُسَمَّوْن طواغيت، فكلام ابن القيم ليس على إطلاقه، ويمكن أن نقول إن قول ابن القيم: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، أنه عائد على العمل، أي أن الطاغوت عمل الإنسان في معبوداته، أو من يطيعهم أو من يتَّبِعُهُم، يعني معصية الله في طاعة هؤلاء، فيكون الوصف بالطغيان عائدًا على الفعل لا على المفعول، وحينئذٍ نَسْلَم من الإشكال الذي قلنا: إنه لابد أن يقيد المعبود والمتبوع والمطاع بأنه راضٍ.

على كل حال إن الطاغوت مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والصيغة فيه صيغة مبالغة، قال المؤلف: [الأوثان]، ففسر الطاغوت بالمعبودات، يعني الأوثان ولهذا قال: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (أَنْ) هذه مصدرية، وتأويل المصدر بعدها منصوب على أنه بدل من الطاغوت، من أيِّ أنواع البدل؟ بدل اشتمال: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ في محل نصب بدل من الطاغوت، وقوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ هم يعبدون الأصنام بدعائهم، ولكنهم يدعون أنهم لا يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله.

ثم قال: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: أقبلوا إلى الله، والإنابة تكون بمعنى الإقبال كما قال المؤلف، وتكون بمعنى الرجوع، رجعوا إلى الله، والرجوع إلى الله يستلزم الإقبال عليه؛ لأن الإنسان يفر بالمعصية بعيدًا عن الله، فإذا تاب وأناب ورجع إلى الله، فهو مقبل في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خبرية، قدم فيها الخبر لهم لإفادة الحصر، لأن ما كان حقه التأخير إذا قدم أفاد الحصر.

وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خبر الذين، الذين اجتنبوا الطاغوت لهم البشرى، فتكون هذه الجملة في موضع رفع على الخبر، فما هي البشرى؟ البشرى ما تحصل به البشارة، والبشارة هي في الأصل الخبر السار، وسُمِّي الخبر السار بشارة لأنه يَظْهَر أثره على البشرة، التي هي الجلد، فإن الإنسان إذا أخبر بما يسره استنار وجهه وتغير فسميت بشرى، وقول المؤلف: [الجنة]، هذا لا شك أنه مما يدخل في البشرى، لكنه أعم مما قال المؤلف، كما قال تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٣] فمن البشرى: الرؤية الصالحة، يراها الإنسان لنفسه، أو يراها له مؤمن، فإن هذه من البشرى، كما قال النبي ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ[1] الرُّؤْيَةُ الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ»[2] مثل أن يرى من يُبَشِّر بالجنة، أن يرى أنه في نعيم، وما أشبه ذلك،

(١) قال العلماء معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل البشرى المؤخرة إلى الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات الآية وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله تعالى عنه ومحبته له فيحببه إلى الخلق.

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وأحمد في مسنده (٢١٤١٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ومن البشرى أيضًا أن يُوَفَّق للعمل الصالح.

إذا رأيت الله سبحانه وتعالى وفقك للعمل الصالح المبني على الإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ، فإن هذه من البشرى، ومن البشرى أيضًا أن يوفقك الله - عزَّ وجلَّ - لمصاحبة الأخيار، فإن المرء على دين خليله كما جاء في الحديث «فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[1] فإذا وجدت الله وفقك لمصاحبة الأخيار فإن هذا عنوان على السعادة، ومن البشرى أيضًا أن يحب الإنسان من يحبه الله، فإن النبي ﷺ، سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال الرسول ﷺ «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُم»[2] قال (أنس بن مالك) رضي الله عنه: (ما فرحنا بعد الإسلام بشيءٍ أحب إلينا من هذا الحديث)، ثم قال: فأنا أحب النبي ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، فهذا من البشرى، المهم أن البشرى كل خبر سار، فيشمل ما قاله المؤلف: [الجنة] وهي الغاية لكل إنسان، ويشمل ما كان علامة على ذلك لهم البشرى.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧]، أمر الله النبي ﷺ، أن يبشر عباد الله، يبشرهم بماذا؟ يبشرهم بالجنة وبكل ما يسرهم حتى في الدنيا، المؤمن مسرور دائمًا وإن أصيب ببلاء فإنه مسرور، لأنه إذا أصيب بالبلاء فصبر كان خيرًا له.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، الدال مكسورة، مع أنها مفعول به، لماذا؟؛ لأن أصلها: عبادي، فحذفت الياء للتخفيف، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] أي من والي، وإن كانت الياء في من (وال) غير التي في عبادي، لأن من (وال) أصل الكلمة، وأما هنا فهي كلمة أخرى الياء.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ من المراد بالعباد هنا؟ المراد خصوصية العبودية، أي عباد الله الصالحين، لا كل عبد، ثم بين من صفاتهم.

(١) حسن: رواه أبوداود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٣٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، وفي معناه ما رواه البخاري (٥٨١٧)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعو د رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم (المرء مع من أحب).

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

التفسير

هذه من علامات عباد الله عز وجل، أنهم لا يضيعون الفرص،﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾: أي يصغون إليه، ولم يقل يسمعون؛ لأن الاستماع هو متابعة المتكلم والإنصات إليه، بخلاف السماع، نضرب مثلًا لرجل مر بقارئ يقرأ فسمعه يقرأ، ورجل آخر مر برجل يقرأ فجلس إليه ينصت، الأول: سامع، والثاني: مستمع، ولهذا قال العلماء بناءً على هذا الفرق: إذا قرأ القارئ آية فيها سجدة وسجد فإن السامع لا يسجد والمستمع يسجد؛ لأن المستمع متابع، والسامع ليس بمتابع، إذن هؤلاء يستمعون القول لا يضيعون الفرصة، والمراد بالقول؟ القول: (ال) هنا للعهد، وتشبه أن تكون للعهد الذكري لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، أي: أنهم يستمعون القول الحسن، ليس كل قول، فـ (ال) هنا: نقول إنها للعهد، ويشبه أن تكون للعهد الذكري لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾، إذن ما المراد بالقول هنا؟ القول الحسن، أما اللغو أو السيء، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥] فإذا كانوا يعرضون عن اللغو؛ لأنه لا فائدة فيه، فالمحرم من باب أولى، إذن هؤلاء قوم عندهم حزم عندهم شح في الوقت، لا يستمعون إلا إلى القول الحسن، لكنا نعلم أن الحسن فيه ما هو أحسن وما هو حسن، فما الذي يتبعون؟ يقول الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فمثلًا إذا سمعوا الترغيب في صلاة الليل، وأن أكثرها ـ مثلًا ـ إحدى عشرة ركعة، وأدناها ركعة واحدة ما الذي يتبعون؟ الإحدى عشر؛ لأنها أحسن، إذا سمعوا الإنفاق في طلب العلم، والإنفاق على فقير دون وجود ضرورة ماذا يتبعون؟ على طلب العلم؛ لأنهم يتبعون الأحسن، إذن لم يفرطوا في الوقت، ولم يفرطوا في الأفضل، بل كانوا يستمعون كل قول حسن، ويتبعون الأحسن منه، إذن فإن تبعوا الحسن وتركوا الأحسن، فإنهم لا يلامون على ذلك، لكنهم ليسوا في قمة الكمال، الذي في قمة الكمال هو الذي يتبع الأحسن.

قال الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهو ما فيه صلاحهم، ما فيه صلاحهم لكن الأصلح، يتبعون الأصلح فالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة للبعيد، وإنما أشار إليهم إشارة البعيد مع قرب ذكرهم للدلالة على علو منزلتهم، وهذا يقع كثيرًا في القرآن، يشير الله إلى الشيء القريب بصيغة البعيد لعلو مرتبته، كما قال الله تعالى: ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢]، مع أنه يقول: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، الكتاب قريب، لكن إشارة لعلو مرتبته، أحيانًا يشير به للقريب لقربه من مريده، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩] يعني: ليس بعيدًا عليهم، قريب لهم، ﴿مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ هنا يقول ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أشار إليهم إشارة البعيد إشارة إلى عُلُوِّ مرتبته.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الجملة خبرية طرفاها معرفة، وقد قال العلماء: إن الجملة الخبرية إذا كان طرفاها معرفة فإنها تفيد الحصر، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ يعني لا غيرهم، وقوله: ﴿هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾، يشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق، يعني بين لهم الحق، وعلموه ثم اهتدوا به.

والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: قسم ضلوا عن الهدى علمًا وعملًا.

قسم: هدوا إلى الحق علمًا وعملًا.

وقسم: هدوا إلى الحق علمًا ولم يهتدوا إليه عملًا، هل يمكن أن أقول وقسم اهتدوا إلى الحق عملًا ولم يهتدوا إليه علمًا؟ لا يمكن لماذا؟ لأنه لا عمل بالحق إلا بعلم بالحق، فالقسمة رباعية لكن الطرف الرابع منها غير واقع، ممتنع، إذن ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾، هداية دلالة وتوفيق، يعني وإن شئت فقل هداية علم وعمل، أيها الدلالة؟ العلم، والتوفيق: العمل، أولئك الذين هداهم الله.

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ، ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ كرر اسم الإشارة تنويهًا بِعُلُوِّ مرتبته، في قوله: ﴿هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول؛ لأن الإنسان كلما كان للحق أتبع كان أكمل عقلًا، وكلما نقص اتباع الحق في حقه كان أدل على قلة عقله، فأعقل الناس أتبعهم لدين الله، لا شك، لأنهم هم الذين عندهم الحزم وانتهاز الفرص، وحفظ الوقت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أصحاب العقول.

ولكن إن قال قائل: أليس الكفار ذوي عقل؟ الجواب: بلى، لكنهم ذوو عقلٍ إدراكي، لا عقلٍ رشدي، ولهذا كانوا مكلفين ملزمين؛لأن عندهم عقل إدراك لكنهم غير موفقين، لأنهم فقدوا عقل الرشد.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** شدة العذاب على أهل النار؛ لأن العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وإذا كان الإنسان لا يتحمل النار إذا أتته من وجهٍ ولو بعيد، فكيف إذا أتته من

الوجهين الفوق والتحت.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على الإنسان أن يخاف مما خوفه الله، حتى يحقق العبودية، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يسير إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على جانب من الخوف، الخوف من العذاب.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب كل شيء، وأن كل شيء فهو عابد لله لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب التقوى، لقوله تعالى ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على مجتنب الطاغوت.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن لهم هذا الثواب العظيم، لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن التوحيد لا يتم إلا باجتناب الطاغوت والإخلاص لله، لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الذين اتصفوا بهذه الصفة اجتناب الطاغوت، والإنابة إلى الله هم أهل البشرى؛ ولم يبين الله وقت البشرى فهو شامل للبشرى في الدنيا وفي والآخرة.

٥ ـ **ومن فوائدها:** حرمة من أشرك بالله من هذه البشرى؛ لأنه جعل البشرى لمن اجتنبوا الطاغوت، أن يعبدوها وأنابوا إلى الله.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العبودية الخاصة، لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، والعبودية الخاصة تكون منقسمة إلى خاصة أخص، وإلى خاصة ليست أخص، فالمؤمنون جميعًا كلهم عباد الله، والرسل عبوديتهم أخص، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، هذه من الخاصة أو الأخص؟ الأخص، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، هذه من العبادة الأخص.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عباد الله حريصون على استماع ما فيه المصلحة والمنفعة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء السادة لا يضيعون وقتًا حتى إنهم يستمعون إلى عمل غيرهم، وهو قول غيرهم، فكيف بعملهم أنفسهم! لابد أن يكونوا قائمين به.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عباد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذين وصفهم الله بما ذكر، يأخذون من القول بأحسنه، لقوله ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء القوم هم الذين هداهم الله، لقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ويتفرع على هذه القاعدة: أنك إذا رأيت من نفسك الحرص على استماع قول الخير واتباع أحسنه، فاعلم أن هذا من هداية الله لك؛ لأنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وإذا رأيت من نفسك كراهة الاستماع إلى القول الحسن، فاتَّهِم نفسك؛ لأن الله جعل الهداية في هؤلاء القوم، فإذا لم يحصل لك هذا فاتَّهِم نفسك، صحح الخطأ، أَقْبِلْ على الله عز وجل.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أفعال العباد واقعة بتقدير الله، وأنهم لا يَسْتَقِلُّون بها، من أين تؤخذ؟ قوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، ولهذا ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله مرادة له، خلافًا لمن قال: إن أفعال العباد ليست مرادة لله ولا مخلوقة له، وهم القدرية مجوس هذه الأمة.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان مِنَّةِ الله - عزَّ وجلَّ - على هؤلاء الذين وفقوا إلى استماع القول واتباع أحسنه، يعني إظهار مِنَّةِ الله عليهم في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٣ - **ومن فوائدها**: أنه يجب عقلًا أن تَحْمَدَ الله سبحانه وتعالى إذا هداك إلى مثل هذا؛ لأنك إذا علمت أن الهداية من الله فالعقل يقتضي أن تَحْمَدَه وأن تشكره، وهذه النعمة أبلغ من الإنعام بالأكل والشرب؛ لأن الأكل والشرب كلٌّ يأكل ويشرب حتى البهائم، لكن الهداية ما كل أحد يهتدي، فإن أنعم الله على الإنسان بالهداية العلمية والعملية أعظم من إنعامه عليه بالأكل والشرب.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المتمسكين بدين الله المُتَّبِعين لأحسن القول هم أصحاب العقول، من المتعارف عند الناس الآن أنهم إذا رأوا إنسانًا ذكيًا متأنيًا في الأمور، يقولون: هذا عاقل، ما شاء الله عاقل، ولو كان من أفجر الناس، والحقيقة أننا نقول: العاقل من وفقه الله تعالى للعلم والعمل، ولو كان من أبلد الناس، باعتبار الذكاء.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: أنه لا تلازُم بين الذكاء والعقل، الذكاء شيء والعقل شيء آخر، حتى في عقل الإدراك؛ لا تلازم بين الذكاء وعقل الإدراك؛ لأن من الناس من تجده ذكيًا شديد الملاحظة يفهم الشيء بسرعة ويُعْطِي الجواب بسرعة، لكنه في التصرف أحمق ليس عنده عقل، ومن الناس من يكون بالعكس عنده شيء من البلادة ولكنه في التصرف عاقل متأنٍ، ولكن أعقل الناس أطوع الناس لله، لا شك، ولهذا قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى انقسام الناس إلى قسمين: مُوَفَّق ومُخْفِق؛ لأن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، يدل على أن هناك قسمًا آخر، وهم الذين لم يُوَفَّقوا ولم يهدهم الله، والأمر كذلك، كذلك الآية أشارت إلى هذا والواقع يشهد لذلك، فإن قال قائل: لماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى الناس على دين واحد، أمة واحدة؟ قلنا: لأن هذا

ينافي الحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩]، لو لم يوجد هذا الانقسام ما مُلِئت النار، بل وما دخلها أحد، لو لم يوجد هذا الانقسام ما عَرَف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، لو لم يوجد هذا الانقسام ما مُدِح من آمن وعمل صالحًا، لماذا؟ لأن الناس هكذا ما يستطيع أن يَخْرج عما عليه الناس، لو لم يوجد هذا الانقسام لم يكن هناك سوق للجهاد، لأنك لا يمكن أن تجاهد من هو مِثْلُك في الإيمان والعمل الصالح، لو لم يوجد هذا لم يقم سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لو لم يوجد هذا لم يقم سوق الدعوة إلى الله، إلى غير ذلك من المصالح الكثيرة التي تفوت بفوات هذا الانقسام، أما من حيث القدرة الإلهية فإن الله قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة على الدين الحق، ولكن الحكمة الإلهية تأبى ذلك، وقد علمتم شيئًا من كثير من حكمة تفرق الناس إلى مؤمن وكافر.

قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر:١٩، ٢٠]

التفسير

ما هي كلمة العذاب؟ قال المؤلف: [هي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] هذا ما ذهب إليه.

الهمزة هنا: للاستفهام، ويحتمل أن المراد به الاستفهام الحقيقي أو أن المراد به الإنكار، يعني النفي، وقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ أي: وجب عليه، وذكر الفعل مع أن الكلمة مؤنث لوجهين: الوجه الأول: أن تأنيث ﴿كَلِمَةُ﴾، تأنيث مجازٍ، والثاني: أنه منفصل عن عامله، ولا يجب تأنيث الفعل، إلا إذا كان الفاعل مؤنثًا حقيقيًا متصلًا، كما قال ابن مالك:

وإنما تلزم فعل مضمر متصلٍ أو مفهم بنت ذا حرِ

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: وجب عليه كلمة العذاب، وهي أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، أو كما قال المؤلف: ﴿رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: الكلمة التي يستحقون بها العذاب، وهي أن كل من خالف أمر الله، فإنه مستحق للعذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أفأنت: الخطاب للرسول ﷺ، يعني: هل تنقذه إذا حقت عليه كلمة العذاب؟ والجواب: لا، وإذا كان جواب الاستفهام (لا) فهو علامة على أن الاستفهام للنفي.

وهنا نسأل الهمزة في: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، والهمزة في: ﴿أَفَأَنتَ﴾، هل لكل واحدة معنى مستقل؟ أو أن الثانية توكيد للأولى؟ إن جعلنا الجمليتين جملة واحدة، يعني إن جعلنا الكلام واحدًا في الجملتين فالثانية توكيد للأولى، وإن جعلنا كل كلمة وكل جملة مستقلة عن الأخرى، فالثانية أصلية، يعني تأسيسية لا توكيدية، وعلى كلٍ فإن مثل هذا التركيب، أعني إذا أتت همزة الاستفهام وبعدها حرف عطف، قد سبق لنا مرارًا أن لعلماء النحو في ذلك قولين في الإعراب: فمنهم من يرى أن الهمزة داخلة على جملة مُقَدَّرة تُناسِب المقام، وحرف العطف: على تلك الجملة المحذوفة، ومنهم من يرى أن الهمزة داخلة على الجملة التي بعد حرف العطف، فيكون حرف عطفٍ على ما سبق، وإنما قدمت الهمزة لأن لها الصدارة، وذكرنا أن القول الثاني أيسر، وذلك أن القول الأول قد يتعذر على الإنسان معرفة المناسب للسياق، أو ربما يقدر ما يظنه مناسبًا وليس بمناسب.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿تُنقِذُ﴾: تُخْرِج، ولكن تفسير (تنقذ) بـ (تخرج) قاصر؛ لأن كلمة تخرج لا تدل على أنه منقذ من هلكة، لكن (تُنْقِذ) تدل على معنىً أخص من تخرج، إذن لا ينبغي أن نفسر الأخص بالأعم، لأنك إذا فسرت الأخص بالأعم نَقَصْتَ التفسير، فالإخراج يكون من إنقاذ ومن غير إنقاذ، لكن الإنقاذ يكون عن هلكة، ولهذا لو فَسَّر تُنْقِذ: تُنْجِي لكان أوضح، لأن الإنجاء يكون من هلكة، في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾: أي تنجي.

وقوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ من عذابها، ﴿مَن﴾: بمعنى الذي، وهو مفعول به لتنقذ، في قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، في النار جار ومجرور متعلق التقدير من دخل في النار وهو يقدَّر بما يناسب المقام، لا داخل لا يصلح في صلة الموصول؛ لأنك إذا قدرت (داخل) تحتاج إلى تقدير مبتدأ لتكون جملة، لكن لو قدرت فعلًا ما احتجنا إلى شيءٍ آخر، فنقول مثلًا في جميع صلة الموصول لا يُقَدَّر فيها إلا فعل؛ لأنك لو قدَّرْتَ الاسم احتجت إلى تقدير مبتدأ لتتم الجملة، فيكون التقدير مرتين، أما إذا قدرتها فعلًا صار التقدير مرة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أي: من استقر في النار، أو من دخل في النار، أو من كان في النار حسب، المعنى متقارب، قال المؤلف: [جواب الشرط]، أين الشرط؟ الشرط هو: من، في قوله ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ وهذا أحد الوجهين في ﴿مَن﴾، الأول: أنها اسم شرط، والثاني: قال بعض العلماء: إن (مَنْ) اسم موصول، يعني أفالذي حق عليه كلمة العذاب تنقذه، ودائمًا اسم

الشرط والموصول يتعاوران، أي يستعار بعضهما مكان البعض الآخر، يقول جواب الشرط، وأقيم فيه الظاهر مقام المضمر، أقيم فيه الظاهر الذي هو: (مَنْ)، مقام المضمر الذي يكون لولا الظاهر على هذا الوجه، أفأنت تنقذه، أفمن حق عليه كلمة العذاب، وهذا، كلام المؤلف يوحي بأن الجملتين مرتبط بعضهم ببعض، وليس كل واحدة مستقلة عن الأخرى، ولكن نقول: هناك احتمال آخر خلاف ما قاله المؤلف: وهو أن الثانية منفصلة عن الأولى، وأن تقدير الأولى: أفمن حق عليه كلمة العذاب، تدفع عنه، أو كلمة نحوها، يعني: أفتدفع عمن حق عليه كلمة العذاب؟ ثم استأنف فقال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾، يعني: الأول تجعله مؤمنًا بحيث لا يستحق النار، والثاني تنقذه من النار إذا دخل فيها، هذا وجه للمفسرين، الوجه الثاني: أن تكون الجملتان واحدة، يكون المعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب فهو في النار أفأنت تنقذه منها، وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف، ومؤدى الجملتين واحد، في النهاية أن من حق عليه كلمة العذاب لا يمكن لا للرسول ﷺ، ولا لغيره أن ينقذه من النار، ويقول المؤلف: [وأقيم فيه الظاهر مقام المضمر]، وإقامة الظاهر مُقام المَضْمَر هنا تفيد معانٍ، منها: أن من حق عليه كلمة العذاب فهو في النار؛ لأنه لو قال أفأنت تنقذه، لكان الإنسان يقول من أي شيء ينقذه؟ فإذا قال أفأنت تنقذ من في النار؛ علمنا أن هذا الذي حق عليه كلمة العذاب في النار، ويقول والهمزة للإنكار، الهمزة في ﴿أَفَمَنْ﴾ وفي ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ ، وهما همزة واحدة، على القول: بأن الجملتين واحدة، فتكون الثانية توكيدًا للأولى، والحاصل أن الله يقول للرسول ﷺ، هل من حقت عليه كلمة العذاب يمكن أن تمنعه من استحقاقها، هل من دخل النار يمكن أن تنقذه؟ الجواب: لا يمكن، لا هذا ولا هذا، لأن النبي ﷺ، لا يَمْلِكُ أن يهدي أحدًا حتى لا تحق عليه كلمة العذاب، ولا يمكن أن يُنْقِذَ أحدًا من النار، يقول عليه الصلاة والسلام حين نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جَمَع أقاربه وصار يخصصهم يا فلان بن فلان لا أغني عنك من الله شيئًا، إلى أن قال: «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا»[1]، وهي ابنته، يقول المال أستطيع أن أنفعك به ولكن لا أغني عنك من الله شيئًا، وإذا كان لا يغني عن ابنته شيئًا فمن سواها من باب أولى.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب حتى كان في ضحضاحٍ من النار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، كيف؟ هنا أغنى، وهنا شفاعة، ونفعت الشفاعة، فيقال: أولًا الرسول ﷺ لم يتمكن من إخراجه من النار، وإذا لم يتمكن من إخراجه من النار لم يكن معارضًا للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾، ما أنقذه، ثانيًا: أن التخفيف عن أبي طالب ليس من أجل أنه عم الرسول ﷺ، فهذا أبو لهب عمه ولم يغنِ عنه شيئًا، لكن من أجل ما قام به من الدفاع العظيم عن الإسلام وعن رسول الإسلام، فإنه دافع عنه

(١) رواه البخاري (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مدافعة عظيمة، بل إنه كان يمدح الرسول ﷺ، في المحافل، بل شهد له بالرسالة، فقال:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

هذا بيت من لاميته المشهورة، التي قال عنها ابن كثير رحمه الله: هذه ينبغي أن تكون من المعلقات، بل هي أبلغ من المعلقات، والمعلقات قصائد اختارها العرب سموها المعلقات السبع، وأضافوا إليها ثلاثًا سَمَّوْها المعلقات العشر، هذه القصائد علقوها في جوف الكعبة، حفاظًا عليها وتنويهًا بها، لكن لامية أبي طالب أشد وأشد، يعني وأحسن وأعدل، فشهد بالرسول ﷺ، بأنه غير مُكَذَّب، وأنه لا يُعنى بقول الأباطل السحرة، بل إنه عليه الصلاة والسلام أصدق الناس وأنزه الناس، ثم يقول في قصيدة أخرى:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

مثل هذا الكلام إذا سمعه الناس آمنوا، فهو في الحقيقة داع إلى الإسلام لكنه غير مسلم، نسأل الله العافية، إذن التخفيف عنه لا من أجل أنه عم الرسول ﷺ ولكن من أجل أنه دافع عن الإسلام وحمى النبي ﷺ حماية تامة، وأعاله أيضًا فإنه بعد موت جده عبد المطلب كان عند عمه أبي طالب، وهذا معروف، فَمِن عَدْلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الله شكر هذا العمل وخَفَّف عنه بشفاعة النبي ﷺ، حتى صار في ضحضاح منَ نار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، أعاذني الله وإياكم من النار.

قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قال: والمعنى لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار، هذا المعنى، وصدق الله سبحانه وتعالى، الإنسان لا يمكن أن ينقذ أحدًا من النار أبدًا، فإذا كان نبي الله ﷺ، لا يقدر على ذلك فمن دونه من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ [الزمر: ٢٠].

هذا الاستدراك من أحسن ما يكون، لما قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ استدرك هذه الحال، حال من لا يدخل النار، فقال ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ هنا لا تعمل؛ لأنها مخففة، ولكن إذا خففت تكون لمجرد العطف فقط ومعناها الاستدراك، إذن فالذين: مبتدأ، خبره جملة: (لهم غرف)، هذا الخبر، قال: [﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بأن أطاعوه]، أفادنا المفسر رحمه الله بأن التقوى هي الطاعة، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، أنها طاعة الله ـ عز وجل ـ، بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ لأنه أمر ونهى، لا للهوى، ولهذا من أطاع الله لمجرد الهوى لا يكون كمن أطاع الله لأن الله أمر أو نهى، كثير من الناس يطيع الله لأن نفسه تهوى ذلك، ولكن الطاعة الحقيقية هي التي يكون الباعث عليها امتثال أمر الله، تركًا للمنهيات وفعلًا

للمأمورات، إذن قوله: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾: إشارة إلى أن تقواهم لله مبنية على أساس، لأنه ربهم، والربوبية هنا تشمل الربوبية القدرية والربوبية الشرعية، لأن الله رب مالك للكون قدرًا، ومالك للحكم شرعًا، فهم يتقون ربهم لأنه هو الذي خلقهم ورزقهم وأعدهم وأمدهم، يعبدون ربهم لأنه الحاكم فيهم، هو الذي يأمرهم وينهاهم فيقومون بأمره ويدعون نهيه، ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ ﴿غُرَفٞ﴾: جمع غرفة، والغرفة هي البناء العالي، إذا كان في الأسفل يسمى حجرة، وإذا كان فوق يسمى غرفة، فالبناء العالي يسمى غرفة، هذه الغرف غرف مبنية، يقول ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ يعني: طبقات قصور عالية شاهقة، مبنية من أي شيء؟ من لبنات من الذهب والفضة، جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، هذه الغرف المبنية من الذهب والفضة، أيضًا ليست على ما نشاهد في الدنيا من اللمعان والحسن الجذاب، بل هي أشد وأعظم، لا يمكن أن نتصور حسن هذه الغرف ولا مواد بنائها، أبدًا، لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] ويقول في الحديث القدسي «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خطر على قلب بشر**»[1] وهي أي الجنة ليس فيها شيء مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، لكن الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا، فيها عنب، نخل، رمان، لكن ليست كالموجود عندنا في الدنيا، بل هي شيء لا يمكن أن يتصوره الإنسان، هذه الجنة معدة للمتقين، الذين اتقوا ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] العمل يسير، والعوض كثير، لكن العمل يسير على من يسَّره الله عليه، والله ييسره على من صدق النية في التوجه إلى الله، ولم يركن إلى الدنيا، لأن الركون إلى الدنيا ولا سيما ممن أعطاه الله العلم ذل وانحطاط، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦] والمثل أخس الأمثال، ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، إذن نقول إن هذه الغرف التي أعدها الله للمتقين الذين أخلصوا النية لله رجاء الوصول إلى ثوابه، والذين لا يفعلون طاعة إلا وهم يؤمنون بأن لها ثوابًا في هذه الجنة؛ لأن هذه العقيدة وهذا الشعور يحملك على إحسان العبادة، إذا علمت أنه ما من عبادة تقوم بها إلا من أجل الوصول إلى هذا الثواب سوف تحرص على العمل وتتقن العمل.

وقوله: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: أي من تحت هذه الغرف العليا وما تحتها، ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جمع نَهَر، أو نهْر، لأن نَهَر أو نَهْر الحلقية التي ثانيها حرف حلق، نهر: بحر يجوز فيها

---

(١) رواه البخارى (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

تسكين الحرف الثاني وفتحه، تقول نهَر ونهْر، وبحَر وبحْر، هنا نقول أنهار جمع نهْر، وهي أربعة أنواع: بينها الله تعالى في سورة القتال، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥] ، نعم، هذه أربعة أنواع، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: يعني غير قابل لأن يكون آسنًا، والآسن هو المتغير، وأنتم تعلمون أن الماء إذا كان بقي في الإناء مدة، أو في مقره في البئر مدة فإنه يتغير، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولا فيها سكر، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أنهار: ما هي تُحلَب من الضروع، ولا تأتي من نحل، أنهار تمشي على الأرض تجري، وقد جاء في الأثر أنها تجري بلا أخدود، تعرفون الأخدود ما تسمونها؟ بلا مجاري، على وجه الأرض، لا تحتاج إلى حفر سواقي، ولا إلى جدران تمنع سيلان الماء، بل هي تجري بدون شيء، وورد أيضًا أنها تجري باختيار الإنسان يوجه النهر حيث شاء، ويمسكه حيث شاء، لأن الله يقول تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١] نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، إذن هل نهر النيل وسيحون وجيحون والفرات من الجنة؟) نعم، صحيح ورد فيه الحديث، لكن قالوا: إنه من أنهار الجنة يعني: أنها تشبه أنهار الجنة في الصفاء وليس معناه أنها نزلت من السماء، وهذا تشبيه بليغ، ولكن ما الفرق بين الربوبية الشرعية والقدرية؟ الربوبية الشرعية هي التصرف في الناس بالشرع، يعني أن يأمرهم الأمر والنهي، والقدرية معروفة

وهذا مر علينا مثل هذا، الحكم كوني وشرعي، نفس التصرف بمقتضى الربوبية كوني وشرعي، مثل الإرادة كونية وشرعية، قول المؤلف ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، قال فيها [بأن أطاعوه]، بعض الناس عندما يؤدي عبادة من العبادات يأخذها كعادة ليس كأمر من الله، هل يؤجر على فعله هذا؟) والله أعلم تبرأ الذمة بذلك، لكنه لم يصل إلى درجة الكمال، ولهذا نحن نقول دائمًا ينبغي للإنسان عند فعل العبادة أن تكون له نيتان: نية العمل ونية المعمول له، نية العمل هذه كل الناس أظن ينونها، يأتي يصلي الظهر ينوي صلاة الظهر، لكن نية المعمول له، أنه يريد بذلك التقرب إلى الله عز وجل، هذا كثيرًا ما يغفل الإنسان عنه، يصده الشيطان عن ذلك، والتي بعدهما الثالثة: نية المتابعة للرسول ﷺ، فكل هذه المعاني - نسأل الله أن يعفو عنا - تغيب عنا كثيرًا، لا نية امتثال الأمر وهي نية المعمول له، ولا نية المتابعة للرسول ﷺ؛ لأنك إذا شعرت بهذه النية أحببت الله - عزَّ وجلَّ - وأحببت الرسول، وشعرت بأنك عبد لله متبع لرسوله ﷺ، وتجد للعبادة طعمًا لا تجده إذا أتيت بها على سبيل العادة، ولهذا نقول: عادات الموفق عبادات، وعبادات الغافل عادات ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب لمن؟ للنبي ﷺ، والاستفهام للنفي وهل الهمزة الثانية أصلية مؤسسة أو زائدة للتأكيد؟ هي زائدة للتأكيد.

وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، هذا الاستدراك ما فائدته؟ العطف، لكن الاستدراك من أي

شيء؟ لقد بين أن العذاب يحصل لبعض الناس فاستدرك بعض الناس يعني: لما قال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ استدرك فقال - جل وعلا - ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، يعني: أنهم لم يحق عليهم، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ هو اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وخبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جملة ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لغرف.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وعد: يقول المؤلف [منصوب بفعله المقدر]، أي وُعدوا وعد الله، أو على رأي آخر محتمل: التقدير أنجزوا وعد الله، يعني أنجز الله لهم وعده، وعلى هذا فيكون منصوبًا بفعلٍ مقدر من غير فعل، أما على رأي المؤلف فهو مصدر محذوف العامل، يقول رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾: [وعده]، فأفادنا بأن (الـ) هنا نائبة مناب الضمير، وأن الميعاد بمعنى الوعد، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾، أي: أنه لا يخلف ما وعده بشيء آخر، لأن أخلف تدل على إبدال شيء بشيء، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، بخلاف خلف، فإنها تدل على خُلْف شيءٍ بشيء، فيقال خَلَفَه أي أتى بعده، أَخْلَفَه: بمعنى جُعل له بديلًا، ولهذا يقول المصاب: اللهم أجرني في مصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها[1]، يعني أعطني بدلًا منها، وقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾، إنما كان كذلك لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الميعاد إما أن يكون لكذب الواعد، وإما أن يكون لعجزه، والله - عزَّ وجلَّ - منزه عن هذا وهذا، فهو كامل الصدق، كامل القدرة.

الفوائد

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية**: أن من حقَّت عليه كلمة العذاب فلا هادي له، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

٢ - **ومن فوائدها**: إثبات كلام الله؛ لأن الذي يقضي بالعذاب هو الله - عزَّ وجلَّ - لا غيره، فكلمة العذاب صادرة من الله، وفي هذا إثبات الكلام لله عز وجل، والقرآن كل حرف منه فيه إثبات كلام الله، لماذا؟ لأنه كلام الله، فكل حرف منه كلام الله، إذ أن كلام الله حرف وصوت.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ، لا يستطيع أن ينقذ من في النار؛ وإذا كان هذا للرسول ﷺ فغيره من باب أولى.

٤ - **ومن فوائدها**: أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه في النار؛ لأننا قلنا إن الظاهر هنا نائب مناب المضمر وأن التقدير أفأنت تنقذه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية**: بلاغة القرآن وشدة زواجره، حيث يأتي بمثل هذا الأسلوب

---

(١) رواه مسلم (٩١٨)، وأحمد في مسنده (٢٦٦٧٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

الشديد الذي يَصْرِم القلب الواعي الحي، أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب، أفأنت تنقذ من في النار، أسلوب شديد جدًا ولا شك أن الأسلوب الشديد في موضعه يعتبر من البلاغة؛ لأن البلاغة أن يأتي الكلام مطابقًا لمقتضى الحال، أي لما تقتضيه الحال من لين وشدة وتطويل وإيجاز.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات النار، والنار هي الدار الثانية التي يستقر فيها الإنس والجن، وهي دار من اعتدى وكفر، وهي موجودة الآن، وستبقى أبد الآبدين.

قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: بيان علو منزلة المتقين؛ لأن الاستدراك هنا كأنه انتشال لهم مما سبق ذكره من الوعيد الشديد لهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

٢ ـ **من فوائدها**: أن التقوى سبب لدخول الجنة، لقوله: ﴿رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن تقواهم لله له سبب سابق ولاحق، فالربوبية الخاصة في قوله: ﴿رَبَّهُمۡ﴾، اقتضت أن يتقوه، وهم يتقون ربهم الذي سيثيبهم، فالتقوى لها سبب وهو عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهم، هذا سابق، ولها سبب لاحق، وهو ما يرجونه من ثواب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كل هذا يحمل على التقوى، فهو ربهم حيث وفقهم للتقوى وربهم حيث أثابهم عليها.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن منازل الجنة غرف، مبنية بعضها فوق بعض، لقوله: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾، وهل هذه الغرف تختلف بحسب العامل؟ نعم، وقد بين الرسول ﷺ، أن جنتين من جنات الخلد من ذهب آنيتهما وما فيهما، وأن جنتين من فضة آنيتهما وما فيهما[1].

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تمام النعيم حيث كانت هذه الغرف تجري من تحتها الأنهار، وفيها الأشجار، وفيها من كل ما يتمناه الإنسان، بل فوق ذلك.

٦ ـ **ومن فوائدها**: أن هذا النعيم ثابت بوعد الله، لقوله تعالى ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: إثبات أن الله لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته، ففيها إثبات كمال الصدق وإثبات كمال القدرة.

(١) رواه البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢١، ٢٢]

التفسير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [تعلم].

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، الهمزة هنا للاستفهام، والغالب أن همزة الاستفهام إذا دخلت على نفي أن تكون للتقرير، فمعنى ألم ترَ: أي قد رأيت، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قد شرحنا لك صدرك، لذا يكون الاستفهام هنا للتقرير أما (لم) فهي حرف جزم ونفي وقلب، وتفسير المؤلف ﴿تَرَ﴾ بـ (تعلم) هذا فيه احتمال، أن الرؤية هنا رؤية العلم، وفيه احتمال أن الرؤية رؤية البصر، فإن كان شيئًا مشاهدًا للإنسان بحيث يكون حوله، فهي رؤية بصر تتبعها رؤية العلم، وإن كان بعيدًا يسمع عنه سماعًا فهي رؤية علم، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إما للنبي ﷺ، وإما لكل من يتأتى خطابه أي من يصح منه الخطاب.

وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السماء: من العلو، وليس المراد بذلك السماء السقف المحفوظ؛ لأنه من المعلوم أن المطر ينزل من السحاب، والسحاب قد بَيَّنَ الله في آية أخرى أنه مُسخَّر بين السماء والأرض، وعلى هذا فيكون المراد بالسماء العلو، وقوله: ﴿مَاءً﴾ هو المطر، ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ سلكه بمعنى أدخله، ومنه سِلْك الخَرز يدخل فيها حتى ينظمها، وقوله: ﴿يَنَابِيعَ﴾ جمع ينبوع، [أي أدخله أمكنة نبع]، أدخله في الأرض، ينابيع: يعني يَنْبُع متى أراده الإنسان، وذلك من تمام الحكمة وتمام الرحمة؛ لأن هذا الماء لو بقي على ظهر الأرض لأنتن وفسد ولأفسد غيره أيضًا فكان من رحمت الله أن يدخله في الأرض يخزنه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] ، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله: ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ثم: تدل على الترتيب بمهلة، لأن هذا الذي يخرج بالمطر لا يخرج فورًا، ولكنه يخرج بالتدريج؛ لأن هذه سنة الله سبحانه وتعالى، أن تكون الأشياء بالتدريج، لئلا يحصل التصادم في الكون.

﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ ﴿بِهِۦ﴾: الباء للسببية، أي بسببه، وليس المطر هو الذي يخلق هذا النبات، ولكنه سبب له.

﴿بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ مختلفًا هذه صفة لزرع، ولكن هل المختلف الزرع أو لونه؟ ألوانه، فهنا الصفة عادت إلى غير الموصوف معنىً، ويسمي العلماء علماء النحو، يسمون هذا النعت نعتًا سببيًا؛ لأن معناه يعود إلى غير المنعوت، فهو تابع للمنعوت في الإعراب، ولكن معناه لغيره، كما لو قلت: رأيت رجلًا كريمًا أبوه، من الكريم؟ الأب، والصفة: يعني إجراءها من حيث الإعراب على الرجل، ولهذا تقول كريمًا نعت لرجل، أو صفة لرجل، مع أن حقيقة الوصف في غيره، يسمى هذا نعتًا سببيًا.

وقوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، كيف اختلاف هذه الألوان؟ هل المراد في الألوان الأشكال أو الألوان التلوين؟ أو يشمل؟ يشمل هذا أوهذا، فألوانه يعني أصنافه، ويعني أيضًا اللون، فهذا الزرع الذي يخرج من الأرض بالمطر تشاهدونه يختلف في ألوانه ويختلف في أشكاله، واخرجوا إن شئتم إلى أدنى شارعٍ هنا تجدون الاختلاف العجيب، شجرتان جنبًا إلى جنب ومع ذلك تجد هذه أوراقها مختلفة عن هذه، وتجد لونها مختلف عن الأخرى، وتجد الزهرات التي فيها أيضًا تختلف، وتجد الثمر الذي يخرج منها يختلف مع أن الماء واحد، والأرض واحدة قوله تعالى: [﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بعد الخضرة مثلًا ﴿مُصْفَرًّا﴾] هذا النبات الذي خرج يسر الناظرين مختلف الألوان أصابه ريح أو حر شديد، أو مع طول الزمن يهيج أي ييبس، فتراه مصفرًا بعد أن كان أخضر، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتًا متحطمًا؛ لأنه إذا يبس تكسر ثم تحطم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا لأولي الألباب العقول، يتذكرون به لدلالته على وحدانية الله وقدرته، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق، إنزال المطر من السماء، إدخاله ينابيع في الأرض، إخراج الزرع به، عود الزرع إلى الاصفرار والتحطم، هذه عدة أشياء تذكر الإنسان، إنزاله من السماء، وإدخاله في الأرض، وإخراج الزرع به، واختلاف الألوان، هذا كله ذكرى يتذكر به أولو الألباب على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته وعلى حكمته، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ إلى آخره، يتذكر به أولوا الألباب على أن كل ما كمل من الدنيا عاد ناقصًا، ويدل على أن هذا من المراد قوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] إذن الذكرى هنا ليست مجرد الدلالة على وحدانية الله وقدرته، بل هي أشمل، ومن أهمها الدلالة على أن ما كمل في الدنيا فمآله إلى النقص؛ فالصحة مآلها إلى المرض، والحياة مآلها للموت، وهكذا قس كل ما في الدنيا على هذا المثال.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

[كمن طبع على قلبه]، ﴿أَفَمَن﴾: (الهمزة) للاستفهام (والفاء) عاطفة على إما شيء مقدر أو على ما سبق، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، شرح بمعنى وَسَّع، ومنه قولنا: فلان شرح الكتاب الفلاني، يعني وَسَّعه، شرح صدره للإسلام، المراد الصدر: ما في الصدر، أو المراد بالصدر نفسه ينشرح؟ يَحْتَمِل أن يراد ما في الصدر، أن الله يوسع القلب فيجعله منفتحًا للإسلام، لا يضيق به ذرعًا، ويحتمل أنه الصدر نفسه؛ لأن الإنسان يُحِسّ بالشيء إذا غَمَّه أن صدره يضيق، نفس الصدر يضيق، وإذا جاءه ما يفرحه نفس الصدر ينشرح، وإن كان الأصل القلب، لكن نفس المكان ـ مكان القلب ـ يكون فيه اتساع وضيق، وهذا شيء مشاهد، فإبقاء الآية على ظاهرها، وهو أن المراد بالصدر حقيقته، حقيقة الصد أَوْلَى، فينشرح الصدر للإسلام ويَتَقَبَّل جميع شرائعه، يتقبل الشرائع، إن أُمِر بالشيء انشرح لقبوله والعمل به، وإن نُهِي عن شيء انشرح لقبوله واجتنابه، وإن أخبر عن شيء انشرح لقبوله وتصديقه، وهكذا.

وقِسْ هذا برجل فاسق، إن أمرته بالصلاة تجده يضيق صدره وربما يقول: أنا أصلي لك دعني، وما أشبه ذلك، وبعض الناس إذا أمرته وذكَّرته فرح وانشرح صدره، وقد بيَّن الله في سورة الأنعام، سورة قريبة مقرِّبة لهذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] يعني: شديد الضيق، كأنما يصعد في السماء، يعني كأنه إذا عرض عليه الإسلام يَصَّعَّد في السماء، يعني يتكلف بالصعود، وقد اختلف العلماء، في معنى يصعد في السماء، هل معناه ما اشتهر الآن من أن الإنسان كلما ارتفع في الجو كثر عليه الضغط، أو المعنى يصعد جبلًا عاليًا شامخًا يتعب في رقيه، فالمفسرون السابقون لا شك أنهم لا يعرفون عن مسألة الضغط شيئًا، والمتأخرون يعرفون، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلم هذا وهذا، والآية صالحة للأمرين؛ لأنك لو تصورت جبلًا، صعب الرقي، وعاليًا، يعني في السماء معناه عالٍ، وصعده الإنسان، يتكلف أو لا؟ يتكلف، لا شك، لا سيما إن كان عنده ضغط، يتعب جدًا، وإذا قلنا: بأن المراد بذلك أن الإنسان يصعد في السماء فوق الغلاف الجوي فهو واضح أيضًا، يقول الله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قلنا: علامة شرح الصدر قبول الخبر وتصديقه، قبول الأمر وامتثاله، قبول النهي واجتنابه، لا يكون عنده تردد، فهذا لا شك أن الله سبحانه وتعالى يجعله كما قال: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال المؤلف: [فاهتدى] [فهو على نور]، فأفادنا المؤلف أن في الآية حذفًا، تقديره فاهتدى، ويؤيده: فهو على نور، ولكن الواقع أنه لا حاجة إلى هذا التقدير، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مجرد أن يشرح الله صدره للإسلام فهو على نور، وهو إذا شرح الله صدره للإسلام فهو

سيهتدي قطعًا، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ نور حسي أو معنوي؟ معنوي، فهو على نور ولو كان في حجرة مظلمة، هو على نور، يعني يجد نفسه أنه يمشي على نور، وقوله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، يشمل نور الدنيا ونور الآخرة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢].

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، الربوبية هنا مضافة إلى هذا الذي شرح الله صدره للإسلام وهي ربوبية خاصة؛ لأنها أضيفت إلى من هداه الله، في الآية شيء محذوف دلت عليه الهمزة، وقدره المفسر رحمه الله بقول: كمن طبع على قلبه، ولو أن المؤلف قال كمن ضاق صدره بالإسلام لكان هذا أنسب في المقابلة؛ لأنه ينبغي أن تجعل مقابل الشيء مضادًا له، ولا تأتي بشيء آخر، فمثلًا لو قال الله تعالى: (أفمن وسع الله قلبه) لكان المناسب أن يكون المقدر كما قال المؤلف، لكن قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ نقول: كمن ضيق الله صدره بالإسلام، فضاق به ذرعًا، الجواب: لا، فيكون الاستفهام مع المقدر للنفي، ومن لم يشرح الله صدره، فهو على ظلمة؟ نعم، من لم يشرح الله صدره للإسلام فإن قلبه مظلم والعياذ بالله ليس فيه علم، لا نور علم ولا نور إيمان، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ [كلمة عذاب]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويل: مبتدأ، والقاسية: خبره، ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بالقاسية، ويل: قال المؤلف: إنها [كلمة عذاب]، وما قاله المؤلف أصح مما قيل إنها وادٍ في جهنم؛ لأن الإنسان يقال له ويل لك من كذا، في غير النار، وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩] فهي كلمة عذاب ووعيد.

وفي قوله: ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾ اسم فاعل، و﴿قُلُوبُهُم﴾ فاعل به، والقاسي ضد اللين، واللين قلب المؤمن، والقاسي قلب الكافر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [أي عن قبول القرآن]. فأفادنا المفسر رحمه الله أن مِنْ بمعنى (عن)، وأن المراد بذكر الله: القرآن، يعني فويل للذين تقسو قلوبهم عن القرآن، ولكن الأولى إبقاء الآية على ظاهرها، وأن قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي (أن) من للسببية، أي تقسو قلوبهم بسبب ذكر الله، وأن المراد بذكر الله ما هو أعم من القرآن، ويكون المعنى أن هؤلاء كلما ذكر الله قست قلوبهم، ووجه ذلك أنهم لا يريدون ذكر الله، فإذا كرهوا ذكر الله قسى القلب عقوبة لهم، ويدل لهذا قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥] فتجد هؤلاء القوم من المؤمنين تزيدهم السورة إيمانًا، والآخرون الذين في قلوبهم مرض تزيدهم رجسًا إلى رجسهم، إذن نقول القاسية قلوبهم من ذكر الله يعني الذين إذا ذكر الله قست قلوبهم عن قبوله، يعني لا يقبلونه، فإذا لم يقبلوه

ازدادت قلوبهم قسوة من ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليهم القاسية قلوبهم، ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: قال المؤلف: [بين]، وقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ في: للظرفية، وما أحسنها في هذا الموضع، إشارة إلى أن الضلال قد أحاط بهم من كل جانب، كما تحيط الحجرة بساكنها، وإذا كان الضلال قد أحاط بهم من كل جانب فإنهم لا يرجى لهم خير والعياذ بالله، لأنهم في ضلال مبين، قابل هذه الآية التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بقوله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يتبين لك أن النور في الآية نور العلم، ونور الإيمان، وضد العلم الضلال.

الفوائد

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عز وجل، في إنزال هذا المطر من السماء؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يستطيع إنزاله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان:٣٤].

٢ - **ومن فوائدها**: حكمة الله ورحمته حيث جعل هذا الماء ينزل من السماء؛ لأنه لو كان ينبع من الأرض، لم تستفد به عامة الأرض من وجه ولم يصعد إلى قمم الجبال إلا إذا أَغْرَقَ الناس الذين تحت الجبال، فكان من الحكمة أنه ينزل من السماء ليَعُمَّ المرتفع والمنخفض، وليشمل الأرض كلها.

٣ - **ومن فوائدها**: بيان حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في كيفية نزول هذا الماء، كيف ينزل؟ ينزل قطرات، لو نزل صبًا كما تصب أفواه القرب لأهلك الناس، وهدم البناء، ولكن من رحمة الله - عزَّ وجلَّ - أنه ينزل قطرات.

٤ - **من فوائد هذه الآية**: أن السماء يطلق على العلو، ويترتب على هذه الفائدة، أن قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يمكن أن يراد به من في العلو.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله ورحمته بالعباد حيث سلك هذا الماء ينابيع في الأرض، ولم يبقَ راكدًا على ظهرها، لما في ذلك من الحكمة والرحمة، يكون مخزونًا في الأرض متى أراده الناس استخرجوه.

٦ - **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله حيث أَخرَجَ بهذا الماء ذلك الزرع المختلف الألوان.

٧ - **ومن فوائدها**: إثبات الأسباب، ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: أن السبب لا يستقل بالتأثير في المسبَب، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ فأضاف الإخراج إلى الله، وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، أن الأسباب لها تأثير في

المسببات ولكن تأثيرها بفعل الله، لا يرجع إليها استقلالًا.

٩ ـ **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث أخرج هذا الزرع المختلف الألوان مع أنه يتغذى بماء واحد، ومن طينة واحدة، لقوله ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: أن كمال الدنيا مؤذن بنقصها؛ لأن الله ضرب ذلك مثلًا للدنيا كما في الآية التي سقناها في التفسير.

١١ ـ **ومن فوائدها**: أن الذين يتذكرون بآيات الله الكونية هم أولو العقول، وأمَّا من لا يتذكر بها ويقول: هذه طبيعة تتفاعل وتتجارى، فإنه لا عقل له.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل عقله في مخلوقات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليتذكر به، فيما في هذه المخلوقات من عظمة الخالق؛ لأنه قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

١ ـ **في هذه الآية**: نفي التساوي بين الفريقين، من شرح الله صدره للإسلام، ومن لم يشرح؛ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الهداية بيد الله، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه متى علم الإنسان أن الهداية بيد الله، فإنه لا يلتفت في طلب الهداية إلا إلى الله، وأيضًا إذا علم أن الهداية بيد الله لا يعجب بنفسه إذا اهتدى، بل يقول لنفسه لولا أن الله هداها لكان ضالًا، فلا يقول إنما أوتيته على علم عندي، أو يقول هذا لي؛ بل يعترف بفضل الله عليه، وأنه لولا هداية الله ما انتفع.

٣ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: بيان تفاضل الناس في قبول الحق، وأن منهم من يقبل الحق بانشراح، ومنهم من ليس كذلك.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن من شرح الله صدره للإسلام فقبل الحق، فإنه على نور من الله، ويتفرع على هذا زيادة علمه؛ لأن العلم نور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، ويتفرع على هذه الفائدة أيضًا قوة الفِراسة، أن الله تعالى ـ يعطي ـ الإنسان فراسة بحيث يعلم ما في قلوب الناس من لمحات وجوههم، بل أكثر من ذلك يستدل بالحاضر على الغائب، ويعطيه الله تعالى استنتاجات لا تكون لغيره، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه (مدارج السالكين) في كلامه عن الفراسة، ذكر عن شيخ الإسلام (ابن تيمية) كلامًا عجيبًا في فراسته رحمه الله، وإن كان ذكر أشياء قد لا تكون مقبولة، ولكنه ذكر شيئًا كثيرًا، ويستدل لذلك بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥ ـ **ويستفاد منها**: أن من شرح الله صدره للإسلام فإن له ربوبية خاصة، وعناية خاصة من

الله، من أين يؤخذ؟ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإن هذه الربوبية خاصة، غير الربوبية العامة، فربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والخاصة كقول الله تعالى عن أولي الألباب: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢] فالأول عام والثاني خاص.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الوعيد الشديد لمن قسى قلبه عن ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: أنك إذا رأيت من قلبك عدم لينٍ لذكر الله، فعالج نفسك، لتسلم من هذا الوعيد، وهذا يشكو منه الناس كثيرًا، ونشكو منه نحن أيضًا، أحيانًا يقسو القلب ولا يلين، يقرأ الآيات العظيمة الرادعة، ولكنه لا يتأثر، وأحيانًا يقرأ نفس الآيات، ثم يتأثر، فإذا عرفت من نفسك قسوة القلب فالجأ إلى الله - عزَّ وجلَّ - واسأله: أن يُلِينَ قلبك لذكره، وتأهب للوعيد، إذا لم يتداركك الله بلطفه ومغفرته.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القلوب تنقسم إلى قسمين: قلوب تلين من ذكر الله وقلوب تقسو منه، فإن قال قائل كيف يكون الشيء الواحد مؤثرًا لنتيجتين متباينتين؟ قلنا: هذا ممكن، وذلك لاختلاف المحل الوارد عليه هذا الشيء، وليس هذا بغريب لا في المعنويات ولا في الحِسِّيَّات، أما في المعنويات فكما رأيتم كلام الله - عزَّ وجلَّ -، وكما أن الإنسان يلقي الدرس على جماعة، بعضهم يلتهمه التهامًا ويفهمه فهمًا تامًا ويجده لذيذًا، والبعض الآخر يُغلَق عليه، ولا يفهمه ثم إذا أغلقت عليه كلمة واحدة، انغلق عليه جميع الدرس وعجز أن يفهمه، والمعلم واحد والموضوع واحد، كذلك أيضًا نجد التمر وهو تمر النخل معروف، يأكله رجلان أحدهما يكون داءً عليه، والآخر يكون غذاءً، أليس كذلك؟ المصاب بالسكر لو أكل التمر صار داءً عليه، والصحيح لا يكون داءً عليه، نجد الماء يجري على الأرض، أرض تقبله وتشربه وتنبت، وأرض لا تقبله، يَسِحُّ عليها ولا تنتفع به، فهذا ذكر الله - عزَّ وجلَّ - يرد على القلب اللين، فينتفع به وعلى القاسي، فيزداد قسوة والعياذ بالله.

٩ - **ومن فوائدها**: أن القاسية قلوبهم من ذكر الله على عكس من شرح الله صدره للإسلام، من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور، ومن قسى قلبه من ذكر الله فهو في ضلال مبين.

١٠ - **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الذين قست قلوبهم من ذكر الله قد انغمسوا انغماسًا تامًا في الضلال، من أين يؤخذ؟ لأن في للظرفية، والظرف محيط بالمظروف، المظروف دون الظرف، في جوفه، فكأن هؤلاء انغمروا في الضلال، وأحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه، أولئك في ضلال

مبين. نسأل الله لنا ولكم الهداية والنور.

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزُّمَر:٢٣]

التفسير

قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ﴾: جملة خبرية، اسمية الصدر فعلية العجز، ﴿نَزَّلَ﴾ من المضعف، ويأتي التعبير أحيانًا بأنزل من الرباعي المزيد بهمزة، واختلف العلماء هل هما بمعنى واحد، يعني أنزل ونزل معناهما واحد، أو يختلف المعنى؟ والصحيح أن معناهما واحد، إلا مع وجود قرينة، فمع وجود قرينة يكون التنزيل لما ينزل شيئًا فشيئًا، والإنزال لما ينزل جملة واحدة، لكن هذا لا يكون إلا مع القرينة، أما مع عدم القرينة فنزل وأنزل بمعنى واحد، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨] ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق:٩]، وهما بمعنى واحد، وكذلك في القرآن أحيانًا يقول الله أنزلنا وأحيانًا يقول نزلنا، وهما بمعنى واحد، لكن مع وجود قرينة يكون التنزيل شيئًا فشيئًا كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] هنا نزلنا تختلف عن أنزلنا، فهي بمعنى التنزيل شيئًا فشيئًا، بدليل قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ أحسن: اسم تفضيل من الحسن، والحسن يتضمن حسن الأسلوب وحسن الموضوع، ويشمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾، هذا وهذا، يعني أحسن في أسلوبه وأحسن في موضوعه، أما الأسلوب، فأن يكون مطابقًا للبلاغة في غايتها، إيجازًا في موضع الإيجاز، إطنابًا في موضع الإطناب، توكيدًا في موضع التوكيد، تخليةً من التوكيد في موضع يقتضي ذلك، وهَلُمَّ جرًا، كذلك أحسن في الموضوع، موضوعه، أخبار وأحكام، فالأخبار أحسنها أصدقها، وأنفعها في العبرة، والأحكام أحسنها أعدلها، وأقومها بمصالح العباد، والقرآن الكريم مُتضمِّن للأحسنين الأسلوب والموضوع.

وقوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾، ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾، أو عطف بيان، إذا جعلنا ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ شيئًا واحدًا، أما إذا جعلنا ﴿كِتَابًا﴾ مستقلًا عن ﴿مُتَشَابِهًا﴾، فإنه يكون بدلًا ولا

يكون عطف بيان، كتابًا أي مكتوبًا؛ لأن فعال تأتي بمعنى مفعول كثيرًا، ومنه الغرّاس، والبنّاء، والكسّاء، والفرّاش، والوطّاء، وأمثلة هذا كثيرة في اللغة العربية، أن يأتي فعال بمعنى مفعول، فإن غرَّاسًا بمعنى مغروس، وبنّاءً بمعنى مَبنيٍّ، ﴿كِتَٰبًا﴾ بمعنى مكتوب، وفي أي شيء هو مكتوب؟ مكتوب في ثلاثة أشياء: في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي الصحف التي بأيدينا، القرآن الكريم مكتوب بهذا وهذا وهذا.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، يعني: يشبه بعضه بعضًا في أي شيء؟ في الكمال، والجودة، وحسن الموضوع، لا تجده متناقضًا أبدًا، ولا تجده مختلفًا أبدًا، لكن بحسب المقام، تارة يكون المقام يقتضي الاختصار، وتارة يكون المقام يقتضي البسط، فإذا نظرنا إلى سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، والسورة التي قبلها، وجدنا بينهما تشابهًا في الحسن، حيث إن كل سورة كانت مناسبة للحديث، أو للمتحدث عنه، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتحدث عن الرب - عزَّ وجلَّ - وعن أسمائه وصفاته، فجاءت بالأسلوب المناسب، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد:١] تتحدث عن رجل كافر فصارت بالأسلوب المناسب، لا يقول قائل: أين التشابه بين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبين ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾؟ نقول: التشابه معناه أن كل كلامٍ جاء على الوجه المناسب لموضوعه، هذا وجه التشابه، إذن متشابه في ماذا؟ في الكمال والجودة وحُسنِ الموضوع، ومن الكمال والجودة أن يكون الكلام مناسبًا لموضوعه، بسطٌ في موضع البسط، وإجمالٌ في موضع الإجمال، وتفصيلٌ في موضع التفصيل، وبسطٌ وتطويلٌ في موضع البسط والتطويل، حسب ما تقتضيه البلاغة.

وقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، مثاني: مأخوذ من التثنية، يعني القرآن مثاني، والمثاني أنه يقرن المعنى وما يقابله، فتأمل الآيات الكريمة تجد أنه إذا ذكرت النار ذكر بعدها الجنة، وإذا ذكر أهل النار ذكر بعدهم أهل الجنة، وهكذا؛ وذلك من أجل ألا يملَّ السامع من موضوع واحد، ومن أجل أن يتنقل من تخويف إلى ترغيب، فينشط لفعل الواجبات، ويحذر من فعل المحرمات، وهذا من أساليب البلاغة التامة أو الكاملة.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾: أي ترتعد عندما تسمع آيات الوعيد والتخويف، ترتعد وتخاف وتضطرب، وقد كان بعض السلف يمرض أيامًا حتى يعاد إذا سمع بعض الآيات، كما جرى ذلك لأمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه حين تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧، ٨] فمرض أيامًا حتى عاده الناس[1].

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، الذين يخشون: أي يخافونه مع العلم بعظمته وجلاله، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] وقد فرق العلماء بين الخشية والخوف بوجوه: أولًا: أن الخشية تكون مقرونة بعلم،

---

(١) محض الصواب (٣/ ٣١٩).

وثانيًا: أن الخشية تكون من عظمة المخشي، وإن كان الخاشي عظيمًا، أما الخوف فيكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف منه غير عظيم، فهذان فرقان بين الخشية وبين الخوف، أن الخشية تكون بعلم، والخوف قد يكون بوهم، قد يرى الإنسان شبحًا من بعد فيخافه وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، هذه الربوبية من الربوبية الخاصة التي من الله عليهم بها بالخشية التي ألقاها في قلوبهم، في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، تلين بعد الإقشعرار أو القشعريرة، تلين: أي تطمئن وتهدأ، إلى ذكر الله: أي منقادة إلى ذكره، فتكون هذه الليونة غايتها ذكر الله عز وجل.

وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يحتمل أن يكون المشار إليه ما حصل لهم من الخشية، وعلى هذا فيكون المراد بالهداية، هداية التوفيق؛ لأن الخشية عمل ويحتمل أن يكون المشار إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾: الكتاب الذي هو أحسن الحديث، فتكون الهداية هداية دلالة، لأن الكتاب يهدي بمعنى يدل، والتوفيق بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، هذه الجملة الشرطية، بين الله فيها أن من كتبه ضالًّا فما أحد يهديه، وقوله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أصلها هادي بالياء، لكن حذفت الياء لالتقاء الساكنين، أين الساكنان؟ التنوين في الدال والياء الساكنة المحذوفة، ويجوز إبقاؤها فيقال: هادي، لكنها تحذف كثيرًا للتخفيف والتقاء الساكنين، نرجع إلى كلام المؤلف رحمه الله يقول: [﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ بدلٌ من أحسن أي قرآنًا]، قوله بدل من أحسن مر علينا أنه يصح أن يكون بدلًا، أو عطف بيان بشرط أن يوصل بها بعدها، كتابًا متشابهًا، وذلك لأن عطف البيان، يكون مبينًا للمعطوف عليه، ولهذا سمي عطف بيان، ولا يكون مبينًا إلا إذا جعلنا ﴿مُتَشَابِهًا﴾ صفة لازمة، وقوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ أي قرآنًا، هذا التفسير تفسير لفظي أو معنوي؟ إذا أردنا أن نفسر تفسيرًا لفظيًّا أتينا باللفظ نفسه، أو معنويًّا أتينا بالمعنى، فهنا هل أتى بتفسير اللفظ نفسه، فقال: كتابًا أي مكتوبًا، أو أتى بالمعنى؟ بالمعنى، فالمراد بالكتاب هنا القرآن، فالمؤلف رحمه الله فسرها تفسيرًا معنويًّا أي فسرها بالمراد منها، ﴿مُتَشَابِهًا﴾ قال: [أي يشبه بعضه بعضًا في النظم وغيره]، لا يراد بالنظم هنا ما يقابل النثر، لأن القرآن ليس شعرًا، لكن في النظم أي نظم الكلام وتنظيمه، حتى يكون مشبها بعضه لبعض، يقول رحمه الله: [﴿مَّثَانِيَ﴾ ثني فيه بالوعد والوعيد وغيرهما]، يعني يؤتى بالوعد ثم يعقبه الوعيد، يُؤتي بذكر النار، ثم يعقبه ذكر الجنة، يؤتى بصفات المؤمنين، ثم يؤتى بصفات غيرهم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من ضدهم؟ الذين كفروا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ وانظر إلى قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وانظر إلى قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] وانظر إلى قوله

في سورة (الكهف) لما ذكر ما للمؤمنين من الثواب في الجنة ذكر ما للكفار من العقاب في النار، والأمثال في هذا كثيرة جدًا، يقول تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، قال المؤلف: تقشعر: [ترتعد عند ذكر وعيده ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: يخافون] ربهم. قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾، أي: عند ذكر الوعيد أو ذكر النار، أو ما يوجب الخوف والفزع، كذكر ما حل بقوم نوح وقوم لوط وغيرهم، ثم يقول: [﴿يَخْشَوْنَ﴾ يخافون]، وهذا التفسير ضعيف؛ لأنه فسر المعنى بما دونه، إذ قلنا: إن الخشية، هي الخوف مع العلم، واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فلو أن المؤلف قال: يخشون ربهم خوفًا مبنيًا على العلم بعظمته، لكان التفسير صوابًا، لكن الآن نعتبر التفسير قاصرًا، [﴿ثُمَّ تَلِينُ﴾ تطمئن]، ولكن لا شك أن ذكر اللين أبلغ من ذكر الطمأنينة؛ لأن القشعريرة تقتضي نشوز الجلد وارتفاعه وتصلبه، والذي يقابل ذلك، اللين والهدوء والطمأنينة، فتفسير المؤلف أيضًا اللين بالطمأنينة، تفسير باللازم في الواقع، وإلا فإن اللين غير الطمأنينة؛ لأن الجلد إذا اقشعر يتصلب، ولهذا تجد أطراف الإنسان تبرد لانحصار الدم عنها بعض الشيء، فإذا هدأ فإنه يلين ويزول ذلك التصلب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لين القلب ضد قسوته، يعني عندما يسمعون الوعيد تقشعر الجلود، وتنفر القلوب، ثم بعد ذلك تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله، قال المؤلف: أي [عند ذكر وعده]، ولكن الصواب أنها إلى ذكر الله مطلقًا، حتى الوعيد إذا تأمل الإنسان وهدأت نفسه، بعد أن ورد عليه ما يخوفه، فإنه يلين حتى للوعيد، فتخصيص المؤلف ذلك بذكر الوعد، في النفس منه شيء، ومع ذلك فله وجه، إذا كان القرآن مثاني ثم جاء ذكر النار وجاء بعده ذكر الجنة لانت القلوب، أو ذكر أهل النار وجاء بعده ذكر أهل الجنة لانت القلوب أيضًا.

وقوله: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لم يقل لذكر الله، وكأن هذا اللين صار له غاية وهو ذكر الله عز وجل، وقوله ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هل هو من باب إضافة المصدر إلى الفاعل؟ يعني إذا ما ذكرهم الله به، أو من باب إضافة المصدر إلى المفعول به؟ أي إلى ذكرهم الله، الجواب: هذا وهذا، الكلمة صالحة لهذا وهذا، أي إلى ذكرهم لله، أو ما ذكرهم الله به، وهو القرآن الذي جعله الله مثانيًا.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾: أي الكتاب، ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أفادنا المؤلف رحمه الله أن الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ تعود إلى الكتاب، وعلى هذا فيكون المراد بالهداية هنا هداية الدلالة، فإن القرآن هدى بمعنى أنه دال على كل خير، بل على كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾، هنا الهداية: هداية الدلالة والتوفيق؛ لأنها أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى بيده الهدايتان، والباء في قوله يهدي به لم يبين المؤلف معناها، ولكن

معناها السببية، أي بسبب من يشاء، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن القرآن منزل من عند الله.

٢ ـ ومن فوائدها أيضًا: إثبات العلوم، ومن المعلوم أنه يتفرع على الفائدة الأولى أن القرآن كلام الله إذا كان نزل من عنده، والقرآن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لفظًا ومعنى، تكلم به لفظًا ومعنًى عز وجل، خلافًا للأشاعرة الذين يقولون إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس صوتًا يسمع، ولا حروفًا ترى، ولكنه المعنى القائم بنفسه، وما كتب في المصاحف أو سمع بالآذان فإنه عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، وحقيقة الأمر أن قولهم هذا يتضمن إنكار كلام الله عز وجل، لأنهم يقولون هذا القرآن الذي نسمع الآن، هو مخلوق، عبارة عن كلام وليس هو كلام الله، كلام الله هو المعنى القائم بنفسه فقط.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن أحسن الحديث، لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وهكذا حديث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو أحسن الحديث، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن مكتوب، لقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾ وسبق أنه يكتب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، الصحف التي في أيدي الملائكة، والصحف التي في أيدينا.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن متشابه، لقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، وحينئذٍ يطلب الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، في هذه الآية جعل الله القرآن نوعين: محكمًا ومتشابهًا، وفي الآية التي في (الزمر) جعله نوعًا واحدًا متشابهًا، والجمع بينهما أن يقال إن التشابه المذكور في (الزمر) غير المتشابه المذكور في آل عمران، التشابه المذكور في الزمر أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة، والتشابه المذكور في آل عمران هو اشتباه المعنى وخفاؤه.

فالقرآن في هذا الوجه، ينقسم إلى قسمين: محكم: أي واضح المعنى، والثاني متشابه: أي خفي المعنى، إذن الجمع أن نقول: إن التشابه في (آل عمران) غير التشابه في (الزمر)، التشابه في (الزمر) بمعنى أن بعضه يشبه بعض، كل القرآن متشابه، وأما في (آل عمران) فهو الخفاء، (متشابهات) أي (خفيات المعنى)، فالقرآن بعضه محكم بيِّن وبعضه متشابه، لا يعرفه إلا الراسخون في العلم، وفي بعض الآيات وصف القرآن بأنه حكيم، بدون أن يُذكر التشابه، مثل قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهذا بمعنى المحكم المتقن الذي لا يتناقض، فهو عكس المحكم الذي لا يتناقض.

فالقرآن إذا وُصِف بأنه محكم كله وأنه متشابه كله وأن بعضه محكم وبعضه متشابه، فوصفه

بالإحكام كله، أنه كله محكم متقن لا يتناقض، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ووصفه بأنه كله متشابه، أي يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة، ووصفه بأن بعضه محكم وبعضه متشابه أي أن بعضه واضح المعنى وبعضه خفي المعنى، مثال الواضح المعنى: السماء والأرض والنجوم والشمس والقمر والإنسان، وما أشبهها، هذا واضح، ومثال المتشابه: أن توجد آيتان ظاهرهما التعارض مثلًا.

مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فكيف تجمع في هذه الآية ينكرون، وفي الآية التي ذكرناها قبل لا يكتمون الله حديثًا، فيأتي إنسان يقول: ما أعرف وجه التناقض، ولكنَّ الراسخين في العلم يعلمون كيف يجمعون بين هذه وهذه، الجمع بينهما أن يوم القيامة للناس فيه أحوال، لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، فمرة يكتمون ومرة يقرون، ولا يكتمون الله حديثًا.

كذلك أيضًا ذكر الله أنه يحشر المجرمين يومئذٍ زرقًا، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، فكيف نجمع؟ مرة يقول: تسود، ومرة يقول: زرقًا، الجواب أن يقال: إن بعضهم كذا وبعضهم كذا، أو أنهم في وقت يكونون زرقًا، وفي وقت يكونون سودًا، أو أن الأزرق الداكن يكون مائلًا إلى السواد، فيطلق عليه أنه أسود، أو أن الزرق في عيونهم، والسواد في بقية الجسم، وما أشبه ذلك، المهم أن الراسخين في العلم يعرفون كيف يجمعون، لكن غيرهم يكون خفيًا عليه، ولهذا يقول العلماء: إن القرآن وصف بالتشابه على سبيل العموم، وبالإحكام على سبيل العموم، ووصف بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، والجمع كما قلنا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن قد بلغ في البلاغة غايته أكمل البلاغة، لكونه يأتي مثاني، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي لمن تكلم في موعظة الناس ألا يأتي بالترغيب المطلق ولا بالترهيب المطلق، وذلك أنه إذا أتى بالترغيب المطلق حملهم على الرجاء فتهاونوا، وإذا أتى بالترهيب المطلق، حملهم على اليأس، فقنطوا من رحمة الله، فالذي ينبغي للإنسان الذي يتكلم مع الناس في المواعظ أن يكون داعيًا يتكلم أحيانًا بهذا وأحيانًا بهذا، حتى لا يحمل الناس على القنوط، أو على الرجاء الذي يوجب الأمن من مكر الله.

٧ - **ومن فوائدها:** أن المؤمن يتأثر بالقرآن، يقشعر منه جلده ويخاف، ثم بعد ذلك ترجع إليه الطمأنينة ولين القلب، ويتفرع على هذه الفائدة أنك إذا رأيت نفسك على غير هذه الحال فاعلم أن إيمانك ضعيف؛ لأن هذا الخبر خبر من؟ خبر الله عز وجل، فلا يمكن أن يتخلف مخبره، فكل مؤمن يقشعر جلده مما يسمع من القرآن الكريم في الوعيد، وإذا لم تكن كذلك فإن إيمانك ضعيف.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن ذكر الله عز وجل، سبب للين القلوب وطمأنينتها، لقوله: ﴿رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** امتنان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هؤلاء بالهداية لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ الباء للسببية كما مر علينا في التفسير، وإثبات الأسباب هو الموافق للمنقول والمعقول، أما المنقول فما أكثر الآيات التي فيها إثبات الأسباب، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣] ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩] والآيات في هذا كثيرة، والمعقول: كذلك يدل على إثبات الأسباب وأن لها تأثيرًا في مسبباتها، فكلنا يعرف أن ضرب الزجاج بالحجر يكسره، وأن الزجاج انكسر بضرب الحجر، خلافًا لمن أنكر الأسباب وقال إنه لا أثر للأسباب في مسبباتها، فإن قوله خلاف الشرع وخلاف العقل، حتى أنه قيل لهم أليست الورقة تحترق بالنار؟ فقالوا لا، تحترق عند النار لا بالنار، وقيل لهم أليس الزجاج ينكسر بالحجر إذا رمي به، فقالوا لا، ينكسر عند الحجر لا بالحجر، لماذا؟ قالوا لأننا لو أثبتنا تأثير الأسباب في أسبابها، لأشركنا بالله، وجعلنا معه فاعلًا مؤثرًا ولا أحد يرضى أن يشرك بالله شيئًا، وجوابنا على هذه الشبهة أن نقول إن الأسباب لم تؤثر بذاتها وإنما أثرت بما أودع الله فيها من القوى، والدليل على هذا أن الله قال لنار إبراهيم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، فكانت بردًا وسلامًا ولم تحرقه، فإذا قلنا إن هذه الآثار المترتبة على الأسباب إنما هي بما أودع الله في هذه الأسباب من القوى المؤثرة، فإننا بذلك لم نشرك بالله، وتطرف آخرون من وجه آخر فقالوا إن للأسباب تأثيرًا بذاتها، وإننا نحن نعلم أن الحجر إذا أرسل على الزجاج كسره بنفسه، ولكن هؤلاء هم الذين جعلوا مع الله شركاء، فإنا نقول هذا الحجر لو شاء الله ألا يكسر الزجاجة لم يكسرها كما أن الله لما شاء ألا تحرق النار إبراهيم لم تحرقه، فأهل السنة والجماعة وسط بين هاتين الطائفتين المتطرفتين، الغالية في الأسباب، والغالية في مشيئة الله، نحن نقول الأسباب مؤثرة لكن بمشيئة الله.

١١ ـ **ومن فوائدها:** إثبات أن الهداية بمشيئة الله، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهذه الآية فرد من أفراد أدلة كثيرة تدل على أن فعل العبد واقع بمشيئة الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وهذا الموطن حصل فيه مُعْتَرَك عظيم جدًّا، بين ثلاث طوائف، طائفتان متطرفتان، وطائفة معتدلة.

الطائفتان المتطرفتان إحداهما قالت: إن الإنسان يشاء عمله ولا علاقة لله به، فالإنسان حر

يتصرف كما يشاء، وليس لله فيه تدخل إطلاقًا، هو يهدي نفسه، وهو يضل نفسه، قالوا: ولولا ذلك لكان تعذيب الله للعاصي ظلمًا، وثوابه للطائع عبثًا، لأنك إذا قلت إن الإنسان ليس بحر فهو مدبر، والمدبر لا يحمد على فضل، ولا يذم على سوء، ومن المعلوم أن الله رتب الذم على العاصي، والمدح على المطيع، فهذا يدل على أن فعل العبد فعل مستقل.

أما المتطرفون الآخرون فقالوا: إن الإنسان لا مشيئة له، ولا قدرة له، ولا اختيار له في فعله، بل هو مجبر عليه، عاجز عن المخالفة، يجبر جبرًا، يأكل جبرًا، ويشرب جبرًا، ويقدم جبرًا، ويتأخر جبرًا، وليس له اختيار على أي حال، وتعذيب الله للظالم ليس ظلمًا وإن كان الظالم يفعل بغير اختياره، لأن تعذيب الله له تصرف في ملكه، والله - عزَّ وجلَّ - يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، فحينئذٍ لا يرد علينا ما استدل به الطرف الأول، الذي قال لو كان الإنسان غير مطلق الحرية لكان تعذيب العاصي ظلمًا وإثابة الطائع لهوًا، نحن نقول: إن تعذيب الظالم ليس بظلم وإن كان مجبرًا، لماذا؟ لأن الله مالكه يفعل فيه ما يشاء، كما أنت تفعل في ملكك ما تشاء، تهدم البيت تبني البيت، تبيع السيارة تشتري بدلًا لها، وما أشبه ذلك، الطرف هذا هم الجبرية، والطرف الأول يسمون القدرية، فسمي الطرف الأول القدرية لأنهم ينكرون قدر الله - عزَّ وجلَّ - فيما يتعلق بفعل العبد، وسمي هؤلاء جبرية لأنهم يرون أن العبد مجبر على عمله، يتساوى عند هؤلاء من نزل من السلم بتؤدة وطمأنينة درجة درجة ومن دفع من أعلى السلم حتى انزخ على وجهه يقولون كله سواء، كله مجبر.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم توسطوا في هذا، وقالوا إننا نثبت الأدلة الدالة على أن كل شيء واقع بمشيئة الله، ونثبت الأدلة الدالة على أن للإنسان اختيارًا وإرادة، وبذلك نجمع بين الأدلة فنقول: فعل العبد واقع بمشيئته، لكن مشيئته تحت مشيئة الله، فإذا شئت أنا شيئًا فإني أعلم أن الله شاءه، وإذا لم أشأ شيئًا علمت بأن الله ما شاءه، ولا يمكن أن أعلم بأن الله شاء شيئًا إلا بعد أن يقع، إذ أن قضاء الله مكتوم، سر مكتوم لا نعلم عنه، لكن إذا وقع علمنا أن الله شاءه، فأنا لا أشاء إلا ما شاء الله، ولكني في نفس الوقت لي حرية، أن أشاء ما شئت إلا أنني أومن بأن مشيئتي هذه كانت بمشيئة الله، ويدل لهذا أن الإنسان أحيانًا يعزم على فعل شيء، وبينما هو مُتَّجه له إذِ انتقضت عزيمته إلى اتجاه آخر، أو إلى إلغاء العمل، إذن هناك سلطة فوق سلطته، لكن هذه السلطة غير معلومة، لا تُعلَم إلا بآثارها، وقد قيل لأعرابي: بما عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم، أعرابي بدوي أجاب بهذا الجواب العجيب، عرفت ربي بنقض العزائم؛ يعني: أعزم على الشيء، ثم تنتقض عزيمتي بدون سبب، وصرف الهمم، أهمُّ بالشيء إلى اليمين ثم أجدني منصرفًا إلى اليسار، بدون سبب، إلا من الله عز وجل، فأهل السنة والجماعة يقولون: الإنسان يشاء ويختار، وليس مُجبرًا، لكن أي شيءٍ يشاءه فهو بعد مشيئة الله، نعلم أن ذلك بمشيئة الله، وهذا هو الذي

تطمئن إليه النفس، وتجتمع به الأدلة، إذن يكون قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]؛ لأننا لما عَبَدنا غير الله علمنا أن الله شاء ذلك، وليس لنا قدرة في مخالفة المشيئة حُجَّة باطلة، أبطلها الله عز وجل، ويبطلها العقل، أبطلها الله في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأعراف:١٤٨]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] أبطلها الله، فلما أبطلها الله شرعًا، ننظر هل هي باطلة عقلًا، أو لا؟ نقول: هي أيضًا باطلة عقلًا؛ لأنك لم تعلم أن الله قضى عليك بعبادة الأصنام إلا بعد العبادة، فلماذا لم تعدِل عن عبادة الأصنام، وتُقدِّر أن الله قضى عليك بترك عبادة الأصنام؟ لماذا لم تفعل؟

فإقدامُك على عبادة الأصنام وأنت لم تعلم أنَّ الله كتب ذلك هو منك، وأنت الذي أردتَ، ولو أنك قدَّرتَ الأفضل والأحسن، وأن الله قدَّر أن تكون مُوحِّدًا مُجتنبًا لعبادة الأصنام لحصل لك ذلك، ثم إننا نقول: هناك أيضًا دليل حِسِّي؛ لو خُيِّر الإنسان بين شيئين أحدهما أفضل من الآخر، ماذا يختار؟ يختار الأفضل، وهل يمكن لشخص أن يختار الأردأ ويقول: هذا الذي قُدِّر لي؟ أبدًا، لو قيل له: لمكة طريقان: طريق آمِن، وطريق مَخُوف، فقال: نذهب مع الطريق المخوف؛ لأن الله كتب علينا هذا، هل يمكن أو لا يمكن؟ لا يمكن أبدًا، سيسلك الطريق الآمِن لا شك، لو عُرِض عليه عَمَلان في وظيفة، أحد العَمَلين: شاقٌّ وأجرته قليلة، والثاني: خفيف وأجرته كثيرة، ماذا يختار؟ يختار الثاني لا شك.

وهذه أدلة محسوسة تدل على أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي، أو على ترك الواجبات احتجاجٌ باطلٌ، لا يستقيم لا شرعًا، ولا عقلًا، ولا حِسًّا، فهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نفعل باختيارنا، ولكن اختيارنا نعلم أن الله قد اختاره لنا قبل أن نختاره نحن، إلا أنه لا حُجَّة لنا في أن نقول: هذا مُختار الله لنا فلا نستطيع أن نتخلَّص منه؛ لأننا حين الفعل لم نعلم ما قُدِّر، ولا يمكن لأي إنسان يدري أن الله قدَّر شيئًا إلا بعد الوقوع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فجعلهم هم السبب في ذلك.

١٢ - **من فوائد الآية أيضًا**: أنه ينبغي للإنسان - وهذه فائدة مسلكية - أن يلجأ إلى الله وحده في طلب الهداية، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، فأنت لا تعتمد على نفسك فتهلِك، اعتمِد على ربك، اتجه إليه دائمًا في سؤال الهداية، حتى يهديك الله، وكان النبي ﷺ، وهو الهادي المهدي يستفتح فيقول: «**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اِهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1] هذا هو النبي ﷺ،

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠)، وأبوداود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وابن ماجه (١٣٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فكيف بنا نحن؟ فأنت الجأ إلى ربك في طلب الهداية، لا تعتمد على نفسك، اعتمِد على الله تعالى فهو مرجعك.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من يُضِلَّه الله فلا هادي له، لقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٧]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، فإن قال قائل: أفلا يُوجِبُ لنا هذا الحكم أن نتوقَّف عن دعوة الناس إلى الحق؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؟ فالجواب: لا يُوجِب، لكن الفائدة من ذلك أننا إذا دعونا أحدًا إلى الحق ولكنه لم يقبل، فإننا لا نُهلِكُ أنفسنا من أجله، بل نقول: هذا قد قضى الله عليه بالضلال، وليس لنا في أمره من شأن، ولهذا نجد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] أي: مُهلِك نفسَك ألَّا يكونوا مؤمنين، لا تُهلِك نفسك، وأنزل الله تعالى عليه تسليةً حين دعا عمَّه أبا طالب لكنه لم يهتدِ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] وحينئذٍ لا يمنعنا مثل هذا الحكم أن ندعوا إلى الله، ولكن إذا دعونا إلى الله ولم نجد الناس اهتدوا، فإننا لا نُكلِّف أنفسنا، لا نُهلِك أنفسنا بالهمِّ والغمِّ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى هذه النظرة سوف تتكدَّر عليه دنياه؛ بل سوف يضيع عمله الصالح؛ لأن الناس ليسوا بمهتدين على ما يريد، فإذا أتعبَ نفسه وراء الناس وصار يلهثُ وراءهم تعِبَ، يبذل ما يجب عليه، والباقي على الله عز وجل.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: أن اسم الهادي يُطلَق على غير الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فالهادي تُطلق على الله وعلى غيره، لكن الذي يمتنع إطلاقه على غيره هو: هداية التوفيق، فإن هداية التوفيق لا تكون إلا لله وحده، أما هداية الدلالة فإنها تكون لله ولغيره.

قال الله تعالى:

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٢٤، ٢٥]

التفسير

قال: ﴿يَتَّقِى﴾ [يلقي] ﴿بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [أي: أشده]، ففسَّر سوء بأسوأ، وأسوأ لا شك أنه اسم تفضيل، وسوء ليس اسم تفضيل، وعلى هذا فيكون المؤلف فسَّر الكتاب

بما هو أعلى منه، والواجب أن يكون المُفسِّر مُطابقًا للمُفسَّر، ولو قال المؤلف رحمه الله: العذاب السيئ لكان أبلغ مطابقة للقرآن، يقول: [بأن يُلقى في النار مغلولةً يدُه إلى عُنُقه]، وكأنه أَخَذَه من كونه يتَّقِي العذاب بوجهه؛ لأنه لو كانت يده مطلقة لاتَّقى العذاب بيده، ولكني أقول: لا يلزم من اتقاء العذاب بوجهه أن تُغلَّ يدُه؛ لأن يده قد تكون مرسلة غير مُقيَّدة، ولكن لا يستطيع، أو يظن أن مدافعته بوجهه أشد.

قال المؤلف في ذكر المُعادِل: [كمن أَمِنَ منه بدخول الجنة؟] والجواب: لا، وحينئذٍ يكون الاستفهام للنفي؛ يعني: لا يستوي من يتَّقِي بوجهه سوء العذاب مع من أَمِنَ من العذاب، ولم يتقِّه.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [أي: كفار مكة]، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [أي: جزاءه]، قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [أي: كفار مكة]، كأنَّه أَخَذَه من قوله: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وإلَّا فإنَّ الظالمين هنا عام، لفظ عام يشمل كفار مكة وغيرهم، وهذا هو الأَولَى.

فإن قيل: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يدل على أن هذا في المتأخرين؟ قلنا: نعم، هو يدل على أنه في المتأخرين، لكن كل رسول فقد سبقه رسول، فعاد نقول: كذبت قبلهم قوم نوح، وثمود كذَّبت قبلهم قوم عاد، وهلُمَّ جرًّا، فيكون الظالمون عامًّا لكفار مكة ولغيرهم، لكن أول من يدخل فيهم بلا شك: كفارُ مكة؛ لأن القرآن نزل توبيخًا لهم، وإنذارًا ودعوة.

قال المؤلف: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [من جهة لا تخطر ببالهم]، وهذا كما قلنا في التفسير أشد وأبلغ من أن يأتيهم العذاب وهم على أُهْبة الاستعداد له.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦].

❁ التَفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾ [الذل والهوان؛ من المسخ، والقتل، وغيره]، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أذاقهم الله؛ أي: مسَّهُم به، حتى كأنَّهم طعِمُوه وذاقوه بمذاقاته، وقول المؤلف رحمه الله: [من المسخ، والقتل، وغيره] المسخ مثل: اليهود الذين قال الله لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، والقتل: قتال بني إسرائيل، قتلوا أنفسهم حينما أُمِرُوا بالتوبة، وقيل لهم: إن كنتم صادقين في التوبة فاقتلوا أنفسكم، وكذلك أيضًا يقول المؤلف: [وغيره] كالإهلاك

بالصاعقة، والرجفة، وما أشبهها، فالمهم: أن المُكذِّبين بالرسل كلهم أهلكهم الله عز وجل.

فإن قال قائل: أليس من الرسل من قُتِل؟ الجواب: بلى، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا إما أن يكونوا لم يُؤمَروا بالقتال، فاعتدى عليهم من اعتدى بدون قتال، وإما أنَّهم أُوتُوا على غِرَّة دون أن يجاهروا بالقتل، ثم إذا قُتِلوا هل معنى ذلك: أن ما دعوا إليه يموت بموتهم؟ قد يبقى، فيكون هذا نصرًا لهم ولو بعد وفاتهم.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ [الذل والهوان، والمسخ، والقتل، وغيره] ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا﴾ [أي: المُكذِّبون] ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [عذابها ما كذَّبوا]، قوله: [ما كذبوا] هذا جواب لو محذوفة.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿ضَرَبْنَا﴾ يقول المؤلف: [جعلنا]، ولعل الضرب أخص من الجَعْل؛ أي: بيَّنَّا للناس في هذا القرآن من كل مثل، والجملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّدات ثلاثة، وهي: اللام، وقد، والقسم المُقدَّر؛ لأن تقدير الكلام في مثل هذا التركيب: والله لقد، فيكون مُؤكَّدًا بمُؤكِّداتٍ ثلاثة، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إذا قال قائل: كيف يُؤكِّد هذا وهو أمر معلوم، والغالب أن التأكيد إنما يُصارُ إليه للحاجة إليه؟ فالجواب: أن التأكيد قد يكون للحاجة إليه عندما يكون المُخاطَبُ شاكًّا أو مُنكِرًا، وقد يكون التأكيد لأهمية المُؤكَّد، وإن لم يكن ثَمَّ إنكار، أو تردُّد، ومنه هذه الآية، فإن ضرب الله الأمثال للناس في القرآن أمر محسوس مُدرَك، ولكن لأهميته أكَّدَه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شَبَه، فيضرب الله تعالى الأشباهَ والنظائر ليحذَر من كان على مثل هذا النظير وهذا الشبيه حتى لا يقوم بمثل ما فعل.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتَّعِظون]، ولعل هنا للتعليل، وهو أحدُ معانيها، ومن معانيها: الترجِّي؛ مثل: لعلَّ الحبيب قادم، ومن معانيها: الإشفاق؛ مثل: لعلَّ الحبيب هالك، ففي الأول: لعلَّ الحبيب قادم رجاء، وفي الثاني: إشفاق؛ يعني: أخشى أن يكون هالكًا، وتأتي للتعليل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قد يكون هذا

للتوقُّع، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ للتوقُّع أيضًا، هي في القرآن كثير، ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦] للترجِّي، ويحتمل أن تكون للتعليل، وكثير في القرآن لعل، فيظن بعض الناس أنها للترجِّي في كل مكان، فيقول: كيف يترجَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الشيء وهو قادر على كل شيء، نقول: لعل إذا جاءت في كلام الله فهي للتعليل.

وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون؛ لأن هذا هو الغرض من ضرب الأمثال.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

❁ التفسير ❁

﴿قُرۡءَانًا﴾ هذه حال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال أخرى؛ يعني: هذا القرآن الذي فيه من كل مثل هو قرآنٌ، وصيغة فعلان تأتي بمعنى المصدر، وتأتي بمعنى اسم الفاعل أو المفعول، فمن إتيانها مصدرًا: الغُفران، والشُّكران، وأنا أقصد بهذا: وزن فعلان تأتي مصدرًا؛ مثل: الغفران، والشكران، والقرآن، وهذا المصدر في لفظ القرآن يحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، فقرآن بمعنى: مقروء، وعلى هذا فيكون بمعنى: متلُوّ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، بمعنى: قارئ، وهو مِنْ قرأ الماء، إذا جمعه في الحوض، والقرآن إذا تأمَّلتَ وجدتَ أن الوصفَيْن ينطبِقَان عليه، فهو متلُوٌّ وجامع، ولهذا قال العلماء في أصول التفسير: إنه يصح أن يكون بمعنى اسم الفاعل، ويصح أن يكون بمعنى اسم المفعول.

وقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة العربية التي هي لسان محمد ﷺ، ولسان القوم الذين بُعِث فيهم، والعربية هي أفضل الألسُن، وأعربها، وأفصحها، وأبيَنُها، ولهذا اختارها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسالة محمد ﷺ، فإن قيل: أليس في القرآن من الكلمات ما أصلُهُ أعجمي؟ بلى فيه، ولكن هذه الألفاظ التي أصلها غير عربي، لما نَطَقَ بها العرب عرَّبُوها صارت عربية، ولهذا لا تخلو هذه الكلمات المُعرَّبة من تغيير بعض الشيء، لابد أن يكون فيها شيء من التغيير في الغالب، وإذا نطق بها العرب واستخدموها وسادت في ألسنتهم صارت عربية، عارِبة أو مُستعرِبة؟ مستعربة، إذن فهي كلماتٌ مُستعرِبة من قوم مُستعرِبين أيضًا؛ لأن أصل العرب مُستعرِبين؛ لأنهم ليسوا عَرَبًا في الأصل، فإسماعيل ابن إبراهيم، ليست لُغتُه عربية، لكن لما جاء عرب جُرْهم إلى أم إسماعيل ونزلوا عندها صار عربيًّا، واستمرَّت العروبة إلى يومنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ هذا الوصف سلبيٌّ وليس ثبوتيًّا، واعلم أنه لا يوجد

في أوصاف القرآن ما هو سلبيٌّ محض؛ لأن السلبي المحض ليس فيه مدح؛ بل كل شيء وُصِفَ به القرآن على وجه النفي فإن ذلك لكمال ضدِّه، فإذا قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: لكمال استقامته؛ بل قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم في أمور الدين، وفي أمور الدنيا، على وجهٍ ليس فيه اعوجاج بوجهٍ من الوجوه، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن يتَّقوا، فبيَّن الله لنا هذا القرآن وجعله غير ذي عوج من أجل تقواه عز وجل.

يقول الشارح رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [أي: جعلنا]، وهذا التفسير تفسيرٌ بما هو أعم؛ لأنَّ ضرب ليس مجرد جعْلٍ له؛ بل ضرب المثل للاعتبار به، فضربتُهُ مثلًا؛ أي: جعلتُه شَبَهًا حتى يُعتبَر به، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يشمل كل الناس: المؤمن والكافر، لأجل أن يتذكَّر هؤلاء وهؤلاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

❁ التفسير ❁

لما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ذكر هذا المثل ضربه لنا، فبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا المثل العظيم، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مُتَنَازِعون مختلفون، كل واحدٍ منهم يقول: أنا صاحبه، أنا الذي أريد أن أستخدمه، وما أشبه ذلك، فهم دائمًا في نزاع، وفي خصومة؛ لأن كل واحد منهم يريد أن ينفرد به عن الآخر، والرجل الثاني رجلًا سلمًا لرجل، سلمًا؛ أي: سالمًا لهذا الرجل، لا يَشْرَكُه فيه أحد، فإن قال قائل: بمَ عرفتم أن سلمًا بمعنى: سالم من الشركاء؟ قلنا: عرفنا ذلك بذكر المقابل، وهو قوله: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ لأن الكلمة تُعرَف بالسياق وذكر المقابل، ومن أبرز مثال على ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] لو قال قائل: ما معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾؟ لفهمت معناها مما بعدها ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ فيكون الثُّبات ضد المجتمعين؛ أي: انفروا فُرادى أو انفروا جميعًا، وهذه من قواعد التفسير: أن يُعرَف تفسير الكلمة بذكر ما يُقابِلها، فهنا نقول: رجلًا سلمًا؛ أي: خالصًا للرجل لمالِكِه لا يشاركه فيه أحد، فإن قال قائل: بمَ عرفتم ذلك؟ قلنا: بما ذكرنا من القاعدة، أن المقابل للشيء؛ أي: الذي جُعِل معادلًا له يكون مُقابلًا له في المعنى، هذا الرجل الذي

كان سلمًا لرجلٍ هل أحد يُشارِكُه في ملكه؟ لا، هل أحد يُنازِعُه؟ لا، إذن يجب أن نعرف الفرق بين المملوك الذي فيه شركاء، الشركاء المُتشاكِسُون، والمملوك الذي ليس فيه شركاء، ثم نقيس عليه: المخلص لله الذي يعبد الله وحده، والذي يعبد مع الله غيره، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي الرجلان أحدهما فيه شركاء متشاكسون، والآخر سلمٌ لرجل، هل يستوي هذان؟ الجواب: لا، فالاستفهامُ حينئذٍ بمعنى النفي؛ يعني: لا يستويان، والاستفهام يأتي بمعانٍ كثيرة، كما هو معروف في علم البلاغة، ولكنه إذا أتى في موضع النفي فإنه يكون مُشرَبًا معنى التحدي؛ لأنه لو قيل: لا يستويان، لفهِمْنا انتفاء استوائهما، لكن إذا قيل: هل يستويان؟ فَهِمنَا أمرَين: الأمر الأول: انتفاء الاستواء، الأمر الثاني: التحدي، يقول: هل عندك شيء تُثبِت أنهما يستويان؟ فيكون تحويل النفي إلى استفهام أبلغ في النفي وأبيَن.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ الجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ نفسه عز وجل، لكمال صفاته وكمال إنعامه، ومن إنعامه: أنه يضرب الأمثال للناس في القرآن لعلهم يتذكَّرون، مع أنه - عزَّ وجلَّ - غنيٌّ عنهم، ومن كَفَرَ فإن الله غنيٌّ عن العالمين كلهم، لكن رحمته تأبى إلا أن يُبيِّن لعباده ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، ولهذا قال بعد هذا البيان التام في المثل: الحمد لله.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل هنا للإضراب، والإضراب له معنيان، المعنى الأول: إضراب انتقال، ينتقل من شيء إلى آخر، والمعنى الثاني: إضراب إبطال، يُبطِل الأول، ويُثبِت الثاني، فإذا قلت: ما قام زيدٌ؛ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، أبطلت الأول، وأثبتَّ الثاني، وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ هذا انتقال من معنى إلى معنى أشد منه، في هذه الآية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هل هي إضراب إبطال أو إضراب انتقال؟ إضراب انتقال؛ لأنه لم يسبق شيئًا أبطلته، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بأكثرهم هنا: أكثر الناس، كما جاء ذلك في آية أخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وانتفاء العلم هنا لانتفاء لازمِهِ، وهو: العمل والامتثال، فأكثرُ الناس في جهل، وأكثر الناس في غيٍّ، في جهلٍ لا يعرفون الحق، وفي غيٍّ لا يقبلون الحق، ولا يعملون به، وكلهم يصح أن ننفي عنه العلم، أما من كان في جهلٍ فنفيُ العلم عنه واضح، وأما من كان في غيٍّ مع العلم، فنفيُ العلم عنه؛ لأنه لم ينتفع به، ولم يعمل به.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

❁ التفسير ❁

﴿إِنَّكَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ﴿مَيِّتٌ﴾ وصفٌ له في المستقبل ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ كذلك، وأكَّد الموت مع العلم به يقينًا من أجل أنَّ عمل هؤلاء الذين كذَّبوا النبي ﷺ عملُ من لم يُوقِن بالموت؛ لأن من أيقَنَ بالموت حقيقة فلابد أن يعمل له، لكنهم هم لا يعملون له فكان عدم عملهم له كالمُنكِر أو بمنزلة المُنكِر، فلهذا أُكِّد.

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٌ﴾ بتشديد الياء: يقال لمن سيموت وهو حيٌّ، وأما ميْت: فيقال لمن وقع به الموت؛ أي: بعد فراق حياته، يقال: مَيْت، وربما يقال مَيِّت لكن الأكثر مَيْت، فعلى هذا يُفرَّق بين أن يُوصَفَ الحيُّ بالموت فيقال فيه: مَيِّت، وبين أن يُوصَفَ الميِّت بالموت، فيقال: مَيْت.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ومن عانَدَه ومن كَفَرَ به، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سبق تفسيره، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ عند ربكم الذي خلقكم أول مرة، وأعادكم ثاني مرة، تختصمون عنده، أيُّكم على الحق، ونحن نعلم الآن نتيجةَ هذه الخصومة، من سيغلِب؟ المؤمنون لا شك، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] فالكافر لا سبيل له على المؤمن، فالنتيجة - والحمد لله - معلومة، أن المؤمنين هم الغالبون يوم القيامة، وهم الخاصمون لأعدائهم.

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ [للمشرك والمُوحِّد] ﴿مَثَلًا﴾ وتقييدُه المؤلف بالمشرك والمُوحِّد واضح؛ لأن المثل المضروب، وهو: العبد المملوك بين شركاء والعبد الخالص ينطبق تمامًا على المشرك والموحد.

يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ [للمُشرِك والمُوحِّد] ﴿مَثَلًا رَّجُلًا﴾ [بدل من ﴿مَثَلًا﴾]، والبدل يقول ابن مالك رحمه الله فيه:

التابعُ المقصودُ بالحكم بلا ... واسطة هو المسمى بدلا

فقوله: (التابعُ المقصودُ بالحكم) خرج به: بقية التوابع، وقوله: (بلا واسطة) خرج به: المعطوف بـ (بل)، فإن المعطوف بـ (بل) يكون إذا كان للإضراب الإبطالي يكون هو المقصود بالحكم، لكنَّه بواسطة فلا يُسمَّى بدلًا، فهنا قال: ﴿مَثَلًا رَّجُلًا﴾ لو حُذِفَت مثلًا وقال: ضرب الله

رجلًا، أيصح الكلام أو لا؟ يصحُّ؛ لأن المقصود هو كلمة رجلًا، وأنت لو قلت: رأيتُ محمدًا عليًّا، عليًّا بدل؛ لأن المقصود هو علي، إذا خاطبك مُخاطِب، وقال: رأيت عليًّا محمدًا، عرفت أنه أراد محمدًا ولم يُرِد عليًّا؛ لأن محمدًا بدل من عليًّا، والبدل هو المقصود بالحكم، لكن قد يكون سببه الغلط، وقد يكون سببه النسيان، أو غير ذلك من الأسباب، المهم أن البدل هو ما يقصد بالحكم.

يقول تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [مُتنازِعون سيئةٌ أخلاقُهم] من أين أخذ سوء الخلق؟ من قوله: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ لأن المشاكسة تُنبِئُ عن سوء الخلق؛ إذ أنَّ حَسَنَ الخلق يتنازل عن حقه ولو كان في ذلك أذيَّة له، أو ضررًا عليه؛ لأن حُسْن أخلاقه تتغلَّب على أخذه لحقه، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون حَسَن الأخلاق وأن يتغاضى عن بعض حقه، ولو كان في ذلك أذيَّة لنفسه، وليعلم أنه وإن قالت له نفسه: إن تواضُعك وعفوك عن حقك ذلٌّ لك ليعلم أن هذا من وساوس الشيطان؛ لأن النبي ﷺ، قال: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا[1]، وَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ[2]»[3]، فلا تغلِبك نفسك وتأخذك العزةُ بالإثم، فتقول: لا يمكن أن أسكت عن هذا الرَجل، أنا من أنا حتى يعتدي عليّ؟ أنا فلان ابن فلان، فإن هذا من الشيطان، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يُوفَّق لها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

يقول: [مُتنازِعون سيئةٌ أخلاقهم]، (ورجلًا سالمًا لرجل) وهي قراءة، والمُفسِّر فسَّر عليها، والسالم يعني: الخالص كما فسَّره، خالصًا لرجلٍ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يقول: ﴿مَثَلًا﴾ تمييز، ما هو التمييز؟ التمييز مِنْ ميَّز إذا بيَّن، وقد حدَّه ابن مالك في «الألفية» فقال:

اسمٌ بمعنى (مِنْ) مبينٌ نكـره ... يُنصَبُ تمييزًا بما قد فسَّره

هذا التمييز اسمٌ نكرة يُبيِّن المُبهَم الذي فسَّره، وهو بمعنى: مِن، ومثاله: قولهم: تصبَّب زيد عرقًا، عرقًا هذه تمييز، طبِّقها على التعريف، نجد أنها اسم بمعنى مِن؛ يعني: تصبَّب من العرق، مُبين؛ أي: مُفسِّر لكلمة تصبَّب؛ لأن تصبَّب ما نعرف تصبَّب دمًا، تصبَّب ماءً، تصبَّب عرقًا، فبيَّن المتصبب، نكرة أو معرفة؟ نكرة، يقول: ﴿مَثَلًا﴾ [تمييز؛ أي: لا يستوي العبدُ لجماعةٍ والعبد لواحد، فإن الأول إذا طلب كلٌّ من مالكيه خدمته في وقت واحد، تحيَّر فيمن يخدمه منهم، يقول:

---

(١) فيه أيضا وجهان أحدهما على ظاهره ومن عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب وزاد عزه وإكرامه والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك.

(٢) فيه أيضا وجهان أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا قال العلماء وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد في مسنده (٨٩٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[لا يستوي] فبيَّن رحمه الله أن الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ للنفي؛ حيث فسَّره بنفي، وقوله: [لا يستوي العبد لجماعة والعبد لواحد] صحيحٌ لا يستويان، العبدُ لواحد يتصرَّف فيه متى شاء، متى شاء قال: اخدمني، ومتى شاء قال: استرِح، ومتى شاء باعه، ومتى شاء أجَّرَه، لكن العبد لجماعة، والجماعة مُتشاكِسُون أخلاقٌ سيئة، تنازُعٌ دائم، هل يستويان؟ أبدًا، لو قال واحد: تعال اخدمني، وقال الثاني: اخدمني أنا، وقال الثالث: اخدمني أنا، وقال الرابع: اخدمني أنا، صار أحدهم أخذ باليد اليمنى، والثاني باليد اليسرى، والثالث بالرجل اليمنى، والرابع بالرجل اليسرى، ثم مزَّعُوا العبد؛ لأن كل واحد يريد أن يكون عنده، هو الذي يخدمه، كذلك أيضًا في البيع، لو أراد أحدهم قال: أنا أريد بيعه، وقال الثاني: لا أريده، وقال الثالث: أنا أريد تأجيره، والرابع قال: أريد إعارته، كيف يكون هذا؟ دائمًا في نزاع وشقاق، فالعبد نفسه في قلق، وفي حيرة، وفي بلاء، والشركاء أيضًا كذلك مُتشاكِسون دائمًا، لا يمكن أن يستوي هذا مع رجل، وهذا لا شك أنه مثل تقريبي، وإلا فالفرقُ عظيم بين عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعبادة غيره معه؛ يعني: أنه أعظم ولكن الله تعالى يُقرِّب هذا للعباد، كما قرَّب المعاد بالماء الذي ينزل من السماء ثم تنبت به الأرض، كم يقينبات الأرض بعد نزول المطر؟ يبقى مدة، حسب طِيب الأرض، وحسب المطر، وحسب الجو المناسب، وحسب الفصل، لكن يبقى، البعثُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤] فالأمثال قد لا تكون مطابقة تمامًا، قد يكون موردُ المثل أسرع من المثل، لكن على سبيل التقريب، ولا شك أن عبادة الله وحده وعبادة غيره معه لا شك أن بينهما فرقًا أعظم من الفرق بين الرجل السالم للرجل والرجل المشترك بين شركاء متشاكسين.

يقول المؤلف رحمه الله: [هذا مثلٌ للمشرك، والثاني مثلٌ للموحد]، ما هو الثاني؟ رجل سالمًا لرجل، هذا للمُوحِّد، والأول للمشرك، وما هو المقصود من ضرب هذا المثل؟ المقصود: التحذيرُ من الشرك بالله عز وجل، ثم اعلم أنَّ الشركاء في العبد مُتشاكِسُون، لكن مع الله عز وجل، يقول الله في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**[1]»[2] الشركاء المُتشاكِسون لا يمكن أن يتنازل أحدهم عن نصيبه، لكن الشرك بالله يَدَعُ الله المشرك وشركه، «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» ولهذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [وحده] وإذا كان الحمد له وحده وَجَبَ أن تكون العبادة له وحده؛ لأنه أهل الحمد وأهل العبادة – سبحانه وتعالى –، فهو وحده المستحق للعبادة لأنْ يُعبَد.

وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ [أي: أهل مكة] ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [ما يَصِيرون إليه من العذاب،

---

(١) معناه أنه غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيُشرِكون] المؤلف رحمه الله دائمًا ولاسيَّما في الآيات والسور المكية يجعل مثل هذا الخطاب مُنصبًّا على أهل مكة، ولكن الذي ينبغي أن نجعل دلالة القرآن عامة دائمًا إلا عند الضرورة؛ لأن القرآن نزل لجميع الخلق إلى يوم القيامة، فتخصيصه لأهل مكة يعني: أنه لا يتناول غيرهم إلا بالقياس، لكن إذا أخذنا بلفظه العام شمل أهل مكة وغيرهم بالنص، وهناك فرق بين شمول الحكم بالنص، وشموله بالقياس، فالصحيح أن الضمير في أكثرهم يعود على جميع الخلق، أكثر الخلق لا يعلمون، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول: «يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»[1] وهؤلاء هم الأكثر أو الأقل؟ الأكثر، فأكثرُ الخلق لا يعلمون، إما لجهلهم، أو لغيِّهم، إن كانوا لجهلهم، فكما قلت: فهم قد انتفى عنهم العلم، وإن كان لغيِّهم، فإن العلم انتفى عنهم لانتفاء فائدته؛ حيث لم يسترشدوا به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ [خطابٌ للنبي ﷺ] ﴿مَيِّتٌ﴾ [أي: ستموت] قال: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [ستموت ويموتون]، وكما يقول العامة عندنا: الوعد قُدَّام، قُدَّام؛ يعني: يوم القيامة؛ لأن الله يوم القيامة يفصِلُ بين العباد، سوف يتنازَعُ الناس في أعمالهم ودياناتهم، ويتنازعون في حقوقهم الخاصة، فيفصِل الله بينهم يوم القيامة، يقول: [فلا شماتة بالموت]؛ يعني: أنك إذا مِتَّ فلا شماتة عليك؛ لأنهم سيموتون مثلك، [نزلت لما استبطؤوا موته ﷺ]، هكذا قال المؤلف: إن سبب نزولها أن قريشًا استبطؤوا موت النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية تُخبِره أنه سيموت وإذا مات فهم أيضًا سيموتون ويختصمون يوم القيامة، ولكن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل، لننظر في سبب النزول لا نجد هذا، فإذا كان كذلك فلا ينبغي أن نتخيَّل سببًا للنزول في معنى آية من كتاب الله؛ لأن سبب النزول خبرٌ محضٌ، والخبر المحض لا مدخل للعقل فيه، ولكننا نقول: ذكر الله هذه الجملة إشارة إلى أنه لن يضيع عملك ولا عملهم، لن يضيع عملك بدعوتك إلى التوحيد، ولن يضيع عملهم بالإشراك، فإن لكم موعدًا ستجتمعون فيه، وتختصمون فيه عند الله عز وجل، فيكون في هذا تسليةٌ للرسول ﷺ، وفيه تحذيرٌ للمشركين، فهو من وجهٍ تسلية وتطمين للنبي ﷺ، وهو من وجهٍ آخر تحذير للمشركين بأنهم سيموتون، وسيكون أيضًا موتهم عن قرب، وسيكون مُؤكَّدًا لا إشكال فيه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ [أيها الناس فيما بينكم من المظالم] هذا عجبٌ من المؤلف رحمه الله، الخطابُ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ صَرَفَه المؤلفُ إلى عموم الناس، فقال: [أيها الناس فيما بينكم من المظالم]، والسياق يأبى هذا التفسير؛ بل الخطاب للنبي ﷺ ومن كفر به، هذا هو المُتعيِّن، وتختصمون في المظالم التي بينكم، أو فيما بينكم من الحق والباطل؟ الثاني: من الحق

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والباطل، أنت تدعو إلى التوحيد وهم يُنكِرُون ذلك، ولكم موعد تختصمون فيه، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن كذَّبه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن هذا الاختصام من مقتضى ربوبيته عز وجل؛ لأنه حَكَمٌ عدلٌ، ومن عدله أنَّه يفصِلُ بين المُتنازِعِين فيه يوم القيامة، كما يفصل بين المتنازعين في الحقوق الخاصة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، ومن التبيان: ضرب الأمثال؛ لأنها تُقرِّب المعنى، وتضع المعقول في صورة المحسوس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٢].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمةُ الله سبحانه وتعالى بالعباد؛ حيث بيَّن لهم هذا البيان التام.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للمعلم غيرَه أن يُكثِر له من ضرب الأمثال التي تعينه على فهم المعنى؛ لأن هذا هو أسلوب القرآن.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات العلل والحكم، في أفعال الله وشرعه، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** الرد على الجهمية وأشباههم ممن أنكروا حكمة الله، وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى يفعل الشيء لا لعلة ولا لحكمة، ولكن لمجرد المشيئة، وجه ذلك: أن لعلَّ هنا للتعليل، والتعليل يعني: إثبات الحكمة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن القرآن عربي؛ أي: نازلٌ بلغة العرب.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا يوجد في القرآن لفظ أعجمي؛ لأن الله وصف القرآن كله بأنه عربي، وهذا يقتضي أن ليس فيه شيء من لغة العجم، ولا شك أن هذا هو الواقع، فليس في القرآن لفظٌ عجميٌّ، ولكن اختلف العلماء المُفسِّرون وغيرهم: هل في القرآن كلمة أصلها عجمي ثم عُرِّبت؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يقول: لا، فالذين قالوا: نعم قالوا: هناك كلمات في القرآن الكريم لا تنطبق عليها قواعد اللغة العربية، ويعني هذا: أنها أعجمية، وهذا لا يُنافي أن يكون القرآن عربيًا؛ لأن العرب لما عرَّبتها صارت عربية بالاستعراب، كما أن العرب أصلهم مُستعرِبون، وإلا فلغة أبيهم إسماعيل ليست عربية.

ومنهم من قال: هذه الكلمات التي هي كلمات أعجمية إنما جاءت بلسان العرب من باب

توارد اللغتين، ولا مانع من أن تتوارد اللغتان على كلمة واحدة، والخلاف في هذا قريبٌ من اللفظي؛ وذلك لأنهم متفقون على أنه لا يوجد في القرآن لفظ أعجمي هو أعجمي حتى نزول القرآن أبدًا.

٣ ـ **ومن فوائدها**: بيان حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في إنزاله القرآن باللسان العربي؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بُعِث في قوم عرب، فكانت الحكمة أن يكون لسانه عربيًا كما هو الشأن في جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤].

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن فهم المعنى مُعِينٌ على التقوى، لقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، وهذا أمر واقع: أن فهم المعنى من أسباب التقوى؛ لأنك لو تكلم لك إنسان بما لا تفهم معناه لا يؤثر فيك شيئًا، إنما يؤثر فيك ما تفهم معناه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، ونستفيد من هذه الجملة ما استفدناه من الجملة السابقة وهي قوله: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هذه الآية تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فإن هذا مثل.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن مثل من يعبد مع الله غيره كمثل عبدٍ فيه شركاء متشاكسون متنازعون متخاصمون، وجه ذلك: أن هذا العابد مع الله غيره لم يكن قلبه خالصًا لله، فتنازعه الشركاء من اليمين والشمال، حتى ضاع بينهم.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الله تعالى يأتي بالخبر أو غيره ثم يُقرِّرُ ذلك للمُخاطَب بأحسن وجه، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإن هذا الاستفهام الذي يُرادُ به النفي الغرضُ منه: تقرير ما ذُكِر، وإلزام المخاطب به.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الله تعالى مستحق للحمد لكمال توحيده، لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن الحمد المطلق إنما يكون لله عز وجل، أما غيره فهو إن حُمِد فليس حمده على الإطلاق؛ بل يُحمَد على شيء معين وجزء معين مما يُحمَد عليه، أما حمده على الإطلاق فهو لله رب العالمين عز وجل؛ لأنه هو المحمود على كل حال، وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسر به قال: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أتاه ما يسوؤه قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1].

٦ ـ **وَمن فوائدها**: أن أكثر بني آدم لا يعلمون الحقائق على ما هيَ عليه، وإن علِمُوها لا

(١) صحيح : رواه ابن ماجه (٣٨٠٣) ، والحاكم فى المستدرك (١٨٤٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٧٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠) .

ينتفعون بها، لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

١ ـ **من فوائدها:** أن نبيَّنا ﷺ لن يُخلَّد أبد الآبدين؛ بل هو ميت كما أن خصومه أموات، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إنذار هؤلاء المكذبين، بأن لهم موعدًا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو: الاختصام يوم القيامة.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن أهل الشرك والكفر خصوم لأهل التوحيد والإيمان في الآخرة، كما أنهم خصوم في الدنيا، ففي الدنيا لا شك في خصومتهم وعداوة بعضهم لبعض، وفي الآخرة أشد وأعظم.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الخلق يختصمون عند الله يوم القيامة، ومن المعلوم أن الخاصم إذا كانت الخصومة بين المؤمن والكافر هو المؤمن، قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٦ ـ **ومن فوائدها:** إثبات البعث والحساب، لقوله تعالى: ﴿مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

التفسير

(مَنْ) هذه استفهامية، وقوله: ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ إذ ظرفٌ بمعنى: حين، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾ للتقرير.

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ هذا الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، وقوله: ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: افترى عليه الكذب، إما بنسبة الشريك إليه، أو بأنه حرَّم شيئًا ولم يحرِّمه، أو أحلَّ شيئًا ولم يُحلَّه، أو أوجب شيئًا ولم يوجبه، أو

عطَّل صفة من صفاته، أو أثبت له ما لم يثبته لنفسه، أو غير ذلك مما يكون فيه الكذب على الله، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله، والكذب على الله ليس كالكذب على البشر، والكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام، ليس كالكذب على غيره من البشر، قال النبي ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فجمع بين الأمرين، كذَّب بالصدق؛ أي: نسب الصدق إلى الكذب، وقال: هذا كذب، ومن ذلك: تكذيب قريش للرسول ﷺ؛ حيث قالوا: إنه ساحر كذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، والغالب أن همزة الاستفهام إذا دخلت على ما يفيد النفي، الغالب أن تكون للتقرير، وجوابها بالإثبات يكون بلى، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] الاستفهام هنا للتقرير، ومعناه: قد شرحنا لك صدرك، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن:٥] المعنى: قد أتاكم، وأمثلة هذا في القرآن كثير.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨] أظهر في مقام الإضمار، وكان مقتضى السياق أن يقول: أليس في جهنم مثوى له، والإظهار في مقام الإضمار له فوائد:

منها: فائدة العموم؛ يعني: مثوى له ولغيره من الكافرين، الثانية: تسجيل الوصف على هؤلاء بأنهم كفار؛ يعني: إثبات أن هؤلاء كفار، الثالثة: إفادة التعليل، لو قال: أليس في جهنم مثوى له، لم نستفِد ما هي العلة في أنه مثواه جهنم، لكن إذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عرفنا أن العلة: كفره، ففيه بيان العلة.

إذن هؤلاء الذين كذبوا على الله وكذَّبوا بالصدق هم كفار، ومثواهم جهنم - والعياذ بالله -، وجهنم قيل: إنها من الأسماء المُعرَّبة، وأصلها في اللغة الفارسية: جهنَّام، وقيل: إنها اسم عربي وأنها مأخوذة من الجهمة؛ يعني: الظلمة، والنار لبُعْد قعرها - أعاذني الله وإياكم منها - سوداء مظلمة، فالله أعلم، سواء هذا وهذا، المهم: أنها تُستَعمل في لغة العرب للنار العظيمة المسودة.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿فَمَنْ﴾ [أي: لا أحد]، وتحويل المؤلف الاستفهام إلى النفي يفيد أن معنى الاستفهام: النفي، لا أحد أظلم ممن كذَب على الله؛ أي: قال عليه الكذب، قال المؤلف: [بنسبة الشريك والولد إليه]، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر، فمن قال: إن لله ولدًا فقد كذب على الله، إن لله شريكًا فقد كذب على الله، إن الله لا يُوصَف بهذه الصفات التي وصف الله بها نفسه، فقد كذب على الله، إن الله مماثل لخلقه، فقد كذب على الله، إنَّ الله حرَّم السائبة والوصيلة والحام، فقد كذب على الله، المهم: أن ذكر المؤلف رحمه الله لهذين الأمرين فقط المراد به: التمثيل لا

---

(١) رواه البخاري (١٢٢٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، ومسلم (٩٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بدون شطره الأول .

الحصر، الكذب على الله كثير، وبعضه أشد من بعض.

قال: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ [بالقرآن] ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ لا شك أن القرآن صدق؛ بل صدق وعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥] فهو باعتبار الأخبار صدق، وباعتبار الأحكام عدل، لكن المسألة أعمُّ مما قال المؤلف، ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾ أي: بما كان صادقًا سواء في القرآن أو في السنة، فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾.

وقوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ يعني: إذ أتاه، وليس شيئًا منقولًا له؛ بل هو قد أتاه مباشرة وأُخبِر به على لسان الصادق فيكذب به، لو أن أحدًا حدثني عن شيخه، وشيخه عن شيخه، وشيخه عن شيخه، وشيخه عن شيخه حتى وصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فهل يمكن أن نُكذِّب هذا إذا كان في أحد الرواة من هو متهم بالكذب؟ يمكن، لكن إذا جاءنا الخبر من الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن تكذيبه كفر، ولهذا لو أن أحدًا من الناس كذَّب حديثًا في أحد كتب الحديث كذَّب به، فقلنا له: لِمَ كذَّبتَ؟ هل عندك شك في أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله؟ قال: لا شك عندي أنه قاله، لكنه كذب، ماذا نقول له؟ نقول: هذا كافر؛ لأن الصدق جاءه بإقراره على نفسه، أما لو قال: هذا كذب؛ لأن أحد الرواة كاذب، أو كذاب، فأنا أُنكِرُه لهذا، فماذا نقول؟ يكفر أو لا يكفر؟ لا يكفر؛ بل قد يكون هذا هو الواجب عليه إذا كان هذا مُؤدَّى اجتهاده، ففائدة قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ أنه لا واسطة بينه وبين من جاء بالصدق، حتى يقال: لعل لها عذرًا وأنت تلومُ، ليس هناك واسطة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ [مأوى] ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [بلى] وهذا هو جواب أليس وأشباهها، إذا دخلت همزة الاستفهام على ما يفيد النفي فجواب التقرير فيها: بلى، ولو قلت: نعم لكان نفيًا، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فقال المخاطَب: نعم؛ يعني: لم يقم، وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فقال المخاطب: بلى؛ أي: قد قام، ولهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال: لو قالوا: نعم لكفروا؛ لأنهم إذا قالوا: نعم؛ يعني: لست ربنا، هذا هو المشهور في اللغة العربية، لكن ربما يأتي الجواب بنعم مرادًا به الإثبات، ومنه قول الشاعر[1]:

أليس الليلُ يجمعُ أمَّ عمرٍو ... وإيانا، فذاك لنا تداني
نعم، وترى الهلال كما أراهُ ... ويعلوها النهارُ كما علاني

لو قال قائل: لعل هذه ضرورة، قلنا: لا؛ لأنه لو أتى ببلى بدل نعم استقام البيت، لو قال: بلى

(١) ينسب هذا البيت إلى: جُحدُر العُكَلي، شاعر من أهل اليمامة، كان في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر واليمامة، فأمسكه عامل الحجاج في اليمامة وسجنه في سجن بها اسمه (دوّار) نظم فيه قصائد.

وترى الهلال كما أراه استقام البيت، على كل حال؛ المؤلف أجاب: بلى؛ أي: لإثبات ما ذُكِر، أن في جهنم مثوى للكافرين.

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق لجمعه بين سيئتين: السيئة الأولى: الكذب على الغير، والسيئة الثانية: تكذيب الغير الصادق، فإن انفرد أحدهما فهل يستحق هذا الوصف أن يكون أظلم الناس؟ لو كذب على الله وصدَّق بالصدق، هل يستحق هذا الوصف؟ لا؛ لأن الوصف أو الحكم المُرتَّب على مجموع صفاتٍ لا يثبُت إلا بثبوتها، ولكن مع ذلك إذا تفرَّقت الأوصاف، فله نصيبٌ من هذا الوصف، فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧] أحد هذه الأوصاف له نصيبٌ من الويل، لكن الويل كله لا يكون إلا باجتماع الأوصاف، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢ ـ ٤٦] أربعة أوصاف هي سبب دخولهم النار، إذا انفرد واحد منها لم يكن دخولهم النار مُستحَقًّا، لكن له نصيب من هذا الوعيد، وهنا: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ كم الأوصاف؟ وصفان: هما الكذب على الله، والكذب بالصدق، لو افترى دون أن يكذب بالصدق لم ينطبق عليه وصف الأظلمية لكنه ظالم، ولو كذَّب بالصدق ولم يكذب على الله كذلك.

فإن قال قائل: هذه الآية تدل على أن من اتصف بهذين الوصفين هو أظلم الناس، فكيف نجمع بينها وبين نصوص أخرى تدل على مثل هذه الدلالة؟ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤]، وفي الحديث: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»(١)، ونصوص متعددة؟ فالجواب: أن نقول إن هذه كلها تشترك في وصف الأظلمية، ولا مانع من أن تشترك، فتقول مثلًا: فلان أصدق الناس، والثاني أيضًا: فلان أصدق الناس، والثالث: فلان أصدق الناس؛ يعني: اشتركوا في هذه المرتبة العالية التي هي أعلى كل شيء؛ لأن اسم التفضيل يدل على الكمال في هذه الصفة.

أو نقول: إن الأظلمية باعتبار جنس هذا الذنب، فمثلًا: مَنْ أشد الناس ظلمًا في الكذب على الغير؟ من كذَبَ على الله، من أشد الناس ظلمًا في تكذيب الغير؟ من كذَّب بالصدق، وهذا الوجه أقرب؛ وذلك لأن الاشتراك في الأظلمية قد يمنع اسم التفضيل في الجنس الآخر؛ يعني: أنه ليس الإنسان يتصوَّر تصوُّرًا تامًّا بأن اشتراك هذه الأعمال في الأظلمية يقتضي ألَّا يكون بعضها أظلم من بعض.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٩٨٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب: صحيح وهذا إسناد حسن.

فإذا قلنا: إن الأظلمية هنا باعتبار جنس المفضل عليه؛ يعني: فمن أظلم ممن كَذَبَ على الله في الكاذبين على الغير، فالكاذب على الله أشد ظلمًا من الكاذب على زيد وعمرو، والمُكذِّب بما يحتمل الصدق والكذب، ليس كالمُكذِّب بما يعلم أنه صدق ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، من منع مساجد الله فهو أظلم ممن منع الغير حقه، لو منعت رجلًا أن يدخل بيته، لكان منعي لهذا الرجل أن يدخل مسجد الله ويُذكَر فيه اسمه أعظم، «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»، لو أن أحدًا ذهب يخلق خلق فلان، أو فلان ممن يحرم عليه مزاحمته في صنعته، لكان الذي ذهب يخلق كخلق الله أظلم، وهلُمَّ جرًّا، وهذا الجواب جوابٌ سديد، ولا يرد عليه إشكال.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الكذب على الله أظلم أنواع الكذب، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وإذا كان النبي ﷺ، يقول: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ»(١)، فما بالكم بالكذب على الله الذي أرسله، إذا كان هذا الكذب على الرسول بهذه المثابة فما بالك بمن كذب على الله؟!

٣ ـ **ومن فوائدها:** وجوب التحرِّي في تفسير القرآن؛ لأن المُفسِّر للقرآن شاهدٌ على الله بأنه أراد كذا وكذا، وقد يكون الأمرُ على خلاف ذلك، فيكون كاذبًا على الله، ولهذا كان الصحابة الأجِلَّاء يتحرَّزون من تفسير القرآن، وهو نزل بلغتهم، وفي عصرهم، ومشاهدتهم، ومع ذلك يتحرَّزون، سُئِل أبو بكر عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] ما الأبُّ؟ قال: (أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني إن قلت في كلام الله ما لا أعلم)؛ يعني: أنه لا يعلم، ويقول: أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني، ما شاء الله عندنا الآن أناس يفسر الآية وكأنه ابن عباس وهو من أجهل عباد الله، ولا يبالي أن يُفسِّر، ولو فسَّر كلام زيد وعمرو ما همنا به، لكن إذا فسَّر كلام الله هو شهِدَ على الله أنه أراد كذا وكذا، ولذلك نجد أن مِن أخطر ما يكون أن يُؤوِّل كلام الله عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر بلا دليل بيِّن، وبه نعرف ضلال أهل التعطيل، الذين قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني: استولى عليه، تشهد على الله أنه أراد هذا؟ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بقوتي، أو بنعمتي، أو ما أشبه ذلك، هذا كذب على الله؛ لأن الله خاطبنا في القرآن باللسان العربي، فيجب أن نحمل هذا القرآن على اللسان العربي بدون أن نُحرِّف.

٤ ـ **ومن فوائدها:** اختلافُ مراتب الذنوب؛ لأن الذنوب مراتب تتفاضل، كما أن الحسنات مراتب تتفاضل.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبني على هذه الفائدة زيادةُ الإيمان ونقصه؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

٦ - **ومن فوائدها:** وجوب تصديق من قامت البيِّنة على صدقه، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ فدلَّ هذا على أن من كذَّب بالصدق فهو داخلٌ في هذا الوصف الذي هو أظلم من قام بهذا العمل.

٧ - **ومن فوائدها:** الثناء على الصادقين، وجه ذلك: أن من كذَّبهم فهو داخلٌ في هذا الجُرْم الذي هو أظلم ما يكون.

٨ - **ومن فوائدها:** أنَّ من كذَّب بالشيء المُباشِر له فهو أعظم ممن كذَّب بما سمع؛ لأن الواسطة بينه وبين الواقع قد تُضعِف مقام الصدق عنده، لقوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾.

٩ - **ومن فوائدها:** تقرير كون النار مثوى للكافرين.

١٠ - **ومن فوائدها:** بيان أن ما يُطلِقُه كثير من الناس اليوم إذا مات الإنسان قالوا: ذهب إلى مثواه الأخير، فإن هذه الكلمة لو أخذناها بظاهرها، لكانت تتضمن إنكار البعث، إذا جُعِل القبر هو المثوى الأخير فلا بعث، والمثوى الأخير هو: إما الجنة، وإما النار، وعلى هذا فيجبُ التنبُّه والتنبيه لهذه العبارة، وأن يقال: إن هذه عبارة مُتلقَّاة ممن يُنكِرُون البعث، ولكن كثيرًا من العامة عامة، يأخذون الكلمات لا يفكرون في معناها.

١١ - **ومن فوائدها:** أنه لا يُخلَّد المؤمن في النار، لقوله: ﴿مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ والمؤمن ليست النار مثوى له؛ بل إن عُذِّب في النار على قدر ذنبه، فمآله إلى الجنة.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

التفسير

﴿وَٱلَّذِي﴾ مبتدأ، وخبره: جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فتضمَّنَت هذه الجملة جملتين: جملة كبرى، وجملة صغرى، الجملة الكبرى هي المكونة من المبتدأ والخبر، والصغرى هي الخبر المكون من مبتدأ وخبر، الجملة الصغرى ما وقعت خبرًا، تسمى جملة صغرى؛ لأنها في مقام المفرد، والجملة الكبرى هي المكونة من مبتدأ وخبر، أو فعل ومعموله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فيه شيءٌ من الإشكال يتبادر إلى الذهن، وهو أنه أخبر عن الذي، وهو اسمٌ مفرد بجمع، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، ولم يقل: أولئك هو المتقي، ووجه ذلك: أن (الذي) اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، حتى وإن كان مفردًا فإنه يفيد العموم، ولهذا صحَّ الإخبار عنه بالجمع مع كونه مفردًا.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الذي جاء بالصدق عام يشمل كل من جاء بالصدق من الرسل عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء، والصادقين من غيرهم، كل من جاء بالصدق، ومن ذلك مثلًا: كعب بن مالك رضي الله عنه، فقد جاء بالصدق حين تخلّف عن غزوة تبوك وأخبر بالصدق، وأمَرَنَا الله تعالى أن نكون معهم لما ذكر قصتهم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: صدَّق بالصدق الذي قامت البيِّنة على صدقه، وأظنُّنا لسنا بحاجة إلى أن نُبيِّن معنى الصدق والكذب، الصدق مطابقة الواقع للخبر، والكذب مخالفته؛ يعني: من أخبر بما يوافق الواقع فهو صادق، ومن أخبر بما يُخالِفُ الواقع فهو كاذب.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ﴾ أي: بما قامت البيِّنة على صدقه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ يعني: الذين اتقوا الله عز وجل، فلم يقولوا كذبًا، واتقوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلم يردُّوا صدقًا.

يقول الشارح رحمه الله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ [وهو النبي ﷺ] وهذا تخصيصٌ للعموم بما لا دليل عليه، والذي ينبغي إذا جاء القرآن عامًّا إبقاؤه على عمومه؛ بل هو الواجب، أن يبقى على عمومه إلا بدليل، وهنا ليس هناك دليل يجعل هذا خاصًّا بالنبي ﷺ، فالواجب أن نجعله عامًّا؛ لأن حمله على الخاص بلا دليل قصور في مدلول القرآن، إذن يشمل النبي ﷺ وغيرَه.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم المؤمنون، وهذا أيضًا خطأ؛ لأننا لو فسَّرنا الآية بما فسَّر به المؤلف لزِمَ من ذلك تشتيت الضمائر، وعدم انسجام الكلام.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هذه معطوفة على الجملة التي هي صلة الموصول، وإذا كانت معطوفة على الجملة التي هي صلة الموصول لزِمَ أن يكون المتَّصِف بها الموصول، مادامت معطوفة على الصلة فهي من جملة الصلة، والصلة وصف للموصول، والمؤلف رحمه الله وعفا عنه شتَّت الضمائر، جعل الضمير الأول للرسول ﷺ، والضمير الثاني للمؤمنين، والحق أنهما يرجعان إلى شيء واحد، وهو الموصول؛ لأن صلة الموصول صفة له، والمعطوف على الصلة صفة له.

إذن ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يشمل كل أحد، حتى النبي ﷺ، صدَّق بأنه رسول الله، فكان يقول أحيانًا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»، فقد صدَّق بأنه رسول الله، وأن ما أُنزِل إليه من ربه هو الحق، وأول من يدخل في هذه الآية بعدَ الرسول عليه الصلاة والسلام: أبو بكر الصديق، فإن أبا بكر الصديق صدَّق، جاء بالصدق رضي الله عنه وصدَّق به، حتى إنه في أضيق حالٍ للرسول ﷺ ليلة الإسراء حينما أشاعت قريش بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كذب وصار يُخرِّف، ويقول ما لا يمكن، فلما بلغه الخبر قال: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، فمن ذلك اليوم سُمِّي بالصديق رضي الله عنه، فالذي؛ بمعنى: الذين؛ يعني: أنها اسم مفرد لكن بمعنى الجمع

لكونها دالة على العموم.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الشرك] أتى باسم الإشارة للبعيد لعلوِّ مرتبتهم، ولم يقل: هؤلاء؛ بل قال: أولئك، وأولئك يُشار بها للبعيد، وإنما أشير لهم إشارة البعيد مع دنوِّ التحدُّث عنهم لعلوِّ مرتبتهم، وقول المؤلف: ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ [الشرك] من أغرب ما يكون، الحديث الآن عن الصدق والتصديق بالصدق، فأين الشرك؟ لم يتقدَّم له ذكر، ولو أردنا أن نُخصِّص لقلنا: أولئك هم المتقون الكذب والتكذيب بالحق، هكذا نقول، مع أن الذي يدلُّ عليه الدليل أن المعنى: أولئك هم المتقون لله؛ وذلك لأن التقوى إذا أُطلِقَت فإنما تنصبُّ، أو فإنما يُرادُ بها تقوى الله، أما إذا قُيِّدَت فهي حسب ما قيدت به، فقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، هذا لليوم، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا للنار، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، هذا لله، وعند الإطلاق لمن؟ لله؛ لأن الله أحقُّ أن يُتَّقى عز وجل، هنا نقول: أولئك هم المتقون الله، ولهذا جاءوا بالصدق وصدَّقوا به تقوى لله عز وجل.

الفوائد:

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** الثناء على من قال بالصدق، والصدق واجب، والكذب مُحرَّم، وقد يقول قائل: إنه من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ جعله من آيات النفاق(1)، والمنافق ليس من المؤمنين، فإن قال قائل: إن الكذب من كبائر الذنوب، لم يكن قوله بعيدًا.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على من صدَّق بمن قامت البيِّنة على صدقه، صدَّق بالصدق، وأما من لم يُصدِّق بما يَشكُّ فيه فلا حرج عليه، والأخبار التي ترِدُ على المرء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على صدقه فيُصدَّق.

والثاني: ما دلَّ الدليل على كذِبِه، إما لكون ناقله معروفًا بالكذب، وإما لكونه مستحيل الوقوع، وما أشبه ذلك، فهذا يُكذَّب، ولا حرج على من كذَّبه.

والثالث: ما يحتمل الصدق ويحتمل الكذب، فهذا يُتوقَّف فيه، لا يُردُّ لعدم قيام الدليل على ردِّه، ولا يُقبَل لعدم قيام الدليل على قبوله، ودليل هذا القسم: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، ولهذا في الآية التي قبل هذه قال: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، فذمَّ الأولين، وأثنى على الآخرين.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الصدق من التقوى، وتصديق من قامت البيِّنة على صدقه هذا أيضًا من

---

(١) كما روى البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان).

التقوى، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها الأصولية لا الحكم الفقهي**: أن اسم الموصول من صيغ العموم، لقوله: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٣٤].

التفسير

﴿لَهُم﴾ أي: لهؤلاء المتقين، ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ أي: الذي يشاءونه، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو الله عز وجل، وأضاف الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ لأن الربوبية للمتقين ربوبية خاصة، ليست كالربوبية العامة التي تشمل الكافر والمؤمن، والبرَّ والفاجر، وإنما هي ربوبية خاصة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كون جزائهم ما يشاءون، ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنين: الذين أحسنوا في عبادة الله، وأحسنوا إلى عباد الله، فالإحسان في عبادة الله يُفسَّر بما فسَّره به النبي ﷺ بأن «تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، والإحسان في معاملة الخلق، أن تأتي إليهم ما تحب أن يُؤتَى إليك، تحب لهم ما تحب لنفسك.

قال الله تعالى:

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

التفسير

اللام هنا للعاقبة فيما يظهر؛ لأن اللام تأتي أحيانًا للتعليل، وأحيانًا لبيان العاقبة، فإن كان ما قبلها سببًا لما بعدها فهي للتعليل، وإن كان ما بعدها عاقبةً لما قبلها وليس مرادًا، فهي للعاقبة، هذا هو الفرق بينهما، فإذا قلت: جئت لأقرأ فاللام هنا للتعليل، وإذا قال القائل: سافرتُ ليحصُلَ ليَ الحادث، فهذه للعاقبة، وقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه للعاقبة.

يقول الله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني: عاقبة التقوى أن يُكفِّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا، ويحتمل أن تكون للتعليل بمعنى: أنهم اتقوا الله من أجل التكفير.

وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ وذلك بأن يُنعِم عليهم بالعفو عنه، والغالب أن التكفير يأتي مُكفَّرًا بأعمال مقابلة، فالسيئات تُكفَّر بالحسنات، انظر إلى الظِّهار، إذا ظاهر الإنسان كَفَّر بما ذكر الله عز وجل؛ يعني: أتى بحسنات تُغطِّي ما فعل من الذنوب، اليمين إذا حَنَثَ كفَّر، فالغالب أن التكفير يكون بحسنات تُغطِّي السيئات، ويجوز أن يكون التكفير مجرد فضل من الله عز وجل، يستر الله على عبده الذنب تفضُّلًا منه.

وقوله تعالى: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أسوأ اسم تفضيل، وهو على بابه، فإذا كان الله يُكفِّر عنهم أسوأ ما عملوا فما دونه من باب أولى، ويكون التعبير بالأسوأ من باب البشارة له.

وقوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم على ما عملوا من حسنات ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن الجزاء، فقوله: ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن جزاء الذي كانوا يعملون؛ وذلك أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأحسن هنا على بابها؛ أي: أنها اسم تفضيل، فلا يُجازِيهم الحسنة بحسنة؛ بل بأحسن منها، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صلةٌ للموصول (الذي)، وصلة الموصول تحتاج إلى عائد يعود على الموصول ليربِطَ الصلة به، فما هو العائد هنا؟ محذوف، والتقدير: يعملونه.

قال: [أسوأ وأحسن بمعنى: السيئ والحسن] يعني: أسوأ بمعنى: السيئ، وأحسن بمعنى: الحسن، هكذا قال المؤلف، لكنه قولٌ غير صحيح؛ لأنه يُعتبر تحريفًا للقرآن؛ لأن كل واحد يعرف أن أسوأ اسم تفضيل، وسيئ وصف ليس فيه التفضيل، وكذلك أحسن اسم تفضيل، وحسن وصف ليس فيه تفضيل، فما بالنا نُنزِّل المرتبة من التفضيل إلى ما هو أدنى، هذا يُعتبر خطأً وتحريفًا، فالصواب: أن اسم التفضيل هنا على بابه، وأن الله بشَّرهم بأنه يُكفِّرُ الأسوأ، ومن كفَّر الأسوأ كفَّر ما دونه، وبشَّرهم بأنه يجزِيَهم أحسن ما كانوا يعملون، لا أنه يجزِيَهم الحسنة بمثلها؛ بل أحسن، وهذا فرق عظيم بين الحسن والأحسن، والسيئ والأسوأ.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٣٤].

١ ـ **من فوائدها:** أن هؤلاء المتقين لهم ما يشاءون عند الله، متى؟ في الآخرة في الجنة، وقد بيَّن الله في آية أخرى أن لهم زيادة على ذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، وقد

فُسِّرت الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل، والذي يظهر أن النظر من ذلك، وإلا فالزيادة أشمل من هذا.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: عناية الله تعالى بهؤلاء القوم، وذلك بإضافة الربوبية إليهم.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن التقوى من الإحسان، لقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل: المتقين، والمراد بهم المتقون، لكن المُتَّقي مُحسِن؛ لأن المُتَّقي عند الإطلاق هو من قام بالمأمور وترك المحذور، وهذا هو الإحسان.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحثُّ على الإحسان، لقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والحث على الإحسان والأمر به كثيرٌ في الكتاب والسنة، والإحسان يتضمن: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، والإحسان إلى عباد الله يكون بالقول، وبالفعل، وبالجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان، فلا تدَّخِر وسعًا في بذل الإحسان لإخوانك، فإن ذلك مما يكون سببًا لدخول الجنة، ويكون سببًا في عون الله لك، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

١ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أنهم بتقواهم يُكفِّر الله عنهم أسوأ أعمالهم، لقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الله يجزيهم بأحسن جزاء، وقد بُيِّن ذلك في الكتاب والسنة بأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الخطرات التي تخطر على القلوب لا حكم لها، لقوله: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد جاء الحديث مؤيِّدًا لذلك، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَو تَتَكَلَّمْ**»(١)، ولكن يجب على من كان له خطرات سيئة أن يُدافِعها بما يستطيع، ومن مدافعتها: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وينتهي، بأن يعرض عن هذه التقديرات، فإن ذلك يزول، أما إن خضع لها واستكان لها، واستمر فإنها تهلكه؛ لأن الشيطان يقيس قلب المرء إذا رآه لينًا هشًّا تسلَّط عليه حتى يُخرِجه من دينه ودنياه - والعياذ بالله -، وإن كان صلبًا لا يقدر الشيطان أن ينفذ فيه؛ فإنه حينئذٍ يكون قوِّيًا تتكسر عليه عظام الشيطان، وقد أوصى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تلميذه ابن القيم حينما كان يعرِض عليه بعض الشبهات قال: (لا تجعل قلبك كالإسفنجة تتشرَّب الماء، ثم لا يخرج منها إلا بعَصْر، اجعل قلبك كالزجاجة صافية يُرى من ورائها، ولا ينفذ إليها شيء)، يُرى ما فيها ولا ينفذ إليها شيء، يعني: من هذه الشبهات تكون صافية نقية خالية من الشبهات ولا ينفذ إليها شيء، وهكذا ينبغي للإنسان ألاَّ

(١) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يخضع للشيطان في هذه الوساوس التي تردُ عليه.

فإذا قال قائل: هل الإرادة عمل أو لا؟ الإرادة عمل، لكنها عمل قلب، بخلاف التحديث؛ لأن تحديث النفس لا يعني: الخضوع للشيء وإقرار الشيء، لكن الإرادة لا تكون إلا بعد تقرير هذا الشيء، ولهذا قال النبي ﷺ في الرجلين المسلِمَين يلتقيان بسيفيهما[1] فيقتل أحدهما الآخر، قال: «فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»[2] قالوا: يا رسول الله ! هذا القاتل، فما بال المقتول[3]؟ قال: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا[4] عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[5]، ولَمَّا ذكر الرجال الأربعة، ومنهم: رجل أعطاه الله سبحانه وتعالى المال فهو ينفقه في غير مرضاة الله، فقال الرجل الفقير: ليت لي مال فلان فأعمل فيه كعمل فلان، قال: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»، مع أنه لم يعمل، لكنه تمنى وأراد، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٣٦].

التفسير

الاستفهام هنا للتقرير بناءً على القاعدة التي ذكرناها، وهي: أن همزة الاستفهام إذا دخلت على ما يفيد النفي أفادت التقرير، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: قد شرحنا لك صدرك، ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قد كانت آياتي تتلى عليكم، وهكذا، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ يعني: قد كفى الله عبده، وقوله: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الذي نصب عبده قوله كافٍ؛ لأن كافٍ اسم فاعل، وفاعله مستتر، وعبد مفعول به، وقوله: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ عبد مفرد مضاف فيكون عامًّا لجميع من اتصف بهذا الوصف، فكل من كان عبدًا لله حقًّا فإن الله كافيه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فالعبد هنا وصف شامل لا يختص بواحدٍ دون الآخر، فكل من انطبقت عليه العبودية حقًّا فإن الله كافيه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ والجواب على هذه الجملة أن يقال بلى.

---

(١) أي بقصد العدوان.

(٢) أي يستحقان دخول النار.

(٣) ما شأنه يدخل النار وقد قتل ظلما.

(٤) عازما.

(٥) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هنا الخطاب للنبي ﷺ، يخوفونك، وعطف يخوفونك الخاص بالرسول لا يقتضي تخصيص اللفظ العام قبله، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيرًا، يُذكَر لفظ عام ثم يُذكر حكم يختص ببعض أفراده، قلنا: إن هذا لا يقتضي التخصيص، والقاعدة تقول: إنه إذا جاء لفظ عام، ثم جاء بعده حكم يختص ببعض أفراده فإن هذا لا يقتضي التخصيص، هذه قاعدة واضحة، لكن لو قال لك قائل: أعطني مثالًا ينطبق على هذا، إذا نسيت المثال قال لك: هذه القاعدة غير مقبولة، بل أنا أقول: إذا جاء حكم يختص ببعض الأفراد دلَّ على أن المراد بالعموم الأول الخصوص، فيقلِبُ عليك القاعدة.

وطالبُ العلم يُقيِّد الفوائد الشرائد، الفوائد التي تشرد من الذهن ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها ويُقيِّدها وإلا ضاعت عليه، مرَّ علينا في القرآن مثال، ومرَّ علينا في السنة مثال أقرب مما مر علينا في القرآن وكله مر علينا، قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يُقْسَم، هذا عام أو لا؟ قضى في كل ما لم يُقسَم، وهذا عام، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شُفعة[1]، هذا حكم يختصُّ ببعض أفراد العام، بماذا يختص؟ بالأقارب، بالأراضي، فهل نقول: إن العام الأول يُرادُ به الخصوص؟ أو نقول: الأول عام، وذكر حكم يختص ببعض أفراد العام لا يقتضي التخصيص، هذا هو الثاني.

وفي القرآن: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المطلقات عام، وبعولتهن حكم يختص ببعض أفراد هذا العام، ما الفرد الذي يختص به؟ الرجعية، فهل نقول: إن قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ هذا خاصٌّ بالرجعيَّات، أو نقول: هو عام؟ معروف عند أهل العلم أنه عام، المُطلَّقات اللاتي طلِّقن بطلاقٍ بائنٍ، أو بطلاق رجعي، الآن أخذتم مثالَيْن، وهذا المثال الذي معنا في القرآن هل ينطبق عليه أو لا؟ قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الأول أليس الله بكاف عبده عام، لم يقل: أليس الله بكافيك، ويخوفونك هذا خاص بالنبي ﷺ، ولو قيل: لماذا لا يصح أن يكون الخطاب موجَّهًا لكل من يصح خطابه؟ أي: يُخوِّفونك أيها المخاطب، كما قد جرت به العادة في كثير من النصوص، فالجواب على هذا: أن نقول: إنه لا يصح أن يكون موجهًا لكل مخاطب؛ لأن كل مخاطب لا يتأتَّى عليه هذا الوصف، هل كل مخاطب خُوِّف بالذين من دون الله؟ لا، إنما الذي خُوِّف من دون الله هو النبي ﷺ؛ لأنهم يتوعدونه بآلهتهم.

على كل حال هذا المثال ينطبق على ما ذكرناه من القاعدة: أنه إذا ورد لفظ عام، ثم أتي بعده بحكم يختص ببعض أفراده فإن ذلك لا يقتضي التخصيص؛ بل يبقى العام على عمومه، ويثبت الحكم لهذا الفرد.

---

(١) صحيح: انظر الإرواء (١٥٣٦).

قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ [الخطاب له] يعني: للنبي ﷺ، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الأصنام أن تقتله أو تُخبِّله]، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] يخوفون النبي ﷺ بالذين من دون الله، وتخصيص هذا بالأصنام كما خصَّه المؤلف فيه نظر؛ بل يُخوِّفونه بالذين من دون الله من الأصنام وغير الأصنام، حتى من ذوي السلطان، فيقول مثلًا: يفعل بك فلان، أو تفعل بك الجن، أو يفعل بك كذا وكذا، فينبغي أن نحمل: ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ على العموم، لا على خصوص الأصنام؛ لأن التخويف أعم من ذلك، الآن مثلًا في وقتنا هذا لو قال قائل لشخص: أنت إن نَهيتَ عن هذا المنكر سأرفع بك إلى فلان ممن يُخشى شرُّه، هل هذا مُخوِّف بالذين من دون الله؟ نعم، هذا مُخوِّف بالذين من دون الله، فالآية عامة، ولا ينبغي أن نخصصها كما ذهب إليه المؤلف رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ من شرطية، فتفيد العموم، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه، وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الجملة هذه اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، وعجبًا أن نقول: إنها مكونة من مبتدأ وخبر، ونحن لا نجد فيها لا مبتدأ ولا خبر، أين الاسم المرفوع، والمعروف أن المبتدأ والخبر يكونان مرفوعين وهنا ليس هناك شيء مرفوع؟ فالجواب أن نقول: لا نافية، وله جار ومجرور خبر مقدم، ومن هاد مبتدأ مؤخر، وكيف نعرب ﴿من هاد﴾؟ نقول: من حرف جر زائد، هاد مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين والتي قُدِّرَت عليها الكسرة لمناسبة حرف الجر الزائد، هذا إذا أردنا أن نتمحَّل الإعراب للقواعد النحوية، وإلا يكفي أن نقول: مِنْ حرف جر زائد، وهاد مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للالتقاء الساكنين؛ لأن حركة حرف الجر الزائد في هذه الكلمة لا تظهر.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يعني: من يُقدِّر الله ضلالَه فإنه لا أحد يهديه مهما اجتمعت عليه الأمة، وها هو أعظم الخلق في الهداية والدلالة محمد ﷺ حرص غاية الحرص لهداية عمه أبي طالب إلى آخر أنفاسه، ولكن لم يهتدِ؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كتب عليه الضلالة، فكان آخر ما قال أن شهد شهادة الكفر، فقال: هو على ملَّة عبد المطلب، ولكن النبي ﷺ لحُسْن أخلاقه، ولأن عمَّه قام قيامًا نصر به الإسلام، شَفَعَ له عند الله، فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه[1]، أعلى ما فيه، والنعال في أسفل ما فيه، والدماغ يغلي، فما بالك بما دونه من الجسم؟ أشدُّ غليانًا، وإنه لأهون أهل النار عذابًا ويرى أنه أشدهم عذابًا، لماذا يُريه الله أنه أشدهم عذابًا؟ لئلا يتسلَّى بغيره؛ لأن صاحب النار لو عَلِمَ أن غيره أشد منه أو مثله لتسلَّى وهان عليه الأمر، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ مع أنكم لو اشتركتم في العذاب في الدنيا لهانَ عليكم.

---

(١) كما روى البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

انظر إلى كعب ابن مالك رضي الله عنه لما قيل له: إنه تخلَّف عن غزوة تبوك فلان وفلان، هان عليه الأمر، وهذا شيء مُسلَّم، والخنساء ترثي أخاها صخرًا وتقول:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

فنقول: من قدَّر الله ضلالَهُ فلن يهديه أحد، مهما أوتي من الآيات فإنها لا تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** كفاية الله لعبده.

٢ - **ومنها:** الحثُّ على تحقيق العبودية لله؛ لأنك إذا حقَّقتَ العبودية تحقَّقَت لك الكفاية؛ إذ إن الحكم المعلق على وصف يقوَى بقوة ذلك الوصف، ويضعُف بضعف ذلك الوصف، فإذا كانت الكفاية مُرتَّبة على العبودية حصل للعابد من هذه الكفاية بقدر عبوديته، على القاعدة: أن الحكم المعلق بوصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** دفاع الله - عزَّ وجلَّ - عن المؤمنين؛ لأنه إذا كان كافِيَه فسوف يُدافِع عنه، ويحقق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أعداء الله يُخوِّفون عباد الله بما دون الله، لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه:** أن الشيطان وهو زعيم أعداء الله يُخوِّف المؤمن العابد لله مما دون الله، فتجده يأتي إلى الشخص الذي يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقول له: لا تفعل، إن الناس يبغضونك، إن الناس يرمونك بالتشدُّد، إن السلطان ربما يُؤدِّبك، وما أشبه ذلك، ولكن المؤمن لا يخاف من هذا أبدًا؛ لأنه معتصم بمن؟ بالله عز وجل، هو عبد الله، واثقٌ بأن الله سينصره، فلا يهمه هؤلاء، ولكن هل يعني ذلك: أن الإنسان يتجشَّم الأمور بالعاطفة العاصفة، أو يستعمل الحكمة ويمضي في الحق؟ الثانية، ولذلك نحن ننتقض على بعض الناس الذين عندهم غيرة في دين الله، ولكنهم لا يأتون البيوت من أبوابها، يريدون أن يأتوا الأمور بالعنف والقوة، مع أنه ليس لهم قوة، فنحن نقول: امضِ فيما أمرك الله به، لكن مُستعمِلًا بذلك الحكمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل من سوى الله فهو دون الله، لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فليس هناك إلا الله أو مَنْ دون الله.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن كل من سوى الله فهو مغلوب، وإذا كان الله كافِيَ عبده، وكل من سوى الله فهو مغلوب، فهذا يعني: أن الإنسان سيغلب إذا حقَّق العبودية، ولكن قد يُورِدُ علينا مُورِد أن الله تعالى ذكر أن من الناس من قتل الأنبياء؟ فكيف يُجمَع بين هذه الآية وبين ما ثبت من

قتل بعض الأنبياء؟ والجواب عنه: أن قتل الأنبياء لا يعني: قتل ما جاءوا به من الحق، والأنبياء إنما تكلَّموا من أجل إثبات الحق، لا من أجل إثبات شخصيتهم، ثم إنه إذا فاتهم الانتصار في الدنيا الانتصار الذي يشاهدونه، لن يفوتهم ذلك في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من كتب الله ضلالَهُ فلا أحد يستطيع هدايته، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها**: أن الإنسان لا يطلب الهداية إلا من الله؛ لأنه وحده هو الذي يُضِلُّ ويهدي، فتُطلَب الهداية منه؛ لأنه ليس المراد بهذه الآية: التيئيس من هداية الخلق، ولكن المراد: الرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هداية الخلق.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مُستقلٌّ بعمله، يهدي نفسه، ويُضِلُّ نفسه، ولا علاقة لمشيئة الله في فعله، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: إثبات الهداية لغير الله التي هي هداية الدلالة، وأما التوفيق فإلى الله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧].

التفسير

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: من يُقدِّر الله هدايته فماله من مُضِلٍّ.

فلا أحد يستطيع أن يُضِلَّه، مهما كثُرت الشبهات، وكثُرت الشهوات، إذا قدَّر الله على العبد الهداية فلن تُضله شهوة ولا شبهة؛ لأنه عند الشهوة يُغلِّب العقل فيمتنع منها، وعند الشبهة يُغلِّب العلم فيهتدي به منها، هذا ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وفي هذه الجملة من تشجيع الإنسان على الاستمرار في الهداية ما هو ظاهر؛ لأن الله هو الذي هداه ولا أحد يستطيع أن يضله.

ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

الجواب: بلى، وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ هذه خبر(ليس) دخلت عليها الباء الزائدة لفظًا، الزائدة معنىً؛ لأنها تفيد توكيد العموم في النفي؛ إذ أن النفي يفيد العموم إذا أتى بعده اسمٌ نكرة، لكن إذا دخلت الباء فإن حروف الزيادة من أحرف التوكيد كما ذكر ذلك علماء البلاغة.

وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المفسرون لأسماء الله الحسنى: العزيز له ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: عزة القدر، والمعنى الثاني: عزة القهر، والمعنى الثالث: عزة الامتناع.

أما عزة القدر فمعناها: أن الله ذو قدر عظيم، وشرف كبير، لا أحد يُماثِله، ولا أحد يساويه، أو يقاربه.

وأما عزة القهر، فمعناها: أن الله قاهر لكل شيء، غالب لكل شيء.

وأما عزة الامتناع فمعناها: أن الله يمتنع عليه كل عيب ونقص، وهذا معروفٌ في اللغة العربية.

فالمعنى الثاني الذي هو الغلبة قال فيه الشاعر:

أين المفـــر والإلـــه الطالب والأشـــرم المغلـوب ليس الغالب

وأما الأول الذي هو عزة القدر، فيقال: هذا عزيز؛ أي: نادر لا يوجد، لشرفه وكرمه، وأما الثالث: فقولهم: أرضٌ عَزَاز؛ أي: قوية صلبة تمتنع أن تحفرها المعاول، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ عزيزٌ بهذه المعاني الثلاثة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ذي بمعنى: صاحب، وانتقام نكرة، والنكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم، ولكنها هنا في سياق ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام، فكلما كانت الحكمة في الانتقام انتقم، وتأمل قوله: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يقل: منتقم؛ لأنه ليس من أسماء الله المنتقم، ولم تأت المنتقم في أسماء الله في حديث صحيح، وإنما جاءت باسم الفاعل مقيدًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ولم يقل: إنا منتقمون، وقال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام في موضعه، فالمنتقم ليس من أسماء الله، حتى وإن قُرِنت بالعفو خلافًا لما ذهب إليه بعض العلماء من أنه إذا قُرِنت بالعفو فلا بأس، بل نقول: المنتقم ليس من أسماء الله، لا مقرونًا بالعفو ولا منفردًا عنه، لكنه يوصف بالانتقام مُقيَّدًا ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ويوصف بأن الانتقام يصدر منه، لا أنه منتقم، لقوله: ﴿بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

قال: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [غالب على أمره]، وتفسيره العزيز بالغالب على الأمر يعتبر قاصرًا؛ لأن العزة لها ثلاثة معان كما شرحنا، قال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [من أعدائه]، والانتقام أخذ المجرم بجريمته، وقوله: [بلى] هذا جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

الفوائد:

١ـ من فوائد هذه الآية: إثبات عزة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بجميع معانيها.

٢ـ ومن فوائدها: اللجوء إلى الله عز وجل في طلب الهداية منه والاستمرار عليها.

٤ ـ ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ، تهديدهم بهذين الوصفين: وصف

العزة المستفاد من العزيز، والانتقام المستفاد من قوله: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فكأن الله يُهدِّدهم بعزته وانتقامه من تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

❁ التفسير ❁

الخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، واللام في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ موطئة للقسم، وإن شرطية، والجواب في قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط، أو جواب القسم؟ جواب القسم؛ لأنه قُرِن باللام، والذي يُجاب باللام هو القسم وليس الشرط، والقاعدة: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، فالجواب للسابق منهما، وقال ابن مالك في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسمِ ... جواب ما أخَّرت فهو مُلتَزَم

والمؤخَّر الشرط، فيُحذف جوابه، ويكون جوابه معلومًا من جواب القسم

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سؤال استفهام ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني: من أوجدهما على هذه الصنعة البديعة؟ والسماوات مأخوذة من السمو، وهو: العلو، لعلوها وارتفاعها، وجمعها؛ لأنها سبع سموات طباقًا متطابقة كل واحدة فوق الأخرى، وعلى هذا فتكون الثانية أوسع من الأولى، والثالثة أوسع من الثانية، والرابعة أوسع من الثالثة، وهلمَّ جرًّا، وإذا كان بينهما مسيرة خمس مائة عام، عرفتَ سعة كل سماء بالنسبة لما تحتها، وأن سعتها عظيمة، ومع هذا فهذه السماوات التي بهذه السعة العظيمة هي بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، حلقة المغفر الصغيرة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، والرب - عزَّ وجلَّ - لا يقدُرُ قدرَه إلا الله عز وجل، إذن السماوات سبع متطابقة، والأرض واحدة؛ لأنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ولم يقل: والأراضين، نقول: المراد بها الجنس، فلا ينافي أن تكون سبعًا، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى أنها سبع في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] وجاءت السنة صريحة في ذلك، في مثل قول النبي ﷺ: «مَنِ

اقْتَطَعَ[١] شِبْرًا[٢] مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ[٣] اللهُ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»[٤].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، هو الذي خلق السماوات والأرض، ولم يدَّعِ المشركون أن السماوات والأرض كانت قديمة غير محدثة، ولم يدَّعُوا أن أحدًا خلقها سوى الله؛ بل أقرُّوا بأن الخالق هو الله وحده، كما أنهم إذا سُئِلوا من خلقهم؟ ليقولن الله، فكلما سُئِلوا عن شيء يتعلَّق بالربوبية نسبوه إلى الله - عزَّ وجلَّ - من غير شريك، فهم مُقِرّون بتوحيد الربوبية غاية الإقرار، يعلمون أن الله هو الخالق، وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، سأورد عليكم إشكالًا في ضم هذا الفعل مع اتصال نون التوكيد به، والمعروف أن المضارع يُبنى في موضعين: إذا اتصلت به نون التوكيد يُبنى على الفتح، أو نون النسوة يُبنى على السكون، فلماذا هنا صار مضمومًا؟ إذن النون غير مباشرة للفعل، على هذا التقدير يكون بينها وبين الفعل واو الجماعة ونون الرفع، فهي غير مباشرة حقيقةً، مباشرة لفظًا، والفعل يبنى مع نون التوكيد المباشرة لفظًا وتقديرًا، أما هذه فهي في التقدير غير مباشرة، ولهذا بقي الفعل مُعربًا، فيقال: إنه مرفوع بالنون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، الله بالرفع خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، ويجوز أن تكون فاعلًا لفعل محذوف؛ أي: خلقها الله، ويجوز أن تكون مبتدأ والخبر محذوف، التقدير: الله خالقها، والأمر في هذا واسع، باب الإعراب له وجوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: اسألهم سؤالًا آخر إذا أقرُّوا بأن الخالق هو الله قل لهم: أخبروني ما تدعون من دون الله؟ تدعون يقول المؤلف: [تعبدون]، ويحتمل أن يكون المراد به: دعاء المسألة؛ لأن الدعاء يطلق على معنيين: المعنى الأول: دعاء المسألة، والثاني: دعاء العبادة.

فمن الأول: قوله تعالى: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»[٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ هذا دعاء مسألة.

ومن الثاني: وهو دعاء العبادة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي قدره من الأرض.

(٣) أي جعله طوقا في عنقه.

(٤) رواه مسلم (١٦١٠)، والطيالسي في مسنده (٢٣٧) وأبويعلى في مسنده (٩٥٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، هؤلاء القوم يدعون من دون الله دعاء مسألة، أو دعاء عبادة؟ عام، يدعون من دون الله دعاء مسألة ودعاء عبادة، أخبروني عن هذه الأصنام التي تدعونها من دون الله هل ينفعن من دعاهن؟ هل يجلبن النفع أو يدفعن الضر إن أرادني الله بضُرٍّ هل هن كاشفاتٌ ضُرَّه؟ الجواب: لا، لا يدفعن الضرر إذا أراد الله، أو أرادني برحمة هل هن ممسكاتٌ رحمتَه؟ الجواب: لا، إذن كيف تُعبَد من دون الله، كيف تُدعَى من دون الله، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أراد بي ضرًا لم يملكنَ دفعَه، وإذا أرادني برحمة لم يملكن إمساك هذه الرحمة؟ الجواب: يقول: [لا].

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، يعني: لا يهمني أن تهددوني بهذه الأصنام فإن حسبي الله؛ أي: كافيني عمن سواه، والجملة في ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يجوز أن يكون فيها تقديم وتأخير، فنُعرِب حسبي خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، ويجوز أن نقول: حسبي مبتدأ، والله خبر، ويختلف هذا الإعراب باختلاف المعنى، فإن أردتَ أن تُخبر عن الحسب بأنه الله، فاجعل الحسب مبتدأ، وإن أردتَ أن تُخبِر عن الله بأنه الحسب فاجعل حسبي خبرًا مقدمًا، والآية من حيث المعنى صالحة لهذا وهذا، فالله هو الحسب، والحسب هو الله، ليس لنا حسب سوى الله، والله سبحانه وتعالى حسبنا كافينا.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ التوكل هو: الاعتماد على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اعتمادًا حقيقيًا صادقًا في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله سبحانه وتعالى، وهو من العبادة الخاصة بالله، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: على الله وحده.

وأما توكُّل غير العبادة، فإنه يجوز للإنسان أن يتوكَّل على غيره فيما وكَّلَه فيه، كما لو قلت لفلان: وكَّلتُك تشتري لي كذا وكذا، فأعتمد عليه في الشراء، وهذا ليس توكُّل عبادة، لأن المتوكل في هذه الصورة لا يشعر أنه أدنى مرتبة من الوكيل؛ بل قد يشعر بأنه أعلى مرتبة؛ لأنه جعل ذلك خادمًا له مُنفِّذًا لما يقول.

أما التوكل على الله فإنك تتوكل على الله معتقدًا في نفسك أنك مضطر إليه، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده تصريف أمورك، فتتوكل عليه رغبة ورهبة وتقرُّبًا إليه، ولهذا نقول: هل يجوز أن أقول: توكلت على فلان؟ الجواب: إن كان ذلك على وجه العبادة فهذا حرام شرك، وإن كان على وجه الإنابة؛ أي: أنبتُه منابي فيما وكَّلته فيه، فهذا لا بأس به ولا حرج، وكان النبي ﷺ يُوكِّل أصحابه في قبض الزكوات وتصريفها، وغير ذلك.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿ وَلَئِن ﴾ [لام قسم] ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يعني: إذا أقرُّوا بهذا الإقرار: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: [الأصنام]؛ يعني: أخبروني عنها ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾؟ الجواب: يقول: [لا] ﴿أَوْ أَرَادَنِي

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [لا، وفي قراءةٍ بالإضافة فيهما]؛ أي: في قوله: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ ، وفي قوله: ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾، فنقرأ على هذه القراءة: هل هن كاشفاتُ ضرهِ، هل هن ممسكاتُ رحمتِهِ، والقراءتان سبعيَّتان، ومن قاعدة المؤلف في هذا الكتاب: أنه إذا قال: [وقُرِئ] فهي شاذة لا يُقرأ بها، وإذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعيَّة يُقرأ بها ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ قال: [يَثِق الواثِقون].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إقرار هؤلاء المشركين بالربوبية، لقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الإقرار بالربوبية لا ينفع العبد ولا يُدخِلُه في الإسلام، ودليل ذلك: أن النبي ﷺ قاتَلَ هؤلاء المُقرِّين بالربوبية، واستباح دماءهم، ونساءهم، وأموالهم، وإن كان الإقرار بالربوبية نافعًا لكانت دماؤهم معصومة، وأموالهم معصومة، وأهلوهم معصومين.

٣ - **ومن فوائدها:** الرد؛ بل الإبطال لما عرَّف المتكلمون به التوحيد؛ لأن عامة المتكلمين إذا فسَّروا التوحيد قالوا: إنه ثلاثة أنواع: التوحيد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، هكذا يقولون، فيقولون: هو واحدٌ في ذاته لا قَسِيم له، ويعنون بذلك: أنه ليس له وجهٌ، وليس له يدٌ، وليس له عينٌ، وما أشبه ذلك، يقولون: لو قلنا: إن له هذه الصفات لزِمَ أن يكون ذا أعضاءٍ، وهو سبحانه وتعالى لا يتقسَّم، فهو واحدٌ في ذاته لا قسيم له، واحدٌ في أفعاله لا شريك له، ثم يجعلون هذا النوع من التوحيد هو توحيد الألوهية، فيقولون: معنى قول القائل: لا إله إلا الله؛ أي: لا قادر على الخلق والاختراع إلا الله، الثالث: واحدٌ في صفاته لا شبيه له، كلامٌ ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قِبَله العذاب، ماذا يعنون بقولهم: لا شبيه له؟ أي: لا صفات له؛ لأنهم يعتقدون أن كل من أثبت لله صفة فهو مُشبِّه، فهو واحدٌ في صفاته لا شبيه له.

هذا التنويع لو قرأته على عامِّي ماذا يقول عنه؟ يقول: ما أحسنه ما أجمله، واحد في ذاته لا قسيم له سبحانه وتعالى، ويُسبِّح ويُهلِّل، واحد في أفعاله لا شريك له كذلك، واحد في صفاته لا شبيه له كذلك، لكن لا يدري أن وراء الأكَمَة ما وراءها، يريدون بقولهم: واحد في ذاته لا قسيم له؛ أي: ليس له صفات هي بالنسبة إلينا أعضاء؛ مثل: اليد، والوجه، والعين، والقدم، والساق، واحد في أفعاله لا شريك له، يريدون بذلك أن هذا هو معنى لا إله إلا الله، ولو كان هذا هو معنى لا إله إلا الله لكان المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ مؤمنين مُوحِّدين، وهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، ولا يقبلون هذا، ويقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا.

فتأمَّل كيف كان المشركون في الجاهلية يفهمون من التوحيد ما لا يفهمه هؤلاء المتكلمين، وقد ذكر العلماء مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره هذا المعنى، وقالوا: المشركون خيرٌ في فهم

التوحيد من هؤلاء المُتكلِّمين؛ لأن هؤلاء المتكلمين جعلوا التوحيد هو توحيد الربوبية فقط، وهذا لا يُنكِره المشركون، يُقِرُّون به، ويُنكِرون توحيد الألوهية؛ لأنهم يعرفون أن معنى لا إله إلا الله: لا معبود حقٌّ إلا الله، أما أولئك المُتكلِّمون فإنهم لا يُقِيمون للألوهية وزنًا، يجعلونها خارجة، لا يُدخِلونها في أنواع التوحيد، واحد في صفاته لا شبيه له، ماذا يعنون؟ يعنون: تعطيل الصفات، لأنهم يدَّعون أن كل من أثبت لله صفة فهو مُشبِّه.

فتبيَّن بهذه الآية: الرد على أولئك المتكلمين الذين يجعلون توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما يُعبَد من دون الله لا ينفع عابِدَه بجَلْب نفع، ولا بدَفْع ضرٍّ، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾، ﴿أَوْ أَرَادَنِي﴾، وإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية، وإرادة كونية قدرية، الكونية هي التي بمعنى: المشيئة، والشرعية هي التي بمعنى: المحبة، فإذا كانت (يريد) بمعنى: يشاء فهي إرادة كونية، وإذا كانت (يريد) بمعنى: يحب فهي إرادة شرعية، إذن الفرق بينهما: أن الإرادة الكونية.

يلزمُ منها وقوع المراد؛ لأنها كونية، لا أحد يُعقِّب حكم الله، والإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، ثانيًا: الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله، والإرادة الكونية شاملة لما يحبه وما لا يحبه الله.

إذا قال لك قائل: هل الله يريدُ المعاصي؟ إن قلت: نعم، أخطأت، وإن قلت: لا، أخطأت، فماذا تقول؟ نقول: بالإرادة الكونية نعم يريدها، ولم تقع المعاصي إلا بإرادته، وبالإرادة الشرعية لا؛ لأن الله يكره المعاصي، وبهذا التفصيل تزولُ إشكالاتٌ كثيرة، في المعاصي هل هي مرادة لله، أو غير مرادة؟ نقول: هي مُرادة بالإرادة الكونية، غير مرادة بالإرادة الشرعية.

فإن قال قائل: كيف يريدها الله وهو لا يحبها؟ قلنا: نعم، هي مُرادة لغيرها؛ بمعنى: محبوبة لغيرها؛ أي: لما تؤدي إليه من المصالح العظيمة، إذن ليست مُرادة بالإرادة الشرعية، وإنما هي مُرادة بالإرادة الكونية، فإذا أورد علينا مُورِد: كيف يريدها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو يكرهها؟ فالجواب أن نقول: يريدها ويكرهها لكونها مرادة لغيرها، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ يريد المعاصي من أجل خيرٍ كثير لفاعلها إذا تاب إلى الله؛ لأن العاصي إذا تاب إلى الله كان خيرًا منه قبل المعصية، والدليل على هذا: أن آدم عصى ربه وغوى، وتاب إلى الله، وبعد توبته اجتباه وهداه، ولولا هذه المعصية لم يحصُل له الاجتباء والهداية التي حصلت بعد المعصية، فكانت المعصية الآن خيرًا لآدم.

ثم إن فيها خيرًا آخر: الإنسان العاصي إذا عصى الله عَرَفَ قدر نفسه، وخجل من ربه، واستصغر كل عمل خير يفعله؛ لأنه يذكر دائمًا معصيته بين عينيه، لكن إذا لم يعص الله ربما

يشمخر، ويعلو بأنفه، ويُعجَب بنفسه، ويقول: أنا ما عصيت الله أبدًا، وما أشبه ذلك ثم يحبط عمله من حيث لا يشعر.

هناك مصلحة ثالثة لعامة الناس: لولا العصيان ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس لو كانوا كلهم على البر والمعروف، فبأي شيء نأمر، وعن أي شيء ننهى؟ فلا يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بوجود أسبابه، وهي: المعاصي.

رابعًا: لولا المعاصي ما عرف الإنسان قدر الإيمان الذي أنعم الله به عليه ولذَّته؛ لأن الناس لو كانوا على حدٍّ سواء ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه، ولهذا لا يعرف قدر العافية إلا من ابتُلِي بمرض، كذلك أيضًا المعصية فلا يعرف العبد قدر نعمة الله عليه بالطاعة إلا إذا عرف آثار المعاصي على فاعلها.

خامسًا: لولا المعاصي التي أعظمها الكفر ما قام سوق الجهاد؛ لأننا لو كنا كلنا مسلمين فمن نجاهد؟ لا أحد، لكن إذا كان هناك كافر ومؤمن قام سوق الجهاد، ولا يخفى ما في الجهاد من الخير والفضل العظيم.

سادسًا: لولا المعاصي لفاتت الحكمة من خلق الخلق كلهم، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨] يعني: على الهدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

سابعًا: لولا المعاصي لم يكن لخلق الجنة والنار حكمة؛ لأن النار لمن؟ لمن عصى، ولو لم يكن هناك عصاة لكان خلق النار عبثًا، ولهذا قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

فتبيَّن الآن أن ما يُقدِّره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مما يكرهه له فوائد كبيرة عظيمة، وحينئذٍ يكون مرادًا لله تعالى لغيره، وهو من هذه الناحية محبوبٌ إلى الله، فتبيَّن بهذا سُقوط الإيراد الذي أوردناه أولًا، وهو: كيف يريد الله المعاصي وهو يكرهها.

ونظير ذلك في الأمور المحسوسة: أن الأب أو الأم يأتي إلى ابنه المريض، فيكويه بالنار، فتُؤلِمه، وتُحرِقُ جلده، ولكن لماذا؟ لطلب الشفاء، فكيُّه مكروهٌ غيرُ محبوبٍ له، لكنه محبوب لغيره؛ أي: لما ينتج عنه من المصالح، وبهذا تبيَّن أنه لا مانع من أن يكون الشيء مكروهًا من وجه، محبوبًا من وجه.

ما هي التي يلزم فيها وقوع المراد؟ الكونية، وعلى هذا فالكافر مراد منه أن يُؤمن، ولكنه لم يؤمن، مراد منه أن يكفر وقد كفر، مراد منه أن يؤمن بأي الإرادتين؟ الشرعية، مراد منه أن يكفر؟ بالإرادة الكونية، فكفر، والمؤمن الذي آمن مراد منه أن يؤمن بالإرادة الشرعية، ومراد منه أن يؤمن بالإرادة الكونية؛ لأنه آمن، وعلى هذا فالمؤمن اجتمع في حقه الإرادتان: الكونية والشرعية،

والكافر في حقه الإرادة الكونية دون الشرعية، وهنا قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي الإرادتين؟ الإرادة الكونية.

٦ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عزَّ وجلَّ - يبتلي الإنسان بالضر وبالرحمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣] فالله - عزَّ وجلَّ - يبتلي بالضُرِّ، ويبتلي بالرحمة.

٧ - **ومن فوائدها:** الفرق بين الضر وبين الرحمة، الرحمة قال فيها: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، والضر ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ لأن الرحمة تحتاج إلى بقاء، فإذا أبقى الله الرحمة فهل هذه الأصنام هي التي تمسك الرحمة أو الله؟ الله - عزَّ وجلَّ - وليست الأصنام، ويحتمل في الآية وجه آخر ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أن تصِلَ إلى المرحوم، فيكون ممسكات بمعنى: مانعات للرحمة، ليكون ذلك بمقابل: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** وجوب اعتماد الإنسان على الله، لقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: قُلها باللسان معتقدًا إياها بقلبك.

٩- **ومن فوائدها:** أن أحق من يُتوكَّل عليه هو الله، لقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فإن قال قائل: هل تحقيق التوكل ينافي فعل الأسباب؟ الجواب: لا، إلا إذا تعذَّرت الأسباب ولم يبقَ إلا التوكل، فحينئذٍ يكون هو سبب الأسباب، فالإنسان مأمورٌ بفعل السبب، فإذا فَعَلَه ولم يُفِد، أو لم يكن سببه موجودًا مقدورًا عليه لم يبقَ إلا التوكل.

فإن قال: ما هو الدليل على أن فعل الأسباب لا ينافي التوكل؟ قلنا: وقوع ذلك من سيد المتوكلين محمد ﷺ، فإنه ﷺ كان يأخذ بالأسباب، يأكل ليندفع عنه الجوع، ويشرب ليندفع عنه العطش، ويتدرَّع بالدروع في الحرب ليتَّقي بذلك السهام؛ بل إنه عليه الصلاة والسلام في أُحُد ظَاهَرَ بين درعَيْن[1]؛ لأن ذلك أقوى في الصيانة والحماية، وشقَّ الخندق على المدينة في غزوة الأحزاب منعًا للعدو من دخول المدينة، والشواهد على هذا كثيرة.

ولكن نُقيِّد الأسباب بأن يثبُت كونها سببًا شرعًا أو حِسًّا، لابد أن يثبُت كونها سببًا إما عن طريق الشرع، وإما عن طريق الحِسِّ والتجارب، فأما مجرد توهُّم أن ذلك سببًا فإن ذلك من الشرك، فمن دلالة كون الشيء سببًا شرعًا: أن القرآن شفاء لما في الصدور، وهو مرضُ الشُّبُهات والشهوات، وشفاء لما في الأبدان، لقول النبي ﷺ للذي قرأ بالفاتحة للديغ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ[2]»[1] من أين علمنا ذلك أن القرآن شفاء؟ من الشرع.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٥٧٦٠)، والنسائى فى الكبرى (٨٥٨٣) من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه، وقال أحمد فى مسنده: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ما الذي أعلمك أنها يرقى بها.

وقد يكون بالتجارب؛ مثل: أن نعرف أن السنا مُسهِّل، من أين عرفنا، هل في القرآن والسنة أن السنا مسهل؟ لا، لكن بالتجارب، السنا في القصيم يُسمُّونه: السناوين مُثنى، وهو سنا واحد، لكنه نوع من الأوراق، أوراق شجر معروف يشبه السِّدْر، إذا دُقَّ ونُقِع في الماء لمدة عشرين ساعة ونحوها وشربه الإنسان، فإنه يسلِتُ ما في بطنه من الأذى ويُسهِّله، وله رائحة كريهة، لكن الناس يجعلون معه بصلًا ليُعمِي رائحته، وإن كان البصل خبيثًا لكنَّهُ أهون، أخف الضررين، على كل حال من أين عرفنا أن هذا مُسهِّل؟ من التجارب، وغالب الأدوية الموجودة الآن غالبها من التجارب، أما شيء موهوم فهذا لا يجوز اعتماده؛ بل هو نوعٌ من الشرك، التِّوَلة شرك؛ لماذا؟ لأنه لم يثبت كونها سببًا لمحبة الرجل لزوجته، أو الزوجة لزوجها لا شرعًا ولا حِسًّا، فيكون إثبات كونها سببًا شركًا؛ لأنك أثبتَّ ما لم يُثبِت الله، فكأنك جعلت نفسك مثل الله في إثبات الأسباب ومفعولاتها.

إذن قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا ينافي فعل الأسباب؛ بل الأسباب من التوكُّل في الواقع، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة بن الجراح لما قال: أفِرارًا من قدر الله؟ قال: نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩، ٤٠].

التفسير

الخطاب هنا للنبي ﷺ، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ المراد بهم: من كذَّبوه وعانَدُوه، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ هذه مُنادَى، وأصلها: يا قومي، ولكنها حُذِفت الياء للتخفيف، وبقيت الكسرة دليلًا عليها، وعليه فنقول في إعرابها: قومي مُنادى منصوب بفتحة مُقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف.

وقوله: ﴿يا يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة والإيذاء، فإن ذلك لا يهمُّني ولن يمنعني من أن أستمر في عملي، ولهذا أكَّد قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ يعني: عاملٌ على ما أنا عليه، فأنتم اعملوا، ونحن سنعمل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا

(١) رواه البخاري (٢١٥٦)، ومسلم (٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مُنتَظِرُونَ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه جملة مُحقَّقة لدخول (سوف) عليها، فإن (سوف) تُحقِّق الجملة كما تُحقِّقها السين، لكن الفرق: أن السين تفيد ذلك عن قُرْب، وسوف تفيده عن مُهْلة، ولهذا يقال السين للتنفيس، وسوف للتسويف؛ أي: التأخير، والتنفيس القُرْب.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ مَنْ مفعول تعلمون، والعلم هنا بمعنى: المعرفة، ولهذا لا تنصِبُ إلا مفعولًا واحدًا، كما قال ابن مالك:

لعلم عرفانٍ وظنٍ تُهَمَة ... تَعْدِيَةٌ لواحدٍ مُلْتَزِمة

وقوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعرفون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: ستعلمون الذي يأتيه عذاب يُخزِيه، العذاب هنا: العقوبة، والخزي معناه: الذل والعار، قال تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: ينزل عليه عذاب مقيم لا يفارقه، سوف تعلمون هذا، هل هو نحن أم أنتم؟ ولكنهم سوف يعلمون ذلك في وقت لا يتمكَّنون فيه من الخَلَاص، وإنما يُنادُون بالويل والثبور - والعياذ بالله -.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤١، ٤٢].

التفسير

تأمَّل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ فهل الحرفان بمعنى واحد، أو هما يختلفان؟ الجواب: الأصل فيما اختلف لفظه أن يختلف معناه؛ لأن اللفظ للمعاني بمنزلة الثوبِ للأجسام، فإذا وجدنا لفظَيْن تأديتُهما واحدة، لكنهما مختلفان لفظًا، فالأصل اختلافهما معنىً، فقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يفيد أن غاية الإنزال إلى رسول الله ﷺ لا يتجاوزُه إلى غيره، وقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ يفيد أن الإنزال استعلى النبي ﷺ حتى تشرَّبَه كأنه نزل في نفس الرسول ﷺ، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يقل: إلى قلبك، هذا هو الفرق.

وقوله: ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الكتاب هنا هو: القرآن الكريم، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وفي الصحف التي بين أيدينا، وعلى هذا فيكون

فِعال بمعنى: مفعول، وهذا الوزن - أعني: فِعالًا بمعنى: مفعول - يأتي كثيرًا في اللغة العربية، ومنه: فِرَاش بمعنى: مفروش، كِساء بمعنى: مكسِيّ، وبناء بمعنى: مبني، وغراس بمعنى: مغروس.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ اللام هنا للاختصاص، أو للتعدية، والمعنى: أن الله أنزل الكتاب على محمد ﷺ ليهتدي به الناس وينتفعوا به، والأمر كذلك، فإن الناس انتفعوا بهذا القرآن انتفاعًا لا يُماثِلُه انتفاع، فالأمة القُرشية كانت لا تُساوي شيئًا عند الأمم، وكانوا أذِلَّة، وكانوا فقراء، لهم رحلةٌ إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء؛ لأنهم ليس عندهم حركة ولا تجارة، ولا أموال، وببعثة النبي ﷺ وبهذا القرآن صاروا سادة الأمم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ آوى يعني: آواك وآوى بك، فكنتَ أبًا للناس بعد أن كنت يتيمًا لا أبَ لك، ولهذا نقول: آوى حُذِف المفعول به من أجل العموم؛ يعني: آواك وآوى بك ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هداك وهدى بك ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يعني: أغناك وأغنى بك، ولهذا قال النبي للأنصار: «وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»، فالنبي ﷺ جاء بالبركة لأمته، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لها معنيان: بالحق يعني: أن ما جاء به هذا القرآن فهو حقٌّ، والحق هو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يعني: أن هذا القرآن نزل بالحق، أتى بالحق، وهو صدق الأخبار، وعدل الأحكام، والمعنى الثاني: بالحق يعني: أنه مصحوبًا بالحق؛ أي: أنه نزولٌ حقٌّ ليس فيه باطل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢] فإذن بالحق له معنيان: الأول: أن ما جاء به الحق، والثاني: يعني: أن نزوله حق ليس بباطل، فإنه لا يعتريه الباطل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، وتلوت عليكم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ بخلاف أخبار الكهان، فكلها من الشياطين.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء هذه مُفرَّعة على ما سبق؛ يعني: بعد نزول هذا القرآن انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم اهتدى به فانتفع، وقسم ضل عنه فهلك.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من هذه شرطية فعل الشرط فيها اهتدى، وجوابه جملة فلنفسه؛ لأن الجملة هنا اسمية ولهذا اقترنت بالفاء، فمن اهتدى فلنفسه.

وقوله: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هداية علمية وهداية عملية، هداية علمية: بأن حرص على هذا القرآن فحفظه، وتدبَّره، وتأمَّلَه، وهداية عملية: بأن طبق على القرآن وعمل به عقيدةً وقولًا وفعلًا.

وقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يعني: فلنفسه اهتداؤه، أو فهو لنفسه، المهم: أن المحذوف هنا المبتدأ ولابد؛ لماذا نقول: ولابد؟ لأن المذكور جار ومجرور، والجار والمجرور لا يمكن أبدًا أن يكون مبتدأ، إذن فالمحذوف هو المبتدأ هنا، فإن شئتَ قدِّر: فلنفسه اهتداؤه، وإن شئت قدِّر: فهو لنفسه، ولماذا اقترنت جملة الجواب بالفاء؟ لأنها اسمية، وإذا وقعت جملة الجواب اسمية وَجَبَ اقترانُها بالفاء، وربما تُحذَف الفاء ولكن قليلًا، ومنه قول الشاعر[1]:

ومن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها ....

ولم يقل: فالله يشكرها، لكن هذا قليل، وما يجبُ قرنُهُ بالفاء من الجمل إذا وقع جوابًا مذكورٌ في بيت:

اسميـــــةٌ، طلبيةٌ، وبجـــامدٍ وبـ (ما)، وقد، وبـ (لن)، وبالتنفيس

وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضلَّ فلم يهتدِ لا علمًا ولا عملاً، فإنما يضل عليها أي: على نفسه، ولن يضر الله شيئًا ولا يضر غيره شيئًا أيضًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ما هذه حجازية؛ أي: لا تعمل عمل ليس إلا عند أهل الحجاز، ولذلك سُمِّيَتْ حجازية، هي عند أهل الحجاز تعمل عمل ليس؛ ترفع المبتدأ، وتنصب الخبر، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وعند بني تميم لا تعمل عمل ليس، مهملة، فيقولون في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ يعني: في غير القرآن: ما هذا بشرٌ، الآن أنا سأتكلم فقولوا: أنت حجازي أم تميمي؟ ما زيدٌ قائمٌ، تميمي، ما زيدٌ قائمًا، حجازي، إذن لغة قريش - وهم أهل الحجاز - يقولون: ما هذا بشرًا، وبني تميم يقولون: ما هذا بشرٌ، وكانوا يقرءون القرآن: ما هذا بشرٌ قبل أن يُوحَّد على لغة قريش؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وفي بيت طريف قال فيه الشاعر:

ومهفهف الأعطاف قلت له: انتسب فأجـــاب: ما قَتْلُ المُحبِّ حرامٌ

قلت له: انتسب يعني: من أين أنت؟ فأجاب، ما قال: أنا من فلان، أو من بني فلان، فأجاب: ما قَتْلُ المُحبِّ حرامٌ، ماذا يكون؟ تكون هذه المرأة تميمية؛ لأنها قالت: ما قَتْلُ المُحِبِّ حرامٌ، إذن عرف أنها تميمية، في وقتنا الآن، هل نعرف التميمي من القرشي؟ اندمج الآن كلهم تميمي، وكلهم قرشي، تجد هذا يقول: ما هذا بشرٌ، وهذا يقول: ما هذا بشرًا، هذا يقول: ما هذا بشرٍ، يختلفون كلهم اختلطوا.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ هل نُعرِب الآن ما على لغة بني تميم، أو على لغة قريش؟ على لغة قريش، مع أن اللفظ لا يختلف، في هذا التركيب لا يختلف اللفظ؛ لأن بني تميم يقولون: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وكذلك قريش لكن لعلمنا أنه قرآن على لغة قريش

---

(١) منسوب إلى حسان ثابت رضي الله عنه.

نقول: إن ما هنا حجازية، وأن اسمها، والتاء للخطاب، والباء حرف جر زائد، وكيل خبرها منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحلّ بحركة حرف الجر الزائد.

فإن قال قائل: قلتَ: إن الباء حرف جر زائد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم ليس فيه لغوٌ، والزيادة لغوٌ؟ فالجواب على هذا: أن نقول: فالزيادة لغوٌ إذا لم تُفِد معنى، فإن أفادت معنىً فليست لغوًا، والمعنى الذي تفيده هنا: توكيد النفي، وعلى هذا فليست لغوًا؛ بل هي زائدةٌ لفظًا، زائدة معنىً؛ يعني: تزيد المعنى، لكن قد يقول قائل: كيف زائدة زائدة؟ نقول: زائدة الأولى: مِن زاد اللازم، وزائدة الثانية: مِن زاد المُتعدِّي؛ لأن زاد تُستَعمل لازمة لا تتعدَّى للمفعول، وتُستَعمل مُتعدِّية للمفعول، قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ مُتعدِّية، وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ مُتعدِّية، وتقول: زاد إيمان الرجل لازمة، وتقول: نقص الماء لازمة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يعني: لست عليهم بمُراقِبٍ تُراقبهم وتحافظ عليهم، وإنما ذلك إلى الله، أنت عليك البلاغ، والحساب على رب العباد عز وجل.

يقول المؤلف: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [على حالتكم]، فالمكانة بمعنى: الحالة، وكما ذكرنا في التفسير المكانة أي: ما كنتم عليه، وهي بمعنى: الحالة في كلام المُفسِّر ﴿إني عامل﴾ [على حالتي] من أين فهم أن التقدير: على حالتي؟ لأنها مقابل لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: إني عاملٌ على مكانتي.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يقول: [﴿مَن﴾ موصولة مفعول العلم] أين العلم؟ لو قال المؤلف: مفعول تعلمون لكان أوضح؛ لأن الذي في الآية ليس المصدر، ولكنه الفعل، وكان عليه أن يقول: مفعول تعلمون.

وقوله: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إذا كانت مَنْ موصولة فجملة ﴿يَأْتِيهِ﴾ لا محل لها من الإعراب: صلة الموصول ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ماذا قلنا في عذاب؟ عقوبة، وجملة ﴿يُخْزِيهِ﴾ صفةٌ لعذاب، وليست جوابًا لمن؛ لأن مَنْ اسم موصول لا تحتاج إلى جواب ﴿وَيَحِلُّ﴾ [ينزل] ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [دائمٌ، وهو عذابُ النار، وقد أخزاهم الله ببدر].

يعني: أن أكبر ذلٍّ حصل لقريش ما حصل في بدر؛ لأن الله سبحانه وتعالى جمع زعماءهم وكبراءهم وأشرافهم حتى خرجوا في ذلك اليوم، وقُتِل هؤلاء الكبراء والأشراف، قُتِلوا، وسُحِبوا، وأُلقوا في قليب من قُلُبِ بدر، قليبًا خبيثة مُنتنة، فكان جزاؤهم - والعياذ بالله - هذا الجزاء، وهذا من أعظم الخزي، حتى وقف النبي ﷺ عليهم يُوبِّخُهم، ويُندِّمُهم، ويقول: يا فلان ابن فلان، بأسمائهم وأسماء آبائهم، «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، فقالوا: يا رسول الله ! ما تُكلِّمُ من أناس جيَّفوا؟ كيف تُكلِّم جِيَفًا؟ قال: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا

أَقْوَلُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الجَوَابَ»[1]، وصدق الرسول ﷺ، هم يسمعون كلام الرسول، ولا يزيدهم هذا الكلام إلا حسرةً وندامةً، ولهذا قال أحدهم لعبد الله بن مسعود - وهو أبو جهل - حين جاء إليه وفيه رَمَقٌ من حياته، قال له: من أنت؟ قال: ابنُ مسعود، قال: لقد ارتقيتَ مُرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم، كيف تطلع على رأس شريف من أشراف قريش، ثم قال: لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [مُتعلِّقٌ بـ (أنزل)]، لماذا لم يقل: بأنزلنا؟ لأن العامل هو الفعل، ونا اسم الفاعلين مبني على السكون، وهذا تعليم من المؤلف لكم، إذا أردتم أن تقولوا: هذا مُتعلِّق، فلا تذكروا إلا العامل فقط، لا تذكروا الفاعل معه، ولا المفعول إن كان المفعول متصلًا به، ونحن في الحقيقة في إعرابنا للقرآن نتجاوز، نقول في مثل هذا: متعلق بأنزلنا، وهذا غير مُحرَّر، الصواب: أن تقول: متعلق بأنزل، الذي هو العامل فقط، دون ما اتصل به من فاعل أو مفعول.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [اهتداؤه] ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [فتُجبِرهم على الهدى]، وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ الرسول ﷺ ليس بجابرٍ لهم على الاهتداء، وليس بمُوكَّلٍ بهم يحافظُهم ويحافظ عليهم.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٣٩].

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي لمن معه الحق أن يكون قويًّا مُتحديًا لخصمه، فلا يقف موقف الضعف، من قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ يعني: ولا تهمونني.

٢ ـ **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ، فإن الله أمره بذلك تبشيرًا له وتسليةً، بأنه ستكون العاقبة له.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا بأس بإقرار الكفار على كفرهم تهديدًا، وهذا أسلوبٌ مُتَّبعٌ حتى في تأديب الوالد ابنَه، ماذا يقول له إذا خالف؟ يقول له: استمر على معصيتي، استمر في اللعب، لا تحضر للضيوف مثلًا، ماذا يقصد؟ يقصد التهديد.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى يريد من نبيِّه أن يكون عاليًا على قومه، يتكلَّم معهم من عُلوٍّ، وذلك بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ وهذا يُشبه التحدِّي لهم، أنِّي لا يهمني أن تعملوا ما علمتم، فإني سوف أعمل ما يضاد ذلك.

٥ ـ **ومن فوائدها:** تهديد أولئك المُكذِّبين للنبي ﷺ، وأنهم سوف يعملون من هو أحق بالعذاب، ومن يأتيه العذاب.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣)، وأحمد في مسنده (١٢٠٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن عذاب الكفر عذابٌ مُخزٍ، عارٌ في الآخرة، وذُلٌّ في الدنيا والآخرة - والعياذ بالله -، لقوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن عذاب أهل النار مقيم، لا ينفك عنهم.

ويتفرَّع على هذه الآية الكريمة: ما دَلَّ عليه القرآن والسنة من أن أهل النار مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنها لا تفنى، وأن القول بفنائها قولٌ ضعيف؛ بل باطل لمخالفته للكتاب والسنة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن القرآن كلام الله؛ لأن الله أنزله، وهو كلامه، ليس ذاتًا مُعيَّنةً؛ كالحديد الذي قال الله فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكالمواشي قال فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، فالقرآن كلامٌ، فإذا كان كلامًا فإنه لا يكون مخلوقًا؛ لأن الكلام صفة المتكلم، والمُتكلِّم به هو الله، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثباتُ عُلوِّ الله، من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ والإنزالُ لا يكون إلاَّ من عُلوٍّ، وهذا هو الذي دلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

فالكتاب: دلالته على علو الله متنوعة بأنواع كثيرة.

والسنة: كذلك، اتفقت السنة القولية، والفعلية، والإقرارية على أن الله تعالى عالٍ فوق خلقه.

والإجماع: فقد أجمع السلف على ذلك، ما منهم من أحد قال بخلافه أبدًا، والقاعدة في هذا: أنه إذا دلَّ الكتاب والسنة على شيء، ولم يُعلَم أن أحدًا من السلف؛ الصحابة والتابعين قال بخلافه، فإنهم لا يقولون بسواه، وهذه فائدة مهمة؛ لأنه قد يقول قائل: أين الدليل على أن الصحابة يَرون أن الله استوى على العرش؛ أي: علا عليه؟ هل أحد فسَّره بذلك؟ فماذا نقول؟ نقول: مادام القرآن قال به، ولم يرِد عنهم خلافه، فهُمْ قد قالوا به؛ لأنهم هم يأخذون بدلالة القرآن التي أُمِروا أن يأخذوا بها، إذن نأخذ من هذا إجماع الصحابة على علو الله، وكذلك التابعون لهم بإحسان، والأئمة من بعدهم، لم يأتِ حرفٌ واحدٌ عن أحدٍ منهم أنه قال بخلاف ذلك.

والأدلة العقلية على وجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يقال: العُلو إما صفة نقصٍ أو كمال، ولا أحد يشكُّ أنه صفة كمال، فوجب ثُبوته لله عز وجل؛ لأن الرب قد وجبت له صفات الكمال عقلًا.

وأما الفطرة: فإن الناس مفطورون على أنهم إذا سألوا الله شيئًا إنما ترتفع قلوبهم نحو السماء،

وهذا أمر لا يُنكِرُه أحد.

٣ ـ **ومن فوائدها:** فضيلة رسول الله ﷺ؛ حيث كان إنزال هذا القرآن العظيم عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن القرآن نزل لمصلحة الخلق، لقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، فالقرآن لم ينزل ضد مصالح الخلق؛ بل نزل لمصالح الخلق، ولهذا قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** عموم رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لقومك مثلًا، للناس عمومًا.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن القرآن نزل بالحق، على وجهي التفسير اللذَيْن سبقا، وهو أنه هو حقٌّ، وآتٍ بالحقِّ، حقٌّ فيما جاء به؛ حيث كانت أحكامه عدلًا، وأخباره صدقًا، وهو نفسه حقٌّ ليس بباطل.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن حجة، لقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الناس ينقسمون نحو هذا القرآن إلى مُهتدٍ وضالٍّ، لقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمله، ووجه ذلك: أنه أضاف الاهتداء والضلال إلى العبد، فدلَّ هذا على أنه فعله الذي اختاره.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** شُؤْمُ المعاصي وأنها تكون على العبد لا له.

١١ ـ **ومن فوائدها:** بركةُ الاهتداء، وأنه كسبٌ للعبد، لقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** تسليةُ النبي ﷺ إذا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من الناس، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فالله وحده هو الوكيل عليهم، أما أنت فأنت مُبلِّغ، فإذا قمتَ بواجب البلاغ، فالحساب على الله.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** الردُّ على من تعلَّقوا بالنبي ﷺ خوفًا ورجاءً ورغبةً ورهبةً، حتى صاروا يدعونه من دون الله، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الداعي المُبلِّغ لشريعة الله إذا بَلَّغَ على الوجه الذي أُمِر به فقد برئت ذمته، ولا يلزمه شيء وراء ذلك، وجه الدلالة منها: أنه إذا كان إمام الداعين المُبلِّغين محمد ﷺ ليس وكيلًا على الناس، ولا حفيظًا عليهم، فمَنْ دونه من باب أولى.

قال الله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٤٢].

التفسير

﴿ اللَّهُ ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَتَوَفَّى﴾ خبره، والتوفِّي بمعنى: القبض، كما يقال: توفَّى الرجل حقَّه من غريمِهِ؛ أي: قبَضَه منه، والأنفس: جمع نفس، وهي: الأرواح التي بها تحيا الأجسام، والنفس تُطلَق في القرآن على معانٍ متعددة، منها: أنها الروح التي بها حياة الإنسان، فهو يقبض الأرواح حين موتها؛ أي: حين الموت، وهو: مفارقة الروح للبدن المفارقة التي تزول بها الحياة.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ الواو حرف عطف، والتي معطوفة على الأنفس؛ يعني: ويتوفَّى التي لم تمتْ، ويمكن أن تقول: الواو حرف عطف، والتي صفة لمعطوف على ما سبق، وتقديره: والأنفس التي لم تمت، أو أن تعطف الصفة رأسًا على ما سبق، وتقول: التي لم تمتْ عطفٌ على ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾، والتي لم تمت يتوفَّاها في منامها؛ أي: يقبضها، لكنه ليس قبضًا تامًّا؛ بل قبضٌ مُقيَّد، ولهذا تجد النائم له إحساسٌ من وجهٍ، وليس له إحساس من وجهٍ آخر، فباعتبار القوى الظاهرة لا إحساس له، لا يرى ولا يسمع، وباعتبار القوى الباطنة، وأنه لو نُبِّه لانتبه، يكون حيًّا، فصِلَةُ الروح بالنائم غير صِلَتها باليقظان، وغير صِلَتها بالميت، فهي وسط بين الحيِّ اليقظان وبين الميت.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وقد سمَّى الله النوم وفاةً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٦٠] ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ فلا ترجع إلى جسدها، يُمسِكها إلى أن يأتي البعث، وقوله: ﴿قَضَى﴾ أي: حكم، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] أي: حكم ألَّا تعبدوا إلا إياه، والقضاء هنا قضاءٌ كونيٌّ، وأقول: قضاءٌ كونيٌّ؛ لأن قضاء الله ينقسم إلى قسمين: شرعي وكوني، فالشرعي ما أَمَر به؛ مثل قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ومثل قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠] أي: يحكم به، والقضاء الكوني؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٤] فإن الله لا يقضي بالفساد في الأرض قضاءً شرعيًّا، إنما هو قضاءٌ كونيٌّ.

وهنا يقول: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ قضاءً كونيًا ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي التي توفَّاها في منامها يُرسِلُها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى أجل معين، ما هو الأجل المسمى؟ هو الموت؛ يعني: يُرسِلُها تذهب إلى جسدها وتبقى فيه إلى أجل مسمى؛ أي: مُعيَّن محدد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: الوفاة للنفسَيْن، والإرسال لإحداهما وإمساك الأخرى فيه آياتٌ، والآيات التي معنا واضحة جدًا أربعة: وفاة الموت، وفاة النوم، إمساك الميتة، إرسال النائمة، كلها من آيات الله عز وجل، وإنك لَتأتي إلى القوم جماعة نائمين، فتقول: سبحان الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قومٌ كأنَّهم جُثَث لا يسمعون، اللهم إلا من كان خفيف النوم لكن الأصل أنهم جُثَث، فتقول: سبحان الذي أماتهم ثم أحياهم، بعد أن كانوا شبه أموات، فهي آيات، وهي آيةٌ أيضًا على البعث، فإن الموت وفاة صغرى يبعث الله فيه النائم حتى يحيا يستيقظ تمامًا، كذلك الإحياء بعد الموت بأمر الله - عزَّ وجلَّ - وهو قادرٌ عليه، والعاقل يقيس الغائب على الشاهد، والمستقبل على الحاضر، ويتبيَّن له الأمر.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التفكُّر: إعمال الفكر؛ بحيث يدور كارًّا وراجعًا، يمينًا وشمالًا، حتى يتبيَّن له ما يتبيَّن بالتفكُّر، وضد التفكُّر: الغفلة، وأن يكون القلب حجرًا أملسًا لا يقَرُّ عليه شيء، لو قرَّ عليه حبة من تراب أطارتها الرياح، وجَرَتْ بها المياه، فالإنسان المُتفكِّر هو الذي ليس بغافل؛ بل يُديرُ فكره يمينًا وشمالًا، ذاهبًا وراجعًا، حتى يتبيَّن له الأمر.

يقول المُفسِّر رحمه الله: [﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ويتوفى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾] قدَّر الفعل بعد حرف العطف إشارةً إلى أنَّه معطوفٌ على ما كان هذا عامِلُه، وما الذي هذا عامله؟ الأنفس، ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: يتوفَّاها وقت النوم، فيتبيَّن بهذا أن النوم وفاة.

قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [أي: وقت موتها] هذا الأجل المسمى، [والمُرسَلة نفس التمييز تبقى بدونها نفس الحياة، بخلاف العكس] كأنَّ المؤلف يقول: إن الأنفس نوعان: نفس تمييز، ونفس حياة، نفس التمييز هي: المُرسَلة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وتبقى بدونها الحياة، فالنائم في حياة ما في شك، فنفس التمييز تبقى بعدها الحياة، والعكس لا، ولهذا قال: [بخلاف العكس] فإن نفس الحياة إذا قُبِضَت لا تبقى بعدها نفسُ التمييز، فأفادنا رحمه الله أن الأنفس في قوله: ﴿ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أنفس الحياة، ويتبعها أنفس التمييز، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أنفس التمييز.

قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [المذكور] ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ [دلالات] ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [فيعلمون أن القادر على ذلك قادرٌ على البعث، وقريشٌ لم يتفكَّروا في ذلك]، في هذا المذكور آيات، ونحن ذكرنا

أربعًا ظاهرة، ولو تأمَّلنا لوجَدنا أكثر من ذلك بكثير، ولكنها تحتاج إلى تفكير، وتدبُّر، وتأمُّل فتتضح.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيانُ قوة سلطان الله - عزَّ وجلَّ - وعمومه، من كونه يتصرَّف هذا التصرُّف حتى في الأنفس، يتوفَّاها جميعًا، ويُرسِل هذه، ويُمسِك هذه، وهذا دليلٌ على كمال المُلْك والسلطان.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المُتوفِّي للأنفس حين موتها هو الله عز وجل، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أليس هذا هو الوقع؟ نعم، هذا هو ما تدلُّ عليه الآية، ولكن هذه الدلالة ربما يُعارِضُها بعض الآيات، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فنجِد في آية الزمر أضافَ الوفاةَ إلى نفسه عز وجل، وفي آية: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة إلى ملك الموت، وفي سورة الأنعام إلى الرُّسُل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ فكيف نجمع بين هذه الآيات؟

الجواب على ذلك: أن نقول: يجب أن نعلم قاعدة مهمة جدًّا: هو أنه لا يمكن أن يتعارَض دليلان قطعيان أبدًا، لا من القرآن، ولا من السنة، ولا من العقل؛ لأنهما لو تَعارَضَا لكان أحدهما ثابتًا، والآخر مُنتفيًا، وإذا قلنا: الآخر منتفيًا زال عنه اسمُ القطعيِّ، وهذه القاعدة تُفيدُك في مسائل كثيرة؛ فمثلًا: لو قال لك قائل: القرآن يدل على كذا، ثم ثبت حِسًّا أن الأمر الواقع على خلاف هذا المدلول، الأمر الحِسِّي تكذيبُهُ غير ممكن، لكن نقول: إن فهمَكَ للقرآن هذا خطأ، فمثلًا: لو قال: ليست الأرض كروية، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠] واعتقاد أنها كروية يُكذِّب دلالة الآية، القرآن قطعيُّ الثبوت؛ يعني: ثابت قطعًا ما فيه إشكال، والله يقول: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وكروية الأرض حِسًّا ثابتةٌ أم لا؟ قطعًا، أم غير قطع؟ كروية الأرض ثابتة قطعًا لا شك، حِسًّا، الآن لو تقوم طائرة من مطار جدة مُتجهة نحو الغرب على خط مستقيم، رجعت إلى مطارها لا يرُدُّها شيء، إذن فهي كروية لا إشكال فيها، الآية لفظُها قطعيٌّ ثابتٌ، لكن دلالتها على أنها سطحٌ واحدٌ ما هو صريحٌ، ليست صريحة، وإذا لم تكن الدلالة صريحة فهي غيرُ قطعية، وحينئذٍ نقول: التعارُض الآن بين مدلولٍ ظنِّيٍّ ومحسوسٍ قطعيٍّ، ما هو المدلول الظني؟ أن الآية تدل على أن الأرض سطح واحد، والمحسوس القطعي؟ أن الأرض كروية، نقول: الحمد لله، التعارُض الآن بين الظني والقطعي، وإذا تعارض ظنِّيٌّ وقطعيٌّ يُقدَّم القطعي، ونقول: سطح الأرض باعتبار القطعة المواجهة، أو الجانب المواجه من الأرض سطحيٌّ، لكن على البُعد يكون فيه انحناء، والدليل على ذلك: أنه لو كانت سفينة تسيرُ في البحر ولها أعمدة طويلة،

إذا ابتعدت عنك كُلَّما ابتعدت اختفت وغابت، ما الذي يُغيِّبها؟ لأن الأرض مستديرة فتغيب، لو كانت سطحًا لكنتَ تراها حتى كَفَرَاتها إن كان لها كفرات، تراها من بُعْد كما تراها من قُرْبٍ على السطح، والأمر ظاهر ما فيه إشكال.

الخلاصة: لا يمكن أن يتعارَض دليلان قطعيان في الثبوت والدلالة، ولا يمكن أن يتعارض قطعيٌّ وظنيٌّ، يبقى الآن: التعارُض بين الظنيِّ والظنيِّ، وإذا وُجِد تعارُض بين ظنِّيَّين فحينئذٍ اطلب الترجيح، أو إذا كان نسخ اعمل بالنسخ، وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه العظيم: «درء تعارض العقل والنقل»، وهذا الكتاب أثنى عليه ابن القيم رحمه الله في «النونية»، فقال:

وله كتابُ: «العقل والنقل» الذي ... ما في الوجود له نظيرٌ ثانِ [1]

يعني: مما ردَّ به على الفلاسفة، هذا الكتاب ذكر فيه هذه القاعدة المفيدة: التعارُض بين قطعيَّين مُحال؛ لماذا؟ لأنه لو حصل تعارُض لكان أحدهما غير قطعيٍّ ما يمكن، ثانيًا: التعارُض بين الظني والقطعي محال، وارد لكن لا مقاومة؛ بمعنى: أن نُسقِط التعارض، ونقول: الحكم للقطعي، التعارُض بين الظنِّيَّين واقع، ويجب النظر إليه، والعمل بالترجيح، أو العمل بالنسخ إذا كان مما يمكن نسخه.

نحن الآن نتكلَّم على الجمع بين الوفاة المُضافة إلى الله، والوفاة المضافة إلى الرسل، والمضافة إلى ملك الموت، نقول: لا تعارض، الدلالة تختلف؛ ففي هذه الآية آية الزمر أضاف الله الوفاة إليه؛ لأنها بأمره، وقد يُضافُ الشيء إلى آخر لوقوعه بأمره، كما تقول: بنى الملك قصرًا، فهل رأيت يعمل بيديه في الأسمنت والرمل، وغير ذلك؟ الجواب: لا، ولكنه أمَرَ، ومنه: المثل المشهور في البلاغة بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، هل عمرو بن العاص بناها بيده؟ لا، أَمَرَ، إذن فإضافة الوفاة إلى الله؛ لأنها بأمره.

بقي عندنا الآن إضافتها إلى ملك الموت وإلى الرسل، والجمعُ: أن نقول: إما أن الرسل يُرادُ بهم الجنس، ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ يعني: ملك الموت؛ لأن ملك الموت رسول، ومنه الحديث: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ»، أو نقول: إن وفاة ملك الموت غير وفاة الرسل، وذلك لما جاء في الحديث: من أن ملك الموت يجلس إلى المحتضر، ويأمر روحه أن تخرج، فيأخذها بيده، ثم يُسلِّمُها فورًا إلى الملائكة الذين نَزَلوا من السماء، معهم الحنوط والكفن المناسب لها، إن كانت مؤمنة، - وأسأل الله أن يجعل روحي وأرواحكم مؤمنة -، فإنها تُجعَل في الكفن الذي من الجنة، والحنوط الذي من الجنة، وإن كانت الأخرى، فكفنٌ من نار، وحنوطٌ من نار - نعوذ بالله من ذلك -، فوضعها في هذا الكفن، والصعود بها إلى السماء تتولَّاه الملائكة، ولهذا قال: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا

---

(١) متن القصيدة النونية (ص٢٣٠).

يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢] تحملها إلى الله عز وجل، إن كانت مؤمنة تجاوزت السماوات إلى الله؛ لأن الله غاية نفس المؤمن في الحياة وبعد المات، المؤمن قلبُهُ ونفسُه مُعلَّق بالله عز وجل، دائمًا ينظر إلى الله - عزَّ وجلَّ - بعين البصيرة، إن قام فبالله، ولله، وفي الله، وإن قعد فبالله، ولله، وفي الله، وكذلك إن ذهب وجاء فهو لله، وبالله، وفي الله، والتفريق بين الكلمات الثلاث: لله: الإخلاص، بالله: الاستعانة، في الله: في شرعه وحكمه، وانظر إلى الفاتحة تضمَّنت الثلاث بالتسلسل، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا إخلاص، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بالله، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الله، الشرع، أن نكون في الصراط المستقيم لا نتجاوزه.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى يتوفَّى الأنفس حين موتها، وقد ذكرنا أن ظاهر الآية معارض لآيتين في كتاب الله، هما: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] وبيَّنَّا وجه الجمع بين هذه الآيات الثلاث، فقلنا: إضافة الوفاة إلى الله؛ لأنه هو الآمر بها، والآمِرُ بالشيء ينسب الشيء إليه، وأما الجمع بين قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١] فمن أحد وجهين:

إما أن يكون المراد بالرسل: الجنس، ويكون واحدًا، وهو ملك الموت.

أو أن ملك الموت يقبضها من الجسد، ثم يُسلِّمُها للملائكة الذين حضروا، فيقبضونها.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النوم يسمى وفاة، لقوله تعالى: ﴿مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠].

٣ - **ومن فوائدها:** أن الوقت يذهب سريعًا بالنسبة للأموات ولو طالت الأيام والدهور؛ لأننا إذا قِسْنا الوفاة الصغرى، أو إذا نظرنا الوفاة الصغرى وسرعة ذهاب الوقت فيها فالوفاة الكبرى من باب أولَى.

ولكن لا شك أن من كان يُعذَّب في قبره فسوف يستطيل الوقت، ومن كان يُنعَّم، فسوف يكون الوقت في حقِّه قصيرًا، ومع ذلك فإن المُنعَّم يقول: يا ربِّ ! أقِمِ الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، والمُعذَّب يقول: ربِّ ! لا تُقِم الساعة[1]؛ وذلك لأنه يرى أن عذاب القبر أهون من عذاب

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده (١٨٥٥٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وصححه الألباني في

يوم القيامة - نسأل الله العافية -.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن النائم لا يُؤاخَذ بعمله، لا لَهُ، ولا عليه؛ لأن الله لما سمَّى النومَ وفاةً فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ»(١)، وعلى هذا فلو رأى النائم أنه يُصلِّي؛ فهل يُكتب له أجر الصلاة؟ لا، ولو رأى أنه يقتل لم يُكتَب عليه إثم القتل؛ لأنه غير مُكلَّف.

٥ ـ **ومن فوائدها:** وصفُ الله بالإرسال والإمساك، يُمسِك ويُرسِل، وقد بيَّنَّا فيما سبق أن صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تنقسم أقسامًا: أحدها: ما عُلِم من أسمائه، كالمغفرة من الغفور، والرحمة من الرحيم، والثاني: ما نُصَّ عليه بذاته وليس من الأسماء؛ مثل: الاستواء على العرش، هذا صفة له لكن ليس من أسمائه، صفة وليس من أسماء الله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ومثل: الصُّنع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، والفعل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وما أشبهها، ومنها: ما يُخبَر به عنه وإن لم يُذكَر في الكتاب والسنة، لكن يُخبَر به عنه، هذا أيضًا يقول العلماء: ينقسم إلى قسمين: قسم لا يليق بالله، فهذا لا يجوز الخبر به عنه، وقسمٌ لا يُنافي كمالَه، فهذا لا بأس به؛ لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء؛ فمثلًا: لو قال قائل: إن الله مُريد، قلنا: نعم، لك أن تصِفَ الله به، أولًا: لأن الله وصف نفسه بالإرادة في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس:٨٢]، وثانيًا: أن الإرادة وصف لا ينافي كمال الله تعالى.

٦ ـ **ومن فوائدها:** كمال أفعال الله؛ حيث إنها تكون مُنتظمة مُحددة، لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن أن يُخلَّد أحد في الدنيا، لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُحدَّد، لا إلى شيء لا غاية له.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا الحاصل من الوفاتَيْن فيه آياتٌ تدلُّ على كمال الله، وكمال وحدانيته، وكمال سلطانه، وكمال تدبيره، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** الحثُّ على التفكُّر، وأنه مِفتاحُ العلم، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والتفكُّر إنما يكون في آيات الله، ومعاني أسمائه وصفاته، أما في حقيقة الصفات، أو في حقيقة الذات فلا تفكُّر، ولهذا يُروَى: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ» أي: نِعَمِه «وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ» وذلك لأن التفكُّر في ذات الله يؤدي إلى غياهب من الظلم، ويؤدي أحيانًا إلى التشكيك، وأحيانًا إلى التعطيل، وهذا هو الذي ضرَّ أهل التعطيل، التفكُّر في الذات، الذات لا يمكن الإحاطة بها،

صحيح الجامع (١٦٧٦).

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، والترمذى (١٣٧٦)، والنسائى (٣٦٥١)، والدارمى (٥٥٩)، وابن خزيمة فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وما لا يمكن الإحاطة به فالتفكُّر فيه مضيعة للوقت، وهو في جانب الربوبية خطير على عقيدة الإنسان، فأنت تفكَّر في آيات الله، في أسمائه، في صفاته من حيث المعنى، أما في نفس الذات العليَّة ما تستطيع، ماذا تتصوَّر؟ ولهذا يجب الإعراض عن هذه المسألة.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣].

❁ التفسير ❁

أم هنا منقطعة، ولهذا تُقدَّر بـ (بل) والهمزة؛ أي: أنها بمعنى: بل والهمزة، وقولنا: منقطعة يفيد أن هناك مقابلًا لهذا المعنى، وهو كذلك، والمُقابِل لهذا المعنى: أن تكون مُتَّصلة، وحينئذٍ نحتاجُ إلى الفرق بين المنقطعة والمتصلة، والفرق بينهما من وجهين:

أم تأتي في اللغة على وجهين متصلة ومنقطعة، والمنقطعة لا معادل فيها؛ بمعنى: أنه لا يُذكَر فيها معادل، بخلاف أم المتصلة، فإنها تحتاج إلى معادل، فقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذه مُتصَّلة لذكر المُعادِل، ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذه منقطعة؛ لأنه لم يُذكَر فيها المعادل فتكون منقطعة.

الفرق الثاني بينهما: أن أم المتصلة بمعنى: أو، وأم المنقطعة بمعنى: بل والهمزة، وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لو جُعِل بعدها أو لكان هذا هو المعنى، أنذرتهم أو لم تُنذِرهم، المنقطعة بمعنى: بل والهمزة، وليست بمعنى: أو، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر:٤٣] ماذا تكون؟ تكون منقطعة، أولًا: لأنه لم يُذكَر المعادل، والثاني: لأنها تُقدَّر بـ (بل) والهمزة.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: سواه، دون؛ بمعنى: سوى، لا بمعنى: دون الرتبة؛ بل دون سوى، من دون الله؛ أي: من سوى الله، واتخذ هنا تنصِب مفعولَيْن: الأول: شفعاء، والثاني: من دون؛ يعني: اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء، ويجوز أن نقول: إن المفعول الأول محذوف تقديره: آلهة، والثاني: شفعاء؛ يعني: أنهم اتَّخذوا معبودات يعبدونها يدَّعون أنها شفعاء لهم عند الله، قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فصرَّحُوا بأنهم يعبدون هذه الآلهة، ولكنهم يريدون أن تكون مُقرِّبةً لهم من الله عز وجل، سبحان الله ! كيف تتَّخِذ بمن عَصَيتَ الله

فيهم وسيلة ليقربوك إلى الله، وهذا من سفههم.

وقوله: ﴿شُفَعَآءَ﴾ [عند الله بزعمهم]، والشفعاء جمع شفيع، والشفيع: من يتوسَّط لغيره بجلب منفعة، أو دفع مضَرَّة، فالشفاعة لأهل الموقع إذا أصابهم الهم والغم أن يقضي الله بينهم من باب دفع المضرَّة، والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوها من باب جلب المنفعة، ولا شك أنها خير ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ إلا في بعض المواطن؛ كالشفاعة في الحد بعد أن يصِل إلى السلطان، فإن من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره، وإذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافعَ والمُشفَّع له، هؤلاء الجماعة الذين يعبدون أصنام يقولون: إنها شفعاء.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: أتتخذونهم شفعاء، وهم لا يملكون شيئًا لا شفاعة ولا غير شفاعة، وهنا قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ وشيئًا نكرة في سياق النفي، فتكون للعموم، وكان مُقتضى السياق أن يقول: أولو كانوا لا يملكون الشفاعة، ولكنه أتى بالعموم ليدلَّ على أن هذه الأصنام لا تُفيد شيئًا أبدًا، لا تشفع ولا تدفع، وهي قد سَلَبَت الشفاعة لدخولها في العموم، يعني: لا يملكون الشفاعة ولا غيرها، وهنا ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ فيها حرف عطف بعد الهمزة، إذا جاء حرف العطف بعد همزة الاستفهام فماذا يقول علماء النحو في إعرابها؟ إن حرف العطف عاطفٌ على ما سبق، أو تكون الهمزة في مكانها وحرف العطف على شيءٍ مُقدَّر يُناسب المقام، وذكرنا أن الثاني رأي البصريين، والأول رأي الكوفيين، وذكرنا القول بأن حرف العطف عاطف على ما سبق أولَى؛ لأنه يكفيكَ التقدير، ولأنه أحيانًا لا يستطيع الإنسان أن يُقدِّر الشيء المناسب، فإذا قال: الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، وما بعدها معطوف على ما سبق استراح، وهنا ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ على رأي من يرى أن حرف العطف على مُقدَّر؟ تقول: أيَتَّخِذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون، على الرأي الثاني يقول: الواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق من الجملة.

وقوله: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: لا يعقلون أنكم تعبدونها، فالأصنام أحجار لا تدرك، ولا يعقلون أيضًا شيئًا من الشفاعة يدخلون منه، فهم جهلة في حالكم، وجهلة فيما تستحقون.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

❁ التفسير ❁

﴿قُل﴾ الخطاب لمن؟ للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتّى خطابه، ويصح، وهذا الأخير أعمُّ من الأول؛ لأنه يشمل النبي ﷺ وغيره، يقول: قل أيها المخاطب، الأهل للخطاب ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جملة خبرية تفيد الحصر، وطريقهُ: أن الخبر تقدَّم وحقُّهُ التأخير، وكل تقديمٍ لما حقُّهُ التأخير يفيد الحصر، لله الشفاعة لا لغيره، فهو الذي يملكها، واللام في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ للمُلك؛ يعني: هو الذي يملك الشفاعة؛ أي: يملك أن يأذن فيها.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن للشفاعة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: إذنُهُ، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الشرط الثاني: رِضَاه عن الشافع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

الشرط الثالث: رضاه عن المشفوع له، لقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وهذه تكون أيضًا دليلًا على أنه يشترط رضا الله عن الشافع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

فشروط قبول الله الشفاعة ثلاثة، الآن لو أقول: يا رسول الله ! اشفع لي عند الله، هل يجوز؟ لا يجوز؛ لأنه لا يملك ذلك، هو لا يشفع لك ولا لغيرك إلا بإذن الله، ومن ذلك: ما يفعله بعض الإخوان المجاهدين في أفغانستان يقول الواحد منهم للثاني: اشفع لي عند الله؛ لأن المجاهد له شفاعة إذا قُتِل شهيدًا، فتجد بعض أقاربه، أو بعض أصحابه يقول: اشفع لي عند الله، هذا لا يجوز؛ لأنه سأله ما لا يملكه، إذا قال: اشفع لي، الشفاعة لمن؟ لله، قل: اللهم شفِّعْه فيَّ، لا بأس، اسأل الشفاعة ممن يملك الشفاعة، أما ممن لا يملك فلا تسأل، هذا سؤال في غير محلِّهِ، فالشفاعة إذن لله، وإذا كانت لله فلا تُسأل إلا من الله.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جميعًا حال من الشفاعة، فما معنى الجمع هنا؛ هل الشفاعة متعددة؟ الجواب: نعم، شفاعة الدنيا، شفاعة الآخرة، شفاعة في جلب نفع، شفاعة في دفع ضرر، فلا شفاعة إلا لله عز وجل، كل الشفاعات تكون لله، الشفاعة في الدنيا كأن يدعو

الإنسان لشخص، إذا دعا الإنسان لشخص فهذه شفاعة، قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(١)، فدعاءُ الإنسان لأخيه شفاعة له عند الله، هذه الشفاعة في الدنيا، الشفاعة في الآخرة معروفة، الشفاعة في الآخرة، أو الشفاعة العُظمى، وهذه لرسول الله ﷺ، ولا تكون لأحدٍ سواه، وما هي الشفاعة العظمى؟

هي: أن الناس في ذلك المحشر حفاة، عراة، غُرْل، شاخصة أبصارهم، أفئدتهم هواء، الشمس تدنو منهم قدر مِيْل، العرق يُلجِمُ بعضهم، لا يلوي أحدٌ على أحد، ولا يستغيث أحدٌ بأحد، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار، فيلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيقول بعضهم لبعض: انظروا من يشفع لنا إلى الله لنستريح من هذا الموقف، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ولا يحصلون على شيء، ثم يأتون إلى محمد ﷺ يطلبون منه الشفاعة فلا يشفع، يستأذن من الله أولًا؛ لأن الملك عظيم، والسلطان تام، يسأل الله أن يأذن له في الشفاعة، فيأذن له، ثم يسجد عليه الصلاة والسلام تحت العرش سجودًا طويلًا طويلًا طويلًا، يفتح الله عليه فيه من المحامد ما لم يكن يعرفه من قبل، ثم يشفع إلى الله أن يقضي بين الخلق ويُريحَهم من هذا الموقف، فيقبلُ الله شفاعته(٢)، هذه الشفاعة تُسمَّى: الشفاعة العظمى، لعمومها، وشدة الحاجة إليها، ولا تكون إلا للرسول ﷺ، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ لأن هذا المقام يحمَدُه فيه الأولون والآخِرون، الذين من أمته والذين من غير أمته، وفيه شفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وفيمن استحقها ألَّا يدخلها.

هذه الشفاعة نوعان: شفاعة لمن دخلها ليخرج منها، وفيمن استحقها ألَّا يدخلها، وهذه عامة للرسل، والصِّدِّيقين، والشهداء، والصالحين، والملائكة، والبشر عامة، لكن يُنكِرُها طائفتان من طوائف الضلال من هذه الأمة، هما: المعتزلة والخوارج؛ لماذا؟ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مُخلَّد في النار محكوم عليه بذلك قضاءً وقدرًا، وإذا كان كذلك فلن يتخلَّف هذا القضاء، ولا يمكن أن يخرجوا من النار.

الشفاعة الرابعة: في دخول الجنة، إذا عَبَرَ الناس الصراط - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يعبره سليمًا -، إذا عَبَروا الصراط لا يدخلون الجنة مباشرة؛ بل يُوقَفون عند قنطرة، وهي طرف الجسر الذي على النار، أو غيرها - الله أعلم - فيُقتصُّ لبعضهم من بعض، وهذا قصاص تنقية، والقصاص السابق في عرصات يوم القيامة قصاص تخلية؛ يعني: في عرصات يوم القيامة يُقتصُّ بالعدل من الظالم للمظلوم، أما هذا فهو قصاص تنقية، حتى يزول ما في قلوبهم من غِلٍّ وحقدٍ؛

---

(١) رواه مسلم (٩٤٨)، وأحمد في مسنده (٢٥٠٩) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأنه ليس القضاء للشخص بحقه مُزيلًا للحقد والبغضاء، القضاء للإنسان حقه هل يُزيل ما في قلبه من عداوة وبغضاء؟ نعم، وربما قد أقول: أنا اعتدَى عليَّ، وأخذتُ حقِّي الآن منه، لكن بقي أثر هذا العدوان في قلبي، أليس كذلك؟ هذا موجود، لكن الموفَّق يسعى في زواله، إنما لابد أن يبقى، أثر الجرح لابد أن يبقى حتى لو برأ، هل إذا بَرِئَ الجرح يعود الشيء كما كان؟ يصير فيه بُقْعة، لابد أن يُؤثِّر العدوان ولو اقتصَّ الإنسان لنفسه من قلب الإنسان.

فهُم إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض في عرصات القيامة، وعَبَروا الصراط يحتاجون إلى تنقية، تُنقَّى وتُصفَّى قلوبهم، حتى يدخلوا الجنة وما في قلوبهم من غل، على أكمل وجه، إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض، أيضًا لا يدخلون الجنة مباشرة، يجدون الجنة مغلقة الأبواب، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ شفاعة خاصة، هذه خاصة بالرسول ﷺ، لكن ليست عظمى، ما هي كبرى؛ لأنها لأهل الجنة خاصة، فيشفع أن تُفتَح أبواب الجنة فيؤذَن له، فتُفتَح أبواب الجنة، وأول من يدخلها هو عليه الصلاة والسلام، أول من يدخل الجنة من الخلائق هو، وأول من يدخلها من الأمم أمتُه بعد الأنبياء مباشرة، النبيُّون أولًا، ثم الأمم، قائد النبيين محمد ﷺ، قائدُ الأمم هذه الأمة؛ لأن هذه الأمة - ولله الحمد - مُتأخِّرة في الزمن في الدنيا، لكنها سابقة في كل المواقف في الآخرة، قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيَامَةِ»(1) ففي كل العرصات - ولله الحمد - نحن السابقون، في العبور على الصراط، في القضاء بين الناس، في دخول الجنة، في كل شيء، السابقون يوم القيامة في كل شيء، يدخلون الجنة، وتأمَّل هذا في كتاب الله عز وجل، قال الله في أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وهم كارهون لها، من حين أن يصلوا إليها تُفتَح الأبواب، دعُّوهم دعًّا، الجنة لا، قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، فأفاد قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ أن هناك شيئًا بين مجيئهم وبين الفتح، ولقد أخطأ من قال من أهل العلم: إن الواو هنا زائدة، وأن التقدير: حتى إذا جاءوها فُتِحَت أبوابها، فنقول: سبحان الله ! أنتم أعلم بكلام الله من الله؟ الله - عزَّ وجلَّ - يُفرِّق؛ في النار يقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ﴾، وفي الجنة يقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ﴾، وأنتم تقولون: هذه الواو زائدة، هذا خطير، وكذلك أخطر ممن قال: إن الواو للثمانية، الواو واو الثمانية، وادَّعى أن في اللغة واوًا تُسمَّى: واو الثمانية، وهذه دعوى باطلة، قال: لا، عندي دليل، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم:٥] الواو واو الثمانية، من قال هذا؟ قل: جاء زيد وبكر، الواو؟ واو الاثنين، وخالد واو الثلاثة، من قال لك هذا؟ فالصواب: أن الواو هنا عاطفة، وأن المعطوف عليه محذوف بيَّنت هذا المعطوف عليه السنةُ، وعلى هذا فيكون للرسول ﷺ شفاعتان خاصَّتان: الشفاعة العظمى، والشفاعةُ في دخول الجنة.

---

(١) رواه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك أيضًا شفاعة خاصة به لم تكن لغيره، وهي: شفاعته في عمِّهِ أبي طالب الذي مات على الشرك والكفر - والعياذ بالله - وهو في النار، لكن الله أذِنَ لنبيِّه ﷺ أن يشفع فيه، فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وهو أهون أهل النار عذابًا، إذن الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ هو الذي يُعطِيها لمن يشاء، ويمنعها ممن يشاء، وقد بيَّن أن الشروط: الإذن، ورضاه عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له.

قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الجملة فيها حصر، وهو تقديم ما حقُّهُ التأخير، فهنا قدَّم الخبر ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: لا لغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يشمل ملك الذوات؛ أي: مُلك ذات السماوات والأرض، ومُلك التصرُّف فيها، يتصرَّف فيهما كما يشاء، فهو الذي أوجدهما، وهو الذي يُمسِكُهما أن تزولا، وهو الذي يُدبِّر ما فيهما، وهو الذي يُتلِفُهما، ويُفنِيهما عند قيام الساعة.

فلله مُلك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا وتصرُّفًا، وكل شيء يئُول إليه سبحانه وتعالى، وهذه الآلهة لا تملك شيئًا من ذلك، إذن ملك السماوات؛ أي: مُلك الذوات والتصرُّف كما يشاء، ثم نُفصِّل فنقول: خلقهما أولًا، وأمسكهما أن تزولا، ويطوي السماء كطيِّ السجل للكتب، ويقبض الأراضين يوم القيامة، فكل هذه من جملة تصرُّفاته في هذه المملوكات، مُلك السماوات والأرض، وإذا كان له مُلك السماوات والأرض فلا أحد يشفع إلا بإذنه، ولا أحد يستحق العبادة إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متى؟ يوم القيامة، نرجع إلى الله - عزَّ وجلَّ - فيُحاسِبُنا على حسب أعمالنا، والله تعالى قد بيَّن لنا ووضَّح، وأقام الحجة، وبيَّن أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وأن السيئة بمثلها، وبيَّن الأشياء التي تُعتَبر حسنات حتى نعمَلَها، وتُعتَبر سيئات حتى نتجنَّبها، وحينئذٍ يكون رجوعنا إليه - عزَّ وجلَّ - رجوعًا عن بصيرة، لا حجة لنا في مخالفته.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الإنكار على الذين يعبدون الأصنام، الإنكار على من عبد الأصنام واتخذها شفعاء، من أين نأخذ الإنكار؟ من الهمزة التي تضمنتها أم؛ لأن أم بمعنى: بل والهمزة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الخطأ الفظيع الذي ارتكبه هؤلاء المشركين؛ حيث عَبَدوا

الأصنام، وظنُّوها شفعاء، مع أنَّها لا تزيدهم من الله إلا بُعْدًا.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إقامة الحجة العقلية في مجادلة الخصم، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾، فإذا كانوا لا يملكون شيئًا فكيف تتخذونهم شفعاء تعبدونهم من دون الله.

واعلم أن الأدلة العقلية نحتاج إليها حاجةً ماسَّة إذا ضعُف الإيمان، كلما ضعُفَ الإيمان احتجْنا إلى الأدلة العقلية؛ وذلك لأن المؤمن يكفيه النقل، يكفيه السمع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، واحتجَّت عائشة رضي الله عنها على التي سألتها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة[1]، فإذا قوِيَ الإيمان كفى الاستدلال بالسنة والقرآن، وإذا ضعُفَ الإيمان فلابد من استعمال الدليل العقلي المُقنِع، ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز يحتجُّ كثيرًا بالأمور العقلية الحِسِّية على المعاني التي يريد ـ عزَّ وجلَّ ـ تقريرها وإثباتها؛ كإحياء الموتى، وما أشبه ذلك، ونحن الآن في زمنِ الإيمانُ فيه ضعيف، والجدل فيه كثير، نحتاج إلى فهم الأدلة العقلية، حتى نتمكن من إقناع خصومنا، فكثيرٌ من الناس لو أُتِي بكل آيةٍ ما تبعها، فإذا أُتِي بدليل عقلي اقتنع به، هذا واحد.

وأيضًا فإن أعداء الإسلام والمسلمين يتحيَّنون الفُرَص في إدحاض حُجَج المسلمين، فتجدهم في كل مجلس يتكلمون في أشياء يُشبِّهون بها على الشباب المسلم، فإذا لم يكن لدى الإنسان حُجَّة عقلية تدحضُ حُجَّته، فإنه ربما ينقطع ويظهر ذلك الخصمُ الألدُّ عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

فأنا أحُثُّكم على أن تتَّخِذوا من الأدلة العقلية ما يُنجِّيكم من خصم أولئك الألداء، حتى تخصموهم، وتحاجُّوهم، وتغلبوهم الحُجَّة، وها هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام حاجَّ قومَه بالعقل، بماذا؟ لما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبًا، قال: هذا ربي، فأَفَلَ الكوكب وغاب، قال: لا أحب الآفِلِين، لا أحب إلهًا يغيب عني، ولا يعلم بحالي، فلما رأى القمر بازغًا قال: هذا ربي، فلما أَفَلَ أقام الحجة على ضلال من عبَدَ الكواكب، قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وكذلك احتجَّ على الذي حاجَّه، ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، إلى أن قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، إلى غير ذلك، فنحن في حاجةِ اليوم إلى إعمال عقولنا في الأدلة العقلية حتى نحتجَّ بها على من ضعُف إيمانه

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٦٣١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

بالأدلة السمعية، أو على من فُقِد إيمانه بالأدلة السمعية.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الأصنام لا تملك شيئًا لعابِدِيها؛ لا جلب نفع، ولا دفع ضرر، فإن قال قائل: إن من الناس من يدعو الصنم فيُستَجَاب له، كما نسمع عن ذلك كثيرًا؛ فكيف الجواب عن هذه الآية؟ الجواب: أن كلام الله حقٌّ وصدق مُطابقٌ للواقع تمامًا، وقد بيَّن الله في آية أخرى أنه لا أحد أضلُّ عقلًا ولا أسفه طريقًا ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥- ٦]، لكن ما حَصَلَ من مثل هذه الأمور من كون الرجل دعا وليًّا، أو صاحب قبر، أو ما شابه ذلك فزال عنه ضُرُّه، فإنما هو امتحان من الله عز وجل، حصل عند الشيء لا بالشيء؛ فمثلًا: لو أن رجلًا دعا قبرًا وكُشِف عنه الضُّرُّ، هل نقول: إن صاحب القبر هو الذي كشفه؟ لا أبدًا، نجزم مثل الشمس أن صاحب القبر لم ينفعه، ولكن ابتلى الله عابد ذلك القبر بأن حصل الشيء عنده، لا به، وفرق بين الشيء الذي يحصل بالشيء، والشيء الذي يحصل عند الشيء، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد يبتلي الإنسان بمثل هذا، قد يُيسِّر له أسباب المعصية والشرك ابتلاءً وامتحانًا، أرأيتم أصحاب رسول الله ﷺ حين حرَّم الله عليهم الصيدَ في حال الإحرام، ابتلاهم الله بصيدٍ تنالُهُ أيديهم ورماحُهُم، الطائر ينالُهُ الرمح، والساعي العادي تنالُهُ الأيدي؛ يعني: الظباء والأرانب وما أشبهها يمسكونها بأيدهم، والطيور برماحهم لا بسهامهم، ما يحتاجون إلى سهام، ابتلاهم الله بذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب، فقد يبتلي الله العبد بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه وتعالى هل يصبر أو يُقدِم؛ لأن بعض الناس قد يُخفَّف عليه ترك المعصية صعوبتُها عليه، تحتاج إلى عمل، تحتاج إلى مال، لكن إذا سهُلَت، ثم تركها عُلِمَ أن الرجل صادق في إيمانه، إذن فهمنا الجواب على قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ما وقع مما يُظَنُّ أنه بسبب هذه الآلهة فقد حصل عندها لا بها.

٥ ـ **ومن فوائدها**: انتفاء العقل عن هذه المعبودات، وهذا فيمن يعبُد من لا عقل له؛ كالأصنام والأشجار، لقوله: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وعليه إذا قيَّدنا المسألة بمن يعبد الأصنام والأشجار وما أشبهها، لا يرِدُ علينا أن قومًا عَبَدوا المسيح، والمسيح عليه السلام من أكمل الناس عقلًا؛ لأنه أحدُ أولي العزم من الرسل، لكن نقول: يريد الله بهذه الأصنام: الجماد التي لا تعقل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: إثبات الشفاعة ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ووجه إثباتها: أنه لولا وجودها ما صحَّ أن يقول: لله الشفاعة جميعًا.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الرد على المعتزلة والخوارج؛ لأن المعتزلة والخوارج يُنكِرون الشفاعة في أهل الكبائر، سواء دخلوا النار، أم لم يدخلوها؛ وذلك لأن أهل الكبائر عند المعتزلة والخوارج مُخلَّدون في النار، لكنهم عند الخوارج: الكفار، وعند المعتزلة: لا مؤمنون ولا كافرون، في منزلة بين منزلتين.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات شفاعات متعددة، لقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ لأن جميعًا تقتضي أن يكون هناك شيء مجموع.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا أحد يشفع إلا بإذن الله، وجهه: أنه إذا كانت الشفاعة خاصَّة بالله، فإنها لا تكون إلا منه وإليه.

٥ ـ **ومن فوائدها:** إثباتُ مُلك الله للسماوات والأرض، وانفرادُه بالملك، لقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** إثبات البعث والرجوع إلى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** الإنذار والبشارة، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن المؤمن يُسرُّ بلقاء الله بلا شك، ويُحبُّ لقاء الله، والكافر بالعكس، قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»(1) فإذا علِمنَا أننا نرجع إلى الله، فإننا نُحبُّ لقاء الله، والكافر يكره لقاء الله.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى يذكُر الشيء مُنذِرًا بلازمه؛ لأن مُجرَّد الرجوع ليس فيه شيء يُذكَر، ولكن المراد: الرجوع الذي يحصل به الحساب والجزاء.

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾.

قال: ﴿أَمِ﴾ [بل] ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ لكننا لا نقرأ اتخذوا بهمزة القطع؛ لأنها ليست همزة قطع، لكن لو كان التركيب في غير القرآن لقلنا: بل أَتَّخذوا من دونه، وإذا قلنا: أَتَّخذوا سيسأل سائل: أين ذهبت همزة الوصل في اتخذوا؟ نقول: لأنه لما دخلت همزة القطع على الفعل استغنَينا بها عن همزة الوصل؛ لأن همزة الوصل إنما يُؤتَى بها لسهولة البدء بالساكن، فإذا لم نبدأ به وبدأنا بهمزة قطع، استغنينا عنها وحذفناها، اقرأ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، هذه أصلها: اصطفى دخلت عليها الهمزة، لما دخلت عليها همزة الاستفهام صِرْنا في غِنىً عن همزة الوصل؛ لأن همزة الوصل يُؤتَى بها للضرورة، ولهذا سُمِّيت همزة وصل، يُؤتَى بها للضرورة لئلا نبدأ بالساكن، فإذا زالت الضرورة هذه سقطت.

قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أي: الأصنام آلهةً] ﴿شُفَعَآءَ﴾ [عند الله بزعمهم] يعني: هم صيَّروا هذه الأصنام آلهةً تشفعُ لهم عند الله، وقول المؤلف: [بزعمهم] يعني: لا بحسب الواقع؛

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

لأن هذه الأصنام لا تشفع لهم؛ بل إنه في يوم القيامة يكفُرُ من اتُّخِذ إلهًا مع الله يكفر بعبادة من عَبَدَه، من قوله: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ بل حتى الذين اتخذوا غير الرسل اتخذوهم متبوعين من أهل الضلال يتبرَّءون منهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ سبحان الله ! في القرآن كُفْر من جُعِلوا شركاء في الرسالة، وكُفْر من جُعِلوا شركاء في العبادة؛ لأن كلًّا منهم لم يُحقِّق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، الذين اتخذوا شركاء في العبادة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، والذين اتخذوا شركاء في الرسالة ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ لأن المُعارضين لأقوال الرسل بأقوالهم قد أشركوا مع الرسل في الرسالة، من الذي يجب اتباعه من البشر؟ الرسل، فإذا جعل هذا الرجل متبوعه بمنزلة الرسول ﷺ يأخذ بقوله فعلًا، وتركًا، وتصديقًا، فقد جَعَلَه رسولًا.

ولهذا بعض العلماء يقول: إن التوحيد نوعان: توحيد عبادة، وتوحيد رسالة، توحيد العبادة: فيما يتعلَّق بحق الله، توحيد رسالة: فيما يتعلَّق بحق الرسول ﷺ، والله تعالى يقرن بين هذا وهذا في القرآن ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٦٩] فالحاصل أن هؤلاء الذين اتخذوا شفعاء قد ضلُّوا ضلالًا مبينًا؛ لأنها لا تنفعهم.

﴿قُلۡ﴾ [لهم أيشفعون] ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ المؤلف رحمه الله مشى في هذا التفسير على أحد الرأيَيْن المشهورين فيما إذا دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف، ما هما؟ فيه وجهان: الوجه الأول: أن يكون العطف على ما سبق، وعلى هذا يكون تقدير الهمزة بعد حرف العطف، والوجه الثاني: أن العطف على جملة مُقدَّرة، ويكون تقديرها حسب السياق، المؤلف مشى على الأول أو على الثاني؟ مشى على الثاني؛ لأنه قدَّر المعطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف، [أيشفعون] ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [من الشفاعة وغيرها] ﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [أنكم تعبدونهم ولا غير ذلك؟] الجواب: [لا]، هذه لا تشفع؛ لأنها لا تعقل ولا تملك، فهي لا تعقل عبادة من عبَدَها، ولا تملك له شيئًا لا شفاعة ولا غيرها.

ثم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [أي: هو مُختصٌّ بها] من أين أخذ [هو مُختصٌّ بها فلا يشفع أحدٌ إلا بإذنه] وهذا أحدُ شرطَي الشفاعة، والثاني: رضا الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ذكر عموم ملكه، وانفراده بالملك بعد ذكر الشفاعة؛ لأن الشفاعة من الملك في الواقع، فهي داخلة في عموم ملك الله للسماوات والأرض.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

التفسير

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ يعني: أُثنِيَ عليه بالذكر، والإخلاص، وأنه الرب المعبود، وأن غيره لا يستحق العبادة، إذا ذُكِر على هذا الوجه ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: نفرت من هذا وكرِهَته؛ لأنها لا تريد هذا، تريد أن تكون آلهتها مساوية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا ذُكِر الذين من دونه، وهي: الأصنام وأُثنِيَ عليها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هذه فُجائية، أُجيبَ بها الشرط؛ لأن الشرط يُقرَن أحيانًا بالفاء وأحيانًا بـ (إذا)، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: فهُمْ، فجواب الشرط هنا قُرِن بـ (إذا) الفُجائية؛ لأنه جملة اسمية، وتأمَّل قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حيث جاءت بالجملة الاسمية إشارة إلى دوام استبشارهم، وثبوته، ورسوخه في أنفسهم، والله أعلم.

الفوائد:

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في بيان حال هؤلاء الكفار المكذبين: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** شدة كراهة هؤلاء لذكر الله وتوحيده، لقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان متى وجد اشمئزازًا من شريعة الله، فإن فيه شَبَهًا من هؤلاء، وإن كان لا يُشابِهُهم من كل وجه، لكن يكون فيه شَبَهٌ منهم.

٣ ـ **ومن فوائدها:** شدةُ تعلُّق هؤلاء بأصنامهم؛ حيث يكرهون ما يُضادُّها من التوحيد، وإذا ذُكِرت هذه الأصنام استبشروا.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان قد يستبشر بالسوء وما يخالف الفطرة، وذلك من قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

❁ التفسير ❁

﴿ٱللَّهُمَّ﴾ هذه مُنادى حُذِفَت منها ياء النداء وعُوِّضت عنها الميم، وعُوِّضَت الميم؛ لأنها دالة على الجمع، كأن الإنسان جمع قلبه على ربه عز وجل، وأُخِّرت تيمُّنًا بالبداءة بسم الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فنقول: (الله) منادى مبنيٌّ على الضم في محل نصب.

وقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فاطر الشيء؛ أي: مُبدِعُه على غير مثال سبق؛ يعني: مُبدِعُه مُنشِئُه لأول مرة يُسمَّى هذا فطرًا، ومنه: فطر البئر إذا حفره لأول مرة، والسماوات والأرض هذه مرت علينا كثيرًا، وذكرنا ما يتعلَّق بالجمع بالنسبة للسماوات والإفراد بالنسبة للأرض.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فاطر وعالم كلها صفة للمنادى في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ولكنها نُصِبَت؛ لأنها مضافة، ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: ما غاب، والشهادة: ما شُوهِد وحضر، فالله سبحانه عالم الغيب كله، وعالم الشهادة كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

واعلم أن الغيبوبة تكون كلية، وتكون نسبية، فالله تعالى عالم الغيب كليةً ونسبيةً أيضًا، بخلاف البشر، فإن البشر لا يعلم الغيب؛ أي: ما غاب عنه سواء كليًا أم نسبيًا، ولذلك لا تعلم ما وراء هذا الجدار، ولا تعلم ما في ضمير غيرك، ولا تعلم المستقبل؛ بل وتنسى ما مضى، أما الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعتريه شيء من هذا النقصان.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ أي: تفصل بينهم بالحكم، وذلك يوم القيامة حين يتحاجُّ الناس عند ربهم، يختصمون، وقد بيَّن الله تعالى نتيجة هذه الخصومة بأن الخاصِمَ هم المؤمنون؛ حيث قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ إذن فالخاصِمُ الغالبُ هم المؤمنون، إذا لم يكن سبيل للكافرين عليهم، فهم الخاسرون بلا شك.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يشمل الحكم في الدنيا والحكم في الآخرة، أما الحكم في الدنيا فإن المرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما في الآخرة فالمرجع إلى الله عز وجل، يحكم بينهم حكمًا جزائيًا، كل بما يستحق.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ المراد بالعبودية هنا: العامة، فيشمل: العبد المؤمن والعبد

الكافر، وقد قسَّمَ العلماء رحمهم الله العبودية إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعبودية العامة: هي التعبُّد للقَدَر؛ أي: أنها تتعلَّق بالأمر القدري، كل من في السماوات والأرض عبدٌ لله بهذا المعنى، لا يمكن أن يتخلَّف عما قضى الله عليه، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وهذه عبودية تتعلَّق بالقدر والقضاء، فهي كونية في الحقيقة، والثانية: عبودية خاصة، وهي: التعبُّد لله تعالى بشرعه، وهذه خاصة بالمؤمنين الذين يتعبَّدون لله بشرعه، وهذه الخاصة أيضًا فيها عبادةٌ أخصُّ، وهي: عبادة النبوة والرسالة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ومثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1]، والأمثلة كثيرة.

ما هي محطُّ المدح من هذه الأقسام؛ الخاصة أم العامة؟ الخاصة، أما العامة فلا يُمدَح الإنسان فيها؛ لأنها بغير اختياره، هو ذليلٌ لله، مُتعبِّدٌ لله شاء أم أبى.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في الذي يختلفون فيه، وقد جاءت الآية هكذا ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] فيشمل ما يختلفون فيه من أمور الدين وأمور الدنيا أيضًا، كل ذلك سوف يحكم الله به بحكمه العدل الذي ليس فيه حَيْفٌ على أحد.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

لو شرطية، وقد يقول قائل: أين فعل الشرط؟ والجواب: أن نقول: هو مُقدَّر؛ أي: ولو ثبت أن الذين ظلموا، وأما الجواب: فقوله: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ولو تأتي شرطية، وتأتي مصدرية، مثل: قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] أي: ودُّوا إدهانك فيُدهِنُون.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ إذن أنَّ وما دخلت عليه في تأويل المصدر فاعلٌ لفعل

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الشرط المحذوف؛ أي: ولو ثبت أن للذين ظلموا ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ المراد بالظلم هنا: الكفر، والظلم في الأصل: هو النقص، لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص منه شيئًا، والظلم ينقسم إلى قسمين: ظلم أكبر، وهو ظلم الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وظلم أصغر، وهو ما دون ذلك؛ كظلم الإنسان لغيره في ماله، وأهله، وما أشبه ذلك، ما المراد بالظلم هنا؛ الأصغر أو الأكبر؟ المراد: الأكبر، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ و(ما) اسمٌ موصول؛ أي: الذي، ما محلها من الإعراب؟ اسم إن مُؤخَّر.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾، قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صلة الموصول، والمعروف أن صلة الموصول لا تكون إلا جملة، فكيف نجعل هذا صلةً للموصول وليس بجملة؟ والجواب: أن نقول: هذا شِبهُ جُملةٍ، وهو مُتعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: ما استقرَّ في الأرض.

وقوله: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميعًا: حال من (ما) يعني: حال كونه جميعًا مجموعًا لهم، ومثله معه؛ أي: مثل ما في الأرض جميعًا من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لافتدوا به؛ أي: دفعوه فداءً يفدون به أنفسهم من عذاب الله عز وجل، ولكن متى يكون هذا؟ يكون هذا يوم القيامة، يتمنَّى هؤلاء أن يكون لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه ليدفعوا عنهم العذاب، ولكن لا يحصل، وقد طُلِبَ منهم في الدنيا ما هو أهون من ذلك، ما الذي طُلِبَ منهم؟ أن يعبُدُوا الله وحده لا شريك له، وأن يقوموا بشريعته، وهو سهلٌ، ولكنهم - والعياذ بالله - استكبروا.

وقوله: ﴿بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: من العذاب السيئ الذي ليس له نظير في الدنيا، ولا يمكن أن يضبطه الذهن بتخيل؛ لأنه كما أن في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[1] من النعيم، فكذلك ما في النار من العذاب.

وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هو الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة:

أولًا: أن الناس يقومون فيه لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والثاني: أنه يُقامُ فيه العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء:٤٧].

وثالثًا: أنه يقومُ فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥٥] هذا هو يوم القيامة سمي بذلك لهذه الأمور الثلاثة.

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم من عند الله - عزَّ وجلَّ - ما لم يكن في حسبانهم، ولا خطر على بالهم أنهم يجدون هذا العذاب، ظنُّوا أن الأمر هيِّن، ظنُّوا أن الأصنام تشفع لهم، وظنُّوا ظنونًا كثيرة، ولكن لم تنفعهم هذه الظنون، ظهر لهم شيء لم يحتسبوه أبدًا.

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سوء ما كسبوا من الأعمال، وهم لم يكسَبوا إلا الشر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ما كانوا به يستهزئون؛ أي: ما كانوا يستهزئون به في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يقولون: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ إلا أنه في ذلك الوقت لا ينفعهم، كانوا في الدنيا يستهزئون، ويسخَرون من الرسل، ومن الذين آمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢] سبحان الله ! هذه الآيات تنطبقُ تمامًا على وقتنا كما انطبقت على ما قبل، كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وهذا هو الواقع، تجد هؤلاء الفَسَقَة والمجرمين إذا مرَّ بهم المؤمن التقيُّ جعلوا يضحكون، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ هل إذا مرَّ المؤمنون بالمجرمين، أو المجرمون بالمؤمنين؟ كلاهما، يتغامزون: يغمز بعضهم بعضًا، ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ يعني: يرجعون إلى أهلهم فكِهين؛ أي: مَرِحِين مُتفكِّهين بما قالوا في هؤلاء المؤمنين، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ الفاعل في ﴿رَأَوْهُمْ﴾: المجرمون، إذا رأى الذين أجرموا هؤلاء المجرمين، ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ تائهون، وهذا هو الواقع حتى في الوقت الحاضر، إذا رأوا المُتديِّن قالوا: هذا مُتخلِّف، هذا رجعيٌّ، أو هذا أصولي؛ يعني: مُتشدِّدًا، وما أشبه ذلك، ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ في يوم القيامة تحصل الضحكة من المؤمنين على الكافرين، وهذه الضحكة ليس بعدها بكاء، أما ضحكة أولئك فبعدها البكاء، والألم، والحسرة، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ ينظرون ما أنعم الله به عليهم وينظرون ما عذَّب الله به هؤلاء، ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فهؤلاء المجرمون يبدو لهم يوم القيامة ما كانوا يستهزئون به من شريعة الله، وجزاء الله، وما أشبه ذلك، وقد كانوا يسخرون بالرسول ﷺ، وبما وعد به من النعيم، وبما وعد به من العذاب، ويقولون: يا محمد ! إن كنتَ صادقًا أننا سنَلقَى هذا فليكن لك أنت فجِّر الأرض ينابيع، اجعل مزارع نخيلًا، وما أشبه ذلك.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [أي: دون آلهتهم] ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ اشمأزَّت يقول: [نَفَرت وانقبَضت]، فتنفر ولا تقبل الحق، وتنقبض ولا

تنشرح للحق، ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُقِرُّون بها، ولا يعترفون بها؛ لأنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ولو أنهم آمنوا بالآخرة وعملوا لها، لكانوا إذا ذُكِر الله وحده استبشروا وفرحوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ [أي: الأصنام] ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، إذا ذُكِرَت الأصنام بالثناء والمدح استبشروا.

ولهذا يُروَى عن النبي ﷺ، أنه قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩- ٢٠] (تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتَهُنَّ لتُرتَجى)[1] ألقاها الشيطان في قراءة النبي ﷺ، ولم يتلُها الرسول ﷺ، لكن الشيطان أسمعَ قُريشًا هذا القول، يقولون: إنهم سجدوا مع النبي ﷺ لما أنهى السورة وسجد؛ لأنهم قالوا: الآن رجع إلينا، أو على الأقل داهَنَّا؛ لأنه أثنى على أصنامنا، فسجدوا معه، وهذه القصة مشهورة، واختلف المُفسِّرون فيها، فمنهم من أنكرها إنكارًا عظيمًا، ومنهم من حسَّنها، وقال: إنها لا تنافي العصمة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، أي: في قراءته، ليس هو الذي يلقي، الشيطان يلقي، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ينسخه؛ يعني: يُبيِّن بطلانه، وأنه لا حقيقة له، ثم يقول مُعلِّلًا ذلك: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فعلى كل حال إن صحَّت القصة فإنها لا تنافي العصمة؛ لأن الذي أثنى على هذه الأصنام: الشيطان، لكن ظنَّ هؤلاء الذين سمعوه أنها قراءة النبي ﷺ، وإذا لم تصحَّ فلا إشكال.

لكن إذا قال قائل: إذا لم تصح؛ فكيف سجد المشركون مع النبي ﷺ حين قال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾؟ والجواب عن ذلك: أن نقول: إن آخر آيات هذه السورة تأخذ باللُّبِّ والفؤاد، حتى إن الإنسان لينفعل من غير أن يشعر، فهؤلاء المشركون انفعلوا من شدة ما سمعوا حتى لم يشعروا بأنفسهم إلا وهم ساجدون، هذا هو الجواب إذا لم تصح القصة.

يقول عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ [بمعنى: يا الله] فالميم عِوَض عن ياء النداء ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [مُبدِعهما] ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [ما غاب وما شُوهِد] ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى

---

(١) انظر الرد على هذه القصة وإبطالها كتاب (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) لمحدث العصر محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى.

﴿مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في مفصولة عن (ما)، القاعدة أخيرًا أنها مفصولة، لكن لعل القاعدة التي عليها المُفسِّر هي في المصحف الأول؛ يعني: في القاعدة الأولى.

وقد اختلف العلماء: هل تجوز مخالفة القاعدة العثمانية؟ على أقوال ثلاثة: الجواز، والمنع، والتفصيل، التفصيل بين أن يُكتَب للصبي وأن يُكتَب للبالغ، فالصبيُّ يُكتَب له على حسب ما يعرفه من القواعد؛ لأنه لو كُتِب له على القواعد العثمانية لحرَّف، لو كُتِبَت الصلاة بالواو، والزكاة بالواو، وما كان ممدودًا؛ أي: بألف حُذِفَت الألف منه؛ مثل: الرحمن، وما أشبهها، لو كُتِبَ له ذلك لحرَّف لقال: إن الصَّلَوْت، إن الزَّكَوْت، وما أشبهها، أما إذا كان لبالغ عاقلٍ يعرف فيُكتَب بالرسم العثماني، والصحيح: أنه لا يجب التقيُّد بالرسم؛ وذلك لأن القرآن لم ينزل على هذا الرسم، لو نزل بهذا الرسم - كما كُتِبَت التوراة ونزلت مكتوبة - لقلنا: لا يجوز مخالفته، لكنه نزل قولًا، وصادف أن القاعدة في ذلك الوقت حين كتابته كانت على هذا الوجه، ولو كانت الكتابة على غير هذا الوجه لكُتِب بها مخالفًا لهذا الوجه، فالمسألة اصطلاحية؛ يعني: أن القرآن لم ينزل على هذا، صحيحٌ أنَّا قد نقول: ينبغي تأدُّبًا أن يُكتَب القرآن بالقاعدة العثمانية احترامًا وتعظيمًا لما كتبه الصحابة رضي الله عنهم، أما أن نقول هذا على سبيل الوجوب والإلزام، ونقول: إنه لا يجوز أن تكتُب على السبورة آية من كتاب الله على حسب القاعدة المعروفة المألوفة فهذا فيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [من أمر الدين، اهدِني لما اختُلِفَ فيه من الحق] [1] ولكن هذا التقدير فيه نظر؛ لأن المراد بالآية: تفويضُ الأمر إلى الله عز وجل، وشِكَايةُ هؤلاء إليه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وليس المقام مقام دعاء، وإنما كان النبي ﷺ، يقول هذا دعاءً في استفتاح صلاة الليل، والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** التوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى بأفعاله، لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والتوسُّل الجائز سبعة أنواع:

الأول: التوسُّل إلى الله بأسمائه.

والثاني: التوسُّل إلى الله بصفاته.

والثالث: التوسُّل إلى الله بأفعاله.

---

(١) كما روى مسلم (٧٧٠)، وأبوداود (٧٦٧)، والترمذى (٣٤٢٠)، والنسائى (١٦٢٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

والرابع: التوسُّل إلى الله بحال الدَّاعي.

والخامس: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء من تُرجَى إجابتُهُ.

والسادس: التوسُّل إلى الله بالعمل الصالح.

والسابع: التوسُّل إلى الله بالإيمان.

هذه كلها توسُّلات جائزة، فهنا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من باب التوسُّل إلى الله بأفعاله، أما التوسُّل الممنوع فهو التوسُّل إلى الله بما لم يجعله الله وسيلة؛ كالتوسُّل بجاه النبي ﷺ، والتوسُّل بالصالحين على وجهٍ غير مشروع، فالضابط للتوسُّل الممنوع: أن يتوسَّل إلى الله بما ليس بوسيلة.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن السماوات والأرض ليست قديمة أزلية؛ بل هي حادثة بعد أن لم تكن، خلافًا للفلاسفة الذين قالوا بِقِدَم العالم، أو الأفلاك.

٣ ـ **ومن فوائدها**: إثباتُ إحاطة علم الله بكل شيء، لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: تحذير المرء من المخالفة؛ لأنه إذا آمَنَ بأنه عالم الغيب والشهادة فسوف يحذَر؛ لأنه مهما عَمِل فالله تعالى عالمٌ به.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن الحكم لله وحده، لقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، ووجهُ الحصر: أنه وصف الحكم الصادر منه بأنه بين العباد، والعبدُ لا يُشارِكُ سيِّده في الحكم، وإلا فإنه ليس بين أيدينا طريقة من طرق الحصر المعروفة، ولكنه حصرٌ استفدناه من المعنى؛ إذ أن العبد لا يمكن أن يكون حاكمًا على سيده؛ بل السيد هو الحاكم.

٦ ـ **ومن فوائدها**: تسليةُ المؤمنين بكونِ الله تعالى يحكم بينهم فيما يختلفون فيه مع الكفار، وهنا نسأل: من الذي يكون محكومًا له ومحكومًا عليه؟ للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الظالمين لو بذلوا كل ما في الأرض ليفتدوا به لم ينفعهم، من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن جميع ما في الدنيا يرخُص عند العذاب حين يشاهده الظالم، لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: التحذيرُ من الظلم؛ لأن ذكر هذا يعني: التحذير من الظلم.

٤ ـ **ومن فوائدها**: إثبات القيامة والبعث، لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن العذاب الذي يقع بهؤلاء الظالمين لا يخطُرُ لهم على بال، لقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أن الجزاء من جنس العمل، لقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: إثباتُ الكسب للعبد، فيكون فيه ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمله، فنقول لهم: بل الإنسان غير مُجبَر، وعمله من كسبه.

٣ ـ **ومن فوائدها**: توبيخ هؤلاء المعذبين؛ حيث نزل بهم ما كانوا به يستهزئون، يقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، لأنهم كانوا في الدنيا يسخرون بمن جاء بهذا النبأ، ويقولون: إنه سحر فيُوبَّخون يوم القيامة، ويقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الاستهزاء بالله تعالى وآياته سببٌ للعذاب، وهو كفرٌ مُخرِجٌ عن الملة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] وعلى هذا فينبغي أن يُلحَق هذا بالنكاح، والطلاق، والرجعة، والعتق؛ لأن هَزْلَه جِدٌّ، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء أن من قال قولًا يستهزئ به في دين الله فإنه يكفر.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

❁ التفسير ❁

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ أي: أصابه، والمراد بالإنسان هنا: الجنس، وقيل: المراد به: الكافر، فأما من قال: المراد به: الجنس، وأنه شامل للمؤمن والكافر، قال: إن هذا هو طبيعة الإنسان، وأن المؤمن الذي يعترِفُ لله بالنعم ويشكرها هذا خارجٌ عن طبيعة الإنسان؛ يعني: أن الله منَّ عليه فخرج عن مقتضى طبيعة البشر، وأما من قال: إن المراد بالإنسان: الكافر، فيكون من باب العام الذي أُرِيد به الخاص؛ قال: لأن هذا الوصف المذكور لا يكون إلا من الكافر، هو الذي إذا مسَّه الضر رجع إلى الله، وإذا أعطاه النعمة بَطِرَ بها، وقال: ليس لأحدٍ عليَّ فيها فضل، وإنما ذلك على علم، وهذا الأخير أقرب؛ لأن المؤمن إذا خوَّلَه الله نعمة شكر، ولم يقل: أُوتِيتُه على علم.

يقول: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: سألنا أن نكشف ضره، ثم إذا كشفنا الضر ﴿خَوَّلْنَاهُ

نِعْمَةً مِّنَّا﴾ بزوال الضرر الذي حصل له ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: أُوتيتُ هذا الشيء على علم، وما المراد بالعلم هنا؟ هل المعنى: أُوتيتُه على علم من الله أني له أهلٌ، فأنا جديرٌ به، ومُستحقٌّ له، أو المعنى: على علمٍ مني بوجوه المكاسب؟ يشملُ الأمرين، فهو يقول: أُوتيته على علم؛ لأني أهل، وأوتيته أيضًا من كسبي، فيكون بذلك مانًّا على الله عز وجل، ويكون مُستبدًّا بنفسه، يجمع بين الأمرين: بين المنة، ويقول: ليس لله فضل، هو أعطاني ذلك فلأنه يعلم أني أهلٌ لذلك، والثاني: الاعتزاز بالنفس وعدمِ إرجاع الشيء إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: المقالة أو الحالة، يحتمل هذا وهذا، يحتمل أن الله - عزَّ وجلَّ - إذا أعطاه هذه النعم أعطاه إياها فتنةً له، ويحتمل أن هذه المقالة فتنةٌ له، ولكن المعنى الأول أقرب، أن الله تعالى يفتِنُ العبد بإزالة الضرر عنه، وحصول الخير والنعمة، وكم من إنسان افتُتِن بنعم الله عز وجل، فكان مُستقيمًا وبالنعمة ينحرف، وفي الحديث أن الله تعالى قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَغْنَيْتُهُ أَفْسَدَهُ الغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَو أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ»(١) فالله - عزَّ وجلَّ - على كل شيء قدير، وقد يختار لعبده ما هو أنفع من حيث لا يشعر، فالظاهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل هذه الحال فتنة وهي تحويل النعم، وقد قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا يعني: أن هؤلاء الذين أُمِروا بنعمة الله غفلوا عن المُنعِم بها، وعن مُسدِيها ومُولِيها، فكانوا لا يعلمون شكر هذا المُنعِم، وكانوا لا يعلمون أيضًا أنها فتنة؛ بل يأخذ الإنسان النعم على أنها أمر طبيعي، ويغفل عن أن الله تعالى يمتحنه بها.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠].

التفسير

﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير يعود على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل: قارون، قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال، وعزاه إلى (ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم وابن مردويه حل في الأسماء وابن عساكر عن أنس)، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ٤٤ و٤٥) وقال: وهو حديث لا يصح.

ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ما هذه نافية، وأغنى بمعنى: دفع، دفع عنهم ما كانوا يكسبون؛ أي: لن يُغني عنهم ما كسبوا شيئًا من عذاب الله، وهكذا النعم لا تغني من افتخر بها، وغفل بها عن طاعة الله شيئًا، ألم تروا إلى عادٍ استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة؛ لأن الله أعطاهم قوة عظيمة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وتأمَّلوا كيف عُذِّب هؤلاء بالريح وهي ألطف شيء، ألطف شيء هي الريح، فعُذِّبوا بها انتقامًا منهم حين قالوا: من أشد منا قوة؛ يعني: لم يُهلكوا بالصواعق، ولا بالحاصب من السماء، وإنما أُهلِكوا بهذه الريح اللطيفة، حتى إنهم لما رأوا ما جاءت به هذه الريح وحملته من الرمال، قالوا: هذا عارضٌ مُمطِرُنا، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥١، ٥٢].

❁ التَفسِير ❁

يعني: أصابهم جزاء السيئات، لكنه جعل الجزاء سمّاه سيئات؛ لأن السيئات سببه، وليتبيَّن بذلك أن الجزاء على قدر العمل لا يختلف، فكأنه هو نفس العمل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استئنافية، والذين مبتدأ، وجملة ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ خبره.

وقوله: ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ كما أصاب من قبلهم.

وقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ما نافية، وهل هي حجازية أو تميمية؟ الواقع أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا ولا على هذا، ولكن القرآن بلغة قريش، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وعلى هذا فتُحمَل ما كلما جاءت على أنها حِجازية، ولكن كيف نُعرِبُها في مثل هذا التركيب ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ نقول: هُمْ اسمها، والباء حرف جر زائد، ومعجزين خبرها منصوبٌ بياء مُقدَّرة محل الياء الموجودة؛ لأن الياء الموجودة علامة الجر، وليست علامة النصب،

علامة الجر بحرف الجر الزائد الباء، فجعلنا العمل للظاهر وهو الباء، أما المحل فقدَّرناهُ تقديرًا، وعلى هذا نقول: منصوب بياء مُقدَّرة بدل الياء التي عمل فيها حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ اسم فاعل من عجز أو من أعجز؟ من أعجز؛ يعني: لن يُعجِزوا الله - عزَّ وجلَّ - فلا يستطيع أن يعاقبهم؛ بل عقوبتهم أمر هين على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه إما أن يكون محذوفًا ويُقدَّر بما يناسب المقام، وإما أن يكون ما سبق، فإذا قلنا: إنه ما سبق كانت الهمزة في تقدير التأخير عن حرف العطف، والتقدير: وألم يعلموا، وإذا قلنا بالأول صارت الهمزة داخلةً على محذوف تقديره: أجَهِلوا ولم يعلموا.

وقوله: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ يبسط يعني: يُوسِّع، والرزق: العطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يوسِّعه له، امتحانًا لهذا الشخص الذي بُسِط له ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يعني: يُضيِّق امتحانًا أيضًا؛ لأن الضيق فيه امتحان، والسَّعَة فيها امتحان، لكن الغالب عند الناس في العُرْف أن الضيق يُسمَّى ابتلاءً؛ أي: بلاء، وأما التوسعة فهي امتحان، مع أن الابتلاء بمعنى: الامتحان، فإن الإنسان يُبتَلى فيما يُبتَلى به، يمتحنه الله - عزَّ وجلَّ - هل يصبر أو يتضجَّر، وأما ما ابتلى الله به من النعم، فهو هل يشكر أو يكفر.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه: البسط والتضييق ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: علامات على أن الله وحده هو المتصرِّف، ولهذا نجد بعض الناس يكون عنده حِذْقٌ في البيع والشراء وتحصيل المال، وعنده قدرة، وعنده قوة، ولكن يُضيَّق عليه، ونجد بعض الناس دون هذا؛ يعني: أنه لا يهتم بالأمور، وليس عنده ذاك الحِذْق فيُوسِّع الله عليه، وهذا يدلُّ على أن الله - عزَّ وجلَّ - هو المُتصرِّف في عباده؛ يُوسِّع على هذا، ويقدر على هذا، ولكن لا يعني هذا: أننا لا نفعل الأسباب.

يقول المؤلف: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ المُفسِّر لم يُفسِّرها، ولم يُبيِّن، ولكن بيَّنَّا نحن في التفسير أنها تحتمل الظلم الأكبر، وهو: الشرك، والأصغر، وهو: ما دونه، ولكن يظهر - والله أعلم - أن المراد بها: الأكبر.

وقوله: ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: ما في الأرض ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مضافًا إليه ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم﴾ [ظهر] لهم من الله ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [يظنون] والمؤلف رحمه الله الشيء الواضح لا يُفسِّره، ويقال: بدا، ويقال: بدأ، وبينهما فرق، بدا بمعنى: ظهر، بدأ بمعنى: ابتدأ، والمصدر في الأول بَدَا: بُدُوًّا، وفي الثاني: بدأ بدءًا.

يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ﴾ [نزل] ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [أي: العذاب] يعني: حاق بهم العذاب؛ يعني: نزل: بهم، وبدت لهم سيئاتهم وعرفوها، وكانوا يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قال تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] نعوذ بالله.

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ [الجنس] يعني المراد بالإنسان: الجنس، فيشمل المؤمن والكافر، ولكن تبيَّن مما تكلمنا فيه أن الظاهر أن المراد به: الكافر، فيكون عامًّا أُريدَ به الخاص، والعام الذي يُراد به الخاص موجود في اللغة العربية بكثرة، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فنحن نعلم أنه ليس كل الناس جاءوا يقولون؛ بل القائل واحد، وإن الناس قد جمعوا لكم، أيضًا نعلم أنه ليس جميع الناس جمعوا، وإنما المراد: واحد أو أناس مُعيَّنون، أما كل بني آدم لا، فالمراد بالإنسان هنا: الجنس، على كلام المؤلف، وعلى القول الذي اخترناه: الكافر.

قال: ﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ [أعطيناه] ﴿نِعْمَةً﴾ [إنعامًا] ﴿مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، قوله: ﴿خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً﴾ [إنعامًا] في هذا نظر؛ لأن الإنعام فعل المُنعِم، والنعمة عطاءُ المُنعِم؛ يعني: الشيء المُعطَى، وأيهما أليق؛ أن نُفسِّر النعمة بالإنعام، أو أن نُفسِّر النعمة بما أُعطِيَه الإنسان؟ الثاني هو الظاهر، وهو الواقع أيضًا؛ لأن التخويل يعني: أن هناك شيئًا مُخوَّلًا، وهو: النعمة من أولاد، ورزق، وزوجات، ومساكن، وغير هذا.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [أني له أهل] وهذا أحد القولين في الآية، والقول الثاني: على علم؛ أي: على حِذْق ومهارة فيما فعلتُ، والله أعلم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

قال: ﴿بَلْ هِيَ﴾ [أي: القَولة] ﴿فِتْنَةٌ﴾ [بليَّة يُبتَلى بها العبد] هذا ما جرى عليه المؤلف أن المراد بالفتنة: القولَة التي قالها، ولكن الصحيح: أن الفتنة هي النعمة التي أعطاها الله إياه، أو الحالة التي كان عليها، حينما كان قد مسَّهُ الضُّرُّ، ثم رفع الضر عنه وأُبدِل بنعمة، فهذه فتنة يفتن الله بها العباد، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أن التخويل استدراج وامتحان] أي: أكثر الناس، وإنما عاد الضمير - وهو غائب - على مرجع غير المذكور للقرينة والسياق، ويحتمل أن المراد بأكثرهم؛ أي: أكثر الإنسان؛ أي: بني الإنسان، فيكون الضمير هنا عاد على الإنسان باعتبار المعنى لا باعتبار اللفظ.

وقوله: [أن التخويل استدراج وامتحان] إذا قال قائل: بماذا نعلم أن التخويل استدراج وامتحان؟ فالجواب: نعلم ذلك بكون الإنسان مُصِرًّا على المعصية ونِعَم الله تعالى تترى عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] فهذه هي العلامة، إذا رأيتَ الله يُنعِم عليك وأنت مُقيمٌ على معصيته، فاعلم أن ذلك استدراج، أما إذا رأيتَ الله يُنعِمُ عليك وأنت قائمٌ بطاعته، فاعلم أن هذا من زيادة

فضله ونعمه، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [من الأمم؛ كقارون وقومه الراضين بها] أي: بهذه المقالة، ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قالوا بعد أن أعطاهم الله النعم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وهذا قد صرَّح الله به عن قارون في سورة القصص حين خرج على قومه في زينته، فنَصَحوه وقالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، فالمقالةُ هي المقالة، وقد سبق أن الإنسان يُعجَب بعمله فيظنُّ أن ما حصل له من النعم بسبب عمله، مع أنه من فضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ما هذه نافية وقد شرحناها فيما سبق.

قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [أي: جزاؤها] أي: السيئات، ولكنه عبَّر بالسيئات نفسها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وهو مُقابِلٌ لها لا يزيد ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [أي: قريش] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [بفائتين عذابنا، فقُحِطوا سبع سنين، ثم وُسِّع عليهم]، قُحِطوا سبع سنين بدعوة النبي ﷺ حين قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِيْنَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ»، فقُحِطُوا سبع سنين قَحطًا شديدًا حتى إن الإنسان منهم يتراءى السماء فيحول بينه وبينها غبشٌ كأنه دخان من شدة الجوع والتعب.

قال المؤلف: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ﴾ [يوسِّعه] ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [امتحانًا] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يُضيِّقه لمن يشاء ابتلاءً] والحقيقة أن التوسعة والتضييق كلاهما امتحان، وكلاهما ابتلاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، لكن مشى المؤلف على هذا من باب اختلاف التعبير، والمعنى واحد.

قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [به] أي: بهذا البسط والتضييق، فمن آمن بذلك؛ أي: بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وببسطه وتضييقه عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان يلجأ إلى الله تعالى عند الشدائد، وهذه طبيعة فِطريَّة لا يتخلَّف عنها إلا من نُكِس قلبه.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المشركين في زماننا الذين يدعون مع الله غيره أشد شركًا من السابقين؛ لأن السابقين يشركون في الرخاء، وإذا مسَّهم الضرُّ لجأوا إلى الله، أما اللاحقين فإنهم يشركون في حال الشدة كما يشركون في حال الرخاء، إذا أصابهم الضُّرُّ نادوا: يا فلان، يا فلان، هذا أشدُّ شركًا من الأولين، وهذا أيضًا مخالف للفطرة التي فُطِر الناس عليها؛ لأن الإنسان لا يلجأ عند الشدائد

إلا بمن يُؤمِن أنه يكشف هذه الشدائد.

٣- **ومن فوائدها:** أن الإنسان إذا أُصِيبَ بالنعمة نسِيَ نعمة الله وأضافها إلى غيره.

٤- **ومن فوائدها:** ضرر الإعجاب بالنفس؛ حيث يقول: إنما أوتيته على علم عندي.

٥- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم، لقوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، وقد قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

٦- **ومن فوائدها:** أن أكثر الناس غافلون عن هذه المسألة؛ أي: عن كون الله سبحانه وتعالى يبتليهم بالنعم، فيظنون أن النعم دليل على الرضا، فيستمرُّون في معاصيهم، ويقولون: لو كان الله غاضبًا علينا ما أعطانا، ولكن من العامة من يقول العبارة المشهورة: (عطاهُ لا يدلُّ على رضاه)، قد يكون هذا من باب الاستدراج بالنعم حتى يهلك الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي[1] لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ[2]»[3].

٧- **ومن فوائدها:** أن من الناس مَنْ منَّ الله عليهم بالعلم، والفراسة، والتدبُّر، والتأمُّل، فعرفوا الأمور على حقيقتها، من قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فإن الأكثر ضد الأقل.

٨- **ومن فوائدها:** فضيلة العلم، لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأن الذين يعلمون يعرفون مثل هذه الأمور وأنها ابتلاء وامتحان فيتعظون بها.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الشر يتبع بعضه بعضًا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** تسلية الرسول ﷺ، فإن هؤلاء الذين قالوا هذا في عصره قد قاله مَنْ سبقهم.

٣- **ومن فوائدها:** أن لأهل الشر قدوة يقتدون بها، كما أن لأهل الخير قدوة يقتدون بها، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ»[4].

٤- **ومن فوائدها:** أن كل ما كَسَبَه الإنسان من مالٍ أو جاهٍ فإنه لا يُغنيه من الله شيئًا، لقوله:

---

(١) ليمهل.

(٢) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣)، وأحمد في مسنده (١٩١٧٩) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، حتى لو كسب أقوى صنعة في الأرض فإنها لا تغني عنه من الله شيئًا، إذا أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُتلِف هذه القوة أتلفَها بكلمة واحدة منه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله؛ حيث إن جميع ما كسبه من مال، أو جاه، أو ولد، أو زوجة، أو غيرها لا تغني عنه من الله شيئًا، إذن إلى من يرجع؟ إلى الله عز وجل.

٦- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية، لقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، فإن عمل الإنسان كسبٌ له، أما الجبرية فيقولون: إن عمل الإنسان ليس كسبًا له؛ لأنه مُرغَمٌ عليه ومُجبَر عليه، فلا يكون كسبًا له ولا يضاف إليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

١- **من فوائد هذه الآية:** أن العقوبة تكون على قدر العمل، لقوله: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ﴾ مع أن الذي أصابهم ليس السيئات ولكن جزاؤها، إلا أنه لما كان الجزاء من جنس العمل صحَّ أن يُعبَّر بالعمل عنه.

٢- **ومن فوائدها:** تهديدُ هؤلاء الذين كانوا في عهد النبي ﷺ أن يُصيبَهم ما أصاب الأولين، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** شُؤمُ الظلم؛ لأنه يُوقِعُ صاحبَه في الهلاك.

٤- **ومن فوائدها:** أن مَنْ عصى الله فهو ظالم لنفسه، وكذلك لغيره إن تعدَّت معصيتُهُ إلى الغير، فلو جَنَى على أحدٍ مُحترم من مسلم، أو يهودي ذِمِّي، أو نصراني ذِمِّي، أو غيرهم من أهل الكفر الذِّمِّيِّين، فإنه يكون ظالمًا لنفسه وظالمًا لغيره.

٥- **ومن فوائدها:** أنه لا أحد يفوت الله ويُعجِزُه، لقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وقد قال الشاعر الجاهلي:

أين المفرُّ والإلهُ الطالبُ ... والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

فلا أحد يُعجِز الله عز وجل، أو يفوت الله لا في السماوات ولا في الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

ارتباط هذه الآية بما قبلها ظاهر؛ لأنه تكلَّم عن الإنسان إذا أصابه الضر وإذا أصابته النعمة، ثم عقَّبَ ذلك بأن الأمر كله بيد الله.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير هؤلاء بأن كل شيء من عند الله، بَسْط الرزق وتضييقُه من عند الله، وهم يعلمون ذلك، لقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾، فإن مثل هذا التركيب يفيد التقرير.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وليُعلَم أن كل شيءٍ علَّقه الله بالمشيئة فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ أي: أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفوًا؛ لا، هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلما بيَّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيَّن أن ذلك مبنيٌّ على علم وحكمة.

٣- **ومن فوائدها:** أن الرزق لا يحصل بالشطارة والحِذْق، وإنما هو من عند الله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فإذا قلنا بهذه الفائدة أشكَل علينا: هل معنى ذلك: أن نُبطِل الأسباب؟ لا؛ بل نفعل الأسباب لبسط الرزق لنتحاشَى تضييقه، قال الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فأمَرَنا أن نمشي في مناكبها وأن نأكل من رزقه؛ لأننا إذا مشينا في المناكب، وسعينا في أسباب الرزق حصل فأكلنا من رزقه.

٤- **ومن فوائدها:** تمامُ ملك الله وسلطانه، لقوله: ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وهذا يدل على كمال الملك والسلطان، وأنه لا معارض له سبحانه.

٥- **ومن فوائدها:** أن الإيمان وسيلة للاهتداء ومعرفة الآيات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا كان هذا الحكم مُعلَّقًا على هذا الوصف، فإن القاعدة: أن ما عُلِّق على وصفٍ فإنه يقوى بقوته ويضعُف بضعفه، إذن كلما قَوِي الإيمان ظهر للإنسان من آيات الله ما لم يظهر له مع ضعف الإيمان، وكلما ضعُف الإيمان ضعُفت معرفة الإنسان وإدراكه للآيات التي ينزلها الله - عزَّ وجلَّ - من الوحي والتي يُقدِّرها من القضاء.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

❁ التفسير ❁

﴿قُلْ﴾ يعني: أبلِغ عبادي بذلك، أبلِغهم بأني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ولا يصح أن نقول: قل أنت يا محمد: يا عبادي فتُضيف العباد إلى نفسك، لا؛ بل المعنى: أبلِغ عبادي أني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ولماذا قلنا بهذا التفسير؟ لأن النبي ﷺ لو قال للناس: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فإنه لا يستقيم الكلام، ولكن المعنى: قل للناس؛ أي: أبلِغهم بأني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وقراءة أخرى: لا تَقْنُطُوا.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ يشمل العباد بالمعنى الخاص، والعباد بالمعنى العام؛ يعني: حتى الكفار

يقال لهم مثل هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: جاوزوا الحدَّ في رعاية الأنفس، والواجبُ على الإنسان في رعاية نفسه أن يرعاها حق رعايتها؛ بحيث يقوم بها يُصلِحُها، ويتجنَّب ما يُفسِدُها، فإذا لم يفعل فقد أسرَفَ على نفسه، مثال ذلك: رجل سرق، السرقة هذه إسراف على النفس؛ لأن الواجب حماية النفس من السرقة، رجل شرب الخمر هذا إسراف على النفس، رجل سجد لصنم إسراف على النفس؛ لأنه مُجاوزةٌ للحد.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ القنوط واليأس معناهما متقارب، لكنهم فرَّقوا بينهما: بأن القنوط: أشد اليأس، وأما اليأس فمعروف أنه عدم الرجاء وعدم الأمل في حصول الشيء.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ من رحمة الله لكم، فرحمة هنا مُضافة إلى الفاعل؛ أي: من رحمة الله إياكم، وبماذا تكون الرحمة؟ تكون الرحمة بأن يهدي الله الرجل إلى التوبة والاستغفار ويتوب عليه، فأنت لا تقنط من رحمة الله، لا بنفسك ولا بغيرك، ولكن افعل السبب، فلو قال قائل مُسرفٌ على نفسه: أنا لا أقنط من رحمة الله، ولكنه يفعل المعصية مُستمرٌّ عليها، نقول: هذا غلط؛ لأنك إذا استمررت على المعصية فأنت آمِن من مكر الله، وكلا الطرفين ذميم، لا القنوط من رحمة الله، ولا الأمن من مكر الله، ولكن نقول: افعل السبب ولا تقنط من رحمة الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [لمن تاب من الشرك] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يغفر؛ أي: يستُرها ويتجاوز عنها؛ وذلك لأن المغفرة مُشتقَّة من المِغفَر الذي يُوضَع على الرأس في وقت القتال من أجل أن يَقِيَه السهام، ومعلومٌ أن هذا المِغفَر فيه ستر وفيه وقاية، وعلى هذا فأنت إذا قلت: ربِّ اغفر لي، لست تسأل الله أن يستر ذنوبك فقط؛ بل تسأل الله أن يسترها ويتجاوز عنها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ أي: يسترها ويتجاوز عنها.

وقوله: ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ هذه صيغة عموم، وأكَّد هذا العموم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وهذه المغفرة التي أثبتها الله - عزَّ وجلَّ - هل هي شاملة لكل ذنب؟ الجواب: نعم شاملة لكل ذنب فيمن تاب، فكل مَن تاب تابَ الله عليه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠] هؤلاء جمعوا بين الشرك، وقتل النفس، وهو: اعتداء على النفوس، والزنا، وهو: اعتداء على الأعراض والأخلاق، ومع ذلك إذا تابوا تاب الله عليهم، وهذه الآية أجمع العلماء على أنها في التائبين؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يُقيِّد، فهي في التائبين، أما غير التائبين فقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] فغيرُ التائبين نجزِم بأن الله لا يغفر الشرك في حقهم، وما دون الشرك

تحت المشيئة إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر.

فللإنسان حالتان: الحال الأولى: التوبة، فما حكم ذنبه حينئذٍ؟ الغفران، مهما عظُمَ الذنب، الحال الثانية: عدم التوبة؛ يعني: بدون التوبة نقول: الشرك لا يُغفَر قطعًا، وما دون الشرك تحت المشيئة، ويستدل بالآية التي ذكرناها استشهادًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يستدل بها المُسرِفون على أنفسهم بالمعاصي، فإذا نهيتَهم عن المعصية قالوا لك: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ نقول له بكل بساطة: وهل تجزم أنت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؟ الجواب: لا، إذن أنت على خطر، وأنت الآن فعلتَ سبب العقوبة، وكونك يغفر لك هذا أمرٌ راجع إلى مشيئة الله عز وجل.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أولًا في الجملة كلمة لو حُذِفَت هذه الكلمة لاستقام الكلام بدونها، فما هي الكلمة؟ الكلمة هي ﴿هُوَ﴾ يُسمِّيها النحويُّون ضمير فصل، وبعضهم يُسمِّيه عمادًا، فما هو فائدة هذا الضمير؟ يقولون: إن في هذا الضمير ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: التوكيد، والفائدة الثانية: الحصر، والفائدة الثالثة: التمييز بين الخبر والصفة.

مثاله: إذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، الضمير في (هو) ضمير الفصل، لو قلت: زيدٌ الفاضل وحذفتَ الضمير، استقام الكلام، لكن يحتمل أن يكون الفاضل صفة والخبر منتظر، ويحتمل أن يكون الفاضل هو الخبر، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل ارتفع الاحتمال الأول، وهو أن تكون الفاضل صفة، وتعيَّن الاحتمال الثاني، وهي: أن تكون خبرًا، ما الذي استفدناه من هذا التركيب: زيدٌ هو الفاضل؟ استفدنا أولًا: توكيد الفضل في زيد، وثانيًا: حصر الفضل فيه، وثالثًا: التمييز بين الصفة والخبر؛ يعني: الآن ليس عندنا احتمال أن تكون صفة، هذا من حيث المعنى في ضمير الفصل، من حيث الإعراب هل هو اسمٌ أو حرف؟ الصحيح: أنه حرفٌ لا محل له من الإعراب، حرفٌ جاء بصيغة الاسم، وليس له محلٌ من الإعراب، والدليل على أنه لا محل له من الإعراب كثيرٌ في القرآن وغير القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لأنه إذا كان له محل من الإعراب صار محله الرفع وما بعده خبر، ولكنه ليس له محل من الإعراب؛ بل هو جاء عمادًا أو جاء فصلًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذه الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل، تعليل للنهي عن القنوط؛ يعني: لا تقنطوا فإن الله يغفر الذنوب جميعًا إذا استغفرتموه.

قال المُفسِّر رحمه الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾ [بكسر النون وفتحها] قراءتان سبعيَّتان، وقاعدة المؤلف رحمه الله أنه إذا قال مثل هذا القول؛ يعني: بالوجهين، أو قال: [وفي قراءة] فالقراءة سبعيَّة، أما إذا قال: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة، إذن فيها قراءتان سبعيتان بفتح النون وكسر النون، قال: [وقُرِئَ بضمها] لا تقنُطُوا، وهذه القراءة شاذة؛ يعني: ليست سبعيَّة،

قال المُفسِّر رحمه الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾ [بكسر النون وفتحها] قراءتان سبعيَّتان، وقاعدة المؤلف رحمه الله أنه إذا قال مثل هذا القول؛ يعني: بالوجهين، أو قال: [وفي قراءة] فالقراءة سبعيَّة، أما إذا قال: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة، إذن فيها قراءتان سبعيتان بفتح النون وكسر النون، قال: [وقُرِئَ بضمها] لا تقنُطُوا، وهذه القراءة شاذة؛ يعني: ليست سبعيَّة، واختلف العلماء في القراءة غير السبعية هل يجوز أن يقرأ بها الإنسان أو لا؟ والصحيح: أنها إذا صحَّت عن النبي ﷺ، فإن القراءة بها جائزة؛ لأن القرآن كله حقٌّ، فإذا ثبت أن النبي ﷺ قرأ بهذه القراءة فهي صحيحة، سواء جاءت عن طريق القُرَّاء السبعة أم لم تأت.

قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [لمن تاب من الشرك] وكذلك من تاب من غيره مما دونه، لكن ذكر المؤلف الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، ولأنه لا يُغفَر إلا بتوبة، وإذا تاب الإنسان من الشرك وبقي على شيء من المعاصي كان يقوم بها في حال كفره؛ فهل تُغفَر هذه المعاصي أم لابد لها من توبة؟ الصحيح: أنه لابد لها من توبة، كما لو كان يشرب الخمر وهو كافر، ثم أسلم وبقِيَ على شرب الخمر، فإن إسلامه لا يُوجِبُ أن يسقط عنه إثم شرب الخمر؛ لأنه لم يتُبْ منه، لكن إذا تاب من الشرك ولم يُصِرَّ على المعاصي الأخرى، ولم تطرأ له على بال، فإن جميع ذنوبه تُغفَر.

فالتائب من الشرك الحقيقة له ثلاث حالات: إما أن يستحضر أنه تاب من الشرك ومن جميع المعاصي التي كان يعملها، فهذا لا شك أن توبته تعُمُّ كل ذنب، وإما أن يتوب من الشرك مع الإصرار على بعض المعاصي التي كان يعملها في حال الشرك، فهنا لا تُغفَر له هذه المعاصي التي أصرَّ عليها؛ لأنه استمرَّ فيها؛ مثل: أن يكون معتادًا لشرب الخمر في حال كفره، فيُسلِم وهو مُصِرٌّ على شرب الخمر، فإنه لا يُغفَر له ما قد سلف من الذنوب، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، الحال الثالثة: أن يتوب من الشرك ولم يطرأ على باله بقية المعاصي، ولكنه لم يفعلها بعد إسلامه، فهنا يُغفَر له جميع الذنوب؛ لأنها تندمج الصغار بالكبار فيُغفَر له جميع الذنوب.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، فهو تعليل لتعليل.

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: وجوب إبلاغ الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله هذا القول، لقوله: ﴿قُلْ﴾؛ لأن الأصل في الأمر: الوجوب، لاسيما وأنَّ هذا إبلاغ للرسالة، وإبلاغ الرسالة واجب.

٢- ومن فوائدها: أهمية هذا البلاغ، لئلا نقنُط من رحمة الله، وأن نعلم أنه جل وعلا يغفر الذنوب جميعًا، من أين أخذنا أهميتها؟ من تصديره بـ ﴿قُلْ﴾؛ لأن هذا أمر بإبلاغ خاص.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المُذنِبَ مُسرِفٌ على نفسه ظالمٌ لها، لقوله: ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ويدل على هذا: قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، والعجيب أن الظالم لنفسه بالمعصية إذا قيل له: لماذا؟ قال: هذا القضاء والقدر، عسى الله أن يهديني، وإذا ضربه أحدٌ ظلمه بالضرب، فقال: لمَ تضربني؟ قال: والله يا أخي! هذا قضاء وقدر، هل يرضى بهذه الحُجَّة؟ لا يرضى، وهو بظُلمِه لنفسه يرضى، وهذا تناقُض عجيب؛ يعني: إذا ظلمتَ نفسَك أبحتَ أن تحتجَّ بالقدر، وإذا ظلَمَك غيرك لم تُبحْ له أن يحتج بالقدر، وهذا جَورٌ في الحكم وتناقض، يقال: كيف ترضى أن تظلم نفسك، ولا ترضى أن يظلمك غيرك؟ ويحتج بالقدر.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم القنوط من رحمة الله، لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وجه الدلالة: أن الأصل في النهي: التحريم، وقد دلَّت السنة على أن القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب؛ لأنه ظنٌّ ما لا يليق بالله جل وعلا، فإن اللائقَ بالله سبحانه وتعالى أنَّ مَنْ لجَأَ إليه فإنه أكرم الأكرمين لا يُخيِّبُه، فإذا قنطتَ من رحمته فقد استهنتَ في حقه سبحانه وتعالى، ولهذا كان القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله، لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والرحمة نوعان: مخلوقة، وغير مخلوقة، فما كان من الإنعام والإحسان فهو مخلوقٌ، وما كان صفةً للرب فهو غير مخلوق، ولهذا قال الله تعالى في الجنة في الحديث القدسي: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»، أنتِ رحمتي مع أن الجنة مخلوقة، لكنها من آثار الرحمة.

إذا وُلِد لشخص ولدٌ، أو عاد إليه ضالٌّ من ماله، أو ضائعٌ من ماله، قال: والله هذا رحمة الله، هل هذه الرحمة مخلوقة أو غير مخلوقة؟ مخلوقة؛ لأنها إحسانٌ وإنعام، فإذا أُطلِقَت الرحمة على الإحسان والإنعام فهي مخلوقة، وإذا أُطلِقَت على صفة الله فهي غير مخلوقة.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الذنوب مهما عظُمَت فإن الله يغفرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ كل الذنوب؟ نعم؛ لأن الله ذكرها (بالـ)، وأكَّد هذا العموم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ كل الذنوب، لكن هذا في حق من؟ في حق التائبين.

٧- ومن فوائدها: أن ظاهر مغفرة الذنوب للتائبين، وإن كان الذنب للمخلوق؛ يعني: إذا اعتديتَ على شخص ثم تبتَ إلى الله، فإن الله يتوب عليك، ولو كان الذنبُ للمخلوق، لكننا اشترطنا أن تتوب، ومن تمام التوبة: أن تُوفيَ للمخلوق حقَّهُ إن قَدِرتَ عليه، فإن لم تقدِر عليه

فأوفِهِ ولو بظهر الغيب، ونحن نضرب لهذا مثلًا أو مثلَيْن أو ثلاثة حسب ما يتسع به المقام:

إذا أخذتَ من شخص مالًا بغير حق، فهذا ذنبٌ، فإذا تبتَ إلى الله، يغفر الله لك هذا الذنب أو لا؟ يغفر لك الذنب، لكن من تمام التوبة: أن تُوصِلَ المال إلى صاحبه، فإن مات فإلى ورثته، إذا أدَّيتَ إلى ورثته بَرِئَت ذمَّتُك منه، لكن بقِيَ ظلمُك للميت الذي حُلْتَ بينه وبين ماله، هل تُحاسَبُ عليه أو لا تُحاسَب؟ إن قلتَ: لا تُحاسَب، فسيقول لك قائل: كيف يتخلَّص الإنسان من ظلم الميت الذي حال بينه وبين ماله، وهذا صحيح أو غير صحيح؟ صحيح؛ لأن ذمَّته بَرِئَت؛ لأنه أدى المال إلى مستحقه بعد موت صاحبه، لكن المُشكِل: أن صاحبه حِيْلَ بينه وبينه في حال حياته، لو كان عنده لاشترى بيتًا، لاشترى سيارة، لتزوَّج، فحُلتَ بينه وبينه، فهل يسقط عنك حقُّهُ بتوبتك أو لا؟ نقول: ظاهر الآيات الكريمة أنه يسقط حقُّهُ عنك أنت، لكن الله تعالى يؤتيه من عنده؛ لماذا؟ لأنك الآن لا تستطيع أن تتوصَّل إلى هذا الميت لتُعطِيَه حقه، والذي تستطيعه أن تُؤدِّيَه إلى ورثته وقد فعلت.

مثال آخر: أخذتَ مالًا من شخص، ثم نسيتَ الشخص، ثم تبتَ؛ فما هو الطريق إلى التوبة، أو الخروج من حق الرجل؟ أتصدَّقُ به عنه، وإذا تصدقتُ به عنه، استفاد من هذا المال متى؟ في الآخرة أو في الدنيا؟ في الآخرة، لكن قد يقول قائل: لكنك حُلتَ بينه وبينه في الدنيا، وقد يكون له غرض في المال في الدنيا؟ فأقول: نعم، أنا حُلتُ بينه وبينه في الدنيا لكن عجزًا مني أن أصل إليه، والذي قدرتُ عليه من التوبة فعلتُهُ، وهو الصدقة به عنه، فهل يبرأُ براءةً تامَّةً؛ بحيث لا يُطالِبُه صاحب المال في الآخرة؟ الجواب: نقول: ظاهر النصوص نعم يبرأ.

قتلتَ نفسًا، ثم تبتَ إلى الله عز وجل من قتل النفس، من تمام توبتك: أن تُسلِّم نفسك لورثة المقتول، تقول: أنا الذي قتلتُ صاحبكم، وأنا الآن بين أيديكم، إذا سلَّمتَ نفسك لهم برِئَت ذمَّتُك، لكن يبقى عندنا حق المقتول الذي حُلتَ بينه وبين بقائه في الدنيا، فهل تبرأ منه بالتوبة؟ الجواب: نعم، تبرأ منه بالتوبة، لعموم الآية هذه وأمثالها، لكن هل يضيع حق المقتول أو لا؟ لا يضيع، فإنه يتحمَّله الله سبحانه وتعالى عنك له، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى؛ أن يعفو عن حقِّهِ، ويتحمَّل عنك حق الآخرين.

فإن قال قائل: ما الدليل على ما قلت؟ وكيف يسقط عنه حق الآدمي؟ قلنا: الدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ هنا فيها حقٌّ لله، وحقٌّ للمخلوق بالدم، وحقٌّ للمخلوق بالعِرْض إن كان قد زنا مُكرَهًا بالمزنيِّ بها، وقد قال الله

عز وجل: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ حتى في القاتل يُبدِّل الله سيئاته حسنات.

فإذا قيل: كيف يضيعُ حق المقتول؟ فالجواب: نقول: لا يضيع؛ لأن الله يتحمَّلُه عنه، وهذا من فضله تبارك وتعالى، إذن نقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ظاهر الآية العموم، يغفر الذنوب جميعًا، سواء مما يتعلَّقُ بحق الله، أو بحق العباد، لكن ما يتعلَّقُ بحق العباد إذا تعذَّر إيصاله إليهم في الدنيا، فإن الله تعالى يتحمَّلُه في الآخرة.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثباتُ اسمَيْن من أسماء الله عظيمَيْن يقترنان كثيرًا في القرآن، هما: الغفور الرحيم، ووجه اقترانهما: أن بالأول زوالُ المكروه، وبالثاني: حصول المطلوب، فيتكوَّن من اجتماعهما وصفٌ زائدٌ على الوصف عند انفرادهما؛ لأنهما إذا انفردا استفدنا المغفرة إذا انفرد الغفور، والرحمة إن انفرد الرحيم، لكن إذا اجتمعا استفدنا فائدة جديدة، وهي: أن مغفرة الله عز وجل مقرونة برحمته، فهو جامعٌ بين المغفرة والرحمة.

هذان الاسمان من الأسماء اللازمة، أو من الأسماء المتعدية؟ من الأسماء المتعدية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ إذن مُتعدٍّ، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ إذن مُتعدٍّ.

الأسماء المتعدية قال العلماء: لا يتمُّ الإيمان بها إلا بثلاثة أمور: الإيمان بالاسم، والإيمان بما يتضمَّنه من صفة، والإيمان بالحكم المُترتِّب على تلك الصفة الذي يُطلِقُ عليه بعضهم: الأثر، الإيمان بالاسم هنا: الغفور، نؤمن بأن الغفور من أسماء الله، نؤمن بأن لله مغفرة دلَّ عليها اسم الغفور، ونؤمن أيضًا بما يتضمَّنه ذلك، يدلُّ على المغفرة، ويدلُّ على العلم؛ لأنه لا يغفر ما لا يعلمه، ودلالته على العلم من باب دلالة التضمُّن، أو دلالة الالتزام؟ الالتزام؛ لأن المادة: غاء فاء راء ما فيها عين لام ميم، فيكون هذا من باب الالتزام، الغفور اسمًا، والمغفرة وصفًا، يغفرُ الذنوب حُكمًا، الرحيم كذلك، نؤمن بالرحيم اسمًا، وبالرحمة صفةً، وبأنه يرحم حُكمًا، غفر الله لنا ولكم ورحمنا وإياكم.

قال الله تعالى:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤].

التفسير

قال المُفسِّر: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ ﴾ [ارجعوا إلى ربكم]؛ يعني: ارجعوا إلى ربكم من معاصيه إلى طاعته، ومن البُعْد عنه إلى القُرْب، وهذه الإنابة هي عمل القلب، رجوع القلب إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ أي: استسلموا له واخضعوا لشرعه، وهذا عملُ الظاهر، عمل الجوارح، فالإنابة بالقلب، والإسلام بالجوارح، ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [أخلصوا العمل]، وأخذ المؤلف الإخلاصَ من قوله: ﴿لَهُۥ ﴾ أي: لله، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ فهذه الآية فيها الأمرُ بالإنابة - وهي في القلب -، والأمر بالاستسلام له - وهي بالجوارح -، والإخلاص مُستفادٌ من اللام المذكورة في قوله: ﴿لَهُۥ ﴾.

وقوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ مُتعلِّقة بـ ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ ﴾، ﴿وَأَسْلِمُواْ ﴾، فقد تنازعها العاملان ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ يعني: من الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ يعني: لا تُمنعُون من عذاب الله، وقول المؤلف: [إن لم تتوبوا] لا حاجة إليها؛ لأن الله قال: أنيبوا وأسلموا من قبل هذا الشيء، وإذا أناب وأسلم قبل هذا الشيء فقد تاب، وحينئذٍ لا ينزل به العذاب.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥].

التفسير

وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ ﴾ أي: كونوا تبعًا، ﴿أَحْسَنَ ﴾ اسم تفضيل من الحسن، ويشمل الأحسن في ذاته، والأحسن في العمل، فالإنسان مأمور أن يتبع الأحسن، أحسن ما أُنزِل إلينا في ذاته، ولو فتَّشتَ الكتب السماوية التي نزلت لوجدتَ أحسن ما نزل هو القرآن، ولهذا فسَّره المؤلف بقوله: [وهو القرآن]، كذلك أحسن ما أُنزِل إلينا، إذا كانت عبادة قام بها الإنسان على وجهٍ

ناقص، وعبادة قام بها على وجه كامل فالتي على الوجه الكامل هي الأحسن، فإذا وُجِدت أعمال تتفاضل، فالإنسان مأمور أن يتبع الأحسن منها.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه إشارة إلى وجوب اتِّباع الأحسن؛ لأن هذا الأحسن نازلٌ من الرب تعالى، والرب هو الذي له التصرُّف في العباد تدبيرًا وتشريعًا وحكمًا.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في الآية الأولى ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أما هذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: مُفاجأة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنه يأتيكم العذاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ فالنائمُ لا يشعر بالعذاب إلا بغتةً، والذي يلعب كذلك لا يشعُرُ بالعذاب إلا بغتةً.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

يقول المُفسِّر: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [قبل إتيانه بوقته] يعني: لا تشعرون بوقته قبل إتيانه؛ بل قد ضربتم الأمل الطويل، والتفاؤل الذي ليس في محلِّه حتى أتاكم العذاب.

قال: [فبادروا قبل] ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ قدَّر المؤلف هذا الذي ذكر لدلالة السياق عليه، وهذا الذي قام به المؤلف رحمه الله يُسمَّى عند البلاغيين إيجاز الحذف؛ لأن الإيجاز عندهم نوعان: إيجاز قَصْر، وإيجاز حذف، فإيجاز القِصَر: أن تكون العبارة القصيرة تتضمن معانٍ كثيرة، وإيجاز الحذف: أن تكون العبارة موجودة قد حُذِف منها ما هو معلوم؛ مثل: قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ هذه الآية حُذِف منها شيء كثير؛ يعني: تقديره: أن المرأتين ذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، ثم أرسل إحداهما إلى موسى، فجاءت إحداهما تمشي على استحياء، فصار عندنا الإيجاز نوعان: إيجاز قصر؛ بأن تكون العبارة قصيرة تتضمن معانٍ كثيرة، وإيجاز حذف: بأن يحذف من الكلام ما يدل عليه السياق، وكلاهما فصيح عربي، قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ هذا إيجاز قِصَر، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ هذا إيجاز قِصَر؛ لأنك لو أردت أن تبسط هذه الجملة ﴿مَن

يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا ﴾ وتذكر أنواع السوء، وتذكر أنواع المجازاة لكان الكلام طويلًا، لكنه قُصِر على هاتين الكلمتين ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ وهما تشملان كل ما يمكن أن يدخل في هذه الجملة من التفاصيل.

هنا على كلام المؤلف [فبادروا قبل] ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ نقول: هذا من باب إيجاز الحذف؛ لأنه حُذِف من الكلام ما يدل عليه السياق، ويمكن أن نُقدِّر ما هو دون ذلك فنقول: خشية أن تقول نفس؛ يعني: اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم خشية أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وهذا الذي ذكرناه أخصر من كلام المؤلف.

وقوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ ﴾ نفس هنا نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تدلُّ على العموم، وإنما تدل على العموم إذا كانت في سياق النفي، أو الشرط، أو الاستفهام الإنكاري، أو ما أشبه ذلك مما ذكره العلماء، لكنهم قالوا: إن نفس هنا نكرة يراد بها العموم؛ يعني: أن تقول كل نفس فَرَّطَت: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ أصله: يا حسرتِي؛ أي: ندامتي، فالحسرة هي: الندامة، وقال: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ الألف هذه منقلبة عن ياء، وأصلها ياء المتكلم، يا حسرتِي، لكن في اللغة العربية يجوز أن تُقلَب الياء ألفًا، فيقال: يا حسرتى بدل يا حسرتي، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ ﴾ التقدير: يا ويلتِي، يا حسرتى؛ أي: ندامتي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ التفريط معناه: الإهمال والإضاعة، وعكسه الإفراط، الإفراط: التجاوُز، والتفريط: القصور عن الشيء، فالمُفرِّط هو: المهمل المقصر، والمُفرِط هو: المتجاوز للحد، وكلاهما مذموم، والخيار هو الوسط.

وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ قال: [أي: طاعته]، ففسَّر الجنب هنا بالطاعة؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يراد به: جنب الله الذي هو جنب ذاته؛ لأن الإنسان يشعر بأنه لم يفرط في نفس الجنب الذي هو جنب الله ذاته، ولكن بعض العلماء يقول: الجنب بمعنى: الجانب لغةً، وإذا كان بمعنى: الجانب لغةً فلا حاجة إلى التأويل، يكون معنى في جنب الله؛ أي: في جانب الله، وجانب الله؛ يعني: حقَّه، وهذا التفسير الذي ذكرناه مُؤدَّاه كما قال المؤلف: [أي: طاعته]، لكن إذا فسَّرنا الجنب بالطاعة خرجنا به عن المعنى المطابق للفظ، أما إذا قلنا: الجنب لغة بمعنى: الجانب، فإننا فسَّرناه بما دلَّت عليه الكلمة لغةً، والجانب من المعلوم أن جانب الله عز وجل؛ أي: حقه وشرعه.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [إن مُخفَّفة من الثقيلة، أي: وإني] إن في اللغة العربية تأتي بمعانٍ: الأول: شرطية، والثاني: نافية، والثالث: مؤكدة، والرابع: زائدة، أربعة معانٍ، بعضهم زاد معنى خامسًا: أن تكون بمعنى: نعم، ولكنه قليل.

إن شرطية مثاله: قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ هذه إن شرطية، تكون نافية؛ مثل: قول الكافرين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴾، وإن النافية هي التي يعقبها دائمًا إلا، وتأتي مُؤكِّدة، وهي المُخفَّفة من الثقيلة كما هنا، وعلامتها أن يحل محلها إنَّ؛ مثل: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ هذه مُخفَّفة من الثقيلة تفيد التوكيد؛ لأن الثقيلة إنَّ معروفة أنها للتوكيد، فإذا كانت هذه مُخفَّفة منها، فهي للتوكيد، الرابع: زائدة، ومن ذلك قول الشاعر:

بني غُدانـةَ مـا إن أنتـم ذهبٌ ... ولا صَرِيـفٌ ولكـن أنتم الخَزَفُ

الشاهد قوله: ما إن أنتم ذهبُ؛ يعني: معنى الكلام: ما أنتم ذهب، فهي إذن زائدة، والذهب معروف، الصريف: الفضة، وسُمِّيَت صريفًا؛ لأنها يُسمَع لها صريفًا عند العدد أو الوزن، ولكن أنتم الخزف، ما هو الخزف؟ الطين المشوي؛ يعني: أنكم أصلكم رديء، وعلامة إن الزائدة أن يصح الكلام مع حذفها، فإذا صحَّ الكلام مع حذفها، فهي زائدة.

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ قال المؤلف: [وإني]، فقدَّر اسم إنَّ ضميرًا مطابقًا للسياق، فقال: [إني كنت]، وهذا الذي ذهب إليه المؤلف هو الصحيح، أما عند جمهور النحويين فإنهم يقولون: إن اسم إنَّ محذوف ضمير الشأن فيُقدِّرون: إن كنت وإنه أي: الشأن، لكن الصحيح: أننا نُقدِّر ضميرًا مطابقًا للسياق، ولا حرج أن نقول: إنه محذوف ولو لم يكن ضمير، فعليه نقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ التقدير: وإني كنت ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ للتوكيد، وهي أيضًا دليلٌ على أنَّ (إن) مُخفَّفة من الثقيلة.

وهل تلزم لام التوكيد مع إن مخففة من الثقيلة؟ الجواب: لا تلزم إلا إذا كان يُخشَى من الالتباس بالنافية، فإن كان يُخشَى الالتباس بالنافية فإنه يجب أن تُذكَر اللام، والحاصل: أن اللام تُذكَر كثيرًا في خبر إن المخففة من الثقيلة، وقد تُحذَف إلا إذا خيف الالتباس، فإنه يجب أن تُذكَر اللام، إذا خيف الالتباس بماذا؟ إذا خيف أن تلتبس بـ (إن) النافية فإنه يجب أن يؤتى باللام؛ لأنه إذا أتت اللام تعيَّن أن تكون إن مخففة من الثقيلة.

يقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ الساخر بمعنى: المستهزئ، ساخرين بمن؟ بمن يدعو إلى الله، كما قال تعالى: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ساخرين بدين الله، ساخرين بكتب الله، ساخرين برسل الله ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ولهذا حذف المفعول في ﴿الساخرين﴾ لإفادة العموم، أي: الساخرين بالله، وآياته، ورسله، وأوليائه، فهو عام.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** وجوب الإنابة إلى الله، لقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ والأصل في

الأمر: الوجوب إلا بدليل.

٢ - **ومن فوائدها**: وجوب الإسلام له؛ أي: الاستسلام التام مع الإخلاص، لقوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: التحذير من عدم المبادرة بالإنابة والإسلام، لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: عقوبة من لم يُنِب إلى ربه ويُسلِم له؛ إذ أن العذاب عقوبة.

٥ - **ومن فوائدها**: أنه إذا أتى عذاب الله فلا دافع له، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

١- **ومن فوائد الآية**: وجوب اتباع القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

٢- **ومن فوائدها**: الثناء على القرآن الكريم بأنه أحسن ما أُنزِل إلى العباد، وهو أحسن في ذاته، وفي أخباره، وفي أحكامه، وفي آثاره، فلم تَنَل أمةٌ العزة والكرامة كما نالته هذه الأمة، بما آتاها الله من القرآن.

٣- **ومن فوائدها**: أن القرآن كلام الله، لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فإن قال قائل: هذا لا نُسلِّمه لكم؛ لأن مما أنزل الله لا يكون كلامًا له، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وأمثالها، فلا نُسلِّم لكم أن القرآن كلام الله؛ بل نقول: هو كغيره من المخلوقات التي أنزلها الله، فإن الحديد مخلوق، والمطر مخلوق، والأنعام مخلوقة.

فالجواب عن هذا أن نقول: إن ما أنزله الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يكون عينًا قائمة بنفسه، فهذا مخلوق.

والثاني: أن يكون وصفًا لا يقوم إلا بغيره، فهذا غير مخلوق.

فلننظر للقرآن؛ هل هو عين قائمة بنفسها، أو وصفٌ لا يقوم إلا بغيره؟ الثاني، إذن كلام الله غير مخلوق.

٤- **من فوائدها**: إثبات علو الله، لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وجه ذلك: أن النزول لا يكون إلا من أعلى.

٥- **ومن فوائدها**: فضيلة هذه الأمة؛ حيث كانت الغاية في إنزال القرآن، من قوله تعالى: ﴿إِلَيْكُم﴾ فإن الإنزال غايته إلينا، إذن فهذا شرف لنا أن نكون غاية إنزال القرآن.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية لله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن إنزال القرآن إلينا من كمال ربوبيته؛ حيث أضاف إنزاله إلى نفسه بوصف الربوبية، فمن كمال ربوبيته لخلقه وتربيته لهم أن نزل عليهم هذا القرآن.

٨- **ومن فوائدها:** وجوب العمل بما في القرآن؛ لأنه نزل من الرب، والرب له السلطان الكامل على خلقه، أرأيتم لو أن ملكًا من الملوك أصدر مرسومًا ملكيًا، أفلا يكون مُقتضى سلطانه: أن نعمل بهذا المرسوم؟ بلى، إذن مُقتضى ربوبية الله لنا أن نعمل بما أنزل إلينا؛ لأن هذا القرآن بمنزلة المراسيم الملكية التي لابد من تنفيذها؛ بل هو أعظم كما هو معروف، ولا إشكال فيه.

٩- **ومن فوائدها:** الحذر من أن يأتي عذاب الله بغتة، لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، والعذاب المُباغِت أشد من العذاب الذي لم يُباغِت؛ لأن العذاب الذي لم يُباغِت يكون الإنسان قد تهيَّأ له، لكن الذي يأتي بغتة، يأتي الإنسان وهو في غاية ما يكون من الغفلة، وغاية ما يكون من السرور، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فتأمَّل الآن غفلة وهدوء واطمئنان أتاهم العذاب في هذا الوقت يكون أشد وقعًا - والعياذ بالله - مما لو أتى والإنسان متهيئ.

وأضرب لكم مثلًا حسيًا واضحًا: لو كنت تنزل من على الدرج، فغفلت، ثم زلَّت رجلك على إحدى الدرجات، هل يكون مثل ما لو كنت تنزل وأنت ترى كل درجة، وتضع قدمك عليها؟ الجواب؟ لا، إذن المباغت أشد مما يأتي والإنسان متهيئ له.

١٠- **ومن الفوائد:** أن المُباغِت يأتي بغير شعور من العبد؛ لأنه غافل، وليس يُفكِّر في أن يأتيه العذاب، لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والجملة هذه يُسمِّيها علماء النحو جملة حالية؛ يعني: والحال أنكم لا تشعرون.

قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان مآل المُفرِّط، وهو: التحسُّر والتندُّم مع الغم.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المُفرِّط سيتحسَّر على تفريطه.

وينبني على هذه الفائدة: أنه ينبغي أن يكون الإنسان حازمًا ذا نشاط وقوة حتى لا تفوته الأمور، ثم بعد ذلك يندم.

ويتفرَّع على ذلك الفائدة الثالثة: أنه ينبغي انتهاز الفرص فإذا أتت الفرصة فلا تضيعها.

ويترتب على هذا أيضًا رابعة: أنه إذا صارت أمامك حاجتان، فابدأ بما أنت تريد أولًا، وبادر

إليها، واجعل الثانية نافلة، وهذا يظهر في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام في أمثلة متعددة؛ منها: أن عتبان بن مالك رضي الله عنه لما ضعُف بصره، وصار لا يتمكَّن من الوصول إلى مسجد قومه دعا النبي ﷺ إلى بيته ليصلي في مكان يتخذه مصلى، فخرج النبي ﷺ إليه ومعه جماعة من أصحابه، فلما وصلوا البيت وإذا الرجل قد هيَّأ لهم طعامًا، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن يبدأ بالطعام؛ بل بدأ بما أتى إليه؛ أي: بالقصد الأول، فقال له: «أَيْنَ تُرِيْدُ أَنْ أُصَلِّيَ؟» فأراه المكان فصلى به، هذا مثال، وبناءً على ذلك ينبغي لكم أنتم طلبة العلم إذا أردتم أن تُراجعوا فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مسألة معينة، ستستعرض الفهرس، ثم يمر بك مسألة تشوقك إلى أن تراجعها، فتذهب وتراجعها، ثم تترك الذي كنتَ تراجع من أجلها، وهذا لا شك أنه يضر طالب العلم، يُشتِّت عليه الفكر، ويُشتِّت عليه الوقت؛ لأن فكره أول ما طالع الكتاب مُنصبٌّ على المسألة التي يطلبها، فإذا عرضت له مثل هذه العارضة، واتجه إليها، وانشغل بها وهي ليست مقصوده بالذات تشتَّت، ثم يتشتَّت وقته أيضًا، ربما يكون وقت مراجعته في خلال ربع ساعة، فتذهب ربع الساعة هذه، وهو لم يراجع المسألة التي كان من أجلها يفتش، وهذا جرَّبناه، فالإنسان ينبغي أن يكون حازمًا، وأن يبدأ بالأهم قبل المهم.

ومن ذلك الحزم: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يبادر بإزالة المؤذيات ولا يتأخر؛ لأن التأخير له آفة؛ بل آفات، لما بال الأعرابي في المسجد أمر في الحال أن يُصبَّ عليه ماء فيُطهِّره، ولما بال الصبي في حجره دعا في الحال بماء فأتبعه إياه، وكان من الممكن أن يترك المكان في المسجد حتى يأتي وقت الصلاة، ويحتاج الناس إلى الصلاة في هذا المكان، لكنه بادر، وكذلك من الممكن أن يدع ثوبه حتى يحضر وقت الصلاة ثم يُطهِّره، لكنه بادر.

فالمهم: أن مثل هذه الوقائع ينبغي للإنسان أن يتخذ منها تربية لنفسه، لا تمر به على أنها مسألة فقهية عرفها فقط؛ بل لابد أن يظهر علمه في عمله.

٣ - **ومن فوائدها**: إثبات الجهة لله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ وقلنا: إن جنب بمعنى: جانب، لكن الذين لا يُثبِتون الجهة يفرُّون من هذه، ويُفسِّرونه بأمر آخر، كما فسَّره المؤلف بقوله: [أي: طاعة الله]، مع أن هذا التفسير قد يقال: إنه تفسير صحيح، وأن جانب الله تعالى هو: طاعته وحقه وما أشبه ذلك، لكن نحن نعلم أن كثيرًا من الناس يُنكِرون أن يكون الله في جهة، ويقولون: لا يجوز أن تقول: إن الله في جهة لا فوق ولا تحت، وعَكَسَ قومٌ آخرون، فقالوا: إن الله في كل جهة بذاته، وبين الطائفتين كما بين السماء والأرض، وتوسَّط آخرون فقالوا: إن الله في كل جهة، لكنه فوق كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، إن اتجهتم شرقًا أو غربًا أو شمالًا أو جنوبًا فثَمَّ وجه الله، لكن ليس الله نفسه في تلك الجهة، ولكنه فوق، وفوقيَّته لا تناقض أن يكون في كل جهةٍ استقبلتَه.

فلو قال قائل: كيف يجتمع أن يكون في جهة المشرق مثلًا أو المغرب أو الشمال أو الجنوب، وهو فوق كل شيء؟ نقول: كيف اجعلها فيما يمكن تكييفه، وصفات الله لا يمكن تكييفها، عليك أن تُسلِّم، ثم نقول: إن هذا ممكن، لو كانت الشمس عند الشروق أو عند الغروب واستقبلتَها كانت في جهة المشرق أو في جهة المغرب، وهي أين مكانها؟ في السماء، هذا في المخلوق فما بالك بالخالق المحيط بكل شيء، فالصواب: أن الله سبحانه وتعالى في جهة، وهي جهة العلو، لكنه عز وجل من اتجه إليه في أي مكان فالله تعالى قِبَل وجهه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أما ذاته عز وجل، فإنه فوق كل شيء.

٤ - **من فوائدها:** إقرار المكذبين على أنفسهم بما هم عليه من التكذيب، لكن في وقت لا ينفعهم، لقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ يعني: إن كنت من الساخرين هذه تأكيد وإثبات أنه كان في الدنيا من الساخرين بشرع الله، المستهزئين به.

٥ - **ومن فوائدها:** تحريم السخرية بالله عز وجل، من كون هذا الساخر ندِمَ وتحسَّر على ذلك، ولولا أنه أُصِيب بعذاب عليه لم يندم، فإن قال قائل: ما حكم السخرية بالله؟ قلنا: حكمها الكفر، فمن سخر بالله، أو آياته، أو رسوله فإنه كافر، فإن قال قائل: هل تُكفِّرُونَهُ ولو كان يمزح؟ فالجواب: نعم، نُكفِّرُه ولو كان يمزح، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني: ما قصدنا ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ فإن قيل: ما الدواء لمن ابتُلِيَ بهذا؛ أي: سخر بالله، أو آياته، أو رسوله، فما هو الدواء؟ قلنا: الدواء في هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الدواء: أن يتوب إلى الله، فإذا تاب إلى الله عز وجل وقلع من قلبه هذه السخرية والاستهزاء، وأثبت مكانها التعظيم والمحبة، فحينئذٍ يرتفع عنه حكم الكفر.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر:٥٧].

❁ التَفْسِيرُ ❁

يعني: أو تقول نفس، وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، أو تقول؛ أي:

النفس، ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ [بالطاعة فاهتديت] ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ لو شرطية فعل الشرط فيها محذوف، وجواب الشرط فيها قوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره - أي: تقدير المحذوف وهو فعل الشرط -: لو ثبت أن الله هداني لكنتُ من المتقين، وهذا احتجاج بالقدر؛ يعني: لو أن الله هداني ووفَّقني فاهتديت لكنت من المتقين، فهي تندم وتحتج، جمعت بين الندم على عدم التقوى والهداية وبين الاحتجاج، كقول القائل: لو أعطيتَني أجرة لعملتُ لك، لو أطعمتَني لشبعت؛ يعني: فلم تُطعِمني ولم تعطني أجرة، فهم يقولون: لو أن الله هداني فاهتديت وكنت من المتقين، وعلى هذا فالمراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، ويكون هذا احتجاجًا من النفس بقدر الله على الضلال - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال المؤلف: [عذابه]، وهذا مفعول المتقين؛ ولكن الصواب: أن نُقدِّر: لو كنت من المتقين الله؛ لأن الأصل هو تقوى الله عز وجل، وتقوى عذاب الله من تقوى الله، فينبغي أن نُقدِّر الأصل؛ أي: لكنت من المتقين الله، وما هي تقوى الله؟ الجواب: نعرف تقوى الله بمعرفة الأصل، أصل التقوى مأخوذة من الوقاية، فأصلها: وقوى بالواو، لكن قلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، فإذا كانت من الوقاية فسَّرناها بأنها: اتخاذ ما يقِي من عذاب الله، ولا يقِي من عذاب الله إلا فعل أوامره، واجتناب نواهيه، ولهذا نقول: إن أجمع ما قيل في التقوى: إنها فعل الأوامر، واجتناب النواهي، وقيل: إن التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله، وهذا المعنى أطول مما قلنا لكن ما قلنا مشتمل عليه، وقيل في التقوى:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماشٍ فوق أرض ... الشوكِ يحذر ما يرى
لا تحقِرنَّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

وهذا أيضًا تعريف شيِّق؛ لأنه منظوم، خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها، والذنوب إما فعل محرم أو ترك واجب، ذاك التقى، واعمل كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى، الذي يمشي على أرض الشوك يمشي بسرعة أو ببطء؟ الجواب: ببطء، لا تحقرن صغيرةً إن الجبال من الحصى، الجبال العظيمة الضخمة حصى متجمع، إما كتل صغار أو كبار.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أو تقول: معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني: أو تقول النفس حين ترى العذاب، ترى العذاب بعينها، فيكون الموعود مشهودًا، تراه بالعين ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ والرؤية بالعين تعتبر عين اليقين، والوعد بالعذاب علم اليقين، ومسُّ العذاب حق اليقين، ولهذا قالوا: اليقين

ثلاثة: علم، وعين، وحق، وكلها في القرآن ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ مُشاهَدة، وقال تعالى في آخر الواقعة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الذي يكون عند الاحتضار حقُّ اليقين، أيُّها أعلى في اليقين؟ حق اليقين أعلى؛ لأن عين اليقين قد تشاهد الشيء على خلاف ما هو عليه، كما ترى ولاسيَّما إن كان نظرك ضعيفًا ترى الشيء الساكن مُتحرِّكًا، أو المتحرك ساكنًا، فعلى كل حال حق اليقين أعلاه، وهنا في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ المراد: عين اليقين.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لو هنا ليست شرطية، ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لي كرَّة.

ونستطرد فنقول: لو تأتي شرطية، وتأتي للتمني، وتأتي مصدرية، ثلاث معانٍ، فتأتي شرطية فيما إذا قلت: لو زرتني لأكرمتك، وعلامتها: أن يحل محلها إن الشرطية، لو زرتني لأكرمتك اجعل بدلها إن، إن زرتني أكرمتك، والثانية مصدرية هي التي تأتي غالبًا بعد ودَّ، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وعلامتها: أن يحل محلها أنْ المصدرية، لو وضعتَ بدلها أن، ودوا أن تدهن، وهل يصح أن تضع بدلها أن في القرآن؟ تقديرًا يصح ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ لو جعلتَ بدلها أنْ استقام الكلام، لكن لا يجوز في القرآن أن تجعل بدلها أنْ، لو قلت: وددتُ لو زرتني، صحيح؟ صحيح، لكن هنا إذا حوَّلتها إلى أنْ حوِّل الفعل إلى مضارع، وددت أن تزورني، الثالثة: التي للتمني، تكون بمعنى: أتمنَّى؛ يعني: يعين معناها السياق، فهنا ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ﴾ ضع بدلها أتمنى، أتمنى أن يكون لي كرة فأكون من المؤمنين، ويدلك لهذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ فصار معاني لو ثلاثة: شرطية ومصدرية وللتمني.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ قال المفسر: [رجعة إلى الدنيا] ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: يتمنَّى أن يكون له رجعة ليكون من المحسنين، وقوله: ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: من المتقين؛ لأن الإحسان درجة فوق التقوى، فكل مُحسِن متقٍ وليس كل متقٍ محسنًا، الإحسان درجة عالية قال فيه النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ولكن هذا التمني هل هذه النفس صادقة في أنها تتمنَّى لتكون من المحسنين؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لكن عند العذاب ليس لها إلا أن تقول هذا، لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، ثم قال تعالى: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

١- **يستفاد منها:** احتجاج هذه النفس التي فرطت في جنب الله بقضاء الله وقدره، لقوله ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا احتجاجٌ باطل، أبطله الله تعالى بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ إلخ.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات أن هؤلاء المكذبين يقرون بالله عز وجل، وبأن الأمر بيده، لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن التقوى سبب للنجاة من العذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١- **فيها من الفوائد:** أن هؤلاء يتمنَّون الرجوع إلى الدنيا إذا رأوا العذاب.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم يتمنَّون الرجوع ليكونوا من المحسنين، لا للتلذُّذ بالدنيا والتمتع بها، لقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يُشبِهُ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

قال الله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩].

التفسير

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه حرف جواب، يُجاب بها النفي لإثباته، فإذا قال قائل: أين النفي في هذه الآية؟ قلنا: قول هذه النفس المكذبة: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يتضمَّن أن الله لم يهدِها، فقال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: بلى قد جاءك ما فيه الهداية وهو بعث الرسل؛ لأن نفيها لو أن الله هداني يتضمَّن الهداية العلمية هداية الإرشاد، هداية الرشد الذي هو التوفيق، والخلاصة: أن قولها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ يتضمن نفي هداية الله لها، أليس كذلك؟ الجواب: بلى، لو أن الله هداني لكنت، ولكنه لم يهدني، فلم أكن من المتقين، إذن هذا الكلام يتضمن نفي هذه الهداية، فقال الله مُبطِلًا هذا النفي: ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: بلى قد هداك الله،

فالله قد هداها بما جاءت به الرسل، وهذه هداية الدلالة، بلى - أي: بلى قد هداك الله -.

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ قال المؤلف رحمه الله.

[أي: القرآن] هذا يُعتبر تخصيصًا للآية؛ لأن ما سبق ليس خاصًّا بأمة النبي ﷺ حتى يقال: إن الآيات هي القرآن، ولكنه عامٌّ لجميع الأمم الذين يرون العذاب يوم القيامة، فإذا كان من هذه الأمة فالآيات التي جاءت هي القرآن، وإذا كان من قوم موسى فالآيات التوراة، وإذا كان من قوم عيسى فالآيات الإنجيل، وهلُمَّ جرًّا، والآيات جمع آية، وهي في اللغة: العلامة المُبيِّنة لمدلولها، وقد سمَّى الله سبحانه وتعالى ما جاءت به الرسل آيات؛ لأنه علامة على الرب عز وجل، ما يتضمَّنه من الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، وأنه لو اجتمع الخلق على أن يأتوا بمثل ما جاءت به الرسل من الشرائع ما قَدَروا على ذلك، وهذه آية؛ لأن ما يُقدَر عليه لا يُعتَبر آية، وقد استمر المتأخِّرون على تسمية الآيات بالمعجزات، وهذا فيه نظر، فإن المعجزات أعمُّ من الآيات؛ إذ أن المعجزة قد تكون من الساحر، وقد تكون من الكافر، وقد تكون من الكاهن، وقد تكون من المُشعوِذ، لكن الآية التي تُبيِّن الشيء وتُوضِّحه، لا تكون من هؤلاء، ولهذا ينبغي أن نقول: آيات الأنبياء بدل معجزات الأنبياء؛ لأن هذه أولًا هي الموافقة لما جاء في القرآن، فإن الله لم يُسَمِّ آيات الأنبياء معجزات، والثاني: لأن المُعجِزات: ما جاء مُعجِزًا من غير الأنبياء.

وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ أي: العلامات التي تدل على أن الله تعالى حق، [أي: القرآن]، قال: [وهو سبب الهداية] هو أي: ما جاءت به الرسل من الآيات سببُ الهداية، ولكن لمن؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أما من حقَّت عليه كلمة العذاب وعلِم الله أنه ليس أهلًا لها، فيقول الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كذَّبتَ بها باعتبار الأخبار، واستكبرتَ باعتبار الأحكام؛ الأوامر والنواهي، ففي جانب الخبر مُكذِّب، وفي جانب الأمر والنهي مُستكبِر، ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [تكبَّرتَ عن الإيمان بها]، ولو قيل: عن العمل بها ليكون التكذيب للأخبار، والاستكبار عن الأحكام، ولكن ما ذكره المؤلف لا بأس به.

وقوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب التكذيب والاستكبار من الكافرين الذين يستحقُّون دخول النار بقيام الحجة عليهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إبطالُ الاحتجاج بالقدر على معصية الله عز وجل، ووجهه: أن الله تعالى جعل إرسال الرسل حُجَّة، ولو كان القدر حُجَّة لصاحبه لم يبطل بإرسال الرسل، وعلى هذا فنقول: الاحتجاج بالقدر باطلٌ من جهة الشرع، ومن جهة النظر؛ أي: من جهة العقل، أما من جهة الشرع: أن الله تعالى أبطله في عدة آيات؛ منها: هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ﴾ لما قال: ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾، ومنها: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا لهم ما ذاقوا بأسَ الله؛ إذ لا يذوق بأسَ الله إلا من لا حُجَّة له.

أما من حيث النظر: فإننا نقول للمُحتج بالقدر: ما الذي أعلَمَك أن الله كتب عليك أن تعصيه؟ هل يمكن أن يعلم بذلك قبل أن تقع المعصية؟ لا يمكن؛ إذ أن القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلَم به إلا بعد وقوع المقدور، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فإذا كنت لا تعلم به إلا بعد وقوع المقدور فتجعل لفعلك حُجَّة لم تعلَم بها إلا بعد وقوع الفعل؛ لأن الحُجَّة للفعل لابد أن تكون سابقة عليه، أما بعد أن يقع فإنه لا حُجَّة لك في القدر، ثانيًا: نقول: إنك ظلمتَ نفسك باختيار المعصية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فأنت الآن ظلمتَ نفسك واحتججتَ على ذلك بالقدر، فما ظنُّك لو أن أحدًا من الناس ظلمَكَ في مالك، أو عِرْضِك، وقال: إن هذا قدر الله، هل تقبلُ حُجَّته؟ الجواب: لا، لو أن أحدًا ضربَه، أو أخذ ماله، أو أساء إلى أهله، وقال: إن هذا قدر الله، فإنه لن يقبل من هذه الحجة، فإذا كان لا يقبل حجة من ظلمه، فلماذا يقبل حجته على نفسه بظلمه إياها؟ هذا عاقل أو منافٍ للعقل؟ منافٍ للعقل.

ويُذكَر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفِع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين! والله ما سرقت إلا بقدر الله، يريد أن يرفع عنه حدَّ السرقة، فقال أمير المؤمنين عمر: ونحن لا نقطعك إلا بقدر الله؛ لأنه إذا كان هو سرق بقدر الله، فنحن أيضًا نقطعه بقدر الله؛ بل نحن نقطعه بقدر الله وشرع الله، وهو سرق بقدر الله دون شرع الله، فكنا أقوى منه حُجَّة، ولكن أمير المؤمنين رضي الله عنه عَدَلَ عن ذكر الشرع اكتفاءً أو اقتصارًا بما احتج هذا السارق.

الوجه الثالث وهو الثاني في النظر: أن نقول لهذا الرجل: لو خُيِّرتَ بين بلدين؛ أحدهما: بلد آمن مطمئن يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، والثاني: بلد خائف وجوع ومرض، فهل تذهب إلى الثاني وتحتج بقدر الله، أو إلى الأول وتقول: إن الله أعطاني عقلًا ففضَّلتُ الأول؟ أيهما؟ الثاني، يقول: إن الله أعطاني عقلًا ففضَّلتُ البلد الآمن، ولا يمكن أن يذهب إلى البلد الخائف ويقول: هذا بقضاء الله وقدره، لا يمكن أبدًا، لو ذهب إلى البلد الخائف باختياره، وقال: هذا بقضاء الله وقدره، لقال الناس: إن هذا الرجل مجنون؛ لأنه لا يمكن أن يختار مثل هذا البلد على البلد الأول، وبهذا تبيَّن بطلان من احتجَّ بالقضاء على معاصي الله، حتى من احتجَّ بالقضاء على ترك الأفضل هو أيضًا مخطئ، ويؤيِّد ذلك الوجه الأخير؛ حيث اختار البلد الآمن الذي يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين أُصِيبوا بالعذاب أُصِيبوا بالجزاء العدل؛ وذلك لأنهم كذَّبوا بالآيات واستكبروا عنها، وهذا جزاؤهم؛ لأن هذا الجزاء الذي أُصِيبوا به ليس خافيًا عليهم ولا مكتومًا عنهم، الرسل جاءتهم بالأحكام، والأخبار، والترغيب، والترهيب، فقد دخلوا على بصيرة، فيكون جزاؤهم عدلًا لا جورًا؛ لأنهم علِمُوا ماذا يُلاقونه واستكبروا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التكذيب بآيات الله كفر، والاستكبار عن أحكام الله كفر، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا شك أن المُكذِّب للخبر كافر، سواء كذَّبَ الخبر المُتواتر المقطوع به، أو كذَّب خبر الآحاد، فإنه يكون كافرًا، لكن تكذيب خبر الآحاد يُشترَط لتكفيره أن يقول: نعم، قال الرسول كذا ولكنه غير صحيح، أما لو قال: لم يقل الرسول كذا، وهو خبر آحاد، فهذا لا نحكم بكفره؛ لأنه يمكن أن يكون أنكره لعدم ثُبُوته عنده، لكن لو قال: أنا أقول: إن النبي ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ» ولكني أقول: هذا ليس بصحيح، فحكم هذا الكفر ولا شك؛ لأن هذا تكذيبٌ صريح للنبي ﷺ بعد أن عَلِمَ أن الرسول قاله؛ بل بعد أن أقرَّ هو بنفسه أن الرسول قاله، وعلى هذا فإذا قال لك قائل: هل يكفُر من كذَّب أخبار الآحاد؟ الجواب: نقول: إن قال: نعم قال النبي ﷺ كذا ولكن لا أقبله، وليس بصحيح، فهذا كافر ما فيه شك ولا توقُّف، أما إذا كذَّب دون أن يقول مثل ذلك، فإننا لا نُكفِّرُه؛ لماذا؟ الجواب: لاحتمال أن يكون تكذيبه لعدم ثبوت الخبر عنده وهي شبهة؛ لأن الحكم بالكفر ليس بالهيِّن، هو: إخراج الإنسان من الإسلام إلى الكفر.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

❁ التفسير ❁

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ هذه ظرف تحتاج إلى مُتعلَّق؛ لأن كل ظرف أو جار ومجرور فلابد له من شيء يتعلَّق به؛ لأن الظرف والجار والمجرور لا يمكن أن يكون عامله معنويًا، لابد أن يكون عامله لفظيًّا، بخلاف غيرهما فإنه قد يكون عامله معنويًا، فيكون مبتدأ، لكن الظرف لا يكون مبتدأ، والجار والمجرور لا يكون مبتدأ، فلابد له من عامل لفظي، العامل اللفظي إما بالفعل، وإما ما كان بمعنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول، وعلى هذا يقول «ناظم الجُمَل»:

لابد للجار من التعلُّق بفعلٍ أو معناه نحو مرتقِي
واستثنِ كلَّ زائدٍ له عمل كالبا ومِنْ والكاف أيضًا ولعل

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ ﴾ يوم هذه ظرف، إذن لها مُتعلَّق، فأين مُتعلَّقها؟ الجواب: مُتعلَّقها الفعل الذي بعده ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ يعني: وترى الذين كذبوا على الله يوم القيامة وجوههم مسودة، ولكن قدَّم المعمول للأهمية؛ لأن المهم التحدث عن هذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ﴾ الخطاب لكل من يصح خطابه، فيعمُّ الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره ممن يصح توجيه الخطاب إليهم، والرؤية هنا رؤية بصرية؛ لأن السواد لون، والرؤية باللون هي رؤية بصرية؛ لأن الألوان تُرى ولا تُعقَل؛ يعني: تُدرَك بالرؤية لا بالعقل.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كذبوا على الله بماذا؟ الجواب: بكل أنواع الكذب، كل من كذب على الله فإن وجهه سيكون مسودًّا يوم القيامة، وذلك بنسبة الشريك له، كما قال المؤلف، بنسبة الولد له كما قال المؤلف أيضًا، بنسبة الجَوْر له، بنسبة الظلم، بأي شيء يُكذَب على الله، فإن الذين يكذبون على الله ستكون وجوههم يوم القيامة مُسوَدَّة، حتى لو كانوا في الدنيا بيضًا فإنهم يأتون يوم القيامة وجوههم مسودة - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ولم يقل: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مُسودَّة؛ لأن التركيب المذكور في القرآن أبلغ في الإثبات؛ حيث جعل هذا الوصف - أعني: سواد وجوههم - هو من الجملة الاسمية، فإن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار،

بخلاف الجملة الفعلية فإنها تفيد التجدُّد والحدوث.

وقوله: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ترى نفس الإنسان وجهه مسود، لكن لو قال: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة لم تحصل هذه الفائدة، إذن هذا التركيب الذي في الآية الكريمة يفيد معنىً أكثر مما لو كان على التركيب الذي ذكرته لكم؛ لأن هذا التركيب القرآني يدل على أن هذا الاسوداد في وجوههم ثابت مستقر؛ حيث جاء بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، ويقول العلماء: كلما جاءت أداة النفي بعد الاستفهام فإنه للتقرير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والأمثلة في هذا كثيرة، فالاستفهام إذن في هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؟ الجواب: بلى، استفهام تقرير.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ جهنم اسم من أسماء النار - أعاذني الله وإياكم منها -، وهو اسمٌ أعجمي، أو هو اسم عربي على وزن فعنلل؟ في ذلك قولان: منهم من قال: إنه اسم مُعرَّب، وأصله في الفارسية: جهنَّام، فعُرِّب فآل إلى جهنم، وقيل: بل هو اسم عربي، والنون زائدة، وهو مُشتقٌّ من الجُهْمة، وهي: الظلمة؛ لأن النار - والعياذ بالله - سوداء مظلمة، وإذا دار الأمر بين أن تكون الكلمة أصيلة أو دخيلة، فالأصل أنها أصيلة؛ لأن القرآن عربي، وأيضًا إذا حكمنا بأن الأصل عربي جعلنا اللغة العربية غنيَّة عن غيرها، وإذا جعلنا أصلها فارسي، أو حبشي، أو غير ذلك ولكنه عُرِّب، فهذا يعني: أن اللغة العربية افتقرت إلى هذه الكلمة، فعرَّبَتها وأثبتَتْها، فالمثوى والمأوى بمعنى واحد، والمراد بالمثوى والمأوى: المقر والمسكن.

قال: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [عن الإيمان] وعن الأعمال أيضًا، كل متكبر - والعياذ بالله - فهو من أصحاب النار، قال المُفسِّر: [بلى] هذه جواب: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وإذا جاءت مثل هذه الصيغة في القرآن فجوابها: بلى، فإذا قرأت: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فالجواب: بلى، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بلى، وهكذا.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** إثبات يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويوم القيامة: هو يوم قيام الساعة، وسُمِّي بذلك؛ لأن الناس يقومون

من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يُقامُ فيه العدل، ولأن الأشهاد يقومون فيه، لقوله: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ فهذا سببُ تسمية يوم القيامة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** سوءُ عاقبة الكاذبين على الله، لقوله: ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** تحريم الكذب على الله، وذلك من العقوبة، ولا يُستفاد التحريم من صيغة الزجر فقط؛ بل يُستفاد التحريم من صيغة النهي، والقدح في فاعله، وبيان عقوبة فاعله، وما أشبه ذلك، المهم: أن وسائل العلم بالتحريم متعددة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من الفُتْيا بغير علم، فقد بيَّن الله ذلك في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن النار مظلمة، لقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الكاذبين على الله مقرُّهم النار، لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** تحريمُ الكِبْر، لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تكبُّر عن الحق، تكبُّر على الخلق، ويدل لهذا التنويع: أن النبي ﷺ قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»، فقوله: «بَطَرُ الحَقِّ» تكبُّرٌ عن الحق، «وَغَمْطُ النَّاسِ» تكبُّر على الخلق، وأيهما أعظم؟ الأول: التكبُّر عن الحق؛ لأن الثاني داخلٌ فيه، فإن التكبُّر على الخلق تكبُّرٌ عن الحق؛ إذ إن الحق يأمرك أن تكون متواضعًا للحق وللخلق.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم التكبُّر؛ لأن عقوبة المتكبرين دخول النار؛ بل إذا كان التكبُّر تكبرًا مطلقًا فإن عقوبته: السكنى في النار، والخلود في النار، أما من تكبَّر مطلق التكبُّر فهذا لا يُحكَم له بالخلود في النار؛ لأنه قد يتكبَّر عن بعض الحق، أو يتكبَّر على الخلق، فلا يستحق الخلود فيها، والله أعلم.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١].

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عقابَ الذين كذبوا على الله بيَّن ثواب الذين اتقوا الله عز وجل، وهذا دَأْبُ القرآن الكريم؛ أنه إذا ذكر الشيء ذكر مُقابِلَه، وهو من معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ قال العلماء: ﴿مَثَانِيَ﴾ أي: تُثَنَّى فيه المعاني، فإذا جاء وصف المؤمنين جاء وصف الكافرين، وإذا جاء ثواب المؤمنين جاء ثواب الكافرين، وكذلك بالعكس، وذلك من أجل ألَّا يستغرق الإنسان في جانب الرجاء إذا ذُكِر وصف المؤمنين وثوابهم، وكذلك لا ييأس إذا ذُكِر وصف الكافرين وعقابهم.

هنا يقول الله عز وجل ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ من أي شيء؟ الجواب: من عقاب الكافرين، فلا تكون وجوههم مسودَّة، ولا يكون مثواهم جهنم، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى أن يوم القيامة تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه، تسودُّ وجوه الكافرين، وتبيضُّ وجوه المؤمنين، فيُنجِّي الله الذين اتقوا من عقاب الكافرين في هذا وفي هذا.

وقول المؤلف: [﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ من جهنم] صحيح، لكن لو قال: من عقاب الكافرين لكان أعمَّ، ليشمل النجاة نجاتهم من جهنم، ومن أن تكون وجوههم مسودة، ومن غير ذلك.

قال: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الشرك]، والصواب: أن يقال في هذا: اتقوا الله؛ لأن التقوى عند الإطلاق إنما يراد بها: تقوى الله عز وجل، وقد تُذكَر في غير الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وأشباه ذلك، لكن عند الإطلاق لا يراد بها إلا تقوى الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [أي: بمكان فوزهم من الجنة بأن يُجعَلوا فيه] فأفادنا رحمه الله بهذا التفسير أن الباء بمعنى: في؛ أي: يُنجِّي الله الذين اتقوا من العذاب في مكان فوزهم، وهو: الجنة، والباء تأتي بمعنى: في في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالليل يعني: في الليل.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا من نجاتهم، أنه لا يمسهم السوء؛ أي: لا

يمسهم شيء يسوؤهم لا من عقاب، ولا من توبيخ، ولا غير ذلك، ولهذا إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويقال: إن لكم أن تنعموا، وإن لكم أن تصحُّوا، وإن لكم أن تحيَوا؛ يعني: فلا تموتوا، ولا تسقموا، ولا تبأسوا، دائمًا هم في نعيم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون على ما سبق؛ لأن الحزن يكون على ما مضى، والغم يكون للمستقبل، أما المستقبل فقال: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، وأما الماضي فقال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم لم يُفرِّطوا فيه؛ بل عرفوا قدر الزمن، وعملوا فيه ما نجوا به من عذاب الله عز وجل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضل الله سبحانه وتعالى على المتقين؛ حيث يُنجِّيهم إلى مكان فوزهم.

٢ - **ومنها:** فضيلة التقوى، وآثارها، وثمراتها، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من ثمراتها شيئًا كثيرًا.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الناجين لا يمسُّهُم سوءٌ في المستقبل، ولا يحزنون على شيء مضى، وبذلك يتمُّ نعيمهم؛ لأن النعيم ينقص إذا أصاب الإنسان همٌّ أو غمٌّ للمستقبل، وينقص أيضًا إذا أصابه حزنٌ على الماضي، أما إذا عرف أنه كسب الماضي، وأنه لن يناله سوء في المستقبل فسوف يتمُّ له النعيم.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجملة هذه اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأن الله تعالى دائمًا وأبدًا هو الخالق، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: مُوجِدُه على الصورة التي أرادها الله عز وجل، والخلق في الأصل بمعنى: التقدير، ولكنه يُطلَق على الإيجاد المقرون بالتقدير والتسوية، والإحكام والنظام، فهنا الخلق يراد به: الإيجاد على وجه كامل بتقديره بتسويته وتنظيمه.

وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال بعض الناس: يُستثنَى من ذلك نفسه، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأنه من المعلوم أن الفاعل ليس المفعول، وحينئذٍ لا يحتاج إلى استثناء، الاستثناء يحتاج

في جملة يكون فيها المُستثنَى داخلًا فيها؛ أما هنا فلا يمكن أن يكون داخلًا فيها، لماذا؟ الجواب: لأن الفاعل غير المفعول، فالخالق غير المخلوق، ولا يمكن أن يوجد مخلوقٌ ويوجِد بعده خالقه مثلًا، حتى نقول: إن الجملة تحتاج إلى استثناء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وهو؛ يعني: الله عز وجل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ قال المفسر: [مُتصرِّفٌ فيه كيف يشاء]، ولو قال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظٌ عليه مُدبِّر له لكان أعم؛ لأن الوكيل في اللغة: هو الذي وُكِلَ إليه الشيء حفظًا وتدبيرًا، والله عز وجل على كل شيء وكيل حفظًا وتدبيرًا، وهنا لا يقال: كيف كان وكيلًا، ومن الذي وكَّلَه؟ نقول: إذا كان الوكيل بمعنى: الحفيظ المدبر، فلا حاجة إلى استحقاقه؛ بل هو الذي تولى ذلك بنفسه.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية** عموم خلق الله تعالى لكل شيء، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢ - **ومنها:** الرد على القدرية الذين قالوا: إن الإنسان خالقٌ أفعالَه، ووجه ذلك: أن أفعال العباد داخلة في العموم، فهي شيءٌ من الأشياء، فتكون داخلة في العموم.

٣ - **ومنها:** أن الله خالقٌ للأعيان والأوصاف؛ لأن الأعيان شيء، تُسمَّى شيئًا، والأوصاف تسمى أيضًا شيئًا.

٤ - **ومن فوائدها:** عناية الله سبحانه وتعالى بما خلق؛ لأنه لما ذكر أنه خلق كل شيء بيَّن أنه على كل شيء وكيل، وهذا يدلُّ على عناية الله بخلقه تبارك وتعالى.

٥ - **ومنها:** أن ما يُصيب الناس من البلاء والفتن فإنه من الله، ومن مقتضى وكالته، لعموم قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، ومعلوم أن الإنسان إذا آمن هذا الإيمان فإنه سيسهُل عليه كل ما صعب، وإذا آمن أيضًا أنه بالصبر والاحتساب تنقلب هذه المصائب نعمًا هانت عليه أيضًا، ولهذا لا نجد أحدًا أعظم راحة ممن آمن بالقدر خيره وشره، فإنك تجد الإنسان وإن تقلَّبَت به الأحوال تجده راضيًا مطمئنًا، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له.

قال الله تعالى:

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الزمر:٦٣].

التفسير

قوله: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [أي: مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما]، ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ﴾ المقاليد: جمع مقلاد، وهو ما يُقلَّد به الشيء، والمؤلف جعل المقاليد هنا بمعنى: المفاتيح، ولو أنه قال: له مقاليد السماوات والأرض؛ أي: تدبير السماوات والأرض لكان أولَى؛ لأن كلمة مفاتيح قد يظنُّ الظانُّ أنه يملك المفاتيح دون التدبير، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو بيده مقاليدُ السماوات والأرض؛ أي: تدابيرهما كما يشاء.

ثم قال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ خبرها، وعلى هذا فتكون هذه الجملة تتضمَّن جملتين: كبرى وصغرى، الكبرى هي المكونة من المبتدأ والخبر، والصغرى هي التي وقعت خبرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ مبتدأ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ مبتدأ آخر، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ خبر المبتدأ آخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره.

خبر المبتدأ الأول، وفائدة الإتيان بهذا التركيب: أنه أُسنِدَت الجملة الثانية إلى الأولى حتى صارت الجملة جملتين في المعنى.

أما قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ فـ﴿هُمُ ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وفائدته أولًا: التوكيد، والثاني: الحصر، والثالث: التمييز، وإن شئت قل: الفصل بين كون ما بعده خبرًا أو وصفًا، فإنك إذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، فإن كلمة الفاضل تحتمل أن تكون خبرًا، أو أن تكون صفة إذا حذفت هو، إذا قلت: زيد الفاضل، فربما يترقَّب الإنسان كلمة أخرى تتم بها الجملة، ويعتقد أن الفاضل صفة، فإذا قلت: هو الفاضل زال هذا التوقُّع، وعلم أن ما بعده هو خبر مبتدأ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القرآن]، وهذا فيه شيءٌ من القصور؛ لأن آيات الله عز وجل في القرآن وفي غير القرآن، ثم الآيات كونية وشرعية، والكفر يكون بهما جميعًا؛ أي: بالآيات الكونية والآيات الشرعية، ويكون بالقرآن وبالتوارة وبالإنجيل وبغيرها من الكتب

التي أنزلها الله عز وجل، فالأولَى العموم؛ أن يقال: كفروا بآيات الله الكونية والشرعية، القرآن وغير القرآن، وأصل الكفر: الجحْد، ومنه الكُفُرَّى الذي هو وعاء طلع النخلة؛ لأنه يستر الطلع ولا يتبيَّن، والكافر جاحدٌ ساترٌ لحق الله عز وجل ولنعم الله عز وجل، وكفرهم بآيات الله يكون تارة بالتكذيب، وتارة بالاستكبار، ففي مقابل الأخبار يكون بالتكذيب، وفي مقابل الأمر والنهي يكون بالاستكبار.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أولاء اسم إشارة، وهنا المشار إليه بعيد أو قريب؟ المشار إليه بعيد؛ لأن الكاف لا تأتي إلا إذا كان المشار إليه بعيدًا، فإنها تأتي الكاف لتنبيه المخاطب إلى المشار إليه لبُعْده، أما إذا كان المشار إليه قريبًا فإنه لا يؤتى بالكاف؛ بل يقال: أولاء مثل هؤلاء، ويقال: هذا، لكن إذا كان بعيدًا فإنه يؤتى بالكاف؛ لماذا؟ لتنبيه المُخاطَب إلى المشار إليه؛ لأنه لا شك أن الإنسان إذا خُوطِب كان ذلك أبلغ في تنبيهه، أولئك إذا قلت الكاف سينتبه، وينظر من هذا المشار إليه، فإذا كان لا يكون إلا البعيد، فالبُعْد إما علو، أو سُفل، وإما حِسِّي وإما معنوي، فالأقسام إذن أربعة، فما هو القسم الذي ينطبِق على الذين كفروا هنا؟ البعيد سُفولًا، معنوي أو حسي؟ الجواب: معنوي؛ وفي النار حسي، لكن في الدنيا معنوي؛ لأنه قد يكون كافرًا وهو في قمة الجبل، إذن الكفر قلنا: إنه يتضمن شيئين: إما الجحود، وإما الاستكبار.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هم لا غيرهم، الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة، أما خُسْران الآخرة فظاهر، وأما خُسْران الدنيا فإنهم إنما خُلِقوا لعبادة الله، وهل قاموا بعبادة الله؟ لا، إذن خَسِروها أو لا؟ خَسِروا المعنى الذي من أجله خُلِقوا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال المُفسِّر: [مُتصل بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض]، متصل يعني: معنىً بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هذا ما ذهب إليه رحمه الله، ولكن هذا قد يُنازَع، قد يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هو المتصل بما قبله، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ الصواب: أن يُنجِّي متصل بما قبله، لما ذكر الذين كذبوا على الله أن وجوههم مسودة، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أما هذا فليس له صلة بما ذُكِر؛ بل صِلَتُه بما قبله مباشرة أبيَن وأظهر؛ لأن الله قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: فبعد هذا البيان وبعد الإقرار إقرار الكفار بأن الله خالق كل شيء لا

يبقى لهم عُذْرٌ إذا كفروا؛ بل هم الخاسرون، فتكون هذه الآية متصلة بما قبلها مباشرة، وليست متصلة بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ لأن هذه الآية: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ متصلة بما قبلها، وهذا هو مقتضى النظم القرآني، أما أن نُشتِّت الآيات ونقول: كل هذه الجملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل هذا جملة اعتراضية، أو كل هذا اعتراضٌ لا محل له هنا، فلا شك أن هذا خلاف ما يقتضيه النظم والسياق القرآني، فالصواب: أن هذه الجملة متصلة بما قبلها، ووجه الاتصال: وأنه خالق لكل شيء، وهم يقرون به، فصار هؤلاء الذين يقرون بأن الله خالق كل شيء، وأن له مقاليد السماوات والأرض، وكفروا به، يكونون خاسرين لا شك، هم أخسر الناس، كيف يقرون بأن الله خالق كل شيء، وأن لها مقاليد السماوات والأرض، ثم يكفرون بآياته، كان مقتضى هذا الإقرار أن يؤمنوا بآياته، ولكنهم خسروا، فكفروا بآيات الله.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر:٦٣].

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن المُدبِّر للسماوات والأرض هو الله وحده، ووجه كونه وحده: أنه قدَّم الخبر في قوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ وتقديم الخبر يفيد الحصر.

٢ - **ومن فوائدها:** لفتُ نظر الإنسان إلى ألَّا يستعين إلا بالله، ولا يسأل إلا الله، ولا يتوكَّل إلا على الله، وجه ذلك: أنه هو الذي له مقاليد السماوات والأرض، فإذن لا تلفت إلى غيره، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

٣ - **ومن فوائدها:** أن الكافرين هم الخاسرون وإن كانوا في الدنيا قد ربحوا الجولة، فإنهم خاسرون دنيا وأخرى، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بآيات الله، ووجه الدلالة: أنه إذا كان الوعيد على من كفر بها دلَّ ذلك على وجوب الإيمان.

٥ - **ومنها:** تحريم الكفر لكونه سببًا للخسارة، فإذا قال قائل: أين في الآية لفظ يحرُم؟ قلنا: التحريم يُستفاد بعدة طرق؛ منها: النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، ومنها: التصريح بالتحريم؛ مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، ومنها: نفي الحِلِّ؛ مثل: قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، ومنها: الوعيد على الشيء، ومنها: بيان فوات الخير، وطرق إفادة التحريم متعددة، لكن من جملتها: ترتيب الخسران على فعل الشيء يدلُّ على أنه حرام.

٦ - **ومن فوائدها:** ربح الذين آمنوا وأنهم هم الرابحون، وذلك من مفهوم خسارة الكافرين

أن يكون الربح للمؤمنين، وقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الآية: ٦٤].

❁ التفسير ❁

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف، وهنا يُشكِل علينا على هذا الإعراب ما اشتهر من أن همزة الاستفهام لها الصدارة، وهنا قال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾، فإذا كان لها الصدارة فكيف تأتي الفاء بعدها الدالة على أن الجملة معطوفة؟ فالجواب: أن في ذلك لعلماء النحو وجهين: الوجه الأول: أن الهمزة للاستفهام، وأنها داخلة على جملةٍ معطوفٍ عليها، وتُقدَّر هذه الجملة بما يُناسِب السياق، وعلى هذا فيكون التقدير في هذه الآية: قل أتجهلون فغير الله تأمروني أعبُد أيها الجاهلون، ويُقدَّر في كل موضع ما يناسبه، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التقدير: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض، وقيل: إن الهمزة للاستفهام، وأن الفاء مزحلقة عن مكانها، والتقدير: فأغير الله، فتكون هذه الجملة معطوفة على ما سبق، ولكن المعنى الأول إذا تيسَّر وأمكن أن يُقدَّر شيء مناسب فإنه أولى.

يقول المؤلف في إعرابه: [(غير) منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ المعمول ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ بتقدير أن بنون واحدة وبنونين، بإدغام وفك] هذا على قوله: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾، يقول المؤلف في الإعراب: إن (غير) منصوبة بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، والتقدير: أأعبد غير الله، هذا معنى الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فيها قراءات، أولًا: قراءتها بنون واحدة: تأمرونِي، ثانيًا: قراءتها بنونين بإدغام: تأمرونِّي، ثالثًا: قراءتها بنونين بدون إدغام: تأمرونَنِي.

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ يعني: أتأمرونني أعبد غير الله ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: الجاهلون بحقيقة ما يجب لله عز وجل وبحقيقة عبادة الأصنام، ويحتمل المعنى المراد بقوله الجاهلون: أي: السفهاء؛ لأن الجهل تارة يراد به: السفه، وتارة يراد به: عدم العلم، وإذا كان المراد به: السفه فإنه يسمى: جهالة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ يشمل كل ما سوى الله؛ من حي وميت، وصالح وفاسد،

وجماد وحيوان، ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أيُّ منادى، والجاهلون وصفٌ لأيٍّ ولهذا جاءت مرفوعة، والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، بدليل قوله: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** جهالة أولئك الذين يأمرون بعبادة الأصنام.

٢ - **ومنها:** أن هؤلاء الجاهلين حاولوا أن الرسول نفسه أن يعبد الأصنام مع أنه إنما جاء بتوحيد الله عز وجل وحده.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرب عز وجل عبادته علم، وعبادته رشد؛ لأنه إذا كانت عبادة غيره جهلًا فعبادته علم ورشد.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه إذا كان المشركون يحاولون أن يشرك النبي ﷺ، فما بالنا بمن جاءوا بعد هؤلاء المشركين، إنهم سوف يحاولون أن نشرك أكثر من محاولتهم إشراك النبي ﷺ.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: الحذر من دعاة الشرك والكفر؛ مثل: دعاة النصرانية اليوم، فإن النصارى - عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة - يحاولون بكل ما يستطيعون أن يُضلِّلوا المسلمين، وأن يُنصِّروهم، وإذا عجزوا عن ذلك، فعلى الأقل أن يخرجوهم من دينهم، وإن لم يدخلوا في النصرانية، وهذا الآن واضح، فتجدهم يُنشِئون الإذاعات القوية الواضحة من أجل دعوة المسلمين إلى النصرانية، وتجدهم يكتبون الكتابات الكثيرة، من رسائل وكتب أكبر يبثُّونها بين المسلمين، وتجدهم أيضًا يكتبون الإنجيل كتابةً ككتابةِ المصحف تمامًا مُفسَّرًا مُعْرَبًا مُشَكَّلًا، حتى يظنَّه العامي من الناس الذي لا يعرف شيئًا عن القرآن يظنَّه هو القرآن، وتجدهم أيضًا يذهبون إلى البلاد الفقيرة العاجزة، ويُنشِئون فيها المدارس، والمرافق، ثم الكنائس، من أجل جذب المسلمين، فالمهم: أن أعداء المسلمين لا يألون جهدًا في إخراج المسلمين عن دينهم إلى ملتهم التي كانوا عليها، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الشرك مُحبطٌ للعمل ولو وقع من أفضل الخلق، لقوله: ﴿لَئِنْ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذا الحكم ثابت في جميع الشرائع، لقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** عِظَمُ الشرك، وأنه أفسد أنواع المعاصي، ولهذا يُحبِطُ العمل كله.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات الوحي للرسول ﷺ، ولمن سبقه من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الشرك سببٌ للخسران في الدنيا والآخرة، لقوله: ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الكفار وإن رَبِحوا في الدنيا، فإنهم في الحقيقة خاسرون في الدنيا والآخرة؛ لأنهم لم ينتفعوا في الدنيا بما خُلِقوا له، فلذلك كانوا خاسرين، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

قال الله تعالى:

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦].

التفسير

﴿ بَلِ ﴾ هذه للإضراب، إضراب الإبطال أو الانتقال؟ إضراب الإبطال؛ لأن الإضراب عندهم نوعان: نوعٌ يراد به: إبطال ما سبق وإثبات ما لحق، ونوع يراد به: الانتقال من شيء إلى آخر، مثال الأول: هذه الآية، ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ فهنا انتقالاتٌ من سيء إلى أسوأ، ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾ أي: بَعُدَ علمهم في الآخرة، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾، وهنا يقول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ هذا إضراب إبطال لما سبق من الشرك؛ يعني: بل دعِ الشرك فإنه باطل واعبُد الله.

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ قال المؤلف: [وحده]، فمن أين أخذ هذه الوحدانية المفيدة للحصر؟ الجواب: أخذها من تقديم المعمول، والقاعدة في البلاغة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، ومعلوم أن المفعول به حقُّه التأخير، فإذا قُدِّم على عامله أفاد الاختصاص والحصر؛ أي: بل الله وحده.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْ ﴾ الفاء يقولون: إنها جيء بها لتحسين اللفظ، ولو حُذِفَت في غير القرآن

لاستقام الكلام، لكنها في القرآن لا تُحذَف؛ لأنه نزل من عند الله ولا يمكن تغييره، إنما التعبير بمثل ذلك يُسمُّون هذه الفاء: فاء التزيين، ولها نظير؛ مثل قولهم: عندي كذا وكذا فقط؛ أي: قط، والفاء لتحسين اللفظ.

وقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ اعبد فعل أمر؛ أي: تذلَّل لله، واعلم أن العبادة تُطلَق على معنيين: المعنى الأول: التعبُّد، والمعنى الثاني: المُتعبَّد به، أما التعبُّد فمعناه: التذلُّل لله تعالى محبةً وتعظيمًا بالقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، فإذا رأينا شخصًا يصلي مثلًا قلنا: هذا يتعبَّد؛ أي: يتذلَّل لله تعالى بإقام الصلاة، وتُطلَق على المتعبد به؛ أي: على نفس المفعول، وعرَّفها شيخ الإسلام على هذا المعنى بقوله: العبادة اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وعلى هذا فالصلاة نفسها نُسمِّيها: عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، والإحسان إلى الفقراء عبادة، وهكذا، فقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْ﴾ أي: تذلَّل له بفعل عبادته، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [إنعامه عليك]، كن فعل أمر، ومن الشاكرين أي: من الذين يشكرون الله، واعلم أن (ال) إذا اتصلت بمشتق فإنها تكون اسمًا موصولًا من الأسماء الموصولة العامة، فهي بمنزلة مَنْ، وبمنزلة ما، إذا اتصلت بمشتق؛ مثل: الشاكر، والمشكور، والأحسن، وما أشبهها، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ مفيدة للعموم؛ أي: من القائمين بشكر الله، فإن قيل: ما هو الشكر؟ قيل: إن الشكر هو القيام بطاعة المُنعِم عقيدةً وقولًا وفعلًا، ولهذا قال الشاعر:

أفـــادَتْكُـمُ النعماءُ منِّي ثلاثـــةً يدِي ولســـاني والضَّمِيرَ المُحجَّبا

يعني: أنكم ملكتم بإنعامكم عليَّ قلبي ولساني وجوارحي، فإن قال قائل: هل الشكر هو الحمد أو غيره؟ قلنا: بينهما عمومٌ وخصوصٌ، يجتمعان فيما إذا كانا في مقابلة نعمة، فإن الحمد هو الشكر؛ لأنه ثناءٌ على الله باللسان، فإذا أكل الإنسان أو شرب فقال: الحمد لله، كان بذلك شاكرًا وحامدًا، وينفردُ الحمد بوصف الله تعالى بالكمال دون مقابلة نعمة، فإذا أثنَيتَ على الله بأنه الحي العظيم، وما أشبه ذلك فهو حمد وليس شكرًا؛ لأنه ليس في مقابل نعمة، لكن ربما نعتبره شكرًا باعتبار أنه عبادة، والقيام بطاعة المُنعِم من الشكر، وإذا أثنيت على الله عز وجل؛ بل وإذا قمت بطاعة الله عز وجل جزاءً على نعمته ولم يكن في ذهنك وصفه بالكمال صار ذلك شكرًا له، وعلى كل حال، قد يعسُر انفراد أحدهما عن الآخر؛ وذلك لأن الثناء نفسه وإن لم يكن في مقابلة نعمة يعتبر شكرًا؛ لأنه قيام بطاعة المُنعِم.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ما نافية، و﴿ قَدَرُوا۟ ﴾ بمعنى: عظَّموا، ولفظ الجلالة مفعول لـ (قَدَر)، و﴿ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ مفعول مطلق؛ لأنه أُضِيف إلى المصدر، والمُضاف إلى المصدر يُسمَّى: مفعولًا مطلقًا؛ لأنه بمنزلة المصدر، وعلى هذا فنقول: ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: حقَّ تعظيمه، قال المفسر: [ما عَرَفوه حق معرفته، أو ما عظَّموه حق عظمته حين أشركوا به غيره]، الصواب: الثاني؛ أن المعنى: ما عظَّموه حق عظمته حين أشركوا به غيره، ودليل ذلك: أن هؤلاء عرفوا الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، لكن هل عظَّموا من عرفوه حق تعظيمه؟ لا؛ لأن من عظَّم الله حق تعظيمه لا يمكن أن يشرك به أحدًا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الواو للحال، ويجوز أن تكون استئنافية لبيان عظمة الله، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ ﴾ مبتدأ، و﴿جَمِيعًا ﴾ حال، و﴿قَبْضَتُهُۥ ﴾ خبر المبتدأ؛ يعني: أن الأرض كلها جميعها كل الأراضين السبع تكون يوم القيامة قبضته.

قال المُفسِّر: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ حال؛ أي: السبع]، جميعًا حال من أين؟ حال من الأرض، وبهذا نعرف أنه يجوز مجيء الحال من المبتدأ قبل الإتيان بالخبر، فتقول مثلًا: زيدٌ قائمًا خيرٌ منه قاعدًا.

وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ﴾ [أي: مقبوضة له؛ أي: في مُلكِه وتصرُّفه]، ففسَّر المؤلف القبض بمعنى: المُلك والتصرُّف، وفي هذا نظرٌ ظاهر؛ بل هذا تحريف؛ لأن الملك والتصرُّف كل شيء في مُلكِه وتصرُّفه، الأرض والسماء يوم القيامة وقبل يوم القيامة، لكن القبضة بمعنى: المقبوضة التي تكون في اليد تحيط بها اليد، فيقال مثلًا: قبضة من طعام، ما معنى: قبضة من طعام؟ يعني: أن الإنسان يقبض الطعام بيده، فالأرض يوم القيامة قبضة الله عز وجل، وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في حديث عبد الله بن مسعود في قصة النبي ﷺ مع حبر من أحبار اليهود أن الله يجعل الأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والجبال على إصبع .. إلخ، فالصواب المُتعيَّن: أن يقال: المراد بالقبضة: أنها في قبضة يده عز وجل.

فإن قال قائل: وهل يجوز لنا أن نُمثِّل هذه القبضة؛ بحيث نأخذ تمرة أو تفاحة ونضعها في أيدينا ونقول: قبضته، ثم نقبض على التفاحة أو التمرة؟ الجواب: لا؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان هذا تمثيلًا لقبضة الله سبحانه وتعالى للأرض، وهذا لا يجوز، أما أن نُبيِّن معنى القبضة فلا بأس، بأن نقول: القبضة هي: وضع الشيء في اليد ثم قَبْضُه بها، لكن نُكيِّف كيف قبض الله تعالى على الأرض، هذا خلاف معتقد أهل السنة والجماعة كما هو معروف للجميع.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذه ظرف للقبضة؛ أي: أنها تكون قبضة له يوم القيامة، ويوم القيامة هو اليوم الذي يُبعَث فيه الناس من قبورهم لله عز وجل، وسُمِّي بهذا الاسم لوجوه ثلاثة: لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين، إقامة العدل يوم يقوم الأشهاد.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ قال المؤلف: [مجموعات] ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ [بقدرته] الطيُّ معروف: عطف الثوب بعضه على بعض يُسمَّى: طيًّا، ومنه: طيُّ الورقة إذا فرغ الكاتب منها طواها؛ يعني: عطف بعضها على بعض، وقد شبَّه الله عز وجل طيَّه للسماوات بطيِّ السجل للكتب، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، فتبارك الله رب العالمين، هذه السماء العظيمة الواسعة الأرجاء التي ورد أن سُمكَها خمس مائة عام، يطوي الله عز وجل السماوات كما يطوِي السجل للكتب، أو كما يُطوَى السجل للكتب ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يعني: كما يطوي السجل، وهو: كاتب القاضي، أو كما يُطوَى السجل الذي تكتب فيه القضايا.

وقوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ وحذف الفاعل أو أتى بصيغة اسم مفعول للعلم بالطاوي، وهو الله، كما تُفسِّره الآية الأخرى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال المؤلف: [مجموعات]، وهذا فيه نظر؛ لأننا نقول: هي مجموعة طيًّا، وإذا فسَّرناها بالمجموعات فإننا لم نُفسِّر تفسيرًا دقيقًا؛ لأن الشيء قد يكون مجموعًا بلا طي، ولكن إذا كان مطويًّا فهذا معنىً زائد على مجرد الجمع، فالصواب: أن قوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ أي: ملفوف بعضها إلى بعض.

وقوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قال: [بقدرته]، وهذا تحريف، على مذهب من لا يؤمنون بصفات الله سبحانه وتعالى الخبرية، والصواب: أن المراد باليمين: اليد اليُمنى، يطويها جل وعلا بيده اليُمنى.

وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحان اسم مصدر وفعله سَبَّح، والمصدر من سَبَّح: تسبيح، واسم المصدر سبحان، وهو منصوبٌ على المفعولية المطلقة دائمًا، ومُلازِمٌ للإضافة غالبًا، وعلى هذا فلا يُخطِئُ المرءُ في إعرابه، يُعرِبُه دائمًا على أنه مفعول مطلق لفعلٍ محذوف،

والتقدير: يُسَبِّح تسبيحًا، وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ما معنى التسبيح؟ قالوا: معنى التسبيح: التنزيه؛ لأنه من سَبَح يسبحُ إذا بعُدَ في الماء، فالتنزيه: الإبعاد عن السوء، وعلى هذا فمعنى سبحان الله؛ أي: تنزيهًا له، وعمَّا يُنزَّه الله؟ عن شيئين: عن مماثلة المخلوق، وعن كل نقص وعيب في صفاته، فقدرته مثلًا مُنزَّهة عن العجز، وعِلمُه مُنزَّهٌ عن الجهل والنسيان، وقوته مُنزَّهة عن الضعف، وهلُمَّ جرًّا، يدُه مُنزَّهة عن مماثلة المخلوقين، وجهه كذلك.

وقوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: ترفَّعَ لعظمته عما يشركون معه، ولا شك أن هذا هو الواقع.

الفوائد:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوبُ إخلاص العبادة لله، لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾.

ويتفرَّع على هذه القاعدة: أن الإنسان لو أشرك بالله لحبط عمله، لماذا؟ الجواب: لأنه إذا أشرك بالله عَمِلَ عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وهذا بقطع النظر عن الآية السابقة التي أشرت إليها ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فهذا النص صريح.

٢ ـ **ومن فوائدها**: وجوبُ الشكر على كل أحد، لقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وإذا وجب الشكر حرُم ضدُّه، وهو: الكفر.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الإخلاص لله تعالى من شكره؛ لأنه أعقَبَ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١ ـ **ومن فوائد الآية الثانية**: بيانُ عظمة الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن من أشرك بالله فإنه لم يُعظِّم الله حق تعظيمه؛ بل بالعكس، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: حسن التعليم في القرآن الكريم؛ لأنه لما نفى عنهم أنهم قد قدروا الله حق قدره بيَّن وجه ذلك: أنه عز وجل أعظم من كل شيء ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أنه يجبُ أن يُعظِّم الله حق تعظيمه، ولكن قد يقول قائل: إن هذا فيه مشقَّةٌ عظيمة؛ لأن الله أعظم وأجلُّ من أن يُحيط به عمل العبد، ولهذا لما نزل قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ صعُبَ ذلك على الصحابة، من الذي يتقي الله حق تقاته؟ فيقال: إن

هذه الآية الكريمة مُقيَّدة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وإلا فمَنْ الذي يُحصِي أن يُعظِّم الله حق تعظيمه على الوجه الذي أراد الله عز وجل؟ ولكن نقول: إن تعظيم الله حق تعظيمه يكون بامتثال أمره، وهذا حاصلٌ بقدر المستطاع، لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** إثبات اليد لله، لقوله تعالى: ﴿قَبْضَتُهُ﴾، وقوله: ﴿بِيَمِينِهِ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن الأرض يوم القيامة يقبضها الله عز وجل بيده، لقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن السماوات تُطوَى يوم القيامة، لقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

٨ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يطوي هذه السماوات على عِظَمِها كطيِّ السجل للكتب.

٩ ـ **ومن فوائدها:** تنزيهُ الله عز وجل عن كل نقصٍ وعيب، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، وكذلك تنزيهه عن مماثلة المخلوقين؛ لأن مماثلة المخلوقين عيب، فإن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، قال الشاعر:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقُصُ قدْرُهُ إذا قيل: إنَّ السيفَ أمضَى من العصا

فكيف إذا قيل: إن السيف مثل العصا؟ فتمثيلُ الله عز وجل بالمخلوق تنقص له؛ لأن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** إثبات علو الله، لقوله: ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وعلو الله تعالى ينقسم إلى قسمين: علو ذات، وعلو صفة، أما علو الصفة: فلم يختلف فيه أحدٌ من أهل القبلة، حتى أهل التعطيل يُثبِتون لله علو الصفة، لكن على اختلافٍ بينهم وبين أهل السنة في كونِ هذا الشيء عُلُوًّا أو نزولًا؛ لأنهم يَرَون أن من علو الله في صفته: نفي الصفات عنه، أما أهل السنة والجماعة فيَرَون أن من علوِّه: إثبات جميع صفات الكمال له على حسب ما ورد في الكتاب والسنة، إذن اتفق أهل القبلة على إثبات علو الصفة، لكن اختلفوا كيف يكون علو الصفة، أما علو الذات: فقد اختلفوا اختلافًا عظيمًا، حتى قال بعض من ينتسب إلى الإسلام: إثباتُ علو الذات كفرٌ، وقال أهل السنة والجماعة: إثبات علو الذات واجب، ولابد أن نُثبِت لله علو الذات كما أثبتنا له علو الصفات.

١١ ـ **ومن فوائدها:** التبايُن العظيم بين الرب الخالق العظيم وبين الأصنام المعبودة التي يُشرَك بها مع الله، لقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهًا له، وتعاظمًا، ورفعةً عما

يشرك به هؤلاء، ولهذا جاء استفهامُ التوبيخ والاحتقار لهذه الأصنام في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ يعني: أخبِروني ما الذي لهذه الأصنام بالنسبة لآيات الله العظيمة الكبرى التي رآها النبي ﷺ؟ أي: بعد أن تقرَّرت هذه الآيات الكبيرة أخبِروني ما لهذه الأصنام؟ قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ماذا تكون أمام هذه الآيات الكبيرة؟ تكون لا شيء، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقد بيَّن الله تعالى في القرآن الكريم انحطاط رتبة هذه الأصنام ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ ﴾ والآيات في هذا كثيرة تحطُّ من قدر هذه الأصنام، وتُبيِّن أن الرب عز وجل مُنزَّهٌ مُتعالٍ عن هذه الأصنام، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨].

التفسير

﴿وَنُفِخَ ﴾ النفخ معروف، والنافخ إسرافيل، وأبهمه للتعظيم؛ لأن الإبهام يأتي للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فإن هذا يدل على عِظَم ما غشيهم، النفخُ لا شك أنه أمرٌ عظيم، ولهذا لم يُبيِّن مَن النافخ، كل ما في القرآن من النفخ في الصور يأتي بصيغة اسم مفعول ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ ﴾، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ الصيغة هنا صيغة ماضٍ مع أنه مستقبل، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقُّق وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ مع أنه لم يأتِ بعد.

وقوله: ﴿فِي ٱلصُّورِ ﴾ الصور قرنٌ عظيم، قيل: إن سعة دائرته كما بين السماء والأرض، وهذا الصور ينفخ فيه إسرافيل.

وقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ قال المؤلف: [النفخة الأولى]، وهذا بناءً على أن النفخ في الصور يكون مرتين، وقيل: بل النفخ في الصور ثلاث مرات، وقد دلَّ على هذا: حديثُ الصُّور الذي ذكره ابن كثير رحمه الله بطوله في سورة الأنعام، وأن هذه الثلاث هي: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث،

لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة النمل، وهنا قال: ﴿فَصَعِقَ ﴾ ثم نفخ فيه أخرى، وقيل: بل النفخ مرتان، وهو ما مشى عليه المؤلف رحمه الله، وأن نفخة الفزع هي نفخة الصعق، وأن الناس إذا سمعوه أول مرة فزعوا، ثم يُطيل في النفخ، فيُصعَقون، يموتون بعد الفزع، وعلى هذا فيكون النفخ مرتين: الأولى فزعٌ ثم صعق؛ لأنه يطيل النفخ ثم يصعق الناس، ولا شك أن شيئًا يصعق الناس منه لابد أن يكون شيئًا عظيمًا مُزعِجًا مُرعِبًا، وهو كذلك.

وقوله: ﴿ فَصَعِقَ ﴾ قال: [مات] ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من اسم موصول تفيد العموم، وتستعمل غالبًا في العاقل، وقد تُستعمل في غيره تبعًا أو للشمول، مثالها تبعًا: قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ ومعلوم أن الذي يمشي على بطنه أو على أربع ليس من ذوي العقول، لكن أُتِي بمَنْ تَبَعًا، وقد يكون للعموم، كما في هذه الآية: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فكل مَن في السماوات والأرض من آدميين أو بهائم أو غيرها كلها تموت.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ألَّا يصعق فإنه لا يصعق، وقد اختلف العلماء: مَن هذا المُستثنَى؟ فذهب المؤلف وجماعة إلى أن المُستثنَى: [الحور، والولدان] وهم في الجنة، وقيل: الحور والولدان والملائكة، ولا يمنع منه كلام المؤلف لقوله: [وغيرهما]، وقيل: الله أعلم، نقول: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كما أبهَمَ الله عز وجل، ولا نتعرَّض للتفصيل؛ لأنه ليس هناك دليل صحيح صريح في تعيين هؤلاء المستثنين.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ والنافخ من؟ إسرافيل، وقوله: ﴿أُخْرَىٰ ﴾ مفعول مطلق؛ أي: نفخة أخرى، أو نقول: إنها وصف لموصوف محذوف، والتقدير: نفخة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾، قال: ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ [أي: جميع الخلائق الموتى] ﴿ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ينتظرون ما يُفعَل بهم]، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ الفاء حرف عطف، وإذا فجائية، والفجائية تدل على حصول ما بعدها مفاجأة، بمعنى: أنه يأتي بسرعة، ﴿هُمْ قِيَامٌ ﴾ جملة اسمية كما هو ظاهر، والغرض منها: الثبوت والاستمرار، وهي أبلغ من قوله لو قال: فقاموا؛ لأن قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ تدل على أن هذا الوصف لهم كأنه أمر ثابت من قديم مستقر مع أنهم لن يقوموا إلا في النفخة الواحدة الأخيرة، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ ﴾ قال: [ينتظرون ماذا يُفعَل بهم]، ويحتمل أن يكون المعنى: ينظرون ما حدث من النظر بالعين، وهذا الاحتمال لا يُنافِي ما ذكره المؤلِّف أو المُفسِّر، فتكون الآية شاملة لهذا ولهذا؛ أي: ينظرون بأعينهم ما حصل، وينتظرون ماذا يُفعَل بهم.

الفوائد:

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

١ - **في هذه الآية فوائد، منها:** إثبات النفخ في الصور، وأنه واقع لا محالة، من قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾؛ حيث عبَّر عنه بالماضي.

٢ - **ومنها:** عِظَمُ هذا النفخ، ويؤخذ من إبهام الفاعل.

٣ - **ومنها:** أن هذا النفخ عظيمٌ في تأثيره؛ حيث يفزع الناس منه ثم يصعقون؛ أي: يموتون.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الصعق شاملٌ لكل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وهم أقل ممن يصعق؛ لأن الغالب أن المُستثنَى يكون أقل من المُستثنَى منه.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله عز وجل، وهي كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولم يُنكِرها أحد من الناس إلا فيما يتعلَّق بأفعال العباد؛ حيث أنكرها القدرية.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه يُنفَخ في الصور مرتين، لقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن النفخة الآخرة أو الأخرى يكون بها البعث، لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أن القيام من القبور يلي النفخ في الصور مباشرة، نأخذها من إذا الفجائية.

٨ - **ومن فوائدها:** أنهم - أي: الذين يقومون - يقومون وكأن لهم زمنًا طويلًا في القيام، بدليل: أنه أتى في ذلك بالصيغة الاسمية.

٩ - **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله جل وعلا؛ حيث إن الخلائق كلها تقوم مرةً واحدة بهذه النفخة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على سطح الأرض وظهر الأرض، فإذا قال قائل: ما علاقة نفخ الصور بحياة الناس، وبعثهم من القبور؟ فالجواب: أن هذا الصور مجتمع الأرواح، تُجمَع فيه أرواح الخلائق، ثم إذا حصل نفخٌ تطايَرت الأرواح ودخلت كل روح في جسدها التي كانت تعمره في الدنيا لا تُخطِئُه أبدًا، على كثرة الخلق وتفرُّقهم، فإن أرواحهم لا تُخطِئ أجسامهم، كل روح تدخل في جسدها التي كانت تعمره في الدنيا.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

❁ التفسير ❁

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ قال المؤلف: [أضاءت]، ومنه: أشرقت الشمس إذا انتشر ضوؤها، وشَرَقَت إذا برزت، يقال: شرقت الشمس إذا ظهرت على الأفق، وأشرقت إذا ارتفعت واستطال أو استطار ضوؤها، ولهذا تُسمَّى الصلاة التي بعد ارتفاعها قيد رمح: صلاة الإشراق، لا صلاة الشروق، الشروق: ظهور الشمس في الأفق، والإشراق: ارتفاعُها واتساع ضوئها، فهنا يقول: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور الله الذي هو نوره، وليس بنور المخلوق، فإضافة النور إلى الله عز وجل من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: أن الله جل وعلا ينير الأرض بنوره، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [حين يتجلَّى لفصل القضاء]، يتجلَّى أي: يظهر لفصل القضاء ويأتي عز وجل للقضاء بين العباد، وقد ورد أن الله سبحانه وتعالى يُنزِل ملائكة السماء الدنيا حتى تُحيطَ بالخلق، ثم تنزل ملائكة السماء الثانية حتى تُحيطَ بأهل السماء الدنيا؛ لأن أهل السماء الثانية أكثر من أهل السماء الدنيا؛ إذ أن السماء الثانية أوسع من السماء الدنيا، فيكون سكانها أكثر، ثم ينزل أهل السماء الثالثة فيُحيطون بمن قبلهم، وهم أكثر من أهل السماء الثانية، وهلُمَّ جرًا إلى السماء السابعة، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ نُزِّل؛ أي: نُزِّلوا شيئًا فشيئًا، أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وتشقق السماء بالغمام قال أهل العلم: إن هذا الغمام هو الذي يأتي بين يدي إتيان الله عز وجل، غمامٌ عظيم لا نعلم قدره، ولا نعلم كيفيته، ولهذا قال: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ولم يقل: تنشق؛ بل تشقَّق، كأنه شيء ينبعث منها شيئًا فشيئًا، وسيكون هذا عظيمًا، وذلك بين يدي مجيء الرب جل وعلا، ثم ينزل سبحانه وتعالى للقضاء بين العباد، وحينئذٍ تُشرِقُ الأرض بنور ربها، ولا نستطيع الآن أن نتصوَّر كيف هذا الإشراق، كيف هذا النور، وكيف هذا الغمام، هو أمرٌ لا تدركه عقولنا الآن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [كتاب الأعمال للحساب]، وُضِع؛ أي: بين أيدي الناس، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ هذا الكتاب كُتِب فيه أعمال العباد، من عمل

من خير أو شر، إلا من محا بالمغفرة أو بالتوبة فإنه لا يوجد في الكتاب، فالصغائرُ مثلًا تُكتب، فإذا صلَّى الإنسان فإن الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا، وربما يتوب الإنسان من سيئاتٍ كُتِبَت، فهذه أيضًا لا توجد في الكتاب، لا يوجد في الكتاب إلا ما وَاجَهَ الإنسانُ به ربه، وكان خُتِمَ عليه بحياته.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (الـ) هنا هل هي للعموم أو للجنس؟ هل المعنى: ووُضِع كل كتاب، أو الكتاب من حيث الجنس؟ الظاهر أن (الـ) هنا للعموم أحسن؛ يعني: وُضِع كل كتاب فأخذه صاحبه، والكتاب الذي تُكتَب فيه الأعمال يقال لصاحبه: اقرأ كتابك، أنت بنفسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وإذا قرأه فهل يمكن أن يُنكِر ما فيه؟ لا يمكن، لابد أن يُقِرَّ إلا المشركين فإنهم يُنكِرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنهم إذا رأوا أن الموحدين المخلصين نجوا من العذاب، سوَّلَت لهم أنفسهم أن يُنكِروا الشرك لعلهم ينجون من العذاب، ولكن هذا لا ينفعهم، إذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، شهِدَ عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وحينئذٍ يود الذين كفروا لو تُسوَّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [كتاب الأعمال للحساب]، وكيف يُوزَّع الكتاب؟ يُوزَّع على وجهين: الوجه الأول: أن يُعطَى باليمين، والثاني: أن يُعطَى بالشمال، فالمؤمن يُعطَى باليمين، ويقول للناس: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ يقول هذا ابتهاجًا بنعمة الله، وتحدُّثًا بنعمة الله، كما لو أُعطِي الواحد منكم نتيجته وإذا التقدير فيها: ممتاز مائة بالمائة، ماذا يفعل؟ كل واحد من الطلاب يُرِيها له انظر، وإذا كان كل رقم عليه دائرة حمراء، ماذا يقول؟ يُمزِّقُه، لكن في يوم القيامة ما يمكن يُمزِّقه، في الدنيا يمكن يُمزِّقُه أو يُخفِيه، على كل حال؛ هذا أمر جِبِلِّي طبيعي أن الإنسان يفخر بنعمة الله عز وجل، ويُرِيها الناس، فيقول: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٠] إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه، الظن هنا بمعنى: اليقين؛ يعني: أيقنت أني ملاقٍ حسابِيَه، وأن الله تعالى سيُحاسِبَني، أما من أوتي كتابه بشماله فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، كما يقول القائل للزائر الثقيل: ليتَه لم يأتِ، ليتَني ما رأيتُ وجهه، الكتاب الذي يكون بالشمال - والعياذ بالله - يعرف صاحبه ما فيه، يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، في القرآن الكريم ذكر الله سبحانه وتعالى أن من لم يُؤتَ كتابه بيمينه يأخذه بشماله، وفي آية أخرى: من وراء ظهره، فهل هما صفتان، أو صفة واحد؟ قال بعض العلماء: إنهما صفتان، وقال بعض العلماء: إنهما صفة واحدة؛ يعني: أنه يُعطَى الكتاب بالشمال من وراء الظهر، ما هو من الأمام يُعطَاه من وجهه؛ بل من وراء ظهره، فيكون في هذا تنبيهٌ له،

وتذكيرٌ له بما فعل بكتاب الله في الدنيا أنه نَبَذَ كتاب الله وراء ظهره ﴿تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كأنه يُقال له: جزاؤك من جنس عملك، وقيل: بل إن من الناس من يأخذه بشماله من قِبَل الشمال، ومن الناس من يأخذه من وراء ظهره، فتكون صفتين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من جاء بهم؟ الله عز وجل؛ لأن المُلكَ في ذلك الوقت لله، له التصرُّف فيؤتَى بالنبيين، والنبيين هنا يشمل: النبيين الذين أُرسِلوا، والنبيين الذين لم يُرسَلوا، فهو عام، والشهداء جمع شهيد، وهل المراد بالشهداء: الذين قُتِلوا في سبيل الله، أو المراد بالشهداء: الذين يُستشهَدون يوم القيامة؟ الثاني هو المراد، فمن الشهداء؟ قال المؤلف رحمه الله: [أي: بمحمد ﷺ وأمته، يشهدون للرسل بالبلاغ]، أما قوله: [أي: بمحمد ﷺ]، فظاهره أنه يريد أن يُفسِّر النبيين بمحمد، فيكون على تفسيره عامًّا أُرِيد به الخاص، وهذا غير مُسلَّم؛ بل الصواب: أنه عامٌّ باقٍ على عمومه؛ أي: يُؤتَى بالنبيين كلهم يشهدون على أممهم بأنهم بلَّغوهم، أما قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ فهو من باب عطف العام على الخاص، والمراد بهم: الذين يشهدون على الأمم وللرسل، وهم هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ فالرسل شهداء على أممهم، يقولون: يا ربنا نشهد أنك أرسلتَنا إلى أقوامنا وأننا بلَّغناهم، ولا يمكن أن يقول أحد في ذلك اليوم: هذه دعوى، فأين البيِّنة؛ لأنه لو قال مثل هذا القول، مَن يشهد؟ أعضاؤه تشهد، والله يشهد قبل كل شيء، أما الشهداء فنعم، نقول: هم أمة محمد ﷺ، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذه الأمة - ولله الحمد - تشهد على الناس في الدنيا وفي الآخرة، نحن الآن نشهد أن الله أرسل نوحًا إلى قومه، ونشهد أن قومه.

أُبلِغُوا على الوجه الأكمل، ونشهد أنه بقِيَ فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، كل هذا نشهد به بما علَّمَنا الله عز وجل في كتابه، فيوم القيامة تكون الشهادة لنا على الأمم، وقول المؤلف رحمه الله: [يشهدون للرسل بالبلاغ]، لو قال: وعلى الأمم بإقامة الحُجَّة لكان هذا خيرًا، كذلك أيضًا نحن نشهد على الأمم بأنهم بُلِّغُوا وأُقيمت عليهم الحجة، فلنا شهادتان: شهادة للرسل، وشهادة على الأمم، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [أي العدل]، من القاضي؟ الله عز وجل، لكن أبهمه للتعظيم، وهو معلوم، ليس هناك ضرورة للتعيين لأنه معلوم أن القاضي هو الله رب العالمين، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الناس، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا، يقضى بين الناس يوم القيامة بالعدل، بل ليس القضاء بين الناس بالعدل، بل بين البهائم بالعدل، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام، أخبر بأنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ثم بعد

ذلك تكون ترابًا، لأنها ليس لها جنة ولا نار، لكن إظهارًا للعدل، وشفاءً لما في الصدور، لأن الشاة الجلحاء إذا نطحتها الشاة القرناء صار في قلبها شيء، لكنها لا تستطيع أن تقتص، لأن هذه لها قرون وهذه ليس لها قرون، لكن يوم القيامة يعطي الله سبحانه وتعالى الشاة الجلحاء قدرة حتى تقتص، أو يريها الله عز وجل كيف يقتص لها من الشاة القرناء، ولهذا قضي بينهم بالحق، يقول المؤلف أي العدل، لماذا فسر الحق هنا بالعدل ولم يفسره بالصدق؟ لأن المقام مقام حكم وقضاء، والمناسب فيه العدل، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هم: الضمير يعود على الناس، لا يظلمون شيئًا، أي لا ينقصون من حقوقهم شيئًا، بل يعطى كل إنسان حقه على وجه الكمال.

الفوائد:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

١ـ **منها:** إثبات النور صفة لله، لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

٢ـ **ومنها:** إثبات الربوبية الخاصة لله في ذلك اليوم، حيث أضاف الربوبية إلى الأرض، مع أنه رب كل شيء، وإضافة ربوبية الله تعالى إلى شيءٍ مُعيَّن تقتضي تعظيم هذا الشيء ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لما كان قوله: ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ قد يُوهِم أنه رب لهذه البلدة دون غيرها، قال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها:** إثبات الكتاب الذي كُتِبت فيه الأعمال، لقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها:** إثبات الشهداء على الناس بما عملوا، لقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** أنه يُقضَى بين الأنبياء وبين من كذَّبوهم، لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها:** أنه يُقضَى بين العالِم وأمته، لقوله: ﴿بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ والعلماء شهداء بلا شك؛ بل هم رؤوس الشهداء بعد الأنبياء، فالعالم مُبلِّغٌ عن الرسل، فيُقضَى بينه وبين من بلَّغته الرسالة بواسطته.

٧ـ **ومن فوائدها:** إثبات القضاء بين الخلق في ذلك اليوم، لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن القضاء لا حَيْف ولا جَوْر، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيعطى الإنسان حقه كاملًا.

٩ - **ومن فوائدها:** انتفاء الظلم في ذلك اليوم، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وانتفاءُ الظلم هنا ليس المراد به: نفي الظلم فقط؛ بل المراد به: إثبات كمال العدل الذي ليس فيه ظلمٌ بوجهٍ من الوجوه، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

التفسير

﴿وَوُفِّيَتْ﴾ أي: أُعطِيَت وفاءً، كما تقول: وفَّيتُه حقَّه؛ أي: أعطيتُه إياه وفاءً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كل بالضم على أنها نائب فاعل، ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: الذي عملت، ما اسم موصول، وهو مفعول ثانٍ لـ ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، والمفعول الأول: كلٌّ وإن كانت بالضم، لكن نائب الفاعل ينوبُ مناب المفعول، فلهذا صارت كُلُّ في محل المفعول الأول، و﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في محل المفعول الثاني، قال المفسر: [أي: جزاؤه]، حمله على هذا التأويل أن العمل قد مضى في الدنيا، والذي تُوفَّى النفس هو: الجزاء، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: الأمر واضح كما قال المُفسِّر، لكن ما الحكمة في أن الله عز وجل عبَّر بالعمل عن جزاء العمل؟ الحكمة في ذلك: إشارةً إلى أن الجزاء لا يتجاوز العمل، ولا ينقص عن العمل، فكأنَّهُ هو العمل، إذا كان لا يتجاوزه ولا ينقص عنه فكأنَّهُ هو العمل، وهذا هو كمال العدل، وكما تُدِينُ تُدان.

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هو الضمير يعود على الله عز وجل؛ يعني: كأن قائلًا يقول: كيف يُعلَم ما عملت النفس وقد مضت دُهورٌ ودُهورٌ، وفي العمل الدقيق والجليل، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى فلا يمكن أن يفوت شيء من عمل الإنسان، وقول المُفسِّر: [أي: عالمٌ] بما يفعلون، تفسيره أعلم بعالم يعتبر تفسيرًا قاصرًا؛ لأن أعلم أعلى درجة من عالم، فإنك تقول: زيد عالم وعمرو عالم، فيتساويان في العلم، وتقول: زيدٌ أعلم من عمرو، فيكون زيدٌ أعلم وأعلى درجة من عمرو، المؤلف الآن إذا قال: [أعلم؛ أي: عالم]، نقص من علم الله؛ لأن

كلمة عالم لا تمنع المشاركة، لكن أعلم تمنع المشاركة؛ لأنه لا يستوي الأفضل والمفضول، والعجب أننا لو سألنا سائل: لماذا عَدَلَ المؤلف عن اسم التفضيل إلى اسم الفاعل؟ قال: لأنه لا ينبغي أن يكون هناك تناسب أو مفاضلة بين الخالق والمخلوق، إذا قلت: أعلم معناه: أنك فضَّلتَ الخالق على المخلوق، فنقول له: سبحان الله، وإذا قلت: عالم، فقد سوَّيتَ الخالق بالمخلوق، فانظر كيف عدل عن ظاهر اللفظ إلى فساد المعنى؟ فجنى جنايتين عفا الله عنه، الأولى: مخالفة ظاهر اللفظ، الثاني: تنقيص الخالق في علمه، فنحن نقول: إن الله أعلم وأرحم، في القرآن الكريم: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأحكم في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بل أبلغ من ذلك أن الله قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مع العلم أنه لا أحد يظن أو يُقدِّر أن الأصنام مثل الخالق، لكن قال هذا من أجل إفحام الخصم وبيان ضلاله، أن نقول له آلله خير أم ما تشرك به.

فالحاصل: أن الواجب علينا أن نجري أعلم على ظاهرها من أن المراد بها، تفضيل الله في علمه على عباده، فهو أعلم بما يفعلون، فإن قال قائل: إن المؤلف عدل عن أعلم إلى عالم؛ لأن الناس لا يعلمون ما يفعلون فالعلم منتفٍ، وحينئذٍ لا يكون تفسيره أعلم بعالم لا يكون ضارًّا، قلنا: هذا خطأ أيضًا؛ بل العالَم يعلمون ما يفعلون، كل إنسان يعلم ما فعل، وكل من شاهد غيره أنه يفعل علم ما فعل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تارة تأتي يفعلون، وتارة تأتي يعملون، وتارة تأتي يكسبون، فهل بينها فرق؟ نقول: لا، ليس بينها فرق؛ لأن مُؤدَّاها واحد، لكن لو قيل: قول وفعل، صار القول باللسان، والفعل بالجوارح، وإذا قيل: عمل صار شاملًا للقول والفعل، وإذا قيل: قول فإنه يكون شاملًا للقول والفعل، ومنه - أي: من إطلاق القول على الفعل - قول الرسول عليه الصلاة والسلام لعمار بن ياسر: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» ثم ضرب يده بالأرض، ومعلوم أن هذا ليس قولًا؛ بل هو فعل، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال: [فلا يحتاج إلى شاهد]، نعم لا يحتاج إلى شاهد، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ لكنه سبحانه وتعالى يُقِيمُ الشهود إظهارًا للعدل وتوبيخًا للفاعل؛ لأنه إذا أُقيم عليه الشهود بعد أن أنكر صار ذلك أشد توبيخًا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية**: أن الناس يستوفون أعمالهم يوم القيامة، لقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ بعد أن قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ويدلُّ لهذا: أن استيفاء العمل يكون يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أما في الدنيا فإن الإنسان قد يُوفَّى عمله وقد لا

يُوفَّ، فالكافر مثلًا لا يمكن أن يُوفَّ جزاء عمله في الآخرة، وهو يريد جزاء عمله الصالح؛ يعني: لو أن الكافر تصدَّق، أو أصلح شيئًا ينفع المسلمين، أو فعل أي شيء يتعدَّى نفعه، فإنه لن يُجازَى عليه في الآخرة، ولكن يطعم به في الدنيا، يجازى عليه في الدنيا، ثم قد يُجازَى عليه في الدنيا ويُطعم إياه، وقد لا يُجازَى، أما المؤمن فإنه وإن جُوزِيَ في الدنيا على عمله الصالح، فإنه لن يُحرَم الجزاء في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء دنيوي لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا أخروي، المهم أن منتهى الجزاء هو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** عدل الله سبحانه وتعالى في جزائه، لقوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زيادة ولا نقص، ويُؤكِّدُ ذلك: قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإذا كان أعلم بما يفعلون وهو حَكَمٌ عدل عَلِمَ أنه لا ينقص الإنسان من أجره شيئًا.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثباتُ العلم لله، لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الله يعلم أعمال العباد كما يعمل أعمال نفسه، لقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** احتراز الإنسان من العمل بما لا يُرضِي الله، وأنه يجب عليه أن يحذر منه؛ لأن الله يعلم ذلك، والإنسان الحي القلب لا شك أنه سيخجل إذا علم أن الله يعلم عمله، فعمل ما لا يرضيه.

قال الله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

التفسير

﴿وَسِيقَ﴾ فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، هل الأَوْلَى أن نقول: مبني للمجهول، أو مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله؟ قالوا: إنه الثاني؛ لأنه قد يكون الفاعل معلومًا لكن حُذِف لغرض آخر، ولهذا كان

تعبير المُحققين من النحويين أن يقولوا: ما لم يُسمَّ فاعله، وفي هذا الفعل يقول: مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، إذن من السائق؟ الظاهر: أن السائق الملائكة، يسوقونهم إهانة، وقول المفسر: [بعنف]، دليله: قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ معنى الدعّ: الدفع بشدة وقوة، هذا كيفية سَوق الذين كفروا.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا ﴾ حذف المفعول ليعُمَّ كل ما يكفر به مما يجب الإيمان به، فإذا كفروا بالملائكة فهم داخلون في هذا، بالنبيين، بالكتاب، باليوم الآخر، بالقدر، فهم داخلون في هذه الآية، وكذلك إذا استكبروا عما يجب عليهم الإذعان به فإنهم يكفرون؛ لأن الكفر نوعان: كفر جحود، وكفر استكبار، فالتكذيب: كفر جحود، وترك العمل: كفر استكبار، والآية تشمل هذا وهذا، ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ جهنم سبق الكلام عليها، وأن العلماء اختلفوا فيها: هل هي مُعرَّبة أو عربية أصلية؟

وقوله: ﴿زُمَرًا ﴾ قال: [جماعات متفرقة]، وما وجه التفريق في هذه الجماعات؛ هل باعتبار الأمم أو باعتبار الأعمال؛ بحيث تكون الزمرة الأولى هي الكافرة المشركة، والثانية ما دونها، والثالثة ما دونها، وهكذا؟ فيه احتمال، فإن قلنا بالأول؛ أي: أن هذه الزمر باعتبار الأمم، فإن دليله: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فإن هذا يدل على أنهم يُذهَبُ بهم إلى النار أممًا، وإن قلنا بالثاني، فدليله: ما يُصنَعُ بأهل الجنة أنَّ أول زمرة تدخل الجنة وجوههم كالقمر ليلة البدر، أو على صورة القمر ليلة البدر، فإن هذا يقتضي أن يكون الزُّمَر باعتبار العمل، فالله أعلم، المهم: أن نعرف أنهم يُساقون زمرًا.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وأين شرطها؟ شرطها: جاءوها، وجوابها: فتحت؛ يعني: من حين أن يصلوا إليها تفتح، وفتحها أكره شيء إليهم - نسأل الله العافية -؛ لأنهم يَوَدُّون أن يقِفُوا على شفيرها دون أن يدخلوا فيها، ولكنهم يُفاجَئُون بفتحها، من أجل مبادرتهم بالعذاب - والعياذ بالله -، وقوله: ﴿أَبْوَٰبُهَا ﴾ جمع باب، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أن أبوابها سبع، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حسب عمله.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ خزنتها؛ أي: القائمون عليها المُوكَّلون بها، وهم ملائكة غلاظ شداد، غِلاظُ الطباع، شداد الأجسام، هؤلاء هم خزنة النار، فيهم رحمة أو ما فيهم رحمة؟ ما فيهم رحمة إلا امتثال أمر الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى في يوم القيامة لا يرحمُ الكافر؛ بل يقول جل وعلا: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فهم أبعد الناس عن رحمة الله.

وقوله: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مُوبِّخين ومُقرِّرين ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والاستفهام هنا

للتوبيخ والتقرير؛ يعني: يُقرِّرون إتيان الرسل، ويُوبِّخون هؤلاء على الكفر بهم ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: لا من غيركم، لو أرسل الله إلى البشر ملائكة لكانوا ينفرون، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ لما قالوا: أين الملائكة؟ قال الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لكن ليس من الحكمة أن يُنزّل للبشر ملك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ لو أنزل الله ملكًا، لو فُرِضَ أن الله يرسل للبشر ملكًا ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: على صورة الرجل حتى لا ينفروا منه، وهنا يقول: ﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهذا أبلغ من أنفسكم، فمحمد عليه الصلاة والسلام ممن؟ من قريش، من بني هاشم يعرفونه، ويعرفون آباءه، ويعرفون أجداده، ويصفونه بالأمين، ويثقون به، وحكَّموه حين اختصموا في وضع الحجر في مكانه في الكعبة، حتى حَكَم فيهم ذلك الحكم العدل، ولما جاءهم بالبينات قالوا: هذا الساحر، هذا الكذَّاب، هذا المجنون، هذا الكاهن، هذا الشاعر، سبحان الله ! فهو رجل منهم يعرفونه، لكن الاستكبار يأبى أن يقولوا الحق.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقريرًا وتوبيخًا وتقريعًا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ جملة ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ يجوز أن تكون حالًا، ويجوز أن تكون صفة أخرى؛ لأن قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ صفة، والنكرة إذا وُصِفَت جاز وقوع الحال منها، وجاز أن تكون الجملة صفة أخرى؛ لأنه لا مانع من تعدُّد الصفات، على أن الحال في الواقع صفة، كما قال ابن مالك رحمه الله:

الْحَالُ وَصْفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ مُفْهِمُ فِي حَالِكَ فَرْدًا أَذْهَبُ

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقرءون عليكم آيات ربكم، والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية؛ لأن المراد بها: ما نزل من الوحي، وقول المؤلف: [القرآن وغيره] يعني: يشمل كل الكتب التي أُنزلت.

وقوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يُخوِّفونكم لقاء هذا اليوم؛ حيث أخبروكم به وأخبروكم بما فيه من الأهوال العظام، فلم يبق لكم عذر، ولهذا أقرُّوا ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ يعني: قد أتانا رسلٌ منا يتلون علينا آيات ربنا، ويُنذِروننا لقاء يومنا هذا ولكن ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا هو الذي مَنَعنا من طاعة الرسل ﴿حَقَّتْ﴾ بمعنى: وجبت وثبتت، و﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ هي الكلمة التي يستوجِبُون بها العذاب، وما هذه الكلمة؟ قال المؤلف: [هي: قوله تعالى:﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] هذه هي الكلمة، أن الله تعالى التزمَ لجهنَّم بمِلئِها من الجنة والناس أجمعين، فإذا كان قد التزم للنار بمِلئها فلابد أن يَخلق لها أقوامًا يُكذِّبون

الرسل، ليستحقوا نار جهنم - والعياذ بالله -، وقيل: إن الكلمة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧] لأنها لما حقَّت عليهم كلمة الله امتنع إيمانهم، ولكن هنا يقول الإنسان: هل هذا من باب الاحتجاج بالقدر، أو من باب الاعتراف بالواقع؟ الجواب: الثاني؛ لأنه لا يمكن أن يحتجُّوا بالقدر في ذلك الموضع.

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ قيل فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، فمن القائل؟ قال بعض العلماء: إنه أبهم الفاعل ليفيد أن كل الكون يقول لهم هذا، قيل؛ يعني: من قِبَل الملائكة، ومن قِبَل أهل الجنة، ومن قِبَل كل من شاهد.

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ادخلوا فعل أمر للإهانة وليس للإكرام؛ لأن من قيل له: ادخل النار فإنه ليس بمُكرَم - نعوذ بالله -، ولكنه مُهان، ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبواب جهنم سبق لنا بنص القرآن سبعة أبواب، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الواو في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟﴾ يعني: أن الحال مُقدَّرة؛ لأن الخلود يأتي بعد الدخول، يدخلون أولًا، ثم يخلدون ثانيًا، فالحال إذا لم تكن مصاحبة تكون حالًا مقدرة، والخلود في الأصل: المُكثُ الطويل، وقيل: المُكثُ الدائم، فعلى الأول يكون ذكر التأبيد بعد الخلود تأسيسًا، وعلى القول الثاني: أن الخلود: هو البقاء الدائم يكون ذكر التأبيد بعد الخلود توكيدًا، وأيًّا كان فإن الله تعالى قد صرَّح في ثلاث آيات من القرآن أن خلود أهل النار فيها أبدي.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس فعلٌ ماض جامد لا يتصرَّف، وهو محتاج إلى فاعل وإلى مخصوص، فاعله مثوى، ومخصوصه محذوف قدَّره المفسر بقوله: [جهنم]، والمثوى: المأوى، والمُتكبِّر فسَّره أعلم الناس به محمد ﷺ بقوله: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطِ النَّاسِ»(١) فالمُتكبِّرون هم الذين يردون الحق، ويعلون على الخلق.

الفوائد:

١- **نستفيد من الآية الكريمة:** بيان إهانة الكفار عند دخولهم النار، لكونهم يساقون بعنف ويدُّعون دعًّا.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم يدخلون النار زُمَرًا، والحكمة من ذلك: أشار الله إليها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ

(١) سبق تخريجه.

أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

٣- **ومن فوائدها:** أن أهل النار يُفَاجَئُون بها، فمن حين إتيانهم تُفتَح ليكون ذلك أشد مباغتة وأشد حرارة - والعياذ بالله -، فلا يُمكَّنون من الصبر عنها طرفة عين، مع أنهم يَوَدُّون أنها لا تُفتَح، ولكن الأمر على خلاف ما يَوَدُّون، تفتح فورًا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن للنار أبوابًا، لقوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

٥- **ومن فوائدها** : أن النار مظلمة بعيدة القعر، يؤخذ من اسمها في قوله: ﴿جَهَنَّمَ ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** كمال تنظيم الله تعالى للخلق؛ حيث جعل للنار خزنة وللجنة خزنة، وهنا يقول: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الخزنة ينطقون كما ينطق البشر بخطاب مفهوم، وهل يُستفاد من هذه الآية: أن لغة أهل النار واحدة؟ ربما يقال ذلك، وربما يقال: إن لغاتهم مختلفة، وأن الملائكة لكثرتهم كل يخاطب القوم بما يفهمون من اللغة، والله أعلم.

٨- **ومن فوائدها:** اجتماع العذاب القلبي والبدني على أهل النار، أما البدني فظاهر، وأما القلبي فما يحصل لهم من التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأنتم تعلمون أن من الناس من يحب أن يُوسَّع جلده ضربًا ولا يُوبَّخ بكلمة واحدة، فالتوبيخ ليس بالأمر الهيِّن ولاسيَّما في مثل هذه الحال؛ لأنهم إذا ذُكِّروا بهذه النعمة في حال لا يتمكَّنون من استدراك ما فات كان ذلك أشد حسرة - والعياذ بالله -.

٩- **ومن فوائدها:** تمام الحجة على بني آدم بإرسال الرسل منهم، لقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ لأنهم لو كانوا من غير الجنس لم تتم الحُجَّة، لكن إذا كانوا من الجنس؛ بل من القبيلة تمت الحجة.

١٠- **ومن فوائدها:** أن الرسل صلى الله عليهم وسلَّم كانوا قد بلَّغوا البلاغ المبين، لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن ما جاءت به الرسل من الوحي حُجَّة مُلزِمة؛ لأن الله سمَّاه ﴿ءَايَٰتِ ﴾ والآية: العلامة المُعيِّنة لما دلَّت عليه، فهي حُجَّة مُلزِمة على كل من سمعها.

١٢- **ومن فوائدها:** أنه ما من رسول إلا وقد أنزل معه بكتاب، لقوله: ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾، ويؤيِّد هذا: قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ ولكن هل نحن نعلم كل كتاب أُوتيه

رسول؟ لا، ما الذي نعرف؟ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، والقرآن، ولا عجب ألاَّ نعلم إلا هذه الخمسة، كما أننا لا نعلم من الرسل إلا خمسة وعشرين، والباقون لا نعلمهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني: ليس كل الرسل قُصُّوا عليك، قال بعض العلماء: ولم يقص علينا إلا من كانوا في الجزيرة العربية، أو ما حولها، يعني: لم يقص علينا الرسل التي في أمريكا، أو في أقصى آسيا، وما أشبه ذلك، إنما قُص علينا من كانوا حولنا؛ لأن هؤلاء الذين يمكن أن نعتبر بهم أكثر من الآخرين.

١٣- **ومن فوائدها:** بيان مُقتضى الربوبية - أعني: ربوبية الله - أنها ربوبية مبنية على الرحمة، لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ وما ظنكم لو أن الله تركنا هملًا، هل تكون ربوبيته تامة؟ لا، لكنه سبحانه وتعالى لم يتركنا هملًا؛ بل أرسل إلينا الرسل، فتمَّت بذلك الربوبية التي كان مقتضاها هداية الخلق.

١٤- **ومن فوائدها:** اعتناءُ الرسل باليوم الآخر؛ حيث يُنذِرُون الناس به، ووجه ذلك: أنه إذا لم يكن يومٌ يُرجَع الناس فيه إلى الله وتُوفَّى كل نفس ما عملت فإن الناس لا يعملون، ولا يهتمون بالعمل، إذا كان الوضع أن الناس يعيشون في الدنيا ما شاء الله أن يعيشوا، ثم يموتون ولا يرجعون، فهل يمكن لأحد أن يستقيم؟ الجواب: لا، إلا بما أملاه عليه ضميره، أما أن يستقيم على ما أُمِر به، فهذا بعيد جدًّا؛ لأن الإنسان يقول: إنه سيعيش ويموت ولا شيء، لكن إذا علم وأيقن بأنه سيكون يوم يُبعَثُ فيه، ويُجازَى على عمله، فحينئذٍ لابد أن يحرص للاستعداد لهذا اليوم، ولهذا قال: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

١٥- **ومن فوائدها:** إقرار المكذبين في ذلك اليوم إقرارًا كاملًا، لقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾، وبلى هذه حرف جواب لإثبات النفي المُتقدِّم، أو لإثبات النفي المصدر بالاستفهام، فمثلًا إذا قلت: أليس زيد قائمًا؟ فقيل: بلى؛ أي: أنه قائم، لكن لو قلت: نعم، لكان المعنى لم يكن قائمًا، ولهذا يُذكَر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ لو قالوا: نعم لكفروا؛ لأنهم إذا قالوا: نعم، فالمعنى: لست بربنا، وهذا كفر، فالنفي المسبوق بالاستفهام يُجابُ بالإثبات بـ (بلى)، وبالنفي بنعم، لكن مع ذلك تأتي نعم في محل بلى، لكنه قليل في اللغة العربية، قالوا: ومنه قول الشاعر:

أليس الليل يجمعُ أمَّ عمروٍ وإيانا، فذاك لنا تداني
نعم، وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني

الشاهد من البيتين قوله: نعم؛ يعني: نعم أن الليل يجمع أم عمرو، هذه نعم في محل بلى.

١٦- **ومن فوائدها:** أن من حقَّت عليه كلمة العذاب فقد أوجب، لقولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٧-**ومن فوائدها:** أن المُكذِّبين للرسل يُبصِرون في ذلك اليوم بصرًا شديدًا، ويعلمون الحق علمًا أكيدًا؛ لقولهم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لو كان هذا الإقرار في الدنيا لنجوا من العذاب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أما في الدنيا فبصرك أعشى، لكن في الآخرة البصر حديد قويٌّ جدًّا، يرى أكثر مما يرى في الدنيا أضعافًا مضاعفة.

١٨-**ومن فوائدها:** أن الكلمة إنما تحِقُّ على الكافرين، لقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويتفرّع على هذه الفائدة: أن هؤلاء لم تحِقَّ عليهم الكلمة إلا لكفرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وعلى هذا يندفع الإشكال، فيقال: كيف حقت كلمة الله على هؤلاء دون غيرهم؟ والجواب على ذلك: أن الله علم من هؤلاء أنهم ليسوا أهلًا للهداية، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - أعاذني الله وإياكم من زيغ القلوب -، هذا وجه، والوجه الثاني أن يقال: هل ظلم الله هؤلاء حيث منعهم فضله؟ لا، ففضلُ الله يؤتيه من يشاء، وقد مرَّ علينا في الحديث في «صحيح البخاري»: أنَّ «مَثَلُنَا وَمَثَلُ مَنْ قَبْلَنَا كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَإِلَى العَصْرِ، وَإِلَى الغُرُوبِ، فَأَعْطَى الأَوَّلِينَ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، وَالآخِرِينَ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَاحْتَجَّ الأَوَّلُونَ، فَقَالَ: أَظَلَمْتُكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ».

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

١-**في هذه الآية من الفوائد:** أن هؤلاء المكذبين إذا وصلوا جهنم كأنهم - والله أعلم - يتردَّدون أو يتوقَّفون، فيقال لهم إهانة: ادخلوا أبواب جهنم، ففيه إهانة هؤلاء الكافرين عند دخولهم جهنم؛ حيث يقال: ادخلوا أبواب جهنم.

٢-**ومن فوائدها:** إثبات خلود أهل النار فيها، لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهل هذا الخلود مُؤبَّد أو إلى أمد؟ مُؤبَّد، دلَّ عليه آيات ثلاث من كتاب الله في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن، ففي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٣-**ومن فوائدها:** تقبيح مسكن النار وخُبْث سكنها، لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٤-**ومن فوائدها:** أن النار مثوى أهل الكبر، وأما أهل التواضع فمأواهم الجنة، المُتواضِعون

للحق وللخلق هؤلاء في الجنة، والمتكبرون عن الحق وعلى الخلق هؤلاء مثواهم النار.

٥- **ومن فوائدها:** التحذير من الكِبر لئلا يكون الإنسان من أصحاب النار.

٦- **ومن فوائدها:** أن الكِبْر قد يصلُ بصاحبه إلى عمل أهل النار، وإن كان يبدو قليلًا في قلبه؛ يعني: إذا رأيتَ من نفسك تكبُّرًا على أحد فعالج هذا الداء، عالِج هذا المرض قبل أن يستشري؛ لأن هذا المرض للقلب بمنزلة السرطان للبدن، إن لم تبادر بعلاجه فإنه يقضي عليك، ولا تتهاون بالكبر، الكبر خلق رذيل ذميم، وجرِّبْ نفسك إذا تواضعتَ تجد راحة وطمأنينة، تجد أنك لن تندم، لكن لو استكبرتَ على أحد ثم عُدتَ إلى عقلك لندمت واستغفرت، أما إذا تواضعتَ فإنك تجد راحة وطمأنينة، ويحصل لك في قلوب العباد محبة وألفة، فإياك والكبرياء، وعليك بالتواضع، ولِين الجانب، وإذا انضمَّ إلى ذلك: أنك تريد بهذا الوصول إلى كرامة الله عز وجل والخضوع لله فإنك تزداد ثوابًا ورفعة، قال النبي ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ»(١) ومعنى «تَوَاضَعَ لله» لها معنيان: المعنى الأول: تواضع للخلق من أجل الله؛ لأن الإنسان قد يتواضع للخلق لا لله ولكن لطمع، يتواضع له ويتخضَّع له من أجل أن ينال منه لقمة عيش، ولكن إذا تواضع لله؛ يعني: امتثالًا لأمره، فإن ذلك هو الذي يكون سببًا للرفعة، المعنى الثاني: من تواضع لله نفسه، والتواضع لله نفسه هو التواضع لدينه؛ بحيث يقبله الإنسان وهو يشعر أنه محتاج إليه ومضطر إليه، وأن مقام الدين أعلى منه.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

❁ التفسير ❁

نقول في ﴿ وَسِيقَ ﴾ ما قلنا فيما سبق: أنها فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، أو مبني لما لم يُسمَّ فاعله، وجاءت بصيغة الماضي مع أنها للمستقبل تحقيقًا لوقوعه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا

---

(١) سبق تخريجه.

تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فالماضي يأتي بصورة المضارع أحيانًا حكايةً للحال، والمستقبل يأتي بصيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه، كأنه شيء وقع ويُتحدَّث عنه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ التقوى: أن يتَّخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لأنك لو سألتَ: ما الذي يَقِي من عذاب الله؟ لقيل لك: طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه، وقيل في التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله، وقيل أيضًا في التقوى:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها، ذاك التُّقَى
واعمل كماشٍ فوقَ أرض الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقرَنَّ صغيرةً إن الجبال من الحَصَى

ولكن ما ذكرناه أولاً هو الجامع المانع أن يتَّخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فإن خالف وترك شيئًا من الأوامر، أو فعل شيئًا من النواهي، فإنه ينقص من تقواه بقدر ما أخلَّ به، وحينئذٍ يجتمع في الإنسان تقوى وعصيان، وهذا مذهبُ أهل السنة والجماعة أن الإنسان يجتمع فيه خصالُ إيمانٍ وكُفْرٍ، وخصال تقوى وفسق، ولا مانع، ولكلٍّ حكمه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ أضاف الربوبية إليهم؛ لأن ربوبية الله للمتقين ربوبيةٌ خاصة، ليست كالربوبية العامة لجميع العالمين، بل هي ربوبية خاصة؛ رَبَّاهم حتى اتقوا ربهم وقول المؤلف: [بلطف]، مقابل قوله بأهل النار: [بعنف] لأن الله صرَّح بأن أهل النار يُدفَعون دَفعًا إلى نار جهنم، أما المؤمنون فإنهم يُساقُون سوق إكرام، كأن الملائكة تحتكُّ بهم إكرامًا لهم وإجلالًا لهم.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ الجنة في اللغة: البستان الكثير الأشجار، وسُمِّي بذلك؛ لأنه يُجِنُّ من فيه؛ أي: يستره، وأصل المادة (الجيم والنون) أصلها من الستر، ولهذا سُمِّي القلبُ جنانًا؛ لأنه مستتر، وسمي الجنُّ جِنًّا؛ لأنهم مُستترون، وسُمِّيَتَ الجنة جنة؛ لأنها تستر من فيها لكثرة أشجارها، هذا في الأصل، أما في الشرع فالجنة هي: الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، زُمَرًا: جمع زمرة، وسبق معنى قوله: ﴿زُمَرًا﴾ أنهم [الجماعات المتفرقون]، وهذه الزمر على حسب أعمالهم، وقد جاء عن النبي ﷺ أن أول زمرة تدخل الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، ثم يتتابع الناس على حسب أعمالهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ حتى للغاية، إذا جاءوها؛ أي: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إذا قرأت الآية هكذا سيبقى قلبك معلَّقًا وستقول: أين جواب إذا؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ كلها جمل متعاطفة، فأين جواب إذا؟ اختلف المُعرِبُون في ذلك، فمنهم من قال: إن جواب إذا: فُتِحَت، وإن الواو زائدة، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن زيادة الواو لم يُعهَد في اللغة العربية، ومنهم من قال: إن الواو للحال، بتقدير قد؛ أي: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها، ويكون الجواب على هذا محذوف، وهذا ما ذهب إليه المُفسِّر، وقيل: الواو حرف عطف، والجواب محذوف مقدَّرٌ قبلها، والتقدير: حتى إذا جاءوها هُذِّبُوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابها، وهذا القول أصحُّ الأقوال: أن الواو للعطف وليست للحال، وأن الجواب محذوف مُقدَّرٌ قبل الواو، التقدير: حتى إذا جاءوها هُذِّبُوا ونُقُّوا وفتحت أبوابها، وهذا القول هو الراجح بدلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة: أنهم إذا عبروا الجسر الصراط الممدود على جهنم، وُقِفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعضهم، حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة، ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة؛ بل يجدونها مغلقة حتى يشفع النبي ﷺ فيفتح الله أبوابها، هذا القول هو الراجح المتعين لدلالة السنة عليه.

وقوله: ﴿أَبْوَابُهَا﴾ قد علم أن أبوابها ثمانية لقول النبي ﷺ في الوضوء: «فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[1] والعجبُ أن بعض النحويين قال: إن الواو هنا واو الثمانية، فأحدث للواو معنى جديدًا، واستدل لقوله بأمرٍ عجيب، قال: إن الله قال في القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فالواو للثمانية، فيقال: سبحان الله من أين جاء بها؟ الفائدة في قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾: تقرير ما ذُكِر؛ لأن الله قال:﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، قال العلماء: إنه قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ تقريرًا لهذا القول، ولهذا قال فيما قبله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ، وهنا لم يقل: رجمًا بالغيب؛ لأن الواو عاطفة تدل على أن ما قبلها ثابت انتقده.

وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ خزنتها المُوكَّلون بها، وهم ملائكة يقولون لأهل الجنة: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ سلام عليكم هذا خبرٌ وليس دعاءً فيما يظهر؛ لأنه لو كان دعاءً لكان القادمون هم الذين يسلمون، وهنا الملائكة هي التي تقول: سلام عليكم، فكأنها تخبرهم بأنه حلَّ عليهم السلام؛ لأن الجنة دار السلام، طبتم حال، فادخلوها خالدين، يعني: سلام عليكم حال كونكم طيبين، فالجملة إذن حال من الكاف في قوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ طِبتُم في أي شيء، أو من أي شيء؟ طِبْتُم في كل شيء، في الأبدان، والعقول، والتصرُّف،

(١) سبق تخريجه.

وكل شيء فهم طيبون حلُّوا مكانًا طيبًا، طابوا من الغل والحقد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، طابوا من كل مرض، لا يمكن أن يصيبهم مرض، طابوا من كل كلام فاحش ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالطيب هنا قدْره في كل شيء.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ادخلوا فعل أمر يُراد به: الإكرام، ليس أمرًا حقيقيًا؛ يعني: يراد به إلزام المخاطب، ولكنه أمر للإكرام، كما تقول لمن استأذن عليك في بيتك: ادخل.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [حال من الواو] في ادخلوها؛ أي: حال كونكم خالدين، والحال هنا مُقدَّرَة أم مقارِنة؟ مقدرة؛ لأن الخلود بعد الدخول، [مُقدِّرين الخلود فيها، وجواب إذا مُقدَّر؛ أي: دخلوها وسوقهم وفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمةً لهم، وسَوق الكفار وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، وقالوا: عطفٌ على دخلوها المُقدَّر، الواو على رأي المؤلف للحال ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فدخلوها، تجد أن الكلام على هذا الوجه فيه ركاكة، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ يعني: وقد فتحت أبوابها، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: دخلوها لا يستقيم، لكن ما ذكرنا أنه الراجح؛ هو المطابق تمامًا لما جاءت به السنة، والسنة تُفسِّر القرآن.

وقول المؤلف: [وسوقهم وفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمةً لهم] سوقهم المستفاد من قوله: ﴿وَسِيقَ﴾ وفتح الأبواب لمجيئهم؛ لأنه يقول: [الواو للحال] وقد فتحت أبوابها تكرمة لهم، لكن يقال: إن دعوى أن أبوابها فُتِحَت قبل مجيئهم دعوى لا يُسعِفُها الدليل؛ بل الدليل على خلافها؛ لأنهم إذا جاءوها لا يجدونها مفتوحة؛ بل يجدونها مغلقة، ثم يشفع النبي ﷺ أن تفتح الأبواب لأهلها، فإذن قول المؤلف رحمه الله فيه خطأ من الناحية العلمية لمخالفته للأحاديث الصحيحة في أن النبي ﷺ يشفع في فتح أبواب الجنة، وهذه مسألة عقدية في الواقع؛ لأننا نؤمن ونعتقد أن للنبي ﷺ شفاعة خاصة به، وهي الشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وعلى كلام المؤلف لا شفاعة؛ لأنهم يجدون الأبواب مفتوحة.

ثم قال: [وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، فالعبارة فيها نظر، على كل حال على كلام المؤلف أنها تفتح عند مجيئهم من أجل أن يُباشِرهم حرها مباشرة بدون تأخر، وقالوا: عطف على دخلوها المقدرة، فعلى كلام المؤلف وقالوا: الواو حرف عطف، والفعل قالوا معطوف على دخلوها، وقالوا: الحمد لله، والصواب: أن الواو للاستئناف، وأنهم بعد أن دخلوا واستقروا قالوا هذا الكلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [بالجنة]، حمدوا الله هنا على إنعامه وعلى كماله؛ لأن صدق الله إياهم وعده الجنة يضمن شيئين:

الشيء الأول: وصف الله تعالى بالصدق، وهذا حمد له على كمال صفته.

والثاني: تحقيقُ ذلك لهم؛ أي: أنهم حق لهم فيكون حمدًا على الشكر، فحمدهم لله الآن على أمرين: على الكمال وعلى الإنعام، أو على الكمال وعلى الإفضال، الكمال في الصدق، ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، ولا شك الصدق كمال، الثاني: الإفضال؛ حيث أسكنهم الجنة، فيكون الحمد هنا شاملًا للأمرين؛ لأن الله يُحمَد على ما له من صفات الكمال، وعلى ما له من تمام الإفضال، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ صدق المخفف، غير صدَّق المشدد؛ لأن صدق يعني: أخبر بالصدق، وصدَّق صدق من أخبر بالصدق، يقال: حدثني فصَدَقَني، المعنى: أخبرني بالصدق، ويقال: حدثتُه فصَدَّقَني؛ يعني: قال: إني صادق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ فالذي جاء بالصدق هو الذي صدَق، وصدَّق من أخبر بالصدق، وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [بالجنة] ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ [أي: أرض الجنة] ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ [ننزل] ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ لأنها كلها لا يختار فيها مكان على مكان.

وقوله: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: جعلنا نرثها، والأرض هنا دخلت عليها (الـ) فهل المراد بها: الأرض المعهودة، أو المراد بها: أرض الجنة؟ يرى المفسر أن المراد بها: أرض الجنة، وهذا التفسير يَرِدُ عليه أمران: الأمر الأول: أن الأرضَ إذا أُطلِقَت فهي الأرض المقابلة للسماء، وهي أرضنا هذه، وثانيًا: أنه قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وكان مُقتَضَى السياق إذا كانت الأرض هي الجنة أن يقال: وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء، فلا يأتي بالظاهر؛ لأن الظاهر في هذا المكان لا معنى له، وعلى هذا فالقول الصحيح: أن المراد بالأرض هنا: الأرض المقابلة للسماء، فتكون (الـ) هنا للعهد، أيُّ العهود؟ العهد الذهني لا الحضوري، ولا الذكري.

فإذا قال قائل: كيف أورثهم الأرض؟ نقول: إن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فتوريث الله الأرض للمؤمنين في الدنيا أنهم يقاتلون الكفار، ويستولون على أراضيهم، هذه واحدة، ثانيًا: أن وجودهم على الأرض، وسكناهم فيها، وعمرانهم إياها كالميراث بالنسبة للكفار؛ وذلك لأن الكفار لا يتمتعون بنعمة في الدنيا إلا كانت عليهم نقمة، فاللقمة إذا رفعها الكافر إلى فمه هل يُعاقَب عليها؟ نعم، يعاقب عليها؛ لأن الله قال: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ مفهومه: من لم يكن كذلك فعليه جناح فيما طَعِم، ويقول عز وجل في اللباس: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] الكفار ليست لهم في الدنيا ولا خالصة لهم يوم القيامة، فهم يكتسون بغير حق؛ لأنهم يتنعَّمون بنعمة الله ويكفرون بالله.

على كل حال نقول: إيراث الأرض في الدنيا: ما يستولي عليه المسلمون من أراضي الكفار، وإيراثٌ آخر: أن وجودهم على الأرض حق، ووجود الكفار بغير حق، لكن الله أبقاهم لحكمة.

وقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: نسكن حيث نشاء، وهل هذا على ظاهره؟ بمعنى: أن الإنسان الذي في أدنى الجنة نُزُلًا يستطيع أن يصعد إلى أعلى شيء؟ لا يستطيع هذا، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ - يعني: التي فوقهم - كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ» يعني: بعيدًا وله إضاءة، فهؤلاء يتراءون أصحاب الغرف، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، ولكن يقال في توجيه هذه الآية الكريمة: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ إما أن المعنى: نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء في الدنيا؛ يعني: نعمل في الدنيا ما نشاء من الأعمال التي تُبوِّئنا النزل التي هي ثواب لأعمالنا، في الدنيا الإنسان يمكن أن يكون مع الأبرار الأخيار، ويمكن أن يكون مع المقتصدين، ويمكن أن يكون من الظالمين أنفسهم ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالإنسان في الدنيا يمكن أن يتبوأ من الجنة حيث يشاء بأعماله الصالحة المختلفة، فظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن نقول: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أن كل واحد من أهل الجنة لا يشاء سوى ما هو فيه؛ يعني: لا يقع في قلبه أن يتمنَّى أنه فوق؛ بل هو مطمئن تمامًا في مكانه الذي هو فيه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ يعني: لا يطلُبون تحوُّلًا، فكل واحد منهم راضٍ بما هو فيه، ولا يرى أحدًا أنعم منه، حتى لو رآه حِسًّا لم يراه قلبًا؛ لأنه لو رأى أحدًا من الناس أعلى منه لكان في قلبه شيء من الحسرة واللوع، وهذا منتفٍ في الجنة.

إذن يتوجَّه قوله: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ بوجهين:

الوجه الأول: إما أن المعنى: حيث نشاء في الدنيا بمعنى: أن الإنسان في الدنيا له أن يعمل العمل الذي يؤهله إلى أعلى الدرجات أو العمل الذي يجعله في الوسط، أو العمل الذي يجعله في الأدنى.

الثاني: حيث نشاء في الجنة؛ يعني: أننا ففي الجنة لا نشاء سوى ما نحن فيه، بمعنى: أن كل واحد منا يقتنع بمكانه الذي سكنه ولا يريد غيره، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

يقول المُفسِّر: [لأنها كلها لا يختار فيها مكان على مكان]، جنح المؤلف إلى أي الاحتمالين؟ إلى الاحتمال الثاني: أن كل إنسان في مكانه لا يختار مكانًا غيره.

وقوله: ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الجنة]، ﴿ أَجْرُ ﴾ بالضم، أو بالكسر، أو بالفتح؟ بالضم على أنها المخصوص، الفاعل: أجر، ونعم وبئس يحتاجان إلى شيئين: فاعل ومخصوص، الفاعل واضح، والمخصوص دائمًا يكون محذوفًا في الغالب، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ نِعْم فعل جامد لإنشاء المدح، وأجر بمعنى: ثواب، الأجر هنا بمعنى: الثواب، ولكن الله تعالى سمّاه أجرًا تفضُّلًا منه ومنَّة، كأننا استحققنا ذلك وجوبًا كما يستحق العامل أجرته وجوبًا.

فإن قال قائل: وهل يجب على الله أن يثيبنا؟ الجواب: يجب بوعده، فإنه وعد أن يثيبنا، وما وعد فإنه لا يمكن إخلافه، إذن فالوجوب هنا ليس منًّا على الله؛ بل من الله على نفسه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] فتسمية الثواب أجرًا من باب التفضُّل على الله عز وجل، أنه جعل هذا الثواب على نفسه كالأجرة للعامل الأجرة الثابتة اللازمة، فكذلك ثواب المحسن أجر ثابت واجب على الله بإيجابه هو سبحانه على نفسه تفضُّلًا منه وإحسانًا، وفي مثل هذا يقول ابن القيم رحمه الله:

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ ... هو أوجَبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ
إن عُذِّبوا فبعَدلِه أو نُعِّموا ... فبفضله والفضلُ للمنَّان

إذن فهو سبحانه وتعالى هو الذي منَّ علينا في الواقع مرتين: المرة الأولى: بتوفيقنا للعمل، والمرة الثانية: بجزائنا على هذا العمل الحسنة بعشر أمثالها، وانظر إلى الفضل أيضًا والمنَّة الثالثة: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] فكأننا نحن الذين أحسنا فأحسن إلينا مع أن الإحسان لله أولًا وآخرًا فالحمد لله رب العالمين.

وقوله: ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ هل هو كلام مبتدأ من الله، أو هو بقية كلام أهل الجنة حين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾، إن كان من أهل الجنة فهو زيادة ثناء على الله عز وجل، وإن كان من الله ابتداءً فهو حثٌّ لنا على أن نعمل هذا العمل الذي يكون هذا جزاءه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن المتقين يُساقون إلى الجنة كما يُساق أهل النار إلى النار ولكن تختلف الكيفية، وما هو الدليل على اختلاف الكيفية؟ الدليل: قوله تعالى في أهل النار: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[الطور: ١٣]، وقوله في أهل الجنة هنا: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾، فهذا دليل على أنهم يُساقون سوق إكرام.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن التقوى سببٌ لدخول الجنة، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾، ووجه ذلك: أن ترتيب الحكم على الوصف يدل على عِلِّيَّته؛ يعني: إذا رُتِّب الحكم على وصفٍ دلَّ ذلك على أن هذا الوصف هو علة الحكم، فالسياق إلى الجنة هنا سببه: التقوى، إذن تكون التقوى سببًا لدخول الجنة، ويُؤيِّد هذا: قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤] إلخ.

٣- **ومن فوائد هذه الآية**: أن أهل الجنة يدخلونها جماعات متفرقة، لقوله: ﴿زُمَرًا﴾، وهذه الجماعات يترتَّب تقديمها على حسب أعمالهم الصالحة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية**: أن أهل الجنة إذا جاءوها لا يجدونها مفتوحة الأبواب، لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ولكن يجدونها مغلقة حتى يشفع النبي ﷺ في فتح أبواب الجنة لداخليها.

٥- **ومن فوائد هذه الآية**: أن للجنة أبوابًا، وقد ثبت في «الصحيح» أن أبوابها ثمانية.

ويترتَّب على هذه الفائدة: ما ثبت من أن رحمة الله تعالى سبقَت غضبه، وأن عطاءه أكبر وأعظم من منعه؛ لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية.

٦- **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات أن للجنة خزنة، لقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

ويتفرَّع على ذلك: كمال تقدير الله سبحانه وتعالى للأشياء، وأن كل الأشياء مُنظَّمة محفوظة مُرتَّبة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية**: إثبات أن الملائكة يتكلَّمون وينطقون، لقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

٨- **ومن فوائدها**: أن الجنة دار السلام، السلام من كل آفة، لقول الخزنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أن الله جمع لأهل الجنة بين السلامة من الآفات، وطِيب الأحوال والأوقات، لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ فجُمِع لهم بين نفي الآفات وطِيب الأحوال والأوقات.

١٠- **ومن فوائدها**: الإذن لهم على وجه الإكرام بدخول الجنة، لقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

١١- **ومن فوائدها**: الفرق التام والتباين العظيم بين ما يُقابَل به أهل الجنة وأهل النار، أهل النار يُقابَلون بالتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ إلخ، وأهل الجنة يُقابَلون بالتكريم والعناية والبشرى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية**: إزعاجُ النفوس وإغراؤها على العمل بعمل أهل الجنة؛ لأن

الإنسان إذا تبيَّن له الفرق العظيم والتبايُن الكبير بين أهل النار وأهل الجنة، فلابد أن يكون عنده ما يحُثّه؛ بل يُزعِجُه إزعاجًا على العمل بعمل أهل الجنة.

١٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: خلود أهل الجنة فيها، لقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والخلود هذا أبديٌّ، سواء قلنا: إن الخلود هو المُكث الدائم، أو إن الخلود هو المُكث زمنًا طويلًا؛ وذلك لأنه تكرَّر ذكر التأبيد لأهل الجنة في عدة آيات.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

١-**من فوائد هذه الآية**: الثناء على الله بالكمال والإفضال، لقوله: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، فإن صدق الوعد كمال، ثم إن إيراثهم الجنة إفضال، فجمعوا في هذا الحمد بين الحمد على الكمال والحمد على الإفضال؛ لأن الله تعالى يُحمَد على الأمرين جميعًا؛ على كماله، وعلى إفضاله، فيكون هذا الحمد جامعًا بين الحمد والشكر.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: صدق الله وعده، لقوله: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، وقد أخبر الله في آيات متعددة أنه لا يُخلِف الميعاد، وذلك لكمال صدقه، وكمال قدرته، فإن إخلاف الوعد إما أن يكون لكذب الواعِد، وإما أن يكون لعجز الواعد، وكلاهما مما يُنزَّه الله عنه، فيكون فيه كمال الصدق، وكمال القدرة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: شكر أهل الجنة على إيراثهم الأرض ونصرهم وظهورهم على الكافرين، لقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان يتبوَّأ بنفسه من الجنة حيث يشاء، وذلك بعمله، لقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمله، وليس له فيه اختيار، وذلك لقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ فإن الفعل ها هنا ظاهر في نسبته إليهم، فيكون باختيارهم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أهل الجنة في منازلهم لا يُريدون غيرها، لقوله: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وهذا من تمام النعيم؛ لأن الإنسان لو تطلَّع إلى منازل غيره لرأى أنه لم يكتمل له النعيم، يقول مثلًا: فلان أحسن مني قصرًا، فلان أكثر مني مالًا، فيتنغَّص عليه النعيم، لكن لو رأى أنه في المكان الذي يشاؤه ولا يبغي التحوُّل عنه، فإن هذا من كمال النعيم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المشيئة للعبد، فيكون فيها ردٌّ على الجبرية.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على هذا الثواب الذي حصل لأهل الجنة، لقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان منَّة الله سبحانه وتعالى بالجزاء؛ حيث جعله أجرًا وكأنه أجرٌ مفروضٌ على الله عز وجل، فإن قال قائل: كيف تجعلون على الله تعالى شيئًا مفروضًا؟ قلنا: لم نجعله نحن، ولكن هو الذي جعله على نفسه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على العمل، ولكن أيُّ عملٍ هو؟ العمل الصالح الذي يُورِث الجنة، وأن الإنسان لا ينبغي أن يكون كسولًا مُتراخيًا في الأعمال الصالحة.

قال الله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

التفسير

﴿وَتَرَى﴾ أيها المُخاطَب، ويحتمل أنه أراد به رسول الله ﷺ، ولكن القول الأول أولَى؛ لأن القول الأول يشمل القول الثاني ولا عكس، فإنك إذا قلت: وترى يا محمد، حجبتَ هذا الخطاب عن بقية الأمة، وإذا قلتَ: وترى أيها المُخاطَب، صار عامًّا للنبي ﷺ ولغيره من الأمة، والقاعدة: أنه إذا دار اللفظ بين معنى عامٍّ ومعنى خاص فإنه يُحمَل على المعنى العام؛ لأنك إذا حملتَه على المعنى العام دخل فيه الخاص ولا عكس.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ جمع مَلَك، والمَلَك في الأصل: هو الرسول، والملائكة جعلهم الله تعالى رسلًا، وهم عالمٌ غيبيٌّ قائمون بأمر الله عز وجل، مخلوقون من نور، ولهذا ليس فيهم معصية؛ لأنهم خُلِقوا من النور، والجن خُلِقوا من النار، ولهذا كان الأصل أنه ليس فيهم طاعة، فإن أباهم وزعيمهم استكبر عن أمر الله الذي خاطبه به مُشافهةً.

وقوله: ﴿حَآفِّينَ﴾ يقول المؤلف: [حال] وإنما جعلها حالًا؛ لأن الرؤية هنا بصرية، والرؤية البصرية لا تنصِبُ إلا مفعولًا واحدًا، فما يأتي بعده منصوبًا يكون منصوبًا على الحال، بخلاف الرؤية العلمية فإنها تنصِب مفعولَين.

وقوله: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحيطين به، والعرش هو: عرش الله عز وجل الذي استوى عليه، وهو أعظم المخلوقات وأعلاها، وأوسعها، فإن الكرسي وسِعَ السماوات والأرض؛

يعني: أحاط بها وشملها، والعرش أعظم من الكرسيِّ، وقد جاء في الحديث: أن السماوات السبع والأراضين السبع في الكرسي كحلقةٍ أُلقِيَت في فلاةٍ من الأرض، حلقة المغفر وهي: حلقة ضيقة أُلقِيَت في فلاةٍ من الأرض «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلْقَةِ» إذن فيكون هذا العرش عظيمًا لا يقدر قدره إلا الله عز وجل.

وقوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [من كل جانب] ووجه هذا التفسير: أنه من كل جانب؛ لأنه أطلق قوله: ﴿حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ وحينئذٍ لابد أن يكون هذا الحول من كل جانب؛ لأنهم لو أحاطوا من جانبٍ واحد لم يكونوا حول العرش من الجانب الخالي، فإذا كانوا حافِّين من حوله، فلابد أن يُحيطوا بجميع جوانبه، ولهذا قال: [من كل جانب].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ قال: [حال] يعني: الجملة هذه حالية [من ضمير حافين]؛ لأن ﴿حَآفِّينَ﴾ اسم فاعل، واسم الفاعل يتحمل الضمير كما يتحمله الفعل.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [مُلابسين للحمد] يعني: جعل الباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابسة، وإن شئتَ فقل: للمُصاحبة؛ أي: يُسبِّحون تسبيحًا مصحوبًا بالحمد [أي: يقولون: سبحان الله وبحمده] والجمع بين التسبيح والحمد هو كمال المُسبَّح والمحمود؛ لأن بالتسبيح زوال النقائص والعيوب، وبالحمد إثبات الكمال، فيكون الجمع بين التسبيح والحمد مُفيدًا لمعنى أكثر مما لو انفرد التسبيح أو انفرد الحمد.

وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ [بين جميع الخلائق] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [أي: العدل] ﴿وَقُضِىَ﴾ أي: حُكِم؛ لأن القضاء معناه: الحكم، وقوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين جميعه الخلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [أي: العدل] فيدخل المؤمنون الجنة، والكافرون النار.

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أبهم الفاعل ليكون أعمَّ؛ يعني: أن الله تعالى في تلك الحال يُحمَد من كل أحد، ومن كل جانب، ومن كل جهة، والحمد هنا مقرونٌ بـ (ال) المفيدة للاستغراق، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص والاستحقاق، إذا جعلنا الحمد للاستغراق شملت كل أنواع الحمد، سواء كان على كمال الصفات، أو على الإفضال والإحسان والإنعام، وإذا قلنا: اللام في ﴿لِلَّهِ﴾ إنها للاستحقاق والاختصاص تبيَّن أن الحمد المطلق لا يستحقُّه إلا الله، ولا يكون إلا لله اختصاصًا، ولا يُحمَد به إلا الله استحقاقًا.

والفرق بين الحمد والمدح مع تساويهما في الحروف: أن المدح وصفٌ بالكمال لكن لا يستلزم المحبة، وأما الحمد فهو وصفٌ بالكمال مُستلزمٌ للمحبة، فالله تعالى يُحمَد ويُمدَح، لكن الحمد أخصُّ من المدح؛ لأن المدح هو: مطلق الثناء، وأما الحمد فهو: ثناءٌ مقرون بمحبة وتعظيم.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق العالمين، ومالكهم، ومُدبِّرهم، والعالَم: كل من سوى الله،

[خُتِم استقرار الفريقين بالحمد من الملائكة]، وهذا فيه نظر، وليس من الملائكة؛ بل من الملائكة وغيرهم، ولهذا أبهم الفاعل قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفوائد:

١-**من فوائد هذه الآية**: إثبات الملائكة، لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: إظهار عظمة الله في ذلك اليوم؛ حيث تحُفُّ جنوده بعرشه، وهذا من مظاهر العظمة وكمال السلطان أن يُرى الجنود حافِّين بمالكهم وخالقهم وسيدهم سبحانه وتعالى.

٣- **ومن فواد الآية الكريمة**: إثبات العرش، لقوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الثناء على الملائكة، وذلك بحسن انتظامهم بحفِّهم من حول العرش، وهذا حُسنٌ فعليٌّ، وبكونهم يُسبِّحون الله بحمده، وهذا حسنٌ قولي، فيجمعون بين تعظيم الله تعالى بالفعل وتعظيمه بالقول.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: اختيار الجمع بين التسبيح والحمد، لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وذلك لأن بالتسبيح زوال النقص والعيب، وبالحمد إثبات الكمال.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى ربٌّ لهؤلاء الملائكة مع عِظَمهم، لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وأن ربوبيته للملائكة ربوبية خاصَّة بدليل الإضافة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى يقضي بعد هذا كله بين الخلق بالعدل، لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حُكِم بينهم، وقضاء الله تعالى نوعان: كوني وشرعي، فالشرعي: مثل: قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

يعني: وصَّى ألَّا نعبد إلا الله، وقضاء كوني؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] فإن هذا لا يمكن أن يكون قضاءً شرعيًّا؛ لأن الله لا يقضي بالفساد، ولكنه قضاءٌ كونيٌّ، وبهذا نعرف الفرق بين القضاء الكوني والشرعي، فالكونيُّ فيما يحب وما لا يحب، والشرعيُّ فيما يحب، والفرق الثاني: أن الكوني لابد من وقوع المقضِيِّ، والشرعيُّ لا يلزم منه وقوع المقضِيِّ؛ إذ قد يقع، وقد لا يقع.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القضاء في ذلك اليوم قضاءٌ بالعدل ليس فيه جَوْرٌ بوجهٍ من الوجوه، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: حمد الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم الذي يتم فيه الأمر ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإذا قارنت بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] تبيَّن لك أن الله تعالى محمود في أول الأمر وآخره، في أول الأمر في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفي آخره بعد أن قُضِيَ بين الخلائق بالحق ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** بيان استحقاق الله تعالى للحمد كله، لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(الـ) ذكرنا أنها للاستغراق، واللام للاختصاص والاستحقاق.

١١ - **ومن فوائدها:** إثبات عموم الربوبية، لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والعالمون: كل من سوى الله، قال بعض العلماء: إنما سُمُّوا بهذا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، ففي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد.

تم بحمد الله تفسير سورة الزمر
ويليها إن شاء الله تفسير سورة غافر

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام

في

تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة غافر
تفسير سورة فصلت
تفسير سورة الشورى

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثالث عشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر
تفسير سورة فصلت
تفسير سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنَةُ الطَّبـع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقَمُ الإِيدَاعِ : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقَمُ الطَّبعَةِ : الأولى

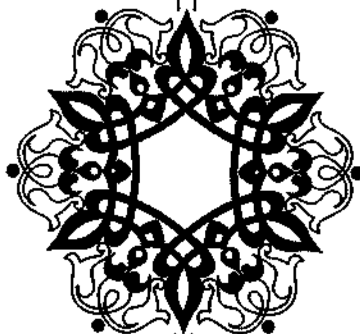

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة غافر

تفسير سورة غافر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[غافر: ١-٣]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، البسملة آية من كتاب الله عز وجل مستقلة ليست من السورة التي قبلها ولا من السورة التي بعدها، ولكن هي ثابتة في ابتداء السور إلا سورة واحدة وهي سورة براءة، فإنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه جعل فيها بسملة، ولهذا تركها الصحابة رضي الله عنهم بدون بسملة؛ لعدم ثبوت ذلك عن رسول الله ﷺ، وأما ما قيل: إنها تركت بلا بسملة؛ لأنها نزلت بالسيف فإنه قول باطل، وليس هذا السبب، والسيف إذا كان رحمة فإنه غنيمة، ومعلومٌ أن السيف على الكفار رحمة، يقصد به إعلاء كلمة الله عز وجل، ثم البسملة تُبدأ ليس فيها فعل ولا اسم فاعل، لكنها جار ومجرور ومضاف ومضاف إليه وصفة وموصوف، الجار هو الباء، والمجرور اسم، والمضاف اسم، والمضاف إليه لفظ الجلالة، وموصوف وهو الله، وصفة وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فأين المتعلق؛ لأنه لابد لكل جار ومجرور أو ظرف لابد له من متعلق، كما قال ناظم الجمل:

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

وَاسْتَثْنِ كُلَّ زَائِدٍ لَهُ عَمَل كَالبَا وَمِنْ وَالكَافِ أَيْضًا وَلَعَل

فأين متعلق البسملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ أحسن ما يقال: إن متعلقها فعلٌ متأخر مناسبٌ لما ابتُدئ بالبسملة من أجله فنحن الآن نريد أن نقرأ نقول المتعلق تقديره: بسم الله أقرأ، ولو نريد أن نتوضأ نقول: التقدير بسم الله أتوضأ، نريد أن نذبح نقول: التقدير: بسم الله أذبح، وإنما قدرناه فعلًا وليس اسم فاعل؛ لأن الأصل في العمل هو الفعل، وإنما قدرناه متأخرًا لوجهين:

الوجه الأول: التيمن بالبداءة بسم الله.

الثاني: إفادة الحصر؛ لأنك إذا أخرت العامل، وقدمت المعمول كان ذلك دليلًا على الحصر، إذ إن القاعدة المعروفة في البلاغة هي: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وإنما قدرناه مناسبًا لما أبتدئ به؛ لأنه أدل على المقصود، فمثلًا لو قلت: إن التقدير: بسم الله أبتدئ صح لكن ابتدئ بأي شيء؟ فإذا قلنا: نقدره فعلًا خاصًّا مناسبًا لما ابتدئ به صار ذلك أدل على المقصود، ومعلوم أن ما كان أدل على المقصود كان أبين في المراد هذا هو إعراب هذه البسملة.

أما معناها: فإن (اسم) مفرد مضاف، وكل مفرد مضاف فإنه للعموم، مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فإن نعمة مفرد مضاف لكن ليست نعمة واحدة؛ لأن النعمة الواحدة تحصى لكنها نعم كثيرة فتشمل كل ما أنعم الله به على العبد، فإذا كان المفرد المضاف يفيد العموم.

فما معنى قولنا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ معناها بكل اسم من أسماء الله أفعل كذا وكذا، فتكون أنت الآن مستعينًا بكل اسم من أسماء الله على هذا الفعل الذي بسملت من أجله، وأما (اسم) فقيل: إنه مشتقٌّ من السمو وهو الارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يعين المسمى ويبينه، وقيل: إنه مشتقٌّ من السِّمة وهي العلامة، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩] أي: علامتهم في وجوههم، وأيًّا كان فالاسم يعيِّن مسماه ويميزه من غيره، وأسماء الله سبحانه وتعالى غير محصورة في عدد، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»(١).

وأما (الله) فهو علم على الذات المقدسة العلية، قال النحويون: وهو أعرف المعارف، هذا الاسم هذا العلم، وقد رتبوا المعارف بأن أعرفها: الضمير، ثم الأعلام، لكن هذا العلم هو أعرفها؛ إذ لا تحتمل المشاركة فيه وغيره من المعارف يمكن المشاركة فيه، أما قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فهو اسم من أسماء الله دال على الرحمة الواسعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ اسم من أسماء الله دال على الرحمة التي تقع بالفعل، فالرحمن للوصف، والرحيم للفعل، يعني: أنه رحمن يرحم، وبذلك تبين فائدة الجمع بينهما، فإن فائدة الجمع بينهما: الدلالة على أن رحمة الله واسعة وذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لأن فعلان تدل على الامتلاء والسعة كما تقول: شبعان وريان وما أشبه ذلك، وأما الرحيم: فهو باعتبار الفعل أي: إيصال الرحمة إلى من قدر الله أن يرحمه.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢).

والبسملة لها أحكام:

منها: أنها تكون أحيانًا شرطًا في الحل كالتسمية على الذبيحة، فإن التسمية على الذبيحة شرطٌ لحلها، حتى إنه لو ترك التسمية (ولو نسيانًا) لم تحل الذبيحة، وقد تكون واجبة لا شرطًا كما في الوضوء عند بعض العلماء، فإن التسمية في الوضوء واجبة، ولكنها ليست شرطًا للصحة، إذ لو تركها نسيانًا صح وضوؤه، وقد تكون مستحبة في كل أمر ذي شأن كما جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ»، أو «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ»(1) أي: ذي شأن مهم: «لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ» أي: منزوعَ البركة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يبتدئ بها في المكاتباتَ إلى الملوك وغيرهم، وكذلك الأنبياء من قبله كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ﴾ هذه الكلمة مكونة من حرفين مهملين هجائيين: الحاء والميم، ولهذا ننطق بها باسمها لا بلفظها فلا نقول: حم بل نقول: حاء ميم، فهما إذن مهملان هجائيان يتركب منهما كلام الناس،فهل لهذين الحرفين معنى؟

يقول المؤلف: [الله أعلم بمراده به] يعني: ما ندري ماذا أراد؟ هل أراد إثبات معنى، أم لم يُرد إثبات معنى؟ وهل أراد معنى معينًا أم ماذا؟

المهم أننا نفوض الأمر لله، فموقفنا من هذا التفويض كغيرها من الحروف الهجائية التي ابتدئت بها بعض السور، ولكن مقتضى كون القرآن باللسان العربي أن نقول: إنهما حرفان هجائيان مهملان ليس لهما معنى، يعني: نجزم بأنه لا معنى لهما؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية، واللغة العربية لا تجعل للحروف الهجائية معنى، وهذا مَرْوِيٌّ عن مجاهد ـ إمام المفسرين في زمنه ـ زمن التابعين، وهو الحق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

فإن قال قائل: يُرد على هذا القول أن في القرآن ما ليس له معنى، وليس له فائدة، وإنما هي حروف مقطعة ليس لها فائدة؟

قلنا الجواب عن هذا الإيراد: إن الله سبحانه وتعالى تكلم بذلك لمغزى أي: لحكمة بالغة وهي أن هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء من العرب، لم يكن أتى بشيء جديد من الحروف، بل أتى بالحروف التي ترتبون منها كلامكم، ومع ذلك أعجزكم، عجزتم عن صف الحروف حتى تكون مثل القرآن، فإذا كنتم عجزتم عن ذلك، فعجزكم عن معنى هذه الكلمات من بابه أولى، وهذا الذي ذكره الزمخشري رحمه الله في تفسيره، وارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وذكره أيضًا إما ابتداءً أو تقليدًا، المهم: أن هذا هو الصواب عند المحققين وهو أن الله تعالى أنزلها،

---

(١) عزاه في الإرواء (١) للحافظ عبد القادر الرهاوي وقال: ضعيف جدا.

لتمام التحدي لهؤلاء البلغاء الذين عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل بعضه، وأيدوا قولهم هذا بأن الله تعالى لم يبتدئ سورة بالحروف الهجائية إلا ذكر بعدها القرآن إلا نادرًا.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [القرآن]؛ لأن المراد بالكتاب هنا: القرآن، مع أن الكتاب اسم جنس، يحتمل أن تكون فيه (أل) للجنس فيشمل كل كتاب، ولكن الظاهر ما ذهب إليه المؤلف؛ لأن المقصود بذلك تقرير كون هذا القرآن الذي نزل على المكذبين من عند الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: [مبتدأ]، يريد قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ أي: أنها مبتدأ، والمبتدأ يحتاج إلى خبر، والخبر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولهذا قال المفسر: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر]، تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال: [في ملكه، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه]، العزيز ذو العزة، وقد سبق أن عزة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

عزة قدر، وعزة قهر، وعزة الامتناع، وهو كذلك في كل موضع جاء العزيز فهذا هو معناه، أي: أنه ذو عزة والعزة ثلاثة أقسام: عزة قدر، وعزة قهر، وعزة الامتناع.

أما عزة القدر: فمعناها أنه ذو شرف وسيادة.

وأما عزة القهر: فمعناها أنه ذو غلبة وسلطان.

وأما عزة الامتناع: فمعناها أنه ذو امتناع عن كل نقص وعيب، وقد سبق الاستشهاد على هذه المعاني الثلاثة وبيان اشتقاقها.

فيكون قول المؤلف: [العزيز في ملكه] فيه قصور؛ لأنه جعله بمعنى الغالب فقط، والصواب ما ذكرنا.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ قال: [بخلقه] والعليم أي: ذو العلم، وعلم الله سبحانه وتعالى ليس بمحدود لا أولًا ولا آخرًا ولا مقدارًا، فعلم الله تعالى واحد شامل لكل شيء، فهو أزلي أي: لم يسبقه جهل، وأبدي أي: لا يلحقه نسيان، فصار علم الله تعالى واسعًا شاملًا زمنًا وكيفًا، زمنًا أي: في المستقبل وفي الماضي، وكيفًا أي: أنه شامل لكل ما من شأنه أن يُعلم.

وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [للمؤمنين، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ لهم، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ للكافرين]، قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الغفر هو: الستر مع الوقاية، ومنه المغْفَر: ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتقاء السهام، و المغفر ساتر، فهو جامع بين الستر والوقاية.

والذنب هو المعصية، يقال أذنب الرجل إذا أخطأ، ومعنى ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي: ساتره المتجاوز عنه، وقول المؤلف: [للمؤمنين] فيه نظرٌ واضح؛ لأن مغفرة الذنب شامل للمؤمنين وغير المؤمنين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فهو غافر الذنب لكل من تاب إلى الله وسأل المغفرة.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ قابله معناها: أن من تاب إلى الله قَبِلَ الله توبته، و﴿ٱلتَّوْبِ﴾ بمعنى: الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ من معصيته إلى طاعته ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ قال المؤلف: [للمؤمنين]، وهذا أيضًا ليس بصحيح، فالتوبة مقبولة من المؤمنين والكافرين قال الله تبارك وتعالى في المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، قد يموتون وهم كفار؛ إذن لو تاب قبل ذلك لقبلت، فتبين بهذا أن ما ذهب المؤلف رحمه الله من تخصيص ذلك بالمؤمنين يعتبر قصورًا.

قال: [مصدر]، أي: التوب.

وقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [للكافرين] المؤلف رحمه الله كأنه خصَّ الغافر والقابل للمؤمنين؛ لقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لأن شدة العقاب إنما هي للكافرين، ولكن في هذا نظرًا؛ لأن المقصود هنا ذكر وصف الله عزَّ وجلَّ أو صفة الله سبحانه وتعالى: أنه جمع بين الفضل والعدل، بين الفضل بكونه غافر الذنب وقابل التوب، والعدل في كونه شديد العقاب؛ لأن شدة العقاب من الله عزَّ وجلَّ لمن استحقها عدل، إذ إن الله أخبرنا وبين لنا أن من فعل كذا عاقبه بالعقوبة الشديدة، فإذا فعل الإنسان ما تُوعد عليه بالعقوبة الشديدة فهو الذي اختار لنفسه هذا، فتكون معاملة الله له به عدلًا.

وقوله: [أي مشدده] لماذا عدل عن ظاهر الآية التي تفيد أنه نفسه شديد العقاب؟ لأن الأشاعرة ينفون الصفات، والتشديد فعل بائن عن الله عزَّ وجلَّ، فلننظر الآن على كلام المؤلف تكون ﴿شَدِيدِ﴾ بمعنى: مشدد، ولنا أن نطالب فنقول: هل فعيل تأتي بمعنى مفعِل؟ الجواب: نعم تأتي فعيل بمعنى مفعل، كقول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيْعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع هنا بمعنى: المسمِع، الداعي الذي يسمعني يؤرقني فلا أنام وأصحابي هجوع أي: نائمون.

فمن حيث اللفظ لا اعتراض على المؤلف، أي: من حيث جعلوه فعيل بمعنى مفعل لا اعتراض عليه؛ لأن ذلك وارد في اللغة العربية، لكن من حيث المعنى فيه نظر؛ لأن ظاهر قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أنه هو نفسه عقابه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العقاب شديدًا لزم أن يكون الألم على مَنْ عوقب شديد أيضًا، والعقاب مأخوذ من المعاقبة وهي: المجازاة، وسميت المجازاة عقابًا؛ لأنها تعقب العمل، لكنها تذكر غالبًا فيما يسوغ.

وقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿ذِى﴾ بمعنى: صاحب، وهو مشهورة بالياء

نيابة عن الكسرة؛ لأنها من الأسماء الخمسة، و﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ [أي: الإنعام الواسع]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ...﴾ فـ ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ هو: الغِنَى الواسع، ومن تمام الغنى أن يكون منعمًا، والله سبحانه وتعالى منعم وواسع الغنى، ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ قال: [وهو موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات، فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، هذه أربعة الأخيرة غير مشتقة، فإن ﴿ذِي﴾ بمعنى: صاحب غير مشتقة، لكنها مؤولة ومشتقة، أما ما قبلها ـ شديد العقاب ـ قابل التوب ـ غافر الذنب ـ فهي مشتقة، وجعل المؤلف رحمه الله هذه الصفات لا يراد بها إثبات المعنى المشتق منها، لكنها للتعريف فقط ولا يسلم ما في هذا الكلام من القصور التام، كيف نفهم المشتق لمجرد التعريف؟ كيف نقول: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ المراد بذلك: التعريف بالله عزَّ وجلَّ لا أنه غافر ولا أنه قابل ولا أنه شديد العقاب؟ فهو قاصر جدًّا ولا يصح أن نفسر كلام الله تعالى بهذا الكلام، بل نقول: ﴿غَافِرِ﴾ مشتق من الغفر وهو صفة مقصودة، ليس المقصود بها التعريف، وكذلك نقول: في ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وفي ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وقول المؤلف: [موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات] قال ذلك؛ هربًا من إثبات صفات الأفعال؛ لأن صفة غافر بمعنى: يغفر صارت صفة فعل يتعلق بالمشيئة، وعند الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين يمتنع أن يُوصف الله تعالى بوصف هو فعل، لماذا؟ قالوا: لأن الفعل يدل على الحدوث، والحدوث لا يكون في القديم فلا يكون الحدوث إلا بحادث وقد سبق لنا بيان بطلان هذا القول.

فالصواب إذنْ أن ﴿غَافِرِ﴾، ﴿وَقَابِلِ﴾ صفتان من صفات الأفعال، وأما ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ فهي أيضًا صفة من صفات الأفعال لأن التقدير: عقابه شديد فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي أن عقابه شديد فتكون كما سبق من الصفات الفعلية.

وأما ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ فإذا قلنا: إن معناه ذي الغنى الواسع فهي من صفات الذات، وإذا قلنا: إنها بمعنى الإنعام الواسع فهي من صفات الأفعال.

وقوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المرجع] الجملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، وإذا قُدم الخبر أفاد التخصيص والحصر، ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله وحده، ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: [المرجع]، وهل المراد إليه المصير أي المرجع في كل شيء أو إليه المصير بعد الموت؟

الجواب: إليه المصير في كل شيء فإليه المرجع في الحكم بين الناس، إليه المرجع في تدبير الأمور، إليه المرجع بعد الموت، إليه المرجع في كل شيء، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

مسألة: كيف نجمع بين القول بأن أسماء الله تعالى لا تحصى، وبين قول النبي صلى الله عليه

وعلى آله وسلم: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

الجواب: عن ذلك أن نقول: إن كلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ككلام الله لا يتناقض أبدًا فإذا كان قد ثبت عنه أنه قال: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»(٢) علمنا أن من أسماء الله ما لا يمكن الوصول إليه ولا يمكن إدراكه؛ لأن ما استأثر الله به لا يمكن أن نعلمه، فحينئذ يتعين أن نقول: إن معنى قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣) أي: من أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخلَ الجنة، فتكون جملة (من أحصاها) وصفًا لكلمة «اسمًا»، وليست جملة مستقلة مستأنفة، فتكون معنى: إن لله تسعة وتسعين اسمًا موصوفًا بأن من أحصاها دخل الجنة، وله أسماء أخرى، لكن اختر منها تسعة وتسعين فإذا أحصيتها دخلت الجنة.

وما معنى إحصائها هل معناها أن تقرأها لفظًا؟ لا، ولكن معنى إحصائها هو: معرفتها لفظًا ومعنى، والتعبد لله بمقتضاها، أي: معرفة لفظها ومعناها: التعبد لله تعالى بمقتضاها.

فائدة: كل السور المبتدأة بحروف الهجاء مكية، إلا البقرة وآل عمران، وما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني هذا هو أرجح الأقوال، حتى وإن نزل بمكة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾:

١- **من فوائد هذه الآيات**: أن القرآن الكريم حروف تكلم الله به بحروف، ففيه الرد على الأشاعرة، ومن سلك سبيلهم الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأن الله لا يتكلم بحرف من الحروف، لكن يخلق حروفًا وأصواتًا تسمع تعبيرًا عما في نفسه، وحقيقة هذا القول نفي الكلام؛ لأن ما في النفس من المعلومات المرتبة ليست كلامًا، ولكنها معلومات، والرد عليهم معلوم من كتب العقائد منها: أن القول إذا أطلق فهو قول اللسان، وإذا أريد به قول النفس حدد مثل: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، مثل: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»(٤).

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: علو الله عزَّ وجلَّ، يؤخذ من قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القرآن كلام الله، لا كلام غيره، لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن ما ذكر الله أنه نزل ينقسم إلى قسمين:

إما أن يكون أعيانًا قائمة بنفسها فهذه مخلوقة، أو تكون أوصافًا لا تقوم إلا بالغير فهذا غير

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٣٩٢) ومسلم (٦/ ٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (٢١٠/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مخلوق.

مثال الذي أضافه إلى نفسه- إنزاله إلى نفسه وهو عين قائمة بنفسها- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] فالحديد مخلوق ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] فهذه أعيان قائمة بنفسها مخلوقة، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] مخلوق، إذنْ فما أضاف الله إنزاله إليه وهو عين قائمة بنفسه فهو مخلوق، وإلا فهو غير مخلوق.

القرآن هل هو عين قائمة بنفسها أو كلام لا يقوم إلا بالغير الثاني أو الأول؟ الثاني إذًا هو غير مخلوق.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وصف القرآن الكريم بالكتاب، فلماذا وُصف بالكتاب؟

أولًا: لأنه يكتب فهو مكتوب بالمصاحف التي بأيدينا.

ثانيًا: أنه في صحف بأيدي الملائكة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٢، ١٣].

ثالثًا: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وعليه فالكتاب بمعنى: مكتوب، وحينئذٍ نسأل هل يأتي فعال بمعنى مفعول؟ نقول: يأتي كثيرًا في اللغة العربية، كغرار مغرور، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وما أشبهها.

٥- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: العزيز ، والعليم، لقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وإثبات ما دلت عليه هذه الأسماء من الصفات، فالله دل على الألوهية، والعزيز: على العزة، والعليم: على العلم.

واعلم أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، ولهذا قلنا: إن الصفات أوسع من الأسماء.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ذكر الأسماء المناسبة للمقام يعني: أن الله جل وعلا يذكر من أسمائه ما يناسب المقام، فهذه السورة يتحدث فيها الله عن المكذبين للرسل، وما جرى عليهم من الهلاك والانتقام، فما الذي يناسبه من الأسماء؟ العزة التي فيها الغلبة والأخذ، ولهذا جاءت هنا العزيز، وجاء العليم؛ ليفيد أنه لعزته أخذ هؤلاء المكذبين، ولعلمه أنزل الكتب، وعلم كيف يأخذ هؤلاء المكذبين.

ثم قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ...﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عزَّ وجلَّ يغفر الذنوب جميعًا؛ لقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ والذنب هنا مفرد محلى (بأل) فيكون عامًّا؛ لأن المفرد المحلى (بأل) يكون عامًّا مثل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] أي: إن كل إنسان.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على فعل كل ما تكون به المغفرة، وجه ذلك: أن الله لم يخبرنا أنه غافر الذنب من أجل أن نعلم أنه غافر فقط، لكن من أجل أن نتعرض لمغفرته.

مسألة: ما هي الأسباب التي تكون بها المغفرة؟

الجواب: الأسباب كثيرة: منها الاستغفار، اللهم اغفر لي، ومنها أعمال صالحة يكفر الله بها الخطايا، ومنها: الإحسان إلى الخلق حتى إن الله عزَّ وجلَّ غفر لامرأة بَغِيٍّ لسقيها كلبًا عطشان، فأسباب المغفرة كثيرة، وغفر لرجل وجد شجرة في الطريق تؤذي الناس فأزالها، المهم: أن نتعرض لأسباب المغفرة؛ لأن ذلك مقتضى قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يقبل التوبة من عباده، ولكن لا يُقبل الشيء حتى يكون جاريًا على مقتضى الشريعة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] فما هي التوبة الجارية على مقتضى الشريعة؟

هي التى جمعت خمسة أمور، وهي ما تعرف بشروط التوبة:

الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة: إخلاصه لله عزَّ وجلَّ وحب التقرب إليه، والفرار من عقوبته، فلا يحمله على التوبة مراءاة الخلق، ولا حسن الجاه والرئاسة، وإنما يحمله الإخلاص لله.

الثاني: الندم على فعل المعصية أن يشعر الإنسان باكتئاب وندم وحسرة على وقع منه، فلابد من ندم؛ لأن الندم هو الذي يتبين حقيقة رجوع الإنسان إلى الله، وأن هذه المعصية أثرت في نفسه، فندم على ما جرى منه، ولا يقال: إن الندم انفعال، والانفعال يأتي بغير الاختيار، كالغضب مثلًا والحزن من الواقع، يرد على هذا بأن المراد بالندم هنا تحسر القلب، فهو انفعال يقع من الإنسان ليس كالانفعال الذي يتسبب من الخارج، هذا ربما لا يستطيع الإنسان أن يغير ما وقع.

الثالث: التخلي عن المعصية، والانفصال عنها، فإن تاب وهو مُصِرٌّ فإن توبته أشبه ما تكون بالاستهزاء، كيف يقول الذي يأكل لحم الخنزير أستغفر الله تعالى وأسأل الله أن يجعل طعامي طيبًا؟! يصلح هذا أو ما لا يصلح؟! لا، ويمضغ اللحمة جيدًا، ويقول: أستغفر الله من أكل لحم الخنزير وأسأل الله وأن يجعل طعامي جيدًا؛ هذا أشبه ما يكون بالمستهزئ، لو أن رجلًا نهاك عن شيء ووجدك تعمل هذا الشيء أرجو منك أن تعذرني وما أشبه ذلك، وقال لا تأكل ويأكل، هذا الذي يخاطبه يقول إنك تستهزئ بي وتسخر بي، فلا توبة مع الإصرار، فلابد أن يتخلى عن الذنب، وإذا كان الذنب لله فالتخلي عنه سهل، لكن إذا كان الذنب لغير الله - يعني أذنب في غير حق الله فكيف يتخلى منه -؟

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنه.

نقول: إذا كان مالًا فالتخلي عنه بإيصاله إلى صاحبه بأي وسيلة كانت فإن كان قد مات فإلى ورثته، فإن جَهِلَهُم فإلى بيت المال، وإذا كان بيت المال غير منتظم أو يخشى عليه أن يضيع، فليتصدق به هو لصاحبه، كم مرحلة الآن.؟ أربعة: لصاحبه، لورثته، لبيت المال إن جهلهم، يتصدق به، وأيهم أولى بيت المال أو الصدقة؟ الغالب: أن الصدقة أولى لاسيما في زماننا هذا، حيث إن بيت المال قد لا يتصرف به ولي الأمر التصرف الذي يرجى.

إذا كان عدوانًا على النفس لم يكن مالًا، فالتوبة منه أن يمكن صاحب الحق من الاقتصاص منه، فمثلًا إذا كان قد اعتدى على شخص بضرب فليذهب إليه ويقول: أنا أعتديت عليك بالضرب اضربني كما ضربتك، كما فعل النبي ﷺ مع الرجل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما رآه متقدمًا في الصف، فقال الرجل: أَقِدني[1] يا رسول الله، فكشف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن بطنه ليقيده فماذا فعل الرجل؟ قبَّله، فهذا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أشرف الخلق وأحب الناس إلى أتباعه، مكَّن من الاقتصاص منه.

وإذا كان في العرض: فإذا اعتديت على شخص في عرضه يعني: بأن اغتبته أو سببته، والفرق بين الغيبة والسب، أن السب مواجهة، والغيبة مع الغَيْبة، فذكرك أخاك بما يكره إن كان غائبًا فهي غيبة، وإن كان حاضرًا فهو سبٌّ، والتوبة من هذا أن تستحله، فهل لو قلت: سبني كما سببتك يصح أو لا؟ لا يصح؛ لأن هذا جناية على نفسك، ولكن استحله هذا إذا كان سبًّا؛ لأنه قد علم بذلك، وإذا كان غيبة فهل تستحله تذهب إليه وتقول: إني اغتبتك فاعذرني واسمح لي؟

الجواب: قال بعض العلماء: نعم يجب أن تذهب إليه وتقول أنا اغتبتك فاعذرني حللني، وقال بعض أهل العلم لا يلزم استحلاله بل يكفي أن تستغفر له كما جاء في الحديث وإن كان ضعيفًا: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»[2] استغفر له، وأثنِ عليه بما هو أهله في الأماكن التي اغتبته فيها، وبهذه تكون حسنات فتذهبن السيئات، وهذا القول أصح؛ لأن هذا فيها البراءة وعدم التشويش؛ لأن ربما تذهب إليه تقول اغتبتك فحللني، فتكون مهما أتيت به من صيغة الغيبة قد لا يقتنع بها، فإذا قلتَ فيك: إنك بخيل قد يقول إنك قلت بخيل وجبان، أليس كذلك؟! ربما يقول له الشيطان هكذا ويأبى أن يحللك فإذا كان لم يعلم فاحمد الله على ذلك واستغفر له، وأثنِ عليه بما هو أهله في الأماكن التي كنت اغتبته فيها وبذلك تسلم من الإثم، هذه صفة التخلي من الذنب إذا كان في حقٍّ غير الله.

مسألة: بعض الناس يكون عليه حق مالي لشخص، إما سرقه أو جحده أو ما أشبه ذلك، ثم يتوب هذا الفاعل ويذهب إلى صاحب الحق ويقول: خذ حقك فيأبى صاحب الحق أن يأخذه،

---

(١) مأخوذ من القود وهو القصاص.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ص (١٧١) من حديث أنس وسنده ضعيف.

فماذا يصنع؟ وهذا يرد كثيرًا، يكون صاحب الحق يعني قد حمل في نفسه على هذا الظالم الذي ظلمه، ويأبى أن يقبل فماذا يصنع؟ هل نقول: إنه حينئذٍ سقط حقه، وصحت توبة المعتدي، ويبقى إن طلب حقه مرة أخرى أعطيه، وإن لم يطلب فإن المعتدي برئ.

نقول: ننزل هذه الحال على القواعد الشرعية، والقواعد الشرعية تقتضي أن هذا الذي عليه حق قد برئ؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا ما يسعه؛ قدم الحق لصاحبه وقال خذ، قال: لا أقبل أنت اعتديت علي في الأول ولا أقبل منك، هذا الذي أبى أن يقبل هو الذي أخطأ وجنى؛ لأنه ينبغي للإنسان إذا اعتذر إليه أخوه أن يقبل عذره، لكن هذا هو الذي جنى الآن، فهذا الرجل نقول: أنت الآن برئت ذمتك، خلِّ الدراهم عندك إن جاء يومًا من الدهر أعْطِهَا إياه، وإن مات فهل يلزمه أن يعطيه الورثة؟

الجواب في هذا نظر، وذلك أن الرجل الذي اعتدي عليه لم يقبل هذا المال ولم يدخل في ملكه، فإذا كان لم يقبله ولم يدخل في ملكه فكيف ينتقل إلى الورثة ومن شرط الإرث انتقال المال عن الموروث، وهذا الموروث لم يقبل هذا المال، وقد يقال: إن الأصل أنه ملك، فيلزم الرد إلى ورثته، وهذا الأخير أحوط، لكن في وجوبه نظر؛ لأن الذي اعتدى وأراد أن يرد يقول أنا أعطيت الرجل وأبى أن يتملكه فكيف ينتقل إلى الورثة، ولكن نقول: الأحوط والأولى أن يرده إلى الورثة ليسلم منه، لكن لو فرض أنه لا ورثة له، أو أن ورثته مجهولون فإن هذا التائب قد أدى ما عليه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب، أو ألا يعود إلى الذنب، الأول أو الثاني؟ الأول أن يعزم على أن لا يعود إلى الذنب.

ما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما أننا إذا قلنا أن لا يعود ثم عاد بطلت التوبة الأولى، وإذا قلنا الشرط العزم على ألا يعود وقد عزم أن لا يعود ثم عاد فالتوبة الأولى تبقى صحيحة وعليه أن يتوب توبة ثانية للذنب الجديد، وعلى كل حال: فالشرط هو العزم ألا يعود في المستقبل، فإن عاد فعليه توبة أخرى؟ نعم وكلما عاد يتوب.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر: «أن رجل أذنب فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم قال الله عزَّ وجلَّ علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»[1]، فهل هذا يعني أن الإنسان إذا تكرر منه الذنب وهو يستغفر يغفر له؟

الجواب: نعم مهما أذنب ثم استغفر يغفر له، لكن لو قال قائل: إن ظاهر الحديث فليعمل ما شاء فليعصِ الله؟ قلنا: لا يستقيم هذا؛ لأنه يخالف الأدلة الكثيرة الدالة على أنه لابد لكل ذنب من توبة إلا طائفة واحدة من هذه الأمة هم الذين يحتاجون إلى توبة من الذنب وهم أهل بدر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٣٠/ ٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«فإن الله اطلع عليهم وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه التوبة، وهو أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الأجل، والأول عام لكل أحد لا توبة لأحد إذا طلعت الشمس من مغربها، لقول النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها»(٢)، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والمراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها.

والثاني: أن تكون قبل حضور الأجل، فإذا حضر الأجل لم تنفع التوبة؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] هؤلاء ليس لهم توبة، وتطبيق هذا عمليًا أن فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ آلآن تؤمن؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢] لا رحمة بك ولكن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، وأما روحك فلا نجاة لها، وإنما نجاه الله ببدنه؛ لأنه قد أرعب بني إسرائيل ولا يكادون يصدقون أنه هلك حتى يشاهدوه فيطمئنوا، فلهذا نجاه الله ببدنه ليشاهدوه.

هل يُشترط ألا يكون مصرًا على ذنب آخر؟ يعني: نفرض أنه تاب من شرب الخمر، لكنه باقٍ على الزنا ـ والعياذ بالله ـ فهل تصح توبته من شرب الخمر؟

الجواب: في هذا خلاف فمن العلماء من يقول: لا تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر، ومنهم من قال: بل تصح؛ لأن كل ذنب له جرمه، ومنهم من قال: إذا كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذي تاب منه، فإن التوبة لا تصح، كرجل تاب من الزنا، لكنه يطلق بصره في النظر المحرم، فإن توبته من الزنا لا تصح، أو رجل تاب من النظر المحرم، ولكنه لم يتب من المس المحرم، هذا أيضًا لا تقبل توبته، ومن العلماء من قال: تقبل مطلقًا إذا تاب من ذنب تاب الله عليه من هذا الذنب؛ لأن الله عزَّ وجلَّ حكمٌ عدل ورحمته سبقت غضبه، وهذا الرجل عند جنايات متعددة تاب من واحدة منها، فليكن تائبًا، وهذا القول أصح، ولكن لا يطلق على هذا التائب وصف التوبة المطلقة؛ لأن توبته هذه مقيدة يعني: لا يستحق وصف التائبين على

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤/١٦١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الإطلاق، فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ لأن هذا الرجل لا يصدق عليه أنه تائب على وجه الإطلاق، لكنه تاب من ذنب، ووقعٌ في ذنب آخر، وهذا القول هو الذي تجتمع فيه الأدلة، على أنه يقال: استحقاق الوصف المطلق فيمن تاب من ذنب مع الإصرار على غيره لا يكون، وأما وصفه بتوبة مقيدة فهذا صحيح.

مسألة: رجل سرق من شخص مالًا ثم رده عليه وقال هذه هديَّة هل يبرأ منه؟

الجواب: لا يبرأ منه.

٤ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عقاب الله تعالى شديد؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: الحذر من التعرض لعقابه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال في آية أخرى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان كمال غنى الله؛ لقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: صاحب الطول، والطول هو الغنى كما شرحناه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** انفراد الله تعالى بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، والانفراد بالألوهية أحد أقسام التوحيد الثلاثة التي هي: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ويسمى توحيد العبادة، فهو باعتبار العبد توحيد عبادة، وباعتبار المعبود توحيد ألوهية.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أنه لا معبود حق إلا الله، لأن هناك من يعبد من دون الله وتسمى آلهة تعبد، وقد سماها الله تعالى آلهة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، لكنها آلهة باطلة.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المصير إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب التحاكم إلى شريعة الله، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ حيث قدَّم الخبر، وتقديم الخبر يفيد الحصر والاستحقاق.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الجمع بين الخوف والرجاء في السير إلى الله؛ لأنه وجب على الإنسان إذا علم أن المصير إلى الله وأنه غافر الذنب وقابل التوب وشديد العقاب يرجوه من وجه ويخافه من وجه آخر، ما دام المصير إلى من هذا وصفه، فإنه لا شك أنه يرجو تارة ويخاف أخرى وأيهما يغلِّب؟

قال بعض العلماء: يجب أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، لا يغلب الرجاء فيقع في الأمن من مكر الله، ولا يغلِّب جانب الخوف فيقع في القنوط من رحمة الله، بل يكون خوفه ورجاؤه واحدًا.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه.

وقال بعضهم: ينبغي للإنسان أن يسير إلى الله تعالى سير الطير جناحاه متسويان، فإن مال أحد جناحيه جنح إلى الجانب الذي مال إليه.

وقال بعض العلماء: ينبغي في جانب الطاعة أن يغلب جانب الرجاء، وأن الله تعالى يقبله، وفي جانب المعصية يغلب جانب الخوف؛ لئلا يقع فيها، فإذا همَّ بسيئة ذكر شدة العقاب فخاف فارتدع، وإذا عمل صالحًا ذكر الثواب والجزاء وقبول الله عزَّ وجلَّ فغلب جانب الرجاء.

وقال بعض العلماء: ينبغي أن يغلب جانب الخوف في حال الصحة، وجانب الرجاء في حال المرض، حتى يأتيه الموت وهو يحسن الظن بالله، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[1].

فالأقوال إذن أربعة: أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، والثاني: أن يغلب جانب الرجاء في العمل الصالح وجانب الخوف إذا همَّ بمعصية، والثالث: أن يغلب جانب الرجاء في حال المرض وجانب الخوف في حال الصحة.

والذي يظهر: أن القول بأنه يغلب جانب الرجاء في حالة الطاعة، وجانب الخوف إذا همَّ بمعصية هو أقرب الأقوال من أجل أن يردع نفسه إذا هم بمعصية خوفًا من الله، وأن يؤمل القبول من الله والثواب إذا فعل الطاعة فيغلب جانب الرجاء.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحث على التوكل على الله، كيف كان الدليل في الحث على التوكل على الله؟ أنه لما كان المصير إلى الله، كان ينبغي أن يتعلق الإنسان بربه لا بغيره ما دام المصير إليه، فتوكل على الله لا على غيره.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: اللجوء إلى الله تعالى عند الشدائد، وعند طلب المحبوب، تؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فإذا اشتدت بك شدة فلا تذهب إلى زيد أو عمرو، بل عليك بالله عزَّ وجلَّ، حتى الشدائد التي أسبابها خفية لا ينفعك فيها إلا الله قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

۞ قال الله تعالى:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ما يجادل إلا الذين كفروا، ﴿مَا﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والجملة هنا جملة خبرية حصرية، خبرية لأنها منفية، لأنه حصر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٢/ ٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

الجدال في الذين كفروا ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أما الذين آمنوا فلا يجادلون في آيات الله، والمجادلة: هي المنازعة والمخاصمة مأخوذة من الجدل وهو فتل الحبل، هذا أصل الجدل المنازعة وهي مأخوذة من الجدل فتل الخصم، أي: فتل الحبل؛ لأن كل واحد من المتنازعين كأنها يفتل حبلًا لمنازِعه، فيكون ذلك أشد في الإحكام.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسر [القرآن]، وينبغي أن يفسر الآيات بما هو أعم، وهذا الذي فسر المؤلف به الآيات يعتبر قصورًا، ولا ينبغي أن نفسر الأمر بأخص منه إلا إذا دلت قرينة قوية على ذلك، وهنا لا دلالة.

فالمنازعون في آيات الله منهم من ينازع في القرآن، ومنهم من ينازع في السُّنة، ومنهم من ينازع في الخلق، مثلًا: الخسوف من آيات الله، أي: خسوف القمر من آيات، لكن من الناس من يجادل فيه ويقول: ليس هذا من باب تخويف العباد، وأي رابطة بين هذا وبين التخويف، وسببه طبيعي معلوم يُدرك بالحساب، ويجادل في شرع الله أي: في آيات الله الشرعية، فعندما يخاطب بحكم يقول: لماذا كان كذا، وكان في موضع آخر كذا وكذا، ككقصة المعري الذي جادل في كون اليد تقطع بربع دينار وديتها خمسمائة دينار، وكقول بعضهم لماذا ينتقض الوضوء بالريح من أسفل ولا ينتقض بالريح من أعلى، والريح من أعلى هو الجشاء، وما أشبه ذلك من المجادلات في الآيات الشرعية، ومنهم من يجادل في القرآن فيقول: القرآن فيه تناقض قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في آية: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، هذا تناقض فيجادل.

المهم: أن الجدل يكون في الآيات الكونية الثابتة في القرآن والسنة، ويكون أيضًا في الآيات الشرعية الثابتة بالكتاب والسنة وفي الآيات الكونية، فينبغي أن نفسر الآيات بما هو أعم مما ذكر المؤلف، فنقول: ما يجادل في آيات الله الكونية أو الشرعية إلا الذين كفروا، وأما المؤمنون فلا يجادلون، بل المؤمنون يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولا يجادلون، وهذا واضح.

مسألة: من أين عرفنا أن المؤمنين لا يجادلون؟

الجواب: من كونه حصر المجادلة في الذين كفروا.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال: [من أهل مكة]، وهذا تخصيص آخر، الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمؤلف يقول: [من أهل مكة]، سبحانه الله! القرآن يعم، ونحن نخص هذا خطأ وقصور في التفسير، فنقول ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعم من القرآن، و﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعم من أهل مكة، والصواب: يجادل في آيات الله الذين كفروا من أهل مكة، ومن غير أهل مكة، من أهل المدينة، من أهل الطائف من أهل جدة من أهل القصيم من كل مكان، فكلهم يجادلون في آيات

الله، لكن إذا كانوا كفارًا.

وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ إما للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأنه الذي نزل عليه القرآن، وإما لعموم المخاطبين؛ لأن القرآن نزل للجميع، وأيها أولى؟

الثاني؛ لأن القاعدة التفسيرية عندنا: أنه إذا دار الأمر بين كون المعنى عامًّا أو خاصًّا، فإنه يحمل على العام؛ لأن الخاص يدخل في العام، ولا عكس، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ أيها المخاطب، وأول ما يدخل في ذلك الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ و﴿يَغْرُرْكَ﴾ يعني: لا يخدعك ولا تغتر بهم.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ التقلب: التردد من شيء إلى شيء، ومنه تقلب الإنسان في فراشه من جانب إلى جانب، والمعنى: لا يغرك ترددهم في البلاد يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، للتجارة ولغير التجارة، لماذا لا يغر؟ قال: [للمعاش سالمين، فإن عاقبتهم النار]، ولكن لو قال فإن عاقبتهم البوار لكان أحسن؛ لأن الله تعالى ضرب مثلًا لمن كان على حالهم، بأن الله أهلكهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴾ [الحج: ٤٢] إلى آخره.

وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ إذن هؤلاء الكفار الذين يذهبون ويجيئون كل هؤلاء لا يغرون، لاسيما إذا كان ترددهم في البلاد استكبارًا في الأرض، ومكر السيء، وعلوًّا على الخلق، وزعمًا منهم سيدبرون الناس وسيسنون نظامًا عالميًا كما يقولون، فإننا نعلم أن مآلهم الفشل، وإذا نحن صدقنا الله، فإن كيدهم لا يضر، قال الله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] يعني: كيدًا أعظم، ومعلوم أن الكيد الواقع من الله أشد من الكيد الواقع من البشر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكفار يجادلون في آيات الله، لكن لأي شيء؟ قال: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حرص الكفار على إبطال الحق بالمجادلة والمجالدة، فالمجادلة كما في الآية، المجالدة إذا عجزوا عن إبطال الحق بالجدل أبطلوه بالقتال، كما في آيات أخرى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحذر من مجادلة الكفار إذا كان ليس عند الإنسان سلاح، أي: لا تدخل مع الكفار في جدل إذا لم يكن لديك سلاح، لأنك سوف تُهزم، وهزيمتك ليست هزيمة شخصية، لكنها هزيمة للإسلام.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا أن نعرف معايب الكفار وأقوالهم؛ حتى يمكننا أن نجادلهم؛ لأن الجدل كما قلنا فيما سبق يعني: المنازعة، فكل واحد ينازع الآخر؛ ليفتل

كلامه أمامه حتى يشتد عليه، فلابد أن تعرف ما هم عليه من الباطل من أجل أن تحاجهم فيه، يعني: لا يكفي في مجادلة الكفار أن تعرف الحق الذي أنت عليه، بل لابد أن تعرف الباطل الذي هم عليه، وأظن هذا واضح، والله عزَّ وجلَّ يجادل الكفار من كتابه: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، والآيات في هذا كثيرة، اعرف ما عند عدوك من الباطل من أجل أن تدحض حجته.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة التي ذكر الله فيها أنه لا يجادل في الآيات إلا الكفار وبين قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] فأمر بالجدال، مع أنه في هذه الآية ذم الجدال، وقال أنه لا يجادل إلا الكفار؟

الجواب على هذا: أن المجادلة التي أمرنا بها هي المجادلة لإبطال الباطل وإحقاق الحق، أما الكفار فإنهم مجادلون لإبطال الحق وإحقاق الباطل، فهم عكس ما أمرنا به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى يملي للكفار ويمهلهم، ويمكنهم من التقلب في البلاد حيث شاءوا؛ لقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير المؤمن أن يغتر بما أنعم الله به على هؤلاء الكفار من التقلب في الدنيا حيث شاءوا، لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان سفه أولئك الذين أغروا واغتروا بالكفار، فبين سفاههم في العقول، وضلالهم في الدين، فإن بعض المسلمين ضعفاء الإيمان قد انبهروا بما عليه الكفار، وظنوا أن ما هم عليه من تحلل الأخلاق وفساد العقائد، والكفر هو الذي أوجب أن يكونوا على هذا المستوى من التقدم المادي، فانبهروا بذلك وانفلتوا من الدين وضيعوا مشيتهم، يقولون: إن الغراب أعجبه مشية الحمامة - ومعروف الفرق بين مشية الحمامة ومشية الغراب - فقال: سأمشي مثل مشية الحمامة فأراد أن يفعل ولم يدرك شيئًا، وأراد أن يعود إلى مشيته الأولى فعجز أن يرجع، فضيع المشية الأولى والثانية، وهؤلاء المساكين الذين انبهروا بما عليه الكفار من القوة المادية وما زُخرف لهم من الدنيا، ضيعوا دينهم ولم يصلوا إلى ما عليه هؤلاء من الدنيا، وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه مهما طال الأمد بهؤلاء الكفار فإن مآلهم الهلاك والبوار، وانظروا الآن كل الكفار السابقين أين ذهبوا؟ ذهبوا إلى النار؛ لأننا نشهد بالله أن كل كافر في النار، فهؤلاء الذين ماتوا على الكفر انتقلوا من الدنيا التي جعلت لهم جنة إلى النار - والعياذ بالله-.

وأظن قد قصصت قصة لابن حجر العسقلاني وكان قاضي القضاة في مصر - يعني كبير القضاة - وكان إذا مشى يمشي على عربة تجرها الخيول أو البغال في موكب، فمر ذات يوم بيهوديٍّ سمان يعني يصنع السمن أو زيات، والسمان تكون ثيابه ملوثة بالزيت وأحواله سيئة، فأشار إلى الموكب فوقف، فقال لابن حجر: إن نبيكم يقول: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»، وكيف يتفق هذا القول مع حالي وحالك، أنت الآن مسلم وفي هذه الرفاهية وفي هذا الموكب العظيم، وهو يهودي وتعث، في زيت أو سمن يلوث ثيابه ويديه وكل شيء، فقال له ابن حجر رحمه الله: نعم لكن أنت ما فيه البؤس هو جنة بالنسبة لما ستؤول إليه إذا مت، فإذا مت وأنت كافر فمآلك النار، هذا جنة بالنسبة للنار، وأما أنا فنعيمي هذا بالنسبة للجنة يعتبر سجنًا؛ لأن نعيم الجنة أعلى بكثير من هذا، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، سبحان الله تبين له الأمر بكلمات بسيطة، فأقول: إن هؤلاء الكفار مهما زينت لهم الدنيا فإنهم - والعياذ بالله - سيؤولون إلى عذاب، وكما نعلم جميعًا أن الإنسان إذا آل إلى عذاب بعد النعيم صار العذاب عليه أشد، لكن لو انتقل من عذاب إلى عذاب، صار أهون أما من نعيم إلى عذاب صار صعبًا جدًّا.

قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]

التفسير

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني: فلينظر عاقبة من كان قبله حين كذبوا، وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ الضمير يعود على الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ نوح هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد أن اختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ونوح بُعث إلى أهل الأرض؛ لأن أهل الأرض هو قومه، أما حين تعددت الأقوام فقد كان الرسول لا يبعث إلا إلى قومه خاصة، كما ثبت ذلك عن

النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾ جمع حزب، وهي الطائفة يعني: الطوائف ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: أي من بعد قوم، يقول المفسر: [كعاد وثمود وغيرهما فماذا أغنى عنهم التكذيب]، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يعني: كل أمة همت برسولهم أي: بالذي أرسل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هذه متعلقة بـ ﴿وَهَمَّتْ﴾ أي: هموا ليقتلوه، واللام هنا بمعنى الباء أي: بأن يأخذوه فيقتلوه، ومنهم من قتلهم بالفعل من قتل النبيين بغير الحق.

وقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ هذه تفسر معنى الجدال فيما سبق في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فجادلوا بالباطل أي: جعلوا الباطل سلاحًا لهم ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ ليزيلوا به الحق، فكانوا يأتون بالباطل يحاجون به الحق لأدحضه، واعلم أن الذين يأتون بالباطل ليدحضوا به الحق لا يأتون بالباطل على وجه بل يزخرفون القول له، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ ولهذا تجد الذين يجادلون بالباطل يأتون بعبارات إذا رآها الإنسان ظنها الحق، كأنها السراب للظمآن، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩].

وكما قال بعضهم:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورِ

فهم يأتون بزخرف القول، وزخرف القول يعني المنمق المحسن المزين لأجل إدحاض الحق.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ الفاء هنا للسببية، أي: فبسبب ما قاموا به من المجادلة بالباطل والتكذيب أخذتهم، والضمير الفاعل يعود على الله سبحانه وتعالى، والمفعول يعود على هؤلاء المكذبين فأخذتهم بالعقاب.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فسر المؤلف الأخذ هنا بالعقاب، فكيف كان عقابي، أي: معاقبتي لهم، و(كيف) هنا للتعجب وللتقرير، وللتعظيم أيضًا، أي: فكان عقابي عظيمًا في كيفيته وفي وقوعه موقعه، وفي شدته، فإنه عذاب لم يوقع أحد منه، وعلى هذا فالاستفهام له عدة معانٍ يعينها السياق.

وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ قد يشكل على الناظر لأول وهلة كيف كان مجرورًا، مع أنه مبتدأ أو خبر مبتدأ، فيقال: إنه ليس بمجرور، وأن الأصل: عقابي فحذفت الياء تخفيفًا والكسرة قبلها دليل عليها، أي: هو واقع موقعه وهذا بناء على أنه استفهام للتقرير، وإذا قلنا: للتعظيم، فيكون معنى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعظم عقابي وأشده، حيث أزالهم عن آخرهم.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية فوائد منها:** أن الله أعذر إلى الخلق بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهذا يدل على أنه قول قاله الأنبياء فكذبه هؤلاء.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن نوحًا هو أول الرسل؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فجعل الأحزاب المكذبين كلهم من بعد قوم نوح، وهذا يدل على أن نوحًا أول الرسل، وهذا أمر معلوم متقرر في عدة آيات، وفي الأحاديث أيضًا، وبه أن من زعم أن إدريس قبل نوح فإنه مخطئ، ولا وجه لقوله.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان ما تنطوي عليه صدور المكذبين للرسل من الهم بقتلهم، يعني أن المكذبين للرسل لم يقتصروا أن يكذبوا فقط، بل هموا بالقتل، والقتل والاغتيال وما أشبه ذلك هو سلاح العاجز، وذلك السجن هو سلاح العاجز، ولهذا قال فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيم آزر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فالسجن والقتل والاغتيال والسب والشتم كله سلاح العاجز؛ لأن القادر على دفع الحجة هو الذي يدفع الحجة بحجة مثلها، أما أن يستعمل سلطته فهذا يدل على عجزه.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأن الفاء سببية، وإثبات الأسباب حق، وهو مقتضى حكمة الله عزَّ وجلَّ أن كل شيء له سبب، فالإنسان لا يولد له مثلًا إلا إذا تزوج وجامع وأنزل، فبذلك يولد له، فالله عزَّ وجلَّ قرن المسبب بأسباب، وهو مقتضى الحكمة، والناس في الأسباب ثلاثة أقسام طرفان ووسط:

الطرف الأول: قسم أنكر الأسباب وقال: لا تأثير لها وما يحصل بالسبب فإنه حاصل عنده لا به، والسبب أمارة على حلول وقت الحاجة، فالسبب أمارة وعلامة فقط على حصول الحاجة، أو على حلول وقتها فانكسار الزجاجة بالحجر إذا أرسل عليها ليس هو الذي كسرها، لكن الله قدر انكسارها عند وجود الصدمة فقط وليس للحجر أي تأثير، فالأشياء تحصل عند الأسباب بغير الأسباب، لكن السبب جعله الله أمارة وعلامة على حلول وقت الحاجة، ولهذا يقولون: لو أن أحدًا أثبت تأثير الأسباب لكان مشركًا؛ لأنه أثبت مع الله خالقًا فاعلًا.

والطرف الثاني يقول: بل الأسباب ثابت تأثيرها وهي مؤثرة بنفسها؛ لأنها هي القوة الفاعلة ولا علاقة لله بها، وهذا يشبه مذهب القدرية وهو قول الفلاسفة يقولون هكذا المسألة طبيعة طبائع، من طبيعة هذا الشيء أن يحدث به هذا الشيء، وهذا لا شك أنه خطأ وأنه نوع من الشرك.

والقسم الثالث الوسط: يقول إن للأسباب تأثيرًا، ولكن لا بنفسها، بل بما أودع الله فيها من

القوة المؤثرة، وهذا هو الذي دل عليه المنقول والمعقول، وهو الحق.

والرد على الطبائعين الذين يقولون: إن الأسباب مؤثرة بطبيعتها أن الله تعالى قال لنار إبراهيم وهي محرقة: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا فخرجت عن طبيعتها، إذن ليست الطبائع قوة مؤثرة بنفسها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة.

والأدلة على تأثير الأسباب أكثر من أن تحصى؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والأعمال الصالحة سبب للفوز، والأعمال السيئة للخسران وهكذا، فالأسباب ثابتة شرعًا ولا شك، والآن الآية التي معنا ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ تفيد إثبات الأسباب وتأثيرها ولكن بأمر الله تبارك وتعالى.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم المجادلة بالباطل لإدحاض الحق؛ لقوله: ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾، ويتفرع على هذا أن هذه العادة من عادات المكذبين للرسل، ومن المجادلة بالباطل لإدحاض الحق، أن يجادل الإنسان للانتصار لقوله، وهذا يقع كثيرًا في المتفقهة والمتكلمة وغيرهم، يجادلون بالباطل من أجل الانتصار للقول، كما قال تعالى: ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦] فمن جادل من أجل أن ينصر قوله لا من أجل أن ينصر الحق ففيه شبه من المكذبين للرسل الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ثم إن فيه - أي: في الذي يجادل في نصر قوله فقط - أنه قد وقع في محظور عظيم جدًّا، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالإنسان إذا جادل لنصرة قوله، فإنه لم يكن لم يؤمن به أول مرة وحينئذ يبتلى بهذه العاهة العظيمة أن الله يقلب فؤاده وبصره حتى لا يبصر الحق ولا يعي الحق ولا يفهم الحق؛ لأنه لم يؤمن به أول مرة، والواجب على المؤمن قبول الحق من أول مرة لا يتردد في قبوله كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك، إذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: هذا حرام امتثلوا فكفوا عنه فعلًا في الحال، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وهذا شيء له شواهد كثيرة وبذلك حققوا الإيمان عقيدة وقولًا وعملًا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان شدة عقاب الله؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ما أعظمه وما أشده وما أحسنه؛ لأنه وقع موقعه.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه يخشى من المعاجلة في العقوبة؛ لأن العقوبة جاءت بالفاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ ولأن المسبب يكون بعد السبب مباشرة، فالإنسان العاصي عليه الخطر من معاجلة الله بالعقوبة.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]

التفسير

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الأمر وهو وقوع العقاب ﴿حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ المفسر رحمه الله قال: [﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] ففسر كلمة الله بذلك، ولكن في هذا نظرًا واضحًا؛ لأن ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ هي الكلمة، فالكلمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حقت كلمت ربك الذي ثبتت أزلًا أن هؤلاء أصحاب النار، وقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، أي: وجبت عليهم، والكلمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ولهذا قال المفسر: [إنها بدل من ﴿كَلِمَتُ﴾]، وإذا كانت بدلًا من ﴿كَلِمَتُ﴾ كيف نقول: إن الكلمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذا كانت هي البدل فابن مالك يقول:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا

فالتابع المقصود بالحكم بلا واسطة هذا البدل؛ إذن فالمقصود بالحكم، المقصود بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وإذا وجد في القرآن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فالمراد بها أصحابها المخلدون؛ لأن الصحبة تقتضي الملازمة، ولا يمكن أن تكون أصحاب النار لمن تُوعدوا بدخول النار، ثم يخرجون منها، إنما تكون لمن هم أهل النار الذين هم أهلها وأصحابها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات تقدير الله عزَّ وجلَّ الأشياء، ففي هذا إثبات أن الأشياء قد كتبت من قبل، لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهذا لا ينافي إرسال الرسل، ولا ينافي الأمر بما أمر الله به، ولا النهي عما نهى الله عنه؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان عقلًا ورشدًا وبصيرة، لأجل أن يعرف كيف يتصرف، فإذا أرسلت الرسل مع الفطرة الأولى ثم عاند فقد قامت عليه الحجة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات كلام الله؛ لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع وبحرف، يعني أنه يسمع ويفهم بحروف مرتبة، فقوله جل وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] نعلم أن الهمزة قبل الحاء، والحاء قبل الميم، والميم قبل الدال وهكذا كلها حروف مرتبة، لم تأت جملة واحدة، وإذا كانت

مركبة لزم من ذلك حدوث الكلمات؛ لأن ما بعد الأول واقع بعده، فيكون بهذا دليل على حدوث كلام الله عزَّ وجلَّ وليس المراد أصل الصفة؛ لأن أصل الصفة أزلية لم تكن حادثة من قبل، فإن الله سبحانه وتعالى لم يزل بصفاته، فهو لم يزل عليمًا، ولم يزل متكلمًا، ولم يزل سمعيًا، ولم يزل قديرًا، لكن الصفة قد تحدث شيئًا باعتبار آحادها وأفرادها، أما إذا كانت الصفة معنوية، فالحدوث ليس لها ولكن لمتعلقها، فسمع الله عزَّ وجلَّ هل نقول: إنه حادث؟ لا، ولكن لم يزل، لكن الذي يحدث هو المسموع، فالكلام يحدث نفس الكلام؛ لأنه نوع من الفعل، وعلى هذا فنقول: في الآية إثبات كلام الله، وأن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بحرف مركب وصوت مسموع.

مسألة: إذا قال قائل: إذا قلت بحرف مركب لازم أن يكون كلامه مشابهًا لكلام المخلوقين؟

الجواب: لا يلزم؛ لأن الكلام لا يمكن أن يكون كلامًا إلا بهذا، لكن صوت الرب الذي يسمع ليس كأصوات المخلوقين؛ لأن الصوت هو صفته، لكن الحروف صفة الكلام الذي تكلم به، وهي لا يمكن أن تكون كلامًا إلا بترتيب، بعضه بعد بعض.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عناية الله عزَّ وجلَّ برسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجه؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ حيث أضاف إليه الربوبية، وهذه الربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله عزَّ وجلَّ نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة الشاملة لكل شيء، والخاصة المختصة بما أضيفت له، استمع لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] ففي هذه ربوبية عامة، وربوبية خاصة، العامة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، الأول ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكة الذي حرمها، ربوبية خاصة، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ هذه عامة، إذن قول الله: ﴿رَبِّكَ﴾ من باب الربوبية الخاصة، ولا شك أن أخص ربوبية تكون للمربوبين هي ربوبية الرسل ولاسيما أولي العزم منهم وهم خمسة: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** خلود الذين كفروا في النار؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وهل هذا خلود أبديٌ أو إلى أمد؟ أبدي، جاء ذلك في آيات ثلاث في القرآن: في سورة النساء وفي سورة الأحزاب وفي سورة الجن.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير مما يوجب غضب الله وسخطه؛ لئلا يكون الرجل قد حقت عليه كلمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي حصل لهؤلاء المكذبين فاستحقوا كلمة الله عزَّ وجلَّ.

❁ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ [مبتدأ] مستأنف، ويجب الوقوف على ما قبله، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يجب أن تقف؛ لأنك لو قلت: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ ووصلت لظن الظان أن أصحاب النار هم الذين يحملون العرش، وهذا فساد للمعنى، فالوقوف على قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ واجب.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ العرش هو عرش الرحمن عزَّ وجلَّ وهو أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأشرفها فيما عدا المكلَّفين، وهذا العرش لا يعلم قدره إلا الله عزَّ وجلَّ؛ لأننا لم نخبر عن قدره، ولا نعلم من أي مادة هو؟ ولا نعلم من أي شيء هو أهو من نور أم من خشب أم من حديد لا نعلم، لأننا لم نُخبر عن ذلك، ولم نعلم عن لونه، ولم نعلم عن ملمسه، كل هذا لا نعلمه، إنما نعلم أنه عرش عظيم محيط بالمخلوقات استوى عليه الرب عزَّ وجلَّ، وله حملة، ومشهور أن حملته الآن أربعة، وفي يوم القيامة يكونون ثمانية، ومن جملة حملة العرش إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، فإنه أحد حملة العرش.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ هل نحن نعلم صفات هؤلاء الذين يحملون العرش؟ لا، لكن نعلم أنهم ملائكة، أما كيف هم؟ فإن ذلك موقوف على ما جاء به السمع، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (من) ليست معطوفة على ﴿الْعَرْشَ﴾؛ لأنه لو كان كذلك لكان المعنى: ويحملون من حوله، وليس كذلك، وعلى ذلك فـ (من) معطوفة على الذين، أي: الذين يحملون العرش والذين حوله، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [عطف عليه]، على المبتدأ؛ لأن المفسر قال: [مبتدأ] فتكون ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ معطوفة على المبتدأ وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، و﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [خبره]، أي: خبر المبتدأ وما عطف عليه، يعني: حملة العرش والذين حول العرش يسبحون بحمد الله، والتسبيح تنزيه الله عزَّ وجلَّ عما لا يليق به من نقص أو مماثلة للمخلوقين، والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للملابسة أي: تسبيحًا ممزوجًا بالحمد، فهم مسبحون حامدون، أي: يقولون سبحان الله وبحمده، وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ أن ذلك دائمٌ مستمر فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، أما إن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون.

قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قال: [تعالى ببصائرهم أي: مصدقون بوحدانيته]

الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء، لكن الإقرار بالقلب واللسان، وليس هو مجرد التصديق، فقد لا يعرض على الإنسان شيء فيؤمن به، كما إذا شاهد شيئًا بعينه فإنه يؤمن به، وإن لم يعرض عليه، والقول بأنه في اللغة التصديق فيه نظر؛ لأن تفسير الشيء بالشيء يلزم أن يكون مطابقًا له، ومن المعلوم أنك تقول: آمنت به، وتقول: صدقت به، وتقول: آمنت له، وتقول: صدقت له، وتقول صدقت ولا تقول آمنت، وهذا يدل على أن الإيمان ليس هو التصديق، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا في كتاب «الإيمان»، فقال: إن الإيمان بمعنى التصديق ليس بصحيح، وإن كان قد يأتي بمعناه، ولكن حقيقته أنه ليس إياه، فهو إقرار بالقلب ونطق باللسان، فيؤمنون بالله أي: يؤمنون بوجوده عزَّ وجلَّ ووحدانيته وبكل ما يستحقه من أسماء وصفات وغيرها، إيمانًا كاملًا، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وانفراده بذلك.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يستغفرون أي يطلبون المغفرة للذين آمنوا، وقد مر بنا مرارًا أن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جملة ﴿رَبَّنَا﴾ مقول لقول محذوف، فسره المؤلف بقوله: [يقولون: ربنا وسعت كل شيء]، ربنا أي: يا ربنا وحُذفت منه ياء النداء؛ لكثرة الاستعمال وتيمنًا بالبداءة باسم الله عزَّ وجلَّ أو بوصفه بالربوبية.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك كل شيء، وعلمك كل شيء، فمعنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحطت به رحمة، وأحطت به علمًا، فما بلغه علم الله بلغته رحمته، ولكن الرحمة إما عامة وإما خاصة كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وجملة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هي عبارة عن توسل، أي: توسلوا بسعة علم الله ورحمته إلى مطلوبهم، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [أي: تابوا من الشرك ورجعوا إلى الله تعالى بالتوحيد والإخلاص].

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريقك وهو [دين الإسلام] سواء كان إسلام محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو إسلام من قبله؛ لأن هذا الدعاء عام لكل المؤمنين، فقول المؤلف: [دين الإسلام]، يريد به الإسلام العام، فالذين اتبعوا الرسل السابقين مسلمون، والذين اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم مسلمون، لكن لا إسلام بعد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا باتباع دينه، وهنا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[النساء: ١١٥] فأضاف السبيل إلى المؤمنين، وكذلك الصراط يضيفه تعالى أحيانًا لنفسه مثل قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وأحيانًا للمؤمنين: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فما هو الجمع بينهما؟

الجواب: الجمع بينهما أن الله أضاف السبيل أو الصراط إليه باعتبارين: الاعتبار الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده يسيرون عليه، والاعتبار الثاني: أنه موصل إلى الله، يوصل إلى الله عزَّ وجلَّ، فمن سلكه أوصله إلى ربه.

أما إضافته للمؤمنين في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] أو للذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فلأنهم سالكوه، فأضيف إليهم باعتبار سلوكهم إياه، وحينئذ ليست بين الآيات تعارض.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [اغفر وقهم عذاب الجحيم] أي: اجعل لهم وقاية من عذاب الجحيم، وهو عذاب النار، كما فسر بذلك المؤلف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العرش، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم في آيات عديدة ووصفه بأنه كريم، وبأنه عظيم، وبأنه مجيد.

٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لهذا العرش حملة؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وإثبات الحملة له مع قدرة الله سبحانه وتعالى على إمساكه بدون حملة، إشعار بتعظيمه وأنه عظيم معتنىً به، ولهذا نجد أن الله قال في السماوات ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢ - ولقمان: ١٠] ولم يذكر لها حملة، والعرش ذكر له حملة مع أن الذي أمسك السموات والأرض أن تزولا قادرٌ على إمساك العرش بلا حملة، لكن هذا من باب التعظيم والتنويه بشرفه وعظمته.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن حول هذا العرش ملائكة، وأنهم كثيرون، ربما نستفيد كثرتهم من قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ كأن كل الذي حول العرش، ثم من الذي حول العرش هل يقدر بمسافة عشرة أمتار، أو عشرين مترًا أو مائة متر أو ألف متر؟

يقال: الحول في كل مكان بحسبه، فعندنا مثلًا الأرض الصغيرة بالنسبة للعرش، والذي حولها الذي حول الإنسان فيها لا يتجاوز عشرة أمتار، وربما نقول: من حولك، هو الذي يسمع كلامك المعتاد، لكن من حول العرش ما نعلم قد تكون مسافات كبيرة لا يعلمها إلا الله.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعظيم هؤلاء الذين يحملون العرش، والذين حول العرش للرب عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل نقص، وعن مماثلة المخلوقين.

فإن قيل: إذا قلنا تنزيه الله ـ عز وجل ـ عن النقص، فلماذا نقول: وعن مماثلة المخلوقين، أفلا يجدر بنا أن نقتصر على قولنا تنزيه الله عن النقص؟

نقول: لا؛ لأن مرادنا في التنزيه عن النقص، أن صفاته الكاملة منزهة عن النقص، فقوته لا يعتريها نقص، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وعلمه لا يعتريه النقص قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فمرادنا بالنقص أن كماله لا يعتريه النقص، وأما نفي المماثلة؛ فلأن الله نص على نفيها فينبغي أن نتبع في ذلك القرآن، بأن نقول منزه عن مماثلة المخلوقين.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وصف الله عزَّ وجلَّ بالكمال والإفراد، لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن الحمد وصف المحمود بالكمال والإفضال، لأن الله يحمد على كماله مثل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وكذلك مثل قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، كل هذا حمدٌ على الكمال، ويحمد على الإفراد؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(١) هذا حمد على الإفضال، إذنْ يستفاد منها: كمال الله عزَّ وجلَّ وإفضاله؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كمال الكمال في نفي النقص، أو بالجمع بين نفي النقص وإثبات الكمال، وكمال الكمال أن تجمع بين النفي والإثبات في الكمال، يؤخذ هذا من قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ هذا نفي ليس فيه نقاش ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إثبات، إذنْ كمال الكمال بالجمع بين النفي والإثبات.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضيلة الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله، تؤخذ من إضافة الربوبية إليهم فإن هذه الربوبية خاصة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وهي من عدة وجوه وهي: اختصاص الله بحمل العرش، وتسبيحهم بحمد الله، وإضافة الربوبية إليهم.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الملائكة مكلَّفون، لقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ووجه الدلالة: أنهم لولا أنهم مكلفون قاموا بما كلفوا به، لما يكونوا مستحقين للثناء بالإيمان، ولو كان هذا من طبيعتهم وسجيتهم لم يكن للثناء عليهم بذلك كبير فائدة، ويدل على أنهم مكلفون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ولا شك أن كل عباد الله الذين لهم فِهْم وعقل لابد أن يكونوا مكلفين.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تسخير الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين أن تستغفر لهم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٩/ ٢٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

الملائكة، وليست الملائكة مطلقًا، بل الملائكة المقربون؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحث على الإيمان، حتى تدخل في ضمن من تستغفر لهم الملائكة، والإيمان كله خير، وكله سرور، وكله نعمة في القلب، ونعمة في البدن، حتى البلاء الذي يصيب المؤمن هو له خير، فلهذا نقول: اصدق على تحقيق إيمانك بفعل الوسائل التي تنمي هذا الإيمان وتغذيه وتقويه.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بصفاته كما يتوسل إليه بأسمائه، فهنا توسل الملائكة، توسلوا إلى الله بالربوبية في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وتوسلوا إليه بسعة الرحمة ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ وبسعة العلم ﴿وَعِلْمًا﴾ والتوسل إلى الله تعالى بصفاته من أسباب إجابة الدعاء، كالتوسل إليه بأسمائه.

وهنا يجدر بنا أن نتعرض لمعنى الوسيلة وحكمها.

فالوسيلة: فعل ما يوصل إلى المقصود يسمى وسيلة، وربما نقول: إنه تتناوب فيه السين والصاد، وأن أصل الوسيلة يعني الوصيلة، وصيلة بمعنى موصلة فهي تعني بمعنى مفعل، فالوسيلة: كل ما يوصل إلى المقصود.

والوسائل لابد أن تكون معلومة إما بالشرع، وإما بالحس، لابد أن تكون معلومة وإنما قلت ذلك لدفع الوسائل الموهومة، الوسائل الموهومة كالذين يعلقون على صدروهم أشياء لم يثبت شرعًا ولا حسًّا أنها مفيدة، لكن على سبيل الوهم، أو الذين يعلقون نحاسًا أو خيوطًا أو ما أشبه ذلك، هذه وسائل للشفاء ادَّعوها، ولكنها حقيقة ليست وسيلة؛ لانتفاء ثبوت ذلك شرعًا وحسًّا، إذا كانت الوسيلة هي فعل ما يوصل إلى الشيء، والعلم بإيصال هذا إلى الشيء أو إلى المقصود فإما يوصل إلى المقصود العلم بكونه موصلًا يأتي عن طريق الشرع، أو عن طريق الحس، فكون العسل شفاءً وتناوله وسيلة للشفاء هذا علمناه بطريق شرعي، وربما حسي أيضًا، وكون السنة محركًا للبطن مسهلًا له، هذه وسيلة حسية، والسنة باللغة العامية يسمى السناوي، هو أوراق شجر معروف يخمر بالماء، ثم يشرب على الريق فإذا شربه الإنسان على الريق فإنه يسهله وينظف بطنه، وكان الناس يستعملونه كثيرًا قبل أن تأتي هذه الأدوية.

على كل نرجع إلى تعريف الوسيلة فهي فعل ما يوصل إلى المقصود، والعلم بإيصاله إلى المقصود يأتي عن طريق الشرع و عن طريق الحس، والتوسل إلى الله تعالى بإجابة الدعاء أن تفعل شيئًا يوصل إلى الإجابة ولا طريق لنا إلى العلم بإيصال الإجابة إلا عن طريق الشرع، لا علم إلا عن طريق الشرع، إذنْ التوسل الجائز إلى الله تعالى أقسام:

القسم الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ

بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فتقول: اللهم يا غفور يا رحيم اغفر لي وارحمني، هذا توسل إلى الله بأسمائه.

القسم الثاني: التوسل إلى الله بصفاته، ومنه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»(1) «أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي»، بماذا توسل؟ «بعلمك الغيب» والعلم صفة، «وبقدرتك على الخلق»، القدر صفة، فتقول: اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي... إلى آخره.

القسم الثالث: التوسل إلى الله بأفعاله، وذلك أن تتوسل إلى الله بأفعاله، ومن قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] إن جعلنا قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ [القصص: ١٧] من باب الدعاء، وإن جعلناه من باب الاستئذان فلن تكون من هذا الباب، ولكن من هذا الباب قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يعلمنا كيف نصلي عليه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»(2)، فالكاف هنا ليست للتشبيه لكن الكاف للتعليل، يعني: صل على محمد وآل محمد؛ لأنك صليت على إبراهيم، فالتوسل في الحديث إلى الله بفعله، يعني: كما مننت أولًا على إبراهيم وآله، فامنن ثانيًا على محمدٍ وآله.

القسم الرابع: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالله، والتوسل إلى الله بالإيمان بالله وهذا من فعلك أنت، التوسل إلى الله بالإيمان به ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] هذه الوسيلة ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي بسبب ذلك ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] هذا توسل إلى الله بالإيمان به.

القسم الخامس: التوسل إلى الله بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح سببٌ للمثوبة، والمثوبة حصول ما دعوت به، ودليله: قصة أصحاب الغار التي حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أصحاب الغار ثلاثة آواهم المبيت ـ الليل ـ فلجأوا إلى غار فدخلوا به، فتدحرجت عليهم صخرة عظيمة من الجبل فسدت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها، ولا مغيث لهم إلا الله، فليس حولهم بشر، فماذا صنعوا؟ توسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، فأحدهم توسل إلى الله ببر والديه، والثاني توسل إلى الله بالعفة التامة، والثالث توسل إلى الله بالأمانة التامة(3)، والقصة معلومة ولا حاجة للتفصيل.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (١٠/ ٢٦٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٧٠) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(3) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (١٠٠/ ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فبر الوالدين عمل صالح، والعفة عمل صالح، والأمانة وأداء الأمانة عمل صالح، فلما توسل الأول منهم انفرجت الصخرة لكن لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثاني انفرجت الصخرة لكن لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثالث انفرجت الصخرة مرة واحدة فخرجوا يمشون، هذا التوسل إلى الله بالعمل الصالح.

القسم السادس: التوسل إلى الله بحال الشخص، تتوسل إلى الله بحالك أنك فقير محتاج إلى الله مريض وما أشبه ذلك، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] لما سقى للمرأتين تولى إلى الظل ليستظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] هذا ما قال: أعطني ولا شيء، لكن توسل إلى الله بحاله؛ لأن قول القائل: أنا فقير أنا محتاج أنا مسني الضر وما أشبه ذلك، يعني: فأعطِ؟ وقد جمع أيوب عليه السلام بين ذكر الحال والتوسل بالأسماء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، الأول: مسني الضر ـ ذكر الحال ـ، والثاني: بالأسماء.

النوع السابع من التوسل الجائز: التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته، ومنه توسل الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يدعو الله لهم، مثل الاستسقاء وغير ذلك كثير، ومن ذلك توسل الناس عمومًا يوم القيامة بشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الله أن يقضي بين الناس، فهذه سبعة أنواع.

وقولنا: التوسل إلى الله بمن ترجى إجابته يستفاد منه: أن التوسل إلى الله تعالى بمن لا ترجى إجابته لا تجوز؛ لأن هذا استهزاء بالله، لو أنك أتيت بصاحب ربا ويأكل الربا ويأكل المال بالظلم والغش والكذب، وقلت: ادعوا الله لي فإن هذا لا يجوز؛ لأنك توسلت إلى الله بمن تبعد إجابته، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، وملبسه حرام ومطعمه حرام وغذي بالحرام قال: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ»[(١)] وهو سخرية، ولو أنك أتيت لشخص ـ ولله المثل الأعلى ـ ليتوجه لك إلى ملكٍ وكان الملك يبغض هذا الشخص ويبعده، ماذا يكون؟ يكون هذا استهزاءً بالملك واستهترًا به، كلٌّ يعرف هذا، فلا يجوز أن تتوسل إلى الله بدعاء من لا ترجى إجابته؛ لأن هذا من باب السخرية بالله عزَّ وجلَّ هذه سبعة أقسام من التوسل الجائز.

أما التوسل الممنوع: بأن يتوسل إلى الله بما ليس بوسيلة مثل توسل المشركين بأصنامهم، حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وهذا لا ينفع.

ومن ذلك: التوسل إلى الله بجاه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذا لا يجوز؛ لأنه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٥/ ١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

توسلٌ بها ليس بوسيلة ماذا تستفيد من جاه الرسول عند الله؟ لا شيء؛ لأن جاه الرسول عند الله إنما ينفع الرسول فقط، لا علاقة لي به، فلذلك يكون التوسل بجاه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ممنوعًا محرمًا:

أولًا: لأنه لم يرد، والثاني: لأنه ليس بوسيلة، إذ إن الوسيلة هي فعل ما يوصل إلى المقصود، وأي اعتبار بين جاه الرسول عند الله وبين مطلوبك، فالتوسل الممنوع شيئًا أو شيئين، الأول التوسل الشركي توسل المشركين بآلهتهم لتقربهم إلى الله، فإن هذا لا شك أنه وسيلة غير صحيحة وأنها باطلة، على أن تسميتنا إياها وسيلة إنما نريد من لا يعبد الأصنام، أما من يعبد الأصنام فإنه مشرك، ولم يتوسل إلى الله تعالى بشيء.

والثانية: التوسل إلى الله بجاه الرسول، فإن قال قائل أيجوز أن أتوسل بمحبة الرسول فأقول اللهم بمحبتي لرسولك؟ يجوز؛ لأن محبة الرسول عمل صالح بلا شك، فإن من أفضل الأعمال محبة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بل لا يؤمن الإنسان حتى يكون الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان الصيغة التي تقولها الملائكة باستغفارهم للمؤمنين أنهم يتوسلون أولًا ثم يطلبون ثانيًا، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

١٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سعة رحمة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ **فإن قال قائل:** كيف يصح ذلك، وأكثر بني آدم كفار فأين الرحمة؟ قل لهم: مرحومون بالرحمة العامة، من يخرج لهم النبات، ومن ينزل لهم المطر، ومن يجعلهم أصحاء من يمتعهم بالسمع بالبصر إلا الله، وهذه رحمة، فرحمة الله وسعت كل شيء.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سعة علم الله؛ لقوله: ﴿وَعِلْمًا﴾ ويترتب على هاتين الفائدتين: أن الإنسان متى علم ذلك تعرض لرحمة الله لعله يكون من الداخلين فيها، وإذا آمن بسعة علم الله استحيى من الله أن يفقده حيث أمره أو يجده حيث نهاه أليس كذلك؟

لو قال لك أبوك: يا بني لا تفعل كذا، إذا غاب أبوك ولك هوى فيما نهاك عنه أتفعله أو لا؟ تفعل ولا شك؛ لأنه لا يعلم بك، إذا كان يشاهدك لا تفعله، أما الله عزَّ وجلَّ لا يغيب عنك، إذنْ لا تفعله لا في السر ولا في الجهر إذا كان فيما نهى الله عنه، ولا تتركه إذا كان فيما أمر به، ولهذا نقول: لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة التوبة؛ حيث علقت الملائكة بطلب المغفرة بها فقال: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

١٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من تحقيق التوبة اتباع سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، ولهذا نجد أن الله تعالى يقرن دائمًا مع التوبة ذكر العمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

١٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإسلام؛ وذلك لإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ.

١٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** كمال الإسلام، بإضافته إلى الله، ففيه الفضيلة بإضافته إلى الله باعتباره مرسل إليه، وفيه الكمال بإضافته إلى الله باعتباره واضعًا له، وأنه هو الذي شرعه، وهو كامل والكامل لا يشرع إلا كاملًا.

٢٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة أكدوا المغفرة بحصول أثرها، وهي قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك أن التوبة لا تكون إلا بالوقاية من الجحيم؛ لأنهم أكدوا ذلك؛ لعظم هذا العذاب ـ عذاب الجحيم ـ فنصوا عليه لهذا السبب، وإلا فإن التوبة في الحقيقة والمغفرة توجب الوقاية من عذاب الجحيم، لكن النص عليه يكون في ذلك زيادة، على ما يتضمنه المعنى العام.

مسألة: هل يمكن أن يؤخذ من هذه الآية الرد على الجبرية؟

الجواب: نعم، وذلك من قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، فأضاف الاتباع إليهم، ولو كانوا مجبرين على ذلك لم يصح أن يضاف الفعل إليهم، ولهذا إذا أُكره الإنسان على الكفر لا يكفر؛ لأن الفعل لا ينسب إليه حقيقة، فهو مكره عليه، والله أعلم.

مسألة: ما هو ضابط الفرق بين الوسيلة الشركية والوسيلة البدعية؟

الجواب: الوسيلة البدعية هي التي لم ترد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا عن الصحابة، والشركية هي ما تتضمن إشراك غير الله مع الله، مع أن البدعة تسمى شركًا بالمعنى العام؛ لأن المبتدع شرع شرعًا لم يشرعه الله، وقد سمى الله ذلك شركًا فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، لكن ما كان مظهرهم مظهر الشرك غلب عليه اسم الشرك، وما كان سوى ذلك فيسمى بالاسم الذي يختص به.

مسألة: هل يجوز التوسل إلى الله بمحبة الصالحين والعلماء، وهل محبة الصالحين والعلماء عبادة تقرب إلى الله أم لا؟

الجواب: نعم، لأنها عمل صالح تدخل في التوسل إلى الله بالعمل الصالح.

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٨، ٩].

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا من جملة دعاء الذين يحملون العرش ومن حوله يقولون: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ربنا: أي يا ربنا، وكرروا النداء بالربوبية؛ لأنه تام بالأول يسألون الله المغفرة لهم والوقاية من عذاب الجحيم، وهذا من باب التخلية، أي السلامة مما يضروهم، أما الثاني فهو من باب التحلية، أي: من باب حصول المطلوب ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ فصارت الجملة الأولى من الدعاء فيها النجاة من المرهوب، والثانية فيها حصول المطلوب ولهذا كرروا قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾، وجعلوا هذه الجملة معطوفة على ما سبق، لا مستأنفة أي: لم يقولوا ربنا أدخلهم، قالوا: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾؛ لتحقق ما قبلها؛ لأن العطف يقتضي ثبوت المعطوف عليه، وكونه أصلًا فكأنهم قالوا: واجمع لهم، مع ما سبق أن تدخلهم جنات عدن.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جمع جنة، والجنة تأتي في القرآن مجموعة وتأتي مفردة فباعتبار الجنس هي جنة واحدة، وباعتبار الأنواع هي جنان كثيرة، ذكر الله تعالى فيها أربعة أنواع في موضع واحد، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهي تُجمع باعتبار الأنواع، وتفرد باعتبار الجنس، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، وسُمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه أي: يستره لكثرة أشجاره، والمراد بها شرعًا دار النعيم التي أعدها الله تعالى لأوليائه، «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الله عَزَّ وَجَلَّ»[1]، فهم أقرب الناس إلى الله.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ العدن بمعنى الإقامة، يقال: عَدَنَ الإنسان أي: أقام، ومنه سمي المعدن لمعادن الأرض، لأن المعدن مقيم ثابت راسخ في الأرض، فـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، وسميت بذلك أو وصفت بذلك؛ لأن أهلها لا يبغون عنها حولا، ولأنها دائمة أبد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآبدين.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ صفة لجنات، وإنما قالوا ذلك؛ اعترافًا بفضل الله تعالى أولًا وآخرًا، وتوسلًا إليه بتحقيق ما طلبوا؛ لأن الله إذا وعد شيئًا أتمه، فإنه لا يصف النعم.

فصار ذكر قول: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ له فائدتان الأولى: الاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى؛ حيث وعدهم هذه الجنات، والثاني: التوسل إلى الله تعالى بإجابة الدعاء، كأنهم يقولون: أدخلهم هذا؛ لأنك وعدتهم إياها فيكون من باب التوسل بوعده إلى تحقق موعده.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ يقول: [عطف على ﴿هُمْ﴾ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾]، فالواو حرف عطف، ﴿وَمَن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب، عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو على ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، والأحسن أن يكون عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، فيكون الدعاء بالدخول شامل لهم ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا التوازن جيد؛ حيث قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ ولم يقولوا:وآبائهم وأزواجهم وذرياتهم، إنما قال: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ لأنهم لو دعوا بالعموم، لكن فيه نوع من الاعتداء في الدعاء؛ لأن الاعتداء في الدعاء هو أن يدعو الإنسان بما لا يمكن شرعًا أو حسًّا، كل من دعا الله تعالى بما لا يمكن شرعًا أو حسًا فإنه معتدٍ في الدعاء، ولو زدنا أيضًا أو حسًا أو عادة، فهو معتد، فلو سأل الله تعالى أن يخرج له ولدًا من جدار بيته لكان هذا اعتداء في الدعاء، ولو سأل الله تعالى أن يجعله نبيًّا لكان هذا اعتداءً في الدعاء؛ لأن ذلك لا يمكن شرعًا.

ولو سأل الله أن يجعل السموات والأرض بيده لكان هذا معتديًا في الدعاء؛ لأنه لا يمكن عقلًا، فما لا يمكن شرعًا أو عقلًا أو عادة أو حسًا فإنه لا يجب لا يدع الله به؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء، فهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ لو قالوا آبائهم لكان فيه نوع من الاعتداء؛ حيث إن آباء هؤلاء قد يكونوا مشركين كفارًا لا يستحقون أن يدخلوا الجنة.

فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ جمع زوج، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ جمع ذرية، فذكر الأصول والفروع والمصاهرة، الأصول والفروع آباء وذريات، والمصاهرة أزواج.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذه الجملة استئنافية يراد بها التوسل إلى الله تعالى بعزته وحكمته أن يحقق هذا الدعاء، أو هذا المدعو به.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات أن الملائكة عباد مربوبون لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الشيء لا يتم إلا بانتفاء المؤذي، وحصول المطلوب وجه ذلك: أنهم لما انتهوا من دعاء الله تعالى من إنتفاء المؤذي سألوا الله تعالى حصول المطلوب وهو إدخال الجنات.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجنات أنواع، نستفيد هذا من الجمع.

٤ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الجنات دار إقامة، لا يبغي ساكنها تحولًا عنها ولا يلحقه فناء؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التوسل إلى الله تعالى بفعله أو قوله؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ فإن وعده قول، وهؤلاء الملائكة توسلوا إلى الله بهذا القول.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من تمام النعيم أن يجمع الله بين الإنسان وبين قرابته وزوجه؛ لقول: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ إلى آخره.

فإن قال قائل: هل يلزم من ذلك أن يكونوا في درجة واحدة.

قلنا: لا يلزم، ولكن الأزواج لابد أن يكونوا مع أزواجهم، والذرية ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الطور أنهم في درجة آبائهم أيضًا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا يدل على أن الذرية الذين لم يبلغوا منازل آبائهم أنهم يرفعون حتى يكونوا في منازل آبائهم، وأن ذلك لا يقتضي نقص الآباء من عملهم، يعني: لا نقول: إن الحل وسط نرفع هؤلاء قليلًا وننزل هؤلاء قليلًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]؛ لئلا يظن الظان أنه إذا رفعت الذرية فإنها ترفع قليلًا وينزل الآباء بمقدار ما رفع هؤلاء ليلتقوا في نقطة الوسط، وهذا ليس كذلك؛ لأنه لو نزل الآباء قليلًا لازم من ذلك أن ينقصوا، ولكن الله يقول: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ [الطور: ٢١] أي: ما نقصنهم أي الآباء ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور:٢١].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الاشتراط بالدعاء عن التعميم؛ لقولهم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾، ومن ذلك قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٦] أي: أهل المسجد الحرام ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] ثم أبدل منه قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فاحترز، ولكن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] يعني أرزق من في هذا البلد ولو كانوا كفارًا، لكن من كفر أمتعه قليلًا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

المهم: أنه ينبغي للإنسان في الدعاء أن يحترز من التعميم الذي قد يتناول من لا يستحق الدعاء فيكون في دعائه هذا الاعتداء.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات هذين الاسمين لله وهما: العزيز والحكيم من

أسماء الله، وإثبات ما تضمناه من الوصف أو من الصفة، فالعزيز متضمن للعزة، والحكيم متضمن للحكمة والحكم.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التوسل إلى الله تعالى بالدعاء بأسمائه.

فإن قال قائل: ذكرتم في عدة مواضع أن التوسل بالأسماء ينبغي أن يكون مطابقًا للسؤال أو للمسئول، وهنا ما مناسبة العزة والحكمة للدعاء بإدخال هؤلاء الجنة؟

الظاهر والله أعلم: أن المطابقة أنهم دعوا أن الله يدخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهذا أمر يحتاج إلى عزة، وتمام سلطة، وإلى حكم وحكمة، فلهذا ختموا هذا الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دون أن يقولوا: إنك ذو الفضل العظيم.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التركيب الوجودي في الأشياء، وذلك في قوله: ﴿ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، هذا هو التركيب: أبٌ ثم تزوج ثم ذرية، فهذا تركيب وجودي، ولا شك أن هذا من محسنات اللفظ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذا معطوف على ما سبق على قول: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أي: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ﴾، والجملة تتضمن فعلًا وفاعلًا ومفعولين، فالفعل (قِ)، والفاعل مستتر وجوبًا، والمفعول الأول الهاء، والمفعول الثاني السيئات، و(قِ) هنا فعل أمر، لكنه مكون من حرف واحد بعد أن حذف منه حرفان، الأول والثالث وهكذا كل مثال ناقص إذا كان ثلاثيًا فإن فعل الأمر منه على حرف واحد، هذه هي القاعدة: كل مثال ناقص ففعل الأمر منه إذا كان ثلاثيًا على حرف واحد.

ما هو المثال؟ الذي أوله حرف علة، والناقص هو الذي آخره حرف علة، إذنْ القاعدة هذه تشمل أمثلة كثيرة، قد جمعها الخضري في حاشية ابن عقيل على ألفية ابن مالك جمعها في أبيات، منها: قِ ـ فِ ـ عِ ـ لا أذكر كل ما عدد، لكن الضابط هو هذا كل ثلاثي كان مثالًا ناقصًا ففعل الأمر منه على حرف واحد.

وقوله: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ﴾ قال المفسر: [أي: عذابها]، وهذا إذا جعلنا السيئات بمعنى الأعمال السيئة، فإنه يتعين أن نفسر ذلك بعذاب السيئات، لماذا؟ لأن عمل السيئات الآن قد انتهى وقته، وإنما الموجود هو الجزاء، ففسر حينئذٍ بالعذاب، وأما إذا فسرنا السيئات بما يسوء دون العمل الذي يقع من العبد فإنه لا حاجة إلى أن نقول: عذابه لماذا؟ لأن العذاب مما يسوء فكأنه يقال: وقهم ما يسوؤهم من العذاب، والقاعدة في التفسير وشرح الأحاديث: أنه إذا دار الأمر بين احتمال التقدير وعدم التقدير فالأولى عدم التقدير، وعلى هذا فنقول: ﴿السَّيِّـَٔاتِ﴾ هنا لا يراد بها الأعمال السيئات التي هي فعل العبد قطعًا؛ لأن هذا قد انتهى، وإنما يراد بالسيئات ما يسوء من أعمالٍ ومن عقوبات ومن عذاب ومن غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ [يوم القيامة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾] من شرطية، وجملة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ جواب الشرط، وإنما اقترن جواب الشرط بالفاء؛ لأنه مبدوء بقد، وجواب الشرط إذا بدئ بقد وجب اقترانه بالفاء، وله نظائر مما يجري اقترانه بالفاء، المهم: أنه يجب ارتباط جواب الشرط بالفاء إذا وقع واحدًا من سبعة أمور، مجموعة في قول الشاعر، أو قول الناظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

التنفيس يشمل سوف والسين. وهذه الآية اقترن فيها جواب الشرط بقد في قوله: ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المشار إليه وقاية السيئات والرحمة ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، هو يجوز أن تكون مبتدأ و﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن تكون ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل لها من الإعراب، ويكون التقدير: وذلك الفوز العظيم، ويؤيد هذا أنها تأتي بهذه الصيغة في بعض المواضع ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، وضمير الفصل من حيث المعنى له ثلاثة فوائد:

الفائدة الأولى: الحصر، والفائدة الثانية: التوكيد، والفائدة الثلاثة: التميز بين الصفة والخبر، هذه ثلاثة فوائد لضمير الفصل.

يظهر هذا في المثال إذا قلت زيد الفاضل، يحتمل أن تكون الفاضل خبر المبتدأ، ويحتمل أن تكون الفاضل صفة والخبر لم يأت، ويحتمل أن يكون المراد زيد الفاضل فاهم أليس كذلك؟ ويحتمل أن تكون الفاضل خبر المبتدأ فإذا جاءت زيد هو الفاضل زال الإشكال وتعين أن تكون الفاضل خبر المبتدأ، وأما التوكيد والحصر فظاهر، لأنك تقول: زيد هو الفاضل أكدت أنه فاضل، وحصرت الفضل فيه.

وقوله: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ما معنى الفوز؟ الفوز حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ما هو النجاة من المرهوب في الآية؟ ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما حصول المطلوب فهو ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولا تفسير أبين وأوضح من تفسير الله عزَّ وجلَّ، فالفوز هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب والدليل ما بينا.

وقوله: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ وصف له بالعظمة؛ لأنه لا فوز أعظم من هذا، لا فوز أعظم من أن يمن الله عليك بسكن هذه الدار - جعلنا الله وإياكم من ساكنيها - التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1]، فكل ما في الدنيا من المؤمنين يسعون للوصول إلى هذه الدار،

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ولهذا لما قال الأعرابي للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يا رسول الله أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، ولكني أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، فقال: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»(١) نحن لا نريد إلا هذا، وهذا الحديث وإن كان في صحته ما فيه، لكن حقيقة هذا هو أن كل المؤمنين يعملون للوصول إلى هذه الدار، وهو ـ أي: العمل ـ لها يسير، لكن على من يسر الله عليه، ومتى ييسر الله عليك ذلك؟ اسمع إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] اعمل أنت، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(٢).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسألون الله تعالى أن يقي الذين آمنوا السيئات أي: عذابها؛ حتى يتم لهم المطلوب.

فإن قال قائل: أليس هذا حاصل مما سبق، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾؟

قلنا: بلى، ولكنَّ مقام الدعاء ينبغي فيه البسط لعدة أسباب:

السبب الأول: أن الدعاء عبادة، فكلما بسطت فيه ازددت تعبدًا لله، وازددت ثوابًا وأجرًا.

السبب الثاني: أن البسط فيه التفصيل، والتفصيل خير من الإجمال؛ لأن الإجمال قد ينسى فيه الإنسان أشياء مهمة ولا تكون على باله، لكن إذا فصل تبين الأمر.

السبب الثالث: أن التفصيل في الدعاء انبساط مع الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الداعي مناج ربه، ومن المعلوم أن مناجاة المحبوب يستحب فيها التطويل، أو نقول بعبارة ثانية: من المعلوم أن المحبوب يحب أن تطول المناجاة بينه وبين حبيبه، وهذا شيء مشاهد، فإذا جلس إليك من تحب فإنك تود أن يطول الحديث، ويطول الجلوس حتى إن الزمن ينفرط بسرعة، وإذا جلس إليك الثقيل قلت:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِدَارِ قَوْمٍ ... فَمَا السَّكِينَةُ سِوَى الرَّحِيلِ

أحيانًا يجلس إليك الثقيل، يخاطبك ويكلمك كلما خاطبك بكلمة ولو كانت ثناءً عليك كأنما صفع وجهك؛ لأنه يكون عندك كأنه جالس على قلبك، لكن الحبيب إذا جلس إليك لا تود أن تفارقه ولا تمل حديثه، ولكن من خير الجلساء.

لَنَا جُلَسَاءُ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ ... أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدَا

يعني بذلك الكتاب.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ ثَابِتٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

هؤلاء هم الجلساء الذين لا يملون، والذين ينفعون ولا يضرون، على كل نقول: إنه ينبغي البسط في الدعاء.

انظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله علانيته وسره، أوله وآخره، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت وما أنت أعلم به مني»[1] يكفي عن هذا كله أن يقول: اللهم اغفر لي ذنبي، لكن البسط له تأثير على القلب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من وُقِي السيئات فقد دخل في رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الرحمة كما تكون في جلب المحبوب تكون في دفع المكروب، لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذا أعظم فوز، لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ووجهه: أنه أشار إليه بإشارة البعيد للدلالة على علو هذا الفوز، ووصفه بالعظمة فيكون جامعًا بين علو المرتبة، وعلو الماهية.

مسألة: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ في الآخرة هل يدخل في هذه الآية؟

الجواب: نعم، لأن دخول الجنة بما فيها من نعيم فوز، وأعظم النعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ النداء هو الكلام من بعيد، والمناجاة الكلام من قريب، ولم يبين الله تعالى من يناديهم، لكن المفسر قال: [من قبل الملائكة]، وذلك عند دخولهم النار، وهم يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت، والمقت هو أشد البغض، فهم في ذلك الوقت عند دخولهم النار يبغضون أنفسهم بغضًا شديدًا، حيث لم يتوصلوا إلى النجاة منها،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٨) ومسلم (٧٠/ ٢٧١٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

فينادون فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتدخل على المبتدأ توكيدًا، وقوله: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم] هذا أحد الوجهين في الآية، وعلى هذا فيكون المقت مضافًا إلى فاعله، لا إلى مفعوله، يعني: لبغض الله إياكم أشد من بغضكم أنفسكم، وقيل: إنه مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، وعلى هذا يكون المعنى: لمقتكم الله حين تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، أي: أنه كرهوا ما دعوا إليه في الدنيا من محبة الله، وأبدلوا ذلك بأشد البغض، وهذا المعنى أقرب مما مشى عليه المفسر رحمه الله؛ [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم]، وعلى ما رجحنا يكون المعنى: لمقتكم اللهَ فهو مضاف إلى مفعوله، متى مقت الله؟ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنكم حينما دعيتم إلى الإيمان كرهتم ذلك ولم تقتنعوا بل أبغضتموه أشد البغض.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ متى مقتوا أنفسهم؟ حين قيل لهم ادخلوا نار جهنم، فأبغضوا أنفسهم، وقوله: ﴿مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مقت هنا مصدر مضاف إلى فاعل يعني: إن هم مقتوا أنفسهم، وأنفس مفعول مقت، وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تدعون في الدنيا إلى الإيمان، وأبهم الداعي؛ لأن دعوتهم إلى الإيمان تكون من الرسل وتكون من ورثة الرسل وهم العلماء، فالداعي لهم ليس واحدًا بل الرسل يدعونهم وورثة الرسل وهم العلماء يدعونهم كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ الإيمان بمن؟ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هذا هو الإيمان كما فسره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله جبريل قال أخبرني عن الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله...» الحديث.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المراد بالإيمان هنا كما ذكرت هو الإيمان بأركانه الستة، وكذلك الانقياد اللازم من الإيمان بهذه الأركان الستة، ولهذا هم دعوا إلى الإيمان الذي في القلوب، ودعوا إلى الاستسلام أيضًا وهو أعمال الجوارح وكفروا بذلك كله.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الكافرين يوبخون يوم القيامة توبيخًا يزيدهم ألمًا إلى ألمهم؛ لقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنهم تبين لهم ما هم عليه من الضلال والكفر، حين رأوا العقاب وجهه: أنهم مقتوا أنفسهم في ذلك الوقت حين رأوا العذاب، وهذا يدل على أنهم تبين لهم الضلال في ذلك اليوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** على ما مشى عليه المؤلف: إثبات المقت لله، أي: أن الله يمقت أي: يبغض، هذا على ما مشى عليه المؤلف من أن (مقت) مضافة إلى الفاعل، وإذا قلنا

بالقول الراجح لم يكن في الآية دليل على أن الله يمقت، لكن الدلالة على أن الله يمقت وأن له مقتًا من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، والمقت أشد من البغض، والبغض من الصفات الفعلية التي تتعلق بمشيئة وإرادته.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان قد يكره نفسه، ومتى يكون ذلك؟ إذا رأى من تصرفه ما يسوؤه، فإنه يكره نفسه، ويقول: هذا من النفس الأمَّارة بالسوء.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الحجة قد قامت على هؤلاء المكذبين المعذبين؛ لقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهل الدعوة دعوة بإفهام أم الدعوة لمجرد البلاغ؟ الأول دعوة بإفهام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلابد من فهم الحجة، ولكن إذا بلغ الإنسان فالواجب عليه أن يبحث عن الفهم، فإن لم يفعل كان مقصرًا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه هؤلاء كفروا عن عناد، وهذه تؤخذ من أنهم دعوا فكفروا، وهذا كفر عناد والعياذ بالله.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

التفسير

قوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة هنا ما كان قبل الحياة وبعد الحياة، ما كان قبل الحياة أي: وهم أجنة في بطون أمهاتهم، وما كان بعدها وهو الموت الذي يكون بعد النزول في الدنيا، هاتان ميتتان، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الحياة وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والحياة بعد البعث يوم القيامة أو حين البعث يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] هذه أربعة إماتتان وإحياءتان، فهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إمتتين، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إحياءتين؛ لأنهم كانوا نطفًا أمواتًا فأحيوا ثم أميتوا ثم أحيوا ثم بُعثوا هذا تفسير ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، والإماتة الأولى ليس إماتة بعد حياة، ولكنها فقد حياة فصح أن يطلق عليه اسم الموت، وقصد بهذا الإقرار بأن الأمر حق، يعني: كما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة موت فحياة ثم موت وحياة فإننا نتيقن أننا

أخطأنا، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يعني: فقد اعترفنا بذنوبنا، والذنوب جمع ذنب، وهو المعصية والمراد هنا الكفر، كما قال المؤلف رحمه الله: [بكفرنا بالبعث].

وقوله: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [من النار]، ﴿فَهَلۡ﴾ هنا للتمني، يعني أنهم يتمنون الخروج من النار ولكنه لا يحصل لهم ذلك، ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ [من النار والرجوع إلى الدنيا لنطيع ربنا]، ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ من طريق وجوابه؟ لا، وهذا من المؤلف بناءً على أن الاستفهام على بابه، أنهم يسألون هل لنا من طريق فنخرج، أما على ما قلنا: إنه للتمني فهذا لا يحتاج إلى جواب، فهو كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الفوائد:

١ - **هذه الآية فيها:** إثبات اعتراف هؤلاء المكذبين بأنهم كفروا بالله، وأنهم مستحقون لهذا العقاب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إقرار الكفار بما ينكرونه من قبل، من البعث وهذا معنى قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه في ذلك اليوم تبين لهم الحق وصحة القياس؛ لأنهم قالوا: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فالموتة الأولى قبل أن تنفخ فيهم الروح قد أقروا بها والحياة الدنيا قد أقروا بها، متى أقروا بها؟ أقروا بها في الدنيا وهم أحياء، ولكن أنكروا البعث بعد الموت، وأما الآن فقالوا نعم كنفخ الروح في الجنين، يعني: أنا تيقنا الآن أن ما ذكره الله عزَّ وجلَّ من قياس الإعادة على الابتداء أمر حقيقي، وأننا أحيينا مرتين، وأمتنا مرتين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** شدة حسرة هؤلاء على ما فعلوا وتمنيهم الخروج مما وقعوا فيه من العذاب بقولهم: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

وفي هذه الآية إعراب مشكل وهو أن قوله: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ جملة خلت من أحد الركنين فيها، وهو المبتدأ؛ لأن الذي أمامنا جار ومجرور وهو الخبر، وما هو محل المبتدأ، وهل يكون المبتدأ مجرورًا؟ نعم، إذنْ المبتدأ ﴿سَبِيلٖ﴾ دخل عليه حرف من حروف الجر الزائدة إعرابًا، ولهذا نقول في إعرابها ﴿مِّن﴾ حرف جر زائد، و﴿سَبِيلٖ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائدة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يقول المفسر: [أي: العذاب الذي أنتم فيه]، فالمشار إليه موجود أي: أن العذاب الذي أنتم فيه بسبب كذا وكذا، وهنا قال: ﴿ذَٰلِكُم﴾، وتأتي أحيانًا بذلك، وتأتي أحيانًا بذلكن، وتأتي أحيانًا بذلكما، فما هو السبب في تغير الخطاب في هذه الإشارات؟

فيقال: اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب التي بعدها بحسب المخاطَب، فإذا أشرت إلى واحد مخاطبًا اثنين تقول: ذلكما كما قال يوسف لصاحبي السجن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، وإذ أشرت إلى اثنين مخاطبًا واحد تقول: ذانك كقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]، وإذا أشرت إلى واحدًا مخاطبًا جماعة ذكور تقول: ذلكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، وإذا أشرت إلى واحد مخاطب جماعة إناث تقول: ذالكن كما قالت امراة العزيز للنسوة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا اثنين تقول: ذانكما، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة ذكور تقول: ذانكم، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة إناث: ذانكن، وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبًا جماعة ذكور: أولئك، إلى جماعة مخاطب جماعة إناث أولئكن، وإذا كان الخطاب إلى جماعة مخاطبًا اثنين: أولئكما.

المهم على كل حال: اسم الإشارة على حسب المشار إليه والكاف على حسب المخاطب إن كان مفردًا مذكرًا، فالكاف تكون مفردة مذكرة، وإن كان مفردة مؤنثة كذلك مثنى جمعًا كذلك، هذا هو الأفصح، وربما تأتي الكاف للمخاطب المذكر مطلقًا واحدًا كان أو مثنى أو جماعة، ومكسورة للمخاطب المؤنث مطلقة واحدة أو اثنتان أو جماعة، وربما تأتي الكاف مفتوحة مفردة لكل مخاطب، فتقل: ذلك، تخاطب الرجل والمرأة والاثنين والجماعة، فهذه ثلاثة لغات في كاف الخطاب المقترن باسم الإشارة، والأفصح أن يكون بحسب المخاطب، ثم مفتوحًا في المذكر ومكسورة في المؤنث، ثم مفتوحًا على كل حال.

هنا يقول عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ المشار إليه واحد، والمخاطب جماعة ذكور ﴿ذَٰلِكُم﴾ المخاطبون جماعة ذكور [أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسبب أنه في الدنيا ﴿إِذَا دُعِيَ

﴿ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ وأشركتم وقلتم أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب، كفرتم بتوحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يجعل له شريك ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تصدقوا بالإشراك]، وهذا هو الواقع ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فهم يصدقون بقلوبهم ويستبشرون بألسنتهم، وهذا الإيمان الواقع قد نقول: إنه إيمانٌ حقيقي، وقد نقول: إنه إيمانٌ دعوي يعني: دعوى، وأنه في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله، وانظروا إلى أكفر أهل الأرض ـ فرعون ـ كيف أنكر الخالق، وادعى الربوبية وقال لقومه: ما علمت لكم من إله غيري، ومع ذلك كان مؤمن في قرارة نفسه، قال له موسى وهو يحاوره ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] هل الآية تدل على أن فرعون كان مؤمنًا بربوبية الله، كيف ذلك؟ لأنه لما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يقل لم أعلم، وهو في مقام يرى أنه نفسه أعلى من موسى، يعني: يستطيع أن ينكر دعوى موسى لو كان ينكر ذلك، لكنه مقر بأن الله أنزل التوراة على موسى، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]؛ ولهذا لا يمكن لأحد عاقل ـ وأريد بالعقل من سوى المجنون ـ أن لهذا العالم خالق أبدًا، كل إنسان عاقل إذا تدبر أدنى تدبر في هذا الكون علم أن له ربًّا يدبره ولا يمكن أن ينكر، فقوله هنا: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾، هل هو إيمان دعوى أو إيمان حقيقي؟

الذي يظهر لنا: أنه إيمان دعوى، يعني يقول نؤمن بأن هذا شريك مع الله، يقولونه بألسنتهم، أما في قرارة قلوبهم فلا نظن أن أحدًا ينكر أن الله سبحانه وتعالى واحد.

وقد يقال: إن المراد بقوله: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ توحيد الألوهية، يعني: يكفرون بتوحيد الألوهية ويؤمنون بالشرك في الألوهية؛ لأنهم مؤمنون بأن هذه الآلهة تقربهم إلى الله زلفى؛ فإذنْ هم مؤمنون بالله ربًّا، ويؤمنون بالأصنام شفعاء.

وقوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ قال: [في تعذيبكم ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ﴾ على خلقه ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العظيم]، يعني فبناءً على أنكم في هذه الحال يكون حكمكم إلى الله، فالفاء حينئذ تكون إما للاستئناف وإما للتفريع على ما سبق، يعني: فبناءً على ذلك يكون الحكم في أمركم إلى الله، الحكم في تعذيبكم لله وحده، واللام تكون بمعنى الغاية أحيانًا كما تقول: ولله ترجع الأمور، وهنا الحكم لله أي: إلى الله أي أن حكمكم ينتهي إلى الله، ويحتمل أن يكون المعنى: الحكم لله أي مستحق له لا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ يقول المؤلف: [على خلقه]، علو ذات وعلو صفة، والله سبحانه وتعالى عال على خلقه في ذاته فوق كل شيء، وعلى خلقه في صفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] المثل يعني: الوصف الأعلى في السموات والأرض، وعلو الله

سبحانه وتعالى علوًا معنويًا وهو علو الصفة أمر مجمع عليه، لم يخالف فيه أحدٌ من أهل الملة، حتى المعطِّلون الذين ينكرون صفات الله عزَّ وجلَّ إنما أنكروها بناءً على تنزيههم لله عزَّ وجلَّ عن مشابهة المخلوقين، وإن كانوا أخطأوا الطريق، لكن هم يقولون: نحن نقول هذا تنزيهًا لله، ولهذا يسمون الذين يثبتون يسمونهم المشبهة، ويسمونهم المجسمة والحشوية وما أشبه ذلك، ويرون أنفسهم هم أهل التوحيد، فأقول: علو الصفة لم ينكره أحد من أهل الملة حتى أهل البدع يقرون بذلك.

وأما علو الذات فهو محل الصراع بين أهل السنة والجماعة وبين أهل التعطيل، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله عالٍ على خلقه بنفسه، وأهل التعطيل ينكرون ذلك، ثم انقسموا إلى قسمين:

قسم قالوا: إنه في كل مكان، إن الله في كل مكان في السماء وفي الأرض وفي الأسواق في المساجد، وفي البيوت، في كل مكان.

وقسم آخر قالوا: لا يوصف أنه بمكان فلا يقال فوق العالم ولا في العالم ولا تحته ولا يمينه ولا شماله ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، وهذا هو التعطيل المحض، لأننا لو أردنا أن نصف المعدوم لم نجد أبلغ من هذا الوصف، إذنْ خالف في علو الذات طائفتان.

فالحاصل: أن العلو قال المؤلف رحمه الله: عليٌّ على خلقه نقول العلو نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة فهذا لم ينكر أحد من أهل القبلة حتى المبتدعة أنه منفيٌّ عن الله، كلهم يثبتون لله علو الصفة، لكن أهل التعطيل من باب التنزيه ورفع الله عزَّ وجلَّ، وأهل التمثيل كذلك، يرون هذا من باب تعظيم الله عزَّ وجلَّ وإثبات حقيقته.

وأما علو الذات فهو الذي انقسم الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة كما بينا.

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ قال: [العظيم] وهذا تفسير تقريبي، ولو قال: الكبير ذو الكبرياء لكان أقرب، فهو كبير عزَّ وجلَّ ذو كبرياء وهو كبير أيضًا باعتبار ذاته لا يحيط به شيء من مخلوقاته، والسموات السبع والأرضون السبع في يده كخردلة في يد أحدنا.

فائدة: أهل الباطل يوردون المتشابه على المحكم ولا يحملون المتشابه على المحكم، يوردون المتشابه على المحكم ليناقضه، وليس يحملون المتشابه على المحكم ليكون محكمًا وهذا هو البلاء، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم، هكذا روته عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1].

وهذه مسألة أحب أن أنبه عليها وهي: أنه إذا ورد آيات متعارضة وأحاديث متعارضة فلا توردوها على أنفسكم على أنها متعارضة، بل أوردوها على أنفسكم على أنكم تطلبون الجمع بينها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٦٩٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنه.

لتوفقوا للجمع، أما إذا أوردتم هذه على أنها متعارضة بقيت محل إشكال، ودائمًا أقول لا توردوا الآيات المتشابهة التي ظاهرها التعارض أو الأحاديث كذلك على أنها متعارضة، بل أوردوها على أنكم تريدون الجمع بينها لا على أن بعضها معارض بعضًا؛ حتى تهدوا إلى الصراط المستقيم؛ لأن هناك فرق بين الإيراد وبين الرد، إيراد المتشابه على المحكم معناه أنه يطلب التعارض، لكن رد المتشابه إلى المحكم هذا معناه أنه يحاول الجمع دون أن يتصور التعارض، وهذه المسألة كما تكون في الأمور العلمية، تكون أيضًا في الأمور العملية، فأحيانًا ترد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صفات في عبادة واحدة فيظن الظان أن هذا تعارض، لكن نقول: لا تقرأها أو توردها على نفسك على المتعارضة، لكن أوردها على أنها تجمع بين هذا وبين هذا فتحمل هذا على وجه وهذا على وجه، وأكثر ما يكون شك الطالب أنه يورد الآيات المتعارضة التي ظاهرها التعارض، أو الأحاديث التي ظاهرها التعارض على أنها متعارضة، لكن لو أوردها على أنه يرد بعضها إلى بعض، ويضم بعضها إلى بعض لوجد وجهًا ومخرجًا مما كان يظن، وهذا شيء نافع إن شاء الله، فالذين قالوا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] يدل على عدم العلو فيعارض أدلة العلو، نقول من قال هذا من قال أنه يدل على عدم العلو وإذا كان الشيء مقابل لك هل يلزم أن يكون محازيًا لك؟

أبدًا لا يلزم، قد تقول هذا عن يمني وهو في أسفل شيء، لكن من الجهة اليمنى، وهذا عن يساري وهو أسفل شيء وهو عن الجهة اليسرى، كما جاء في حديث المعراج أن على يمين آدم أسودة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر إلى اليسار بكى - لأن عن يساره نِسَم بنيه الكفار الذين في النار - وهذا في الأسفل فلا يلزم من كون الشيء عن يمينك أن يكون محاذيًا لك، ولا يلزم من كوْن الشيء فوقك أن يكون محاذيًا لك، ولا من كونه أسفل منك أن يكون محاذيًا لك، هذا ليس بلازم، لكن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه؛ لإيراد التشكيك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾، فالباء للسببية، وقد مضى علينا كثيرًا أن أهل السنة والجماعة يثبتون الأسباب للمسببات، ولكن لا على أنها فاعلة بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان ما عليه هؤلاء الكفار من كونهم إذا دعي الله وحده كفروا، وإذا أشرك به أقروا هذا الشرك؛ لقوله: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحكم لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وليس لغيره، وحكم الله تعالى ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي، فالكوني: ما قضى به على عباد كونًا

وتقديرًا، والشرعي: ما قضى به على عباده شرعًا وتنظيمًا، والحكمان موجودان في القرآن جميعًا، فمن الحكم القدري قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، ومن الحكم الشرعي قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، والفرق بينهما: أن الحكم شرعي يرضاه الله عزَّ وجلَّ، والحكم الكوني يتعلق فيما يرضاه وفيما لا يرضاه، والفرق الثاني: أن الحكم الشرعي قد يقع من المحكوم عليه وقد لا يقع، وأما الحكم الكوني فإنه لابد أن يقع، فإذا حكم الله على شخص بموت أو مرض أو فقر أو عاهة أو غير ذلك وقع ولابد، وإذا حكم الله على شخص بأن يؤمن ويعمل صالحًا فقد يقع وقد لا يقع.

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ﴾ هنا يشمل الأمرين جميعًا؛ يستفاد من هذا أنه لا يجوز بالقوانين المخالفة للشريعة؛ لقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وهذه الجملة تفيد الحصر أي الحكم لله لا لغيره، والحكم بالقوانين المخالفة للشريعة قد يكون كفرًا، وقد يكون ظلمًا، وقد يكون فسقًا كما ذكر الله عزَّ وجلَّ على هذه الوجوه الثلاثة في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل، فإن وضع الحكم القانونية شرعًا نافذًا فهذا كفر؛ لأنه يقتضي رفع الحكم الشرعي وإحلال حكم آخر محله، وهذا كفر بما أنزل الله، محبط للعمل؛ لأنه لا يمكن أن يرفع الحكم الشرعي إلا بعد كراهته إياه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وعلى هذا فالذين يحكمون أممهم بالقوانين المخالفة للشريعة يُعتبرون كفارًا يجب عليهم أن يتوبوا إلى الله، وأن يحكموا بشريعة الله وإلا ماتوا كفارًا - والعياذ بالله -، ونحن لا نحكم لهذا الشيء لكل واحد بعينه، إذ قد يكون بعضهم ملبس عليه أو مغرضًا به أو تكلم عنده من يثق به فأضله، وقد يكون هذا الذي وضع القانون غره من يقول: إن الحكم الشرعي إنما يكون فيما بين الإنسان وبين ربه في العبادات والأحوال الشخصية والمواريث، وأما مسائل الدنيا فهي لأهل الدنيا، ويشبِّه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»(١)، فيأتي هذا الحاكم المسكين الذي لا يعرف عن الأمر شيئًا، والذي خدع بمظاهر الدنيا وزخارفها فيظن أن هذا هو الحق فيضع هذا القانون المخالف للشرع، فمثل هذا لا نحكم بكفره لأنه مغررٌ مؤول، لكن إذا بُين له ثم أصر حُكم بكفره.

أما الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله الذي يكون ظلمًا فهو ما كان الحامل عليه حب الاعتداء على الغير لا كراهة الشرع ولا الحكم بغير من أنزل الله، لكن لكراهته للغير حكم على غيره بغير من أنزل الله ظلمًا وعدوانًا، فهذا له حكم الظلمة، وليس له حكم الكافرين؛ لأنه ما كفر يقول أعرف أن ما جاء به الشرع هو الحق، لكن أنا أريد أن أنتقم من هذا الرجل، وأعتدي عليه فيكون

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤١/ ٢٣٦٣) من حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما.

له حكم الظالم، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

أما القسم الثالث: فهو الذي حكم بغير ما أنزل الله هوىً في نفسه لا كراهة للحق ولا استبدله بغيره، لكن يريد شيئًا في نفسه فحكم بغير ما أنزل الله مثل أن يكون يهوى مثلًا أن تكون له هذه الأرض أو هذه السيارة أو ما أشبه ذلك فيحكم بها لغرض ليس قصده ظلم المحكوم عليه، ولكن قصده اتباع الهوى، فيحكم فيكون بهذا من الفاسقين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحكم لله عزَّ وجلَّ في الدنيا والآخرة، ولهذا قسم بعض العلماء الحكم إلى ثلاثة أقسام: كوني وشرعي وجزائي، الحكم الجزائي: ما يكون في الآخرة، ولكن الصحيح أن الحكم الجزائي لا يخرج عن كونه حكمًا كونيًا؛ لأنه فعل الله، وحينئذ لا حاجة إلى كثرة التقاسيم، لأنه كلما أمكن اختصار التفصيل كان أولى؛ ولهذا - والله أعلم - كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأتي أحيانًا يقول: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»(١)، مع أن هناك آخرين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، لكن كون الشيء يجزَّئ وتقلل أقسامه يكون أقرب إلى الفهم، ولهذا يفرق بين أن تعطي الماء لشخص عطشان دفعة واحدة أو أن تعطيه إياه على دفعات، الثاني أهنأ وأبرأ وأمرأ، كما جاء في الحديث أنه ينبغي للإنسان في شرابه أن يتنفس ثلاث مرات، الكأس مثلًا إذا كنت عطشان لا تشربه جميعًا، بل تنفس فيه ثلاثة مرات، اشرب ثم أبنِ الكأس عن فمك ثم رده ثم أبن ثم رده حتى يكون ذلك أهنأ وأمرأ وأبرأ.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العلو لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾، وهو علو بنفسه وعلوٌ بصفته، فصفاته عليا، وهو سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأدلة علو الله سبحانه وتعالى الذاتي خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

أما الكتاب فمملوءٌ من ذلك، أي من دلالته على أن الله فوق كل شيء على وجوه متنوعة تارة يصرح بأنه في السماء، وتارة يصرح بأنه استوى على العرش، وتارة يصرح بأن الأشياء تنزل منه، وتارة يصرح بأن الأشياء ترفع إليه وتصعد إليه وتعرج إليه، وكل هذا يدل على علو الله تعالى بذاته.

والسنة كذلك جاءت بأوجهها الثلاثة قول وفعل وإقرار، فالقول ما كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ربنا الله في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض»(٢)، وما كان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»(٣).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٦٩) ومسلم (١٧٢/ ١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٣/ ٧٧٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

والفعل: إشارته صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى السماء حين قال: «اللهم اشهد»(١).

والإقرار: إقراره الجارية حين قالت إن الله في السماء، لما قال لها أين الله.

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على أن الله تعالى بذاته فوق كل شيء، ودليل هذا الإجماع أنه لم يرد عنهم حرف واحد ينافي ما دل عليه الكتاب والسنة من علو الله، وهذا يدل على أنهم كانوا يقولون به، وهذا من الطرق التي ذكرناها فيما سبق أنه لو قال قائل: ائتوا لنا بحرف واحد من السلف يقول: إن الله عال بذاته؟ نقول لا حاجة أن نأتي لكم بذلك؛ لأن ورود ذلك في الكتاب والسنة من غير أن يأتي عنهم ما يعارضه يدل على قولهم به، وهم مجمعون على هذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كلامًا قال فيه: والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعتي ما أمكن من كلام السلف لم أجد أحدًا منهم صرح بأن الله ليس في السماء، وأن الأشياء لا تعرج إليه، وما ذكر نحو هذا، وعلى هذا فنقول: إن علو الله بذاته أجمع عليه السلف، فمن قال بغير ذلك فقد شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، ولكن الله اشترط ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وأما العقل: فدلالته على علو الله ظاهرة؛ لأننا نسأل أيهما أعلى صفة العالي أو السافل؟ فالجواب باتفاق العقلاء: إن العالي أكمل، وإذا ثبت أن العلو كمال وجب أن يكون ثابتًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات الكمال.

وأما الفطرة: فاسأل عنها عجائز المسلمين لا تسأل طلبة العلم، بل اسأل العجوز، أين الله ستقول لك في السماء، اسأل كل داعي إذا دعا أن يطير قلبه إلى السماء، وهذه الفطرة هي التي ألجمت أبا المعالي الجويني حين قال له أبو العلاء الهمداني: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، لما قال أبو المعالي الجويني: إن الله كان ولا شيء، يعني لا عرش ولا غير عرش وهو الآن على ما كان عليه، ماذا يريد؟ يريد نفي الاستواء، إذا كان ولا عرش وهو الآن على ما هو عليه، لزم أن لا يكون مستويًا على العرش، فقال له: يا شيخ دعنا من ذكر العرش؛ لأن دليل الاستواء على العرش دليل سمعي، لكن أخبرنا عن هذه الفطرة التي نجدها في نفوسنا ما قال عارفٌ قط: يا الله إلا وجد من قلبه لضرورة لطلب العلو، فلطم أبو المعالي على رأسه وقال: حيرني الهمداني، لماذا؟ لأن هذا أمر فطري ما يمكن إنكاره أبدًا، إن كان الإنسان ينكر أن يكون بشرًا أنكر ما دلت عليه الفطرة.

فالحاصل: أن علو الله بذاته الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، وهو ولله الحمد لا يحتاج إلى منازعة ولولا أن أهل البدع والتعطيل ألجأوا أهل السنة إلى الحديث عنه ما احتاج إلى أن

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

يتحدث الإنسان عنه؛ لأنه أمر فطري لا يحتاج إلى كبير عناء؛ لكن هؤلاء المتكلمون المبتدعون المعطلون المحرفون المنحرفون هم الذين ألجأوا أهل السنة أن يقولوا بمثل ذلك، وأن يحاولوا إثبات هذه الأمور بما يستطيعون من الأدلة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الكبرياء لله والكِبَر، لقوله: ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾، والله يجمع بين الكبرياء والكِبر والكِبَر في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وهنا يقول: ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾؛ لأن بذلك يحصل الكمال المطلق؛ العلو والكبرياء والكبر فيه كمال الكمال.

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

التفسير

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أي: يظهر لكم آياته حتى تروها والضمير يعود إلى من إلى الله، فهو الذي له الحكم، وهو العلي الكبير ومع ذلك لم يدع عباده هملًا بل أراهم آياته حتى يؤمنوا، فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهرها لكم حتى تروها عيانًا، والآيات هنا العلامات الدالة على معلومها، وهي أبلغ من المعجزات وما أشبهها.

وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية هي مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، والآيات الشرعية هي الوحي الذي جاءت به الرسل، فكل المخلوقات آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وأيضًا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

والأمثلة على هذا كثيرة كلها تدل على خلقها عزَّ وجلَّ وعلى تفرده بالخلق على حكمته وعلى رحمته وعلى عزته، إلى غير ذلك من معاني الربوبية التي تدل عليها هذه الآيات، وقد تكون آية واحدة تدل على عدة آيات وعلى عدة أوصاف، وهذه الآيات الكونية شاملة لكل المخلوقات، وفي هذا يقول القائل:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

كل شيء تأمل فيه تجد الدلالة الكاملة على أنه له خلقًا مدبرًا حكيمًا عليمًا إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

أما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الرسل، وقد أرانا الله تعالى إياها وأعطى الرسل عليهم الصلاة والسلام من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فالرسل لم يأتوا هكذا يقول للناس هكذا نحن رسل إليكم، بل أتوا بالآيات الدالة على ما أرسلوا به وعلى مرسلهم.

فالآيات تشمل الكونية والشرعية، فالبرق آيات كونية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ التنزيل يكون من أعلى، وهنا قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو العلو، وليس المراد بالسماء هنا السماء المحفوظة السقف المرفوع، بل المراد به العلو؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فالمطر ليس ينزل من السقف المحفوظ، إنما ينزل من العلو من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهذا أمر مشاهد.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ أي: ماء يكون به الرزق، فالذي ينزل ماء يكون به الرزق، فهو نفسه رزق ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وبه يكون الرزق قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والثمرات أرزاق تؤكل، والماء رزقٌ يشرب، فهو رزق بكل حال، وفي تقديم الآيات على إنزال الرزق من السماء دليل على أن النعمة الدينية أهم وأكبر من النعمة الدنيوية.

وقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال المفسر: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل توحيده]، يعني: التي تدل على توحيده وغير ذلك مما تدل عليه من معاني الربوبية، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ للمطر، فالمؤلف رحمه الله يرى أن الرزق هو ما يخرج بالمطر يعني النبات وما أشبه ذلك، لكن ما ذكرنا هو الأصوب: أن المطر نفسه رزق؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وأحيانًا يكون احتياج البدن إلى الماء أكثر من احتياجه إلى الأكل.

وقوله: [﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن الشرك]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال: يرجع عن الشرك، وهذا لا شك أنه صحيح لكنه قاصر، فالصواب: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ من الشرك وغيره من المعاصي والفسوق، فهو أعم مما قال المؤلف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه يرينا الآيات.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما يرينا الله من آياته حجة ملزمة؛ لئلا يقول قائل:

نحن لم يأتنا آيات حتى نتعظ بها.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المخلوقات والمشروعات كلها تدل الخالق المشرع سبحانه وتعالى.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: منة الله عزَّ وجلَّ بإنزال المطر من السماء وأنه رزق لنا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحكمة في أن المطر ينزل من السماء، والله عزَّ وجلَّ قادر على أن يجعل للأرض أنهارًا تسير على سطح الأرض، وتسقي ما شاء الله أن تسقيه، لكن المطر أنفع وأفضل؛ لأن المطر إذا نزل من أعلى شمل قمم الجبال، فيشمل السهل والوعر، والنازل والعالي، وهذه من الحكمة أن يكون المطر ينزل من فوق حتى يشمل الأرض كلها.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما تتغذى به الروح أهم مما يتغذى به البدن؛ لأنه قدم إراءة الآيات على الرزق الذي ينزل من السماء، وهذا يدل على أنه أهم، وهو كذلك هذا هو الواقع؛ وذلك لأن فقد الغذاء البدني لا يكون فيه إلا شيء لابد منه، وهو الموت الذي لابد منه، حتى لو كان الإنسان في أنعم ما يكون من نعيم البدن، وأترف ما يكون فلابد أن يموت، لكن غذاء الروح هو الذي يحتاج إلى معاناة ومعالجه، وبفقده يكون الهلاك في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥]، وأيضًا: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]؛ إذنْ خسارة البدن دون خسارة الروح بكثير، خسارة الدنيا دون خسارة الدين بكثير، ولهذا قدم الله نعمته بإراءة الآيات على نعمته بإنزال المطر.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الآيات والرزق والعطاء لا ينتفع به إلا من أناب إلى الله، أما من لم ينب إلى الله فإن الله يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه كلما كان الإنسان أكثر إنابة إلى الله، كان أقوى إيمانًا بالآيات؛ لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه، فإذا كان التذكر لمن ينيب، فكلما كان الإنسان أقوى إنابة كان أقوى تذكرًا.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من لم يكن عنده إنابة، فإنه يُحرم من الانتفاع بالآيات؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنابة إلى الله سبب لكثرة الرزق، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فائدة فيمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله: من استحل الحكم بغير ما أنزل الله وإن لم يحكم به فهو كافر، من قال أنه يحل أن نحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر وإن لم يحكم، وهذه مشكلة، فكثيرًا ما يلجئ بعض الناس إلى الاستحلال أو إلى الجحود، ماذا يقول ترك الصلاة جاحدًا فقد كفر، هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وهذه مسألة أخبركم بأنه يلجأ إليها المتعصب؛ لقوله فيحاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يقول، فمثلًا من ترك الصلاة فقد كفر، الذين قالوا: لا يكفر ماذا عملوا؟ قالوا: من تركها جاحدًا لوجوبها فقد كفر، نحن نقول: سبحان الله أنتم إذا فعلتم ذلك جنيتم على كلام رسول الله مرتين: المرة الأولى حملكم الكلام على غير ظاهره، والمرة الثانية: إثبات أمر لم يقله الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الرسول قال: «من ترك»[1] ولم يقل: من جحدها، هل في لسانه عيٌّ أن يقول: من جحدها، ثم نقول لكم: الجحد كفر وإن صلى، والرسول يقول: «من ترك الصلاة»، ولو قال إنسان إن الصلاة ليست بواجبة، ولكنه يواظب عليها وأول من يأتي إلى المسجد وآخر من يخرج يكفر، كيف يكون وصف الترك وتأتون بوصف جديد تعلِّقون به الحكم، وهذه مشكلة.

ولما قيل للإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] إن فلانًا يقول: هذا فيمن استحل قتل المؤمن ضحك الإمام أحمد قال: سبحان الله من استحل قتل المؤمن فهو كافر قتله أم لم يقتله، وهذا التحريف لا شك أنه مضحك.

كذلك أيضًا من استحل الحكم بغير ما أنزل الله، فهو كافر سواء حكم أم لم يحكم، والآية علقت الحكم بماذا؟ عقلت الحكم بالحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذه مسألة يجب الحذر منها،ألا وهي تحريف الكلم عن مواضعه من أجل اعتقاد، اجعلوا اعتقادكم وحكمكم على الشيء تابع للنصوص لا تجعلوا النصوص تابعة، إذا جعلت لنفسك تابعًا لما تعتقد فإن هذا هو اتباع الهوى تمامًا، اجعل نفسك بين يدي النصوص كالميت بين يدي الغاسل تقلبك النصوص ولا تقلبها، هذا هو المؤمن، لكن نعم قد يكون أحيانًا النصوص بعضها يقيد بعضًا، أو يخصص بعضًا أو الفقه في الشريعة يقتضي تقييد المطلق أو تخصيص العام، وما أشبه ذلك، وهذا لا يخرج بنا عن اتباع النصوص.

(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٣٢٣) من حديث بريدة رضي الله عنه وصححه.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٤، ١٥].

❁ التفسير ❁

لما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أرانا آياته الكونية والشرعية، أمرنا أن ندعوه وحده مخلصين له الدين، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ قال المفسر: [فاعبدوه]، وهذا أحد معنيي الدعاء، والمعنى الثاني: دعاء المسألة يعني: اسألوه والصواب: أنه شامل للأمرين، أي: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فالعبادة تسمى دعاءً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] قال: ﴿ادْعُونِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، وأما دعاء العبادة فإن كل إنسان يدعو الله سبحانه وتعالى فإنه لا يدعوه إلا وهو يؤمن أنه كل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير فلهذا دعاه فصار بذلك عابدًا.

قال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ والإخلاص التنقية، فتنقية الشيء تسمى إخلاصًا والمعنى: نقوا دينكم من الشرك.

وقوله: ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ المراد بالدين العمل، سواء كان عبادة أم دعاءً، والدين يطلق على العمل ويطلق على جزاء العمل، فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] هذا من باب إطلاق الدين على العمل، وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] هذا من باب إطلاق الدين على الجزاء، ويقال: كما تدين تُدان، أي: كما تعمل تُجازى، فالدين هنا بمعنى العمل، أي: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ له الدين [من الشرك] كما قال المؤلف رحمه الله أن ندعوا الله تعالى مخلصين له الدعاء وأن نعبده مخلصين له العبادة من الشرك، ولا نشرك به غيره لا في دعاؤنا ولا في عبادتنا.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [إخلاصكم] يعني: ادعوا الله مخلصين على كل حال، سواء رضي الكافرون أم سخطوا، ومن المعلوم أنهم سوف يسخطون، لكن لا يهم أن يسخطوا علينا إذا أخلصنا الدين لله.

وقول المؤلف: [﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم]، ينبغي أن يقال: ولو كرهوا عملكم المخلص؛ لأن الإخلاص نية في القلب، والكافر إنما يكره ما يظهر من عمل الإنسان، فالمعنى: ولو كره الكافرون عملكم الذي تُخلصون فيه لله على رغم أنوفهم.

ثم قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [أي: الله عظيم الصفات، أو رافع درجات المؤمنين في الجنة]، قوله: ﴿رَفِيعُ﴾ من الرفعة وهو العلو، فسرها المؤلف - رحمه الله وعفا عنه - بأحد معنيين: أن المراد بالرفعة العظمة، والمراد بالدرجات الصفات، أي أن الله تعالى عظيم الصفات، والمعنى الثاني: رفيع الدرجات أي: رافع درجات غيره وهم المؤمنون في الجنة، وكلا المعنيين تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن ﴿رَفِيعُ﴾ اسم فاعل أو صفة مشبهة، فاعلها يعود على الله عزَّ وجلَّ المذكور في قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وعلى هذا فلا يصح أن تُفسر بأن المراد رافع درجات المؤمنين، لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره أي: درجات المؤمنين، ولا يصح أن تفسر رفيع الدرجات بعظيم الصفات لما بينهما من الفرق العظيم، لكن المؤلف عفا الله عنه فسرها بهذا التفسير؛ فرارًا من إثبات العلو الذاتي؛ لأنه ممن لا يرون ذلك أنه عالٍ بذاته، فلهذا حرَّف القرآن إلى أحد هذين المعنيين وكلاهما باطل.

والصواب :أنه سبحانه هو رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين، وقول المؤلف [خالقه]، فيه أيضًا إشارة إلى إنكار الاستواء؛ لأن معنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحبه المستوي عليه هذا هو المعنى، ولهذا لا يقال: ذو الأرض، ولا ذو السماء، ولا ذي الجبال، ولا ذي السحاب مع أنه خالقها، تفسيره ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ بخالقه، لا شك أنه تحريف الكلم عن مواضعه فرارًا من إثبات الاستواء على العرش.

وتفسير الآية المتعين أن نقول: إنه رفيع الدرجات أي: هو نفسه عزَّ وجلَّ مرتفع بل رفيع الدرجات أتى بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت والدوام، والدرجات من الدرجات المعروفة أي: ما كان بعضه فوقه بعض حتى يصل إلى الغاية، وأما ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فمعناه: صاحب العرش المختص بالاستواء عليه، هذا هو المتعين من الآية.

وقوله: [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾] إلى آخره، [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الروح الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وسمى الله تعالى الوحي روحًا؛ لأن به حياة القلوب.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يقول: [أي: من قوله]، هذا التفسير جيد ، يعني أن الوحي من قول الله عزَّ وجلَّ يقول: [فيسمع جبريل ثم ينزل به إلى من شاء الله سبحانه وتعالى].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولم يبين من هؤلاء، ولكننا نعلم أنهم الأنبياء، لأنهم هم الذين يلقى إليهم الوحي سواء كانوا رسلًا أم غير رسل، ثم إن قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، إطلاق المشيئة في كل موضع جاءت في القرآن مقيد بالحكمة، كلما رأيت الله يقول: يشاء، فإنه مشيئة مقرونة بالحكمة لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ومنْ هؤلاء الذين يشاء الله تعالى أن يلقي عليهم الروح؟ بينهم الله في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية الخاصة، وهم الذين آمنوا بالله عزَّ وجلَّ، بل ما هو أخص وهم الرسل.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال: [﴿لِيُنذِرَ﴾ يخوف]، واللام هنا للتعليل، والإنذار هو الإعلام المقرون بالتخويف، ولهذا قال المؤلف: ليخوف تفسيرًا بلازمه، وإلا فإن الإنذار إعلامٌ مقرونٌ بالتخويف، وقوله: [الملقي عليه الناس]، الملقى عليه أفادنا المفسر رحمه الله أن فاعل (ينذر) الملقى عليه وهو الرسول، ولا شك أنه هو المنذر مباشرة، ويحتمل أن الفاعل يعود على فاعل ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، أي: لينذر الله، والحكمة من عدم ذكر الفاعل - والله أعلم - ليصلح الفعل للأمرين، أي: ليكون صالحًا ليعود الإنذار إلى الله، وأن يعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله؛ فلأنه الأصل، وإن عاد إلى الرسول؛ فلأنه المبلغ المباشر للإنذار.

وقوله: [الناس] هذا تقدير للمفعول الأول الذي هو مفعول (ينذر)؛ لأن ينذر تنصب مفعولين، أصلهما المبتدأ أو الخبر أو لا؟ لا ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فالمفعول الأول يكون محذوفًا، أو المفعول الثاني يكون محذوفًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] هذا مذكور فيه مفيد المفعولين جميعًا، ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، كذلك المفعولان جميعًا، وقد يحذف أحدهما إما الأول وإما الثاني لدلالة السياق عليه.

وقوله: [﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ بحذف الياء وإثباتها]، أي أن فيها قراءتين ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بالياء، و﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بحذف الياء، أما إثبات الياء؛ فلأنه الأصل ، وأما حذف الياء فللتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] أصلها المتعالي، لكن حذفت الياء للتخفيف، وهنا ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ أصلها التلاقي، ولكن حذفت الياء للتخفيف، ويوم التلاقي هو يوم القيامة، وعلل المفسر ذلك بقوله: [لتلاق أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه]، أي: في ذلك اليوم، ولو قلنا بمعنى أعم لتلاق الخلائق في ذلك اليوم؛ لأن كل شيء يلاقي الآخر حتى الوحوش ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥]، فسمي يوم التلاقي لتلاقي الخلق فيه، حيث يحشر الله عزَّ وجلَّ الخلائق كلها في ذلك اليوم فيتلقون.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب الإخلاص لله تعالى في الدعاء لقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾، ودعاء غير الله فيما لا يقدر عليه المدعو يعتبر من الشرك، ثم قد يكون شركًا أكبر،

وقد يكون شركًا أصغر بحسب الحال، فمن دعا قبرًا، فهذا شرك أكبر، ومن دعا غيره ليحمل معه متاعًا وما أشبه ذلك، والغير لا يستطيع أن يحمل فهذا ليس بشرك أكبر بل هو إما عبس وإما شركًا أصغر، ومن دعا غائبًا لينقذه من شدة، فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا يسمى شرك السر، إذ إن الغائب لا يمكن أن يدعوه الإنسان إلا وهو يعتقد أن له تصرف في الكون، يتصرف وهو بعيد بخلاف من دعا قريبًا وقال: يا فلان احمل معي كذا، أعني على كذا هذا يدعوه ليقوم بشيء محسوس.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص العبادة لله، لأننا فسرنا الدعاء بدعاء المسألة ودعاء العبادة، فمن تعبد لغير الله استقلالًا فقد صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فيكون بذلك مشركًا شركًا أكبر، يعني من صلى لشخص فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر أو ذبح لشخص تقربًا إليه وتعظيمًا له فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر مخرجًا عن الملة.

وأما إذا فعل العبادة لله لكن رائى فيها أو سمَّع فهذا لا يكون مشركًا شركًا أكبر، ولكنه مشرك شركًا أصغر، وعبادته مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

ثم اعلم أن الرياء إذا طرأ على القلب فإذا كان قبل الدخول في العبادة أبطلها من أصلها؛ لأنه دخل فيها على شرك، وإن كان في أثناء العبادة، فإن كان آخرها ينبني على أولها بطلت، وإن كان لا ينبني على أولها بحيث يصح أن يميز الأول عن الثاني، فإنه لا يصح ما فيه الرياء ويصح ما سبق الرياء.

مثال الأول: إذا دخل الرياء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية فإن الصلاة تبطل كلها؛ لأنه إذا بطلت الركعة الثانية لزم بطلان الركعة الأولى لأن الصلاة لا تتبعض.

ومثال الثاني: رجل أعد مائة صاع للصدقة به فتصدق بخمسين صاعًا صدقة خالصة، ثم دخله الرياء في الأصواع الباقية، فهنا تبطل الأصواع الباقية، أما الأولى فتصح، وذلك لأن هذه العبادة - أعني: الصدقة - تتبعض، ولا ينبني آخرها على أولها، حتى لو فرض أنها مما عينه الشرع كإطعام ستين مسكينًا مثلًا في كفارة، فأطعم ثلاثين مسكينًا بإخلاص ثم بعد ذلك دخله الرياء، فإن ما سبق الثلاثين الأخيرة يكون مجزيًا، هذا إذا استرسل مع الرياء.

وأما إذا طرأ عليه الرياء فدافع وما زال جاهدًا في مدافعته، فإنه لا يضره شيئًا؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»[2]، وهذا لم يعمل ولم يتكلم بل ربما أنه لم يحدِّث نفسه، لكن هاجمه الرياء.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

فصار الآن من فعل العبادة لغير الله - يعني: تعبد لغير الله - فحكمه أنه أشرك شركًا أكبر.

ومن فعل العبادة لله، لكن دخلها الرياء، إذا كان آخرها ينبني على أولها بمعنى أنها لا تتبعض فتبطل، وإن كان آخرها لا ينبني على أولها بأنها تتبعض، فيكون أولها لا يبطل وما سبقه لا يبطل.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: مراغمة الكفار في الإخلاص لله في الإخلاص وفي العمل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وينبني على ذلك أنه يجب على الإنسان أن يقوم بالواجب ولو كره ذلك غيره ولا يحابي أحدًا في هذا، فمثلًا إذا كره أبوه أن يصلي مع الجماعة كما يوجد الآن، كره أبو الشاب أن يصلي ابنه مع الجماعة فهل يداهن أباه في ذلك؟ لا، بل يصلي مع الجماعة ولو رغم أنف أبيه، ولو كره ذلك، ولو وصل الشاب رحمه كعمه وخاله وما أشبه ذلك، وكان بينه وبين أبيه عداوة شخصية، فكان يكره لابنه أن يصل أقاربه الذين يكرههم هو، فهل يواصلهم ولو كره أو لا؟ نعم، يواصلهم ولو كره، لكن في هذه الحال يداري أباه بمعنى أنه يكتم عنه أنه وصلهم؛ لتحصل المصلحة بدون مفسدة، وهناك فرق بين المدارة والمداهنة، المدارة أن يفعل الإنسان ما يلزمه مع التكتم عن الشخص الآخر الذي يكره؛ ولهذا سميت مدارة من الدرء وهو الدفع، وأما المداهنة فأن يوافقه في ترك ما يجب مداهنة له، مأخوذة من الدهن؛ لأنه يليث.

فعلى كل حال نقول: تفرع على هذه الفائدة أن الإنسان يفعل ما يلزمه ولو كره ذلك غيره، ولو كان الكاره أقرب أحد إليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾:

١ - **ومن فوائد الآية الثانية**: إثبات علو الله عزَّ وجلَّ خلافًا للمفسر؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ ويقصد بالعلو علو الذات، أما علو الصفة فقد بينه المؤلف في قوله: [أي: عظيم الصفات]، ففي هذه الآية إثبات علو ذات الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وهذا مر علينا كثيرًا، وبينا أن الأدلة الخمسة كلها تدل على علو الله: الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضل العرش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإن اختصاص العرش بالله عزَّ وجلَّ لا شك أنه فضل عظيم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات العرش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات عظمة الله؛ لأن العرش يختص بالملك والسلطان، فلا يقال للرجل الجالس على كرسي أنه جالس على عرش، لكن يقال للملك أو السلطان الجالس على الكرسي الفخم العظيم يقال له: صاحب عرش.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات منة الله على من يشاء بالوحي؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوحي روح تحيا به القلوب؛ لقوله: ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القول؛ لقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول ويتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء، لا نحصر على ربنا سبحانه وتعالى في الكلام لا وقتًا ولا كيفية، بل له أن يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مرتبة النبوة لا تنال بالكسب والفتُّوة كما قال السفاريني في العقيدة، وإنما هي فضل من الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده.

١٠ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العلماء لهم حظ ونصيب من الروح التي يلقيها الروح الله تعالى على الرسل؛ لأنهم ورثة الأنبياء، لكن لهم حظ من هذه الهداية ـ هداية الدلالة والبيان ـ، ثم قد يكون لهم حظ من هداية التوفيق وقد لا يكون؛ لأن العالِم قد يعمل بعلمه فيكون له حظ من الهدايتين ـ هداية الإرشاد وهداية التوفيق ـ، وقد لا يعمل بعلمه فيكون له حظ من هداية العلم والإرشاد لكنها صارت وبالًا عليه؛ حيث خالف مع العلم بالحق، وهذا أشد ممن خالف بدون العلم بالحق.

١١ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوحي الذي ينزله الله عزَّ وجلَّ على من ينزله من عباده الحكمة منه: إنذار الناس يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

١٢ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الحكمة لله وأن أفعاله .

١٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن آتاه الله علمًا أن يكون منذرًا، يعني يجمع بين العلم والتفقيه في الدين وبين الإنذار، لأنه لو اقتصر على مجرد التعليم الفقهي مثلًا أو التوحيد بدون أن يحرك القلوب لم يستفد الناس منه كثيرًا، فلابد أن يكون هناك إنذار من أجل تحريك القلوب، وكان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم.

١٤- **ومن فوائدها:** التحذير من خزي يوم القيامة، لأنه يوم التلاق، ولا شك أن العقوبة إذا كانت لا يطَّلع عليها إلا القليل أهون مما إذا اطلع عليها الكثير، فكيف إذا اطلع عليها الخلق كلهم! لا شك أنها ستكون أشد وأعظم.

١٥- **ومن فوائدها:** إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث يجمع الله الخلق كلهم على صعيد واحد بعد الموت، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ يوم هذه بدل من يوم الأولى، ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل جر بالإضافة إضافة يوم إليها، و﴿بَٰرِزُونَ﴾ قال المفسر: [خارجون من قبورهم]، ولكن المعنى أخص مما قال، بل المعنى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهرون ليس لهم ظل يظلهم لا من شجر ولا حجر ولا بيت ولا غيرها، لأن البارز هو الظاهر الذي لا يحجب دونه شيء، وهم بارزون في ذلك اليوم وتدنو الشمس منهم مقدار مِيل ويعرق الناس في ذلك اليوم على قدر أعمالهم منهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويْه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا على حسب أعمالهم.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي لا يستتر على الله منهم شيء، ولا يغيب عن علمه منهم شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة كما أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من قبل ذلك أيضًا؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء علمًا، لكن قال هنا: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لأجل تمام التخويف.

وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ هذه مقول قولٍ محذوف، التقدير: يقال لمن الملك اليوم، والقائل هو الله عز وجل، فإنه تعالى يقبض السماوات بيمينه وبيده الأخرى الأرض ويهزهن ويقول: أنا الملك أين ملوكُ الدنيا، ويقول أيضًا: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيب نفسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قال: [يقوله تعالى ويجيب نفسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: لخلقه]، فقوله ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الملك لله الواحد القهار، والواحد يعني: الذي لا ثاني له، لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في أحكامه ولا في صفاته سبحانه وتعالى.

وقوله ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ صيغة مبالغة من القهر وهو الغلبة، فهو قهَّار لكل شيء، والمفسر قال [أي: لخلقه].

الفوائد:

١- **في هذه الآية من الفوائد:** أن الناس يبرزون في يوم القيامة لا يظلهم شجر ولا مدر ولا بناء ولا جبل ولا غير ذلك، لقوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم في ذلك اليوم لا يخفى على الله منهم شيء؛ لأنه محيط بهم علمًا وقدرة وسلطانًا.

فإن قال قائل: هل يستثنى من قوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحد؟

قلنا: نعم، يستثنى من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وهم سبعة بل هم أكثر من ذلك؛ حيث بلغوا إلى واحد وعشرين رجلًا، لكن النبي صلى الله عليه وسلم جمعهم جمع سبعة في سياق واحد، يستثنى من ذلك من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم منهم سبعة في حديث واحد وهو حديث مشهور معروف، قال ﷺ «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ...»[1]، إلى آخره.

٣- **ومن فوائدها:** أن الملك بل جميع الأملاك تتلاشى في ذلك اليوم، فلا فرق فيه بين مالك ومملوك وسيد ومسود وحر وعبد وذكر وأنثى، ليس لأحد في ذلك اليوم ملك، ولهذا قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول لله.

٤- **ومن فوائدها:** أن من أسماء الله الواحد، والواحد هو المتفرد الذي لا ثاني له، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من أسماء الله القهار؛ لقوله ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات صفتين من صفات الله دل عليهما قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الصفة في الواحد، وفي القهار: القهر، ويترتب على ذلك من الناحية المسلكية: أن الإنسان إذا اعتقد بأن الله سبحانه تعالى واحد لم يلتفت إلى أحدٍ سواه، وإذا اعتقد أن الله قهار خاف من قهره واستعان بقهره على عدوه، فيستفيد من هذه العقيدة أن يخاف من قهر الله وأن يستعين بقهر الله على عدو الله وعدوه.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (٩١/ ١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

التفسير

قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ اليوم ظرف متعلِق بـ ﴿تُجْزَىٰ﴾، والظرف والجار والمجرور لابد لهما من متعلَق؛ لأنهما لا يقعان إلا معمولين أو معمولًا فيهما، لذلك لابد لهما من عامل يتعلقان به، قال ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تكافأ، لأن الجزاء بمعنى المكافأة، جازيته على عمله أي: كافيته عليه، فمعنى ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تكافأ كل نفس بما كسبت من خير وشر، ولكن هذا الجزاء في الآخرة يختلف عن جزاءات الدنيا التي يجازى بها الناس بعضهم من بعض، فالجزاء هنا:

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا: نافية للجنس، وظلم: اسمها، قال أهل النحو: والنفي للجنس ينفي هذا الجنس مطلقًا أي: قليله وكثيره واحده ومتعدده، ولهم ﴿لَا﴾ أخرى يسمونها نافية الوحدة، ونافية الوحدة لا تعمل عمل إن، بل تعمل عمل ليس، تقول لا رجلَ في الدار، أي: ليس في الدار رجلٌ واحد بل ثلاثة رجال مثلًا، أما إذا أردت الجنس فقل: لا رجل في الدار أي: لا واحد ولا متعدد، وهي ـ أي النافية للجنس ـ نص في العموم، أي أنها دالة على العموم بالنص، فيكون ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا ظلم واقع من الله ولا ظلم واقع من الخلق بعضهم لبعض، بل كل واحد من الخلق يفر من الآخر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريع محاسبة الخلائق على أعمالهم، وبين المفسر رحمه الله هذه السرعة فقال: [يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث ورد في ذلك] يحاسب جميع الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، لكن من أيام الدنيا هذا يحتاج إلى تحقيق، لأن يوم القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة، يفرغ الله سبحانه وتعالى من حساب الخلائق في نصف ذلك اليوم، ولهذا قال الله تعالى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

ومعلوم أن القيلولة تكون في نصف النهار، وهذا يدل على أنهم لا ينتصف النهار إلا وقد فرغ الله سبحانه وتعالى من الخلائق من حسابهم، وصار كل واحد إلى ما آل إليه، لكن هل هو كيوم الدنيا أو هو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة؟!

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** إثبات الجزاء، لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢- **وفيها:** أن كمال الجزاء يكون ذلك اليوم، وذلك أن الجزاء قد يكون في الدنيا، قد يجازي الله الإنسان في الدنيا فيعطيه بالحسنة حسنات، ويؤاخذ الظالم بظلمه، وهذا واقع كثيرًا، قال الله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾

وهذا يدل على الإنسان قد يجازى في الدنيا على عمله، لكن الجزاء الأكمل الأوفى يكون يوم القيامة.

٣- **ومن فوائدها:** أن النفس لا تُجازى إلا بما كسبت، وبماذا يكون الكسب؟ يكون الكسب: إما بالقول وإما بالعمل، أما مجرد النية فليست كسب، أو مجرد حديث النفس، فليس بكسب، فالكسب قول أو عمل، وأما مجرد حديث النفس فليس بكسب؛ لأن الإنسان لم يركن إليه، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم».

٤- **ومن فوائدها:** على قول بعض العلماء: أن إهداء القرب لا يصح، يعني: لو عملت عملًا صالحًا وأهديته إلى غيرك فإنه لا يصح، لأن الغير الذي أديته له لم يكسبه، إلا ما دلت السنة عليه فهو مستثنى، وإلى هذا ذهب كثير من العلماء أنه لا يرجى من القُرَب إلا ما جاءت به السنة، وذهب آخرون إلى جواز إهداء جميع القرب، وقالوا: إن ما وردت به السنة قضايا أعيان، إذا ثبت الحكم فيها ثبت في نظيرها، لأن الشريعة لا تفرق بين متماثلين، وقد وردت السنة في إجزاء العبادات المالية والبدنية والمركبة من مال وبدن، أما العبادات المالية ففي قصة الرجل الذي قال يا رسول الله إن أمي افتُلِتت نفسها وإنها لو تكلمت لتصدقت، افتلتت يعني أُخذت بغتة، وإنها لو تكلمت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم، وكذلك سعد بن عبادة رضي الله عنه كان له مخراف أي: فستان يُخرف فتصدق به على أمه بإذن الرسول ﷺ[1]، هذه العبادة المالية.

أما العبادة البدنية فقول النبي ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2]، وهذه عبادة بدنية محضة، وأما المركبة منها فالحج، وقد قال النبي ﷺ عن المرأة التي سألته عن أمها أنها مات ولم تحج قال: «حجي عنها»[3]، وهذا مذهب الإمام أحمد ـ أعني جواز إهداء القرب إلى الغير بشرط أن يكون المهدى إليه مسلمًا ـ، أما إن كان كافرًا فإنه لو أهدي إليه لا تقبل؛ لأن الكافر لا يقبل له عمل لا من نفسه ولا من غيره، وهذا القول أقرب إلى الصواب من القول بالمنع.

ولكن مع ذلك لا نحبذ أن الإنسان يهدي إلى أمواته شيئًا؛ لأن هذا لم يكن من عادة السلف،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٩٨) ومسلم (١/ ١٦٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١٥٣/ ١١٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولاسيما الإكثار منه كما يفعله بعض الناس اليوم، فتجد بعض الناس في رمضان يختم القرآن عدة مرات وكل ختمة يجعلها لواحد من أقاربه، هذه لأمه وهذه لأبيه وهذه لأخيه وهذه لعمه وما أشبه ذلك، هذا في الحقيقة خلاف عادة السلف.

ونقول: إن أردت أن تنفع ميتك نفعًا محققًا فاعمل بما أرشد إليه النبي ﷺ؛ حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له»، هذا الذي نحبذه ونقول: أكثر من الدعاء لأمواتك، أما إهداء القرب فاجعلها لنفسك؛ لأن هذا هو السنة، وأنت أيها الحي سوف تحتاج إلى هذه الأعمال الصالحة كما أن الأموات أيضًا يحتاجون إلى زيادة الأعمال الصالحة، كما جاء في الحديث: «ما من ميت يموت إلا ندم إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون ازداد».

إذن نقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ استدل بها بعض العلماء على أن من أُهدي إليه شيء من القرب فإنه لا ينتفع به؛ لأنه ليس من كسبه إلا ما جاءت به السنة، ولكن الصحيح أنه ينتفع به، فإذا قلت: إن هذا هو الصحيح فكيف الجواب عن الآية؟

الجواب عن الآية: أنها تدل على أن النفس تجزى بما كسبت، لكن لا تدل على أنها لا تنتفع بعمل غيرها، والشيء المضمون تمامًا هو ما كسبت، وأما ما أهداه الغير لها فهذا شيء آخر وله أدلة أخرى.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إنتفاء الظلم في ذلك اليوم، لقوله ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ولكن الإنسان يجازى بحسب عمله، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

قال المفسرون: ظلمًا في زيادة سيئاته، وهضمًا في نقص حسناته.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الحساب المحاسبة، أن الله يحاسب الخلائق وهذا كما أنه مدلول النصوص، فهو مقتضى الحكمة، إذ ليس من الحكمة أن يؤمر الناس وينهوا ثم يذهب هذا الأمر والنهي هدرًا لا يُحاسب عليه العبد، هذا في الحقيقة لو ثبت لكان عبثًا والله تعالى منزه عنه كما قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

وقال تعالى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

فلابد للمجازاة، ولابد من محاسبة حتى يتبين ما للإنسان وما عليه.

٧- **ومن فوائدها**: تمام قدرة الله جل وعلا وقوته، مأخوذة من قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأن السرعة تدل على القدرة والقوة، كيف يحاسب هذه الخلائق التي لا يحصيها إلا هو عز وجل في نصف يوم هذا دليل على كمال القدرة وكمال القوة.

فإن قال قائل: كيف يكون الحساب؟

قلنا: الحساب يختلف باختلاف المحاسب، أما المؤمن فإن الله تعالى يضع عليه كنفه أي ستره ويخلو به ويقرره بذنوبه ويقول: فعلت كذا وكذا في يوم كذا حتى يقر، فإذا أقر واعترف قال الله تعالى: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فيذهب طليقًا، أما الكفار فإنهم لا يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ولكن تحصى أعمالهم فيوقفون عليها ويقررون بها ويُجزون بها ويُوبخون عليها، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾

فيبخون زيادة في حسرتهم - والعياذ بالله - وبيان أنهم لم يظلموا، فالحساب إذن يختلف.

٨- **ويستفاد من هذه الآية من الناحية المسلكية:** تحذير الإنسان من المخالفة، وحثه على الموافقة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، هذا يوجب للإنسان إذا آمن به أن يحرص على موافقة الأمر وعلى طاعة الله؛ وأنا أسألكم كما أسأل نفسي: هل نحن إذا صلينا يكون في نفوسنا شعور بأننا سنأخذ أجرًا على هذه الصلاة، أو الشعور السائد أننا أدينا ما يجب علينا فقط؟

الجواب: الثاني، ولهذا لو كان عندنا الشعور الأول أننا سنجازى على هذه الصلاة بقدر ما أتقنا فيها، لكنا نتقنها جيدًا، لأننا نعلم أن الجزاء من جنس العمل، (ابذل دراهم كثيرة يعطيك سلعة جيدة)، لكن ابذل قليلًا يعطيك سلعة رديئة، لهذا ينبغي لنا ونسأل الله أن يعيننا ويعيذنا من الغفلة ينبغي لنا أن نشعر حين نعمل العمل الصالح أننا سوف نُجازى عليه حتى يكون ذلك أشحذ لهممنا في إتقان العمل، لأن الإنسان إذا علم أن عمله هذا هو جزاؤه فسوف يتقن العمل، وسوف يأتي به على حسب ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ قال: [يوم القيامة من أزف الرحيل قرب]، ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الضمير فاعل يعود على الرسول، والمفعول به: الناس، يعني: أنذر الناس هذا اليوم، وهذا العامل استوفى مفعولين: الفاء وهي المفعول الأول، ويوم الآزفة: المفعول الثاني.

وقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ أي: اليوم الآزف فهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي أنذرهم اليوم القريب، وإن شئت فقل: ﴿الآزفة﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: يوم القيامة الآزفة، والآزفة بمعنى القريبة، قال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فالحاصل: أن الأزف بمعنى القرب، فالآزفة القريبة، وهو يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ مهما طال الوقت فهي قريبة، لو تبقى الدنيا ملايين الملايين الملايين من السنين فهي قريبة، وإذا شئت أن يتبين لك ذلك فانظر ما تستقبله الآن المستقبل تنظر إليه نظر البعيد، فإذا به يأتي بسرعة كأنه برق خاطف، هكذا مستقبل الدنيا كلها قريب، فإن أدركته أدركته وإن لم تدركه قامت قيامتك قبله، فقيامتك قريبة، وإن بقيت إلى القيامة الكبرى فهي أيضًا قريبة.

إذن كل آتٍ قريب، وكل ماضٍ بعيد، الماضي ولو كان قبل وقتك بساعة بعيد؛ لأنه لا يمكن يرجع والمستقبل قريب، إذن سميت القيامة آزفة لقربها ووجه قربها وإن كان بيننا وبينها ما لا يعلمه إلا الله من السنين، فإن المستقبل مهما بعُد فهو قريب.

وقوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ ﴿إذ القلوب﴾ إذ بدل من يوم الآزفة، يعني: أنذرهم يوم الآزفة إذِ القلوب لدى الحناجر، وإذ ظرف لما مضى من الزمان، وتأتي ظرفًا وتأتي تعليلًا على حسب ما جاءت معانيها في اللغة العربية.

وقوله: ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ (أل) هنا للاستغراق، أي كل القلوب.

وقوله: ﴿لَدَى﴾ يقول: [بمعنى علم]، يقول المفسر [﴿إذ القلوب﴾ ترتفع خوفًا ﴿لدى﴾ عند ﴿الحناجر كاظمين﴾] قال الله تعالى في يوم الأحزاب ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ وهذا شيء معلوم محسوس أن الإنسان كلما اشتد به الخوف ارتفع قلبه وانكمش وازداد خفقانه، فيوم القيامة ترتفع القلوب حتى تصل إلى الحناجر، والحنجرة هذه ما بين الترقوتين.

﴿كَٰظِمِينَ﴾[ممتلئين غمًا حال من القلوب عوملت بالجمع بالياء والنون معاملة أصحابها]، ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ القلوب هي نفسها جماد، والجماد لا يجمع بالواو والنون، لأنه لا يجمع بالواو النون إلا العاقل علمًا كان أو وصفًا، وقد مر علينا في شروط جمع المذكر السالم أن يكون علمًا أو وصفًا لعاقل، فهنا القلوب ليست عاقلة، بل القلوب جزء من البدن، فكيف توجيه الحال التي جاءت منها على صيغة جمع المذكر السالم؟

يقول المؤلف: لأن المراد بها أصحاب القلوب. القلوب لدى الحناجر والكاظم صاحبه، وهذا حق أن كاظمين حال من القلوب باعتبار أصحابها، والكاظم يقول: [الممتلئ غمًا] ولماذا يمتلئون غمًّا؟ لشدة الأهوال والمخافة، قلوب مرتفعة، وأنفس ممتلئة غمًا.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ الظالمون: هم الكافرون هنا، لقول الله تعالى

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وليس المراد مطلق الظلم بل المراد الظلم المطلق وهو ظلم الكفر، فالظالمون في ذلك اليوم ليس لهم حميم، والحميم هو [المحب] كما قال المؤلف وقيل: القريب، كما قال تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

أي قريب، ولا نقول ولا صديق محب، لأنه ما من صديق إلا وهو محب، ولولا المحبة ما صادقك، وعلى هذا فنقول: أن الأولى أن تفسر الحميم بالقريب، والغالب أن الذي يحامي عنك ويدافع عنك ويشفع لك هو القريب هذا الغالب.

يقول ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ شفيع بمعنى شافع، فهي فعيل بمعنى فافعل، كسميع بمعنى سامع، ومن هو الشافع؟ الشافع من شفعك: أي صار معك حتى تكون بعد الفرد شِفعة، ولهذا يقال: الشافع هو من توسط لك بجلب منفعة أو دفع مضرة، هذا هو الشافع، التوسط للغير بجلب الخير أو دفع الضير هذا الشافع، التوسط الشفاعة يعني، الشفاعة هي التوسط للغير بجلب الخير أو دفع الضير، هذا إذا أردت أن تأتي بها على سبيل السجع؛ لأجل أن تكون أريح فهذا هو، ففي يوم القيامة ليس لهم شفيع، لا يشفع لهم أحد، لأن من شرط الشفاعة أن يكون الله راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له.

قال ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قال [لا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلًا؛ لقوله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أو له مفهوم بناءً على زعمهم أن لهم شفعاء، أي: لو شفعوا فرضًا لم يُقبلوا]، الآية الكريمة ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ كلمة ﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محل جر صفة لـ (شفيع) ولو حولناها إلى اسم فاعل لكانت تصير: ولا شفيعٍ مطاع، فهل هذه الصفة هل هي قيد بمعنى أن لهم شفيعًا لا يطاع، أو هي بيان للواقع والمراد نفيُ الشفيع؟

الجواب: ذكر المؤلف احتمالين: الأول: أن يكون المراد ليس لهم شفيع مطلقًا واستدل لذلك بقوله تعالى عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أو أن المعنى لو قدر أنهم شفعاء فإن هؤلاء الشفعاء لا يُطاعون، وهذا بناءً على قولهم: إن الذي يعبدونه من دون الله يكونوا لنا شفعاء لهم، والآية تحتمل ما قال المؤلف، أما إذا قلنا بالأول وهو نفي الشفعاء مطلقًا فالأمر ظاهر ما فيه إشكال، أما الثاني أن يقام لهم شفعاء ولكن ترد شفاعتهم فهذا من أجل التخجيل لهم؛ أن يخجلوا حيث تقام الشفعاء الذين يدَّعون أنهم شفعاء لهم ثم ترد الشفاعة، هذا أبلغ في خجلهم وفي ردهم وعدم انتفاعهم بآلهتهم والله أعلم.

فائدة: قال الله تعالى في اليوم الذي عنده: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لكن يوم القيامة لم يرد فيه إلا خمسين ألف سنة، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وفي الحديث الصحيح في قصة مانع الزكاة «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، وعلى هذا

فاليوم الذي عند ربنا كألف سنة ما ندري هذا اليوم، فهو يوم مجهول لنا، أما ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، فهذا لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة، فإذا كان ما بينهما خمسمائة سنة، فإن صعود الأمر إلى الله ثم رجوعه يكون ألف سنة، فالأيام ثلاثة: يوم مقداره خمسون ألف سنة وهذا يوم القيامة، ويوم عند الله لا نعلم ما هو مقداره ألف سنة، ويوم مقداره ألف سنة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ثم عروجه إلى الله عز وجل.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية فوائد منها:** وجوب الإنذار على رسول الله ﷺ؛ لقوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب لاسيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف بذلك.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يكون مخوِّفًا أحيانًا ومبشّرًا أحيانًا، أما البشارة أحيانًا ففي آيات كثيرة منها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وما أشبه ذلك، وأما الإنذار فكذلك في مثل هذه الآية فالداعية ينبغي أن يكون منذرًا مبشّرًا من أجل أن يحرك القلوب.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي في الإنذار أن يذكر الناس أحوال يوم القيامة، وأهوالها، لقوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الآية قريبة، لقوله ﴿يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾، والقرب هنا يعني أن الوقت يمضي بسرعة حتى لا يشعر الإنسان إلا وقد قامت القيامة، إما قيامته هو وتسمى القيامة الصغرى، أو القيامة العامة.

٥- **ومن فوائدها:** بيان هذا التمثيل العظيم في حال الناس في ذلك اليوم، لقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن هذه الحال عامة للمؤمنين وللكافرين، دليل ذلك عموم قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾، ثم قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ فدل ذلك على أن الآية عامة، ولكن هل يلحق المؤمنين شر من ذلك اليوم؟

الجواب: لا، لقوله تعالى ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، ومجرد الغم والهم لا يلزم منه الشر والضرر.

٧- **ومن فوائدها:** أن القلوب عند شدة الخوف ترتفع حتى تبلغ الحناجر، وهذا يشهد به الواقع، قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، والإنسان في نفسه أيضًا يحس أنه إذا خاف خوفًا شديدًا وكأن قلبه قد علّق في حنجرته.

٨- **ومن فوائدها:** أن الناس في ذلك اليوم مع شدة الخوف يمتلئون غمًا؛ لقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾، والغم هو التحزن أو التهيؤ لما يستقبل، فالغم في المستقبل والهم والحزن في الماضي.

٩- **ومن فوائدها:** تقطع الأسباب بالظالمين، فلا يجدون حميًا ولا شفيعًا، لقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، والمراد بالظالمين ما سبق وهم الكافرون.

فإن قال قائل: الظلم أعم من الكفر فكيف فسرتم الظلم هنا بالكفر؟

قلنا: لأن الله قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

ولأن ما دون الكفر من المعاصي تمكن فيه الشفاعة، فإن الشفاعة ثابتة لأهل الكبائر من هذه الأمة.

١٠- **ومن فوائدها:** تحذير هؤلاء الكفار من ذلك اليوم، فإنهم في الدنيا يجدون من يناصرهم ويواليهم ويساعدهم ويعاونهم، ولكن في الآخرة لا يجدون شيئًا من ذلك.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]

❁ التفسير ❁

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ الفاعل هو الله عز وجل، ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي الأعين الخائنة، وخيانة العين مسارقتها النظر إلى الشيء المحرم، يعني أن الإنسان قد ينظر إلى شيء محرم وجليسه إلى جنبه لا يشعر بذلك، لأنه يسارقه النظر كأنها يتحين الفُرَص في غفلة صاحبه حتى ينظر إلى ما حرم الله عز وجل، هذه واحدة، ثانيًا: قد ينظر الإنسان النظر بدون مسارقة بل بمجاهرة ولا يحس جليسه أنه ينظر نظرًا محرمًا لذلك حذر الله عز وجل من هذه الحال فقال: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المفسر [بمسارقتها النظر إلى محرم].

وقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [القلوب]، فسر المؤلف الصدور بالقلوب؛ لأنها في الصدور كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فبين الله عز وجل هنا دقة علمه ولطف علمه، بأنه يعلم حتى هذه الحال التي لا يعلمها الناس الذين يشاهدون.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿يقضي بالحق﴾ أي: يحكم به شرعًا وقدرًا لأن القضاء ـ أعني قضاء الله عز وجل ـ على قسمين: قضاء كوني

كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

وقضاء شرعي كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (قضى) يعني: قضاءً شرعيًا، ومعناها وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، فهنا يقول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ هل المراد القضاء الكوني أو القضاء الشرعي؟

الجواب: المراد الأمران جميعًا أي أنه يقضي قضاءً كونيًا بالحق فليس في قضاءه الكوني عبث ولا لعب، قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكذلك يقضي قضاءً شرعيًا بالحق، فقضاؤه سبحانه وتعالى الشرعي كله حق، لأنه خير فيأمر به، أو شر فينهى عنه، وهذا هو الحق.

إذن ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، بالنوعين القضاء الكوني والقضاء الشرعي، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، الواو هنا عاطفة ويجوز أن تكون استئنافية، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾قال: [يعبدون أي كفار مكة بالياء والتاء]، هنا تفسير لكلمة ﴿يَدْعُونَ﴾، ذكر المؤلف أن فيها قراءتين: القراءة الأولى: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء، والقراءة الثانية: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء، على سبيل المخاطبة، وكلاهما قراءتان سبعيتان، وأما ﴿يَدْعُونَ﴾ ففسرها بكلمة [يعبدون]، والصواب أن المراد بها: يعبدون ويسألون، لأنهم يعبدون الأصنام ويسألونها جلب المنافع ودفع المضار ويعبدونها أيضًا بالركوع والسجود والنذور وغير ذلك.

وأما الواو ففسرها المؤلف: بكفار مكة فجعل الضمير عائدًا إلى كفار مكة.

وهنا نسأل هل لا يوجد أحدٌ يعبد الأصنام ويدعو الأصنام إلا كفار مكة؟

الجواب: لا بل يوجد منهم ومن غيرهم، وإذا كان كذلك فإن تفسير العام بالخاص نقص في التفسير، فالتفسير المطابق للواو أن تكون عامة لكل من يدعو من دون الله، من كفار مكة أو كفار المدينة أو كفار الطائف أو كفار العراق أو كفار الشام أو كفار هذه الأمة أو كفار من قبلها ـ عامة ـ، كل من يدعوا من دون الله فإنه يدعوا من لا يقضي بشيء.

وقوله ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله، والدون هنا بمعنى سوى، أي من سوى الله عز وجل، [وهم الأصنام] هنا قال المؤلف: وهم الأصنام وكان مقتضى اللغة العربية أن يقول وهي الأصنام، لأن الجمع لغير ما يعقل لا يعود عليه ضمير ما يعقل، و(هم) للعقلاء، ولكن المؤلف عدل عن الأصل وهي الأصنام؛ لمراعاة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ و هذه للعاقل، وذلك أن الله تعالى جعل هذه المعبودات نزلها منزلة العقلاء ومع كونها منزلة منزلة العقلاء لا تقضي بشيء.

وقوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ولم يقابل هذه الجملة بالجملة التي قبلها بل جعلها عامة، في الجملة الأولى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وهنا قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ولم يقل لا يقضون بالحق، إشارة إلى أنها لا تقضي لا بالحق ولا بباطل فليست أهلًا لأن تعبد من دون الله عز وجل،

فهم لا يقضون بشيء أبدًا لا شرع ولا قدر ولا حق ولا باطل [فكيف يكونون شركاء لله]، هذا ما حقه النفي يعني إذا كانت هذه الأصنام لا تقضي بشيء، فكيف تُجعل شريكة لله؟! وهذا يعني توبيخ هؤلاء الذين يعبدون هذه الأصنام من دون الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قال: [﴿السميع﴾ لأقوالهم ﴿البصير﴾ بأفعالهم]، وهو في قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يجوز أن تكون ضمير فصل ويجوز أن تكون مبتدأ، والجملة خبر إنَّ لكن ضمير فصل أحسن منها مبتدأ.

الفوائد:

يقول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** عموم علم الله عز وجل بكل شيء، حتى في الأشياء الخفية يعلمها عز وجل.

٢ - **ومنها:** لطف علم الله ودقة علم الله وأنه يصل إلى أشياء لا تصل إليها علوم الآخرين، وهي خيانة الأعين وما تخفيه الصدور، فإن هذا لا يعلمه إلا الله حتى الذي إلى جنبك لا يعلمه.

٣ - **ومنها:** التحذير من مخالفة الله أمر الله، وجهه أنه يعلم، فإياك إياك أن تخالف الله عز وجل لا في سرك ولا في جهرك.

٤ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن القلوب في الصدور، لقوله ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ والإخفاء والإسرار يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

١ - **ومن فوائدها:** إثبات أن قضاء الله تعالى كله حق، لقوله: ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، سواء كان القضاء كونيًا أو شرعيًا.

٢ - **ومن فوائدها:** الثناء على الله عز وجل بهذه الصفة الكاملة وهي قضاء الحق، وأنه لا يفعل شيئًا سدى أو عبثًا بل كل ما يقضيه فإنه حق.

٣ - **ومن فوائدها:** التنديد بعبَّاد الأصنام، حيث عبدوا مع الله من ليسوا بشيء بالنسبة إلى الله عز وجل، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها إطلاقًا؛ لقوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ وشيء نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

فإن قال قائل: إن من القوم الذين يدعون مع الله آلهًا آخر من إذا دعوا هذه الأصنام أجابتهم، فإذا دعوها لكشف الضر انكشف الضر عنهم، ومن الناس من إذا خالف هذه الأصنام أصيب ببلاء، فما هو الجواب؟

الجواب أن يقال: هذا الذي يحصل، يحصل من الله عز وجل، لا من هذه الأصنام ابتلاءً وامتحانًا، ويقال فيه: إنه حصل عند ذلك لا به، يعني: حصل هذا القضاء من الله عز وجل عند دعاء هذه الأصنام لا بدعاء هذه الأصنام، فإن قال قائل: لماذا تعدلون عن السبب الظاهر إلى سبب آخر لا يعلم؟

قلنا: عدلنا إلى ذلك؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وبقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وبقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، وإلا فإن العامي قد يأتي إلى صاحب القبر ويقول: يا سيد يا ولي الله يا مولاي أنقذني من هذه البلية، أنقذني من هذه الضائقة، فيذهب إلى بيته ويجد الأمر قد انفرج، هو على كل حال سوف يضيف هذا الانفراج إلى الأمر الظاهر الذي قام به وهو دعاء هذا القبر حتى انفرجت عنه الغمة، فنقول: هذه فتنة ونعلم علم اليقين أن صاحب القبر ليس هو الذي كشف الضر، وإنما الذي كشفه هو الله عز وجل، لكن حصل الكشف عند دعاء هذا القبر لا بدعائه، لأنه دائمًا يوردون علينا أصحاب القبور هذه الشبهة يقول: أنا دعوت السيد الفلاني فاستجاب لي وانكشفت الغمة.

المهم: أن الله تعالى قد يجعل الشفاء عقب دعاء صاحب القبر ابتلاءً وامتحانًا فيصدق الإنسان بالحس ويكذِّب بالشرع، يصدق بالحس وهو بناء هذا الأمر على الشيء الظاهر، ويكذب بالشرع.

فإن قال قائل: هل لهذا نظائر؟

قلنا: نعم قد يبتلي الله الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً ليعلم الله من يخافه بالغيب، كما ابتلى الله بني إسرائيل بالحيتان، حيث حرم الله عليهم صيد الحوت في يوم السبت وابتلاهم فكانت الحيتان يوم السبت تأتي شرَّعًا على الماء بكثرة، وفي غير يوم السبت لا تأتي، فطال عليهم الأمد وقالوا: لابد أن نصطاد هذا السمك، ولكن يوم السبت محرم علينا وما العمل قالوا: هناك حيلة، واليهود أصحاب حيل، ضعوا شبكة يوم الجمعة وتأتي الحيتان يوم السبت تدخل وخذ الحيتان يوم الأحد وقولوا لله إنا لم نصطد يوم السبت، فماذا عوملوا به؟

قلبهم الله عز وجل إلى شيء يشبه الإنسان وليس بإنسان، كما صنعوا شيئًا يشبه الحل وليس بحل، جزاءً وفاقًا، وهذه الأمة حرم الله عليهم الصيد في حال الإحرام، فابتلاهم الله، فبدأت الصيود تأتي بكثرة، الصيد الطائر يناله الرمح والصيد الزاحف تناله اليد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، فصارت الصيود الطائر يناله الإنسان برمحه مع أنه لا ينال الطائر إلا بالسهم، والزاحف باليد، فالصحابة رضي الله عنهم تجنبوا هذا لا أمسكوا باليد ولا صادوا بالرمح.

فأنت احذر أيها المسلم أن تنخدع إذا تيسرت لك أسباب المعصية، فإن الله تعالى قد يبتليك، فربما يبتلي الله الإنسان بوظيفة يستطيع أن يسرق فيها من بيت المال إما سرقة حقيقية يعني يأخذ دراهم، وإما سرقة غير مباشرة بأن يتأخر عن الوقت المحدد أو يتعجل في الخروج؛ لأن من فعل ذلك فهو سارق، إذا قدرنا أنه يتأخر عن الوقت المحدد بمقدار السدس أو يتعجل بمقدار السدس، كم سرق من راتبه؟ سرق سدسه؛ لأنه إذا تأخر السدس لا يستحق من الراتب إلا خمسة أسداسه فقط، والباقي يأخذه بغير حق، هو مطمئن؛ لأنه ليس فوقه أحد هو المدير مثلًا أو مطمئن؛ لأن مديره يتأخر ومعلوم إذا كان المدير يتأخر وتأخر من تحته أنه لا يقول لهم شيئًا؛ لأنه لو قال لهم شيئًا فضح نفسه، إذن احذر أن تغتر إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا تغتر بهذا الشيء.

٥- **ومن فوائدها:** النداء الصارخ على سفاهة هؤلاء القوم الذين يعبدون من دون الله، وهذه تؤخذ من كونهم عدلوا عن عبادة من يقضي بالحق إلى عبادة من لا يقضي بشيء، وهذا في غاية السفه.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: السميع البصير، وإثبات ما دلا عليه من صفة، وإثبات ما دلا عليه من أثر، أو من حُكم، وذلك أن أسماء الله عز وجل لا يتم الإيمان بها إلا بالإيمان بأمور ثلاثة إذا كانت متعدية: الأول: إثبات الاسم، الثاني: إثبات ما دل عليه من صفة، والثالث: إثبات ما دل عليه من أثر أو حكم، هذا إذا كان متعديًا أما إذا كان لازمًا فلا يتم الإيمان به إلا بأمرين: إثبات الاسم وإثبات ما دل عليه من صفة، فالسميع لازم أو متعدي؟ متعدي، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ ، إذن لابد أن تؤمن بالسميع اسمًا من أسماء الله.

وهل هناك أحدٌ أنكر الأسماء؟

الجواب: نعم هناك من المعطلة المنتسبين إلى الملة الإسلامية من ينكر أسماء الله.

وأن تؤمن بما دل عليه من صفة وهي السمع، فليس الله عليمًا بلا سمع، بل هو سميع بسمع، وهل أحد أثبت الاسم دون الصفة؟ نعم المعتزلة قاعدتهم: إثبات الأسماء وإنكار الصفات التي دلت عليها هذه الأسماء، فيقولون: إن الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، - سبحان الله - كيف بصير بلا بصر، قال: نعم بصير بلا بصر؛ لأنك إذا أثبت البصر هل البصر صفة زائدة على الذات؟ نعم الصفة غير الموصوف، زائدة على الذات، فإن قلت: إنها قديمة أثبت تعدد القدماء، وصرت أكفر من النصارى، والنصارى كم أثبتوا؟ ثلاثة آلهة أنت الآن تثبت خمسين إلهًا أو أكثر، بقدر الأسماء التي يثبت لها الصفة، وهذا كفر، فإذا كفرنا النصراني بثلاثة وقلنا: كافر، نقول أنت كافر كافر كافر، حتى تصل إلى الخمسين، فأنت أكفر من النصارى إذا أثبت صفة قديمة،

وإن أثبتها حادثة لزم من ذلك قيام الحوادث بالله والحوادث لا تقوم إلا بحادث، فتكون أنت أثبت أن الله مخلوق وأنه حادث.

ما بالكم إذا صيغ هذا الكلام بكلام أفصح من كلامي وأبلغ، أفلا ينخدع به الجهال؟ ينخدعون به ولا شك، لكننا نقول: إن الله تعالى سميع بسمع، ولا يُعقل أن يكون مشتق بدون ما اشتُقَ منه أبدًا، إذ لا يصح أن تقول للأصم: إنه سميع، ولا للأعمى إنه بصير، لا يمكن أن يوجد اسم مشتق في جميع لغات العالم إلا والأصل المشتق منه سابق عليه، وأما قولهم: إن الصفة غير الموصوف، فإننا نقول: إن الله تعالى لم يزل ولا يزال ذو صفات، ولا يوجد ذات بلا صفة إطلاقًا، ومن ادعى أنه يوجد ذات بلا صفة فقد ادعى المحال، وما من موجود إلا وله صفة، لو لم يكن من صفاته إلا صفة الوجود، والقيام بالذات وما أشبه ذلك، فما من موصوف إلا وله صفة، لكن الموصوف بصفاته، ليس شيئًا بائنًا منه، ولهذا لا نقول: إن صفات الله هي الله، ولا نقول: إنها غير الله، بل نقول: إن الله بصفاته؛ لأنك إذا قلت إن الصفات هي الله، صار معناها أنه لا صفة له، وإذا قلت إنها غيره، أبنت الصفة عن الموصوف وهذا مستحيل.

إذنْ الإيمان بالاسم لابد أن تؤمن بما تضمنه من صفة، وتضمنه للصفة قد تكون تضمنًا وقد تكون التزامًا، فهل نؤمن بالصفة التي دل عليها تضمنًا فقط، أم تضمنًا والتزامًا؟

الجواب: تضمنًا والتزامًا، فمثلًا: الخالق اسم دل على صفة الخلق، دلالته على صفة الخلق بطريق التضمن، ودلالته على العلم دلالة التزام، لأنه لا خلق إلا بعلم، ودلالته على القدرة التزام أيضًا لأنه لا خلق إلا بقدرة، إذنْ تؤمن بما دل عليه الاسم من صفة سواء كانت تضمنًا أم التزام.

الأمر الثالث إذا كان الاسم متعديًا، الأثر أو الحكم، فمثلًا: السميع ذو السمع الذي يسمع، لابد أن تؤمن بسمع يتعدى للغير، فيسمع كل قول، والبصير كذلك متعدي، نؤمن بالبصير اسمًا وبالبصر صفة وبأنه يبصر حكمًا أو أثرًا، أما إذا كان الاسم لازمًا فإنه يؤمن بأمرين: الأول: الاسم، والثاني: الصفة، فالحي: لازم أم متعدي؟ لازم، الحي وصف لازم أو الحياة وصف لازم لا يتعدي لغير الله، فالحي إذنْ اسم من الأسماء اللازمة فتؤمن بالحي اسمًا من أسماء الله، وتؤمن بالصفة التي دل عليها الحي وهي الحياة.

إذن إذا آمنا بهذا خالفنا كل أهل التعطيل، خالفنا من لا يسم الله باسم ولا يصفه بصفة، وهؤلاء غلاة الجهمية، وخالفنا من يؤمن بأن لله أسماء، ولكن لا صفات له مثل المعتزلة، وخالفنا من يقول له أسماء وصفات لكن ليس لها حكم، لا يتعدى لأنه لو تعدى إلى الغير لزم قيام الحوادث به، إذ إن المسموع حادث أو أزلي؟ حادث، فإذا تعلق السمع بحادث صار السمع حادثًا حدوث المسموع، فلزم قيام الحوادث به.

إذن قل هو سميع له سمع لكن لا يسمع به، لئلا تقوم به الحوادث، فإذا أتينا بهذه الشروط

الثلاثة: الإيمان بالاسم، ثانيًا: بما تضمنه من صفة، ثالثًا: بالأثر أو الحكم، صح إيماننا بالأسماء، أما السميع والبصير فقد سبق لنا معناهما، وذكرنا أن السميع يدل على السمع، وأن سمع الله تعالى نوعان:

الأول: سمع بمعنى الإجابة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وهذا السمع يأتي بمعنى الاستجابة في اللغة العربية؟ نعم، والدليل: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لكن هل هذا فيه دليل؟ فيه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يستجيبون، ومنه قول المصلي والمسلم يصلي على الأقل سبعة عشر ركعة ويقول: سمع الله لمن حمده، وما معناها؟ استجاب، ليس المعنى مجرد سماع لمن حمده، لأن هذا لا يفيد شيئًا، ولكن معناها استجاب، هذا سمع بمعنى الاستجابة.

الثاني: سمع بمعنى إدراك المسموع، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: ما يراد به التهديد، والثاني: ما يراد به التأييد، والثالث: ما يراد به بيان شمول سمع الله، يعني سمع الإحاطة، مثال الأول الذي يُراد به التهديد: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ هذا للتهديد، ولهذا قال: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومثال ما يراد به التأييد قول الله تعالى لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

ومثال ما يراد به سمع الإحاطة: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، فصار يقسِّم السمع أولًا إلى كم؟ إلى قسمين: سمع إجابة وسمع إدراك والإدراك ينقسم إلى ثلاثة أقسام وإن شئت فقل ثلاثة أنواع، لئلا تتداخل الأقسام، سمع يقتضي التهديد، وسمع يقتضي التأييد، وسمع لبيان الإحاطة، وكل هذا ثابت لله عز وجل.

فإن قال قائل: ما الذي يعين أن هذا السمع للتأييد أو للتهديد أو للإحاطة؟

قلنا: سياق الكلام وقرائن الأحوال، ولهذا يمكن أن يقال في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾: إن هذا السمع للتأييد والتهديد، تأييد موسى وهارون وتهديد فرعون، لكن يمنع من القول بأنه من تهديد لفرعون أن فرعون لم يكن يسمع هذا الكلام من الله، فكيف يهدد من لا يسمع التهديد، ولهذا قال العلماء: إن السمع في هذه الآية للتأييد ولم أرهم قالوا إنه للتهديد ولا لتهديد فرعون ووجه ذلك أن فرعون الآن ليس يسمع ما يقول الله عز وجل، فكيف يهدد من لا يسمع التهديد؟!

أما ﴿الْبَصِيرُ﴾ فهو بمعنى ذو البصر الثاقب الذي لا يغيب عن نظره شيء عز وجل، أي حركة وأي فعل فإن الله تعالى يبصره، لكن إذا كان يبصر كل شيء فكيف موقفنا في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم»، قال: ولا ينظر إليهم فنفى النظر إليهم، نقول النظر المثبت غير النظر المنفي، المنفي هو نظر الرحمة، والمثبت هو نظر

الإحاطة، فالله تعالى ينظر كل شيء نظر إحاطة حتى المغضوب عليهم منظورون عند الله عز وجل لكن نظر إحاطة، وأما المنفي، فهو نظر الرحمة لا ينظر إليهم؛ وبهذا تلتئم الأدلة ويتبين أنه لا تعارض بينها، هناك (بصير) بمعنى العلم لكن المتبادر منه الرؤية كما سبق.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا النظم موجود في القرآن كثيرًا: أن تأتي أداة الاستفهام وبعدها حرف العطف ثم الجملة، وقد اختلف المعربون في كيفية إعراب هذا النوع وهذا الترتيب، فقال بعضهم: إن التقدير: وألم يسيروا في الأرض، فتكون الواو عاطفة على ما سبق، وتكون الهمزة داخلة على جملتها، مصدرة الجملة بها، وهذا القول لا يحتاج إلى تقدير، لكنه يرد عليه أن الهمزة متقدمة على حرف العطف، فأجابوا عن ذلك أن الهمزة مقدمة، وقالوا إن تقديمها في مثل هذا سائغ، والقول الثاني للمعربين: أنَّ الهمزة داخلة على شيء مقدر، وأن حرف العطف عاطف على ذلك المقدر، وحينئذٍ نحتاج إلى تعيين ذلك المقدر ولا يعينه إلا السياق، فيقدر ذلك المحذوف بحسب ما يقتضيه السياق، فمثلًا يُقال: أَفَرَّطوا ولم يسيروا في الأرض؟ أو أَأَغفلوا ولم يسيروا في الأرض؟ أو ما يؤدي إلى هذا المعنى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المراد سير القلوب بالنظر والتأمل والتفكر، أو المراد سير الأقدام حتى يقف الإنسان على ما حصل للأمم السابقة بعيني رأسه؟

الجواب: كلاهما، فمن لم يتيسر له أن يسير على قدمه فليسر بقلبه، ولكن ما طريق سيره بقلبه؟ طريق سيره بقلبه أن يقرأ تاريخ الأمم السابقة، وحينئذٍ بأي شيء يثبت هذا التاريخ؟ يثبت هذا التاريخ بطريقين فقط: الطريق الأول: القرآن والطريق الثاني: السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى قال فيمن سبق: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، وإذا كان لا يعلمهم إلا الله فإن مصدر التلقي لأخبارهم من عند الله أو من رسوله صلى الله عليه

وسلم، أما ما حدثت به بني إسرائيل عمن سبق فهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما شهد شرعنا به أو ما شهد القرآن والسنة به فهذا مقبول لا لأنه خبر بني إسرائيل ولكن لأن القرآن والسنة شهدت بصدقه.

القسم الثاني: ما شهد القرآن والسنة بكذبه، فهذا مرفوض ولا يجوز التحدث به إلا إذا أراد الإنسان بيان كذبه وبطلانه.

القسم الثالث: ما لم يشهد الوحي بصدقه ولا كذبه، أي ما ليس في القرآن ولا في السنة تصديقه ولا تكذيبه، فهذا قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، فيكون لنا الكلام الذي يباح نقله لكن لا فائدة منه فلا يُشتغل به عما هو أهم منه.

وبهذا نعرف كيف نسير بقلوبنا في أخبار من سبق، فصار مصدر التلقي في أخبار من سبق المصدر الأساسي الأكيد هو الكتاب والسنة، وأما ما وقع من أخبار بني إسرائيل فهو ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض المعربين إن (في) هنا بمعنى على، لأنه لا يمكن السير في جوف الأرض بناءً على أن في للظرفية، والظرف محيط بالمظروف كما إذا قلت: الماء في الإناء، فإن الإناء محيط به والماء في جوفه، ولكن ربما يقول قائل: إن هذا غير متعين؛ لأن المراد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في منافذ الأرض، كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وتكون الظرفية هنا ظرفية الأجواء، أي في أجواء الأرض، والأجواء ظرف لمن يسير فيها.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء هنا قيل: إنها عاطفة وعلى هذا فيكون السير منتفيًا والسير أيضًا منتفيًا والتقدير على هذا القول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فألم ينظروا في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقيل: إن الفاء للسببية أي: فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان، والمعنيان متلازمان؛ لأنهم إذا لم يسيروا لم ينظروا، وإن ساروا نظروا.

وقوله ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ﴾ هل النظر هنا نظر قلب وبصيرة، أو نظر عين وبصر؟

الجواب: ينبني على ما سبق في السير، إن كان سير قلب فالنظر نظر قلب وبصر، وإن كان سير قدم فالنظر نظر عين وبصر، وقد قلنا: إن السير صالح لهذا وهذا، فيكون النظر أيضًا صالحًا لهذا وهذا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام، وهو في محل نصب على أنه خبر (كان) مقدمًا، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مآلهم ماذا كان مآلهم؟ سيأتي ذكر المآل، لكن الله ذكر حالهم قبل أن يذكر مآلهم، قال: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أشد: من الشدة وهي الصلابة، والعظم، ومنهم من يقول: فيها قراءتان، [وفي قراءة

﴿مِنكُمْ﴾]، فيكون فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، ومعلوم أن الخطاب أشد وقعًا في النفس من الحديد بصيغة الغيبة، يعني: إذا كنت تخاطب الشخص مخاطبة فهو أشد وقعًا في نفسه مما إذا كنت تتحدث بصيغة الغيبة، ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، بصيغة الغيبة والعابس والمتولي هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يقل: عبست وتوليت لأن الخطاب أشد وقعًا من الغيبة.

وقوله: [وفي قراءة: ﴿مِنكُمْ﴾] اعلم أن اصطلاح المؤلف رحمه الله أنه إذا قال: [في قراءة]، فهي سبعية، وإذا قال: [وقرئ]، فهي شاذة ليست سبعية، وفي قراءة: [﴿مِنكُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ، من مصانع وقصور]، فهم أقوياء الأبدان ولهم من الآثار في الأرض أكثر مما عند هؤلاء الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشاهد في هذا ظاهر في ديار ثمود، فإن كل من شاهدها تبين له كيف كانت قوة القوم، وكذلك أثر عاد في الأحقاف التي اطَّلع عليها وقال الله فيها ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾

فهي قوة عظيمة حتى إن عادًا قالوا: من أشد منا قوة، فماذا كانت حالهم؟ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أهلكهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هؤلاء القوم الأشداء الذين لهم من الآثار ما يبهر العقول أخذهم الله بذنوبهم؛ أهلكهم بسبب ذنوبهم، وذنوبهم مكونة من شيئين: التكذيب والتولي، فهم مكذبون بالخبر متولُّون عن الأمر فكذبوا الأخبار وخالفوا الأوامر وقعوا فيما نهوا عنه وتركوا ما أمروا به، وكذبوا ما يلزمهم تصديقه.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، الباء هنا للسببية ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ما: نافية، ومن: متعلقة بـ (واق)، (واق): اسم كان دخلت عليه من الزائدة للتوكيد، وأصل واق: واقي، فحذفت الياء للتخفيف، أي: ما كان لهم من أحد يقيهم من عذاب الله، حتى إن ابن نوح عليه الصلاة والسلام لم يقه من عذاب الله قربه من نوح، ولا دخوله في العموم، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أنه منجِّيه وأهله ـ أعني نوحًا ـ فلما أرسل الله عليهم الغرق دعاه أبوه أن يركب معه في السفينة ولكنه أبى وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فغرق، وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وقد وعده الله أن ينجيه وأهله، فقال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٤٦﴾

فلم يق هذا الابن قربه من أبيه أحد أولي العزم من الرسل ولكنه هلك فيمن هلك كما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ .

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على السير في الأرض، لقوله ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ بناءً على أن الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

٢- **ومن فوائدها**: أن السير في الأرض في أرض المكذبين وبيان ما أحل الله بهم من النكال، إذا كان على سبيل العبرة فلا بأس به، على سبيل العبرة بما جرى لهم من الهلاك، لا العبرة بما كان لهم من القوة، وبناءً على ذلك نعرف أن الذين يذهبون الآن إلى ديار ثمود للاطلاع على قوتهم، والاعتبار بصنعتهم على خطأ عظيم، لأنهم لم يسيروا في الأرض السير الذي أمر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[1]، فمن الذي يذهب الآن إلى ديار ثمود يقف يشاهد آثارهم وهو يبكي؟ لا أحد إلا من هداه الله عز وجل وتبين له الحق، وإلا فإنهم يذهبون يتفرجون.

والعجب أن بعض الجهال منا يرون أن هذا من الآثار المحترمة فيقال: سبحان الله الآثار المحترمة أيها الجهال هي الكتاب والسنة، آثار الوحي، أما آثار المكذبين للرسل فليست محترمة، ثم هل هي آثار آبائكم وأجدادكم؟ لا لكن آثار قوم فنوا وأعقبهم أناس ثم أناس ثم قرون كثيرة، لكن هذا من الجهل والتقليد الأعمى الذي يجعل القوم يتعلقون بالآثار المادية دون الآثار المعنوية.

٣- **ومن فوائدها**: أن عاقبة الذين كانوا من قبلهم عاقبة سيئة، لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٤- **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة في الأبدان وقوة في الصناعة وقوة في الآثار، ومع هذا لم تمنعهم قوتهم هذه من أخذ الله لهم.

٥- **ومن فوائد الآية**: أن قوة الله سبحانه وتعالى فوق كل قوة، فإنه قال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ومع ذلك أخذهم الله عز وجل، ذلك أن الله تعالى إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فلا يحتاج إلى أن يأتي بأحد يساعده ولا يحتاج إلى صنع قنابل أو مدافع لا، كن فيكون، انظروا إلى عاد افتخروا بقوتهم فأهلكم الله تعالى بألطف الأشياء، حيث سخر عليهم الريح ولم يسخرها لهم، بل سخرها عليهم، وهي الريح من ألطف الأشياء فدمرتهم، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ حتى كانوا كأعجاز نخل خاوية، يقولون: إن الريح تحمل الواحد منهم حتى يكون في عنان السماء ثم ترده إلى الأرض فينقلب منحنيًا كأنه عجُز نخل خاوية، وأعجاز النخيل إذا رأيتموها تجدون النخلة تقوست، هؤلاء الذين كانوا أشداء أقوياء يقفون على أقدامهم أصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية، والآية الثانية ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفرعون قال لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، بماذا أهلكه الله؟ أهلكه بأن أخرجه من مصر التي كان يفتخر بها باختياره، خرج مختارًا، بل خرج وكأنه غانم كأنه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

رابح في المعركة ثم أهلكه الله بجنس ما يفتخر به، بماذا؟ بالماء، أهلكه الله بالماء؛ ليتبين أن القوة قوة الله سحانه وتعالى وأن الله أشد من هؤلاء القوة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله تعالى إذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، وقد بين الله ذلك صريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

٧- ومن فوائد الآية والتي بعدها: إثبات الأسباب وأنه لا يجني جان إلى على نفسه، من قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ إلى آخره، وقد تقدم لنا شرح هذه المسألة أعني مسألة الأسباب وتأثيرها واختلاف الناس فيها، وبينا أن أعدل الأقوال وأصح الأقوال أن الأسباب لها تأثير مباشر، لكن ليس تأثيرًا ذاتيًا بنفسها ولكن بما أودع الله تعالى فيها من القوى المؤثرة.

٨- **ومن فوائدها**: إثبات عدل الله عز وجل، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بدون ذنب لقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أنه ما من أمة خلت إلا وقد جاءتها رسلها، لقوله ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كل أمة جاءها نذير وجاءها رسول أنذرها وبين لها، وقد أقرت هذه الأمم بذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة الملك ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾

ثم قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وهذا من تمام رحمة الله عز وجل وحكمته، أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولأجل مصلحة الخلق، نحن لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله الله إلينا هل نعرف كيف نتوضأ، وهل نعرف كيف نصلي؟

لا نعرف، لكن من رحمة الله عز وجل أن أرسل إلينا رسولًا علمنا كيف نتوضأ، كيف نصلي، ثم ما الذي يترتب على هذا الوضوء والصلاة؟ مغفرة الذنوب، إذا توضأ الإنسان فإن خطاياه تخرج مع آخر قطرة من قطرات الماء، وإذا صلى فالصلوات الخمس مكفِّراتٌ لما بينهن، وإذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء وخرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطو خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، أحصِ خطواتك من بيتك إلى المسجد في اليوم والليلة خمس مرات، تجدها كثيرة، كل هذا من فضل الله عز وجل.

ولولا أن الله هدانا هداية إرشاد، ونسأل الله تعالى أن يتممها بهداية التوفيق لولا ذلك لهلكنا ولم نعرف كيف نعبد الله، فهذا من رحمة الله عز وجل أنه أرسل الرسل إلى الأمم ليبينوا لهم.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]

التفسير

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ذلك المشار إليه أخذ الله تعالى إياهم بذنوبهم، فهذه الذنوب أنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، قال المؤلف: [بالمعجزات الظاهرات] ﴿تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ جمع رسول، والرسول لكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والرسل جاءوهم بالبينات قال المؤلف [بالمعجزات] والصواب أن يقال: بالآيات لأن الله تعالى يعبر عنها كذا ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ والمراد بالبينات ما يؤمن على مثله البشر، وهي نوعان: حسية ومعنوية، وخِلْقية وخُلُقية، كلها آيات بينات ظاهرة وواضحة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبيًا إلا آتاه من الآيات ما هو على مثله يؤمن البشر»[1]، والحكمة من هذه الآيات هو أن البشر لا يمكن أن يقبلوا دعوة من شخص عاش بينهم يعرفونه يأتي ويقول: إنه نبي أو إنه رسول، لكن بأي دليل؟ لابد من آيات تدل على صدقه، وكما قلت: إن الآيات نوعان: آيات معنوية وهي ما يتضمنه الوحي الذي جاء به هؤلاء الرسل، وآيات حسية وهي ما يظهر من خوارق العادات، ولهذا قيل في تعريف الآية: إنها أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الرسول تأييدًا له، هذه هي الآية.

قال العلماء عن الآيات الحسية أنها تكون مناسبة للوقت الذي بعث فيه الرسول، واستشهدوا لذلك بأن موسى عليه الصلاة والسلام، أُعطي آيات سحرية أي: تشبه السحر لكنها أقوى منه تغلبه فيضع العصا وهي من خشب على الأرض، فتنقلب حية تسعى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء تلوح من غير عيب - أي من غير ضرر -، وهذا لأنه في وقته كان للسحر طول عالٍ مرتفع، فجاء بآيات تغلب ذلك السحر، ويظهر هذا حينما اجتمع مع السحرة في اليوم الذي واعدهم فيه فألقوا حبالهم وعصيهم حتى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة موسى، فقال الله تعالى: لا تخف وأمره أن يضع العصا فوضعه، فإذا هي حية تلقف ما يأفكون.

ثم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بُعث في زمن ترقى فيه الطب ترقيًا عظيمًا بالغًا

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء، يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله، بل يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله، يقف على صاحب القبر فيخاطبه فيقول اخرج فيخرج، وهذا أعظم من الطب الذي أتوا به.

أما محمد عليه الصلاة والسلام فبعث في وقت بلغت فيه البلاغة أوجهًا وصار الناس يتفاخرون أيهم أبلغ، فيأتي الشعراء ويأتي الخطباء إلى أسواق الجاهلية عكاظ وغيره يتبارون في أشعارهم وخطبهم، فجاء هذا القرآن قاضيًا عليها كلها، وأعجزهم وعجزوا عن أن يأتوا بآية منه، مع أنهم هم أمراء البلاغة.

والمهم: أنه لابد لكل نبي من آية يؤمن على مثلها البشر؛ لأن الله تعالى حكيم ورحيم، حكيم لا يرسل شخصًا يقول للناس أنا رسول بدون بينة، ورحيم حيث أيد هؤلاء الرسل بالآيات من وجه، ورحم الخلق فجعل مع الرسل آيات من أجل أن تكون حجة الرسل مقبولة لديهم.

وقوله: ﴿فَكَفَرُوا﴾ الفاء عاطفة وتدل على مبادرة هؤلاء بالكفر وأنهم لم يتأملوا ولم ينظروا، وجه ذلك: أن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: بالرسل وبالبينات التي جاءوا بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أهلكهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أهلكهم الله سبحانه وتعالى بعامة إلا من آمن.

ثم بين أن هذا الأخذ شديد لقوله: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قوي أزلًا وأبدًا فلم يسبق قوته ضعف، ولا يلحقها ضعف، أما البشر فإنهم ضعفاء، أولًا ونهاية، ومنتهى قوتهم أيضًا ليس بشيء، حتى وإن بلغ الإنسان أشده وبلغ غاية قوته فإنه ليس بشيء، أما الرب عز وجل فإنه قوي أزلًا وأبدًا.

وقوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، المعنى عقابه شديد، الشديد يعني: الصلد القوي الذي تحصل آثاره على من عوقب.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان سبب إهلاك الأمم، وأن ذلك بذنوبهم لقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ما من أمة إلا وخلا فيها نذير وجاءها رسول.

٣- **ومن فوائدها:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالآيات البينة الظاهرة.

٤- **ومن فوائدها:** إقامة الحجة على الخلق، بإرسال الرسل أولًا، ثم بتأييدهم بالآيات البينات التي لا تدع مجالًا للشك أو للإنكار.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن هؤلاء الذين أرسل إليهم لم يشكروا النعمة، بل بادروا بالكفر والتكذيب.

٦- **ومن فوائدها:** أنه لو تأمل العاقل ما جاءت به الرسل، ما أدى ذلك إلى كفره، لكن غالب المكذبين للرسل يبادرون بالتكذيب، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

٧- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب، وأن الله تعالى ربط المسببات بأسبابها، وهذا يدل على تمام حكمة الله وأنه عز وجل لم يفعل شيئًا عبثًا ولا لمجرد المشيئة، خلافًا لمن قال من الجبرية وغيرهم: إن الله تعالى يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة وليس لحكمة، وأنكروا حكمة الله، وقالوا: إن الحكمة تقتضي النقص، وهذا من غرائب الأفهام، الحكمة تقتضي النقص؟ قالوا: نعم، لأن الحكمة غرض، فإذا فعل فلكذا، فإنه محتاج لهذا الغرض.

فيقال لهم: تبًا لكم ولأفهامكم، الحكمة: هي غاية الحكم: أي أن الحكمة أكبر ما يدل على البعد عن السفه واللعب، وأما قولكم: إن الحكمة غرض فإذا قلتم: إن الله فعل كذا لكذا لزم من ذلك أن يكون الله محتاجًا إليه.

فيقال: الحكمة التي يشرع الله الشرائع من أجلها لا تعود إلى نفعه إلا من حيث الكمال فقط، أما المصلحة فالذي ينتفع بها الخلق، أما الله عز وجل فإن حكمته لا تعود إليه بشيء سوى بيان كمال صفته عز وجل.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القوي اسمًا من أسماء الله، وهو من الأسماء اللازمة، قادر: من الأفعال المتعدية، لكن القوي من اللازمة، وعلى هذا فلابد من إثباته وإثبات ما دل عليه من الصفة وهي القوة.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى شديد العقاب، ولكن لمن عصاه.

١٠- **ومن فوائدها:** التحذير من مخالفة الله، لأنه قوي وشديد العقاب، فياويح من خالف أمر ربه سيتعرض لشدة العقاب من ذي قوة لا يلحقها ضعف، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]

التفسير

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الجملة هذه مؤكدة بعدة مؤكدات بمؤكدات ثلاث: بالقسم المقدر، واللام، وقد، وهذه الصيغة تأتي كثيرًا في القرآن.

وقوله: ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ موسى هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل وأعظمهم وأشدهم، وهو من أشد الأنبياء وأقواهم، ويدلك على ذلك ما فعله قبل النبوة وما فعله بعد النبوة، فقبل النبوة مر برجل من قومه يخاصم رجلًا من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه وهذا يدل على قوته وشدته، وبعد النبوة لما رجع ورأى أنهم أشركوا بالله غضب غضبًا شديدًا، فألقى الألواح، الألواح التي كتب الله بها التوراة، قال بعضهم: فتكسرت، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهو نبي من الأنبياء مشارك له في النبوة، ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، هذا أيضًا يدل على قوته وشدته عليه الصلاة والسلام، وهذا من الحكمة لأنه أرسل إلى أعتى أهل الأرض وهو فرعون، ولهذا قابله بالقوة قال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا يدل على قوته عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى أيضًا إلى قوم عتاة وهم بنو إسرائيل، ولهذا لا يوجد شعب من الشعوب فيما نعلم مثل بني إسرائيل في العتو والنفور والاستكبار إلى حد أنه لما كتب عليهم القتال قالوا: لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، سنقعد على الفرش ولا نتحرك وأنت وربك اذهب فقاتلوا، فلهذا كان من الحكمة أن يكون هذا الرسول على هذا النحو من الشدة لمناسبة من أُرسل إليهم من فرعون وبني إسرائيل.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ آياتنا جمع تدل على أن معه آيات متعددة وهو كذلك، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ إلى آخره، فهو أُوتي آيات، أعظمها وأشدها وأبينها حسًّا آية العصا، فإنها من آيات الله الحسية الغريبة العجيبة، عصًا يهش بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى ويتوكأ عليها، إذا ألقاها صارت حية عظيمة تلقف كل ما أمامها، وإذا حملها عادت عصا، وإذا ضرب بها الحجر تفجر ماءً، هذا من آيات الله، هذه العصا آية من آيات الله عز وجل، تأمل الآن فكِّر مدى كثرة العصي والحبال التي ألقاها السحرة كثرتها وتنوعها ثم ألقى هذه العصا فصار يلقف كل ما يأفكون وأنا أتعجب أين البطن الذي يسع هذه الأشياء؟ لكن آيات الله تبهر العقول، وإلا فتقول كيف حية بمقدار العصا تلقف كل ما أفكوا من الحبال والعصيِّ، فأين تذهب؟

نقول: لا تسأل أين تذهب، أنت صدق وآمن بهذا وكيف تذهب إلى الله عز وجل، ولا مانع من أن تكون هذه الأشياء إذا مضغتها صار الشيء الكبير صغيرًا.

وقوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ السلطان: كل ما يكون للإنسان فيه سلطة، أي: حجة وقوة

ويختلف باختلاف السياق، فالسلطان بالنسبة للأب مع أولاده في التأديب سلطان ضرب، والسلطان فيمن دُعوا إلى الله عز وجل سلطان بيان، والسلطان أيضًا فيمن جودل سلطان حجة، وهو يختلف باختلاف المواضع.

المهم: أنه ما كان فيه سلطة على الغير فهو سلطان.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يحتمل أن تكون من اللازم ويحتمل أن تكون من المتعدي، وذلك أن أبانَ الرباعي يكون لازمًا ويكون متعديًا، فتقول: أبنت له الحق، وتقول: أبان الصبح - أي بان وظهر - فهي رباعية صالحة للتعدي واللزوم.

فإن قال قائل: كيف يكون فعلًا صالحًا للتعدي واللزوم؟

قلنا: نعم يصلح واللغة العربية واسعة، رجع فعل ماضي ثلاثي، يكون لازمًا ويكون متعديًا، ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هذا لازم، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، هذا متعدي، فلا مانع من أن يكون الفعل الواحد لازمًا في سياق متعديًا في سياق واحد، ومن ذلك أبان، فهل قوله سبحانه وتعالى ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ معناها بيِّن، أو مبين مظهر للحق؟ ننظر أيهما أبلغ البيِّن في نفسه أو المبين لغيره؟

الجواب: الثاني؛ لأن المبين لغيره لابد أن يكون بينًا في نفسه، وعلى هذا فكلمة مبين من المتعدي تكون أشمل وأوسع معنا، وما كان أشمل وأوسع معنا فإنه يؤخذ به، ولا نقول: يترك الثاني إذا أخذنا بالأوسع والأشمل؛ لأن الثاني داخل في الأول.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد رسالة موسى عليه الصلاة والسلام بالمؤكدات الثلاثة التي ذكرناها آنفًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

٢- **ومنها**: أن الله تعالى يكرر ذكر قصة موسى ويبسطها تارة ويختصرها تارة وينوِّعها فهي جمعت بين الكثرة والتنويع من حيث الأسلوب والتنويع من حيث البسط والاختصار، فلماذا؟

الجواب: لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش في قوم مشركين أول الرسالة وفي قوم يهود بعد الهجرة، ولهذا جاءت السور المكية يذكر فيها قصة موسى ببسط تارة، واختصار تارة لأجل أن يتهيأ النبي صلى الله عليه وسلم لمجادلة اليهود الذين ستكون الهجرة إلى بلد هم ساكنون فيها، ولهذا لا تجد قصة نبي مثل قصة موسى عليه الصلاة والسلام، لا في تنوعها ولا في تكرارها ولا في أسلوبها.

٣- **ومن فوائدها:** فضيلة موسى صلى الله عليه وسلم وذلك بما أكرمه الله به من الرسالة.

٤- **ومن فوائدها:** أن موسى صلى الله عليه وسلم أوتي آيات، وبيَّن الله تعالى في آية أخرى أنها تسع آيات.

٥- **ومن فوائدها:** أن موسى أوتي سلطانًا ـ أي سلطة وقوة ـ في إقامة الحجة وفي غير ذلك، لقوله ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وإذا أردت أن تعرف شيئًا من سلطانه الذي آتاه الله فانظر إلى محاورته في سورة الشعراء مع فرعون؛ حيث ألجمه وألقمه حجرًا، وفي النهاية توعده بالقوة، يقول فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ هذه كلمة إرهاب ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أشد إرهابًا مما لو قال: لأسجننك، لأنه كأنه يقول عندي أناس سجناء كثيرون، وأنا قادر على سجنهم وسأجعلك من بينهم فيكون هذا أشد في الإرهاب مما لو قال لأسجننك.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما أشرنا إليه في الآية التي قبلها أنه ما من رسول أرسل إلا وأوتي آيات بينات تدل على صدقه، وهذا من حكمة الله ومن رحمة الله.

٧- **ومن فوائدها:** أن الآيات لابد أن تكون مبينة مظهرة للحق؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٤، ٢٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ (أرسلنا)، وفرعون هو حاكم مصر الذي ملكها وسُلِّط على بني إسرائيل، فكان يقتِّل أبناءهم ويستحيي نساءهم، قيل: إنه كان يفعل ذلك من أجل أنه قال له بعض الكهنة: إنه سيكون في بني إسرائيل رجل يكون زوال ملكك على يده، هذا قول، وقول آخر: إنه فعل ذلك إذلالًا لهم وإهانة؛ لأنه إذا قتل الرجال وبقي النساء هلكت الأمة، وهذا القول أقرب؛ وذلك لأن القول الأول معتمده النقل عن بني إسرائيل ومعلوم أن النقل عن بني إسرائيل لا يصدق ولا يكذب، والمعنى المعقول لكونه يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم هو إذلال هذا الشعب وهو قلة بالنسبة للأقباط.

وقوله: ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون، وقارون تاجر آل فرعون؛ لأن قارون كان غنيا غنىً عظيمًا حتى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ الذي إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة،

تنوء: يعني تَثْقُل بهم أي تُثْقِل العصبة - أي الطائفة من الناس الأقوياء - هذه مفاتيحه، إذن فالخزائن كثيرة وعظيمة، ﴿فَقَالُواْ﴾ الضمير يعود على الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ ساحر: خبر مبتدأ محذوف قدره المفسر بقوله [هو ساحر كذاب] والساحر اسم فاعل من السِّحر، وهو الذي يسحر الناس فيريهم الحقائق على غير ما هي عليه، وليس هو الذي يغيِّر الحقائق؛ لأنه لا يغير الحقائق إلا الخالق عز وجل، لكن يُري الناس الحقائق على ما هي عليه، مثلما فعل السحرة سحرة آل فرعون حين ألقوا الحبال والعصيَّ فرآها الناس وكأنها حيات تسعى ثعابين وهي ليست كذلك، هؤلاء قالوا إن موسى ساحر، كيف يلقي العصا فتكون حية؟ ثم يرسل يده فتخرج بيضاء من غير سوء؟ ليس هذا إلا سحر.

وقوله: ﴿كَذَّابٞ﴾ أي كاذب فيما ادعى من الرسالة، فهو في آياته ساحر وفي دعواه كاذب، ثم قال ﴿كَذَّابٞ﴾ صيغة مبالغة أو نسبة، والفرق بين صيغة المبالغة والنسبة أن النسبة وصف ملازم وصيغة المبالغة فعل حادث متكرر، فكلمة النَّجار هذه نسبة، وقد تكون صيغة مبالغة لكثرة نجارته، وأما إذا قيل فلان أكَّال للطعام، فهذا قد لا يكون نسبة ولكن لكثرة أكله وصف بأنه أكال.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أرسله الله بالآيات وقالوا ساحر كذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ بالحق: [بالصدق]، من عندنا: من عند الله عز وجل وهو الوحي حينما قال موسى عليه الصلاة والسلام لهم: إن الله هو ربكم وإن الله واحد وما أشبه ذلك مما جرت فيه المحاورة بينه وبين فرعون وهذا مذكور في سورة الشعراء، والإسراء وغيرها، لما جاءهم بالحق الذي عجزوا أن يقابلوه بالحجة الداحضة، توعد فرعون موسى فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ وهذا وعيد، شيء آخر قالوا: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾ [استبقوا] ﴿نِسَآءَهُمۡ﴾، وعلى هذا فيكون القتل لأبناء بني إسرائيل واستحياء النساء يكون قد وقع مرتين: المرة الأولى قبل أن يبعث موسى، والمرة الثانية بعد أن بعث.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ لئلا يبقى لهم شوكة ولتزول هيبتهم، لأنه إذا لم يبق إلا النساء، فالنساء ضعيفات لا يدفعن عن أنفسهن ولا يدافعن عن حقوقهن، فيبقى موسى وقومه على أسوء حال، ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [هلاك]، ما: نافية، كيد: مبتدأ أو نجعلها اسمها؟ كيد مبتدأ ولا يصح أن يكون اسمها؛ لأن من شرط عمل ما عمل ليس ألا ينتقض النفي، قال ابن مالك:

مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْكِيبِ ذُكِنْ

فإذا انتقض النفي فإنها لا تكون عاملة عمل النفي، وفي القرآن كثير من هذا، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ولم يقل ما هذا إلا بشرًا؛ لأنه انتقد النفي؛ إذن ما نافية وكيد مبتدأ.

وقوله: ﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكيد والمكر والخداع وما أشبهها كلها كلمات متقاربة معناها التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، يعني يتوصل للإيقاع في خصمه بأسباب خفية لا يشعر بها الخصم، لأن الكائد والخادع والماكر لا يأتي بالشيء علنًا هكذا، بل بأسباب خفية، فهي التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر ـ أي بأسباب خفية ـ فالكفار لهم كيد عظيم يكيدون على الإسلام وليسوا يكيدون للإسلام، لأن هناك فرق بين الكيد على الشيء والكيد للشيء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ولم يقل على، لكن الكيد بالعدو هذا يسمى كيدًا عليهم، والكافرون لهم كيد على الرسل يكيدون كيدًا عظيمًا ويفعلون كل سبب يدحضون به حجة الرسل ولكن مهما عملوا فالله يقول: ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ كيدهم في ضلال أي في هلاك وضياع كما أن الضال لا يهتدي السبيل كذلك كيد هؤلاء الكفار لا يدخلهم إلى المقصود.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الزعماء يقومون مقام الأتباع؛ لأن الرسالة ليست لهؤلاء الثلاثة فقط بل إلى آل فرعون كلهم، لكن الأسياد يقومون مقام الأتباع.

٢ - **ومن فوائدها:** أن العتاة المعاندين للرسل تتنوع أسباب عنادهم ومعارضتهم للرسل، قد تكون السلطة وقد تكون الوزارة وقد يكون المال، وقد تكون القوة البدنية، ففي هذه الآية ثلاثة أسباب: الملك والوزارة والمال، وفي عادٍ القوة البدنية ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** مكابرة المكذبين للرسل؛ حيث قالوا لهذا الرسول الكريم: إنه ساحر وإنه كذاب.

٤ - **ومن فوائدها:** أن ما قالوه في ردِّ الدعوة مجرد دعوة، لأنهم لم يقيموا على دعواهم أي دليل، مجرد قالوا ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وهذا يلجأ إليه الضعفاء العاجزون إذا عجزوا عن مدافعة الحجة بالحجة ذهبوا إلى السب والشتم وما أشبه ذلك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الآيات التي تأتي بها الأنبياء يعجز عن مثلها عامة الناس، لقوله ﴿سَٰحِرٌ﴾، والساحر من يأتي بأمور تعجز الناس، لكن الفرق بين الساحر وبين النبي: أن النبي مؤيد من عند الله عز وجل، لا بفعله هو بمعنى: أن الساحر هو الذي يعالج الشيء حتى يأتي بالمعجزة، أما النبي فإن الآيات تأتيه بدون أي عمل منه، بل بإرادة الله عز وجل.

فإذا قال إنسان: ما الفرق بين الكرامة وآية النبي؟

قلنا: الفرق بينهما أن الكرامة تأتي لمتبع النبي وأما الآية فتأتي للنبي نفسه، أي أن من آتاه الله

الكرامة من الأولياء ليس نقول إنه رسول ولا إنه نبي، ولكن الله يؤتيه الكرامة تأييدا له أو تأييدًا للإسلام وفي ذلك أيضًا آية للنبي الذي يتبعه.

٦- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالحق إلى فرعون وهامان وقارون، وهذا يدل على أنه صدع به أمامهم.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين عجزوا عن رد الحق الذي جاء به فلم يقابلوا الحجة بمثلها.

٨- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الثلاثة لجأوا إلى القتل والتهديد، ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الذي يحمي الديار ويدافع عنها هم الرجال، وأن المرأة ليست بذاك الذي يدافع عن البلد أو يدفع العدو، دليل ذلك: أن هؤلاء قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية:** التعصب التام للكافرين، يعني أنهم متعصبون فهم يقولون ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ يعني وغير المؤمنين من بني إسرائيل لا تقتلونه، ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى قد يسلط أعداءه على المؤمنين امتحانا وابتلاءً والواقع كذلك، وقد يكون إنسان كلما اشتد إيمانه اشتد إيذاء أعداء الله له.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار يكيدون للمؤمنين، لقوله ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** الحكم على هؤلاء الثلاثة أنهم كفار، ولهذا لم يقل وما كيدهم، بل أظهر في موضع الإضمار إشارة إلى أن هؤلاء كفار، وقد سبق لنا أن الإظهار في مقام الإضمار يستفاد منه فوائد:

الفائدة الأولى: الحكم على هؤلاء الذين حل الظاهر محل ضميرهم في هذا الوصف.

والفائدة الثانية: العموم والشمول.

والفائدة الثالثة: إفادة التعليل.

١٤- **ومن فوائدها:** البشرى التامة للمؤمنين بأن الكفار مهما كادوا فإن كيدهم ضائع مخالف، لن ينفعهم ولن يستفيدوا منه شيئًا، وإن استفادوا فإنما يستفيدون فائدة مؤقتة والعاقبة للمتقين.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ كانوا قد اقترحوا أن يقتلوا أبناء بني إسرائيل ويستحيوا نسائهم، لكن فرعون قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اتركوني أقتل موسى، وإنما قال هذا لأن موسى هو زعيم بني إسرائيل، ومعلوم أن قتل الزعيم يوجب وهن الأتباع وضعفهم، وفي قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ اتركوني دليل على تمويه فرعون وأنه رجل مموِّه كائد خبيث كأنه يقول: إن الناس يمسكونني عن قتل موسى، ولولا أن الناس يمسكوني لقتلته، فيقول: اتركوني عليه اتركوني أقتله، مع أنه لا أحد يستطيع أن يرده عن مراده، لأنه يقول لهم أنا ربكم الأعلى، لكن يموه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ و(أقتل) مجزوم على أنه جواب الأمر ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، وجواب الأمر يكون مجزومًا وهل هو مجزوم به أو بشرط مقدر؟ على قولين: القول الأول: أنه مجزوم به، والثاني: أنه مجزوم بشرط مقدر، التقدير: إن تذروني أقتل موسى.

والقاعدة عندنا في التفسير والحديث: أنه إذا دار الكلام بين التقدير وعدمه فالأصل عدم التقدير، وعلى هذا فنقول (أقتل): فعل مضارع مجذوم على أنه جواب الأمر وعلامة جزمه السكون، ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال: [لأنهم كانوا يكفونه عن قتله]، بنى المؤلف قوله هذا على ظاهر اللفظ، أنهم كانوا يكفونه ويقول ذروني أقتله، ولكن الذي نرى أنه كذاب، لم يكفه أحد عن قتله ولن يستطيع أحد أن يكفه عن قتله أبدًا، لكن هو أراد أن يموه؛ لأنه لا يستطيع أن يقتل موسى فتظاهر أنه يُكف عن قتله ويقول: ذروني أقتل موسى.

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تحدي - والعياذ بالله -، الواو: حرف عطف واللام لام الأمر ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يدع: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف الواو والضمة قبلها دليل عليها، وأصل يدع يدعوا.

وقوله: اقتله وليدع: هذا تحدٍ سافه لموسى ومن أرسله سبحانه وتعالى، يعني إن كان صادقًا فليدع هذا الرب الذي أرسله ليمنعه مني، وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اللام لام الأمر، وهل لام الأمر ساكنة أو مكسورة؟

نقول: هي ساكنة لكنها بعد الواو والفاء وثم تكون ساكنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى

﴿ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ولم يقل ربنا؛ لأنه لا يعترف ظاهرًا بربوبية الله وإنما أضاف الربوبية إلى موسى من أجل التنكيت يعني: كأنه يقول هذا ربك الذي زعمت إن كنت صادقًا فليمنعك مني.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هذا الخوف حقيقي أو لا؟ نعم حقيقي، هو يخاف أن موسى بما معه من الآيات يبدل دين هؤلاء، لأن دينه التعبد لفرعون وموسى يقول: اعبدوا الله، فإذا جاء بالآيات واتبعه الناس بدل الدين فصار الناس بدل أن يتجهوا إلى فرعون ويعبدوه يتجهون إلى الله عز وجل، ولهذا قال ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [من عبادتكم إياي فتتبعونه] إذن دينهم هو عبادتهم فرعون فإذا دعاهم موسى إلى عبادة الله انصرفوا إلى الله فتبدل الدين واتبعوا موسى.

وقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ الفساد على زعمه هو صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله هذا وجه، وجه آخر تفريق الناس بدل أن كانوا متفقين عليه ما بين خائف وما بين راغب يختلفون فيكون بعضهم تابعًا لموسى، وبعضهم لفرعون وتفرق الأمة لا شك أنه فساد، فصار إظهار الفساد الذي يدعيه من وجهين: الأول: تغيير الدين، والثاني: تفريق الأمة.

وقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [من قتل وغيره]، القتل هذا غالبًا من لازم الخلاف، لازم الخلاف بين الأمة أن يصل بهم النزاع إلى جد المقاتلة [أو غيره] ومنه تغير عبادة الناس من عبادة فرعون إلى عبادة الله، قال: [وفي قراءة أو] إذن الشارح شرح على الواو أو على أو؟ على الواو لأنه قال [وفي قراءة ﴿و﴾] القراءة هذه سبعية وليست شاذة بناءً على الاصطلاح الذي ذكرنا: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال بالضم والفتح مثلًا فهي سبعية، وإذا قال: قرئ فهي شاذة، وفي أخرى بفتح الياء والهاء وضم الدال: ﴿وأن يَظْهرَ في الأرضِ الفسادُ﴾، ضم الدال على أن ﴿الفسادُ﴾ فاعل ﴿يَظْهرَ﴾، لكن هذه القراءات هل تختلف معنىً؟ نعم تختلف معنى من حيث الظاهر، لكن مؤداها واحد، لأنه إذا أظهر موسى الفساد في الأرض ظهر الفساد فيكون خلاف القراءات فيه فائدة، أولًا: الفائدة من أو والواو، إذا كانت أو صار خاف أحد أمرين: أن يبدل الدين أو أن يظهر الفساد، والواو: أن يبدل دينكم وأن يَظهَر الفساد، يكون خاف من اجتماع الأمرين: تبديل الدين وظهور الفساد، ولابد من أحد الأمرين، إما أن يبدل الدين وإما أن يظهر الفساد، وإن لم يبدل الدين لكن يكون هناك قتل ونزاع، ولابد أيضًا من طرف آخر أن يجمع بين الأمرين: تبديل الدين وظهور الفساد، بالنسبة ﴿ليَظْهَر﴾ و﴿يُظْهِر﴾ نقول: إذا قصد إظهار الفساد فقد يظهَر وقد لا يظهَر، فإذا كان وأن يَظهَر في الأرض الفساد صار حصول ما أراد من إظهار الفساد، إذن القراءات مؤداها واحد، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تمويه فرعون، وأنه رجل ماكر مخادع يُظهِر خلاف الواقع؛ لقوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** شدة حمق فرعون على موسى إلى حد أنه أراد قتله.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** شدة تحدي فرعون حيث قال: دعوني أقتله وليدع ربه، يعني يتحدى إذا دعا ربه هل يفيده أو لا.

٤ - **ومن فوائدها:** خوف الكفار من سلاح المؤمنين بالدعاء، لقوله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، وإن كان المقصود التحدي، لكن لا شك أنه قد فهم أن الدعاء سلاح لموسى عليه الصلاة والسلام.

٥ - **ومن فوائدها:** تعصب الكفار لدينهم، لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن قوم فرعون يدينون له بالعبادة، يعني يتخذون تذللهم له عبادة لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أن الكفار يرون أن الإيمان فساد في الأرض، لقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وإذا كانوا يرون ذلك فلابد أن يحولوا بين الناس وبينه حتى لا تفسد الأرض على زعمهم.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار يدَّعون ما هو كذب لإبقائهم على ما هم عليه، وهو دعواه أن الناس إذا دانوا لله ظهر الفساد من أجل أن يبقى الناس على تدينهم لفرعون، والله أعلم.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٧، ٢٨]

التَّفْسِيرُ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ [لقومه وقد سمع ذلك] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ إلى آخره، قوله [وقال موسى لقومه إني عذت] توجيه القول إلى قوم موسى ليس بصواب، بل قال موسى لفرعون ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ هذا إن كان فرعون قد قاله له مواجهة يعني قال ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ مواجهة فإن موسى قال: إني عذت بربي وربكم منكم ولكن قال من كل متكبر، أما إذا كان فرعون يتحدث مع قومه وقد سمع موسى ذلك فعلى ما قال المؤلف رحمه الله، أن موسى لما سمع هذا قال ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ولكن الظاهر والله أعلم أن المعنى الأول أصح، أنه قاله لفرعون، حين قال ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ عذت بمعنى اعتصمت بالله، لأن العياذ بالشيء الاعتصام به، قال العلماء: ويقال العياذ واللياذ، قال العلماء أن الفرق بين العياذ واللياذ أن اللياذ فيما يرجى والعياذ بمن يخشى.

إذن معنى عذت: اعتصمت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ وهذه الربوبية العامة والخاصة، ربي: هذه ربوبية خاصة، وربكم ربوبية الله لفرعون وقومه من الربوبية العامة، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وهذا وصف ينطبق تمامًا على فرعون، فهو متكبر طاغ عاتٍ عالٍ، والمتكبر هو المترفع كبرياءً عن الحق وعلى الخلق، لأن الكبر إما عن الحق وإما على الخَلق، لقول النبي ﷺ: الكبر بطر الحق وغمط الناس[1]، بطر الحق يعني احتقاره وازدراءه، وهذا التكبر عن الحق، وغمط الناس: يعني احتقارهم وهذا التكبر على الخلق، وإذا اجتمع في قلب المرء تكبر على الخلق وتكبر عن الحق فهو الهالك والعياذ بالله، وقوله ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يعني يوم القيامة، وعدل عن قوله يوم القيامة إلى يوم الحساب لأن الحساب أشد خوفًا من يوم القيامة، إذا قيل للإنسان إنك سوف تحاسب على عملك أي على ما عملت من خير وشر، فإنه سوف يخاف ويوجل ويستقيم ويبتعد عن المعاصي ويقوم بالأوامر، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لما سمع هذا الرجل المؤمن بتهديد فرعون لموسى بالقتل قال ذلك، وتأمل سياق الآية، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لم يعينه باسمه بل قال رجل مؤمن كتمانا له لأنه ليس المقصود معرفة الاسم إنما المقصود معرفة القضية، أما تعيين الأسماء فهي من فضول العلم بمعنى أنه إن حصل فهذا طيب وإن لم يحصل فليس ذا أهمية، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مؤمن بمن؟ مؤمن بالله وربما نقول مؤمن بموسى أيضًا، ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل أن المراد من قرابته، لأن آل الإنسان قرابته، ويحتمل أن المراد من

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أتباعه، لأن الآل تطلق على الأتباع، وأيًا كان فالرجل ليس من بني إسرائيل بل هو من قوم فرعون سواء كان من قرابته أم من قومه الذين ينتمون إليه، وقول المؤلف [قيل هو ابن عمه] هذا قول أشار المؤلف إلى ضعفه بكلمة قيل، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ أي يخفيه ويسره خوفًا على نفسه، وفي قوله ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ هذه ثلاث صفات: مؤمن، من آل فرعون، يكتم إيمانه، وقد قال علماء النحو إن النكرة إذا وصفت أول مرة فإن ما بعدها يجوز أن يكون حالا ويجوز أن يكون صفة، وعلى هذا فيجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويجوز أن تكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية، و ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ صفة ثالثة ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ أي يخفيه عن فرعون وقومه، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

فإن ما بعدها يجوز أن يكون حالًا ويجوز أن يكون صفة، وعلى هذا فيجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ حال، ويجوز أن تكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ صفة ثالثة.

وقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ أي: يخفيه عن فرعون وقومه، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، يعني كيف تقتلون رجلًا لم يأت بشيء إلا أن يقول ربي الله وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقوله: ﴿أَن يَقُولَ﴾ أن هذه مصدرية على تقدير اللام؛ ولهذا فسرها المفسر بقوله [أي بأن يقول] فعلى هذا تكون أن منزوعة اللام التي للتعليل، أي: بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ربي الله لا فرعون، وهم يرون أن ربهم فرعون.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [بالمعجزات الظاهرات] ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الباء للمصاحبة والبينات صفة لموصوف محذوف وتقديرها خلافًا للمؤلف: الآيات، أي جاءكم بالآيات البينات أي الظاهرات التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ هذا يسمى عند علماء المنطق والتقسيم، إذنْ موسى الآن إما أن يكون صادقًا وإما أن يكون كاذبًا وليس هناك رتبة بين الصدق والكذب، لأنه هو يقول إنه رسول الله، فإما أن يكون صادقًا في هذا وإما أن يكون كاذبا، وعلى كلٍ فإنه لا يضركم أن تصدقوه، ولهذا قال ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ يعني: عليه ضرر كذبه، وسوف يوقع الله به الخزي والعار لو كذب على الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأن الله تعالى يهتك سره ويبين كذبه، فيكون كذبه عليه.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ إن يك صادقًا في أنه رسول وكذبتموه أنتم أصابكم بعض الذي يعدكم من العذاب عاجلًا، وكذلك يصبكم في الآخرة آجلًا، فصار الآن الخطر عليه إن كان كاذبًا وأنتم سوف تسلمون، والخطر عليكم إن كان صادقًا وهو سوف ينجو، وهذا لا شك أنه من تمام نصحه أن الرجل تنزل مع آل فرعون إلى هذا التنزل، لم يقل: إنه صادق مع أنه كان يؤمن به، لكن هذا من باب التنزل، وهنا قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل أتقتلون موسى، إبعادا للتهمة عن نفسه، لئلا يظن أحد أنه كان يعرف موسى وأنه يدافع عنه عن معرفة، ولكنه أتى برجل النكرة إبهامًا للأمر وشدة في إخفائه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: ذو كذب، وهل هذه الجملة تعليلية هل هي تعود على موسى أو تعود على فرعون؟ نقول: هي صالحة للأمرين، كل من كان مسرفا كذابًا فإن الله لا يهديه، هذا الوصف ينطبق على فرعون، فإنه مشرك متجاوز للحد كذاب مدع ما ليس له، يقول: أنا ربكم الأعلى وكذب في ذلك، فهو مسرف كذاب، كذلك أيضًا في مقام المجادلة والتنزل تنطبق على موسى لو كان كاذبًا فإنه يكون مسرفًا لتجاوزه الحد وادعاءه الرسالة وهو كاذب، وكذلك كذاب لأنه ادعى ما ليس صادقًا فيه، وعلى كل حال فالجملة صالحة لأن تكون منطبقة على فرعون وهي منطبقة عليه حقيقة، أو على موسى من باب التنزل مع الخصم.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** قوة موسى عليه الصلاة والسلام وصراحته؛ حيث أعلن أمام مهدديه بالقتل بأنه عاذ بالله ربه وربهم، لقوله ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾.

٢- ومنها: قوة توكله عليه الصلاة والسلام، حيث اعتمد على الله أمام هذا الطاغية الذي يسهل عليه أن ينفذ ما توعد به.

٣- ومنها: وصف فرعون بهذين الوصفين الذميمين: التكبر وأنه لا يؤمن بيوم الحساب.

٤- **ومن فوائدها:** العدول إلى العموم دون الخصوص؛ لأنه لم يقل: إني عذت بربي وربكم من فرعون، ولكن قال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ ليعم فرعون وغير فرعون.

٥- **ومن فوائدها:** أنه إذا جاءت بصيغة العموم وبالوصف انطبقت على فرعون، وبينت أنه متصف بالاستكبار، وكذلك الكفر بيوم الحساب.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات يوم الحساب وهو يوم القيامة، والحساب ليس مناقشة الإنسان على عمله، لأن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب»[1]، لأن الله لو ناقشك لكانت نعمة من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٧٩/ ٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نعمه تغطي جميع الحسنات التي قمت بها، بل إن حسناتك التي قمت بها نعمة من الله عز وجل تحتاج إلى شكر، ثم إذا وفقت لشكرها تحتاج إلى شكر آخر للتوفيق إلى الشكر، ثم هلم جرًّا.

وهذا صحيح، فالحساب: هو أن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه فيقول: عملت كذا عملت كذا عملت كذا، فإذا أقر قال: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الكفار فإنهم لا يحاسبون محاسبة وتوزن حسناتهم وسيئاتهم، لأنه ليس لهم حسنات ولكن تحصى أعمالهم، ويوقفون عليها ويخزون بها، يعني: يذلون بها، ويقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا هو حساب الكفار وذاك حساب المؤمنين.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي العناية بمضمون القصة دون عين من وقعت عليه، لقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ﴾ وإلا فنحن نعلم أن الله يعلم من هذا الرجل ويعلم اسمه ونسبه وكل شيء يتعلق به، لكن الله ذكره إبهامًا إشارة إلى أن المهم مضمون القصة دون عين من وقعت عليه، إلا إذا كان في تعيينه مصلحة.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه قد يكون من صلب المعادين من هو من الأولياء؛ لقوله هنا: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ سواء قلنا من قرابته أو من أتباعه على دينه، فإنه يدل على أن الله على كل شيء قدير، وأنه قد يهيئ الإيمان لمن كان بين قوم منغمسين في الكفر.

٣- **ومن فوائدها:** جواز إخفاء الإيمان، إذا خاف الإنسان على نفسه، لقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ولكن إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش مؤمنًا إلا بالكتمان فهل تجب عليه الهجرة؟ الجواب: نعم، في دين الإسلام أن من كان لا يستطيع أن يعيش إلا مخفيًا دينه فإنه تجب عليه الهجرة، لكن بشرط أن يكون قادرًا عليها، فإن كان عاجزًا فإن الله قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** شدة إنكار هذا المؤمن على فرعون الذي هدد بالقتل، لقوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** الإنكار على من عمل عملًا بدون سبب يقتضيه، تؤخذ من قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وهذا ليس سببا للقتل، بل على الأقل يُترك وشأنه، أما أن يقتل لهذا السبب فإن هذا منكر ولا يجوز إقراره.

٦- **ومن فوائدها:** العدول عن التعيين خوفًا من التهمة، وإن شئت فقل: استعمال المعاريض؛

لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل أتقلتون موسى، لأنه لو عينه باسمه لاتهمه الناس بأن له صلة به وفسد ما يريد، ولكنه أبهمه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخره.

٧- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالآيات البينة التي يؤمن على مثلها البشر، لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** قوة إيمان هذا الرجل؛ حيث جادل هؤلاء بإنكار ربوبية فرعون ضمنًا، تؤخذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فجابهم بأن لهم ربًا سوى فرعون، وهذا يدل على قوة هذا الرجل، أما قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فليس فيها دليل، لأن ربوبية الله عز وجل لموسى ما فيها شيء من الإنكار، لكن ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واضح أنه يعرض بأن فرعون ليس برب وأن الرب هو الله وهذا يدل على كمال شجاعة هذا الرجل.

٩- **ومن فوائدها:** استعمال والتقسيم، يعني الترديد بين حالين أو أحوال لا يزيد الأمر عليهما أو عليهن، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** مراعاة الخصم فيما يؤلفه ويقربه؛ لأنه بدأ بما كانوا يعتقدون وهو كذب موسى، فبدأ بالكذب قبل أن يبدأ بالصدق؛ من أجل تأليف وبيان أن الرجل ليس عنده تعصب لموسى، ولهذا لم يبدأ بالصدق الذي هو أحد الاحتمالين.

١١- **ومن فوائدها:** جواز التورية، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ لأننا نعلم أن هذا الرجل يعتقد أنه صادق، لكنه أتى بهذا الكلام تورية بأنه ليس بمؤمن به وذلك من أجل قبول كلامه؛ لأنهم لو شعروا بأنه مؤمن به لقتلوه، مؤمن بموسى وهو من آلهم، ولكنه أتى بالكلام الدال على التورية.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن شؤم الكذب يعود على الكاذب وهو كذلك، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾، وقد فضح الله عز وجل الكاذبين المفترين عليه فضحهم في الدنيا وسيفضحهم في الآخرة.

١٣- **ومن فوائدها:** قوة إيمان هذا الرجل؛ لكونه يعتقد ويؤمن بأن بعض الذي وعدهم موسى عليه الصلاة والسلام سوف يصيبهم إذا كان صادقًا وقد كذبوه، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** أن المسرف الكذاب ـ أي المتجاوز للحد بفعله وبقوله ـ في قوله لأنه كذاب، وبفعله؛ لأنه مسرف فإنه بعيد من الهداية، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وحينئذٍ نسأل هل المراد هداية التوفيق أو هداية البيان والإرشاد؟ هداية التوفيق، لأن الله قد بين للمسرف الكذاب ولغيره، لكن وفق من شاء من عباده وخذل من شاء.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تأمل حسن خطاب هذا الرجل كان في الأول ينكر عليهم، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولما أراد أن يتودد إليهم وأن يبين لهم نعمة الله عليهم تلطف في الخطاب، فقال: يا قوم وكأنه واحد منهم وهذا عن لطف في الخطاب في جانب الدعوة من الأمور التي أمر الله بها شرعًا، والتي يهدي بها الله من شاء من عباده قدرًا، فقد قال الله لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ ثم أيضًا إن القدر يؤيد هذا، فكم من إنسان لان بسبب القول اللين وكم من إنسان اهتدى بسبب العدوان في القول، ولهذا تجد هذا الرجل من حكمته أنهم لما هددوا موسى بالقتل أنكر عليهم علانية فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولما أراد أن يبين لهم النعم ويدعوهم إلى الحق قال ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غالبين] أي: عالين على أهلها.

وقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: أنتم الآن مالكون، وتأمل أيضًا حسن هذا الخطاب والتحرز ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: والمستقبل لا يعرف، قد يزول ملكك، لكن اليوم أنتم في نعمة غالبين في الأرض ظاهرين على أهلها، فيجب أن تشكروا هذه النعمة.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال المفسر [أرض مصر]، وعلى هذا فـ (أل) في الأرض للعهد الذهني أي الأرض المعهودة، أرضكم.

قال: [﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه إن قتلتم أولياءه ﴿إِن جَآءَنَا﴾] ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ من هذه استفهام بمعنى النفي أي: لا أحد ينصرنا، والنصر هنا بمعنى المنع، أي: فمن الذي يمنعنا من بأس الله، والبأس هو العذاب.

وقوله ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي إن نزل بنا، فهل أحد ينصرنا؟ حتى لو كنا اليوم ظاهرين في الأرض وكنا ملوكًا، فإنه إذا نزل بنا بأس الله لا أحد يمنعنا، وقول المفسر [إن قتلتم أولياءه] قد يقال: إن هذا الذي عينه المفسر يدل عليه السياق؛ لأنه أنكر عليهم أن يقتلوا موسى، وقد يقال إن المراد إن بقيتم على الكفر والعدوان ومنه قتل موسى، وهذا أصح وأعم، يعني: ما الذي ينصرنا من بأس الله إن جاءنا لكوننا مستحقين لهذا العذاب بالكفر وقتل أولياءه.

قال فرعون مجيبًا لهذا الرجل: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أكذب قول في الأرض هو هذا، ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يعني: ما أرسل لكم شيئًا حتى تروه إلا ما أرى أنه الحق، وهذه دعوى كاذبة؛ لأنه يعلم أن الحق في اتباع موسى، كما قال له موسى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، لكن جحدوا ظلمًا وعلوًا، وهو يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أرى أنه صواب، وأنه حق وهذه الدعوى كاذبة، وإن كان أراد ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أنه من مصلحتي فهذا صادق لكنه غاش، وعلى كل حال فالجملة مؤاخذ عليها، لأنها إما كذب وإما غش، إما كذب إن كان يقول: ما أريكم إلا ما أرى من الصواب، وإما غش إن كان يرى أن الحق خلاف ما أراه، لكنه لمصلحته أراهم ما رأى، قال: [ما أشير عليكم معناها ما أشير عليكم إلا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى]، هذا أيضا تخصيص في غير محله، لأن فرعون لا يهمه أن يقول: أقتل موسى أو لا تقتله؛ لأنه مصمم على ما يريد، لكن أهم شيء ألا يكفروا به ألا يبدل دينه، وعلى فالمقصود بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ في بقائكم على دينكم، هذا معنى الآية، لأن أصل الإنكار على موسى والتهديد بقتله أنه خاف أن يبدل الدين.

وقوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يعني: ما أدلكم إلا على سبيل الرشاد، الرشاد ضد الغي، ولهذا يقال: رشد وغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فالرشاد هو ضد الغي يعني الصواب والسداد، وسديد بمعنى طريق، وهو صادق في هذا أو كاذب؟ أكذب الكاذبين، لأنه ليس يهديهم سبيل الرشاد بل يهديهم سبيل الغي والعناد والاستكبار والكفر، فصار كاذبا في الجملتين: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إذا قلنا إن المعنى: إلا ما أرى إلا ما هو صواب، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هو أيضًا كاذب؛ لأنه بلا شك يهديهم سبيل الغي والفساد.

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** حسن خطاب هذا الرجل المؤمن، حين تلطف في الدعوة إلى الله عز وجل، لقوله ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يذكر المدعوين بنعمة الله عليهم؛ حتى يخضعوا ويشكروا هذه النعمة، لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** حسن احتراز هذا الرجل المؤمن، لقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: وأما في المستقبل فقد يزول ملكك، لكن اشكر النعمة الحاضرة.

٤- **ومن فوائدها:** أن الاعتبار بالحال بما هي عليه الآن، أما المستقبل فقد تتغير الأحوال، لكن نحن مخاطبون ومأمورون بأن ننظر إلى الحال الحاضرة الآن.

يتفرع على هذه المسألة مسألة اجتماعية وهي: أن بعض الناس يخطب ابنته رجل غير مستقيم

يعني: ليس كافرًا، لكنه فاسق يشرب دخانًا أو حلق لحية أو يتعامل بالربا أو ما أشبه ذلك، فيأخذه الطمع ويقبل الخطبة، ثم يقول: لعل الله يهديه، أو لعل هذه البنت الملتزمة تسعى في هدايته، فيقال: نحن لا ننظر للمستقبل، المستقبل له الله، بل ربما أن هذا الرجل يغوي المرأة؛ لأنه هو أقوى منها جانبًا، فأنت الآن مأمور بالنظر إلى الحال الحاضرة، أما المستقبل فلست مأمورًا بالنظر إليه ولا يجوز أن تنظر إليه؛ لأنه مستقبل غيب، فأنت الآن اعرف الحال التي أنت عليها وتصرف على ما هي عليه الآن، هذه نأخذها من قول هذا الرجل المؤمن: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ واعلموا أنني إذا قلت حسن خطاب الرجل أو احترازاته أو ما أشبه ذلك ليس معناه أني أخبركم عن قصة مضت وتاريخ مضى، لا، بل أريد أن تأخذوا من ذلك عبرة تسيرون عليها، لأنه ما دام نثني على هذا الرجل بخطابه ومعالجة الأمور فإنه يعني أننا نحث على اتباع طريقه.

أن آل فرعون قد غلبوا في مصر وظهروا عليها ولم يكن لهم منازع، يؤخذ من قوله: ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومن ثم تكبر فرعون ولم يخضع لموسى لأن موسى من بني إسرائيل، وهم قلة أذلة في مصر والغلبة للأقباط.

أن الظهور والغلبة قد يكون سببًا للأشر والبطر إلا من وفقه الله، بعض الناس إذا أعطاه الله سبب رفعة لا يزيده ذلك إلا تواضعًا للحق وللخلق، وبعض الناس إذا أعطاه الله رفعة صار هذا سببًا في تعاليه على الخلق واستكباره عن الحق، وهذه محنة يجب على المرء أن يعالج نفسه فيها، لا إذا أعطاه الله مالا يذم ويعلو ويستكبر، فإن الذي أعطاه هذا المال قادر على أن يتلفهم عليه، لا يقول إذا أعطاه الله علما أنا عالم وأنا من أنا ثم يتعلى عن الحق وعلى الخلق، بل يجب على الإنسان كلما آتاه الله علما أن يزداد تواضعًا هذا ما أقوله وأرجوا أن أتصف به وإياكم، فعلى الإنسان أن يعرف هذه المسألة، وأن الله قد يبتلي الإنسان بالشيء الذي قد يكون داعيًا لعلوه واستكباره عن الحق وعلى الخلق، فليحذر هذا الأمر.

قوة إيمان هذا الرجل، وأنه لا دافع ولا مانع لما أراد الله، لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، وهذا يدل على كمال يقينه رحمه الله ورضي عنه، حيث آمن بأنه إذا جاء بأس الله فإنه لا مرد له.

التلطف بالخطاب حتى يُشعر الإنسان المخاطَب وكأنه هو أول من يراد بهذا الخطاب؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، ولم يقل فمن ينصركم من بأس الله إن جاءكم، كل هذا من باب التنزل مع هؤلاء وإشعارهم بأنه واحد منهم، وقد يقال: إن في هذا إشارة إلى أن العذاب إذا نزل يعم الصالح والفاسد، ويكون قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يراد به حقيقته، أي أنه هو سيصيبه ما أصابهم، ويكون هذا شاهده قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، وهذا ليس ببعيد.

أنه إذا نزل بأس الله فإنه لا مرد له، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

وهل يستثنى من هذا أحد؟ لا، فكل من أتاهم بأس الله فإنهم لن ينجوا ولو آمنوا، فهل استثنى من هذا أحد؟ لا إلا قوم يونس ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ يعني إذا نزل بها العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ ولماذا خُص قوم يونس؟ لحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يمكن أن يخص أحدًا بشيء إلا لحكمة، فالناس عنده سواء ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، الحكمة أن يونس عليه الصلاة والسلام خرج من قومه مغاضبًا قبل أن يؤذن له، وكأنه لم يستكمل الدعوة فلم تقم عليهم الحجة الكاملة، ولهذا نجوا حين آمنوا بعد رؤية العذاب، فصار إنجاؤهم له حكمة وهو خروج نبيهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له فكأنه لم يستكمل إقامة الحجة عليهم، فصار في هذا نوع عذر لهم فأنجاهم الله عز وجل.

لكن يشكل على هذا آية دائمًا إذا قرأتها أقول كيف يكون هذا؟ قال نوح لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ كيف قال: إنهم إذا آمنوا يغفر لهم من ذنوبهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ثم قال: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر؟ فكان في الأول يقول: يؤخركم إلى أجل، وفي الثاني يقول إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر؟ يعني أحذركم من العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخر، لكن إذا آمنتم أخركم إلى أجل مسمى، وعلى هذا فلا تناقض في الآية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ تمويه فرعون وغشه وكذبه وضلاله لأنه خدع قومه بقوله ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وكذب في قوله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ قطعًا وكذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ على أحد الاحتمالين.

أن أهل الباطل قد يكون لديهم زخرف من القول غرورًا؛ لأن مثل هذا الزعيم الذي وصلت به الزعامة إلى أن جعلوه ربا إذا قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سوف يخدع قومه بلا شك، ولهذا يجب علينا الحذر من خداع بعض الناس إذا قالوا: نحن نريد كذا ونريد كذا من الإصلاح، فيجب أن ننظر إلى أفعالهم هل تشهد أفعالهم لأقوالهم؟ إن كان الأمر كذلك فهم صدقة بررة، وإن كانوا بالعكس فهم كذبة غششة يخدعون بزخرف القول غرورًا، ولهذا كان الإنسان الذي لديه فِراسة لا يغتر بظاهر الأقوال، وإنما يقيس ما يقوله أو يعتبر ما يقوله بما يفعله، فإذا رأى أن أفعاله تخالف أقواله علم أنه كاذب غشاش، وإذا رأى أن أفعاله تصدق أقواله صار صادقًا وصار مخلصًا لموافقة باطنه لظاهره.

أن كل أحد يعرف أن الرشد مطلوب، وأن الغي مرفوض، تؤخذ من الجملة الثانية، إذن هم

يعرفون أن الرشاد أمر مطلوب، كل إنسان حتى الكافر يرى أن الرشد أمر مطلوب، فما هو الرشد الحقيقي هل هو اتباع الهوى أم اتباع الهدى؟ الثاني اتباع الهدى لكن التمويه مشكل.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في الأول قال: ﴿رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ فنقول لماذا كرر هذا الوصف لهذا الرجل؟ لطول الحديث والفصل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾، أما اختلاف الجملتين فإن الثانية تؤكد الأولى، بأن هذا الرجل قد اصطبغ في الإيمان وحقق الإيمان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ (يا قوم) يعني: بذلك فرعون وقومه وهذا من باب التلطف في المقال، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني: الطوائف السابقة وكأن هذا الرجل ملهم عنده علم بأحوال الأمم السابقين، وسيأتي إن شاء الله الكلام على فائدة هذه الجملة ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [أي: يوم حزب بعد حزب]، ثم أبدل منه قوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ دأب بمعنى عادة، وذكر قوم نوح لأنه هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ وكل هؤلاء المتقدمون بعيدو العهد، قبل موسى وقبل فرعون، فهم من أوائل الرسل، ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ﴾ عاد معطوفة على قوم، ولا يصح أن تكون معطوفة على نوح؛ لأنه لو كانت معطوفة على نوح لكان المعنى مثل قوم عاد، ولا يستقيم الكلام، بل مثل عاد وهم قوم هود، وثمود قوم صالح.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من الأمم، وسيأتي أنه أشار إلى يوسف عليه الصلاة والسلام بن يعقوب بن إبراهيم، يقول [مثل بدل من مثل قبله أي: مثل جزاء عادة من كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا]؛ إذن مثل دأب ما هو مثل عادتهم إلا إذا أريد إضافتها إلى المفعول به أي: مثل العادة التي أوقعها الله بهم، لكن كأن المؤلف جعلها مضافة إلى الفاعل، وأنها على تقدير: مثل جزاء عادتهم، لأن الجزاء من الله، والعادة من هؤلاء الأقوام من الأحزاب، العادة عادة الأحزاب، والعقوبة عقوبة الله، فإما أن نقول إن الكلام على تقدير: مثل عقوبة عادة قوم نوح إلى آخره، أو نقول ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: مثل العادة التي فعلها الله بهم، والمعنى واحد، وأن المراد أنه يخاف عليهم مثل هذه الأيام التي هي عقوبة لهؤلاء الذين كذبوا رسلهم.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ ما: نافية تعمل عمل ليس؛ لتمام الشروط، ولفظ الجلالة اسمها، ويريد: جملة هي خبرها، ولو كانت اسمًا لكان التقدير: وما الله مريدًا ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ الظلم يتناول شيئين: إما الزيادة في الآثام، وإما النقص في الحسنات، وكله ممتنع بالنسبة لله عز وجل، فلا يمكن أن يقع منه ولا يمكن أن يريده، لكمال عدله.

الفوائد:

١-**من فوائد الآيتين:** شدة خوف هذا الرجل من عقاب الله، وهذا يدل على كمال الإيمان لأنه لا يخاف أحد من شيء إلا وهو مؤمن به.

٢- أن عند هذا الرجل علمًا من نبأ الأولين، لقوله: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أنه ينبغي للإنسان أن يكون عنده علم بأحوال الأمم السابقة؛ من أجل أن يكون معتبرًا بمن مضى فيمن بقي، وعلى هذا فعلم التاريخ علم مهم، ولكن يجب أن نعلم أن التاريخ أصابه شيء من الوضع - أي من التحريف والتغيير والكذب والزيادة والنقص - فعلى الإنسان أن يحتاط في هذا حتى لا ينقل أو لا يروي إلا الصحيح.

٣- **ومنها:** أن قوم نوح وعاد وثمود كانوا أول الأحزاب، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٤- **ومنها:** انتفاء إرادة الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ وإذا انتفت الإرادة انتفى الفعل قطعًا؛ لأن الله يفعل ما يريد، فإذا لم يرد الظلم انتفى الظلم، على أنه في آية أخرى نفى الظلم نفسه فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيكون الله تعالى قد نفى الظلم عن نفسه ونفى إرادة الظلم؛ وذلك لكمال عدله، وهذه الصفة من الصفات التي يسمونها الصفات السلبية أو الصفات المنفية، ولدينا قاعدة في باب الأسماء والصفات: أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبدًا، كل نفي في صفات الله فإنه يتضمن شيئين: أحدهما نفي ما نُفي عن الله، والثاني: إثبات كمال ضده، فيقال: لا يظلم لكمال عدله، وإن شئت فقل: لكمال عدله لا يظلم، لأن العدل إذا لم يكن عدله كاملًا قد يظلم في بعض الأشياء، أما الرب عز وجل فإن عدله كامل لا يمكن أن يدخله ظلم بأي وجه من الوجوه، لكن هذا الظلم المنفي عن الله لكمال العدل هل هو مستحيل لذاته أو جائز، لكنه مستحيل على الله تعالى لكماله؟ الثاني؛ خلافًا للجهمية الذين قالوا: إن الظلم مستحيل على الله لذاته - لذات الظلم - لأنه إذا كان مستحيلًا لذاته لم يكن مدحًا، مستحيل لذاته لا يمدح من استحال عليه، على ذلك، لأنه مستحيل، وهم يقولون: إنه مستحيل لذاته؛ لأن الخلق كله ملكه ويفعل في ملكه ما يشاء، ومن تصرف في ملكه، فإنه لا يقال: إنه ظالم ولو قدم شيئًا على شيء، أو نقص شيئًا عن حقه، ولكننا نقول: إن الله صرح بأنه حرم الظلم على نفسه، وهذا يدل على أن الظلم في نفسه ممكن عقلًا، لكنه حرمه على نفسه لكمال عدله.

والخلاصة: أن من قواعد الأسماء والصفات أنه لا يوجد النفي المحض في صفات الله، بل لا

يوجد نفي في صفات الله إلا لكمال ضده، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لماذا؟ لكمال قوته، لا لأن اللغوب لا يلحقه، لكن لكمال قوته لا يلحقه اللغوب، وليس المعنى أن ليس مما يمكن أن يلحقه اللغوب لا، لكنه مستحيل لكمال قوته، قال أهل العلم: وإنما قلنا بذلك؛ لأن النفي المحض عدم محض، النفي المحض نفيت شيء معناه غير موجود، والعدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون مدحًا؛ لأنه عدم، والعدم لا يمدح عليه، وإما أن يكون النفي متضمنًا لإثبات هذا الإثبات قد يكون عجزًا، فمثلًا إذا قلنا فلانا لا يظلم؛ لأنه غير قادر على الظلم فليس هذا يعني أننا مدحناه، بل هذا ذم له، كقول الشاعر:

قبيلة لا يغـــــدرون بذمـــــة ... ولا يظلمـــون الناس حبـة خردل

أول ما تسمع هذا الكلام تقول ما شاء الله هؤلاء أوفياء ذوو عدل، لكنه في الواقع ذم، يقول: إن هؤلاء ما يقدر الواحد منهم أن يغدر ولا يقدر أن يظلم.

والثاني يقول:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يعني: أنهم إذا أتى إليهم الإنسان أحسنوا إليه، وإذا أساء إليهم غفروا له، وتجاوزا عنه لكن لكمال إحسانهم وكمال عفوهم أو لعجزهم؟ لعجزهم، ولهذا قال:

فليت لي بهم قومًا إذا ركبـوا ... شنـوا الإغــارة فرسانًا وركبانا

ليت لي بهم أي: بدلهم، وهذا يدل على أنه ذمهم ذمًّا عظيمًا.

وقد يكون النفي لعدم صلاحية هذا الوصف لما نفي عنه، قد يكون نفي الشيء عن الشيء لأنه غير قادر وغير صالح لأن يوصف به، كما إذا قلت: الجدار لا يظلم، هل هذا مدح للجدار؟ لا؛ لأنه غير قادر ولا صالح للظلم أو عدم الظلم، فتبين بذلك أن الله تعالى لا ينفي عن نفسه شيئًا إلا لكمال ضد هذا المنفي، لا لأنه غير قابل له أو غير صالح في حقه أو ما أشبه ذلك من الناحية العقلية.

٥ـ **ومن الفوائد هذه الآية**: بيان نصح هذا الرجل المؤمن حيث حذر قومه من عذاب الله.

٦ـ **وفيه دليل على**: التلطف في الدعوة إلى الله، وأن الإنسان لا يستعمل في الدعوة إلى الله عاطفته؛ لأنه إن استعمل عاطفته أخذته الغيرة ففعل ما لا يحمد عقباه، وإنما يحكِّم العقل وينظر إلى العواقب والنتائج، ولا ضير على الإنسان إذا أصابه ذلٌّ في أو الأمر إذا كانت النتيجة طيبة، ولا يخفى ما حصل للنبي ﷺ وأصحابه في غزوة الحديبية من الشروط التي ظاهرها الإهانة، ولكنها كانت نتيجتها طيبة، حتى إن الله تعالى سماها فتحًا، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

فالحاصل: أنه يبغي للإنسان عند الدعوة إلى الله أن لا يحكم العاطفة، فتزل قدمه، ولكن يحكم العقل وينظر إلى العواقب والنتائج.

٧ـ **ومنها**: بيان أن ذكر الأمم السابقة ينتشر في الأمم اللاحقة، إما بواسطة الكتب المنزلة، وإما بواسطة التاريخ المنقول، ويدل لذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ لأنه لا يمكن أن يخوفهم بأمر لا يعرفونه، ولو كان الأمر كذلك لقالوا: ما هذه الأيام وما هذا الجزاء.

٨ـ **ومنها**: تحذير اللاحق أن يصيبه ما أصاب السابق، لقوله ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٍ﴾ ووجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى سنته في خلقه واحدة، هو لا يعذب هؤلاء لأنه يكرههم شخصيا، يعذب هؤلاء لأنه يكره عملهم فإذا وجد عملهم في آخرين فالكراهة حاصلة، واذكر قول الله تعالى ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ وحذر شعيب قومه أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

فالحاصل: أن الأمم لابد أن يتعظ اللاحق بالسابق؛ بناء على أن سنة واحدة.

انتفاء إرادة الله الظلم لعباده، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، ومعلوم أنها إذا انتفت الإرادة انتفى الفعل، فنفي إرادة الظلم نفي للظلم من باب أولى، كما أنه جاءت آيات صريحة في نفي الظلم عن الله عز وجل.

٩ـ **ومنها**: إثبات اتصاف الله تعالى بالنفي، أي أن الله يتصف بالصفات المنفية التي يعبر عنها بعض العلماء الصفات السلبية لأن النفي سلب.

ولكن إذا قال قائل: هل في النفي ثناء ومدح مع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فصفات الله تعالى كلها صفات كمال، والنفي عدم فهل يكون مدحا وثناء؟

الجواب نقول: أما بالنسبة لغير الله عز وجل فإنه لا يدل على الكمال ولا على المدح، وأما بالنسبة لله فيتعين أن يكون دالا على الكمال لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فكل نفي نفاه الله عن نفسه فإنه متضمن لكماله، دليلنا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وإلا فالنفي المجرد لا يدل على الكمال إطلاقا بل أحيانا يدل على النقص.

قال الله تعالى:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٤].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ رضي الله عن هذا الرجل، خوَّفهم أولا بالعقوبة الدنيوية حين قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، ثم خوَّفهم من العقوبة الأخروية فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قال المؤلف: [بحذف الياء وإثباتها] (التنادي) هذا إثبات، (التناد) هذا حذفها، أما إثباتها فعلى الأصل وأما حذفها فللتخفيف، والياء دائما تحذف للتخفيف مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فأصلها: تستعجلوني وليست النون هنا نون الرفع، لأنها مكسورة فهي نون الوقاية وحذفت الياء تخفيفًا، ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ كلمة يوم هنا هل هي ظرف منصوبة على الظرفية والتخفيف إني أخاف عليكم العذاب يوم التناد؟ أو إن الفعل مسلط عليها فهي مفعول به؟ الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فجعل الخوف مسلط على يوم، لأن يوم تصلح لأن تكون مفعولا به وأن تكون مبتدأ وأن تكون خبر مبتدأ.

يقول: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [بحذف الياء وإثباتها أي يوم القيامة] هذا هو المراد به وأنا أشرت في كلامي على قواعد التفسير أن هناك تفسيرًا لفظيًّا والثاني معنويًّا، اللفظي يفسر اللفظ والمعنوي يفسر المراد، فهنا يوم التناد تفسيرها اللفظي أي: يوم يتنادى الناس بعضهم مع بعض، والمراد بها يوم القيامة، فإذا قلنا ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي: يوم القيامة فهذا ليس تفسيرا لفظيا بل هو تفسير معنوي للمراد بالآية، طيب يقول ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [أي يوم القيامة يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار وبالعكس]، والنداء بالسعادة لأهلها، والشقاوة لأهلها وغير ذلك، التناد يوم القيامة يكثر، فينادي الله الناس، والناس ينادي بعضهم بعضا، وأهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار.

والتنادي الحاصل يوم القيامة ليس كالتنادي الحاصل في الدنيا؛ لأنه بأصوات مزعجة وحزينة إذا كان أهل النار ينادون أهل الجنة وما أشبه ذلك، فهذا اليوم ذكَّر هذا المؤمن قومه به؛ ليحذروا من عذاب يوم القيامة.

ثم بين ذلك بقوله: [﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن موقف الحساب إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾].

وصف هذا اليوم بأوصاف أولا بأنه يوم التناد، ينادي الناس بعضهم بعضًا والله تعالى يناديهم أيضًا، ويتنادون بنداءات قد يكون بعضها مشغولًا لنا الآن، الوصف الثاني: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ يوم هذه بدل من قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أو عطف بيان، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ (مدبرين) هذه حال مؤكِّدة لعاملها أو لصاحبها؟ مؤكدة لعاملها؛ لأن التولي هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مؤكدة لعاملها، يعني تولون يوم القيامة حال كونكم مدبرين تولون إلى أي شيء؟ إلى النار والعياذ بالله، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

فهم والعياذ بالله يولون مدبرين.

قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ الجملة هذه جملة خبرية مبدوءة بها النافية والمبدل فيها قوله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ لكن دخلت عليه (مِنْ) الزائدة[1].

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]

التفسير[2]

قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾؛ لأنهم لو كانوا يجادلون لإثبات الآيات والإقرار بها لكانوا على سلطان، وقوله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ قال المؤلف [برهان] أي بغير دليل، وذلك لأن السلطان كل ما يقوم به السلطان، ويختلف بحسب السياق، فالإمام الأعظم يسمى سلطانًا لأنه ذو سلطة، والدليل يسمى سلطانًا؛ لأن الآخذ به ذو سلطة، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير دليل، وهذا النعت أو الحال، يعني جملة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حال من فاعل يجادلون، هذا الوصف وصف لبيان الواقع، وليس وصفًا مقيدًا، والفرق أننا لو قلنا وصف مقيِّد صار الذين يجادلون في آيات الله لإبطالها أحيانًا يكون معهم سلطان وأحيانًا لا يكون معهم سلطان.

والواقع أنهم ليس لهم سلطان، والقيد المبين للواقع ليس له مفهوم، وهذا آتي في القرآن كثيرًا، وإنما المقصود به أي بالقيد المبين للواقع المقصود به الاستدلال، يعني: فكأنه تعليل للموصوف، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

---

١ ـ بقية تفسير الآية (٣٤) غير موجود ـ فيما لدينا من مصادر ـ.

٢ ـ بداية تفسير هذه الآية الكريمة غير مسموع فيما لدينا من مادة علمية.

فقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ مبين للواقع وليس قيدًا؛ لأنه لا يمكن أن يدعو أحدٌ مع الله إلها آخر له فيه برهان، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فإن هذا لا يعني أنه قد يدعون لما لا يحيينه، بل ولا يدعون إلا لما يحيينه، فيكون هذا كالتعليل لموصوفه الذي صار قيدا فيه، إذن ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ نقول: إنه وصف لبيان الحال والواقع وأنه لا سلطان لهم بذلك.

وعلى هذا فيكون كالتعليل لموصوف ـ وأعني الوصف هنا ما يشمل الحال وغير الحال ـ.

وقوله: ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ الجملة صفة لسلطان، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ هذه الجملة خبر ومبتدأ، وقوله ﴿كَبُرَ﴾ أي: عظُم، وضمت الباء حتى صار من باب فعل لأنه أريد به التعجب، يعني ما أكبر مقتهم عند الله ﴿مَقْتًا﴾ هذه تمييز لكبر لأن كبر المراد به الجدال، يعني: كبر جدالهم مقتا، فهي مميزة للفاعل المحذوف، بل الفاعل المستتر وقوله المؤلف [كبر جدالهم مقتا] الصواب: أن يقال: كبر مقتهم مقتا عند الله، لأن التمييز مبين للفاعل المستتر.

وقوله: ﴿مَقْتًا﴾ المقت هو أشد البغض، وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بكبر.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: وكذلك المؤمنون يكبر مقتهم لهؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان الذين يريدون إدحاض الحق وإظهار الباطل.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا أطلق الإيمان فالمراد به ما يشمل الإسلام، وإذا أطلق الإسلام فالمراد به ما يشمل الإيمان، ولهذا لو سئلت فقيل لك هل الإسلام والإيمان مترادفان بمعنى واحد؟ فقل: هما عند الإفراد مترادفان، وأما عند الاقتران فإنه يفسر الإيمان بأعمال القلوب، والإسلام بأعمال الجوارح، مثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ففرق بين الإيمان والإسلام وبيَّن أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم ولكنه قريب الدخول؛ لأن لما تفيد القرب، إذن في حديث جبريل فرق بين الإسلام والإيمان لماذا؟ لأنهما اجتمعا، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

ففرق بين هذا وهذا، أي يخرجون مؤمنون، والبيت مسلم، لأن في البيت امرأة كافرة، وهي امرأة لوط، فهي في ظاهر الحال مسلمة مستسلمة؛ لأنها لا تظهر أنها كافرة، كما قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ولكن حينما أراد الله عز وجل أن ينجي من ينجي من قوم لوط أنجى المؤمنين فقط وأما المرأة بقيت مع قومها وهلكت.

يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أعوذ بالله، كذلك مرت علينا قريبًا وقلنا مثل هذا الترتيب يكون إعرابه كالتالي: الكاف اسم بمعنى مثل، وهي مفعول مطلق للفعل الذي بعدها فالعامل فيها الفعل الذي بعدها، ويطبع هو الفعل العامل، وعليه فنقول مثل هذا

الطبع يطبع الله، وأما قول المؤلف رحمه الله [مثل إضلالهم] ففيه نظر، وإن كان يلزم من الإضلال الطبع، لكن الأحسن أن يفسر بما يطابق العامل فيقال: مثل هذا الطبع يطبع الله، قال: [(يطبع) يختم] الطبع هنا للختم كأن الله جعل على قلوبهم غلافًا ثم ختم عليه كما يختم على الوثائق، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قال: [﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ بالضلال] يقال فيها كما قيل فيما سبق بأن المراد يطبع الله بالطبع على القلوب على كل قلب متكبر.

وقوله: [﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بتنوين قلب ودونه]، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾، و﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، والفرق أنه على قراءة التنوين يكون التكبر وصفًا للقلب وعلى قراءة الإضافة يكون الطبع على قلب المتكبر، وليس القلب هو المتكبر، والمعنى واحد؛ لأنه إذا تكبر القلب تكبرت النفس؛ لقول النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(1).

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أو ﴿قلبٍ متكبر﴾، ما هو التكبر؟ التكبر معناه الترفع يعني أن الإنسان يترفع، وهو نوعان: تكبر على الخلق، وتكبر عن الحق، وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(2)، (بطر الحق) يعني: رده وعدم الإذعان له، (وغمط الناس) يعني: احتقارهم، فيرى نفسه أنه فوق الناس، هذا هو الكبر - والعياذ بالله -، ومعلوم أن مَنْ غمط الحق وازدراه فإنه لا يأخذ به، إذ كيف يأخذ بشيء يرى أنه نقيصه، وكذلك من غمط الناس، فإنه لا يعدل فيه بل يعاملهم بالكبرياء والعياذ بالله، فيكون الطبع حقيقًا بمثل هذا القلب، وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر(3).

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** كراهة الله سبحانه وتعالى للذين يجادلون في آيات الله لأجل إبطال الحق، لقوله: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ ﴾.

٢- **ومنها:** أنه لا سلطان لكل إنسان جادل لإدحاض الحق وإظهار الباطل، يؤخذ من قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾.

٣- **ومنها:** تقوية قلوب المجادلين بالحق، ومعلوم أن الجدال يكون من طرفين فالمجادل في آيات الله لإبطالها هذا لا حجة له يكون الخصم المقابل له الآخر يكون له حجة؛ فإذن إذا علم المجادل الذي يريد إثبات الحق وإبطال الباطل أنه لا سلطان لخصمه فإنه سوف يقوى قلبه ويزداد ثباته.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

فيستفاد منه بطريق المفهوم أن المجادل في آيات الله لإثباتها سيكون معه السلطان والقوة ولكن هل كل من معه حجة يستطيع أن يحتج بها؟ لا قد لا يستطيع، هو يعلم أنه على الحق لكن لا يستطيع أن يجادل بها، ولهذا ينبغي للإنسان أن يعرف ما عند الأقوام من الباطل ليتمكن من رده، أما كونه لا يقرأ الباطل ويقول أنا كل ما ورد علي من باطل فعندي قدرة على دفاعه فهذا قد يخذل الإنسان في مكان يجب أن ينتصر فيه، فلابد من أن يعرف الإنسان الباطل من أجل أن يرد عليه، ولهذا نرى العلماء المحققين يقرأون كتب المناطق والفلاسفة وغيرها.

ثم يردون عليها، وهذا حينما يكون في رجل رسخت قدمه في العلم، أما رجل ابتدأ طالبًا فهذا لا نشير عليه أن يقرأ كتب أهل الضلال، وذلك لأنه ليس عنده منعة فيُخشى أن يتأثر بهذه الكتب فيضل، لكن الراسخ في العلم نقول: اقرأ حتى تعرف كيف ترد على هؤلاء.

٤- **ومنها**: أن من جادل بحق فليس بمذموم، لقوله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ إذ لو كان لهم سلطان لكانوا على حق، لكن ليس لهم سلطان.

٥- **ومنها**: إثبات المقت لله عز وجل وأنه يتفاضل، فيكون مقته على شخص أو طائفة أكبر من مقته على شخص أو طائفة آخرين، يؤخذ من قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ وهل هذا المقت حقيقة أو يراد به لازمه وهو العقوبة؟

الجواب: الأول هذا مذهب أهل السنة والجماعة، أنهم يقولون: كل ما وصف الله به نفسه فهو على الحقيقة، لكنه يجب أن نعلم أنه لا يماثل صفات المخلوقين؛ لأن الله أثبت ونفى، قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهذه قاعدة جادة عندنا امش عليها في كل ما وصف الله به نفسه، لا تقل: هذا لا يراد به ظاهره، كل ما وصف الله به نفسه، فإنه يراد به ظاهره لكن ينزه عن مماثلة المخلوقين.

إذن الله سبحانه وتعالى يَمقُت ويُبغض ويكره ويحب حقًّا على حقيقته، ولكنه لا يماثل صفات المخلوقين.

وذهب أهل التعطيل الذين يحكمون على الله بعقولهم لا بكلامه وكلام رسوله إلى أن مثل هذه الأوصاف يجب وجوبًا أن تؤول إلى لوازمها، فيقولون مثلًا: المقت المراد به الانتقام والعقوبة، وليس البغض أو الكراهة أو الأشد من ذلك.

فيقال لهم: إذا فسرتم ذلك بالعقوبة ارتكبتم محظورين: المحظور الأول: إخراج كلام الله عن ظاهره، والمحظور الثاني: إثبات معنى لا يراد به، وهذا كله تحريف، نقول إنه ارتكب محذورين، المحظور الأول: إخراج الكلام عن ظاهره، وهذه جناية لا شك حيث سلب اللفظ معناه، والثاني: إثبات معنى لا يراد به أي لا يراد باللفظ، وهذا عدوان أيضًا، فكل مؤول فإنه يرتكب هذين المحذورين، والعجب أنهم يسمون أنفسهم أهل التأويل، والصواب أنهم أهل التحريف،

لكن هم تسموا بهذا الاسم تلطيفًا لما هم عليه من الباطل، لأن التأويل يراد به الحق ويراد به الباطل، فإذا أولنا الكلام بما يريده به المتكلم، فهذا حق، لكن بخلافه هذا باطل، وهذا هو الذي هم عليه ولكن عدلوا عن اسم التحريف إلى اسم التأويل، وانظر إلى دقة عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «العقيدة الواسطية» قال: (من غير تحريف ولا تعطيل)، ولم يقل من غير تأويل مع أن أكثر الذين يتكلمون في العقائد أو يكتبون في العقائد يقولون: من غير تأويل، لكن ما قاله هو الصحيح، لأن كل تأويل لا يدل عليه الدليل فهو تحريف.

إذن نحن نثبت لله بأنه يمقت ويفرح ويبغض حقًّا على حقيقته، وأما العقوبة فهي من لازم ذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره: أنتم إذا أثبتم أن الله يعاقب، فقد أثبتم أن الله يكره بطريق اللزوم، أليس كذلك؟ بلى إذ لا يعاقب إلا من يكرهه، لا يمكن أن يعاقب من يحبه، فأنتم لما أقررتم بإثبات الكراهة أو المقت وقعتم فيه من وجه آخر، نقول: إذا أثبتم العقوبة فلا عقوبة إلا بعد مقت وكراهة، وهذا أمر ضروري؛ لأنه لا يمكن لأحد يحب شخصًا أن يقوم ويضربه.

٦- **ومنها**: إثبات العندية لله ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ثم العندية نوعان: عندية وصف وعندية قرب، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]

هذه عندية قرب، وقوله هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عندية وصف؛ لأن المقت ليس شيئًا منفصلًا بائنًا عن الله حتى يكون عندية قرب، بل هذا عندية وصف كما تقول للشخص أنت عندي عزيز، تقوله وهو بعيد منك، وليس المعنى أنت عندي عزيز يعني: قريب لا هذا عندية وصف، أي أن عزتك عندي قائمة فيَّ.

٧- **ومنها**: أن ما يكرهه الله، فإن المؤمنين يكرهونه، لقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذه علامة الإيمان خذها قياسًا وميزان عدل، متى رأيت من نفسك أنك تكره ما يكرهه الله وتحب ما يحبه الله، فذلك الإيمان، دل عليه هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث ودل عليه العقل أيضًا؛ لأن من كمال المحبة والإيمان أن تحب ما يحبه من تحب وتكره ما يكرهه.

٨- **ومنها**: فضيلة الإيمان حيث يكون المؤمن دائمًا مع الله عز وجل في محبة ما يحب وكراهة ما يكره.

٩- **ومنها**: التحذير من الكِبْرِ وأنه سبب للطبع على القلب والعياذ بالله، لقوله ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾.

١٠- **ومنها**: التحذير من الجبروت والتعاظم على الغير والشدة عليه وما أشبه ذلك، لقوله ﴿كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؛ إذن في الآية التحذير من الكبر والجبروت.

١١- **ومنها**: الرد على من قال: الكمال أن تتصف بصفات الكامل يعنون الله، ولا أكمل من الله،

نقول: هذه قاعدة من أفضل القواعد، ولا يمكن للإنسان أن يجاري الله في أوصافه، فالتكبر والجبروت والتعالي والتعاظم بالنسبة لله صفة كمال، وبالنسبة لنا صفة نقص، ولهذا بطلت هذه القاعدة التي لا أساس لها من الصحة حتى إن بعضهم وضع حديث قال: «تخلقوا بأخلاق الله»، هل نسمي أوصاف الله أخلاقًا؟ أبدًا لا نسميها؛ لأن كلمة أخلاق قد تدل على خلق كسبي، فالأخلاق نوعان: غريزي وكسبي لا إشكال في هذا، ولهذا لما قال الرسول ﷺ: يا أشد بن عبد القيس: «إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة»، قال: يا رسول الله أخلقان تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ قال: «بل جبلك الله عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب[1]، أو كلمة نحوها، فالأخلاق كسبي وغريزي ولا يمكن أن نسمي أوصاف الله تعالى أخلاقًا له، بل نقول أوصاف وصفات وما أشبه ذلك.

على أن من العلماء من أنكر أن تقول باللفظ، مثل ابن حزم رحمه الله فقد قال: إياك أن تقول باللفظ الله ما له صفة، أسماء لا بأس، صفة لا، لكنه محجوب بقول الرجل الذي كان يقرأ: قل هو الله أحد قال إنها صفة الرحمن وأحب أن أقرأها فعلى كل حال نحن نقول: إن هذه الآية تدل دلالة واضحة على كذب هذه القاعدة التي قعَّدها من قعدها من الناس، ونحن نقول لكل مؤمن تخلق بأخلاق النبي ﷺ لأن نبينا ﷺ لنا أسوة، ثم نرجع إلى المفسر يقول [بتنوين القلب ودونه ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه وبالعكس] وقوله [وبالعكس] فيها نظر، لأنه يقتضي أن يتكبر صاحب القلب قبل القلب، لأنك إذا عكست العبارة: متى تكبر القلب تكبر صاحبه، متى تكبر صاحب القلب تكبر القلب، هل هذا صحيح؟ لا لكن مراده رحمه الله أن تكبر القلب وتكبر النفس متلازمان إن تكبر القلب تكبرت النفس وإن تكبرت النفس كان ذلك دليلا على أن القلب متكبر، طيب وكل على القراءتين في عموم الضلال جميع القلب لا لعموم القلب.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود والشطر الأول من الحديث في مسلم (٢٥/ ١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ فرعون هو ملك مصر قيل: إنه اسم شخص أو علم شخص، وقيل إنه علم الجنس، فإذا قلنا: إنه علم شخص صار اسمًا لشخص معين، وإذا قلنا إنه علم جنس صار اسمًا لكل من ملك مصر كافرًا، وهذا هو الذي عليه الأكثر، لكن فرعون موسى علم شخص وعلم جنس أيضا، قال فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ هامان وزيره.

وقوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني: مر من يبني لي ذلك، لأنه من المعلوم أن الوزير لن يباشر بناء الصرح، ﴿صَرْحًا﴾ قال المفسر [بناء عاليًا] يعني رفيعا ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ لعل هنا للتعليل وهي تأتي للتعليل تارة، وللإشفاق تارة، وللترجي تارة، فمن مجيئها للتعليل هذه الآية، وقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾هذه للتعليل، وكلما جاءت لعل في حق الله عز وجل فإنها للتعليل؛ لأن الرب عز وجل لا يترجى إذ إن كل شيء عليه هين، وتأتي للإشفاق مثل أن تقول: لعل الحبيب هالك، يعني: أخشى أن يكون هالك، وتأتي للترجي مثل حضرت إلى الدرس فلعلي أفهم فلعلي أفهم، لو قلت لعلي أفهم لاحتمل أن تكون للتعليل، فإذا قلت فلعلي صارت للترجي، وتكون أيضًا للتوقع كما لو قلت لشخص تخاطبه: لعلك فاعل، وهذه المعاني التي تأتي للحروف بل وللأسماء أيضًا وللأفعال إذا كانت متعددة، فالذي يعينها السياق وقرائن الأحوال.

قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأسباب: جمع سبب وهو كل ما يوصل إلى المقصود، فالسبب وسيلة، والمسبَب غاية، فما هي الأسباب هنا؟ بينها بقوله: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فأسباب السموات محلها مما قبلها عطف بيان تبين الإبهام الموجود في الأسباب.

فإن قال قائل: لماذا لم يقع الكلام مبينًا من أول الخطاب فيقال: لعلي أبلغ أسباب السماوات؟

قلنا: إن الإبهام أولًا ثم التفصيل والبيان ثانيًا أوقع في النفس، لأن الشيء إذا جاء مبهمًا ثم بين صار البيان وقع عند تشوف النفس لمعرفة هذا المبهم، يعني: لو جاء الكلام مبينًا من أول الأمر لكان سهلًا على النفوس لكن إذا جاء أولًا مبهما تشوفت النفس لمعرفة هذا المبهم ثم جاء البيان والنفس مستعدة لقبوله متشوفة إلى الوصول إليه.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المفسر [طرقها الموصلة إليها﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرفع عطفًا على أبلغ وبالنصب جوابًا لـ ﴿ٱبْنِ﴾]، يعني أن فيها قراءتين سبعيتين، (فأطلعُ) (فأطلعَ)، أما على قراءة الرفع فإنها معطوفة على ﴿أَبْلُغُ﴾ يعني لعلي أبلغ الأسباب، فلعلي أطلع، وأما على قراءة النصب فإنها وقعت جوابا لـ ﴿ٱبْنِ﴾ ابن فعل أمر وفعل الأمر يقع جوابه إذا كان مقرونا بالفاء بالنصب فأطلعَ، فتكون الفاء هنا للسببية.

واعلم أن القراءتين الواردتين في القرآن الكريم هما أحد الحروف السبعة التي نزل القرآن عليها، فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف ولما كان في زمن عثمان رضي الله عنه أمر أن يُجعل القرآن على حرف واحد وهو حرف قريش، يعني: لغتها، فهذه القراءات الموجودة ليست هي الأحرف السبعة، بل هي على حرف واحد، هذا واحد.

الثاني: اعلم أن القراءتين كلتاهما صحت عن النبي ﷺ؛ لأنها نقلت بالتواتر.

ثالثا: اعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ بين العامة بقراءة تخالف ما في أيديهم من المصاحف، لأن ذلك يوجب التشويش والارتباك واتهام القارئ وربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم؛ بسبب هذا الاختلاف، أما فيما بينك وبين نفسك، فالأفضل أن تقرأ بهذا تارة وبهذا تارة بشرط أن تكون عالمًا غير متخبط، وإنما قلنا: إن هذا هو الأفضل لأن كلًّا من القراءتين قد قرأ به النبي ﷺ فيكون هذا مثل العبادات الواردة على وجوه متنوعة، كالافتتاحات والتشهد وما أشبه ذلك، لكن هذا بينك وبين نفسك، أو في مقام التعليم إذا كنت تعلم طلبة.

وقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يعني: أَصِلُ إليه وأنظر هل هذا حق أو غير حق، ثم استدرك خوفًا من أن يقول أحدًا من جنوده إنه حق، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ [أي: موسى] ﴿كَٰذِبًا﴾ [في أن له إلهًا غيري] قال هذا تمويهًا على أصحابه، وخوفًا من أن يقع في نفوسهم شيءٌ حين أمر وزيره أن يبني صرحًا، وفرعون في هذه المقالة كاذب، هو لا يظن أن موسى كاذب؛ بل يعلم أنه صادق، لقول الله تبارك وتعالى عن موسى أنه قال له - أي: لفرعون -: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] قال هذا مُؤكِّدًا إياه بالقسم، واللام، وقد، ويُخاطب هذا الرجل القادر على إنكار موسى ما قاله موسى لو كان كذبًا، قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ فرعون هل له مانع يمنعه أن يقول: لم أعلم؟ لا يمنعه مانع، هو قادر، لكنه يعلم أنه ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] هذه مفعول من أجله لـ ﴿وَجَحَدُواْ﴾ وليس لـ (استيقن)، فالمهم: أن قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ هذه الجملة كذِب، يقول ذلك وهو كاذب، ويعلم أنه صادق، لكنه قال ذلك تمويهًا لقومه، وخوفًا من أن يقع في قلوبهم شيءٌ من الشك.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: مثل هذا الفعل، أو مثل هذا التزيين؛ أيها الذي على القاعدة؟ الثاني؛ لأننا قلنا: إن (كذلك) تكون مفعولًا مطلقًا للفعل الذي بعدها؛ أي: مثل هذا التزيين الذي زُيِّن لفرعون، وهذا التمويه والترويج لقومه زُيِّن لفرعون سوء عمله، ومن الذي زيَّنه؟ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وقد يقال: والله عز وجل؛ لأن الله يُضِلُّ من يشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فالله

تعالى زيَّنه قَدَرًا؛ بمعنى: أنه حجب عنه الهدى، ثم زيَّن له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء أن يعمل هذا العمل.

وقوله: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ السبيل هنا فيها (ال) التي للعهد؛ أيُّ العهود الثلاثة: الذِّكري، أو الحضوري، أو الذهني؟ الذهني ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ الذي هو سبيل الهدى، ولهذا قال المؤلف: [طريق الهدى] وفيها قراءتان ﴿وَصُدَّ﴾ [بفتح الصاد وضمِّها] ﴿وَصُدَّ﴾ هذه بضمِّ الصاد على أنها مبنية لما لم يُسمَّ فاعله، (صَدَّ) بفتح الصاد على أنها مبنية لما سُمِّي فاعله، ولكن هل هي مُتعدِّية أو لازمة؟ هل معناه: أنه صَدَّ بنفسه، أو صَدَّ غيره؟ تشمل المعنيين؛ لأنها لفظ مُشترك صارفٌ للمعنيين جميعًا، والقاعدة في التفسير: أن كل لفظٍ يصلح لمعنيين لا يتنافيان فإنه يُحمَل عليهما جميعًا إلا إذا كان في أحدهما ما يُرجِّحه، فيُعمَل بما ترجَّح.

وقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ الكيد، والمكر، والخِداع، وما أشبهها كلها كلمات متقاربة، ومعناها: أن يتوصَّل الإنسان بالأسباب الخفية إلى مقصوده بخصمه، كل إنسان يقصد من خصمه أن يكون مغلوبًا، فيتوصَّل إلى هذا بأسبابٍ خفية لا يعلم بها الخصم إلى الوصول إلى هذا، فرعون كاد كيدًا في أن يقول لهامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ من أجل أن يرقى على هذا الصرح، فإذا وصل غايته نظر أمام الناس ثم نزل وقال: لم أجد ربَّ موسى، وهذا تمويه، لاسيَّما على عامةٍ كآل فرعون الذين قد بهرهم هذا الظالم الطاغية، فكل شيء يكون عندهم حقيقة، لكن هل هذا الكيد ينفعه؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: إلا في خَسار، ما هنا حجازية أو تميمية؟ حجازية مهملة؛ يعني: أنها لا تعمل، ما الذي أبطل عملها؟ الإثبات، وابن مالك يقول:

إعمال ليس أُعمِلَت ما دون إنْ مع بقا النفي ترتيب زكن

والنفي هنا لم يبقَ، فعلى هذا نقول: هي مُهمَلة لبُطلان النفي وانتفائه بـ (إلَّا).

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** استعلاء فرعون وترفُّعه، وذلك بتوجيه الأمر إلى وزيره أن يبني له صرحًا، وتأمَّل قوله: ﴿ٱبْنِ لِي﴾ ولم يقل: ابنِ؛ لأن هذا أعظم في الترفُّع والتعاظُم؛ إذ لو قال: ابنِ لكان لأي أحدٍ يبني، فيه إبهام، لكن إذا قال: لِي إلا هذا على أنه استخدم هذا الرجل الذي هو الوزير استخدامًا تامًّا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن اتخاذ الوزراء كان عُرْفًا قديمًا، سواء كان وزيرًا في الخير، أو وزيرًا في الشر، فمن وزراء الخير قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩- ٣٠]، وقول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأله زعماء الشيعة - وهم الرافضة - عن أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، فترحَّمَ عليهما

وقال في الثناء عليهما: هما وزيرا جدِّي؛ يعني: النبي ﷺ، فرفضوه؛ لأنهم قد زُيِّن لهم سوء عملهم بأن كل من أحبَّ أبا بكر وعمر فقد أبغض عليًّا، وعلى هذا يكون النبي ﷺ مُبغِضًا لعلي؛ لأنه سُئِل: أيُّ الرجال أحبُّ إليك؟ قال: «أَبُو بَكْرٍ» فعلى قاعدتهم يكون الرسول ﷺ مُبغِضًا لعليٍّ، فانظر كيف كان عاقبة هذه القاعدة الباطلة الفاسدة؟

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: جواز نسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعله، لقوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ وهو لا يريد أن هامان يتولَّى البناء بنفسه؛ بل يأمر؛ لأنه وزير.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات علوِّ الله تعالى العلو الذاتي في الشرائع السابقة، من قوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهذا يدل على أن موسى ﷺ قد أبلَغَهم بأن الله في السماء، وهذا – أعني: علو الله الذاتي – أمرٌ لا يُنكَر؛ لأنه دلَّت عليه جميع الدلائل: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كلها دلَّت على علو الله عز وجل العلو الذاتي، وأنه سبحانه وتعالى في السماء، وأنه لا يمكن أن يكون في الأرض، ونحن نُركِّز على هذه النقطة لأهميتها؛ لأنها تتعلَّق بالعقيدة.

أما القرآن أكسب الأدلة المتنوعة الدالة دلالةً قاطعة على علو الله الذاتي، وكذلك السنة دلَّت على ذلك قولًا وفعلًا وإقرارًا، فالنبي ﷺ أثبت علوَّ الله الذاتي بقوله، وبفعله، وبإقراره.

أما بقوله، فإنه عليه الصلاة والسلام يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»، وأما بفعله، فأشار إلى علو الله تعالى في الوقوف بعرفة حين خطب الناس، وقال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، وأما الإقرار، فبإقراره الجارية التي قالت: في السماء لما سألها: «أَيْنَ اللهُ؟».

وأما الإجماع فقد أجمع السلف على ذلك، ما منهم أحد قال: إن الله ليس في السماء، وما منهم أحد قال: إن الله في الأرض، وما منهم أحد قال: إن الله لا يُوصَف بعلوٍّ ولا سُفُول، ولا مُحايَدة ولا مُجانبة؛ يعني: ما منهم أحد قال: إن الله ليس فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصل بالخلق ولا منفصل، كما قاله المُعطِّلة.

فإذا قال قائل: نُسلِّم أنه لم يرِد عنهم النفي، فما هو دليل الإثبات؟ نقول: دليل ذلك: أن كل نصٍّ في القرآن والسنة لم يأتِ عن الصحابة خلافُه فإننا نعلم علم اليقين أنهم يقولون به؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ويعرفونه، فإذا خُوطِبوا بهذا، ولم يرِد عنهم خلافُه دلَّ ذلك على أنهم قائلون به، وهذه نقطة مهمة تنفعك عند المناظرة مع خصومك، إذا قال لك: أين قال الصحابة: إن الله في علو؟ تقول: قال الصحابة ذلك؛ لأن كل نصٍّ جاء بإثبات العلو ولم يرِد عن الصحابة خلافُه فإنهم قائلون به قطعًا؛ لأنه نزل بلغتهم، وعرفوه، وفهموه على ما أراد الله عز وجل.

وأما العقل: فلو سألت أي إنسان: هل العلو صفة كمال، أو النزول؟ لقال لك: العلو، ولو

قلت: العلو صفةٌ أكمل، أو المُحاذاة؟ قال لك: العلو، إذن فالعلو دلَّ العقل على ثبوته لله عز وجل.

وأما الفطرة: فلا تسأل، اسأل عجوزًا من العجائز لم تقرأ في كلام المُتكلِّمين المُعطِّلين ماذا تقول لك؟ إذا سألت: أين الله؟ قالت: في السماء، ولا تعرف إلا ذلك، والعجب أن نفس القائلين بالنفي إذا دعوا الله عز وجل رفعوا أيديهم إلى السماء، وهذا شيءٌ مُسلَّم، وادِّعاؤهم أنهم يقولون: إن السماء قبلة الداعي كما أن الكعبة قبلة المُصلِّي، نقول: إذن أنتم تدعون السماء، فوقعتم في الشرك من حيث لا تعلمون، وعلى كل حال؛ الحمد لله أن علو الله عز وجل أمرٌ فِطريٌّ لا يحتاج إلى تعلُّم ولا تكلُّف، ومع ذلك جميع الأدلة دلَّت عليه، ثم يأتي أقوام - أعمى الله تعالى بصائرهم - فيقولون: إن الله تعالى ليس في العلو، فماذا يقولون؟ منهم من يقول: إن الله في كل مكان، وهؤلاء: حُلولية الجهمية، إن الله في كل مكان، في المساجد، في الأسواق، في البيوت، في الجو، في السماء، في - والعياذ بالله - المراحيض، في كل مكان، وهذا باطلٌ كما تُبطِل الشمس ظلمة الليل؛ لأنه يلزم منه واحد من أمرين ولابد: إما أن يكون الله متعدِّدًا، وإما أن يكون الله مُتجزِّئًا بعضه هنا وبعضه هناك، أو مُتعدِّدًا واحد هنا وواحد هناك، هذا بقطع النظر عما يلزم عليهم من اللوازم الفاسدة التي تُوجِب أن الله في أقذر الأمكنة وأنتن الأمكنة.

والقول الثاني لمن يُنكِرون علو الله الذاتي يقولون: لا نقول: إن الله فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنهم، أين هو؟ عدم، قال بعض العلماء: لو قيل: صِفوا لنا العدم لم نجد وصفًا أشمل من هذا، فحقيقة الأمر أنهم لا يعبدون الله وأنهم ليس لهم إله إطلاقًا.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من بلاغة المتكلم أن يسلك أقرب الطرق إلى جذب المُخاطَب؛ ومنها: الإبهام، ثم البيان، لقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا كثير في القرآن، وفي كلام البشر.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن السماوات جمع وعدد، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي سبعٌ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وهذا متفقٌ عليه، وهل السماوات هذه مُتراصَّة، أو بينها فجوات؟ الجواب: الثاني، ويدل على ذلك دلالةً قاطعة: حديثُ المعراج، فإن النبي ﷺ كان يعرُج من سماءٍ إلى سماء.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن رؤساء الضلال وأئمة الضلال يدعون الناس إلى الضلال بكل ما يستطيعون، ويحاولون أن يحولوا بينهم وبين الحق، لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾، فلا تغترَّ برؤساء الضلال وأئمة الضلال، وما يقولون من التمويه والدجل، وليس

هذا مقصورًا على الأئمة الذين هم السلطة؛ بل حتى على أئمة الدعوة الذين يدعون الناس إلى أفكارهم الهدَّامة، وأخلاقهم السافلة، تجد عندهم من التمويه والتضليل ما يُوجِب أن يكون فخًا يقع به من ليس له بصيرة.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله عز وجل يبتلي العبد، فيُزيِّن له سوء عمله، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، ويدل لهذا: قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فاحرص على الانتباه لهذه المسألة، فإن الإنسان قد يُزيَّن له سوء العمل، والتزيين نوعان: النوع الأول: أن يرى الإنسان هذا السيِّئ حسنًا، وهذا أعظم النوعين، النوع الثاني: ألَّا يراه سيئًا، فيميل إليه بهواه، ويقول: هذا سهل، وليس فيه شيءٌ، هذا من التزيين في الواقع؛ لأن من لا يرى السيئ سيئًا فإنه سيقع فيه إما رغبةً فيه؛ لأنه زُيِّن له، وإما لهوًى في نفسه؛ لأنه لا يراه سيئًا.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن فرعون يصُدُّ الناس عن سبيل الله، فهو من أئمة الصدِّ عن سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، فاحذر هؤلاء الأئمة لا يخدعوك، فإنهم يكيدون كيدًا، والله تعالى يكيد كيدًا لعبده المؤمن.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن فرعون أمر ببناء هذا الصرح مُكايدةً لا حقيقة، وإلا فمن المعلوم أنه سوف يخسر نفقات كثيرة على هذا الصرح العالي، لكنه لغرضه وهواه لا يهتم بذلك.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن كيد المُضِلِّين - والحمد لله - في خَسار، كل مُضِلٍّ فكيدُه في خَسار؛ لأنه إذا كان كيد هذا الطاغية في خَسار فمن دونه من باب أولَى ولا شك، ولهذا حصر كيده في الخَسار، ما هو إلا في خَسار، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥- ١٦] أي: كيدًا أعظم من كيدهم، وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢] وهذه من أعظم الآيات التي تفرِح المؤمن: أن كيد الكافر يجعله فهو المَكيد، وجاءت الآية بالجملة الاسمية ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ وبضمير الفصل إشارة إلى ثبوت ذلك عليهم، وتأكُّده، إلى ثبوته بكونه جاء بالجملة الاسمية؛ لأن الجملة الاسمية - كما يقول أهل العلم - تُفيد الثبوت والاستقرار، وجاء بالحصر عن طريق ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، وهذه الآيات - والحمد لله - تفرِح المؤمن، وهذا وعد الله عز وجل وهو لا يُخلِف الميعاد، لكنه يحتاج إلى سبب، أن يكون من المؤمن عملٌ مُضاد، وأن المؤمن إذا عمِل العمل المُضاد لكيد الكافرين يثِق بوعد الله، ويقول: إن هذا الكيد سيكون عليهم وهم في خَسارةٍ منه، أما أن يقول:

إن الله يكيد لهم وهم المكيدون، ولكننا ننام على فُرُشنا وندَعُ السِّباع تأكل غنمنا، فهذا غير صحيح، لابد من عمل ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]

التفسير

في أول هذه الآيات يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهنا وما قبلها يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ تحقيقًا لإيمانه وأنه مؤمن حقًّا.

وقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ﴿يَا قَوْمِ﴾ سبق الكلام على إعرابها، وبيَّنَّا أنها منادى منصوبة مُقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركةٍ مناسبة.

وقوله: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ [بإثبات الياء وحذفها] يعني: أنها قراءتان: اتَّبعوني، واتَّبِعُونِ، ما على وجود الياء فالأمر ظاهر؛ لأنها ياء المتكلم، وأما على حذفها فهي محذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ فعل أمر، و﴿أَهْدِكُمْ﴾ جواب فعل الأمر، ولهذا وقع مجزومًا بحذف الياء والكسرة دليلٌ عليها، وأصل ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أهدِيكم، لكن الفعل المضارع إذا وقع جوابًا لأمر فإنه يكون مجزومًا، قيل: إنه مجزوم به، وقيل: إنه مجزوم بشرط مُقدَّر، والتقدير: إن تتبعونِ أهدِكم، وهكذا يقال لكل ما جاء على هذا التركيب.

وقوله: ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: طريقه، والهداية هنا هداية الدلالة؛ لأنه لا يمكن أن يُراد بها هداية التوفيق؛ إذ إن هداية التوفيق تكون بيد الله عز وجل، لقوله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أي: لا تهدي هداية التوفيق، فقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني: أدُلُّكم على سبيل الرشاد، سبيل الرشاد ضد سبيل الغيِّ، والرشاد هو: حسن التصرُّف، والغيُّ هو: ارتكاب الخطأ عن عمد.

وقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لما رغَّبهم في اتباعه زهَّدَهم في الدنيا؛ لأن أصل ضلال بني آدم هو: الطمع في الدنيا، والتنافس إنما يكون عليها، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»، فهو لما طلب أن يتَّبعوه بيَّن لهم حال الدنيا التي يُنافِسون فيها، والتي صدُّوا عن سبيل الله بها، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ إنما

أداة حصر، و﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مبتدأ، و﴿مَتَٰعٌ﴾ خبره؛ أي: ما هذه الدنيا إلا متاع يتمتَّع به الإنسان قليلًا ثم يزول، ولهذا يقول المؤلف: ﴿مَتَٰعٌ﴾ [تمتُّعٌ يزول] ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ الآخرة ما بعد الدنيا هي دار القرار، (هي) ضمير فصل، و﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ خبر إنَّ، واعلم أن ضمير الفصل ضميرٌ لا محل له من الإعراب، لا يُعرب مبتدأ ولا خبرًا ولا أي شيء، واعلم أيضًا أن له ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: التوكيد، والفائدة الثانية: الحصر، والفائدة الثالثة: تمييز الخبر من الصفة، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، فهو ضمير فصل استفدنا منه ثلاث فوائد: أولًا: التوكيد؛ حيث أكَّدنا أن زيدًا فاضل، ثم الحصر؛ لأنك قلت: زيدٌ هو؛ أي: لا غيره، الثالثة: التمييز بين الصفة والخبر، فإنك لو قلت: زيدٌ الفاضل لاحتمل أن يكون الفاضل صفةً لزيد، وأن الخبر لم يأتِ بعد، فإذا قلت: هو الفاضل تعيَّن أن تكون الفاضل خبرًا، فبذلك يحصُل التمييز بين الخبر وبين الصفة، ذكرنا أنه لا محل له من الإعراب، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] فهنا جاءت الغالبين خبرًا لكان، ولو كان له محل من الإعراب لكانت إن كانوا هم الغالبون، لكنه ليس له محل من الإعراب، إذن ما هي دار القرار؟ هي الدار الآخرة، وأُكِّد ذلك بضمير الفصل.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: دار المستقر، ولهذا يُؤتَى بالموت على صورة كبشٍ فيُوقَف بين الجنة والنار، ويُقال: يا أهل النار! فيشرئبُّون ويطَّلِعون، وكذلك يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون ويطَّلِعون، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيُذبَح أمامهم، ويقال: يا أهل الجنة! خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار! خلودٌ ولا موت، إذن هذا القرار، ما دام ليس فيه انتقال عن هذه الدار فهي دار القرار، إذا كانت هي دار القرار والدنيا متاع، فما الأولَى أن يُعمَل له؟ الآخرة؛ لأنها دار القرار، أما هذه فهي دار ثُبور، دار متاع «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أو عَابِرُ سَبِيلٍ».

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا كالبيان لحال الآخرة وكيف يُجازَى الناس فيها، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ مَن شرطية، و﴿عَمِلَ﴾ فعل الشرط، وجملة ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ هذه جواب الشرط، وقوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (مثل): مفعول يُجزَى الثاني، والمفعول الأول هو نائب الفاعل المُستتر، يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ فما هي السيئة؟ السيئة: ما يسوء حالًا أو مآلًا، فما أصاب الإنسان من مرض، أو فقر، أو عاهة، أو ما أشبه ذلك هذا سوء لكنه في الحال، وما أصاب الإنسان من عقوبة على أعماله فهذا سوء ولكنه في المآل، وقد يكون في الحال، قد يُعاجَل الإنسان بالعقوبة.

وقوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ السيئة بواحدة مهما كانت، حتى وإن كان الإنسان في مكة، أو

في المدينة، أو في المسجد، أو في أي مكان، أو في أي زمان، حتى ولو كان في الأشهر الحُرُم التي نصَّ الله تعالى على النهي عن الظلم فيها، فقال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن السيئة لا تُضاعَف، ولكن اعلموا أنها قد تكون أشد من حيث الكيفية لا من حيث الكمية؛ يعني: أننا نرى أن ضربةً واحدة قد تكون أشد على الإنسان من عشر ضربات لشدتها وشدة وقعها، ولهذا قال الله تعالى في الحرم المكي: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وبهذا التقرير الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة تبيَّن أن ما يُذكَر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خرج من مكة وقال: لا أبقى في بلدٍ سيئاته وحسناتُه سواء فإن هذا لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، وابن عباس أفقه وأعلم من أن يلتبس عليه هذا الأمر، مع أن الله قال في سورة الأنعام - وهي مكية -: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مَن هذه شرطية، و﴿صَٰلِحًا﴾ يجوز أن نُعرِبَها صفةً لموصوفٍ محذوف، والتقدير: عملٌ صالح، ويجوز أن نجعلها مفعولًا مطلقًا؛ لأن وصف المصدر المحذوف يصح أن يقع الإعراب عليه على أنه مفعول مطلق، أو على أنه صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملًا صالحًا، فما هو العمل الصالح؟ العمل الصالح: ما توافَرَت فيه شروط القبول، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسله، سواء محمد أو غيره، لكن من المعلوم أنه بعد بعثة محمد ﷺ لا يصح اتباع غيره، إذا فُقِد الإخلاص فليس العمل صالحًا؛ بل هو مردودٌ على صاحبه، لقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، وإذا فُقِدَت المتابعة لم يكن العمل صالحًا وكان مردودًا، لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لَمن، فمِنْ هنا بيانية، كيف نقول: بيانٌ لَمنْ؟ لأن مَن اسم موصول، والاسم الموصول الأصل فيه الإبهام، فإذا وُجِد بعده بيان فإنه يكون مُبيِّنًا لإبهام، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا الشرط لابد أن يكون مؤمنًا، فإن لم يكن مؤمنًا فإن عمله الصالح لا ينفعه، حتى وإن كان العمل مما يتعدَّى نفعه فإنه لا ينفعه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] فغير المؤمن لا ينفعه عمله، لو أن رجلًا كافرًا أصلح الطرق، ومدَّ أنابيب الماء، يسقي الناس، وبنى المساجد، وطبع الكتب، وكسى العريان، وأطعم الجائع، فهل هذا ينفعه؟ لا، ولهذا لا ينفع المنافقين عملهم؛ لأنهم ليسوا مؤمنين، وبه نعرف أن الإيمان هو الأصل، آمِن ثم اعمل، أما العمل بدون إيمان - نسأل الله أن لا يخلع عنا وعنكم الإيمان - هباء ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، لابد من الإيمان أولًا

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ثم إذا آمنت اعمل وإذا عملت فأخلص واتبع.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، جملة فأولئك جواب الشرط أي شرط هو ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ فأولئك يدخلون الجنة وهنا قال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ باسم الإشارة الموضوع للبعيد إشارة إلى علو مرتبتهم كأنك تشير إليهم وهم فوق ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ قال: [بضم الياء وفتح الخاء وبالعكس] وما العكس يدخلون فيجوز ﴿يُدخَلون﴾ أي: يدخلهم الله ويجوز ﴿يَدْخُلُونَ﴾ أي: هم بأنفسهم لكن بإذن الله ومن المعلوم أن أهل الجنة لا يدخلون الجنة إلا بعد الشفاعة، بعد شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في فتح الجنة؛ لأنهم يصلون إليها وبابها مغلق، فيطلبون من يشفع لهم إلى الله عز وجل أن يفتح لهم الباب فيشفع النبي ﷺ وحده في أن يفتح لهم الباب فيفتح.

وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الرزق بمعنى العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أعطوهم فمعنى يرزقون؛ إذن يعطون.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تابعة يعني لا يحاسبوه عليه ولا ينقضون له ثمنًا في الدنيا لا تملك رزقًا إلا بثمن لكن في الآخرة تعطى الرزق بغير ثمن وبغير تابعة لا تحاسب عليه لماذا؟ لأن الثمن كان مقدمًا ثمن هذا الرزق كان مقدم سلم تعرفون السلم؟ نقض الثمن وتأخير المثمن فهنا الثمن مقدم في الثمن كان في الدنيا حين عملوا بطاعة الله فكان هذا هو العوض، فالقوم قد أسلموا في هذا المبيع وقدموا ثمنه ولهذا قال ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾:

١ - **في فوائد الآية الأولى:** أولًا تلطف هذا الداعي هذا الرجل المؤمن الذي يدعو إلى الله لقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾، فإن هذا لا شك من أساليب التلطف.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** قوة جأش هذا المؤمن حيث كان رجلًا واثقًا يقول لهؤلاء الجماعة: (اتبعوني) وهذا كما قلنا في التفسير فعل أمر.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي للداعية إذا دعا إلى شيء أن يبين ما يكون به الترغيب - أي ترغيب المدعو - حتى ينشط ويفعل؛ لقوله: ﴿أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى كذب فرعون حين قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ففرق بين قول فرعون وقول هذا المؤمن؛ قول فرعون كذب وقول هذا الرجل حق لا شك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن السبل تختلف سبل ضلال وسبل غي وسبل رشاد فالسبيل الموصل إلى الله هذا سبيل الرشاد والسبل المتفرقة هذه سبل ضلال قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

٦ - **ومن فوائد الآية الثانية**: بيان حال الدنيا، وأنها متاع يتمتع بها الإنسان، ثم تزول إما بزوالها بالتمتع وإما بزوال المتمتع؛ ولهذا انظر مصارع الدنيا، هل أحد خلد. وهل فيها أحد خلد له ما بين يديه؟ كل ذلك لم يكن فالدنيا إما زائلة وإما أن يزال عنها، قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: انحصار الدنيا في هذه الكلمة القليلة، وهي (متاع) كل الدنيا متاع لا تتحمل أكثر من ذلك.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الاستعداد والرغبة في الآخرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ فاجتمع هذا إلى ما قبله صار متضمن لفائدتين وهما: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

ثم قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١ - **فيها من الفوائد**: أن عامل السيئة لا يزداد إثمًا على قدر السيئة؛ لقوله هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أنه في مقام التهديد ينبغي أن يُبدأ بما يدل على التهديد، قبل أن يبدأ بما يدل على الترغيب؛ لأنه هنا بدأ بالسيئة ثم عقب بالصالح، وانظر إلى قول الله تبارك وتعالى في مقام ذكر الأحكام الشرعية قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ولما أراد جل وعلا أن يتحدث عن نفسه ويبين كمال صفاته قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فلكل مقام مقال، فالإنسان ينبغي أن يرتب المعاني حسب ما تقتضيه الحاجة لا يلقي الحديث على عواتمه، وفضل الله يؤتيه من يشاء قد يريد هذا الشيء ويريد أن يرتب كلامه وأن يبنيه على ما تقتضيه الحاجة ولكن يخونه التعبير أي أن الإنسان إذا استعان بالله سبحانه وتعالى يسّر له الأمر.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان صالحًا ولا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحًا.

وذكرنا أن الصالح ما اجتمع فيه شروط القبول وهما الإخلاص والمتابعة، فبفقد الإخلاص يكون الإنسان مشركًا وبفقد المتابعة يكون الإنسان مبتدعًا؛ ولهذا لا يقبل العمل إلا الخالص الموافق للشرع ففي فقد الإخلاص يقع الإنسان في الشرك وبفقد المتابعة يقع الإنسان في البدعة وأيهما أشد؟

الأول وقد يكون الثاني حسب المخالفة، لكن الشرك من حيث هو أعظم من البدعة وقيل أن

البدعة أشد وأعظم لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والآية في التدريج من الأدنى إلى الأعلى، وصاحب البدعة يضر نفسه ويضر غيره؛ لأنه يكون إمامًا يدعو إلى مخالفة الرسل، والذي يظهر أن الشرك من حيث هو شرك أعظم، لكن قد يكون المترتب على البدعة أشد من المترتب على الشرك.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الذكور والإناث مشتركون في الثواب والعقاب بمعنى أن الله لا يعاقب الأنثى أكثر من عقوبة الرجل ولا الرجل أكثر من عقوبة الأنثى، وكذلك لا يجزي الرجل أكثر من جزاء الأنثى والأنثى أكثر من جزاء الرجل؛ لقوله في هذه الآية: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العمل الصالح لا ينفع إلا مبني على الإيمان لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، والجملة في موضع نصب على الحال يعني: والحال أنه مؤمن وبناءً على هذا نسأل هل عمل المنافق ينفعه؟ لا، لفقد الإيمان هو غير مؤمن، وهل الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره أو هو إيمان وراء ذلك كله؟ الجواب: الثاني، ومن جملة الإيمان الذي يجب أن تكون الأعمال الصالحة مبنية عليه أن تؤمن بالثواب على العمل؛ ولهذا إذا عمل الإنسان العمل الصالح وهو يرجو هذا الثواب لا شك أنه سيزداد رغبة في العمل، وسيزداد إحسانًا للعمل؛ لأنه يعرف أن السلعة على قدر الثمن، فإذا كنت تعمل وأنت تشعر بأنك ستُجازى على هذا العمل مجازاة تامة فسوف تحسن العمل لأجل أن يحسن لك الثواب والجزاء، وهذه مسألة مهمة يغفل عنها الإنسان كثيرًا أي: يغفل الإنسان كثيرًا عن كونه ينوي بذلك الثواب الذي أعده الله لعمال هذا العمل.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن رزق الجنة ليس فيه حساب يعني أنه لا يطلب من الإنسان عوض ولا يلحقه تابعة لقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣]

التفسير

ثم قال هذا الرجل الذي آمن: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾هذا استفهام تعجبي وإنكار كأنه يقول عجبًا لكم أدعوكم إلى الجنة وتدعونني إلى النار وهذا والله محل العجب، محل العجب أن تدعو رجل إلى الجنة وهو يدعوك إلى النار فتأتي إلى رجل وتقول: يا فلان أترك شرب الخمر شرب الخمر حرام ولا يجوز «من شربه في الدنيا لم يشربه في الآخرة» هي أم الخبائث مفتاح كل شر فيقول لك يا ولد لذة وطرب وأنس وسرور اشرب من أجل لأن ترى إذا شربت كأنك ملك الملوك ثم يراقبه ثم يقول له أيضًا يمنيه اشرب، وإذا شربت وحصل لك اللذة والطرب فاستغفر الله فالباب مفتوح، أيهم الأحق بالإجابة الأول أو الثاني؟ لا شك أنه الأول هذا يقول: ما أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، وهذه استفهام تعجب وإنكار وهو محل التعجب ومحل الإنكار أيضًا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾جملة وتدعونني إلى النار معطوفة على الجملة التي قبلها وليست استئنافية، ولا حالية كما قيل به، بل هي معطوفة على ما سبق؛ لأن التعجب إنما يكون من اجتماع الأمرين أنهم يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ يعني: إلى النجاة من النار ولم يقل إلى الجنة مع أنه قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لأنهم هم يدعونه إلى الهلاك يدعونه إلى النار فقابل دعوته بدعوتهم فكأنه يقول: أنا أدعوكم إلى النجاة من النار أنتم تدعونني إلى النار، والدعوة إلى النار ليس أن يقول القائل هلم إلى النار أيها الناس لكنها الدعوة إلى عمل أهل النار وليعلم أن النار قد حفت بالشهوات وأن الجنة حفت بالمكاره وأمل أهل النار مبني على الشهوات أو على الشبهات يعني: إما جهالات وضلالات كعمل النصارى وإما شهوات كعمل اليهود، وعلى هذين يدور عمل

أهل النار الشبهات والشهوات والشبهات دوائها العلم والشهوات دوائها الحزم والإرادة التامة لما يحبه الله ويرضاه ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

ثم بين بعد أن أجمل في قوله: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بين الأعمال التي يدعونه إليها فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ﴾ اللام هنا لبيان المدعو إليه يعني: تدعونني لهذا وعلى هذا ﴿لِأَكْفُرَ﴾ منصوبة بأن مضمرة بعد اللام على مذهب البصريين أو باللام على مذهب الكوفيين ﴿لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي أجحده وأنكره والمراد إنكار وحدانيته بدليل قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ وقد يقال أن المراد إنكار وجوده بالكلية أو الإشراك مع الإقرار به فيكونوا يدعونه إلى شيئين: إما إنكار الخالق عز وجل وهذا مستفاد من قوله: ﴿لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي: لأجحده أو أثبته مع وجود شريك له وهذا مما يستفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا قيد مبين للواقع وأن كل من أشرك بالله فإنه مشرك بلا علم بل بما يعلم بالفطرة خلافه ولكن من المعلوم أن الشيء إذا كان بلا علم فإنه لا ثبوت له ولا أصل، فالصلة في قوله ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؛ لبيان الواقع، وقد بينا أن كل قيد لبيان الواقع أو الغالب أو المبالغة فإنه لا مفهوم له ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ بدأ هنا باسم العزيز؛ لأن المقام يقتضيه إذ إن هؤلاء أقباط من آل فرعون يظنون أن العزة لهم فقال: أدعوكم إلى العزيز لم يقول إلى الغفور الرحيم بل قال: إلى العزيز الغفار لأن العزيز، العزيز الغالب فيهلككم إذا أنتم أشركتم به أو كفرتم به الغفار يغفر لكم ما سبق إذا أنتم آمنتم به، وهذا من تمام فقه هذا الرجل المؤمن.

فإنه قد يقول قائل: إن المقام يقتضي وأنا أدعوكم إلى الغفور الرحيم، لكن الأمر بالعكس المقام يقتضي ذكر اسمه العزيز؛ لأن هؤلاء يدَّعون أنهم فوق الناس وأن ربهم فرعون وأن لا غالب لهم.

وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله والغفار أسم من أسماء الله والغفور اسم من أسماء الله، وليعلم أن أسماء الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما كان مشتقًا من وجه متعدٍ فهذا لا يتم الإيمان به إلا من أمور ثلاثة: الأول: إثبات اسم لله والثاني: إثبات الصفة التي دل عليها والثالث: إثبات الحكم المترتب على هذه الصفة.

والقسم الثاني: غير متعدٍ ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات اثنين: إثبات اسم من أسماء الله وإثبات الصفة التي دل عليها، لأن كل اسم يدل على صفة، ليس لله اسم يكون جامدًا؛ خلاف لمن قال: إن كلمة (الله) اسم جامد غير مشتق وهذا ليس بصحيح ما من اسم من أسماء الله إلا وهو مشتق لأن الله وصف أسمائه بأنهم حسنى وما لا يتضمن الصفة ليس بحسن فضلًا على أن يكون

أحسن.

نضرب أمثلة لهذا: الحي من أي القسمين؟ من اللازم تؤمن به اسم من أسماء الله وبالحياة الدالة التي دل عليها الاسم، والسميع متعدي تؤمن بالسميع اسم لله وبالسمع صفة لله وبأنه يسمع إثبات للحكم وهو الأثر المترتب على هذه الصفة.

ثم اعلم أن الاسم يتضمن أحيانًا صفة وأحيانًا صفتين وأحيانًا أكثر؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة وتضمن والتزام فمثلًا من أسماء الله تعالى الخلّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ تؤمن بالخلاق اسمًا من أسماء الله، وتؤمن بصفة الخلق التي تضمنه اسم الخلاق، وإيمانك بالاسم والصفة هذا إيمانٌ بدلالة المطابقة وإيمانك بالاسم وحده أو بالصفة وحدها إيمانٌ بدلالة التضمن، ثم إيمانك بأنه عليمٌ قدير إيمانٌ بدلالة الالتزام؛ لأنه ما من خلاق إلا وهو عليم وما من خلّاق إلا وهو قادر؛ لأنه إن كان جاهلًا فكيف يخلق؟! وإن كان عاجزًا، فكيف يقدر فهذه فدلالة الخلّاق على العلم والقدرة دلالة التزام، وهذه الدلالة - أعني دلالة الالتزام - تتفاوت فيها الناس تفاوتًا كثيرًا، فمن الناس من يعطيه الله تعالى فهمًا يدرك به اللوازم التي تلزم على هذا الاسم، ومن الناس من هو دون ذلك، فتجد بعض الناس يستنبط فوائد عدة بدلالة اللزوم وآخر لا يقدر، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء؛ إذن العزيز لا يتم الإيمان به إلا بأن نعرف معناه أولًا العزيز بمعنى ذو العزة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، والعزة قالوا أنها ثلاثة أنواع عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، عزة القدر بمعنى أنه سبحانه وتعالى عزيزٌ قدرًا بحيث لا يكون مماثل له، وعزة الامتناع يعني أنه عز وجل عزيز أي يمتنع أن يناله السوء والعزيز يأتي بمعنى الامتناع في قوله: تعالى﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع والثالث عزة القهر بمعنى أنه الغالب ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالعزة يعني الغلبة، إذا كان العزيز بمعنى الغالب فهو من الأسماء، فعز أي غلب فهو غالب، ومقابله مغلوب، وإذا كان عز بمعنى امتنع أو بمعنى كان ذا قدر عظيم، فهو لازم.

إذن نقول العزيز من جهة يكون من الأسماء المتعدية متى؟ إذا كان في معنى الغالب من جهة أخرى تكون غير متعدية إذا كانت بمعنى الامتناع أو بمعنى القدر.

قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ هل الجواب مطابق لقولهم أو غير مطابق؟

المطابقة أن يقول: والله أعز والمؤمنون، لكن لم يذكر هذا بل قال: ولله العزة إشارة إلى أن المنافقين لا عزة لهم أصلًا؛ لأنه لو قال: الله أعز لأثبت للمنافقين عزة ولكنهم ليس لهم عزة حصر العزة لله ورسوله والمؤمنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه من بلاغات القرآن، وإذا

تأملت القرآن سبحان الله تبين لك أمور تبهرك في دلالاته وإشاراته وإيماءته، فسبحان الذي أنزله عز وجل.

والغفار اسم من أسماء الله وهل هو من أسماء الله المتعدية ؟المتعدية؛ لأن الله قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ إذن لابد أن نثبت الغفار اسمًا من أسماء الله ولابد أن نثبت الصفة وهي المغفرة وربك الغفور ذو الرحمة، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ونثبت أنه يغفر يوصل المغفرة من شاء أن الله هو العزيز الغفار.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وهو الكفر بالله والإشراك به ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ولا جرم أيضًا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال المفسر: [﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا] يعني أن معنى لا جرم حق، وعلى هذا فتكون لا زائدة وجرم بمعنى حقًا وهذا ما ذهب إليه المؤلف والمعربون اختلفوا فيها. والصواب في إعرابها أن لا نافية للجنس وجرم اسمها ومعنى جرم لا شك أو لابد هذا هو الصواب والتركيب واضح، ولا يحتاج أن يقدر أن لا زائدة وجرم بمعنى قطع وأن مصير الجملة إلى أن تكون مصدر لعامل محذوف يعني يحق حقًا أن ما تدعونني إليه إذا قلنا لا شك أن ما تدعونني إليه إلى آخره ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة انتهى الإشكال، وعلى هذا فإن جرم اسم لا وإنما وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر لا وانتهي الموضوع، والمعنى يقول: لا شك ولا ارتياب أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة.

وقوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ما مربوطة بأن، والظاهر وحسب القواعد المعروفة أن تكون مفصولة؛ لأن المعنى: لا جرم أن الذي تدعونني إليه وإذا كانت ما مفصولة فإنه تفصل عن إن كتابةً، لكن رسم المصحف تمشى فيه العلماء على الرسم العثماني؛ احترامًا للقرآن أن يغير؛ ولهذا الصلاة في المصحف مكتوبة بالواو والزكاة بالواو والربا بالواو و ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالتاء المفتوحة، كل هذا اتباعًا للرسم العثماني احترامًا لكتاب الله أن يدخله التغيير.

وقد اختلف العلماء هل يكتب القرآن حسب القواعد وفي كل وقت بحسبه أو على الرسم العثماني.

فقيل: إنه يجوز أن يكتب على القواعد في كل وقت بحسبه؛ لأن المقصود أن يتلى كتاب الله على حسب ما نزل لا على حسب ما كتب، والقرآن نزل مكتوبًا أو نزل مقروءًا؟ مقروءًا؛ إذن الكتابة ما هي إلا اصطلاحات بل تخضع لأعراف الناس.

والقول الثاني: أنه لا يجوز أن يغير أبدًا سدًا للباب ومنعًا لتغير حتى لا يجرؤ أحد أن يغير في كتاب الله عز وجل وهذا لا شك أنه يرمي إلى قوة احترامنا للقرآن الكريم والأول يرمي إلى قوة إيصال القرآن إلى الناس على وجه لا إشكال فيه.

والقول الثالث: أنك إن كتبته للدارسين المبتدئين فلا بأس أن تكتبه حسب القواعد المعروفة؛ لأن الدارسين المبتدئين لا يعرفون، وأما إذا كنت تريد أن تكتبه ليُقرأ فهذا يكتب على حسب الرسم العثماني والظاهر أن هذا القول مفصل، وأرجح الأقوال الثلاثة.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أن حرف توكيد ينصب المبتدأ ويرفع الخبر، وما اسمها ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ خبرها.

يقول: [أنها تدعونني إليه لأعبده]، ولكن هذا التفسير قاصر ما الذي دعوه إليه أن يكفر بالله ويشرك به فهم دعوة إلى أمرين، والمؤلف قصره على أمر واحد وهو عبادة غير الله وهذا إشراك، [﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي: ليس له استجابة دعوة] والصواب: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ يدعى بها ولا دعوة يجيبها فمعنى ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ يعني يستحق أن يُدعى، وهو أيضًا لا يستجيب إذا دعي كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] إلى آخر الآية ما يملكون من قطمير ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا﴾ فرضًا ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، زد على ذلك أنكم تريدون أن ينفعكم في الآخرة والأمر ليس كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هذا الذي تدعوه لا يمكن أن يستجيب لك إلى يوم القيامة أبدًا ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ هم يجوز أن يكون المدعون ويجوز أن يكون الداعون، والهاء في دعائهم يجوز عودها لهذا وهذا حسب الضمير السابق، وإذا حشر الناس وهو الوقت الذي يريد هؤلاء الداعون أن ينتفعوا بالمدعوين وإذا حشروا الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين؛ لأن الله يقول ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: المودة والمحبة التي كانت يظهرونها لهم في الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾.

على كل حال: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ المؤلف: يقول: [ليس له دعوة مستجابة] يعني: لا يستجيب الدعوة، والصواب: أن لها معنيين أنه لا يستجيب ولا يدعى، فهو لا يستحق أن يدعى ولو دعي لم يستجب.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ لا يستطيع هذا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ ذكرهم بالحساب رحمه الله وجزاه خيرًا، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ أي: مرجعنا إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة أم في الآخرة فقط؟ في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فالمرد إلى الله في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني: ولا جرم أيضًا أن المسرفين هم

أصحاب النار فهذه ثلاثة أشياء كلها جزم بها جزمًا: أولًا أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، والثاني: أن مردنا إلى الله والثالث: أن المسرفين هم أصحاب النار، المسرف اسم فاعل من الإسراف وهو تجاوز الحدود يقول كفرًا ويقول دون كفر، فالإنسان الذي يملأ بطنه من الطعام والشراب مسرف، لكنه ليس بكافر؛ لأن الله قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، وكذلك إسراف اللباس وغيره لا يؤدي إلى الكفر، لكن الإسراف في عبادة الله بأن تتجاوز عبادة الله إلى عبادة غيره هذا هو الكفر وهذا هو مراد هذا الرجل المؤمن في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (هم) ضمير فصل، وقد سبق لنا أن ضمير الفصل لا محل له من الإعراب، فلا يؤثر فيما قبله ولا يؤثر فيه ما قبله هذه واحدة، وقلنا: إن ضمير الفصل له فوائد وهي: التوكيد، والحصر، وتميز الخبر عن الصفة وضربنا لذلك مثلًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الأولى:** إنكار هذا الرجل المؤمن على قومه بما يشهد العقل بصحته حيث قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وإذا كان العقل يدل عليه على صحته فهو محل عجب، كل إنسان عاقل يعجب أن يكون هذا الشيء، رجل يدعو قومه إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** مراعاة الحال في الخطاب وجهه: أنه قال: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ مع أنه يدعوهم إلى الجنة، لكن لما كان دعوتهم إياه إلى الهلاك آثر أن يقول: إلى النجاة.

مسألة: هل يلزم من النجاة من النار دخول الجنة؟

الجواب: نعم يلزم وجه اللزوم: أنه ليس في الآخرة إلا إحدى الدارين إما الجنة أو النار ولذلك كان أصحاب الأعراف الذين يبقون بين الجنة والنار مآلهم إلى الجنة.

٣ - **ومن فوائد الآية الثانية:** أن كل مَنْ أشرك بالله أو أنكره أي: كفر به، فليس له علم في ذلك مهما كان، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة** أن الإشراك بالله كجحود الله، ويدل ذلك أيضًا قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة** تذكير هذا الرجل المؤمن هؤلاء بعزة الله ومغفرته؛ ترغيبًا وترهيبًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الترهيب في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والترغيب في قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾، والله أعلم.

مسألة: يقول ما ينقله الله عز وجل عن الأمم السابقة هل هو بالمعنى أو باللفظ؟

الجواب: بالمعنى لا شك أولا لأن لغة هؤلاء ليست لغة عربية، ولو كان باللفظ لكان كلام

البشر معجزًا؛ لأن الإعجاز يحصل بالآية والآيتين والثلاثة، وهذا الرجل المؤمن كم تكلم من آية؟! إذن لأن الله هو الذي ساقه بنفسه فنقله بالمعنى، هذا يوصلنا إلى شيء الحديث القدسي هل هو كلام الله أو معناه؟

الجواب: فيه خلاف؛ منهم من يقول: هو كلام تكلم الله به لفظًا، ومنهم من يقول تكلم به معنى والصياغة من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنهم من يقول قل قال الله ولا تقل قول ولا معنى ما دمت في عافية فاسلك طريق العافية، لكن أحيانًا يحرج الإنسان يقال: أعطني الفرق بين الحديث القدسي والقرآن؟ وأما إذا أمكنه السلامة فالسلامة خير لكن تأتيك بعض الناس تقول لك: أخبرني عن الفرق بين الحديث القدسي والقرآن فالفرق هو هذا أن الحديث القدسي ليس لفظ الله عز وجل لأنه لو كان لفظ الله لكان معجزًا ولثبت له أحكام القرآن بحيث لا يقرأه جنب ولا يمس إلا بطهارة ولا أحد يقدر على تحريفه وما أشبه ذلك وهذا كله منتفٍ.

فإذا قال قائل: أليس الرسول يقول قال الله؟

قلنا: بلى أليس الله يقول: قال موسى وما أشبه ذلك وهو بغير لغاتهم؟! هذا لا يمنع ثم لو قلنا أنه كلام الله باللفظ أشكل علينا إشكال عظيم، فإما أن يكون بواسطة جبريل أو بغير واسطة، فإن كان بغير واسطة كان أعلى سندًا من القرآن؛ لأن القرآن بواسطة جبريل، وإن كان بغير واسطة فأي إنسان يقول بغير واسطة فإننا ربما نخنقه أو نعطيه كفًّا على ظهره؛ لأنه إذا جعله بواسطة والرسول حذف الواسطة صار عندنا إشكال وهو التدليس، والرسول ﷺ منزه عن هذا.

فعلى كل حال: المسألة كما قلت لكم أحدهم يقول أنه كلام الله لفظًا ومعنى، والثاني يقول كلام الله معنًا لا لفظًا، والثالث يسكت ويقول: نقول قال الله ونسكت، وهذا إذا حصل للإنسان السلامة فهو أسلم لكن كما قلت لكم أحيانًا يقول: أعطني الفرق بين القرآن والحديث القدسي نقول: هذا الفرق هو أن القرآن كلام الله لفظًا ومعنى والحديث القدسي كلام الله معنى لا لفظًا.

فإن قال قائل: وحينئذ نطالبكم بالفرق الحديث النبوي والقدسي لأن الحديث النبوي كلام الرسول؟

نقول: هذا سهل الفرق بينهما أن الحديث النبوي لا يضيفه الرسول إلى الله، والحديث القدسي يضاف إلى الله انتهى الإشكال في هذه المسألة.

ثم اعلم أن هذه المقامات إذا حصلت السلامة فهي أسلم، ولكن إذا ابتلي الإنسان فلابد أن يفصل ومن ذلك، مثلًا لفظ الجسم معلوم أن جميع المعطلة بنوا تعطيلهم على مسألة الجسم حيث ادعوا أنه إذا أثبتوا الوجه أو اليد أو ما أشبه ذلك فإنه يقتضي أن يكون لله جسم حتى الاستواء يقول: إذا أثبتت أن الله استوى فإن الله جسم، ونحن نقول لهم: ما هذا الجسم الذي جعلتموه

دبوسًا معلقًا تخرقون به كل سياق لإثبات الصفات؟

إن إردتم أنه جسم مكون مخلوق يمكن انفصال بعضه عن بعض وبانفصال بعضه ينقص وربما يهلك فالله منزهٌ عن هذا لا شك، ومن اعتقد هذا في ربه فهو كافر، وإن أردتم بالجسم أنه ذو ذات يفعل ما يشاء ويتكلم ويجيء وينزل ويستوي ويتصف بصفاته اللائقة به فهذا حق أم باطل؟ حق، لكن من جهة إثبات لفظ الجسم أو نفيه هذا ممنوع، لا تقل إثباتًا أن الله جسم ولا نفيًا أن الله ليس بجسم؛ لأنه لم يوجد إثبات ولا نفي فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن يفهمها، فمثلًا إذا جادل الإنسان ويقول: ما تقول في الجسم؟

أقول: أما باعتبار لفظه فالواجب الكف عنه إثباتًا أو نفيًا، أما من جهة المعنى فله أن يستفصل.

٦ - **من فوائد الآية الثالثة**: أن كل ما يُدعى من دون الله، فليس له دعوة استحقاقًا ولا في الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٧ - **ومن فوائدها**: أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها سواء دعوها دعوة مسألة أو دعوة عبادة، والفرق بين دعوة المسألة: أن المسألة يطلب فيها الإنسان حاجة ما، ودعاء العبادة يتعبد لله، وإنما كانت العبادة دعاء لأن العابد يدعو بلسانِ حاله أن يثاب على هذه العبادة ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ فقال أدعوني، ثم قال: إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فدل هذا على أن الدعاء عبادة.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الرجوع إلى الله عز وجل، وأن مرد الأمور إليه؛ لقوله: ﴿وإن مردنا إلى الله﴾ و هذه الآية لها نظائر منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ومنها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة: أن مرجع الخلائق إلى ربها عز وجل.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحريم الإسراف؛ وجه الدلالة من الآية قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإسراف قد يصل إلى حد الكفر، يؤخذ من الآية في قوله:﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ومتى وجدت أصحاب النار فهم الذين هم أهلها والذين هم مخلدون فيها.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: قوة إيمان هذا الرجل تأخذ هذا من قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها**: استعمال التعريض؛ لأنه لاشك أنه أول ما يدخل في هذه الجملة هؤلاء،

لكنه لم يشأ أن يتكلم بهذه الطريقة.

مسألة: هل يمكن أن نقول في هذه الآية إظهار في موضع الإضمار؟

الجواب: من الممكن أن نقول و من الممكن أن نقول هذه تورية وعلى كل حال فالإظهار في موضع الإضمار من أساليب اللغة العربية وهو كثير في القرآن، وله فوائد منها: إرادة العموم يعني: يعم الحكم من استعمل في حقه ومن لم يستعمل، ومنها بيان العلة التعليل؛ لأنه إذا جاء الوصف معلقًا عليه حكم من الأحكام دل على ذلك على عليَّة هذا الوصف، ومنها: التسجيل على هؤلاء الذين كانوا مفترض سياقًا أن يذكروا بالضمير بما يقتضيه هذا الوصف فهذه ثلاث فوائد: إرادة التعميم، وبيان العلة، والحكم على هؤلاء بأنهم مستحقون لهذا الوصف.

قال الله تعالى:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٦]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى في بقية كلام هذا الرجل المؤمن ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ السين وسوف كلاهما يختصان بالفعل المضارع، ومن علاماته، وإذا رأيت كلمة تقبل السين وسوف فهي فعل مضارع لكنهم يفترقان، السين تدل على القرب وسوف تدل على المهلة فقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ أي: عن قريب وهي مع إفادته القرب تفيد التحقق يعني أن هذا أمر لابد أن يكون ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ متى؟ إذا عاينتم العذاب، وهذا ليس ببعيد؛ لأن غاية ما بينهم وبينه أن تنتهي آجالهم وكل آتٍ قريب، وحينئذ لا ينفعهم ذلك كما لو نصحك ناصح عن فعل شيء ثم لا تقبل النصيحة، وبعد ذلك رأيت عاقبتها وخيمة، فإنك ستذكر قول الناصح ستذكره ندمًا وحزنًا.

قال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الواو هنا للاستئناف، ولا يصح أن تكون عاطفة ؛لأنها لو كانت عاطفة؛ لكان المعنى وسأفوض أمري إلى الله، ولكن هذا ليس المعنى، بل المعنى وأنا أفوض أمري إلى الله فالواو هنا للاستئناف، أفوضه إلى الله أي: أكله إلى الله عز وجل وقوله: ﴿أَمْرِيٓ﴾

هذا مفرد مضاف يعم والمراد به الشأن أي: شأني كله، و ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا غاية ما يكون من التوكل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هذه الجملة تعليلية للحكم السابق، وهو قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كأن قائلًا يقول: لماذا فوض أمره إلى الله؟ فأجاب بأن الله تعالى بصير بالعباد، بصير بالعباد أي بأحوالهم وحاضرهم ومستقبلهم وجميع شئونهم، فهو جل وعلا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، يعلم كل أحوالهم، [قال ذلك لما توعدوه بمخالفة دينه] يعني: كأنهم توعدوه فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن التوعد ليس في الآية دليل عليه.

والظاهر والله أعلم: لم يقل ذلك حين يتوعدون ولكنه قال ذلك حين أيس من أن يمتثلوا لنصيحته فقال كالمودع لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ وأما أنا فأفوض أمري إلى الله؛ لأني قمت بما يلزمني من نصيحة وهذا أكثر ما يجب علي.

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ هذا يدل على رد كلام المؤلف؛ لأنهم لو توعدوه بالقتل لم يكون هذا مكرًا؛ إذ أن المكر هو الإيقاع بالغير من حيث لا يشعر، هذا المكر أن توقع بغيرك من حيث لا يشعر أما لو توعدوه بالقتل لم يكن هذا مكرًا بل كان هذا صريحًا واضحًا.

قال: [﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: نجاه من مكرهم السيئ] فسيئات هنا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي: المكر السيئ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ المكر والخداع والغدر وما أشبه ذلك، كل ألفاظ متقاربة تدور حول شيء واحد وهي أن توقع بغيرك من حيث لا يشعر، ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ قال: [به من القتل] بيَّن في هذا أن العائد على الصلة بقوله: (ما) محذوف والتقدير ما مكروا به.

قال: [﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾قومه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق] حاق بمعنى: نزل لكن تشعر بأنها ليست بمعنى نزل من كل وجه، وأن تفسيرها بالنزول تفسير تقريبي حاق القاف قريبة من الطاء فكأن المعنى حاط بهم، وهذا أشد من نزل، الظاهر: أن حاق بمعنى نزل محيطًا بهم وليس بمعنى نزل على وجه المجرد بدون إضافة معنى.

وقوله: ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ قال المؤلف: [قومه] وقال غيره: أتباعه، والظاهر أن المعنى متقارب؛ لأن الذين اتبعوه إنما هم قومه وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتبعوه بل كانوا يذبحوا أبناءهم ويستحيوا نساءهم، وقوله:﴿مَعَهُۥ﴾ ذكرها؛ لئلا يظن الظان بأن العذاب نزل بآل فرعون دونه ولكن هذا لا يمكن أبدًا إذا كان آل فرعون إنما نزل بهم العذاب؛ لأنهم كفروا بالله ففرعون أكثر كفرًا بالله من هؤلاء، ثم إن الظاهر أن الإنسان إذا قال: أَكرِم آل فلان، فإن فلانًا هو مقدمهم

ولابد أن يدخل فيهم.

وقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا أيضًا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي المعنى: العذاب السيئ وفسره المؤلف بأنه الغرق، وهذا لا شك منه أنه من سوء العذاب لكن هناك عذابات أخرى أُصيب بها آل فرعون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ كلها من سوء العذاب، الطوفان ليُغرق ما بذر من نبات، والقمل لأجل أن يفسد ما ظهر، والضفادع لتفسد الماء؛ لأنهم صاروا كلما أخذوا إناء يشربونه وجدوا هذه الضفادع قد ملأته، والدم هو نزيف الدم إما من الأنف أو من غيره فعوقبوا من كل وجه بالزروع غرق وما ادخروه قمل والماء ضفادع بعد أن يصل إلى الجسم ويتغذي به الجسم يخرج هذا ينزل دمًا فهلكوا وهذا فيه ترتيب ودرجات، وهذا من سوء العذاب، والنهاية هو الغرق أن أغرق آل فرعون بالبحر.

قال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذه الجملة مستأنفة؛ فالنار مبتدأ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ الجملة خبر، والمعنى: أنهم يعرضون عليها فيأتيهم من سمومها وعذابها ما لا يطيقون والعياذ بالله، قال المؤلف: [﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا﴾ صباحًا ﴿وَعَشِيًّا﴾ بالمساء] والظاهر: أن المراد الدوام، ويحتمل أن المراد هذان الوصفان فقط، فأما الأول فقد يستدل له بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يعني: في كل زمن أما الثاني فيمكن أن يقال: إن هذا ظاهر اللفظ أي في أول النهار وآخره وأنهم يعرضون على النار في أول النهار، ثم إذا صرفوا عنها أمّلوا أنها لا تعود إليهم فتعود فيكون هذا أشد من الاستمرار؛ لأن كون الإنسان يأمل ارتفاع العذاب عنه ثم يعود أشد من كونه مستمرًا آيسًا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى لأصحاب النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذه قراءة، وعلى القراءة أخرى: ﴿ادْخُلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ (ادخلوا) فعل أمر والمقصود به الإهانة والإذلال بخلاف قوله تعالى لأهل الجنة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فهذه للإكرام أما هذه ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ هذه إهانة والعياذ بالله وقوله: ﴿ءَالَ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [يا آل] إشارة إلى أنها منصوبة بياء النداء المحذوفة أخلوا يا آل فرعون، [وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء أمرٌ للملائكة] يعني: أدخِلوا آل فرعون يعني يوم القيامة يقال للملائكة: أدخِلوا آل فرعون أشد العذاب أشد العذاب عذاب جهنم نسال الله العافية.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾

١ - **من هذه الفوائد:** أن الله سبحانه وتعالى حسب من توكل عليه؛ لقوله ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

٢ - **ومن الفوائد في قوله:** ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بيان تحذير هؤلاء الذين ينصحهم المؤمن بأنهم سيذكرون كلامه ويعرفون أنه الحق، لكن متى؟ في حال لا تنفعهم هذه الذكرى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** قوة توكل المؤمن؛ حيث قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا ما يجب على كل مؤمن إذا أراد أن تُقضى أموره وتسهل فليفوض أمره إلى الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن كان الله حسبه فهو رابح وهو ناجٍ.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علم الله سبحانه وتعالى بكل العباد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، وهذا تفسير يشمل الأحوال والأعيان.

٥ - **ومن فوائد الآية التي بعدها** أن الله سبحانه وتعالى يكفي من توكل عليه فيحميه من عدوه؛ لقول الله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة** التحذير من أعداء المسلمين؛ لقوله: ﴿مَا مَكَرُواْ ﴾، وأن أعداء المسلمين قد لا يواجهونهم بالعداوة، ولكن يمكرون بهم، فليحذر المؤمن مكر أعداء الله وهذا في القرآن كثير، إذ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، ومن مكر أعداء الله أنهم لا يجابهون المسلمين بالعداوة لكنهم يغزونهم من حيث لا يشعرون بالأفكار المنحرفة والأخلاق السيئة كما تشاهدون الآن وتسمعون ما يفعل أعداء الإسلام بالمسلمين يوفدون إليهم الأخلاق السافلة من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة ويوفدون إليهم كل ما يخالف دين الإسلام في الملابس وغير الملابس، يغرونهم بالأموال الطائلة لإذهاب أوقاتهم سدى بلا فائدة كمسألة الرياضة، وما أشبه ذلك.

فالمهم: أن أعداء المسلمين يمكرون بهم مكرًا عظيمًا والمسلمون إما أنهم لا يفهمون هذا المكر، وإما أنهم لا يعرفون ولكن على كل حال الواجب علينا أن نحذر.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته وتكون إجازة المسيء بإساءته تكون في الحقيقة مجازة للمحسن؛ لأن أخذ أعدائك بالعذاب هو في الحقيقة انتصار لك وأنت تفرح بذلك تؤخذ من قوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فبين الله تعالى جزاء هذا وجزاء هؤلاء.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عذاب القبر؛ لقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

وَعَشِيًّا﴾، وعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، أما القرآن ففي مثل الآية: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا﴾ يعني قوله يوم ظرف زمان متعلق بما بعده أي متعلق بالفعل (أدخِلوا) أو (ادخلوا) وهذا إذن لا يكون إلا بعد يوم القيامة وعرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا يكون قبل يوم القيامة، ففيه إثبات عذاب القبر.

وهو ثابت في القرآن والسنة والإجماع:

أما القرآن: في مثل هذا، ومنه - أي من أدلة القرآن - قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اليوم (ال) هنا للعهد الحضوري واليوم يعني هذا اليوم الذي هو يوم موتكم فدل ذلك على ثبوت عذاب القبر.

وأما السنة: فهي متواترة في ذلك كثيرة على وجوه متنوعة عامة وخاصة؛ من الخاصة قوله ﷺ حين مر بقبرين يعذبان: «إِنَّهُمْ لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»(١).

وأما الإجماع: فكل المسلمين يقولون في صلاتهم أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر وهذا أمر لا إشكال فيه وهو من عقيدتهم.

فإن قال قائل: هل العذاب يكون على البدن أو على الروح أو عليهما جميعًا؟

نقول: ظاهر السنة أن العذاب يكون على البدن حين مسائلة الملكين؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن المنافق والمرتاب يقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين: الإنس والجن(٢) فإنهم لا يسمعونه فكل شيء يسمعه، والمراد بذلك من قرب منه بحيث يسمع، أما من كان بعيدًا فلا، وهذا يدل على أن الذي يعذب حين مسائلة البدن؛ لقوله فيضرب، أما بعد ذلك فالأصل: أن العذاب على الروح فقد تتصل بالبدن كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإن شئنا قلنا هذا بحث لا طائل تحته ولم يسأل عنه الصحابة، فيثبت عذاب القبر على حسب ما جاء في الكتاب والسنة لا نزيد ولا ننقص.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجود النار؛ لقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ووجودها ثابت في القرآن والسنة، وقد رأى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم النار حين عُرضت عليه وهو يصلي في الناس صلاة خسوف، ورأى فيها من يعذب(٣)، فالنار موجودة.

١٠ - **ومن وفوائد الآية الكريمة**: إثبات قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، ونحن نؤمن بالساعة وأنها ستقوم وسيبعث الناس؛ وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس اليوم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٨) ومسلم (١١١/ ٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩/ ٩٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

حين يموت الرجل فيدفن يقولون: إنهم ذهبوا به إلى مثواه الأخير، هذه الكلمة كلمة كفر إذا قلت إلى مثواه الأخير، فهذا يعني: أنه لا بعث بعد ذلك وأن هذا أخر مرحلة للإنسان وليس الأمر هكذا؛ ولهذا نقول: إن من قال هذه الكلمة وهو يعرف معناها ويريده فإنه كافر؛ لأنه منكر للبعث أما من قالها وقال إلى مثواه الأخير باعتبار الدنيا المشاهدة، فهذا صحيح، لكن ظاهر العبارة الكفر؛ ولهذا يجب التحرز منها ويقال: مثلًا ذهبوا به إلى قبره، أو ذهبوا به إلى محل زيارته، هذا صحيح.

١١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إهانة الكفار إهانة بدنية وإهانة قلبية تؤخذ من توبيخهم وإهانتهم في قوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ولا شك أن قلبوهم تتأثر في هذا وستجد الحسرة والندامة والعياذ بالله.

١٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: التبكيت على آل فرعون كأن قال: ادخلوا آل فرعون وانظر هل ينفعكم أن تكونوا من آلهة أو لا، ففيها نوع تبكيت لهؤلاء.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النار هي أشد العذاب، وأن كل ما قبلها أهون منها لقوله: ﴿أشد العذاب﴾، ولا شك أنها أشد العذاب، كذلك نقول بالنسبة للنعيم ما يجد المؤمن من النعيم في القبر فليس بشيء لما يجده يوم القيامة، فأصل النعيم يكون بدخول الجنة وما قبله فهو كالتقدمة بين يديه.

مسألة: أهل الإلحاد يقولون: إنكم تقولون: إن الميت يوقظ في قبره ويعذب ونحن نحفر القبر ونجد أن الميت باقٍ على ما هو عليه فما الرد على هؤلاء؟

الجواب: نرد عليهم ـ حسيًّا ـ بأن هذا النائم يرى أنه معذب أو أنه منعم وأنه ذهب وأنه جاء وهو على فراشه لم يتغير حتى اللحاف ما سقط عن ظهره، هنا نقول: قس الحاضر بالغائب ثم لو كان عذاب القبر يُدرك بالاطلاع عليه لم يكن إيمانًا بالغيب، وكان إيمانًا بالشهادة، والإيمان بالشهادة لا ينفع ـ يعني: الإنسان إذا عاين الشيء فإن إيمانه به لا يكمل ـ ترى الكافرين عند حضور الأجل يؤمنون، ولكن هل ينفعهم ذلك؟ لا ففرعون لما أدركه الغرق ماذا قال؟ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

انظر إلى هذا الحد يعني: اعترف لله تعالى بالتوحيد ثم اعترف أنه تابع لبني إسرائيل؛ لقوله: ﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل أنه لا إله إلا الله؛ إشارة إلى أنه ذل حتى صار تابعًا لبني إسرائيل بعد أن كان متجبرًا عليهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٧ - ٥٠]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ يعني: [اذكر إذ يتحاجون في النار] أي: يجلب كل واحد منهم بحجته، و(إذ) ظرف عامله محذوف قدره المؤلف بقوله: [اذكر إذ يتحاجون]، والمحاجة هي المخاصمة وإدلاء كل من حجته على الآخر.

وقوله ﴿فِي النَّارِ﴾ تفيد أن هؤلاء المتخاصمين هم أهل النار وهي متعلقة بـ ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾، ثم بين هذه المحاجة فقال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الضعفاء إما في المال، وإما في الشرف والسيادة، وإما في غير ذلك من ما يعد ضعفًا والغالب أن الضعيف يتبع القوي.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [أي تكبروا] من الكبرياء والعظمة والسين والتاء فيها للمبالغة [﴿إِنَّا كُنَّا﴾ يعني في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع أي متبعين] ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ يعني: هل تجازوننا على متابعتنا إياكم بأن تتحملوا عنا شيئًا من النار وقولهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ قال المفسر: [دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ جزءًا من النار] انظر كيف يتوسل هؤلاء الضعفاء إلى الذين استكبروا كيف يتوسلون إليهم بما قدموا من متابعتهم ليتحملوا عنهم نصيبًا من النار؟! فكان جواب الذين استكبروا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وإذا كنا كلًّا فيها فكيف نغنيكم نصيبًا من النار، وهذا جاء ببيان الواقع.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ حكم بينهم بحكمه الجزائي؛ لأن الأحكام أحكام الله عز وجل ثلاثة قدري وشرعي وجزائي، والجزائي من القدري في الواقع، لكن بعض العلماء يجعله منفصل لأهميته؛ لأنه هو الغاية وقوله: ﴿حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ يعني: بين الناس عمومًا بين أهل النار وأهل الجنة، فالعبودية هنا بمعني العبودية العامة الشاملة؛ لأن العبودية عامة وخاصة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** تعادي الكفار بعضهم مع بعض وأن القوي منهم لا يرحم الضعيف؛ لقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الكفار أدلوا بمعروف للمتبوعين وهو أنهم كانوا لهم تبعًا؛ ليتوسلوا به إلى أن يأخذوا عنهم نصيبًا من النار، ففيه دليل على: توسل الإنسان بجميل عطائه على الغير ولكن هل يعد هذا من المنة؟ الواقع: أن الذي يبين أنه توسل أو منَّة هو القرائن، قد يكون هذا منة وقد يكون هذا توسل فيقول مثل ما رحمتك وأعطيتك وأحسنت إليك فأحسن إليَّ، فيكون هذا من باب التوسل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الضعفاء دائمًا يكونون أتباعًا للأقوياء لقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾؛ ولهذا يتبين لنا الآن أن تقليد المسلمين للكفار يعني: ضعفهم أمامهم؛ لأن الضعيف دائمًا يقلد القوي لضعف شخصيته أمامه، وأنه يجب على المسلمين أن يكون لهم ميزة خاصة وأن يكون لهم قوة ذاتية؛ لأن القوة معهم فهم أهل الدين، وهم أهل الحق وهم الذين عرفوا الحياة وهم أهل الحياة في الواقع.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يأخذ المتبوعون نصيبًا ولو قليلًا من عذاب النار عنهم، والدليل: أنهم يريدون ولو قليلًا من قولهم: ﴿نَصِيبًا﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المستكبرين يعتذرون بأن لا طاقة لهم في ذلك؛ لأن الجميع في نار جهنم فكيف يأخذون نصيبًا عنهم؟ نعم لو كانوا ليسوا في نار جهنم، ثم يخبطون في النار من أجل أن يأخذون عن هؤلاء نصيبًا لأمكن، لكن ما دام الجميع في النار، فإن طلب تحقيق ذلك طلبُ شيء مستحيل.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قنوع هؤلاء المستكبرين يوم القيامة لقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ يعني: الآن ليس لنا فضل عليكم، وليس لكم فضل علينا، كلٌ في نار جهنم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار هؤلاء المعذَّبين في النار بأن الله سبحانه وتعالى قد حكم بين العباد حكمًا عدلًا؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أنه إذا نفد حكم الله فإنه لا يمكن رفعه ولا دفعه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ

حَكَمَ﴾، وفي هذا يقول الله عز وجل في سورة (ق): ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ ، ٢٩] إذا انتهى حكم الله فلا معقب لحكمه.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار هؤلاء المعذبين في نار جهنم أنهم من عباد الله، لكن يراد العبادة العامة وهي العبادة الكونية؛ لأن العبادة نوعان: عامة وهي العبودية الكونية، وخاصة وهي العبودية الشرعية، فمن خضع لله شرعًا فهو عابدٌ شرعًا، وكذلك الكوني، ومن تكبر عن عبادة الله شرعًا فهو عابدٌ كوننا وليس عابدًا شرعًا.

قال المفسر: [فأدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار] المعنى أعم من ما قاله رحمه الله حكم بين العباد بين أهل الجنة والنار، وبين أهل النار بعضهم لبعض وحكم حكمًا عامًا.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ استمع إلى هذا النداء الدال على البؤس واليأس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾خزنة هو الخادم وهم الذين قاموا على خزانتها وحمايتها وحفظها؛ لأن النار لها خزانة وكذلك الجنة لها خزانة وكل أمر محكم، ويؤتى بجهنم يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده سبعون ألف ملك وما أدراك ما الملائكة وما قوتهم! فهذه النار محكمة، ولها قواد يقودونها يوم القيامة.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وجهنم اسم من أسماء النار قيل: إنها عربية وأنها عجمية فعلى القول بأنها عربية تكون مأخوذة من الجُهمة وهي الظلمة؛ لأن النار سوداء مظلمة أعاذنا الله وإياكم منها، وعلى القول بأنها أعجمية يقال أن أصلها كهنام، ولكنها عربت حتى صارت جهنم وهي من أسماء النار يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ويقولون هذا ـ والله أعلم ـ حين يقولون لربهم عز وجل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ ، ١٠٨] حينئذٍ يتوسلون بغيرهم أن يكلموا الله يقولون: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقولوا ادعوا ربنا؛ لأنهم قد خسئوا من جهة ربهم قال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، لكن توسلوا بعد ذلك بطلب من الملائكة أن يدعوا الله لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ يخفف بالجزم جوابًا للأمر وهو قوله: ﴿ادْعُوا﴾ وأقول للأمر باعتبار صيغته وإلا هو في الحقيقة دعاء وسؤال.

وقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ما الذي طلبوا؟ طلبوا تخفيفًا لا رفعًا وطلبوا يومًا لا دوامًا يعني: هم آيسون، لكن قالوا لعلك تنفع ولو بتخفيف يوم من العذاب ـ نسأل الله العافية ـ ومقتضى هذا: أنه في أشد ما يكون من العذاب وأنهم طلبوا أن يستريحوا ولو بعض يوم، ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قال المؤلف: [أي قدر يوم] وإنما قال قدر يوم؛ لأنه في يوم القيامة ليس هناك يوم ولا ليلة الشمس والقمر مكوران في نار جهنم، وكل شيء من أمور الدنيا منتهية ما فيه إلا أمر الآخرة، فيقول: المؤلف قدر يوم من العذاب قال: [قالوا لهم الخزنة تهكمًا] هكذا قال المؤلف،

ويحتمل أنهم قالوا ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا ليس تهكمًا؛ لأن الأمر واضح فهم يقررونه بشيء حاصل تنديمًا لهم ليزدادوا حزنًا.

وقوله: [﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات] ليته قال بالآيات الظاهرات؛ لأن الرسل جاءوا بالآيات لا بالمعجزات، لكن الآيات أمرٌ خارق للعادة فهي معجزة وقد بينا في كرامة الأولياء في التوحيد: أن الأولى أن يسمى ما جاءت به الرسل من الدلالة على صدق رسالتهم آيات.

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: [أي: فكفروا بهم ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مثل هذا التعبير يقع كثيرًا في القرآن أي: أن الهمزة تأتي ثم بعدها حرف عطف مثل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ وما أشبه ذلك، فكيف نقول في إعرابه؟

نقول: في إعرابها وجهان للنحويين: الوجه الأول: أن الجملة معطوفة على ما سبق وأن الواو مقدَّمة على محلها، وأن التقديم في أولم تك، وألم تك، وهذا الوجه ليس فيه إلا دعوى التقديم والتأخير، لكنه سهل يعني: يسهل أن تقول: هذا معطوف عليه ما سبق. وقال بعضهم: إن الهمزة داخلة على جملة محذوفة، فالجملة مستأنفة هذه الجملة يكون تقديرها بحسب السياق ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ التقدير: أغفلوا ولم يسيروا، وهذا من حيث القواعد أقعد، لكنه تواجهك أحيانًا آيات لا تستطيع أن تعرف ما هو المقدم فصار هذا أقعد وذاك أيسر.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، ويقال: كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ وما أشبه ذلك، يقول كلما دخل الاستفهام على النفي فهو للتقرير، نحن نقول: لتقرير لكن هل يخرج عن معني التقرير أو يضم إلى معني التقرير معني آخر بحسب السياق؟

الجواب: نعم ففي قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو للتقرير إظهارًا لمنة الله عليه ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ للتقرير توبيخًا وتنديمًا.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جواب الاستفهام المقرون بالنفي الإثبات بـ (بلى) وجواب الاستفهام غير المقرون بالنفي الإثبات بـ (نعم) وجواب الاستفهام المقرون في حال النفي (نعم) وجواب الاستفهام المقرون بالإثبات في حال النفي (لا)، يقال: إن بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه قال في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: لو قالوا نعم لكفروا، وقال الفقهاء: لو قيل للرجل الست طلقت امرأتك فقال نعم، لا تطلق، وإن قال: بلى تطلق، قال ابن عباس: لو قالوا نعم لكفروا وهذا مسلم في ما إذا كان الإنسان يعرف اللغة العربية جيدًا، وأما العامي فعنده نعم وبلى سواء؛ ولهذا لو قيل للعامي: ألست طلقت امرأتك قال: نعم ماذا يكون؟ على القول

الصحيح تطلق؛ فالعبرة بالمعاني على أنه جاء في اللغة العربية جواب هذا بنعم ومنه قول العاشق:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني

نعم، وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني

فقال: نعم لكن الرجل هذا قنوع اكتفى أن يجمعه الليل مع معشوقته، ولو كانت في المشرق وهو في المغرب، وترى الهلال كما يراه فهي في المشرق ترى الهلال وهو في المغرب يرى الهلال وهذا يكفي، نعم على كل حال الآن فهمنا جواب الاستفهام المقرون بالنفي إثباتًا: بلى، ونفيًا نعم، والاستفهام المقرون بالإثبات إثباتًا نعم ونفيًا لا، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يعني: قد أتتنا ولكنهم -والعياذ- بالله كفروا.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾، هذا الأمر للتهكم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لن يقبل منهم فقولهم: (ادعوا) والتهكم هو الذي يسمى عندنا باللغة العامية الهكت هككت عليه يعني: لعبت بعقله فهنا قالوا: فادعوا تهكم بهم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لا يجابوا قالوا فادعوا أنتم، فإننا لا نشفع للكافرين؛ لأن الشفاعة للكافرين مضيعة وقت؛ إذ إن الكافر لا تنفع فيه الشفاعة إلا كافرًا واحدًا نفعت فيه الشفاعة بالتخفيف عنه وهو أبو طالب، فقد نفعت شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام فيه فقط، لو جاء أبو بكر أو عمر يشفع في أبي طالب رد، لكن النبي ﷺ قُبلت شفاعته في عمه أبو طالب فخفف عنه العذاب لماذا؟ لأن أبا طالب حصل منه خير كثير لرسول صلى الله عليه وسلم وحصل منه ما يسمى بالدعاية العظيمة له حتى قال:

ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية دين

هذا قاله في الدين وقال في الرسول ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعني بقول الأباطل

ودافع عنه وحوصِر معه في الشعب؛ فلذالك قبل الله سبحانه وتعالى شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أن يخفف عنه، أما شفاعة الرسول في أمه فمنعه الله وهي أقرب من عمه لما استأذن الله أن يستغفر لها قال: لا ولما استأذنه أن يزور قبرها، قال: نعم، أذن له فزار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه وقف عليه وجعل يبكي، لكن لا يدعو لها وأبكى من معه، فالكفار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لأن الشفاعة مضيعة بلا فائدة، ثم هي لن يؤذن فيها من قبل الله ولا يمكن أبدًا شفاعة بدون إذن الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ ما نافية، وليست حجازية (ودعاء) اسمها مرفوع (في ضلال) جار ومجرور، لأنه انتقض النفي، وابن مالك يقول:

إعمال ليس أعملت ما دون إن مع بقا النفي النفي وترتيب ذكن

النفي الآن ما بقي قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، فصار إثبات إذن ما هنا ليست حجازية، لاتفاق اللغتين: لغة التميميين والحجازيين فيها، وأنها لا تعمل في هذه الحالة ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [أي: ما طلبهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع] وقول المؤلف انعدام فيه نظر الضلال الضياع وعدم الاهتداء.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لا تقبل دعوة الكافر أبدًا إلا في حال واحدة أو في حالتين، تقبل دعوة الكافر في حالين: الحال الأولى إذا كان مضطرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، وإنما أُجيبت دعوة المضطر؛ لصدق لجوئه إلى الله؛ لأنه مضطر صادق اللجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مظلومًا، فإنه تقبل دعوته على الراجح؛ لقول الرسول ﷺ «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(1)، وهذا إن كان يخاطبه في قوم أسلموا لكنها عامة، وإنما أجيبت دعوة الكافر إذا كان مظلومًا إقامةً للعدل؛ لأن الله لم يجب الكافر محبةً له ولكن إقامة للعدل؛ لأنه الآن هناك خصمان مظلوم وظالم فلإقامة العدل يستجيب الله دعوة الكافر.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة حسرة أهل النار؛ لقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن أهل النار يتحاجون ويحاجون أيضًا يتحاجون فيما سبق بينهم وكذلك يحاجون غيرهم أو يسألون غيرهم؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان إحكام الله عز وجل لمخلوقاته كما أحكم مشروعاته؛ حيث جعل لنار خزانة يحفظونها ويقومون عليها.

٤- **ومن فوائد هذه الآية:** شدة خجل أهل النار من مخاطبة الله عز وجل، إذ إنهم توسلوا بقول الخزنة أن يدعوا ربهم ولم يقولوا ادعوا ربنا، هذا يدل على أن هذا بعد أن قال الله لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل النار في أشد ما يكون من العذاب تؤخذ من قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يدل على أنه عليهم شدة وأنهم يتمنون يومًا واحدًا فقط.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾:

١ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أهل النار يعذبون عذابًا بدنيًّا وعذابًا قلبيًّا تؤخذ من التقريع والتوبيخ لهم في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، فهذا يكون أشد عليهم من عذاب البدن؛ ولهذا يقول كما في سورة تبارك: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن لكل أمة من أهل النار رسولًا.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا بآيات تدل على أنه رسول الله حقًّا؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الاهتمام بالوصف أشد من الاهتمام بالأصل؛ لأن الوصف هو الذي يبين الأشياء تؤخذ من قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾؛ حيث أتى بالوصف وطوى ذكر الموصوف؛ لأن المهم هو الوصف.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهكم الرسل بهؤلاء ـ أي بأهل النار ـ تؤخذ من قوله: ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾، هذا من باب التهكم؛ لأن الملائكة يعرفون أنهم لن يجابوا.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا قبول لدعاء الكافرين، لقوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾، هل يشمل هذا دعاء المسألة ودعاء العبادة أم دعاء المسألة فقط أم دعاء العبادة فقط؟

الجواب: يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، وما الذي يستثني من دعاء المسألة في إجابة الكافر؟ المضطر والمظلوم. ما هو الدليل على استثناء المضطر على أنه يجاب ولو كان كافر؟

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، قد يقول لك قائل: هذا في المسلم، نقول: إذا ادعى أنها يخرج منها الكافر، قلنا: أين الدليل؟ هذا صحيح لكن نريد نصًّا واضحًا في إجابة الكافر في حال الضرورة؟ هي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

مسألة: ما الحكمة من إجابة الكافر في حال الضرورة؟

الجواب: لأنه في هذه الحال يكون مخلصًا لله في الدعاء، مظهرًا الافتقار إليه، فيجيبه الله، وأما المظلوم، والدليل على أن الله يجب دعوة الكافر المظلوم، حديث النبي ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»، ولو قال لك قائل: المظلوم من المؤمنين نقول له لم يخصص.

مسألة: ما الحكمة مَن إجابة المظلوم الكافر؟

الجواب: لإقامة العدل.

إذن: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥١، ٥٢]

التفسير

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بمؤكدين أحدهما: إنا والثاني: اللام وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ أتى بصيغة التعظيم؛ لأن المقام لتعظيم؛ إذ إن النصر لابد أن يكون من قوي ولم يقل جل وعلا أنا أنصر قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾؛ لأن المقام يقتضي العظمة والقدرة والقوة.

وقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ رسلنا جمع رسول وهم كل الرسل لأن رسل جمع مضاف وجمع المضاف يكون للعموم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معطوفة على رسلنا أي وننصر الذين آمنوا، آمنوا بمن؟ آمنوا بما يجب الإيمان به والإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فمن أنكر فليس بمؤمن ومن أقر ولم يقبل فليس بمؤمن ومن أقر ولم يذعن فليس بمؤمن فأبو طالب مثلًا مقر برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه لم يقبل ولم يذعن فلا يكون مؤمنًا فالذين آمنوا هم الذين أقروا بقلوبهم واستسلموا بجوارحهم وقبلوا ما أخبرت به الرسل هؤلاء هو المؤمنون.

وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ متعلق بـ (ننصر) و(يوم) هذه معطوفة على ما سبق، وهي متعلقة بـ (ننصر) أي: وننصرهم يوم يقوم الأشهاد، وذلك يوم القيامة، والأشهاد جمع شاهد يقول المؤلف: [وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب] هكذا قال المؤلف رحمه الله خصها بالملائكة، والصحيح: أنها أعم من الملائكة، فالملائكة يشهدون، وهذه الأمة تشهد على من سبق كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، والجلود تشهد والجوارح تشهد، فكل ما ثبت شهادته، فإنه داخل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وذلك يوم القيامة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** تأكيد نصر الله سبحانه وتعالى للرسل والذين آمنوا لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾.

٢ - **وفي هذه الآية:** شبهة استدل بها النصرانيون يقولون: إن الله ثالث ثلاثة ولي عليكم دليل وهو قوله: ﴿إِنَّا﴾ وقوله ﴿نَحْنُ﴾ وقوله﴿نُرِيهِمْ﴾ما أشبه ممن يدل على الجمع فإذن أنا أقول ـ يقول النصراني ـ: إن الله ثالث ثلاثة ولي حجة، فبماذا نجيبه؟ نجيبه بقولنا: إنك ممن زاغ

قلبه؛ لأنك اتبعت المتشابه والله عز وجل يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، وتركت المحكم المؤكد بأن الله واحد لا شريك له مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ومثل قوله في تكذيب هؤلاء النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فهذا النصراني تبع المتشابه، وكذلك كل مبطل يحتج بآية، فإنه يكون ممن اتبع المتشابه، والله عز وجل حكيم جعل في آياته الشرعية وفي آياته الحكمية ما يكون متشابهًا ما يكون ابتلاءً وامتحانًا للذين آمنوا وللذين في قلوبهم زيغ، الآن انظر إلى القرآن وانظر إلى السنة تجد في بعض الأحاديث أو في بعض الآيات ما ظاهره التعارض أو في بعض الأحاديث أو الآيات ما ظاهره باطل مثلًا، هذا وإن سلمنا وإلا ليس في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما ظاهره باطل إطلاقًا لكن هذا من باب التنزل مع الخصم، ونقول: هذا من باب الابتلاء والامتحان، وكذلك في الآيات الكونية: نجد أن الله تعالى يصيب الناس بكوارث عظيمة تموت بها الأنفس وتدمر بها البلاد ويفسد بها الحرث والنسل حتى يبلوا العباد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ويجب الانتباه لهذا النقطة وهي امتحان الله تعالى لعباده بما يأتي من الآيات الشرعية والآيات الكونية؛ إذن رددنا على النصراني الذي ادعى تعدد الآلهة محتجًا بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

وفي الآية إشكال: وهو أن الله تعالى ذكر أن من الناس من يقتلون الذي جاء بالحق، يقتلون الأنبياء فأين النصر في الحياة الدنيا؟ لمن قتل.

والجواب من أحد وجهين: إما أن يكون المراد بالنصر نصر ما جاء به من الشرع، وبين أنه حق وهذا ثابت لكل رسول، وهل تأييد ما جاء به الرسول نصر له أم لا؟ نصر له لا شك وحينئذٍ لا يستثنى من الرسل أحد إذا قلنا: إن المراد بالنصر نصر ما جاءوا به من الحق.

وإما أن يُراد (برسلنا) الذين أُمروا بالجهاد؛ لأن النصر يقتضي أن يكون هناك جهاد ينتصر به أحد الطرفين على الآخر، فيكون المراد بالنصر هنا ليس جميع الرسل، بل من أُمروا بالجهاد وحينئذ يزول الإشكال، هذا باعتبار النصر في الحياة الدنيا، أما باعتبار النصر يوم يقوم الأشهاد فلا يُستثنى أحد ولا إشكال فيه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن نصر الله للعبد في الدنيا نعمة يعني: للإنسان أن يفرح بما أعطاه الله من نصر سواء نصرًا فعليًّا أو قوليًّا، المهم أن الإنسان إذا نصره الله عز وجل على ما ناوأه يعتبر هذا نعمة ومنة من الله عز وجل، فليفرح بها الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأشهاد يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَدُ﴾.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** التحذير من مخالفة الرسل من ذلك اليوم الذي يقوم فيه الأشهاد؛ لأن في ذلك اليوم ما يستطيع أحد يكذب يعني لو إنسان أنكر وكذب من يشهد عليه؟ جوارحه تشهد عليه جوارحه قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يقولون هذا؛ لأنهم يشاهدون المخلصين ينصرون يوم القيامة فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن يصبحوا معهم فيقول الله عز وجل: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هم كذبوا على أنفسهم؛ لأنهم يقولوا والله ربنا ما كنا مشركين، وهم مشركون بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾، الآن استدركنا على المؤلف رحمه الله: قصده الأشهاد على الملائكة وقلنا: إنها أعم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ [بالياء والتاء] بالياء (ينفع) وبالتاء (تنفع)؛ إذن هما قراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف إذا أتي بصيغة قراءة على هذا الوجه فمعناه أنها قراءتان سبعيتان، أما إذا قال: وقُرِئ فهو للشاذ، أما بالتاء فواضحة؛ لأن (معذرة) مؤنث فالفعل يكون معها مؤنثًا، لكن بالياء نقول: أولًا أنه فصل بين الفعل والفاعل، وثانيًا أن التأنيث هنا ليس حقيقيًا.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ المراد بالظالمين هنا الكافرون قال الله تعالى: ﴿وَالْكَفِرُونَ هُمُ الظَّلِمُونَ﴾ (معذرتهم) يعني عذرهم عندي بالشرع قال: [عذرهم أو اعتذارهم] يعني: عذرهم فيما سبق أو اعتذارهم فيما لحق في ذلك اليوم، هم يعتذرون، لكن لا يؤذن لهم فيعتذرون.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [أي البعد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾] لهم اللعنة كيف قال: لهم اللعنة؟ هل اللعنة مطلوبة حتى تأتي باللام قيل: إن اللام هنا بمعني على كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ فاللام هنا بمعني على والصواب أن اللام على بابها، وأنها ليست بمعني على، بل هي بمعني الاستحقاق يعني: أنهم يُلعنون لعنًا يستحقونه فهي أبلغ من قوله: (عليهم) من وجه، وتلك أبلغ من وجه آخر.

المهم: أن اللام هنا على معناها الأصلي بمعنى الاستحقاق، وهنا نقول لكم إذا ورد تفسيران في كتاب الله العزيز أحدهم يؤيده اللفظ والثاني لا يؤيده اللفظ فأيها نأخذ؟ الأول وإن كان كل من المعنيين مكتملًا لكن ما يوافق ظاهر اللفظ هوالأولى.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ اللعنة هي البعد عن الرحمة، وقوله: ﴿اللَّعْنَةُ﴾ لم يبين هنا فتعم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ويلعنهم اللعنون﴾، فكل شيء يلعنهم نسأل الله العافية.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ سوء الدار الآخرة أي: شدة عذابها لهم سوء الدار، يحتمل أن

تكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف أي: الدار السوء، ويحتمل أن يكون على بابها والمعني: لهم سوء الدار أي: السيئ في الدار، وعلى كل حال ما المراد بسوء الدار؟ يقول المؤلف: [شدة عذابهم]، ولكن لو قيل أن سوء الدار ما يسوء من العذاب الشديد وغير الشديد لكان أعم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** أولًا أن الظالمين لا ينفعهم العذر ولا الاعتذار يوم يقوم الأشهاد؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الكافرين ظلمة، وهو كذلك والشرك بالله أظلم الظلم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[1]، وهذا حق الذي خلقك وأعدك وأمدك، ثم تشرك به هذا أغرب ما يكون، إن الإنسان لو أهدى إليه شيء عشرة ألف ليستحيي أن يناله بسوء فكيف بمن أهدى إليك حياتك كلها؟! كيف تشرك به وتكفر به؛ إذن الشرك أظلم الظلم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافرين يوم القيامة يعتذرون، ولكن لا يقبل لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؟

الجواب: بصفة عامة أن ما ورد عليك مما يكون يوم القيامة أو من أوصاف يوم القيامة مما ظاهره التعارض، فاعلم أنه لا تعارض فيه، سواء كان ذلك في وصف اليوم أو في وصف المحشورين أو في وصف العذاب، فإنه لا يمكن أن يكون فيه تعارض أبدًا؛ لأن اليوم طويل، ومقدار اليوم خمسون ألف سنة، فيمكن أن تتغير هذه الأحوال يكون في أوله الناس في حال وآخره الناس في حال وما أشبه ذلك، فمثلًا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، هذا يدل على أنهم في ذلك اليوم هم سكوت لا يؤذن لهم بأي كلام، فينتهزوا الفرصة بالاعتذار، لكن في موقف آخر يعتذرون ولكن لا ينفعهم الاعتذار وهذا أولى من قول بعض العلماء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لو اعتذروا؛ لأنه على هذا التقدير يكون الكلام كلامًا فرضيًا لا واقعيًا، فأيهم أولى أن نحمل الكلام على أنه واقع أو على أنه مفروض؟ الأول، على أنه واقع نحن نقول: يعتذرون في وقت، ولا يعتذرون في وقت آخر.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافرين مستحقون للعنة الله، فهل يعني ذلك أنه يجوز أن نلعن الكافرين؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦/١٤١) من حديث عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه.

الجواب: أما على سبيل العموم فنعم، لنا أن نقول: لعنة الله على كل كافر وكان من قنوت أبي هريرة رضي الله عنه أنه يلعن الكفرة في قنوت الوتر: «اللهم العن الكفرة الذين كذبوك وكذبوا رسولك»[1]، هذا لا بأس به، وهل نلعن نوعًا معينًا من الكفرة كاليهود والنصارى؛ نقول اللهم العن اليهود اللهم العن النصارى؟

الجواب: نعم، قال بعض الناس إما اجتهادًا وإما محاباةً لليهود والنصارى قالوا إن الرسول دعا عليهم باللعنة في حال معينة حين اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد لعنهم كأنهم يقولوا لأنهم اتخذوا فيقال: التعليل لا يقتضي تخصيص المعلول، هم لعنوا من أجل هذا ومن أجل غيره أيضًا، فالصحيح: أنه يجوز أن نلعن اليهود والنصارى على سبيل التخصيص، فنقول: لعنة الله على اليهود والنصارى سواء قرنا بذلك فعل من أفعالهم مما يقتضي اللعن أم لا، إذن لنا أن نلعن الكفار على سبيل العموم، وهل نلعنهم على سبيل التعيين ؟أما إن كان حيًّا لا يجوز أن ألعن شخصًا معينًا ولو كان من أكفر الكفار ما دام حيًّا والدليل: أن النبي ﷺ لما صار يقول: اللهم العن فلانًا وفلانًا ممن عينهم من أئمة الكفر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فنهاه وقال: ليس لك من الأمر شيء وإذا كان الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فما بالك بمن دونه؟! وأما التعليل فإننا نقول: لا تلعنه، ادعُ الله له بالهداية؛ لأنك لا تدري ربما يكون هذا العدو للإسلام اليوم هو ولي الإسلام في يوم أخر ألم يكن عمر بن الخطاب من أعدى أعداء الإسلام؟ بلى، ألم يكن خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل[2] ممن اقتحموا الجبل في أحد ليقتلوا الرسول وأصحابه؟ بلى، وماذا كانوا؟ كانوا من قواد المسلمين وكان عمر الخليفة الثاني في هذه الأمة، إذن لا تدعُ على شخص معين من الكفار باللعنة، لكن هل يجور أن أدعو الله له بالهداية؟ نعم يجوز.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الظالمين وهم الكافرون لهم سوء الدار يوم القيامة وهي جهنم والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا العذاب - أي هذا اللعن وهذا السوء - هؤلاء مستحقون له؛ لقوله: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، والله أعلم.

(١) حسن: هذا الأثر ورد نحوه عن عمر رضي الله عنه وحسنه ابن حجر وانظر تلخيص الحبير (٢/ ٢٤).

(٢) هذا سبق لسان من الشيخ وإنما جعفر بن أبي طالب كان من المسلمين ولم يحضر بدرا ولا أحدا ولا الخندق وإنما كان ممن هاجر إلى الحبشة ولم يرجع المدينة إلا في فتح خيبر انظر الإصابة (١/ ٤٨٦).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[غافر: ٥٣-٥٦]

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه الجملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات: الأول القسم الذي دلت عليه اللام والثاني اللام، والثالث قد وهذه الصيغة تأتي في القرآن كثيرًا.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعني أعطينا وقال آتينا ويقال: أتينا، وأتينا بمعني جئنا وأتنيا بمعني أعطينا وهي تنصب المفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر المفعول الأول هنا موسى والثاني الهدى؛ موسى هو ابن عمران أحد أولي العزم الخمسة وهم محمد وإبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

وقوله ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ما به من هدى، وهذا يشمل الهدى الذي أوتيه حتى اهتدى، والهدى الذي يهتدي به الناس فيكون موسى عليه الصلاة والسلام هاديًا مهديًّا قال المفسر: [التوراة والمعجزات] أما التوراة فمرجع في الهدي؛ لأنها كتاب شرعي فيه الهدى، وأما المعجزات فالصواب أن يقال: البينات أو الآيات، فإنها هدى؛ لأنه يهتدي بها الناس إذ إن الناس إذا رأوا الآيات اهتدوا.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنهم من الوارثين ويقول المؤلف: [أي من بعد موسى]، ويمكن أن نقول: أورثناه من بعد موسى ومن بعد فرعون فيكون الله تعالى أورث بني إسرائيل الكتاب من بعد نبيهم ومن بعد فرعون كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوراة] وسميت كتاب؛ لأنها مكتوبة، وعلى هذا فيكون كتاب بمعني مكتوب وهذه الصيغة أعني فعالًا تأتي في اللغة العربية بمعني مفعول في مواضع كثيرة

مثل: بناءً بمعنى مبني وغِراس بمعنى مغروس وفراش بمعنى مفروش.

وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هدى يحتمل أن تكون كما قال المفسر: مصدر بمعني اسم فاعل منصوبًا على الحال، حيث قدرها بقوله هاديًا ويحتمل أن تكون مفعول من أجله أي من أجل هدى أي من أجل اهتداء الناس ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تذكرة لأصحاب العقول فهي هدى وهي تذكرة هدى يهتدي بها الناس وتذكرة يتذكر بها، ولكن لا يتذكر بها إلا أولو الألباب، فأولو الألباب يعني: أصحاب العقول، وسمي العقل لبًّا بمنزلة اللب من الحبِّ؛ لأنه هو المقصود، وهو روح الإنسان.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اجمعها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يتبين لك: أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية كخلق السموات والأرض والآيات الشرعية هم أصحاب العقول؛ لأنهم ينظرون ويتفكرون ويقيسون الأشياء حتى يهتدوا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** منة الله سبحانه وتعالى على موسى صلى الله عليه وسلم حيث آتاه الهدى، وهذه أعظم منة يمن الله بها على العبد أن يعطيه الهدى يهتدي به لنفسه ويهدي به غيره.

٢ - **ومنها:** تأكيد رسالة موسى من قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾، وعلى هذا فيجب علينا أن نؤمن أن موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إلى قومه كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة»[1]، لكن نؤمن أنه رسول حق وأنه جاء بالهدى والنور.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** منة الله على بني إسرائيل؛ حيث قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾، ولكن هل هؤلاء الذين أورثوا الكتاب هل قاموا به؟ الجواب: لا ما قاموا به، بل كانوا عتاة ظلمة بل حتى في عهد نبيهم ما قاموا لما قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ أما نحن فإنَّا قاعدون - مع أنه وعدهم بها - قال: الأرض التي كتب الله لكم، لكنهم كذبوا الخبر واستكبروا عن الأمر، فهم أعني ولاسيما اليهود منهم أخبث أهل الأرض وأعتى أهل الكفر، لم يشكروا نعمة الله عليهم بهذه النعمة، أما هذه الأمة فقال الله تعالى ﴿ثُمَّ

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التوراة مكتوبة؛ لقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ كيف كتابتها؟ أقرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التوراة ذكرى لكن ليست لكل أحد، لكن لأولي الألباب.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه لا يتذكر بالآيات الشرعية إلا أولو الألباب وكذلك الآيات الكونية.

٧ - **ومن فوائد الآية:** الثناء على العقل؛ لأن أهل العقل هم أهل التذكر الذين ينتفعون بما سمعوا، والمراد بالعقل هنا، هل هو عقل الإدراك أو عقل الرشد؟ الثاني: عقل الرشد، أما عقل الإدراك فهو الذي يُناط به التكليف الذي يوجد في كتب الفقهاء من شروط الطهارة، هذا عقل الإدراك الذي يناط به التكليف، أما عقل الرشد الذي به الاهتداء فقل من يحصل عليه.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل من لم يتذكر بآيات الله فإنه ليس ذا عقل.

فإن قال قائل: يرد عليكم أنا نجد في أئمة الكفر من هو على جانب كبير من الدهاء والذكاء.

فالجواب: أن هناك فرق بين العقل والذكاء؛ لأن العقل يعقل صاحبه عما يضره؛ ولهذا سمي عقل بمنزلة الإعقال للبعير، لكن الذكاء ليس كذلك، فالذكاء غريزة أو كسب يجعله الله تعالى في الإنسان، وربما يكون بعض الحيوانات أذكى من الإنسان أليس كذلك؟ بلى، فالغراب مثلًا أذكى من ابن آدم الذي قتل أخاه؛ لأنه علمه كيف يواري سوءة أخيه، ففي الحيوانات ما هو أذكى من بني آدم، النملة هذه إذا كان في أيام الثمار حفرت للحبوب جحورًا، وأودعت فيها هذه الحبوب، ولكنها لا تدع الحب على ما هو عليه تأكل رأس الحب؛ لئلا تنبت؛ لأنها تعرف أن بقيت الحبة على ما هي عليه نبتت وخربت عليها بيتها فتأكل رأسها حتى لا تنبت، فإذا قدر الله عز وجل ونزل المطر وخافت أن يعفن ويفسد أخرجته إلى الشمس؛ حتى ييبس ويجف، ثم أدخلته، وأشياء تذكر عن بعض الحيوانات غريبة؛ إذن الذكاء شيء والعقل شيء آخر، وكم من ذكي قاده الذكاء إلى النار، وهذا الشيء مشاهد، الذكاء إذا لم يكن مقترنًا بعقل وإيمان، فالغالب أن صاحبه يضل ويهلك، وكم من أناس كانوا أذكياء، وتوقع فيهم بعض العلماء أن هؤلاء سوف ينحرفون فصار الأمر كذلك.

إذن لا يرد علينا أننا نجد من أئمة الكفر من هو على جانب كبير من الذكاء والدهاء؛ لأن الذكاء شيء والعقل شيء آخر قال العلماء ولذلك لا يجوز أن تقول: إن الله عاقل؛ لأن العقل يحجز صاحبه عما يضره والرب عز وجل لا يمكن أن يضره شيء، ولا يمكن أن ينقصه شيء،

ومن ثمَّ ذهب بعض النحويون إلى التعبير بقوله: (من) للعاقل و(ما) لغير العاقل، قال ما يمكن أن تكون للعاقل، لأنها تأتي عائدة إلى الله عز وجل فقل: (من) للعاقل و(ما) لغير العالم وعلى كل حال قد يناقش هذه المسألة لكني قلت هذا من أجل أن يعم أنه لا يجوز أن يوصف الله أنه عاقل؛ لأن العقل يحجز صاحبه عما يضره والله عز وجل لا يمكن أن يضره شيء.

ثم قال الله تبارك وتعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الخطاب لمن؟ للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم اصبر على أي شيء؟ اصبر على حكم الله الكوني والشرعي؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وليُتأمل أنه لما من الله عليه بأنه نزل عليه الكتاب تنزيلًا هل قال فاشكر نعمة ربك قال: ﴿اصبر لحكم ربك﴾ معناها أنك كلفت أمرًا عظيمًا يحتاج إلى صبر، اصبر لحكم ربك الشرعي والكوني، وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم العناء الكبير من الصبر على أذى قومه.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إذن اصبر إذا قيل هنا: إن في آية حذف، قلنا: نعم وما هو المحذوف؟ تفسره الآيات الأخرى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الكوني والشرعي، ولا نجد أحدًا أصبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم له لحكم الله يوعك - يعني يمرض - كما يوعك الرجلان منا، شُدد عليه في الموت وهو محتضر، كما قالت ذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لم يشدد على أحد أوذي في الله عز وجل فصبر واحتسب، وقصة إيذاء المشركين له في مكة وغير مكة أمرٌ مشهور عندنا ومعلوم.

وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: والله إن وعد الله حق هذه الجملة خبرية مؤكدة بإن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بماذا؟ وعد بنصر أولياءه وخذل أعدائه، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ قال: [بنصر أوليائه حق وأنت ومن تبعك منهم] نعم هم على قمة الأولياء محمد رسول الله والذين معه قمة الأولياء، وصفهم الله بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ انظر كيف المعاملة بعضهم مع بعض ومعاملتهم مع الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [ليستن بك] استغفر لذنبك أي: اطلب من الله المغفرة للذنب وهو الإثم أو المعصية، والمغفرة مشتقة من المِغْفر وهو الذي يوضع على الرأس أثناء القتال ليتقي به المقاتل سهام المقاتلين، هذا هو المغفر؛ إذن فالمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنها وليس مجرد الستر، ويدل لهذا قوله تعالى إذا حاسب عبده المؤمن: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١)، وقوله: [ليستن بك] إشارة إلى أنه لا ذنب للرسول، لكن أمر بالاستغفار لتستن به الأمة فتستغفر من ذنوبها، وهذا بناءً على أن الرسول ﷺ لا يُذنب وكذلك الرسل، ولكن في هذا نظر، هذا من الغلو بالنسبة للرسول ﷺ ورُب مذنب تاب من ذنبه فكان خيرًا منه قبل الذنب؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨/٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فآدم عليه الصلاة والسلام عصى ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وقبل ذلك قد حصل له الاشتباه فصار بعد التوبة من الذنب خيرًا منه قبل الذنب، والذنب لا يخدش في الإنسان، الذنب إذا عرف الإنسان نفسه وعرف قدر ربه عز وجل، ثم رجع إلى الله، وتاب وندم يجد في قلبه إيمانًا لم يكن قبله، يكون عنده حياء من الله وخجل، لكن إذا لم يخجل مات قلبه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم: «لولا أن تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ويغفر لهم»(١)، وعلى هذا فنقول للمؤلف عفا الله عنك؛ حيث ادعيت ما ليس بصحيح إذا كان الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كيف نقول: إن أمره بالاستغفار من أجل أن يستن به، لا من أجل أن له ذنبًا والله يقول ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ويقول عز وجل ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، سبحان الله ما له ذنب، كيف يقول: استغفر ليستن به، كيف يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ تبتغي مرضات أزواجك ﴿والله غفور رحيم﴾ غفر الله لك ذلك كيف يقول عز وجل: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، كل هذا يدل على أن مثل هذه الأمور تقع للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لكن لا شك أن ما يخل بالأخلاق أو يخل بالرسالة لا يمكن أن يقع هذا شيء معلوم، لا يمكن أن يقع منه فاحشة، ولا يقع منه الكذب، ولا يقع منه الخيانة هذا مستحيل؛ لأن هذا يخل بالشرف ويخل بمقام النبوة، أما المعاصي البعيدة عن هذا تقع أليس موسى صلى الله عليه وسلم قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها؟! وهو من أولي العزم.

فالحاصل: أن قول المؤلف: [ليستن بك] خطأ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ لأن لك ذنبًا، لكنه مغفور ومن أسباب مغفرة ذنبه أن تستغفر، فالاستغفار من أسباب المغفرة والطاعات من أسباب المغفرة التي تغلب الطاعات على المعاصي وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ سبح يقول المؤلف رحمه الله: [صلى]، ولا شك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، ومنه حديث «صلى النبي صلى الله عليه وسلم في بيته سبحة الضحى»، ومنه قول بن عمر لو كنت مسبحًا لأتممت، يعني يصلي بالناس في العتمة، فلا شك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، ومن الأدلة على ذلك إضافة إلى ما ذكر قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، حيث قال بعض العلماء: إن هذه إشارة إلى أوقات الصلوات الخمسة، لكن هل يتعين أن يكون التسبيح في كل مكان بمعني الصلاة؟ لا؛ ولهذا نرى أن قوله تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أشمل وأعم كم إرادة الصلاة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١/ ٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تسبيحًا مقرونًا بالحمد، فالتسبيح زوال الصفات التي لا تليق بالله، وبالحمد إثبات الصفات الكمال لله انتبه فيقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جامعًا بين التنزيه والإثبات؛ تنزيه الله عما لا يليق به وإثبات ما هو أهله جل وعلا من الكمال في الذات والأفعال.

وقوله ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ فالعشي ما بعد الزوال ومنه حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين(١): صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إحدى صلاتي العشي، فالعشي ما بعد الزوال، والإبكار ما قبل الزوال قال المؤلف: [الصلوات الخمس]؛ لأن العشي يشمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والإبكار: الفجر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ والصواب كما قلنا أولًا أن المراد بالتسبيح هنا ما هو أعم من الصلوات.

ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ هذه إن واسمها، وخبرها قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر، قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المجادلة المخاصمة وسميت المجادلة مخاصمة؛ لأن كل خصم يجدل الحجة؛ ليغلب صاحبه كجدل الحبل، أي: شده كل واحد من الطرفين يجدل الحجة لنفسه ليفحم خصمه.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ﴾ المفاعلة تأتي في الغالب بين اثنين، وقد تأتي فاعل بدون إنشاء مثل سافر على وزن فاعل، على وزن جادل، لكن الغالب أن فاعل يعني: المفاعلة تأتي من اثنين ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ منْ يجادلون؟ يجادلون أهل الحق ويناظرونهم، ولقد علمنا المناظرة التي وقعت بين إبراهيم وقومه ووقعت بين إبراهيم والذي حاجه في ربه، ومجادلات كثيرة في القرآن وفي السنة وإلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المؤلف: [القرآن] هذا التفسير قاصر؛ لأن آيات الله تشمل الكونية والشرعية، ثم تشمل أيضًا من يجادل في هذه الأمة، ومن يجادل فيما سبق، والذين يجادلون فيما سبق هل يجادلون في القرآن؟ لا، فالأولى أن نجعل الآية على العموم يجادلون في آيات الله الكونية والشرعية إن كان هذه الأمة، فالشرعية هي القرآن والسنة، وإن كان من قبل الأمة فالمجادلة في التوراة في قوم موسى وهكذا.

إذن تفسير المؤلف قاصر؛ لأنه لم يحطْ بالمعني، بل قصره على بعضه، لكن لو ادعى مدعٍ أن المؤلف ذكر القرآن من باب التمثيل نقول: إن هذا محدث، لكنه أخطأ في التعبير إذ إن المراد يقال:

---

(١) قصة ذو اليدين ونسيان النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين من الرباعية في الصحيحين أخرجه البخاري (٤٨٢) ومسلم (٩٧/ ٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

آياته الشرعية كالقرآن، حتى يكون الأمر واضحًا.

والمجادلة في الآيات الشرعية منها: اتباع المتشابه فيأتي في آية من القرآن فيها اشتباه تحتمل معنًا حقًّا ومعنًا باطلًا وهي في الحق أظهر كما هو معلوم، فيريد أن يحملها على المعنى الباطل المرجوح، يأتي بآيات من القرآن ظاهرها التعارض فيقول: القرآن متناقض، كيف يقول كذا ثم يقول كذا؟ مثلًا نقول: إن الله تعالى قال ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ يودون ولا يكتمون الله حديثا وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كتموه قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيأتي ويقول: هذا القرآن متناقض كيف يثبت في مكان أنهم لا يكتمون الله حديثًا وفي مكان أنهم ينكرونه؟! فيجادل في مثل هذا، وإذا لم يكن لدى الإنسان سيف يقطع حجة هذا بقي الإنسان مرتبكًا، فما هو السيف الذي يقطع حجته؟ أن نقول: إن يوم القيامة ليس ساعة من زمن بل مقداره خمسون ألف سنة، فأقروا بالأول، ولما رأوا أن المؤمنين ينجون قالوا: نكتم لعلنا ننتفع أو أنهم كتموا في الأول، ثم لم رأوا جوارحهم تشهد عليهم أقروا واعترفوا.

فعلى كل حال: أنا أقول المجادلة في القرآن منها اتباع المتشابه لاشك، وكذلك أيضًا المجادلة في الآيات الكونية يأتي بأشياء من مخلوقات الله عز وجل فيقول لماذا خلقها الله؟ لماذا خلق الله هذا الشيء؟ لماذا خلق الله العقرب؟ ولماذا خلق الله الحية؟ ولماذا خلق الله الأسد؟ وما أشبه ذلك، إذن ما أراد الله إلا إظهار الخلق وإيذاء الخلق، عندما يُراد هذا السؤال على عامي ماذا يقول؟ يقول: والله ما ندري فيمكن أن يجادل مع أننا نعلم أن خلق هذه المخلوقات من مصلحة العباد، وقد ذكرنا أن فيها ثماني فوائد تظهر للمتأمل، وبذلك نعرف أن المجادلة في الآيات تكون في الآيات الكونية والآيات الشرعية وذكرنا مثالين على ذلك.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ قال المفسر: [برهان] ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ أتاهم هذه صفة لسلطان، والسلطان يقول المؤلف: هو البرهان، وذكرنا في ما سبق أن السلطان ما يكون به سلطة سواء كانت مسألة تحتاج إلى دليل، أو سلطة تدبير كالسلطان الأعظم وما أشبه ذلك، أو قوة وقدرة كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

المهم: أن السلطان ما يكون به سلطة للإنسان وفسره بكل مكان بحسبه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ هل يعني أنه يمكن أن يجادل الإنسان بالباطل بسلطان؟ لا؛ إذن هذا القيد بيان للواقع، وليس قيدًا احترازيًّا، بل هو قيدٌ مبين للواقع، أن كل من جادل في آيات الله فإنه مجادل بغير سلطان، ولا يمكن أن يأتيه سلطان في ذلك.

وقوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن يقول المفسر: [ما] يعني: ﴿إِن﴾ نافية وذلك أن ﴿إِن﴾ في اللغة العربية لها عدة معانٍ مشتركة بين عدة معاني، وما أكثر الكلمات التي يكون لها

عدة معانٍ! ولكن ما الذي يعين المعنى؟ السياق وقرائن الأحوال، ومن ذلك أنك متى وجدت إثباتًا بعد إن فهي نافية ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ وهلم جرًّا، فمتى وجدت الإثبات في سياق (إن) فاعلم أنها نافية ويأتي بقية الكلام على معانيها، لكن هنا يقول: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ قال: في صدورهم والذي في الصدور هو القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، وإذا تكبر القلب ـ والعياذ بالله ـ تكبر البدن، وإذا ذل القلب لله ذل البدن قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب»[1]، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ومثَّل أبي هريرة رضي الله عنه ذلك بالملك له جنود يأمر الجنود فيأتمرون، ولكن شيخ الإسلام بن تيمية قال: إن تمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغ، لكن الملك قد يتمرد عليه الجنود، لكن القلب هل يمكن أن تتمرد عليه الجوارح؟ أبدًا لا يمكن، فجعل الكبر في الصدور أي في القلوب، لأن الصدور محلها ﴿إِلَّا كِبۡرٌ﴾ [تكبر وطمعٌ أن يعلو عليه].

وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ هذه الجملة الظاهر أنها مستأنفة وليست صفة لكبر ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ ولهذا نقول إذا قرأت فقل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾، هذا الوقف الصحيح، ولا تقف على قوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لأنك إذا وقفت على ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، وقفت قبل تمام الكلام ولكن قل: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ ثم قف وقل: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لأنك إذا وصلت ﴿إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صار جملة ما هم ببالغيه حسب القراءة صفة لكبر، وليس الأمر كذلك، بل هي جملة مستأنفة من الله عز وجل يقول: إنهم لن يبلغوا ما في صدورهم من التكبر عليه، والعلو عليه.

وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أصلها: ببالغينه، لكن أين ذهبت النون؟ ذهبت النون للإضافة؛ لأن النون والتنوين لا يجتمعان مع الإضافة؛ ولهذا قال أحد الناس يصف تباعده مع صاحبه:

كأني تنوين وأنت إضافة فأين تراني لا تحل مكاني

والنون كالتنوين تحذف مع الإضافة.

وقوله: [﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ من شرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم] ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ استعذ بمعني استجر به واعتصم به، فإنه جل وعلا نعم المُعان؛ ولهذا لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تزوجها فقالت: أعوذ بالله منكَ قال: «لقد عذتِ

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

بمَعَاذٍ الحقي بأهلك»[1] مع أنه تزوجها راغبًا فيها، لكن استعاذت بمن لا يمكن أن تخفر جواره أبدًا، قال: «ألحقي بأهلك» لكن استعذ بالله من أي شيء؟ يقول المفسر: [من شرهم]، والأولى أن يكون الأمر أعم أي استعذ بالله من كل مكروه فلا ملجأ للإنسان إلا إلى الله عز وجل ولا عياذًا إلا به، ولا لياذًا إلا به، فهو عز وجل نفرٌّ منه إليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ختم الآية بالسمع والبصر؛ لأن ما يؤذون به النبي ﷺ إما قول فيدركه أو فعل فيدركه البصر، يعني: إن آذوك بالقول، فنحن نسمع، أو بالفعل فنحن نبصر، وهذا من تطمين الرسول صلى الله عليه وسلم.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** الأمر بالصبر، وهو هنا للوجوب، والصبر ثلاثة أنواع كما قال العلماء رحمهم الله:

الأول: صبر على طاعة الله.

الثاني: وصبر عن معصية الله.

الثالث: وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والأول هو الأكمل ثم الثاني ثم الثالث؛ الصبر على طاعة الله أن يفعل الإنسان الطاعة على الوجه الذي شرعه الله عز وجل بدون تضجر، وبدون تكره، بل هو مستسلم لها غاية الاستسلام هذا الصبر على طاعة الله، الصبر عن معصية الله أن يحبس نفسه عن مباشرة المعاصي، فلا يفعلها، فليصبر ولو شق عليه ذلك، والثالث الصبر على أقدار الله يعني: على ما يقدره الله عليك من البلاء في بدنك أو عقلك أو فكرك أو أهلك أو مالك أو مجتمعك يسكت ويحبس نفسه عن التسخط بالأركان أو اللسان أو الجنان؛ التسخط بالجنان أن يكون في قلبه نوع اعتراض على الله عز وجل، لماذا قدر علي كذا ولم يقدر على فلان؟ ولماذا ابتلاني الله؟ ثم بعد ذلك ربما يكفر نسأل الله العافية كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾، والتسخط باللسان أن يدعو بالويل والثبور وما أشبه ذلك من دعوى الجاهلية، والتسخط بالأركان بضرب الخدود وشق الجيوب وما أشبه ذلك، ففارق الصبر على طاعة الله يتضمن حبس القلب واللسان والجوارح.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير المعارضين له؛ لأن الله وعده بالنصر، وخذلان أعدائه ومعارضيه؛ لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وكما أن فيه تسلية له، فيه أيضًا تحذير لأعدائه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن وعد الله سبحانه وتعالى لابد أن يقع؛ لقوله: ﴿حَقٌّ﴾ والحق هو الثابت الواضح، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وذلك لتمام قدرته وصدق وعده أنه لا يخلف الميعاد؛ لأن إخلاف الوعد ناشئ عن كذب الواعد أو عن عجزه عن الوفاء به، وكل ذلك محال في حق الله عز وجل.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الاستغفار؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ والخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإذا جاز الذنب على الرسول وهو أشرف الرسل فعلى غيره من باب أولى.

فإن قال قائل: أليس الأنبياء معصومين عن الذنوب؟

فالجواب هذه الآية وأمثالها تدل على أن الجواب بالنفي، لكنهم يفارقون غيرهم في ذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنهم معصومون من الكذب والخيانة وما أشبه ذلك مما يؤثر على الرسالة.

والوجه الثاني: أنهم معصومون عن كل ذنب يُخل بالشرف.

والثالث: أنهم معصومون من الإقرار على الذنوب، لابد أن ينزهوا عليها حتى يوفقوا للتوبة منها فهذه فروق ثلاثة بينهم وبين غيرهم الناس. أما غيرهم من الناس فإنهم ليسوا معصومين مما يخل بالشرف ولا مما يخل بالأمانة، وليسوا معصومين من الإصرار على المعاصي.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الأمر بالتسبيح بحمد الله صباحًا ومساءً؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فإن كان المراد بذلك الصلوات الخمس، فالأمر هنا للوجوب، وإن كان المراد به التسبيح الذي هو الذكر المعروف، فإن الأمر هنا للاستحباب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

١ - **في هذه الآية فيها فوائد منها:** بيان حال الذين يجادلون في آيات الله، وأنهم ليس لهم دليل لما يجادلون به، ثم إن الجدال في آيات الله ينقسم إلى قسمين: جدال لإثبات الحق، وإبطال الباطل فهذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وجدال بالعكس لإثبات الباطل وإبطال الحق، وهذا هو المذموم، وعليه تتنزل مثل هذه الآية الكريمة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات آيات الله عز وجل، وهي كما قلنا في التفسير

شرعية وكونية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الحامل لهؤلاء المجادلين هو الكِبْر والتعلِّي؛ لقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن هؤلاء لن يبلغوا مرادهم بما يجادلون به؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ وقد أشار الله تعالى في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، فتأمل هذه العبارات القوية بل نقذف بالحق على الباطل، قذف وهو الرمي بشدة فيدمغه أي: يصله إلى أم دماغه، فإذا هو زاهق أي: فيموت في الحال؛ لأن إذا فجائية، وإذا الفجائية تدل على مفاجأة الشيء وهذا يدل على أن الحق غالب للباطل ولا محالة.

فإن قيل إننا نجد المجادلة من الكفار أحيانًا لا تُدفع، يعجز الإنسان عن دفعها.

فنقول: نعم هذا ربما يكون، لكن ليست العلة من الحجة، بل من المحتج العلة ليست من الحجة الحجة قائمة والحق غالب، لكن العلة من المحتج، قد يكون قليل العلم؛ ولهذا لا ينبغي أن تدخل في مجادلة غيرك إلا ومعك علم، وقد يكون قاصر الفهم لا يفهم هو عنده علم، ولكنه لا يفهم، وقد يكون سيئ القصد يريد الغلبة فقط انتصارًا لقوله لا انتصارًا للحق، وهذا يخذل، وقد يكون لعيِّه، ومعني العيِّ: أنه ليس عنده من البيان والفصاحة ما يؤدي إلى الغلبة؛ لأن البيان والفصاحة لها تأثير كبير في إثبات الحق؛ فلقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «إن من البيان لسحرًا»(١)، فهذه الأمور الأربعة هي التي تجعل الباطل يعلو ظاهرًا على الحق، والأربعة هي: إما قلة العلم، أو سوء القصد، أو قصور فهمه، أو العي يعني: التعبير عما في نفسه، هذه الأربعة هي التي تجعل من الباطل منارًا يعلو ظاهرًا على الحق، وأما الحق نفسه فلا يمكن إطلاقًا أن يغلبه الباطل.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكبر سبب لكل شر؛ ولهذا لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ونوع هذا الكبر الذي في هؤلاء المجادلين هل هو بَطَرُ الحق أو غمط الناس أو كلاهما؟ كلاهما هذا الكبر والعياذ بالله جمع نوعي الكبر وهو غمط الحق ورده والثاني: ازدراء الناس، بطر الحق وغمط الناس.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تثبيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ بقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: تيئيس هؤلاء المجادلين أنهم لن يبلغوا مرادهم.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**، أن الاستعاذة بالله في مقام الله المجادلة مشروع؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، وذلك لأن المجادل سيورد من الشُّبه ما يخشى أن تؤثر عليه، فإذا استعاذ بالله

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

واعتصم به أنجاه الله من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ في المجادلة أمر بالاستعاذة بالله، وعند الحكم أمر بالاستغفار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]، وذلك لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين تبين الحق، وأما في مقام المجادلة، فالإنسان محتاج إلى من يلتجئ إليه ويعتصم به؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة** إثبات السمع لله عز وجل، لقوله: ﴿إنه هو السميع﴾، وإثبات البصر؛ لقوله: ﴿البصير﴾، والسمع ذكر العلماء رحمهم الله أنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدراك المسموع.

والثاني: الاستجابة.

فأما إدراك المسموع فيرد بمعاني متعددة:

الأول: بيان سعة سمع الله عز وجل، مثاله قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]؛ ولهذا قالت عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)[1].

الثاني: التهديد في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

الثالث: التأييد، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

أما السمع الذي بمعنى الاستجابة، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مجيب وكقول المصلي (سمع الله لمن حمده) أي استجاب لمن حمده.

وأما البصير فلها معنيان:

المعني الأول: المدرك ببصره كل شيء، فيكون بمعني الرؤية.

والثاني: العلم يعني: أنه عليم بكل شيء.

١٠ - **وفي الآية الكريمة من الفوائد أيضًا**: إثبات السمع والبصر معًا، وهو أدل على الكمال من انفراد أحدهما، وذلك بأن المجادل قد يقول، وقد يفعل فهدده الله عز وجل بهذا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن المستعيذ بالله، إما أن يستعيذ من أقوال، وإما أن يستعيذ من أفعال.

(١) أخرجه البخاري معلقا ووصله النسائي (٣٤٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

قال الله تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧، ٥٨]

التفسير

قال الله وتعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللام هنا لام الابتداء وتفيد التوكيد، و(خلق) مبتدأ، و(أكبر) خبر المبتدأ.

(السموات) هي السبع الطباق، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وقد جاءت السنة بأنها سبع تصريحًا كما في قول النبي ﷺ: «من اقتطع من الأرض شبرًا طَوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»(١) وأومأ القرآن في ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لأن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون في الصفة؛ لظهور الفرق بين السموات والأرض، لكنها مثلها في العدد.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: إيجاد الناس ابتداءً أو إعادة؟ ابتداءً وإعادة، فإيجاد السموات والأرض أكبر من إيجاد الناس ابتداءً وإعادةً يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول المؤلف رحمه الله: [ونزل في منكري البعث لخلق السموات والأرض ابتداءً أكبر من خلق الناس مرة ثانية] فقيَّد خلق الناس بالمرة الثانية، وللإعادة بناءً على أن الآية نزلت في منكري البعث.

والصواب: أن الآية نزلت في ما هو أعم نزلت في منكر البعث وفي بيان قدرة الله وعلى هذا فنقول خلق السموات والأرض ابتداءً أكبر من خلق الناس ابتداءً وإعادة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، قال المفسر: [أي: كفار مكة لا يعلمون] وفي هذا التفسير قصور لأن أكثر الناس أعم من كونهم من مكة أو غيره أكثر الناس لا يعلمون لماذا لا يعلمون؟ لأنهم لا يتفكرون في خلق السموات والأرض فهم جاهلون لا يعلمون ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾ هذان مثلان بينهم الله عز وجل الأول الأعمى والبصير، هل يستويان؟ لا وأحد من الناس يقول: إنهما يستويان ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء يعني إذا تقرر أنه لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ولا المسيء لا يمكن قال المؤلف: فهم أي الذي لا يهتدون كالأعمى ومن يعلمه كالبصير جاء بذلك المؤلف توطئة لبيان مناسبة الآية لما قبلها، ولكن قد يقال أنها استئناف بيان الله بها أنه لا يستوي هؤلاء وهؤلاء ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: لا يستويان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [وهو المحسن ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾] فيه زيادة اللام وكأن التقدير على المؤلف ولا الذين آمنوا وعلموا الصالحات ولا المسيء، وهذا المعني واضح، لكن قوله: [وهو المحسن] يعني أن الذي آمن وعمل الصالحات محسن؛ لقوله صلى الله عليه وسلم «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بالقلب وعملوا الصالحات بالجوارح، وذلك أن الإيمان متى وقر في القلب صدقته الأعمال.

وقوله: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وصف لموصوف محذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح ما اجتمع فيه أمران: الأول الإخلاص لله عز وجل، والثاني المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فبفقد الأول يكون الشرك، وبفقد الثاني تكون البدعة، والله سبحانه وتعالى لا يقبل عملًا أشرك فيه معه غيره، ولا يقبل بدعة ابتدعها أحد في دينه؛ قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٢)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٣).

إذن فلابد من إخلاص لا شرك معه، ومتابعة لا ابتداع معها، وبذلك يكون العمل صالحًا، ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ يعني: فاعل السيئات والسيئات، هي إما تفريط أو إفراط، إما تفريط بالنقص والقصور، وإما إفراط بالزيادة وكلاهما إساءة.

ثم قال عز وجل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتعظون بالياء والتاء] أي: تذكرهم قليل جدًا.

قوله: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون وهي فيها قراءتان يتذكرون وتتذكرون، وكلاهما صحيح سمعية ثم أشار المؤلف إلى إعراب هذا التركيب، وهو كثير في القرآن فقال رحمه الله: [أي تذكرهم قليل جدًا]، وعلى هذا تكون (ما) مصدرية أي: تذكرهم تذكر قليل، ولكن الذي يظهر أن (قليلًا) صفة لموصوف محذوف مفعولًا مطلقًا أي: يتذكرون تذكرًا قليلًا، وما هذه زائدة لتوكيد القلة يعني: قليلًا، وعلى هذا تكون الجملة مركبة من فعل وفاعل ومفعول مطلق الذي هو قليلًا؛ لأنه صفة لمصدر محذوف ومن ما الزائدة للتوكيد.

---

(١) هذا حديث جبريل المشهور رواه عمر بن الخطاب وأبي هريرة وأبي ذر وغيرهم رضي الله عنهم وهو في مسلم وكذا البخاري.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

الفوائد:

يقول عز وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات أن السموات والأرض أعظم من البشر وهذا واضح، بل إن البشر جزء من الأرض؛ لأنهم خلقوا من طين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقامة الحجة على منكر البعث لأنكم إذا أقررتم أن الله خالق السموات والأرض لازمكم أن تقروا أن الله قادر على خلق الناس لأن من قدر على الأعظم فهو على ما دونه أقدر، وقد أقام الله أدلة كثيرة على إثبات البعث منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو الضمير يعود على الإعادة أهون عليه من الابتداء، وهذا شيء معلوم بالحس والعقل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث، وجه الدلالة من قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن المقصود من الآية تقرير البعث.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس في غفلة وجهل؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فاحرص على ألا تكون من هؤلاء الذين لا يعلمون.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العلم في الناس قليل؛ لأنه إن كان أكثرهم لا يعلم لازم أن الذي يعلم هو الأقل، فإن قال قائل: هل المراد نفي العلم أو نفي الفائدة فائدة العلم؟ يقال: المراد الأمران؛ فأكثر الناس في جهل، وأكثر الناس وعندهم علم لم ينتفعوا بعلمهم ولم يستفيدوا منه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** ضرب الأمثال، وهو إلحاق المعقول بالمحسوس، وجه ذلك: أن انتفاء الاستواء في الأعمى والبصير أمر معلوم بالحس، وانتفاء استواء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء أمر معلوم بالعقل.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمعلم الناس، أن يربط المعقولات بالمحسوسات؛ لأن ذلك أقرب إلى الفهم، وأدعى إلى التصديق؛ إذ إن المحسوس لا ينكر، لكن المعقول قد يكابر فيه من يكابر وينكره.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** نفي المساواة بين الأمور المختلفة، وهذا من قواعد الشريعة أنها لا تساوي بين مختلفين ولا تجمع بين مفترقين.

٤ ـ **ومنها**: أن من الناس من يطنطن ويقول: إن الدين الإسلامي دين مساواة، وهذا خطأ؛ الدين الإسلامي دين العدل، وليس دين المساواة، الذين يقولون: إنه دين المساواة يريدون أن يتحولوا من هذا إلى التسوية بين الرجل والمرأة، وبين الشريف والوضيع، وهذا خطأ، فإن الله تعالى جعل لكل إنسان ما يليق به شرعًا وقدرًا؛ ولهذا لم يأتِ حرف واحد في القرآن فيه أن الناس سواء أبدًا، فأكثر ما يوجد في القرآن نفي المساواة، لكن العدل جاء في العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وذلك؛ لأن العدل يعني أن ينزل كل إنسان منزلته، فإذا استوى إنسانان في منزلة ساوينا بينهما في الحكم، وإذا اختلافا فرقنا بينهما والعجب أن كثيرًا من كتب المتأخرين يقولون بذلك، وهذا أمرٌ قد يدعو أيضًا إلى التسوية بين المؤمن والكافر؛ لأن كل منهما إنسان بشر، لكن إذا قلنا: العدل صار الكافر لا يمكن أن يلحق بالمسلم؛ لأن ذلك جور وظلم في حق المسلم، وغلو إفراط في حق الكافر.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: فضيلة الإيمان والعمل الصالح، وسوء العمل السيئ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كثيرًا من الناس لا يتذكرون إلا قليلًا؛ لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن في هذه الآية شاهدًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

❁ **قال الله تعالى**:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٥٩، ٦٠]

❁ التَفْسِيرُ ❁

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين هما: إن واللام، ثم أُكد هذا التأكيد بقوله وهو تأكيد معنوي أيضًا والأول تأكيد لفظي: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ (ريب) شك فيها أي في إتيانها ووقوعها، والمراد بالساعة اليوم الذي يُبعث فيه الناس، وسمي

ساعة؛ لأن الناس يطلقون الساعة على الأمر الذي يدهى الناس، ويفجعهم حتى لا يشعرون به، والريب فسره المؤلف: بالشك وهو تفسير قريب، لكنك تجد فرقًا يسيرًا لطيفًا بينهما - أي بين الريب والشك - وهو أن الريب شك باضطراب وتردد، فقول القائل: ارتاب ليس بالتحديد كقوله: شك، فالارتياب يحمل قلقًا واضطرابًا، فهو إذن أخف من الشك، فكل ريب شك وليس كل شك ريبًا، لكن العلماء رحمهم الله يفسرون الشيء بما يقاربه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمنون بماذا؟ بإتيان الساعة؛ ولهذا أؤكد لهم إتيانها، ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون بها كان أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيمان بالساعة له أثر عظيم في تحقيق الإيمان، فإن من لم يؤمن بالساعة لا يعمل، لأي شيء يعمل؟ وهو لا يؤمن بيوم الحساب، ومن آمن بيوم الحساب كان حريصًا على أن ينجوَ من وبال هذا اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لما ذكر الساعة ذكر ما يكون به الوقاية من وبالها وهو دعاء الله فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾، وأتي بالجملة بصيغة الغيبة تعظيمًا له عز وجل قال ربكم ولم يقل: أقول أو قلنا أو ما أشبه ذلك؛ تعظيمًا لله.

وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿ادْعُونِي﴾ أمر، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ جوابه، جواب الطلب، والدعوة هنا تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فدعاء المسألة أن يقول الإنسان: يا رب اغفر لي، ودعاء العبادة أن يتعبد لله سبحانه وتعالى بما شرع، وإنما كانت العبادة دعاء؛ لأنها متضمنة لطلب الإنسان النجاة من النار ودخول الجنة أليس كذلك؟ بلى، لو سألت كل عابد لماذا تعبد الله؟ قال: أريد أن أنجو من النار وأدخل في رحمة الله؛ إذن فهو متضمن لدعاء بلسان الحال.

وقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ نفسرها في مقابل دعاء المسألة بـ (أعطكم ما سألتم) ونفسرها بدعاء العبادة بالقبول يعني: (أتقبل منكم) فاستجابة الله تعالى لدعاء المسألة أن يعطي السائل ما سأل، واستجابته لدعاء العبادة أن يتقبل من العابد، قال المفسر: [أي اعبدوني أثبكم بقرينة ما بعدها] وهذا التفسير يعتبر تفسيرًا قاصرًا، وأما ما بعده فليس قرينة لتخصيصه بهذا، بل نقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، تدل على أن الدعاء عبادة؛ لأنه قال: ادعوني ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ولا شك أن الذي يستكبر عن دعاء الله ويرى أنه غني عن الله وليس محتاج إليه لا شك أنه مستحق لهذا الوعيد وهو أنه سيدخل جهنم داخرًا.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ هذا من جملة المطلوب [سيدخلون بفتح الياء وضم الخاء وبالعكس] يُدخَلون وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان.

وقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم للنار، وهو اسم معرب وأصله على ما قيل كهنام وقيل: بل هو عربي والنون فيه زائدة، وأصله من الجهمة يعني: من الظلمة، وأيًا كان فهو علم عن النار.

وقوله: ﴿داخرين﴾[صاغرين] فالداخر هو الصاغر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

١ - **من فوائدها:** ثبوت قيام الساعة ثبوتًا مؤكدًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** التحذير من إهمال هذه الساعة، وعدم العمل لها؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بالبعث؛ لأنه خبرٌ من الله مُؤكَّد، وكل أخبار الله تعالى صدق، وكل وعد الله حق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن الارتياب في هذه الساعة؛ لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون خبرًا مجردًا للتأكيد، ويحتمل أن يكون خبرًا بمعنى النهي؛ أي: فلا ترتابوا فيها، ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ فإن فيه تفسيرين: الأول: أنه خبر محض، والثاني: أنه خبرٌ بمعنى النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الساعة وينكرونها، يقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، ويقولون أيضًا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على كلمة مشهورة؛ بل إبطال الكلمة المشهورة، وهو: أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مثواه الأخير، فإن هذه الجملة باطلة؛ لأن القبر ليس المثوى الأخير، المثوى الأخير: هو الجنة أو النار، أما القبر فإنه زيارة مَعبَر، كما أن الدنيا مَعبَر كذلك القبر معبر، ولهذا سمع أعرابيًا قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال الأعرابي: والله ما الزائر بالمقيم، وإن هناك شيئًا وراء القبور، من أين استنبط؟ ﴿زُرْتُمُ﴾ الزائر يبقى مدة، ثم يرحل، إذن إذا سمعنا من يقول: إن هذا دُفِن في مثواه الأخير أو ما أشبه ذلك فإننا نُنكِر عليه، ونقول: اعدل عن هذه الكلمة؛ لأن الكلمة مضمونها لو اعتقده القائل لكان كافرًا.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات القول لله عز وجل، وهذا القول هل هو قولٌ نفسيٌّ لا يظهر، أو هو قولٌ ظاهرٌ؟ الثاني، لأن القول النفسي إذا أُريد قُيِّد، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ فإذا أُطلِق القول صار المراد به: الكلام المسموع، وهذا قول السلف وأئمة الخلف أن الله يتكلم ويقول بقولٍ مسموعٍ وبحرف؛ لأن ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ هذه كلمات مركبة من حروف أو لا؟ إذن يتكلم بحرف وصوت عز وجل.

وقول من قال: إن كلام الله هو: المعنى القائم بالنفس، وأن ما يُسمَع عبارة عن كلام الله، خلقه الله ليسمعه الناس، وإلا فإن كلامه في نفسه فقط، وهذا قول باطل؛ لأننا إذا فسَّرنا القول بهذا صار معناه: العلم وليس القول.

والآن نريد أن نقارن بين قولين: قول يقول: ما في المصحف فهو كلام الله مخلوق، وقول آخر يقول: ما في المصحف فهو عبارة عن كلام الله مخلوق؛ أيهما أقرب إلى الصواب؟ الأول، الأول: قول الجهمية والمعتزلة، والثاني: قول الأشاعرة، فتبيَّن الآن أن قول المعتزلة والجهمية في كلام الله خيرٌ من قول الأشاعرة مع أنهم يدَّعون - يعني: الأشاعرة - أنهم من أهل السنة والجماعة، فكيف يكون هذا؟ إذن نُثبِتُ من هذه الآية: القول لله، والقول لا يكون إلا بنصٍّ مسموع وبحروف.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان عظمة الرب وتعاظمه، من قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ فإن هذه الصيغة تدلُّ على عظمة القائل عز وجل.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الربوبية لله، وهي تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة الشاملة للخلق، وهي: تربية الخلق بالنعم وتغذيتهم بالنعم، والخاصة هي: تربية عباد الله المؤمنين؛ حيث ربَّاهم الله عز وجل على ما يحب، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن السحرة سحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أيهما العامة؟ الأول: رب العالمين، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب دعاء الله، أو استحباب دعاء الله؟ وجوبه، من قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لأنها تتضمَّن: لا تدعوا غيري.

٥- **من فوائد الآية الكريمة**: أن الله تكفَّل ووعد الداعي بأنه مُجابٌ، لقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: ندعوا كثيرًا ولا نرى إجابة، ونعمل كثيرًا ولا نُحِسُّ بقبول، فما الجواب؟ الجواب: أن نقول: الأسباب لا تؤثِّر إلا إذا وَجَدَت محلًّا قابلًا، أرأيتم السكين إذا قَدَدتَ بها اللحم ينقطع أو لا؟ ينقطع، إذا قَدَدتَ بها الحديد لا ينقطع، مع أنها في اللحم بتَّارة ومع الحديد لا تعمل شيئًا، فالسبب لابد أن يكون له محلٌّ قابل وإلا فلا أثر له، ففي العبادة يعبد الإنسان ربَّه ولا يشعر بقبول لوجود سبب يمنع ذلك؛ إما فوات شرط، أو ركن، أو واجب، أو حدوث مُفسِد، وإلا لو أنَّا أقمنا العبادات على ما طُلِب منَّا لوجدنا لها أثرًا ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ من منَّا يشعر إذا صلَّى بكراهة الفحشاء والمنكر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلماذا لا نشعر بهذا؟ لأننا مُقصِّرون في الدعاء، دائمًا ندعو الله عز وجل ولا نرى إجابة، فنقول فيما قلنا في الأول: إن السبب لابد له من محل قابل، فإذا دعا الإنسان ربَّهُ لكن قد فاته شيءٌ من آداب الدعاء الواجبة، أو المستحبة، أو وُجِد مانعٌ يمنع من قبول الدعاء فليس الخلل

في الدعاء؛ بل الخلل في الداعي والمحل.

ولنضرب مثلًا بإنسان دعا وهو لا يشعر بالافتقار إلى الله عز وجل، ولا يشعر بالاضطرار إلى الله، فهذا دعاؤه ناقص جدًّا، إذا قلت: ربِّ اغفر لي مثلًا، لابد أن تشعر أن هناك ذنوبًا تحتاج إلى المغفرة، وأنك في أشد ما يكون من الضرورة إلى مغفرة هذه الذنوب؛ لأن هذه الذنوب إذا لم تُغفَر فيا ويلك، ذنبٌ مع ذنب يكون كبيرة، ولهذا نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مُحقَّرات الذنوب، وقال: «إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَومٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ، فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا، وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً»(١) مع أن الواحد منهم أتى بعود واحد، فالمهم: أنك لابد أن تشعر حين الدعاء أنك في غاية الضرورة إلى الله عز وجل.

ثانيًا من الآداب التي فقدُها سببٌ لمنع الإجابة: أن يكون عندك شكٌّ في قبول الله عز وجل لدعائك، أو لإجابة الله لدعائك؛ مثل: أن تستعظم المدعو به تستعظمه تقول: هذا ليس بحاصل، فهذا غلط، هذا مما يمنع الإجابة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قول القائل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ» وقال: «لِيَعْزِمَ المَسْأَلَةَ، وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

كذلك أيضًا من أسباب منع الإجابة: أن يدعو الإنسان بإثم أو قطيعة رحم، فيدعو بإثم؛ مثل: أن يدعو على شخصٍ لا يستحقُّ الدعاء عليه، فهذا إثمٌ، كأن يدعو على وليِّ أمرٍ أساء في مسألة من المسائل، فيقول: اللهم لا تُوفِّقه، وما أشبه ذلك، إذا رأيتَ وليَّ أمرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا أخطأ، فليس علاجُهُ: أن تقول: اللهم لا تُوفِّقه؛ بل يجب أن تقول: اللهم وفِّقه يَصلَح ويُصلِح الله به، هذا من الاعتداء في الدعاء الذي لا يُقبَل، من الاعتداء في الدعاء: قطيعة الرحم، أن تدعو بقطيعة رحم أيضًا لا يُقبَل.

دعاء الظالم على مظلوم لا يُقبَل؛ لأنه إثم.

رابعًا: من موانع القبول: أكل الحرام؛ لأن النبي ﷺ ذكر الرجل يُطِيلُ السفر، أشعثَ أغبرَ، يمُدُّ يديه إلى السماء: «يَا رَبِّ، يَا رَبِّ» كل هذه الوجوه الأربع من أسباب إجابة الدعاء «وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ» قال النبي ﷺ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(٢) هذه كلها تمنع أو تحول بين الإنسان وبين قبول دعائه، واستجابة الله له، فإذا لم يوجد موانع، وكان المحل صالحًا وقابلًا بقي ما فوق ذلك السبب، الآن وافٍ ومتوافٍ لكن بقي شيءٌ وراء ذلك، وهو: مشيئة الله عز وجل، قد يدفع الله عن الإنسان من الشر ما هو أعظم مما طلب، وقد يُجِيبُ ما طلب، وقد يدَّخِر ذلك له أجرًا يوم القيامة، كما جاء في الحديث، وإلا فنحن واثقون غاية الثقة من صدق

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأنه لابد أنْ يكون.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذين يستكبرون عن عبادة الله سيدخلون جهنم على وجهِ الذل والصَّغار، لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٧- **ومن فوائدها**: أن الجزاء من جنس العمل؛ يعني: العقوبة تقابل الجرم؛ لأنهم لما استكبروا في الدنيا أُدخِلوا النار صاغرين في الآخرة ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات النار، لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

٩- **ومن فوائدها**: أن الدعاء من العبادة، لقوله: ﴿ادْعُونِي﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦١ - ٦٣]

التفسير

ثم قال الله تعالى مُبيِّنًا نفعه على عباده: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، ونصبت مفعولين: الأول: الليل، والثاني: لفظي، والجَعْل هنا جَعْلٌ قَدَري وليس جَعْلًا شرعيًّا.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ اللام هنا هل للتعدية أو للتعدية مع التعليل؟ الجواب: الثاني، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام للتعليل، والسكون ضد الحركة، وضد العمل، وهو شامل لسكون الجوارح، وسكون القلب، وسكون النفس، ولهذا يجد الإنسان إذا تعب ثم نام يجد أن نشاطه يستجِدّ ويزداد.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: وجعل النهار مُبصِرًا هذه معطوفة على الليل؛ أي: جعل النهار مُبصِرًا، وإسناد الإبصار إلى النهار؛ لأنه موضعه؛ أي: موضع أبصار الناس، ولهذا قال المُفسِّر: [إسنادُ الإبصارُ إليه مجازيٌّ؛ لأنه يُبصَر فيه] فهو زمنُ الإبصار، النهار محل عمل وبصر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أكَّد الله سبحانه وتعالى كونَه ذا فضلٍ على الناس بـ

(إنَّ) واللام، وذو بمعنى: صاحب ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فضل بمعنى: إفضال، فالله سبحانه وتعالى هو المُتفضِّل على العباد، ومنه – أي: من فضله – جعل الليل سكنًا، والنهار مُبصِرًا.

وقوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عامة تشمل المؤمن والكافر، وهذا هو الواضح؛ لأن الليل سكنٌ للمؤمنين والكافرين، والنهار مبصرٌ للمؤمنين والكافرين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يعني: مع كون الله ذا فضلٍ على الناس أكثرهم لا يشكرون – والعياذ بالله –، أكثرهم كافر، ولهذه الآية نظائر؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ولقد جاءت السنة بمثل ذلك؛ حيث أخبر النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُنَادِي يَومَ القِيَامَةِ: يَا آدَمَ ! أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثَ النَّارِ، فَيُخْرِجَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعٍ وَتِسْعِينَ»(١) كلهم في النار، من ألفٍ واحدٌ ينجو، والشكر هو: الاعتراف للمُنعِم بالنعمة بالقلب، واللسان، والجوارح، قال الشاعر:

أفـــادتكم الـــنعماء منـــي ثلاثـــة ... يـدي ولـسـاني والـضمير المحجبـا

يعني: أنكم ملكتم مني ثلاثة بسبب نعمائكم، أما الشكر بالقلب فهو: أن تعترف بقلبك أن كل نعمة بك فإنها من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، وأكبر النعم نِعم الدين، ثم العقل، ثم يتلوه النعم شيئًا فشيئًا بحسب حاجتها والضرورة إليها، وأما باليد – يعني: بالجوارح – اليد، والسمع، والبصر فاستعمال هذه في طاعة الله، اللسان كذلك، شكر الله باللسان: أن تعترف بلسانك أن ما بك من نعمةٍ فمن الله، وأن تُحدِّث بنعمته عليك، لا فخرًا واختيالًا، ولكن افتقارًا إلى الله عز وجل، واعترافًا بفضله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ثم استعمل هذا اللسان في طاعة المُنعِم، إذن صار الشكر في الحقيقة هو الدين كله؛ القلب، واللسان، والجوارح.

ثم إن الشكر يتبعَّض قد يشكر الإنسان ربَّه على نعمة من النعم دون النعم الأخرى، قد يُنعِمُ الله عليه بالمال فيشكر، ويُنفِق في سبيل الله، وينعم الله عليه بالعلم فيشكر، وقد ينعم الله عليه بالعلم فينشر العلم، وبالمال فينفق، فالشكر يتنوَّع كما أن الكفر يتنوَّع.

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ذا مُبتدأ، واللام للبُعد، والكاف للخطاب، والميم للجمع، ﴿اللَّهُ﴾ هل نقول: إنها بدل، أو عطف بيان من اسم إشارة، أو أنها خبر؟ الظاهر: الأول، ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر المبتدأ، و﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبرٌ آخر؛ لأن الخبر يتعدَّد؛ إذ إن الخبر وصفٌ للمُخبَر عنه، وإذا كان وصفًا له فالأوصاف يجوز أن يتعدَّد، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كم خبر عندنا؟ الغفور، الودود، ذو العرش، المجيد، فعَّالٌ،

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

خمسة أخبار، الخبر يتعدَّد؛ لأن الخبر وصفٌ للمُخبَر عنه، فإذا قلت: زيدٌ قائم، معناه: أن وصفه القيام، والأوصاف يجوز أن تتعدَّد على موصوفٍ واحد، إذن نقول: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر ذلكم ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يشذُّ عن هذه الجملة شيءٌ أبدًا كلية عامة، خالق كل شيء من الآيات والأوصاف والأحوال، كل شيء فالله خالقه، العبد مخلوق، أحوال العبد؛ من مرض، وصحة، وعقل، وجنون، وما أشبه ذلك مخلوقة، أفعالُه مخلوقة، كل شيء فإنه مخلوقٌ، الله عز وجل لا يشِذُّ عن هذه الجملة شيءٌ أبدًا حتى العجز والكيس وهو من الأوصاف، العجز -يعني: أن الإنسان يكون غير حازم-، والكيس يكون حازمًا.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما بيَّن أنه خالق كل شيء وأنه لا خالق معه بناءً على هذه الجملة الكلية بيَّن أنه لا إله إلا هو؛ أي: لا معبود بحق إلا الله عز وجل، فكما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يُفرَد بالعبادة.

إله بمعنى: مألوه، وفِعال تأتي بمعنى مفعول في اللغة العربية كثيرًا؛ ومنه: غراس، بناء، فراش، كتاب، لباس، وما أشبهه.

إذا قال قائل: كيف تصح هذه الجملة مع قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فأثبتَ آلهةً دون الله؟ الجواب: تصح هذه العبارة إذا عرفنا الخبر المُقدَّر حقٌّ، لا إله حقٌّ إلا الله، دليل هذا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام هنا للتعجُّب والإنكار، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ [كيف] ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ [تُصرَفون عن الإيمان مع قيام البرهان].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ هذا التركيب يأتي كثيرًا في القرآن، فالكاف اسم بمعنى: مثل، وهو مفعول مطلق للعامل بعده؛ أي: مثل ذلك الإفك يؤفكون، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك، وهو: الإشراك بالله وعدمه في النعم ﴿يُؤْفَكُ﴾ [أي: مثل إفك هؤلاء إفكُ] ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إعرابها على أنها نائب فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كانوا يُنكِرون بآيات الله؛ أي: يكفروا، والجحد هنا بمعنى: الكفر بدليل أنه تعدَّى بالباء، وقول المؤلف: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [معجزاته] هذا لا شك أنه خطأ؛ بل نقول: آيات الله: الدلالات التي تدل على كماله عز وجل واستحقاقه للعبودية، فهي آيات وليست معجزات، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالمخلوقات كلها كونية، آيات تدل على كماله:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّهُ واحدُ

فكل ما في الكون فإنه شاهدٌ بكمال الله عز وجل، وقدرته، وعزته، وسلطانه، وغير ذلك، المهم: أن جميع المخلوقات آيات كونية تدل على خالقها، وعلى حكمته، ورحمته، وغير ذلك من

كمال صفاته، وآيات شرعية، وهي: ما جاءت به الرسل؛ من أحكام عادلة، وأخبار صادقة، وقصص نافعة، التكليفات والأوامر والنواهي كلها عادلة، والأخبار كلها صادقة، والقصص كلها نافعة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** كمال قدرة الله عز وجل بإيجاد الليل والنهار، فإن هذا من عظيم قدرته جل وعلا، هل يستطيع البشر إذا طلعت الشمس أن يرُدُّوها فتغرب؟ أبدًا، وإذا غابت أن يردوها فترجع؟ أبدًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فأقول: الليل والنهار الذي جعله الله للعباد لا يمكن لأحدٍ أن يغيرهما إطلاقًا، ثم إذا نظرنا أيضًا إلى هذا الليل والنهار وتعاقُبِه وولوج بعضه في بعض فهو آية أخرى، أحيانًا يجيء الليل وأحيانًا يجيء النهار، من يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى؟

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تعليل أحكام الله القدرية كما هو ثابتٌ في الأحكام الشرعية؛ يعني: أن الأحكام الكونية لا يمكن أن تكون إلا لحكمة، من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ واللام للتعليل، إذن جعل الله ذلك لنسكن.

ذكرنا أن أحكام الله الكونية مُعلَّلة كأحكامه الشرعية، لكن هل يلزم من تعليلها أن نعلم بالعلة؟ لا يلزم، إن فتح الله علينا ما فتَح من ذلك فهذا خيرٌ منه وفضل، وإن حُرِمنا ذلك بذنوبنا فنحن مُخطِئون، إنما على كل حال ما من شيءٍ إلا وله حكمة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان منة الله سبحانه وتعالى في الليل والنهار؛ حيث جعل الليل سكنًا، وجعل النهار مُبصِرًا، لقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لولا هذا ما سكن الناس، ولذلك تجد الإنسان بطبيعته إذا جاء الليل أحبَّ السكون، ولولا أن في وقت عصرنا هذا شاعت الأنوار، وشاعت الأضواء، وصار الليل كالنهار لوجدتَ للَّيل لذَّةً عظيمة، وقد أدركنا ذلك، تجد لذَّةً ومحبة للسكون، وسكون قلب، وسكون بدن، وسكون نفس، ثم إذا طلع الفجر وإذا هو كالرُّطَب التي تأتي بعد التمر نفرح به، وجاء النهار، الآن ما كأن هناك ليل ولا نهار، ولذلك لا نجد اللذة التي كنا نعرفها من قبل.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ذو فضلٍ على الناس عمومًا، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكيف نجمعُ بين التعميم والتخصيص؟ أن نقول: الفضل نوعان: عام وخاص، فالعام لعامة الناس، والخاص للمؤمنين.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر عباد الله لا يشكرون الله، لقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من قياس الأحكام الشرعية بأعمال العباد؛ بمعنى: أننا إذا قلنا لشخصٍ: هذا حرام، قال: كل الناس يفعلونه، فيجعل المعيار أعمال الناس، وهذا خطأ؛ كل الناس يعملوه ما هي حُجَّة ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، الحُجَّة في ما قال الله ورسوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ سواء كانت الطائفة الأخرى أكثر من التي قبلها أو أقل، إذن لا يجوز أن نجعل أعمال الناس معيارًا للأحكام الشرعية.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب شكر الله عز وجل، والإشارة إلى أن يكون هذا الشكر من جنس الفضل، فما شكر صاحب المال؟ شكرُهُ لربِّهِ أن يُنفِقَهُ في سبيل الله، ما شكر العلم؟ أن يبذُلَه في سبيل الله، ما شكر من أعطاه الله شجاعة وقوة بدنية والجهاد قائم؟ أن يجاهد في سبيل الله، إذن الشكر من جنس النعم؛ لأنه قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ الفضل.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات ربوبية الله عز وجل على كل شيء أنه رب كل شيء، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها**: الإشارة إلى وجوب طاعته وعبادته، لقوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ وإذا كان هو الرب فهو السيد، وإذا كان هو الرب فهو الذي له السلطان، وإذا كان هو الرب فهو الذي له الحق أن يُعبَد، كل ما يُثبِتُ الربوبية فهو دليلٌ على وجوب الألوهية، ولهذا يستدلُّ الله عز وجل على المشركين لكونهم يُثبِتُون الربوبية ويُنكِرون الألوهية، فكل من أثبت الربوبية لزِمَهُ أن يُثبِت الألوهية، إذن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ إذ لا يمكن لأحدٍ أن يعبد الله إلا وهو يعلم أنه ربٌّ أهلٌ للعبادة، ولهذا لو قال لك قائل: هل التوحيدان متلازمان؟ فقل: أما توحيد الربوبية فمُستلزمٌ لتوحيد الألوهية، وأما توحيد الألوهية فمُتضمنٌ لتوحيد الربوبية.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات خلق الله عز وجل لكل شيء، لقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فلو قال قائل: استثنى العقلُ نفسَهُ فليس خالقًا لها، فهل يصح هذا القول؟ لا؛ لماذا؟ لأن نفسه لم تدخل أصلًا؛ لأن هناك فاعلًا ومفعولًا، والفاعل لا يمكن أن يدخل في المفعول حتى يُستثنَى منه، فنحن نقول: إن الربَّ عز وجل لم يدخل في قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لأن الخلق، أو إن شئت فقل: لأن المخلوق بائنٌ من الخالق، فلا يمكن أن يدخل الخالقُ في المخلوق حتى نقول: استثنى العقل، والاستثناء: إخراجُ الشيء من الشيء، وهنا لم يدخل أصلًا.

استدلَّ الجهميةُ والمعتزلة بأنَّ كلام الله مخلوق؛ لأن كلام الله شيءٌ، فيكون داخلًا في العموم.

نقول: إذن يلزمُكُم أن تقولوا: إن الله مخلوق؛ لأن الله شيءٌ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذن قولوا: إن الله مخلوق أيضًا، فإن قالوا: لا يمكن أن نقول؛ لأن الفاعل غير المفعول، قلنا: وصفات الفاعل كالفاعل، الصفاتُ تحذو حَذوَ الذات، فإذا كان الرب عز وجل خالقًا غير مخلوق فصفاته أيضًا غير مخلوقة، فالقرآن ليس بمخلوق؛ لأنه كلام الله، وكلام الله من صفاته، وصفات الله كلها غير مخلوقة.

فإن قال قائل: إن الخلق ثابتٌ للعبد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فأثبت أن هناك خالِقِين، وقال الرسول ﷺ في المُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» فأثبتَ أنهم خالقون؟ فالجواب: أن الخلق الثابت للباري عز وجل ليس كالخلق الذي أُثبِتَ للمخلوق، خلقُ المخلوق للشيء: تحويلُهُ من حالٍ إلى حال وليس إيجادًا، فالنجار إذا صَنَعَ الخشبةَ بابًا؛ هل يقال: إنه خلق الخشبة؟ لا، يقال: حوَّلَها من خشبةٍ إلى باب ولم يخلقها، حتى إذا قلنا: إن صنعه هذا خلق فهو في الحقيقة بمعنى: تغيير وتحويل، وليس بمعنى: الإيجاد، وقد تحدَّى الله عز وجل الأصنام التي تُعبَد من دون الله والتي يُدعَى أنها آلهة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بناءُ توحيد الألوهية على توحيد الربوبية، لقوله بعد ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا هو؛ أي: لا تعبدوا إلا إيَّاه، لقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإنكارُ والتعجُّب على أولئك الذين صُرِفوا عن الحق مع وضوحه وبيانه، لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: أن المُكذِّبين بآيات الله يصدر منهم ما يُقضَى به العجب، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذنوب تحُول بين الإنسان وبين رؤية الحق؛ لأن هؤلاء لما جحدوا بآيات الله صُرِفوا عنها، وهذا واقع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هل أحدٌ يمكن أن يقول: هذا القرآن العظيم أساطير الأولين؟ يقول الله عز وجل: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال السيئة حتى رأوا هذا الحق المُنِير، فجعلوه أساطير، ولهذا يجب أن نُعالِج أنفسنا إذا رأينَا أننا نقرأ القرآن وكأنه حُرُوفٌ تُتلَى نرجوا بركتَها وثوبها، إذا لم تُؤثِّر على القلب باللِّين والخشوع والرجوع إلى الله عز وجل، فإن ذلك دليلٌ على

مرض القلب وربما نقول: على موت القلب، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المؤمنين بآياته، المُتَّبِعين لمرضاته.

قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[غافر: ٦٤]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾.

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره؛ يعني: الله هو الذي جعل لكم الأرض قرارًا، والسماء بناءً.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ هذه من أفعال التصيير؛ أي: صيَّرَ لكم ﴿قَرَارًا﴾ بمعنى: ذات قرار؛ أي: مستقر ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: فوق، وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه سقف، فالله جعل الأرض قرارًا؛ أي: مُستقرة، وهل معنى هذا القرار أنها لا تتحرك، أو أنها لا تميدُ بنا؟ يقال: القرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ فبيَّن أن المراد بالقرار: أنها لا تميدُ بساكنيها؛ أي: لا تضطرب، وليس المعنى: أنها قارَّة لا تتحرك.

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا عاليًا، والمراد بالسماء هنا: السماوات ذات الأجرام، وذلك أن السماء يُطلَق على معنيين: المعنى الأول: العلو، والمعنى الثاني: السماء السقف، والذي يُعيِّن أحد المعنيين هو السياق، فقول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ المراد بالسماء هنا: العلو؛ لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف؛ بل ينزل من العلو، ويدل لذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالسماء هنا بمعنى: ذات السقف، والمطر ينزل من السحاب، فإذا كان مُسخَّرًا بين السماء والأرض اقتضى ذلك ألَّا يكون المطر ينزلُ من السماء ذات السقف، ولكنه ينزل من السماء التي بمعنى: العلو، والذي معنا هنا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ المراد به: السماء ذات السقف.

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم على صورة مُعيَّنة، والصورة هي:

الشكل، فشكل الآدمي هو أحسن شكل في المخلوقات وأحسنه وأقومه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فلا صورة أحسن من صورة الآدمي، ولا شكل أحسن من شكله، ولهذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فبيّن الله في هذه الآية أربعة أشياء: الأرض التي هي محل السكنى، والسماء التي هي محل الظل، والهيكل الإنساني، والإمداد لهذا الهيكل، وهو: قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ رزقكم أي: أعطاكم، والطيبات هنا ما طاب ولذ، واعلم أن الطيب تارةً يُراد به: الحلال، وتارةً يُراد به: الحسن، وتارةً يُراد به: اللذيذ، ويُعيِّن ذلك: السياق، فقول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المراد بالطيب هنا: الحسن، والمراد بالخبيث هنا: الرديء، والمراد بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ المراد بها: الحلال، لقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لأنه لو قيل: المراد: اللذيذ لكان قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لا معنى له، ولا يمكن إقامة الشكر إلا إذا تناول الإنسان الشيء الحلال، والمراد بقوله هنا: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المراد بها: ما طاب ولذ، وإنما قلنا ذلك؛ لأن رزق الله عز وجل بالمعنى العام يشمل الحلال والحرام، ولهذا نقول: إن الإنسان إذا اكتسب مالًا عن طريق الربا مثلًا فإنه مرزوق لا شك لكنه رزقٌ فيه التبِعة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: اسم إشارة مبتدأ وما بعده عطف بيان أو نعت، ورب خبر المبتدأ؛ يعني: هذا الذي أمدَّكم بالأشياء الأربع هو الله لا أحد غيره، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ يعني: أنه جل وعلا ربُّ عباده الذي هو: الخالق، المالك، المُدبِّر؛ لأن الرب يجمع ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبارك قيل معناها: تعالى وتعاظم، وهذا المعنى قريب، لكن فيه أن تبارك أخص من ذلك، ومعنى تبارك أي: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة، ولهذا لا يُطلَق على غير الله بهذا المعنى؛ أي: بمعنى: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ لأن هذا الوصف لا يليق إلا بالله.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربُّ هذه عطفُ بيان أو صفة للفظ الجلالة، والعالمون كل من سوى الله، كل الخلق عالمون، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم عالَمٌ على خالقهم، ففي كل الخلق آيةٌ من آيات الله، كما قيل:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

والربوبية هنا: الربوبية العامة؛ لأنه أضافها إلى العالمين، فهي عامة شاملة.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أن الله تعالى هو خالق الأرض، لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

٢- **ومن الفوائد**: نعمة الله عز وجل علينا بكون الأرض ذات قرار؛ أي: مستقرة لا تميد.

٣- **ومن فوائدها**: أن الأرض لا تتحرك، لقوله: ﴿قَرَارًا﴾ هكذا قال بعض العلماء، ولكن إذا قارنَّا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تبيَّن أن الاستدلال بهذه الآية على أن الأرض لا تتحرَّكُ فيه نظر، فيقال إذن: من فوائد هذه الآية نعمة الله عز وجل علينا لكون الأرض لا تميد بنا ولا تضطرب بنا، ومن ثَمَّ نعرف الحكم على اختلاف الناس اليوم ما بين مُؤيِّد ومُفنِّد: هل الأرض تتحرك أو لا تتحرك؟ فمن المعروف عند علماء الفلك أنها تتحرك، وهذا عندهم بمنزلة الأمور البدَهِيَّات اليقينيات التي لا تقبل الجدل، يقولون: إن الأرض تتحرك وتدور بذاتها دورانًا يختلف به الليل والنهار، وتدور دورانًا محوريًّا به يختلف الفصول، وليس عندهم في ذلك شك، ولا يجادلون فيها.

ومن العلماء من قال: لا، إنها لا تدور؛ بل هي ثابتة قارَّة، وأن اختلاف الليل والنهار إنما يكون بسبب دوران الشمس على الأرض لا بسبب دوران الأرض.

والذي يظهر لي أن القرآن الكريم ليس فيه شيء صريح بأنها تدور أو لا تدور، وهو إلى كونها تدور أقرب من كونها لا تدور؛ لأن نفي الأخص في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يقتضي وجود الأعم، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: إن هذه الآية تدل على ثبوت رؤية الله عز وجل؛ لأن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، نفي المَيَدان يدل على وجود أصل الحركة، لكن الأمر خطير فيما أرى؛ هل الشمس هي التي تدور على الأرض عند الطلوع والغروب، أو لا؟ نحن نعتقد أنها هي التي تدور، ولا مانع أن يكون هناك دوران للأرض ودوران للشمس؛ لأن ظواهر الكتاب والسنة كلها تدل على أن الشمس هي التي تطلع وتغرب، وتميل، وتدور، وتسير، وما أشبه ذلك، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فهذه أربعة أفعال كلها أُضيفت إلى الشمس، والأصل أن ما أضيف إلى الشيء فهو فعله، وقال الله تبارك وتعالى في سورة ص: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾، وقال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ حين غربت الشمس: «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟»(١) قال: الله ورسوله أعلم، فكل هذه الأفعال مضافة إلى الشمس نفسها، فكيف نعدِلُ عن ظاهر هذا اللفظ إلى معنى آخر بدون أمر قطعيٍّ يكون لنا حُجَّة عند الله عز وجل أن نخالف ظاهر كلامه، لكن من تبيَّن له أمرٌ تبيُّنًا واضحًا، ورأى أنه أمر قطعيٌّ يقينيٌّ بدَهيٌّ - كما يقولون -، فإنه يمكن أن تُؤَوَّل بأن نسبة الطلوع إلى الشمس والغروب والذهاب باعتبار رأي العين لا باعتبار الواقع، لكني إلى الآن لم يتبيَّن لي أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٩/٢٥٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

اختلاف الليل والنهار يكون بدوران الأرض؛ بل هو يكون بدوران الشمس، والله على كل شيء قدير.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن السماء مبني، لقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو كذلك، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ إذن فهي أجرام لا شك في ذلك، وهي أجرام محفوظة لا يمكن الولوج إليها إلا بعد إذن، ويدل لهذا: أن أفضل الرسول البشرية محمدًا ﷺ وأفضل الرسل المَلكية جبريل كلاهما لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها إلا بعد استئذان، مما يدل على كمال حفظها.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: منة الله تعالى علينا نحن البشر أن صوَّرَنا هذا التصوير البديع الذي هو أحسن الصور فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة**: تحريم التصوير، يمكن أن نأخذ منها ذلك، فنقول: إن من صوَّر فقد نازع الله تعالى فيما هو من اختصاصه، وهو: الخلق، ولهذا جاء في الحديث يقال للمُصوِّرين يوم القيامة: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1] وهذا هو الصحيح: أن التصوير حرام؛ بل هو من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ لعن فاعله[2]، ولكن هنا ثلاثة أمور: الأول: الصورة التمثالية؛ بمعنى: أن يخلق الإنسان من الطين، أو الخشب، أو الحديد شيئًا على شكل صورة، هذه لا شك في التحريم، ولهذا قال في حديث علي بن أبي طالب الذي رواه مسلم أنه قال لأبي الهياج: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؛ ألَّا تدَعَ قبرًا مُشرفًا إلا سوَّيته، ولا تمثالًا إلا طمَسته[3]، ولا أعلم نزاعًا بين العلماء في تحريم ذلك.

الثاني: ما كان بالرَّقْم؛ أي: التصوير بالرَّقْم؛ بمعنى: أن الإنسان يُصوِّر بيده صورة، فهذه اختلف فيها السلف والخلف؛ فمنهم من قال: إنها لا تحرُم، لقوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»[4] وهذا رَقْمٌ في ثوب فلا يحرم، ولأن هذا ليس شيئًا مُجسَّمًا حتى يُطابق ما خلق الله عز وجل، إنما هو شكل فقط، والصورة التي صوَّرَها الله جسم محسوس ملموس يُشاهَد بالعين، وأما هذا فإنه مُجرَّد تلوين، فلا يدخل في الحديث، ولكن الجمهور داخل في الحديث بدليل النمرقة حديث عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ جاء إلى بيته فلم يدخل من أجل صورة كانت في نمرقة جعلَتْها للنبي ﷺ[5].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠٥) ومسلم (٩٦/ ٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣/ ٩٦٩) من حديث علي رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٨٥/ ٢١٠٦).
(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠٥) ومسلم (٩٦/ ٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا هو الصحيح: أن التصوير برسم اليد حرام وداخل في اللعن، ولا يحلُّ لأحد أن يقوم به.

الثالث: ما كان تصويرًا بالالتقاط وليس باليد، وذلك ما يُعرَف بالتصوير الفوتوغرافي الذي ليس للإنسان فيه أي عمل؛ بل هو شيءٌ يتمثَّل أمام هذا الضوء المُعيَّن فينطبع، وليس للإنسان فيه أي عمل سوى تحريك الآلة التي تقوم بالتقاط هذه الصورة، فهذا مُختلَفٌ فيه اختلافًا كبيرًا بين المتأخرين؛ لأنه لم يظهر إلَّا أخيرًا فاختلفوا فيه، والذي يتبيَّن لي أنه لا يدخل في التصوير؛ لأن هذا لم يخلق بيده كما خلق الله عز وجل، لم يُشكِّل العين، ولا الأنف، ولا الفم، ولا الشفة، ولا أي شيء، غاية ما هنالك أن هذا الضوء انعكس على هذه الصورة فانطبعت، فهو بمنزلة ما لو شاهدتَ المرآة رأيتَ صورتك فيها، إلا أن الفرق: أن هذا يثبت وما في المرآة يزول بزوالك، ولهذا نُسمِّي صورة الناظر في المرآة نُسمِّيها: صورة، وهي بالاتفاق لا تدخل في التصوير المنهِيِّ عنه، لكن يبقى النظر لماذا صوَّر هذا الإنسان؟ يعني: الآن تقرَّر عندي أن هذا التصوير مباح، لكن لماذا صور؟ نقول: نُجرِي على هذا ما نُجرِيه على سائر المباحات، وهو: أنه إذا كان لغرض مقصود، وإذا كان لغرض مُحرَّم فهو حرام، فلو أن إنسانًا صوَّر صورة امرأة أجنبية من أجل أن يتلذَّذ برؤيتها كلما سنَحَت له الفرصة، لقلنا: هذا حرام لا شك، ولو أراد أن يُصوِّر صورةَ عظيم ليُعلِّقها في بيته، لقلنا: هذا حرام، ولو أراد أن يُصوِّر صورة أبيه، أو أخيه، أو عمه، أو صديقه من أجل أن يتسلَّى به عند المصائب، لقلنا: هذا حرام، فيكون هذا المباح حكمه حكم الغرض الذي من أجله صُوِّر، هذا ما يظهر لي حول هذه المسألة، والناس فيها بين متهاون وبين مُتشدِّد، والذي يظهر لي - والله أعلم - هو هذا.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** منَّةُ الله عز وجل برزقه إيَّانا من الطيبات، لقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ذكرنا أن المراد بالطيبات هنا: اللذائذ ليشمل الرزق العام والخاص، وليُعلَم أن الرزق ينقسم إلى قسمين: رزقٌ عام، ورزقٌ خاص، فالعام كل ما ينتفع به الإنسان فهو رزق، كما قال السفَّاريني رحمه الله:

والرزق ما ينفع من حلالٍ وضده ....

وهو الحرام، هذا رزق عام، يستوي فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمكتسب عن طريق الحلال، والمكتسب عن طريق الحرام، وعلى هذا فالمسروق بالنسبة للسارق رزقٌ لكنه رزقٌ وإن تمتَّع به في الدنيا فسيكون عليه وبالًا في الآخرة، أما النوع الثاني من الرزق: فهو الرزق الطيب الحلال، وهذا هو الرزق الخاص، وهو الطيب الحلال، وهو خاصٌّ بالمؤمن، وعلى هذا فالكافر ليس له رزقٌ خاصٌّ إطلاقًا حتى لو اكتسبه عن طريق الحلال فليس رزقًا خاصًّا؛ بل هو داخلٌ في العموم؛ لماذا؟ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢] وغير الذين آمنوا ليست لهم،

ولهذا نقول: الكافر يُحاسَب على كل لقمةٍ أكَلَها، وكل شربة شربها يُحاسَب عليها يوم القيامة؛ بل إن من الخبر أن يُحاسَب المؤمنين على الطيبات إلا بالشروط التي ذكر الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الشروط: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ شروطٌ ثقيلة لِحِلِّ الرزق مع أنه طيب - نسأل الله أن يعيننا على تنفيذ هذه الشروط -، إذن الكافر لا يمكن أن يكون في حقِّه رزقٌ خاص، كل الرزق - وإن كان طيِّبًا - فهو عام بالنسبة له، يُحاسَب عليه، أما المؤمن فينقسم في حقِّه إلى خاص وعام، فما أَثِمَ به فهو من العام، وما لم يأثم به فهو من الخاص.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن ربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة، لقوله: ﴿ذَلِكُمُ﴾ أي: الذي أعطاكم هذه الأشياء الأربع ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة، ويدل لهذا: قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بعدها ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فربوبيته عز وجل مبنية على الرحمة والرأفة.

فإن قال قائل: ينتقض عليكم هذا في الحياة الدنيا من المُنغِّصات التي تؤذي الإنسان وربما تضره، قلنا: هذه بالنسبة للمؤمن رحمة؛ كيف ذلك؟ لأنها مُكفِّرة للذنوب، لا يُصيب المؤمن شيءٌ من همٍّ، أو غمٍّ، أو أذى إلا كفَّر الله به عنه، حتى الشوكة يُشاكُها، إذن فهي رحمة؛ لأنها تُكفِّر السيئات، ومع احتساب الأجر عند الله عز وجل تكون حسنات؛ لأن ترقُّب ثواب الله واحتساب الأجر على الله عملٌ صالح يُثابُ عليه المرء، وهذا الأذى أو هذا الضرر الذي ينال العبد عَرَضٌ يزول، ولهذا لو رجعت إلى الوراء في تفكيرك لوجدتَ أنه مرَّ بك أشياء كثيرة من الأذى، وأشياء كثيرة من الضرر فزالَت وكأنها لم تكن، إذن الثواب الذي حصل، وتكفير السيئات الذي حصل هو خيرٌ من هذه الأذايا وهذه الأضرار، فتكون بذلك رحمة، فلا تخرج عن نطاق الرحمة في الربوبية.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل، لقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد استنبط بعض العلماء من هذا: أن اسم الله عز وجل تُنالُ به البركة، واستشهد لذلك بقوله: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ»[1] وهذا ليس ببعيد، وإن كان فيه شيء من الركاكة.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم ربوبية الله عز وجل، لقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويتفرَّع على ذلك: أنه يجب أن يقوى اعتماد الإنسان على الله في جلب المنافع ودفع المضارِّ؛ لأنه إذا كان رب العالمين عز وجل فهو مسيطر على كل العالمين، وله السلطان على كل العالمين.

---

(١) ضعيف جدا: تقدم تخريجه.

ويتفرَّع على ذلك أيضًا مسألة أخرى، وهي: اللجوء إلى الله عز وجل عند حصول المضايقات من بني آدم، أو غير بني آدم؛ لأنه سبحانه رب العالمين، بيده الأمر، فهو القادر على أن يعصِمَ الإنسان من الأسد الضارم المُهاجِم وإن كان الإنسان لا يستطيعه بمجرد قدرته، لكن الله تعالى قد يصرِفُه عنه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الربوبية العامة، لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهناك ربوبية خاصة، وربوبية أخص، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن السحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إذن ربوبية الله العامة شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والربوبية الخاصة للمؤمنين، والربوبية التي هي أخصُّ للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبهذا نعرف أن من صفات الله ما يكون عامًّا، وما يكون خاصًّا، وأخص.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن كل المخلوقات آية على الله، لقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد قلنا: إنهم سُمُّوا بذلك؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ جملة خبرية تفيد الحصر، وهذا حصرٌ إضافي؛ لأن المراد بالحي هنا: الحي حياة كاملة، أما مطلق الحياة فيكون فيه وفي غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أما الحياة الكاملة فهي لله عز وجل.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا نافية للجنس، ولا النافية للجنس نصٌّ في العموم، وإله بمعنى: مألوه؛ لأن فعالًا يأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية، وله شواهد كثيرة؛ مثل: غراس، وبناء، وفراش، وما أشبه ذلك، إذن إله بمعنى: مألوه، وما معنى مألوه؟ معناه: الذي تألهُهُ القلوب محبةً وتعظيمًا؛ أي: تهواه، وتميل إليه محبةً له وتعظيمًا له، فبالمحبة يكون فعل المأمور، وبالتعظيم يكون ترك المحذور.

وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلّا أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم في المحصور فيه ونفيُه عما سواه، وإذا كان الأمر كذلك بقِيَ فيه إشكال؛ لأنك إذا قلت: لا إله إلا هو، وقلت: إن ذلك للحصر ورَدَ على قلبك، أو أُورِدَ عليك أن هناك آلهة دون الله بنصِّ القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ

عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؟ والجواب عن ذلك: أن يقال: إن خبر ﴿لَآ﴾ محذوف، وتقديره: حقٌّ؛ أي: لا إله حقٌّ إلا الله، وإذا كان هذا هو التقدير لم يرد الإشكال الذي ذكرنا؛ لأن الآلهة التي سوى الله كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وما قرَّرناه هنا في هذه الكلمة - كلمة الإخلاص - هو الذي تطمئن إليه النفس، وإلا فقد اختلف فيها علماء العربية وعلماء التوحيد على أقوال متعددة تبلغ نحو ستة أقوال.

ومما ذُكِر: أن الخبر محذوف تقديره: موجود، لا إله موجود، وهذا لا شك أنه باطل؛ لأنك إذا قلت: لا إله موجود إلَّا الله لزِمَ أن تكون الآلهة التي تُعبَد من دون الله هي الله، لزِمَ أن تكون هي الله، وأن تكون عبادتها حق، وإلهيتها حق، إذن المُتعيِّن ما دل عليه القرآن: أن الخبر محذوف تقديره: حق، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

قال: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قال المُفسِّر: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ [اعبدوه] ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وهذا التفسير يعتبر قاصرًا؛ لأن المراد بالدعاء هنا: دعاء العبادة - كما قال المُفسِّر -، ودعاء المسألة، فالذي يُدعَى دعاء مسألة هو الله، والذي يُدعَى دعاء عبادة هو الله، كأنَّ المؤلف رحمه الله اقتصر على العبادة لقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لأن الدين هو العمل، ولكن يقال: إن الدعاء من العمل، ولابد فيه من الإخلاص، فالصواب: أن قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه واسألوه، فهو دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

إذا قال قائل: دعاء المسألة واضح أنه دعاء، تقول: يا رب اغفر لي، يا رب يسِّر أمري وإخواني من المسلمين مثلًا، هذا دعاء مسألة واضح، لكن كيف كانت العبادة دعاء؟ الجواب: أن العابد يدعو الله بلسان الحال؛ لأنك لو سألتَه: لماذا عبدتَ الله؟ لقال: أرجو ثوابه وأخشى عقابه، إذن فهو داعٍ بلسان الحال.

وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين اسم فاعل، وفعلُه أخلص، ومعنى أخلص أي: نقَّى الشيء من غيره، أخلصه يعني: جعله خالصًا لا شائبة فيه، فمعنى مخلصين أي: مُنقِّين العبادة والدعوة له وحده، وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدين يُطلَق في القرآن الكريم على معنيين: المعنى الأول: العمل، والمعنى الثاني: الجزاء، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لأنه يوم القيامة ليس هناك عمل، فيوم الدين يعني: يوم الجزاء، والمراد به هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العمل أم الجزاء؟ العمل؛ أي: مخلصين له عملكم، وهو الدعاء.

وقوله: [من الشرك] متعلِّق بـ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ أي: مُنقِّين له من الشرك؛ بحيث لا يكون في عملكم إشراك.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه جملة تتضمَّن الثناء على الله عز وجل بعموم ربوبيته، والحمد مصدر حَمِدَ يحمَدُ حمدًا، وهو - أعني: الحمد -: وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم، فقولنا: وصف المحمود بالكمال خرج به القدح؛ لأن القدح وصف الموصوف بالنقص، وقولنا: على وجه المحبة والتعظيم خرج به المدح؛ لأن المدح المجرد قد لا يكون لمحبة ولا للتعظيم قد يكون للخوف، فربما يمدح الرجل سلطانًا جائرًا لا لمحبته ولا لتعظيمه ولكن للخوف منه، أما الحمد فلا يصدر إلا عن محبة وتعظيم، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، للاختصاص؛ لأن الحمد المطلق لا يصح إلا لله وحده، والاستحقاق؛ لأن المُستحِقَّ للحمد حقيقةً هو الله عز وجل، المخلوق وإن استحق الحمد لكنه ليس استحقاقًا حقيقيًّا؛ لأن كل شيء يأتيك من المخلوق أو كل كمال في المخلوق فمن الله، فأنا أحمد المخلوق عندما يُحسِنُ إليَّ، أو عندما أرى فيها صفات كمال أحمده لا لأنه هو المستقل بذلك ولكن لأنه السبب، إذن اللام هنا ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق والاختصاص.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب هو: الخالق، المالك، المدبر؛ يعني: كلمة رب المضافة إلى الله عز وجل، أو التي وُصِفَ بها الله تتضمَّن ثلاثة معانٍ: الخلق، والملك، والتدبير، فالله عز وجل هو الخالق لكل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو المُدبِّر لكل شيء، حتى المشركون يُقِرُّون بهذا ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العلماء: العالَمَ: كل من سوى الله، وسُمُّوا عالَمًا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم جل وعلا؛ إذ إن في كل شيء من هذه المخلوقات آية تدلُّ على عظمة الرب، وقدرته، وغير ذلك مما تقتضيه معاني الربوبية.

الفوائد:

١ـ **في هذه الآية الكريمة فوائد: منها:** ثبوت الحياة المطلقة لله عز وجل، لقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ وحياة الله تعالى كاملة من كل الوجوه، فهي كاملة؛ لأنها لم يسبقها عدم، كاملة؛ لأنه لا يلحقها فناء، كاملة؛ لأنها متضمنة لجميع أوصاف الكمال، كاملة؛ لأنها مُنزَّهةٌ عن كل نقص، فكمالها من وجه أربع، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صفة كمال ونفي نقص، فإن قال قائل: الحي من الأسماء اللازمة أو المتعدية؟ من الأسماء اللازمة، وقد ذكر العلماء في كتب التوحيد أن أسماء الله عز وجل إن كانت مُتعدِّية فإنه لا يتم الإيمان بها إلا بأمور ثلاثة: إثباتها اسمًا لله، وإثباتُ ما دلَّت عليه من الصفات، وإثبات ما يترتَّبُ على هذه الصفة، وأما إذا كان الاسم لازمًا فإنه يتضمَّنُ شيئين: إثبات ذلك الاسم لله عز وجل، والثاني: ما دل عليه من الصفات فقط.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** انتفاء الألوهية عمَّا سوى الله، لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومعنى الألوهية: تألُّه العبد لله عز وجل محبةً وتعظيمًا.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص لله عز وجل في العبادة والدعاء، لقوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الكمال لله عز وجل في ذاته وفي إنعامه، لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالله أثنى على نفسه بذلك لكمال صفاته.

٥ـ **ومن فوائدها:** عموم ربوبية الله سبحانه وتعالى لكل شيء، لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن المستحق للحمد هو الله عز وجل، والمختص بالحمد المطلق هو الله سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر:٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ يُخاطِبُ المشركين فيقول: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ الجملة هنا مُؤكَّدة بـ (إنَّ)، و﴿نُهِيتُ﴾ فعل ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، وحُذِف الفاعل للعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ حُذِف الفاعل للعلم به؛ لأنه لا أحد ينازع في أن الخالق هو الله، وهنا المسألة مسألة شرعية نهيٌ، فلا نزاع في أن الذي له الأمر والنهي هو الله، كما أنه هو الذي الخلق، إذن يكون الناهي هو الله، والنهي: طلب الكف على وجه الاستعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية، فقولنا: طلبُ الكفِّ خرج به: الأمر، وخرج به المباح، وقولنا: على وجه الاستعلاء خرج به: الدعاء؛ مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ لأننا لا نسأل الله على وجه الاستعلاء؛ بل على وجه الاستضعاف، نستضعف أنفسنا أمام الله عز وجل، وخرج بقولنا: بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية خرج به: نحو قولك: انتهِ عن كذا، اجتنِب كذا، هذا نهي ولكنه ليس نهيًا اصطلاحيًّا؛ بل هو أمرٌ بالاجتناب، فلو قال لك قائل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ هل هذا نهيٌ عن الرجس من الأوثان، أو أمرٌ باجتنابه؟ نقول: الثاني؛ أمرٌ باجتنابه، لكن إذا قلت: لا تقرب الرجس من الأوثان صار نهيًا.

وقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ العبادة هي: التذلُّل للمعبود محبةً وتعظيمًا،

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال المُفسِّر: [تعبدون من دون الله] وهذا أيضًا فيه شيءٌ من القصور، والصواب: أن المراد بـ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون وتسألون؛ لأن من المشركين مَنْ يسألون أصنامهم، ويتذلَّلون لها بالسؤال، فهي أعم مما ذكره المُفسِّر رحمه الله، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سوى الله، وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ لما ظرف زمان بمعنى: حين، ولما تأتي في اللغة العربية على أربعة أوجه: الوجه الأول: أن تكون بمعنى: حين، كما في هذه الآية، والوجه الثاني: أن تكون بمعنى: إلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ معنى ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إلا عليها حافظ، والمعنى الثالث: أن تكون أداة جزم، كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوا عذابي ولكنه قريب، المعنى الرابع: أن تكون حرف وجود لوجود، كقولك: لما جاء زيدٌ جاء عمرو.

وقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ صفة لموصوف محذوف للعلم به، والتقدير: الآيات البيِّنات، قال المُفسِّر: [دلائل التوحيد] والمعنى أعم مما قاله رحمه الله؛ بل هي دلائل التوحيد، ودلائل القدرة، ودلائل السمع والبصر، وغير ذلك، المهم: أنه جاءه البينات من الله عز وجل، وفي القرآن العزيز كلمة البينات دائمًا محذوفٌ موصوفُها وذلك للعلم به، والشيء المعلوم يجوز حذفه، كما قال ابن مالك في «الألفية»:

وحَذْفُ ما يُعلَمُ جائزٌ كما ... تقول: زيد بعد «مَنْ عندكما»؟

وهذه قاعدة عامة في كل شيء ليس في المبتدأ والخبر فقط؛ بل في كل شيء.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ متعلِّق بـ ﴿جَآءَنِيَ﴾ أي: جاءني من الله عز وجل، ولكنه ذكر اسم الربوبية؛ لأن هذه ربوبية خاصة يُربِّي بها الله عز وجل أنبياءه ورسله، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ مُقابِل ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَن الآمِر؟ الله، والأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء بصيغة افعل أو غيرها مما يدل على الأمر، وقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أنْ مصدرية، و﴿أُسْلِمَ﴾ فعل مضارع موصولٌ بها، ومعنى ﴿أُسْلِمَ﴾ أستسلم لرب العالمين، والمراد بالإسلام هنا: الإسلام الشرعي؛ لأنه هو الذي في طاقتنا، وهو الذي يمكن أن نفعله أو لا نفعله، وهو الذي لا يكون إلا من المؤمن، أما الإسلام الكوني فليس بطاقتنا، ولا يمكننا أن ندافعه، ويكون من المؤمن والكافر، إذن يتبيَّن لنا أن الإسلام له معنيان: المعنى الأول: الإسلام الكوني القدري، والثاني: الإسلام الشرعي الديني، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الإسلام هنا كوني أو شرعي؟ كوني؛ لأنه قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والإسلام الشرعي لا يكون بالإكراه، والإسلام الشرعي لا يكون عامًّا لكل شيء، فالإسلام هنا كوني قدري، وهنا قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ المراد به: الإسلام الشرعي الديني؛ يعني: أن أُسلِم؛ أي: استسلام تعبُّدًا وتذلُّلًا لله عز وجل، وقوله: ﴿لِرَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نقول فيها ما قلنا في الآية السابقة، لكن لو قال قائل: لماذا لم يقل: أن أُسلِم لله؟ قلنا: ليكون ذلك دليلًا على وجه الإسلام؛ يعني: لماذا أسلم؟ لأن الله رب العالمين، ورب العالمين أحقُّ أن يُسلَم له، وأن يُتعبَّد له عز وجل، فهو كالدليل للحكم السابق الذي هو الإسلام.

الفوائد:

١ـ **في هذه الآية الكريمة فوائد: منها:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمورٌ منهيٌّ، من قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: بطلان دعوى من يقول: إن النبي ﷺ له الأمر والنهي في السماوات والأرض؛ لأنه لا يمكن أن يكون كذلك وهو مأمور منهي.

٢ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص لله عز وجل، لقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ وهذه حقيقة الإخلاص.

٣ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى القاعدة المشهورة، وهي: أن التخلية قبل التحلية، من قوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه تخلية ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تحلية، ووجه كون التخلية قبل التحلية: أن التحلية إذا وَرَدَت على محلٍّ غير نظيف صارت ناقصة متلوثة، فأنت طهِّرِ المحل أولًا، ثم حلِّهِ ثانيًا، هذا هو المعنى المراد، وهكذا في كلمة الإخلاص: لا إله نفيٌ، إلا الله إثباتٌ، الأول: تخلية، والثاني: تحلية.

٤ـ **من فوائد الآية الكريمة:** بطلان عبادة ما سوى الله؛ لأن النهي يقتضي البطلان والفساد، فلما نُهِينا عن عبادة مَن سوى الله دلَّ ذلك على أنها باطلة.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كغيره يحتاج إلى العلم، لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

فإذا قال قائل: في هذا إشكال كبير، وهو: كيف يكون الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعلم ببطلان هذه الآلهة إلا حين جاءه النهي مع أن بطلان هذه الآلهة مركوزٌ في الفِطَر والعقول؟ أما كونه مركوزًا في الفِطَر، فلقوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ»(١) والفطرة هي: عبادة الله وحده، وأما العقل فلأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدل على بطلان الآلهة بدليل عقليٍّ، حين قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، قلنا: إن الرسول ﷺ يعلم بطلان هذه الآلهة لكنه أسند هذا العلم للآيات البينات لإثبات الرسالة، فتكون الرسالة مُؤيِّدة لما تقتضيه الفطرة ويدل عليه العقل.

٦ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فهو آياتٌ بيِّناتٌ ليس فيها خفاء، لقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والعجب أن المشركين كانوا يتردَّدون إلى منزل

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

الرسول عليه الصلاة والسلام خُفْية يستمعون القرآن؛ لأنه أخذ بألبابهم وعقولهم، لكنهم - والعياذ بالله - ينكرونه استكبارًا ومكابرة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير من خفاء ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بمعنى: أن الذي لا يرى أن ما جاء به الرسول مُتضمِّنٌ للآيات البينات فليعلم أن على قلبه غشاوة؛ لأن القلب النظيف النزيه لابد أن يعرف أن ما جاء به الرسول حقٌّ بيِّن، لكن قد تتراكم الذنوب على القلوب - والعياذ بالله - فلا تعرف الحق، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فصاروا يَرَون هذا القرآن الكريم أساطير الأولين - نسأل الله ألَّا يُعمِيَ قلوبنا وقلوبكم -، فالمسألة خطيرة؛ إذ لم تجد قلبك مستنيرًا بهذا القرآن، أو بعبارة أعمّ بما جاء به الرسول فاعلم أن في القلب بلاءً، فداوِ القلب ما دام في أول المرض حتى لا يستشري المرض فيقضي على القلب، فلا تتمكَّن من إصلاحه بعد.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عناية الله تعالى برسول محمد ﷺ، وذلك في إثبات الربوبية الخاصة في قوله: ﴿مِن رَّبِّى﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإسلام لله عز وجل، لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه لابد للقلب من حركة، فإما إلى باطل، وإما إلى حق، لقوله: ﴿نُهِيتُ﴾ وهذا تفريغ هذا الفراغ لابد له ما يملؤه، وهو: الإسلام؛ لأن كل شيء إذا لم يكن له بديل سيظل الأمر خاويًا، فإذا خُلِّيَ المكان من الباطل وَجَبَ أن يُملأَ بالحق، وهكذا أيضًا إذا تأمَّلتَ وجدتَ كل شيء باطل إذا لم يخلُفْه حقٌّ بقِيَ الأمرُ خاويًا فتذبذب الإنسان، لما قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ ماذا قال؟ ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ لابد من قول، فإذا أُبطِل الباطل لابد أن يخلفه الحق.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما سوى الله لا يستحق أن يُسلَم له، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمن كان رب العالمين فهو الأحق بالإسلام له، ولا يُوصَف برب العالمين إلا الله عز وجل.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات عموم الربوبية لله، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: مُراعاة الوصف المناسب وإن كان فيه عدولٌ عن الأشهر، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عدولًا عن (لله) مع أن لله هو الأشهر، لكن اعتبار الوصف المناسب أَولَى، والله أعلم.

❁ قال الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقه، والخلق بمعنى: الإيجاد مع التقدير، قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقتَ وبعضُ ... الناس يخلق ثم لا يفري

قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ قال: [بخلق أبيكم آدم منه] فالأصل: أننا من تراب من هذه الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الأرض هي الأول والآخر بالنسبة لبني آدم إلى يوم البعث، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيّ، وهذا باعتبار نسل آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا الطور الثالث، والثاني باعتبار نسل آدم، والعلقة قال: [دمٌ غليظ] مثل: الخيط ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وطوى الله تعالى ذكر المُضغة وإنشاء الخلق الآخر إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [بمعنى: أطفالًا] وإنما قال: [بمعنى: أطفالًا] لأنها حالٌ من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، وهي جمع، وطفل مفرد، وعلى هذا فيتعيَّن أن يكون طفل بمعنى: أطفال، وقيل: إن طفلًا بمعنى المفرد، وأن المعنى: ثم يُخرِج كل واحد منكم طفلًا، فيكون ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ جمعًا باعتبار المجموع؛ أي: أن كل واحد منَّا يُخرَجُ طفلًا، وعلى هذا فلا حاجة إلى تأويل طفل بمعنى: أطفال.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ قال: [ثم يبقيكم لتبلُغوا] وإنما قدَّر ذلك؛ لأن اللام تحتاج إلى مُتعلَّق، وعلى هذا فمُتعلَّقُها محذوف، والتقدير: ثم يُبقِيكم، ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [تكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين سنة] هذا بلوغ الأشد، أقوى ما يكون الإنسان من ثلاثين سنة، ثم يبدأ في الانحدار شيئًا فشيئًا، ولكن قد يكون هناك عوامل تُوجِبُ أن تبقى قوته مُدَّة من الزمن أكثر، وقد تكون هناك عوامل تُوجِبُ أن تنهدم قوته قبل تمام الأربعين، لكن في الأصل أنه إذا تمَّ الإنسان أربعين سنة بدأ في ضعفه، وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كامل قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [بضم الشين وكسرها] يعني: شُيوخًا وشِيوخًا، والقراءتان سبعيَّتان، وهذه طريقة المؤلف إذا ذكر الوجهين جميعًا فمعناه: أن القراءتين سبعيَّتان، وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ يعني: كبارًا تبلغوا سن الشيخوخة.

وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل الأشد والشيخوخة، قال: [فعل ذلك بكم

لتعيشوا ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾] والمُفسِّر يُقدِّر ذلك لوجود حرف العطف، وهو قوله: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾، وقوله: ﴿أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ وقتًا محدودًا، والمُسمَّى بمعنى: المُعيَّن، وهو بمعنى: المحدود، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تكونوا من ذوي العقول، وتفهموا حكمة الله عز وجل في تقديره وتشريعه، فالقَدَر يكون فيه مُقدَّر شيئًا فشيئًا حتى يكون، وهكذا الشرع تكون فيه الشرائع شيئًا فشيئًا حتى تكمل، وهذا من سنة الله تعالى الكونية وسنته الشرعية؛ أن الأمور لا تأتي دفعة واحدة؛ بل تطوَّر حتى تبلغ الكمال، وهذا من حكمته البالغة، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ليس المراد بذلك: عقل الإدراك؛ بل المراد بذلك: عقل التدبير والرشد؛ لأن العقل عقل إدراك تتوقَّف عليه التكاليف الشرعية، ولهذا يقال: من شروط صحة الصلاة: العقل، والمراد به: عقل الإدراك، وعقل التدبير والرشد، وهو: حُسن التصرف، ولهذا نقول: إن الكفار لا يعقلون، مع أنهم بالنسبة لعقل الإدراك أقوياء أشداء وأذكياء، لكن عقل التدبير والتصرُّف هم خالون منه.

الفوائد:

١ـ **في هذه الآية الكريمة**: بيَّن الله سبحانه وتعالى منشأ بني آدم وغاية بني آدم.

٢ـ **وفيها من الفوائد**: بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا وحده، وأنه لا خالق إلا الله، وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الطور: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ ما الجواب؟ جوابُنا: أنهم لم يُخلَقوا من غير شيءٍ، وليسوا هم الخالقين، إذن فلهم خالق.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان أن أصل بني آدم هو التراب، لقوله: ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ والتراب معروف أنه يختلف، ومن ثَمَّ اختلفت طبائع بني آدم، واختلفت ألوان بين آدم، واختلفت ألسنة بني آدم، كما اختلف أصلهم، فالتراب منه: الرمل، والطين، والسباخ، وغير ذلك.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: انتقال هذا الأصل إلى أصل آخر، وهو: الماء النطفة المَنِيُّ ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ يعني: غليظ لا يندفع ولا يجري؛ لأنه غير سائل، ليس كالماء المائع الذي يسيل؛ بل هو ماءٌ مهينٌ ضعيفٌ لا يتحرَّك.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تطوُّر خلق الإنسان في بطن أمه، وهنا لم يذكر الله عز وجل إلا النطفة والعلقة؛ لأن النطفة هي الأصل، والعلقة هي أصل مادة الحياة؛ إذ إن الحياة لا تكون إلا بالدم، وهو أصل المادة، ولهذا لو تفرَّغ دم الإنسان لهلك.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله عز وجل أنه بعد هذا الجنين أو بعد هذه الحال في بطن أمه يخرج طفلًا مُتكاملًا.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: أن الله تعالى قسَّم الناس بعد خروجهم أطفالًا إلى أقسام:

القسم الأول: أن يبلغ الإنسان أشُدَّه، ثم يموت، والثاني: أن يبلغ الشيخوخة، والثالث: أن يموت قبل ذلك؛ أي: قبل بلوغ الأشُدّ، وقبل الشيخوخة، وعلى أي أساس يكون هذا؟ نقول: هذا محضُ مشيئة الله عز وجل، ليس له أساسٌ معلومٌ، لكنه محض المشيئة، لكن مع كونه محض المشيئة قد يُقدِّر الله تعالى أسبابًا كونية وأسبابًا شرعية بها يطول العمر وتبقى الصحة، وقد يُقدِّر الله أسبابًا على العكس من ذلك؛ فمن الأسباب الشرعية: ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1] هذا دليلٌ على أن صِلة الرحم من أسباب سعة الرزق، وطول العمر، فيُيسِّر الله تعالى لهذا العبد أن يصِلَ رحمه فيطول عمره، وهذا شيء مكتوب، ولكن لا علم لنا به، فحثَّنا النبي ﷺ عليه بهذه الطريقة، وأما الأسباب الكونية فهو توقِّي الأسباب الضارة في الصحة، وهذا شيء لا نهاية له، وهو أمرٌ معلوم، وأكثر ما يعرفه الأطباء، فيُيسِّر الله تعالى للإنسان من أسباب الصحة من دواء، وغذاء، وهواء ما يكون به طول العمر.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الأجل مهما طال بالإنسان فإنه محدود له غاية، مع أن الإنسان في نفسه يمُدُّ أملًا بعيدًا جدًّا، يظن أنه سيبقى عشرات المئات، ولكنه في الواقع مهما بلغ فإن الأجل محدود، والشيء المحدود المعدود غايتُه النهاية؛ لأن كل يوم يمضي ينقص العمر، قال الشاعر:

والمرءُ يفرحُ بالأيام يقطعها وكل يومٍ مضى يُدنِي من الأجلِ

المرء يفرح بالأيام يقطعها يقول: ما شاء الله ! عمرك طويل، ومُكِّثت كثيرًا، لكن كل يوم يمضي يُدنِي من الأجل؛ يعني: إذن يطول من وجه، ويقصُر من وجه آخر، ثم عند انتهاء الأجل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ وقِسْ ما يُستقبَل بما مضى، الآن منَّا من عُمُّر ستين سنة، أو خمسين سنة، أو عشرين سنة، أو ما أشبه ذلك، هذه الأيام التي مضَتْ كأنها ساعة؛ يعني: أنت اليوم كأنت بالأمس، وأنت بالأمس كأنت قبل أمس، كأنها ساعة، كأنها أحلام، ولذلك قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان نعمة الله عز وجل علينا في العلم والبيان؛ لأن ذلك سببٌ لبلوغ الغاية في العقل، وذلك لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثباتُ تعليل أحكام الله؛ أي: أن أحكام الله تعالى مُعلَّلة،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٠/ ٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

وهل هذا مُقتصر على الأحكام الشرعية، أو على الأحكام الشرعية والكونية؟ الجواب: الثاني، فكل أحكام الله الكونية والشرعية كلها مُعلَّلة؛ يعني: كلها لحكمة، لكن هذه الحكمة قد تكون معلومة لنا، والناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا مُتباينًا؛ منهم من يُطلِعُه الله على أسرار خلقه وأسرار شرعه، ومنهم من لا يُطلِعُه، ومنهم مَن بَين ذلك، وكذلك أحكام الله الشرعية كلها مُعلَّلة بحكمة، وما يذكره الفقهاء أن هذا الحكم تعبُّدي لا يعنون بذلك: أنه ليس له علة، وإنما يعنون بذلك: أن علَّته غير معلومة لنا، فنحن ليس لنا إلا مجرَّد التعبُّد، ولهذا لما سألت المرأة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ ماذا قالت لها؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنُؤمر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة، إذن الحكمة شرع الله، شرعُ الله كله حكمة، لكن لو أراد إنسان أن يلتمس لذلك حكمة معقولة فلا حرج عليه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على أهل العقل؛ أي: على العقلاء؛ لأن الله تعالى جعله غاية، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ذكرنا الآن أن أحكام الله الكونية والشرعية لها حكمة، فإن قال قائل: ماذا تُجيبون عن قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾؟ الجواب: أنه لا مُنافاة؛ لأن الله لم يقل: لا حكمة لما يفعل؛ بل قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأن كل ما يفعله فهو حكمة لا يُسأل عنه، نعلم أن ما فعله إلا لحكمة فلا يُسأل.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]

❁ التَفسِيرُ ❁

هذا كالأول جملة استئنافية تُبيِّن كمال قدرة الله عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي، وحده أو معه غيره؟ وحده لا أحد يُحيي ويميت، ولهذا قال إبراهيم للذي حاجَّه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فلا يمكن أن يُحيي أحدٌ ميتًا، ولا أن يُميت حيًّا، فإن قيل: أليس عيسى ابن مريم يُحيي الموتى؟ قلنا: لكن بإذن الله في نفس الآية ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإذن الله، فإن قيل: أليس الرجل يقتل الآخر وهو حي فيموت؟ قلنا: بلى، ولكن ما فعله هو سببُ الموت وليس هو الإماتة، وكثيرًا ما تُقطَع أوداجُ الإنسان ويُشقُّ بطنه، ثم يبقى حيًّا ويحيا، فالحاصل: أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ [أراد إيجادَ شيءٍ] ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أمرًا هنا بمعنى: شأنًا؛ أي: فهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ أي: إذا قضى شأنًا من الشئون وقدَّره فإنه لا يُعجِزه أن يُوجِده، بماذا يُوجِده؟ بالكلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولهذا يُسمَّى عيسى ويُوصف بأنه كلمة الله؛ أي: كان بكلمة، فالحاصل: أنه إذا أراد شيئًا إذا قضى أمرًا وقدَّره قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهل المراد: الموجودات، أو المعدومات، أو الكل؟ الكل حتى لو أراد إعدام شيء قال له: ﴿كُن﴾ فينعدم، فقول المؤلف: [إيجاد شيء] لو زادها: أو إعدامه لكان خيرًا؛ لأنه إذا قضى أمرًا من إيجاد أو إعدام قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، غير الله عز وجل لو أردتَ أن تهدم بيتًا تبقى أيامًا وأنت تهدمه، لكن الله عز وجل إذا أراد أن يهدم هذا البيت أو القرية كلها بكاملها ماذا يقول؟ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تنهدم تكون هباءً، فإذن نقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ في إيجاد شيء أو إعدامه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ كل شيء بقدر؛ الصغير والكبير، المُتعلِّق بأفعاله وأفعال عباده، كل شيء خَلَقَه فهو بقدَر، ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ ويتأخَّر المأمور؟ لا، ما هو؟ ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ لمح البصر ليس شيء أسرع منه، واحدة بدون تكرار ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء للتعقيب، وقال تعالى في بعث الناس: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ سبحان الله ما أعظم خلق الله، كلمة واحدة فيها تكون كلها كما أراد الله عز وجل، وإن كان هذا المأمور لا يعلم به، لكن لابد أن يكون كما أراد الله، لما قال القلم: ربي ! ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فماذا فعل؟ كتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، مع أنه لا يعلم، لكن أُمِر فلابد أن يمتثِل ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ ليس هناك إكراه، طوعٌ، إذن نقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي: بإيجاد شيء أو إعدام شيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابطة للجواب جواب إذا، وهي تدل على التعقيب.

وقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بدون تأخير؛ لأن الفاء هذه للتعقيب، قال: [بضم النون وفتحها بتقدير أنْ] إذن فيها قراءتان: كُن فيكُونُ، كُن فيكونَ، فعلى القراءة الأولى: تكون الفاء للاستئناف، وعلى الثاني: تكون الفاء فاء السببية التي ينتصِب بعدها الفعل، وهي معروفة في علم النحو، قال: [أي: يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور] يريد أن ينفي بذلك: القول؛ يعني: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ إنما يريد أن يقول؛ لأنه - عفا الله عنه - يُريد أن ينفي قول الله عز وجل، فإن مذهبه مذهب الأشاعرة الذين يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس شيئًا يُسمَع، وليس توجيهًا يُصدَّر إلى الموجَّه إليه، مع أن الآية صريحة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ قولٌ صريح مُصدَّق ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ معنى ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ أي: يريد أن يكون فكان، ولا شك أن هذا تحريفٌ للكلام عن مواضعه، نسأل الله تعالى أن يعفو عمَّن حرَّفَه بحُسْن نية، والمؤلف لا نعتقد فيه - إن شاء الله -

إلا الخير، لكنه أخطأ في هذا، والصواب: أنه يقول قولًا مسموعًا يسمعه المُوجَّه إليه فيمتثل أمر الله عز وجل.

الفوائد

١- **في هذه الآية الكريمة:** بيان أن الله تعالى هو الذي يُحيي ويميت، وهذا من تمام ربوبيته.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإحياء والإماتة ليست بصعبة عليه، لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** الرد على مُنكري البعث الذين قالوا: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وجهه: أنه إذا قضى البعث ماذا يقول؟ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولنأتي على بيان الأدلة الدالة على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى في هذه الآيات، لقد ذكر الله تعالى ثمانية أوجه على قدرته على إحياء الموتى:

الوجه الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وجه الدلالة: لأن الذي قَدَرَ على إنشائها أول مرة قادرٌ على إعادتها؛ لأن الإعادة أهون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وجه الدلالة: هو لا يخفى عليه الخلق، فإذا كان لا يخفى عليه الخلق، فما الذي يعجزه وهو على كل شيء قدير؟

الوجه الثالث: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وجه الدلالة: هناك شجر معروف إذا ضربتَه بالقدح اشتعل نارًا، فخرجت النار من ضدِّها، فالذي أخرج الضدَّ من ضده قادرٌ على أن يُحيي الموتى، الشجر الأخضر فيه الرطوبة والبرودة، والنار فيها اليبوسة والحرارة، فيُخرِج هذه المادة الحارة اليابسة من مادة رطبة باردة، وهذا من تمام القدرة.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هذا لتأكيد أنه خرج هذا وأوقدتموه.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ بلى، وجه الدلالة: لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادرُ على الأكبر قادرٌ على ما دونه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإذا كان الخلاق العليم فهو قادرٌ على أن يخلق كل شيء، ومنه: إعادة الموتى.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وجه الدلالة: أنه يعُمّ كل شيء حتى إحياء الموتى، ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يحتاج إلى أعوان ولا تردُّد.

وقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذه الجملة وجه الدلالة منها: إذا كان مالكًا لكل شيء بعموم الكل، فإن كان مالكًا لكل شيء فالبعثُ يدخل ضمن العموم.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وجه الدلالة: لولا هذا الرجوع لكان الخلق عَبثًا، فكوننا لابد أن نرجع إلى الله لابد أن نحيا، وإلا لكانت الحياة كلها عبثًا، فانظر إلى تقرير الله عز وجل الإحياء بعد الموت؛ لأنه ينبني عليه العمل، لو أن أحدًا لا يؤمن بيوم الحساب لم يعمل، يعمل لأي شيء ما دام ليس فيه إلا الحياة الدنيا نموت ونحيا فلأي شيء نعمل؟ إذن سيعمل للدنيا، ينهب، ويسرق، ويزني، ويشرب الخمر، ويعمل كل شيء؛ لأنه ليس وراء هذه الدنيا شيء، فلا يمكن أن نستقيم إلا بالإيمان باليوم الآخر، ولهذا تجدون الله عز وجل يقرِن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به في مواضع كثيرة ربما لو أحصيناها لوجدناها أكثر من الإيمان به وبرسله؛ لأن الإيمان باليوم الآخر عليه أساس العمل، ونحن لولا أننا نعتقد ونؤمن أن أعمالنا أمامنا يوم القيامة ما حرصنا على العمل الصالح؛ لأنه يذهب هباءً، ولهذا فالإيمان باليوم الآخر من أعظم الباعث على الاستقامة، أما من لا يؤمن باليوم الآخر ولا يؤمن بالله ولا بالبعث، فهذا سيكون عمله كل هباء.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[غافر:٦٩-٧٢]

التفسير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي صارت مقرِّرةً له، فمعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: رأيت، والخطاب إما للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يصحُّ أن يتوجَّه إليه الخطاب، وهذا الخطاب يرِدُ كثيرًا في القرآن، وقد بيَّنَّا أن الخطاب المُوجَّه إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو الذي ظاهره أنه مُوجَّه للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما هو مختصٌّ به قطعًا، والقسم الثاني: ما هو عامٌّ له وللأمة قطعًا،

والقسم الثالث: ما ليس فيه هذا ولا هذا، أما الأول: فهو الخاص بالرسول قطعًا فهو خاصٌّ به، ولا إشكال في ذلك؛ مثل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١، ٢]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧]، وما أشبه ذلك، الخطاب هنا للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاصٌّ ولا يشمل الأمة، وأما الذي له ولغيره قطعًا؛ فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، لم يقل: إذا طلقتَ النساء، فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به له وللأمة؛ لأنه خاطبَه أولًا بالنداء، ثم وجَّهَ الخطاب إلى الأمة عمومًا، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به بالنداء ليس خاصًّا به؛ بل هو له وللأمة، ما ليس كذلك؛ يعني: ما ليس هذا ولا هذا، اختلف فيه العلماء ـ رحمهم الله ـ؛ هل هو خطابٌ خاصٌّ بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا يشمل الأمة إلا حكمًا على سبيل التأسِّي به، أو إنه عامٌّ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولغيره، ويكون الخطاب فيه لمن يصح خطابه؟ والخلاف في مثل هذا يكاد يكون لفظيًا؛ لأن الجميع مُتفقُون على أن هذا الحكم ثابتٌ للرسول ولغيره، لكن إذا قلنا: إنه خاصٌّ به صار بالنسبة لغيره عامًّا على وجه التأسِّي والقدوة، لكن الحكم لا يختلف في الواقع؛ لأنه إن لم يشمل الأمة لفظًا فقد شملها حكمًا للأمر بالتأسِّي به ـ ﷺ ـ فهنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ من أي الأقسام الثلاثة؟ هذا مما يدخله الاحتمال: أنه خاص بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المؤلف: [أي: القرآن]، وهذا التفسير يعتبر قاصرًا؛ لأن آيات الله أعظم من كونها كونية أو شرعية، وأعظم من كونها في القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكتب المُنزَّلة على الرسل، فالصواب: أن نقول: في آيات الله الكونية والشرعية، وأولَى ما يدخل فيها: القرآن، والمجادلة هي: المنازعة مع الخصم من أجل صرفه عما كان عليه من المجادلة، مأخوذة من الجَدْل، وهو: فَتْل الحبل حتى يحتكم ويكون قويًا، هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله يجادلون الرسل وأتباعهم، فالمجادلة بين الرسل وأتباعهم كانت منذ أن أُرسِل الرسل إلى يومنا هذا، ولا تستغرب أن يوجد من يُجادِل في آيات الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في هذا الزمن؛ لأن هذا هو سنة الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ منذ أرسل الرسل.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، كل نبي له عدو من المجرمين، وإذا كان له عدوٌّ من المجرمين فلابد لهذا العدو أن يُجادِل، وبالتالي أن يُجالِد بالسيوف.

المجادلة في آيات الله في آيات الله الكونية: أن يُنكِر أن يكون الله هو الخالق، وقد وُجِد هذا فعلًا، وُجِد من ينسُب ما يحدث للكون إلى الأمور الطبيعية دون أن يكون لها مُدبِّر، وقال: هذه طبيعة تتفاعل وينتج منها ما يُشاهَد، يوجد من يُجادِل في آيات الله الكونية في الأمور التي دون ذلك؛ مثل: أن يثبت شيئًا من الأسباب لم يجعله الله له سببًا، كما يحدث لأهل الجاهلية من التشاؤم

بالطيور، والأماكن، والأزمان، وما أشبه ذلك، فهم يتشاءمون في الأزمان بشهر صفر، يقولون: إن هذا الشهر شهر شر، ويتشاءمون أيضًا بالطيور بنوع الطير، أو بكيفية طيرانه، أو باتجاهه، وما أشبه ذلك، يتشاءمون أيضًا بالأشخاص يرى الإنسان الرجل أول ما يراه فيتشاءم به، حتى إن هذا كان موجودًا إلى عصرنا هذا، هذا أيضًا من المجادلة في آيات الله الكونية، أما المجادلة في آيات الله الشرعية فحدِّث ولا حرج، يُكذِّبون بآيات الله الشرعية، يُنكِرُونها، يُجادِلون في بعض الأمور فيها، يقولون: فيها تناقض، وفيها كذا وكذا، وأنواع الجدل كثيرة.

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كيف يُصرَفون عن الإيمان؟ يعني: كأن هذا استفهام تعجُّب وإنكار، كيف يُصرَفون عن الإيمان مع أنه واضح بيِّن؟ فهم يُصرَفون عنه، ويجادلون فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾.

هذا بدل من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ﴾، بدل، أو عطف بيان، والفرق بينهما: أن عطف البيان يشبه الصفة في بيان المُبدَل منه، وأما البدل فقد يكون بدلًا مُجرَّدًا عن الصفة؛ فمثلًا: إذا قلت: جاء زيد أخوك، أخوك هنا بدل لم نستفد منها شيئًا كثيرًا، لكن إذا جاء فلان؛ مثل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ فقد استفدنا منها معنى هو إلى الصفة أقرب منه إلى البدلية، فلهذا يُسمُّونه عطف بيان.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: قالوا: إنه كذب، والكتاب هنا مُحلًى بـ (ال) فهل هي للعهد، أو للاستغراق، أو للجنس؟ أقربُ شيء أنها للجنس، والمؤلف جعلها للعهد، فقال: [القرآن]، ولا شك أنه لا يجوز العدول عن الجنس أو بيان الحقيقة إلا بدليل، فما هو الأصل في (ال)؟ أن تكون لبيان الحقيقة، أو لبيان الجنس، أو للعهد؟ لبيان الجنس؛ لأن بيان الجنس يعني: الاستغراق، وهذا هو الأصل، فإذا جعلتَها للعهد فقد عدلتَ بمعناها العام إلى معنًى خاص، وكذلك إذا جعلتَها للحقيقة، ونحن نضرب ثلاثة أمثلة ليتبين الأمر، إذا قلت: الرجل خيرٌ من المرأة؛ هل هي للعموم؟ لا؛ لأن من النساء من هي خير من الرجال، إذن هذا لبيان الحقيقة، إذا أورد عليك مُورِد: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، لأي شيء هذا؟ للجنس؛ يعني: العموم؛ يعني: خُلِق كل إنسان ضعيفًا، إذا أُورِدَ عليك قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، للعهد الذكري، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، هذا أيضًا للعهد؛ أي: العهد الذهني، هنا المؤلف ـ رحمه الله ـ حمل قوله تعالى: ﴿بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ على العهد الذهني، وقال: إنه القرآن، والصواب: أنه عام، وأن المراد به: جنس الكتاب؛ وذلك لأن التوراة كذَّب بها أُناسٌ، والإنجيل كذَّب به أُناس، وكذلك الزبور، وبقية الكتب، وآخرها القرآن.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ [من التوحيد، والبعث، وهم

كفار مكة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عطفها على قوله: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بإعادة العامل؛ لأن العطف يكون بإعادة العامل، وبغير إعادة العامل، فتقول: مررتُ بزيدٍ وعمرٍو هذا عطف بدون إعادة العامل، مررتُ بزيدٍ، وبعمرٍو هذا عطفٌ بإعادة العامل، ويُفيد إعادة العامل استقلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابعًا له من كل وجه بدليل: إعادة العامل، فقوله: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يدل على أنها أُرسِلَت به الرسل كأنه مستقل عن الكتاب، ولهذا كانت السنة بمثابة الكتاب في الدلالة ووجوب العمل بها، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المؤلف: [من التوحيد، والبعث، وهم كفار مكة] التوحيد؛ يعني: توحيد الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بما يستحق من الأسماء والصفات، والعبادة، والربوبية، وأما البعث فهو: إخراج الناس من قبورهم يوم القيامة، وقوله: [وهم كفار مكة] هذا لا وجه له؛ لأن هذا الوصف – التكذيب بالكتاب وبما أرسل به الرسل – لا يختصُّ بأهل مكة، هم وغيرهم، فالأَولَى أن يُجعَل هذا عامًّا في كل من كذَّب بمحمد ﷺ؛ بل نقول: عامًّا في كل من كذَّب الرسل.

لكن إذا قال قائل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ألا تدل على أن المراد بذلك: الكفار الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ؟ الجواب: لا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد لما سيكون في الدنيا، وما سيكون في الآخرة بدليل: قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ والأغلال لا تكون في الأعناق إلا يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [عقوبة تكذيبهم] ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [إذ بمعنى: إذا] ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [عطفٌ على الأغلال، فتكون في الأعناق، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره] ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [أي: يُجرُّون بها].

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هو تهديد بلا شك، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣، ٤]، وكقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ فيقول المؤلف: [إذ بمعنى: إذا]، ومن المعلوم أنَّ (إذ) تأتي للحاضر، وتأتي للماضي، وإذا تكون للمستقبل، فما الذي جعل المؤلف ـ رحمه الله ـ يصرِف معناها إلى المستقبل؟ جعله يصرف ذلك إلى المستقبل؛ لأن الأغلال لا تكون إلا يوم القيامة، وهو مستقبل، ولكننا نقول: لا حاجة إلى ذلك؛ بل هي (إذ) على بابها، ولكنها حكاية حال، وحكاية الحال هي التي تجعل المستقبل كأنه حاضر، وهذا أبلغ في التهديد؛ يعني: كأن الأغلال الآن حاضرة؛ لأنها أمر مؤكد ولابد أن يكون، الأغلال تكون في الأيدي، كما قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤]، والسلاسل تكون في الأرجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

لكن هنا يقول تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ تقتضي أن تكون السلاسل في

الأعناق في محل الأغلال، ولكن هناك احتمال آخر بيَّنه ـ رحمه الله ـ بقوله: [عطفٌ على الأغلال، فتكون في الأعناق، أو مبتدأ خبر محذوف؛ أي: في أرجلهم]، وعلى هذا إذا كانت مبتدأ نقول: الواو للاستئناف ، والسلاسل مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره يُسحَبون، ويكون العائد محذوفًا، والتقدير: يُسحَبون بها، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ فهنا صار في إعراب سلاسل ثلاثة أوجه: الوجه الأول: أنها معطوفة على الأغلال، فتكون السلاسل في الأعناق؛ يعني: معناه: أن تُغَلَّ أيديهم في أعناقهم بسلاسل، والثاني: أن تكون السلاسل بالأرجل، والخبر محذوف؛ أي: في أرجلهم، والثالث: أن تكون السلاسل في الأرجل، والخبر: قوله: ﴿يُسۡحَبُونَ﴾، والمعنى: أنهم يسحبون بهذه السلاسل، وهذا المعنى هو أقربها لظاهر القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: ٤٨]، فهم إذا سُحِبوا على وجوههم فتكون السلاسل في الأرجل، فهذا أقرب الاحتمالات التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ [أي: جهنم]، ووُصِفت بذلك؛ لأنها شديدة الحرارة ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [يُوقَدون]؛ لأن النار وقودها الناس والحجارة.

الفوائد:

١ ـ العجب من حال هؤلاء المُكذِّبين بالكتاب، وبما جاءت به الرسل، لقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهم ـ والله ـ عجب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** أن الإنسان يُصرَف عن الحق مع بيانه ووضوحه.

وهذا يؤدي إلى فائدة أخرى، وهي: خوف الإنسان من أن يُصرَف عن الحق.

وينتج عن ذلك: الفائدة الثالثة، وهي: سؤال الإنسان ربه دائمًا أن يثبته، ولهذا كان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] فينبغي للإنسان أن يكون دائمًا على خوف، وأن يسأل الله الثبات دائمًا.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** تهديدُ هؤلاء المُكذِّبين بهذه العقوبة؛ أن تُغَلَّ أيديهم يوم القيامة، وأن تُسلسَل أرجلهم، وأن يُسحَبون في النار على وجوههم، وكل هذا يُوجِبُ للإنسان أن يُصدِّق بالكتب، وبما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الإنسان لا يعلم علم اليقين حتى يشاهد ما أخبرت به الرسل، لقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ وفي ذلك الوقت يُقِرُّون بالحق، ويقولون: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، لكن هذا لا يُمكنُهم، ولا يُمهَل لهم في ذلك؛ بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثباتُ النار وأنها في أشد ما يكون من الحرارة، لقوله: ﴿فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٣-٧٦]

التفسير

هذا العذاب لا يخفى علينا جميعًا أنه عذاب بدني جسدي، هناك عذاب قلبي بيَّنه في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ [تبكيتًا] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [معه، وهي: الأصنام]، والاستفهام هنا لا شك أنه للتوبيخ، والتَّنديم، والتعجيز، كلها يتضمنها هذا الاستفهام، وهذا ألمٌ قلبيٌّ؛ لأن الإنسان يندمُ أشدَّ الندم إذا كانت هذه الأصنام التي كان يعبُدُها لتُقرِّبَه إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - كما يدَّعي، ثم تضِلُّ عنه ولا تُرجَع، كما لو أمسكتَ عبدًا مثلًا وعذَّبته، فقلت: أين سيدك الذي تدَّعي أنه يحميك؟ أليس هذا يكون أشدَّ ندمًا له؟ بلى، إذن هؤلاء مُنَدَّمُونَ هذا التنديم، فيقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله، [وهي: الأصنام]، وحينئذٍ يتحسَّرون حسرةً ليس فوقها حسرة، ولهذا يقولون إقرار المكره في الواقع: ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟﴾ [غابوا] ﴿عَنَّا﴾ [فلا نراهم]، إذن عرفوا أنها لم تنفع، وأنها غابت عنهم في أشد ما يحتاجون إليها فيه؛ بل قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ يعني: أنكروا أن يكونوا أشركوا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، فالحاصل: أنهم يُنَدَّمُون هذا الندم العظيم، ثم يُنكِرون.

يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ ندعوا بمعنى: نعبد؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما متلازمان؛ فدعاء المسألة عبادة، كما جاء في الحديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»[1]، ودعاء العبادة - أيضًا - دعاء مسألة؛ لأنك لو سألتَ العابد: لماذا عبدت الله؟

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٧٩) من حديث النعمان بن بشير وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

لقال: رجاء ثوابه، وخوف عقابه، فهو داعٍ بلسان الحال، ولذلك صار الدعاء بمعنى: العبادة، والعبادة بمعنى: الدعاء، وانظر إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، لكن دعاء المسألة دعاءٌ صريح في السؤال، يقول القائل: رب اغفر لي، وارحمني، ودعاء العبادة دعاء باللازم؛ لأن الإنسان إنما يعبُدُ الله خوفًا من عقابه، ورجاءً في ثوابه، دعاء المسألة دعاء عبادة باللازم؛ لأن السائل مُتذلِّل للمسئول، فهو مُتعبِّد لله.

قال تعالى: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [أنكروا عبادتهم إيَّاهَا، ثم أُحْضِرَتْ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: وقودها]، وتمام الآية: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، فهؤلاء كذبوا على أنفسهم، ظنوا أن هذا سينفعهم، كما لو أن الجاني في الدنيا أنكر جنايته ربما ينفعه ذلك، لكن في الآخرة لا ينفع، حتى إنهم إذا أنكروا خُتِمَ على أفواههم، فتتكلم الأيدي، والأرجل، والجلود، والألسن بما تعمل، وحينئذٍ لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلًا.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف حرف لكنها اسم في الواقع، فهي مفعول مطلق، وتقدير الكلام: مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فهي حرف صورةً، لكنها بالمعنى اسم، هذا الاسم محله من الإعراب: مفعول مطلق للفعل الآتي بعده، ومثل هذا التعبير يأتي كثيرًا في القرآن، وإعرابه: أن الكاف حرف بمعنى: مثل، وأن إعرابها: مفعول مطلق للفعل الذي بعدها، والتقدير في كل سياق بحسبه، لكن الآية بمعنى: مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يجعلهم في ضلال، يقول المُفسِّر: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إضلال هؤلاء المكذبين ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾].

وقال: [ويقال لهم أيضًا]: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، ذلكم المشار إليه: العذاب، والمخاطب: أولئك الكافرون، ولهذا جاءت الكاف بضمير للجماعة، وجاءت اسم الإشارة بالإشارة بمفرد المذكر؛ لأن العذاب مفرد مذكر، واعلم أن اسم الإشارة وكاف الخطاب تارةً يتفقان وتارةً يختلفان، فاسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المخاطَب، فإذا قيل لك: أشِرْ إلى مفرد مذكر مخاطبًا جماعة نساء، فكيف تقول؟ ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣١]، أشِرْ إلى مثنى مذكر مخاطبًا مُثنًّى مؤنثًا؟ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾، أشِرْ إلى مفردة مؤنَّثة مخاطبًا جماعة ذكور؟ ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، المشار إليه: مفرد مؤنث، والمخاطب: جماعة ذكور، إذن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المخاطب، قد يتفقان وقد يختلفان.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، وعلامة ما المصدرية: أن يصحَّ تحويل ما بعدها إلى مصدر؛ فمثلًا: قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ إذا حوَّلنا ما بعدها إلى مصدر يكون التقدير: ذلكم بكونكم تفرحون في الأرض بغير الحق، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ معلوم أن كان هذه للماضي؛ أي: قبل الموت، وقوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تفرحون بالباطل، وذلك أنهم يفرحون بالشرك والكفر، وكل من شاركهم في إثمهم فإنهم يفرحون به، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني بذلك المفسِّر: [من الإشراك، وإنكار البعث]، وهذا في الواقع قصور إلا إذا كان يريد به التمثيل، وإلا فإن قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أعم من الشرك، وإنكار البعث، فهم يفرحون في الأرض بغير الحق؛ من الشرك، وإنكار البعث، والعدوان، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال؛ كالسائبة، والوصيلة، والحام، وما أشبه ذلك، المهم: أن قول المؤلف: [الإشراك، وإنكار البعث] هذا قصور ما لم يرد التمثيل، فإن أراد التمثيل فإن التمثيل لا يفيد الحصر.

وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [تتوسَّعون في الفرح] الواو حرف عطف، والباء للسببية، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها بإعادة العامل الباء، والعطف بإعادة العامل يعني: أن الثاني مستقل عن الأول، فهُم يُعذَّبون بالأمرين جميعًا؛ يُعذَّبون عذابًا خاصًّا بالفرح، وعذابًا خاصًّا بالمرح، والباء للسببية.

وقوله: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ادخلوا فعل أمر، والآمِر هم الملائكة، والأمر يراد به: الإهانة، ليس أمر إكرام، ولكنه أمر إهانة وإلزام؛ لأنه لابد أن يدخلوا، وقوله: ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ جمع، فكم عدد الأبواب؟ عدد أبواب جهنم سبعة، كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] وجهنم اسم من أسماء النار، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها ذات جهمة إذا قلنا: إن جهنم اسم عربي زِيدَت فيه النون، وإن قلنا: إنه اسم غير عربي ولكنه عُرِّب، فلا حاجة أن نقول: إنها مشتقة من الجُهْمة التي هي: الظلمة والقعر، وأيًّا كان هو اسم من أسماء النار ـ أعاذنا الله وإيَّاكم منها ـ.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين هذه حال من الفاعل في قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾، وهذا الخلود هل هو طول المكث، أو التأبيد؟ نقول: الخلود يأتي في اللغة العربية مرادًا به: طول المكث، ويأتي مرادًا به: التأبيد، والمراد به هنا: الثاني؛ يعني: أنهم خالدون فيها أبدًا، ودليل ذلك: أن الله تعالى صرَّح في القرآن الكريم بأن أهل النار خالدين فيها أبدًا في ثلاثة مواضع: الموضع الأول: قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨ـ ١٦٩]، والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤ـ ٦٥]، والآية الثالثة: قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]،

وبهذه الآيات الثلاث يتبيَّن ضعف؛ بل بطلان من يقول: إن النار ليست مُؤبَّدة وأنها تفنى، فإن هذا القول منكر؛ لأنه مخالف لصريح القرآن، ولا يمكن للإنسان أن يخالف صريح القرآن لمجرد تعليلات يُعلِّلها؛ مثل: أن يقول: إن رحمة الله تعالى سبقت غضبه[1]، وإن هؤلاء مآلهم إلى أن يفنَوا هم والنار، نقول: نعم، رحمة الله سبقت غضبه، لكن وعد الله حق، وإذا كان وعد الله حقًّا فإنهم يُخلَّدون فيها أبدًا.

وإذا قال قائل: التخليد الأبدي في هذا العذاب الأليم كيف يكون جزاءً لإنسان لم يبق في الدنيا إلا مائة سنة، أو مائتي سنة، أو ألف سنة؟ فيكون هنا العذاب أكثر من زمن العمل؛ لأنه لا أحد بقي في الدنيا أبد الآبدين، فيقتضي هذا أن يكون فيه ظلم؛ لأن الجزاء صار أكثر من العمل بكثير، ولا يُنسَب له، لنفرض أن أحدًا من الناس عاش ألف سنة، أو ألفي سنة، أو عشرة آلاف سنة، لكنه عاش إلى أمد، ثم نقول: عذابه مُؤبَّد، يكون هذا ظلمًا؟

فيُقال: إن هذا أمضى حياته الدنيا كلها في مُحاجَّة الله ورسله، فيمضي حياته الأخرى كلها في العذاب، وهذا عدل، ثم إن هذا الذي عُذِّب أبدًا قد قيل له في الدنيا، وبُيِّن له أن جزاءه: العذاب الأبدي، فلماذا يُقدِم على شيء يعرف أن هذا جزاءه، وحينئذٍ لا ظلم، ولا عُذْر للكافرين، فالمهم: أن قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يُراد به: الخلود الأبدي.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الجملة جملة إنشائية يُراد بها: الذم، ويقابل هذا في المدح: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، فبئس هنا فعل إنشائي يُراد به: الذم، والمعنى: أن هذه الدار دارٌ كلها ذمٌّ، كلها بلاءٌ، ولهذا وُصِفَتْ بأنها بئس مثوى المتكبرين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

١ - **في هاتين الآيتين من الفوائد:** أن هؤلاء المُكذِّبين بالكتاب، وبما أرسل الله به الرسل يُعذَّبون عذابًا جسديًّا بالسلاسل، والأغلال، والسحب في النار، ويُعذَّبون عذابًا قلبيًّا بالتوبيخ، والتقريع، والتنديم، فيقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات القول لله - عَزَّ وجَلَّ - الآية لا تدل على هذا؛ لأن القائل لم يبين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾، ولكن في آية أخرى تدل على أن الله يقول لهم ذلك، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، من الذي يناديهم؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأنه قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ويمكن أن يقال: أنهم ينادون من قِبَل الله، وينادون أيضًا من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (١٤/ ٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قِبَل الملائكة الذين وكَّلهم الله ـ عَزَّ وجَلَّ، أو يقال: إن الملائكة تناديهم، ولكن مناداتهم أُضِيفَتْ إلى الله؛ لأنه الآمِر بها، كما أضاف الله الوفاة إليه مع أن الذي يتوفى الأنفس مباشرة هي الرسل، ولكن نقول: هذه الاحتمالات لا نُورِدُها مع وجود الظاهر؛ لأن الكلام يُحمَل على ظاهره حتى يقوم دليل على صرفه عن الظاهر، فإذا كان الله يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، صريحٌ بأن المنادي هو الله فيبقى على ما هو عليه، ويُحمَل ما كان مبنيًّا للمفعول على أن المنادي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ.

٣ ـ ويستفاد من قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن الله تعالى يُذِلُّ الكافر بكفره، وجه الدلالة: أن الحكم إذا عُلِّق على وصف كان ذلك الوصف علَّة له، فما الذي عُلِّق على الكفر هنا؟ الإضلال، إذن الكفر سببٌ للإضلال، ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

يتفرَّع على ذلك: أن الضالَّ إذا ضلَّ فإنه هو السبب في ضلاله؛ لأن الله ـ تعالى ـ لو علم فيه خيرًا لأسمعه، ولهذا يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهي تعني: أن الله أعلم حيث تكون الرسالة في شخصٍ مُعيَّن، وكذلك حيث يكون أثر الرسالة في شخصٍ مُعيَّن، وأثر الرسالة الهداية.

٤ ـ ومن فوائدها: الردُّ على القدرية ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجه ذلك: أن القَدَرية يُؤيِّدون أن الإنسان له إرادة مستقلة، ولا علاقة لله بها، فيكون في ذلك ردٌّ على القدرية.

ينبغي بهذه المناسبة أن نقول: إن الناس انقسموا في هذا الباب إلى طرفين ووسط – أي: في أفعال العباد –؛ فمنهم من قال: أفعال العباد مخلوقة لله، والعبد مجبورٌ عليها وليس له إرادة؛ لأن الله خالق كل شيء، وإذا كان الله هو الخالق فالإنسان ليس له تدبير، ومنهم من قال بالعكس: إن الإنسان فاعل باختياره، وليس لله علاقة به، هذان طرفان، ومنهم من قال: إن الإنسان فاعل باختياره، لكن فعله مقرونٌ بمشيئة الله، وهذا هو الوسط.

واعلم أن أسباب الضلال في مثل هذه الأمور: أن من الناس من ينظر إلى النصوص من زاوية واحدة؛ بمعنى: أنه يأخذ نصًّا ويدَعُ نصًّا، فالجبرية رأوا عموم مشيئة الله، وعموم خلق الله، وأن الإنسان فقير إلى الله، وما أشبه ذلك، فقالوا: إذن الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار، وفعله على وجه الإجبار، والقدرية رأوا أن الإنسان يفعل، ولا يَشْعُرُ أن أحدًا مكرهٌ له، والله ـ تعالى ـ قد أضاف الفعل إليهم، فقال: أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وما أشبه ذلك، فإذن هو مستقل بعمله، ليس لله فيه علاقة، فأخذوا من جانب وتركوا جانبًا آخر، وهكذا جميع خلاف العلماء، إذا رأيت العلماء مختلفين على طرفين ووسط، فاعلم أن الطرفين كل واحد منهما أخذ بجانب من الأدلة، وترك جانبًا آخر.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾:

١ - **في هذه الآية الكريمة**: إثبات الأسباب، من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسببية، واعلم - أيضًا - أن الناس اختلفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط: طرف من الناس أثبت الأسباب، وأنها فاعلة بنفسها؛ يعني: أنه إذا وُجِد السبب لَزِمَ وجود المُسبَّب، ولابد، وطائفة أخرى أنكرت تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب لا تؤثر؛ لأنك لو جعلت هذا متأثرًا بسبب لأثبتَّ لله شريكًا في الإيجاد، وهذا شرك، إذن هنا طرفان: طرف يُثبِتُ الأسباب، وأنها مؤثرة بنفسها؛ بمعنى: أنه متى وُجِد السبب لزم وجود المُسبَّب، فالسبب مؤثِّر بذاته، وطائفة أخرى تقول: لا تأثير للأسباب؛ لأنك لو جعلتَ للأسباب تأثيرًا أشركتَ مع الله؛ حيث جعلت مُوجِدًا مع الله - عَزَّ وجَلَّ -، الطائفة الثالثة قالت: الأسباب مؤثرة لا شك، لكن لا بنفسها؛ بل بما أودع الله فيها من القوى التي صارت بها مؤثِّرة، ولو شاء الله - تعالى - لسلب تلك القوى، فلم تؤثر، وهذا قول وسط، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي يوافق السمع والعقل.

أضرب لك مثلًا: رجلٌ رمى زجاجة بحجر فانكسرت.

مُثبِتو الأسباب يقولون: الذي كسرها الحجر بذاته، ونافو الأسباب يقولون: الحجر لم يكسر الزجاج، لكن انكسرت الزجاجة عند رميها بالحجر، وليس بالحجر، وإنما الحجر أمارة فقط حصل بها الشيء عندها، وكذلك بقية الأسباب، والوسط يقولون: الحجر كسر الزجاجة، فهو السبب بما جعل الله - تعالى - في الحجر من قوة، وبما جعل في الزجاجة من قابلية تقبلُ الانكسار، وهذا هو الحق.

مثال آخر: أَلقَيْنا في النار ورقًا فاحترق، مُثبتُو الأسباب الذين يقولون: إن الأسباب تؤثر بنفسها يقولون: النار أحرقت الورقة، ولابد، ونافو الأسباب يقولون: إن النار لم تحرق الورقة، ولكن احترقت الورقة عند إلقائها في النار لا بالنار، والوسط يقولون: احترقت الورقة بالنار بما جعل الله تعالى في النار من قوة الإحراق، وبما جعل في الورق من قابلية ذلك، ولهذا يوجد الآن مواد تُضاد النار، تُلقَى في النار، ولا تحترق؛ لأن هناك مانعًا يمنع من تأثير السبب، وهذا القول هو الراجح.

ألم تروا إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، أُلقِي في النار العظيمة التي لم يستطع مُلقُوه أن يقربوا منها حتى ألقوه بالمنجنيق، ورموه فيها رميًا، ولم يحترق مع أن النار سبب الإحراق، لكن الله قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه، قال العلماء: لو قال الله - تعالى - :كوني بردًا، ولم يقل: سلامًا لكانت بردًا مهلكًا، لكن الله قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت بردًا وسلمًا وكأنه لم يكن هناك نار، إذن نقول: الأصح من أقوال العلماء في تأثير الأسباب:

أنها مؤثرة لا لذاتها، ولكن بما جعل الله ـ تعالى ـ فيها من القوى المؤثرة في المحلات القابلة.

٢ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: أن الفرح بغير الحق سببٌ للعذاب والإضلال، من قوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن الفرح بالحق محمودٌ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرح بالحق محمود، والفرح بغير الحق مذموم، والفرح بما ليس حقًّا ولا باطلًا ليس محمودًا ولا مذمومًا؛ لأنه من اللغو، لكن عباد الرحمن إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كرامًا، ثم اعلم أن الفرح يكون طبيعيًا، الإنسان إذا أتاه ما يسُرُّه لابد أن يفرح ينفعل بدون إرادة، ومعلوم أن هذا لا يُؤاخذُ به الإنسان، إلا إذا كانت طبيعته منحرفة؛ بحيث يفرح بالسوء دون الخير.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأسباب تتوراد؛ بمعنى: أنه قد يرِدُ على الشيء سببان، من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمرح أشد من الفرح، وهكذا الأسباب الشرعية تتوارد؛ بمعنى: أنه قد يكون في الإنسان سببان؛ واحدٌ منهما يُوجِبُ الحكم، فإذا اجتمعا صار كل واحدٍ يُقوِّي الآخر، فإن اختلف مُوجَب السببين؛ فهل نقول: إننا نأخذ بأحد السببين دون الآخر، أو نأخذ بالسببين ونعمل بمُوجَبها؟ فالجواب: الثاني، ما لم يكن أحدهما أقوى فيندرج به الأصغر، إذن إذا اجتمع سببان واختلف موجبهما أخذنا بموجب كل منهما، ما لم يكن أحدهما أقوى فيؤخذ بالأقوى.

مثال ذلك: ابن عم هو زوج ماتت امرأته، هنا اجتمع في حق هذا الزوج جهة فرض، وجهة تعصيب؛ فهل يرث بالفرض، أو بالتعصيب، أو بهما؟ بهما، فنقول: هذا الزوج له النصف فرضًا، والباقي تعصيبًا، فهنا يرِثُ بالفرض وبالتعصيب.

رجل مَلَكَ أَمَة، ثم تزوَّجها؛ فهل يصح هذا الزواج ليملك بُضْعَها، أو لا يصح؟ لا يصح؛ لأن المُلْكَ أقوى، ولهذا لا يصحُّ للسيد أن يعقد النكاح على أَمَتِه، لكن يستمتع بها بمُلكِ اليمين.

رجل بال وتغوَّط، هنا سببان موجبان للوضوء؛ هل نأخذ بكل واحد منهما؟ هنا لم يختلف الموجب؛ لأن المُوجَب هو الوضوء، لكن يقوى المُوجَب بتعدُّد المُوْجِب، لكن لَمَّا لم يختلف لم نقل: نأخذ بهما جميعًا؛ لأنه لا فائدة من ذلك، إذن إذا اجتمع موجِبان فإن اتحد موجبهما أخذنا بواحد وكفى، وإن اختلف الموجَب أخذنا بهما، ما لم يكن أحدهما أقوى فيؤخذ بالأقوى ويُترَك الأضعف.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾:

١ - **يستفاد من الآية**: إهانة الكفار، وهو عذاب قلبي؛ لأن العذاب القلبي قد يكون أشدَّ من العذاب البدني.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن لجهنم أبوابًا، لقوله: ﴿أَبۡوَٰبَ﴾، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: خلود أهل النار فيها، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، والصواب الذي لا شك فيه: أن الخلود مُؤَبَّد للآيات الثلاث التي سُقْناها قبل قليل.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: ثناء القدح على نار جهنم، لقوله: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من التكبُّر، لقوله: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»(١)، فالكبر - والعياذ بالله - سببٌ لدخول النار، لكن قد يكون سببًا لدخولها مع الخلود، وقد يكون سببًا لدخولها للتطهير فقط، فإن كان هذا التكبُّر تكبُّرًا عن الحق وردًّا له، فهذا سببٌ لدخول النار على التأبيد، وإن كان التكبر دون ذلك؛ مثل: أن يتكبَّر على الخلق مع القيام بحق الخالق، أو يتكبَّر عن بعض الأشياء، ولا أظن أحدًا يتكبَّر عن أمرٍ من أمر الله إلا وهو كافِر كُفْرًا مطلقًا؛ لأن إبليس تكبَّر عن شيءٍ واحدٍ فكفر، وهو السجود، لكن من تكبَّر على الخلق دون الحق، فهذا لا يُخلَّد في النار، يُعاقَب بمثل ما فعل من ذنب.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى**:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧]

❁ التفسير ❁

اصبر: فعل أمر، والأمر الأصل فيه الوجوب، ومعنى الصبر لغةً: الحبس، ومنه: قولهم: قُتِل فلانًا صبرًا؛ أي: حبسًا؛ أي: أُمسِك ثم قُتِل، لكنه في الاصطلاح الشرعي أخص من مطلق الحبس، فهو: حبسُ النفس عمَّا يُغضِبُ الله تعالى في ما يُرضِي الله، ومن ثَمَّ قال العلماء: إن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

صبرٌ على طاعة الله - وهو أعلى الأقسام -، وصبرٌ عن معصية الله - وهو الثاني في المرتبة -، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة - وهو الثالث في المرتبة.

الأول: صبرٌ على طاعة الله؛ بأن يصبر الإنسان نفسَه على طاعة الله فيقوم بالواجب، ويُكمِّل ذلك بالمستحب، وهذا يحتاج إلى صبر وإلى عناء، ولاسيَّما مع ضعف الإيمان، فإن ضعيف الإيمان يشُقُّ عليه فعل الطاعة فيحتاج إلى أن يصبر، ويحبس نفسه على فعل الطاعة، ويَعِدُها بالخير والثواب، ويقول: إن الوقت ذاهب، فإما أن يكون في طاعة الله، وإما أن يكون في معصية الله، وإما أن يكون لهوًا، فيحمِلُها ذلك على القيام بطاعة الله، والصبر على طاعة الله شاقٌّ من وجهين: من وجه إلزام النفس بالقيام بها، ومن وجه تَعَب البدن بالقيام بها، فها هنا عناءان: الأول مع النفس، والثاني مع الجوارح، ولهذا كان هو أعلى أقسام الصبر.

مثال ذلك: الصبر في الجهاد هذا صبرٌ على طاعة الله، وهو أشقُّ أنواع الطاعة التي يُصبرَ عليها، ولهذا جعله النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام[1]؛ لأنه أشقُّ ما يكون.

الثاني: صبرٌ عن معصية الله؛ يعني: أن الإنسان قد يَهْوَى المعصية، ولكن يحبِس نفسَه عنها، فهذا صبرٌ عن معصية الله - عَزَّ وجَلَّ -، ويتضمَّن هذا الصبر حبسَ النفسِ مع الكفِّ، ففيه عناء واحد، وهو حبس النفس عن المعصية، لكن ليس فيه تعبٌ بدني؛ إذ أنه كفٌّ بلا فعل، والكفُّ بلا فعل أهون من الفعل؛ لأنه ليس فيه مشقَّة بدنية، غاية ما فيه أنه معاناة قلبية للصبر عن هذه المعصية.

والقسم الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، هي التي لا تُلائِم النفس؛ إما بفوات محبوب، وإما بحصول مكروه، فيحبس الإنسان نفسه في هذا الأمر، وهو أقل أقسام الصبر رتبة؛ لأنه يأتي بغير اختيار الإنسان، فالصبر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المعصية باختياره، لكن على الأقدار ليس بمَلكِك أن تمنع ما قدَّر الله عليك من فوات محبوب، أو حصول مكروه، ولهذا قال بعض السلف: عند حلول المصائب إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلُو سُلُوَّ البهائم، وقِسْ نفسك تأتيك المصيبة اليوم أكبر من الجبال، وأحرّ من النيران، ثم تخِفُّ شيئًا فشيئًا حتى لا تكاد تذكرها، إذن إما أن تصبر وتحتسب، وإما أن تسخط، حتى لو سخطت، فالمآل إلى نسيانه، أن يسْلُو الإنسان سُلُوَّ البهائم، هذا القسم الثالث من أقسام الصبر يكون بالأمور الآتية:

١ - حبس اللسان عن التسخُّط، لا يتسخَّط، يقول: أصابني بكذا، ولم يُصِب فلانًا، أصابني بالفقر، والناس أغنياء، أصابني بالمرض، والناس أصحَّاء، وما أشبه ذلك، لا يقول هذا، ولا يقول: واويلاه، واثُبُوراه، وانقطاع ذِكْراه، وما أشبه ذلك، لا يقول هذا؛ لأن هذا منافٍ للصبر،

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

الإخبار بما أصاب الإنسان من مصيبة دون التشكِّي.

هل يجوز هذا أو لا؟ يجوز هذا، وقع هذا من النبي - عليه الصلاة والسلام -؛ حيث قال: «بَلْ أَنَا وارَأْسَاهْ»[1] ولا حرج؛ لأن هناك فرقًا بين شخصًا يتكلم بما أصابه تسخطًا أو شكايةً لمخلوق، وبين شخص يخبر عما أصابه فقط مجرد خبر، والأعمال بالنيَّات.

٢ - حبس الجوارح عند المصيبة عن فعل ما لا يجوز، وما يُنبِئ عنه الغضب؛ مثل: شق الجيوب، ولطم الخدود، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك، هذا أيضًا منافٍ للصبر، ولهذا تبرَّأ النبي ﷺ فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[2].

٣ - وهو حبسُ القلب عن كراهة ما قدَّر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذا أعظمها وأدقُّها، قد يرى الإنسان الضعيف المخلوق المملوك المُدبَّر قد يرى أن ربَّه ظلَمَه - والعياذ بالله - دون أن يتكلم ودون أن يفعل، لكن قلبه مملوء على الله من السخط، ورؤية أن الله تعالى ظلمه، أو ما أشبه ذلك، هذا يجب أيضًا أن يتخلَّى القلب عنه، وهذا أخطر ما يكون بالنسبة للصبر على الأقدار، أتْلُ قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] حرف يعني: طرف ليست هي عبادة، لكنها رأي ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وهذا يشمل فتنة المصائب وفتنة الشُّبُهات، من الناس من يؤمن بالله واليوم الآخر لكنه على طرف، إن أصابه خيرٌ ولم يناقشه أحد ولم يجادله أحد مضى، وإن جاءه أحد يُشكِّكُه في هذا الأمر شكٌّ فانقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، من الناس أيضًا مَن يكون في نعمة، قد أنعم الله عليه بالأموال، والأولاد، وما يحتاج إليه من الدنيا أو يُكمِّلها، فأُصِيب بحادث فَقَدَ أهله به كلهم، من الناس من إذا كان يعبد الله على حرف يسخط على الله، ويكره قضاء الله كراهةَ سُخْط، لم يكره المصيبة؛ لأنه يتمنَّى أنها لم يُصِبْه؛ بل يكره قضاء الله تسخُّطًا على الله، وهذا من جهل الإنسان.

أنت مُلْكٌ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، هذا الرب الكريم الذي إذا أصابك بالسَّرَّاء فشكرتَ أثابك، وإذا أصابك بالضرَّاء فصبرتَ أثابك، كيف تسخط على هذا الرب الكريم وأنت مُلْكُهُ وعبده يتصرَّف فيك كما شاء، وله حكمة فيما فعل، وظيفتُك: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

فالمهم: أن الصبر الآن تَبَيَّنَ أنه ثلاثة أقسام: الأول: أعلاها وأتمها، وهو: الصبر على طاعة الله، والثاني: الصبر عن معصية الله، والثالث: الصبر على أقدار الله، وأفضلها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

يوسف - عليه الصلاة والسلام - أُصِيبَ ببلاء في خُلُقِهِ، وبلاءٍ في جسده، فصبر على هذا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٦٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٦٥/١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذا، دَعَتْه امرأة العزيز في مكان مغلق، وهي امرأة العزيز عندها من الحُلِيِّ والزينة، وربما الجمال ما ليس عند غيرها، وهو فتاها أيضًا ليس هو أكبر منها شرفًا عندها، دَعَتْه إلى نفسها في مكان خالٍ، وهمَّ بها؛ لأن النفس البشرية قد يغيب عنها ملاحظة أمر الربوبية، فهَمَّ بها، لكن هي السابقة ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، لكن بعد أن همَّ رأى برهان الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أراه الله البرهان - الآية - كأنها رؤيا عين فامتنع، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] هذا صبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عظيم، فتى شاب مع سيِّدته الجميلة في مكان لا يدخل عليه أحد، ومع هذا كفَّ عنها، وأُوذِيَ في جسده بالسجن ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، ومع ذلك صبر، حتى إن الملك لما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أَبى أن يخرج حتى تُسأَل النسوة: ماذا حصل؟ ليتبيَّن براءته قبل أن يخرج، وهذا لا شك صبرٌ عظيم، لكن أيُّ الصبرين أعظم؟ الأول: الصبر عن المعصية؛ لأن السجن واقعٌ سواءٌ صبر أو لم يصبر، وليس باختياره.

قول الله تعالى لرسوله - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ [طه: ١٣٠] يتضمن كل الأقسام، ولهذا كان نبينا ﷺ أصبر الناس في أحكام الله، وأصبر الناس على أحكام الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠] هذه جملة مؤكدة بأن، ويقول المؤلف رحمه الله: [﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بعذابهم ﴿حَقٌّ ﴾]، وهذا قصورٌ من المؤلف - رحمه الله -؛ بل إن وعد الله بعذابهم ونصرهِ حق؛ بل لو قلنا بأنه أعم من ذلك - أيضًا -، لولا أنه في السياق مُحاجَّةٌ مع الكفار لقلنا: إنه أعم، إن وعد الله حق في كل شيء في عذاب هؤلاء، ونصر هؤلاء، وفي الجنة، وفي النار، وفي كل شيء.

وقوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: أمرٌ ثابت واقع، فكل ما وعد الله به فهو حقٌّ ثابت واقع لكمال صدقه، وكمال قدرته، وقلنا هذا؛ لأن إخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إما كذب الواعِد، وإما عجزه عن تنفيذ ما وعد به، والله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يُخلِف الميعاد لكمال صدقه، وكمال قدرته - تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يقول المؤلف في إعرابها: [فيه إن الشرطية مُدغَمة، وما زائدة تُؤكِّد معنى الشرط أول الفعل، والنون تُؤكِّد آخرَه] ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الفاء هذه عاطفة، وإن شرطية، وما زائدة للتوكيد، وهي التي في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أيًّا ما، ما زائدة، لو حُذِفَت تكون أيًّا ندعو استقام الكلام، لكن يؤتى بحروف الزيادة للتوكيد، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ لو حُذِفَت ما، وقال: إنْ نُرِينَّك استقام، لكن تأتي ما للتوكيد، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نُرِي فعل مضارع، لكنه بُنِي على فتح آخره، وهي الياء لاتصاله بنون التوكيد، والنون للتوكيد، والكاف مفعول به، التوكيد هنا في آخر الكلمة، وما في أولها، فصار هذا الفعل الذي هو الإراءة مُؤَكَّدًا بمؤكِّدَين: ما الزائدة في أوله، ونون التوكيد في آخره، والكاف مفعول أول، وبعض مفعول ثان، ونُرِهِ من باب كسا، أو من باب ظنَّ؟ من باب كسا؛ لأن الرؤية هنا بصرية، لكن لما

دخلت عليه همزة التعدية صارت ناصبةً مفعولين، تقول: فلان رأى النجم، نَصَبَت واحدًا، وتقول: فلان أريتُهُ النجم، نصَبَت مفعولين من أجل دخول الهمزة على رأى هذه؛ لأن نُرِي رباعي أصلها أرى يُرِي ونُرِي.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يعني: فأنت تراه، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [به من العذاب في حياتك، جواب الشرط محذوف؛ أي: فذاك] إنْ هي جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يعني: إن أريناك بعض الذي نعدهم فقد رأيته بعينك، وأقرَّ الله عينك به، وهذا هو المطلوب.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يعني: قبل أن نرينك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وسنُرِيك بهم، هذا تهديد عظيم، وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هذه معطوفة على نُرِيَنَّك، وهي قسيم قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يعني: إما أن ترى عذابهم قبل موتك، وإما أن نتوفَّاك، ثم نُعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وهذا أشد فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، ولهذا جاء في الحديث: «أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»[1] عُوقِبَ في الدنيا بماله، أو بدنه، أو أهله، أو مجتمعه، وإلَّا تركه حتى يُوافِيه به يوم القيامة - نسأل الله أن يقينا وإياكم عذاب الدنيا والآخرة، ويرزقنا العافية -.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [فنُعذِّبهم أشد العذاب، فالجواب المذكور للمعطوف فقط]، وهو ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يعني: إذا توفَّيناك فإلينا يرجعون.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** وجوب الصبر؛ لأن الله - تعالى - أمر به في قوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب، وهذه المسألة اختلف فيها الأصوليون: هل الأصل في الأمر في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ: الوجوب أو الأصل النفي؟ إن قلنا: الأصل الوجوب كان هذا المأمور به مُلزَمًا به، وإذا قلنا: النفي صار الإنسان بالخيار، إن فعلها فهو خير، وإن تركه فلا شيء عليه، وهذا محلُّ إشكال في الواقع عند التفريق محل إشكال، وعند التجريد أيضًا فيه نظر؛ يعني: المراد: الأمر المطلق المجرد عن القرينة، أما ما دلَّت عليه القرينة، فالأمر واضح إن دلَّت على الوجوب فهو واجب، وإن دلَّت على الاستحباب فهو مستحب، وإن دلَّت على الإباحة فهو مُباحٌ، وإن دلَّت على التهديد فهو للتهديد، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ المعنى: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

لكن مرادنا: الأمر المجرد عن كل قرينة؛ هل هو للوجوب أم للاستحباب؟ من العلماء من قال: إنه للوجوب، ولهم أدلتهم، ومنهم من قال: إنه للاستحباب، ولهم أدلتهم، القائلون بالوجوب يستدلُّون بمثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قالوا: هذا يدل على الوعيد في مَن خالف أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فيدلُّ إذن على أن الأمر للوجوب، وقالوا أيضًا: إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»[1]، وهذا أيضًا يدلُّ على الوجوب؛ لأنه قال: «فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، ومثل هذا التعبير إنما يكون في الواجب، «وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»؛ ولأنه يقبُحُ عادةً أن يقول السيد لعبده: افعل كذا، ثم يخالف، فتكون مخالفة الأمر قبيحة، والقبيح منهيٌّ عنه مكروه، أما القائلون: بالاستحباب بأن الأصل في الأمر الاستحباب، فيقولون: إن كونه مأمورًا به يدل على فعله، والأصل براءة الذمة، فلا نُؤثِّم الإنسان إذا ترك ما أُمِر به إلا بدليل؛ لأن الأصل براءة الذمة؛ ولأننا وجدنا مسائل كثيرة وأدلة كثيرة فيها الأمر أجمع العلماء على أنها للاستحباب، وهذا يُوهِنُ القول بأن الأمر للوجوب، توسَّطَ قومٌ فقالوا: إذا كان الأمر في عبادة فهو للوجوب، وإذا كان في آداب فهو للاستحباب، وهذا أقربُ من الإطلاق بأنه للوجوب أو الإطلاق بأنه للاستحباب؛ يعني: أن هذا التفصيل هو أقرب ما يكون، ومع هذا فليس بمُنضَبط؛ بل قد تأتي أوامر في الآداب وهي واجبة، فعلى كل حال نقول: الأصل أقرب ما يقال في هذه المسألة: إن الأصل في الأوامر في التعبُّد: الوجوب؛ لأننا خُلِقنا للعبادة وأُمِرنا بها، فنتعبَّد، والأصل في الأوامر في غير العبادة كالآداب مثلًا: للاستحباب، ومثل ذلك يقال في النهي؛ هل هو للتحريم أو للكراهة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثباتُ وقوع وعد الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأنه حق، ولابد أن يقع، لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، وهذه الجملة مؤكدة بـ (إنَّ) تدلُّ على أن وعد الله لابد أن يقع، هل وعيده كذلك؟ نعم، حتى وعيده حق، ولابد أن يقع إلا أن يمُنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالعفو، وإلا فالأصل: أن وعيده واقع، لا يقال كما قال بعض الناس: الوعيد ليس بواقع، وليس بحقٍّ، وأن الوعد هو الحق، نقول: كله حق، لكن الوعيد قد يعفو الله عنه، والعفو كرم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات كلام الله، أن الله يتكلم، من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الوعد يكون بالقول، ولا شك أن الله - تعالى - يتكلَّم، وأنه لا نفاد لكلماته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧/١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البحر اسم جنس يعم كل البحار ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ ، لو كانت البحار كلها حِبْرٌ لنَفِدَت قبل أن تنفد كلمات الله، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يعني: لو أن ما في الأرض من الشجر كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يعني: وكتب بالأقلام بمداد البحر ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، وهذا يدل على عظمة الرب - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لأنه مُدبِّر الكون، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولا منتهى لإرادة الله.

وهل قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - قول مسموع يعني: بصوت أو بلا صوت؟ بصوت؛ لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، ولا نداء ومناجاة إلا بصوت، وورد الصوت صريحًا في ما ثبت عن النبي ﷺ: أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ» فيقول: لبَّيْكَ وسعديك، فيُنادِي بصوتٍ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» قال: يا رب، وما بعث النار؟[1] إلخ، هذا صريحٌ بأن الله يتكلَّم بصوت، وهنا في هذه المسألة مذاهب: نذكر منها المذاهب المشهورة الثلاثة: أنه يتكلَّم بصوتٍ مسموع وحرف غير مخلوق؛ لأنه كلام، وهذا مذهب السلف وأئمة الخلف، فكلامه - عَزَّ وَجَلَّ - هو اللفظ والمعنى، والقول الثاني: أن الله - تعالى - يتكلم بصوت مسموع، وحرف مخلوق، والكلام كلامه، وهذا مذهب الجهمية الذين يقولون: إن القرآن كلام الله، ولكنه مخلوق؛ لأن كل كلام الله عندهم مخلوق، والقول الثالث: إنه لا يتكلم بصوت ولا بحرف مخلوق، إنما كلامه هو: المعنى القائم بنفسه، لكن يخلق شيئًا يُعبِّر عن هذا الذي في نفسه، فيُسمَع هذا المخلوق، ويُضافُ إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إضافة تكريم وتشريف، وهذا مذهب الأشاعرة الذين هم أهل الكلام، والذين يقولون: إنهم هم الذين دافعوا المعتزلة عن الباطل، وهم الذين انتصروا للإسلام، وهم في الحقيقة لا للإسلام انتصروا، ولا لحرب الإسلام كسروا؛ بل قد نقول: قولهم في الكلام شرٌّ من قول الجهمية؛ لأنهم اتفقوا على أن ما يُسمَع من كلام الله مخلوق، وعلى أن القرآن مخلوق، لكن الجهمية يقولون: هو مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: مخلوق، وليس كلام الله؛ بل هو عبارةٌ عنه، إذن نسألهم: أين كلام الله؟ قالوا: هو المعنى القائم بنفسه، والحقيقة أن المعنى القائم بنفسه ليس كلامًا، وإنما هو عِلْمٌ، عَلِمَ بما سيخلق من كلام فيكون هذا هو كلامه، والعجيب: أنهم استدلُّوا بآية وَشِعْر، أما الآية فقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] فأثبتَ القول النفسي، أما الشِّعْر، فقالوا: إن الشاعر قال:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلا

الفؤاد يعني: القلب، فنقول لهم: أما الآية فلا دلالة فيها لكم؛ بل هي على رؤوسكم؛ لأن الله -

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٣٧٩/ ٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تعالى - لم يطلق القول؛ بل قيَّده، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨]، وهذا كقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»(١)، وحديثُ النفس لا يمكن أن يقال: إنه حديث، ولا أن يقال: إنه قول إلا بقَيْد، ولهذا لو حُذِفَت ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقيل: لولا يعذبنا الله، فماذا يُفهَم منه؟ يُفهَم منه: كلام اللسان، لكنِ هم بأنفسهم يُقدِّرون، يقول الواحد منهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، إذن ما نقوله حق؛ لأن الله لم يُعذِّبنا، هذا يُقدِّره الإنسان في نفسه.

أما الشعر، فهو قول الأخطل الشاعر النصراني قاله بعد تغيُّر الألسن، وعلى فرض أنه موافق، فإنه يجب أن يُحمَل على أن المعنى: إن الكلام المُعتَبر هو ما يُقدَّر أولًا في الفؤاد، ثم ينطق به اللسان، ولهذا يُعتَبر الكلام الذي يسبق على اللسان لا يعتبر كلامًا، ولا يُؤاخَذ به، فالكلام الحقيقي الرصين المعتبر هو الذي يكون أولًا في القلب، ثم يُعبَّر عنه باللسان، هذا معنى البيت الذي لا يحتمل غيره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن وعد الله حقٌّ ثابتٌ لابد أن يقع، وهو كذلك، وقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهديد هؤلاء المُكذِّبين للرسول - عليه الصلاة والسلام - بأحد أمرين: إما بعقوبة عاجلة قبل أن يُتَوَفَّى، وإما بعقوبة آجلة في يوم القيامة، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن مرجع الأمور كلها إلى الله، وليست باختيار أحد، فهو الذي يُقدِّر ما شاء، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

٧ - ومنها: أن عذاب العدو يشفِي غليل عدوِّه، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأى عذاب الله - تعالى - لعدوه فلا شك أنه يشفِي غلِيلَه.

٨ - **ومن فوائدها**: أنه لا بأس أن نفرح إذا أصاب الله عدوَّنا بمصيبة؛ لأن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأجل أن تقرَّ عينُه بذلك، فإذا أُصِيبَ أعداؤنا بخسفٍ، أو صواعق، أو فيضانات، أو ما أشبه ذلك، وفرِحْنا بهذا فلا لوم علينا؛ لأنهم أعداؤنا يفرحون بما يسيئنا، فالجزاء من جنس العمل.

٩ - ومنها: إثبات رجوع الخلق إلى الله، لقوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، وهذا عامٌّ في كل شيء، في الأحوال، والأوقات، وفي كل شيء، المرجع إلى الله، وحده.

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]

التفسير

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الجملة هذه مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات: اللام، وقد، والقسم المحذوف، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك، والرسول: هو بشرٌ يُوحَى إليه بشرع، ويُؤمَر بتبليغه، ولهذا سُمِّي رسولًا؛ أي: مدفوعًا من قِبَل الله - عَزَّ وَجَلَّ - ليبلغ، وأما النبي: فإنه بشرٌ أُوحِيَ إليه بشرع، ولكن لم يُكلَّف بتبليغه؛ بمعنى: أنه يُجدِّد شرع من قبله إن كان قبله رسول حتى يُحيِيَ همم الناس فيقتدوا به، وإذا لم يحتج الناس إلى رسول لم يُرسل إليهم أحد، فإن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان نبيًّا ولم يكن رسولًا [1]، هو نبيٌّ يُتعبَّد لله - تعالى - بما أرسله الله إليه، ولكن لم يُرسَل؛ لأن الناس لم يختلفوا بعدُ، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فالرسل إنما أُرسِلوا بعد الاختلاف، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن تقدير الآية الكريمة: كان الناس أمةً واحدةً فاختلفوا فبعث الله النبيين مُبشِّرين، وقال: إن في الآية إيجاز حذفٍ؛ أي: حُذِفَ منها ما دلَّ السياق على حذفه، على كل حال؛ الرسول هو: بشر أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ وهؤلاء الرسل كانوا يُرسَلون إلى أممهم فقط، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» من حديث جابر: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[2]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، كما قال الله - عزَّ وجلَّ -، كل أمة أرسل الله إليها رسولًا لتقوم الحُجَّة.

وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ مِنْ هذه تبعيضية؛ أي: بعضُهم قصصناهم عليك، وأخبرناك بهم، وبعضهم لم نقصصهم عليك، قال أهل العلم: وإنما قصَّ الله على رسوله ﷺ مَنْ كانوا من الجزيرة العربية وما حولها؛ لأن أخبار هؤلاء لهم بقية في

---

(١) ورد في الحديث أن آدم عليه السلام نبي مكلم وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

العرب، فلهذا قصَّهُ الله، أما من كانوا في أمريكا، أوفي شرق أسيا، أو ما أشبه ذلك من الأماكن البعيدة، فهؤلاء لم يقُصَّ علينا من نبئهم شيء.

وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [رُوِي أنه - تعالى - بعث ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس]، وجدير بالمؤلف - رحمه الله - أن يقول: [رُوِي] بصيغة التمريض؛ لأن هذا لا يصح، كيف يكون من بني إسرائيل وهم متأخرون عن أمم كثيرة أربعة آلاف، ومن سائر الناس أربعة آلاف هذا بعيد؛ بل إن الله أرسل في كل وقت وحين ما تقوم به الحُجَّة، وهل لنا أن نبحث عن عدد هؤلاء؟ لا، وإن قلنا: لنا، فإنه ليس علينا؛ يعني: لو قيل: لنا أن نبحث للاطلاع لم يكن سائغًا أن نقول: علينا أن نبحث؛ بل نقول: آمنا بالله وبرسله، ما علمنا منهم، وما لم نعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ [منهم] ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [لأنهم عبيدٌ مربُوبُون]، قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، و﴿لِرَسُولٍ﴾ خبره، و﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ اسم كان؛ أي: وما كان إتيان أحدهم بآية إلا بإذن الله، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - آتاهم الله آيات، لكن هل هم الذين يملكون هذا؟ لا، هذا من عند الله، ولكن الله - تعالى - بيَّن أنه ما من رسول إلا وأوتِي آية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني: بالآيات البيِّنات حتى يؤمن البشر، وحتى لا يكون لهم حجة عند الله؛ لأن الله لو بعث رسولًا هكذا إلى الناس، وقال: إني رسول الله، ولم يأتِ بآية، فإن الناس لن يقبلوا منه، وإلا لأمكن لكل كاذبٍ أن يدَّعي الرسالة، فلا بد من آيات بيِّنات واضحة على أنه رسول، ومع هذا لا يُمكِن لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الإذن الكوني، إذا أَذِنَ الله كونًا أن يأتي الرسول بآية أتى بآية، والرسول قد يأتي بآية ابتداءً، وقد يأتي بآية بطلبٍ من المُرسَل إليهم؛ بل قد جاء في الحديث الصحيح: أن قريشًا قالوا للرسول ﷺ: أرِنا آيةً، فأشارَ إلى القمر، فانفلق فِرقَتَيْن؛ إحداهما على الصفا، والثاني على المروة[1]، وشهد الناس ذلك، ولكن مع ذلك ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] قالوا: إن محمدًا سحرنا، والقمر لم يتصدَّع، ولكن لما لم يُعيِّنوا الآية التي طلبوها لم يُؤاخَذوا بالعقاب؛ لأن الأمم إذا عيَّنوا الآية التي طلبوها ثم لم يؤمنوا عاجلهم الله بالعقوبة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ أي: علامة على صدقه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهنا قال: ﴿آية﴾، ولم يقل: بمعجزة، وقد جرى على ألسنة كثيرٍ من العلماء - رحمهم الله - تسمية آيات الأنبياء بالمعجزات، ولكن هذه التسمية غير سديدة؛ بل الأولَى أن نُعبِّر بآية، نقول: آية النبي، ولا

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

نقول: معجزة؛ أولًا: لأن هذا هو التعبير القرآني، وثانيًا: لأن المعجزة تأتي من الرسول، وتأتي من الساحر، وتأتي من الشياطين، يأتي من هؤلاء ما يعجز عنه البشر، والثالث: أن كلمة آية فيها إشارة إلى أن ما جاء به الرسول مما يعجز البشر آية؛ أي: علامة، فهذه ثلاثة أشياء تُبيِّن رُجْحان التعبير بآية على التعبير بمعجزة.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [بنزول العذاب على الكفار] ﴿قُضِىَ﴾ [بين الرسل ومُكذِّبيها] ﴿بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [أي: ظهر القضاء والخُسْران للناس، وهم خاسرون في كل وقتٍ قبل ذلك]، إذا جاء أمر الله ـ تعالى ـ الكوني؛ لأن أمر الله ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بماذا؟ [بنزول العذاب على الكافرين]، ونزول النصر للرسل، وأتباعهم، قوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ والقاضي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وحَذْفُ الفاعل هنا للعلم به؛ لأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يقضي بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، ويحذف الفاعل أحيانًا للعلم به، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وكما في هذه الآية، وقد يُقال: إنه حُذِف الفاعل هنا للتعميم، فيكون القاضي: هو الله، وكذلك القاضي بالحق هم: الرسل وأتباعهم؛ لأنهم قضَوا بالحق بالانتصار على عدوهم، لكن الأول أولَى؛ أن يكون الفاعل واحدًا ولكن حُذِف للعلم به.

وقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الخُسْران: فوات الربح، وهنا اسم إشارة للمكان، والمراد به: الزمان، ولهذا قال المؤلف: [في كل وقت] المعنى: خسر في ذلك الوقت المُبطِلون، فإذا قال قائل: ألستم تقولون إن (هنا) إشارة للمكان؟ قلنا: بلى، لكن قد تستعار إشارة للزمان، واللام في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ للبعد، والكاف حرف خطاب، ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين وقعوا في الباطل؛ لأن القضاء بالحق يقتضي زوال الباطل، وإذا زال الباطل خسر أهله، والباطل ضد الحق، ويُفسَّر في كل موضع بحسبه، فالباطل في الكلام الخبري: الكذب، والباطل في الحكم: الجَوْر، والباطل في المعاملة: الغِش، وما أشبه ذلك، المهم: أن الباطل يُفسَّر في كل موضع بحسبه، وقول المؤلف: [وهم خاسرون في كل وقت] احترازًا من الإشارة في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ لئلَّا يظُنَّ الظانُّ أنهم خاسرون حين نزول العذاب فقط، مع أنهم خاسرون كل وقت، وقد يُقال: لا حاجة إلى ذلك؛ يعني: لا حاجة إلى ما قاله المؤلف؛ لأن المقصود: وخسر هنالك؛ أي: ظهرت خسارتهم وبانت؛ لأنهم قبل أن يُؤتَوا بالعذاب ربما يقول قائل: إنهم ربحوا، كما قال أبو سفيان في يوم أحد: يوم بيوم، والحرب سِجَال، فظنَّ أنه ربح في ذلك اليوم، فالأَولَى أن تبقى الآية على ظاهرها، وألَّا يُستدرَك القرآن، فيقال: خسر هنالك؛ أي: ظهر خسرانهم وبان، أما خسرانهم قبل نزول العذاب فهو ليس ببيِّن؛ إذ قد يقول قائل: إنهم يربحون فيما إذا أدال الله لهم على الإسلام إدالةً غير مستقرة؛ لأنه لا يجوز أن نعتقد بأن الله يُدِيلُ الكفر على الإسلام إدالةً

مستقرة؛ بل من ظنَّ بالله هذا فقد ظن به ظن السوء، لكن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

«الفوائد»

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الرسل السابقين، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - في عباده؛ حيث لم يُعاقِبهم إلا بعد إرسال الرسل، وتكذيب هؤلاء القوم الذين أُرسِل إليهم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ(١)، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾، ولم يقل: سنُرسِل، وهذه الفائدة في الواقع ليست بتلك القوية؛ يعني: مأخذها من الآية لولا الواقع ما أخذناها من الآية؛ لأن الله إنما يتحدَّث عن شيءٍ مضى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من الرسل من قصَّهم الله على محمد ﷺ، ومنهم من لم يقُصَّها، لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - تعالى - يتكلَّم؛ يعني: إثبات كلام الله، لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، والقصُّ في الأصل: تتبُّع الأثر، وأما في الكلام فهو: ذِكْر أخبار من سلف، وهذا يدل على أن الله يتكلم - عَزَّ وَجَلَّ -، وهذا هو ما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، ولكن هل يتكلم بصوت يُسمَع أو لا؟ نعم، يتكلم بصوت يُسمَع.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في حديثه عن الأمم السابقة؛ حيث قسَّمها إلى من قصَّ علينا نبأهم، ومن لم يقُصَّ، وما ذلك إلا لحكمة عظيمة بالغة.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أيَّدهم الله - تعالى - بالآيات، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الرسل لا يملكون إيجاد الآيات، مهما بلغت منزلتهم فإنهم لا يملكون أن يأتوا بآية واحدة، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تسلية الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فإن الكفار يطلبون منه آيات، ولكن الله - تعالى - يقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] يُسلِّي الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وأن هذا الأمر ليس إليك؛ بل هو إلى الله؛ إذا شاء أن يؤتيك آية آتاك، وإلَّا فهو الحكيم.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الإذن لله - عَزَّ وَجَلَّ -، والإذن نوعان: إذنٌ شرعي،

---

(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم لا نبي بعدي وهو حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢/٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذنٌ كوني، فالإذنُ الكوني ما يتعلَّق بالمخلوقات، وإيجادها، وإعدامها، وتغييرها، وما أشبه ذلك، والإذن الشرعي: ما يتعلق بالمشفوعات، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] شرعيٌّ ولا يصحّ أن يكون كونيًا؛ لأننا نعلم أنه إذا فعلوه فقد أذِنَ الله فيه، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] شرعيٌّ، كذلك هم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، هنا؛ أي: لم يأذن به شرعًا، ولا يجوز أن يكون إذنًا كونيًا؛ لأنه وقع فقد أذِنَ الله - تعالى - فيما شرع هؤلاء إذْنًا كونيًّا، وقال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا إِذْنٌ كونيٌّ؛ وذلك لأن الشفاعة تُطلَب من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يُخفِّف العذاب عن الشخص، أو ما أشبه ذلك، أو يرفع درجاته.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أفعال الله الاختيارية؛ يعني: أن الله - تعالى - قد يُحدِثُ من أمره ما شاء، لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وإذا هنا شرطية للمستقبل، إذن الأمر لم يأتِ بعد، وهذا يدل على أن الله - سبحانه وتعالى - مُتَّصِفٌ بالأفعال الاختيارية خلافًا للأشاعرة ونحوهم، الذين قالوا: إن الله - تعالى - لا يوصف بالأفعال الاختيارية، فإذا قلنا: يُوصَف بالأفعال الاختيارية، قالوا: هذا يقتضي أحد أمرين: إما أن يكون الله حادثًا، وإما أن يكون ناقصًا، أما كونه يستلزم أن يكون الله حادثًا؛ فلأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، فإذا أثبتُّم أن الحوادث تقوم به لَزِمَكم أن يكون الله حادثًا؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، هذه واحدة، أما النقص فنقول: إذا كان هذا الفعل الذي فعله الآن كمالًا؛ فلماذا لم يتَّصِف به من قبل؟ وإن لم يكن كمالًا، فهو نقصٌ يجب أن يُنزَّه الله عنه.

وهذا لا شك أنه تلبيسٌ، أما الأول: فقولهم: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، نقول: من أين أتاكم هذا، أمن جيوبكم، أم من آرائكم الفاسدة؟ من قال: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؟ الحوادث منا الآن تحدث، وقبل أن تكون، ونحن سابقون عليها، فكذلك ما يُحدِثُه الله - عَزَّ وَجَلَّ - يُحدِثُه وهو سابق عليه، وسبقُهُ أزليٌّ، فدَعواكم هذه باطلة تحتاج إلى دليل، ولا دليل؛ بل الدليل على نقضه.

وأما قولكم: إن كان كمالًا فلماذا لم يتصف به من قبل، وإن لم يكن كمالًا فهو نقص فيجب نفيه؟ نقول: هذا أيضًا باطل؛ لأننا نقول: إن فعل الله الذي يُحدِثُه هو كمالٌ حال إحداثه، وليس كمالًا حال عدمه؛ لأن الله - تعالى - متصف بالكمال، ففي حال عدمه لا يكون كمالًا، وفي حال وجوده يكون هو الكمال، وهذا واضح، فعلُ الإنسان وهو الإنسان أحيانًا يكون مناسبًا وفي محله، وأحيانًا يكون غير مناسب، وتكون الحكمة ألَّا يفعله، وبذلك نعرف أن الرجوع إلى العقل فيما يتعلَّق بالله باطل وضلال؛ لأن العقل قد يزِلُّ وقد يهِم، فالرجوع فيما يتعلق بالله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى الكتاب والسنة، لا ثالث لهما، اللهم إلا أن يقال: إجماع السلف أيضًا يُرجَع إليه، فيكون مصدر التلقِّي في العقيدة وفيما

يتعلَّق بذات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأسمائه وصفاته ثلاث: القرآن، والسنة، وإجماع السلف، لكننا نقول: لا حاجة إلى قول إجماع السلف؛ لأن إجماع السلف لا يكون إلا عن كتاب أو سنة.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: تهديدُ هؤلاء المشركين الذين كذَّبوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ ووجهُ التهديد: أن علماء البلاغة يقولون: إن (إذا) تفيد وقوع الشرط في المستقبل، كما إذا قلتُ لك: إذا جاء زيدٌ فأكرِمْه، تفهم من هذا: أن زيدًا سوف يأتي، لكنه بشرط؛ يعني: متأخر، بخلاف (إنْ)، فإنَّ (إنْ) شرطية، لكن للمحتمل، إنْ جاء زيدٌ فأكرِمْه، هل مجيئه محقق؟ لا، لكن إذا جاء فأكرِمْه يكون المجيء مُحَقَّقًا، لكنه مربوطٌ بزمن مستقبل، هذه ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ تفيد أن أمر الله لابد أن يأتي، أمر الله ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] شرعي؛ لماذا لا يكون كونيًّا؟ لأنه لو كان كونيًّا لكان كل الناس يؤدُّون الأمانة إلى أهلها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] كوني، فصار الأمر الآن يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا.

١٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما قضى الله ـ تعالى ـ من عقابٍ أو عذاب فإنه حقٌّ، لقوله: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، وعلى هذا فينتفي بذلك أن يكون الله تعالى ظالمًا لمنْ عاقبه، فإن قال قائل: أليست العقوبة تنزل بالأمة وفيهم الصالحون؟ الجواب: بلى، تنزل العقوبة على الأمة وفيهم الصالحون، لكنها تكون عقوبةً على المُسيء، ورفعةً درجات وتكفير سيئات على الصالح، ولهذا لما قالت إحدى أمهات المؤمنين: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1] فإذا غلب الخَبَثُ على الطيب حلَّت العقوبة على الجميع.

١٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المُبطِل خاسر إذا نزل به العذاب، لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وإذا كان المبطل خاسرًا فالمُصلِح رابحًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ولهذا إذا كان الأهل مصلحين فإن الله لا يهلك الأمة، لكن إذا كانوا صالحين فقد تهلك الأمة إذا كثر الخبث، وهذه نقطة قد لا يتفطَّن لها كثير من الطلبة انتفاء الإهلاك متى؟ إذا كان الأهل مصلحين ومحاولين للإصلاح، أما إذا كانوا صالحين فإنه قد يقع الإهلاك إذا كثُر الخَبَث، أما مع الإصلاح ولو كثُر الخَبَث ما دامت الأمة تحاول الإصلاح، وتسعى به فإنها لن تهلك، وهذه نقطة قد لا يتفطَّن لها كثيرٌ من الناس ـ نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوالكم ـ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (١/ ٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

[قيل: الإبل خاصَّةً هنا، والظاهر: والبقر، والغنم] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جعل؛ أي: صيَّرها مُسخَّرةً لكم، والجَعْل هنا جَعْل كوني؛ لأن الجَعْل المضاف إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- يكون كونًا، ويكون قدرًا؛ يعني: يكون جَعْلًا كونيًا، ويكون جَعْلًا شرعيًّا، ففي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] هذا الجَعْل شرعيٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] هذا جَعْلٌ كوني، وفي قوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جَعْلٌ كوني، والأنعام جمع نَعَم، قال المُفسِّر: [قيل: الإبل خاصة، والظاهر: والبقر، والغنم] بل والظاهر: ما هو أعم من ذلك، وهو ما أنعم الله به علينا من الحيوان الذي سخره الله لنا؛ من إبل، وبقر، وغنم، وفِيَلة، وغيرها، من كل شيء.

وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قسَّم الله -سبحانه وتعالى- هذه الأنعام إلى قسمين: قسم تُركَب، وقسم تُؤكَل، وعلى هذا فتكون مِنْ في الموضعين للتبعيض، وعلامة مِنْ التي للتبعيض أن يحل محلها كلمة بعض، فهنا احذف مِن، وقل: لتركبوا بعضها، وبعضها تأكلون يستقيم الكلام، فهذا علامة مِنْ التبعيضية أن يحل محلها كلمة بعض، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا التقسيم لا يعني: الانقسام؛ بمعنى: أنه يمكن أن يوجد من الأنعام ما يؤكل وما يُركَب؛ مثل: الإبل فإنها تؤكل وتُركَب.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [من الدَّرِّ، والنَّسْل، والوَبَر، والصوف] يعني: والشَّعر، وغير ذلك من المنافع؛ كنقل البضائع، وغيرها، ولهذا جاءت كلمة (منافع) جمع منفعة بصيغة مُنتهَى الجموع، وصيغة منتهى الجموع ما كانت على وزن مفاعل أو مفاعيل.

وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ [هي: حمل الأثقال إلى البلاد] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ فسَّرها المؤلف بأنها حمل الأثقال، ولكن الذي يظهر أنها غير ذلك، وأنها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [النحل: ٦، ٧] يعني: ما يكون في قلب الإنسان من محبة الفخر، والخُيَلاء، وغيرها، وإن كانت هذه الحاجات قد تكون ممنوعة؛ كالفخر، والخُيَلاء،

لكن لا شك أن هذه حاجة عند كل إنسان أنه يجِد فَرَحًا، وسرورًا إذا غنِمَ كثيرًا من المواشي، ومن الإبل، والبقر، والغنم، والظِّباء، والأرانب، وغيرها، يجد الإنسان لهذا طعمًا في نفسه، ويمكن أن يقال أيضًا: ومن الحاجات في النفس الاتجار بها، فإن بعض الناس يتَّجِر بهذه الأنعام، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقصُر نوع الحاجة، فيشمل كل ما يقع في القلب من مثل هذه الأمور.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ [في البر] ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [السفن في البحر] ﴿تُحْمَلُونَ﴾، بيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هذه الأنعام نُحمَل عليها، وكذلك السفن، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** بيان نعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ علينا في هذه الأنعام؛ حيث جعلها لنا مُسخَّرة مُذلَّلة.

٢ ـ **ومن فوائدها:** جواز ركوبها وأكلها، ومن المعلوم أن هذا ليس على الإطلاق، فإن الذي يُركَب لا يُركَب على وجه يشُقُّ عليه، فلو أراد الإنسان أن يركب على بهيمة، وهي لا تطيق أكثر من واحد، فأردَفَ عليها، قلنا: هذا لا يجوز، لما في ذلك من المشقة، وكذلك أيضًا ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ليس على الإطلاق؛ إذ من هذه الأنعام ما لا نأكله؛ مثل: الحُمُر، فإنها لا تُؤكَل، ولكنها يُحمَل عليها، وتُركَب.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأصل: جواز كل ما يُنتفَع به من وجوه الانتفاع في هذه الأنعام ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، وبناءً على ذلك: يجوز أن يركب ما لا يُركَب عادةً إذا لم يشُقّ عليه؛ لأن ذلك من المنافع، فلو كان مع الإنسان بقرة واحتاج إلى أن يركب عليها، قلنا له: اركب؛ لأن هذه من المنافع، والله ـ تعالى ـ أطلق المنافع ما لم يشق عليها، فإن شقَّ عليها كان ممنوعًا؛ لأن إيذاء الحيوان مُحرَّم.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز ما يقع في قلب العبد من الفرح والسرور بهذه الأنعام، بشرط ألَّا يُعدِّيَ ذلك إلى الكبرياء والخُيَلاء، فما دام هذا الفرح في نطاق الأمر المباح، فإن الإنسان لا يُلامُ عليه؛ بل هو مما يجعله الله له.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بحملنا على هذه الأنعام، وعلى الفلك؛ يعني: أن الله سخَّر لنا ما نركبه في الماء، وما نركبه في البر، وهنا تسخير ثالث حدث بعد نزول القرآن: ما نُحمَل عليه في الجو، فيكون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنعم علينا بمراكب جوية، وبحرية، وبرية.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: يُظهِرُها لكم حتى تروها، وعلى هذا فـ (يُري) من الرباعي لا من الثلاثي؛ لأنها من أَرَى يُرِي؛ أي: أظهر الشيء حتى يراه الإنسان، وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جمع آية، والآية هي: العلامة على الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] أي: علامة، فالآية علامة على ما يختص بها من صفة؛ فمثلًا: إذا نزل الغيث وأنبتت الأرض، فهو آية على رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، إذا اهتزَّت الأرض بأهلها، أو خُسِفَت بأهلها، فهو آية على سخط الله وعقابه، وعلى قدرته؛ حيث يُزلزِلُ هذه الأرض الكبيرة العظيمة، فيكون هذا آية على ما يختص بها، فالآيات إذن آيات على ما تختص به من صفة، لا نقول: إنها كلها آية على شيء واحد؛ بل منها ما يكون آية على الرحمة، وآية على العزة، وآية على الحكمة، وآية على القدرة، وهلُمَّ جرًّا، إذن آيات نقول: جمع آية، وهي: العلامة، هذه الآيات هل هي كلها تدل على شيء معين من الآيات، أم لكل آية ما يختص بها؟ لكل آية ما يختصُّ بها.

وقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أيَّ هنا استفهامية منصوبة على أنها مفعول مُقدَّم لقوله: ﴿تُنكِرُونَ﴾، ولو كانت الآية تُنكِرونها، أو تُنكِرونه؛ فهل ننصب أيَّ أو نرفعها؟ نرفعها، ويجوز النصب؛ لأن هذا يكون من باب الاشتغال، وأضرب لكم مثلًا: لو قلتُ: زيدًا أكرمتُ، هنا يتعيَّن النصب على أنه مفعول مُقدَّم، ولو قلت: زيدٌ أكرمتُهُ، فهنا يجوز الوجهان، والرفع أرجح؛ لأنه الأقرب، أما النصب فيكون على سبيل الاشتغال، وعليه فإذا جاء معمول مقدم، وعامل مؤخر لم يستوفِ عمله، فإنه يجب أن يكون هذا المعمول السابق حسب ما يقتضيه هذا العامل.

وقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [أي: الدالة على وحدانيته] ﴿تُنكِرُونَ﴾ يعني: لو قال المؤلف ما هو أعم لكان أحسن؛ لأن هنا ليست الآيات دالة على الوحدانية فقط؛ بل على الوحدانية وعلى ما يختص بتلك الآية، ﴿تُنكِرُونَ﴾ [أي: استفهام توبيخ] يعني: قوله تعالى: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وهو أيضًا استفهام تحدٍّ، فهو جامع بين التوبيخ والتحدِّي؛ يعني: هذه آيات ظاهرة لا يمكنكم أن تنكروها، قال: [وتذكيرُ أيٍّ أشهر من تأنيثه] لأنه يُقال: أيَّةُ، ويقال: أيُّ، وعلى كلام المؤلف يكون التذكير أشهر من التأنيث، ولو كان المشار إليه مؤنثًا، ولهذا قال: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾، وآيات مؤنث، ولم يقل: فأيَّت آيات الله، لكن في غير القرآن لو قِيلَت: فأيَّت آيات الله، لكان هذا سائغًا، إلا أنه مرجوح.

«الفوائد»

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: نعمة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بإراءتهم الآيات الدالة عليه، ولو شاء الله لأخفَى عنَّا ذلك، ووَكَلَنا إلى ما في نفوسنا وفِطَرِنا، ولكن من رحمته أنه يُظهِرُ الآيات حتى يكون هذا عونًا على ما في الفطرة من معرفة الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: جواز تحدِّي الإنسان بما يعترف به لولا الجَحْد، لقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وهل تعرف أن أحدًا جحد الآيات مع تيقُّنِه بها؟ فرعون وقومه، فإنهم جَحَدوا بآيات الله مع أن أنفسهم مُستيقنةٌ بها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[غافر: ٨٢]

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض؛ لأن (في) للظرفية، ولو جعلنا في للظرفية في هذا السياق لكان معنى الآية: أن يدخلوا في جوف الأرض، وهذا غير مرادٍ قطعًا، فتكون (في) بمعنى: على، كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: مَنْ على السماء، وليس المراد: أن الله في جوف السماء؛ لأن ذلك مستحيل، فقد وسع كُرسِيُّه السماوات والأرض، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقدم فمعروف، وأما السير بالقلب فمعناه: أن يتفكَّر الإنسان فيما مضى من تاريخ الأمم، وأصحُّ مرجعٍ نرجع إليه فيما مضى من سير الأمم هو القرآن الكريم.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ هذا الاستفهام يحتمل أن يكون للحث، وعليه فيكون بمعنى: الأمر؛ أي: سيروا في الأرض، ويؤيِّد هذا: قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، ويحتمل أن يكون للتوبيخ؛ أي: توبيخ هؤلاء عن عدم السير في الأرض، والسير هنا يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقلب فمرجِعُه إلى الأخبار الصادقة؛ بحيث

يقرأ الإنسان عن الأمم السابقة، ولاشيء أصحُّ من كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الحديث عن الأمم السابقة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فلا شيء أصحُّ بالأخبار مما جاء به الكتاب العزيز وصحَّت به السنة، نقول: سيرٌ بالقدم، السير بالقدم: أن يمشي الإنسان لينظر ما صنع الله ـ تعالى ـ بالمُكذِّبين؛ مثال ذلك: أن يسير الإنسان إلى ديار ثمود لينظر ماذا صنع الله بهم، ولكن كما نبه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أنه لا يجوز أن يدخلَها إلَّا وهُوَ بَاكٍ[1] خوفَ أن يُصِيبَه ما أصاب هؤلاء المُكذِّبين، وأما من ذهب إليها للتنزُّه والفُرْجة، فإن ذلك لا يجوز، كما يصنع كثيرٌ من الناس اليوم، يذهبون إليها لا على سبيل العِظَة والاعتبار، ولا أن يدخلوها وهم باكون؛ بل على سبيل الاطلاع فقط على آثار السابقين، وعلى سبيل النزهة، وهذا حرام ولا يحل.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الإعراب: أن نقول: إنَّ (لم) حرف نفي وجزم وقلب، حرف نفي؛ لأنها تنفي، جزم؛ لأنها تجزم، قَلْب؛ لأنها تُحوِّل المضارع إلى الماضي، والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ عاطفة لا شك، لكن هل هي عاطفة على مُقدَّر محذوف، أو عاطفة على ما قبلها من الجُمَل؟ في ذلك قولان: القول الأول: أنها عاطفة على محذوفٍ مُقدَّر بعد الهمز، ويُقدَّر بما يناسب المقام، وعلى هذا فترتيبها بعد الهمزة ترتيبٌ طبيعيٌّ، والثاني: أنها عاطفة على الجملة السابقة، وبناءً على ذلك تكون الفاء هنا مُزحلقةً عن موضعها؛ إذ إن موضعها يكون قبل الهمزة، والقولان معروفان لأهل العلم بالنحو، على التقدير الأول: أنها عاطفة على مُقدَّر بعد الهمزة يكون المعنى: أغفَلوا فلم يسيروا في الأرض، وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ الفاء عاطفة على ﴿يَسِيرُوا﴾ وعلى هذا يكون المعنى: أفلم يسيروا فلم ينظروا، ويحتمل أن تكون منصوبة بعد فاء السببية؛ أي: انتفى سيْرُهم فينظروا، كما تقول: لم تَزُرْني فأُكرِمك، وما أشبه ذلك من الكلام.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف هذه استفهام، وهي في محل نصبِ خبر كان مقدمًا، وعاقبة اسمها، ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فما هي العاقبة؟ العاقبة ذكرها الله ـ تعالى ـ في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠] هذا هو فائدة النظر أن هؤلاء القوم المُكذِّبين كانوا أشدَّ من هؤلاء قوة ومع ذلك دمَّرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: في العدد، وقوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: في الكيفية، فصاروا مُتميِّزين عنهم في العدد والكيفية، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

بالمصانع، والقصور.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ما نافية، وأغنى فعلٌ ماضٍ، و﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ اسم موصول فاعل، و﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ صلة الموصول، ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ استفهامية، والمعنى: فما الذي أغنى عنهم ما كسبوا، والاستفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمَّن النفي مع التحدِّي؛ أي: أيُّ شيءٍ أغني عنهم كسبهم حين دمَّرَهم الله، إن كانت نافية فالمعنى: ما أغنى عنهم كسبهم شيئًا، وإن كانت للاستفهامية فالتقدير: ما الذي أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ونظير ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧] أي: أيُّ شيء أغنى عنهم، أو أن المعنى نفيُ الإغناء.

۞ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣-٨٥]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هذه معطوفة على ﴿يَسِيرُواْ﴾ يعني: أن الله وبَّخهم على أمرَين: عدم السير، وعدم النظر، فهم لم يسيروا، ولم ينظروا، وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والنظر هنا هل هو نظر البصيرة، أم البصر؟ إن قلنا: إن قوله: ﴿يَسِيرُواْ﴾ سير القدم، فالنظر نظر البصر، وإن قلنا: يسيروا سير القلب، فالنظر نظر البصيرة.

وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كيف خبرٌ مُقدَّم لكان، وهنا يتعيَّن التقديم؛ لأن كيف اسم استفهام، والاستفهام له الصدارة، فعليه تكون خبرًا مُقدَّمًا لكان، وعاقبة اسمها، وقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: من الأمم، فما هي العاقبة؟ العاقبة أشار الله إليها في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ثم شرح الله حال هؤلاء أولئك السابقين، فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أكثر منهم عددًا، وكثرة العدد تُوجِبُ القوة بالكمية، وأشد منهم قوة هي القوة بالكيفية، ثم قال: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: من العمران، والقصور، وغيرها، ومع ذلك لم تنفعهم هذه الكثرة، ولا هذه القوة؛ يقول: [من مصانع، وقصور] هذه تفسير لقوله: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ما يحتمل أن تكون نافية؛ أي: فلم يُغنِ عنهم ما كسبوا، ويحتمل أن تكون استفهامية، والمعنى: فما الذي أغنى عنهم، والاستفهام هنا أشد وَقْعًا؛ لأنه مُشرَبٌ بالتحدي، أيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ الجواب: لا شيء.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يكسبون من القوة، والآثار في الأرض، وغير ذلك؛ لأن الله - تعالى - دمَّرهم ودمَّر قوتهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هذا الذي أتى بعد ذكر تدميرهم هو في الحقيقة عَودٌ إلى شرح ما حصل، فإن الله أرسل إليهم الرسل بالبيِّنات الواضحة، وأنزل الكتب، ولكن لما جاءتهم رسلهم بالبينات، قال المؤلف: [المعجزات الظاهرات]، والصواب أن يقول: الآيات البيِّنات، هو - رحمه الله - جعل البينات بمعنى: الظاهرات، وهذا حق، وجعل البينات صفةً لموصوف محذوف تقديره: المعجزات، وهذا فيه نظر؛ بل يُقدَّر: الآيات؛ وذلك لأن المعجزات لم ترِد في الكتاب والسنة محل الآيات أبدًا، وأيضًا المعجزات تكون من الرسل وغير الرسل، فالسحرة مثلًا: تأتي لهم الشياطين بالمعجزات، لكن الآيات؛ يعني: العلامات الدالة على صدقهم هذه أبلغ، ولهذا إذا وجدتم في الكتب: المعجزات أو معجزة الأنبياء، أو ما أشبه ذلك، فاضربوا عنها صَفْحًا، وقولوا بدلها: الآيات، كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - الآيات، والآيات أدقُّ من كلمة المعجزات؛ لأن المعجزات يدخل فيها ما يُعجِزُ البشر مما تصنعه الشياطين مع السحرة وغيرهم.

وقوله: ﴿فَرِحُواْ﴾ [أي: الكفار] ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ [أي: الرسل] ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [فرح استهزاء وضحك مُنكِرين لها]، قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ﴾ الواو فاعل، فمن الفارح؟ يقول: [أي: الكفار]، وهذا صحيحٌ، فَرِح الكفار بما عندهم من العلم، وقوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الضمير يعود على الرسل على حدِّ تفسير المؤلف، [بما عند الرسل] ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: بما جاءوا به من البيِّنات، لكن هل هذا الفرح فرح استبشار أو فرح استهزاء؟ يقول المؤلف: [إنه فرح استهزاء، وضحك]، وسخرية، ولكن هذا التفسير إذا تأمَّلته وجدتَه تحريفًا وليس تفسيرًا، لما فيه من البُعْد المعنوي واللفظي، أما البُعْد اللفظي؛ فلأن فيه تشتيت الضمائر؛ لأن قوله: ﴿فَرِحُواْ﴾ الواو للكفار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الهاء للرسل، هذا تشتيتٌ للضمائر، والهاء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ إذا جعلنا الكلام نَسَقًا واحدًا لا شك أنها تعود على الكفار؛ أي: بما عند الكفار من العلم، وأما

المعنوي؛ فلأن الفرح في الأصل: استبشار، فإذا صرفناه عن معناه الظاهر إلى أن يكون فرح استهزاء كان هذا إخراجًا للمعنى عمّا يدل عليه ظاهرُ اللفظ، والحاصل: أن هذا التفسير الذي ذكره المؤلف تفسيرٌ ضعيفٌ جدًّا؛ بل هو تحريف، والصواب: أن المعنى: فَرِحَ الكفار بما عندهم؛ أي: بما عند الكفار من العلم، وقالوا: نحنُ أعلم بما يُصلِحُنا وما يُصلِحُ دنيانا، وديننا الذي نحن عليه، فأنتم أيها الرسل سحرة مجانين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وإذا كانوا يعتقدون بقلوبهم، أو يقولون بألسنتهم ما لا يعتقدون من أن الرسل سحرة مجانين، فإنهم لا شك سيجعلون ما عندهم من العلم هو العلم الحقيقي، فيفرحون به، وعلى هذا فنقول: الفرح هنا فرح بَطَر واستبشار فيما يظنّون أنهم على علم أعلى من علم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ويعجب الإنسان أحيانًا فيما يذهب إليه بعض العلماء من تفسير الآيات أو الأحاديث، الآن لو قرأت هذه الآية على إنسان عامّي ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فعلى أي شيء يتنزل الضمير في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ عند هذا العامي؟ على الكفار، والإنسان يفرح بما عنده لا بما عند غيره.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ حَاقَ يقول: [نزل]، لكنها - أعني: حاق - ليس كنزل من كل وجه؛ لأن نزل تكون بالخير والشر ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، هذا خير، لكن حاق لا تأتي إلا في الشر، فلا يقال: حاق به القرآن، أو حاق عليه القرآن كما يقال: نزل عليه، فحاق هنا بمعنى: نزل، لكنها لا تستعمل إلا في نزول الشر، وهو شرٌّ بالنسبة لمن نزل به، وقد يكون خيرًا بالنسبة لغيره.

وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ فاعل حاق ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني: فيما سبق؛ أي: أنه لما جاءهم رسول الله - عَزَّ وَجَلَّ - ونزل بهم، حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فيما سبق؛ حيث كانوا يستهزئون بالرسل، وبما جاءوا به، وبالشرائع؛ بل ربما يستهزئون بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، يتبيَّن لك أن الكفار يستهزئون بالله، ويستهزئون بآيات الله، ويستهزئون بالرسل، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: العذاب؛ يعني: حاق بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به حين توعَّدَتهم الرسل به، فجعلوا يستهزئون، يقولون: أين العذاب الذي تقولون؟ يستفهمون استهزاءً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [أي: شدة عذابنا] ﴿رَأَوۡاْ﴾ بمعنى: بأبصارهم؛ يعني: رأوا رؤيا العين، والبأس أشد العذاب، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: دون شركائنا ودون ما كنا نعبدهم، وهذا غاية الإخلاص، ثم أكَّدوا هذا بقولهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ بما الباء حرف جر متعلقة بـ ﴿وَكَفَرۡنَا﴾، وبه يحتمل أن تكون للسببية؛ أي: بما كنا بسببه مشركين، وأن تكون متعلِّقة بمشركين تعلُّق الجار بعامله، المعنى: أنهم لما رأوا عذاب الله آمنوا، ولكن هل ينفعهم هذا

الإيمان؟ لا، إنَّ فرعون لما غرق وأدركه الغرق ماذا قال؟ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن ماذا قيل له؟ قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١]، يعني: أتؤمن الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فلم ينفعه إيمانه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا لا تنفعه التوبة؛ لأنه رأى وشاهد ما كان غَيْبًا يكفر به، والإيمان عن مُشاهدة لا يفيد؛ لأن كل إنسان يؤمن بما يشاهَد ولو كان أكفر الناس، وإنما الذي يُحمَد عليه الإنسان، وينجيه من عذاب الله أن يؤمن بالغيب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ لم يك أصلها: لم يكن، لكن حُذِفت النون تخفيفًا، وقد جاء الحذف والإبقاء في آيتين من كتاب الله، فقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهي جملة واحدة حُذِفت فيها النون وأُبقِيت، وهذا الحذف تخفيف وله شروط معروفة في النحو.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ إيمان هل تُعرَب على أنها اسم يكن مؤخَّرًا، أو على أنها فاعل ينفع واسمها مستتر؟ الثاني، والتقدير على هذا: فلم يك إيمانهم ينفعهم، أما على الأول: فلم يك ينفعهم إيمانهم، فيكون اسمها ـ اسم يكن ـ محذوفًا ضمير الشأن، وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ لمَّا هنا ظرف بمعنى: حين، واعلم أن (لمَّا) تأتي في اللغة العربية على أوجه: الوجه الأول: أن تكون ظرفًا بمعنى: حين، كما في هذه الآية، فإن معنى ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ أي: حين رأوا بأسنا، والوجه الثاني: جازمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، والوجه الثالث: تأتي شرطية، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، الوجه الرابع: تأتي بمعنى: إلَّا، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]، الوجهُ الخامس: تأتي بمعنى النفي، كما في قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾[ص: ٨]، لكن الفرق بينها وبين لم: أنَّ (لمَّا) تفيد قُرْب مدخولها، ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ولكن سيذوقونه قريبًا، بخلاف لم فتأتي للنفي المطلق.

وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ سُنَّة يقول المُفسِّر: [نصْبُهُ على المصدر بفعلٍ مُقدَّرٍ من لفظه] سنة بمعنى: طريقة؛ أي: هذه طريقة الله، وسُنَّة في مثل هذا التركيب يجوز أن تكون مرفوعة؛ أي: سنةُ الله على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه سنة الله، ويجوز أن تكون منصوبة، والمؤلف يقول: إنها منصوبة بفعل مقدرٍ من لفظه؛ أي: سنَّ الله بهم سنَّته، ويجوز أن تكون مصدرًا عامله محذوف، لكنه مُقدَّر من الجملة التي قبله؛ لأن هذه العبارة بمعنى ما قبلها تمامًا؛ يعني: سنة الله بمعنى ما قبلها، وهي: أَخْذُ المُكذِّبين بالعذاب، فتكون منصوبةً بمضمون الجملة لا بفعلٍ مُقدَّر، وما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ وجه لا شك فيه، والمهم: أن السنة بمعنى: الطريقة،

فما هي طريقة الله؟ طريقة الله ـ تعالى ـ هي: إهلاك المُكذِّبين وتعذيبهم، وأنهم لو آمنوا بعد نزول العذاب لم ينفعهم.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [في الأمم ألَّا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب] هذه واحدة، والثانية: أن يُعذِّب المُكذِّبين، فالسنة التي استفدناها من هذه الآية شيئان: أولًا: إهلاك المُكذِّبين، والثاني: أنه لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب، قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ خسر فسَّرها المؤلف بمعنى: [تبيَّن خُسرانهم لكل أحد، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك] ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ معلوم أن ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف مكان، هذا هو الأصل، فهي اسم إشارة إلى المكان، وقد تُستعار اسم إشارة للزمان، فتقول: هنالك؛ أي: في ذلك الوقت، ومنه: هذه الآية، الآن إذا قلت: فلان هناك هذا ظرف مكان، وهذا هو الأصل، ولو قلت مثلًا: قَدِم فلانٌ هناك، تشير إلى الوقت، صارت إشارة للزمان.

لكن هذا خلاف الأصل بقي علينا أن يقال: خسر في ذلك الوقت الكافرون، أليس الكافرون خاسرين في كل وقت؟ بلى، لكن تبيَّن خسرانهم وظهر؛ لأنهم كانوا قبل أن ينزل عليهم العذاب يظُنُّون أنهم رابحون، ولهذا فرِحوا بما عندهم من العلم، لكن إذا نزل بهم العذاب ظهر لهم الخسران.

الفوائد

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** الحثُّ على النظر في أحوال الأمم السابقة، من قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وجه الدلالة: أن الله وبَّخهم على عدم السير.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن السير في الأرض بالقدم إذا لم يصحَبْه النظر والاعتبار فإنه لا ينفع، لقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾.

ويتفرَّع على هذا: ما يفعله كثيرٌ من الناس اليوم من السير إلى ديار ثمود؛ حيث يسيرون بأبدانهم، لكن لا يسيرون بقلوبهم ولا يعتبرون؛ بل يذهبون إلى هنالك للاطِّلاع على مآثر القوم؛ بل على آثار القوم الدالة على قوتهم، وهذا لا يجوز، الواجب على من سار إلى تلك الديار أن يدخلها وهو باكٍ، لقول النبي ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1]، ولا ينفع التباكي، لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ولم يقل: فتباكوا، إذن من لم يُوَطِّن نفسه على هذا الوصف الذي رخَّص فيه النبي ﷺ للدخول في ديار ثمود فإنه لا يجوز أن يدخل، وغالب الناس الذين يذهبون الآن إنما يذهبون للفُرْجة والنزهة فقط، وهذا حرام.

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من الأمم من هو أشدُّ قوةً وآثارًا مما كانت عليه قريش، لقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله - تعالى - لا يُعجِزُه قوة العدو، ولا كثرة العدو، فإن الله - تعالى - أهلكهم مع كثرتهم وقوتهم، وهل الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا أراد إهلاكهم يكون إهلاكهم مُمتدًّا لمدةٍ من الزمن حتى يقضي عليهم؟ لا، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، المُحتظِر يعني: الذي أحاط أرضه بحِظار، والحِظار: مركب من أعواد خفيفة، أو من سعف النخل، وتأكله الشمس والهواء بسرعة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن قوة الإنسان وكثرة عدده لا تغني عنه شيئًا من عذاب الله، لقول الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله - سبحانه وتعالى - أرسل الرسل بالآيات البيِّنات الدالة على صدقهم.

ويتفرَّع على هذا فائدتان أو أكثر، وهما: رحمة الله بعباده، وحكمة الله - تعالى - في فعله، أما رحمة الله بعباده: فلأن الله - تعالى - لو أرسل إليهم رسلًا بدون آيات لكان في ذلك تكليفٌ بما لا يُطاق؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يُصدِّق برسولٍ بدون آيات تدلُّ على صدقه، وإلا لأمكَن كل كاذب أن يقول: إنه رسول، وأما الحكمة فظاهرة: أن الله - سبحانه وتعالى - لما أرسل الرسل لم يتركهم هملًا؛ بل أعطاهم ما على مثله يؤمن البشر، كما أخبر بذلك نبيُّنا ﷺ أن الله ما بعث رسولًا إلا آتاه ما يؤمن على مثله البشر، والذي أُوتِيَه الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو: الوحي القرآن، ولهذا قال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]؛ لأن القرآن آية باقية إلى يوم القيامة، أو إلى أن يأذن الله - تعالى - بانتهاء العالم، أما آيات الرسل فغالبها تنقضي في زمانهم، لكن آية الرسول باقية.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن آيات الرسل بيِّنة لا تحتمل الشك، لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

ويتفرَّع على ذلك: أنه ينبغي للعالم الذي ينشر شريعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا نشرها بين الناس أن يكون نشرُه إيَّاهَا على وجهٍ بيِّنٍ لا اشتباه فيه؛ لماذا؟ أولًا: اقتداءً بالرسل، وثانيًا: ليزداد المُخاطَب طمأنينة؛ لأن الطمأنينة لها أثر في قبول ما يُلقَى، وفي القيام به، فإن الإنسان إذا لم يُبيَّن له الحق على وجهٍ تحصُلُ به الطمأنينة تجده يمشي أو يأخذ بالحق وهو متردِّد، لكن إذا زِيدَ طمأنينة انتفع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (٢٣٩/ ١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بذلك.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: بيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورحمته؛ وذلك أنه جعل الآيات التي تأتي بها الرسل آيات بيِّناتٍ حتى لا تبقى حُجَّة.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن الكفار يفخرون بما عندهم من العلم، ولو كان باطلًا، لقوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وهذا وإن كان فيما سبق موجودٌ الآن، فإن بعض أولئك القوم الذين آتاهم الله من علم الدنيا ما آتاهم تجدهم يفرحون بها، ويقولون: هي خيرٌ من علم أولئك المُقوقِعين على أنفسهم، ويعنون بهم: علماء الشريعة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير البالغ من ردِّ ما جاءت به الرسل، لقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآيات**: أن أولئك القوم المُكذِّبين للرسل إذا رأوا العذاب قالوا: آمنا، والمثال على ذلك: فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

٢ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء الذين يُؤمِنُون بعد أن نزل بهم العذاب لا يستفيدون من إيمانهم شيئًا، لقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن سنة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في العباد واحدة، فإنه لا يُحابي أحدًا لغِناه أو لفقره، أو لغير ذلك؛ بل إن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، لقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: التحذير من تكذيب الرسل، وأن من كذَّب الرسل فإنه سينالُهُ ما نالَهم من العذاب؛ أي: ما نال الأمم السابقة من العذاب.

٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: ظهور الخُسْران لهؤلاء المُكذِّبين قبل أن يموتوا، لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: حين جاءهم البأس تبيَّن لهم الخسران ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة غافر

تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ

تفسير سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قال الله تعالى:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ
وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥]

❁ التفسير ❁

البسملة: تقدم الكلام عليها كثيرة وبينًّا أنها آية من كتاب الله، ولكنها ليست آية تابعة للسورة التي بعدها أو السورة التي قبلها، بل هي آية يؤتى بها لابتداء السور ما عدا سورة براءة، أما معناها: فإن الإنسان يقول: أبتدأ بكل اسم من أسماء الله. وإنما جعلنا المعنى بكل اسم من أسماء الله، لأن اسم مفرد مضاف، والمفرد المضاف يفيد العموم، كل مفرد مضاف إلى معرفة فإنه يفيد العموم.

ألم ترو إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، نعمة الله لو نظرنا إلى لفظها لقلنا: إنها واحدة، لكنها كثيرة لا تحصى، فيكون هذا المفرد الذي أضيف، يكون للعموم، وهذه هي القاعدة: كل مفرد مضاف إلى معرفة فإنه يفيد العموم.

ولهذا قلنا بكل اسم من أسماء الله.

والرحمن الرحيم: صفتان للفظ الجلالة لكن الأولى روعي فيها الوصف والثانية روعي فيها

الفعل.

وهو إيصال الرحمة، أما متعلق هذا الجار والمجرور، فإنه محذوف ويقدر مؤخرًا مناسبًا للمقام، فإذا كنت تريد أن تقرأ فقلت بسم الله الرحمن الرحيم، قدِّر (أقرأ)، وإنما أختير ذلك، أي أختير أن يكون فعلا، لأن الأصل في العمل الأفعال، ولهذا يعمل الفعل بلا شرط.

والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد لها من شروط، كما هو معروف في علم النحو.

وإنما اخترنا أن يكون متأخرًا، لفائدتين:

الفائدة الأولى: تيمُّنًا بذكر اسم الله.

الفائدة الثانية: إرادة الحصر. لأنه إذا تأخر العامل كان ذلك حصرًا، فإذا قلت. زيدًا أكرم. المعنى: لا تكرم غيره. ولكن إذا قلت أكرم زيدا: لم يمتنع عن تكريم غيره. إذَنْ أَخَّرناه لفائدتين. **الفائدة الأولى**: تيمنًا بذكر اسم الله عز وجل. والفائدة الثانية: إفادة الحصر.

وقدرناه مناسبًا، لأنه أبين للمقصود، فلو قال قائل: بسم الله أبتدأ، قلنا صحيح، لكن لا تبين المراد مثل ما تبينه بقولك: بسم الله أقرأ، وذلك لأن الابتداء يكون للقراءة ولغير القراءة، فلهذا اختير أن يكون مناسبًا للمقام.

والخلاصة الآن: أين متعلق الجار والمجرور؟ نقول هو محذوف، فعل متأخر مناسب للمقام.

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ وقال المفسر: [الله أعلم بمراده به].

وهذا هو الأدب مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن الذي لا تعرف معناه، قل: الله أعلم بمراده به. كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولكن قد يقول قائل: إننا نعلم أنه لا معنى لهذه الحروف الهجائية التي توجد في كثير من السور، ولكننا نعلم ذلك لأنه بدلالة القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] واللسان العربي، لا يكون التعبير بمثل هذه الحروف له معنى في حد ذاته. لو قلت: ألف باء جيم حاء خاء، فهذه ما لها معنىً، فإذا لم يكن لها معنى بمقتضى اللسان العربي، قلنا: إن قوله: ﴿حمٓ﴾، و﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓر﴾ ليس لها معنى في حد ذاته، يرد على هذا إذا لم يكن لها معنى صارت لغوًا، وكلام الله تعالى لا لغوَ فيه، فيقال إنها ليست لغوًا، وإنما المراد إقامة الحجة على هؤلاء المشركين، حيث عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآية واحدة، مع أن هذا القرآن هل أتى بحروف لا يعرفونها حتى يعتذروا ويقولوا: إنه جاء بحروف ليست معروفة لنا؟

الجواب: لا القرآن جاء بحروف يعرفونها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولذلك لا تكاد ترى سورة من القرآن مبدوءة بهذه الحروف إلا وبعدها ذكر القرآن، وابدأ من سورة البقرة إلى أن تأتي إلى آخر السور المبدوءة بهذه الحروف. تجد أن بعدها ذكر القرآن، إشارة إلى أن هذا القرآن الذي

أعجزكم معشر العرب كان من هذه الحروف التي تكونون منها كلامكم، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام رحمه الله واضح جدًّا.

وأن القول بأنه ليس لها معنى: فقد قاله مجاهد بن جبر أعلم التابعين بكتاب الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾

قال المؤلف رحمه الله: [﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ]، كتاب خبره، ولو قيل بالعكس لكان أوضح، لو قيل: (كتاب فصلت آياته تنزيل من الرحمن الرحيم)؛ لأنه يخبر بالمعنى عن الذات ولا يخبر بالذات عن المعنى، هذا الأصل، زيد قائم، فقائم خبر ولا تقول زيد خبر. لكن ما ذهب إليه المؤلف من الإعراب له وجه.

ليس باطلًا، لكن لو قيل إن تنزيل هو الخبر مقدم وكتاب مبتدأ مؤخر لكان أوضح وأبين.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني به: الرب عز وجل، أي تنزيل من الله الرحمن الرحيم، لكنه أتى بهذين الاسمين الكريمين إشارة إلى أن القرآن رحمة، لأن إنزاله من مقتضى رحمة الله عز وجل، أليس من الممكن أن يقال تنزيل من الله؟ نعم كما جاء في آيات أخرى، لكنه قال من الرحمن الرحيم، إشارة إلى أن هذا القرآن نزل بمقتضى رحمة الله عز وجل، وأن الله رحم به العباد، والرحمن الرحيم اسمان من أسماء الله، من أشرف أسماء الله عز وجل، ويأتيان مقترنين، ويأتيان منفصلين بعضهما عن بعض، فإن فصلًا فكل واحد متضمن معنى الآخر، فقوله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] هذا منفرد عن الرحيم، فيتضمن الصفة والفعل، أي أن الله تعالى موصوف بالرحمة الواسعة، وهو سبحانه وتعالى يرحم بهذه الرحمة من شاء من عباده، وفي قوله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أيضًا نقول الرحيم هنا تشمل الوصف والفعل، لأنها انفردت عن الرحمن، أما إذا اجتمع الرحمن والرحيم، كانت الرحمن للصفة والرحيم للفعل، ولهذا جاءت الرحمن على وزن فعلان، وهذا الوزن في اللغة العربية يقتضي الامتلاء وتمام الوصف الذي كان مراده.

فمثلًا يقال: غضبان، لمن امتلأ غضبًا، ويقال غاضب لمن كان غضبه خفيفًا، وكذلك سكران للمتلئ سكرًا.

فكل هذا الوزن يفيد الامتلاء والسعة.

أما الرحيم غلب فيها جانب الفعل، أي إيصال الرحمة إلى المرحوم، ولهذا جاءت في القرآن: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: قد وصلت رحمته بالمؤمنين على وجه مطلق، أما غير المؤمنين فإنه يرحمهم بالمعنى العام.

خلاصة ما قلنا في: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

قلنا: إما أن يذكر الرحمن مع الرحيم، أو يفرد أحدهما عن الآخر، فإن أفرد أحدهما عن الآخر تضمن الثاني، وإن ذكرا جميعًا غلب في الرحمن جانب الصفة وفي الرحيم جانب الفعل، واعلم أن

هذين الاسمين الكريمين يدلان على أن الله تعالى موصوف بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فالرحمة صفته والرحيم اسمه، وهل هذا الاسم مما يتعدى أو من المصادر اللازمة؟ يتعدى، لقوله تعالى ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] والقاعدة في العقيدة: أنه إذا كان الاسم لازمًا لا يتعدى فإنه يتضمن أمرين: إثبات الاسم وإثبات الصفة، وإذا كان يتعدى يتضمن ثلاثة أشياء: إثبات الاسم وإثبات الصفة وإثبات الفعل.

فكلمة العظيم: اسم من أسماء الله اللازم، ولهذا يقال عظم: أي صار عظيمًا، الإيمان به يتضمن الإيمان بالعظيم على أنه اسم من أسماء الله، ويتضمن أيضًا ثبوت العظمة لله عز وجل، الرحمن يتضمن ثلاثة أشياء: يتضمن الرحمن اسم من أسماء الله، والثاني: الرحمة صفة من صفاته، والثالث: الفعل أي أنه يرحم من يشاء.

وعلى هذا فقس. الإيمان بالأسماء، نقول: إن كان متعديًا لزم أن تؤمن بالاسم والصفة والفعل، وإن كانت لازمة وجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، كتاب: فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب، وبماذا هو مكتوب؟ نقول مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، مكتوب بالصحف التي بأيدينا.

أما الأول: فدليله قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢].

وأما الثاني: فدليله قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ - ١٦].

وأما الثالث: فواضح فكل ما جاء من كتاب فهو يتضمن هذه المعاني الثلاثة، كتاب أي مكتوب في اللوح المحفوظ، في الصحف التي بأيدي الملائكة، في الصحف التي بأيدينا.

وقوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [بُيِّنت بالأحكام والقصص والمواعظ]. التفصيل ضد الإجمال، يعني آيات القرآن مفصلة، لكنها تأتي أحيانا مجملة وتأتي أحيانا مفصلة، وإذا فصل المجمل صار جميعًا مفصلًا.

وقوله: ﴿آيَاتُهُ﴾ جمع آية، والآية في القرآن هي كل ما فصل بينها وبين ما سبقها ولحقها بفاصل، ولهذا تسمعون كلام العلماء يقولون: فواصل الآيات: يعني الأماكن التي يفصل فيها الآية عما قبلها وعما بعدها. وهي - أعني الآيات الكريمة - منها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير، ومنها ما هو متوسط. فأطول آية في كتاب الله آية الدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وأقصر آية: ﴿طه﴾ ولكنها من الحروف التي ليس لها معنى. ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١]، وقوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أيها أكثر حروفًا؟ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ستة أحرف، وقوله:

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ ثمانية حروف؛ إذن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أقصر آية في كتاب الله، وعددها حروفها ستة أحرف. والباقي متوسط، منه ما يميل إلى الطول ومنه ما يميل إلى القصر. والسنة في الآيات أن تقرأها حسب ما فصلت. فتقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالآيات سبع تقرأ هكذا مفصلًا وإن أدرجت فلا بأس، لأنه لم يرد النهي عن ذلك، إلا أنه لا ينبغي للإنسان أن يهدَّ القرآن هذًّا تخفى معه الحروف، بل قد يحرم عليه إذا لزم أن تخفى بعض الحروف، أم الهد الذي يستكمل فيه الإنسان الحروف فلا بأس، لكن الأفضل الوقوف على كل آية.

مسألة: هل تقف على قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]؟

الجواب: يقف، لأنها آية، ولأن الله عز وجل هو الذي أنزلها، وجعل هذه الآية منفصلة عن الأخرى، وربما يكون في الوقوف على الآية، كيف ويل للمصلين؟ فيترقب المعنى الذي يوضح ذلك. تقول ويل للمصلين. سيندهش السامع. كيف ويل للمصلين؟ فسيترقب بشغف المعنى المبين لهذا. فتأتي ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، كأنها مطر على أرض قاحلة، أليس كذلك. إذنْ نقف على هذا ولا مانع. أما (لا تقربوا الصلاة)، فهذه لا نقف. والسبب: لأنها ليست رأس آية. بل نقول ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، إذنْ ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ يشمل التفصيل اللفظي والمعنوي، فالتفصيل اللفظي أن الله جعل كل آية مستقلة عن الأخرى، مفصول بعضها عن بعض. والمعنوي التبيين والأيضاح لما كان مجملا، ولهذا أشار المؤلف رحمه الله، إلى التفصيل المعنوي فقط، فقال: [بينت بالأحكام والقصص والمواعظ]، لكن طبعا يقال: إنه فصلت من وجهيْن، لفظي ومعنوي، فاللفظي أن كل آية فصلت عن الأخرى، والمعنوي: أنها بينت وبيَّن ما أجمل منها سواء من الأحكام أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا مجمل فصلها بقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣] هذا مجمل فصلها بقوله ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، فالتفصيل هنا، أي التفصيل المعنوي، يعني بيان القرآن، أنه بيِّن وواضح، حتى ولو جاء مجملًا فلابد أن يُبيَّن.

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [حال من كتاب بصفته]، مفسر الجلالين رحمه الله يعني جيد جدًا: قال إن قرآنًا حال. فكأن إنسانًا أورد عليه: كيف تقول إنه قرآن؟ والحال وصف، والقرآن ليس وصف، فقال بصفته، أين صفته؟ عربيًّا، يعني قرآنًا عربيًا. يعني لو كانت الآية الكريمة. قرآنا فقط، ما صح أن تكون حالًا، لأن الحال لا بد أن تكون مشتقة. اسم فاعل أو اسم مفعول أو ما

أشبه ذلك، والقرآن غير مشتق، فلهذا قال: إنها حال من كتاب بصفته. إذنْ بصفته عائد على قرآن. كأنه قال: صحَّ أن يكون حالًا لأنه موصوف.

فإذا قال قائل: كيف تجعلونه حالًا من كتاب وكتاب نكرة وصاحب الحال لا بد أن يكون معرفة؟

قلنا: إن هذه النكرة خصصت في قوله ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ خصصت بالصفة، والنكرة إذا خصصت صارت قريبة من المعرفة، فلذلك جاز وقوع الحال منها. فلدينا إشكالين. الإشكال الأول: كيف جاءت الحال من كتاب وهو نكرة؟ ذلك بأن الكتاب والذي هو نكرة وصف بأنه فصلت آياته وإذا وصفت النكرة جازت أن يكون الحال منها.

الإشكال الثاني: الحال قرآنًا عربيًا. إذا أعربنا (قرآنًا) حالًا، فكيف صحَّ أن يكون حالًا وليس بمشتق؟ لأنه موصوف بالمشتق ولذلك جازت الحال منها. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كلمة قرآن على وزنه فُعْلَان، كَشُكْرَان وَغُفْرَان، وما أشبه ذلك. فهل هو بمعنى قارئ؟ أو بمعنى مقروء؟ قيل: إنه بمعنى مقروء، ومقروء هل هو من الجمع أو من التلاوة؟ قيل: إنه من قرا يقري. بمعنى جمع، ومنه اسم القرية، لأنها جامعة للناس، وقيل من قرأ بمعنى تلا. والصواب أنه جائز أن يكون من هذا ومن هذا. لأنه ما دام اللفظ صالح للمعنيين ولا منافاة بينهما. فإنه يحمل عليهما جميعًا، هذا إذا قلنا قرآنا بمعنى مقروء. ويجوز أن تكون بمعنى اسم الفاعل قارئ، قرآن بمعنى قارئ، أي: جامع للأحكام والتوحيد وغير ذلك. أما عربيًّا، فهو نسبة للعرب، لأنه جاء بلغتهم. والله أعلم.

مسألة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرأوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنها أم القرآن و أم الكتاب و السبع المثاني و ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها»(١).

الجواب: الحديث هذا ليس بصحيح. ويدل على ذلك حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح «أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ – يعني الفاتحة– فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: حَمِدَنِي عَبْدِي....» (٢) فبدأ بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: أن الرسول ﷺ كان لا يجهر بها على في الصلاة الجهرية على القول الراجح. ولو كانت من الفاتحة لجهر بها كما يجهر ببقية الآيات.

ثالثًا: أن بقية سور القرآن ليس البسملة منها، فنحتاج إلى دليل قوي يبين أنها من الفاتحة.

رابعًا: أن قوله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ». هي نصف في السياق ونصف في المعنى، ولا يتم ذلك إذا جعلنا البسملة منها. استمع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢/ برقم:٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨/ ٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا لله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه ثلاث آيات، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ للعبد ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ للعبد ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبد، إذًا ثلاث وثلاث، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ صارت بينهما، كما جاء في الحديث، «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» فصار ثلاث آيات ونصف منها لله، وثلاث آيات ونصف منها للعبد.

ولو قلنا: إن البسملة منها لما استقام هذا.

خامسًا: أنك إذا جعلت البسملة منها صارت الآية الأخيرة طويلة، لا تتناسب مع ما قبلها، لأن ستكون الآية الأخيرة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا لا تتناسب مع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. أو ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فهو خلاف البلاغة، فصار عندنا أربعة أوجه كلها تدل على أن البسملة ليست من الفاتحة.

مسألة: إذا مر معنا أحد بعينه من المهلكين. هل يحسن بالإنسان أن يلحقه بسب، كما نلحق أحدًا من الصالحين برحمة؟

الجواب: لا بأس، إذا مثلًا تقول (فرعون لعنه الله)، ما في مانع.

مسألة: هل هناك مانع أو يستحب سب الهالكين؟

الجواب: لا الاستحباب هذا نتوقف فيه، يقول رسول الله ﷺ «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُم أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»(١).

مسألة: إذنْ حديث «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّعَّانِ»(٢) يترك هذا الشيء، أي لا يلعن أحدًا؟

الجواب: اللعان للأحياء، أما هذا لعنته؛ لأن الله لعنه.

مسألة: حول معاني أسماء الله (الرحمن، الرحيم).

الجواب: فسر العلماء بأن الرحمن هي رحمة خاصة، والرحيم رحمة عامة، ولكن ما ذكرناه أحسن، ولقد نبه عليه ابن القيم في (بدائع الفوائد).

مسألة: حول الاستشهاد بالقرآن، والكلام به أي: جعل القرآن بدل عن الكلام؟

الجواب: الاستشهاد بالقرآن لا بأس به، أما أن تجعل القرآن بدل عن الكلام فهذا حرام. ولهذا ذكر صاحب جواهر الأدب قصةً عَنْوَنَهَا بقوله: (المتكلمة بالقرآن الكريم بدلًا عن الكلام) وأحضر قصة امرأة تخاطب أولادها بالقرآن. إذا أرادوا الغداء قالت (آتنا غداءنا)، وإذا أمرتهم أن يشتروا حاجة من السوق قالت: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

١٩] وأشبه ذلك. ثم قال في آخر القصة. هذه امرأة لها كذا من السنين تتكلم بالقرآن مخافة أن تزل فيغضب عليها الرحمن. فالواقع أنها زلت تماما، لأنها تجعل آيات القرآن الكريم تنزلها على أغراضها الخاصة فهذا لا يجوز، أما الاستشهاد بالقرآن مثل أن ترى رجل مفتون في الدنيا فتقول: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦] هذا لا بأس به، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ حينما رأى الحسن والحسين يعثران في ثوبهما جديد لهما. نزل وأخذهما وقال صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾[1] [التغابن: ١٥].

ثم قال تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ صفة، لقوم يعلمون يفهمون ذلك وهم العرب، يعني أن الله جعله قرآن عربيا لقوم يعلمونه ويفهمونه ولا حجة لهم في معارضته والكفر به؛ لأنهم يعلمونه، كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي تفهمون معناه حيث جاء بلسان عربي مبين، أي: لأنه جاء بألفاظ العرب.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يعني جعلناه قرآنا عربيًّا، ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، بشير لمن آمن به كما قال تعالى ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] صفة ﴿قُرۡءَانًا﴾ ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لمن كفر به وإن شئت فقل: إنه نذير لجميع العالمين كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، المهم أن البشارة خاصة، والنذارة عامة، وربما يكون خاصًا، كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧] يعني: الذين كفروا به، فصارت البشير خاصة بمن آمن، والنذير تكون عامة وتكون خاصة، فالبشير المخبر بما يسر، وسمي خبره بشارة؛ لأن أثره يظهر على بشرة الإنسان، ولهذا تبرق أسارير وجهه من الفرح، ونذيرًا هو الإعلام المقرون بالتخويف.

قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ (فأعرض أكثرهم)، الفاء عطف، و(أعرض) معطوفة على فصلت، يعني كتاب فصلت آياته ومع ذلك أعرض أكثره، ويحتمل أن تكون الفاء للإستئناف، أي أنها جملة مستأنفة، لا تعطف على ما قبلها، أعرض أكثرهم، أي أكثر الذين بلغهم فهم لا يسمعون سماع قبول، هذا نتيجة الإعراض، أنهم صاروا لا يسمعون، ونفي السماع عنهم، لانتفاء فائدته، وهو الاتعاظ والقبول، واعلم أن السمع ينفى تارة لعدم أصله، وتارة لعدم ثمرته، فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] فهذا النفي لأصله؛ لأن الميت لا يسمع، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] وهذا لانتفاء ثمرته، لأن السمع الذي لا ثمر له كالمعدوم. وقالوا: معطوفة على ﴿فَأَعۡرَضَ﴾.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١١٠٩) من حديث بريدة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

ثم قال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [أغطية] ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾، هذا وليعاذ بالله من شدة عنادهم وكفرهم.

قالوا للنبي ﷺ وهو يدعوهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ كقوله ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] والأكنة جمع كن، وهو ما يستتر به، وقوله: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي من التوحيد والطاعة والشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة، وإنما ذكروا القلوب وبدأوا بها؛ لأنها محل الوعي، ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [ثقل]، يعني أننا لا نسمع، يعني أننا نستمع إليك في كراهة وبغض، فكأن في أذاننا ثقل سمع، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: حائل يحول بيننا وبينك فلا نراك، فأتوا على كل مدارك الإحاطة.

المدرك الأول: القلب، والثاني: السمع، والثالث: البصر. وانتفاء البصر عنهم، لقوله: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وقد جمع الله تعالى بين هذه الثلاثة في قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وتأمل قولهم: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ لم يقولوا: وبيننا وبينك حجاب، إشارة إلى أن هذا الحجاب ممتد من عندنا إليك، وعلى هذا فكل ما تباعدنا عنك غلظ هذا الحجاب. لأنه إذا كان ابتداؤه من عندهم إلى الرسول، صار كلما زادت المسافة ازداد غلظه، لأن (من) هنا للابتداء فتفيد أن هذا الحجاب مباشر منهم إلى الرسول ﷺ لكن لو قالوا وبيننا وبينك حجاب، لأمكن أن يكون الحجاب في الوسط ولو كان بينهم وبينه مسافة، وهذا يدل على غلظ ما بينهم وبين الرسول ﷺ وبعده. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ هذا ـ واليعاذ بالله ـ تحدي للرسول ﷺ فيما يظهر وليس من باب الإباحة ولكنه من باب التحدي. فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا. ويحتمل اعمل لمجاهدتنا فإننا عاملون لمجاهدتك. والثاني: أبلغ من الأول، كأنهم يقولون اعمل ونحن سنعمل وسنرى من الذي يغلب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** أن نزول القرآن من عند الله لقوله ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

٢ - **ومنها:** أن إنزال القرآن من آثار رحمة الله حيث قال: ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

٣- **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله هما: (الرحمن، الرحيم).

٤ - **ومنها:** إثبات ما دل عليه هذان الاسمان من صفة الرحمة. وقد ذكرنا عند التفسير أن أهل التعطيل نفوا أن يكون لله رحمة. وقلنا: إنهم يفسرون الرحمة إما بالإحسان والثواب وهو منفصل، وإما بإرادة الإحسان والثواب، لأنهم كانوا يقرون بالإرادة. وبينا بطلان هذا القول، وقلنا: إن الرحمة من صفات الله عز وجل، ولكن ليست كرحمة المخلوق.

٥- **ومنها:** أن القرآن فصلت آياته، والتفصيل لعلنا قلنا: إنه تفصيل لفظي ومعنوي، والتفصيل اللفظي بالفواصل بين الآيات، والتفصيل المعنوي، التفصيل في المعنى، إذا ذكر الله أمرًا

ذكر نهيًا، وإذا ذكر ثوابًا ذكر عقابًا، وإذا ذكر أهل الخير ذكر أهل الشر.

٦- **ومنها**: أن القرآن كل آية منه تعتبر آية على صدق الرسول، لقوله ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وآياته جمع، تعم كل فرد على حدة ويعم المجموع.

٧- **ومنها**: أن القرآن نزل باللغة العربية، ففيه منقبة للعرب؛ لأن هذا القرآن نزل بلغتهم، وفيه إحياء للغة العربية، لأن هذا القرآن سيبقى إلى أن يأذن الله بخراب العالم، ومن المعلوم أنه إذا بقي بلسان العربي، فإنه ستحيا اللغة العربية وتبقى. وهذا من آثار القرآن.

٨- **ومنها**: أنه لا يفقه هذا القرآن ولو كان باللغة العربية إلا ذوو العلم، لقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أما من ليس من أهل العلم فإنه لا يستفيد من هذا الكتاب شيئًا، لأنه أمي، والذي يقرأ القرآن بلا فهم للمعنى فهو أمي وإن تلاه. لقوله الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾. فالذي لا يعلم القرآن إلا قراءة فقط كالذي لا يقرأ القرآن، ولا فرق.

٩- **ومنها**: أن القرآن فيه البشارة والنذارة، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ولكن المسألة هل هذا موزع أم يمكن أن يكون بشيرًا ونذيرًا في آن واحد؟ الجواب: يمكن هذا وهذا. أما على الأول بشيرًا ونذيرًا فإننا نجد من آياته ما هو بشارة للمؤمنين ونجد من آياته ما هو إنذار، وأما الثاني: فإن الآية الواحدة قد ينتفع بها أقوام ويتضرر بها آخرون. اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ولا تستغرب أن يكون الشيء الواحد ضارًّا من وجه ونافعًا من وجه آخر، فالقرآن نافع للمؤمنين ضار لغير المؤمنين، ولا تستغرب هذا، وأضرب لك مثلًا حسيًّا. فالتمر حلو المذاق فاكهة غذاء وقوت. يأكلها واحد فيتضرر به، ويأكله آخر فينمو به، مع أنه شيء واحد، هكذا القرآن.

١٠- **ومنها**: أنه مع وصف القرآن بهذا الوصف الجليل، وتفصيل الآيات، وأنه بلسان عربي، وأنه بشير ونذير لم يسلم من المعارضة والإعراض، لقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾.

١١- **ومنها**: جواز نفي السمع لم لا ينتفع به، لقوله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وكذلك يقال في بقية الحواس لمن لم ينتفع بها، نقول: إن وجودها كالعدم، فمن لم ينتفع بها رأى، نقول هذا لا يبصر ولو كان له عينان.

١٢- **ومنها**: شدة كراهة المشركين لما نزل من الحق. لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

١٣- **ومنها**: تحدي هؤلاء المبطلين على باطلهم، ويتفرع عليها أن من أهل الباطل من يتحدى أهل الحق إلى يومنا هذا. ولكن على أهل الحق أن يستعينوا بالله عز وجل في مقاومة هؤلاء. وأن يعلمون أن كلمة حق تغلب ألف كلمة باطل، ولكن السيف بضاربه ربما يكون السيف بيد جبان،

فإذا رأى العدو مقبلا سقط السيف من يده. فهل في هذا الحال ينتفع بالسيف؟ طبعًا لا، لو كان السيف بيد مسلم شجاع لعمل السيف وقرع هام الأعداء. فالحقيقة أن السيف بضاربه، فكم من إنسان يحمل من الشريعة أشياء كثيرة ولكن لا ينتفع بها. وكم من إنسان دون ذلك بكثير ولكن نفع الله به. لأنه مجاهد يجاهد أهل الباطل بما معه من الحق.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعني لست غريبًا عليكم، فلماذا تكفرون بي؟ وأنا بشر، لست جنيًّا فتنفروا مني، ولا ملكا فتنفروا منه، وإنما أنا بشر مثلكم، والبشر هم بنو آدم، وسموا بشرًا، لظهور بشرتهم، حيث بدت أجسامهم عارية، غير مكسوة، وهذا من نعمة الله علينا ومن رحمته أن جعل الله الإنسان عاريًا إلا بكسوة حتى يتذكر أنه عارٍ من الإيمان إلا بكسوة، فكسوة الإيمان التقوى. لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فالله جعلنا نفتقر إلى الستر الحسي، حتى نعلم أننا مفتقرون أيضًا إلى الستر المعنوي. فأنت عار من الإيمان إلا بلباس التقوى. إذن البشر هم بنو آدم وسموا ذلك لظهور بشرتهم عارية لا شيء عليها. بخلاف المخلوقات الأخرى فإنهم مغطون إما بالوبر أو بالصوف، وإما بالشعر أو بالريش أو بغير ذلك.

﴿مِّثْلُكُمْ﴾ هذا توكيد لمعنى البشرية، وإلا لو اقتصر على ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ لكان مقتضى ذلك أن يكون بشرًا ولكن مخالف. ولكن أكد هذا المعنى بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لكنه يمتاز ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، هذا هو الميزة والفرق، هو أن محمدًا ﷺ بشر يوحى إليه، و﴿يُوحَىٰٓ﴾ الموحي هو الله، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وحذف للعلم به، وربما يقال حذف للعلم به وللتعميم، لأن الله قد يوحي إلى نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل، وقد يوحي إليه بغير واسطة، والإيحاء: هو الإعلام بسرعة وخفاء، ولذلك إذا كان بجوارك واحد، وأردت أن تسأله والدرس مكتظ بالطلبة، وخفت أن يسمع إليك فتهمس إليه بخفية وسرعة لئلا

يتفطن لك، فكل إعلام بسرعة وخفية يسمى وحيًا، وإنما كان كذلك لأن النبي يوحى إليه وعنده الناس جالسون لا يدرون ماذا قال الرسول.

قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] هذا الجملة في محل رفع نائب فاعل، أي: يوحى إلي هذا الخبر أنما إلهكم إله واحد. وأنما أداة حصر، وعلى هذا تكون الجملة متضمنة لنفي وإثبات، لأن الحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

ومن طرق الحصر:

الأول: (إنما) أو (أنما).

والثاني: النفي والإثبات مثل: (لا قائم إلا محمد).

والثالث: تقديم ما حقه التأخير مثل: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والرابع: دخول ضمير الفصل، مثل أن تقول: (زيد هو الفاضل)، فإن ضمير الفصل تفيد الحصر، هذه أربع طرق وهي الأكثر دورانًا.

قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي اقصدوا، ولهذا لم يقل استقيموا له، قال: إليه، فضمن استقيموا معنى اقصدوا إليه.

فتكون أبلغ من (استقيموا له)، لأن المستقيم للشيء قد يستقيم له وهو في مكانه دون أن يسعى إليه، أما إذا قيل استقيموا إليه فهي تفيد السعي إلى الله وقصده، فلهذا عديت بإلى، فهل هنا ناب حرف عن حرف، أو إن الحرف على معناه ولكن ضمن الفعل ما يناسب الحرف؟ فيها قولان:

القول الأول: أن الاستعارة في الحرف.

القول الثاني: أن الاستعارة في المتعلق.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] يشرب بها، هل العين يشرب بها الإنسان، فهل العين هنا إناء يتناول باليد؟ فهنا للعلماء قولان:

القول الأول: أن الاستعارة في الحرف، يعني الباء هنا بمعنى من (يشرب منها عباد الله). والعين يشرب منها باليد وبالإناء وبأي وسيلة.

القول الثاني: أن الاستعارة في الفعل، أي أن يشرب ضمن فعلا يناسب الباء. فالذي يناسب الباء هنا يروى بها عباد الله. يعني: عين تروي.

أما إذا قلنا إن الباء بمعنى (مِنْ) فعلي فهذا سهل؛ لأنك تقدر أي حرف مناسب وانتهى الموضوع.

لكن إذا قلنا إن الباء على بابها، وأن الفعل قد ضمن معنى يتناسب معها، فحينئذ قد يصعب على الإنسان أن يقدر الفعل المناسب، لكن نقول: إن تضمين الفعل معنًى مناسبًا للحرف أولى.

نبين إذا قلنا يشرب بها عباد الله، إن الباء بمعنى (مِنْ) فهل استفدنا فائدة لاستعارة الباء بدلًا من (مِنْ)؟

الجواب: ما استفادنا، إذنْ إتيانه بهذا الحرف يوجب بعض الإشكال، فنكون قد تضررنا فضلًا عن كوننا لم نستفد، لأن كونك تضع حرف بدل حرفًا بدون موجب فهذا يوجب التشويش والإيهام، لكن إذا ضمَّنا الفعل معنًى يتناسب مع الحرف إزددنا فائدة، فإن قولنا: إن التقدير (يروى بها) يتضمن الشرب الذي ذكر ويتضمن الري. وهذا الرأي: أعني الفعل يضمن معنًى يناسب الحرف، هو الذي ذهب إليه البصريون وأظنه اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

فرجاء الإنتباه لهذه الفروق الدقيقة؛ لأنها تفتح الذهن لأفاق بعيدة لفهم المعاني وزيادة الاستفادة.

مسألة: قولنا أن الحرف بمعنى حرف آخر لا نستفيد منه شيئًا، بينما قلنا في غير هذا الموضع السابق في بعض الآيات ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] قلنا: إن ﴿فِي﴾ بمعنى (على).

الجواب: هذا ضروري إن الفاء تفيد معنى (على)، ومع ذلك فيها فائدة أنها جاءت (في) بمعنى على.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن إذا قلنا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ لكان تصليبًا مع رخاوة الحبل، لكن في جذوع كأنه شده شدًّا قويًا حتى كأن هؤلاء المصلوبين داخلين فيه.

مسألة: قال تعالى هنا: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، وفي آية أخرى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾؟

الجواب: لا تعارض لأن قوله مثاني بمعنى فصلت، حيث إن معناها تثنى فيه المعاني فيذكر الخير ثم الشر، أهل الخير وأهل الشر والجنة والنار وما أشبه ذلك، وأما المراد بقوله متشابهًا فمعناه أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والحسن والجودة.

المسألة: ما وجه الجمع بين ثناء الله على القرآن بأنه متشابه وبين قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

الجواب: فالجمع بينهما أنه متشابه في الحسن، بحيث يشبه بعضه بعضًا، وأما المحكمات والمتشابهات. فالمحكمات ما اتضح معناها، والمتشابهات ما خفي معناها.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هذه صفة (للمشركين) الذين لا يؤتون أي: لا يعطون الزكاة، والزكاة هنا يحتمل أن تكون زكاة النفس ويحتمل أن تكون زكاة المال، فإن كان زكاة المال ففيه إشكال بأن ظاهرها يقتضي أن الكفار يلزمهم إخراج الزكاة، ومعلوم أن إخراج الزكاة لا يطالب به العبد حتى يسلم. لقول النبي ﷺ لمعاذ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا

تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ تَوْحِيدَ الله ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الزَّكَاةِ»[1]. وهذا يدل على أن الزكاة لا يخاطب بها الإنسان أي بأدائها إلا بعد أن يسلم. أما إذا قلنا: إنه المراد بالزكاة زكاة النفس، فإنه لا يرد على هذا إشكال، لكن يرد على هذا إشكال من جهة اللفظ، وهو قوله: ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهل زكاة النفس شيء يعطى، هذا محل نظر، ولذلك الآية فيها إشكال سواء فسرتها على هذا أو على هذا، وإذا كان فيها إشكال بين معنيين فإننا نترك المرجح. والراجح أن المراد بها زكاة النفس، والمعنى: (لا يؤتون أنفسهم زكاتها)، وفي الحديث: «أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» وعلى هذا نرجح أن المراد بالزكاة زكاة النفس، ويكون المعنى لا يؤتون أنفسهم زكاتها، بل يهينونها ويقلون عنها.

وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بكافرون، ﴿وَهُم﴾ مبتدأ و﴿هُمْ﴾ الثانية. تأكيد لفظي لـ ﴿لَهُمْ﴾ الأولى والتأكيد اللفظي أن تعاد الكلمة بلفظها، كما قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ التَّوكِيدِ لَفظِيٌّ يَجِي مُكَرَّرا كَقَولِكَ ادرُجِي ادرُجِي

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾. أي: جاحدون لها غير مؤمنين بها، يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]. يعني يموت قوم ويحيى آخرون ولا يهلكنا إلا الدهر ولا بعث ولا حساب.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب إعلام النبي ﷺ أمته بأنه بشر مثلهم. لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** آكدية هذا الإعلام، حيث أمر النبي ﷺ أن يبلغه على وجه خاص، وذلك أن القرآن كله أمر الله الرسول ﷺ أن يبلغه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] لكن في بعض الأحيان يمر بك آيات يؤمر النبي ﷺ بتبليغها بذاتها، فيكون هذا دليل على الاعتناء بها وأهميتها وهو كثير، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وما أشبه ذلك. فيكون بهذا توصية خاصة بتبليغه، وهو دال على العناية به والاهتمام به. والقرآن كله قد أمر النبي ﷺ بتبليغه، والدليل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، في بعض الآيات يؤمر النبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (٢٩/ ١٩) من حديث معاذ رضي الله عنه.

ﷺ بتبليغها على وجه خاص، فيقال: (قل كذا)، وهذا يدل على العناية والاهتمام به وأن هذا ذا شأن خاص.

وهنا قال ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمر أن يبلغ ويعلم بأنه بشر مثلنا.

٣- **ومنها**: الرد على من قال بأن النبي ﷺ خلق من نور، لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾.

٤- **ومنها**: الرد على من قال بأنه ﷺ نور وأنه لا ظل له يمشي في الشمس فلا يكون له ظل، وجه ذلك تحقيق البشرية بالمماثلة. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فأي أحاديث تأتي بمثل هذه الأمور التي توجب أن يخرج النبي ﷺ عن نطاق البشرية فإنها موضوعة مكذوبة؛ لأنه بشر مثلنا.

٥- **ومنها**: أن النبي ﷺ يلحقه الحر والبرد والجوع والعطش والخوف والأمن وغير ذلك من مقتضيات البشرية، وهذا من قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فتحقيق البشرية بالمثلية حتى لا يقول قائل: إن هذا مجاز، فأكد هذه البشرية بالمثلية.

٦ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أوحي إليه؛ لأننا لا نعلم الغيب وهو بشر مثلنا.

٧- **ومنها**: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا لغيره، وجه ذلك أنه مثلنا، وأنه إذا كنا نحن لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا لغيرنا فكذلك النبي ﷺ.

٨- **ومنها**: أن موت النبي ﷺ موت حقيقي وأنه بموته ﷺ انقطع عمله إلا ما يأتيه من ثواب أجور أمته؛ لقوله ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والمماثلة تقتضي المساواة من كل وجه إلا ما خصه الدليل. وبهذا ينقطع أمل كل من طلب من الرسول ﷺ أن يشفع له فيقف عند قبر الرسول ويقول: يا رسول الله اشفع لي، فإن هذا لا يجوز لأنه اعتداء في الدعاء حيث يطلب الإنسان ما ليس له. ولا يمكن للرسول أن يفعله؛ لأنه مات وإذا مات ابن آدم انقطع عمله لا بدعاء ولا بغيره.

٩- **ومنها**: أن النبي ﷺ قد ينسى، لأن هذا مقتضى البشرية. كما حقق ذلك في قوله: «إنما أنا بشر مثلكم انسى كما تنسون».

١٠- **ومنها**: أن النبي ﷺ يجتهد وربما يخطئ في اجتهاده، لأن هذا مقتضى البشرية، وكما هو الواقع في مثل قول الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]. وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، ولكنه ﷺ يمتاز عن غيره، بأنه لا يقر على خطأ ولو كان بالاجتهاد بخلاف غيره، فقد لا يُذكَّر ولا يَذْكر إذا نسي وقد يعلم ولا يعمل إذا جهل، لأن خطأنا نحن قد نستمر عليه دون أن ننبه له أو ننتبه، لكن الرسول ﷺ لا يمكن أن يقر على خطأ، ولا يمكن أن يقر على نسيان ما يجب، بل لا بد أن يتنبه أو ينبه.

١١- **ومنها**: إثبات رسالة النبي ﷺ وتؤخذ من قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لأن الوحي لا يكون إلا

لنبي. فإن قال قائل كيف تقولون إن الوحي لا يكون إلا لنبي وقد أوحى الله تعالى إلى غير الإنسان، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٦٨]. وقال تعالى في غير الأنبياء: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص: ٧].

قلنا: هذا الإشكال لا يرد إلا على من لا يفرق بين معاني الوحي. فأما من فرق بينها وقال إن الوحي إما أن يكون بشرع وإما أن يكون بغيره، فإن كان بشرع فهذا لا يكون إلا للرسل أو الأنبياء، وإن كان بغير شرع فإنه يكون من باب الإلهام. فيكون قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ أي ألهمها أن تتخذ من الجبال بيوتا. وكذلك ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ بوحي إلهام. وبذلك يزول الإشكال.

١٢ - **ومنها:** أهمية التوحيد؛ حيث حصر الوحي بالتوحيد؛ قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ ﴾ كالصلاة والزكاة وغير ذلك، لكن لما كان أهم ما جاء به ﷺ التوحيد، حصر الوحي به أنها إلهكم إله واحد، وإن أقول لكم، متى حقق الإنسان التوحيد فلا بد أن يقوم بشرائع الإسلام؛ لأنه إذا وحد الله بالقصد وجعله هو حياته، فلا بد أن يتجه إليه.

وفيما يتجه إليه؟

بالطريق الذي شرعه موصلًا إليه. ولهذا نقول إن حديث عتبان: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، هو على ظاهره، فمن قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله فإنه محرم على النار، ومقتضى تحريمه على النار، أنه لا يعمل كبيرة توجب دخوله النار، أو تقتضي دخوله النار، كل من قال لا إله إلا الله يبتغي وجه الله فلن يعمل ما يغضب الله، كيف تريد وجهه ثم تعمل ما يغضبه، هل عمل ما يغضبه يصدك للوصول إلى وجهه أم لا؟ نعم يصدك. فإذا كان يصدك وأنت تبتغي وجهه فلا بد أن تعدل، إما بالكفاف مطلقا، وإما بالتوبة مطلقا إن وقعت فيه؛ لأن بعض الناس يقول: أنتم تكفرون تارك الصلاة، وقد قال النبي ﷺ: « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، ولم يذكر الصلاة، قلنا له بل ذكر الصلاة وذكر ما دون الصلاة أيضًا، في قوله يبتغي بذلك وجهَ الله. ونحن نقول لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون رجل يقول لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله أن يحافظ على ترك الصلاة، من حاول أن يجمع بين ذلك وبين ترك الصلاة فقد حاول أن يجمع بين الماء والنار، وهذا أمر ظاهر، فمثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ لو كنت تريد أن تصل إلى شخص من الناس وتسعى بكل وسيلة أن تصل إليه، فهل تفعل ما يحول بينك وبين الوصول إليه، مِنْ معصيته؟ أبدًا، بل تنظر ماذا يحب فتفعله من أجل أن تصل إليه ومن أجل أن يكون المستقبل لك بالترحيب، أما أن تقول أن أحب فلانًا، وفلان يقول لا تمشي في هذا الطريق، ثم أنت تقول أنا أحب أن أمشي في هذا الطريق، الطريق المخالف. فهل هذا صدق أم كذب؟ هذا كذب، فإن كنت تحبه حقًّا لكنت طوعًا له أمرًا ونهيًا.

إذنْ مَنْ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله» فإنه سوف يتحاشى المعاصي، ويصلي؛ ولهذا جاء حصر الوحي في هذه الآية بالتوحيد ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وهو الله عز وجل.

١٣- **ومنها:** وجوب الإخلاص لله والاستقامة على الدين. في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾ هذا العمل، و﴿إِلَيۡهِ﴾ الإخلاص.

١٤- **ومن فوائدها:** تهديد المشركين؛ لقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهذا النوع من التهديد يكون في ما هو شرك ويكون في ما دون ذلك. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٢]، وهؤلاء ليسوا بمشركين، يعني: عملهم هذا لا يصل إلى الشرك.

وقال النبي: «وَيْلٌ لِمَنْ حَدَّثَ فَكَذَبَ لِيُضْحِكَ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ»، وهذا أيضًا ليس من الشرك، وعلى هذا فلا يقال أن كل وعيد كان بهذه الكلمة يفيد أن يكون الفعل شرك، بل قد يكون شرك، وقد يكون ما دونه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التوحيد تزكية للنفس، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولا شك أن التوحيد تزكية للنفس، لأنك تقطع العلائق مع غير الله إلا فيما يحب الله. والموحد حقيقة قلبه دائمًا مع الله عز وجل، دائمًا يتقلب في قضاءه الكوني راضيًا به كما يتقلب في قضاءه الشرعي راضيًا به، ولهذا تجده إذا أصابته سراء شكر.

وإذا أصابته ضراء صبر ولم يسخط. فهو دائمًا مع الله يقول لنفسه: (أنا عبد الله يفعل بي ما شاء، أنا عبد الله إن أصابني شيء في السراء شكرت فكان خيرًا لي، وإن أصابني في الضراء صبرت فكان خيرًا لي. أنا عبد الله لا يمكن أن أعارض قضاء الله، يقضي علي اليوم بالسرور فأسر، وغدًا بالسوء فأستاء). ويمشي مع الله في قضاءه وقدره، وهذا هو الذي يجد الراحة تمامًا، ولهذا من ثمرات الإيمان بالقدر، أن الإنسان يكون دائمًا مطمئنًا ليس فيه قلق ولا حزن وإن كان ربما في الصدمة الأولى يجد الإنسان الحزن لكن بالتصبير تصبير نفسه ومشاهدة القدر يسهل عليه الأمر، وإن كان معلوما أن الإنسان ليس حديدًا أو حجارة لا يتأثر لكنه عندما يصبر نفسه ويحملها يصبر فيطمئن، فالمهم أن التوحيد كله خير وكل زكاء، تزكية للنفس وتطهير لها.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن المشركين لا يؤمنون بالآخرة، ولهذا إذا قيل له وحد الله تنجو من عذابه، قال: ليس هناك عذاب، يكفرون بالآخرة.

٣- **ومن فوائد الآية:** أن الإيمان بالآخرة يدعو إلى التوحيد وتحقيقه، وهذا حق واضح، كل

إنسان يؤمن بأنه سوف يحشر يوم القيامة، في أرض قاع صفصف لا يرى فيها عوجً ولا أمتًا. وأنه سيجازى على عمله، كل إنسان عاقل سوف يستعد لهذا اليوم. ولهذا ينبغي لنا مع كون قلوبنا مع الله عز وجل أن نتذكر الساعة. وهل بين الإنسان وهذه الحال وقت محدد معلوم؟ لا أبدًا، يصل إلى هذا إذا مات، ومتى يموت؟ لا يعلم، قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه. قد ينام على فراشه ويحمل ميتًا، قد يركب سيارته ولا ينزل منها، فإذنْ تذكر يا أخي عندما تستولي على قلبك الغفلة، تذكر هذا اليوم الذي تحشر فيه أنت وسائر الخلق حافيًا عاريًا. ليس عندك مال ولا بنون ولا أحد يحميك، تذكر هذا، فإذا تذكرته فسوف تعمل، فاعمل لهذا اليوم، إخوانك أباءك أولادك أمهاتك الذين فقدتهم في الحياة متى تجتمع بهم؟ في هذا اليوم، ما في اجتماع إلا في هذا اليوم، إذنْ استعد لهذا اليوم واعمل صالحًا، ولا يفوتك الركب فكن في مقدمته، واجعل الدنيا وراء ظهرك، اجعلها تابعة لك ولا تجعل نفسك تابعًا لها حتى تنجو، فكل إنسان يؤمن بالآخرة فإنه إذا تذكرها سوف يعمل لها، قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المتقين الذين يؤمنون بالآخرة ويعملون لها.

مسألة: حول آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤] والرد على من يتخذها دليل لطلب الاستغفار من الرسول والتوسل والدعاء عند قبر الرسول؟

الجواب: هذا داخل في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يتحدث عن قوم معينين، بدليل قوله: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، وإذ لما مضى، ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: استغفرت لهم لكن أظهر في المقام الإضمار تعظيمًا لشأن الرسول، وبيان أنه أقرب منهم إجابة ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤ - ٦٥] ولم يقل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾. ولو قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ قلنا: إن هذه لهم ولغيره، ولكن قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ ثم إن استغفار الرسول بعد موته مستحيل؛ لأنه استغفار عمل، والعمل قد انقطع بالموت، ثم إن هؤلاء ليس أفقه في كتاب الله وليسوا أعلم بحال رسول الله من الصحابة، هل جاء أحد منهم إلى قبر الرسول، وقال: يا رسول الله استغفر لي، أبدًا، بل إنهم لما أصيبوا بالجدب لم يقولوا: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادعوا الله يغيثنا، مع أنهم إلى جنبه، بل استغاثوا ودعوا الله وطلب عمر من العباس أن يدعو الله عز وجل. لكن لا بد لكل ذي باطل أن يجد شبهة في الكتاب والسنة وهذا من حكمة الله عز وجل وابتلاءه وامتحانه.ولكن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل» وكذا في الفتاوى: (كل إنسان يستدل بدليل صحيح من كتاب أو سنة على باطل فإن هذا الدليل دليل على إبطال باطلهم لا على إثبات

باطلهم) الدليل قول الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

مسألة: حول معنى النبوة والرسالة ووجه الفرق بينهما؟

الجواب: هذا المسألة تنبني على اختلاف العلماء، مَنِ النبي؟ ومن الرسول؟ فجمهور العلماء على أن الرسول من أرسل وأوحي إليه بالشرع وأرسل به وأمر أن يبلغه. وأما النبي فهو من (نبِّئ) أي: أخبر والإخبار لا يلزم منه التكليف بالإبلاغ. فهو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، بل أمر أن يفعل به في خاصة نفسه دون تبليغه.

فيكون هذا الإنباء تجديدًا للرسالة السابقة، أو إنشاء لشريعة لم تكن قائمة، وهذا الذي قاله الجمهور هو الصحيح. لأننا لو قلنا: إن النبي هو من جدد شريعة سابقة وأمر أن يبلغ الناس وأن يوقظهم، فلو قلنا بهذا، لأشكل علينا نبوة آدم، فإن آدم نبي مكلم ومع ذلك لم يسبقه رسول، فإن قال قائل ما الفائدة؟ الفائدة أولًا مصلحة هذا النبي هو نفسه، أنه أوحي إليه بالبشارة.

ثانيًا: أنه إن كان في شريعة سابقة، فهو عبارة عن تجديد تلك الشريعة، وإن كان في غير شريعة سابقة كآدم، فإن الناس في عهده بدائيين، لم يكفروا ولم يختلفوا ولم تفتح عليهم الدنيا، فكانوا ينظرون إلى ما يفعله أبوهم فيفعلونه، دون حاجة إلى أن يرسل إليه. ولهذا قال ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأنا يترجح عندي قول جمهور العلماء: أن النبي من يوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وأما نحن فلما لم يكن بعد رسول الله ﷺ نبي صرنا مأمورين بإبلاغ رسالته، فنحن في الحقيقة رسل رسول الله، ولهذا جاء في الحديث: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٨-١٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، لما ذكر عقوبة المشركين بين ثواب المؤمنين، لأن الله تعالى أنزل هذا الكتاب مثاني، وإنما كان الأمر كذلك ليكون الإنسان سائرًا إلى ربه، بين الخوف والرجاء، فإنه إذا سمع عقوبة المكذبين خاف، وإذا سمع ثواب المؤمنين رجع، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون سائرًا إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكن في بعض الأحيان قد يكون من المصلحة تغليب الرجاء، أو من المصلحة تغليب الخوف، فإذا إشتدت رغبة الإنسان في المعصية فليغلب جانب الخوف حتى يرتدع عنها وإذا فعل الإنسان العبادة فليغلب جانب الرجاء وهو قبول الله تبارك وتعالى لها، وكذلك أيضًا ينبغي له في حال المرض، أن يرجع إلى الله سبحانه وتعالى وأن يحسن الظن به، كما جاء في الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ». يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمع الله تبارك وتعالى بين العقيدة والعمل بين الإيمان والإسلام، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ العقيدة، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإسلام، وهذا كما ترون يقرأ في القرآن كثيرًا، فالإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد من عمل صالح حتى يحصل الثواب، وكلما جاءت ﴿ءَامَنُوا۟﴾، فالمراد آمنوا بما يجب الإيمان به، من الأصول الستة التي بينها الرسول ﷺ لجبريل حين قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وذلك؛ لأن الإيمان المجمل في القرآن يفسره تفصيل السنة، لأنه لا أحد أعلم بكتاب الله من رسول الله ﷺ أما قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فمعلوم أن الصالحات وصف لموصوف محذوف، والتقدير (الأعمال الصالحات)، فما هي الأعمال الصالحات.

الأعمال الصالحات: ما جمعت شرطين، الأول: الإخلاص لله عز وجل. الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

فكل عمل فيه شرك فهو ليس بصالح وهو مردود على صاحبه، لقول الله في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وكذلك أيضًا لا بد من اتباع الرسول، فالعمل البدعي غير مقبول وإن أخلص الإنسان فيه، لقول الرسول «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، إذنْ الأعمال الصالحة لا بد من أن تضمن شيئين، الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله.

قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، هذه الجملة خبر (إن). ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، قد نقول إن تقديم الجار يدل على الحصر، أي لهم لا لغيرهم من المكذبين أو الفاسقين، ﴿أَجْرٌ﴾ أي: ثواب، ﴿غير ممنون﴾ يقول المؤلف: [أي: غير مقطوع]، بل هو دائم. كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا

بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقيل: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير ممنون به أي يعطونه بلا منة وهذا محتمل، وإذا كان محتملًا ولا ينافي المعنى الأول، كان المراد بالآية المعنيين جميعًا. إذ لدينا قاعدة في التفسير وكذلك في الحديث مهمة وهي: (إذا كان النص يحتمل معنيين ولا ينافي أحدهما الآخر، فإن النص يحمل عليهما جميعًا)؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحتمل كلامه وكذلك الرسول ﷺ. فلما لم يعين أحد الاحتمالين وجب أن يكون شاملًا لهما، لكن إذا كان أحدهما أرجح من الآخر فإنه يتبع الأرجح، ولهذا نقول: نقدم ظاهر النص على تأويل النص. والتأويل كما تعرفون هو اتباع المعنى المرجوح، إذنْ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: ثواب غير مقطوع، وثواب غير ممنون به.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، الجملة هذه استفهام بمعنى التقرير، يعني: إنكم لتكفرون (وإن) للتوكيد و﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ للتوكيد أيضًا، وذلك لأن اللام الواقعة في خبر إن أو اسمها المؤخر تكون للتوكيد، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ هذا إعرابها، فإن: تنصب المبتدأ وترفع الخبر و(الكاف) اسمها، وجملة ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ خبرها، أما من حيث القراءات، استمع يقول: [بتحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها]، تحقيقها ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، وتسهيلها أن تقول: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، سهلها تمر بها بسرعة، [وإدخال ألف بينهما بوجهيها وبين الأولى]، بوجهيها الوجه الأول التحقيق، والتسهيل، أدخل ألفان بينهما على القراءتين تكون القراءة أربعة، إدخال الألف تقول آءنكم، هذا في التحقيق، أي: آنكم هذا بالتسهيل، إذنْ تحقيق وتسهيل بألف وبدونها بأربع قراءات، قوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تكفرون به: أي تجحدونه وتستكبرون عن عبادته، لأن الكفر كله يدور على شيئين، إما جحود وإما استكبار، فمثلًا الشيطان لما كفر، كفر استكبار وإلا فإنه مقر بالله وبعزة الله وبقدرة الله، لكنه استكبر، وآل فرعون ومن شابههم كفروا بالجحود، فالمدار كله على هذين الأمرين: الجحد أو الاستكبار، فقول لتكفرون: يشمل المعنيين، بأن جحدوا توحيد الله عز وجل واستكبروا عن عبادته، بالذي خلق الأرض في يومين، لم يقل بالله، بل أتى بفعل من أفعاله جل وعلا، فعل لا تقدر عليه هذه الأصنام. والإتيان بالفعل الذي لا تقدر عليه الأصنام هو إقامة للحجة في نفس الوقت، أي تكفرون بهذا مع أن أصنامكم لا تفعله. ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال المؤلف (المفسر): [الاحد والإثنين]، لأن أول يوم ابتدأ الله في الخلق الأحد ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، الواو حرف عطف ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ معطوف وحالها (تكفرون) لا على الصلة. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء، ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، والند في الأصل هو المساوي والمماثل، يقال: هذا ند هذا أي مماثل له

ونظير له، والمراد بهم هنا الشركاء الذين يعبدونهم كما يعبدون الله، والعجب أن هؤلاء المشركين السفهاء، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فكيف يعبدون مع الله أحدًا ويقولون يقربونا إلى الله؟! إن الله غني عن هذا، وهذا لا يزيدكم من الله إلا بعدًا، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ذلك: أتى باسم الإشارة دون الضمير ثم جعلها إشارة بعد، للتعظيم والتفخيم والتعلية، لأن البعد هنا إشارة إلى المكان العالي، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لو قال: (هو رب العالمين) استقام الكلام، لكن لم يحصل ما تدل عليه الإشارة من التعظيم، ثم ما يدل عليه صيغة البعد من العلو، نظير ذلك ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ولم يقل: هو الكتاب ولا هذا الكتاب، إشارة إلى ما ذكرنا، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال المفسر: [مالك]، وفي هذا التفسير قصور، بل نقول خالق ومالك ومدبر، لأن الربوبية: هي الخلق والملك والتدبير، فإذا قلنا مالك صار في هذا قصور، قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم. والعالمين: جمع عالم وهو ما سوى الله عز وجل، كل ما سوى الله فهو عالم، وسمي عالم، لأنه علم على خالقه جل وعلا، فإن كل شيء فيه آية تدل على وحدانية الله وقدرته وحكمته وعزته وغير ذلك، قال: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [جمع عالم، وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه]، يعني لم يقل: (العالم)، بل أتى بـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لاختلاف أنواعه، [بالياء والنون، تغليبًا للعقلاء]، فإن قال قائل هل العقلاء أكثر أو غير العقلاء؟ إن قيل العقلاء أكثر يحتاج إلى دليل، وربما يكون دليله أن النبي ﷺ قال: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ» والسماء واسعة عظيمة، فكل سماء أوسع مما تحتها، فمن يحصي هؤلاء، هذا شيء عظيم.

البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم من الملائكة سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، فمن يحصي هذا، وكل يوم يظهر سبعين ألف ملك، فإذا رأينا إلى هذا، قلنا: إن العقلاء أكثر، فمن يحصي هؤلاء، وإن نظرنا إلى ما في الأرض قلنا أن غير العقلاء أكثر، فعلى هذا التقدير أن أريد من في الأرض، نقول إنه غلب العقلاء لشرفهم، والحاصل أن تغليب العقلاء، إن كان العقلاء أكثر، فغلبوا لكثرتهم، وإن قلنا: إن غير العقلاء أكثر، فغلب العقلاء لشرفهم.

على كل حال تغليب العقلاء، إن كان العقلاء أكثر فلكثرتهم، وإن كان غير العقلاء أكثر فلشرف العقلاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [مستأنف] يعني وليس معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، والعجب أنه يقول: [ولا يجوز عطفه على صلة الذي للفاصل الأجنبي]، هذا ما ذهب إليه المؤلف أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف، ولا شك أننا إذا جعلناه مستأنفًا لم يكن الكلام منتظمًا، والصواب أنه على خلاف ما قال المؤلف: أن ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، يعني بالذي خلق الأرض في يومين

وجعل فيها رواسي، والفاصل الأجنبي هنا لا يضر، إما أنه لا يضر مطلقا كما قيل به، وإما أنه لا يضر لأنه في مضمون الكلام، والكلام واحد، فالصواب أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على خلق، أي بالذي خلق الأرض في يومين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال: [جبالًا ثوابت]، أولا: ﴿وَجَعَلَ﴾ هنا هل هي من أفعال التصيير أو من أفعال الإيجاب؟ يحتمل المعنى، وأوجد فيها رواسي، ويحتمل أن تكون من أفعال التصيير أي صير فيها رواسي، والمعنى لا يختلف، لكن الإعراب يختلف، إذا قلنا أنها من أفعال التصيير صارت تنصب مفعولَيْنِ، وإذا قلنا من أفعال الإيجاب، صارت تنصب مفعولًا واحدًا.

وقول المؤلف: [جبالًا ثوابت]، أفادنا رحمه الله أن رواسي صفة لموصوف محذوف، والتقدير: جبالًا رواسي، ورواسي بمعنى ثوابت، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، هل يجوز أن يحذف المنعوت؟

نعم، وهو كثير جدًا، قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعتِ نُقِل ... يَجُوزُ حذفُهُ وَفِي النَّعتِ يَقِل

أي: وفي المنعوت يكثر، قال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي: دروعًا سابغات، المهم أنها تأتي في القرآن كثيرة، وعملوا الصالحات كما مر علينا، حذف المنعوت كثير، بأن المقصود الصفة، والصفة تكون بالنعت وهو موجود، ﴿مِن فَوْقِهَا﴾، هذه الكلمة لها فائدة، فالرواسي قد تكون من أسفل، وقد تكون من فوق، أليس كذلك؟ قد تكون من أسفل، كأن يحفر في الأرض قواعد ترسي وتكون راسية، لكن هنا قال من فوقها، وذلك لفوائد:

١- الفائدة الأولى ظهور هذه الرواسي، وبيانها للناس، حتى يعرفوا بذلك حكمة الله عز وجل، وربما لا تكون رواسي إلا إذا كانت من فوق، بناء على أن الأرض تدور حتى تحفظ توزانها.

٢- هذه الرواسي إذا كانت من فوق حصل فيها من المنافع في درء العواصف وفي الملاجئ شيء كثير، كما هو معروف في المغارات، وكما يعرف من سفوح الجبال، ورؤوس الجبال، وخدود الجبال، من نوابت لا توجد لولا هذه المرتفعات.

٣- أنها توجب أن تندفع مياه الأمطار بشدة حتى تصل إلى أراضي صالحة للنبات، لأنكم تعرفون أن بعض الأرض سابخات ما فيها خير، وبعضها رياض تنبت، فإذا نزل الماء على هذه الجبال على قممها وعلى خدودها نزل إلى الأرض بشدة عظيمة حتى يصل إلى ما أراد الله بها من صالح.

٤- وأنها في قمم الجبال من المعادن الجيدة أكثر مما في الأرض السفلى، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. أنزلناه من قمم الجبال، ولهذا يقول العلماء: إن الحديد الذي يكون من قمم الجبال أعلى وأقوى من الذي يكون من الأسفل، هذا ما نعلمه وما لا نعلمه

أكثر. المهم أن كلمة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ صار لها فائدة عظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [بكثرة المياه والزروع والضروع]، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرض، وما أعظم بركات الأرض، من الزهور، والأشجار، والأنهار والمعادن، وغيرها، من بركات الأرض، وقول المؤلف: [الزروع]، يعني زروع البهائم، يعني: البهائم كلما شبعت من الربيع، ازداد درُّها، ومن يتأمل يجد أن في الأرض بركات عظيمة، حملت الأحياء والأموات والوحوش والسباع والبهائم والحشرات والآدميين، وكم السعة مع كثرة ما فيها، الآن هؤلاء الأحياء الذين على ظهر الأرض، لو كان الناس يحيون إلى الآن لرأيت أمرًا بشعًا وصعبًا، لكن جعل الله الأرض كفاتًا أحياءًا وأمواتًا. وهذه من بركاتها.

قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ قال المؤلف: [قسم فيها أقواتها للناس والبهائم]، قدَّر فيها الأقوات، يقول: قدر من التقدير وهو التقسيم، قدر الأقوات، ولم يجعل القوت في جانب واحد من الأرض، لو كان في جانب واحد من الأرض لشق ذلك على الناس كثيرًا، أليس كذلك؟ لو قدَّر مثلا، أن الأقوات في غرب القرى، فكيف يعيش أهل الشرق، أو بالعكس كيف يعيش أهل الغرب، لكنه مقدر، ثم قدره من ناحية أخرى، جعل في هذه الأراضي ما لا يحصل في الأراضي الأخرى، والعكس، الحكمة من أجل أن يتبادل الناس الأقوات، فيأتي الناس الذين ليس عندهم هذا النوع من القوت، يذهبون إلى الأراضي الذي فيها هذا القوت يجلبونه إلى أرض خالية منه. وكذلك العكس. في بعض الجهات من الأرض ما يكثر فيه النخيل والعنب لكن يقل فيه الحمضيات وأشباهه. وفيه أيضًا أشياء كثيرة، أنا لست من أهل الزراعة لكن فيه أشياء كثيرة تصلح في مكان دون مكان، من أجل أن يقع التبادل بين الناس، والضرب في الأرض ابتغاء الرزق، وهذا من الحكمة في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمام أربعة أيام، أي الجعل وما ذكر معه في يوم الثلاثاء والأربعاء، إذا كان خلق الأرض أولها الأحد والإثنين، ثم قال في أربعة أيام ماذا يكون الباقي، الثلاثاء والأربعاء، فتكون الأرض خلقت وقدرت فيها الأقوات في أربعة أيام، قال الله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ منصوبة على المصدر، أي استوت الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص، فأفادنا بقوله: استوت استواء، أن سواء اسم مصدر، فقوله منصوب على المصدر فيه تجوز، لأننا إذا قلنا سواء المصدر استوى، فإنه لا يستقيم على القاعدة. لأن القاعدة: إذا المصدر وافق الفعل في حروف، وهنا استوى لا توافقها سواء، بل الذي يوافقها استواء، إذنْ فسواء تكون اسم مصدر، مثل كلم والمصدر تكليم، واسم المصدر كلام.

هنا استوى والمصدر استواء واسم المصدر سواء، المهم أن قوله: ﴿سَوَآءً﴾، يعني أن هذا الخلق استوعب الأربعة كلها، ما يكون في يومين أو ثلاثة، بل في الأيام الأربعة كلها، فعلى هذا فقوله منصوب على المصدر والصواب أن يقال: إنه مفعول مطلق، أي استوت الأربعة استواء، لا تزيد

ولا تنقص، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [عن خلق الأرض بما فيها]، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هذه لا تظن أنها متعلقة بسواء، بل هي جواب لخبر محذوف، أي: هذا جواب للسائلين، أو نحو هذه الكلمة، المهم أن قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يفيد أن ما ذكر جوابًا لمن سأل عن خلق السموات والأرض، عن خلق الأرض وتقدير أقواتها، بأنها في أربعة أيام سواء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم: أي بعد خلق الأرض وتقدير أقواتها ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول المؤلف: [قصد إلى السماء، وهذا أحد القولين في هذه الجملة، أنها بمعنى قصد، لكن قصدًا كاملًا، وذلك لأن استوى تدل على الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ والقول الثاني: أن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ بمعنى استوى على السماء، أي علا عليها، ولكن المعنى الذي سلكه المؤلف أرجح، أنه قصد إلى السماء بإرادة تامة مستوية، لأن ﴿إِلَى﴾ تفيد الغاية، وعلى تفيد الاستعلاء، ومعلوم أن السموات لم تكن خلقت في تلك الساعة، ثم إننا لو قلنا: إن استوى بمعنى (علا) ثم استوى على السماء كان قبل ذلك حين خلق الأرض ليس عالٍ على السماء، مع أن علو الله تعالى وصف لازم لذاته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [بخار مرتفع]، جملة ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ حالية، والسماء هنا بمعنى العلو، لأنها لم تكن خلقت بعد، لكنها كالدخان، أي: البخار المرتفع، قيل: إن هذا البخار المرتفع تصاعد من الماء الذي كان قبل أن تخلق الأرض، لأن الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، فكان قبل خلق السماء والأرض ماء فوقه عرش الرحمن عز وجل، ثم خلقت الأرض وقد اندفع من هذا الماء بخار متصاعد كثيف، صار مثل الدخان، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إلى مراد منكما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [في موضع الحال أي: طائعتين أو مكرهتين]، قالتا آتين [بمن فينا] طائعين.

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ هذا الأمر هل هو أمر تكوين أم أمر تكليف؟ إن قلنا: أمر تكليف لم يكن هناك فرق بين أن يكون طائعين أو مكرهتين. وإذا قلنا أنه أمر تكليف فظاهر أنه أمر تكليف ولهذا قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ إن قلنا: إنه أمر تكوين فإنه لا يستقيم أن يكون طوعا أو كرها، لأن أمر التكوين كائن لا محالة، فالظاهر والله أعلم أنه أمر تكليف، ولله تعالى أن يكلف ما شاء من عباده أو من خلقه، له أن يكلف ما يشاء.

مسألة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هل هذه الآية تصلح دليلًا لمن أخرج العمل الصالح عن الإيمان؟

الجواب: هذا لا يصح لأن العمل الصالح دلت النصوص على أنه من الإيمان، لكنه لا مانع أن يكون الشيء الواحد منقسمًا إلى أنواع، فالإيمان يغفل فيه الأعمال لا شك، لكنه يتنوع، منه ما هو عقيدة، منه ما هو عمل قولي، ومنه ما هو عمل فعلي.

مسألة حول الاستواء؟

الجواب: لا يجوز أن يكون الفعل (سوى)؛ لأنه لو قلنا أن الفعل (سوى) لصارت تسوية، وهي لا تصح، تصلح من (استوى).

مسألة حول إعراب المصدر حال؟

الجواب: لا يعرب المصدر حالًا إلا للضرورة؛ لأن أصل الحال أن تكون مشتقة والمصدر جامد.

مسألة: حول الذين ينكرون غيبيات القبر والغيبيات المأمور بالإيمان بها، ومن ناحية أخرى يصلون ويزكون، فما حكم هؤلاء؟

الجواب: إذا قلت لهم أن هذا عليه دلائل من كلام الله (القرآن) ومن السنة، وقالوا: لا نصدق إلا ما نراه فهؤلاء كفار. حتى ولو كان يصلون بالليل والنهار، وحتى لو كانوا يتصدقون. لأنهم يكذبون، فهذا كفر تكذيب.

مسألة: بعض القراء يقرأون بدلا من آءنكم، يقرءونها آهنكم. فما حكم هذا؟

الجواب: ما أظن هذا بصحيح، ولكن إذا ثبتت القراءة بالهاء، فهذا يعتبر إبدالا وليس تسهيلا، إبدال الهمزة هاء.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، يقول المفسر: [﴿قَالَتَا أَتَيْنَا﴾ بمن فينا ﴿طَائِعِينَ﴾]، احتاج المؤلف أن يقدر: [بمن فينا] لوجهيْنِ، الوجه الأول: أن طائعين جمع، وقالتا مثنى، ولا مطابقة بين المثنى والجمع، ولو أراد المطابقة، لقال: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، الوجه الثاني: أنه جمعهم في المذكر العاقل، فكان لابد أن يقدر بمن فينا ليدخل فيه العقلاء، ويكون هذا من باب التغليب، وقوله رحمه الله فيه تغليب للمذكر العاقل ذكرنا فيما سبق: أنه غلب المذكر لشرفه، أو لكثرته إذا قلنا: إن العاقل أكثر.

وقوله رحمه الله: [نزلتا لخطابهما منزلته]، أو أنزلتا، يعني: المسألة فيها إما تغليب، وإما أن الأرض والسماء أنزلتا منزلتا الغائب العاقل لخطابهما أي لكونهما خوطبا ولا يخاطب غالبًا إلا العاقل.

وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ يقول: [الضمير يرجع إلى السماء، لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه أي: صيرها سبع سموات]، ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ يقول: [الضمير يرجع إلى السماء]، وحينئذ يرد إشكال: فإن السماء مفرد، و(قضاهن) الضمير جمع، فكيف يكون الأمر كذلك.

فيقول رحمه الله: [يرجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه]؛ لأن هذه السماء المفرد يؤول إلى جمع وما مقداره؟ سبع سموات، فكأنه عبر عن السماع باعتبار مآلها، أنها ستكون سبع

سموات، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أي: صيرهن، وعلى هذا فيكون الضمير في ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ المفعول الأول، وسبع سموات المفعول الثاني. ويحتمل أن تكون قضاهن أي فرغ منهن، وعلى هذا فيكون الضمير الأول مفعول به، و ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ حال، أي حال كونها سبع سموات، وعلى كلٍ فإن السموات كانت سبع في يومين، قال المؤلف: [الخميس والجمعة، فرغ منها في آخر ساعة منها وفيها خلق آدم ولذلك لم يقل هنا سواء، ووافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام].

وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ و(في) للظرفية، والظرف يكون أوسع من المظروف، فيحتمل أن يكون قضاهن في يومين من أول اليومين إلى آخرها. ويحتمل أنه قضاهن في يومين، أي: في هذا الظرف وإن كان القضاء لم يستوعب بهذا الظرف. وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف وسيتبين ما به إن شاء الله، يقول: [فرغ منها في آخر ساعة منه]، وفي آخر الساعة [خلق آدم، ولهذا لم يقل سواءً]، بينما قال في خلق الأرض (في أربعة سواء)، وهنا لم يقل: (في يومين سواءً)، وذلك لأن بعض اليومين خلق فيه آدم، هذا ما ذهب إليه المؤلف وفيه نظر ظاهر.

لأن هذا يقتضي أن آدم خلق حين خلق السموات والأرض، يعني: في الأيام الستة التي خلقت فيها السموات والأرض، وهذا لا شك أنه خطأ، وإنما خلق بعد لا نقل بملايين ولكن بمئات السنين؛ لأن آدم كما تعلمون جعله الله خليفة للجن الذين سكن الأرض قبله، ولهذا لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ....﴾ إلى آخره، فدعوى المؤلف رحمه الله أن آدم خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة التي تم فيها خلق السموات والارض، هذا غير صحيح. نعم هو خُلِقَ آدم يوم الجمعة ولا شك في هذا. وهذا ثبت عن النبي ﷺ، ولكنها ليست الجمعة التي تم بها خلق السموات والأرض، إذًا خلقهن في يومين، يقول المؤلف: [إن هذا وافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة آيام. كيف وافقها؟ لأن أربعة أيام كانت لخلق الأرض، ويومين لخلق السماء، فيكون المجموع ستة أيام]، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام. وفي بعض الآيات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأن بين السماء والأرض من الآيات العظيمة ما استحق أن يكون قسيمًا لخلق السموات والأرض، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وقد كنا نقول كيف يكون خلق ما بين السموات والأرض قسيما لخلق السموات والأرض، مع أنه في نظرنا لا يساوي شيئًا بالنسبة لخلق السموات والأرض، إذا كنا لا نعلم إلا أن الذي بين السموات والأرض هو الغيوم والهواء فقط، وكنا نقول: إن القمر والنجوم والشمس كانت في السماء، كنا نقول القمر في السماء الدنيا، والشمس في السماء الرابعة، وزحل في السماء السابعة، وكنا ننشد قول الشاعر:

زُحَلٌ شَري مَرِّيخُهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ بِعطَارِدَ الْأَقْمَارُ

وعلى هذا فتكون الشمس في السماء الرابعة وكنا نظن أن هذا مرصعة بالسماء، كما يرصع المسمار على الخشبة، لكن تبين الآن أن هذه في أجواء بين السماء والأرض، وليست مرصعة في السموات والأرض وأن السماء من فوقها بأمدٍ بعيد، وحينئذ تبين الحكمة من كون الله عز وجل يجعل خلق ما بين السماء والأرض عديلًا لخلق السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [الذي أمر به مَنْ فيها من الطاعة والعبادة]. أوحى لكل سماء أمرها، يعني قدر بها أوحاه في كل سماء أمرها، كل سماء لها ملائكة خاصة وأجواء خاصة، كل سماء تختلف عن السماء الأخرى، حتى إن بعضهم - وهي من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب - يقول: إن جرم السماء الدنيا تختلف عن جرم السماء الثانية والثانية عن الثالثة كل واحدة من مادة أخرى غير مادة السماء الأخرى والله أعلم.

وقوله: ﴿أَمْرَهَا﴾ مفرد مضاف فيعم جميع الأمور، جميع ما يتعلق بكل سماء.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [بنجوم ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب بفعل مقدر، أي حفظناها من استراق الشياطين السمع بالشُّهب]، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ الدنيا: يعني: القريبة، وسميت دنيا؛ لأنها قريبة من الأرض، فهي أقرب السماوات، زينها بالمصابيح، والمصابيح المقصود بها النجوم، وسميت بمصابيح؛ لأنها بمنزلة القناديل المعلقة بالسقف.

فإن قال قائل: ظاهر الآية، أن هذه المصابيح مرصعة بالسماء، قلنا إن كان ظاهرها في الواقع بخلاف ذلك. ولا مانع من أن تزين بمصابيح وإن لم تكنْ ملتصقة بها، أرأيت لو أنك دليت مصابيح من سقف عالٍ، ثم تكون تحت هذه المصابيح، أفلا تكون هذه المصابيح زينة للسقف؟ نعم، وإن كانت غير لاصقة به، بل جهة هذا السقف، فلا يلزم من قوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أن تكون مرصعة بالسماء، بل نقول مزينة بها وإن بينها وبين السماء مسافة، وقوله ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حفظناها حفظا، فالسماء محفوظة، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ولهذا لم يستطع جبريل أن يدخل إلى السموات مع أنه نازل منها، حين كان معه محمد ﷺ، حتى استأذن له، ففي حديث المعراج، أن جبريل لما وصل بالنبي ﷺ إلى السماء الدنيا استفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل له: هل أوحي إليه؟ قال: نعم، ففتح له. لماذا؟ لأن السماء محفوظة، لا يمكن أن يدخل أحدًا منها إلا بإذن الله، جبريل قال: معي محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ثم فتحوا له، فدخل السماء الدنيا، ثم الثانية والثالثة وهكذا. مما يدل على إتقان حفظ الله تبارك وتعالى للسموات وأنها متقنة على الملائكة فلا يمكن أن يتجاوزها أحد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ذلك، المشار إليه ما سبق، من قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ (العزيز) أي: الذي قدره هو العزيز عز وجل (العليم)، العزيز هنا مناسبتها؛ لأن المسألة تحتاج إلى عزة وإلى قوة، ولهذا يقول المؤلف رحمه الله: [العزيز في ملكه]، يعني الذي له العزة التامة في ملكه، لكن إلى الآن لم يبين لنا ما هي العزة، العزة قال العلماء: إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع؛ ثلاث معانٍ.

أما عزة القدر: يعني معناه الشرف، يعني أنه ذو قدر عظيم. بالغ العظم.

أما عزة القهر: يعني أنه قاهر ولا يُغلب.

والثالث عزة الامتناع، أي يمتنع أن يناله سوء جل وعلا، بأي حال من الأحوال.

ولملاحظة هذا المعنى الثالث: نقول أنه مشتق من قولهم أرض عزاز. عزاز يعني قوية صلبة، ونحن نسميها باللغة العامية الأرض عزا يعني صلبية، ليست لينة كالرمل والروض، ولكنها صلبة.

أما العليم: فهو ذو العلم، وعلم الله تبارك وتعالى واسع، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] فعلمه تعالى واسع شامل لكل شيء، يعلم ما كان فلا ينساه، ويعلم ما يكون فلا يجهله، ويعلم كيف كان يكون إذا كان، يعني: ليس يعلم أن هذا الشيء يقع فقط، بل يعلم أنه يقع ومتى يقع وكيف يقع وأين يقع؛ من كل جهة.

وقد فصل الله تعالى دقائق العلم في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. و علمنا بأنه عليم، ما الذي يستوجب من الناحية المسلكية بالنسبة للعبد؟ إذا علمت أن الله بكل شيء عليم، ما الذي يترتب على هذا؟ يترتب على هذا أن يخاف العبد الله عز وجل، وأن يقوم بطاعته، وأن يدع معصيته، لأنه يعلم بأن الله تعالى عالم به، حتى وإن خفيت على الناس فإنك لن تخفى على الله، بل إن الله يعلم من نفسك ما لا تعلمه أنت، أنت تعلم من نفسك ما يمكن أن تحيط به، لكن الله يعلم من نفسك ما لا تحيط به، يعلم مستقبلك ومآلك وحالك، وأنت لا تعلم، وهذا يوجب للعبد المؤمن بذلك أن يخاف ربه في السر والعلن، حتى ولو كنت بحجرة مظلمة ليس معك أحد وأردت أن تفعل ما يغضب الله، فاعلم أن الله تعالى يراك.

مسألة: حول قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣].

الجواب: هذه الآية على سبيل التحدي، يعني: إذا استطعتم أن تنفذوا فانفذوا وفروا من قضاء الله، فروا من عذاب الله لا تستطيعون، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، يعني ولا سلطان لكم، والسلطان هنا القدرة والقوة، لأن المقام مقام تحدي، والذي يقابله قوة، والمعنى لا سلطان لكم، ولهذا فالآية للتحدي، وهذه تكون يوم القيامة، وليس كما زعم الناس، لما خرجت الروس بأول

مركبة فضائية، وخرجوا عن الغلاف الجوي، بدأ هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا القرآن كتابًا علميًّا، يقولون هذا دل عليها القرآن، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بعلمه، وقد تعلمنا ونفذنا، وهذا حرام، تفسير القرآن بهذا المعنى حرام، وقول على الله بغير علم.

لأن إذا كان المقام مقام تحدي، فما هو السلطان الذي يمكن أن يفعل به؟ القوة، لا شك، ثم إنه قال: في الآية التي بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، فهل أرسل على هؤلاء، ثم إنه يقول: ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ وهؤلاء إذا قدرنا أنهم قد نفذوا من الأرض فإنهم لم ينفذوا من أقطار السموات، ولهذا هؤلاء - والعياذ بالله - الذين فسروا الآية بما حصل قالوا على الله بلا علم، ومن قال على الله بلا علم وقال بالقرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، ومثل ذلك من قال: إن الأرض تدور لقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] قال هذا في الدنيا، لأن قوله (تحسبها)، هذا حسبان والحسبان لا يكون في الآخرة، بل في الآخرة يقين، فيقال هذا خطأ.

أليس الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ١، ٢] تحسبهم سكارى من شدة الذهول والانزعاج، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

المهم: أن بعض المتأخرين هداهم الله، يفسرون القرآن بالواقع، مع أنه لا يدل عليه، ونحن نقول احمدوا الله على أن القرآن لا يدل على خلافه، أما أن تقول يدل عليه فهذا خطأ.

مسألة: حول مفهوم الآيتين: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨].

الجواب: رفع يعني: جعلها رفيعة، يعني بعد أن خلقها جعلها سميكة.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

قال الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فقضاهن يعني أتمهن. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يومي الخميس والجمعة، فرغ منها في آخر ساعة وفيها خلق آدم، ولذلك لم يقل هنا سواء، ووافق هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأوحى إلى كل سماء أمرها الذي أمر به، أمر به من فيها من الطاعة والعبادة.

قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ صرف المؤلف الأمر هنا إلى الأمر الشرعي لا الأمر الكوني، [أمره الذي أمره به من فيها من الطاعة والعبادة].

ويحتمل أن يكون المراد بالأمر هنا الشأن، (أوحى في كل سماء شأنها)، فيشمل أحوال السماء وأحوال من فيها، وهذا أعم مما ذكره المؤلف رحمه الله، وإننا نقرر قاعدة في التفسير: إذا ورد تفسيران في الآية، احدهما أعم أخذنا بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص، ولا عكس. فإذا قلنا شأنها، صار أعم من أن نقول إنه أمرها الشرعي، لأن هذا أخص، فالحمل على الأعم أولى، يقول جل وعلا ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وهي [النجوم] زيناها: أي جعلنا زينة تسر من نظر إليها ويبتهج بها، و﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب بفعل مقدر أي: [حفظناها حفظًا من استراق الشياطين السمع بالشهب] إلى آخره.

قوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر عامله محذوف، التقدير: (حفظناها حفظًا) ومن أي شيء؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧] فيكون المراد بالحفظ، أي: الحفظ من الشياطين، لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وما شأن الشياطين بالنسبة للسمع؟ شأن الشياطين بالنسبة للسمع، تصعد فيركب بعضها بعضًا إلى أن تصل إلى السماء، فتستمع إلى أخبار السماء، وما تتحدث به الملائكة، ثم تنزل به إلى الأرض، وتلقيه إلى الكهان الذي لكل واحد منهم رئيٌّ من الجن، والكاهن يأخذ هذا الخبر ويضيف إليه أخبارًا أخرى، ثم يحدث الناس بذلك، ومن المعلوم أن ما سمع في السماء لا بد أن يكون، فتكون الكلمة الواحدة الصدق، تكون مسارًا لإعجاب الناس بالكهان والرجوع إليهم، ولهذا كان في الجاهلية يتحاكمون إلى الكهان، هذه هي قضية استراق السمع، ثم إن الله تعالى حفظ السماء وقت بعثة النبي ﷺ وصارت الشياطين إذا حاولت الاستماع أرسل الله تعالى عليهم شهاب يطلقها، وتهلك، وهل بقي هذا الحفظ بعد موت الرسول ﷺ أو لا؟ يقال، الله أعلم، لكنها حفظت في عهد النبوة من استراق السمع، أما الآن فالله أعلم، فقد يكون ذلك أو لا يكون، لأنه ليس هناك نبي حتى يختلط المسموع المسترق بالوحي الصحيح.

يقول عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ المشار إليه ما سبق مما تحدث الله عنه من خلق السموات والأرض، تقدير: أي مقدر (العزيز العليم)، أو تقدير: مصدر على ثابت، ويكون المشار إليه فعل الله لهذا الشيء، فإن عندنا الآن كلمة تقدير مصدر يجوز بأن تكون معنى اسم المفعول، ويكون المعنى: ذلك مقدر العزيز، ويجوز أن تكون مصدرًا وهو فعل الله عز وجل، ويكون هذا أيضًا معنًا صحيحًا وكلاهما متلازمان، لأنه إذا كان هذا الشيء مقدر الله فهو من تقديره ناتجًا عن تقديره، وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ قال: [في ملكه، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه]، فيه شيء من القصور [العزيز في ملكه] والصواب: العزيز يعني: بذلك ذا العزة، والعزة قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام كما سبق أن بيَّنا، وهي: عزة قدر وعزة قهر وعزة الامتناع.

وعزة القدر: أي أنه ذو قدر عظيم وشرف عظيم لا يشاركه فيه أحد.

وعزة القهر: أي القاهر الذي يغلب ولا يُغلب.

وعزة الامتناع: أي يمتنع عن الله سوء أو نقص.

أما قوله: ﴿الْعَلِيمِ﴾ فهي صفة مشبهة ويجوز أن تكون من باب المبالغة،لأن فعيل يصح أن تكون صفة مشبهة ويصح أن تكون صيغة مبالغة، ومعناها ذو العلم: وعلم الله تعالى واسع عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد سبق الكلام عليها قبل ذلك ولا حاجة إلى الإعادة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** تحقيق أن القرآن مثاني، تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكرت ثواب المجرمين ذكر ثواب المتقين، وإذا ذكرت الجنة ذكرت النار، وهلم جرًّا، من أجل أن يكون الإنسان سائر إلى ربه بين الخوف والرجاء، وهكذا ينبغي للإنسان في سيره إلى ربه أن يكون خائفا راجيًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فما سبب الخوف؟ سبب الخوف ذنوب الإنسان، إذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره خاف، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: يخافون ألا يقبل منهم، والرجاء إذا نظر إلى عفو الله وفضله وأنه جل وعلا حليم رجي وقوي رجاؤه، فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء، وقال بعض أهل العلم: في الطاعة يغلب جانب الرجاء، وفي المعصية يغلب جانب الخوف، وهذا له نظر قوي، لأن الإنسان إذا فعل الطاعة فلا بد أن يحسن الظن في الله، وأن الله سيقبل منه فيقوى رجاءه، أما إذا هم بالمعصية فينبغي أن يغلِّب جانب الخوف حتى لا يقع في المعصية.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن الإيمان وحده لا يكفي، حتى يقترن بالعمل، لكن إذا أطلق الإيمان شمل العمل، وإن ذكر معه العمل صار العمل علانية والإيمان سرًّا، مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، هنا جمع بين الإيمان والعمل فيكون الإيمان في القلب والعمل بالجوارح.

٣- **ومنها:** دوام نعيم المؤمنين العاملين للصالحات، لقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي لا يقطع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

٤- **ومنها:** أن أجر الآخرة خير من أجر الدنيا وثوابها، وجه ذلك أن أجر الآخرة غير مقطوع بل ومستمر ودائم وغير ممنون به أيضًا، بل يعطى الإنسان بدون منة، وأما ثواب الدنيا فإنه بالعكس.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

١- **في هذا دليل على:** وجوب إعلان المؤمن ما عليه الكفار من الكفر بالله؛ لقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ

﴿لَتَكْفُرُونَ﴾، ويتفرع على هذه فائدة أنه لا يجوز مداهنة الكفار، وإن كانت المداراة تجوز لكن المداهنة لا تجوز. والفرق بينهما: أن المداهنة سكوت الإنسان عن معصية العاصي كأن يقول لك: معصيتك ولي طاعتي، فأنت اعمل وأنا تعمل، هذه مداهنة، مصانعة لا تجوز قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، لكن لا يجوز للمؤمن أن يداهن، أما المدارة فمعناه: أن ينقل الإنسان العاصي ما عليه من معصية شيئًا فشيئًا، وهو غير راضٍ بها بل هو كاره ولا يرى أنه يجوز اقرارها بخلاف المداهن، المداهنة في الحقيقة أشبه ما بها في الوقت الحاضر ما يسمونه بالمجاملة أو بالعلمنة، العلمنة الآن أو العلمانيين، يقول خلِّ كل إنسان وشأنه، الدولة دولة، والدين دين، الدولة لا بد أن تتحد، والدين لكل دينه. لا تنكر على الكافر ولا على الفاسق، خل كل إنسان يفعل ما يشاء.

المهم: أن هذه الآية صريحة، في أنه يجب أن ننكر على الكافرين كفرهم، وألا نداهنهم.

٢- **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي تأكيد ما يمكن أن ينفى، أو يشك فيه، وجهه أنه أكد ذلك بقوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، وإلا فيكفي أن يقول: (قل لقد كفرتم) أو (قل كفرتم)، لكن لما كان هذا أمر يشك فيه، ويقال: هؤلاء لم يكفروا بالله بل آمنوا به، لأنهم يؤمنون بأن الله موجود، وأن الله خالق السموات والأرض، لكن إذا لم يتبعوا شرعه فهم كافرون به. ولو أقروا بوجوده.

٣- **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله عز وجل وبيان حكمته في خلق السموات والأرض، حيث خلق هذه الأجرام الكبيرة العظيمة الواسعة في خلال ستة أيام، أما الحكمة فوجهه: أن الله جل وعلا كان قادرا على أن يخلقها بلحظة واحدة، كن فيكون، لكنه جل وعلا ربط الأسباب والمسببات وجعلها تتفاعل شيئًا فشيئًا حتى تنتهي، هذا من وجه، ومن وجه آخر، أنه أخر ذلك ليعلِّم عباده التأني في الأمور.

٤- **ومنها:** أن خلق الأرض قبل خلق السماء، لأنه لما ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ولكن هذا يعارضه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فهنا ذكر أن الأرض دُحيت بعض خلق السماء، فهل المراد بالدَّحو شيء سوى الخلق. أو أن البعدية هنا بعدية ذكر. يعني كما يقولون هذا ترتيب ذكري، وليس ترتيبًا زمنيًّا، وفي هذا وجهان:

الوجه الأول: أن الدحو ليس الخلق بل هو شيء آخر، فسره الله بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، هذا الدحو، وإخراج الماء والمرعى شيء زائد على الخلق، والتكوين.

وأما الوجه الثاني: فإن البعدية هنا بعدية ذكر وهو ما يعرف عند علماء النحو بالترتيب الذكري.

ومنه قول الشاعر

إِنَّ مَــنْ سَــادَ ثُــمَّ سَــادَ أَبُــوهُ ثُــمَّ سَــادَ مِــنْ بَعْــدِ ذَلِــكَ جَــدُّهُ

فتجد هنا الترتيب على خلاف الترتيب الزمني، ولكن هذا يسمى ترتيبا ذكريًا، يحتمل وجهين لكن الوجه الأول أولى، أن يقال أن الدحوى ليس الخلق، الخلق تكوين شيء، والدحو شيئ آخر. والدليل أن الله تعالى قال في الدحو: مفسِّرًا إياه ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ إذنْ لا معارضة بين الآيتين، للتنزُّل لكل واحدة منهما على وجه لا يعارض الآخر.

واعلم أنه ينبغي للإنسان إذا رأى آيتان ظاهرهما التعارض، ألا يسرع في الحكم بالتعارض، لأنه لا يمكن أن تتعارض آيتين من كل وجه ـ كما ذكرنا ذلك في أصول التفسير ـ ولكن ليتأنى وليتأمل وليفكر؛ فإن أدرك أنه لا تعارض فهذا المطلوب، وإلا وجب أن يسأل أهل العلم، فإن لم يتبين له الأمر، وجب عليه التوقف وصارت هذه من الآيات المتشابهات التي يجب أن يقول فيها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وقد ذكرنا لكم فيما مضى، أن من العلماء الذي ألف في الآيات التي ظاهرها التعارض، وجمع بينها، وذكرت أن من أحسن ما رأيت ما ألفه الشيخ الشنقيطي رحمه الله – دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب–.

٥- **ومن فوائد الآية**: أن نوع الكفر الذي حصل من هؤلاء المخاطبين الشرك، لقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ وجعل الأنداد له أنواع كثيرة، إما أن يجعل له أندادا في الذات، فيقول إن الله له مثيل، كما فعلت النصارى حيث: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما فعل الممثلة الذين مثلوا صفات الله بصفات خلقه، فإن هذا من الشرك، وقد يكون ندًّا في العبادة، يعبده وإن كان لا يرى أنه مثل الله، لكن يعبده ويدعي أنه إنما عبده ليقربه إلى الله عز وجل، وقد يكون هنا أنداد في المحبة يحب الشيء كما يحب الله، والعجب أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيحب الشخص ويتعلق به كثيرًا، ويقول أنا أحبه لله، والحقيقة أنه يحبه مع الله، وليس لله، الذي يحب الشخص لله، تكون المحبة الأصلية محبة الله وهذا أحبه لأنه يحب الله، لكن الذي يجعل قلبه منصرفًا إلى هذا المحبوب، لا يفكر إلا به ولا ينام لا على ذكره، ولا يستيقظ إلا بذكره، هذا لم يحبه لله، بل أحبه مع الله، وهذا شرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، كذلك من الند أن يتعلق قلب الإنسان بالمخلوق خوفًا ورجاءً، لا محبة ولكن خوفًا ورجاءً، بحيث يعتمد عليه في تحصيل معاشه أو في دفع الضرر عنه، وهذا يقع كثيرا ولا سيما بعد فتح المستشفيات، فإن أكثر الناس يتعلق قلبه بالمستشفى، تجده إذا مرض يقول أذهب لآخذ الأقراص المعالجة، ما يقول: يا رب عافني أو يلجأ إلى الله، لا يكون أول

ما يفكر فيه العلاج المادي، مع أنه ربما يكون هذا الطبيب الذي اعتمد عليه. ورجاه كافرًا ملحدًا، هذا أيضًا من اتخاذ الند لله، ولهذا كان ضرر المستشفيات الآن مع ما فيها من نفع وخير كثير والحمد لله، ضرر عظيم، لأن الناس صاروا يعلقون آمالهم. ويجرون آلامهم بالمستشفيات، حتى ولو أصابته شوكة يسهل إخراجها، يقول: لا المستشفى قلبه معلق بالمستشفى، لا إله إلا الله.

المرأة إذا جاءها الطلق، وصارت تطلق طلقا عاديًا، ماذا يفعل؟ المستشفى. فيذهب للمستشفى، والمستشفى تقول: والله هذه مسألة خطيرة لا بد من قيصرية والقيصرية هذه (شق البطن)، وبالقيصرية هذه إذا ولدت عشر أولاد لم تعد تتحمل أي حمل، إذا حصل أي حمل يحدث إنفجار في بطنها.

كل هذا نوع من الشرك، لا تلجأ إلى المستشفى إلا للضرورة القصوى، إجعل رجاءك معلقًا أولا بالله، وقل إن الذي خلقني وأوجدني أول مرة قادرٌ على أن ينزل ما نزل بي من مرض، أليس كذلك؟ وهو أقدر من كل أحد، يزيلها عز وجل بدون أي عملية، وبدون أقراص، وبدون محاقن. المهم أن اتخاذ الأنداد ليس خاصًا في شيء معين، بل هو يكون في أشياء كثيرة، فإياك أن يكون لك ند، حتى أن الرسول ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ» كيف يعبد هذه الأشياء؟ هل الإنسان يضع الدينار فوقه ويسجد له ويركع؟ لا، ولا كذلك الدرهم ولا الخميصة ولا الخميلة، لكن لما كان قلبه معلق بهذا الشيء، إن أعطي رضي وإن لم يُعْطَ سخط، صار عبدًا لها، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من ذلك.

٦- **ومن فوائد الآية**: بيان امتناع الند لله عز وجل، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وجه الامتناع: أنه رب العالمين، ومن يمكن أن يكون رب العالمين؟ لا أحد يمكن فهو رب وما سواه مربوب؛ إذنْ ما سواه لا يصح أن يكون ندًّا له.

٧- عموم ربوبية الله عز وجل لكل العالم؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨- وجوب الخضوع له شرعًا، كما أننا نخضع له قدرًا، لأن هذا مقتضى الربوبية. أن تخضع لهذا الرب شرعًا، كما أنك خاضع له قدرًا، فالكل خاضع لله قدرًا، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] هذا السجود قدري، فيجب أن تخضع له شرعًا، وأن تتذلل له، تكون أمامه ذليلا، كما كنت أمامه ذليلا في قدره.

٩- منة الله سبحانه وتعالى على عباده حيث جعل في الأرض رواسي. أي ثوابت ما الحكمة؟ الحكمة ذكرها الله في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. لولا هذه الرواسي لمادت بنا الأرض.

١٠- أن الأرض تدور، لقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أن نفي الميدان دليل على وجود أصل الحركة. إذْ لم يقل أن تتحرك بكم، ونفي الأخص يقتضي وجود الأعم. كما قلنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] إنه دليل على أن الله يرى، لكن لا يدرك إذ لو

كان لا يرى لوجب أن يقول: (لا تراه الأبصار)، فلما نفى الأخص صار دليلًا على وجود الأعم.
هكذا قررها بعضهم، وقال: إن في الآية دليلًا على أن الأرض تدور، لأن الله ألقى هذه الرواسي لتكون دورتها متزنة، لا تحدث خلخلة فتضطرب بالناس، ولكن هذا وإن كان قويًّا من حيث النظر، لكنه ليس متعين، إذ يجوز أن يكون المعنى، ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] تضطرب ولو كانت واقفة، فالسفينة مثلًا على الماء تضطرب ولو كانت واقفة، فيكون المعنى: أن تميد بكم، يعني أن تضطرب بكم، وسواء كانت تدور أو لا تدور؛ ولهذا في الآية دلالة قطعية على أن الأرض تدور.

فإن قال قائل: إذا قلت: إنه يحتمل أنها دالة على أن الأرض تدور. فما جوابك عن آيات كثيرة تدل على أن الشمس تجري تطلع تغرب تزاور توارى تذهب؟ كل هذه الأفعال أسندت إلى الشمس والأصل أن الفعل إذا أسند إلى شيء أن يكون قائمًا به، فيكون ظاهر القرآن أن الشمس هي التي تدور على الأرض، ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف: ١٧]؛ إذنْ معناه أنها كانت مختفية ثم طلعت علينا، وهؤلاء الذين يقولون: إن الأرض تدور يكون المعنى إذا طلعت، أي إذا طلعنا عليها، لأن نحن الذي نأتي إليها، أما هي ثابتة أي الشمس، قلنا يجوز أن تكون الأرض تدور والشمس أيضًا تدور وهذا جائز، وإذا كان الدوران بالعكس فظاهر أن يتعاقب الليل والنهار، يعني مثلا لو كانت الأرض تدور نحو الشمس، والشمس تدور نحو الغرب، هذا ممكن بكل سهولة، فإن كانتا تدوران إلى اتجاه واحد فإن أحدهما إذا كانت أسرع من الأخرى تحقق اختلاف الليل والنهار، ومن قال: إنه لا يمكن أن نقول: إن الشمس تجري إلا إذا قلنا: إن الأرض ثابتة لا تدور، فأما إثبات دوران الأرض مع دوران الشمس فهذا لا يمكن، فإن قوله غير صحيح، بل إن كان ممكنًا ولو قلنا بدورانهما جميعًا، لكن الشيء الذي نعتقده الآن أن الليل والنهار يحصل بتعاقب الشمس على الكرة الأرضية، لا بتعاقب الكرة على الشمس هذا الذي نعتقده إلى الآن لأن هذا هو ظاهر القرآن، والقرآن صدر من الخالق عز وجل وهو أعلم بما خلق، ولا يمكن أن نحيد عن هذا قِيدَ أُنْمِلَة، ما دام لم يظهر لنا أمر حسي لا يمكن التكذيب به. وعند بعضهم أي الذين يقولون بدوران الأرض، يقولون عندنا أمر قطعي بدليل الصواريخ العابرة للقارات، فإنها تقدر بتقدير معين بحيث يتماشى مع دوران الأرض، فيصيب الهدف وإلا لما أمكن، على كل حال هذه أنا أردت أن أتكلم فيها بعض الشيء، لأنها كانت في يوم من الأيام كانت مسارًا للجدل بين الناس، بين طلبة العلم وبين عامة الناس وبين الذين لم يتمكنوا من العلم كثيرًا، فنحن نقول أولا: البحث العميق في هذا والجدل في هذا أمر لا ينبغي ولا فائدة منه. ثانيًا: عندما نريد أن نحقق المسألة تحقيق علميًّا نظريًّا، ننظر إلى الآيات، فإذا كان ظاهر قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١١] يقتضي أنها تدور قلنا بذلك ولا حرج، ولا مانع أن نقول هي تدور، وكذلك الشمس ولا

مانع، فنكون أخذنا بظاهر القرآن في الشمس، وبظاهر ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في الأرض، وإذا كان قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لا يتعين أن يكون بحركتها وإنما قد تضطرب وهي ساكنة قارة، فلا يبقى في الآية دليل على أن الأرض تدور.

فائدة: أما الذين يقولون: إن اختلاف الليل والنهار يكون باختلاف دورة الشمس نحن نقول: لا نقرهم على هذا، بل نقول باختلاف طلوع الشمس على الأرض، لكن لو فرض أنه جاءنا دليل حسي ملموس على أن اختلاف الليل والنهار بسبب دورة الأرض لقلنا به، ويكون إضافة الأفعال هذه إلى الشمس على حسب رؤية الإنسان لها، هم يقولون: إن الشمس تدور في الجو، أو تدور حول نفسها، على كل حال فهذا لا يهم، فالمعول على ما في القرآن، الآن إذا قرأنا: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧] ، هذه فيها أربعة أفعال أضيف كلها إلى الشمس، الأصل أن الأفعال كلها إلى الشمس، الأصل أن الأفعال مضافة إلى الشيء أنها قائمة به، فالشمس هي التي تطلع، هم يقولون: لا، الشمس لا تطلع علينا نحن الذين نطلع عليها، بسبب دوران الأرض، يعني الآن مثلا، إذا رفعت يدي ويكون فوقها المصباح فيضيء المصباح عليها.

يعني: نحن غبنا عن الشمس، نقول: إذا ثبت هذا ثبوت قطعيًّا لا شك فيه، لأن في القرآن لا يخالف الحس أبدًا، وتفسر الأفعال المضافة إلى الشمس بحسب رؤية الرائي.

مسألة: كيف تكون طاعة الكافر طاعة قدرية؟

الجواب: أليس الله يأمره أن يكون مريضا فيمرض، ويكون صحيحًا فيصح. ويموت فيموت.

مسألة: حول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]؟

الجواب: أنها تختفي عنها؛ ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

مسألة: ما الحكمة في أن الله تعالى يذكر السماء أولا ثم الأرض؟

الجواب: الحكمة في أن الله تعالى يذكر الأعلى قبل الأسفل، نقول: أما التحدث عن خلق السماء فبين الله تعالى أن الأسفل يخلق قبل الأعلى، فأنت الآن إذا أردت أن تبني شيئًا، هل تبني السقف قبل أن تبني العمود؟ بالطبع، تبني العمود أولا، فعند الذكر والتحدث يبين الأشرف والأعلى ويقدم، وعند التكوين والبناء يبدأ بالأسفل؛ لأنه هو الأصل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى جعل الرواسي من فوق الأرض لما في ذلك

من المنافع، ودفع المضار الذي أشرنا إليه في أثناء التفسير.

٢- **ومنها**: أن الله تعالى بارك في الأرض، ووجه البركة ظاهرة، فقد حملت الأحياء والأموات، وحملت من الدواب ما لا يعلمه - أجناسه فضلًا عن أفراده - إلا الله عز وجل.

٣- **ومنها**: أن الله قدر في الأرض أقواتها، أي جعلها مقدرة بقدر معلوم، ومن ذلك التقدير أن جعل في جهات من الأرض من الأقوات ما ليس في جهات أخرى حتى يتبادل الناس هذه الأقوات وتتحرك التجارة إلى غير ذلك من الفوائد ولعله يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٠] يعني: المطر ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية**: أن خلق الأرض تمَّ في أربعة أيام، لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية**: أن الله تبارك وتعالى يجيب السائلين عن أسئلتهم، أو يجيب السائلين أسئلتهم سواء سألوا بمسألة الحال أو بمسألة المقال، فالإنسان متشوف إلى علم المسألة دون أن ينطق بلسانه، يقال: إنه سائل بلسان الحال، والإنسان الذي يتكلم باللسان، سائل بلسان المقال. والمسألة عن خلق السموات والأرض وكيف ذلك؟ هذا يكون بمسألة الحال وبمسألة المقال.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن السماء كانت قبل أن تخلق كانت دخانًا، ثم حول الله هذا الدخان إلى سماوات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: إثبات علو الله عز وجل على أحد القولين في تفسير: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ وهما قصد أو ارتفع.

٣- **ومنها**: أن كل شيء مؤهل لمخاطبة الله عز وجل، أي قابل أن الله يخاطبه، لأن الله خاطب السماء والأرض وهي جماد. قال ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لكننا لو خاطبنا الجماد لَعُدَّ ذلك سفهًا ونوعًا من الجنون، أما الرب عز وجل فإنه يخاطب ما شاء من عباده؛ من عاقل وغيره وجماد وغيره؛ لأن كل ما خاطبه الله فإنه يفهم خطاب الله.

٤- **ومنها**: أن كل شيء خاضع لله عز وجل، سواء كره أم رضي؛ لقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

٥- **ومنها**: كمال خضوع السموات والأرض لله حيث قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

٦- **ومنها**: أنه يصح أن يعبر عن غير العاقل بما يعبر به عن العاقل إذا نزل غير العاقل منزلة العاقل؛ لقوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾؛ لأن هذا الجمع جمع المذكر السالم، لا يصدر إلا من عاقل، وغيره يقال: طائعات وما أشبهها، لكن إذا نزل غير العاقل منزلته بالخطاب صح أن يعامل معاملة

العاقل.

٧- ومن فوائد الآية: إثبات الطواعية والكراهية لغير العاقل، لقوله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾، فهل هذا يعني أن لغير العاقل إرادة؟

الجواب: نعم، لأن الطائع له إرادة، ومن يتصور إكراهه لا يُثْبتُ له إرادة، وإرادة كل شيء بحسبه، وقد مر علينا أن الحصى تسبح بين يدي رسول الله ﷺ ولا تسبيح إلا بعد إرادة، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أُحدٍ: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، والمحبة أخص من الإرادة، وعلى هذا فهل الجمادات التي لا نفقه تسبيحها تسبِّح؟ نعم، هي لها إرادة وتسبح الله عز وجل.

٨- ومن فوائد الآية: أن مدة خلق السموات أقل من مدة خلق الأرض، مع أن السماوات أعظم، لكن لما كانت الأرض موضوعة للأنام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] كان خلقها أكثر مدة، لبيان عناية الله تعالى بهذه الأرض، وليعلم الأنام الذين على الأرض أن العبرة بالإتقان لا بالسرعة.

٩- ومن فوائدها: أن الله أتم خلق السموات، حين أوحى في كل سماء أمرها، ورتبها الترتيب المحكم المتقن.

١٠- ومنها: أن الله تعالى خلق هذه النجوم، لفائدتين، الفائدة الأولى: زينة السماء، والفائدة الثانية: حفظ السماوات من الشياطين، فهي تحفظ السماوات من الشياطين وهي كانت زينة للسماء، هناك فائدة ثالثة ذكرها الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ ولهذا قال قتادة وهو من أئمة التابعين: (خلق الله هذه النجوم لثلاثة: زينة للسماء ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها).

١١- ومن فوائد الآية: كمال إتقان الله عز وجل لمخلوقاته؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهذا التقدير لا شك أنه تقدير محكم متقن من جميع الوجوه.

١٢- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العزيز العليم. وهذان الاسمان يتضمنان صفتين، وهما العزة والعلو، وهنا نسأل: هل في العزيز ما يسمى بالحكم أو بالأثر؟

الجواب: نعم، بناءً على أن من معناه عزة القهر، والقاهر لا بد من شيء مقهور حتى يتم به القهر، فعلى هذا يكون الإيمان بهذين الاسمين متضمنًا ثلاثة أمور: أولًا: الإيمان باسمين من أسماء الله، والثاني: الإيمان بالصفة، والثالث: الإيمان بالأثر أو الحكم.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ﴾، قال المفسر: [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: كفار مكة]، ومعلوم أن الآية لم تدل على كفار مكة، ولكن السياق يدل على ذلك، حيث قال: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

قال المؤلف: [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان، ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: عذابٌ يهلككم مثل الذي أهلكهم]، ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ فسره المؤلف بأنه التخويف، وهو كذلك، بأن المنذر هو مَنْ تكلم بكلام يخوف به غيره، ولهذا قيل: إن الإنذار هو: الإعلام المتضمن للتخويف، وقوله: ﴿صَاعِقَةِ﴾، الصاعقة: ما يصعق المرء - أي يهلكه -، ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، والمثلية هنا لا تقتضي - والله أعلم - المماثلة من كل وجه، بل مثلية في أصل الإهلاك، أو في معاني العذاب، ويحتمل أن الله تعالى أنذرهم مثل صاعقة عاد وثمود، وصاعقة عاد وثمود نوعان، الريح والرجفة الشديدة، الذي أهلكوا بالريح الشديدة هم عاد، والذين أهلكوا بالرجفة والصيحة هم ثمود، وإنما ذكر الله عاد وثمود؛ لأن العرب يعرفونها، فهم يمرون بديار ثمود إذا ذهبوا إلى الشام، وهم كذلك يعرفون محل عاد الأحقاف، ويذكرون ويتناقلون ما جرى لهم من العذاب، وإلا فهناك أناس أيضًا أهلكهم الله عز وجل، لكن لما كان هؤلاء القوم - أعني عادًا وثمودَ - هم الذين تعرفهم العرب أي: كفار مكة، نص عليهم: ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، (عاد) هم قوم هود، و(ثمود) هم قوم صالح، أُهلكت عاد بالريح، والحكمة من ذلك أن يريهم الله عز وجل ضعفهم، وكانوا قد افتخروا بقوتهم فقالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأما ثمود فأهلكهم الله عز وجل بالرجفة والصيحة، الصيحة فيهم وأرجفت بهم الأرض.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم﴾

قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف للتعليل، يعني: تعليل الصاعقة التي أهلكتهم، سبب ذلك: أن الرسل جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، قال المفسر: [أي: مقبلين عليهم ومدبرين عنهم، فكفروا كما سيأتي والإهلاك في زمنه فقط]، ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يقول المؤلف: [مقبلين عليهم ومدبرين عنهم]، يعني: تارة يقبلون فيدعون، وتارة يدبرون فيهددون إذا لم يؤمنوا، ويحتمل أن يكون المراد من بين أيديهم ومن خلفهم، أي أتوهم بالآيات الماضية والآيات المستقبلة، فلم يقصروا في بيان الحق بل جاءوا ببيان الحق من كل وجه، وقوله: ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ هذا هو المقصود من الإنذار أنهم كفروا فأهلكوا، ولهذا قال: [والإهلاك في زمنه فقط]، أي في زمن الكفر، وليس في زمن المجيء لأن الرسل جاءت أولا ثم دعت ودعت فلما أصروا على كفرهم أهلكوا، (أن) [أي: بأن] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أفاد المؤلف رحمه الله، (أنْ) هنا مصدرية، والتقدير بـ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾، أي جاءتهم بعدم عبادة غير الله، ويحتمل أن تكون (أنْ) تفسيرية، بأنه سبقها معنى القول دون حروفه لأن مجيء الرسل جاءوا بكلام ووحي يتكلمون به ففيه معنى القول دون حروفه، وكلما جاءت (أنْ) بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، فإنهم يسمونها تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أوحينا أن اصنع الفلك، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ [النحل: ٦٨] فأن هنا تفسيرية، فكلما جاءت (أن) بعد ما تضمن معنى القول دون حروفه فإنها تكون تفسيرية، إذًا (أن)هنا يحتمل أن تكون مصدرية كما قال المفسر، و(أن) تكون تفسيرية، ينبني على هذا الخلاف كيف نعرب (لا)، إن أعربنا (أن)مصدرية، فلا نافية، والفعل منصوب بأن، وإن أعربناها تفسيرية، فلا ناهية، والفعل مجزوم بلا، فإعراب تعبد إذنْ يتنزل على الخلاف في (أن).

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، لا تعبدوا إلا الله هو معنى قول لا إله إلا الله، لأن لا إله بمعنى لا معبود حق ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهنا يقول: لا تعبدوا إلا الله فهي بمعنى لا إله إلا الله، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ومتى حقق الإنسان هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فلا بد أن يقوم بطاعة الله، ما دمت تشهد بأنه لا إله إلا الله، فلا بد أن تتخذ الوسائل التي توصلك إلى هذا الإله الذي شهدت بأن لا إله سواه، ﴿قَالُوا۟﴾ الفاعل قوم عاد وثمود. ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، [على زعمكم] بما أرسلتم به على زعمكم كافرون، هذا الجواب، جواب في غاية السقوط، لو شاء ربنا أن نهتدي وألا نعبد إلا الله لأنزل ملائكة، وعلى هذا الترتيب الذي قلت لكم يكون مفعول شاء محذوف، أي لو شاء ربنا ألا نعبد إلا هو أو إلا إياه لأنزل ملائكة، فـ(لو) شرطية وشاء فعل الشرط، وجواب الشرط لأنزل ملائكة، ومفعول شاء محذوف، التقدير لو شاء أن لا نعبد إلا إياه

لأنزل ملائكة، هذه الحجة حجة باطلة بأن المرسل إليهم هل هم ملائكة أو بشر؟ بشر، فكيف ينزل الله ملائكة على بشر، ثم إن الله قال في جواب هذا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني في صورة رجل، لا يمكن أن ينزل ملكًا بصورة الملك على بشر لو فرض أن الله أنزل ملكا لجعله بصورة البشر، وحينئذ تعود الشبهة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أرأيتم إذا أرسل الله إلى بني آدم جبريل وله ستمائة جناح، قد سد الأفق، أيتوافق هذا مع الناس؟ أبدًا، بل يهربون منه ولا يقفون أمامه، فإذا كان كذلك بطلت هذه الحجة؛ لأننا نقول لهؤلاء - ولمن قال مثل قولهم - لو أنزل الله ملكًا لجعله رجلًا وحينئذ تعود الشبهة، إذنْ الحجة باطلة وهي ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الفاء هنا للتفريع ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ نسأل الله العافية أكدوا كفرهم وقالوا: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فقدم المفعول؛ لأن ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فلماذا قدم عليه؟ لوجهين، الوجه الأول: مراعاة فواصل الآيات، لو قال: (فإنا كافرون بما أرسلتم به) لم تتناسب الفواصل، ولما قال: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تناسبت الفواصل.

ومراعاة المناسبة أمر ثابت، أرأيتم موسى وهارون، أيهما أفضل؟ ومن الذي يقدم في القرآن؟ موسى والذي يقدم في القرآن موسى إلا في آية واحدة من أجل التناسب، في سورة طه، ذكر الله عن السحرة أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠] مع أنهم كانوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ هذا قول السحرة، لكن لما نقلهم الله عنهم في سورة طه، قدم ذكر هارون، لتناسب الآيات، مع أن موسى أفضل، وموسى هو الذي نطق بتقديمه السحرة كما في آيات عدة، لكن الله عز وجل نقل كلامهم في سورة طه مقدما هارون على موسى، لتناسب الفواصل، هنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قدم المتعلق وهو ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ على المتعلق لسببين، السبب الأول: مراعاة الفواصل، والسبب الثاني: الحصر، كأن هؤلاء المكذبين المعاندين قالوا: (لو أنا آمنا بكل شيء لكفرنا بما أرسلتم)، فكأنهم يقولوا: (لا نكفر بأي شيء إلا بما أرسلتم به)، وحكم التقييد يفيد الحصر، انظر إلى العناد، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، كأنهم قالوا لا نكفر إلا بما أرسلتم به، هذا معنى الحصر، فيكون هذا أبلغ في العناد، كأنهم يقولون لو آمنا بكل شيء فلن نؤمن بما أرسلتم به، ثم إن قوله بما أرسلتم به قالوه على سبيل التنزل، ولهذا قال المفسر: [على زعمهم]، وإنما قلنا: إنهم قالوا على سبيل التنزل: لأنهم لو قالوا على سبيل الإقرار لآمنوا ولكانوا مؤمنين. لكن قالوا على سبيل التنزل، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآية**: أمر إلى النبي ﷺ أن ينذر هؤلاء المكذبين بعذاب من قبلهم، لقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية**: إثبات القياس، لأن إنذار المكذبين إذا لم يكن المراد بذلك قياس حال المكذبين للرسول على حال المكذبين لهود وصالح، لم يكن لهذا الإنذار فائدة، لولا القياس لم يكن لهذا الإنذار فائدة، إذنْ ففيه جواز القياس، والاعتبار بالنظير والمماثل. ولقد قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] وإثبات القياس دليلا من محاسن الشريعة، لأن إثبات القياس دليلًا هو مقتضى العقل السليم؛ وذلك لأن العقل لا يمكن أبدا أن يفرق بين متماثلين، فعلى هذا فالذين أنكروا القياس خالفوا الدليل السمعي، والدليل العقلي الذين أنكروه وقالوا لا قياس في الشريعة، سبحان الله، القرآن كله يشير إلى هذا، كل الأمثال المضروبة في القرآن كلها دليل على القياس، وإلا لم يكن فائدة في المسألة، السنة أيضًا أتت بالقياس. «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ، اقْضُوا فَاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ» هم أيضا مخالفون للعقل؛ لأنه لولا ثبوت القياس لكانت الشريعة ناقصة، حيث لم تجمع بين المتماثلين.

٣- **ومن فوائدها**: أن الرسل أتوْا قومهم من كل جانب مقبلين ومدبرين يرونهم الآيات الماضية والآيات المستقبلة، ولكن لا فائدة.

٤ - **ومنها**: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أتوا بتحقيق التوحيد، لقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وهذه هي الأصل الأصيل الذي أتت به الرسل جميعا، الدليل على ذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وآية أفصح منها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾. ذكرنا في قوله ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أن المؤلف يقول: [مقبلين ومدبرين]، وقلنا معنى آخر: آتوهم بالآيات الماضية والمستقبلة، وهناك أيضًا ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، الرسل الذين جاءوهم مباشرة، يعني ثمود جاءهم صالح، وعاد جاءهم هود، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الرسل السابقة، ولهذا قال: ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾، ومعلوم أن الذي أرسل إلى عاد هود، وإلى ثمود صالح وهما اثنان، والرسل جمع فيقتضي أن يكون المعنى إذ جاءتهم الرسل السابقين والرسل اللاحقين، ولعل هذا أقرب الاحتمالات الثلاث.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: أن أهل الباطل يشبهون ويلبسون بما ليس له حقيقة وذلك حين ردوا دعوة الرسل بما لا يصح أن يكون ردًّا؛ حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وهذا الشبهة ليست بحجة، بدليل ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ إذ يقتضي الحال أن يكون الرسول رجل بشر يدعو قومه.

٦- **ومن فوائدها**: شدة عناد المكذبين لصالح وهود، وجه ذلك في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ كأنهم يقولون لو آمنا بكل شيء لن نؤمن بما أرسلتم به خاصة، ووجه الخصوصية تقديم الجار والمجرور على متعلقه.

٧- **ومنها**: أن المكذبين للرسل يؤمنون بالملائكة وهم كفار؛ لقوله: ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

٨- **ومن فوائدها**: أن المقر بالربوبية لا يعتبر مؤمنًا حتى يقرَّ بالألوهية؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهؤلاء الكفار الذين بعث فيهم الرسول ﷺ كانوا مقرين بالربوبية، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ولكن الإيمان بالربوبية لا يكفي في كون الإنسان مسلمًا، بل لا بد من الإيمان بالألوهية، إضافة إلى الإيمان بالربوبية، فالمستلزم والمتضمن للآخر الألوهية، لأن من آمن بالربوبية لزمه أن يؤمن بالألوهية، ومن آمن بالألوهية فقد تضمن إيمانه بالألوهية إيمانه بالربوبية، فأحدهما متضمن للآخر والثاني مستلزم للآخر، ومن مظاهر العناد لهؤلاء أنهم أكدوا كفرهم بإن قال تعالى: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فصار تأكيدهم لكفرهم وعنادهم، من عدة أوجه، أولًا: التأكيد بإن، والثاني: الحصر، وذلك بتقديم ما حقه التأخير أي: بتقديم الجار والمجرور على متعلقه، والثالث: أنهم أتوا به بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار بخلاف الفعلية فهي دالة على الحدوث وعدم الاستمرار، وهنا أتوا الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار.

مسألة: هل معنى أن الكفار يؤمنون بالربوبية أنهم يؤمنون بالأسماء والصفات؟

الجواب: قد يكون وقد لا يكون أنهم يكفرون ببعض الأسماء والصفات، فهم ينكرون اسم (الرحمن) والبعض يثبتونه.

مسألة: قوله تعالى ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ هل كانت دخانًا قبل خلق السماوات والأرض قديمًا؟

الجواب: لا، قديمًا ماء ثم تكون من هذا الماء البخار حين خلق الله الأرض.

مسألة: إعراب ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾.

الجواب: مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف.

مسألة: بالنسبة لقوله: ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ كيف نستبط الصفة الثالثة من اقتران هذين الاسمين؟

الجواب: العز والعلم، اجتماع العزة والعلم كمال، لأن العزيز بلا علم قد يبطش عن جهل، والعليم بلا عزة ضعيف.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]

التفسير

لما ذكر الله أمر النبي ﷺ أن ينذر قريش بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، بين ماذا كان من عاد وماذا كان من ثمود، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أما هذه أداة شرط وتفصيل، أما كونها أداة شرط فلأن لها شرط وجزاء، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾، وأما كونها أداة تفصيل، فلأنها تأتي كذلك في التفصيل، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، فهي إذًا حرف شرط وتفصيل، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، استكبروا أي: أصابهم الكبر، وإنما أتت السين والتاء للمبالغة، أي تكبروا تكبرًا عظيمًا، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، هذه ليست صفة مقيدة ولكنها صفة كاشفة؛ لأن كل استكبار في الأرض بغير الحق، فالاستكبار لا ينقسم إلى قسمين، بل هو قسم واحد، فكل استكبار فإنه بغير حق، ويسمى مثل هذا القيد صفة كاشفة، أي تكشف ما سبق وتبين حقيقته، إذنْ فما حقيقة الاستكبار، أنه بغير حق، والحق ضد الباطل، والباطل إما أن يكون في الخبر وإما أن يكون في الطلب، فأما الباطل في الخبر كأن يكون كذبًا، وأما الباطل في الحكم كأن يكون جورًا، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ يشمل الأمرين، يشمل دعواهم أن هذه آلهة وهذه دعوى كاذبة، ويشمل عملهم لهذه الآلهة وهو جور وظلم، من حيث يعدلون المخلوق بالخالق، يعني من جملة ما استكبروا به، قالوا: (لما خوفوا بالعذاب): ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أحد، و﴿مَنْ﴾ هنا استفهام بمعنى النفي والإنكار، وقد كررنا مرارًا، أن الاستفهام إذا كان بمعنى الإنكار والنفي، صار أبلغ من النفي المجرد لأنه يتضمن التحدي، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ و﴿مَنْ﴾ كما تعلمون اسم استفهام، وأشد: خبر المبتدأ، لأن ﴿مَنْ﴾ المبتدأ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبر المبتدأ، و﴿قُوَّةً﴾ تمييز لـ﴿أَشَدُّ﴾، ومن الضوابط الغالبة، أنه إذا أتى الاسم منصوبًا بعد اسم التفضيل كان تمييزًا، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، [أي لا أحد]، ثم ذكر المؤلف نموذجًا

من قوتهم، قال: [كان أحدهم يأخذ الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشاء]، وهذا المثال قد يكون حقًّا وقد يكون اسرائيليًّا؛ لأنه معروف أن عادًا كانوا بالأحقاف، والأحقاف كلها جبال رملية، لكن على كل حال سواء صح هذا المثال أم لم يصح، فإنهم كانوا بلا شك أقوياء أشداء ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله تبارك وتعالى ردًا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني: أولم [يعلموا] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا تقرير لكون الله تعالى أشد منهم قوة، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولم يقل: (إن الله أشد)، بل قال: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ليبين ضعفهم، وأنهم مخلوقون وأن الخالق سيكون أقوى منهم، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة لأنه هو الذي أعطاهم القوة، ومعطي الكمال أولى به، وهذه هي الحكمة من كونه تعالى قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: (أولم يعلموا أن الله الذي خلق السموات والأرض)، أو (أن الله هو أشد منهم قوة)؛ ليبين ضعفهم، وأنهم مخلوقون ضعفاء، قال ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قوله: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوفة على ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ في الأرض، وقالوا: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [المعجزات]، ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يعني: يكذبون، لأن الجحد والتكذيب والاستنكار ولا سيما وهو معدّى بالباء الدالة على ذلك، وقول المؤلف: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معجزاتنا] فيه نظر، لأن الآيات هي العلامات والدلالات على الخالق عز وجل، وليست المعجزات، وقد ذكرنا أن المعجزات تأتي آيات وتأتي من الشياطين بواسطة السحرة وغير ذلك، ولكن إذا قال: (آيات) صار معناها: علامات دالة على الحق، ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [باردة شديدة الصوت بلا مطر]، ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ريحًا نكرة يراد بها التعظيم، أي: ريحًا عظيمة، ﴿صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت، يسمع لها صوت كالرعد لشدتها وشدة اصطدامها بالهواء والأشجار والأحجار والبيوت، وقول المؤلف: [بلا مطر]، هذا الظاهر أنها لا تدل عليه السياق الموجودة الآن، لكنه قد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي: ليس فيها مطر، لأن المطر من أسباب الرياح، يرسله الله عز وجل فيصير سحابًا، فيصبه من السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا، فتبرد فيخرج من خلاله، لكن ريح عاد ليس فيها ذلك. قوله: [﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء وسكونها، مشؤومات عليهن]، ﴿فِىٓ أَيَّامٍ﴾، هذه الأيام بين الله قدرها في آيات أخرى، في قوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ ابتدأت بالفجر وانتهت به، أو بالغروب، الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، سبع ليال وثماني أيام، ثمانية أيام تنتهي بالغروب، وسبع ليال لأن الليلة الأولى حذفت، يقول الله عز وجل: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الخزي: الذل، (اللام) للعاقبة، ويحتمل أن تكون للتعليل، وكلاهما صحيح، فإن الله تعالى أرسل عليهم الريح العقيم لهذا الغرض، أو أرسل عليهم الريح العقيم حتى كانت عاقبتهم أن ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا، أي بهذه الحياة التي

نحياها، وسميت دنيا لوجهين: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة؛ لأن موضع سوط الإنسان في الجنة خير من الدنيا وما فيها؛ ولأنها أيضًا دنيا منغصة، لا تكاد يمر بك الشهر إلا ووجدت تنغيصًا بل أكثر من ذلك

كما قال الشاعر:

فَيَـــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَـــوْمٌ لَنَـــا وَيَـــوْمٌ نُـــسَاءُ وَيَـــوْمٌ نُـــسَرُّ

هذا وجه، والوجه الثاني: لدنوها؛ لأنها سابقة للآخرة، فهي أدنى للمخلوقات من الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ قال: [أشد، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بمنعه عنهم] اللام في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ يسمونها لام الابتداء، وهي للتوكيد، ولذلك إذا جاءت (إِنْ) أين تذهب (اللام) تزحلق وتؤخر عن مكانها، وتكون في المتأخر في اسم إن وخبرها، وإنما زحلقناها حتى لا يشتمل في أول الكلام مؤكدان متواليان، اللام في العذاب هي لام الابتداء وهي تفيد التوكيد ويدل لهذا أنها مع (إن) تزحلق حتى تبعد عنها.

قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أشد خزيًا ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن عذاب الدنيا لا يسمع به من سبق، أليس كذلك؟ ولا يراه من لحق أليس كذلك؟ لا يسمع به من سبق، لأنه جاء بعده، فالقوم الذين كانوا قبل عاد، ما علموا بذلك، والقوم الذين بعدهم، ما رأوه، بل سمعوا به ولم يروه، لكن في الآخرة سماع ورؤيا ـ والعياذ بالله ـ، الذي يعذب في الآخرة يسمعه كل أحد السابق واللاحق، ولذلك قال: ﴿أَخْزَىٰ﴾، ثم هو أيضًا أشد، كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ اشد وأعظم، كما تعرفون عذاب النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (الواو) هذه استئنافية، يعني: في الآخرة لا أحد ينصرهم، في الدنيا ربما ينصر الإنسان من العذاب، بدفعه قبل وقوعه، أو برفعه بعد وقوعه، لكن في الآخرة لا ناصر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظم استكبار هؤلاء المكذبين لنبيِّهم ـ أعني عادًا ـ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

٢ - **ومنها:** بيان طغيان الإنسان وأن الإنسان لا حد لطغيانه، لأن وصوله إلى هذه الدرجة ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، يدل على الطغيان العظيم والكبرياء.

٣- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل بأخذهم بالعذاب، حيث أخذوا بما هو ألطف الأشياء، وهو الريح، الريح اللطيفة، التي يكون به انعاش البدن وتقويته ونشاطه، هي التي أهلك بها عاد؛ لأنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وانظر إلى فرعون حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، فبماذا عُذّب؟ بالماء. الذي كان بالأمس يفتخر به.

٤- **ومن فوائد الآية:** بلاغة القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾، وجه ذلك، أنه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾.

٥- **ومنها:** جواز عقد المفاضلة بين الخالق والمخلوق، لقوله: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾، مع أنه سبحانه وتعالى أشد من كل أحد، لكن المقام مقام محاجة، ومقام المحاجة لا بأس أن يذكر فيها المفاضلة بين المفضل والمفضل عليه، ونظير هذا بل أبلغ منه قول الله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وليس في الأصنام خير، لكن هذا من باب المحاجة، وأن الإنسان يحاج الخصم بما يقر به.

٦- **ومن فوائد الآية:** خطأ من يفسر قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وما أشبه ذلك؛ حيث يفسر أعلم بعالم، كالجلالين رحمهما الله، أعلم يقول عالم، وهذا خطأ عظيم، وتحريف للقرآن، أيهما أبلغ أعلم أم عالم؟ أعلم، لأن أعلم يمنع المشاركة، وعالم لا يمنع المشاركة، تقول فلان عالم وفلان عالم وفلان عالم، لكن تقول: (فلان أعلم) معناها أنه لا يساويه أحد في درجته، فتفسير أعلم بعالم لا شك أنه تحريف في القرآن وقصور عظيم.

٧- **ومنها:** بيان أن هؤلاء المكذبين لهود عليه السلام ـ وهم عاد ـ جمعوا بين الأمرين بين الاستكبار وبين التكذيب، الاستكبار في قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وأما التكذيب ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى أرسل الرسل بالآيات، وأقام البينات والبراهين على أنه الحق وأن رسله حق؛ لقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** أن الرياح تجري بأمر الله. لقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، ولا شك أن كل شيء يجري بأمر الله، حتى أفعال البشر تكون أيضًا بأمر الله، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فكل شيء فإنه يسير بأمر الله عز وجل، الرياح والسحاب والبحار والأنهار كلها تجري

بأمر الله عز وجل.

٢- **ومنها**: بيان حال هذه الريح التي أهلك الله بها عاد، وأنها ريح صرصر شديدة وفي آيات أخرى ما يدل على أنها ليس فيها مطر، وليس فيها خير، بل هي عقيمة من الخير كله.

٣- **ومنها**: حكمة الله عز وجل في مجازاة من يستحق الجزاء، حيث يجازى بمثل عمله، ولهذا يقول العلماء: الجزاء من جنس العمل، ولذلك أرسل الله على هؤلاء المستكبرين الذين يقولون ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل عليهم الريح اللَّيِّنة الهينة، ومن حكمة الله عز وجل في هذا العذاب أنها لم تكن تجرفهم في آن واحد، بل سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام، ليكون هذا أشد في استغراق العقوبة؛ لأن الإنسان المعاقب لو عُوقب بما يهلكه فورًا لانتهى من العقوبة، لكن إذا كانت العقوبة تأتي عليه في ساعات وفي أيام، صار هذا أشد.

٤- **ومن فوائد الآية**: إثبات أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، وأن شرعه مقرون بالحكمة، فكل ما شرعه أو قدره فإنه لحكمة، ولكن هل هذه الحكمة معلومة؟ منها ما هو معلوم ومنها ما ليس بمعلوم، فمثال للحكمة الغير معلومة الحكمة في عدد الصلوات الخمس: فما ندري نحن الحكمة من كونها خمس أو عدد الركعات في كل صلاة؟ لأن عقولنا قاصرة، لكننا نعلم أن الله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، ولهذا كان جواب أمنا عائشة لمعاذ عليهما السلام أن قالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)، يعني: إذا كان الأمر كذلك نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة فهذا لا بد له من حكمة، من علماء الأمة وفرقها من يقول: إن أفعال الله لا تعلل ما لها حكمة، وشرعه ما له حكمة، يفعل لمجرد المشيئة، يحكم بالشرع لمجرد المشيئة، وهؤلاء لا شك أنهم وصفوا الله بالنقص والسفه، وقد أنكر الله على ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، والآيات في هذا كثيرة، وكل آية فإنها تدل على الحكمة، هناك أناس عكسوا هذا الكلام، وقالوا إن أفعال الله معللة بالحكمة، وأنه يجب عليه أن يفعل ما تقتضيه الحكمة، وأن يشرع ما تقتضيه الحكمة، وهؤلاء أصابوا من وجه وأخطأوا من وجه، أصابوا حيث ظنوا أننا نوجب نحن على ربنا بعقولنا ما نرى أن الحكمة تقتضيه، وهذا خطأ أم صح؟ هؤلاء يقولون: يجب على الله أن يفعل ما فيه الحكمة وجوبًا، هذا خطأ وهذا خطأ من وجه وصحيح من وجه، فإن أرادوا بذلك أن نوجب على الله أن يفعل ما تقتضيه عقولنا أنه حكمة، فهذا خطأ، وإن أرادو أن الله أوجب على نفسه أن يفعل ما به حكمة؛ لأنه حكيم فهذا صحيح، ونحن لا نشك أن الحكمة

هي مراد الله عز وجل، وأنه لا يفعل شيئًا ولا يحكم شيئًا إلا لحكمة، لكن هل نحن الذين نقدر الحكمة، ثم نوجب على الله أن يفعله؟ هذا هو الخطأ، فالثاني: هذا مذهب المعتزلة، والأول مذهب الأشاعرة وأتباعهم، والصواب: الوسط، ودائمًا خير الأمور الوسط، الوسط: أن الله يجب عليه فعل لإيجابه على نفسه الحكمة، لأنه نفى أن يكون فعله عبثًا أو لعبًا أو باطلًا، وهذا يقتضي أن الله سبحانه وتعالى يفعل الشيء لحكمة، ولكن ليس نحن الذين نوجبها على الله.

٥- **ومنها**: أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٦- **ومنها**: أن الكافر يعاقب بالعقوبتين، عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أما المؤمن فإن الله لا يجمع عليه عقوبتين، إذا عوقب بالذنب في الدنيا لم يعاقب به في الآخرة، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ ولأن النبي ﷺ أخبر أن من أتى شيئًا من هذه القاذورات - يعني المعاصي - فعُوقب به في الدنيا لم يعذب به في الآخرة، فالمؤمن إذا عوقب في الدنيا على عمله لم يعاقب في الآخرة، والكافر يعاقب بهذا وبهذا، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حيث قال: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾، فإما أن يكون المراد أن عذاب الآخرة أشد فيكون بالنسبة لشدته مضاعفا، وإما أن يكون هو الجمع له بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقولنا: إنه يجمع له بين عذابين، ليس معناه أنه حتمي، لكن نقول: إنه إذا عذب بذنبه في الدنيا لم يسلم من تعذيبه به في الآخرة، حتى لا يرد علينا أن الكفار الآن يموتون وهم في غاية ما يكون من السرور والعافية والأموال والأولاد، والمعنى: أنهم لم يجدوا عذابا يشاهد، لكنه عذاب القلب عندهم لا شك أنه موجود، أشد الناس عذابًا قلبيًّا وقلقًا هم الكفار، وكلما كان الإنسان أعصى لربه كان أشد قلقًا وأقل راحة، وكلما كان أشد إيمانًا وعملًا صالحًا كان أشد طمأنينة، استمع إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل الله عز وجل لنعطينه مالًا كثيرًا، لا، لنحيينه حياة طيبة ولو كان فقيرًا، فتجد حياته طيبة مطمئن البال مستريحًا لا يهتم بشيء إلا بما يرضي الله عز وجل.

٧- **ومن فوائد الآية**: أنه لا ناصر للمعذبين يوم القيامة، لقوله ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه لها شواهد، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، وكذلك هم يقرون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، ثم قال ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]

التفسير

هذا هو القسم الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بينا لهم طريق الهدى، ثمود بلا تنوين، وعاد بتنوين فلماذا؟ لأن ثمود ممنوعة من الصرف، وعاد ليست ممنوعة من الصرف. والصرف جر ما لم ينصرف بالفتحة.

قال ابن مالك:

الصَّرْفُ تَنْوِينٌ أَتَى مُبَيِّنَا مَعْنَىً بِهِ يَكُونُ الاسْمُ أَمْكَنَا

قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ قال المؤلف: [بينا لهم طريق الهدى]، فالهداية هنا هداية بيان، يعني: بيَّن لهم الحق، واعلم أن كل من كفر، فإنه كفر بعد ما تبين له الحق، إذا جاءه الرسول، لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام يبينوا الحق لا يدعون شيئًا يحتاج إلى بيان إلا بينوه، قال هنا: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم طريق الحق، فالهداية هنا هداية بيان وإرشاد، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾، أي [اختاروا الكفر] ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي على هداية التوفيق، يعني على الاهتداء، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ الذي هو الكفر ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو الإسلام، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: عذاب الصاعقة؛ لأن ثمود صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم فصعقوا هلكوا هلكة رجل واحد، أصبحوا في ديارهم جاثمين - والعياذ بالله - على ركبهم هامدين، وقوله: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب [المهين]؛ لأن الهون هو الإذلال، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، الباء للسببية و(ما) إما موصولة، وعليه فيكون عائدها محذوفًا، التقدير بما كانوا يكسبونه، وإما أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى عائد، ويكون التقدير: بكسبهم ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ (منها) أي: من صاعقة عذاب الهون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ جمعوا بين الإيمان والتَّقوى، وهذا هو سبب النجاة. وسيأتي إن شاء الله ما يستفاد من الآيات.

مسألة: حول التوبة والأخذ بالذنب؟

الجواب: لأنه إذا تاب لا يكون له عقاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

مسألة: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعكسها أنه كمن عليه ذنب؛ لأنه ما ارتدع من هذه العقوبة.

الجواب: وإذا عوقب محي عنه إثم ما سبق، لأنه أخذ الجزاء وانتهى، لكنه قد يؤخر له العذاب، إلى يوم القيامة، ولهذا إذا أحب الله قوما عجل لهم العقوبة في الدنيا، حتى لا يجزون بها يوم القيامة.

مسألة: لو عوقب الآن ثم مات مباشرة قبل أن يفعل الذنب الآخر، هل يعاقب بنيته عدم التوبة؟

الجواب: إذا استمرت النية بعد العقوبة فهذا ربما يعاقب بنيته لا على فعله.

مسألة: يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» لا يدخل الجنة دخولًا أوليًّا أم لا يدخل الجنة أبدًا؟

الجواب: هذا فيه تفصيل إن كان الكبر كفر فهو لا يدخل الجنة أبدًا، وإن كان كبر مع الإيمان فإنه لا يدخلها الدخول المطلق الذي لم يسبقه عذاب، وهذا أيضًا من آية الوعيد إذا شاء الله تعالى عفا عنه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

مسألة: هل عذاب الكفار إذا ماتوا متصل إلى يوم القيامة؟

الجواب: منها عذاب القبر، هذا عذاب القبر، أما عذاب الكفار في الآخرة فهو مستمر، لكن عذاب القبر قد ينقطع يعذب بقدر ذنوبه، ثم ينقطع، وبالنسبة للكافر فإن الظاهر استمراره.

مسألة: حول إضافة قوله تعالى: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ إلى الأيام.

الجواب: لا بأس به، كما قال لوط: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ المراد به مجرد الخبر، وأما إذا كان المراد به العيب والسب، فإنه لا يجوز، فإذنْ يكون هذا السب والعيب، يكون على سبيل الأخبار، أو على سبيل السب، على الأول جائز وعلى الثاني غير جائز. ونظير ذلك إخبار المريض ما جرى عليه، أحيانا يسأله صديقه كيف أنت البارحة؟ فيتشكَّى ويقول والله ما نمت البارحة كنت تعب في البطن أو في الرأس أو في الرجلين، هذا إذا قاله على سبيل التشكي هذا لا يجوز لأنه ينافي الصبر، وإذا قاله على سبيل الأخبار فلا بأس به، ولهذا بعض المرضى يقدم فيقول إخبارًا لا شكوى حصل لي كذا وكذا.

مسألة: حول النية لفعل المعصية والعقاب عليها.

الجواب: العقاب على النية إذا نوى الإنسان تلك المعصية، أما أن يدافع الإنسان هذه النية ويدع المعصية لله عز وجل هذا يثاب، وإما أن يستمر على نيته ويعزم لكنه يعجز فهذا يعاقب على نيته.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

(١) لا ريب أن القرآن الكريم نزل ليتعبد الناس بتلاوته، وليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ج﴾ ولوأن الإنسان إذا قرأ متنا ألفه إنسان من البشر فلا بد أن يتفهم معانيه ويتدبرها، فكذلك كلام الله عز وجل من باب أولى، أن يتدبر الإنسان معانيه ويتفهمها، لأن قراءة بلا معنى ليست قراءة، فالقارئ الذي لا يفهم المعنى بمنزلة الأمي الذي لا يقرأ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ يعني: إلا قراءة، فوصفهم الله بأنهم أميون لأنهم لا يعلمون الكتاب إلا قراءة فقط، وقد ذكر العلماء رحمهم الله لتفسير كلام الله قواعد مهمة، نذكر منها ما يلي.
أولًا: أولى ما يفسر به القرآن أن يفسر القرآن بالقرآن. ذلك بأن الذي فسره هو الذي أنزله وهو أعلم بمراده. فيفسر القرآن بالقرآن ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا. ولهذا أمثلة كثيرة، مثل قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فسر الله ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فلو سئل سائل ما هو يوم الدين؟ نقول: يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله. وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ف ف ؤ ة كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ ولهذا أمثلة كثيرة، ثم يفسر القرآن بتفسير أعلم الناس به وهو رسول الله ﷺ، ولهذا أمثلة منها قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، الزيادة لم يبينها الله عز وجل، ولكن بينها الرسول ﷺ بقوله: «هي النظر إلى وجه الله». وكذلك مثال آخر: قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فسرها النبي ﷺ بقوله: «ألا إن القوة الرمي»، وكررها، وكما يكون تفسير النبي ﷺ للقرآن بلفظه يكون كذلك بفعله، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يبين الله تعالى كيفية هذه الإقامة التي أمر بها، لكن فسرها النبي ﷺ بفعله، فقام وركع وسجد وقعد، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، إذًا أول ما نفسر القرآن بماذا؟ بالقرآن؛ لأن الذي فسره هو الذي تكلم به وهو أعلم بمراده ثم بسنة النبي ﷺ القولية والفعلية؛ لماذا؟ لأن النبي ﷺ أعلم الناس بكلام الله؛ لأنه رسول، ثم بعد ذلك بتفسير الصحابة رضي الله عنهم، وتفسير الصحابة لا شك أنه أولى من غيره، لأن الصحابة رضي الله عنهم أعلم الناس بلغة القرآن بلا منازع، ولأن القرآن نزل في عصرهم وفي الأحوال التي يعرفونها، ولا ريب أن المعنى يعرف في الزمن والحال التي نزل بها، ولهذا ينقلون إلينا أسباب نزول الآيات التي نزلت على سبب؛ لأنهم كانوا يعلمون ذلك، فيرجع في تفسير القرآن، فإذا لم يوجد في كتاب الله أو في سنة رسوله، يرجع إلى أقوال الصحابة، والصحابة رضي الله عنهم، يختلفون في فهم القرآن اختلافًا ظاهرًا، كما يختلفون في مراتبهم في الفضائل كذلك أيضًا يختلفون في العلم وفي تفسير القرآن، ومن أعلمهم بالتفسير ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن النبي ﷺ دعا له فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» يعني التفسير، وبعد هذا المرتبة الرابعة: الرجوع إلى كلام المفسرين الذين أخذوا عن الصحابة، وهم التابعين، ليس كل التابعين، بل الذين اشتهر عنهم الأخذ عن الصحابة، وعلى رأسهم مجاهد بن جبر رحمه الله، الذي أخذ تفسير القرآن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكان يقرأ القرآن على ابن عباس ويقف عند كل آية يسأله عن تفسيرها، ثم بعد ذلك يؤخذ بالأمثل فالأمثل من أقوال أئمة هذه الأمة وعلمائها، ثم اعلم أن تفسير القرآن لا يقتصر على تفسير الصحابة والتابعين لأنه قد يخرج للآيات معاني لم تكن تطرأ على البال في ما سبق، كما تشير بعض الآيات إلى المخترعات الحديثة التي وقعت في زماننا هذا، وكما تشير بعض الآيات إلى

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أبلغ رسالته لكل أحد ولم يدع أحدًا بلا هداية دلالة، لقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهذه الجملة تفصيلية كما سبق في التفسير معطوفة على قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- **ومنها:** أن الهداية ليست مقصورة على هداية التوفيق، ولكنها تطلق على هداية الدلالة والبيان؛ لقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: دللناهم على الحق.

٣- **ومنها:** الرد على الجبرية الذين قالوا: إن الإنسان مجبر على عمله، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾، ووجه الأخذ في ذلك: (أن استحبوا) تدل على اختيارهم لهذا الشيء، وأنهم آثروه على الهدى.

٤- **ومنها:** أن من لم يسير على هدى الله فإنه أعمى. ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ حتى ولو كانوا مبصرين، فإنهم عمي البصيرة.

٥- **ومن فوائدها:** أن العمى نوعان: عمى بصر وعمى بصيرة، وعمى البصيرة أشد من عمى البصر، فكم من إنسان أعمى البصر لكنه مبصر البصيرة، وكم من إنسان مبصر البصر لكنه أعمى البصيرة.

٦- **ومنها:** تعجيل العقوبة لمن استحب العمى على الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ووجه الدلالة الفاء تفيد الترتيب والتعقيب هذا من وجه، ووجه آخر، أن الفاء هنا للسببية والمسبب يعقب السبب.

٧- **ومنها:** التحذير من إيثار العمى على الهدى، وأن الإنسان إذا بيِّن له الحق ولكنه عمي عنه فإنه جدير بأن يعاقبه الله عز وجل؛ لأن الله أخبرنا بعقوبته بأخذهم ليحذرنا من ذلك. دليل ذلك أن الله يخبرنا عن أخبار من سبق لنحذر من طريقهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذا دليل، ودليل آخر قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾.

٨- **ومنها:** أن ثمود أهلكوا بالصاعقة، أي بشيء صعقوا به وهلكوا، وقد بين الله في آيات

ما عرف أو إلى ما علم في علم الأحياء والكائنات، وذلك لأن القرآن كتاب عالمي لا يزال الناس يستخرجون كنوزه وفوائده إلى يوم القيامة، وبناء على ذلك يجب علينا أن نعتني بكلام الله عز وجل وأن نتدبره وأن نفهمه حتى نلحق بالركب.

أخرى أنه أخذتهم الرجفة فيكونوا أُخذوا بالرجفة حتى صعقوا وهلكوا.

٩- **ومنها**: أن هؤلاء الذين غرهم الكبر، أنهم أهينوا وأذلوا، وذلك من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ يعني: عذاب الذل.

١٠- **ومنها**: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، والباء هنا للسببية، واعلم أن الله تعالى لن يحكم حكمًا شرعيًّا ولا قدريًّا ولا حكمًا جزائيًّا إلا لسبب ـ هذه قاعدة ـ لن يحكم حكمًا شرعيًّا كالإيجاب والتحريم والإباحة، ولا قدريًّا كالخلق والتكوين، ولا جزائيًّا إلا لسبب، نعلم ذلك علم اليقين، ونأخذه من أن الله تعالى حكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها، لا يمكن أن تكون أفعال الله فلتة ولا صدفة ولا لغوًا ولا لعبًا، بل لا بد له من سبب اقتضاه، لكن هل كل سبب اقتضى حكم الله يكون معلوم للخلق؟ لا، لأن الخلق أعجز من أن يدركوا حكمة الله عز وجل، وكم من أحكام شرعية وكونية وجزائية لا نعلم حكمتها؛ لأننا أقصر من أن نحيط بحكمة الله عز وجل.

١١- **ومنها**: إثبات أن العمل كسب للإنسان، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يتفرع عن هذه الفائدة، أنه إذا كان العمل كسب للإنسان، فإنه يجب عليه بمقتضى العقل كما هو مقتضى الشرع أن يسعى إلى الكسب المفيد لا إلى الكسب الضار، كما كان يفعل للدنيا، أليس الواحد منا في الدنيا يسعى إلى الكسب النافع؟ بلى، إذنْ يجب أن تسعى إلى الكسب النافع للآخرة، ولهذا ضل من ضل في عقله ودينه من احتج بالقدر على معاصي الله، ولم يحتج بالقدر على أمور الدنيا، فأمور الدنيا يعمل فيها ويكدح، ويسعى إلى ما فيه المصلحة والمنفعة، لكن في أمور الآخرة يتكاسل ثم يقول: هذا القدر، فنقول: قد ضللت، كيف تحتج بالقدر على كسب الآخرة، ولا تحتج به على كسب الدنيا.

أما فوائد الآية التي بعدها: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

١- **فيستفاد منها**: عدل الله عز وجل، والعدل معناه عدم الجور وعدم الظلم، ووجه ذلك، إثبات النجاة للمؤمنين والعذاب للمعرضين، فهذا دليل على العدل، لأنه أعطى سبحانه وتعالى كل إنسان ما يستحق، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، ومن كونه أحكم الحاكمين، لازم أن يكونه أعدلهم، لأنه كلما كان الحكم أعدل كان أحكم.

٢- **ومن فوائدها**: أن الإيمان والتقوى سبب للنجاة، لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

٣- **ومنها**: أن الإيمان وحده لا يكفي بل لا بد من إيمان وتقوى لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ووجه المقارنة بين هذه الآية وبين قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن الذين آمنوا وكانوا يتقون والذين ينجيهم الله هم أولياء الله، لأن

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، يطابق تماما هذه الآية حتى في اللفظ هناك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، وهذه أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: جواز حذف ما يعلم، ويؤخذ هذا من مفعول ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: كانوا يتقون الله. وإن شئت فقل وكانوا يتقون ما يجب اتقاءه، لأن الله تعالى أحيانا يقول: ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأحيانًا يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ فإذا قلنا: وكانوا يتقون ما أمر باتقائه صار ذلك أعم.

وقد أمروا بتقوى الله وتقوى النار وتقوى يوم القيامة؛ إذنْ المعنى العام: وكانوا يتقون ما أمروا اتقائه.

٥- **ومن فوائدها**: فضيلة الإيمان والتقوى وأنه سبب للنجاة، لقوله ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. فإذا قال قائل: أليس الله تعالى ينزل العقوبة أحيانا في أقوام فيهم المتقي وفيهم غير المتقي، فما الجواب؟

الجواب: أن الله تعالى يأخذ المتقي بذنب غير المتقي في الدنيا، في الدنيا يعذبون جميعا، ويبعثون في الآخرة على نياتهم وأعمالهم، دليل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ يعني إحذروا هذه الفتنة، وهذا يعني أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر لنتقيها. ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت: ١٩-٢٤]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ ﴿يُحْشَرُ﴾ فيه قراءتان، ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ وعلى هذه القراءة يكون الفعل مبنيًّا لما لم يسمَّ فاعله، وكلما رأيت فعل مضارع مضموم الأول، مفتوح ما قبل الآخر، فهو مبني لما لم يسم فاعله ـ خذها قاعدة ـ فإن رأيته مضموم الأول فقط فهل يكون مبنيا لما لم يسمَّ فاعله أو لا؟ الجواب: لا، لأن المضارع من الرباعي يكون مضموم الأول، مثل: (يُكْرِم) من (أَكْرَم) الرجل وما أشبه ذلك؛ إذنْ هذا اللفظ إحدى القراءتين ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وعلى هذا فيكون ﴿يُحْشَرُ﴾ فعل مضارع مبنيًّا لما لم يسم فاعله، ولاحظ أن قولنا: لما لم يسم فاعله، أولى من قولنا مبني للمجهول، لأنه قد يكون الفاعل معلوم كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ من الخالق؟ الله، وهو معلوم مع أن الفعل مبني لما لم يسمَّ فاعله، ولهذا التعبير بقوله: ﴿وَخُلِقَ﴾ فعل ماض مبني لما لم يسمَّ فاعله أولى من قوله: ﴿وَخُلِقَ﴾فعل ماضي مبني للمجهول. وكذلك ﴿يُحْشَرُ﴾ فعل مضارع مبني لما لم يسمى فاعله.

قوله: ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ أعداء نائب فاعل، فيها قراءة أخرى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ أشار إليها المؤلف وليس هناك حاجة للتعليق لأنها موجودة في الكتاب. ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾، وعلى هذه القراءة تكون نَحشر فعل مضارع مبني للفاعل والفاعل هنا مستتر وجوبًا، و﴿أَعْدَآءُ﴾ مفعول به منصوب، وهنا نذكر متى يكون الفاعل مستترًا وجوبًا أو مستترًا جوازًا؟.

الجواب: إذا كان تقديره: (أنا أو أنت أو نحن) فهو مستتر وجوبًا، وإذا كان تقديره: (هو أو هي) فهو مستتر جوازًا، (أقوم) مستتر وجوبًا تقديره: أنا، تقوم تخاطب رجلًا، تقول: أنت تقوم مستتر وجوبًا. نقوم وجوبًا؛ لأن تقديره نحن، قام جوازًا؛ لأن تقديره هو، قامت جوازًا؛ لأن تقديره هي، تقوم إذا كنت تخاطب رجلا فهو مستتر وجوبًا؛ لأن التقدير أنت، تقوم إذا كنت تتحدث عن امرأة فيكون مستتر جوازًا، لأن التقدير هي.

إذنْ هذا الضابط ما كان تقديره أنا أو نحن أو أنت فهو مستتر وجوبًا.

وما كان تقديره هي أو هو فهو مستتر جوازًا.

في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ إعرابها وهو أن (يوم) ظرف وكل ظرف لا بد له من متعلق، لأن الظرف اسم مفعول فيه فلا بد من فعل، ولهذا قال ناظم الجمل:

لَا بُدَّ لِلْجَارِ مِنْ تَعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

فأين العامل في يوم؟ العامل في يوم محذوف، التقدير: واذكر يوم يحشر أعداء الله، ويحشر

بمعنى يجمع ويساق، وفيها قراءتان [بالياء والنون المفتوحة، وضم الشين، وفتح الهمزة]، لم يكمل المؤلف في الواقع القراءة الثانية، يحشر فيها قراءتان، الأولى ضم الياء وفتح الشين، ﴿يُحْشَرُ﴾ وعلى هذه القراءة يجب أن تكون ﴿أَعْدَآءُ﴾ مرفوعة على أنها نائب فاعل، القراءة الثانية: ﴿نَحشُر﴾ [بفتح النون وضم الشين]، على هذه القراءة يجب أن تكون ﴿أَعْدَآءَ﴾، منصوبة على أنها مفعول به، ويوم نحشر أعداء الله. وهنا نسأل هل القراءتان اللتان تكونان في القرآن الذي بين أيدينا هل هما الحروف السبعة أو سواها؟

الجواب: أنها سوى الحروف السبعة، الحروف السبعة الآن غير معلومة؛ لأنها قضي عليها بتوحيد المصحف في عهد عثمان رضي الله عنه، لكن القراءات السبع الموجودة في حرف واحد وهو حرف قريش، والذي توحدت المصاحف عليه في عهد عثمان رضي الله عنه، وعلى هذا فلا حاجة إلى التفتيش والتنقيب عن الحروف السبعة في وقتنا هذا؛ لأنها انتهت وقضي عليها، قال ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أعداء الله يمكن أن نعرفهم بمعرفة أولياء الله، وأولياء الله تعالى قال الله في بيانهم، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ضد الإيمان الكفر، وضد التقوى المعاصي والفسوق، فأعداء الله إذنْ هم الكفار والفسقة يحشرون إلى النار أي يساقون إليها ويجمعون إليها، إلى النار فهم يوزعون، يقول المؤلف: [يساقون]، ولها معنى آخر، يساقون للتوزيع، يعني أنهم طوائف، وأمم كلما دخلت أمة لعنة أختها، فهم يوزعون بالسياق، أي يساقون، ويوزعون أيضًا بالتفريق كل أمة وحدها.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا﴾ قال المؤلف: [زائدة]، يعني كلمة ﴿مَا﴾ زائدة، لأنها وقعت بعد ﴿إِذَا﴾، وكلما وقعت ﴿مَا﴾ بعد ﴿إِذَا﴾ فهي زائدة، وعليك بحفظ البيت.

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَه ... مَا بَعْدَ إِذَا زَائِدَه

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ جاءوها أي وصلوا إليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قبل أن يدخلوها، تشهد عليهم هذه الجوارح، حتى يدخلوا وهم موقنون أنهم عوملوا بالعدل والإنصاف، يشهد عليهم سمعهم، هل يشهد بما سمعوا من اللغو ومن الكلام المحرم، أم يشهد السمع بجميع الأعمال؟ يحتمل وجهين، إما أن يكون المعنى شهد عليهم سمعهم بما سمعوا من الباطل وأبصارهم بما شاهدوا من الباطل وجلودهم بما لمسوا من الباطل، أو أن هذه الأعضاء تشهد على كل عمل عملوه، يحتمل هذا وهذا والثاني أعظم، أن يكون السمع يشهد بما حصل عن طريقه وبما حصل عن طريق البصر وبما حصل عن طريق اللمس، هذا أعظم بما لو شهد بما حصل منه فقط.

قوله: ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهل هذا بعد إنكار أو للتحقيق وللتأكيد؟ ليس في الآية ما يدل على ذلك، لكن قيل: إن هذه الأعضاء وأيديهم وأرجلهم كما في آيات أخرى إن هذا إنما يكون بعد إنكارهم، أن يكونوا أشركوا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقوله: [﴿وَجُلُودُهُم﴾ بما مست]، وهي أعم من شهادة السمع والبصر، لأنه يدخل في ذلك اليد والرجل والشم وغير ذلك كل هذا عن طريق الملامسة.

ثم قال الله تعالى حكاية على لسانهم: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ولم يقل: (لأبصارهم وسمعهم)؛ لأن شهادة الجلود أعظم وأعم، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: أعداء الله، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، وهذا الاستفهام استفهام إنكار، كأنهم يقولون: نحن نجادل عنكم فكيف تشهدون علينا، ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، يعني: إنا شهدنا بأن الله أنطقنا، والله عز وجل بيده ملكوت السموات والأرض، ينطق كل شيء، قال المؤلف: [أي أراد نطقه]، ولا حاجة إلى هذا القيد، لأن الله تعالى لا يكرهه أحد حتى نقول: إن هذا الفعل مقيد بالإرادة، نقول أنطق كل شيء، ولا نقول أراد نطقه، لأنه لا يمكن أن ينطق الشيء إلا بعد إرادة الله، ومثل هذا القيد غير مناسب، لأننا لو اعتبرناه لقلنا كل فعل ذكره الله عن نفسه يجب أن نقيده بالإرادة وهذا أمر مستكره، إذ إننا نعلم أن كل فعلٍ فعله الله فإنما هو عن إرادة، كما قال الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فالله تعالى أنطق كل شيء هل أنطق الحجر؟ نعم أنطق الحجر والشجر وسمع تسبيح الحصى والطعام بين يدي النبي ﷺ(١)، بل قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، كل شيء يسبح الله بلسان المقال، إلا الكافر فإنه لا يسبح الله بلسان المقال؛ لأنه كافر بالله تعالى، يصف الله تعالى بكل نقص وعيب، وكل شيء يسبح الله بلسان الحال، حتى الكافر يسبح الله بلسان الحال، كيف ذلك؟ الكافر ما أودع الله فيه من آيات في الخلقة والخلق، كله يسبح الله عز وجل، أي يستدل به على تنزيه الله عن كل نقص وعيب، قال ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قيل: هو من كلام الجلود، وقيل هو من كلام الله تعالى، كالذي بعده، وموقعه قريب مما قبله بأن القادر على إنشاءكم ابتداءًا وإعادتكم بعد الموت أحياء، قادر على انطاق جلودكم وأعضاءكم.

قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله، يخاطب به هؤلاء المكذبين والأعداء ويحتمل أن يكون من تتمة كلام الجلود، يعني أن الجلود تستدل على قدرة الله تعالى على

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

إنطاقها بأنه خلقهم أول مرة، يقول المؤلف في بيان ذلك: [قيل هو من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله]، أيهما قدم؟ إذا قال المؤلفون قيل كذا وقيل كذا، فالخلاف هنا مطلق لا تقديم فيه ولا تأخير، وإذا قيل هو من كلام الجلود وقيل من كلام الله، هنا يكون قدم الأول، أما إذا قال المؤلف قيل وقيل فهذا ليس فيه تقديم، بل هو نقل خلاف على وجه الإطلاق، قيل هو من كلام الجنود وقيل هو من كلام الله وعلى هذا فإن القولين لدى المؤلف متساويان، فأيهما أقرب أن نجعله من كلام الجلود حتى يتصل الكلام بعضه ببعض، أو من كلام الله؟

الجواب: الأول من حيث اللفظ أقرب، أن الجلود تقول أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وتقول لهؤلاء هو الذي خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، ولكن معنا القول الثاني أقوم للمعنى، يعني: أن الله لما بين أن هؤلاء يعادون يوم القيامة ويحاسبون وتشهد عليهم السمع والأبصار والجلود، بيّن عز وجل أنه قادر على الإعادة، لأن هؤلاء الذين كذبوا ينكرون البعث، فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادر على الخلق أول مرة، قادر على إعادته، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فهو يقول هو الذي خلقكم أول مرة والقادر على ذلك قادر على الإعادة.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا أيضًا فيه إشارة إلى الحكمة من خلق الخلق، أنهم يبتلون فيؤمرون وينهون، ومآلهم إلى الله عز وجل، يجازيهم بحسب أعمالهم التي كلفهم بها، ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هذا معنى قول المؤلف كالذي بعده لا شك أن هذا من كلام الله وليس من كلام الجلود، وقول المؤلف رحمه الله وموقعه قريب مما قبله، يعني: موقع هذا الكلام ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قريب مما قبله، يبين مناسبة هذه الجملة لما قبلها، وهو أن القادر على إنشاءكم ابتداءً إعادتكم بعد الموت أحياء، قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ [عن ارتكابكم الفواحش من] ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: ما كنتم تستخفون في معاصيكم وكفركم، وغير ذلك مما يستترون به، خوفًا من أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم، ولا جلودكم، يعني أن الكفار يستترون أحيانا بالمعاصي، ليسوا يستترون خوفًا من أن تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، لأن هذه الأشياء لا استتار عنها إطلاقًا، إذ أن هذه الأشياء ولا يمكن الاستتار عنها، وأيضًا هم لا يؤمنون بأنها سوف تشهد عليهم في يوم من الأيام، فصاروا لا يستترون عن هذه الأشياء لوجهين: الأول: أنه لا انفكاك عنها وأنها هي مكوناته، والثاني: أنه ما كان يطرأ على باله في يوم من الأيام أن هذه

سوف تشهد عليهم لأنهم ينكرون البعث، وإنكار البعث يستلزم ألا يؤمنوا بأنها تشهد عليهم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ ومعنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفون، وقوله: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ هي على تقدير محذوف، التقدير: (خوف أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم إلى آ خره). بأنكم لم توقنوا بالبعث، هذا التعليل أضفنا إليه تعليل آخر وهو عدم انفكاك جلودهم وسمعهم وأبصارهم، ولكن ظننتم أن عند استتاركم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون، هذا الذي ظنوه بالله، فظنوا بالله تعالى ظن السوء وأنهم إذا استتروا عن الخلق، استتروا عن الله، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والكثير الثاني ما يفعلونه علانية ولا يهتمون به.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ [مبتدأ]، ﴿ظَنُّكُمُ﴾ [بدل منه]، ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [نعت، والخبر] ﴿أَرْدَاكُمْ﴾، المؤلف أعرب الآية على وجه التفصيل، و﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ذا اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب جاءت بالجمع لأن المخاطب جماعة، وهنا يجب عليكم أن تعرفوا أن اسم الإشارة يعود إلى المشار إليه والكاف تعود إلى المخاطب، فكيف تقول: إذا خاطبت ذكرًا، تشير إلى شيء مذكر، ذلك، وكيف تقول: إذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا ذكرًا؟ ذانك، وإذا أشرت إلى واحد تخاطب اثنين؟ تقول: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدة تخاطب جماعة إناث؟ تلكن.

اسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطب، تشير إلى جماعة مخاطبًا جماعة ذكور؟ أولئكم. في القرآن ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾،

تشير إلى مؤنثتين تخاطب اثنتين؟ ذانكما.

وهل الأفصح في كاف المخاطب الإشارة أن تكون بحسب المخاطب، أو أن تكون بالإفراد المذكر دائمًا أم بالإفراد المذكر للمذكر والمؤنث للمؤنث؟

هناك أقوال ثلاثة وكلها لغات:

يعني: الكاف هل نلزمها بطريقة واحدة بالإفراد والفتح، مثلما نقول: ذانك، ذلك، تانك.

أو نلزمها بالإفراد مع الفتح للمذكر والكسر للمؤنث.

هذان وجهان أم نقول هي حسب المخاطب المفرد المذكر له كاف مفتوحة، والمفرد المؤنث بها لها كاف مكسورة، والمثنى كاف مقرونة بعلامة التثنية، وجماعة النساء كاف مقرونة بنون النسوة، وجماعة الذكور كاف مقرونة بميم الجمع.

الأخير هو الأفصح، لكن يجوز الوجهان الآخران.

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ قال المؤلف: [مبتدأ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدل منه]. ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [نعت، والخبر] ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾، يعني معنى أن قوله ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ وما عطف عليها صار صفة لها، في مقام المبتدأ و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ في مقام الخبر، هل يمكن احتمال وجه آخر؟ نعم، يمكن أن نجعل ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبره، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبر ثاني، وهذا الوجه أقوى في المعنى، يعني ذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم، يعني لن تظنوا به سواه، وأنه لن يعيدكم، ثم أخبر عن هذا الظن خبر آخر، فقال أرداكم، فهذا المعنى أقوى من قول المؤلف رحمه الله تعالى: أن ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلًا من ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾، وأن ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نعت له، وأرداكم خبر له.

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو الله عزَّ وجل، وأضاف الربوبية إليهم، لأنهم يقرون بربوبية الله، لاينكرونها، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وفي قراءة أخرى سبعية، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أرداكم يعني: [أهلككم]، قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فأصبحتم أي صرتم من الخاسرين، وهنا (أصبح) لو نظرنا إلى مجرد لفظها لكانت دالة على الإصباح، لكنها تستعمل في اللغة العربية بمعنى الصيرورة، تقول أصبح لا يعلم شيئًا أي صار لا يعلم شيئًا، وهنا ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ليس المعنى دخلتم في الصباح خاسرين، ولكن المعنى صرتم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، والخاسر ضد الرابح، وإنما قال من الخاسرين، لأن هؤلاء الذين أنكروا البعث خسروا الدنيا والآخرة في الواقع، فدنياهم لم تنفعهم وهم في الآخرة في النار وهذا غاية الخسران.

قال تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾

قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ أي: الأعداء ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يطلبوا العتبى أي: الرضا فما هم من المعتبين أي من المرضيين، انتبهوا لهذا الوعيد الشديد، ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، لم يقل: (إن يصبروا فلينتظروا الفرج)، بل قال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي ليس لهم إلا النار، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾، العذاب سوى عذاب الآخرة ينتظر الفرج له، لأن دوام الحال من المحال، فإذا صبر الإنسان على البلاء فالنهاية الزوال، لكن في الآخرة إن يصبروا فلن يسلموا من النار، ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهي مثوى لهم قبل الصبر وبعد الصبر، لكن هذا من باب التيئيس لهم وأن صبرهم لن يفيدهم شيئًا ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ [أي يطلبوا العتبى] أي الرضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾، لأنهم يسألون الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، والجواب: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لكن في الدنيا إذا طالبوا بالعتبى

وتابوا إلى الله لحصل لهم ذلك، لكن في الآخرة، قد فات الأوان.

وقوله: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي [مأوى]، وكل إنسان مأواه النار فلا حظ له في الجنة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات حقيقة النار؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٢- **ومنها:** إثبات أعداء لله كما أن له أولياء. وعدو الله من كان كافرًا فاجرًا.

٣- أن أهل النار ـ والعياذ بالله ـ يساقون إلى النار أوزاعًا، أي متفرقين، لقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** إثبات حقيقة النار وأن هؤلاء يصلون إليها حقيقة لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** دخول التوكيد في كلام الله عز وجل؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾؛ لأننا قلنا: إن ما زائدة ولكنها للتوكيد. فإن قال قائل: كلام الله عز وجل مؤكد بدون أداة توكيد، فما الفائدة في أن الله يأتي كثيرًا في كلامه بأدوات التوكيد؟ الجواب: أن القرآن لا شك أنه مؤكد، وأن أخباره لا تحتاج إلى توكيد لكن القرآن نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي يقتضي أن يكون الكلام الهام مؤكدًا بأنواع من التوكيدات. إذًا تأكيد ما يؤكد في القرآن دليل على بلوغ القرآن الفصاحة في أعلى معانيها لأنه متمشٍ على قواعد اللغة العربية الفصحى.

٣- **ومنها:** إثبات النطق للسمع والبصر والجلود؛ لقوله: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾، والشهادة تكون بالنطق، وقد تكون لغير النطق لكنها في الأصل في النطق، ولذلك قالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله.

٤- **ومنها:** أن أعضاء الإنسان تكون يوم القيامة خصومًا له، ووجه ذلك أن هؤلاء أنكروا على سمعهم وأبصارهم وجلودهم أن شهدوا عليهم، وما ظنك بأعضاء تكون يوم القيامة خصوما لك، إذنْ فالواجب على الإنسان أن يرعى هذه الأعضاء حق رعايتها، وألا يورطها فيما تكون خصمًا له به يوم القيامة.

٥- **ومنها أيضًا:** أن الأعضاء منفردة تعرف ربها عز وجل؛ لقولها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

٦- **ومنها:** عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

٧- **ومنها** أن ابتداع الخلق من الله، لم يشرك أحد رب العالمين في الخلق، لا أم ولا أب ولا سلطان، ولا رئيس ولا وزير، المنفرد بالخلق هو الله عز وجل.

٨- **ومنها** استعمال الأدلة العقلية في القرآن تؤخذ من استدلال الله تعالى بالمبدأ على الميعاد؛ لأن هذا دليل عقلي؛ فإن قال قائل: وهل تقدم الأدلة العقلية على الأدلة السمعية؟

الجواب: لا؛ لأن العقل قد يخطأ، فيظن الإنسان أن هذا عقل وليس بعقل، وأما الأدلة السمعية الثابتة عن الله ورسوله فهذه لا تخطئ، ولهذا أخطأ من استعمل العقل، بل قدمه على السمع والنقل فيما يتعلق بالله واليوم الآخر، وحكموا بعقولهم القاصرة على أمور الغيب استحالة أو وجوبًا أو جوازًا، وأعرضوا عن نصوص الكتاب والسنة، ومن هؤلاء جميع المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وغيرهم حيث جعلوا التلقي فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على الاعتماد على العقل.

٩- **ومنها**: إثبات الرجوع إلى الله عز وجل، فاستعد لهذا الرجوع واعلم أنك ملاق ربك ولكن أبشر إن كنت مؤمنًا، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني لا يخف المؤمن من هذه الملاقاة، بل له البشارة في الدنيا قبل الآخرة، لكن حقيقة هذه البشارة للمؤمن خاصة.

مسألة: هل عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح في أيديهم؟

الجواب: ظاهر النصوص أنه يسبح حقيقة، لكن قوله تعالى: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فباعتبار المجموع، لا باعتبار كل فرد، فإن من الأشياء ما نسمع تسبيحه فهو يسبح تمامًا، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ فالظاهر أنها تردد كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾.

مسألة: هل التسبيح كما نعرفه نحن أم خاص بهم؟

الجواب: لا، يقولون: سبحان الله.

مسألة: بعضهم قال: صوت خرير الماء تسبيح؟

الجواب: هذا خطأ صوت خرير الماء ليس تسبيحًا، هذا طبيعي، كأن نقول حركة الإنسان بالأرض وسماع لها صوت هذا تسبيح، هذا أيضًا خطأ.

مسألة: حول الاستعتاب.

الجواب: الاستعتاب طلب العتبى. والعتبى معناها قبول العذر والرضا، فالمؤلف فسرها في النهاية بالغاية، بل هي الرضا، لأن الإنسان إذا استعتب وقبل عذره رضي عنه المستعتب.

مسألة: قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ مخبرًا عن نفسه بضمير الغائب.

هذه لها أحوال لكن العلماء يقولون:

الجواب: أن المتكلم إذا عبر عن نفسه بضمير الغائب فهذا دليل على العظمة والتعظيم، ففرق أن يقول ملك من ملوك الدنيا: إن الملك يأمركم أن تفعلوا كذا، أو يقول: إني آمركم، هذه قاعدة في البلاغة، تعبير المخاطب عن نفسه بصيغة الغائب يدل على التعظيم. لا سيما بوصف يقتضي ذلك.

مسألة: حول وقوع العذاب على أهل النار.

الجواب: الواقع أن العذاب على أهل النار واقع على كل البدن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، هم يتعجبون ويوبخون السمع والأبصار والجلود لما شهدتم علينا ونحن نجادل عنكم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء المجرمين لا يؤمنون بالبعث، لقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾.

٢ - **ومنها**: تمام قدرة الله عز وجل وأنه قادر على إنطاق كل شيء، حيث أنطق السمع والأبصار والجلود.

٣- **ومنها أيضًا**: أن هؤلاء المجرمين يظنون أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون، وهو الذي يخفون، ولهذا كانوا يخفون عن الله عز وجل، ما يقعون فيه من الكفر.

أما قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

١ - **فيستفاد منها**: أن مثل هذا الظن سبب لهلاك المرء، أن يظن أنه لن يبعث فإن ظن ذلك كان سببًا لهلاكه بل هو هلاكه حقيقة، لأن الذي ينكر البعث كافر، والكافر لا حظ له لا في الدنيا ولا في الآخرة، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٢ - **ومنها**: أن هؤلاء المجرمين يظنون أنهم ربحوا المعركة باستخفائهم وهذا ينطبق تماما على المنافقين، ولكن حقيقة الأمر أنهم خسروا، لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٣- **ومنها**: أن أهل النار لن يخرجوا منها، سواءً صبروا أم لم يصبروا؛ لقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، ويبينه قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قال تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى أن النار لا تفنى لقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى

لَهُمْ﴾ وهذا أعني أن النار لا تفنى هو قول أهل السنة والجماعة، كما أن الجنة أيضًا لا تفنى، وقد زعم بعض العلماء أن النار تفنى في النهاية، ولكن هذا الزعم نهاية باطل، وهذا لا يستحق منزلة أن نقول ضعيف، بل نقول إنه باطل، لا ينبغي أن تسود به الصحائف، وذلك لأن كلام الله تعالى - الذي خلق النار وهو عالم بها وبمصيرها - فيه التصريح بالتأبيد، في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، الموضع الأول: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. الموضع الثاني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، الموضع الثالث: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فهل بعد هذا الكلام كلام؟! ولهذا الإنسان يعجب أن يقع من بعض العلماء: القول بأن النار تفنى مع وجود الآيات الثلاث، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ قد يكون فيها إشارة إلى أنها ستبقى أبد الآبدين، لأنه لو كان لها منتهى فسوف يعتبون في آخر النهاية.

٢- **ومنها**: إثبات النار؛ لقوله: ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، ومنها أنها هي المثوى وليس كما يزعم بعض الكتاب اليوم، يقولون: إن الميت إذا مات صار إلى مثواه الأخير، وقد بينا أن هذه الكلمة كلمة كفر، لو اعتقد الإنسان مدلولها، لو اعتقد أن القبر هو المثوى، ولا قيام بعده لكان كافرا، فيقال: إن القبر ليس المثوى الأخير.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال المؤلف: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: [سببنا]. والصواب أن معناها هيأنا لهم قرناء، وذكر الفاعل بضمير الجمع للتعظيم؛ لأن ضمير الجمع يراد به تارة التعظيم وتارة التعدد، وهنا لا يمكن أن يراد به التعدد لأن الله إله واحد، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [من الشياطين] والمراد بالشياطين: شياطين الإنس وشياطين الجن، لأن هناك قرين خفي، وهو قرين الجن، يأمر الإنسان بالسوء وينهاه عن الخير، وهناك قرين سوء من الإنس ولهذا مثل النبي

ﷺ قرين السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[1]، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، (زينوا) أي القرناء لهم، أي: للمقترنين بهم، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، يقول المؤلف: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، واتباع الشهوات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [من أمر الآخرة لقولهم لا بعث ولا حساب]، نعم هؤلاء القرناء حسنوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وقالوا لهم اتبعوا الشهوات، كونوا كما شئتم، أترفوا أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ومنوهم وما خلفهم أي ما أمامهم، لأن الخلف والوراء قد يراد به الأمام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، إذنْ زينوا لهم الآخرة أيضًا، لأنهم منوهم بأحد أمرين، إما بالنجاة من العذاب، لقوله: [لا بعث ولا حساب]، وإما بأن ينتقلوا إلى خير من ذلك، ويقولوا: (إن الذي أترفنا في الدنيا سوف يترفنا في الآخرة)، كقول بعضهم: هذا لي ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده الحسنى، كقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فهكذا يمني الشيطان أولياءه، يقول: انبسطوا في الدنيا أترفوا أنفسكم وفي الآخرة سوف تنتقلون إلى ما هو أفضل، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ومنوهم الأماني.

قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: وجدوا، القول: قول الله تبارك وتعالى: فما هو القول الذي حق؟ فسره المؤلف: بأنه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقيل القول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ونقول كما أسلفنا في قاعدة التفسير: إن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا مرجح لأحدهما عن الآخر، ولا منافاة بينهما، فإنها تحمل على المعنيين جميعًا، نقول حق عليهم قول الله تعالى: ﴿﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ وهذا في الدنيا، يعني مهما عالجت الإنسان الذي حقت عليه كلمة الله فإنه لن يهتدي، وحقت عليهم كلمة الله في الآخرة وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إذنْ لا فائدة، إن أبرز مثلٍ عندنا في هذا ما حصل للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه أشد المدافعة ويؤويه وينصره ويشهد أنه الحق لكنه لم ينقد إلى ذلك ولم يتبع، هل أغنى عنه من الله شيء؟ لا، عند موته يقول: «يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله»[2]، ولم ينفعه ذلك، كان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، لأن أبا طالب عند موته حضره النبي ﷺ وحضره رجلان من كبار قريش، فكان الرسول يقول: يا عم قل لا إله إلا الله وهما يقولان له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ يعني على ملة الكفر، فكان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، مع أنه يقر ويعترف بأن الرسول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨/١٤٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤/٣٩) من حديث المسيب رضي الله عنه.

حق، يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

ويقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

أي: بقول السحرة فهو ليس بساحر، ومع ذلك قد حقت عليه الكلمة ـ نسأل الله العافية، ويحسن الله لنا ولكم الخاتمة ـ حقت عليه الكلمة أي أنه لم يؤمن، يقول: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ يعني: في [جملة] ﴿أُمَمٍ﴾، واحتجنا إلى قوله في جملة يعني إدخال جملة وإن كانت معروفة في السياق، لأنه لو قال في أمم لكان هؤلاء مشاركين في كل الأمم الماضية والمستقبلة مع أنهم في أمتهم وحدهم، فيكون المعنى في أمم في جملة أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: [هلكت] ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ إلى آخره، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾، أي: من قبل هؤلاء المكذبين. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، الجن: هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نار؛ لأن أباهم إبليس كان من نار؛ ولهذا كان شأنهم أو كان حالهم الطيش والسرعة والاندفاع كالنار في لهبها، فهم أعني الجن خلقوا من نار، وهم مكلفون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولكن هل الأعمال التي كلفوا بها هي الأعمال التي كلف بها الإنس، أو غيرها؟، إن نظرنا إلى عمومات الأدلة، قلنا إن الجن مكلفة بما كلف به الإنس، لأن الشريعة التي بين أيدينا لم تأت بشريعة للجن، فهي شريعة واحدة، ورسول واحد، فهم مكلفون مثلًا بصلاة كصلاتنا ووضوء كوضوئنا، وحج كحجنا، وصوم كصومنا، وصدقة كصدقتنا. كل ما نحن مكلفون به هم أيضًا مكلفون به، إذ إننا لا نرى في الشريعة التي بين أيدينا تشريعات للجن، هذا ما إذا نظرنا إلى عموم الأدلة، أما إذا نظرنا إلى حكمة الله في شرعه قلنا: إنهم مكلفون بشريعة تليق بهم، فكما أن الإنس إذا اختلفوا يجعل لكل صنف ما يليق بهم، فكذلك الجن، والجن مخالفون للإنس في الحد والحقيقة، مخالفون تماما للإنس، فتكون شريعتهم خاصة تليق بهم، لكن تحذير الظلم والشرك والعدوان وما أشبه ذلك هذا عام على الجن والإنس، إنما أريد التكليفات البدنية، كالصلاة مثلًا، هل صلاتهم كصلاتنا، أو صيامهم كصيامنا؟ هذا هو محل الخلاف بين العلماء: منهم من يقول إن الجن مكلفون كما كلف الإنس تمامًا، وحجة هؤلاء: عموم الأدلة التي بين أيدينا لا نجد فيه أحكامًا تخص الجن، فالأصل العموم أن ما كلف به الإنس هو ما كلف به الجن، والقول الثاني: أن الجن مثل الإنس في العبادة وما كلفوا به، أو يختلفون، ووجه ذلك: أننا نجد من حكمة الله أن التشريعات مناسبة للمكلف بها، فمثلًا المريض يصلي قاعدًا، المسافر يؤخر الصوم، والذي لا يستطيع الركوب على الرحل لا يحج، فإذا كانت هذه الاختلافات تكون بين الإنس لاختلاف أحوالهم، فما بين الجن والإنس من باب أولى، ولكن هناك أشياء لا جدال فيها. ومنها

تحريم الشرك والظلم والعدوان وما أشبه ذلك، ولهذا نجد كثيرًا من العلماء الذين يقرأون على من مسهم الشيطان، يذكرونهم بتحريم الظلم وأنه حرام وأنهم معتدون وما أشبه ذلك. مما يدل على أنهم ملتزمون بهذا.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ إذنْ الجن عالم غيبي خلقوا من النار مكلفون بشريعة النبي ﷺ إلزامًا؛ لأنه مرسل إلى الجن والإنس، لكن، لا نعلم هل هم ملزمون بذلك أم لا؟

لكنهم مأذون لهم أن يعملوا بها قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ مما يدل على أنهم انتفعوا بكتاب موسى، أنزل من بعد موسى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فهم ملزمون بالعمل بشريعة محمد ﷺ، قلنا: إنهم عالم غيبي، فهل يمكن أن يبرزوا للناس يوم من الأيام؟ نعم، ربما يبرزون لبعض الناس ملونين، يعني يتلونون، هم يتلونون، قد يتراءى الجني للإنسي بصورة إنسان ضخم كبير عظيم، أو بصورة هيكل له قرون وله آذان وله أرجل طويلة وما أشبه ذلك، هم يتلونون، وأما ما زعم بعض الناس بأنهم أجسادًا ليس فيها عظيم، وإذا لمسته وجدته رقيقًا جدًّا، وأن أعينهم مشقوقة الطول هكذا، فهذا كل لا أصل له، إذنْ نقول: هم عالم غيبي، ويدل لذلك المادة التي يوصفون بها، يعني الجن، لأن الجيم والنون تدل على التستر والخفاء، أرأيتم الجنة، الجنة هي البستان كثير الأشجار، أما الجِنَّة الجُنَّة ما يتخذه المقاتل لحماية نفسه من السلاح يستتر به، والإنس هم هؤلاء البشر من بني آدم وسموا أنسًا؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، ولهذا قيل إن الإنسان مدني بالطبع، ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ﴾ أي الذي حق عليهم القول ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾، كانوا متى؟ أي في علم الله وليس يوم القيامة؛ لأنه لو كان كذلك لقال: (يكون)، لكن (كانوا) في علم الله عز وجل وتقديره خاسرين، ولكن اعلم أنه لا يمكن لأحد أن يضل إلا وهو السبب في ضلال نفسه، لدينا آية من كتاب الله حاكمة على كل ذلك، على كل ما يتوهم أن الضلال مقدر من عند الله تعالى ابتلاءً وامتحانًا ـ إن كان الأمر كذلك ـ لكن سبب ضلال الإنسان هو نفسه، قال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فماذا نفعل؟ فاعلم أن كل شيء من المعاصي فأنت سببه، وإن شئت فاقرأ قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يا لها من موعظة في هذه الآية، أنك إذا توليت عن أمر الله فاعلم أن ذلك بذنبك، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، فصار الإعراض عقوبة، وهذا أمر قد لا يتفطن له بعض الناس، إعراضك عن الله عز وجل وعن دين الله هو عقوبة بيد الله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا

مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

مسألة: حول هل هناك ناران؟

الجواب: هناك تقسيم أورده ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» و«شفاء العليل»، وكذلك في «الوابل الصيب» في نار جهنم؛ حيث قسَّمه بحسب من هم فيها، فإن كان فيها الكفار فهي تدوم ولا تفنى، وأما إن دخلها العصاة من المسلمين، فهي تفنى؛ وذلك لأن أهلها خرجوا منها، وهذا التقسيم قوي والإنسان يميل إليه من الناحية العقلية، ولكن ما الدليل على هذا؟ ولكن المذكور أنها نار واحدة، فكلامه يوافق العقل، فإن كان صوابًا فهذا توفيق من الله وإن كان خطئًا فنسأل الله أن يعفو عنه، وهو تقسيم قوي ولأنه يوافق أن تكون هناك نارين.

مسألة: حول عدم تقديم كلام أحد من الناس على كلام الله وكلام رسوله؟

الجواب: لا يجوز أبدا أن نعرف الحق بالرجال، بل نعرف الحق بالدليل، فما دام بين أيدينا كلام الله عز وجل كيف نفكر أو نرجح نقول قال فلان أو قال فلان، لو قال أكبر الناس - ما عدا الرسول ﷺ - قلنا: لا سمع ولا طاعة ولا تصديق ولا إيمان، بين أيدينا كلام الله عز وجل والخالق عز وجل والعالم عز وجل.

مسألة: هل يرسل إلى الجن رسل؟

الجواب: يقول عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾. وقال العلماء: إنه لا يكون رجال من الجن، ولكن في هذا نظر لأن سبحانه قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ فيقال: الجن من أهل القرى، قال أنت فيها والجن فيها أيضًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل في قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾؛ لأن ﴿نا﴾ تفيد العظمة.

٢ - **ومن فوائدها:** الرد على المعتزلة الذين يقولون بأن العبد مستقل بعمله، ولا علاقة لله تعالى به، والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام: القسم الأول: من قال إن الإنسان مجبر على عمله وليس له إرادة ولا اختيار، وأن فعله الاختياري كفعله الاضطراري، فالذي يذهب ويجيء باختياره، كالذي يرتعش أويمشي مجنونًا في الارض وهذا مذهب الجبرية، وزعيمهم الجهم بن صفوان الذي تتلمذ على يد الجعد بن درهم.

القسم الثاني: من قال: إن العبد مستقل بعمله وليس لله فيه علاقة فالإنسان مريد مختار وليس لأحد عليه سلطة وهذا مذهب القدرية والمعتزلة، وهؤلاء القدرية يسمون مجوس هذه الأمة لأنهم

ادعوا أن للحوادث خالقين فالحوادث التي من فعل الله هي من فعله، والحوادث التي هي من فعل العبد هي من فعله استقلالا، وهؤلاء هم المعتزلة ومن ضاهاهم وزعيمهم واصل بن عطاء.

القول الثالث: من قال إن العبد له إرادة واختيار، ولكن إرادته واختياره تابعة لإرادة الله تعالى ومشيئته وهم السلف الصالح أهل السنة والجماعة. فقالوا: إن العبد هو القائم الصائم الراكع الساجد، هو العبد وليس الله وقالوا إن هذه الأفعال تنسب إليه، وما أكثر ما في القرآن، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ و﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وما أشبه ذلك، لكنها لم تقع خارجة عن قدرة الله ومشيئته، بل هي تحت قدرة الله ومشيئته، وفائدة ذلك أنه إذا وقع الفعل منا أن الله قد شاءه وأراده ولسنا مستقلين به.

فهذه الآية: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ترد على الطائفتين جميعا، ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ ترد على القدرية، ﴿فَزَيَّنُواْ﴾ نسبت الفعل إليهم فترد على الجبرية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر من الوساوس التي يلقيها الشيطان لفاعل المعصية ويزينها لها، ويقول هذه سهلة، الله غفور رحيم، افعل هذا ثم تب وما أشبه ذلك، احذر هذا؛ لأن هذا وعد الشيطان، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

٤- **ومنها:** أن هؤلاء الذين تابعوا القرناء قد خسروا، لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين استحسنوا ما زينوا لهم القرناء حق عليهم القول، وسبق أن القول على رأي المؤلف، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وعلى ما ذكرناه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولا يبعد أن يكون المراد بذلك الأمرين جميعًا.

٦- **ومن فوائد الآية:** كثرة الضالين لهؤلاء القرناء، لقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ
(٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ
(٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
(٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:٢٦-٢٩]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ [عند قرءاة النبي ﷺ للقرآن] ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني بعضهم يوصي بعضهم، يقول: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي لا تنصتوا له ولا تستمعوا إليه وابتعدوا عنه، وذلك لأن القرآن يؤثر في قلب من يسمعه، حتى إن بعض المشركين من كبرائهم يأتون إلى النبي ﷺ يستمعون قراءته اختفاءً بالليل، لأجل أن يطلع عليه؛ لأنهم يستمعون قولًا يسلب العقول، ويأخذ بالنفوس، فهم يوصي بعضهم بعضًا، يقول: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، والقرآن كلام الله وهو على وزن فُعْلَان، وفعلان مصدر، كالغفران والشكران، وهل هو من (قرأ) وأم مِن (قرى) أو منهما جميعًا؟

نقول: هو صالح للجميع، فإن كان من (قرأ)، أي من القراءة والتلاوة، وهو من (قرى) أيضًا بمعنى جمع، ومنهم القرية؛ لأنها تجمع أقوامًا، فالقرآن جامع ثم هل هو فاعل أو مفعول؟ إذا كان من (قرأ) فهو بمعنى مقروء فهو مفعول، وإن كان من (قرى) فهو بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، أي أنه مشترك بين فاعل ومفعول، فهو جامع وهو مجموع بأنه يكتب وتجمع حروفه بعضها إلى بعض، والمراد به ما نزل على محمد ﷺ. ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [بهذا القرآن]، المراد بالإشارة هنا التحقير، يعني هذا لا يساوي شيئًا لا تسمعوا إليه، ويشبه هذا من بعض الوجوه، قوله أحدهم ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ احتقار، أهذا الذي يسب من هو؟ ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وهذا للاحتقار ولكنه يستفاد من الاستفهام، أما هنا فهو مستفاد من الإشارة الدالة على التحقير، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، [ائتوا باللغط ونحوه وصيحوا في زمن قراءته]، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي عندما تسمعون رسول الله ﷺ يقرأ صوتوا وتصايحوا لأجل أن تخلطوا عليه قراءته، وتحولوا بينه وبين السماع، يعني فهم يفعلون ذلك لأمرين، الأول: التخليط على النبي ﷺ في قراءته، والثاني: ألا يسمع أحد قراءته من أجل الضوضاء واللغط، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذه (لعل) للتعليل، وكما تعلمون أن (لعل) تأتي للتعليل وتأتي للإشفاق، وتأتي للترجي، وتأتي للتمني، كل هذه المعاني تختلف بحسب السياق؛ لأن السياق هو الذي يحدد معاني الكلمات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فيسكت عن القراءة]؛ لأنه إذا سمع الأصوات والضوضاء والضجة، واختلطت عليه قراءته فإنه لا يجد فائدة من القراءة وحينئذ يسكت، هذا ما يفعله هؤلاء المشركون.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** خوف المشركين وانزعاجهم من تأثير قراءة النبي ﷺ، وجه ذلك أن بعضهم يوصي بعضا بألا يستمعوا لهذا القرآن.

٢- **ومنها:** قوة تأثير القرآن على سامعه، وهذا هو الواقع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ لكن القرآن إنما يؤثر على من يفهم اللغة العربية ومعاني الكلمات، وأما الأعجمي حقيقة أو حكمًا فإنه لايتأثر به، ثانيًا: إنما يؤثر القرآن كمال التأثير على المؤمن به، أما المكذب والمستكبر فلا، حتى إنه يقول هذا أساطير الأولين.

٣- **ومن فوائدها:** أنه لا يجوز اللغط والضوضاء حين قراءة القرآن، فإما أن تستمع إليه وإما أن تقوم، أما أن تجلس إلى قارئ القرآن وتحدث الأصوات واللغط والضوضاء، فهذا أقل ما فيه أنه شبيه بصنيع المشركين، هذا أقل ما فيه، يعني لو قدرنا أن هؤلاء القوم الذين عندهم اللغط والضوضاء لا يريدون أن يشوشوا على القارئ ولا يريدون ألا يستمع قراءته أحد ، نقول: أدنى ما فيه أنه مشابه لعمل المشركين، ويتفرع على ذلك ما يفعله بعض الناس في متاجرهم ومساكنهم يفتحون القرآن على المسجل ويجعلونه يقرأ وتجده في ضوضاء وفي كلام قبيح وفي كذب ـ وهذا إهانة للقرآن ـ فنقول إما أن تستمع إلى كلام الله و إما أن تغلقه، أما أن يبقى يقرأ ـ وهذا يكذب وهذا يلعن وهذا يغش ـ فهذا في غاية الإمتهان لكلام الله عز وجل، وإما إن يجهل الإنسان فإن صورته صورة الامتهان.

٤- **ومنها:** أن التشويش على الداعية، قد يظن فاعله أن يغلب ويصل إلى مقصوده ولكن ليس الأمر كذلك، ووجه الدلالة من هذا أن هؤلاء المشركين لم يحصل لهم مطلوبهم من الغلبة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، ويدلنا على القسم توكيد الفعل واللام أيضًا، والثاني: اللام، والثالث: النون، ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ...﴾ أي لنعذبنهم عذابًا يذوقون ألمه، وهو كناية عن شدة هذا العذاب الذي يصل إلى مذاقهم حتى كأنه شيئ محسوس يتذوقونه بأفواههم، ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ المراد بالذين كفروا من سبق، وهم الذين قالوا ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾، وحينئذ يقول قائل: لماذا لم يضمر فيقول: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾؟ نقول: هنا إظهار في موضع الإضمار، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، الفائدة الأولى: تنبيه المخاطب، كيف ذلك؟ لأنه جرت العادة أنه إذا كان السياق يقتضي الإضمار فإنه يأتي الإضمار، فإذا جاء الإظهار صار هذا على خلاف العادة، العادة أن الكلام إذا كان في سياق الإضمار فإن الذي يأتي هو الإضمار يعني الضمير، فإذا جاء الظاهر موضع الضمير فسوف يتوقف الإنسان، لماذا جاء الظاهر موضع الضمير؟ فيكون في ذلك انتباه له. والفائدة الثانية: الحكم على مرجع الضمير بمقتضى هذا الاسم الظاهر، فدلالة المعنى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إذنْ الحكم عليهم بالكفر وهكذا كلما جاء في هذا الموضع. الفائدة الثالثة: العموم، لو قال: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾ صار هذا الوعيد خاصًا بالذين قالوا: ﴿لَا

تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فإذا قال ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صار عاما لهم ولغيرهم.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ هنا ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ منصوب، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصبه ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، (ونذيق) فعل ينصب مفعولين، ودليل أن (نذيق) تنصب مفعولين، أنه لدينا قاعدة: أن الفعل إذا تعدى لواحد فأدخلت عليه همزة التعدية تعدى إثنين، وإذا كان يتعدى لاثنين فأدخلت عليه الهمزة، تعدى إلى ثلاثة، مثل: (ذاق) تتعدى إلى واحد، مثل: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا»(١)، فإذا دخلت عليه الهمزة، تعدت إلى مفعولين، ورأى تقول: (رأيت الرجل قائمًا)، تنصب مفعولين، فإذا دخلت عليه الهمزة تعدت إلى ثلاثة، (أريت زيدًا الرجل قائمًا)، هذه قاعدة عربية مضطردة، إذا كان لازمًا فدخلت عليه الهمزة تعدى لواحد، إذا كان متعديًا لواحد فدخلت عليه الهمزة تعدى لاثنين، وإذا كان متعدى لاثنين فدخلت عليه الهمزة تعدى الى ثلاثة.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ ﴿عَذَابٗا﴾ أي القوة، ﴿شَدِيدٗا﴾: قويًا ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ معطوف على ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ هذه تنصب مفعولين الأول الهاء والثاني أسوأ، ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، أي: [أقبح جزاء عملهم] ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. هل هم يجزون أسوأ الذي كانوا يعملون؟ أو يجزون جزائهم؟ هم يجزون الجزاء العمل منهم ليسوا مُجْزِيين به، هم الذين عملوا، فإذا قال ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ صار المراد أسوأ الجزاء، وليس المراد أسوأ العمل؛ لأن العمل في فعل العبد، والجزاء فعل الله به، والمراد فعل الله به ولهذا قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾، فإذا قال قائل لماذا عبر بالعمل عن جزائهم؟ نقول: إشارة إلى أن الجزاء بقدر العمل، ولهذا قال العلماء: (الجزاء من جنس العمل)، لكنه بالنسبة للسيئات عدل، وبالنسبة للحسنات فضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها، وقوله: ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ظاهر الآية أن الله يجزيهم أسوأ عملهم، وغير الأسوأ ما دون الأسوأ يعني: السيئ، فهل يجازى الكافر بكل أعماله أو بأقبح أعماله؟ هذا ينبني على: هل الكافر مخاطب بفروع الشريعة أم لا؟ يعني مثلًا الكافر هل هو مخاطب بصلة الرحم هل هو مخاطب بالصدق؟ هل هو مخاطب بالصلاة؟ هل هو مخاطب بالزكاة؟ وما أشبه ذلك، في هذا خلاف بين العلماء والصحيح أنه مخاطب، مخاطب بفروع الأعمال، لأن إذا كان المسلم مخاطب به، فالكافر من باب أولى، كيف نقول إن المسلم يجازى ويعاقب على عقوق الوالدين والكافر لا يعاقب، لا يمكن هذا؟

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٦/ ٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ.

الصواب: أنهم مخاطبون بفروع الشريعة، لكنهم غير مخاطبين بفعلها.

يعني: لا يقال لكافر مثلا يشرب الدخان، حرام عليك، هذا غير لائق، ادعوه أولا للإسلام ثم كلمه، إذنْ يخاطب بفروع الشريعة ليس معناه أنه مخاطب بفعلها، وأيضًا ليس معناه أنه مخاطب بفروع الشريعة أنه يقضيها إذا أسلم، لأن الله قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، إذنْ ما الفائدة؟ قال العلماء: الفائدة من قولنا: إن الكافر مخاطب بفروع الشريعة هو زيادة عقوبتهم في الآخرة، أنهم معاقبون عليها، وهذا حق، أصحاب اليمين يتساءلون عن المشركين، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾، يعني: ما الذي أدخلكم النار؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾، فذكروا الصلاة وإطعام المسكين وهما من فروع الشريعة، فعلى القول بأنهم لا يجزون بفروع الشريعة، نقول نعم يوم القيامة لا يجزون إلا على أسوأ أعمالهم وهو الكفر، لكن على القول الراجح، أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ومعاقبون عليها، يكون هنا الأسوأ ذكر الأسوأ؛ لأنه هو الأشد، والمقصود هنا التهديد، وهل الإنسان هنا يهدد بالأخف أو بالأشد؟ بالأشد، هذا هو الظاهر والله أعلم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: رفع أجزاء عملهم.

في الآية الكريمة هنا وعيد لهؤلاء الكفار بالعذاب الشديد، وهذا من أساليب القرآن، أن الله تعالى يهدد الكافر والمشرك وغيرهم ممن أساءوا، وفيه دليل على أنه ليس من القدح أن يقوم الإنسان بطاعة الله خوفًا من عذاب الله، أنه لا حرج وليس من القدح أن يتجنب الإنسان معصية الله خوفًا من عقابه، خلافًا لمن قال: اعبد الله لله لا طمعًا في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وهؤلاء ترد عليهم النصوص كلها، بل إن الله جعل العقوبة في الدنيا سببًا للردع عن المعاصي، قال الله تعالى في قضية السارق ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فلم يجعل الله الحدود إلا من أجل أن يخاف الناس منها ويجتنبوا المعاصي، والقرية التي دمرت، قرية بني إسرائيل حتى صار أهلها قردة خاسئين، لماذا؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، فالحاصل أنه لا حرج على الإنسان أن يدع المعاصي خوفًا من عقوبة الله الدنيوية أو الأخروية ولا يعد ذلك قدحًا في سلوكه ومنهجه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات العذاب. ويكون العذاب في الدنيا وفي القبر وفي

الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو عذاب الدنيا ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا يتعين بأن المقصود بالعذاب الأدنى ليس عذاب القبر كما قيل، بل هو عذاب الدنيا، لأن عذاب القبر لا يمكن فيه الرجوع، فإذنْ العذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»(١).

٢- **ومن فوائد الآية:** إثبات الجزاء بالأسوأ؛ لقوله: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل، فالجزاء الصالح للعمل الصالح، والجزاء السيء للعمل السيء، وهذا - سبحان الله - حتى في مجازاة الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فإذا أساء إليك إنسان بسيئة فلك أن تقابله بمثلها وإن عفوت وأصلحت فأجرك على الله.

مسألة: حول من يفتح الإذاعات في التلفاز أو المسجل لسماع القرآن، فأحيانا يكون في البيت، ولكن لا يكون منتبهًا له، ولا يتخذ أحاديث السباب واللعان والشتم والكذب والغش، ولكنها أحاديث جانبية، فهل هذا من اللغو؟

الجواب: هذا لا يعد لغوًا فقد يقرأ الرجل القرآن وقلبه ليس بحاضر، أما إن امرأة تطبخ وتستمع إلى القرآن، فهذه لا يوجه الإنكار عليها.

مسألة: حول الآية التي تقول: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الجواب: قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الوعيد هنا في الآخرة.

مسألة: حول أدلة عذاب القبر؟

الجواب: قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

مسألة: حول مفهوم اللغو في القرآن ومعنى الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟

الجواب: لا يجب الاستماع في غير الصلاة ولكن لا يجوز اللغو، كما قال الإمام أحمد: إن العلماء

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/ ١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أجمعوا على أن الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تكون في الإنصات أثناء الصلاة لأنه لو قلنا بوجوب الإستماع، لقلنا أنه لو شرع قارئ أن يقرأ وأنت بجواره فحرام عليك أن تقوم.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يقول المفسر: [﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الشديد، وأسوأ الجزاء ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، بتحقيق الهمزة الثانية]، يعني: في ذلك قراءتين، الأولى تحقيق الهمزة ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ والثانية: قلبها واوًا ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، وهذا في كل همزة بعد واو، أن تحقق أو تقلب واوًا، ولهذا قول المؤذن: الله وكبر يعني يجوز ابدال الهمزة واوًا، وتحقيقها: الله أكبر، وهذه اللغة تهون علينا ما يفعله بعض المؤذنين من قلب الهمزة واوًا. فتجدهم يقولون: الله وكبر كما تهون علينا أيضًا اللغة التي تنصب الجزأين في إن وأخواتها؛ حيث إن بعض المؤذنين يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله فإن نصب الجزأين بأن فهي لغة عربية ثابتة، ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ أعداء الله تعالى هم الذين نصبوا له العداوة، وذلك بمحاربته بالمعاصي، ومنهم الذين آذنوا بحرب من الله ورسوله (أكلة الربا)، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، المهم أن عدو الله من نصب له العداوة، وذلك بمحاربته بمعاصيه، وقوله: ﴿النَّارُ﴾ [عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك] ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾، يعني كلمة ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك، فأفادنا أن (ذا) مبتدأ ﴿جَزَاءُ﴾ خبر، و﴿النَّارُ﴾ عطف بيان له، ذلك جزاء أعداء الله، كأن الكلام على إعراب المؤلف انتهى، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان لهذا الجزاء، ويحتمل أن تكون ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾، أن تكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ عطف بيان له، لكن ما ذهب إليه المؤلف أقرب للقوام، ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: [إقامة لا انتقال منها]، ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أضاف الدار إلى الخلد من باب إضافة الموصوف إلى صفته، يعني دار الخلود، التي ليس فيها انتقال، ويجوز أن تكون من باب إضافة الشيء إلى نوعه، لأن الدور تنقسم إلى أقسام: دور هي دور انتقال، ودور هي دار خلد، فدور الانتقال، الأول: بطن الأم، والثاني: الحياة الدنيا، والثالث البرزخ، و﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ هي الأخيرة، ويذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال والله ما الزائر بمقيم، وإن هناك دارًا أخرى، وهذا لا شك أنه من قوة الاستنباط والفهم، ﴿جَزَاءً﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر. منصوب على

المصدر، والمصدر لا بد له من عامل، والعامل تارة يكون من لفظ المصدر، وتارة يكون من معناه، فإذا قلت: (قمت وقوفًا)، فالعامل من معناه، وإذا قلت: (وقفت وقوفًا) فالعامل من لفظه، فالمقدر يقدر من لفظه، ولا يقدر من معناه، لأننا لا نلجأ إلى تقدير المعنى إلا إذا وجد أمامنا ما يختلف في لفظه، وأما إن لم نجد فنقدر من لفظه، وعلى هذا يكون التقدير يجزون جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بكونهم يجحدون، وعلى هذا فـ(ما) هنا مصدرية ولا تصح أن تكون موصولة، وقوله ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [القرآن] ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يكذبون، وإنما قدرنا يكذبون من أجل تعديها بالباء؛ لأن جحد تتعدى بنفسها، فيقال: جحدت الشيء يعني: أنكرته، لكن إذا عُدي المعمول بالباء، صارت الجحود مضمنا معنى التكذيب، أي بما كانوا يكذبون بآياتنا.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن جزاء أعداء الله النار ولابد؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وبيّن الجزاء وهو النار.

٢- **ومنها:** بيان خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، والتخليد هنا المقطوع به مؤبد، لأن الله تعالى صرح به في آيات ثلاث: في النساء وفي الأحزاب وفي الجن، ففي النساء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفي سور الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٣- **ومنها:** إثبات عدل الله عز وجل، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب ويستفاد من قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسببية.

٥- **ومنها** أن التكذيب بآيات الله ردة، لأن الله وصف المكذبين بأنهم أعداء، وأن جزائهم دار الخلد، وهذا أمر متفق عليه، وهو أن من كذب الله ورسوله، فإنه مرتد كافر يستتاب فإن تاب وأقر وإلا قتل، فإن قال قائل: من المعلوم أن من كذب شيئًا من القرآن فهو مرتد؛ لأن القرآن ثبت بالتواتر، فهل من كذب شيئًا من السنة يكون كذلك، نقول إذا صحت السنة وقال القائل: أنا أعلم أن هذا من كلام الرسول لكنه ليس بصحيح. فهذا مرتد، لأنه أقر بصحة نسبته إلى الرسول،

ثم كذبه، أما لو كذبه بناء على استبعاده أن يكون صدر من الرسول ﷺ فهذا لا يكفر لأنه متأول، ولكن يجب عليه أن ينظر مرة بعد أخرى حتى يتبين له الأمر، إذنْ من كذب شيئًا من القرآن فهو كافر بدون تفصيل، لثبوت القرآن ثبوت لا تواتر مثله في أي كتاب. ومن كذَّب شيئًا من سنة الرسول ﷺ فإذا قال: إن هذا كلام الرسول حق لكنه ليس بصحيح فهو كافر، لأنه كذب ما اعترف أنه قول رسول الله، وأما إذا قال: لا ـ إنه ينكره ـ لأنه لم يثبت عنده فهو لا يكفر وإن ثبت عند غيره.

٦- **ومنها:** أن آيات الله بينة ظاهرة لا يمكن أن يكذب بها أحد، لقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وتخصيص المؤلف رحمه الله ذلك بالقرآن فيه شيء من النظر، بل يقال: إنه أعم.

٧- **ومنها:** إثبات عظمة الله؛ حيث أتى بضمير الجمع، ولم يقل: (بآياتي) بل قال: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، ولا شك أن الله تعالى له العظمة المطلقة من كل وجه.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا بالله سبحانه وتعالى، بسبب إضلال الشيطان من الجن والإنس، قالوا الذين كفروا، [أي: في النار]، ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ قوله: [في النار]، هذا قيد لا يدل عليه القرآن؛ لأنه يحتمل أن يكون ذلك في النار أو في عرصات يوم القيامة ـ الله أعلم ـ ولكنهم لا بد أن يقولوا هذا القول، قال ﴿أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ ﴿أَرِنَا﴾ أي: اجعلنا نرى، ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، ﴿الَّذَيْنِ﴾ اسم موصول مثنى، والمراد الجنس، لا الواحد، وقوله: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ بيان للذي، قال المؤلف: [أي إبليس وقابيل سنَّا الكفر والقتل]. يعني معناه أن المؤلف رحمه الله حمل هذا العموم على التعيين فقال: ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ مثنى إثنين، أحدهما: إبليس سن الكفر هو أول من كفر، والثاني: قابيل سن القتل، فالأول أول عدوانًا في حق الله، والثاني أول عدوانًا في عباد الله، أما إبليس فأول من سن الكفر لأن الله أمره أن يسجد لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين، وأما قابيل فأول من سن القتل بغير حق، لأنه قتل أخاه حسدًا وبغيًا، قرب قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وقد يكون كيفية قبول القربان بنار تنزل فتأكل القربان الصالح، كما كان يفعل في الغنائم سابقًا أو بغير ذلك من العلامات، المهم أن أحدهما تقبل منه والآخر لم يتقبل، الذي تقبل منه هابيل، والثاني قابيل لم يتقبل منه، فحسده وقال لأقتلنه، فقال له أخوه هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، كأنه يقول: اتق الله فيتقبل منك،

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: إن أردت أن تقتلني فسوف أكف أنا يدي؛ لأني أخاف الله.

ولعل هذا كان في شريعة من سبق، أنه لا يجوز للإنسان أن يدافع عن نفسه، أو أنه خاف من مفسدة أكبر، ومعلوم أن دفع المفسدة الأكبر أمر واجب، ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهلت له ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكان قابيل أول من سن القتل بغير حقه، وصارت كل نفس تقتل بغير حق فعلى قابيل شيء من وزرها ـ والعياذ بالله ـ؛ لأنه أول من سن القتل، «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١)، لكن هل الأمر كما قال المؤلف، إنه الشيطان الذي أبى واستكبر عن السجود لآدم وقابيل، أم المراد الجنس، الصواب الثاني بلا شك، لأن كثيرًا من الكافرين، لا يخطر ببالهم أنهم كفروا تأسيًا بالشيطان الذي أبى واستكبر وكثيرًا من القتلة لا يتأتى بباله أنه فعل ذلك تأسيا بقابيل، فإذا كانت الآية تدل بلفظها على العموم والمعنى يقتضي ذلك، فإنه لا وجه لكوننا نخصها بمعين.

وهذه قاعدة يجب أن نفهمها من قواعد التفسير، أن اللفظ العام لا يجوز أن يقتصر فيه على بعض أفراده إلا بدليل. فإن لم يكن دليل فالواجب العموم.

هنا نقول الواجب العموم؛ لأن اللفظ عام، ولأن المعنى يقتضيه، بأن كل إنسان كافر قد لا يخطر بباله أنه متأسٍ بالشيطان، كل إنسان يقتل عمدًا بلا حق، لا يخطر بباله أنه قتل تأسيًا بقابيل، وحينئذ فاللفظ لا يساعد والمعنى لا يساعد، أعني لا يساعدان على التخصيص بإبليس وقابيل، وقوله ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الجن على كلام المؤلف: [هو إبليس]، والإنس: [هو قابيل]، والصواب العموم. فإن قال قائل: نحن نعلم أن الإنسان يضله البشر، يأتي إنسان سيء ويضله، لكن كيف يكون من الجن؟ نقول: لأن الجن وعلى رأسهم الشيطان يأمر الإنسان بالفحشاء، ويأمره بالمنكر، ويأمره بالكفر، فيكون بذلك مضل له، أرأيتم ما حصل من آدم وزوجه، ألم يكن الشيطان قد أضلهما؟ بلى، قد أضلهم، نهاهم الله عن الأكل من الشجرة، فجاء الشيطان ودلهما بغرور، وجاء ليقسم لهما أنه ناصح، ووسوس إليهما حتى أكلا من الشجرة.

وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ نجعلهما بالجزم، جواب الأمر في ﴿أَرِنَا﴾، يعني: إن أريتنا إياهما نجعلهما تحت أقدامنا في النار، ولا شك أن الذي يجعله الإنسان تحت قدمه قد أذله أعظم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩/ ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

إزلال، ولهذا من الأمثال السائرة، أن الإنسان إذا أراد إعزاز شخص قال: أنت مني على الرأس، وإذا أراد إزلاله قال: أنت تحت قدمي فهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي أشد عذابًا منَّا، كما كان عاليين علينا من قبل، فلنجعلهما نحن الآن تحت أقدامنا ليكون من الأسفلين.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إقرار الكفار بربوبية الله، وأنه مجيب للدعاء، لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ وهذا من كلام الكفار.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن قرناء السوء، لقوله: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد حذر النبي ﷺ من جليس السوء فقال: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[1] أي: على دين صديقه وصحبه، فلينظر أحدكم من يخالل. وقال ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوْءِ كَنَافِخِ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً خَبِيثَةً»[2]، فاحذر قرين السوء، لا تجتمع به، ولا تصادقه، ولا تستأمنه على أي شيء.

٣- **ومنها:** تبرؤ التابعين من المتبوعين يوم القيامة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فالمتبوعين في آية البقرة يتبرأون من التابعين، كما أن التابعين أيضًا يتبرأون من المتبوعين.

٤- **ومنها:** أن الإضلال يكون من الجن والإنس؛ لقوله: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ فمصاحبة الإنسي للإنسي واضحة، ومصاحبة الجني للإنسي أيضًا مستفادة من قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٥- **ومنها:** شدة حَنَقِ هؤلاء الضالين على المضلين؛ لقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]

التفسير

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قالوا بألسنتهم وقلوبهم، ولا يكفي مجرد القول باللسان، لأن القول باللسان يقع من المنافق ومن المخلص، لكن المراد القول باللسان والقلب ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وهذا القول الذي قالوا ليس مجرد قول باللسان واعتقاد بالجنان، بل هو مستلزم لطاعة الله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: استقاموا على طاعة الله، فالإيمان في القلب، والاستقامة في الجوارح.

لم يكتف الله بالثناء عليهم على الإيمان بالقلب، بل لا بد من الاستقامة ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وقول المؤلف: [على التوحيد وغيره مما وجب عليهم] صحيح يعني: استقاموا على التوحيد فلا إشراك، استقاموا على الاتباع فلا بدعة، استقاموا على الطاعة فلا بدعة، استقاموا على الخير فلا شر وهلم جرًّا، وتأمل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أتى بثم الدالة على الترتيب بمهلة. يعني أن إيمانهم لم يكن إيمانًا خاطفا، آمنوا ثم زال، لا، إيمان مستقر؛ لأنهم استقاموا على دين الله عز وجل، ولقد سئل النبي ﷺ سأله رجل فقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسئل عنه أحد غيرك، يعني: قولًا فصلًا، فقال له: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١)، وهو مأخوذ من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٢/ ٣٨) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مدلولها يخالف مدلول تنزل؛ لأن ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ فيها زيادة على تنزل، والزيادة هي التاء، وهذه الزيادة تقتضي معنيين.

المعنى الأول: أن تنزلهم يكون شيئًا فشيئًا. تتنزل لا تنزل دفعة واحدة.

المعنى الثاني: أن النزول متكرر، تتنزل عليهم، يعني كل ما دعت حالهم إلى تنزل الملائكة عليهم، تنزلت عليهم، فصار الفرق الآن بين تتنزل وتنزل من وجهين.

الوجه الأول: أن تنزل تعني النزول مرة واحدة دفعة واحدة. وتتنزل تقتضي تكرار النزول وأنه يكون شيئًا فشيئًا.

قوله: ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ سبق الكلام على ذكر الملائكة، وقول المؤلف: [عند الموت] فيه نظر؛ لأن الله تعالى لم يقيد ذلك، فالظاهر أن الملائكة تتنزل عليهم كلما دعت الحاجة إلى النزول، عند الموت، وعند الخوف، وعند المعارك، وفي كل حال تقتضي أن تتنزل الملائكة عليهم، لأن الله أطلق ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا﴾ أي بألا تخافوا [من الموت وما بعده]، ولا تحزنوا [على ما خلفتم من أهل وولد، فنحن نخلفكم فيه]، نحن نقول: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ من مستقبلكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ماضيكم، لأن الإنسان عند الخوف، إما أن يخاف من المستقبل، أو يحزن على ما مضى، فيقول لو أني فعلت كذا لكان كذا، لم يحدث لي الخوف مثلًا، فالملائكة تتنزل عليهم، فتقول لا تخافوا من المستقبل ولا تحزنوا من الماضي، وقدم الخوف من المستقبل، لأنه أهم من الحزن على ما مضى؛ لأن مستقبل الإنسان هو الذي يجعله يسير أو يتوقف، فلهذا بدأ به قبل ذكر الحزن، وإذا جعلنا مثلًا مما يدعو إلى التنزل، حال الموت، فالإنسان عند الموت، حاله يقتضي أن يزاد قوة ونشاطًا على الإيمان والتوحيد فتتنزل عليهم الملائكة عند الموت أيضًا وتبشرهم بـ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أبشروا هي من البشارة وهي الإخبار، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، البشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بشارة؛ لأنه إذا سر الإنسان ظهرت علامة السرور على وجهه، تتغير بشرة الوجه، وقد تطلق البشارة على الإخبار بما يسوء من باب التهكم. قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مع أن هذا مما يسوء، لكنه على سبيل التهكم بهم، كما تقول أنت للعاصي، أبشر بسوء العاقبة، أبشر بالنار، وما أشبه ذلك مما يكون تهكمًا به، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الجنة هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها كما في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفيها كما جاء في الحديث القدسي: «فِيهَا

مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، من وعدهم بها؟ وعدهم الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي نحفظكم فيها] ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [أي نكون معكم فيها حتى تدخلوا الجنة] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [تطلبون] تقول لهم الملائكة:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني أن الملائكة تتولى المؤمنين تحثهم على الخير وتحذرهم من الشر، وقد أخبر النبي ﷺ أن للملك في قلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة(٢)، فلمة الملك إيعاذه بالخير وحث على الطاعة، ولمة الشيطان بالعكس، وقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي نحفظكم فيها] وذلك إن الإنسان إذا كانت الملائكة معه فإنها تسدده وتدله على الخير وتحثه عليه، وفي الآخرة تتولاهم أيضًا، فإن الملائكة تتلقاهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وفي الجنة تدخل عليهم الملائكة من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فهم أولياء المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة، جعلنا الله وإياكم منهم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، كل ما اشتهاه الإنسان وإن لم يطلب فإنه يحصل بين يديه، وكذلك أيضًا كل ما طلب فإنه يحصل بين يديه، في الدنيا لا يتسنى للإنسان ما يشتهي حتى لو طلب وكرر الطلب فإنه قد لا يأتيه، لكن في الآخرة مجرد ما يقع في قلب الإنسان أنه يشتهي كذا يحضر، كذلك أيضًا ما يطلبون، ما يطلبونه يحضر أيضًا، ويأتيهم أيضًا ما لا يخطر على بالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني يأتيك من النعيم ما لم تطلبه وما لم تشتهِ نفسك لأنه لم يخطر على بالك، ﴿نُزُلًا﴾ [رزقًا مهيئًا منصوبًا بـ(جعل) مقدرًا]، أي: جعل ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، وهو الله عز وجل، لأنهم لم يصلوا إلى الجنة إلا بمغفرته ورحمته.

مسألة: حول قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هل المقصود بها عذاب القبر؟

الجواب: لا، الآية عامة تشمل عذاب القبر وغيره، ويدل لعمومها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٤/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فإن مفهومها أن من لم يتصف بذلك ليس له حياة طيبة. وقد فهم جماعة من المفسرين أن قول الله عز وجل ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ حملوها على عذاب القبر، وهذا لأنه ظاهر السياق يقتضي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبون، فكل ما تشتهيه النفس ولو بلا طلب يحصل، وكل ما يطلبون فإنه حاصل مهما كان، يقول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال: [﴿نُزُلًا﴾ رزقًا مهيئًا منصوبًا بـ (جعل) مقدَّرًا]. يعني على تقدير المؤلف: أن ﴿نُزُلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ (جعل) المحذوف، جعل نزلًا، ومفعولها الأول هو نائب الفاعل، لأن نائب الفاعل ينوب عن المفعول به، ينوب المفعول به عن الفاعل.

قوله: ﴿نُزُلًا﴾ [أي: جعل نزلًا ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهو الله عز وجل]. وذكر المغفرة والرحمة؛ لأنه بمغفرة الله ورحمته وصلوا إلى هذا، فبمغفرة الذنوب نقُّوا منها، وبرحمة الله تعالى: صار أهلًا لدخول الجنة.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد كثيرة منها الآتي:

١ - من فوائد هذه الآيات: أن مجرد العقيدة لا يغني شيئًا حتى يكون معه عمل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. وما يقوله كثير من الناس نحن على العقيدة، هذا حق ولا شك ويمدحون عليه، لكن لا بد أن يقال نحن على العقيدة والعمل الصالح، إذ لا بد من العمل.

٢ - **ومن فوائدها:** الحث على الاستقامة على دين الله عز وجل أن يثبت عليه ويستقيم عليه ولا يتغير.

٣- ومن فوائدها أيضًا: إثبات الملائكة لقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٤ - **ومنها:** أن الله تعالى سخر الملائكة لبني آدم في مواطن كثيرة كما في هذه الآية، وكما في قول الله تبارك وتعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، وكما سخرهم الله عز وجل يجلسون على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون الأول فالأول إلى غير ذلك من المواطن التي جاءت في الكتاب والسنة.

٥ - **ومن فوائد الآيات:** أن الملائكة التي تتنزل على هؤلاء المسلمين المستقيمين تبشرهم بثلاثة أمور، أولًا: أنه لا خوف عليهم، والثاني: ألا يحزنوا، والثالث: أن الجنة مأواهم.

٦ - **ومنها:** تحقيق البشرى بما يؤيدها، يعني لا يكفي أن تقول لفلان أبشر بالخير، حتى تبين ما

يؤيِّد هذه البشرى، يؤخذ من هذه الآية ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، وذلك لعلمهم أن وعد الله لا يخلف.

٧- **ومنها**: أن الملائكة أولياء لمن آمن واستقام في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أما الحياة الدنيا حفظهم من المعاصي والزلل، وتهيأتهم للعمل الصالح ومعونتهم على ذلك وتثبيتهم عليه، وأما في الآخرة فلا تسأل فإن الملائكة تتولاهم وتتلقاهم الملائكة، وكذلك أيضًا يدخلون عليهم من كل باب في الجنة إلى غير ذلك مما ذكر الله عزَّ وجلَّ.

٨- **ومن فوائدها**: أن للذين آمنوا بالله واستقاموا في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وفي آية أخرى: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ فيكون لأهل الجنة فيها متعتان: المتعة الأولى: في الذوق والطعم، والثاني: في الرؤية والنظر.

٩- **ومن فوائدها**: أن في الجنة كل شيء يطلب، لقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فكل ما يطلبون فهو موجود في الجنة ـ نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

١٠- **ومنها**: أن أهل الجنة يؤتوا هذا الرزق في الجنة على أنها إكرام وكرامة. لقوله: ﴿نُزُلٗا﴾ وأصل النزل ما يقدم للضيف من الكرامة.

١١- **ومنها**: أنهم ما وصلوا إلى ذلك إلا بمغفرة الله ورحمته؛ لقوله: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾، ولولا ذلك لما وصلوا إلى ما وصل إليه؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ أنه: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١) فالإنسان لا يدخل الجنة بالعمل، ووجه ذلك أنه لو قوبل العمل بالنعمة التي أنعم الله بها على الإنسان لم يكن شيئًا، إذ إن نعم الله لا تحصى ولا تعد، بل قال بعض أهل العلم: إن شكر نعمة الله على النعمة نعمة يحتاج إلى شكر ثانٍ، والشكر الثاني نعمة يحتاج إلى شكر ثالث، وهلم جرًّا.

ولهذا قال الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

١٢- **ومن فوائد الآيات**: إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الغفور والرحمة، وهنا قاعدة مفيدة على الأسماء الحسنى، الأسماء الحسنى تدل على الذات والصفة، دلالة مطابقة، وتضمن، ودلالة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٧١/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التزام؛ فغفور يدل على أن هناك غافرًا وهو الله، ويدل على صفة المغفرة له، إذ لا يمكن أن يوجد اسم مشتق لا يوجد في موصوفه أصل الاشتقاق، ولهذا لا تقل للأعمى إنه بصير، ولا للأصم إنه سميع.

فلابد إذنْ من إثبات الذات المتصفة بما دل عليه الإسم، ولا بد من إثبات الصفة التي اشتقت من الاسم. لا بد أيضًا من إثبات لازم تلك الصفة. مثال ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ فأخبر أنه خلق وبين أنه أخبرنا بذلك لنعلم أنه على كل شيء قدير وأنه أحاط بكل شيء علمًا.

فكيف دلت صفة الخلق على العلم والقدرة؟

الجواب: لأنه لا يمكن خلق إلا بعلم، يعلم كيف يخلق، ولا يمكن خلق إلا بقدرة؛ ولهذا من لا علم له لا يمكن أن يخلق، ومن عنده علم ولكنه عاجز كذلك لا يمكن أن يخلق لأنهغير قادر.

أرأيت لو أن شخصًا يستطيع أن يصلح مسجلًا، هل يمكن أن يصلحه إلا بعلمٍ كيف يصلحه؟ لا، لا يمكن، وهل يمكن أن يصلحه وهو عاجز.

إذنْ: الخالق من أسماء الله. تتضمن الدلالة على الذات وهو الله، وعلى صفة الخلق وعلى صفة العلم وعلى صفة القدرة.

تدل على صفة الخالق والذي هو ذات الله عزَّ وجل، وعلى صفة الخلق بالتضمن والمطابقة. وكيف ذلك؟

الجواب: إذا أخذ اللفظ لكامل معناه، سميت الدلالة مطابقة. وإذا أخذ بعض معناه صارت الدلالة تضمنًا، وإذا أخذ بما يلزم على ذلك صارت الدلالة التزام.

فدلالة الخالق على الذات وصفة الخلق مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها تضمن، وعلى الخلق وحده تضمنا أيضًا، وعلى العلم والقدرة التزام.

مثال: لي دار، الدار كما نعلم تتضمن حجرًا وغرفا وساحات وأبواب وشبابيك وما إلى ذلك. دلالة هذه الكلمة على كل هذا وعلى مجموع هذا، دلالة مطابقة، ودلالتها على كل حجرة وغرفة وشباك دلالة تضمن. ودلالتها على أن لهذا البيت بانيًا يعد دلالة التزام.

أسماء الله تعالى تجرى على هذا.

كذلك أيضًا نقول: إذا كان الاسم متعديًا. فلابد من الإيمان له اسمًا من أسماء الله، والإيمان بما

دلَّ عليه من صفة، والإيمان بما يترتب على تلك الصفة من أفعال، الغفور لا يتم الإيمان به حتى تؤمن بأن الله تعالى تسمى بهذا الاسم وأنه اسم من أسماء الله، لا بد أن تؤمن بما تضمنه من صفة المغفرة، لا بد أن تؤمن أن الله يغفر بمقتضى هذا الإسم، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

فلابد من الانتباه لهاتين القاعدتين

فدلالة الإسم على المعنى تتضمن ثلاث دلالات، مطابقة، تضمن، التزام.

ثم الاسم من أسماء الله إذا كان متعديًا فلا يتم الإيمان به إلا بثلاث أمور: أن تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، أن تؤمن بما دل عليه من صفة، أن تؤمن بما يترتب عليه من أثر.

وإذا كان الإسم غير متعديًا، فلابد من الإيمان بأنه اسم من أسماء الله وبما تضمنه من صفة، وليس له أثر بأنه غير متعدي، فالحي مثلًا، الحي اسم من أسماء الله لا يتم الإيمان به حتى تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، وبأن الله متصفٌ بما دل عليه من صفة وهي الحياء، هل له أثر؟ لا، الحياة صفة لازمة لا تتعدى، لكن السميع متعدٍ، فالسميع ذو سمع يسمع به، البصير ذو بصر يبصر به.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٣-٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذه ثلاثة أوصاف، إذا اتصف بها الإنسان فلا أحد أحسن منه قولًا. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي [لا أحد أحسن قولًا]، تفسير المؤلف لهذه الجملة، تفيد بأن [من] اسم استفهام ولكنها بمعنى النفي، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ يعني لا أحد أحسن، فإذا جاء الاستفهام بمعنى النفي فإنه مشرب

معنى التحدي،

أيهما أبلغ أن تقول لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله، أو أن تقول من أحسن؟

الثاني: أبلغ، لأن الثاني يتضمن النفي ويتضمن التحدي، كأنه يقول ائتني ببينة على أنه هناك أحد أحسن ممن دعا إلى الله.

فكل استفهام جاء بمعنى النفي فإنه مشرب معنى التحدي. من كذا؟ يعني أتحداك أن تأتي لي بشيء سوى ذلك.

فمن أحسن؟ أشد نفيًا من قول: (لا أحد أحسن). وذلك لأنها جملة استفهامية مشربة معنى التحدي.

﴿أَحْسَنُ﴾ هذه خبر مبتدأ ﴿وَمَنْ﴾ هو المبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ تمييز؛ لأنه جاء اسم منصوب بعد اسم التفضيل فهو تمييز له، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [بالتوحيد]، وهذا لا شك حسن ولكن الآية أشمل من التوحيد، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للتوحيد والعمل الصالح.

وقوله: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: إلى دين الله، ودين الله يتضمن التوحيد والأعمال الصالحة. وهنا قال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فبدأ بإصلاح الغير ثم ثنى بإصلاح النفس، مع أن من دعا إلى الله فهو مصلح لنفسه أيضًا، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف، التقدير: وعمل عملًا صالحًا، ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين هما: الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ.

فعمل المرائي باطل؛ لأنه فقد الإخلاص فهو لذلك ليس بعمل صالح، وعمل المبتدع فقدَ المتابعة؛ لذلك نقول لهؤلاء المبتدعين المخلصين لله أشد الإخلاص عملكم غير صالح؛ لأنه فقد الاتباع؛ لهذا هو ليس بعمل صالح، قال النبي ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»(١).

ثم نقول: حقيقة الإخلاص تستلزم أن لا تعبد الله إلا بما شرعه، لا تعبده بهواك، لأنك إذا عبدت الله بهواك وببدعة فأنت غير مخلص، فالمخلص يتعبد لله عز وجل بما شرع، فالعمل الصالح ما تركب من شيئين: الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة.

وقوله: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال باللسان وبالقلب. فإن قال قائل قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو من العمل الصالح ولا شك فما الفائدة من ذلك؟ قلنا: إنه يعلن هذا القول ولا يبالي بالمخالفة؛ لأن من الناس من يعمل صالحا، لكنه تجده متسترًا، ليس عنده الشجاعة التي تجعله يعلن ذلك، أما هذا فهو يعلن ويقول بلسان المقال

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

فأنت غير مخلص، فالمخلص هو من يعبد لله عزَّ وجل بما شرع، فالعمل الصالح ما تركَّب من شيئين، الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

غير مبال إنني من المسلمين والجملة كما تعلمون (إنني) مؤكدة بإن.

ذكر بعض أهل العلم أن المراد بذلك المؤذِّن، لأن المؤذن يدعو الى الله يقول للناس حي على الصلاة حي على الفلاح، ولأنه مؤمن عامل صالح. ولأنه يقول أشهد أن لا إله إلا الله يعلنها، وأشهد أن محمدًا رسول الله وهذا معنى قوله ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، لكن الصحيح أن الآية عامة، تشمل المؤذن وغير المؤذن، فالخطيب على المنبر يدخل في الآية، والمعلم في حلقة تعليمه يدخل في الآية فالآية أعم مما ذكر. ولكن اعلم أن بعض السلف يذكر للآية معنىً خاصًّا لا يريد حصرها في هذا المعنى ولكن يريد التمثيل، وهذه مسألة قد تفوت على بعض الناس، دائما ننظر في (ابن كثير) أو (ابن جرير) أن قال فلان كذا لجزء المعنى فهم لا يريدون أن يقصروا العام على الخاص، لأنهم أعلم من أن يقتصروا على بعض أفراد العام مثلًا، لكنهم يريدون التمثيل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. قال بعض العلماء: الظالم لنفسه الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق في الخيرات الذي يصليها في أول الوقت، فهذا لا شك أنه حاصل، بل لا شك أنه تخصيص للعام.

فنقول: أرادوا بذلك التمثيل.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تفاضل الأعمال، لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأحسن اسم تفضيل، ولا شك أن الأعمال تتفاضل، فتتفاضل باعتبار الجنس وباعتبار النوع، وباعتبار الهيئة والكيفية، وهذه ثلاث اعتبارات.

أولًا: التفاضل باعتبار الجنس.

فمثلًا الصلاة أفضل من الزكاة، الزكاة أفضل من الصوم، الصوم أفضل من الحج. هذا باعتبار الجنس. ثم هذا الجنس تتفاضل من جانب آخر، واجب العبادة أفضل من نفلها.

فصلاة الظهر أفضل من قيام الليل، هذا تفاضل باعتبار الجنس دليل ذلك أن النبي ﷺ قال عن الله: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثانيًا: تتفاضل باعتبار النوع، مثل الوتر أفضل من مطلق التهجد، الرواتب أفضل من النافلة المطلقة، هذا باعتبار النوع، وإن شئت فاجعل تفاضلها باعتبار الوجوب والندب من هذا النوع.

ثالثا: باعتبار الهيئة، فصلاة يخشع فيها الإنسان ويتدبر ما يقول وما يفعل ويطمئن، وصلاة أخرى يختصر على الواجب وبدون خشوع قلب، فلا شك أن الأولى أفضل، والمهم، أننا نؤمن بأن الأعمال تتفاضل وأنها أحب إلى الله من بعض.

يبقى النظر هل يلزم من تفاضل العمل تفاضل العامل؟

الجواب: نعم، فالعامل أيضًا يختلف ويتفاضل.

قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

العمل واحد ولكن العامل مختلف.

٢- **ومنها**: فضيلة الدعوة إلى الله عزَّ وجل؛ لقوله: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى الإخلاص في الدعوة، مأخوذة من قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، لأن الداعي ربما يدعو ويقوم للناس ويذكرهم ويعظهم ويحثهم على الخير ويحذرهم من الشر، لكن أراد أن يكون مرموقًا بينهم، فهذا داعي إلى نفسه، فلابد إذن من الإخلاص.

لو قال قائل: هل يسلم الإخلاص إذا أراد بالدعوة إصلاح الناس؟

الجواب: لا، الأصل دعوته لإصلاح الناس.

٤- **ومنها**: فضيلة العمل الصالح الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٥- **ومنها**: وجوب العلم؛ لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنك لا يمكن أن تعرف أن العمل موافق للشرع أو غير موافق إلا بالعلم، وهذا واضح، فيكون في الآية دليل على وجوب العلم لأنه إذا كان العمل الصالح من الواجبات فلا بد أن تعلمه بالشرع، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٦- **ومنها**: أنه ينبغي للمسلم أن يكون عزيزًا بدينه، وأن يعلن به وأن يقول: إنني من المسلمين، وأن لا يستحي إذا قيل له: إنه مسلم، لقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٢١/ ٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٧- **ومنها:** الإشارة إلى تجنب التزكية الذاتية لأنه قال: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل: (وقال إنني مسلم)؛ لأن الإنسان قد يعتز بقوله مسلم ويفخر، أكثر مما يكون ذلك فيما لو قال: إنني من المسلمين.

٨- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى المؤاخاة بين المسلمين، لقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارة إلى أنني واحد من هؤلاء لا أفترق عنهم.

مسألة: هل الأفضل الاشتغال بالعلم أو طلب الدعوة؟

الجواب: أولًا: يمكن الجمع بين هذا وهذا، ونحن نعلم أن الداعية ليس يشغل وقته من صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء وهو يدعو، لا، أبدًا، هل أحد من الدعاة يفعل هذا؟ لا، يدعو نصف ساعة هنا، ونصف ساعة هنا، وأما يبقى لا يسكت من صلاة الفجر إلى أن يصلي العشاء. لا، لا يمكن ولكن لا بد من فترات.

فلا يتعذر الجمع بين الدعوة إلى الله وطلب العلم، يطلب العلم ساعة أو ساعتين، ثم يدعو نصف ساعة مثلًا. فلا منافاة، هذه أولًا.

ثانيًا: أنه لا يمكن الدعوة إلى الله بلا علم، والدعوة إلى الله عن جهل قد يكون فيها من الضرر أكثر من عدم الدعوة، كثير من الدعاة يكون عنده غيرة ومحبة إلى الخير، فتجده يحرم الحلال، أو يوجب ما ليس بواجب بناء على ما عنده من الغيرة، ولو كان ذا علم لحصل له الثبات.

ولا يخفى عليكم ما صنعه عمر بن الخطاب يوم الحديبية (١).

صار يعارض الصلح، ويأتي إلى الرسول ﷺ يريد أن يحل عقدة الصلح، لكن الثبات كثبات أبي بكر، تبين الحق، فلا يمكن أن يكون داعية يدعو إلى الله بغير علم، هذا إذا أردنا أن ندعو إلى العلم بما يدعو إليه، ولسنا نريد أنه لا يمكن أن يدعو إلى الله إلا إذا كان متبحرًا في العلوم، لا، لو قلنا هذا ما صح قول الرسول ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»(٢).

إذنْ الجواب من وجهين.

الوجه الأول: أنه لا منافاة بين العلم والدعوة.

الوجه الثاني: أنه لا تمكن الدعوة إلا بعلم إلى ما يدعو إليه.

بقي علينا وسائل الدعوة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ووسائل الدعوة كثيرة، فليست مختصة بأن يقوم الإنسان يتكلم. فالدعوة تكون بالقول وتكون بالكتابة، وتكون بنفس الفعل، الإنسان الذي تثق به، تجد أنك تنظر ماذا يصنع وتفعل مثله هذا دعوة هذا نوع من الدعوة، بل قد تكون الدعوة بالفعل والعمل أقوى تأثيرًا من الدعوة باللسان.

مسألة: حول الفرق بين الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والموعظة والنصيحة؟

الجواب: هذه في الحقيقة موعظة أو أمر، أما الدعوة فتكون بصفة عامة، أما أن تذهب إلى فلان وتنصحه، فهذا في الحقيقة موعظة، وأما إذا كان لديك سلطة فهو أمر بمعروف، وهذا كما نعرف له أحوال، لا يجب على الإنسان أن يترك ما يهمه في دينه ودنياه، من أجل أن يذهب إلى الناس يقرع أبوابهم يأمرهم أو يعظهم هذا ليس بواجب، فالحديث يقول: «مَنْ رَأَى...» [1] ولم يقل تطلبوا رؤية المنكر، وهذا الذي لا يصلي يمكن أن أعظه في السوق وفي المسجد ولهذا الناس تجدهم يستثقلون أن يقرع أحد عليهم الباب أحد يعظهم أو يأمرهم، وربما حصل من ذلك ما يسمى بردِّ الفعل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [أي: لا تستوي في جزئياتها لأن بعضها فوق بعض] ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ فسرها المؤلف، أنه لا تستوي الحسنات بعضها مع بعض، ولا السيئات بعضها مع بعض، وعلى هذا التفسير تكون (لا) غير زائدة، تكون أصلية، ويكون المراد بالآية انتفاء تساوي الحسنات وانتفاء تساوي السيئات، وهذا أمر لا إشكال فيه، أن الحسنات بعضها أحسن من بعض وأوكد من بعض. وكذلك السيئات بعضها أسوأ من بعض وأشد، لكن هناك تفسير آخر، وهو أن المعنى أن الحسنات والسيئات لا تتساوى. بدليل قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وبناء على ذلك تكون لا زائدة للتوكيد، كما هي في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فإن ﴿وَلَا﴾ هنا زائدة للتوكيد، ولذلك لو قلت في غير القرآن العزيز: (غير المغضوب عليهم الضالين)، لاستقام الكلام. فإذا قال قائل: هل هناك ترجيح، قلنا: إن المؤلف رجح المعنى الأول، وهو أن الحسنات لا تتساوى والسيئات لا تتساوى، وبعضهم رجح الثاني لأنه قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ولو قيل

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٩/٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بالمعنيين جميعًا، لم يكن هناك بأس، وذلك لو أن الآية لو كانت تحتمل معنيين على السواء وهما لا يتنافيان، فإنها تحمل عليهما جميعًا، هذه قاعدة في أصول التفسير، ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ ما يحسن ذكره. و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ ما يسوء ذكره، هذا التفسير العام للحسنة والسيئة، قال: ﴿ٱدْفَعْ﴾ [السيئة] ﴿بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن.

الغريب أن كلام المؤلف في ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقتضي أن معنى الجملة قبلها لا تستوي الحسنة مع السيئة. ﴿ٱدْفَعْ﴾ السيئة ﴿بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، أفادنا رحمه الله أن التي هي صفة لموصوف محذوف، أي بالخصلة التي هي أحسن من السيئة، فإذا قال قائل: السيئة ليس فيها حسن فليس يكون أحسن من السيئة؟ قلنا: إن اسم التفضيل قد يأتي وليس في الطرف الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، مع أن أصحاب النار ليس في مستقرهم خير ولا في مقيلهم خير، ويقوم عن الآية أنه لما كان من المعتاد، أن الإنسان لا يدفع السيئة إلا بالتي هي أحسن، أمره الله أن يدفع بالتي هي أحسن، وذلك لأن مدافعة السيئة تكون على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يدفع السيئة بمثلها، هذا جائز.

الوجه الثاني: أن يدفع السيئة بحسنة، ولكن هناك شيء أحسن منها، هذا أيضًا جائز وهو أعلى من الأول.

الوجه الثالث: أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، يعني بأحسن ما يدفعها به، وهذا أفضل وأطيب، وهو الذي أمر الله به.

يعني إذا أساء إليك إنسان، فلا تقابله بإساءة ولا تقابله بحسنة أيضًا، قابله بما هو أحسن، يقول المؤلف ممثلًا، [كالغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو].

فالغضب بالصبر يعني إذا غضب عليك إنسان، فاصبر وتحمل، والجهل بالحلم، فإذا جهل عليك إنسان بالإساءة. فقابله بالحلم.

فإذا قال إنسان الجهل هل هو يقابل الحلم أو يقابل العلم؟ قلنا أما الجهل الذي هو عدم العلم فيقابل بالعلم، وأما الجهل الذي ضد الحلم، بمعنى أن يكون الإنسان ذا عدوان على الغير فهذا يقابل بالحلم.

قال الشاعر العربي.

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وكذلك الإساءة بالعفو.

وقد سبق مرارًا ونكرره تكرارًا.

أن العفو إنما يندب إليه إذا كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (إذا) هنا فجائية، و(الفاء) عاطفة، أي فإذا دفعت بالتي هي أحسن فاجئتك هذه الحال. وهي أن تنقلب عداوة الشخص الذي أساء إليك فيصير كأنه ولي حميم، يعني صديقًا قريبًا، وتأمل كون الجواب بإذا الفجائية، ليتبين لك أن انقلاب عداوته إلى ولاية حميمة لا يتأخر كثيرًا؛ لأن إذا الفجائية تدل على الفورية، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، لو كان المخبر بذلك غير الله عز وجل، لكان الإنسان يتردد. كيف ينقلب العدو صديقًا حميًا بهذه السرعة؟ نقول: إن الذي أخبر بذلك هو الله عز وجل. ومن أصدق من الله قيلًا؟ ثم إن الذي أخبر بذلك هو الذي قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء. فلا تستبعد هذا فالأمور بيد الله، وكم من عدو انقلب صديقًا وصديقًا انقلب عدوًا، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: [فيصير عدوك كالصديق القريب بمحبته إذا فعلت ذلك].

[فـ﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ، و﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخبر، و(إذا) ظرف لمعنى التشبيه، و﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ هذا صلة وموصول، و﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخبر خبر المبتدأ الذي، و(إذا) ظرف لمعنى التشبيه، الذي هو كأنه، لأن التشبيه مضمن معنى الفعل، لذلك صح أن يتعلق به الظرف، وهذا ما ذهب به المؤلف بالنسبة لإذا، والصحيح أن إذا فجائية لا تحتاج إلى متعلق.

يقول رحمه الله: [﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: [يؤتى الخصلة التي هي أحسن] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: [﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: يؤتى الخصلة]. وقيل معناها لا يوفق لها، والمعنى متقارب. يعني لا ينال أحد هذه الخصلة وهي الدفاع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا، هذه جملة فيها حصر، طريقه النفي والإثبات.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: حبسوا أنفسهم، أجبروها على تحمل هذا الأمر، وذلك لأن هذا الأمر شديد، إذ أن النفوس تحب الإنتقام ممن أساء إليها، ولكن قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ كل إنسان سوف يعاني معاناة شديدة إذا سلك هذا الطريق، وهي الدفاع بالتي هي أحسن، لا بد أن يجد عناء ومشقة فأثنى الله تعالى على الصابرين

على ذلك.

الصبر لا يحتاج أن نطيل الشرح فيه؛ لأنهم قالوا: إنه ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله.

والثاني: صبر عن معصية الله.

والثالث: صبر على أقداره.

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال: الحظ هو [الثواب]. والصواب أن يقال الحظ هو النصيب، أي لا يلقاها إلا ذو نصيب عظيم، ليس من الثواب فحسب، بل من الثواب والأخلاق والرزانة، وغير ذلك.

يعني: من له نصيب عظيم من الثواب والأخلاق والتأني والرزانة وغير ذلك فلا ينبغي أن يقتصر ذلك على الثواب.

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ولما ذكر الله تعالى دفع العدو من بني آدم ذكر دفع العدو من غير بني آدم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ انظر مدافعة العدو من غير بني آدم لم يقل ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، قال: الجأ إلى الله؛ لأنك لا تستطيع أن تدفع الشيطان إلا باللجوء إلى الله عز وجل، إذ إن الشيطان ليس أمامك حتى تلوي عنقه وتقتله، لا يدفعه إلا الله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. فالمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها أنه لما ذكر مدافعة العدو من بني آدم ذكر مدافعة العدو من غير بني آدم.

[فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، قال إما فيه إدغام نون (إن) الشرطية في (ما) الزائدة]، إما أصلها، وإن ما ينزغنك، لكن (ما) الزائدة تزاد كثيرًا في أدوات الشرط، كقوله هنا ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ وكقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يعني إن ينزغك الشيطان نزغ فاستعذ بالله [أي: يصرفك عن الخصلة وغيرها من الخير صارف] ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

المؤلف رحمه الله إذا نظرنا إلى تفسيره وجدناه يقصر هذه الآية على شيء معين، وهي إن صرفك الشيطان عن المدافعة بالتي هي أحسن فاستعذ بالله، والصواب أن الآية خلاف ذلك، والصواب أن الآية عامة، ولهذا قال ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي يصيبنك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، ﴿نَزْغٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة، سواء كان فيه مدافعة بالتي هي أحسن، أو غير ذلك، كلما أصابك

نزغ من الشيطان فاستعذ بالله، ولهذا أمر النبي ﷺ الذي شكا إليه الوسوسة في الصلاة. أمره أن يستعين بالله، قال: «اتفلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثَةً وَاسْتَعِذ بِالله»[1]. المهم: أنه متى نزغك من الشيطان نزغ فالجأ إلى من يستطيع دفعه، وهو الله عز وجل.

ولكن كيف أعرف أن الشيطان نزغ أحدًا؟ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. كلما رأيت أنه ألقي في روعك أن تفعل معصية، فاعلم أنه نزغ من الشيطان، كلما ألقي في روعك أن تترك طاعة فهو نزغ من الشيطان، فاستعن بالله؛ لأن الشيطان ليس شيئًا محسوسًا يحسه الإنسان فيراه أو يسمعه، لكن يعرف بما يلقي في القلب، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتصم به، قال المؤلف: [جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفعه عنك]. أين الأمر؟ استعذ، يعني كأن يقول: وإذ استعذت، فما النتيجة؟ النتيجة أن يدفعه الله عنك، لأن الله تعالى لم يأمرك بالاستعاذة به، والاستعاذة كما تعرفون هي الاستجارة مما يسوء، استعذ بالله يدفعه عنك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ [بالقول] ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [بالفعل]، هذه الجملة تعليلية لقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يعني: فإنك إذ استعذت منه بالله، سمع وإنه عليم بكيفية دفع هذا الشيطان الذي نزغك منه نزغ، فهو سميع لقولك إذا استعذت به، عليم بما يدفع به عنك هذا الشيطان.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** انتفاء تساوى الحسنات بعضها ببعض، وانتفاء تساوي السيئات بعضها ببعض، فيترتب على ذلك: أن الحسنات تتفاوت وأن السيئات تتفاوت، فمن الحسنات ما هو أصول في الإسلام، كالأصول الخمسة، ومنها ما هو دون ذلك، ومنها ما هو فرائض ومنها ما هو نوافل.

وفي المحرمات ما هو شرك مخرج عن الملة، وما هو شرك دون ذلك، وكذلك يقال في الكفر منه ما هو فسوق ومنه ما هو دون ذلك. هذا إذا قلنا إن المراد أن الحسنات لا تتساوى وأن السيئات لا تتساوى، أما إذا قلنا لا تستوي الحسنة ولا السيئة، أي أن السيئة والحسنة لا تتساويان، فيفيد الحث على فعل الحسنات في مقابل السيئات، وليس الفائدة أن يعلم أن الحسنة لا تساوي السيئة؛ لأن هذا أمر معلوم، ولا يمكن في القرآن ببلاغته أن يأتي بمثل ذلك؛ لأن هذا كقولك السماء فوقنا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٨/ ٢٢٠٣) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

والأرض تحتنا، لكن المراد الحث على أن تقابل السيئة بحسنة.

٢- **ومنها:** الإرشاد إلى مدافعة السيئات، من قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٣- **ومنها:** الحث على المقامات في مدافعة السيئات، تؤخذ من قوله: ﴿أَحْسَنُ﴾.

٤- ومنها أن الله تعالى مقلب القلوب. فقد يكون العدو صديقًا والصديق عدوًّا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية:** أنك لا تأخذك العزة بالإثم، فتقول لا يمكن أن أسكت أمام هذا الذي أساء إلي، ولا بد أن آخذ بحقي، فنقول: إنك إن أخذت بحقك فإن ذلك لك، لكن هناك خلق أفضل وأكمل وهو المدافعة بالتي هي أحسن.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

١- **يستفاد منها**: أن المدافعة بالتي هي أحسن شاقة على النفس؛ لقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، ولكن اصبر.

٢- **ومنها:** أن من سلك هذا الطريق وهو مدافعة السيئة بما هو أحسن، فإنه ذو نصيب عظيم من الأخلاق والثواب والرزانة والرجولة والشهامة وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** أن ملجأ الإنسان عند الخوف مما لا يمكنه دفعه، هو الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنك كلما احسست بشيء من نزغات الشيطان، من تهاون بأمور، أو ارتكاب لمحذور، فعليك أن تلجأ إلى الله عز وجل. فإن قال قائل: نجد الاستعاذة مشروعة في غير هذا الحال. مشروعة عند قراءة القرآن مثلا، مشروعة عند دخول الخلاء، فما الجواب؟ الجواب: مشروعيتها عند تلاوة القرآن لأن الشيطان يتسلط على الإنسان حين قراءة القرآن أن يصده عما فيه من الذكر الحكيم، يصده عن تدبره، وعن الخشوع فيه. وعن كون الإنسان يلتزم بأوامره ونواهيه ويصدق بأخباره. المهم: أن الشيطان يحرص على الإنسان إذا أراد قراءة القرآن، فناسب أن يؤمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وكذلك إذا دخل الخلاء، وذلك لأن الخلاء موطن الشياطين.

والشياطين تكون في أخبث الأماكن، والملائكة تكون في أطيب الأماكن؛ ولهذا كانت المساجد بيوت الملائكة، وكانت المراحيض بيوت الشياطين.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الشيطان، وأن له سلطة على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

والله سبحانه وتعالى سلط الشيطان على بني آدم، وأيد المؤمنين بالملائكة، فإن الشيطان إذا أمر بالفحشاء فإن هناك أمر آخر يضاده وهو أمر الملك.

٤- **ومنها:** أنه لا يستعاذ إلا بالله، لقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، لكن هذا مقيَّد بما لا يقدر عليه إلا الله، فإنه لا استعاذة منه إلا بالله. وكذلك أيضًا لا استعاذة بمخلوق غير قادر.

مثال: لو أن إنسانًا استعاذ بميت لكان هذا شرك، لأن الميت لا يمكن أن يفيدك، لكن إذا استعاذ بحي فيما يقدر عليه فلا بأس بذلك، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ وَجَدَ مَلَاذًا أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ». فالاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة به فيما يقدر عليه، وكذا الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

٥- **ومن فوائد الآية:** إثبات أن السميع والعليم من أسماء الله عز وجل، وسبق أنه لا يتم الإيمان بالاسم إلا بثلاثة أمور إذا كان متعديًا، وبأمرين إن كان غير متعد، السميع متعدي، فتثبت السميع اسمًا، والسمع صفة، وكونه يسمع أثرًا، وكذلك يقال في العليم، وقول المؤلف رحمه الله: [السميع بالقول] هذا صحيح، لأن متعلق السمع هي الأقوال، العليم بالفعل فيه نظر؛ لأن الله عليم بالقول عليم بالفعل، عليم ما ليس بفعل ولا بقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. فقصره على العلم بالفعل لا شك أنه قاصر، فيقال الصواب العليم بكل شيء من الأقوال والإرادات والأفعال والحاضر والمستقبل والماضي.

٦- **ومن فوائد الآيتين:** بلاغة القرآن بذكر المتقاربين في المعنى، وإن كان بينهما فرق من حيث الحقيقة، وجه ذلك: أنه ذكر في الآية الأولى: معاملة المسيء من الإنس بأن تدفعه بالتي هي أحسن، وذكر في الثاني معاملة المسيء من غير الإنس وهو الشيطان.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾، أي آيات الله عز وجل، والآية في اللغة أي العلامة، وهي بالنسبة للآية ما كان علامة على قدرة الله عز وجل وقوّته وحكمته وعلمه ورحمته وغير ذلك.

فقال ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ الدالة على قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وغير ذلك مما يدل عليه الليل والنهار.

الليل بظلامه، والنهار بضيائه، لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إطلاقًا، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لا، لا أحد يأتي بذلك.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لا أحد فهذه من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته وعلى رحمته وعلى قوته.

بينما الليل إذا غشي الأرض بظلامه، وإذا بالصبح قد كشف هذا الغطاء فأصبحت الدنيا ضياء. كذلك من آياته الشمس والقمر، وما أعظمها من آية، هذان كوكبان يسيران منذ خلق الله عز وجل إلى أن يأذن الله بخرابها، يسيران على نمط واحد لا يتعديانه ولا يتجاوزنه.

قال بعض العلماء: لو أن الشمس بعدت عن مقرِّها شعرة واحدة، لهلك الناس من البرد

وجمدت المائعات، ولو أنها نزلت شعرة واحدة لذابت الأرض من الحر وهذا من قدرة الله عز وجل.

ثم هذا الجرم العظيم له هذه الإضاءة العظيمة مع البعد التام، وهذه الحرارة العظيمة مع البعد التام، لو أنك سعرت أقوى نار في الدنيا ما بلغت مسافة حرها إلى مائة متر، ومع ذلك تجد مس الحرارة فقط، لا أن يصل إلى هذه الدرجة، وهذه بينك وبينها ما لا يعلمه إلا الله عز وجل. وتجد هذا الحر.

في أيام الصيف، قال لي بعضهم، ربما بدأ الماء يغلي من شدة الحرارة في بعض المناطق، مما يدل على عظمة هذه الشمس، والقمر أيضًا عظيم، هذا القمر الكوكب الكتلة يضيء هذه الإضاءة العظيمة من بعد، ومع ذلك هو بارد لا يسخن الجو ولا يسخن الأرض؛ لأنه آية الليل، أرأيتم لو كان حرًّا أيتمتع الناس بالليل كما يتمتعون به اليوم، لا يمكن أبدًا، لكن من رحمة الله عز وجل أن جعله نورًا باردًا حتى لا تبقى حرارة الأرض، طوال أربع وعشرين ساعة وحتى يستقر الناس في منامهم وذهابهم ومجيئهم.

ثم قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ نهي عن السجود للشمس والقمر، لأن من بني آدم من يسجد للشمس ويسجد للقمر. ولذلك نهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وقال بعض العلماء إن المراد: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ عند تغيرهما بكسوف ولكن ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي الآيات الأربع، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن كنتم صادقين بعبادته فلا تسجدوا لغيره، لأن من يعبد الله ويعبد غيره ليس صادقا في عبادته، الصادق في عبادته هو الذي يخلص العبادة لله عز وجل.

مسألة: ما الفرق بين الشيطان وإبليس؟

الجواب: الشيطان هو إبليس.

مسألة: حول آية ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؟

الجواب: هذا هو الحكمة في أن الله قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ لأن الإنسان ينال درجة عظيمة عالية من الأخلاق والرزانة والرجولة والثواب. وليس الحظ العظيم هو أن الإنسان يزداد درهمًا أو دينارًا، الأخلاق هي كل شيء، سواء مع الله أو مع العباد.

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

مسألة: حول كيفية أن يكون الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا؟

الجواب: السلطان كما تعرف هو الذي يتولى الأمر بسلطته ويغلب، فالشيطان ينزغ حتى عباد الله الصالحين ولكن ليس له عليهم سلطان، أليس قد تفلت على الرسول ﷺ شيطان يريد أن يفسد عليه صلاته[١]، لكن ليس له سلطان، فالشيطان يقول ويفعل، كما قال ابن ورد في المنظومة.

جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ   لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

فالمراد بأنه ليس له عليهم سلطان، أي أنه لا يمكن أن تتسلط عليهم فتغويهم.

الجواب: هذا ضعف وجوبًا، هذا الذي لا يقدر على الانتصار لنفسه هذا لا يحمد، بل يقال هذا ضعيف، فإنه لا يحمد إلا العفو والصفح عند المقدرة. أما إنسان عاجز فيأتي إنسان قوي ينهال عليه ضربًا فيقول الضعيف جزاك الله خيرًا، أحسن الله إليك. فهل هذا يحمد؟ لا؛ لأنه عاجز.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، (مِنْ) هنا للتبعيض، وعلامة من التبعيضية، أن يحل محلها بعض، يعني بعض آياته الليل والنهار والشمس والقمر، وذكرنا وجه هذا الأرض من آياته فيما سبق، ولا حاجة للإعادة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ الخطاب لجميع العباد، نهاهم أن يسجدوا للشمس ولا القمر، لأن من الناس من يعبد الشمس والقمر ويسجد لله، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشمس تطلع بين قرني الشيطان[٢]، فإذا طلعت سجد لها الكفَّار، ومن ثم نهى عن الصلاة في أوقات النهي التي هي قريبة من طلوع الشمس وغروبها.

قوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ المراد بالسجود هنا ـ والله أعلم ـ ما هو أعم من السجود الخاص،الذي هو وضع الأعضاء السبعة على الأرض، أي أن المراد بالسجود هنا الذل كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بالسجود هنا السجود الخاص، لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، والقاعدة في علم التفسير، أن اللفظ إذا كان يحمل معنيين أحدهما أعم وأشمل وأوسع، فإنه يحمل على

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦١) ومسلم (٣٩/ ٥٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٥٧٢) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

الأعم الأوسع.

قوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الذي خلق هذه الأشياء، وفي هذه إشارة إلى أن الله هو المستحق أن يسجد له لأنه هو الخالق، وأما هذه فهي مخلوقة، لا تستحق أن يسجد لها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم ذوي عبادة حقة، فاسجدوا لله ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر، وقوله: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ العبادة بمعنى الذل ومنه قولهم طرق معبد أي مذلل لمن سلكه ليس فيه وعورة لا طلوع ولا نزول، ولا التفاف يمين ولا شمال، فالطريق المعبد أي هو المذلل، إذنْ فالتعبد لله هو التذلل له محبة وتعظيمًا.

واعلم أن العبادة تطلق على معنيين: المعنى الأول: التعبد لله الذي هو فعل العابد، والمعنى الثاني: المتعبد به والذي هي العبادات، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه) بناء على أن المراد بها المتعبد به، لكن كما قلت لكم هي تطلق على معنيين، على التعبد الذي هو فعل العابد، وعلى المتعبد به الذي هو العبادات.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قدَّم المفعول به لإفادة الحصر؛ لأن من القواعد المقررة في علم البلاغة وغيرها أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وهذه قاعدة هامة.

إذا قدِّم ما حقه التأخير كان ذلك دالا على الحصر.

فإذا قلت مثلًا: (إياك أكرمتك)، المعنى أني لم أكرم غيرك.

وقول القائل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: لا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعني: لا نستعين بـ(غيرك).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يعني عن عبادة الله والسجود له فإن الله تعالى غني عنهم، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [عن السجود لله وحده]، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ﴾ [يصلون] ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [أي لا يملون]، يعني فإن استكبر هؤلاء عن عبادة الله، فلله عبادٌ آخرون كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، ثم على فرض أنه لا يوجد عابد لله، فإن الله يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾، وأيضًا: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهنا شيئان، الشيء الأول: أن يستكبر طائفة من المخلوقين عن عبادة الله، فإن استكبروا فهناك طائفة أخرى تعبد الله، الثانية: أن يستكبر الكل وهذا محال على حسب ما نعلم. لكن على فرض أن جميع المخلوقات استكبرت عن عبادة الله فالله غني عنهم. كل هذا أفصح به القرآن قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾،

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ هذا إذا كفر بعض وآمن بعض، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا إن استغفر بعض وزل بعض ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ جملة ﴿فَالَّذِينَ﴾ هي جواب الشرط، وقرنت بالفاء لأن ما بعدها لا يصح أن يكون فعلًا للشرط، وهذه قاعدة: إذا كان جواب الشرط لا يستقيم أن يكون فعلًا للشرط، وجب اقترانه بالفاء.

كما قال ابن مالك:

وَاقْـرُنْ بِفَـا حَـتْمًا جَوَابًـا لَـوْ جُعِـلَ ... شَرْطًـا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَـا لَمْ يَنْجَعِـلْ

وقد ذكر بعض الجامعين لما يجب أن يقترن بالفاء، جمع ذلك في بيت:

اسْـمِيَّةٌ طَلَبِيَّـةٌ وَبِجَامِـدِ ... وَبِـمَا وَقَـدْ وَبِلَـنْ وَبِـالتَّنْفِيس

﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول المؤلف: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يصلون]، وهذا نعم له وجهة نظر، لأن السياق في السجود، ويمكن أن نقول، يسبحون بما هو أعم من الصلاة، أي يقولون سبحان الله والحمد لله، وما أشبه ذلك من كل ما فيه تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به. وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ أي: لله، واعلم أن التسبيح معناه التنزيه، فما الذي ينزه الله عنه؟ ينزه الله تعالى عن كل نقص. فلا يمكن أن يعتريه النقص بكل حال من الأحوال. ثانيًا: ينزَّه عن كل نقص في كماله، فلا نقص في سمعه، ولا بصره، ولا قدرته ولا قوته. الثالث: ينزه عن مماثلة المخلوقين، فلا يماثل المخلوق أبدًا بأي حال من الأحوال. والتماثل بين الخالق والمخلوق من أكبر المحال، فما ينزه الله عنه إذنْ:

أولا: النقص لا يمكن أن يعتريه نقص.

الثاني: النقص في كماله، فكمالاته من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر وغير ذلك لا يمكن أن يعتريها نقص بأي حال من الأحوال.

الثالث: مماثلة المخلوقين لا نقول مشابهة، بل نقول مماثلة المخلوقين. أكثر الذين يعبرون في مثل هذا يعبرون بالمشابهة وهذا ليس بصواب.

الصواب أن نعبر بما عبر الله به عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. ولم يذكر التشبيه بأي حال من الأحوال، ولهذا كان التعبير بنفي التمثيل هو الصواب دون التشبيه، دليل هذا أن الله منزه عن كل نقص وعيب. قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ المثل يعني: الوصف؛ لأن المثل يطلق على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ

ءَاسِنٍ﴾ مثل الجنة، مثل يعني وصفها وصفتها ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فإذا كان الله له المثل الأعلى أي: الأكمل لزم أن يكون منزه عن كل نقص، أما النقص في كماله، فيدل له قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي من نقص على أن هذه المخلوقات عظيمة جدًّا و ومع ذلك ما لحق الله تعالى فيها نقص.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

الثالث: مماثلة المخلوقين، يقول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ويقول سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، إذنْ التسبيح التنزيه، والذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء، كما قلنا.

وقوله: ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾، الباء هنا بمعنى (في)، لأن المقصود بالليل ظرف الليل، وعلى هذا فتكون الباء بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وبالليل يعني في الليل. وقوله: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني: إذنْ كل وقت، كل الوقت تسبحون الله. ويقول عز وجل: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، هم مع كونهم مستغرقين الليل والنهار بتسبيح الله، لا يسأمون، أي لا يملون، وكذلك لا يتعبون، لأن الملل يكون من الضجر والتعب وذل النفس أمام ما يتحمله الإنسان، هؤلاء الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا يسئمون.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لله آيات كثيرة لا تنحصر بآيتين أو ثلاث، ندرك ذلك من قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وما أكثرها في القرآن الكريم. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وهي كثيرة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لله تعالى أيات محسوسة تعينُ على الآيات المعقولة، وهذا من رحمة الله عز وجل، أن الله أرى عباده الآيات المحسوسة ليستعينوا بها على الآيات المعقولة، الآيات المعقولة كل

يعلم أن كل حادث لا بد له من محدث هذه آية عقلية لا ينكرها أحد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، الجواب: لا هذا ولا هذا، هم ما خلقوا من غير شيء، إذ لا بد لهم من خالق. ولا خلقوا أنفسهم، إذنْ لهم خالق وهو الله عز وجل. ولهذا لما سمع الجبير بن مطعم هذه الآية، وكان من أسرى بدر، وسمع النبي ﷺ يقرأ بالطور ووصل لهذه الآية، يقول: كاد قلبي يطير[1] يعني: عرفت أني على خطأ، وأن المشركين كلهم مخطئون، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الجواب لا هذا ولا هذا فيتعين أن يكون لهم خالق.

إذنْ آيات الله عز وجل إما عقلية وإما محسوسة، هنا من آياته الليل والنهار، هذه الآيات هل هي محسوسة أم عقلية؟ الآيات هذه محسوسة، كل يعرف الليل والنهار، وأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بهما.

٣- **ومنها**: أن الليل والنهار والشمس والقمر، آيات عظيمة، ولهذا نص الله عليها، والأمر كذلك، هذه الشمس الكوكب العظيم المنير الحار لا يمكن لأي مخلوق أن يصنع مثله إطلاقًا، وقد بينا في أثناء التفسير وجه ذلك.

٤- **ومن هذه الفوائد**: النهي عن السجود للشمس والقمر، لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ مع أنهما من آيات الله، لكنهما مخلوقة، والسجود إنما يكون للخالق.

ننتقل من هذا إلى نقطة مهمة أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أن صفات الله عز وجل ليست هي الله). فلا يجوز دعاء الصفة ولا السجود للصفة من صفات الله، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: (من دعا صفة من صفات الله فإنه كافر بالاتفاق)، يعني: لو قال قائل: يا رحمة الله ارحميني. هل الرحمة شيء بائن عن الله؟ يستطيع أن يرحم أو لا. فإذا قلت يا رحمة الله ارحميني معناها أنك جعلت مع الله إلهًا آخر، وهذا كفر، وكذلك إذا قلت يا قدرة الله أنقذيني، هذا حرام وشرك، قل يا الله بقدرتك أنقذني، ولا يرد على ذلك قوله: اللهم برحمتك أستغيث، لأن ليس المعنى أنني أستغيث بالرحمة وكأنني أجعلها شيئًا مستقلًا. لكن المعنى التوسل إلى الله تعالى برحمته، كأنه يقول يا رب أغثني برحمتك. فيجب التنبه لمثل هذه المسألة.

ومن ذلك أيضًا من الخطأ في مثل هذا قول بعض الناس: شاءت قدرة الله، وكذلك شاء القدر هذا حرام، أي لا يجوز، القدرة نفسها ليس لها مشيئة، فالمشيئة لله عز وجل، أما القدرة فليس لها مشيئة لأنها صفة في الموصوف، والشائي والمختار هو الله عز وجل؛ لأنه مقتضى قدرة الله، فهذا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

صحيح، يعني من مقتضيات القدرة كذا وكذا. أما المشيئة لا تكون إلا ممن له مشيئة له اختيار وهذا لا يمكن أن يكون من صفة.

٥- أن من بلاغة القرآن، أنه إذا ذكر الحكم ذكر الدليل العقلي عليه؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ اسجدوا لله هو أمر شرعي، لكن الذي خلقهن دليل كوني قدري على أن المستحق للسجود الذي خلق هذه الأشياء، كيف تسجدون للشمس والقمر، ولا تسجدون لله الذي خلقهن؟ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لم يقل أن الله أشد منهم قوة، بل قال: ﴿الذي خلقهم﴾، ليدل بذلك دلالة واضحة أنهم دون الله تبارك وتعالى في القدرة؛ لأن الله هو الذي خلقهم، وهذا من أساليب القرآن المعجزة الذي تدل على أنه من لدن حكيم خبير.

٦- **ومنها**: الرد على عابد الشمس والقمر؛ لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، استنبط بعض العلماء من هذه الآية فائدة: وهي مشروعية صلاة الكسوف، قال لأن الله قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ولم يقل: (لليل والنهار)، وذلك لأن الشمس والقمر إذا تغيرتا فقد ينشأ في قلب عابدهما أن يسجد لهما كالتائب، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، وهذا الاستنباط فيه شيء من البعد لكنه ليس ممتنعًا أن يكون في ذلك إشارة إلى مشروعية صلاة الكسوف.

٧- **ومن فوائدها**: أنه لا يمكن لإنسان يدعي أنه يعبد الله حقًّا أن يسجد لغير الله؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٨- **ومنها** تحدِّي من أشرك بالله بأي نوع من الشرك، أن يكون عابدًا حقًّا لله، فالمرائي مثلًا نقول: إنك لم تعبد الله حقًّا، لم تفرده بالعبادة، لأنك أردت بعبادتك التقرب للمخلوقين. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المستكبرين عن عبادة الله لن يضروا الله شيئًا؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: كشف تحدي هؤلاء الذين يدعون غير الله.

٣- **ومن فوائدها**: ما استدل به بعضهم على أن الملائكة أفضل من البشر، وعلَّل ذلك بأن

الملائكة ليس فيهم مشرك، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، وبنو آدم مؤمن وكافر، والجنس الذي ليس فيهم مشرك خير من الجنس الذي فيه مشرك وموحد، ولكن قد يعارض هذا الاستدلال فيقال: عبادة الجنس الذي فيه مشرك وموحد أفضل من عبادة جنس ليس فيه مشرك، وكذلك لمشقة التوحيد في جنس فيه مشرك على الموحد، فيكون الموحد من بني آدم أفضل من الملائكة؛ لأنه عبد الله في قوم لا يعبدون الله، أما الملائكة فكلهم يعبدون الله ولا يستكبرون عن عبادته، وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، ولكل منهم أدلة، لكن جمع شيخ الإسلام رحمه الله بين الأدلة فقال: الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالح البشر أفضل باعتبار النهاية، وهذا قول لا بأس به، جمع بين الأدلة الدالة على التفضيل، تفضيل الملائكة على البشر والبشر على الملائكة. ولهذا قال السَّفَارِيني رحمه الله:

وَعِنْــدَنَا تَفْــضِيلُ أَعْيَــانِ البَــشَرْ عَــلَى مَــلَاكِ رَبِّنَــا كَــمَا اشْــتَهَرْ

قال (أحمد) ومن قال سوى هذا افترى يعني: من قال بغير تفضيل أعيان البشر على الملائكة فقد افترى.

لكن الصواب أن نقول كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أما باعتبار البداية الملائكة أفضل، لأنهم خلقوا من نور ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، بالنهاية يكون لصالح البشر من الثواب والأجر والقرب إلى الله ما ليس للملائكة.

٤- **ومن فوائدها**، أن للملائكة إرادة، وذلك في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ولا تسبيح إلا بإرادة، ومن هنا نقفز إلى الفائدة الثانية وهي أن جميع المخلوقات، من الأحجار والأنهار والأشجار والشمس والقمر والسماء والأرض لها إرادة؛ لأنها كلها تسبح الله قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وبهذا نرد على الذين قالوا إن قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يعني الجدار هذا مجاز، لأن الجدار ليس له إرادة، فنقول: من قال لكم إن الجدار ليس له إرادة؟ بل له إرادة وميله يدل على أنه أراد، وقد قال النبي ﷺ في أحد إنه جبل يحبنا ونحبه(١)، والمحبة أخص من الإرادة، وأثبتها الرسول ﷺ للجبل.

٥- **ومن فوائد هذه الآية**، أن بعض أهل العلم استدل بهذه الآية الكريمة على علو الله، وأن الأشياء ليست كلها سواء بالنسبة للقرب منه لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، والعندية تقتضي القرب، وأن بعض المخلوقات عند الله أقرب من بعض وهذا لا إشكال فيه، من يقول إن من كان

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

في الأرض السابعة السفلى هو في القرب من الله كالذي في السماء السابعة، وأما من جهة الإحاطة بالخلق، فلا شك أن القريب والبعيد عند الله على حد سواء، وأما من جهة الواقع فلا شك أن من كان في السموات أقرب إلى الله ممن كان في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، أقول إن بعض العلماء استدل بهذه الآية على علو الله، وقال: نحن في الأرض والذين عند الله لا بد أن يكونوا في السماء لأنه لولا علوه لكنا نحن أيضًا عنده، فكون يقول ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يخاطب من في الأرض يدل على علو الله عز وجل، وهذا لا شك أنه استنباط جيد، لكننا لسنا بحاجة إلى أن نأتي بهذا الدليل الذي قد تخفى دلالته على كثير من الناس، وعند أدلة كثيرة واضحة على علو الله عز وجل، أدلة عقلية وسمعية وقدرية على علو الله، ولا أحد ينكر علو الله عز وجل العلو الذاتي إلا مخبول.

وهذا فيما أرى كفر صريح، أن من قال أن الله بذاته في كل مكان فهو كافر لو مات ما صليت عليه ولا دعوت له بالرحمة؛ لأنه مكذب بالقرآن وللأدلة العقلية وواصف لربه بكل عيب.

ومنهم من يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا متصل بالعالم ولا مباين ولا محايد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، أين هو؟ وبماذا وصف الله؟ وصف الله بالعدم، لو قيل لنا صف المعدوم ما وصفه بأكثر من هذا، فيقال: أين هو، ما دام ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، فأين هو؟ ولهذا لما قال ابن فورك لمحمود بن سبكتكين رحمه الله: إني لا أقول أن الله فوق العالم ولا تحت العالم إلى آخره وذكر هذه الأسلوبات.

قال: بين لنا الفرق بين وجود ربك وعدمه أو كلمة نحوه؟ يعني معنى ذلك أنك إن وصفت الله بهذه الأوصاف يعني أنك وصفت العدم تمامًا.

على كل حال تقرير أن الله تعالى في السماء يعني العلو الذاتي، أمر لا إشكال فيه، والعجب أنك تأتي العجوز التي لم تدرس ولم تفهم ولم تعلم، وتسألها أين الله؟ تقول في السماء. إلا إذا كان الأمر كما قال النبي ﷺ: «أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1] أي: إلا إذا كانت تعيش بين قوم ينكرون العلو، فربما تنكره، بناء على أن البيئة تغيرت، أما إذا أتينا إلى إنسان من حيث الفطرة لرأيناه لا يشك أن الله في السماء، ولذلك أفحم الهمداني رحمه الله أبا المعالي الجويني، حين كان أبو المعالي الجويني ينكر استواء الله على العرش، ويقول: إن الله كان ولا عرش وهو الآن على ما كان عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٢/ ٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يريد أن ينكر استوائه على العرش، فاستواء الله على العرش دليله سمعي لأنه لولا أن الله أخبر أنه مستوٍ على العرش لما علمنا، بخلاف العلو فدليله سمعي وفطري وعقلي، وأما هذا فدليله سمعي، قال له الهمداني رحمه الله: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة، فما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة في طلب العلو. ما قال عارف، كلمة عارف اصطلاح صوفي، العارف عندهم هو العالم الواسع للعلم، العابد الكثير العبادة، ما قال عارف قط يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة لطلب العلو، وهذا صحيح، أي إنسان يقول يا الله يجد قلبه يتجه إلى السماء.

٦- **ومن فوائدها**: أن الملائكة مستغرقون الزمن كله في العبادة؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والباء وإن كانت بمعنى الظرف بمعنى في، لكن فيها نوع من الدلالة على الاستيعاب، كما قال الله تعالى في آية أخرى، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾.

٧- **ومن فوائدها**: بيان قوة الملائكة؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون ولا يتعبون مما يدل على قوتهم، والأدلة على قوتهم كثيرة، منها قصة سليمان ﷺ، حين جاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ أن لها عرش عظيم، فقال سليمان: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ وكان له وقت محدد يقوم فيه ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، جني يأتي بالعرش من أقصى اليمن إلى الشام، وهو واحد، ويقول ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾ يؤكد قوته، ﴿أَمِينٞ﴾ لن أخون فيه. ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، الله أكبر في الحال وجده أمامه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ولم يقل: عنده مستقرًّا كأنه وضع في هذا المكان من سنوات مستقر ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

الآن حضر من هناك بلحظة، يعني كأن العرش على يمينك فنقلته على يسارك، فالأدهش، قال أهل العلم لأن هذا دعا الله عز وجل، فحملته الملائكة والملائكة أقوى من الجن وهذا لا شك فيه أنهم أقوى من الجن.

مسألة: حول من الأفضل الإنس أم الملائكة؟

الجواب: الملائكة أفضل من حيث البداية لأنهم خلقوا من نور ولا يستكبروا عن عبادة الله، ولكن في النهاية يكون مآل البشر أفضل، حتى الملائكة عملهم أنهم يدخلون عليهم من كل باب يهنئونهم، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ ولا ينالون من النعيم مثل ما يناله المؤمنون.

مسألة: حول كلمة (نشكر فضل الله) و كلمة (نحمد الله ونشكر فضله)؟

الجواب: هذا ما فيها شيء، أليس الله يقول ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؟ والمراد نعمة الله المخلوقة ما هي الصفة، يعني ما أنعم الله، كذلك أشكر فضل الله ليس معناه أن هذه الصفة مشكورة، ولكن هذا الفضل الذي منَّ الله به علي من شكر.

مسألة: حول الآية ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

الجواب: نحن لدينا قاعدة، أنه إذا دلَّ القرآن على شيء جائز فلا عبرة لمن خالفه، هذه أولًا؟

ثانيا: إذا اختلف النحويون في مسألة، فإننا نتبع الأسهل، ما في دليل شرعي مثلا يؤيد هؤلاء أو هؤلاء، لذلك نتبع الأسهل. وأنا قد أعطيت طلابنا هذه القاعدة، على أنكم إذا رأيتم علماء البصرة وعلماء الكوفة مختلفين في شيء، فاتبعوا الأسهل، وقولوا نحمد الله على الراحة.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩، ٤٠]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ (من) للتبعيض، وآيات جمع آية، وهي العلامة المعينة لمعلومها، فكل علامة تعين معلومها وتحدده فهي آية، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، الخطاب هنا لكل من يتأتى خطابه، وليس خاصًا بالنبي ﷺ، واعلم أن الخطاب الموجه إلى واحد، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولا: ما دل الدليل على أنه خاص برسول الله ﷺ فهو خاص به.

ثانيًا: ما دل الدليل على العموم فهو العموم.

ثالثًا: ما لا دليل فيه على هذا ولا على هذا، فيصح أن يكون خاصًّا بالرسول وأن يكون موجهًا لكل من يتأتّى خطابه.

ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ الخطاب خاص بالرسول ﷺ، إذ أن هذا لا يتأتى لغيره، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾هذا أيضًا خاص به، وفي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ هذا عام دل الدليل عليه، لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، وغالب ما يأتي ألا يكون فيه دليل لهذا ولا لهذا.

نقول: إما أنه موجه للرسول ﷺ، وأمته تكون متأسّية به في ذلك، وإما أن يقال خطاب لكل من يتأتى خطابه، في هذه الآية: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ﴾، هل الخطاب هنا خاص للرسول؟ لا، بل هو عام له ولغيره إما أن غيره داخل في ذلك في أصل المخاطبة وإما بالتبع، ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: [يابسة] هامدة. ليس بها نبات إطلاقًا، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ يعني المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ [تحركت] ﴿وَرَبَتْ﴾ [انتفخت وعلت].

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ ماء المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: اهتز نباتها من فوقها، وليس المراد أن الأرض نفسها تهتز، لأننا لا نشعر بذلك وإن كنا نجوِّز أن يكون اهتزازها اهتزازًا يسيرًا، لكن الذي يظهر أنها اهتزت في النبات، وربت، أي علت. وهل المراد ما أشار إليه المؤلف؟ انتفاخ الأرض عندما تريد الحبة أن تخرج، فإن الحبة تنتفخ في باطن الأرض، ثم إذا أراد غصنها أن يخرج رفع الأرض، فهل هذا معنى (ربت)، أو معنى علت بالنبات؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا أنها علت بالنبات وأنه لما ذكر اهتزازها أولا، اهتزاز النبات الخفيف، ذكر علو النبات الكبيرة التي تعلو، كل هذا ممكن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرض الخاشعة ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾، والجملة كما ترون مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والموتى جمع ميت، والمراد بهم، كل من مات من بني آدم وغيرهم. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذه جملة مؤكدة بإن، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء فالله قادر عليه قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الثابت وعلى تثبيت المتغير، كل شيء قادر عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من آيات الله الدالة على قدرته، أن الأرض اليابسة

الهامدة إذا نزل عليها الماء نبتت واهتزت وَرَبَتْ، وهل أحد يستطيع أن يفعل مثل ذلك؟ أبدًا، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، لا أحد يستطيع مهما بلغ من القوة أن ينبت ورقة واحدة، وقد تحدى الله عز وجل جميع الخلق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وهذا تحدٍ بالأمر الكوني القدري، وتحدى الله الخلق بالأمر الشرعي، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، إذنْ فالإنسان عاجز مهما كان.

٢- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالمحسوس المنظور على الموعود المنتظر، وجهه: أن الله استدل بالشيء المحسوس المنظور وهو نبات الأرض، بعد أن كانت هامدة على شيء منتظر وهو إحياء الموتى بعد موتها، وفيه أيضًا الاستدلال بالأدلة العقلية، أن الإنسان يستدل بالمحسوس على المعقول، يعني: أن قدرة الله على هذا، تدل على قدرته على الآخر.

٣- **ومن فوائدها:** استعمال القياس وأن القياس ثابت، لأن الله تعالى قاس إحياء الموتى على إحياء الأرض.

٤- **ومنها:** تأكيد ما ينبغي تأكيده سواء كان ذلك بإنكار المنكر أو بشك شاك أو أهمية الأمر، لأن التأكيدات تكون إما لأهمية الأمر، و إما لرفع الشك والتردد في الشيء حتى يكون أمرًا يقينيًا، وإما بإثبات الشيء المنكر، فمثلًا إذا كانت الآية تخاطب الذين ينكرون البعث، فهذا الإثبات لإثبات منكر، لأنه إثبات شيء أنكره قوم، وإذا كانت الآية تخاطب من يترددون في ذلك فهي لرفع الشك والتردد وإذا قدَّرنا أنها تخاطب من لا شك عنده ولا إنكار، فهو لأهمية الأمر ولأهمية الموضوع؛ لأن الإيمان بذلك هو الذي يحث الإنسان إلى أن يعمل، لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يبعث ويجازى لكان غير نشيط على العمل، أكثر ما ينشط الإنسان على العمل هو خوف يوم القيامة.

٥- **ومن فوائدها:** عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء لتمام علمه وتمام قدرته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، لأن العاجز إما أن يكون لعدم علمه وإما أن يكون لعدم قدرته، فنفى الله عز وجل العجز وبيّن أن ذلك بسبب كمال علمه وقدرته.

إذنْ إن الله على كل شيء قدير. ذكر الجلال السيوطي -غفر الله لنا وله- في سورة المائدة كلامًا منكرًا قال: [وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر] يعني: كأنه يقول إنه على كل شيء قدير إلا

على ذاته فإنه ليس عليها قادر، وهذا لا شك كلام منكر. كأنه يقول مثلًا: هل يقدر الله عز وجل على أن يخفي نفسه؟ على كلامه نقول هذا قول ساقط؛ لأن القدرة إنها تتعلق بالشيء الممكن أما الشيء المستحيل فهو مستحيل، مستحيل على قدرتنا، فالمستحيل على قدرتنا غير مستحيل على قدرة الله عز وجل، لكن المستحيل لذاته فإنه لا يمكن أن تتعلق به قدرة ولا غير قدرة إلا العلم؛ ولهذا قال السَّفاريني:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ

فيقال لجلال -عفا الله عنا وعنه- : إن أردت أن الله ليس بقادر على أن يخفي نفسه، فهذا أمر غير وارد إطلاقًا؛ لأن القدرة لا تتعلق بهذا، وإن أردت أنه غير قادر على أن ينزل إلى السماء الدنيا، وأن يأتي للفصل بين عباده، وأنه يستوي على عرشه ونحو ذلك من الأفعال الاختيارية، فهذا كذب. بل هو قادر على ذلك، لكن السيوطي ـ عفا الله عنا وعنه ـ ممن يرون أن الأفعال الاختيارية لا تقوم بالله، كأن يقول الله ما يمكن ينزل ولا يستوي ولا يأتي يوم القيامة، لأن هذه حوادث والحوادث لا تتعلق إلا بحادث، على كل حال هذه فلسفة جاء بها أهل الكلام، وما أكثر ما جاءوا به من الكلام، وكلامهم كلام في كلام، لا فائدة فيه، تطويل بلا فائدة، إضاعة للوقت بلا فائدة، مؤدٍ إلى الشك والتردد بلا فائدة، ولهذا قال بعضهم أكثر الناس شكًّا عند الموت هم أهل الكلام، لماذا؟ لأنهم لم يبنوا عقيدتهم على الكتاب والسنة بل بنوا عقيدتهم على وهميات ظنوها عقليات، فضلوا وأضلوا، نحن نقول كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقط، ويكفي، أما العلم فإنه أوسع من المقدرة؛ لأن العلم متعلق بالواجب والمستحيل والممكن يعني علم الله متعلق بكل شيء، يتعلق حتى بالمستحيل، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾وهذا مستحيل، ومع ذلك تعلق به العلم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل على حكمة الله عز وجل.

٦- **ومن فوائدها**: الاستدلال على العموم بالخصوص، فالله سبحانه وتعالى استدل على إحيائه الموت بدليلين، أحدهما: خاص، والثاني: عام، فالخاص أنه يحيي الأرض بعد موتها، والعام ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وينبني على هذه الفائدة، أن العام يتناول جميع أفراده، وقد ذكر النبي ﷺ في قوله حين علم أمته التشهد. قال: «إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»(١)، فمثلًا: إذا قال الرجل: دوري وقف، فهذا يشمل جميع الدور، ولو قال: سياراتي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١) ومسلم (٥٥/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

لفلان يشمل جميع السيارات، ولو قال نسائي طوالق، يشمل كل امرأة له، ولو قال عبيدي أحرار يشمل جميع عبيده، المهم أن العام يشمل جميع أفراده.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ يقول المفسر: [من ألحد ولحد] من ألحد تكون ﴿يُلۡحِدُونَ﴾، ولحد (يَلْحَدُونَ)، وأصل اللحد أو الإلحاد هو الميت، ومنه سمي اللحد لحدًا لميله إلى جانب القبر، إذنْ فهذه المادة (ل ـ ح ـ د) مأخوذة من ميل، فمعنى: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون فيها وآياتنا جمع آية وآيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية وهي الوحي المنزل على الأنبياء والرسل، وآيات قدرية: وهي المخلوقات، كل المخلوقات آيات قدرية، تدل على خالقها وبارئها وفي ذلك يقول الشاعر الصادق في قوله.

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّه الوَاحِدُ

كل المخلوقات آية من أيات الله، إذنْ الآيات قسمان كونية وهي جميع المخلوقات، وآيات شرعية وهي الوحي المنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الإلحاد في الآيات الكونية يكون بواحد من الأمور الثلاثة:

الأمر الأول: بنسبتها إلى غير الله، مثل أن يقول: إن الذي خلق السماء القوة الطبيعية.

الأمر الثاني: وإما باعتقاد مشارك لله فيها. مثل أن يقول إن الذي يدبر الكون هو الله والإمام فلان، كما تقوله بعض الرافضة.

الأمر الثالث: وإما باعتقاد معين لله فيها. يعني كأن الله عجز عن إقامة السموات والأرض فأعانه آخر هذا هو الإلحاد في آيات الله الكونية. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ كل ثلاث جاءت، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ على سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُمۡ﴾ أي ما لله ﴿مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ معين.

الآيات الشرعية قلنا هي ما نزل من الوحي على رسل الله، والإلحاد فيها يكون بتكذيبها

وتحريفها ومخالفتها، يكون أيضًا بثلاثة أمور: تكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها.

هذا الإلحاد في الآيات الشرعية، فمن كذَّب وقال مثلًا: محمد ما نزل عليه وحي، وإنها يعلمه بشر، فهو ملحد. ومن حرفَّها وغيَّر معناها أو غيَّر لفظها فهو ملحد؛ لأن التحريف يكون لفظًا ويكون معنًى، والثالث من خالفها فهو ملحد، فمن عصى الله فهو ملحد لكنه ليس الإلحاد الذي نفهمه وهو الخروج من الدين، بل هو ملحد إلحادًا بقدر ما فعل من المعصية والمخالفة، دليل ذلك قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا سمعي، ودليل عقلي أننا قلنا: إن الإلحاد في اللغة هو الميل، والعاصي المخالف للأوامر مائل بلا شك.

هؤلاء الذين يلحدون في أي واحد من الأقسام السابقة يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، هذه صفة نفي، ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾، نفى الله عز وجل أن يخفى عليه هؤلاء، وذلك لكمال علمه، واعلم أنه لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي محض، بل كل ما نفى الله عن نفسه فهو متضمن لكماله وإثباته وهذه قاعدة هامة لا تفرط فيها.

لا يوجد في صفات الله نفي محض بل كل ما نفى الله عن نفسه فإنه متضمن لكماله، فمثلًا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، وذلك كمال علمه.

لأن الله تعالى كامل العلم محيط بكل شيء أم يحسبون أنا لا نسمع سرنا ونجواهم بلا ورسلنا لديهم يكتبون.

إذنْ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي لا يخفى علينا حالهم لكمال العلم. والمراد بهذه الجملة، المراد بها التهديد، كما تقول لابنك: يا بني اذهب بما شئت فإنه لا يخفى عليَّ فعلك. فالمراد بها التهديد، وهي في غاية التهديد؛ لأنه إذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فسوف ترتعد الفرائص من هذا الوعيد، ثم قال: [فنجازيهم] المؤلف رحمه الله يقول: ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ [القرآن بالتكذيب]، ففي تفسير المؤلف قصور، أولًا: لأنه جعل الآيات هنا الآيات الشرعية، وهذا خطأ، فالآيات أعم. ثانيًا: أنه لم يجعل الإلحاد في الآيات الشرعية إلا بنوع واحد من الإلحاد وهو التكذيب وقد قلنا: إن الإلحاد فيها يكون بثلاثة أمور، أو بواحد من ثلاثة أمور، إما التكذيب أو التحريف أو المخالفة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، استفهام من الله عز وجل، الجواب؟ من يأتي آمن. وفي قوله ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ هذا نتيجة قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، إذنْ فالمعنى لا يخفون علينا وسنلقيهم في النار؛ لأن هذه هي النتيجة من قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، فيكون المعنى

لا يخفون علينا وسنلقيهم في النار، وأخبروني ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الجواب: أن الناس في صوت واحد سيقولون: أمن يأتي آمن يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ يلقى يفيد هذا أن أهل النار ـ والعياذ بالله ـ إذا وردوها لا يدخلوها طائعين، ولا مختارين ولكنهم يلقون إلقاء، كما يلقى الحجر من على الجبل، قال الله تعالى: ﴿أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ لأنهم لا يريدون أن يذهبوا، ولكن قد ثبت أن النار تتمثل لهم كالسراب فيأتون إليها صراعًا، فنقول لا منافاة، هي تمثل لهم سراب وهم يريدون الشرب فيأتون إليها صراعًا فإذا وصلوا إليهم وعرفوا أنها النار حينئذ يقفون ثم يدعون إلى نار جهنم دعا ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ثم يلقون فيها إلقاء.

قوله: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم المؤمنون الذين لا يلحدون في آيات الله هؤلاء يأتون يوم القيامة آمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾ إعراب: ﴿ءَامِنًا﴾ حال، والفاعل مستتر والتقدير: أم من يأتي هو آمنا يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: له يوم البعث والنشور وسمي بالقيامة لوجوه ثلاثة:

الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الثاني: أنه يقام فيه العدل. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الثالث: أنه يقام فيه الأشهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾. فلهذا سمي يوم القيامة لهذه الوجوه الثلاثة.

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يعني بعد هذا الإنذار والتهديد والوعيد اعملوا ما شئتم، وهذه جملة أيضًا تفيد التهديد ولا شك. يعني اعملوا ما شئتم من الخير أو من الشر، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إذنْ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليست إباحة أن الإنسان يعمل ما شاء، كما يدعي هؤلاء أن الحرية أن تعمل ما شئت، عند هؤلاء الكفار الإنسان حر في دينه، يدين بما شاء، حر في أخلاقه يتخلق بما شاء، حر في أعماله يعمل ما شاء.

ونحن نقول: لا، الحرية المطلقة هي الرق المطلق، لأنك إذا تحررت من قيود الشر، تقيدت بقيود الشر.

كما يقول ابن القيم: (هربوا من الرق الذين خُلقوا له) والرق الذي خلقوا له عبادة الله عز وجل. (وبلوا برقِّ النفس والشيطان) صاروا عبيدًا لأنفسهم وللشياطين. فروا من رقهم لله إلى رقهم للهوى وللشيطان.

فنقول: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ ليس إطلاقًا، بمعنى ليس إباحًا، ولكنه تهديد وهو أسلوب عربي مبين، منذ نزل القرآن وإلى يومنا هذا؛ ولهذا أكده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال المؤلف: [تهديد لهم]، إنه الضمير يعود على الله عز وجل، وقوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عليم وقوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قدم على عامله، لسببين: أحدهما لفظي، والثاني معنوي، أما اللفظي لتناسب رءوس الآيات، والقرآن الكريم كما تعلمون أنزل بلسان عربي يراعي التناسب اللفظي والمعنوي.

والفائدة الثانية: أنه أشد تهديدًا مما إذا جاء متأخرًا عن العامل، كأنه يقول: لو لم يكن عالمًا بأي شيء لكان عالمًا بأعمالكم، فهنا الحصر لبيان التهديد لهؤلاء، كأنه يقول لو خفي عليه كل شيء لم يخف عليه أعمالكم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم الإلحاد في آيات الله، وجه ذلك أن الله تعالى هدد الملحدين في آيات الله.

٢ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الآيات والتقسيم من عندنا مبنيًّا على التتبع والاستقراء، يعني: إثبات أن الله له آيات كونية وشرعية، والآية ليس فيها ذلك ولكن بالتتبع والاستقراء علمنا أن آيات الله تنقسم إلى قسمين: شرعية وكونية.

٣- **ومن فوائدها:** تهديد الملحدين؛ لأن الله مطَّلِع عليهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

٤ - **ومنها:** سعة علم الله وأنه لا يخفى عليه شيء.

٥- **ومنها:** أن الإلحاد سبب في دخول النار؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ مثل الملحدين.

٦- ومنها أن أهل النار يلقون فيها إلقاء ويدعون إليها دعًّا إهانة لهم وإذلالًا؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** جواز المفاضلة بين شيئين بينهما من التباين أكثر مما بين السماء والأرض؛ إفحامًا للخصم؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، كل يعلم أن الثاني خير وأنه لا حاجة للإستفهام. لكن من أجل إفحام الخصم وإقامة الحجة عليه ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، كل يعرف أن الله خير، ولكن هذا من باب إفحام الخصم، ومنه قوله

تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، كل يعرف أن الأعلم هو الله ولكن هذا أيضًا من باب إفحام الخصم.

والقاعدة: أن المفاضلة بين شيئين التفاوت بينهما ظاهر لا يراد به المقارنة، لكن يراد به إفحام الخصم.

٨- **ومن فوائدها:** أن من استقام في آيات الله ولم يلحد فيها فإنه يأتي يوم القيامة آمنًا، لقوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في مقابل الملحدين الذين يلقون في النار.

٩- **ومن فوائدها:** عظمة الله عز وجل وقوة سلطانه، لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ لأن مثل هذا التهديد لا يكون إلا لمن كان كامل السلطان.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١١- ومنها أيضًا: أن الناس يوم القيامة ما بين آمن وخائف؛ لقوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٢- **ومنها:** إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فيكون في ذلك رد على الجبرية، الجبرية يقولون الإنسان مجبر على العمل، وليس له أي إرادة على ما يفعله ـ عجبًا لهم ـ يصلِّي ويتوضأ ويمشي ويخرج ويؤمن ويكفر بلا إرادة سبحان الله فهو في معتقدهم أنه مجبر. فالحركة فيه طبيعية فيه كالإحراق في النار، هل النار تحرق باختيارها؟ لا، لكن أودع فيها الإحراق، هم يقولون: هذه الأفعال والحركات من الإنسان لا إرادية ولكنه جبل عليها. ويقولون: إن حركته الإرادية كحركته الإضطرارية، فنزول الإنسان على الدرك من السفلى وصعوده من السفلى إلى العليا. كمن دحرج دحرجةً على الدرج والمدحرج لا ينزل باختياره هكذا هم يقولون لا فرق.

فقيل لهم: إذا كان كذلك فإن من أظلم الظلم أن يعذب الله الظالم، لأن الظالم يقول أنا مجبر، ما لي قدرة ولا لي اختيار، قالوا: لا، لا يمكن. فالظلم في حق الله مستحيل لذاته؛ لا لأن الله لا يريده لكنه مستحيل لذاته، وذلك لأنه تصرف الخالق في ملكه، والمتصرف في ملكه ليس بظالم، ولهذا قال ابن القيم: والظُّلم عندهم المحال لذاته، ونحن نقول: أخطأتم لأن الله تعالى شرع شرائع وأوعد من خالفها ووعد من وافقها، وأعطى الإنسان حرية، والظلم ممكن في حق الله لكنه مستحيل عليه إرادة بمعنى أنه لا يريد الظلم، ولو شاء لظلم، لكنه لا يريد، وليس وصفه إطلاقًا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال تعالى في نفي إرادة الظلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ وكيف يتمدح الله عز وجل بأمر مستحيل هذا

غير ممكن لولا أن الظلم ممكن ما كان وصف الله به كمالًا.

فهل ممكن أن يعذب الإنسان الذي أمضى ليله ونهاره في طاعة الله؟ وهذا ممكن عقلًا، لكن الله تعالى لا يريد هذا.

على كل حال ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ في هذه الآية دليل على إثبات المشيئة للعبد، وهو يرد ردًّا واضحًا على الجبرية.

العجب أنه قام أناس ضد الجبرية فداووا البدعة ببدعة، قالوا: إن الإنسان له مشيئة وإرادة واختيار لكنه منفصل عن إرادة الله تعالى وميشئته، مستقل بالعمل، ما لله فيه إرادة إطلاقًا، فأنت الآن تذهب وتجيء باختيارك، لا تشعر بأن أحد يجبرك أو يكرهك، فإذنْ لا علاقة لله بفعلك أنت تفعل مختارًا مستقلًا عن إرادة الخالق.

أيهم أقرب إلى المعقول؟ القدرية لأن كل إنسان يعرف أنه يفعل الأشياء باختياره، وأنه يحمد على فعله للخير ويذم على فعله الشر، ولو كان بغير اختيار ما استحق أن يحمد على الخير ولا أن يذم على الشر، كل يعلم ذلك.

ولهذا يسمون العقلانيين، لأنهم يحكمون العقل حتى في مثل هذا الأمر، إذنْ نقول: قوبلت بدعة الجبرية ببدعة القدرية الذين أثبتوا للإنسان إرادة استقلالًا، ولهذا يسمون مجوس هذه الأمة، وذلك لأن المجوس يقولون الحوادث لها خالقان: الظلمة والنور، كل ما في الدنيا من شر فخالقه الظلمة، وكل ما فيها من خير فخالقه النور، لأن الأشياء التي في الدنيا كلها إما خير وإما شر، فيجب أن يكون هناك إلهين، إله الخير وإله الشر، فأيهما المناسب للخير؟ النور، وذلك لأن النور فيه سعة الصدر والإنشراح، وأيهما أنسب للشر؟ الظلمة.

قالوا إذنْ جميع ما يحدث في الكون له خالقان، ظلمة ونور، الظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير. ولهذا يقول المتنبي في ممدوحه:

وَكَم لِظَلامِ اللَيلِ عِندَكَ مِن يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكذِبُ

قوله: (من يد) أي: من نعمة، وكم للتكثير؛ لأن المانوية تقول: إن الظلمة تخلق الشر والنور يخلق الخير، والمانوية فرقة من المجوس.

فالمتنبي يقول لممدوحه، أنت تجود ليلًا ونهارًا مما يكذب المانوية الذين يقولون إن الظلمة تخلق الشر.

على كل حال نحن نقول: إن الجبرية قوبلت بدعتهم ببدعة القدرية، وأعلم أن البدعة لا

يمكن أن تقاوم ببدعة.

لأنك إذا ابتدعت ادَّعوا عليك. ومن ذلك ما يفعله بعض الناس في يوم عاشوراء.

فيوم عاشوراء عند الرافضة يوم حزن وبلاء، جاء أناس من أهل السنة قالوا: نجعله يوم فرح وسرور، وينبغي في يوم عاشوراء أن نتزين ونتجمل ونوسع على الأولاد. وهذا ضد الحزن، ولكن هذا ليس بصحيح؟ لا؛ لأننا لو فعلنا هذا قالت الرافضة ما دليلكم على هذا؟ فلا يمكن أن تقابل البدعة ببدعة أبدا، فالبدعة لا تقابل إلا بسنة.

نحن نقابل الجبرية الذين ينكرون مشيئة العبد بدلائل من الكتاب والسنة، أن للإنسان مشيئة، ونقابل القدرية بأن الله تعالى له ملك السموات والأرض وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

إذنْ أنا إذا شئت شيئًا وفعلته، أقول إن الله شاء ذلك قبل أن أشاء. لا يمكن أن أشاء شيئًا وأفعله دون أن يكون الله تعالى شاءه أبدًا.

فإذا قال قائل: أنت إذا قلت هذا وأن مشيئتك بعد مشيئة الله وتابعة لمشيئة الله، لزم على ذلك أن يحتج العاصي علينا بقدر الله تعالى ومشيئته. العاصي يشاء المعاصي ويفعل المعصية، إذا قالوا لماذا؟ قلنا لأن الله شاء ذلك. ويوجهون إلينا أننا نقول: إنه ما من مشيئة للعبد إلا وهي مسبوقة بمشيئة الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيقول أحدهم: شاء الله أن أفعل وفعلت، فكيف تلوموني على أمر قد كتبه الله علي وشاءه عليَّ؟

نقول: قبل كل شيء من أعلمك أن الله شاء ذلك؟ هل أحد يعلم أن الله شاء الشيء إلا بعد وقوعه، لا يعلم. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أنا مثلًا عندما أقوم وأصلي، أعلم أنني لما شئت الصلاة وفعلت فقد شاءها الله من قبل لكن قبل أن أصلي هل أعلم أن الله شاء أن أصلي أو لا؟ لا، لا أعلم.

العاصي حين يفعل المعصية، هل يعلم أن الله شاء له أن يفعل المعصية قبل أن يفعلها؟ لا.

إذنْ لا حجة لهم.

وما أحسن ما قاله بعض العلماء: إن القدر سر مكتوم، لا يُعلم إلا بعد وقوع المقدور.

وهو كذلك، هذا جواب مفحم لا يمكن أن يتخطاه أحد.

ثم نقول له: ألست الآن إذا كان أمامك نار محرقة أو أودية مغرقة، ألست تحجم عنها ولا تقدم عليها؟ لماذا لا تقدم وتلقي نفسك في النار وتقول والله هذه مشيئة الله؟ لا يمكن أن يقدم، لا على أودية مغرقة، ولا على نار محرقة، ويدعي أن ذلك بمشيئة الله، لا يمكن.

إذًا لماذا لم تتجنب المعاصي التي علمت بوعد الله أو وعيده أنها سبب لدخول النار؟ هذا نخاطبه عندما نريد منه أن يتجنب المعاصي،عندما نريد أن يفعل الطاعات نقول تعالى نزل في الصحف مسابقة على وظيفتين إحداهما عشرة ألاف ريال في الشهر، والثانية عشرة ريال إلى أين يذهب؟ ألست تذهب إلى العشرة آلاف، تريد هذا الراتب الجيد، هكذا العمل الصالح عرض عليك العمل الصالح بأن جزاء الحسنة بعشر امثالها إلى سبعمائة ضعف لماذا لم تقدم عليها؟ كما كنت تقدم على ما تراه حظًّا لك في عمل الدنيا، فلماذا لا تقدم على ما تراه حظًّا لك في عمل الآخرة، وبهذا تنقطع حجة الظالم، سواء ظلم بفعل المحرمات أو بترك الواجبات، لا حرج، نقول: تعرضنا لهذا وإن كان ليس من خصائص علم التفسير، لأن هذا من خصائص علم العقيدة. ربما يشوش على الإنسان مثل هذه الإرادات من الجبرية ومن القدرية ونقول كما قلنا، والأمر والحمد لله واضح. حتى أن الرسول ﷺ حل هذه المشكلة بكلمتين فقط قال ﷺ وعلى شفير قبر إحدى بناته: «مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟[1] هذا اعتراض، ولكنه اعتراض في بادئ الأمر، كما قال تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾، ما دام مكتوبًا الشيء فلا حاجة أن نعمل، هذا مكتوب من أهل السعادة إذنْ فلينم؛ لأنه من اهل السعادة. هذا من أهل الشقاوة أيضًا فإنه لا حاجة إلى أن يعمل لأنه كتب في أهل الشقاوة فما فائدة العمل؟! حيث إنه لن يغير شيئًا، فقال ﷺ كلمتين: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، سبحان الله ما ذهب يأتي بفلسفة وتطويل بل بكلمتين: « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »، هذا الذي من قبلنا أن نعمل ثم كل ميسر لما خلق له، فإذا وجدت من نفسك أن الله يسر لك الخير والهدى والنشاط على العبادة، فاعلم أنك ممن كتب من أهل السعادة؛ لقول النبي ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» فالأمر والحمد لله واضح جدًّا، أنه لا حجة للعاصي بالقدر على معصيته، ولا للمتهاون في الواجب بالقدر على تهاونه، الأمر أوضح من أن يحتاج إلى كثير كلام.

لكن لما كان الشيطان يأتي للإنسان ويقول كذا وكذا، بقي علينا أن يقال: أليس آدم قد احتج بالقدر، أو أليس الله تعالى قد احتج بالقدر، فقال لرسوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾. فما هو الجواب؟ أما قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، فهذا تسلية للرسول ﷺ، حيث قال الله له ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ فشركهم بمشيئة الله، ومعلوم أن الرسول ﷺ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٦/ ٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

سوف يرضى بقضاء الله، ولهذا يجب علينا أن ننظر إلى أهل المعاصي بنظرتين أو بنظرين، نظر قدري ونظر شرعي.

النظر القدري: أن نرضى بما وقع من معاصيهم؛ لأنه بتقدير الله، النظر الشرعي: أن نلزمهم بشرع الله، نقيم عليهم الحدود والتعزيرات وغير ذلك مما يحملهم على فعل الطاعات وترك المحرمات، وهذه مسألة هامة، إذنْ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ فهذا الغرض منها تسلية الرسول ﷺ، لأنه إذا علم أن ذلك بمشيئة الله رضي، ولكن الله تعالى أبطل هذه الدعوى منهم، بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي بشريعة ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ بعقوبة الله، أبطل الله هذه الحجة، لأنهم أرادوا بذلك إبطال الشرع بالقدر، فبين الله تعالى أنه عذبهم، آدم احتج عليه موسى بقوله: خيبتنا وأخرجتنا ونفسك من الجنة بماذا؟

بمعصيته بالأكل من الشجرة، فقال له آدم: «أَتَلُومُنِي عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ، قال النبي ﷺ: «فَحَاجَّهُ آدَمُ». وفي رواية «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[(1)]، ومعنى حجه أي غلبه في الحجة، احتج آدم بالقدر الذي كتب عليه قبل أن يخلق، وخوصم موسى، هذا الحديث يحتج به أهل المعاصي على معاصيهم ويقولون: إن آدم احتج بالقدر على موسى وحكم النبي ﷺ لآدم، وقال: إنه حاجَّه، فنحن نحتج بالقدر كما احتج أبونا.

نجيب عن هذا بجوابين:

الجواب الأول لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: إن آدم لم يحتج بالقدر على المعصية، وإنما احتج بالقدر على الخروج من الجنة، وأما المعصية فقد اعتذر منها آدم ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، فآدم لا يمكن أن يحتج بالقدر على المعصية إطلاقًا.

وهو أجل قدرًا من أن يحتج بالقدر على معصية الله، وإنما احتج بالقدر على إخراجه من الجنة، لا على سبب الإخراج، والاحتجاج بالقدر على المصائب أمر جائز وهو غاية التسليم لله عز وجل، أرأيتم قول الرسول ﷺ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (١٣/ ٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»[1].

وهذا احتجاج بالقدر ولكن بعد الفعل أسباب، فالاحتجاج بالقدر على المصائب أمر جائز، والإنسان عندما يصاب بمصيبة ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون فهذا يعمل تسليما للقدر.

إذنْ احتجاج آدم بالقدر على المصيبة لا على المعصية. هذا من وجه.

وجه آخر: ما كان لموسى عليه السلام أن يلوم أباه على ذنب تاب منه وحصل له بعده أن اجتباه ربه وهداه، هذا لا يمكن. أدنى واحد إذا أصاب ذنبًا ثم تاب فإنه لا يوجه اللوم إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ثم بعد هذا ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه واختاره فتاب عليه وهداه، هذه المنزلة ما حصلها قبل أن تحدث له المعصية، إذنْ لا يمكن لموسى عليه السلام أن يلوم أباه على ذنب تاب منه وارتفع بعد التوبة منه منزلة عند الله عز وجل، هذا لا يمكن أن يكون من أدنى واحد فضلًا من أن يكون من أولي العزم من الرسل، هذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا جواب جيد ولا شك، وذهب ابن القيم رحمه الله إلى جواب آخر، وقال إن الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها والإقلاع عنها مقبول. لا لدفع اللوم واستباحة الاستمرار فيكون الاحتجاج بالقدر نوعان:

نوع احتجاج بالقدر بعد فوات الأوان مع الإقلاع عن المعصية وحسن الحال، فهذا جائز واحتجاج بالقدر لدفع اللوم و الاستمرار في المعصية؛ فهذا ممنوع.

يعني لو قدرنا أن احتجاج آدم ﷺ بالقدر على المعصية التي تاب منها وهداه الله واجتباه يكون جائزًا على هذا التقدير؛ لأن آدم ما احتج بذلك ليستمر إنما احتج بذلك لأنه قد تاب.

ونظير هذا الآن فيما عندنا الآن لو إنسان زنا - والعياذ بالله- وهو رجل خير ولكن غلبته شهوته وزنا ثم تاب؟ وقلنا يا أخي كيف يقع منك هذا الشيء؟ قال يا أخي قضاء وقدر، وإلا فلست من أهل هذا الأمر، لكن المقدر كان، فهذا نقبل منه. لكن لو كان يزني ويستمر، ونقول له تب إلى الله، فيقول والله هذا غصب، كيف غصب وأنت ممارس لهذا العمل؟! هذا ليس بغصب.

على كل حال يقول ابن القيم: الاحتجاج بالقدر بعد وقوعه تسليمًا للقدر وتفويضًا لأمر الله لا استمرارًا للمعصية ولا دفعًا للوم فهذا جائز، ثم استدل بقصة وقعت من علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة رضي الله عنهما: حين دخل عليهما النبي ﷺ فقال لهما: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»، قال علي: يا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤/ ٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رسول الله أنفسنا بيد الله لو شاء لأقام[1]، هنا احتج بالقدر، فخرج النبي أو تولى عنهما يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، فالرسول ﷺ هل قبل منهما؟

لا يقال: إنه قبل منهم على الإطلاق، وهذا ليس بصحيح.

وإنما يقال قبل الواقع لكنه كره الجدال. فهذا هو الواقع؛ لأنه لو أراد الإنكار عليهما لقال غير ذلك. لقال: لا حجة لكما في هذا ولكن جعل ذلك من باب الجدل الذي نهى عنه، فقد خرج يومًا من الأيام على أصحابه وهم يتجادلون في القدر فغضب ﷺ، كأنما فُقِئَ في وجهه حب الرمان[2] -احمر وجهه- ونهى عن التنازع في القدر، إذنْ المخرج الثاني من قصة آدم وموسى، أن آدم احتج بالقدر على أمر مضى وانقضى وتخلص منه، ولكن قال هذا أمر فرط مني، ولكل منهما وجه، ولكن الوجه الأول في ظني أنها أقوى. لأن موسى لا يمكن أن يلوم أباه على أمر قد تاب منه.

لكن الثاني لها وجهة نظر ولا شك، إنما لا ننزل قصة آدم وموسى عليها بل نقول إنها في سائر الناس الآن، لو أنك لمت شخصًا على أمر فعله من معصية الله ثم احتج بالقدر بعد أن تاب، فأنا أقبل منه، وهذا يقع كثيرًا، فكثيرًا ما يفعل الإنسان الذنب ثم يتندم ندامة عظيمة، ثم يقول قدر الله وما شاء فعل. كيف يقع مني هذا؟ كيف تغلبني نفسي؟! وهذا أمر لا بأس به.

أطلنا في ذلك عليكم ولكن التمسوا لِيَ العذر[3]، فلابد لطالب العلم أن يكون عنده في ذلك علم بمثل هذه الأمور، ليخلص بها نفسه من الشبهات التي يوردها عليه الشيطان، وليتخلص بها من شبهات يوردها عليه أولياء الشيطان.

١٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات علم الله تعالى بكل ما يعمل هؤلاء؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** تخصيص الحكم بما فيه النزاع وإن كان عامًا، فلنا أن نخصص هذا الحكم في محل النزاع. ويؤخذ ذلك من تقديم المعمول، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا نقول هذا الحصر حقيقي وأنه لا يعلم الله عز وجل إلا بما عملوا، بل يعلم كل شيء، لكن لما كان الكلام في عملهم، جاءت الآية أو جاء الحكم، بصيغة الحصر من أجل شدة التحذير، وأنهم لن يفوتوا الله عز وجل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٧) ومسلم (٢٠٦/ ٧٧٥) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) هذا من الشيخ ـ رحمه الله ـ أدب عالٍ دالٌّ على الحرص على بيان ما يجب في حق طالب العلم من وجوب معرفته من أصول هذه العقيدة، وما يترتب على العلم بها في الرد على شبهات أهل الباطل.

مسألة: حول قصة رد علي بن أبي طالب على النبي ﷺ والتي ذكرها الشيخ؟

الجواب: قبل الواقع وهو احتجاجهم بالقدر، النائم في الحقيقة ما عليه لوم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ هو الله. فيقول: أنفسنا بأيدي الله لو شاء أن نقوم لقمنا، هذا واقع أما كونه يجادل النبي ﷺ بالقدر، هذا أمر لا ينبغي، ولهذا تشعر بأنه ليس براضٍ يضرب على فخذيه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، والجدل قد يكون بحق ويقبل، حتى وإن كان في جدل إذا كان بحق يقبل.

مسألة: أعطيتنا قاعدة وهي إن وجدنا بدعة لا نقابلها ببدعة، ونقابلها بالسنة، وحول مسألة التمثيل؟

الجواب: مسألة التمثيل ليست ببدعة في حد ذاتها، التمثيل تقريب المعاني بصورتها الفعلية، وقد ورد التمثيل في الحديث الصحيح في قصة الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى. بصورته التي عليها وقال إنه مسكين وابن سبيل، وهو ليس مسكينًا ولا ابن سبيل ولا أبرص ولا أقرع ولا أعمى، ولكن هذا للتقريب، ولكن المبالغة في التمثيل، بحيث لا ندعو الناس إلا به فهذا هو الخطأ، فنقول: الدعوة إلى الله تعالى له وسائل، كل ما فيه تصوير للواقع والتحذير منه بدون أن يشتمل على كذب أو محاكاة للبهائم أو ما أشبه ذلك، أو محاكاة الرجل للمرأة أو بالعكس فهذا لا مانع، فنحن لا ننكر التمثيل مطلقًا ولا نحبذه، وننكر أن يكون هو الوسيلة في الدعوة إلى الله، لكنك إذا عودت الناس ألا تدعوهم إلى الله إلا بهذه الوسيلة نسوا الأهم وهو موعظة القرآن والسنة؟

مسألة: كيف نجمع بين أن آدم خلق بعد ما كتب عليه بأربعين سنة وبين أن الله تعالى خلق القلم فقال له اكتب قبل أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة.

الجواب: يقال: إذا صحت هذه الكلمة وكانت محفوظة فإن هذه كتابة أخرى خاصة بآدم.

مسألة: حول وصف الله بالظلم؟

الجواب: أين في القرآن والسنة أن الله تعالى وصف نفسه بالظلم في مقابلة الظالم؟ إذا كان ليس هناك لماذا يوصف الله بالظلم وهو قد نفاه عن نفسه؟! ولكن الانتقام من الظالم كمال، ولكن أن يرد إلى الظالم بظلم، ولهذا لم يأتِ في القرآن والسنة (فلما ظلمونا ظلمناهم)، بل قال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، أما الاستهزاء فنعم والخداع نعم المكر والكيد، هذا لا

بأس ذكر الله تعالى هذه الأوصاف في مقابل من عامله بمثلها[1].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ هذه جملة مؤكدة بإن، والمراد بالذكر القرآن الكريم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وسمي القرآن ذكرًا؛ لأنه يذكر صاحبه، لما للمتقين من خير، وما للطاغين من شر، ولأنه ذكر لصاحبه، أي: يرفع به ذكر من تمسك به. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. ولأنه يذكِّر الإنسان بربه، فإن من أقرب الناس إلى الله، من تلا كتابه ولهذا نقول إن تلاوة الكتاب هي أفضل الذكر المطلق، وأما الاختيار المعين المقيد بشيء معين فهذه تبعٌ لما قيدت به.

وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم، واعلم أن (لما) تأتي في اللغة العربية بعدة أوجه، منها:

١ - أن تكون ظرفًا كما في هذه الآية فمعنى ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم.

٢ - ومنها أن تأتي نافية جازمة لكنها لتوقع ما بعدها، كقوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لما هنا نافية لكنها لا تدخل إلا على شيء يتوقع. فمعنى لما يذقوا عذابه، أي: لم يذوقوه ولكنهم مستحقون له، العذاب منهم قريب.

٣- ومنها أنها تأتي بمعنى (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، أي إلا عليها حافظ.

٤- ومنها أنها تأتي شرطية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾، فلما أن جاء نقول هنا شرطية، وتقول: (لما زارني أكرمته) فهذه أربعة أوجه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم، لم يذكر الله تعالى خبر (إن) بل حذفه من أجل أن

---

(١) قصد الشيخ هنا الصفات المقيدة لا الصفات المطلقة.

تذهب النفس في تقديره كل مذهب، بمعنى يبقى الإنسان يفكر ما الذي سيحدث له، هل كذا أو كذا؟ ولهذا قدرها المفسر: [نجازيهم].

(فنجازيهم) على تفسير المؤلف خبر إن، ويجوز أن تقدر هكذا: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم سوف يعاقبون أو لهم نار جهنم أو ما أشبه ذلك.

المهم: أن حذفه من أجل أن يذهب الذهن كل مذهب في تقدير الخبر، ولكن نعلم علم اليقين، أنه لا يمكن أن يقدر خبرًا سارًّا، يعني لا يمكن أن يكون التقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لهم جنات النعيم، هذا مستحيل، إنما هو يقدر في أي شيء تقدره من العذاب، وهذا من بلاغة القرآن، أن يجعل المجال مفتوحًا ليقدره الإنسان كل تقدير.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أكد الله عز وجل عزة هذا الكتاب بمؤكدين، إن واللام. ومحط الفائدة قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ وهذا هو المهم، أما كتاب فكل شيء يكتب كتاب، كل ما يكتب فهو كتاب. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾. ولكن محط الفائدة قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ الضمير في (إن) يعود إلى الذكر وهو القرآن، وكتاب هنا بمعنى مكتوب، وهو مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، أعرفتم، إذنْ هو كتاب في ثلاثة مواضع كما ذكرنا.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ قال المؤلف: [منيع]، ولا شك أن منيع من معاني عزيز، ولكن هي أعم مما قال المؤلف، ﴿عَزِيزٌ﴾ بمعنى: منيع أي يمتنع أن يناله أحد بسوء إلا فضحه الله، الثاني: عزيز بمعنى غالب. فالقرآن لا شك أنه وارد على غيره: لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهو غالب لكل شيء، إذنْ هو ممتنع أن يناله أحد بسوء إلا فضحه الله، والثاني: أنه غالب. ولهذا لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة به كانت غالبة، هددت عروش كسرى وقيصر وغيرهما من الجبابرة، وفُتِحَ به مشارق الأرض ومغاربها.

فلما تولت عنه الأمة الإسلامية حرمت من هذا الخير العظيم، الذي هو العزة والغلبة والقهر. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، [أي ليس قبله كتاب يكذبه ولا بعده]، والباطل ضد الصحيح وضد الحق، عند الفقهاء يقولون الصلاة باطلة، الصلاة صحيحة فيدعون البطلان في مقابل الصحة، وفي القرآن الكريم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فجعل الباطل في مقابلة الحق. إذنْ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فسرها المؤلف بتفسير غريب [أي ليس قبله كتاب يكذبه ولا بعده]،

وفي هذا نظر ظاهر، والصواب أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه أي فيما يخبر به، ولا من خلفه أي فيما أخبر عنه، كل ما أخبر به فهو حق، وكل ما أخبر عنه بأنه سيكون فهو حق. أيضًا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من حيث الأحكام كل ما حكم به فهو حق، وغايته حق، فيكون المعنى: أن هذا القرآن الكريم ليس فيه شيء من الكذب، لا في الإخبار عما مضى وهو ما بين يديه، ولا في الإخبار عما يستقبل، وهو قوله ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، وإن شئت اعكس، فقل ما بين يديه هو المستقبل، وما خلفه هو الماضي.

كذلك لا يأتيه الباطل من حيث الأحكام، أحكامه كلها عدل ما فيه جور، ولهذا تجده قرآنًا كريمًا، كما يعطي الرب حقه من العبادة، يعطي المخلوق حقه أيضًا، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا حق الله، بعده ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فهو حق في أحكامه، حق في أخباره، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، صدقًا باعتبار الأخبار، وعدلًا باعتبار الأحكام. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ﴿تَنزِيلٌ﴾ هذه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون خبرًا ثالثًا لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ صفة لكتاب، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ هذه صفة لكتاب أيضًا. وعلى هذا فيكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثانيًا. ويجوز أن تكون خبرًا ثانيًا: أي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ خبر ثانٍ لـ(إن)، وعلى هذا فتكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثالثًا، ويجوز أن تكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: (هو تنزيل من حكيم حميد). ولعل هذا التقدير أولى لأنه يدل على أن الجملة استئنافية، لبيان عظمة هذا القرآن، قال: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي منزل من ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فإذا فسرنا تنزيل بأنها منزل صار المصدر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول وبمعنى اسم الفاعل والذي يعين ذلك هو السياق، ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حكيم أي ذي حكمة وذي حكم، فالحكم لله والحكمة في أحكامه، فالرب عزَّ وجل متصل بالحكم الذي لا معقب لحكمه، بالحكم النافذ الذي لا مانع له، وفي الدعاء المأثور: «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»(1)، أيضًا هو متصل بالحكمة، كل أحكامه حكمة، إن نظرت إلى احكامه النظرية وجدتها في غاية الحكمة، وإذا نظرت إلى أحكامه الشرعية وجدتها كذلك في غاية الحكمة، فهو عز وجل حاكم وذو حكمة، كم من حاكمٍ لا حكمة له وكم من حكيم لا حكم له. فكثير من الرجال حكماء عقلاء ولكن ليس عندهم حكم، لا يستطيع أن يحكم ولا على امرأته، وكم من إنسان حاكم ذو سلطة قوي ولكن ليس عنده حكمة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤) ومسلم (١٣٧/ ٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أما الرب عز وجل فهو حاكم حكيم. وبدأ بذكر الحكيم قبل الحميد؛ لأن الحمد مفرع على الحكمة، فإن الحكيم يكون محمودًا، قال المؤلف: [أي الله المحمود]، يعني كأنه يقول المراد بالحكيم الحميد هو الله، وقوله: [المحمود في أمره]، المحمود أشار إلى أن (فعيلًا) هنا بمعنى مفعول، في اللغة العربية تأتي فعيل بمعنى فاعل، وفعيل بمعنى مفعول، فإذا قلت فلان جريح، بمعنى مجروح، وإذا قلت فلان سميع بمعنى سامع، تأتي في اللغة العربية بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، هنا فسرها المؤلف بمعنى مفعول، لكن هل هذا التفسير قاصر؟

الجواب: نعم، فيه قصور؛ لأن حميدًا هنا تأتي بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، فهو محمود وهو أيضًا حامد، أليس الله تعالى يثني كثيرًا على المؤمنين، وعلى الرسل وعلى من شاء من عباده، هذا حمد، يعني وصف هؤلاء المخلوقين الذين أثنى الله عليه، هو حمدهم في الواقع، إذنْ فيكون حميد بمعنى فاعل أي أنه حامد، وبمعنى مفعول أي أنه محمود، والمؤلف رحمه الله في تفسيره قصور.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد المكذبين بالقرآن، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وحذف الخبر ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب.

٢- **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن ذكر، سماه الله ذكرًا لما ذكرناه في التفسير.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كذَّبوا بالذِّكر بعد أن جاءهم وتحققوا وعرفوه. ومعلوم أن المكذِّب للشيء بعد ما تحقق لديه، أشد إثمًا ووبالًا ممن كذب في أمرٍ مشتبه عنده، يؤخذ هذا من قوله. ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن عزيز غالب لا أحد يناله بسوء إلا فضحه الله ولا أحد يكون أمامه إلا كان مهزوما مغلوبًا، ووصف الله تعالى القرآن بأنه عزيز وبأنه مجيد وبأنه كريم، وبأوصاف متعددة مما يدل على عظمة هذا القرآن.

٥- **ومن فوائدها:** أن من تمسك بالقرآن فله العزة، وجهه أنه إذا كان القرآن عزيزًا فلا بد أن ينال العزة من تمسك به وإلا لكان القرآن غير عزيز، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٦- **ومنها:** أن القرآن الكريم حق منتفٍ عنه الباطل من كل وجه؛ لقوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، هذه الصفة للقرآن هل هي من صفات النفي أو من صفات الإثبات؟ هي من صفات النفي، إذنْ ما الذي تضمن النفي الإثبات؟ نقول إذا انتفى الباطل عنها من كل وجه

من بين يديها ومن خلفه لزم من ذلك أن يكون حقًّا من كل وجه.

٧- **ومن فوائدها**: أن القرآن كلام الله، يؤخذ من قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ووجه كونه كلام الله أن القرآن صفة، ليس عينًا مستقلة منفصلة، فإذا كان صفة وذكر الله أنه نزل منه لزم أن يكون كلامه، أما لو كان الشيء الذي ذكره الله أنه أنزله منفصلًا عن الله فهذا لا يدل على أنه من صفات الله، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا الماء مخلوق، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، هذه أيضًا مخلوق؛ لأنه منفصل عن الله، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ مخلوق، لكن إذا جاء التنزيل أو الإنزال في أمر هو صفة فإنه لا يمكن أن يكون مخلوقًا بائنًا عن الله بل هو صفة من صفات الله.

٨- **ومنها**: إثبات علو الله، وجه ذلك أنه قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾، وإذا قال تنزيلًا منه لزم أن يكون فوق عز وجل، وهو كذلك، وقد ذكرنا كثيرًا وذكر غيرنا أيضًا أن علو الله عز وجل ثابت في الأدلة كلها. وهي الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كلها متفقة على علو الله.

٩- **ومن فوائدها**: إثبات هذين الإسمين لله عز وجل وهما الحكيم والحميد وإثبات ما تضمناه من المعاني والصفات، الحكيم تضمن صفتين عظيمتين هم الحكم والحكمة فهو حاكم ذو حكمة.

وذكرنا في التفسير أن من الناس من هو حكيم وليس بحاكم، ومن الناس من هو حاكم وليس بحكيم، ومن الناس من ليس بحاكم وليس بحكيم، ومن الناس من هو حاكم حكيم. فهذه الأقسام أربعة.

١٠- **ومن فوائدها**: أنه لا يجوز لأحد أن يشرع شرعًا من عنده؛ لأن من الحكم، الحكم بين الناس، فالحكم إما أن يكون حكمًا بين الناس وإما أن يكون حكمًا في الناس، فلا يجوز لأحد أن يحكم بين الناس إلا بما أنزل الله، لأن الحكم لله عز وجل، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ولكن الحكم لله هل لنا أن نتجاوز حد الله عز وجل في الحكم على أحد بالفسق أو البدعة أو الكفر أو الإيمان وصحة العقيدة إلا بدليل من الشرع؟ هذا لا يجوز إلا بدليل من الشرع، أي ليس لنا أن نقول هذا كافر هذا فاسق هذا مؤمن هذا سليم العقيدة، إلا إذا عرضنا ما هو عليه على الكتاب والسنة، إلا ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

١١- **ومنها**: أن الله تعالى محمود، على أن حميد اسم مفعول، هل الله يحمد على كل حال؟ إذا قلنا على السراء فهذا واضح وذلك لأنه أحسن إليك ورأف بك، لكن على الضراء كيف يحمد؟

أولًا: نحمده؛ لأننا نعلم أنه لم يقدر ذلك إلا لحكمة، لا شك في ذلك.

ثانيًا: أن ما يترتب على هذه الضراء من مصالح العظيمة يقتضي أن يحمد الله تعالى عليها، فالإنسان إذا أصابته شوكة وتألم بها، ماذا يحصل له؟ يحط عنه من خطيئته، خطيئته مثقلة عظيمة مخزية في الآخرة والشوكة ليست مؤلمة حين ذاك، وليست ظاهرة للناس ومع ذلك يكفر بها من سيئاته.

ولهذا قيل لبعض العابدات لما أصيب أصبعها، ولم تتألم ولم تتأثر ولم تحزن، قالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها. كلمة عجيبة، الصوفية لهم كلمات عجيبة في العبادة؛ لأن الأجر أعظم من المصيبة، فإذنْ حتى ما يصيب الإنسان من الضرر، فإن الله تعالى محمودٌ عليه لأنه لحكمة ولا شك، والإنسان عبدٌ لله عز وجل يفعل به ما يشاء، ولأن العاقبة حميدة.

مسألة: هل يحمد الله عز وجل على وجود الكافرين؟

الجواب: نعم يحمد، لأنه لولا وجود الكافر فهل يعرف المؤمن؟! وهل الإنسان يعرف قدر نعمة الله عليه إذا لم يكن هناك كافر، وهل يقام علم الجهاد؟ وهل يبقى للنار أحد؟ لابد.

لكن هنا مسألة، كان النبي ﷺ إذا أصابه شيء يسؤوه. لا يقول الحمد لله على الضرَّاء أو على كذا. يقول: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1] وهذه مسألة هامة. فأنت إذا أصابتك سراء فقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وإذا أصابتك الضراء تقول: الحمد لله على كل حال.

وبهذا نعرف خطأ من يقول: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، هذا خطأ؛ لأن هذه العبارة تنبأ عن التأزم النفسي وعن الكراهة بما قدر الله عز وجل على الإنسان ثم إن فيها تضاد: مكروه وحمد. هذا غير مستقيم، ثم إن فيها أيضًا مخالفة لسنة الرسول ﷺ، كان الرسول ﷺ يقول: «الحمد لله على كل حال» ولا يذكر المكروه ولا يشعر بأنه متأذٍ منه «الحمد لله على كل حال»، فأنت إذا أصبت بسراء فقل: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»[2] وإن شئت فعيِّن، الحمد لله الذي رزقني ولدًا، الحمد لله الذي رزقني مالًا، وما أشبه ذلك لأن هذا خير والثناء عليه واضح، لكن الأمور المكروهة لا تقول: الحمد لله الذي أمرضني، وإنما تقول: «الحمد لله على كل حال» تقول الحمد لله الذي أصابني بمصيبة فقد أبي أو عمي. وإنما تقول: «الحمد لله على كل حال» وإن شئت فقل الحمد لله على ما قدر لأن هذه بمعنى على كل حال.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الرب عز وجل كامل العدل بحيث يحمد من يستحق الحمد، كما أنه يحمد لأنه أهل للحمد، بناء على أن حميد بمعنى حامد.

١٣- ومنها أن جميع ما في القرآن مطابق للحكمة تمامًا من تحليل أو تحريم أو إيجاب أو إطلاق، وجهه: لأنه نزل من حكيم حميد، والنازل من حكيم لا بد أن يكون مشتملًا على الحكمة، والله الموفق.

مسألة: هل كلمة حكيم تضمن صفة ثالثة بالإضافة إلى الحكم والحكمة وهي الإحكام؟

الجواب: لا، الإحكام هو الحكمة.

مسألة: حول آيات نزول النعم كالحديد والماء؟

الجواب: لا شك أن هذا الإنزال نوع من التسخير فلولا أن الله سخرها لما استطعنا أن نسيطر عليها، فالله أنزلها من علياء إلى أسفل حتى تكون مسخرة للخلق.

ومما يحسن بنا ونحن في مقام اسم الله «الحكيم» أن نتكلم عن الحكمة من خلق الشر وأن الله تعالى خالق كل شيء ولهذا جاء في الحديث: «تُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، ولكن لا تنسب الشر إلى الله؛ لأن الله لم يقدر هذا الشر إلا لخير فالشر إذًا في مفعوله لا في فعله، مثلًا إذا قدر الله عز وجل على الناس مرضًا، الشر فيه نفس المرض، لكن في كون الله قدره خيرًا لا شرًّا، لأنه من أكبر ما يكون من مصالح الأمراض مثلًا، تكفير السيئات، ومنها أن الناس يرجعون إلى الله عز وجل، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ومنها: أن الناس يعرف قدر نعمة الله عليه بالعافية، يعني لا نعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها علينا في النفس والحركة وما أشبه ذلك، لكن لو أصيب الإنسان منا بضيق نفس عرف قدر النفس، لو أصيب الإنسان منا بتعنت في أعضاءه يتكلف من الحركة، فإنه يعرف قدر نعمة الله عز وجل عليه، ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ
(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ
عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٣، ٤٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ قال المفسر: [من التكذيب] والاستهزاء والسخرية وغير ذلك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ومنه قولهم: إنه ساحر مجنون، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، هذه الكلمة كل أحد يقولها للرسول، ويحتمل أن المعنى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ من الوحي ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ أي: [مثل]، والآية تحتملها ولا مانع من إرادتها، ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا ﴾ [مثل] ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾. قوله: [﴿إِلَّا﴾ مثل]، زاد المؤلف مثل، ومعلوم أن قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ لا يساويه قوله إلا مثل، وإنما لجأ المؤلف إلى ذلك لأن الذي قيل للرسول ﷺ ليس هو بحروفه ما قيل لمن قبله، ولكن الأولى أن يقال الآية على ظاهرها أن ما قيل للرسول قد قيل لمن قبله، وكما ذكرت لكم آنفًا، ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، فيقال إنهم قالوا نفس الكلام، لكن بلغتهم ليس بلغة العرب، ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، هذه الجملة فيها عرض للمكذبين أن يؤمنوا، فإن لم يؤمنوا فقد تعرضوا للعقاب.

عَرَض أن يؤمنوا لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يعني كأنه يقول فآمنوا يغفر لكم، وهو كقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾، و﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إن لم يؤمنوا، ففيه ترغيب وترهيب، الترغيب في قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والترهيب﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ والعقاب هو الانتقام، والأليم بمعنى المؤلم. وفعيل تأتي بمعنى مُفْعل كثيرًا في اللغة العربية. كما قال الشاعر.

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع بمعنى المُسمِع.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية الرسول ﷺ؛ لأنه إذا علم أنه قد قيل للرسل من قبله مثل ما قد قيل له سهل عليه الأمر.

٢- **ومنها:** أن سنة الله تعالى واحدة، فالمكذبون قولهم واحد وفعلهم واحد؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية:** إثبات صفة المغفرة لله عز وجل، وهي ستر الذنب والتجاوز عنه، هذه المغفرة.

٤- **ومنها:** إثبات شدة عقابه، لقوله: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٥- **ومنها:** رحمة الله بعباده حيث يعرض عليهم، موجب التوبة، حتى لا يتمادوا في المعصية؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن مثاني فإذا ذكر فيه جانب الترغيب ذكر معه جانب الترهيب، لِئَلَّا تطمع النفس وتغلو في الطمع، فتأمن في مكر الله، فيجمع الله تعالى بين هذا وهذا لئلا يطمع الإنسان في الفضل فيأمن من مكر الله، ولئلا يخاف فيقنط من رحمة الله، وعلى هذا فيكون سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي للسائر إلى الله عز وجلَّ أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه، وقال بعضهم: ينبغي أن يكون الخوف والرجاء للإنسان كجناحي الطير، إن انهزع أحدهما سقط الطير، فيكون الرجاء والخوف واحدًا متساويان، فترجو وتخاف؛ ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفسر بعض أهل العلم فقال: ينبغي للإنسان إذا عمل الحسنات أن يكون جانب الرجاء في حقه أرجح؛ لأن هذا من إحسان الظن بالله، ووجه ذلك أن الله لما وفقك للعمل فإنه قد وعدك بالثواب ولما وفقك للدعاء فقد وعدك بالإجابة، فعليه إذا فعلت الخير فغلب جانب الرجاء، وإن فعلت الشر أو هممت به فغلب جانب الخوف، ليردعك الخوف عن التمادي في الشر، أو عن مواقعة الشر، هذا تفصيل.

تفصيل آخر، وقيل في حال الصحة ينبغي أن يغلب جانب الخوف، لأن الصحيح أن الإنسان الذي أعطاه الله صحة في ماله وعقله ربما يتمادى في الشر ولا يبالي، وإذا كنت في المرض فغلب

جانب الرجاء، لأن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»[1]؛ لأن الله تعالى عند حسن ظن عبده به، والذي ينبغي أن يقال: إن الإنسان طبيب نفسه، فإذا خاف من نفسه التمادي في المعاصي، والتهاون في الطاعات فليغلب جانب الخوف، وإن خاف من نفسه الزهو والخيلاء والأمن من مكر الله، فليغلب جانب الخوف، فالإنسان في الحقيقة طبيب نفسه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ الضمير يعود على القرآن، والمفسر قال: [أي الذكر]، وإنما قال الذكر؛ لأنه قد سبق ذكره قليلًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ وعلى كل حال المعنى متفق عليه، أن الضمير الهاء يعود إلى القرآن. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: بلغة العجم، وهو قد نزل على العرب لقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ لقالوا: أي المكذبون لرسول الله ﷺ لولا: هلا فصلت: بينت آياته: حتى نفهمها.

ولكن الله تعالى قد قطع عليهم الحجة، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى [هلَّا]، أفادنا المؤلف -رحمه الله- أن لولا تأتي للتحضيض، وتأتي شرطية، ويقال في إعرابها، حرف امتناع لوجود. وهنا تتقاسم هذه الحروف تتقاسم الوجود والعدم، فلو حرف امتناع لامتناع، ولما حرف وجود لوجود، ولولا حرف امتناع لوجود، تقول: لما جاءني أكرمته، هنا الإكرام وجد لوجود المجيء، وتقول: لو جاء زيدٌ لأكرمته، هنا امتنع الإكرام لامتناع الوجود، وتقول: لولا زيد لفعلت كذا وكذا، فهنا امتناع لوجود، هنا ﴿لَوْلَا﴾ ليست من هذا ولا من هذا، لولا هنا انتقلت عن معنى الشرطية، إلى معنى التحضيض.

أقرآنا أعجمي ونبي عربي؟ [استفهام إنكار منهم]، يعني: لو كان القرآن بلغة العجم ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وبينت باللغة العربية، ثم لقالوا أيضًا: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ يعني لا يمكن أن يكون القرآن بلغة العجم نزل على نبي عربيٍّ، وهذا الذي قالوه استفهامًا حقيقيًّا، يعني بمعنى أن قولهم حق لا يمكن أن ينزل القرآن أعجمي على نبي عربي، وقد نص الله عز وجل على ذلك في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فكلامهم هذا حق، فنحن نقبل كلامهم

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

هذا، أما قولهم، ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ فنقول: هي مفصلة، ولكنها حجة لو كان القرآن أعجميًّا، وعلى هذا قولهم يكون صحيحًا، لو كان القرآن باللغة الأعجمية لصار لهم حجة، حجة في قولهم، (لولا فصلت آياته)، وحق في قولهم، ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

قال المؤلف: [بتحقيق الهمزة الثانية] أأعجمي كما هي القراءة المشهورة، يقول وقلبها ألفًا، يقول:[﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ﴾ بإشباع ودونه] يعني بمعنى أنك تمد الألف مدًّا طبيعيًّا، أو تمده مدًّا زائدًا على ذلك، والمد الطبيعي قوله: [ودونه]. والمد الزائد قوله: [بإشباع]، وعلى هذا فيكون فيها ثلاث قراءات، ءأعجمي، آعجمي، أعجميٌّ. والقراءات كما هو معلوم كلها سنة؛ لأنها ثبتت عن النبي ﷺ، وينبغي للإنسان الذي أتقنها وحفظها أن يقرأ بهذا مرة وبهذا مرة، كما نقول في العبادات التي وردت على وجوه متنوعة، إنه ينبغي أن تفعل هذا مرة وهذا مرة، ولكن هل نقرأ بها يخالف القرآن الذي بين أيدي العوام بقراءة أخرى، الجواب: لا، ولهذا نرى أن من عدم الحكمة، ما يفعله بعض الطلبة، إذا كان يعرف القراءات، يقرأ بالقراءة التي ليست بين أيدي العوام، فإن هذا خطأ عظيم، لأن العامي لا يدرك هذه الأشياء. وسوف يهبط قدر القرآن في نفسه وتقل عظمته عنده. ثم ربما يتهم هذا القارئ أنه أخطأ وغلط، لكن بعض الناس يكون عنده علم وليس عنده حكمة، وهذا خلل في توازن العبد، وفي سير العبد، فلا بد أن يكون عندك علم حكمة.

إذا كان الصحابة رضي الله عنهم، وهم من هم في اختلاف القراءات، فكيف بحوام هذا الزمن.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قل: يعني قل يا محمد في جوابهم: هو للذين آمنوا هدى من الضلالة وشفاء من الجهل، ﴿هُوَ﴾ يعود الضمير على الذكر، للذين آمنوا هدى، أي علم ونور، وشفاء، يقول المؤلف رحمه الله [من الجهل[، وهذا فيه نظر؛ لأن [من الجهل] داخل في قوله: ﴿هُدًى﴾، إذ إن الهدى هو العلم وضده الجهل، لكن شفاء من المرض، مرض القلوب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾. فالصواب أن قوله: ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة وهي الجهل، فهو هدى من الجهل والضلالة، و﴿وَشِفَآءٌ﴾ من المرض، أي مرض القلوب، بل هو أيضًا شفاء من مرض الأبدان، فإن القرآن يستشفى به من أمراض القلوب، ويستشفى به كذلك في أمراض الأبدان، وكم من إنسان مريض مرض مرضًا بدنيًّا شفاه الله تعالى بالقرآن، وقصة الذي كان سيد قومه ونزل به سرية من الصحابة، ولم يضيفهم، فسخر الله تعالى عقربًا كبيرة شديدة، فلدغت سيدهم، فطلبوا راقٍ من الصحابة، فقالوا: لا نرقى لكم إلا

بكذا وكذا من الغنم، فأعطوهم فذهب أحدهم ليقرأ عليهم سورة الفاتحة، حتى قام كأنما نشط من عقال. لكنهم تربصوا بالغنم التي أخذوها، خافوا ألا تحل لهم حتى أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال: «خذوا واضربوا لي معكم بسهم»[1]، قال ذلك، لا حاجة للحم ولكن تطييبًا لقلوبهم واطمئنانًا لنفوسهم، ليتبين أنه حلال لا إشكال فيه، المهم أنهم أخبروا النبي ﷺ أنهم قرأوا على هذا اللديغ الفاتحة، فقال: «وما يدريك أنها رقية»، فيتبين بهذا أن القرآن شفاء لأمراض القلوب وأسقام الأبدان، لكن لمن؟ للذين آمنوا بالقرآن وبأنه من عند الله وبأنه شفاء، أما رجل لم يؤمن به ولم يرفع به رأسًا، ولم يرى بمخالفته بأسًا فإن هذا لا ينتفع به.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ نسأل الله العافية، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ، ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر مبتدأ الأول، الذي هو ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، يعني كأنه قال هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وأما الذين لا يؤمنون ففي آذانهم وقر، لا يؤمنون بالله ولا بالرسل ولا بالكتب هؤلاء في آذانهم وقر أي ثقل؛ لأن الوقر بمعنى الحمل الثقيل، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾، يعني السحاب تحمل الماء الكثير، فعلى هذا يكون في آذانهم وقر أي ثقل وصمم، فلا يسمعون ـ والعياذ بالله ـ، وهو عليهم عمىً فلا يبصرون، فصارت منافذ الفهم عند غير المؤمنين مسدودة، لا يسمعون ولا يبصرون، فلا يصل هدى القرآن إلى قلوبهم، وهو عليهم عمى. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، فإذا قال قائل: كيف يكون الكلام واحد لقوم هدى وشفاء، ولآخرين عمىً وضلالة، قلنا: إن هذا بحسب ما في القلب.

لأن الله قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ونحن نرى الغذاء الحسي، يكون لقوم غذاءً وشفاء ويكون لآخرين مرضًا وعلة.

مثال: بعض الناس يحجب عن التمر عن العنب عن كل ما فيه حلال فيضره، وآخرون ينفعهم الحلال، مع أن الطعام واحد. لكن محل هؤلاء قابلًا له ومحل آخرين غير قابل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أولئك المشار إليهم الذين لا يؤمنون، وأشار إليهم بصيغة البعيد ليس رفعة لشأنهم، ولكن إظهار للتبرئ منهم وإبعادهم، أولئك ينادون من مكان بعيد، يعني كالذي ينادى من مكان بعيد، والذي ينادى من مكان بعيد يعوقه عن الحضور والاستجابة أمران:

الأمر الأول: أنه لبعده قد لا يسمع النداء.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٣٦) ومسلم (٦٥/ ٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الأمر الثاني: أنه لبعده قد يرى أن الاستجابة شاقة عليه فلا يجيب، وعلى هذا فكونهم ينادون من مكان بعيد يتعلق بندائهم أمران كما ذكرنا.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به].

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل، في كون الوحي النازل على النبي على وفق لغة القوم الذي وصل إليهم، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ والله تعالى جعله قرآنًا عربيًا.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحجة لا تقوم حتى يفهم الإنسان معنى هذه الحجة، وأن مجرد البلاغ لا يعد حجة قائمة حتى يفهمها من بلغته، لأنك لو ألقيت كلامًا عربيًا بأفصح ما يكون على قوم عجم وهم لا يعرفون مقصودك أصلا، هل يفهمون شيئًا؟ لا، وكذلك بالعكس لو جاء رجل أعجمي وقام يتكلم بأفصح ما يكون من لغة العجم، ونحن لا نعرف مراده لم نفهم منه شيئًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فإن قال قائل: يرد على قولكم هذا أنه لا بد من فهم الحجة بعد بلوغها، ويرد على ذلك قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، ولم يقل: (ومن بلغ وفهم)، قلنا: هذا مطلق، لكن الآيات الأخرى تقيده، بأنه لا بد من البيان والمعرفة، كذلك لو قال قائل: يرد على قولكم هذا قول النبي ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١) فقال هنا لا يسمع بي. فيقال: نعم، لأنه إذا سمع به يجب عليه أن يبحث حتى وإن كان لا يفهم يجب عليه أن يبحث، أما أن يترك فهو لا يعذر لتفريطه وتهاونه، وعلى هذا فلا بد من بلوغ الحجة ولا بد من فهمها، ونحن في الحقيقة لا نتهاون في تكفير من كفره الله، ولا نبالي أن نكفر من كفَّره الله، لكننا لا نتجاسر أن نكفر من لم يكفره الله عز وجل، لأن الحكم ليس إلينا، الحكم بالتكفير وعدم التكفير إلى الله عز وجل، فالحكم ليس إلينا وإلى إلى عواطفنا، ولو كان الحكم إلينا لكنا نكفر من كان فاسقًا، بل قد نكفر من كان تارك للأولى، لأن الإنسان لا شك أن معه غيرة يبغض بها من خالف الشرع، لكن كوننا نحكم عليه بالكفر أو عدم الكفر، ليس إلينا بل هو الله، والخلق عبيد الله عز وجل، ليسوا عبيدنا، حتى نحكم عليهم بما نرى، بل نحكم عليهم بمقتضى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠/ ١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلام الله ورسوله، فإذا دار الأمر بين أن نقول هذا كافر وهو ينتسب إلى الإسلام، وبين أن نقول ليس بكافر، لأن بهذا سالمون، لكن لو نكفر ثم بناء على التكفير نستبيح دمه وماله، لأن المسألة ليست سهلة، ونستبيح ألا نصلي عليه ولا ندعو له بالرحمة، المسألة صعبة جدًّا، ولهذا خطأ من يتسرعون في التكفير أشد تهاون ممن لا يكفر الكافر، بما لا يترتب عل التكفير من المصائب والبلاء.

٣- **ومن فوائدها:** أن التناقض بين الرسول والوحي مستحيل، الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ وهذا مستحيل أن يتناقض الوحي، ومن أوحي إليه.

٤- **ومن فوائدها:** أن القرآن يكون لأقوام رحمة ولآخرين نقمة، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[1]، رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥- **ومنها:** أنه لا يمكن أن يبتغى الهدى من غير القرآن؛ لقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾، فمن ابتغى الهدى من غير القرآن أضله الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

٦- **ومنها:** أن القرآن شفاء من أمراض القلوب، وأسقام الأبدان لقوله: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وقد فهمنا أثناء التفسير أن الفاتحة رُقية، كذلك أيضًا إذا أردت أن ترقي أحدًا فانظر مع الفاتحة الآيات المناسبة، فمثلًا إذا كنت تريد أن ترقيه من السحر، فاقرأ إضافة إلى الفاتحة، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، لأنهما السورتان اللتان رُقيا بهما رسول الله ﷺ، كذلك انظر إلى آيات السحر التي تبطل السحر، مثل قوله تعالى عن موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وأمثال ذلك، إذا كنت تريد أن ترقي من مرض اقرأ الآيات المناسبة مثل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، لأن التناسب بين الآيات التي هي الدواء وبين المرض الذي هو الداء لا بد أن يكون أمرًا مهمًا يراعيه الإنسان، كما يراعي ذلك في الأدوية الحسية، الحار يعالج بالبارد، ولهذا قال النبي ﷺ في الحُمَّى قال: «أَبْرِدْ فَإِنَّ الحُمَّى مِنْ فِيحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»[2] وقد شهد الأطباء الآن أن البرودة لمن أصيب بالحمى هي من أكبر العلاج،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ب/ ٢٢٣) من حديث أبي مالك رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٢٣) ومسلم (٧٨/ ٢٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

حتى كانوا يجعلون المريض أحيانا إلى جانب المكيف، من أجل البرودة، وحتى إنهم يضعون أحيانًا على المريض بالحمى ثوبًا مبلولًا بالماء، من أجل التبريد.

٧- **ومن فوائدها**: أن الإنسان كلما كان أقوى إيمانًا كان أهدى وأشفى؛ يؤخذ من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ وهناك قاعدة مفيدة ومهمة: أن كل حكم مرتب على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف. ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٨- ومنها بلاغة القرآن بتصوير المعقول بصورة المحسوس، هؤلاء الذين لا يؤمنون لو أنك نظرت إليهم نظرة حسية، لم تجد في آذانهم وقر، لأنهم يسمعون وقد يكونون أقوى سمعًا من المؤمنين، ولم تجد أيضًا أنهم إذا قرأت عليهم القرآن عميت أعينهم، كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، ولا ترى أنهم ينادون من مكان بعيد، بل تعرض عليهم الدعوة وهم إلى جانب الداعي، لكن هذا من بلاغة القرآن، أن يصور الشيء المعقول بصورة المحسوس، حتى يكون أقرب إلى الفهم، فهنا صور حال هؤلاء بأنهم صم وعمي وبأنهم بعيدون من الداعي.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٥، ٤٦]

التَفسِير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا، والإيتاء هنا إيتاء شرعي قدري. إيتاء شرعي: لأنه أضيف إلى الوحي، قدري: لأنه وقع فعلًا، وموسى ﷺ هو أفضل أنبياء بني إسرائيل. وهو بالنسبة لأولي العزم بالمرتبة الثالثة، لأن أولي العزم خمسة أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى، وهو - أي موسى - أكثر الأنبياء أتباعًا بعد الرسول ﷺ. هناك حديث: أن النبي ﷺ قد رأى سوادًا عظيمًا قد سد الأفق[1]. فقيل: هذا موسى وقومه. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوراة]، وسميت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كتابًا؛ لأنها مكتوبة؛ قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾، فهي نزلت مكتوبة، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ [بالتصديق والتكذيب كالقرآن]، والذين اختلفوا فيه هم قوم موسى، فمنهم من صدق ومنهم من كذب. لكن قوم موسى مشهورون بالعتوِّ والطغيان. والاستكبار العظيم، والجهل العميق، لما مروا بأقوام يعبدون غير الله ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾، وصنعوا من الحلي عجلًا، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾، فجعلوا العجل الذي صنعوه بأيديهم إلهًا، نسأل الله العافية.

مسألة: ذكرت أنه شرط فلاح الرقية أن يكون الشخص الذي سيرقى مؤمنًا بآيات الرقية، وزعيم القوم الذين رقوه صحابة النبي ﷺ ما كان مسلمًا؟

الجواب: لا، هو مؤمن بأن قراءتهم سوف تفيد، لأنه إذا لم يؤمن لم تنفع النفس وتكون قابلة، لا يمكن أن تقبل النفس هذا العلاج إلا إذا آمنت بأنه مفيد، والكافر يعالج بالقرآن وربما علاج الكافر بالقرآن أولى من علاج المؤمن به لأنه إذا عرف أنه مؤثر يكون ذلك سببا لإسلامه.

مسألة: قال تعالى في سورة يوسف: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾. ما موقع لولا هنا هل هي شرطية؟

الجواب: انظر إلى ما قبلها ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يعني: لفعل، فهي شرطية يعني محذوفة الجواب، فإنه قد هم بها لولا أن رأى برهان ربه لأجابها إلى ما دعت.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ لما ذكر الله تعالى هذا الكتاب العزيز وأنه للذين آمنوا هدى وشفاء والذين في قلوبهم مرض، والذي لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، بين ما كان من الأمم السابقة نحو كتبهم فقال ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾، آتينا: بمعنى أعطينا. والجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات، وهي القسم واللام وقد، وتقدير الكلام، والله لقد آتينا وهو يقع كثيرًا في الكتاب العزيز، أي مثل هذه الصيغة تقع كثيرا في القرآن، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هذا الإتيان إتيان كوني وشرعي، فالله تعالى قد أنزل عليه التوراة فعلًا، وقد أتاه الحكم بها، وموسى هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل. وهو في المرتبة الثالثة بالنسبة لأولي العزم، لأن أولي العزم هم خمسة، أفضلهم محمد ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى.

وقوله ﴿ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني [التوراة]، وسماه الله تعالى كتابا لأن الله تعالى كتبها بيده كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قال: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ [بالتصديق والتكذيب كالقرآن]، فمنهم المصدق ومنهم المكذب، كما كان الناس أيضًا بالنسبة

للقرآن، وهكذا جميع الأمم، بالنسبة لما جاءت به الرسل، منهم المصدق ومنهم المكذب. وقوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ كذلك أيضًا جميع ما جاءت به الرسل يختلف الناس فيه بين مؤمن وكافر، وهذا تسلية لرسول ﷺ، قال: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ﴿وَلَوۡلَا﴾ هذه كلمة شرطية، حرف شرط، وهي كما قال النحاة حرف وجود لعدم، ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ﴾ هذا موجود، ﴿لَقُضِيَ﴾ هذا معدوم، حرف وجود لعدم.

وقوله: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يقول المفسر: [بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة]، فإن الجزاء الكامل إنما يكون يوم القيامة، أما في الدنيا فهو جزاء لا شك يعاقب فيه المجرمون ويفلح فيه المؤمنون. لكنه ليس الجزاء الكامل من كل وجه. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [في الدنيا فيما اختلفوا فيه]، والمراد بذلك القضاء التام فلا ينافي هذا ما وقع لآل فرعون من الغرق والهلاك لما كذبوا موسى ﷺ، ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ [أي المكذبين به] ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ موقع في الريبة.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد الكلام إذا دعت الحاجة إليه إما لأهميته وإما لشك فيه وإما لإنكاره. قال علماء البلاغة: والمخاطب له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: حال ابتداء وهي ألا يكون عند المخاطب علم ولا تردد ولا إنكار. فهذا تلقى إليه الجملة غير مؤكدة لأنه لا حاجة للتوكيد مثل ان يقال: قدم فلان اليوم، لإنسان لم يكن في قلبه شيء من قدومه إثباتًا ولا نفيًا، وتسمى هذه الجملة ابتدائية.

الحالة الثانية: أن يكون المخاطب متردد في الأمر شاك فيه لكنه لا ينكره فهذا يحتاج إلى توكيد، لكنه ليس بواجب، مثل أن تخاطب رجلًا في أمر يستبعده لكنه لا ينكره، فهنا يحسن أن تؤكد له الكلام من أجل أن يزول عنه الشك والتردد.

الحالة الثالثة: أن يكون منكرًا مكذبًا، فهذا يتعين توكيد الخبر له؛ لأن ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه وإقناعه.

فإن قال قائل: يردُ على كلامكم هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ والمراد بالجملة الأولى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فلا أحد ينكر الموت حتى يؤكد له، أجابوا عن ذلك بأن تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم وتمردهم يفعلون ذلك فعل المنكر، فخوطبوا خطاب المنكر، وهذا لا شك أنه جواب صحيح.

وأما الذي معنا الآن وهو المؤكد بمؤكدات ثلاث قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هل هو

لإنكار المخاطب أو لتردده أم ماذا؟ قلنا: لأهمية الموضوع فيحتاج إلى التوكيد لتسلية الرسول ﷺ.

٢- **من فوائد الآية الكريمة**: إثبات رسالة موسى وجه ذلك أن الكتاب لا يؤتى إلا إلى نبي.

٣- **ومنها**: وجوب الإيمان بأن الله تعالى آتى موسى كتابًا، لأن الله أخبر به وخبره حق، ولإن ذلك من الإيمان بكتب الله.

٤- **ومن فوائدها**: أن الخلاف لم يكن بدعًا في الامم، ولقد سبق هذه الأمة، من اختلفوا في كتبهم ورسلهم لقوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

٥- ومنها تسلية المصاب بذكر المشارك له؛ لأن الغرض من الإخبار أن الله آتى موسى الكتاب فاختلف فيه تسلية النبي ﷺ، وعلى هذا فينبغي تسلية المصاب، ومنها ما يسمى بتعزية المصاب بالموت، فمن أصيب بموت فإن من السنة أن يعزَّى أي يقوى على الصبر على المصيبة.

وهذه التسلية سنة، لما في ذلك من رفع ألم المصيبة عن أخيك المسلم.

٦- **ومن فوائدها**: حكمة الله عز وجل بتأخير العذاب عمن كذبوا الرسل، لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدره. فمن حكمته تأخير العذاب عن الأمم لعلهم يرجعون.

٧- **ومن فوائدها**: تمام سلطان الله عز وجل، وأنه جل وعلا مدبر الامور أخذًا ورفعًا، لقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾.

٨- **ومن فوائدها**: رفعة منزلة الرسول ﷺ عند الله، تؤخذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فأضاف الربوبية إليه وهذه الربوبية خاصة، وهي تفيد علو منزلة المربوب عند الله عز وجل. ولقد اجتمعت الربوبيتان العامة والخاصة في قول السحرة من آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾. الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عامة، والثانية: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة.

٩- **ومن فوائدها**: أن الله يكني عن الشر ببناء الفعل لما لم يسمَّ فاعله؛ لقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولم يقل: (لقضى بينهم). وهذا هو المضطرد في القرآن والغالب، وانظر إلى أدب الجن؛ حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، أدب عالٍ في الشر قالوا ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يضيفوا إلى الله، وفي الرشد قالوا ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، ولم يقولوا: (أم أريد بهم رشدًا). وهذا من أدب الجن، والجن أحيانًا يكونون آدب من الإنس ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ أوصى بعضهم بعضا أن ينصتوا حتى يستمعوا استماعًا تامًّا، فلما قضي لم يتكاسلوا ولم يقفوا، ولكن ولوا إلى قومهم منذرين بادروا: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ

إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا .....﴾.

١٠- **ومنها أيضًا:** أن المكذبين بكتاب موسى في شك مريب، موقع في الريب وهو الشك مع القلق. يعني الفرق بين الريب والشك قريب؛ ولهذا يفسر بعض العلماء الريب بالشك، ولكن شيخ الإسلام -رحمه الله- قال هذا تفسير قريب، والريب أخص من مطلق الشك، إذ إن فيه قلقًا مع ريبة، وذلك لأن الأمر المشكوك فيه إما ألا يكون ذا أهمية فتجد الشاك فيه يقول ما يهم ثبت أم لم يثبت، وإما أن يكون ذا أهمية وحينئذ إذا شك فيه فيكون في قلق، أيؤمن بهذا أم ينكر؟ فالغالب أن الريبة لا تأتي إلا في الأمور الهامة، وأما الشك الذي يشك يقول: فلان قدم أو ما قدم، وليس له أهمية في قدومه أو غيابه، فهذا لا يوجب الريبة.

١١- **ومن فوائدها:** أن الإيمان يجب ألا يخالطه شك، وأنه إذا ورد على القلب شك ولو يسيرًا بشرط ألا يدافع بل يركن إليه فإن هذا محبط للإيمان.

أما لو ورد الشك على القلب وطلبه وجاهد نفسه على دفعه فهذا لا يضره شيئًا: ولهذا أخبر النبي ﷺ: أن الناس يتساءلون من خلق كذا من خلق كذا حتى يقولوا من خلق الله -وهذا شك- لكن الرسول أخبر، قال: «فَإِذَا بَلَغَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ» - أو كلمة نحوها - «فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ»(١)، وأخبره الصحابة أنهم يجدون في نفوسهم ما يحبون أن يكون حممًا - أي فحمة محترقة - ولا ينطقون به، فقال ﷺ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»(٢).

فالحاصل، أن الشك الوارد على القلب إذا اطمئن به الإنسان وركن إليه فليعلم أنه ليس بمؤمن؛ لأن الإيمان ينافيه شيئان الشك والإنكار، وأما إذا ورد على القلب وطارده وجاهد نفسه على تركه، ففي هذه الحال لا يضره، بل هذا صريح الإيمان وخالص الإيمان، وذلك أن الشيطان لا يورد مثل هذه الأمور على قلب ميت. فالقلب ميت مستريح منه، ولكن يوردها على قلب حي ليميته. ولما ذكر اليهود لابن عباس، أنهم كانوا لا يوسوسون في صلاتهم، يريدون بهذا أن يفتخروا على المسلمين، قال: صدقوا وما يصنع الشيطان بقلب خرب، كلمة عظيمة، يعني يقول إن قلوبهم خربة، والشيطان ماذا يصنع في قلب خرب. أيأتي إليه ليخربه؟

الجواب: لا، إنما يأتي الشيطان بهذه الوساوس إلى قلب حي ليهلكه أو ليمرضه.

ثم قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (٢١٤/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٩/ ١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه جملة شرطية أداة الشرط فيها ﴿مَّنْ﴾ وفعل الشرط ﴿عَمِلَ﴾ وجواب الشرط ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾. واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية، التقدير: فعمله لنفسه، وقدرها المفسر بقوله: [﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل]، ولكن إذا قدَّرنا جملة اسمية فلا حرج. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف. والتقدير: عملًا صالحًا، والعمل الصالح: ما اجتمع فيه أمران:

الأول: الإخلاص فيه لله عز وجل، والثاني: المتابعة لشريعة الله، لا نقول المتابعة لمحمد ﷺ؛ لأننا نتكلم عن العمل الصالح في هذه الأمة وفي غير هذه الامة، فنقول الإخلاص لله والمتابعة لشريعة الله، ليشمل ما كان في أمة محمد ﷺ وما كان في أمم سابقة، فإذا فقد الإخلاص فليس بصالح؛ لأنه شرك مردود على صاحبه، قال الله في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١) ومن أخلص على غير شريعة الله، فعمله بدعة مردود، لقول النبي ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وفي رواية «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٣)، إذنْ العمل الصالح ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص والمتابعة.

قال: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: المصلحة لنفسه، فإن ذلك لا ينفع الله شيئًا، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي. «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»(٤) لماذا؟ لأن الله لا ينتفع بطاعة الطائعين ولا يتضرر بمعصية العاصين، العمل لنفسك، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [أي فضرره إساءته على نفسه]، ولو قلنا: إن التقدير فإساءته عليها لكفت، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ أي: عمل عملًا ليس صالحًا، الذي يدل على أن المقصود بالإساءة هنا العمل الغير صالح، لأنه قوبل بما سبق بمن عمل عملًا صالحًا، وهذا أحد الطرق التي يعرف بها تفسير القرآن الكريم بل وغيره من الكلام، إذا ذكر الشيء ثم ذكر ما بعده على وجه المقابلة، ففسر ما بعده على ضد ما قبله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ لو أنك تأملت ما معنى ثباتًا، هل معناها انفروا ثابتين على الجهاد؟ لا يفسرها ما بعدها، أو انفروا جميعا فيكون معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي أفرادًا، أو انفروا جميعا، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ والإساءة إما أن تكون كالإشراك بالله كالرياء مثلًا، وإما بالبدعة كبدع الصوفية وغيرهم من أصحاب

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الطرق الذين هم مخلصون لله ويودون التقرب إلى الله ولكن بغير ما شرع الله، فكانوا ضالين كالنصارى تمامًا.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [أي: بذي ظلم]. والخطاب للرسول ﷺ، ﴿وَمَا﴾ هنا حجازية، وكل (ما) في القرآن فهي حجازية، لأنها بلغة قريش، وعلى هذا فمتى أتت (ما) فهي حجازية، قال الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، ولو كانت تميمية لقال ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ إذنْ كلما أتت (ما) التي تكون دائرة بين التميمية والحجازية، فاجعلها حجازية، فهنا نقول: (ما) حجازية، و(رب) اسمها و(ظلام) خبر، ولكنه جر بحرف الباء الزائد، وقوله ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ وهذا خطاب يدل عليه سياق الآية أنه خاص بالرسول ﷺ، ولكن ليعلم أن الخطاب إذا وجه لرسول ﷺ فإنه لا يعني أن الحكم خاص به بل هو له وللأمة؛ ولهذا نقول: إن الخطاب الموجه للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: ما دل الدليل على أنه خاص به، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهذا خاص بالرسول.

ثانيًا: ما دل الدليل على أنه عام، كقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهذا خطاب للرسول ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وهذا عام لأنه قال: ﴿يا أيها النبي، إذا طلقتم﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، فأول الآية خاص والثاني عام.

ثالثًا: ما لا دليل فيه على هذا ولا على هذا، فهو خاص بالرسول ولكن نحن لنا فيه أسوة.

وقيل إنه للأمة لكنه خوطب به الرسول لأنه قائدها ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ قال المؤلف: [أي: بذي ظلم]، إشارة منه رحمه الله إلى أن (ظلام) صيغة نسبة وليست صيغة مبالغة، (ظلام) فسرها المؤلف بأنه صيغة نسبة وليست صيغة مبالغة؛ لأن (فَعَّال) تأتي بالنسبة كنجار وحداد وخشاب وما أشبه ذلك. وتأتي للمبالغة، فهنا (ظلام) يتعيَّن أن تكون للنسبة، لأنك لو جعلتها للمبالغة لكان المنفي المبالغة في الظلم دون أصل الظلم، والمعلوم أن الله تعالى منفي عنه الظلم أصله والمبالغة فيه. إذًا يتعين أن نقول: إن (ظلام) صيغة نسبة، وليست صيغة مبالغة ولهذا فسرها بقوله: [أي بذي ظلم]، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، لا يظلم مثقال ذرة ومن انتفى عنه الظلم في مثقال ذرة، لا يمكن أن يكون لديه ظلم أكثر ولا بمثقال ذرة ولا بدون مثقال ذرة، فإن قال قائل: إن الله لا يظلم مثقال ذرة مفهومها أن ما دونها يمكن، قلنا: لا، لأن مثقال ذرة جيء به على سبيل المبالغة، وما كان قيدًا

للمبالغة فإنه لا مفهوم له، أرأيتم قول الرسول ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»[1] فهل نقول إن من اقتطع نصف شبر لا يعاقب عليه، لا ولكنه أي الرسول ﷺ ذكره على سبيل المبالغة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [أي: بذي ظلم] وقوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ كونًا وليس شرعًا، يعني: لن يظلم حتى الكافر، فإن قال قائل: إن الله تعالى -وحاشاه- يظلم الكافر. الكافر متع في الدنيا ـ ولتقل ألف سنة ـ على كفره فسيخلد في النار إلى الأبد. مع أنه لم يكفر إلا ألف سنة فالعقوبة زائدة على العمل وهذا ظلم. فلو قال قائل هذا قلنا: كلا، والله إن الله تعالى أعذر إلى هذا الرجل ببعث الرسل وإنزال الكتب وأعطاه عقلًا، وقال إن فعلت كذا أدبتك أبد الآبدين، فأقدم باختياره، وهل إذا ما فعل ما يوجب هذه العقوبة باختياره، ثم عوقب بها هل يقال إنه مظلوم؟ أبدًا لا يقال: إنه مظلوم، هذا لو كان جاهلًا بالعقوبة لقلنا: نعم، واجب ألا يعاقب إلا بمقدار ذنبه كمًا وكيفًا، لكن نقول هذا الرجل قد علم وأعذر إليه بإرسال الرسل وبيان ما يعذب به، ومع ذلك أصر كأنه يقول: أنا لا أبالي ولو عذبت أبد الآبدين، وحينئذ يكون هو الذي جنى على نفسه وفعل ما يوجب هذا العذاب المؤبد.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** الحث على العمل الصالح؛ لقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنك متى علمت أن عملك لنفسك فسوف تجتهد في هذا، إذنْ ففيه الحث على العمل الصالح.

٢- **ومن فوائدها:** أن كل عمل لا إخلاص فيه فهو ضرر على صاحبه وليس له، لأننا فسرنا العمل الصالح بأنه ما جمع بين شرطي الإخلاص والمتابعة.

٣- **ومن فوائدها:** أن من عمل عملا بدعيًا فعمله عليه لا له؛ لأنه لا يدخل في العمل الصالح. إخواننا كثيرٌ ممن يعملون بهذه البدع تجدهم يبكون ويخشعون وتلين قلوبهم ولهم من البكاء ما لا يكون عند المخلصين المتبعين، فماذا نقول؟

نقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فلا يخدعنَّك هذا الشيء الذي يقع منهم؛ لأن هذا من إغواء وغرور الشيطان لهم.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن أن يصل ثواب العمل الصالح إلى الغير، لقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وبهذا أخذ أكثر العلماء وقالوا: إن الميت لا ينتفع إلا بعمل ولده فقط، أما غيره فلا، يعني: لو أنك

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

اعتمرت لصديقٍ لك ميتٍ أو حيٍ لا يستطيع العمرة فإن ذلك لا ينفعه، وذلك لأن من عمل صالحًا فلنفسه لا يتعدى غيره، وما جاءت به السنة من صيام المرأة نذر شهر على أمها، أو حجها عن أبيها الذي لا يستطيع ركوب الراحلة، فهذا إنما وقع من الولد، وقد قال النبي ﷺ «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»[1] فالعمل من كسب الأب والأم وهو جزء من أبيه. كما قال النبي ﷺ « فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي»[2] قال ذلك على المنبر، وأشار النبي ﷺ في هذا الحديث أشار إلى التنديد بعلي بن أبي طالب، وأثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وقال: «حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَانِي»، وانتقد عليًا لأنه أراد أن يتزوج بنت أبي جهل، فقام الرسول ﷺ وخطب الناس، وقال: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي» وتكلم بكلام غليظ، لكن الامر عدل عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما رأى النبي ﷺ متأثرًا هذا التأثر، وأنه لا يمكن أن يجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله، لأن هذا يكون متحدث الناس. وعلى كل نقول: إن بعض أهل العلم أخذ بما يفيده ظاهر هذه الآية وقال: لا ينفع العمل ـ لأي إنسان نويته ـ إلا من الولد، ولكن كثيرًا من العلماء قال: بل إن الذي ينتفع به الميت من ولده لا مانع أن ينتفع به من غيره. وربما يستدل بذلك بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: لبيك عن شبرمة، قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أخ أو قريب لي، وهو محرم عنه[3]، فقالوا: هذا يدل على أنه يجوز للإنسان أن ينوب عن غيره، فيقال هذه نيابة عن الغير والحج أيضًا يسلم له، ولكن الذي يظهر لي أنه لا فرق بين الولد وغيره وبين حج وغيره، لكن الذي ننتقده إسراف الناس الآن في الأعمال للأموات، تجده يقرأ القرآن في رمضان عدة مرات، ويقول المرة الأولى لأمي والثاني لأبي والثالث لجدتي والرابع لجدي والخامس لأخي والسادس لأختي والسابع لعمي والثامن لعمتي وينتهي رمضان وليس له ثواب وهذا غلط فهذا إفراط، فالأفضل: أن يلزم هدي السلف الصالح، كذلك أيضًا يسرف ويخالف السنة في إسرافه، تجده يذهب يعتمر أول عمرة له وفي نفس الوقت وهو بمكة ثاني عمرة لأمه وثالث عمرة لأبيه، كل يوم عمرة، وإذا قدرنا أنه بقي عشرة أيام

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٣٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري بنحوه (٣٧١٤) ومسلم (٩٤/ ٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٨١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وله عشرة أقارب، اعتمر عشر عمرات، فهذا خطأ؛ لأنه ليس من هدي السلف، والشرع ليس حسب الذوق وميل النفس أو الهوى، الشرع محدد، هل ورد عن السلف أنهم كانوا يكررون العمرة؟ لا، لا لأنفسهم ولا لغيرهم، فأصل تكرار العمرة في سفر واحد، أصل غير مشروع. ولهذا قال عطاء بن أبي رباح وهو عالم مكة في زمنه: لا أدري هؤلاء الذين يخرجون إلى التنعيم أيأثمون أم يسلمون، يعني معناه أنهم ليس لهم أجر لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة، فلذلك يجب عليكم ـ أنتم طلبة العلم ـ أن تبينوا للناس حتى ولو انتقدوكم، دائمًا نحذر من ذلك في الحرم، ونقول هذا خطأ وليس بمشروع، ثم يذهبون إلى الناس ويقولون ليس فيه شيء أن تعتمر أول يوم لك وثاني يوم لأمك وثالث يوم لأبيك ليس فيه شيء، من قال بأن تفعل عمرتين في اليوم وعمرتين في الليلة، لكن المشكلة أن بعض العلماء يتهاونون في هذه الأمور ولا يريحون عباد الله، تجده في أيام مواسم الحج يتكلف كلفًا عظيمًا في الزِّحام والمشقة ومع ذلك يصرُّ على أن يأتي بعمرة لأبيه ولأمه، مع أن هذا ليس من هدي السلف ويضيق الناس بعضهم على بعض ـ فنسأل الله الهداية.

على كل حال قوله ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ استدل بها بعض العلماء على أن العمل الصالح لا يتعدى الغير لا يتعدى فاعله، ونحن نقول ما جاءت به السنة فهو مخصص لهذا، والسنة تفسر القرآن وتبينه، ثم هل يقاس عليه؟ **الجواب**: هذا محل نظر وعندي أنه لا بأس بأن نقيس عليه لأن الذي ورد إنما هو قضايا أعيان، فإذا كان قضايا أعيان ربما نقول ونقيس على هذه العين ما شابهها، لكن الذين ينكر الإسراف والإفراط.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه من أساء فعلى نفسه أساء، لا يضر الله شيئًا، ولكن لو قال قائل: أليس النبي ﷺ أخبر بأنه: «من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(١).

إذنْ هذا الإنسان صارت إساءة غيره عليه، والله يقول: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي على نفسه فقط، فيقال: إن كونه سن هذه السيئة هو عمله الذي تبعه الناس عليه ولولا أنه فعل ما فعله الناس والناس إنما فعلوا اتباع له، فيكون هذا في الحقيقة من فعله لأنه هو الذي سن هذه السنة السيئة، ولهذا ما من إنسان يقتل نفسًا عمدًا بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، من الذي قتل أول ابن آدم هو قابيل قتل هابيل؟ قتله حسدًا بدون إساءة إليه، قرب قربان فتقبل الله

(١) **صحيح**: تقدم تريجه.

من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فقال له لأقتلنك لأنه قبل من هابيل ولم يقبل منه، فأرشده صاحبه، إلى ما يكون به القبول. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ومعنى الآية: حثه على أن يتقي وليس المعنى أنه يمدح نفسه بأنه كان متقيًّا فقبل منه، وإنما يحث على التقوى، كأنه يقول اتق الله يتقبل منك، ثم قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولعل هذا لم يكن مشروعًا في عهدهم أن يدافع الإنسان عن نفسه. لأن في شريعتنا من أراد قتلك يجب عليك أن تدافعه، حتى لو قتلته فهو في النار ولو قتلك فأنت شهيد. لكن لعله في عهدهم لم يكن هذا مشروعًا وهو من الآصار التي كتبها الله على من قبلنا، ونجَّانا الله منها.

على كل حال نقول: من سن سنة سيئة فسنه من عمله فيكون وزر من عمل بها عليه لأنه هو الذي سنها.

٦- **ومنها:** انتفاء الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلْعَبِيدِ﴾، وهذه من صفات النفي، وصفات الله تعالى نوعان: صفات إثبات، وصفات نفي، فصفات الإثبات كثيرة جدًا، وصفات النفي أقل، ولكن مع ذلك صفات النفي هي في الحقيقة صفات إثبات لأن المراد بالنفي إثبات ضد ذلك. فمثلًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ﴾ المراد إثبات كمال عدله، وأن عدله لا ظلم فيه بوجه من الوجوه.

وهنا قاعدة عريضة: لا يوجد النفي المحض في صفات الله أبدًا، فإن كل نفي في صفات الله فهو إثبات لضده. فكأنه يقول عز وجل هو أعدل الحاكمين ولا ظلم في حكمه إطلاقا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذا من صفات النفي، لكن لإثبات كمال علمه، ولأنه لكمال علمه لا يرد عليه النسيان إطلاقًا، علمنا نحن يرد عليه النسيان، وهو أيضًا حاصل بعد جهل سابق، والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، فعلمنا في الواقع معيب من وجوه، الوجه الأول: أنه مسبوق بجهل.

والوجه الثاني: أنه ملحوق بنسيان.

والوجه الثالث: أنه ليس شاملًا عامًّا.

على كل حال نقول: هذا النفي في صفات الله، لا يراد به النفي المحض، بل هو إثباتٌ في الواقع. إذ إن المراد به إثبات كمال ضده.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العدل في أعلى مقاماته، حيث قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، أي لعبيده، وهذا أبلغ لو قلت لك: (أنت لا تظلم عبيدك)، فهو أبلغ من أن لو قلت أنت لا تظلم الناس لماذا؟

فعدم ظلمك الناس؛ لأنك لا سيطرة لك عليهم، لكن لو قلت لا تظلم عبيدك، كان هذا أبلغ في إثبات العدل، إذا كنت لا تظلم من كان لك سلطة عليه، فعدم ظلمك لمن لا سلطة لك عليه من باب أولى، إذنْ فقابل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بقول القائل: فلان لا يظلم الناس. فالأول أبلغ؛ لأنه إذا كان لا يظلم عبيده مع إنهم عبيده يفعل بهم ما يشاء لئلا يظلم غيرهم ولكن هذا على سبيل الفرض، وإلا فكل من في السماوات والأرض آتي الرحمن عبدًا.

٨- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية، يقول الجبرية: إن الظلم في حق الله محال وانتفاء المحال ليس مدحًا. أقول لكم الآن انتفاء المحال ليس مدحًا؛ لأن المحال لا يمكن وجوده لذاته، ولو أراده الإنسان لم يوجد لأنه محال، لكن انتفاء الممكن إذا كان الانتفاء مدحًا، فهو مدح، هنا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ﴾ هل تفيد الآية أن الظلم في حقه ممكن؟ نعم تفيد أنه ممكن، لكن لكمال عدله، لا يمكن، فالظلم ليس محال لذاته في حق الله، بل هو محال لكمال عدل الله، وبهذا يتحقق المدح، مدح الله تعالى بانتفاء الظلم عنه، أما إذا كان الشيء محالًا فالمحال لا يمدح به.

مسألة: هل من فكَّر في المعصية ولم يهم بها عليه شيء؟

الجواب: هذا لا شيء عليه، ولكن من أراد المعصية ولم يفعلها، له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يعجز عنها ويفعل الأسباب التي يريد الوصول بها إليها ولكن يعجز.

فرجل سارق همَّ بالسرقة ووضع السلم على الجدار ليصعد منه، وبينما هو في أثناء الصعود إذا برجل يمر من الشارع فنزل وهرب هذا يكتب له عمل السيئة، كأنه عملها تمامًا، مع أنه لم يعملها، نقول: لأنه أرادها وعمل لها، لكن عجز والدليل لذلك قول النبي: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[(١)].

إذنْ من همَّ بالسيئة وعمل لها عملها لكن عجز عن اتمامها كتب له وزرها كاملة، الثانية: من هم بها وتمناها لكنه عجز عنها بدون أن يعمل عملها. فهذا عليه وزر النية، والدليل على هذا: أن النبي ﷺ أخبر عن رجل أتاه الله المال فجعل يتخبط فيه، فقال الفقير: لو أن لي مثل مال فلان لعملت به مثل عمل فلان، قال: فهو بنيته وهما في الوزر سواء[(٢)]، الوزر الإرادي، لأن هذا لم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١) ومسلم (١٤/ ٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

يعمل، الثالثة: أن يكون همَّ بالسيئة وعزم عليها ولكن تذكر خشية الله فتركها خوفًا من الله، فهذا يكتب له حسنة كاملة.

وهناك قسم رابع: وهو من لم تطرأ عليه المعصية فهذا لا يكتب له ولا عليه، كإنسان مستقيم ولا يطرأ على باله السرقة ولا الزنا ولا الخمر هذا ليس له ولا عليه لكن غير داخل في تقسيم الإرادة، يعني: من أراد السوء.

مسألة: حول هبة العمل للغير؟

الجواب: هناك صيغتان لمن أراد أن يعمل لغيره. الصيغة الأولى: أن ينوي النية للغير من ابتداء العمل، من الأصل من حين أن أراد أن يكبر نوى أن تكون لأبيه أو لأمه، فهذا يصح ولا إشكال فيه، لأنه كالذي يحج ناويًا الحج عن أبيه وأمه من الأصل، الثانية: أن يعمل العمل ثم بعد الفراغ منه ينويه لأبيه أو لأمه، هذه اختلف فيها العلماء، حتى الذين يقولون بجواز إهداء القرب اختلفوا هل يصح هذا أم لا؟

ووجه الفرق بين هذه والتي قبلها، أن التي قبلها ابتدأ النية من أول الفعل فهو يفعل ويتحرك ويتكلم يشعر به عن الغير، أما هذا فقد صلى وانتهى من صلاته على أنها له، فثبت الأجر له، وإذا ثبت الأجر له فليس من حقه أن يتصرف في الثواب، هو يتصرف في العمل، أما الثواب فلا، يعني يقول هؤلاء: إنه إذا أهدى العمل بعد فعله لا يصل إلى المهدى إليه، لماذا؟ لأن العمل ثبت لنفسه وانتهى العمل والنية لنفسه، وإذا أهداه لغيره فقد تصرف في الثواب، والتصرف في الثواب ليس إليه، وإنما هو لله عز وجل، وليس هذا أمرًا ماليًا، تقول والله أعطي فلان مائة درهم هذا ثواب عند الله عز وجل وكتب لك وانتهى الأمر، وهذا التفريق تفريق جيد وله معنى لطيف.

قال الله تعالى:

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ [فصلت: ٤٧، ٤٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إليه أي إلى الله وحده، وإنها قلنا وحده لتقديم المعمول، وتقديم المعمول يفيد الحصر، وذلك لأن المعمول مكانه أن يكون بعد العامل، فإذا تقدم فإنه يكون من باب تقديم ما حقه التأخير، والقاعدة اللغوية البلاغية: أن تقديم ما حقه التاخير يفيد الحصر، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾ فيكون المعنى إليه لا إلى غيره. وأخذنا هذا النفي من تقديم المعمول لأن المعمول حقه أن يكون بعد العامل، فإذا قدم كان هذا من باب تقديم ما حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، هذه قاعدة لغوية بلاغية، ﴿يُرَدُّ﴾ أي يرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ قال المفسر: [متى تكون] ثم قال: [لا يعلمها غيره]، أخذ هذا الحصر (لا يعلمها غيره) من تقديم المعمول وهو (إليه). وهذا لا شك فيه أنه لا يعلم متى تكون الساعة إلا الله سبحانه وتعالى: ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ يعني ما علمها إلا عند ربي ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وقال النبي ﷺ وقد سأله جبريل: «أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١)، يعني: لا علم عندي كما أنك أنت ليس عندك علم، وعلى هذا فمن ادعى علم الساعة فهو كاذب لا شك فيه، ثم هو كافر أيضًا؛ لأنه مكذب للقرآن والسنة، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قوله ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ قد يتراءى للإنسان أن (ما) اسم موصول، يعني ويرد إليه علم ما تخرج من ثمرات من أكمامها لكن هذا وهم، وعلى هذا فنقول: (ما) نافية، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ [وفي قراءة ﴿ثَمَرَتٍ﴾] المؤلف فسر على قراءة ﴿ثَمَرَتٍ﴾ مفردة، والقراءة التي بين أيدينا في المصحف ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ واعلم أن للمؤلف رحمه الله اصطلاحًا، وهو أنه إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: وقرئ فهي قراءة شاذة ليست من السبع، هذا اصطلاح الجلالين رحمهما الله، في قراءة ﴿ثَمَرَتٍ﴾ القراءة هذه سبعية يعني أنها ثابتة تجوز القراءة بها في الصلاة، وتكون الحجة بها في الأحكام الشرعية، وفي الأخبار العلمية، وعلى صيغة الجمع: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ كل الثمرات، وأما على صيغة الإفراد ﴿مِن ثَمَرَتٍ﴾ فهي أيضًا تفيد العموم، لأن ثمرة نكرة في سياق النفي مؤكدة بـ(من) الزائدة فتشمل جميع الثمرات، وعلى هذا فليس خلاف في المعنى بين

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ثمرة وثمرات.

وقوله: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [أوعيتها]، الأكمام: [أوعيتها، يقول جمع كم، بكسر كاف إلا بعلمه]، الأكمام: هي أوعية الطلع. هذا معروف في النخل، وكذلك معروف في الأزهار، تجد الزهرة عليها غلاف يسمى هذا كِمْ، فما تخرج من ثمرة من كمها إلا بعلم الله عز وجل، أي ثمرة تكون صغيرة أو كبيرة مأكولة أو غير مأكولة، فهي بعلم الله عز وجل، ووجه كونها (بعلمه) أن هذه الثمرات مخلوقة لله، وكل مخلوق لله فهو معلوم له، لقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فأنت متى أقررت أن الله خالق هذه، لزم من إقرارك أن كون الله عالم بها، لأنه لا يمكن أن يخلقها وهو لا يعلم، ولهذا استدل الله لذلك بدليل عقلي، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ما تحمل من أنثى أيَّ أنثى من بني آدم أو من الحيوان، أي أنثى ما تحمل ولا تضع إلا بعلم، فابتداء الحمل معلوم عند الله ووضعه كذلك معلوم عند الله تبارك وتعالى:

أما إعراب (من ثمرة) (ومن أنثى): من حرف جر زائد، زائد من حيث الإعراب، وليس زائدًا من حيث المعنى لأنه يفيد معنى وهو التوكيد، وعلى هذا فنقول من ثمرة: من حرف جر زائد، وثمرة: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها حركة المحل لحرف الجر الزائد، وكذلك يقال: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾: من حرف جر زائد، وأنثى: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها التعذر وهو في محل جر لفظا بدخول ﴿مِنْ﴾ عليها.

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ هل هو العلم السابق أو الحادث عند وجود هذا الشيء؟ السابق؛ لأن علم الله تعالى محيط بكل شيء أزلًا وأبدًا، فهو يعلم ما تخرج من ثمرات من أكمامها إلى يوم القيامة، وكذلك ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾، يعني: (يوم) ظرف والظرف يحتاج إلى ما يتعلق به، لأنه مفعول فيه وإذا كان مفعولًا فيه فلا بد من فعل يكون عاملًا فيه، والعامل في هذا مقدر والتقدير: (واذكر يوم يناديهم). ومثل هذا التعبير موجود في القرآن كثيرًا، والتقدير: (اذكر يوم يناديهم)، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾، وإنما أمر الله نبيه بذكره تخويفًا لهؤلاء المكذبين وتسلية لرسول الله ﷺ، وقوله: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أي: يدعوهم بصوت رفيع، لأن النداء يكون بصوت رفيع، والمناجاة تكون بصوت أدنى، وفاعل يناديهم هو (الله)، بدليل قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ يعني أن الله تعالى ينادي هؤلاء المشركين يقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ وهذا الاستفهام للتعجيز والتوبيخ جامع بين المعنيين: التعجيز والتوبيخ، يعني أين الذين أشركتم معي. يقول الله

عز وجل: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ [أعلمناك الآن] ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ آذن: بمعنى أعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إعلام من الله ورسوله، فآذن بمعى أعلم، وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال للنساء اللاتي يغسلْن ابنته: «إِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي»(١) أي: أعلمنني، آذناك: يقول المؤلف: [أعلمناك الآن]، فأفاد المؤلف بقوله: (الآن) أن الفعل الماضي بمعنى المضارع. فهو إذنْ جملة خبرية حالية بمعنى: الآن نعلمك ما علمنا من شهيد، وقيل: آذناك إنها فعل ماضٍ على بابها، فهي بمعنى الخبر عن شيء ماضٍ.

فعندنا قولان، هل الإعلام هنا يوم القيامة، كما قال المؤلف، آذناك الآن، أم هو إعلان سابق في الدنيا؟ إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا نرجح أنه إعلام في الدنيا، يعني أعلمناك في الدنيا فيكون على ظاهره، لكن يشكل على هذا التفسير، أن واقع حالهم لا يدل على هذا، لأنهم مشركون فعلًا، فكيف يؤذنونه أنها ما منهم من شهيد بذلك. أجاب القائلون بهذا: أن المعنى آذناك بحسب الفطرة، وما في قلوبنا، لأن ما من مولود يولد إلا وهو على الفطرة، آذناك صيغتها فعل ماضٍ يقتضي أن يكون هذا الإعلام سابقًا عن وقت الخطاب، هذه واحدة، آذناك فعل ماضٍ لكن يراد به الخبر عن الحال الحاضرة، فهو بمعنى نحن نعلمك الآن، هذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ لكنه موافق لواقع حالهم، التفسير الأول موافق للفظ ولكنه مخالف لظاهر حالهم، لأنهم لا يعلمونهم بذلك؛ إذ انهم مشركون فعلًا، أجاب هؤلاء الذين يقولون: آذناك في الدنيا بأنهم أعلموه بحسب الفطرة التي فطروا عليها؛ لأنه ما من مولود يولد إلا على الفطرة ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، [أي شاهد بأن لك شريكًا]، ما نافية و﴿مِن شَهِيدٍ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مِن﴾ حرف جر زائدًا إعرابًا، و﴿شَهِيدٌ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

يعني أننا قد أقررنا بأنه لا أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، وهم يقولون هذا الآن ولكنهم لا ينفعهم، لأنه إقرار بعد معاينة العذاب، والإقرار بعد معاينة العذاب ليس بنافع، ولهذا أقر فرعون حين أغرق ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولكنه لم ينفعه فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ما كانوا يدعون من قبل، ﴿مَّا كَانُواْ﴾ ﴿مَا﴾ اسم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٥٣) ومسلم (٣٦/ ٩٣٩) من حديث أم عطية رضي الله عنها.

موصول فاعل بمعنى الذي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ قال المؤلف: [ما كانوا يعبدون من قبل في الدنيا من الأصنام]، أصنامهم التي كانوا يتعلقون بها ويعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، في ذلك اليوم الذي هم أشد ما يكونون حاجة لها، تغيب عنهم، ولا تنفعهم، ولهذا قال ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وغاب ﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون من قبل. ويريد بذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا، مثلًا النصارى يعبدون عيسى بن مريم، قريش تعبد اللّات وهبل والعزّى ومناة، منهم مَنْ يعبد القمر والشمس، هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله هل تنفعهم يوم القيامة؟ لا، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ وربما نفهم من قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أنهم ذهبوا يطلبونها يبحثون عنها ولكنها ضلّت وضاعت، ويكون هذا أشد حسرة في نفوسهم، أنهم طلبوها في وقت الحاجة ولكن لم يجدوها، ﴿وَظَنُّوا﴾ قال: [أيقنوا] ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ظن هنا بمعنى أيقن، وهل يأتي الظن بمعنى اليقين؟ الجواب: نعم، يأتي كثيرًا. قال تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ إذنْ ظنوا بمعنى أيقنوا، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ معنى يظنون: أي يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، ولو كان الظن بمعنى الشيء الراجح، لم يكونوا مؤمنين، ولكن يظنون بمعنى يوقنون، إذنْ الظن في اللغة العربية يأتي بمعنى اليقين، هنا ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فيها تقديم وتأخير وتوكيد، التقديم والتأخير أنه قدم فيها الخبر وأخر فيها المبتدأ، الخبر ﴿لَهُم﴾ والمبتدأ ﴿مَّحِيصٍ﴾، والتوكيد ﴿مِّن﴾ الزائدة؛ لأن ﴿مَّحِيصٍ﴾ مبتدأ مؤخر، ودخلت عليه من الزائدة للتوكيد، وإعرابه: أنه مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخرها منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

وقوله: ﴿مَّحِيصٍ﴾ [مهرب من العذاب]، يعني أيقنوا أنهم لا مهرب لهم من العذاب ولا مفر لهم منه وأنه واقع بهم لا محالة، ثم قال المؤلف: [والنفي في الموضعين معلّق عن العمل، وجملة النفي سدت مسد المفعولين].

النفي في الموضعين: قالوا ﴿ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هذه ﴿مَا﴾ نافية معلّقة عن العمل؛ لأن آذناك: أعلمناك، وهي تنصب ثلاثة مفاعيل، أعلم تنصب ثلاثة مفاعيل. تقول مثلا: (أعلمت زيدًا عمرًا قائمًا). هنا نصبت زيدًا وعمرًا وقائمًا.

والمفعول الأول موجود وهو الكاف. والمفعول الثاني والثالث: معلق أغنت عنه جملة الاستفهام، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، وعلى هذا فتكون جملة ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ تكون في موضع

نصب سدت مسد مفعولي (آذن)، أقول الثاني والثالث.

وقوله: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، ﴿وَظَنُّواْ﴾ تنصب مفعولين، هنا ليس فيه مفعولان، و(إنما) علِّقت عن العمل بجملة النفي بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وعلى هذا فيكون ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جملة في محل نصب سدت مسد مفعولي (ظن). وهذا الإعراب لا يدركه إلا من كان عنده علم بالمفاعيل.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن علم الساعة عند الله وحده، ويؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ وذلك بتقديم ما حقه التأخير وهو المعمول وهذا يفيد الحصر.

٢- **ومن فوائدها:** أن من ادعى علم الساعة فهو كافر، وجه ذلك أنه مكذب لله ورسوله وتكذيب الله ورسوله رِدَّة، والردة لا تخرج عن هذين الأمرين: إما التكذيب وإما الاستكبار ومن صدقه فهو كافر أيضًا؛ لأنه صدق بما هو تكذيب للقرآن الكريم، ومن صدَّق بما هو تكذيب للقرآن الكريم فإنه كافر بلا شك.

٣- **ومن فوائدها:** عموم علم الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ....﴾

٤- **ومنها:** توبيخ الكفار يوم القيامة، لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، والتوبيخ بهذا المكان من أعظم ما يكون التوبيخ؛ لأنه اليوم المشهود الذي يشهده الله وملائكته وجميع خلقه.

٥- **ومن فوائدها:** إقرار هؤلاء المكذِّبين بالبعث في ذلك اليوم أنه لا شريك لله عز وجل؛ لقوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يعبد من دون الله فإنه هلاك وضلال ولن يجدي شيئًا عن عابديه، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾.

٢- ومنها أيضًا: أن هؤلاء المكذبين يوقنوا في ذلك اليوم أنهم لا مفر لهم من عذاب الله لأنه ليس هناك أحد يدفع عذاب الله تعالى عنهم، فيوقنون بأنهم لا محيص لهم منه.

قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:٤٩، ٥٠]

التفسير

قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُ﴾ أي لا يمل، بل لا يزال يسأل، والإنسان هنا يحتمل أن يراد به الكافر، ويحتمل أن يراد به الجنس أي جنس الإنسان سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ثم تنزل الأحوال على ما يليق بها.

وقوله: ﴿دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ (دعاء) مضاف، و(الخير) مضاف إليه، من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، والخير أيضًا مفعول لـ ﴿دُعَآءِ﴾، والمدعو هو الله عز وجل، فعندنا داع ومدعو ومدعو به أي مطلوب.

فالداعي الإنسان، والمدعو الله، والمدعو به الخير. قال المؤلف: [أي: لا يزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما] من البنين والزوجات والجاه والشرف وغير ذلك مما يدعوه الإنسان رغبة به.

وقوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ [الفقر والشدة]، وتخصيص الشر بالفقر والشدة، ليس على سبيل الحصر، بل هو على سبيل المثال، لأنه يشمل الفقر والشدة وفقد الأولاد وفقد الجاه والإيذاء من الخلق وأشياء كثيرة، فتخصيص المؤلف ذلك من الفقر والشدة، هذا من باب التمثيل، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، الفاء رابطة للجواب وهو ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو يئوس قنوط، قال المؤلف: [من رحمة الله تعالى] هل هناك فرق بين اليأس والقنوط؟

الجواب: نعم، اليأس زوال الرجاء بحيث ينقطع رجاء الإنسان، والقنوط أشد من اليأس، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ يكون هذا ابتداء، والقنوط نهايته.

قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾. ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثانٍ وتعدد الأخبار جائز واقع في اللغة العربية

وواقع في القرآن، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كل هذه أخبار متعددة وهي لا تصح أن يكون الثاني وصفًا للأول لأنها كلها تعود على موصوف واحد، وعليه فنقول: ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ المحذوف ولا يصح أن يكون نعتًا لـ(يئوس)؛ لأن (يئوس) نفسها نعت، قال المؤلف رحمه الله: [وهذا وما بعده في الكافرين] هذا المشار إليه اليأس والقنوط، وما بعده سيذكر في الكافرين، وإنما قال المؤلف ذلك؛ لأن المؤمن لا ييأس ولا يقنط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، فلا يمكن للمؤمن أن ييأس، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكافرين، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: [أتيناه]، ﴿وَلَئِنْ﴾ قال: [لام القسم] يعني اللام، و(إن) شرطية، ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ [أتيناه]، ﴿رَحْمَةً﴾ [غنى وصحة] ﴿مِّنَّا﴾ أي من الله عز وجل، ﴿ضَرَّاءَ﴾ [شدة وبلاء]، ﴿مَسَّتْهُ﴾ أصابته، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي: [بعملي]، انظر إلى حال هذا.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ في هذه الجملة حرف شرط، والشرط يحتاج إلى جواب للشرط، وفي سياق الآية لم نجد جوابًا للشرط، فجواب الشرط في هذه الآية محذوف، لأنه اجتمع قسم وشرط، وإذا اجتمع القسم والشرط حذف جواب المتأخِّر منهما، هنا اجتمع قسم في (اللام) والشرط (إن)، فالمتأخر الشرط ولذا يحذف جواب الشرط. ولهذا جاء جواب القسم في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، قال ابن مالك في «الألفية»:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

قوله تعالى: ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ يعني: [أتيناه]. لكن عبر بالإذاقة عن الإيتاء، لأن من ذاق شيئًا فقد انتفع به، والإيتاء قد ينتفع به الإنسان وقد لا ينتفع، فإذا أعطيتك خبزًا قد تأكلها وقد لا تأكلها، لكن إذا ذقتها فقد أكلتها وانتفعت بها، ولهذا عبر عن الإتيان بالإذاقة، لأنه أبلغ في المماسة وفي الانتفاء. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسرها المؤلف بأنها [الغنى والصحة]، وهذا مثال وليس هو الحصر، بل تشمل الرحمة كل ما هو مطلوب للإنسان، من غنًى وصحة وجاه وأموال وبنين وغير ذلك. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ إشارة واضحة إلى أن هذه الرحمة ليست من كسبه، ولكنها فضل من الله عز وجل، فالغنى أتاه من حيث لا يحتسب، والصحة أتته من حيث لا يحتسب والبنون وغيرهم هي من عند الله، وواضح أنها من عند الله وليست من كسبه. وقوله: ﴿مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ رحمة من بعد ضراء، يعني معناه أنه قد تلقَّى الضرر ثم بعد ذلك أتته رحمة من الله، وهذا أبلغ في النعمة أن تأتي بعد الضرر؛ لأن النعمة الدائمة لا يحس بها لكن النعمة الطارئة بعد الضرر هي التي يحس بها

ولهذا من لم يذق مرارة المرض فإنه لا يتذوق حلاوة الصحة، حتى في الأمور الشرعية، قال عمر بن الخطاب: لا ينقض الإسلام إلا من لم يعرف الجاهلية، أو كلمة نحوها، يعني: الذي لا يعرف الكفر لا يعرف قدر الإيمان، كذلك أيضًا الرحمة إذا كانت مستديمة مستمرة لا يُحسُّ بها الإنسان ولكن إذا جاءت من بعد الضرر أحس بها وذاق لها طعمًا.

وأضرب مثالًا الآن في النفس: النفس نعمة كبيرة من أكبر النعم، والإنسان لا يحس بها مادامت النعمة مستمرة، لكن لو أصيب بكتم النفس وحجبه، ثم فرج عنه، لوجد لهذا النفس نعمة عظيمة وأثرًا عظيمة، كذلك المرض، فالإنسان الصحيح المستمر في صحته لا يعرف قدر الصحة، لكن إذا مرض ثم شفي تبين له قدر النعمة.

الرحمة التي ذكرها الله هنا رحمة من بعد الضراء، يكون لها أثر بالغ، أعظم مما لو كانت الرحمة مستمرة، إذا أذاقه الله عز وجل رحمة من عنده من بعد الضراء، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ هذا جواب القسم يعني يقول: ﴿هَٰذَا لِى﴾، وهذا معناه أن هذا بعملي، فتكون (اللام) بمعنى (من) أي: هذا مني وليس من الله.

وقيل: (اللام) للاستحقاق، يعني أني مستحق له، فلا منة لله علي به لأني له أهل، فأنا حقيق به، والمؤلف مشى على القول الأول، وهو أن (اللام) بمعنى (من)، أي: ليقولن هذا مني وأنا الذي اكتسبته، وأنا الذي أتجرت وما أشبه ذلك.

القول الثاني يقول: هذا من الله ولكن لا منة له علي به، لأني مستحق له، والآية تحتمل هذا وهذا.

والقاعدة: أنه إذا كانت الآية تحتمل المعنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنها تحمل عليهما جميعًا إذا لم يوجد مرجِّح لأحدهما.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني: يظن أنه مخلَّد، لما جاءته هذه الرحمة قال: [إذنْ لا بعث ولا جزاء]، ثم قال ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني على فرض أن تقوم الساعة وردي إلى الله فإن الذي أنعم علي في الدنيا سوف ينعمني في الآخرة، ولهذا قال ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [أي الجنة]، نقول في إعراب ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ ما قلناه في ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ لأنه اجتمع قسم وشرط، وتأخر الشرط فحذف جوابه وبقي جواب القسم في قوله ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ تجد هذا الرجل من غروره ـ والعياذ بالله ـ أنه أكد ذلك بالقسم وإن، والقسم في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾ و﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ لِى﴾ واللام في قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾، فهو أكد أنه

على فرض إن رجع إلى الله فسيجزيه الحسنى وهي الجنة كما قال المؤلف رحمه الله، وأخذ المؤلف رحمه الله هذا التفسير من تفسير النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ حيث قال: «إِنَّ الحُسْنَى الجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ هِيَ النَّظَرُ لِوَجْهِ الله»(١).

إذنْ هذا الرجل مغرور في غاية الغرور؛ وذلك لأنه:

أولًا: أنه أضاف النعمة ـ التي حصلت له في الدنيا ـ إلى نفسه إما مباشرة وهو الذي حصلها بدون الله، وإما لأنه مستحق لها فلا فضل لله عليه فيها.

ثانيًا: أنه أنكر البعث، بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

ثالثًا: أنه على فرض أن الساعة قائمة فسيجد عند الله ما هو أحسن، ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فلننبئن: أي نخبرن، والفاء عاطفة واللام مؤكدة للقسم المحذوف، والتقدير: فوالله لننبئن، إذنْ الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾: المؤكد الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: نون التوكيد في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾.

والضمير في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ يعود على الله عز وجل، وعاد إليه بصيغة الجمع من باب التعظيم وإلا فالله إله واحد، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: نخبرهم بذلك يوم القيامة، وكيفية هذا أن الله سبحانه وتعالى يحصي أعمالهم يوم القيامة، فينادى عليهم على رءوس الأشهاد، لأنهم قد أخزاهم الله، ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني: بعد أن ننبئهم ويقرون بذلك ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ قال: [أي: شديد، واللام في الفعلين لام القسم]، أين الفعلان؟ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ و ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

١ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان حالة الإنسان الكافر وهو كفره بنعمة الله عز وجل واعتزازه بنفسه في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ هذا يدل على كفره الشديد وإعجابه بنفسه واعتزازه بها.

٢ – **ومن فوائدها:** أن الإنسان يحب الخير دائمًا لقوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وهذا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧/ ١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

من طبيعة الإنسان أنه يحب الخير وهو ما يلائم نفسه ومرادها.

٣- **ومنها**: أن الإنسان الذي ليس عنده إيمان، إذا مسه الشر يئس وقنط من رحمة الله.

٤- **ومنها**: ذم أهل اليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل؛ لأن الله تعالى ساق هذا مساق الذم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

١- **ومن فوائدها**: أن الله تعالى يرحم الكافر؛ لقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ وبناء على هذا لو سألنا سائل هل الله يرحم الكافر؟ فالجواب نعم يرحمه والدليل هذه الآية، ولكن اعلم أن رحمة الله نوعان: رحمة خاصة ورحمة عامة، فما به قوام البدن فمن الرحمة العامة؛ لأنه يشمل الكافر والمؤمن والفاجر والحيوان، وما به قوام الدين فمن الرحمة الخاصة وهذا يختص بالمؤمنين، والفرق بينهما أن الرحمة العامة إنما هي غذاء البدن فقط، وتزول بزواله، والرحمة الخاصة غذاء الروح تبقى ببقاء الروح، والروح منذ خلقها الله لا تفنى. والأرواح من الأشياء التي خلقت للبقاء بخلاف الأجساد، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لكن الروح لا تفنى كالولدان في الجنة والحور العين في الجنة، خلقت للبقاء.

٢- **ومن فوائدها**: بيان فضل الله عز وجل على الكافر لكون الرحمة التي أصابت الكافر من عند الله لقوله: ﴿مِنَّا﴾.

٣- **ومن فوائدها**: إعجاب الكافر بنفسه حيث يضيف هذه الرحمة التي هي من الله إلى نفسه، لقوله: ﴿هَذَا لِي﴾، أو يضيفها إلى استحقاقه إياها، فكأن الله لا منة له عليه ـ على القول الثاني ـ وأن معنى قوله: ﴿هَذَا لِي﴾ هذا مستحق لي.

٤- **ومن فوائدها**: بيان عتو الكافر حيث أنكر ما قامت الأدلة الشرعية والعقلية والحسية على ثبوته، في قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾، الأدلة الشرعية على ثبوت الساعة كثيرة لا تحصى، الأدلة العقلية، هو أنه ليس من الحكمة أن يوجد الله هذه الخليقة ويأمرها وينهاها ويسلط بعضها على بعض بالسيف فيقاتل المؤمن الكافر، ثم تكون النهاية ولا شيء هذا سفه، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي فائدة لخلق يوجد ويؤمر وينهى ويسلط بعضه على بعض في القتل العمد، ثم النهاية لاشيء، لا فائدة من هذا، وحكمة الله تعالى تأبى أن يقع مثل ذلك من الله، هذا دليل عقلي واضح وهذا دليل عقلي يوجب أن يبعث الناس ليجازوا على أعمالهم.

أما الدليل الحسِّي على وجود البعث وإمكانه وجوازه، فالله تعالى يقره في القرآن قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يعني: هامدة ليس فيها نبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ ماء المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ يعني صارت حية، بعد أن كانت ميتة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإحياء الأرض من بعد موتها والناس يشاهدون دليل على إمكان إحياء الموتى وبعثهم، وهذا دليل واضح حسي ومشاهد. كذلك أيضًا أشهدنا الله عز وجل في الدنيا إحياء الموتى، فلنستعرض هذا في القرآن، المشهد الأول: بنو إسرائيل، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا ثم بعثوا هذا في الدنيا. المشهد الثاني: القتيل التي اختلفت القبيلتان فيه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها ففعلوا فحيا القتيل وقال: إن الذي قتله فلان. وهو إحياء بعد الموت، المشهد الثالث: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، خافوا من الموت وخرجوا من ديارهم، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾، أماتهم ليعلموا أنهم لا مفر لهم من قضاء الله ثم أحياهم ليقضي أجل مسمى، المشهد الرابع: صاحب القرية ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

المشهد الخامس: قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فأمره الله عز وجل أن يذبح أربعة من الطيور، وأن يلقي على كل جبل منها جزءًا، وأن يدعوها ففعل فأقبلت إليه حية إما أنها تطير أو تمشي بسرعة. هذه خمسة مشاهد مذكورة في البقرة كلها تدل على إمكان الإحياء بعد الموت.

أما قصة عيسى فكذلك أيضًا، كان عيسى ﷺ يحيي الموتى بإذن الله، يقف على الميت ويقول: يا فلان قم فيقوم، بل يقف على القبر والميت مدفون ويأمره أن يخرج حيًا فيخرج، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾. وفي الدجال أخبرنا النبي ﷺ أنه يقطع رجلًا جزلتين ويمر بينهما ثم يقف ويأمره أن يقبل يأمر هذا الميت الذي هو قطعتين أن يقبل فيلتئم حالًا ويقوم والناس ينظرون(١)، هذا أيضًا شاهد محسوس، فالمهم أن البعث دل عليه السمع والعقل والحس.

٥- أن هذا الكافر عنده من العجب والثقة بنفسه ـ على أنه ليس له شيء يثق به ـ ما أمكنه أن يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الإقرار بالربوبية لا يدخل الإنسان الإسلام لأن هذا المنكر مقر بالربوبية، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ والمشركون كانوا مقرين بالربوبية، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٣٧/١١٠) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

ﵟالسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُﵞ لكن الإقرار بالربوبية لا يغني عن الإسلام شيئًا. ولقد افتخر بعض الناس الجهَّال أن أحد رواد الفضاء شهد بأن لهذا الكون خالقًا، لما صعد في الفضاء ورأى الأرض ورأى ما حوله من الآيات شهد بأن لها خالقًا، فصار بعض الناس الجهال يطنطن على إثبات أن للكون خالقًا بشهادة هذا الرجل الكافر، وهذا حقيقة يدل على ضعف إيمانه؛ لأن خبر الله ورسوله عن ذلك أصدق وأوجب للإيمان، نعم لو كنا نجادل شخصًا منكرًا لا يؤمن بالأديان فنقول له: صاحبك الذي هو مثلك أقر بأن للكون خالقًا. ربما ينفع، فيكون هذا من باب إقامة الحجة عليهم، لكننا نجعل هذا حجة مطلقة هذا أمر فيه نظر.

٧- **ومن فوائدها:** التأكيد على أن هؤلاء الكافرين سوف يُخبرون بما عملوا، لقوله: ﵟفَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْﵞ ويكون هذا يوم القيامة، فإن قال قائل: هل لهذا القيد مفهوم، أو هو لبيان الواقع؟ ﵟفَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْﵞ هذا ليس له مفهوم، ولكنه لبيان الواقع، وذلك لأنك لو جعلت له مفهومًا لكان المؤمنون لا ينبئون بما عملوا، مع أنهم ينبئون، قال الله تعالى: ﵟفَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥﵞ وثبت عن النبي ﷺ أن الله يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه يعني عملت كذا في يوم كذا[1]. إذنْ تقييد الإنباء بالكافر لبيان الواقع يعني هؤلاء الذين كذَّبوا واقعهم أنهم سينبئون بما عملوا.

٨- **ومنها:** أن كل شيء مقيد محسوب على الإنسان، نأخذه من قوله: ﵟبِمَا عَمِلُواْﵞ فإن ما اسم موصول تفيد العموم. وقد قال الله تعالى: ﵟمَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌﵞ أي قول تلفظ به فلديك رقيب يعني حاضر يكتب ما تقول.

٩- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء الكفار سيكون غليظًا أي: شديدًا؛ لأن الغلظة معناها القسوة، وهي في كل موضع بحسبه. فغلظ الطباع ليست كغلظ العجين أو الطين أو ما أشبه ذلك، فغلظ العذاب ليس كغلظ الطين أو العجين وغلظ القول وما أشبه ذلك كل غلظة بحسبها.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات العذاب في الآخرة ﵟوَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍﵞ، فهل هناك عذاب قبل الآخرة؟

الجواب: نعم، يعذب الإنسان في قبره قبل أن يبعث وهذا ثابت في القرآن والسنة، استمع إليه في القرآن قال الله: ﵟوَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِﵞ. فقوله: ﵟأَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُﵞ يدل على أنهم لا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يريدون أن تخرج، ولهذا يقال أخرجوا أنفسكم توبيخًا، ثم يقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾متى اليوم؟ يوم موتكم تجزون عذاب الهون، وهذا نص في إثبات عذاب القبر، وقال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وأما السنة كثيرة في ذلك: ومنها ما أجمع المسلمون عليه، فكل المسلمون يقولون في الصلاة «أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر»(١) هل يتصور أن أحدًا يتعوذ من شيء وهو لا يؤمن بوجوده؟ لا، إذنْ فعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، وعليه فيكون العذاب المذكور في قوله ونذيقنهم عذاب الغليظ، هو عذاب الآخرة وهو أشد من عذاب القبر، أجارنا الله وإياكم منه.

١١ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان حريص على الخير شحيح في بذل ما يطلب منه.

١٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يغلِّب جانب اليأس والقنوط كما أنه لا يغلب جانب الرحمة، لأنه إن غلب جانب الرجاء والرحمة فإنه يدخل فيمن يأمن مكر الله، وإن غلب جانب اليأس والقنوط دخل في أهل اليأس والقنوط، وهل الذي ينبغي للإنسان أن يغلب الرجاء أو يغلب الخوف؟ اختلف السالكون إلى الله عز وجل في هذا. فمنهم من قال: يغلب جانب الخوف ليحذر المعاصي ويتجنبها لأنه إذا غلب جانب الخوف خاف وحذر من المعاصي، ومنهم من قال: يغلب جانب الرجاء لأن الله تعالى عند حسن ظن عبده بي. وإذا غلب الرجاء ابتعد عن اليأس والقنوط. ومنهم من قال: ينبغي ألا يغلب هذا على هذا، بل يجعل خوفه ورجاءه واحدًا، قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاء واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه.

وقال بعضهم: ينبغي للإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه إن انخفض أحدهما سقط.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب جانب الرجاء عند فعل الطاعة فيرجو القبول والثواب، ويغلب جانب الخوف عند الهم بالمعصية حتى لا يعصي الله عز وجل، ومن العلماء من يقول: يغلب جانب الرجاء عند المرض حتى إذا مات لقي الله وهو يحسن به الظن، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، لأن حال الصحة يدعو الإنسان إلى البطر والأشر، بل يغلب جانب الخوف. كل هذه الأقوال التي تبلغ ستة أو سبعة، هي في الواقع تنظر إلى حال العبد، ولهذا نرى في

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢٨/ ٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه المسألة أن الإنسان ينظر إلى حاله، فإن كان قد عمل عملا صالحًا وكدح فيما يرضي الله فليغلب جانب الرجاء، كلما عمل طاعة غلب جانب الرجاء أن الله سبحانه وتعالى قبلها، وإذا رأى من نفسه العلو والتعاظم فليغلب جانب الخوف حتى يسير إلى الله سبحانه وتعالى سيرًا حسنًا.

١٣- **ومنها**: أن من عباد الله من لا يشكر الله عزَّ وجل ولا يعترف له بالفضل، فإذا جاءته الرحمة بعد الضراء ادعى أن هذا بعمله وأنه محقوق به وأهل له، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.

١٤- **ومن فوائدها**: أن الرحمن إنما هي من الله عز وجل، لا يستطيع الإنسان أن يجلب لنفسه نفعًا ولا أن يدفع عنها ضررًا، بل ذلك إلى الله، ولكن الله قد جعل لكل شيء سببًا فللرحمة أسباب وللعذاب اسباب.

١٥- **ومنها**: بيان حال هذا الإنسان الذي إذا أصابته الرحمة والخير قال هذا لي ثم ادعى دعوى أخرى أنه لو رجع إلى الله لوجد عنده خيرًا من ذلك، مع أنه ينكر قيام الساعة.

١٦- **ومنها**: أن الإقرار بالربوبية لا يكفي في توحيد الإنسان وإيمانه؛ لأن هذا الرجل قد أقر بالربوبية في قوله: ﴿رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

١٧- **ومن فوائدها**: تهديد من هذا حاله بأن الله سوف يقرره بذنوبه ويذيقه من العذاب الغليظ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٨- **ومن فوائدها**: أن الإظهار في موضع الإضمار في موضعه خير من الإضمار يعني إذا دار الأمر بين أن تأتي بضمير المتحدث عنه أو باسم ظاهر فإن الأصل أن تأتي بالضمير لكن إذا صار هناك فائدة في الإظهار في نوع الإضمار فإنه أولى وأحسن، الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو أضمر فقال: (فلننبئنهم) فهذا لا بأس به، لكنه أظهر في موضع الإضمار. والإظهار في موضع الإضمار فيه ثلاث فوائد:

١- بيان الصفة أو الوصف الذي استحق من أجله أن يعاقب بهذه العقوبة.

٢- بيان العموم يعني أن هذا الوعيد ليس لهذا الرجل وحده بل لكل كافر، هذا بالنسبة للآية التي معنا.

٣- انتباه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد بضمائره ومظهراته فإن الإنسان لا ينتبه، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن سياقه، فلا بد أن ينتبه.

١٩- **ومنها**: إثبات البعث لقوله ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٠- **ومنها** عموم علم الله عز وجل؛ لأن المنبئ بالعمل لا بد أن يكون عالمًا به.

٢١- **ومنها** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، حيث أضاف الضمائر إليه بصيغة الجمع، والجمع الواحد يراد به التعظيم.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥١-٥٢]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾

قوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني أعطيناه نعمة، والنعمة تدور على شيئين: على حصول المطلوب وعلى النجاة من المرهوب، فمن سقط في بحر ثم هيأ الله له من ينقذه من الغرق فتلك نعمة. وكذلك أيضًا من رزقه الله مالا وولدا هذه نعمة، فالنعمة إما ارتفاع نقمة وإما حصول محبوب للإنسان.

وقوله ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يقول المؤلف: [المراد الجنس] أي ليس المؤمن ولا الكافر، يعني أن جنس الإنسان بالنظر إلى كونه إنسان فقط، هذه حاله، إذا أنعمنا على الإنسان أعرض [عن الشكر] والشكر حقيقة هو طاعة الله عز وجل ويكون بالقلب وباللسان وبالجوارح.

ويدل على أن الشكر هو طاعة الله قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾»[1]، فجعل النبي ﷺ الشكر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٥/ ١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لله هو العمل الصالح، يعني القيام بطاعة، الله، فالشكر إذنْ القيام بطاعة الله ويكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح.

أما بالقلب فهو شعور الإنسان بأن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى، وأنه لولا فضل الله لما حصلت له فيقر بقلبه ويعترف أن ذلك من عند الله وليس بحوله وقوته، وأما الشكر باللسان فالتحدث بنعمة الله عز وجل اعترافًا بفضله لا افتخارًا على خلقه، كأن يقول: الحمد لله قد رزقني الله أموالًا وأولادًا وعلمًا وما أشبه ذلك. ومن الشكر باللسان جميع الطاعات القولية فإنها من الشكر باللسان، فقراءة القرآن من الشكر؛ لأن كل طاعة باللسان من شكر الله عز وجل، والشكر بالجوارح أي العمل كالركوع والقيام والصدقة وما إلى ذلك.

وفي هذا يقول الشاعر.

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

قوله: ﴿وَنَئَا بِجَانِبِهِۦ﴾ يقول المؤلف: [أي: ثنا عطفه متبخترًا]، يعني أعرض ببدنه وبقلبه مفتخرًا متعارضًا، هذا بالنسبة لحاله، وبالنسبة لما يطلب منه الشكر يعرض، ولا يشكر الله عزَّ وجل، وهذا حال كثير من بني آدم، ولهذا عممها الله، قال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ لأن أكثر بني آدم على هذا الحال، قوله: ﴿وَنَئَا﴾ [وفي قراءة بتقديم الهمزة] في قراءة سبعية واعلم أن اصطلاح المؤلف رحمه الله أنه إذا قال [وفي قراءة] فهي سبعية أي من القراءة السبع، وإذا قال: (وقرئ) فهي من القراءات الشاذة، إذنْ ناء ونئا معناهما واحد كآيس ويأس بتقديم الهمزة وتأخيرها ومعناهما واحد، أيس من كذا يأس من كذا معناهما واحد، ناء بكذا أو نئا بكذا معناهما واحد والمقصود كما قال المؤلف: [أنه ثنى عطفه متبخترًا].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أقبل ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: [كثير]، إذا مسه الشر لجأ إلى الله وأطال الدعاء وأكثر منه وانظروا ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن المشركين إذا كانوا في البحر وهاج البحر ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ولكنهم يعدون ويكذبون، فإذا أنجاهم الله عادوا إلى الكفر والعياذ بالله.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إن الإنسان من حيث هو إنسان بطر عند النعماء مقبل على الضراء؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِۦ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن ما يتمتع به الإنسان من النعيم فهو من عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** التحذير من هذه الحالة، فإذا رأى الإنسان من نفسه أنه عند النعمة يفرح ويبطر ويتهاون بما أوجب الله تعالى عليه، فليعلم أنه داخل في هذا الإنسان المذموم.

٤- **ومن فوائدها:** أن الإنسان يعرف من نفسه الضعف، فإذا أصابه الضرر يلجأ إلى الله، حتى الكافر يعرف من نفسه الضعف ويلجأ إلى الله عزَّ وجل.

٥- ومنها أيضًا: أن الكفار يؤمنون بالله وبأنه هو كاشف الضر، لقوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، والإعراض في قوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هذه جملة شرطية، وجوابها: ﴿أَعْرَضَ﴾ هذا الجواب ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معطوف عليه.

الجواب في قوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الجواب ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ عاملها مقدر، تقديره: فهو ذو دعاء عريض، اقترنت الفاء في جواب الشرط؛ لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنها بالفاء ولا تسقط إلا نادرًا.

والجمل التي إذا وقعت جوابًا للشرط اقترنت بالفاء مجموعة في قول الناظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسُ

مثل قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

الأصل من يفعل الحسنات فالله يشكرها لكنها سقطت إما لغرض الشعر وإما للقلة؛ لأنها تسقط حتى في النثر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [كما قال النبي ﷺ] ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وقوله: ﴿إِن كَانَ﴾ يعني: [القرآن] من عند الله وكفرتم به وأنكرتم أن يكون من عند الله، ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أصل الجملة ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وتبين لكم أنه من عند الله ثم كفرتم به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، الأصل (من أضل منكم)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لفائدة سنذكرها إن شاء الله.

قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [أي القرآن] وتبين لكم ذلك واتضح ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾

أتى بثم الدالة على الترتيب والتراخي إشارة إلى أن هؤلاء أنكروا وكفروا بعد التروي وبعد المدة التي يؤمن بها من أراد الإيمان، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الضمير يعود على القرآن ويجوز أن يعود على الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي نزل عليه القرآن، ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ قال المؤلف: [أي لا أحد أضل]، إشارة إلى أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، واعلم أن الاستفهام يأتي بمعنى النفي كثيرًا، وإتيانه في موضع النفي أعظم من النفي، لأنه إذا أتى الاستفهام في موضع النفي صار مشربًا معنى التحدي كأنه قال: (أروني أحد أضل)، وهذا لا شك أنه مشتمل على النفي وعلى التحدي، وقال ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿مَنْ﴾ هذه مبتدأ اسم استفهام مبتدأ و﴿أَضَلُّ﴾ خبره، ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾أي من الذي هو ﴿في شقاق بعيد﴾ خلاف بعيد، بل الشقاق أخص من الخلاف، لأنه قد يخالفك ولا يشاقك لكن هؤلاء خالفوا وشاقوا، وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ [أي بعيد عن الحق أوقع هذا موقع منكم بيانًا لحالهم]، أوقع هذا يريد من أضل ممن هو في شقاق بعيد موقع منكم أي موقع الضمير فهو إظهار في موضع الإضمار لبيان حالهم، أي لبيان أنهم هم أضل من كل أحد وأن حالهم الشقاق البعيد، ففيه إظهار في موضع الإضمار.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحدي هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، وأنهم بعد أن علموا الحق كفروا به.

٢- أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وجه ذلك، أن القرآن وصف وصفة لا بد أن يقوم بموصوف وإذا كان من عند الله لزم أن يكون الموصوف به هو الله عز وجل، وهذا ما نؤمن به ويؤمن به السلف أهل السنة والجماعة، بأن القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة بحروفه وسمعه منه جبريل وألقاه على قلب النبي ﷺ. يرى أهل التعطيل أن القرآن كلام الله ولكنه مخلوق وليس وصف من صفاته، بل هو مخلوق من مخلوقاته، وهذا رأي الجهمية والمعتزلة، هذا الرأي يبطل الأمر والنهي ويبطل الشريعة كلها؛ لأنه إذا كان كذلك صار مجرد أصوات أو مجرد حروف لا مدلول لها كما نسمع صوت الرعد مثلًا لا نستفيد منه شيئًا، إذ هو شيء يسمع فقط وليس له معنًى، أو حروف خلقت على هذا النحو، كأنه نقش في جدار أو في باب نقوش ليس لها معنى، ولهذا يعتبر هذا القول من أشد الإلحاد، لأنه تبطل به الشريعة كلها، فمثلا إذا قلنا إنها مخلوقة، إن رسمتها في ورقة صارت صورة كلمة فقط كأنها نقش ما هي كلام، وإن تكلمت بها فالصوت مخلوق بل والله عز وجل حين تكلم بها وأوحى بها إلى جبريل يعتبر أنه خلق

صوت ليس له معنى، لأنه مخلوق من المخلوقات، والله عز وجل فرق بين الخلق والأمر فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فالقائلون بأن القرآن كلام الله لكنه مخلوق، قد عطلوا الشرائع نهائيًا إذ إنه ليس هناك أمر ولا نهي، وهناك قول آخر للأشاعرة يقولون: إن القرآن كلام الله، لكنه أي الكلام هو المعنى القائم بنفسه أما ما سمعه جبريل فهو مخلوق، فالقرآن عندهم كلام الله لكن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأما ما يسمع من الله عز وجل كمناجاته موسى وكلامه بالوحي إلى جبريل فإنه مخلوق عبارة عن المعنى القائم بالنفس، هذا المعنى أشد وأخبث من قول المعتزلة لماذا؟ لأن المعتزلة يقولون: ما نقرأه في المصاحف كلام الله حقًا، والأشاعرة يقولون: عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله، والكل متفقون على أن ما نقرأه في المصاحف مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: هو كلام الله، والأشعرية يقولون: عبارة عن كلام الله فصاروا من هذه الناحية أخبث وأشر من المعتزلة والجهمية، أما نحن فنؤمن بأن ما كتب في المصاحف وحفظ في الصدور فإنه كلام الله وهو غير مخلوق، فإن قال قائل أرأيت القارئ يقرأ نسمع صوته بالقراءة هل هذا الصوت مخلوق أم غير مخلوق؟ نقول هو مخلوق؛ لأن صوت الإنسان وصف من أوصافه فهو مخلوق كأصله لكن الملفوظ به والمصوت به غير مخلوق، وهناك فرق بين الصوت والنطق وبين المصوَّت به والمنطوق به، أليس كذلك؟ أنا لو قرأت كتاب ألفه عالم من العلماء فأنا أقرأ الصوت صوتي، لكن المقروء هو كلام صاحب الكتاب.

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، فصار لو أراد الإنسان أن يستفصل، هل لفظ الإنسان في القرآن مخلوق أم لا؟ ماذا نقول؟ نقول لفظه الذي تلفظه مخلوق لأنه حركات لسانه وشفتيه وصوته، وأما الملفوظ به فإنه كلام الله غير مخلوق، ويدل لهذا أن الله تعالى قال في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ الرسول هنا جبريل. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الرسول هنا محمد ﷺ، ولا يمكن أن يكون كلام واحد لمتكلمين اثنين، لكنه أضافه إليهما لأنهما رسولان مبلغان عن الله؛ ولهذا قال ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ في الآيتين فتنبه لهذا أو تفطن له.

ذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله: أن من قال لفظي في القرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. هكذا روي عنه.

وفي رواية: من قال لفظي في القرآن مخلوق يريد القرآن فهو جهمي. ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، الرواية الثانية فسرت الرواية الأولى، أي أنه من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد القرآن

الذي هو الملفوظ به.

فإن قال قائل: هل يمكن أن يراد باللفظ الملفوظ، قلنا نعم لأن لفظ مصدر والمصدر يأتي أحيانا بمعنى اسم المفعول، كما في قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: أولات محمول فالحمل مصدر يراد به اسم المفعول.

على كل حال نحن نقول في كلام الله عز وجل إنه كلام مسموع بحرف وصوت وأنه غير مخلوق وأنه صفة من صفاته.

ولكن هل هو من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟ نقول: أما باعتبار أصله وأنه تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا فهو من الصفات الذاتية، وأما باعتبار آحاده فهو من الصفات الفعلية لقوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ متى صارت كن؟ بعد الإرادة وهذا دليل على أن كلام الله من حيث آحاده وأفراده من الصفات الفعلية.

مسألة: قول الأشاعرة هل نكفرهم بهذا الأمر؟

الجواب: يجب أن تعلم قاعدة مهمة وهي: أن المجتهد من هذه الأمة ولو أخطأ فإنه مغفور له، هم يريدون بهذا أن الله منزه أن تقوم به الحوادث، لأنهم يعتقدون بعقولهم السخيفة أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، وهم يعلمون أن الكلام حادث، كل حرف حدث بعد الحرف الذي قبله، لكن لعقولهم السخيفة ظنوا أن من يقوم به الحادث فهو حادث، وهذا خطأ، التكفير لا نكفرهم بهذا، نعم لو أن الإنسان تبين له الحق وقال إنه لا يريد الحق وإنما يتبع هواه فقد يكفر.

إذن يستفاد أن القرآن كلام الله من قوله: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ووجه ذلك أن الكلام صفة لا يمكن أن يقوم بنفسه فلزم أن يكون كلام الله.

٤- **ومن فوائدها**: أن الكفر بعد التبين أشد قبحًا من الكفر مع الجهل، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾، فإن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي وأن كفرهم كان بعد أن تبين الأمر.

٥- **ومن فوائدها**: أنه لا أحد أضل ممن شاق الله ورسوله حيث إنه في شقاق بعيد لقوله تعالى ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: بلاغة القرآن التامة؛ حيث يختار في كل تركيب ما يناسب الحال لقوله تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

٧- **ومن فوائدها:** وقوع الاستفهام موقع النفي وأن إيقاع الاستفهام موقع النفي أسلوب عربي صحيح، وفائدته: أنه إذا كان بصيغة الاستفهام كان مشربًا بالتحدي، فقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أبلغ من قوله لا أضل.

قال الله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ السين للتنفيس، وهي تفيد القرب والتحقيق، وسوف: للتسويف وهي تفيد التحقيق مع البعد، ولذلك يجب أن نفرق بين سوف والسين إذا كان الشيء سيكون قريبًا فقل سيكون، وإذا كان بعيدا فقل سوف يكون، ولهذا تجدون قول الله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٤] لأنه لم يأت بعد وهو بعيد بالنسبة لكونه في الدنيا، ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يعني عن قرب إراءة متحققة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ أي: نظهرها لهم حتى يرونها بأعينهم أو حتى يرونها ببصائرهم.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآيات جمع آية وهي في اللغة العلامة، والمراد بآيات الله: علاماته الدالة على كمال علمه وحكمته وقدرته وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته، واعلم أن آيات الله تعالى نوعان: آيات كونية وهي ما جاءت به الرسل ومنها القرآن الكريم فإنه آية، وآيات كونية وهي الدالة على كمال الله تبارك وتعالى في العلم والخلق وكل ما يتعلق بربوبيته وهي ما يعجز البشر عن مثله فالبشر كلهم عاجزون على أن يخلقوا أرضا أو سماءً أو نجومًا أو شمسًا أو قمرًا، ولهذا قال الله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ هذه آيات كونية لأنه يعجز عن مثلها البشر، آيات شرعية مثل قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم:١٥].

قال المؤلف: [﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ أقطار السماوات والأرض من النيرات والنبات

والأشجار]، والآفاق جمع أُفق وهو الناحية، والآفاق هنا جمع فتدل على أن هذه الآيات ستكون في كل ناحية من السماء والأرض، ففي السماء نجوم، في السماء شمس، وفي السماء قمر، وفيها مشارق، وفيها مغارب، وكل هذه من آيات الله، ومن يستطيع أن يخلق مثل الشمس؟ لا أحد، ومن يستطيع أن يجريها بهذا النظام البديع منذ خلقها الله عز وجل إلى أن يأذن الله بخراب العالم؟ لا أحد يستطيع، من يستطيع أن يزحزحها من مشارقها الشرقية الشمالية إلى مشارقها الشرقية الجنوبية؟ لا أحد، وهلم جرًّا، هذا في آفاق السماء، من آفاق السماء ما يحصل من الأمطار الغزيرة أو الخفيفة والرعد والبرق وغير ذلك.

المهم: أن آفاق السماء كل ما علا، فإنه داخل في آفاق السماء، كذلك أيضًا آفاق الأرض، وآفاق الأرض فيها من آيات الله عز وجل ما يدل على كمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته، جبال وأنهار وبحار، وفيافي، وأودية، وهضاب، إلى غير ذلك، نباتات مختلفة تجد النبات كأنه رقعة ثوب مغشَىَ، هذا أخضر وهذا بنفسجي وهذا أبيض وزهورها مختلفة وثمارها مختلفة تسقى بماء واحد ويفضل الله بعضها على بعض في الأُكُل، كذلك أيضًا يدخل في قوله: ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ ما يحصل في الآفاق من حرب وسلم وأمن وخوف وشدة ورخاء، كل هذا من آيات الله في الآفاق، كذلك ما يحصل من غلبة وانهزام وغير هذا، فالله تعالى وعد بأن يري العباد آياته في الآفاق، فصار كل ما في الآفاق العلوية والسفلية مما لا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثله فهو من آيات الله.

وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني ونريهم آياتنا في أنفسهم، وذلك من نواحي متعددة أولًا: من ناحية الخلقة كيف خلق الله تعالى الآدمي على هذه الصفة البديعة الغريبة التي لا يوجد من الحيوانات ما هو مثله في حسن القامة وحسن التدبير والعقل وغير ذلك، كذلك أيضًا ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من طول وقصر، وبياض وسواد، وحسن خلق وسوء خلق، كذلك في أنفسهم من تقلبات الأحوال وكون الإنسان أحيانًا يريد كذا وأحيانًا يريد كذا، وأحيانًا يريد الشيء ويصمم عليه وإذا هو مصروف عنه، يصرف عنه، هذا من آيات الله، ولهذا قيل لأعرابي بما عرفت ربك؟ قال: (بصرف الهمم وتقليب القلوب)، تجد الإنسان مثلًا متجه إلى أن ينصرف إلى الشمال فإذا به ينصرف إلى الجنوب بدون أي سبب، لكن بتقدير الله عز وجل، كذلك أيضًا من آيات الله في الإنسان تركيب هذا البدن العجيب البديع، واسأل أهل التشريح عن هذا تجد العجب العجاب، إن أتيت إلى الرأس وما فيه من المخ وما فيه من الأدوات، وإذا أتيت إلى الأمعاء وإلى المعدة وإلى الكبد وإلى الغدد وإلى غيرها تجد العجب العجاب، يعني أنه دولة في الواقع، دولة كل شيء منه له عمله الخاص، من يستطيع أن يركب هذا؟ الله عز وجل، كذلك أيضًا من الآيات في الأنفس ما حصل لقريش في بدر حيث إن قريشًا في بدر خرجت إلى بدر كما وصف الله عز وجل ﴿بَطَرًا

وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول القائل منهم: والله لن نرجع حتى نقدم بدرًا فنقيم فيها ثلاثا ننحر الجذور ونسلخه وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا هكذا قالوا ولكن الأمر صار بالعكس والحمد لله، صار العرب يتحدثون عن هزيمتهم إلى أن يشاء الله من أمد الدنيا، هذا من الآيات، كذلك من آيات الله تعالى في الإنسان أن الناس يختلفون اختلافًا عظيمًا في الفهم والحفظ والعمل، فتجد هذا يختار هذا العمل، والآخر يقول: كيف يصبر هذا الرجل على هذا العمل، وآخر بالعكس، هذا من آيات الله تبارك وتعالى، فكذلك أيضًا الناس يختلفون في الفهم، فمن الناس من إذا قرأت عليه العبارة فهمها لأول مرة، ومن الناس من لا يفهمها بأول مرة، من الناس من لو تلوت عليه عبارة حفظها بأول مرة، ومن الناس من ليس كذلك، كل هذا من آيات الله وإلا فالدم واحد والعصب واحد والعظام واحدة والجلد واحد وكل شيء واحد، ولكن يختلف الناس هذا الاختلاف العظيم، كل هذا داخل في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المفسر يقول: [﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (يتبين) بمعنى يتضح ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين، ﴿أَنَّهُ﴾ يقول المؤلف [أي: القرآن] ويحتمل أن يراد به الرسول ﷺ ويحتمل أن يراد المعنيان جميعًا، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به].

قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الحق في الأصل هو الشيء الثابت الواقع لا محالة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:٢] يعني الشيء الثابت، ويطلق على معانٍ متعددة منها أنه الصدق، فالصدق حق وضده الكذب باطل، ومنها العدل فالعدل حق وضده الجور وهو باطل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ومن معاني الحق: أنه الشيء الثابت الذي لا يزحزحه أحد، وضده الشيء الذي لا يثبت ولا يستقر وكل إنسان يبطله، فالآن نجد أن القرآن الكريم مهما جادل به المجادل ليدفعه فحجته باطلة ولا يمكن لأحد أن يغلب القرآن بل القرآن غالب، لكن اعلموا أن كون القرآن غالب إنما هو بحسب حامله ولذلك تجد السيف البتار بيد الجبان لا يغني شيئًا، لابد أن يكون القرآن بحسب حامله، وإلا فالقرآن نفسه لا يمكن أن يغلب أبدًا، إلا أنه قد يغلب من جهة حامله وهذا ليس عيبًا في القرآن ولكنه عيب في حامل القرآن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [المنزل من الله بالبعث والحساب] وهذا التخصيص من

المؤلف رحمه الله على سبيل المثال، وإلا فإنه يتبين أنه الحق في كل شيء، في كونه يغلب ولا يُغلب، وفي كون أحكامه عدلًا وأخباره صدقًا وغير ذلك، قال: [فيعاقبون على كفرهم به] أفادنا المؤلف رحمه الله أن المراد بالتبين هنا لازمه وهو المعاقبة، لأنه لو كان المراد التبين فقط بدون عقاب على مخالفته بعد التبين لم يكن هناك فائدة، ومن ذلك أيضًا من كونه يطلق البيان أو العلم ويراد به اللازم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] يرونها فقط أو يرونها ويجازون عليها؟ الثاني أي يروها ويجازوا عليها، هذا أيضًا يتبين فيعاقبون على كفرهم به، [وبالجاني به] وهو الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لما بين الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن حق وأن محمدًا حق ذكر شيئًا أعظم دلالة على أن القرآن حق وعلى أن الرسول حق ﷺ، من هو؟ الله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

والجواب: بلى يكفي ذلك، لأن الله تعالى إذا رأى هذا الرجل يدعو الناس إلى ما يدعوهم إليه ويقاتلهم به وينصره الله عليهم ويمكّن له في الأرض ويتبعه الناس هل يمكن أن يقر الله ذلك وهو باطل؟ لا يمكن أبدًا لا يمكن إطلاقًا، فكون الله تعالى يمكن لرسوله ﷺ في الأرض ويجلب قلوب الناس إليه وينصره على أعدائه ويفتح بدينه آفاق الشرق والغرب كل هذا دليل على أنه حق، وشهادة الله سبحانه وتعالى لرسوله نوعان: شهادة قولية وشهادة فعلية، أما الشهادة القولية: فدليلها قوله تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ هذه شهادة من الله، ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦] أما الشهادة الفعلية فهي تمكين الله تعالى لمحمد ﷺ في الأرض ونصره إياه وغلبة دينه على جميع الأديان.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ قال المؤلف [فاعل ﴿يَكْفِ﴾] والباء مزيدة فيه لتحسين اللفظ ونظيرها ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وكفى الله شهيدًا، ولهذا نقول في إعرابها الباء حرف جر زائد إعرابا فائدته تحسين اللفظ، وفاعل ﴿يَكْفِ﴾ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أضاف الربوبية للرسول ﷺ، وهل هذا للتخصيص أو للتشريف والتكريم؟ الثاني؛ لأنه رب كل شيء، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وبعدها قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ لئلا يظن الظان أن ربوبيته خاصة بهذه البلدة كذلك أيضًا إضافة الربوبية إلى الرسول من باب التشريف والتكريم والإشارة إلى أنه

سوف ينصره على عدوه لأن ربوبية الله للرسول ﷺ ربوبية خاصة، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه أي بدل من قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ والبدل يقولون في تعريفه هو الذي إذا إذا أسقطت المبدل منه استقام الكلام، تقول أعجبني زيدٌ خلقه، هذا بدل، أسقط زيد: أعجبني خلق زيد، أكلت الرغيف ثلثه، أسقط الرغيف، يستقيم الكلام أم لا؟ يستقيم، هذا ضابط البدل، هنا نقول ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أسقط بربك، تقول: أولم يكفي أن الله على كل شيء شهيد، يستقيم لكن لا شك أن القرآن الكريم لا يمكن أن يوجد بدل ومبدل منه إلا لفائدة عظيمة، فيكون ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شهادة ونصرة وتثبيتًا وما أشبه ذلك.

ثم قال: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذا بعض من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال [بدل منه] أي: أولم يكفهم في صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء ما، وهذا واضح، والشهادة هنا شهادة فعلية يعني أولم يكف بربك أن الله على كل شيء شهيد وقد مكن لك في الأرض وثبتك ونصرك عليهم وعلى كل عدو لك؟

والجواب: بلى والله إن هذا لكافٍ، وهذا كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [العنكبوت: ٥٠] بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فالكتاب أعظم آية، شهادة الله على صدق رسوله أعظم آية.

ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ (ألا) أداة استفهام، وتفيد شيئين: الشيء الأول: التوكيد والشيء الثاني: التنبيه، وهل هي مركبة من الهمزة ولا أو هي غير مركبة؟

الجواب: هي غير مركبة، بل هي كلمة واحدة، [﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بإنكارهم البعث]، فهم والعياذ بالله في شك من لقاء الله ولو كانوا يرجون لله لقاءً لاستقاموا وخافوا منه، فكل إنسان يؤمن بأنه ملاق ربه فإنه سوف يستقيم على أمر الله لأنه يعلم أن الرب عز وجل سوف يحاسبه على هذا، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا﴾ أداة استفتاح أخرى تفيد التنبيه والتوكيد ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علمًا وقدرة فيجازيهم بكفرهم، هم في شك من لقاء الله لكن سوف ينبئهم الله عز وجل بما عملوا لأنه بكل شيء محيط، وعلى هذا فَصِلَةُ قوله ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ بما قبلها الإشارة إلى أنه سوف يجازيهم.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

١- **من فوائد الآية الأولى:** أن الله تعالى سيظهر ما يتبين به صدق الرسول ﷺ ﴿فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ نأخذها من قوله : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢- **ومنها:** أن هذه الإراءة قريبة محققة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ لأنها صدرت بالسين الدالة على التحقق والقوة.

٣- **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يفكر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي نفسه؛ لأن ذلك طريق إلى أن يتبين له الحق نأخذها من قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فأنت كلما ازددت تأملًا وتدبرًا لآيات الله الآفاقية والآيات التي في نفسك، فإنك لا شك تزداد إيمانًا ويتبين لك صدق الرسول ﷺ.

٤- **ومن فوائدها:** أن الإنسان ناقص العلم نقصًا عظيمًا، وجهه أن الله تعالى يريه آياته في نفسه، فالإنسان غير عالم بنفسه إلا إذا علمه الله، ولذلك الآن نفسك التي هي مادة حياتك ما تعرفها، ولهذا اختلف فيها النظار من المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، منهم من قال: إن النفس هي الدم، ومنهم من قال: إن النفس جزء من البدن، ومنهم من قال: إن النفس عرض في البدن، ومنهم من قال: إن النفس لا توصف بشيء فلا هي داخلة العالم ولا خارجه ولا متصلة ولا منفصلة، إلى آخر ما يقولون في النفي المطلق، ومنهم من قال: إن النفس مخلوق من مخلوقات الله، وأنها ذات جرم وأنها تدخل في البدن وتسير فيه كما تسير الجمر في الفحم أو الماء في المدر، ويدل لذلك أن النبي ﷺ أخبر بأن الإنسان إذا قبض أخذت الملائكة نفسه وجعلتها في كفن وحنوط وأنه إذا قبض تبعه البصر وهذا يدل على أنها شيء مخلوق له جرم وجسد، لكننا مع ذلك لا نعلم منها إلا قليلًا ولهذا لما سألوا عن الروح قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

٥- **ومن فوائدها:** أن القرآن والرسول ﷺ حق؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الآيات الدالة على ذلك آيات توصل إلى اليقين، لقوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ والتبين يعني: الوضوح والظهور، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ فإذا علمت أنك لم تصل إلى اليقين فاتهم نفسك، وعليك أن تعالج هذا المرض العضال الخطير، وحتى تصل إلى اليقين، حتى تصل إلى ما يدل عليه قول الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

٧- **ومن فوائدها:** كفاية الله تعالى عن كل شيء بشهادته؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالآثار على مؤثراتها، وجه ذلك: أن الله تعالى استدل بتمكينه

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

للرسول على أنه حق، فالإنسان يستدل بالآثار على مؤثراتها، ولهذا قيل: البعرة تدل على البعير، وهذا جواب من أعرابي سئل بما عرفت ربك؟ قال على البديهة: البعرة تدل على البعير، اختار هذا؛ لأنه أعرابي لا يعرف إلا الإبل: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، إذا رأيت صورة القدم على الأرض عرفت أنه قد صار عليها أحد، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير؟!

والجواب: بلى، هذا الأعرابي استدل بالآيات الآفاقية على وجود الله وعلى قدرته.

٩- **ومن فوائد هذه الآية**: الحذر من المخالفة، وهذه فائدة تربوية تؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإذا علمت أن الله شهيد على كل شيء على نفسك وأفعالك وأقوالك، وكل التصرفات، فإنك سوف تراقب الله عز وجل، ومن لم يتعظ بمثل هذه الآية فإنه لن يتعظ، إذا علمت أن الله شهيد عليك في خلواتك وفي جلوسك مع أهلك وفي جلوسك مع صحبك فإنك سوف تراقب الله عز وجل، وهذا هو معنى قول الرسول ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

٧- **ومن فوائدها**: بيان حال هؤلاء المكذبين وأن سبب تكذيبهم أنهم في شك من لقاء الله، ومعلوم أن من كان في شك من لقاء الله فلن يعمل لله، ولهذا تجدون الله تعالى يقرن دائمًا بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن من نقص إيمانه باليوم الآخر فسوف ينقص عمله، ومن كمل إيمانه باليوم الآخر فسوف يكمل عمله؛ لأنه يرجو أن يكون سعيدًا في ذلك اليوم، وأنت عندما تركع أو تسجد اجعل على بالك أن هذا الركوع أو السجود سوف ينفعك يوم القيامة، وهو ينفعك من الآن؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، لكن الثمرة الملموسة يوم القيامة هي هدف لكل أحد، في الدنيا يظهر للمؤمن الانتفاع التام بالطاعات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ما يفعل أعدائي بي إن جنتي في صدري، حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة)، رحمه الله، فالإنسان المؤمن يجد هذا في نفسه قبل يوم القيامة، في يوم القيامة يكون الظهور الكامل، يكشف عن كل شيء.

٨- **ومن فوائدها**: بيان إحاطة الله بكل شيء، علمًا وقدرة وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك، ومحيط بكل شيء بأفعاله وأفعال العباد، قال الله تبارك وتعالى ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

٩- **ومن فوائدها**: تحقيق مراقبة الله، لأنك إذا آمنت أن الله بكل محيط فسوف تراقبه المراقبة التامة بحيث لا يفقدك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، والله أعلم.

تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الشورى

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

الحمد لله على تعلم تفسير القرآن؛ لأن القرآن أشرف كتاب، وأعظم كتاب فإنه كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تكلَّم به حقيقةً وسَمِعَهُ جبريل فألقاه إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم إن هذا شأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقد كانوا لا يتجاوزن عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا[1]، ومن المعلوم أن الإنسان إذا قرأ القرآن بدون معرفة لمعناه، فإنه لا يستفيد منه شيئًا كما لو قرأ كتاب فقه، أو كتاب طب أو كتاب أدب وهو لا يعرف المعنى فإنه لا يستفيد من هذا شيئاً.

أهم شيء في القرآن أن تتدبر آياته وتتعظ بها كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بعض الناس تميل نفسه إلى فن من فنون العلم، وإذا سألته في معنى أقل الآيات وجدته ليس عنده منها خبر، ولا وقف منها على عين، ولا أثر وهذا نقص كبير في العلم.

أصل المعلومات وأهمها وأشرفها وأجلها هو تعلم القرآن الكريم ولذلك ينبغي العناية به، واعلم أن القرآن الكريم لم ينزل على أنه كتاب نحو، أو كتاب صرف، أو كتاب فلك، أو ما أشبه ذلك، إنما نزل القرآن؛ ليهدي الخلق إلى الله وكيفية معاملتهم مع الله، ولذلك تجد القرآن الكريم لا يعتني كثيرًا بالآيات الكونية الفلكية، وإنما يشير إليها إشارة، لكنه في الأحكام الشرعية يأتي فيها بالتفصيل والبيان، أما المعلومات الفلكية والكونية والأرضية حاول البعض أن يجعل القرآن دالًّا عليها بالتفصيل، فصار يسوق الآيات ويتكلف في معناها ليخضعها إلى نتائجه وهذا خطأ؛ لأن القرآن إنما نزل لهداية الخلق في العبادات والمعاملات وما أتى فيه بالكلام عن الأمور الكونية فهذا أتى على وجه الإجمال ولم يأت على وجه التفصيل فَلْيُعْنَ طالب العلم بتفسير كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وسورة الشورى يقال: سورة شورى، ويقال: (أل) فيها للبيان، وأما شورى فهي مأخوذة من

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٠) من حديث جرير عن عطاء عن أبى عبدالرحمن السلمى.

قول الله - تعالى -: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وليس فيها (أل)، فهذه السورة تسمى سورة الشورى وسورة (شورى) يقال: [مكية]، ما معنى مكية؟ معناها: ما نزل قبل الهجرة ولو نزل خارج مكة كقول الله - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فهذه الآية مدنية ومع ذلك نزلت على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة إذن: ما نزل قبل الهجرة سواء في مكة، أم خارجها فهي مكية، وما نزل بعد الهجرة سواء في المدينة، أو في غيرها من الأماكن، فهي مدنية.

إذن: الحد الفاصل بين السور المكية والمدنية هو الهجرة(1).

لكن استثنى المؤلف من هذه السورة أربع آيات وهي قوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى:٢٣-٢٦]بأنها مدنية وبقية السورة مكية، لكن لاحظوا أن أي إنسان يستثني آيات من سورة مدنية؛ لتكون هذه الآيات مكية، أو بالعكس، فإننا نطالبه بالدليل وإلّا فالأصل أن السورة المكية مكية بجميع آياتها وأن السورة المدنية مدنية بجميع آياتها قد يقول قائل: الشاهد مثلًا أو الدليل أن أسلوب الآيات المدنية يختلف عن أسلوب الآيات المكية نقول: هذا على الأكثر وقد يقول قائل: الدليل على هذه الآيات أنها تبحث في فروع الدين وهذه علامة على أنها مدنية؛ لأن غالب السور المكية تبحث في أصول الدين نقول: هذا ليس بدليل، وعلى هذا فالأصل أن هذه السورة مكية بجميع آياتها حتى يقوم دليل واضح على أن هذه الآيات التي استثناها المؤلف مدنية، ثم اعلم أن جميع السور المبدوءة بالحروف الهجائية مكية، إلّا سورتين وهما: البقرة وآل عمران والباقي كله مكي.

ثم قال المؤلف: [ثلاث وخمسون آية].

معنى الآية: عبارة عن جملة من القرآن الكريم انفصلت عما قبلها انفصالًا معنوياً، أو انفصالًا توقيفيًا يعني: أن الآيات تفصل هذه عن هذه إما معنويًا أي بالمعنى، أو بالوحي ولهذا تجدون قول الله - تعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، هاتان آيتان مع أن الذين هم عن صلاتهم ساهون مرتبطة تمامًا بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، فهذا فصل توقيفي المهم أن فصل الآية عن الآية إنما هو بالتوقيف.

---

(١) راجع مناهل العرفان (١/ ١٩٢ - ١٩٥).

كذلك ـ أيضًا ـ وضع الآيات بعضها إلى بعض هو أيضًا توقيفي ليس للرأي فيه مجال وليس لأي أحد فيه أي عمل بل هو توقيفي إذا نزلت الآية قال النبي ﷺ: ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا فصار ـ الآن ـ فصل الآيات بعضها عن بعض بالتوقيف وترتيبها ـ أيضًا ـ توقيفي، أما ترتيب السور فبعضها ترتيبه توقيفي، وبعضها ترتيبه غير توقيفي، فمثلًا: البقرة وآل عمران ترتيبها توقيفي: آل عمران بعد البقرة ولا يشكل عليك حديث حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة أنه قرأ بالبقرة، ثم قرأ بالنساء ثم قرأ بآل عمران؛ لأن الترتيب النهائي أن آل عمران بعد البقرة ويكون حديث حذيفة قبل الترتيب النهائي ولهذا تجدون في الحديث أن النبي ﷺ يقرن دائمًا بالبقرة وآل عمران[1] كقوله ﷺ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ[2]»[3] يعني: البقرة وآل عمران فصار عندنا ـ الآن ـ ترتيب السور بعضه توقيفي وبعضه غير توقيفي، أما ترتيب الآيات فتوقيفي.

❁ قال الله تعالى:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣]

❁ التفسير ❁

(ح م ع س ق): خمسة أحرف لكنها أحرف هجائية يعني: هي مثل: [ألف باء تاء ثاء جيم] وهكذا. لماذا اختار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذه الحروف بعينها دون غيرها؟ نقول: هذا ليس إلينا ولا يمكن أن نحيط بذلك علمًا لكن لنا أن نسأل هل لهذه الحروف معنى؟ المؤلف أثبت لها معنى وهذا يقتضي أنها معلومة ولكنها غير معلومة وهذه الحروف الهجائية التي ابتدئت بها بعض السور اختلف فيها العلماء ـ رحمهم الله ـ سلفًا وخلفًا ما معناها؟ وهل هي رموز، أو أسماء للسور التي جاءت فيها؟ ولكننا إذا طبقنا ذلك على ما تقتضيه الأدلة وجدنا أنها حروف هجائية ليس لها معنى والدليل على ذلك؛ أن القرآن بيان لجميع الناس ولو قُدِّر أن القرآن فيه أشياء مجهولة لما كان بيانًا لجميع الناس؛ لأن مقتضى البيان ألَّا يكون فيه شيءٌ غير معلوم فهذا لا يمكن وقد قال الله تعالى:

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢)، والنسائي (١١٣٣)، وأحمد في مسنده (٢٣٣٠٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) قالوا: سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما.

(٣) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد في مسنده (٢٢٢٠٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، والبيان هنا البيان المعنوي والبيان الأصلي، واعلم أنه لا يوجد شيء في القرآن لا يفهم الناس معناه أبدًا لابد أن يفهموا معناه.

ثانيا: قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قلنا: هذه الحروف في لغة العرب، فبمقتضى كون القرآن باللسان العربي وأنه بلسان عربي مبين يقتضي أنَّ لهذه الحروف معنى؛ لأن هذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية وهذا هو الذي نقله ابن كثير(١) ـ رحمه الله ـ عن إمام المفسرين (قتادة) الذي أخذ تفسير القرآن عن (ابن عباس) قال: بأن هذه الحروف الهجائية ليس لها معنى نجزم بذلك أم لا؟ نعم نجزم بذلك لا تخرصًا ولكن استدلالًا بالقرآن واستدلالًا بحال القرآن، أما استدلالًا بحال القرآن فإن القرآن ليس فيه قول لا يعرف الناس معناه لابد أن يكون معلومًا، وعلى هذا فإننا نجزم بأن هذه الحروف ليس لها معنى ولكن يرد علينا إشكال إذا قلنا إنها ليس لها معنى صار إنزالها وكلام الرب بها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عبثًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل شيئًا عبثًا فنقول: ليس بعبث هي بذاتها ليس لها معنى لكن لها مغزى يقترن بالتحدي وهو أن يقال: إنكم أيها العرب تُرَكِّبُونَ كلامكم من هذه الحروف والقرآن من هذه الحروف بل كله من الحروف التي تتكلمون بها وهذا مثال: (ح م ع س ق) ومع هذا عجزتم أن تأتوا بمثله فيكون بهذا مغزى عظيم فكأنه يقول لهم: ها أنتم أهل فصاحة وهذه الحروف من جنس ما تتكلمون به وليست جديدة ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثله، ولذلك لا تجد سورة بدأت بهذه الحروف إلَّا وتجد بعدها ذكر القرآن الكريم أو ذكر ما لا يمكن إلَّا بوحي ننظر ـ الآن ـ فمثلًا: ﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، في البقرة، وقوله: ﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، في آل عمران، وقوله: ﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في الأعراف، وهَلُمَّ جرًّا، وكأنه يقول له: إن الذي أنزل هذه الحروف لا يتأتى القرآن إلَّا عن طريق من أنزل هذه الحروف.

﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ﴾، نقول في تفسير هذه الحروف: هجائية ليس لها معنى لكن لها مغزى كالإيحاء ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ﴾، [فاعل الإيحاء] (كذلك) تأتي في القرآن كثيرًا وإعرابها في جميع المواطن ـ إلَّا يسيرًا ـ أن تقول: (الكاف) نائبة عن مفعول مطلق وعاملها ما يأتي بعدها (الكاف): بمعنى: مثل منصوبة، على أنها مفعول مطلق عاملها ما يأتي بعدها حَوِّل (الكاف) إلى

(١) راجع تفسير ابن كثير (١/ ١٥٦- ١٦١).

(مثل) (كذلك) أين العامل فيها (يُوحِي) أي: يوحي إليك مثل ذلك الإيحاء، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، المشار إليه الوحي وقوله: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾، الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء[1] ويطلق على الرمزة وقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، ويطلق على الإلهام كما في قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾.

أما في الاصطلاح: فالوحي إعلام الله بالشرع لأنبيائه ورسله، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، معطوف على ﴿إِلَيۡكَ﴾، وإذا كانت معطوفة على ﴿إِلَيۡكَ﴾ كان تقدير الفعل ويوحي إلى الذين من قبلك لكن لاحظ أن المؤلف ـ رحمه الله ـ قال: في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، فقدر فعلًا ماضيًا مع أنها معطوفة على معمول وهو فعل مضارع؛ لأن إيحاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى رسوله محمدٍ ﷺ مستمر فلهذا قدر المؤلف فعلًا ماضيًا ولكننا نقول: الأصل عدم التقدير؛ لأن القرآن كامل وهنا لا ضرورة للتقدير فنقول: ذلك يوحي إليك ويوحي إلى الذين من قبلك ويكون ذكر الإيحاء لمن سَبَقَنَا من باب سورة الحال فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ وحيه لمن سبق يوحي بالمضارع، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، المراد به الأنبياء والرسل، وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، فاعل [الإيحاء] لو قال: فاعل (يوحي) لكان أحسن من حيث بيان الإعراب، وعلى هذا نقول: يوحي فعل مضارع والله فاعل وهو علم على ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

قيل: وأصله الإله فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال كما حذفت الهمزة من خير وشر من قولك فلان خير من فلان وفلان شر من فلان، والتقدير أخير وأشر، ومعنى كلمة (الله) ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذه الكلمة العظيمة قيل: هو اسم جامد ليس له معنى وهذا كلام غير صحيح؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، والاسم المجرد عن المعنى لا يدخل في الحسنى، بل ولا في الحسن، فكل اسم هو متضمن لصفة أو أكثر وليس في أسماء الله اسم جامد لا يحمل معنى أبدًا وعلى هذا نقول: (الله) مشتق من الألوهية ومعناه: التذلل للمألوه مع المحبة والتعظيم فالله معناه المتألَّه إليه حبًا وتعظيمًا.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾، قال المؤلف: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ [في ملكه]، لكنه ما فسر معنى العزة والعزيز، في الأصل الغالب العزيز يعني: الغالب القاهر لمن سواه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾، من يريد بالأعز يريدون أنفسهم ويريدون بالأذل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه ماذا قال الله رادًا عليهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: لله الغلبة ولرسوله وللمؤمنين وتأمل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾، ولم يقل: الله الأعز مع أنهم هم

(١) مشارق الأنوار (٢/ ٢٨١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٧٩)، وتهذيب اللغة (٥/ ١٩٣).

يقولون: ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ و﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ فلم يقل الله أعز ولو قال الله أعز لأثبت للمنافقين عزة مفضولة، ولكنه في الحقيقة أنه لا عزة للمنافق بل هو مغلوب دائمًا بل حاله يدل على أنه مغلوب؛ لأنه مختفٍ جبان ولهذا نقول: الكافرين الخلص أشجع من المنافقين؛ لأنهم يصرحون ويعلنون لكن المنافق ذليل يظهر الإسلام خوفًا من المسلمين ويبطن الكفر؛ لأنه كافر والعياذ بالله، فالمؤلف ـ رحمه الله ـ لم يبين معناها فنقول: العزة يعني: الغلبة.

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، يقول المؤلف: [في صنعه]. وهذا ناقص جدًّا؛ لأن حكمة الله ـ تعالى ـ ليست مقتصرة على ما في صنعه، وإنما هو ـ سبحانه ـ حكيم في صنعه، وفي خلقه، وفي شرعه واقرأ قول الله ـ تعالى ـ في سورة الممتحنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو ـ جل وعلا ـ حكيم في شرعه وفي خلقه في كل ما خلقه الله ـ تعالى ـ فالحكمة تقتضي وجوده وكل ما أعدمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالحكمة تقتضي عدمه فهذا أمر مسلم به وكل ما شرعه الله إيجابًا أو تحريمًا يقتضي شرعه. كذلك فالواجب يقتضي الحكمة إيجاباً، والمحرم تقتضي الحكمة تحريمه والمباح تقتضي الحكمة إباحته، لكن لا يلزم من وجود الحكمة في ذلك معرفتها فهناك حكمة لا يمكن أن نعلمها ومن الممكن عدم علمنا بها وهل إذا حجب عنا علمها يعني العدم؟ لا؛ لأننا قاصرون.، الإنسان منّا خُلِقَ ضعيفًا فالإنسان ضعيف في كل شيء، في قوته، وفي علمه، وفي إدراكه في كل شيء ولهذا لما قالوا: ما الروح يا محمد؟ قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ختم الآية بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، كأنه يقول: ما بقي من العلم إلّا الروح حتى تسألوا عنها، بل الذي فاتكم من العلم أكثر من الذي أدركتموه ولذلك واجب المسلم تجاه خلق الله وتجاه شرع الله أن يستسلم تمامًا وأن يقول: هذه هي الحكمة فمثلًا: لماذا يأتي الناس بحصوات صغيرة يضربون بها مكانًا معيناً؟ نقول: بمجرد كون الله شرع لنا ذلك دليل على الحكمة، ونكتفي بهذا فالحكمة أن يأتي الإنسان بحصوات يضرب بها مكانًا لامتثال أمر الله هذا هو الحكمة؛ لأن فيه كمال التعبد فانقياد النفس لما تعلم فائدته أسهل بالانقياد لما لا تعلم فائدته، والحكمة من ذلك التذلل والتعبد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مع أن هذا العمل مقرون بذكره ـ تعالى ـ فكل حصاة ترميها تقول: الله أكبر كذلك مقرون بالاتباع فكل حصاة ترميها وأن تشعر أنك متبع لرسول الله ﷺ أقول: إنَّ قصر المؤلف ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على حكمة الصنعة قاصر ـ بلا شك ـ فهو حكيم في صنعه وحكيم في شرعه ـ تبارك وتعالى ـ لابد أن نعرف ما هي الحكمة؟ يقول العلماء: الحكمة وضع الشيء في

موضعه اللائق به، بمعنى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا خلق شيئًا أو شرَّع شيئًا،فإنه في المكان اللائق به، ولهذا قال بعض السلف: إن الله لم يأمر بشيء فيقول العقل ليته لم ينهَ عنه[1]، فكل ما ثبت في الشرع لا ينافي العقل، بل إن العقل يؤيده ويشهد بصحته، ﴿الْحَكِيمُ﴾ إذن واضع الأشياء مواضعها فما أمر الله بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به وما نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، أما الأمور الكونية فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربما يقدر أشياء تظن أنها شر لكن فيها الخير والصلاح قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يقدر أشياء إذا نظر إليها الإنسان في أول وهلة ظنها أنها من الشر أو ليست في مواضعها ولكن هي في الحقيقة في موضعها اللائق بها ولذلك بعد فترة نكتشف أنها في موضعها القدري وهذا لا يرضاه الله يصلي الإنسان ويتصدق ويصوم ويحج هذا حكم الله كوني أو شرعي؟ هذا شرعي والله يرضاه، والقدري يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه الله أما الحكم الشرعي فلا يكون إلَّا فيما يرضاه الله، فلا يحرم الله شيئًا إلَّا وهو يرضى ألَّا يكون، وما شرع شيئًا أو أحله إلَّا وهو يرضى أن يكون.

من الفروق ـ أيضًا ـ بين الحكم الكوني والحكم الشرعي أن الحكم الكوني لابد من وقوعه إذا حكم الله بشيء والحكم الشرعي قد يقع وقد لا يقع هل كل الناس ملتزمون بأحكام الله الشرعية؟ الجواب لا، فهذان فرقان بين الحكم الكوني والحكم الشرعي، والله ـ تعالى ـ هو الحكيم.

الفوائد

١ ـ بيان قدرة الله ـ تعالى ـ حيث إن كلامه المنزل على نبيه من الحروف التي يتكلم بها الناس ويُرَكِّبُون منها كلامهم ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، (ح م ع س ق).

٢ ـ إثبات نبوة النبي ﷺ لقوله: ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾.

٣ ـ إثبات النبوة من قوله: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٤ ـ إثبات هذين الاسميْنِ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهما: العزيز والحكيم، واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لابد أن تتضمن شيئين: ثبوت ذلك الاسم لله، فمثلًا: العزيز نحن نشهد أن من أسماء الله (العزيز)، كذلك نشهد أن من أسماء الله (الحكيم)، والشيء الثاني الذي دلَّ عليه هذا الاسم فمثلًا: العزيز دل على العزة، والحكيم على الحكمة لابد من كل اسم من هذيْنِ أن يتضمن الصفة، قد يتضمن الاسم شيئًا ثالثًا وهو الأثر المترتب على ذلك فمثلًا: السميع يتضمن إثبات اسم السميع لله وإثبات السمْع له، والصفة معنى زائد على الذات وهو أن الله يسمع كل شيء وفي

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٤١)، والبداية والنهاية (٦/ ٧٢).

الحكيم نقول: كذلك إثبات الحكيم اسمًا لله، والثاني إثبات الحكمة صفة لله وإثبات الحكم والثالث أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحكم بين العباد.

٥ ـ كمال عزته وكمال حكمته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وفي هذا إشارة إلى أن عزته وغلبته مبنية على الحكمة فهي مبنية على الحكمة أما عزة المخلوق قد توجب أن يتصرف تصرفًا سفيهًا كما في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، فهنا صار له عزة ولكنها لم تنفعه؛ لأنها ليست مقرونة بالحكمة كذلك ـ أيضًا ـ حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقرونة بعزته؛ لأن الحكيم قد يكون خوارًا فيفوته شيء كثير ويفوته الحزم، من أجل أنه يقول: إن ذلك هو الحكمة لكن حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقرونة بعزته ولهذا نحن نستفيد ـ الآن ـ معنىً زائدًا على ما نستفيده بمجرد الاسم.

٦ ـ أن الشرائع التي أوحيت إلى الرسل هي عزة وحكمة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فمن تمسك بهذه الشرائع نال الأمرين جميعاً.

قال الله تعالى:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]

التفسير

﴿لَهُ﴾، الضمير يعود على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنتم تعلمون أن (له) خبر مقدم والمبتدأ (ما) في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأن ما مؤخرة والقاعدة عند أهل البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر والاختصاص فقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، يعني: لا لغيره من العالمين.

قال المؤلف: [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]. لو بدأ بالخلق قبل الملك لكان أحسن؛ لأن الخلق سابق ـ وعلى كل حال ـ المسألة ليست ذات أهمية كبيرة.

والمعنى: أنه مالك أعيانهم وخلقًا يعني: أنه خالقها وعبيدًا بالمعنى القدري بمعنى:أن ما في السماوات والأرض متذلل لله ـ تعالى ـ كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، جمعها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أفردها؛ لأن السماوات أعظم من الأرض ولهذا تجيئ كثيرًا بلفظ الجمع وتجيء بلفظ الإفراد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، فإذا جاءت بالإفراد فالمراد الجنس وإذا جاءت بالجمع فالمراد العدد والسماوات عددها سبع كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾.

والأرض لم تأتِ في القرآن إلَّا مفردة باعتبار الجنس ولكن القرآن أشار إلى أنها سبع في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، المثلية لا يصح تنزيلها على الكيفية؛ لأن السماء أعظم وأكبر وأوسع إذن ما بقي إلَّا أن ننزلها على الكمية فيكون معنى قوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾، يعني: أي في العدد، وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام: «مَنِ اقْتَطَعَ[1] شِبْرًا[2] مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ[3] اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[4] وهذا نص صريح وكذلك يروى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يقول إذا أقبل على البلد: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ»[5] فهي سبع أرضين، ولكن كيف هي سبع أرضين هل المعنى أنها سبع أقاليم، أو سبع قارات، أو ماذا؟ نقول: هي سبع أرضين طباقًا كما أن السماوات سبع طباق كذلك الأرضون سبع طباق، ويدل لهذا أن النبي ﷺ قال: «طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»؛ لأنها لو كانت الأقاليم لكان يملك قطعة أرض هنا لا يملكها في المكان الآخر، لكن الذي يملك قطعة هنا له ما يملكه على سطح الأرض وله ما تحته إلى الأرض السابعة ولهذا قال العلماء: الهواء تابع للقرار والأسفل تابع للأعلى.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾، [على خلفه] ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، [الكبير] نعم هو العلي العظيم قرنه الله ـ تعالى ـ في هذا وفي آية الكرسي، ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾: وزنها الصرفي فعيل صفة مشبهة، والصفة المشبهة تقتضي وصف الموصوف بها دائمًا إذن العلي وصف لازم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أزلا فالعلو إذن صفة ذاتية.

(مسألة) هل العلو هنا علو الصفة التي اتفقت الأمة الإسلامية عليها أم علو الذات الذي أنكره من أنكره؟ المراد كلاهما أما علو الصفة فإن المسلمين كلهم أجمعوا على ذلك حتى الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم كلهم أجمعوا على ثبوت صفة العلو لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أي

---

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي قدره من الأرض.

(٣) التطويق: أن يُجعل له ما غصبه ظلما مِثْلَ الطوق في العنق تنكيلا وتعذيبا، وقيل: هو أن يُطَوَّق حَمْلَه يوم القيامة أي يُكلَّف، فيكون من طَوْق التَّكْليف.

(٤) رواه مسلم (١٦١٠)، والطيالسى فى مسنده (٢٣٧)، وأبويعلى فى مسنده (٩٥٩)، والطبرانى فى الكبير (١/ ١٥٣)، والبيهقى فى الكبرى (١١٣١٢) من حديث سعيد بن زيد رضى الله عنه.

(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه (٢٧٠٩)، والبيهقى فى الكبرى (١٠١٠٠) من حديث صهيب رضى الله عنه، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

علو الصفة ولهذا أقول لكم: المعطلة الذين أنكروا الصفات - أتدرون لماذا عطلوا - قالوا: لأننا ننزه الله؛ لأن ثبوت هذه الصفات يستلزم على زعمهم تنزيهًا لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

أما علو الذات فهذا الذي اختلف فيه الناس إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: أنكره لكن جعل الله - سبحانه وتعالى - في كل مكان، يقول الله - سبحانه وتعالى - ليس خاصًا في صفة العلو بل هو في كل مكان كالجهمية والحلولية ولهم شبهة في ذلك.

القسم الثاني: عكس هذا تمامًا قال: لايجوز أن نقول: إن الله في مكان لا عالي ولا نازل بل هو - سبحانه وتعالى - لا في يمين ولا شمال ولا فوق ولا أسفل ولا خلف ولا أمام ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا محايد وهلم جرًّا من الأمور السلبية على عكس الأولين تمامًا، وإني أسألكم بالله أين يكون الإله إذا كان ينفى عنه كل شيء؟ فهنا يكون عدما ولهذا قال (السلطان محمود بن سبكتكين) - رحمه الله: أحد القواد المشهورين وهو يناظر (محمد بن فورك): أحد المتكلمين لما قال محمد بن فورك: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه قال له محمود: بين لي ما الفرق بين العدم وبين ربك الذي تصفه لي[1]؟ ما الجواب؟ لا فرق!!

القسم الثالث: يقولون: إن الله عالٍ بذاته فوق كل شيء وعلوه لازم لذاته وهو - سبحانه وتعالى - بائن من خلقه بمعنى:أنه ليس حالًا فيهم ولا هم حالُّون فيه وهذا مذهب أهل الحق الذي دلّ عليه القرآن والسنة والعقل فهناك خمسة أدلة كلها تدل على أنه - سبحانه - عال بذاته وهي - أيضًا - دلالات متنوعة، فدلالات القرآن ليست على وجهٍ واحد فهي متنوعة وكذلك في السنة، فالقرآن مليء بالأدلة على علوه سبحانه قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وأدلة كثيرة غير ما سقناه هنا.

وكذلك من السنة أدلة قولية وفعلية وإقرارية، فمثلًا: النبي ﷺ يقول في سجوده: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[2] فيثبت علوه، وأما الإقرارية: فإنه سأل الجارية أين الله؟ قالت: في السماء، فأقرها ﷺ[3]، وكذلك يوم خطب الناس يوم عرفة يقول: أَلاَ هَلْ بَلَّغتَ؟، فيقولون: نعم، فيقول: اللَّهمَّ اشْهَد وَهُو يرفع أصبعه إلى السماء[4]. وهذه دلالة على علو الله - سبحانه وتعالى -.

وأما الإجماع: فالسلف على رأسهم الصحابة مُجْمِعُوْنَ أن الله - تعالى - فوق كل شيء إجماعًا

---

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد (١/ ١٩٣).
(٢) كما رواه مسلم (٧٧٢)، وأبوداود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.
(٤) رواه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

قطعياً؛ لأنهم كلهم يقولون في سجودهم: سبحان ربي الأعلى، ولم ينقل عن واحد منهم أنه قال: إن الله ليس في السماء، أبدًا ما قالوا هذا، وهذا طريق واضح ما يخالف دلالة القرآن فهم مُجْمِعُوْنَ على ما دلّ عليه القرآن.

أما دلالة العقل: أيهما أوْلَى؟ ربٌّ يوصف بالعدم أَمْ رب فوق كل شيء؟ لا شك الجواب: أن الله يُوصَفُ بأنه فوق كل شيء، ثم إن العلو من حيث هو العلو صفة كمال، أليس كذلك؟ وإذا كان صفة كمال فقد أثبت الله لنفسه العلو، هذه الدلالة العقلية.

أما الدلالة الفطرية: ـ أيضًا ـ الفطرة دلت على علو ذاته، الإنسان بفطرته قبل أن يتعلم وهو عامي إذا أراد أن يدعو الله تجده يرفع يديه إلى السماء وقلبه كذلك متجه إلى السماء؛ ولهذا قال (أبو العلاء الهمداني) (للإمام الجويني) وهو يقرر ـ أعني الجويني ـ عفا الله عنه ـ ولعله تاب فتاب الله عليه ـ يقرر إنكار العلو يعني: استواء الرب على العرش، ويقول: إن الله كان ولا شيء معه وهو ما عليه ـ الآن ـ كان!! ماذا يريد؟ هو يريد أن ينكر الاستواء على العرش والعلو أيضاً، فقال له أبو العلاء الهمداني: يا أستاذ! دعنا من ذكر العرش والاستواء على العرش أخبرني عن هذه الفطرة ما قال عارف قط يا الله إلَّا ووجد من قلبه ضرورة من طلب العلو! سبحان الله أليس الأمر كذلك؟ ما قال عارف، والعارف يطلق على الصوفي، إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فجعل يلطم على رأسه، وجعل يقول: حيرني حيرني حيرني، قال ذلك لأنه وقف على الإجابة فهذه دلالة فطرية لا يمكن لأحد أن ينكرها ـ فالحمد لله الذي هدانا لهذا ـ.

إذن: علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم إلى قسمينِ: علو ذاتي وعلو وصفي، والثاني لم تختلف الأمة الإسلامية فيه والأول وهو العلو الذاتي، انقسموا فيه إلى ثلاث فرق:

والفرقة الناجية التي تقول: بأن الله يوصف بالعلو الذاتي والعلو كصفة؛ فإن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء فما شيء خارج عن قبضة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا كانت السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، والحلقة هي حلقة المغفر وهي ضيقة فإنها لا تشغل شيئاً.

قال النبي ﷺ: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»[1] إذا ما تكون الكرسي في العرش؟ لا شيء والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فوق ذلك فهو ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل ذلك لا شيء يحاذيه كل المخلوقات تحته ـ سبحانه وتعالى ـ وهو فوق كل شيء إذن أثبتنا هذا العلو ومع

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (٣٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩).

ذلك يوجد - الآن - من ينكره - نسأل الله العافية - ولا شك أن هؤلاء قد أزاغ الله قلوبهم وإلَّا لو رجعوا إلى فطرتهم فقط لعلموا أن الله - تعالى - فوق كل شيء، قال المؤلف - رحمه الله -: [هو العلي على خلقه].

لا نستطيع أن نقول: إن المؤلف - رحمه الله - أنكر العلو الذاتي أو أثبته قطعًا فإن العلي على خلقه يحتمل العالي عليهم بالسلطان والقهر والغلبة ويحتمل أنه عليهم بذاته - فعلى كل حال - لا نقول: إن المؤلف أنكر العلو ولا نشهد بأنه أثبته؛ لأن المؤلف - رحمه الله - من الأشاعرة فلا ندري، لكننا يجب علينا إذا سمعنا كلاما من إخواننا المسلمين من الممكن أن يكون له محمل صحيح أن نحمله على المحمل الصحيح ما لم توجد قرينة تمنع ذلك وإلَّا فالأصل إذا سمعت من أخيك كلمة يجب أن تحملها على المحمل الصحيح حتى ولو قلت: إنه يسخر منَّا مثلًا أو يستهزئ بنا لا تحملها على هذا احملها على المعنى الحق.

أما العظيم يقول - رحمه الله -: [الكبير]، وفي هذا نظر؛ لأن الكبير غير العظيم، فالعظيم يعني: قوة السلطان، قوة العلم، أي شيء يحتمل من هذه المعاني فهو داخل في كلمة العظيم.

الفوائد

من فوائد قوله - تبارك وتعالى -: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾:

١ - عموم ملك الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن (ما) اسم موصول يفيد العموم.

٢ - ومن فوائدها:

أن ذلك مختص بالله، لا يشاركه فيه أحد وذلك بتقديم الخبر والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، فإن قال قائل: يرد على قولكم هذا أن الله أثبت للإنسان الملك، فقال مثلًا: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وما أشبه ذلك؟

الجواب: أن ملك الإنسان بالشيء لا يسمى ملكًا مطلقًا ولا ملكًا عامًا فهو ليس ملكًا مطلقاً؛ لأن الإنسان لا يملك أن يتصرف في ماله كما شاء، لو أراد أن يحرق ماله، فهل له ذلك؟ الجواب: لا.

وليس - أيضًا - عامًا، فملك كل إنسان منَّا خاص به فأنت لا تملك مالي، وأنا لا أملك مالك، ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ - مطلق عام، فظهر الفرق بين ملك الرب - عَزَّ وَجَلَّ - وملك المخلوق.

٣ - إثبات عدد السماوات؛ لأنها جاءت بلفظ الجمع، وقد بَيَّنَ الله - سبحانه وتعالى - في موضع آخر أنها سبع سماوات، أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة لكن الله أشار إلى أنها جمع في قوله:

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

٤ـ إثبات علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

٥ـ أن العلو صفة لازمة لله ليست من صفات الأفعال التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، ووجه الدلالة أن العلي صفة مشبهة، والصفة المشبهة تفيد الثبوت وعدم التحول.

٦ـ علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الشامل لعلو الذات وعلو الصفة.

٧ـ إثبات عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ مأخوذة من قوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

٨ـ إثبات هذيْنِ الاسميْنِ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ العلي والعظيم واضح فمثلًا: ـ الآن ـ معي قلم دلالة على غطاه وعلى أصله، دلالة ذات ودلالة على واحد منها دلالة تضمن، إذن نأتي على أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نقول: من أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ (الخالق) دلالته على الذات الإلهية وعلى الصفة التي هي الخلق (دلالة مطابقة) ودلالتها على الذات وحدها، أو على الخلق وحدها (دلالة تضمن)، ودلالته على العلم والقدرة؛ لأنه ما من خالق إلَّا وهو عالم، وما من خالق إلَّا وهو قادر (دلالة الالتزام)، أما النوعان الأول والثاني دلالة المطابقة والتضمن، لا تشكل على أحد، كل طالب علم يمكن أن يعرفها وأما دلالة الالتزام فهي التي تخفى على كثير من الناس، ولذلك يختلف فيها العلماء اختلافًا كثيرًا، فدلالة الالتزام لازمة في كل قول أو في كل ما قاله الله ورسوله.؟ الجواب: الثاني؛ لأن دلالة الالتزام قد ينكرها مَنْ يتكلم بالكلام، فمثلًا: نقول: الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان حتى الحشوش والأماكن القذرة، هم لا يلتزمون بهذا لو التزموا بهذا لكفروا لا محالة، ولا يشك أحد في كفرهم، لكن لا يلتزمون بهذا، ولذلك عبر العلماء عن هذه الكلمة: هل لازم القول بلازم؟ الجواب: لازم القول ليس بلازم، إلَّا كلام الله ورسوله وأما غيرهما فلا؛ لأنه إذا آذناه به لا يلتزم، ويحتمل إن آذناه به التزم ولم يطرأ على باله هذا اللازم.

قال الله تعالى:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

التفسير

قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن﴾، هكذا مكتوب عندي.

يقول الشارح: [تكاد بالتاء والياء يعني: تكاد ويكاد]، أما تكاد فمعناها ظاهر؛ لأن السماوات جمع وكما قال الزمخشري: جمع مؤنث، وتكاد مطابقة لمرفوعها، ويكاد للمذكر، والسماوات مؤنث فما الجواب؟ فالجواب: أن المؤنث إذا كان مجازيًا جاز تذكيره وتأنيثه أي: تذكير فعله وتأنيثه، فتقول: طلعت الشمس وطلع الشمس، فيجوز هذا وهذا؛ لأنه مجازي، أما إذا كان حقيقيًا وهو الذي له فرج من بني آدم أو غيره، فإنه يجب تأنيث عامله تقول: قامت امرأة ولا تقول: قام امرأة، أما السماوات فمجازي، ولهذا جاء فيها قراءاتان: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، ومعنى تكاد: تقرب، فهي من أفعال المقاربة.

تكاد السماوات، يعني: السبع، وقوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، [بالنون وفي قراءة بالتاء والتشديد]، سمعية أم غير سمعية؛ لأن قاعدة المفسر ـ رحمه الله ـ: أنه إذا قال: في قراءة أو قال: بالتاء والياء أو قال: بالمد وحذفه أن القراءة، ينفطرن، ولك أن تقول: ويتفطرن، والانفطار بمعنى: الانشقاق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾، لم يقل: من أسفل؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فوق، والسماوات تكاد يتفطرن من فوقهن، قال الشارح رحمه الله: [أي: تنشق كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله] ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولولا أن الله أمسكها لتفطرت، كما أن الله ـ جل وعلا ـ لما تجلى للجبل جعله دكًا، فالسماوات على عظمها وقوتها وشدتها تكاد تنفطر من عظمة الله ـ جَلَّ وَعَلَا ـ.

قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، انظر إلى العظمة، عظمة تكاد السماوات يتفطرن منه، عظمة أخرى بأن الملائكة يسبحون بحمد ربهم، نقول: الملائكة عالم غيبي خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وسخرهم لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فهم عالم غيبي لا يُشَاهَدُون، وهم خُلِقُوا من نور، قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «أَطَّت[1] السَّمَاءُ وَحُقَّ[2] لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا و فِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»[3] أطت يعني: صار لها صرير كصرير الرحل المحمل، لعلكم أدركتم الرحل المحمل، الرحل على البعير إذا ثقل الحمل صار له صرير مع حركة السير، السماء لها هذا من كثرة ما عليها من الملائكة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: حق لها أن تئط، إذن: الملائكة تفسيرها: عالم غيبي خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور كما ثبت

(١) بتشديد الطاء من الأطيط، وهو صوت الأقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها على ما في النهاية أي صوتت.

(٢) بصيغة المجهول أي ويستحق وينبغي.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٢٣١٢)، وأحمد في مسنده (٢١٥٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ووحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

عن النبي ﷺ[1]، وهو سخرهم لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وإذا أمرهم الله بشيء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وضدهم الشياطين، عالم غيبي، خلقوا من نار، عصاة لله مستكبرون عن عبادته، وأبوهم الشيطان الأكبر إبليس فإذا قال قائل: أنتم قلتم: عالم الغيب، أليس جبريل ـ عليه السلام ـ قد شاهده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حقيقته وله ستمائة جناح قد سد الأفق[2]، فالجواب: بلى لكن هذا لا ينافي أنه عالم غيبي في الأصل، وقد يُظْهِرُهُمُ الله ـ تعالى ـ لبعض الناس وقد يتشكلون، يكون الملك بصورة الآدمي كما جاء جبريل في صورة رجل غريب ولكن لا يرى عليه أثر السفر[3]، وجاء مرة بصورة دحية الكلبي[4]، فهم قد يتشكلون بصور الآدمي، هذا التشكل هل هو بإرادتهم أو مِنَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟، السؤال عن هذا بدعة، هل لنا مصلحة أن نعرف أن جبريل يستطيع أن يحول نفسه إلى صورة آدمي، أو أن الله يقلبه في صورة آدمي؟ ما لنا مصلحة، لكن نعلم أنه لا يقع ذلك إلَّا بإرادة الله سواء كان بفعل اختياري من جبريل أم بفعل خلقي من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نقول: ليس لنا حق أن نسأل فإن السؤال بدعة، فكل أمور الغيب لا تسأل عنها أَجِرْهَا على ما جاءت؛ لأنه سبقك مَنْ هو أحرص منك علمًا وأقوى منك إيماناً، وباشر مَنْ يستطيع الجواب والرد وهم الصحابة ومع ذلك ما سألوا إذا لم يَسْعْكَ ما وَسِعَ الصحابة فلا وسع الله عليك، ولهذا يجب أن نقول لبعض الشباب ـ الآن ـ الذين يبحثون في أسماء الله وصفاته ويتعمقون: يجب أن ننهاهم ونقول: اتقوا الله، آمنوا بالقرآن والسنة على ما جاء في القرآن والسنة ولا تبحثوا، سبقكم مَنْ هم أحرص منكم علمًا وما سألوا، ثم هم لو سألوا سيسألون الرسول الذي ينزل عليه الوحي وسيجيبهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما سألوا عنه، أما أن تسأل إنسانًا يُخْطِئُ ويُصيب وأنت وهو سواء في علم الغيب فهذا من الخطأ والسفه ومن مخالفة جادة السلف، وما أحسن ما قال مالك ـ رحمه الله ـ للذي سأله عن كيفية الاستواء قال: (الكيف مجهول والاستواء معلوم والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[5] وما أراك إلَّا مبتدعًا)، فنصيحتي لكم أن تَدَعُوا الأمور الغيبيَّة.

مسألة أخرى: هل الملائكة أجسام؟ الجواب: نعم لا شك قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ

---

(١) كما روى مسلم (٢٩٩٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم.

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١٧٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

(٣) كما روى مسلم (٨)، وأبوداود (٤٦٩٥) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٤) كما رواه النسائى (٤٩٩١) من حديث أبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما، وصححه الألبانى فى تعليقه على السنن.

(٥) تفسير الثعلبى (٤/ ٢٩٣)، وكتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية (١٦/ ٤٧٣).

﴿أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾، وأما مَنْ قال: إن الملائكة كناية عن قوى الخير والشياطين كناية عن قوى الشر فهذا يعني إنكار الملائكة والشياطين بل نقول الملائكة أجسام لها أجنحة والشياطين أجسام تأكل وتشرب قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، ـ أعاذنا الله وإياكم من الشيطان ـ ولكن نؤمن بأن الملائكة أجسام والشياطين أجسام لكن هل نعرف كيفيتهم؟ لا نعرف إلَّا ما علمنا الله وما لم يُعْلِمْنَا لا نعرفه.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: [ملابسين للحمد] أفادنا المؤلف بقوله: [أي، ملابسين بالحمد] أن الباء هنا للملابسة والمصاحبة ومعنى يسبح أي: ينزه، أي تسبحيًا مسبوقًا بالحمد؛ لأن التسبيح تنزيه وتقديس، والحمد ـ عكس ذلك ـ إثبات، فيجتمع في هذا تنزيه الله عن كل نقص وإثبات كل كمال له، من أين أخذنا ذلك؛ لأن الإثبات من الحمد والتنزيه من التسبيح.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ المفعول محذوف للعلم به من هو المستغْفَر؟ هو الله سبحانه ويستغفرون الله.

الاستغفار: طلب المغفرة؛ لأن استفعل تأتي دائمًا وغالبًا بمعنى:الطلب تقول: استسقى، بمعنى:طلب السقيا واستغفر بمعنى:طلب المغفرة، واسترحم بمعنى:طلب الرحمة، وما أشبه ذلك، وقد تأتي لغير ذلك كما في قولك: استكبر ما فيها طلب استكبار لكنه بلَغ في الكِبْرِ غايته، يستغفرون أي: يطلبون المغفرة من الله فما هي المغفرة؟ قالوا: إنها مشتقة من المِغْفَر، المغفر شيء يجعله المقاتل على رأسه ليقيه السهام، ففيه ستر ووقاية، فإذا قلت: أستغفر الله أو رب اغفر لي فأنت تطلب شيئيْنِ: الشيء الأول: الستر بأن يستر عيوبك عن الناس فلو علم الناس ما عندك من المعايب ما ردوا عليك السلام. كما قال القحطاني ـ رحمه الله ـ:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا خَبِيء سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي[1]

فأنتَ تسأل الله أن يستر عليك.

الشيء الثاني: أن تسأل الله الوقاية من الذنب، وهو العذاب فكل مذنب يستحق العذاب لو طلب الإنسان المغفرة أي: عدم المؤاخذة على الذنب، نقول: هذا بعض معناه؛ لأن معنى المغفرة، ستر الذنب وعدم المؤاخذة عليه.

وقوله: ﴿لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، مَنْ هنا اسم موصول يفيد العموم فهل هو عام؟ لا إنما هو عام يُرَادُ

(١) نونية القحطاني (ص٩).

به الخاص بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، إذن: من هنا عام يراد به الخصوص.

لو قال قائل: هو عام خُصِّصَ، قلنا: لا؛ لأنه لا يُرَادُ العموم أصلا، إنما يريد الخصوص، ولهذا قال المؤلف: [من المؤمنين]

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، (ألا) أداة استفتاح تبتدأ بها الجملة وتفيد شيئين: الأول: التنبيه، والثاني: التوكيد، وننظر، (إن الله)، إن: حرف توكيد، هو: ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد التوكيد، وحينئذ يحق لنا أن نقول: إن هذه الجملة أكدت بثلاثة مؤكدات وهي: ألا، وإن، وهو الذي هو ضمير الفصل.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولذلك طلبت الملائكة منه المغفرة؛ لأنه - سبحانه وتعالى - أهل لذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فبمغفرته تزول المكروهات وبرحمته تحصل المحبوبات.

قال الله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥].

فوائد الآية:

١- بيان عظمة الله - سبحانه وتعالى - وأن هذه السماوات على شدتها وقوتها تكاد تتفطر من عظمة الله وهذا كقوله لما سأل موسى ربه: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، بل إن كلام الله - تعالى - لو نزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذاتي لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات الملائكة لقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ويجب علينا أن نؤمن بالملائكة بأنهم عالم غيبي وأن لهم أجسامًا وأن لهم أجنحة كما قال الله - تبارك وتعالى -.

٤ - **ومن فوائدها:** كمال عبادة الملائكة لله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، فيجمعون له بين التنزيه والتمجيد، فالتنزيه بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والتمجيد بقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الملائكة أفضل من بني آدم؛ لأن بني آدم ليست حالهم هذه أي: التسبيح بحمد الله بل منهم مؤمن ومنهم كافر فيكون الملائكة أفضل من بني آدم وهذا هو أحد الأقوال في هذه المسألة، ومن العلماء مَنْ يقول: بل صالح البشر أفضل يعني: أن المؤمنين من البشر أفضل من

الملائكة، ولهذا كانت الملائكة مُسخرة لهم وهذا القول هو الذي نص عليه الإمام أحمد: أن صالح البشر أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة خلقوا للعبادة، فليست عندهم صوارف تصرفهم عن عبادة الله، والبشر خُلِقُوا للعبادة لا شك لكن عندهم صوارف تصرفهم عن عبادة الله وهي الشبهات والشهوات ومن المعلوم أن تحقيق الإيمان مع الصوارف أشد مجاهدة ومعاناة من تحقيق الإيمان من عدم الصوارف، ولهذا كان الرجل المتمسك بدين الله في آخر الزمان أفضل من خمسين من الصحابة كما قال النبي ﷺ: «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ»[1] وإنما كان ذلك لمشقة العبادة، واختار شيخ الإسلام التفصيل في ذلك فقال: الملائكة أفضل باعتبار البداية، والبشر أفضل باعتبار كمال النهاية؛ لأن البشر في النهاية يدخلون الجنة والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم) كأنهم خلقوا لخدمتهم.

وبعد ذلك الخوض في هذه الأمور المهمة قد نقول: ما علمنا من فضائلهم وفضائل البشر نؤمن به، وأما التفضيل فهو عند الله، والله بصير بما يعملون، فلا ندري من أفضل وإنما باعتبار ما تبين لنا نعطي كل إنسان بما يتميز به، وباعتبار ما عند الله، فالله عليم به، ولسنا مؤاخذين فيما إذا توقفنا في هذا الأمر.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: فضيلة الجمع بين التسبيح والتحميد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ قوله: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ[2] عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[3] فما أجدرنا أن تكون هاتان الكلمتين على ألسنتنا دائمًا؛ لأنهما خفيفتان على اللسان ليس فيهما تعب، حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان فماذا كان علينا لو أن الإنسان يديم هذا القول وهو يشتغل وهو يعمل وهو يمشي وهو مضطجع وهو قاعد لحصَّلنا خيرًا كثيرا، ولوصلنا بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى محبة الله لنا؛ لأننا ما دمنا نأتي ونلازم فهو أكرم منا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الملائكة مربوبون ليس لهم حق من الربوبية؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وعلى هذا فمن دعا جبريل، أو ميكائيل، أو إسرافيل، أو مالك، أو غير ذلك فإنه كافر مشرك بالله ولهذا أهل النار لم يقولوا: يا مالك أخرجنا من النار ولكنهم قالوا كما قال الله

---

(١) روى الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: إن من ورائكم زمان صبر للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا فقال عمر: يا رسول الله منا أو منهم؟ قال: منكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٤).
(٢) سهلتان.
(٣) رواه البخاري (٦٠٤٣)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، انظر إلى الخجل والحياء - والعياذ بالله - لم يقولوا: ادعوا ربنا بل قالوا: ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب؛ لأنهم أحقر في أنفسهم من أن يدعوا الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيقولون: يا ربنا خفف عنا يومًا من العذاب.

٨ - **ومن فوائد الآية**: فضل الملائكة على البشر بمعنى:أن لهم منة ونعمة؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولا شك أن من استغفر لك له منة عليك وفضل.

٩ - **ومن فوائدها**: نعمة الله علينا أن سخر لنا الملائكة يستغفرون لنا؛ لأن الملائكة لو لا أن الله سخرهم لنا ما استغفروا لنا، لكن الله سخرهم، ففيه فضل ونعمة من الله - تعالى - على المؤمنين حيث إن الملائكة يستغفرون لهم.

١٠ - **ومن فوائد الاية الكريمة**: التأكيد على أن الله - سبحانه وتعالى - غفور رحيم وأكد ذلك بثلاث مؤكدات ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١١ - **ومن فوائدها**: إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله وهي: (الله، الغفور، الرحيم)، وهل أسماء الله - تعالى - مشتقة؟ الجواب: نعم مشتقة - بلا شك -، الله من الألوهية، الغفور من المغفرة والرحيم من الرحمة فهو لم يُسَمَّ بهذه الأسماء إلَّا وهو متصف بما دلَّتْ عليه من صفات ولهذا نقول: كل اسم من الأسماء فهو مقتضٍ لصفة أو صفتيْنِ أو أكثر حسب ما تدل عليه هذه الأسماء من المطابقة والتضمن والالتزام.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أننا إذا علمنا أن الله غفور رحيم فجدير بنا أن نسأله المغفرة والرحمة؛ لأنه أهلٌ لذلك فيكون في هذا تربية للإنسان وسلوكه في وصوله إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بأن يعلم أنه غفور فيستغفر وأنه رحيم فيسترحم.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن فيها حثًا للإنسان على ترك الذنوب، وعلى فعل الطاعات، وجه ذلك: أن المغفرة تحتاج إلى عمل صالح وإلى توبة، يغفر الله بها الذنب، والرحمة تحتاج إلى طاعات يتوصل بها الإنسان إلى رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان الحكمة في حكم الله الكوني القدري؛ لأن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كالتعليل لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كأن قائلا يقول: لماذا يستغفرون لمن في الأرض؟ فتكون الإجابة؛ لأن الله هو الغفور الرحيم.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأسماء الحسنى تكون كاملة بانفرادها واشتمالها؛ لأنه لما جمع بين الغفور والرحيم تَولَّد منهما صفة ثالثة غير المغفرة والرحمة وهي اجتماع هذين الوصفين

أو هذين الاسمين الدالين على الوصف في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فبالمغفرة تُمحَى الذنوب وبالرحمة يحصل المطلوب.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٦]

❁ التفسير ❁

أولًا: الإعراب: (الذين اتخذوا) مبتدأ (أولياء) مفعول ثان لـ ﴿اتَّخَذُوا﴾؛ لأن التقدير: اتخذوا الأصنام أولياء، (الله) مبتدأ و(حفيظ) خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر المبتدأ الأول، أين المبتدأ الأول؟ الذين، فإن قال قائل: المعروف عند النحويين أن الجملة الواقعة خبرًا لابد أن تتضمن ضميرًا يعود على المبتدأ، حتى يعرف اتصالها به، قلنا هنا: حَلَّ الظاهر محل الضمير وهو قوله: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: الذين اتخذوا من دونه أولياء هو حفيظ عليهم يعني: الله، ويجوز أن يكون الرابط هو قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الضمير، الذين اتخذوا، اتخذوا من؟ اتخذوا الأصنام؛ ولهذا قال المؤلف: [أي الأصنام]، وهذا التقدير لبيان المفعول الثاني كأنه يقول: هو مفعول ثانٍ محذوف تقديره الأصنام.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾، جمع ولي، أي: أنهم يتولون هذه الأصنام، يعبدونها، يذبحون لها، ينذرون لها، وهم عن الله غافلون.

﴿حَفِيظٌ﴾: [محصٍ] ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [ليجازيهم]، تفسير حفيظ بالمحصي تفسير باللازم، ولكن المراد بالحفيظ: أي: حافظ أعمالهم رقيب عليهم لا يفوته شيء من أعمالهم، فلابد أن يحصي عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، [تحصل المطلوب منهم ما عليك إلَّا البلاغ]، وما أنت عليهم ـ الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ (بوكيل) أي بحفيظ، فالآية واضحة، كأن الله يقول: أنا الحفيظ عليهم أما أنت فلست عليهم بحفيظ، ماذا على الرسول؟ إن عليك إلَّا البلاغ، ليس عليه إلَّا أن يبلغ، أما أن يهدي أحدًا أو يحصي أعمال أحد فهذا ليس إليك، إنما هو إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حتى إن الله قال في آخر سورة آل عمران ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ

﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ....﴾، ففي هذه الآية بيان سفه أولئك المتخذين أولياء من دون الله ووجه السفه قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أنهم غفلوا عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نهائيًا واتخذوا هذه الأصنام أولياء.

الفوائد:

١ ـ **ومن فوائد الاية الكريمة:** وعيد من اتخذ من دون الله أولياء؛لقوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، هذا هو التهديد كما يقول قائل للإنسان: اذهب وأنا معك، أنا وراءك، أنا أحصي عليك.

٢ ـ **من فوئد هذه الآية الكريمة:** بيان عموم علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله:﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، يشمل جميع ما يقومون به من عمل وهذا يدل على سعة علْم الله واطلاعه.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ بشرلا يعلم الغيب ولا يحصي أعمال العباد؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول ﷺ وهو ـ سيد الدعاة وإمام الدعاة ـ لا يلزمه إلَّا أن يبلغ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وهذه الآية لها شواهد لفظية ومعنوية قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، يعني: ما تستطيع، وإذا كان إمام الدعاة لا يستطيع أن يهديهم فما بالك بمن سواه.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية الدعاة إلى الله إذا لم يطعهم الناس، أكثر الدعاة إذا لم يطعهم الناس تتفطر قلوبهم، وتنحلّ أجسامهم، نقول له: مَنِ الذي منعهم ألَّا يطيعوك؟ ومن الذي منعهم أن يطيعوك؟ هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكلا العبارتين صحيح. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، فكلا التعبيريْنِ صحيح، ـ على كل حال ـ نقول لهذا الداعي الحريص على هداية الله: لا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون، لعلك باخع نفسك ألَّا يكون مؤمنين، أنت عليك ما عليك وهو البلاغ، والهداية بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ [ولو شاء الله لاهتدوا]، فإذا كان هذا وقع بمشيئة الله فإن الإنسان يطمئن، لكن إذا تقطع قلبه حسرة، اشتغل بعيوب الناس عن عيوبه ولهذا تجد الداعية الذي هذا وصفه، تجده ـ دائمًا ـ مشغولًا بأحوال الناس، وينسى نفسه، لو فتشت ما فتشت لرأيته في العبادة مقصِّرًا، وإذا جاء في العبادة فقلبه في وادٍ، وهذا غلط، أنت مأمور قبل كل شيء بإصلاح نفسك، مأمور ـ أيضًا ـ بالرضا بقضاء ربك، قضى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ألَّا يهتدي هؤلاء، فالأمر أمره والعباد عباده، صحيح أن الإنسان يحزن لكن لا يصل إلى درجة يغفل الإنسان فيها عن نفسه كما هو شأن بعض الدعاة، والإنسان إذا كان هكذا فثق أنه سيكون متزنا في الدعوة إلى الله وإلَّا فسيكون متهورًا، ويأتي بما لا

تحمد عقباه، لذلك كن داعيًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما كان عليه رسول الله ﷺ.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ بشر، ليس له من الأمر شيء، لقوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، الرسول - عليه الصلاة والسلام - بشر لا يستطيع أن يهدي أحدًا، ولا أن يحصي أعمال أحد، لو استطاع أن يهدي أحدًا لهدى عمه (أبا طالب)، الذي كان له من الفضل على الدعوة الإسلامية ما هو معلوم، لكنه لم يفعل إلَّا في شيء واحد وحقيقة لم يفعل شيئًا أنه شفع له عند الله فخفف عنه العذاب، فكان في ضَحْضَاحٍ من نار تحته نعلان يغلي منهما دماغه، ومع هذا يرى أنه أشد الناس عذابًا؛ لأنه لو رأى أنه أخف الناس عذابًا لهان عليه الأمر وتسلى بغيره ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا - نسأل الله العافية - وقد أشار الله إلى أن الاشتراك في العذاب يخفف في قوله - تعالى -: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، في الدنيا ينفع إذا شارك الإنسان غيره لكن في الآخرة ما ينفع.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٧، ٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، (الكاف) هنا بمعنى: مثل، وهي منصوبة على المفعولية المطلقة ولهذا قدرها المؤلف بقوله: [مثل ذلك الإيحاء]، [الأول قال: كذلك يوحي إليك ولم يبين الموحى، هنا قال: وكذلك أوحينا إليك قرآنا]، فبين الموحى فكان الأمر هنا تفصيلًا بعد إجمال، ولا يخفى علينا أن التفصيل بعد الإجمال من أساليب اللغة.

أصبحت النفس متطلِّعة متشوِّقة إلى تفصيل فإذا جاء مفصَّل بعد إجمال ورد كالماء على أرض يابسة، فالماء على أرض يابسة تشربها بمجرد ورود الماء، وكذلك إذا ورد التفصيل بعد الإجمال فإنه يرد على قلب متطلع تمامًا إلى التفصيل.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، [أي مثل ذلك الإيحاء] ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - عن طريق جبريل - عليه السلام - قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ﴾، قرآنا بمعنى:مقروءًا، أو بمعنى:قارئ، أما هو فمصدر، كغفران مصدر غفر، وشكران مصدر شكر، إذن قرآن مصدر قرأ، لكن هل هو بمعنى:اسم الفاعل أو بمعنى:اسم المفعول؟ نقول: لنا قاعدة سبقت وهي: أن الآية أو الحديث ـ أيضًا ـ إذا احتمل معنيين على السواء ولا منافاة بينهما وجب أن يحمل عليهما جميعًا.

إذن: قرآن بمعنى:قارئ، وقرآن بمعنى:مقروء، لكن كيف يكون القرآن بمعنى:قارئ؟ قارئ بمعنى:جامع، ومنه سميت القرية؛ لأنها تجمع الناس ولا شك أن القرآن جامع لكل علم نافع وعمل صالح.

قوله: ﴿عَرَبِيّٗا﴾، أي: بلسان العرب، هل هي عروبة النسب أم عروبة اللسان؟، الظاهر أنها عروبة اللسان، لكن حقيقة الأمر أن عروبة اللسان أصلها عروبة النسب، إذ أن اللغة العربية وإن تكلم بها غير العربي هي أصلها من عروبة النسب، ولذلك فالقوم الذين من فارس والروم، نقول: هم عرب اللسان، وليس هم عرب النسب، فهل يلحقهم؛ مدح العرب؟ الجواب: لا يلحقهم؛ لأن المدح ـ مدح العرب ـ هو عرب النسب، أما الوصف وهم عرب اللسان فلا يستحق هذا المدح، ولهذا لو سألنا مَنْ أشرف الناس نسباً؟ نقول: أشرف الناس نسبا عرب النسب وليس عرب اللسان، وأضاف الله سبحانه الوحي إليه لبيان شرفها ومهمتها، والموحى به هو أشرف الكلام ﴿قُرۡءَانًا﴾ مصدر كالغفران والشكران.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾، اللام للتعليل، فما هو المعلل؟ قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، وعلى هذا فاللام متعلقة بأوحينا، وقوله: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ قال المؤلف: [لتخوِّف]، وقوله: ﴿أم القرى ومن حولها﴾، أي: [أهل مكة وسائر الناس]، أم القرى هي مكة، وسميت بذلك لأنها جامعة للقرى، إذ أن جميع القرى تأوي إليها، ولا شك أن المسلمين يتجهون إليها؛ لأن الكعبة فيها، وهي ـ أيضًا ـ تجمع القرى من جهة أنه يجب على كل المسلمين أن يحجوا هذا البيت من استطاع إليه سبيلًا لقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ إذن سميت أم القرى؛ لأنها تجمع جميع القرى.

والقرى في الآية معناها المدن؛ لأن القرية البلد الصغير عرفا، أما لغة: فإن القرية تطلق حتى على المدينة الكبيرة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، يقول المؤلف: [المراد بمن حولها سائر الناس]، وهذا التفسير وإن كان معناه صحيحًا؛ لأن رسالة النبي ﷺ بلغتْ جميع الناس، ومن لم تبلغ فستبلغه، ولكن ظاهر اللفظ خلاف ذلك؛ لأن ما حول الشيء هو القريب منه، وحينئذ يبقى في الأمر إشكال فإن

النبي ﷺ مبعوث إلى جميع الناس، ولكن يقال: لا إشكال، فهو كقوله - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وهو مبعوث لكل الخلق، ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، وعلى هذا نقول: المراد بالإنذار: الإنذار المباشر، والإنذار المباشر من النبي ﷺ ما كان إلّا لأم القرى وَمَنْ حولها ولهذا ما فتحت العراق ولا الشام ولا مصر في عهد النبي ﷺ، وإنما كانت الجزيرة فقط، الإنذار الذي تَمَّ في حياته عليه الصلاة السلام فإنه لا يشمل إلا أم القرى وَمَنْ حولها.

وقوله: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، هل المراد بهذا إنذار المدينة نفسها أو المراد الأهل؟ الأهل لا شك، ولا يشكل هذا على أحد، وهذا الذي جعل شيخ الإسلام - رحمه الله - يقول: [بأنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره]، ونحن نقول: هنا ليس المراد بيوت مكة وأسواقها وإنما المراد أن ينذر أهلها، بقي أن يقال: أين مفعول ينذر الثاني؛ لأن أنذر تنصب مفعولَيْنِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، الكاف مفعول أول والنارمفعول ثان، نقول: المفعول الثاني محذوف، ويقدر بما يناسب، ممكن أن نقدره، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، لتنذر أم القرى وَمَنْ حولها يوم الجمع، بدليل قوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، فتجد الآية الكريمة الجملة الأولى حذف منها مفعول، والثاني حُذف منها مفعول لكن - الجملة الأولى - حُذِف مفعولها الثاني والجملة الثانية حذف مفعولها الأول وهذا من بلاغة القرآن، إذن المفعول الثاني من قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ محذوف تقديره: يوم الجمع، ولنا أن نقدره تقديرًا آخرًا ولكن ما دام بين أيدينا ما يدل عليه فهو أولى.

قال الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، هذا المفعول الأول المحذوف، يوم الجمع المفعول الثاني، أي: تنذرهم اليوم الذي يُجمع فيه الناس، وذلك يوم القيامة الذي يجمع فيه الخلائق، وهذا من أسماء يوم القيامة، كما أنه يسمى يوم القيامة؛ لأنه يشتمل على معنى هذا وهذا، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، أي: تجمع فيه الخلائق لقوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، وذلك يوم مشهود.

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، [لا شك]. ﴿فِيهِ﴾، أي: الآخرة، الريب هو: الشك لكن شيخ الإسلام - رحمه الله - قال : إن تفسير الريب بالشك تفسير مقارب وليس مطابقاً؛ لأن الريب يوحي بقلق في النفس، والمعنى: ليس فيه ريب وقلق.

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا نافية، فهل المراد بالنفي النهي، فيكون المعنى: لا ترتابوا فيه، أو المراد بالنفي معناه الحقيقي؟ نقول: المراد به المعنى الحقيقي؛ لأنه إذا كان معناه النفي، صارت صفة هذا اليوم انتفاء الريب، وعلى هذا فمن ارتاب فيه، فقد ارتاب في أمر واقع لكن لو كان النفي بمعنى النهي لكنا أخرجنا الكلام عن ظاهره هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن النفي قد يمتثله الناس وقد لا يمتثلونه ولكن النهي أوضح، أولًا: لمطابقته ظاهر اللفظ، وثانيًا: لأنه يعطي أن هذا اليوم موصوف بانتفاء الريب فيه فيكون من ارتاب مخالفًا للواقع، لا ريب فيه [فريق منهم في الجنة

وفريق في السعير] ـ [في النار] ـ (فريق) مبتدأ والفريق الثاني مبتدأ، ولكن في هذا إشكال، ما هو الإشكال؟ الإشكال هو الابتداء بالنكرة والابتداء بالنكرة غير جائز؛ لأن المبتدأ محكوم عليه، فإذا قلت: زيد قائم فقد حكمت على زيد بالقيام والمحكوم عليه لا بد أن يكون معروفًا، إذا كان نكرة فأي فائدة في الحكم عليه؟ فكلام النحويين أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة، هذا تأويله؛ لأن المبتدأ محكوم عليه والمحكوم عليه لا بد أن يكون معرفة معلومًا، فهنا ابتدأ بالنكرة، يقول النحويون: إن المسوغ للابتداء بالنكرة في هذه الآية هو التقسيم، والتقسيم يفيد فريق في الجنة أي نوع في الجنة ونوع في السعير، فالتقسيم يبيح الابتداء بالنكرة، ومنه قول الشاعر(١):

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَر

فهذا ابتداء بالنكرة لكنه فيه التقسيم، فيكون المسوغ للابتداء بالنكرة هنا هو التقسيم.

قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾، أيها أكثر؟ فريق السعير أكثر كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يَوْمَ القِيَامَةِ يُنَادِي فِيهِ فَيَقُولُ يَا آدَمُ: فَيَقُولُ: لَبيْكَ وَسَعْدَيْكَ(٢) فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِن ذُرِّيَتِكَ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ»(٣)، إذن أيهم أكثر؟ الأكثر أهل النار، أكثر من أهل الجنة بكثير ـ أجارنا الله وإياكم من النار، (ففزع الصحابة لهذا، فقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الواحد؟، قال لهم أبشروا، إنكم في أمتين ما كانتا في شيء، إلَّا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، وهم من بني آدم كما دل على ذلك القرآن، منكم واحد وألف منهم، ففرح الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بذلك.

المهم أن الله قال: فريق وفريق، مع اختلاف الفريقين اختلافًا عظيمًا، فدلَّ ذلك على أن الفريق في اللغة يطلق على القليل وعلى الكثير، فريق في الجنة وفريق في السعير، ما هي الجنة؟ الجنة هي الدار التي أعدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمؤمنين والمتقين، وهي دار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأصناف النعيم في هذه الجنة ـ جعلنا الله وإيَّاكم منهم ـ موجودة في القرآن والسنة، أما السعير ـ والعياذ بالله ـ فهي النار تُسعَّر بها الأجساد، وفيها من أنواع العذاب والنَّكال ما يتمنَّى أهلها أن يموتوا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى:٨]، أي: [على دين واحد هو الإسلام] لو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلهم أمة واحدة، على الضلال أو على الهدى،

---

(١) ينسب هذا البيت إلى النمر بن تولب رضي الله عنه.

(٢) لزوما لطاعتك وإجابة بعد إجابة لأمرك وسعيًا في إسعادك إسعادًا بعد إسعاد.

(٣) رواه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يعني: لو شاء هذا أو هذا؛ لأن الأمر كله بيده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يعني: فرقة واحدة على دين واحد، وقوله: [وهو الإسلام]. قد ينازع فيه بأن الآية مطلقة وليس فيها ما يدل على أنه الإسلام؛ لأن قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ذكر الأمرين فنقول: إن الآية تحتمل المعنيين جميعًا يعني: لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، يعني: على الإسلام أو على الكفر، ولكنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لحكمته، جعلهم متفرقين قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾، (مَنْ) اسم موصول عام، لكن يجب أن نعلم أن هذا العموم مقيد بمن علم الله فيهم خيرًا فهو الذي يدخله في رحمته؛ لأن كل فعل أضافه الله إلى مشيئته فلا بد أن يكون لحكمة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، إذن يدخل مَنْ يشاء في رحمته ممن علم الله فيهم خيرًا ليكون إدخاله في الرحمة على وفق الحكمة.

وقوله: ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، هل المراد هنا بالرحمة، التي هي وصفه، أو المراد الرحمة التي هي خلقه؟ الثاني:؛ لأن الرحمة التي هي وصفه لا يدخلها الناس وإنما يدخلون في الرحمة التي هي خلقه وهي الجنة، ويدل لهذا قوله ـ سبحانه وتعالى ـ في الحديث القدسي للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1] فقال لها: أنت رحمتي.

قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: [الكافرون]، (لظالمون)مبتدأ وليست معطوفة على (مَنْ) لفساد المعنى واللفظ.

فسر المؤلف هنا: [الظالمون الكافرين]؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف الكافرين بالظلم فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟[2] إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ فسرها النبي ﷺ بالشرك وقال: ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، والظالمون الكافرون.

قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، (ما) نافية، و(لهم) خبر مقدم، و(ولي) مبتدأ مؤخر دخل عليه حرف جر زائد للتوكيد، وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، [يدفع عنهم العذاب]، أي: مِنْ ولي يتولاهم ويتحمل عنهم ولا نصير يدفع عنهم، فليس لهم مَنْ يُسلّيهم في حال المصيبة، ولا مَنْ

(١) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يخلطوا.
(٣) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يدفع عنهم إذا وقعت.

الفوائد:

١ - **من فوائدها** أولاً: أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾، وجه كونه كلام الله أن هذا القرآن كلام أو شيء مخلوق؟ كلام، وإذا كان كلاما وقد أضافه الله لنفسه علمنا أنه كلامه.

وهل هو مخلوق؟ لا، لماذا؟ لوجهين:

الوجه الأول: وصفه، وجميع أوصاف الله غير مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة لذاته، فالخالق هو الله، وصفاته غير مخلوقة.

الوجه الثاني: لو قلنا: إنه مخلوق لبطل الأمر والنهي؛ لأننا إذا قلنا: إنه مخلوق صار شيئًا مخلوقا على شيء معين، كما تخلق الشمس والنجوم والقمر والأنهار على شكل معين، فيقول مثلًا: أقيموا الصلاة، ليست أمرًا؛ لأنه خلق على هذا الرسم، - الآن - مثلًا لو رسمنا في القرآن أقيموا الصلاة وأن نقول هذه ليست كلاما ولكنه مخلوقة لن تفيد الأمر، وكذلك لو قال: في الأخبار، الأخبار تأتيك آية طويلة فيها خبر ما، إذا قلت: القرآن مخلوق صارت مجرد نقش فقط.

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله:

(إن القول بأن القرآن مخلوق مبطل للشريعة؛ لأنه لا يكون فيه أمر ولا نهي إنما فيه أشكال خلقت على هذا)

أقيموا الصلاة أنتم - الآن - تعرفون إذا شهدتم أقيموا الصلاة تجدون أنها وشي تختلف بعضها عن بعض، أقيموا لها شكل والصلاة لها شكل، فإذا قلنا: أن هذه الأشياء خلقها الله على هذا الشكل لم يكن أمرًا ولا نهيا، إذن الآية تفيد أن القرآن كلام الله؛ لأن الله - تعالى - أضافه إلى نفسه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فخر العرب؛ لأن القرآن عربي وهو للأمم كلهم.

٣ - **ومن فوائدها:** حكمة الله - تبارك وتعالى - في إنزال القرآن باللغة التي يفهمها مَنْ أُنزِلَ إليهم وهذا كقوله - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التأكيد على معرفة اللغة العربية، وجه ذلك أنه إذا كان القرآن عربيًا وكنا مخاطبين به وملزمين بالعمل به، فإنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلَّا بتعلم اللغة العربية.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أن الناس جميعا ينبغي أن يتحدثوا باللغة العربية؛ لأن الناس جميعا يجب أن يكون دينهم الإسلام، فإذا وجب أن يكون دينهم الإسلام فإنه يلزم من ذلك

أنه يجب أن يتعلموا لغة الإسلام، ولذلك نرى أن الإسلام لما كان في أوج عزته وقوته دخل الناس في دين الله وتعلموا اللغة العربية، ومن الفرس والروم من كانوا أئمة في الدين وأئمة في العربية، القاموس المحيط مرجع الناس في اللغة مؤلفه (الفيروز آبادي) مِنْ قريش هو أو مِن بني هاشم؟ لا هذا ولا ذاك، إنه فارسي، ومع ذلك هو مرجع اللغة العربية، (البخاري) إمام المحدثين يعني: إمام نقلة سنة النبي ﷺ ليس عربيًا؛ لأن في الفتوحات الإسلامية كانت الغلبة للمسلمين الذين يتكلمون باللغة العربية، فتعلم الناس العربية ضرورةً لأنه لا يمكن الوصول إلى فهم الدين إلَّا باللغة العربية، وحال الناس اليوم على العكس من ذلك، العربي يحاول أن يتعلم اللغة غير العربية؛ لأن المسلمين - مع الأسف الشديد - بمعاصي أهله خذلوا وذلّوا وكانوا من أذلّ الأمم إن لم أقل: أذل الأمم، أنا أقول: أذل الأمم ولا أبالي؛ لأن عند المسلمين من الثروات العظيمة والمعادن العظيمة والأماكن الفسيحة والواسعة ما إذا قسناه بحالهم وجدنا أنهم أذل الأمم، مَنْ يكن عنده مثل هذه الثروات ثم يتخلف هذا التخلف، - حفنة من اليهود تلعب بعقولهم ليلًا ونهارا، ولو قلت: أمم من النصارى يلعبون بهم ولو كان لهم عزة لكانوا هم الذين يتحكمون في الناس ويقاتلونهم حتى يكون الدين كله لله، لكن لما ذلوا ذلت لغتهم، - الآن - تجد المتاجر في البلاد - بلاد العرب في مدننا وفي قرانا - تجدها مملوءة باللافتات غير العربية، أحيانا تجد المتاجر كأنك في سوق لندن إلَّا ما شاء الله، كل هذا من الذل.

٦ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله، تؤخذ من قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل وكلما وجدت لام التعليل في القرآن فإن فيها إثبات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحينئذ نعلم أن جميع ما يفعله الله - عَزَّ وَجَلَّ - أو يشرعه فإنه لحكمة.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الاقتصار على أحد موضوعي الرسالة إذا اقتضت الحكمة ذلك، وجهه أن قال الله - تعالى -: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ولم يذكر البشارة مع أن الله - تعالى - في مواضع كثيرة يذكر الإنذار والبشارة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾؛ لأن السياق مع قريش، وقريش كما تعلمون عتاد معتدون فناسب ذكر الإنذار دون ذكر البشارة؛ لأنه إذا رأيت شخصًا معتديًا تحاول استقامته بالبشارة أولًا أو بالإنذار أولا؟ بالإنذار أولا، وهذا مِنْ بلاغة القرآن أن يجعل كل شيء في موضعه.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ ملزم بإنذار أم القرى إلزامًا أوليًا، لقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾، وما سواها إنذارًا ثانويًا.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن النبي ﷺ لن يصل إلى مَنْ أرسل إليه مباشرة وإنما ينذر من حوله لقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فالقرآن باللغة العربية لا يمكن

أن يُنْذَر به إلَّا أم القرى وَمَنْ حولها الذين هم عرب، وأما فارس والروم والأقباط وما أشبههم فهؤلاء لا ينتفعون بالقرآن إلَّا بعد أن يعرفوا اللغة العربية، ويعرفوا معاني القرآن، ولعل هذا - والله أعلم - أيضًا - من الحكم أن الله قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تخويف الناس من يوم القيامة لقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** أن يوم القيامة واقع لا محالة لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس في ذلك اليوم ينقسمون إلى قسمَيْنِ: فريق في الجنة وفريق في السعير، أهل الجنة يتجهون إلى الصراط ليصلوا إلى الأعلى إلى الجنة، وأما أهل النار فلا يصعدون على الصراط لأنه لا يرجى منهم أن ينجوا بل إنهم (يساقون إلى جهنم وردا)، أي: على أشد ما يكون من العطش وتمثل لهم النار كأنها سراب يظنونها ماء فيسرعوا إليها فإذا جاءوها وجدوا الأمر بالعكس فيتوقفون لكنهم يدعون إلى نار جهنم دعا ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٤ - ١٦].

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

١٤ - **ومن فوائدها:** الرد على القدرية، أتعرفون من القدرية؟ هم الذين يقولون: إن الله - سبحانه وتعالى - لا علاقة له في فعل العبد يقولون: العبد مستقل ما لله فيه إرادة، وغلاتهم يُنْكِرُون علم الله بأحوال العبد إلَّا ما وقع منها، يقولون: إن الله لا يعلم ماذا يصنع العبد، لكن إذا صنعه العبد علم به، وهؤلاء لا شك في كفرهم؛ لأنهم أنكروا علم الله، مقصدهم أنهم ينكرون المشيئة والخلق هذا الذي استقر عليه رأيهم يقولون: إن الله لا مشيئة له في فعل العبد، وليس خالقًا في فعل العبد والعبد حر يقوم ويسجد يفعل ويترك ينام ويستيقظ استقلالًا ما لله فيه مشيئة ولهذا سُمُّوا مجوس الأمة المحمدية؛ لأنهم بهذه العقيدة يجعلون للحادث خالقَيْنِ حوادث العباد مَنْ خَلَقَهَا؟ خلقها العباد، وحوادث الله خلقها الله ولهذا يسمون مجوس الأمة الإسلامية.

في الآية الكريمة ردّ عليهم، ووجه الرد قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وهذا كما قال - تعالى - في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فهذا فيه ردّ على القدرية وفيه حجة للجبرية؛ لأنه قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، إذن هم انقسموا بمشيئة الله - وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن - فهذا دليل على أن الإنسان لا اختيار له بل فعله بمشيئة الله، فيقال هذا مما احتج به مَنْ في قلوبهم زيغ؛ لأن الذين في

قلوبهم زيغ؛ يتبعون المتشابه ويدعون المحكم، يتبعون المتشابه في مثل هذه الآية ويقولون: هذا دليل على أن فعل العبد بمشيئة الله ولا يمكن لأحد أن يغير مشيئة الله، نقول: سبحان الله أنتم نظرتم إلى الأدلة بعين أعور والعين الباقية عليها غبش، أو غمش ليست جيدة، هنالك آيات صريحة في إضافة العمل للإنسان نفسه وبأنه بمشيئة الإنسان، أليس الله يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾،؟ أليس الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؟ والآيات في هذا كثيرة، أليس الإنسان يحس في نفسه أنه يفعل الفعل ولا مكره له؟ أنت تأتي إلى المسجد بدون أن يكرهك أحد، تدخل المسجد بدون إكراه من أحد، وهذا شيء ملموس، إذن ما معنى قولنا: بمشيئة الله؟ نقول: معنى فعلنا بمشيئة الله أننا مهما فعلنا من شيء فالله قد شاءه ومشيئته سابقة لمشيئتنا، ولكننا لا نعلم مشيئة الله إلَّا بعد وقوع الشيء فنعلم أن الله قد شاءه، أنا ـ الآن ـ أشاء أن أتكلم معكم، وأشاء أن أحرك يدي، أليس كذلك؟ هل شاء الله أن أتكلم وأن أحرك يدي، بماذا عرفت بوقوعه؛ لأني أعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه وأنا في ملك الله والسماوات والأرض في ملك الله إذًا لا يمكن أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، لكن أنا لا أعلم مشيئة الله إلَّا بعد وقوع الشيء، ولهذا قال بعض العلماء: إن القدر سر مكتوم لا يعلم به العباد؛ لأنه لا يعلم العباد به إلَّا بعد وقوعه.

١٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله يَمُنُّ على من يشاء فيدخله في رحمته لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾.

١٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ليس في الجنة ما يكدر وجهه لقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، والرحمة تستلزم حصول المطلوب والنجاة من المرهوب ولهذا ينادى أهل الجنة: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا»[1] وأيضًا نقول: بأن يسروا فلا يحزنوا جميع النعيم كاملة بأهل الجنة وليس فيها تنغيص لا خوف المرض ولا خوف الموت، بل إنهم لا ينامون حتى النوم لا ينامون من الفرح والسرور، حتى تكون أوقاتهم كلها مستغرقة بالفرح والسرور، وعدم نومهم دليل على كمال حياتهم؛ لأن النوم إنما نحتاج إليه لنقل التعب السابق واستجداد القوة اللاحقة أليس كذلك؟ ولهذا كلما تعب الإنسان احتاج إلى النوم، وإذا نام قام نشيطًا، إذن نحن محتاجون إلى النوم في الحياة الدنيا لنقص حياتنا، لكن في الآخرة ما في نقص دائمًا هم في سرور ـ اللهم اجعلنا منهم ـ ولهذا قال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، فالرحمة ما فيها شيء يحزن ولا يكدر وإنما كلها خير.

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (١/ ٢١٠) برقم (١٣٨٧).

١٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار ظلمة بل هم أظلم الظلمة؛ لأن أعظم الذنب الكفر أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، فأظلم الظالمين هم الكفار وإذا كنا نؤمن بهذا ـ ويجب علينا أن نؤمن بهذا ـ فهل نرجوا من الكفار خيرًا وهم أظلم الظلمة؟ لا والله لا نرجو خيرًا، لا نرجو منهم خيرًا للإسلام أبدًا؛ لأنهم أظلم الظلمة، ولهذا يجب أن تغرس في قلبك، بغض الكافرين والكفر، أن تجعلها غريزة مستقرة كامنة تبغض كل كافر وكل كفر، فماذا نفعل إذا كان في الإنسان خصال كفر وخصال إيمان؟ من القسط والعدل أن أحبه على ما معه من الخير والإيمان وأبغضه على ما معه من الكفر، والإنسان قد يكون في خصلة إيمان وخصلة كفر قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام: « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ[1] »[2] وهذان لا يخرجان الإنسان من الإيمان، انتبهوا لهذا، الكفار أظلم الظالمين ومن كان أظلم الظالمين لا يمكن أن يُرجَى منه الخير ولا العدل، واعلم أنه إن عدل فلاستغلال الفرصة ليأخذ بدل العدل مرة الظلم مرات، ـ الآن ـ اليهود نعلم أنهم أشد الناس حرصًا على المال ومع ذلك نجدهم يبذلون، ولكن يبذلون قرشا؛ ليأخذوا دينارًا، لا تفكر أبدًا في أنهم يبذلون شيئًا لله إنما يفعلون ذلك، لينالوا أكثر منه، وهذا شيء معلوم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

١٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظالمين لا يجدون ناصرًا ولا يجدون وليًّا، لا ناصرًا يدفع العذاب أو يرفعه، ولا وَلِيًّا يُواسيهم فيهوِّن عليهم المصائب، لا تجد لهم هذا، وهذا يدل على أنهم في حسرة شديدة ولا يجدون نفعًا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، في هذه الآية فوائد:

١ ـ منها: الرد على القدرية الذين ينفون القدر ويقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ لأنكم تعلمون ـ كما درستم أو بعضكم في العقيدة ـ أن الناس قد انقسموا بالنسبة لأفعال العبد إلى ثلاثة أقسام:

قسم يقول: إن العبد لا اختيار له ولا إرادة ولا مشيئة، وأنه يفعل الفعل الاختياري كالفعل الإجباري، وهؤلاء هم الجبرية، وهم الجهمية فالجهمية جبرية بالنسبة لأفعال العبد فحركة الإنسان الاختيارية كقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه واستيقاظه مجبر عليه، فهو في هذه

---

(١) قال النووى فى شرحه على مسلم : وفيه أقوال أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. والثاني : أنه يؤدي إلى الكفر. والثالث : أنه كفر النعمة والإحسان. والرابع : أن ذلك في المستحل. وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة. وقد جاء في كل واحد منهما نصوص معروفة. والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٦٧) ، وأحمد فى مسنده (١٠٤٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الحركات كالمريض الذي يرتعش من الحرارة بغير اختياره وهؤلاء ضالون؛ لأنه على قاعدتهم يكون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا عذب الإنسان المخالف يكون ظالمًا له؛ لأنه ليس يختار هم يرون أن الظلم في حق الله محال مستحيل؛ لأن الظلم تصرف الفاعل في غير ملكه، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ له ملك السماوات والأرض، ولهذا كان الظلم عندهم مستحيلًا.

القسم الثاني: يقول: الإنسان مستقل بعمله يفعل ما يشاء ولا علاقة لله ـ تعالى ـ في عمله وهؤلاء هم القدرية، الذين سماهم النبي ﷺ: «مجوس هذه الأمة[1]»[2]؛ لأن هؤلاء يقولون: الحوادث الكونية لها خالقان حوادث العباد هم يخلقونها، وحوادث الكون يخلقها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فجعلوا للحوادث خالقيْنِ، كما أن المجوس جعلوا للحوادث خالقيْنِ ولهذا سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة وعلى رأيهم يكون في ملك الله ما لا يشاؤه الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كانت أفعال العباد من غير مشيئة الله وإرادته، صار في ملكه ما لا يشاء وهؤلاء ضالون غالطون؛ لأنه كيف يكون الله هو الخالق للعبد ونقول: أن العبد مستقل عن الله ولا دخل لله في فعل العبد ولا شيء.

أهل السنة والجماعة وهم القسم الثالث يقولون: إن الإنسان يفعل باختياره وإرادته والقرآن دلّ على ذلك ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، يقولون: الإنسان له إرادة واختيار ويفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري، ولا شك فالإنسان يقوم ويقعد ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ وغير ذلك، كل ذلك لا يشعر أن أحدًا يجبره عليه ولكنه مع هذا الفعل وهذه الإرادة مخلوقة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كيف تكون مخلوقة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الإنسان نفسه مخلوق لله فإراداته التي تكون في نفسه والأفعال التي تكون في جوارحه تكون مخلوقة؛ لأن أوصاف المخلوق وأفعال المخلوق مخلوقة كما أن أوصاف الخالق غير مخلوقة، ولهذا نقول: القرآن غير مخلوق؛ لأنه كلام الله، إذن أهل السنة والجماعة ـ والحمد لله ـ هداهم الله للحق فكانوا وسطًا بين متطرفيْنِ، الآية الكريمة: (ولو

(١) قال الخطابي في المعالم: إنما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله سبحانه خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته. وخلقه الشر شرا في الحكمة كخلقه الخير خيرا، فإن الأمرين جميعا مضافان إليه خلقا وإيجادا، وإلى الفاعلين لهما فعلا واكتسابا انتهى.

(٢) كما روى أبوداود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال " القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم ". وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٢).

شاء الله لجعلهم أمة واحدة)، ترد على القدرية الذين يقولون: الإنسان مستقل بعمله، على رأيهم لا يستطيع الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يهدي الناس جميعًا أو يضلهم جميعًا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن ينقسم الناس إلى مؤمن وكافر مأخوذة من قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ لأنه لا يمكن أن تظهر أثر الرحمة إلَّا إذا انقسم الناس إلى مرحوم وغير مرحوم، فنحن نعلم لولا اختلاف الناس لم يتميز مؤمن من كافر، لولا اختلاف الناس ما قام جهاد وما قام الأمربالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن فائدة في خلق الجنة والنار إلى غير ذلك.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: في رحمته، واعلم أن الرحمة نوعان: مخلوقة وغير مخلوقة، أما غير مخلوقة فهي: رحمة الله التي هي وصفه فهذه غير مخلوق، أما المخلوقة فهي: الرحمة هي التي من آثار رحمة الله قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، هذه مخلوقة فإن (في) للظرفية ولا يمكن أن تكون رحمة الله التي هي وصفه ظرفًا لهؤلاء الذين آمنوا، إذن ففي رحمة الله أي: المخلوقة ما هي الرحمة المخلوقة؟ هي الجنة لقوله - تعالى - للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وكذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، ما المراد بالرحمة هنا؟ الصفة أم المخلوقة؟ الصفة هي المرادة هنا.

إذن: من صفات الله الرحمة، والعَجَبُ من قوم يدعون أنهم منزهون لله يقولون: إن الله لا يوصف بالرحمة - نسأل الله ألَّا يزيغ قلوبنا - ويقولون: لأن الرحمة انفعال وانكسار كما ترحم الصبي وترحم اليتيم والله - عَزَّ وَجَلَّ - منزه عن ذلك، ماذا نفعل بالآيات التي - لا تحصى - المثبتة لله؟ قالوا: نفسر الرحمة بالإنعام، فيفسرونها بالرحمة المخلوقة، أو فسر الرحمة بإرادة الإنعام، فيفسرونها بالإرادة، وهؤلاء الأشاعرة؛ لأنهم يقرون بالإرادة على أنها صفة لله - وسبحان الله - حجتهم في هذا يقولون: الإرادة دلّ عليها العقل والرحمة ما دل عليها العقل بل دلّ العقل على خلافها، فنقول لهم: ما العقل الذي دلّ على الإرادة، قالوا: العقل الذي دلّ على الإرادة التخصيص، - تخصيص المخلوقات -، الجمل له صورة معينة والشاة لها صورة معينة، بنو آدم لهم صور معينة، فكونه يجعل البعير على هذه الصفة والشاة على هذه الصفة وبني آدم على هذه الصفة تدل على الإرادة.

هناك أدلة عقلية على أن الرحمة أكثر دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، كل ما في الكون

---

(١) تقدم تخريجه.

مِنَ النعم علام يدلّ؟ إنما يدل على الرحمة، ولذلك تجد العاميَّ إذا أمطرت السماء يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته، فدلالة هذه الأشياء على الرحمة أقوى من الدلالة على التخصيص بالإرادة فنحن نؤمن أن من صفات الله الرحمة، فإذا قال: إن الرحمة تدل على الإنكسار والانفعال، قلنا: هذا بالنسبة لرحمة المخلوق أما رحمة الخالق فهي تليق به - عَزَّ وَجَلَّ -، ما فيها انكسار ولا فيها نقص ولا فيها عيب، أرأيتم الغضب؟ الغضب انفعال يحدث للإنسان حتى يفقد أعصابه، ويتصرف تصرف المجانين حتى ربما خسر ماله وضرب أولاده وطلق زوجته وربما يؤدي إلى أن يرمي بنفسه في الماء، فالغضب يفعل بصاحبه هذا؛ لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يفور دمه، هل نقول: إن غضب الله كغضب الإنسان؟ حاشا لله، إن غضب الله صفة تليق به تدل على كمال سلطانه وعلى قدرته على الانتقام، ولكنها لا يمكن أن ينتج عنها سوء تصرف أبدًا بخلاف غضب المخلوق، وكذلك: هناك قوم أنكروا رحمة الله وبماذا فسروا الرحمة؟ بواحد من أمريْن: إما الإنعام أو إرادة الإنعام، وهذا لا شك في ضلالهم وبدعهم وإرجاعهم أمور الغيب إلى ما تقتضيه عقولهم القاصرة، والحقيقة أن هذه العقول ليست عقولًا، بل هي أوهام وإلَّا فنحن نعلم علم اليقين أن ما جاءت به الشريعة لا يمكن أن يخالف صريح المعقول أبدا، صحيح المنقول لا يخالف صريح المعقول أبدًا ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كتاب (مجلدان) في بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ويسمى (درء تعارض العقل والنقل).

٤ - **من فوائد الآية الكريمة**: سوء عاقبة الظلم لقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، حتى أولياؤهم في الدنيا لا ينفعونهم في الآخرة، ليس لهم ولي يتولاهم، ولا نصير يدفع عنهم الأذى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القائم بالعدل له ناصر وولي، والدليل مِنْ مفهوم المخالفة، إذا كان الظالم لا ولي له ولا نصير فمن قام بالعدل فله ولي ونصير.

قال الله تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ٩، ١٠]

۞ التفسير ۞

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، (أم) هذه منقطعة، و(أم) المنقطعة تكون بمعنى: (بل) و(همزة الاستفهام)، وهناك (أم) المتصلة وهي التي تقع بين شيئين متقابلين، وتكون بمعنى: (أو) مثال ذلك: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، هذه (أم) متصلة لأنها بين شيئين متقابلَيْنِ؛ ولأنها بمعنى:(أو) سواء عليهم أستغفرت لهم أو لم تستغفر لهم ففي غير القرآن لو وضع (أو) بدلا من (أم) لاستقام الكلام، فإذن نقول: إن (أم) تكون منقطعة وتكون متصلة والفرق بينهما، (أم) المتصلة بمعنى: (أو)، أم المنقطعة بمعنى: (بل) و(همزة الاستفهام).

و(أم) المتصلة تكون بين شيئين متقابلين و(أم) المنقطعة بخلاف ذلك، هنا يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، ليس فيه شيئان متقابلان، إذن فهي منقطعة بمعنى: (بل) و(الهمزة)، (أم اتخذوا) الضمير يعود على المشركين ﴿مِن دُونِهِ﴾، الضمير يعود على الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ (أولياء) يقول الشارح ـ رحمه الله ـ: [أي: الأصنام]. إشارة منه إلى أن المفعول الأول اتخذوا محذوف والتقدير: أم اتخذوا من دونه الأصنام أولياءًا؛ لأن اتخذوا تنصب مفعولَيْنِ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، هذه الآية يعني: اتخذوا من دون الله، ليس أمام أعيننا إلَّا مفعولٌ واحدٌ، أم اتخذوا من دونه أولياء، يقول المفعول الثاني محذوف، والتقدير أم اتخذوا الأصنام أولياء، يقول المؤلف: أولياء يعني: [أنصارًا يستغيثون بهم ويستنصرون بهم، ويوالونهم، ويتقربون إليهم، كأنهم رب].

قال المؤلف الشارح: [أم المنقطعة بمعنى:بل التي للانتقال والهمزة للإنكار، أي ليس للمتخذين أولياء]، يعني: هؤلاء اتخذوا الأصنام أولياء، والأصنام بعضها شجر وبعضها حجر، وبعضها مخلوقات كونية، كالشمس والقمر، وبعضها مخلوقات بشرية، كل هذه لا تنفع صاحبها، ولذلك تجد المشركين إذا وقعوا في الضرورة مَنْ يَدْعُونَ؟ يدعون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فهي لا تنفع، وهم ـ أيضًا ـ مقرون بهذا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، فالله هو الولي، [أي: الناصر للمؤمنين]، والفاء لمجرد العطف]، الفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ﴾، يعني: أنها ليست جوابًا لشرط ولكنها لمجرد العطف، وقوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، انتبه في إعراب الجملة هذه، (الله) مبتدأ و(هو) ضمير فصل و(الولي) خبر المبتدأ، واعلم أن ضمير الفصل حرف وليس اسمًا، وله ثلاث فوائد، الفائدة الأولى: الحصر، والفائدة الثانية: الفصل بين الخبر والصفة، يعني: مثلًا إذا قلت: (فلان الكريم)، (فلان) مبتدأ و(الكريم) خبر، ويحتمل أن يكون فلان مبتدأ وكريم صفته والخبر محذوف وتقديره (فلان الكريم حاضر)، فإذا

قلت: فلان هو الكريم تعين أن تكون الكريم خبرًا وليست صفة ولهذا يسمونه ضمير الفصل؛ لأنه يفصل أي يميز بين الخبر وبين الصفة و ليس له محل من الإعراب، ولهذا نقول: (الله) مبتدأ و(الولي) خبره وهو ضمير فصل لا محل له من الإعراب، إذن هويفيد الحصر والتوكيد، والتمييز بين الخبر والصفة.

فإذا قلنا: (محمد الرسول)، يحتمل أن تكون الرسول صفة لمحمد وأن التقدير (محمد الرسول صادق)، وإذا أتيت بـ(هو)، وقلت: (محمد هو الرسول)، يتعين، أن الرسول خبر، هذه واحدة، ـ أيضًا ـ هو الرسول، يفيد الحصر، يعني: لا غيره، ولا شك أن محمدًا بن عبد الله هو الرسول لهذه الأمة، ولا رسول غيره، الفائدة الثالثة: التوكيد هو الرسول هذه فائدة ضمير الفصل، أما إعرابه فليس له محل من الإعراب، فـ(الله هو الولي)، قوله: هو الولي، يقول المؤلف: أي [الناصر للمؤمنين]، وفي هذا نظر؛ لأن المؤلف ـ الآن ـ قصر الولاية على الولاية الخاصة، والصواب أنها عامة، هو الولي لكل أحد، الولاية العامة والولاية الخاصة، الولاية العامة لكل أحد؛ فإنه لا يتولَّى شئون الخلق غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما الولاية الخاصة فهي ولاية النصرة والتأييد، وعلى هذا فاقتصار المؤلف ـ رحمه الله ـ على الولاية الخاصة فيه نظر، إذن هو الولي على كل أحد بالولاية العامة والولاية الخاصة، والفرق بين الولاية العامة والولاية الخاصة: أن الولاية العامة تشمل كل أحد فكل أحد فالله وليه يتولَّى أمره حتى الكافر الله وليه، والولاية الخاصة تقتضي النصر والتأييد، ومنه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وعندما أقول: هو الولي الجملة هذه فيها حصر أم لا؟ فـ(الله هو الولي) فيها حصر وطريقه ضمير الفصل.

قوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وغير الله لا يمكن أن يحيي الموتى؛ لأن الإحياء هو: جعل الشيء حيًّا بعد أن كان ميِّتًا وهذا لا يقدر عليه إلَّا الله، بل إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا أراد أن يميت أحدا، لا يمكن لأحد أن يمنع الموت، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، هل يمكن أن يرجعونها؟ لا يمكن، إذن الله يميت الأحياء ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي شيء معدوم فالله قادر على إيجاده، وأي شيء موجود فالله قادر على إعدامه، كل شيء فالله ـ تعالى ـ قدير عليه، وضد القدرة العجز، ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٠]، (ما) شرطية، و(اختلفتم) فعل الشرط فحكمه إلى الله، الجملة جواب الشرط، قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي شيء

يقع بين الناس من الخلاف فمرده إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سواء كان في الأمور الدينية أو الأمور الدنيوية، وسواء كان مع المؤمنين أم كان مع الكفار، أي شيء فحكمه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا أحد يُرَدُّ إلى حكمه إلَّا الله.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، يقول الشارح: [ما اختلفتم مع الكفار فيه من شيء]، والصواب أنه أعم، المؤلف ـ رحمه الله ـ خصه بالكفار، لاختلافنا مع الكفار، وفي هذا التفصيل نظر أيضا، والصواب أنه عام، ما اختلفتم أيها الناس مع الكفار أو فيما بينكم أيها المسلمون فحكمه إلى الله.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، يقول الشارح: [من الدين وغيره]، الدِّينُ هو: كل ما يتعبد به الإنسان لله، [وغيره] أي ما ليس كذلك، فحكمه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحده، أي مرد حكمه إلى الله ولهذا قال: [حكمه مردود إلى الله يوم القيامة يفصل بينكم]، والصواب: أنه مردود إلى الله في الدنيا والآخرة، ودليل هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا مرجع للقوانين، وأن القوانين المخالفة لحكم الله باطلة، وهو كذلك.

أولًا: لأن القانون مِنْ وضع البشر والبشر ليس عندهم إحاطة علْم لا في الحاضر ولا في المستقبل، فهم لم يحيطوا بالدنيا علمًا غاية ما هنالك أن هذا الذي وضع المادة القانونية يعرف ظواهر شعبه فقط وهل يعرف كل الناس أن هذا الحكم مناسب لهم؟ لا، بل هذا قصور.

ثانيا: وأنه لو علم أحوال الناس من حيث العموم، هل يمكن أن يعلم حال كل أحد؟لا؛ لأن الناس يختلفون حتى في الحكم الواحد، أرأيت غنيًا وفقيرًا الغني عليه زكاة والفقير ليس عليه زكاة، فالفقير يجوز دفع الزكاة له والغني لا يجوز دفع الزكاة له.

مثال آخر: العاجز والقادر، فالقادر يصلي قائمًا والعاجز يصلي قاعدًا، هل هذا الذي وضع القانون يعرف أحوال الناس بحيث يكون القانون صالحًا لكل حال مِنْ أحوال الناس؟ لا، فهذا نقص آخر.

ثالثا: واضع القانون هل يدرك أحوال الناس في المستقبل أو لا؟ لا يدرك، فمعلوم أن الأحكام تختلف باختلاف الأحوال، ولهذا نجد أن الشريعة الإسلامية تختلف عن الشريعة النصرانية والشريعة النصرانية تختلف عن الشريعة اليهودية، فهذا هو عيسى يقول: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، والدين الإسلامي جاء ـ أيضًا ـ مغايرًا لكثير من الأشياء الفرعية لما سبقه

من الأديان قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، إذن القانون قاصر من كل وجه، وإذا كان قاصرًا من كل وجه فهل يمكن أن يكون هذا الشيء القاصر مردًّا في النزاع؟ لا يمكن.

مسألة: مَنْ رجع إلى القانون فهل يكون كافرًا؟ الجواب: يحتاج إلى تفصيل، إذا لم يجد الإنسان طريقًا إلى أخذ حقه إلَّا عن طريق القانون، فليس هذا بكفر ولا محرم، فلو كنت في بلد تحكم بالقانون ولك خصومة مع شخص ولا يمكن أن تلجأ إلى حكم شرعي، فلا حرج أن تتحاكم إلى القانون، وإذا حكم لك، فهذا يعني: أنه كالشرطة، ولو لم نقل هذا لضاعت حقوق الناس وقد أشار إلى هذا المعنى المحقق (ابن القيم) ـ رحمه الله ـ في كتاب (الطرق الحكمية) لكن إذا تحاكمت إلى القانون وأنت تعلم أنه يحكم بالظلم فهل يجوز أن تتحاكم إليه أم لا؟ لا يجوز؛ لأن بعض الناس، من حيث الحكم الشرعي لا يستحق هذا الشيء، لكن باعتبار القانون يستحقه فقال أحاكمه لآخذ حقي بمقتضى القانون، ماذا نقول؟ نقول: هذا حرام ولا يجوز، مثال ذلك: ما يسمونه بالفوائد البنكية، الفوائد البنكية في الحكم الشرعي حرام أم حلال؟ حرام، وهذا الرجل يعرف أنها حرام في الشرع، لكن قال: أريد أن أتحاكم إلى القانون؛ لأن القانون سوف يمكنني منه هل يجوز؟ لا يجوز؛ لأن هذا أكل المال بالباطل، إذن التحاكم إلى الطاغوت ـ وهو ما خالف الحكم الشرعي، إن كان لاستخراج الحق لا لاعتقاد أن ما حكم به هو الحق، ـ انتبه للفرق ـ لاستخراج الحق لا لاعتقاد أنه الحق، فهذا جائز فكأنما فعلته شرطة يستخرجون حقك من هذا الذي ظلمك، وإن كان لاعتقاد أن ماجاء في القانون حق مع مخالفته للشرع فهذا حرام.

* **مسألة: حكم واضع القانون:**

إما أن يعلم أنه مخالف للشرع لكنه يعتقد أنه أنفع للخلق من شرع رب الخلق، فهذا كافر لا شك، كافر كفرًا مخرجًا عن الملة؛ لأنه مكذب لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ومكذبًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأنه وضع كتابا بدلا عن كتاب الله وهذا واضح من الكفر، أبدل دين الله بغيره، وأبدل حكم الله بغيره فهذا كافر، أما إذا كان لا يدري أنه مخالف للشرع وإنما صنع ذلك بتأويل - إن كان من أهل الاجتهاد - أو بتضليل - إن كان من غير أهل الاجتهاد - فهذا لا يكفر.

مثال: أن يعتقد أن مسألة العِينَةِ جائزة ويضعها قانونًا ومسألة العينة معروفة عندكم؟ وهو أن يبيع شيئًا بثمن مؤجل ويشتريه نقدًا بأقل، فيقول مثلًا: مادة كذا: إذا باع شيئًا بثمن مؤجل واشتراه بأقل فالعقد صحيح.

هذه المادة تخالف الشرع لكن هو لا يدري أنها تخالف الشرع، أو تأول أنها جائزة بناءً على صورة في المعاملة هذا لا يكفر وقد يكون واضع القانون المخالف للشرع عن تضليل لا هو عن

تأويل بحيث يكون الحاكم جاهلًا أُمِيًّا لكن ضلله بعض علماء الدولة فقالوا: هذا لا بأس به؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَنْتُم أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»[1] ونحن نعلم أن هذا خير لنا في الدنيا بناءً على ظنهم فهذا لا يكفر، فصار ـ الآن ـ الذي يضع قانونًا يخالف الشرع معتقدًا أنه أولى من الشرع وأنفع للخلق فهذا كافر لا نشك في هذا لكن بشرطيْنِ أولًا: يعلم أنه مخالف للشرع والثاني: أنه يعتقد أنه أنفع للخلق أو مثل الشرع حتى الذي يعتقد المماثلة فهو كافر؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، ويقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، أما مَنْ وضعه مخالفًا للشرع بتأويل أو تضليل فإنه لا يكفر؛ لأن هذا في نظره لا يخالف الشرع فلا يكفر بهذا.

الخلاصة ـ الآن ـ عندما يختلف الناس في شيء فإلى مَنْ يرجعون؟ إلى الله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فإذا قال قائل: من أين نعلم حكم الله؟ قلنا: من القرآن والسنة يفسر هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ـ الآن ـ فهمنا أن المؤلف ـ رحمه الله ـ قصر في تفسير الآية في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، حيث خصها بالمؤمنين بالولاية الخاصة.

قصر ـ أيضًا ـ المؤلف هنا (فحكمه إلى الله يوم القيامة يفصل بينكم)هذا ـ أيضًا ـ قصور والصواب أن حكم الله في الدنيا والآخرة.

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ويمر بنا كثيرًا ذلك، فلماذا تختلف الكاف من موضع إلى موضع، فالجواب: أن (الكاف) بحسب المخاطب، واسم الإشارة بحسب المشار إليه، هنا: (ذلكم) اسم الإشارة بحسب المشار إليه؛ لأنك تشير إلى لفظ الجلالة، وذلكم الله واحد ويخاطب جماعة، وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾، (ذلكم) مبتدأ و(الله) عطف بيان، و(ربي) خبر مبتدأ، يعني: الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب أن يعلن لهؤلاء: أن الله ـ تعالى ـ ربه وأنه لا رب سواه، وإنما قلنا: وأنه لا رب له سواه؛ لأن طرفي الجملة معرفة، وإذا كانت الجملة قد عرف طرفاها دلت على الحصر، ولو سألنا سائل: بما تعلقت الكلمة (عليه)؟ قلنا: تعلقت بـ(توكلت)، بما تعلقت إليه؟ قلنا: العامل مؤخر عن المعمول في (عليه توكلت) وفي (إليه أنيب)، والقاعدة عند البلاغيين، أنه إذا تقدم ما حقه التأخير كان ذلك دليلًا على الحصر، فـ(عليه توكلت) بمنزلة: ما توكلت إلَّا عليه، (إليه أنيب) بمنزلة: ما أنيب إلَّا إليه.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: فوضت أمري إلى الله تفويضًا كاملًا، والتوكل على الله ليس كالتوكل على البشر، والتوكل على البشر بمعنى: أنك تعطيه التصرف في أن يشتري لك شيئا،

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) عن أنس وعائشة رضي الله عنهما.

وهذا تفويض خاص، وأيضًا تفويض وأنت تعتقد أنت صاحب الشأن فيه، بمعنى: لو شئت لعزلته لكن توكلك على الله تفويض إلى الله في كل شيء ولا يمكنك أن تفسخ الوكالة حتى ولو فسختها فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكيل عليك، وبهذا نعرف الفرق بين أن يقول القائل: توكلت على فلان بمعنى: أي وكلته، وتوكلت على الله، هل توكلت على الله مثل توكلت على فلان؟ لا أبدًا وإن اتفق اللفظان لكن يختلف المعنيان اختلافا عظيما، لاحظوا: توكلت على فلان أي: فوضته بأمري والأمر إِلَيَّ إن شئتُ عزلتَهُ، لكن إن توكلتُ على الله فوضتُ أمري إليه مستندًا إليه جل وعلا في تيسير أمري وتسهيله وحينئذ لا نقول: إِنَّ مَنْ توكَّل على شخص في شراء أي شيء يكون مشركا بالله، ما نقول هذا؛ لأن الفرق العظيم بين توكلي على الشخص الذي وكلته أن يشتري حاجة وبين توكلي على الله، توكلي على الله تفويض واستعانة، لكن على الشخص لا، استخدامي له في الواقع، توكيلي إياه أو توكلي عليه في الوكالة عبارة عن استخدام، ولهذا متى شئت، قلت: لا أتوكل عليه وأعزله، لكن بالنسبة في التوكل على الله ليس كذلك فما هو التوكل على الله؟ هو التفويض لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تفويضًا تاما، وبعضهم يقول: صِدْقُ الاعتماد على الله، يعني: التوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يفسر هكذا، وهذا التوكل على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعني: إلغاء الأسباب ولهذا لو قيل لرجل: تزوج حتى يأتيك أولاد، قال: أنا متوكل على الله، نقول: لا يصح مثل هذا التوكل افعل الأسباب وتوكل، وفي المَثَل اعقلها وتوكل يعني: لا تطلق الناقة وتقول: أنا متوكل على الله، الناقة إذا أطلقتها ذهبتْ حيث شاءتْ، وحتى ولو كنتَ متوكلًا على الله، افعل الأسباب، لو أن فلانًا قيل له: ابتغ الرزق وبع واشتر، اعمل الأسباب التي تحصل بها المال، فقال: أنا متوكل على الله، هل هو صادق؟ لا، هذا توكل المتهاونين، إذا كنت صادقًا في التوكل على الله فاعمل بالسبب ولكن لا تعتمد على السبب، اجعل السبب سببًا، والمدبر هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، يعني: أرجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في عباداتي وفي جميع أحوالي.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** الإنكار على الذين اتخذوا من دون الله أولياء، أم هنا بمعنى: (بل) وهمزة استفهام أم الإنكارية.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء طلبوا شيئًا من غير محله لقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، فهو الذي ينبغي أن يتخذ وليًا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الولاية لله؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، وهل هي عامة أو لا؟ في الجلالين صرح بأنها ولاية خاصة فقال: [ولي المؤمنين] والصحيح أنها عامة فالله ولي كل أحد فإن الله ـ تعالى ـ ولي للكافرين، يرزقهم ويعافيهم، ويدفع عنهم السوء ويتولاهم، كما قال

تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾، لكن نقول: الولاية قسمان: عامة وخاصة كما بيناها في التفسير.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا ولاية لأحد من دون الله، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿هُوَ﴾؛ لأن (هو) ضمير فصل يفيد الحصر.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على أمر لا أحد يدَّعيه، ومن ادعاه فهو كاذب لقوله: ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، هذه الجملة لا يدَّعيها أحد ولو ادَّعاها فهو كاذب، فإن قال قائل: أليس يؤتى بالرجل يستحق القتل فيأمر السلطان ألَّا يقتل أليس هذا إحياء؟ الجواب: لا، ليس هذا إحياء، لا يمكن أن يكون إحياءً، ولكنه استبقاء الحياة؛ لأنها الحياة السابقة هو لم يجعل في هذا حياة فيبقى، ولكنه استبقى حياة موجودة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾، فأثبت الإحياء للإنسان، الجواب: أحياهم بإبقاء حياتهم الموجودة، يعني: مَنْ رفع القتل عن الإنسان ودافع عن شخص يقتل فهو كأنما أحيا الناس جميعًا، ومن المعلوم أنه لا أحد يستطيع أن ينفخ الروح في الميت!

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: عموم قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

١١ـ **ومن فوائدها**: حث الإنسان على أن يدعو الله لكل ما أراد ما لم يعتدِ في الدعاء، انتبه يا أخي فهذه فائدة تربوية أن تدعو الله بكل شيء إلَّا ما حرم الله عليك الدعاء به، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فإنك إذا دعوت الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأي شيء لا تيأس، لا تقل: هذا لا يمكن، إنما كان عدوانًا واعتداءً فلا يجوز، وهذا يفتح للإنسان باب الرجاء، وباب دعاء الله، واللجوء إليه، لو كان عندك مريض مدنف، فهل تقول: لا أستطيع أن أدعو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الرجل وصل إلى حالة خطيرة، فهذا لا شك خطأ؛ لأن الله على كل شيء قدير، فادعُ الله، إنسان تقطعت به الأسباب، طلب الرزق في البيع والشراء فخسر، طلب التقديم في الوظيفة فلم ينجح، وهكذا، قال: إذن ما الحاجة إلى الدعاء، ماذا نقول له؟ نقول له: هذا خطأ، ادعُ الله فالله على كل شيء قدير، كم من إنسان دعا له الناس واشتروا له الكفن وقربوا له النعش وتهيأ أصحابه لتشييعه ثم يعافيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الله على كل شيء قدير، إذن متى آمنت يا أخي بأن الله على كل شيء قدير، فلا تستصعب شيئًا على قدرة الله، اسأل الله كل شيء ما لم يكن إثمًا أو قطيعة رحم ولا تيأس، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذه الجملة كما قلت لكم تفيد أن الإنسان لا ييأس من رحمة الله ـ

عَزَّ وَجَلَّ ـ وأن يدعو الله ـ تعالى ـ بكل ما أراد ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم[(١)].

الفوائد:

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ في هذه الآية من **الفوائد:**

١ ـ **ومنها:** أنه لابد أن يكون هناك اختلاف بين الناس وهذا هو الواقع، يعني: لا يمكن أن ترفع الخلاف بين الناس، لا بد أن يختلفوا، وأسباب الاختلاف كثيرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتابه: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وهو كتاب مختصر نافع، لخصناه وزدنا عليه بعض الشيء وذكرنا الأمثلة التطبيقية على القواعد التي ذكرها ـ رحمه الله ـ في كتاب سميناه: (اختلا ف الأئمة وموقفنا نحوها)أو معنى كهذا وهو مفيد.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الواجب عند الاختلاف الرجوع إلى حكم الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم لله في الدنيا والآخرة لعموم قوله: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾، وأما مَنْ خَصَّ ذلك بالآخرة فخطأ حتى في أمور الدنيا نرجع إلى أمر الله كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** تحريم الرجوع إلى قوانين البشرية عند الاختلاف، لقوله: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾، لا إلى غيره، فإن قال قائل: ألستم تقولون: إن قول الصحابي بحجة؟ الجواب: بلى، على خلاف في هذا، فالمسألة ليست إجماعية، لكن على القول بأن فقهاء الصحابة أقوالهم حجة، قلنا: بلى، نقول بذلك، لكننا مستندون إلى قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ[(٢)] الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»[(٣)]؛ لأن الصحيح أن الخلفاء الراشدين اتباعهم معلقٌ بأوصاف لا بأعيان، يعني: ليس الخلفاء الراشدون هم الأربعة بل كل مَنْ خَلَفَ النبي ﷺ في أمته علمًا ودعوةً وتعليمًا هذا خليفة راشد، وأرشد مَنْ خَلَفَ النبي ﷺ هم

(١) كما روى مسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء.

(٢) قيل هم الأربعة رضي الله عنهم وقيل بل هم ومن سار سيرتهم من أئمة الإسلام المجتهدين في الأحكام فإنهم خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام في إعلاء الحق وإحياء الدين وإرشاد الخلق إلى الصراط المستقيم. حاشية السندى على ابن ماجه.

(٣) صحيح : رواه أبوداود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه ، وصححه الألبانى فى الإرواء (٢٤٥٥).

الصحابة رجوعًا إلى حكم الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إعلام النبي ﷺ بالإخلاص والتوحيد لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، أي: ذلك الذي يُرْجَعُ إلى حكمه هو الله ربي.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مِنْ هَدْي النبي ﷺ التوكل على الله وحده، لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لكن كلمة (وحده) مِنْ أين أخذناها؟ من الحصر الذي طريقه تقديم ما حقه التأخير.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من هدي الرسول ﷺ الإنابة إلى الله - تعالى - وحده، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وإذا كان هذا من هدْي الرسول ﷺ وجب علينا أنْ نأخذ به، لقوله - تعالى -: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]

❁ التَفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، (فاطر) خبر المبتدأ المحذوف والتقدير: (هو فاطر)، وإنما قلنا هذا؛ لأن اللغة العربية لا يمكن أن يتركب بها كلام إلَّا من مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل أو ما ينوب مناب الفاعل، فاطر أي: هو فاطر، والفاطر بمعنى: الخالق على غير مثال سبق، فهو بمعنى:بديع السماوات، والسماوات والأرض معروفتان، فالسماوات هذه السبع التي أخبرنا الله عنها، وبين أنها سبع شداد، وبين - سبحانه وتعالى - أنه بناها بأيد فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، أي: بقوة، وليس المراد بالأيد في هذه الآية يد الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الله لم يضفها إلى نفسه، لم يقل بأيدينا، قال: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾، وأيد مصدر آد يئيد، إذا قوي فهو كقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، هذه السبع الشداد إذا كان يوم القيامة قال الله عنها: إنها تكون واهية، وقوله: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة، أما الأرض فهي أرضنا المعروفة، والسماوات مجموعة لأنها سبع، والأرض مفردة يراد بها الجنس، وقد بين الله - عَزَّ وَجَلَّ - في سورة الطلاق أنها سبع فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، ومن المعلوم: أن المماثلة هنا ليست مماثلة في الذات، إذ أن بين السماوات والأرض بونًا شاسعًا، لكن المراد مثلهن في العدد، ويؤيد ذلك ما جاءت به السنة، فقد قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرضِين»[1].

قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، جعل يقول المفسر: [مبدعها]، يريد أن يفسر فاطر بمعنى: مبدع، ولكننا فسرناها بمعنى: بديع وتفسيرنا لا ينافي تفسيره فالمعنى واحد، لكن مطابقة اللفظ بما جاء به أولى، والذي جاء في القرآن بديع وليس مبدع.

قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: صير لكم من أنفسكم أزواجًا، قال الشارح: [حيث خلق حواء من ضلع آدم]، كأنه يميل ـ رحمه الله ـ إلى أن الأزواج هنا حواء، ولكن هذا غير صحيح بل جعل من أنفسنا أزواجًا يعني: نساء مشاكلات لنا، لم تكن الأنثى بعيدة عن شكل الرجل؛ لأنها لو كانت بعيدة عن شكل الرجل ما ألفها، ولا جعل الله بينهم مودة ورحمة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم، وليس المراد من نفس الإنسان أن جعل له زوجًا، لا، لو كانت من نفسه لم تكن زوجًا لكانت بنته، لكن المراد من أنفسكم أي: من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾.

وجعل لكم ـ أيضًا ـ من الأنعام أزواجا، الأنعام جمع نعم كبهيمة الأنعام، أزواجا أي: ذكورًا وإناثًا من أجل الإنتاج والتنمية، وغير ذلك من المصالح.

قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، [بالمعجمة]، قال: [يخلقكم] ما معنى معجمة؟ هل في القرآن شيء أعجمي؟ لا، لكن يعبرون بالمنقوط من الحروف بأنه مُعْجَم، من باب تسمية الشيء بضده، وإلَّا فهو معرب في الواقع؛ لأنه لولا هذه النقط مثلًا لأشكل ولا يفهم المعنى، إذن المعجم المنقوط، وسمي بذلك من باب تسمية الشيء بضده، كما يسمون التعبد بالتحنث كما في حديث بدء الوحي: يتحنث فيه، أي: يتعبد. إذن المعجمة ضدها المهملة، فالشين ضد السين، والذال ضد الدال، وهكذا، أما الحركات فيسمونها مثلثة أو بالوجهين أو ما أشبه ذلك، وأحيانا يقولون: إذا كانت الكلمتان المشتبهتان كلتاهما معجمة قالوا: بالمثلثة، مثل التاء والثاء فلو قالوا معجمة ما زال الإشكال، ولكن يقولون: بالمثلثة، التاء والظاء يقولون: بالظاء المشاله، يعني، التي فيها ألف، احترازًا من الضاد؛ لأنها غير مشالة، المهم أن هذه المصطلحات معروفة عند العلماء.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، فسر المؤلف يذرأ [بيخلق]، وهو تفسير ناقص؛ لأن يذرأ لها

(١) تقدم تخريجه.

معنى زائد على الخلق وهو البث والانتشار، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، فالذرء أخصّ من الخلق، فمعنى يذرؤكم إذن يبثكم فيه وينشركم.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾، أي: [في الجعل المذكور]، ثم قال: أي: [يكثركم بسببه]، انظر فسر أولًا: يذرؤكم بيخلقكم، ثم قال: أي، يكثركم والتفسير الثاني: هو الأصح، التكثير والبث والنشر، بالتوالد، قال: [والضمير للأناسي والأنعام بالتغليب]، كيفْ للتغليب؟؛ لأن الضمير هنا جاء ضمير العاقل والأنعام لا يأتي لها ضمير العاقل؛ لأنها غير عاقلة، لكن جاء ذلك للتغليب، لما كان الذرء للإنسان والبهائم قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، ولم يقل: يذرءكن، التغليب قد يكون بتغيير الاسم وقد يكون للضمير وما أشبه ذلك، القمران للشمس والقمر هو تغليب بتغير الاسم؛ لأن القمران لو فككتها عن التثنية لكانت قمر وقمر وليس كذلك بل المراد: قمر وشمس فهنا بتغيير الاسم، فالضمير هنا في قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، يعود على ما سبق ذكره من بهائم وأناسي عل سبيل التغليب، ولولا التغليب لوجب أن يكون الضمير ضميرًا مؤنثًا للبهائم، وضميرًا مذكرًا للأناسي.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، السميع [لما يقال]، والبصير [لما يفعل]جل وعلا.

قال المؤلف: [ليس كمثله الكاف زائدة لأنه ـ تعالى ـ لا مثل له]، وزيادة الكاف ليس غريبًا تأتي دائمًا زائدة ولهذا قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية التي ينبغي لطالب النحو ألّا يترك حفظها:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلِ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ(١)

يعني: قد تأتي زائدة، في هذه الآية (الكاف) زائدة، بمعنى:أنها لو حذفت لاستقام الكلام، لو قيل: (ليس مثله شيء) يستقيم الكلام، لكن لماذا جاءت الكاف؟ جاءت للتوكيد، كأنه نَفَى المثل مرتيْنِ، ليس كهو ليس مثله، فالزيادة هنا فيها زيادة معنى كأنه نفى المثلية مرتيْنِ، مرة عن طريق الكاف ومرة عن طريق المثل، وبعضهم يقول: إن الزائد (مثل) وأن التقدير (ليس كهو شيء)، لكن هذا قول ضعيف؛ لأنه إذا دارت الزيادة بين أن تكون حرفًا أو اسمًا، فالواجب أن تكون الزيادة حرفا؛ لأنه لم يأتِ في اللغة العربية زيادة في الأسماء، ولأن الحرف معناه في غيره فمجيئه زائدًا ليس بغريب، والاسم يدل على معنى في نفسه، فإتيانه زائدًا بعيد، إذن عندنا قولان:

الأول: أن الكاف زائدة وهذا سهل وجرى في اللغة العربية مثله، وتكون الزيادة هنا للتوكيد، وبعضهم قال: الزائد (مثل)، وقوله ضعيف.

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٢٥).

بعضهم يقول: إن المثل هنا بمعنى:الصفة، يعني: ليس كصفته شيء، والمثل تأتي بمعنى:الصفة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: صفته، وهذا ـ أيضًا ـ ضعيف؛ لأننا نقول إن الله ليس مثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته.

بعضهم يقول: إن هذا على سبيل المبالغة، يعني: إذا لم يكن لمثله مثل، لو فرض أن له مثلًا فمن باب أولى ألَّا يكون له مثلٌ، وأن هذا مثل ما جرى عليه لسان العرب في المبالغة في الوصف، وأنشدوا على ذلك: لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْر

من المبالغة، يعني: هذا لا نظير له إطلاقا وهذا الأخير والأول هما أقرب الأقوال في إعراب هذه الجملة، لكن من حيث المعنى والاعتقاد نؤمن بأن الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ليس كمثله شيء في كل شيء، يجب علينا أن نؤمن بهذا، فذاته مخالفة لجميع الذوات، نحن نرى أن الذوات مختلفة، فالإنسان مركب من لحم ودم وعصب وعظم، وهناك أشياء مركبة من جواهر أخرى، الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مباين لكل موجود في الكون، في ذاته، لا تقل مثلًا: إنه مثل الذهب مثل الفضة وما أشبه ذلك، ولهذا لما قال المشركون للرسول ﷺ: يا محمد هل ربك من ذهب أو من فضة أو من كذا ومن كذا[1]، أنزل الله قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فلا تتصور ذات الرب أبدا؛ لأنك مهما تصورت - على أي شيء تتصورها - فإنه لا مثيل له ولا نظير له، كذلك في صفاته ليس له مثيل ولا نظير في أي صفة من صفاته، ولنأخذ على ذلك مثالا وهو العلم، فالعلم من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هل له نظير في هذه الصفة؟ لا نظير له في هذه الصفة أبدا، علْم كل ذي علْم محدود، فأعلم الناس علمه محدود، أليس كذلك؟ بلى، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾، أنت بنفسك لا تدري ماذا تكسب غدًا، قد تقدر أنك تعمل كذا وكذا، لكنك لا تعمل إما لصرف الهمة أو لمانع خارجي، أليس كذلك؟ كلنا نقدر أن غدًا نفعل كذا وكذا، لكن ما نفعل، ولا ندري ما يكون، قد يصرف الله همتنا عن هذا الفعل، أو توجد موانع خارجية من مرض أو سفر أو حيلولة بيننا وبين مرادنا.

أيضًا علمك محدود بالمشاهدة، الغائب لا تفكر أن عندك منه علمًا، بل حتى في المشاهدة علمك ناقص، الإنسان لا يعلم ماذا يفعل وهو في بيته، ولا أهله في بيته، بل أشد من هذا وأضعف في العلم، أنك لا تعلم عن نفسك وروحك التي بها حياتك، وهي في جسمك ما تدري عنها، لما

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤)، والدر المنثور (٤/ ٦٢٥ و ٦٢٦).

سألوا النبي ﷺ عن الروح[1] أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، ثم وبخهم على هذا السؤال، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، كأنه يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: تسألون عن الروح وأنتم ما أحطتم بالأشياء، ما علمتم عن الأشياء إلَّا قليلًا، ما بقي عليكم إلَّا علم الروح حتى تسألوا عنها! فإذا كان الإنسان لا يعلم روحه التي بين جنبيه وبها حياته، فهو دليل على نقصان العلم، فعلم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أعظم، اسمع ماذا يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، كل إنسان، كل حيوان، يعلم ما في نفسه، هل علم المخلوق مثل هذا ؟!

ومثال آخر: القدرة ليس لأحدٍ بل لو اجتمع الخلق كلهم بِقُدَرِهم ما ساووا شيئًا من قدرة الله، فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على كل شيء قدير، اسمع، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، يعني: البعث صيحة واحدة يصيح بهم: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كلهم في أقطار الدنيا ولو في الغابات والكهوف وأعماق البحار، كلهم يأتون في آن واحد، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، هذه القدرة هل يمكن أن يماثلها قدرة أو يشابهها؟ لا يمكن أبدا، لذلك نقول: إن الله ليس كمثله شيء، واعلم أن هذه الآية استدل بها المعطلة والممثلة وأهل السنة.

الممثلة قالوا: وهو السميع البصير إثبات يدل على المماثلة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ -هذه شبهتهم- خاطبنا بالقرآن، والقرآن جعله الله بلسان عربي من أجل أن نعقل ونفهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فإذا خاطبنا الله بشيء مما وصف به نفسه وجب أن نحمله على ما نفهم، ونحن لا نفهم إلَّا ما نحس به، فيجب أن تحمل كل صفة لله على ما كان معلومًا، ولذلك قالوا: إن الله ـ تعالى ـ مثل خلقه ـ نسأل الله العافية ـ، والله لو كان مثلنا ما عبدناه، ولا يمكن أن يعبد الإنسان مثله، لكن هم بعقولهم الضالة قالوا: يلزم مما أخبر الله به عن الصفات أن تكون مثل صفاتنا والشبه أن الله خاطبنا بما نفهم ونعقل، ونحن لا نفهم إلا ما نشاهد، فإذا خاطبنا عن شيء غائب وجب أن نحمله على المعلوم عندنا.

أما المعطلة فقد استدلوا ـ أيضًا ـ بهذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقالوا: كل صفة أثبتها الله لنفسه فإنها تدل على التمثيل فيجب أن تكون منفية، وإن فتحت لهم الباب وجدتهم ممثلة؛ لأنهم يقولون: كل صفة أثبتها الله لنفسه فإنها تستلزم التمثيل، والتمثيل ممتنع، إذن يجب أن تمتنع كل صفة، مثال ذلك: يقولون إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يستو على العرش، - والاستواء حقيقي -؛ لأنه لو كان مستو على العرش لكان جسما، فيكون مماثلًا للمخلوق، فهم تصوروا أن استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على الأنعام، فلما فهموا هذا الفهم أنكروا الاستواء، فالإنسان يستوي

---

(١) كما روى البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

على البعير، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، فهم فهموا استواء الله على العرش كاستواء الإنسان على البعير، وقالوا: هذا تمثيل، والتمثيل مستحيل على الله فيجب إنكاره، وهذا قول المعتزلة والجهمية وَمَنْ ظاهرهم، نفوا كل صفة لله، وقالوا: لا يمكن أن نصف الله بشيء، وشبهتهم في ذلك: أن الإثبات يستلزم التمثيل والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد نفى أن يكون له مِثْل، وأيضًا المماثلة مستحيلة عقلا فيكون دليلهم العقل - على زعمهم - والشرع على أن الله ليس له مثيل، فيجب أن ننفي جميع الصفات.

هؤلاء حقيقة أمرهم أنهم مثَّلوا أولًا ثم عطَّلوا ثانيًا، مثلواأولًا حيث اعتقدوا أن الأدلة تدل على التمثيل وهذا اعتقاد فاسد، ثم بعد ذلك عطّلوا وأنكروا، ولكن هذه الشبهة دَفْعُهَا يسير.

نقول لهم: هل تثبتون لله وجودًا؟ إما أن يقولون: لا، وإما أن يقولوا: نعم، أليس كذلك ؟!، فإذا أثبتوا لله وجودًا، نقول: هل هو وجود حقيقي أو وهمي؟ إن قالوا: وهمي! كفروا ما في شك في كفرهم، وإن قالوا: حقيقي، قلنا لهم: هل تثبتون لأنفسكم وجودا؟ إما أن يقولوا: نعم وإما أن يقولوا: لا، فإن قالوا: لا، فلا نخاطب أشباحهم بشيء، لكن لن يقولوا: لا، يقولون: نعم، نثبت لأنفسنا وجودًا، نقول: إذن يلزمكم التمثيل؛ لأنكم أثبتم لله ـ تعالى ـ صفة هي ثابتة للمخلوق فيلزمكم التمثيل، انظر الباطل لا بد أن يندحر، لكن انفك قوم عن هذا الإلزام من الغلاة وقالوا: لا نقول: إن الله موجود، ـ أعوذ بالله ـ إذن مَنْ تعبدون ؟! نقول لهم: إذا قلتم: إنه غير موجود لزم من ذلك أن تقولوا هو معدوم، إن قلتم إنه معدوم مَثَّلْتُمْ؛ لأن الموجود من الخلق يكون معدومًا قبل وجوده وبعد وجوده قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ وهذه حقيقة، الواحد منَّا قبل ولادته بسنتين ليس بشيء معدوم، فإن قلتم: إن الله معدوم شبهتم ومثلتم على قاعدتكم، قالوا: إذن نقول: لا موجود ولا معدوم، نقول: الله أكبر، هل يمكن أن يكون الشيء لا موجودًا ولا معدوما، كل شيء إما موجود أو معدوم؛ لأن تقابل الوجود والعدم تقابل تناقض والمتناقضان لا بد من وجود أحدهما لا يمكن أن يجتمعا ولا يمكن أن يمتنعا، فإذا قالوا: لا معدوم ولا موجود، قلنا لهم: شبهتموه بالمستحيلات والممتنعات فأهل الباطل لا مفر لهم من لوازم الباطل.

تكائس قوم وقالوا: نحن لا نقول: إنه لا يتصف بصفة لكننا نصفه بما نحكم به عليه، ولا يحكم به على نفسه، قالوا: لا ننكر الصفات لكن نصفه بما نحكم به عليه، لا بما يحكم به على نفسه، وهؤلاء المتكائسون: هم الأشعرية، أثبتوا بعض الصفات وأنكروا أكثر الصفات، أثبتوا من الصفات سبعاً، وأنكروا الباقي، فأثبتوا الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام، وأنكروا الباقي، قالوا: لا نثبت من الصفات على وجه الحقيقة إلَّا هذه الصفات السبع ـ على

اختلاف بينهم وبين أهل السنة في بعضها فالكلام عندهم غير الكلام عند أهل السنة ـ والباقي لا يثبتونه، نقول لهم: ماذا تصنعون إذن في عدم إثباته، قالوا: لنا فيه طريقان:

أما التفويض بأن نقول: لا ندري ما معناها، وأما التأويل الذي يسمونه تأويلًا هو في الحقيقة تحريف، والأشاعرة هم أكثر الناس انتشارًا في البلاد الإسلامية، ولهذا يجب أن نعرف مذهبهم تمامًا، ونعرف الردَّ عليهم، حتى يتقلص هذا المدُّ أو يزول بالكلية ـ ونحن نسأل الله ـ تعالى ـ أن يزيله إلى الحق.

يقولون: نثبت هذه الصفات السبع وغيرها لا، ولذلك يقولون في استعمالهم في النصوص: ما سوى هذا إما نفوضه ونقول لا ندري معناه وإما أن نؤوله ونحن نسمي تأويلهم: تحريفا؛ لأن التأويل الذي لا دليل عليه تحريف وفي ذلك يقول ناظم عقيدتهم:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيها أَوِّلْهِ أو فَوِّض تَرُمْ تَنْزِيها[1]

نقول: إن أَوَّلْنَاهُ ـ وهو التحريف ـ فإننا لَمْ نَرُمِ التنزيه بل وقعنا في العيب، ووجهه: أننا إذا قلنا: لا نعلم المعنى فهذا يعني: أن الله أنزل علينا كتابًا مجهولًا، لا ندري ما معناه، ولا نفهم إذن ما يتعلق بأمور العبد كالصلاة والزكاة وغيرهما، وإن حَرَّفْنَاهُ وقعنا ـ أيضًا ـ في بلاء وقعنا في اتهام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه لم يبين لعباده إلَّا ما كان خلاف الحق، وكلاهما شيء كبير، حتى إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول: إن قول أهل التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد وأنه هو الذي فتح للفلاسفة القدْح في الدين، وقال: إذا كنتم لا تعلمون المعنى وأنتم عجم بالنسبة للقرآن العربي، نحن نعرف معناه، وصاروا يخبطون خبط عشواء.

نعود إلى مذهب الأشاعرة، يثبتون لله سبع صفات: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام ومع ذلك إثباتهم لها ليس كإثبات أهل السنة، نضرب مثلًا بالكلام، يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت مسموع أبدًا وإنما كلامه هو المعني القائم بنفسه، وما يسمعه العباد إنما هو عبارة عن الكلام المخلوق، فلما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لنبيه ﷺ: إني فرضت عليك خمسين صلاة[2]، - بهذا اللفظ أو معناه -، الله ـ سبحانه ـ ما قاله؛ لأن الكلام معنى قائم بنفسه - على زعمهم - خلق أصواتًا للنبي ﷺ تعبر عما في نفسه، سبحان الله، ـ الآن ـ لو تفكرنا لوجدنا قولهم هذا أخبث من قول الجهمية، الجهمية عندهم صراحة قالوا: كلام الله مخلوق ومسموع لكنه مخلوق، هؤلاء قالوا: كلام الله غير مخلوق ولكنهم قالوا: لكنه غير مسموع وهو المعنى القائم

---

(١) الفواكه الدواني (١/ ٤٨) ونسبه إلى صاحب الجوهرة.

(٢) راجع صحيح البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

بنفسه، ويخلق أصواتا تسمع تعبر عما في نفسه، أيهم أصرح؟ الجهمية أصرح.

ما بين أيدينا القرآن هذا، الجهمية يقولون: هذا كلام الله حقيقة لكنه مخلوق، الأشاعرة يقولون: لا هذا ما هو كلام الله حقيقة هذا عبارة عن كلام الله وكلام الله هو المعنى القائم بالنفس أيهم أحسن؟ الأول وكلاهما غير حسن، لكن نحن نقول: أحسن كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ يومئذ فيما أصاب أهل النار ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، مع أن ما فيه خير لأهل النار، - على كل حال - الأشعرية أثبتوا سبع صفات قيل لهم: ما هو الدليل على إثبات الصفات السبع ولكن ما سواها، قالوا: الدليل العقل، فالعقل دل على هذه الصفات السبع لله ولم يدل على إثبات غيره إذن حَكَّموا العقل فيما يثبتون لله، ولا يحكمون الله فيما يثبت لنفسه، وهذا عدوان في حق الله - عَزَّ وَجَلَّ -، من الذي يحكم على نفسه لنفسه؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنتم تحكمون على الله، قالوا: إن الله خاطبنا ولنا عقول، لا بد أن نُعْمِلَ العقول، قلنا لهم: أعطونا دليلًا عقليًا على هذه الصفات السبع، قالوا: نعم نعطيكم أدلة.

فمثلًا: الإيجاد يدل على القدرة؛ لأن العاجز ما يستطيع أن يُوجِدَ شيئًا، ومعلوم أننا نرى المخلوقات تتواجد شيئًا فشيئا، قالوا: إيجادها يدل على القدرة، إذن المخلوقات الكائنة بعضها إنسان وبعضها حصان، وبعضها جمل، وبعضها شمس، وبعضها قمر، وبعضها أرض، وهذا التخصيص يدل على ماذا؟ يدل على الإرادة لولا الإرادة ما صار هذا كذا وهذا كذا،فهذا يدل على القدرة، هذه المخلوقات محكمة متقنة ما فيها تناقض ولا تصادم فنحن لم نر الشمس يومًا من الأيام اصطدمت بالأرض أو بالقمر فالمحكَم والمتقَن يدل على العلم، إذن ثبت ثلاث صفات عن طريق العقل وهي: العلم والإرادة والقدرة وقالوا: هذه الصفات لا يمكن أن تقوم إلَّا بحيٍّ فثبت بذلك صفة الحياة، قالوا: والحي إما أن يكون سميعًا بصيرًا متكلما، أو أصم أبكم أعمى، والأول كمال والثاني نقص، والله - تعالى - منزه عن النقص، فوجب أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا.

أما نحن - أهل السنة - قد نوافقهم على هذا ونقول: إن العقل دلَّ على هذا، لكن ما سوى هذه دل عليه الشرع، ونحن نتنزل معهم إلى آخر شيء، نقول: ما سوى ذلك دلَّ عليه الشرع، ومن المعلوم: أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ لأن الأدلة قد تتعدد على مدلول واحد، فإذا قدرنا أن العقل لم يدل على الصفات التي أثبتها سوى السبع، فقد دلَّ عليها الشرع، والشرع يثبت بدليل واحد وبدليلَيْنِ وبثلاثة، المهم أن يكون له دليل هذه واحدة.

جواب آخر: أن نمنع من كون العقل أنه لم يدل على بقية الصفات، ونقول: بقية الصفات منها ما دلَّ عليها العقل ومنها ما دلَّ عليها السمع فقط، فمثلًا: إنزال المطر، إنبات النبات، رفع الوباء، بسط الرزق، ممن هذا؟ من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، علام يدل هذا؟ يدل على الرحمة، دلالة واضحة أقوى

من دلالة التخصيص على الإرادة؛ لأن دلالة التخصيص على الإرادة لا يفهمها إلَّا طالب العلم المختص، حتى طلبة العلم أحيانًا لا يفهمون هذه الدلالة على الإرادة، ربما يقول طالب العلم: كيف يدل التخصيص على الإرادة؟، كون هذه الأمور النافعة، حصول النعم ودفع النقم تدل على الرحمة، هل هو خفي أو واضح؟ واضح حتى للعامي، العامي يخرج من بيته في الصباح وقد جاء المطر بالليل، فيقول: مطرنا بفضل الله ورحمته، وهو عامي، فنقول لهم: ما نفيتموه زاعمين أن العقل لا يدل عليه فلنا عنه جوابان، الجواب الأول: لا نسلم أن العقل لا يدل عليه، بل نقول: إن العقل يدل عليه وإن كان لم يدل على كل الصفات لكن دَلَّ عليها في الجملة.

ثانيًا: نقول: هَبْ أن العقل لا يدل عليه، لكن دلَّ عليه السمع، القرآن والسنة، ولا يلزم من انتفاء دلالة العقل ألَّا يثبت الشيء بدليل آخر؛ لأن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، فهذه قاعدة مفيدة، وأضرب لكم لذلك بشيء محسوس، مكة كم لها من طريق؟ لها طرق متعددة، إذا قدر أن هذا الطريق امتنع السير فيه لوجود قطاع طريق أو وجود أمطار أفسدتها أو ما أشبه ذلك ألا يمكن أن نصل إلى مكة من طريق آخر؟ بلى، يمكن أن نصل، هكذا المعاني.

إذن: إذا انتفى دليل من الأدلة وجدنا دليلًا آخر، هل يمكن أن ننكر هذا المدلول؛ لأن أحد الأدلة غير قائم؟ لا، إن كان هذا الدليل غير قائم فهناك دليل آخر، ولذلك هدى الله أهل السنة والجماعة إلى القول الوسط، لا تمثيل ولا تعطيل، قالوا: نثبت لله -عَزَّ وَجَلَّ- جميع ما وصف به نفسه في القرآن وما صحت به السنة، لاحظوا لازم من القيد بالنسبة للسنة، فيما صحت به السنة؛ لأن من الأحاديث ما هو ضعيف أو موضوع، القرآن لا تقل: ما صح في القرآن؛ لأن كله صحيح، أما السنة فلا بد أن تقيد، أو ما صحت به السنة، نثبت كل صفة: ولا نتحاشى، ولا نتهيب، إذا كان الله -عَزَّ وَجَلَّ- أثبت لنفسه يدًا، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، هل علينا أن نتهيب من إثبات اليد؟ بل هل لنا أن نتهيب؟ لا يجوز أبدًا؟ بل الهيبة أن نخالف، أثبت اليد ولا تبالِ، أثبت ربك لنفسه وجها، تتهيب من إثبات الوجه، تهيب حقيقة من نفي الوجه، أما ما أثبته الله فيجب أن نثبته، لكن على هذه القاعدة ليس كمثله شيء، فنقول: لله وجه، يقينًا أنه ليس كأوجه المخلوقين، فإن قال قائل: ما دليلك، لماذا لا تحمل الوجه على الوجه المعروف ؟، الجواب: دليلي قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وأثبت أنه يأتي يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، أتتهيب أن تصف الله بالمجيء؟ لا تتهيب، نقول: نصف الله بالمجيء، لكن هل هو كمجيء الملك على فرس أو سيارة أو ما أشبه ذلك؟ لا، يقينا ليس كذلك، لكنه مجيء يليق بجلاله، أثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، في عدة مواضع من القرآن تبلغ سبعة مواضع، هل تتهيب أن نثبت ذلك لله؟ لا أتهيب

وإنما أتهيب أن أقول: استوى بمعنى: استولى؛ لأن استوى بمعنى (استولى) تحريف، إنما نؤمن إيمانًا ـ لا شك فيه - أن هذا الاستواء لا يماثل استواء المخلوقين في أي حال من الأحوال، استوائي على الفلك أو على البعير، لو أزيل ما استويت عليه لسقطت لا شك، لكن استواء الله علي العرش ليس كذلك، ليس استواء احتياج يعني: استوائه على العرش، يعني: الله غني عن العرش وعن غيره، لكنه استواء عظمة وسلطان، وما ذنب الإنسان إذا قال: أنا أؤومن بكل شيء؟ ليس ذنبك بل هذه حقيقة الانقياد والاستسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لكن يجب شيء وهو أن تؤمن أنه لا مثيل له؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وما أشبه ذلك، وأنت يا أخي لا تعلم الغيب، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعلم الغيب وهو الذي أخبرك عن نفسه، فقل: آمنا وصدقنا، وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: أن المعطلة أقسام:

قسم: عطَّلوا البعض، وقسم: عطَّلوا الصفة دون الاسم، وقسم: عطَّلوا الاسم والصفة نفيًا لا إثباتًا، يعني: جماعة قالوا: لا نصف الله بشيء ثابت لكن نصفه بالنفي، وقسم قالوا: لا نصفه لا بالنفي ولا بالإثبات، إن وصفناه بثابت شبهناه بالموجودات وإن وصفناه بمنفٍ شبهناه بالمعدومات.

إذن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، نرى في بعض الكتب أن الله لا شبيه له، فهل هذا التعبير يماثل قولنا: إن الله لا مثيل له؟ لا، ولهذا التعبير نقول: نؤمن بالإثبات دون التمثيل خيرٌ من التعبير بالتشبيه مع أننا نرى أكثر الكتب التي بأيدينا أنهم يقولون: (بلا تشبيه)، لكن هذا نقص في التعبير (بلا تمثيل) أولى؛ لأنه تعبير القرآن وكلما أمكنك أن تعبر بالقرآن أوالسنة عن المعنى الذي تريد فهو أولى.

ثانيا: يعنون به إثبات الصفات، ويقولون: كل من أثبت لله صفة فهو مشبه، فإذا قلت: بلا تشبيه، وكان هذا المخاطب لا يفهم من التشبيه إلَّا الإثبات فُهِمَ منك أنك لا تثبت شيئا، ثم إن التشبيه ـ أيضًا ـ له احتمالات، فإن نفي التشبيه من كل وجه فهذا لا يمكن؛ لأنه لا بد أن يشترك الخالق والمخلوق في أصل الصفة، فالحياة ـ مثلًا ـ عندنا حياة والله ـ تعالى ـ حي، أصل الحياة موجود، لكن المنفي هو أن تكون حياتنا مماثلة لحياة الله.

السمع موجود عندنا، وهو موجود عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإن الله ـ تعالى ـ سميع، فلا بد من اشتراك في الأصل، كذلك وجودنا فنحن موجودون والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ موجود كذلك، وَهَلُمَّ جَرًّا.

فصار التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، هذا رد على المعطلة والجملة الأولى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيۡءٞ﴾، ردٌّ على الممثلة، السميع: أي: ذو السمع، وسمع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ له معنيان، المعنى الأول: الاستجابة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، معنى سميع: أي مستجيب، وليس المراد أن يسمعه فقط؛ لأنه كون يسمعه ولا يستجيب قليل الفائدة، لكن إن ربي لسميع الدعاء، أي: مستجيبه، واستجابته إياه تستلزم سماعه لا شك، ومن ذلك ـ أيضًا ـ أي من كون السماع بمعنى الاستجابة قول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب له؛ لأنه مجرد سماع الصوت لا يفيد شيئًا بالنسبة للداعي ولهذا لو قال لك إنسان: يا فلان أرجو أن تساعدني، تقول: أسمع يعني: أسمع بأذني، هل يستفيد من هذا أم لا يستفيد؟ ما يستفيد؛ لأنه سيقول لك: إذا كنت تسمع أعطني، فصار كل ما أضيف للدعاء من السمع معناه الاستجابة.

النوع الثاني من السمع: إدراك المسموعات بمعنى: أنه لا يخفى على الله شيء قَرُبَ أم بَعُدَ، خَفِي أم بان، فإن الله يسمع كل شيء، أرأيتم قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أين الله؟ في السماء على العرش، وأين المكان التي تشتكي فيه؟ في الأرض، تقول عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد كانت تجادل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإني لفي الحجرة يخفي عَلَيَّ بعض حديثه والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يخفَ عليه، سمع المجادلة وسمع المحاورة وأنزل حل المشكلة، إذن سمْع الإدراك شامل لكل صوت ثم هذا السمع إما أن يكون للتأييد أو للتهديد أو للإحاطة، فهذه ثلاثة أقسام؛ التأييد مثل قوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، لماذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أسمع وأرى؟ تأييدًا لهما، يعني: أسمع ما تقولان وما يقال لكما والأمر أمره ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هذا سماع يراد به التأييد.

الثاني: ما يراد به التهديد مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، ما المراد بهذه الآية؟ ليس المراد مجرد أنه يسمع سرهم ونجواهم بل المراد من ذلك التهديد ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾، فهذا تهديد بدليل قوله: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾، فهذا تهديد.

الثالث: الإحاطة: بأن يخبر بأنه يسمع مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾، البصير لها معنيان: المعنى الأول: إدراك الشيء بالبصر، والثاني: العلم، فهنا البصير تشمل المعنيين، فبصر الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، لا يخفى عليه البصير لها معنيان: المعني الأول إدراك الشيء بالبصر، والدليل على أن البصير تأتي بمعنى: البصر الحديث الصحيح:

«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1] والمعنى: لو أحرقت هذه السبحات، والسبحات هي البهاء والعظمة في كل شيء، وبصير بمعنى:عليم، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومعلوم أننا نعمل أشياء لا ترى في قلوبنا أشياء لا ترى والله يعلمها فإذن البصير من أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أي ذو البصر وله معنيان: معنى إدراك المرئيات لبصره، والثاني: بمعنى: العليم.

إذا سمعنا أسماء الله وصفاته، فليس المقصود أن نعلم المعنى فقط، بل أن نتعبد لله بها فإذا علمنا أنه سميع أوجب لنا أن نخاف من قول يغضب الله؛ لأنه يسمع، وإذا علمنا أنه بصير، أوجب لنا أن نحذر من كل فعل يغضب الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ يبصره ويراه ففي هذه الأسماء التي يخبرنا الله بها تربية للإنسان بأن يحذر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مِنْ أن يخالفه بقول أو فعل.

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، ولعلنا أشبعنا إن شاء الله الكلام في هذا وأهم شيء أن تبني عقيدتك على أمرين:

الأول: إثبات ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو السنة.

والثاني: نفي المماثلة أنه لا مثيل له.

بقي شيء آخر: هل لنا أو علينا أن نكيف الصفة بدون أن نذكر مماثلًا؟ الجواب: لا، لا يجوز أن نكيف الصفة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، هل أنت علمت كيفية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟ كيفية صفاته؟ لا، أنا أومن أنه ينزل لكن لا أدري كيف ينزل؟ أومن أنه استوى على العرش ولكن لا أدري كيف استوى، فالكيفية لا يجوز للإنسان أن يتخيلها، ولا يجوز أن ينطق بها؛ لأن الله أعظم من كل تخيل تتخيله؛ ولأنك لو تخيلت فإنك سوف تعبد صنمًا؛ لأن هذا المتخيل لا بد أن يكون عندك تصور أنك تعبد هذا الذي تخيلته، فتكون من جنس المثلين، وفي مقدمة النونية لابن القيم قال: (المُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا وَالمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا).

إذن: لا تتخيل الكيفية، ولهذا جاء في الأثر:

تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الله وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ الله، الآيات تفكر فيها كالسماء والأرض والنجوم والشجر والدواب والبشر والمخلوقات الأخرى، تفكر فيها بقدر ما تستطيع لتستدل بها على الخالق ـ عَزَّ

(١) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في مسنده (١٩٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وَجَلَّ ـ لكن في ذات الله لا تتفكروا، لكن هل لنا أن نتفكر في معاني أسماء الله وصفاته؟ نعم، بل يجب أن نتفكر في المعنى والمعنى غير الكيفية.

سُئِلَ الإمام مالك ـ رحمه الله ـ قيل له: يا أبا عبد الله - وهو يُدرِّس - قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كيف استوى، أتدرون ماذا حصل للإمام مالك ـ رحمه الله ـ؟ قام يتصبب عرقا وأطرق رأسه حياء وخجلًا، ـ وَمَنْ كان في الله أعرف كان مِنَ الله أخوف ـ، نحن تمر علينا هذه الكلمة مر الرياح، لا تؤثر في القلوب شيئًا، لكن أهل المعرفة بالله الذين هم أهله، لا بد أن يتأثروا، أطلق برأسه وقام يتصبب عرقا ثم رفع رأسه، وقال: (يا هذا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[1]، وما أراك، - يعني: وما أظنك - إلَّا مبتدعا)، ثم أمر به فأخرج، لا مقام لك عندي، هؤلاء هم الرجال، فالمعاني معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله ـ جل وعلا ـ بما لا نعلم أبدا، لكن الكيفيات مجهولة، فإن قال قائل: كيف أتصور المعنى ولا أتصور الكيفية؟ قلنا له: هذا سهل، ـ الآن ـ لو قلت لك: فلان صعد على السطح، تعرف معنى صعد، لكن هل تعرف كيف صعد، مع أنه مثلك ما تعرف كيف صعد؟ ممكن صعد على رجليه ويديه، ممكن صعد بالسيارة، ممكن صعد محمولا، ويمكن صعد يمشي على رجليه، بل يمكن أن يمشي على يديه فالآن يوجد أناس يمشون على أيديهم ـ على كل حال ـ نحن ـ الآن ـ إذا قيل فلان صعد على السطح فأنا أعرف معنى الصعود، لكن كيف صعد؟، ما تدري، إذا عقَل المعنى دون الكيفية أمر واقع، فنحن نؤمن أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ استوى على العرش لكن لا نكيف ذلك، لا ندرك كيفيته، وما لا ندري كيفيته لا يجوز أن نتكلم فيه، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾، أرجو الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بهذا الكلام؛ لأنه كلام مهم جدًا فهو كلام في العقيدة، ولا يمكن أن يستريح الإنسان راحة نفسية، ولا أن يتخلى عن الشبهات إلَّا إذا لزم مذهب أهل السنة والجماعة نثبت لله ما أثبته لنفسه، وننفي ما نفاه عن نفسه، وإثباتنا إثبات تنزيه لا إثبات تمثيل، ونفينا نفي تنزيه لا نفي تعطيل، والله الموفق.

مسألة: هل ابن حجر والنووي والعز بن عبد السلام أشاعرة؟

الجواب: أما ابن حجر ـ رحمه الله ـ رأيي فيه أنه ليس على الطريقة الأشعرية، الرجل متذبذب أحيانًا يتكلم في كلام كأنه كلام أهل السنة مائة في المائة، وأحيانًا ينقل كلام الأشاعرة، وأحيانًا ينقل عن شيخ الإسلام يقرر قوله.

---

(١) أقاويل الثقات (ص ١٢١).

أما النووي ـ رحمه الله ـ فصحيح على مذهب الأشاعرة في جميع ما قرأت له من كتبه، لكن إذا قابلونا بفلان وفلان، نقول لهم: هل أنتم تعرفون الحق بالرجال أو الرجال بالحق؟ فإن قالوا: نعرف الحق بالرجال، فنقول لهم: عندنا شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والإمام أحمد وغيرهم من العلماء الفحول فهؤلاء مقابل هؤلاء ثم لدينا شيء فوق الجميع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ائتوا لنا بدليل واحد يؤيد مذهب الأشاعرة، يقول: استوى بمعنى: استولى، ما منهم أحد قال استوى بمعنى: استولى، كلهم يقولون: استوى بمعنى:علا، من أين علمنا هذا؟ علمنا هذا بأنهم يقرؤون القرآن ويعرفون معناه، ولم يأت عن أحد منهم قول بصرف اللفظ عن ظاهره، ـ الحمد لله ـ الحق واضح.

فلو قال لنا قائل: إن الصحابة أجمعوا على أنه استوى على العرش بمعنى: أنه علا عليه، هل يمكن لأحد أن ينازع ويقول: لم يجمع الصحابة على ذلك؟ ما يمكن؛ لأننا نعلم أنّ الصحابة يقرؤون القرآن وينزلون معناه على اللغة العربية، واللغة العربية في جميع مواردها فسَّرت استوى بعلا، فالمراد العلو.

قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

الفوائد:

١ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الله ـ تعالى ـ هو الذي خلق السماوات والأرض ابتداءً على غير مثال سبق.

٢ـ **ومنها:** تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأن هذه السماوات العظيمة لا يقدر عليها أحد إلَّا الله، ثم إنه خلقها في ستة أيام جاءت مفصلة في سورة فصلت.

٣ـ **ومنها:** أن السماوات جمع وهي سبع سماوات والأرض سبع ـ أيضًا ـ ولكن من غير هذه الآية.

٤ـ **ومنها:** حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورحمته حيث جعل لنا من أنفسنا أزواجًا، ورحمته حيث جعل لنا أزواجًا نتمتع بهن من جهة، وننمو ونزداد من جهة أخرى.

٥ـ **ومنها:** رحمة الله ـ تعالى ـ بنا حيث جعل لنا من الأنعام أزواجًا؛ لأن هذا لا شك من مصلحتنا.

٦ـ **ومنها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينشر ويبث ويكثر بني آدم وما خلق له من الأنعام بسبب التزاوج لقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

٧ـ **ومنها:** الرد على المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَىْءٌ﴾، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا مثل له، لا في الخلق ولا في الصفات ولا في غيره.

٨ـ **ومنها**: الرد على أهل التمثيل بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

٩ـ **ومنها**: إثبات اسمينِ من أسماء الله هما السميع والبصير.

١٠ ـ **ومنها**: إثبات السمع والبصر وصفًا لله؛ لأن السميع من السمع والبصير من البصر وهنا قاعدة نشير إليها: كل اسم من أسماء الله فإنه متضمن لشيئين:

ـ الأول: إثبات كونه اسمًا من أسماء الله.

ـ الثاني: إثبات الصفة التي تدل عليها.

فَمَنْ قال: إن الله سميع ولكن بلا سمع، فإنه لم يؤمن بالاسم، لكن لابد أن تؤمن بما دلّ عليه من صفة وإلّا لم تؤمن به. ـ أيضًا ـ إثبات بأن هذه الصفة متعدية للغير، فمثلًا: السميع نؤمن بأن الله يسمع وأن من أسماء الله السميع، ومن صفاته السمع، ونؤمنِ بأمر زائد، وهو أنه يسمع كل شيء، ولهذا قال أهل العلم: الاسم إذا كان لازما لم يتم الإيمان به إلّا بشيئيْنِ:

الأول: إثبات كونه اسمًا من أسماء الله. الثاني: إثبات الصفة التي دلّ عليها، وإذا كان متعديًا فلابد من الإيمان به من ثلاثة:

الأول: إثبات كونه اسمًا لله. الثاني: إثبات الصفة التي دلّ عليها. الثالث: إثبات تعدي هذه الصفة إلى ما يتعلق به، بمعنى: أن السمع يتعلق بكل مسموع، والبصر بكل مبصر، كذلك يقول العلماء في الأسماء: الأسماء تتضمن الدلالات الثلاث:

(دلالة المطابقة)، (دلالة التضمن)، (دلالة الالتزام)، وإن شئت فقل: دلالة اللزوم، فدلالة الاسم على الذات وحدها دلالة تضمن، وعلى الصفة وحدها دلالة تضمن، وعليهما جميعا دلالة مطابقة، ودلالة ذلك الاسم على المعنى اللازم له، دلالة التزام، هذه من القواعد المهمةنضرب لهذا مثلًا: مِنْ أسماء الله ـ تعالى ـ (الخالق) فدلالته على الذات وحدها تضمن، وعلى صفة الخلق وحدها تضمن ـ أيضا ـ ، وعليهما جميعا مطابقة، فالخالق يدل على صفة الخلق وعلى الخالق نفسه ويدل ـ أيضًا ـ على شيء لازم، فمن لازم الخلق القدرة، ومن لازم الخلق العلم، إذ من ليس بقادر، لا يمكن أن يخلق، ومن ليس بعالم لا يمكن أن يخلق، فتكون دلالة الخالق على العلم والقدرة، هي دلالة التزام.

١١ ـ **ومنها**: الرد على أهل التعطيل في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

مسألة: فإن قال قائل: أيهما أوسع الصفة أو الاسم؟ فالجواب: الصفة أوسع؛ لأن الله يوصف بما لا يسمى به، ولكن كل ما يسمى به فهو متضمن للصفة.

إذن أيهما أوسع الصفات أو الأسماء؟ قلنا: الصفات، ووجه ذلك أن كل اسم متضمن صفة،

وبهذا يكون الاسم والصفة متوازيين، ثم هناك صفات لا يمكن أن يسمى الله بها فالصفة أوسع، ألسنا نقول: عبر الله بكذا وكذا؟ ألسنا نقول: تحدث الله عن كذا وكذا؟ ومع ذلك لا نسمي الله - تعالى - متحدثًا، ولا نسميه معبرًا؛ لأن الوصف أوسع من الاسم، وهذه فائدة - أيضًا - مهمة.

قال الله تعالى:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]

التفسير

قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، له أي: لله وحده، وإنما قلنا: وحده؛ لأن تقديم الخبر يدل على الحصر، بل قاعدة أوسع من هذا تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، حتى ولو قلت: زيدًا أكرمت، يعني: أنك لم تكرم غيره؛ لأنك قدمت المعمول، فنقول: له لا لغيره.

وقوله: ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال المفسر: [أي مفاتيح خزائنها]، فجعل المقاليد بمعنى: المفاتيح، ولكن من حيث اللغة العربية، لا تتناسب مع الاشتقاق؛ لأن المقاليد مأخوذة من القلادة، يعني: أزمة الأمور في السماوات والأرض، كلها بيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، كما تقول: قلادة البعير؛ لأنك تجره بها، فالظاهر والله أعلم أن المفسر - رحمه الله - بما يخالف الظاهر، لكن بعض الناس يقول: إن مقاليد اسم أعجمي معرب، والمقلاد بمعنى: المفتاح، لكن هذا قول ضعيف - بلا شك -؛ لأنه يا إخواني لا نرجع إلى التعريف إلَّا بالضرورة، يعني: لا يمكن أن نقول: هذه الكلمة أصلها فارسية، أو أصلها رومية أو أصلها كذا وعربت، لا يجوز لنا أن نعدل إلى هذا إلَّا عند الضرورة؛ لأن الله - تعالى - جعل القرآن عربيًا، فإذا قلنا في كلمة: أصلها غير عربي هذا خلاف ظاهر القرآن، لكن إذا اضطررنا إلى أننا لم نجد لهذه الكلمة أصلا في اللغة حينئذ يكون معربًا، ومقاليد لها أصل مأخوذ من القلادة، التي تقاد بها البعير، فمعنى مقاليد، أي: أَزِمَّة الأمور، أمور السماوات والأرض له وحده، أما المؤلف - رحمه الله - فقال: [مفاتيح خزائنها كالمطر والنبات وغيرهما].

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، يعني: يوسع، يقدر يعني: يضيق، إذن البسط والقدر، امتحانًا وابتلاء؛ لأن مِنَ الناس مَنْ لا يصلحه إلَّا الفقر، وَمِنَ الناس مَنْ لا يصلحه إلَّا البسط، وفي

الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ»(1).

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، يقول المفسر ـ رحمه الله ـ: [يبسط الرزق ـ والمراد بالرزق العطاء ـ [يوسعه] ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [امتحانًا]، ﴿وَيَقْدِرُ﴾: [يضيقه لمن يشاء ابتلاء]، وامتحانًا هل يشكر أو لا يشكر؟، وابتلاء هل يصبر أو لا يصبر؟].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، إنه عليم بكل شيء، فهو يعلم أن البسط لهذا أفضل، وأن التضييق لهذا أفضل.

الفوائد

١ـ **من فوائدها**: أن أَزِمَّة الأمور لله وحده في السماوات والأرض، فهو الذي يدبر الأمور، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الأحوال، وكم من رجل أصبح كافرًا وأمسى مؤمنًا، وكم من إنسان أصبح مؤمنًا وأمسى كافرًا، كما أخبر النبي ﷺ عن الفتن في آخر الزمان(2).

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن الأرزاق بسطها وتضييقها بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهل يلزم من هذا ألَّا نفعل الأسباب؟ لا؛ لأن هذا ضعف في التوكل، إذا لم تفعل الأسباب، افعل الأسباب واعتمد على الخَلَّاق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٣ـ **ومن فوائدها**: ألَّا نطلب الرزق إلَّا من الله؛ لأنه هو الذي يبسط الرزق أو يضيقه.

٤ ـ **ومن فوائدها**: إثبات المشيئة لله لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فإن قال قائل: هل هذه المشيئة مجردة عن الحكمة أو مقرونة بالحكمة؟ الجواب: الثاني ـ لا شك ـ، يعني: ليس عطاء الله أو منعه مجرد أنه أراد، لا بد أن يكون لحكمة، وهذه القاعدة يجب إثباتها في عقلك، كل شيء قرنه الله بمشيئته فإنه مقرون بحكمة بلا شك، لا يمكن أن يفعل شيئًا عبثا، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فكلما مر بك شيء مقرون بالمشيئة فاعلم أنه تابع لحكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، واقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، بعدها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، يعني: فمشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

٥ ـ **ومن فوائدها**: إثبات عموم علم الله لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، بكل شيء كائن أو معدوم؟ كلاهما بكل شيء واجب الوجود أو جائزه أو ممتنعه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا

---

(1) ضعيف جدًا: انظر السلسلة الضعيفة (١٧٧٥).

(2) رواه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهل يمكن أن يكون فيهما آلهة إلَّا الله؟ لا يمكن، ومع ذلك علم - عَزَّ وَجَلَّ - لو كان ذلك لفسدت السماوات والأرض، ولهذا نقول: علم الله - تعالى - متعلق بكل شيء، في الواجب كعلمه بنفسه، بالمستحيل كعلمه بفساد السماوات والأرض لو كانت فيهما آلهة إلَّا الله، بالممكن كعلمه بالمخلوقات فعلم الله متعلق بكل شيء.

تنبيه يتعلق بخطأ لغوي شائع:

خطأ جار بين الناس، إذا كان هناك شيءٌ قليلٌ قالوا: (هذا بسيط)، وهذا خطأ؛ لأن البسط في اللغة يعني: التوسيع والتكثير، فلا تقل: (هذا بسيط)، قل: (هذا يسير، هذا قليل)، فإن كان من حيث الصفة فقل: يسير، وإن كان من حيث العدد فقل: قليل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾، الخطاب لهذه الأمة ولله الحمد، ومعنى شرع لكم: أي: سن لكم، وجعل لكم شريعة هي ما وصى به نوحًا، قال الشارح: [وهو أول أنبياء الشريعة] وتساهل - رحمه الله - في هذا، والصواب أن يقول: هو أول رسل الشريعة؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح: أَنَّ الخَلْقَ يَوْمَ القِيَامَة يَأْتُونَ

أن نعدل عن الأخص إلى الأعم، إذن: الصواب: أن نقول: هو أول رسل الشريعة، أما إنَّ أول أنبياء الشريعة فهو آدم، فآدم - عليه الصلاة والسلام - نبي مكلم لكنه ليس برسول، والحكمة من كونه غير رسول؛ لأن الناس لم يختلفوا بعد، والله - تعالى - أرسل الرسل بين الناس ليحكموا فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، لكن في عهد آدم ما كان هناك اختلاف، فالعدد كان قليلًا، وليس هناك مغريات، ولا أشياء توجب أن يختلف الناس، ولذلك كان آدم يتعبد بالشريعة التي شرعها الله لهم، وأبناؤه يتبعونه، فلما كثروا وانتشروا واختلفوا حينئذ جاءت الحاجة

بل الضرورة إلى الرسل.

فالأولى أن نقول: هو أول رسل الشريعة.

في قوله: ﴿وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: شرع لكم الذي أوحينا إليك ما وصى به نوحًا ﴿وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، معطوفة على قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، والوصية: هي العهد بالشيء الذي يهتم به.

وفي قوله: ﴿وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن وفي قوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، ذكر الله ـ تعالى ـ أول الأنبياء – الذين هم الرسل – وآخرهم، ثم ذكر ما بين ذلك ليجمع ـ سبحانه ـ بين الطرفين والوسط.

من أول هؤلاء الرسل الكرام؟ نوح ـ عليه السلام ـ وآخرهم محمد ـ صلى الله عليه وعليهم وسلم ـ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وذكروا في القرآن في موضعيْنِ: هذا واحد، والثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾، وهذه الآية من سورة الأحزاب.

وفي قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾، (أنْ) هذه تفسيرية، بمعنى: أي، ولذلك لا تعمل شيئا؛ لأنها لمجرد التفسير والتبيين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، أقيموا الدين، يعني: ايتوا به مستقيًا غير منحرف، وما هو الدين القيم؟ هو الدين الذي شرعه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فيجب علينا أن نقيم الدين كما أقامه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا نغلوا فيه ولا نقصر عنه، ولذلك كان الناس في دين الله على ثلاثة أقسام:

قسم غلا، وقسم قَصَّر، وقسم اعتدل، فما الذي أُمِرْنَا به؟ الاعتدال، كما قال: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾، غير متجاوزين ولا قاصرين عنه، ولذلك هلك أقوام ممن قصّروا أو تجاوزوا، وأيهم أخطر؟ الأخطر التجاوز، وهو الغلو، إنما أهلك من كان قبلكم الغلو؛ ولأن الغالي يعتقد بأن هذا دين، فلا يكاد يقلع عنه، أما المقصِّر يعترف أنه مقصر، فربما حاسب نفسه يوما من الأيام وندم، فالغلو أخطر، ولذلك تجد بدع المبتدعة أشدها الغلو، فالرافضة مثلًا غَلَوْ في آل البيت وتجاوزوا الحد، والمؤلهة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام، الذين يعتقدون أنه أشد من الإله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غلوا في الرسول وهلكوا، والغالية في الدين الذين غلوا وأرادوا أن يجعلوا الناس على الجادة من الدين وألا يفعلوا كبيرة، ـ أيضًا ـ غلوا كالخوارج، المهم أنك إذا تأملت البدع وجدت أن الغلو فيها أشد خطرًا من التقصير؛ لأن الغالي إنما يعتقد أن ما عليه دين، والمقصر يعرف أنه مقصر، وربما استقام بعد ذلك.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، الدين يطلق على معنيين:

المعنى الأول: الجزاء. المعنى الثاني: العمل، فمن إطلاقه على العمل قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: لكم عملكم ولي عملي، كقوله - تعالى -: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ومن إطلاقه على الجزاء قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، وكذلك ما نقوله في صلاتنا كل فريضة قول الله - تعالى -: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء، (أن أقيموا الدين) هنا المراد بها العمل، وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، يعني: لا تتفرقوا في دينكم فتكونوا أحزابا، فنهى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن التفرق في الدين، وهذا يستلزم وجوب الاعتماد عليه؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، يعني: ليس له إلَّا هذا الضد، وحينئذ يجب على المسلمين أن يجتمعوا في دين الله وألا يتفرقوا فيه وما اختلف العلماء فيه من الأراء، فإن الهدف منه واحد لمن صلحت نيته؛ لأن كل واحد من المختلفين، إنما يريد الوصول إلى الحقِّ لكن اختلفوا في الطريق، وإذا كان الهدف واحدًا، وهو الوصول إلى الحق، لا يجوز أن يجعل هذا الاختلاف، سببًا للتفرق في الاتجاه، لا يجوز هذا - إطلاقًا - بل تجب الوحدة والاجتماع حتى مع اختلاف الآراء، ولهذا كان السلف الصالح - رضي الله عنهم - من الصحابة يختلفون في أشياء كثيرة مهمة، ومع ذلك فالقلوب واحدة، ولما وصل إلى الاختلاف بهم إلى تفرق القلوب، حصل ما حصل من الفتن بين معاوية وعلي وعائشة والزبير وما أشبه ذلك، وفي وقتنا الحاضر، لا شك أن الناس مختلفون، فمنهم من يتجه اتجاهًا سياسيًا، ومنهم من يتجه اتجاهًا صوفيًا، ومنهم من هو معتدل، وهناك اختلافات كثيرة، فالواجب علينا أن ننزع فتيل هذا الاختلاف، وأن نكون أمة واحدة، حتى لا نتفرق فنفشل؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، يعني: ولا يكن لكم قيمة وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ولهذا نجد - الآن - مع الأسف الشديد، أن ما يسمى بالصحوة الإسلامية أصيب بهذا البلاء، وصار نفس المتدينين يلمز بعضهم بعضًا، ويضلل بعضهم بعضًا، ويبدع بعضهم بعضًا، وربما يكفر بعضهم بعضًا، فضاعت تلك الصحوة، وصار الذين يراد منهم أن يكونوا حربًا على أعداء الله صاروا حربًا على أنفسهم، وأحزابًا بأنفسهم، وهذا ما يبذل فيه العدو أغلى ما يكون ليحصل، وقد حصل له مجانًا، فالواجب علينا أن نزيل هذه الاختلافات، وأن ندعها وأن نترك ما يعمر به الناس كثيرًا من مجالسهم، في سبِّ فلان وفلان أو ذمِّ فلان وفلان، أو الغلوّ في فلان وفلان؛ لأن هذا يضيِّع الأوقات ويولِّد الأحقاد ولا يفيد شيئًا بل يضر، ما لنا وفلان، إن كان ميتًا فقد واجه الحساب، وإن كان حيًا فنرجو له الاستقامة، أما أن نجعل أكبر همنا هذا الكلام الذي لا يعود على الأمة إلَّا بالشر، ولهذا ينهى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن التفرق في عدة آيات كما في هذه الآية: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾،

فإذا اختلفت أنت وصاحبك في رأي من الآراء وهو محل للاجتهاد، فالواجب أن تعتقد أن صاحبك لن يخالفك؛ لأنه سلك السبيل الذي تسلكه أنت، هو اجتهد فقال: هذا هو الصواب، وأنت اجتهدت وقلت: هذا هو الصواب، إذن: ما مراد كل واحد منكم؟ الوصول إلى الحق، ولا يمكن أن يكون اجتهادك حجة عليه، ولا اجتهاده حجة عليك، وحينئذ نكون في الواقع متفقين، حتى ولو خالفني فأنا أعتقد أنه يوافقني؛ لأننا كلنا يقصد الحق، ولا نريد مخالفة الحق، لكن ـ مع الأسف ـ الآن بعض الناس يتخذ هذا الخلاف الذي هو محل اجتهاد، يتخذ منه سلمًا للتفرق والطعن ـ قبل سنوات في منى، حضرت طائفتان أفريقيتان كل واحدة تلعن الأخرى وتكفرها فأتوا إلى أمير الدعوة التي أنا من ضمن أعضائها أتوا إليه متشاكسين جدًّا جدًّا في منى في أيام الحج في الشهر الحرام في البلد الحرام، فهو ـ جزاه الله خيرًا ـ حضر معهم إلي، فقلت لأحدهما: ما الأمر فقالوا: هؤلاء كفار هؤلاء رغبوا عن سنة النبي ﷺ، وقد قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(1) ونحن نبرأ منهم، فقلت لهم: ما الخلاف؟ فقالوا: الخلاف بأن إحدى الطائفتين إذا قام المصلي يضع إحدى يديه اليمنى على الأخرى، والطائفة الأخرى قالت: إذا قام المصلي يرسل يديه، فالمسألة ما هي خلاف في العقيدة فالمسألة خلاف في سنة من سنن الصلاة هي محل اجتهاد، فكل واحد يقول للآخر: هو كافر؛ لأنه رغب عن سنة النبي ﷺ، وقد قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

الآن الشباب صار خلافهم في أمر آخر؛ في الأشخاص يجعلون الشخص هدفًا فيقولون: ماذا تقولون في فلان؟ فإذا قال فلان طيب وحبيب، ونعم الرجل هو، وهو من خير عباد الله انشرح صدره وكأنما أعطي الجنة، وإذا قال: هذا الرجل عنده انحراف في المسلك، إنسان فيه كذا وفيه كذا وكذا، تجد السائل انقبض، وضاق صدره وترك صاحبه، هذا خطأ، يا إخوان الرجال إذا أخطأوا فاسأل الله أن يعفو عنهم؛ لأنهم مسلمون مهما كانوا فهم لا يخرجون من الإسلام، وإن أصابوا فخذ بصوابهم واحمدهم، أما أن تجعلهم محكًّا للولاء والبراء فهذا خطأ عظيم، لذلك أنا أدعو إخواننا من السعوديين أو غيرهم إلى نبذ هذه الطريقة والبعد عنها وأن نعتقد أننا إخوان، وأن كل واحد منَّا مجزي بعمله، وألَّا نجعل هذا سببا للتفرق؛ لأن الله نهانا ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا ينهانا إلَّا عن شيء فيه ضررنا، فهنا يقول: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ﴾، يعني: غير مغالين فيه ولا مقصِّرين وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، اجتمعوا عليه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، كبر بمعنى: عظم واشتد عليهم،

---

(1) كما رواه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يعني: بالله.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، من أي شيء؟ من التوحيد؛ لأن المشرك يكبر عليه التوحيد، أكبر شيء عنده هو التوحيد، ولهذا قالوا في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، انظر صبروا أنفسهم على الشرك ـ والعياذ بالله ـ وقالوا في التوحيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، أي: عجيب جدًّا، فما هو الشيء العجاب حقيقة؟ هو الإشراك بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، الذي يقرون هم أنه خالقهم ولا خالق سواه، أن المشركين يعظم عليهم التوحيد، وأنا أقول لكم: إذا كان يعظم عليهم التوحيد فلا بد أن يفعلوا كل سبب يحول بين هذا التوحيد وقيامه وانتشاره، أليس كذلك؟ كل شيء عظيم عليك لابد أن تدافعه، فهم ـ الآن ـ حرب على التوحيد وأهله.

ولهذا تسمع ـ الآن ـ مخططات النصارى على ما في ديانتهم التي هم عليها من الضلال والمخالفة للمعقول والمحسوس، تجدهم يبثون الإذاعات القوية التي ليست فيها تشويش، والتي تأتي في أوقات مناسبة للدعوة إلى الدين الذي هم عليه، مع أن المسيح بريء منهم، تجد بعض أهل البدع يكبر عليه جدًّا مَنْ يدعو إلى السنة، ويحاربون مَنْ يدعو إلى السنة، ويشوِّهون السمعة؛ لأنه عظيم عليهم، فهنا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾، يجتبي بمعنى: يختار ويصطفي.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، أعاد الضمير ـ رحمه الله ـ إلى التوحيد في قوله: [إلى التوحيد] ولكن فيه احتمال أقوى مما قال، وهو أن الضمير يعود إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أي: الله يجتبي إلى نفسه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَنْ يشاء، ويهدي إلى نفسه مَنْ يُنيب وهذا أحسن مما سلك المؤلف، فالله ـ تعالى ـ يختار إليه من يشاء ـ نسأل الله أن يجعلنا ممن اختارهم إليه ـ ويكره آخرين، فالأولون يهديهم إلى صراط مستقيم والآخرون يضلهم؛ لأنهم هم الذين فعلوا السبب.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾، من يشاء، ولكن مر علينا ـ آنفا ـ قريبًا جدًّا أن كل شيء علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة لا يشاء شيئًا إيجادًا أو إعدامًا أو تغييرًا إلَّا لحكمة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: من [يُقبل على طاعته] هكذا قال الشارح ـ رحمه الله ـ فهو يهديه الله إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ، فيما رواه عن ربه إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»؛ لأن الفرائض أحب إلى الله من النوافل «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ

وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[1] وكذلك قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى الله شِبْرًا تَقَرَّبَ الله إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ الله هَرْوَلَةً»[2] فمن أناب إلى الله فإن الله يهديه إليه ويعينه ويسدده.

الفوائد

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن الشرع والدين لله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده، ولهذا أنكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الذين يشرعون لأقوامهم دينا لم يأذن به الله فقال: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: أن الأصل في العبادات المنع إلَّا بدليل ولهذا إذا رأيت شخصًا يعمل عملا يتقرب به إلى الله فأنكِرْ عليه إلَّا إذا أقام دليلا، أما في غير العبادات فالأصل فيها الحل، ولهذا إذا رأيت شخصًا يفعل شيئًا ليس عبادة فأنكرت عليه فعليك الدليل.

٣ - **ومن فوائدها**: أن دين الأنبياء واحد من نوحٍ إلى محمد ﷺ لقوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فما هذا التوحيد في الأديان؟ التوحيد في الأديان ما أفاده قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فهذه هي القاعدة العامة في جميع الرسالات ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أما الشرائع والمنهج فلكل أمة ما يناسبها لقوله - تعالى -: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ولهذا نجد أن بني إسرائيل يشدد الله على أقوام منهم بالشريعة، ويخفف بالشريعة الأخرى، قال عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، إذن: الأصل هو توحيد الرسالات وهذا الأصل هو المشار إليه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أما الشرائع والمنهاج، فهذا يشرع الله لكل أمة ما يناسبها، حتى الأمة الواحدة يشرع لها في أول أمرها ما يناسبها، ويشرع لها في آخر أمرها ما يناسبها كالمنسوخ في هذه الشريعة الإسلامية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات نبوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لقوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عناية الله - تبارك وتعالى - بالشرائع حيث جعل ذلك وصية، والوصية هي العهد بالشيء المهتم به.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا القرآن الكريم وَحْيٌ أوحاه الله - تعالى - إلى رسوله ﷺ لقوله - جلا وعلا -: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القرآن شامل لجميع الشريعة؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فإن قال قائل: في الشريعة ما لا يوجد في القرآن تفصيلا؟ فالجواب: تكفي الإشارة إليه؛ لأننا لو بحثنا هل في القرآن ما يدل على عدد الصلوات وعلى عدد ركعاتها وعلى كيفيتها؟ لكان الجواب: لا، ما هو موجود، لكن كون الله - عَزَّ وَجَلَّ - يأمرنا أن نطيع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأن نتبعه يكفي؛ لأن سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد أمرنا بها وبكل ما تتضمنه، وعلى هذا تكون الشريعة كلها موجودة في القرآن، إما بالإشارة والإيماء، وإما بالتصريح.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات رسالة النبي ﷺ حيث قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الأمم جميعهم مأمورون بإقامة الدين وعدم التفرق فيه لقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن التفرق مناف لما أوحى الله لرسوله ﷺ، ووصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما يدعو إليه النبي ﷺ بالتوحيد كان عظيمًا وشاقًا على المشركين لقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنه متى كان التوحيد كبيرًا على المشركين، فلا بد أن يسعوا بكل جهودهم على إبطال التوحيد؛ لأن كل إنسان بمقتضى فطرته، لابد أن يسعى في إزالة كل ما كان شاقا عليه، ويتفرع على ذلك فائدة: وهو الحذر مِنْ كَيْدِ المشركين.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ كان يدعو المسلمين وغير المسلمين لدين الله لقوله - تعالى -: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وهذا قد وقع تطبيقه وشاهده في حال النبي ﷺ، كان يخرج إلى البلاد الأخرى يدعو الناس إلى التوحيد، كما خرج إلى الطائف، وكان في موسم الحج يعرض نفسه على القبائل - عليه الصلاة والسلام - يأتي لكل قبيلة ويدعوها، ويقول: «أَلَا أَحَدٌ يُؤْوِينِي» - أو كلمة نحوها - «حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي[1]، فَإِنَّ قُرَيْشًا مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٤٩٦)، والبيهقي في الكبرى (١٦٣٣٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٣).

رَبِّ».

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله قد يمن على بعض العباد بالاجتباء والهداية؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات مشيئة الله - تعالى - لفعل العبد؛ لقوله: ﴿يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾، فيكون فيها رَدٌّ على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله ولا مشيئة لله - تعالى - في فعله.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الهداية لكل منيب وهذه الهداية غير الإنابة، فالإنابة هداية سابقة، لكن كلما أناب الإنسان إلى ربه ازداد هدايةً.

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عصمة الله - تبارك وتعالى -: ﴿مَن يُنِيبُ﴾، من البدع والمخالفات، لقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾، وهذا - بلا شك - ضد البدع؛ لأن البدع ليست فيها هداية إلى الله، بل كل البدع فيها ضلالة.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحثُّ على الإنابة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأنها سببٌ للهداية.

١٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الردُّ على الجبرية لقوله: ﴿مَن يُنِيبُ﴾، فأضاف الفعل إلى العبد، والجبرية لا يضيفون الأفعال إلى العبد، يقولون: إن العبد يفعل بغير إرادة أو اختيار، ففي الآية إذن: رد على القدرية ورد على الجبرية، وهما طائفتان مبتدعتان متطرفتان فما هو المذهب الوسط؟ المذهب الوسط هو الذي يقول: إن الإنسان لا يجبر على عمله وأنه يفعل الفعل باختياره، ولا يشعر أن أحدًا أجبره، لكننا نعلم أن هذا الفعل الذي وقع منه، واقع بمشيئة الله، وإرادة الله، ولا يمكن أن يستقل الإنسان بشيء في الكون من دون الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: ١٤]

التفسير

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾، أي: [أهل الأديان] وقوله: ﴿فِي الدِّينِ﴾، بأن وحد بعضهم وكفر بعض، قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أي: [بالتوحيد]، وقوله: ﴿بَغْيًا﴾، [من الكافرين] بينهم وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾، يقول المؤلف: [أي أهل الأديان]، وهذا تفسير جيد، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في سورة البينة قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، فهل نقول: إن هذه الآية العامة ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾، تخصص بآية البينة ويكون المراد: (ما تفرق الذين أوتوا الكتاب)، أو نقول: هي عامة، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب بعض من الأفراد، وإذا ذكر حكم بعض الأفراد فإن حكمهم يطابق حكم العام، فإنه لا يعد مخصصًا! الجواب: الثاني، وهذه قاعدة أصولية: أنه إذا ذكر بعض أفراد العام بحكم يطابق العام هذا ليس بتخصيص، مثاله: قلت: أكرم الطلبة، ثم قلت: أكرم محمدًا وهو منهم، هل هذا يقتضي ألَّا تكرم سواه؟ لا، إذن: ذكره بحكم يوافق حكم العام لا يقتضي تخصيصه به، أما لو كان يخالف فهذا تخصيص، لو قلت: أكرم الطلبة ثم قلت: لا تكرم محمدا، فحينئذ يخرج حكمه عن حكم العام.

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، إذن: قول المؤلف: [بأن وَحَّد بعض وكفر بعض]هذا مناسب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وإلَّا فالاختلاف أوسع من أن يكون اختلافا في التوحيد والكفر وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، فيكون تفرقهم عن علم قد قامت عليهم الحجة وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، مفعول لأجله، أي: أن تفرقهم للبغي والعدوان، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، بتأخير الجزاء إلى أجل مسمى وقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، .... إلى آخره.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، والكلمة التي سبقت من الله هي تأخير الجزاء حتى يوافوا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، أي: معين وهو [يوم القيامة]، لقضي بينهم [بتعذيب الكافرين في الدنيا]، لقضي بينهم أي: فصل، وحكم بينهم وأهلك الكفار وبقي الموحدون.

فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، يقول الشارح: [وهم اليهود والنصارى]، وقوله: ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾، [من محمد ﷺ] وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ [موقع للريبة].

قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، الكلمة هي: أنه قضى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بتأخير العذاب عنهم: فتنةً واختبارًا، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى هذه الفتنة والاختبار بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾، لو انتصر الله منهم وأهلكهم ما بقي للجهاد

محل، ولا بقي للمؤمنين محنةً واختبارًا، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: معين محدد وذلك يوم القيامة، يوم القيامة محدد في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر، كما أن موت الإنسان محدد من قبل الله لا يتقدم ولا يتأخر.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾، أي: أعطوه مجانا أو بعوض؟ مجانا، يعني: بدون تعب، كما أن الوارث يرث مال مورثه بدون تعب مجانا، قال تعالى: ﴿أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾، هل المراد بالكتاب هنا التوراة والإنجيل أو المراد بالكتاب القرآن؟ ويكون المعنى: وإن الذين أورثوا الكتاب - وهو القرآن - من بعدهم، أي: من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم لفي شك منه أي: من هذا الكتاب مريب، هذا الذي أقوله أحسن مما ذهب إليه (المؤلف) ـ رحمه الله ـ (المؤلف) يفيد قوله أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل لأنه قال: هم اليهود والنصارى، فاليهود لهم التوراة والنصارى لهم الإنجيل، ولكن الظاهر أن المراد بالكتاب هو هذا القرآن (لفي شك منه) أي: من هذا الكتاب، مريب: موقع في الريبة، والريبة أشد من الشك؛ لأنها ارتياب وقلق، الشاك قد يكون بارد الضمير ليس عنده قلق لكن المرتاب أشد، والغالب أن الارتياب يكون مع تعارض الأدلة التي كل واحد منها يقتضي أن يكون المصير إليه، فيرتاب الإنسان ويقلق، أما الشك المجرد هو شك بدون ارتياب ولا يؤدي الشك إلى الريبة إلَّا إذا عظم وقوي وتعارضت الأدلة حينئذ يبقى الإنسان في ارتياب شديد وتفرق هؤلاء بعد أن قامت عليهم الحجة لقوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائدها:** أن مَنْ خالف الدين من بعد مجيء العلم فإنه باغٍ معتدٍ لقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، ولا شك أن الله ـ تعالى ـ موصوف بالكلام لأنه كمال، وضد الكلام الخرس، والخرس نقص، فلو نفينا الكلام لزم من ذلك ثبوت الخرس وهذا نقص ينزه الله عنه، فإن قال قائل: ما هو كلام الله؟ قلنا: إن كلام الله مسموع بالآذان، يسمعه جبريل ويسمعه غيره ممن يكلمه الله هذا هو الحكم، وقد وافقنا عليه الجهمية، فقالوا: إن كلام الله هو المسموع بالآذان لكن اختلافنا عنهم بأنهم يقولون: هو مخلوق، ونحن نقول: إنه ليس بمخلوق، الأشعرية والكلابية وأمثالهم قالوا: كلام الله هو المعنى القائم بنفسه وليس المسموع، فالمسموع عبارة أو حكاية عن كلام الله، وكلام الله هو ما قام في نفسه، ولذلك يرون أن كلام الله غير متعلق بمشيئته،

فلا يقولون: إن الله يتكلم متى شاء؛ لأنه معنى قائم بالنفس كقيام السمع والبصر، ولا شك أن هذا قول باطل، وأنه أبعد من الصواب من قول الجهمية؛ لأن الجهمية يُصرِّحون بأن كلام الله هو المسموع ولكن ليس المعنى قائم بالنفس، ولكنهم يقولون: إنه مخلوق، هؤلاء إذا قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وخلق أصواتا تعبر عما في نفسه، هل خالفوا الجهمية؟ ما خالفوهم، اتفقوا على أن هذا المصحف الذي بين أيدينا مخلوق، لكن الجهمية صاروا أشجع من الأشاعرة، الجهمية قالوا: إن هذا كلام الله لكنه عبارة عن كلام الله، ـ على كل حال ـ نحن نقول: إن الله أضاف الكلام إلى نفسه وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وأكد ذلك بقوله: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾، أثبتت الأدلة أنه يكلم مَنْ شاء من خلقه، فما الذي يجعلنا نُحرِّف؟ وأيهما أحق بالكمال إله يتكلم متى شاء بما شاء وإله لا يتكلم؟ الأول ـ لا شك ـ بل الثاني لا يستحق أن يكون إلها، ولهذا قال إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، إذن: من قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾، نستفيد إثبات الكلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بتأخير العقوبة عن العصاة، ومن الحكم في هذا: أن الله ـ تعالى ـ يمهلهم لعلهم يتوبون، ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الدنيا لها حد؛ لقوله: ﴿مُّسَمّٗى﴾، أي: معين ومحدود كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾، أي: العذاب وقوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك منه مريب يعني: اليهود الذين أدركوا هذا القرآن، وورثوه من بعد اليهود السابقين، كذلك النصارى في شك منه مريب، ويتفرع على هذه الفائدة: أن مثل هؤلاء لا تنفع فيهم المواعظ ولا الآيات ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الشورى: ١٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾، المشار إليه الاستقامة في الدين وعدم التفرق فيه، وقوله: ﴿فَٱدْعُ﴾، الفاء زائدة لتحسين اللفظ، والأصل (فلذلك ادعُ)، ولهذا نقول: إن هذه الجملة فيها حصر، وقاعدته هنا تقديم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور، ولهذا قلت لكم: إن الفاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱدْعُ﴾ زائدة لتحسين اللفظ، ولولا أنها من كلام الله، لقلنا: (فلذلك ادع) وهذا هو السر في أن قلنا: الجملة تفيد الحصر.

فقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: فلذلك [التوحيد]، ولو قال: فلذلك أي: لإقامة الدين وعدم التفرق فيه لكان أجود.

وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾، والخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولهذا قال المؤلف: [يا محمد الناس]، الناس أشار به إلى أن مفعول يدعو محذوف والتقدير: الناس.

وقوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾، [عليه] ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[في تركه].

وقوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، هذا ليس خاصًا بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله ـ تعالى ـ في سورة هود وقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، وقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، أي: على الوجه الذي أمرت من غير زيادة ولا نقص.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، ما هي أهواءهم التي نُهِيَ عن اتباعها؟ ما يخالف ما أُمروا به ولهذا قال المؤلف: [في تركه] وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب، قل: معلنا لهم ولغيرهم، آمنت بما أنزل الله من الكتاب، وآمنت بمعنى: أقررت، والإيمان: هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرد الإقرار، ولهذا نقول: إن أبا طالب ليس بمؤمن، مع أنه مقر برسالة النبي ﷺ فإنه كان يقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُواَ أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْ لَا المَلَامَةُ أَو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بذاكَ مُبِينَ

ولكنه ـ والعياذ بالله ـ سبقت لهم من الله الشقاوة فكان آخر ما قال: أنه على مِلّة عبد المطلب وصرح في تلك الحال أنه لولا أن قومه يلومونه، ويقولون: (عندما أيس من الحياة آمن) لآمن، هكذا يقول: ـ والعياذ بالله ـ وهو في سياق الموت، فقوله: آمنت بما أنزل الله من أي الكتاب، نقول: الإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، أبو طالب مقر لكنه لم يقبل ولم يذعن فصار كافرًا.

آمنت بما أنزل الله من الكتاب، أي: بالذي أنزل الله من الكتب كلها، وهكذا يجب علينا نحن ـ أيضًا ـ أن نؤمن بما أنزل الله من كتاب، ولكن هل يجب علينا أن نتبع ما أنزل الله من كتاب؟ الجواب: لا، نتبع ما جاء في شريعتنا، وإن خالف ما في الشرائع الأولى، لكن نؤمن بأن الكتب النازلة على موسى وعيسى وداود وغيرهم من الأنبياء بأنها حق، أما الاتباع فهو لشريعة محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أفادنا المؤلف ـ رحمه الله ـ: أن اللام في قوله: ﴿لِأَعْدِلَ﴾، بمعنى: [الباء] أي: أمرت [بأن أعدل] بينكم، هذا ما قدره المؤلف ـ رحمه الله ـ ولا شك أن هذا تقدير سهل بأن يقول: اللام بمعنى:الباء، لكن إتيان اللام بمعنى:الباء قد لا يكون سائغا في اللغة العربية، وأن الله ـ تعالى ـ أمر رسوله ﷺ بأمر فوق ذلك، أي: وأمرت بالشرع أو بالعدل لأعدل بينكم، فيكون المأمور به محذوفا ويكون الموجود هو العلة، أمرت بكذا لأعدل بينكم، وهذا أبلغ من أن نقول: اللام بمعنى:الباء، ولكن أمرت بالشرع والإيمان بكل كتاب لأعدل بينكم في الحكم.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، هذه الجملة حق لا شك فيها، ولكن قد يقول قائل: ما الفائدة منها؟، أليس هذا كقول القائل: السماء فوقنا والأرض تحتنا؛ لأن هؤلاء يقرون بأن الله ربهم، فما الفائدة؟ الفائدة من ذلك هو: إلزامهم أن يكونوا مثلما نحن عليه من الدين؛ لأن الرب واحد، الله ربنا وربكم بإقراركم، فإذا كان كذلك، فالواجب عليكم أن تخضعوا لأوامر ربكم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، يعني: أنه لا يضرنا عملكم ولا يضركم عملنا، فإذن: لا تتعلقوا بنا ولا نتعلق بكم، كلٌ له عمله [فكل يجازى بعمله].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، كيف لا حجة بيننا وبينهم ولدينا الحجة عليهم؟ المقصود كما قال الشارح: لا حجة يعني: [لا خصومة] بأن أعدل بيننا وبينكم، والصواب: عدم التقدير [بأن أعدل]؛ لأنه لا داعي لها، بل المعنى: لا حجة قائمة على وجه الخصومة بيننا وبينكم؛ لأننا قد أيسنا منكم، ولا تنفع فيكم محاجة.

قال المؤلف: [هذا قبل أن يؤمر بالجهاد]، إذن بعد أن أمروا بالجهاد صار لهم أعمالهم ولنا أعمالنا، هل حين شرع الجهاد تبطل المحاجة؟ لا، ولهذا نقول للمؤلف ـ رحمه الله ـ: عفا الله عنك، أولًا: أثبت لنا أن هذه الآية قبل الأمر بالجهاد، فإذا قال: إن هذه الآية مكية وأمر بالجهاد في المدينة، نقول: أثبت لنا أنه لما أمر بالجهاد بطلت هذه البراءة، لا يستطيع أن يثبت ذلك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يتحدث في هذا عن حال المشركين والنبي ﷺ بين أظهرهم في مكة وهذا أصلا لا جهاد فيه حتى نقول: إن هذا من باب النسخ.

وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، [في المعاد لفصل القضاء] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، [المرجع]، والجملة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فيها حصر طريقه تقديم ما حقه التأخير. ـ والله أعلم ـ.

الفوائد

١ـ **من فوائد الآية الكريمة**: وجوب الدعوة إلى توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾، وتقديم المعمول يدل على الاهتمام به.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجب على المرء أن يستقيم كما أمر فلا يحدث في دين الله ما ليس منه، لقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه يجوز توجيه الأمر لمن كان متصفًا به من قبل من أجل الثبات عليه لقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾؛ لأن النبي ﷺ، استقام كما أمر من حين ما أرسل بل بل من حين ما بعث، لكن المراد بذلك الثبوت على هذا الشيء.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور يُوَجَّهُ إليه الأمر ،وليس له من الأمر شيء كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، وهنا قال: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الرد على أولئك القوم الذين يدَّعون أن للنبي ﷺ تصرفًا في الكون وتدبيرًا له، ومن باب أولى أن يكون فيها رد على القائلين بأن من دون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم تصرف في الكون، كقول الرافضة وبعض الصوفية الذين يدَّعون أن مِنْ أئمتهم مَنْ يتصرف في الكون، وأولئك الصوفية يدعون أنهم من أقطابهم فهؤلاء ـ بلا شك ـ ضالون يشركون بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: النهي عن اتباع الهوى لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، فإن قال قائل: هل اتباع الهوى محمود، أو مذموم؟ قلنا: أن ما كان موافقا للشريعة فهو محمود، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1] وأما ما خالف الشريعة فإنه مذموم.

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية**: تثبيت الله ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه ﷺ؛ لأن مثل هذه الأوامر والنواهي تؤيده وتثبته وتقويه.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله من كتاب، لقوله: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، ولكن كيف يكون الإيمان بالكتب السابقة؟ يكون بالإيمان بأنها نازلة من عند الله حقاً، وأما اتباعها فإنه منسوخ بهذه الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، فإن قال قائل: وهل نؤمن بأن الكتب التي بأيدي النصارى واليهود ـ الآن ـ كالكتب النازلة على أنبيائهم؟ فالجواب: لا؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر أنهم حرفوها، وأخفوا كثيرًا منها، ولذلك لا ثقة لنا بما عندهم

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٢ و ٢١٣).

من الكتب التي يزعمونها أنها كتب الله.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب العدل لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، في كل معاملة، حتى في معاملة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فإن الواجب العدل، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولما بعث النبي ﷺ (عبد الله بن رواحة) إلى اليهود في خيبر من أجل مقاسمتهم جمعهم وقال لهم: إني أتيت مِنْ عند أحب الناس إليّ، وإنكم لأبغض إليّ من القردة والخنازير، وليس حبي إياه وبغضي إياكم بمانع أن أقوم فيكم بالعدل، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[1]، وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أنه لو اجتمع مسلم وكافر في خصومة بين يدي القاضي، فإن الواجب عليه أن يعدل بينهما في الجلوس وفي النظر وفي الكلام، يعني: لا يتكلم مع الكافر بغلظة وينظر إليه شذرًا وإنما يعامله كما يعامل المسلم؛ لأن العدل واجب، ولا يجوز في مقام الحكم أن يفرق بين فلان وفلان، ولهذا قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إعلان ما به الإلزام للخصم؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، يعني: وإذا كان ربنا وربكم، فالواجب أن ننقاد إلى جميع أوامره، فإن قال قائل: وهل الله - تعالى - رب للكافرين؟ فالجواب: نعم، رب كل شيء، لكن لا يضاف إليه فتقول: رب الكافرين كذا، اللهم إلَّا في مقام الاحتجاج عليهم؛ لأنه وإن كان الله خالق كل شيء ورب كل شيء، لكن لا ينبغي أن تضاف ربوبيته وخلقه إلى أقبح خلقه، كما أننا نعلم أنه - سبحانه وتعالى - رب الكلاب ورب الخنازير ورب القردة وما أشبه ذلك، وهذه نقطة قد لا يتفطن لها بعض الناس، وهو الأدب في التعبير، ويذكر أن أحد الملوك رأى في المنام أن أسنانه ساقطة فدعا معبرًا يعبر الرؤيا فعبرها هذا العابر، أن حاشيته وأهله يموتون؛ لأن الإنسان بأسنانه يتغذى، ويحفظ حياته، فأمر بسجنه، ثم إنه دعا معبرًا آخر فقال له: أنه أطولهم عمرًا فأكرمه وارتاح لقوله، والمعنى واحد؛ لأنه لو مات أهله صار هو أطولهم عمرا، لكن التعبير يختلف، هنا ففي قوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أضاف ربوبيته - عَزَّ وَجَلَّ - إلى الكافرين لكن في مقام الاحتجاج ثم أنه قال: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لإفادة العموم.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله - سبحانه وتعالى - سوف يجمع بين الناس يوم القيامة، ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** أن المرجع إلى الله خاصةً لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، لكن في أي شيء؟ هل معناه المصير أي: الحساب، أو إليه المصير في كل شيء؟ الجواب: الثاني، إليه المصير في كل شيء، إن

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٤٩٩٦)، والدارقطنى فى سننه (٢٣)، والبيهقى فى الكبرى (٧٢٣٠) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه.

أردنا الحكم الشرعي فالمصير إلى الله، وإن أردنا الحكم القدري فالمصير إلى الله، الحكم في الدنيا المصير إلى الله، الحكم في الآخرة المصير إلى الله، في كل شيء فإن مصيره إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، يتفرع على هذه القاعدة، أن الإنسان لا يرجو ولا يخاف، ولا يدعو إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يستعين إلَّا به.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى: ١٦]

❁ التفسير ❁

قال الله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾، مبتدأ، وحجة: مبتدأ ثاني، وداحضة: خبر المبتدأ الثاني والمبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، الذين يحاجون في الله أي: يجادلون فيه، قال المؤلف: في [دين الله] يعني: يحاجون في دين الله، والصواب العموم، المحاجة في الله تشمل المحاجة في دينه، والمحاجة في أسمائه وصفاته، والمحاجة في ذاته؛ لأن الآية عامة وقوله: ﴿فِي اللَّهِ﴾، والمحاجة -أيضًا- في قدره، فكوننا نخصها في دين الله فيه نظر، حتى ولو قدر أن الذين يحاجون في سبيل الله إنما يحاجون بل إنه ليس في سبيل الله فقط فأخذها بالعموم أولى؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال المؤلف: [نبيه] مفعول يحاجون، وكأنه قال: مَنْ يحاجون فيقال: نبيهم، وهذا -أيضًا- فيه نظر؛ لأن تقييد المحاجة في الله -عَزَّ وَجَلَّ- مع النبي ﷺ غير صحيح؛ لأنهم يحاجون نبي الله ويحاجون غيره، فإطلاق الآية أولى، ويقولون: إن حذف المفعول يفيد العموم، فإبقاء الآية على ما هو عليه أَوْلَى، إذن الذين يحاجون في الله، أي: يحاجون كل مَنْ يجادلهم في الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأيضًا ليس في دين الله فقط، بل في دين الله وذات الله وكل ما يتعلق بالله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، يعني: من بعد ما استجاب له فَمَنْ مَنَّ الله عليه بالاستجابة، وهذه الجملة كإقامة البرهان على هؤلاء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ [بالإيمان لظهور معجزاته وهم اليهود] هذا قوله (من بعد ما استجيب له بالإيمان).

وقوله: [لظهور معجزاته]، بناء على أنهم يحاجون النبي ﷺ وإذا قلنا: بالعموم، فلا حاجة لهذا القيد.

وقوله: [وهم اليهود]، ـ أيضًا ـ فيه نظر، بل نقول: كل من يحاجج الله حتى المشركون من قريش وغيرهم حاجوا النبي ﷺ، أليس يخاصمونه دائمًا، ويستهزئون به، ويسخرون منه؟، فتقييد هذا باليهود فيه نظر، فصار عندنا ـ الآن ـ ثلاثة أشياء في الآية خصصها المؤلف بشيء، الأول قوله: في دين الله وهو أعم، والثاني نبيه وهي كذلك أعم.

وقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: داحضة [باطلة] لكن الدحوض أشد البطلان، يعني: باطلة بطلانًا لا فوقه.

فقوله: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فهل تنفعهم؟ لا، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان فائدة هذه الجملة.

وأما قوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، عليهم غضب مِمَّنْ مَنَّ الله أو من أولياء الله؟، ولهذا لم يقيد الغضب بكونه من الله لإفادة العموم، وتأمل سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله، وإذا صدر من الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثناء ومدح لله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم بل قال: المغضوب عليهم، ليشمل غضب الله، وغضب أوليائه من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولئلا يسند الغضب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذا المقام، وإلَّا فإن الغضب قد أسند إلى الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

فقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: قوي قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون فيهما.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان بطلان جميع الحجج المخالفة لدين الله؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾، حجتهم داحضة عند ربهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن أولئك المتحاجين لا وجه لمحاجتهم؛ لأن الحق قد بان، وقبله الناس لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بطلان حجج أهل الباطل لقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أن هؤلاء المبتلين وإن غلبوا أهل الحق في الظاهر، فإن حجتهم عند الله لا تنفعهم بل هي باطلة، وهذا من فوائد قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن حجة الكافر والمبطل قد لا

تندحض أمام الناس فقد يكون الذي حاجه ضعيفا في علمه أو فهمه أو في خصومته، لكن مهما كان فهي عند الله باطلة بل داحضة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الغضب لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، فإن قال قائل: كيف تثبت الغضب لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو لم يُضَفْ إلى الله هنا، بل قال: عليهم غضب وهو نكرة فكيف تثبته لله؟

فالجواب: أن السياق يعين هذا؛ لقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإذا دحضت عند ربهم فهل يرضى الله عنهم أو يغضب؟ يغضب، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن الله ـ تعالى ـ أثبت لنفسه الغضب في آيات أخرى، إذن: يصح أن نثبت غضب الله، أو أن نثبت الغضب لله بهذه الآية الكريمة، وإنما أوردت هذا الإيراد؛ لأنه لا يجوز لنا أن نثبت لله إلَّا ما أضافه لنفسه، وانظر إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، هل يمكن أن نثبت لله الساق في هذه الآية، لا يجوز؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يضفه إلى نفسه، بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولهذا روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: أي: (عن شدة)، ولكن نقول: هذه الآية لا نستطيع أن نثبت منها الساق لربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن ظاهرها خلاف ذلك، ولكن سياقها يوافق حديث إثبات الساق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حيث جاء مصرّحا به، أن الله ـ تعالى ـ يكشف عن ساقه، وحينئذ نقول: ما دام سياق الآية يطابق سياق الحديث فإن النبي ﷺ أعلم الناس بتفسير كتاب الله، وإلَّا فلا يجوز لنا أن نثبت لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما لم يثبته لنفسه.

٦ ـ **فإذن من فوائد هذه الآية:**

إثبات الغضب لله، ما وجهه؟ السياق يدل عليه، وهو ليس ممتنعا على الله بدليل ثبوته صريحا في آيات أخرى.

فإن قال قائل: بماذا تُفسِّرون الغضب؟ قلنا: نفسر الغضب بأنه صفة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لائقة به، وليس كغضب المخلوقين.

فإن قال قائل: ما قولكم فيمن يفسِّر غضب الله بانتقامه؟ فيقول: غضب بمعنى:انتقم، أو بمعنى:أراد الانتقام، فالجواب نقول: هذا خطأ يبطله دليلان:ـ

أ ـ أن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ومعنى آسفونا: أغضبونا، انتقمنا منهم فجعل الانتقام مرتبا على الغضب مع أنهما متباينان.

ب ـ نقول: إن الغضب الذي نثبته لله ليس كغضب المخلوق إذا غضب أساء التصرف، ولم

يتصرف تصرف الحكيم؛ لأن الإنسان إذا غضب تكلم بكلام يندم عليه وفعل أفعالا يندم عليها ربما يُطلِّق زوجاته وربما يوقف أملاكه وربما يحرر عبيده من شدة الغضب لكن غضب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينتفي عنه ذلك غاية الانتفاء فهو حكيم وإن غضب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فإن قال قائل: هل الغضب صفة مدح أو صفة ذم؟ الجواب: صفة مدح، في محله؛ لأنه يدل على قوة الغاضب، وقدرته على الانتقام بخلاف الحزن، ولذلك لا يوصف الله بالحزن؛ لأنه صفة ذم وإنما يوصف بالغضب؛ لأنه يدل على قدرته على الانتقام، انظر مثلًا إلى رجل، أساء إليه ابنه هل يحزن أو يغضب ؟، يغضب ويؤدبه، وانظر إلى شخص ضعيف أساء إليه رجل ضعيف هل يغضب أو يحزن؟ يحزن ولا يستطيع أن يغضب وماذا يفعل إذا غضب؟!

إذن: الغضب لا يكون صاحبه غاضبًا إلَّا أن يكون قادرًا على الانتقام ولهذا نقول: إن الغضب في محله صفة مدح.

٧ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ مع الغضب لهم عذاب شديد فيجمعون بين غضب الله عليهم وبين عذابه الشديد

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]

❁ التفسير ❁

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، قال: الكتاب: [القرآن]، بالحق [متعلق بأنزل].

أولا: قول المؤلف بأن [الكتاب أي القرآن] فيه نظر، وهو أن الكتاب أعم من القرآن بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ فهذه الآية تبعا لا استقلال تطابق هذه الآية التي معنا، والمؤلف خص الكتاب بالقرآن، بل الصواب أن المراد بالكتاب، كل كتاب أنزله الله، ف (أل) هنا للجنس.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يقول المؤلف: [متعلق بأنزل] وعلى هذا يكون المعنى: أن نزول هذه الكتب من عند الله حق، ولكننا نقول: الآية أعم مما قال المؤلف، فهي نازلة بالحق؛ لأنها نزلت حقا من

عند الله، وهي ـ أيضًا ـ متصفة بالحق، بمعنى: أنها جاءت بالحق، والفرق بين المعنيين ظاهر؛ لأنها على ما فسرنا تتضمن أن هذه الكتب حق من عند الله، وأن ما جاءت به هذه الكتب فهو حق فتكون الباء هنا على كلام المؤلف تكون للتعدية، وعلى ما قلنا تكون للتعدية والمصاحبة أو الملابسة.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [العدل]، وعبر عن العدل بالميزان؛ لأنه يعرف به العدل.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: [ما يعلمك] أيها المخاطب، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، أي: [إتيانها]، وعبر المؤلف بقوله: أي: إتيانها، ليطابق قوله: قريب؛ لأن قريب مذكر والساعة مؤنث، ولو كان في غير القرآن لكان: لعل الساعة قريبة، لكنه قال: قريب ولم يقل: قريبة، واحتاج المؤلف أن يؤول هذا إلى قوله: إتيانها حتى يكون مذكرًا ويكون قريب مطابقًا له، إذن: الآية على تقدير مضاف، ألجأ إلى تقديره أن الخبر مذكر والساعة مؤنث.

وقال بعض العلماء: إن قريب صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث كقتيل وجريح، وقال: إن هذا له نظائر في القرآن، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، ومنها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال: فلما اضطرد تذكيرها في مواضع عدة وجب أن يقال: إن (قريب) يعني: هذا اللفظ يستوي فيه المذكر والمؤنث، وبناء على هذا لا نحتاج إلى تقدير؛ لأن الأصل في الكلام عدم التقدير.

فقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾، وصدق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، الساعة مهما طال الزمن فهي قريبة، لا من حيث الساعة العمومية ولا من حيث الساعة الخصوصية، الساعة الخصوصية ساعة كل إنسان بحسبه، ساعة كل واحد منَّا قريبة أو بعيدة؟ قريبة ولو بلغ آلاف السنين؛ لأن ما مضى من السنين كأن لا شيء، ـ الآن ـ مضى الأمس القريب كأنه لم يكن، ويوم ولادتك كأنه أمس، إذن: الساعة قريب باعتبار كل إنسان بنفسه، وكذلك الساعة الكبرى هي قريبة ـ أيضًا ـ كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

ولذلك من عبارات الناس (كل آت قريب وكل ماض بعيد).

قال المؤلف: [ولعل معلق للفعل عن العمل وما بعده سد مسد للمفعولين].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، تنصب ثلاث مفاعيل، المفعول الأول: منصوب وهو قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، المفعول الثاني والثالث: تنصب، ولكنه علق عن العمل بالإتيان بلعل؛ لأن لعل موجبة

بتعليق أفعال القلوب عن العمل فتسُدُّ مسد المفعولين، إذن لعل معلق بالفعل عن العمل أين لعل؟ لعل الساعة قريب، أين الفعل المعلق؟ يدريك، وما بعده، أي :بعد لعل، سد مسد المفعولين، أين الذي بعد لعل؟ الساعة قريب، فيكون هنا لعل قد علقتها عن العمل، أي: أبطلت عملها لفظا دون المحل، والمعلقات كثيرة ذكرها ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية فليرجع إليها.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن كلام وإذا أضيف إنزاله إلى أحد صار كلاما له صفة من صفاته.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكتب التي أنزلها الله نازلة بحق، فليس فيها باطل، الباطل في الأخبار هو الكذب، والباطل في الأحكام هو الظلم والجور والفساد، فكلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس فيه كذب، وليس فيه ظلم ولا جور ولا فساد.

٤ ـ **ومن فوائدها**: أنها نازلة من عند الله حقا؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات القياس؛ لقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ لأن الميزان ما توزن به الأشياء، ويقارن بينها ففيه إثبات القياس في الشرائع السماوية، وهذه المسألة ـ مسألة القياس ـ أنكرها بعض العلماء ولا سيما الظاهرية ـ عفا الله عنا وعنهم ـ وإنكارهم هو المنكر؛ لأن القياس جاء في الكتاب والسنة فهنا ذكر الميزان، والميزان ما توزن به الأشياء وهذا لا يكون إلّا بالقياس، واعلم أن كل مثل ضربه الله في القرآن فإنه مثبت للقياس؛ لأن المقصود به قياس هذه الحال على هذه الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، عندنا هنا مشبه ومشبه به والتشبيه يقتضي الموازنة وإلحاق المشبه بالمشبه به، وهذا تمامًا هو القياس، وهذه خذها قاعدة كل مثل في القرآن فإنه يتضمن إثبات القياس.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾، هذا فيه قياس، ولكن هل هو قياس أولوية أو مماثلة؟ قياس أولوية، والرسول ﷺ ذكر القياس في عدة أحاديث منها:

أنه شبه قضاء الحج عن الميت بقضاء الدين.

ومنها: أن رجلا جاء إليه وقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود وهو والمرأة أبيضان، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ » قال: نعم، قال: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر «قَالَ هَلْ

فِيهَا مِنْ أَوْرَق» قال: نعم، قال: «أَنَّى لَهَا ذَلِكَ؟» قال: لعله نزعه عرق، فقال: «وَلَعَلَّ ابْنَكَ نَزَعَهُ عِرْقٍ»(١).

فإثبات القياس لا بد منه، ولا يمكن أن تتوسع الشريعة إلَّا بالقياس؛ لأن أكثر الحوادث لم يوجد بعينه في النصوص، لكن وجدت قواعد وأصول ترجع إليه هذه الحوادث في حكمها.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى قرب الساعة؛ لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وسبق في التفسير أن المراد بالساعة الخصوصية، وهي الموت والعمومية وهي القيامة.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يعلم متى تقوم الساعة لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يعلمك، وهذا حق ثابت، فإن جبريل - عليه السلام - سأل النبي ﷺ قال: أَخْبِرْنِي عِنِ السَّاعَةِ؟ فقال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(٢) يعني، كما أنك أنت تجهلها، فأنا أجهلها، ولهذا من ادَّعى علم الساعة، فإنه كافر مكذب؛ لقول الله - تعالى -: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد بالكتاب هنا كلامه الذي أوحاه إلى رسله، ما وجه الدلالة من الآية؟ ووجه الدلالة أن النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، وعلو الله - سبحانه وتعالى - ثابت بالقرآن والسنة والإجماع والعقل والفطرة وكل الأدلة الممكنة حاصلة لإثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهل العلو علو ذاتي، أو علو وصفي بمعنى: أن علوه علو صفة، أو علو ذات وصفة؟ الثاني، ذات وصفة، لقوله - تعالى -: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقوله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، يعني: الوصف، إذن: علو الله علو ذات وعلو صفة، علو الصفة لا أعلم أحدًا ممن انتسب إلى الإسلام أنكره، كل المنتسب إلى الإسلام من مبتدعة، وسنية كلهم يؤمنون بعلو الله - تعالى - علو صفة، لكن ما هو علو الصفة؟ هنا تختلف الأفهام، بعضهم يقول: من علو صفته تعطيل صفاته هذا بحث آخر، أما علو الذات هذا محل المعترك بين السنيين والبدعيين، انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ولا بأس أن نبسط؛ لأن هذه عقيدة:

أولًا: قسم أثبتوه.

ثانيًا: وقسم نفوه، وقالوا: إن الله - تعالى - لا يقال: فوق ولا تحت، وقسم نفوه وقالوا: إن الله -

(١) رواه البخاري (٤٩٩٩)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى ـ في كل مكان في الأسواق في المساجد وفي المراحيض ـ والعياذ بالله ـ.

ثالثًا: أما أهل السنة فيقولون: أن الله ـ تعالى ـ فوق جميع مخلوقاته، وأن علوه علو ذات ودل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة ونأخذ من كل نوع دليلًا:

أما الكتاب: فما أكثر الله من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، والعلي هنا صفة مشبهة، والصفة: المشبهة صفة ثبوتية لا تفارق موصوفها، ويقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، الأعلى اسم تفضيل حذف المفضل عليه ليدل على العموم، يعني: الأعلى على كل شيء، نكتفي بهذا وإلَّا في القرآن ما لا يحصى على وجوه متنوعة.

أما السنة: كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، وقد دلت السنة القولية والفعلية والإقرارية على علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام: ـ سبحان ربي الأعلى ـ هذا سنة قولية، وقوله ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١) هذه إقرارية، ورفع يده إلى السماء عند الدعاء وهو يدعو الله يا رب وهذه سنة فعلية، وقد جرت السنة الفعلية في أكبر اجتماع حصل للنبي ﷺ مع أصحابه وذلك في يوم عرفة حين قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(٢) اللهم ورفع اصبعه، اشهد أشار إليهم علوًا وسفلًا، علوًا لله وسفلًا للخلق، يشهد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على إقرار أمته على أنه بلغ، وهل تشهدون أنتم؟ نعم والله نشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأنه عانى من أجل ذلك أكبر العناء ـ صلوات الله وسلامه عليه، هذه سنة فعليه، إذن: السنة بجميع أنواعها كلها دلت على علو الله.

أما الإجماع: إجماع الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم على علو الله، فإن قال قائل: أثبت لي قولًا واحدًا عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي على أنهم قالوا: إن الله عالٍ بذاته، أقول: إن هؤلاء الصحابة يقرءون القرآن، ويعرفون من السنة ما عرفوا ولم يرد عنهم حرف واحد يدل على نقيض ما جاء في القرآن وكفى بذلك دليلا، لو كانت عندهم معارضة لورد عنهم خلاف ما في القرآن وهم يقرءون القرآن وهم عرب يعرفون المعنى، ويعرفون المراد، ألَّا توافقون على هذا؟، وهذا من أحسن ما يكون في تقرير إجماع الصحابة، يعني: إذا أتاك إنسان وقال لك: أثبت لي قولًا واحدًا عن الصحابة أنَّهم آمنوا بعلو الله بذاته، أقول: ما أحتاج أن أثبت لك فهم قرءوا القرآن وعلموا من السنة ما علموا ولم يرد عنهم حرف واحد يقولون فيه: إن الله ليس في السماء أبدا، ولا إنه بذاته

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

في كل مكان وهذا إجماع، وهكذا يا إخواني كل الصفات التي لم ترد عن الصحابة ما يناقضها فهو دليل على إجماعهم.

أما العقل: العقل يدل على علو الله؛ لأنك لو سألت أي إنسان هل العلو أكمل أو السفول؟ لقال لك: العلو أكمل ـ لا شك ـ حتى في أمور الدنيا يقول: هذا اللباس أعلى من هذا اللباس، كل يعرف أن العلو صفة كمال فإذا كان الأمر كذلك فهل الرب موصوف بالكمال عقلًا أو لا؟ موصوف بالكمال عقلا، ولهذا لما احتج إبراهيم على أبيه فإنَّهُ احتج عليه بالعقل قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، هذا ما يعقل، فهذا استدلال عقلي، وأيضًا نحن نقول: العلو باتفاق العقلاء صفة كمال والسفول باتفاق العقلاء صفة نقص فحينئذ ثبت لله العلو الذاتي عقلا.

أما الفطرة: لا تسأل، اسأل عجوزًا تدور بالرحى تطحن الطحين اسألها أين الله؟، وهي ما درست لا العقيدة الواسطية ولا الطحاوية ولا غيرها، تقول: في السماء ولا تتوقف لحظة؛ لأن هذا أمر مفطور عليه الخلق، ويقال: إن أبا المعالي الجويني إمام الحرمين ـ عفا الله عنا وعنه ـ كان يتكلم عن الاستواء ومعروف أن الأشاعرة وهو من أئمة الأشاعرة ـ عفا الله عنا وعنه، معلوم أنهم ينكرون استواء الله على العرش يقولون: استوى على العرش يعني: استولى عليه، ما في علو استولى عليه. ففي مجلس جمعني بعوام تكلم أحد الطلبة في نفس المجلس فقال: إن أهل التأويل يعني: أهل التحريف يقولون: استوى بمعنى:استولى فقال عامِّي جمَّال يحمل على الجمال يسافر من بلد إلى آخر فقال: غربله الله يعني: عاقبه فقال: العرش من ملكه ـ سبحان الله ـ هذا عامي يفهم أفضل من طلاب علم كثيرين.

المهم أنَّهُم يقولون: إن أبا المعالي الجويني تكلم عن الاستواء وقال: إن الله ـ تعالى ـ كان، ولم يكن عرش، ولا مخلوق وهو ـ الآن ـ على ما كان عليه، يعني: أن الله ليس على العرش، فقال له أبو العلاء الهمداني: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الفطرة، ما قال عارف: قط يا الله إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فجعل يلطم على رأسه حيرني الهمداني، فكل إنسان مفطور على هذا ما دام أن الشياطين لم تجتاله.

يتبين من هذا: أن علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

* الطائفة الثانية في هذه المسألة: أن الله لا يوصف بالعلو إطلاقًا، بماذا يوصف؟ قالوا: في كل مكان، ثم شبهوا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، فأين ظرف مكان والمعنى: في أي مكان أنتم فالله معكم.

إذن إذا كنت في المسجد يكون الله معي، وإذا بآخر في المرحاض كذلك يكون الله معه على

زعمهم كم إله الآن؟ اثنين واحد في المسجد وواحد في المرحاض والله في السوق صاروا كم ؟! ثلاثة وواحد في الطيارة صاروا كم؟ ! أربعة وهلم جرًّا، هل هذا يقوله عاقل؟ ! هذا يستلزم وصف الله بما لا يليق بأن يكون الله في الحمامات والمراحيض والأماكن القذرة، والعالية والسافلة.

هذا يلزم أحد أمرين:

* إما تجزؤ الله وإما تعدد الله، فإن قالوا: بالتعدد صحنا بهم صيحةً تتقطع منها قلوبهم نقول لهم: كفرتم وصرتم أعظم من النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وأنتم تقولون ملايين الملايين.

وإن قالوا: يتجزأ، قلنا: ـ الآن ـ أبطلتم قولكم إذا كان جزء هنا وجزء هناك؛ لأن استدلالكم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، هذا دليل على أن واحدًا معهم ليس جزءا منه، فأنتم ـ الآن ـ خذلتم ـ والحمد لله ـ.

* أما ما شبهوا به ولبسوا، وفي قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، نقول: لا يلزم من المعية أن يكون في نفس المكان، ولهذا العرب تقول في لغتها: القمر معنا، ومكان القمر فوق في السماء، وهم يقولون: معنا، العرب تقول: المرأة مع زوجها يعني: في عصمته ولو كان هو في أقصى المشرق، وهي في أقصى المغرب، القائد يوجه جنده إلى معركة في الميدان قاتلوا باسم الله وأنا معكم وهو في مكانه، فالمعية مدلولها واسع لا تستلزم الاختلاط لا في المكان، ولا في الذات، إذن ـ الحمد لله ـ هذا القول بطل، القول بأن الله بذاته في كل مكان هذا باطل.

* بقي القول الثالث: لا تصف الله بأنه معك ولا بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا خلف ولا أمام ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا متحد ،إذن: أين يكون؟ العدم، ولهذا قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا صفوا العدم ما وجدنا أدق من هذا الوصف.

أما القول الذي لا يرتاب عاقل في صحته، ولا يمكن أن يؤمن الإنسان بسواه إلَّا من اجتالته الشياطين؛ هو أن الله ـ تعالى ـ عالٍ بذاته، عالٍ بصفاته ولا يمكن أن تستقر قدم مؤمن بالله واليوم الآخر إلَّا على هذا القول.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

أما قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، قال المؤلف: [يقولون: متى تأتي ظنا منهم أنها غير آتية]، لا يقولون ذلك حرصًا عليها ولا رغبة فيما يكون فيها من الخير ولكنه استبطاء لها وإنكار لها كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهم بهذا ملبسون مشبهون؛ لأنهم لم يقال لهم: ائتوا بهم في الدنيا إنما يأتون يوم القيامة فالرسل لم تقل: إن آباءكم سيأتون وأنتم أحياء؛ لأنه من مات لا يبعث إلَّا يوم القيامة قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، اللهم إلَّا إذا كانت آية من آيات الرسل كما جرت لعيسى عليه السلام، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها.

أما الذين آمنوا فاسمع ماذا يقول الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾، أي: [خائفون] وقوله: ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، الذين آمنوا مشفقون والإشفاق أشد الخوف.

وتفسير المؤلف له بالخوف تقريبي، وليس على وجه التحديد؛ لأن الإشفاق خوف وزيادة؛ لأنهم يعلمون أنها الحق وأنها ستقوم، وستكون أهوالًا عظامًا، ستكون الجبال كالعهن المنفوش، وستدك الأرض، وكل ما ذكر في الكتاب والسنة مما يكون في الآخرة فالذين آمنوا مشفقون منه خائفون.

قال الله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾، أي: [يجادلون] وقوله: ﴿فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ألا: أداة استفتاح، والفائدة: منها التنبيه والتحقيق والعناية ولهذا تأتي بعدها غالبًا (إنْ)، و(إنَّ) للتوكيد مثل قوله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ألا أداة استفتاح تفيد التوكيد والتنبيه والتحقيق والعناية.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، (إنَّ) للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، هي داخلة على الخبر وقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، أي: لفي ضلال بعيد عن الهدى؛ لأن الضلال قد يكون قريبا

ويهتدي الإنسان عن قرب، وقد يكون بعيدًا فلا يهتدي - والعياذ بالله -.

الفوائد

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن منكري الساعة يستعجلونها، يقولون متى تأتي؟، والمراد بقولهم: متى: الإنكار، كما قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المؤمن بالساعة خائف منها، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، ولكنهم خائفون خوفًا يحملهم على العمل لها، لا خوف ذعر فقط، بل خوف يحملهم على العمل لها، وهذا هو الخوف النافع، أما مجرد الخوف فلا يكفي.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى ترجيح جانب الخوف؛ لأن الله - تعالى - امتدح الذين يخافون من الساعة، وهذه المسألة اختلف فيها أرباب السلوك والمعارف أيهما أفضل أن يُغَلِّبَ الإنسان جانب الخوف أو جانب الرجاء؟

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غَلَّبَ جانب الخوف وقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، وإن غلب جانب الرجاء وقع في الأمن مِنْ مكر الله، وكلاهما خطر على الإنسان.

* وقال بعض العلماء: ينبغي عند إرادة العمل السيء أي: المعصية أن يُغَلِّبَ جانب الخوف، لئلا يقع فيها، وعند فعل الطاعة، أن يُغَلِّبَ جانب الرجاء وهذا جيد جدًّا؛ لأنه عند الهم بالمعصية إذا لم يُغَلِّبَ جانب الخوف وقع فيها، وعند فعل الطاعة إذا لم يُغَلِّبَ جانب الرجاء لم يَنْشَطْ للطاعة.

وعليه نقول: إن تغليب أحد الجانبِيْن - الخوف أو الرجاء - يرجع إلى حال الشخص في حال الهم بالمعصية فإِنَّهُ يُغَلِّبَ جانب الخوف، وفي حال فعل الطاعة يُغَلِّبَ جانب الرجاء، لئلا يقنط من رحمة الله، وييئس من روح الله، فيغلب جانب الرجاء، ويكون رجاؤه هذا مبنيا، على أنه يَسَّرَ الله له فعل الطاعة فإن رجاءه يكون في الله أعظم وأمكن، فيكون الله - تعالى - عند حسن ظنه به، هذان قولان.

* القول الثالث: في حال المرض ودنو الأجل يغلب جانب الرجاء حتى يموت وهو يحسن ظنه بالله - تعالى -، وفي حال الصحة يُغَلِّبَ جانب الخوف؛ لأن الإنسان إذا كان صحيحا فإنه يكون عنده شيء من البطر والأشر وربما يُقْدِمُ على المعاصي والتهاون بالواجبات فيُغَلِّبَ هنا

جانب الخوف، ولهذا جاء في الحديث: «نِعْمَتَانِ[(١)] مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَةُ وَالْفَرَاغُ»[(٢)]، وعند العرب يقولون: نعمتان مجحودتان: الصحة في الأبدان، والأمن في الأوطان.

هذا غير صحيح، إنما الصحيح نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ، ولم يكن فارغًا إلَّا لأنه غني؛ لأن الفقير لا يكون فارغًا، يعمل ويكدح ويكتسب، فهذان نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ لأنه لا يربح فيهما.

إذن هذا قول ثالث، في حال المرض يُغَلِّبَ جانب الرجاء، وفي حال الصحة يُغَلِّبَ جانب الخوف.

لكن القول الوسط هو ما أشرنا إليه وهو القول الثاني: إذا هم بالمعصية فليُغَلِّبَ جانب الخوف وإذا فعل الطاعة فليُغَلِّبَ جانب الرجاء.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩]

التفسير

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، الجملة استئنافية، وهي ـ أيضًا ـ مبتدأ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، لا يخفي أنها مبتدأ وخبر، ومعنى اللطيف: هو الذي يلطف بالعبد فيقدر له من التيسير ما لا يخطر له على بال، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية: وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ

لطيف به: يرفق به وييسر له الأمر، لطيف لعبده، يقدر له من الأمور الخارجية ما يكون فيه اللطف كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

فاللطافة كناية عن تيسير الأمر وتسهيل الأمر لمن شاء من عباده، لكن المؤلف يقول: [بعباده برهم وفاجرهم]، حتى الفاجر، الله لطيف به؟ نعم، لطيف به بالمعنى العام، ولهذا ينزل عليهم المطر وينبت لهم النبات، ويدفع عنهم الشرور إلى آخره، فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لطيف بالعباد كلهم، البر والفاجر، لكن لطفه بالبر لطف خاص مستمر في الدنيا وفي الآخرة، ولطفه بالفاجر لطفًا عامًا يكون ابتلاءً وامتحانًا، وربما يزداد به الفاجر فجورًا بما لطف الله به كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ

(١) تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة وقيل هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى غيره.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، وأحمد في مسنده (٣٢٠٧) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١)، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم، وإنما فسرها بقوله: [حيث لم يهلكهم جوعا] توطئة لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، يرزق، أي: يعطي، فالرزق بمعنى: العطاء، قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم﴾، أي: أعطوهم، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾،أي: [من كل منهم ما يشاء]؛ لأن المسألة فيها مرزوق وفيها رزق، المرزوق عبر عنه بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فأتى بمن التي للعقلاء، والمرزوق قدرها الشارح بقوله: [ما يشاء].

إذن: لدينا رزق ومرزوق، والمرزوق عبر الله عنه بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و(الرزق) حذف للعلم به وقدره المؤلف بقوله:[ما يشاء]. ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، ترد كثيرًا في القرآن الأشياء معلقة بالمشيئة، هل هذه أشياء المقدرة معلقة بالمشيئة؟ أو هي مشيئة مجردة؟ أو هي مشيئة مقرونة بالحكمة ؟، الجواب: مشيئة مقرونة بالحكمة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل إلَّا لحكمة، كل ما وجد مضافًا إلى الله معلقًا بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة، دليل ذلك قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ففي هذا إشارة إلى أن مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صادرة عن علم وحكمة، فخذها بقلبك، كلما وجدت شيئًا من أفعال الله أو أحكام الله الشرعية معلقة بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة خلافا لمن قال كالجهمية وغيرهم: إن أفعال الله ـ تعالى ـ لمجرد المشيئة وليست مقرونة بالحكمة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، القوي ضد الضعيف؛ لأنه ذو القوة الكاملة التي لا يلحقها ضعف، ولنسأل أنفسنا هل لدينا قوة كاملة؟ لا، ثم لا، ثم لا، وهذه قوتنا الناقصة تستمر؟ لا، وهل هذه قوتنا الناقصة ثابتة لنا من حين ولدنا؟ لا.

واسمع إلى قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾، هكذا حال الإنسان ولا مفر منها، الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو القوي ذو القوة التامة التي لم تزل ولا تزال واستمع إلى عاد حين فخروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾.

فلو قالت أمريكا ـ الآن ـ: (مَنْ أشد منَّا قوة) إذن نقول لها: الله الذي خلقكم أشد منكم قوة أنتم مخلوقون ضعفاء، ولو شاء الله لسلبكم القوة والقدرة والعقول؛ لأن الله الذي خلقكم هو أشد منكم قوة وكذلك غيرها من الدول الذين يعتزون بقوتهم المادية، نقول: إن ربكم فوقكم

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

رب العباد ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي خلقكم، ولم تكونوا شيئًا فهو أشد منكم قوة.

وقد يكون تفتيت القوة من نفس القوة، أرأيتم الاتحاد السوفيتي، ألم يهدد العالم من قبل؟ ألم يقل رئيسهم حين قال وزير الدفاع الأمريكي: إن لدينا صواريخ من الممكن أن نضرب بها روسيا، فقال رئيس الاتحاد السوفيتي: ولكنها إذا رجعت لن تجد أمريكا!!!

أين ذهبت هذه الصواريخ؟ دُمِّرَتْ، روسيا تفاخروا بالقوة، ـ الآن ـ أين الاتحاد السوفيتي؟ فتته الله من الداخل، والقادر على هذا قادر على أن يفتت أمريكا ـ نسأل الله أن يفتتها ـ، المهم أن الله هو القوي الكامل القوة، ولا يمكن أن يلحقها ضعف.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** هناك قوة وقدرة وهناك ضعف وعجز، ما الذي يقابل القوة؟ الضعف، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾، وما الذي يقابل القدرة؟ العجز والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾، ما قال: عليمًا قويًا وإنما قال: ﴿عليما قديرًا﴾، أيهما أشد؟ نقول: كل شيء بحسبه، فالقدرة لا يوصف بها إلَّا ذوو الإرادة، فالجدار مثلًا لا تقول: له قدير، والقوة يوصف بها ذوي الإرادة وغيرهم، تقول: الجدار قوي، والحجارة قوية، ولا تقول: قديرة.

القوة أكمل من جهة أخرى؛ لأنه ليس كل قادر قويًا، فلو امتحنا واحدًا منكم، احمل هذا الحجر، فأراد أن يحمله عجز أن يقله عن الأرض، هل هنا نقول: غير قوي أم غير قادر؟ غير قادر؛ لأنه عجز، ولو قلنا لآخر: احمل هذا الحجر فكشف عن ذراعيه ثم حمل ولكن بتعسر غير قوي، فصارت القوة من هذه الناحية أكمل؛ لأنها القدرة على الشيء بلا ضعف، هنا يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، والعزيز يعني: الغالب، [الغالب على أمره]، وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ العزة إلى ثلاثة أقسام:

عزة القدر، عزة القهر، عزة الامتناع.

أولًا: عزة القدر يعني: أن قدره عظيم لا نظير له، ومنه قول العرب: هذا عزيز، يعني: نادر الوجود، هذا عزة القدر.

ثانيًا: عزة القهر، يعني: الغلبة وهذا أكثر ما ترد بهذا المعنى، فالعزيز بمعنى:الغالب، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ردًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾.

ثالثًا: عزة الامتناع، يعني: يمتنع عليه السوء ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويمتنع عليه النقص، يحاول

المنقصون أن يصفوه بالنقص ولكنه يمتنع عليه، ومنه قولهم: هذه أرض عِزَاز، يعني: أرض شديدة صلبة وهي التي لا تؤثر فيها المعاول يقولون: إنها عزاز، وفي اللغة العامية يقولون: أرض عزا، ويحذفون الزاي الثانية، أي أرض صلبة.

فالعزيز له ثلاث معانٍ: عزيز القدر، عزيز القهر، عزيز الامتناع. كل هذا ثابت لله ـ عزَّ وَ جَلَّ ـ قال ابن القيم:

وَهُوَ العَزِيزُ فلن يـرام جَنَـابُهُ ... أَنَّى يُـرَامُ جَنَابُ ذَا السُّلْطَانِ

قال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى: ٢٠]

التَفسِيرُ

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾، لا يخفى علينا جميعا من حيث الإعراب، أن (من) هنا شرطية والدليل قوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ حيث جاء الجواب مجزوما، وهذا فيه أن فعل الشرط يكون ماضيًا والجواب يكون مضارعا، ماضيًا لقوله: ﴿مَن كَانَ﴾، الجواب: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾، وكذلك بالعكس قد يكون فعل الشرط مضارعًا والجواب ماضيًا مثل (من يشكر الله زاده الله)، من كان يريد [بعمله] حرث الآخرة، أي: [كسبها وهو الثواب] نزد له في حرثه [بالتضعيف فيه الحسنة إلى العشرة، وأكثر]، أصل الحرث ما يحرث للنماء والزيادة، ومنه: حرث الفلاح الأرض من أجل أن يزرعها، فيكسب ويزداد ماله.

وقوله: ﴿حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: كسبها وهو الثواب.

وقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾، فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ زيادة الحرث: [بزيادة الثواب الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة]، ونزيد أمرًا آخر، أي: نؤته من الدنيا والآخرة، بدليل قوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، إذن: نزد له في حرثه من وجهيْن:

الوجه الأول: أن الله ـ تعالى ـ يعطيه ثواب الدنيا والآخرة.

والوجه الثاني: أنه يضاعف الثواب فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف بل إلى أضعاف كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾، يعني: كسبها والتنعم فيها، هذا في الغالب يعرض عن الآخرة؛ لأنه لا يريد إلَّا الدنيا ولهذا تجده مهتما بأمور الدنيا غاية الاهتمام حتى السيارة إذا أصابتها بقعة من الطين، بالمشي على الطين ذهب ينظفها ويمسحها، لكن قلبه مملوء من البلاء ولكن لا يحرص على تنظيفه؛ لأنه لا يريد إلَّا الدنيا، تجده مثلًا في قصوره، لا يهتم إلَّا بإصلاح الجدر وتنظيفها، لكن بناء الدين لا يهتم به، هذا يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، ولا يؤتيه كل ما أراد، وكلمة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، هذه مطلقة، لكنها مقيدة، بما في سورة الإسراء في قوله - تعالى -: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾، لا ما يشاءُ هو، وقوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، حتى أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - بيَّن أن المعجل تابع لمشيئته، وأن المعجل له - وهو الإنسان - تابع لإرادته، فقال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، انتبه، حتى لا تظن أن الآية فيها تكرار، ما نشاء هذا باعتبار المعجل، لمن نريد باعتبار المعجل له، فلا كل أحد أراد أن يعجل له، ولا كل أحد أراد شيئًا يحصل له ما أراد؛ لأن الأمر بيد الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا يقول هنا: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، فإذا قال قائل: كلمة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، جواب الشرط، وهي تقتضي أن الله سيؤتيه منها، فنقول: إن هذا المطلق مقيد بآية سورة الإسراء في قوله - تعالى -: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾: وهي الدنيا ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورًا﴾، نؤته منها [بلا تضعيف لما قسم له]،وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، - نسأل الله العافية - في هذه الآية حث على أن يريد الإنسان بعمله الآخرة، فإن قال قائل: كيف يريد الآخرة بعمل الدنيا ولنفرض الأكل والشرب، ذهب فلان إلى سوق ليشتري خبزًا وإدامًا، كيف يريد الآخرة؟ نقول: يمكن أن يريد الآخرة بذلك، فيريد أولا: امتثال أمر الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، ويريد ثانيا: حفظ قوته وصحته، وهذا أمر مطلوب؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر أن نأكل من الطيبات ونشكره، يريد بذلك التَقَوِّي على طاعة الله؛ لأنه كلما كان الجسم قويًا كانت العبادة أكمل، فيريد بأكله وشربه التَقَوِّي على طاعة الله، ثالثًا: يريد بذلك التنعم بكرم الله، كيف ذلك؟ لأن الكريم يحب أن يقبل كرمه؛ لأنه لو أن فلانا أهدى إليك هدية يُسَرُّ إذا قبلتها ويُغَمُّ إذا رفضتها، إن الله - جل وعلا - أكرم الأكرمِين، فهو يحب من عباده أن يتبسطوا من نعمه، ويتنعموا بها.

إذن: هذه إرادة حرث الآخرة بعمل الدنيا أما عمل الآخرة المحض، كالصلاة والصيام والحج وما أشبه ذلك فهذا أمره واضح، إذن: السؤال - الآن - كيف يريد الإنسان حرث الآخرة بأمور

الدنيا؟ الجواب: أن ذلك ممكن، ونضرب مثلًا لهذا: بالأكل والشرب ويتبين لنا أربع إرادات كلها يثاب عليها الإنسان مع أنه لو تأمل المتأمل لوجد أكثر من هذا.

الفوائد

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: التحذير من إرادة الدنيا فقط؛ لقوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن مَنْ أراد حرث الدنيا فإنه لا يُعْطَى كل ما أراد، لقوله - تعالى -: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، ومَنْ أراد حرث الآخرة يعطى منها كل مراده وزيادة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة بأن الأعمال بالنيات لقوله - تعالى -: ﴿يُرِيدُ﴾، ففيه إشارة إلى حسن النية وأن الإنسان ينبغي له إحسان النية بل يجب عليه إحسانها.

٤ - **ومنها**: الردُّ على الجبرية لقوله: ﴿يُرِيدُ﴾؛ لأن الجبرية يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، مثلًا: طبخ الطعام ليأكله فهل هذا ليس له إرادة؟ - سبحان الله - كيف لا يكون له إرادة، أحضر أدوات المنزل ليستعملها، قال: هذا ما هو إرادة، ليس بإرادته؟ ماذا تقولون في هذا الرأي؟ هذا الرأي مخالف للكتاب والسنة ومخالف للفطرة بل مخالف لأدنى فطرة، بل الصبي يعرف متى يجبر؟ ومتى يخير؟، قُدِّم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سارق فأمر بقطع يده، فقال: السارق مهلا يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت هذا إلَّا بقدر الله، أراد أن يردأ عنه الحدَّ، وقال أمير المؤمنين: ونحن لا نقطع يدك إلَّا بإرادة الله، فبهت ولم يستطع أن يقول شيئًا، مع أنه قطع يده كان بإرادة الله الكونية والشرعية، والسارق سرق بإرادة الله الكونية؛ لأنه لم يؤذن له بالسرقة، إذًا في الآية ردٌّ على الجبرية.

وهل في الآية دليل للقدرية؟ الذين ينكرون إرادة الله ويقولون: العبد مستقل بأفعاله، الجواب: لا، ليس فيها رد لقولهم ليس فيها إثبات لقولهم؛ لأن إرادة الإنسان من صفاته، فالعبد مخلوق، إذا: إذا كان مخلوقا كانت صفاته - أيضًا - مخلوقة، فإرادتك مخلوقة لله باعتبار أنك مخلوق، وصفة المخلوق مخلوقة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: كمال سلطان الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات كرم الله، وأنه - عَزَّ وَجَلَّ - أكرم من عبده، يعمل العبد قليلًا ويثاب كثيرًا.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الآخرة وإثباتها ثابت في القرآن والسنة وإجماع

المسلمين والنظر الصحيح يعني العقل:

أما الكتاب والسنة فمملوءان من إثبات اليوم الآخر، وأما الإجماع فهو ثابت، لا أحد من المسلمين ينكر الآخرة ومن أنكرها كفر.

وأما النظر الصحيح: فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، أرأيتم لو أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خلق هذه الخليقة وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الجهاد، وكان هذا يقتل هذا على دين الله ويسبي ماله ونساءه، ثم بعد ذلك كله لا قيامة ولا حساب ويكون الناس رِمَمًا لا يبعثون، فبماذا يسمى هذا العمل؟! عبث والله منزه عنه، ولولا إيماننا باليوم الآخر، لكان القوي منَّا يأكل الضعيف؛ لأنه لا يرجو حسابًا، ولكن العقل يقتضي ويوجب الإيمان باليوم الآخر.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنَّ مَنْ أراد بعمله الدنيا فإنه لا نصيب له في الآخرة، لكن هل هذا النفي نفي النصيب نفيًا كاملًا أو ليس له نصيب في الآخرة بهذا العمل الذي أراد به الدنيا؟ الثاني: لا شك، اللهم إلَّا إذا كان هذا العمل أو الإرادة مما يخرج عن الدين، فإنه لا نصيب له مطلقًا.

هل لو أراد الإنسان في دراسته أن ينال الشهادة هل يكون ممن أراد حرث الدنيا أو الآخرة؟ حسب ما في قلبه، إن كان أراد بالشهادة أن يرتقي في الدنيا إلى منصب دنيوي، فقد أراد الدنيا، وإن أراد بذلك أن يرتقي إلى منصب يتمكن به من نفع المسلمين بالتدريس أو بالتدبير فهذا أراد الآخرة، ولهذا لا فرق بين هذه المسألة كدنيا وآخرة إلَّا شعرة أو أقل.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]

التفسير

فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾، قال المفسر: أم بمعنى: [بل] أشار بهذا إلى أن (أم) هنا منقطعة، وأم المنقطعة هي التي تأتي بمعنى:بل وهمزة الاستفهام، أي: بل لهم شركاء.

وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾، قال المؤلف: [لهم لكفار مكة]، والصواب: أنها أعم من ذلك، يعني:

أن جميع المشركين له شركاء، جعلوهم مع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله، قال: [هم شياطينهم] وقوله: ﴿شَرَعُواْ﴾، أي: [الشركاء] وقوله: ﴿لَهُم﴾، [للكفار]، وهنا قال: [للكفار]، وفيما سبق قال: كفار مكة، فتكون (أل) في كلامه للعهد الذكري، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، [الفاسد] وقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، [كالشرك وإنكار البعث]، وهذا الاستفهام هنا بمعنى: الإنكار عليهم، أن يتخذوا هؤلاء شركاء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ﴾، والمراد بالإذن هنا: الإذن الشرعي؛ لأن الإذن يكون قدريًا، ويكون شرعيًا فيما يتعلق بالأمر والنهي شرعي، وما يتعلق بالخلق والتكوين قدري، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، يحتمل الشرعي ويحتمل القدري، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، بأن يأذن قدرًا أو يأذن شرعا.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وهذا الإذن القدري؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يأذن شرعا، بأن يضر السحرة أحدا، وهنا وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، أي: ما لم يأذن به شرعا، أما قدرًا فقد أذن به؛ لأنه وقع وكل شيء وقع، فإنه مأذون فيه قدرًا؛ لأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ما لم يأذن به قدرًا، ومِنْ تشريع ما لم يأذن به الله تحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم الله، ولهذا جعل الله ـ تعالى ـ هؤلاء الذين يحللون ما حرم ويحرمون ما أحل، جعلهم أربابا، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال عدي بن حاتم للرسول ﷺ: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال النبي ﷺ: «أَلَيْسَ يُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّوْنَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُوْنَهُ» قال: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(1) يعني: طاعتهم.

[قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: القضاء السابق بأن الجزاء في يوم القيامة، وقوله: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، وبين المؤمنين بالتعذيب لهم في الدنيا، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، (لولا) هذه يقول النحويون: إنها حرف امتناع لوجود، ما الذي امتنع في هذه الآية؟ القضاء بينهم، والموجود كلمة الفصل، واعلم أن (لولا)حرف امتناع لوجود، و(لما) حرف وجود لوجود، (ولو)حرف امتناع لامتناع، فاقتسمت هذه الأدوات الثلاث هذه المعاني الثلاثة، (لو) حرف امتناع لامتناع، تقول: (لو زرتني لأكرمتك)، هنا امتنع الإكرام لامتناع الزيارة.

(١) صحيح: رواه البيهقي في الكبرى (٢٠١٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

وتقول: (لما رأيتك أكرمتك)، هنا وجد الإكرام لوجود الرؤية، وتقول: لولا زيد لفعلت كذا وكذا هذا حرف امتناع لوجود وقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، وهي كلمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ السابقة التي قضى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن لكل شيء أجلًا مقدرًا، هذه الكلمة التي جعلها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لكل شيء أجلا مقدرا، لولا هذه لقضى الله بينهم وبين المؤمنين لتعجيل العذاب لهم.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن مَنْ أطاع الزعماء والكبار في تحريم شيء أحله الله أو تحليل شيء حرمه الله أو إيجاب شيء لم يوجبه الله فإنه قد اتخذهم شركاء، ويترتب على هذه الفائدة، أن متبعي دعاة البدع قد اتخذوهم شركاء.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الأمور المشروعة لا بد أن يكون فيها إذن من الله، يعني: ما فعله الإنسان تدينًا لابد أن يكون فيه إذن من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الله ـ تعالى ـ أنكر على هؤلاء الذين اتخذوا شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وهذا بمعنى:قولنا: الأصل في العبادات المنع والحظر إلَّا إذا قام دليل على مشروعيته، وعليه: فلو رأينا شخصًا تعبَّد بعبادة لم نكن نعرفها، فلنا أن ننكر عليه حتى يأتي بدليل، أليس كذلك؟ بلى؛ لأن الدين متلقًى من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما سوى الأمور الدينية فإنه خاضع للأمور العادية، أو للأحوال العادية، لقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، وعلى هذا لو شرعوا قوانينًا ونظمًا لا علاقة لها بالدين فإن ذلك جائز، ولا تعد موافقة هذه النظم شركا، فكيف إذا كانت هذه النظم تُؤَيَّدُ بالقواعد العامة وهي: جلب المصالح ودرء المفاسد؟

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الرد على أولئك القوم الجهلة الذين ينكرون كل نظام تسنه الحكومات بقطع النظر عن كونه أمرًا دينيًا أو أمرًا دنيويًا، وبقطع النظر عن كونه موافقا للشرع أو غير موافق للشرع؛ لأن بعض الناس يقول: أنا لا أتقيد بأنظمة المرور؛ لأنها ليس فيها دليل، وربما يقول: هذه بدعة، فيقال له:

أ ـ الأمور الدنيوية: الأصل فيها الحلُّ ولا يبدَّعُ مَنْ أتى بها خارجًا عن العادة لكن ينظر هل هي حلال أو حرام؟

ب ـ أن النصوص تدل على وجوب طاعة ولاة الأمر كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، وقول النبي ﷺ: «اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ أَخَذَ مَالَكَ وَضَرَبَ

ظَهْرَكَ»[1].

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بتعجيل أو بتأخير العذاب لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما قضاه الله أزلًا لا يتغير، يعني: في الماضي لا يتغير؛ لقوله: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾.

فإن قال قائل: ما تقولون في قوله - تعالى -: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، هل يعارض ما قررناه من فوائد هذه الآية؟ الجواب: لا، لا يعارض؛ لأن الله قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، ثم قال: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، يعني: أصله، فما في أم الكتاب لا يتغير، وما لم يكن كذلك فإنه يتغير، أليس الله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فالسيئات بعد أن كتبت أتت الحسنات فمحتها، فالإنسان يذنب فيكتب الذنب، ثم يستغفر فيمحى الذنب، وأما ما في أصل الكتاب فإنه لا يتغير، وعلى هذا فلا يعارض هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

فإن قال قائل: ما تقولون في الحديث الصحيح: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ[2] لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ[3] لَهُ فِي أَثَرِهِ[4] فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[5] فإن هذا يدل على أن صلة الرحم سبب لكثرة الرزق وسبب لطول العمر وأنتم تقولون: إن العمر مكتوب والرزق مكتوب؟

الجواب: الرزق مكتوب على هذا السبب، والأجر مكتوب على هذا السبب فيكون قد كتب الله أجل هذا مؤخرًا لصلة الرحم، ووسع في رزق هذا لصلة الرحم، ويكون هذا معلوما عند الله، لكن النبي ﷺ ذكر هذا ترغيبا في صلة الرحم؛ لأن الإنسان لا يعلم ما كتب له في المستقبل، وحينئذ لا منافاة، وأما مَنْ قال من العلماء: إن معنى (أن ينسأ له في أثره)، أن الله يبارك له في العمر هذا غير صحيح؛ لأنه خلاف ظاهر الحديث، فظاهر الحديث أنه يؤخر لكن يكون مكتوبا عند الله أنه واصل وأن عمره إلى كذا، لكن هل الإنسان يعلم أنه مكتوب عند الله هكذا؟ لا يعلم، فأراد النبي ﷺ أن يحث الإنسان على صلة الرحم بمثل هذا الوعد.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن

---

(١) حسن: انظر صحيح الجامع (٢٩٩٥).
(٢) يوسع.
(٣) يؤخر.
(٤) بقية عمره.
(٥) رواه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، فالكلمة السبب لتأخير العذاب، وإثبات الأسباب أمر لا ينكره إلَّا الجاحد، واعلم أن الناس انقسموا في الأسباب ثلاثة أقسام:

* قسم أنكروا الأسباب نهائيًا، وقالوا: لا تأثير للسبب في المسبَّب.

* وقسم أثبتوا الأسباب على وجه الغلو، وزعموا: أنها مُوجِبَة ولابد.

* وقسم أثبتوا الأسباب ولكن جعلوا ذلك تابعا لمشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ. وهذا القول هو المتعين، أننا لا ننكر الأسباب، وكيف ننكرها ونحن نشاهد هذا بأعيننا، هم يقولون: إن ما يحدث بالسبب، ليس حاصلا به، لكنه حاصل عنده، فمثلًا: إذا رميت بحجر على زجاج ثم انكسر، يقولون: إن الذي كسرها ليس الحجر، لكن كسرتها إرادة الله عند ملامسة الحجر.

إذن: حصل عند السبب لا بالسبب، عندما تُدْخِلُ ورقة في النار تحترق، يقولون: النار ما أحرقتها، إنما احرقتها إرادة الله عند ملامسة النار، هذا كلام غير معقول يضحك منه السفهاء قبل الحكماء، كيف نقول هذا ونحن نشاهد أن الحجر يقع على الزجاجة يكسرها كيف نقول لَمْ يكسرها؟ الإنسان لو اتكأ على زجاجة لقيل له: لا تتكأ حتى لا تنكسر.

وأما القول الثاني: الغالي في إثبات الأسباب والذين يقولون: إن الأسباب فاعلة ولا بد، أو موجبة ولا بد، هؤلاء ـ أيضًا ـ ضالون، فها هي النار العظيمة كانت على إبراهيم بردًا وسلامًا، ولو كان سببًا موجبًا بذاته ولابد؛ لأحرقت إبراهيم على كل حال، لكن الله قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت بردًا وكانت سلاما، قال العلماء: لو قال الله ـ تعالى ـ كوني بردًا ولم يقل: وسلاما، لأهلكت إبراهيم من البرد، لكن الله قرن البرد بالسلام، إذن: الآية التي معنا فيها ذكر الأسباب لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الوعيد الشديد للظالمين لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾،

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: ـ من فوائدها اللغوية ـ أن (أليم) تأتي بمعنى:مؤلم يعني: فعيل بمعنى: مُفْعِل، وهذا قليل في اللغة العربية، أكثر ما يأتي أليم في اللغة العربية تأتي بمعنى: آلِم بمعنى:فاعل، وهذا هو الأكثر، لكن قد تأتي فعيل بمعنى:مفعل، كما في هذه الآية، وكما في قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَـــةَ الدَّاعِي السَّمِيـــعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَـــــابِي رُجُـــوعُ

فالسميع بمعنى: المسمع يقولها في معشوقته: الداعي المُسْمِع يؤرقني وأصحابي رجوع.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] (١).

❁ التفسير ❁

قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أم هنا كما قال المفسر بمعنى:[بل]، ويسمونها أم المنقطعة؛ لأن (أم) تكون متصلة، وتكون منقطعة، إذا صارت بمعنى (بل) فهي منقطعة؛ لأنها تشبه الإضطراب عما سبق، وإذا كانت بمعنى: (أو) فهي متصلة مثل أن أقول: أتريد كتابًا أم ساعة، فهذه متصلة؛ لأنها بمعنى: (أو) ولا يستغني أحد الطرفين فيها عن الآخر، وإذا قلت: (أم يقولون افتراه)، لا تجد في مقابل، فهي منقطعة بمعنى: بل.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، أي: الكفار من مشركي قريش وغيرهم.

وقوله: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق على الله كذبًا وذلك بقوله: إن القرآن كلام الله، فقالوا: إن القرآن ليس كلام الله وإن محمدًا كاذب وساحر وكاهن ومجنون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يرمون بها رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾، مفعول يشأ محذوف ويقدر بما يدل عليه السياق، أي: إن يشأ الله أن تفتري عليه كذبا، ـ وهذا شيء محال ـ.

فقوله: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، قال المؤلف: [يربط]، والصواب: الختم هنا: بمعنى:الطبع، يعني: إن افتريت على الله كذبا، طبع الله على قلبك، ويمحو الله الباطل الذي افتريته لو قدر أنك افتريته.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، يحقه، أي: [يثبته] وقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: [المنزلة على نبيه ﷺ] إنه عليم بذات الصدور [بما في القلوب].

المعنى الإجمالي: لو قدر انك افتريت على الله كذبًا فلن يتركك الله، لا بد أن يبين الحق، فيختم على قلبك ـ يطبع ـ عليه، ثم يمحو الله الباطل، ويحق الحق بكلماته، إنه عليم بذات الصدور، ويشبه هذا قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يعني: إذا قرأ ألقى الشيطان في قراءته: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فإن يشأ﴾، هل يلزم من هذا الشرط الوقوع؟

(١) تفسير الآيتين: (٢٢، ٢٣) غير موجود ـ فيما لدينا من مصادر المادة ـ.

لا يلزم، يأتي الشرط أحيانا في أعظم المستحيلات، أرأيت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، وهل يمكن أن يكون لله ولد؟ لا يمكن ومع هذا جاءت الشرطية وقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهل هذا يستلزم جواز إشراك النبي ﷺ؟ لا يستلزم، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، هل يمكن أن يكون في شك؟، إذن (فإن يشأ الله) لا يلزم من هذا الشرط جواز افتراء النبي ﷺ على الله كذبا، ومن المعلوم أن الله ـ تعالى ـ شهد للنبي ﷺ بالرسالة، فقال: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وما هي صاحبة الصدور؟ هي القلوب، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: محاولة المشركين أن يلبّسوا على الخلق حتى ينكروا رسالة النبي ﷺ فيقولون: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، حتى يظن العوام أنه مفتر على الله كذبا فيعرضوا عما جاء به.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان شدة منابذة الكفار لما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لقوله: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: مثل هذا الكلام قدْحٌ في الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، قدْح في القرآن، قدح في النبي ﷺ، أما كونه قدحًا في الله؛ فلأنه ليس من الحكمة أن يؤيد الله ـ تعالى ـ هذا الذي افترى عليه كذبا، بل الحكمة أن يؤاخذه ويعاقبه ولا يؤيده، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أيد نبيه ﷺ بالآيات الدالة على صدقه، وقدحًا في القرآن؛ لأنه على زعمهم، كلام مفترى من عند الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولقد قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، قدْحًا في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام، بأن يُجْعَلَ أصدق الخلق في مقام المفتري على الله، والافتراء على الله أشد من الافتراء على غيره، ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات المشيئة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهل مشيئة الله مجردة عن الحكمة، أو لا يشاء شيئًا إلَّا بحكمة؟ الثاني لا شك لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن له المشيئة التامة، وأردف ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ليتبين أن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة عبثًا

ولكن لحكمة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ مربوب لله يفعل به ما شاء لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القلب محل الإدارك والعقل والتصرف لقوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، فدل هذا على أن مدار التصرف كله على القلب.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الطبع على القلب عقوبة سواء كان طبعًا على العلم، أم طبعًا على القصد والإرادة، فإنه عقوبة ولا شك، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إلى طَاعَتِكَ»[1]، فالإنسان يجب ألَّا يعتمد على ما في قلبه من اليقين فإن هذا ربما يزول، بل عليه أن يسأل الله دائمًا التثبيت يؤخذ من قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: حسن الأدلة في القرآن الكريم، حيث استدل بأمر واضح على ما زعمه هؤلاء، وهو أنه لو شاء الله أن يفتري الرسول ﷺ على الله كذبا لختم على قلبه، وأنساه ما عنده، ثم محا الله الباطل الذي افتراه، ثم أحق الحق بكلماته.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله ـ تعالى ـ لا يقر على باطل لقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فلا يمكن أن يقر الله ـ تعالى ـ على باطل، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة عظيمة: وهي ما فعل في عهد النبي ﷺ ولم نعلم أن النبي ﷺ اطلع عليه فهل نحكم بجوازه؛ لأن الله اطلع عليه وسكت عنه أو لا نحكم به حتى نعرف أن النبي ﷺ علمه؟ الأول؛ لأن الله لا يقر على باطل والوحي ما زال ينزل، ولهذا يخطئ بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ إذا استدل بما وقع في عهد النبي ﷺ يقولون: إن النبي ﷺ لم يعلم، فنقول: هب أنه لم يعلم، فإن الله قد علم، مثال ذلك، قال بعض أهل العلم: إنه لا يصح أن يكون الإمام متنفلا، والمأموم مفترضا، هذا هو المذهب عندنا فقيل لهم: هذا قول مردود؛ لأن معاذ بن جبل كان يصلي صلاة العشاء مع النبي ﷺ ثم يذهب إلى قومه فيصلي بهم تلك الصلاة في عهد النبي ﷺ، قالوا: لا حجة في هذا؛ لأننا لا نعلم أن النبي ﷺ اطلع عليه، فما الجواب؟ إذا لم يطلع رسول الله ﷺ عليه اطلع الله عليه ولو كان باطلًا لبيَّنه الله له، كما بين حال الذين يبيتون ما لا يرضى من القول ويكتمونه عن الناس فقال: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، الذين قالوا: إن النبي ﷺ لم يعلم

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢١٤٠) ، وأحمد فى مسنده (١٢١٢٨) من حديث أنس رضى الله عنه ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٣٢).

به نقول: إن الله علمه، ولو كان باطلا لم يقره، على أننا نقول: يبعد عن النبي ﷺ أنه لم يعلم به، ومعاذ قد شكي إلى رسول الله ﷺ بأنه يطيل في الصلاة، ولكن نريد أن نتنزل مع الخصم ونقول: هب أن الرسول لم يعلم به فإن الله قد علم به.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه لا يمكن أن يُمَكِّن الله ـ تبارك وتعالى ـ لأحد كافر تمكينا مطلقا لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، فلا يمكّنه من الباطل، وقولنا: التمكين المطلق، خرج به ما لو مكن الله ـ تعالى ـ الكافر على وجه لا يستقر، كما حصل في غزوة أحد، فإن المشركين هزموا المسلمين لكنه ليست هزيمة مستقرةً بل هو من حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يمكّن للكفار، حتى يتشجعوا على حرب المسلمين ثم يَقْوَى المسلمون عليهم.

١١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله ـ تعالى ـ إذا محا الباطل جعل مكانه الحق؛ لقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الكلمات لله، لقوله: (لكلماته)والله ـ سبحانه وتعالى ـ متكلم بكلام حقيقي بحروف وأصوات مسموعة، ومحاورة بينه وبين مَنْ شاء مِنْ خلقه، وهذا مذهب السلف الصالح، وعليه جرت المحنة العظيمة على أئمة المسلمين من أمراء الجور والظلم وعلماء السوء، حيث ابتدعت الجهمية والمعتزلة القول: بأن الله لا يتكلم وإنما يخلق كلامًا، وكلامه مخلوق ويقال: لو قلنا: أن كلامه مخلوق لبطلت الشريعة؛ لأنه يستوي الأمر والنهي والخبر والاستخبار والقصص؛ لأنه مخلوق، لا يمتاز بعضها عن بعض، فهي باعتبار الصوت كزمجرة الرعد، وباعتبار الكتابة كنقوش الجدار؛ لأنه مخلوق، فحينئذ لا أمر ولا نهي ولا خبر ولا استخبار ولا شيء.

وتلطفت طائفة فلم تُوَفَّقْ وقالوا: إن كلام الله غير مخلوق لكن كلامه هو المعنى القائم بنفسه وما سمع منه، فهو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق، فانظر كيف ضلّت هذه الطائفة حتى صارت أشد ضلالًا من الذين قالوا: إن الكلام مخلوق، ما معنى كلامهم؟ يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه كما لو أنك في نفسك قدرت أن تتكلم بقول، ثم قلته، ثم يقولون: إن الله ـ تعالى ـ أضمر الكلام في نفسه، ثم خلق أصواتا تدل عليه، فيكون هذا الذي في المصحف، ليس كلام الله لكنه مخلوق خلقه الله ليعبر عما في نفس الباري، المعتزلة يقولون: إن الذي في المصاحف كلام الله مخلوق.

والأشاعرة يقولون: ليس كلام الله وهو مخلوق، فأيهما أقرب إلى الصواب، المعتزلة أقرب، وهؤلاء الأشاعرة يزعمون أنهم العقلاء، وأنهم حاولوا الجمع بين المنقول والمعقول، ولكنهم أفسدوا المنقول والمعقول.

نحن نقول: إن الله يتكلم بكلام مسموع وبحروف متتالية والله يفعل ما يشاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علْم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبطون علْم الله أنه عِلْمٌ عميق يصل إلى أخفى شيء لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** الفائدة المسلكية المهمة وهي: أن الإنسان إذا عَلِمَ أن الله عليم بما في قلبه فإنه سوف يمسك عن كل إرادة سيئة، ويُقْدِمُ على كل إرادة حسنة.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه يجب على العبد أن يُصحِّح ما في قلبه؛ لأن المدار عليه قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، واعلم يا أخي أن الحكم في الدنيا على الظاهر، والحكم في الآخرة على الباطن فهل تُحسِّنُ ظاهرك، ليحكم عليك في الدنيا بما يقتضيه هذا الظاهر، أم تحسن باطنك ليحكم لك يوم القيامة بما يقتضيه هذا الباطن؟ الثاني، ولهذا لا تغتر بكثرة الركوع والسجود وبكاء العين وما أشبه ذلك، بل انظر إلى ما في القلب، وإن كانت هذه الأعمال التي ذكرتها علامة على صلاح القلب، لكن ثَبِّتِ الإيمان في القلب، عليك بإصلاح القلب قبل كل شيء، اغرس في قلبك محبة الله ورسوله، اغرس في قلبك محبة الشريعة وإن ثقلت عليك كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، اغرس في قلبك محبة المؤمنين، لا تكره أي مؤمن وإن أساء إليك، فإن أساء إليك المؤمن، فاكره إساءته، أما هو شخصيًا لا تكرهه، اغرس في قلبك الولاية لكل مسلم، والعداوة لكل كافر، ....وهلم جرا، المهم أن تعتني بصلاح قلبك؛ لأنه هو الذي عليه مدار الحساب يوم القيامة قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تختبر، ـ اللهم أصلح ظواهرنا وبواطننا يا رب العالمين ـ.

١٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مدار الحساب على القلوب، وأنها في الصدور وبها العقل قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وعلى هذا فيجب علينا أن نؤمن بأن العقل في القلب، فالآية صريحة أو ظاهرة، وأما قول بعضهم: إن العقل في الدماغ فضعيف مقابل بقول العالم الخالق ـ عزَّ وَجلَّ ـ، وأصل العقل في القلب ـ لا شك ـ، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: العقل في القلب، وله اتصال بالدماغ، ونروي عن شيخنا عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ: أن أحد المعتزلة حكم عليه بالقتل على حين اختلاف بين الناس العقل في الدماغ أو في القلب؟ فقال لهم: إذا قتلموني، فأبينوا رأسي ثم إن كان العقل في قلبي حركت أصبعي وإن كان في الدماغ مات مع الدماغ ففعلوا، فلما قتلوه حركوا العضو الذي قال لهم على الوجه الذي قال لهم، فهذا دليل حسي

إن ثبتت القصة بأن العقل في القلب؛ لأنه حرَّك أصبعه أو يده على الوجه الذي قال لهم وهذا يدل على أنه استحضر بقلبه بعد أن بان رأسه فاستحضر في قلبه على ما قال لهم لما حركوا العضو، فإن ثبتت هذه القصة فإنها دليل حسي، وإن لم تثبت فعندنا دليل سمعي، والدليل السمعي هو ما ثبت في الكتاب والسنة.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]

التفسير

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، الله -عَزَّ وَجَلَّ- يقبل توبة التائبين، بل ويحب توبة التائبين كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فما هي التوبة ؟، التوبة: هي الرجوع من معصية الله إلى طاعة الله، وتقع كلية وجزئية، تقع كلية بأن يتوب الإنسان من كل ذنب ومنها توبة الكافر، فإنها كلية يمحو الله بها كل ما سلف من ذنبه كما قال -جل وعلا-: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ويقول المسلم: اللهم إني أستغفرك من جميع الذنوب وأتوب إليك، هذه كلية.

أما التوبة الخاصة: أن يتوب من ذنب معين، كإنسان تاب من أكل الربا، ولكنه مصر على شرب الخمر – والعياذ بالله – فهذه توبة خاصة جزئية ما هي شاملة.

وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله. والثاني: الندم على ما فعلوا.

والثالث: الإقلاع عنه. والرابع: العزم على ألَّا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة قبل غلق الأبواب.

الإخلاص: بأن يكون الحامل على التوبة خوف الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ورجاء التقرب إليه بألا يقصد بذلك دنيا، ولا جاها، ولا شيئًا من مخلوقات الله -عَزَّ وَجَلَّ-، لا يريد إلَّا الوصول إلى رضا الله -عَزَّ وَجَلَّ- ودار كرامته، والإخلاص كما تعلمون شرط في كل عمل.

الثاني: الندم على ما مضى من الذنب، بحيث يشعر الإنسان بالحزن والتأثر كيف وقع منه هذا الذنب؟! والندم هو انفعال في النفس يحصل بفعل الإنسان وبغير فعله، لكن كلامنا في الندم في التوبة الذي يكون بفعله، بمعنى: يتأثر ويتحسَّر بأن وقع منه ذنب، ولا يكون حاله كحال مَنْ لم يذنب.

الثالث: الإقلاع عن الذنب، فإن كان معصية لمحرم فليجتنبه، وإن كان إفراطا في واجب فليفعله، وعلى هذا فمن زعم أنه تائب من الغِيْبَة، ولكن لا يدع فرصة تحصل فيها الغيبة إلَّا اغتاب، فهل نقول: إنه تائب؟ لا لم يقلع، كذلك مَنْ جحد مال شخص وأنكره وقال: إنه تائب، فلا بد أن يرد المال إلى صاحبه وإلَّا فلا تقبل توبته، ومن اغتاب شخصا، أي: ذكره في غيبته فلا بد أن يقلع عن ذلك ويتحلَّل صاحب الغيبة، يذهب إليه ويقول: سامحني حلِّلْني فقد قلت فيك قولًا قد تبت منه، فإن قال: إن ذهبت إليه أستحلُّه أخشى أن يظن الأمر أنه أكبر مما قلت، فتقع العداوة، فالجواب: وإن كان كذلك أنت أبرئ ذمتك، وكونه يترتب على ذلك عداوة، أو ما أشبه ذلك ليس إليك، إذا كان صاحبك لم يعلم بغيبتك إيَّاه، فهنا يكفي وتقلع عن غيبته في المستقبل وتذكره في المجلس الذي اغتبته فيه لما له من صفات حميدة.

الرابع: العزم على ألَّا يعود، بأن يقع في قلبه أنه لن يعود إلى هذه المعصية، فإن كان قد تاب ولكنه متردِّد، فيما لو تيسَّرَتْ هذه المعصية أيفعلها أم لا؟ فالتوبة غير صحيحة، لابد أن يعزِم على ألَّا يعود فإن عاد هل تبطل التوبة؟ فالجواب: لا تبطل، فالتوبة الأولى صحيحة لكن عليه أن يجدد التوبة للذنب الثاني، ولهذا كانت العبارة: العزم على ألَّا يعود وليست العبارة (بشرط ألَّا يعود) وبينهما فرق كبير.

الخامس: وما أعظمه أن تكون التوبة في زمن الإمكان، فإن فات الأوان لم تنفع، وفوات الأوان عام وخاص، أما العام: طلوع الشمس من مغربها، والخاص: حضور الموت، أما الأول: فدليله قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فسر النبي ﷺ بعض الآيات أنها تطلع من مغربها وقال النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ، حَتَى تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ، حَتَى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1] أما الخاص: فهو حضور الأجل، فإنه إذا حضر الموت لم تقبل التوبة لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٤٧٩)، وأحمد في مسنده (١٦٩٥٢) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٩).

كُفَّارٌ ﴾، الشاهد قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، وهذا الشرط يستلزم أن تكون التوبة على الفور بدون تأخير، ووجه ذلك؛ أنَّه لايعلم متى يأتيه الموت، فقد يموت واقفًا، أو على فراشه، أو على كرسيه، أو وهو ساجد، أو راكع، وحينئذ يتبيَّن أن التوبة واجبة على الفور، فاسْتَدْرِكْ أيها العبد نفسك إن كان في أمر بينك وبين الله، أو بينك وبين الخلق؛ لأنك لا تدري متى يأتي الموت.

الخلاصة: شروط قبول التوبة خمسة:

أولا: الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

ثانيا: الندم على الذنب.

ثالثا: الإقلاع في الحال.

رابعا: العزم على ألَّا يعود.

خامسا: أن تكون التوبة في زمن الإمكان.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، قال المؤلف: [منهم].

فصرف المؤلف معنى (عن) إلى معنى (من)، وهذا مبني على ما سبق بأن حروف المعاني تتناوب، أي: تنوب بعضها عن بعض، ولكن إبقاء اللفظ على ظاهره أولى، ويكون (يقبل التوبة عن عباده) يتضمن معنى: يعفو عنهم، ويقبل التوبة عن عباده يعني: ويعفو عنهم، ونجعل (عن) على بابها، ويكون قوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، كالتوكيد لما سبق.

قوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، [المتاب عنها]، والعفو مأخوذ من قوله: عفا الأثر، إذا أخفته الرياح، وهو التجاوز عن العقوبة بالذنوب، والسيئات جمع سيئة وهو كل ما يسوء للإنسان فعله أو وقوعه، والمراد بالسيئات هنا: مخالفة الشرع، فكل ما خالف الشرع فهو سيئة سواء كان بترك واجب أم بفعل محرم.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يقول: [بالياء والتاء]، ما تفعلون وما يفعلون، أما على قراءة ما يفعلون فهي مطابقة للضمائر السبع، ويعلم ما يفعلون أي: ما يفعل العباد، وأما على قراءة التاء فهي من باب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وأسلوب الالتفات أسلوبٌ بلاغيّ، ويقصد به تنبيه المخاطب على ما سيلقى إليه، وذلك لأن الكلام على وتيرة واحدة، فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغفل عنه، وإذا اختلف وقف الإنسان، لماذا صار الأمر كذلك؟

الالتفات على قراءة وما تفعلون، هو التفات من الغيبة إلى المخاطب، والالتفات فن معروف في البلاغة، ومن فوائده: تنبيه المخاطب، انظر إلى قول الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، مقتضى السياق أن يقول: (وبعث منهم) لكن قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، فانتقل من الغيبة إلى التكلم؛ لأجل تنبيه المخاطب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، علمه بما نعمل يشمل العلم بالأشياء الظاهرة والأشياء الباطنة، قد يعمل الإنسان ذنبا ظاهرا، يعلمه الناس ويعلمه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقد يكون خفيًا لا يعلمه الناس ولكن يعلمه الله ـ تبارك وتعالى ـ.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده حيث حثهم على التوبة، وجهه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، فإن هذا ليس مجرد خبر بأنه يقبل، بل هو حث من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن نتوب إلى الله ـ نظير ذلك أن أقول: (مَنْ زارني أعطيته مائة درهم)، معنى هذا حث الناس على الزيارة، كل إنسان سوف يقبل على الزيارة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، حث الناس ـ بلا شك ـ على التوبة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان كرم الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حيث يقبل التوبة عن عباده مهما كان الذنب، واقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، بل التوبة من الكفر مقبولة، والإسلام يهدم ما قبله مهما عظم حتى بِمَنْ سَبَّ الله، أو رسوله، ثم أسلم تقبل توبته لعموم الأدلة، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾، يعني: عن كفرهم وقوله: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، من الذنوب وإن عظمت لقوله: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، و(ما) اسم موصول يفيد العموم، حتى ولو قَتَلَ هذا الكافر ألف رجل مؤمن ثم أسلم تاب الله عليه، ولذلك إذا أسلم الكفار، وقد أتلفوا أموال المسلمين بالحرب، هل يضمنون أموال المسلمين؟ لا يضمنون؛ لأن الإسلام يهدم ما قبله.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى لطف الله ـ تبارك وتعالى ـ، حيث قال: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، كأنه ـ والله أعلم ـ لما كان عبيدًا له عاملهم بالرفق والعفو والتوبة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله إذا تاب عن العبد عفا عن سيئاته مهما عظم، لقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات عموم علْم الله ـ تعالى ـ لكل ما نفعل؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يتفرع على هذه الفائدة التحذير من المخالفة وجه ذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يعني: فاحذروا أن تفعلوا شيئًا يغضبه، فإنه عالم بكم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال المؤلف: [يجيبهم إلى ما يسئلون]، يستجيب بمعنى:أي: يجيب، مع أنه قد يتبادر إلى ذهن الإنسان أن معنى يستجيب: أي: يطيع، كما إذا قلت: دعوت فلانا فاستجاب لي، أن أطاعني، لكن هنا يستجيب بمعنى:يجيب، ودليل هذا التفسير، قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ) إذن، استجاب بمعنى: أجاب، ويستجيب بمعنى: يجيب، فماذا يكون إعراب (الذين)؟، الذين: مفعول به وليست فاعل، الفاعل ضمير مستتر يعود على الله.

قوله:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، والإيمان والعمل الصالح يقرنا دائمًا؛ لأن أحدهما ملازم للآخر فكل مَنْ آمن حقا فسيعمل الصالحات قطعا، دليل هذه القاعدة، قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»[(١)].

ومعنى ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أي: آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وعرفتم أن أركان الإيمان قال عنها النبي ﷺ: «الإِيمَانُ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(٢)].

قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، (الصالحات) صفة لموصوف محذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، فما ضابط العمل الصالح؟ أن يكون خالصًا لله، موافقا لشريعة الله، هذا يقع في أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن هل يقع في الأمم السابقة، الجواب: نعم، حين كانت الشرائع قائمة يقع منهم الإيمان والعمل الصالح.

إذن: ما ضابط العمل الصالح؟

أن يكون خالصًا لله موافقًا لشريعة الله، وقولنا: أن يكون خالصًا لله، احترازًا من الأعمال التي فيها شرك وليست بخالصة فهي ليست صالحة، وإن قل الشرك؛ لقوله ـ تعالى ـ في الحديث

---

(١) رواه البخارى (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكِهِ»(1).

وعلى وفق الشريعة أن يكون خاليًا من البدعة، فإن كان فيه بدعة لم يكن صالحًا، حتى ولو كانت أجزاء هذه البدعة عملًا صالحًا فإنها إذا كانت بدعة لا تكون أعمالًا صالحة، يعني: لو أن أحدًا أحدث أذكارًا من القرآن، أو من السنة لكن على صفة لم تأت بها الشريعة، فإنها ليست عملًا صالحا، ولا يكون عملًا صالحًا إلَّا إذا وافق الشريعة في أمور ستة:

١-السبب. ٢- والقدر. ٣- والكيفية.

٤-والنوع. ٥- والزمان. ٦ - والمكان.

لابد أن يوافق الشريعة في هذه الأشياء الستة.

أولًا: السبب: بأن يكون هذا العمل مشروعًا لسبب معين، فلو أن إنسانًا أحدثه لسبب آخر لم يقبل منه ولم يكن صالحًا، مثال ذلك: نرى بعض الناس إذا قُدِّم إليه الطيب يقول: اللهم صل على محمد، هذا ليس عملًا صالحًا، فإذا قال قائل: كيف لا يكون عملًا صالحًا وأنا أصلي على النبي ﷺ، قلنا: ليس من هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه كلما يتطيب صلى على النبي، ولا أمر أمته في ذلك، إذن أنت - الآن - أثبتَّ سببًا غير شرعي.

ومن ذلك: أن بعض الناس تجشأ قال: الحمد لله، ومعنى تجشأ: خروج الريح من فوق، فتجد بعض الناس يقول: الحمد لله، نقول: وَمَنْ قال لك إنه يشرع عند التجشُّأ أن تحمد الله، إذن عملك غير صالح؛ لأنه غير مطابق للشريعة، ونقول: يلزم على قولك أنك إذا فسوت تحمد الله ولا دليل على هذا.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، هذه الجملة مستأنفة، لَمَّا ذكر ما يحصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ذكر ما يحصل لضدهم؛ لأن القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فتذكر فيه الجنة ثم تذكر النار، يذكر المؤمن ثم يذكر الكافر، ويذكر العقاب ثم الثواب، وهَلُمَّ جرًّا.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، الكافر في الأصل: الجاحد، مأخوذ من الكفرى وهي وعاء لضلع النخل، ولكنه يطلق على كل مَنْ كفر بالله - تعالى - بجحد أو غيره، سواء كان جاحدًا مثل أن يجحد الرسالة أو القرآن، أو كان باستكبار عن دين الله مثل أن يجعل الصلاة بتركها كفر.

وقوله - تعالى -: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، مبتدأ وخبر، والمبتدأ والخبر كلاهما خبر المبتدأ الأول وهو الكافرون، وجاءت العبارة بهذا الوجه للتأكيد على عذابهم - والعياذ بالله - وإلَّا لكان يكفي

(1) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة فى صحيحه (٩٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

أن يقال: والكافرون لهم عذاب شديد، ولكن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، الشديد القوي، وإذا أردت أن تعرف هذا، فاقرأ ما في القرآن والسنة من عذاب أهل النار.

لم نتكلم على قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، نقول: أي يعطيهم من فضله زيادة على ما عملوا، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحة، ولا يكون صالحا إلَّا إذا وافق الشريعة ولا يكون موافقا للشريعة إلَّا بأمور ستة:

السبب الأول: الجنس، الثاني: بأن يكون مِنْ جنس ما جاءت به الشريعة، مثاله: لو أن أحدًا ضحى بفرس، فالفرس أغلى من الشاة غالبًا، فإن الأضحية لا تجزئ؛ لأنه ليس من جنس المشروع به؛ ولأن التضحية لا تكون إلَّا من بهيمة الأنعام كالأبل والبقر والغنم قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

الثاني: أن يكون مطابقا للشريعة في قدره، فلا يزيد على ما جاءت به الشريعة، ولهذا لو أن إنسانا زاد في الصلاة ركعة لم يكن عملًا صالحًا حتى وإن كانت الصلاة في الأصل مشروعة، لكنها في هذا الحال ليست مشروعة، فإن قال قائل: ماذا تقولون: لو أن الإنسان زاد في صلاة الليل على إحدى عشر ركعة، هل تكون الزيادة عملا صالحا؟ إذا قلتم: نعم، أشكل علينا قولكم لا بد أن تطابق الشريعة في قدرها، ومعلوم أن النبي ﷺ كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر[1] ركعة، وربما صلى ثلاثة عشر ركعة؟

الجواب: أن صلاة الليل لم يرد فيها تحديد عن النبي ﷺ فلم يقل: لا تزيدوا على كذا، بل صلى هو إحدى عشر ركعة، وقال للذي سأله عن صلاة الليل قال له: «مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ تُوتِرُ لَكَ مَا قَدْ صَلَّيْتَ»[2] فقوله: «مَثْنَى مَثْنَى» بدون تحديد يدل على أن صلاة الليل لا حدّ لها، صَلِّ ما شئتَ مِنَ الركعات.

الثالث: أن تكون موافقة للشريعة في الزمان، فإن خالفت الشريعة في الزمان، فإنها لا تقبل مثال ذلك: رجل ضَحَّى وذبح أضحيته قبل صلاة العيد، فلا تصلح هذه الأضحية، ولهذا قال النبي ﷺ للذي أخبره أنه ذبح قبل أن يصلّي قال له: «شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ[3]»[4].

الخامس: أن تكون مطابقة للشريعة في المكان، يعني: أنه إذا خَصَّ الشارع العبادة بمكان معين،

---

(١) رواه البخاري (١٠٩٦)، ومسلم (٧٣٨) من عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٧٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أي فليست أضحية وليس لها ثواب الأضحية بل هي كغيرها مما يذبح عادة للأكل.

(٤) رواه البخاري (٩١٢)، ومسلم (١٩٦١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

فإن عبادته في هذا المكان ليست عملًا صالحًا، كالوقوف بعرفة، لو أن إنسانا وقف بمزدلفة بدلا من عرفة، فإن ذلك لا يصح؛ لأنه وقف في غير المكان الذي حدده الشارع ولو أن إنسانًا اعتكف في بيته فلا يصح؟ لأن الاعتكاف يكون في المسجد.

السادسة: أن تكون مطابقة للشريعة في هيئتها يعني: الكيفية، فلو توضأ إنسان فغسل يديه قبل وجهه، فالوضوء لا يصح؛ لأنه مخالف للشريعة في الهيئة، إن الله يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. ولو صلَّى إنسان فسجد قبل أن يركع، ثم قام وركع، لم تصح الصلاة لعدم موافقة الشريعة في الهيئة.

هذه ستة أشياء لا يمكن أن تكون العبادة مطابقة للشريعة إلَّا إذا تحققت هذه الأشياء الستة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، وأنه سبب لإجابة الله ـ تعالى ـ.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ـ تعالى ـ يعطي المؤمنين العاملين الصالحات أكثر مما عملوا لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، وهذه الزيادة بينها الله ـ تعالى ـ في مواضع أخرى في كتابه فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقال: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، وربما يقال ـ أيضًا ـ لزيادة أخرى غير العدد وهي: أنه يزيدهم من الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه كلما عمل الإنسان عملًا صالحًا ازداد يقينًا، ولهذا كان من قول أهل السنة والجماعة أن الأعمال داخلة في الإيمان.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل ما ينال الإنسان من خير فبفضل الله، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يقطع عن نفسه الإعجاب، ويجب عليه ألَّا يقول هذا من عندي، أو أنا جدير به أو ما أشبه ذلك من الكلمات التي يفخر بها على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الكفر لقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لأنه ليس المراد من هذه الجملة الإخبار عن شدة العذاب بالكافرين ولكن المراد بيان هذا والتحذير من الكفر خوفًا من العذاب الشديد.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ تعالى ـ ينذر الناس عن المعاصي والكفر بذكر العقاب، أخذ العلماء من هذا، أنه إذا ذَكَر الله ـ تعالى ـ عقابًا في عَمَلٍ من الأعمال دلّ على التحريم، وإذا ذَكَرَ ثوابًا في عَمَلٍ من الأعمال دَلّ ذلك على مشروعيته.

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]

❁ التفسير ❁

وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، بسط بمعنى:وسع، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾، أي: يضيق، فالبسط بمعنى:التوسيع، يعني: لو وسع الله الرزق للعباد لبغوا في الأرض.

وقوله: ﴿لِعِبَادِهِۦ ﴾، قال المفسر: [لجميعهم]، يعني: لو كان كل الناس أغنياء وبسط لهم في الرزق لبغوا في الأرض، قال: [لبغوا] جميعهم.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: طغوا فيها، وتجاوزوا حدودهم؛ لأن الجميع كانوا في رفاهية وفي رزق واسع، ولا رادع ولا اعتبار، وأيضا: لو بسط الله الرزق لجميع العباد لفسدت الدنيا؛ لأنه لولا هذا التفاضل بين العباد في الرزق ما خدم أحدٌ أحدًا ولا استقامت الأحوال، فلو كان الناس كلهم على حَدٍّ واحد في الغنى وطلبت من شخص أن يعمل لك فإنه لا يستجيب، لاستغنائه بما عنده، لكن الله ـ تعالى ـ فَضَّل بعض الناس على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، هذا ما ذهب إليه المؤلف، لكن قد يقال: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، شامل للجميع أو للأطفال، فإن الإنسان إذا بسط الله له الرزق طغى واستغنى، ولذلك تجدون أكثر مَنْ يُكذِّب الأنبياء هم الملأ الأغنياء والكبراء، وأما الفقراء الضعفاء فالغالب هم الذين يتبعون الأنبياء فيكون المراد من قوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، المراد الجنس، يعني: لواحد من عباده لبغوا في الأرض.

وقوله: ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾، قال المؤلف: [ينزل بالتخفيف وضده]، وضده التشديد، يعني: يَنْزِلُ ويُنَزِّلُ، يَنْزِلُ من نَزَلَ، وَيُنَزِّلُ مِنْ أَنْزَلَ.

وقوله: [بالتخفيف وضده]، اصطلاح المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه إذا أتى بمثل هذا التعبير فالقراءتان سبعيتان، وكذلك لو قال: وفيه قراءة، فقراءتان سبعيتان، أما إذا قال: وقرئ، فالقراءة شاذة؛ لأنه أتى بها في صيغة التمريض، ـ انتبهوا للاصطلاح ـ هذا التعبير الذي معنا، بالتخفيف وضده على حد سواء، يعني: ساوى بين القراءتَيْنِ، وعلى هذا فهما سَبْعِيَّتَانِ.

قال: [من الأرزاق]، بيان للمنزل، فالمضمر إذن (من الأرزاق)، ويدل على أن المضمر من الأرزاق قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، أي: بتقدير مكتوب في الأزل، لا يتغير ولا يتبدل، ما يشاء، فيبسطها لعباده لبعض دون بعض، وينشأ عن البسط البغي إنه بعباده خبير بصير.

قوله: ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، هذه المشيئة - كما سبق - مقرونة بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله أن يغنيه أغناه، ومن اقتضت حكمة الله أن يفقره أفقره، وفي الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»(1) فالله - تبارك وتعالى - حكيم، وكم من إنسان رجع إلى الله - تعالى - بسبب المصائب، من فقر أو موت قريب أو موت صديق أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، قال المؤلف - رحمه الله -: [فيبسطها لبعض عباده دون بعض وينشأ عن البسط البغي] يعني: توسيع الرزق من البغي، هذا كالتعليل لكونه جواب ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾، بأنه ينشأ عن البسط البغي والطغيان والاستكبار عن العبادة والتكذيب بالحق.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾،

الجملة استئنافية تبين أن بسط الرزق وعدمه، ناشئ عن علم وخبرة، والخبرة أخصُّ من العلم؛ لأنها العلم ببواطن الأمور، ولكن نقول: إن العلم ببواطن الأمور يدل بالالتزام على العلم بظواهر الأمور من باب أولى.

قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾، مأخوذة من الإبصار بالعين ومن البصيرة وهي العلم، قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، وهذا يعني: أنه يُضَيِّقُ على مَنْ شاء، وَيُوَسِّعُ على مَنْ شاء.

الفوائد

١ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بسط الرزق وتضييقه من عند الله - وحده -، لقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإن قال قائل: ألَّا يَرِدُ على هذا أننا نرى الرجل يعمل ويكدحَ وَيَتَّجِرُ فيزيد ماله؟ قلنا: لا يرد؛ لأن أصلَ عمله من عند الله، هو الذي أوقع في قلبه النية، وأقدره على العمل، فهو من فضلِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا وجه، وجه آخر: أننا نرى بعض الناس يكدح ويعمل ويتعب ولكن لا يُوَفَّق، كلما ضرب وجهًا، ازداد خسرانًا، فحينئذ ينتفي هذا الإيراد مِنْ أصله.

٢ - من فوائد هذه الآية الكريمة: الحذر من الترف وسعة الرزق، وجه ذلك أن الله -

(١) تقدم تخريجه.

تعالى - أخبر أن بسط الرزق سبب للبغي وهذا كقوله - تعالى -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، وأخبر النبي ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»، فليحذر الإنسان مما يُبسط له من الرزق، فلعل سقاءه يكون بسببه، - نسأل الله السلامة والعافية -.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: حكمة الله - تبارك وتعالى - فيما ينزل من الرزق؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات المشيئة لله - تبارك وتعالى - حتى فيما يحصل للعبد.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن توسيع الرزق لشخص وتضييقه لآخر مبنيٌّ على خبرة وعلم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، يُنْزِلُهُ من السماء، أي: ما يحصل به الإغاثة وهي: الإنقاذ من الشدة.

قوله﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾، أي: ما قنطوا من قبل الإنزال، قال المؤلف - رحمه الله -: [الغيث المطر] ﴿من بعد ما قنطوا﴾، أي: [يئسوا من نزوله لتأخره عن وقته]، قالوا: إذن هذا العام ما في مطر، فينزل الله المطر وإنزال المطر على حين شفقة له وخروج من نزوله يكون أشد وقعًا في النفوس وأبين لرحمة الله - تعالى - وفضله.

قال: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، [يبسط مطره]، هكذا قال المفسر، ولو كان المراد كما قال، لقال الله: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشره، ولكن الصواب: ينشر رحمته، أي: الرحمة التي تحصل بالغيث من نبات الزرع وسعة الرزق وغير ذلك مما ينشأ عن المطر، وقال بعض العلماء: ينشر رحمته، أي: يجعل السماء صحوا حتى تخرج الشمس، وفي هذا نظر، اللهم إلَّا إذا وصلت الأمطار إلى حَدٍّ يُخشى مِنْ ضررها، فحينئذ يكون انجلاء الغيم وخروج الشمس يكون رحمة، أما

مجرد خروج الشمس وانجلاء الغيث ليست برحمة، ولكنه بحكمة، نعم، نعلم أن الله ـ تعالى ـ أراد ذلك لحكمة.

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، فالمسألة أعم مما ذكر المؤلف، وهو الولي المحسن للمؤمنين الحميد المحمود عندهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ [المحسن للمؤمنين]، ففسر الولاية بالإحسان، والصواب: أن الولاية أعم، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، أي: الذي يتولى أمور عباده، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود على هذه الولاية بأنها ولاية رحمة وحكمة وعدل، فيحمد عليها، إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الولي فإلى مَنْ يلجأ إذا ضاقت عليه الأمور، يلجأ إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنه ولي، كما أن اليتيم يرجع إلى وليه في تصريف ماله.

وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: الحميد على ولايته، وولاية الله ـ تعالى ـ تنقسم إلى قسميْنِ لا تخرج عنهما:

إما إحسان، وإما عدل، والثالث ممتنع وهو الظلم، فولاية الله ـ تعالى ـ لا تخرج عن هذيْنِ الأمرين يعني: الإحسان والعدل.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن إنزال المطر بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن بإنزال المطر زوال الشدة؛ لأن الغيث هو: إزالة الشدة.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان لا يصبر، طبيعة الإنسان أنه لا يصبر، فيستولي عليه اليأس والقنوط من رحمة الله، والذي يجب على المرء: ألَّا يقنط من رحمة الله كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، فالواجب عليك إذا مسك السوء، ألَّا تقنطْ، الواجب أن تصبر وتحتسب ودوام الحال من المحال، لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ يذكر الشيء بحسب الواقع، لا بحسب ما ينبغي للإنسان، فعليه ملازمة الصبر، وانتظار الفرج.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن نزول المطر رحمة، لقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، هذا على تفسير المؤلف، بأن المراد بالرحمة المطر، وقد ذكرنا أن الرحمة أعم من ذلك، وهي هكذا تشمل نزول المطر، ونبات الأرض، وكثرة التصرفات والحركات.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ولاية الله - عَزَّ وَجَلَّ - لجميع الخلق لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، ولم يقيد، واعلم أن ولاية الله - تعالى - نوعان: ولاية خاصة وولاية عامة:

أما الولاية العامة تشمل ولاية الله - تعالى - لجميع العباد مؤمنهم وكافرهم، بل برهم وفاجرهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، هذه عامة ومنها قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، هذه من الولاية العامة؛ لأن المراد بهم الكافرون.

أما الولاية الخاصة: هي التي للمؤمنين فقط، ودليلها قول الله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

إذن: ما الفرق بين الخاصة والعامة؟

الفرق بينهما في المحل ظاهر، فالولاية العامة تشمل كل أحد، الولاية الخاصة للمؤمنين، كذلك الفرق بينهما - أيضًا - من حيث الأثر أو التأثير، أن الولاية الخاصة تستلزم توفيق الله - تعالى - للعبد بالهداية وغير ذلك والعامة لا تستلزم ذلك، فإن الكفار الله وليهم بالمعنى العام، ومع ذلك لم يهدهم؛ لأن الحكمة تقتضي ألَّا يهديهم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ولاية الله محمودة على كل حال، لقوله: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، اقرن بين هذا وبين قوله - تعالى -: ﴿وهو الغني الحميد﴾، تجد التناسب التام، فالغني الحميد الذي يحمد على غناه، بحيث يُغْنِي به ما شاء والحميد الذي يُحمد على ولايته بحيث يختص بالولاية الخاصة من شاء، ويمنعها عمن شاء، - وعلى كل حال - فولايته حميدة، وغناه حميد - عَزَّ وَجَلَّ -.

مسألة: هل يُسْتَفَادُ من قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ألَّا يعطى الفقير؛ لأنه لو أعطي لكان هذا سوء أدب مع الله؟

الجواب: لا، هذا خطأ؛ لأن الله أمر المؤمنين بإعطاء الصدقات والزكوات للفقراء.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]

❁ التفسير ❁

ومن قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، (مِنْ) هنا للتبعيض، وآيات جمع آية، وهي العلامة المعينة لما كانت له، أي العلامة التي تحدد الشيء وتعلمه يقال لها: آية من آيات الله، أي العلامات الدالة، على كمال قدرته - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال سلطانه، خلق السماوات والأرض، فإنه لا يمكن لأي أحد أن يخلقهم، وسبق الكلام عن السماوات والأرض.

قوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾، [فرق ونشر] فيهما، أي: في السماوات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهي كل ما يدب على الأرض، قوله: ﴿وَمَا بَثَّ﴾، يعني: خلق ما بث، وبث بمعنى: فرق ونشر، وقوله: ﴿فِيهِمَا﴾، أي: في السماوات والأرض، وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: مما يدب على الأرض من الإنسان وغيره، فهو من آيات الله.

من آيات الله في هذه المخلوقات، أن الله - سبحانه وتعالى -: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

تجد الحيوانات وهي بُهْمٌ لا عقول لها، تجدها تكسب رزقها، وتذهب تطلبه، وتخزن ما تخزن منه، إن كانت مما تخزن له الأقوات، وتجدها تحن إلى أولادها، وترحم أولادها، وغير ذلك مما إذا تأملته عجبت من هذه المخلوقات البهم.

كذلك الطيور أعطاها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قوة نظر بعيد، بدليل أنها ترى الحبَّ وهي في جو السماء، والآدمي لا يراها - بلا شك - لكن لما كانت الطيور لا تمشي على الأرض، يسر الله لها بصرًا نافذا قويا، حتى ترى الحبَّ وهي في جو السماء، فتنزل وتأخذها وتطير، إن ذلك من الآيات العجيبة، انظر مثلًا إلى النمل الصغير كيف يهتدي إلى جحره، وهو يأتي إليه من بعيد، ثم إنه يمشي على خط واحد شاهدناه بأعيننا، يمشي على خط واحد على البساط الذي ليس فيه أثر فتجده يصل إلى النهاية، وإذا به ينحرف على زاوية، كيف اهتدى هذا إلَّا بهداية الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وقد قيل: إنه كلما مشى فإنه يخرج منه شيء، أي: مادة فيشمها الآخر فيتبعه، هذا من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

تجد النمل وهو أكبر من الذَّرِّ يحرص على أن يأتي بزاده من بعيد، ثم يخزنه في جحر، وإذا أراد أن يخزنه أكل رءوس الحب من أجل ألَّا ينبت؛ لأنه لو أبقى من الحب رءوسه نبت وفسد عليه، فتجده يقطع أعلى الحبة وأسفلها حتى لا تنبت، ثم إذا جاء المطر وابتلت الأرض ووصل البلل إلى جحره تجده ينقل هذا الحب إلى الشمس والهواء حتى ييبس، مَنِ الذي عَلَّمَهُ؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فهو من آيات الله، وما أحسن الاستعانة بقراءة كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم - رحمه الله - هذا الكتاب ذكر فيه صاحبه عجائب، حتى ذكر فيه قصة، أن رجلا وضع طعامًا، لذرة من الذرات، حاولت الذرة أن تحملها فعجزت فرجعت إلى جحرها واستغاثت بأخواتها، فأقبلن إليه

يزفون، لما أقبلن عليه، نزعه ـ رفعه ـ من الأرض، جعلوا يبحثون فما وجدوا شيئا، وبقيت الأولى التي كانت قد دلت عليهم، فوضع الطعم، فلما تيقنته ذهبت إلى قومها فدعتهم، فلما أقبلن نزعه، فطلبنه فلم يجدن الطعم، فرجعن، ثم وضع الطعم للمرة الثالثة، فتأكدته هذه الذرة فرجعت إلى قومها تستدعيهم فلما أقبلن نزعها فلما طلبنه ولم يجدنه أكلن هذه الذرة نهائيًا قطعن أوصالها، يقول: فحكيت ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية متعجبًا منه، قال: نعم كل شيء مفطور على عقوبة الظالم الكاذب، وهذه كذبت عليهن وظلمتهن فلم يبق إلَّا أن تعدم؛ لأن الساعي في الأرض فسادًا يجب إعدامه، حتى الابن، لكن هل عليه دية هذه المقتولة؟ هو ظالم لها ـ نسأل الله أن يعفو عنه ـ.

على كل حال قصدي بذلك أن كل شيء هداه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما خلقه له، حتى الذر شاهدته أنا في حوض نخلة، لما سقيت النخلة دخل الماء من تحت الأرض إلى جحر الذر، فجعلت الذر تحمل بيضها الأبيض وبسرعة حتى أخرجته من الماء، من الذي هداها له؟ الله ـ عزَّ جلَّ، وآيات الله كثيرة ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾، فأتى بالماضي وأتى بالمضارع الدال على الاستمرار، قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهو كل [ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم].

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾، [للحشر] ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾، جمعه ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو على جمعهم، أي: جمع هذه المخلوقات، وقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ أي: إذا يشاء جمعه دل عليه السياق.

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، أي: لا يعجزه شيء، يقول المفسر ـ رحمه الله ـ: [في الضمير تغليب العاقل]، الضمير يعني: في جمعه، تغليب العاقل؛ لأن الميم الدالة على الجمع لا تكون إلَّا في العقلاء، وأما غير العقلاء فيؤتى بنون النسوة، لكن هنا: أتى بضمير الجمع مع أن ما في الأرض من دابة أكثره غير عقلاء، لكن يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [تغليب للعاقل].

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية الكريمة:** بيان أن خالق السماوات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يشاركه أحد في ذلك.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذه المخلوقات من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكن لا يتبين أنها من آيات الله إلَّا بالتأمل والتدبر بأن تفنى هذه المخلوقات، تفنى طلوع الشمس وغروبها، وطلوع القمر وأفوله، لم يكن ذلك محركًا لقلوبنا؛ لأنه شيء معتاد، ولكن لو أننا تدبرنا هذه المخلوقات، لتبين لنا أنها من آيات الله العظيمة.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما يبث الله ـ تعالى ـ في السماوات والأرض من دابة من الآدميين وغير الآدميين، فإن في كل منها آية تدل على كمال وحدانيته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورحمته.

٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ظاهر الآية أن في السماوات دوابًا لقوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أما الأرض فالدواب فيها معلومة لنا، أكثرها معلوم لنا، أما السماوات ففيها دواب لكن لا ندري ما هي؟، إن قلنا: (الملائكة) صار هناك إشكال، وإن قلنا: غير الملائكة، فإن الله على كل شيء قدير؛ لأن الملائكة بين الله ـ تعالى ـ أنهم أولو أجنحة، فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وذو الجناح يطير، وربما يكون يمشي أيضا، ـ على كل حال ـ نحن لسنا مكلفين إلَّا بما نفهمه من ظاهر الآية ولا تنجاوز ذلك، فنقول: ظاهر الآية الكريمة أن السماوات فيها دوابًا كالأرض، وإذا سألنا سائل، ما هذه الدواب؟ قلنا: إما الملائكة أو غيرها والله أعلم.

وقال بعض العلماء: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: في الأرض، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وزعموا أن ذلك لا يكون إلَّا في المالح، والصواب: أن الآية على ظاهرها، وأن البحريْنِ المالح والعذب كلاهما يخرج منه اللؤلؤ والمرجان وإن كان في أحدهما أكثر.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تمام قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بجمع هذه الدواب يوم الحساب، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على هؤلاء المنكرين للبعث الذين قالوا: ﴿ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، المنكرون للبعث يقولون: إن كنتم صادقين أرجعوا آباءنا، فيقال: إن الله ـ تعالى ـ لم يشأ ذلك، وسيشاؤه فيما بعد، وأنتم لم يقل لكم: (إنكم مجموعون اليوم) بل قيل لكم: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، أما تحديهم بما لا يلتزمه المتكلم فهذا مضيعة وقت في جدل.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تمام قدرة الله ـ تعالى ـ في جمع هذه المخلوقات، فإن قيل: هل في الآية ما يدل على تقييد القدرة بالمشيئة؟ الجواب: لا؛ لأن المقيد بالمشيئة ليس القدرة، ولكن الجمع، وبهذا نعرف أن بعض الناس الذين يقولون: إنه على ما يشاء قدير، قد أخطأوا خطأ عظيما، وقيدوا ما أطلقه الله، فإنه ـ تعالى ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، على ما يشاء ولا ما يشاء، وهؤلاء يقولون: إنه على ما يشاء قدير، فقدموا المعمول، وتقديم المعمول يفيد الحصر، إذن: هو قدير على الذي يشاء، وأما الذي لا يشاؤه فليس بقدير عليه وهذا خطأ عظيم، هو قادر على

كل شيء على الذي يشاؤه والذي لا يشاؤه، هل نَنْهَى الذين يقولون هذه الجملة: إن الله على ما يشاء قدير؟ نعم، ننهاه عن ذلك، ونقول، يا أخي قُلْ ما قاله الله : (الله على كل شيء قدير)، ولا تقل: على ما يشاء قدير .

قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]

التفسير

فقوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾، (ما) هذه شرطية جوابها: (فبما كسبت أيديكم)، وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، خبر المبتدأ المحذوف تقديره: فهو بما كسبت أيديكم.

قال المؤلف: [﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم ﴾، خطاب للمؤمنين﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾، بيان لـ ﴿ وَمَآ ﴾، قال: [بلية وشدة]، وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أي: كسبتم من الذنوب، لكنه عبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بها، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ منها، فلا يجازي عليه وهو ـ تعالى ـ أكرم من أن يثني الجزاء في الآخرة، أما غير المذنبين فما يصيبهم في الدنيا لرفع درجاتهم في الآخرة].

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾، خَصَّ المفسر هذا بالمؤمنين ووجه التخصيص أنه قال: ويعفو عن كثير، والكفار ليسوا أهلًا للعفو.

وقوله: ﴿مُّصِيبَةٍ﴾، قال: [بلية وشدة]، ويشمل المصائب الدينية والمصائب الدنيوية، وأيهما أعظم؟ المصائب الدينية، فإنها أعظم من المصائب الدنيوية، فإذا قدر أن أحدًا أصيب بانتكاسة فهو أشد من أن يهلك أهله وماله، فإن المصائب الدينية أعظم بكثير من المصائب الدنيوية، إذ أن المصائب الدنيوية تزول وتنسى كما قال بعضهم:

إِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ وَإِمَّا أَنْ تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِم.

لا بد أن تزول، أما المصائب الدينية ـ والعياذ بالله ـ خسارة في الدنيا والآخرة، فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الإعراض من المصائب ؟، الدليل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾، فتأمل أن الذنوب صارت سببا لإعراضهم، والإعراض مصيبة

عظيمة.

المهم: أن قوله: المصيبة يشمل المصائب الدنيوية كتلف المال وموت الأحبة، والخوف، والفقر، وما أشبه ذلك، وتشمل كذلك مصائب الدين كالمعاصي والبدع وكراهة الحق وكراهة أهل الحق وما أشبه هذا كله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، والمراد: بما كسبتم؛ لأنه قد يكون الكسب باليد ويكون الكسب بالرجل، ويكون الكسب بالعين، ويكون بالشم وباللسان، لكن عبر بالأيدي عن الكُلِّ؛ لأن أكثر ما تزاول الأعمال باليد، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، يعني: يعفو عن كثير مما أذنبتم فلا يؤاخذ بها.

الفوائد

١ - **في هذه الآية فوائد**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وجه ذلك: أن الباء هنا للسببية، ففيه إثبات الأسباب، وإثبات الأسباب ثابت شرعًا وعقلًا وحسًّا، وإنكاره ضلال في الدين وسفه في العقل، أما ثبوت الأسباب في الشرع فكما رأيتم والأدلة على هذا لا تحصى سواء في القرآن أم السنة.

وأما ثبوته في العقل: فلأننا نعلم أن كل شيء حادث لابد أن يكون له سبب يحدثه، إما معلوم لنا، وإما مجهول، فالطفل لا يمكن أن يخرج على ظهر بطن أمه لا بد أن يكون له سبب لوجوده وبقائه، وكذلك كل الحوادث لا بد لها من سبب إما معلوم وإما مجهول.

أما الحس فظاهر أن للأسباب تأثيرًا لو أنك رميت زجاجة بحجر لانكسرت ما الذي كسرها؟ الحجارة، إذن: لها سبب، لو أوقدت على الماء البارد صار حارًّا، فهذا شيء حسي معروف.

يرى بعض العلماء مِنْ سفاهتهم: أن الأسباب ليس لها تأثير إطلاقا، - سبحان الله - نقول: أليست الزجاجة إذا رميتها بحجر انكسرت؟ قالوا: نعم، لكن حصل الانكسار عند وجود الرمي لا بوجود الرمي !!!، هكذا قالوا، وهذا خطأ كبير وجهل وسفه، بدليل أنك لو أتيت بأكبر حجر وضعته على الزجاجة وضعا ما انكسر.

قال الجهلة: لو أنك أثبت للأسباب تأثيرًا في المسببات لكنت مشركا بالله العظيم !!

أقول: أعوذ بالله أن أجعل مع الله خالقا، ولكن أقول: إن السبب يؤثر لا بنفسه ولكن بما أودعه الله من قوة والدليل على هذا: أن نار إبراهيم وهي نار عظيمة أحرقت، جمعوا حطبًا عظيمًا وأوقدوا عليه، حتى إنهم رموا إبراهيم بالمنجنيق؛ لأنهم لا يستطيعون أن يحوموا حول هذه النار من شدة حرارتها ماذا كانت النار؟ قال الله - تعالى -: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، إذن نحن نقول: إنها سبب يؤثر ولكن ليس بنفسه بل بما جعل الله فيه من التأثير.

هناك طائفة أخرى تطرفوا وقالوا: إن الأسباب مؤثرة بنفسها!! هذا هو الذي نقول إن فيه نوعًا من الشرك، وليست الأسباب مؤثرة بنفسها والدليل على ذلك: نار إبراهيم، ـ فعلى كل حال ـ نحن نؤمن بأن للأسباب تأثيرًا بما أودعها الله فيها من القوة المؤثرة، وأن هذه القوى لا تؤثر إلّا إذا أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان يُجَازَى على كَسْ به بمثل كسبه؛ لأنه لو كان بما كسب، فلا بد أن يكون على قدْر ما كسب، فإن كان أزيد كان ظلمًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يظلم أحدا.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: جواز التعبير بالبعض عن الكل؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، مع أنه يشمل ما كسبه الإنسان برجله، كمشيه إلى بيوت الدعارة والخمر وما أشبه ذلك، فإنه يُؤَاخَذُ عليه.

فإن قال قائل: هل كُلّ بعضٍ يجوز أن يُعَبَّرَ به عن الكل؟ فالجواب: لا، ولكن بشرط أن يكون لهذا البعض تأثير على الكل، فكسب اليد له تأثير ـ بلا شك ـ؛ لأن أكثر المال بها، أعتق رقبة المراد أن أضرب بصفحة رقبة العتيق، وأقول: أنت أيتها الرقبة عتيقة، هذا خطأ ولكن عَبَّرَ بالرقبة عن الكل؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون رقبة، ولأن الرقبة محل القتل التي إذا فصلت عن البدن هلك الإنسان.

الخلاصة:

جواز التعبير بالبعض عن الكل بشرط أن يكون له أثر فيما عبر عنه به.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله يعفو عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ بها؛ لقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، لكن هل هذا العفو مضمون؟ لا، غير مضمون والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، فلا يؤاخذ كالأمن من مكر الله أن تقول إن هذا الذنب مما عفا الله عنه!! فهذا غرور واغترار؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، مقيد بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

قال المفسر: [وهو ـ تعالى ـ أكرم من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ في الآخرة]، مراد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن المصائب التي تصيبنا بذنوبنا لا نعاقب على ذنوبنا في الآخرة، تكفي المصائب هذا ظاهر الآية؛ لأن قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، يدل على أن هذه المصيبة هي الجزاء، وإذا كانت هي الجزاء فلن يثني الله الجزاء في الآخرة؛ لأنه أكرم من أن يثني الجزاء، وهذا صحيح، أن ما أصيب به الإنسان في الدنيا فهو كفارة عن ذنوبه، إذا أقيم عليه الحد في معصية فيها حد فهو كفارة، إذا عذر على ذنب

ليس فيه حد فهو كفارة، إذا أصابته مصيبة من هذه الذنوب فهي كفارة، فلا يعيد الله عليه العقوبة في الآخرة إلَّا ذنبًا واحدًا وهو السعي في الأرض بالفساد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فهذا مستثنى، وذلك لفداحة هذا النوع من الذنوب، فإن الفساد في الأرض ليس من الأمر السهل، فجعل الله هؤلاء المحاربين المفسدين في الأرض لهم عقوبتيْنِ، الأولى: العقوبة بقطع الأعضاء والثانية: العذاب في الآخرة إلَّا الذين تابوا.

قال المُفَسِّر: [أما غير المذنبين فما يصيبهم في الدنيا لرفع درجاتهم عند الآخرة]، هذا يوحي أن هناك أناسًا كثيرين غير مذنبين، وهذا عند التأمل فيه نظر؛ لأنه مَا مِنْ إنسان إلَّا ويصاب بذنب، حتى إن النبي ﷺ قال: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١)، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٢)، وقال النبي ﷺ عن نفسه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»(٣)، زَادَ ابْنُ السَّرْحِ: «عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ» وقال الله - تعالى - لنبيه يخاطبه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾، فهل يمكن أن يجرؤ أحد فيقول: إن الرسول ﷺ لم يذنب والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾،؟ لا يمكن، لا يمكن أن تقول: لا ذنب له حتى يَمُنَّ الله عليه بمغفرة ذنبه، نعم الرسل معصومون من شيء - ليس لغيرهم - وهو الاستمرار في الذنب، فهذا لا يمكن - إذن لابد أن يعفو الله عنهم إما باستغفارهم وتوبتهم إلى الله وإما بمنته عليهم، قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾، وقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وهذه الآية عظيمة ترتب سير الإنسان ألَّا يتعجل في الأمور، هو عاتب نبيه؛ لأنه أَذِنَ لهم قبل أن يتبين له الأمر فما بالكم بغيره؟ وقال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، نعم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - معصومون من كبائر الذنوب، ومعصومون من الشرك، معصومون من سفاسف الأخلاق، أما المعاصي التي دون ذلك فإنهم

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩)، وأحمد في مسنده (٨٠٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٥١)، والدارمي في سننه (٢٧٢٧)، وأبويعلى في مسنده (٢٩٢٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٣) رواه مسلم (٤٨٣)، وأبوداود (٨٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غير معصومين منها ولكنهم معصومون من الاستمرار فيها، وهذا شيء ليس لغيرهم ـ نسأل الله تعالى ـ أن يجعلنا من أتباعهم والله على كل شيء قدير.

إذن: قول المؤلف: [أما غير المذنبين] غير مُسَلَّم؛ لأنه ما مِنْ أحد إلَّا ويذنب وعليه فإن كلام المؤلف غير وارد، نعم، نعلم أن هناك أناسًا تكون لهم ذنوب ولهم أعمال صالحة تُكفِّر هذه الذنوب، دون أن يصاب بمصيبة، هذا واقع كثيرًا، حكى رجل للنبي ﷺ: عن امرأة وأصاب منها ما يصيب الرجل من امرأته غير أنه لم يَزْنِ بها قال: أشهدتَ معنا صلاة الفجر قال: نعم، قال له: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(1) فصلاة الفجر محتِ السيئات، وكذلك قال النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لَمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرَ»(2).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

فقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾، (ما) نافية، وهي تعمل عمل (ليس) على لغة الحجازيين، والقرآن الكريم نزل بلغتهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَنتُم﴾، اسمها، و ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، خبرها، لكنه اقترن بالباء الزائدة إعرابًا، غير الزائدة معنى، يعني: أنها من حيث الإعراب زائدة، لو حذفت لتمَّ الكلام بدونها، ولكنَّها من حيث المعنى غير زائدة، بل هي مفيدة، وفائدة حروف الزيادة: هي التوكيد، كلما جاءك حرف زائد فهو لتأكيد العموم.

يقول: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بمعجزين الله ـ تعالى ـ إذا طلبكم فلن تعجزوه في الأرض، وقول المفسر رحمه الله: [بمعجزين الله هربًا].

هذا كالمثال وإلَّا المعنى أعم مما قال، أي: بمعجزين الله هربًا وبمعجزين الله اختفاء، وبمعجزين الله إعجازًا وما أشبه ذلك، الإنسان بالنسبة للإنسان إذا هرب منه ربما يعجزه، ويكون

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣)، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣)، وأحمد في مسنده (٩١٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أسبق منه، ربما يعجزه إذا اختفى عنه في جدار، أو مغارة، أو شجر، أو ما أشبه ذلك، فهل هذا الإعجاز الذي يكون من الإنسان إلى الإنسان هل يكون مِنَ الإنسان لله؟ لا؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يمتنع على قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا كالوعيد لهؤلاء، وما لكم من دون الله، أي: [غيره] من ولي ولا نصير.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾: (ما) هذه نافية، ولا نقول: إنها حجازية؛ لأن من شرط عملها عمل (ليس)، والترتيب أن يكون الاسم هو المقدَّم، وهنا الخبر هو المقدّم، وعليه تكون نافية غير عاملة، وقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، (مِنْ) هذه زائدة لتوكيد النفي، وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، [يدفع عذابه عنكم]، من ولي يتولاكم، ويحسن ولايته، ولا نصير يدفع عنكم، فليس هناك ولي يتولاكم من دون الله ولا نصير يدفع عنكم هذا العذاب، بل أنتم في قبضته ـ سبحانه وتعالى ـ أينما كنتم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة**: تهديد المشركين بعذاب الله وأن الله إذا أراده لم يعجزه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب خوف الله ـ تعالى ـ ورقابته؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد أن يُعذِّبَ العاصي فلن يخفى عليه.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ليس أحد يقوم بتولِّي هؤلاء المكذبين وينصرهم من دون الله، وعلى رأس هؤلاء الأصنام، فالأصنام لا تنفعهم، بل هي إن كانت عاقلة تتبرأ منهم لربها، وإن لم تكن عاقلة فهي وإياهم حصب جهنم، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٢ـ ٣٥]

التفسير

فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾، (مِنْ) للتبعيض، وآياته: علاماته الدالة على رحمته وقدرته وحكمته، وقوله: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، مبتدأ مؤخر، ولكنها معربة بتقدير الضمة على الياء المحذوفة

للتخفيف، وأصل الجوار، الجواري بالياء، جمع: جارية، والجارية: هي السفينة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: هذه السفن في البحر على الماء،قوله: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، كالجبال في العِظَمِ، هذه السفن العظيمة المحملة بالأموال والأناسي والحيوان من آيات الله وأن تكون في هذا البحر المتلاطم تمشي على الماء، إن ما فيها من الأرزاق لا شك أنّه من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ،وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، هذه أدنى عقوبة أن يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره؛ لأن السفن الشراعية تمشي حسب الرياح؛ لأنها تعتمد في سيرها على شراع طويل يوضع عليها فإذا اصطدمت به الرياح سارت، فإذا سكنت الرياح وقفت ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾، أي: الجواري ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: على ظهر البحر، وحينئذ تتعطل المصالح، وربما تأتي ريح عاصف تقصف بالسفينة فتغرقها، فالأحوال إذن ثلاث:

إما رياح طيبة تسير بها السفينة على ما ينبغي، وإما رياح عاصفة تُغرِقُ السفينة، وإما سكون تقف رواكد على ظهر البحر، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يُبَيِّنُ: أن من آياته سير هذه السفن.

[وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾، يصرن، وقوله: ﴿رَوَاكِدَ﴾، ثوابت لا تجري]، وقوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: ظهر البحر.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي (مِنْ آياته) ثم قال: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ لأن التبعيض بعض الشيء فإذا كان الشيء ألفًا فبعضه قد يكون مائتين أو ثلاثمائة، وإذا كان الشيء اثنين فالبعض واحد فالسفن كثيرة لا تُحصَى ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، باعتبار السفن الكثيرة التي تجري في البحر، وربما يكون باعتبار السفينة الواحدة مما يشاهده ركابها في البحر من الآيات العظيمة الدَّالة على كمال قدرة الله، ولهذا يحدثنا الذين يذهبون للبحر لاصطياد السمك، يحدثوننا عن عجائب مما يشاهدون من السمك باختلاف أنواعها، واختلاف ذواتها كبرًا وصغرًا وشكلًا؛ مما هو من أعظم آيات الله.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، صبَّار: صيغة مبالغة، أي: كثير الصبر،وقوله: ﴿شَكُورٍ﴾، كثير الشكر، فما وجه الجمع بين الصبر والشكر؟ وجهه ظاهر، أن هذه السفن إن جرت على ما ينبغي، فوظيفة الإنسان الشكر، وإن جرت على ما لا ينبغي، فوظيفته الصبر، فالصابر والشاكر، كلاهما سيرى من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من هذه السفن، ما يجعله موقنًا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير وأنه رحيم بالعباد، وغير ذلك مما سيراه.

قال: [هو المؤمن يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء]، وقد يقال: المؤمن والكافر، ولكن الكافر يصبر ولا يشكر، المؤمن يصبر ويشكر؛ يصبر في موضع الصبر ويشكر في موضع الشكر، الكافر يصبر في موضع الصبر ويتحمل، ولكن لا يشكر في موضع الشكر، وإنما يزداد بطرًا وأشرًا.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ [عطف على يسكن، أي، يغرقهن بعصف الريح] هذا قسم ثالث، إن يشأ يسكن الريح، وإن يشأ يوبقهن، أي: يغرقهن.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: بسبب كسبهم، فما هو الكسب الذي يؤدي إلى العقوبة؟ المعاصي، وذلك بترك الواجبات أو بفعل المحرمات.

وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، ليست معطوفة على يسكن؛ لأنه يفسد المعنى إذ يكون المعنى (إن يشأ يسكن، أو يوبق أو يعفو عن كثير) وهذا فاسد، ولكن المعنى: يوبقهن بما كسبوا ويعفو جملة استئنافية لكن حذفت الواو للتخفيف: والمعنى أن الله ـ تعالى ـ يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها، ويعفو عن كثير منها فلا يغرق أهلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، قال المؤلف: [بالرفع مستأنف وبالنصب معطوف على تعليل مقدر، أي: يغرقهم لينتقم منهم ويعلم].

أولا: فيها قراءتان، ويعلمُ ويعلمَ، على قراءة الرفع الواو استئنافية تقديره: (وهو يعلم الذين يجادلون)، وعلى قراءة النصب وَجَّهَهَا المؤلف بأنها معطوفة على تعليل مقدر، أي: (يغرقهم لينتقم منهم ويعلم).

تجد أن الكلام لا يتناسب إلَّا إذا قدر ما يناسبه المقدر على كلام المؤلف، أي: يغرقهم لينتقم منهم، أي: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أي: [مهرب من العذاب]،وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾، (الذين) فاعل.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ﴾، المجادلة هي المناظرة والمخاصمة: مأخوذة من الجدل وهو الفتل، يقال: جدل الحبل أي: فتله، وسمي المناظر مجادلا؛ لأن كل واحد من المتناظرِيْن يفتل حجته لتقوى على حجة الآخر، هذا أصل المجادلة وهي المنازعة والمخاصمة.

وقوله: ﴿فِي آيَاتِنَا﴾، ليثبت الباطل ويبطل الحق، كأن مجادلة المشركين للأنبياء قصدهم إبطال الحق الذي جاءت به الرسل، وإثبات الباطل الذي هم عليه.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، (ما) نافية وهل تصح أن تكون هنا حجازية؟ لا يصح لعدم الترتيب لتقدم الخبر، إذن: ما مجرد النفي لا تعمل، ومحيص مبتدأ مؤخر دخلت عليه (مِنْ) الزائدة.

والمحيص: المهرب،وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، [مهرب من العذاب، وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم، والنفي معلق عن العمل]، هذا جواب سؤال مقدّر، وهو أين؛ لأن يعلم من أفعال القلوب التي تنصب المبتدأ والخبر، يعني: أنها من أخوات (ظن) تنصب مفعولَيْنِ، أين المفعولان؟

يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن عملها معلق بالنفي، فجملة النفي سدت مسد المفعولين، وهذا جعل من درس النحو؛ لأن أفعال القلوب إما أن تعمل، وإما أن تعلق، وإما أن تلغى، إذا ألغيت بطل عملها في المحل واللفظ، وإذا علقت بقي عملها في المحل دون اللفظ، وإذا عملت، عملت باللفظ والمحل.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية الكريمة فوائد:** التهديد بإغراق السفن؛ لقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾، وقد علمتم قبل قليل أن الرياح بالنسبة للسفن تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

ريح مناسبة طيبة، وريح عاصفة مدمرة مغرقة، وريح ساكنة تبقى السفينة راكدة على ظهر البحر.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** التهديد بإغراق السفن بالمعاصي.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من المعاصي وأنها سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾،

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعفو عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها لقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، حتى مع إغراق السفن يعف الله ـ تبارك وتعالى ـ عن كثير.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد أولئك العصاة بأنهم ليس لهم مهرب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ذم المجادلة لإبطال الحق؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾، أما المجادلة لإثبات الحق فإنها واجبة، حيث كان الإنسان يجيدها ويحسنها، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فالمجادلة لإثبات الحق وإبطال الباطل واجبة، لكن بشرط أن يكون عند الإنسان علم بما يجادل به، فإن لم يكن له علم فالواجب ألَّا يجادل؛ لأنه إذا جادل لإثبات الحق بدون علم فقد تنعكس القضية عليه، يُورَدُ عليه من الشبهات ما لا يستطيع دفعه، وحينئذ ينقطع، وانقطاع المجادل بالحق ليس ضرره على نفسه بل هو على نفسه وعلى الحق الذي يجادل من أجله، وهل المجادلة تحصل بالغريزة أو بالتمرن؟ الجواب: بهما جميعًا فقد يعطى الإنسان قوة حجة وقريحة وسرعة إجابة وهذا من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقد يكون قليلًا من هذه الناحية في أصل خلقته، ولكن مع المجادلة يتمرن، ولهذا كان بعض أهل العلم، إذا أراد أن يحرر مسألة

ويثبتها فرغ نفسه مع مجادل، فيورد على نفسه إشكالًا، ثم يجيب عنه، ثم إشكالًا، ثم يجيب عنه، حتى يتمرن على المجادلة ويذكر أن عاميًا يجادله نصراني، يقول له: أنتم أيها المسلمون ظلمة، قال: بم؟ قال: لأنكم تجيزون أن تتزوجوا منًا ولا تجيزون أن نتزوج منكم؟ إذا جاء هذا الإيراد على شخص لا يعرف المجادلة لعله يقول: نعم صحيح !! فقال العامي: إنا نؤمن برسولكم ولا تؤمنوا برسولنا آمنوا برسولنا نزوجكم.

هذه حجة صريحة لا شك، فإذا كانت صحيحة من عامي كان هذا دليلًا على أن المجادلة تكون غريزة وتكون بالممارسة والتمرن.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا مفر لمن حاد الله ورسوله من عقوبة الله، لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ومن المعلوم أن (يعلم) تنصب مفعولين، فأين مفعوليها؟ ولكنها هنا معلقة.

قال الله تعالى:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]

التفسير

وقوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ يعني: أي شيء أوتيتموه من زخارف الدنيا وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ﴾، الفاء رابطة للجواب، جواب الشرط وهو قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأن (ما) هنا شرطية، و(مِنْ) بيان لها، وجملة (فمتاع) هذه جواب الشرط، وعلى هذا فنقول: إن (متاع) خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: فهو متاع، قال المؤلف: [يتمتع بها ثم يزول].

وقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ....﴾، (ما) هنا اسم موصول بمعنى:الذي، و(خير) خبر المبتدأ، (وأبقى) وصفه الله بوصفين مهمين جدًّا، الأول: أنه خير، والثاني: أنه أبقى؛ لأن ما في الدنيا: هو متاع زائل منغص لا يكاد يمر بك أسبوع إلَّا وجدت التنغيص، وهذا على حد قول الشاعر:

فَيَومٌ عَلَيْنَا وَيَومٌ لَنَا ... وَيَومٌ نُسَاءُ وَيَومٌ نُسَر

أما الآخرة فهي خير، خير محض ليس فيه شر وأيضًا أبقى، يعني: أدوم، وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، يزول سريعا بخلاف متاع ما عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وقد سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان فقال له: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١) إذن آمنوا بما يجب الإيمان به، هذه العبارة تشمل كل شيء.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، قدم المعمول لإفادة الحصر والعناية به، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، الرب هو الخالق المالك المدبر، وقوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون وَيُفَوِّضُونَ أمرهم إليه ـ تبارك وتعالى ـ، والتوكل فسره بعضهم بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله ـ تبارك وتعالى ـ، صدق الاعتماد على الله، يعني: أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقا لا تلتفت لسواه في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعني: تعتمد على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنت واثق بأنه حسبك وسيعينك، والتوكل على الله نصف الدين، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إذ لا يمكن للإنسان أن يأتي بشرائع الإسلام إلَّا بالتوكل على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والاعتماد عليه، انظر إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإلى قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، تجد أن الله ـ تعالى ـ قسم الدين إلى قسمين، عبادة واستعانة.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يقول المفسر: [للمؤمنين وغيرهم] ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، قال: [من أثاث الدنيا] فما متاع الحياة الدنيا؟ فما عند الله خير وأبقى].

وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، (مِنْ) هذه بيانية، بل هي زائدة لبيان العموم، أي: أي شيء تؤتونه من أمور الدنيا فإنه متاع الحياة الدنيا، وقوله: [الخطاب للمؤمنين وغيرهم]، صحيح؛ لأن هذا يخاطب به المؤمن والكافر؛ فالكافر يتمتع بالدنيا، ولكن هؤلاء الكفار يتمتعون كما تتمتع الأنعام والنار مثوى لهم، والمؤمن يتمتع بالدنيا، ولكنه إذا قام في عمل الآخرة صار نعيمهم في الدنيا وفي الآخرة، وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، يتمتع به فيها ثم يزول، هذا هو الواقع، أن متاع الحياة الدنيا يزول أو يزال عنه، يعني: إما هذا وإما هذا.

لو قدر أن الإنسان يبقى غنيًا صحيح الجسم آمن المقام أليس من الجائز أن يمرض هذا؟ بلى، فيكون متاعًا قد زال، فإن لم يزل عنه زال الإنسان عنه، من الذي مُتِّعَ أبد الآبدين؟ لا يوجد، قال

(١) تقدم تخريجه.

الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (ما) هذه اسم موصول مبتدأ، و(خير) خبره، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خير من متاع الدنيا في ذاته ونوعه وكلِّ متعه، وأبقى، أي: أدوم؛ لأن متاع الدنيا يزول، فنعيم الآخرة جمع بين الوصفين أنه خير وأنه أبقى، والإنسان لا يريد إلَّا هذا، لا يريد إلَّا الأكمل والأبقى حتى لا يزول عنه، لكن لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، واعلم أن مثل هذه العبارة وردت على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يخاطب بها الشخص بعينه، فيقال له: إن الآخرة خير لك.

والثاني: أن تأتي مقيدة بأوصاف محبوبة مرغوبة.

والثالث: أن تأتي مفردة اسمع إلى قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنبيه ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، فالآن نشهد بأن الآخرة خير للنبي - صلى عليه وسلم - من الأولى، هذا خطاب لشخص معين.

أما المقيد بأوصاف كالآية التي معنا، ومثل قوله - تعالى -: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، وهذه مقيدة بأوصاف، الثالثة: مطلقة كقوله - تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، لكن هذا المطلق يُحْمَلُ عَلَى المُقَيَّد، أو يقال هذا باعتبار وصفه لا باعتبار مَنْ يحصل له، فيقول: من حيث الجملة الآخرة خير وأبقى، أما من حيث التفصيل، فيفصل كل موضع بحسبه، يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾، إلخ.

٢ - **ومن فوائد الآية:** التزهيد في الدنيا، وأنها زائلة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إنذار الكفار بأن ما هم فيه من النعيم، ليس بشيء بالنسبة لنعيم الآخرة، وذكر أهل التاريخ أن «ابن حجر» - رحمه الله - صاحب «فتح الباري» كان قاضي القضاة في مصر، فمر ذات يوم برجل يهودي زيات، يعني: يعمل في الزيت، كل ثيابه متسخة وفي تعب شديد، فمر ابن حجر - رحمه الله - وهو قاضي قضاة مصر بمركبه تجره الخيول أو البغال وفي أبهة، فأوقفه اليهودي فقال اليهودي: ما تقولون في قول نبيكم: «إن الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»[1]، كيف يتفق هذا مع الحال الذي نحن عليها الآن، أنت مؤمن وفي هذا النعيم !! واليهودي كافر وهو في هذا العناء، كيف يتفق؟

فأجابه «الحافظ ابن حجر» بجواب على البديهة فقال: ما أنا فيه من النعيم بالنسبة لنعيم الآخرة سجن؛ لأن الآخرة خير وهذا ليس بشيء، وأنت بما أنت فيه من العناء بالنسبة لعذاب النار في

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وأحمد في مسنده (٨٢٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جنة، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، آمن مباشرة؛ لأن هذا الجواب دخل عقله، وأن ما قاله الرسول حق، الدنيا مهما كانت فهي بالنسبة للآخرة سجن ما هي بشيء، ولكن الدنيا مهما كانت من الضيق فهي بالنسبة للنار جنة.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن حياتنا هذه دنيا من الدنو، أي القرب، أو من الدناءة، أي: الخسة والحقارة، تشمل المعنيينِ جميعا، فهي قريبة؛ لأنها سابقة على الآخرة، من حيث ولد الإنسان وهو فيها، وهي دنيئة، أي: حقيرة بالنسبة للآخرة، إذن: دنيا مؤنث أدون، وهي إما من الدنو أو من الدناءة، ففيها تحقير الدنيا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما عند الله خير من الدنيا بأجمعها؛ لقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، إذن: فيه التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الثناء على مَنْ جمع بين الإيمان والتوكل؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن التوكل عبادة يجب إفراد الله به، وجه الدلالة تقديم المعمول، هذا دليل على وجوب إفراد الله به، وأما الدليل على أنه عبادة: فلأنه ذكره الله ـ تعالى ـ في مقام الثناء، ولا ثناء إلَّا في عبادة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: فضيلة الجمع بين هذه الصفات المذكورة؛ لأن كل صفة منها صفة مدح لا شك، لكن اجتماعها يكون أكمل، أرأيت لو وصفتَ إنسانا بالكرم وقلت: فلان كريم، أليس مدحا؟ بلى، إذا قلت: شجاع، انضم ـ الآن ـ الكرم إلى الشجاعة بانضمام صفتيْنِ بعضهما إلى بعض تولد صفة ثالثة وهو الجمع بين الصفات، وهكذا نقول في كل الصفات المتعددة: أن جمعها يزيد الموصوف بها بهاء.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب التوكل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، حيث قدم المعمول، فإن قال قائل: أيجوز أن يتوكل على الغير فيما يقدر عليه؟ الجواب: نعم، ولكن لا يجعل هذا التوكل تفويضًا يتعلق القلب به؛ لأن هناك فرقا بين أن أقول: يا فلان وكلتك أن تشتري كذا وكذا، هنا أعتمد عليه لكني لا أفوض الأمر إليه، بل أنا حينما أقول: يا فلان اشترِ لي كذا وكذا أعتبر نفسي فوقه أم دونه؟ فوقه؛ لأني أنا الآمر، أنا الذي بيدي الأمر، آمر وأنهى، لكن الاعتماد الذي هو التفويض المطلق هذا لا يكون إلَّا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإذا أورد علينا إنسان هذا الإيراد الذي أنا ذكرته، نقول: الجواب سهل، التوكيل في الشيء لا يدل على التفويض المطلق، التوكيل على الشيء لا يتعلق القلب بنفس المتوكل عليه، بخلاف التوكل على الله، فبهذا يظهر الأمر، ويقال للإنسان الذي وكَّل غيره: إنه ليس ناقص التوكل، بدليل أن الرسول ـ عليه الصلاة

والسلام - وَكَّلَ عَلِيًّا بن أبي طالب في حجة الوداع أن ينحر عنه بقية هديه، ووكَّل «عروة بن الجعد» أن يشتري له أضحية[1] وأعطاه النبي ﷺ دينارًا وقال: اشترِ لي به أضحية فاشترى أضحيتيْنِ بدينار ثم باع واحدة منهما بدينار، فرجع إلى النبي ﷺ بشاة ودينار، الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم ينقصه شيء، ديناره الذي سلمه له رجع إليه، والشاة التي يريدها حصلت له، فدعا له النبي ﷺ بالبركة في بيعه، فكان لا يشتري شيئًا إلَّا ربح فيه حتى ولو اشترى ترابًا لربح ببركة دعوة النبي ﷺ، العلماء أخذوا من هذه القصة: جواز التصرف في مال الغير لمصلحة؛ فعروة تصرف في مال النبي ﷺ؛ اشترى شاتيْنِ وهو مأمور بشراء واحدة، وباع واحدة ولم يُؤْمَرْ بالبيع، لكن هذا لمصلحة الغير، إلَّا أنه مع ذلك موقوف على إجازته، فلو أن هذا المتصرف قال له صاحبه: لا أرغب في هذا التصرف، فإنه يرد، لو علمنا أن فلانا يريد أن يبيع بيته قد عرضه للبيع، وجاء شخص وبذل فيه مالا كثيرًا بذل مثل قيمته مرتيْنِ يجوز أو لا يجوز؟ يجوز لأني أعرف أن الرجل عازم على بيع البيت، وإذا هو عزم على بيع البيت سيكون بيعه بثمن المثل، فإذا جاء إنسان وبذل قيمة أكثر من المثل مرتيْنِ مثلًا، وتقدم شخص لم يُوَكَّلْ وباعه، فالبيع صحيح وهذا التصرف في مال الغير بما يحبه ، لكن لو فرض أن صاحب البيت قال: لا أجيز هذا، فحينئذ يُرَدُّ البيع، لكن يبقى إشكال آخر مع المشترى، المشتري يقول: أنا اشتريت، والموكل يقول: أنا لم أرض، والوكيل يقول: أنا راضٍ، فما الحل إذا كان الوكيل أخبر المشتري بأنه وكيل وأن البيت لفلان؟ ثم قال الموكِّل: أنا لا أرضى بهذا البيع، وإلَّا بقي البيع، وضمن الوكيل ما يطلبه الموكِّل.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

التفسير

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ نص على أنه معطوف عليه لئلا يظن الظان أن الواو هنا للاستئناف، وعلى هذا فيكون من باب عطف الصفات وليس من باب عطف الأعيان، فالذين استجابوا لربهم هم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، هل لهذا نظير؟ أي: عطف الأوصاف لموصوف واحد؟ الجواب: كثير، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى:٤] قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ليس هو شيئًا آخر بل

(١) صحيح : راجع إرواء الغليل (١٢٨٧).

هو الأول، فيكون هذا من باب عطف الأوصاف دون الأعيان، أنت إذا قلت: (قام زيد وعمرو وبكر وخالد) فهذا من باب عطف الأعيان؛ لأن الثاني غير الأول، وإذا قلت: (جاء زيد الفاضل والكريم والشجاع) فهذا من باب عطف الأوصاف؛ لأن الثاني هو الأول لكن اختلفت الصفة، إذن فالعطف نوعان: عطف أعيان وعطف أوصاف، وفي الآيات التي معنا ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ هذه من باب عطف الأوصاف؛ لأن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش هم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، قوله: ﴿يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ كبائر: جمع كبيرة، فما هي الكبيرة؟ الجواب: ما ذكر الشرع أنه كبيرة فهو كبيرة كقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بَكْرَةَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ» قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، هنا نص على أنها كبيرة، أما ما لم ينص عليه الشرع، فقد اختلف العلماء رحمهم الله في حَدِّ الكبيرة وأقرب شيء ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: (إن الكبيرة ما رُتِّبَ عليه عقوبة خاصة)، يعني ما خُصَّ به عقوبة، وذلك أن المنهيات تنقسم إلى قسمين: قسم فيها النهي أو التحريم أو ما أشبه ذلك، لكن ما فيه عقوبة ما ذكر فيه عقوبة، وقسم آخر ذكر فيه العقوبة، فيقول: ما ذُكِرَ فيه عقوبة خاصة فهو كبيرة، إذن إذا رتَّب على الذنب لعنة كقوله: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، ماذا يكون؟ كبيرة، لأنه رتّب عليه عقوبة خاصة وهي اللعن، إذا رتب عليه السخط فهو كبيرة كقول النبي صلى الله عليه وسلم في المرأة: «يَبِيتُ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا فَإِنَّ اللهَ يَسْخَطُ عَلَيْهَا»، هذا كبيرة، وقوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»، فهو كبيرة ما الذي رتب عليه؟ البراءة منه، ليس منا كذا، «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، مثله كبيرة لأنه رتب عليه عقوبة خاصة، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، كبيرة لأنه رتب عليه نفي الإيمان، إذن الكبيرة محدودة أو معدودة؟ محدودة يعني تعرف بالحدّ دون العدّ، وأحسن ما قيل فيها ما اختاره شيخ الإسلام - رحمه الله - من أن (الكبيرة ما رتب عليه عقوبة خاصة)، وقوله: ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ بالنصب معطوفة على كبائر، أي يجتنبون الفواحش، قال: [وهي موجبات الحدود من عطف البعض على الكل]، فسر المؤلف - رحمه الله - الفواحش بأنها ما توجب الحد، فلنعدها، الزنا فاحشة وهو بنص القرآن ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ نكاح ذوات المحارم فاحشة لقوله الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢] تأمل الآن أيُّها أعظم؟ نكاح ذوات المحارم أم الزنا؟ الأول؛ لأن الله قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وفي الزنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ ولهذا كان القول الراجح أن الإنسان إذا زنا بمحارمه وجب رجمه سواء كان محصنًا أو

غير محصن، سؤال: السرقة فاحشة أو غير فاحشة؟ فاحشة، المؤلف قال: [كل الذي فيه حد فهو فاحشة]، قطع الطريق فاحشة؛ لأن فيه حدًّا، الخمر فاحشة أعليه حد؟ الصحيح أن عقوبة الخمر ليست حدًّا بل هي عقوبة، لكنها لا تنقص عن أربعين، والدليل أنها عقوبة أن شارب الخمر في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤتى به فيضربه الناس الذي يضرب بيده والذي يضرب بثوبه والذي يضرب بنعله بدون حد معين ثم جعلها أبو بكر أربعين ثم جعلها عمر أربعين، ثم كثر شرب الخمر فزادها عمر إلى ثمانين بعد أن استشار الصحابة فقال عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: أرى أن تجعلها كأخف الحدود، ما هو أخف الحدود؟ حد القذف ثمانون، فجعلها عمر رضي الله عنه ثمانين وهذا كالإجماع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن عقوبة شارب الخمر ليست حدًّا، لأنه لو كانت حدًّا هل يمكن لأي أحد أن يزيد؟ لا يمكن، ولهذا لو كثر الزنا في الناس لا نزيد عن مائة جلدة، فقول عبد الرحمن بن عوف: اجعلها كأخف الحدود، دل هذا على أنها ليست حدًّا، وإلا لَمَا صَحَّ أن يقول: كأخف الحدود، وأيضًا إذا تكرر جلده ففي الرابعة يقتل على رأي كثير من العلماء لما جاء في السنن، «إِذَا شَرِبُوا الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاقْتُلُوهُمْ»، هذا الحديث صحيح، ذهب إليه أهل الظاهر، وأكثر العلماء يقولون: لا يقتل ولو شرب ألف مرة ويجلد ألف مرة، واختار شيخ الإسلام قولًا وسطًا وقال: إذا لم ينته الناس بدون القتل فإنه يقتل، لئلا يتكاثر شرب الخمر، وأما إذا انتهى الناس بدون القتل فإنه لا يقتل.

المهم المؤلف ـ رحمه الله ـ: يرى أن الفواحش هي موجبات الحدود، قال: [وهو من عطف البعض على الكل]؛ لأن الفواحش بعض كبائر الإثم، فهو من باب عطف البعض على الكل، وهذا يقع كثيرًا كما أنه يقع أحيانًا عطف الكل على البعض، فقول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ هذا من باب عطف البعض على الكل، وإذا قلت أكرم زيدًا والطلبة، وهو منهم، فهو من باب عطف الكل على البعض، وتخصيص بعض الأفراد بكونه معطوفًا أو معطوفًا عليه يدل على العناية به والاهتمام به، قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (ما) هنا زائدة في الإعراب، وأما في المعنى فهي للتوكيد، وأقول: (ما) بعد (إذا) زائدة؟ يعني كلما أتتك (ما) بعد (إذا) فهي زائدة، كهذه الآية ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ المعنى وإذا غضبوا، وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي حتى إذا جاءوها، فخذ هذه الفائدة، و(ما) من أوسع الحروف معنى؛ لأن لها عشر معاني أو أكثر، جمعت في قول الناظم:

مَحَامِلُ مَا عَشْرٌ إِذَا رُمْتَ عَدَّهَا ... فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِنَ الشِّعْرْ
سَتَفْهَمُ شَرْطَ الْوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا ... بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدرِه

ستفهم: إشارة إلى ما الاستفهامية، شرط: إلى ما الشرطية، الوصل: إلى ما الموصولة، فاعجب: إلى ما التعجبية مثل أن تقول: ما أحسن زيدًا، لنكرها: إلى ما النكرة الموصوفة أو الواصفة، بكف: إلى ما الكافة، وهي الداخلة على إن مثل ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ونفي: (ما) النافية، زيد: ما الزائدة، تعظيم: ما التعظيمية مثل ﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ②﴾ [الحاقة:٢] ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ②﴾ [القارعة:٢] مصدر: إلى (ما) المصدرية، مثل يعجبني ما فعلت أي يعجبني فعلك، هذه عشر معاني

قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يعني إذا نالهم الغضب فإنهم يملكون أنفسهم. فيغفرون لمن أغضبهم، ومعنى يغفرون قال المفسر: [يتجاوزن] ونحن نزيد شيئًا آخر: الستر، يعني يتجاوزون عمن أساء إليهم ويسترونه.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن مِنْ وصْف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش وبعدهم عنها؛ لأن اجتنب بمعنى: صار في جانب وآخر في جانب، فيفيد بعدهم عن كبائر الإثم والفواحش.

٢- **ومن فوائدها:** أن صغائر الذنوب لا تنقص من كمال الإيمان، لماذا؟ لأنها تقع مغفورة باجتناب الكبائر كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة النجم ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني: إلا الصغائر فإنها لا تضر، فإنها لا تضر، وأخبر النبي ﷺ: «**أَنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَةَ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»، لكن لو قال قائل: هل الإصرار على الصغائر يحولها إلى كبائر؟ فالجواب: نعم هذا هو المشهور عند أهل العلم أن الإصرار على الصغيرة كبيرة، لكنهم لا يقولون: إن الصغيرة تكون كبيرة، يقولون: إن إصرار الإنسان على المعصية يدل على استخفافه بشريعة الله وعدم مبالاته بها، فمن هنا صار الإصرار كبيرة، وليس المعنى أن الصغيرة تنقلب كبيرة، لكن لما كان الإصرار يدل على استخفاف الإنسان بشريعة الله صار هذا كبيرة من أجل الاستخفاف.

٣- **ومن فوائدها:** أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم إذا غضبوا غفروا، والغضب وصفه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ»، أما المتكلمون فيقولون: (إن الغضب غليان دم القلب لمحبة الانتقام)، وما قاله النبي ﷺ هو الخير، ولذلك تجد الرجل إذا غضب يتصرف تصرفًا سيئًا لا يحمده هو إذا سكن غضبه، فينبغي للإنسان عند الغضب أن يكظم غيظه، وقد طلب أحد الصحابة من النبي ﷺ أن يوصيه فقال: «**لا تغضب، فردد مرارًا فقال لا تغضب**»، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٨]

❁ التفسير ❁

قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ الواو: حرف عطف، الذين: معطوف على ما سبق عطف أوصاف، ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ قال المفسر: [أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة] ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بمعنى: أجابوه، وقد سبق لنا ذكر الأمثلة على كون استجاب بمعنى: أجاب، وقوله [من التوحيد والعبادة] تفسير لا بأس به، ولو قال رحمه الله: (استجابوا لربهم) أي أجابوه إلى كل ما دعاهم إليه من فعل الأوامر وترك النواهي لكان أبين وأعم، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ معطوفة على (استجابوا) فهي داخلة في صلة الموصول، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ قال المؤلف: [أداموها] وفيها نظر، بل معنى (أقاموا الصلاة) أتوا بها مستقيمة على الوجه الذي طلب منهم؛ لأن هناك فرق بين إقامة الصلاة وبين إدامة الصلاة، نعم إدامتها من إقامتها لا شك، ولكن ليست الإقامة هي الإدامة، إذن الإقامة معناها أن يأتي بالصلاة مستقيمة على الوجه المطلوب، وقوله: ﴿الصَّلَوٰةَ﴾ يعم الفريضة والنافلة، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أمرهم: أي شأنهم، والمراد الشأن العام لا الشأن الخاص، الشأن العام الذي يهم الجميع ويتشاورون فيه، ومعنى يتشاورون فيه: يعني يتبادلون الرأي هل يقدمون أو يحجمون؟ هل يعدلون أو يبقون الشيء على ما هو عليه، المهم أن المشاورة هي تداول الرأي ليخرجوا بنتيجة مرضية للجميع.

قال الله - تعالى - :﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (من) هنا للتبعيض، ويحتمل أن تكون للجنس، فإن كانت الأولى صار المدح لمن ينفق بعض ماله، وإن قلنا بأنها للجنس صار المدح لمن ينفق ماله كله أو بعضه، فأيها أولى؟ أن نقول للتبعيض أو للجنس؟ للجنس أولى، ليشمل القليل والكثير والكل، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ قال [أعطيناهم] ﴿يُنفِقُونَ﴾ [في طاعة الله].

الفوائد:

١- **ومن فوائدها:** أن من صفات المؤمنين المتوكلين أنهم يستجيبون لله عزَّ وجلَّ - ، أي يجيبونه إلى ما طلبه منهم، ومعناه المبادرة وعدم التأخير؛ لأن التأخير عن تنفيذ الواجب نقص في

الاستجابة، وأضرب لكم مثلًا برجل أمر ابنه أن يأتي إليه بحاجة، فتوانى الابن وبقي ساعة أو ساعتين ثم جاء بالحاجة، فهل يقال إن الابن امتثل امتثالًا كاملًا؟ لا، الامتثال الكامل بالمبادرة، وهذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** العناية بإقامة الصلاة، وجه ذلك أن الله نص عليها بعد التعميم؛ لأن قوله: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ يشمل الصلاة وغيرها، فلما قال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نص عليها بخصوصها وهذا دليل على العناية بها، وحق والله أن يُعتنى بها؛ لأنه ليس هناك عبادة أقوى صلة بك في الله عزَّ وجلَّ ـ من الصلاة، الإنسان يتصدق لكن لا يشعر بالصلة بينه وبين ربه، يصوم ويحج لكن الصلاة الحقيقية الشرعية أن الإنسان يشعر بأنه في صلة بينه وبين الله، ومن أجل ذلك سميت صلاةً؛ لأنها صلة بين الإنسان وبين الله، إذا قال: الإنسان ـ الحمد لله ـ قال الله: حمدني عبدي وهكذا مُحَاوَرَة، ثم هو يشعر بأنه إذا ركع ففوقه رب يعظمه، وإذا سجد فكذلك يضع أشرف أعضائه في مواطئ الأقدام، ولذلك صارت العناية بالصلاة حيث قال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أين فرضت الصلاة؟ ليلة المعراج، من الله إلى الرسول أم بواسطة؟ بدون واسطة، هذا يدل على أهميتها والعناية بها، ثم إنها فرضت خمسين صلاة وخفف الله على العباد فجعلها خمس صلوات لكنها في الواقع خمسون صلاة، بمعنى: أنك إذا صليت فريضة واحدة كأنما صليت عشر، لأن الحسنة بعشر أمثالها؛ وهذا لجميع الحسنات، كأنك صليت الظهر مثلًا عشر مرات، صلّيت وسلّمت، وصليت وسلمت حتى بلغت عشرًا، وبهذا يظهر الفرق بينها وبين سائر العبادات، ثواب الحسنة بعشر أمثالها، لكن هذه كأنك فعلًا صلّيت خمسين صلاة.

٣- **ومن فوائدها:** مراعاة الأحوال الاجتماعية، وأن الأمور العامة ينبغي أو يجب التشاور فيها، لقوله ـ تعالى ـ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وهل تدل الآية على أن الإنسان إذا أراد أن يفعل فعلًا خاصًا به يشاور؟ لا، لا تدل عليها، لكن المشاورة مشروعة إذا أشكل عليك شيء، فلديك شيئان: الاستخارة والمشاورة، لكن الأمر العام لابد من التشاور فيه، يستثنى من ذلك إذا بان الأمر لولي الأمر فإنه لا حاجة إلى المشاورة فيه، يعني لو تبين للأمير أو الرئيس أو الملك مصلحة ما يريدها فلا حاجة إلى التشاور؛ لأن التشاور يُرجَع إليه عند الإشكال والتردد، أما مع ظهور المصلحة فلا حاجة إلى أن يشاور؛ لأن المشورة حينئذٍ لا تزيد الأمر إلا إشكالًا وفوضى، فالناس ليسوا على أمر واحد، إذا أردت أن يتمزق الأمر فضعه بين يدي عشرة، وإن أردت أن يذوب بالكلية فضعه بين يدي عشرين، لابد من اختلاف الناس.

إذن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ على عمومه أو يستثنى منه؟ الجواب: يستثنى منه ما ظهرت مصلحته لولي الأمر فإنه لا حاجة إلى أن يشاور، ويدل لهذا الاستثناء عمل السلف الصالح، فها هو عمر

رضي الله عنه، وهو من أشد الخلفاء اهتمامًا بالرعية، لا يشاور إذا كانت المصلحة ظاهرة له، وإنما يشاور إذا أشكل عليه الأمر، لو أحصيت ما شاور فيه ما بلغ إلا العشرات أو أقل، وقد بقي عشر سنوات في الخلافة، هذا العمل السلفي من الخلفاء الراشدين يقيد قوله ـ تعالى ـ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ إذن ما الذي يستثنى؟ وأظهرت فيه المصلحة لولي الأمر فلا حاجة فيه للمشاورة؛ لأن المشاورة في هذه الحال ضرر في تنفيذ الأمر والمضي فيه.

٤-ومن فوائدها: أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون بذل المال في طاعة الله، لقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

مسألة: وهل يُطْلَبُ من الإنسان أن ينفق جميع ماله؟

الجواب:هذا ينبني على (مِنْ) هل هي للتبعيض أو للجنس؟ إذا قلنا: للتبعيض صار المدح على مَنْ أنفق بعض ماله، وإذا قلنا للجنس أي أنهم ينفقون من هذا الجنس الذي رزقهم الله صار عامًا، والتفصيل هو التأصيل إن شاء الله، إذا كان الإنسان لا ينقص إنفاقه شيئًا من واجبات الإنفاق على الأهل فلا حرج أن ينفق جميع ماله، مثل أن يكون عند الإنسان مائة ريال لا يحتاجها للإنفاق على أهله، وليس عنده سواها، نقول: هنا أنفق جميع المال ثم اكتسب للإنفاق على أهلك، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، أما إذا كان يحتاج المال للإنفاق الواجب على أهله وهو ضعيف الاكتساب فهنا نقول: لا تنفق جميع مالك، أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الواو حرف عطف، والمعطوف هنا باعتبار الصفات، أي من صفاتهم أنهم إذا بغى عليهم أحد انتصروا لأنفسهم، قوله:﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي العدوان، من أحد عليهم، ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتصرون لأنفسهم أي لا يظهرون مظهر الضعيف الذليل بل ينتصر لنفسه، والانتصار للنفس في مقام العز أمر مطلوب، أما في مقام التواضع فهذا شيء آخر يأتي إن شاء الله في المستقبل، يقول ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾المؤلف ـ رحمه الله ـ ذكر أن الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون صنفان: ولكن الصحيح أن هذا كله وصف لموصوف واحد، وليس هناك أصناف، وعليه فنقول: من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم ينتصرون لأنفسهم إذا

ظُلِمُوا، أي: ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه بدون عدوان، على أن قوله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لا يستلزم أن يأخذوا لأنفسهم بحقها، بل إذا انتصروا فلهم أن يعفوا، وإذا عفوا مع القدرة كان ذلك أكمل.

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية:** أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم لا يرضون بالظلم والانخناس عن الأخذ بحقهم، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

وهل من لازم الانتصار أن يقتص أو أن يكون له اليد العليا سواء بالقصاص أو بالعفو أو بغير هذا؟ الظاهر الثاني لأنه أعم؛ لأن من عفا عن قدرة وعزة فإنه لا شك منتصر، ومن أخذ بحقه فهو منتصر.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء لا ينتصرون لأنفسهم إلا إذا تحقق البغي عليهم، وأما مجرد التهمة فلا يعتبرونها، يؤخذ من قوله: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ فلو اتهموا أحدًا أنه ظلمهم فإنهم لا يتحركون، لكن إذا أصابهم البغي حينئذٍ ينتصرون.

٣- **من الفوائد ـ أيضًا ـ:** أنه يجب على من انتصر إذا أصابه البغي ألا يتجاوز الحد بالاستيفاء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]

❁ التفسير ❁

[قال: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة، وهذا ظاهر فيما يقتص فيه من الجراحات، قال بعضهم: وإذا قال له أخزاك الله فيجيبه أخزاك الله]، قوله: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذه في الحقيقة قاعدة أن للإنسان أن ينتقم لنفسه السيئة بمثلها لا يزيد؛ لأنه إن زاد فقد ظلم.

والزيادة في الانتصار للنفس قد تكون في الكمية وقد تكون في الكيفية وقد تكون في النوعية؛ فإذا انتصر لنفسه فضرب مَنْ ظلمه ثلاثًا وقد ظلمه باثنتين فهذا من باب الزيادة الكمية، وإذا ضرب من ضربه ضربًا خفيفا فانتصر لنفسه بضرب ثقيل هذا بالكيفية، وإذا ضرب من اعتدى

عليه بسوط ضعيف بسوط أكبر هذا بالنوعية.

المهم أنه لابد أن تكون المجازاة بمثل السيئة التي أُسيء إليه فيها ولا تزيد، فإن زاد فهو ظالم، ولهذا يقال: هذه بتلك والبادي أظلم، وقول المؤلف رحمه الله: [سميت الثانية سيئة لمشابهتها الأولى في الصورة] فيه نظر واضح، فالمقاصة سيئة لكن ليست سيئة بالنسبة للفاعل بل هي سيئة بالنسبة لمن اقتص منه، تسوؤه وتؤلمه وترد اعتباره إذا كان يرى أنه فوق صاحبه، فهي سيئة لا باعتبار الفاعل ولكن باعتبار المقتص منه، وأما قوله [لمشابهتها الأولى] فلا يمكن أن تطلق سيئة لمجرد المشابهة، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ إذن هذه قاعدة في جميع الاقتصاص، فلننظر إذا شق ثوبك فهل تشق ثوبه؟ ظاهر الآية نعم، لكن إذا كان ثوبك رديئًا يساوي عشرة وثوبه جيد يساوي مائة تشق ثوبه أو لا تشق؟ إذا شققته فنقص عُشْر قيمته كم يكون؟ ينقص العُشْر، مثلًا هذا الثوب يساوي عشرة ريالات شقه المعتدي بشق ينزل قيمته العشر، العشر كم من العشرة؟ واحد، ثوبه يساوي مائة فشققته بشق يساوي العشر، كم ينقص؟ عشرة، الآن أخذت عشرة مقابل واحد، فهل نقول العبرة بالمعنى فإنه لما شقَّ ثوبك أذلَّك، وأنت إذا اقتصصت منه وشققت ثوبه أذللته وهو البادي فنشق ثوبه ولو كان أغلى، أو نقول نشق ثوبه إن كان مماثلًا للأول أو مقاربًا له وإلا فلا؛ لأن هذا الذي ثوبه بعشرة ينكسر اعتباره كالذي ثوبه بمائة، والمقصود إذلال المعتدي وكسر اعتباره، وعلى هذا فنقول: مَنْ شَقَّ ثوبك فشق ثوبه، إذن وهل المعتبر المساحة أو المعتبر النسبة؟ يعني هذا إنسان ثوبه قصير شق ثوبه بمقدار شبر، الشبر هذا يساوي العُشْر مثلًا من ثوبه، والآخر طويل جدًا، هل يتساوى في النسبة مع ذاك؟ الجواب: ما يتساوى.

نسأل الآن: هل المعتبر المساحة أو النسبة؟ العدل أن يكون المعتبر النسبة، فإذا شق نصف هذا الثوب القصير مساحة ذراع، والطويل شقه بمساحة ذراع لكنه طويل طول الأول مرتين هل يكفي أو لا يكفي؟ لا يكفي نقول: شق إلى أن تبلغ النسبة إذا كان العشر فهذا العشر؛ لأن هذا هو العدل في الحقيقة؛ لأن المعتدي أفسد عشر ثوب المعتَدَى عليه، فلنفسد عشر ثوبه مع أنه هو المعتدِي وهذا ينطبق تمامًا على قول الله ـ تعالى ـ:﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ رجل مثلًا قال لشخص مع المغاضبة، قال له: أنت حمار، هل يقول له: أنت الحمار؟ لا، يقوله، لكن هل يقول أنت حمار وأبوك حمار؟ الجواب: لا، هذا عدوان لكن يقول: أنت حمار، إذن إذا قال له: لعنك الله، هل يقول له: بل لعنك أنت؟ له أن يقول هذا ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ولذلك إذا لعن الإنسان شخصًا لم يكن أهلًا له أين تذهب اللعنة؟ ترجع إلى الأول، فيعاقب بمثل ما فعل، اسمع لكلام المؤلف: [وهذا ظاهر فيما يقتص فيه من الجراحات].

الذي يقتص فيه من الجراحات: كل عضو قائم بنفسه، وكل جرح ينتهي إلى عظم هذا فيه القصاص، كل عضو قائم بنفسه مثل العين والإصبع وما أشبه ذلك هذا يقتص، رجل قطع

خنصرك تُقطع خنصره، أو جرح ينتهي إلى عظم: جرحه في رأسه حتى بان عظم رأسه يقتص منه، جرحه في ساقه حتى بان العظم يقتص حتى لو كانت طبقة اللحم التي على العظم في الجاني أغلظ يقتص حتى يصل إلى العظم، وإذا كان الجرح لا يصل إلى العظم مثل أن جرحه في فخذه جرحًا لم ينته إلى العظم، هل يقتص منه؟ يقول الفقهاء: إنه لا يقتص منه وذلك لعدم انضباط القصاص، ما ينضبط إلا إذا وصل للعظم، ولكن نظرًا لتقدم الطب نقول: إذا أمكن أن يقتص منه اقتص منه، إذن إذا قطع يده من نصف الذراع يقتص منه أو لا؟ الفقهاء يقولون: يقتص منه لعدم الانضباط، لكن إذا كان من المفصل كما لو قطع كفه من مفصلها يقتص منه، والصحيح أنه في الصورة الأولى إذا قطع يده من نصف الذراع أنه إذا أمكن القصاص فإنه يقتص منه، وفي عصرنا الآن يمكن على الشعرة أو أدنى من الشعرة، فإذا كان لا يمكن وقال المجني عليه: اقطعوا يده وأنا أعفو عما قطع من الذراع، المجني عليه قال اقطعوا كف الجاني والزائد أعفو عنه، هل يقتص منه أو لا؟ الصحيح أنه يقتص منه، تقطع كف الجاني، وإذا أسقط الزائد أعني ـ المجني عليه ـ سقط، إذن فإن قال المجني عليه: أنا أريد أن تقصوا كفه وآخذ أرش الزائد؟ نعم له ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وهنا يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ وهذا ظاهر فيما يقتص به من الجراحات، ما هو الذي يقتص به من الجراحات؟ كل عضو مستقل أو جرح ينتهي إلى عظم، والباقي فيه خلاف.

قال بعض العلماء: وإذا قال له أخزاك الله، فيجيبه أخزاك الله، لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ إذا قال: لعن الله أباك، ماذا تقول؟ تقول لعن الله أباك؟ لا، قال النبي ﷺ: "لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْه" قالوا: يا رسول الله وهل يلعن الرجل والديه؟ قال: "نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ" نقول: إن قول الرسول ﷺ لبيان الواقع لا لبيان الحكم الشرعي، يعني أنه جرت العادة في المسابة بين الناس أن الرجل إذا سَبَّ أبا الرجل سَبَّ أباه، وهذا شيء تعرفونه وإن لم تعرفوه فاعرفوه، انزل الأسواق وانظر المسابة بين الناس إذا سَبَّ أباه سب أباه، فيكون قول الرسول ﷺ بيانًا للواقع، وبيان الواقع لا يعطي الجواز شرعًا، والدليل على أن بيان الواقع لا يعطي الجواز: قول النبي ـ ﷺ ـ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى" هل لنا أن نتبع اليهود والنصارى؟ لا، ولكن هذا لبيان الواقع، كذلك ـ أيضًا ـ أخبر أن المرأة تسافر من كذا إلى كذا وحدها هذا لبيان الواقع ليس لبيان الحكم الشرعي، إذا قال لك قائل: ما هو الذي حملك على أن تجعل قوله: "يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ" أن هذا لبيان الواقع لا لبيان الحكم الشرعي؟ أقول: الذي حملني على هذا أنه لا يجوز العدوان على أحد لم يقع منه عدوان، هذا ظلم، كيف أسبُّ أباه هذا ظلم لا شك؟! والظلم لا يأذن به الشرع، لكن لو قال قائل: " إنه إذا لعن والديه فلا تطيب نفس الذي لُعن والداه إلا إذا لعن والديّ مَنْ سَبَّه لأن لعْن

الوالديْنِ إذلال للولد، وهو يريد أن يطيب نفسه، يقول: الحمد لله، ليس هناك ضرورة، إذا لعن والديك العنه هو، وهذا أشد في الإذلال، فالحاصل أنه إذا دعا على أبيك وأمك لا تدعو على أبيه وأمه؛ لأنه لا ذنب لهما، والحديث عرفتم الجواب عنه، أنه بيان للواقع لا للحكم الشرعي، ولكن لك أن تحول السب واللعن إلى نفس الفاعل لا إلى والديْهِ.

سائل يسأل يقول: هل القاتل يقتل بمثل ما قتل به أو يقتل بالسيف؟ الجواب: يقتل بمثل ما قتل به؛ لأن النبي ﷺ رَضَّ رأس اليهودي بين حجريْنِ؛ لأنه رضَّ رأس الجارية بين حجريْنِ، وقال-عزَّوجلَّ-: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لكن استثنى العلماء ما لم تكن الوسيلة محرمة لذاتها فلا يقتص منه، قالوا: فلو تلوَّطَ رجل بطفل صغير وهو يعرف أن هذا الفعل يقتله ثم مات الطفل من أجل هذا، فهل نقيم رجلًا يتلوط بهذا؟ لا، ما نفعل، قال بعض العلماء: ما نفعل هذا؛ لأن اللواط محرم لذاته لكن ندخل خشبة في دبره حتى يموت، هذا له وجهة نظر، لكن عندي أن فيه نظرًا وذلك؛ لأن الخشبة أشد ألمًا من اللواط، فلا يمكن القصاص.

قال الله-تبارك وتعالى-: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ علي أي شيء حمل المؤلف السيئة الثانية؟ على مشابهة الأولى في اللفظ عن طريق المشاكلة، فهل كلامه صحيح أو لا؟ غير صحيح كيف ذلك؟ لأن المقتص منه إذا اقتص منه يسؤوه؛ إذن هي سيئة بالنسبة لمن؟ بالنسبة للمقتص منه، وإبقاء اللفظ على ظاهره خير من تحريفه بدون دليل، قال الله-تعالى-: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (مَنْ) هذه شرطية، فعل الشرط (عفا) والمعطوف عليه، جملة ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي جواب الشرط.

يقول الله ــ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ أي لم يؤاخذ بالذنب، يعني عمن ظلمه، وأصلح: يقول: [الود بينه وبين المعفو عنه] فأجره على الله، [أي إن الله يأجره لا محالة]، قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ قال المؤلف: [عن ظالمه] وهذا واضح والعفو عنه يعني عدم مؤاخذته، وأصلح: يقول [الود بينه وبين ظالمه] وهذا تفسير قاصر جدًا، بل المراد: أصلح في عفوه، أي صار عفوه مشتملًا على الإصلاح، وإنما قلنا ذلك؛ لأن ما ذكرناه أعم وأنفع بالنسبة للمعنى، إذن [أصلح] المؤلف يراها قاصرة على إصلاح الود بينه وبين مَنْ ظلمه، والصواب أن المراد: أصلح في عفوه، أي كان عفوه إصلاحًا ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقول المؤلف: [أي أن الله يأجره لا محالة] أجر: بمعنى: الثواب، وسمى الله-سبحانه-الثواب أجرًا؛ لأنه في مقابل عمل، كأجرة الأجير إذا قام بعمله، وفيه-أيضًا-إيماءٌ إلى أن هذا الثواب واجب كما يجب إعطاء الأجير أجره، وقول المؤلف: [أي فإن الله يأجره لا محالة] أخذ هذا المعنى أعني قوله: [لا محالة] من الجملة اسمية؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب أن تكون المقاصة على وجه العدل فتكون جزاء السيئة سيئة مثلها، فلا يجوز أن يعتدي في القصاص لا القولي ولا الفعلي، ولننظر: لو أن رجلًا سبك بوصفين وسببته بثلاثة أوصاف ما تقول؟ يجوز أو لا يجوز؟ لا يجوز؛ لأن الله قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ إذن لو أن رجلًا قطع يد إنسان وطلب القصاص، فقال الجاني: أنا أريد أن أضع بنجًا في يدي حتى لا أحس بالألم، وقال المجني عليه: لا، أيهما نأخذ بقوله قول المجني عليه؛ لأن الجاني أتى مفسدَتيْنِ الإيلام وفقد العضو، فلا تتم المقاصة إلا إذا حصل هذان الأمران بالنسبة للجاني، ولو أن سارقًا حكم عليه بقطع اليد وطلب أن تبنج يده، هل يجوز هذا أو لا؟ يجوز؛ لأن المقصود بالنسبة للسارق المقصود إعدام اليد المتعدية، وهو حاصل وليس هناك قصاص حتى نقول: لابد أن يكون المثل بالمثل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد المقاصة بالعدل لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فأكد ذلك بقوله: ﴿مِّثۡلُهَا﴾ لو أراد المجني عليه أن يأخذ بعض حقه، يجوز أم لا يجوز؟ الآية تقول ﴿مِّثۡلُهَا﴾ يعني معناه إذا أردنا العدل فهذا هو، وإذا عفا الإنسان عن حقه الخاص به فلا بأس، كما أنه لو عفا مطلقًا فلا حرج عليه.

٣- **ومن فوائدها:** الحث على العفو إذا كان إصلاحًا، فإن لم يكن إصلاحًا فالأخذ بالحزم أولى، دليل هذا أن الله قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾.

يتفرع على هذا مسألة مهمة: لو أن الجاني معروف بالشر والفساد فاعتدى على شخص هل نقول: الأفضل أن يعفو عنه؟ الجواب: لا، بل نشترط أن يكون ذلك إصلاحًا، هذا الرجل الشرير المعروف بالشر إذا جنى على شخص هل نقول للشخص المجني عليه اعفُ عنه فأجرك على الله؟ لا نقول هذا؛ لأننا لو عفونا عن هذا الرجل الشرير في هذه القضية المعينة، فَعَلَ مثلها أو أشد بعد ذلك، لأنه أخذ على العفو، فكان يؤمل أن يُعف عنه في كل فعل، فإذا كان الجاني شريرًا معروفًا بالفساد فجنى على شخص، فهل نقول: الأفضل أن تعفو عنه أو تأخذ بحق؟ ذكرنا أن الأفضل في هذه الحال أن تأخذ بحقك؛ لأن هذا الرجل الشرير المجبول على الشر إذا عفوت عنه الآن ذهب يفعل ما هو أشد في اليوم الثاني، يجب أن نعلم أن قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ هذه الآية المطلقة تقيد بهذه الآية، بل كل نص فيه الحث على العفو فإنه مقيد بهذه الآية، إذن لابد أن يكون العفو إصلاحًا، إذن لو أن أحدًا صدم شخصًا وهو يقود السيارة فمات، فهل الأفضل لأولياء المقتول أن يعفوا عن الصادم أو أن يأخذوا بالدية؟ فيه تفصيل: وهو إن كان هذا الرجل معروفًا بالتهور، وعدم المبالاة وكما يقول بعض السفهاء: (الدية في الطبلون)، فهذا لا

ينبغي أن يُعفى عنه، وأما إذا كان رجلًا ذو مروءة ونعلم أن هذا أمر حصل منه كما يقول العوام من : (فوات الحرص)، فإن الأفضل أن يعفى عنه، وهذه الآية هي ميزان العفو المحمود وغير المحمود.

٣- **ومن فوائد الآية:** تفضل الله ـ تعالى ـ على عباده حيث أوجب على نفسه أجر العافي، مِنْ أين يُؤخذ؟ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ضمن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذا العافي الأجر لكن بشرط أن يكون ذلك إصلاحًا، قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي البادئين بالظلم فيترتب عليهم عقابه، قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾ الضمير يعود على الله ـ جل وعلا ـ وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المعتدين سواء ظلموا أنفسهم أو ظلموا غيرهم، فصاحب المعاصي غير محبوب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمعتدي على عباد الله غير محبوب لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي البادئين بالظلم] فيه نظر، الآية عامة تشمل الظالمين ابتداءً، والظالمين في الثاني، بمعنى: أن المبتدأ بالظلم غير محبوب عندالله، وكذلك مَنْ تجاوز في حقه فإنه غير محبوب إلى الله، فإبقاء الآية على إطلاقها أولى، أي: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ابتداءً ولا اقتصاصًا، بعض العلماء أخذ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ أن الإنسان لو جحد لك مالًا فلك أن تأخذ من ماله بمقدار ما جحد بدون علمه، نقول: نعم، هذا ظاهر الآية أنه إذا أخذ من مالك وقدرت على استرداده من ماله فلك هذا، ولكن قال النبي ـ ﷺ ـ: "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" ولو فتح هذا الباب لكانت الأمور فوضى، كل واحد يأخذ من مال الثاني ويقول: قد جحد لي مالي، فلا يستقيم هذا عمليًا، وأما قضية هند بنت عُتبة رضي الله عنها فإن السبب فيها ظاهر، كل الناس يعرفون أن هذه زوجته، وأنه يجب عليه أن ينفق عليها، فإذا أخذتْ مِنْ ماله بغير علمه، وقالت: إنه لا ينفق عَلَيَّ، لم يقل الناس شيئًا؛ لأن السبب ظاهر، ومثلها لو نزل الضيف على أحد ولم يقدم له الضيافة وقدر على أن يأخذ شيئًا من ماله بقدر ضيافته فله ذلك؛ لأن السبب ظاهر، وبهذا يتم الجمع بين الأدلة.

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

التفسير

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلَمَنِ﴾ لام الابتداء، ومَنْ: اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿ٱنتَصَرَ﴾ وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ أي: أخذ بحق نفسه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: [ظلم الظالم إياه]، هنا نسأل: ظلْم هنا مصدر، هل هو مضاف إلى الفاعل أو إلى المفعول به؟ كلام المؤلف يدل على أنه مضاف إلى المفعول به، أي: ظلم الظالم إياه، وعلى هذا فالمصدر مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، ولا يصح أن يكون مضافًا إلى فاعله؛ لأنه لو كان كذلك لكان المعنى: (ولمن انتصر بعد أن يظلم الناس فأولئك ما عليهم من سبيل)، والظالم غير مُعْتَدَىً عليه حتى ينتصر لنفسه، إذن فالمصدر مضاف إلى المفعول، ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وقد سبق أن الله ـ تعالى ـ مدح الذين إذا أصابهم البغي انتصروا لأنفسهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ قال [مؤاخذة] وأصل السبيل: الطريق، أي ليس عليهم طريق للوم والمؤاخذة، قوله: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ (مِنْ): حرف جر زائد، (سبيل): مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والمعنى: (فأولئك ما عليهم سبيل)، إذا قال قائل: ما هي فائدة حروف الجر الزائدة؟ فالجواب: أن فائدتها التأكيد، يعني تأكيد النفي.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات محبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذوي العدل والقسط، من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفهومه أن غير الظالم يحبه الله.

٢- **ومن فوائدها:** ثبوت صفة المحبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذه المسألة بحث عقدي، وجه الدلالة: أنه لما نفى محبته للظالمين دلّ ذلك على أنه يحب العادلين ذوي القسط، وهذا الاستدلال يشابه استدلال الشافعي ـ رحمه الله ـ على أن المؤمنين يرون الله بقوله ـ تعالى ـ في الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفّفين:١٥] فقال: لو كان محتجبًا عن الجميع فلا فائدة للنفي.

٣- **ومن فوائدها:** التحذير من الظلم، ووجهه: أن في الظلم انتفاء محبة الله للعبد، وما أعظم الخسارة فيمن خسر محبة الله له، ـ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحَبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ ـ.

٤- **ومن فوائدها:** أن من انتصر لنفسه بعد أن يُظْلَم فلا اعتراض عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن انتفاء السبيل عمن انتصر لنفسه مشروط بتحقق الظلم؛ لقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ فأما الأخذ بالتهم فلا يجوز، لابد أن تتحقق أنك مظلوم حتى تنتصر لنفسك.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢]

التفسير

قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ﴾ قال المفسر: [يعملون] ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [بالمعاصي] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [مؤلم] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ هذه الجملة فيها أداة حصر وهي: إنما، والحصر: إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فكأنه قال: لا سبيل إلا على هؤلاء، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ يعني: الطريق إلى اللوم والقدح والمؤاخذة على الذين يظلمون الناس سواء بأموالهم أو دمائهم أو أعراضهم، فإن النبي ﷺ أعلن في حجة الوداع فقال: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ" فظلم الناس يدور حول هذه الأشياء الثلاثة: الدماء، والأموال، والأعراض، فمن اغتاب أحدًا فقد ظلمه، ومن أخذ ماله فقد ظلمه، ومن خانه في معاملة بينه وبينه فقد ظلمه، وهذه لا حصر لأمثلتها، المهم أن الذين يظلمون الناس عليهم اللوم، وقوله: ﴿وَيَبْغُونَ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [يعملون] وكأنه تحاشى أن يجمع بين البغي وبين قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فقال: [يعملون] من أجل أن يكون الفعل ﴿وَيَبْغُونَ﴾ له معنى مستقل و﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ له معنى مستقل، والصواب هو إبقاء الآية على ظاهرها، ومعنى يبغون: أي يعتدون، من (بَغَى على غيره): أي اعتدى عليه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ فقوله ﴿وَيَبْغُونَ﴾ معناها: يعتدون على غيرهم ويتجاوزون حدَّهم في معاملتهم، ويكون قوله بغير الحق صفة كاشفة تبين أن كل بغي فهو بغير حق، فإبقاء النص القرآني على ظاهره هو الواجب، لاسيما أن هذا التفسير يجعله قاصرًا، ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يعتدون فيها ويتجاوزون الحدَّ.

قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيان للواقع فهو صفة كاشفة، إذ أن كل بغي فهو بغير حق، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فسرها بأنها: [المعاصي]، ونعم، المعاصي كلها بغير الحق، لكن لا تفهم من هذا أن ذلك خاص بحق الله، بل هو عام في حق الله وغيره، فالبغي في حق الله محرم، وكذلك في حق الآدمي، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك: المشار إليهم وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم، والإيلام: بمعنى: الإيجاع، أي: أنه مُوجِعٌ.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن مَنْ ظلَم الناس فإنه مؤاخذ، وجهه: أنه حصر المؤاخذة بِمَنْ

ظلم الناس وبغى في الأرض بغير الحق.

٢- **ومن فوائدها:** أن البغي ظلم لا حق فيه، لقوله: ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

٣- **ومن فوائدها:** تهديد أولئك الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق بالعذاب الأليم، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء عظيم، لأنه أتى به بالجملة الاسمية على هذه الصيغة المعينة﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

التفسير

[قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ فلم ينتصر]،﴿وَغَفَرَ﴾ [تجاوز] يعني عن الجاني،﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [الصبر والتجاوز] ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: [معزوماتها بمعنى: المطلوبات شرعًا] ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾اللام هذه لام الابتداء وتفيد التوكيد، ومَنْ: اسم شرط جازم، وفعل الشرط: ﴿صَبَرَ﴾ وجواب الشرط:﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مَنْ: شرطية، فعل الشرط: صبر وما عطف عليه، جواب الشرط:﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وهنا إشكال: وهو أنه إذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب اقتران الجواب بالفاء، كالآية التي قبلها،﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وهنا حذفت الفاء، الإشكال هنا كيف حذفت الفاء في جواب الشرط وهو جملة اسمية؟ الجواب: أن الفاء قد تحذف وإن كانت جملة جواب الشرط اسمية، وأنشدوا على هذا قول الشاعر:

مَنْ يَفعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

مَنْ يفعل الحسنات: هذه شرطية، فعل الشرط: يفعل، جواب الشرط: الله يشكرها، وليس فيها فاء، فقالوا: إنه يجوز أحيانًا حذف الفاء واستدلوا بالآية واستدلوا بالبيت، قال بعضهم في الإعراب في الآية: حذف الفاء يدل على أن (مَنْ) ليست شرطية، وإنما هي اسم موصول، وعليه يكون المعنى: (ولَلَّذِي صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور)، والحقيقة أن الإعراب الأول والثاني جائز، لكن كوننا نجعل (مَنْ) اسم شرط كالآية التي قبلها أولى من حيث تلائم السياق بعضه مع بعض، ويكون الإشكال في حذف الفاء في الجواب، وجوابها أنها قد تحذف أحيانًا، قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ أي (مَنْ صبر على ظلم الظالم إياه)، وإن شئت فقل: إنها عامة تشمل كل

مَنْ صبر على أذية، مِنْ مرض أو سفر أو ما أشبه ذلك، ولكن العموم قد يمنع القول به قوله ﴿وَغَفَرَ﴾ فإن ظاهر هذا السياق أن المراد صبر عن مؤاخذة الظالم، ﴿وَغَفَرَ﴾أي ستر ما حصل عليه من ظلم.

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: معزوماتها، أي: لدليل على أن الرجل من ذوي العزم؛ لأنه تحمل فصبر، وعفا فغفر.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** الحث على الصبر والمغفرة؛ لقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ولكن يجب أن تلاحظوا الآية السابقة أن يكون في ذلك إصلاح.

٢- **ومن فوائدها:** أن الأمور تختلف في وما دونها؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ولا شك أنها تختلف، فأن بعضها يكون المقدم عليه ذا عزيمة صادقة ومروءة تامة، وبعضها دون هذا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٤ - ٤٥]

التفسير

قال - الله تعالى -: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (مَنْ) هذه شرطية وهي للعموم، يعني: أي أحدٍ يقدر - الله تعالى - أن يضل فإنه لا يمكن أن يتولاه أحد بعد الله، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يهديه أحد، كما قال - تعالى - في آية أخرى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يقول المفسر: [أيْ أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه]، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] ﴿وَتَرَى﴾: بصرية و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به، و﴿يَقُولُونَ﴾: جملة حالية،

و﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لما: جازمة بمعنى حين، ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ والمراد بالظالمين: الكافرون، كما قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي حين رأوا العذاب بأعينهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هذا الاستفهام للتمني، يعني: يتمنون أن يكون لهم سبيل إلى الرد، وقوله: ﴿إِلَى مَرَدٍّ﴾ أي إلى مرجع، والمراد مرجع للدنيا ليعملوا صالحاً، ولكن هذا التمني باء بالفشل؛ لأن ذلك أمر غير ممكن، بل قد قال الله - عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ﴾ فهم يتمنون هذا ويدعون أنهم إذا رجعوا صلحوا، ولكن الأمر ليس بذلك، ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ قال [أي من طريق] والجواب: لا سبيل، وكما سمعتم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ كما أنهم إذا غشيهم موج كالظلل في البحار دعوا الله مخلصين له الدين إذا نجوا عادوا إلى الشرك، قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ كلمة (ترى) هنا والتي قبلها هل المراد بها الرسول ﷺ وحده، أو ترى أيها المخاطب؟ الثاني، لأننا إذا قلنا بالثاني صار أعم مما إذا قلنا بالأول، ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ﴾ [خائفين متواضعين] ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ مِنْ: للسببية، أي: بسبب ذلهم، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا مستكبرين متعنجهين لا يرون الناس شيئاً ولا يقبلون الحق، يُعرَضون على النار على هذا الوصف ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ يعني: قد امتلأت قلوبهم ذلاً ينظرون [إليها] من طرف خفي [ضعيف النظر مسارقة]، يعني: ينظر إلى النار - والعياذ بالله - من طرف أي: من بصر خفي أي: ضعيف يسارقون النظر كالإنسان الذي هو خائف من شيء تجده ينظر إليه نظراً ضعيفاً ثم يصرف النظر، وذلك لشدة ذلهم، أعاذنا الله وإياكم من حالهم، [ومن ابتدائية أو بمعنى الباء]، من في قوله: ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾ ابتدائية أو بمعنى الباء أي: ينظرون بطرف خفيّ، وإذا دار الأمر بين أن تكون ابتدائية على بابها أو بمعنى الباء فالأولى أن تجعل على بابها، يعني: يبتدأ نظرهم من الطرف الخفي، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قالوا مُثْنِينَ على الله - عزَّ وجلَّ - متحدثين بنعمه: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿إِنَّ﴾: تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها: ﴿الْخَاسِرِينَ﴾، وخبرها: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فقدوها، فقدوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة [بتخليدهم في النار وعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة]، الخاسرون حقيقة ليسوا الذين فقدوا المال ولا الذين فقدوا الأهل في الدنيا، الخاسرون حقيقة هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، أما خسران أهليهم فظاهر؛ لأنه لا يجمع بينهم وبين أهليهم في النار، بخلاف أهل الجنة فإن أهل الجنة يقول الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، حتى لو كانت الذرية نازلة المرتبة فإن الله يرفعهم إلى آباءهم في الجنة، وهؤلاء - والعياذ بالله - يفرق بينهم وبين أهليهم في النار حتى لو جمع بينهم فماذا يكون؟ فخسرانهم أهليهم واضح، لكن كيف خسروا أنفسهم؟ خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من الحياة الدنيا شيئاً، حياتهم خسارة؛ لأنهم لم يستفيدوا منها شيئاً فلم

يؤمنوا بالله ورسله، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بتخليدهم في النار وعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا] في هذا نظر ظاهر، والمراد بأهليهم أهلوهم في الدنيا، وليس المراد الحور المعدة لهم لو آمنوا؛ لأن هذا قد علم من قبل، فإنه يقال: للميت إذا دفن في قبره: هذا مقعدك من الجنة يعني: لو آمنت، ويقال للمؤمن: هذا مقعدك من النار، يعني: لو لم تؤمن، فالمراد بالأهلين هنا مَنْ؟ أهليهم في الدنيا، لم يربحوا، وقول المؤلف رحمه الله [والموصول خبر إن] أين الموصول؟ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا هو الموصول، ونبه على ذلك لئلا يظن الظان أن الذين خسروا صفة للخاسرين، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول المفسر: [الكافرين] ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [دائم] وهو من مقول الله ـ تبارك وتعالى ـ، يعني: ليس من مقول الذين آمنوا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ لو نظرنا إلى السياق لقلنا إن هذا بقية كلام المؤمنين، لكن المؤلف نبه على أن هذا من كلام الله، وليس من كلام الذين آمنوا، والسياق محتمل لهذا وهذا، محتمل أن يكون كما قال المفسر: من كلام الله ومحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا، والذين آمنوا يعلمون أن الظالمين في عذاب مقيم من الوقت الذي هم فيه في الدنيا؛ لأنهم قرأوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكِّدَيْنِ: الأول: (ألا)؛ لأن (ألا) هنا للتنبيه، والتنبيه يقتضي التوكيد، والمؤكد الثاني: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن (إن): حرف توكيد، ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ أي دائم والعياذ بالله.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد:

١- **منها:** أن من أضله الله فلا أحد يهديه مهما كانت منزلة هذا الذي حاول أن يهديه؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ ويشهد لهذا الحكم العظيم المخوف، ما جرى للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب، أبو طالب شقيق أبي الرسول ﷺ، كان ينصر الرسول ﷺ ويحوطه ويدافع عنه، ولما حضرته الوفاة كان عنده النبي ﷺ ورجلان من قريش، فكان يعرض عليه الإسلام يقول: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال له الرجلان: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وهي ملة الكفر والشرك، فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد فكان آخر ما قال هو على ملّة عبد المطلب ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ، مع محبته للرسول ﷺ، وشهادته له بالرسالة لكنه لم يذعن ولم يقبل فكان آخر حياته أن قال: على ملّة عبد المطلب، ومات على الشرك، أَذِنَ الله تعالى لرسوله ﷺ أن يشفع له في تخفيف العذاب عنه فشفع له، فكان في ضحضاح من نار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه ـ والعياذ بالله ـ دماغه أعلى شيء في بدنه والنعلان في أسفل شيء، وإذا كان الأعلى يغلي فما دونه أشد وأشد، قال النبي ﷺ: "وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" لولا أنا

شفعت، أو لولا أنا في رسالتي التي كان يدافع عنها أبو طالب؟ الظاهر أنها للأمرين جميعاً؛ لأن الله شكر له، وأذن لرسوله ﷺ أن يشفع فيه لما قدمه للإسلام من نصر، ويؤخذ منه أن من نصر الإسلام ولو من الكافرين فله فضل؛ لأن الإسلام دين العدل يعطي كل ذي حق حقه، فمثلًا إذا أعان الكفارُ المسلمينَ إعانة صادقة نعلم أنهم ليس لهم طمع في ذلك، وانتفع المسلمون بهذا النصر فإنه يجب أن نعترف بفضلهم في هذا الباب؛ لأنهم صنعوا إلينا معروفاً ولأن الدين الإسلامي دين العدل لا يظلم أحداً حقه، وأما قول بعض الناس: لن نعترف لهم بالفضل لأنهم كفار، فكفرهم بينهم وبين الله وتفضلهم علينا حق يجب أن نعترف به، أضرب مثلاً لذلك في قضية كوسوفا، (قضية كوسوفا) حصل فيها ما سمعه كثير منكم، ومن الذي انتصر لهم؟ الكفار انتصروا لهم، الحلف الأطلسي وضع كل ما يملك من معدات يمكنه أن يقاتل بها ودافع عنهم، ولم نسمع أحداً من المسلمين أرسل طائرة أو قذيفة، ولعل لها عذراً وأنت تلوم، لكن كوننا نجحد هذا الفضل غلط، نقول: هؤلاء لهم فضل، وكفرهم بينهم وبين الله، ونحن لا نحبهم على كفرهم أبداً، بل نشكر لهم الفضل وإن كنا نكرههم غاية الكراهة؛ لأنهم أعداء الله ورسوله، هذا إذا علمنا أن النية صادقة، أما إذا علمنا أنه مكر وخديعة علماً يقينياً فهنا نذمهم على ما فعلوا ولا نمدحهم ولا نعترف لهم بالفضل؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مَنْ هداه الله فقد تولاه؛ لأنه لما نفى الولاية عن الظالمين فإنها تثبت للمؤمنين، ولهذا جاء التصريح في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان أن يلح على الله دائماً أن يهديه من الضلال؛ لأنه إذا كان المرجع في الإضلال إلى الله، فإلى من نلتجئ؟ إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ما دام الإضلال والهداية بيد الله فلنرجع إليه.

٤- **ومن فوائدها:** تحسر وذل الظالمين إذا رأوا العذاب، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن﴾ تحسرهم بقولهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ لأن هذا تمني.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة التي بعدها:** أن هؤلاء الظالمين يعرضون على النار على أكمل ذل وأخزى حال، ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي ذليلين خائفين من الذل.

٦- **ومن فوائدها:** أن المستكبرين على الحق المعاندين يجازون بعقاب يناسب معصيتهم، وجه ذلك أنهم يعرضون على النار خاشعين ذليلين، ومعلوم أن العقوبة بالذل مناسبة للمعصية بالاستكبار.

٧- **ومن فوائدها:** أن الظالمين يلحقهم الذل ظاهراً وباطناً، الباطن في قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ من الذل، والظاهر في قوله ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** تحدث الذين آمنوا بنعم الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكأنهم يثنون على الله - عزَّ وجلَّ - بكونهم ربحوا دنياهم وأخراهم.

٩- **ومن فوائدها:** أن العاصي قد خسر نفسه وعلى حسب معصيته تكون الخسارة؛ لأنه لم يستفد من وجوده في الدنيا شيئًا، ويتفرع على هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يحاسب نفسه وينظر ماذا صنع؟ فإن رأى أنه قد ملأ زمانه من الخير المقصود والوسيلة فليحمد الله، وإن رأى أنه أضاعه، فليستعتب، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ولنضرب لهذا مثلاً رجل قام يصلي ويقرأ القرآن لمدة ساعة وآخر يلعب هذه المدة، مَنِ الرابح؟ الأول هو الرابح؛ لأنه ملأ هذا الفراغ عبادة، والثاني خاسر ضائع، حتى إن بعض أهل العلم قال: إنه يحرم عليه ألَّا يشغل الزمن بالطاعة؛ لأنه كالذي عنده مال فلم ينفقه في سبيل الله، لكن الصحيح أنه إذا لم يأمره بالمعصية، فلا له ولا عليه، إلا أنه يعتبر خاسراً بالنسبة لمن شغله بطاعة الله، وأنت فَكِّرْ في هذا عندما تقوم تصلي، قل لنفسك: إن عمرك هو هذا الزمن الذي أمضيته في طاعة الله، عود نفسك على هذا، من أجل أن تحرص على أن تعمر زمانك بطاعة الله.

١٠- **ومن فوائدها:** أن عذاب الكافرين دائم؛ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** تأكيد هذه العقوبة لئلا يقول قائل: إن العذاب قد ينقطع، قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من: شرطية، والفعل مجزوم بها: أي بفعل الشرط وعلامة جزمه السكون وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين، لماذا اقترن الجواب بالفاء؟ لأنه مقترن بها، وقد أخبر الله - عزَّ وجلَّ - أن الكفار يدعون إلى نار جهنم دعا يقذفون فيها، كيف نجمع بينه وبين قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يعرضون عليها قبل أن يدخلوها، والكفار لا يحاولون الصعود على الصراط لأنهم يصرفون إلى جهنم في عرصات القيامة.

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾ [أي غيره يدفع عقابه عنهم]، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم ﴾ أي الظالمين، ﴿مِّنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ من: زائدة إعراباً وهي للتوكيد، ﴿أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ يعني: ليس لهم مَنْ يتولاهم وينصرهم من دون الله، أي من عذابه، و(دون) هنا بمعنى غير، كما فسرها المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يدفع عذاب الله عمن أراد الله أن يعذبهم، أبداً ولا ينصره منه، في الدنيا لو أراد ظالم أن يظلم أحداً أمكن أن ندفعه، لكن عقوبة الله لا يمكن أحد أن يدفعها، قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ من يضلل الله: جملة شرطية وهي كما سبق جوابها مقرون بالفاء؛ لأنه اتصل بها، ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [أي طريق إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة]، بل يكون أعمى ـ والعياذ بالله ـ ليس له سبيل إلى الحق، ولذلك تجد الذين قضى الله بإضلالهم يقدم لهم الحق كالشمس في رابعة النهار، ولكن لا يفهمونه قد حيل بينهم وبينه، واسمع لقول الله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ كَلَّا﴾ يعني: ليست أساطير الأولين ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الذنوب جعلته يرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، تتلى عليه آيات الله كالقرآن أو التوراة حين لم تنسخ ولكنه يقول هذه أساطير الأولين، قد حيل بينه وبين فهمها، ولذلك كلما رأيت قلبك مطمئناً بالقرآن محباً له متدبراً له فاعلم أنه نقي من الذنوب، وكلما وجدت الأمر بالعكس فطهر القلب.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظالمين لا أحد ينصرهم من دون الله؛ لأنهم استحقوا العذاب، ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإضلال بيد الله وأن من أضله الله لا يمكن أن يرجع إلى الحق، لقوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾.

٣- **ومنها:** أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى الله دائماً ويسأل الله الهداية، وها هو النبي ﷺ يسأل ربه أن يهديه أول ما يدعو في صلاة الليل يدعو بالاستفتاح المشهور: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك فكيف بنا؟! المهم أنه يؤخذ من الآية أن يرجع الإنسان في طلب الهداية إلى الله تعالى وحده وأن يعيذه من الضلال.

مسألة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥] هل يدل على انتفاء وجود غيرهم واختصاصهم بهذا المكان في النار؟

الجواب: لا ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لا تدل على أن غيرهم لا يكونون فيها، كما لو قلت مثلاً: فلان في بيت فلان، هل ينافي أن يكون أحد في هذا البيت؟ لا ينافي.

أقول نسبة الشيء إلى سببه إذا كان سببًا صحيحًا لا بأس به، فمثلاً لو أن رجلاً سقط في البحر فقام آخر فأنقذه يجوز أن نقول: لولا فلان لغرقتَ؛ لأنه نسبة إلى سبب معلوم، لكن لو قال ذلك وهو مدفون في قبره لا يجوز، هل هذا سبب معلوم؟! إنسان غرق في الماء وقال لولا الولي فلان سيدي لغرقت يصح أو لا يصح؟ لا يصح، لأنه شرك، خذ قاعدة: نسبة الشيء إلى سببه المعلوم يجوز، لكن لا يقرن مع الله بالواو، فإن قرن مع الله بالواو صار حراماً، مثل أن يقول: لولا الله وفلان لغرقت، هذا ما يجوز، فنذكر لك السؤال إذا قال: لولا الله قيض لي فلاناً لغرقت، ما تقول؟ هذا يصح، وهو أعلى الأنواع؛ لأنه ذكر المسبِّب والسبب، إذا قال: لولا فلان لغرقت، هذا جائز لأنه أضافه إلى سبب معلوم صحيح، إذا قال: لولا الله وفلان لغرقت، هذا لا يجوز؛ لأنه شرك بين الله وغيره بحرف يقتضي التسوية، إذا قال: لولا الله ثم فلان لغرقت، يجوز، إذا قال: لولا الله ففلان لغرقت، ففلان مثل الواو؟ هل (الفاء) مثل (الواو)؟ (الفاء) تقتضي الترتيب لكنها في الواقع في منزلة بين منزلتين، ليست كـ (ثُمَّ) لأن ثم تدل على الترتيب والتراخي، وليست كالواو لأن الواو تقتضي التسوية، فهي في منزلة بين المنزلتين، فهل نقول إنها كثم لأنها دالة على الترتيب أو إنها كالواو لأن ترتيبها يقتضي التعقيب؟ الأول هو الصواب، يعني: لولا الله ففلان لأنك جعلت فلانا بعد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكونه متراخياً أو متعاقباً هذا شيء آخر.

مسألة: إن ما نقل عن ابن عباس أنه كان يقول قول القائل: (لولا الركبان لغرقت السفينة) هل يُعد هذا من الشرك الأصغر؟ فما وجهه؟

الجواب: وجهه أمران: أولًا: الحديث رواه ابن أبي حاتم فيحتاج إلى تصحيح، ثانيًا: أن ابن عباس رضي الله عنهما لعله في وقتٍ كان الناس فيه قريبين من الشرك فأراد أن يشدد في هذا الأمر حتى ينتهي الناس عنه؛ لأن قول الرسول ﷺ: «لولا أنا ...»، واضح أنه أضاف الشيء إلى سببه دون أن يقرنه بمشيئة الله.

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى:٤٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾:

(استجاب) بمعنى أجاب، ولهذا قال المفسر: [أجيبوه بالتوحيد والعبادة] بالتوحيد ضد الشرك، والعبادة ضد الاستكبار، وهذا واجب على كل مسلم أن يجيب الله -تبارك وتعالى- بالإيمان به وتوحيده وطاعته ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ [هو يوم القيامة] ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [أي أنه إذا أتى به لا يرده] ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد يرده ويمنعه، وقيل ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي أن الله -سبحانه وتعالى-: لا يرده إذا أتى به، وكلا المعنيَيْنِ صحيح، فالله -تبارك وتعالى- إذا أتى به فقد قضي به فلا يمكن أن يرده وكذلك لا يمكن لأحد أن يرده من دون الله، لا أحد يمنعه من الله -عزَّ وجلَّ-، ولذلك لو أن أحداً حاول أن يرد يوم القيامة لم يتمكن ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ [تلجأون إليه] يومئذٍ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [إنكارٍ لذنوبكم]، ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ هذه جملة مبتدأ وخبر قدم فيها الخبر على المبتدأ وأدخلت (من) الزائدة على المبتدأ من باب التوكيد، يعني: ما لكم أيُّ ملجأٍ من دون الله -عزَّ وجلَّ-، والملجأ بمعنى المعاد أو الملاذ الذي يلوذ به الإنسان، عما نزل به، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي (يوم إذ يأتي ذلك اليوم)، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ قال: [إنكار لذنوبكم] فكأنه فسر النكير بالمصدر وهو الإنكار، فإن صح ما فسره به ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ فإنه يشكل على هذا قول الله تبارك وتعالى -: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣] وهذا إنكار، فعلى تفسير المؤلف [مالكم إنكارٍ لذنوبكم] يحتاج أن نجمع بينه وبين هذه الآية، والجواب أن نقول: الجمع بينهما: أنهم ينكرون أولاً يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ظناً منهم أنهم إذا فعلوا ذلك نجوا كما نجا أهل التوحيد، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، وحينئذٍ يعترفون ويقرون، فيكون الإنكار أولاً ثم الإقرار ثانياً وتكون الآية هذه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: باعتبار المآل، أي: لا يمكنكم أن تنكروا، وقيل إن نكيراً بمعنى مُنْكِر، كسميع بمعنى مُسْمِع، والمعنى: لا أحد ينكر ما نزل بكم ويدفعه عنكم، وهذا المعنى أصح، وأنسب لسياق الآية، ما لكم من ملجأ وما لكم من منكر، يعني: لا ملجأ تلجأون إليه ولا أحد يدافع عنكم وينكر ما نزل بكم.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١- **منها:** وجوب الاستجابة إلى ـ الله تعالى ـ فوراً لقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ هذا اليوم الذي حدث الله به هل له وقت محدد في عمر الإنسان بحيث يستطيع أن يؤخر التوبة والاستعداد؟ الجواب: لا؛ لأن الإنسان ما يدري متى يفجأه الموت، وإذا فاجئه الموت انقطع كل عمل كما ثبت عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»، فلا فرق بين قيام الساعة الكبرى وبين موت الإنسان من حيث انقطاع العمل.

٢- **ومن فوائدها:** رأفة الله ـ تبارك وتعالى ـ بعباده حيث ينذرهم بعذابه قبل الوقوع، ولا شك أن هذا من رحمته ورأفته بهم، وإلا لتركهم يفعلون ما يشاءون حتى ينزل بهم العذاب.

٣- **ومن فوائدها:** أنه لا ملجأ يوم القيامة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، في الدنيا يمكن أن يلوذ الإنسان بذي سلطة يستجير به لكن في الآخرة لا.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا أحد ينكر ما نزل بأهل العذاب من العذاب لقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨]

التفسير

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ يعني: [عن الإجابة] ولم يستجيبوا فلا لوم عليك ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [تحفظ أعمالهم بأن توافق المطلوب منهم]، الجواب: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ جواب الشرط: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ المعنى: إن أعرضوا فلا لوم عليك؛ لأنك لم ترسل عليهم حفيظا على أعمالهم، ولا مسيطراً عليهم، إنما أرسلت للإبلاغ وقد حصل، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (إن) [ما] أراد أن يفسر (إن) بمعنى: ما، وإن تأتي نافية كما هنا، وتأتي زائدة، وتأتي شرطية، وتأتي مخففة من الثقيلة، فهنا جاءت نافية والغالب أنها تكون نافية إذا أتى بعدها إثبات مثل ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا

نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وما أشبه ذلك، هذه تكون نافية بمعنى ما، تأتي شرطية مثل ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وتأتي زائدة كما في قول الشاعر:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمْ ذَهَبٌ ولاَ صرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

بني غدانة ما إن أنتم ذهبٌ: هذه (إن) زائدة؛ لأنها لو حذفت لاستقام الكلام، لو قيل بني غدانة ما أنتم ذهباً، استقام الكلام، فهي زائدة، وتأتي مخففة من الثقيلة بمعنى أن تكون هي بمعنى (إنَّ) ولكن خففت وفي هذه الحال يكون اسمها ضمير الشأن محذوفاً والجملة التي بعدها تكون خبراً، هذه أربعة معاني؛ [(إن) ما]: أي بمعنى ما، ﴿عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ يعني: ما عليك إلا البلاغ، وقد بلّغ أم لا؟ بلّغ البلاغ المبين وتعب في ذلك تعباً عظيماً، وأُوذي في ذلك أذىً عظيماً ومع ذلك فهو صابر محتسب؛ لأنه ﷺ يعلم أن ما أصابه في ذات الله فهو خير ورفعة، جاهد في الله حقّ جهاده وبلّغ الرسالة غاية البلاغ وأُوذي على ذلك ولكنه صبر وكان يقول:

وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ.

إذن فالآية على كلام المؤلف منسوخة، والمؤلف ونحوه دائماً إذا جاء مثل هذه الآية يقول: هذه منسوخة، وهذا غلط لأن النسخ ليس بالأمر الهين، ادعاء النسخ يعني: أن المنسوخ باطل حكماً، وهذا صعب أن ترفع حكم آية أو حديث لمجرد وهم توهمته، لذلك لا يجوز للإنسان أن يسلك هذا المسلك المشين، فإنه إذا عجز عن الجمع بين الآيات ذهب يقول: إنها منسوخة، النسخ يحتاج إلى العلم بتأخر الناسخ، ويحتاج -أيضاً- إلى تعذر إمكان الجمع فإن أمكن الجمع فلا نسخ، هل قوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ هل هو منسوخ؟ أبداً إلى آخر رمق من حياة النبي ﷺ وهو عليه البلاغ فلم ينسخ، والبلاغ لا ينافي أن يكون معه جهاد، ولكن من حكمة الله -عزَّ وجلَّ- لم يفرض الجهاد إلا حين قويت الأمة الإسلامية، لم يفرض الجهاد في مكة وإنما فرضه في المدينة حين صار للأمة الإسلامية دولة مستقلة تستطيع أن تجاهد، فهذا من الحكمة ويعبر عنه أنه من باب التدرج في التشريع، ومن باب الحكمة في التشريع، إذن نقول: إن قول المؤلف -عفا الله عنه وغفر له-: [إن هذا قبل أمر الجهاد] خطأ عظيم، نقول: البلاغ واجب عليه حتى بعد الأمر بالجهاد ولا يتنافيان، لا ينافي أن يكون عليه البلاغ وأن يكون مأموراً بالجهاد ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [نعمة كالغنى والصحة] ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ [الضمير للإنسان باعتبار الجنس] ﴿سَيِّئَةٌ﴾ [بلاء] ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [أي قدموه وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تُزاول بها] ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [للنعمة] ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا﴾ معلوم أن الله واحد فلماذا قال إنا؟ نقول: للتعظيم لإظهار العظمة والسلطان وقوة الملك، ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني: أوصلناها إليه حتى كأنها طعام ذاقه لا يشك فيه، وقوله: ﴿مِنَّا﴾؛ لأن كل نعمة بنا فإنها من الله كما قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقول: [نعمة كالغنى

والصحة] والمثال هنا لا يعني الحصر لكنه مثال، الغنى نعمة، الصحة نعمة، الأولاد نعمة، الأمن نعمة، نعم الله لا تحصى كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذن ما ذكره المؤلف على سبيل التمثيل، والتمثيل لا يعطي الحصر، وقوله: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ المراد بذلك فرح البطر والأشر لا الفرح بالنعمة مع اعتقاد أنها من عند الله، فإن هذا مأمور به أن يفرح الإنسان بنعم الله، وفي الحديث: «إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» ومن آثار النعمة الفرح، والإنسان إذا رزقه الله مالاً فرح، إذا عافاه الله بعد المرض فرح، إذا تزوج فرح، إذا ولد له فرح، ولكن الفرح نوعان: فرح أشر وبطر فهذا مذموم، وفرح بنعمة ـ الله تعالى ـ مع التزام شريعته فهذا ممدوح ولا بأس به ولا ينبغي أن يكون الإنسان كالحمار لا يفرح بنعمة ولا يتألم بنقمة بل يجب أن يكون الإنسان إنساناً منفعلاً مع الحوادث يفرح في موضع الفرح ويغتم في موضع الاغتمام ﴿فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ يقول المؤلف: [الضمير للإنسان باعتبار الجنس] أزال بذلك إشكالاً وهو أن الآية ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ والإنسان واحد كيف يقول: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؟ فيعيد الضمير عليه جمعاً؟ أجابنا المؤلف بأن المراد بالإنسان الجنس فيشمل كل إنسان، ويصح أن يقول: وإن تصبهم سيئة ضد رحمة، ولهذا فسرها المؤلف بالبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما قدموا من المعاصي وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها، لو أنك فكرت أيها أكثر عملاً الأيدي أم الأرجل؟ الأيدي مشيك من بيتك إلى المسجد كم خطوة كم حركة؟ لو ما تحركت الرجل ما مشيت، فيقال: إن حركة الرجل من جنس واحد وهو المشي، لكن حركة اليد ما أكثر أنواعها فضلاً عن أفرادها، فالأعمال حقيقة إنما تزاول باليد؛ لأنها أكثر من أي عضو في البدن مزاولة للأعمال، حتى لو قال قائل: اللسان أكثر من اليد، مَنْ يُحصِي كلمات اللسان؟ نجيب على هذا بما أجبنا على المشي؛ لأنها من جنس واحد، لكن اليد تبطش وتضرب وتكتب وتمحو، ما تحصى أنواعه، فلذلك عبر بالأيدي عن النفس ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ المراد مما عملنا لكن اللغة العربية واسعة تعبر بالأيدي عن النفس ومن ثم نعلم أنه لا سواء بين خلْق آدم بيد الله وبين عمل أيدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الإبل ونحوها، قال: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ أعاد الإفراد بعد أن جاء الجمع ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا ابتدأ بالمفرد ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ختمها بالمفرد من أجل أن يشمل الإنسان مجتمعاً أو منفردا فهذه حالة، ولكن من المراد بالإنسان هنا؟ الظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد به الكافر؛ لأنه هو الذي ينطبق عليه فرح البطر والأشر والكفر إذا أصيب بسوء، في هذه الآية فوائد:

الفوائد:

١- **منها:** تسلية الرسول ﷺ حينما أعرضوا عن إجابته؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

٢- **ومن فوائدها:** أنها تسلية للدعاة من بعد الرسول ﷺ أن الداعي عليه البلاغ وليس عليه أن يهدي الناس ولا يمكن ذلك، وإذا كان النبي ﷺ أخبرنا أنه رأى النبي وليس معه أحد فكيف نغضب إذا دعونا إلى الله ولم يستجب لنا أحد، إذا كان الأنبياء وهم الأنبياء لا يستجاب لهم كيف بنا نحن، ولهذا نرى بعض الدعاة إذا لم يجد مجيباً استحسر وترك الدعوة، هذا غلط لا يجوز أبدا أن تيأس من رحمة الله، ادعوا ثم ادعوا ثم ادعوا، حتى لو أوذيت بدل أن يستجاب لك فلا تيأس، إذن في هذه الآية تسلية لمن؟ للدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما أن فيها تسلية للرسول ﷺ فأنت إنما عليك البلاغ، وما أجل أن تقوم بما عليك من البلاغ أما أن الناس يهتدون فلا، هذه واحدة.

ثانياً: بعض الناس يريد أن يهتدي الناس بين عشية وضحاها، وهذا غلط هذا لا يمكن، وهذا خلاف سنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإن النبي ﷺ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله إلى التوحيد فقط وفي الآخر إلى الصلاة، ومع ذلك لم يستجب أكثرهم، لم يستجب مَلَؤُهم حتى ألجأوه إلى أن يهاجر وَيَدَعَ بلده فكيف بك أنت تعيش في قوم أفسدهم الاستعمار العسكري والفكري والخُلُقِي، تريد أن يهتدوا بين عشية وضحاها، مَنْ أنت حتى تريد خلاف سنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، اصبر وبالتدريج ولا حرج عليك -فيما أرى- أن تعامل الناس بالتدريج لا حرج ما دام المقصود الإصلاح فاصبر على بعض المعاصي ودَرِّجِ الناسَ عليها، يعني: مثلاً لو أن إنسانًا حذر الناس من شرب الدخان الذي ابتلي به كثير من الناس فقال له الشارب أنا ما أستطيع، قال ما في مانع كل يوم اشرب عشرة لمدة أسبوع ثم ثمان لمدة أسبوع، حتى يتقاصر إلى آخر النهاية، هل هذا جائز أم لا؟ هذا جائز لأني الآن لم أقره على شرب الدخان، أقررته على بعض المفسدة من أجل أن أتوصل إلى زوال المفسدة نهائياً، وهذا من العلاج ومن الدعوة بالحكمة وهذا كما أنه بالأمراض المعنوية الدينية فهو ـ أيضاً ـ في الأمراض البدنية، الطبيب يعالج المريض شيئاً فشيئاً ويصبر على ما به من مرض شيئاً فشيئاً ولا يعطيه الدواء كاملاً للحظة واحدة كما فعل البدوي لما أعطوه نوفالجين وقالوا خذ هذا كل ست ساعات واحدة فاستبطأ الأمر وقال: هذا أجعله كل ست ساعات واحدة أبتلع الجميع، فبلع الجميع فقضي عليه، استعجل الأمر وهلك، اصبر عالج الشيء بالتي هي أحسن المهم أن تكون عازماً على إزالة هذا.

٣- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ ليس حفيظاً على الأمة لا في حياته ولا بعد مماته، وعلى هذا فلا يستغاث به بعد موته ولا تطلب منه الهداية وإنما الهداية من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الإبلاغ ولم يبين الله الوسيلة للإبلاغ، فنقول: كل وسيلة للإبلاغ فهي واجبة والوسائل لها أحكام المقاصد، فيما سبق الإبلاغ محصور يبلغ الإنسان مَنْ جاء إلى بلده ومن يفد إليها من الناس، الآن يمكنه أن يبلغ العالم كله وحينئذٍ نسأل: لو أن شخصاً أمكنه أن

يجعل له صفحة في الإنترنت أيجوز أن يفعل؟ يجوز ذلك حتى ولو كان قبله أغنية وبعده أغنية؛ لأن هذا ليس من فعله، لكن لا يجوز أن نترك الدعوة إلى الحق لأن في هذه الإذاعة مثلاً أو المحطة لأن فيها سيئة، هذا غير صحيح ونظرية قاصرة، زَاحِمْ أهل الباطل حتى يتبين الحق، ولا يضرك إذا أدخلوا فيها أشياء منكرة، بعض الناس مثلاً يقول لنا أو لغيرنا لا تدخلون الإنترنت لا تدخلون فيها، كيف تدخلون فيها وفيها الأغاني وفيها البلاوي وفيها، ما يصير؟ أيهما أولى أن ندخل في هذا المغمار لعل الله أن يهدي بنا واحداً من الناس، أو أن ندع المجال لأهل الشر؟ الأول بلا شك، الأول أحسن، ومثل ذلك ما يقال في الانتخابات إذا كان البلد مبنية على الانتخابات يقول: بعض الناس لا تنتخب، يا جماعة ما أرشح واحد من أهل الخير؟ قال لا، الانتخابات وفيها بلاء وفيها رشاوي وفيها أهواء، إذا كان فيها رشاوي وأهواء أنا لن أدخل في الرشاوي والأهواء ولكن أدخل في ترشيح رجل أعرف أن فيه خير، قالوا: إذا رشحت واحدًا يأتي مائة فاسد، طيب إذا كان مائة فاسد ليس معهم مستقيم أو مائة فاسق معهم مستقيم؟ الثاني أحسن، وإذا قالوا إن هذا لا يجدي ولا ينفع، واحد في المائة ما فيه فائدة، نقول: لابد أن يكون فيه فائدة، إذا أخلص النية لله لابد أن يؤثر؛ هل لأن الكلمة لله ليست تؤثر؛ لأن فلاناً تكلم بها؟ تؤثر لأنها كلمة الله، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وبعده ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾؟ بالرفع؛ لأنه لو قال: وكلمةَ الله دخلت في المفعول به، يعني: وجعل كلمة الله، وكلمة الله هي العليا بجعله وبغير جعله، ولهذا تبين الآن أن قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ لها موقع عظيم جداً يعني: أن كلمة الله هي العليا مهما جاءت هي العليا ولا يخفى عليكم ما يتكرر في قصة موسى مع السحرة وفرعون لما اجتمعوا وكان موسى واثقاً بنصر الله - عزَّ وجلَّ -، ولهذا لما قالوا: اجعل لنا موعداً، جعل لهم موعد في وسط الليل في حجرة مظلمة؟ لا، متى؟ في وضح النهار وفي يوم الزينة يوم العيد، قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩] شيء عجيب جاء السحرة وجمع فرعون كيده ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤] فقال موسى كلمة واحدة قال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١] ما الذي حصل من هذه الكلمة؟ اسمع ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ في الحال، الفاء تدل على الترتيب والتعقيب والسببية، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ وإذا تنازع الناس تحدث عن الفشل، حدث ما شئت ولا حرج، تنازعوا أمرهم بينهم ففشلوا وفي النهاية أن هؤلاء السحرة الذين جاءوا يكيدون

لموسى صاروا مع موسى وهُددوا بالقتل والصلب ولكن أبوا قالوا لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ فالإيمان إذا دخل القلب فلا تسأل عن الحزم والعزم والقوة، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ والذي لا يموت اليوم يموت غدا فالمهم أني أقول: إن بعض الناس إذا رأى الموقف غلب فيه الشر استحسر وتخلّى وهذا غلط، خذ غمار القوم والنصر للحق، أنا ما دخلت مع هؤلاء لأوافقهم على باطلهم، سأدافع عن الحق الذي أعتقده مهما أمكن، ثم إنه من الحكمة أن يفتت القوم المجتمعون، يفتتوا يعني: يؤخذوا واحدًا واحدًا ويُتكلم مع كل واحد، ويقال: يا فلان ما هي فائدتك من هذا؟ هذا إثمنا عليك، هذا سوء في الدنيا والآخرة، كما فعلت قريش في نقض الصحيفة التي تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم والقصة مشهورة، صار أحد المعارضين لهذه الصحيفة يأتي كبراءهم كبراء الذين وقعوا يأتيهم واحد واحد يقول: كذا وكذا وكذا، حتى تفتتوا وهذا من السياسة؛ لأنك إذا فتت المجتمعين زالت قوتهم وزال سلطانهم وحصلت على الخير.

٥- **ومن فوائدها:** أن الناس ينقسمون إلى قسمين: قسم إذا أصابته رحمة من الله فرح بها فرح أشر وبطر، وقسم آخر إذا أصابته ـ رحمة الله تعالى ـ فإنه يستعملها في طاعة الله.

٦- **ومنها:** التحذير من الفرح بنعمة الله إذا كان فرح أشر وبطر، وأما إذا كان فرح استبشار وسرور وقيام بطاعة الله فإنه يمدح، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

٧- **ومن فوائدها:** أن ما يصيب الإنسان من سيئة فإنما هو بسبب عمله؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** التعبير بالبعض عن الكل إذا كان لهذا البعض تأثير كبير؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الإنسان من حيث هو إنسان إذا أصابته السيئة كفر بمعنى أيس من رحمة الله ـ تعالى ـ أن يصرف عنه هذه السيئة، وأما المؤمن فإنه لا ييأس بل يصبر وينتظر الفرج إيماناً بقول النبي ﷺ: (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا).

قال الله تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩ - ٥٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجملة خبرية خبرها مقدم يراد به الحصر؛ لأن القاعدة البلاغية أن تقديم ما حقه التأخير يدل على الحصر والاختصاص، إذن (لله) لا لغيره (ملك السموات والأرض) أي خلقاً وتدبيرا، فالله - تعالى - مالك السماوات والأرض خلقاً وتدبيرا ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (ما) هذه موصولة ويعبر عنها غالباً لما لا يعقل، وكان التعبير بها ليعم الأعيان والأوصاف؛ لأنه إذا قصدت الأوصاف عبر بها ولو كان لعاقل، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يقل (من طاب)، مع أن النساء من العقلاء، لكن لما كانت المرأة إنما تنكح من أجل صفاتها لا لعينها قال: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، هنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ نقول عبر بها؛ لأن المقصود بذلك الأعيان والأوصاف، أما الأعيان فلو سئلنا أيها أكثر العاقل أو غير العاقل؟ في الأرض غير العاقل لكن في السماء لا، السماء أوسع من الأرض وما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك فيكون العاقل باعتبار الجميع أكثر، لكن باعتبار ما في الأرض الأكثر غير العاقل، كذلك - أيضاً - إذا اعتبرنا الأوصاف فالأوصاف تشمل العقلاء وغيرهم فلهذا عبر بها، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يُوجده بعد العدم، ولكن الخلق ليس مجرد إيجاد بل هو خلْق عن تقدير ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا من جملة خلقه - أيضاً - ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ الهبة هي التبرع بالشيء مجانًا، ووصف الله - تعالى - الأولاد بالهبة؛ لأنه لا طاقة للإنسان في إيجادهم بل هو مجرد فضل من الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [من الأولاد] ﴿إِنَاثًا﴾ قوله: [من الأولاد] كيف تتلائم مع قوله إناثا؟ لأن الأولاد في اللغة العربية تشمل الذكر والأنثى كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ولم يقل: ذكورا، بل أتى بـ(أل) المعرفة الدالة على شرف مدخولها، فإن الذكور عند الناس أشرف من الإناث، ولكن مع هذا جبر نقصهن بتقديم ذكرهن على الذكور، أو يقال إن الله قدم الإناث لأن إرادة الإنسان أن يكون أولاده ذكوراً، فقدم

الإناث إشارة إلى أن الأمر إلى الله وحده لا إلى ما يريده الإنسان ويهواه، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ قال: [أي يجعلهم] والصواب: يصنفهم؛ لأن التزوج بمعنى التصنيف كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، فمعنى يزوجهم أي: يصنفهم فيجعلهم صنفين ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يلد ولا يولد له، فلا يلد باعتبار الأنثى ولا يولد له باعتبار الذكر، فهذه أربعة أصناف: الأول: أن يهب لمن يشاء إناثا، الثاني: أن يهب ذكورا، الثالث: أن يهب ذكورا وإناثا، الرابع: أن يجعل الإنسان عقيما، لا ذكور ولا إناث، ذلك لأن الأمر أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا أحد يستطيع أن يخلق شيئا من هذا، بل الله وحده هو الخالق، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عليم [بما يخلق]، قدير [على ما يشاء] فهو يعلم ما يخلق ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقدير على ما يخلق ما أراد، في الآية الكريمة عموم ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما في السماوات والأرض لقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** اختصاص الله ـ تبارك وتعالى ـ بذلك، من أين نأخذ الاختصاص، اختصاص الله ـ تعالى ـ بملك السماوات والأرض؟ وجه ذلك؟ وجه ذلك أن الله قدّم الخبر والخبر حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فإن قال قائل: إذا قلتم إن ملك السماوات والأرض خاص بالله أليس الإنسان له ملك؟ قال ـ الله تعالى ـ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فللإنسان ملك، فكيف الجمع بين قولنا إن ملك السماوات والأرض خاص بالله وإثبات الملكية لغير الله؟ الجواب: ملك الله ـ تبارك وتعالى ـ تام شامل، ففيه شمول التصرف وفيه شمول المكان، بمعنى: أن ملك الله ـ تعالى ـ تام من كل وجه عام من كل وجه، ملك الإنسان قاصر من جهة عموم المكان ومن جهة عموم التصرف، فكلنا نملك لكن ملكنا محدود، أنا أملك حقيبة ولا أملك حقيبة أخرى لغيري فهو محدود، ثانيًا: ناقص ملك ناقص، لا يمكنني أن أتصرف في ملكي كما أشاء، صحيح لا يمكن أن أضيعه؛ لأننا منهي عن إضاعة المال، لا يمكن أن يعذبه إن كان حيواناً؛ لأني منهي عن ذلك، لا يمكن أن آكل من ملكي ما شئت وأدع ما شئت، فالحيوان المحرم لا يجوز لي أن آكله ولو كان ملكي، المهم أن ملك الإنسان محدود.

ثانيا: ناقص، محدود: لا يشمل كل شيء، ناقص: لا يملك كل تصرف.

٢- **ومن فوائدها:** أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يخلق ما يشاء من الأعيان والأوصاف على أي كيفية وعلى أي صفة، ولهذا انظر إلى مخلوقات الله هل هي واحدة؟ لا، ليست واحدة تختلف اختلافا عظيما كبيراً، في الشكل وفي الأيدي وفي الأرجل وفي الغذاء وفي كل شيء، فالله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء، لكن اعلم أن الله ـ تعالى ـ هدى كل مخلوق لما خلق له، قال الله ـ تعالى ـ عن موسى حين

سأله فرعون قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: خلقه اللائق به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي هدى كل مخلوق لما خلق له، ولذلك تجد هذا المخلوق لا يأكل هذا النوع من هذا العشب والمخلوق الآخر يأكل منه، تجد هذا المخلوق لا يسكن هذا النوع من الأرض ويسكن أرضاً أخرى ومخلوق آخر بضده، الرمل مثلاً لا يسكنه النمل؛ لأنه لا يملك الجحور، لكن يسكنه الحشرات أو الزواحف التي تندس في الرمل؛ لأن هناك زواحفًا صغيرة تندس في الرمل اندساسا تشاهدها كأنما يغوص السابح في الماء وليس لها جحور، هناك أشياء ما تسكن هذا النوع من الأرض، بل تسكن أرضاً صلبة حتى تبني لها الجحور، أشياء غريبة في مخلوقات الله؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى كل شيء خلقه.

٣- **من فوائد الآية الكريمة**: أن الأولاد هبة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ والهبة هي العطية بلا عوض، فما هو العوض الذي هو علينا بالنسبة لأهل النعم؟ هو الشكر، وهنا سؤال هل يجوز أن تسمي ابنك أو ابنتك هبة الله؟ نعم يجوز، ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في السقط: السقط إذا سقط يعني: الحمل إذا سقط بعد أن تنفخ فيه الروح فسمه ولو مات في الحال سمّه، فإذا جهلت أنه ذكر أو أنثى فسمّه اسماً يصلح لهما بأن تقول: هذا هبة الله، سمّه هبة الله.

٤- **ومن فوائدها**: أنه لا اختيار للمرء بالنسبة للأولاد؛ لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فجعل الأمر راجعا إلى مشيئته ـ سبحانه وتعالى ـ.

٥- **ومنها**: أنه لا ينبغي للإنسان أن ييأس إذا أتاه إناث متتابعات فإن بعض الناس إذا أتاه إناث متتابعات أيس وقال: لن يولد لي ذكر، وهذا غلط فالله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء.

٦- **ومن فوائدها**: تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث خلق مِنْ هذه النطفة وهي واحدة خلق منها ذكورًا خلصًا وإناثًا خلصًا والثالث أصنافًا ذكورًا وإناثًا مع أن الماء واحد، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير.

٧- **ومنها**: أن العقم يعتبر نقصا بالنسبة لمن يُولد له؛ لقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ بعد أن ذكر أن الأولاد هبة فيكون العقيم موهوبا له أم لا؟ لا إذن هذا نقص، ويتفرع على هذه القاعدة أنه لو تبين زوج المرأة عقيماً فلها فسخ النكاح، يعني: لو أن أحداً تزوج امرأة وهو لا يعلم عن نفسه ثم تبين أنه عقيم فلها أن تفسخ إما بنفسها – تُشْهِدُ اثنين تقول: إني فسخت نكاحي من فلان –، أو بالقاضي تذهب وزوجها إلى القاضي فيفسخ النكاح، وهذا حق لها، فإن قال الزوج: أنا ليس فيَّ عيب إنه يقدر على الوطء وإنه مستقيم خلقًا ودينًا لماذا تفسخونها مني، ماذا نقول؟ نقول: لأن العقم عيب والمرأة لها حق في الأولاد، ولذلك يحرم على الزوج أن يعزل عن زوجته إلا بإذنها؛

لأنه إذا عزل عنها حرمها من الأولاد إلا أن تأذن.

٨- **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهما: العليم والقدير.

٩- **ومن فوائدها**: إثبات ما دل عليه هذان الاسمان مِنْ صفة، العليم دل على ماذا؟ على العلم، والقدير على القدرة، وكل اسم من أسماء الله متضمن لصفة أو لأكثر، وليست كل صفة يُشتق منها اسم لله، وبه نعرف أن الصفات أكثر من الأسماء.

١٠- **ومن فوائدها**: إثبات المشيئة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا أحد يجبره على أن يخلق أنثى أو ذكراً، بل له ـ عزَّ وجلَّ ـ المشيئة التامة في خلقه، واعلم أنه كلما ذُكِرَتِ المشيئة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنها مقرونة بالحكمة، يعني: أن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة بل هي مقرونة بالحكمة والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠] بعد أن قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعلم من هذا أن مشيئة الله تابعة لعلمه وحكمته وأنه لا يشاء شيئًا مشيئة مجردة، بل لابد أن تكون مقرونة بالحكمة وهذا في كل نص يأتيك فيه ذكر المشيئة لله، فاعلم أنها مقرونة بالحكمة، ثم قال ـ عزَّ وجلَّ ـ لما ذكر خلقه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه هو الخالق له المشيئة المطلقة ذكر شيئاً آخر وهو الشرع، لو تأملت الآيات القرآنية لوجدت أن الله ـ تعالى ـ يذكر الشرع قبل القدر، اقرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن:٣] فبدأ بالشرع ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:٢] فبدأ بالقراءة، وهكذا تجد هذه القاعدة مطردة إلا أن يكون هناك سبب لتقديم الخلق على الشرع، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يلقانا برحمته وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى.

۞ قال الله تعالى:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]

۞ التفسير ۞

قال ـ الله تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (ما كان): هذه الصيغة في القرآن الكريم تدل على أن الشيء ممتنع غاية الامتناع، ممتنع غاية الامتناع إما قدراً وإما شرعاً، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ يعني: ممتنع غاية الامتناع، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن

﴿يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ممتنع غاية الامتناع شرعا؛ لأنه يجوز أن يستغفروا لكن حرام عليهم، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ هذا ممتنع قدراً يعني: حسب خبر الله - عزَّ وجلَّ - وإلا فالله قادر على أن يكلم على غير هذا الوجه، لكن حسب خبر الله يكون ممتنعاً ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ البشر: هم الآدميون سموا بشراً لماذا؟ لأن بشرتهم بادية إلا أن يستتروا، غير الآدم من الحيوانات مستور إما بالريش وإما بالصوف وإما بالوبر وإما بالشعر، إما بالريش مثل الطير، وإما بالشعر مثل الماعز، وإما بالصوف كالضأن، وإما بالوبر كالإبل، الآدمي لم تستر بشرته، والحكمة من ذلك أنه إذا شعر الإنسان بافتقاره إلى الكسوة الحسية انتقل من هذا إلى افتقاره إلى الكسوة المعنوية، انظر الحكمة من الله - عزَّ وجلَّ - حتى يعرف الإنسان أنه محتاج إلى ستر العورة المعنوية كما احتاج إلى ستر العورة الحسية، وإلى هذا يشير قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ اللباس العادي ﴿وَرِيشًا﴾ اللباس الجميل الذي يتزين به المرء، ثم قال ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لباس التقوى هذا اللباس معنوي أم حسي؟ معنوي، وقيل إن الآدمي سمي بشراً لظهور أثر ما في قلبه على بشرته، إذا غضب الإنسان يظهر أثر الغضب على بشرته، ماذا يصنع؟ يحمر وجهه وعيناه وتنتفخ أوداجه ويقف شعره، وإذا بشر بما يسره يتهلل وجهه وتجد فيه البشرى، والظاهر - والله أعلم - أن المعنى الأول أقوى أنه سمي بشراً لظهور بشرته إلا بساتر، ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يقول: [إلا أن يوحي إليه] وحيًا [في المنام أو بإلهام] هذا واحدة ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ يعني: يكلمه مباشرة غير الوحي الذي في القلب من وراء حجاب كما حصل لموسى - عليه الصلاة والسلام - وحصل لمحمد ﷺ ليلة المعراج، فإن الله كلمه من وراء حجاب، فما هو الحجاب الذي يحتجب الله به؟ قال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، هذا النور نور عظيم جداً ما أحد يتصوره، هذا هو الذي احتجب الله به عن الخلق - تعالى - الله، فإذا كان هذا النور من قوته يحجب فما بالك بنور الله - عزَّ وجلَّ -؟ هو أعظم وأعظم قال - الله تعالى -: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يتصور أحد ذلك أبدا، وإنما يُكلِّم الله - تعالى - عباده من وراء حجاب؛ لأنه لو كشف الحجاب لهلك الإنسان، ولم يستطع أن يثبت أمام رؤية الله - عزَّ وجلَّ -، ولما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال هذا شوقا إلى الله - عزَّ وجلَّ -، لا شكًّا، قال ذلك شوقا إلى الله، قال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لا يمكن أن تراني، ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الجبل الأصم الصلب ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ تجلى ما ظهر كله تجلى للجبل ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ دك الجبل مرة واحدة وساوى الأرض، موسى - عليه الصلاة والسلام - لما رأى هذا صعق غشي عليه مِنْ هَوْل ما رأى، فهل الآدمي الضعيف يثبت لرؤية الله والجبل لم يثبت؟ لا والله، ولهذا اندهش موسى وصعق وعلم أنه لا يمكن أن يرى الله - عزَّ وجلَّ - قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي هو ما

يحصل للرسول من الإلهام أو الرؤية المنامية؛ لأن أصل الوحي الإعلام بسرعة وخفاء، هذا أصله في اللغة، فيكون ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي عن طريق الإلهام أو طريق المنام، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يعني: يكلمه الله ـ تعالى ـ مكالمة صريحة ولكن من وراء حجاب، والحجاب المذكور هو النور كما قال النبي ﷺ: حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وذلك أن البشر لا يستطيع رؤية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدنيا، قال موسى لربه ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال ذلك شوقاً ومحبة فقال ـ الله تعالى ـ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أي لن تستطيع ذلك، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ فنظر موسى إلى الجبل فلما تجلى الله له جعله دكا، اندك حتى ساوى الأرض، فلما رأى موسى هذا خر صعقا، أي غشي عليه من هول ما وجد وعدم تحمله، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣] فإذن إذا أراد الله أن يكلم أحدا من الرسل فلابد أن يكون هناك حجاب، القسم الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهو جبريل يرسله إلى المرسل إليه فيوحي إلى هذا الرسول بإذن الله ـ تعالى ـ ما يشاء، وإنما خصصناه بجبريل لأن جبريل موكل بالوحي، وقد كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بهذا الاستفتاح: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هؤلاء الثلاثة كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل: بما فيه حياة القلوب، إسرافيل: بما فيه حياة الناس للبعث، ميكائيل: بما فيه حياة الأرض الذي به يحي البهائم والإنسان، ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ بإذنه: أي بإذنه القدري ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: مما أوحاه الله إلى هذا الرسول الذي بعثه إلى الرسول البشري ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ [عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِين] هذا تفسير خطأ؛ لأنه يوهم أن كل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق، فالسمع لا يثبت للخالق والبصر وكل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق ولذلك لو قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إنه عَلِيٌّ عن مماثلة المخلوقين وصفات النقص لو قال هذا لكان أهون، مع أننا نقول: إنه عَلِيٌّ بذاته وصفاته، فذاته فوق كل شيء وصفاته هي المثل الأعلى هذا هو الصواب، لكن المؤلف ـ عفا الله عنا وعنه ـ يفسر القرآن على طريقة الأشاعرة؛ لأنه منهم، فلذلك يحرف الكلم عن مواضعه ليوافق مذهبه الباطل، وهذه آفة قلَّ مَنْ يسلم منها مِنْ أهل العلم، تجد رجلا يعتقد شيئاً ما في العقيدة أو في الأحكام الشرعية التكليفية ثم يحاول في النصوص التي تخالف ما ذهب إليه أن يلوي أعناقها إلى ما ذهب إليه، فيجعل النصوص تابعة والواجب أن تكون متبوعة، لكن هذه آفة ابتلي بها كثير من الناس، إنما نحن نقول: ﴿عَلِىٌّ﴾ يعني: بذاته وصفاته عن كل نقص، أما [عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِين] هذه غرائب، والثاني يقول: [حكيم في صنعه] هذا ـ أيضاً ـ ناقص، بل هو حكيم في صنعه حكيم في شرعه، والحكمة في الشرع أبلغ من الحكمة في الصنع؛ لأن الصنع أمر كوني لا طاقة للإنسان في تغييره ولا

في الحيادة عنه، أما الأمر الشرعي فهو هو الذي محل التلاعب من البشر، فنقول: للبشر لا تتلاعبوا بأحكام الله فإنها صادرة عن حكمة، إذن يعتبر تفسير المؤلف الذي قصره على الحكمة القدرية في صنع الله تفسيراً ناقصاً فنقول: حكيم في صنعه وشرعه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنه لا يستطيع البشر أن يكلموه بلا واسطة، إما رسول أو حجاب؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات تكليم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقد سبق الكلام عليه فلا حاجة إلى إعادته وبينا أن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلام بحرف وصوت مسموع، وأن ذلك من كماله وليس كما يزعم الزاعمون إنه من النقص.

٣- **ومن فوائدها:** أن إيحاء الله تعالى: على ثلاثة أوجه: وحي إلهام، والثاني: تكليم من وراء حجاب، والثالث: إرسال رسول يوحي إلى المرسَل إليه ما شاء الله.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله ﴿مَا يَشَآءُ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات علوه بقسميه: العلو الذاتي والعلو الوصفي، فأما علو الذات فهو أنه ـ سبحانه و تعالى ـ: فوق كل شيء، وأما علو الوصف فهو أن جميع صفاته عُلْيَا ليس فيها نقص من وجه من الوجوه.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في شرعه وخلقه، وإثبات الحكم الكوني والشرعي؛ لأنه مر علينا أن كلمة حكيم تعني الحكم والحكمة معا، قسم الله الناس بالنسبة للإيجاب إلى ثلاثة أقسام: وحياً، أو من وراء حجاب، أو عن طريق الملك ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ هذه ثلاثة أقسام، وهل معنى هذا أن الله ـ سبحانه و تعالى ـ: سوف يرزقنا يوم القيامة قوة في أبصارنا حتى ننظر إليه؟ أي نعم، قوة الناس يوم القيامة لا تنسب إليها قوة الدنيا أبداً، أليس يمكثون خمسين ألف سنة لا يأكلون ولا يشربون، هذا لا يمكن أن يطاق في الدنيا، أليس الواحد ينظر إلى ملكه في الجنة مسيرة ألفين سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه هذا لا يمكن في البشر في الدنيا، وما معنى ﴿تَجَلَّىٰ﴾؟ أي ظهر، لمن يثبت الستر يوم القيامة؟ الظاهر أنه يثبت للجميع، ورد في الحديث أنه للنساء أيضاً أن المرأة إذا مات لها ثلاثة من الولد كان لها سترا من النار، وأما مسألة التربية فلأن الأب هو المسئول عن تربية الأولاد، وما الحكمة في ذكر الخلق بعد الشرع؟ أقول مما يدل على أن الاهتمام بالشرع أبلغ والناس ما خلقوا إلا للشرع، قول ـ الله تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وهل كلَّم الله أحدًا غير موسى؟ نعم كلم النبيَّ ﷺ، كلم آدم لكن موسى ـ عليه الصلاة

والسلام ـ سمي الكليم؛ لأنه أول ما أوحى الله إليه كلمه، وغيره أوحى الله إليه بواسطة. والخلق أولًا ثم جاء بالشرع وذلك لأن الشرع يختص بالأنبياء، الشرع المذكور هنا الوحي الخاص بالأنبياء هذا هو السبب، وأنه خاص بالأنبياء، هل هو يريد النور المخلوق؟ لا ما هو يريد النور المخلوق، النور المخلوق منفصل عن الله وليس صفة لله، هذا إذا قلنا: إن نور بمعنى المنور؛ لأن بعض المفسرين قال: [منور السماوات والأرض]، لكنه خلاف ظاهر الآية، ويقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وليس هو النور المخلوق، بل هو ـ عزَّ وجلَّ ـ نور وكلامه نور وحجابه نور، يعني: على هذا الحال يكون ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَنْ) عامة أريد بها الخاص كذا؟ هذه، إذا قلنا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي الأنبياء؟ ـ انظر بارك الله فيك ـ إذا ادعى أحد خلاف ظاهر النص لا تقبل منه، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يقل: للأنبياء، ثم من الذي يقول: إن الصحابة يعني: سئموا من كون بعضهم يولد له وبعضهم لا يولد له، بعضهم يولد له إناث وبعضهم يولد له ذكور، من قال هذا؟ فالآية عامة، وكل ما وجدت قولاً يكون فيه التخصيص والعام فلا تقبله إلا بدليل، ونحن ذكرنا أنه تجلى أي بعضه ـ عزَّ وجلَّ ـ، على أني في قلق من هذا، من كون المراد بعضه؛ لأن الأصل أنه كله لكن قد يقال: إنه يمنع من هذا أن الله تعالى: لا يحيط به شيء من مخلوقاته فلا يمكن أن يتجلى كله والأرض ما هي بالنسبة إليه شيء.

قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]

التفسير

ثم قال ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل] ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ كذلك تأتي في القرآن كثيراً، وحسب كلام المفسر: أن الكاف اسم بمعنى مثل، فتكون مصدرا لفعل محذوف، والتقدير: مثل ذلك، ثم تفسر الفعل بما يناسب المقام، أي مثل إيحائنا لمن سبق من الرسل أوحينا إليك يا محمد، أفادنا بقوله: [يا محمد] أن الخطاب خاص

بالرسول ﷺ ولا يتعداه إلى غيره، ﴿رُوحًا﴾ قال: [هو القرآن به تحيا القلوب] صَدَقَ، المراد بالروح هنا القرآن؛ لأنه تحيا به القلوب، وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الذي نوحيه إليك] يعني: مما نأمر به، ويحتمل أن يكون الأمر هنا واحد الأمور لا واحد الأوامر أي من شأننا، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ [تعرف قبل الوحي إليك] ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ [القرآن] ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال المؤلف: [أي شرائعه ومعالمه] أوحى الله إلى نبيه روحاً من أمره سواء قلنا واحد الأمور أو واحد الأوامر، وأخبر أن لله المنة الكبرى عليه في ذلك؛ لأنه كان قبل هذا ما يدري أي ما يعلم أو ما يعرف ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ كلمة ما الكتاب يحتمل أن المراد بها: ما الكتابة ويحتمل أن يراد بذلك ما ذكره المؤلف وهو القرآن، أما الأول؛ فلأن الله تعالى: قال في نبيه ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] وأما كون المراد به القرآن فهذا أمثلته كثيرة، المهم أن النبي ﷺ ما كان يعرف حتى الكتابة ما يكتب، ﷺ وما كان يعرف أيضاً الوحي قبل أن يوحى إليه، ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال المؤلف [أي شرائعه ومعالمه] يعني: وما كنت تدري عن شرائع الإيمان، فهل كان الرسول ﷺ يدري عما شرعه الله له في هذه الشريعة كاملة قبل ذلك؟ لا، ثم قال المؤلف: [والنفي معلق للفعل عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين] الجملة هذه للإعراب، كلمة تدري: تنصب مفعولين، هل بعدها شيء منصوب؟ لا، بعدها ما استفهامية مبتدأ والكتاب خبره ما فيها شيء منصوب، إذا جاءت الجملة الاستفهامية في محل المفعولين فإنها تعلق الفعل عن العمل ظاهراً ولكن الجملة تكون في محل نصب، إذن الاستفهام هنا علق الفعل عن العمل، وما بعده سد مسد المفعولين، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ جعلناه [أي: الروح أو الكتاب]، يعني: جعلنا الكتاب الذي أوحينا إليك أو الروح الذي أوحينا إليك والمعنى لا يختلف ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ - اللهم اهدنا به - النور يهتدي به الناس ومنه قول الخنساء في أخيها:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

يعني: النار تجعل علامة على الشيء إذا كان الناس في البر أوقدوا في الليل نارًا على رأس جبل أو على رأس أكمة، حتى يهتدي بها مَنْ يريدهم، يقول: ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ نهدي بهذا النور من نشاء، وهذا مبني على حكمة الله - عزَّ وجلَّ -، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

فمن الحري أن يهدى بهذا النور؟ مَنْ تمسك به وعمل بما فيه تصديقا للأخبار وتنفيذاً للأحكام من فعل هذا صار القرآن له نورًا يهتدي به كما قال - الله تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧] وأما من أعرض عنه - والعياذ بالله - فإنه سيكون حجة عليه ولا ينتفع

به، ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل المراد العبودية العامة أو الخاصة؟ ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هذه تقسم الناس إلى قسمين: مهتدٍ وضال، فيكون عبادنا المراد به العبودية العامة؛ لأنه جعل العبودية هذه قسمين: مهتدٍ وضال، ﴿مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: [تدعوا بالوحي إليك إلى صراط مستقيم] لو أن المؤلف قال: ﴿لَتَهْدِي﴾ أي تدل لكان أوضح وأخصر، تهدي بمعنى تدل فهي هداية الدلالة، أما المؤلف يقول: [تدعو بالوحي إليك] ولكن هذا لا يكفي؛ لأنه لو دعا فهل يهتدي الناس لكن لو قلنا: تدل فقد وضح الطريق ودلّ عليه ثم ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ [طريق] ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ يقول: [دين الإسلام] وصدق، الصراط المستقيم بعد بعثة رسول الله ﷺ هو دين الإسلام، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ صراط الله: هذه بدل من قوله: ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أضافه الله تعالى إلى نفسه؛ لأنه الذي وضعه لعباده؛ ولأنه موصل إليه، فأضيف إلى الله باعتبارين:

الأول: أنه الذي وضعه لعباده وشرعه لهم.

والثاني: أنه موصل إليه، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويم غير معوج ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (له)، الجار والمجرور خبر مقدم، و﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر يفيد الحصر، أي له وحده ما في السماوات وما في الأرض [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]، لو قدم المؤلف خلقا على [ملكًا] لكان أحسن لأن الخلق سابق على الملك ولكن القول في هذا سهل، وقوله: [عبيداً] يعني: تدبيراً يدبره، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ألا هنا أداة استفتاح والمقصود بها التنبيه والتأكيد، وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ مفعول (تصير) مقدم عليها لإفادة الحصر، أي إلى الله لا إلى غيره تصير الأمور أي الشئون شئون الخلق، في هذه الآية بيانٌ أن هذا القرآن الكريم روح تحيا به القلوب، وعلى هذا إذا وجدت قلبك ميتاً، أو وجدته مريضاً، أو وجدته قاسياً فعليك بالقرآن اقرأه عن محبة وتدبر فسيتغير القلب من مرض إلى صحة، ومن موت إلى حياة، ومن قسوة إلى لين، قال ابن عبد القوي ـ رحمه الله ـ:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ القُرانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ

أي مثل الحصى، ويدل عليه هذه الآية.

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن من أمر الله، وينبني عليها أنه ليس بمخلوق، وجه ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ففصل الخلق عن الأمر وجعله قسيماً له فدل ذلك على أن الأمر ليس من الخلق، وهذا هو المراد، فهذه الآية مما يُستَدَلُّ به على طائفتي المعتزلة والأشعرية الذين يقولون: إن القرآن مخلوق، ـ فالاستدلال واضح ـ ووجه ذلك أن الله جعل

الأمر قسيا للخلق وقسيم الشيء ليس قسمًا منه.

٢- **ومن فوائدها**: تعظيم الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه لقوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو أهل للتعظيم ـ عزَّ وجلَّ ـ وأهل للإكرام وأهل للثناء.

٣- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ قبل هذا الوحي لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى:٧] ضالاً يعني: جاهلاً.

٤- **ومن فوائدها**: بيان منة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ بإنزال القرآن الذي صار به عالماً بالكتاب وعالما بالإيمان.

٥- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فيكون فيه إبطال لدعوى أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذب؛ لأنه لا يستطيع أن يأتي بهذا القرآن من عنده.

٦- **ومن فوائدها**: أن الله ـ سبحانه و تعالى ـ: جعل القرآن نوراً يهدي به من يشاء، وينبني على هذه الفائدة أنك إذا أردت أن يستنير قلبك ويحيا قلبك فعليك بالقرآن لكن قراءة تدبر.

٧- **ومن فوائدها**: إثبات أن الهداية والضلال بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٨- **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ يدل على الصراط المستقيم لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الجواب: أن الهداية في الآية الثانية هداية التوفيق، فإن النبي ﷺ لا يملك أن يهدي أحدا وأما الهداية في الآية التي هنا فهي هداية الدلالة،اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هديناهم هداية دلالة يعني: بينا لهم الحق ودللناهم عليه ولكنهم - والعياذ بالله - استحبوا العمى على الهدى فلم يهتدوا.

٩- **ومن فوائدها**: أن هدي النبي ﷺ هدي مستقيم لا اعوجاج فيه لقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فليس فيه اعوجاج في الخبر، والاعوجاج في الخبر الكذب، وليس فيه اعوجاج في الشرائع بل كلها مبنية على العدل والفضل ـ والحمد لله رب العالمين ـ.

١٠- **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن ما خالف هدي النبي ﷺ فليس صراطاً مستقيما تؤخذ من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: ما سوى ما أنت عليه فليس صراطا مستقيماً.

١١- **ومن فوائدها**: تعظيم شأن دين الله الذي يدعو إليه الرسول ﷺ لقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهنا يقول: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؟ فالجواب: أنه يضاف إلى الله باعتبار، ويضاف إلى الذين أنعم الله عليهم باعتبار آخر، فإضافته إلى الله باعتبار أنه وضعه وأنه

يوصل إليه، وباعتبار إضافته إلى الذين أنعم الله عليهم أنهم سالكوه المؤمنون به، اللهم اجعلنا منهم.

١٢- **ومن فوائدها:** عموم ملك الله واختصاصه بهذا الملك، العموم من قوله: ﴿مَا﴾ فإن (ما) اسم موصول يدل على العموم، واختصاصه به مِنْ تقديم الخبر على المبتدأ.

١٣- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ: يحكم ما يشاء، وأنه لا اعتراض على حكمه لقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأتى بعموم الملك بعد ذكر الصراط المستقيم إشارة إلى أن ما حكم به ـ تبارك وتعالى ـ: لا اعتراض عليه فيه لأن الله له ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ويشرع ما يشاء، ولهذا تجد بعض أهل العلم ـ رحمهم الله ـ إذا لم يهتدوا إلى علة الحكم قالوا: هذا تعبدي يعني: علينا أن نتعبد به وإن لم نعلم الحكمة.

١٤- **ومن فوائدها:** بيان أن الأمور كلها تصير إلى الله أي: ترجع إليه خلقاً وملكاً وتدبيراً وحكماً، كل شيء يرجع إلى الله، إذا اختلفنا في حكم في مسألة من مسائل العلم إلى من نرجع؟ إلى الله، إذا كان يوم القيامة يبعث الخلائق ويرجعون إلى الله، إذن ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: كل الأمور تصير إلى الله ترجع إليه، فهو منه المبتدأ وإليه المنتهى ـ تبارك وتعالى ـ.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الشورى

الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الأحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عاشور عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

الدروس العلمية العامة
في
العلم والدعوة والتربية

مجموعة محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية

التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة الزخرف — تفسير جزء الذاريات
تفسير سورة محمد — تفسير جزء قد سمع
تفسير سورة الحجرات — تفسير جزء تبارك
تفسير سورة ق — تفسير جزء عم

اعتنى به
أشرف بن كمال

الجزء الرابع عشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة محمد

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير جزء الذاريات

تفسير جزء قد سمع

تفسير جزء تبارك

تفسير جزء عم

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ALTABARI'S LIBERARY

سَنَةُ الطَّبْع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقمُ الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقمُ الطَّبْعَة : الأولى

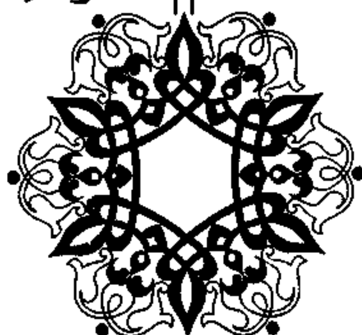

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٢٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الزخرف

هذه سورة الزخرف وقبل أن نبتدئ دراسة تفسيرها، أحب أن أُقدِّم بين هذا بمُقدِّمات:

أولًا: القرآن الكريم ما عقيدة أهل السنة فيه؟

الجواب: عقيدة أهل السنة في القرآن الكريم أنه كلام الله عز وجل، كلام الله حقيقة تكلَّم به حرفيًا وأراد معناه حسب اللغة العربية، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، هذه القرآن ينزل شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي: شيئًا فشيئًا؛ أي: حسب ما يحتاج الناس إليه في وقت نزوله.

ثانيًا: أن القرآن الكريم نزل على وجهين: الوجه الأول: ما له سبب، والثاني: ما لا سبب له.

يعني: الأول: ما له سبب؛ أي: نزل بسبب حادثة وقعت فنزل فيه، ومن الضوابط فيها: أن كل آية أنها بسبب، يسألونك عن كذا هذا سبب، فكلما رأيت في القرآن الكريم آية مُصدَّرةً بكلمة: (يسألونك) فإنها سبب، نزلت لسبب، وقد يذكر فيها يسألونك حسب ما ذُكِر في مكتب التفسير، إذا نزلت الآية لسبب فهل تختص بذلك السبب، أو تكون عامة له ولما يُشاركه في العلة؟ الجواب: تكون عامة له ولما يُشاركه في العلة، ولهذا قال العلماء: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فمثلًا: أول سورة المجادلة نزلت في قصة رجل معين أوس بن الصامت؛ فهل نقول: إن هذا الحكم خاص به، أو نقول: إنه عام له ولمن يُشاركه في المعنى؟ الثاني، فكل من ظاهَر من امرأته فله حطكم ظِهار أوس بن الصامت رضي الله عنه، وهذه القاعدة تُفيد في استعمال الاستدلال في القرآن الكريم، وأن أصله العموم.

القرآن الكريم له خصائص كثيرة؛ منها: أنه لا يمسُّه الإنسان إلا على طهارة؛ يعني: أن المُحدِث لا يحِلّ له أن يمسَّ المُصحف حتى يتوضَّأ، لقول النبي ﷺ فيما كتبه لعمرو بن حزم: «أَلَّا يَمَسَّ القُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ» أي: طاهر من الحَدَث؛ لأن الطهارة من الحَدَث تُسمَّى

طهارة، كما قال عز وجل في آية الوضوء والغُسل والتيمُّم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

واستثنى بعض العلماء رحمهم الله الصِّغار غير المكلَّفين، فقال: لهم أن يمسُّوا المصحف بغير وضوء؛ لأنهم غير مُكلَّفين، وفي هذا الاستثناء نظر؛ لأننا لو قلنا بهذا لقلنا: يجوز لهؤلاء الصغار أن يُصلُّوا بغير طهارة، ولا قائل به فيما أعلم، وعلى هذا فلابد من الطهارة حتى للصغار، لكن ما دعَت الحاجة إلى مسِّه بدون طهارة؛ كألواح الصغار الذين يتعلَّمون في المدارس، هؤلاء لا يحتاجون إلى وضوء؛ لأننا لو كلَّفناهم بذلك لشقَّ عليهم.

هذا القرآن الكريم لا يحل للجُنُب أن يقرأ منه آيةً فأكثر حتى يغتسل، فإذا كان على الإنسان جنابة فإنه لا يحل له أن يقرأ شيئًا من القرآن آيةً فأكثر إلا إذا اغتسل؛ لأن النبي ﷺ كان يُقرِئُ أصحابَه القرآن ما لم يكن جُنُبًا، أو قال: ما لم نكن جُنُبًا.

فإن قال قائل: هل يجوز للجُنُب أن يقرأ آية لا لقصد القرآن، ولكن لأنها آية دعاء مثلًا؛ مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨]؟ فالجواب: نعم، يجوز له هذا؛ لأنه لم يقصد تلاوة القرآن.

فإن سأل سائل: ما تقولون في قراءة الحائض للقرآن؟ فالجواب: اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أن الحائض لا يجوز لها أن تقرأ القرآن؛ لأنها كالجُنُب.

والقول الثاني: لها أن تقرأ القرآن؛ لأنه ليس في السنة دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يمنع الحائض من قراءة القرآن، ولو كانت الحائض لا تقرأ القرآن لبيِّن ذلك، لكثرة وقوع الحيض، واحتياج النساء إلى بيان الحكم، فلما لم يرِد في ذلك حديثٌ صحيحٌ صريح فما الأصل؟ الأصل الجواز؛ لأن القرآن من الذكر، والحائض لا تُمنَع منه، وعندي أن الحائض تقرأ القرآن لحاجة أو مصلحة، الحاجة: كأن تقرأ وِردَها من القرآن؛ مثل: آية الكرسي، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس]، أو تقرأ القرآن لئلَّا تنساه، لمصلحة: مثل: أن تُقرِئ ابنتها أو طفلها القرآن، تُعلِّمه القرآن؛ لأنه إذا لم يرِد دليل صحيح صريح في المنع وكانت المسألة فيها احتمال، فالاحتياط أولَى.

إذن الحكم الآن الذي اخترناه أن لها أن تقرأ القرآن لحاجة أو مصلحة لعدم الدليل الصحيح الصريح على منعها.

القرآن الكريم اختصَّ بأن كل حرفٍ منه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وليس ذلك موجودًا في السنة، حتى الأحاديث القُدُسية لا يثبت لها ذلك، إنما هذا خاصٌّ بالقرآن

الكريم.

القرآن الكريم يختص بالإعجاز؛ أي: بأن الخلق لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، قال الله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] أي: مُعينًا، وليس ذلك موجودًا في أي كلامٍ من كلام البشر، إنما هو في القرآن الكريم، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله؛ بل ولا بعشر سورٍ منه؛ بل ولا بسورةٍ منه؛ بل ولا بآية منه.

القرآن كاملًا، كما في الآية السابقة: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

عشر السور في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

سورة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨].

آية في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤] أيَّ حديث، عجز العرب عن ذلك؛ أي: عن أن يأتوا بشيءٍ مثل القرآن، مع أنهم قد توفَّرت لهم أساليب البلاغة والفصاحة، وصار داعي مُعارضة القرآن عندهم قوية، فلما كان السبب الداعي قويًّا، ولم يُوجد مانع عُلِم أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، ولذلك تجد القرآن الكريم لا يملُّ الإنسان من قراءته ولا من تكراره، وغيره يملّ من تكراره، ويمُجُّه السمع، يثقل على اللسان، لكن القرآن الكريم لا يخلَقُ مع الترداد أبدًا، تجده طريًّا كلما قرأته.

ثم إذا كان الله تعالى قد فتح عليك، وكان عندك نيةٌ وقصدٌ صحيحٌ في معرفة المعنى فكل قراءة تقرأها يتضح لك بها معنى غير المعنى الأول، جرِّب تجِد، هذا شيءٌ معلوم، لكن هذا لمن؟ لمن علِم الله منه صدق الطلب في معرفة المعنى، أما من أعرض عن ذلك فإنه لا يستفيد، لكن من علِمَ الله منه صدق الطلب فإن الله يفتح عليه كلما قرأ القرآن من المعاني ما لم يكن سابقًا.

القرآن الكريم أنزله الله عز وجل، وجعله مباركًا في تأثيره، مباركًا في ثوابه، مباركًا في آثاره.

مباركًا في تأثيره؛ يعني: أنه يُؤثِّر على القلب، ويُليِّن القلب، ويُكسِبُه خشية الله عز وجل؛ لأن الله قال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١] وهو جبل حصى يكون خاشعًا ذليلًا ويتصدَّع من خشية الله عز وجل، فما بالكم بالقلب لو كان القلب حيًّا؟

يكون من باب أولَى، ولهذا قال ابن عبد القوي رحمه الله:

وحافِظْ على درس القُرَآنِ فإنه يُلَيِّنُ قلبًا قاسيًا مثل جَلْمَدِ

وما أكثر الذين يشكون قسوة قلوبهم اليوم لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، ولكن إذا أحسُّوا بقسوة القلب فعليهم بالقرآن، نسأل الله أن يُلَيِّن القرآن.

من جهات كثيرة أيضًا: القرآن الكريم رُقْية من كل داء، كل مرض فالقرآن الكريم رُقْية له، فالقرآن الكريم دواءٌ له، لكل مرض، أي المرض: الجسمي، أو القلبي، أو هما؟ هما؛ المرض القلبي، وهو: الشُّبهة التي تَرِدُ على القلوب، أو إرادة السوء شفاؤها القرآن، المرض الجسمي العضوي شفاؤه القرآن.

نزل قومٌ من الصحابة على قوم من العرب ضيوفًا، ولكن هؤلاء العرب لم يُضيفوا الصحابة أبَوا أن يُضيفوهم، تنحَّى الصحابة إلى جانب ونزلوا، فسلَّط الله على سيد العرب عقربًا فلدَغَته، فقال بعضهم لبعض: ألا تنظرون إلى هؤلاء القوم لعل فيهم من يقرأ، فأتوا إلى الصحابة وقالوا: إن سيدنا لُدِغ، فهل فيكم قارئ؟ قالوا: نعم، فينا قارئ، ولكننا لن نقرأ عليه – على هذا المريض – إلا بقطيع من الغنم؛ لأن هؤلاء العرب لم يُكرِموهم فأرادوا أن يأخذوا حقَّهم منهم، قالوا: ولكم ذلك، فقام رجلٌ من الصحابة على هذا اللديغ وجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة حتى قام كأنما نُشِط من عِقال، والسُّمُّ قد سرى في جسمه، لكن زال هذا وطار، هذا تأثير أو غير تأثير؟ تأثير عجيب، وما أكثر ما نقرأ الفاتحة وغير الفاتحة والمريض يتلبَّط في مرضه، لماذا والآية واحدة؟ لأنه كما يقال: السيف بِضاربه، السيف حديد قاطع، لكن إذا كان مع جبان هل ينفعه أو لا ينفعه؟ السيف مع الجبان لا ينفعه، ربما إذا رأى العدو مُقبلًا عليه ألقى بالسيف وهرب، لكن بيد الشجاع ينفعه ويُدافِع عن نفسه، ويقتل عدوَّه، ولهذا يُذكَر عن بعضهم كان الإمام أحمد رحمه الله يقرأ عليه وكان به صرع من الجن، فيخرج الجن، ولما مات الإمام أحمد عاد الجنيُّ فقام رجل يقرأ على هذا المصروع بما كان الإمام أحمد يقرأ به، ولكن الصارع أَبَى أن يخرج، وأجاب بأن الآية هي الآية، والقارئ غير القارئ، فلا تظن إذا لم تجد تأثير القرآن مباشرة أن القرآن غير مؤثِّر، ولكن القارئ غير مُؤثِّر.

مبارك في آثاره كيف ذلك؟ بماذا فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها؟ بالقرآن أي: بالعمل بالقرآن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بالقرآن حين القرآن باليد اليمنى والسيف باليد اليسرى، والآن كثيرٌ من الممالك الإسلامية بيدها القانون الوضعي بدلًا عن القرآن الكريم، ولذلك كان

التأخُّر والذل في الأمة الإسلامية بسبب عمل من ينتسبون إليها، فالذنب في تأخُّر المسلمين اليوم ليس ذنب الإسلام ولكن ذنب المسلمين، هذا من آثار القرآن الكريم أن من تمسَّك به فهو منصور، والشاهد: ما سبق لسلفنا الصالح.

مباركٌ في ثوابه: الحرف الواحد فيه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وما أكثر حروف القرآن.

وبهذه المناسبة عرضوا عليَّ ورقة مكتوب فيها: (الإعجاز العددي في القرآن) جدول ذكر فيه أن جميع حروف القرآن كلها تقبل القسمة إذا جُمِعَت على تسعة عشر، ولكن هذا افتراءٌ على الله عز وجل، ومُناقضٌ للواقع، ولا يجوز تداوُل هذه البطاقة؛ لأنه لا يمكن لإنسان أن يشهد أن الله تعالى تكلَّم بالقرآن بحيث تكون حروفه منقسمة على تسعة عشر، من يقول هذا؟ لكنه افتراءٌ على الله عز وجل، ثم إن القرآن الكريم لا يمكن أن يُقال: إن آياته تنقسم على تسعة عشر مع اختلاف القراءات؛ فمثلًا: تبيَّنوا في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] والقراءة الأخرى: (فتثبَّتوا) إذًا اختلف أتت الثاء بدلًا عن الباء، وبدلًا عن النون، فاختلَّت القسمة، كذلك في القرآن الكريم: (مَلِكِ يوم الدين)، و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] اختلَّت زاد حرف، لكن هؤلاء المشغوفون بها يدَّعون أنه ذكاء وأنهم اطَّلعوا على ما لم يطَّلِع عليه أحد يأتون بمثل هذه الخُرافات.

هذا القرآن جاء ليُحصِي الناس العدد، ويقسموها على تسعة عشر؟ لا والله، ولا يمكن أن ينزل هذا القرآن الكريم من أجل هذه المُعجزة، كما يقولون، مع أنها ليست معجزة، فاشلة باطلة، أحببت أن أُنبِّه على هذا؛ لأنه ربما تشِيْع؛ لأن الذي سألني عنها يريد أن يطبع منها الملايين ويُوزِّعها على الناس، ويقول: انظروا إلى القرآن الكريم.

نقول: هذا غلط، القرآن ما نزل لهذا المعنى، ولا يمكن أن يُراد به هذا المعنى، انتبهوا لمثل هذه الأمور التي تُنشَر قد تكون من مُلحِدٍ كافر، أو فاسقٍ فاجر يريد بها صدَّ الناس عن المعنى الذي من أجله نزل القرآن، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] أي: ليتفكَّروا فيها ويُردِّدوها بأفكارهم حتى يتبيَّن لهم المعنى، فالقرآن الكريم لم ينزل لتلاوة لفظه فقط؛ بل ولتدبُّر معناه، ولا يمكن العمل به إلا بمعرفة معناه، ولا يمكن معرفة معناه إلا بتدبُّره، إذن فالتفكير في المعنى أمرٌ واجبٌ، يجب أن تتعلَّم معنى القرآن كما تتعلَّم معنى الآجرومية، وهو كتاب صغير في النحو، لا يمكن أن يستفيد منه الإنسان حتى يعرف معناه.

كذلك أيضًا القرآن الكريم لا يمكن أن يستفيد الإنسان منه حتى يعرف معناه، لو أن هناك كتابًا في الطب من أفصح الكتب وأنت لا تعرف المعنى، فهل يمكن أن تستفيد

منه؟ لا يمكن، إذن لا يمكن أن تستفيد من القرآن حتى تعرف معناه، ولقد قال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» وهذا يشمل التعلُّم اللفظي، والتعلُّم المعنوي، ولهذا قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وإذا شئت أن تعرف هذا فاقرأ آية من القرآن مع التدبُّر، واقرأها مع الغفلة تجد الفرق العظيم بين هذا وهذا، لذلك أحثُّكم على تعلُّم المعنى معنى القرآن الكريم، اقرءوا كتب التفسير الموثوقة، واحذروا الكتب التي لا يُعرَف من أَلَّفها، أو التي عُرِف من أَلَّفها بأنه منحرف، وما أشبه ذلك؛ لأن من المُفسِّرين من حرَّف القرآن، ونقله إلى ما يعتقده هو لا إلى ما يدل عليه القرآن، وإذا لم تتأكَّدوا من هذا فاسألوا أهل العلم تستفيدوا من القرآن العظيم، ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ثانيًا قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يتَّعِظ أصحاب العقول، وانظر للفرق بين قوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حيث عمَّم فيها، وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حيث خصَّ؛ لأنه لا يتذكَّر بالقرآن ويتَّعِظ به إلا أصحاب العقول، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فإن قال قائل: إلى من نرجع في تفسير القرآن؟

فالجواب: نرجع إلى القرآن فنُفسِّر القرآن بالقرآن، فإن لم نجِد فبالسنة، فإن لم نجِد فبأقوال الصحابة ولاسيما المُفسِّرون منهم، فإن لم نجِد رجعنا إلى أقوال التابعين المُفسِّرون منهم؛ كمُجاهد ابن جبر، وغيره.

مثال تفسير القرآن بالقرآن: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، والأمثلة كثيرة.

مثال من السنة: قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحُسنى يعني: الجنة، والزيادة هي: النظر إلى وجه الله عز وجل، فسَّر ذلك النبيُّ ﷺ وهو أعلم الخلق بكتاب الله عز وجل.

ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» مرتين أو ثلاثًا، ففسَّر القوة بالرمي؛ لأن الرمي أشد ما يكون فتكًا بالنسبة للأسلحة، وإلى يومنا هذا الرمي هو القوة، كان الناس في الأول يرمون بالسهام بالقوس، الآن يرمون بالصواريخ والقنابل، فلا تظن أن قول النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» خاصة بما كان في عهده؛ بل هي عامة بما يحدث إلى يوم القيامة.

على كل حال؛ نرجع في تفسير القرآن إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ولا نعدل عن أقوال الصحابة إلى تفسير المتأخرين أبدًا، خصوصًا في العبادات، أما في الأمور التي تحدث ويكون في القرآن إشارة لها فهذه قد لا يرِد عن السلف فيها تفسير، ولكن تُفسَّر حسب الوقت؛ لأن هناك أشياء من الأمور الكونية الفضائية والأرضية لم يتكلم فيها السلف، ولكن تكلم فيها المتأخرون، فنقول: يُرجَع إلى قول المتأخرين في هذا؛ لأن السلف لم يكونوا يعرفون ذلك، أما مسائل العبادة والمعاملات وما أشبهها فإنه يُرجَع في ذلك إلى تفسير الصحابة على كل حال.

ثم بعد ذلك كبار المُفسِّرين من التابعين، ومرتبتهم أدنى بكثير من مرتبة الصحابة، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن يرزقنا تعلُّمه لفظًا ومعنى، والعمل به، إنه على كل شيء قدير.

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١-٣].

❁ التفسير ❁

البسملة آية من كتاب الله؛ يعني: أن الله عز وجل أنزلها كما أنزل القرآن، فهي من كلام الله عز وجل، تُفتتحُ بها كل سورة من الفاتحة إلى ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلا براءة، فإنها لم تنزل لافتتاحها، وليست البسملة من السورة التي قبلها، ولا من السورة التي بعدها، وعلى هذا فلا تُحسَب من آياتها.

الفاتحة مثلًا افتُتِحَت بالبسملة، والبسملة ليست منها؛ بل هي آية مستقلة، وأول الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والدليل على هذا: ما جاء في الحديث الصحيح: أن الله عز وجل قال في الحديث القُدُسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ب ب ب ب﴾ قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قَالَ اللهُ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ف ڤ ڤ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» فبدأ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويدل لهذا أيضًا: أن النبي ﷺ كان لا يجهر بها - أي: بالبسملة - في القراءات الجهرية، ولو كانت من الفاتحة لجهر بها كسائر آياتها.

ويدل لهذا: أن الله تعالى قسمها بينه وبين عبده نصفين، فلنقرأ ثلاث آيات لله، وثلاث آيات للعبد، وواحدة بينهما، الثلاث آيات لله هي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، الثلاث للعبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، المشتركة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فتجد هذه المشتركة هي النصف، وهي بين العبد وبين الله نصفين، هي النصف من بين سبع آيات، فإذا قال قائل: نحن نرى في المصحف أن البسملة قد رُقِّمَت على أنها من آياتها، وأن ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قد جُعِلَت آية واحدة؟

فالجواب: أن هذا على رأي بعض العلماء، وكأن الذين طبعوا المصحف أول ما طبعوه، طبعوه على هذا الرأي واستمر الناس عليه، على أنني وجدت مصحفًا مطبوعًا فيه أول آية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والآية السابعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ والبسملة لم تُرقَّم، وهذا هو المُطابق للصواب.

مما يدل على ذلك أيضًا: أن الآيات لا تكون متناسبة في الطول والقِصَر إلا إذا قسمنا الآية الأخيرة قسمين؛ لأنك إذا قلت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ صارت الآية هذه طويلة بالنسبة لبقية الآيات، فلا تناسب.

فعلى كل حال؛ القول الراجح المُتعيِّن: أن أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأن البسملة ليست منها كسائر السور.

البسملة معمولٌ مجرور بالباء؛ لأن كل اسم مجرور بالباء فإنه معمول ولابد؛ يعني: لابد له من عامل محذوف، ولهذا قال «نَاظِمُ الجُمَل»:

لا بـد للجـار مـن التعلُّـق ... بفعـلٍ أو معنـاه نحـو مُرتقِـي

البسملة معمولة لعامل محذوف، فأين عامل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ نقول: العامل محذوف، يُقدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا للمقام.

لو سألت: لماذا نُقدِّره فعلًا ولا نُقدِّره اسمًا فنقول: بسم الله قراءتي؟ فالجواب: الأصل في العمل الأفعال، ولذلك لا تجد اسمًا عاملًا إلا بشروط.

لماذا قدَّرناه متأخرًا، ولم نقل: أقرأ بسم الله؟

لفائدتين: الفائدة الأولى: التبرُّك ببداءة الكلام بسم الله، الثانية: الحصر؛ يعني: بسم الله

لا بسم غيره؛ لأنه إذا تقدَّم المعمول على العامل كان ذلك دليلًا على الحصر؛ يعني: الاختصاص، فكأن القارئ يقول: بسم الله أقرأ لا بسم غيره.

لماذا قدَّرناه فعلًا مناسبًا؟ لأنه أدل على المقصود؛ فمثلًا: هنا نريد أن نقرأ نقول: التقدير: بسم الله أقرأ، لو قال قائل: لماذا لا نقول: بسم الله أبتدئ؟ قلنا: لأن كلمة أبتدئ صالحة لكل فعل يُبتدأ به، وإذا قلت: أقرأ صار خاصًّا وهو أدل على المقصود، هذا تقرير إعراب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كلما أتتك.

أما قولنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فالمراد: بكل اسم لله، وإنما حملناها على العموم؛ لأن المفرد إذا أُضِيف صار للعموم؛ أي: أبتدئُ بكل اسم من أسماء الله.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة، ﴿الرَّحِيمِ﴾ أي: ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿حمٓ﴾ قال المفسر: [الله أعلم بمراده به] هذان حرفان هجائيان أحدهما: حاء، والثاني: ميم، لا إعراب لهما، وهل لهما معنى؟ المؤلف المُفسِّر يقول: [الله أعلم بمراده به] إذن لا ندري هل لها معنى أو لا، ولا ندري ما المراد بالمعنى؟ فموقفنا من هذا: التفويض، الله أعلم، وهكذا يُقال في كل حرف هجائي ابتُدِئَت به السورة، فالمؤلف رحمه الله يقول: ما لنا ولتفسيره، الله أعلم بمراده به، قد يكون أراد معنى، وقد لا يكون أراد معنى، وقد يكون أراد معنى تدل عليه السورة، وقد يكون أراد معنى آخر، لكن هذا القول ضعيف، والصواب: أن نقول: لا معنى له، ليس معناه: أنه حشو لا فائدة منه، لكن لا معنى له ذاتيًّا، بدليل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥] ثلاث آيات، اللسان العربي هل وُضِع فيه حروف هجائية لها معنى؟ لا، اللسان العربي وُضِعَت فيه حروف هجائية لتركيب الكلام منها، وهي في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفًا، عندما تقرأ في اللوح: أ ب ت ث ج ح خ ما معناها؟ ليس لها معنى، إنما هي حروف تُكوِّن منها الكلمات، فإذا كان كذلك والقرآن الكريم نزل بلسان عربي فإننا نجزم بأنه ليس لهذه الحروف أي معنى.

قوله: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١- ٢] هل طه اسم من أسماء الرسول؟ لا، طه مثل: ﴿الٓر﴾، ومثل: ﴿حمٓ﴾، فإذا قال الإنسان: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ خطاب، نقول: إذًا اجعل ن من أسماء الرسول؛ لأن الله قال: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١- ٢] ولا قائل به.

إذا قال قائل: ما الفائدة من هذه الحروف الهجائية إذا لم يكن لها معنى في حد ذاتها؟

أقول: الفائدة أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره من العلماء الذين سبقوه ولحقوه، الفائدة: التنبيه على أن هذا القرآن الكريم الذي عجز الناس أن يأتوا بمثله لم يأت بحروف جديدة، فيحتج الناس ويقولوا: هذه حروف ما نعرفها جديدة، القرآن الكريم جاء بالحروف المعروفة عند المُخاطَبين، ومع ذلك أعجزهم، قال شيخ الإسلام وغيره: ولذلك لا تجد تكاد سورة مُفتتحة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدتَ بعدها ذكر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿حمٓ﴾ ما هو التفسير الصحيح لها؟ نقول: ليس لها معنى في حد ذاتها، ولكن لها مغزى، وهذا الذي قرَّرناه هو الذي ذكره مجاهد رحمه الله إمام المُفسِّرين في عهده، نقله عنه ابن كثير في «تفسيره».

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الواو حرف قسم، وفسَّره بأنه [القرآن]؛ لأن الله تعالى سمَّى القرآن كتابًا، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١- ٢]، وسمِّي كتابًا؛ لأنه كتِب في اللوح المحفوظ، ولأنه كتِب في المصاحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ولأنه كُتِب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يقول المؤلف: [المظهِر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة] ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ من أبان الشيءَ إذا أظهره، فمعنى كونه مبينًا أنه مُظهِر للحق موضِّحٌ له؛ بل لكل ما يحتاج الناس إليه؛ يعني: أن القرآن أظهر كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم.

وقيل: المراد بالُمبين: البيِّن، وأيهما أعم؛ البيِّن أو الذي بيَّن الشيء؟ الأعم أنه مُظهِر للحق؛ لأنه لا يُظهِر للحق إلا إذا كان ظاهرًا، وعلى هذا ففسِّر المبين بأنه مظهِر، وإن فسَّرته بهما فلا بأس، فقلت: إنه بيِّن مُبين؛ لأن الكلمة احتملت معنيين، وهذه قاعدة: الكلمة إذا احتملت معنيين مُساويين لا يُنافي أحدهما الآخر وليس أرجح منه، فإنه تُحمَل عليهما جميعًا.

قوله: [﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أوجدنا الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون معانيه].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله عز وجل، وضمير المفعول يعود على القرآن، ومعنى ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ على كلام المؤلف: أوجدناه قرآنًا عربيًّا، الصواب: أن المعنى: صيَّرناه قرآنًا عربيًّا؛ أي: صيَّرناه بلغة العرب.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهموه، والخطاب في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ على كلام المفسِّر يعود إلى أهل مكة، والصواب: أنه يعود إلى العرب كلهم؛ لأن العرب من مكة وغيرهم، فيكون المعنى: صيَّرناه بلغة العرب لتفهموه أيها العرب.

المعنى: أن الله تعالى أقسم بالقرآن أنه جعله باللغة العربية من أجل فهمه.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآيات:** جواز القسم مع تأكّد صحة المقسِم بدون القسم؛ يعني: جواز أن الإنسان يقسِم على الشيء مع أن قوله مقبولٌ على كل حال، وجه الدلالة: أن الله تعالى أقسم وقوله مقبولٌ على كل حال، وصدقٌ بلا يمين، حينئذٍ يتولّد من هذا: كيف يقسِم الله عز وجل على الشيء وهو صادق بدون قسم؟ فنقول: لفائدتين:

الفائدة الأولى: بيان أهمية هذا الشيء، وأنه جديرٌ أن يقسَم عليه.

والثانية: أن القسم من فصاحة الكلام في اللغة العربية، فإذا كان من فصاحة الكلام فالقرآن نزل باللغة العربية، فيكون هذا مطابقةً لأسلوب اللغة العربية.

كيف أقسم الله بالقرآن مع أنه لا يجوز القسم بغير الله؟ والجواب على هذا: أن القرآن صفة من صفات الله؛ لأنه كلام الله، والقسم يجوز بالله، وبالصفة من صفاته؛ لأنها مُعظَّمة، والقرآن من صفات الله؛ لأنه كلام الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** بيان عظمة القرآن؛ لأن الله لا يُقسِم إلا بشيء عظيم؛ بل إن القسم نفسه - كما قال بعض من فسَّره -: تأكيد الشيء بذكر مُعظَّم بصيغةٍ مخصوصةٍ بأحد حروف القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن مُبين؛ أي: مظهِر للحق ولكل ما يحتاج الناس إليه؛ بل هو مُظهِر حتى للباطل مُبيِّنٌ له، ومُحذِّرٌ منه؛ بل إنه بيان لكل شيء، كل شيء فالقرآن مبيِّنه.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى ذكر أشياء لا مجال للعلم فيها، فأين بيانها؟ قلنا: بيانها في قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فيما يتعلق بالصفات؛ لأن بيانها على وجه التفصيل لا تحتمله العقول، فكان من الحكمة ألَّا تُفصَّل، وإلا فهو تبيانٌ لكل شيء.

ذكِر أن أحد العلماء كان في مطعم، وكان حوله رجلٌ من النصارى، فاستغل النصرانيُّ الفرصة ليُلقِي على هذا العالم سؤالًا يتحدَّاه به، فأتى إليه، وقال له: أيها الشيخ! قال: نعم، ماذا تريد؟ قال: القرآن كتابكم يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فكيف نصنع هذه السلطة؟ أين هذا في القرآن؟ وكان العالم المسلم ذكيًّا، قال: نعم، هذا موجود في القرآن، قال: أين هو؟ فنادى الطبَّاخ، وقال: كيف صنعتَ هذا؟ فجعل الطبَّاخ يشرح له، فقال: هكذا جاء في القرآن، قال: كيف؟ قال: إن الله قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] فأحالنا فيما لا نعرف على من يعرف، وهذا

بيانه، لم نتحيَّر الآن في معرفة كيف تصنَع هذه السلطة.

لو قال لنا قائل: القرآن تبيان لكل شيء؛ كيف نصنع هذا التليفون؟ هل في القرآن وصفٌ لصناعته؟ أين ذكره في القرآن؟ نقول: الله عز وجل أحالنا إلى سؤال من يعرف إذا كنا لا نعرف، وهذا بيان، ما أوقفنا متحيِّرين، إذن في هذه الآية دليل على أن القرآن مُبيِّنٌ لكل شيء.

ولكن القرآن يحتاج إلى تدبُّر، بدون تدبُّر لا يمكن أن تهتدي، ثم اعلم أنك كلما أمعنتَ وتعمَّقت في تدبُّر القرآن فتح الله لك من أبواب المعرفة ما لم يكن من قبل، وصِرتَ تستنبط من الآية الواحدة من الأحكام ما لا يستنبطه غيرك، فاحرص على التدبُّر.

٤ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أن هذا القرآن الذي أعجز العرب من الحروف التي يُركِّبون منها كلامهم، ومع ذلك أعجزهم.

٥ - **ومن الفوائد أيضًا:** جواز تأكيد الخبر بالقسم ولو كان المُخبِر لا يحتمل خبره الكذب، وجهه: أن الله تعالى أقسم مع أن كلامه لا يحتمل الكذب، ولكن هذا من أجل أهمية المُقسَم عليه.

٦ - **ومنها:** قضية القرآن الكريم وعِظَمه؛ لأن الله أقسم به، ولا يقسَم إلا بالشيء المُعظَّم.

٧ - **ومنها:** أن القرآن الكريم مكتوب، وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بين أيدينا.

٨ - **ومنها:** أن القرآن الكريم مُبيِّنٌ لكل ما يحتاج إلى البيان، لقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، ولكن هل هذا البيان حاصلٌ لكل أحد؟ لا، ليس حاصلًا لكل أحد، من الناس من يفهم من القرآن أشياء كثيرة، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، فالأقسام ثلاثة: من الناس من يفتح الله عليه فيفهم من الآية الواحدة عشرات المسائل، ومن الناس من هو دون ذلك، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، ولهذا لما سئِل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عهِدَ إليكم النبي ﷺ بشيء؟ قال: (لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما عهِدَ إلينا بشيء إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من عباده، وما في هذه الصحيفة)، وإنما سُئِل عليٌّ عن ذلك؛ لأنه أُشِيعَ في زمنه أن النبي ﷺ عهِدَ إليه بالخلافة، وقال: أنت الخليفة من بعدي، فبيَّن رضي الله عنه أن هذا لم يكن، والشاهد من هذا الأثر: قوله: (إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من عباده)، ولذلك ترى بعض العلماء إذا تكلَّم على الآية مُستنبِطًا فوائدها يأتي بالعجب العُجاب، ومن أبلغ ما قرأتُه ما يحصل لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، فإن الله تعالى يفتح عليهما من فهم القرآن

ما لا يكون لغيرهما.

ومن الناس من فهمه دون ذلك، لكن درجات، ومن الناس من لا يفهم شيئًا، دليل الأخير: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني: إلا قراءة، والأماني: جمع أمنية، ومنه قول الشاعر في أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه:

تمنَّى كتابَ الله أولَ ليله وآخِرَه لاقَى حِمَامَ المَوارِدِ

أي: قرأ كتابَ الله؛ لأن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه قتِل شهيدًا بداره وهو يتهجَّد ويقرأ القرآن.

هل الذي لا يفهم يقدح في كون القرآن تبيانًا لكل شيء؟ لا؛ لأن القرآن في حد ذاته تبيان لكل شيء، كما أن الجبان الذي بيده سيفٌ بتَّار لا يُقدِم فيقتُل به، وليس هذا عيبًا في السيف.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن القرآن حادث؛ يعني: أنه بإرادة الله عز وجل، لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، والله قادرٌ على أن يجعله بلغة أخرى، لكن صيَّره باللغة العربية، ومعلومٌ أن العرب حادثون أو أزليُّون؟ حادثون، فيكون ما نزل بلغتهم حادث، وهذا هو الحق: أن كلام الله عز وجل حادثٌ؛ بمعنى: أنه يتكلَّم متى شاء، متى شاء تكلَّم، ومتى شاء لم يتكلَّم، كما قال النبي ﷺ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ»، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، بما شاء، كيف شاء.

قلنا: إن كلام الله تعالى حادث، المعنى: أنه يُحدِثُ من كلامه ما شاء.

والأشعرية الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري يقولون: إن الله لا يتكلَّم متى شاء أبدًا؛ لماذا؟ لأن الكلام معنى قائمٌ بنفسه أزَليٌّ، لكنه يُحدِثُ أصواتًا يخلقها متى شاء فتُسمَع، فيَرون أن الكلام لا يتعلق بمشيئته، وأيُّها أكمل: من يتكلم بمشيئته، وبما شاء، وكيف شاء، ومن لا يستطيع هذا؟ الأول، لكن أبَتْ بدعتهم إلا أن يقولوا بالثاني، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابًا سمَّاه: «التسعينية» بيَّن بُطلان هذا القول من تسعين وجهًا، رحمه الله وجزاه عن أمة محمد ﷺ خيرًا.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية**: أن كون القرآن باللغة العربية منقبةٌ كبرى للعرب، أن يكون القرآن العظيم نزل بلغتهم، لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

فإذا قال قائل: هذه عصبيَّة وحميَّة للعرب، ويفتخر بها العرب الملحِدون، فما الجواب لأن هذا مُشكِل؟، العرب المُلحِدون الذين يبنون الولاء والبراء على القومية العربية، يفخرون بهذا، فنقول: من كان كافرًا فلا فخر ولو كان من صميم العرب، والدليل: أبو

لهب عمُّ النبي ﷺ، أنزل الله في حقه سورة كاملة تُتلَى في الصلاة، وفي المساجد، وفي كل مكان يُتلَى فيه القرآن إلى يوم القيامة في ذمِّه، وهو من العرب، فالعروبة لا تجدِي شيئًا مع الكفر، لكن إذا اجتمع الدين والدنيا، فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا، إذا صار مسلمًا وعربيًّا.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الحُجَّة لا تقوم على العباد إلا إذا فهموها، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والعقل هنا بمعنى: الفهم، فلو تُلِيَ القرآن على رجلٍ أعجميٍّ لا يفهم معناه، ولم يقَل له: هذا كلام الله، فإنه لا حُجَّة عليه، ويدل لهذا: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن قال قائل: ماذا تقولون في قول الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ولم يقل: ومن فهِمَ؟

فالجواب: أن نقول: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ مُقيد بالنصوص الأخرى الدالة على أنه لابد من الفهم، أو يُقال: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ من العرب الذين يفهمون.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على الكتاب المبين، وهو: القرآن.

وقوله: ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو: اللوح المحفوظ، وسمِّي أمًّا؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتَب من بعده، والكتابة أنواع: الكتابة العظمى العامة الشاملة: ما كُتِب في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، والفرق هنا حال من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: أن الذي لدى الله في هذه الآية هو: ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ عند الله عز وجل، وهو محفوظٌ من التغيير والتبديل؛ لأنه أم الكتاب، وأما الكتب التي بأيدي الملائكة ففيها تغيير وتبديل، كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقوله: ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو علوٍّ، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكمٍ وحكمة، وصفان عظيمان للقرآن الكريم وصف الله بهما نفسه.

عليٌّ بمعنى: عالٍ، لكنه أبلغ؛ لأن (عليٌّ) على وزن فعيل صفة مُشبَّهة، وصفة المُشبَّهة تدل على الثبوت والاستمرار، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو حكم وحكمة، فالقرآن حاكمٌ، والقرآن مُشتملٌ على الحكمة، معنى قولنا: حاكم أنه: مرجع للحكم، لا يُحكَم بغيره، ومعنى حاكم: أنه مُهيمنٌ على جميع الكتب حاكمٌ عليها.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ هل المراد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذِكرَه، أو المراد: نفس القرآن في اللوح المحفوظ؟ يحتمل أن المراد: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذكرَه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومعلوم أن القرآن ليس في زُبُر الأولين، ولكن في زُبُر الأولين ذِكرُه، ولكن إذا تأمَّلنا قلنا: الأصل أن الضمير يرجع إلى المُضمَر الذي دلَّ عليه؛ أي: إلى نفس المُضمَر الذي دلَّ عليه، وحينئذٍ يكون: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن كله في اللوح المحفوظ.

فإن قال قائل: هذا القول يرِدُ عليه: أن في القرآن الكريم كلمات تحدَّث الله بها عن شيء مضى؛ مثل: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] هذا الخبر بعد المجادلة أو قبلها؟ بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارة إلى غزوة أُحُد، ﴿غَدَوْتَ﴾ أي: خرجت في الغداء، هذا الخبر بعد وقوع المُخبَر عنه أو قبله؟ بعد أن غدا؛ لأن غدا فعل ماض، فهنا يُشكِل يُقال: كيف كان في اللوح المحفوظ يتحدَّث الله عن شيء حصل قبل أن تنزل الآية؟ فيقال: لا إشكال، والجواب: أنه كتب هذا في اللوح المحفوظ لعلمه أنه سيقع، ثم أنزله بعد وقوعه، كما أن الحوادث الكونية مكتوبة في اللوح المحفوظ لعلمه سبحانه أنها ستقع، ثم تكون حين يريد الله أن تكون.

وكنت قبل ذلك أُرجِّح؛ بل أقول: يتعيَّن أن الذي في اللوح المحفوظ ليس القرآن، لكن الذي في اللوح المحفوظ ذِكرُ القرآن؛ أي: أنه سينزل القرآن على هذه الأمة، واستدللت على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، والذي في زُبُر الأولين هو ذِكرُ القرآن بلا شك، مُستندًا إلى مثل الآيات التي ذكرتُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ . .﴾ حتى عثرتُ على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبيَّن ما ذكرتُ لكم أخيرًا أنه لا مانع أن يُكتَب في اللوح المحفوظ بلفظ الماضي؛ لأن الله عِلمَ أنه سيكون وأنه سيُنزِل هذه الآية بعد أن يكون، وبناءً عليه تبيَّن لي أن الذي في اللوح المحفوظ هو القرآن بناءً على ظاهر الآيات: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ

مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١- ٢٢]، والحمد لله الذي فتح عليَّ، وجزى الله شيخ الإسلام ابن تيمية خيرًا، وهذا يدل على أن الإنسان مهما كان لابد أن يعتريه النقص.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** عناية الله تبارك وتعالى بهذا القرآن، وهذا يدل على شرفه؛ حيث جعله عنده في أم الكتاب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن عالٍ؛ بل عليٌّ، وهذا يدل على أن من تمسَّك بهذا القرآن فله العلو، كقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥] فنقول: القرآن عليٌّ، ومن تمسَّك به فله العلو، وشاهد هذا: الواقع، لما كانت الأمة الإسلامية متمسِّكة بالإسلام كان لها العلو والظهور وملكت به مشارق الأرض ومغاربها، ولما تقاعَسَت وتخاذَلت وتنازعت وتباغَضت صار بالعكس، صار لها الذل، الآن أمة العرب يدعون اليهود إلى السِّلْم ويُكرِّرون ذلك، ويمُدُّون أيديهم إلى دول النصارى لتُساعدهم على السِّلْم؛ لماذا؟ لأننا لم نتمسَّك بالقرآن، فكنا أذلَّة نتوسَّل بأعدائنا أن يقع السِّلْم بيننا وبين أعدائنا؛ يعني: لو قال لنا قائل: نحن أمة القرآن، ومع ذلك فالناس في ذل، قلنا: لأننا لم نتمسَّك بالقرآن، ولو تمسَّكنا بالقرآن لضمِنَّا لأنفسنا العلو والغلبة والظهور، لكن الأمر بالعكس، الآن غالب المسلمين يلهثون وراء الدنيا مُعرِضين عن الدين، ما الذي يُنمِّي الاقتصاد؟ ما الذي يحصل به الترف؟ وما أشبه ذلك، لكن ما الذي يُقوِّي الدين؟ هذا قليل أو معدوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن من جادَل بالقرآن فهو غالب؛ لأن الذي له العلو هو القرآن، أي إنسان يُناظِرك ووسيلة إقناعه ودحره القرآن فإنك ستغلبه بلا شك، لكن لما عدَل كثير من الأمة إلى كلام أهل الكلام هل هُدوا إلى الصراط المستقيم؟ لا، هل غلبوا الأعداء؟ لا، تسلَّط عليهم الأعداء، حتى الفلاسفة المُعرِضون صاروا يحتجُّون بالأشاعرة على ما هم عليه من الباطل، ويقولون: أنتم أيها المعتزلة حرَّفتم النصوص إلى ما ترونه عقلًا، ونحن أيضًا انصرفنا عن النصوص إلى ما نراه عقلًا، فاحتجُّوا ببدعة هؤلاء على إلحادهم، وقالوا: نحن وأنتم سواء، أنتم حرَّفتم ونحن حرَّفنا، لكن لو تمسَّكنا بالقرآن أيستطيع هؤلاء الفلاسفة أن يُجرِّمونا؟ لا، لكن اقرأ كتب أهل الكلام تجد صفحة بل صفحتين لا تأتي منهما إلا بفائدة واحدة، ولهذا صحَّ أن نقول: إنهم أهل الكلام، وكلامهم كلام؛ بمعنى: أنه كلام لا فائدة منه، وانظر إلى قوله ﷺ لما شكا إليه الصحابة ما يجدون في نفوسهم من وساوس الشيطان قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»، وأمَرَ من وجد هذه

الوساوس أن يستعيذ بالله وينتهي «فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ» ماذا يكتب الفلاسفة والمتكلمون على هذا؟ يكتبون الكثير مما يدَّعون أنه عقليات وهو وهميات، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم التمسُّك بهذا الكتاب العزيز، وأن يُعِزَّنا به.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف:٥].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

الهمزة هنا للاستفهام المراد به: النفي، بدليل أن المُفسِّر قدَّر بعده قولَه: [لا] يعني: لن نضرب عنكم الذكر صفحًا، المعنى: أنه لا يمكن أن نترككم بدون إنذار لكونكم قوم مجرمين؛ بل لابد من الإنذار، كما تقول: ضربتُ عن هذا صفحًا؛ يعني: أعرضت عنه، ولم ترفع به رأسًا، والمراد به: النفي توبيخًا لهؤلاء الذين أعرضوا عما جاء به النبي ﷺ، والضمير في قوله: نضرب يعود إلى الله عز وجل، وأتى بالضمير الدال على الجمع تعظيمًا لله تعالى، وليس للتعدُّد؛ لأن الله عز وجل واحدٌ لا شريك له.

والضمير في قوله: ﴿عَنكُمُ﴾ يعود إلى قريش الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ.

وقوله: ﴿صَفْحًا﴾ مصدر معنوي لكلمة ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ لأن معناه: إعراضًا، المعنى: أنُعرِض عن تذكيركم وإنذاركم؟ وهذا الذي سمعتم يفعله العرب في كلامهم، يقول: أعرضتُ عنك صفحًا؛ يعني: لم أبالِ بك، ولم ألتفت إليك.

وقوله: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول لأجله؛ أي: لأجل أن كنتم قومًا مسرفين، فهي تعليلية، والإسراف: مجاوزة الحد.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن الله تبارك وتعالى لم يترك عباده هملًا؛ بل بيَّن لهم الحق، ودعاهم إليه، وخوَّفهم من مخالفته، فلم يبق لأحد عذرٌ.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان معذور بالجهل إذا لم تبلغه الرسالة، وهذا له أدلة؛ منها: قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] والأدلة على هذا كثيرة، وقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ أَو نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»، فقال: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ».

فإن قال قائل: وهل يُشترط مع بلوغ الرسالة أن يفهمها المُخاطَب؟ فالجواب: نعم يُشترط هذا، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أيُّ فائدة في رسول يأتي إلى قوم لا يعرفون لغته، وهو لا يعرف لغتهم؛ أيُّ فائدة تحصل؟ لا فائدة، والله عز وجل أرحم وأحكم من أن يُعذِّب قومًا بدون أن يفهموا ما جاءت به الرسل.

يبقى النظر إذا كان الإنسان مسلمًا، ولكنه يقوم بأعمال شركية لا يظن أنها شرك، فهل يُحكَم بشركه؟ فالجواب: لا حتى تقوم عليه الحُجَّة، فإذا قامت عليه الحُجَّة فحينئذٍ نحكم بشركه.

وإذا قال قائل: رجل في الغابات بعيد عن المدن، بعيدٌ عن الحضارات، لكنه ينتمي إلى دين كفرٍ؛ فهل هذا معذور؟ فالجواب: أما في أحكام الدنيا فليس بمعذور؛ يعني: أننا نُعامِله معاملة الكافر؛ لأنه لا ينتمي إلى دين الإسلام بخلاف الأول، نُعامِله في الدنيا معاملة الكافر، أما في الآخرة فأمرُه إلى الله عز وجل، لا ندري ماذا يكون؟ وقد جاء في الحديث: أن أهل الفترة يُرسل الله إليهم رسلًا يوم القيامة يمتحنهم؛ من أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

فإن قال قائل: على قولك هذا يلزم أن تكون الآخرة دار تكليف؟ فالجواب: نعم، نلتزم بهذا، وقد دلَّ القرآن على أن الآخرة دار تكليف، فقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣] فهنا كُلِّفوا بالسجود مع أن الآخرة ليست دار تكليف في الأصل، ولكن قد يُكلَّف الناس فيها.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أحكام الله عز وجل مُعلَّلة بعلل مناسبة للحكم، وهذا من مقتضى حكمته ألَّا تجد حكمًا إلا وله حكمة، ولكن هل يلزم من كونه

له حكمة أن تكون معلومة لنا؟ الجواب: لا؛ لأن عقولنا أدنى من أنحيط علمًا بحكمة الله عز وجل، لكننا نعلم أنه لا يحكم بشيء قدرًا أو شرعًا إلا وله حكمة، إذا رأيتَ الله عز وجل حكم حكمًا في الكتاب أو السنة فلا تبغ به بديلًا، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولما سُئِلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن الحائض تقضي الصيام دون الصلاة، قالت: كان يُصيبنا ذلك، فنُؤمَر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٦ - ٧].

❁ التفسير ❁

ثم قال عز وجل: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَكَمْ﴾ هذه خبرية تدل على الكثرة، عامِلها ما بعدها ﴿أَرْسَلْنَا﴾ والإرسال هو: الإيحاء إلى بشر بشريعة ويُؤمَر بتبليغها.

وقوله: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ بيان لـ ﴿وَكَمْ﴾، والمراد هنا: الرسول؛ لأنه قال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ والنبي يُطلَق على الرسول كثيرًا، في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] وأمثال ذلك، والمراد: الرسول.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقين على هذه الأمة.

وقوله: ﴿وَمَا﴾ [كان] ﴿يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَا﴾ [كان] ﴿يَأْتِيهِم﴾ قدَّر المؤلف: [كان] لأن الأمر قد مضى، ولو كان على نسق الكلام ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ لكان هذا في المستقبل، لذلك قدَّر المُفسِّر [كان] وهذا يدل على عُمق علم المُفسِّر، ولكن خيرٌ من ذلك أن نقول: لا حاجة إلى التقدير؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام مُقدَّر أو غير مُقدَّر فالأصل: عدم التقدير، فنقول: الآية باقية على ظاهرها، ولكنها على حكاية الحال؛ يعني: كأن الماضي حاضر الآن، وهذا أبلغ في تخويف قريش من المخالفة.

وقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ (مِنْ) هذه زائدة إعرابًا لكنها مفيدة معنى، زائدة إعرابًا بمعنى: أنها

لو نُزِعت من السياق لتمَّ بدونها، لو كان لفظ الآية الكريمة: وما يأتيهم رسول يستقيم الكلام، ولكن جاءت (مِنْ) زيادة في الفائدة؛ وما هي الفائدة؟ الفائدة: يقول علماء البلاغة وعلماء النحو: إن زيادة الكلمة - يعني: الحرف - في الجملة تدل على التوكيد، فعليه كل كلمة زائدة في القرآن من حيث الإعراب فهي مفيدة للمعنى.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما يأتيهم إلا استهزءوا، لا يقبلون ولا يسكتون؛ بل يستهزئون، والاستهزاء: السخرية؛ بمعنى: أنهم يسخرون بهم ويحتقرونهم ليُحذِّروا الناس منهم، فانظر إلى رحمة الله عز وجل كيف يُرسل الرسل وهو يعلم أن هؤلاء المدعوِّين سيُقابلونهم باستهزاء، ولكن إقامةً للحُجَّة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أرسل عددًا كثيرًا من الأنبياء في السابقين، وقد جاء في بعض الأحاديث: أنهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، فالله أعلم؛ لأن هذا يحتاج إلى دليل صحيح صريح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ومعلوم أن من لم يُقصَص علينا فلن نستطيع أن نعرف عددهم.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أقام الحُجَّة على جميع الخلق، ويُؤيِّد هذا قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن النبي ﷺ إذا علِمَ أن الرسل من قبله يُستهزأ بهم فإنه يتسلَّى ولا شك، وأنت اعرف هذا من نفسك، إذا أُصِبتَ بمصيبة وأُصيب غيرك بمثلها وتهون عليك المصيبة؟ بلى، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: أن اشتراككم في العذاب لا يُخفِّف العذاب عنكم، ولا يحصل لكم به التسلِّي؛ لأن كل واحد من أهل النار – أعاذنا الله وإياكم منها – لا يرى أن أحدًا منه أخف عذابًا، ولذلك يشتد حُزنه – والعياذ بالله – إذا رأى أنه هو أشد الناس عذابًا وهو أهونهم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الاستهزاء بالرسل تكذيبٌ لهم وزيادة، لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ واعلم أن الاستهزاء بالرسل كفرٌ، والاستهزاء بالكتب كفر، والاستهزاء بالله كفر، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] واختلف العلماء رحمهم الله فيمن استهزأ بالله أو آياته أو رسوله، أو

سبَّ الله، أو كتابَه، أو رسولَه؛ هل تُقبَل توبتُه أو لا تُقبَل على قولين.

والصحيح: التفصيل في هذا: وهو أنه إن وُجِد ما يدل على استقامته وصحة توبته فإنها تُقبَل، وإلا فلا، وذلك أن لهذا المُستهزئ، أو الساخر، أو السابّ ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستمر في ذلك، فهذا لا توبة له، ويُقتل رِدَّةً.

الثانية: أن نعلم أنه تاب توبةً نصوحًا، بأنه استقام، وصلحت حاله، فهذا تُقبَل توبته بلا إشكال.

والثالث: أن نتردَّد؛ هل هو صادق في توبته أو غير صادق؟ فهذا يُقتَل ويكون أمره إلى الله عز وجل، نقلته لظاهر حاله؛ لأننا لم نتيقَّن أن هذه الحال قد تغيَّرت إلى ما يمنع قتله، فنقتله، أما في الآخرة فأمره إلى الله.

فإن قال قائل: الاستهزاء بالله، وسبُّ الله عز وجل ذنبٌ عظيم لا يتحمل أن تُقبَل توبة فاعله.

فالجواب: أن نقرأ قول الله عز وجل في نفس الآية: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ يعني: إن عفونا عن طائفة منكم في توبتهم عذَّبنا الطائفة الأخرى التي لم تتُب، واقرأ قول الله عز وجل: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٨].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ يعني: بالموت ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي: من كفار قريش ﴿بَطْشًا﴾ أي: [قوة] ﴿وَمَضَىٰ﴾ [سبق في آيات] ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يعني: قوة؛ كقوم هود، وقوم صالح، ومن أشبههم، أهلكهم الله وهم أشد قوةً من الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ، أشد بطشًا، وأكثر أموالًا وأولادًا ومع ذلك ما أغنتهم شيئًا.

في هذه الآية: بيان شدَّة صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث إنهم يُستهزأ بهم وهم صابرون حتى يأتي أمر الله، وإلا فمن الذي يُطيق أن يدعو الناس وهم يستهزئون

به لولا أن يُثبِّت الله عز وجل الإنسان بالقول الثابت، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤- ٧٥].

الفوائد:

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير قريش من ردِّ دعوة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى توعَّدهم بذكر إهلاك من سبق، وكل إنسان له قلب إذا ذُكِر له حال الأمم السابقة وأنهم أُهلِكوا فلابد أن يتعظ، ولابد أن يخاف ويخشى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز التحويل على شيء سابق، لقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحوالهم وصفاتهم، والتحويل فيه فائدة، وهي: أن يتذكَّر الإنسان ما مضى، وأن يعود إليه.

وقد عاب قوم على الحافظ ابن حجر رحمه الله لكثرة حوَالاته في «فتح الباري»، والحقيقية: أن لا عيب، ولا يرِدُ على هذا أنه أحيانًا يُحيل ولا نجد ما يُحيل به، أحيانًا يقول: يأتي في باب كذا، ولا تجده؛ لأنه قد يكون معذورًا بالنسيان، أو ألحقه بنسخةٍ لم تصل إلينا، أو ما أشبه ذلك.

المهم: فائدة الإحالات: تذكير الإنسان ما سبق، واهتمامه بالكتاب، ورواج الكتاب كله؛ لأنه إذا كان هناك إحالات فلازم ذلك أن يكون عندك كل الكتاب؛ لأنه سيُحال عليه، فلابد أن يكون عندك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف: ٩].

❁ التفسير ❁

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الخطاب للنبي ﷺ، الجملة هذه فيها شرط وفيها قسم، فيها شرط، وهي: إنْ، وفيها قسم دلَّت عليه اللام؛ لأن اللام موطئة للقسم، القسم يحتاج إلى

جواب، وهو ذكرُ المُقسَم عليه، والشرط يحتاج إلى جواب، وهو جواب الشرط، إذا اجتمعا ماذا نُقدِّم؟

يقول ابن مالك في «الألفية»:

واحذف لدى اجتماعِ شرطٍ وقسمِ   جوابَ ما أخَّرتَ فهوَ مُلتَزَم

الآية الكريمة معنا ما هو المؤخَّر القسم أو الشرط؟ الشرط، إذن احذف جواب الشرط، واكتفِ بجواب القسم عنه، ولذلك نجد أن الآية قُرِنَ في الجواب اللام، وهي: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولو كان هذا الجواب للشرط لم نحتجْ إلى اللام.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [حُذِف منه نون الرفع لتوالي النونات، وواو الضمير لالتقاء الساكنين] أصلها قبل الحذف: ليقولونَنَّ كم عندنا من نون؟ ثلاثة، احذف الأولى؛ لأن حذفها معتاد؛ أي: حذف نون الرفع من المضارع كثير ولأن نون التوكيد جاءت لغرض لو حذفناها لفات الغرض، وهو: التوكيد، إذن فنحذف نون الرفع، وهي: النون الأولى لتوالي النونات، ثم يأتي دور الضمير ليقولونَّ، الواو لماذا حذفناها؟ لالتقاء الساكنين، الساكنان هما: الواو ساكنة، والنون المُشدَّدة الحرف الأول منها ساكن، فتُحذَف الواو.

هذا التعليل هو من النحويين لا شك، وإلا فإن الرجل العربي حينما يتكلم بهذه الكلمة هل يخطر على باله أنه حذف نون الرفع، ثم واو الضمير وما أشبه ذلك؟ لا، لكن علماء النحو رحمهم الله يلتمسون التوجيهات لكلام العرب فوجدوا هذا التوجيه.

لو قلت لهم: من خلق السماوات والأرض؟ ليقولُنَّ: خلقنَّ العزيز العليم، وهذا الجواب جوابٌ صحيح مائة بالمائة.

قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ أي: السماوات والأرض ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة، والعزة أبرز معانيها: الغلبة، يُقال: عزَّ فلانٌ فغلب، معنى آخر وهي: القدر؛ يعني: الشرف والرفعة، ولها معنى ثالث، وهو: الشدة والصلابة، ومنه قولهم: أرضٌ عَزاز؛ أي: شديدة صلبة، إذا أردنا أن نُطبِّق هذه المعاني على الوصف الذي اتَّصف الله به من العزة فنقول: عزيز من العز وهو: الغلبة، عزيز من عزة القدر، ومعلوم أن الله عز وجل أعظم قدرًا من كل شيء، الثالث: عزة الشدة والصلابة والامتناع، وذلك أن الله تعالى ممتنع أن يتصف بأي سوءٍ.

وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي: ذو العلم التام، وتأمل كيف جاءوا بهذه العبارة ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أنهم مُقِرُّون بأنهم أذِلَّاء أمام الله عز وجل، وأن جميع ما في السماوات والأرض فإنه صادرٌ عن علمٍ، هذا الإقرار يلزمه أن يُقِرُّوا بأنه لا إله إلا الله، لكنهم لم يفعلوا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** دليل على أن المشركين يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، لقولهم في الجواب: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والأمر كذلك، وإقرارهم بتوحيد الربوبية يُلزِمهم أن يُقِرُّوا بتوحيد الألوهية، فيقال: إذا أقررتم بأنه لا خالق إلا الله فأقِرُّوا بأنه لا معبود حقٌّ إلا الله.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السماوات عدد، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية أن عدد السماوات سبع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢]، أما الأرض فلم يأت في القرآن التصريح بأنها سبع، لكن ظاهر القرآن كذلك؛ مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فإن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون بالحجم، ولا بالقوة؛ لأن السماوات أوسع وأعظم من الأرض وأقوى، فلم يبقَ إلا العدد، وقد جاءت السنة صريحة في ذلك فقال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِيْنَ» السماوات طباقًا واحد فوق الآخر، إذا كان واحد فوق الآخر لزم أن تكون السماء الثانية أوسع من الأولى؛ لأنها دائرة، الثالثة أوسع من الثانية، وهلُمَّ جرًّا، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] كلما ارتفعت في السماوات اتَّسعت السماوات، وهي طباقٌ بلا شك، كما في القرآن الكريم، وكما جاء ذلك صريحًا في حديث المعراج، أما الأرض فهي طِباقٌ أيضًا بدليل: أن من اقتطع شبرًا من الأرض التي نحن عليها طُوِّقه من سبع أرضين، ولولا أن الأرض الثانية تحتها، والثالثة تحتها لم يُطوَّق الإنسان من سبع أرضين؛ لأنه ما غصَبَ إلا ظاهر الأرض، فتكون الأرَضون طِباقًا، أما كيف هذه الطباق فإلى الآن لم نصل إلى علم بها، وعلماء الجيولوجيا الذين يحفرون إلى أعماق الأرض لا يطَّلعون على هذا، فهو مجهولٌ لنا، لكن الحديث: «طُوِّقَهُ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِيْنَ» يدل على أنها طباق.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات هذين الاسمين لله تعالى، وهما: العزيز، والعليم، واعلم أن كل اسم من أسماء الله فهو مُتضمِّنٌ لصفة، العزيز متضمن لصفة العزة، والعليم متضمن لصفة العلم، وليس كل صفة يُشتق منها اسمٌ، ولهذا نقول: إن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأنه يوجد صفات ليس لله منها أسماء، لكن لا يوجد اسم إلا وله منه صفة.

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ١٠ - ١١].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [طرقًا] ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ﴾ هذا ليس من كلام الذين سألهم النبي ﷺ، انتهى كلامهم عند قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، أما الذي جعل لكم الأرض مهدًا فهذا من كلام الله عز وجل، ومعنى ﴿جَعَلَ﴾ صيَّر ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: كالمهد مُوطَّأة قرار يطمئن بها الإنسان.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي: صيَّر لكم فيها سُبُلًا؛ أي: طرقًا، هذه الطرق تكون بين الشِّعاب والجبال حتى إنه لتأتي الرياح الشديدة وتبقى هذه الطرق معلومة، يُستدل على هذه الطرق بالجبال والشِّعاب والنجوم، كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لعل هنا للتعليل، ومن المعلوم أن (لعلَّ) تأتي للتعليل كما هنا، وتأتي للترجِّي، وتأتي للتوقُّع، والذي يُعيِّن المعنى هو سياق الكلام وقرائن الأحوال.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [إلى مقاصدكم في أسفاركم] أي: تعلمون الطرق، فالهداية هنا هداية الطرق، [إلى مقاصدكم في أسفاركم] الآن - والحمد لله - وُجِدت طرق مُمهَّدة بيِّنة من المدن والقرى وغير ذلك، كل ذلك من نعمة الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ أي: أنزله شيئًا فشيئًا، فتجدون المطر ينزل من السماء نُقطًا ولو جاء كأفواه القِرَب لأفسد الأرض وهدَّم البناء، ولكن من رحمة الله عز وجل أن جعله ينزل شيئًا فشيئًا، ومع ذلك تسيل منه الأودية وهو على نقطة نقطة، لكن مع كثرته تسيل به الشِّعاب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ السماء هنا المراد به: العلو، واعلم أن السماء يُطلَق على معنيين، المعنى الأول: العلو من حيث هو، والمعنى الثاني: السقف المحفوظ الذي هو

السماوات السبع، فقوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] المراد بالسماء هنا: السقف المحفوظ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وأما قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فالمراد به: العلو؛ لأن المطر ليس ينزل من السماء نفسها، ولكنه ينزل من العلو، بدليل قوله: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والسحاب ليس في السماء لاصقًا، ولكنه بين السماء والأرض، وهو إلى الأرض أقرب.

وقوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: [بقدر حاجتكم إليه، ولم يُنزِّله طوفانًا]، وفسَّره المؤلف: أي: بقدر ما تحتاجون إليه، وله معنى آخر، ﴿بِقَدَرٍ﴾ يعني: أنه مُقدَّر مُحدَّد حتى النقطة قد علِمها الله عز وجل، وعلِمَ كيف تنزل، وعلِمَ متى تنزل، وعلِمَ أين تنزل، كل شيء بقدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فيكون المعنى على هذا: أن هذا المطر الذي ينزل على كثرته وكثرة عدد نقاطه ينزل بقدر مُحدَّد، والمعنى الذي ذكره المؤلف معنى صحيح، والآية تحتمل هذا وهذا، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الكلمة في القرآن وفي السنة أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين على السواء ولا منافاة بينهما، فإنه يجب أن تُحمَل عليهما توسعةً للمعنى.

وقوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي: أحيينا، كما جاء ذلك في آيات أخرى في قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ [ق: ١١] فإذن أنشرنا بمعنى: أحيَينا، وهذا شيءٌ مُشاهَد، تجد الأرض قاحلةً مُجدِبةً ليس فيها خضراء، فإذا نزل المطر أصبحت تهتز من النبات من كل زوجٍ بهيج.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ [أي: مثل هذا الإحياء] ﴿تُخْرَجُونَ﴾ يعني: كما أنَّا أحيَينا الأرض بالمطر فكذلك نُحييكم يوم القيامة، قال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] هامدة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: علَت بنباتها ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** بيان نعمة الله عز وجل؛ حيث جعل لنا الأرض مهادًا، ولو كانت صلبة ما استقررنا عليها، ولا حرثناها، ولا انتفعنا بها كثيرًا، ولو كانت رِخْوة كذلك لم ننتفع بها، ولغاصت أقدامها فينا، ولكن من نعمة الله أنه جعلها كالمِهاد.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** نعمة الله علينا بما جعل لنا من الطرق في هذه الأرض على تباعُد أقطارها، ولكن بأي نستدل على الطرق؟ ذكرنا أنه يُستدل عليها بالشِّعاب، وبالجبال، وكذلك بالنجوم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله عز وجل فيما يخلق، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وحكمة الله عز وجل فيما يخلق وفيما يشرع ثابتة، لكن من الحِكَم ما نعلم، ومن الحِكَم ما لا نعلم لقصور أفهامنا، ومن الحِكَم ما يعلمها كثيرٌ من الناس وتخفى على كثير آخرين.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه إذا كان المقصود الحِسِّي يحتاج إلى طرق، فكذلك المقصود المعنوي، وهو: الوصول إلى دار كرامة الله عز وجل، فإنه يحتاج إلى طرق، لابد أن نسلك هذه الطرق حتى نصِل إلى المقصود، فإن لم نسلكها فلن نصل إلى المقصود.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** قدرة الله عز وجل في إنزال المطر.

٢ - **ومنها:** رحمة الله عز وجل بإنزال المطر من فوق؛ لأنه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السُّفلَى دون أن يصِل الماء إلى قِمم الجبال، ولكن الله تعالى جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والنازل، وإذا ارتوى العالي نزل إلى النازل.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا الماء النازل من السماء ينزل بقدر على المعنيين اللَّذين ذكرناهما.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى يُحيِي الأرض بعد موتها بهذا الماء.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إطلاقُ لفظ الموت على ما لا روح فيه؛ أي: ما لا روح فيه تُحِسّ، لقوله: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وإلا فمن المعلوم أن الأرض ليست كحياة الحيوان حياة إحساس؛ بل هي حياة نمو.

٦ - **ومن فوائد الآية:** قياس المعقول على المحسوس، وإن شئتَ فقل: قياس الغائب على الحاضر، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات القياس، وأنه دليلٌ، لكن هل هو دليل عقلي، أو دليل

سمعي؟ الجواب: هو دليل عقلي ثابت بالدليل السمعي؛ وذلك لأن العقل ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس، فهو دليلٌ عقليٌّ باعتبار كيفية الاستدلال به، ودليل سمعي لثبوته شرعًا.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٢ - ١٤].

التفسير

قوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ هذا عطف على ما سبق، وهو من باب عطف الصفات، وليس من باب عطف الذوات، والأصل في العطف: أن يكون بين المُتغايرَين في ذاتها، فإذا قام الدليل على أن الذات واحدة صار من باب عطف الصفات، اقرأ قول الله عز وجل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٤] هذا العطف من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد، لكن الأصل في العطف: أنه من باب تغايُر الذوات ما لم يقُم دليلٌ على أن المعطوف عليه شيءٌ واحد فيكون من باب عطف الصفات بعضها على بعض لموصوف واحد.

الآية التي معنا من أي القسمين؟ من باب عطف الصفات؛ لأن الموصوف واحد.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأزواج بمعنى: الأصناف، كما قال عز وجل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]، كل الأصناف الخالق لها هو الله عز وجل، وإنك لتعجب حينما تأتي إلى روضة تجد هذه الأشجار بعضها زهرها أحمر، وبعضها أزرق، وبعضها أصفر ملونة، من الذي خلقها ولوَّنها؟ هو الله عز وجل.

ويحتمل في الآية معنى آخر ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ يعني: الشيئين المزدوجين اللَّذَين يتولَّد بينهما ثالث؛ كالذكر والأنثى، والسالب والموجب، وما أشبه ذلك، الآية تحتمل المعنيين

جميعًا، وهما لا يتنافيان فتُحمَل عليهما.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ [السفن] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [كالإبل] ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ مفعول ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: جعل لكم من الفلك، وهي: السفن، السفن البحرية، وكان الناس لا يعرفون سواها فيما سبق، الآن جاءت السفن الجوية، وهي: الطائرات، أما الأنعام؛ فمثل: الإبل، والبغال، وغيرها مما يُركَب.

وقوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: الذي تركبوه، وهذه من نعمة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل؛ لأنه من الممكن أن يكون عند الإنسان أنعام كثيرة، وإبل كثيرة ولا يركبها، لكن اللام للعاقبة، تأتي اللام للعاقبة في القرآن الكريم وغيره كثيرًا، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ ليست للتعليل؛ لأن آل فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض، لكن التقطوه فصارت هذه النتيجة، وتُسمَّى اللام في مثل هذا: لام العاقبة.

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: تعلوا عليها، وتستقروا عليها.

وقوله: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يقول: [ذكَّر الضمير، وجمع الظَّهْر نظرًا للفظ ما ومعناها] جمع الظَّهْر، ولم يقل: على ظهره، وذكَّرَ الضمير، ولم يقل: على ظهورها [نظرًا للفظ ما ومعناها] لأن (ما) تصلح للمفرد وللجمع، فتارةً يُراعَى اللفظ، وتارةً يُراعَى المعنى، إذا رُوعِيَ اللفظ أُفرِدَت أُفرِد الضمير، وإذا رُوعِيَ المعنى صار بحسب المعنى المقصود، وكذلك (مَنْ) تارةً يُراعَى لفظها، وتارةً يُراعَى معناها، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ﴾ راعَى اللفظ أفردها، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ المعنى.

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: ظهور ما تركبون؛ من الفلك والأنعام، فجمعها باعتبار المعنى، وأفردها باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ لأنه إذا استوى الإنسان على الفلك، أو على الأنعام يتذكَّر نعمة الله عليه؛ حيث يسَّر له هذا المركوب، ولولا تيسير الله ما تمكَّن من هذا، لو جعل الله الإبل صعبة لا يمكن أن تُركَب ما انتفع الناس بها، ولو فُقِدَت السفن ما استطاع الناس أن يعبروا من يابسٍ إلى يابس، فليذكر الإنسان نعمة الله إذا استوى على ظهره.

وقوله: ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ أي: بألسنتكم مُعترفين بقلوبكم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي:

ذلَّلـه لنا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [مُطيقين] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ قال: [المنصرفون].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** نعمة الله عز وجل على عباده؛ حيث جعل لهم من الأنعام والفلك ما يركبونه، وذكرنا أن الفلك يشمل: الفلك الجوي والبحري، ويمكن أن نقول: والبري أيضًا؛ كالسيارات، فهذه أفلاك، فإذن الأفلاك جوية، وبحرية، وبريَّة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تذليل الله عز وجل الأنعام لنا؛ حيث سخَّرها لنركبها ونُحمِّلها وهي ذليلة بين أيدينا، لقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان إذا ركب الأنعام وكذلك الفلك أن يجعل مركَبَه مُريحًا، لقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إذ أنه لو لم يكن مُريحًا لم تتم النعمة، فينبغي أن يجعله مُريحًا بقدر الإمكان، وعلى حسب الحال.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يتذكَّر نعمة الله عليه فيما سخَّر له من الفلك والأنعام، لقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ النعمة هنا مفرد مُضاف؛ فهل المراد: أن نذكر جميع النعم، أو نذكر النعمة المناسبة للحال؟ الظاهر: الثاني؛ لأن الإنسان قد لا يستحضر حينما يركب كل النعم؛ من الأموال، والأولاد، والأمن، والطمأنينة، ولكن يذكر النعمة الحاضرة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** استحباب هذا الذكر عند الركوب، وهو: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، فإن قال قائل: لماذا اختيرت كلمة (سبحان) دون الله أكبر مثلًا؟ فالجواب: أن تسبيح الله يعني: تنزيهه عن كل نقص وعيب، بخلاف الإنسان، فإنه محتاج إلى الركوب، فهو ناقص، فناسَبَ أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ حتى يتذكَّر بذلك أنه هو في حاجة إلى هذه المركوبات، وأن الله عز وجل مُنزَّهٌ عن الحاجة؛ لأنه لو قال قائل: لماذا لم يقل: ما أعظم منة الله عليَّ، أو الله أكبر؟ فالجواب: أنه لما رأى نفسَه محتاجًا إلى الركوب نزَّه الله عز وجل عن الحاجة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن نذكر نعمة الله علينا بتسخير هذه الأنعام، لقوله: ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين، لولا أن الله سخَّر البعير لنا ما أطقناها، البعير أقوى منا، وأكبر منا جسمًا، لو أن الله سبحانه وتعالى جعلها صعبة؛ هل يمكن لأحد أن يستقر عليها، أو أن يُحمِّل عليها، أو أن يُدخِلَها إلى أي مكانٍ شاء، أو أ يُخرِجها متى شاء؟ لا، ولكن الله سخَّرها لنا.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** اعتراف العبد بقصوره وضعفه، لقوله: ﴿وَمَا

كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان إذا ركِب هذه المركوبات يتذكر الركوب الذي هو غاية الدنيا، لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وتفسير المؤلف رحمه الله لها بالانصراف؛ أي: ينصرفون إلى الله فيه قصور، والصواب: ما ذكرنا؛ أنك إذا ركبتَ فتذكَّر ركوبك على النعش حين تنقلب إلى الله عز وجل، فيكون في هذا تذكُّر للحال المُستقبل لبني آدم، وهي حال الانقلاب إلى الله عز وجل؛ هل هذا الذكر خاصٌّ بها إذا ركب في السفر أو هو عام؟ الجواب: عام، كلما ركبتَ السيارة، أو البعير، أو الطائرة فاذكر هذا ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخرُف: ١٥].

التفسير

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ الضمير يعود على مُشركي قريش؛ أي: صيَّروا ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: من مخلوقاته، وجميع المخلوقات عبادٌ لله عز وجل، والمراد بالعباد هنا: الملائكة ﴿جُزْءًا﴾ أي: بعضًا منه؛ حيث قالوا: الملائكة بناتُ الله، واليهود قالوا: عُزيرٌ ابن الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وقوله: ﴿جُزْءًا﴾ لأن الولد جزءٌ من أبيه، كما قال النبي ﷺ في ابنته فاطمة: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي»، هؤلاء المشركون – والعياذ بالله – جعلوا لله من عباده جزءًا، وتأمَّل قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يتبيَّن لك أن كونهم عبادًا لله يمنع غاية المنع أن يكونوا جزءًا من الله عز وجل؛ لأن المعبود غير العابد، فلا يمكن أن يكون العابد جزءًا من المعبود.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ المراد: الجنس؛ يعني: إن جنس الإنسان لكفورٌ بيِّن الكفر، فلا يرِد على هذا أن يُقال: من الإنسان من هو مؤمن كامل الإيمان؛ لأننا نقول: إنه قد يُراد به الجنس، كقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والمؤمن ليس ظلومًا جهولًا، لكن جنس الإنسان ظلومٌ جهولٌ.

فإذا قال قائل: هل كل ما جاءنا مثل هذا التعبير نحمله على الجنس؟ فالجواب: لا نحمله على الجنس إلا إذا قام الدليل على هذا، وإلا فالأصل: العموم، فقوله: ﴿وَخُلِقَ

ﵟٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗاﵞ [النساء: ٢٨] هذا المراد به: الجنس، أو كل الإنسان؟ المراد: كل الإنسان، لكن إذا تعذَّر أن نحملها على العموم جعلناها للجنس، وأضرب مثلًا يتبيَّن به المقام: الرجل خيرٌ من المرأة، المراد: الجنس، وليس المعنى: كل واحدٍ من الرجال خيرٌ من كل امرأة من النساء؛ لأن من النساء من هي خيرٌ من كثير من الرجال، لكن المراد: الجنس؛ يعني: هذا الجنس خيرٌ من هذا الجنس.

ولذلك، فإن تفسير القرآن العظيم من أهم واجبات المسلمين أن يعرفوا معنى كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأن الكلام إذا لم يُفهَم معناه لا يُنتفَع به، والذي يقرأ ولا يفهم بمنزلة الأُمِّي الذي لا يقرأ، كما قال الله عز وجل: ﵟوَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّﵞ [البقرة: ٧٨] أي: إلا قراءة، فسمَّاهم الله: أُمِّيِّين.

والقرآن يُفسَّر بالقرآن، فإن لم يكن فبالسنة، فإن لم يكن فبأقوال الصحابة ولاسيما المشهورون منهم في علم التفسير، فإن لم يكن فبما قاله كبار التابعين من أهل التفسير، هذه هي القاعدة التي مشى عليها أهل السنة والجماعة، فأما التفسير بالرأي فمنهم المُخطِئ، ومنهم المُصيب، ولكن لا يجوز للإنسان أن يُفسِّر القرآن برأيه؛ بمعنى: أن يُحوِّل القرآن إلى رأيه، فإن من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار.

مثال ذلك: الذين يُفسِّرون قول الله عز وجل: ﵟبَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِﵞ [المائدة: ٦٤] بأنهما النعمة، هؤلاء قالوا في القرآن برأيهم؛ لأن هذا المعنى غير مرادٍ قطعًا، وكذلك الذين يقولون: ﵟٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِﵞ يعني: استولى على العرش، فإن هذا منكر من القول، وتفسير الآية به من القول على الله بلا علم، من الافتراء على الله سبحانه وتعالى، هؤلاء نقول: إنهم قالوا في القرآن برأيهم؛ أي: حوَّلوا القرآن إلى رأيهم.

وأما من فسَّر القرآن بمُقتضى الحقائق الشرعية واللغوية إذا لم تكن حقيقة شرعية، فإنه لم يقُل في القرآن برأيه.

قوله: ﵟوَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاﵞ، ﵟوَجَعَلُواْﵞ الضمير يعود على المشركين، وعلى اليهود، وعلى النصارى، ﵟلَهُۥﵞ أي: لله، ﵟمِنۡ عِبَادِهِۦﵞ أي: مخلوقاته، ﵟجُزۡءًاﵞ أي: بعضًا، وذلك بقول المشركين: إن الملائكة بنات الله، وقول اليهود: إن عُزَيْرًا ابن الله، وقول النصارى: إن المسيح ابن الله، ووجه كونه جزءًا: أن الولد جزءٌ من أبيه، كما قال النبي ﷺ في ابنته فاطمة رضي الله عنها: «إِنَّمَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي» حينما تحدَّث الناس أن عليَّ بن أبي طالب يريد أن يتزوَّج عليها بنتَ أبي جهل، فأنكر النبي ﷺ ذلك، وقال: لا يمكن أن تكون ابنة نبي الله مع ابنة عدو الله.

إذن الجزء البعض، والقائل ثلاثة أصناف من الناس: المشركون، واليهود، والنصارى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ المراد بالإنسان: الجنس، ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنُ الكفر، وذلك أن بانَ بمعنى: ظهر تكون بالهمز وتكون بغير الهمز؛ بمعنى: أنه يجوز لغةً أن تقول: بانَ الفجرُ، وأبانَ الفجرُ، وعليه فيكون معنى مُبين أي: واضح الكفر، ولا شك أن الذي يقول: الملائكة بنات الله، أو عيسى ابن الله، أو عُزَيرٌ ابن الله لا شك أنه كفر كفرًا بيِّنًا.

وتُستعمل أبان بالهمز مُتعديةً، يُقال: أبانَ الشيءَ بمعنى: أظهره، ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الذي سبق في أول السورة؛ أي: المُظهِر للحقائق المُبيِّن لها.

قال الله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزُّخرُف: ١٦].

التفسير

﴿أَمِ﴾ هنا منقطعة؛ بمعنى: بل والهمزة، واعلم أن (أم) تأتي متصلة إذا كانت بين شيئين متساويين، ومنقطعة إذا كان ما بعدها منقطعًا عما قبلها، ففي قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] هذه متصلة، وفي مثل هذه الآية: ﴿أَمِ﴾ منقطعة، المنقطعة النحويون بـ (بل)، والهمزة.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ قدَّرها المؤلف بمعنى: بل أيقولون، ولا حاجة لهذا التقدير؛ بل هو كلام من عند الله أنكره على هؤلاء؛ يعني: بل - على قولكم - اتخذ مما يخلق بنات؛ لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وخصَّكم بها؛ لأنهم يقولون: البنات لله، والبنون لنا، فهل هذا عدل، هل هذا حق؟ هذا منكر وجور، على الأقل لو قالوا: إنهم سواء لكان أهون، مع أنه منكر، لكن يجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون هذا غاية ما يكون من الجور والظلم.

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهم: الملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ فالهمزة هنا مُقدَّرة للإنكار.

الفوائد:

في هاتين الآيتين فوائد:

١ - **منها:** أن الولد جزءٌ من والده، لقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾، ولذلك كان

الولد في التعصيب في باب الميراث مُقدَّمًا على الوالد؛ بمعنى: أنه لو مات ميت عن أبيه وابنه، فلأبيه الثُّلث فرضًا، والباقي للابن تعصيبًا، فسهم الابن الآن خمسة من ستة، وسهم الأب واحد من ستة؛ لماذا؟ لأن الابن جزءٌ من أبيه، فقُدِّم.

٢ - **ومن الفوائد**: أنه يجوز للأب أن يتملَّك من مال ولده؛ لأن ولده جزءٌ منه، وإذا كان جزءًا منه صار كسائر جسده، ولهذا جاء في الحديث: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»، فللأب أن يتملَّك من مال ولده ما شاء بشرط ألَّا يكون الولد محتاجًا إليه، أو تتعلق به نفسُه؛ فمثلًا: إذا كان عند الابن أَمَة قد تسرَّاها، وتعلَّقت بها نفسُه، فإنه لا يجوز للأب أن يتملَّكَها، مع أنه لا يمكن أن يطَأَها؛ لأنها حليلة ابنه، لكن حتى ولا يتملَّكها؛ لماذا؟ لأن حاجته متعلقة بها، كذلك لو تعلَّقت بماله ضرورة؛ كابنٍ عنده مال أعدَّه للمهر حين يتزوَّج، فليس للأب أن يأخذ منه شيئًا، كذلك لو كان عنده سيارة أعدَّها لحاجته وضرورته، فليس للأب أن يتملَّكها، إنما يتملَّك الفضل فقط، دليل ذلك: قوله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ».

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان عتوِّ المشركين، واليهود، والنصارى؛ حيث جعلوا الذي لم يلِد ولم يُولَد ولم يكن له كُفُوًا أحد والدًا.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان بطبيعته كفورٌ مبين، هذا إذا جعلنا الإنسان للجنس، أما إذا جعلنا الإنسان يعود على الذين جعلوا لله من عباده جزءًا فإنه يكون خاصًّا، لكن المعنى الأول هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فأصل الإنسان: الظلم والجهل، إلا أن يمُنَّ الله عليه بالعلم والإيمان.

٥ - **ومن فوائد الآية الثانية**: الإنكار على هؤلاء الذين جعلوا لله ولدًا، لقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: أنه كيف يكون المخلوق ولدًا للخالق، ولهذا قال: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، وهذا لا يمكن؛ لأن المخلوق منفصل بائنٌ عن الخالق، فلا يصح أن يكون ولدًا له.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى جور القائلين بأن الملائكة بنات الله، لقوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؛ يعني: أيُعقَل أن يكون هكذا؟!

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿أَحَدُهُم﴾ يعني بذلك: قريشًا وأشباههم الذين يكرهون البنات، ويئدونهن.

قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ أي: إذا أُخبِر بأنه وُلِد له بنت، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾.

وقوله هنا: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ ولم يقل كما قال في الآية الثانية: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨] لأنه سبقها ذِكر قول هؤلاء: إن الملائكة بنات الله، فضربوها مثلًا لله عز وجل، إذا بُشِّر أحدهم بهذا الذي ضربه مثلًا للرحمن ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه مُسودًّا، وظَلَّ هنا بالظاء؛ يعني: بمعنى: صار، أما ضَلَّ التي هي بالضاد فهي بمعنى: تاه وضاع، تقول: ضلَّ الطريق؛ بمعنى: تاه وضاع، أما ظلَّ وجهه مسودا فهي بمعنى: صار وجهه مُسودًّا؛ أي: بعد أن كان أبيض.

وقوله: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: مملوءٌ غيظًا وحزنًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** ذكر حال هؤلاء عندما يُبشَّرون بالبنات، أن الواحد منهم يتغيَّر ظاهره وباطنُه، ظاهره باسوداد وجهه، وباطنه بامتلائه غمًّا.

٢ - **ومنها:** التنديد التام بهؤلاء؛ حيث إنهم إذا بُشِّروا بالأنثى صارت لهم هذه الحال، وهم يدَّعونها للخالق عز وجل.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات اسم الرحمن لله عز وجل، والرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة، وهذا الاسم الكريم تُنكِره قريش، إذا قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاب الصلح في الحديبية، وقال للكاتب: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أبى رسول قريش، وقال: إننا لا نعرف الرحمن، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال النبي ﷺ: اكتُب: باسمك اللهم، وليس هذا من باب التنزُّل، ولكن من باب التأريخ وإمضاء المعاهدة.

قلنا: الرحمن يعني: ذو الرحمة الواسعة؛ فهل رحمة الله عز وجل تشمل الكافرين؟ فالجواب: نعم، لولا رحمة الله ما بقي الكافر لحظة واحدة، فالكافر مرحوم، والمؤمن مرحوم، لكن الفرق أن المؤمن مرحوم في الدنيا والآخرة، والكافر مرحوم في الدنيا قد

أغدق الله عليه النعم، وعجَّل له الطيبات، لكنه في الآخرة يُعامَل بالعدل ويُجازى بما يستحق، إذن نقول: الرحمة العامة تشمل الكافر والمؤمن، والخاصة تختص بالمؤمنين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** تغيُّر البشرة بما يسُرُّ أو يسوء، إذا بُشِّر الإنسان بما يسُرُّ فإن وجهه يبرُق من السرور، وتُحِسُّ بأنه مسرور به، والعكس بالعكس.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن الجسم تبعٌ للقلب، إذا استنار القلب وفَرِح فكذلك الجسم، والعكس بالعكس.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المشركين لا يرضون بتقدير الله، فإنهم يتغيَّرون ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا باسوداد الوجوه، وباطنًا بالامتلاء غَمًّا.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ...﴾ [الزُّخرُف:١٨ - ١٩].

❁ التفسير ❁

الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، ومن اسم موصول؛ يعني: أوَالذي يُنشَّأ في الحلية؛ أي: يُربَّى فيها، ويحتاج إليها.

وقوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: غير مُظهِر لما في نفسه؛ يعني: كمن ليس كذلك، والإشارة بهذا الوصف إلى الأنثى؛ لأن الأنثى تُنشَّأ بالحلية، وتُحلَّى لتتجمَّل، وتحتاج إلى ما يُكمِّلها، وهي أيضًا ليست ذات خصومة؛ بل هي في الخِصام غير مبين، كمن ليس كذلك.

ومعنى ﴿يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُربَّى، والحلية قال المؤلف: [أي: الزينة]، ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ عند الخصومة [غير مُظهِر للحُجَّة، لضعفه عنها بالأنوثة].

﴿أَوَمَن﴾ يقول: [همزة الإنكار وواو العطف بجملة؛ أي: أوَيجعلون لله] يعني: أن العطف هنا على تقدير يجعلون، بقي عندنا أين المُعادِل؟ المُعادِل: كمن ليس كذلك.

قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: المرأة ليست جميلة بذاتها، ولكنها محتاجة إلى ما يُجمِّلها، ولهذا تجد النساء ليس لها همٌّ إلا الموضات، والتجمُّل، والتحسين، وما أشبه ذلك؛ لماذا؟ لأنها بنفسها قاصرة، كذلك أيضًا بقولها قاصرة ﴿وَهُوَ فِي

ﵟالْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍﵞ عند المخاصمة تكون ظلومة، لا تُظهِر الحُجَّة؛ لأنها ضعيفة بالأنوثة، بقي ما هو المُقابل؟ كمن ليس كذلك، كمن لا يحتاج إلى أن يُنشَّأ في الحلية، وكمن هو في الخِصام مُبين، وهو: الذَّكَر، المعنى: أن الله يُضيف لومًا إلى لومٍ على هؤلاء؛ حيث يجعلون لله القاصر في مقاله وفِعاله، ويجعلون لهم الكامل.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** قصور المرأة، وأنه لا يمكن أن تُساوي الرجل في عقلها ودلها، لقوله: ﵟأَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍﵞ.

٢ - **ومنها:** أن المرأة ليس لها همٌّ إلا التجميل والعناية بمظهرها.

٣ - **ومنها:** أن المرأة ليست ذات خصام؛ بل هي ضعيفة، لا تستطيع أن تُخاصِم، ولا تُبيِّن ما في قلبها من الحُجَّة، ولهذا لما تولَّت بنتُ كِسْرى على الفُرس، وبلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، واختلف الناس في معنى قوله: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» هل هذا خاصٌّ بهذه القضية المعينة؛ بمعنى: أن هؤلاء لن يُفلِحوا؛ لأنهم ولَّوا أمرَهم امرأة، أو أن هذا عام لكل من ولَّى أمرَه امرأة؟ فإن نظرنا إلى العموم: «لَنْ يُفْلِحَ قَومٌ وَلَّوا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» قلنا: هذا عام في كل قوم ولَّوا أمرهم امرأة، وإن نظرنا إلى القضية المعينة قلنا: هذا خاص، وإذا نظرنا إلى الواقع، فهل المرأة التي تتولَّى أمور الرجال هل تُفلِح؟ الجواب: إن أفلَحَت فذلك بمعونة الرجال، أو فلاحٌ نسبيٌّ؛ يعني: مثلًا: امرأة تكون رئيسة وزراء لن تُفلِح، لن يُفلِح قومها إلا بمُساندة الرجال لها، أو يقال: هو فلاحٌ نسبيٌّ، لو تولَّى غيرُها رجلًا لكان ذلك أفلحَ لهم.

وكذلك أيضًا لن يُفلِح إذا ولَّوْا أمرهم في غير الرئاسة؛ كالوزارة مثلًا، ومن عرف النساء، وكثرة خصومتهن، ومشاكلهن إذا تولَّوا حتى إدارة المدرسة عرف أن المرأة لا تصلح أبدًا للولاية، اللهم إلا على بني جنسها، فهذا ربما؛ لأن الضعيف للضعيف.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** الثناء على الرجال؛ لأنهم إذا كانت النساء لا تكمُل بذاتها لا بالفِعال ولا بالمقال، فهذا يعني: أن الرجال كُمَّل، وانظر إلى قول الله تعالى: ﵟوَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَﵞ [التحريم: ١٢] أو من القانتات؟ بل من القانتين، يتبيَّن لك: أن القنوت والعبادة في الرجال أكثر، ولهذا جاء في الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَا امْرَأَةُ فِرْعَونَ، وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى بَاقِي الطَّعَامِ»، كل هذا نريد أن يبقى في أذهاننا أن المرأة

قاصرة، وأن من يُحاولون أن يجعلوها كالرجال فإنهم مخالفون للفطرة والطبيعة، كما أنهم مُخالفون للشريعة.

خطب النبي ﷺ النساءَ في يوم العيد، يوم الفرح والسرور، وبيَّن حالهنَّ، فقال: «مَا رأيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْكُنَّ»، مع أنه يوم فرح، ويوم سرور، كان من المُتوقَّع أن يُدخِل عليهم النبي ﷺ السرور، لكن لابد أن يُبيِّن حالهن.

الآن أولئك القوم من الكفار وغيرهم الذين ساووا النساء بالرجال في أكثر الأشياء أحوالهم غير مستقيمة، وغير تامة، مع أنهم لن يستطيعوا أن يُلحِقوا النساء بالرجال من كل وجهٍ، فإن هذا مستحيل.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾، ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ الضمير يعود على المشركين، ومعنى ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ أي: صيَّروا، ولذلك نصَبَت مفعولين، ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ الذين أتمُّوا العبودية على الوجه الأكمل؛ حيث وصفهم الله عز وجل بأنهم عبادٌ مُكرَمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ وذلك بقولهم: إن الملائكة.

بنات الله، انظروا هذا الافتراء، أولًا: افتروا بأنهم بنات الله، ثانيًا: افتروا بأنهم بنات، وما يُدريهم أن الملائكة بنات، لكن لما كان وصف الأنوثة وصفًا رديئًا قالوا: هم بنات، والبنون لهم.

قال الله عز وجل منكرًا عليهم: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ يعني: أحضروا خلقَهم وعرفوا أنهم إناث، والاستفهام هنا للإنكار أو للتحدي؛ يعني: أن الله أنكر عليهم، أو تحدَّاهم هل حضروا أو لا، وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

قال تعالى: [﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث]، تُكتَب على أنها فِرْية وشهادة زور، ويُعاقَبون عليها، والسين هنا للتقريب والتحقيق، و﴿سَتُكْتَبُ﴾ لم يُبيِّن الفاعل فاعلَ الكتابة، فالله أعلم؛ هل يكتبها الله أو الملائكة؟ والظاهر أنهم الملائكة؛ لأن الملائكة مُوكَّلون بعمل بني آدم، يكتبون ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

قال المفسر: [﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة، فيترتَّب عليها العقاب].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان افتراء هؤلاء المشركين من وجهين:

الوجه الأول: أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وما يُدريهم؟

الوجه الثاني: أنهم نسبوهم إلى الله عز وجل.

٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحدِّي هؤلاء المُفترين، لقوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾، والجواب: لا.

٣ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد أولئك المُفترين بأن شهادتهم ستُكتَب، ويُعاقَبون عليها، لقوله: ﴿سَتُكْتَبُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الحساب، في قوله: ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن أقوال الإنسان تُكتَب عليه كأفعاله؛ لأن الشهادة هنا قول.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [أي: الملائكة، فعبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راضٍ بها].

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: المشركون، ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ (لو) هذه حرف امتناع لامتناع، لو شاء الله ما عبدناهم، لكنا عبدناهم لمشيئة الله، والعجب أنهم قالوا: ما عبدناهم، فإن كانوا يُريدون الملائكة فقد تناقضوا، وإن كانوا يُريدون الأصنام فهذا له كلام آخر.

إذا كانوا يريدون الملائكة فهم قالوا: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ مع أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وكان مُقتضى ذلك أن يقولوا: ما عبدناهن، فيرجع الضمير إلى الملائكة ضمير المؤنث، أما إذا كان المراد: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي: ما عبدنا آلهتنا، فلا إشكال.

قال الله عز وجل: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ [المقول من الرضا بعبادتها] ﴿مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ﴾ [ما] ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يكذبون فيه، فيترتَّب عليهم العقاب به].

قال الله: ﴿مِنْ﴾ هنا تُعرَب زائدةً إعرابًا، لكنها في المعنى مفيدة تفيد التوكيد، وسياق الكلام لولا القرآن لكان السياق: ما لهم بذلك علمٌ، لكن تُزاد الحروف لتوكيد النفي في هذه الآية؛ يعني: أن قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ قولٌ مبنيٌّ على الخرص والظن

والمُحاجَّة بالباطل، وإلا فهم عملوا وعبدوا بدون أن يعلموا أنه مكتوب عليهم؛ لأنه لا يُعلَم المكتوب إلا إذا وقع.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها**: أن هؤلاء احتجوا بالقدر، فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

٢ - **ومنها**: بطلان الاحتجاج بالقدر، لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، وهنا سؤال: هل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ هل هو صحيح؟ صحيح، لكن الاحتجاج به غير صحيح، لو شاء الرحمن ما عبدوهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] فهذا القول صحيح، لكن الاحتجاج به غير صحيح، وإنما قلنا: إنه صحيح؛ لأن الله تعالى يشاء كل شيء، كل شيء فهو واقعٌ بمشيئة الله، ولكن لا حُجَّة بشيء لا تعلمه أنت؛ إذ أنك لا تعلم أن هذا مُقدَّرٌ عليك إلا إذا وقع، فالقدر سرٌّ مكتوم لا يُعلَم إلا إذا وقع المكتوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية**: الرد على القدرية الذين يُنكرون أن الله تعالى يشاء أفعال العباد، فالقدرية وهم المعتزلة يقولون: إن الإنسان خالقٌ عملَه، مُريدٌ له، مُستقلٌّ به، وأن الله عز وجل لا إرادة له به، أيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وتقولون أنتم: لا، قابلهم قومٌ آخرون وهم الجبرية، وقالوا: كل شيء واقع فهو بمشيئة الله، والإنسان مُجبَرٌ على العمل، وليس مختارًا، وهذا أيضًا قول باطل، كل يعرف الفرق بين الفعل الاختياري، وبين الفعل الاضطراري، كلنا يعرف الفرق بين أن ينزل الإنسان من السطح على الدرج شيئًا فشيئًا، وبين أن يتدحرج بدون اختيار منه، والجبرية يقولون: الكل سواء، ينزل باختيار، أو يتدحرج بغير اختيار، الكل سواء، ما حركة الإنسان إلا كحركة السَّعْفة في الريح، وهذا أيضًا قولٌ باطل، ولا يمكن أن تقوم به أمة، ولا أن تقوم به ملَّة، ولا أن تقوم به دنيا ولا أخرى، وإلا لو قلنا: كل إنسان يتسلَّط على آخر ثم يقول: هذا بقضاء الله وقدره، ما أملك، هل يرضى هؤلاء أن يأتي شخص ويرُضُّهم رضًّا، ثم يقول: هذا بقضاء الله؟ الجواب: لا، لا أحد يرضى بذلك.

ولما أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تُقطَع يدُ السارق قال: مهلًا يا أمير المؤمنين ! والله ما سرقتُ إلا بقدر الله، قال: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله، فكل إنسان يعرف أن الإنسان مختار، وله إرادة تامة بما يفعل، لو أنا أخذنا بقول الجبرية لكانت عقوبة الله للمُذنبين ظلمًا؛ لأنهم سيقولون: ربنا فعلنا هذا بغير اختيارنا، والذين يقولون: إن الله لا علاقة له بفعل العبد أيضًا هم مُخطِئون، ولهذا يُسمَّى هؤلاء القدرية يُسمَّون: مجوس هذه

الأمة؛ لماذا؟ لأنهم جعلوا للحوادث خالقَيْن؛ حوادث بشرية من خلق بشر، وحوادث إلهية من خلق الله عز وجل، فسُمُّوا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يقولون: إن الحوادث لها خالقان: الشر تخلقه الظلمة، والنور يخلق الخير، هذه عقيدة المجوس، وفي ذلك يقول المُتنبِّي في ممدوحه:

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ   تُخبِّرُ عنا المانويَّة تكذبُ

ظلام الليل ظلمة، وأنت أيها الممدوح لك الكرم في الليل والنهار.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المُحتجَّ بالقدر لا علم عنده، كيف لا يكون عنده علم وهو يعلم أنه إنما وقع بمشيئة الله؟ فالجواب: هو إنما علِمَ بعد الوقوع، لكن قبل الوقوع لا يعلم، إذن لا حُجَّة له؛ لأن الحُجَّة دليل، والدليل لابد أن يسبق المدلول، فعلمهم لا حكم وليس بسابق.

٥ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن قولهم هذا مبنيٌّ على الكذب، لقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون، ولنا أن نقول: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بمعنى: يظنُّون، كما قال عز وجل في آية أخرى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢١].

❁ التفسير ❁

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [أي: القرآن، بعبادة غير الله] ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

قوله: ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل، وهمزة الاستفهام، والمعنى: بل هل نحن آتيناهم كتابًا من قبل القرآن فهم به مُستمسكون؟ الجواب: لم يقع ذلك، فأول كتاب نزل على العرب وهو القرآن، وهو آخر كتاب؛ لأنه لم يُبعَث للعرب رسول إلا محمد ﷺ، كما قال عز وجل في دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولهذا لو قال لنا قائل: هل في العرب رسول سوى محمد ﷺ؟ لقلنا: لا، ليس فيهم إلا واحد.

قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** تكرار الحُجج بقدر إنكار الخصم، وكلما تكررت الحُجج ازداد الأمر قوةً.

٢ - **ومن فوائدها:** أنك إذا أتيت بدليل مُقنِع، فلا لوم عليك إذا أتيت بدليلٍ آخر وثالث ما دام المقام يقتضي ذلك، انظروا إلى الذين يجادلون أهل الباطل وبالأخص شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم كيف يأتون بالأدلة متتابعة متكاثرة مع أن المدلول يمكن أن يثبُت بدليل واحد من أجل التقوية، شيخ الإسلام ابن تيمية له كتابٌ اسمه: «التسعينية» في الرد على الأشعرية الذين قالوا: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أبطل رحمه الله هذا القول من تسعين وجهًا، ويكفي في إبطاله وجهٌ واحد، ولكن كلما تكرَّرت الأدلة قوِيَت الحُجَّة، لو أن شخصًا أتى وأخبر بخبرٍ وهو ثقةٌ صدَّقتموه، فإذا جاء آخر ازدادت الثقة، وإذا جاء ثالث ازدادت الثقة، ولهذا قال العلماء: إن المتواتر يفيد القطع لكثرة من رووه، المتواتر الذي يأتي من طرق كثيرة يُفيد القطع لكثرة الرواة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لم ينزل على العرب كتاب سوى القرآن، لقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** منَّة الله عز وجل على العرب؛ حيث أنزل عليهم كتابًا واحدًا هدايةً للخلق أجمعين إلى يوم القيامة، بينما الرسل الآخرون تنزل عليهم الكتب هدايةً لأقوامهم، فهي - أي: الكتب - هداية في قوم معيَّنين، وفي وقت معيَّن، لكن هذا الكتاب - جعلنا الله وإياكم من المُتمسِّكين به - هذا نازل صالح لكل زمان ومكان وأمة.

❁ قال الله تعالى:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

❁ التفسير ❁

﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الانتقالي؛ يعني: انتقلوا إلى شيء آخر، [﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ مِلَّة، ﴿وَإِنَّا﴾ ماشون، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ بهم، وكانوا يعبدون غير الله].

هذه حُجَّة من حُججهم، احتجُّوا في الأول بالقدر، الآن احتجُّوا بالقدوة، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

قوله: ﴿أُمَّةٍ﴾ يقول: [مِلَّة] وقد ذكرنا أن أمة في القرآن تدل على عدة معانٍ، إذا قال قائل: هذه الكلمات التي تأتي لعدة معانٍ ما الذي يُعيِّن المعنى؟ السياق وقرائن الأحوال، إذا قلت لرجلٍ غنيٍّ: البس العباءة، ولرجل فقير: البس العباءة، هل تختلف العباءتان؟ الأول الغني؛ يعني: البس عباءة غني، والثاني: البس عباءة فقير، اختلف المعنى لحال المُخاطَب.

فالمهم: أن الذي يُعيِّن المعنى هو السياق، ومن ثَمَّ قلنا: إنه لا مجاز في اللغة العربية إطلاقًا، ولا في القرآن أيضًا، والمسألة هذه فيها أقوال ثلاثة:

القول الأول: أن المجاز واقعٌ في اللغة العربية والقرآن، وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

والثاني: أنه واقعٌ في اللغة، غير واقعٍ في القرآن، اختاره طائفة؛ منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان».

ومنهم من قال: لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم، وهذا هو الحق؛ لأن الكلمة ليس لها معنى ذاتي، الكلمة في ضمن جملة، فإذا دلَّت الكلمة في موقع ما على معنى من المعاني فهو الحقيقة، لو قلت: رأيت أسدًا يحمل حقيبة إلى المسجد ليقرأ، هل يمكن أن يتبادر إلى ذهن واحد من الناس أنه أسد؟ لا؛ بل لو ادَّعى هذا مُدَّعٍ لردَّ عليه كل أحد، ما الذي منع هذا؟ السياق، إذن الأسد هنا حقيقة في موضعها، وهي تدل على الشجاعة، بدل أن أقول: رأيت رجلًا شجاعًا يحمل حقيبة، أقول: رأيت أسدًا، وكثيرًا ما يحتج الناس يقولون: كيف لا يكون في القرآن مجاز، والله يقول: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] أي: مائلًا، الجدار ما له إرادة.

فنقول: أولًا: نمنع قولك: الجدار ليس له إرادة؛ بل له إرادة بلا شك، قال الله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهل هذه المخلوقات تُسبِّح بإرادة أو بغير إرادة؟ بإرادة بلا شك، وإلَّا لم يكن في هذا ثناءٌ على الله.

ثانيًا: نقول: ما الذي يمنع الإرادة في الجماد، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال في أُحُد - وهو جبلٌ حصى -: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فأثبت المحبة لهذا الجبل، والمحبة أخص من الإرادة.

ثالثًا: نقول: إرادة كل شيء بحسبه، فميلُ الجدار؛ يعني: أنه يريد أن يسقط؛ كميل

الإنسان نعرف أنه يريد أن يركع مثلًا، ولا مانع.

قالوا: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] المعنى: تواضع لهما رحمةً بهما، فيقولون: الذل هل له جناح؟ نقول: أما الذل فهو أمرٌ معنويٌّ، والإنسان إذا لم يذِلَّ ترفَّع، وعلا بنفسه، فقال: اخفض جناح الذُّل بدل جناح الترفع، وذكر الجناح؛ لأنه هو الذي يطير به الطير إلى السماء، فالآية واضحة أن المعنى: تطامَن للوالدين وتذلَّل لهما، واخفض لهما الجناح، وهذا غاية ما يكون من التذلُّل لهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٣].

❁ التَّفسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ يعني: مثل هذا الذي قيل لك قيل لمن قبلك، والحكمة من هذا: تسلية النبي ﷺ من وجه، وإنذار هؤلاء المُكذِّبين له من وجه آخر، وأنه سيصيبهم ما أصاب غيرهم مما أصرُّوا على تقليد آباءهم بالباطل.

وقوله: [﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ مُنعَّموها مثل قول قومك ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ مِلَّة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ مُتَّبعون].

هذا الحكمة منه: هو تسلية النبي ﷺ وإنذار هؤلاء المُكذِّبين، أما جميع الأمم السابقة يقولون لأقوامهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملَّة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: ما يسيرون عليه من الدين ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ أي: مُتَّبعون مُقلِّدون.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة فوائد:

١ - **منها:** تسلية النبي ﷺ بأن هذا الذي قيل له قد قيل لمن قبله؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

٢ - **ومنها:** اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو: تكذيب الرسل واتباع آبائهم.

٣ - **ومنها**: تحريم التقليد بالباطل، وأما التقليد بحقٍّ فلا بأس به، فإذا كان الرجل لا يعرف حكم المسألة في دين الله، وليس عنده قدرة على الاجتهاد فإن فرضه التقليد، لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأما من حرَّم التقليد مطلقًا فقوله باطل مُخالفٌ للقرآن، وأما من ألزَمَ به مطلقًا فقوله باطل مخالفٌ لما يجب الإيمان به من اتباع الرسل، فالصواب: أن التقليد للضرورة جائز، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التقليد بمنزل أكل الميتة؛ إن اضطُرَّ الإنسان إليه فهو جائز، وإلا فلا.

ولكن هل يمكن أن نقول للعامِّي صاحب السوق: اجتهد في هذه المسألة حتى تعرف حكم الله؟ لا يمكن، ولو بقي يجتهد لخبَط، لكن فرضُه أن يسأل.

وهل يجوز التقليد في أصول الدين، أو في فروع الدين فقط؟ الجواب:

أولًا: تقسيم الدين إلى أصول وفروع حادثٌ لم يكن معروفًا في عهد الصحابة، ويدل على بطلانه: أنهم يجعلون الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج يجعلونها من فروع الدين، مع أنها أركان الإسلام، فالصواب: أن الشرع لا ينقسم إلى أصول وفروع، وأن هذا اصطلاحٌ حادث، لكنه ينقسم إلى أصول علمية وأصول عملية، فالأصول العلمية: هو الاعتقادات، والعملية: هو العبادات المُكلَّف بها، هذا هو الذي يدل عليه النص.

إذن نقول: قولنا: هل يجوز التقليد في أصول الدين وفروعه، أو في فروعه فقط؟ أصل التقسيم حادث مُبتَدَع، وإن كان عليه أكثر العلماء اليوم، وهو أيضًا غير صحيح، وجه بطلانه: أنهم جعلوا الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام من فروع الدين، وهي أصل من الأصول الدين.

ثم نقول: التقليد فيما تُسمِّيه: أصل الدين وفروعه جائز، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، والرسالة على تقسيم هؤلاء إلى أصول وفروع: من الأصول، ومع هذا يقول عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ اسألوهم: هل أرسلنا رجالًا، أو أرسلنا ملائكة؟ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والقاعدة: أن كل من عجز أن يُدرِك الحق بنفسه وجب عليه التقليد، سواء في الأمور العلمية أو العملية، لا فرق.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء القوم المُكذِّبين للرسل ليس لديهم حُجَّة إلا مجرد ما كان عليه آباؤهم، وهذا ليس بحُجَّة، وعلى هذا فلا يجوز الاحتجاج بعمل الناس، كما يفعله بعض القوم، فإذا نهيتَه عن شيء قال: كل الناس يفعلونه، هذا

ليس بحُجَّة، ولا يمكن أن تُقابل الله بهذه الحُجَّة، لا يمكن أن ينفعك هذا عند الله، قل: هذا دلَّ الكتاب على جوازه، أو هذا دلَّت السنة على جوازه، أما كل الناس يفعلونه فلا.

❁ قال الله تعالى:

﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٢٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ثم قال الله عز وجل: [﴿قَٰلَ﴾ أي: لهم ﴿أَوَلَوْ﴾ تتبعون ذلك ﴿جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أنت ومن قبلك ﴿كَٰفِرُونَ﴾].

قوله: ﴿قَٰلَ﴾ أي: الرسول الذي يُرسله الله عز وجل، ويُقابَل بأنهم وجدوا آباءهم على أمة، قال لهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ يعني: أتردُّون قولي، وتتبعون ما كان عليه آباؤكم ولو جئتكم بأهدى منه؟ والاستفهام هنا واضح أنه للإنكار والتوبيخ؛ يعني: كيف تتبعون ما عليه آباؤكم وأنا قد جئتكم بأهدى؟

وقوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ وهو شرع الله عز وجل، ومع هذا الرد واحد ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا غاية ما يكون من العناد؛ يعني: حتى ولو جئتنا بأهدى مما وجدنا عليه آباءنا فإنا كافرون، ولا نقول كما قلنا أولًا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ بل نقول: كافرون مطلقًا، وهذا أبلغ ما يكون في العناد، وهذا كقول الذين استكبروا من قوم صالح: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان معالجة الرسل عليهم الصلاة والسلام للمُكذِّبين، أنهم يُدلون عليهم الحُجج المُقنعة، ولكن الكافرون يُعاندون.

٢ - **ومنها:** جواز التفضيل بين شيئين قد لا يكون في الطرف الآخر شيء من المعنى، لقوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أهدى اسم تفضيل، ومع ذلك فإننا نقول: ما وجدوا عليه آباءهم ليس فيه هدى، لكن التنزُّل مع الخصم لا بأس به، وإن لم يكن في الطرف الآخر شيء، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:

٥٩] هذه الأصنام، هل في الأصنام خير؟ لا، لكن من أجل مجادلة الخصم نقول لهم: هل الله خيرٌ أم آلهتكم؟ وإنا نعلم أن آلهتهم ليس فيها خير.

هنا قال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ نعلم أن ما كان عليه آباؤهم ليس فيه هدى؛ بل هو ضلال، ولكننا نخاطب من يرى أنه هدى، فنخاطبه على قدر ما عنده من الفهم، ومن ذلك: ما يستعمله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء في مجادلة أهل الكلام؛ حيث يتمشَّى فيما يُجادلهم به على حسب اصطلاحهم، وإن كان يمكن أصل ما هم عليه لكن المجادلة مع الخصم لا بأس أن ينزل الإنسان على حسب فهم الخصم حتى يكون ذلك أبلغ في الاحتجاج عليه.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أولئك المُعاندين الذين يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ليس عندهم نيَّة في أن يؤمنوا؛ لأنهم لما غُلِبوا في الحُجَّة ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: لن نؤمن مهما أتيتم من الحُجَّة فلن نؤمن، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار عن الحق.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزُّخرُف:٢٥].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أنزلنا بهم النقمة، وهي: العقوبة، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ انظر يا محمد، أو انظر أيها المُخاطَب كيف كان عاقبة المُكذِّبين، إذا نظرنا وجدنا العاقبة: الهلاك والدمار، فلنعتبر.

الفوائد:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قدرة الله عز وجل، وأنه تبارك وتعالى يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته، فإن الله قادرٌ على أن ينتقم منهم لأول مرة، لكن يُملي للظالم، فإذا أخذه أخَذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتدر.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: الأمر بالاعتبار والنظر في الأمور، لقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ النظر هنا نظر عين أو نظر قلب؟ نظر قلب.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن عاقبة المُكذِّبين: الهلاك والدمار؛ لأن الله أهلك كل

المُكذِّبين، أهلك قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، فرعون، كل المُكذِّبين أهلكهم الله عز وجل، لكن هذه الأمة – ولله الحمد – جعل الله هلاك عدوها على يدها، وذلك بالحروب؛ لأن هلاك عدوك على يدك أشفى من هلاكه من عند الله عز وجل، أشفى للقلب، ولهذا كان هلاك المُكذِّبين للرسول محمد ﷺ على أيديهم، كما قال عز وجل: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤- ١٥].

٤ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحذير هذه الأمة من تكذيب رسولها أن يُصيبهم ما أصاب غيرهم.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٦ – ٢٨].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف، التقدير: واذكر إذ قال إبراهيم، وإنما ذكر إبراهيم؛ لأن إبراهيم تنتمي إليه جميع الأمم، اليهود قالوا: إنه يهودي، والنصارى قالوا: إنه نصراني، والعرب قالوا: إنه متبعٌ ملَّتنا، فأراد الله أن يُبيِّن أن إبراهيم عليه السلام كان بريئًا من الشرك وأهله، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ إبراهيم الخليل عليه السلام هو إمام الحنفاء الذي قال الله تعالى فيه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ لأبيه وهو آزر، وقومه الذين أُرسِل إليهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى مُحاجَّة إبراهيم لأبيه في سورة مريم على وجهٍ مبسوط، وفي غيرها على وجهٍ مختصر أحيانًا، ومتوسطٍ أحيانًا، فجرت محاورة بينه وبين أبيه في سورة مريم، فقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١- ٤٢] إن دعوتَه لم يسمعك، وإن وافقتَه لم يرَك، وإن استعنتَ به لم ينفعك، ولم يُغنِ عنك شيئًا، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ

جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ الخطاب الآن مبني على الترقيق والتلطيف، والتنزُّل أمام الأب، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل: إنك جاهل وأنا عالم؛ بل قال: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وهذا من أدبه عليه السلام، جاءه من العلم: الوحي، وأبوه ليس كذلك، جاءه من العلم: التوحيد، وأبوه ليس كذلك، الولد يقول لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ لأن الابن معه الحق، والأب ليس كذلك ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ يعني: تعبُد الشيطان عبادة الطاعة، وكل من أطاع شيئًا فقد عبدَه على حسب الحال ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: عاصيًا، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يُصيبك ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ فجعل ولايته للشيطان من العذاب؛ لأن إعراض الإنسان عن الحق مُصيبة ببعض الذنوب، كما قال عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، نحن نظن أن العقوبات هي البلاء ينزل بالإنسان؛ من مرض، وفقر، وفقد صديق، وما أشبه ذلك، وهذا حق، عقوبة، لكن هناك عقوبة أشد، وهي: الإعراض عن الحق ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، هذا أعظم من عقوبة البلاء الحِسِّي الجسدي، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ ماذا كان جواب الأب؟ جوابٌ قاسٍ، قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦] فأنكر عليه الرغبة، ولهذا قال أهل البلاغة: الذي يلي همزة الاستفهام هو المنكر؛ يعني: لم يقل: يا إبراهيم أراغبٌ؛ بل بدأ بالإنكار على الطريقة قبله ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ يعني: عن دعوتك إيَّاي إلى التوحيد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وعيد يقوله الأب لابنه، وابنه يترقَّق له، يتحنَّن إليه بقوله: يا أبتِ، يا أبتِ، وهذا جواب الأب.

وهذا القول: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله أيضًا غيره من المُكذِّبين للرسل، فرعون قال لموسى: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

قال: ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ اتركني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمنًا طويلًا؛ يعني: يقول: دعني على ما أنا عليه ولا تُكلِّمني، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذه النهاية من إبراهيم، فما أحلمه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ فاستغفر له حتى نهاه الله عز وجل.

الشاهد من هذا: أن أبا إبراهيم كان مشركًا، اسمُه: آزر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]، العجب أن بعض الناس – نسأل الله العافية – حرَّف كلام الله عما أراد الله بناءً على هواه، فقال: أبو إبراهيم ليس مشركًا؛

بل هو على التوحيد، ولا يمكن أن يكون أبو النبي مشركًا، وآزر هو عمُّه وليس أباه، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار، كيف نقول: ليس أباه؛ بل هو عمُّه، وهو يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾؟ كيف نقول: إنه عمه، وهو يقول: ﴿يَا أَبَتِ﴾؟ أما يستحي قائل هذا القول، أما يتقِ الله عز وجل من تحريف الكلِم عن مواضعه، بناءً على عقيدة فاسدة: أن أبا الرسول لا يمكن أن يكون كافرًا، فنقول: تأمَّل؛ كون أبِي الرسول كافرًا وابنُه نبي أعظم دليل على قدرة الله عز وجل، وأنه يُخرِج الحيَّ من الميت، وأن النَّسب لا ينفع أصحابه؛ بل نقول: أبو إبراهيم كافر، وأبو محمد كافر، ماذا يضر النبي لو كان أبوه كافرًا؟ لا يضره شيئًا؛ بل هذا أكبر دليل على كمال قدرة الله عز وجل، وأنه يُخرِج هؤلاء الأنبياء من أصلاب هؤلاء الكفار، لكن الحمد لله ما خرج نبيٌّ أبدًا من سِفاح، أما مسألة الكفر والإيمان فهذا لا يُعدُّ انتهاكًا لأعراض الأنبياء.

فالشاهد من هذا: أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه صراحةً وقال لقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ المُفسِّر قال: [بريء] وهذا نقص من المُفسِّر؛ لأن براء صفةٌ مُشبَّهة، وبريئ اسم فاعل، وأيها أعظم؟ الصفة المُشبَّهة أعظم؛ لأنها تدل على الدوام والثبات والاستمرار، فبَراءٌ أعظم من بريئ؛ يعني: صفة البراءة الصفة الدائمة المُستمرة مما أنتم عليه.

قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بـ (إن)، وبراء صفةٌ مُشبَّهة، وهي أبلغ من كلمة: [بريئ]؛ لأن الصفة المُشبَّهة تقتضي الدوام والثبوت.

وقوله: ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: الذي تعبدونه ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ والمراد بها يعبدونها: الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم، ثم يعبدونها، ولهذا قال لهم إبراهيم عليه السلام في جملة مناظراته: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦] فكيف تعبدونه وهي مخلوقة؟ كيف تعبدونها وأنتم الذين تنحتونها؟

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (إلا) أداة استثناء، لكن هل الاستثناء هنا منقطع أو هو متصل؟ فالجواب: إن كانوا يعبدون الله وغيره فالاستثناء متصل، وإن كانوا لا يعبدون الله فالاستثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يكون بعد (إلا) من غير جنس الذي قبلها، هذا هو الاستثناء المنقطع، ومثَّل له النحويون بقوله: جاء القوم إلا حمارًا، فيكون استثناءً منقطعًا، أما إذا قيل: جاء القوم إلا زيدًا، فالاستثناء هنا متصل؛ لأن (زيدًا) من جنس المُستثنَى منه.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لم يقل: إلا الله، من أجل أن يُقيم الدليل على أنه لا يستحق العبادة إلا هو، فالذي فَطَرَك أول مرة وأوجدك من العدم هو الذي يستحق أن يُعبَد، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ومعلوم أن الرب

خالق، لكنه أتى بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وهو معلوم ليُقيم الحُجَّة على أنه المستحق للعبادة وحده.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قال المؤلف: [خلقني] ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [يُرشِدني لدينه] والهداية نوعان، كما سيأتي - إن شاء الله - في بيان الفوائد.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ [أي: كلمة التوحيد المفهومة من قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]] ﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضمير يعود على الكلمة، وما هي الكلمة التي قالها؟ قال المُفسِّر: هي قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وهذا غلط من المؤلف، الكلمة التي قالها هي أقرب كلمة، وهي: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهي كلمة التوحيد، أما قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ فلا علاقة لها في الآية.

ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: صيَّرها هي الطريق التي يسير عليها من بعده ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ عقِب من؟ عقِب إبراهيم، قال: [ذريَّته، فلا يزال فيهم من يُوحِّد الله] كذا قال المؤلف أن المعنى: أن هذه الكلمة ستبقى في ذريته، ولا يمكن أن تُشرِك الذرية كلها؛ بل لابد أن تبقى، والصواب خلاف هذا، الصواب: أن المعنى: جعل هذه الكلمة هي الكلمة الوحيدة التي يسير عليها من بعده، سواء التزموها أم لم يلتزموها.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ [أي: أهل مكة] ولو قيل: عقِبَه؛ لأن الآيات ما فيها ذكر أهل مكة؛ بل فيها ذكر العقِب، ومعلوم أن أهل مكة من عقِبه، وأن بني إسرائيل من عقِبِه، فإذا قلنا: إن الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعود على عقِبه صار أعم مما قال المؤلف؛ لأن المؤلف خصَّها بجزءٍ من العقِب، وهذا قصورٌ بلا شك، ولهذا اتَّخذ هذه القاعدة: لا تُفسِّر القرآن بأخص مما يدل عليه؛ بمعنى: إذا كان القرآن يدل على شيء عام فلا تُخصِّصه إلا إذا كان هناك دليل، وإلا فأبقِه على عمومه، إذن ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يعود على العقِب، من قريش وبني إسرائيل.

لكن ما معنى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾؟ على كلام المُفسِّر رحمه الله؛ يعني: أنها ستبقى هذه الكلمة في العقِب، فلا يمكن أن يُفقَد منهم التوحيد، والصواب: أنه جعلها جعْلَ شرعيًّا؛ بمعنى: أنه عهِد إلى عقِبِه أن يُوحِّدوا الله عز وجل، فمنهم من أطاعه، ومن عصاه.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** مزيَّةٌ عظيمة لإبراهيم عليه السلام، وهي: إعلانه بالبراءة مما يعبد قومه، ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢ - **ومنها**: التوحيد الخالص في إبراهيم؛ لقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهذا معنى قوله: لا إله إلا الله، فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ بإزاء (لا إله)، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بإزاء (إلا الله) إذن هذه الكلمة ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بمعنى: لا إله إلا الله تمامًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغي للإنسان أن يقرِن الحكم بالدليل؛ لأنه أبلغ، ذلك حين قال إبراهيم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: قوة الرجاء؛ أي: رجاء إبراهيم بالله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ والسين هذه تدل على التحقيق، والهداية نوعان:

النوع الأول: هداية الدلالة، وهذه تكون من الله، ومن عباد الله.

والنوع الثاني: هداية التوفيق للحق، وهذه لا تكون إلا من الله عز وجل، لا أحد يملكها.

ثم الآيات الواردة في هذا منها ما يتعيَّن حمله على هداية التوفيق، ومنها ما يتعيَّن حمله على هداية الدلالة، ومنها ما يشمل الأمرين، فقول المصلي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يشمل الأمرين: هداية الدلالة، وهي: العلم، وهداية التوفيق، وهي: العمل، فهل أنت أيها المصلي تشعر بهذا إذا قلت: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أو تشعر بأنك تتلو قرآنًا فقط؟ الثاني غالبًا، أكثر الناس يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يقرأها على أنها آية تُقرَأ لا يشعر بأن المعنى: اهدني علِّمني، وفِّقني للعمل، استشعر هذا الشيء حتى تعرف على أي شيءٍ تُؤمِّن.

مثال هداية الدلالة وحدها: قول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] هذه هداية دلالة؛ يعني: تدل الناس إلى الصراط المستقيم.

ومثال هداية التوفيق: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] يقول للرسول ﷺ: لن تُوفِّق أحدًا للهداية ولو كنتَ تُحبُّه، ولهذا حاول النبي ﷺ حين حضر عمَّه أبا طالب وهو في سياق الموت، حاول أن يُوحِّد الله ولكن عجز، قال في سياق الموت: «يَا عَمِّ ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وكان عنده رجلان من قريش جليسا سوء، فقالا لأبي طالب: أترغب عن ملَّة عبد المطلَب؛ يعني: جدَّك الذي تفتخر به قريش، فكان آخر ما قال: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فما هي الهداية التي عجز عنها النبي ﷺ في هذا؟ هداية التوفيق، أما هداية الدلالة فقد قال: قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] من أي النوعين؟ هداية الدلالة، قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] يشمل الأمرين جميعًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام نصح إبراهيم عليه السلام لعقبه؛ حيث جعل كلمة التوحيد باقيةً فيهم، وهذا بمنزلة الوصية للعقِب أن يقوموا بهذه الوصية.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الرجوع إلى ما كان عليه الأسلاف من الحق، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال الله تعالى:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزُّخرُف: ٢٩].

التفسير

ثم قال الله عز وجل: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بل هذه للإضراب الانتقالي لبيان منة الله عز وجل على قريش، ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [المشركين] أي: أبقيتُهم ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ [ولم أعاجلهم بالعقوبة]؛ بل أبقاهم بدون عقوبة مع شركهم، وكفرهم، واتخاذ الأصنام؛ كاللات، والعزى، وهُبَل، ومناة ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية؛ يعني: إلى أنه جاءهم الحق ورسولٌ مبين.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يقول: [القرآن] والصواب: ما هو أعم، القرآن، والإسلام، والسنة، فهو أعم مما قاله المؤلف، ونحن نقول بالقاعدة التي أشرنا إليها قبل قليل، وهي: إبقاء القرآن على عمومه لا نُخصِّصه، فنقول: جاءهم الحق؛ أي: الذي أتى به رسول الله ﷺ من القرآن والسنة وغير ذلك من الشريعة.

وقوله: ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [مُظهِر لهم الأحكام الشرعية، وهو محمد ﷺ] ﴿وَرَسُولٌ﴾ نكَّره للعلم به، ونكَّره للتعظيم، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهِر للأحكام الشرعية، والأمر كما قال الله عز وجل.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الله عز وجل بيده كل شيء، إن شاء متَّع الناس وأبقاهم، وإن شاء ألكهم، لقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالتمتيع عائدٌ إليه وحده.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل له الحكمة في إبقاء الكافر على وجه الأرض، وإلا لأهلكه، لكن له الحكمة، من الحكمة: أن يأتي حقٌّ فيؤمن به فيسعد

في الدنيا والآخرة، ومن الحكمة في بقاء الكفار: أن يكون في ذلك امتحان للمؤمنين مع هؤلاء الكفار بجهاد الكفار، وظهور نعمة الله عز وجل على المسلمين بالإسلام.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق، إن كان أخبارًا فهي صدق، وإن كانت أحكامًا فهي عدل، وليس فيما جاء به النبي ﷺ باطل، كله حق.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا.

٥ - **ومن فوائدها**: أن النبي ﷺ بيَّن كل ما تحتاج أمته إليه؛ من خيرٍ فتفعله، ومن شرٍّ فتتركه، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يُقلِّب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا، وإذا شئت مصداق هذا القول فانظر إلى الشريعة الإسلامية قد جاءت بتقرير التوحيد، وهذا أعظم ما يكون، جاءت ببيان الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، جاءت بآداب الأكل والشرب.

جاءت بآداب التخلِّي منها - يعني: من الأكل والشرب -، جاءت بآداب اللباس، حتى لُبس الثوب جاءت الشريعة به، تُدخِل الكُمَّ الأيمن ثم الأيسر، وتخلع الأيسر قبل الأيمن، جاءت بآداب معاملة الناس بعضهم مع بعض، كل شيء دقيق أو جليل فالشريعة جاءت ببيانه، ولله الحمد، لكن يضل من يضل، ويهتدي من يهتدي.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

❁ التفسير ❁

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ لما جاءهم الحق قالوا: هذا سحر، ويعنون به: القرآن؛ لأن القرآن أبيَن الكلام، وأفصح الكلام، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»، ولهذا كانت قريش تأتي خُفْية في الليل لتستمع قراءة النبي ﷺ، أخذ بألبابها، وجرَّها جرًّا عنيفًا إلى استماعها، فقالوا: هذا سحر، سَحَرَنا محمد، محمد ساحر، كاهن، مجنون.

قوله: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أكَّدوا أنهم كافرون به؛ لأنه - على زعمهم - سحر، وإذا كان القرآن سحرًا فالذي جاء به يكون ساحرًا، ولهذا لقَّبوا النبي ﷺ بألقاب السوء حتى ينفر الناس من دعوته، ولكن والحمد لله كلما أحدثوا شرًّا أحدث الله خيرًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية**: شدة عناد المُكذِّبين للرسول ﷺ؛ حيث زعموا أن ما جاء به سحر، مع أنه حقٌّ.

٢ - **ومن فوائد الآية**: شدة عنادهم؛ حيث أعلنوا إعلانًا صريحًا أنهم كافرون به، ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣١-٣٢].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ [هلَّا] ﴿نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلَّا، ولها أمثلة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] أي: هلَّا جاءوا عليه بأربعة شهداء.

وقوله: ﴿نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ هذه علَّة أخرى لردِّهم القرآن، يقولون: لو كان هذا القرآن نزل على رجل عظيم من القريتين، وهما: مكة والطائف لكنا قبِلناه، لكنه لم ينزل على رجلٍ عظيم من القريتين، فلا نقبله، وسبحان الله ! ما أعظمَ عنادهم، إن محمدًا ﷺ هو أعظمُ رجلٍ في قريش، إن نظرتَ إلى سلسلة آبائه وجدتَ الأمر كذلك، وإن نظرتَ إلى خُلُقه ومعاملته وجدتَ الأمر كذلك، حتى كانوا يُلقِّبونه بـ (الأمين)، ولما جاءهم الحق صار كذَّابًا، صار ساحرًا، صار مجنونًا، صار كاهنًا، إذن تعلَّلوا الآن بالعلة الثانية، وهي: قالوا: لو أن هذا القرآن نزل على رجل عظيم من أهل الطائف أو أهل مكة لقبِلناه، ولكن نزل على محمد، وليس عظيمًا في قومه، فلا نقبله.

يقول المفسر: ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ [من أيَّة منهما] إما أهل مكة، وإما الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: مُعظَّم في قومه، ثم سمَّاهم فقال: [الوليد بن المغيرة بمكة، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف] هذا التعيين يحتاج إلى دليل، فإذا صحَّ من حيث التاريخ أن أهل مكة يعنون

هذين الرجلين، فلا غرابة، وإلا فتبقى الآية على إبهامها، وأنهم تعلَّلوا بهذه العلة الباطلة بأن القرآن لم ينزل على رجلٍ عظيم من القريتين.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام هنا للنفي؛ يعني: ليسوا هم الذين يقسمون رحمة الله، فيُوزِّعونها كيف شاءوا، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء؛ يعني: هل هم الذين يقسمون رحمة الله، فيجعلون لهذا حظًّا، ولهذا حظًّا، أو يقولون: هذا يستحق، وهذا لا يستحق؟

وقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ قال المؤلف: [بالنبوة] وهذا أيضًا مما يُؤخذ على المؤلف؛ كيف ذلك؟ خصَّه بالنبوة، ونحن نقول: بالنبوة وغيرها، هم لا يقسمون رحمة الله لا بالنبوة، ولا بالقوة، ولا بالأكل، ولا بالشرب، ولا غير ذلك.

وخصَّها المؤلف بالنبوة بناءً على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ولكن الصحيح في مثل هذا: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعلى هذا نقول: المراد برحمة الله: ما هو أعم من النبوة؛ يعني: النبوة، وسعة الرزق، والأمن، وكثرة الأولاد، وما أشبه ذلك؛ هل هم الذين يقسمون هذا؟ الجواب: لا.

قال الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهذا دليل حِسِّي لا يمكن إنكاره؛ يعني: إن كانوا صادقين هم الذين يقسمون رحمة الله، فلينظروا نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا؛ أي: قدَّرناها، هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط، هذا قادر، وهذا عاجز؛ هل تنكر قريش هذا؟ لا تنكره؛ لأن هذا شيء معلوم ملموس محسوس.

وقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فجعلنا بعضهم غنيًّا، وبعضهم فقيرًا] وهذا مثال، وإلا نقول: وجعلنا بعضهم قويًّا وبعضهم ضعيفًا، وبعضهم قادرًا وبعضهم عاجزًا، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ [بالغنى] ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ ولكن هذا أيضًا من القصور، والصواب: أنه رفع بعضهم فوق بعض درجات في الغنى، والعلم، والعقل، والخُلُق، وغير ذلك، رفع الله بعض الناس فوق بعض درجات؛ أي: درجات واسعة.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ قال: [الغني] ﴿بَعْضًا﴾ [الفقير] ﴿سُخْرِيًّا﴾ [مُسخَّرًا في العمل له بالأجرة، والياء للنسب، وقُرِئ بكسر السين] رفع بعضَهم فوق بعضٍ درجات ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ [الغني] ﴿بَعْضًا﴾ [الفقير] وهذا قاصر؛ لأن المراد: يتخذ بعضُهم بعضًا سُخريًّا حتى في غير الغنى، حتى في الذكاء، حتى في الصناعة، فتجد الرجل مثلًا عنده خبرة في الصناعة يأتي بالعمال هو فوقهم، كذلك في الذكاء، يجلس مع قوم، ويتحدث إليهم بذكائه المُفرِط وهم دون ذلك فيرفعه الله، المهم: أنه لا يجوز أن نُخصِّص عموم القرآن إلا بدليل.

وقوله رحمه الله: [الياء للنسب] أي: لنسب التسخير.

وقوله: [قُرِئ بكسر السين] المؤلف له اصطلاح لابد أن نفهمه، إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة، هذا اصطلاحه، فهنا يقول: [قُرِئ بكسر السين] فتكون القراءة شاذة خارجة عن القراءات السبع، وهذا هو الصواب: أنها قراءة شاذة؛ لأن السين بالكسر: الاستهزاء، كما قال عز وجل: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] أي: هُزُؤًا، وأما بالضم ﴿سُخْرِيًّا﴾ فهو من التسخير؛ يعني: التذليل، لولا اختلاف الناس هذا الاختلاف لتعطَّلَت المصالح، لو كانوا كلهم أغنياء من يقوم بالعمل؟ لا أحد يقوم؛ لأنه إذا طلب منه أن يعمل قال: إذا كان عندك ألف أنا عندي ألفان، كذلك أيضًا في بقية الأوصاف، لولا هذا الاختلاف ما قامت الدنيا أبدًا، وهذا من حكمة الله عز وجل، ثم هناك حكمة أخرى، وهي: أن يُعرَف بهذا قدرة الله تبارك وتعالى؛ حيث جعل هذا البشر من جنس واحد، ومع ذلك يتفاضلون تفاضُلًا كبيرًا فيما أعطاهم الله عز وجل من الغنى وغيره.

وقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ [أي: الجنة] ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [في الدنيا]، وقوله: [أي: الجنة] فيه أيضًا شيءٌ من القصور، الرحمة تُطلَق على الجنة بلا شك، كما قال الله تعالى لها يُخاطبها: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعني: الجنة، لكن ينبغي أن يُقال: رحمة الله أعم من هذا، حتى رحمة الله العبد بهدايته إلى الإسلام والإيمان خيرٌ مما يجمعون، فالأَولَى التعميم دون التخصيص.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١ - **منها:** مجادلة المشركين بالباطل، لقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وجه ذلك: أن قريشًا تعرف أن محمدًا ﷺ أحق الناس بالرسالة لو صدَّقوا بها؛ لأنه من خِيرة العرب نسبًا، ولأنه الأمين الصادق، وهم يُسمُّونه: الأمين من قبل أن يأتي بالرسالة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرية تُطلَق على المدن الكبيرة؛ بل على أم المدن، لقوله: ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾، ولقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] ما هي قريته التي أخرجته؟ مكة، في عُرْفنا الآن تُطلَق القرية على المدينة الصغيرة، ولو أنك قلتَ لأهل المدينة الكبيرة: أنتم أهل قرية لاشتاطوا غضبًا، ولكن يقال: القرآن بيننا، القرية حتى تُطلَق على المدينة الكبيرة؛ لأنها مأخوذة من القَرْي، وهو: الاجتماع.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إنكار الله تعالى عليهم، وبيان أنهم ليسوا الذين يقسمون رحمة الله، لقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** إقامة الدليل الذي لا انفكاك عنه بأنهم لا يستطيعون قسم رحمة الله، لقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ فهذا لا يمكنه إنكارهم، هم يعرفون أن فيهم القوي والضعيف، والغني والفقير، والذكي والبليد، والعاقل والسفيه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحكمة في أن الله عز وجل جعل الناس على درجات، لقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية:** إثبات التعليل والحكمة لأفعال الله سبحانه وتعالى؛ أي: أنه عز وجل يفعل لحكمة، لابد أن يكون لحكمة، لقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل، وتعليل أحكام الله الكونية موجود بكثرة في القرآن، وهل الأحكام الشرعية؛ كالإيجاب، والتحريم، والإباحة مُعلَّلة؟ الجواب: نعم مُعلَّلة، كل حكم من أحكام الله الكونية أو الشرعية فلابد له من حكمة، ولكن هنا سؤال: هل هذه الحِكَم معلومة للخلق، أو ليست معلومة؟ فالجواب: منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم؛ لأن عقولنا قاصرة، مهما بلغنا من العقل فهو قاصر.

فإن قال قائل: أيُّما أبلغ في التعبُّد: أن يعبد الله وهو لا يعرف الحكمة، أو أن يعبد الله وهو يعرف الحكمة؟ فالجواب: أما من جهة التذلُّل المطلق فتعبُّد الإنسان بشيء لا يعرف حكمته أبلغ من تعبُّده بشيء يعرف حكمته؛ لأنه إذا تعبَّد لله بشيء يعرف حكمته فإنه قد يتعبَّد لله من أجل هذه الحكمة، لكن إذا لم يعرف الحكمة صار أبلغ في التذلُّل، كأنه يقول: سأعبد الله سواء عرفتُ الحكمة من هذا أو لا.

مثال ذلك: رمي الجمرات في الحج، يأتي الإنسان بحصى معينة ويرميها في مكان معيَّن في وقت معين، بينما لو أتى بأضعاف هذه الحصى بعد عشرة أيام ورمى في هذا المكان لعُدَّ عبثًا، فما الحكمة؟ الجواب: الحكمة أن ذلك لإقامة ذكر الله، ولهذا كلما رمى الإنسان قال: الله أكبر.

ثانيًا: أن يظهر بذلك أثر التعبُّد المطلق؛ حيث يفعل الإنسان هذا الفعل دون أن يعرف الغاية منه على وجه التحديد، وأمثال هذا كثير، ولهذا أطلق الفقهاء رحمهم الله على الأحكام التي لا تُعلَم حكمتها اسم: تعبُّدية، أو هذا تعبُّد، أو ما أشبه ذلك؛ لأنه ليس الغرض منها إلا إقامة العبادة لله عز وجل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز استخدام العمال، من قوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحكمة العظيمة في هذا التفاوت؛ لأنه لولا هذا التفاوت ما عُرِف قدر نعمة الله على الغني بالغنى، وعلى العاقل بالعقل، وعلى القوي بالقوة، وهكذا، فلولا الجنون ما عُرِف قدر قيمة العقل، ولولا المرض ما عُرِف قدر قيمة الصحة، إذن هذا من الحكمة.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن رحمة الله عز وجل - ومنها: الجنة - خيرٌ مما يجمعون؛ أي: من كل ما يجمعون؛ لأن الله هو الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن؛ بل يجب أن يسعى إليها كل عاقل.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى خطورة جمع الأموال، وأن ذلك قد يُنسِي الآخرة، وهو كذلك إلا من رحِمَ ربي، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنافَسُوهَا كَمَا تَنافَسَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»، وهذا هو الواقع، الدنيا والدين في الغالب لا يجتمعان إلا من رحِم الله، وكم من إنسان كان فقيرًا مستقيمًا على دين الله، فأغناه الله فصار غِناه سببًا لطغيانه واستغنائه عن ربه، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧].

❁ **قال الله تعالى**:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

❁ التفسير ❁

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَوْلَآ﴾ هذه حرف فيها شرط لولا كذا لكان كذا، فهي حرف امتناع لوجود ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ لكن امتنع الجَعْل لئلا يكون الناس أمة واحدة.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على أي شيء؟ على الكفر، بدليل قوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

وقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ وهو الله عز وجل ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ [بدلٌ من (لمن)] وهو بدل اشتمال، ولبدل هو المقصود بالحكم، فيكون المعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن ﴿سُقُفًا﴾ [بفتح السين وسكون القاف، وبضمها جمعًا]، [بفتح السين وسكون القاف] أي: (سَقْفًا) مفرد، [وبضمهما جمعًا] ﴿سُقُفًا﴾ المُفسِّر قال: بهذا وهذا، فهل يعني ذلك: أنهما قراءتان؟ فالجواب: نعم، هما قراءتان سبعيتان؛ لأنه لم يُفضِّل أحدهما على الآخر، فهما صحيحان، وهذا أيضًا من أسلوبه رحمه الله أنه إذا قال: بكذا وكذا، فهما قراءتان سبعيتان.

وقوله: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وهي معروفة، ﴿وَمَعَارِجَ﴾ [كالدرج من فضة] ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [يعلون إلى السطح]، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم أيضًا ﴿أَبْوَابًا﴾ [من فضة] ﴿وَسُرُرًا﴾ [من فضة، جمع سرير] ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: يعتمدون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ [ذهبًا] والمعنى: لولا أن يكفر الناس جميعًا.

لجعلنا للكافر هذه البيوت؛ سُقُفًا من فضة؛ يعني: بدل أن يكون السقف من خشب، أو من الأسمنت يكون من فضة، والمراد: فضة لامعة تجذب النظر، وتسُرُّ العين.

وقوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قيل: إنها الدرج، وقال بعض المتأخرين: إنها المصاعد الكهربائية التي تُسمَّى: أسانسير، ومصعد، وما أشبه ذلك؛ لأن الدرج العادية لا تلفت النظر كثيرة، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [يعلون حتى يصلوا إلى السطح] وأيًا كان هذا أو هذا فإنها درج غريبة، ليست كالدرج المعتادة.

والأبواب المؤلف يقول: [من فضة] بناءً على ما ذُكِر في أول الآية، ولكن هذا ليس بمُتعيِّن؛ بل نقول: أبوابًا فخمة ليست كالمعتادة، سواء من فضة، أو من حديد، أو من خشب، المهم: أنها أبواب غير معتادة.

والسُّرُر جمع سرير، وهو: ما يُجلَس عليه، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أيضًا مع السُّرُر مُتَّكأ يتَّكئ عليه؛ أي: يُعتَمَد، سواء من خلف الظهر، أو من اليمين، أو من الشمال، وهو كناية عن كثرة الإرفاه.

وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ هذا الذهب، فهي خمسة أشياء، يعني: [المعنى: لولا خوف اكفر على المؤمن من إعطاء الكافر ما ذُكِر لأعطيناه ذلك لقلة خطر الدنيا عندنا، وعدم حظِّه في الآخرة في النعيم] ووجه ذلك: أن النفوس مائلة إلى اللهو واللعب والترف، فإذا رأى الإنسان هذا الترف للكافر فإن ذلك يُغريه ويغُرُّه، كما يُفعَل الآن بالنسبة للمُنصِّرين ضُلَّال النصارى يمشون على الأقاليم الفقيرة، ويُزيِّنون لهم الدنيا، وهؤلاء الفقراء يتبعونهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة المال والفقر والخُيَلاء.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال المُفسِّر: ﴿وَإِن﴾ [مخفَّفة من الثقيلة] الثقيلة المُشدَّدة، والمُخفَّفة ما حُذِف تشديدها، ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ [(لَمَا) بالتخفيف فـ (ما) زائدة، وبالتشديد بمعنى: إلا] أي: أنها قراءتان [فإن نافية] خلَّط المؤلف رحمه الله، الآن (إنْ) أعربها على أنها مخففة من الثقيلة، فهي مؤكِّدة، ثم قال في الأخير: [فإن نافية] وهناك فرق بين الإثبات والنفي، لكن هذا ينبني على أن (لَمَا) إن قُرِئَت بالتخفيف فـ (إن) مخفَّفة من الثقيلة، وإن قُرِئَت بالتشديد فـ (إنْ) نافية، فصار اختلاف الإعراب مبنيٌّ على اختلاف القراءة في (لَمَا)، فعلى قراءة التشديد تكون (إنْ) نافية، ولَمَّا بمعنى: إلا، وانظروا قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أي: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ، وأما إذا قُرِئَت (لَمَا) بالتخفيف، فـ(إنْ) مخفَّفة من الثقيلة، وتكون (ما) زائدة، ويكون التقدير: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا؛ لأن ما زائدة.

وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يُتمتَّع به فيها، ثم يزول] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ [الجنة] ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لو قيل: كل الآخرة؛ الجنة، وعرَصات القيامة، وسلامتهم من شدة هول القيامة، وغير ذلك لكان أعمَّ، فصارت الدنيا للكفار، مهما أُعطُوا فإنه نعيمهم، والآخرة للمتقين، جعلني الله وإياكم منهم.

واعلم أن هذه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، مهما بلغت من النعيم فإنها سجن المؤمن، ومهما بلغت من الجحيم فإنها جنة الكافر.

هذه قصة ذكرها العلماء في ترجمة ابن حجر رحمه الله، وكان ابن حجر قاضي القضاء في مصر، فمرَّ ذات يوم من بيته إلى مقرِّ عمله على العربة تجرُّها الخيول أو البِغال في موكِب برجلٍ يهودي زيَّات - يعني: يبيع الزيت -، فاستوقفه اليهودي، وقال له: إن نبيَّكم يقول: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، كيف يتفق هذا مع حالي وحالك؟ أنت الآن في نعيم، تجُرُّك الخيول، ولك جاهٌ وشرف ومنزلة، وهو اليهودي بهذا الذل، ثياب وسِخة، مُتعب؛ كيف هذا؟ قال: نعم، ما أنا فيه الآن بالنسبة لنعيم الجنة سجن؛ لأن نعيم الجنة أعلى وأعظم من هذا، أما بالنسبة لك فأنت في جنة بالنسبة لعذاب النار؛ لأنك إن متَّ على اليهودية فأنت في النار، ويُعتبر ما هو فيه الآن - اليهودي - يُعتبر جنة، فاليهودي - فيما يبدو لي والله أعلم - أنه يريد أن ينشد الحقيقة، فلما بيَّن له ابنُ حجر هذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، سبحان الله! الإنسان العاقل الذي يريد الحقيقة لابد أن يهتدي.

يقول الله عز وجل لما ذكر هذه الأشياء: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: ما هذا إلا متاع الحياة الدنيا، متاع كالمتاع يحمله المسافر، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ

رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لأن الدنيا مهما طالت بالإنسان الحياة فلابد من الزوال، إما أن تزول الدنيا عنه، وإما أن يزول هو عن الدنيا، ولهذا قال الشاعر:

لا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصةً لَذَّاتُه بادِّكَار المَوتِ والهَرَمِ

صحيح، الإنسان إذا تذكَّر ونظر إلى مآله؛ إما موت مبكِّر، وإما هَرَمٌ مخرِّف، الآن يوجد الذين بلغوا عمرًا طويلًا، ووصلوا إلى حدٍّ أنهم بأنفسهم متضايقون، وأهلوهم مُضايقون، تجد الإنسان يتضايق من أبيه وأمه، وإن كان المؤمن يصبر، لكن لابد أن يتضايق، أو موت عاجل وينتهي الأمر، هذا حال الدنيا في الواقع، ولهذا الغنيمة الغنيمة؛ بادر العمر قبل فواته، اعمل صالحًا، وطلب العلم من أفضل الأعمال، لكن بشرط أن يكون العالم عاملًا، أما علمٌ بلا عمل فالجهل - والله - خيرٌ منه.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿. وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أن هذه المتعة الدنيوية ما هي إلا متاع الحياة الدنيا، وهي زائلة.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: ألَّا يتعلَّق الإنسان بها، وألَّا يهتمَّ بها، وأن يعلم أنه سيعيش بدونها، وليس لك من الدنيا إلا ما أكَلتَ فأفنَيْتَ، أو لبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تصدَّقتَ فأمضَيْت.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** التزهيد في هذه الأمور، وألَّا تهتم بها، لا تُعلِّق قلبك بمظاهرها، فإنك إن فعلتَ هلَكتَ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجِبُه قال: «لَبَّيْكَ إِنَّ العَيْشَ عَيْش الآخِرَةِ» يعني: إجابةً لك، ليصرف قلبه من التعلُّق بها أيه مما يُعجِبه في الدنيا، ثم وطَّن النفس وقال: «إِنَّ العَيْشَ عَيْش الآخِرَةِ»، أما عيش الدنيا فإنه مهما طاب لك محفوفٌ بنكدٍ قبله، ونكدٍ بعده؛ لأنك لن تحصِّله غالبًا إلا بتعب، ثم إذا حصَّلتَه تبقى هل سيبقى لك أو لا يبقى؟ هل ستبقى له أو لا تبقى؟ لابد من الأمرين: إما أن تموت وتتركه، إما أن يهلِك وأن تفوته.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** البُشرى للمتقين، وأن لهم الآخرة، فالآخرة خيرٌ للمتقين، ففيه البَشارة، وأن الإنسان المُتَّقي إذا انتقل من الدنيا فلا يندم؛ لأنه انتقل إلى دار أطول وأحسن مما فارقها.

وفيه: الحثّ على التقوى؛ وذلك لأن ذكر الجزاء والثواب يستثير النفس حتى يصل الإنسان إلى الوصف الذي يحصل به على الثواب.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٦ - ٣٩].

❁ التفسير ❁

لما ذكر أحوال الدنيا وأنه لولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر لمتّع الكفار بما علِمتم وهذه الدنيا لابد أن تحمل الإنسان على الإعراض عن ذكر الله عز وجل.

قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ فسَّرها بـ [يعرِض] ولكن التفسير المطابق: أن معنى: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يتعامَى حتى يرى رؤية الأعشى الذي يبصِر بالنهار ولا يُبصِر بالليل، فمعنى: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يتعامَى، كما فسَّرها بذلك ابنُ كثير وغيره من المفسِّرين.

ولكن المفسِّر فسَّرها بـ [يعرِض]؛ لأن من لازم التعامي الإعراض.

قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [أي: القرآن] وأضافه الله إلى نفسه، وأضافه إلى الرحمن؛ لأن إنزاله رحمة للخلق، هكذا مشى المؤلف رحمه الله، والصواب خلاف ذلك، والمراد بذكر الرحمن: تذكُّر الرحمن؛ يعني: من تعامَى عن ذكر الرحمن في قلبه، واستحضاره لعظمة ربه وجلاله، فإنه يقيَّض له الشيطان، فيكون هذا جزاءً على إعراضه، وتعاميه عن ذكر ربه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، فالصواب: أن المراد بذكر الرحمن ليس القرآن؛ بل المراد: ذكر الله نفسه؛ يعني: يغفل قلبه عن ذكر الله، ولا يذكر الله بقلبه، فهذا هو الذي يُقيَّض له الشيطان، فيتّبع هواه، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿نُقَيِّضْ﴾ قال: [نسبِّب] ﴿لَهُ شَيْطَانًا﴾ وهذا قريبٌ من المعنى المطابق، وإلا فإن معنى: ﴿نُقَيِّضْ﴾ أي: نُهيِّئ له شيطانًا يحل محل ذكر الله عز وجل، فيستولي الشيطان على قلبه، والشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، كما قال الله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿لَهُ﴾ أي: للعاشي عن ذكر الله ﴿قَرِينٌ﴾ [لا يُفارقه] ووجه ذلك: أن الإنسان فعَّال مريد، متحرِّك قلبًا وقالَبًا، فلابد من أن يشتغل

بشيء، إما أن يكون بذكر الله، وإما أن يكون لوساوس الشيطان، ولابد أن تجد أحدًا يكون قلبه ساكنًا لا يتحرك ولا يريد، هذا مستحيل، ولهذا جاء في الحديث في الأسماء: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ: عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ» همَّام الإرادة القلبية، وحارث العمل، كلَ إنسانَ هكذا لابد، فيُهيِّئ الله له هذا الشيطان الذي يلازمه ولا يُفارقه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ [أي: الشياطين] ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ [أي: العاشين] ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ [أي: طريق الهدى] ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشين الذين صدَّتهم الشياطين ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال: [في الجمع، رعاية معنى مَنْ] الشيطان - نعوذ بالله منه - إذا استولى على قلب الإنسان زيَّن له سوء عمله، وظن أنه على حق، ولكنه على باطل، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]؟ الجواب: نعم، بيَّنهم الله قال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يعني: الشيطان زيَّن لهم هذا، وقال: أنتم على الحق، أنتم الأعلون، وسوَّل لهم، وأملَى لهم حتى يتبعوه، ولهذا قال: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: العاشين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: طريق الحق].

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ الواو تعود على العاشين ﴿أَنَّهُم﴾ أي: العاشين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ أي: على الهدى، وهذا غاية ما يكون من الخِصام - والعياذ بالله - أن يتمادى الإنسان في الباطل، ويظن أنه على حق، قال المُفسِّر: [في الجمع، رعاية معنى مَنْ] الجمع هو قوله: (يحسبون، يصدونهم) ففيها رعاية معنى ﴿وَمَن﴾ كلمة (مَنْ) و(ما) وما أشبههما من الألفاظ العامة يجوز مراعاة معناها، ومراعاة لفظها، اللفظ مفرد ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ ولذلك عاد الضمير إليه بالمفرد ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾ أيضًا مراعاة اللفظ، ﴿فَهُوَ لَهُ﴾ مراعاة اللفظ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ مراعاة المعنى، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كذلك مراعاة المعنى، إذن إذا أتتك (مَنْ) موصولة كانت أو شرطية فلك أن تراعي بضميرها اللفظ، فتجعله مفردًا، والمعنى: فتجعله حسب ما ورد فيه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق: ١١] كل هذا مراعاة اللفظ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ مراعاة المعنى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ﴾ مراعاة اللفظ، فتجد في هذه الآيات تارةً روعِيَ اللفظ، وتارةً روعِيَ المعنى.

قال تعالى: [﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ العاشي بقرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ له ﴿يَا لَيْتَ﴾ للتنبيه ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مثل بعْد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت لي].

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ يعني: الشيطان وقرينه، وذلك يوم القيامة تبرَّأ كل واحد من

الآخر، وقال له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ (يا) للتنبيه، ولا تصح أن تكون للنداء؛ لأن يا التي للنداء لا تدخل على حرف - كما هنا -، ولا على فعل، ومثل ذلك: قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]، قيل: إن يا داخلة على منادى محذوف، والتقدير في هذه الآية: يا هذا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين؛ يعني: تُقدِّم مُنادى اسمًا يا هذا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين.

فإذا قال قائل: أيُّها أولَى: أن نُقدِّر منادى يُناسب السياق من أجل أن يصح حلول يا في هذا المكان، أو نقول: الأصل عدم التقدير، ونجعل يا للتنبيه؟ الثاني أولَى؛ لأنه إذا دار الأمر بين أن يكون في الكلام شيء محذوف أو لا، فالأولَى ألَّا يكون فيه شيءٌ محذوف.

وقوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يقول المؤلف: [ما بين المشرق والمغرب] وعليه فيكون في الكلام تغليب، وهو: تغليب المشرق والمغرب، والتغليب هذا جارٍ في اللغة العربية؛ مثل: قوله ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ» إذا جعلنا مطلق الأذان هو الأذان الذي يكون لدخول الوقت، أما إذا جعلنا الأذان بمعنى: الإعلام، فإن الأذانين ليس فيها تغليب؛ لأن كلًّا من الأذان والإقامة يُسمَّى أذان، لكن قولهم: القمران يعنون بذلك: الشمس والقمر، قولهم: العمران يعنون بذلك: أبا بكر وعمر، هذا من باب التغليب، فيكون ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بعْد ما بين المشرق والمغرب، ولكن ذُكِر بلفظ المشرق تغليبًا، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: مشرقَ الشمس شتاءً، ومشرقها صيفًا؛ لأن بينهما مسافة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، وكلا المعنيين صحيح؛ يعني: سواء جعلنا اللفظ فيه تغليب أو لا، والمراد: أن هذا العاشي الذي أضلَّه الشيطان إذا جاء معه يوم القيامة تبرَّأ منه، وقال: ليتك بعيدٌ عني وأنا بعيدٌ عنك.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ هذه جملة إنشائية للذم، قال المؤلف: [أنت] يعني: أنه قد حُذِف فيها المخصوص؛ لأن بئس ونِعْمَ لابد فيهما من فاعل ومخصوص.

قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ [أي: العاشين تمنِّيكم وندمكم] ﴿ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [أي: تبين لكم ظلمكم بالإشراك في الدنيا] ﴿أَنَّكُمْ﴾ [مع قرنائكم] ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [علَّة بتقدير اللام لعدم النفع، وإذْ بدلٌ من اليوم] يعني: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب، هذا هو الصحيح، وعلى هذا فتكون ﴿أَنَّكُمْ﴾ ليست للتعليل، كما ذهب إليه المُفسِّر؛ بل هي فاعل ينفع، والمعنى: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب، ووجه ذلك: أنه جرت العادة أن الإنسان إذا عُذِّب ورأى غيره يعذَّب هان عليه الأمر وتسلَّى، في يوم القيامة يشترك أهل النار في العذاب، لكن هل ينفعهم هذا شيئًا؟ لا ينفعهم، هذا هو الصواب الذي تدل عليه الآية، أما المؤلف فجعل ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ علة بتقدير

اللام؛ أي: لأنكم في العذاب مشتركون، ولكن هذا بعيد من الواقع.

الفوائد:

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** التحذير من الغفلة عن ذكر الله؛ لأنك إذا غفلتَ عن ذكر الله حلَّ محلَّ ذكر الله: وساوس الشيطان.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يُعاقِب العبد بما يقتضيه الذنب، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] فهذا الرجل لما أخلى قلبه من ذكر الله عُوقِب أن يحِلَّ محلَّه الشيطان.

٣ - **ومنها:** الحذر من قُرناء السوء؛ لأن الشياطين ليس اسمًا خاصًّا بشياطين الجن؛ بل حتى الإنس لهم شياطين، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، ففي هذا: التحذير من قرناء السوء، وقد حذَّر النبي ﷺ من قرناء السوء؛ حيث شبَّه قرين السوء، أو جليس السوء بنافخ الكِير؛ إما أن يُحرِق ثيابك، وإما أن تجِد منه رائحةً كريهة، ثم إن الواقع كذلك، فما أكثر ما يمُرُّ علينا ممن يتصلون بنا يشكون من قوم كانوا مستقيمين وأئمة مساجد، أو مؤذِّني مساجد اتصل بهم أُناس من أصحاب السوء فانحرفوا انحرافًا كاملًا، ومثل هؤلاء - والعياذ بالله - إذا انحرفوا - نسأل الله الثبات - يكون انحرافهم أشد وأعظم؛ كالماء الذي حبستَه ثم أطلقتَ الحبس سيندفع بقوة.

فالمهم: أن الإنسان إذا أعرض عن ذكر الله قيَّض الله له الشيطان من الإنس أو الجن، فهو له قرين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المُلازِم أشد تأثيرًا من العابر؛ بمعنى: أنك لو جلستَ مع إنسان صاحب سوء لمدة ساعة أو ساعتين، ربما تتأثَّر به وربما لا تتأثَّر، لكن إذا كان مُقارنًا فإنه سيُؤثِّر، ولهذا قال: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، أقول هذا لتحذروا من الاستمرار لقرناء السوء، ولتعلموا أنه متى علمتُم أنه قرين سوء وجَبَ عليكم البُعْد عنه، لا تقل: أخشى أن يتأثَّر، أخشى أن يقول: لماذا الرجل كان مُصاحبًا لي ثم فارقَني؟ لا يهمك هذا، الذي يهمُّك هو نفسُك، فأنقذها.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عمى القلب - والعياذ بالله -، لما تعامَى بعينه عن ذكر الرحمن وبقلبه أيضًا قُيِّض له هذا الشيطان الذي يصُدُّه عن الهدى وهو يحسبُ

أنه مهتدٍ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وما أكثر هذا، أهل البدع الذين أصرُّوا على بِدَعهم صغيرةً كانت أم كبيرة ألم يكونوا قد استحسنوها؟ بلى؛ لماذا استحسنوها وهي بِدعٌ وضلالات؟ لأن الشيطان صدَّهم عن الحق، أهل الأفكار الرديئة؛ كالعلمانيين، والشيوعيين، والبَعْثِيِّين، ومن أشبههم؛ لماذا استمرُّوا على ذلك؟ لأن الشيطان ركب قلوبهم - والعياذ بالله - فجعلهم يظنون أن هذا السيئ حسنًا، وهذا أشد ما يكون من الفتنة؛ أن يرى الإنسان السيئ حسنًا فيستمر عليه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن بعض الظن إثم، وجهه: أن هؤلاء ظنوا أنهم على الحق فاستمروا في الباطل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هذا القرين في الدنيا يتبرَّأ من صاحبه يوم القيامة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه مع تمنِّيه هذا الذي لم يُدرك منه شيئًا يُثني على قرينه هذا بالذمِّ والمدح فيقول: فبئس القرين أنت.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من القرناء من هو قرين خير وقرين سوء، وهو كذلك، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا أبيَن شيء؛ حيث قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ؛ إِمَّا أَنْ يَحْذِيَكَ» يعني: يُعطيك هدية «وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً».

«وَالجَلِيسِ السُّوءِ كَنَافِخِ الكِيرِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ» بالشَّرر الذي يتطاير من النار إذا نُفِخَت «وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً».

الفوائد:

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المشتركين في عذاب الآخرة لا ينفعهم الاشتراك، بخلاف الاشتراك في العذاب في الدنيا، فإنه يُسلِّي الإنسان، ويهُون عليه، ولهذا قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وَلَولا كَثرةُ البَاكِينَ حَولِي ... عَلى إخوانهم لقَتَلتُ نفسِي
وَما يبْكُونَ مثلَ أخِي ولكن ... أُسَلِّ النَّفسَ عنه بالتَّأسِّي

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء المُعذَّبين هم الذين ظلموا، وما ظُلِموا، لقوله: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن المُعذَّبين يعرفون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يُسلِّيهم، ولا يُهوِّن عليهم العذاب.

قال الله تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخرُف: ٤٠].

التفسير

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [بيِّنٍ؛ أي: فهم لا يؤمنون] الهمزة للنفي؛ يعني: أنك لا تُسمِع الصم، ولا تهدي العُمْي؛ لأن هذا موكولٌ إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّن، والمراد بالإسماع هنا: إسماع الهدى، والمراد بالهدي: هدي الهدى، وليس المعنى: أن تُسمِع الصم صوتَك؛ لأن هذا شيءٌ يشترك فيه كل الناس، لكن إذا كان الخطاب للنبي ﷺ صار المراد بالإسماع هنا: إسماع الحق، والمراد بالهدي: الهديُ إلى الحق.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية الكريمة**: تسلية النبي ﷺ؛ حيث كان يندم على عدم اهتداء الناس، فبيَّن الله له أن الأمر ليس إليه؛ بل إلى الله، وحينئذٍ تهون عليه المُصيبة، ويرضى ويُسلِّم عليه الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الكفار بمنزلة أهل الصمم الذين لا يسمعون، وقد وصفهم الله تعالى في آية أخرى بأنهم صُمٌّ بُكم عُميٌ فهم لا يعقلون، أو صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فهم لا يرجعون.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن العمى سببٌ أن يتيه الإنسان عن الطريق، لقوله: ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من كان في ضلال مبين؛ أي: مُنغمسًا في الضلال فإنه لا يهتدي أبدًا.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤١ - ٤٢].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ يقول المُفسِّر: [فيه إدغام نون إنْ الشرطية في ما الزائدة] فإمَّا، وأصلها: فإنْ ما، لكن اجتمعت النون الساكنة مع الميم فأُدغِمَت إحداهما في الأخرى، فصار ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾.

وقوله: [مع ما الزائدة] اعلم أنه ليس في القرآن شيءٌ زائد، كل ما في القرآن فهو في محلِّه والسياق يحتاج إليه، لكن مرادهم بالزيادة: هي التي يتم الكلام بدونها، لا التي يكمُل الكلام بدونها، هذا بالنسبة للقرآن؛ يعني: لو حُذِفَت لاستقام الكلام، وإلا فإنها لها معنى، وهو: التوكيد.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يقول المُفسِّر: [بأن نُميتَك قبل تعذيبهم] ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [في الآخرة] يعني: أننا إن ذهبنا بك فلن نُغفِلَهم من العذاب؛ بل نُعذِّبهم.

وقول المؤلف: [في الآخرة] فيه نظر، والصواب: في الدنيا؛ يعني: أنا إن ذهبنا بك قبل أن نُعذِّبهم فإننا لابد أن نُعذِّبهم، وهذا تهديد واضح لهؤلاء المُكذِّبين لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ [في حياتك] ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ [به من العذاب] ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ [على عذابهم] ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ [قادرون] فالمسألة: إما نُعذِّبهم قبل أن تموت، وإما أن تموت قبل أن نُعذِّبهم، فإن متَّ قبل أن نُعذِّبهم فإنهم لن يُفلِتوا من العذاب، سننتقم منهم، وإن عذَّبناهم قبل موتك فإنا قادرون على ذلك، ولن نؤخِّر عنهم العذاب عجزًا.

وقول المُفسِّر: [على عذابهم] الصواب: العموم، على عذابهم، وعلى ذواتهم، وعلى جميع أحوالهم، وقوله: ﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ [قادرون] أيضًا فيه قصور؛ لأن المُقتدر أبلغ من القادر، فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فهو أبلغ من القادر، وعلى كل حال؛ فالآية معناها الإجمالي: أننا إن ذهبنا بك بالموت فإننا لن نُغفِلَهم عن العذاب، وإن عذَّبناهم في حياتك فسترى عذابهم بنفسك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** التهديد للمُكذِّبين للرسول ﷺ، وأن عذابهم واقع لا محالة.

٢ - **ومن فوائدها**: تسلية النبي ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ جاء بالهدى والحق والآيات، فإذا كُذِّب فسيكون ذلك ثقيلًا على نفسه، فسلَّاه الله عز وجل بهذا الوعيد.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وصف الله تبارك وتعالى بالانتقام، كما وصفه في آية أخرى، ولكن هل يُوصَف به على الإطلاق، فيُقال مثلًا: المنتقم؟ فالجواب: لا؛ لأن كلمة المنتقم ليست مدحًا في ذاتها حتى تُقابَل بما يكون سبب الانتقال، ولهذا تمرُّ بنا أسماء الله الحُسنى التي عدَّها بعض الناس منها: المنتقم، وهذا غلط، فإن ذلك ليس من أسماء الله؛ لأن الله لم يذكر ذلك من أسمائه، وإنما ذكره مُقيَّدًا بحال من الأحوال، هنا ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مُقيَّد بحال من الأحوال، وهي: تكذيب هؤلاء، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عظمة الله عز وجل؛ حيث وصف نفسه بالجمع، ومن المعلوم أنه ليس المراد بالجمع التعدُّد؛ لأن الله إلهٌ واحد، لكن المراد بالجمع هنا: التعظيم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الوعد يأتي في الشر والعقوبة، خلافًا لمن قال: الوعد في الخير، والإيعاد في الشر، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

وإني وإن أوعَدتُه أو وعدتُه ... لَمُخلِفُ إيعادِي ومُنجِزٌ موعدي

فالصواب: أنها تُطلق على هذا وعلى هذا، فهنا قال: ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ وعلى قياس قول البيت يكون التعبير: الذي أوعدناهم، ولكن الصحيح: أنها جائزة لهذا وهذا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان غلبة قدرة الله عز وجل على كل قدرة، لقوله: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، وهو كذلك، ولما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، فلا قوة تُمانع قوة الله عز وجل، ولا قدرة تُمانع قدرته؛ بل هو العزيز الغالب على كل أحد.

قال الله تعالى:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٣ - ٤٥].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [أي: القرآن] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [طريق مستقيم]، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ بمعنى: تمسَّك، لكن زِيدت حروفها للمبالغة؛ أي: تمسَّك تمسُّكًا قويًّا بالذي أُوحِيَ إليك، والمُوحِي هو الله عز وجل، والمُوحَى: القرآن، وإنما قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ليُثبِّت رسالته، وإلا لو قال: بالقرآن كفى، لكن من أجل تثبيت الرسالة قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، والوحي: هو إنباء الله سبحانه وتعالى لرسله بما يشرعه لعباده.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمرٌ وتثبيت، الأمر: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، التثبيت: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وإذا كان على صراط مستقيم فإن العقل يقتضي ألَّا يحيد عنه؛ بل أن يستمسك به تمامًا، والصراط: هو الطريق الواسع المستقيم، فالطريق الضيق لا يُسمَّى صراطًا، والطريق المُعوجّ يمينًا وشمالًا لا يُسمَّى صراطًا، لا يُسمَّى صراطًا إلا ما كان طريقًا واسعًا مستقيمًا، كما قال تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي: الطريق الواسع المستقيم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ [لشرفٌ] ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [لنزوله بلغتهم] ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [عن القيام بحقِّه].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي أُوحِي إلى الرسول ﷺ، ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [لشرف] على ما فسَّره به المُفسِّر؛ أي: أنكم تشرُفون به لنزوله بلغتكم، ولكونه نزل على واحد منكم، فهو شرف، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولا مانع منه.

لكن الصواب: أن المراد بالذكر هنا: التذكير؛ يعني: وإن هذا الذي أُوحِي إليك لتذكيرٌ لك ولقومك، فإن قال قائل: يرِد على هذا أنه تذكيرٌ لكل الناس؟ فالجواب: أن هذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] مع أنه بُعِث لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن أي شيء؟ يقول: [عن القيام بحقِّه] ومن حقِّه: العمل به، ومن حقِّه: إبلاغه للناس، ولهذا يُعتبر العرب هم الإشعاع لعامة الناس في نقل الشرعية الإسلامية، من في الجزيرة حين نزل الوحي؟ ليس فيها إلا عرب، هؤلاء العرب بثُّوا الإسلام في جميع أقطار الدنيا، وهذا من حقِّه، سوف تُسألون عما فيه من الأمر بالجهاد؛ هل جاهدتم أم لا؟ سوف تُسألون عن تنفيذ جميع شرائعه، ولهذا كلام المؤلف

هنا جيِّد [عن القيام بحقِّه].

ثم قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [أي: غيره] ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، ﴿وَسْئَلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، لقوله: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وسوف يكون الجواب: لا، والمقصود من هذا الأمر هو إقامة الحُجَّة على المشركين الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر، يقول للنبي ﷺ: اسأل جميع الرسل السابقين: هل جعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون حتى يقوم هؤلاء المشركون فيعبدون مع الله غيره؟ ففيه إقامة الحُجَّة على المشركين؛ أن جميع الرسل السابقين ليس فيهم من يُحِل الإشراك بالله عز وجل.

فإن قال قائل: كيف يسأل من أرسل الله من الرسل قبله وهو لم يُدرِكهم؟ فالجواب: أن هذا من أساليب اللغة العربية، والمعنى: إنك إن تسأل - على الفرض والتقدير - فلن تُجَبْ بـ (نعم)؛ بل سيكون الجواب: لا، فهو من باب التحدِّي لهؤلاء المشركين الذين يدَّعون أنهم على حق.

وقوله: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [قيل: هو على ظاهره؛ بأن جُمِع له الرسل ليلة الإسراء] يعني: وسَألَهم، لكن هذا القول ضعيف؛ لأن جميع الأحاديث الواردة في الإسراء ليس فيها هذا، ثم إن المقصود بالإسراء: إظهار شرف النبي ﷺ؛ بل هذا من مقصود الإسراء إظهار شرفه على الرسل، فكيف يُوجَّه إليهم هذا السؤال؟ فهذا القول ضعيف جدًّا، ولا وجه.

قال: [وقيل: المراد: أمم من أهل الكتابَيْن] وهذا أيضًا ليس بصواب؛ يعني: هؤلاء يقولون: معنى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ يعني: اسأل الأمم الذين أُرسِل إليهم، وهؤلاء باقون إلى بعثة النبي ﷺ، وهذا ضعيف مخالف لظاهر القرآن، القرآن يقول: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، والأمم التابعة للرسل فيهم مشركون، فالنصارى أقرب الأمم فيهم مشركون، فلا يتوجَّه سؤالهم مع كونهم مشركين، هذا أيضًا ضعيف.

قال: [ولم يسأل على واحدٍ من القولين؛ لأن المراد من الأمر بالسؤال: التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسولٌ من الله ولا كتاب بعبادة غير الله] هذا صحيح؛ يعني: أن السؤال إنما أُريدَ به: إلزام قريش بأنه لم يأت أحد من الرسل بإباحة عبادة غير الله، هذا المقصود،

وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤]، لكن الآية الأخيرة هذه السؤال فيها أعم؛ لأنه قال: اسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، ولم يَخُصَّ ذلك بالرسل.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزُّخرُف:٤٣] .

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** حثُّ النبي ﷺ على التمسُّك بما أُوحِيَ إليه، وإذا كان النبي ﷺ يُحثُّ على ذلك فنحن من باب أولَى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن محمدًا ﷺ كان رسول الله حقًّا، لإثبات الوحي إليه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** تثبيت النبي ﷺ على الاستمساك بما أُوحِي إلي، وذلك بأنه على صراط مستقيم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الشرعية التي جاء بها محمد ﷺ صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٤٤] .

١ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن هذا القرآن الكريم فيه ذكرٌ للعرب؛ أي: شرفٌ لهم، وفيه تذكيرٌ لهم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** تحميل المسئولية العظيمة على العرب، وهي: أنهم سوف يُسألون عن هذا الوحي: هل قاموا بحقه أم لم يقوموا بحقه؟

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٤٥] .

١ - **من فوائد هذه الآية:** إقامة البيِّنة الكبرى على أنه لم يقل أحد من الرسل السابقين: إن هناك آهلة تُعبَد من دون الله، لقوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات اسم الرحمن لله عز وجل، لقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ والرحمن هو أحد الاسمين اللذَين لا يُسمَّى بهما غير الله، وهما: الله، والرحمن، لا يُوصَف بهما غير الله، الرحيم يُوصَف به غير الله، العزيز يُوصَف به غير

الله، السميع يُوصَف به غير الله، وهكذا، لكن هذين الاسمين الكريمين: الله، والرحمن لا يُوصَف بهما أحد، ولا يُسمَّى بهما أحد إلا الله تعالى وحده لا شريك له.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية**: اتفاق الرسل على التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا قد اتفق عليه الرسل، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والرسل ما جاءت إلا لإصلاح الخلق، والخلق لا يمكن صلاحهم ولا إصلاحهم إلا إذا قاموا بتوحيد الله عز وجل، فإذ لم قوموا بتوحيد تشتَّت قلوبهم، وصار كل واحد يذهب مذهبًا غير الآخر؛ لأن كل أمة تريد أن يكون لها معبود خاص، فتحصل الفوضى بين العباد، فإذا اجتمع الناس على عبادة الله وحده حصل الاتفاق بدون فوضى.

تفسير سورة محمد

تفسير سورة محمد

❁ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١ـ٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

هذه السورة تُسمَّى سورة القتال، وتُسمَّى سورة محمد؛ وذلك لأنه ذُكِر فيها محمد ﷺ، وذُكِر فيها القتال.

يُبيِّن الله تعالى في هذه السورة أن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ الله أعمالهم؛ أذهبها سُدًى، والذين كفروا بماذا؟ كفروا بما يجب الإيمان به؛ كفروا بالله، كفروا برُسُله، كفروا بكتبه، كفروا بملائكته، كفروا باليوم الآخر، كفروا بالقدر، إذا كفروا بأيِّ واحدٍ من هذه الأركان الستة فهم كفَّار، حتى لو آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض فهم كفَّار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فالإيمان

كلٌّ لا يتجزَّأ، من كفر بشيء منه فقد كفر به جميعًا، فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفروا بما يجب الإيمان به من الأركان الستة التي بيَّنها النبي ﷺ لجبريل.

هؤلاء الذين كفروا ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا أي: أعرضوا، أو صرفوا، إذا فسَّرناها بـ أعرضوا صار الفعل لازمًا، وإذا فسَّرناها بـ صرفوا صار الفعل مُتعدِّيًا، فعلى الأول يكون المعنى: أنهم هم أعرضوا عن سبيل الله، وعلى الثاني يكونون صرفوا عباد الله عن سبيل الله.

وهل يمكن أن نحمل الآية على المعنيين جميعًا؟

نعم، يمكن؛ لأن من قواعد التفسير: أن الآية إذا تضمَّنت معنيين لا يُنافي أحدهما الآخر وجب أن تُحمَل على المعنيين جميعًا؛ لأن ذلك أعمُّ وأشمل، وأبرأ للذِّمَّة وأحوط، وعلى هذا يكون هؤلاء الكفار قد أعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، وقد صرفوا أنفسهم عن سبيل الله، هؤلاء أضلَّ الله أعمالهم، مهما ظنوا أنهم على صواب فإنهم على خطإ، وهم أخسر الناس أعمالًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾، ولما كان القرآن الكريم مثاني تُثنَّى فيه المعاني، فإذا ذُكِر الشيء ذُكِر ما يُقابِلُه، فإذا ذُكِر الحق ذُكِر الباطل، إذا ذُكِر الكافر ذُكِر المؤمن، إذا ذُكِر الثواب ذُكِر العقاب، حتى يبقى الإنسان سائرًا في منهاجه وتصرُّفاته بين الخوف والرجاء.

لما ذكر الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أنه أضل أعمالهم، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ الذين آمنوا بماذا؟ آمنوا بما يجب الإيمان به، آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عملوا الأعمال الصالحات، وما هي الأعمال الصالحات؟ قال العلماء: العمل الصالح هو المبني على شيئين: الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، وضده: العمل الفاسد، فما لم يُخلَص فيه لله فهو عملٌ فاسدٌ، وما لم يُتَّبع فيه رسول الله فهو عملٌ فاسدٌ، ودليل ذلك: قول النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، ما الذي اختلَّ في هذا؟ الإخلاص، وقال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي لفظٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، ما الذي اختلَّ من هذا؟ المتابعة.

ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافقت العبادةُ الشريعةَ في أمور ستة: السبب، والجنس، والكيفية، والقدْر، والزمان، والمكان.

فإذا تعبَّد الإنسان لله عبادةً بسببٍ غير مشروعٍ، فالعبادة مردودة مُبتدَعة، يُنكَر على فاعلها أن يفعلها.

مثال ذلك: لو أن الإنسان كلما خرجت منه ريح حمِدَ الله، أو كلما تجشَّأ حمِدَ الله، فنقول: هذه العبادة غير موافقة للشرع؛ لأنك حمدتَ الله على سببٍ لم يجعله النبي ﷺ سببًا للحمد، لو فُرِض أن الإنسان أُصيبَ بانحباس الريح، ثم فتح الله له ذلك، فحينئذٍ تكون نعمة متجددة إذا حمد الله عليها فإن ذلك صحيح.

في جنسها: لو أن الإنسان ضحَّى يوم عيدٍ بفرسٍ، فإن هذه الأُضحية لا تنفعه، ولا تُجزِئ؛ لماذا؟ لأنها ليست من جنس ما يُضحَّى، مخالفة للشريعة في الجنس، ما الذي يُضحَّى به؟ بهيمة الأنعام؛ الإبل، والبقر، والغنم.

لو أن رجلًا صلى الفجر ثلاث ركعات أو أربع ركعات، قلنا: لا يصح هذا؛ لماذا؟ لأنها مخالفة للشريعة في القدْر.

لو أن أحدًا توضَّأ فغسل رجلَيْه، ثم مسح رأسه، ثم غسل يديه، ثم غسل وجهه، لم يصح وضوؤه؛ لماذا؟ للاختلاف في الكيفية.

لو أن رجلًا صام رمضان في رجب، أراد أن يُقدِّم، وقال: هذا من المسابقة إلى الخيرات؛ هل يُجزِئ؟ لا؛ لماذا؟ لأنه مخالفٌ في الزمن.

ولو ضحَّى يوم عرفة، فالأُضحية لا تُجزِئ؛ لأنها مخالفة في الزمن، ولو ضحَّى يوم عيد الأضحى قبل الصلاة، لم تُجزِئ؛ لأنه مخالف للزمن.

ولو اعتكف الإنسان في بيته بدلًا عن المسجد، لم تصح؛ لأنها مخالفة في المكان.

الرياء: أن يعمل الإنسان العمل لله، لكن يريد أن يمدحه الناس به، هو لا يصلي للناس، ولكن يصلي لله، إنما يريد أن يمدحه الناس، فيقال: هذا رجل مصلٍّ، يُنفق لله، لكن يريد أن يمدحه الناس بالإنفاق، هذا مُراءٍ.

فما حكم الرياء إذا خالط العبادة؟

نقول: يفسد العبادة، ولا تُقبل منه؛ بل يأثم بها؛ لأنه أشرك بالله، والشركُ لا يُغفَر ولو كان أصغر، لعموم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ولكن لا يعني ذلك أن الشرك

الأصغر يُخلَّد صاحبُه في النار، الشرك الأصغر يُعذَّب صاحبُه بقدر ما عمل من الشرك، ثم يكون مآلُه إلى الجنة، الذي يُخلَّد فاعلُه في النار هو الشرك الأكبر، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ومن الشرك: أن يعمل الإنسان العمل للدنيا، يُعلِّم ليأخذ الراتب، يكون إمامًا ليأخذ الراتب، ليس قصده أن يتقرَّب إلى الله بالأذان، ولا أن يتقرَّب إلى الله بالإمامة، ولكن من أجل أن يحصل على الراتب، هذا شرك؛ لأنه أراد بعمله الدنيا.

وقد قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «كتاب التوحيد» قال: بابٌ: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

هذه النقطة الأخيرة مشكلة؛ لأن كثيرًا من الأئمة، وكثيرًا من المؤذِّنين يقومون بذلك العمل من أجل الراتب، وهذا مُشكِل؛ فهل يعني ذلك أن يتخلَّى عن الأذان والإمامة؟ نقول: نعم، إذا كانت هذه نيَّته فليتخلَّ؛ لأن كونه يُصبحُ فقيرًا من المال خيرٌ من كونه يصبح فقيرًا من الإخلاص، ولكننا نقول قبل ذلك: صحِّح النية، انو أنك تتقرَّب إلى الله بالأذان وبالإمامة، ولكنك تأخذ ما رُتِّب على ذلك للتقوِّي عليهما، وعلى القيام بهما.

قال ابن تيمية رحمه الله في مثل هذا: من أخذ مالًا ليحُجَّ به فلا حرج، ومن حجَّ ليأخذ المال، فليس له في الآخرة من خلاق، وهذا نحتاج إليه فيما يأخذه بعض الناس أيام الحج من الدراهم ليحُجَّ به عن غيره، فإننا نقول له: هل أنت أخذت هذه الدراهم لتحج بها، أو حججتَ لتأخذ الدراهم؟ إن كان الأول فلا حرج؛ لأنه من باب الاستعانة برزق الله على طاعة الله، وإن كان الثاني، ففيه الحرج؛ لأنه اتخذ الدين وسيلةً للدنيا، والعكس هو الصحيح؛ أن الدنيا هي التي تُتَّخذ وسيلة للدين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ بما هذه اسم موصول تشمل ما نُزِّل على محمد ﷺ من القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذه الجملة تدل على أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام حقٌّ، سواءٌ كان طلبًا أم خبرًا، وحينئذٍ نسأل: ما موقفنا من الطلب، وما موقفنا من الخبر؟

موقفنا من الطلب: الطاعة، أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ونُنفِّذ إن كان أمرًا فعلنا، وإن كان نهيًا تركنا.

وموقفنا من الخبر: التصديق، أن نقول: آمنا وقبلنا، وصدَّقنا.

ما ثواب هؤلاء الذين آمنوا بما نُزِّل على محمد؟

ثوابهم: قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: سيئات أعمالهم، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم، فجمع الله لهم بين أمرَيْن: بين إزالة السوء، وحصول الخير؛ إزالة السوء بتكفير السيئات، وحصول الخير بإصلاح الحال.

وقوله عز وجل: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يبينه تمامًا قول النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»، وقوله ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةَ».

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذه الآية تعليلٌ لما قبلها، فمن اتبع الباطل - والعياذ بالله - حصل له من الضلال بقدر ما يبتدعه من الباطل، فمن عصى الله فقد اتبع الباطل، ينقص من إيمانه بقدر معصيته، وينقص من هداه بقدر معصيته؛ لأنه إذا كان اتباع الحق سببًا للخير، فاتباع الباطل سببٌ للشر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا التبيين والتوضيح ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: في ميدان القتال ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ضَرْب هنا مصدر بمعنى الأمر؛ أي: تضربوا رقابهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ في القتل، وأذللتموهم بالقتل، وأضعفتموهم بالقتل، فحينئذٍ شدُّوا الوثاق؛ أي: شدُّوا الوثاق منهم بالأسر، لا تأسِروهم قبل أن تُثخِنوهم بالقتل، أثخنوهم بالقتل حتى لا تقوم لهم قائمة، ثم بعد ذلك ائسِروهم، وإذا أسرتموهم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ إلى متى؟ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ نقول: حتى هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن تضع الحرب أوزارها.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ الجملة هنا تفيد التخيير؛ يعني: إما أن تمنُّوا عليهم فتُطلِقوهم، وإما أن تُفادوهم بمال، أو منفعة، أو رجال.

بمال: بأن يُطلَب من الكافر المأسور أن يدفع فداءً، فيقال له: لا نُطلقك إلا أن تأتي بالمال.

أو بمنفعة: نقول: لا نُطلقك حتى تُصلِح الطريق لنا، تكون عاملًا مع العمال، كما فعل المسلمون في أسرى بدر؛ حيث فادَوهم بتعليم أبناء المسلمين الكتابة.

أو برجال: يكون عندهم أسرى منا، فنقول: أعطونا أسرانا نعطيكم أسراكم.

هذا التخيير هل هو تخيير تشهٍّ، أو تخيير مصلحة؟ تخيير مصلحة؛ يعني: لا يحل لمن يلي أمر المسلمين في هذا الشأن أن يتخيَّر إلا ما تقتضيه المصلحة، وهنا نأخذ ضابطًا في هذا المقام:

نقول: إذا كان المقصود بالتخيير للتيسير، فهو تشهٍّ، وإذا كان التخيير بالتصرُّف للغير، فهو مصلحيٌّ، ولي أمر المسلمين يُخيَّر بين هذا وهذا؛ هل هو للتيسير عليه، أو لمصلحة المسلمين؟ لمصلحة المسلمين، فيجب أن يختار ما هو أصلح من المال أو الافتداء.

إذا خيَّرنا وليَّ يتيم بين نوعين من التصرُّف، وقلنا لولي اليتيم أن يفعل كذا أو كذا، فما نوع هذا التخيير؟ يعني: يُخيَّر ولي اليتيم بين أن يفتح مُتَّجَرًا بمال اليتيم، وبين أن يعطيه شخصًا ثقة مُضاربة؛ ما نوع هذا التخيير؟ مصلحيٌّ، لكن لو قلنا لإنسان لزِمَته كفارة يمين: أطعِم عشرة مساكين، أو اكسُ، أو أعتِق رقبة، المقصود: التيسير، فهو تخيير تشهٍّ.

قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: الحكم ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لو شاء الله عز وجل لانتصر من الكفار، وكفى المؤمنين القتال، ولكنه بحكمته جعل الأمر سجالًا بين المسلمين والكفار ليبلوا بعضهم ببعض، وإذا نظرنا إلى هذه السنة وجدنا أنها سنة مُضطردة، يبلوا الله الناس بعضهم ببعض، فينصر هؤلاء أحيانًا، وينصر هؤلاء أحيانًا، ولو شاء الله عز وجل لانتصر من الكفار، فأهلكهم وأبادهم جميعًا بكلمة واحدة، لكن هذا يفوت به مصالح كثيرة، منها: حكمة الله عز وجل؛ لأن من حكمة الله أن تبقى الأرض بين مؤمن وكافر، لو كان الناس كلهم مؤمنين، لم يكن للإيمان تلك القيمة، لكن إذا كان هناك طريقان: طريق كفر، وطريق إيمان هنا يتبيَّن ويتميَّز فضل الإيمان، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لسُدَّ باب الجهاد، لو كان كل الناس مُطيعين انقفل باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه لا منكر، وحينئذٍ لا نهي عن منكر، ولا إخلال بمعروف، وحينئذٍ لا أمر بالمعروف، ولكن من حكمة الله عز وجل أن جعل العباد منهم مؤمن ومنهم كافر ليبلوا بعضهم ببعض: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

تفسير جزء الذاريات

تفسير سورة الحجرات

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد.

فإننا نبدأ بتفسير سور المفصل التي تبتدئ من سورة (ق) عند بعض العلماء، أو من سورة الحجرات عند آخرين.ﷺ

وستكلم على سورة الحجرات لما فيها من الآداب العظيمة النافعة التي ابتدأها الله بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]. اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إما خير تُؤمر به، وإما شر تنهى عنه، فأرعه سمعك[1]، واستمع إليه لما فيه من الخير، وإذا صدَّر الله الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دل ذلك على أن التزام ما خوطب به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، يقول الله عز وجل: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قيل: معنى ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله، والمراد: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ أو بفعل. وقيل: المعنى لا تقدموا شيئًا بين يدي الله ورسوله. وكلاهما يصبان في مصب واحد، والمعنى: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ ولا فعل، وقد وقع لذلك أمثلة، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «لَا تَقَدَّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ»[2] لأن الذي يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين كأنه تقدم بين يدي الله ورسوله فبدأ بالصوم قبل أن يحين وقته، ولهذا قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[3]. ومن التقدُّم بين يدي الله ورسوله: البدع بجميع أنواعها، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل هي أشد التقدم؛ لأن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٣٦)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩١٤)، ومسلم (١٠٨٢).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٦٨٦)، وأبو داود (٢٣٣٤)، والنسائي (٢١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٦١).

وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيينَ مِنْ بَعْدِي، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»[1]. وأخبر بأن «كل بدعة ضلالة»[2][3].

وصدق ﷺ فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات مما يدعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تمامًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وإن قال: ليس كمالًا في الدين، قلنا: إذن هو نقص؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢] فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله، وأنه ناقص، وأن هذا المبتدع كمله بما ادعى أنه من شريعة الله - عز وجل - فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم؛ فإن فعلهم ضلالة، وقد يُثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله - عز وجل - ويلتزم سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:

إما تمثيل، وإما تعطيل. فالتمثيل: أن يثبت لله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلًا يثبت أن لله وجهًا ويجعله مماثلًا لأوجه المخلوقين، أو أن لله يدًا ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرًّا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ولقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]. ولقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلًا إذا قال إنسان: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] والمراد باليدين النعمة نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٦)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) انظر ما قبله

الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألف ولا ملايين، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفًا وبدعة، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبدًا، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسَّحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسَّحون بالمنبر الذي يقال:إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والنبي ـ ﷺ ـ يقول: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ»[1].

ومن البدع:ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلَّى ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعدًا؛ لأن كل من تقرَّب إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2].

ومن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله أن يقول الإنسان قولًا يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب، بدون دليل؛ فإن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وعلى من قال قولًا وتبين له أنه أخطأ فيه أن يرجع إلى الحق حتى لو شاع القول بين الناس وانتشر وعَمِلَ به مَن عمل من الناس، فالواجب عليه أن يرجع وأن يُعلن رجوعه أيضًا، كما أعلن مخالفته التي قد يكون معذورًا فيها إذا كانت صادرة عن اجتهاد، فالواجب الرجوع إلى الحق، فإن تمادى الإنسان في مخالفة الحق فقد تقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله ـ عز وجل ـ

---

(١) انظر ما قبله

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر وترك النواهي، بفعل الأوامر تقرُّبًا إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفًا من عذاب الله - عز وجل -، ومن الناس من إذا قيل له: «اتق الله» أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه وعز في نفسه، وأوغل في الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: أمثلي يُقال له: اتق الله! وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧]. ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منَّا يستحق أن يؤمر بتقوى الله - عز وجل - والواجب أنه إذا قيل له: «اتق الله». أن يزداد خوفا من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يؤمر أن يتقي فلانًا وفلانًا، إنما أمر أن يتقي الله عز وجل، وإذا فسرنا التقوى بأنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، تقربًا إليه ومحبة لثوابه، وترك نواهيه خوفًا من عقابه، فإن أي إنسان يترك واجبًا فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة، فالتقوى مخالفتها تختلف، فقد تكون مخالفتها كفرًا وقد تكون دون ذلك، فترك الصلاة مثلًا ترتفع به التقوى نهائيًا؛ لأن تارك الصلاة كافر، كما دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجا عن الملة، ومنهم التابعي المشهور عبد الله بن شقيق - رحمه الله - حيث قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) [1]. وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، ولم يصح عن أي صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك، والزاني لم يتق الله؛ لأنه زنا فخالف أمر الله وعصاه، والسارق لم يتق الله، وشارب الخمر لم يتق الله، والعاق لوالديه لم يتق الله، والقاطع لرحمه لم يتق الله، والأمثلة على هذا كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كلمة عامة شاملة تشمل كل الشريعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة تحذير لنا أن نقع فيما نهانا عنه من التقدُّم بين يدي الله ورسوله، أو أن نخالف ما أمر به من تقواه ﴿سَمِيعٌ﴾ أي سميع لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ أي عليم بما تقولون وما تفعلون؛ لأن العلم أشمل وأعم، إذ إن السمع يتعلق بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات، والله تعالى محيط بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول العلماء - رحمهم الله -: إن السمع الذي اتصف به ربنا - عز وجل - ينقسم إلى قسمين: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإدراك معناه أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر، حتى إنه - عز وجل - يقول لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. قالت عائشة - رضي الله عنها

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ـ: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة ـ أي حجرة النبي ﷺ ـ والمرأة تجادله وهو يحاورها وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها) [1]. والله ـ عز وجل ـ أخبر بأنه سمع كل ما جرى بين هذه المرأة وبين رسول الله ﷺ، فهذا سمع إدراك، ثم إن سمع الإدراك قد يُراد به بيان الإحاطة والشمول، وقد يراد به التهديد، وقد يُراد به التأييد، فهذه ثلاثة أنواع.

الأول: يراد به بيان الإحاطة والشمول مثل هذه الآية.

الثاني: يُراد به التهديد مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١]. وانظر كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ حين وصفوا الله تعالى بالنقص، قبل أن يقول: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ مما يدلّ على أن وصف الله بالنقص أعظم من قتل الأنبياء.

الثالث: سمع يُراد به التأييد، ومنه قوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، فالمراد بالسمع هنا التأييد يعني: أسمعك وأؤيدك، يعني أسمع ما تقولان وما يُقال لكما.

أما سمع الإجابة فمعناه: أن الله يستجيب لمن دعاه، ومنه قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]. أي مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» يعني استجاب لمن حمده فأثابه، ولا أدري أنحن ندرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تعبدا ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: «الله أكبر»، تكبيرة الإحرام يعني أن الله أكبر من كل شيء ـ عز وجل ـ ولا نحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن تحيط به عقولنا، وعندما نقول: سمع الله لمن حمده. يعني استجاب الله لمن حمده، وليس المعنى أنه يسمعه فقط، لأن الله يسمع من حمده ومن لا يحمده إذا تكلم، لكن المراد أنه يستجيب لمن حمده بالثواب، فهذا السمع يقتضي الاستجابة لمن دعاه.

أما قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ فالمراد أنه ذو علم واسع، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]. فعندما تؤمن بأن الله سميع، وأن الله عليم، هل يمكن وأنت في عقلك الراشد أن تقول ما لا يرضيه؟ لا، لأنه يسمع، فلا ينبغي لك أن تُسمِعَ الله ما لا يرضاه منك، أسمِعْهُ ما يحبه ويرضاه إذا كنت مؤمنًا حقًّا بأن الله سميع، وأعتقد لو أن أباك نهاك عن قول من الأقوال فهل تتجرأ أن تسمعه ما لا يرضاه أو أن تسمعه ما نهاك عنه؟ فالله أعظم وأجلّ، فاحذر أن تسمع الله ما لا يرضاه منك، وإذا آمنت بأنه بكل شيء عليم وهذا أعم من السمع؛ لأنه يشمل القول والفعل وحديث النفس حتى ما توسوس به نفسك يعلمه ـ عز وجل ـ إذا علمت ذلك هل يمكن أن تفعل شيئا لا يُرضيه؟ لا، لأنه ليس المقصود من إخبار الله لنا بأنه عليم بكل شيء، أن نعلم هذا وأن نعتقده فقط. بل المقصود هذا، والمقصود شيء آخر،

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وهو الثمرة والنتيجة التي تترتب على أنه بكل شيء عليم، فإذا علمنا بأنه بكل شيء عليم فهل نقول بما لا يرضى؟ لا، لأنه سوف يعلمه، وإذا علمنا بأنه على كل شيء عليم هل نعتقد ما لا يرضى؟ لا، لأننا نعلم أنه يعلم ما في قلوبنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، يحول بينك وبين قلبك، فيجب علينا إذا مر بنا اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفات الله أن نؤمن بهذا الاسم، وهذه الصفة، وأن نقوم بما هو الثمرة من الإيمان بهذا الاسم، أو الصفة. وما تضمنته الآية الكريمة من أدب عظيم وجه الله تعالى عباده إليه ـ وهذا هو الأدب الأول.

أما الأدب الثاني ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، الآية الأولى فيها النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في أي شيء، سواء من الأقوال أو الأفعال أو غيرها، أما هذه الآية فهي في رفع الصوت وإن لم يكن هناك تقدم في الأحكام من تحليل أو تحريم أو إيجاب، يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ فإذا خاطبك النبي ﷺ بصوت فاخفض صوتك عن صوته، وإذا رفع صوته فارفع صوتك لكن لابد أن يكون دون صوت الرسول ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني لا تنادونه بصوت مرتفع، كما ينادي بعضكم بعضًا، بل يكون جهرًا بأدب وتشريف وتعظيم، يليق به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا كقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، يعني إذا دعاكم لشيء فلا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم لبعض، إن شئتم أجبتم وإن شئتم فلا تجيبوا، بل يجب عليكم الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] وهنا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كذلك أيضًا لا تنادونه بما تتنادون به، فلا تقولون: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وما أشبه ذلك، ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ردّة عن الإسلام توجب حبوط العمل، ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس ـ رضي الله عنه ـ جهوري الصوت، وكان من خطباء النبي صلى الله عليه وعلى آله

وسلم، فلما نزلت هذه الآية تغيَّب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولًا يسأله، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟»(1) قال: بلى رضيت، فقُتل -رضي الله عنه- شهيدا في وقعة اليمامة، وعاش حميدًا، وسيدخل الجنة بشهادة الرسول -ﷺ- ولذلك كان ثابت -رضي الله عنه- ممن يُشهد له بأنه من أهل الجنة بعينه؛ لأن كل إنسان يشهد له النبي ﷺ بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكل إنسان يشهد له بأنه في النار فهو في النار، وأما من لم يشهد له الرسول ﷺ فنشهد له بالعموم، فنقول: كل مؤمن في الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل النار أو من أهل الجنة إلا من شهد له الله تعالى ورسوله ﷺ، ففي هذه الآية الكريمة بيان تعظيم الرسول ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجهر له بالقول كجهره لسائر الناس، وأنه لا يجوز له أن يرفع صوته على صوت الرسول -ﷺ- ولما نزلت هذه الآية تأدَّب الصحابة -رضي الله عنهم- بذلك حتى كان بعضهم يكلمه مسارَّة ولا يفهم الرسول ﷺ ما يقول من إسراره، حتى يستثبته مرة أخرى، وفي هذه الآية دليل على أن كل من استهان بأمر الرسول -ﷺ- فإن عمله حابط؛ لأن الاستهانة بالرسول ﷺ ردَّة، والاستهزاء به ردَّة كما قال الله تعالى في المنافقين الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون الرسول ﷺ وأصحابه- أرغب بطونًا -يعني أوسع- ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسنًا، فأنزل الله هذه الآية، ولما سألهم الرسول -ﷺ- عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني نتكلم بكلام لا نريده، ولكن لنقطع به عنا عناء الطريق، فأنزل الله هذه الآية. ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥،٦٦]. ولهذا كان الصحيح أن من سب الرسول ﷺ كان كافرًا مرتدًا، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذًا بحق رسول الله ﷺ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوح الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي.

ثم أثنى الله تعالى على الذين يغضون أصواتهم عند الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:

(1) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٦٦)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي في «التلخيص».

٣] لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أي يخفضونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغض، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أعاد الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعظيمًا لشأنهم ورفعة لمنزلتهم، لأن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من أسماء الإشارة الدالة على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بيانًا لرفعة منزلتهم وعلوها.

﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. قال العلماء: معناها أخلصها للتقوى، فكانت قلوبهم مملوءة بتقوى الله -عز وجل- ولهذا تأدَّبوا بآداب الله تعالى التي وجه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الصلاح صلاح القلب، لقوله: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. وكما قال النبي -ﷺ- في الحديث الصحيح: «التَّقْوى هَاهُنَا»[1] وأشار إلى صدره الذي هو محل القلب ثلاث مرات: «التَّقْوى هَاهُنَا، التَّقْوى هَاهُنَا، التَّقْوى هَاهُنَا»[2]، ولا شك أن التقوى تقوى القلب، أما تقوى الجوارح وهي إصلاح ظاهر العمل فهذا يقع حتى من المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقين: ٤] لكن الكلام على تقوى القلب التي هي بها الصلاح، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك، وبعض الناس يفعل المعاصي كإسبال الثوب مثلًا، أو حلق اللحية، أو شرب الدخان، وتنهاه وتخوِّفه من عقاب الله، فيقول: التقوى هاهنا، كأنه يزكي نفسه، وهو قائم بمعصية الله، فنقول له بكل سهولة: لو كان ما هنا متقيًا لكانت الجوارح متقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. هذه الآية تشير إلى قوم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان معهم قوم جُفاة لا يقدرون الأمور قدرها، فجعلوا ينادون النبي ﷺ من وراء حجراته - أي حجرات نسائه - ويرفعون أصواتهم بذلك يريدون أن يخرج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليهم، يقول الله في هؤلاء: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ يعني ليس عندهم عقل، والمراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لأن العقل عقلان: عقل رشد، وعقل تكليف، فأما عقل الرشد فضده السفه، وأما عقل التكليف فضده الجنون، فمثلًا: إذا قلنا: يشترط لصحة الوضوء أن يكون المتوضئ عاقلًا مميزًا، فالمراد بالعقل هنا عقل التكليف، وإذا قلنا: يشترط للتصرف في المال أن يكون المتصرف عاقلًا، أي عقل رشد،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٤٤)، ومسلم (٢٥٦٤) واللفظ له.

(٢) انظر ما قبله

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

يحسن التصرف، فالمراد بقوله هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي عقل رشد؛ لأنهم لو كانوا لا يعقلون عقل تكليف لم يكن عليهم لوم ولا ذم، لأن المجنون فاقد العقل لا يلحقه لوم ولا ذم، وهذا واضح، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يفهم منه أن بعضهم يعقل وأنه لم يحصل منه رفع صوت، بل هو متأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥] أي لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم من بيتك، وتكلمهم بما يريدون لكان خيرًا لهم في أنهم يلتزمون الأدب مع النبي ﷺ وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يأته أحد في حاجة إلا قضاها، إذا كان يدركها، وهو أحق الناس بقول الشاعر:

مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه ـ جل وعلا ـ أنه يغفر ويرحم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الله لا يغفر الشرك به، ويغفر ما دون ذلك، أي سوى الشرك لمن يشاء، فكل أحد أذنب ذنبًا دون الشرك مهما عظم فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ما لم يتب، فإذا تاب فلا عذاب، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨: ٧٠]. وقلنا: إن الآية تدل على أن الله غفر لهم ورحمهم؛ لأن الله ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا يدل على أنه غفر لهم ورحمهم، ولذلك قال العلماء في قول الله تعالى في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا، قال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣: ٣٤].

أخذ العلماء من هذه الآية: أن هؤلاء المفسدين المحاربين لله ورسوله، إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم العذاب، واستدلوا بأن الله ختم الآية بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي قد غفر لهم فرحمهم، وهذه مسألة ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها في الآيات: أن ختم الآية بعد ذكر الحكم دليل على ما تقتضيه هذه الأسماء التي ختمت بها الآية، ولهذا قرأ رجل فقال: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم﴾ فسمعه أعرابي عنده فقال له: أعد الآية، فأعادها وقال: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم) قال له: أعد الآية، فأعادها فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] فقال: الآن أصبت، ثم علل فقال: لأنه لو غفر ورحم ما قطع، ولا تتناسب المغفرة والرحمة مع القطع، لكنه عز وحكم فقطع، فتأمل هذا الفهم فإنه مفيد جدًا، والشاهد من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يدل على أن الله غفر لهم ورحمهم.

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ الفاسق: هو من انحرف في دينه وعقيدته ومروءته، وضده العدل وهو: من استقام في دينه ومروءته، فإذا جاءنا فاسق منحرف في دينه ومروءته بمعنى أنه مصر على المعاصي تارك للواجبات، لكنه لم يصل إلى حد الكفر، أو منحرف في مروءته لا يبالي بنفسه يمشي بين الناس مشية الهوجاء، ويتحدث برفع صوت، ويأتي معه بأغراض بيته يطوف بها في الأسواق وما أشبه ذلك مما يخالف المروءة، فهذا عند العلماء ليس بعدل. ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي جاءكم بخبر من الأخبار، وهو فاسق، مثال ذلك: جاءنا رجل حالق للحيته، وحالق اللحية فاسق، لأنه مصر على معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أَعْفُوا اللُّحَى»[1]. وهذا لم يعف لحيته، بل حلقها، فهذا الرجل من الفاسقين؛ لأنه مصر على معصية، جاءنا بخبر فلا نقبله لما عنده من الفسق، ولا نرده لاحتمال أن يكون صادقًا، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولم يقل فردوه، ولم يقل فاقبلوه، بل يجب علينا أن نتبين، وفي قراءة ﴿فتثبتوا﴾ وهما بمعنى متقارب، والمعنى: أن نتثبت.

فإذا قال قائل: إذن لا فائدة من خبره؟

قلنا: لا، بل في خبره فائدة، وهو أنه يحرك النفس حتى نسأل ونبحث؛ لأنه لولا خبره ما حركنا ساكنًا، لكن لما جاء بالخبر نقول: لعله كان صادقًا، فنتحرك ونسأل ونبحث، فإن شهد له الواقع بالحق قبلناه لوجود القرينة الدالة على صدقه، وإلا رددناه، وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يفيد أنه إن جاءنا عدل فإننا نقبل الخبر، لكن هذا فيه عند العلماء تفصيل، دل عليه القرآن والسنة، فمثلًا الشهادة بالزنا: لو جاءنا رجل عدل في دينه، مستقيم في مروءته، وشهد أن فلانًا زنا فلا نقبل شهادته وإن كان عدلًا، بل نجلده ثمانين جلدة؛ لأنه قذف هذا الرجل البريء بالزنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، فنجلده ثمانين جلدة ولا نقبل له شهادة أبدًا، ونحكم بأنه فاسق وإن كان عدلًا حتى يتوب، وإذا شهد رجلان عدلان على زيد أنه زنا فلا نقبل شهادتهما، ولا ثلاثة، فإذا كانوا أربعة عدول فنعم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩).

﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٤]. وقال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣] حتى وإن كانوا صادقين، فلو جاءنا ثلاثة نعرف أنهم ثقات عدول وشهدوا بالزنا على شخص فهم عند الله كاذبون غير مقبولين، نجلد كل واحد ثمانين جلدة، وإذا جاءنا رجل شهد على شخص بأنه سرق فلا نقبل شهادته، بل لابد من رجلين، وإذا جاءنا رجل شهد بأنه رأى هلال رمضان فنقبل شهادته، لأن السنة وردت بذلك، فقد قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: تراءى الناس الهلال -يعني ليلة الثلاثين من شعبان- فرأيته فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بالصيام[1]، وإذا كان رجل غنيًّا ثم أصيب بجائحة ثم جاء يسأل الزكاة، وأتى بشاهد أنه كان غنيًّا وأصابته جائحة وافتقر فلا نقبل شهادة الواحد، ولا نقبل شهادة اثنين، بل لابد من ثلاثة، لأن النبي ﷺ قال لقبيصة: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةَ» وذكر منها رجل أصابته جائحة – يعني: اجتاحت ماله- فشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: إن فلانًا قد أصابته جائحة فحلت له المسألة[2] (ثلاثة من ذوي الحجا) يعني من ذوي العقل، وكذلك نقبل رجلا مع يمين المدعي كما لو ادعى شخص على آخر بأنه يطلبه ألف ريال، فقلنا للمدعي: هات بينة، قال: عندي رجل واحد، فإذا أتى برجل واحد وحلف معه حكمنا له بما ادعاه وهناك أشياء أيضًا لا يتسع المجال لذكرها، وعلى هذا فخبر العدل فيه تفصيل على ما تقدم وخبر الفاسق يتوقف فيه حتى يتبين الأمر، ثم بين الله -عز وجل- الحكمة من كوننا نتبين بخبر الفاسق فقال: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ يعني: أمرناكم أن تتثبتوا كراهة أن تصيبوا قومًا بجهالة؛ لأن الإنسان إذا تسرع ولم يتثبت فقد يعتدي على غيره بناءً على الخبر الذي سمعه من الفاسق، وقد يكرهه، وقد يتحدث فيه في المجالس، فيصبح بعد أن يتبين أن خبر الفاسق كذب نادمًا على ما جرى منه، وفي هذه الآية دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل من الأخبار ولا سيما مع الهوى والتعصب، فإذا جاءك خبر عن شخص وأنت لم تثق بقول المخبر فيجب أن تتثبت، وألا تتسرع في الحكم؛ لأنك ربما تتسرع وتبني على هذا الخبر الكاذب فتندم فيما بعد، ومن ثم جاء التحذير من النميمة، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[3] أي نمام، وصح عنه ﷺ أنه مر بقبرين يُعذبان، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» -أي في أمر شاق عليهما- «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ»،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود(٢٣٤٢)، وابن حبان (٨٧١)، والدارمي (٢/ ٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٠٨).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٦٥).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

أو لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول «وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[1] يمشي بين الناس ينمّ الحديث إلى الآخرين ليفسد بين الناس، ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين وغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله، لمَ فعلت هذا؟ قال: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[2]. ومن هذا النوع ما ينسب إلى بعض العلماء من الفتاوى التي لم يتكلم بها إطلاقًا، أو تكلم ولكن فُهِمَ ما ينقل عنه خطأً، فإن بعض الناس قد يفهم من العالِم كلمة على غير مراد العالِم بها، وقد يسأل العالِم سؤالًا يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل، ثم يجيب على حسب ما فهمه، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نسبت إلى علماء أجلاء، لم يكن لها أصل؛ لهذا يجب التثبُّت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء، وكثر فيه التعصب، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى.

قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧] هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وسبب ما سبق أن النبي ﷺ بلغه عن قوم ما ليس فيهم، فأمر الله تعالى بالتأكد من الأخبار إذا جاء بها من لا تُعرف عدالته، وكأن بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أرادوا من النبي ﷺ أن يُعاقب هؤلاء الذين بلغه عنهم ما بلغه، ولكن النبي ﷺ لم يفعل بعد أن نزلت عليه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ولكن العبرة بعموم اللفظ وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لشق عليكم ما تطلبونه من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا له أمثلة كثيرة منها: أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان يصلي بهم صلاة القيام فانصرفوا وقد بقي من الليل ما بقي، وقالوا: يا رسول الله، لو نفلتنا بقية ليلتنا ـ يعني طلبوا منه أن يقوم بهم كل الليل ـ ولكنه ﷺ قال لهم: «مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»[3]، ولم يوافقهم على طلبهم، لما في ذلك من العنت والمشقة، ومنها: أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحثوا عن أمره في السر ـ يعني فيما لا يظهر للناس ـ وهو العمل الذي يفعله في بيته من العبادات فكأنهم تقالُّوها فقالوا: إن رسول الله ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما هم فلم يكن لهم ذلك، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أن أقوم ولا أنام، وقال

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٩٢).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥٩)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤٤٧).

الثالث: أنا لا أتزوج النساء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1]، فحذرهم أن يعملوا عملًا يشق عليهم، ومن ذلك أيضًا: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه وعن أبيه ـ أنه بلغ النبي ﷺ قوله: إنه ليصومن النهار، وليقومن الليل ما عاش، فدعاه النبي ﷺ قال: «أَنْتَ قُلْتَ هَذَا؟»[2] قال: نعم، قال: «إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»[3] ثم أرشده لما هو أفضل وأهون، والحاصل أنه يوجد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من له همّة عالية لكن الرسول ﷺ لا يطيعهم في كثير من الأمر؛ لأن ذلك يشق عليهم لو أنه أطاعهم، ثم قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

قد يقول قائل: ما هو ارتباط قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؟.

والجواب: أنكم تطيعونه – أي: الرسول ﷺ ـ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان فتقدمون طاعة النبي ﷺ فيما يخالفكم فيه؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وهذا استدراك من أبلغ ما يكون من الاستدراك، يعني: ولكن إذا خالفكم النبي ﷺ في كثير من الأمر الذي تريدونه فإنكم لن تكرهوا ذلك، ولن تخالفوه، ولن تحملوا على الرسول ﷺ بسببه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ـ أي جعله محبوبًا في قلوبكم ـ ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بحيث لا تتركونه بعد أن تقوموا به ـ وذلك أن فعل الإنسان الشيء للمحبة قد يكون محبة عارضة، لكن إذا زُيّن له الشيء ثبت في المحبة ودامت، ولهذا قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهذا في القلب، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أيضًا في القلب، لكن إذا زين الشيء المحبوب للإنسان فإنه يستمر عليه ويثبت عليه ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ كرّه إليكم الكفر الذي هو مقابل الإيمان، والفسوق الذي هو مقابل الاستقامة، والعصيان الذي هو مقابل الإذعان، وهذا تدرج من الأعلى إلى ما دون: فالكفر أعظم من الفسق، والفسق أعظم من العصيان، فالكفر هو الخروج من الإسلام بالكلية، وله أسباب معروفة في كتب أهل العلم ذكرها الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في باب أحكام المرتد، وأما الفسق فهو دون الكفر، لكنه فعل كبيرة، مثل أن يفعل الإنسان كبيرة من الكبائر ولم يتب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، وما أشبه ذلك، والعصيان: هو الصغائر التي تكفَّر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٧٩) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١١٥٩).

(٣) انظر ما قبله.

بالأعمال الصالحة، كما قال النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّراتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبتِ الكَبَائِرُ»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾. أولئك: المشار إليه من حبب الله إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ يعني الذين سلكوا طريق الرشد، والرشد في الأصل: حسن التصرف، وهو في كل موضع بحسبه، فالرشد في المال أن يحسن الإنسان التصرف فيه، ولا يبذله في غير فائدة، والرشد في الدين: هو الاستقامة على دين الله ـ عز وجل ـ فهؤلاء الذين حبَّب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، وهنا تجد هذه الأفعال كلها مضافة إلى الله، ولهذا قال بعدها: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن الله أفضل عليكم فضلا أي تفضُّلًا منه، وليس بكسبكم، ولكنه من الله ـ عز وجل ـ ولكي يُعلم أنّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الإيمان في الشخص، فمن علم الله منه حُسن النية وحُسن القصد والإخلاص حبَّب إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن لم يعلم الله منه ذلك فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ويقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] فالذنوب سبب للمخالفة والعصيان، فهؤلاء الذين تفضَّل الله عليهم وأنعم عليهم نعمة الدين هم الذين وُفقوا للحق، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني إنعامًا منه عليهم، والنعمة نعمتان: نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، فنعمة الدنيا متصلة بنعمة الآخرة في حقهم. وأما الكفار فهم منعَّمون في الدنيا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥: ٢٧] أي تنعُّم، فهؤلاء الكفار عليهم نعمة في الدنيا، لكن في الآخرة عليهم العذاب واللعنة والعياذ بالله، أما المؤمن فإنه يحصل على النعمتين جميعًا: على نعمة في الدنيا، ونعمة في الآخرة، حتى وإن كان فقيرا أو مريضا أو عقيمًا، أو لا نسب له، فإنه في نعمة، لقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وخلاصة الكلام في النعمة: أن هناك نعمتين: نعمة عامة لجميع الخلق، الكافر والمؤمن، والفاسق والمطيع، ونعمة خاصة للمؤمن، وهذه النعمة الخاصة تتصل بنعمة الدين والدنيا، وأما الأولى فإنها خاصة بنعمة الدنيا فقط لتقوم على الكفار الحجة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هذان إسمان من أسماء الله يقرن الله بينهما دائمًا: العلم والحكمة، عليم بكل شيء، قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦).

ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، والإنسان إذا علم أن الله محيط بكل شيء حتى ما يضمره في قلبه، فإنه يخاف ويرهب ويهرب من الله إليه - عز وجل - ولا يقول قولًا يغضب الله، ولا يفعل فعلًا يغضب الله، ولا يضمر عقيدة تُغضب الله؛ لأنه يعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم ذلك، لا يخفى عليه، وأما الحكيم فهو ذو الحكمة البالغة، والحكمة هي أن جميع ما يحكم به جل وعلا موافق ومطابق للمصالح، ما من شيء يحكم الله به إلا وهو حكمة عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فمعنى الحكيم: أي ذو الحكمة البالغة، وله معنى آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالى له الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولا أحد يحكم بهواه ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] «طائفتان» مفردها «طائفة»، وهي الجماعة من الناس، وقوله: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ جمع، وإنما جمع لأن الطائفة تشتمل على أفراد كثيرين، فلذلك صح أن يعود الضمير على مثنى؛ مراعاة للمعنى، وإلا لكان مقتضى اللغة أن يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا)، ليطابق الضمير مرجعه لكنه عاد إليه بالمعنى.

والاقتتال بين المؤمنين له أسباب متعددة، والشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب، ولكنه رضي في التحريش بينهم[1]، يحرش بينهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا، فإذا حصل الاقتتال فالواجب على المؤمنين الآخرين الصلح بينهما، ولهذا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، أي اسعوا إلى الصلح بكل وسيلة حتى ولو كان ببذل المال والتنازل عن الحق لأحدهما عن الآخر؛ لأن الصلح لابد فيه من أن يتنازل أحد الطرفين عما يريد من كمال حقه، وإلا لما تم الصلح، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. لأن كل إنسان يريد أن يتم قوله فلابد من التنازل، فإذا أصلحنا بينهما ثم حصل بغي قال الله عز

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٢)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣١٣)، والترمذي (١٩٣٧).

وجل: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ يعني لو فرض أنه بعد الصلح عادت إحدى الطائفتين تقاتل الأخرى فهنا لا صلح، بل نقاتل التي تبغي ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي ترجع إليه، وأمر الله يعني دينه وشرعه، فانظر في أول الأمر الإصلاح، فإذا تم الصلح وبغت إحداهما على الأخرى، وجب أن نساعد المبغي عليها فنقاتل معها، ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ فإنه يجب الكف عن قتالهم، ولا يجوز أن نجهز على جريح، ولا أن نتبع مدبرًا، ولا أن نسلب مالًا، ولا أن نسبي ذرية، لأن هؤلاء مؤمنون، ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: فإن فاءت إلى أمر الله بعد أن قاتلناها ورجعت ووضعت الحرب وجب أن نصلح بينهما بالعدل، وهذا غير الإصلاح الأول، الإصلاح الأول لوقف القتال، وهذا الإصلاح بالتقدير فننظر ماذا تلف على كل طائفة، ثم نسوي بينهما، فمثلا إذا كانت إحدى الطائفتين أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، والثانية أتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، فحينئذ تعادل الطائفتان، فإن كانت إحداهما أتلفت على الأخرى ما قيمته ثمانمائة ألف ريال، والأخرى أتلفت ما قيمته مليون فالفرق مائتا ألف ريال تحملها على الأخرى التي أتلفت ما قيمته مليون، ولهذا قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي يحب العادلين، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المقسطين على منابر من نور عن يمين الله عز وجل، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا[1] من أمور المسلمين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ يعني إنما أوجب الله علينا الإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين؛ لأن المؤمنين إخوة. الطائفتان المقتتلتان هما أخوان، ونحن أيضًا إخوة لهم حتى مع القتال.

فإذا قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «سِبَاب الْمُسْلِم فُسُوق، وَقِتَالُهُ كُفْر»[2]، والكافر ليس أخًا للمؤمن؟

فالجواب أن يقال: إن الكفر الذي ذكره النبي ﷺ هو كفر دون كفر، فليس كل ما أطلق الشرع عليه أنه كفر يكون كفرًا، فهنا صرح الله ـ عز وجل ـ بأن هاتين الطائفتين المقتتلتين إخوة لنا مع أن قتال المؤمن كفر. فيقال: هذا كفر دون كفر، وقال النبي ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[3]، ومعلوم أن الطاعن في النسب والنائح على الميت لا يكفر كفرا أكبر، فدل ذلك على أن الكفر في شريعة الله في الكتاب وفي السنة كفران: كفر مخرج عن الملة، وكفر لا يخرج عن الملة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ وفي هذا من الحمل على العطف على هاتين الطائفتين المقتتلتين ما هو ظاهر في قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ كما أنك

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٢٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والنسائي (٥٣٧٩).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٤).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٩٦)، والترمذي (١٠٠١).

تصلح بين أخويك الأشقاء من النسب، فأصلح بين أخويك في الإيمان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني اتقوا الله تعالى بأن تفعلوا ما أمركم به وتتركوا ما نهاكم عنه؛ لأنكم إذا قمتم بهذا فقد اتخذتم وقاية من عذاب الله، وهذه هي التقوى، وعلى هذا كلما سمعت كلمة تقوى في القرآن فالمعنى أنها اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ليرحمكم الله - عز وجل - إذا اتقيتموه.

ثم قال الله - عز وجل - في جملة ما بيّن لعباده من الآداب والأخلاق الفاضلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. السخرية: هي الاستهزاء والازدراء، ومن المعلوم أن الله تعالى جعل الناس في هذه الحياة الدنيا طبقات، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي ليسخر بعضهم بعضًا في المصالح، وليس المراد هنا الاستهزاء، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] إذا ثبت هذا التفضيل بين الناس فهم يتفاضلون في العلم، فبعضهم أعلم من بعض في علوم الشريعة، وعلوم الوسيلة إلى علوم الشريعة كعلوم اللغة العربية من النحو والبلاغة وغيرها، وهم يتفاضلون في الرزق، فمنهم من بسط له في رزقه، ومنهم من قَدَرَ عليه في رزقه، وهم يتفاضلون في الأخلاق، فمنهم ذوو الأخلاق الفاضلة العالية، ومنهم دون ذلك، وهم يتفاضلون في الخلقة، منهم السوي الخلقة، ومنهم من دون ذلك، ويتفاضلون كذلك في الحسب، منهم من هو ذو حسب ونسب، ومنهم دون ذلك، فهل يجوز لأحد أن يسخر ممن دونه؟ يقول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ فيخاطبنا - جل وعلا - بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضِّل هو الله - عز وجل - وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخرًا بتقدير الله - عز وجل -، وإلى هذا يوحي قول الرسول - ﷺ -: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»(١).

وفي الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(٢).

فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال، أو في الخُلق، أو في الخلقة، أو في الحسب، أو في النسب، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا - في تصورك - فلماذا، ولهذا قال - عز وجل -: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ رب ساخر اليوم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

مسخور منه في الغد، ورب مفضول اليوم يكون فاضلا في الغد، وهذا شيء مشاهد، وفي بعض الآثار يروى: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ»(١).

وفي الآثار أيضًا: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»(٢). إذن يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيرًا منه، ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ونص على النساء والرجال بالتفصيل، حتى لا يقول أحد: إن هذا خاص بالرجال، لو ذكر الرجال وحدهم، أو خاص بالنساء وحدهن، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء. إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء، مثل ما يذكر في الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم أرسلوا إلى قومهم فهو يشمل الذكور والإناث، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث، والقوم هم الذكور.

وهذا الأدب عام لجميع الأمة، ويجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمتثل أمر الله - عز وجل - ويجتنب نهيه؛ لأنه مسئول عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه كغيره من المكلفين.

والثاني: أن طالب العلم قدوة، أي عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس ويحتجون به، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع، فالواجب على الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، فربما يكون الحق مع من خالفه، ويناقشه بأدب واحترام وهدوء حتى يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله على أحسن المحامل وأن هذا اجتهاده، وأن الله - عز وجل - سيأجره على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران، ثم تتصل به وتناقشه، ولا تستحي، فربما تبين أن الحق معك فتكون لك منة على هذا الرجل، وربما يتبين لك أن الحق معه فيكون له منة عليك، وأما السخرية فهذا ليس من آداب طالب العلم، بل ولا من آداب المؤمن مع أخيه.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: العيب، بأن تقول: فلان بليد، فلان طويل، فلان قصير، فلان أسود، فلان أحمر، وما أشبه ذلك مما يعد عيبًا، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فسّر بمعنيين:

المعنى الأول: لا يلمز بعضكم بعضًا، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، أخوك بمنزلة نفسك، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك.

والمعنى الثاني: إن المعنى لا تلمز أخاك، لأنك إذا لمزته لمزك، فلمزك إياه سبب لكونه يلمزك، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك، وعليه قول النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» فقالوا: يا

(١) موضوع: أخرجه الترمذي (٢٥٠٥)، وانظر «الضعيفة» (١٧٨).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ»(١)، وعلى كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضًا، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقية أو صفة خُلُقية، أما الصفة الخَلْقية التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه - عز وجل - فالذي خلق الإنسان هو الله عز وجل، والذي جعله على هذه الصفة هو الله عز وجل، والإنسان لا يمكن أن يكمل خِلقته فيكون الطويل قصيرًا، أو القصير طويلًا، أو القبيح جميلًا، أو الجميل قبيحًا؟ فأنت إذا لمزت إنسانًا وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع، ولهذا لو وجدنا جدارًا مبنيًّا مائلًا وعبنا الجدار فعيبنا لباني الجدار، إذن إذا عبت إنسانًا في خلقته فكأنما عبت الخالق - عز وجل - فالمسألة خطيرة، أما عيبه بالخُلُق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب، شديد الانتقام، بذيء اللسان، فلا تعبه؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب، ولهذا جاء في الأثر: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيهُ الله وَيَبْتَلِيكَ»(٢)، لكن إذا وجدت فيه سوء خُلُق فالواجب النصيحة، أن تتصل به إن كان يمكن الاتصال به، وتبين له ما كان به من عيب، أو أن تكتب له كتابًا: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلًا، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يعني لا ينبز بعضكم بعضًا باللقب، فتقول له مثلًا: يا فاسق، يا فاجر، يا كافر، يا شارب الخمر، يا سارق، يا زاني، لا تفعل هذا؛ لأنك إذا نبزته باللقب فإما أن يكون اللقب فيه، وإما أن لا يكون فيه، فإن كان فيه فقد ارتكبت هذا النهي، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه وارتكبت النهي أيضًا، ثم قال - عز وجل -: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني بئس لكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسوق، فإذا ارتكبتم ما نهى الله عنه صرتم فسقة، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقًا، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصرّ عليها صار فاسقًا، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقًا، هذا معنى قوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ لأن هذه الجملة جملة إنشائية تفيد الذم، وما أفاد الذم فإنه منهي عنه بلا شك، فاستفدنا من هذه الآية الكريمة تحريم السخرية، وتحريم لمز الغير، وتحريم التنابز بالألقاب، وأن من صنع ذلك فهو فاسق بعد أن كان مؤمنًا، والفسق ليس وصفًا على اللسان فقط، بل يترتب عليه أحكام، فمثلا قال العلماء: الفاسق لا يصح أن يكون وليًّا على ابنته، فيزوجها من يصح أن يكون وليًّا من أقاربها، فإن لم يكن لها أقارب أو خافوا من أبيها إن زوَّجها فيزوِّجها القاضي، والفاسق لا تقبل شهادته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فيشهد عند القاضي بحق، فيقول القاضي: لا نقبلك؛ لأنك فاسق، والفاسق لا يصلح أن يكون إمامًا بالناس في الصلاة، والفاسق الذي يظهر فسقه لا يصح أذانه، كل هذا قال به العلماء رحمهم الله، وإن كان في بعض هذه المسائل خلاف،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) بلفظ: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه...» الحديث.
(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

لكني أقول: إن كلمة «فاسق» ليست بالأمر الهين حتى يقولها الإنسان ﴿بِئْسَ الِاسْمُ﴾؛ ولهذا ذمه الله، فقال: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة ولم يتب فأولئك هم الظالمون، فالذي لا يتوب يكون ظالمًا، والظلم كما قال النبي - ﷺ - «ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»(1)، وإذا كان المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور، فيجب الحذر مما نهى الله - عز وجل - لأنك أيها العبد، عبد لله تأتمر بأمره، وتنتهي عن نهيه.

فإن قال قائل: ما معنى التوبة؟

فنقول: التوبة من العبد: أن ينتقل من معصية الله إلى طاعته، والتوبة من الله: أن يقبل الله من العبد فيبدل سيئاته حسنات.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقد تطلق التوبة من الله على توفيقه العبد إلى التوبة، فلله تعالى على العبد توبتان: توبة بمعنى التوفيق للتوبة، وتوبة بمعنى قبول التوبة. والدليل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٨]. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي وفقهم للتوبة فتابوا، أما التوبة الأخرى وهي قبول توبة العبد، فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كل توبة مقبولة، وليس كل من قال: «نا تائب إلى الله» يكون تائبًا، بل لابد من شروط:

الشرط الأول: أن يخلص لله تعالى في التوبة، أي لا يحمله على التوبة أنه خائف من أبيه، أو خائف من أخيه الأكبر، أو خائف من السلطات، أو تاب لأجل أن يقال: فلان مستقيم، والإخلاص لله في التوبة أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضى الله - عز وجل - والوصول إلى كرامته، والإخلاص شرط في كل عبادة.

الشرط الثاني: الندم على ما فعل، ومعنى يندم أي: يتحسر ويتكدر أنه وقع منه هذا الشيء. ويخجل من الله عز وجل.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال؛ وذلك بأن يأتي بالواجب إن أمكن تداركه، أو بدله إذا لم يكن تداركه، وأن يقلع عن المحرم إذا كان الذنب فعلًا محرمًا، فإذا كان الذنب في حق الإنسان بأن يكون شخص سرق من إنسان مالًا، والسرقة حرام، وتاب الرجل وندم عزم على ألا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

يعود، فلابد أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، ولا يمكن أن تتم التوبة إلا بهذا، فإذا قال: أخشى إن ذهبت إلى هذا الرجل وأعطيته المال أن يترتب على ذلك ضرر عليَّ، وعلى سمعتي، وربما أُحبس، وربما يدعي أن المبلغ المسروق أكثر، وأنا قد تبت إلى الله قبل أن يقدر عليَّ فكيف تكون الحال؟ فهل يجوز أن يتصدق به عن صاحبه؟

والجواب: لا يجوز، لأن صاحبه معلوم، أما لو كان مجهولًا كما لو سرق من أناس نسيهم أو جهلهم ولا يدري أين هم، فهنا يتصدق بما سرق عنهم، لكن إذا كان معلومًا لابد أن يوصله، ويمكن أن يعطي شخصًا يثق به، ويقول: يا فلان، إني سرقت هذا المال من فلان، وقد ندمت وتبت إلى الله، ومن فضلك أعطه إياه، وقل له: هذه دراهم من إنسان تستحقها عليه، وهو الآن يبذلها، ولكن لابد أن يكون هذا الرجل الذي وكله أن يوصل الدراهم موثوقًا عند صاحب المال وأمينًا؛لأنه لو لم يكن موثوقًا لاتهمه صاحب المال وقال: أنت السارق والمسروق أكثر، فلابد أن يكون ثقة، وإذا لم يمكن فيمكن أن ترسل بالبريد، ويقال: هذه دراهم من شخص تستحقها عليه، وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضًا يحسن أن لا تكتبها بقلمك، لأنه ربما يمر عليه ويعرف خطك يومًا من الدهر، هذا إذا كان الحق ماليًّا، أما إذا كان الحق غير مالي، مثل أن يكون شخص اغتبته في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لابد أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلان سامحني.

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»[1].

القول الثالث: وهو قول وسط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبته قد علم بذلك فلابد من أن تذهب إليه وتستحله، لأنه لن يزول ما في قلبه حتى تستحله، أما إذا لم يعلم فيكفي أن تستغفر له، وأن تثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفور رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يناقش ويرى ما الذي حصل، لأنه ربما يذكر شيئًا كبيرًا فتعجز نفس صاحبه عن أن يحلله، لأن النفس أمارة بالسوء، فالأولى أن لا يسأل، وأن يحتسب الأجر من الله، ويقول: هذا جاء معتذرًا، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبة ثناء حسنًا، وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو الحق، وهو أنه إن كان عالمًا فلابد أن تستحله حتى يزول ما في قلبه، وإن كان غير عالم فلا حاجة

(١) ضعيف: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «زوائد المسند» (٢٦١)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٥١٩).

إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أما الذي اغتيب وطُلب منه السماح فالذي نرى أن الأفضل والأكمل أن يحلله، لأنه أخوه جاءه معتذرًا نادمًا فليحلله. وثقوا أنه إذا حلله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحله، سيرى أنه أهدى إليه أكبر هدية، فتنقلب الكراهية التي كانت من قبل إلى محبة وألفة، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفًا محبًا وادًّا.

الشرط الرابع: أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل، أي يكون في نفسه نية عازمة جازمة أن لا يعود لهذا الذنب في المستقبل، فإن تاب وهو يقول:«ربما أنه يطرأ علي أن أفعل الذنب»، فهذا التائب لا تصح توبته، لأنه لابد أن يعزم على أن لا يعود في المستقبل.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، لأنه يأتي وقت يسد باب التوبة، ولا تقبل من الإنسان، والباب الذي يغلق عن التائبين عام وخاص.

أما العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فسيأتي زمن تخرج الشمس من المغرب، والذي يردها الله ـ عز وجل ـ، لو اجتمعت الخلائق كلها على أن تردها ما ردتها، لكن يردها الله ـ عز وجل ـ الذي أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ترجع هذه الشمس العظيمة إذا غربت من مغربها، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن كل من على الأرض، اليهودي، والنصراني، والبوذي، والشيوعي، وغيرهم، كلهم يؤمنون؛ لأنهم يرون شيئًا واضحًا في الدلالة على الرب ـ عز وجل ـ لكن لا ينفعهم الإيمان، لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٨٥]، وفسَّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أنه «خُرُوجُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١) وحينئذ لا تنفع التوبة، مع أن الناس كلهم يؤمنون، لكن لا تنفع، لأنه انسد الباب، وإذا سُدَّ كيف يدخل الناس؟!

أما الخاص: فهو أن يحضر الإنسان أجله، فإذا حضر الإنسان الأجل فلا تنفع التوبة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وإني أسأل هل أحد منا يعلم متى يموت؟! أبدًا، ربما يموت الإنسان وهو على مكتبه، أو وهو على فراشه، أو وهو في صلاته، في أي لحظة، وإذا كنا نعلم هذا ونوقن به، فالواجب أن نبادر بالتوبة لئلا يفجأنا الموت فينسد الباب، ولهذا كانت التوبة مما يجب على الفور، فلنبادر بالتوبة إلى الله ـ عز وجل ـ، ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، هذا الخبر من الله ـ عز وجل ـ له أمر واقع

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٧)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٢٨٣).

يدل عليه لما أغرق الله تعالى فرعون وقومه، قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] يعني الله - عز وجل - ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ أي: الآن تتوب؟ لماذا لم تتب قبل؟ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] فلم تقبل توبته - والعياذ بالله -، وإذا تاب العبد فإن الله يفرح بهذا فرحًا عظيمًا لا يتصوره إنسان، قال النبي ﷺ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ» - أو قال: «بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الراحلة هي البعير «كَانَ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَضَلَّهَا» يعني ضاعت عنه «فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، فَنَامَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ المَوْتَ» ضعفت قواه وخارت واضطجع ينتظر الموت «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بِنَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا زِمَامُهَا بِالشَّجَرَةِ فَأَخَذَ الزِّمَامَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ» يريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك لكنه «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ»(1) وهل تجدون فرحًا أعظم من هذا؟ لا، لأنه لا فرح أشد من حياة بعد الإشراف على الموت؛ فالرب - عز وجل - يفرح بتوبة أحدنا أشد من فرحة هذا الرجل بناقته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات: ١٢] تصدير الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدل على العناية به، ولهذا روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارعها سمعك: فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه. ويعني: وإما خير تحصل به العبرة والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وهنا يقول - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، الظن: هو أن يكون لدى الإنسان احتمالان يترجح أحدهما على الآخر، وهنا عبر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيرًا ماداموا أهلًا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يُظن به خيرًا، ويُثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله.

القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء، كما صرح بذلك العلماء، فقالوا - رحمهم الله -: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة، أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك، فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: (احترسوا من الناس بسوء الظن)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه، أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء.

فإذا قال قائل: أيهما أكثر الظن: المنهي عنه أم الظن المباح؟

قلنا: الظن المباح أكثر؛ لأنه يشمل نوعًا كاملًا من أنواع الظن، وهو ظن الخير، ويشمل كثيرًا من ظن السوء الذي قامت القرينة على وجوده؛ لأنه إذا لم يكن هناك قرينة تدل على هذا الظن السيء، فإنه لا يجوز للإنسان أن يتصف بهذا الظن، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: أكثر الظن، ولا كل الظن، بل قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقد توحي هذه الجملة أن أكثر الظن ليس بإثم، وهو منطبق تمامًا على ما بيناه وقسمناه، أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، ثم ظن السوء لا يجوز إلا إذا قامت القرينة على وجوده، ولهذا قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فما هو الظن الذي ليس بإثم؟ نقول: هو ظن الخير، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا ليس بإثم، لأن ظن الخير هو الأصل، وظن السوء الذي قامت عليه القرينة هذا أيضًا أيدته القرينة. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ التجسس طلب المعايب من الغير، أي أن الإنسان ينظر ويتصنت ويتسمع لعله يسمع شرًّا من أخيه، أو لعله ينظر سوءًا من أخيه، والذي ينبغي للإنسان أن يعرض عن معايب الناس، وأن لا يحرص على الاطلاع عليها، ولهذا روي عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال ـ ﷺ ـ: «لَا يُخْبِرُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا»، يعني شيئا مما يوجب ظن السوء به «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»(١) فلا ينبغي للإنسان أن يتجسس، بل يأخذ الناس على ظاهرهم، ما لم يكن هناك قرينة تدل على خلاف ذلك الظاهر، وفي هذه الجملة من الآية قراءة أخرى (ولا تحسسوا) فقيل: معناهما واحد، وقيل: بل لكل واحدة منهما معنى، والفرق هو: أن التجسس أن يحاول الإنسان الاطلاع على العيب بنفسه، والتحسس أن يلتمسه من غيره، فيقول للناس مثلًا: ما تقولون في فلان، ما تقولون في فلان؟ وعلى هذا فتكون القراءتان مبينتين لمعنيين كلاهما مما نهى الله عنه، لما في هذا من إشغال النفس بمعايب الآخرين، وكون الإنسان ليس له هم إلا أن يطلع على المعايب، ولهذا من ابتلي بالتجسس أو بالتحسس تجده في الحقيقة قلقًا دائمًا في حياته، وينشغل بعيوب الناس عن عيوبه، ولا يهتم بنفسه، وهذا يوجد كثيرًا من بعض الناس الذين يأتون إلى فلان وإلى فلان، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ فتجد أوقاتهم ضائعة بلا فائدة، بل ضائعة بمضرة؛ لأن ما وقعوا فيه فهو معصية لله ـ عز وجل ـ هل أنت وكيل عن الله ـ عز وجل ـ تبحث عن معايب عباده، والعاقل هو الذي

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩٥)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأبو داود (٤٨٦٠)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٢٢).

يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر في معايب الغير ليشيعها - والعياذ بالله - ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، فعلى كل حال هذه آداب وتوجيه من الله - عز وجل - إلى أخلاق فاضلة مأمور بها، وأخلاق منهي عنها.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة فسرها النبي ﷺ بقوله: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»[(١)] وهذا تفسير من الرسول - ﷺ - وهو أعلم الناس بمراد الله - تبارك وتعالى - في كلامه: « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ »، سواء كان ذلك في خلقته، أو خلقه، أو في أحواله، أو في عقله، أو في ذكائه، أو في غير ذلك، مثل أن تقول: فلان قبيح المنظر، دميم، فيه كذا، فيه كذا، تريد معايب جسمه، أو في خُلقه بأن تقول: فلان أحمق، سريع الغضب، سيء التصرف، وما أشبه ذلك، أو في خلقته الباطنة كأن تقول: فلان بليد، فلان لا يفهم، فلان سيء الحفظ، وما أشبه هذا، ورسول الله ﷺ حدها بحد واضح بيّن « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ »، قالوا: يا رسول الله، أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[(٢)] أي: جمعت بين البهتان والغيبة، وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنك إذا نشرت عيوب أخيك فإن الله سيسلط عليك من ينشر عيوبك، جزاءً وفاقًا، لا تظن أن الله غافل عما يعمل الظالمون، بل سيسلط عليه من يعامله بمثل ما يعامل الناس، لكن إذا كانت الغيبة للمصلحة فإنه لا بأس بها، ولا حرج فيها، ولهذا لما جاءت فاطمة بنت قيس رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تستشيره في رجال خطبوها، بيّن معايب من يرى أن فيه عيبًا، فقد خطبها ثلاثة: معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - وأبو جهم بن حارث، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، فقال لها النبي ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، وأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»[(٣)]، فذكر النبي ﷺ عيبًا في هذين الرجلين للنصيحة وبيان الحق، ولا يعد هذا غيبة بلا شك، ولهذا لو جاء إنسان يستشيرك في معاملة رجل، قال: فلان يريد أن يعاملني ببيع، أو شراء، أو إجارة، أو في تزويج أو ما أشبه ذلك، وأنت تعرف أن فيه عيبًا فإن الواجب أن تبين له ذلك، ولا يعد هذا كما يقول العامة من قطع الرزق، بل هو من بيان الحق، فإذا عرفت أن في هذا الرجل الذي يريد أن يعامله هذا الشخص ببيع أنه مماطل كذاب محتال، فقل له: يا أخي لا تبع لهذا إنه كذاب مماطل، إنه محتال، ربما يدعي أن في السلعة عيبًا وليس فيها عيب، وربما يدعي الغبن وليس مغبونًا، وما أشبه ذلك فتقع معه في صراع ومخاصمة، أو جاء إنسان يستشيرك في

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، والترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨٠)، والترمذي (١١٣٥)، والنسائي (٣٢٢٢).

شخص خطب منه ابنته، والشخص ظاهره العدالة والاستقامة، وظاهره حسن خلق، ولكنك تعرف فيه خصلة معيبة فيجب عليك أن تبين هذا، فمثلًا: تعرف أن في هذا الرجل كذبًا، أو تعرف أنه يشرب الدخان لكنه يجحده ولا يبينه للناس، يجب أن تبين تقول: هذا الرجل ظاهره أنه مستقيم، وأنه خلوق، وأنه طيب، ولكن فيه العيب الفلاني، حتى لو كان هذا متجهًا إلى أن يزوجه، ثم هو بعد ذلك بالخيار؛ لأنه سيدخل على بصيرة، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة وهي ذكر الرجل بما يكره، إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يذكر في كتب الرجال مثلًا، فلان ابن فلان سيء الحفظ، فلان ابن فلان كذوب، فلان ابن فلان فيه كذا وكذا، يذكرون ما يكره من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ فإذا كان الغرض من ذكرك أخاك ما يكره النصيحة فلا بأس.

كذلك لو كان الغرض من ذلك الظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل وتأتي إلى رجل يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقي، وما أشبه ذلك، فلا بأس، فإن هند بنت عتبة رضي الله عنها جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان، تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها الرسول ـ ﷺ ـ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمعْرُوفِ»[1] فذكرت وصفًا يكرهه أبو سفيان بلا شك ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله تعالى في كتابه ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] يعني: فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

ولكن هل يجوز مثل هذا إذا كان قصد الإنسان أن يخفف عليه وطأة الحزن والألم الذي في قلبه بحيث يحكي الحال التي حصلت على صديق له، وصديقه لا يمكن أن يزيل هذه المظلمة لكنه يفرج عنه أو لا؟

الظاهر: أنه يجوز؛ لعموم قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وهذا يقع كثيرًا، كثيرًا ما يؤذى الإنسان، ويجنى عليه بجحد مال أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك فيأتي الرجل إلى صديقه ويقول: فلان قال فيَّ كذا، يريد أن يخفف ما في قلبه من الألم والحسرة، أو يتكلم في ذلك مع أولاده، أو مع أهله، أو مع زوجته أو ما أشبه ذلك، هذا لا بأس به؛ لأن الظالم ليس له حرمة بالنسبة للمظلوم.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ التقوى يكثر الأمر بها في القرآن الكريم، وكذلك في السنة، فما هي التقوى التي يكثر ورودها في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها كلمة عظيمة، إنها تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون الوقاية من عذاب الله بأمرين:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

الأمر الأول: امتثال أوامر الله ـ عز وجل ـ بأن يقول القائل إذا سمع أمر الله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإن هذا هو قول المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] ولا تقل: ما الفرق بين كذا وكذا؟ يعني: لماذا يأمر الله بكذا ولا يأمر بكذا، فمثلا في لحوم الإبل أمر النبي ﷺ أن نتوضأ من لحومها، ولهذا كان أكل لحوم الإبل ناقض للوضوء على القول الراجح من أقوال العلماء، فلا تقل: لماذا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم الإبل، ولا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم البقر؟ مع أن كل منهما يسمى بدنة، ولا تقل: لماذا تؤمر الحائض بقضاء شهر الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة، على سبيل التشكيك، ولكن قل: سمعنا وأطعنا.

الأمر الثاني: اجتناب ما نهى الله عنه، فإذا نهى الله عن شيء فقل: سمعنا وأطعنا، واجتنبنا. وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ في الخمر والميسر والأنصاب والأزلام حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠: ٩١]. أي فبعد هذا التبصير والتبيين هل تنتهون أو لا؟ وهذا الاستفهام بمعنى الأمر، أي فانتهوا، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: (انتهينا انتهينا)، فصارت التقوى تتحقق بأمرين:

الأول: امتثال أمر الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

والثاني: اجتناب نهي الله ـ عز وجل ـ دون تردد.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ هو الله سبحانه وتعالى رحيم وهو رحمن، وقد اجتمع الاسمان في أعظم سورة في كتاب الله، في الفاتحة، قال العلماء: إذا ذكر الرحمن وحده كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] أو ذكر الرحيم وحده كما في هذه الآية ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فمعناهما واحد، يعني أن الرحيم والرحمن ذو الرحمة الواسعة الشاملة، والرحمن إذا ذكر وحده كذلك هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة، أما إذا اجتمعا جميعًا فالرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل، يعني أنه ـ عز وجل ـ ذو رحمة واسعة، وهو أيضًا راحم وموصل الرحمة إلى من يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ [العنكبوت: ٢١] أسأل الله أن يعمني وجميع إخواننا المسلمين برحمته، وأن يجعلنا من دعاة الخير والإصلاح، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] الخطاب هنا مصدر بنداء الناس عمومًا، مع أن أول السورة وجه الخطاب فيه للذين آمنوا، وسبب ذلك أن هذا الخطاب في هذه الآية موجه لكل إنسان؛ لأنه يقع التفاخر بالأنساب من كل إنسان، فيقول ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والخطاب للمؤمن

والكافر، والبر والفاجر، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من ذكر هو آدم، وأنثى هي حواء، هذا هو المشهور عند علماء التفسير، وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر والأنثى هنا الجنس، يعني أن بني آدم خُلقوا من هذا الجنس من ذكر وأنثى، وفي الآية دليل على أن الإنسان يتكون من أمه وأبيه أي يخلق من الأم والأب، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥: ٧] فإذا قلنا: إن المراد بالصلب صلب الرجل، والترائب ترائب المرأة فلا إشكال، وإن قلنا بالقول الراجح: إن الصلب والترائب وصفان للرجل، يعني الماء الدافق هو ماء الرجل، أما المرأة فلا يكون ماؤها دافقًا، وعلى هذا فيكون الإنسان مخلوقًا من ماء الرجل، لكن ماء الرجل وحده لا يكفي، بل لابد أن يتصل بالبويضة التي يفرزها رحم المرأة فيزدوج هذا بهذا، فيكون الإنسان مخلوقًا من الأمرين جميعًا، أي من أبيه وأمه، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ أي صيرناكم شعوبًا ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ فالله تعالى جعل بني آدم شعوبًا وهم أصول القبائل، وقبائل وهم ما دون الشعوب، فمثلًا بنو تميم يعتبرون شعبًا، وأفخاذ بني تميم المتفرعون من الأصل يسمون قبائل، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ هل الحكمة من هذا الجعل أن يتفاخر الناس بعضهم على بعض، فيقول هذا الرجل: أنا من قريش، وهذا يقول أنا من كذا، أنا من كذا؟ ليس هذا المراد، المراد التعارف، أن يعرف الناس بعضهم بعضًا، إذ لولا هذا الذي صيره الله ـ عز وجل ـ ما عرف الإنسان من أي قبيلة، ولهذا كان من كبائر الذنوب أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه[1]، لأنه إذا انتسب إلى غير أبيه غير هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي أنهم شعوب وقبائل من أجل التعارف، فيقال: هذا فلان ابن فلان ابن فلان إلى آخر الجد الذي كان أبًا للقبيلة، ﴿لِتَعَارَفُوٓا﴾ أي: لا لتفاخروا بالأحساب والأنساب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ليس الكرم أن يكون الإنسان من القبيلة الفلانية، أو من الشعب الفلاني، الكرم الحقيقي النافع هو الكرم عند الله، ويكون بالتقوى، فكلما كان الإنسان أتقى لله كان عند الله أكرم، فإذا أحببت أن تكون عند الله كريمًا، فعليك بتقوى الله ـ عز وجل ـ والتقوى كلها الخير، وكلها البركة، وكلها سعادة في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢: ٦٣]. وما أكثر ما ترد على أسماعنا كلمة التقوى، وليس لفظًا يجري على الألسن ويمر بالآذان بل يجب أن يكون لفظًا عظيمًا موقرًا معظمًا محترمًا، ويفوت الإنسان من التقوى بقدر ما خالف فيه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فإذا رأينا مثلا إنسانًا يتقدم إلى المسجد ويصلي مع الجماعة ويخشع في صلاته، ويؤديها بكل طمأنينة، وآخر بالعكس يصلي في بيته ويقتصر فيها على الواجب، فالأول أتقى، إذن فهو أكرم عند الله حتى لو كان مولى من الموالي، والآخر من أرفع الناس نسبًا، فإن الأتقى لله هو الأكرم عند الله ـ عز وجل ـ وكل إنسان يجب أن

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٦٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٠٤).

يحظى عند السلطان في الدنيا، ويكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نحب أن نكون أقرب الناس إلى الله، وأكرمهم عنده؟! المسألة هوى وشيطان، وإلا لكان الأمر واضحًا، فعليك بتقوى الله - عز وجل - لتنال الكرم عند الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بكل شيء، لأنه هنا مطلق، ولم يقيد بحال من الأحوال، ﴿خَبِيرٌ﴾ الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم بالظواهر لا شك أنه صفة مدح وكمال، لكن العلم بالبواطن أبلغ، فيكون عليم بالظواهر، وخبير بالبواطن، فإذا اجتمع العلم والخبرة صار هذا أبلغ في الإحاطة، وقد يقال إن الخبرة لها معنى زائد عن العلم، لأن الخبير عند الناس هو العليم بالشيء الحاذق فيه، بخلاف الإنسان الذي عنده علم فقط، ولكن ليس عنده حذق، فإنه لا يسمى خبيرًا، فعلى هذا يكون الخبير متضمنًا لمعنى زائد على العلم، ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] الأعراب اسم جمع لأعرابي، والأعرابي هو ساكن البادية كالبدوي تمامًا، فالأعراب افتخروا، فقالوا: آمنا آمنا، افتخروا بإيمانهم، فقال الله - عز وجل -: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ قيل: إن هؤلاء من المنافقين، لقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١] والمنافق مسلم، ولكنه ليس بمؤمن، لأنه مستثنى في الظاهر، إذ إن حال المنافق أنه كالمسلمين، ولهذا لم يقتلهم النبي ﷺ، مع علمه بنفاقهم مع أنهم مسلمون ظاهرًا لا
يخالفون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا :آمنا.

وقيل: إنهم أعراب غير منافقين، لكنهم ضعفاء الإيمان، يمشون مع الناس في ظاهر الشرع، لكن قلوبهم ضعيفة، وإيمانهم ضعيف.

وعلى القول الأول: يكون قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أنه لم يدخل أصلًا، وعلى الثاني: أي لما يدخل الإيمان الدخول الكامل المطلق، ففيهم إيمان لكن لم يصل الإيمان في قلوبهم على وجه الكمال، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين فإنها تحمل عليهما جميعًا إذا لم يتنافيا، فإن تنافيا طلب المرجح.

فالأعراب الغالب عليهم أنهم لا يعرفون حدود ما أنزل الله على رسوله، فيقولون آمنا، فقال الله تعالى يخاطب النبي ﷺ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ووجه ذلك أن الإسلام في القلب، وهو صعب، والإسلام علامة في الجوارح، وكل إنسان يمكن أن يعمل بجوارحه عملًا متقنًا كأحسن ما يكون، فقد أخبر النبي ﷺ عن الخوارج أنهم يقرءون القرآن، وأنهم يصلون، وأن الواحد من الصحابة يحقر صلاته عند صلاتهم، وقراءته عند قراءتهم، ومع ذلك يقول النبي ﷺ: «إِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»[1] نسأل الله العافية، وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وهذا يدل على أن الإسلام

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

يستطيعه كل إنسان يمكن أن يصلي ويسجد ويقرأ ويصوم ويتصدق وقلبه خالٍ من الإيمان، ولهذا قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهنا التعبير يقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ ولم يقل: (ولم يدخل)، قال العلماء: إذا أتت (لما) بدل (لم) كان ذلك دليلا على قرب وقوع ما دخلت عليه، فمثلا إذا قلت: (فلان لمّا يدخلها) أي أنه قريب منها، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨] أي لم يذوقوه، ولكن قريب منه، وهنا قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ أي لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من الدخول، ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ إن أطعتم الله ورسوله بالقيام بأمره واجتناب نهيه فإنه لن ينقصكم من أعمالكم شيئًا بل سيوفرها لكم كاملة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فكل إنسان يجزى على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، لكن رحمة الله تعالى سبقت غضبه [(١)] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧: ٨] وقد يعاقب، وقد يعفو الله عنه، فالسيئات يمكن أن تمحى، والحسنات لا يمكن أن تنقص، ولهذا قال: ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ختم الآية بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى أن هؤلاء الذين قالوا: «إنهم آمنوا»، قريبون من المغفرة والرحمة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من دخوله.

في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان، وكذلك في حديث جبريل عليه السلام فرق بين الإسلام والإيمان، ففي حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ». وفي الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [(٢)]. ففرق بين الإسلام والإيمان، وفي أدلة أخرى يجعل الله الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان، فهل في هذا تناقض؟

والجواب: لا، فإذا قرن الإسلام بالإيمان صارا شيئين، وإذا ذكر الإسلام وحده أو الإيمان وحده صارا بمعنى واحد، ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة، ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا ـ يعني إذا ذكرا في سياق واحد ـ فهما شيئان، وإذا ذُكِر أحدهما دون الآخر فهما شيء واحد، ويدل على هذا أن النبي ﷺ عدد أعمالًا هي من الإسلام، وجعلها من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الإيمان فقال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(١)] مع أنها من الإسلام، قال: «الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(٢)] وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»[(٣)]، وإماطة الأذى عن الطريق من الإسلام؛ لأنها عمل، والأعمال جوارح «وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[(٤)] وهذا في القلب، فالمهم: الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شيء واحد، وإن اجتمعا فهما شيئان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] (إنما) أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد: ما المؤمنون حقًّا الذين تم إيمانهم إلا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، آمنوا: أقروا إقرارًا مستلزمًا للقبول والإذعان، وليس مجرد الإقرار كافيًا، بل لابد من قبول وإذعان، والدليل على أن مجرد الإقرار ليس بكاف أن النبي ﷺ أخبر عن عمه أبي طالب أنه في النار[(٥)]، وذلك مع أنه مؤمن بالرسول ﷺ، مصدق به، يقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنِى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

ويقول عن دين الرسول:

وَلَقَدْ عَلِمتُ أَنَّ دِيْنَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لكنه والعياذ بالله لم يقبل هذا الدين، ولم يذعن له، وكان آخر ما قال: إنه على الشرك على ملة عبدالمطلب[(٦)]، فالذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، هم الذين أقروا إقرارا تامًّا بما يستحق الله عز وجل، وبما يستحق الرسول ﷺ، وقبلوا بذلك وأذعنوا، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ كلمة، ﴿ثُمَّ﴾ هنا في موقع من أحسن المواقع؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب والمهلة، ثم استقروا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة، ﴿لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾: أي لم يلحقهم شك في الإيمان بالله ورسوله.

وهنا ننبه إلى مسألة يكثر السؤال عنها في هذا الوقت ـ وإن كان أصلها موجودًا في عهد الرسول ﷺ: وهي الوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان، فيلقي الشيطان في قلب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٢) تقدم قبل حديث

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٤) انظر ما قبله.

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

الإنسان أحيانًا وساوس وشكوكًا في الإيمان أو في القرآن، أو في الرسول، يحب الإنسان أن يمزق لحمه، ويكسر عظمه ولا يتكلم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟ موقف الإنسان من هذا:أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي، ويعرض عن هذا، ولا يفكر فيه إطلاقًا، وقد أخبر النبي ـ ﷺ ـ أن مثل هذه الوساوس صريح الإيمان(1)، أي خالص الإيمان، وهذا إنما كان خالص الإيمان لأن الشيطان لا يأتي للإنسان الشاك يشككه في دينه، وإنما يأتي لإنسان ثابت مستقر، ليشككه في دينه، فيفسده عليه، فالمؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه واطمأن قلبه بالإيمان هو الذي يأتيه الشيطان ليفسد عليه، أما من ليس بمؤمن فإن الشيطان لا يأتيه بمثل هذه الوساوس، لأنه منتهٍ منه، والمهم أن قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ يدل على أنهم ثبتوا على الإيمان، ولو طالت المدة.

فإذا قال قائل: ما الطريقة التي توجب للإنسان ثبوت الإيمان واستقراره؟

قلنا:

أولًا: أن يتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات العظيمة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن وليدة بنفسها.

ثانيًا: أن يتفكر في شريعة الله وكمالها.

ثالثًا: أن يتفكر في سيرة النبي ﷺ وآياته وما إلى ذلك.

رابعًا: أن يكثر من ذكر الله ـ عز وجل ـ فإنه بذكر الله تطمئن القلوب، ويكثر من الطاعات والأعمال الصالحة، لأن الطاعات والأعمال الصالحة تزيد في الإيمان، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ رحمهم الله ـ.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢] هذا أيضًا معطوف على قوله: ﴿آمَنُوا﴾ أي هم مع إيمانهم بالله ـ عز وجل ـ ويقينهم وعدم ارتيابهم يريدون أن يصلحوا عباد الله بالجهاد في سبيل الله، يجاهدون أعداء الله ليرجعوا إلى دين الله ويستقيموا عليه، لا للانتقام منهم، ولا للانتصار لأنفسهم، ولكن ليدخلوا في دين الله ـ عز وجل ـ والجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، لا للانتقام، فالقتال للانتقام ليس إلا مدافعة عن النفس، أو أخذًا بالثأر فقط، لكن الجهاد حقيقة هو أن يقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا، أما الجهاد انتصارًا للنفس، أو دفاعًا عن النفس فقط، فليس في سبيل الله، لكن لاشك أن من قاتل دفاعًا عن نفسه فإنه إن قتل فهو شهيد، وإن قتله صاحبه فصاحبه في النار كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، فيمن أراد أن يأخذ ماله قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلني، قال: «قَاتِلْهُ»،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤١)، وأبو داود (٥١١١).

قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «أَنْتَ شَهِيدٌ»، قال: إن قتلته؟ قال: «فَهُوَ فِي النَّارِ»[1]، فالجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو الذي حده النبي ﷺ وفصَّله فصلًا قاطعًا، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وعدم ارتيابهم، أما الذين قالوا من الأعراب آمنا ولكنهم لم يؤمنوا حقيقة ولكن أسلموا فإنهم ليسوا صادقين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] هذا إنكار لقول الذين قالوا :آمنا، يعني: أتعلمون الله تعالى بأنكم آمنتم وهو عليم بكل شيء، «وتعلمون الله» بمعنى: تخبرون الله، وليس المراد أن ترفعوا جهله عن حالكم، فهو يعلم حالهم ـ عز وجل ـ ويعلم أنهم مؤمنون أو غير مؤمنين، لكن ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ هنا بمعنى تخبرون، وليس معناه أن ترفعوا الجهل عن الله ـ عز وجل ـ لأن الله ليس جاهلا بحالهم، بل هو عالم، ﴿أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ حينما قلتم: آمنا، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومنها أي ما في السموات وما في الأرض حالكم إن كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النطق بالنية في العبادات منكر؛ لأن الإنسان الذي يقول: أريد أن أصلي، يعلّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما يريد من العمل، والله يعلم، والذي يقول: أريد أن أصوم كذلك، والذي يقول: نويت أن أتصدق كذلك، والذي يقول: نويت أن أحج كذلك أيضًا، ولهذا لا يسن النطق بالنية في العبادات كلها لا في الحج ولا في الصدقة، ولا في الصوم، ولا في الوضوء، ولا الصلاة، ولا في غير ذلك، لأن النية محلها القلب، والله عالم بذلك، ولا حاجة إلى أن تخبر الله بها، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فما في السموات عام، وما في الأرض عام، فكل شيء يعلمه الله، وقد تقدم لنا الكلام مرارًا على هذه الصفة من صفات الله، والتي هي من أوسع صفاته ـ جل وعلا ـ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ خفي أو بين، عام أو خاص، فهو عالم به ـ جل وعلا ـ.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] في هذه الآية تكررت ﴿أَنْ﴾ ثلاث مرات: أي يمنون عليك يا محمد بإسلامهم، وحذف الجملة مع (أن) مطرد؛ كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في «الألفية».

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: بأن أسلموا أي بإسلامهم، ويعني بذلك قومًا أسلموا بدون قتال فجعلوا يمنون على الرسول ـ ﷺ ـ يذكرون له الفضائل ويقولون: نحن آمنا بك من دون قتال، مع أن المصلحة لهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ هذا إضراب لإبطال ما سبق، أي ليس لكم منة على الرسول ـ ﷺ ـ بإسلامكم، بل المنة لله ـ عز وجل ـ عليكم أن هداكم للإيمان، ولا شك أن هذا أعظم منة أن يمن الله على

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٠).

العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيرًا من الأمة عنه، وقد أخبر النبي ﷺ أن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحدًا من الجنة[1]، فمن وفق بأن واحدًا في الجنة فإن هذه منة عظيمة، ولهذا كان الأنصار رضي الله عنهم حين جمعهم النبي ﷺ يوم قسم غنائم حنين كلما ذكر إليهم شيئا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ فِي ضَلَالٍ فَهَدَاكُم اللهُ بِي»، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُم اللهُ بِي؟» قالوا: الله ورسوله أمن[2]، كلما ذكر شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، فالمنة لله على كل من هداه الله بنعمه، فالمنة لله ـ عز وجل ـ عليه وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم من ذوي الصدق القائلين بالصدق، فإن المنة لله عليكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]. أخبر الله في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وما ظهر فهو من باب أولى، وأخبر ـ عز وجل ـ أن من جملة ما يعلمه عمل بني آدم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه الآية تفيد مسألة عظيمة في سلوك الإنسان وعمله، وهي أن يعلم بأن الله تعالى بصير بعمله محيط به، فيخشى الله ويتقيه، وفيها الترغيب في الأعمال الصالحة فإنها لن تضيع، وفيها الترهيب من العمل السيء؛ لأن العبد سيجازى عليه؛ لأن الكل معلوم عند الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالهداية والتوفيق.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

تفسير سورة ق

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، البسملة سبق الكلام عليها، وأنها آية مستقلة يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكتبوا أمامها بسملة، ولكن جعلوا فاصلًا بينها وبين آخر سورة الأنفال، وليس هناك ذكر يذكر بدلًا عن البسملة، كما يوجد في هامش بعض المصاحف، حيث كتب: (أعوذ بالله من النار، ومن كيد الفجار، ومن غضب الجبار، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين)، ولا شك أن هذا كلام بدعي لا أصل له.

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] (ق) حرف من الحروف الهجائية التي يتركب منها الكلام العربي، وهي كسائر الحروف، ليس لها معنى في حد ذاتها، ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي، وإذا كانت هذه الحروف ليس لها معنى باللسان العربي، فهي كذلك ليس لها معنى في كتاب الله ـ عز وجل ـ من حيث المعنى الذاتي لها، وأما بالنسبة للمغزى العظيم الكبير فلها مغزى عظيم كبير، ألا وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب مع بلاغتهم وفصاحتهم لم يأت بشيء جديد من حروف لم يعرفونها، بل هو بالحروف التي يعرفونها، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، فدل ذلك على أنه من كلام العزيز الحميد ـ جل وعلا ـ ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بالحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ الواو هنا حرف قسم، أقسم الله تعالى بالقرآن لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء، وإقسامه هنا بالقرآن إقسام بكلامه، وكلام الله تعالى من صفاته، وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أنه يجوز الإقسام بالله تعالى، أو بصفة من صفاته، وأما آياته فلا يُقسم بها إلا إذا قصد الإنسان بالآيات كلماته، كالقرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، وما أشبه ذلك، وأما الآيات الكونية كالشمس والقمر فلا يجوز لنا أن نقسم بها، أما الله ـ عز وجل ـ فله أن يقسم بما شاء، والقرآن مأخوذ من «قرأ» إذا تلي، أو من« قرأ» إذا جمع، ومنه قرية؛ لأن الناس يجتمعون فيها، والقرآن يتضمن المعنيين، فهو متلو وهو مجموع أيضًا، ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي ذي المجد، وهو العظمة والسلطان المطلق، فالقرآن له عظمة عظيمة، مهيمن مسيطر على جميع الكتب السابقة، حاكم عليها، ليس محكومًا عليه، وهو أيضًا مجيد، به يمجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١: ٢٢].

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] هنا لا يتراءى للإنسان التالي جواب القسم، فاختلف العلماء - رحمهم الله - في مثل ذلك: هل له جواب، أو جوابه يعرف من السياق، أو يعرف من المقسم به؟ وأظهر ما يكون: أن نقول: إن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب القسم، لأنه معروف من عظمة المقسم عليه، فكأنه أقسم بالقرآن على صحة القرآن، فالقرآن المجيد لكونه مجيدًا كان دليلًا على الحق، وأنه منزل من عند الله - عز وجل - وحينئذ لا يحتاج القسم إلى جواب؛ لأن الجواب في ضمن القسم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عجبوا: الواو تعود على المكذبين للرسول - ﷺ - الذين كذبوا رسالته، وكذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، وكذبوا باليوم الآخر، ولهذا ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ عجبوا عجب استغراب واستنكار، وإنما قلنا ذلك لأن العجب تارة يُراد به الاستنكار والتكذيب، وتارة يراد به الاستحسان.

فقول عائشة - رضي الله عنها -: «كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»[1]. والمراد بالعجب هنا: الاستحسان، وقوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ المراد به: الاستنكار والتكذيب، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ليس بعيدًا عنهم بل هو منهم نسبًا وحسبًا ومسكنًا، يعرفونه، ومع ذلك قالوا: هذا شيء عجيب ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] لما جاءهم محمد رسول الله ﷺ أخبرهم بأن الله سوف يبعثهم وسوف يجازيهم ويحاسبهم تعجبوا كيف هذا؟ أيحيى الإنسان بعد أن كان رفاتًا، قال الكافرون: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ (إذا) من المعروف أنها ظرفية، وكل ظرف يحتاج إلى عامل، والعامل محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نرجع ونبعث.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ولهذا يحسن عند التلاوة أن تقف على قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ لأن قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ جملة استئنافية لا علاقة لها من حيث الإعراب بما قبلها، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار والتكذيب، كأنهم يقولون: لا يمكن أن نرجع ونبعث بعد أن كنا ترابًا وعظامًا، ولكن بين الله - عز وجل - أنه قادر على ذلك، فلما قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ ومرادهم بالبعد هنا الاستحالة، فهم يرون أن ذلك مستحيل، وربما تلطف بعضهم وقال: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فهم تارة ينكرون إنكارًا مطلقًا ويقولون: هذا محال، وتارة يقولون: هذا بعيد، قال الله تعالى مبينًا قدرته على ذلك: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤] الأرض تأكل الإنسان إذا مات، فالله تعالى يعلم ما تنقص الأرض من أجزاء بدنه ذرة بعد ذرة، ولو أكلته الأرض، وقوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد يفيد أنها لا تأكل كل الجسم وفي ذلك تفصيل، أما الأنبياء فإن الأرض لا تأكلهم مهما داموا في قبورهم، لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[1]، وأما غيرهم فقد يبقى الجسم مدة طويلة لا تأكله الأرض إلى ما شاء الله، وقد تأكله الأرض، لكن إذا أكلته الأرض فإنه يبقى عجب الذنب[2]، وعجب الذنب هو عبارة عن الجزء اليسير من العظم بأسفل الظهر، هذا يبقى بإذن الله لا تأكله الأرض كأنه يكون نواة للجسم عند بعثه يوم القيامة، فإنه منه يخلق الآدمي في قبره، فإذا تم النفخ في الصور قاموا من قبورهم لله - عز وجل - وإذا كان الله تعالى عالمًا بما نقصت الأرض منهم فهو قادر على أن يرد هذا الذي نقصته الأرض عند البعث، ﴿وَعِندَنَا﴾ أي عند الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، أي: حافظ لكل شيء، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩: ١٢].

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] بل هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي؛ لأن الأول ثابت والثاني زائد عليه، وهذا هو الفرق بين (بل) التي للإضراب الإبطالي وبين (بل) التي للإضراب الانتقالي، فصارت (بل) للإضراب دائمة لكن إن كانت تبطل الأول سموها إضراب إبطال، وإن كانت لا تبطله فهو إضراب انتقالي، كأنه انتقل من موضوع إلى آخر ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ولكن قلوبهم موقنة إلا أن ألسنتهم تكذب، كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لما هنا بمعنى :حين، فهي ظرف وليست حرفًا، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء هنا للتعقيب والسببية، والمعنى :فهم لما كذبوا بالحق في أمر مريج، أي: مختلط اختلط عليهم الأمر - والعياذ بالله - وهو كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة وظلوا في طغيانهم يعمهون، هؤلاء لما كذبوا صاروا في أمر مريج، التبس عليهم الأمر، وترددوا في أمرهم، وهكذا كل إنسان يرد الحق أول مرة، فليعلم أنه سيبتلى بالشك والريب في قبول الحق في المستقبل، ولهذا يجب علينا من حين أن نسمع أن هذا الشيء حق أن نقول: سمعنا وأطعنا، خلافًا لبعض الناس الآن، تقول: أمر الرسول ﷺ بهذا؟ فيقول: الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ سبحان الله، افعل ما أمرك به سواء على الوجوب أو على الاستحباب، لأن معنى قوله:«هل هو للوجوب أو للاستحباب؟» معناه: إذا كان للاستحباب فأنا في حل منه، وإذا كان للوجوب فعلته، وهذا خطأ، ولكن قل: سمعنا وأطعنا، ثم إذا وقعت المخالفة فحينئذ ربما يكون السؤال عنه: هل هو واجب أو مستحب؟ ربما يكون وجيهًا، أما قبل فلا.

قد يقول قائل: أنا أسأل هل هو واجب أو مستحب؟ لأن هناك فرقًا بين الواجب والمستحب،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٨)، والنسائي (١٣٧٤)، وأبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

والواجب أحب إلى الله، فأنا أفعله من أجل إذا اعتقدت أنه واجب أُثاب عليه ثوابًا واجبًا، وإذا اعتقدت أنه سنة أثاب عليه ثواب سنة.

قلنا: نعم، هذا طيب، لكن ثواب انقيادك للحق لأول مرة وبكل سهولة وبدون سؤال أفضل من كونك تعتقده واجبًا أو مستحبًّا، وإذا كان الله قد أوجبه عليك أثابك ثواب الواجب، وإن كنت لا تدري، فالانقياد وتمام الانقياد أفضل بكثير من كون أعتقد هذا واجبًا أو مستحبًّا.

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] استدل بالآيات الكونية على صحة الآيات الشرعية.

والاستفهام هنا للتوبيخ، يوبخهم ـ عز وجل ـ لماذا لم ينظروا إلى هذا؟ لماذا لم ينظروا إلى السماء وما فيها من عجائب القدرة الدالة على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يشمل نظر البصر ونظر البصيرة، نظر البصر يكون بالعين، ونظر البصيرة يكون بالقلب، أي: التفكر، وقوله: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قد يقول قائل: إن كلمة: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لا فائدة منها، لأن السماء معروفة أنها فوق، ولكن نقول: إن النص على كونها فوقهم إشارة إلى عظمة هذه السماء، وأنها مع علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها تدل على كمال خلقه وقدرته ـ جل وعلا ـ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بناها الله ـ عز وجل ـ بقوة وجعلها قوية، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] أي قوية، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة، وهذا البناء لا نعلم كيف بناها الله ـ عز وجل ـ لكننا نعلم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام: خلق الأرض في أربعة، والسماء في يومين، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي حسنًا منظرها بما خلق الله تعالى فيها من النجوم العظيمة المنيرة المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم قال قتادة ـ رحمه الله ـ وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يُهتدى بها، ورجومًا للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئًا سوى ذلك فقد أضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»(١)، يشير إلى ما ينتحله المنجمون من الاستدلال بحركات هذه النجوم على الحوادث الأرضية، حتى إنهم يبنون سعادة الشخص وشقاءه على هذه النجوم، مثلًا يقولون: إذا ولد في النجم الفلاني فهو سعيد، وإذا ولد في النجم الفلاني فهو شقي، وهذا لا أثر لها، أعني تحركات النجوم في السماء، ليس لها أثر فيما يحدث في الأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ يعني ليس للسماء من فروج، أي من فطور وتشقق، بل مبنية محكمة قوية.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] هذه ثلاثة أمور:

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا في «بدء الخلق»، باب: النجوم.

أولًا: الأرض مدها الله ـ عز وجل ـ مع أنها بالنسبة للسماء صغيرة جدًا، لكنها ممدودة للخلق، مسطحة لهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

ثانيًا: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩] أي جبال ثابتات لا تزعزعها الرياح فهي قاسية، وكذلك أيضًا ترسي الأرض.

ثالثًا: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من كل زوج سار لناظره، والمراد بالزوج هنا: الصنف، يعني أن ما ينبت في الأرض أصناف متعددة متنوعة حتى إنك ترى البقعة من الأرض وهي صغيرة تشتمل على أنواع من هذه الأصناف، تختلف في ألوانها، وتختلف في أحجامها، وتختلف في ملمسها ما بين شديدة ولينة، إلى غير ذلك من الاختلافات العظيمة، بل إنها تختلف في مذاقها إذا كانت من ذوات الثمر، كما قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] فمن القادر على أن يخلق هذه الأشياء؟ هو الله سبحانه وتعالى، وهذه التي ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ مع أنها في مكان واحد وتسقى بماء واحد، والأرض أيضًا واحدة، من يقدر على هذا؟ الجواب: هو الله ـ عزوجل ـ إنك تأتي الأرض المعشبة التي أنبت الله تعالى فيها من أصناف النبات فتتعجب، ترى هذه مثلا زهرتها صفراء، وهذه بيضاء، وهذه بنفسجية، وهذه منفتحة، وهذه منضمة إلى غير ذلك من الآيات العظيمة، فهذا أكبر دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فالقادر على خلق هذه المخلوقات العظيمة قادر على إحياء الموتى، ثم يقال: من الذي خلق الإنسان؟ هو الله، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فإذا كنتم أيها المشركون تقرون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الذي خلقكم وأوجدكم، فلماذا تنكرون أن يعيدكم مع أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن» فيكون.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] يعني أن الله تعالى حثنا على أن ننظر إلى السماء وإلى الأرض، وما يحدث فيهما تبصرة، أي لأجل التبصرة والذكرى، قال العلماء: والفرق بين التبصرة والذكرى: أن التبصرة مستمرة، والذكرى عند النسيان، فهذه الآيات تذكرك إذا نسيت، وتبصرك إذا جهلت، وقد يقال: إن الفرق بينهما:أن التبصرة في مقابل الجهل، والذكرى في مقابل النسيان، وكلا القولان حق، المهم أنك إذا نظرت إلى السماء وإلى الأرض وما فيهما مما أودعه الله ـ عز وجل ـ من النبات فإنك سوف تبصر بقلبك، وتذكر أيضًا إذا نسيت، ولكن لمن هذه التبصرة والذكرى؟ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ليست لكل إنسان، ما أكثر ما ينظر الكفار في الآيات، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، إنما الذي ينتفع بها هم كل عبد منيب، أي: رجاع إلى الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]. يقول ـ جل وعلا ـ:

﴿وَنَزَّلْنَا﴾، لأن المطر ينزل شيئًا فشيئًا، وربما يعبر عنه بـ«أنزل» لأنه تجيء به الأودية والشعاب، وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من العلو، لأن هذا المطر ينزل من السحاب وليس من السماء التي هي السقف المحفوظ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، إذن هو ينزل من العلو، والحكمة في إنزاله من العلو ليشمل قمم الجبال ومراتع الإبل والسهل والأودية، لأنه لو جاء يمشي سيحًا من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال، ولكن الله ـ عز وجل ـ جعله من فوق، وقوله: ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾ من بركته أنه يُنبت به ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، الجنات هي البساتين الكثيرة الأشجار، وسميت البساتين الكثيرة الأشجار «جنات» لأنها تُجن أي تستر ما تحتها، وكل بستان ذو شجر ملتف بعضه إلى بعض يسمى جنة، وأما قوله: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يعني به الزروع التي تحصد، فذكر الله هنا الأشجار والزروع، فمن الأشجار هل تجذ الثمار، ومن الزروع تحصد الحبوب، ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] خص الله النخل لأنها أشرف الأشجار، ولهذا شبه بها المؤمن حيث قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرًا مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ» قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: فذهب الناس يخوضون في شجر البوادي، كل يقول: هي الشجرة الفلانية، يقول ابن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة، لكني كنت أصغر القوم ـ يعني فاستحيا أن يتكلم وهو أصغرهم ـ فقال النبي ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»[1] وهي الشجرة المذكورة في قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فلهذا خصها هنا بالذكر فقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي عاليات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي منضود، فالطلع في شماريخه تجده منضودًا من أحسن ما يكون النضد، ومع ذلك تجد هذه الثمرات تسقى بالشمراخ الدقيق اللين مع أنه قد يكون فيه أحيانًا أكثر من ثلاثين حبة.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي فعلنا ذلك، أنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات. فعلنا ذلك رزقًا للعباد أي عطاءً وفضلًا للعباد، والعباد هنا يشمل: العباد المؤمنين والعباد الكافرين؛ لأن الكافر عبد لله كما قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. والمراد هنا العبودية الكونية القدرية، أما العبودية الشرعية فلا يكون عبدًا لله إلا من كان ممتثلًا لأمره، مجتنبًا لنهيه، مصدقًا بخبره، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء بلدة ميتة، ﴿بَلْدَةً﴾ لما كانت مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى، صح أن توصف بوصف مذكر، ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي بلد ميت، أحياه بهذا الماء الذي نزل من السماء، تجد الأرض هامدة خاشعة ليس فيها نبات، فإذا أنزل الله المطر عجت بالنبات واخضرت وازدهرت، فهذه حياة بعد الموت ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي مثل ذلك الإحياء ﴿الْخُرُوجُ﴾، خروج الناس من قبورهم لله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١١).

ـ عز وجل ـ وإنما ذكر الله تعالى الخروج لأن من عباد الله من أنكر ذلك ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ وحجتهم أنهم قالوا: من يحيي العظام وهي رميم؟ من يحيي العظام بعد أن أرمت وصارت ترابًا؟ هذا مستنكر عندهم بعيد، ولكن الله سبحانه وتعالى بيَّن أنه ليس ببعيد، وأنهم كما يشاهدون الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا إذن فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر قادر على إحياء الأموات بعد موتهم، وهذا قياس جلي واضح، كذلك الخروج.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢: ١٤] ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبت الرسل من قبل، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأى غيره قد أصيب بمثل مصيبته يتسلى بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبي الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [ص: ١٢]، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يعني تسعمائة وخمسين سنة، وهو يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ولكن لم يستفيدوا من ذلك شيئًا، كلما دعاهم ليغفر لهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: ٧] تغطوا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٧]، وبقي فيهم هذه المدة، وقد قال الله تعالى في النهاية: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠]. ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قوم جاءهم نبيهم ولكنهم قتلوه بالرس، وهو البئر، أي حفروا بئرًا ودفنوه، هذا قول، والقول الثاني: أصحاب الرس، أي أنهم قومٌ حول ماءٍ وليسوا بالكثرة الكافية، ومع هذا كذبوا رسولهم ﴿وثمود﴾ وهم قوم صالح في بلاد الحجر المعروفة، كذبوا صالحًا وقالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وهذا تحدٍّ فأرسل الله عليهم صيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٞ﴾ كذلك أيضًا عاد أرسل الله إليهم هودًا فكذبوه فأهلكهم الله ـ عز وجل ـ بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] وكانوا يفتخرون بقوتهم ويقولون: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فأراهم الله ـ عز وجل ـ قوته وأهلكهم بالريح اللطيفة التي لا يرى لها جسم، ومع ذلك دمرتهم تدميرًا، ﴿وَفِرۡعَوۡنُ﴾ الذي أرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام، وفرعون كان معروفًا بالجبروت والعناد والاستكبار، حتى إنه استخف قومه وقال لهم: إنه رب ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فأطاعوه فجاءهم موسى ﷺ

بالآيات البينات، لكنهم كذبوا، وأراهم الله تعالى آية كانوا يفتخرون بها يضاد ما جاء به موسى وهو السحر، فجمعوا لموسى ﷺ كل السحرة في مصر، واجتمعوا وألقوا الحبال والعصي، وألقوا عليها السحر فصار الناس يشاهدون هذه الحبال والعصي وكأنها حيات وثعابين، ورهب الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، حتى إن موسى ﷺ أوجس في نفسه خيفة؛ لأنه شاهد أن كل الجو حوله ثعابين تريد أن تلتهم ما تقابله، فأوحى الله إلى موسى أن ألقِ عصاك، فألقى العصا فالتهمت جميع هذه الحيات، وهذا من آيات الله، إذ إن الحية كما هو معروف ليست بذات الكبر لكي تأكل هذا، وكان هذا يذهب بخارًا، إذا أكلت هذه الحبال والعصي، فالسحرة رأوا أمرًا أدهشهم ولم يملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا مع ذلك إيمانًا تامًّا ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠]، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ ولم يقل: سجدوا، كأن شيئًا اضطرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار لقوة ما رأوا من الآية العظيمة، ومع هذه الآية البينة الواضحة على صدق موسى ﷺ لم يؤمن فرعون بل قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤: ٥٥]، فهمّ بأن يهجم على موسى ومن معه من المؤمنين، فأمر الله موسى أن يخرج من مصر إلى جهة المشرق نحو البحر الأحمر، فامتثل أمر الله، وخرج من مصر إلى هذه الناحية، فتبعهم فرعون بجنوده على حنق، يريد أن يقضي على موسى وقومه، فلما وصلوا إلى البحر قال قوم موسى له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦٢] يعني لن ندرك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر - البحر الذي عرضه مسافات طويلة - فضرب البحر فانفلق البحر اثني عشر طريقًا، وصارت قطع الماء كأنها جبال، وصارت هذه الطرق التي كانت ريًّا من الماء، وطينا زلقًا، صارت طريقًا يبسًا بإذن الله في لحظة، فدخل موسى وقومه عابرين من أفريقيا إلى آسيا من طريق البحر، فلما تكاملوا داخلين وخارجين للناحية الشرقية دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا للدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق أعلن فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ﴾ [يونس: ٩٠]. وتأمل أنه لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لماذا؟ إذلالا لنفسه، حيث كان ينكر على بني إسرائيل ويهاجمهم، فأصبح عند الموت يقر بأنه تبع لهم، وأنه يمشي خلفهم، ولكن ماذا قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١] تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنك من المسلمين ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فلم تقبل توبته، لأنه لم يتب إلا حين حضره الموت، والتوبة بعد حضور الموت لا تنفع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] لا تنفع التوبة إذا حضر الموت، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بتوبة قبل الموت، ولكن الله قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]: ننجيك

ببدنك لا بروحك، الروح فارقت البدن، لكن البدن بقي طافيًا على الماء.وبيَّن الله الحكمة ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقًا في الماء، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ «إخوان لوط» يعني: قوم لوط، أرسل إليهم لوط ﷺ، لأنهم كانوا ـ والعياذ بالله ـ يأتون الذكران، ويدعون النساء، أي أن الواحد يجامع الذكر ويدع النساء، كما قال لهم ﷺ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، دعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وأنذرهم وخوَّفهم من هذا الفعل الرذيلة، ولكنهم أصروا عليه، فأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة، يعني معلَّمة، كل حجارة عليها علم، يعني علامة على من تنزل عليه وتصعقه، وهذه الخصلة الرذيلة من أقبح الخصال، ولهذا كان حدها في الشريعة الإسلامية القتل بكل حال، يعني أنها أعظم من الزنا، فإذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فإنه يجلد مائة جلدة، ويغرَّب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع زوجته فإنه يرجم حتى يموت، أما اللواط فإن حده القتل بكل حال، يعني لو تلوط شخص بالغ بآخر بالغ باختيار منهما فإنه يجب أن يقتل الفاعل والمفعول به، لقول النبي ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الصحابة أجمعوا على قتله، لكن اختلفوا كيف يُقتل؟ فقال بعضهم: إنه يحرق بالنار لعظم جرمه، والعياذ بالله، وقال آخرون: إنه يرجم بالحجارة، وقال آخرون: إنه يلقى من أعلى مكان في البلد ويتبع بالحجارة، والشاهد أن ابن تيمية رحمه الله نقل إجماع الصحابة على قتله، وإجماع الصحابة حجة فيكون مؤيدًا للحديث: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ» ولأن هذه الفاحشة الكبرى ـ والعياذ بالله ـ فاحشة مفسدة للمجتمع، لأنه يصبح المجتمع الرجالي مجتمعًا نسائيًّا، وهو أيضًا لا يمكن التحرز منه، فالزنا يمكن التحرز منه إذا رؤيت امرأة مع رجل في محل ريبة فإنه يمكن مناقشتهما، لكن إذا رؤي ذكر مع ذكر كيف يمكن أن نناقشهما، والأصل أن الرجل مع الرجل يجتمع ولا يتفرق، لهذا كان القول بوجوب قتلهما هو الحق، أما قوم لوط فإن الله تعالى أرسل عليهم حجارة من سجين مسومة فدمرهم تدميرًا، حتى جعل عالي قريتهم سافلها.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ [ص: ١٣]، يعني الشجرة، أرسل الله تعالى إليهم شعيبًا فدعاهم إلى الله وذكَّرهم به، وحذَّرهم من بخس المكيال والميزان، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ بقوا على كفرهم وعنادهم ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا العذاب يقال: إن الله تعالى أرسل

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

إليهم حرًّا شديدًا ولم يجدوا مفرًّا منه إلا أنه أرسلت غمامة واسعة باردة فصاروا يتدافعون إلى ظلها يتظللون بها، فأنزل الله عليهم نارا فأحرقتهم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أيضا ممن كذبوا الرسل وهم أصحاب تُبّع، وهو ملك من ملوك اليمن أرسل الله إليهم رسولًا فكذبوه ولم ينقادوا له، فيقول ـ عز وجل ـ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي أن هؤلاء الأمم الذين أشار الله تعالى إلى قصصهم كلهم كذبوا الرسل، فحق عليهم وعد الله ـ والعياذ بالله ـ بعذابه وانتقامه.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] الاستفهام هنا للنفي، و«عيينا» هنا بمعنى: تعبنا، والخلق الأول هو ابتداء الخلائق يعني: هل نحن عجزنا عن ابتداء الخلائق حتى نعجز عن إعادة الخلائق؟! من المعلوم أن الجواب: لا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. أي لم يتعب بذلك، فإذا كان الله ـ جل وعلا ـ لم يتعب بالخلق الأول فإن إعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وهذا استدلال عقلي يراد به إقناع هؤلاء الجاحدين لإعادة الخلق، فإن الذين كفروا زعموا أن لن يبعثوا وأنه لا بعث، وأنكروا هذا واستدلوا لذلك بدليل واهٍ جدًّا، فقالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فقال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]. ثم ساق الأدلة العقلية الدالة على أن الله تعالى قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾أي هم مقرون بأننا لم نعِ بالخلق الأول، وأنا أوجدناه لكن هم في لبس من خلق جديد، ولهذا حصل الإضراب هنا، حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني أن هذا عجبٌ من حالهم كيف يقرون بأول الخلق ثم ينكرون البعث بعد الموت، بل هم ﴿فِي لَبْسٍ﴾ أي في شك وتردد ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو إعادة الخلق. والقادر على ابتداء الخلق يكون قادرًا على إعادته من باب أولى، وهذا دليل عقلي لا يمكن لأي إنسان أن يفر منه، ثم قال ـ عز وجل ـ مستدلا على قدرته على البعث: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] يعني ابتدأنا خلقه وأوجدناه وجعلنا له عقلًا وسمعًا وبصرًا وتفكيرًا وحديثًا للنفس، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني ونحن نعلم ما توسوس به نفسه، أي ما تحدثه به نفسه، دون أن ينطق به، فالله تعالى عالم به، بل إن الله عالم بما سيحدث به نفسه في المستقبل، والإنسان نفسه لا يعلم ما يُحدث به نفسه في المستقبل، والله يعلم ما توسوس به نفسك غدًا وبعد غدٍ، وإلى أن تموت وأنت لا تعلم، وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يُغضبه وبما يكره.

فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه، لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحيا من ربنا - عز وجل - أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، حبل الوريد هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، يسمى الوريد، ويسمى الودج، وجمعه أوداج، ويضرب المثل بهما في القرب، أقرب شيء إلى قلبك هو حبل الوريد، هذا أقرب إلى المخ، وأقرب من كل شيء فيه الحياة هما الوريدان.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ هل المراد قرب ذاته - جلَّ وعلا - أو المراد قرب ملائكته؟.

والصحيح: أن المراد قرب ملائكته. ووجه ذلك: أن قرب الله تعالى صفة عالية لا يليق أن تكون شاملة لكل إنسان، لأننا لو قلنا: إن المراد قرب ذات الله لكان قريبًا من الكافر وقريبًا من المؤمن؛ لأنه قال: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، أي إنسان المؤمن والكافر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى هذا الإنسان الذي خلقناه من حبل الوريد، فإذا قلنا:الآية الشاملة، وقلنا:إن القرب هنا القرب الذاتي صار الله قريبًا بذاته من الكافر، وهذا غير لائق، بل الكافر عدو لله - عز وجل - لكن الراجح ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن المراد بالقرب هنا قرب الملائكة، أي أقرب إليه بملائكتنا، ثم استدل لقوله بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] فإذ بمعنى حين، وهي متعلقة بالقرب، أي أقرب إليه في هذا الحال حين يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.

فإن قال قائل: كيف يضيف الله القرب المسند إليه والمراد به الملائكة ألهذا نظير؟.

قلنا: نعم، له نظير، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ : ١٨] «قرآنه» المراد بذلك جبريل، ونسب الله فعل جبريل إلى نفسه؛ لأنه رسوله، كذلك الملائكة نسب الله قربهم إليه لأنهم رسله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. وما اختاره شيخ الإسلام - رحمه الله - هو الصواب.

فإن قال قائل: وهل الله تعالى قريب من المؤمن على كل حال؟.

قلنا: بل في بعض الأحوال، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١). فهذا قربٌ في حال الدعاء، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. كذلك هو قريب من المؤمن في حال السجود، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٩٢) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٠٤).

سَاجِدٌ»[1]. وعلى هذا فيكون المؤمن قريبًا من الله تعالى حال عبادته لربه، وحال دعائه لربه، أما القرب العام فإن المراد به القرب بالملائكة على القول الراجح.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما ملكان بيّن الله مكانهما من العبد، فقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال، لأنهما ليسا على كتفيه، بل هما في مكان قريب، أقرب من حبل الوريد، ولكن قد يقول قائل ملحد: أنا ألتمس حولي لا ألمس أحدًا، أين القعيد؟ فنقول: هذا من علم الغيب الذي لا تدركه عقولنا، وعلينا أن نصدق به ونؤمن به، كما لو لمسناه بأيدينا، أو شاهدناه بأعيننا، أو غير ذلك من أدوات الحس، علينا أن نؤمن بذلك، لأنه قول الله ـ عز وجل ـ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، قاعد مستقر، أحدهما يكتب الحسنات، والثاني يكتب السيئات، هذا المكتوب عرضة للمحو والإثبات، لأن المكتوب الذي بأيدي الملائكة عرضة للمحو والإثبات لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. يعني أصل أم الكتاب هو لوح محفوظ مكتوب فيه ما يستقر عليه العبد، فما يستقر عليه العبد مكتوب، لكن ما كان قابلا للمحو والإثبات في أيدي الملائكة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، حسنة تذهب السيئة وتمحوها بعد أن كتبت، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أما أم الكتاب الأصل مكتوب فيها ما يستقر عليه العبد، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستقر على الإيمان والثبات في الدنيا والآخرة.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿مَا يَلْفِظُ﴾: ما هنا نافية، و ﴿قَوْلٍ﴾ مجرورة بـ«من» الزائدة إعرابًا المفيدة معنىً، لكن تأتي حروف الجر أحيانًا زائدة في الإعراب، لكنها تفيد معنى التوكيد، ولهذا إذا اقترن المنفي بـ«من» الزائدة أو بالباء الزائدة مثل ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فإنه أوكد من النفي المجرد من حرف الجر الزائد، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ إذا جعلنا من زائدة إعرابًا مفيدة معنىً ففائدة معناها التوكيد على العموم أي: أي قول يلفظه الإنسان لديه رقيب عتيد، ﴿رَقِيبٌ﴾ مراقب ليلًا ونهارًا، لا ينفك عن الإنسان، ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر لا يمكن أن يغيب ويوكل غيره، فهو قاعد مراقب حاضر، لا يفوته شيء ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي قول نقوله، كل قول لأن ﴿مِنْ﴾ هذه زائدة و ﴿قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي قول، وظاهر الآية الكريمة: أن القول مهما كان يكتب، سواء كان خيرًا أم شرًّا، أم لغوًا يكتب، لكن يحاسب على ما كان خيرًا أو شرًّا، ولا يلزم من الكتابة أن يحاسب الإنسان عليها، وهذا ظاهر اللفظ، وهو أحد القولين لأهل العلم.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يكتب إلا الحسنات والسيئات فقط، أما اللغو فلا يكتب.

والقول الأول أولى، وهو العموم، أما النتيجة فواحدة، لأنه حتى على القول بأن الكاتب

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٨٧٥).

يكتب كل شيء يقولون: إنه لا يحاسب إلا على الحسنات والسيئات، لكن كوننا نقول بالعموم هو المطابق لظاهر الآية، ثم هو الذي فيه الدليل على أن المَلَكين لا يتركان شيئًا، مما يدل على كمال عنايتهما بما ينطق به الإنسان، وبناءً على ذلك يجب علينا أن نحترز غاية الاحتراز من أقوال اللسان، فكم زلة لسانية أوجبت الهلاك ـ والعياذ بالله ـ، ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في الرجل الذي قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1]، قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إنه تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، نسأل الله العافية.

احْـذَرْ لِسَانَكَ أَنْ تَقُولَ فَتُبْتَلَى ... إِنَّ الـبَلَاءَ مُوَكَّـلٌ بِـالمَنْطِقِ

احذر آفات اللسان، إن النبي ﷺ جعل حفظ اللسان مَلاك الأمر كله، فقال ﷺ لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسان نفسه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». لا تطلقه، لا تتكلم، قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِم أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم»[2]، فالمؤمن يجب أن يحذر لسانه فإنه آفة عظيمة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[3]. وحينئذ نعرف أن الصمت مفضّل على الكلام؛ لأنَ الكلامَ قد لا يدري الإنسان أخيرًا هو أم شرًّا، ثم إني أقول: الكلمة إذا أطلقتها وخرجت من فمك فهي كالرصاصة تطلقها، لا يمكنك أن تمنعها إذا خرجت من فوهة البندقية، إذا انطلقت تفسد أو تصلح، كذلك الكلمة، فالعاقل يمنع لسانه ولا يتكلم إلا بخير، والخير إما في ذات المتكلم به، وإما في غيره، يعني قد يكون الكلام ليس خيرًا لا بنفسه، لكنه خير من جهة آثاره، قد يتكلم الإنسان بكلام لغو ليس أمرًا بالمعروف ولا نهيًا عن منكر، وليس إثمًا ووزرًا، لكن يتكلم من أجل أن يفتح الباب للحاضرين، لأنه أحيانًا تستولي على المجلس الهيبة ولا أحد يتكلم، فيبقى الناس كلهم في غم، فيتكلم من أجل أن يفتح الباب للناس، وتنشرح صدورهم، ويحصل تبادل الكلام الذي قد يكون نافعًا، نقول: هذا الكلام الذي تكلم وفتح به باب الكلام وأزال عن الناس الغم يعتبر خيرًا لغيره، وهذا داخل إن شاء الله في قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، السكرة هنا: هي تغطية العقل

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

كالإغماء ونحوه، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٌ»[1]. وقوله: ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ مفرد مضاف، فيشمل الواحدة أو أكثر، وقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي أن الموت حق كما جاء في الحديث: «الْمَوْتُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»[2] فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضًا بحق اليقين، فإن الإنسان عند الموت يشاهد ما تُوُعِّد به، وما وُعِدَ به؛ لأنه إن كان مؤمنًا بُشِّر بالجنة، وإن كان كافرًا بُشِّر بالنار ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ اختلف المفسرون في (ما) هل هي نافية؟ فيكون المعنى: ذلك الذي لا تحيد منه، ولا تنفك منه، أو أنها موصولة؟ فيكون المعنى: ذلك الذي كنت تحيد منه، ولكن لا مفر منه، فعلى الأول يكون معنى الآية: ذلك الذي لا تحيد منه، بل لابد منه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. وتأمل يا أخي: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ ولم يقل: فإنه يدرككم، وما ظنك بشيء تفر منه وهو يلاقيك، إن فرارك منه يعني دنوك منه في الواقع، فلو كنت فارًّا من شيء وهو يقابلك فكلما أسرعت في الجري أسرعت في ملاقاته، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، لأنه ذكر في هذه الآية أن الإنسان مهما كان في تحصنه فإن الموت سوف يدركه على كل حال، وهنا يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، وعلى المعنى الثاني ـ أي: ذلك الذي كنت تحيد منه وتفر منه في حياتك ـ: قد وصلك وأدركك، وعلى كل حال ففي الآية التحذير من التهاون بالأعمال الصالحة، والتكاسل عن التوبة، وأن الإنسان يجب أن يبادر، لأنه لا يدري متى يأتيه الموت، ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠] النافخ في الصور هو ملك، وَكَّله الله تعالى به يسمى إسرافيل، والنفخ في الصور نفختان:

الأولى: نفخة الصعق فيسبقها فزع، ثم صعق.

والثانية: نفخة البعث. وبينهما أربعون، وقد سئل أبو هريرة راوي الحديث: ما المراد بالأربعين؟ فقال: أبيت. أي أني لا أدري ما المراد بالأربعين التي ذكرها النبي ﷺ، المهم أن المراد بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية بدليل قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ وهذا يعني أنه بهذه النفخة صار يوم القيامة الذي هو يوم الوعيد.

فإن قال قائل: يوم القيامة يوم الوعيد للكفار، ويوم الوعد للمؤمنين، فلماذا ذكر الله تعالى هنا الوعيد دون الوعد؟

فالجواب: لأن السورة كلها مبدوءة بتكذيب المكذبين للرسول ﷺ، فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

عَجِيبٌ﴾ [ق١:٢] فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد ذكر الله تعالى أصحاب الجنة فيما بعد، لأن القرآن مثاني.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] جاءت - يعني: يوم القيامة - كل نفس، أي كل إنسان كل بشر. ويحتمل أن يكون معنى كل نفس من بني الإنسان ومن الجن أيضًا، ممن يلزمون بالشرائع، لأننا إن نظرنا إلى السياق وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] قلنا: المراد بالنفس هنا نفس الإنسان، وإذا نظرنا إلى أن الشرائع تلزم الجن كما تلزم الإنس، وأن الجن يحشرون يوم القيامة، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم النار، قلنا: إن هذا عام، فالله أعلم بما أراد، ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بما عملت، لأن هؤلاء الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - قد وكلوا بكتابة أعمال بني آدم من خير وشر، وكما سبق أنهم يكتبون كل شيء: الخير والشر واللغو، لكن لا يحاسب الإنسان إلا على الخير أو الشر، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ﴿كُنْتَ﴾ الخطاب للإنسان، وفيهاالتفات، والالتفات معناه: أن ينتقل الإنسان في أسلوبه من خطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى خطاب، أو من تكلم إلى غيبة، وفائدة ذلك الالتفات أنه يشد ذهن السامع، فبينما الكلام على نسق واحد إذا به يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] ولم يقل وبعث، وانظر إلى الفاتحة نقرأها كل يوم في كل ركعة من صلواتنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٢: ٥] ولم يقل (نعبده) فالالتفات أسلوب من أساليب اللغة العربية، وفائدته شدُّ ذهن السامع لما يلقى إليه من الكلام، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: قد، والتقدير (والله لقد كنت في غفلة من هذا).

فإن قيل: أليس خبر الله تعالى حقًّا وصدقًا. سواءٌ أكد أم لم يؤكد؟

قلنا: بلى، ولا شك، ولكن مادام القرآن نزل باللسان العربي، فإنه لابد أن يكون التأكيد في موضعه، وعدم التأكيد في موضعه، لأن المقصود أن يكون هذا القرآن في أعلى مراتب البلاغة، ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أي: أيها الإنسان ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي كنت غافلا عن هذا اليوم ساهٍ في الدنيا، كأنك خلقت لها ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ يعني هذا اليوم كشف الغطاء، وبان الخفي، واتضح كل شيء، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي قوي بعد أن كان في الدنيا أعشى أعمى غافل، لكن يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] قرين الإنسان هو المَلَك الموكل به ليحفظ أعماله؛ لأن الله تعالى وكَّل ببني آدم ملائكة عن اليمين وعن الشمال قعيد، وهذا من عناية الله بك أيها

الإنسان، أن وكَّل بك هؤلاء الملائكة يعلمون ما تفعل، ويكتبون، لا يزيدون فيه ولا ينقصون فيه، فيقول القرين: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر، ويحضر للإنسان فيقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ قد يشكل على طالب العلم، لأنه قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وقرين مفرد، وهنا ﴿أَلْقِيَا﴾ فيها ألف التثنية، فكيف صح أن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين؟

اختلف المفسرون في الجواب عن هذا، فقال بعض العلماء: ﴿أَلْقِيَا﴾ اتصل بها ضمير التثنية بناءً على تكرار الفعل، مثل قوله: ألقي ألقي، فالتكرار للفعل لا للفاعل.

القول الثاني: أن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ إما أن يكون مفردًا مضافًا، والمعروف أن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما ثبت من قرين، وعلى هذا فيكون ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الملكان الموكلان به.

فإذا قال قائل: أروني دليلًا أو شاهدًا على أن المفرد يكون لأكثر من واحد.

قلنا: يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. وهل نعمة الله واحدة؟ لا، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، لكن «نعمة» الله مفرد مضاف، فتكون شاملة لكل نعمة.

ويمكن أن يقول قائل: إن قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو واحد من الملكين، ولا شك أنه يجوز أن يتكلم واحد من الاثنين باسم الاثنين.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤: ٢٦] خمسة أوصاف:

﴿كَفَّارٍ﴾، صيغة مبالغة، فإما أن يقال: إنه كان صيغة مبالغة، لأن هذا الكافر قد فعل أنواعًا من الكفر، فإذا جمعت الأنواع صارت كثيرة، وقد يقال: إن هذه الصيغة ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، كما يقال: نجار، وحداد، وما أشبه ذلك ممن ينسب إلى هذه الحرفة، فـ﴿كَفَّارٍ﴾، أي: كافر، لكنه قد تمكن الكفر في قلبه ـ والعياذ بالله ـ.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند للحق، لا يقبل مهما عرض له الحق بصورة شيقة بينة واضحة لا يقبل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ فيمنع الدعوة إلى الله، ويمنع بذل أمواله فيما يرضي الله، ويمنع كل خير، لأن قوله: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظ يشمل كل خير، وقوله: مناع كأنه يلتمس كل خير فيمنعه، فتكون هذه الصيغة صيغة مبالغة.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: يعتدي على غيره، فلم يمنع غيره من الخير فقط، بل يعتدي عليه، وانظروا إلى كفار قريش ماذا صنعوا مع الرسول ﷺ، منعوه واعتدوا عليه.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: واقع في الريبة والشك والقلق، وكذلك أيضًا يشكك غيره فيدخل في قلبه

الريبة، فكلمة ﴿مُّرِيبٍ﴾ تقتضي وصف الإنسان بها، وحمل هذا الوصف إلى غيره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، ما أوسع هذه الكلمة! وإذا كانت هذه الكلمة وصفًا للكفَّار العنيد، فالمعنى: أنه يعبد مع الله غيره، وكلنا يعلم أن المشركين كانوا يعبدون مع الله غيره، فيعبدون اللات، ويعبدون العزى، ويعبدون مناة، ويعبدون هبل، وكل قوم لهم طاغية يعبدونها كما يعبدون الله، يركعون لها، ويسجدون لها، ويحبونها كما يحبون الله، ويخافون منها كما يخافون من الله ـ نسأل الله العافية ـ هذا إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصف لهذا الكفَّار العنيد.

أما إذا جعلناه أشمل من ذلك فإنها تعم كل إنسان تعبد لغير الله وتذلل لغير الله، حتى التاجر الذي ليس له هم إلا تجارته وتنميتها فإنه عابد لها، حتى صاحب الإبل الذي ليس له هم إلا إبله هو عابد لها، والدليل على أن من انشغل بشيء عن طاعة الله فهو عابد له: قول النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ»(1). عبد الدينار هذا تاجر الذهب، وعبد الدرهم تاجر الفضة، وعبد الخميصة تاجر الثياب؛ لأن الخميصة هي الثوب الجميل المنقوش، وعبد الخميلة تاجر الفرش، أو ليس بتاجر ـ يعني لا يتجر بهذه الأشياء ـ لكن مشغول بها عن طاعة الله، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، فسمى النبي ﷺ من اشتغل بهذه الأشياء الأربعة عبدًا لها، وفي القرآن الكريم ما يدل على أن العبادة أوسع من هذا، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ﴾، فدل ذلك على أن كل من قدم هوى نفسه على هدي ربه فهو قد اتخذ إلهًا غيره، ولهذا يمكننا أن نقول: إن جميع المعاصي داخلة في الشرك في هذا المعنى، لأنه قدمها على مرضاة الله تعالى وطاعته، فجعل هذا شريكًا لله ـ عز وجل ـ في تعبده له واتباعه إياه، فالشرك أمره عظيم، وخطره جسيم، حتى الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون: إنه رجل كريم. يعتبر مشركًا مرائيًا، والرياء شرك، وأخوف ما خاف النبي ﷺ على أمته الشرك الخفي، وهو الرياء، فعلى هذا نقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، إن كانت وصفًا خاصًا بالكفَّار العنيد فإنها تختص بمن يعبد الصنم والوثن، وإن كانت للعموم فهي تشمل كل من اشتغل بغير الله عن طاعته، وتقدم ذكر الأمثلة والأدلة على ما ذكرنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ وهو عذاب النار، نسأل الله أن يعيذنا منها بمنه وكرمه، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧] هو يدعي أن قرينه هو الذي أطغاه وهو صده عن سبيل الله، فيقول قرينه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، ما أمرته أن يكذب، ولا أن يكون عنيدًا، ولا أن يكون معتديًا، ولا أن يكون مريبًا، ولا أن يكون مشركًا مع الله أحدًا، ما فعلت هذا ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: كان هذا الكافر في ضلال بعيد عن الحق، حينئذ لدينا خصمان: الكفَّار العنيد، والقرين، فالكفَّار العنيد يدعي أن القرين هو الذي أغواه وأطغاه، والقرين ينكر

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

ذلك، فيقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ الخصومة منقطعة، لأن الحجة قائمة ولا عذر لأحد، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾، أي أوعدتكم على المخالفة فلا حجة لكم، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] يعني لا أحد يستطيع أن يبدل قولي؛ لأن الحكم لله ـ عز وجل ـ وحده، فإذا كان الله تعالى قد وعد فهو صادق الوعد سبحانه وتعالى، وأما الإيعاد فقد يغفر ما شاء من الذنوب إلا الشرك ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعني لست أظلم أحدًا، وكلمة (ظلاَّم) لا تظن أنها صيغة مبالغة، وأن المعنى أني لست كثير الظلم، بل هي من باب النسبة، أي: لست بذي ظلم، والدليل على أن هذا هو المعنى، وأنه يتعين أن يكون هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. ويقول ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. والآيات في هذا كثيرة، أن الله لا يظلم، بل إننا إذا تأملنا وجدنا أن فضل الله وإحسانه أكثر من عدله، جزاء سيئة سيئة مثلها، وجزاء حسنة عشرة أمثالها، ولو أردنا أن نأخذ بالعدل لكان السيئة بالسيئة والحسنة بالحسنة، لكن فضل الله زائد على عدله ـ عز وجل ـ فهو سبحانه وتعالى يجزي بالفضل والإحسان لمن كان محسنًا، وبالعدل بدون زيادة لمن كان مسيئًا، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] «يوم»: ظرف زمان، والظروف الزمانية والمكانية وكذلك حروف الجر لابد لها من متعلق، أي لابد لها من فعل أو ما كان بمعنى الفعل تتعلق به، فما هو متعلق قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ نقول: هو محذوف، والتقدير: (اذكر يوم نقول لجهنم) وليعلم أنه يوجد في اللغة العربية كلمات تحذف بل ربما جمل تحذف، وذلك فيما إذا دل عليها السياق، فهنا الكلمة التي تتعلق بها كلمة يوم محذوفة، والتقدير: اذكر ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يسألها الله ـ عز وجل ـ: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وهو يعلم سبحانه وتعالى أنها امتلأت، أو لم تمتلئ؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، لكنه يسألها هل امتلأت، ليقرر لها ما وعدها سبحانه وتعالى، فإن الله يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. فيسألها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ يعني هل حصل ما وعد الله به؛ لأن الله تكفل بأن يملأ الجنة ويملأ النار، فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، (هل) أداة استفهام، وهي حرف، وهل هي استفهام طلب، بمعنى: أنها تطلب الزيادة، أو استفهام نفي، بمعنى: أنها تقول: لا مزيد على ما فيها؟ في هذا للعلماء قولان:

القول الأول: إن المعنى: لا مزيد على ما فيَّ، و(هل) تأتي لاستفهام النفي كما في قوله تعالى:

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٣] أي ما من خالق؟ وعلى هذا فتكون النار امتلأت إذا قالت: لا مزيد على ذلك، فالمعنى أنها امتلأت.

القول الثاني: أنها استفهام طلب، يعني تطلب الزيادة.

وإذا اختلف العلماء في التفسير أو غير التفسير فلنرجع إلى ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ، فلننظر أي القولين أولى بالصواب، ثبت عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ»[1] - أو قال: عَلَيْهَا رِجْلَهُ - «فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطِ قَطِ» فأولى القولين بالصواب: إنها استفهام طلب يعني تطلب الزيادة، ولكن رحمة الله سبقت غضبه، يضع عليها عز وجل رجله على الوجه الذي أراد، ثم ينزوي بعضها ينضم إلى بعض وتتضايق وتقول: لا مزيد على ذلك، فحقت كلمة الله أنه ملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، وفي الحديث الذي سقته إثبات القدم أو الرِّجْل لله عز وجل، والمراد رِجْل حقيقة لله عز وجل، إلا أنها لا تشبه أرجل المخلوقين بأي وجه من الوجوه، نعلم علم اليقين أنها ليست مثل أرجل المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمقصود من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ هو تحذير للناس، لأن كل واحد منا لا يدري أيكون من حطب جهنم، أو يكون ممن نجا منها؟ نسأل الله أن ينجينا وإياكم منها.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] أي قربت للمتقين مكانًا غير بعيد ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢]، ﴿هَٰذَا﴾ أي ما تشاهدون من قرب الجنة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الذي توعدون، فإن الله تعالى وعد المؤمنين العاملين الصالحات وعدهم الجنة، وصدق وعده عز وجل، ولكن لمن؟ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ الأواب: صيغة مبالغة من أبى يئوب بمعنى رجع، أي لكل أواب إلى الله، أي رجاع إليه، ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»[2]، والمعنى: أنه حفيظ لأوامر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوانٍ بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب أو فعل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم به ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

[ق: ٣٣] ﴿مَنْ﴾ بدل مما سبقها ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.

المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضًا من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشيًا لله عز وجل ـ فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب عن الناس بقلبه، فإن خشية القلب هي الأصل ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي جاء يوم القيامة بقلب منيب يعني رجاع إلى الله ـ عز وجل ـ يعني أنه مات وهو منيب إلى الله فهو كقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والمعنى: أنه بقي على الإنابة والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ إلى أن مات، وإلى أن لقي الله، لأن الأعمال بالخواتيم، نسأل الله أن يختم لنا بالخير.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤]، ادخلوها: أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام؟ لا شك أنه أمر إكرام، لأن الآخرة ليس فيها تكليف وإلزام، بل إما إكرام وإما إهانة، فقوله تعالى للمجرمين: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦، الزمر: ٧٢] هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ هذا أمر إكرام، وقوله ﴿بِسَلَامٍ﴾ الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دخولا مصحوبًا بسلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سالمون من الأمراض، وسالمون من الهرم، وسالمون من الموت، وسالمون من الغل، وسالمون من الحسد، وسالمون من كل شيء، فأهل الجنة سالمون، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي لهؤلاء المتقين ما يشاءون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني مزيد على ما يتمنون ويشاءون، لأن الإنسان بحكمه مخلوقًا يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كرمان أو عنب أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت، كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني نعطيهم فوق ما يشتهون ويتمنون. ومن الزيادة :النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ، ولهذا استدل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وغيره من أهل

العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله - عز وجل - وقال: إن هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] لما كانت قريش تكذب النبي ﷺ وتنكر البعث، وتقول: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] حذرهم الله - عز وجل - أن يقع بهم ما وقع بمن سبق من الأمم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيرًا من القرون أهلكناهم، والقرن هنا بمعنى القرون، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، فأمم كثيرة أهلكها الله - عز وجل - لما كذبت الرسل ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: بحثوا في البلاد يريدون المفر والملجأ من عذاب الله، ولكنهم لم يجدوا مفرًا، ولهذا قال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي لا محيص لهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١: ٥٢] فما أصاب القوم الذين كذبوا الرسل أولًا يصيب من كذب ثانيًا؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة، فيه ذكرى لنوعين من الناس: الأول ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر، والثاني: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع إلى غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فبين الله تعالى أن الذكرى تكون لصنفين من الناس:

الأول: من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف.

والثاني: من يستمع إلى غيره، ولكن بشرط أن يكون شهيدًا أي حاضر القلب، وأما من كان لا يستمع للموعظة أو يستمع بغير قلب حاضر أو ليس له عقل يتدبر به، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرى، لأنه غافل ميت القلب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] هذه ثلاثة مخلوقات عظيمة بيَّن الله - عز وجل - أنه خلقها في ستة أيام، وأكَّد هذا الخبر بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، و(قد). لأن تقدير الآية: (والله لقد خلقنا السماوات والأرض)، فالسماوات معلومة لنا جميعًا وهي سبع سماوات طباقًا، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وهي سبع أراضين، كما جاءت به السنة صريحًا، وكما هو ظاهر القرآن في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢].

الثالث: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: بين السماء والأرض، والذي بين السماء والأرض مخلوقات عظيمة، يدل على عظمها أن الله جعلها عديلة لخلق السماوات وخلق الأرض، فهي مخلوقات عظيمة، والآن كلما تقدم العلم بالفلك ظهر من آيات الله ـ عز وجل ـ فيما بين السماء والأرض ما لم يكن معلومًا لكثير من الناس من قبل ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة، ولو شاء عز وجل لخلقها في لحظة، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له:«كن» فيكون، لكنه ـ جل وعلا ـ يخلق الأشياء بأسباب ومقدمات تتكامل شيئًا فشيئًا حتى تتم، كما لو شاء لخلق الجنين في بطن أمه في لحظة، لكنه يخلقه أطوارًا حتى يتكامل، كذلك السماوات لو شاء لخلق السماوات والأرض وما بينهما في لحظة، ولكنه عز وجل يخلق الأشياء تتكامل شيئًا فشيئًا.

وقال بعض العلماء: فيه فائدة أخرى وهي: أن يعلّم عباده التأني في الأمور، وأن لا يأخذوا الأمور بسرعة، لأن المهم هو الإتقان وليس الإعجال والإسراع، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي: ما مسنا من تعب وإعياء، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فهو ـ عز وجل ـ خلق هذه السماوات العظيمة، والأراضين، وما بينها، بدون تعب ولا إعياء، وإنما انتفى عنه التعب ـ جل وعلا ـ لكمال قوته وقدرته ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمر الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يصبر على ما يقولون، وقد قال ـ عز وجل ـ في آية أخرى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ اصبر، فإن العاقبة للمتقين، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فهم يقولون: إن محمدًا كذاب، وساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون، وأنه لا بعث، وإن كانوا يقرون بالرب عز وجل وأنه خالق السماوات والأرض، لكن لا يقرون بأمور الغيب المستقبلة، فأمره الله أن يصبر على ما يقولون، والصبر على ما يقولون يتضمن شيئين:

الأول: عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به.

والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ سبح تسبيحًا مقرونًا بالحمد في هذين الوقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، قال أغلب المفسرين: المراد بذلك صلاة الفجر

وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، والبردان هما :الفجر وفيه برودة الليل، والعصر وفيه برودة النهار، وقال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا»[2] فالصلاة التي قبل طلوع الشمس هي الفجر، والصلاة التي قبل غروبها هي العصر، وفيه دليل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب دخول الجنة والنظر إلى وجه الله الكريم، وأفضلها العصر، لأن الله تعالى خصها بالذكر حين أمر بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وهي العصر، كما فسرها بذلك أعلم الخلق بكتاب الله وهو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم[3]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أيضًا سبح الله من الليل و(من) هنا للتبعيض، يعني سبحه أيضًا جزءًا من الليل، ويدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ويدخل في ذلك أيضًا التهجد ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي وسبح الله أدبار السجود، أي أدبار الصلوات، وهل المراد بالتسبيح أدبار الصلوات النوافل التي تصلى بعد الصلوات كراتبة الظهر بعدها، وراتبة المغرب بعدها، وراتبة العشاء بعدها، أو المراد التسبيح الخاص ـ وهو: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ـ؟ فيه قولان للمفسرين، ولو قيل بهذا وهذا لكان له وجه.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] من القبور ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣] (إنا) يقول الله عن نفسه: ﴿إنا﴾ تعظيمًا له ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي بعد الموت، ونميت بعد الحياة، فهو قادر على الإحياء بعد الموت، وعلى الموت بعد الإحياء ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي مصيرهم إلينا في ذلك الوقت تشقق الأرض، أي: تتفتح عنهم أي عن هؤلاء في قبورهم، تشقق كما تشقق الأرض عند طلوع النبات، ﴿سِرَاعًا﴾ أي يأتون إلى المحشر ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي سهل علينا، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣: ١٤] ويقول تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٢٧).

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] وهذا يدل على يسر ذلك على الله عز وجل: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهذا وعيد لهؤلاء الذين يقولون في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يقولون، أخبر الله هنا أنه لا يخفى عليه حالهم، وأنه يعلم ما يقولون، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي لست عليه بذي جبروت فتجبرهم على أن يسلموا ويؤمنوا بك، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عظ بالقرآن الكريم من يخاف الوعيد، أي من يخاف وعيدي بالعذاب، لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالتذكر بالقرآن، فالقرآن يذكر به جميع الناس، ولكن لا ينتفع به إلا من يخاف الله عز وجل، نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بكتابه، المتعظين بآياته.

تفسير سورة الذاريات

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام على البسملة، ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١: ٤] أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لأنها دالة على عظمته تبارك وتعالى، ولما فيها من المصالح والمنافع، أما قوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ فالذاريات هي الرياح تذر التراب وغير التراب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] أي: تفرقه في أمكنة متعددة، وأقسم الله بالذاريات لما فيها من المصالح الكثيرة، ففي تصريفها حكمة بالغة، فمنها الرياح الدافئة، ومنها الرياح الباردة، على حسب ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ ولأن الرياح تثير سحابًا فيسقي به الله الأرض؛ ولأنها تسيِّر السفن، ففيما سبق كانت السفن تجري على الرياح، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] فهي ثقيلة محملة بمياه عظيمة بحار، ولذلك تمطر فتجري الأرض أنهارًا بإذن الله ـ عز وجل ـ فالذاريات: الرياح، والحاملات: السحب، والارتباط بينهما ظاهر؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب وهي التي تلقح السحاب بالماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ هن السفن ﴿يُسْرًا﴾ أي: بسهولة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: في السفينة، هذه السفينة ميسرة بإذن الله عز وجل بما يسره الله تعالى من الرياح الطيبة، وكلما كانت الريح مناسبة كان سيرها أيسر، والآن جاءت السفن النارية التي لا تحتاج إلى الرياح فصارت أيسر وأيسر، تجدها قرى كاملة تمخر عباب الماء وتسير بسهولة، والارتباط بين هذه الثلاثة :أن الرياح تحمل الأمطار، وأن السحب تحمل الأمطار، فتنزل إلى الأرض، فيكون الرزق للمواشي والآدميين، والجاريات أي السفن، هي أيضًا تحمل الأرزاق من

جهة إلى جهة، فلا يمكن أن تصل الأرزاق من جهة إلى جهة أخرى بينها وبينها بحر إلا عن طريق السفن.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وهم الملائكة، وجمعهم لأنه يجوز جمع المؤنث باعتبار الجماعات، أي: فالجماعات المقسمات ﴿أَمْرًا﴾ التي تقسم الأمر، أي: شئون الخلق، ويحتمل أن يكون ﴿أَمْرًا﴾ أي: بأمر الله، والمعنى صحيح على كلا التقديرين، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقسمون ما يريد الله - عز وجل - من أرزاق الخلق وغيرها بأمر الله - عز وجل -، هذه أربع جمل: الذاريات، الحاملات، الجاريات، المقسمات، كل هذه مقسم بها، والمقسم عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] يعني ما وعدكم الله تعالى فهو وعد صادق، والصادق هو المطابق للواقع، وذلك لأن الخبر نوعان: نوع يخالف الواقع، وهذا يسمى كذبًا، ونوع يطابق الواقع، وهذا يسمى صدقًا، سواء كان المخبر عنه ماضيًا أو مستقبلًا، فأقسم الله - عز وجل - بهذه المخلوقات على إنما نوعد صادق، فلابد أن يقع إذا وقع ما نوعد، وهو البعث يوم القيامة يتلوه الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] الدين يعني الجزاء، والدين يطلق أحيانًا بمعنى الجزاء، وأحيانًا بمعنى العمل، ففي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ المراد [الكافرون: ٦] به العمل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] المراد به الجزاء، وهنا ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي الجزاء لابد أن يقع، لأن الله على كل شيء قدير. وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] السماء معروفة، ذات: بمعنى صاحبة ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ يعني الطرق، أي: أنها من حسنها كأنها ذات طرق محبوكة متقنة، كما يكون ذلك في جبال الرمل، يضربها الهواء فتكون مضلعة، إذن السماء كذلك ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكافرين ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يعني يختلف بعضه عن بعض، فبعض الكفار قالوا للرسول ﷺ: إنه مجنون، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وبعضهم قالوا: إنه كاهن، وبعضهم قالوا: إنه شاعر، وبعضهم قالوا: إنه كذاب، فهم مختلفون في النبي ﷺ، واختلاف الأقوال يدل على كذبها وفسادها، وكلما رأيت قولًا مختلفًا متناقضا فاعلم أنه باطل وليس بصحيح؛ لأن الحق لا يمكن أن يتناقض، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ اختلفوا هذا الاختلاف، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ بمعنى يصرف ﴿عَنْهُ﴾ قيل: إن الضمير يعود على الرسول ﷺ، أي يصرف عن الرسول ﷺ من صرف من الناس، وقيل: إن الضمير يعود على القوم، وعلى هذا القول: تكون (عن) بمعنى الباء، أي

يؤفك بهذا القول من أفك، يصرف بهذا القول عن الحق من صرف، وهما أي المعنيان متلازمان، والأقرب أن الضمير في قوله ﴿عَنْهُ﴾ يعود على القوم؛ لأنه أقرب مذكور ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي عن هذا القول أي بسببه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي من صرف عن الحق، وذلك لأن من البيان لسحرًا[1] فإذا جاءك رجل بليغ فصيح، وصار يورد عليك الشبهات والشكوك ألست تنخدع بقوله؟ بلى، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ عندهم فصاحة وبلاغة وتمويه ودجل، فيصرفون الناس، وقوله ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ هل المراد من قدر الله عليه أن يصرف، أو المراد من أفك أي من صرفه هؤلاء المختلفون؟ هما متلازمان أيضًا، فإن هؤلاء الذين يضلون الناس لا يمكن أن يضلوهم إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦: ٣٧] فهم الذين يأفكون الناس أي: يصرفونهم فهم السبب، لكن المقدر للصرف هو الله ـ عز وجل ـ، ولكن اعلم أخي المسلم أنه لا يمكن أن يصرف عن الحق إلا من علم الله منه أنه ليس أهلا للحق ـ نسأل الله السلامة ـ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته في الذين يمتثلونها ويؤمنون بها.

ويدل على هذا الذي قلنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ولكن احذر إذا رأيت ضالًّا أن تقول: هذا ليس أهلًا للهداية؛ لأن هناك فرقًا بين القول بالعموم والقول بالتعيين، فالقول بالتعيين حرام؛ لأنك قد ترى شخصًا ضالًّا وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله عز وجل، والعكس بالعكس، ربما ترى شخصًا مستقيمًا تقول: هذا لا يمكن أن يضل، فإذا به يضله الله، فإياك أن تشهد على معين، لكن حقيقة أنك إذا رأيت ضالًّا متمردًا مستكبرًا عن الحق فإنك بقلبك تستبعد أن الله يهديه، لكن لا تقل: إن الله لا يهديه، ففي «سنن أبي داود» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قال أبو هريرة: والذي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخراه»[1]. وفي رواية مسلم: «فَقَالَ الله تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَان، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[2] نسأل الله العافية، لهذا لا تعجب بنفسك، ولا تيأس من رحمة الله فيما يتعلق بك، ولا فيما يتعلق بغيرك، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لكن نعلم على سبيل العموم أن الإنسان إذا لم يكن أهلًا للهداية فإنه لن يهتدي، فإذا رأينا هذا الشخص منحرفًا مستكبرًا معاندًا فلا شك أنه يغلب على ظننا أنه ليس أهلا للهداية، لكن ليس لنا أن ننطق بذلك، ويحرم أن ننطق بذلك، ويخشى أن يقال لنا كما قيل لهذا الرجل: قد غفرت له وأحبطت عملك، وهنا مسألة مهمة وهي الفرق بين التعيين والإطلاق، فنحن مثلا نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، لكن إذا رأينا شخصا مستقيمًا، ويصلي ويزكي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، ويحسن، ويبر والديه، ويصل رحمه، فلا نشهد بأنه في الجنة؟ لأن التعيين شيء والإجمال شيء آخر، وإذا رأينا رجلا كافرا ملحدا مسلطا على المسلمين، يمزق كتاب الله ويدوسه برجليه ويستهزئ بالله ورسوله فلا نقول: هذا من أهل النار، بل نقول: من فعل هذا فهو من أهل النار. بلا تعيين، لأنه من الجائز في آخر لحظة أن يمنّ الله عليه ويهديه، فأنت لا تدري، لذلك يجب التفريق بين التعيين والإطلاق، أوالتعيين والإجمال، فإذا مات رجل ونحن نعرف أنه مات على النصرانية حسب ما يبدو لنا من حاله، فلا نشهد له بالنار؛ لأنه إن كان من أهل النار فسيدخل ولو لم نشهد، وإن لم يكن من أهل النار فشهادتنا شهادة بغير علم، فمثل هذه المسائل لا داعي لها، فلو قال قائل: مات رجل من الروس، من الملحدين، مات رجل من الأمريكان من الملحدين منهم، مات رجل من اليهود من الملحدين، العنه واشهد له بالنار، نقول: لا يمكن، نحن نقول: من مات على هذا فهو من أهل النار، من مات على هذا لعناه، أما الشخص المعين فلا، ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة قالوا: لا نشهد لأحد بالجنة أو بالنار إلا لمن شهد له النبي ﷺ، ولكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠] ﴿قُتِلَ﴾ كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولكن الصحيح أنها بمعنى أهلك، لأنه لا داعي أن نصرفها عن ظاهرها، وظاهرها صحيح مستقيم، فمعنى ﴿قُتِلَ﴾: أهلك، و ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ جمع خراص، وهو الذي

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود (٤٩٠١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٥٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢١).

يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١١] أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، ﴿سَاهُونَ﴾: غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن جهلهم أنهم ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]، سؤال استبعاد وإنكار، لو كانوا يسألون سؤال استعلام واستخبار، لعذروا، كما قال جبريل للنبي ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»[1]، استفهاما واستخبارًا، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» لكن أولئك الخراصون يسألون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يعني متى هو؟ استبعادًا، ولهذا قال الله عنهم في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢: ٣] يعني أنرجع بعد أن كنا ترابًا، هذا رجع بعيد، فهم يسألون عن القيامة لا سؤال استفهام واستخبار ليستيقنوا، ولكنْ سؤال استبعاد وإنكار، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] هذا الجواب يعني يوم القيامة: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وعلى هذا فيوم هنا ظرف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: يوم القيامة يوم هم على النار يفتنون، ومعنى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعرضون عليها فيحترقون بها، لأن الفتنة بمعنى الاحتراق، ولكنها عديت بعلى، لأنها ضمنت معنى العرض، أي: يعرضون على النار فيحترقون بها، هذا هو يوم الدين ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤] ذوقوا هذه جملة مقول لقول محذوف، والتقدير: يقال لهم: ذوقوا فتنتكم، وهذا أمر إهانة وإذلال، أي ذوقوا احتراقكم في النار التي كنتم تنكرونها ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ لأنهم يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فيستعجلون بالقيامة استبعادا لها، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] فيقال لهؤلاء: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٥: ١٦].

يفتنون على النار فيحترقون بها، ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ هذا توبيخ وإهانة وإذلال يكون به: العذاب القلبي، فيجمع لهم بين العذاب البدني وبين العذاب القلبي، فتجده يكون في أشد ما يكون من الحسرة، يتحسرون يقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢٧]، ولما كان القرآن الكريم مثاني، تثنى فيه المعاني الشرعية والخبرية، إذا ذكر الشيء ذكر ضده، لما ذكر عذاب هؤلاء المكذبين الخراصين قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولا يقال باللسان، بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، علم وبرهان واحتساب وخوف، تفعل ما أمر الله به، لأنك تعلم أن الله أمر به، تفعل ما أمر الله به لأنك تحتسب ثوابه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، تترك ما نهى الله عنه؛ لأنك تعلم أن الله نهى عنه. تترك ما نهى الله عنه خوفا من عقاب الله، لأنك موقن بالعذاب، هذه هي التقوى، يقول الله عز وجل عن المتقين: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: مستقرون في جنات وعيون، والجنات جمع جنة، ويمر في القرآن (جنة) مفردا و(جنات) جمعًا، فهل هي جنات متعددة أو هي جنة واحدة؟ هي جنات متعددة، لكن ذكرت بلفظ المفرد من باب ذكر الجنس، وإلا فهي جنات، وفي آخر سورة الرحمن، ذكر الله أربع جنات، قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1]؛ إذن فالجنات متعددة وجمعت باعتبار أنواعها وأصنافها، وقد جاءت في القرآن مفردة.

مثل قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وجاءت أيضا مجموعة فهي مفردة باعتبار الجنس، ومجموعة باعتبار النوع، و(عيون): جمع عين، وهي الأنهار الجارية، وقد ذكر الله تعالى أنها أربعة أنواع: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]، ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.
قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستتر بالخبر، أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، أي: ما أعطاهم من النعيم، وهذه الآية كالآية التي في سورة الطور ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨]، ثم بيّن السبب الذي وصلوا به إلى هذا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ يعني في الدنيا محسنين، أي: قائمين بطاعة الله على الوجه الذي يرضاه الله - عز وجل - وقد ثبت عن النبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١) هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق، فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيهِ»(٢) هذا هو الإحسان إلى الناس، أن تعاملَ الناس بما تحب أن يعاملوك به، من حسن الخلق، وطلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى إلى غير ذلك مما هو معروف، فهؤلاء محسنون في عبادة الله، ومحسنون إلى عباد الله، ثم ذكر نوعا من هذا الإحسان فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. (ما) هنا قيل: إنها زائدة في اللفظ، لكنها زائدة في المعنى، وأن التقدير: كانوا قليلا يهجعون، أي لا ينامون إلا قليلًا: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠]. فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم؛ للتفرغ لطاعة الله عز وجل: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]. الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبرا لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثًا، وبعد الحج قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] فهم يسألون المغفرة بعد تهجدهم وقيامهم وسهرهم في طاعة الله، خوفا من أن يكون هناك تقصير، وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافا لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروما أي ممنوعا من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٤)، والنسائي ()، وأبو داود (٤٢٤٨).

لما يرضي الله ـ عز وجل ـ من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع، فهم يقومون بطاعة الله تهجد في الليل واستغفار وبذل للمال، لكن من غير إسراف ولا مخيلة.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] لم يبين الله هذه الآيات بل جاءت منكرة، ليشمل كل آية في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة الأرض وتركيب الأرض، فإن فيها آيات عظيمة من حيث التركيب، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] فتجد الحجر الواحد يشتمل على عدة معادن وهو حجر واحد، وترى أحيانا في ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] وتجد فيها الأرض اللينة الرخوة، والأرض الصلبة إلى غير ذلك مما يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة، وفيها آيات من جهة الحوادث التي تحدث فيها من الزلازل والبراكين وغيرها، وفيها آيات أيضا من جهة طبيعة الجو من حر وبرد، ورياح عاصفة، ورياح باردة، ورياح دافئة، وغير ذلك مما إذا تأمله الإنسان عرف به قدرة الله عز وجل من جهة، وعرف حكمته ورحمته أيضا من جهة أخرى، لأن آيات الله سبحانه وتعالى يتبصر بها الإنسان من حيث القدرة والعظمة، ومن حيث الحكمة والرحمة، لأن كل شيء تجده مناسبا لمكانه وزمانه، وكل شيء تجده من آثار رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ فكلمة (آيات) نكرة عامة لكل ما يحدث في الأرض من آيات، ولكل ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي لمن أيقن بوجود الله عز وجل وعظمته وجلاله، أما من شك ـ والعياذ بالله ـ فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، بل قد تكون هذه الآيات ضررا عليه، فإن الآيات الكونية، أو الشرعية قد تكون خيرا للإنسان، وقد تكون شرًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٤] يعني من القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤: ١٢٥] كذلك الآيات الكونية من الناس من ينتفع بها ويستدل بها على ما فيها من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن الناس من يكون بالعكس يؤدي ما يجده في الآيات إلى الإلحاد ـ والعياذ بالله ـ.

ولهذا قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ يعني لا لكل إنسان بل للموقن، أما الشاك والمتردد والكافر فإنه لن ينتفع بهذه الآيات، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾. أيضا في أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وآيات هنا محذوفة، ولهذا نقول في الإعراب: في أنفسكم، جار ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: وفي أنفسكم آيات. والحكمة ـ والله أعلم ـ

ونحن في علمنا القاصر نظن أن الله حذف هذه الآيات لأنها أمس بالإنسان من الأرض وأدخل بالإنسان من الأرض، لأنها هي في نفسه، في أنفسكم آيات: ليس في تركيب الجسم فحسب، وليس فيما أودعه الله تعالى من القوة فحسب، بل حتى في تقلبات الأحوال، فالإنسان تجده يتقلب من سرور إلى حزن، ومن غم إلى فرح، تقلبات عجيبة عظيمة، حتى إن الإنسان في لحظة يجد نفسه متغيرًا، وأحيانا يجد نفسه متغيرا بدون سبب، يكون منشرح الصدر واسع البال مسرورًا، وإذا به يغتم بدون سبب، وأحيانا بالعكس، هذا بالنسبة للأحوال النفسية، كذلك أيضا بالنسبة للأحوال الإيمانية، وهي أعظم وأخطر، تجد الإنسان في بعض الأحيان يكون عنده من اليقين ما كأنه يشاهد أمور الغيب مشاهدة حسية، كأنما يرى كل ما أخبر به الله من علوم الغيب، وفي بعض الأحيان يقل هذا اليقين، لأسباب قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن من الأسباب المعلومة قلة الطاعة، فإن قلة الطاعة من أسباب ضعف اليقين، فإذا قلت طاعة الإنسان ضعف يقينه، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] ومنها: اللهو، والغفلة، ولهذا قال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ إنا إذا كنا عندك وذكرت الجنة والنار فكأنما نراها رأي العين، فإذا ذهبنا إلى أهلنا عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا[1].

وهكذا الإنسان كلما لهى قل يقينه وقل إيمانه، ومن ثم نهى الشرع عن اللعب واللهو الباطل، الذي يزداد به الإنسان بعدا من الله وبعدا عن طاعة الله وعن التفكير في آيات الله.

أيضا في النفس آيات في نفوس الناس: فمن الناس من تجده هينا لينا طليق الوجه مسرورًا، كل من رآه سر بوجهه، وكل من جلس إليه زال عنه الغم والهم، ومن الناس من هو بالعكس قطوب، عبوس، بمجرد ما تراه لو كنت مسرورا لأتاك الحزن والسوء، فهذا أيضا من آيات النفس وهي كثيرة جدًا، ومن أراد المزيد من هذا والاطلاع على قدرة الله تعالى فيما في أنفسنا من الآيات فعليه بمطالعة كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب (مفتاح دار السعادة) يجد العجب العجاب، وكذلك أيضا كتابه الصغير وهو كبير في المعنى وهو (التبيان في أقسام القرآن). ذكر من ذلك العجب العجاب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، كأنما يقول الله ـ عز وجل ـ أبصروا في أنفسكم تبصّروا وتأملوا وتفكروا، فإذا لم تعرفوا هذه الآيات فأنتم لا تبصرون، فيكون الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار ألا نتبصر، وهي دعوة من الله ـ عز وجل ـ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤)، وابن ماجه (٤٢٣٩).

لعباده أن يتبصروا في الآيات، فإذا لم تتبصر في الآيات فاعلم أنك محروم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]. إذن إذا لم تنتفع بالآيات فاعلم أنك محروم، وأن إيمانك ناقص ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. فعليك يا أخي أن تتفكر في آيات الله الكونية، وما في هذا الكون العظيم من آيات الله الدالة على عظمته وسلطانه ورحمته وحكمته، وكذلك في آيات الله الشرعية، ومن فتح الله عليه في الآيات الشرعية ينتفع بها أكثر مما ينتفع بالآيات الكونية، إذا تأمل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، والأفعال والأحكام، ازداد إيمانا بالله ـ عز وجل ـ وعرف بذلك الحكمة والرحمة، وإذا تأمل فيما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من ثواب وعقاب، وجزاء وحساب ازداد إيمانا بالله، وكلما تأمل الإنسان في آيات الله الشرعية ازداد إيمانًا، فبعض الناس الموفقين يكون ازدياد إيمانه بالآيات الشرعية أكثر من ازدياد إيمانه بالآيات الكونية، أما الإنسان الذي يفتح الله عليه في هذا وهذا فيا حبذا.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]. وسمي المطر رزقًا؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء، والمرعى، متاعًا لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها، بل إن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨: ٦٩] هل أحد يستطيع أن ينزل من المزن ماءً؟ لا يمكن، وهل أحد يستطيع أن يخلق في المزن ماءً؟ لا يمكن، وإنما الله عز وجل هو الذي يتولى ذلك، هذا هو مادة الرزق، لولا الماء لهلكت، وتأمل قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩: ٧٠]. ولم يقل: لو نشاء لم ننزله، مع أنه لو شاء لم ينزله، لكن قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ يعني لو نشاء أنزلناه لكن جعلناه أجاجا مالحًا، لا يمكن أن يشرب، وحسرة الإنسان على ماء بين يديه ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود، لأن ماءً موجودا لا تنتفع به ولا تستطيع شربه أشد حسرة من ماء مفقود، ولهذا ذكرنا الله هذه الحال، أرأيتك الآن لو أن هذا المطر العذب الزلال اللذيذ صار أجاجا مالحًا، ماذا تكون الحال؟ تكون صعبة جدًا، ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ إذن الرزق هو المطر كما في الآية الكريمة ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] ويمكن أن نقول: إن الرزق الذي في السماء أعم من ذلك، فقد يقال:

إن في السماء رزقا من المطر، وما كتبه الله لنا في اللوح المحفوظ من المصالح والمنافع الجسدية من أموال وبنين وغير ذلك، فيكون هذا القول أشمل وأعم، واعلم أنه ينبغي أن يراعي المستدل بالقرآن والسنة قاعدة مفيدة، وهي إذا فسرنا النص القرآني أو النبوي بمعنى أخص وفسرناه بمعنى أعم، فنأخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، إلا إذا دل دليل على أنه خاص، فهذا يتبع فيه الدليل، لكن عندما لا يدل الدليل، فخذ بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص ولا عكس، فهنا إذا قلنا: المراد بالرزق ما هو أعم من المطر، فالجواب صحيح، فيدخل فيه المطر وغيره، وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني وفيه الذي توعدون، والذي نوعد الجنة، فالجنة في السماء وليست في الأرض، ولهذا قال الله تعالى في قصة آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]. والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل، فالجنة في السماء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الجنة درجات، وأن أعلاها الفردوس، وأنه أعلاها وأوسطها أيضًا، وهو إشارة إلى أن الجنات مثل القبة أعلاها هو وسطها، قال: «مِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ»[1] إذن هي أعلى شيء، ـ نسأل الله أن يجعلنا من ساكنيها إنه على كل شيء قدير ـ فالذي نوعد هو الجنة، فالرزق في السماء، والجنة التي نوعدها في الآخرة في السماء، إذا نحن أهل الأرض محتاجون إلى السماء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ففي السماء رزقنا في الدنيا، وفيها ما نوعد في الآخرة وهو الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] الفاء عاطفة، والواو للقسم، ورب السماء والأرض هو الله ـ عز وجل ـ أقسم بنفسه تبارك وتعالى بمقتضى ربوبيته للسماء والأرض، أن ما يوعدون حق؛ لأنه قال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما توعدون. ويحتمل أن يكون الضمير عائدا للقرآن، ويحتمل أيضا أنه عائد إلى النبي ﷺ، والمعاني الثلاثة كلها متلازمة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ثابت، لأن الحق والباطل متقابلان، فالباطل هوالزائل الضائع سدًا، والحق هو الثابت الذي فيه الفائدة، وفيه الخير والصلاح، وقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يعني كما أن الإنسان يتيقن نطقه، فإن هذا القرآن حق، ومعلوم أن كل واحد منا لا ينكر نطقه، وإذا نطق تيقن أنه نطق، إذن هذا القرآن كلام الله ـ عز وجل ـ حق مثلما أن نطقنا حق.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] الخطاب ليس للنبي ﷺ فحسب،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

بل له، ولكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، كأنه قال: هل أتاك أيها المخاطب ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ والاستفهام هنا للتشويق، كأنه يشوقك إلى أن تسمع هذا الحديث، ونظيره في التشويق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ليس المراد بهذا الاستفهام أنه يستفهم، لكنه أراد أن يشوق المخاطبين إلى ذلك، ويكون الاستفهام للتهديد والإنذار والتخويف في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ١ : ٢].

فإذا قال قائل: أي شيء يدلنا على أن الاستفهام للتشويق، أو للتهديد، أو للاستخبار أو ما أشبه ذلك؟

نقول: الذي يدلنا على هذا السياق وقرائن الأحوال، والعاقل يفهم هذا وهذا، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ أي: خبر ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ضيف هنا مفرد، لكنه يستوي فيه الجماعة والواحد، وهم جماعة ملائكة كرام عليهم الصلاة والسلام، ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذين نزلوا ضيوفا عنده، وإبراهيم هو الخليل ﷺ، وهو أبو العرب، وأبو بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وهو الذي أمرنا الله تعالى أن نتبع ملته، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ولهذا ادعت اليهود أن إبراهيم يهودي، والنصارى ادعوا أنه نصراني، ولكن الله تعالى كذبهم في ذلك، فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الحجر: ٥٢] يحتمل أن ﴿إِذْ دَخَلُواْ﴾ متعلق بقوله (المكرمين) يعني الذين أكرمهم حين دخولهم عليه، ويحتمل أنها مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ دخلوا على إبراهيم ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (قالوا سلامًا)، أي: نسلم سلامًا، وعليه فسلاما مصدر عامله محذوف، والتقدير: نسلم، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: عليكم سلام، وعلى هذا فيكون التسليم هنا ابتداؤه بالجملة الفعلية، وجوابه بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن رد إبراهيم ﷺ أكمل من تسليم الملائكة، لأن تسليم الملائكة جاء بالصيغة الفعلية، ورد إبراهيم جاء بالصيغة الاسمية، ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، قوم خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم قوم، وإنما قال إنهم قوم؛ لأنهم بصورة البشر.

وقوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ أي: غير معروفين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ

﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ [هود: ٧٠]. في هذه الآية شاهد لحذف المبتدأ، وحذف الخبر، والشاهد لحذف الخبر (سلام)، لأن التقدير: عليكم سلام. والشاهد لحذف المبتدأ (قوم)، لأن التقدير: أنتم قوم. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ راغ: انسل بخفية وسرعة، وذلك من حسن ضيافته. لم يقل: انتظروا آتي لكم بالطعام. ولم يقم متباطئا كأنما يدفع دفعًا، وإنما قام بسرعة منسلًا، لئلا يقوموا إذا رأوه ذهب إلى أهله، فكأنه أخفى الأمر عنهم ﴿أَهۡلِهِۦ﴾ يعني أهل بيته ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ وفي آية أخرى: ﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي مشوي، واللحم إذا شوي يكون أطعم وألذ، لأن طعمه يبقى فيه لا يمتزج بالماء، بخلاف ما إذا طبخ يمتزج بعضه بالماء، فتقل لذته، لكن إذا كان مشويًا صار أطيب وأحسن، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ يعني أنه ﷺ لا يتخير للضيوف البهائم العجفاء الهزيلة، وإنما يتخير لهم البهائم السمينة، لأنها ألذ وأطيب وأنفع، واختيار العجل إما أن يكون من عادته ﷺ أن يكرم الناس بهذا، أو أنه يكرم الضيوف بحسب ما تقتضيه الحال، فإذا كانوا كثيرين أتى بالعجل، وإذا كانوا أقل أتى بالغنم وما أشبه ذلك حسب عادة الكرماء، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] أي لم يجعله بعيدًا ويقول: قوموا إلى طعامكم، بل خدمهم حتى جعله بين أيديهم، وقربه إليهم، قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا. إنما عرضه عليهم عرضًا، لأن هذا أبلغ في الإكرام، والعرض أخف وألطف من الأمر، إذ إنه لو قال:«كلوا» كان يحتمل أنه أراد أن يستعلي عليهم ويوجه الأمر إليهم، لكن قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ والفرق بين العبارتين في الرق، فقوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أرق وأرفق.

«مسألة»: هل نقول: إن السنة والأفضل أن الإنسان إذا دعا ضيوفًا أو أتاه ضيوف أن يقرب إليهم الطعام في مجلس الجلوس أو نقول: هذا يختلف باختلاف الأحوال؟

الثاني هو الأظهر، لأن عموم قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1] يدل على أنك تكرمهم بما جرت العادة بإكرامهم به، وعندنا الآن إذا دعوت أصحابك وأصدقاءك وهم قلة فلا يعدون تقديم الطعام في مكان جلوسهم إهانة، لأنهم إخوانكم وأصدقاؤكم، لكن لو نزل بك ضيف أو دعوت ضيفًا ليس بينك وبينه صلة تامة فإنه في عرف الناس الآن ليس من إكرامه أن تقدم الطعام في محل الجلوس، اللهم إلا لضرورة، إذا لم يكن عندك مكان، والآن الإكرام أن تجعل الطعام في مكانه، ثم إذا أراد أن يأكلوا يقول: تفضلوا، ألا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

تتفضلوا، أو ما أشبه ذلك من الكلمات المتداولة، فالمهم أن قوله تبارك وتعالى عن إبراهيم: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ ينبغي أن يجعل هذا حسب عادة الناس، إذا كان من الإكرام أن تأتي بالطعام إلى محل جلوسهم فأت به، وإذا كان من الإكرام أن تجعله في محل آخر فافعل، دليل ذلك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1].

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ أي: أحس بنفسه بخيفة منهم، وسبب تلك الخيفة أنه ﷺ لما قدَّم إليهم الطعام لم يأكلوا منه ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ لأن العادة أن الضيف يأكل مما قدم له المضيف، لكن هؤلاء الملائكة لم يأكلوا؛ لأن الملائكة صمد أي ليس لهم أجواف، كما جاء ذلك مأثورًا عن السلف، ولهذا لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب، فأوجس منهم خيفة ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ طمأنوه، قالوا: لا تخف لما رأوا على وجهه من علامة الإنكار والخوف، وكل إنسان يعرف حال قلب المرء المواجه له، هل هو في سرور؟ هل هو في انشراح؟ هل هو خائف؟ هل هو مطمئن؟ لأن هذا أمر معلوم بالفطرة، ولا يحتاج إلى كبير فراسة، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، أي أخبروه بما يسره وهو الغلام العليم، وكان إبراهيم ﷺ قد بلغ من الكبر عتيًّا قبل أن يولد له، فبشروه بهذا الغلام، وبشروه بأنه عليم أي سيكون عالمًا؛ لأن الله تعالى جعله من الأنبياء، والأنبياء هم أعلم الخلق بالله - عز وجل - وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم، لأن في القرآن أن إبراهيم بُشر بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفة، ولقد أبعد عن الصواب من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونص صريح في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالى لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يبشر بمن أمر بذبحه، وكان عنده وبلغ معه السعي، كل هذا مما يدل على أن الغلام الحليم غير الغلام العليم، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وهذه بشارة بثلاثة أشياء: أولًا بأنه سيأتيه مولود يصل إلى أن يكون غلامًا، ثانيًا: أن هذا المولود ذكر لا أنثى لقوله ﴿بِغُلَٰمٍ﴾، ثالثًا: أنه عليم أي ذو علم، وكل هذه البشارات عظيمة، كل واحدة تكفي أن تكون بشارة، ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ امرأته هذه: سارة أم إسحاق، أقبلت لما سمعت البشرى ﴿فِي صَرَّةٖ﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٤٧).

في صيحة سرور، لأنها جاءتها هذه البشرى بعد أن تقدمت بها السن، تصيح وكأنها والله أعلم تقول: غلام غلام، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربته بيدها كالمتعجبة، كما يصنع الناس إلى اليوم إذا أتاهم خبر نادى: «الله أكبر» وضرب على وجهه، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿عَجُوزٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنا عجوز عقيم، فكأنها تعجبت أن تحصل لها البشرى بهذا الغلام العليم، بعد أن تقدمت بها السن وعقمت من الولد، ولكنهم بينوا لها السبب الوحيد الذي به وجد هذا الولد، فقالوا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي مثلما قلنا وبشرنا به، قال الله - عز وجل - وانظر إلى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ حيث أضاف الربوبية هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها، لأن إضافة الربوبية إلى الشخص المعين تكون ربوبية خاصة، والربوبية العامة لكل أحد، والله رب كل شيء، والخاصة ليست لأحد إلا لمن كان خاصًّا بالله، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢] الربوبية العامة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والربوبية الخاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، هنا قالوا لها: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ من باب الربوبية الخاصة التي تقتضي عناية خاصة ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] إن شئت فقل: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر إن و ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وإن شئت فقل: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر هو، والجملة خبر (إن)، وهنا قدَّم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن المقام يقتضي هنا تقديم الحكمة على العلم، والحكمة هنا في شيئين: أولًا: تأخير الولادة بالنسبة لهذه المرأة، إن الله لم يؤخر ولادتها إلى أن تبلغ العجز إلا لحكمة، ثانيًا: كونها ولدت بعد أن أيست واعتقدت أنها عقيم، فهاهنا حكمتان: حكمة سابقة، وحكمة لاحقة، ومن ثم قدَّم اسم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على اسم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، والقرآن إذا جمع الله فيه بين هذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يقدم غالبًا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، لكن هنا قدَّم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأن المقام يقتضي ذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأكثر الناس يظنون أن معنى (الحكيم) أنه المتصف بالحكمة، والحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، ولكن الواقع أن الحكيم له معنيان: حكيم من الحكمة، وحكيم من الحكم، فالله - عز وجل - حكيم من الحكمة، لأن الله تعالى هو الحكم بين العباد، والحاكم في العباد هو حاكم فيهم، وهو الحكم بينهم، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] وهذا استفهام للتقرير، يعني أن الله تعالى أحكم الحاكمين، وكلاهما في محله المناسب، ففي سورة المائدة ذكر الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

[المائدة: ٤٤]. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وتتابعت الآيات حتى قال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فكأن المقام مقام مفاضلة بين الأحكام فبين أن حكم الله أحسن الأحكام، لكن في سورة (التين) المقام مقام سلطة وقوة، والله أحكم الحاكمين يعني أن حكمه نافذ وسلطته تامة، ولا أحد يعارض حكمه أبدًا مهما قويت شوكته، وانظر إلى قول الله تعالى عن عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، يعني لا أحد أشد منا قوة، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ [فصلت: ١٥]، وعذبهم بألطف الأشياء عذبهم بالريح؛ الهواء اللطيف الذي لا تحس بملمسه، وإن كان قويًا بأن يدفع كل شيء، وهو أقوى من الماء كما هو معروف، وهذا الهواء اللطيف أهلك به هؤلاء القوم الذين يقولون: من أشد منا قوة، أهلكهم به، فالحاصل: أن الله أحكم الحاكمين حكمه نافذ صادر عن قوة وسلطان، ثم إن أحكم الحاكمين تضمن أيضًا حسن الحكم، فصار حكم الله ـ عز وجل ـ يتضمن أنه الحاكم في العباد، وأنه الحاكم بين العباد، وأن حكمه أحسن الأحكام، وأنه تعالى أحكم الحاكمين، والحكمة البالغة لله ولا شيء من الأفعال القائمة بالوجود أحكم من حكمة الله، وإذا آمنت بهذا أيها المؤمن سهل عليك أمور كثيرة تشكل على كثير من الناس، منها بعض الأحكام الشرعية لا يدرك الناس أو أكثرهم أو بعضهم حكمتها، فهل نقول: إذا لم يدرك الحكمة إنه لا حكمة لها، أو نقول: إن لها حكمة، لكن عقولنا قاصرة، نقول: لها حكمة ولكن عقولنا قاصرة، وإذا آمنا هذا الإيمان اطمأننا إلى كثير من الأمور الشرعية التي تخفى علينا حكمتها، فنحن لا ندرك الحكمة في كون الصلوات الخمس خمسًا، أو أنها سبع عشرة ركعة، وأشياء كثيرة من الأمور الشرعية لا يدرك الإنسان حكمتها، لكن إذا آمنت أن الله حكيم آمنت بأنه لابد لهذا الشيء من حكمة تقتضيه، كذلك في الأمور القدرية قد يرسل الله سبحانه وتعالى عذابًا يشمل الصالح والطالح، وقد يرسل الله عذابًا على قوم لا تتوقع أن يصيبهم العذاب، فهل تقول: ما الحكمة؟ أو تقول: إن الله عز وجل لابد أن يكون تقديره لهذا عن حكمة؟ ولذلك أقول: إن الواجب علينا فيما أمر الله به من الشرائع وفيما قضاه من الأقدار أن نستسلم غاية التسليم، وأن لا نعترض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أقسم الله ـ عز وجل ـ أنه لا يمكن لأحد أن يؤمن إلا بهذه الشروط الثلاثة، هي: الأول: أن يحكموك فيما شجر بينهم، والثاني: ألا يجدوا في أنفسهم حرجًا، يعني لا تضيق صدورهم بحكم الله، والثالث: أن يسلموا

تسليمًا، وأكد هذا المصدر ﴿تَسْلِيمًا﴾ يعني تسليمًا تامًّا، فلا يتهاون الإنسان ويتباطأ في تنفيذ حكم الله، فإذا وجدت من نفسك عيبًا يتعلق بهذه الأمور الثلاثة فصحح إيمانك، فإذا رأيت أنك تود أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله فصحح الإيمان، وإذا رأيت من قبلك أنك لا تريد إلا حكم الله ورسوله لكن يضيق صدرك بحكم الله ورسوله تحدث نفسك أنك لا يمكن تتحاكم إلى غير الله ورسوله لكن يضيق صدرك فأنت ناقص الإيمان، وإذا كنت لا يضيق صدرك ولا تريد التحاكم لغير الله ورسوله وأنت منشرح الصدر لحكم الله ورسوله لكن تتباطأ وتتهاون فأنت ناقص الإيمان، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، لما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقبلوه من أول مرة صارت - والعياذ بالله - قلوبهم متقلبة، وتركهم الله في طغيانهم يعمهون، ولهذا يجب عليك أيها المؤمن أن تبادر بانقياد تام لحكم الله تعالى القدري.

وأتكلم على آداب السلام: حيث إن الملائكة قالوا: ﴿سَلَامًا﴾، فقال إبراهيم: ﴿سَلَامٌ﴾، ذكرنا فيما سبق أن رد إبراهيم ﷺ أحسن من ابتداء الملائكة؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، بخلاف سلام الملائكة عليهم السلام، واعلم أن رد التحية واجب، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ﴾ ولم يذكر من يحيينا، فيشمل أي إنسان يحيينا، فإننا نحيِّيه ونرد عليه أحسن من تحيته أو مثلها كما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، فبدأ بالأحسن، لأنه هو الأفضل، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾، أي: ردوا مثلها، ويشمل هذا ما إذا سلم علينا أحد من اليهود، أو النصارى، أو البوذيين، أو غيرهم، فنرد عليهم، لكننا لا نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، لنهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك[1]، ثم إن السلام المشروع هو: «السلام عليكم»، وأما «أهلًا وسهلًا»، ومرحبًا، و«كيف حالك؟» وما أشبهها: فهذا ليس بمشروع، المشروع أن تبدأ أولا بالسلام، ولهذا في حديث المعراج حين كان النبي ﷺ يمر بالأنبياء فيسلم عليهم، قال: فرد عليه السلام، وقال: مرحبًا بالنبي الصالح[2]، فابدأ أولًا بقولك: «السلام عليكم»، والجواب يكون مثل ذلك أو أحسن، يكون: «عليكم السلام»، أو «وعليكم السلام»، أو «عليكم السلام ورحمة الله»، أو «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، كل هذا من المشروع، ونرى كثيرًا من الناس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٦٧)، والترمذي (٢٧٠٠)، وأبو داود (١٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٩٣) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (١٦٢).

إذا سُلِّم عليه يقول: «أهلًا وسهلًا»، أو يقول: «مرحبًا بأبي فلان»، وهذا لا يجزئ، فلو قال:«أهلًا وسهلًا» مدى الدهر فإنه لا يجزئ؛ لأن الله يقول: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، ومعلوم أن الذي يقول: «السلام عليك»، يدعو لك بالسلام من كل نقص ومن كل آفة، ومن كل مرض في القلب والبدن، ولا يكفي أن تقول «مرحبا وأهلًا»، بل لابد أن تقول: «عليك السلام»، أو «وعليكم السلام»، وإن زدت «ورحمة الله وبركاته »كان أحسن.

ثانيًا: من السنة أن يسلم الصغير على الكبير؛ لأن حق الكبير على الصغير أعظم من حق الصغير على الكبير، فيبدأ الصغير بالسلام على الكبير، ولكن إذا قدر أن الصغير لم يسلم فهل يدع الكبير السلام لأن الحق له، أو يسلم لئلا تفوت السنة؟

والجواب: يسلم لئلا تفوت السنة، فكون الإنسان يقول: أنا صاحب الحق، لماذا لم يسلم عليَّ، هذا خطأ، صحيح أنك صاحب الحق وأن المشروع أن يسلم هو عليك، لكن إذا لم يفعل فسلم أنت.

ثالثًا: يسلم الماشي على القاعد[1]، ولو كان القاعد أصغر، فإذا مر شخص بإنسان قاعد فليسلم عليه، ولو كان أصغر منه سنًّا، أو قدرًا، وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يسلم على الصبيان إذا مر بهم[2]، وفي ذلك فوائد عظيمة: منها: التواضع، أن الإنسان يضع نفسه إذا سلم على من هو دونه، ومنها: الرحمة؛ لأن سلامك على الصغار نوع من الرحمة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الراحمين يرحمهم الله[3] ـ عز وجل ـ ومنها: تعويد هؤلاء الصبيان على السلام، يعني أن الصبي يعرف شعار المسلمين أن يسلم بعضهم على بعض، فيأخذ من هذا أدبًا وخلقًا ينتفع به في شبابه وبعد هرمه.

رابعًا: يسلم القليل على الكثير كالصغير مع الكبير، فإذا تقابل جماعة خمسة وستة فيسلم الخمسة على الستة، لأن الستة فيهم زيادة، فهذه الزيادة لها حق الزائد، فيسلم القليل على الكثير، وإذا لم يفعلوا فليسلم الكثير على القليل، لئلا تفوت السنة بينهم.

خامسًا: يسلم الراكب على الماشي، فإذا تقابل رجلان أحدهما يمشي والثاني راكب في سيارته

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٣٢) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (٢١٦٠).

(٢).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥).

أو على بعيره فيسلم الراكب على الماشي، لأن الراكب له علو فيسلم على الماشي، لأن السنة جاءت بهذا[(١)]، كذلك الصاعد على النازل، فلو أن اثنين التقيا في درجة سلم فإن الصاعد هو الذي يسلم على النازل، وإذا لم تأت السنة ممن عليه أن يبدأ بها فليبدأ بها الثاني، قال النبي ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»[(٢)] قال: خيرهما، فدل ذلك على أن من بدأ غيره بالسلام فهو خير، وهو كذلك ؛لأنك إذا سلمت حصلت عشر حسنات، ثم إذا رد صاحبك حصَّل عشر حسنات، والسبب الذي جعله يحصِّل عشر حسنات هو البادي، لولا أنه سلم ما رد، فتكون أنت متسببًا لهذا الذي عمل عملًا صالحًا فلك أجره، ولهذا قال العلماء: ابتداء السلام سنة، ورده واجب، ثم أوردوا على هذا إشكالًا فقالوا: ابتداء السلام أفضل من رده، فكيف تكون السنة أفضل من الواجب؟ والقاعدة الشرعية أن الواجب أفضل، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[(٣)]، أجابوا عن ذلك:قالوا: هذا الإشكال جوابه: أن هذا الواجب كان مبنيًّا على السنة، فصارت السنة التي بني عليها الواجب لمن أتى بها ثواب أجره الخاص وثواب أجر الراد.

سادسًا: ينبغي أن يكون بصوت مسموع، فبعض الناس يلاقيك ويسلم لكن تشك: هل سلم أو لا؟ لأنه لم يرفع صوته، وهذا غلط، ارفع الصوت على وجه يدل على أنك فرح بهذا الأخ الذي قابلك أو الذي سلمت عليه لا بصوت مزعج ولا بخافت لا يسمع، وعلى العكس من ذلك: بعض الناس يسلم بصوت مزعج، والدين وسط بين الغالي والجافي، فنقول: سلم سلامًا مسموعًا يسمعه أخوك ويكون بأدب واحترام.

سابعًا: من آداب السلام أيضًا: أن يكون المسلم منبسط الوجه منشرح الصدر، فإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق[(٤)]، فإن طلاقة الوجه وانشراح الصدر والابتسامة في وجه أخيك لا شك أنها من الأمور المطلوبة لما فيها من إدخال السرور على إخوانك، وإدخال السرور على إخوانك من الأمور المستحبة التي تُؤجر عليها، لقول النبي ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٣٢) وفي غير موضع من صحيحه، و مسلم (٢١٦٠).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، و مسلم (٢٥٦٠).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، والترمذي (١٨٣٣)، وابن ماجه (٣٣٦٢).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٢١)، والترمذي (٩٧٠).

ثامنًا: رد السلام المحمول إن كان الحامل له شخصًا وقال: فلان يسلم عليك. فقل: عليك وعليه السلام، وإن شئت فقل: عليه السلام، أي على الذي حمله، أما إذا كان محمولًا بكتابة يعني إنسان كتب لك كتابًا، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإن كنت تريد أن تجيبه بكتاب فرد عليه بجوابك، مثلًا: كتب إليك إنسان كتابًا وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تكتب إليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، قرأت كتابك وفهمت ما فيه، والجواب كذا وكذا، وأكثر الناس الآن لا يهتمون بهذا، تجده يكتب الجواب ويقول في ابتدائه: السلام عليكم ورحمة الله. هذا طيب، لكن الذي سلم عليك يريد جوابًا فقل: جواب - يعني -: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وصلني كتابك أو قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، وهذا الجواب، وتجيبه بما سألك، وإذا كان لا يحتاج إلى جواب مثل أن يكون الشخص كتب إليك كتابًا يخبرك بخبر لا يحتاج إلى جواب، فهنا إذا قرأت الكتاب فقل: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، لا أقول وجوبًا، لأن صاحبك لن يسمع، لكن على سبيل الاستحباب، رجل دعا لك بظهر الغيب فادع له أنت بظهر الغيب.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧] القائل: (ما خطبكم) هو إبراهيم ﷺ، أي ما شأنكم أيها المرسلون وهم الملائكة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢: ٣٣] يعني أرسلنا الله - عز وجل -، لأنه من المعلوم أنه لا يرسل أحدًا من الملائكة إلا خالقهم سبحانه وتعالى ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي: ذوي جرم عظيم ألا وهو اللواط - والعياذ بالله -، فإنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فيأتون ما لم يخلق لهم، ويدعون ما خلق لهم، كما قال لهم نبيهم لوط ﷺ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وهذه الفاحشة فاحشة نكراء، لا يقرها عقل، ولا فطرة، ولا دين، ولهذا كانت عقوبتها القتل للفاعل والمفعول به، إذا كانا بالغين عاقلين، سواء كان محصنين أم غير محصنين، بخلاف الزنى، فالزنى أهون عقوبة، لأن الزنى من لم يكن محصنًا فعقوبته أن يجلد مائة جلدة ويغرب عن البلد سنة كاملة، وإن كان محصنًا وهو الذي قد تزوج وجامع: فعقوبته أن يرجم بالحجارة حتى يموت، أما هذا فعقوبته القتل بكل حال، كما جاء في الحديث: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[1]، ووقعت هذه الفاحشة في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - فأمر

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

أن يحرق كل من الفاعل والمفعول به، لأن الإحراق أعظم عقوبة يعاقب بها بنو آدم، وكذلك جاء عن بعض الخلفاء أنهم أمروا بإحراق اللوطيّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: أجمع الصحابة - رضي الله عنهم - على قتل اللُّوطيّ فاعلًا كان أو مفعولا به، لكنهم اختلفوا: كيف يقتل؟ منهم من قال: يحرق، ومنهم من قال: يرمى بالحجارة حتى يموت كالزاني المحصن، ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق في البلد، يعني في مكان مرتفع أعلى ما يكون في البلد، ثم يتبع بالحجارة حتى يموت، فالمهم أنهم متفقون على قتله، ولا شك أن قتله هو الحكمة، لأن هذه الفاحشة متى دبت في الرجال صار الرجال كالنساء، وبدأ الذل والعار والخزي على وجه المفعول به، لا ينساه حتى يموت، ثم استغنى الرجال بالرجال وبقيت النساء، لأن هذه الفاحشة - والعياذ بالله - إذا ابتلي بها الإنسان لا يلتفت إلى غيرها، لأنها مرض فتاك سارٍ، فإذا أعدم هؤلاء وهم في الحقيقة جرثومة فاسدة مفسدة للإنسان، كان ذلك عين المصلحة، ثم اللواط - والعياذ بالله - لا يمكن التحرز منه، لأنه بين ذكرين لا يمكن لأي إنسان يجد ذكرين يمشيان في السوق أن ينكر عليهما اجتماعهما، ولكن الزنى إذا رأيت رجلا مع امرأة تستنكره أو تتهمه وتتكلم معه، لذلك كانت عقوبة الإعدام في حق اللوطي أوفق ما يكون للحكمة وللرحمة، فهي رحمة بالفاعلين، يعني باللائط والملوط به، حتى لا يبقيا في حياتهما يكتسبان الإثم وتزداد العقوبة عليهما، ورحمة بالمجتمع فتكون عقوبتهما نكالا حتى لا يفسد المجتمع، لهذا قالت الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] وجرمهم - والعياذ بالله - ما سبقوا عليه، كما قال لهم نبيهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣: ٣٤] حجارة من طين، لكنه ليس الطين الذي يتفتت بل الصلب العظيم الذي إذا أصابت هذه الحجارة أحدًا من الناس وضربته على رأسه خرجت من دبره، لا يردها عظم ولا لحم، لقوتها وشدتها وصلابتها - والعياذ بالله - ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة عند الله، يعني عليها علامة، لأن كل شيء عند الله بمقدار، لا تظن أن الأمور التي يقدرها الله - عز وجل - تأتي هكذا صدفة، بل هي بمقدار، حتى تباعد ما بين النجوم، وتفاوت ما بينها من الكبر والإضاءة بمقدار، لم يجئ هكذا فلتة أو جاء صدفة، كل شيء عند الله بمقدار ولابد، فهذه الحجارة معلمة عند الله، وهل هي معلمة بمعنى أن هذه مكتوب عليها مثلًا: حجارة عقوبة؟ أو مسومة بالنسبة لمن تقع عليه؟ الجواب: الثاني، لأن هذا أدق، هذه الحجارة لفلان، هذه الحجارة لفلان، مسومة عند ربك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمتجاوزين حدودهم، ولا شك أن اللواط مجاوزة للحد والإسراف - والعياذ بالله - قال الله

تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] أخرجناهم أي: أمرناهم أمرًا قدريًا فخرجوا، قال الله تعالى للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، فأخرج الله من كان فيها من المؤمنين، وهم:لوط وأهله إلا امرأته، ولهذا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] بيت واحد، قرية كاملة يدعوهم نبيهم إلى توحيد الله وإلى ترك هذه الفاحشة ما اتبعه أحد حتى أهل بيته لم يخلصوا، فيهم من لم يؤمن بلوط، فانتبه يا أخي الداعية، لا تجزع إذا دعوت فلم يستجب لك من المائة إلا عشرة، فالرسل عليهم الصلاة والسلام يبقون في أممهم دهورًا كثيرة ولا يتبعهم إلا القليل، ولوط ﷺ لم يتبعه من القرية أحد، وتخلف عن دعوته من تخلف.

ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهنا يتساءل الإنسان في نفسه: كيف قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، هل (المسلمون) هنا بمعنى (المؤمنين)في الآية التي قبلها؟ ذهب بعض العلماء إلى ذلك، وقالوا: إن في هذا دليلا على أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وذهب الآخرون إلى الفرق، وقالوا: أما المؤمنون فقد نجوا، وأما البيت فهو بيت إسلام، لأن المظهر في هذا البيت ـ بيت لوط ـ أنه بيت إسلامي، حتى امرأته لم تتظاهر بالكفر، تظاهرت بأنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] ليس المعنى خانتاهما بالفاحشة، بل خانتاهما بالكفر، لكنه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق، ولهذا يقال للمجتمع الذي فيه المنافقون: «إنه مجتمع مسلم»، وإن كان فيه المنافقون، لأن المظهر مظهر إسلام، إذن نقول: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إنما قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، لأن امرأته ليست مؤمنة، ولكنها مسلمة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧] تركنا فيها آية أي علامة، فما العلامة؟ أهي علامة حسية، أم علامة معنوية، أم علامتان معنوية وحسية؟ والقاعدة المفيدة في التفسير: (إذا احتملت الآية أكثر من معنى لا مرجح لأحدهما على الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حملها على المعنيين جميعًا)، فهذه الآية حسية ومعنوية:

أما الحسية: فما نشاهد مكان قريتهم التي تسمى بحيرة لوط، فإن هذا كان موضع القرية، كل يمر به ويراه ويشاهده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧: ١٣٨].

وآية معنوية: كل من قرأ قصتهم في جميع ما وردت فيه من السور الكريمة اعتبر واتعظ وخاف، لكن من الذي ينتبه لهذه الآيات؟ ومن يتعظ؟ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أما المنكرون الذين قست قلوبهم فإنهم لن ينتفعوا بالآيات، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] نسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بالآيات.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨] يعني في موسى آيات من آيات الله عز وجل، حين أرسله الله تعالى إلى فرعون، وفرعون علم جنس على كل من حكم مصر وهو كافر، وموسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو في المرتبة الثالثة من الفضل بالنسبة لأولي العزم الخمسة، فإن أفضلهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بينة في نفسها مبينة لغيرها، فالآيات التي جاء بها الأنبياء بينات واضحة لكل ذي عدل وإنصاف، وهي أيضًا مبينة لصدق ما جاءت به الرسل، ولهذا اعلم أنه كلما جاء في القرآن كلمة: (مبين) فهي بمعنى ﴿مُّبِينٍ﴾في ذاته، مبين لغيره، إلا ما دل السياق أن المراد البين في ذاته، فمن الآيات العظيمة التي جاء بها موسى: عصا موسى، التي كان يستعملها ويتوكأ عليها عند الحاجة، ويهش بها على غنمه أوراق الشجر عند رعيها، وله فيها حاجات أخرى، كما قال هو ﷺ لما سأله الله ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧: ١٨]، فهي آية في كونه إذا وضعها على الأرض صارت ثعبانًا مبينًا، أي: حية عظيمة تخيف من رآها، ولهذا رهب منها موسى ﷺ حين ألقاها وولى هاربًا، فناداه الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ومنها :أنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء في الحال، بيضاء لكن بدون سوء، أي بدون عيب، يعني ليست بيضاء برص، ولكنها بيضاء مخالفة للون جلده في الحال، حقيقة لا تخيلًا، وقال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، المهم أنه أتى إلى فرعون بسلطان مبين وحجة دامغة بالغة، لكنه ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بقوته وسلطانه وجنده، أعرض عن موسى استكبارًا وجحودًا وظلمًا وعدوانًا، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٥]، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يعني أنه اتهم ﷺ بأنه ساحر، لأنه أتى بآيات تشبه ما يصنعه السحرة: عصا من خشب توضع في الأرض وتكون ثعبانًا مبينًا، ويد تدخل في الجيب وتخرج بيضاء في الحال، هذا يشبه السحر، أو ﴿مَجْنُونٌ﴾، وذلك بكونه يدعي أن الله وحده خالق السموات والأرض وهو الرب

وهو الإله، لأنهم كانوا لا يعرفون الإله إلا فرعون، فإذا جاء شخص يقول: إن الله هو رب العالمين، وأن فرعون ليس إلهًا ولا ربًّا. فإنهم يرمونه بالجنون، هذا مجنون خرج عما نعهد، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠] أي: طرحناهم فيه، واليم هو البحر، والبحر الذي هلك فيه فرعون هو البحر الأحمر، الذي بين آسيا وأفريقيا، وذلك أن فرعون جمع جنوده وحشدهم وأراد أن يقضي على موسى وقومه، فخرج موسى عليه السلام وقومه من مصر متجهين إلى الشرق، ولكن حال بينهم وبين مرادهم البحر، فلما وصلوا إلى البحر كان البحر بين أيديهم، وفرعون وقومه خلفهم، فقال قوم موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] يعني هلكنا، لأن فرعون خلفنا والبحر أمامنا فكيف النجاة؟! فقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وهذه معية خاصة تقتضي النصر والتأييد، قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ولم يقل: سوف يهدين، بل قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إشارة إلى قرب هذا الحصر وأنه سيزول قريبًا، وهذا هو الذي حصل، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق اثنتي عشرة طريقًا في الحال ويبس في الحال، وصار صالحًا للمشي عليه في الحال، كما قال عز وجل: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، فعبر موسى وقومه من هذه الطرق العظيمة التي كان الماء بينها كالجبال ولما انتهوا خارجين كان فرعون في أثرهم وانتهوا داخلين، فأمر الله ـ عز وجل ـ بقدرته وسلطانه البحر أن يعود إلى ما كان عليه، فانطبق على فرعون وقومه فهلكوا عن آخرهم والحمد لله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: فرعون فاعل ما يلام عليه ولا شك أن رده للرسالة الإلهية، وادعائه أنه الرب وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وما أشبه ذلك من الكلمات لا شك أنها كلمات يلام عليها، لأنه قد تبين له الحق، ولكنه عاند وأبى أن ينقاد للحق، كما قال له موسى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ﴾ [الصافات: ١٥٨] يعني يا فرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] يعني وفي عاد آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ عاد في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا قومًا أشداء حتى إنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأصابهم القحط والجدب، فجعلوا يترقبون المطر، فأرسل الله عليهم الريح العظيمة الشديدة، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٨] قال

الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، فأرسل الله عليهم هذه الريح العقيم التي ليس لهم فيها ثمرة ولم تحمل ماء: كالمرأة العقيم التي لا تلد، هذه أيضا ريح عظيمة لا تحمل سحابًا ولا مطرًا، هذه الريح العقيم هي الريح الغربية، كما جاء عن النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[1] أي: بالريح الغربية، أرسل الله عليهم هذه الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] كل شيء تأتي إليه تجعله كالرميم هامدًا، حتى إنها تأخذ الرجل - والعياذ بالله - إلى فوق ثم ترده إلى الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠]، هلكوا عن آخرهم، تأمل الآية، قوم عاد قوم أقوياء أشداء هلكوا بهذه الريح اللطيفة التي لا ترى لها جسمًا، وإنما تحس بها بدون أن ترى شيئًا، ومع ذلك قضت عليهم بأمر الله - عز وجل - ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] فهذا فيه آيات من آيات الله - عز وجل -، أرسل الله عليهم هذه الريح، فأهلكتهم عن آخرهم.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات:٤٣] ثمود هم الذين أرسل الله إليهم نبيه صالحًا - ﷺ -، فوعظهم وذكرهم، وجعل لهم آية وهي الناقة التي شرفها الله تعالى بإضافتها إلى نفسه الكريمة، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] أي احذروا ناقة الله أن تعبثوا فيها، أو أن تنكروها، وهذه الآية ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ [الشعراء:١٥٥] تشرب من البئر التي تسمى بئر الناقة، ولهم شرب يوم معلوم يشربونه، فالناقة تشرب يومًا وهم يشربون يومًا، وهذه الناقة ذكروا أنهم: ما جاء أحد يستقي من هذا البئر في يومها التي تشرب منه إلا أخذ بدل شربها شيئًا من لبنها بقدر ما شربت، فالله أعلم: هل هذا هو الواقع أو يختلف؟ لكن على كل حال هذه الناقة لا شك أنها ناقة ليست كسائر النوق، إذ إنها آية من آيات الله - عز وجل -، لكنهم كذبوا وأبوا وتوعدهم ﷺ أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، ولكنهم مازالوا على كفرهم وإنكارهم، ولهذا قال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وديارهم معروفة الآن، موجودة في مكان يسمى الحجر، ويسمى الآن ديار ثمود، وقد مر بها النبي ﷺ في ذهابه إلى تبوك، لكنه ﷺ أسرع حين مر بهذه الديار وقنع رأسه، ونهى أمته أن يدخلوا إلى هذه الأماكن - أماكن المعذبين - إلا أن يكونوا باكين، قال: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُم»[2]، وقوله:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٩٠٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

«أن يصيبكم ما أصابهم» لا يلزم منه أن يراد به ما أصابهم من العذاب الجسمي قد يكون المراد ما أصابهم من العذاب الحسي وما أصابهم من الإعراض والكفر.

فلو قال قائل: إنه يوجد أناس يذهبون إلى هذه الأماكن وهم غير باكين ولم يصابوا بشيء؟

فنقول: الجواب عن هذا من وجهين:

أولًا: أن الرسول ﷺ لم يؤكد أن يصابوا بهذا، ولكن قال: «حذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

الوجه الثاني: أن نقول: لا يتعين أن يكون المراد بذلك أن يأخذوا بما أخذ به هؤلاء من العقوبة الحسية الظاهرة، وهي الرجفة والصيحة التي أماتتهم عن آخرهم، فقد يكون المراد مرض القلب، الذي هو الاستكبار والإعراض ورد الحق.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، هذا الحين هو ثلاثة أيام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات:٤٣] أي: فأبوا ولم يرجعوا عن غيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ التي صعقتهم، وهي رجفة وصيحة، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض يتهاوون ويتساقطون أمواتًا ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: ما استطاعوا أن يقوموا ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾، أي: لم يتمكن بعضهم أن ينصر بعضًا، بل كلهم هلكوا عن آخرهم، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب أولياءه، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب رسله عليهم الصلاة والسلام، إلا أن العذاب المستأصل رفع عن هذه الأمة، فإن النبي ﷺ دعا ربه سبحانه وتعالى ألا يأخذهم بسنة بعامة، أي بعقوبة عامة، لكن ابتلوا بشيء آخر وهو أن يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا[1]، والأمر كذلك وقع، فإن هذه الأمة لم تصب بعذاب عام كما أصيبت به الأمم التي قبلها، لكن أصيبت بأن جعل الله بأسهم بينهم منذ زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لما اختلفوا على عثمان وعلي -رضي الله عنهما- وحصلت الفتن تتوالى إلى يومنا هذا، ثم هذه الأمة التي جُعل بأسها بينها ليست هي أمة الإجابة فقط، بل أمة الإجابة وأمة الدعوة، ولهذا نقول: ما حصل من الفتن والبلاء في الأرض مشارقها ومغاربها من الكفار وغير الكفار فإنما هو نتيجة للمعاصي، وهي عقوبة هذه الأمة أن الله يذيقهم بأس بعض.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦] يعني اذكر قوم نوح من قبل، وهم أول أمة أرسل إليهم الرسول، ولكنهم كذبوا، ونوح ﷺ بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

عامًا يدعوهم إلى الله ويذكرهم ويعظهم، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لم يؤمنوا، ما آمن معهم إلا قليل حتى أنه ﷺ يقول: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقول، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها لئلا يبصرون، نسأل الله العافية، وهذا غاية ما يكون من البغضاء لما يقول ولما يفعل، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على باطلهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ فكان آخر ما قال ﷺ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ودعا ربه أني مغلوب فانتصر، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١: ١٢] ولهذا والله أعلم سيكون عليهم نصيب من عذاب المكذبين لأنهم هم أول أمة كذبت الرسل، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة(١)، كما أن من قتل نفسًا فإن على ابن آدم الذي قتل أخاه كفلًا ونصيبًا من عذاب القاتل إلى يوم القيامة(٢).

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ مفعول لفعل محذوف والتقدير: وبنينا السماء، وقوله: ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي: بقوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] فالأيد هنا أي القوة، وليست جمع «يد» كما يتوهم بعض الناس، ويظنون أن الله تعالى بنى السماء بيديه عز وجل؛ لأن «الأيد» هنا مصدر آد يئد بمعنى القوة، كما يقال: باع يبيع بيعًا، ولهذا لم يضف الله هذه الكلمة إلى نفسه الكريمة كما أضافها إلى نفسه الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، فمن فسر الأيد بالقوة هنا فإنه لا يقال: إنه من أهل التأويل الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، بل هو من التأويل الصحيح، والإنسان إذا تأمل وتفكر في السماوات عرف أنها قوية شديدة عظيمة، وأن قوتها تدل على قوة بانيها ـ عز وجل ـ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لموسعون لأرجائها، لأنها واسعة عظيمة، ولهذا كانت السماوات أكبر بكثير من الأرض، وهي محيطة بالأرض من كل جانب، وعلى هذا فتكون أوسع من الأرض، وليست الأرض بالنسبة للسماء إلا شيئًا يسيرًا، ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: فرشنا لأهلها، جعلناها لهم كالفراش يأوون إليها ويتمتعون بها، لم يجعلها الله تعالى صعبة ولا سهلة، بل هي متوسطة، لو كانت لينة رخوة ما تمكن أحد من البقاء عليها، ولو كانت صعبة ما تمكن أحد من الانتفاع بها، ولكنها

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٣٦)، و مسلم (١٦٧٧).

كانت كما وصفها الله ـ عز وجل ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أثنى على نفسه تبارك وتعالى بذلك، لأنه أهل للثناء، وقد جعل الله تبارك وتعالى الأرض على مستوى نافع للعباد، ليست بالقاسية التي يعجز الناس عن الانتفاع بها، وليست باللينة التي لا يستقرون عليها، بل هي مناسبة تمامًا لهم، على أن فيها اختلافًا في الليونة وفي الصلابة، لكن هذا لا يمنع الانتفاع بها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] خلق الله تبارك وتعالى من كل شيء زوجين متقابلين حتى تتم الحال وتصلح باجتماع بعضهما إلى بعض، فالحيوان كله من إنسان وغيره يكون من زوجين بين ذكر وأنثى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، إلا أن آدم ﷺ خلقه الله بيده من غير أم ولا أب، وحواء خلقت من أب بلا أم، وعيسى ابن مريم خلق من أم بلا أب، ولهذا ينقسم الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: من خلق بلا أم ولا أب وهو: آدم.

والثاني: من خلق من أب بلا أم وهي: حواء.

والثالث: من خلق من أم بلا أب وهو: عيسى.

والرابع: بقية البشر خلقوا من ذكر وأنثى، فمن كل شيء خلق الله زوجين: اليابس والرطب، والحرارة والبرودة، واللين والقسوة، وغيره مما إذا تأمله الإنسان عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: بيَّنا ذلك لكم، لأجل أن تذكروا وتتعظوا بآيات الله تبارك وتعالى، فإن الإنسان كلما كان أعلم بآيات الله الكونية أو الشرعية كان أكثر اتعاظًا واعتبارًا، ولهذا حث الله على النظر في الآيات الكونية فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، ومدح الله تعالى الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠: ١٩١]؛ لهذا ينبغي الإنسان أن يتعظ ويتذكر ويتدبر آيات الله سبحانه وتعالى الكونية والشرعية.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] هذا كأنه على لسان النبي ﷺ، أي قل لهم: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من الله، والفرار إلى الله يكون بالقيام بطاعته واجتناب نواهيه، لأنه لا ينقذك من عذاب الله إلا أن تقوم بطاعة الله، فكأن الإنسان إذا قام بطاعة الله عز وجل كأنه فر من عدو، أرأيت لو أن واديًا عرمًا يهدر أقبل عليك فإنك لن تقف أمامه، بل تهرب منه وتفر منه، كذلك لو أن حريقًا ملتهبًا أقبل إليك فإنك لن تقف بل تفر، كذلك نار جهنم أشد وأعظم وأولى بالفرار منها، ولهذا قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: من عذاب الله ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: منذر ﴿مُبِينٌ﴾ أي: مظهر لما أنذر به ومبين له، فهو ﷺ نذير من الله تعالى لعباده، ينذر من خالف أمره بالعذاب، ومع هذا هو ﷺ بشير لمن آمن وأطاع بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، لكن الله تبارك وتعالى يذكر الإنذار فقط في مقام التهديد والوعيد، وهذه السورة كلها ذكر للأمم السابقين وما حل بهم من العقوبة لمخالفتهم أمر الله تبارك وتعالى، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١]، أي: لا تجعلوا معه معبودًا تعبدونه، والمعبود أنواع وأصناف، فمن الناس من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الحيوان، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد المال، كما قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»(١)، فبين الرسول ﷺ أن الذي ليس لهم هَمٌّ إلا المال فإنه عابد له في الحقيقة، وإن كان لا يركع له ولا يسجد، لكن تعلق قلبه به واهتمامه به، وكونه يرضى لحصوله، ويسخط لمنعه، لا شك أنه قد استولى على قلبه استيلاء تامًّا، لكن المعبود تختلف عبادته في الحكم، فإن كان يصرف له شيء من العبادة فهذا شرك أكبر، وإن كان لا يصرف له شيء من العبادة ولكنه يتعلق به القلب تعلقًا كاملًا حتى إنه ليدع الواجبات ويقع في المحرمات من أجل الحصول عليه، فهذه عبادة لا تخرج من الدين لكنها حقًّا عبادة، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كرر ذلك لأهمية الموضوع، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الاتعاظ والانتفاع بآيات الله تعالى، إنه على كل شيء قدير.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] يعني أن الأمر الذي حصل لك يا محمد حصل لمن قبلك، فقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، والترمذي (٢٣٧٥)، وابن ماجه (٤١٣٦).

كذلك، يعني أن أمر الأمم السابقة كأمر هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، وفسر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ يعني ما أتاهم رسول إلا قالوا كذا، و ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] والمعنى: ما جاءنا بشير ونذير، لكن تزاد الحروف في بعض الجمل للتأكيد، فما أتى الذين من قبلهم من رسول يعني ما أتاهم رسول إلا وصفوه بهذين الوصفين إلا قالوا: ساحر أو مجنون، ساحر باعتبار تأثيره وبيانه وبلاغته، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، أو مجنون ـ يعني أو قالوا: مجنون ـ باعتبار تصرفاته، لأن هذا التصرف في نظر هؤلاء المكذبين جنون، نسأل الله العافية، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصابه ما أصابه تسلى بذلك وهان عليه الأمر، ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخرًا:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

وقد دل لذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، لأن الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته، والمهم أن في هذه الجملة بالنسبة للرسول ﷺ تسلية حتى لا يحزن، فإن ما أصابه قد أصاب غيره، وفيها أيضًا دليل على أن المكذبين للرسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم، لأن المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة، قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي بهذا القول ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ يعني هل هؤلاء المكذبين للرسل الذين اتفقوا على وصف الرسل بأنهم سحرة ومجانين، هل هم تواصوا بذلك؟ يعني هل كل واحد من هؤلاء الأمم كتب وصية إلى الأمم اللاحقة: أن قولوا لأنبيائكم: إنكم سحرة ومجانين؟

الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ وهذا إضراب إبطال يعني لم يحصل تواصٍ، ولكن تواردت الخواطر، لأن الهدف واحد وهو تكذيب الرسل، فاتفقت الكلمة، وفي قوله: ﴿طَاغُونَ﴾ وصف بأن هؤلاء طغاة معتدون، وهذا من أعظم الطغيان ـ والعياذ بالله ـ أن يوصف

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

دعاة الحق بأنهم سحرة ومجانين، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء ولا تهتم بهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني لا أحد يلومك لأنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، وصبرت وصابرت، فلقد صبر النبي ﷺ وصابر على أذى قريش وامتهانهم إياه، ولكنه كانت له العاقبة ولله الحمد، ولهذا قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، بمعنى أنك لا تتعب نفسك بهم، ولا تهلك نفسك فيهم، فأنت في هذه الحال لا تلام على ذلك، لأنه ﷺ قام بما يجب عليه، وفي قوله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أمران:

الأمر الأول: عذر النبي ﷺ وإقامة العذر له.

والثاني: تهديد هؤلاء المكذبين: فالله تعالى يهددهم بتولي الرسول عنهم، لأنهم لا خير فيهم.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أي: ذكر الناس بآيات الله وبأيامه وشرائعه وما أوجب الله على العباد. وبأيامه: عقابه تبارك وتعالى للمكذبين وإثابته للطائعين، لكن أطلق الله الذكرى وقال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولم يقل: وذكر المؤمنين، لكن بين أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون فقال: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن إذا ذكر فهو كما وصفه الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] بل يقبلونها بكل رحابة صدر وبكل طمأنينة، وفي الآية الدليل على وجوب التذكير على كل حال، وفيها أن الذي ينتفع بالذكرى هم المؤمنون، وأن من لا ينتفع بالذكر فهو ليس بمؤمن: إما فاقد الإيمان، وإما ناقص الإيمان، وهنا فتش عن نفسك: هل أنت إذا ذكرت بآيات الله وخوفت من الله عز وجل هل أنت تتذكر أم يبقى قلبك كما هو قاسيًا؟ إن كانت الأولى فاحمد الله فإنك من المؤمنين، وإن كانت الثانية فحاسب نفسك، ولا تلومن إلا نفسك، وعليك أن ترجع إلى الله - عز وجل - حتى تنتفع بالذكرى، وفي الآية دليل على أنه كلما كان الإيمان أقوى كان الانتفاع بالذكرى أعظم وأشد، وذلك من قاعدة معروفة عند العلماء، وهي: أن الحكم إذا علق بوصف ازداد بزيادته ونقص بنقصانه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ما أوجدتهم بعد العدم إلا لهذه الحكمة العظيمة وهي: عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، واللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شرعي، أي لأجل أن يعبدون، حيث آمرهم فيمتثلوا أمري، وليست اللام هنا تعليلا قدريًّا، لأنه لو كان تعليلًا قدريًّا للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية فيَ خلق الجن والإنس، والجن عالم غيبي خلقوا من نار، لأن

أباهم هو إبليس كما قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠] فسموا جنًّا لأنهم مستترون عن الأعين، حيث إنهم يروننا ولا نراهم، هذا هو الأصل أنهم عالم غيبي، لكن قد يظهرون أحيانًا، والأصل فيهم أنهم كالإنس منهم المسلمون، ومنهم غير المسلمين، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك، لكن الإنس يفضلونهم بأنهم أحسن منهم من حيث الابتداء، حيث إنهم خلقوا من الطين، من التراب، من صلصال كالفخار، وأما أولئك الجن فخلقوا من النار، كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فانظر إلى أدبهم في قولهم: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ثم بقائهم حتى انتهى المجلس، ثم ذهبوا دعاة لما سمعوا، قالوا: ﴿أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] إلى آخر الآية، وأما الإنس فهم بنو آدم البشر، هؤلاء خلقوا لشيء واحد، لعبادة الله، لا لأجل أن ينفعوا الله بطاعتهم، ولا أن يضروه بمعاصيهم، ولا أن يطعموه، ولهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] يعني ما أطلب منهم رزقًا أي عطاءً أنتفع به، ولا أن يطعمون فأنتفع بإطعامهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، فهو سبحانه وتعالى له الجود والغنى والكرم وهو غني عما سواه، فالحكمة من خلق الجن والإنس العبادة، فلم يخلقوا لأجل أن يعمروا الأرض، ولا لأجل أن يأكلوا، ولا لأجل أن يشربوا، ولا أن يتمتعوا كما تتمتع الأنعام، وإنما خلقوا لعبادة الله، وخلق لهم ما في الأرض، فنحن مخلوقون للعبادة، وكل ما في الأرض مخلوق لنا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والعجب أن قومنا الآن اشتغلوا فيما خلق لهم عما خلقوا له، وهذامن السفه أن يشتغلوا بشيء خلق لهم، عن شيء خلقوا من أجله.

والعبادة تطلق على معنيين:

المعنى الأول: التعبد، يعني فعل العبد، فيقال: تعبد لله عبادة.

والثاني: المتعبد به، وهذا المعنى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إنه (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فهي اسم جامع لكل شيء، فالصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر

عبادة، وكل ما يقرب إلى الله من قول أو فعل فإنه عبادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] هو الرزاق يعني هو صاحب العطاء الذي يعطي، فالرزق بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، وكلمة (الرزاق) أبلغ من كلمة (الرازق)؛ لأن (الرزاق) صيغة مبالغة تدل على كثرة الرزق، وعلى كثرة المرزوق، فرزق الله تعالى كثير باعتبار كثرة المرزوقين، فكل دابة في الأرض على الله رزقها، من إنسان وحيوان، ومن طائر وزاحف، ومن صغير وكبير، ولا يمكن أن نحصي أنواع المخلوقات على الأرض، ولو قلت لك: أحصِ العوالم التي في الأرض، ما استطعت، فضلا عن أفرادها، فكل فرد منها فإن الله تعالى متكلف برزقه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فإذا كان الأمر كذلك صار رزق الله كثيرًا باعتبار المرزوق، مَن يحصي المرزوقين؟ لا أحد يحصيهم أبدًا، ورزقه كثير باعتبار الواحد، فكم لله عليك من رزق كثير لا يحصى، رزق الله لك دارٌ عليك ليلًا ونهارًا، رزقك عقلًا، وصحة، ومالًا، وولدًا، وأمنًا وأشياء لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، ولهذا جاء اسم (الرزَّاق) بالتشديد الدال على الكثرة، وقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: صاحب القوة التي لا قوة تضادها، كما قال الشاعر الجاهلي:

أَيـنَ المفـرُّ وَالإِلَـهُ الطَّالِـبُ ... وَالأَشْرَمُ المغْلُـوبُ لَـيْسَ الغَالِـبُ

فقوة الله عز وجل لا يضاهيها قوة، قوته ـ عز وجل ـ لا يعتريها ضعف، بخلاف قوة المخلوق، فقوته تنتهي إلى ضعف، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، أما الرب عز وجل فقوته لا يلحقها ضعف بأي وجه من الوجوه، ولما قالت عاد: من أشد منا قوة؟ قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وصدق الله عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ يعني: الشديد، شديد في قوته، شديد في عقابه، شديد في كل ما تقتضي الحكمة الشدة فيه، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، هذه شدة، والله ـ عز وجل ـ أرحم الراحمين، ومع ذلك ينهانا أن تأخذنا الرأفة في الزانية والزاني ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ وهذا دليل على القوة، ومن قوته ـ عز وجل ـ أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يعِ بخلقهن، ومن قوته وقدرته أنه جل وعلا يبعث الناس كنفس واحدة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣: ١٤]، والأمثلة على هذا كثيرة، فهو جل وعلا

له القوة البالغة التي لا يمكن أن تضاهيها أي قوة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي:الذين ظلموا بالكفر لهم ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾، و«الذَّنوب» في الأصل هو الدلو أو ما يستقى به، وشاهد ذلك قوله ﷺ: «أَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ»[1] والمعنى: هؤلاء الظالمون لهم نصيب مثل نصيب من سبقهم ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم، وانظر كيف سمى الله تعالى السابقين بأزمان بعيدة أصحابا لهؤلاء، وذلك لاتفاقهم في التكذيب، ورمي الرسل بما لا يستحقون، فهم أصحاب في الواقع وإن تباعدت الأزمان والأماكن ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، النون هنا مكسورة على أنها نون الوقاية وحذف الضمير: الياء، وأصله:فلا يستعجلوني، فحذفت الياء تخفيفًا، ولهذا لا يشكل على الإنسان فيقول: كيف كانت النون مع أن (لا) ناهية؟ والجواب: أن نقول: هذه النون ليست نون الإعراب، ولكنها نون الوقاية، فالفعل إذًا مجزوم، والنون للوقاية، والياء التي هي المفعول محذوفة، وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تهديد واضح أن هؤلاء سيأتيهم العذاب لا محالة، ولكن لا يستعجلون الله ـ عز وجل ـ لأن الله تعالى يملي للظالم ويمهله حتى إذا أخذه لم يفلته، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[2]، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠] ويل: بمعنى الوعيد والعذاب، يعني أنه يتوعدهم ـ عز وجل ـ من هذا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة؛ لأنهم سيجدون ما أرسل إليهم حقًا، وسيجدون الذل والعار ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، فيكونون من بين هذا العالم ـ نسأل الله العافية ـ على هذا الوجه، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وسيكون هذا اليوم يومًا عسيرًا عليهم، لأنهم كفرة والعياذ بالله.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الذاريات

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٨)، والترمذي (١٤٧)، والنسائي (٥٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

تفسير سورة الطور

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ١: ٦] هذه أشياء أقسم الله بها، **الأول:** الطور وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، فإن الله تعالى كلمه أول ما كلمه على جبل الطور، فكان لهذا الجبل من الشرف والفضل ما سبق به غيره من الجبال، ولهذا أطلق كثير من العلماء أن جبل الطور أفضل الجبال وأشرفها، وعلى هذا يكون أشرف وأفضل من جبل حراء الذي ابتدأ فيه الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا ظاهر إطلاق كثير من العلماء، ولكن في هذا الظاهر نظرًا، لأن جبل حراء كُلِّم منه الرسول ﷺ لكن كلمه جبريل عليه السلام مرسلا من عند الله، فمنه ابتدأت أفضل الرسالات على أفضل الرسل، وأيضًا حراء داخل الحرم المكي، لأنه من الحرم الذي لا يحل صيده ولا قطع شجره، وبقعة الحرم أفضل البقاع، ويمكن أن يحمل إطلاق كثير من العلماء على هذا فيقال: إلا جبل حراء.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الكتاب المسطور في الرق، اختلف فيه العلماء، وهذا الخلاف ينبني على كلمة (رق) هل الرق كل ما يكتب فيه من جلد وورق وعظم وحجر وغير ذلك؟ أو هو خاص بما يكتب فيه من جلود ونحوها؟ إن قلنا بالأول صار المراد بالكتاب عدة أشياء، منها اللوح المحفوظ، ومنها الكتب التي بأيدي الملائكة، ومنها القرآن الكريم، ومنها التوراة، فيشمل عدة كتب، وإذا قلنا: «إن الرق هو الورق وشبهه مما يكتب فيه عادة» فاللوح المحفوظ لا يدخل في هذا، وإنها المراد به إما التوراة، وإما القرآن، فالذين قالوا: «إنه التوراة»رجحوا قولهم بأنه قرن بالطور، والطور هو الذي كلَّم منه موسى ﷺ، فكان الكتاب المسطور هو التوراة التي جاء بها موسى، ومن قال: «إن المراد به القرآن الكريم» رجح ذلك بأن الله ذكر الطور الذي أوحي منه إلى موسى، وذكر الكتاب الذي هو القرآن أوحي إلى محمد ﷺ، فيكون الله تبارك وتعالى ذكر أشرف الرسالات في بني إسرائيل إيماء بذكر الطور، وذكر أشرف

الرسالات التي بعث بها من بني إسماعيل محمد ﷺ، وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالكتاب المسطور القرآن الكريم.

﴿مَّنشُورٍ﴾ صفة لكتاب، ويحتمل أن تكون صفة لرق، والمعنى واحد، والمراد بالمنشور يعني المفرق الذي يكون بأيدي كل قارئ، وهذا يصدق تمامًا على القرآن الكريم، فإنه - ولله الحمد - بين يدي كل قارىء حتى الصغار من المسلمين يقرؤونه.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هذا هو الثالث مما أقسم الله به في هذه الآيات، وهو بيت في السماء السابعة يقال له: الضراح، هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه[1]، فبناءً على هذا كم عدد الملائكة؟ لا يحصيهم إلا الله، من يحصي الأيام؟ ثم من يحصي سبعين ألفًا كل يوم يدخلون هذا البيت المعمور ولا يعودون إليه.

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور بيت الله في الأرض وهو الكعبة؛ لأنه معمور بالطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود، فهل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعًا؟ القاعدة في التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين على السواء وليس بينهما منافاة وجب أن تحمل على كل منهما، لأن المتكلم بها وهو الله - جل وعلا - عالم بما تحتمله من المعاني، وإذا لم يبين أن المراد أحد المعاني فإنه يجب أن تحمل على كل ما تحتمله من المعاني الصحيحة لا المعاني الباطلة)، وليس هناك منافاة بين أن يكون المقسم به الكعبة أو البيت المعمور في السماء.

لأن كلا البيتين معظم، ذاك معظم في أهل السماء، وهذا معظم في أهل الأرض، ولا مانع، فالصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، إلا إذا وُجد قرينة ترجح أن المراد به البيت المعمور في السماء ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فالسماء سقف، والسماء مرفوعة، إذن فالسقف المرفوع هو السماء، وسماه الله سقفًا لأنه قد غمر جميع الأرض من جميع الجوانب، كما يغمر السقف الحجرة من جميع الجوانب، وإنما أقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من الآيات العظيمة من نجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان، قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣: ٤] يعني مرة بعد مرة ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، وأخبر أنه ليست للسماء فروج، وليس فيها تشقق وليس فيها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢).

عيب، وليس فيها تصدُّع، ولا تبلى على طول المدة، فهي جديرة بأن يقسم الله بها.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ كلمة البحر قيل: إن المراد به البحر الذي عليه عرش الرحمن ـ عز وجل ـ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقيل: المراد به البحر الذي في الأرض لأنه المشاهد المعلوم الذي فيه من آيات الله ما يبهر العقول، والصحيح أن المراد به بحر الأرض، لأن (أل) في ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ للعهد الذهني، يعني البحر المعهود الذي تعرفونه، فأقسم الله به لما فيه من آيات الله العظيمة من أسماك وأمواج وغير هذا مما نعلمه وما لا نعلمه، ومن أعظم ما فيه من آيات الله ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ يعني الممنوع، ومنه سجرت الكلب يعني ربطته حتى لا يهرب، فالبحر ممنوع بقدرة الله عز وجل، إننا نعلم جميعًا أن الأرض كروية، وهذا البحر لو نظرنا إليه بمقتضى الطبيعة لكان يفيض على الأرض، لأنه لا جدران تمنع، والأرض كروية مثل الكرة، فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطبيعة لقلنا: لابد أن يفيض على الأرض فيغرقها، ولكن الله تبارك وتعالى أمسكه بقدرته سبحانه وتعالى، فهو مسجور، أي: ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها، وهذه آية من آيات الله، فلو صب فوق الكرة ماء لذهب يغمرها يمينًا وشمالًا، لكن هذا البحر لا يمكن أن يفيض على الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى الحكمة: تأتي أيام المد والجزر، نفس البحر يمتد امتدادًا عظيمًا لعدة أمتار وربما أميال، ثم ينحسر، مَن الذي مده؟ ولو شاء لبقي ممتدًا حتى يغرق الأرض، ومن الذي رده؟ هو الله، ولهذا كان هذا البحر جديرًا بأن يقسم الله به، وفي البحر آيات عظيمة، يقال: إنه ما من شيء على البر من حيوان وأشجار إلا وله نظير في البحر بل أزيد، لأن البحر بالنسبة لليابس يمثل أكثر من سبعين في المائة، وفيه أشياء لا نرى لها نظيرًا في البر، وهذا من آيات الله عز وجل، وأعظم آية في البحر هو أنه مسجور، أي ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الذي سيسجر، أي: يوقد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. أي: أوقدت. وهذا يكون يوم القيامة، هذا الماء الذي نشاهده الآن والذي لو سقطت فيه جمرة، أو مر على جمرة لأطفأها، يوم القيامة يكون نارًا يسجر، وهذا من آيات الله ـ عز وجل ـ والمراد به المعنيان جميعًا؛ لأنه لا منافاة بين هذا وهذا، فكلاهما من آيات الله ـ عز وجل ـ، أي سواء قلنا المسجور الممنوع من أن يفيض على الأرض، أو المسجور الذي سيسجر أي يوقد، فكل ذلك من آيات الله، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسمًا بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها

خمس مرات، والثاني: بـ(أن)، والثالث: باللام.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ يعني لابد أن يقع عذاب الله الذي وعد به، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة، وكان عمر -رضي الله عنه- إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعُاد، يمرض من شدة ما يقع على قلبه من التأثر حتى يُعاد، فإذا كان واقعًا وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ يعني لابد أن يقع، ولكن هل هذا التأكيد بالنسبة لعذاب المؤمنين أو لعذاب الكافرين؟ لننظر قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١: ٣]، فضم هذه الآية إلى الآية التي في الطور تجد أن قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ على الكافرين، فعذاب الله على الكافرين ليس له دافع، لا أحد يدفعه، لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه، ولهذا لا تنفعهم الشفاعة فيرفع عنهم العذاب، أما عذاب الله للمؤمن المذنب فإن الأصل أنه واقع، كل ذنب توعد الله عليه بالعذاب فالأصل أنه واقع، لكنه مع ذلك قد يرفع بفضل من الله -عز وجل- وقد يرفع بالشفاعة، وقد يرفع بأعمال صالحة تغمر الأعمال السيئة، أما ترى أن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ألم تعلم أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(١) فيرتفع عنه العذاب، وعلى هذا نقول: عذاب الله واقع على الكافرين لا محالة، ولا دافع له، أما على عصاة المؤمنين فإن الأصل الوقوع، وقد أنذر الله العباد وخوَّفهم وبيَّن لهم، لكن مع ذلك قد يرتفع بأسباب متعددة، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾، ﴿مَّا﴾ نافية، و﴿دَافِعٖ﴾ مبتدأ مؤخر، دخلت عليها ﴿من﴾ الزائدة للتوكيد، يعني ما من أحد ولو عظمت منزلته وقوته يدفع أو يرفع عذاب الله -عز وجل- لأن ﴿دَافِعٖ﴾ هنا تشمل المنع قبل الوقوع، والرفع بعد الوقوع لا أحد يدفع عذاب الله ولا يمنعه عن أن ينزل ولا يرفعه إذا نزل، وإنما ذلك إلى الله وحده، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بعفوه، وأن يغفر لنا ما سلف من ذنوبنا وما حضر، إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ٩: ١١]

هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ متعلقة بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ يعني أن العذاب يقع في ذلك اليوم، قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ قد يظن الظانّ أن المصدر هنا ﴿مَوۡرٗا﴾ لمجرد

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٤٨)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٧٧).

التوكيد، ولكنه ليس كذلك، بل هو لبيان تعظيم هذا المور، والمور بمعنى الاضطراب، يعني أن السماء تضطرب وتتشقق، وتتفتح وتختلف عما هي عليه اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ... وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ١: ٥]، ولا إنسان يتصور أو يعلم حقيقة ذلك اليوم، ولكننا نعلم المعنى بما أخبر الله به عنه، أما الحقيقة فهي شيء فوق ما نتصوره الآن، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٣] أي: تسير سيرًا عظيمًا، وذلك أن الجبال تكون هباءً منثورًا، وتتطاير كما تتطاير الغيوم، وتسير سيرًا عظيمًا هائلًا، لشدة هول ذلك اليوم، وهذه الآية تدل على أن قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. فإن هذه الآية هي نفس هذه الآية التي في ﴿الطور﴾ من حيث المعنى، فيكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني يوم القيامة ولا شك، ومن فسرها بأن ذلك في الدنيا وأنه دليل على أن الأرض تدور فقد حرَّف الكَلم عن مواضعه، وقال على الله ما لا يعلم، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا، فلابد أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السنة، وإما من تفسير الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١). والمهم أن تفسير قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يراد به ما في الدنيا، تفسير باطل لا يجوز الاعتماد عليه، ولا المعول عليه، أما كون الأرض تدور أو لا تدور، فهذا يعلم من دليل آخر، إما بحسب الواقع، وإما بالقرآن، وإما بالسنة، ولا يجوز أبدًا أن نحمل القرآن معاني لا يدل عليها من أجل أن نؤيد نظرية أو أمرًا واقعًا، لكنه لا يدل عليه اللفظ، لأن هذا أمر خطير جدًّا.

قال الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (ويل) كلمة وعيد وتهديد، وإن كان قد روي أنها واد في جهنم(٢)، لكن الصواب أنها كلمة تهديد ووعيد، ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: المكذبين لله ورسوله، الجاحدين لما قامت الأدلة على ثبوته؛ فإنهم سيجدون في ذلك اليوم من العذاب والنكال ما لا يخطر لهم على بال، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢] أي في الدنيا ﴿فِي

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٧٨٣).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٧٥)، والترمذي (٣١٦٤)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦١٤٨).

خَوْضٍ﴾ أي: في كلام باطل ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: لا يقولون الجد ولا يعملون بالجد، وإنما أعمالهم كلها لعب ولهو، ولذلك تجد أعمارهم ليس فيها بركة، تمر بهم الليالي والأيام لا يستفيدون شيئًا، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] هذه متعلقة بما سبق أيضًا، ﴿وَيُدَعُّونَ﴾ بمعنى: يدفعون بعنف وشدة إلى نار جهنم دعًّا؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ تمثل لهم النار كأنها سراب، أي كأنها حوض نهر، وهم على أشد ما يكونون من العطش، فيذهبون إليها سراعًا، يريدون أن يشربوا منها حتى يزول عنهم العطش، فإذا بلغوها وإذا هي النار ـ والعياذ بالله ـ فكأنهم ـ والله أعلم ـ يتوقفون لئلا يتساقطوا فيها، فيدعُّون إليها دعًّا، أي يُدفعون بعنف وشدة فيتساقطون فيها ـ أجارنا الله من ذلك، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] كانوا في الدنيا يقولون: لا بعث ولا جزاء، ولا عقوبة ولا نار، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا بعث، فيقال لهم توبيخًا على هذا الإنكار: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فما أشد حسرتهم إذا وُبِّخوا على أمر كان في إمكانهم أن يتخلوا عنه، ولكنهم الآن لا يستطيعون لذلك سبيلًا، يقولون إذا وقفوا على النار: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، أي: حتى لو ردوا إلى الدنيا عادوا وكذبوا، فلن يستقيموا على أمر الله، لكن يقولون هذا تمنيًا. ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني أفهذا الذي ترون اليوم سحر كما كنتم تقولون ذلك في الدنيا، حيث يقولون: إن ما جاءت به الرسل سحر، ويصفون الرسول بأنه ساحر، فيقال: أسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، يعني لا تبصرون بعين البصيرة، بل أنتم عمي عن الحق ـ والعياذ بالله ـ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] أي: احترقوا بها، والأمر هنا للإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٩: ٥٠]. فانظر إلى هؤلاء كيف تتهكم بهم الملائكة وتذلهم وتخزيهم ـ والعياذ بالله ـ وتبينهم، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن الصبر وعدمه سواء عليكم، ومعنى هذا أنه لن يفرج عنكم، سواء صبرتم أم لم تصبروا، مع أنه في الدنيا إذا أصيب الإنسان بشيء وصبر فإنه يفرج عنه، كما قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ما تجزون إلا ما عملتم فلم تُظلموا شيئًا، ثم ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، والتوكيد أسلوب من أساليب اللغة العربية، مستعمل عند العرب، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، وإلا ففي الواقع أن خبر الله ـ عز وجل ـ لا يحتاج إلى توكيد؛ لأنه أصدق القول، فالرب ـ عز وجل ـ إذا أخبر بخبر فإنه لا يحتاج إلى أن يؤكد، لأن خبر الله صدق، لكن لما كان القرآن العظيم نزل بلسان عربي صار جاريًا على ما كان يعرفه العرب في لغتهم فهنا أكد الله ـ عز وجل ـ هذه الجملة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالًا لأمره واجتنابا لنهيه، هذه هي التقوى، فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالًا لأمر الله نقول: هو متق، والذي يدع الزنا نقول: هو متقٍ بترك الزنا، وإنما سمي ذلك تقوى لأنه وقاية من عذاب الله، فإن الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله ـ عز وجل ـ، هؤلاء المتقون يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وجنات جمع جنة، وهي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين في الآخرة، بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وإذا قلنا: إن الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده في الدار الآخرة، فهل يمكن أن تكون في الدنيا؟ نقول: أما بالنسبة لدخول الجنة التي هي الجنة فهذا لا يمكن في الدنيا، أما بالنسبة لكون الإنسان يأتيه من نعيم الجنة ما يأتيه فهذا يمكن، وذلك في القبر إذا سُئل الإنسان عن ربه، ودينه ونبيه فأجاب الصواب، فإنه يفرش له فراش من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويُفسح له في قبره مُدَّ البصر[1]، وجمعت الجنات في الآية لأنها أنواع، ذكر الله في سورة الرحمن أربعة أنواع ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]: هذه الجنان الأربع تختلف بما جاء في وصفها في سورة الرحمن، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي نعيم البدن، ونعيم القلب، فهم في سرور دائم، وهم في صحة دائمة، وهم في حياة دائمة، فجميع أنواع النعيم كاملة لهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم، ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨] ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، الفاكه هو المسرور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧)، و أبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١] أي: مسرورين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: بما أعطاهم ربهم من النعيم، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فحصلوا على السلامة من الشرور بوقاية الجحيم، وعلى تمام السرور في جنات النعيم، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩] (كلوا واشربوا) فعل أمر، وهذا الأمر ليس تكليفًا وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يقال لهم: كلوا من كل ما في الجنة من النعيم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وفيها من كل النعيم، ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ مما فيها من الأنهار، وأنهار الجنة ذكرها الله تعالى أربعة في سورة القتال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

هذه أربعة أنهار: من ماء غير آسن، أي: غير متغير، والمياه في الدنيا إذا لم يأتها ما يمدها وبقيت راكدة لابد أن تتغير فتكون آسنة، وماء الجنة لا يتغير، غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، واللبن في الدنيا إذا أبقي يتغير ويفسد، لكن في الآخرة لا يتغير، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وخمر الدنيا فيه رائحة كريهة ثم أنه يقلب العاقل إلى مجنون، وفيه أيضًا الصداع، وفيه فساد المعدة، لكنه في الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين، وقد قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]. والرابع: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] ﴿هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الهنيء هو الذي لا يكون له عاقبة سيئة، ولا تبعة من تجاوز أو إسراف، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تعملون، (فالباء) هنا للسببية، وليست الباء للعوض، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»[1].

فإن قيل: إن الله تعالى قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فجعل الله تعالى ذلك بسبب العمل، والرسول ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» مع أن الله يقول: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

والجواب على هذا الإشكال أن يقال: الباء تأتي للسببية، وتأتي للبدلية، فإذا قيل: دخل الرجل الجنة بعمله، فالمعنى السببية، وإذا قال: لن يدخل الجنة أحد بعمله، فالمعنى البدلية، وأضرب مثلا يبين هذا: بعتك الثوب بدرهم، فالباء للبدلية، لأن الدرهم صار عوضًا عن الثوب، وإذا قلت: أدبت الولد بعبثه، هذه للسببية، إذن كلنا لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

حاسبنا على عملنا ما قابل عملنا نعمة من نعم الله نعمة واحدة، فالنَّفَسُ الآن الذي هو من ضرورة الحياة يخرج منك ويدخل بدون تعب، وبدون مشقة، وكم يتنفس الإنسان في الدقيقة؟! فلو أننا حوسبنا على أعمالنا بالمعاوضة والمبادلة لكانت نعمة واحدة تستوعب جميع العمل، ونحن الآن لا نحس بنعمة النَّفس، لكن لو أصيب أحد منا بكتم النفس لوجد أن النفس من أكبر نعم الله، لذلك نقول: إن الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسببية وليست للبدلية، وفي قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ شمول لكل العمل: الجوارح، والقلب، واللسان. فالجوارح: كالأفعال، كالركوع، والسجود. والأقوال: كالأذكار. والقلوب: كالخوف، والرجاء، والتوكل وما أشبه ذلك، فكل هذه تسمى أعمالنا.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم متكئين، والمتكئ تدل هيئته على أنه في سرور وانشراح وطمأنينة، لأن الاتكاء يدل على ذلك، والسرر جمع سرير، وهي الكراسي الفخمة المهيئة أحسن تهيئة للجالس عليها، ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصفوف بعضها إلى بعض، يصفها الخدم والولدان، ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، أي: قرناهم بحور عين، والحور جمع حوراء، والعين جمع عيناء، والأصل الحور هو البياض، وأما العيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهن حسان الوجوه، حسان الأعين، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعًا هي الذرية الصغار، فيقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأما الكبار الذين تزوجوا فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بآبائهم، لأن لهم ذرية فهم في مقرهم، أما الذرية الصغار التابعون لآبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: نقصناهم، يعني أن ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هذه قاعدة عامة في جميع العاملين: أن كل واحد فإنه رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أما الزيادة فهي فضل من الله تبارك وتعالى على من شاء من عباده، ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمرًا إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله تبارك وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى

ما يكون من اللحم وأبرأه وأمرأه.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ [الطور: ٢٣] ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضًا على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأنس والانشراح، ﴿كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ والمراد بها كأس الخمر، ومعنى ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض، ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ [الطور: ٢٤] ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي: الغلمان ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥] أي صار بعضهم يسائل بعضًا، لكنه على وجه الأدب يتكلم معه وهو مقابل له لوجهه فلا يصعر خده له ولا يستدبره، بل يتكلم معه بأدب ومقابلة تامة، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: عذاب النار، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل أن نصل إلى هذا المقر، وذلك في الدنيا ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ أي: نعبده ونسأله، لأن الدعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السؤال.

فمن إطلاقه على العبادة :قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وأما الدعاء بمعنى السؤال: ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يشمل دعاء العبادة كالصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، كل هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلو سألت الداعي: لماذا تعبد الله؟ ولو سألت العابد: لماذا تعبد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدعاء، كذلك ندعوه دعاء مسألة، لا يسألون غير الله ولا يلجئون إلا إلى الله، لأنهم يعلمون أنهم مفتقرون إليه، وأنه هو القادر على كل شيء؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ بمعنى الواسع

الإحسان والرحمة، ومن ذلك البريـــة، للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنه جل وعلا واسع الإحسان والعطاء والجود ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي ذو الرحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تبارك وتعالى، وفي هذه الآيات بيان نعيم أهل الجنة، وفيها أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عذاب أهل النار ذكر نعيم أهل الجنة، لأن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، إذا ذكر فيه الخير ذكر فيه الشر، وإذا ذكر فيه نعيم المتقين ذكر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتى يكون قارئ القرآن بين الخوف والرجاء، إن قرأ آيات النعيم رجا، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبد الله تبارك وتعالى بهذا وهذا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنات الناجين من الدركات، إنه على كل شيء قدير.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمذكر محذوف، والتقدير: ذكر الناس، أو إن شئت فقل: ذكر من أرسلت إليهم من الجن والإنس، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذا نفي لما ادعاه المكذبون للرسول ﷺ بأنه كاهن أو مجنون، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي بإنعام ربك عليك بما أنزل عليك من الوحي لست ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، والكاهن هو الذي يخبر عن الغيبيات في المستقبل، وكانت الكهانة في الجاهلية مشهورة، يكون للإنسان رئي من الجن يصحبه ويخدمه، ثم يصعد الجني إلى السماء يستمع ما يقال في السماء، وينزل به على هذا الكاهن، فيكون هذا علم غيب عن أهل الأرض، لكن الكاهن يزيد عليه أشياء كثيرة يتخرصها، فإذا وقع ما سمعه من السماء صار عظيمًا في قومه، لأنه أخبر عن شيء مستقبل فوقع، فالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما جاء بالوحي رده المشركون وكذبوه، وقالوا: إنما جاء به محمد من الكهانة، لأن الكهان يخبرون عن الشيء فيقع، ولأن الكهان أيضًا يأتون بكلام مسجوع يشبه القرآن، والقرآن آيات مفصلة، أتى بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولهذا قال النبي ﷺ في كلام حمل بن النابغة الذي قال: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل؟ فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ»[1]، من أجل سجعه الذي سجع، فهم يقولون: إن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاهن، فنفى الله ذلك، ثم قالوا: إنه مجنون يأتي بما لا يعرف، فكذبهم الله فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذه الجملة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٦٠)، ومسلم (١٦٨١).

منفية مؤكدة بالباء، الباء الزائدة إعرابًا، المفيدة معنى، وأصلها :(فما أنت بنعمة ربك كاهنًا ولا مجنونًا) لكن زيدت الباء توكيدًا للنفي، ثم قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني بل أيقولون، و(أم) هذه تسمى عند المعربين منقطعة، يعني لا عاطفة، لأن (أم) تأتي عاطفة وتأتي منقطعة، فهنا منقطعة، والتقدير: (بل أيقولون شاعر؟)، والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم، والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى ويتضمن شعره أحيانًا حكمًا، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١)، «وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً»(٢)، فيقولون: محمد شاعر ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي ننتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: حوادث الدهر وقوارعه، فيهلك كما هلك الشعراء من قبله، ولا يكون له أثر، فانظر - والعياذ بالله - كيف يترقبون موت الرسول ﷺ يقولون: هذا شاعر من جنس الشعراء يهلك وينتهي أمره، وقوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، قيل: إن المنون هو الدهر، وقيل: إن المنون هو الموت، وهما متلازمان، والمراد بذلك حوادث الدهر المهلكة المبيدة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾، والأمر هنا للتهديد والتحدي أيضًا، تربصوا بهذا الشاعر ريب المنون، وانظروا هل يموت وتموت دعوته، أو أنكم أنتم تموتون وتموت معارضتكم؟ ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ يعني فأنا منتظر أيضًا، انتظروا أنتم، وأنا أنتظر لمن تكون العاقبة، وصارت العاقبة والحمد لله للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ أم هنا نقول: إنها منقطعة، و(أم)المنقطعة تقدر بـ(بل)، والتقدير: بل أتأمرهم؟ وهذا انتقال من الأول إلى الثاني، ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ فيقولون: إنه مجنون إنه كاهن، إنه شاعر، هل عقولهم تأمرهم بهذا؟ الجواب: ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ أي بل لا تأمرهم عقولهم بهذا، وكثير منهم يعلم أن محمدًا رسول الله ﷺ حق، لكن غلبتهم الكبرياء - والعياذ بالله - فأنكروا وكذبوا، ولهذا قال: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم قوم طاغون معتدون ظالمون، وأصل الطغيان مجاوزة الحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ازداد وارتفع عن عادته ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ بل هم قوم طاغون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ (أم) هنا منقطعة بمعنى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦)، والترمذي (٢٠٢٨)، وأبو داود (٥٠٠٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤٥)، وأبو داود (٥٠١٠)، وابن ماجه (٣٧٥٥).

(بل) والهمزة، والمعنى: بل أيقولون تقوله؟أي: اختلقه وكذب به، وهذا قسم منهم، قالوا: محمد ﷺ تقوَّل هذا القرآن واختلقه من عنده، وبعضهم يقولون: إنما يعلمه بشر، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لعلموا أن القرآن لا يمكن أن يتقوَّله بشر، لأن كلام الله عز وجل لا يشبهه أي كلام، ثم تحداهم فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] يعني إذا كنت أنت تقوَّلته فأنت مثلهم بشر تتكلم كما يتكلمون، وتخطب كما يخطبون، وتقول كما يقولون، فإذا كنت متقوِّلا له وهو من عندك فليأتوا بحديث مثله، لأن البشر يمكن أن يأتي بكلام يشبه كلام البشر الآخر، فإذا كان محمد ﷺ تقوَّله فهاتوا مثله ﴿فَلْيَأْتُوا﴾، اللام هنا للأمر، والمقصود به التحدي والتعجيز، ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، وهذا غاية التحدي، فعجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بحديث مثله، مع أنهم أمراء البلاغة وسلاطين الفصاحة، لكن عجزوا، فدل عجزهم على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من كلام الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾، ومع قوة المعارضة وقوة البلاغة والفصاحة عجزوا أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، فدل ذلك على أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يتقوله، ولن يستطيع أن يأتي بمثله، وفي قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ كلمة (حديث) نكرة، والنكرة تدل على الإطلاق، لكن جاء في آية أخرى أن الله قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]. وجاء في آية أخرى الإخبار بأنه لن يستطيع أحد أن يعارض القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فتبين بطلان قولهم: إنه تقوَّله؛ لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثله، إن كانوا صادقين في دعواهم أنك تقوَّلته فليأتوا بحديث مثله ولكنهم عجزوا.

ثم قال الله تعالى مستدلا بربوبيته على ألوهيته قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] بمعنى بل، والهمزة: (بل أخلقوا من غير شيء) أي: من غير خالق، أم هم الخالقون؟ والجواب: لا خلقوا من غير خالق: ولا هم الخالقون، أما كونهم لم يخلقوا من غير خالق، فلأن القاعدة العقلية الحسية التي أجمع عليها العقلاء: أن كل مُحْدَثٍ لابد له من محدث، فإذا كان كل محدث لابد له من مُحْدِثٍ، فإذا نظرنا في أنفسنا فنحن حادثون، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. فالواحد منا الذي له عشرون

سنة، هو قبل اثنتين وعشرين سنة ليس شيئًا مذكورًا، ولا يعرف ولا يدرى عنه، إذن نحن حادثون، وكل حادث لابد له من مُحدث، فهل أنتم خلقتم بغير محدث؟ الجواب: لا، وهذا جواب عقلي لا ينكر، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ الجواب: لا، لأنهم قبل أن يوجدوا عدم، وكيف يمكن للعدم أن يخلق؟ لا يمكن هذا، فإذا تبين أنهم لم يخلقوا من غير خالق وأنهم لم يخلقوا أنفسهم تعين أن يكون لهم خالق قادر على إيجادهم وهو الله عز وجل، ولا يستطيع أحد منهم أن يقول: إن الذي خلقني أبي أو أمي، فإذا لم يكن كذلك تعين أن يكون لهم خالق وهو الله تبارك وتعالى، وإذا كان لهم خالق وهم مخلوقون مربوبون مدبرون فالواجب أن يخضعوا لهذا الخالق، وأن يعبدوه وحده، كما أنه هو الخالق وحده، وهذه الآية سمعها جبير بن مطعم وكان قد قدم إلى المدينة ـ وهو مشرك ـ على النبي ﷺ في طلب الفداء لأسرى بدر، وغزوة بدر انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم والحمد لله ـ وقتلوا من قريش سبعين رجلًا، وأسروا سبعين رجلًا، وجاءوا بهم إلى المدينة، وانقسموا إلى أقسام، منهم من أطلقه النبي ﷺ ومنّ عليه، ومنهم من فداه بمال، ومنهم من فداه بأسير، ومنهم من فداه بتعليم أهل المدينة الكتابة، وجبير بن مطعم أتى إلى النبي ﷺ يطلب فداء أسرى بدر لأنه من صميم قريش، والأسرى أيضًا من قريش.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ: أن جبيرًا سمع قول النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[1]، وذلك أن مطعم بن عدي لما رجع النبي ﷺ من الطائف أجاره، وصار يمشي معه من حين دخل مكة إلى أن وصل إلى الكعبة، وأمر أبناءه وهم متقلدو السيوف أن يقف كل واحد على ركن من أركان الكعبة حتى لا يعتدي على الرسول أحد، وقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى مطعم، فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا بل مجير. قال: إذًا لا تُخْفَر. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه. فهو أحسن إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ وهو أوفى الناس ﷺ بكرمه قال: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» أي: الأسرى، ووصفهم بأنهم نتنى؛ لأن المشركين نجس، والنتن هو الرائحة الكريهة «فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» و«جبير» ابنه فلعله ـ والله أعلم ـ سمع بهذه المقالة فجاء إلى النبي ﷺ يطلب فداء الأسرى، وكان الرسول ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور ولما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قال جبير: (كاد قلبي يطير) لأن هذه حجة ملزمة لا يمكن أن يتخلص منها أحد، قال: (ووقر الإيمان

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٣٩)، وأبو داود (٢٦٨٩).

في قلبي) يعني معناه أنه دخل الإيمان في قلبه، سبحان الله، فانظر تأثير القرآن الكريم مع أن الرسول ﷺ ما دعاه في تلك الساعة، لكن سمع هذه الآية العجيبة العظيمة، فكاد قلبه يطير، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ والجواب بكل سهولة: لا، في الأمرين، لا خلقوا من غير شيء، ولا هم الخالقون، بل لهم خالق وهو الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يمكن أن ينكر هاتين المقدمتين كلها حجة قطعية تدمغ كل كافر، يعني إذا قال: «نعم لي خالق خلقني»قلنا: إذن لماذا لا تعبده، لأنك عبد له مملوك له؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ انتقل من الأدنى إلى الأعلى؛ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فانتقل من الأدنى إلى الأعلى ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟والجواب: لا، لأن (أم) هنا مثل سابقاتها، بل أخلقوا السموات والأرض؟ والجواب: لا، وهم يقرون بهذا، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ولكن مع ذلك لا يعترفون بالرسالة، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، يعني ليس عندهم إيقان في خلق السموات والأرض أن الذي خلقهم هو الله، لأنه لو كان عندهم يقين لحملهم هذا اليقين على تصديق النبي ﷺ والإقرار برسالته، وهذه الإلزامات العظيمة التي ألزم الله تعالى بها قريشًا كل هذا من أجل إقامة الحجة عليهم، ولو شاء سبحانه وتعالى لعاقبهم بدون أن تكون هذه المجادلة وهذه المناقشة.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] (أم) هنا بمعنى (بل) والهمزة، يعني: بل أعندهم خزائن الله، يعني خزائن رزق الله -عز وجل- حتى يمنعوا من شاءوا، ويعطوا من شاءوا -؟ والجواب: ليس عندهم ذلك، ولا يملكون شيئًا من هذا، بل الذي يملك الرزق عطاء ومنعًا هو الله تبارك وتعالى، ولما نفى أن يكون عندهم خزائن الله، قال: ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ يعني بل أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والكلمة؟ والجواب: لا، فإذا لم يكن لهم شيء من هذا صاروا مربوبين، وصاروا أذلاء أمام قوة الله -عز وجل-.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨] يعني بل ألهم سلم يستمعون فيه، والسلم هو المصعد والمرقى، والمعنى: هل لهم سلم يصعدون فيه على السماء يستمعون ما يقال في السماء؟ والجواب: لا، فإن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة على أنه استمع ما يقال في السماء، والجواب: لن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، اللهم إلا الكهنة الذين لهم رئي من الجن يستمع إلى ما يقال في السماء، ثم يكذب مائة كذبة على ما سمع، فيصدق بتلك الكلمة

التي سمعها من السماء، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩] وهذا أيضًا بمعنى (بل)، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني أيكون لله البنات ولهم البنون؟! لأنهم ادعوا أن جند الله تعالى بنات، وأن لهم البنين، ومعلوم أن من له البنين غالب على من له البنات، لأن جنده رجال ذكور، أقوى وأحزم وأقدم من النساء، وقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، كما قال الله تعالى عنهم ذلك قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:١٩]، يعني لم يشهدوا خلقهم حتى يقولوا: إنهم بنات، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أي شهادتهم هذه التي هي زور وكذب، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾، فهؤلاء المكذبون للرسول ﷺ من قريش قالوا: لهم البنون ولله البنات، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. والذين يشتهون هم الذكور، حتى إن أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أي: مملوء غيظًا وغمًّا ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٨] يختبئ من القوم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨]، ثم يتردد ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: ٥٨] أي: على ذل وهوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٨] يرميه فيه وهذه المؤودة؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] يعني بل أتسألهم؟ والاستفهام هنا للنفي وكل (أم) هنا الاستفهام للنفي والتوبيخ، يعني هل أنت يا محمد حين دعوتهم إلى الله ـ عز وجل ـ هل أنت تقول أعطوني أجرًا مثقلًا كبيرًا لا يستطيعونه حتى يردوك؟ والجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد: أعطني أجرًا على دعوتي إياك، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب، كما أعطى المؤلفة قلوبهم من الأموال شيئًا عظيمًا، وليس يطلب من أحد أي عوض على ما جاء به من الرسالة، واستدل بعض أهل العلم على أنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجرًا على تعليم العلم بمعنى مؤاجرة، يقول الإنسان: لا أعلمك إلا بكذا وكذا، لكن هذا فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»[1].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور:٤١] أي: ماغاب عن الناس فهم يحفظونه، والجواب: لا، ليس عندهم علم الغيب، بل إن الرسول ﷺ نفسه لا يعلم شيئًا من الغيب، يكون الشيء في داره لا يعلمه، حتى إنه دخل ذات يوم والبرمة على النار تغلي باللحم، ولم يعلم ما هو، وحتى إن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

أبا هريرة كان معه فانخنس منه ولم يعلم لأي شيء ذهب، فالحاصل: أن الرسول ﷺ نفسه لا يعلم الغيب، فمن دونه من باب أولى، وقد أمره الله تعالى أن يعلن بأنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٥٠]. وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾؟ والجواب: لا، ثم قال: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ [الطور: ٤٢] يعني أيريد هؤلاء أن يكيدوا لك يا محمد بإبطال دعوتك، وإهلاكك وإماتتك؟

الجواب: نعم، ولكن كيدهم ليس بشيء بالنسبة إلى كيد الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقد كادوا له أعظم كيد، فإنهم اجتمعوا ماذا يصنعون بمحمد لما رأوا دعوته تنتشر، وأنه لا قبل لهم بردها، اجتمعوا يتشاورون، وذكروا ثلاثة آراء: الحبس، والقتل، والإخراج، ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] أي: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ واستقر رأيهم على القتل، لكن من يستطيع أن يقتله، لأن بني هاشم سوف يطالبون؟ قالوا: يجتمع عشرة شبان من قبائل متفرقة من العرب، ويعطى كل واحد منهم سيفًا صارمًا، ويضربون محمدًا ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن المطالبة، فعلوا ذلك، ولكنهم مكروا ومكر الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، فأنجاه الله منهم ثم أذن له أن يهاجر، فهاجر إلى المدينة، ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ الجملة هنا جملة اسمية معرف طرفاها مفصولة بضمير الفصل، مما يدل على التوكيد والحصر، يعني:فالكيد للذين كفروا. وهنا قال تعالى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ لم يقل: أم يريدون كيدًا فهم المكيدون، وهذا الأسلوب عند علماء البلاغة يسمى الإظهار في موضع الإضمار، ومعناه بدل أن يقال: (فهم المكيدون)، قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولهذا فائدة بل أكثر إذا قال ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه: أن هؤلاء كفار، ومعناه أن من كان كافرًا فهو المكيد، وإن كان من غير هؤلاء، هاتان فائدتان معنويتان.

الفائدة الثالثة: تنبيه المخاطب، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد ربما يغفل الإنسان، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن النسق انتبه، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣] يعني بل ألهم إله غير الله؟ والجواب :حقيقة: لا. وادعاءً: نعم لهم آلهة غير الله يعبدونها: اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام المعروفة عند العرب، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾ فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عما يشرك به هؤلاء، ليبين أن هذه الأصنام باطلة، وأن الله منزه عن كل شريك.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] الكسف معناه قطع العذاب، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ وهذا يدل على أنهم يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، وأن هذا الكسف النازل قطع العذاب ما هي إلا سحب متراكمة، وهذا كقول عاد حين رأوا الرياح مقبلة عليهم قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. لأن هؤلاء المكذبين ـ والعياذ بالله ـ معاندون يرون أنهم على حق، وأنهم غير مستحقين للعذاب، فإذا رأوا العذاب قالوا: هذا شيء عادي، ولن نهابه ولن نخافه، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أتركهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ [الأنعام: ٩١] بأقوالهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بأفعالهم ويلهون في الدنيا ويرون أنهم على حق ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] وهو يوم موتهم، يعني اترك هؤلاء فإن مآلهم إلى الموت وإن فروا، وهم إذا لاقوا يومهم الذي يوعدون عرفوا أنهم على باطل، وأن محمدًا ﷺ على الحق ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦] فإذا جاءهم الموت ما أغنى عنهم كيدهم شيئًا؛ لأنهم في قبضة الله، وقد انتهى استعتابهم، وليس أمامهم إلا العذاب، ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الطور: ٤٧] والمراد بهم الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني دون عذاب الموت، وهو ما أصيبوا به من الجدب والقحط والخوف والحروب وغير ذلك مما كان قبل الموت، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، بل أكثرهم في غفلة عن هذا، ولا يظنون أن ذلك من العذاب في شيء.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] اصبر يا محمد ﷺ، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقوله: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، يعني: اصبر لما حكم به ربك من وجوب إبلاغ الرسالة وإن أصابك ما يصيبك، واصبر لحكم ربك القدري الكوني، وهو ما يقدره الله تعالى عليك من هؤلاء السفهاء من السخرية والعدوان والظلم، ولقد أوذي النبي ﷺ كما أوذي إخوانه من المرسلين، أوذي إيذاءً عظيمًا، وضع الكفار سلا الجزور على ظهره وهو ساجد تحت الكعبة، في آمن مكان[1]، وضرب، ورمي بالحجارة حين خرج إلى أهل الطائف حتى أدموا عقبه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يفق إلا وهو في قرن الثعالب، ويلقون القاذورات

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٠)، و مسلم (١٧٩٤).

والأتان على عتبة بابه ﷺ، ويقول: «أي جوار هذا»؟! وهذا من امتثال أمر الله، حيث قال الله له: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فإننا نراك بأعيننا ونراقبك ونلاحظك، ونعتني بك، وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى: أنت مني على مرأى، وعلى رقابة، وعلى حماية. وفي هذه الآية إثبات العين لله -عز وجل- وهي حقيقية ولكنها لا تماثل أعين الخلق، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قل: «سبحان الله وبحمده» ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي شيء، حين تقوم من مجلسك، أو حين تقوم من منامك، فهي عامة، ولهذا كان كفارة المجلس أن يقول الإنسان: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١)، فينبغي للإنسان كلما قام من مجلس أن يختم مجلسه بهذا: « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق: ٤٠] يعني وسبح ربك من الليل لا كل الليل، و(من) هنا للتبعيض، ولهذا لما سمع النبي ﷺ بأقوام من أصحابه قال أحدهم: (أنا أقوم ولا أنام) قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٢)، ولذلك يكره للإنسان أن يقوم الليل كله حتى لو كان فيه قوة ونشاط، فلا يقوم الليل كله إلا في العشر الأواخر من رمضان، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يحيي ليلها كله، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] يعني وقت أدبارها، وهل المراد أدبار ضوئها بانتشار نور الشمس، أو أدبار ذواتها عند الغروب؟ فالجواب: هذا وهذا، والمراد بذلك صلاة الفجر، لأن صلاة الفجر بها تدبر النجوم، وصلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصلوات الخمس، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»(٣)، والمراد بالصلاة قبل طلوع الشمس أي صلاة الفجر، وقبل غروبها :صلاة العصر، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٤) والبردان هما: صلاة الفجر وصلاة العصر،

---

(١) حسن صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والدارمي (٢٦٥٨)،وانظر «صحيح سنن أبي داود».
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

فصلاة الفجر براد الليل، وصلاة العصر براد النهار، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

وبهذا انتهى الكلام بما يسر الله عز وجل على سورة الطور، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها علمنا، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، تقدم الكلام عليها، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] النجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، وقوله ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: لها معنيان، **المعنى الأول**: إذا غاب، **والمعنى الثاني**: إذا سقط منه شهاب على الشياطين التي تسترق السمع وهو مقسم به، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] هذا جواب القسم، أي المقسم عليه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما جهل، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: ما عاند، لأن مخالفة الحق إما أن تكون عن جهل، وأما أن تكون عن غي، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فإذا انتفى عن النبي ﷺ الجهل وانتفى عنه الغي تبين أن منهجه ﷺ علم ورشد، علم ضد الجهل وهو الضلال، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ورشد ضد الغي ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ إذًا النبي ﷺ كلامه حق وشريعته حق، لأنها عن علم ورشد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يخاطب قريشًا، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى أنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون صدقه، ويعرفون أمانته، فهو ليس شخصًا غريبًا عنهم حتى يقولوا: لا نؤمن به لأننا لا نعرفه، بل هو صاحبهم الذي نشأ فيهم، فكيف بالأمس يصفونه بالأمين والآن يصفونه بالكاذب الخائن؟!

الثانية: أنه إذا كان صاحبهم فإن مقتضى الصحبة أن يصدقوه وينصروه لا أن يكونوا أعداء له. فهو لم يقل: «ما ضل رسول الله» أو «ما ضل محمد»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، **فالفائدة من هذا** هو أن مقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به، ومقتضى الصحبة أن يكونوا مناصرين له، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] أي: لا يتكلم بشيء صادر عن الهوى بأي حال من الأحوال، فما حكم بشيء من أجل الهوى، ولكنه ينطق بما أوحي إليه من القرآن، وما أوحي إليه من السنة، وما اجتهد به صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجتهادًا يريد به المصلحة، فنطقه ﷺ ثلاثة أقسام:

الأول: أن ينطق بالقرآن.

الثاني: أن ينطق بالسنة الموحاة إليه التي أقرها الله تعالى على لسانه.

الثالث: أن ينطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة.

أما نحن فننطق عما نريد به المصلحة، وننطق عن الهوى، وليس كل إنسان منا سالم من الهوى، يميل مع صاحبه، ويميل مع قريبه، ويميل مع الغني، ويميل مع الفقير، لكن النبي ﷺ لا يمكن أن يتكلم عن هوى، وإذا كان لايمكن أن ينطق عن الهوى صار لا ينطق إلا بحق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] يعني ما القرآن ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، أي: وحي من الله ـ عز وجل ـ والواسطة بين الله وبين الرسول ﷺ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] يعني علم النبي ﷺ هذا الوحي شديد القوى، أي: ذو القوة الشديدة، فهو من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو جبريل عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩: ٢٠] فجبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبدًا أن يفرط بهذا الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣: ١٩٤].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] المرة: الهيئة الحسنة، فهو ذو قوة، وذو جمال وحسن، وقد رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق، فهو الذي نزل بهذا القرآن حتى ألقاه على رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣: ١٩٤]. وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي فَعَلَا، أو فكمل؛ لأن الاستواء في اللغة العربية تارة يذكر مطلقًا دون أن يقيد فيكون معناه الكمال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] أي: كمل، وتارة يقيد بعلى فيكون معناه العلو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢: ١٣] فقال: ﴿لتستووا على ظهوره﴾، وقال: ﴿إذا استويتم عليه﴾ أي: علوتم عليه، ومنه قوله تعالى فيما وصف به نفسه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: علا عليه ـ عز وجل ـ العلو الخاص بالعرش، وهذا غير العلو المطلق على جميع المخلوقات، وتارة يتعدى بـ(إلى)، ويقال: استوى إلى كذا، فيفسر بأنه القصد والانتهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وتارة يقيد بالواو فيكون معناه: التساوي مثل قولهم: استوى الماء والخشبة، أي ساواه، فقوله هنا: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يحتمل أن المعنى استوى على؛ لأن جبريل ينزل من السماء، فيلقي الوحي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم يصعد إلى السماء، ويحتمل معناه كمل، ويكون كامل القوة والهيئة، وكامل من كل وجه مما يليق بالمخلوقات، ﴿وَهُوَ﴾، أي جبريل ﷺ ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] أي:

الأرفع، وهو أفق السماء، ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ [النجم: ٨] أي من النبي ﷺ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: قرب من فوق، ﴿فَكَانَ﴾ أي: جبريل من النبي ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، وهذا مثل يضرب للقرب، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يعني قريبًا جدًّا، بل أدنى، فقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بمعنى بل، أي بل هو أدنى من ذلك، ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] أي: إلى عبدالله، فالضمير في ﴿أَوْحَىٰ﴾ يعود على جبريل والضمير في ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ يعود إلى الله عز وجل، أي: أوحى جبريل إلى عبدالله ما أوحى، ولم يبين ما أوحى به تعظيمًا له، لأن الإبهام يأتي مرادًا به التفخيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي: غشيهم شيء عظيم، وهنا أوحى إلى عبده ما أوحى أي من الشيء العظيم، ولا كلام أعظم من القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله ـ عز وجل ـ.

ثم قال الله تبارك وتعالى في قصة المعراج: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١] اعلم أيها الأخ المسلم أن للنبي ﷺ إسراءً ومعراجًا، فالإسراء ذكره الله في سورة الإسراء، والمعراج ذكره الله في سورة النجم، وكلاهما في ليلة واحدة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، أو سنة ونصف، اختلف المؤرخون في هذا، ثم إن الإسراء والمعراج كان ببدن الرسول ﷺ وروحه، وليس بروحه فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فالمراد بها رؤية العين، لا رؤيا المنام، يقول الله تعالى في سياق الآيات في المعراج: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ الفؤاد :القلب، والمعنى: أن ما رآه النبي ﷺ بعينه فإنه رآه بقلبه وتيقنه وعلمه، وذلك أن العين قد ترى شيئًا فيكذبها القلب، وقد يرى القلب شيئًا فتكذبه العين، فمثلًا قد يرى الإنسان شبحًا بعينه فيظنه فلانًا ابن فلان، ولكن القلب يأبى هذا، لأنه يعلم أن فلانًا ابن فلان لم يكن في هذا المكان، فهنا العين رأت، والقلب كذَّب، أو بالعكس، قد يتخيل الإنسان الشيء بقلبه ولكن العين تكذبه، أما ما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج فإنه رآه حقًّا ببصره وبصيرته، ولهذا قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ بل تطابق القلب مع رؤية العين، فلم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذبًا فيما رآه من الآيات العظيمة في تلك الليلة بل هو صادق، ولكن المشركين كذبوه، وقالوا: كيف يمكن أن يصل إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء في ليلة واحدة ؟! ولهذا قال: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] والاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تجادلونه بقصد الغلبة، لهذا عداها بـ(على) دون (في)، فلم يقل: (أفتمارونه في ما يرى) بل قال ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ إشارة إلى أن الفعل ضمن معنى المغالبة، أي أفتجادلونه تريدون أن تغلبوه على ما

يرى؟ أي: على شيء رآه، ولكنه عبر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى استحضار هذا الشيء، وأنه ﷺ حين أخبر به كأنما يراه الآن، لأن الإنسان إذا حدث عن ماضي فربما يقول قائل: لعله نسي فأخطأ، ولكن إذا عبر بالمضارع صار كأنه يتحدث عن شيء هو يشاهده، فالمعنى على ما رأى من قبل، ولكن عبر عمّا رأى من قبل بالمضارع لحكمة بالغة، والحكمة البالغة حيث تكون تعبيرات القرآن الكريم إذا عبر بخلاف ما يتوقع فلابد أن يكون هناك حكمة تظهر للمتأمل، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] رآه الفاعل محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والمفعول به جبريل، أي رأى محمدٌ جبريلَ ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، أي: مرة أخرى حين نزل، والمرة الأولى رأى الرسولُ ﷺ جبريلَ وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول ﷺ في حراء انسد من أجنحة هذا الملك الكريم، وهذا يدل على عظمته، ولهذا وصفه الله أنه ذو قوة عند ذي العرش مكين، وبأنه ذو مرة أي هيئة حسنة كما سبق في هذه السورة، والمرة الثانية: في السماء فوق السماء، فتارة رآه من تحت السماء من فوق الأرض، وتارة من فوق السماء، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤]، أي رآه عند السدرة، والسدرة شجرة معروفة في الأرض، لكن السدرة التي في السماء السابعة ليست كصفة السدرة التي في الدنيا، بل نبقها كالقلال، وأوراقها كآذان الفيلة، فهي شجرة عظيمة، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها كل صاعد من الأرض، وينتهي إليها كل نازل من عند الله عز وجل، فهي منتهى من الطرفين: الطرف الأول: ما يصعد من الأرض إلى السماء، ينتهي عند هذه السدرة، وما ينزل من الرب عز وجل ينتهي عند هذه السدرة، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾، أي: عند هذه السدرة جنة المأوى، إذًا الجنة فوق السماء السابعة، لأنه إذا كانت السدرة فوق السماء السابعة وكانت الجنة عندها لزم أن تكون الجنة فوق السماء السابعة، وهو كذلك، وأعلاها وأوسطها الفردوس، - جعلنا الله من أهلها - فوقها عرش الرحمن جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] و﴿عِلِّيِّينَ﴾ مبالغة من العلو، يعني في أعلى الشيء، ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ يعني المصير، مأوى من جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يأوون إليها ويخلدون فيها، وأما النار فهي مأوى الكافرين والعياذ بالله، وفي هذا دليل واضح على أن غاية الخلائق الجن والإنس إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا ثالث لهما، فالجن والإنس إما في النار وإما في الجنة، قال السفاريني - رحمه الله - في «عقيدته السفارينية»:

وَكُلُّ إِنْسَانٍ وَكُلُّ جِنَّةٍ ... فِي دَارِ نَارٍ أَوْ نَعِيمِ جَنَّةِ

ويستفاد من قوله ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: أن القبور ليست هي المأوى والمثوى، لأن القبور ممر ومعبر، إذ إن وراء القبور بعث، ويذكر أن بعض الأعراب في البادية سمع قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١: ٢] فقال الأعرابي بفطرته وعربيته: «والله ما الزائر بمقيم، وإن وراء ذلك شيئًا»، لأن الزائر يزور ويمشي، والقبور يمكث الناس فيها ما شاء الله أن يمكثوا، ثم يخرجون منها، قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فالناس لابد أن يبعثوا، والعبارة التي نسمعها أو نقرأها أحيانًا: «أن الرجل حملوه إلى مثواه الأخير» ـ يعني: إلى المقبرة ـ عبارة غير صحيحة، لأن القبور ليست المثوى الأخير، ولو كان قائلها يعتقد معناها لكان لازم ذلك أنه ينكر البعث، ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] السدرة هي سدرة المنتهى، لأنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾ و(أل) في مثل هذه العبارة تسمى عند النحويين (أل) للعهد الذكري كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٥: ١٦]، ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾: أبهم الله ذلك للتفخيم والتعظيم، يعني غشيها شيء عظيم بأمر الله عزوجل بلحظة «كن» فيكون، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّهُ غَشِيَهَا مِنَ الحُسْنِ وَالبَهَاءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا»(1)، ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] البصر بصر النبي ﷺ، يقول العلماء: ﴿زَاغَ﴾ أي انحرف يمينًا وشمالًا، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز أمامه، فالرسول ﷺ كان على كمال الأدب في هذا المقام العظيم، لم يلتفت يمينًا وشمالًا، ولم يتقدم بصره أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه ﷺ، وجرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلًا غريبًا تجده ينظر يمينًا وشمالًا في هذا المنزل، وخصوصًا إذا تغير تغيرًا عظيمًا في هذه اللحظة، لابد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه صلوات الله وسلامه عليه وتحمله ما لا يتحمله بشر سواه صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤].

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] وأنت أخي المسلم القارئ للقرآن يمر بك مثل هذا التعبير دائمًا ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢] والأمثلة كثيرة، هذه الجملة يقول العلماء: إنها مؤكدة بأنواع ثلاثة من المؤكدات: الأول: قسم مقدر، والثاني: اللام. والثالث: قد،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢) ولفظه: «...فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» الحديث واللفظ لمسلم.

لأن المعنى: (والله لقد) فتكون جملة مؤكدة بالقسم واللام، وقد، والقسم مقدر لكن دل عليه السياق، و ﴿رَأَىٰ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، الآية هي العلامة المخصصة لمدلولها التي لا يشركه فيها أحد، وإلا لم تكن آية، فالآية لابد أن تكون خاصة بمدلولها، فليس كل علامة آية، بل هي التي تختص بمدلولها، فهذا الذي رآه النبي ﷺ من آيات الله كبير عظيم، وقوله ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قيل: إنها مفعول ثان لـ﴿رَأَىٰ﴾، أي: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، وقيل: إن ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفة لآياته، والمعنى: أنه رأى من آيات الله الكبيرة، والثاني أصح وأقرب، يعني أنه رأى من الآيات الكبرى ما رأى، وليس ما رآه أكبر شيء، بل قد يكون هناك شيء أكبر لا نعلمه، والحاصل: أن الرسول ﷺ رأى في هذا المعراج من آيات الله الكبير ما لم يكن يراه من قبل، وما لا يستطيع الصبر عليه أحد من البشر، ونحن لو رأينا سرادقًا عظيمًا لملك من الملوك لانبهرنا وتعجبنا، وجعلنا نلتفت يمينًا وشمالًا، لكن الرسول ﷺ لم يتغير عقله ولا اتزانه، بل كان على أكمل ما يكون الاتزان، وإلا فقد أسري به من المسجد الحرام من الحجر عند الكعبة ـ والحجر من الكعبة ـ أسري به من ذلك المكان إلى بيت المقدس مسيرة شهرين في لحظة لأنه ركب البُراق، والبراق دابة عظيمة قوية سريعة، خطوته مد بصره، وسريع جدًّا وصل إلى هناك وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، والسماء بعيدة جدًّا، ثم من سماء إلى سماء وتتلقاه الملائكة تسأل جبريل: من معك؟ فيقول: محمد، فيسألونه: هل أرسله إلى الناس؟ فيقول: نعم، ثم يسلم على بعض من في السموات من أنبياء، ثم تفرض عليه الصلاة ويتردد بين الله عز وجل وموسى[1]، كل هذا وهو ثابت الجأش ﷺ، وهذا شيء حقيقي، هو بنفسه ﷺ صعد، ولهذا لما جاء وحدث الناس من الغد أنكرته قريش، لأنها تنكر ما لا يمكن في عقلها، وإنكار ما لا يمكن في العقل ليس خاصًّا بكفار قريش حتى فيمن ينتسب إلى هذه الأمة أنكروا من صفات الله ما أثبته الله لنفسه، لأنه على زعمهم لا يمكن في العقل، فقريش أنكرت هذا المعراج: ولو كان منامًا لم تنكره قريش، لأن المنامات يكون فيها مثل هذا، لكنه أمر حسي حقيقي؛ أسري بالرسول ﷺ بجسده وعُرج به في ليلة واحدة، وحصلت كل هذه الأمور ثم عاد إلى الأرض وصلى الفجر في مكة ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن آيات الله ـ عز وجل ـ منها الكبير ومنها ما دون ذلك، ولا نقول: «منها الصغير»؛ لأن ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ اسم تفضيل. وغلط من قال من المفسرين المتأخرين: إن الكبرى اسم فاعل، بل هي اسم تفضيل، لأن آيات الله ـ عز وجل ـ إما

(١) انظر ما قبله.

كبيرة، وإما كبرى عظمى، فالمعراج الذي حصل لا شك أنه من الآيات الكبرى العظيمة.

ولما بين الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي ﷺ من آيات ربه العظيمة في الآفاق قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] وهذا الاستفهام للتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله - عز وجل - يعني: أخبروني بعد أن سمعتم من آيات الله الكبرى ما سمعتم، أخبروني عن شأن هذه الأصنام وما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزتها، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩: ٢٠] هذه ثلاثة أصنام مشهورة عند العرب يعبدونها من دون الله، ويخضعون لها كما يخضعون لله، ويتقربون إليها كما يتقربون لله - عز وجل -، ومع ذلك هم يعتقدون أنها لا تنفعهم عند الشدة، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وعلموا أنه لا منجي من هذه الشدة إلا رب العالمين، لكن الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم في عبادة هذه الأصنام التي يدعون أنها تقربهم من الله تعالى، كما قال الله عنهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ولكن في الحقيقة لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم منه، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰٓ﴾ الثالثة بالنسبة لاثنتين قبلها، ﴿الْأُخْرَىٰٓ﴾ يعني: المتأخرة، وكأنها - والله أعلم - دون اللات والعزى في المرتبة عند العرب، ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] يعني أتجعلون لكم الذكور، ولله الإناث؟ وذلك بقولهم: إن الملائكة بنات الله، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولم يطلعوا على ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] ؟

والجواب: لا، لم يشهدوا خلقهم، ولكن مع ذلك ستكتب هذه الشهادة عليهم ويسألون، نسأل الله العافية، وهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل:٥٨: ٥٩]، ومع ذلك يجعلون لرب العالمين الذي خلق الذكر والأنثى البنات، ويجعلون لأنفسهم البنين، وهذه القسمة قسمة جور، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢]، يعني تلك القسمة - وهي أن يجعل لله البنات ولهم البنين - ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة مائلة عن الحق، لأننا لو قلنا بأنه جائز أن يكون لله ولد لكان الأولى أن يكون له البنون، لأن البنين أعلى من البنات بلا شك، وهو سبحانه وتعالى أعلى من المخلوقين، فيجب أن يكون الأعلى للأعلى، والأدنى للأدنى، هذه القسمة العادلة، ثم هناك قسمة أخرى دونها في العدل ولكن فيها عدل: أن يجعلوا لله البنات ولهم بنات، ولله البنين ولهم بنين، لكن ما فعلوا هذا، جعلوا الأدنى للخالق والأعلى لهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ثم عاد الله - عز

وجل - إلى بيان حقيقة هذه الأصنام المعبودة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمعنى (ما)، وهذا ضابط ينتفع به طالب العلم أنه إذا أتت (إلا) مثبتة بعد (أن) فإن (إن) هنا تكون نافية مثل: إن هذا إلا بشر، إن هذا إلا مجتهد، وما أشبه ذلك؛ فـ(إن) هنا نافية بمعنى: ما هي إلا أسماء سميتموها، يعني ما هذه الأصنام إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها، سموها إلهًا معبودًا، ولكنه لا حقيقة لذلك، ما هي إلا مجرد أسماء، والاسم لا يدل على مسماه، فلو أنك سميت الحديد خشبًا، ما صار خشبًا، ولو سميت الخشب حديدًا، ما صار حديدًا، ولو سميت البغل حمارًا، لم يكن حمارًا، وهكذا هذه الأصنام يسمونها آلهة، ولا تكون إلهًا، بل مجرد اسم، والاسم بلا مسمى لا فائدة منه، ولهذا قال ﴿إِنْ هِيَ﴾، أي: ما هذه الأصنام والمسميات ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، المخاطبون هم الذين أدركوا البعثة. و ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ يعني الأجداد السابقين مجرد أسماء ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (ما) نافية، والمعنى أن الله - عز وجل - لم ينزل بها دليلًا، وسمي الدليل سلطانًا لأن صاحب الدليل معه سلطة يعلو بها على خصمه، ومن ليس له دليل ليس له سلطان، فالسلطان يأتي دائمًا بمعنى الحجة أي الدليل، لأن من معه الدليل ذو سلطة على خصمه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾. (إن) نافية بمعنى (ما) ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: هؤلاء وآباؤهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: الوهم الذي لا حقيقة له، لأنهم يقولون: هذه آلهة، واعتمدوا في ذلك على الوهم، فالظن هنا بمعنى الوهم، يعني ما يتبع هؤلاء بقولهم: «إنها آلهة» إلا الظن، أي الوهم الخيال الذي لا حقيقة له، ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، يعني وما تميل إليه نفوسهم من الباطل، ثم قال - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، و(قد) وتقديره: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، فيؤكد الله هنا أنه قد جاءهم من ربهم الهدى، وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ ولم يقل: من الله. إشارة إلى أنه لا يجوز تلقي الشريعة إلا من عند الله، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرب، والرب هو الخالق المالك المدبر ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فاعل، والمراد به العلم المقابل بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فهم يتبعون الظن، والعلم جاء من عند الله، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: العلم على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين خُتموا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] (أم) هنا منقطعة؛ لأنها تأتي منقطعة وتأتي متصلة، فإذا كان هناك مقابل فهي متصلة، وإذا لم يكن مقابل فهي منقطعة، فإذا قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ فهي متصلة، وإذا قلت في مثل هذه الآية ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ فهي بمعنى (بل) وهمزة استفهام، يعني: بل أللإنسان ما تمنى؟

والاستفهام هنا للإنكار والنفي، أي ليس للإنسان ما تمنى، كم يتمنى الإنسان من شيء ولكن لا يحصل، لأن هناك مدبرًا، وهو الله ـ عز وجل ـ، فليس للإنسان ما تمنى، وفي هذا إشارة إلى رد صنيع هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام ويقولون: إنها تقربهم إلى الله، وليس لهم ذلك، وأيضًا رد لقولهم: إن لله البنات ولهم البنين، وليس لهم ذلك، وهم وإن تمنوا ذلك وصار في مخيلتهم فإنه لا يحصل، وليس للإنسان ما تمنى، كثيرًا ما يتمنى الإنسان شيئًا ولكن لا يحصل، كثيرًا ما يتمنى الشيء ويسعى في أسبابه ولكن لا يحصل، لأن الأمر بيد الله ـ جل وعلا ـ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] وبدأ بالآخرة لأن ملك الله ـ عز وجل ـ، في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا، فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيرًا، لكن في الآخرة لا يوجد هذا ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] (كم) تكثيرية لأنها تأتي تكثيرية وتأتي استفهامية، فإذا قلت: كم مالك؟ فهي استفهامية، وهنا ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني كثير من الملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم وهنا نقول: كم من ملك وما أكرم الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لا في الأرض، والسماوات أعلى من الأرض وإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام الذين مقرهم السماوات ـ إلا من أذن له ينزل الأرض ـ إذا كانت شفاعتهم لا تنفع، فهل يمكن أن تنفع شفاعة اللات والعزى ومناة؟ الجواب: لا، كأن الله تعالى يقول لهؤلاء: ما أصنامكم هذه التي تشفعون بها إلى الله، كم من ملك ـ وهو أشرف من هذه الأصنام في السماوات وهي أشرف من الأرض ـ لا تغني شفاعتهم شيئًا لو شفع إلا بثلاثة شروط:

الأول: أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بأن يشفع فيشفع.

الثاني: أن يرضى عن المشفوع له.

الثالث: يرضى عن الشافع؛ لأنه لا يمكن أن يأذن للشافع إلا بعد أن يرضى عنه، ولابد أن يرضى عن المشفوع له وإلا فلا تنفع الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فأصنامكم هذه لن تنفع ولن يقبل الله شفاعتها، فشروط الشفاعة ثلاثة: الأول: رضى الله عن الشافع بأن يكون أهلًا للشفاعة لكونه من المقربين

الله ـ عز وجل ـ والثاني: أن يرضى عن المشفوع له، بأن يكون أهلًا لأن يشفع له، أما الكافر فما تنفعهم شفاعة الشافعين. الثالث: الإذن لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ وهذا فيه تيئيس هؤلاء المشركين من شفاعة آلهتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧] أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما: القسم المقدر واللام؛ ومعنى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بها ولا بما فيها من الثواب والعقاب، إذ إن الإيمان بالآخرة لابد أن يكون إيمانًا بأن هذا اليوم سيكون، وإيمانًا بكل ما ثبت من حصوله ووقعه فيه، إما في القرآن وإما في السنة، حتى إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قال: إن مما يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وصدق رحمه الله، لأن الإنسان إذا مات قامت قيامته، وانتهى من الدنيا كأن لم يكن، فكما أنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فسيأتي عليه حين من الدهر لم يكن إلا خبرًا من الأخبار، كما قال الشاعر الحكيم:

في الدنيا بين يرى الإنسان فيه مخبرًا   حتى يرى خبرًا من الأخبار

فأنت الآن تخبر تقول: حصل كذا وحصل كذا، وقال فلان كذا، وفي يوم من الأيام سوف يخبر عنك، قال فلان كذا وأنت رميم، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور: **الأول**: الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن. **الثاني**: الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من: أهوال، وحساب، وموازين، وصراط، وجنة، ونار؛ لابد من هذا. **الثالث**: الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟ نعم كثير من الناس، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في الإنسان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٧: ٧٨] يعجزنا فيه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ما أحسن قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان، يعني هذا الإنسان قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، ما هو خلقه؟ إنه لم يكن شيئًا، خلق من ماء دافق، فصار عظامًا وعصبًا ولحمًا، وصار إنسانًا ينطق ويخاصم ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨: ٧٩] وذكر الأدلة على إمكان ذلك، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر، ويقول: لا بعث.

وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلى بالأمر والنهي، ويحصل الجهاد وقتال الأعداء، واستحلال دمائهم وأموالهم ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء، هذا لا يمكن، وتأباه الحكمة، إذًا الذين لا يؤمنون بالآخرة، سفهاء عقولًا، ضلال دينًا ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يعني يجعلون الملائكة إناثًا كالمشركين، قالوا: الملائكة بنات الله، فسموا الملائكة تسمية الأنثى، وهي البنت، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولو آمنوا بالعقاب ما قالوا هذا، لكنهم لا يؤمنون، فيقولون ما يريدون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: ٢٨] نفى أن يكون لهم بذلك علم، لأن هذا هو الواقع: هل شهدوا خلق الملائكة؟ ولهذا قال الله في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] والجواب: لا، لكن ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] حين لا يجدون جوابًا فهؤلاء الذين قالوا: الملائكة بنات الله، يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ و ﴿عِلْمٍ﴾ هنا مجرورة بحرف الجر، وحرف الجر هنا عند المعربين حرف جر زائد الفائدة منه توكيد النفي، ولهذا هنا قاعدة مفيدة: (جميع الحروف الزائدة يقصد بها التوكيد، وهي من أدوات التوكيد).

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني لا قليل ولا كثير، لأنهم لم يشهدوا خلقهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ﴿إِن﴾ هنا بمعنى (ما)، والضابط أنه إذا جاءت ﴿إِلَّا﴾ بعد ﴿إِن﴾ فهي بمعنى (ما)، ﴿إن هذا إلا بشر﴾ أي: ما هذا إلا بشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] أي: ما هذا إلا ملك كريم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] أي ما هم إلا يظنون، والأمثلة على هذا كثيرة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني ما يتبعون إلا الظن، والمراد بالظن هنا الوهم الكاذب، وليس المراد بالظن هنا الراجح من أحد الاحتمالين، وانتبه لهذا فالظن يأتي بمعنى التهمة، ويأتي بمعنى رجحان الشيء، ويأتي بمعنى اليقين. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] والمراد: اليقين، ولا يكفي الظن في اليوم الآخر، بل لابد تيقن، وقال النبي ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ»[1]، والتحري هنا يعني هو الظن الغالب.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظن الاتهام يعني يظنون ظنًّا، هو وهم، ليس له أصل، وبعض العلماء أخذ من هذه الآية أنه لا يجوز العمل بالظن في المسائل الفقهية وغيرها، وهذا خطأ، لأن كثيرًا من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة: ليس كل مسألة في الفقه يقول بها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

الإنسان على سبيل اليقين أبدًا، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكرًا، لكن الظن الذي ليس له أصل يبنى عليه منكر، فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك، بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنيًا على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئًا، أي لا يفيد شيئًا من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] ﴿فَأَعْرِضْ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو المراد به كل من يصح أن يوجه إليه الخطاب، فعلى الأول يكون المعنى: أعرض يا محمد، وعلى الثاني يكون: أعرض أيها الإنسان المؤمن ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني أعرض عنه لا تتبعه ولا يهمنك أمره، وليس المعنى: أعرض عنه لا تنصحه؛ لأن التذكير واجب، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] يعني ذكر كل أحد، فمن الناس من ينتفع، ومنهم لا ينتفع، والذي ينتفع هو المؤمن، فعلى هذا نقول معنى ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يعني لا تبالي به ولا يهمنك أمره، ولا تستحسر من أجل توليه، بل ادع إلى سبيل الله ـ عز وجل ـ أيًا كان، لكن من أعرض وتولى لا يهمك أمره، ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ هو القرآن، ويحتمل أن يكون الذكر بمعنى التذكير، أي عن تذكيرنا، وكلا المعنيين متلازمان صحيحان؛ لأن القرآن ذكر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] أو المعنى ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عن تذكيرنا بالمواعظ التي ينزلها الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني لا يريد الآخرة ولا يهتم بها، بل همه الدنيا ما المركوب؟ وما الملبوس؟ وما المسكن؟ فلا يهتم بالآخرة، وأهم شيء عنده الدنيا، أما ذكر الله القرآن، أو تذكير الله فإنه متول عنه ـ والعياذ بالله ـ نسأل الله السلامة والعافية، والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة، لأن الدار الدنيا هي أول دار ينزلها الإنسان، وهي سابقة في الزمن على الآخرة، فهي دنيا قريبة، وهي أيضًا دنيا من حيث المرتبة، ليست بشيء بالنسبة للآخرة، ولهذا قال النبي ﷺ فيما صح عنه: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] فليست خيرًا من الدنيا التي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

أنت فيها فقط؛ بل من الدنيا منذ أن خلقها الله إلى أن تفنى، موضع السوط الذي يكون بقدر المتر في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إذًا هي دنيا حقيقة، ولهذا إذا مات الإنسان وهو مؤمن - جعلنا الله منهم - ثم حمل من بيته الذي يسكنه ويأوي إليه، وفيه أهله وماله وحشمه، إذا خرج تقول روحه: «قدموني قدموني»، لأن ما ستذهب إليه خير مما تخرج منه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦: ١٧] لكن لمن؟ ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لكنها شر لمن لم يتق، ويذكر أن ابن حجر - رحمه الله - وكان رئيس القضاء في مصر، مر يومًا من الأيام في موكبه على العربة تجرها البغال، وحوله الجنود برجل يهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تدنست ثيابه بالزيت، وشقي في طلب المعيشة، فأوقفه اليهودي وقال لابن حَجَر: إن نبيكم يزعم أن «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»! فكيف يتفق هذا الحديث مع الواقع، أنت الآن مؤمن وأنا يهودي فأيُّنا الشقي؟ قال: نعم ما أنا فيه الآن بالنسبة للآخرة سجن، لأن الآخرة خير لمن اتقى، وما أنت فيه بالنسبة للآخرة جنة، لأن الآخرة ليس لك فيها إلا النار وبئس القرار، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. فانظر كيف فتح الله عليه حيث ظهر صدق كلام الرسول ﷺ بكل سهولة، فالآخرة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا ذم الله تعالى الذي أعرض عن ذكر الله ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ومن أراد الحياة الدنيا لن تحصل له قطعًا، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] أي: ما يشاء الله، لا ما يشاء هو، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨: ١٩]. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] لأنه يعطى الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] أي بعضها وليس كلها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٣٠] والمشار إليه كونهم متولين معرضين، لا يريدون إلا الحياة الدنيا، يعني ذلك منتهى بلوغ علمهم، لأن علمهم قاصر، لا ينظرون إلى المستقبل، ولا يصدقون بخبر، فتجد أكبر همهم أن يصلحوا حالهم في الدنيا معرضين عن حالهم في الآخرة، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»(١).

ثم قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ هو أعلم - عز

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

وجل ـ بمن ضل عن سبيله فعلًا، ومن سيضل؛ لأنه عالم بما كان وبما يكون، فقوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ لا تعني أنه لا يعلم إلا من حصل منه الضلال بالفعل بل هو يعلم من حصل منه الضلال بالفعل، ومن سيحصل منه، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ موصوف بالعلم التام في الحاضر والمستقبل والماضي، وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ضد الضلال، فالناس بين فئتين: إما مهتدٍ، وإما ضال، وإنما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن نعلم أن ما وقع من الضلال والهداية فهو صادر عن علم الله وبإرادته، إذ لا يمكن أن يوجد في خلقه خلاف معلومه، ولو قدر أن يوجد في خلقه خلاف معلومه لكان الله جاهلًا ـ وحاشاه من ذلك ـ.

الفائدة الثانية: التحذير من الضلال، والترغيب في الاهتداء، ما دام الإنسان يعلم أن أي عمل صدر منه فعلمه عند الله، فإنه سوف يخشى أن يعصي الله، وسوف يسعى أن يرضي الله ـ عز وجل

كأنه يقول: إن ضللت فالله أعلم بك، وإن اهتديت فالله أعلم بك، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣١]، يقول علماء البلاغة: إنه إذا تقدم شيء حقه التأخير فهو دليل على الحصر والتخصيص، فلننظر في هذه الآية هل فيه تأخير وتقديم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ خبر مقدم ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، إذًا قدم فيها ما حقه التأخير وهو الخبر؛ لأن حق الخبر أن يكون متأخرًا عن المبتدأ. تقول: «الرجل قائم» ولا تقول: «قائم الرجل»، فالأصل أن المبتدأ على اسمه يكون هو الأول والخبر هو الثاني، لكن أحيانًا يقدم الخبر لفائدة، فهنا الفائدة: الحصر، يعني: لله لا لغيره ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا أحد يملك ما في السماوات ولا ما في الأرض إلا الله تبارك وتعالى، ونحن نملك ما نملك من أموالنا ولكن ملكنا ليس عامًّا، فملكي ليس ملكًا لك، وملكك ليس ملكًا لي، فأملاكنا ليست عامة، ثم نحن لا نملك التصرف بما هو ملكنا كما نشاء، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، ولهذا لو تراضى اثنان في بيع الربا قلنا: لا تملكان ذلك، ولو أراد الإنسان أن يحرق ماله قلنا: هذا ممنوع، فملك غير الله قاصر وغير شامل، والملك التام الواسع الشامل لله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو مالك لذواتها، ومالك لما فيها أيضًا، وكم من ملك في السماوات، وكم من مخلوق في الأرض كله ملك لله ـ عز وجل ـ يتصرف فيه كما يشاء حسب ما

تقتضيه حكمته، وإيماننا بأن لله ملك السماوات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضى بقضاء الله، وأن الله عز وجل لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر، يمضي أو لا يمضي، ويتصرف في الشمس والقمر، ويتصرف في المخلوقات، يتصرف فيك أيضًا كما يشاء، إن شاء أعطاك صحة، وإن شاء سلبها، إن شاء أعطاك عقلًا، وإن شاء سلبك، إن شاء أعطاك مالًا، وإن شاء سلبك، أنت ملكه، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه.

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به، لأنك ملكه، إذا قال لك:«افعل» فافعل، وإذا قال: «لا تفعل» فلا تفعل، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسيادة ناقصة، إذا أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرم وإما بترك واجب، فإنك خرجت عن مقتضى العبودية التامة؛ لأن مقتضى العبودية التامة أن تخضع لشرعه، كما أنك خاضع كرهًا أو طائعًا لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أن يخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ جاءت كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كأن قائلًا يقول: وإذا تبين أن الملك لله ـ عز وجل ـ فما النتيجة؟ النتيجة أن الناس بين محسن وبين مسيء كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وإذا كانوا بين محسن ومسيء فما جزاء كل واحد ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الذين أساءوا هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحظور، هؤلاء الذين أساءوا ليجزيهم بما عملوا، السيئة بالسيئة لا تزيد، أو يعفو ـ عز وجل ـ عمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بدون زيادة ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يقل: بما عملوا، لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فأنت إذا فعلت حسنة فتكون عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ونضرب مثلًا قريبًا: الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلى الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، فخطواتك لا يحصيها إلا الله عز وجل، مع أن المقصود شيء واحد

وهو الصلاة، لكن سعيك إلى الصلاة فيه أجر ما دُمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة، وتأهبت في بيتك، أسبغت الوضوء في بيتك، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة، والخطوات لا يحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي، «لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ»(1)، وهذا أحسن من أعمالنا، ولهذا قال: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ أي بما هو أحسن وأكثر من عملهم، وهذا يدلك على سعة فضل الله ـ عز وجل ـ وإحسانه وكمال عدله، فالمسيئون يجازيهم بالعدل أو يعفو، والمحسنون يجازيهم بالفضل ثم ذكر شيئًا من أوصافهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] أي: يبتعدون عنه، وسمي الابتعاد اجتنابًا؛ لأن الإنسان في جانب، والذي أبعد عنه في جانب آخر، فيبعدون، ولا يتصلون بكبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ كبائر جمع كبيرة، والكبيرة بعض العلماء عدها، وبعض العلماء حدها، والصواب الحد، أي أنها محدودة وليست معدودة، والذين ذكروا عددًا الظاهر ـ والله أعلم ـ أنهم أرادوا المثال، فمثلًا إذا قال الإنسان: هي الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، هذه سبع، إذا قال الإنسان هذه هي الكبائر ليس معنى قوله إنها محصورة في هذا، إذ من الممكن أن يحمل كلامه أن ذلك على سبيل التمثيل فقط، أما الذين حدوها يعني جعلوا له ضابطًا فقالوا في ضابطها: (كل ذنب رتب الله عليه لعنة، أو غضبًا، أو سخطًا، أو تبرأ منه، أو ما أشبه ذلك فهو كبيرة)، ورأيت لبعضهم ومنهم شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أنه قال: (كل ذنب جعلت له عقوبة خاصة إما في الدنيا، أو في الآخرة فهو كبيرة)، فالزنا كبيرة، لأن فيه عقوبة وهو الجلد أو الرجم، والسرقة كبيرة، وقطع الطرق كبيرة، وعقوق الوالدين كبيرة، وهلم جرًّا، فكلما رأيت شيئًا من الذنوب جعل الشارع له عقوبة خاصة فهو كبيرة، أما الذنب الذي نهى عنه فقط فهو صغيرة: كنظر الرجل للمرأة الأجنبية للشهوة، هذا ليس كبيرة هو صغيرة من الصغائر، لكن إن أصر الإنسان عليه وصار هذا ديدنه، صار كبيرة بالإصرار لا بالفعل. ومكالمة المرأة الأجنبية على وجه التلذذ حرام وليس بكبيرة، ولكن إذا أصر الإنسان عليه وصار ليس له هم إلا أن يشغل الهاتف على هؤلاء النساء ويتحدث إليهن صار كبيرة، فالإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من حيث الإصرار، لأن إصراره على الصغيرة يدل على تهاونه بالله ـ عز وجل ـ، وأنه غير

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٠)، ومسلم (٦٤٠).

مبال بما حرم الله، وقوله: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: كبائر الكبائر، لأن الكبائر منه ما هو فاحش يستفحش ويستعظم ويستقبح بشدة، ومنها ما هو دون ذلك، فمثلًا الزنا فاحشة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] واللواط فاحشة أعظم من الزنا، لأن الله قال في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ وقال في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] فأتى بـ(أل) الدالة على القبح، وأنها جامعة لكل أنواع الفواحش، ونكاح المحارم فاحشة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] فهو أشد من الزنا، فلو زنا الإنسان بامرأة أجنبية منه وبأم زوجته مثلا صار زناه بأم زوجته أعظم وأشد وأشنع، ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء: أن من زنا بامرأة من محارمه وإن لم يكن محصنًا فإنه يرجم، لأن الله فرق بين الزنا وبين نكاح ذوات المحارم، فالزنا بذوات المحارم وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ والزنا وصفه بوصف واحد وهو: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾، وجاءت السنة بالتفريق بين من زنا بامرأة من محارمه أو بامرأة أجنبية، فجعلت حد الأول القتل بكل حال، وإن لم يتزوج وإن لم يكن ثيبًا، لأن هذا أعظم والعياذ بالله، إنسان يزني بأمه أو أخته أو أم زوجته أو بنت زوجته التي دخل بها هذا فاحشة عظيمة، إذًا هم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، والفواحش كبائر الكبائر وأعظم، ونأخذ من هذه الآية الكريمة: أن الكبائر والفواحش تختلف؛ لأن كبائر وصف كل ما كان أعظم صار أشد كبيرة، والفواحش كذلك، وفيما سقناه من الآيات دليل على ذلك: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ففرق الله بينها، مع أنها كلها فواحش، لكن بعضها أعظم من بعض.

قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قيل: إنه استثناء متصل. وقيل: إنه استثناء منقطع، لأن اللمم: الشيء القليل، فهل المعنى إلا الشيء القليل من الكبائر، أي أنهم يأتون الشيء القليل من الكبائر، أو المعنى إلا الصغائر من الذنوب. إن قلنا بالأول فالاستثناء متصل، وإن قلنا بالثاني فالاستثناء منقطع. وتكون بمعنى (لكن)، والمعنى الثاني أقرب من حيث التقسيم، لأن الله ذكر الكبائر والفواحش والصغائر، وعلى هذا فيكون معنى ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني: أن هؤلاء الذين أحسنوا يأتون الصغائر، والصغائر والحمد لله مكفرة بالحسنات، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وأخبر النبي ﷺ «أَنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ، وَالجُمُعَةَ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»(١)، وقال ﷺ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»(٢)، وعلى هذا فيكون المعنى أن الصغائر تقع مكفرة إما باجتناب الكبائر، أو باجتناب الكبائر مضمومًا إليها فعل هذه الحسنات العظيمة: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان.

والخلاصة: أن الصغائر التي تقع مغفورة للإنسان إذا اجتنب الكبائر، وإذا أحسن في الصلوات الخمس والجمعة ورمضان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في هذه الجملة إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني أن اللمم يقع في سعة مغفرة الله - عز وجل - فيغفره الله - عز وجل -، والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه، ولا يكفي ستر الذنب بل لابد من تجاوز، والدليل على هذا أمران: لغوي وسمعي، أما الغوي: فلأن المغفرة مشتقة من المغفر، والمغفر وهو ما يوضع على الرأس عند القتال ويسمى خوذة، ويسمى بيضة، يوضع على الرأس ليتقي السهم؛ هذا الذي يوضع على الرأس جمع بين أمرين: الوقاية والستر، فإذا المغفرة لابد من ستر ووقاية، وأما السمعي: فهو أن الله تبارك وتعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرره بذنوبه وأقر قال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»(٣) فدل هذا على :أن الوقاية من الذنوب، وعدم المؤاخذة من المغفرة، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الصغائر تغفر، وقد ثبت في القرآن الكريم أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، فقال جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أما إذا قلنا: اللمم القليل من الفواحش والكبائر، فيكون قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، هذه الكبيرة، وللأسف يوجد قوم من هذه الأمة يقولون: إن الكبيرة لا تغفر، وهم الخوارج والمعتزلة يقولون: إن الإنسان إذا فعل كبيرة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وابن ماجه (١٠٨٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٧٧٣)، و مسلم (١٣٤٩).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، و مسلم (٢٧٦٨).

خرج من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: خارج من الإيمان داخل في الكفر. والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتين، لكن قولهم باطل، والصواب: أن فاعل الكبيرة داخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلو قال قائل: إذا قلت هذا فتحت الباب على مصراعيه لفعل الكبائر، لأن أي إنسان يفعل كبيرة ويقول: أنا يمكن أن يغفر الله لي، وهذا يحتج به العوام يقول: إذا كان الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي ما دون الشرك لمن يشاء، إذًا سأفعل الكبائر، ويغفر الله لي، فهذه حجة فكيف تجيبه؟

نجيبه: أن الله تعالى قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يقل لكل أحد بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهل أنت تتيقن أنك ممن يغفر الله له، أأحد يتقين هذا؟ لا أحد يتيقن، إذًا لا حجة في هذه للعاصي، ثم إن قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعلم أن الله حكيم، لا يشاء أن يغفر للمذنب غير الشرك إلا إذا اقتضت الحكمة أن يغفر ذلك، ومن منا يستطيع أن يقول إن حكمة الله تقتضي أن يغفر لي؟ لا أحد يقول هذا، بل لو قال هذا لقلنا: إن قولك هذا من أسباب المؤاخذة والمعاقبة؛ لأنك تأليت على الله.

ثم قال - عز وجل -: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أعلم بنا من ذاك الوقت الطويل البعيد ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي بخلق أبينا آدم، لأن آدم خلق من التراب، ثم صار طينًا، ثم صار صلصالًا، ثم خلقه الله بيده جسمًا ونفخ فيه الروح، فصار آدميًّا إنسانًا، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، إذًا نحن من الأرض أول نشأة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] أي الإخراج الذي ليس بعده وفاة يوم القيامة، ولذلك الآن بنو آدم كالأرض تمامًا، فيهم الحزم الصلب الشديد، وفيهم السهل، وفيهم ما بين ذلك، وفيهم الأبيض، وفيهم الأحمر، وفيهم الأسود، لأن الأراضي تختلف، هكذا، وقد ذُكر أن الله لما أراد أن يخلق آدم أخذ من كل الأرض سهلها وحزنها، وأسودها وأبيضها كلها: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ هذه النشأة الثانية، (أجنة) جمع جنين وهو الحمل، وسمي الحمل جنينًا، لأنه مستتر ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي مستترين ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، أي من حين كان الإنسان نطفة، ومن النطفة يخلق، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣] فمن حين يكون نطفة يكون جنينًا ثم يتطور أربعة، أولًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم أنشأناه خلقا

آخر. الطور الأخير الذي تحل فيه الروح، إذًا هو عالم بنا حين النشأة الأولى، وحين النشأة الثانية في بطون أمهاتنا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تزكوها وتقول عملت كذا وكذا، وصليت، وزكيت، وصمت، وجاهدت، وحججت، لا تقل هكذا، تُدل بعملك على ربك، هذا لا يجوز.

فإن قال قائل: أليس الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

فالجواب: بلى، لكن معنى ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: من عمل عملًا تزكو به نفسه، وليس المعنى من زكاها من أثنى عليها ومدحها بأنها عملت وعملت، بل المراد عمل عملًا تزكو به نفسه، فلا معارضة بين الآيتين، ولهذا نقول: من زكى نفسه بذكر ما عمل من الصالحات فإنه لم يزك نفسه، فمن زكى نفسه بمدحها فإنه لم يزكِّ نفسه، وفرق بينهما، فالتزكية التي يحمد عليها الإنسان: أن يعمل الإنسان عملًا صالحًا تزكو به نفسه، والتزكية التي يذم عليها: أن يدل بعمله على ربه ويمدح، وكأنه يمن على الله، يقول: صليت، وتصدقت، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبريت والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه، وفي هذا رد على أولئك الصوفية الذين يدعون أنهم أئمة ويزكون أنفسهم ويقولون: وصلنا إلى حد لا تلزمنا الطاعة، وصلنا إلى عالم الملكوت فليس علينا صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ولا يحرم علينا شيء، وهؤلاء منسلخون من الدين انسلاخًا تامًّا، ولذلك نقول: هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هم أبعد الناس عن الزكاة، لأنهم أعجبوا بأعمالهم، وأدلوا بها على الله - عز وجل - وجعلوا لأنفسهم منصبًا لم يجعله الله تعالى لهم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ كأنه يقول: لماذا تزكون أنفسكم؟ أتريدون أن تعلموا الله بما أنتم عليه؟ الجواب: لا، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ يعني إن كنت مُتَّقِيًا لله، فالله أعلم بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلت وفعلت، وفي هذا إشارة إلى أن النطق بالنية عند فعل العبادة قد يدخل في نوع من التزكية، فإذا أردت أن تتوضأ فلا تقل: «اللهم إني نويت أن أتوضأ»، وبعض العلماء يقول: قلها سرًّا، بينك وبين نفسك، وعللوا هذا قالوا: من أجل أن يطابق اللسان القلب، فالقلب نوى، لكن قل باللسان: اللهم إني نويت أن أتوضأ، وأنت تصلي قل: اللهم نويت أن أصلي الظهر مثلا أو العصر، وبعض العلماء يقول هكذا، وهم علماء أجلاء من الفقهاء.

فيقال: هذا غلط، وهذا قياس في مقابلة النص، والرسول ﷺ لم يشرع لأمته النطق بالنية، لا في حديث صحيح ولا ضعيف، ومن الطرف الطريفة: أن رجلًا عاميًا في المسجد الحرام سمع شخصًا يريد أن يصلي، فقال بعد أن أقيمت الصلاة: اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات في المسجد الحرام، ولما أراد أن يكبر قال الرجل: باقي عليك، قال: ما الباقي؟ قال: باقي التاريخ،

قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وعند الصيام مثلا إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: «لبيك عمرة »إن كنت في عمرة، أو «لبيك حجًّا» إن كنت في حج، أو «لبيك عمرة وحجًّا»، إن كنت قارنًا، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية، فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال عز وجل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣] الخطاب في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني، وكلما جاءت ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ في القرآن فهي بمعنى: أخبرني، ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، أي: عن طاعة الله - عز وجل - وعن الإيمان بالله ورسوله ﷺ وعن إقامة شعائر الإسلام، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] يعني أحيانًا يعطي، وإذا أعطى أعطى قليلًا، وأحيانًا يكدي، أي: يمنع فلا يعطي شيئًا، لأنه ليس ينفق المال ابتغاء وجه الله، فلذلك كانت حاله بين أمرين: إما المن، أو الإعطاء قليلًا، قالوا: وأكدى مأخوذة من الكدية، وهي الصخرة الشديدة التي لا تتفتت إلا بالمعاول، فهذا الرجل ليس مطيعًا لله وليس نافعًا لعباد الله فهو متولٍ عن طاعة الله، وهو مانع فضل الله عز وجل، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾وهذا الاستخبار ليس لعدم علمه جل وعلا، ولكن لشحذ النفوس والهمم إلى الاستماع إلى ما يلقى، وهذا الذي أعطى قليلا وأكدى يزعم أنه إذا بعث فإنه سوف يعطي المال الكثير، وهذه عادة من ينكر البعث، كما في صاحب الجنة الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] فهو يظن أنه سوف يمتع في الدنيا ويمتع في الآخرة أكثر وأكثر إن كان آمن بها، قال الله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٥] وهذا الاستفهام استفهام استنكار بمعنى النفي، يعني ليس عنده علم الغيب، وهو يرى أنه سينتقل إلى دار أفضل من التي هو فيها، وعلى هذا فتكون الجملة جملة نفي، وليست جملة إثبات، وليست جملة استخبار، بل هي جملة نفي واستنكار، إذ لا أحد عنده علم الغيب، ولولا ما أخبر الله به من النعيم في الجنة

والجحيم لأهل النار، ما علمنا بهذا شيء.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦: ٣٧] (أم)هنا للإضراب والمعنى (بل): ﴿لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ ذكر موسى لأن موسى عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل والتوراة هي التي عليها عمدة ما نزل على بني إسرائيل، وصحف إبراهيم عليه السلام أنزلها الله تعالى على إبراهيم فيها المواعظ، وفيها الأحكام، لكن لم يبين لنا منها شيئًا سوى أن إبراهيم ﷺ كان على التوحيد وعلى الملة المستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ ذكر إبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء، فهو أبو الأنبياء في بني إسماعيل، وأبو الأنبياء في بني إسرائيل، وهنا قدم موسى على إبراهيم، وفي سورة الأعلى قدم إبراهيم على موسى، ولا شك أن الأحق بالتقديم إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أسبق زمنًا وأعلى مرتبة، ولكن مراعاة لفواصل الآيات قدم موسى، ولأجل الثناء الخاص بإبراهيم قدم موسى، وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي وفَّى بما أمر به ربه، ومن أعظم ما وفاه أنه أمر بذبح ابنه فامتثل أمر الله - عز وجل - وصمم على تنفيذه، حتى إنه تلَّه على جبينه ليمر السكين على رقبته، ولكن الفرج من عند الله ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] والذي في هذه الصحف قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] هذه بيان ما في صحف إبراهيم وموسى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل إثم ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أن الإنسان لا يحمل ذنب غيره، إلا أنه يستثنى من ذلك، إذا كان صاحب سنة آثمة فإن عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولكن الحقيقة أن هذا لا يتحمل وزر غيره، لأن غيره قد وزر وأثم، لكن هو تحمل إثم السنة السيئة والبدء بالشر، فيكون حقيقة أنه لم يوزر وزر غيره ولكنه وزر بوزر نفسه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقد كذَّب الله تعالى قول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢] حتى لو قال لك القائل: «افعل هذا الذنب والإثم عليَّ» فإنه لا يتمكن من هذا، ولا يمكن، فإن فعل هذا وقيل له: «الإثم عليَّ»فالإثم على الفاعل، ثم إن كان الفاعل ممن يغتر بالقول ولا يفهم فعلى القائل إثم التغرير، أي أنه غرر وخدع ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] يعني ليس للإنسان من الثواب إلا ثواب ما سعى وما عمل، فلا يمكن أن يعطى من ثواب غيره، يعني لا يمكن أن نأخذ من أجر زيد ونعطيه عمرًا،

كما لا يمكن أن نأخذ من سيئات زيد ونضيفها إلى سيئات عمرو، فهذا لا يمكن إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم، فصار الإنسان مرتهن بكسبه: ﴿كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] فلا يمكن أن يؤخذ من حسناته إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فيحمل عليها إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم.

وقد استدل بعض أهل العلم على أنه لا يمكن أن ينتفع الميت بثواب عمل غيره، لأن الله قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، وعلى هذا فلو أنك صليت ركعتين لزيد وهو ميت، أو صمت يومًا لزيد وهو ميت فإنه لا ينفعه، لعموم قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فإذا أورد عليهم أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[1] قالوا: هذا في الواجب، لأن عليه صيام وليس في التطوع، وكذلك الحج الواجب لحديث: أفحج عنه؟ قال: «نعم»[2]، وإذا أورد عليهم أن رجلًا قال يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، وأظنها لو بقيت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»[3]، قالوا: هذا مستثنىً بالنص، وليس لنا أن نرد النص، والعام يجوز تخصيصه بحكم مخالف، وإذا أورد عليهم قول سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ في مخارفه ـ أي في نخله ـ الذي يخرف أنه يريد أن يجعله صدقة لأمه، فأجاز النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالوا: هذا ورد به النص، وما ورد به النص فإنه لا يمكن أن يرد، لأن نصوص الشريعة الإسلامية جاءت بتخصيص العام، يعني بإخراج بعض أفراد العام، فيحكم له بحكم مخالف لأحكام العام، وعلى هذا نقول: لا يمكن أن ينتفع الإنسان بعمل غيره حيًّا كان أو ميتًا إلا ما وردت به السنة، ولا شك أن هذا القول له وجهة نظر قوية، ولكن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قال: أي قربة فعلها وجعل ثوابها لميت أو حي من المسلمين فإن ذلك ينفعه، وقال: إن الذي وقع قضايا أعيان، بمعنى أن رجلًا حصلت له حادثة فسأل النبي ﷺ فأجازها، فإذا أجاز الرسول ﷺ جنس العبادات ولو كانت مالية دل ذلك على جواز جنس جميع العبادات، وقالوا أيضًا: الصيام ليس عبادة مالية، ومع ذلك قال: « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» وإذا أجيز هذا في الواجب، والواجب متحتم، فهو كالدين، والدين إذا قضاه الغير عن المدين أجزى، وحملوا قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ على أن المعنى أنه لا يمكن أن يأخذ من عمل غيره، لكن إذا أهدى إليه غيره

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٥٢)، و مسلم (١١٤٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٩٩)، و مسلم (١٣٣٤).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٦٠)، و مسلم (١٠٠٤).

من العمل فإنه لا بأس به، كما أن الإنسان ليس له التصرف في مال غيره، ولو أعطاه شخص مالًا لتصرف فيه، وقد نقل الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) في هذا الموضع عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه يجوز إهداء القرب وأن الميت ينتفع بذلك، وذكر لهذا أكثر من عشرين وجهًا، فمن أحب أن يراجعه فليراجعه. وعلى كل حال حتى ولو قلنا بما ذهب إليه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من أي قربة فعلها الإنسان وجعلها لمسلم فإن ما عليه عمل الناس اليوم مخالف لهذا الكلام، إذ إن الناس اليوم تجدهم يهدون كثيرًا من العمل الصالح للأموات، يعتمر للميت دائمًا ويصوم عنه تطوعًا دائمًا، ويضحي عنه دائمًا، ولو ضحى لنفسه كل هذا ليس من عمل السلف، والسلف يهتدون بهدي الرسول ﷺ، وهدي النبي ﷺ هو أنه قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١) فأرشد إلى الدعاء للميت، لكن كونَك كل ما سبحت قلت: اللهم اجعل ثوابه لأبي، لأمي، وكل ما عملت تقول: اجعل ثوابه إلى أبي أو إلى أمي، أو جدي، أو خالي، أو عمي فهذا غير صحيح، وأنت محتاج إلى العمل كما هم محتاجون للعمل، فلا تجعل عملك لهم، اجعل لهما ما أرشدك إليه الرسول ﷺ وهو الدعاء، أما العمل فخص به نفسك. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] ﴿سَعْيَهُۥ﴾ يعني عمله ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾، وهل المراد ثواب السعي يرى في الآخرة عند الجزاء، أو أن السعي يرى في الدنيا ويعرف؟ الجواب: أن هذا عام سوف يرى في الدنيا وفي الآخرة، الذي يرى في الآخرة وفي الدنيا هو نفس العمل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] يعني عملكم لن يخفى علي ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى: أن بعض الناس إذا عمل عملا كمكتبة، أو مسجد، أو عمارة للفقراء أو ما أشبه ذلك كتب: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا لا يجوز، لأن أحد الأطراف الثلاثة لا يمكن أن يراه، وهو الرسول ﷺ، صحيح أن الله ـ عز وجل ـ يرى والمؤمنون في هذا الوقت يرون، لكن الرسول ﷺ لا يرى، ثم هذا في المنافقين وهو تهديد لهم وليس ثناء عليهم، وعلى كل حال نقول: سعي الإنسان سوف يرى، ولكن قد يستر الله تعالى عن العبد ذنوبه فضلا منه ومنة، وإذا لاقاه في الآخرة خلا به سبحانه وتعالى وقرره بذنوبه وقال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، لكن في الأصل أن سعي الإنسان سوف يرى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، و الترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، و الترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، وأبو داود (٢٨٨٠).

﴿ ثُمَّ يُجْزَنْهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٤١] أي: بعد أن يرى يجزى عليه الجزاء الأوفى، أي: الأكمل، والأوفى في الصالح زيادة المثوبة، والأوفى في السيئ العدل بحيث لا يزاد في سيئاته، وعلى هذا فالأوفى يفسر بمعنى العدل، ويفسر بالزيادة والفضل، العدل في السيئة لا يمكن أن يزاد سيئة. والفضل في الحسنات: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] هذه الآية فيها قراءتان: القراءة الأولى فتح الهمزة: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ والثانية كسر الهمزة ﴿وإنَّ إلى ربك المنتهى﴾ وكلاهما قراءتان صحيحتان سبعيتان، إذا قرأ الإنسان بإحداهما صح، بل الأولى للإنسان الذي يعرف القراءات أن يقرأ بهذه القراءة مرة، وبهذه القراءة مرة أخرى، لكن لا يقرأ على ملأ من الناس وسماع منهم، لأن العامة إذا سمعوك تقرأ على خلاف ما يقرأون فسيحصل بذلك مفسدة، إما أن يقولوا: إن هذا الرجل لا يعرف القرآن، وإما أن يتشككوا في القرآن، حيث يظن العامي أن القرآن يمكن أن يبدل أو يغير، لذلك ننصح إخواننا الذين أعطاهم الله تعالى علمًا في القراءات أن لا يقرأوا إلا بالقراءة المعروفة عند العامة حتى لا يحصل اللبس، لكن فيما بينك وبين نفسك إذا كنت تدرك القراءة الثانية إدراكًا تامًّا فاقرأ بها أحيانًا؛ لأن الكل كلام الله ـ عز وجل ـ فإذا كانت بالكسر: ﴿وإنَّ إلى ربك المنتهى﴾ صارت هذه الجملة وما بعدها ليست في ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] بل تكون استئنافية، وإذا كانت بالفتح صارت الجملة وما بعدها مما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وعلى كلٍّ فهي كلام الله عز وجل. ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي: المنتهى في أمور الدين والدنيا، فإلى الله المنتهى في مسائل العلم، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] والنبي ﷺ لا يقول شيئًا من عنده، إنما هو من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون المنتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي منتهى الخلائق أيضًا؛ لأن هذا الخلق الموجود الآن سوف يفنى وينتقل إلى خلق آخر، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥] والمنتهى على هذا التقدير هو يوم القيامة، فإلى الله المنتهى، وإلى الله المصير، فمنتهى أحوالنا وأحكامنا وجميع ما يصدر منا وعلينا إلى الله ـ عز وجل ـ وإذا كان إلى الله المنتهى فإلى من تشكو إذا أصابك الضر؟ إلى الله ـ عز وجل ـ وإذا أردت النفع فتطلبه من الله عز وجل، لأنه المنتهى، وكم من إنسان انعقدت له أسباب الرزق وإذا هو يحرم منها في آخر لحظة، إذًا لا يجلب لك الخير إلا الله، ولا يمنع عنك الضرر إلا الله ـ عز وجل ـ فاجعله منتهاك في كل أمورك،

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] هل المراد حقيقة الضحك، أو المراد لازم ذلك وهو الفرح؟ وكذلك يقال في أبكى: هل المراد حقيقة البكاء، أو المراد الحزن؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: الضحك الحقيقي، والضحك الحقيقي لا ينشأ إلا عن سرور، وأبكى البكاء الحقيقي، وهو لا يحصل إلا عن حزن، فالله تعالى أضحك في الدنيا وأبكى، وأضحك في الآخرة وأبكى، والكفار في الدنيا يضحكون على المسلمين وعلى المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] لكن هذا الضحك سيعقبه بكاء يوم القيامة ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤] فالذي أضحك في الدنيا وأبكى والذي أضحك في الآخرة وأبكى هو الله عز وجل، إذًا هو مقدر ما يكون به الضحك، ومقدر ما يكون به البكاء، وأتى بالأمرين - وهما متقابلان - ليعلم بذلك أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وهو القادر على خلق الضدين، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤] أي: أمات في الدنيا وأحيا في الدنيا، وأمات في الدنيا وأحيا في الآخرة، أمات وأحيا البشر، تجد هذا تنفخ فيه الروح اليوم، فيكون الله قد أحياه، والآخر تنزع روحه من بدنه ويكون الله قد أماته، وهكذا دواليك، هو الذي أمات وأحيا، وهناك أيضًا ميتة عامة وحياة عامة، أمات العالم في الدنيا، وأحياهم في الآخرة، فهو الذي خلق الموت، وهو الذي خلق الحياة، وهذان أيضًا متضادان، حياة وموت، كلها من عند الله - عز وجل - لأن الله تعالى على كل شيء قدير، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥: ٤٦]، الزوج بمعنى الصنف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] أي: أصناف، وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ليس المراد زوجاتهم، بل المراد بأزواجهم، أي: أصنافهم، إذًا الزوجين يعني الصنفين، ثم بين هذين الزوجين فقال: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ من مادة واحدة، ﴿نُّطْفَةٍ﴾ وهي المني ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: تراق وتصب في رحم المرأة، فالله - عز وجل - خلق هذين الصنفين المختلفين خلقًا، والمختلفين مزاجًا، والمختلفين عقلًا، والمختلفين فكرًا، خلقهما من شيء واحد من نطفة، ولهذا قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة القيامة: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩: ٤٠]؟ الجواب: بلى، فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد، وهذا يدل على كمال قدرته - جل وعلا - إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال: في القوة البدنية، والعقلية، والفكرية، والتنظيمية؛ يختلف الذكر عن الأنثى، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل، فإنهم سفهاء العقول، ضلال الأديان، فكيف

يمكن أن نسوي بين صنفين فرَّق الله بينهما خلقة وشرعًا؟ فهناك أحكام يطالب بها الرجل ولا تطالب بها المرأة، وأحكام تطالب بها المرأة ولا يطالب بها الرجل، وأما قدرًا وخلقة فالأمر واضح، لكن هؤلاء الذين لم يوفقوا وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم يحاولون الآن أن يلحقوا النساء بالرجال، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٤٧] أي: على الله، وفي هذا دليل على أن الله أوجب على نفسه أن يبعث الناس، لأنه لو كان الناس يحيون ويموتون بلا إرجاع لكان هذا عبثًا محضًا؛ لأننا نعلم الآن أن الناس في الدنيا يختلفون في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والذكاء والعقل وغير ذلك، ولو كان الخلق هكذا فقط بدون إرجاع لكان هذا منافيًا للحكمة تمامًا، لكن لابد من رجوع، ولهذا قال: ﴿وأن عليه تصدى﴾ و(على) تفيد الوجوب، فيكون الله أوجب على نفسه أن ينشأ الناس مرة أخرى، ولا مانع من أن الله يفرض على نفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: أوجب على نفسه الرحمة، كذلك هنا قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي أن الله أوجب على نفسه أن ينشئ الناس نشأة أخرى للجزاء، كل بحسب عمله، والنشأة الأخرى تفيد بأن هناك نشأة قبل وهي النشأة الأولى، وهي خلق الناس، فابتداء خلق الناس من عند الله ـ عز وجل ـ وفي قوله: ﴿الْأُخْرَى﴾ فائدة عظيمة وهي الإشارة إلى أن القادر على الأولى قادر على الآخرة، والنشأة الآخرة أهون من الأولى، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] والهين يختلف باعتبار ذاته لا باعتبار قدرة الله فإنها لا تختلف: «كن» فيكون، سواء كان أعلى شيء أو أدنى شيء، لكن بالنسبة للمقدور عليه الإعادة أهون، أما بالنسبة لقدرة الله فكلها واحد، لأن المسألة لا تعدو أن يقول: «كن» فيكون، وبهذا نعرف أن بعض المفسرين ـ رحمهم الله وعفا عنهم ـ قالوا في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (أي: وهو هين عليه) وهذا غلط، كيف يقول الله عن نفسه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ويقول: وهو هين؟! لكن نقول الهون له نسبتان: نسبة للمفعول، ونسبة للفاعل، بالنسبة للفاعل هما سواء، لأن كل شيء منهما يتكون بكلمة واحدة «كن» فيكون، وبالنسبة للمفعول يختلف لا شك أن الأول أشد من الثاني.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى﴾ [النجم: ٤٨] أي: أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فهو الذي أغنى من شاء من خلقه ﴿وَأَقْنَى﴾ قيل: المعنى: أفقر؛ لأنها في مقابلة ﴿أَغْنَى﴾ وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بما زاد على الكفاية، فالله عز وجل بسط لعباده الرزق، فمنهم من أغناه عن غيره،

ومنهم من أقناه، أي: جعل له قنية وهي الزائد عن الكفاية، والقاعدة: (أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما على الآخر فإنها تحمل عليهما؛ لأنه أعم للمعنى)، فالذي يغني هو الله ـ عز وجل ـ والذي يقني هو الله عز وجل، وليست هذه الأصنام التي هي مناة والعزى، بل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] أتى بضمير الفصل تأكيدًا للجملة، و ﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي: هو خالقها ومالكها ومدبرها، و(الشعرى) هي النجم المضيء الذي يخرج في شدة الحر، ونص على هذا النجم؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ويعظمونها، فبين تبارك وتعالى أن (الشعرى) من جملة المخلوقات المربوبات وليست إلهًا، ولا تستحق أن تعبد، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي: الله ـ عز وجل ـ ﴿أهلك عادا الأُولى﴾ وهم قوم هود، و ﴿الأولى﴾ وصف كاشف، وليس وصفًا مقيدًا، يعني ليس هناك عاد أولى وعاد ثانية، بل هي واحدة، لكنها عاد قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنها الأولى أي: أنها القديمة السابقة وليس ثمة عاد أخرى، وهم قوم هود، وكان الله تعالى قد أعطاهم من القوة والنشاط وشدة البطش ما ليس لغيرهم، حتى إنهم قالوا: من أشد منا قوة؟! قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فهؤلاء القوم يفتخرون بشدتهم وقوتهم فأهلكهم الله بألطف الأشياء، أهلكهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦: ٧] ابتدأت من بعد الفجر وانتهت عند الغروب فصارت الأيام ثمانية والليالي سبعًا، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تحمل الإنسان إلى القمة ثم تقذف به على الأرض فصاروا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ والعياذ بالله، فهؤلاء القوم مع شدة بطشهم وشدة بأسهم لم يمنعهم ذلك من عذاب الله ـ عز وجل ـ، وقوله: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١] أي: وأهلك ثمودًا وما أبقاهم، وثمود هم أصحاب الحجر، أرسل الله إليهم صالحًا فكذبوه، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة، وأعطاهم معرفة وعلمًا بهندسة البناء، لكن مع ذلك ما دفعوا ما أراد الله بهم، صيح بهم ورجفت بهم الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] والعياذ بالله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ [الذاريات: ٤٦] يعني وأهلك قوم نوح من قبل بالغرق، كما قال الله تعالى عن نبيهم نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١٠: ١١] وفي قراءة ﴿فَفَتَّحْنَآ﴾ مما يدل على الكثرة وشدة الانفتاح ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يعني

نازل بشدة: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] الأرض كلها كانت عيونًا يعني ليس فيها موضع شبر إلا وهو يفور، حتى إن التنور الذي هو محل الإيقاد صار يفور مع أن محل الإيقاد أبعد ما يكون عن الرطوبة لكنه فار، فصارت الأرض كلها عيونًا والسماء تمطر - والتقى الماء، ماء السماء وماء الأرض - على أمر قد قدر، يعني أمر مقدر محدد بدون زيادة ولا نقص، فغرق القوم حتى بلغ الماء قمم الجبال، ويذكر أن امرأة كان معها صبي فكلما علا الماء صعدت الجبل، كلما علا الماء صعدت الجبل، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل ووصل إلى المرأة وارتفع إلى جسدها، وكان معها صبي، فحملت الصبي على يديها ترفعه، لئلا يغرق قبلها، وجاء في الحديث: «لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ»[1] ، لكن إذا حقت كلمة الله فلا راد لقضاء الله تعالى، أجارني الله وإياكم من العذاب الأليم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] اختلف المفسرون في مرجع الضمير فقيل: إن الضمير يعود على قوم نوح فقط.

وقيل: إنه يعود على كل الأمم التي ذكرها الله - عز وجل - ممن أهلكهم.

فعلى القول الأول يكون المعنى: أن قوم نوح أظلم وأطغى من قوم ثمود وعاد، ووجه ذلك أنهم حصل منهم عتو واستكبار مع طول المدة، حيث إن نوحًا - ﷺ - لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يقول الله تبارك وتعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٥: ٧] حتى لا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها حتى لا يبصروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يدعوهم إليه ﷺ، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: استكبارًا عظيمًا فلم يخضعوا لعبادة الله - عز وجل -، فكانوا أظلم وأطغى من عاد ومن ثمود.

وعلى القول الثاني: «إن الضمير يعود على كل هؤلاء الأمم» يكون المعنى: أن هؤلاء كانوا أظلم وأطغى من قريش الذين كذبوك يا محمد، فيكون في هذا تسلية للرسول ﷺ بأن الله أهلك هؤلاء القوم مع أنهم أظلم وأطغى من قومك، والذي أهلك من سبق قادر على أن يهلك من لحق، وكلا المعنيين صحيح، فهؤلاء الأمم أظلم وأطغى من قريش، وقوم نوح أظلم وأطغى من عاد وثمود، ثم قال - عز وجل -: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] أي: أسقط، والمؤتفكة هي قرى قوم لوط، و ﴿أَهْوَىٰ﴾ بمعنى أنزل، واختلف المفسرون في قوله ﴿أَهْوَىٰ﴾ هل المعنى أنه

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم وموسى ليس بذاك».

أهوى بها من فوق إلى أسفل بناءً على أن الله تعالى رفع هذه القرى إلى فوق ثم قلبها، أو أن المعنى أنه أهوى أسقطها، أي: أرسل عليها الحجارة حتى تهدم البناء فصار أعلى البناء أسفله؟ المهم أن الله تعالى أخبر عن قوم لوط بأنه أهواهم أي أسقطهم، سواء من الجو، أو من سقوط أعلى البناء على أسفله، ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي: غطاها، ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مبهم للتعظيم والتفخيم، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي غشيهم شيء عظيم، فالإبهام أحيانًا يراد به التعظيم والتهويل والتفخيم، كما في هذه الآية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥] الاستفهام هنا للتوبيخ و ﴿ءَالَآءِ﴾: النعم، و ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي: تتشكك، أي: بأي نعم الله تتشكك أيها الإنسان، إذ إن الواجب أن الإنسان يقر بنعم الله ويشكر الله عليها، لا أن يتشكك، ويقول: هذا من عملي، هذا من كذا، هذا من كذا، كما كانت العرب تقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعني بالنجم وينسون الخالق ـ عز وجل ـ ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٦] المشار إليه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿نَذِيرٌ﴾ بمعنى منذر، والمنذر هو الذي يعلم بالشيء على وجه التخويف، لأن الإنذار هو إعلام بتخويف، والبشارة إعلام برجاء: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ ولم يقل بشير؛ لأن المقام لا يقتضي إلا ذكر الإنذار، إذ إن الله تحدث من أول السورة إلى آخرها عن قريش وتكذيبها للرسول ﷺ وعبادتها للأصنام، فيقول: محمد ﷺ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من الرسل السابقين، وكما أن الذين كذبوا الرسل حل بهم العقاب والنكال فأنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ يوشك أن يحل بكم النكال والعقوبة، لأن محمدًا ﷺ مثل غيره نذير من النذر، فإذا كان نذير من النذر فإن من كذبه سوف يقع به مثل ما وقع بالأمم السابقة ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت القيامة، ومنه قول الشاعر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ

فالآزفة هي القيامة، لأن الساعة قريبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فهي قريبة، ويدل لقربها أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل، فمعناه أن الأمر قريب، وأما كون الله تعالى يذكر أن الأمر قريب وبيننا وبين نزول القرآن أربعة عشر قرنًا، ونحن في القرن الخامس عشر، ومع ذلك يذكر الله ـ عز وجل ـ أن الساعة قريبة، ومن هنا نعرف أن عُمر الدنيا طويل وبعيد، ولكن هل نأخذ بقول هؤلاء الذين يتخرصون ويقولون: عمر الدنيا الماضي كذا وكذا؟

والجواب: لا نأخذ بقولهم، ولا نصدقهم ولا نكذبهم، أحيانًا يقولون: إنهم عثروا على آثار حيوان له كذا وكذا من ملايين السنين، أو على أحجار، فهذا لا نصدق ولا نكذب، لأنهم لا يعلمون الغيب الماضي، وإنها يقيسونه بحال الحاضر، أي يقيسون عُمْر هذا الأثر بحسب المؤثرات في الوقت الحاضر، لكن من يعلمنا أن المؤثرات في الوقت الحاضر هي المؤثرات في الوقت الماضي؟ لا ندري، قد يتغير الطقس من حرارة إلى برودة، ومن برودة إلى حرارة، وقد تتغير الرياح والأمطار وغير ذلك، وما نقرأه أو نسمع به من علوم هؤلاء موقفنا نحوه أن لا نصدق ولا نكذب، أما في المستقبل فيجب أن نكذب كل من أخبر عن شيء مستقبل؛ لأنه يدعي الغيب، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فعليه: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي قربت القيامة، لكن هل يمكن أن نحدد مدى القرب؟ لا يمكن، ومن ادعى أنه يعلم أنه متى تقوم الساعة فإنه مكذب لله ورسوله ﷺ، أما الله فقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وأما الرسول ﷺ فإن جبريل لما سأله قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟» قال له النبي ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(1) يعني إذا كنت تجهلها فأنا مثلك، فمن ادعى أن الساعة تقوم بعد مليون سنة، أو مائة ألف سنة، أو أقل، أو أكثر فإننا يجب علينا أن نكذبه، ونقول: إنه كافر، لأنه مكذب لله ورسوله ﷺ. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨] لها معنيان: المعنى الأول: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يعني مانعة، يعني لا أحد يكشفها أي: يمنعها، كما في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. والمعنى الثاني: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يعني: عالمة تكشفها وتبينها، وعلى كل حال فلا أحد يمنع الساعة إذا شاء الله، ولا أحد اطلع على الساعة متى تكون.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٩: ٦٢] الخطاب هنا للمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ للإنكار والتعجب من هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ الذي جاء بالآيات البينات، وأخبر عن الأمم السابقة، وبيّن أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نذير من النذر الأولى، ويخشى على من كذبه أن يناله من العذاب ما نال المكذبين للنذر الأولى، يقول الله -عز وجل-: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أيها المكذبون للنبي ﷺ، ومعنى ﴿تَعْجَبُونَ﴾ أي: ترونه عجبًا

(1) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

منكرًا، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] فهم يتخذون ما جاء به الرسول ﷺ عجبًا، والمراد: عجب الإنكار والاستبعاد، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾: يعني استهزاء بهذا الحديث الذي هو القرآن، وكذلك يضحكون بشرائع هذا الحديث، حيث كانوا يضحكون من رسول الله ﷺ وعباداته ويسخرون به، إذًا ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، أي: لا تبكون من هذا الحديث خشية وخوفًا وإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ بل هم أقسى الناس قلوبًا، ـ والعياذ بالله ـ أو من أقسى الناس قلوبا لا تلين قلوبهم ولا يبكون من خشية الله ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: غافلون بما تمارسونه من اللغو والغناء وغير ذلك، لأن منهم من إذا سمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ جعلوا يغنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فـ﴿سَٰمِدُونَ﴾ قيل: المعنى مغنون، وقيل: المعنى غافلون، والصواب أن المراد غافلون عنه بالغناء وغيره مما تتلهون به حتى لا تسمعوا كلام الله ـ عز وجل ـ، وهذا نظير ما قاله المكذبون لأول رسول أرسل إلى بني آدم، حيث قال الله تبارك وتعالى عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧] حتى لا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧] أي: تغطوا بها حتى لا يروا ولا يبصروا ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧] فما كان في أول أمة كان في آخر أمة، ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ اسجدوا لله خضوعًا وذلًا، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها، وليس الركن الخاص الذي هو السجود، وليس أيضًا سجود التلاوة بل هو عام في كل الصلوات، ﴿وَٱعْبُدُواْ﴾، هذا عام لكل العبادات، وخص الصلاة بالذكر وقدمها؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين، وعلى هذا فيكون العطف في قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ﴾ على قوله ﴿فَٱسْجُدُواْ﴾ من باب عطف العام على الخاص كما أن قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

وبهذا؛ انتهى الكلام الذي منَّ الله به في تفسير هذه السورة، سورة النجم، أسأل الله تعالى أن ينفعني وإياكم به.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها. ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] اقتربت بمعنى قربت، لكن العلماء يقولون: إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى، وهنا اقتربت فيها زيادة المبنى على قربت، والزيادة: الهمزة والتاء، فيدل على أن القرب قريب جدًّا، فمعنى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي قربت جدًّا، و ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي: علاماتها، ومن علاماتها بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وكونه خاتم الأنبياء دليل على أنه قد قربت الساعة، ولهذا حقق النبي عليه الصلاة والسلام هذا بقوله: «بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»(١) وقال بإصبعه الوسطى والسبابة، والسبابة قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزء يسير مقدار الظفر، وهذا يدل على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرسول ﷺ؟ نحن في القرن الخامس عشر الهجري بعد بعثة الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك ما زالت الدنيا باقية مما يدل على أن ما مضى طويل جدًّا، حتى إن الرسول ﷺ عند غروب الشمس قال: «إنه لم يبقَ مِنْ الدُّنْيا - يعني بالنسبة لمن سبقكم - إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَومِكُم هَذَا»(٢) ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ كأن الله أشار إلى أن هذا من أشراط الساعة، ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ والمعنى أنه صار فرقتين تميز بعضها عن بعض، أحدهما على جبل أبي قبيس، والثانية على جبل قعيقعان، يعني فلقة على الصفا وفلقة على المروة، والمسافة السماوية في رؤيا العين ما بين الصفا والمروة بعيدة جدًّا، قد تستغرق سنوات، انشق القمر بلحظة بأمر الله - عز وجل - وتباعدت أجزاؤه بلحظة، لأن قريشًا كانوا يتحدون الرسول عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الآيات، وقد قال الله ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١] لكن لم يكفهم، لأنهم معاندون لا يريدون الحق، أتوا إلى الرسول عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

الصلاة والسلام قالوا: يا محمد أنت تقول إنك رسول، وإنك يأتيك الخبر من السماء وكذا وكذا فأرنا آية، فأشار النبي ﷺ إلى القمر ودعا ربه فانفلق فرقتين بلحظة، ومن يفلق هذا الجسم العظيم الأفقي العالي إلا رب العالمين - عز وجل - ؟! أراهم إياه، ولكن لم ينفعهم، وقالوا: سحرنا محمد، وبعضهم قال: سحر القمر، وأنكروا، فقال بعضهم لبعض: اسألوا المسافرين إذا قدموا هل رأوه أم لا؟ فصاروا يسألون المسافرين من كل وجه: هل رأوه أم لا؟ فيقولون: نعم، رأيناه في الليلة الفلانية كذا وكذا، وهذا بالنسبة للقريبين منهم كأهل الجزيرة مثلًا، أما البعيدون فقد لا يرونه.

وكما نعلم الآن أن الليل هنا يكون نهارًا في مكان آخر، أو لوجود غيوم وضباب كثير يمنع الرؤيا؛ ولهذا لا يمكن أبدًا لأي عاقل أن ينكر انشقاق القمر انشقاقًا حسيًا، لأنه لم يذكر في تاريخ اليونان، ولم يذكر في تاريخ الهند ولم يذكر في كذا وكذا، هذا ليس حجة يبطل به ما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من أن القمر انشق فعلًا انشقاقًا حسيًا، ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك ممن ينتسبون إلى الإسلام ويقولون: إن الأفلاك السماوية لا يمكن أن تتغير، نقول: الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئًا، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ [القمر: ٢] ﴿ءَايَةً﴾ نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها، ويجمعون بين الإعراض وبين الإنكار باللسان، ﴿يُعْرِضُواْ﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، ويقولوا بألسنتهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: هذا سحر، والسحر لا يؤثر في قلب الأعيان، ولكن يؤثر في رؤية الأعيان، والدليل أن موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى السحرة سحرهم كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى حية، وانقلب الوادي كله حيات تسعى، حتى إن موسى أوجس في نفسه خيفة من هول ما رأى، لكن هذه الحبال والعصي لم تنقلب إلى حيات، لكن حسب نظر الرائي أنها حيات، فهم يقولون: سحرنا محمد حتى كانت أعيننا ترى القمر وهو واحد تراه فرقتين، ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ قيل: إن المعنى زائل ذاهب من مر بالشيء إذا تجاوزه، يقولون: هذا سحر ولن يستقر ولا قرار له، وقيل: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ يعني أن كل

الآيات التي يأتي بها سحر، أي مستمر من مرار الشيء ودوام الشيء، وأيًا كان فإنهم أنكروا وكذبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾، أي: كذبوا النبي ﷺ، وكذبوا بآياته، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] أي: ما يريدون من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾، أي: كل أمر لابد له من قرار، فهؤلاء المكذبون قرارهم الذل والخسران في الدنيا، والنار في الآخرة، والنبي ﷺ ومن اتبعه أمرهم مستقر بالنصر والتأييد في الدنيا، والجنة في الآخرة، جعلنا الله منهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] هذه الجملة فيها اللام و(قد)، وهما من أدوات التوكيد، وفيها قسم مقدر دلت عليه اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾، وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم واللام و(قد)، والله سبحانه وتعالى صادق بغير توكيد لخبره، لكن هذا القرآن بلسان عربي مبين، واللسان العربي من بلاغته تأكيد الأشياء الهامة حتى تثبت وترسخ في الذهن، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي: قريشًا جاءهم من الأنباء التي فيها رشدهم وصلاحهم وفلاحهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ازدجار عن الشرك والعصيان، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك. ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥] يعني أن الأنباء التي جاءتهم حكمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] والحكمة هي تنزيل الشيء منزلته اللائقة به، ولا شك أن شريعة الله حكمة كلها ومطابقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، وقوله: ﴿بَالِغَةٌ﴾ أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (ما) يحتمل أن تكون نافية، يعني أن النذر لا تغنيهم شيئًا، ويحتمل أن تكون استفهامًا على وجه التوبيخ، يعني فأي شيء تغنيهم، وكلاهما صحيح، فالنذر لم تغنهم شيئًا، وإذا لم تغنهم هذه النذر المشتملة على حكمة بالغة فأي شيء يغنيهم؟

الجواب: لا شيء، لأنهم معاندون مستكبرون، لهذا قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، الخطاب للرسول ﷺ: تول عن هؤلاء؛ لأنهم معاندون مستكبرون، سوف يأتيهم ما وُعدوا به، وسوف يتحقق لك ما وُعدت به، ويحسن أن يقف القارئ على قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم يستأنف ويقول: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر: ٦]؛ لأن القارئ لو وصل لأوهم أن التولي يكون ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، ومعلوم أن التولي في الدنيا وليس ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ظرف، والظرف لابد له من عامل، كالجار والمجرور لابد له من عامل، وكجميع المفعولات لابد لها من عامل، فما هو العامل؟ العامل قوله: يخرجون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧] فهي متعلقة بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: سوف يأتيهم العذاب في ذلك

الوقت يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ هو داعي يوم القيامة ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ أي: منكر عظيم لشدة أهواله، فإنه لا شيء أنكر على النفوس من ذلك اليوم؛ لأنهم لم يشاهدوا له نظيرًا ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني أن أبصارهم خاشعة ذليلة، كما قال الله -عز وجل-: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] هم الآن مستكبرون رافعو رؤوسهم، يرون أن الناس تحتهم، وأنهم فوق الناس، لكن سيأتي اليوم الذي يكونون بالعكس ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾، الأجداث هي القبور، والجراد المنتشر هو المنبث في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي، ولكنهم منتشرون، وهذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يمينًا ويسارًا لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الأجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجِّه يعرفون طريقهم، وإن كان طريقًا فاسدًا، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] يعني أنهم مسرعون خاضعو الأعناق، كالرجل إذا أسرع وركض تجده يقدم رأسه يخضعه، فهم يخرجون من الأجداث مهطعين إلى الداعي، أي مسرعين خافضو رؤوسهم من الفزع والهول والشدة، ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وتأمل قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل: يقول الناس، لأن هذا اليوم العسر لا شك أنه في حد ذاته عسر شديد عظيم ولكنه على الكافرين عسير، وعلى المؤمنين يسير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وقال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠] وأما على المؤمنين فهو يسير، ولله الحمد جعلنا الله منهم.

ثم بدأ الله -عز وجل- بقصص الأنبياء على وجه مختصر في هذه السورة، لكنه مؤثر تأثيرًا بالغًا، لو قرأتها بتمهل وتدبر لوجدت أنها مؤثرة جدًّا، كلمات مختصرة لكنها رادعة تمامًا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] ونوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدلالة القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وبهذا نعرف أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن إدريس هو الجد لنوح، كذب لا شك فيه، وليس قبل نوح رسول وفي حديث الشفاعة التصريح بأنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ولذلك كان من عقيدتنا أن أول الرسل نوح، وأن آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] لم يفصل الله عز وجل هذا التكذيب، لكنه أنزل في ذلك

سورة تامة وهي سورة نوح، فصل الله فيها تفصيلا تامًّا في تكذيبهم وأخذهم، ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾ وهو نوح وصفه الله بالعبودية، لأن العبودية أشرف ألقاب البشر، وهي التذلل لله بالطاعة والإنابة والتوكل وغير ذلك، والعبودية من حيث هي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: عبودية عامة: تشمل جميع الخلق، وهي التذلل للأمر الكوني كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. أي: ما كل من في السموات والأرض إلا هذه حاله: أنه آتي الرحمن عبدًا، وهذه العبودية للأمر الكوني، لأن أمر الله عز وجل الكوني لا يمكن لأحد أن يفر منه، مهما كانت قوته.

النوع الثاني: العبودية الخاصة بالمؤمنين: مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فهذه عامة لكل مؤمن.

الثالث: العبودية الخاصة بالأنبياء: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ومن ذلك هذه الآية: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾.

وقد لبث فيهم نوح عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، لكنهم كلما دعاهم إلى الله ليغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا قوله، واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه، ولا أبلغ من هذا الاستكبار أن يضع الإنسان يده في أذنيه حتى لا يسمع قول الداعي، وأن يستغشي ثوبه فيتغطى به حتى لا يراه ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ﴾ المجنون فاقد العقل الذي يهذي بما لا يدري قالوا: إنه مجنون، وهذه القولة قيلت لكل الرسل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ و(أو) هنا إما للتنويع يعني بعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنها للتنويع يعني بمعنى أن بعض المكذبين يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنهم يقولون هذا وهذا. ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجر زجرًا شديدًا، والزجر هو النهر بشدة وعنف، والدال هنا منقلبة عن تاء، وقد قال العلماء: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمعنى: أنه زجرٌ شديدٌ، وقوله: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ ينبغي ألا توصل بما قبلها، لأنك لو وصلت وقلت: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ لتوهَّم السامع أنهم يقولون: مجنون وازدجر، يعني زجره غيرنا، لكن المعنى خلاف ذلك، المعنى كذبوا وازدجروه، فإذن الأولَى أن تقف على قوله: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ﴾ ثم تصل وتقول: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ فيكون هنا لم يقتصر هؤلاء المكذبون على أن كذبوا بل كذبوا وزجروا وتوعدوا وسخروا.

ولما طال الأمد ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] الله أكبر، كلمتان ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ولقد دعا من هو أهل للإجابة - جل وعلا - فأجاب الله قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]، وفي قراءة ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ وكلاهما حق، وينبغي لمن علم القراءة الأخرى أن يقرأ بهذه تارة وهذه تارة، بشرط ألا يكون ذلك بحضرة العوام، لأن العوام لا ينبغي أن تقرأ عليهم قراءة خارجة عن المصحف الذي بأيديهم فتحدث لهم تشويشًا، وربما تهبط منزلة القرآن في نفوسهم، أو ينسبوك إلى الغلط والتحريف، لكن عند طلبة العلم وعند التعليم أو بينك وبين نفسك ينبغي أن تقرأ بالقراءات الثابتة مرة بهذه ومرة بهذه، كما نقول هذا أيضًا في العبادات المتنوعة تفعل هذه مرة وهذه مرة، كالاستفتاحات ونحوها، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كل باب في السماء انفتح ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: منصب صبًّا شديدًا، فكان كأفواه القِرَبِ، ليس كالذرات المعروفة، بل أشد، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، أي عيونًا من المياه، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ ولم يقل: فجرنا عيون الأرض، كأن الأرض كلها كانت عيونا متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال الله - عز وجل -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى، وأن هذه الفيضانات التي تحدث إنما تحدث بأمر الله - عز وجل -، وليست كما قال الطبيعيون: إنها من الطبيعة، يقولون: هاجت الطبيعة، غضبت الطبيعة، وما أشبه ذلك نسأل الله العافية، بل هي بأمر من يقول للشيء «كن» فيكون، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] هنا ماءان: ماء نازل من السماء دل عليه قوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، وماء من الأرض نابع دل عليه قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾، فلماذا لم يقل: فالتقى الماءان، لأن المراد ماء السماء وماء الأرض؟ قال العلماء: إنه أراد الجنس، لأن الجنس هنا واحد، ماء الأرض وماء السماء، أو يقال: لأنه لما كان المقصود بهذين الماءين شيئًا واحدًا وهو عذابهم صح إفراده ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على شيء قد قضاه الله تعالى وقدره في الأزل، فإنه ما من شيء يحدث إلا وهو مكتوب، قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] يعني من أعمال بني آدم، ومما يقع في الأرض كل شيء محصى، ولهذا قال ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] أي: حملنا نوحًا وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمله الله على ذات ألواح ودسر، يعني على سفينة ذات ألواح ودسر، وكان نوح عليه

الصلاة والسلام يصنعها، فيمر به قومه ويسخرون منه قال الله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨: ٣٩] وهذه السفينة وصفها الله بأنها ذات ألواح، و ﴿أَلْوَاحٍ﴾ جمع منكر يدل على شيئين:

الشيء الأول كثرة ألواحها.

والثاني: عظمة هذه الألواح، ومتانتها.

وحق لسفينة تحمل البشر على ظهرها أن تكون ذات ألواح عظيمة ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مسامير، وقيل: إن الدسر ما تربط به الأخشاب فيكون أعم من المسامير، لأن الأخشاب قد تُربط بالمسامير وقد تُربط بالحبال، فالمهم أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًّا، وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى مادة صنع السفينة، وأنها من الأخشاب والمسامير، أو الروابط التي تربط بين تلك الأخشاب؛ ليكون ذلك تعليمًا للبشر أن يصنعوا السفن على هذا النحو، ﴿تَجْرِي﴾ أي: تسير على هذا الماء العظيم الذي بلغ قمم الجبال، والتقى فيه ماء الأرض وماء السماء، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: ونحن نراها بأعيننا، ونكلؤها ونحفظها، والباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للمصاحبة يعني أن عين الله - عز وجل - تصحب هذه السفينة، فيراها الله - عز وجل - ويكلؤها ويحفظها، لأنها سفينة بنيت لتقوى الله - عز وجل - وإنجاء أوليائه من الغرق، الذي شمل أعداءه ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي: مكافأة لمن كان كُفِر به وهو نوح عليه الصلاة والسلام - لأن قومه كفروا به وكذبوه - فبين الله - عز وجل - أن إنجاء نوح بهذه السفينة كان جزاء له، والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين أكثر من إحسانهم ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ [القمر: ١٥] الضمير (هاء) اختلف فيها المفسرون وقيل المعنى: ولقد تركنا هذه القصة - وهي قصة نوح - وإغراق قومه، أبقيناها آية لمن يأتي بعدهم، والوجه الثاني: ولقد تركناها، أي: السفينة، والمراد الجنس، أي جنس هذه السفينة أبقيناها آية لمن بعد نوح، وكلا الأمرين محتمل، والقاعدة في التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين لا ينافي بعضهما الآخر، وليس أحدهما بأرجح من الآخر، فإنها تُحمل على المعنيين جميعًا) فنقول: إن الله ترك القصة آية وعبرة لمن يأتي بعد نوح، وترك السفينة آية وعبرة يصنع مثلها من يأتي بعده، ويدل لهذا القول وأنه غير ممتنع أن الضمائر أحيانًا تعود إلى الجنس لا إلى الفرد، نظير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٣] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ المراد بالإنسان آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ ليس آدم هو الذي

جُعل نطفة في قرار مكين، بل الإنسان الذي هو جنس آدم، وهم بنو آدم، ومثل ذلك عند بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] فليست المصابيح التي في السماء هي التي ترجم الشياطين، ولكنها شهب تخرج منها فترجم الشياطين.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ الاستفهام هنا للتشويق، يعني هل أحد يدَّكر ويتعظ بما جرى للمكذبين للرسل من إهلاكهم وتدميرهم، وقيل: إن الاستفهام للأمر، وأن المعنى فادكروا، وسواء قلنا للتشويق أو للأمر، فإن الواجب علينا أن نتذكر وأن نخشى من عقاب الله تبارك وتعالى، وعقاب الله تعالى لهذه الأمة خاصة لا يمكن أن يشملهم جميعًا، لكن قد يشمل مناطق معينة تؤخذ بالعذاب بما فعل السفهاء منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦] (كيف) هنا للتفخيم والتعجب، يعني: ما أعظم العذاب والنذر! وقيل: إن الاستفهام للتقرير، يعني أن الله يقررنا بالعذاب وبالنذر، لكن المعنى الأول أقرب للتفخيم والتعظيم، أي: ما أعظم عذابي النازل بأعدائي، وما أعظم نذري التي تنذر وتخوف من العقاب أن ينزل بمن خالف، فهذا العذاب الذي حصل لقوم نوح عذاب يعتبر من النذر المخوفة لنا من مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] يعني سهلنا، والقرآن هو كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ، وسمي قرآنًا، لأنه يُقرأ أي يتلى، وقوله: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، قال بعضهم: للحفظ، وأن القرآن ميسر لمن أراد أن يحفظه، وقيل: يسر معانيه لمن تدبر، ويسر ألفاظه لمن حفظ، وقيل: المراد بالذكر الادكار والاتعاظ، يعني أن من قرأ القرآن ليتذكر به ويتعظ به سهل عليه ذلك واتعظ وانتفع، وهذا المعنى أقرب للصواب بدليل قوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني: هل أحد يدكر، مع أن الله سهل القرآن للذكر، أفلا يليق بنا وقد سَّهل الله القرآن للذكر أن نتعظ ونتذكر؟ بلى هذا هو اللائق، فهل من مدكر.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ [القمر: ١٨] هذه هي الأمة الثانية ممن قصهم الله علينا في هذه السورة الكريمة، وعاد تتلوا قوم نوح غالبًا، وقد تتقدم عليها كما في سورة (الذاريات)، ولكن الغالب أن قصة نوح هي الأولى في قصص الأنبياء؛ لأنه أول نبي أرسل إلى أهل الأرض، وعاد هم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] كذبوا نبيهم هودًا عليه الصلاة والسلام، وكانوا أقوياء أشداء، وكانوا يفتخرون بشدتهم وقوتهم، ويقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:

١٥]، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦] يقول هنا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨]، والجواب: كان شديدًا عظيمًا واقعًا موقعه، فالاستفهام للتفخيم والتعظيم والتقرير، وهو أن عذاب الله كان عظيمًا، وكان واقعًا موقعه، ﴿وَنُذُرِ﴾ يعني: آياته، كذلك كانت عظيمة واقعة موقعها، فبماذا أهلكهم الله؟ أهلكهم الله بألطف شيء وهو الريح التي تملأ الآفاق، ومع ذلك لا يحس الإنسان بها، لأنها سهلة لينة يخترقها الإنسان بسهولة، مكاننا الذي نحن فيه مملوء بالهواء ومع ذلك نخترقه ولا نحس به، فهي من ألطف الأشياء، فأهلك الله عادًا الذين يفتخرون بقوتهم بهذه الريح، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] الجملة هنا مؤكدة بـ(إن) و ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يعني: الرب ـ عز وجل ـ نفسه، وجمع الضمير للتعظيم ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي على عاد ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: ذات صرير لقوتها وشدتها، حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير، وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير، لأنها قوية جدًّا، وهي الريح الغربية، أتت من جهة الغرب لـ(عاد)، فقالوا: هذا عارض ممطرنا. وكانوا قد أجدبوا قبل ذلك سنوات، فلما أقبلت بسوادها وعظمتها وزمجرتها قالوا: هذا عارض ممطرنا، ولكن الأمر كان بالعكس، كانت ريحًا فيها عذاب أليم، كانت ريحًا عقيمة ليس فيها مطر، ولا يرجى أن يأتي منها مطر، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾، أي: في يوم شؤم مستمر بالنسبة لـ(عاد)، وليس كل وقت، فاليوم الذي أهلكوا فيه ليس هو نفسه نحسًا مستمر، ولكنه بالنسبة لهؤلاء كان يوم نحس مستمرًّا، كما قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هؤلاء أهلكوا بالريح فأدخلوا النار، فالنحس أي الشؤم كان مستمرًّا معهم، فعذاب الآخرة متصل بعذاب الدنيا ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ [القمر: ٢٠] أي: تأخذهم بشدة وقوة وترفعهم إلى السماء ـ نسأل الله العافية ـ، حتى قال بعضهم: ترفعهم حتى يغيب الإنسان عن الرؤية من علوه، ثم تطرحه في الأرض، وإذا سقطوا على الأرض سقطوا على أم رؤوسهم ثم انفصل الرأس عن الجسد من شدة الصدمة، تنزع الناس ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في حال سقوطهم الأرض ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، أعجاز أي أصول، والنخل معروف، والمنقعر الساقط من أصله، يعني كأنهم نخل سقط من أصله بقيت جثته، وصاروا كأعواد النخل؛ لأنه ليس لهم رؤوس على ما قال المفسرون، حيث إن رؤوسهم انفصلت من شدة الصدمة، فسبحان القوي العزيز، هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء وصلوا إلى هذه الحال بريح من عند الله ـ عز وجل ـ تنزع الناس: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

وهنا قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، وفي (الحاقة) قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، والمعنى متقارب، لكن من بلاغة القرآن أن يجري الكلام فيه على نسق واحد، فهناك ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ مناسب للفواصل التي في (الحاقة)، أما هنا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ مناسب للفواصل التي في سورة (القمر)، لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال بلاغته ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، كرر الله تعالى هذا عند آخر كل قصة من أجل أن نحرص على التذكر بالقرآن، وتدبر القرآن، وتفهم القرآن؛ لأنه ميسر، والجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم، واللام، و(قد)، مما يدل على الترغيب في تذكر القرآن والتذكر به، فهل من مدكر، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المدكرين بكتاب الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] أي: بما جاءهم من النذر، وهي الآيات التي جاء بها صالح عليه الصلاة والسلام، وديارهم معروفة الآن ببلاد الحجر في طريق تبوك من المدينة، وكان صالح عليه الصلاة والسلام أرسل إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كسائر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] أرسله الله عز وجل إلى قومه، وأعطاه آية وهي ناقة لها شرب ولهم شرب، أي أن بئر الناقة الكبير الغزير الماء، وقد ذكروا أنها إذا شربت إناء من الماء فإن الذي يسقيها إناء من الماء يحلب من لبنها بقدر ما أسقاها، وهذا من آيات الله أن ناقة تشرب ماء ثم تخرجه في الحال لبنًا، فإن هذا ليس له عادة، ولكنها آية من آيات الله ـ عز وجل ـ أراهم الله تبارك وتعالى إياها حتى يعتبروا، لأن الله لم يرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، رحمة منه وحكمة، لأنه لا يعقل أن رجلًا من بين الناس يأتي ويقول: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]. إلا إذا أتاه الله آيات تدل على صدقه. قال العلماء: وما من آية أوتيها نبي من أنبياء الله السابقين إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلها أو أشد، ولكن قد تكون غير متوفرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنها موجودة في أمته الذين اتبعوه، ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: (أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه)، لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون

آية للنبي، وعليه فنقول: من آيات موسى أنه يضرب الحجر، وإذا ضربه انفجر عيونًا، تنبع ماء من حجر يابس، فهل كان لرسول الله ﷺ مثله؟

الجواب: كان له أعظم، فإن النبي ﷺ جيء إليه بقدح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الركوة فوضع يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده كالعيون[1]، سبحان الله، وهذا أعظم من آية موسى، لأن آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤]لكن لم تجر العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل إذن هذه أعظم، وموسى عليه الصلاة والسلام ضرب البحر فانفلق فكان أسواقًا يابسة، وهذه لا شك آية عظيمة، وجرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرب لهم طريق يبس، مشوا على الماء المائع الهين الذي يغوص فيه من يقع فيه، مشوا بدوابهم وأرجلهم ولم يغرقوا، وذلك في قصة العلاء بن الحضرمي[2]، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تفرق عنها الماء، وآية صالح عليه السلام هذه الناقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم ولهؤلاء يوم، وقد وقع مثلها لرسول الله عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فإنه مر براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن، فمسح النبي ﷺ ضرعها فجعلت تبش من اللبن[3]، فالمهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة: رحمة بالناس من أجل أن تحملهم هذه الآيات على التصديق فينجو من عذاب الله، وحكمة، لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس ويقول: «أنا رسول الله». حتى يؤتى آيات. يقول عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ النذر جمع نذير، والمراد به الآيات التي أوتيها صالح عليه الصلاة والسلام، فقالوا من جملة ما قالوا في تكذيبهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] أنكروا الآيات وما كأنها أتت، يعني أنتبع بشرًا منا واحدًا، لا نقبل، وهذا النفي بمعنى الإنكار، يعني لا يمكن أن نتبع واحدًا منا ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يعني: إنا إن اتبعناه لفي ضلال وسُعُر، أي لفي جهل وفي عذاب، كأنه وعدهم بأنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من النار، فقالوا بالعكس: لو اتبعناه لضللنا واحترقنا بالسعر بالنار، عكس ما قال، وهذا من أشد المراغمة للرسل عليهم الصلاة والسلام، والمحادة لله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٩٥)، وفي «الأوسط» (٤/ ١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٤٣٢).

تبارك وتعالى، ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] هذا أيضًا استفهام احتقار، يعني كيف يلقى الذكر عليه من بيننا، ما الذي ميزه، وكل ما ذكروا شبهات، لا دلالات، فكونه بشرًا لا يمنع أن يكون رسولًا، بل لابد أن يكون رسول البشر بشرًا، لأن الله قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨ - ٩] يعني لو أرسلنا ملكًا للزم أن نجعله في صورة البشر حتى يمكن أن يختلط بالناس ويأتلف بهم، وإذا جعلنا الملك بشرًا لبسنا عليهم ما يلبسون، فعادت المسألة مختلطة.

الشبهة الثانية: أنه منا لا يتميز علينا بشيء، **الثالثة**: أنه واحد لم يؤيد، والله عز وجل يقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣ - ١٤] وهؤلاء يقولون: واحد لابد يعزز بثانٍ وثالث، **الرابعة**: أألقي الذكر عليه من بيننا؟ يعني كيف يلقى عليه الذكر والوحي من بيننا؟ هذا لا يمكن، أربع شبهات وهم يرونها حججًا توجب رد صالح عليه الصلاة والسلام، والواقع إنها ليست بحجج، بل هي شبه وتضليل، وهكذا المبطلون في كل زمان ومكان يوردون الشبه على الحق، ولكن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبين الحق، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ هنا لإبطال دعواه أنه حق ﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة وفي نفس الوقت وصف، لأن كلمة فعال تأتي للمبالغة وتأتي للوصف، فإذا قلت: فلان نجار، يعني من النجارين، وإن لم ينجر إلا مرة واحدة، وإذا قلت: «فلان نجار» لكثرة النجارة صارت مبالغة، فهم يرون - والعياذ بالله - أنه كذاب موصوف بالكذب، ليس له صفة إلا الكذب، وكثير الكذب أيضًا ﴿أَشِرٌ﴾ أي: بطر متعال، متعاظم مستكبر، مدعٍ ما ليس له، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦] سيعلمون غدًا أي: يوم القيامة، والسين هنا للتحقيق والتقريب، لأنك إذا قلت :«سيقوم زيد» فهذا تأكيد وتقريب أيضًا.

فإذا قال قائل: التقرير معروف أن الساعة آتية لا ريب فيها، لكن كيف التقريب؟

قلنا: إن الله يقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ومن الأمثال العابرة (كل آت قريب)، والذي بقي عليه ألف سنة أقرب من الذي لم يمض عليه إلا عشر دقائق، لأن الذي مضى عليه عشر دقائق لا يمكن أن يرجع، لكن المستقبل لابد أن يأتي، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ وسمي يوم القيامة ﴿غَدًا﴾ لأنه يأتي بعد يومه، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾، أصالح هو أم هؤلاء الكذاب الأشر، وهذا وعيد عظيم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ

يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والإنسان في غفلة عن هذا اليوم العظيم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعني من عمل الآخرة، ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ مغطاة عن عمل الآخرة، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعني أعمال الدنيا هم لها عاملون، وأتى بجملة اسمية يعني أنهم محققون للعمل فيها لا يتركونها ولا يفرطون فيها، وأما الآخرة فهم في غفلة منها ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ يعني نفسه ـ جل وعلا ـ وأتى بصيغة الجمع تعظيمًا له ـ جل وعلا ـ لعظمة صفاته، وكثرة كلماته، وكثرة جنوده، فلذلك يكني عن نفسه بصيغة التعظيم، ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾، يعني باعثوها فتنة لهم واختبارًا، هل يؤمنون أو لا يؤمنون، فلم يؤمنوا، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة، لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوه، وانتبه لهذا الاستدراج من الله ـ عز وجل ـ إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يُسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرَّم عليهم صيد السمك يوم السبت فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرَّعًا على وجه الماء وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد مثل الأرنب والغزال يمسكه الواحد باليد. والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة ـ وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم وفي الآخرة في مساكنهم ـ فإنهم لم يأخذوا.

وهذه الناقة أرسلها الله تعالى فتنة لثمود لكن ما أغنتهم ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] أي: ارتقب عذابهم، أو ارتقب أفعالهم، وانظر ماذا يفعلون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾

يعني اصبر، وأصل (اصطبر): (اصتبر) بالتاء للمبالغة، لكن قلبت التاء طاء لعلة تصريفية اقتضتها اللغة العربية، يعني أن الله قال لرسولهم صالح عليه السلام: ارتقب هؤلاء واصطبر فالنصر قريب، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٨]، أخبرهم أن الماء قسمة بينهم كل له شرب وللناقة شرب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾، يعني كل شرب يحضره من يستحقه، إما الناقة وإما هم، وبقوا على هذا لكن لم يستمروا، ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ الذي يرونه قويًا شجاعًا، وقالوا له: هذه الناقة ضايقتنا لو أننا عقرناها لكنا نشرب كل يوم، فطلبوا منه أن يعقرها ـ نسأل الله العافية ـ وهذا الصاحب القوي الشجاع الذي يرونه أشد منهم إقدامًا، بقطع النظر عن اسمه، فبعض المفسرين سماه، لكن لا يهمنا؛ لم يتأخر، بل بادر ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تفاعل من العطاء يعني: بذل نفسه وبسرعة، ويدل على السرعة الفاء في قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ من حين نادوه وافق، ﴿فَعَقَرَ﴾ عقر الناقة ـ نسأل الله العافية ـ قطع أطرافها أولًا، ثم نحرها ثانيًا، وهي من آيات الله ـ عز وجل ـ ومن مصالحهم ـ لكن نسأل الله العافية ـ نفوسهم لا تقبل، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠] يقول الله ـ عز وجل ـ مخاطبًا الإنسان: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؟ هل وقع موقعه؟ وهل كان شديدًا؟ الجواب: نعم، كان في موقعه، وكان شديدًا، ما هذا العذاب؟ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] صِيحَ بهم ـ والعياذ بالله ـ مع الرجفة، ففي السماء أصوات، وفي الأرض رجفان، أخذتهم الرجفة والصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأنهم لم يغنوا فيها، كأنهم ما وجدوا ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ يعني الحضار يجعله الإنسان لغنمه فالأعرابي في البادية يجعل على الغنم حضار من الشجر اليابس ومن عسب النخل، وما أشبه ذلك، لئلا تخرج، ولئلا تعدو عليها السباع. هذا الحضار مع طول الزمن والشمس والرياح يتفتت حتى يتلاشى، كان هؤلاء الأقوياء الأشداء المكذبين لرسولهم كانوا كهشيم المحتضر، أي كالحضار حينما يتلف، وهذا من آيات الله ـ عز وجل ـ وتمام قدرته وسلطانه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فكانوا كهشيم المحتضر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ سبق تفسيرها، والمعنى أن الله تعالى يسر القرآن، أي يسر معانيه لمن تدبره، ويسر ألفاظه لمن حفظه، فإذا اتجهت اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسره الله عليك، وإذا اتجهت اتجاهًا حقيقيًا إلى التدبر وتفهم المعاني يسره الله عليك، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ و(هل): للتشويق، يشوقنا الله ـ عز وجل ـ إلى أن نذكر القرآن فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ [القمر: ٣٣] قوم لوط هم أناس كفروا بالله ـ عز وجل ـ وأشركوا به، وكان مما اختصوا به من المعاصي هذه الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط، أي إتيان الذكر، وحذرهم نبيهم من هذا وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦] ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ استمروا على هذا حتى جاءهم العذاب ﴿بِالنُّذُرِ﴾ النذر: جمع نذير، وهي الكلمات التي أنذرهم بها لوط عليه الصلاة والسلام، وجمعها يدل على أنه كان يكرر عليهم هذا، ولكنهم أبوا وأصروا على هذا الفعل، فبين الله عقوبتهم بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] ﴿حَاصِبًا﴾ أي: شيئًا يحصبهم من السماء، أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهدمت بيوتهم حتى كان عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾، آل لوط هم أهل بيته إلا زوجته كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] وانظر نبي يبعث إلى قومه ولم يتبعه إلا آل بيته إلا امرأته أيضًا فكانت كافرة ومع ذلك فهو صابر حتى أذن له بالخروج ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: في السحر بالصباح، وذلك أن هؤلاء القوم أخذهم العذاب صباحًا، كما ابتدأ عذاب عاد بالصباح، سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، لأنه ابتدأ بالصباح فأخذهم العذاب ـ والعياذ بالله ـ في الصباح، فأهلكهم الله ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أنعمنا على آل لوط نعمة من عند الله ـ عز وجل ـ من وجهين:

الوجه الأول: أن الله أنجاهم.

والوجه الثاني: أن الله أهلك عدوهم، لأن إهلاك العدو من نعمة الله، فصارت نعمة الله على آل لوط بالنجاة وإهلاك العدو ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء، وهو الإنجاء والنعمة ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله، وشكر نعمة الله تعالى هي القيام بطاعته، وليست مجرد قول الإنسان: «أشكر الله»، بل لابد من القيام بالطاعة، ولهذا من قال: «أشكر الله» وهو مقيم على معاصيه فإنه ليس بشاكر، بل هو كافر بالنعمة مستهزئ بالله ـ عز وجل ـ، إذ إن مقتضى النعمة أن يشكر الله، ولكنه عكس الأمر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩] فكل من شكر الله فإن الله تعالى ينجيه ويهلك عدوه، ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ [القمر: ٣٦] يعني أن لوطًا عليه الصلاة والسلام أنذر قومه البطشة، وهي الأخذ بالقوة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: تشككوا فيه ولم يؤمنوا به،

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ [القمر: ٣٧]، أي: راودوا لوطًا عن ضيفه الذي جاء إليه من الملائكة، وكان الله تعالى قد بعث إليه الملائكة على صورة شباب مُرد، ذوي جمال وهيئة، امتحانًا من الله ـ عز وجل ـ، فلما سمع قوم لوط بهؤلاء الضيف أتوا يهرعون إليه يسرعون، يريدون هؤلاء الضيف، ليفعلوا بهم الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: فطمس الله أعينهم، أما كيف طمس أعينهم هل جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه أو غير ذلك؟ الله أعلم، إنما علينا أن نؤمن بأن الله تعالى طمس أعينهم، حتى أصبحوا لا يبصرون، ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الأمر هنا للامتهان، أو إنه أمر كوني، يعني أن الله أمرهم أمر إهانة، أو أمرًا كونيًا أن يذوقوا العذاب، ومثل هذا قول الله تبارك وتعالى عن صاحب الجحيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] فإن هذا الأمر أمر إهانة بلا شك وليس أمر إكرام ولا أمر إباحة، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨] يعني أن العذاب صبحهم أتاهم في الصباح على حين قيامهم من النوم، واستقبالهم يومهم وهم فرحون، كل واحد منهم يفكر فيما يفعل هذا اليوم، فإذا بالعذاب يقع بهم، نسأل الله العافية ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ من العبر في هذه الآية أن هؤلاء الذين قلب الله فطرتهم وطبيعتهم قلب الله عليهم البنيان برميهم بحجارة من سجيل، فتهدم البنيان حتى صار أعلاه أسفله، وقيل: إن الله تعالى قلب بهم ديارهم اقتلعها من أساسها حتى رفعها ثم قلبها، فإن صح هذا فالله على كل شيء قدير، وإن لم يصح فليس لنا إلا أن نأخذ بظاهر القرآن، أنهم أمطروا بحجارة من سجيل، فتهدم البناء عليهم، وأخذ أهل العلم من ذلك أن اللوطي يقتل بكل حال، الفاعل والمفعول به، وهذا هو القول الراجح أن اللواط يجب فيه القتل على كل حال وليس كالزنا، فالزنا يفرق فيه بين المتزوج وغير المتزوج، أما اللواط فيقتل فيه على كل حال ما دام الفاعل والمفعول به بالغين عاقلين، فإنه يجب قتلهما بكل حال إلا المكره، فليس عليه شيء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل الفاعل والمفعول به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتلان، فقال بعضهم: يقتلان بالرجم بالحجارة حتى يموتا، وقال بعضهم: يقتلان بأن يلقيا من أعلى مكان في البلد ويتبعان بالحجارة، وحرق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ اللوطي بالنار، وكذلك خالد بن الوليد وأحد خلفاء بني أمية حرقوهم بالنار لعظم جرمهم ـ والعياذ بالله ـ، ولأن هذه الفاحشة إذا انتشرت في قوم صار الرجال نساء، وصار الواحد منهم يتتبع فحول الرجال حتى يفعلوا به الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ وانقلبت الأوضاع وضاع النسل

بمعنى أن الناس ينصرفون إلى الذكور، ويدعون النساء اللاتي هن حرث للرجال، والتحرز منه صعب، لأنه لا يمكن أن نجد اثنين ونقول: كيف صحبت هذا؟ لكن لو وجدنا رجلًا وامرأة يمكن التحرز منها، فلذلك كان دواء المجتمع من هذه الفعلة القبيحة الشنيعة أن يقتل الفاعل والمفعول به، وقد جاء في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «مَنْ وَجَدتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ»[1]، ولهذا يجب علينا أن نحترز من هذا غاية الاحتراز، وأن نتفقد أبناءنا أين ذهبوا ؟ومن أين جاءوا؟، ومَن أصدقاءهم؟ وهل هم على الاستقامة أو لا؟ حتى نحمي المجتمع من هذا العمل الخبيث.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يسر الله ـ عز وجل ـ القرآن للذكر لحفظه ولفهم معناه، وهذا الخبر يراد به الحث على حفظ القرآن وعلى تدبر معناه؛ لأنه ميسر سهل، وأنت جرب تدبَّر في آيات الله ـ عز وجل ـ لتفهم معناها، وانظر كيف ييسر الله ـ عز وجل ـ لك فهمها حتى تفهم منها ما لا يفهمه كثير من الناس، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ والاستفهام هنا للتشويق، والمعنى هل أحد يذكر ويتعظ بها في القرآن الكريم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١ ـ ٤٢] الجملة مؤكدة بالقسم المقدر واللام و(قد)، ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني قومه وعلى رأسهم فرعون، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى متعددة أنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه، و(النذر) قيل: بمعنى الإنذار والتخويف. وقيل: إنه جمع (نذير) وهو كل ما ينذر به العبد، والمراد به: الآيات التي جاء بها موسى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهذا الأخير هو الصحيح أن (النذر) جمع (نذير)، وليست بمعنى الإنذار، ويدل لهذا قوله ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كل الآيات الدالة على صدق رسالة موسى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذبوا بها وقالوا: إن موسى مجنون، وإنه ساحر، حتى إن فرعون من كبريائه قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ولما كذبوا بالآيات أخذهم الله ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب، ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: قادر، ولكنها أبلغ من كلمة (قادر) لما فيها من زيادة الحروف، وإنما ذكر الله تعالى أنه أخذهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لأن فرعون كان متكبرًا، وكان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكان يسخر من موسى ومن أرسله، فناسب أن يذكر الله تعالى أخذه أخذ

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٣٥٠).

عزيز مقتدر، وقد أجمل الله تعالى هذه القصة في هذه الآية، ولكنه بينها في آيات كثيرة، وأن أخذهم كان بإغراقهم في البحر، فأغرقه الله ـ عز وجل ـ بمثل ما كان يفتخر به، لأنه كان يقول لقومه: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، يقررهم بهذا؟ سيقولون: بلى، أفلا تبصرون. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، يعني بذلك موسى، فأغرقهم الله في اليم حين جمع فرعون جنوده واتبع موسى ومن اتبعه ليقضي عليهم، ولكن الله بحمده وعزته قضى عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣] الخطاب هنا لقريش، أي: يعني هل كفاركم خير من هذه الأمم السابقة التي أهلكها الله؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ يعني أم لكم براءة في الكتب أن الله مبرئكم من عاقبة أفعالكم؟ والجواب: لا هذا ولا هذا، يعني إما أن يكون كفاركم خير من الكفار السابقين، وإما أن يكون لكم براءة من الله ـ عز وجل ـ كتبها الله لكم ألا يعاقبكم، وكل هذا لم يكن، فليس كفارهم خيرًا من الكفار السابقين، وليس لهم براءة في الزبر، ولهم دعوى ثالثة ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، (أم) هنا بمعنى (بل) الإضرابية، وهي إضراب الانتقال، يعني: بل يقولون: نحن، والضمير لقريش ﴿جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، (جميع) هنا بمعنى (جمع)، ولهذا قال ﴿مُّنتَصِرٌ﴾، ولم يقل منتصرون، يعني جمع كثير منتصر على محمد ﷺ وقومه، هذا معنى كلامهم، فأعجبوا بأنفسهم، وظنوا أنهم قادرون على القضاء على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورسالته، فماذا كان جوابهم من الله تعالى؟ قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] أي: يخذلون شر خذيلة، ويولون الدبر، ولا يستطيعون المقاومة ولا المدافعة ولا المهاجمة، مع أنهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، ولكن لا انتصار لهم، وهذا هو الذي وقع ولله الحمد، وأول ما وقع في غزوة بدر حين اجتمع كبراؤهم ورؤساؤهم وصناديدهم في نحو ما بين تسعمائة إلى ألف رجل، في مقابل ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا مع النبي ﷺ فهزموا ـ والحمد لله ـ شر هزيمة، وتحدثت بهم الأخبار، وألقي أربعة وعشرون نفرًا من رؤسائهم في قليب من قلب بدر خبيثة منتنة، وهذه شر هزيمة لا شك، ولذا قال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، هذه عقوبتهم في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] يعني أضف إلى ذلك أن الساعة موعدهم وهو يوم البعث ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد فتكًا، وأمرُّ مذاقًا، لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا.

ثم قال الله ـ عز وجل ـ مبينًا ماذا يحدث لهم ولأمثالهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾

[القمر: ٤٧] الضلال في الدنيا لا يهتدون، والسعر في الآخرة، أي: في نار شديدة التأجج تحرقهم، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها، ليذوقوا العذاب. ويحتمل أن قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضلال عن الطريق الذي يهتدون به إلى الجنة، لأنهم ضلوا في الدنيا فضلوا في الآخرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] يسحبون سحبًا كما تسحب الجيفة، ليبعد بها عن المنازل، وليسوا يسحبون على ظهورهم ولكن على وجوههم - والعياذ بالله - ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ ولقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي: يتقي بوجهه وكان يتقي في الدنيا الحر بيديه لوقاية وجهه، لكنه في النار ليس له ما يقي وجهه النار، بل يتقي بوجهه نسأل الله العافية، فهم يسحبون في النار على وجوههم، وهذه ليست أساطير الأولين، وليست قصصًا تقال، هذه حقيقة نشهد بها - والله - كأننا نراها رأي العين، لابد أن يكون هذا لكل مجرم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الساحب هم الملائكة الموكلين بهم، لأن للنار ملائكة موكلين بها، ويقال ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾، انظر إلى الإذلال: جسدي وقلبي، الجسدي هو أنهم يسحبون على وجوههم، والقلبي أنهم يوبخون، ويقال: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾، مس أي: صلاها، و(سقر) من أسماء النار - نسأل الله العافية.

ثم قال - جل وعلا -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] لما ذكر عذاب أهل النار ثم سيذكر نعيم أهل الجنة، ذكر بينهما أن هذا الخلق وتفاوته بقدر الله - عز وجل - فكل شيء مخلوق فهو بقدر، كل ذرة في رملة فهي مخلوقة بقدر، وكل نقطة تقع على الأرض من السحاب فهي مخلوقة بقدر، وكل شيء تعم ما سوى الخالق، لأنه ما ثم إلا مخلوق وخالق، فإذا كان كل شيء مخلوقًا كان الخالق وحده الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى العَجْزَ وَالكَيْسَ»[1] العجز يعني تكاسل الإنسان، والكيس يعني حزم الإنسان ونشاطه في طلب ما ينفعه والبعد عما يضره، وفي هذه الآية الكريمة دليل على: أن الإنسان مخلوق لله تعالى، وأن أفعاله مخلوقة لله، وأن كل شيء قد قدر وانتهى، وإذا كان كذلك فيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضًا يلتجئ إلى الله الخالق، لا يفخرن ويعجبن بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسن إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله، ولهذا قال النبي صلى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، أحمد في «مسنده» (٢/ ١١٠).

الله عليه وعلى آله وسلم: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1] القوي في إيمانه، والقوي في إرادته وهمته ونشاطه، وليس المراد القوي في بدنه، فقوة البدن إما لك وإما عليك، إن استعملتها في العمل الصالح فهي لك، وإن عجزت عنه مع فعلك إياه في حال القوة كتب لك، وإن استعملت هذه القوة في معصية الله كانت عليك، لكن المراد بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «القوي» أي: في إيمانه وإرادته، أما قوة البدن فهي لك أو عليك، قال: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يسميها علماء البلاغة جملة احترازية، لأنه لما قال: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» يظن الظان أن المؤمن الضعيف ليس فيه خير، فقال: «وفي كل خير»[2]. ولها نظائر قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] يعني من قبل صلح الحديبية ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] كُلًّا من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أن هذا التفاوت يحط من قدر الآخرين ويحرمهم الخير، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] فهنا قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجِزْ»، فإذا فعلت ذلك حرصت على ما ينفع واستعنت بالله، وكنت حازمًا نشيطًا وقويًّا في مرادك، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: «قدر الله - يعني هذا قدر الله -، وما شاء فعل»، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أنت عليك أن تسعى للخير، وليس عليك أن يتم لك ما تريد، المهم أن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، فمن قدر الله له الهداية ومن قدر له الشقاء فهو بقدر، ولكن السبب لتقدير الله الشقاء على العبد هو نفس العبد، لقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ [القمر: ٥٠] يعني ما أمرنا فيما نريد أن يكون ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرة واحدة، بدون تكرار ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ بدون تأخر - سبحان الله - أمر الله - عز وجل - واحدة لا تكرار، بسرعة فورية أسرع ما يمكن أن يكون كلمح للبصر، «كن» فيكون، واشتهر عند العوام يقولون: يا من أمره بين الكاف والنون، وهذا غلط ليس أمر الله بين الكاف والنون،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

(٢) انظر ما قبله.

بل بعد الكاف والنون، لأن الله قال: «كن» فيكون بعد «كن»، فقولهم بين الكاف والنون غلط لأنه لا يتم الأمر بين الكاف والنون، بل لا يتم الأمر إلا بالكاف والنون، أي بعد الكاف والنون فورًا كلمح بالبصر، وإن شئت أن ترى عجائب ذلك فانظر إلى الزلازل تصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظة واحدة تعدمها، لو جاءت المعاول والدركترات والقنابل ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله ـ عز وجل ـ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجواب، وانظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم، والحشرات والحيوانات وكل الأشياء تبعث يوم القيامة بكلمة واحدة، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] صيحة واحدة فقط، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾، كلهم ﴿لَّدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾ فصدق الله ـ عز وجل ـ وعده ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ مثل لمح البصر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١] الخطاب لكفار قريش، وقوله: ﴿أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: أشباهكم من الكفار السابقين، وقد قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة من نبئهم ما فيه عبرة وعظة، قص علينا ما حصل لقوم نوح، وما حصل لعاد، ولثمود، ولقوم لوط، ولآل فرعون، وفي هذا مدكر لمن أراد الادكار، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، يعني هل من متعظ ومعتبر بما جرى على السابقين أن يجري على اللاحقين، لأن الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين عباده محاباة أو نسب، بل أكرمهم عند الله أتقاهم له من أي جنس كان، وفي أي مكان كان، وفي أي زمان كان، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] ﴿كل﴾ مبتدأ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خبره، وليس هذا من باب الاشتغال، بل هو خبر محض، لأن (كل) لا يمكن أن تكون مفعولًا لـ﴿فَعَلُوهُ﴾، بل هي مبتدأ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: فعلته الأمم السابقة، أو الأمم اللاحقة، فإنه مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أي في الكتب، وكتابة الأعمال كتابة سابقة، وكتابة لاحقة، والكتابة السابقة كتابة على أن هذا سيفعل كذا، وهذه الكتابة لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، لأن المرء لم يكلف بها بعد، وكتابة لاحقة وهي كتابة أنه فعل، فإذا فعل الإنسان حسنة كتبها الله، وإذا فعل سيئة كتبها الله، وهذه الكتابة اللاحقة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، وبما قررناه يزول الإشكال عند بعض الناس في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فإن بعض الناس قد يشكل عليه هذه الآية، كيف يقول ـ عز وجل ـ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وهو قد علم؟ فيقال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ يعني العلم

الذي يترتب عليه الثواب، وأما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب ولا العقاب.

والكتابة السابقة معناها أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ الله لما خَلَقَ القَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّي وَمَاذا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا هُو كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١). فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، نؤمن بهذا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

أما الكتابة اللاحقة فهي أن الله سبحانه وتعالى إذا عمل الإنسان عملا كتبه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١١] وهذه الكتابة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، ومعنى الآية: أن كل شيء يفعله الإنسان فإنه مكتوب، فلا تظن أنه يضيع عليك شيء أبدًا، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. سبحان الله، بعد مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضرًا، لا يظلم ربك أحدًا، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، كل صغير وكبير مما يحدث في هذا الكون من المخلوقات، وأوصافها، وأعمالها ﴿مُسْتَطَرٌ﴾، أي: مسطر في الكتاب العزيز، اللوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكتب، حتى ما يزن مثقال ذرة من الأعمال يكتب، كل صغير وكبير، وإذا آمنت بذلك ويجب عليك أن تؤمن به، فإنه يجب عليك الحذر من المخالفة، فإياك أن تخالف بقولك، أو فعلك، أو تركك، لأن كل شيء مكتوب، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وما يفعل من فعل كذلك لديه رقيب عتيد، لأنه إذا كانت الأقوال تكتب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فما تنطق به لا يحصى، فإذا كانت الأقوال تكتب، فالأفعال من باب أولى، فعليك أن تتقي الله ـ عز وجل ـ ولا تخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبرًا فقل: آمنت به وصدقت، وإذا سمعت الله يقول شيئًا أمرًا، فقل: «آمنت به سمعًا وطاعة»، نهيًا «آمنت به، وسمعًا وطاعة». فاترك المنهي عنه، وافعل المأمور به.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] هذا مقابل قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (الجنات) جمع

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(جنة)، وقد ذكر الله تعالى أصنافها في سورة الرحمن فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فهي إذن أربع ذكرها الله في سورة الرحمن، إذا ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ يعني في هذه الجنات الأربع، هذه الأصناف لكن أنواعها كثيرة، و(الجنات) نفسرها بأنها شرعًا هي: (الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، لكن عندما تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] تفسر الجنة بأنها البستان الكثير الأشجار، وعندما تقرأ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] تفسر بأنها بستان كثير الأشجار، لكن لا تفسر جنة النعيم في الآخرة بهذا التفسير، لأنك إن فسرتها بهذا التفسير قلَّت الرغبة فيها وهبطت عظمتها في قلوب الناس، لكن قل: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سكانها خير البشر: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، حتى تحفز النفوس على العمل لها، وحتى لا يتصور الجاهل أن ما فيها كأمثال ما في الدنيا وقوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني بذلك الأنهار، وذكر الله تعالى أصنافها أربعة في سورة القتال: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. أما المكان: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ﴾ [القمر: ٥٥] يعني في مقعد صدق ليس فيه كذب لا في الخبر عنه ولا في وصفه، كله حق وعند من؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وهو الله جل وعلا ـ اللهم اجعلنا منهم ـ عند مليك مقتدر، يتنعمون بلذة النظر إلى الله ـ عز وجل ـ وهو أنعم ما يكون لأهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله، وقال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] يعني حسنة بهية يكسوها الله تعالى نضرًا، أي: حسنًا وجمالًا وبهاءً؛ لتكون مستعدة للنظر إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] ثم ينظرون إلى الله فيزدادون حسنًا إلى حسنهم، ولهذا إذا رجعوا إلى أهلهم قال لهم أهلوهم: إنكم ازددتم بعدنا حسنًا بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى[1]، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تجعلنا من هؤلاء بمنك وكرمك، إنك على كل شيء قدير.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة القمر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

تفسير سورة الرحمن

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ البسملة تقدم الكلام عليها، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١: ٤] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ خبر، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ خبر ثان، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ خبر ثالث، والمعنى أن هذا الرب العظيم، الذي سمى نفسه بالرحمن تفضل على عباده بهذه النعم، و(الرحمن) هو ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وابتدأ هذه السورة بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ عنوانًا على أن ما بعده كله من رحمة الله تعالى، ومن نعمه ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علمه من شاء من عباده، فعلمه جبريل عليه السلام أولًا، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ ثانيًا، ثم بلغه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثالثًا إلى جميع الناس، والقرآن هو هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى باللغة العربية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] وتعليم القرآن يشمل تعليم لفظه، وتعليم معناه، وتعليم كيف العمل به، فهو يشمل ثلاثة أشياء، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد الجنس، فيشمل آدم وذريته، أي: أوجده من العدم، فالإنسان كان معدومًا قبل وجوده، وقبل خلقه، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] يعني أتى عليه حين من الدهر قبل أن يوجد، وليس شيئًا مذكورًا ولا يعلم عنه، وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان وإلا فمن المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن، لكن لما كان تعليم القرآن أعظم منة من الله ـ عز وجل ـ على العبد قدمه على خلقه ﴿عَلَّمَهُ﴾ أي: علم الإنسان ﴿ٱلْبَيَانَ﴾، أي: ما يبين به عما في قلبه، وأيضًا ما يستبين به عند المخاطبة، فهنا بيانان: البيان الأول من المتكلم، والبيان الثاني من المخاطب.

فالبيان من المتكلم يعني التعبير عما في قلبه، ويكون باللسان نطقًا، ويكون بالبنان كتابة،

فعندما يكون في قلبك شيء تريد أن تخبر به تارة تخبر به بالنطق، وتارة بالكتابة، كلاهما داخل في قوله ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، وأيضًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيف يستبين الشيء وذلك بالنسبة للمخاطب يعلم ويعرف وما يقول صاحبه، ولو شاء الله تعالى لأسمع المخاطب الصوت دون أن يفهم المعنى فالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطب كلاهما منة من الله ـ عز وجل ـ فهذه ثلاث نعم: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

ثم قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] لما تكلم عن العالم السفلي بيَّنَ العالم العلوي فقال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بحساب دقيق معلوم متقن منتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله ـ عز وجل ـ ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله عز وجل إلى أن يفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيرًا منظمًا، لا تتغير على مدى السنين الطوال، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] (النجم) اسم جنس، والمراد به النجوم تسجد لله ـ عز وجل ـ فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء تسجد لله ـ عز وجل ـ سجودًا حقيقيًّا، لكننا لا نعلم كيفيته، لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عز وجل سجودًا حقيقيًّا، لكن لا ندري كيف ذلك، والله على كل شيء قدير، وانظر إلى الأشجار إذا طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تشاهدها بعينك، وكلما ارتفعت، ارتفعت الأشجار، وإذا مالت للغروب مالت، لكن هذا ليس هو السجود، إنما السجود حقيقة لا يُعلم، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] فالنجوم كلها تسجد لله، والأشجار كلها تسجد لله ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] ويقابله، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] فلا يسجد ـ والعياذ بالله ـ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] يعني ورفع السماء ولم يحدد في القرآن الكريم مقدار هذا الرفع، لكن جاءت السنة بذلك، فهي رفيعة عظيمة ارتفاعًا عظيمًا شاهقًا، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: وضع العدل، والدليل على أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنى وضع الميزان أي أثبته للناس،

ليقوموا بالقسط أي بالعدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨] يعني ألا تطغوا في العدل، يعني وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو على الشخص وهو لا يستحق، ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ [الرحمن: ٩]، يعني وزنكم للأشياء، أقيموه ولا تبخسوه فتنقصوا، لهذا قال: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يختلف في مواضعه الثلاثة: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ لا تجوروا في الوزن ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي: الموزون.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن: ١٠] يعني: أن من نعم الله ـ عز وجل ـ أن الله وضع الأرض للأنام أي: أنزلها بالنسبة للسماء، والأنام هم الخلق، ففيها الإنس، وفيها الجن، وفيها الملائكة، تنزل بأمر الله ـ عز وجل ـ من السماء، وإن كان مقر الملائكة في السماء لكن ينزلون إلى الأرض، مثل الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال قعيد، والملائكة الذين يحفظون من أمر الله المعقبات، والملائكة الذين ينزلون في ليلة القدر وغير ذلك، ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فَاكِهَةٌ﴾ أي: ثمار يتفكه بها الناس، وأنواع الفاكهة كثيرة، كالعنب والرمان والتفاح والبرتقال وغيرها ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ نص على النخل، لأن ثمرتها أفضل الثمار فهي حلوى وغذاء وفاكهة، وشجرتها من أبرك الأشجار وأنفعها، حتى إن النبي ﷺ شبه النخلة بالمؤمن فقال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرةٌ مِثْلُها مِثْلُ المؤمِنِ»(١)، فخاض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الشجر حتى أخبرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم :«أنها النخلة »، وقوله: ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ جمع (كم) وهو غلاف الثمرة، فإن ثمرة النخل أول ما تخرج يكون عليها كم قوي، ثم تنمو في ذلك الكم حتى يتفطر وتخرج الثمرة، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] الحب يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والأرز وغير ذلك، وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: ما يحصل من ساقه عند يبسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يعصف أي تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هذا الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه، والنخل، والحب، والريحان، لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] الخطاب للجن والإنس، والاستفهام للإنكار، أي: أي نعمة تكذبون بها.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] خلق الإنسان يعني جنسه من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١١).

صلصال، والصلصال هو الطين اليابس الذي له صوت، عندما تنقره بظفرك يكون له صوت كالفخار، هو الطين المشوي، وهذا باعتبار خلق آدم عليه السلام، فإن الله خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، من حمأ مسنون، كل هذه أوصاف للتراب ينتقل من كونه ترابًا، إلى كونه طينًا، إلى كونه حمأ، إلى كونه صلصالًا، إلى كونه كالفخار، حتى إذا استتم نفخ الله فيه من روحه فصار آدميًا، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ [الرحمن: ١٥] وهم الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، المارج هو المختلط الذي يكون في اللهب إذا ارتفع صار مختلطًا بالدخان، فيكون له لون بين الحمرة والصفرة، فهذا هو المارج من نار، والجان خلق قبل الإنس، ولهذا قال إبليس لله - عز وجل -: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦] أي: بأي نعمة من نعم الله تكذبون، حيث خلق الله - عز وجل - الإنسان من هذه المادة، والجن من هذه المادة، وأيهما خير التراب أم النار؟ التراب خير، لا شك فيه، ومن أراد أن يطلع على ذلك فليرجع إلى كلام ابن القيم - رحمه الله - في كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان».

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] يعني هو رب، فهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو رب المشرقين ورب المغربين، يعني أنه مالكهما ومدبرهما، فما من شيء يشرق إلا بإذن الله، ولا يغرب إلا بإذن الله وما من شيء يحوزه المشرق والمغرب إلا لله - عز وجل - وثنى المشرق هنا باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فالشمس في الشتاء تشرق من أقصى الجنوب، وفي الصيف بالعكس، والقمر في الشهر الواحد يشرق من أقصى الجنوب ومن أقصى الشمال، وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] فجمعها، وفي آية ثالثة: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فما الجمع بينها؟

نقول: أما التثنية فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف، أما جمع المغارب والمشارق فباعتبار مشرق كل يوم ومغربه، لأن الشمس كل يوم تشرق من غير المكان الذي أشرقت منه بالأمس، فالشمس يتغير شروقها وغروبها كل يوم، ولاسيما عند تساوي الليل والنهار، فتجد الفرق دقيقة، أو دقيقة ونصفًا بين غروبها بالأمس واليوم، وكذلك الغروب، أو باعتبار الشارقات والغاربات، لأنها تشمل الشمس والقمر والنجوم، وهذه لا يحصيها إلا الله - عز وجل -، أما قوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فباعتبار الناحية، لأن النواحي أربع: مشرق، ومغرب، وشمال، وجنوب، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٨] أي: بأي شيء من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فما

جوابنا على هذه الاستفهامات بهذه الآيات كلها؟ جوابنا: ألا نكذب بشيء من آلائك يا ربنا، ولهذا ورد حديث في إسناده ضعف عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ، لَيْلَةَ الجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُم، كُنْتُ كُلَّمَا أَتيتُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالوا: لَا بِشَيءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمْدُ»(١). لكن هذا الحديث ضعيف(٢)، يذكره المفسرون هنا، وكل آية أعقبت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهي تتضمن نعمًا عظيمة، فما النعم التي يتضمنها اختلاف المشرق والمغرب؟ النعم ما يترتب على ذلك من مصالح الخلق: صيفًا، وشتاءً، ربيعًا، وخريفًا، وغير ذلك مما لا نعلم، فهي نِعَمٌ عظيمة باختلاف المشرق والمغرب.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ مرج بمعنى أرسل البحرين، يعني المالح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، يلتقي بعضهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تبارك وتعالى مالحة، لأنها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكن الملح يمنع الإنتان والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إما من كثرة الأمطار، وإما من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سبحانه وتعالى أرسلهما بحكمته وقدرته حيث شاء - عز وجل - ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي بعضهما ببعض عند مصب النهر في البحر فيمتزج بعضهما ببعض، لكن حين سيرهما أو حين انفرادهما، يقول الله - عز وجل -: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابس من الأرض ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تعالى لسلط البحار ولفاضت على الأرض وأغرقت الأرض، لأن البحر عندما تقف على الساحل لا تجد جدارًا يمنع انسيابه إلى اليابس مع أن الأرض كروية، ومع ذلك لا يسيح البحر لا هاهنا، ولا هاهنا بقدرة الله عز وجل، ولو شاء الله - سبحانه وتعالى - لساحت مياه البحر على اليابس من الأرض ودمرتها، إذن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض أهل العلم: بل البرزخ أمر معنوي يحول بين المالح والعذب أن يختلط بعضهما ببعض، وقالوا: إنه يوجد الآن في عمق البحار عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغواصين يغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٥٠).

(٢) نعم الحديث بمفرده ضعيف كما قال الشيخ رحمه الله، ولكن أتى له الشيخ الألباني بشاهد، ولذلك أورده في «الصحيحة» كما تقدم فراجعه إن شئت (٢١٥٠).

لا تفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كل شيء قدير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢١ ـ ٢٢] أي: يخرج من البحرين العذب والمالح اللؤلؤ والمرجان، وهو قطع من اللؤلؤ أحمر جميل الشكل واللون مع أنها مياه، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾ أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح، وقد قيل: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح ولا يخرج من العذب، والذين قالوا بهذا اضطربوا في معنى الآية، كيف يقول الله ﴿مِنْهُمَا﴾ وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأن هذا من باب التغليب، والتغليب أن يغلب أحد الجانبين على الآخر، مثلما يقال: «العُمَران» لأبي بكر وعمر، ويقال: «القَمَران» للشمس والقمر، فهذا من باب التغليب، فـ﴿مِنْهُمَا﴾ المراد واحد منهما، وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف، والتقدير: يخرج من أحدهما، وهناك قول ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويقول ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: منهما جميعًا يخرج اللؤلؤ والمرجان، وإن امتاز المالح بأنه أكثر وأطيب.

فبأي هذه الأقوال الثلاثة نأخذ؟

نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية، وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٣] لأن ما في هذه البحار وما يحصل من المنافع العظيمة، نِعم كثيرة لا يمكن للإنسان أن ينكرها أبدًا.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] أي لله ـ عز وجل ـ ملكًا وتدبيرًا وتيسيرًا ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ بحذف الياء للتخفيف، وأصلها (الجواري) جمع (جارية)، وهي السفينة تجري في البحر كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي: التي أنشأها صانعوها ليسيروا عليها في البحر، وقوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالجواري أي الجواري في البحر، وليست فيما يظهر متعلقة بالمنشآت، يعني الجواري التي تصنع في البحر، لأن السفن تصنع في البر أولًا، ثم تنزل في البحر، وقوله: ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ تشبيه، والأعلام جمع علم وهو الجبل، كما قال الشاعر:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

كأنه جبل، ومن شاهد السفن في البحار رأى أن هذا التشبيه منطبق تمامًا عليها، فهي كالجبال تسير في البحر بأمر الله ـ عز وجل ـ، وإنما نص الله عليها لأنها تحمل الأرزاق من جانب إلى جانب، ولولا أن الله تعالى يسرها لكان في ذلك فوات خير كثير للبلاد التي تنقل منها والبلاد التي تنقل إليها، وفي هذا العصر جعل الله تبارك وتعالى جواري أخرى، لكنها تجري في الجو، كما تجري هذه في البحر، وهي الطائرات، فهي منة من الله ـ عز وجل ـ كمنته على عباده في جواري البحار، بل ربما نقول: إن السيارات أيضًا من جواري البر، فتكون الجواري ثلاثة أصناف: بحرية، وبرية، وجوية، وكلها من نعم الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٥] أي بأي: نعمة من نعم الله تكذبان، والخطاب للإنس والجن، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي: كل من على الأرض ﴿فَانٍ﴾ أي: ذاهب من الجن والإنس والحيوان والأشجار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧ ـ ٨] أي: خالية، وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٦] أي: يذر الأرض قاعًا صفصفًا، أو يذر الجبال بعد أن كانت عالية شامخة قاعا كالقيعان ساوية لغيرها، صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: يبقى الله ـ عز وجل ـ ذو الوجه الكريم، وكان بعض السلف إذا قرأ هاتين الآيتين وصل بعضهما ببعض، قال: ليتبين بذلك كمال الخالق ونقص المخلوق؛ لأن المخلوق فانٍ والرب باقٍ، وهذه الملاحظة جيدة أن تصل فتقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وهذا هو محط الثناء والحمد على الله ـ عز وجل ـ أن تفنى الخلائق ويبقى الله ـ عز وجل ـ، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه إثبات الوجه لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يعني أنت تؤمن بأن لله وجهًا، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولما ظن بعض أهل التعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التمثيل أنكروا أن يكون لله وجهٌ وقالوا: المراد بقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ثوابه، أو أن كلمة ﴿وَجْهُ﴾ زائدة، وأن المعنى: ويبقى ربك! ولكنهم ضلوا سواء السبيل، وخرجوا عن ظاهر

القرآن وحرفوه وخرجوا عن طريق السلف الصالح، ونحن نقول: إن لله وجهًا، لإثباته له في هذه الآية، ولا يماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وبذلك نسلم ونُجري النصوص على ظاهرها المراد بها، وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي: ذو العظمة ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: إكرام من يطيع الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فالإكرام أي أنه يكرم من يستحق الإكرام من خلقه، ويحتمل أن يكون لها معنى آخر وهو أنه يُكْرَم من أهل العبادة من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحًا للمفعول والفاعل، فهو مكرَم ومكرِم، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه الآية تكررت عدة مرات في هذه السورة، ومعناها أنه بأي نعمة من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس وهذا كالتحدي لهم، لأنه لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذه النعم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أي: يسأل الله من في السماوات والأرض، والذي في السماوات هم الملائكة يسألون الله - عز وجل - ومن سؤالهم أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] إلى آخره، ويسأله من في الأرض من الخلائق، وسؤال أهل الأرض لله - عز وجل - قسمان:

الأول: السؤال بلسان المقال، وهذا إنما يكون من المؤمنين، فالمؤمن يسأل ربه دائمًا حاجاته، لأنه يعلم أنه لا يقضيها إلا الله - عز وجل - وسؤال المؤمن ربه عبادة، سواء حصل مقصوده أم لم يحصل، فإذا قلت: يا رب أعطني كذا. فهذه عبادة، كما جاء في الحديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ وهذا دليل على أن الدعاء عبادة.

النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلًا ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مستهم ضراء اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠٠٣).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من يحصي الأيام؟ لا أحد إلا الله - عز وجل - ومن يحصي الشهور؟ لا أحد إلا الله - عز وجل - ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، يُغني فقيرًا، ويُفقر غنيًّا، ويمرض صحيحًا، ويشفي سقيمًا، ويؤمّن خائفًا ويخوف آمنًا، وهلم جرًّا، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشئون التي تتبدل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] فنحن نؤمن أن الله لا يقدر قدرًا إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم، ولهذا قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يقدر لك قدرًا إلا كان خيرًا لك، إن أصابتك ضراء فاصبر وانتظر الفرج، وقل: الحمد لله على كل حال. وكما يقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرج فيكون خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٠] نقول فيها ما قلنا في الآيات السابقة أن المعنى بأي نعمة من نعم الله تكذبان؟

والجواب: لا نكذب بشيء من نعم الله، بل نقول: هي من عند الله، فله الحمد وله الشكر، ومن نسب النعمة إلى غير الله فهو مكذب، وإن لم يقل إنه مكذب قال الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] وهذه الآية يعني بها قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقد قال النبي ﷺ وهو يحدث أصحابه على إثر مطر كان، قال لهم بعد صلاة الصبح: «هَلْ تَدْرونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١: ٣٢] هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لمن يتوعده: سأتفرغ لك وأجازيك. وليس المعنى أن الله تعالى يشغله شأن عن شأن ثم يفرغ من هذا ويأتي إلى هذا، هو سبحانه يدبر كل شيء في آن واحد في مشارق الأرض ومغاربها وفي السماوات، وفي كل مكان يدبره في آن واحد، ولا يعجزه، فلا تتوهمن أن قوله: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنه الآن مشغول وسيفرغ، بل هذه جملة وعيدية تعبر بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وفي قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ من التعظيم ما هو ظاهر حيث أتى بضمير الجمع، ﴿سَنَفْرُغُ﴾ تعظيمًا لنفسه - جل وعلا - وإلا فهو واحد، وقوله: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

يعني الجن والإنس، وإنما وجه هذا الوعيد إليهما؛ لأنهما مناط التكليف، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سبق تفسيرها فلا حاجة إلى التكرار.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] بعد الوعيد قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ أي: مما نريده بكم ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ ولكنكم لا تستطيعون هذا، فالأمر هنا للتعجيز، ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ يعني ولا سلطان لكم، ولا يمكن أحد أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض إلى أين يذهب؟ لا يمكن ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٣٤ ـ ٣٥] يعني لو استطعتم، أو لو حاولتم لكان هذا الجزاء ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: محمى بالنار ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا ينصر بعضكم بعضًا، وهذه الآية في مقام التحدي، وقد أخطأ غاية الخطأ من زعم أنها تشير إلى ما توصل إليه العلماء من الطيران، حتى يخرجوا من أقطار الأرض ومن جاذبيتها، وإلى أن يصلوا كما يزعمون إلى القمر أو إلى ما فوق القمر، فالآية ظاهرة في التحدي، والتحدي هو توجيه الخطاب إلى من لا يستطيع، ثم نقول: إن هؤلاء هل استطاعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات، لو فرضنا أنهم نفذوا من أقطار الأرض ما نفذوا من أقطار السماوات، فالآية واضحة أنها في مقام التحدي، وأنها لا تشير إلى ما زعم هؤلاء أنها تشير إليه، ونحن نقول: الشيء الواقع لا نكذبه، ولكن لا يلزم من تصديقه أن يكون القرآن دل عليه أو السنة، الواقع واقع، فهم خرجوا من أقطار الأرض، وهذا واقع لا يحتاج إلى دليل، وهذه الآية في سياقها إذا تأملتها وجدت أن هذا التحدي يوم القيامة، لأنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ثم ذكر ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، ثم ذكر ما بعدها يوم القيامة، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الرحمن: ٣٧] يعني: تفتحت وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ١: ٦].

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: مثل الوردة في الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾، كالجلد المدهون، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٨] ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا انشقت ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] لماذا؟ لأن كل شيء معلوم، والمراد لا يسأل سؤال استرشاد واستعلام، لأن كل شيء معلوم، أما سؤال تبكيت فيسأل مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥: ٦٦]، وقال ـ عز وجل ـ:

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٣٩: ٤٣] وقال ـ عز وجل ـ لأهل النار وهم يلقون فيها: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠] وأمثالها كثير، إذن لا يسأل عن ذنبه سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ، وما جاء من سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم: هل أنت عملت أو لم تعمل؟ فهو سؤال تبكيت وتوبيخ، وهناك فرق بين سؤال الاسترشاد وسؤال التوبيخ فلا تتناقض الآيات، فما جاء أنهم يسألون فهو سؤال توبيخ، وما جاء أنهم لا يسألون فهو سؤال استرشاد واستعلام، لأن الكل معلوم ومكتوب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [الرحمن: ٤٠: ٤١] أي: بعلامتهم يعرفون، ومن علاماتهم ـ والعياذ بالله ـ أنهم سود الوجوه، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وأنهم يحشرون يوم القيامة زرقًا إما أنهم زرق أحيانًا وسود أحيانًا، وإما أنهم سود الوجوه زرق العيون، وإما أنهم زرق زرقة يعني بالغة يحسبها الإنسان سوداء ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ النواصي: مقدم الرأس، والأقدام معروفة، فتؤخذ رجله إلى ناصيته، هكذا يطوى طيًّا إهانة له وخزيًا له، فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقون في النار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٢ ـ ٤٣] يعني: يقال هذه جهنم التي تكذبون بها، وقال: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ولم يقل: تكذبون بها، إشارة إلى أنهم مجرمون، وما أعظم جرم الكفار الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ، واستهزؤا بآيات الله واتخذوها هزوًا ولعبًا، ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا﴾ [الرحمن: ٤٤] أي: يترددون بينها ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ أي: شديد الحرارة ـ والعياذ بالله ـ.

أما كيف يكون ذلك فالله أعلم، لكننا نؤمن بأنهم يطوفون بينها وبين الحميم الحار الشديد الحرارة، والله أعلم بذلك، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٥]، ثم ذكر جزاء أهل الجنة فقال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] يعني أن من خاف المقام بين يدي الله يوم القيامة فإن له جنتين. وهذا الخوف يستلزم شيئين:

الشيء الأول: الإيمان بلقاء الله ـ عز وجل ـ لأن الإنسان لا يخاف من شيء إلا وقد تيقنه.

والثاني: أن يتجنب محارم الله، وأن يقوم بما أوجبه الله خوفًا من عقاب الله تعالى، فعليه يلزم كل إنسان أن يؤمن بلقاء الله ـ عز وجل ـ، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

[البقرة: ٢٢٣]، وأن يقوم بما أوجبه الله، وأن يجتنب محارم الله فمن خاف هذا المقام بين يدي الله - عز وجل - فله جنتان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧] سبق الكلام عليها ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] أي: صاحبتا أفنان، و(الأفنان) جمع (فنن) وهو الغصن، أي أنهما مشتملتان على أشجار عظيمة ذواتي أغصان كثيرة وهذه الأغصان كلها تبهج الناظرين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٩]، ثم قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] أي: في الجنتين عينان تجريان، وقد ذكر الله تعالى أن في الجنة أنهارًا من أربعة أصناف، فقال - جل وعلا -: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] والعينان اللتان تجريان، يظهر - والله أعلم - أنهما سوى هذه الأنهار الأربعة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥١] وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] أي: في هاتين الجنتين من كل فاكهة، والفاكهة كل ما يتفكه الإنسان به مذاقًا ونظرًا، فيشمل أنواع الفاكهة الموجودة في الدنيا، وربما يكون هناك فواكه أخرى ليس لها نظير في الدنيا، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٣].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: يتنعمون بهذه الفاكهة حال كونهم متكئين، وعلى هذا فكلمة ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من فاعل والفعل المحذوف، أي: يتنعمون ويتفكهون، ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والاتكاء قيل: إنه التربع، لأن الإنسان أريح ما يكون إذا كان متربعًا، وقيل ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي: معتمدين على مساند من اليمين والشمال ووراء الظهر ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ يعني جالسين ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يعني بطانة الفراش وهو ما يدحى به الفراش من استبرق وهو غليظ الديباج، وأما أعلى هذه الفرش فهو من سندس، وهو رقيق الديباج، وكله من الحرير ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ تأمل أو تصور هذه الحال إنسان متكئ مطمئن مستريح يريد أن يتفكه من هذه الفواكه هل يقوم من مكانه الذي هو مستقر فيه متكئ فيه ليتناول الثمرة؟ بيّن الله بقوله تعالى ذلك: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قال أهل العلم: إنه كلما نظر إلى ثمرة وهو يشتهيها، مال الغصن حتى كانت الثمرة بين يديه لا يحتاج إلى تعب وإلى قيام، بل هو متكئ، ينظر إلى الثمرة مشتهيًا إياها، فتتدلى له بأمر الله - عز وجل - مع أنها جماد، لكن الله تعالى أعطاها إحساسًا بأن تتدلى عليه إذا اشتهاها ولا تستغرب فها هي الأشجار في الغالب تستقبل الشمس، انظر إلى وجوه الأوراق أول النهار تجدها متجهة إلى المشرق، وفي آخر النهار تجدها متجهة إلى المغرب ففيها إحساس، كذلك أيضًا جنى الجنتين دان قريب يحس، إذا نظر إليه الرجل أو المرأة فإنه يتدلى حتى

يكون بين يديه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٥ ـ ٥٦] ﴿فِيهِنَّ﴾ أكثر العلماء يقولون: إن الضمير يعود إلى الجنتين، وأن الجمع باعتبار أن لكل واحد من الناس جنة خاصة به، فيكون ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في جنة كل واحد ممن هو في هاتين الجنتين قاصرات الطرف، وعندي: أن قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ يشمل الجنات الأربع هاتين الجنتين والجنتين اللتين بعدهما، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ يعني: أنها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطرف، أي: أنها تقصر طرف زوجها عليها فلا يريد غيرها، وعلى القول الأول يكون قاصرات مضافة إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول؛ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: لم يجامعهن، وقيل: إن الطمث مجامعة البكر، والمعنى أنهن أبكار لم يجامعهن أحد من قبل لا إنس ولا جن، وفي هذا دليل واضح على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٧ ـ ٥٨] أي: في الحسن والصفاء كالياقوت والمرجان، وهما جوهران نفيسان، الياقوت في الصفاء، والمرجان في الحمرة، يعني أنهن مشربات بالحمرة مع صفاء تام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٩]، ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، الإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب، أي: ما جزاء إحسان العمل إلا إحسان الثواب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦١ ـ ٦٢] أي: من دون الجنتين السابقتين جنتان من نوع آخر، وقد جاء ذلك مبينًا في السنة، حيث قال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1] والآية صريحة أن هاتين الجنتين دون الأوليان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٣ ـ ٦٤] أي: سوداوان من كثرة الأشجار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٥ ـ ٦٦] أي: تنضخ بالماء، أي: تنبع، وفي الجنتين السابقتين قال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، والجري أكمل من النبع، لأن النبع لايزال في مكانه لكنه لا ينضب، أما الذي يجري فإنه يسيح، فهو أعلى وأكمل، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٧ ـ ٦٨] وهناك يقول: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، أما هذا فقال ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، والنخل والرمان معروفان في الدنيا، ولكن يجب أن تعلم أنه لا يستوي هذا وهذا. الاسم واحد والمسمى يختلف اختلافًا كثيرًا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كانت النخل والرمان كالنخل والرمان في الدنيا لكنا نعلم، لكننا لا نعلم، فالاسم واحد، ولكن الحقيقة مختلفة، ولهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [الرحمن: ٦٩ - ٧٠] ﴿فِيهِنَّ﴾ وهذا جمع، وقد قال قبل ذلك ﴿فِيهِمَا﴾، لأن هذا الجمع يعود على الجنان الأربع، ففي الجنان الأربع قاصرات الطرف كما سبق، وفي الجنان الأربع ﴿خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ أي: في الأخلاق. الأخلاق طيبة، حسان الوجوه والبدن، فالأول حسن الباطن وهذا حسن الظاهر، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧١ - ٧٢] الحوراء هي الجميلة التي جملت في جميع خلقها، وبالأخص العين: شديدة البياض، شديدة السواد، واسعة مستديرة من أحسن ما يكون، ﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ أي: مخبئات، ﴿فِي ٱلۡخِيَامِ﴾: جمع (خيمة)، والخيمة معروفة هي بناء له عمود وأروقة، لكن الخيمة في الآخرة ليست كالخيمة في الدنيا، بل هي خيمة من لؤلؤة طولها في السماء مرتفع جدًّا، ويرى من في باطنها من ظاهرها، ولا تسأل عن حسنها وجمالها، هؤلاء الحور مقصورات مخبئات في هذه الخيام على أكمل ما يكون من الدلال والتنعيم ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٧٤] يعني لم يجامعهن أحد، بل هي باقية على بكارتها إلى أن يغشاها زوجها، جعلنا الله منهم، ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ أي: ولا جن، وهذا يدل على أن الجن يدخلون الجنة مع الإنس وهو كذلك، لأن الله لا يظلم أحدًا، والجن منهم صالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم مسلمون ومنهم كافرون، كالإنس تمامًا، كما أن الإنس فيهم مطيع وعاصٍ، وفيهم كافر ومؤمن، كذلك الجن، والجن المسلم فيه خير، ويدل على الخير، وينبئ بالخير، ويساعد أهل الصلاح من الإنس، والجن الفاسق أو الكافر مثل الفاسق أوالكافر من بني آدم سواء بسواء، وكافرهم يدخل النار بإجماع المسلمين كما في القرآن: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وهذا نص القرآن، وأجمع العلماء على أن الكافر من الجن يدخل النار، ومؤمن الجن يدخل الجنة، وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ يدل على أن الجن يدخلون الجنة، وهو كذلك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ [الرحمن: ٧٥: ٧٦] أي: معتمدين بأيديهم وظهورهم ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ﴾ أي: على مساند ترفرف مثل ما يكون على أطراف

(١) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

المساند، ويكون في الأسرّة، هكذا يرفرف، ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾، لأن اللون الأخضر أنسب ما يكون للنظر، وأشد ما يكون بهجة للقلب، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، العبقري هو الفرش الجيدة جدًّا، ولهذا يسمى الجيد من كل شيء عبقري، كما قال النبي ﷺ في الرؤية التي رآها حين نزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «فَمَا رَأَيْتُ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ»[1] أي: ينزع نزعه: من قوته رضي الله عنه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٧] المعنى التقرير، يعني أن النعم واضحة فبأي شيء تكذبون؟ الجواب: لا نكذب بشيء، نعترف بآلاء الله ونعمه ونقر بها ونعترف بأننا مقصرون، لم نشكر الله تعالى حق شكره، ولكننا نؤمن بأن الله أوسع من ذنوبنا، وأن الله تبارك وتعالى عفو كريم يحب توبة عبده، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «للهُ أَشَدُّ فَرحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ»[2] وذكر الرجل في فلاة أضل راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها ولم يجدها، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، آيس من الحياة، فإذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة، فأخذه وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»، يريد أنت ربي وأنا عبدك، لكن من شدة الفرح أخطأ فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»، فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا الرجل بناقته، اللهم تب علينا يا رب العالمين.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الجملة العظيمة، أي ما أعظم بركة الله ـ عز وجل ـ وما أعظم البركة باسمه، حتى إن اسم الله يحلل الذبيحة أو يحرمها، لو ذبح الإنسان ذبيحة ولم يقل باسم الله تكون ميتة حرامًا نجسة مضرة على البدن، حتى لو ذبح ونسي أن يقول: «بسم الله» فهي حرام نجسة تفسد البدن، فيجب أن يسحبها للكلاب، لأنها نجسة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] فانظر البركة، والإنسان إذا توضأ ولم يسم فوضوؤه عند بعض العلماء فاسد لابد من الإعادة، لأن البسملة واجبة عند بعض أهل العلم، والإنسان إذا رأى الصيد الزاحف، أو الطائر فيرميه ولم يسمِّ يكون هذا الصيد حرامًا ميتة نجسًا مضرًّا على البدن، فانظر البركة، والإنسان إذا أتى أهله يعني جامع زوجته وقال: «بسم الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»[3] كان هذا حماية لهذا الولد الذي ينشأ من هذا الجماع، حماية له من الشيطان، قال النبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٨٢)، ومسلم (٢٣٩٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «بِسم الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَإِنَّهُ إِن يُقَدَّرُ بَيْنَهُما وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ الشَّيْطَانُ أَبدًا» والإنسان يسعى يمينًا وشمالًا لحماية ولده ويخسر الدراهم الكثيرة، وهنا هذا الدواء من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يسير من ناحية العمل، وسهل، وكل هذا دليل على بركة اسم الله عز وجل، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذي العظمة والإكرام، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: بمعنى (صاحب)، وهي صفة لـ﴿رب﴾، لا لـ﴿ٱسْمُ﴾ ولو كانت صفة لـ﴿ٱسْمُ﴾ لكانت (ذو)، و ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني هو يُكرِم وهو يُكرَم، فهو يكرم ويحترم ويعظم - عز وجل - وهو أيضًا يكرم، قال الله تعالى في أصحاب الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فهو ذو الجلال والإكرام يكرم من يستحق الإكرام، وهو يكرمه - عز وجل - عباده الصالحون جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، البسملة تقدم الكلام عليها ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ١: ٤] حذف الله جواب الشرط في هذه الآيات من أجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، يعني إذا وقعت الواقعة صارت الأهوال العظيمة، وصار انقسام الناس، وحصل ما حصل مما أخبر به الله ورسوله ﷺ مما يكون في يوم القيامة، وقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ كقوله: ﴿الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ﴾ والمراد بذلك يوم القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليست لوقعتها كذب، بل وقعتها حق ولابد، والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريلُ عليه السلام حين سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وكثيرًا ما يقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح، وأن يبتعد عن العمل السيء لأنه يؤمن أن هناك يومًا آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ يعني هي خافضة رافعة، أي: يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون. ولكن من الذي يرفع؟ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظم عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، والجبارون المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، مع أنهم في الدنيا متبخترون مستكبرون عالون على عباد الله، لكنهم يوم القيامة موضوعون مهينون قد أخزاهم الله ـ عز وجل ـ.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ يعني زلزلت زلزلة عظيمة، ولهذا قال: ﴿رَجًّا﴾ أي: رجًّا عظيمًا، وأنت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تصور أنك ترج إناء فيه ماء كيف يكون اضطراب الماء فيه، فالأرض يوم القيامة ترج بأمر الله - عز وجل - وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] أي: بعثرت وهبطت وصارت كثيبًا مهيلًا، ولهذا قال: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] كالهباء الذي نراه حينما تنعكس أنوار الشمس في حُجرة مظلمة، ترى هذا الهباء من خلال ضوء الشمس منبثًا متفرقًا، هذه الجبال الصم الصلبة التي يكون الصخر فيها أكبر من الجبال، بل ربما يكون الجبل الواحد صخرة واحدة يكون يوم القيامة هباء منبثًّا بأمر الله - عز وجل - فتبقى الأرض ليس فيها جبال ولا شجر ولا أودية ولا رمال، كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٦] أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧] ﴿وَكُنْتُمْ﴾ الخطاب للآدميين عموما ﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي أصنافًا، كما قال الله عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أصنافهم، وقال تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٨] أي: أصنافًا، فمعنى ﴿أَزْوَاجًا﴾ يعني أصنافًا ﴿ثَلَاثَةً﴾ لا رابع لها: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٨: ١٠] ذكرهم الله تعالى غير مرتبين في الفضل، فبدأ الله بأصحاب الميمنة ثم ثنَّى بأصحاب الشمال، ثم ثلَّث بالسابقين، لكن عند التفصيل بدأ بهم مرتبين على حسب الفضل فبدأ بالسابقين، ثم بأصحاب اليمين، ثم بأصحاب الشمال، وهذا التفصيل المرتب خلاف الترتيب المجمل، وهو من أساليب البلاغة، ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. يعني أنه - عز وجل - أخبر بأن أحد الأصناف أصحاب الميمنة، ثم قال ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ من هم، وسيأتي إن شاءالله ذكرهم مفصلًا، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: ذوو الشؤم، وسيأتي أيضًا ذكرهم مفصلًا، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هؤلاء أفضل الأصناف، وقوله ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أصح الأعاريب فيها أن قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿السَّابِقُونَ﴾، يعني أن السابقين إلى الأعمال الصالحة هم السابقون إلى الثواب في الآخرة، فكأنه قال: السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحة هم السابقون في الآخرة بالثواب ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، أي: إلى الله - عز وجل - فهم في أعلى الجنان، وأعلى الجنان أقرب إلى الرحمن - عز وجل -، لأن (الفردوس) وهو أعلى درجات الجنة فوقه

عرش الله - عز وجل - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، وكما يقال: (الجار قبل الدار)، وكما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ﴾ [التحريم: ١١] بدأت بالجوار ﴿بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأن قربهم من الله - عز وجل - فوق كل شيء، جعلنا الله منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في هذا المقر العظيم الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ساكنها منعم في بدنه، ومنعم في قلبه، كما قال - عز وجل - في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١٠ - ١١] نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب، فهم في نعمتين: هما نعيم البدن، ونعيم القلب، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] هذا من نعيم البدن أيضًا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] هذا من نعيم البدن إلى غير ذلك مما ذكره الله - عز وجل - من النعيم في الجنة، ولو لم يكن فيها إلا أن الإنسان يخلد فيها لا يموت، ويصح فلا يسقم، ويشب يكون شابًّا دائمًا فلا يهرم، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الله - عز وجل - كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] يعني فوق الحسنى وفسر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الزيادة بأنها: «النَّظَرُ إِلَى وَجهِ الله»[(١)]، اللهم اجعلنا ممن ينظرون إليك في جنات النعيم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣] قيل: إن المراد بذلك الأمم السابقة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤] يعني أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة، وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أول هذه الأمة، أي: ثلة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعين، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»[(٢)] أي نصفهم، وفي حديث آخر: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرونَ صَفًّا مِنْهُم ثَمانُونَ مِنْ هَذِهِ الأُمةِ»[(٣)] وعلى هذا لا يصح أن نقول: قليل من هذه الأمة، وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ثلة أي كثير من

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، مسلم (٢٢١).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٣٤٧)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥] (سرر) جمع (سرير)، وهو ما يتخذه الإنسان للجلوس والنوم، ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ قال العلماء: منسوجة من الذهب، ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ [الواقعة: ١٦] أي: معتمدين على أيديهم وعلى ظهورهم، فهم في راحة في اليد وفي الظهر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضًا، وهذا يدل على سعة المكان، لأن المكان إذا كان ضيقًا لا يمكن أن يكون الناس متقابلين، وهذه الآية تدل على أن الأمكنة واسعة وهو كذلك، ولهذا كان أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه ألفي عام، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، والله على كل شيء قدير، والجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ومن يحيط بسماء واحدة، كيف وهي عرض السماوات السبع، والسماوات السبع بعضها من فوق بعض؟! وكلما كان الشيء فوق كانت دائرته أوسع، فمن يحيط بهذا إلا الله - عز وجل -، إذن هم متقابلون لأن أمكنتهم واسعة، ولأن لديهم من كمال الأدب ما لا يمكن أن يستدبر أحدهم الآخر، كلهم مؤدبون، كلهم قلوب صافية، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن التدابر[1]. والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلى وجه، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة، وإلا فمتى أمكن التقابل فهو أفضل، فلو أن أحدًا يكلمك وقد ولاَّك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلا إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم، فأهل الجنة على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، وفي حال الاتكاء ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] (الولدان) جمع (ولد)، أو جمع (وليد): كغلمان جمع غلام ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يتردد عليهم، ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: خُلقوا ليخلدوا، وهم غلمان شباب إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، لجمالهم وصفائهم وكثرتهم وانتشارهم في أملاك أسيادهم، إذا رأيتهم أي: إذا رأيت الولدان، فإذا كان الولدان تحسبهم لؤلؤًا منثورًا، فكيف بالسادة؟ أعظم وأعظم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٨] أكواب هي عبارة عن كؤوس لها عرى، والأباريق أيضًا أواني لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ليس له عروة، قوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر معين ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] يعني لا يوجع بها الرأس، ولا ينزف بها العقل، بخلاف خمر الدنيا فإنها تؤلم الرأس وتذهب العقل، ﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ معطوفة على قوله ﴿بِأَكْوَابٍ﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لطيبها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، مسلم (٢٥٥٩).

منظرًا، وطيبها مشمًّا، وطيبها مأكلًا، وهذه الفاكهة طيبة في منظرها، وطيبة في رائحتها، وطيبة في مأكلها ومذاقها؛ لأن الله قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ والإنسان لا يعاف الشيء إلا لقبح منظره، أو لقبح رائحته، أو لقبح مأكله، والفاكهة في الجنة طيبة في لونها، وحجمها، وريحها، ومذاقها، وسبحان الله يؤتون بها متشابهة في اللون والحجم والرائحة، لكن في المذاق مختلفة، وهذا مما يزيد الإنسان فرحًا وسرورًا وإيمانًا بقدرة الله - عز وجل - ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١] أي: ويطوف عليهم هؤلاء الولدان بلحم طير، وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها، وهذا الطير من أين يتغذى؟ الجواب: ليس لنا أن نسأل عن هذا، لأن أمور الغيب يجب علينا أن نؤمن بها بدون سؤال، فنقول: إن كانت هذه الطيور تحتاج إلى غذاء فما أكثر ما تتغذى به، لأنها في الجنة، وإن كانت لا تحتاج إلى غذاء، فالله على كل شيء قدير.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] الحور هن البيض، و ﴿عِينٌ﴾: أي حسنات الأعين، وهن ذات العيون الواسعة الجميلة ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣] أي: المغطى حتى لا تفسده الشمس ولا الهواء ولا الغبار فيكون صافيًا من أحسن اللؤلؤ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] أي: يجزون بهذا الثواب الجزيل ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملهم، أو بالذي كانوا يعملونه لأن (ما) في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون اسمًا موصولًا، والباء هنا للسببية، والباء لها معانٍ كثيرة بحسب السياق فتكون للعوض كقولهم: «بعت الثوب بدينار»، وتكون للسببية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي: بسببه، ولا يصح أن تكون الباء في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للعوض؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ»[1] فالباء في قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب عملهم، وليس المعنى أنه عوض؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يعاوضنا لكانت نعمة واحدة تحيط بجميع أعمالنا ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فانتبه لهذا، ولذلك استشكل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» والجواب: أن الباء في النفي باء العوض، والباء في الإثبات باء السببية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦] أي: أهل الجنة لا يسمعون كلامًا لا فائدة منه، ولا كلامًا يأثم به الإنسان، فالكلام الذي لا خير فيه، والكلام القبيح لا يوجد في الجنة ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ الاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فالسلام ليس من اللغو ولا من التأثيم، وعلامة الاستثناء المنقطع أن تجعل بدل ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فيستقيم الكلام، وهنا لو قيل في غير القرآن: لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا لكن قيلًا سلامًا سلامًا لاستقام الكلام. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٤] فالاستثناء هنا ﴿إِلَّا مَن﴾ منقطع؛ لأن ما بعد ﴿إِلَّا﴾ ليس من جنس ما قبلها؛ لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس بمصيطر لا على الكافرين ولا على غيرهم، فتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن)، ولهذا جاءت الفاء ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وعليه لو أن قارئًا وقف على قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ فالوقف صحيح.

﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا قول فيه السلامة وإدخال السرور والفرح بين أهل الجنة جعلنا الله منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] هذه الطبقة الثانية وهي دون الأولى، والاستفهام في قوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ استفهام تعجب وتفخيم، يعني: أي قوم هؤلاء؟! ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨] السدر شجر معروف ظله بارد ومنشط، ولكن السدر الذي في الجنة ليس كالسدر الذي في الدنيا، الاسم واحد والمعنى مختلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ولو كان ما في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم، والمخضود الذي لا شوك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] الطلح قيل: إنه شجر الموز، والمنضود الذي ملئ ثمرة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نورًا ولكن لا تشاهد شمسًا، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١] أي: ماء مستمر دائمًا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] وغير الماء أنهار أخرى من عسل ولبن وخمر، فالأنواع أربعة، وقد ورد أن هذه الأنهار تجري في غير أخدود، قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في «النونية»:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

فإذا قال قائل: هل هذا ممكن؟!

فالجواب: نقول: لا تتحدث: هل هذا ممكن؟ بل صدِّق، وأخبار الغيب لا يمكن أن يرد عليها هذا السؤال، أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر؟ الجواب: بلى، والواجب التصديق، وأن لا نقول: كيف؟ ولِمَ؟ لأن أمور الغيب ثابتة في القرآن والسنة فلا تسأل مثل هذا السؤال، لأنه لا يمكن الإحاطة بها، بل قل: «آمنت بالله ورسوله» واستقم.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢] الفاكهة كل طعام أو شراب يتفكه به الإنسان؛ لأن الطعام والشراب يكون أحيانًا ضروريًّا معتادًا لا تتفكه به بل هو ضروري للبقاء، وأحيانًا يكون الطعام والشراب فاكهة يتفكه به الإنسان ﴿كَثِيرَةٖ﴾ أي: في أي وقت من الأوقات تجد هذه الفاكهة بينما في الدنيا الفواكه لها أوقات معينة تنقطع، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٣] أي: لا تقطع أبدًا في كل الأوقات ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ أي: لا أحد يمنعها، بل قد قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ [الحاقة: ٢٣] أي: ما يقطفه الإنسان من الثمرة دانٍ، حتى إنه إذا اشتهى الإنسان الثمرة وهي فوق تدلى الغصن حتى يكون بين يديه بدون تعب، وفاكهة الدنيا مقطوعة تأتي في وقت دون وقت، وممنوعة فلا يمكن أن تدخل بستان أحدٍ إلا بإذنه، أما في الآخرة فلا، ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] الفراش ما ينام عليه الإنسان ﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾ أي عالية، ولما كان الذي مع الإنسان في الفراش الحور العين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ [الواقعة: ٣٥] أي: أنشأناهن إنشاءً عجيبًا غريبًا بديعًا، وفسر هذا الإنشاء بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٦] أي: هؤلاء الزوجات أبكار مهما أتاها زوجها عادت بكرًا ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ونساء الدنيا إذا افتض الزوج بكارة الزوجة لا تعود، ولكن في الآخرة تعود بكرًا ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٧] العُربُ المتحببات إلى أزواجهن، وهذا يدل على كمال المتعة أن تكون الزوجة تتحبب إلى زوجها وتتقرب إليه وتغريه بنفسها، وتفعل كل ما يوجب محبته لها، ﴿أَتۡرَابٗا﴾ أي: على سن واحدة لا تختلف ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٨] أي: ذلك المذكور من النعيم النفسي والبدني لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩: ٤٠] هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين هم في المرتبة الثانية، والمرتبة الأولى السابقون السابقون، قال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ

ﭐﻟﺄﻭﻟﻴﻦ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني ثلة من الأولين من هذه الأمة، وقليل من الآخرين، فإن خير قرون الأمة القرن الأول الذي هو قرن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تتناقص، أما أصحاب اليمين فقال الله تعالى فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: جماعة من هؤلاء وجماعة من هؤلاء، ثم ذكر الله القسم الثالث فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] وهم الكفار والمنافقون ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢] هذا القسم في سموم، أي: حرارة شديدة ـ والعياذ بالله ـ وقد بيّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة كيفيتها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] وأخبر أنه ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩: ٢١] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقوله: ﴿وَحَمِيمٍ﴾، الحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، فهم ـ والعياذ بالله ـ محاطون بالحرارة من كل وجه، ومن كل جانب، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣] اليحموم هو الدخان المحض، وقد وصفه الله بأنه ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤] يعني ليس باردًا يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به، ويستريحون فيه فهو ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر لأنه دخان كريه منظره حار مخبره ـ نسأل الله العافية ـ، ثم بيّن حالهم من قبل فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، وذلك في الدنيا، قد أترف الله أبدانهم، وهيأ لهم من نعيم البدن ما وصلوا فيه إلى حد الترف، لكن هذا لم ينفعهم ـ والعياذ بالله ـ ولم ينجهم من النار، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]، ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: يستمرون عليه، والحنث العظيم هو الشرك؛ لأن الأصل في الحنث الإثم، والعظيم هو الشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وكانوا أيضًا ينكرون البعث: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] ينكرون هذا إنكارًا عظيمًا، يقولون: أإذا بليت عظامنا وصارت رُفاتًا هل نبعث؟ وأيضا هل يبعث آباؤنا الأولون؟ ولهذا يحتجون يقولون: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وهذه حجة باطلة؛ لأنه لا يقال لهم: إنكم ستبعثون اليوم، وإنما تبعثون يوم القيامة، فكيف تتحدون وتقولون: هاتوا آباءنا؟ فاليوم الآخر ليس هو اليوم الحاضر حتى يتحدوا ويقولوا: هاتوا آباءنا؛ نقول: إن هذا يكون يوم القيامة.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠] الأولون من المخلوقين والآخرون كلهم سيبعثون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي

وينفذهم البصر، لا جبال ولا أشجار، ولا كروية بل تمد الأرض مسطحة، يرى أقصاهم كما يرى أدناهم، والآن لما كانت الأرض كروية فإن البعيد لا تراه؛ لأنه منخفض، لكن إذا كان يوم القيامة سطحت الأرض، وصارت كالأديم، أي: كالجلد الممدود، فيبعث الخلائق كلهم على هذا الصعيد، وقوله: ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: عند الله ـ عز وجل ـ لقول الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ﴾ أي بعد البعث ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ الضالون في العمل فهم لا يعملون، المكذبون للخبر فهم لا يصدقون ـ والعياذ بالله ـ ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥٢] أي: آكلون من شجر، وهذا الشجر نوعه من زقوم، كما تقول: خاتم من حديد، وباب من خشب، وجدار من طين، فقوله ﴿مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ ﴿مِن شَجَرٖ﴾ متعلقة بأكلهم، ﴿مِّن زَقُّومٖ﴾ بيان للشجر، وسمي زقومًا لأن الإنسان ـ والعياذ بالله ـ إذا أكله يتزقمه تزقمًا، لشدة بلعه لا يبتلعه بسهولة ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٣] أي: أنهم يملأون البطون من هذا الشجر، مع أن هذا الشجر مرّ خبيث الرائحة، كريه المنظر، لكن لشدة جوعهم يأكلونه كما يأكل الجائع المضطر، فهم يأكلونه على تكره، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ [إبراهيم: ١٧]، فهم يأكلون من هذا الشجر، ويملأون البطون منها، يأتيهم شغف عظيم جدًّا للأكل، حتى يملأوا بطونهم مما يكرهونه، وهذا أشد في العذاب ـ نسأل الله العافية ـ ثم إذا ملأوا بطونهم من هذا الطعام اشتدت حاجتهم إلى الشرب، فكيف يشربون؟ قال الله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤] الحميم: هو الماء الحار، يشربون ماءً حارًّا بعد أن يستغيثوا مدة طويلة، وقد وصف الله هذا الماء بقوله: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥] فتأمل يا أخي هذا: إذا قربوه من الوجه يشويه، وإذا دخل بطونهم قطع أمعاءهم، ومع ذلك يشربونه بشدة: ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾، أي: شرب الإبل، و(الهيم): جمع (هائمة)، أو جمع (هيماء)، يعني أنها شاىبدة العطش لا يرويها الشيء القليل، فيملأون بطونهم ـ والعياذ بالله ـ من الشجر الزقوم، ويشربون من الحميم شرب الهيم، أسأل الله أن يجيرني وإياكم من النار.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] أي: هذه ضيافتهم، بخلاف المؤمنين فإن ضيافتهم جنات الفردوس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧: ١٠٨] ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]

وهذا أمر لا أحد ينكره: أن خالقنا هو الله، حتى المشركون الذين يشركون مع الله إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: أول مرة ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: في إعادتكم ثاني مرة، و(لولا) هنا بمعنى: هلا تصدقون، كان الواجب عليهم وهم يصدقون بأن خالقهم أول مرة هو الله أن يصدقوا بالخلق الآخر؛ لأن القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الآخر من باب أولى، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٤٧]، ثم ضرب الله تعالى أمثالا بما فيه وجودنا، وما فيه بقاؤنا، وما فيه استمتاعنا، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩] أي: أخبروني عن هذا المني الذي يخرج منكم: هل أنتم تخلقونه أم الله؟ والجواب: الله ـ عز وجل ـ هو الذي يخلقه، فيخرج من بين الصلب والترائب، وهو الذي يخلقه في الرحم خلقًا من بعد خلق، فنحن لا نوجد هذا المني ولا نطوره في الرحم، بل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ الجواب: بل أنت يا ربنا. ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: قضيناه بينكم، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ولابد حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١] أي: لا أحد يسبقنا فيمنعنا أن نبدل أمثالكم، بل نحن قادرون على ذلك، وسوف يبدل الله تعالى أمثالنا أي ينشئنا خلقا آخر وذلك يوم القيامة.

﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: ٦٢] وهي أنكم نشأتم في بطون أمهاتكم، وأخرجكم الله ـ عز وجل ـ من العدم ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: فهلا تذكرون وتتعظون، وهذا دليل عقلي من الله ـ عز وجل ـ يعرضه على عباده، ومعناه: إنا بدأناكم أول مرة فإذا بدأناكم أول مرة، فلسنا بمسبوقين على أن نعيدكم ثاني مرة.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣: ٦٤] أي: أخبروني أيها المكذبون بالبعث عن الذي تزرعونه بالحرث: هل أنتم الذين تخرجونه زرعًا بعد الحب.

أم نحن الزارعون؟ الجواب: بل أنت يا ربنا، أنت الذي تزرعه، أي تنبته حتى يكون زرعًا، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥] فلا أحد يستطيع أن يفلق هذه الحبة حتى تكون زرعًا، ولا هذه النواة حتى تكون نخلًا إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿لَوْ نَشَاءُ

﴿لَجَعَلْنَهُ حُطَـٰمًا﴾ ولم يقل ـ عز وجل ـ لو نشاء لم نخرجه بل قال: ﴿لَجَعَلْنَهُ حُطَـٰمًا﴾ أي: بعد أن يخرج ويكون زرعًا وتتعلق به النفوس يجعله الله تعالى حطامًا، وهذا أشد ما يكون سببًا للحزن والأسى؛ لأن الشيء قبل أن يخرج لا تتعلق به النفوس، فإذا خرج وصار زرعا ثم سلط الله عليهم آفة، فكان حطامًا، أي: محطومًا لا فائدة منه، فهو أشد حسرة ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتفكهون بالكلام تريدون أن تذهبوا الحزن عنكم، فتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦] أي لحقنا الغرم بهذا الزرع الذي صار حطامًا، ثم تستأنفون فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة :٦٧] أي: حرمنا هذا الزرع، وصار حطاما ففقدناه، ثم انتقل الله ـ عز وجل ـ إلى مادة أخرى، وهي مادة الحياة، وهي الماء فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] أي: أخبرونا عنه من الذي خلقه؟ من الذي أوجده؟ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]؟

والجواب: بل أنت يا ربنا، والمعنى: هل أنتم أنزلتم الماء الذي تشربونه من المزن أي من السحاب أم نحن المنزلون؟ الجواب: هو الله ـ عز وجل ـ، لأنه يرسل إلينا السحاب فينزل المطر فمنه ما يبقى على الأرض، وما شربته الأرض يسلكه الله تعالى ينابيع في الأرض، ويستخرج من الآبار، ويجري من العيون، فأصل الماء الذي نشرب من المزن، من السحاب، ولذلك إذا قلَّ المطر في بعض الجهات قل الماء وغار، واحتاج الناس إلى الماء ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠] أي: جعلناه مالحًا، كريه الطعم لا يمكن أن يشرب، وهنا يقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: لو نشاء لغورناه، أو منعنا إنزاله؛ لأن كونهم ينظرون إلى الماء رأي العين ولكن لا يمكنهم شربه، أشد حسرة مما لو لم يكن موجودًا، والله ـ عز وجل ـ يريد أن يتحداهم بما هو أعظم شيء في حسرة نفوسهم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا تشكرون الله ـ عز وجل ـ على إنزاله من المزن، وعلى كونه سائغًا عذبًا لذيذ الطعم سريع الهضم، ثم انتقل الله تعالى إلى أمر ثالث يصلح به الطعام والشراب وهو النار، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] أي: توقدون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] والجواب: بل أنت يا ربنا، وشجرة النار هي شجر معروف الحجاز، وربما يكون معروفًا غيره، يسمى المرخ والعفار، وهذا الشجر له خاصية إذا ضرب بالمرو أو بشيء ينقدح مع المماسة اشتعل نارًا يوقد منه وهو معروف، ولهذا يقال:

في كل شجر النار ... واستمجد المرخ والعفار

يعني صار أعظمها، هذه النار التي نوقدها، ونطبخ عليها طعامنا، ونسخن مياهنا وننتفع بها

أنشأها الله عز وجل ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: تذكر هذه النار بنار الآخرة، مع أن نار الآخرة فضلت بتسعة وستين جزءًا على نار الدنيا كلها، لما فيها من النيران الحارة الشديدة ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: للمسافرين يتمتعون بالنار بالتدفئة، والدلالة على المكان، لأنهم في ذلك الوقت وإلى وقت قريب كان الناس يستدلون على الأمكنة بنار يضعونها على مكان مرتفع تهدي الضال، ويضرب المثل في الدلالة بالعلم عليه النار، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] أي: سبح الله ـ عز وجل ـ بهذا الاسم، فقل: «سبحان ربي العظيم»، والتسبيح يعني أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعيب، فإذا قلت: «سبحان الله»، فالمعنى أني أنزهك يا ربي من كل نقص وعيب، وقوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي: ذو العظمة البالغة، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُم». ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم»[1]، ولهذا ينبغي للإنسان إذا كان يصلي وقال: «سبحان ربي العظيم» أن يستحضر أمر الله في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وأمر الرسول ﷺ في قوله: «اجعلوها في ركوعكم» حتى يجمع بين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦] يخبر الله تبارك وتعالى أنه يقسم بمواقع النجوم، و ﴿لَا﴾ في قوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ للتنبيه والتوكيد وليست للنفي؛ لأن المراد إثبات القسم وليس نفيه وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] وأمثال ذلك يؤتى بـ(لا) بصورة النفي، والمراد بذلك التوكيد والتنبيه. والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بأدوات مخصوصة، وهي الواو والباء والتاء، وقوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ اختلف فيها العلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: إن المراد بذلك أوقات نزول القرآن؛ لأن القرآن نزل مفرقًا، والشيء المفرق يسمى منجمًا، كما يقال في الدين المقسط على سنوات أو أشهر، يقال: إنه دين منجم، وقيل: المراد بمواقع النجوم مواقع الطلوع والغروب؛ لأن مواقع

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وضعفه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٣٣٤).

غروبها إيذان بالنهار، ومواقع طلوعها إيذان بالليل، وتعاقب الليل والنهار من آيات الله العظيمة الكبيرة التي لا يقدر عليها إلا الله ـ عز وجل ـ، فيكون الله تبارك وتعالى أقسم بها يدل على إقبال الليل وإدباره، وقيل: المراد بمواقع النجوم: الأنواء، وكانوا في الجاهلية يعظمونها حتى إنهم يقولون: إن المطر ينزل بالنوء. ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، والمهم أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم على أمر من أعظم الأمور، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦ ـ ٧٧] لكن الله بيَّن عظم هذا القسم قبل أن يبين المقسم عليه، فقال ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وأتى بالجملة الاعتراضية في قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة على أنه يجب أن نتفطن لهذا القسم وعظمته حتى نكون ذوي علم به ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، والكرم يراد به الحسن والبهاء والجمال، كما في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يبين للناس أن عليهم زكاة في أموالهم قال: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوالِهِم»[1] و(الكرائم) جمع (كريمة)، والمراد بها الشاة الحسنة الجميلة، وهو كريم – أعني: القرآن كريم ـ في ثوابه، فالحرف بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، وهو كريم في آثاره على القلوب وصلاحها، فإن قراءة القرآن تلين القلوب، وتوجب الخشوع لله ـ عز وجل ـ وكريم في آثاره بدعوة الناس إلى شريعة الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فالمهم أن القرآن كريم بكل معنى الكرم.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨ ـ ٧٩] اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في الكتاب المكنون، فقيل: إنه اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]. وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ ـ ١٦] وهذا القول رجحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» وأكثر المفسرين على أن المراد به اللوح المحفوظ.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الملائكة طهرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي، ولهذا لا تقع من الملائكة معصية، بل هم ممتثلون لأمر الله قائمون به

---
(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

على ما أراد الله، وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب، وقالوا: المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف لا تدل عليه الآية، لأنه لو كان المراد ذلك لقال (إلا المتطهرون) يعني المتطهرين ولكنه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي من قبل الله - عز وجل -، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له، لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة، فإن قلنا: إن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيديهم فواضح في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإذا قيل المراد به اللوح المحفوظ فكذلك المطهرون قد يمسونه بأمر الله - عز وجل -، وقد لا يمسونه. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] أي: هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل من عند الله - عز وجل -، لأنه كلامه، وكلام الله تعالى منزل غير مخلوق.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن القرآن ليس بمخلوق، لأنه نزل من الله فهو كلامه، وكلامه من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة، وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى أنه يجب علينا أن نعمل به؛ لأن الذي أنزله هو الرب المطاع الخالق الرازق، الذي يجب أن نطيعه بما أمر، وننتهي عما نهى عنه وزجر، و ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كل من سوى الله، وسموا عالمين؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هذا الخلق إذا تأمله الإنسان دله على ما لله - عز وجل - من عظمة وسلطان ورحمة وغير ذلك من صفاته، ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] يعني: أبعد هذا البيان لعظمة القرآن الكريم تدهنون به الكفار وتسكتون عن بيانه وعن العمل به؟ وهذا الاستفهام للإنكار، لأن الواجب على من آمن بأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنه قرآنٌ كريمٌ، وأنه لا يمسه إلا المطهرون الواجب أن يصارح ويصرح ولا يدهن، وقد قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] ولكن هذا ليس بحاصل، فالواجب على المؤمن أن يبرز بدينه ويفتخر به ويظهره، خلاف ما كان عليه كثير من الناس اليوم مع الأسف، تجد الرجل منهم إذا قام ليصلي يستحي أن يصلي، وربما يداهن ويؤخر الصلاة عن وقتها موافقة لهؤلاء الذين لا يصلون، وهذا غلط عظيم، بل الواجب أن يكون الإنسان صريحًا فلا يداهن في دين الله - عز وجل -.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: تجعلون عطاء الله إياكم تكذيبًا له كما قال - عز وجل -: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ومن ذلك أن ينسب الإنسان نعمة الله - عز وجل - إلى السبب متناسيًا المسبب سبحانه وتعالى، كقوله مثلًا: مطرنا بنوء كذا.

فينسب المطر إلى النوء لا إلى الخالق ـ عز وجل ـ فهذا نوع من الشرك، كما جاء ذلك صريحًا في حديث زيد بن خالد الجهني ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بهم صلاة الصبح ذات يوم في الحديبية وقد نزل مطر، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَتدرُونَ مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِر»(1) يعني انقسموا إلى قسمين مؤمن وكافر، «فَأَما مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وَأَمَا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا، فَذَلِكَ كَافرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: الروح، والذي يعين المرجع هنا السياق كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشمس، ولم يسبق لها ذكر، ولكن السياق يدل على ذلك، فمرجع الضمير تارة يكون مذكورًا، وتارة يكون معلومًا: إما بالسياق وإما بشيء آخر، والحلقوم هو مجرى النفس، وفي جانب الرقبة الأسفل مجريان: مجرى الطعام والشراب، ويسمى المريء، ومجرى النفس وهو الحلقوم، وهو عبارة عن خرزات دائرية لينة منفتحة، أما المريء فإنه بالعكس فإنه كواحد من الأمعاء، ووجه ذلك أن مجرى النفس لابد أن يكون مفتوحًا، لأن النفس لو كان مجراه مغلقًا لكان التنفس شديدًا، لكن برحمة الله جعل الله هذا مثل الأنبوب، لكنه لين، خرزات مستديرة، حتى يهون على المرء رفع رأسه وخفضه، أما المريء فهو مثل الأمعاء العادية، والطعام والشراب قوي يفتحه عند النزول إليه، وذكر الله الحلقوم دون المريء، لأن الحلقوم مجرى النفس، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الآخرة وانتهى من الدنيا ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤] أي تنظرون إلى الميت وما يعانيه من المشاق والسكرات، ولا تستطيعون أن تردوا ذلك عنه، ولو كنتم أقرب قريب إليه وأحب حبيب إليه فإنه لا يقدر أحد على منع الروح إذا بلغت الحلقوم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني أن الله تعالى أقرب إلى الحلقوم من أهله، ولكن المراد أقرب بملائكتنا.

ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ والله تعالى يضيف الشيء إلى نفسه إذا قامت به ملائكته، لأن الملائكة رسله عليهم السلام، وليس هذا من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولكنه من باب تفسير الشيء بما يقتضيه السياق، لأنه ربما يقول قائل: إن ظاهر الآية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

الأقرب هو الله ـ عز وجل ـ فلماذا تحرفونه؟ فنقول: نحن لا نحرفها، بل فسرناها بما يقتضيه ظاهرها، لأن الله قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ وهذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان ولكن لا نبصره، وهذا يعين أن يكون المراد قرب الملائكة لاستحالة ذلك في حق الله تعالى، وأيضًا فإن القرب مقيد بحال الاحتضار، والذي يحضر الميت عند موته هم الملائكة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، فإن قيل: كيف يضيف الله الشيء إلى نفسه والمراد الملائكة؟

قلنا: لا غرابة في ذلك، فإن الله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة لأنهم رسله، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨] والمراد قراءة جبريل عليه السلام لا قراءة الله، لكنه أضاف فعل جبريل إليه لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به، إذن ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني ملائكتنا أقرب إليه منكم، لأنهم حضروا لقبض الروح، والله تبارك وتعالى قد حفظ الإنسان في حياته وبعد مماته، ففي حياته هناك ملائكة يحفظونه من أمر الله، وبعد مماته ملائكة يقبضون الروح ويحفظونها لا يفرطون فيها إطلاقًا، فهم قريبون من الميت ولكننا نحن لا نبصرهم، لأن الملائكة عالم غيبي لا يُرون ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا﴾ [الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧] أي: فهلا إن كنتم غير مجزيين: أي غير مبعوثين ومجازين على أعمالكم ترجعونها إن كنتم صادقين؟

الجواب: لا يمكن، وحينئذ يجب أن تصدقوا بالبعث والجزاء، لأنكم لا تقدرون على رد الروح حتى لا تجازى، فأيقنوا بالبعث.

ثم قسَّم الله تعالى المحتضرين إلى ثلاثة أقسام فقال في القسم الأول: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩] ـ اللهم اجعلنا منهم ـ وهم الذين أتوا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وأتوا بالمستحبات، وتنزهوا عن المكروهات، أي: أكملوا دينهم، والمقربون هم السابقون، الذين ذكروا في أول السورة، السابقون إلى الخيرات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ في قوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾، فقيل: فراحة، لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به، لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ، بل يحب لقاء الله ـ عز وجل ـ، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، وقيل: (الروح) بمعنى (الرحمة)، كما قال الله تعالى عن يعقوب عليه

السلام حين قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رحمته، وهذا المعنى أعم من الأول، لأن الرحمة أعم من أن تكون راحة، أو راحة مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعم كان حمل الآية عليه أولى، إذن ﴿فَرَوۡحٞ﴾ أي: رحمة، ومن الرحمة الراحة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ قيل: المراد بالريحان كل ما يسر النفس، وليس خاصًّا بالريحان ذي الرائحة الطيبة، بل كل ما فيه راحة النفس ولذتها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريحان الرائحة الطيبة كالريحان المعروف، والأول: أشمل، فتحمل الآية عليه، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ أي: جنة ينعم بها، وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ـ جعلنا الله منهم ـ ينعم الإنسان فيها ببدنه وقلبه، فهو لا يتعب ولا ينصب، ولا يمرض ولا يحزن، ولا يهتم ولا يغتم، بل هو في نعيم دائم، والدنيا فيها نعيم لكنه نعيم منغص على حد قول الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وهكذا الدنيا إذا سرَّت يومًا فاستعد للإساءة من غد، وإذا أساءت يوم فقد تنعم في الثاني، أو لا تنعم، أما الجنة في الآخرة فهي دار نعيم في القلب ونعيم في البدن، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠] وهم الذين أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات، لكنَّ فيهم نقصًا في المستحبات والتنزه عن المكروهات ﴿فَسَلَٰمٞ﴾ أي: سلامة ﴿لَّكَ﴾ أي: أيها المحتضر ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: أنت من أصحاب اليمين، والمعنى: فسلام لك حال كونك من أصحاب اليمين، والأولون هم المقربون إليهم، وأصحاب اليمين لا سابقين ولا مخذولين، بين بين، لكنهم ناجون من العذاب، ولهذا قال: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١] وهذا القسم الثاني، أما القسم الثالث: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] بالخبر ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في العمل فلا تصديق ولا التزام، فكل كافر داخل في هذه الآية حتى المنافق ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [الواقعة: ٩٣] أي: فله نزل من حميم، والنزل بمعنى الضيافة التي تقدم للضيف أول ما يقدم، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ حظهم هذا النزل نزل من حميم، والحميم هو شديد الحرارة ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٤] أي يصلون الجحيم فيخلدون فيها، والجحيم من أسماء النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] أي: إن هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: اليقين المتحقق المتأكد، وصدق الله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة، وهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون

الضالون، لا يمكن يخرجوا عن هذا ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] سبح بمعنى نزه، والذي ينزه الله ـ عز وجل ـ عنه كل نقص وعيب، أو مماثلة للمخلوق، فهو منزه عن كل نقص لكمال صفاته وعن مماثلة المخلوق، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعب وإعياء، وقوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: إن الباء زائدة، وأن المعنى: سبح اسم ربك، كما قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقيل: إنها ليست بزائدة، وأن المعنى: سبح الله باسمه، فلابد من النطق بالتسبيح، فتقول: «سبحان الله»، أما لو نزهته بقلبك فهذا لا يكفي، فعلى هذا تكون الباء للمصاحبة يعني سبح الله تسبيحًا مصحوبًا باسمه، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الرب هو الخالق المالك المدبر، والعظيم ذو العظمة والجلال ـ جل وعلا ـ.

هذه السورة لو لم ينزل في القرآن إلا هي لكانت كافية في الحث على فعل الخير وترك الشر، فقد ذكر الله تعالى في أولها يوم القيامة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ثم قسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم ذكر الله في آخرها حال الإنسان عند الموت، وقسم كل الناس إلى ثلاثة أقسام: مقربون، وأصحاب يمين، ومكذبون ضالون، وكذلك ذكر الله فيها ابتداء الخلق في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ والرزق من طعام وشراب وما يصلحها فهي سورة متكاملة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتدبرها إذا قرأها، كما يتدبر سائر القرآن، لكن هي اشتملت على معاني عظيمة؛ والله الموفق.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليها، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] معنى ﴿سَبَّحَ﴾ أي: نزه الله - عز وجل - عن كل عيب ونقص، وعن مماثلة المخلوقين، ودليل تنزهه عن كل عيب ونقص قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] واللغوب يعني التعب والإعياء، وهذا يدل على كمال قوته - عز وجل - وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] فنزه الله تعالى نفسه عن الغفلة، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] فنزه نفسه عن العجز، ودليل تنزهه عن مماثلة المخلوقين: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأثبت الله لنفسه وجهًا في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، والإنسان يستوي على البعير، أي يركب البعير ويستقر عليه ويعلو عليه، ليس استواؤه سبحانه وتعالى على العرش كاستواء الإنسان على البعير، والدليل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فكل صفة يثبتها الله لنفسه وللمخلوق مثلها فإن ذلك موافقة للاسم فقط، أما في الحقيقة فليس كمثله شيء، مثال ذلك: أثبت الله لنفسه علمًا، وأثبت للمخلوق علمًا، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] فأثبت الله لنا علمًا، وأثبت لنفسه علمًا ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وليس العلم الذي أثبته لنفسه كعلم المخلوق والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالله - عز وجل - لا يمكن أن يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولهذا لا يمكننا أن ندرك الله - عز وجل - نعلمه بآياته وصفاته وأفعاله، لكننا لا ندرك حقيقته - عز وجل -، لأنه مهما قدرت من شيء فالله تعالى مخالف له غير مماثل.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل ما في السماوات والأرض، فإنه يسبح الله - عز وجل

ـ وينزهه، ويشمل الآدمي، والجن، والملائكة، والحشرات، والحيوانات، وكل شيء، فكل ما في السماوات والأرض يسبح الله، وهل يسبحه بلسان المقال بمعنى أن يقول: «سبحان الله»، أو بلسان الحال، بمعنى أن تنظيم السماوات والأرض والمخلوقات على ما هي عليه يدل على كمال الله ـ عز وجل ـ وتنزهه عن كل نقص؟ الجواب: أنه يسبح الله بلسان الحال وبلسان المقال، إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الكافر يصف الله بكل نقص، يقول: اتخذ الله ولدًا، ويقول: إن معه إلهًا، وربما ينكر الخالق أصلًا، لكن حاله وخلقته وتصرفه تسبيح لله ـ عز وجل ـ.

وهل الحشرات والحيوانات تُسبح الله بلسان المقال؟

الجواب: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فالحشرات كلها تسبح الله بلسان المقال، والحصى يسبح الله كما كان ذلك بين يدي رسول الله ﷺ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز يعني ذو العزة، والعزة هي الكبرياء والغلبة والسلطان وما أشبه ذلك، فالعزيز هو ذو السلطان الكامل والغلبة الكاملة، فلا أحد يغلبه ـ عز وجل ـ يقول الشاعر الجاهلي:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

و(الحكيم) لها معنيان: المعنى الأول: ذو الحكمة، والمعنى الثاني: ذو الحكم التام، فهي مشتقة من شيئين: من الحكمة والحكم، فالحكمة هي أن جميع أفعاله وأقواله وشرعه حكمة، وليس فيه سفه بأي حال من الأحوال، ولهذا قيل في تعريف الحكمة: (إنها وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها)، فما من شيء من أفعال الله أو من شرع الله إلا وله حكمة، فإذا قدر الله الحر الشديد الذي يهلك الثمار فهو حكمة لا شك، وإذا منع الله المطر فهو حكمة، وإذا ألقى الله الموت بين الناس فهو حكمة، وكل شيء فهو حكمة، والشرائع كلها حكمة فإذا أحل الله البيع وحرم الربا فهو حكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم، ففرق الله ـ عز وجل ـ بين البيع والربا، فالبيع أحله الله، والربا حرمه، فإذا قال قائل: لماذا؟ قلنا: الله أعلم، الله حكيم ـ عز وجل ـ، ولهذا لما قالت المرأة لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا أم المؤمنين ما بال الحائض تقضي الصوم ـ يعني إذا حاضت في رمضان ـ ولا تقضي الصلاة؟ سؤال فيه إشكال، لماذا الحائض إذا أفطرت في رمضان يلزمها قضاء الصوم، وإذا تركت الصلاة لا يلزمها قضاء الصلاة، وكلاهما فرض؟ قالت لها ـ رضي الله عنها ـ:

«كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[1] فاستدلت ـ رضي الله عنها ـ بالحكم على الحكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم ـ عز وجل ـ فلم يوجب عليها قضاء الصوم دون قضاء الصلاة إلا لحكمة، لكن أحيانًا نعرف الحكمة وأحيانًا لا نعرفها، لماذا أحل الله البيع وحرم الربا؟ نقول: لأن الله أحل البيع وحرم الربا، ولذلك لما قال أهل الربا: إنما البيع مثل الربا. رد الله قولهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، فإذا حكم الله بشيء شرعًا، أو حكم بشيء قدرًا فلا يشكل عليك، إن وفقك الله لمعرفة الحكمة فهذا خير، وإن لم تعرف فاعلم أن الله حكيم، وله أيضًا الحكم ـ عز وجل ـ قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] من يستطيع أن يرفع حُكم الله ـ عز وجل ـ فيما إذا نزل به الموت؟ لا أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣: ٨٧] لا يمكن، لأن الله حكم بهذا، وإذا حكم ـ عز وجل ـ بحروب وفتن من يرفع هذا إلا الله عز وجل، والله تعالى له الحكم في الأمور الشرعية قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فالحكم لله ـ عز وجل ـ فإذا عرفت أن الله تعالى له الحكمة فيما شرع، وفيما خلق، وقدر، حينئذ تستسلم ولا تجادل، لأن الذي حكم بذلك هو الله، وإذا علمت أن الحكم لله ـ عز وجل ـ بين العباد فترجع الأمور الشرعية إلى الكتاب والسنة، وفي الأمور القدرية ترجع إلى الله، فإذا حكم عليك بالمرض تفزع إلى الله ـ عز وجل ـ، وإذا حكم عليك بالفقر تفزع إلى الله:«اللهم أغنني من الفقر، واقضِ عني الدين»، فإذا آمن الإنسان بأن الحكم كله لله إن كان حكمًا قدريًا استسلم، وقال: هذا أمر الله، وأنا عبد الله ولا يمكن أن يكون سوى ما كان، وإذا كان شرعيًا قال: «الله ـ عز وجل ـ أعلم وأحكم بما يصلح العباد».

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢] أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله عز وجل ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الجماد حيًّا، ويميت ما كان حيًّا، فبينما نرى الإنسان ليس شيئًا مذكورًا إذا به يكون شيئًا مذكورًا كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ثم يبقى في الأرض ثم يعدم ويفنى، فإذا هو خبر من الأخبار ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه جملة خبرية عامة في كل شيء من موجود ومعدوم، والقدرة صفة تقوم بالقادر حيث يفعل الفعل بلا عجز.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٠٤)، ومسلم (٣٣٥).

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] أربعة أشياء: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ أي الذي ليس قبله شيء، لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقًا، وهو عز وجل الخلق، ولهذا فسر النبي ﷺ ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء[1]، فكل الموجودات بعد الله فليس معه أحد ولا قبله، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، والمخلوقات كلها مخلوقة لله عز وجل، فهو الأول لا ابتداء له، والآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، قال النبي ﷺ: «تفسيرها: الذي ليس فوقه شيء»[2] فكل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ قال النبي ﷺ «الذي ليس دونه شيء»[3]، أي: لا يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شيء، لا يحول دونه جبال، ولا أشجار، ولا جدران، ولا غير ذلك، ليس دونه شيء، ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ اشتملا على عموم الزمان، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ على عموم المكان.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، كل شيء فالله عليم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] فلو عمل الإنسان في جوف بيته في حجرة مظلمة فإن الله تعالى يعلم عمله، بل زد على ذلك أنه يعلم ما توسوس به نفسك كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وأنت إذا فكرت في شيء فالله يعلم به قبل أن يكون، ويعلم الماضي البعيد، ويعلم المستقبل البعيد ويعلم بكل شيء، ولهذا قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما سأله فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] يعني شأنها قصها علينا ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ معناه لا يجهل، لأن الضلال معناه الجهل، كما قال الله ـ عز وجل ـ في نبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ضال ليس معناها فاسق، بل معناه أنه جاهل لا يدري كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إذن الله بكل شيء عليم، وإذا علمت أن الله بكل شيء عليم هل يمكنك أن تقدم على معصية الله وأنت في خفاء عن الناس؟ لا، لأنك تعلم أن الله يعلمك، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] الجواب: بلى، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، فإذن إذا آمنت بأن الله ـ جل وعلا ـ عليم بكل شيء

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠).

فإنه يستلزم أن لا تقوم بمعصيته ولو في الخفاء، وأن لا تترك طاعته ولو في الخفاء، ولقد قال الله ـ عز وجل ـ عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح: ٧] لأجل أن لا يسمعوا، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يبصروا بها ـ والعياذ بالله ـ لأنهم يكرهون الحق وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشمل أفعال العباد وأقوال العباد، بل إنه يعلم سبحانه وتعالى ما في قلب الإنسان وإن لم يظهره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٧] فإياك أن تضمر في قلبك شيئًا يحاسبك الله عليه، لكن الوساوس التي تطرأ على القلب ولا يميل الإنسان إليها بل يحاربها، ويحاول البعد عنها بقدر إمكانه لا تضره شيئًا، بل هي دليل على إيمانه؛ لأن الشيطان إنما يأتي إلى القلب فيلقي عليه الوساوس إذا كان قلبًا سليمًا، أما إذا كان قلبًا غير سليم فإن الشيطان لا يوسوس له، لأنه قد انتهى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤] خلق السماوات والأرض أي: أوجدها ـ عز وجل ـ بكل نظام وتقدير، والسماوات سبع والأرضون سبع، والأرض سابقة على السماء، لأن الله تعالى قال في (سورة فصلت) لما ذكر خلق الأرض قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، لكن الله يبدأ بالسماوات لأنها أشرف من الأرض وأعلى من الأرض، والسماوات بينها مسافة بعيدة جدًا جدًا، وهذا يلزم أن يكون أصغر السماوات سماء الدنيا ويليها الثانية والثالثة، كل واحدة أوسع من الأخرى سعة عظيمة، وهي طباق متطابقة بعضها فوق بعض، وفي حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كلما صعد إلى سماء استفتح ففتح له[1]، والأرض جعلها تعالى في القرآن بصيغة الإفراد، لكن الله تعالى أشار إلى أنها متعددة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: مثلهن في العدد لا في الصفة، لأن التماثل في الصفة بين الأرض والسماء بعيد جدًّا، لكن مثلهن في العدد، وصرحت بذلك السنة في قول النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ بِهِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[2]، وخلقها الله عز وجل في ستة أيام، والأيام أطلقها الله ـ عز وجل ـ ولم يبين أن اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه، وقد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

جاء في الحديث أنها الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، فالجمعة منتهى خلق السماوات والأرض ومبتدؤه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.

فإذا قال قائل: أليس الله قادرًا على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كن فيكون»، وإنما خلقها في ستة أيام - والله أعلم - لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله تعالى بعضها على بعض حتى أحكمها، وانتهى منها في ستة أيام.

الحكمة الثانية: أن الله علّم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه، حتى يتأنى الإنسان فيما يصنعه، فعلم الله سبحانه عباده التأني في الأمور التي هم قادرون عليها.

وكلا الأمرين وجيه، وقد تكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، ومع هذا لا نجزم به ونقول: الله أعلم. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، استوى عليه يعني على وجه يليق بجلاله، ولا يمكن أن نمثله بخلقه لأن الله ليس كمثله شيء، والعرش مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الذي خلقه - عز وجل - وقد جاء في الحديث: «أن السماوات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض»[1]، الحلقة حلقة الدرع المكون من حلق من الحديد، فالحلقة من الحديد من الدرع تكون بالنسبة للفلاة لا شيء، فلاة من الأرض واسعة ضاع فيها حلقة من حلق الدرع ماذا تكون نسبتها وماذا تشغل من الأرض؟! لا شيء، قال ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»، إذن لا يعلم قدره إلا الله - عز وجل -، وليس لنا أن نسأل: من أين مادة الكرسي؟ من ذهب، من فضة، من لؤلؤ؟ ليس لنا الحق في أن نتكلم في هذا؛ هو عرش عظيم كما وصفه الله ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، عرش عظيم جدًّا جدًّا، لا يعلم قدره إلا الله، استوى الله عليه لكمال سلطانه - جل وعلا -، و(ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تدل على الترتيب، أي أن خلق السماوات والأرض سابق على الاستواء على العرش، ومعنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: عَلَا؛ لأن الاستواء في اللغة العربية إذا تعدى بـ(على) كان معناها العلو، مثاله: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا

(١) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣]، ومن ذلك: قوله تعالى عن نوح: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فقوله: ﴿اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ يعني: علوت عليه، إذن ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني عَلَا العرش، وإذا رأيت من يقول: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استولى على العرش، فقد كذب على الله - عز وجل - لأن الله تعالى نزل هذا القرآن العظيم باللغة العربية، واللغة العربية تدل على أن ﴿اسْتَوَىٰ﴾ إذا تعدت بـ﴿عَلَى﴾ فهي بمعنى العلو لا غيره، فيكون الذي يفسرها بـ(استولى) كاذب على الله - عز وجل - جانيًا على نصوص الكتاب، محرفًا لها، وجنايته عليها من وجهين:

الوجه الأول: صرفها عن ظاهرها.

والوجه الثاني: إحداث معنى لا يدل عليه الظاهر، وهذا قد يوجد كثيرًا في كتب الأشاعرة، سواء كانوا مفسرين أو غير مفسرين لكنهم بهذا والله والله قد ضلوا ضلالًا مبينًا، نسأل الله العافية، فمن الذي استولى على العرش حين خلق السماوات والأرض؟! إذا كان الله لم يستولِ عليه إلا بعد خلق السماوات والأرض فهو لمن من قبل؟! نعم يلزمهم أن يقولوا: لغير الله، وإلا فقد أخطأوا، يعني تبين خطأهم وهم مخطئون والحمد لله.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من جثث الموتى، ومن الحبوب التي تنبت بإذن الله، ومن المياه التي يسلكها الله ينابيع في الأرض ثم يخرجها، وغير ذلك من الحشرات وغيرها، فكل ما يلج في الأرض يعلمه الله.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من النبات والمياه والمعادن وغيرها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من الملائكة والأمطار والشرائع وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: إليها، لكن جاءت بلفظ ﴿فِيهَا﴾ بدل إليها لنستفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: العروج يعني الصعود.

الفائدة الثانية: الدخول، لأن ﴿فِي﴾ يناسبها من الأفعال الدخول، تقول: دخل في المكان، أما عرج ويعرج فالذي يناسبها (إلى)، لكن الله - عز وجل - عدل عن قوله (يعرج إليها) إلى قوله ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ليفيد الصعود والدخول.

وضمن ﴿يَعْرُجُ﴾ معنى (يدخل)، والتضمين موجود في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] المناسب ليشرب (من) كما قال تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] يعني (منه)، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا

قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهنا قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال العلماء: الحكمة أن يشرب هنا ضمنت معنى (يروى)، أي: يروى بها. ومعلوم أنك إذا قلت: «يروى بها». فقد تضمن معنى يشرب وزيادة. والتضمين فن مهم في باب البلاغة، ينبغي لطالب العلم أن يدرسه ويحققه، حتى يستفيد إذا اختلفت الحروف مع عواملها، ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأشياء ما يصل إلى السماء الدنيا ويقف، ومنها ما يعرج في السماء الدنيا حتى يصل إلى الله - عزوجل - ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ هو الضمير يعود إلى الله - عز وجل -، ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، كما قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ»[1]، لكن هذه الصحبة ليست صحبة مكان؛ بمعنى أننا إذا كنا في مكان كان الله معنا - حاشا وكلا - لا يمكن هذا، وكيف يتصور عاقل أن الله معنا في مكاننا، وكرسيه وسع السماوات والأرض؟! هذا مستحيل، والكرسي موضع القدمين، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه[2]، فإذا كان كذلك هل يعقل أن رب السماوات والأرض الذي يوم القيامة تكون السماوات مطويات بيمينه، والأرض جميعًا قبضته هل يمكن أن يكون معنا في أماكننا الضيقة والواسعة؟ لا يمكن، إذًا ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، والمصاحب قد يكون بعيدًا عنك، يقول العرب في أسلوبهم: ما زلنا نسير والقمر معنا، مازلنا نسير والقطب معنا، ما زلنا نسير والجبل الفلاني معنا، وليس معهم في مكانهم. ومعلوم أن القمر في السماء، والنجم في السماء، والجبل قد يكون بينك وبينه مسافة أيام، ومع ذلك فالعرب تطلق عليه المعية مع البعد في المكان، وكوننا نؤمن بأن الله معنا إذن هو عالم بنا، سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، له القدرة علينا والسلطان، ومدبر لنا بكل معنى تقتضيه المعية، واعلم أن من الضلال من يقول: إن الله معنا في أمكنتنا، نسأل الله العافية، وينكرون أن الله في السماء عاليًا فأتوا داهيتين عظيمتين:

الأولى: إنكار علو الله.

والثانية: اعتقاد أنه في الأرض.

سبحان الله! هل يعقل أن يعتقد عاقل فضلًا عن مؤمن أنه إذا كان في المرحاض كان الله معه؟ أعوذ بالله، الذي يعتقد هذا أشهد بالله أنه كافر، لأن أعظم استهزاء بالله وأعظم حط من قدر الله هو هذا، ثم نقول: إذا كان الله - كما يقولون - في كل مكان يعني أنه في الحجرة، وفي السوق، وفي المسجد، ثم من الذي يكون مع أناس في الحجرة، وأناس في الشارع؟ أهما إلهان؟ لا يمكن أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٢)، والترمذي (٣٤٤٧)، وأبو داود (٢٥٩٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» (٣٣١)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٩٠٦).

يقولوا إنه متعدد، هل هو متجزئ؟ إذن بطل أن يكون معنا بذاته في أمكنتنا لأنه إما أن يكون متعددًا، وإما أن يكون متجزءًا، وكلاهما باطل، قررت هذا لأنه يوجد من يعتقد أن الله في كل مكان فنقول: المعية هي المصاحبة، ولا يلزم من المصاحبة المقارة في المكان، وكيف يمكن أن يكون الله معك في مكانك وهو سبحانه وتعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، ولكن هؤلاء الذين يعتقدون أنه في كل مكان ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوا عظمته وجلاله قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] فكيف يعتقد أن الله معنا في مكاننا، فيجب على الإنسان أن يعرف نعمة الله عليه بكونه يؤمن بالقرآن الكريم ظاهره معظمًا لله حق تعظيمه، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أي مكان، لأن (أين) ظرف مكان، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: بما تعملون من الأعمال كلها بصير، والبصر هنا يشمل بصر الرؤية قال النبي ﷺ عن ربه: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١) ويشمل بصر العلم، فمن المعلوم أن أعمالنا قد تكون مرئية الحركة، وقد تكون مسموعة كالأقوال، فرؤية المسموع العلم.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥] أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله - عز وجل - لا استقلالا ولا مشاركة، قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] فنفى الاستقلال ونفى المشاركة، ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: ما لله ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من مساعد ساعده على خلق السماوات والأرض، فله ملك السماوات والأرض وعددها سبع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] والأرضون أيضًا عددهم سبع كما جاء ذلك ظاهرًا في القرآن وصريحًا في السنة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] يعني في العدد، وثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه يوم القيامة من سبع أراضين»(٢).

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، كل الأمور أي الشئون العامة والخاصة، الدينية، والدنيوية،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

والأخروية؛ كلها ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ يتصرف كما شاء يحكم بما شاء ولا معقب لحكمه ـ عز وجل ـ فكل أمور الإنسان الخاصة ترجع إلى الله، ولذلك يجب عليك إذا أَلَمَّت بك ملمة أن ترجع إلى الله ـ عز وجل ـ لأن المشركين وهم مشركون ـ إذا ألمت بهم الملمات التي يعجزون عنها يرجعون إلى الله ـ عز وجل ـ، فإذا عصفت بهم الرياح في أعماق البحار على السفن يلجؤون إلى الله عز وجل، ويرجعون إلى الله، ويسألونه أن ينجيهم وهم مشركون، فكيف بك أنت أيها المسلم، فالجأ إلى الله في كل صغير أو كبير، ديني أو دنيوي خاص بك أو بأهلك، لا تلجأ لغير الله، فمن أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزل حاجته بغير الله وُكل إليه، فنقول: إلى الله ترجع الأمور عامة: الأمور الدينية والدنيوية والأخروية، والخاصة والعامة، وإذا آمنت بهذا ـ ويجب أن تؤمن به ـ صرت لا تلجأ إلا إلى الله ـ عز وجل ـ.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ أي يُدخل الليل في النهار، ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يُدخله في الليل، وهذا يعني اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر، أحيانًا يبدأ الليل في الزيادة فيدخل على النهار، فهذا ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾. وأحيانًا يبدأ الليل ينقص ويزيد النهار، فيدخل النهار على الليل، ولا أحد يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخلق كلهم إنسهم وجنهم والملائكة ما استطاعوا أن يولجوا دقيقة واحدة من الليل في النهار، أو يولجوا النهار في الليل، والله ـ عز وجل ـ يولج الليل في النهار أو من النهار في الليل، ثم هذا الإيلاج لا يأتي دفعة واحدة، ولكنه يأتي تدريجيًا شيئًا فشيئًا، أول ما يبدأ بالزيادة تجده يأخذ قليلا في اليومين أو الثلاثة دقيقة واحدة، ثم يبدأ يزداد حتى يكون عند تساوي الليل والنهار يأخذ حوالي دقيقتين في اليوم تدريجيًا، أرأيتم لو جاء دفعة واحدة، كنا مثلا في أطول يوم في السنة وإذا بنا في اليوم الثاني إلى أقصر يوم في السنة، فيترتب على ذلك مفاسد عظيمة؛ لأن الناس سينقلبون من حر مزعج إلى برد مؤلم في خلال أربع وعشرين ساعة، وهذا لا شك أنه مضر بالأبدان والنبات والجو، ولكنه ـ عز وجل ـ يولجه على تنظيم موافق للحكمة تمامًا، ولا أحد يستطيع أن يفعل هذا أبدًا مهما بلغ من القوة.

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: صاحبة الصدور يعني القلوب، والدليل أنها القلوب قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] إذن هو عليم بما في القلب، وإذا كنت تصدق بذلك فهل يمكن أن تضمر في قلبك ما لا يرضاه الله، إن كنت مؤمنًا؟ لا يمكن، فطهِّر قلبك من الرياء والنفاق والغل على المسلمين والحقد والبغضاء، لأن قلبك

معلوم عند الله ـ عز وجل ـ اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا. فطهر القلب من هذا، واملأه محبةً لله تعالى وتعظيمًا، كما يليق به ومحبةً للرسول ﷺ وتعظيمًا كما يليق به، ومحبةً للمؤمنين، ومحبةً لشريعة الله تعالى، فلا تضمر في هذا القلب شيئًا يكرهه الله، فإن فعلت فالله عليم به لا يخفى عليه، فطهر قلبك حتى يكون نقيًّا سليمًا، لأنه لا ينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، وتغيرات القلب تغيرات سريعة وعجيبة، ربما ينتقل من كفر إلى إيمان، أو من إيمان إلى كفر في لحظة، نسأل الله الثبات، وتغير القلب يكون على حسب ما يحيط بالإنسان، وأكثر ما يوجب تغير القلب إلى الفساد حب الدنيا، فحب الدنيا آفة، والعجب أننا متعلقون بها، ونحن نعلم أنها متاع الغرور، وأن الإنسان إذا سرّ يومًا أسيء يومًا آخر، كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

كل لذة في الدنيا فهي محوطة بمنغص، لذلك احرص على تطهير القلب من التعلق بالدنيا إلا فيما ينفعك في الآخرة، كأن تتعلق بالدنيا لتصبح غنيًّا تنفق مالك في سبيل الله وفيما يرضي الله ـ عز وجل ـ فهذا شيء آخر، وطلب المال للأعمال الصالحة خير، لكن طلب المال لمزاحمة أهل الدنيا في دنياهم شر.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] ﴿ءَامِنُوا﴾، الخطاب للعباد كلهم، ﴿بِاللَّهِ﴾ رب العالمين ﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والأمر هنا للوجوب الذي هو أشد أنواع الوجوب تحتمًا، والإيمان بالله أن تؤمن بأنه رب العالمين، وأن تؤمن بأنه الإله المعبود حقًّا الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن تؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن تؤمن بأنه الفعّال لما يريد، وأن تؤمن أنه لا معقب لحكمه وهو السميع العليم، وأن تؤمن أن مرجع الخلائق إليه في الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فمن يدبر الخلق إلا الله ـ عز وجل ـ والذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون هو الله ـ عز وجل ـ ﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى إلى جميع الخلق والإنس والجن، وختم به النبوات، فلا نبي بعده، والدليل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. يعني كان رسول الله خاتم النبيين فلا نبي بعده، فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر، يجب أن يقص عنقه إلا أن يتوب ويرجع، ﴿وَأَنفِقُوا﴾ الإنفاق: البذل، ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني المال؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملّكنا إياه، فلا مِنّة

لنا على الله بما ننفق، بل المنة لله علينا بما أعطى، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق، ولولا أن الله شرع لنا أن ننفق لكان الإنفاق ضياعًا وبدعة، ولكن شرع لنا أن ننفق، فلله تعالى المنة أولًا فيما ملكنا من المال، وله المنة ثانيًا بما شرع لنا من إنفاقه، وله المنة ثالثًا بالإثابة عليه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي: آمنوا بالله ورسوله؛ لأنه قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾ أي مما جعلهم مستخلفين فيه، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، والآيات في هذا كثيرة ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فوصف الله الأجور على العمل بأنه كبير عظيم كثير، الكثير نأخذه من قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وبهذا نعرف منة الله علينا: يأمرنا بالعمل ونعمل به ويأجرنا عليه أجرًا كثيرًا، أجرًا عظيمًا، أجرًا كبيرًا، منة عظيمة كبيرة، فعلينا أن نشكر الله، وأن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه، فهل ننفق كل ما نملك أو بعض ما نملك؟ قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا﴾ و ﴿مِمَّا﴾ هذه هل هي للتبعيض أو هي لبيان ما ينفق منه؟ إذا كانت للتبعيض فالمعنى: أنفقوا بعض ما رزقكم وليس كله.

وإذا جعلناها للبيان، فالمعنى: أنفقوا مما جُعِل لكم حسب ما تقتضيه المصلحة: إما الكل وإما البعض، والأحسن أن تجعل ﴿مِمَّا﴾ للبيان، وإذا جعلناها للبيان صار الإنسان مخيرًا ينفق كل ماله، أو بعض ماله، أكثره أو أقله، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أوسع كان الأخذ به كان أولى، والقرآن الكريم العظيم معانيه واسعة عظيمة، ولذلك حث النبي ﷺ مرة على الصدقة، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتسابقون إلى الخير، كل واحد يحب أن يكون هو السابق، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: اليوم أسبق أبا بكر؛ لأن هذين الرجلين هما أخص الصحابة بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأحب الصحابة إلى الرسول ﷺ، والنبي ﷺ يحب أبا بكر أشد من حب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، مع أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ابن عمه وزوج ابنته، لكن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ يحبه أشد وأكثر، فقد سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: «أَبُو بَكْرٍ»(١)، وقال: لَوْ كُنْتُ مُتَخِذًا مِنْ أُمَتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»(٢).

والمهم: أن عمر كان هو وأبو بكر ـ رضي الله عنهما ـ كَفَرَسَيّ رهان، يحب أن يسبقه لا حسدًا لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولكن حبًّا للفضل لنفسه، قال: اليوم أسبق أبا بكر، فجاء بنصف ماله لينفقه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «يا عمر، ماذا تركت لأهلك»؟ قال: تركت لهم الشطر،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٦).

يعني النصف، وجاء أبو بكر فقال: «ما تركت لأهلك»؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، أي أتى بكل ماله، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: والله لا أسابقك على شيء بعد هذا[1]، عرف أنه يعجز أن يسبق أبا بكر، والشاهد من هذا الحديث أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ تصدق بجميع ماله فإذا رأى الإنسان المصلحة في أن يتصدق بجميع ماله، وأن عنده من قوة التوكل والاعتماد على الله واكتساب الرزق ما يمكنه أن يسترد شيئًا من المال لأهله ونفسه، فحينئذ نقول: تصدق بجميع مالك، وإذا كان الأمر بالعكس فكان رجلا أخرق لا يعرف أن يكتسب، وليس هناك داع أن ينفق كثيرًا، فهنا نقول: الأولى أن تنفق بعض المال.

وفي هذه الآية دليل على: أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويثبته، وكلما رأى فيه تزعزعًا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومضى إلى سبيله، وأن ينفق من المال، والمال محبوب قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ولا يمكن أن يبذل الإنسان شيئًا محبوبًا إليه إلا لما هو أحب، فإذا بذل الإنسان المحبوب إليه ابتغاءً لرضوان الله علمنا أن الرجل يحب رضوان الله أكثر من المال، وبذلك يتحقق الإيمان، أسأل الله تعالى أن يجعلنا من ذوي العلم الراسخ والإيمان الثابت، إنه على كل شيء قدير.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] هذا معطوف على الآية التي قبلها وهي ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان به، وذلك بدعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فصار هناك سببان للإيمان، الأول: دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه، والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا ـ عز وجل ـ من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك[2]، المهم: أن الله تعالى ينكر على من لم يؤمن فيقول: ما

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

(٢) والحديث صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٣)، وهو عند أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٤٤).

الذي حملك على أن لا تؤمن؟ وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبأخذ الميثاق، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين فالزموا الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحديد: ٩] لما ذكر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو إلى الإيمان بين أنه نزل عليه ﷺ ﴿آيَاتٍ﴾ أي: علامات دالة على صدقه، وأن ما جاء به هو الحق، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات بما اشتملت عليه من القصص النافعة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والفصاحة التامة، والبيان العجيب، حتى إن العرب وهم أئمة البلاغة وأمراؤها تحداهم الله ـ عز وجل ـ عدة مرات أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطيعوا، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك الرسول ﷺ أي يكون سببًا في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ويحتمل أن يعود إلى الله ـ عز وجل ـ أي ليخرجكم الله تعالى بهذه الآيات من الظلمات إلى النور، وكلا المعنيين حق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، فالنبي ﷺ سبب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأما المخرج حقيقة فهو الله ـ عز وجل ـ، والمراد بالظلمات: ظلمات الجهل، وظلمات الشرك، وظلمات العدوان، وظلمات العصيان، وكل ما خالف الحق فهو ظلمة، وكل ما وافقه فهو نور، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، هذه الجملة خبرية مؤكدة بـ(إن)، واللام، ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أرق الرحمة، والرحمة أعم، فهو ـ عز وجل ـ رؤوف رحيم، أي ذو رحمة بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ورحمة الله سبحانه وتعالى إما عامة وإما خاصة، فالعامة الشاملة لجميع الناس، والخاصة بالمؤمنين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فإذا قال قائل: أي رحمة من الله للكافر؟

فالجواب: أمده بأنعام، وبنين، وعقل، وأمن، ورزق، بل الكفار قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [يس: ٤٥] فإذا سألك سائل: هل لله رحمة على الكافر؟ لا تقل: «نعم» ولا «لا»، أما بالمعنى العام فنعم رحمة، ولولا رحمة الله به لهلك، وأما بالمعنى الخاص فلا، الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما أمرنا أن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا

﴿نُفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعهم؟ والإنفاق في سبيل الله يشمل كل شيء أمر الله بالإنفاق فيه، فـ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا عامة، وعليه يدخل في ذلك الإنفاق على النفس، والإنفاق على الزوجة، والإنفاق على الأهل، والإنفاق على الفقراء واليتامى، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فكل ما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه فهو داخل في هذه الآية حتى إنفاقك على نفسك صدقة، وإنفاقك على زوجك صدقة، ولكن لاحظ النية، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: «وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهِ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا»(١)، فلزم هذا القيد، لابد أن تبتغي بها وجه الله إلا أجرت، أي: أثبت عليها، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني كيف لا تنفق والذي سيرث السماوات والأرض هو الله، ومن جملة ذلك مالك الذي بخلت به سيرثه الله - عز وجل - وترجع الأمور كلها لله سبحانه وتعالى. قال أهل العلم: إن الشح في إنفاق المال سَفَهٌ في العقل، لأن هذا المال إما أن يفنى في حياتك فتعدمه، وإما أن يبقى بعد موتك فإذا ورث مالك من بعدك فإما أن يرثه صالح فيكون أسعد به منك، وإما أن يرثه مفسد فتكون خلفت له ما يستعين به على إفساده، فإذا خلفت المال فإما أن تخلفه إلى من ينفقه في سبيل الله فيكون هو أسعد بمالك منك، وإما أن تخلفه لمفسد يستعين به على معصية الله فتكون أعنته على معصية الله بما خلفت له من المال، إذن اللائق بك أن تنفقه في سبيل الله حتى يكون لك غنم وتسلم من غائلته لو ورثه من يفسد به، فتذكر يا أخي عندما تفكر في الإنفاق فيأتيك الشيطان فيأمرك بالبخل ويعدك الفقر، فكر أنك إذا خلفت هذا المال فلابد أن يورث، لن يدفن معك، لابد أن يورث ويكون الإرث دائرًا بين الأمرين السابقين.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدَثون: «إنه دين المساواة»، هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يعطي كل ذي حق حقه)، أرأيت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة، وفك

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

الرهان يختلفون. وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لَمْ تُصَلِّ ولَمْ تَصُمْ، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهلم جرًّا، والذين ينطقون بكلمة «مساواة» إذا قررنا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزمونا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا متناقضين، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يعطي كل إنسان ما يستحق، حتى جاء في الحديث: «أَقِيلُوا ذَوِي الهيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم إِلَّا الحُدُود»[1] يعني إذا أخطأ الإنسان الشريف الوجيه في غير الحدود فاحفظ عليه كرامته وأقله، هذا الذي تقيله - إذا كان من الشرفاء - إقالتك إياه أعظم تربية من أن تجلده ألف جلدة، لأنه كما قيل: الكريم إذا أكرمته ملكته، لكن لو وجد إنسان فاسق ماجن فهذا اشدد عليه العقوبة وأعزره، ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ضاعف العقوبة بدل أربعين جعلها ثمانين، كذلك الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن: «مَنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوه، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاقْتُلُوه»[2]، لأن لا فائدة في جلده، ثلاث مرات نعاقبه ولا فائدة إذن خير له ولغيره أن يقتل، وإذا قتلناه استراح من الإثم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

والخلاصة: أن التعبير بأن دين الإسلام دين المساواة غلط وليس بصحيح، بل هو دين العدل ولا شك، والعجب أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، يقولون: إن النبي ﷺ قال: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى عَجَمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى»[3] فيتناقضون، والحديث لم ينف مطلقًا، وإنما قال: «إلا بالتقوى» فهم يختلفون بالتقوى، ثم إن هذا الحديث لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: «إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[4] ففضل، ولا شك أن جنس العرب أفضل من جنس غير العرب لا شك عندنا في هذا، والدليل على هذا أن الله جعل في العرب أكمل نبوة ورسالة: محمد ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فالأجناس تختلف،

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ١٢٩)، وانظر «الصحيحة» (٦٣٨).
(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٥٦٦١)، وابن ماجه (٢٥٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن النسائي».
(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٠)، وانظر «الصحيحة» (٢٧٠٠).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٢٦٠٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «خِيارُكُم فِيْ الجاهِلِية خِيارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»(١)، فاحذر أن تتابع في العبارات التي ترد من المحدِثين المحدَثين حتى تتأملها وما فيها من الإيحاءات التي تدل على مفاسد ولو على المدى البعيد، أسأل الله أن يهدينا صراطه المستقيم وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠] أي: لا يكونوا سواء، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين قريش، وذلك في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة، وسمي فتحًا، لأنه صار فيه توسيع للمسلمين وتوسيع أيضًا للمشركين، واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن الناس بعضهم بعض حتى يسر الله - عز وجل - أن نقضت قريش العهد، فكان من بعد ذلك الفتح الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان، قال الله - عز وجل -: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم، فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: كل من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وعدهم الله الحسنى، يعني الجنة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم ببواطن أموركم كظواهركم لا يخفى عليه شيء، وإذا كان عالمًا بها فسوف يجازي - جل وعلا - كل عامل بما عمل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم قال - عز وجل - حاثًّا ومرغبًا في الإنفاق في سبيله فقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١] أي: أين الذين يقرضون الله قرضا حسنًا؟ أي: ينفقون فيما أمرهم بالإنفاق فيه، وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ يعني لا يرى سوى الله - عز وجل -، والمتابعة في قوله: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأن العمل الحسن ما كان موافقًا للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل: أن يكون مخلصًا لله، وأن يكون متابعًا فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهًا بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره، لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٩٦)، ومسلم (١٨١٨).

من أنه سيرده عليك، هكذا أيضًا العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك، بل ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ والمضاعفة هنا الزيادة، وقد بين الله تبارك وتعالى قدرها في سورة البقرة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فأنت إذا أنفقت درهمًا فجزاؤه سبعمائة درهم، ثوابًا من عند الله ـ عز وجل ـ، والله فضله أكثر من عدله وأوسع، ورحمته سبقت غضبه، فيضاعفه له إلى سبعمائة بل إلى أكثر كما جاء في الحديث إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أي: حسن واسع، وذلك فيما يجده في الجنة، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أذكر للأمة يوم ترى أيها الإنسان ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يوم القيامة ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام: فلأجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين: فتكريمًا لليمين يكون بين أيديهم وبأيمانهم، وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ يفيد أن هذا النور على حسب الإيمان، لأن الحكم إذا علق بوصف كان قويًا بقوة ذلك الوصف، وضعيفًا بضعفه، إذن نورهم على حسب إيمانهم الذكر والأنثى.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ تقول الملائكة لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ أي: ما تبشرون به ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذه الجنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما يشاءون، كما قال الله عز وجل: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وجمعها لأنها جنات متعددة متنوعة، ودرجات مختلفة حسب قوة الإيمان والعمل، وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تسير، وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة القتال أنها أربعة: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] وهذه الأنهار لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إلى جدول، بل تسير على سطح الأرض حيث شاء أهلها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

أنهارُها مِن غَيرِ أُخدودٍ جَرتْ ... سُبحانَ مُمسكِها عَنِ الفَيَضانِ

فلا تذهب يمينًا ولا شمالًا إلا حيث أراد أهلها، وقوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إشارة إلى علو قصورها وأشجارها، يعني تكون هذه الأنهار من تحت هذه القصور العالية والأشجار الرفيعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها، وقد جاءت آيات متعددة بأن هذا المكث دائم ليس فيه زوال ولا انقطاع

ولا تغير، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ المشار إليه: ما وعدهم الله به الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم، و ﴿هُوَ﴾ يسميها العلماء ضمير فصل، وهو مفيد للتوكيد والاختصاص، أي هذا الذي ذكر هو الفوز العظيم، لأنه لا فوز مثله، كما أنه لا فوز أعظم منه، نسأل الله أن يجعلنا من أهله إنه على كل شيء قدير.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكر يوم يقول، فكلمة ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ ظرف زمان، ولابد للظرف الزماني والمكاني والجار والمجرور من شيء تتعلق به، والعلماء يقدرون المحذوف في كل مكان بما يناسب، وهنا المناسب أن يكون التقدير: اذكر أيها الإنسان يوم يقول المنافقون: هذا اليوم هو يوم القيامة، والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] ولم يظهر النفاق إلا بعد أن قويت شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على الكفار، فلما بزغ فجر الإسلام وقويت شوكته ظهر النفاق، والنفاق هو أن الإنسان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فظهر ذلك في المسلمين، فكانوا يأتون إلى الناس ويحضرون الجماعة لكنها ثقيلة عليهم، «وأثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»(١)، لأنه ليس هناك أضواء يشاهدون فيها، وهم إنما يصلون يراءون الناس، وفي يوم القيامة يظهر نور للمؤمنين والمنافقين، ثم ينطفىء نور المنافقين، وأنت تعلم أيها الإنسان أن انطفاء النور بعد ظهوره يكون أشد ظلمة مما لو لم يكن هناك نور، ولهذا لو أطفأت النور القوي ثم فتحت عينيك لم تر شيئًا إلا بعد برهة من الزمن، فيكون انطفاء النور بعد وجوده أشد عليهم مما لو لم يكن هناك نور، ثم تكون الحسرة أشد، فيقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، أي: نأخذ شيئا قليلا بقدر الحاجة، ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾، والقيل هذا إما من المؤمنين، أو من الملائكة، فالله أعلم لا ندري.

﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وهل هو حقيقة يريدون أن يذهبوا إلى مكان النور الذي انطفأ فيه النور لعله يتجدد النور، أو أن هذا من الاستهزاء بهم والسخرية؟ الآية محتملة هذا وهذا، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي بين المنافقين والمؤمنين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ هذا سور عظيم، له باب يمنع من القفز، له باب يدخل منه المؤمنون ويمنع منه المنافقون، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: باطن هذا السور فيه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) واللفظ له.

الرحمة للمؤمنين، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ للمنافقين، وأنت لا تستطيع أن تتصور هذه الحال، لأن الحال أعظم من أن نتصورها، حال عظيمة.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾، المنادي: المنافقون، والمنادى: المؤمنون، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يعني في الدنيا كنا نصلي معكم ونتصدق ونذكر الله؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ يعني أنتم معنا، ولكن في الظاهر دون الباطن، ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني أضللتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، انتظرتم بنا الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شككتم في الأمر، فليس عندكم إيمان ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: ظننتم أنكم محسنون لأنكم تقولون: إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا، نوفق بين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فهم مع المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فهم مع الكفار، ظنوا أنهم بهذه المداهنة كسبوا المعركة، فغرتهم الأماني ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وذلك بموتهم، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: الغرور هو الشيطان، ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى عنه حين وسوس إلى أبوينا قال الله عنه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فالغرور هو الشيطان.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] الأسير في الدنيا يمكن أن يفدي نفسه ويبذل المال فيسلم، لكن في الآخرة ليس فيه فدية، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيها المنافقون، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين أعلنوا الكفر وصاروا أشجع من هؤلاء المنافقين فلا فدية لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مثواكم ومآلكم النار ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي تتولونه، والتي تتولاكم، فهم يتولون النار بعمل أهلها، والنار تتولاهم لأنهم مستحقون لها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع وهذا تقبيح لها، أعاذنا الله منها، نسأل الله أن يجعلنا ممن زحزح عن النار وأدخل الجنة، ومن الفائزين المتقين المفلحين.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] أي: ألم يحق لهؤلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: أن تذل وتنقاد غاية الانقياد لذكر الله تعالى في القلوب واللسان والجوارح ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني القرآن الكريم، وهو من ذكر الله، وذكره بخصوصه لأهميته، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، الذين أوتوا الكتاب من قبل هم اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ يعني طال بهم الزمن ونسوا حظهم مما ذكروا به فقست قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ وكثير منهم فاسقون وبعضهم مستقيم، ففي

هذه الآية الكريمة يبين الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه قد حق للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولكتاب الله، وأن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم لبعدهم عن زمن الرسالات، وفي هذا إشارة إلى أن أول الأمة خير من آخرها، وأخشع قلوبًا؛ وذلك لقربهم من عهد الرسالة، وقد صح بذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»[1] وفي هذا التنديد التام باليهود والنصارى لأنها قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد، وفيه العدالة التامة في حكم الله ـ عز وجل ـ حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولم يعمم، وهذا هو الواجب على من تحدث عن قوم أن يبين الواقع؛ لأن بعض الناس إذا رأى من قوم زيغًا في بعضهم عمم الحكم على الجميع، والواجب العدل إن كان الأكثر هم الفاسقون، فقل: أكثرهم، وإن كان كثير منهم فاسقين فعبر بالكثير على حسب ما تقتضيه الحال، لأن الواجب أن يقوم الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه والأقربين.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧] ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾: فعل أمر، فأمر بالعلم بهذه القضية الهامة، وهي أن الله يحيي الأرض بعد موتها، يعني أن الأرض تجدها يابسة ليس بها نبات فينزل الله عليها المطر فتنبت وتحيا وتنمو، إذا علمنا هذا ونحن عالمون به ونشاهده فإننا نستدل به على قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ على إحياء الموتى، فإن الناس أحياء الآن، ثم يموتون، ثم يبعثون يوم القيامة، فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها من أجل الحساب والجزاء؛ لأنه ليس من الحكمة أن يخلق الله ـ تبارك وتعالى ـ خلقًا يأمرهم وينهاهم ويبيح دماء من لم يستجب وأموالهم ثم تكون النتيجة أن يموت الإنسان فقط، بل لابد من حياة، هي الحياة الحقيقية، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ومعنى (الحيوان) أي: الحياة الحقيقية التامة الكاملة التي ليس بعدها موت، وليس المراد بـ(الحيوان) الحيوانات الدواب، فالقادر على أن يجعل العيدان اليابسة خضراء نامية قادر على أن يحيي الموتى وبكلمة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]، وقال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أظهرناها لكم،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣).

والآيات هي العلامات الدالة على كمال قدرة الله – جل وعلا ـ وعلى كمال رحمته وسلطانه، وأضرب لذلك مثلًا: إذا أنزل الله المطر ونبتت الأرض وشبعت البهائم وطابت الأجواء فهذا من آثار رحمته، فنستدل بهذا على رحمة الله، ونستدل بما خلق الله في الكون من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله تعالى في الأرض من الجبال والأنهار وغيرها على كمال حكمة الله ـ عز وجل ـ لأنك إذا تدبرتها وجدت فيها من الحكمة ما يبهر العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (لعل) هنا للتعليل وليست للرجاء، مع أنها في اللغة العربية تأتي للرجاء كثيرًا، لكنها هنا للتعليل؛ لأن الرجاء لا يمكن في حق الله، إذ إن الرجاء طلب شيء فيه نوع من العسر، لكن الله ـ عز وجل ـ لا يتصور في حقه الرجاء، لكن تأتي (لعل) للتعليل، أي لأجل أن تعقلوا، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد، أي: تعقلوا عقلا ترشدون به، ويكون دليلا لكم على ما فيه الخير.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ أصلها: إن المتصدقين، لكن قلبت التاء صادا لعلة تصريفية معروفة عند أهل النحو، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: أنفقوا في سبيل الله إنفاقًا حسنًا، والإنفاق الحسن ما جمع شرطين:

الأول: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ.

والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالمرائي الذي ينفق رياء لم يقرض الله قرضًا حسنًا، ومثال ذلك: إنسان تصدق على فقير من أجل أن يراه الناس، فيقولون: إن فلانًا كثير الصدقة، فهذا مُراءٍ وصدقته لا تنفعه ولا تقبل منه؛ لأن كل عمل يراد به غير الله فهو غير مقبول، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيْهِ مَعِيَّ غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكُهُ»(١) وإنسان آخر يتعبد لله تعالى بعبادات غير مشروعة صاحب بدعة لكنه مخلص، لو سألته لِمَ فعلت هذا؟ قال: أريد ثواب الله، وأريد التقرب إلى الله، فلا تنفعه هذه العبادة، لعدم المتابعة، فقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: مخلصين فيه لله، متبعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: لماذا عبر الله تعالى بالقرض وهو الغني سبحانه وتعالى؟

فالجواب: يقول هذا ـ جل وعلا ـ ليبين أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

لكن كيف تكون الواحدة بعشرة وهي ربا في القرض، كيف يكون هذا؟

الجواب: أولًا: لا ربا بين العبد وبين ربه.

ثانيًا: القرض إذا أعطاك المقترض شيئًا بدون شرط فهو حلال؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم استقرض بكرًا، والبكر يعني بعيرًا صغيرًا، وردَّ خيرًا منه وقال: «خَيْرُكُم، أَحْسَنُكُم قَضَاءً»[1]، ولهذا عبارة الفقهاء: (كل شرط جر نفعًا للمقرض فهو ربا)، ولم يقولوا: كل زيادة، ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ هذا خبر (إن) يعني إن المتصدقين والمتصدقات وأقرضوا قرضا حسنا يضاعف لهم، أي: يعطون أجرهم مضاعفًا، عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب كريم، والكريم هو الحسن الطيب، وذلك أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأصل الكرم الحسن، ودليل ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - لما بعثه لليمن: «إِيَّاكَ وَكَرَائِم أَمْوَالِهِم» يعني إذا أخذت الزكاة اجتنب كرائم الأموال، يعني أحاسنه، «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2] ثم قال - عز وجل -: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان بوجود الله لا ينكره إلا مكابر في الواقع، لأن كل إنسان يعرف أن هذا الكون المستقر المنظم لابد له من موجد ومنظم، والموجد والمنظِّم هو الله - عز وجل - ؛ لأن كل إنسان يعلم أنه لا يستطيع أحد من البشر أن يتصرف بهذا الكون، مَن الذي يأتي بالليل مع وجود النهار؟ ومن الذي يأتي بالنهار مع وجود الليل؟ لا أحد يقدر، إذن كل إنسان عاقل فهو مؤمن بقلبه وإن أنكر بلسانه، مؤمن بوجود الله - عز وجل -، وجه ذلك أن هذه الخليقة العظيمة لابد لها من مدبر، لو قال قائل: إنها جاءت هكذا صدفة، فنقول: إن الشيء إذا جاء صدفة لا يكون منظمًا، ولو قال

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

قائل: هي أوجدت نفسها، نقول: هذا أيضا محال عقلًا، كيف توجد نفسها وهي عدم، هذا لا يمكن، إذن لابد لها من موجد، ولهذا قال الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩] والجواب: بل أنت يا ربنا، نحن لا نقدر أن نخلق جنينا في بطن أمه أبدًا، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣] استمعوا يا أيها الناس، خطاب للناس كلهم: الكافر والمؤمن، ولهذا إذا قرأت الآية يجب أن تستمع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ هذا الذباب المهين لا يمكن أن يخلقوه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، كل المعبودات لا يمكن أن تخلق ذبابا وهو من أصغر الحيوان وأذلها، زد على هذا، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ يعني لو أن الذباب أخذ من هذه الأصنام شيئا ما استطاعت أن تستنقذه منه، قال أهل العلم: المعنى: لو وقع الذباب على أحد هذه الأصنام وامتص من الطيب الذي فيها، لأنهم يطيبون أصنامهم، ما استطاعت الأصنام أن تستنقذه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، فلا يمكن لأحد أن ينكر من صميم قلبه وجود الله ـ عز وجل ـ أبدًا، لأنه باتفاق العقلاء أن كل حادث لابد له من مُحدث، ولا أحد يحدث هذا الكون إلا الله ـ عز وجل ـ.

الثاني: الإيمان بربوبيته، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون إلا الله، ولا مالك للكون إلا الله ـ عز وجل ـ، حتى ملك الإنسان ما في يده ليس ملكا حقيقيًا، والدليل أنه لا يمكن أن يتصرف فيها في يده كما يشاء، لو أردت أن أحرقه منعت شرعًا، وحرام عليَّ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن إضاعة المال(1)، إذن ملك الإنسان ما بيده ليس ملكًا حقيقيًا، بل إنه يختص به عن غيره فقط.

الثالث: الألوهية: هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله ـ عز وجل ـ وعبادة الأصنام غير حق، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] إذن الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله ـ عز وجل ـ وما عبد من دونه فهو باطل، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله.

الرابع: الإيمان بالأسماء والصفات: قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وصفاته كذلك عليا ليس فيها صفة نقص، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي الوصف الأعلى، وأسماء الله تعالى كثيرة لا يمكن

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

حصرها مهما أردت، والدليل على ذلك حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - «ما من إنسان يصيبه هم أو غم أو حزن ثم يقول: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[(١)]. فجعل الله الأسماء ثلاثة أقسام: ما أنزله في كتابه، مثال الاسم الذي جاء في القرآن: (الرحمن) أو علمته أحدا من خلقك مثل: (الرب، الشافي)، جاء في السنة، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أَمَّا الرُّكُوع فعظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»[(٣)] فهذا مما علمه أحدا من خلقه.

«أو استأثرت به في علم الغيب عندك» هذا القسم الثالث ما استأثر الله به في علم الغيب، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم ينزله في الكتاب ولم يعلمه أحدا من الخلق لا يمكن الإحاطة به، إذن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها ولا هي محصورة بعدد، لأننا لا نعلمها، وأما قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٤)] فالمعنى: أن من الأسماء تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هذا المعنى، ومعنى (أحصاها) أي: عرفها لفظًا، وعرفها معنى، وتعبد لله بمقتضاها، وليس المراد أن تحفظها فقط، بل لابد من حفظ اللفظ وفهم المعنى، والتعبد لله بها بمقتضاها، فمثلًا: إذا علمت أن الله - سبحانه وتعالى - غفور فتعرض للمغفرة، لا تقل: الله غفور، وتفعل الذنب متى شئت، بل تعرض للمغفرة واستغفر الله تجد الله غفورًا رحيمًا، وإذا علمت أن الله عزيز فتتعبد الله بمقتضى هذا وتخاف منه وتحذر، وهلم جرًا.

أما الإيمان بالرسل فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلى آخرهم بما أخبروا به، إذا صح عنهم، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة، لقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٢٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٠)،انظر «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٧)، والنسائي (١/ ٣٤)، والبيهقي (١/ ٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِه لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأمَّةِ - يعني أمة الدعوة - يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا بالله ورسله ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالغون في الصدق مبلغا كبيرًا، لأن (الصدِّيق) صيغة مبالغة، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل، فأما الصدق بالقصد فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالى لا يقصد غيره، وإذا قصد بعبادته شيئا غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ»(٢). الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقا فيما يخبر به، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال - جل وعلا -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالصدق وحث عليه، ورغَّب فيه، فقال: «عَلَيكُم بالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكتبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كِذَّابًا»(٣). أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن من كان صادقا فيما يدعي من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقد سمى بعض السلف هذه الآية آية المحنة، يعني الامتحان، فمن ادعى حب الله ورسوله ﷺ قلنا له: عليك باتباع الرسول ﷺ، فإن اتبعه فهو صادق، وإن خالفه فليس بصادق، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم من قُتلوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله: أن يقاتل الإنسان عدو الله لتكون كلمة الله هي العليا، قال ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليُرى مكانه:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١)، وأبو داود (٤٩٨٩).

أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»(1).

فالشجاع يحب القتال، كالصياد يحب أن يصيد، ويخرج ويتجشم المصائب ليصيد الصيد، وإذا صادها صارت عنده أرخص من كل شيء، فهذا يقاتل شجاعة، لأنه شجاع يحب أن يقاتل، ويقاتل حمية يعني عصبية لقومه، ويقاتل ليُرى مكانه، أي: رياء كما جاء في اللفظ الآخر، «ويقاتل رياء» قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ومن قاتل ليسترد أرضه المغصوبة فهو من باب الحمية إلا إذا قال: أريد أن أستردها لأقيم عليها شعائر الإسلام، فهذا في سبيل الله، أما من قاتل لأن هذه أرضه ويريد أن ترد إليه، فهذا حمية ليس له أجر الشهداء إذا قتل، هؤلاء الشهداء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢] أي: ثوابهم العظيم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩: ١٧١]، ولما ذكر -عز وجل- أهل الإيمان وثوابهم ذكر أصحاب الشمال بعد ذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [المائدة: ١٠] لأن القرآن مثاني، تثنى فيه الأمور والمعاني، ولهذا تجد القرآن الكريم في الغالب إذا ذكر الله الجنة ذكر النار، وإذا ذكر أولياء الله ذكر أعداء الله، والحكمة من ذلك أن لا يمل الإنسان، لأنه كلما تنقل المعنى إلى معنى آخر نشط الإنسان، وحكمة أخرى أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله، أي متعبدًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا مرت به صفات المؤمنين قوي جانب الرجاء، وإذا ذكرت أحوال الكافرين غلب جانب الخوف.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عطف التكذيب على الكفر وهو نوع منه؛ لأنه أشد، فالذي يكفر ولم يكذب أهون من الذي يكفر ويكذب، فعطف كذبوا بآياتنا على كفروا من باب عطف الخاص على العام، كعطف الروح على الملائكة وهو منهم، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] والروح جبريل وهو من الملائكة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، «الجحيم» اسم من أسماء النار، وأصحابها يعني الملازمين لها، ولهذا إذا مرت آية فيها (أصحاب) فالمعنى أنهم ملازمون لها مخلدون فيها، نسأل الله العافية، وفي هذه الآيات الترغيب بالأوصاف التي توصل إلى الجنات، لأن الله تعالى لم يذكر لنا هذه الأمور لنتطلع عليها فقط، ولكن لنسعى لها، وفيها التحذير من الكفر والتكذيب؛ لئلا يقع الإنسان في هذا العقاب الأليم.

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٣) وفي غير موضع من صحيح، ومسلم (١٩٠٤).

لما ذكر الله أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين وهم في الدنيا - كل يعمل على شاكلته - بيَّن حقيقة الدنيا ما هي، وأمرنا أن نعلم من أجل أن يجتهد الإنسان في التأمل والتفكر، فالأمر بالعلم بشيء واقع يعني أن المطلوب أن تتأمل كثيرًا حتى يتبين لك الأمر، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الحديد: ٢٠] وهي حياتنا هذه ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾، خمسة أشياء: اللعب بالجوارح، بأن يعمل الإنسان أعمالًا تصده عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما اللهو بالقلوب فهو الغفلة، وهذا أشد وأعظم، وغفلة القلب - أعاذنا الله منها وأحيا قلوبنا - الغفلة عظيمة تفقدك جميع لذات الطاعة، وتحرم من جميع آثارها لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ لم يقل: لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾، وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان، وهذا لا شك أنه ينقص الثواب، وينقص الآثار المترتبة على الذكر من صلاح القلب، والاتجاه إلى الله، والإنابة إليه وغير ذلك: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: زينة بالملابس، وزينة بالمراكب، وزينة بالمساكن، وزينة في كل شيء، ولذلك تجد الإنسان ولو كان فقيرًا يحب أن يزين بيته، وكذلك سيارته عند الزواج إذا أراد الزواج يركب سيارة يجعلون عليها عقودا من الأزهار وغيرها من الزينة، ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد يفخر على الثاني، إما بالقبيلة، أو بالعلم، يكون هذا عنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة، وهذا لا يعرف، فيفخر عليه، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي، لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومنَّ الله عليه به أن يزداد تواضعًا، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان من التطاول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ أي يحب أن يكون أكثر أموالًا وأكثر أولادًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] هذه حقيقة الدنيا، ومع هذا اللهو واللعب والتفاخر والزينة لا تبقى، فلابد أن تزول، وإذا طال الزمان عاد الإنسان إلى الهرم، وفي هذا يقول الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

كل إنسان إذا فكر في عيشه وأنه في نعيم يقول: ما بعد ذلك؟! ما الذي بعده، إما موت أو هرم، إما أن تموت وتنتهي من الدنيا، وإما أن تهرم وتكون عالة على ابنك وبنتك حتى أهلك

يملونك، ولهذا أشار الله ـ عز وجل ـ إلى هذه الحالة فقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] لأنهما إذا بلغا الكبر اختل تفكيرهما وصارا يتعبان، فأنت إما أن تموت وإلا تصل إلى حال الهرم، هذا إن بقيت لك الدنيا، وإلا فقد تسلب إياها قبل أن تصل إلى الهرم وقبل أن تموت، فنأخذ من هذا الحذر من فتنة الدنيا، وكم من إنسان أطغته الحياة الدنيا فهلك، وفي الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ إِذَا أَغْنَيْتُهُ أَفْسَدَهُ الغِنَى»(١)، بل قد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَالله مَا الفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُم أَنْ تُفْتَحَ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوا فِيهَا كَمَا تَنَافَسَ فِيهَا مَنْ قَبْلَكُم فَتُهْلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(٢)، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، فأكثر الفسقة وأكثر الكفرة من الملأ والأشراف، واقرأوا القرآن، مَن يكذب الرسل؟ هم الملأ والأشراف، واعتبروا بالواقع الآن، أكثر من يفسد الدنيا هم الأثرياء والأغنياء الذين فتحت عليهم الدنيا، فليحذرها العاقل اللبيب، وليقتصر منها على ما ينفعه في الآخرة.

ثم ضرب الله لها مثلًا؛ لأن الأمثال تقرب المعاني، إذ إن المثل يعني قياس المعنى على المحسوس: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر تنبت به الأرض وتزول به الشدة، ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي النبات الناشيء عنه، وأعجبهم: أي استحسنوه، والكفار هم الكافرون بالله ـ عز وجل ـ؛ لأن الكافر تعجبه الدنيا ويفرح بها ويسر بها، وقلبه متعلق بها ليس له هم إلا ما يراه من زينتها ولهوها، فهو قد أعجب الكفار بالله، وخص الكفار لأن الكفار هم الذين يستحسنون الدنيا ويعجبون بها وتتعلق قلوبهم بها، أما المؤمنون فهم على العكس لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة الآخرة، وقيل: إن المراد بالكفار هنا الزراع، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن إطلاق الكفار على الزراع نادر جدًّا، هذا إن صح، والذين يقولون: إن المراد بهم الزراع يقولون: لأن الزارع يكفر الحب، أي: يستره في الأرض، ولكن ما قررناه أولا هو الصواب: أن المراد بالكفار هم الكفار بالله، يعجب الكفار نباته ثم بعدما يظهر ويعجب الكفار ويستحسنونه ويتعجبون منه ﴿يَهِيجُ﴾ أي: ييبس ويجف، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضر ناميا يكون مصفرًّا دائمًا، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يعني: يتحطم ويتكسر؛ لأنه يبس، فماذا كانت النتيجة لهذا الزرع؟ التلف والزوال، هذه حال الدنيا، تزهو للإنسان بنعيمها وقصورها ومراكبها وأموالها وأولادها وغير ذلك، وإذا بها

---

(١) ضعيف: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ١٥) كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٤).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

تتحطم، كم من غني كان مسرورا في أهله، منعما في بيته وفي مركوبه وفي ثيابه، وفي كل أحواله، وإذا به يعود فقيرًا، فتتحطم دنياه، فإن لم تكن مات وتحطمت دنياه بفراق هذه الدنيا، فلابد من أحد أمرين: فإما أن تفارقك الدنيا، وإما أن تفارقها، هذه حال الدنيا، وهذا أمر لا يشك فيه في الواقع، لكن النفوس معها غفلة يسهو بها الإنسان عن مثل هذا الأمر الواقع، فيظن أن كل شيء على ما يرام، ويستبعد زوال الدنيا، أو زواله هو عن الدنيا، أما الآخرة فاستمع إليها، قال: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكافرين، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين، فأيها أحق أن يؤثر الإنسان الدنيا التي مآلها الفناء والزوال، أو الآخرة؟! يؤثر الآخرة؛ هذا العقل، لأنك إن آثرت الدنيا ففي الآخرة عذاب شديد، وإن آثرت الآخرة ففيها مغفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بالحسنات، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقة النفي والإثبات، وهو أعلى طرق الحصر، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، يغتر بها الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطر ثم تزول، كل هذه الجمل وهذه الأوصاف يريد الله عز وجل - وهو أعلم - أن يزهد الإنسان في الدنيا ويرغبه في الآخرة، ومن زهد بالدنيا ورغب في الآخرة لم يفته شيء من نعيم الدنيا حتى وإن افتقر، فإنه لا يفوته نعيم الدنيا، ودليل هذا من القرآن والسنة، قال الله - عز وجل -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] لم يقل لنكثرن ماله وأولاده وقصوره ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ مطمئنة مستريح البال فيها، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وبين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك في قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

ثم قال - عز وجل -: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] أمر بالمسابقة، وقد جاء الأمر في آية أخرى بالمسارعة، فيجمع الإنسان بين المسابقة وهي شدة العدو في حال السير، وبين المسارعة يعني المبادرة إلى فعل الخير ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك بفعل أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة: أن تسأل الله المغفرة، تقول: اللهم اغفر لي، أو تقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ومن أسباب المغفرة: فعل ما تكون به المغفرة كقول النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غَفَرَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢)، وكقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيمن توضأ فأسبغ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث بهما نفسه، غفر الله بهما ما تقدم من ذنبه»[1]، وكقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[2] والأمثلة على هذا كثيرة، ﴿وَجَنَّةٍ﴾ هي دار النعيم التي أعدها الله ـ عز وجل ـ للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها فاكهة ونخل ورمان، وعسل ولبن وغير ذلك، لكن لا تظن أن ما فيها يشابه ما في الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، اسم رمان لكن يختلف عن رمان الدنيا، فاكهة تختلف عن فاكهة الدنيا، فرش يختلف عن فرش الدنيا، وهلم جرًّا، وفي الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[3] ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا منافاة لأن الأول: عرضها كعرض السماء تشبيه. والثاني: عرضها السماوات والأرض أيضا تشبيه، لكن يسميه أهل البلاغة: تشبيه بليغ، ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومَن يستطيع أن يقدر عرض السماء والأرض؟ لا أحد يستطيع، السماوات بسعتها، السماء الدنيا واسعة جدًّا، كم بينها وبين الأرض من مسافة؟ وهي محيطة بها، والسماء الثانية فوقها وهي أوسع منها، والثالثة أوسع وهلم جرًّا، إلى أن تصل إلى الكرسي. والكرسي يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضِينَ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أُلْقِيتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»[4] حلقة المغفر صغيرة، ألقها في فلاة في الأرض ماذا تكون بالنسبة للفلاة؟ لا شيء، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»[5]، فلن نستطيع أن ندرك عرض السماوات والأرض، والجنة عرضها كعرض السماء والأرض، ولذلك كان أقل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه مسافة ألفي سنة، وإنما ذكر الله تعالى أن عرضها عرض السماوات والأرض من أجل أن نحرص على ملء هذه الأرض أرض الجنة، وفي الحديث: «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٨٥)، و أبو داو (١٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٧٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، و مسلم (٢٦٩١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

(٤) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٥) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

إلا الله، والله أكبر»[(1)] فاحرص يا أخي على أن تملأ ما تستحقه من هذه الجنة بذكر الله، وتلاوة كتابه، وغير ذلك مما يقرب إلى الله.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أعدها الله - عز وجل - كما قال - عز وجل -: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٨٩]، ومعنى الإعداد التهيئة للشيء، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ آمنوا بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقوله ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يشمل جميع الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، لكن إيماننا بالرسل يختلف عن إيماننا بمحمد عليه الصلاة والسلام، فإيماننا بالرسل بأن نؤمن بأنهم صادقون مبلغون عن الله، ونؤمن بكل ما صح من أخبارهم، أما اتباعهم فلا اتباع إلا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهم يشتركون مع الرسول ﷺ بأن نؤمن بأنهم صادقون، وأن كل ما أخبروا به صدق، وأن كل ما جاءوا به فهو عدل ومناسب لأحوال أممهم في وقتهم، أما الاتباع فلا نتبع إلا واحدا منهم وهو محمد ﷺ، وقوله: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يدل على أن أهل الكتاب - اليهود والنصارى - ليسوا من أهل الجنة، لأنهم لم يؤمنوا برسل الله، والدليل أنهم كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام، والكافر برسول من الرسل كافر بالجميع، كيف وقد جاء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنسخ جميع الشرائع السابقة، قال الله - عز وجل -: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنه لم يسبق نوحا أحد من الرسل؛ لأن من كذب رسولا من الرسل فقد كذب جميع الرسل، فكيف بمن كذب محمدا ﷺ الذي نسخت شريعته جميع الشرائع، والذي قال الله فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ [آل عمران: ٨١] أخذ ميثاق النبيين كلهم. ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] وهذا الرسول هو محمد ﷺ، الرسل كلهم يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا في ليلة الإسراء كان محمد ﷺ إمامهم في صلاتهم، فاليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة بعد بعثة الرسول ﷺ، لأنهم لم يؤمنوا برسله، لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، بل هم كفروا برسلهم أيضًا، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ولأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بشرهم بمحمد ﷺ، قال الله - عز وجل - في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٥).

فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى قالوا: هذا سحر مبين، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردوا بشارته وأنكروها، ولا يجوز لنا أبدا أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديان صحيحة أبدًا، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورسله فضل الله في أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثيبوا بهذه الجنات، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ المشيئة هنا مقترنة بالحكمة، يعني من كان أهلا للفضل آتاه الله الفضل، ومن لم يكن أهلا له لم يؤته، والدليل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلن يجعل رسالته إلا فيمن هو أهل لها، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] فلا تظن أن الله يعطي الفضل لمن شاء بدون سبب، لابد من سبب، فمتى علم الله في قلب الإنسان خيرا آتاه الخير، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠] فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، أي: صاحب الفضل العظيم ـ عز وجل ـ، فلا أحد أعظم منة من الله تعالى، أوجدك من العدم، وأعدك وأمدك بالنعم، يسر لك الهدى، فلا أحد أعظم منة من الله، ولهذا قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، ولما جمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأنصار في غزوة حنين حين قسم الغنائم بين المؤلفة قلوبهم كان يقرر عليهم قال لهم: «ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟» قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَ اللهُ قُلُوبَكُمِ بِي؟» قالوا: الله ورسوله أمن. كلما قال قولا قالوا: الله ورسوله أمن[1]، يعني أعظم منة.

فالحاصل: أن الله تعالى ذو الفضل العظيم، ولكن يؤتي فضله من هو مستحق له، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، اللهم إني أسألك من فضلك العظيم أن تهدي قلوبنا وتصلح أعمالنا، وتختم لنا بخير إنك على كل شيء قدير.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] يعني جميع المصائب التي تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه قد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

كتبت من قبل، والمصيبة في الأرض كالجدب، وقلة الأمطار، وغور المياه وصعوبة منالها، وربما يقال أيضًا: الفتن والحروب وغيرها، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في نفس الإنسان ذاته من مرض، أو فقد حبيب، أو فقد مال، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، «لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1]. سبحان الله! ما أعظم هذا اللوح الذي يسع كل شيء إلى يوم القيامة، ولكن ليس هذا بغريب على قدرة الله ـ عز وجل ـ لأن أمر الله تعالى إذا أراد شيئًا يقول له: «كن» فيكون، ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل، ولكن لا يستبعد أن يكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنع الآدمي قطعة صغيرة يسجل فيها آلاف الكلمات وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقرص تسجل فيها آلاف الكلمات، وقد يسجل فيها جميع كتب الحديث المؤلفة، أو جميع التفاسير، أو جميع كتب الفقهاء وهي من صنع الآدمي، فكيف بصنع من يقول للشيء: «كن» فيكون، ولما قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»، فالمصائب التي تصيب الناس هي في أمر سابق، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ قيل: إنها تعود على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على النفس، وقيل: على الجميع، والصحيح أنها على الجميع، أي من قبل أن نبرأ كل هذه الأشياء، أي: أن نخلقها، وذلك لأن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إن كتابة هذه المصائب يسير على الله ـ عز وجل ـ لأنه قال للقلم: اكتب ـ فكتب وهذا يسير، كلمة واحدة حصل بها كل شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كل شيء فهو يسير على الله، لأن الأمر كلمة واحدة «كن» فيكون، أرأيتم الخلائق يوم القيامة تبعث بكلمة واحدة، قال الله عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] أي: على وجه الأرض خرجوا من القبور، هذا يسير، ولما قال زكريا لله ـ عز وجل ـ حين بشره بالولد قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] يعني من الكبر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] فالله ـ عز وجل ـ لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عنه

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

شيء، ولا يتأخر عن أمره الكوني شيء، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أي: أخبرناكم بأن كل مصيبة تقع فهي في كتاب، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ اللام للتعليل، و«كي» بمعنى «أن»، أي: لأن لا تأسوا، ومعنى ﴿تَأْسَوْا﴾ تندموا على ما فاتكم مما تحبون ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: لا تفرحوا فرح بطر واستغناء عن الله بما آتاكم من فضله، فإذا علمت أن الشيء مكتوب من قبل فلا تندم على ما فات لأنه مكتوب، والمكتوب لابد أن يقع، ولا تفرح فرح بطر واستغناء إذا آتاك الله الفضل، لأنه من الله مكتوب من قبل، فكن متوسطا لا تندم على ما مضى، ولا تفرح فرح بطر واستغناء بما آتاك الله من فضله، لأنه من الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1]. القوي في إيمانه وليس القوي في بدنه، وأصحاب الرياضة يجعلون هذا عنوانًا: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ويقول: المراد بالمؤمن القوي في بدنه. وهذا غلط، (المؤمن القوي) هنا وصف يعود إلى ما سبقه وهو الإيمان، « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»، وهذا يسميه البلاغيون الاحتراس، بمعنى أنه قد يظن الظانَ أن الضعيف لا خير فيه، قال: «وفي كل خير» ثم قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[2] والإنسان إذا علم أن كل شيء مقدر ولابد أن يقع رضي بما وقع، وعلم أنه لا يمكن رفع ما وقع أبدًا، ولهذا يقال: دوام الحال من المحال، وتغيير الحال ـ بمعنى رفع الشيء بعد وقوعه ـ من المحال، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، مختال في فعله، فخور في قوله، ومن الاختيال في الفعل أن يجر ثوبه، أو مشلحه، أو عباءته، أو غير ذلك مما يدل على الخيلاء، حتى وإن لبس ثوبا وإن لم يكن نازلا لكنه يعد خيلاء فهو خيلاء، الفخور هو المعجب بنفسه الذي يقول: فعلت وفعلت وفعلت، يفخر به على الناس، لأنك ما دمت فاعلًا الشيء تريد ثواب الله فلا حاجة أن تفخر به على الناس، بل اشكر الله عليه، وحدِّث به على أنه من نعمة الله عليك. ثم ذكر الله تعالى أوصافهم فيما بعد فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي: يمنعون ما يجب عليهم بذله من مال، أو جاه، أو علم، مثال الأول: الذي يبخل بالزكاة وهي أعظم وأوجب ما ينفق، والإنفاق على من تجب نفقته من الأقارب والزوجات.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

ومثال الثاني: أن يجد الإنسان شخصا مسلما واقعا في مظلمة يتطلب المقام أن يشفع فيها، ليرفع عنه هذا الظلم ولكنه يبخل، فهذا بخل بجاه. ومثال الثالث: أن يبخل بتعليم الناس مما علمه الله - عز وجل - وأن يبخل بالجواب والفتوى إذا استفتي عن مسألة دينية وتعين عليه أن يفتي فيها، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «البَخِيلُ مَنْ إِذَا ذُكِرتُ عِنْدَهُ وَلَم يُصلِّ عَلَيَّ»(١) اللهم صلِّ وسلم عليه، وهذا نوع من البخل، لأنه بخل بما يجب عليه، إذ إن القول الراجح أنه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجب على من سمعه أن يصلي عليه، بدليل الحديث الذي في السنن أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ. قُلْ: آمِينَ. فَقَالَ: آمِينَ»(٢)، ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: يقولون للرجل: لا تنقص من مالك، لا تتعب نفسك في الشفاعة لفلان، لا تتعب نفسك في تعليم العلم، فهؤلاء أمروا بالبخل فصاروا - والعياذ بالله - فاسدين مفسدين، قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن طاعة الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، من يتول فإن الله ليس بحاجة إليه فهو - عز وجل - غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو الحميد، أي: المحمود على غناه، لأنه ليس كل غني يكون محمودًا، فالغني البخيل غير محمود، لكن الله - عز وجل - غني حميد يحمد على غناه؛ لأن الله - عز وجل - واسع العطاء، كثير العطاء، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان الذي يتولى عن طاعة الله إنما يضر نفسه، ولا يضر الله شيئًا، فإن الله غني، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(٣).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] هذه جملة مؤكدة باللام و (قد)، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات.

ولعل قائلًا يقول: كيف يقسم الله - عز وجل - ؟ وكيف يؤكد الله خبره بالقسم وهو الصادق بدون ذلك؟

والجواب: أن يقال: القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي المبين يؤكد الأشياء

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠١)، والترمذي (٣٥٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٥).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

الهامة أو الأشياء المنكرة بأنواع المؤكدات حتى يطمئن المخاطب ولا يرتاب المرتاب، وهذا يذكر في القرآن كثيرًا، والتوكيد هنا ليس منصبًّا على إرسال الرسل، لأن إرسال الرسل معلوم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] لكنه منصب على قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أن الرسل جاءوا بالبينات، والبينات صفة لموصوف محذوف، والتقدير بالآيات البينات أي العلامات البينة الدالة على صدق رسالتهم وصحتها، فإن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا من الحكمة والرحمة، أما كونه من الحكمة فليس من الحكمة أن يأتي رجل من بني آدم ويقول للناس: أنا رسول الله إليكم بدون آية، بدون بينة، ولو كلف الناس بالإيمان برسل الله بدون بينة لكان في ذلك مشقة عظيمة، ومن رحمة الله أن الله أيد الرسول بالآيات البينات الظاهرة، قال العلماء: والله تعالى من حكمته ورحمته جعل لكل نبي من الآيات ما يتبين به رسالتهم، مثال ذلك: أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وأعطاه آيات بينات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] منها: العصا العجيبة، عصا عادية فيها آيات من آيات الله، منها: أنه لما اجتمع السحرة الفجار بأمر فرعون ومساندته وألقوا حبالهم وعصيهم، وصارت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين أرهبت الناس حتى موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة، لأنها فوق ما يتصور، سحرة مهرة أتوا بكل قوتهم وألقوا فملؤوا الأرض حبالًا وعصيًّا، فجعلت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أوحى الله إليه أن يلقي العصا، فانقلبت هذه العصا حية، وجعلت تلقف ما يأفكون، كل الحبال التي جاءوا بها أكلتها هذه الحية، فهذه من آيات الله العظيمة، كيف تكون هذه الحية تأكل كل هذه الحبال والعصي، أين تذهب؟ لكنها ـ والله أعلم ـ بمجرد ما تأكلها تكون كالبخار، وإلا فبطن هذه الحية لا يسعها، لكن هذه آية، ونحن نتصور هذه الواقعة خبرًا، ولكن لو رأيناها نظرا كان الأمر أشد وأعظم، فنحن الآن لا نتصورها إلا في الخبر وفي الذهن فقط، ولكن لو شاهدت عرفت أن الآية عظيمة.

والآية الثانية في هذه العصا: أن موسى استسقاه قومه وطلبوا منه الماء فضرب حجرا من الحجارة فتفجر عيونًا، اثنتا عشرة عينًا، لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة قبيلة.

والآية الثالثة: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أدركه فرعون وحشره إلى البحر أيقن أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام أنهم هالكون، وقالوا: إنا لمدركون، ليس لنا مفر، البحر

أمامنا، إن خضناه غرقنا، وفرعون وجنوده خلفنا سيقضون علينا، قال أصحابه: إنا لمدركون. ولكن انظر إلى الإيمان واليقين، قال: ﴿كَلَّآ﴾ لن ندرك، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أي: سيدلني على ما فيه النجاة. فأوحى الله إليه بأن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فضرب البحر مرة واحدة بالعصا فانفلق اثنتي عشرة طريقًا على عدد قبائل بني إسرائيل، وكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل، وانظر إلى الإيمان أيضا كيف دخلوا في هذه الطرق والمياه على أيمانهم وعلى شمائلهم ولكنه الإيمان، لأنهم عرفوا أنهم ناجون ولا بد، وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أعطاه الله تعالى آيات بينات، كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، وهذان المرضان لا حيلة للأطباء فيهما إلى الآن، اللهم إلا الأكمه، وكان يحيي الموتى بإذن الله، يقول للجنازة أمام الناس: احيي. فتحيا بإذن الله، وكان يخرج الموتى من قبورهم، يقف على القبر ويأمر صاحب القبر بأن يخرج ويخرج حيًّا، من يستطيع هذا إلا الله - عز وجل - وجعله آية لهذا النبي عليه السلام. وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخه فيطير، قال الله - عز وجل -: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وفي قراءة ثانية: (يكون طائرًا)، وإذا جمعت بين القراءتين صار المعنى طيرا بإذن الله يطير، لأنه ما كل طير يطير، فالنعامة لها جناح ولكنها لا تطير، لكن يكون طيرا يطير يشاهد في الجو وهو خلقه من طين، وهذا لا يقدر عليه إلا الله، وجعله الله آية لعيسى.

فإن قال قائل: لماذا خص الله موسى بالعصا وخص عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إن الله - عز وجل - حكيم يجعل لكل نبي من الآيات ما يناسب الوقت وحال الناس حتى يعجزهم، فالسحر ترقى إلى حد بعيد في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فأراهم الله آية يعجزون عنها بالسحر، ولهذا السحرة في قصة موسى العارفون بالسحر ما ملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، أُلقي السحرة ساجدين، كأنهم بغير اختيار، فسجدوا وقالوا إعلانًا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٢] وعيسى عليه الصلاة والسلام ترقى في عهده الطب ترقيا عظيما فأعطاه الله آية لا يستطيع الأطباء أن يأتوا بمثلها، أما محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه بعث في زمن البلاغة العظيمة التي ترقت إلى أعلى ما يكون في العرب واللسان العربي المبين أفصح الألسنة وأدلها على ما في الضمير، فبعثه الله - عز وجل - بقرآن كريم أعجز العرب أن يأتوا بمثله، ولن يأتي أحد بمثله لا الجن ولا الإنس، قال الله - عز وجل -: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وصدق الله - عز وجل - فالقرآن كلام الله فكما أن الله ليس كمثله

شيء فكلامه ليس مثله كلام، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ حَتَّى تَقُومَ الحُجَّةُ»، قال: «وَإِنَّمَا الذِي أُوتِيتُهُ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا»(١)، وحصل ما توقع والحمد لله، لأن آيته الكبرى هي القرآن العظيم، والقرآن العظيم باق، وكل الناس يقرأونه ويستنتجون منه من الآيات ما يزدادون به إيمانًا، ويعلمون به صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: ما الحاجة إلى إعطاء الأنبياء آيات؟

فنقول: الحاجة واقعة بل للضرورة، بل العقل أيضًا، لأنه ليس من العقل أن يأتي شخص ويقول: إنه رسول ثم يتبع، لابد أن يكون هناك بينة تدل على أنه رسول، ولو جاء إنسان في غير أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقال: إنه رسول ولم يأت بآية، فالناس معذورون إذا لم يتبعوه، وإلا لكان كل واحد يدعي أنه رسول، أما بعد النبي ﷺ فالنبوة انقطعت؛ لأنه كان خاتم النبيين، لذلك لابد أن يكون مع الأنبياء آيات تدل على صدقهم وعلى صحة ما جاءوا به من الشريعة، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الكتاب: هو الوحي الذي أوحاه الله تعالى إليهم وما من رسول إلا معه كتاب، بخلاف النبي، فالنبي قد لا يكون معه كتاب، لكن الرسول لابد أن يكون معه كتاب، لأن الرسول لابد أن يعطي الناس الذين يدعوهم ما يشاهدونه بأعينهم. وفيه الأمر والنهي، والخبر والقصص وغير ذلك مما تقتضيه الحال. وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد الجنس، يعني الكتب.

وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل الذي توزن به الأشياء ويعرف قدرها وحالها، وهذا يدل دلالة واضحة على أن القياس الصحيح مما بعث به الرسل، لأن القياس تسوية فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، وقد قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل والمقايسة بين الأمور ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليقوم الناس في الدين والدنيا بالقسط بالعدل في حق الله، وفي حق العباد، والعدل في حق الله ما ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له: «أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٢). يعني أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

شيئًا، أما حق المخلوق، فقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[1] هذا الشاهد، أي: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولو أننا عاملنا الناس بهذا لاستقام العدل ولم يتجرأ أحد على ظلم أحد، ولو أننا شعرنا للناس بما نشعر به لأنفسنا لحلت في قلوبنا الرحمة والتواضع، لأن كل إنسان يحب أن يعامله الناس بالرحمة والتواضع، فعامل الناس أيضا بالرحمة والتواضع.

فاللام في قوله ﴿لِيَقُومَ﴾ للتعليل يعني أرسلنا الرسل وأنزلنا معهم الكتاب، وأنزلنا معهم الميزان لهذه الحكمة، ليقوم الناس بالقسط، ولهذا لا تجد أعدل من دين الله ـ عز وجل ـ في كل زمان ومكان، وكل ما خالف دين الله ـ عز وجل ـ فهو جور وظلم، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَظْلَمَ الظُّلْمِ أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[2]. ثم سُئل: أي الظلم أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» فلو مشى الناس على شريعة الله لقاموا بالقسط، لكن كل من لم يتمش على شريعة الله فهو جائر، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] يعني من السبيل ما هو جائر وهو سبيل الظالمين، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما يحصل به النصر من جهة أخرى، لأن النصر يكون بالوحي ويكون بالبأس وهو ما ذكره في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أنزلنا الحديد يعني خلقناه لهم من المعادن، واستنبط بعض العلماء من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ على أن المعدن إذا كان في قمم الجبال فهو أقوى وأنفع مما إذا كان في أسفل، لأن النزول إنما يكون من أعلى، فالله أعلم هذا يرجع إلى علم الجيولوجيا، لكن ﴿أنزلنا﴾ بمعنى وضعنا لهم الحديد، وهو معدن معروف من أقوى المعادن ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: في الحرب، تصنع منه السيوف والخناجر وجميع آلات الحرب، وإنما ذكره بعد ذكر الكتب لأن الدين لا يقوم إلا بهذا: بالدعوة والقتال. فإذا أبى الكفار أن يكون دين الله هو العالي فحينئذ يقاتلون بالحديد، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جمع المنافع لأنها لا تحصى أجناسها، فضلا عن أنواعها وأفرادها، فمن يحصي المنافع التي تحصل بالحديد؟! ولهذا جاءت بالجمع المعروف بصيغة منتهى الجموع، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ دينية ودنيوية، فردية وجماعية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوفة على ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أما علم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

أنه سيكون: فهذا سابق على إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأنه سبحانه لم يزل ولايزال عالمًا بكل شيء، ولكن لا يشكل عليك الأمر، لا تقل: إن الله لا يعلم إلا بعد هذا، نقول: العلم علمان: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم بالشيء بعد وجوده. والعلم السابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب حتى يمتحن للناس، ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾، أي: ينصر دينه، وليس المعنى ينصر نفس الله، لأن الله غني عن العالمين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

فلو قال قائل: كيف تفسر الآية بنصر دينه والله يقول: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾؛ هذا تفسير مخالف للفظ وأنتم تنكرون على من يفسر القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ، فما الجواب؟

فالجواب: نحن لا ننكر على الناس إذا فسروا القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ إذا كان ذلك بدليل، ولهذا إذا قال قائل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] المعنى إذا قرأت القرآن أي أردت قراءته، فهذا فسره بخلاف ظاهره، ولكنه تفسير صحيح، لأن الإنسان يستعيذ بالله إذا أراد أن يقرأ، وليس إذا تم القراءة، بدليل فعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولأن هذا هو الذي يفيد أن يستعيذ الإنسان بالله قبل أن يقرأ ليقرأ والشيطان بعيد عنه، على كل حال إذا قال لك قائل: كيف تفسر قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي من ينصر دينه وأنت تنكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره؟ فالجواب: أننا لا ننكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليل صحيح، والدليل على أن المراد ينصر دينه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ليس به حاجة، ولا يحتاج إلى أحد، فهو قوي عزيز غالب، غالب بقوة لا يلحقها ضعف، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَرُسُلَهُۥ﴾ نصر الرسل، إذا كان الرسول حيًّا فالمراد ينصر الرسول نفسه وشريعته، وبعد موته ينصر شريعته، وفي هذا دليل على أن نصر الشريعة نصر لمن جاء بها، فلا يشكل على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد يميت الرسول قبل أن يرى النصر الواسع له، لأننا نقول: نصر شريعته نصر له، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: أنه ينصر الله ـ عز وجل ـ وينصر رسله وهو لم ير الله، لأن الله تعالى ينصر ولا يُبصَر في الدنيا، ولهذا قال بعض السلف: (ينصرونه ولا يبصرونه) تفسيرا لقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ينصرونه ولا يبصرونه، فالمراد لا يبصرونه في الدنيا، أما في الآخرة فنظر الله تعالى حق ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إذن بالغيب، أي: ينصرون الله وهو غائب، ويحتمل أن يكون المعنى بالغيب، أي: بغيبتهم عن الناس، فيكون في هذا دليل على إخلاصهم، وأنهم ليسوا ممن يعبدون الله إذا كانوا بين الناس، بل يعبدون الله

تعالى في الغيب والشهادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان أن نصر الله ـ عز وجل ـ ليس عن ضعف ولا عن قهر، بل هو قوي عزيز لا يحتاج إلى أحد ينصره بنفسه، ولكن النصر لدينه، نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه إنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الحديد: ٢٦] هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم المحذوف. والثاني: اللام. والثالث: قد، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء من بعده، وإليه يرجع الأنبياء، أي: إلى ملته، ولهذا يتنازع فيه المسلمون واليهود والنصارى، فاليهود يقولون: إنه يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، والمسلمون يقولون: إنه حنيف مسلم، وهذا هو الحق، والعجب أن اليهود والنصارى يقولون: إنه يهودي أو نصراني، وما كانوا يهودا ونصارى إلا من بعده، ولكنهم ليس لهم عقول، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام النبوة والكتاب، يعني الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا دليل على أن آدم ليس برسول، وأن إدريس ليس قبل نوح كما ذكره بعض المؤرخين، وهو خطأ مخالف للقرآن الكريم، فليس قبل نوح رسول، وآدم نبي مكلم كلمه الله ـ عز وجل ـ بما شاء من وحيه، ثم سار على نهجه بنوه من بعده، فلما انتشر الناس وكثروا صار بينهم اختلاف، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقوله: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المراد الجنس، لأن كل رسول معه كتاب، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: بعضهم مهتد، وحذفت الياء كما هي القاعدة في اللغة العربية، وأصلها «مهتدي» بالياء، لكن حذفت للتخفيف، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: غير مهتدين، وهذا هو الواقع أن بني آدم أكثرهم ضال، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] قفينا بمعنى اتبعنا، مأخوذ من «القفا»، لأن من يمشي من قفاك هو تابع لك ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أي: آثار نوح وإبراهيم ومن كان من الرسل الآخرين عليهم الصلاة والسلام ﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي: التابعين لهم، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ نص على عيسى عليه السلام لأنه ليس بينه وبين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول، بل ولا نبي أيضًا، ليس بينه رسول ولا نبي، وما يقال: إن

خالد بن معدان وغيره له النبوة فكله كذب، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ هو كتاب أنزله الله ـ عز وجل ـ على عيسى، ويعتبر مكملا للتوراة، لأن التوراة هي أم الكتب في بني إسرائيل، ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ثلاثة أشياء جعلها الله في قلوب النصارى الذين اتبعوا عيسى: ﴿رَأْفَةً﴾ الرأفة نوع من الرحمة ولكنها أرق وألطف، ﴿وَرَحْمَةً﴾ فهم من أرق الناس قلوبًا وأرحمهم بالخلق لما كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ولكن بعد أن كفروا بمحمد صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية وغيرها، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الانقطاع عن الدنيا للعبادة، ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني من عند أنفسهم، كما فعلت بعض فرق المسلمين، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، لكن معهم رقة ورحمة ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنا لم نفرضها عليهم، ولكن هم طلبوا رضوان الله، ولهذا نقول: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، ولكن مع كونهم ابتدعوها واختاروا بأنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني ما قاموا برعايتها الواجبة من إحسان هذه الرهبانية التي ابتدعوها، وإنما تصرفوا فيها كما يشاؤون، ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: كثير من هؤلاء النصارى فاسق، أي: خارج عن طاعة الله ـ عز وجل ـ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا يوفق لإقامتها، فيكون ضالًّا في الأصل، وضالًّا في الفرع، حتى لو اجتهد، حتى لو خشع، إنك تجد كثيرا من الناس الذين ابتدعوا أذكارًا، أو صلوات، أو أدعية، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين، قلوبهم باكية، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك، لأنهم على ضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدلوا الإيمان، لأن الإيمان قد حصل، حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فيكون المعنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبكم ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بجوارحكم ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: حققوا الإيمان واثبتوا عليه، وليس كل من آمن يكون مؤمنا حقًّا، وهذا هو ما يعنيه العلماء بقولهم، هذا نفي كمال الإيمان مثل قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]، ليس المراد نفي مطلق الإيمان، بل نفي الإيمان المطلق الكامل، وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب، لأنه قال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، ولا يمكن أن ينادي الله ـ عز وجل ـ أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبدًا، لا يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يا أيها اليهود والنصارى، لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا بمؤمنين، والمراد برسوله هنا: محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والإيمان بالرسول ﷺ يتضمن الإيمان بجميع الرسل، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] يعني في الإيمان به، لا في الاتباع، ففي الاتباع نفرق بين الرسل، فنتبع منهم محمدا ﷺ، لكن الإيمان كلهم على حد سواء، نؤمن بأنهم رسل الله حقًّا، ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبين من رحمة الله، ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الأمة بالنسبة لما قبلها كرجل استأجر أجراء، منهم طائفة من أول النهار إلى نصف النهار، وطائفة من نصف النهار إلى العصر، وطائفة من العصر إلى غروب الشمس، فالطائفة الأولى أعطى كل واحد منهم دينارًا، والطائفة الثانية أعطى كل واحد دينارًا، والثالثة أعطى كل واحد دينارين فاحتج الأولون: لماذا تعطي هؤلاء دينارين، وهم أقل منا عملًا؟ فأجابهم بقوله: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا»؟ قالوا: لا، قال: «ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(1)، فالحمد لله هذه الأمة لها مثل أجر الأمم السابقة مرتين، ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا﴾، أي: أنكم إذا آمنتم وحققتم الإيمان مع التقوى يثبكم ثوابين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا﴾ أي: علمًا تسيرون به إلى الله ـ عز وجل ـ على بصيرة، وفي هذا دليل على أن التقوى من أسباب حصول العلم، وما أكثر الذين ينشدون العلم، وينشدون الحفظ، ويطلبون الفهم، فنقول: إن تحصيله يسير، وذلك بتقوى الله ـ عز وجل ـ وتحقيق الإيمان، الذي هو موجب العلم، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم، فتقوى الله ـ عز وجل ـ من أسباب زيادة العلم ولا شك، ولهذا قال ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تسيرون به، أي: بسببه سيرًا صحيحًا يوصلكم إلى الله ـ عز وجل ـ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي: يسترها عليكم، ويعفو عنكم، فلا عقاب ولا فضيحة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾ [الرعد: ٦] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] فالغفور يعني ذا المغفرة، والرحيم يعني ذي الرحمة، وذلك أن الإنسان محتاج إلى مغفرة ذنوب وقعت منه، وإلى رحمة تسدده ويتجنب بها المعاصي، ويهتدي إلى التوبة إن عصى، ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] أي: جعل لكم هذا الثواب، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم لا يستطيعون أن يحسدوكم على ما آتاكم الله من فضله، مع محاولتهم الشديدة أن يحسدوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] فيقول ـ عز وجل ـ هنا: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لا إعطاءً ولا منعًا، ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ـ عز وجل ـ وهو المدبر لكل ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: صاحب الفضل العظيم، وما أعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على عباده، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] نسأل الله تعالى أن يؤتينا من فضله، وأن يهب لنا منه رحمته إنه هو الوهاب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تفسير سورة الحديد

تَفْسِيرُ جُزْءِ قَدْ سَمِعَ

تَفْسِيرُ جُزْءِ تَبَارَكَ

تفسير سورة الطلاق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

❁ التفسير ❁

الخطاب المُوجَّه للرسول ﷺ هل هو خاص به، أو هو عام له وللأمة ؟

نقول: هذا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أن يدل الدليل على أنه عام؛ كهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ولم يقل: يا أيها النبي إذا طلَّقتَ

الثاني: أن يكون هناك دليل على أنه خاصٌّ به، فيكون خاصًّا به؛ مثل قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فشرحُ الصدر هنا خاصٌّ بالرسول ﷺ .

الثالث: ألَّا يدل دليل على هذا ولا على هذا، فهل هو خاصٌّ به، ويكون لأمته عن طريق الأسوة به، أو هو عامٌّ له وللأمة، لكنه خُوطِب به؛ لأنه زعيم الأمة، والعادة أن خطاب الأمة يُوجَّه إلى زعيمها .

والواقع أن هذا الخلاف يكاد يكون خلافًا لفظيًّا؛ لأنه على كلا القولين يدل على أن الحكم عامٌّ للأمة، هنا يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ هو من القسم الأول الذي فيه الدليل على أن الخطاب عامٌّ للرسول ﷺ وللأمة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا

خاصٌّ به، أو له وللأمة ؟ له وللأمة .

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فما هو طلاق المرأة لعدَّتها ؟ أن يُطلِّقها طاهرة من غير جِماع، طاهرة من الحيض، ولم يُجامِعها في هذا الطُّهْر، هذا هو طلاقُها لعدَّتها .

فإن طلَّقها وهي حائض فقد عصى الله؛ لأنه لم يُطلِّقها للعدَّة، وإن طلَّقها في طُهْرٍ جامَعَها فيه فقد عصى الله؛ لأنه لم يُطلِّقها للعِدَّة .

إذا طلَّقها وهي حامل، هل في هذا الطلاق معصية لله؟ لا؛ لأنه طلَّقها للعِدَّة؛ إذ إن المرأة الحامل بمُجرَّد ما يُطلِّقها زوجُها تبدأ في العِدَّة .

فصار الطلاق المباح: إذا طلَّقها وهي حامل، أو طلَّقها في طُهْرٍ لم يُجامِعها فيه، والطلاق المُحرَّم: أن يُطلِّقها وهي حائض، أو في طُهْرٍ جامَعَها فيه .

فالطلاق أربعة أقسام: وهي حامل، في طُهْرٍ لم يُجامِع فيه، وهي حائض، في طُهْرٍ جامَعَ فيه، اثنان حلال، واثنان حرام .

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ يعني: اضبطوها؛ لأن أمر النكاح عظيم، فهو أشد العقود خطرًا، ولذلك جعل الله للدخول فيه شروطًا، وللخروج منه شروطًا .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ الضمير يعود على النساء المُطلَّقات، فإذا طلَّق الإنسان زوجتَه وجب عليه أن يُبقِيَها في البيت، ولا يجوز أن يُخرِجها منه، وعمل الناس اليوم على خلافه، إذا طلَّقها طردها، وهذا حرام، ومعصية لله عز وجل؛ بل الواجب أن تبقى في البيت، ولهذا أضاف البيوت إلى النساء؛ كأنَّ بقاءها في البيت حقٌّ لها؛ لأنه بيتُها، فكيف يُخرِجها منه ؟ إن أخرجها منه فهو ظالمٌ لها؛ لأن البيت بيتُها، إن أخرجها منها، فهو عاصٍ لله؛ لأن الله قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ .

وإذا أرادت هي أن تخرج؛ كما هي عادة بعض النساء إذا طلَّقها زوجها غضبت، وخرجت هي بنفسها، نقول: لا تخرج، وحرام عليها أن تخرج .

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ إلى متى ؟ إلى انتهاء العدة .

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فلا بأس أن يُخرِجها الزوج، والفاحشة المُبيِّنة فسَّرها كثيرٌ من العلماء: أن تكون بذيئة اللسان، مُؤذيةً له ولأهله، ففي هذه الحال يُعذَر إذا أخرجها من البيت، أما بدون ذلك فحرامٌ عليه أن يُخرِجها .

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ هذا التعليل، تعليل النهي عن إخراجهن وخروجهن ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ

ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾، فما هو الأمر ؟ أن يُراجِعها، فإذا بقِيَت في البيت، وتغيَّر رأيه، والقلوب بيد الله عز وجل، قد يقلِبُ البغضاء محبةً، والمحبة بُغْضًا، يُراجعها في البيت وكأن شيئًا لم يحدث، ولهذا قال: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾، وبهذا التعليل عرفنا أنه لو كان الطلاق آخر ثلاث تطليقات - يعني: الطلقة الثالثة -، فإنه له أن يُخرجها؛ لأنه لا يحدث بعد ذلك أمر؛ إذ لا مُراجعة، فهي بائنٌ منه بينونة كبرى، ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ومتى تبلغ أجلها؟ إذا حاضت ثلاث مرات إن كانت ممن يحيض، فإذا حاضت ثلاث مرات فأمسِكها بمعروف، أو فارِقها بمعروف .

وإذا طهُرَت من الحيضة الثالثة؛ هل يُمسِكها وقد انقضَت العِدَّة؟ يعني: انقضت العدة ولم يُراجِع؛ هل يُراجِعها ؟ كثيرٌ من العلماء يقول: لا يُراجِع؛ لأن العِدَّة انقضت، والصحيح: أنه يُراجِعها ما لم تغتسل من الحيض، ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾، وعلى الرأي الآخر يكون معنى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: إذا قارَبن بلوغ أجلهن، فأمسِكوهن بمعروف، أو فارِقوهن بمعروف .

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على المُراجعة، أو على الطلاق، أو عليهما جميعًا ؟ عليهما جميعًا .

ثم قال: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ هذه المرأة التي لا تحيض عدَّتها ثلاثة أشهر، هلالية، أو تُكمَل العِدَّة ثلاثين هلالية؛ لأن هذا هو المُعتبَر شرعًا.

وعند العامة أن المُطلَّقة تعتدُّ ثلاثة أشهر ولو كانت تحيض، وهذا غلط، ولهذا لو سُئِلنا: أيُّها أطول: عدَّة الآيِسة، أو عدَّة من تحيض ؟ أحيانًا تكون المرأة لا تحيض في الشهرين إلا مرة واحدة، فكم تكون عدَّتها ؟ ستة شهور، أحيانًا تحيض في الشهر مرتين، كم عدَّتها ؟ شهر ونصف، لكن إذا كانت ممن يئِسَت من المحيض فعدَّتُها ثلاثة أشهر، ولماذا تيأس من المحيض ؟ تيأس من المحيض لعِدَّة وجوه :

أولًا: أن تبلغ سنًّا ينقطع به الحيض عادة؛ مثل: خمسين سنة، ستين سنة، حسب حال النساء .

ثانيًا: أن تُجرِي عملية بقطعِ الرحِم؛ لأنه أحيانًا يكون في الرَّحِم مرض؛ كالسرطان، فيُقرِّر الأطباء قطعَهُ فيُقطَع، هذه يئِسَت من المحيض، لا يمكن أن يعود إليها الحيض، فعدَّتها ثلاثة أشهر.

ثالثًا: أن تُصاب بجُفوف يُعلَم أنه لن يعود إليها الحيض، أيضًا عدَّتها ثلاثة أشهر.

فكل من يئِسَت من المحيض لأي سببٍ من الأسباب فعدَّتها ثلاثة أشهر؛ ومن أين تبتدئ؟ أمِن علمها، أم من طلاقها ؟ من طلاقها.

- وعدة المرأة التي طلقت تكون واحدة:

أولًا: مَنْ طُلقت قبل الدخول، وهذه لا عدة عليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٩].

ثانيًا: من طُلِّقت وهي حامل عدَّتُها وضعُ الحمل، لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

ثالثًا: من طُلِّقت بعد الدخول وهي تحيض، فعدَّتها ثلاث حِيَض، لقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

رابعًا: من طُلِّقت بعد الدخول وهي لا تحيض؛ إما صغيرة، أو آيِسة، فعدَّتها ثلاثة أشهر.

أما الوفاة فهي على نوعين فقط:

الأولى: من مات عنها زوجها وهي حامل فعدَّتها وضع الحمل، طالت أم قصُرت.

الثانية: من تُوفِّي عنها زوجُها وهي حائل؛ أي: غير حامل، فعدَّتها أربعة أشهر وعشرة أيام سواءٌ حاضت ثلاث حِيَض، أو لم تَحِض، أو حاضَت أكثر.

وهل مقياس الأشهر الهلال أو العدد؟ الهلال.

وليُعلَم أنه مع الأسف الشديد أن الطلاق صار على ألْسُن كثيرٍ من الناس سهلًا، يُطلِّق على أدنى سبب، وهذا أمرٌ خطيرٌ، وأنا أضرب لكم مثلًا: كثيرٌ من الناس ينزل به ضيف، ويريد أن يُكرِم ضيفَه بذبيحة من غنمه حاضرة ما تحتاج إلى تعب، فيقول الضيف: عليَّ الطلاق ما تذبح، ويقول المُضِيف: عليَّ الطلاق لأذبحنَّ لك، من نأخذ بقوله؟ كل هذا من السَّفَه، وإني أقول لكم: المسألة خطيرة للغاية، لو قال رجل لامرأته: إن خرجتِ من البيت فأنتِ طالق، فهنا إما أن يريد الشرط، وإما أن يريد اليمين، إن أراد الشرط فإنها إذا خرجت طلَقَت، ولا إشكال في ذلك؛ لأن ذلك طلاقٌ مُعلَّقٌ على شرطٍ وقد حصل، وإذا وُجِد الشرط ثبت المشروط، كما لو قال: إذا طلَعَت الشمس فأنتِ طالق، فإنها إذا طلعت الشمس تطلُق، وهذا محل إجماع من العلماء.

الحال الثانية: أن يريد بقوله: إن خرجتِ فأنتِ طالق الحثَّ على عدم الخروج؛ يعني: يريد منعها، وأتى بهذه الصيغة تهديدًا لها، فخرجت، فهل تطلُق؟

جمهور الأمة، وجميع الأئمة على أنها تطلُق، حتى وإن قصد التهديد، لكن شيخ الإسلام رحمه الله يرى أنه إذا قصد اليمين أُعطِيَت هذه الصيغة حكم اليمين، ومعنى: قصد اليمين أنه يقول: أنا لا أقصد الطلاق، وزوجتي عندي غالية، ولا أُفرِّط فيها، لكني ذكرتُ ذلك تهديدًا لها لأجل ألَّا تخرج، يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أنها إذا خرجت لا تطلُق لكن عليه أن يُكفِّر كفَّارة يمين.

وقوله هو الصحيح من حيث النظر قياسًا على العتق الذي ورد عن الصحابة رضي الله عنهم،

وتعليق الطلاق يقول شيخ الإسلام: إنه ليس معروفًا عند الصحابة، فيُقاسُ على ما كان معروفًا عندهم، وإنما قلتُ لكم ذلك لتحذروا من التعجُّل في هذا الأمر .

وبعض السفهاء إذا أراد أن يُطلِّق زوجته طلاقًا جاء للكاتب، وقال: اكتب: زوجتي طالق بالثلاث، نقول له: إنها طلقة واحدة؛ هل أحد يُجبِرك على أن تُراجِع ؟ لا أحد يُجبِره، وإذا انتهت العِدَّة بانَتْ منك؛ لأنك أيضًا إذا طلَّقتَ بالثلاث بقيت هناك مشكلة، وهي: أن أكثر العلماء - ومنهم المذاهب الأربعة - يرون أن طلاق الثلاث بكلمة واحدة طلاقٌ بائن، ما تحلُّ به المرأة .

ومن العلماء من يرى أنها تطلُق طلقة واحدة، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقوله هو الصواب؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق في عهد النبي ﷺ طلاق الثلاث واحدة، وكذلك في عهد أبي بكر، وستين من خلافة عمر، فلما كثُر طلاق الثلاث في الناس، وكان عمر رضي الله عنه مشهورًا بالحزم، قال: أرى الناس قد استعجلوا في شيءٍ كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم، وقال: من طلَّق الثلاث لا يمكن أن يُراجِع؛ لماذا أمضاه على ذلك؟ ليرتدع الناس عن الطلاق الثلاث المُحرَّم، فمشى العلماء خلف أمير المؤمنين عمر، وقالوا: إن الإنسان إذا طلَّق بالثلاث بانت المرأة منه، ولم يملك الرجعة إليها إلا بعد زوج .

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ والخطاب في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ يشمل الشاهد، ويشمل المُستشهِد؛ لأن المُستشهِد الذي طلب الشهادة قد أقام الشهادة، وامتثل أمر الله، والشاهد الذي يُؤدِّي ما شهِد به على حسب ما بلغه من العلم هو أيضًا مُقيمٌ للشهادة .

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم تقواه، وأن يجعلنا من الذين قالوا: سمعنا وأطعنا، وأن يهَب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب .

تفسير سورة المعارج

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج:١ - ٢] وهنا يتبادر إلى الذهن أن يكون الكلام: سأل سائلٌ عن عذاب واقع؛ لأن سأل تتعدَّى بـ (عن)، ولا تتعدَّى بالباء، والكلام هنا أوجِّهه إلى طلبة العلم - ولاسيما الذين يعرفون العربية؛ النحو -، فإنه قد يقول قائل: كيف عُدِل عن (عن) إلى الباء ؟

والجواب عن ذلك: أن علماء النحو اختلفوا في مثل هذا؛ فمنهم من قال: إن الاستعارة في الحرف، ومنهم من قال: إن الاستعارة في الفعل .

فالأولون يقولون: إن الباء هنا بمعنى: عن؛ أي: سأل سائلٌ عن عذاب واقع، فأُجيب .

ومنهم من قال: إن عن هنا لا تُقصَد، وأن الاستعارة في سأل، وأنه ضُمِّن معنى الإجابة، كأنه قيل: سأل، فأُجيب بعذاب واقع؛ أي: بهذا الجواب.

ثم قال: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٢ - ٤] فالله عز وجل ذو المعارج، كما قال في آية أخرى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لأنه سبحانه وتعالى عليٌّ على خلقه، مُستوٍ على عرشه، وعلوُّه عز وجل ينقسم إلى قسمين:

علو ذات، وعلو صفات.

فأما علو الذات: فإن معناه: أن الله بذاته فوق كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى مُستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته.

وأما علو الصفات: فإنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى أعلاها وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

واعلم أن علو الصفات قد اتفق عليه أهل القبلة، وأما علو الذات فأنكره من أنكره من أهل البدع، وقالوا: إن الله عز وجل ليس عاليًا بذاته، ثم انقسموا إلى قسمين:

قسم الحلولية، وقسم المُعطِّلة، وليس هذا موضع ذكر المسألة، وحسبُنا أن نؤمن بأن الله عز وجل فوق خلقه، مُستوٍ على عرشه.

سأل الإمام مالكًا رحمه الله رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الله! ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ كيف استوى ؟ وكان مالك رحمه الله في حلقة أصحابه وتلاميذه، فأطرق برأسه حتى علاه الرُّحَضاء -

أي: العرق - خجلًا وتحمُّلًا لهذا السؤال العظيم، ثم رفع رأسه قائلًا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ما معنى قوله: الاستواء غير مجهول؟

أي: أن الاستواء معلومٌ في اللغة العربية، فإن جميع موارده في القرآن يُعرَف معناها من سياقها، فاستوى وردت في القرآن على ثلاثة أوجه: مُعدَّاة بـ (إلى)، ومُعدَّاة بـ (على)، ومُطلقة غير مُعدَّاةٍ بحرف، واستُعمِلَت أيضًا في اللغة العربية مقرونة بالواو، فاستعمالاتها في اللغة العربية إذًا على أربعة أوجه.

فإذا عُدِّيَت بـ (على): صار معناها العلو والاستقرار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ومنه قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ .

والقسم الثاني: مُعدَّاة بـ (إلى): ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وهي هنا بمعنى: القصد؛ أي: قصد إلى السماء، وقيل: بمعنى: على، فلعلماء السلف فيها قولان، وكلاهما لا يُنافي الآخر .

أما القسم الثالث: فأن تأتي مُطلقة غير مُعدَّاة بـ (إلى)، و(على): ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، وحينئذ تكون بمعنى الكمال، أي: كمال الشيء وانتهائه، فبلغ أشده؛ يعني: بلغ غاية قوته العقلية والجسمية، واستوى؛ أي: تم، ومنه قول العامة إذا طبخوا الطبيخ يقولون: إنه استوى؛ أي: كمُل نضجُه .

أما القسم الرابع: فأن تأتي مقرونة بالواو، وهي في هذا بمعنى: تساوى؛ كقولهم: استوى الماء والخشبة؛ أي: تساويا وصار الماء إلى الخشبة .

إنما نحن نؤمن بأن الاستواء الذي وصف الله به نفسه بمعنى: العلو والاستقرار، فإذا قلتَ: أليس الله عاليًا على كل شيء؟

فالجواب: بلى، ولكن استواءه على العرش استواءٌ خاصٌّ بالعرش، وليس هو العلو العام لجميع المخلوقات.

وأما قول الإمام مالك رحمه الله: والكيف غير معقول، فالمعنى: أننا لا نُدرِك كيفية استواء الله بعقولنا؛ لأن الله عز وجل أعظم من أن تُدرِكه العقول، وتُحيط به العقول، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

وإذا كان العقل لا سبيل له إلى إدراك كيفية استواء الله على عرشه، بقي عندنا السمع، فهل دلَّ السمع على كيفيته ؟ لا؛ لأن الله أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يُخبرنا: كيف استوى، فإذا انتفى عنه الدليلان: العقلي والسمعي، وجب علينا الكفُّ عنه، وألَّا نسأل عن كيفيته؛ لأتن هذا

أمرٌ لا يمكن إدراكُه، ولهذا قال رحمه الله: والسؤال عنه بدعة، عن كيفيته؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم، وهم والله أحرص منا على العلم ما كانوا يسألون النبي ﷺ: كيف استوى ربنا على العرش، لكن سألوه: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ أما هذا فلم يسألوا عنه، وشيءٌ لم يذهب إليه سلفُ هذه الأمة مما يتعلّق بدين الله، فإن الذهاب إليه بدعة، ولهذا قال: السؤال عنه بدعة.

أما الإيمان به فواجبٌ؛ لأن الله أخبر به، وكل ما أخبر الله به فإنه يجب علينا أن نؤمن به .

يقول عز وجل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] والمراد بالروح هنا: جبريل، وهو من الملائكة، ولكنه خصَّه بالذكر اعتناءً به وتعليةً لشأنه، ومثل هذه الآية في تخصيص جبريل: قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الجار والمجرور تقديره: يقع في يوم، وإن شئتَ فقل: إنه متعلق بكلمة واقع، وليس متعلِّقًا بـ (تعرج)؛ لأن عروج الملائكة والروح إليه في كل وقت، لكن العذاب الواقع يقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وفيه من الأهوال العِظام ما يجعل الولدان شيبًا، ولكن هذا اليوم على صعوبته ومشقته هو يسيرٌ على المؤمن – أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم –، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لا على المؤمنين، وقال عز وجل: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، وأما المؤمنون فهو يسيرٌ عليهم .

ثم ذكر الله عز وجل أن هؤلاء المُكذِّبين يستبعدونه، ويرونه بعيدًا، وهو قريبٌ يسيرٌ على الله؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ .

وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:٨ – ١٠] الحميم: الصاحب والقريب، لا يسأل حميمٌ عن حميم؛ لأن لكل واحدٍ منهم شأنًا يُغنيه .

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ يعني: يُقدِّم ابنَه فداءً له، في الدنيا تُقدِّم نفسك فداءً لولدك، وقد ذُكِر في قصة قوم نوح، حين أمر الله عز وجل السماء أن تُمطِر، والأرض أن تنبُت، قال الله عز وجل: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، ذُكِر أن امرأة كان لها صبي، فلما رأت الماء يرتفع، ذهبت إلى جبل، ورقِيَت عليه، فارتفع الماء، ثم ارتفعت، فارتفع الماء، ثم ارتفعت، فارتفع الماء إلى قمة الجبل، ثم ارتفع الماء حتى ألجَمَ المرأة، فأخذت صبيَّها ورفعته فوق يدها، تريد أن تموت قبل أن يموت الصبي، وجاء في هذا: لو كان الله راحمًا أحدًا، لرحِمَ أم الصبي، لكن يوم القيامة ليس كحال الدنيا، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، ولكن الأمر ليس باختياره، وليس بيده، ولا يمكن أن يفتدي بشيء ينفعه.

يقول عز وجل: ﴿كَلَّآ﴾ لا فدية، ولا خلاص، ولا وَزَرَ، كما في سورة القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، ولهذا ينبغي الوقوف على هذه الجملة، ثم تستأنف فتقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، لا مُعين، لا مُغيث، لا مفر.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ولظى اسم من أسماء النار، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ - والعياذ بالله -، ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ائتِ إليَّ، فيتساقط أهلها فيها.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وما معنى هلوعًا؟ فسَّره الله ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ إذا مسَّه الشر، وأُصيب بالفقر جزع وتضجَّر، وإذا مسَّه الخير، وأُعطي المال الكثير، كان منوعًا لا يُنفِق.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ وما أنفع الصلاة للقلب، والبدن، والمجتمع، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، لم ينجُ من هذا الوصف الذي وُصِف به الإنسان من حيث هو إنسان إلا المُصلِّين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يملُّون، ولا يسأمون، ولا يُؤخِّرونها عن أوقاتها، ولا يُفرِّطون في واجباتها؛ بل هم دائمون عليها.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: حق معلومٌ شرعًا، أو معلومٌ عُرْفًا، فإن كان مما قدَّره الشرع فهو معلومٌ شرعًا؛ مثل: الزكاة، وإن كان مما لم يُقدِّره الشرع، فهو معلومٌ عُرْفًا؛ كالنفقة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ السائل الذي يسأل، فالسائل له حقٌّ، فإذا جاءك أحد يسألك فإنك تُعطيه لسؤاله، والمحروم يقول العامة في تفسيره: إنه البخيل الذي حُرِم الانتفاع بماله، ولكن هذا ليس بصحيح، فإن البخيل ليس له حقٌّ في مال الكريم، البخيل يُضرَب حتى يُخرِج ما أوجب الله عليه، وإنما المراد بالمحروم: الفقير الذي حُرِم من المال، ولم يُعطَ منه شيءٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بوقوعه وما يقع فيه، فالإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بوقوعه، والإيمان بما يقع فيه، ففيه مثلًا: الحساب، ونشر الكتب، وفيه أيضًا: الميزان، والصراط، ودنو الشمس من الناس، وغير ذلك من الأشياء التي ذُكِرَت في الكتاب والسنة، ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بفتنة القبر، ونعيم القبر، وعذاب القبر، أما الفتنة فإن الناس يُفتنون في قبورهم، إذا مات الإنسان ودُفِن وتولى عنه أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فيُقعِدانه، وتُعاد إليه روحه، فيُسأل عن ثلاثة أمور: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

يقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيُنادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي،

فألبسوه من الجنة، وافرشوا له من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، فيكون بذلك متنقلًا من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة، ويكون عشية يومه الذي مات فيه أسرَّ منه في صباح يومه الذي مات فيه؛ لأنه خرج من دار النكد، والتعب، والهم، والغم، والعناء إلى دار النعيم، والسرور، وفُتِح له بابٌ إلى الجنة، فجعل ينظر إليها في قبره، وأُلبِس من الجنة، وفُرِش من الجنة، ونادى منادٍ من السماء – وهو الله عز وجل -: أن صدق عبدي، ما بالُك بسرور شخص يناديه ربه: أن صدق عبدي، يُصدِّقه الله عز وجل على ما قال من صواب الجواب، أما المنافق أو الكافر، فإنه إذا قيل: من ربك، ما دينك، من نبيك ؟ يقول: هاه هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلتُه؛ لأن هذا الإيمان لم يدخل إلى قلبه، وإنما هو شيءٌ سمِعَه فقاله، ما وقر الإيمان في قلبه، وقد أخبر النبي ﷺ عن أقوام يقرأون القرآن، ويصلون، حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم مع صلاتهم، لكن إيمانهم لا يتجاوز حناجرهم – والعياذ بالله -، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، والسهم إذا دخل في الرمية مرق منها بسرعة، فإيمانهم – والعياذ بالله – لا يتجاوز حناجرهم، ولذلك أنصح نفسي وإياكم بأن نتفقَّد قلوبنا: هل وقر الإيمان فيها ؟ هل وصل إليها، أم نحن كالأعراب الذين قالوا: آمنا، فقال الله لنبيه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

لننظر ليس العمل مجرد رسوم يقوم بها الإنسان، لكن الإيمان كما قال الحسن البصري رحمه الله: ما وقر في القلب، وصدَّقته الأعمال، فتِّش أولًا عن قلبك، انظر أين اتجاهك، هل هو إلى الله؟ تبتغي وجه الله، تريد وجه الله، تريد ثواب الله، أو إلى أمرٍ تريده من الدنيا، إلى هوًى في نفسك تقصده، إلى مال، إلى رئاسة، إلى جاهٍ، إنك إذا أصلحتَ قلبك صلح أمرك؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»، طهِّر قلبك من الرياء، طهِّر قلبك من الحقد، طهِّر قلبك من الغل، طهِّر قلبك من الفتنة في الدنيا بجميع زهرتها، وبجميع زينتها، عن جميع ما ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾، كل هذا زينة، ولكن هل هذا هو النعيم، هل هذا هو الغاية ؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ الاستفهام هنا يراد به: التشويق، ما هو الشيء الذي هو خير من ذلك ؟ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يبقون فيها مدة، ثم يموتون ؟ لا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ رضا من الله عز وجل، يُحِلُّ عليهم سبحانه وتعالى رضاه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، فمن هم الذين اتقوا

والذين لهم هذا الثواب ؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ اللهم اجعلنا ممن يقول ذلك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لماذا يستغفرون بالله؟ لأنهم قاموا لله، فجافت جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، فلما أكملوا قيامهم نظروا في أمرهم، وعاملوا أنفسهم معاملة المذنب المُقصِّر، فجعلوا بعد هذا العمل يستغفرون الله عز وجل: اللهم اغفر لنا، اللهم إنا نستغفرك، وما أشبه ذلك من دعوات الله عز وجل بالاستغفار.

يقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ مُشفِقون خائفون من هذا العذاب، ومن خاف من شيء حذِرَه، ومن حذِرَ شيئًا تجنَّب أسبابه، فإذا كانوا خائفين من عذاب الله فلابد أن يحذروا منه، وأن يتجنَّبوا أسبابه، وأسباب عذاب الله إما تفريطٌ فيما أوجب، وإما وقوعٌ فيما حرَّم، وعلى هذا فهم يجِدُّون كل جِدٍّ في أن يقوموا بما أوجب الله عليهم، يجِدُّون كل الجِد بأن يتجنَّبوا ما حرَّم الله عليهم، فهم من عذاب ربهم مشفقون.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وصدق ربنا جل وعلا، من يأمن عذاب الله ؟ هل أحد يأمن أن يأتيه عذاب الله بغتةً أو جهرةً؟ أبدًا، لا يأمن عذاب الله إلا القوم الخاسرون، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يحفظون فروجهم إلا من هذين الصنفَيْن من النساء: الأزواج، وما ملكت الأيمان، من هنَّ الذين ملكوهم ؟ هنَّ الإماء التي تُباع وتُشترى، فإن الأَمَة يجوز لسيدها أن يستمتع بها كما يستمتع الزوج بزوجته.

يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يُلامُون على ما يحصل بينهم وبين أزواجهم، أو بينهم وبين ما ملكت أيمانهم، ولهذا يجوز للإنسان أن يستمتع بزوجته بكل متعة أحلَّها الله، ويمتنع من كل متعة منعها الله، والمتعة التي منعها الله متعتان: المتعة في الفرج في حال الحيض والنفاس، فإن ذلك محرم، لا يجوز للرجل أن يُجامِع زوجته في حال الحيض والنفاس.

والمتعة الثانية: المتعة في الدبر، فلا يحل للإنسان أن يأتي زوجته في دُبُرها.

ويجوز للإنسان أن يستمتع بزوجته فيما عدا ذلك؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ويدخل في الآية الكريمة: غضُّ البصر، إلا عن الأزواج والمملوكات؛ لأن إطلاق البصر يؤدِّي إلى الفتنة، ثم الوقوع في المحظور، حتى لا يستطيع الإنسان إذا أطلق لنفسه النظر لا يستطيع أن يُحصِّن فرْجَه، فيكون في هذه الحال غير

حافظٍ له.

واستدلَّ أهل العلم بهذه الآية الكريمة: على أنه يحرم على الإنسان أن يستمني بيده، أو بفراشه، أو بأي شيءٍ كان، وهي ما يُعرف عند الناس بـ (العادة السرية)، فإنها حرام، ودليلها هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال بعد ذلك: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يعني: من قال بالاستمتاع بغير هذين الصنفين فإنهم عادُون، فمن استمتع بيده، أو بفراشه، أو ما أشبه ذلك فإنه عادٍ، والعادي هو الجائر الظالم .

ويدل لتحريمها: قول مُرشدنا ومُعلِّمنا، ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم محمد رسول الله: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ»، وخاطب الشباب؛ لأنهم ذوو القوة في هذا الأمر «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعلَيْهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»، لم يقل النبي ﷺ: من لم يستطع فليُخرِج شهوته بما أراد؛ بل قال: «فَعلَيْهِ بِالصَّومِ»، ونحن نعلم أنه لو كان إخراج الشهوة جائزًا لأرشد إليه النبي ﷺ؛ لأن إخراج الشهوة أيسر من التزام الصوم، ولأن في إخراج الشهوة نوعًا من المتعة واللذة، فلو كان هذا جائزًا ما عدل النبي ﷺ عنه إلى الأمر الشاق؛ لأن هذا الدين يُسْرٌ، ولا تجد خصلةً مُيسَّرة يعدِل عنها هذا الدين إلا لأنها لا تجوز في شريعة الله، وعلى هذا فنستدل على تحريم العادة السرية بالقرآن والسنة .

كما أن هناك أدلة عقلية طبية على تحريمها لما فيها من الضرر العظيم على الجسم، وعلى الغريزة الجنسية، وعلى مستقبل هذه المادة التي هي مادة خلق بني آدم .

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ الذين إذا ائتُمِنوا أو عاهدوا راعَوا الأمانة والعهد، فلا يخونون بأمانة، ولا يغدرون بعهد .

يجب على كل من عاهد عهدًا أن يرعَى العهد، كان رسول الله ﷺ يعاهد المشركين، ويفي لهم، فإذا نقضوا العهد انتقض العهد، لما صالح قريشًا في غزوة الحديبية على ترك القتال لمدة عشر سنين، ومضى على هذا الصلح سنتان، ما الذي حصل ؟ نقض المشركون العهد، فغزاهم النبي ﷺ.

إذا لم ينقض المُعاهَد عهده، ولكني خِفتُ أن ينقض ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، لا تفجأهم بالحرب إذا خِفتَ الخيانة ،ولكن ابعث إليهم، وقل لهم: إنه لا عهد بيننا وبينكم، فالمُعاهَد له ثلاث حالات :

إما أن يفي بعهده، ويستقيم عليه، فقد قال الله فيه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

الحال الثانية: أن ينقض العهد، وفي هذه الحال لا عهد لهم؛ لأنهم نقضوا العهد .

والحال الثالثة: أن يُخاف منهم نقض العهد، ولم ينقضوه، فنحن ننبذ إليهم على سواء.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وأيضًا نُوجِّه الخطاب لننتقل من الطالب إلى الرئيس والمدير، وما أشبه ذلك ممن يخونون الأمانة فيما وُلُّوا عليه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ يقومون بالشهادة على الوجه المطلوب، فإذا دُعوا إلى الشهادة تحمُّلًا تحمَّلوا، وإذا دُعوا إلى الشهادة أداءً أدَّوا، لا يُحابون أحدًا في ذلك.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ انظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى بالصلاة، ذكرها في أول الصفات، وفي آخر الصفات، ففي أول الصفات على سبيل الديمومة، وفي آخرها على سبيل المحافظة.

ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١- ٩] مما يدل على أهمية الصلاة، وأنها آكدُ أركان الإسلام بعد الشهادتين.

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المصلين، المحافظين على هذه الصفات، الذين مآلهم أن يكونوا في جنات مكرمون.

تفسير سورة نوح

بُعِث نوحٌ إلى قومه فدعاهم إلى الله عز وجل سرًّا وعلنًا، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يدعوهم إلى الله، ويبيِّن لهم، ويُحذِّرهم، ويُرغِّبهم، وما آمن معه إلا قليل، وفي هذا عبرةٌ للدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل، ثم يملُّون إذا لم يروا من الناس إقبالًا، فنقول لهم: لا تعجبوا إذا لم تجدوا من الناس إقبالًا، فها هم الرسل يبقون مدة طويلة لا يجدون إقبالًا، لقد بقي محمد رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله عز وجل، وفي النهاية أخرجوهم من مكة، ولكن النصر كان فيها بعد والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كل إنسان داعية لابد أن يناله أذى، كل إنسان داعية لابد أن يجد من الناس ممانعة، لا يستجيبون له بالسرعة التي يريد، لكن على الدعاة أن يصبروا في الدعوة إلى الله، وأن يدعوا إلى الله تعالى بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن؛ لأن من الناس من يدعو إلى الله وهو يُنفِّر عن الله، فتجده يدعو بعنف، وبدون إقناع، والنفوس تحتاج إلى اللين واللطف، وتحتاج إلى إقناع، حتى يُقبِل الناس عن اقتناع إلى دين الله، ويأخذوا بما دعا إليه هذا المُصلِح الذي يدعو إلى الله تبارك وتعالى من غير أن يمسَّ المجتمع بما يُشوِّش عليه، وما يُوغر صدوره على ولاة أموره.

إذن نقول: لا تعجب أيها الداعي إلى الله إذا تأخَّرت الإجابة، فإن الله قد يبتلي الداعي إلى الله عز وجل بتأخُّر قبول الناس وإجابتهم حتى يمتحنه أصادقٌ هو في الدعوة إلى الله، أم ليس بصداق؟

نوح عليه الصلاة والسلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله.

يقول عليه الصلاة والسلام في هذه السورة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ – ٦] أتظنون أنه يدعوهم بدون آيات تدل على أنه رسول الله ؟ لا، يدعوهم بالآيات التي تدل على أنه رسول الله، ومع ذلك لم يستجيبوا؛ بل لم يزده دعاؤه إياهم إلا فرارًا.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني: تغطَّوا بها لئلا يروا؛ لأنهم يخشون إذا سمعوا شيئًا يدخل مسامعهم حتى يصل إلى قلوبهم، يخشون أن يؤمنوا بذلك، فأرادوا أن يسدُّوا طرق الهدى عنهم، كذلك يخشون أن يروا الآيات بأعينهم ثم يُلجئهم ذلك إلى الإيمان، فصاروا يستغشون ثيابهم حتى لا يروا الآيات - والعياذ بالله -، وهذا دليل على شدة استكبارهم ونفورهم.

ويُستفاد من قوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾: أنهم لو تابوا لغُفِر لهم، وهذا شأن الله عز وجل بعباده أن الإنسان كلما تاب إلى الله ولو عظُمَ الذنب فإن الله يغفر له، واستمع إلى قول الله تعالى في هذه الأمة؛ حيث أمر نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مهما عظُم، مع أن هؤلاء يسبُّون الله، ويسبُّون رسوله، ويسبُّون دينه، وقال: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟﴾ على الكفر والعناد ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: استكبروا استكبارًا عظيمًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ولكن أبوا، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ فانظر كيف رغَّبهم أولًا بثواب الآخرة، وثانيًا بثواب الدنيا، ثواب الآخرة في قوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، ثواب الدنيا في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ يعني: أمطارًا دارَّة، كلما جفَّت الأرض أمطرت السماء، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ولكن مع هذا الترغيب أبوا واستكبروا، وما آمن معه إلا قليل، حتى إن أحد أبنائه كفر به - نسأل الله العافية -، ولما وعد الله نوحًا أن يُنجِّيه وأهله صرف الله ابنَه عن الإيمان، وعن الركوب في السفينة التي نجا بها نوحٌ ومن معه، فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فاعتمد على الأمور الحِسِّية دون الأمور الإلهية، ولكن هل عصمه الجبل من الماء؟ أبدًا، ما عصمه، قال له أبوه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وبذلك تُعرَف قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى ليس له بينه وبين خلقه نسب، وليس بينه وبين خلقه صلة إلا بشيء واحد، وهو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أنت إذا تأمَّلتَ ما يُدبِّره الله في خلقه تبيَّن لك العجب العُجاب، إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبوه كافر، ونوح ابنُه كافر، ومحمد ﷺ عمُّه كافر، وهذه من آيات الله .

إبراهيم كان أبوه كافرًا، وجرى بينه وبينه محاورة، ذكرها الله تعالى في سورة مريم، وكان ابنُه إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعوه باللُّطف، يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يقل: إني عالم وأنت جاهل؛ لأنه لو قال: أنت جاهل لصار في نفسه بعض النفور، لكنه قال: ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾، الجواب بعد هذا التلطُّف في الخطاب، ماذا قال ؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ يعني: أترغب عن آلهتي فتوحِّد ولا تُشرِك، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ هل تتصوَّر أن رجلًا يرجم ابنه بالحجارة ؟ لكن مع طغيان أبيه وشركه أوجب له أن يقول لابنه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، فماذا قال له إبراهيم ؟ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، فوعده أن يستغفر له، ولكن قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأجاب سبحانه وتعالى عن استغفار إبراهيم لأبيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

المهم: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجدوا من أقوامهم المعارضة والمعاندة؛ بل وعرض الرقاب للقتال، ولكن العاقبة للمتقين .

في النهاية قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ سأل الله أن يمحو الكافرين من على الأرض، وبيَّن عُذره في هذا الدعاء؛ لأنه قد يقول قائل: من المُتوقَّع أن يقول نوح: اللهم اهد قومي، لكنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، ثم اعتذر عن هذا الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، فهذا اعتذار من نوح عليه الصلاة والسلام عن هذه الدعوة العظيمة ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾
أنزل الله في قصة نوح سورة كاملة، وأنزل في قصة يوسف سورة كاملة .

في هذه الآية دليل على: أن أبوَي نوح كانا مؤمنَيْن، من قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ فدعا

لأبويه، ولم يأت في القرآن أن الله أنكر عليه، أما إبراهيم فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، لكن الله أجاب عن هذا بأن إبراهيم استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم .

وبهذا نعرف أنه لا يجوز لأحد أن يطلب المغفرة لمن كان كافرًا – أي: لمن مات على الكفر –، ولو كان أقرب قريبٍ له، فلو أن رجلًا له أخٌ شقيقٌ، من أحسن الناس معاملة في الأُخُوَّة، لكنه لا يصلي، فمات هذا الذي لا يصلي، فإنه لا يجوز لأخيه أن يقول: اللهم اغفر له، ولا أن يقول: اللهم ارحمه؛ لماذا ؟ لأنه مات على الكفر، والكافر لا يجوز لأحد أن يدعو له بالمغفرة؛ لأنه إذا دعا له بالمغفرة لكان هذا من الاعتداء في الدعاء؛ إذ إن الله تعالى قضى بعدله وحكمته أن الكافرين مُخَلَّدُون في النار .

تفسير سورة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾.

الاستفهام هنا للتحقيق، والمعنى: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، وهذا حقٌّ، فإن الإنسان قبل أن يُخلَق هل هو شيءٌ مذكور ؟ لا، وقد أتى عليه حينٌ من الدهر طويل لم يكن شيئًا مذكورًا، ولا يُعرَف عن فلان الذي خُلِق بعد ذلك .

وبيَّن الله عز وجل ابتداء هذا الخلق، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

النطفة هي الماء القليل، والمراد بها هنا: منيُّ الرجل، والأمشاج هي كما قال المتأخرون: هي الحيوانات المنويَّة، فإن هذه النطفة تشتمل على حيوانات منوية كثيرة جدًّا .

ومعنى قوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، وذلك بخلق السمع والبصر له، ولهذا قال: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ وهذا اختبار من الله ليختبر العبد في ماذا يستعمل هذا السمع، وفي ماذا يستعمل هذا البصر، قد يستعمل الإنسان سمعَه في الاستماع إلى ما حرَّم الله؛ كالاستماع إلى الأغاني الماجنة، والاستماع إلى الموسيقى وآلات الطرب، إلا ما استُثني منها، ومما استُثني من آلات الطرب: الدف في الأفراح والأعراس؛ في الأفراح: كأيام الأعياد، وفي الأعراس: كأيام الدخول، دخول الإنسان بزوجته، فإن هذا مما رُخِّص فيه .

ويبتلي الله عز وجل الإنسان بالبصر، أعطاه البصر ليبتليه؛ ينظر هل يُبصِر فيما أحلَّ الله له، أو فيما حرَّم الله عليه، ومن الإبصار فيما حرَّم الله عليه: أن يُطلِق الإنسان بصرَه بالنظر إلى ما حرَّم الله؛ كنظر المرأة الأجنبية، ونظر الصور الخالعة، وما أشبه ذلك، فجعل الله للإنسان سمعًا وبصرًا ابتلاءً واختبارًا .

ثم بيَّن عز وجل أنه هدى الإنسان السبيل؛ أي: بيَّن له الطريق ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي:

بيَّن الله الطريق للإنسان سواءً كان شاكرًا أو كان كفورًا .

فمن هو الإنسان الشاكر الذي يشكر نعمة الله على هدايته لهذا الطريق ؟ هو المؤمن، والكافر هو الجاحد لهذه النعمة، فانقسم الناس بعد هداية الله لهم إلى قسمين :

إلى شاكرٍ قام بطاعة المُنعِم، وإلى كافرٍ جحَدَ نعمة المُنعِم، ولم يقُم بالشكر ولا بالطاعة .

ثم بيَّن الله بعد ذلك جزاء هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أعتدنا بمعنى: هيَّأنا، والسلاسل: ما يُربَط به المُجرِم الكافر، والأغلال: أن تُغلَّ يداه إلى عُنُقه، والسعير: النار المُحرِقة –والعياذ بالله–.

وهذا الجزاء مُجمَلٌ في ثلاث كلمات: ﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

ثم انتقل عز وجل إلى الأبرار الذين هم ضد الكافرين والفُجَّار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦]، وأطال سبحانه وتعالى في وصف ثواب الأبرار؛ لأن الله تعالى فصَّل أعمالهم، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١ - ١٠]، فتجِدون أن الله عز وجل فصَّل أعمالهم، وكان مُقابِل هذا التفصيل في الأعمال أن يُقابَل ذلك بتفصيل الجزاء، أما الكفار فإن الله ذكر عملهم مُجمَلًا، فذُكِر جزاؤهم مُجمَلًا، وهذا من بلاغة القرآن .

فلو قال قائل: لماذا أطال الله عز وجل في ذكر ثواب الأبرار، وأجمل في ذكر جزاء الكافرين ؟

الجواب: لأن الله فصَّل أعمال الأبرار في عدة آيات: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾، فذكر أعمالًا مُتعدِّدة، فكان مقابل ذلك أن يُذكر جزاؤهم مُفصَّلًا كما ذُكِرت أعمالهم مُفصَّلة، أما الكفار فذُكِرت أعمالهم مُجمَلة، وكان مُقابل ذلك أن يُذكَر جزاؤهم مُجمَلًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢٢]، وفي آيات أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، فهل هناك تناقُض بين هذه الآيات ؟

الجواب: لا؛ بل هم يُحلَّون بحُليٍّ بعضُه فضة، وبعضُه ذهب، وبعضُه لؤلؤ، وأنت تصوَّر لو تجد الحُلِي بالفضة البيضاء اللامعة، والذهب الأحمر، واللؤلؤ الصافي لوجدتَ منظرًا عظيمًا يُطرِب

الأعيُن، ويسرُّ النفس.

وإلى أين يكون هذا الحُلِيُّ؛ هل هو في جزءٍ من الذراع، أو في جميع الذراع؟

يكون في جميع الذراع، لقول النبي ﷺ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»، والوضوء يبلُغ إلى المرافق، وعلى هذا يكون الذراع كله مملوءًا بالحلية، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن يُحلَّون بهذا الحُلِيِّ.

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣] القرآن هو كلام الله الذي بين أيدينا في المصاحف، مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في الصدور، وكلام الله مُنزَّل غير مخلوق؛ لأن الله تعالى ذكر في عدة آيات أنه أنزله على محمد ﷺ، فتارةً يقول: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، وتارةً يقول: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ وذلك لأن القرآن ينزل إلى الرسول ﷺ شيئًا فشيئًا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، فالتعبير بـ (أنزل) باعتباره كاملًا، والتعبير بـ (نزَّل) باعتباره مُجزَّأً، ينزل شيئًا فشيئًا، هنا يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ يعني: شيئًا فشيئًا ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، فلما ذكر الله منته عليه بتنزيل القرآن أمره أن يصبر لحكم الله، وقد يرد على الإنسان سؤال في نفسه؛ حيث يقول: من المُتوقَّع أنه لما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ أن يقول: فاشكر نعمة الله؛ لأن تنزيل القرآن عليه نعمة، فلماذا قال الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؟

نقول: لأن تنزيل القرآن عليه عهدٌ وميثاقٌ أن يُبلِّغه إلى الأمة، وتبليغُه إلى الأمة يحتاج إلى صبر ومعاناة؛ لأنه سوف يُكذَّب، وسوف يُؤذَى على هذا الوحي، فيحتاج إلى صبر، ولهذا نقول لكل من منَّ الله عليه بعلمٍ: اصبر على ما أعطاك الله من العلم، ابذُل هذا العلم تعليمًا، ودعوة، وخُلُقًا، وأدبًا، وعبادة؛ لأن الله لم يُحمِّلك هذا العلم إلا سيسألك عنه يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هل المراد: الحكم الكوني، أو القدري أو هما جميعًا؟ هما جميعًا، اصبر لحكم الله الشرعي؛ حيث ألزمه الله بأن يُبلِّغ ما أُنزِل إليه من ربه، وللحكم الكوني إذا جرى عليه من عباد الله ما يكره، ومن المعلوم أن النبي ﷺ جرى عليه من الأذية ما وصل بالصبر عليه إلى قمة الصابرين، فقد أُوذِي عنه عليه الصلاة والسلام إيذاءً شديدًا، حتى إنه كان ذات يومٍ ساجدًا تحت الكعبة، فجاء ملأُ قريش، بسلا جزور - يعني: فرْثَها وما في بطنها -، جاءوا به فوضعوه عليه وهو ساجد عليه الصلاة والسلام، كل هذا إغاظةً له، وإلا فمن المعلوم أن قُريشًا

تُكرِم من يأتي إلى هذا البيت، حتى إنهم يسقون الحُجَّاج الماء المُنقَّع به زبيب، ورسول الله ﷺ أحق الناس بالتكريم، يؤذونه هذا الإيذاء، فأُمِر أن يصبر لحكم الله .

قوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ الآثم: العاصي، والكفور: الكافر؛ يعني: لا تُطِع لا هؤلاء، ولا هؤلاء، وأما المؤمنون فقد أمر الله تعال نبيَّهم أن يخفِض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين .

ثم قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ المُشار إليه: السورة وما ذُكِر فيها ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يتذكَّر بها الإنسان ويتَّعِظ، ثم ينقسم الناس إلى مُنتفعٍ بهذه التذكرة، وغير منتفع، ولهذا قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٢٩ - ٣٠]، وهنا قد يقول قائل: كيف قال: ﴿فَمَن شَآءَ ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾؟

والجواب: أن نقول: إن مشيئة الإنسان مخلوقةٌ لله عز وجل، فهو الذي خلقها، فلا يشاء الإنسان إلا بعد أن يخلق الله فيه المشيئة؛ لأن الله خالق كل شيء .

وبيَّن عز وجل أن الأمر إليه، لأجل أن نتَّجِه إلى الله عز وجل، وألَّا نفخر بأنفسنا إذا وُفِّقنا للطاعة، فلنعلم علم اليقين أن ذلك من كرم الله، ونعمته، وإحسانه .

ثم قال عز وجل: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في جنته، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ أي: مؤلمًا .

نسأل الله أن يُنجينا وإياكم من عذاب النار، وأن يُدخِلنا في رحمته دار الأبرار، إنه جوادٌ كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

تَفْسِيرُ جُزْءِ عَمَّ

تفسير سورة النبأ

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤)
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا
(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١:١٦].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، يعني: عم يتساءل هؤلاء، المكذبون بالقرآن وغيره، ثم أجاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن هذا السؤال فقال تعالى: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وهذا النبأ هو ما جاء به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من البينات والهدى، ولاسيما ما جاء به من الأخبار عن اليوم الآخر والبعث والجزاء، وقد اختلف الناس في هذا النبأ الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: فمنهم من آمن به وصدق، ومنهم من كفر به وكذب ومنهم من شك فيه وتردد؛ فبين الله أن هؤلاء الذين كذبوا سيعلمون ما كذبوا به علم اليقين، وذلك إذا رأوا يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ولهذا قال - سبحانه وتعالى - هنا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، والجملة الثانية توكيدٌ للأولى من حيث المعنى، وإن كانت ليست توكيدًا باعتبار اصطلاح النحويين؛ لأنه فُصل بينها وبين التي قبلها

بحرف العطف، والتوكيد لا يُفصل بينه وبين مؤكد بشيء من الحروف. والمراد بالعلم الذي توعدهم الله به هو علم اليقين الذي يشاهدونه على حسب ما أخبروا به.

ثم بين الله تعالى نعمه على عباده؛ ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، أي: جعل الله الأرض مهادًا ممهدة للخلق ليست بالصلبة التي لا يستطيعون حرثها، ولا المشي عليها إلا بصعوبة، وليست باللينة الرخوة التي لا ينتفعون بها، ولا يستقرون عليها، ولكنها ممهدة لهم على حسب مصالحهم وعلى حسب ما ينتفعون به. قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: جعلها الله تعالى أوتادًا بمنزلة الوتد للخيمة حيث يثبتها فتثبت به، وهي أيضًا ثابتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠]. وهذه الأوتاد قال علماء الأرض: إن هذه الجبال لها جذور راسخة في الأرض، كما يرسخ جذر الوتد بالجدار؛ أو وتد الخيمة في الأرض ولذلك تجدها صلبة قوية لا تزعزعها الرياح وهذا من تمام قدرته ونعمته. قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أصنافًا ما بين ذكر وأنثى، وصغير وكبير، وأسود وأحمر، وشقي وسعيد إلى غير ذلك مما يختلف الناس فيه، فهم أزواج مختلفون على حسب ما أراده الله - عَزَّ وَجَلَّ - واقتضته حكمته؛ ليعتبر الناس بقدرة الله تعالى، وأنه قادر على أن يجعل، هذا البشر الذين خلقوا من مادة واحدة ومن أب واحد على هذه الأصناف المتنوعة المتباينة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: قاطعًا للتعب، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب، ويستجد به الإنسان نشاطًا للمستقبل؛ ولذلك تجد الرجل إذا تعب ثم نام استراح وتجدد نشاطه، وهذا من النعمة، وهو أيضًا من آيات الله.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي: جعل الله هذا الليل على الأرض بمنزلة اللباس كأن الأرض تلبسه ويكون جلبابًا لها، وهذا لا يعرفه تمام المعرفة إلا إذا صعد فوق ظل الأرض، وقد رأينا ذلك من الآيات العجيبة إذا صعدت في الطائرة وارتفعت وقد غابت الشمس عن سطح الأرض ثم تبينت لك الشمس بعد أن ترتفع تجد الأرض وكأنها كسيت، بلباس أسود لا ترى شيئًا من الأرض، كله سواد فتبين بهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، أي: معاشًا يعيش الناس فيه في طلب الرزق على حسب درجاتهم وعلى حسب أحوالهم، وهذا من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على العباد. قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وهي السماوات السبع، وصفها الله تعالى بالشداد؛ لأنها قوية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بنيناها بقوة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، يعني بذلك: الشمس فهي سراج مضيء، وهي أيضًا ذات حرارة عظيمة. قوله تعالى: ﴿وَهَّاجًا﴾، أي: وقّادة، وحرارتها في أيام الصيف حرارة شديدة مع بعدها

الساحق عن الأرض، فما ظنك بما يقرب منها، ثم إنها تكون في أيام الحر في شدة حرها من فيح جهنم، كما قال النبي ﷺ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنْ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»(١). وقال ﷺ: «اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَنَفِّسْنِي فَأَذِنَ لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ بِنَفَسَيْنِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِن الْبَرْدِ مِن زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِن الْحَرِّ مِن حَرِّ جَهَنَّمَ»(٢). ومع ذلك، فإن فيها مصلحة عظيمة للخلق فهي توفر على الخلق أموالًا عظيمة في وقت النهار حيث يستغني الناس بها عن إيقاد الأنوار، وكذلك الطاقة التي تستخرج منها تكون فيها فوائد كثيرة، وكذلك إنضاج الثمار وغير، هذا من الفوائد العديدة من هذا السراج الذي جعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده.

ولما ذكر السراج الوهاج الذي به الحرارة واليبوسة ذكر ما يقابل ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، والماء فيه رطوبة وبرودة، وهذا الماء أيضًا تنبت به الأرض وتحيا به، فإذا انضاف إلى، هذا ماء السماء وحرارة الشمس حصل في، هذا إنضاج للثمار ونمو لها على أكمل ما يكون. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾، يعني: من السحاب، ووصفها الله بأنها معصرات كأنها تعصر، هذا المطر عند نزوله عصرًا، كما يعصر الثوب، فإن، هذا الماء يتخلل، هذا السحاب ويخرج منه، كما يخرج الماء من الثوب المعصور، وقوله تعالى: ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾، أي كثير الثج يعني الأنهار والتدفق وذلك لغزارته وقوته حتى يروي الأرض، قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾، أي: لنخرج بهذا الماء الذي أنزل من السماء إلى الأرض فتنبت الأرض ويخرج الله به من الحب بجميع أصنافه وأنواعه البر والشعير والذرة وغيرها والنبات من الثمار كالتين والعنب وما أشبه ذلك. قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾، أي: بساتين ملتفًا بعضها إلى بعض، من كثرتها وحسنها وبهائها، حتى إنها لتستر من فيها لكثرتها، والتفاف بعضها إلى بعض، وهي الأشجار التي لها ساق، فيخرج من، هذا الماء الثجاج الزروع والنخيل والأعناب وغيرها سواء خرج منه مباشرة أو خرج منه بواسطة استخراج الماء من باطن الأرض؛ لأن الماء الذي في باطن الأرض هو من المطر، كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على العباد في الدنيا ذكر حال اليوم الآخر وأنه ميقات يجمع الله فيه الأولين والآخرين فقال تعالى:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٤)، ومسلم (٦١٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٥) هذا اللفظ عند أحمد في مسنده من مسند أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:١٧:٣٠].

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾، وهو يوم القيامة، وسمي يوم فصل؛ لأن الله يفصل فيه بين العباد فيما شجر بينهم، وفيما كانوا يختلفون فيه، ويفصل بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل الكفر وأهل الإيمان، وأهل العدوان وأهل الاعتدال، ويفصل فيه أيضًا بين أهل الجنة والنار، فريق في الجنة وفريق في السعير.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾، أي: ميقاتًا للجزاء و موقوتًا؛ لأجل معدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وما ظنك بشيء له أجل معدود وأنت ترى الأجل كيف يذهب سريعًا يومًا بعد يوم حتى ينتهي الإنسان إلى آخر مرحلة، فكذلك الدنيا كلها تسير يومًا بعد يوم حتى تنتهي إلى آخر مرحلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، كل شيء معدود، فإنه ينتهي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، والنافخ الموكل فيها إسرافيل، ينفخ فيها نفختين: الأولى: يفزع الناس ثم يصعقون فيموتون، والثانية: يبعثون من قبورهم تعود إليهم أرواحهم، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، وفي الآية إيجاز بالحذف أي: فتحيون فتأتون أفواجًا؛ فوجًا مع فوج أو يتلو فوجًا، وهذه الأفواج - والله أعلم - بحسب الأمم كل أمة تدعى إلى كتابها لتحاسب عليه، فيأتي الناس أفواجًا في، هذا الموقف العظيم الذي تسوى فيه الأرض فيذرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، وفي، هذا اليوم يقول الله عز وجل: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾، ﴿وَفُتِحَتِ﴾: وانفرجت فتكون أبوابًا يشاهدها الناس بعد أن كانت سقفًا محفوظًا تكون في ذلك اليوم أبوابًا مفتوحة، وفي، هذا دليل

على كمال قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هذه السبع الشداد يجعلها الله تعالى يوم القيامة كأن لم تكن، تكون أبوابًا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ : ٩].
قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، أي: أن الجبال العظيمة الصماء تُدك فتكون كالرمل ثم تكون كالسراب تسير ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، أي مرصدة ومعدَّة للطاغين، وجهنم اسم من أسماء النار التي لها أسماء كثيرة، وسُميت بهذا الاسم، لأنها ذات جُهمة وظلمة بسوادها وقعرها أعاذنا الله وإياكم منها، وهي مرصاد للطاغين قد أعدها الله – عز وجل لهم من الآن، فهي موجودة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] ورآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين عرضت عليه وهو يُصلي صلاة الكسوف[1]، ورأى فيها امرأة تُعذَّب في هرة لها حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[2]، ورأى فيها عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار[3]، يعني أمعاءه، لأنه كان أول من أدخل الشرك على العرب، هذه النار يقول الله – عز وجل – إنها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢٢] والطاغون جمعُ طاغٍ، وهو الذي تجاوز الحد، لأن الطغيان مجاوزة الحد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]. أي: زاد وتجاوز حده، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتجاوز الحد يكون في حقوق الله ويكون في حقوق العباد، أما في حقوق الله – عز وجل – فإنه التفريط في الواجب أو التعدي في المحرم، وأما الطغيان في حقوق الآدميين، فهو العدوان عليهم في أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وهذه الثلاثة التي حرمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلن تحريمها في حجة الوداع في أكثر من موضع فقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**»[4] فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله، ولهذا قال: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾. أي مكان أوب، والأوب في الأصل الرجوع، كما قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]. أي رجَّاع إلى الله – عز وجل - ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي باقين فيها ﴿أَحْقَابًا﴾ أي مُددًا طويلة، وقد دل القرآن الكريم على أن هذه المدد لا نهاية لها، وأنها مُدد أبدية كما جاء ذلك مُصرحًا به في ثلاث آيات من كتاب الله في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٩]. وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٣١) كتاب الصلاة.
(٢) أخرجه مسلم رقم (٩٠٤) كتاب الكسوف.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٦٢٣) كتاب التفسير، ومسلم رقم (٢٨٥٦) كتاب الجنة.
(٤) أخرجه مسلم رقم (١٤٧) كتاب الحج.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤ - ٦٥]. وفي سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. فإذا كان الله صرح في ثلاث آيات من كتابه بأن أصحاب النار مُخلدون فيها أبدًا، فإنه يلزم أن تكون النار باقية أبد الآبدين وهذا هو الذي عليه أهل السُّنة والجماعة، أن النار والجنة مخلوقتان ولا تفنيان أبدًا، ووجد خلاف يسير من بعض أهل السُّنة في أبدية النار، وزعموا أنها غير مؤبدة، واستدلوا بحجج هي في الحقيقة شُبه لا دلالة فيها لما ذهبوا إليه وإذا قورنت بالأدلة الأخرى، تبين أنه لا معول على المخالف فيه ولا على قوله، والواجب على المؤمن أن يعتقد ما دل عليه كتاب الله دلالة صريحة لا تحتمل التأويل، والآيات الثلاث التي ذكرناها كلها آيات مُحكمة لا يتطرق إليها النسخ، ولا يتطرق إليها الاحتمال، أما عدم تطرق النسخ إليها فلأنها خبر، وأخبار الله – عز وجل – لا تُنسخ وكذلك أخبار رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن نسخ أحد الخبرين بالآخر يستلزم كذب أحد الخبرين، إما تعمدًا من المخبر أو جهلًا بالحال، وكل ذلك ممتنع في خبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، المبني على الوحي، وأما عدم تطرق الاحتمال فللتصريح بالأبدية في الآيات الثلاث، والمهم أنه يجب علينا أن نعتقد شيئين:

الشيء الأول: وجود الجنة والنار الآن وأدلة ذلك مكن القرآن والسُّنة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. والإعداد التهيئة وهذا الفعل «أعدت» فعل ماض يدل على أن الإعداد قد وقع وكذلك قال الله تعالى في النار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]. والإعداد تهيئة الشيء، والفعل هنا ماض يدل على الوقوع وقد جاءت السُّنة صريحة في ذلك في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رأى الجنة ورأى النار.

الشيء الثاني: اعتقاد أنهما داران أبديتان مَنْ دخلهما وهو من أهلهما فإنه يكون فيهما أبدًا، أما الجنة فمن دخلها لا يخرج منها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]. وأما النار فإن عُصاة المؤمنين يدخلون فيها ما شاء الله أن يبقوا فيها، ثم يكون مآلهم الجنة كما شهدت بذلك الأخبار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾. لا تدل بأي حال من الأحوال على أن هذه الأحقاب مؤمدة يعني إلى أمد ثم تنتهي، بل المعنى أحقابًا كثيرة لا نهاية لها ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ نفى الله سبحانه وتعالى فيها البرد الذي تكون به برودة ظاهر الجسم، والشراب الذي تكون به برودة داخل الجسم، وذلك لأنهم والعياذ بالله إذا عطشوا واستغاثوا كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]. وهل الماء الذي كالمُهل وإذا قُرب من الوجه شوى الوجه هل ينتفع به صاحبه؟ الجواب: استمع قول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]. أما في

ظاهر الجسم فقد قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٧ - ٤٨]. وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ - ٢٠]. ما في بطونهم الأمعاء وهي باطن الجسم، والجلود ظاهر الجسم، فمن كان كذلك فإنهم لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا يُطفيء حرارة بطونهم، ومن تدبر ما في القرآن والسُّنة من الوعيد الشديد لأهل النار فإنه كما قال بعض السلف: «عجبت للنار كيف ينام هاربها، وعجبت للجنة كيف ينام طالبها». إننا لو قال لنا قائل: إن لكم في أقصى الدنيا قصورًا وأنهارًا وزوجات وفاكهة لا تنقطع عنا ولا ننقطع دونها بل هي أبد الآبدين، لكنا نسير على أهداب أعيننا ليلًا ونهارًا لنصل إلى هذه الجنة التي بها هذا النعيم العظيم، والتي نعيمها دائم لا ينقطع، وشباب ساكنها دائم لا يهرم، وصحته دائمة ليس فيها سقم، وانظروا إلى الناس اليوم يذهبون إلى مشارق الأرض ومغاربها لينالوا درهمًا أو دينارًا قد يتمتعون بذلك وقد لا يتمتعون به، فما بالنا نقف هذا الموقف من طلب الجنة، وهذا الموقف من الهرب من النار، نسأل الله أن يُعيذنا وإياكم من النار، وأن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، الاستثناء هنا منقطع عند النحويين؛ لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، والمعنى ليس لهم إلا، هذا الحميم، وهو الماء الحار المنتهي في الحرارة. قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿وَغَسَّاقًا﴾، قال المفسرون: إن الغساق هو شراب منتن الرائحة شديد البرودة، فيجمع لهم ـ والعياذ بالله ـ بين الماء الحار الشديد الحرارة، والماء البارد الشديد البرودة؛ ليذوقوا العذاب من الناحيتين: من ناحية الحرارة، ومن ناحية البرودة، بل إن بعض أهل التفسير قالوا: إن المراد بالغساق صديد أهل النار، وما يخرج من أجوافهم من النتن والعرق وغير ذلك. وعلى كل حال فالآية الكريمة تدل على أنهم لا يذوقون إلا، هذا الشراب الذي يقطع أمعاءهم من حرارته، ويفطّر أكبادهم من برودته، نسأل الله العافية. وإذا اجتمعت هذه الأنواع من العذاب كان ذلك زيادة في مضاعفة العذاب عليهم.

قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، أي: يجزون بذلك جزاء موافقًا؛ لأعمالهم من غير أن يظلموا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فهذا الجزاء موافق مطابق؛ لأعمالهم. ثم بين وجه الموافقة أي: موافقة، هذا العذاب للأعمال فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾، فذكر انحرافهم في العقيدة وانحرافهم في القول، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤملون أن يحاسبوا، بل ينكرون الحساب، ينكرون البعث يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:

٢٤] فلا يرجون حسابًا يحاسبون به؛ لأنهم ينكرون ذلك، هذه عقيدة قلوبهم، أما ألسنتهم فيكذبون يقولون، هذا كذب، هذا سحر، هذا جنون، وما أشبه ذلك، كما جاء في كتاب الله ما يصف به هؤلاء المكذبون رسل الله، كما قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. وقال الله تعالى عن المكذبين لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]. وقالوا إنه شاعر ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦،٧]. ولولا أن الله ثبت أقدام الرسل وصبرهم على قومهم ما صبروا على، هذا الأمر، ثم إن قومهم المكذبين لهم لم يقتصروا على، هذا، بل آذوهم بالفعل، كما فعلوا مع الرسول ﷺ من الأذية العظيمة، بل آذوهم بحمل السلاح عليهم، فمن كانت هذه حاله فجزاؤه جهنم جزاءً موافقًا مطابقًا لعمله، كما في هذه الآية الكريمة: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾، يشمل ما يفعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الخلق والتدبير في الكون، ويشمل ما يعمله العباد من أقوال وأفعال، ويشمل كل صغير وكبير ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾، أي: ضبطناه بالإحصاء الدقيق الذي لا يختلف. قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا﴾، يعني: كتبًا، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة(١)، ومن جملة ذلك أعمال بني آدم، فإنها مكتوبة، بل كل قول يكتب، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]. رقيب يعني: مراقب، والعتيد يعني: الحاضر. ودخل رجل على الإمام أحمد رحمه الله، وهو مريض يئن من مرضه فقال له: يا أبا عبدالله إن طاووسًا ـ وهو أحد التابعين المشهورين ـ يقول: إن أنين المريض يكتب، فتوقف رحمه الله عن الأنين خوفًا من أن يكتب عليه أنين مرضه. فكيف بأقوال لا حدّ لها، ولا ممسك لها، ألفاظ تترى طوال الليل والنهار، ولا يحسب لها الحساب، فكل شيء يكتب حتى الهم يكتب إما لك وإما عليك، من همّ بالسيئة فلم يعملها عاجزًا عنها، فإنها تكتب عليه، وإن هم بها وتركها لله، فإنها تكتب له، فلا يضيع شيء كل شيء أحصيناه كتابًا. قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾، هذا الأمر للإهانة والتوبيخ، يعني: يقال؛ لأهل النار: ذوقوا العذاب إهانة وتوبيخًا: فلن نرفعه عنكم ولن نخفف عنكم، بل، ولا نبقيكم على ما أنتم عليه لا نزيدكم إلا عذابًا في قوته ومدته ونوعه، وفي آية أخرى أنهم يقولون لخزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

[غافر: ٤٩]. تأمل هذه الكلمة من عدة أوجه:

أولًا: أنهم لم يسألوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإنما طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم؛ لأن الله قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فرأوا أنفسهم أنهم ليسوا أهلًا؛ لأن يسألوا الله ويدعوه بأنفسهم بل لا يدعونه إلا بواسطة.

ثانيًا: أنهم قالوا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ولم يقولوا: ادعوا ربنا؛ لأن وجوههم وقلوبهم لا تستطيع أن تتحدث أو أن تتكلم بإضافة ربوبية الله لهم أي: بأن يقولوا ربنا، عندهم من العار والخزي ما يرون أنهم ليسوا أهلًا؛ لأن تضاف ربوبية الله إليهم، بل قالوا ﴿رَبَّكُمۡ﴾.

ثالثًا: لم يقولوا يرفع عنا العذاب، بل قالوا: ﴿يُخَفِّفۡ﴾؛ لأنهم آيسون نعوذ بالله، آيسون من أن يرفع عنهم.

رابعًا: أنهم لم يقولوا يخفف عنا العذاب دائمًا، بل قالوا ﴿يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾، يومًا واحدًا، بهذا يتبين ما هم عليه من العذاب والهوان والذل ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]. أعاذنا الله منها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا﴾ [النبأ: ٣١:٣٦].

ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما للمتقين من النعيم بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾؛ لأن القرآن مثاني إذا ذكر فيه العقاب ذكر فيه الثواب، وإذا ذكر الثواب ذكر العقاب، وإذا ذكر أهل الخير ذكر أهل الشر، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، مثاني حتى يكون سير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء؛ لأنه إن غلب عليه الرجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإن غلب عليه الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، وكلاهما من كبائر الذنوب، كلاهما شر، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ينبغي أن يكون الإنسان في عبادته لربه بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه». لذلك تجد القرآن الكريم يأتي بهذا وبهذا، ولئلا تمل النفوس من ذكر حال واحدة والإسهاب فيها دون ما يقابلها. وهكذا؛ لأجل أن يكون الإنسان حين يقرأ القرآن راغبًا راهبًا، وهذا من، بلاغة القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، المتقون هم الذين اتقوا عقاب الله، وذلك بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه، وأحيانًا يأمر الله بتقواه، وأحيانًا يأمر بتقوى يوم الحساب، وأحيانًا يأمر بتقوى النار، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣٠،١٣١]. فجمع بين الأمر بتقواه والأمر بتقوى النار، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ فأمر بتقوى يوم الحساب، وكل هذا يدور على معنى واحد، وهو: أن يتقي الإنسان محارم ربه فيقوم بطاعته وينتهي عن معصيته، فالمتقون هم الذين قاموا بأوامر الله

واجتنبوا نواهي الله، هؤلاء لهم ﴿مَفَازًا﴾، والمفاز هو مكان الفوز وزمان الفوز أيضًا، فهم فائزون في أمكنتهم، وفائزون في أيامهم. قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، هذا نوع المفاز، ﴿حَدَآئِقَ﴾، أي: بساتين أشجارها عظيمة وكثيرة ومنوعة الأشجار. قوله تعالى: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾، الأعناب جمع عنب وهي من جملة الحدائق لكنه خصها بالذكر لشرفها.

قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾، الكواعب جمع كاعب وهي التي تبين ثديها ولم يتدل، بل برز وظهر كالكعب، وهذا أكمل ما يكون في جمال الصدر. قوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سن واحدة لا تختلف إحداهن عن الأخرى كبرًا، كما في نساء الدنيا؛ لأنها لو اختلفت إحداهن عن الأخرى كبرًا فربما تختل الموازنة بينهما، وربما تكون إحداهما محزونة إذا لم تساوي الأخرى، لكنهن أتراب. قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أي: كأسًا ممتلئة، والمراد بالكأس هنا كأس الخمر. وربما يكون للخمر وغيره؛ لأن الجنة فيها ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، لا يسمعون في الجنة لغوًا أي: كلامًا باطلًا لا خير فيه. قوله تعالى: ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾، أي:، ولا كذبًا فلا يكذبون، ولا يكذب بعضهم بعضًا؛ لأنهم على سرر متقابلين قد نزع الله ما في صدورهم من غل وجعلهم أخوانًا. قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾، أي: أنهم يجزون بهذا جزاء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أعمالهم

الحسنة التي عملوها في الدنيا واتقوا بها محارم الله. قوله تعالى: ﴿حِسَابًا﴾، أي: كافيًا، مأخوذة من الحسب، وهو الكفاية أي: أن، هذا الكأس كأس كافٍ لا يحتاجون معه إلى غيره؛؛ لكمال لذته وتمام منفعته.

۞ قال الله تعالى:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ
ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٣٧-٤٠].

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رب كل شيء،

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]. فهو رب السماوات السبع الطباق، ورب الأرض وهي سبع، كما ثبت ذلك في السنة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: ما بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة كالغيوم والسحب والأفلاك وغيرها مما نعلمه، ومما لا يعلمه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، يعني: أن الناس لا يملكون الخطاب من الله، ولا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذن الله، وذلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾، وهو جبريل ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾، أي: صفوفًا. صفًا بعد صف؛ لأنه، كما جاء في الحديث: «تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم الثالثة والرابعة والخامسة» وهكذا.. صفوفًا لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: لا يتكلمون ملائكة، ولا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾، بالكلام، فإنه يتكلم، كما أُذن له. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: قال قولًا صوابًا موافقًا لمرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وذلك بالشفاعة إذا أذن الله؛ لأحد أن يشفع شفع فيما أذن له فيه على حسب ما أُذن له. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾، أي: ذلك الذي أخبرناكم عنه هو اليوم الحق، والحق ضد الباطل أي: الثابت الذي يقوم فيه الحق، ويقوم فيه العدل يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾، أي: من شاء عمل عملًا يؤوب به إلى الله ويرجع به إلى الله، وذلك العمل الصالح الموافق لمرضاة الله تعالى أي: مرجعًا يرضى به الله ويرضى الله به عنه وهذه المشيئة المطلقة هنا.

قيدتها آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. يعني: أننا لنا الخيار فيما نذهب إليه لا أحد يكرهنا على شيء؛ لكن مع ذلك خيارنا وإرادتنا ومشيئتنا راجعة إلى الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وإنما بين الله ذلك في كتابه من أجل ألَّا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى مشيئته، بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، حتى يلجأ إلى الله في سؤال الهداية لما يحب ويرضى. لا يقول الإنسان أنا حر أريد ما شئت وأتصرف، كما شئت، نقول الأمر كذلك لكنك مربوط بإرادة الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ فما شاء من شيء إلا وقد شاءه الله من قبل. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، أي: خوفناكم من عذاب قريب، وهو يوم القيامة. ويوم القيامة قريب، ولو بقيت الدنيا ملايين السنين، فإنه قريب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]. فهذا العذاب الذي أنذرنا الله قريب، ليس بين الإنسان وبينه إلا أن يموت، والإنسان لا يدري متى يموت قد يصبح، ولا يمسي، أو يمسي،

ولا يصبح، ولهذا كان علينا أن نحزم في أعمالنا، وأن نستغل الفرصة قبل فوات الأوان. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، المرء أي: كل امرىء ينظر ما قدمت يداه. أي: ما عمل في الدنيا ويأخذ كتابه ويعرف مصيره ويكون بين يديه ويعطى كتابه، ويقال الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. ويقول الكافر من شدة ما يرى من الهول وما يشاهده من العذاب: ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، أي: ليتني لم أخلق، أو ليتني لم أبعث، أو إذا رأى البهائم التي يقضي الله بينها ثم يقول كوني ترابًا فتكون ترابًا يتمنى أن يكون مثل البهائم فقوله تعالى: ﴿كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، تحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: يا ليتني كنت ترابًا فلم أُخلق؛ لأن الإنسان خُلق من تراب.

المعنى الثاني: ياليتني كنت ترابًا فلم أبعث، يعني: كنت ترابًا في أجواف القبور.

المعنى الثالث: أنه إذا رأى البهائم التي قضى الله بينها وقال لها كوني ترابًا فكانت ترابًا قال: ليتني كنت ترابًا أي:، كما كانت هذه البهائم ـ والله أعلم ـ وإلى هنا تنتهي سورة النبأ، وفيها من المواعظ والحكم وآيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما يكون موجبًا للإيقان والإيمان، نسأل الله أن ينفعنا وإياكم بكتابه، وأن يجعله موعظة لقلوبنا، وشفاء لما في صدورنا، إنه جواد كريم.

تفسير سورة النازعات

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾
﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ
﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ
فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١:١٤].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾، يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها ﴿غَرْقًا﴾، أي: نزعًا بشدة. قوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطًا أي: تسلها برفق كالأنشوطة، والأنشوطة: الربط الذي يسمونه عندنا (التكة) أو ما أشبه ذلك من الكلمات، يعني: يكون ربطًا، بحيث إذا سللت أحد الطرفين انفكت العقدة، هذا ينحل بسرعة وبسهولة، فهؤلاء الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين تنشطها نشطًا أي: تسلها برفق، وسبب ذلك أن الملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار إذا دعت الروح إلى الخروج تناديها بأقبح الأوصاف تقول الملائكة لروح الكافر: اخرجي أيتها النفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث، اخرجي إلى غضب الله، فتنفر الروح لا تريد أن تخرج إلى، هذا، وتتفرق في الجسد حتى يقبضوها بشدة، وينزعوها نزعًا يكاد يتمزق الجسد منها من شدة النزع. أما أرواح المؤمنين -

جعلني الله وإياكم منهم ـ، فإن الملائكة إذا نزلت لقبضها تبشرها: اخرجي يا أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب اخرجي إلى رضوان الله، وما أشبه هذا من الكلام، فيهون عليها أن تفارق جسدها الذي ألفته فتخرج بسهولة، ولهذا لما قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ». قالت عائشة ـ رضي الله عنها: يا رسول الله: إنَّا لنكره الموت، فقال: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»(1)؛ لأنه في تلك اللحظة يرى أنه سينتقل إلى دار أحسن من الدار التي فارقها فيفرح، كما يفرح أحدنا إذا قيل له اخرج من بيت الطين إلى بيت المسلح القصر المشيد الطيب، فيفرح فيحب لقاء الله، والكافر ـ والعياذ بالله ـ بالعكس إذا بشر بالغضب والعذاب، فإنه يكره أن يموت، يكره لقاء الله فيكره الله لقاءه. قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، هي الملائكة تسبح بأمر الله، أي: تسرع فيه، كما يسرع السابح في الماء، وكما قال تعالى عن الشمس والقمر والليل والنهار ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠] فالمعنى أنها تسبح بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على حسب ما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهم أي: الملائكة أقوى من الجن، والجن أقوى من البشر، انظر إلى قوله تعالى عن سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]. يعني: إذا مددت طرفك ثم رجعته فقبل أن يرجع إليك آتيك به ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾، في الحال رآه ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، قال العلماء: إنه حملته الملائكة حتى جاءت به إلى سليمان من اليمن، وسليمان بالشام بلحظة فدل هذا على أن قوة الملائكة أشد بكثير من قوة الجن، وقوة الجن أشد من بني آدم؛ لأنه لا يستطيع أحد من بني آدم أن يأتي بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام قبل بمدة طويلة، فالحاصل أن الملائكة تسبح بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يأمرها به. قوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، أيضًا هي الملائكة تسبق إلى أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا كانت الملائكة أسبق إلى أمر الله وأقوم بأمر الله من بني آدم، قال الله تعالى في وصف ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهم سباقون إلى أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يأمرهم لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ لقوتهم وقدرتهم على فعل أوامر الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾، وصف للملائكة تدَبِّرُ الأمر، وهو واحد الأمور يعني: أمور الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لها ملائكة تدبرها، فجبرائيل موكل بالوحي يتلقاه من الله وينزل به على الرسل،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧)، والترمذي (١٠٦٧).

وإسرافيل موكل بنفخ الصور الذي يكون عند يوم القيامة ينفخ في الصور فيفزع الناس ويموتون، ثم ينفخ فيه أخرى فيبعثون، وميكائيل موكل بالقطر وبالمطر والنبات، وملك الموت موكل بالأرواح، ومالك موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة، وعن اليمين وعن الشمال قعيد موكل بالأعمال،وملائكة موكلون بحفظ أعمال نبي آدم كل يدبر ما أمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ به. فهذه الأوصاف كلها أوصاف للملائكة على حسب أعمالهم، وأقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالملائكة؛ لأنهم من خير المخلوقات، ولا يقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشيء إلا وله شأن عظيم إما في ذاته، وإما لكونه من آيات الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، هذه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾، متعلقة بمحذوف والتقدير اذكر يا محمد وذكّر الناس بهذا اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، وهما النفختان في الصور، النفخة الأولى ترجف الناس ويفزعون ثم يموتون عن آخرهم إلا مَنْ شاءالله، والنفخة الثانية يبعثون من قبورهم فيقوم الناس من قبورهم مرة واحدة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

فإذا رجفت الراجفة وتبعتها الرافدة انقسم الناس إلى قسمين: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وهذه قلوب الكفار ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: خائفة خوفًا شديدًا. قوله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾، يعني: ذليلة لا تكاد تحدق أو تنظر بقوة، ولكنه قد غضت أبصارهم ـ والعياذبالله ـ لذلهم قال الله تعالى:﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] وأما القسم الثاني فقلوبهم على عكس قلوب هؤلاء ويدل لهذا القسم قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصيغة النكرة فيكون المعني: وقلوب على عكس ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، زجرة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يزجرون ويصاح بهم فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. كل الخلق في هذه الكلمة الواحدة يخرجون من قبورهم أحياء، ثم يحضرون إلى الله عز وجل؛ ليجازيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. يعني: أنَّ الله إذا أراد شيئًا إنما يقول له: (كن) مرة واحدة فقط فيكون، ولا يتأخر، هذا عن قول الله لحظة كلمح بالبصر، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يعجزه شيء، فإذا كان الخلق كلهم يقومون من قبورهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بكلمة واحدة فهذا أدل دليل على أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن الله لا يعجزه شيء في السماوات، ولا في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

❁ التفسير ❁

قال تعالى مبينًا ما جرى للأمم قبل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، والخطاب في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أو لكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، ويكون على المعنى الأول (هل أتاك يا محمد)، وعلى المعنى الثاني: (هل أتاك أيها الإنسان) ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، وهو ابن عمران ﷺ أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو أحد أولي العزم الخمسة الذين هم: محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام، وقد ذكر هؤلاء الخمسة في القرآن في موضعين: أحدهما في الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. والثاني في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]. وحديث موسى ﷺ ذكر في القرآن أكثر من غيره؛ لأن موسى هو نبي اليهود وهم كثيرون في المدينة وحولها في عهد النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكانت قصص موسى أكثر ما قص علينا من نبأ الأنبياء وأشملها وأوسعها وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، تشويق للسامع؛ ليستمع إلى ما جرى في هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، ناداه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نداءً سمعه بصوت الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾،[مريم: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾، هو الطور، والوادي هو مجرى الماء، وسماه الله مقدسًا؛ لأنه كان فيه الوحي إلى موسى ﷺ. وقوله تعالى: ﴿طُوًى﴾، اسم للوادي. قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، فرعون كان ملك مصر، وكان يقول لقومه إنه ربهم الأعلى، وأنه لا إله غيره ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] فادعى ما ليس له، وأنكر حق غيره، وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأمر الله نبيه موسى ﷺ أن يذهب إلى فرعون وهذه هي الرسالة، وبيّن سبب ذلك، وهو طغيان، هذا الرجل - أعني فرعون - وفي سورة طه قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]، ولا منافاة بين الآيتين وذلك أن الله تعالى أرسل موسى أولًا ثم طلب موسى - صلى الله عليه وآله وسلم - من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون؛ فأرسل هارون ﷺ مع موسى فصار موسى وهارون كلاهما مرسل إلى فرعون. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: زاد على حده؛ لأن الطغيان هو الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. ومنه الطاغوت:؛ لأن فيه مجاوزة الحد.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾، الاستفهام هنا للتشويق، تشويق فرعون أن يتزكى مما هو عليه من الشر والفساد، وأصل الزكاة النمو والزيادة، وتطلق بمعنى الإسلام والتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]. ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]. قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: أدلك إلى ربك أي: إلى دين الله - عَزَّ وَجَلَّ - الموصل إلى الله. قوله تعالى: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾، أي: فتخاف الله - عَزَّ وَجَلَّ - على علم منك؛ لأن الخشية هي الخوف المقرون بالعلم، فإن لم يكن علم فهو خوف مجرد، وهذا هو الفرق بين الخشية والخوف. الفرق بينهما أن الخشية عن علم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما الخوف فهو مجرد ذعر يحصل للإنسان ولو بلا علم، ولهذا قد يخاف الإنسان من شيء يتوهمه لا حقيقة له، قد يرى في الليلة الظلماء شبحًا لا حقيقة له فيخاف منه، فهذا ذعر مبني على وهم، لكن الخشية تكون عن علم.

فذهب موسى ﷺ وقال لفرعون ما أمره الله به: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، ولما كان البشر لا يؤمنون، ولا يقبلون دعوى شخص أنه رسول إلا بآية، كما أنه لا يقبل من أحد دعوى إلا ببينة جعل الله - سبحانه وتعالى - مع كل رسول آية تدل على صدقه، وهنا قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، يعني: أرى موسى فرعون الآية الكبرى أي: العظمي، فما هي هذه الآية؟الآية أن معه عصًا من خشب من فروع الشجر، كما هو معروف، فكان إذا وضعها في الأرض صارت حية تسعى، ثم يحملها فتعود عصا، وهذا من آيات الله أن شيئًا جمادًا إذا وضع على الأرض صار حية تسعى، وإذا حمل من الأرض عاد في الحال فورًا إلى حاله الأولى عصا من جملة العصي، وإنما بعثه ﷺ بهذه الآية، وبكونه يُدْخِل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء أي: من غير عيب، أي: بيضاء بياضًا ليس بياض البرص، ولكنه بياض جعله الله آية، إنما بعثه الله بالعصا واليد؛ لأنه كان في زمن موسى السحر منتشرًا شائعًا؛ فأرسله الله - عَزَّ وَجَلَّ - بشيء

يغلب السحرة الذين تصدوا لموسى ﷺ.

قال أهل العلم: وفي عهد عيسى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ انتشر الطب انتشارًا عظيمًا، فجاء عيسى بأمر يُعْجِز الأطباء، وهو أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء، فإذا جيء إليه بشخص فيه عاهة أي: عاهة تكون مسحه بيده ثم برىء بإذن الله ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [المائدة:١١٠] مع أن البرص لا دواء له لكن هو يبرىء الأبرص بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويبرىء الأكمه الذي خلق، بلا عيون، وأشد من، هذا وأعظم أنه يحيي الموتى بإذن الله، يؤتى إليه بالميت فيتكلم معه ثم تعود إليه الحياة، وأشد من ذلك وأبلغ أنه يخرج الموتى بإذن الله من قبورهم، يقف على القبر وينادي صاحب القبر فيخرج من القبر حيًّا، فهذا شيء لا يمكن؛ لأي: طب أن يبلغه، ولهذا كانت آية عيسى ﷺ في هذا الوقت مناسبة تمامًا لما كان عليه الناس. قال أهل العلم: أما رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فقد أتى إلى العرب وهم يتفاخرون في الفصاحة، ويرون أن الفصاحة أعظم منقبة للإنسان فجاء محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بهذا القرآن العظيم الذي أعجز أمراء الفصاحة، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. يعني: لو كان بعضهم يعاون بعضًا، فإنهم لن يأتوا بمثله. حينئذ نقول: إن موسى ﷺ أرى فرعونالآية الكبرى، ولكن لم ينتفع بالآيات ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس:١١] فالذين ليس في قلوبهم استعداد للهداية لا يهتدون ولو جاءتهم كل آية ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، كذب الخبر، وعصى الأمر، يعني: قال لموسى إنك لست رسولًا، بل قال تعالى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وعصى الأمر فلم يمتثل أمر موسى ولم ينقد لشرعه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، أي: تولى مدبرًا يسعى حثيثًا. قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، حشر الناس أي: جمعهم ونادى فيهم بصوت مرتفع؛ ليكون ذلك أبلغ في نهيهم عما يريد منهم موسى ﷺ. قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، يعني: لا أحد فوقي؛ لأن ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، اسم تفضيل من العلو، فانظر كيف استكبر، هذا الرجل وادَّعى لنفسه ما ليس له في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكان يفتخر بالأنهار والمُلك الواسع يقول لقومه في ما قال لهم ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]. فما الذي حصل؟ أغرقه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالماء الذي كان يفتخر به، وأورث الله ملك مصر بني إسرائيل الذين كان يستضعفهم. قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، أخذه الله تعالى: أخذ عزيز مقتدر، ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، يعني: أنه نُكِّلَ به في الآخرة وفي الأولى، فكان عبرة في زمنه، وعبرة فيا بعد زمنه إلى يوم القيامة، كل من قرأ

كتاب الله وما صنع الله بفرعون، فإنه يتخذ ذلك عبرة يعتبر به، وكيف أهلكه الله مع، هذا الملك العظيم وهذا الجبروت وهذا الطغيان؟ فصار أهون على الله ـ تعالى ـ من كل هين. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: فيما جرى من إرسال موسى إلى فرعون ومحاورته إياه واستهتار فرعون به واستكباره عن الانقياد له عبرة، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، أي: يخشى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فمن كان عنده خشية من الله وتَدَبَّرَ ما حصل لموسى مع فرعون والنتيجة التي كانت لهذا ولهذا، فإنه يعتبر ويأخذ من ذلك عبرة فيسلك سبيل لم المرسلين ويتجنب طرق الكافرين، والعبر في قصة موسى كثيرة ولو أن أحدًا انتدب لجمع القصة من الآيات في كل سورة ثم يستنتج ما حصل في هذه القصة من العبر لكان جيدًا، وذلك بأن يأتي بالقصة كلها في كل الآيات؛ لأن السور في بعضها شيء ليس في البعض الاخر، فإذا جمعها وقال: مثلًا يؤخذ من هذه القصة العظيمة العبر التالية ثم يسردها، كيف أرسله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى فرعون؟ كيف قال لهما ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]. مع أنه مستكبر خبيث؟ وكيف كانت النتيجة؟ وكيف كان موسى ﷺ خرج من مصر خائفًا على نفسه يترقب، كما خرج الرسول ﷺ من مكة يترقب، وصارت العاقبة للرسول ﷺ ولموسى ﷺ، لكن العاقبة للرسول ﷺ بفعله وأصحابه، عذب الله أعداءهم بأيديهم، وعاقبة موسى بفعل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهي عبر يعتبر بها الإنسان يصلح بها نفسه وقلبه حتى يتبين الأمر.

❁ قال الله تعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، هذا الاستفهام لتقرير إمكان البعث؛ لأن المشركين كذبوا النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالبعث وقالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. فيقول الله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، الجواب معلوم لكل أحد أنه السماء، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:

٥٧]. قوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾، هذه الجملة لا تتعلق بالتي قبلها، ولهذا ينبغي للقارىء إذا قرأ أن يقف على قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثم يستأنف فيقول: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجملة استئنافية؛ لبيان عظمة السماء، ﴿بَنَىٰهَا﴾، أي: بناها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في آية أخرى في سورة الذاريات أنه بناها بقوة فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقوة وقد يظن ظان أن الآيد هنا جمع يد وليس كذلك؛ لأن أيد مصدر آد يئيد أي: قوي، ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، رفعه يعني: عن الأرض ورفعه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بغير عمد، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: جعلها مستوية، تامة كاملة، كما قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. فسواك أي: جعلك سويًّا تام الخلقة، فالسماء كذلك سواها الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أغطشه أي: أظلمه، فالليل مظلم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، بينه بالشمس التي تخرج كل يوم من مطلعها وتغيب من مغربها. قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد خلق السماوات والأرض ﴿دَحَىٰهَآ﴾، بيّنَ سبحانه، هذا الدحوّ بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وكانت الأرض مخلوقة قبل السماء، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

فالأرض مخلوقة من قبل السماء لكن دحوها وإخراج الماء منها والمرعى كان بعد خلق السماوات. قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: جعلها راسية في الأرض؛ فلا تنسفها الرياح مهما قويت وهي أيضًا تمسك الأرض لئلا تضطرب بالخلق كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، أي: جعل الله تعالى ذلك متاعًا لنا نتمتع به فيما نأكل ونشرب، ولأنعامنا أي: مواشينا من الإبل والبقر والغنم وغيرهاالتي نذر عليها وتنمو بها أموالنا.

❁ ولما ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ عباده بهذه النعم الدالة على كمال قدرته ذكرهم بمآلهم الحتمي الذي لابد منه، فقال عز وجل:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٤:٤١].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾، وذلك قيام الساعة، وسماها طامة؛ لأنها داهية عظيمة تطم كل شيء سبقها. قوله تعالى: ﴿الْكُبْرَىٰ﴾، يعني: أكبر من كل طامة. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾، لهذا اليوم الذي تكون فيه الطامة الكبرى، وهو اليوم الذي يتذكر فيه الإنسان ما سعى،أي: ما عمله في الدنيا يتذكره مكتوبًا، عنده بكتاب يقرأه هو بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فإذا قرأه تذكر ما سعى أي: ما عمل، أما اليوم، فإننا قد نسينا ما عملنا، عملنا أعمالًا كثيرة منها الصالح، ومنها اللغو، ومنها السيىء، لكن كل، هذا ننساه، وفي يوم القيامة يعرض علينا، هذا في كتاب ويقال اقرأ كتابك أنت بنفسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. فحينئذ يتذكر ما سعى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾، ﴿وَبُرِّزَتِ﴾، أي: أظهرت تجيء تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام فيه سبعون ألف ملك يجرونها، فإذا ألقي منها الظالمون مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبورًا فتنخلع القلوب ويشيب المولود.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، هذان وصفان هما وصفا أهل النار، الطغيان، وهو مجاوزة الحد، وإيثار الدنيا على الآخرة بتقديمها على الآخرة،وهما متلازمان فكل مَن طغى فقدآثر الحياة الدنيا وكذلك العكس، والطغيان مجاوزة الحد، وحد الإنسان مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمن جاوز حده ولم يعبد الله فهذا هو الطاغي؛ لأنه تجاوز الحد، فأنت مخلوق لا لتأكل وتتنعم وتتمتع، كما تتمتع الأنعام، فأنت مخلوق لعبادة الله فاعبد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإن لم تفعل فقد طغيت، فهذا هو الطغيان ألا يقوم الإنسان بعبادة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: قدمها طاعة الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ مثاله: رجل إذا قيل له أذكر الله آثر اللغو على ذكر الله وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه، والمأوى هو المرجع والمقر وبئس المقر مقر جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، يعني: خاف القيام بين يديه؛ لأن الإنسان يوم القيامة سوف يقرره الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ بذنوبه ويقول عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، كما جاء في الصحيح، فإذا أقر قال الله له: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، فهذا هو الذي خاف، هذا المقام، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أي: عن هواها المخالف لأمر الله ورسوله، والنفس أمّارة بالسوء لا تأمر إلا بالشر، ولكن هناك نفس أخرى تقابلها وهي النفس المطمئنة؛ وللإنسان ثلاث نفوس: مطمئنة، وأمارة، ولوامة، وكلها في القرآن، أما المطمئنة ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧: ٣٠]. وأما الأمّارة بالسوء ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما اللوامة ففي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]. والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحيانًا نزعة خير فيحب والخير يفعله وهذه هي النفس المطمئنة، يرى أحيانًا في نفسه نزعة شر فيفعله هذه هي النفس الأمارة بالسوء، وتأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير، فإن من الناس من قد يلوم نفسه على فعل الخير وعلى مصاحبة أهل الخير ويقول: كيف أصاحب هؤلاء الذين صدوني عن حياتي.. عن شهواتي.. عن لهوي، وما أشبه ذلك. فاللوامة نفس تلوم الأمارة بالسوء مرة، وتلوم المطمئنة مرة أخرى، فهي في الحقيقة نفس بين نفسين تلوم النفس الأمارة بالسوء إذا فعلت السوء، وتندم الإنسان، وقد تلوم النفس المطمئنة إذا فعلت الخير. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عزَّ وَجلَّ؛ لأوليائه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. هكذا جاء في القرآن، وجاء في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٢)، هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، فإذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله، وتبشر النفس بالجنة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]. يقولونه حين التوفي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فيبشر بالجنة فتخرج روحه راضية متيسرة سهلة، ولهذا لما حدث النبي ﷺ فقال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله: كلنا يكره الموت، فذكر لها أنه قال: ليس الأمر كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر بما يبشر به عند الموت أحب لقاء الله أحب الموت وسهل عليه»[1]، وإن الكافر إذا بشر ـ والعياذ بالله ـ بما يسوءه عند الموت كره لقاء الله وهربت نفسه تفرقت في جسده حتى ينتزعوها منه، كما ينتزع السُّفود من الشعر المبلول، والشعر المبلول إذا جر عليه السفود، وهو معروف عند الغزالين يكاد يمزقه من شدة سحبه عليه هكذا روح الكافر ـ والعياذ بالله ـ تتفرق في جسده؛ لأنها تبشر بالعذاب فتخاف، فالجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والإنسان قد يدركها قبل أن يموت بما يبشر به، وقد قال أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ لسعد بن معاذ: يا سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد»[2]، وهذا ليس معناه الوجدان الذوقي، بل هو وجدان حقيقي، قال ابن القيم رحمه الله: (إن بعض الناس قد يدرك الآخرة، وهو في الدنيا)، ثم انطلق فقاتل وقُتل ـ رضي الله عنه ـ فالحاصل أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

❁ قال الله تعالى:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢:٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، يعني: يسألك الناس، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. أي: متى وقوعها سؤال الناس عن الساعة ينقسم إلى قسمين: سؤال استبعاد، وإنكار وهذا كفر، كما سأل المشركون النبي ﷺ عن الساعة واستعجلوها، وقد قال الله عن هؤلاء: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧)، والترمذي (١٠٦٧).
(٢) أخرجه البخاري :(٤٠٤٨).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨]. وسؤال عن الساعة يسأل متى الساعة ليستعد لها وهذا لا بأس به، وقد قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله متى الساعة؟ قال له: «مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قال: حب الله ورسوله. قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1]، فالناس يسألون النبي ﷺ، ولكن تختلف نياتهم في، هذا السؤال، ومهما كانت نياتهم ومهما كانت أسئلتهم فعلم الساعة عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾، يعني: أنه لا يمكن أن تذكر لهم الساعة؛ لأن علمها عند الله، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقد سأل جبريل ـ عليه السلام ـ وهو أعلم الملائكة بوحي الله، سأل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو أعلم البشر بذلك قال: أخبرني عن الساعة. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[2]، يعني: أنت إذا كانت خافية عليك؛ فأنا خافية علي، وإذا كان أعلم الملائكة وأعلم البشر لا يعلمان متى الساعة فما بالك بمن دونهما؟! وبهذا نعرف أن ما يشيعه بعض الناس من أن الساعة تكون في كذا وفي كذا وفي زمن معين كله كذب، نعلم أنه كذب؛ لأنه لا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، يعني: ليس عندك علم منها، ولكنك منذر ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾، أي: يخافها وهم المؤمنون، أما من أنكرها واستبعدها وكذبها، فإن الإنذار لا ينفع فيه ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. ولهذا نقول: لا تسأل متى تموت، ولا أين تموت؛ لأن، هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال أمر مفروغ منه ولابد أن يكون ومهما طالت بك الدنيا فكأنما بقيت يومًا واحدًا، بل، كما قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، ولكن السؤال الذي يجب أن يرد على النفس ويجب أن يكون لديك جواب عليه هو على أي: حال تموت؟! ولست أريد على أي: حال تموت هل أنت غني أو فقير، أو قوي أو ضعيف، أو ذو عيال أو عقيم، بل على أي: حال تموت في العمل، فإذا كنت تُسائلُ نفسك، هذا السؤال فلابد أن تستعد؛ لأنك لا تدري متى يفجَؤُك الموت؟ كم من إنسان خرج يقود سيارته ورُجِع به محمولًا على الأكتاف، وكم من إنسان خرج من أهله يقول هيئوا؛ لي طعام الغداء أو العشاء، ولكن لم يأكله، وكم من إنسان لبس قيمصه وزر أزرته ولم يفكها إلا الغاسل يغسله، هذا أمر مشاهد لكل أحد بحوادث بغتة. فانظر الآن وفكر على أي: حال تموت، ولهذا ينبغي لك أن تكثر من الاستغفار ما استطعت، فإن الاستغفار فيه من كل همٍّ فرجٌ، ومن كل ضيق مخرج، حتى إن بعض العلماء يقول إذا استفتاك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

شخص فاستغفر الله قبل أن تفتيه؛ لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين الهدى واستنبط ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]. وهذا استنباط جيد، ويمكن أيضًا أن يُستَنْبَطَ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. والاستغفار هو الهدى، لذلك أوصيكم بالمراقبة، وكثرة الاستغفار، ومحاسبة النفس حتى نكون على أهبة الاستعداد خشية أن يفجؤنا الموت - نسأل الله أن يحسن لنا الخاتمة - قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾، أي: يرون القيامة قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، العشية من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى من طلوع الشمس إلى زوالها، يعني: كأنهم لم يلبثوا إلا نصف يوم، وهذا هو الواقع لو سألنا الآن كم مضى من السنوات علينا؟ هل نشعر الآن بأنه سنوات أو كأنه يوم واحد؟ لا شك أنه كأنه يوم واحد. والإنسان الآن بين ثلاثة أشياء: يوم مضى فهذا قد فاته، ويوم مستقبل لا يدري أيدركه أو لا يدركه، ويوم حاضر هو المسؤول عنه، وأما ما مضى فقد فات وما فات فقد مات، هلك عنك الذي مضى، والمستقبل لا تدري أتدركه أم لا، والحاضر هو الذي أنت مسؤول عنه. نسأل الله تعالى أن يحسن لنا العاقبة، وأن يجعل عاقبتنا حميدة، وخاتمتنا سعيدة إنه جواد كريم.

تفسير سورة عبس

۞ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ
يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي
صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١:١٦].

۞ التفسير ۞

البسملة تقدم الكلام عليها.

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، الضمير يعود إلى هو رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ. ومعنى ﴿عَبَسَ﴾، أي: كلح في وجهه يعني: استنكر الشيء بوجهه. ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أعرض. قوله تعالى: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾، الأعمى هو عبدالله بن عمرو ابن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ، فإنه جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قبل الهجرة، وهو في مكة، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سببًا لإسلام من تحتهم وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديدًا ـ فجاء، هذا الأعمى يسأل النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله ويستقرىء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فكان النبي ﷺ يعرض عنه وعبس في وجهه رجاءً وطمعًا في إسلام هؤلاء العظماء وكأنه خاف أن هؤلاء العظماء يزدرون النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا وجه وجهه لهذا الرجل الأعمى وأعرض عن هؤلاء العظماء كما قال نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] فكان النبي ﷺ في عبوسه

وتوليه يلاحظ هذين الأمرين:

الأمر الأول: الرجاء في إسلام هؤلاء العظماء.

والأمر الثاني: ألا يزدروا النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في كونه يلتفت إلى، هذا الرجل الأعمى الذي هو محتقر عندهم، ولا شك أن، هذا اجتهاد من رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وليس احتقارًا لابن أم مكتوم؛ لأننا نعلم أن النبي ﷺ لا يهمه إلا أن تنتشر دعوة الحق بين عباد الله، وأن الناس عنده سواء، بل من كان أشد إقبالًا على الإسلام فهو أحب إليه هذا ما نعتقده في رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي أي: شيء يريبك أن يتزكى، هذا الرجل ويقوي إيمانه؟ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ﴾، أي: لعل ابن أم مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰ﴾، أي: يتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان، هذا هو المرجو منه، فإنه أحق أن يلتفت إليه. قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾، يعني: وما يدريك لعله يذكر أي: يتعظ فتنفعه الموعظة، فإن -- رضي الله عنه -- أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر. قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾، يعني: استغنى بماله لكثرته، واستغنى بجاهه؛ لقوته، وهم العظماء الذين عن النبي - صلى الله عليه - فهذا ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، أي: تتعرض وتطلب إقباله عليك وتقبل عليه. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى، هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، فبيّن الله - سبحانه وتعالى - أن ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - أقرب إلى التزكي من هؤلاء العظماء، وأن هؤلاء إذا لم يتزكوا مع إقبال الرسول ﷺ عليهم، فإنه ليس عليه منهم شيء. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى؛ لأن إثمه على نفسه وليس عليك إلا البلاغ. ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، هذا مقابل قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾، أي: يستعجل من أجل انتهاز الفرصة إلى حضور مجلس النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾، أي: يخاف الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقلبه؛ لعلمه بعظمته.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتلهى عنه وتتغافل؛ لأنه انشغل برؤساء القوم لعلهم يهتدون. قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، يعني: لا تفعل مثل، هذا ولهذا نقول: إن ﴿كَلَّا﴾، هنا حرف ردع وزجر أي: لا تفعل مثل ما فعلت. قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -. قوله تعالى: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه، وتذكر له ما يضره وتحذره منه ويتعظ بها القلب. قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، أي: فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالله جعل للإنسان الخيار قدرًا بين أن يؤمن ويكفر، أما شرعًا، فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وليس الإنسان خير شرعًا بين الكفر والإيمان، بل

هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكن من حيث القدر هو مخير وليس، كما يزعم بعض الناس مسير مجبر على عمله، بل، هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم فالإنسان في الحقيقة مخير؛ ولذلك إذا وقع الأمر بغير اختياره كالمكره والنائم والناسي ونحوهم لم يترتب عليه حكمه فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: ذكر ما نزل من الوحي فاتعظ به، ومن شاء لم يذكره، والموفق من وفقه ـ الله عز وجل ـ.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، أي: أن، هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، معظمة عند الله، والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه القول. قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، السفرة الملائكة، وسموا سفرة؛ لأنهم كتبة مأخوذة من السَّفَر أو من السِّفْرِ، وهو الكتاب كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وقيل: السفرة الوسطاء بين الله وبين خلقه، من السفير، وهو الواسطة بين الناس، ومنه حديث أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تزوج ميمونة قبل أن يحرم قال: «وَكُنْتُ السَّفِيرُ بَيْنَهُمَا» أي: الواسطة. والصحيح أنهم سموا سفرة لهذا، وهذا بين الله وبين الخلق، فجبريل ﷺ واسطة بين الله وبين الخلق في النزول بالوحي، والكتبة الذين يكتبون ما يعمل الإنسان أيضًا يكتبونه ويبلغونه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والله تعالى عالم به حين كتابته وقبل كتابته. قوله تعالى: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾، كرام في أخلاقهم.. كرام في خلقتهم؛ لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق.

قوله تعالى: ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بر وهو كثير الفضل والإحسان؛ ولهذا وصف الله الملائكة بأنهم كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، وأنهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. وهذه الآيات فيها تأديب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للخلق ألا يكون همهم همًّا شخصيًّا، بل يكون همهم همًّا معنويًّا وألا يفضلوا في الدعوة إلى الله شريفًا لشرفه، ولا عظيمًا لعظمته، ولا قريبًا لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقير والغني، الكبير والصغير، القريب والبعيد، وفيها أيضًا تلطف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بمخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال في أولها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ثلاث جمل لم يخاطب الله فيها النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنها عتاب فلو وجهت إلى الرسول بالخطاب لكان شديدًا عليه لكن جاءت بالغيبة ﴿عَبَسَ﴾ وإلا كان مقتضى الحال أن يقول: «عبست وتوليت أن جاءك الأعمى»، ولكنه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

فجعل الحكم للغائب كراهية أن يخاطب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بهذه الكلمات الغليظة الشديدة، ولأجل ألا يقع بمثل ذلك من يقع من هذه الأمة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف كتابه العزيز بأنه، بلسان عربي مبين، وهذا من بيانه، وفي الآيات أيضًا دليل على جواز لقب الإنسان بوصفه مثل الأعمى والأعرج والأعمش، وقد كان العلماء يفعلون، هذا، الأعرج عن أبي هريرة، والأعمش عن ابن مسعود... وهكذا، قال أهل العلم واللقب بالعيب إذا كان المقصود به تعيين الشخص فلا بأس به، وأما إذا كان المقصود به تعيير الشخص، فإنه حرام؛ لأن الأول ـ إذا كان المقصود به تبيين الشخص ـ تدعو الحاجة إليه، والثانية ـ إذا كان المقصود به التعيير ـ، فإنه لا يقصد به التبيين، وإنما يقصد به الشماتة وقد جاء في الأثر «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ فِي أَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ»[1].

قال الله تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:١٧-٣٢].

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿قُتِلَ﴾، قال بعض العلماء: إن معناها لعن، والذي يظهر أن معناها أهلك؛ لأن القتل يكون به الهلاك، وهو أسلوب تستعمله العرب في تقبيح ما كان عليه صاحبه فيقولون مثلًا: قتل فلان ما أسوأ خلقه، قتل فلان ما أخبثه وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، قال بعض العلماء: المراد بالإنسان هنا الكافر خاصة، وليس كل إنسان لقوله فيما بعد ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان الجنس؛ لأن أكثر بني آدم كفار، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول يقوم القيامة: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ لَهُ اللهُ عَزَّ

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٥).

وَجَلَّ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»(١)، فيكون المراد بالإنسان هنا الجنس ويخرج المؤمن من ذلك بما دلت عليه النصوص الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، قال بعض العلماء: إن ﴿مَآ﴾ هنا استفهامية أي: أي شيء أكفره؟ ما الذي حمله على الكفر؟ وقال بعض العلماء: إن هذا من باب التعجب يعني: ما أعظم كفره!، وإنما كان كفر الإنسان عظيمًا؛ لأن الله أعطاه عقلًا، وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب وأمده بكل ما يحتاج إلى التصديق، ومع ذلك كفر فيكون كفره عظيمًا. والفرق بين القولين: أنه على القول الأول تكون ﴿مَآ﴾، استفهامية أي: ما الذي أكفره؟ وعلى القول الثاني تكون تعجبية يعني: عجبًا له كيف كفر مع أن كل شيء متوفر لديه في بيان الحق والهدى والإيمان!! والكفر هنا يشمل كل أنواع الكفر، ومنه إنكار البعث، فإن كثيرًا من الكفار كذبوا بالبعث، وقالوا: لا يمكن أن يُبعث الناس بعد أن كانت عظامهم رميمًا، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، استفهام تقرير لما يأتي بعده في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ يعني: أنت أيها الإنسان الذي كفر بالبعث، من أي: شيء خلقت؟ ألم تخلق من العدم لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل فوجدت وصرت

إنسانًا فكيف تكفر بالبعث؟ ولهذا قال تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾، والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: جعله مقدرًا أطوارًا: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق فقال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكاً، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٢). فالإنسان مقدر في بطن أمه من الذي يقدره، هذا التقدير؟ من الذي يوصل إليه ما ينمو به من الدم الذي يتصل به بواسطة السرة من دم أمه؟ إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، السبيل هنا بمعنى الطريق يعني: يسر له الطريق؛ ليخرج من بطن أمه إلى عالم المشاهدة، ويسر له أيضًا بعد ذلك ما ذكره تعالى في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]. يسر له ثديي أمه يتغذى بهما، ويسر له بعد ذلك ما فتح له

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

من خزائن الرزق، ويسر له فوق، هذا كله وما هو أهم، وهو طريق الهدى والفلاح وذلك بما أرسل إليه من الرسالات، وأنزل عليه من الكتب، ثم بعد، هذا ﴿أَمَاتَهُۥ﴾، الموت مفارقة الروح للبدن. قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، أي: جعله في قبر، أي: مدفونًا سترًا عليه وإكرامًا واحترامًا؛ لأن البشر لو كانوا إذا ماتوا كسائر الميتات جثثًا ترمى في الزبال لكان في ذلك إهانة عظيمة للميت ولأهل الميت، ولكن من نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن شرع لعباده، هذا الدفن، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، قال: أكرمه بدفنه. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أي: إذا شاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، أي: بعثه يوم النشور؛ ليجازيه على عمله. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، يعني: أنه لا يعجزه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ينشره لكن لم يأتِ أمر الله بعد ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ﴿لَمَّا﴾، هنا بمعنى (لم) لكنها تفارقها في بعض الأشياء، والمعنى أن الله تعالى لم يقضِ ما أمره، أي: ما أمر به كونًا وقدرًا، أي: أن الأمر لم يتم لنشر أو لانشار، هذا الميت، بل له موعد منتظر، وفي، هذا رد على المكذبين بالبعث الذين يقولون لو كان البعث حقًّا لوجدنا آباءنا الآن، وهذا القول منهم تحدٍ مكذوب؛ لأن الرسل لم تقل لهم إنكم تبعثون الان، ولكنهم قالوا لهم إنكم تبعثون جميعًا بعد أن تموتوا جميعًا.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مذكرًا للإنسان بما أنعم الله عليه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، أي: فلينظر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه سوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ؟ وينبغي للإنسان أن يتذكر عند هذه الآية قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٧].
من الذي زرع، هذا الزرع حتى استوى ويسر الحصول عليه حتى كان طعامًا لنا؟ هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، أي: بعد أن نخرجه نحطمه حتى لا تنتفعوا به. قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، يعني: من السحاب ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، بعد نزول المطر عليها تتشقق بالنبات. قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾، أي: في الأرض ﴿حَبًّا﴾، كالبر والأرزوالذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب الكثيرة ﴿وَعِنَبًا﴾، معروف ﴿وَقَضْبًا﴾، قيل: إنه القت المعروف الذي تأكله الدواب، ﴿وَزَيْتُونًا﴾، معروف ﴿وَنَخْلًا﴾، معروف ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، حدائق جمع حديقة، والغلب كثير الأشجار ﴿وَفَٰكِهَةً﴾، يعني: ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه ﴿وَأَبًّا﴾، الأب نبات معروف عند العرب ترعاه الإبل ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، يعني: أننا فعلنا ذلك متعة لكم، يقوم بها أودكم، وتتمتعون بها أيضًا بالتفكه بهذه النعم.

ثم لما ذكر الله - عزَّ وجلَّ - الإنسان بحاله منذ خلق من نطفة حتى بقي في الدنيا وعاش، ذكر حاله الآخرة في قوله:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٣٣-٤٢].

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾، يعني: الصيحة العظيمة التي تصخ الآذان، وهذا هو النفخ في الصور ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، من أخيه أي: شقيقه أو؛ لأبيه أو؛ لأمه ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾، الأم والأب المباشر، والأجداد أيضًا، والجدات يفر من هؤلاء كلهم ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾، زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾، وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه. ويفر من هؤلاء كلهم. قال أهل العلم: يفر منهم لئلا يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره؛ لأن كل واحد في ذلك اليوم لا يحب أبدًا أن يكون له أحد يطالبه بشيء ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، كل إنسان مشتغل بنفسه لا ينظر إلى غيره، ولهذا لما قال النبي ﷺ: «إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة، عراة، غرلًا» قالت عائشة - رضي الله عنها -: «الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض»؟ قال النبي ﷺ: «الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»(١).

ثم قسَّم الله الناس في ذلك اليوم إلى قسمين فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مُسْفِرَةٌ﴾، من الإسفار، وهو الوضوح؛ لأنها وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح ﴿ضَاحِكَةٌ﴾، يعني: متبسمة، وهذا من كمال سرورهم ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾، أي: قد بشرت بالخير؛ لأن الملائكة تتلقاهم بالبشرى يقولون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٥] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي: شيء كالغبار؛ لأنها ذميمة قبيحة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، أي: ظلمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، الذين جمعوا بين الكفر والفجور، نسأل الله العافية، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة إنه جواد كريم.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

تفسير سورة التكوير

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ
(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)
وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا
الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١:١٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة: تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، هذا يكون يوم القيامة، والتكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض ولفّه، كما تكوّر العمامة على الرأس، والشمس كتلة عظيمة كبيرة واسعة في يوم القيامة يكورها الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيلفها جميعًا ويطوي بعضها على بعض فيذهب نورها، ويلقيها في النار - عَزَّ وَجَلَّ - إغاظة للذين يعبدونها من دون الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: تحصبون في جهنم ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

ويستثني من ذلك من عُبد من دون الله من أولياء الله، فإنه لا يلقى في النار، كما قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، انكدرت يعني: تساقطت، كما تفسرها الآية الثانية. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]. فالنجوم يوم القيامة تتناثر وتزول عن أماكنها ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، أي: أن هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة وتسيّر، كما قال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي تم لحملها عشرة أشهر وهي من أنفس الأموال عند العرب، وتجد صاحبها يرقبها ويلاحظها، ويعتني بها ويأوي إليها ويحف بها في الدنيا، لكن في الآخرة تعطل، ولا يلتفت إليها؛ لأن الإنسان في شأن عظيم مزعج ينسيه كل شيء، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، الوحوش جمع وحش، والمراد بها جميع الدواب، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. تحشر الدواب يوم القيامة ويشاهدها الناس ويُقتص لبعضها من بعض، حتى إنه يقتص للبهيمة الجلحاء التي ليس لها قرن من البهيمة القرناء، فإذا اقتص من بعض هذه الوحوش لبعض أمرها الله تعالى فكانت ترابًا، وإنما يفعل ذلك - سبحانه وتعالى - لإظهار عدله بين خلقه ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، البحار جمع بحر وجمعت لعظمتها وكثرتها، فإنها تمثل ثلاثة أرباع الأرض تقريبًا أو أكثر. هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة، فإنها تُسجر، أي: توقد نارًا، تشتعل نارًا عظيمة وحينئذ تيبس الأرض، ولا يبق فيها ماء؛ لأن بحارها المياه العظيمة تسجّر حتى تكون نارًا ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، النفوس جمع نفس، والمراد بها الإنسان كله، فتزوّج النفوس يعني: يُضم كل صنف إلى صنفه؛ لأن الزوج يراد به الصنف، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]. أي: أصنافًا ثلاثة وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]. أي: أصناف، وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. أي: أصنافهم وأشكالهم فيوم القيامة يضم كل شكل إلى مثله، أهل الخير إلى أهل الخير، وأهل الشر إلى أهل الشر، وهذه الأمة يضم بعضها إلى بعض ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، لوحدها ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية ٢٨]. فإذنْ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، يعني: شكّلت وضُم بعضها إلى بعض كل صنف إلى صنفه، كل أمة إلى أمتها ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، الموءدة: هي الأنثى تُدفنُ حية، وذلك أنه في الجاهلية لجهلهم وسوء ظنهم بالله، وعدم تحملهم يعيّر بعضهم بعضًا إذا أتته الأنثى، فإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا، وهو كظيم، ممتلىء همًّا وغمًّا ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، يعني: يختفي منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل ٥٩]. يعني: إذا قيل؛ لأحدهم نبشرك أن الله جاء لك بأنثى - ببنت -

اغتم واهتم، وامتلأ من الغم والهم، وصار يفكر هل يبقي هذه الأنثى على هون وذل؟ أو يدسها في التراب ويستريح منها؟ فكان بعضهم هكذا، وبعضهم هكذا. فمنهم من يدفن البنت وهي حية، إما قبل أن تميز أو بعد أن تميز، حتى إن بعضهم كان يحفر الحفرة لبنته فإذا أصاب لحيته شيء من التراب نفضته عن لحيته، وهو يحفر لها؛ ليدفنها، ولا يكون في قلبه لها رحمة، وهذا يدلك على أن الجاهلية أمرها سفال، فإن الوحوش تحنو على أولادها وهي وحوش، وهؤلاء لا يحنون على أولادهم، يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾، أي: تسأل يوم القيامة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾، هل أذنبت؟ فإذا قال قائل: كيف تُسأل وهي المظلومة، هي المدفونة، ثم هي قد تدفن وهي لا تميز، ولم يجر عليها قلم التكليف، فكيف تسأل؟ قيل: إنها تُسأل توبيخًا للذي وأدها؛ لأنها تُسأل أمامه فيقال: بأي: ذنب قُتِلْتِ أو قُتِلَتْ؟ نظير ذلك لو أن شخصًا اعتدى على آخر في الدنيا؛ فأتوا إلى السلطان إلى الأمير فقال للمظلوم: بأي: ذنب ضربك هذا الرجل؟ وهو يعرف أنه معتدىً عليه ليس له ذنب. لكن من أجل التوبيخ للظالم، فالموءدة تُسأل بأي ذنب قتلت توبيخًا لظالمها وقاتلها ودافنها نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، الصحف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيها الأعمال. واعلم أيها الإنسان أن كل عمل تعمله من قول أو فعل، فإنه يكتب ويسجل بصحائف على يد أمناء كرام كاتبين يعلمون ما تفعلون، يسجل كل شيء تعمله حتى توافى به يوم القيامة، فإن الله - سبحانه وتعالى - يقول في كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، يعني: عمله في عنقه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]، أي: مفتوحًا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٤]، كلامنا الآن ونحن نتكلم يكتب، كلام بعضكم مع بعض يكتب، كل كلام يكتب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ولهذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١)، وقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢)؛ لأن كل شيء سيكتب عليه، ومن كثُر كلمُه كثُر سقَطه، يعني: الذي يُكثر الكلام يكثر منه السقط والزلات، فاحفظ لسانك، فإن الصحف سوف يكتب فيها كل ما تقول وسوف تنشر لك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، السماء الآن سقف محفوظ قوي شديد. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بقوة. وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]. أي: قوية. في يوم القيامة تكشط يعني: تُزال عن مكانها، كما يكشط الجلد عند سلخ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩١١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

البعير عن اللحم يكشطها الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم يطويها جل وعلا بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. يعني:، كما يطوي السجل الكتب، يعني: الكاتب إذا فرغ من كتابته طوى الورقة حفظًا لها عن التمزق وعن المحو، فالسماء تكشط يوم القيامة ويبقى الأمر فضاء إلا أن الله تعالى يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. يكون بدل السماء التي فوقنا الآن العرش؛ لأن السماء تطوى بيمين الله - عَزَّ وَجَلَّ - يطويها بيمينه ويهزها وكذلك يقبض الأرض ويقول: «أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»(١)، ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، الجحيم هي النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمة مرءاها. تُسعر أي: توقد. وما وقودها الذي توقد به؟ وقودها الذي وقد به قال الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. بدل ما توقد بالحطب والورق يكون الوقود الناس يعني: الكفار. والحجارة حجارة من نارٍ عظيمة شديدة الاشتعال شديدة الحرارة، هذا تسعير جهنم ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، الجنة دار المتقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿أُزْلِفَتْ﴾، يعني: قُرِّبت وزُيِّنت للمؤمنين، وانظر الفرق بين، هذا وذاك. دار الكفار تسعّر، توقد، ودار المؤمنين تزيّن وتقرّب ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، كل، هذا يكون يوم القيامة، فإذا قرأنا هذه الآيات: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، هذه اثنتا عشرة جملة إلى الآن لم يأت بالجواب؛ لأن كلها في ضمن الشرط ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فالجواب لم يأت بعد ماذا يكون إذا كانت هذه الأشياء؟ قال الله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أي: ما قدمته من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]. يعني: يكون محضرًا أيضًا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

فتعلم في ذلك اليوم كل نفس ما أحضرت من خير أو شر، في الدنيا نعلم ما نعمل من خير وشر لكن سرعان ما ننسى. نسينا الشيء الكثير لا من الطاعات، ولا من المعاصي، ولكن، هذا لن يذهب سدى، كما نسيناه؟، بل والله هو باق، فإذا كان يوم القيامة أحضرته أنت بإقرارك على نفسك بأنك عملته، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، فينبغي، بل يجب على الإنسان أن يتأمل في هذه الآيات العظيمة وأن يتعظ بما فيها من المواعظ، وأن يؤمن بها كأنه يراها رأي عين؛ لأن ما أخبر الله به وعلمنا مدلوله، فإنه أشد يقينًا عندنا مما شاهدناه بأعيننا أو سمعناه بأذاننا؛ لأن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧).

خبر الله لا يكذب، صدق، لكن ما نراه أو نسمعه كثيرًا ما يقع فيه الوهم. قد ترى الشيء البعيد شبحًا تعيِّنه في تصورك وهو خلاف الواقع وقد تسمع الصوت فتظنه شيئًا معينًا في ذهنك وهو خلاف الواقع فالوهم يَردُ على الحواس، لكن خبر الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ إذا علم مدلوله لا يمكن أبدًا أن يرد عليه شيء من الوهم؛ لأنه خبر صدق، فهذه الأمور التي ذكر الله في هذه الآيات أمور حقيقية يجب أن تؤمن بها كأنك تراها رأي عين ثم بعد الإيمان بها يجب أن تعمل بمقتضى ما تدل عليه من الاتعاظ والانزجار، والقيام بالواجب، وترك المنهيات؛ حتى تكون من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته.

قال الله تعالى:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، قد يظن بعض الناس أن (لا) نافية وليس كذلك، بل هي مثبتة للقسم ويؤتى بها بمثل، هذا التركيب للتأكيد. فالمعنى ﴿أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، والخنس جمع خانسة، وهي النجوم التي تخنس، أي: ترجع فبينما تراها في أعلى الأفق إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك والله أعلم لارتفاعها وبُعدها فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين، ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾، أصلها (الجواري) بالياء لكن حذفت الياء للتخفيف و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾، هي التي تكنس أي: تدخل في مغيبها؛ فأقسم الله بهذه النجوم ثم أقسم بالليل والنهار فقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ معنى قوله تعالى: ﴿عَسۡعَسَ﴾، يعني: أقبل، وقيل: معناه أدبر، وذلك أن الكلمة ﴿عَسۡعَسَ﴾، في اللغة العربية

تصلح لهذا وهذا. لكن الذي يظهر أن معناها «أقبل»؛ ليوافق أو؛ ليطابق ما بعده من القسم، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فيكون الله أقسم بالليل حال إقباله، وبالنهار حال إقباله، وإنما أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات لعظمها وكونها من آياته الكبرى، فَمَنْ يستطيع أن يأتي بالنهار إذا كان الليل، ومن يستطيع أن يأتي بالليل إذا كان النهار، قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١،٧٢]. قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

فهذه المخلوقات العظيمة يقسم الله بها لعظم المقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٤٠] ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، هو جبريل ﷺ، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي يُنَزِّلَهُ عليهم.

ووصفه الله بالكرم لحسن منظره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]. قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾، قال العلماء: المرة: الخلق الحسن والهيئة الجميلة، فكان جبريل ﷺ موصوفًا بهذا الوصف: ﴿كَرِيمٖ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة، فإن الرسول ﷺ رآه على صورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح قد سدّ الأفق كله من عظمته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾، أي: عند صاحب العرش، وهو الله جل وعلا، والعرش فوق كل شيء، وفوق العرش رب العالمين عز وجل. قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. فذو العرش هو الله.

وقوله تعالى: ﴿مَكِينٖ﴾، أي: ذو مكانة، أي: أن جبريل عند الله ذو مكانة وشرف، ولهذا خصه الله بأكبر النعم التي أنعم الله على عباده، وهو الوحي، فإن النعم لو نظرنا إليها لوجدنا أنها قسمان: نِعَم يستوي فيها البهائم والإنسان، وهي متعة البدن الأكل والشرب، والنكاح والسكن، هذه النعم يستوي فيها الإنسان والحيوان، فالإنسان يتمتع بما يأكل، وبما يشرب، وبما ينكح، وبما يسكن، والبهائم كذلك. ونِعمٌ أخرى يختص بها الإنسان، وهي الشرائع التي أنزلها الله على الرسل لتستقيم حياة الخلق؛ لأنه لا يمكن أن تستقيم حياة الخلق أو تطيب حياة الخلق إلا بالشرائع ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

المؤمن العامل بالصالحات هو الذي له الحياة الطيبة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة. والله لو فتشت الملوك وأبناء الملوك، والوزراء وأبناء الوزراء، والأمراء وأبناء الأمراء، والأغنياء وأبناء الأغنياء ممن ليسوا أهل الإيمان والعمل الصالح، لو فتشتهم وفتشت من آمن وعمل صالحًا

لوجدت الثاني أطيب عيشة، وأنعم بالًا، وأشرح صدرًا؛ لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي بيده مقاليد السموات والأرض تكفل. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾، فتجد المؤمن العامل للصالحات مسرور القلب، منشرح الصدر، راضيًا بقضاء الله وقدره، إن أصابه خير شكر الله على ذلك، وإن أصابه ضده صبر على ذلك واعتذر إلى الله مما صنع، وعلم أنه إنما أصابه بذنوبه فرجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنْ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(1)، وصدق النبي ﷺ، إذن أكبر نعمة أنزلها الله على الخلق هي نعمة الدين الذي به قوام حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، والحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، والدليل قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

فالدنيا ليست بشيء؛ الحياة حقيقة حياة الآخرة، والذي يعمل للآخرة يحيا حياة طيبة في الدنيا، فالمؤمن العامل للصالحات هو الذي كسب الحياتين: حياة الدنيا، وحياة الآخرة. والكافر هو الذي خسر الدنيا والآخرة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾، أي: هناك ﴿أَمِينٍ﴾، على ما كُلف به. جبريل هو المطاع فمن الذي يطيعه؟ قال العلماء: تطيعه الملائكة؛ لأنه ينزل بالأمر من الله فيأمر الملائكة فتطيع، فله إمرة وله طاعة على الملائكة. ثم الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين ينزل جبريل عليهم بالوحي لهم إمرة وطاعة على المكلفين ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

في هذه الآيات ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أقسم الله - عَزَّ وَجَلَّ - على أن، هذا القرآن قول، هذا الرسول الكريم الملكي جبريل ﷺ، وفي آية أخرى بين الله - سبحانه وتعالى - وأقسم أن هذا القرآن قول رسول كريم بشري في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤١].

فالرسول هنا في سورة التكوير رسول ملكي أي: من الملائكة، وهو جبريل ﷺ، والرسول هناك رسول بشري، وهو محمد ﷺ، والدليل على هذا واضح. هنا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، وهذا الوصف لجبريل؛ لأنه هو الذي عند الله، أما محمد ﷺ فهو في الأرض. هناك قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، ردًا لقول الكفار الذين قالوا إن محمدًا شاعر ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ فأيهما أعظم قسمًا؟

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ﴾، أو ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، الثاني أعظم، ليس فيه شيء أعمّ منه ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، كل الأشياء إما نبصرها أو لا نبصرها. إذن أقسم الله بكل شيء. وهنا أقسم بالآيات العلوية فقط ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، هذه آيات علوية أفقية تناسب الرسول الذي أقسم على أنه قوله، وهو جبريل؛ لأن جبريل عند الله.

فإذا قال قائل: كيف يصف الله القرآن بأنه قول الرسول البشري، والرسول الملكي؟

فنقول: نعم، الرسول الملكي بلغه إلى الرسول البشري، والرسول البشري، بلغه إلى الأمة، فصار قولًا، هذا بالنيابة، قول جبريل بالنيابة وقول محمد ﷺ بالنيابة، والقائل الأول هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فالقرآن قول الله حقيقة، وقول جبريل باعتبار أنه بلغه لمحمد ﷺ، وقول محمد ﷺ باعتبار أنه بلغه إلى الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾، أي: محمد رسول الله ﷺ وتأمل أنه قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾،فأضافه إليهم؛ليكون أشد لومًا وتوبيخًا لهم حين ردُّوا دعوته، كأنه قال: ما صاحبكم الذي تعرفونه وأنتم وإياه دائمًا، بقي فيهم أربعين سنة في مكة قبل النبوة يعرفونه، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يطلقون عليه اسم الأمين ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾، يعني: ليس مجنونًا، بل هو أعقل العقلاء ﷺ، أكمل الناس عقلًا، بلا شك وأسدّهم رأيًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾، أي: رأى محمدٌ جبريل ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾، والمبين أي: البين الظاهر العالي، فإن الرسول ﷺ رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها مرتين: مرة في غار حراء، ومرة في السماء السابعة لما عُرج به ﷺ، وهذه الرؤية هي التي في غار حراء؛ لأنه يقول ﴿رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ﴾، إذن محمد في الأرض ﴿وَمَا هُوَ﴾، يعني: ما محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، يعني: على الوحي الذي جاءه من عند الله ﴿بِضَنِينٖ﴾، بالضاد أي: ببخيل، فهو ﷺ ليس بمتهم في الوحي، ولا باخل به، بل هو أشد الناس بذلًا لما أوحي إليه، يعلم الناس في كل مناسبة، وهو أبعد الناس عن التهمة؛ لكمال صدقه ﷺ، وفي قراءة ﴿بظنين﴾، بالظاء المشالة، أي: بمتهم، من الظن، وهو التهمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، أي: ليس بقول أحد من الشياطين، وهم الكهنة الذين توحي إليهم الشياطين الوحي ويكذبون معه ويخبرون الناس فيظنونهم صادقين. قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنۡ﴾، هنا بمعنى (ما) وهذه قاعدة: «أنه إذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي بمعنى (ما)» أي: أنها تكون نافية؛ لأن «إن» تأتي نافية، وتأتي شرطية، وتأتي مخففة من الثقيلة، والذي يبين هذه المعاني هو السياق فإذا جاءت (إن وبعدها إلا) فهي نافية، أي: ما هو أي: القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ونزل به جبريل على قلبه ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ذكر يعني

التذكير والتذكّر، فهو تذكير للعالمين، وتذكر لهم، أي: أنهم يتذكرون به ويتعظون به (والمراد بالعالمين) من بُعث إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. فالمراد بالعالمين هنا من أرسل إليهم محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، ﴿لِمَن شَآءَ﴾، هذه الجملة بدل مما قبلها لكنها بإعادة العامل وهو (إلا) كأنه قال: «إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم»فخصَّ بعد التعميم وأما من لا يشاء الاستقامة، فإنه لا يتذكر بهذا القرآن، ولا ينتفع به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فالإنسان الذي لا يريد الاستقامة لا يمكن أن ينتفع بهذا القرآن، ولكن إذا قال قائل: هل مشيئة الإنسان باختياره؟

نقول: نعم مشيئة الإنسان باختياره. فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعل للإنسان اختيارًا وإرادة، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل؛ لأنه لو لم يكن كذلك لم تقم الحجة على الخلق الذين أرسلت إليه الرسل بإرسال الرسل، فما نفعله هو باختيارنا وإرادتنا، ولولا ذلك ما كان لإرسال الرسل حجة علينا، فالإنسان لا شك فاعل باختياره، وكل إنسان يعرف أنه إذا أراد أن يذهب إلى مكة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى المدينة فهو باختياره، وإذا أراد أن يذهب إلى بيت المقدس فهو باختياره وإذا أراد أن يذهب إلى الرياض فهو باختياره، أو إلى أي شيء أراده فهو باختياره لا يرى أن أحدًا أجبره عليه، ولا يشعر أن أحدًا أجبره على ذلك، كذلك أيضًا من أراد أن يقوم بطاعة الله فهو باختياره ومن أراد أن يعصي الله فهو باختياره، فللإنسان مشيئة، ولكن نعلم علم اليقين أنه ما شاء شيئًا إلا وقد شاءه الله من قبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠]، ما نشاء شيئًا إلا بعد أن يكون الله قد شاءه، فإذا شئنا الشيء علمنا أن الله قد شاءه، ولولا أن الله شاءه ما شئناه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فنحن إذا عملنا الشيء نعمله بمشيئتنا واختيارنا، ولكن نعلم أن هذه المشيئة والاختيار كانت بعد مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولو شاء الله ما فعلنا.

فإن قال قائل: إذن لنا حجة في المعصية؛ لأننا ما شئناها إلا بعد أن شاءها الله.

فالجواب: أنه لا حجة لنا؛ لأننا لم نعلم أن الله شاءها إلا بعد أن فعلناها، وفعلنا إياها باختيارنا، ولهذا لا يمكن أن نقول إن الله شاء كذا إلا بعد أن يقع، فإذا وقع فبأي شيء وقع؟ وقع بإرادتنا ومشيئتنا؛؛ لهذا لا يتجه أن يكون للعاصي حجة على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد أبطل الله هذه الحجة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فلولا أنه لا حجة لهم ما

ذاقوا بأس الله، ولسَلِموا من بأس الله، ولكنه لا حجة لهم؛ فلهذا ذاقوا بأس الله، وكلنا نعلم أن الإنسان لو ذُكر له أن، بلدًا آمنًا مطمئنًا، يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، فيه من المتاجر والمكاسب ما لا يوجد في البلاد الأخرى، وأن، بلدًا آخر، بلدٌ خائف غير مستقر، مضطرب في الاقتصاد، مضطرب في الخوف والأمن، فإلى أيهما يذهب؟ بالتأكيد سيذهب إلى الأول، ولا شك، ولا يرى أن أحدًا أجبره أن يذهب إلى الأول، يرى أنه ذهب إلى الأول بمحض إرادته، وهكذا الآن طريق الخير وطريق الشر، فالله بيّن لنا: هذه طريق جهنم وهذه طريق الجنة، وبيّن لنا ما في الجنة من النعيم، وما في النار من العذاب؛ فأيهما نسلك؟ بالقياس الواضح الجلي أننا سنسلك طريق الجنة لا شك، كما أننا في المثال الذي قبل نسلك طريق البلد الآمن الذي يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان.
لو أننا سلكنا طريق النار، فإنه سيكون علينا العتب والتوبيخ واللوم، ويُنادى علينا بالسفه، كما لو سلكنا في المثال الأول طريق البلد المخوف المتزعزع الذي ليس فيه استقرار، فإن كل أحد يلومنا ويوبخنا.

إذنْ ففي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، تقرير لكون الإنسان يفعل الشيء بمشيئته واختياره، ولكن بعد أن يفعل الشيء ويشاء الشيء نعلم أن الله قد شاءه من قبل ولو شاء الله ما فعله، وكثيرًا ما يعزم الإنسان على شيء يتجه بعد العزيمة على، هذا الشيء وفي لحظة ما يجد نفسه منصرفًا عنه، أو يجد نفسه مصروفًا عنه؛ لأن الله لم يشأه، كثيرًا ما نريد أن نذهب مثلًا إلى المسجد لنستمع إلى محاضرة، وإذا بنا ننصرف بسبب أو بغير سبب، أحيانًا بسبب، بحيث نتذكر أن لنا شغلًا فنرجع، وأحيانًا نرجع بدون سبب لا ندري إلا وقد صرف الله تعالى همتنا عن ذلك فرجعنا. ولهذا قيل لأعرابي بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم. (بنقض العزائم) يعني: الإنسان يعزم على الشيء عزمًا مؤكدًا وإذا به ينتقض!! من نقض عزيمته، لا يشعر، أن هناك مرجحًا أوجب أن يعدل عن العزيمة الأولى، بل بمحض إرادة الله (صرف الهمم) يهم الإنسان بالشيء ويتجه إليه تمامًا وإذا به يجد نفسه منصرفًا عنه سواء كان الصارف مانعًا حسيًّا أو كان الصارف مجرد اختيار، اختار الإنسان أن ينصرف، كل هذا من الله عز وجل.
فالحاصل أن الله يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، والاستقامة هي الاعتدال، ولا عدل أقوم من عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - في شريعته، في الشرائع السابقة كانت الشرائع تناسب حال الأمم زمانًا ومكانًا وحالًا، وبعد بعثة الرسول ﷺ، كانت شريعته تناسب الأمة التي بُعث النبي ﷺ إليها من أول بعثته إلى نهاية الدنيا. ولهذا كان من العبارات المعروفة «أن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان وحال». لو تمسك الناس به؛ لأصلح الله الخلق. انظر مثلًا الإنسان يصلي أولًا قائمًا، فإن عجز فقاعدًا، فإن عجز فعلى جنب، إذن الشريعة تتطور بحسب حال الشخص؛ لأن الدين صالح لكل زمان ومكان وحال.

يجب على المحدث أن يتطهر بالماء، فإن تعذر استعمال الماء لِعَجْزٍ أو عدمٍ عدل إلى التيمم، فإن لم يوجد ولا تراب، أو كان عاجزًا عن استعمال التراب، فإنه يصلي بلا شيء، لا بطهارة ماء ولا بطهارة تيمم، كل هذا؛ لأن شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كلها مبنية على العدل، ليس فيها جَوْرٌ، وليس فيها ظلم، ليس فيها حرج، وليس فيها مشقة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وضد الاستقامة انحرافان: انحراف إلى جانب الإفراط والغلو، وانحراف إلى جانب التفريط والتقصير، ولهذا كان الناس في دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثلاثة أشكال: طرفان ووسط، طرف غالٍ مبالغ متنطع متعنت، وطرف آخر مفرّط مقصّر مهمل. الثالث: وسط بين الإفراط والتفريط، مستقيم على دين الله، هذا هو الذي يُحمَد. أما الأول الغالي، والثاني الجافي فكلاهما هالك.. بحسب ما عنده من الغلو، أو من التقصير، وقد نهى النبي ﷺ عن الغلو والإفراط والتعنت والتنطع، حتى إنه قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»(١)؛ لأن التنطع فيه إشقاق على النفس وفيه خروج عن دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما أنه ذمّ المفرطين المهملين وقال في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. فدين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، ولهذا قال هنا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، لا يميل يمينًا، ولا شمالًا، يكون سيره سير استقامة على دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والاستقامة، كما تكون في معاملة الخالق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهي العبادة تكون أيضًا في معاملة المخلوق، فكن مع الناس بين طرفين، بين طرفي الشدة والغلظة والعبوس، وطرف التراخي والتهاون وبذل النفس وانحطاط الرتبة، كن حازمًا من وجه، ولين من وجه، ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في القاضي: «ينبغي أن يكون لينًا من غير ضعف، قويًا من غير عنف». فلا يكون لينه يشطح به إلى الضعف، ولا قوته إلى العنف، يكون بين ذلك؛ لينًا من غير ضعف، قويًا من غير عنف حتى تستقيم الأمور، فبعض الناس مثلًا يعامل الناس دائمًا بالعبوس والشدة وإشعار نفسه بأنه فوق الناس وأن الناس تحته، وهذا خطأ، ومن الناس من يحط قدر نفسه ويتواضع إلى حد التهاون وعدم المبالاة، بحيث يبقى بين الناس، ولا حرمة له، وهذا أيضًا خطأ، فالواجب أن يكون الإنسان بين، هذا وبين، هذا، كما هو هدي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه ﷺ يشتدّ في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين. فيجمع الإنسان هنا بين الحزم والعزم، واللين والعطف والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: لا يمكن أن تشاءوا شيئًا إلا وقد شاءه الله من قبل، فمشيئة الإنسان ما كانت إلا بعد مشيئة الله عز جل، لو شاء الله لم يشأ، ولو شاء الله ألّا يكون الشيء ما كان ولو شئته، حتى لو شئت والله تعالى لم يشأ، فإنه لن يكون، بل يقيض الله تعالى أسبابًا تحول بينك وبينه حتى لا يقع، وهذه مسألة يجب على الإنسان أن ينتبه لها، أن يعلم أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٦)، وأبو داود (٤٦٠٨).

فعله بمشيئته مشيئة تامة، بلا إكراه، لكن هذه المشيئة مقترنة بمشيئة الله. يعلم أنه ما شاء الشيء إلا بعد أن شاء الله، وأن الله لو شاء ألا يكون لم يشأه الإنسان، أو شاءه الإنسان، ولكن يحول الله بينه وبينه بأسباب وموانع، ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إشارة إلى عموم ربوبية الله، وأن ربوبية الله تعالى عامة، ولكن يجب أن نعلم أن العالمين هنا ليست كالعالمين في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، فالعالمين الأولى ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، من أُرسل إليهم الرسول، أما هنا ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فالمراد بالعالمين كل من سوى الله، فكل من سوى الله فهو عالم؛ لأنه ما ثمّ إلا رب ومربوب، فإذا قيل: رب العالمين تعيّن أن يكون المراد بالعالمين كل من سوى الله، كما قال الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ: «وكل ما سوى الله فهو عالم، وأنا واحد من ذلك العالم».

والحاصل: أن هذه السورة سورة عظيمة، فيها تذكرة وموعظة ينبغي للمؤمن أن يقرأها بتدبر وتمهل، وأن يتعظ بما فيها، كما أن الواجب عليه في جميع سور القرآن وآياته أن يكون كذلك حتى يكون ممن اتعظ بكتاب الله وانتفع به، نسأل الله تعالى أن يعظنا وإياكم بكتابه وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وآياته الكونية إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الانفطار

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١:١٢].

التفسير

البسملة سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، يعني: انشقت، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ يعني: النجوم صغيرها وكبيرها تنتثر وتتفرق وتتساقط؛ لأن العالم انتهى، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، أي: فُجر بعضها على بعض وملئت الأرض ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، أي: اخرج ما فيها من الأموات حتى قاموا لله - عَزَّ وَجَلَّ - فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، ﴿نَفْسٌ﴾، هنا نكرة لكنها بمعنى العموم إذ إن المعنى: علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، فكل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه ويخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا، ويقول له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وفي ذلك اليوم يقول المجرمون: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصاها، فيعلم الإنسان ما قدم وأخر، بينما هو في الدنيا

قد نسي، لكن يوم القيامة يعرض العمل فتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، والغرض من هذا تحذير العبد من أن يعمل مخالفة لله ورسوله؛ لأنه سوف يعلم بذلك ويحاسب عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، المراد بالإنسان هنا قيل: هو الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول، ظلوم كفار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فيقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ويخاطب الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن ديانته قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، يعني أي: شيء غرك بالله حيث تكذبه في البعث، تعصيه في الأمر والنهي، بل ربما يوجد من ينكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - فما الذي غرك؟! قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، إشارة إلى الجواب، وهو أن الذي غر الإنسان كرم الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإمهاله وحلمه، لكنه لا يجوز أن يغتر الإنسان بذلك، فإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، إذن ما غرك بربك الكريم؟

الجواب: كرمه وحلمه، هذا هو الذي غر الإنسان وصار يتمادى في المعصية في التكذيب، يتمادى في المخالفة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، خلقك من العدم، وأوجدك من العدم، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾، أي: جعلك مستوي الخلقة ليست يد أطول من يد، ولا رجل أطول من رجل، ولا أصبع أطول من أصبع، بحسب اليدين والرجلين، فتجد الطويل في يد هو الطويل في اليد الأخرى، والقصير هو القصير، وهلمَّ جرًّا، سوّى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الإنسان من كل ناحية من ناحية الخلقة ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وفي قراءة سبعية ﴿فعدَّلك﴾، أي: جعلك معتدل القامة، مستوي الخلقة لست كالبهائم التي لم تكن معدّلة، بل تسير على يديها ورجليها، أما الإنسان، فإنه خصّه الله بهذه الخصيصة، وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يعني: الله ركبك في أي: صورة شاء، من الناس من هو جميل، ومنهم من هو قبيح، ومنهم المتوسط، ومنهم الأبيض، ومنهم الأحمر، ومنهم الأسود، ومنهم ما بين ذلك، أي: صورة يركبك الله - عَزَّ وَجَلَّ - على حسب مشيئته، ولكنه - عَزَّ وَجَلَّ - شاء للإنسان أن تكون صورته أحسن الصور ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ﴿كَلَّا﴾، للاضراب يعني: مع، هذا الخلق والإمداد والإعداد تكذبون بالدين أي: بالجزاء، وتقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، فتكذبون بالدين أي: بالجزاء، وربما نقول: وتكذبون أيضًا بالدين نفسه، فلا تقرّون بالدين الذي جاءت به الرسل والآية شاملة لهذا وهذا؛ لأن القاعدة في علم التفسير وعلم شرح الحديث: «أنه إذا كان النص يحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، فإنه يُحمل عليهما». قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، تأكيد بمؤكدين «إن» و«اللام»، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، الإنسان عليه حافظ يحفظه ويكتب كل ما عمل، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فعلى كل إنسان حفظة يكتبون كل ما قال وكل ما فعل، وهؤلاء الحفظة كرام ليسوا لئامًا، بل

عندهم من الكرم ما ينافي أن يظلموا أحدًا، فيكتبوا عليه ما لم يعمل، أو يهدروا ما عمل؛ لأنهم موصوفون بالكرم، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، إما بالمشاهدة إن كان فعلًا، وإما بالسماع إن كان قولًا، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه، كما قال النبي ﷺ: «من هم بالحسنة فلم يعملها كتبت حسنة، ومن همّ بالسيئة ولم يعملها كتبت حسنة كاملة»(١)؛ لأنه تركها لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والأول يثاب على مجرد الهم بالحسنة.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٣:١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾، هذا بيان للنهاية والجزاء، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بر وهم كثيروا فعل الخير، المتباعدون عن الشر، قوله تعالى: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي: نعيم في القلب، ونعيم في البدن ولهذا لا تجد أحدًا أطيب قلبًا، ولا أنعم بالًا من الأبرار أهل البر، حتى قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، وهذا النعيم الحاصل يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما في الآخرة فالجنة، وأما في الدنيا فنعيم القلب وطمأنينته ورضاه بقضاء الله وقدره، فإن، هذا هو النعيم الحقيقي، ليس النعيم في الدنيا أن تترف بدنيًا، النعيم نعيم القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الفجار هم الكفار ضد الأبرار، وقوله تعالى: ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي: في نار حامية، وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني: يحترقون بها، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء وذلك يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لن يغيبوا عنها فيخرجوا منها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]؛ لأنهم مخلدون بها أبدًا ـ والعياذ بالله ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، هذا الاستفهام للتفخيم والتعظيم يعني أي: شيء أعلمك بيوم الدين؟ والمعنى أعلم، هذا اليوم، وأقدره قدره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، في يوم القيامة لا أحد يملك؛ لأحد شيئًا لا بجلب خير، ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، في الدنيا هناك أناس يأمرون من الأمراء، والوزراء، والرؤساء، والآباء، والأمهات، لكن في الآخرة الأمر لله - عَزَّ وَجَلَّ - ولا تملك نفس لنفس شيئًا إلا بإذن الله، ولهذا كان الناس في ذلك اليوم يلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، ثم يطلبون الشفاعة من آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إلى نبينا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيشفع بإذن الله فيريح الله العالم من الموقف، ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

فإن قال قائل: أليس الأمر لله في ذلك اليوم وفي غيره؟

قلنا: بلى الأمر لله تعالى في يوم الدين وفيما قبله، لكن ظهور أمره في ذلك اليوم أكثر بكثير من ظهور أمره في الدنيا؛ لأن في الدنيا يخالف الإنسان أوامر الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويطيع أمر سيده، فلا يكون الأمر لله بالنسبة لهذا، لكن في الآخرة ليس فيه إلا أمر لله عز وجل. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. والملك لله في الدنيا وفي الآخرة، لكن في ذلك اليوم يظهر ملكوت الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأمره، ويتبين أنه ليس هناك آمر في ذلك اليوم إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

تفسير سورة المطففين

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:١:٦].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾، كلمة ويل تكررت في القرآن كثيرًا، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها من خالف أمره، أو ارتكب نهيه على الوجه المفيد في الجملة التي بعدها فهنا يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فمن هؤلاء المطففون؟ الجواب: هؤلاء المطففون فسرتهم الآيات التي بعدها فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني: إذا اشتروا منهم ما يكال استوفوا منهم الحق كاملًا بدون نقص، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ يعني: إذا كالوا لهم أي: هم الذين باعوا الطعام كيلًا، فإنهم إذا كالوا للناس أو باعوا عليهم شيئًا وزنًا إذا وزنوا نقصوا، وقوله تعالى: ﴿يُخْسِرُونَ﴾، فهؤلاء يستوفون حقهم كاملًا، وينقصون حق غيرهم، فجمعوا بين الأمرين، بين الشح والبخل، الشح: في طلب حقهم كاملًا بدون مراعاة أو مسامحة، والبخل: بمنع ما يجب عليهم من إتمام الكيل والوزن، وهذا المثال الذي ذكره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبهه، كل من طلب حقه كاملًا ممن هو عليه ومنع الحق الذي عليه، فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلًا الزوج يريد من زوجته أن تعطيه حقه كاملًا،

ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون، ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشكي النساء من، هذا الطراز من الأزواج ـ والعياذ بالله ـ حيث إن كثيرًا من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملًا، لكنه هو لا يعطيها حقها كاملًا، ربما ينقص أكثر حقها من النفقة والعشرة بالمعروف وغير ذلك.

إن ظلم الناس أشد من ظلم الإنسان نفسه في حق الله؛ لأن ظلم الإنسان نفسه في حق الله تحت المشيئة إذا كان دون الشرك، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه عليه، لكن حق الآدميين ليس داخلًا تحت المشيئة لابد أن يوفى، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١)، فنصيحتي لهؤلاء الذين يفرطون في حق أزواجهم أن يتقوا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإن النبي ﷺ أوصى بذلك في أكبر مجمع شهده العالم الإسلامي في حياة الرسول ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، قال ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله»(٢)؛ فأمرنا أن نتقي الله تعالى في النساء وقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»(٣) أي: بمنزلة الأسرى؛ لأن الأسير إن شاء فكه الذي أسره، وإن شاء أبقاه، والمرأة عند زوجها كذلك إن شاء طلقها، وإن شاء أبقاها، فهي بمنزلة الأسير عنده فليتق الله فيها، كذلك أيضًا نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه، أن يبروه في المال، وفي البدن، وفي كل شيء يكون به البر، لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول، هذا مطفف، كما نقول في المسألة الأولى في مسألة الزوج مع زوجته إنه إذا أراد منها أن تقوم بحقه كاملًا، وهو يبخس حقها نقول إنه «مطفف»، هذا الأب الذي أراد من أولاده أن يبروه تمام البر، وهو مقصر في حقهم نقول إنك «مطفف» ونقول له تذكر قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، يعني: ألا يتيقن هؤلاء ويعلموا علم اليقين؛ لأن الظن هنا بمعنى اليقين، والظن بمعنى اليقين يأتي كثيرًا في القرآن مثل قوله تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، والترمذي (٢٤١٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٨٠).

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]. فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾، وهم يتيقنون أنهم ملاقوا الله، لكن الظن يستعمل بمعنى اليقين كثيرًا في اللغة العربية، وهنا يقول عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، ألا يتيقن هؤلاء أنهم مبعوثون أي: مخرجون من قبورهم لله رب العالمين، وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، هذا اليوم عظيم، ولا شك أنه عظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. عظيم في طوله، في أهواله، فيما يحدث فيه، في كل معنى تحمله كلمة عظيم، لكن، هذا العظيم هو على قوم عسير، وعلى قوم يسير، قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. لكنه بالنسبة للمؤمنين - جعلنا الله منهم - يسير كأنما يؤدي به صلاة فريضة من سهولته عليه ويسره عليه، لاسيما إذا كان ممن استحق هذه الوقاية العظيمة، وكان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فهذا اليوم عظيم لكنه بالنسبة للناس يكون يسيرًا ويكون عسيرًا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: هذا اليوم العظيم هو يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو الله - تبارك وتعالى - يقومون من قبورهم حفاة ليس لهم نعال، ولا خفاف، عراة ليس عليهم ثياب لا قُمص، ولا سراويل، ولا أزر، ولا أردية، غرلًا أي: غير مختونين بمعنى أن القلفة التي تقطع في الختان تعود يوم القيامة مع صاحبها، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ويعيده الله - عَزَّ وَجَلَّ - لبيان كمال قدرته تعالى، وأنه يعيد الخلق، كما بدأهم، والقلفة إنما قطعت في الدنيا من أجل النزاهة عن الأقذار؛ لأنها إن بقيت، فإنه ينحبس فيها شيء من البول وتكون عرضة للتلويث، لكن هذا في الآخرة لا حاجة إليه؛ لأن الآخرة ليست دار تكليف، بل هي دار جزاء إلا أن الله - سبحانه وتعالى - قد يكلف فيها امتحانًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣] ناس يقومون على، هذا الوصف حفاة، عراة، غرلًا، وفي بعض الأحاديث بُهمًا قال العلماء: البهم يعني: الذين لا مال معهم، ففي يوم القيامة لا مال يفدي به الإنسان نفسه من العذاب في يوم القيامة، ليس هناك ابن يجزي عن أبيه شيئًا، ولا أب يجزي عن ابنه شيئًا، ولا صاحبة، ولا قبيلة كلٌّ يقول نفسي نفسي كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. نسأل الله تعالى أن يعيننا على أهواله وأن ييسره علينا. قال الله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو الله جل وعلا، وفي، هذا اليوم تتلاشى جميع الأملاك إلا ملك رب العالمين جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٦ - ١٧].

❁ **قال الله تعالى:**

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم
مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ٧-١٧].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، ﴿كَلَّآ﴾، فإذا وردت في القرآن لها معانٍ حسب السياق، قد تكون حرف ردع وزجر، وقد تكون بمعنى حقًّا، وقد يكون لها معانٍ أخرى يعينها السياق؛ لأن الكلمات في اللغة العربية ليس لها معنى ذاتي لا تتجاوزه، بل كثير من الكلمات العربية لها معانٍ تختلف بحسب سياق الكلام، في هذه الآية يقول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، فتحتمل أن تكون بمعنى حقًّا إن كتاب الفجار لفي سجين، أو تكون بمعنى: الردع عن التكذيب بيوم الدين، وعلى كل حال فبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كتاب الفجار ـ وهم الكفار ـ في سجين، والسجين قال العلماء: إنه مأخوذ من السجن، وهو الضيق، أي: في مكان ضيق، وهذا المكان الضيق هو نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤]. وجاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «اكتبوا كتاب عبدي في السجين يعني: ـ الكافر ـ في الأرض السابعة السفلى»(١) فسجين هو أسفل ما يكون من الأرض الذي هو مقر النار نعوذ بالله منها فهذا الكتاب في سجين ثم عظم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هذا السجين بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فالاستفهام هنا للتعظيم أي: ما الذي أعلمك بسجين؟ وهل بحثت عنه؟ وهل سألت عنه حتى يبين لك، والتعظيم قد يكون لعظمة الشيء رفعة، وقد يكون لعظمة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الشيخ الألباني «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

الشيء نزولًا، وهذا التعظيم في سجين ليس لرفعته وعلوه، ولكنه لسفوله ونزوله، ثم قال تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾، كتاب هذه لا تعود على سجين، وإنما تعود على كتاب في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، فما هذا الكتاب فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، يعني: مكتوب لا يزاد فيه، ولا ينقص، ولا يبدل، ولا يغيّر، بل، هذا مآلهم ومقرهم ـ والعياذ بالله ـ أبد الآبدين.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ويل سبق الكلام عليها في أول هذه السورة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الكلام من أول السورة إلى آخرها كله في يوم الدين والجزاء، هؤلاء الذين يكذبون بيوم الدين توعدهم الله بالويل؛ لأن هؤلاء المكذبين بيوم الدين لا يمكن أن يستقيموا على شريعة الله. لا يستقيم على شريعة الله إلا من آمن بيوم الدين؛ لأن من لم يؤمن به، وآمن بالحياة فقط، فهو لا يهتم بما ورائها، ولا يعمل لذلك، وإنما يبقى كالأنعام يتمتعون ويأكلون، كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. والله يقرن الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر دائمًا؛ لأن الإيمان بالله ابتداء والإيمان باليوم الآخر انتهاء. فتؤمن بالله ثم تعمل لليوم الآخر الذي هو المقر، فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ كذبوا بيوم الدين، ومن كذب به لا يمكن أن يعمل له أبدًا؛ لأن العمل مبني على عقيدة، فإذا لم يكن هناك عقيدة فكيف يعمل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ما يكذب بيوم الدين وينكره ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾،: ﴿مُعْتَدٍ﴾، في أفعاله ﴿أثيم﴾، في أقواله، وقيل: ﴿مُعْتَدٍ﴾، في أفعاله ﴿أَثِيمٍ﴾، في كسبه أي: أن مآله إلى الإثم، والمعنيان متقاربان فلا يمكن أن يكذب بيوم الدين إلا رجل معتد أثيم، آثم كاسب للآثام التي تؤدي به إلى نار جهنم نعوذ بالله.

قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، يعني: إذا تلاها عليه أحد، وهو يدل على أن، هذا الرجل لا يفكر أن يتلو آيات الله، ولكنها تتلى عليه فإذا تليت عليه ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه أساطير الأولين وأساطير: جمع أسطورة وهي الكلام اللغو الذي يذكر للتسلي، ولا حقيقة له، ولا أصل له، فيقول: هذا القرآن أساطير الأولين، ولم ينتفع بالقرآن، وهو أبلغ الكلام وأشده تأثيرًا على القلب حتى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ لأنه يكذب بيوم الدين، وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم، فلم يكن مؤمنًا فلم يصل نور آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى قلبه، بل يراها مثل أساطير الأولين التي يتكلم بها العجائز وليس لها أي حقيقة وليس فيها أي جد.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ﴾ أي: ليست أساطير الأولين، ولكن هؤلاء ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: اجتمع عليها وحجبها عن الحق ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من الأعمال السيئات؛ لأن الأعمال السيئات تحول بين المرء وبين الهدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. فمن اهتدى بهدي الله واتبع ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وصدق بما أخبر الله به، وفعل مثل ذلك فيما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فلا شك أن قلبه

يستنير وأنه يرى الحق حقًّا، ويرى الباطل باطلًا، ويعظم آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويرى أنها فوق كل كلام، وأن هدي محمد ﷺ فوق كل هدي، هذا من أنار الله قلبه بالإيمان، أما من تلطخ قلبه بأرجاس المعاصي وأنجاسها، فإنه لا يرى هذه الآيات حقًّا، بل لا يراها إلا أساطير الأولين، كما في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وفي ﴿بَلْ﴾، سكتة لطيفة عند بعض القراء وعند آخرين لا سكتة فيجوز على، هذا أن تقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾، ويجوز أن تقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهذه لا تغير المعنى سواء سكتّ أم لم تسكت فالمعنى لا يتغير. قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، أي: حقًّا إنهم عن ربهم لمحجوبون، وذلك في يوم القيامة، فإنهم يحجبون عن رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما حُجبوا عن رؤية شريعته وآياته فرأوا أنها أساطير الأولين. وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ووجه الدلالة ظاهر، فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، فإذا كان هؤلاء محجوبون، فإن الأبرار غير محجوبين، ولو كان الحجب لكل منهم لم يكن لتخصيصه بالفجار فائدة إطلاقًا.

ورؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثابتة بالكتاب، ومتواتر السنة، وإجماع الصحابة والأئمة، لا إشكال في، هذا أنه تعالى يُرى حقًّا بالعين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقد فسر النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى، وكما في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدل به السلف على رؤية الله، واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآية دليل عليهم؛ لأن الله لم ينف بها الرؤية، وإنما نفى الإدراك، ونفي الإدارك يدل على ثبوت أصل الرؤية.

فالحاصل: أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حقًّا بالعين، وكذلك جاءت السنة الصحيحة بذلك حيث قال النبي ﷺ «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»(١)، وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»(٢)، وقد آمن بذلك الصحابة ـ رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من سلف هذه الأمة وأئمتها، وأنكر ذلك من حُجبت عقولهم وقلوبهم عن الحق فقالوا: إن الله لا يمكن أن يُرى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٦٣٣).

بالعين، وإنما المراد بالرؤية في الآيات هي رؤية القلب أي: اليقين، ولا شك أن هذا قول باطل مخالف للقرآن والسنة وإجماع السلف، ثم إن اليقين ثابت لغيرهم أيضًا حتى الفجار يوم القيامة سوف يرون ما وُعدوا به حقًّا ويقينًا، وليس هذا موضع الإطالة في إثبات رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - والمناقشة في أدلة الفريقين؛ لأن الأمر ولله الحمد من الوضوح أوضح من أن يطال الكلام فيه،قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: هؤلاء الفجار، وقوله تعالى: ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: يصلونها يصلون حرارتها أو عذابها نسأل الله العافية، ثم يقال تقريعًا لهم وتوبيخًا في قوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فيجتمع عليهم العذاب البدني والألم البدني بصلي النار وكذلك العذاب القلبي بالتوبيخ والتنديم حيث قال تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، ولهذا يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنعام:٢٧] قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ولما ذكر الله - تعالى - أحوال الفجار ومالهم من العذاب، ذكر أحوال الأبرار وما لهم من النعيم قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢٨].

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، هذه الآية يذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - خبرًا مؤكدا «بإن»؛ لأن ﴿إِنَّ﴾، في اللغة العربية من أدوات التوكيد، فإنك إذا قلت: الرجل قائم، هذا خبر غير مؤكد، فإذا قلت: إن الرجل قائم. صار خبرًا مؤكدًا فيقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾، وهذا مقابل قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ فكتاب الفجار في سجين في أسفل الأرض، وكتاب الأبرار في عليين في أعلى الجنة، أي: أنهم في، هذا المكان

العالي قد كُتب ذلك عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي: ما الذي أعلمك ما عليون؟ وهذا الاستفهام يراد به التفخيم والتعظيم. يعني أي: شيء أدراك به، فإنه عظيم قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ هذا بيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم مكتوب لا يتغير، ولا يتبدل، وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يشهده أي: يحضره، أو يشهد به المقربون، و﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله هم الذين تقربوا إلى الله - سبحانه وتعالى - بطاعته. وكلما كان الإنسان أكثر طاعة لله كان أقرب إلى الله. وكلما كان الإنسان أشد تواضعًا لله كان أعز عند الله، وكان أرفع عند الله، قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

فالمقربون هم الذين تقربوا إلى الله تعالى بصالح الأعمال، فقربهم الله من عنده ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، الأبرار: جمع بر، والبر كثير الخير، كثير الطاعة، كثير الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله، فهؤلاء الأبرار الذين منّ الله عليهم بفعل الخيرات، وترك المنكرات أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ والنعيم هنا يشمل نعيم البدن ونعيم القلب، أما نعيم البدن فلا تسأل عنه، فإن الله - سبحانه وتعالى - قال في الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأما نعيم القلب فلا تسأل عنه أيضًا، فإنهم يقال لهم وقد شاهدوا الموت قد ذبح يقال لهم: يا أهل الجنة خلود، ولا موت ويقال لهم: ادخلوها بسلام، ويقال لهم: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وأن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وكل هذا مما يدخل السرور على القلب فيحصل لهم بذلك نعيم القلب ونعيم البدن، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] جعلنا الله منهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأرائك: جمع أريكة وهي السرير المزخرف المزيّن الذي وَضع عليه مثل الظل، وهو من أفخر أنواع الأَسِرَّةِ فهم على الأرائك على هذه الأَسِرَّةِ الناعمة الحسنة البهية، وقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾، يعني: ينظرون ما أنعم الله به عليهم من النعيم الذي لا تدركه الأنفس الآن كما بينه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال بعض العلماء: إن هذا النظر يشمل حتى النظر إلى وجه الله، وجعلوا هذه الآية من الأدلة على ثبوت رؤية الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الجنة، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: تعرف أيها الناظر إليهم، قوله تعالى: ﴿فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: حسن النعيم وبهاؤه، أي: التنعم، وأنتم تشاهدون الآن في الدنيا أن المنعمين المترفين وجوههم غير وجوه الكادحين العاملين. تجدها نضرة، تجدها حسنة، تجدها منعمة؛ فأهل الجنة تعرف في وجوههم نضرة النعيم أي: التنعم

والسرور؛ لأنهم أسرَّ ما يكون، وأنعم ما يكون، ثم قال الله ـ تعالى ـ في بيان ما لهم من النعيم: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، الضمير في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ﴾، يعني: الأبرار، يسقيهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأيدي الخدم الذين وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧:١٩].

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي: من شراب خالص لا شوب فيه، ولا ضرر فيه على العقل، ولا ألم فيه في الرأس، بخلاف شراب الدنيا، فإنه يغتال العقل ويصدع الرأس، أما هذا فإنه رحيق خالص ليس فيه أي: أذى، وقوله تعالى: ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، أي: بقيته وآخره مسك أي: طيّب الريح. بخلاف خمر الدنيا، فإنه خبيث الرائحة. فهؤلاء القوم الأبرار لما حبسوا أنفسهم عن الملاذ التي حرمها الله عليهم في الدنيا أعطوها يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي: وفي، هذا الثواب والجزاء ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي: فليتسابق المتسابقون سباقًا يصل بهم إلى حد النفس، وهو كناية عن السرعة في المسابقة. يقال: نافسته أي: سابقته سباقًا، بلغ بي النفس، والمنافسة في الخير هي المسابقة إلى طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإلى ما يرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والبعد عما يسخط الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: مزاج، هذا الشراب الذي يُسقاه هؤلاء الأبرار ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من عين رفيعة معنى وحسًّا، وذلك؛ لأن أنهار الجنة تفجّر من الفردوس، والفردوس هو أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما ثبت ذلك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهذا الشراب يمزج بهذا الطيب الذي يأتي من التسنيم أي: من المكان المسنَّم الرفيع العالي، وهو جنة عدن، وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: أن هذه العين والمياه النابعة، والأنهار الجارية يشرب بها المقربون.

وهنا سيقول قائل: لماذا قال تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؟ هل هي إناء يُحمل حتى يقال شرب بالإناء؟

فالجواب: لا؛ لأن العين والنهر لا يُحمل. إذن لماذا لم يقل يشرب منها المقربون؟ والجواب عن، هذا الإشكال من أحد وجهين: فمن العلماء من قال: (الباء) بمعنى (من) فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشرب منها. ومنهم من قال: إن يشرب بمعنى يروى ضمّنت معنى يروى فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يروى بها المقربون. وهذا المعنى أو هذا الوجه أحسن من الوجه الذي قبله؛ لأن هذا الوجه يتضمن شيئين يرجحانه وهما: أولًا: إبقاء حرف الجر على معناه الأصلي. والثاني: أن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾، ضُمِّنَ معنى أعلى من الشرب، وهو الري، فكم من إنسان يشرب، ولا يروى، لكن إذا روي فقد شرب، وعلى، هذا فالوجه الثاني أحسن، وهو أن يضمّن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾، بمعنى: يروى.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي: قاموا بالجرم، وهو المعصية والمخالفة ﴿كَانُوا﴾، أي: في الدنيا ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً، وسخرية، واستصغارًا لهم، ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ الفاعل يصح أن يكون إذا مر المؤمنون بالمجرمين، أو إذا مر المجرمون بالمؤمنين، والقاعدة التي ينبغي أن تفهم في التفسير: ان الاية إذا احتملت معنيين لا ينافي أحدهما الآخر وجب حملها على المعنيين؛ لأن ذلك أعم، فإذا جعلناها للأمرين صار المعنى: أن المجرمين إذا مروا بالمؤمنين وهم جلوس تغامزوا، وإذا مر المؤمنون بالمجرمين وهم جلوس تغامزوا أيضًا فتكون شاملة للحالين: حال مرور المجرمين بالمؤمنين، وحال مرور المؤمنين بالمجرمين. قوله تعالى: ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يعني: يغمز بعضهم بعضًا، انظر إلى هؤلاء سخرة واستهزاء واستصغارًا. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾، فإذا انقلب المجرمون إلى أهلهم ﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾، يعني: متفكهين بما نالوه من السخرية بهؤلاء المؤمنين، فهم يستهزؤن ويسخرون ويتفكهون بهذا، ظنًّا منهم أنهم نجحوا وأنهم غلبوا المؤمنين، ولكن الأمر بالعكس.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي: رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ضالون عن الصواب، متأخرون، متزمتون متشددون إلى غير ذلك من الألقاب، ولقد كان لهؤلاء السلف خلف في زماننا اليوم وما قبله وما بعده، من الناس من يقول عن أهل الخير: إنهم رجعيون، إنهم متخلفون ويقولون عن المستقيم: إنه متشدد متزمت، وفوق، هذا كله من قالوا للرسل عليهم الصلاة والسلام إنهم سحرة أو مجانين، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. فورثة الرسل من أهل العلم والدين سينالهم من أعداء الرسل ما نال الرسل من ألقاب السوء والسخرية وما أشبه

ذلك، ومن، هذا تلقيب أهل البدع أهل التعطيل للسلف أهل الإثبات بأنهم حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك من ألقاب السوء التي ينفرون بها الناس عن الطريق السوي، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: أن هؤلاء المجرمين ما بعثوا حافظين لهؤلاء يرقبونهم ويحكمون عليهم، بل الحكم لله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ اليوم يعني: يوم القيامة، الذين آمنوا يضحكون من الكفار فـ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾، مبتدأ و﴿يَضۡحَكُونَ﴾، خبره و﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، متعلق بيضحكون، والمعنى: فالذين آمنوا يضحكون اليوم من الكفار، وهذا والله هو الضحك الذي لا بكاء بعده، أما ضحك المجرمين بالمؤمنين في الدنيا فسيعقبه البكاء والحزن والويل والثبور، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، أي: أن المؤمنين على الأرائك في الجنة، والأرائك هي السرر الفخمة الحسنة النضيرة ﴿ينظرون﴾، أي: ينظرون ما أعد الله لهم من الثواب، وينظرون أولئك الذين يسخرون بهم في الدنيا، ينظرون إليهم وهم في عذاب الله، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٤]. يقول؛ لأصحابه في الجنة: يعرض عليهم أن يطلعوا إلى قرينه الذي كان في الدنيا ينكر البعث ويكذب به وقوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، أي: في قعره وأصله قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦،٥٧] ؛ فأنت ترى أن المؤمنين يرون الكفار وهم يعذبون في قعر النار والمؤمنون في الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ﴿ثُوِّبَ﴾، أي: جوزي، و﴿هَلۡ﴾، هنا للتقرير أي: أن الله تعالى قد ثوب الكفار وجازاهم جزاء فعلهم في الدنيا، وهو - سبحانه وتعالى - حكم عدل. فحكمه دائر بين العدل والفضل، بالنسبة للذين آمنوا حكمه وجزاؤه فضل، وبالنسبة للكافرين حكمه وجزاؤه عدل - فالحمد لله رب العالمين - وبهذا تم الكلام الذي يسره الله - عَزَّ وَجَلَّ - على سورة المطففين نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به، وأن يجعلنا من المتعظين الواعظين. إنه جواد كريم.

تفسير سورة الانشقاق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ
(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا
الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا
(١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١: ١٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، انشقت: انفتحت وانفرجت كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٧:٣٩]. إذن فانشقاقها يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أذنت: بمعنى استمعت وأطاعت أمر ربها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن تنشق فانشقت بينما هي كانت وكما وصفها الله تعالى في قوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]. قوية، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. أي: بقوة فهذه السماء القوية العظيمة تنشق يوم القيامة تتشقق تتفرج بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: حق لها أن تأذن، أي:

تسمع وتطيع؛ لأن الذي أمرها الله ربها خالقها - عَزَّ وَجَلَّ - فتسمع وتطيع، كما أنها سمعت وأطاعت في ابتداء خلقها، ففي ابتداء خلقها قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فتأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع لله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق. في ابتداء الخلق قال تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، في انتهاء الخلق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ حُق لها أن تأذن تسمع وتطيع. ثم أعاد الله تعالى فقال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ تأكيدًا لاستماعها لربها وطاعتها لربها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، هذه الأرض التي نحن عليها الآن هي غير ممدودة، أولًا: أنها كرة مدورة، وإن كانت جوانبها الشمالية والجنوبية منفتحة قليلًا - أي: ممتدة قليلًا - فهي مدورة الآن.

ثانيًا: ثم هي أيضًا معرجة فيها المرتفع جدًا، وفيها المنخفض، فيها الأودية، فيها السهول، فيها الرمال، فهي غير مستوية لكن يوم القيامة، ووقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، أي: تمد مدًّا واحدًا كمد الأديم يعني: كمد الجلد، كأنما تفرش جلدًا أو سماطًا، تُمد حتى إن الذين عليها - وهم الخلائق - يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، لكن الآن لا ينفذهم البصر، لو امتد الناس على الأرض لوجدت البعيدين منخفضين لا تراهم لكن يوم القيامة إذا مُدت صار أقصاهم مثل أدناهم، كما جاء في الحديث: «يَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُم البَصَرُ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، تلقي هذه الجثث فيخرجون من قبورهم لله - عَزَّ وَجَلَّ - كما بدأهم أول خلق، أي: كما خرجوا من بطون أمهاتهم يخرجون من بطون الأرض، وأنت خرجت من بطن أمك حافيًا، عاريًا، أغرلًا إلا أن بعض الناس قد يخلق مختونًا لكن عامة الناس يخرجون من بطون أمهاتهم غرلًا كذلك تخرج من بطن الأرض يوم القيامة حافيًا ليس عليك نعال، عاريًا ليس عليك كساء، أغرلًا لست مختونًا، ولما حدّث النبي ﷺ بذلك قالت عائشة: يا رسول الله: الرجال والنساء جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»(٢)، الأمر شديد، كل إنسان لاهٍ عن نفسه لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. والإنسان إذا تصور الناس في ذلك الوقت مجرد تصور، فإنه يرتعب ويخاف، وإذا كان عاقلًا مؤمنًا عمل لهذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، أذنت يعني: استمعت وأطاعت لربها وحقت فبعد أن كانت مدورة فيها المرتفع والنازل صارت كأنها جلد ممتدة امتدادًا واحدًا.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، الكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، يعني: أنك تكدح كدحًا يوصلك إلى ربك، كدحًا يوصل إلى الله، يعني: أن منتهى كدحك مهما كنت ينتهي إلى الله؛ لأننا سنموت وإذا متنا رجعنا إلى الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ فمهما عملت، فإن المنتهى هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، حتى العاصي كادح كَدْحًا غايته الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. لكن الفرق بين المطيع والعاصي: أن المطيع يعمل عملًا يرضاه الله، يصل به إلى مرضاة الله يوم القيامة، والعاصي يعمل عملًا يغضب الله، لكن مع ذلك ينتهي إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، يعم كل إنسان مؤمن وكافر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، الفاء يقول النحويون: إنها تدل على الترتيب والتعقيب، يعني؛ فأنت ملاقيه عن قرب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. وكل آت قريب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وإذا شئت أن يتبين لك أن ملاقاة الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قريبة فانظر ما مضى من عمرك الآن، لو مضى لك مئة سنة كأنها هذه السنوات ساعة واحدة. كل الذي مضى من أعمارنا كأنه ساعة واحدة. إذن هو قريب، ثم إذا مات الإنسان، فالبرزخ الذي بين الحياة الدنيا والآخرة قريب قريب كاللحظة، والإنسان إذا نام نومًا هادئًا ولنقل نام أربعًا وعشرين ساعة، وقام، فإنه يقدر النوم بدقيقة واحدة مع أنه نام أربعًا وعشرين ساعة، فإذا كان، هذا في مفارقة الروح في الحياة يمضي الوقت بهذه السرعة، فما بالك إذا كانت الروح بعد خروجها من البدن مشغولة إما بنعيم أو جحيم، ستمر السنوات على الإنسان كأنها لا شيء؛ لأن امتداد الزمن في حال يقظتنا ليس كامتداد الزمن في حال نومنا، فالإنسان المستيقظ من طلوع الشمس إلى زوال الشمس مسافة يحس بأن الوقت طويل، لكن لو كان نائمًا ما كأنها شيء، والذي أماته الله مئة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وأصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فلما بُعثوا قال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وهذا يدل على أن الإنسان يتعجب كيف تذهب السنوات على هؤلاء الأموات؟ نقول نعم، السنوات ما كأنها إلا دقيقة واحدة؛ لأن حال الإنسان بعد أن تفارق الروح بدنه سواء كانت مفارقة كلية أم جزئية غير حاله إذا كانت الروح في البدن، فإذا كانت الروح في البدن يعاني من المشقة والمشاكل والهواجس والوساوس أشياء تطيل عليه الزمن، لكن في النوم يتقلص الزمن كثيرًا، وفي الموت يتقلص أكثر وأكثر، فهؤلاء الذين ماتوا منذ سنين طويلة كأنهم لم يموتوا إلا اليوم لو بعثوا لقيل لهم كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وهذه مسألة قد يرد على الإنسان فيها إشكال، ولكن لا إشكال في الموضوع مهما طالت المدة بأهل القبور، فإنها

قصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: (بالفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب، وما أسرع أن تلاقي الله عز وجل.

ثم قسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الناس عند ملاقاته تعالى إلى قسمين: منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه من وراء ظهره،قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، لما ذكر أن الإنسان كادح إلى ربه ﴿كَدْحًا﴾ أي: عامل بجد ونشاط وأن عمله، هذا ينتهي إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]. لما ذكر، هذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء العاملين منهم من يؤتى كتابه بيمينه، ومنهم من يؤتى كتابه من وراء ظهره وفي قوله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾، و﴿أُوتِيَ﴾، هنا فعل مبني لما لم يسم فاعله، فمن الذي يؤتيه؟ يحتمل أنه الملائكة، أو غير ذلك لا ندري، المهم أنه يعطى كتابه بيمينه أي: يستلمه باليمنى.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، أي: يحاسبه الله تعالى بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب يسير ليس فيه أي: عسر، كما جاءت بذلك السنة: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، فيقول: عملت كذا، عملت كذا، عملت كذا، ويقر بذلك، ولا ينكر فيقول الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١)، ولا شك أن، هذا حساب يسير يظهر فيه منّة الله على العبد، وفرحه بذلك واستبشاره. والمحاسب له هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ينقلب من الحساب إلى أهله في الجنة مسرورًا، أي: مسرور القلب، وقد أخبر النبي ﷺ أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر؛ ليلة البدر، ثم هم بعد ذلك درجات، وهذا يدل على سرور القلب؛ لأن القلب إذا سُر استنار الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه وراء ظهره وليس عن يمينه، وفي الآية الأخرى في سورة الحاقة يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]. فقيل: إن من لا يؤتى كتابه بيمينه ينقسم إلى قسمين: منهم من يؤتى كتابه بالشمال، ومنهم من يؤتى كتابه وراء ظهره، والأقرب والله أعلم أنه يؤتى كتابه بالشمال، ولكن تلوى يده حتى تكون من وراء ظهره، إشارة إلى أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره، فيكون الأخذ بالشمال ثم تلوى يده إلى الخلف إشارة إلى أنه قد ولى ظهره كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولم يبال به، ولم يرفع به رأسًا، ولم ير بمخالفته بأسًا.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، أي: يدعو على نفسه بالثبور، يقول: واثبوراه يا ويلاه، وما أشبه ذلك من كلمات الندم والحسرة، ولكن هذا لا ينفع في ذلك اليوم؛ لأنه انتهى وقت العمل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

فوقت العمل، هو في الدنيا، أما في الآخرة فلا عمل، وإنما هو الجزاء، وقوله تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، أي: يصلى النار التي تسعر به ويكون مخلدًا فيها أبدًا؛ لأنه كافر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، إنه كان في الدينا في أهله مسرورًا، ولكن، هذا السرور أعقبه الندم والحزن الدائم المستمر، واربط بين قوله تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه بقوله تعالى: ﴿وينقلب إلى أهله مسرورًا﴾، وهذا في قوله تعالى: ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ تجد فرقًا بين السرورين، فسرور الأول سرور دائم - نسأل الله أن يجعلنا منهم - وسرور الثاني سرور زائل، ذهب ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، أما الآن فلا سرور عنده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ألا يرجع بعد الموت، ولهذا كانوا ينكرون البعث ويقولون لا بعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي: سيحور ويرجع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، يعني: أنه سيرجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو بصير بأعماله، وسوف يحاسبه عليها على ما تقتضيه حكمته وعدله.

قال الله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا
عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ١٦-٢٥].

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذه الجملة مكونة من قسم، ومُقسم به، ومقسم عليه، ومُقسِم، فالقسم في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾، قد يظن الظان أن معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ هل هذا نفي؟ الجواب: لا ولكن هذا إثبات و﴿لَآ﴾ هنا جيء بها للتنبيه، ولو حذفت في غير القرآن لاستقام الكلام ولها نظائر مثل، قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وكلها يقول العلماء: إن (لا) فيها للتنبيه، وأن القسم مثبت، أما المقسِم فهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو مُقسِم ومُقسَم به، فهو سبحانه مقسم، أما المقسَم به في هذه الآية فهو الشفق وما عطف عليه.

فإن قال قائل: لماذا يقسم الله على خبره، وهو سبحانه الصادق، بلا قسم؟ وكذلك يقسم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على خبره، وهو صادق، بلا قسم؟

الجواب: قلنا: إن القسم يؤكد الكلام، والقرآن الكريم نزل باللسان العربي وإذا كان من عادتهم أنهم يؤكدون الكلام بالقسم صار، هذا الأسلوب جاريًا على اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، الشفق هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس. وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء، هذا قول أكثر العلماء وبعضهم قال: إذا غاب البياض، وهو يغيب بعد الحمرة بنحو نصف ساعة، لكن الذي عليه الجمهور، ويقال: إن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ رجع إليه: هو أن الشفق هو الحمرة وإذا غاب، هذا الشفق، فإنه يدخل وقت العشاء ويخرج وقت المغرب، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، هذا أيضًا مقسم به معطوف على الشفق، يعني: وأقسم بالليل وما وسق، وهذان قسمان ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الليل معروف ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي: ما جمع؛ لأن الليل يجمع الوحوش والهوام وما أشبه ذلك، تجتمع وتخرج وتبرز من جحورها وبيوتها، وكذلك ربما يشير إلى اجتماع الناس بعضهم إلى بعض، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، القمر معروف. ومعنى ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، يعني: إذا اجتمع نوره وتم وكمل، وذلك في؛ ليالي الإبدار؛ فأقسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿بالليل وما وسق﴾، أي: ما جمع. وبالقمر؛ لأنه آية الليل، ثم قال بعد ذلك: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، والخطاب هنا لجميع الناس، أي: لتتحولن حالًا عن حال، وهو يعني: أن الأحوال تتغير فيشمل أحوال الزمان، وأحوال المكان، وأحوال الأبدان، وأحوال القلوب:

الأول: أحوال الزمان تتنقل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فيوم يكون فيه السرور والانشراح وانبساط النفس، ويوم آخر يكون بالعكس، حتى إن الإنسان؛ ليشعر بهذا من غير أن يكون هناك سبب معلوم، وفي هذا يقول الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وهذا شيء يعرفه كل واحد بنفسه تصبح اليوم فرحًا مسرورًا وفي اليوم الثاني بالعكس بدون سبب لكن هكذا لابد أن الإنسان يركب طبقًا عن طبق وتتغيرحال الزمان من أمن إلى خوف، ومن حرب إلى سلم، ومن قحط إلى مطر، ومن جدب إلأى خصب إلى غير ذلك من تقلب الأحوال.

الثاني: الأمكنة ينزل الإنسان، هذا اليوم منزلًا، وفي اليوم التالي منزلًا آخر، وثالثًا ورابعًا إلى أن تنتهي به المنازل في الآخرة، وما قبل الآخرة وهي القبور هي منازل مؤقتة. القبور ليست هي آخر المنازل، بل هي مرحلة. وسمع أعرابي رجلًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ

﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١،٢] فقال الأعرابي: «والله ما الزائر بمقيم» فالأعرابي بفطرته عرف أن وراء هذه القبور شيئًا يكون المصير إليه؛ لأنه، كما هو معلوم الزائر يزور ويمشي، وبه نعرف أن ما نقرؤه في الجرائد «فلان توفي، ثم نقلوه إلى مثواه الأخير» أن هذه الكلمة غلط كبير ومدلولها كفر بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كفر باليوم الاخر؛ لأنك إذا جعلت القبر هو المثوى الأخير فهذا يعني: أنه ليس بعده شيء، والذي يرى أن القبر هو المثوى الأخير وليس بعده مثوى، كافر، فالمثوى الأخير إما جنة وإما نار.

الثالث: الأبدان يركب الإنسان فيها طبقًا عن طبق، واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. أول ما يخلق الإنسان طفلًا صغيرًا يمكن أن تجمع يديه ورجليه بيد واحدة منك وتحمله بهذه اليد ضعيفًا ثم لايزال يقوى رويدًا رويدًا حتى يكون شابًا جلدًا قويًا، ثم إذا استكمل القوة عاد فرجع إلى الضعف، وقد شبه بعض العلماء حال البدن بحال القمر يبدو هلالًا ضعيفًا، ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يمتلىء نورًا، ثم يعود ينقص شيئًا فشيئًا حتى يضمحل، نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الخاتمة.

الرابع: حال القلوب وما أدراك ما أحوال القلوب؟! أحوال القلوب هي النعمة وهي النقمة، القلوب كل قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، فإن شاء أزاغه، وإن شاء هداه، ولما حدّث النبي ﷺ في هذا الحديث قال: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١)، فالقلوب لها أحوال عجيبة، تارة يتعلق القلب بالدنيا، وتارة يتعلق بشيء من الدنيا، تارة يتعلق بالمال ويكون المال أكبر همه، تارة يتعلق بالنساء وتكون النساء أكبر همه، تارة يتعلق بالقصور والمنازل ويكون ذلك أكبر همه، تارة يتعلق بالمركوبات والسيارات ويكون ذلك أكبر همه، تارة يكون مع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دائمًا مع الله يتعلق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويرى أن الدنيا كلها وسيلة إلى عبادة الله، وإلى طاعة الله، فيستخدم الدنيا؛ لأنها خلقت له، ولا تستخدمه الدنيا. وأصحاب الدنيا هم الذين يخدمونها، هم الذين أتعبوا أنفسهم في تحصيلها. لكن أصحاب الآخرة هم الذين استخدموا الدنيا وخدمتهم الدنيا؛ ولذلك لا يأخذونها إلا عن طريق رضا الله، ولا يصرفونها إلا في رضا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فاستخدموها أخذًا وصرفًا، لكن أصحاب الدنيا الذين تعبوا بها سهروا الليالي يراجعون الدفاتر، يراجعون الشيكات، يراجعون المصروفات، يراجعون المدفوعات، يراجعون ما أخذوا وما صرفوا، هؤلاء في الحقيقة استخدمتهم الدنيا ولم يستخدموها، لكن الرجل المطمئن الذي جعل الله رزقه كفافًا يستغني به عن الناس، ولا يشقى به

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٠٢)، والترمذي (٣٥١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

عن طاعة الله، هذا هو الذي خدمته الدنيا، هذه أحوال القلوب، وأحوال القلوب هي أعظم الأحوال الأربع.

ولهذا يجب علينا جميعًا أن نراجع قلوبنا كل ساعة كل لحظة أين صرفت أيها القلب؟ أين ذهبت؟ لماذا تنصرف عن الله؟ لماذا تلتفت يمينًا وشمالًا؟ ولكن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وغلب على كثير من الناس، حتى إنه ليصرف الإنسان عن صلاته التي هي رأس ماله بعد الشهادتين فتجده إذا دخل في صلاته ذهب قلبه يمينًا وشمالًا، حتى يخرج من صلاته ولم يعقل منها شيئًا، والناس يصيحون يقولون: صلاتنا لا تنهانا عن الفحشاء والمنكر أين وعد الله؟ فيقال: يا أخي هل صلاتك صلاة إذا كنت من حين تُكَبِّرُ تفتح لك باب الهواجيس التي لا نهاية لها، فهل أنت مصل؟ صليت بجسمك لكن لم تصل بقلبك ويُقال لمثل هؤلاء: إن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي الصلاة التي يعقل فيها صاحبها ما يقرأه من القرآن والأذكار والتسبيح والأدعية، ويحافظ على ركوعها وسجودها وخشوعها وطمأنينتها، أما الصلاة التي يهيم فيها القلب في كل واد، ويخرج منها ولم يدري ما قرأ فلا تنهى عن الفحشاء، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا» نصفها، ربعها، ثلثها، عشرها، خمسها»حسب ما تعقل منها، إذن فالقلوب تركب طبقًا عن طبق.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، ﴿فَمَا لَهُمْ﴾، أي: شيء يمنعهم من الإيمان، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله، أي: شيء يمنعهم من الإيمان، وأي: شيء يضرهم إذا آمنوا، قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ فأي: شيء على الإنسان إذا آمن؟ ولهذا قال موبخًا لهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾، أي: لا يخضعون لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فالسجود هنا بمعنى الخضوع لله، وإن لم تسجد على الأرض لكن يسجد القلب ويلين ويذل إن كان الأمر كذلك؛ فأنت من المؤمنين ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وإن لم يكن قلبك كذلك ففيك شبهٌ من المشركين الذين إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون، ومن علامات الخضوع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عند قراءة القرآن أن الإنسان إذا قرأ آية سجدة سجد لله ذلًا له وخضوعًا، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب سجود التلاوة. وقال: إن الإنسان إذا مر بآية سجدة ولم يسجد كان آثمًا. والصحيح: أنها ليست بواجبة، وإن كان، هذا القول أعني القول بالوجوب هو مذهب أبي حنيفة واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لكن، هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه خطب الناس يومًا فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من

المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال ـ رضي الله عنه ـ: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يُنكر عليه أحد. وسنته ـ رضي الله عنه ـ من السنن التي أُمرنا باتباعها، وعلى هذا فالقول الراجح أن سجود التلاوة ليس بواجب، لكنه سنة مؤكدة، فإذا مررت بآية سجدة فاسجد في أي وقت كنت في الصباح، أو في المساء، في الليل، أو في النهار، تكبر عند السجود، وإذا رفعت فلا تكبر، ولا تسلم، هذا إذا سجدت خارج الصلاة، أما إن سجدت في الصلاة فلابد أن تكبر إذا سجدت، وأن تكبر إذا نهضت؛ لأنها لما كانت في الصلاة كان لها حكم السجود في الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بيّن ـ سبحانه وتعالى ـ أن سبب تركهم السجود هو تكذيبهم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن كل من كان إيمانه صادقًا فلا بد أن يمتثل الأمر، وأن يجتنب النهي؛ لأن الإيمان الصادق يحمل صاحبه على ذلك، ولا تجد شخصًا ينتهك المحارم أو يترك الواجبات إلا بسبب ضعف إيمانه، ولهذا كان الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان، فمتى رأيت الرجل يترك الواجبات، أو بعضًا منها، أو يفعل المحرمات فاعلم أن إيمانه ضعيف إذ لو كان إيمانه قويًا ما أضاع الواجبات، ولا انتهك المحظورات، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: في تركهم السجود كان ذلك بسبب تكذيبهم لما جاءت به الرسل ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بما يوعونه أي: بما يجمعونه في صدورهم، وما يجمعونه من أموالهم، وما يجتمعون عليه من منابذة الرسل ومخالفة الرسل، بل محاربة الرسل وقتالهم، والكفار أعداء للرسل من حين بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنهم يجمعون لهم ويكيدون لهم فتوعدهم الله تعالى في هذه الآية ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، أي: بما يجمعون من أقوال، وأفعال، وضغائن، وعداوات، وأموال ضد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أخبرهم بالعذاب الأليم الذي لابد أن يكون، والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عام للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولكل من يصح خطابه، فإنه داخل في، هذا، وأن نبشر كل كافر بعذاب أليم، فنحن نبشر كل كافر بعذاب أليم ينتظره، كما قال تعالى: ﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذه بمعنى لكن، ولا تصح أن تكون استثناء متصلًا؛ لأن الذين آمنوا ليسوا من المكذبين في شيء، بل هم مؤمنون مصدقون، وهذا هو الاستثناء المنقطع، أي: إذا كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهو استثناء منقطع وتقدر ﴿إِلَّا﴾ بـ (لكن) أي: لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون. الذين آمنوا بقلوبهم، واستلزم إيمانهم قيامهم بالعمل الصالح، هؤلاء هم الذين ليس لهم

عذاب، ولا ينتظرون العذاب لهم أجر غير ممنون.

فإن قيل: ما هو العمل الصالح؟

فالجواب: أن العمل الصالح ما جمع شيئين:

الأول: الإخلاص لله تعالى بأن يكون الحامل على العمل هو الإخلاص لله -عَزَّ وَجَلَّ- ابتغاء مرضاته، وابتغاء ثوابه، وابتغاء النجاة من النار لا يريد الإنسان بعمله شيئًا من الدنيا.

الثاني: أن يكون متبعًا فيه رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، أي: أن يتبع الإنسان رسول الله ﷺ في عمله فعلًا لما فعل، وتركًا لما ترك. فما فعله النبي ﷺ مع وجود سببه فالسنة فعله إذا وجد سببه. وما وجد سببه في عهد الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يفعله، فإن السنة تركه.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: ثواب، وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو مستمر أبد الآبدين، والآيات في تأبيد الجنة كثيرة معلومة في الكتاب والسنة؛ فأجر الآخرة لا ينقطع أبدًا، ليس كالدنيا فيه وقت تثمر الأشجار ووقت لا تثمر، أو وقت تنبت الأرض ووقت لا تنبت، والجنة الأجر فيها دائم، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾،[مريم:٦٢] نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المؤمنين العاملين بالصالحات، المجتنبين للسيئات، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير سورة البروج

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، الواو هذه حرف قسم يعني: يقسم تعالى بالسماء وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، أي: صاحبة البروج، والبروج جمع برج، وهو المجموعة العظيمة من النجوم وسميت بروجًا لعلوها وارتفاعها وظهورها وبيانها، والبروج عند الفلكيين اثني عشر برجًا جمعت في قول الناظم:

حملٌ فثـــور فجـــوزاء فسرطان فأســـدٌ سنبلة ميزان
فعقربٌ قوسٌ فجـــدي وكـ ذا دلو وذي آخرهـــا الحيتان

فهي اثنا عشر برجًا، ثلاثة منها للربيع، وثلاثة للصيف، وثلاثة للخريف، وثلاثة للشتاء، فيقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج وله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، أما نحن فلا نقسم إلا بالله: بأسمائه وصفاته، ولا نقسم بشيء من المخلوقات لقول النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ـ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ»(١) ولقوله ﷺ: «مَنَ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ» أو «أَشْرَكَ»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ اليوم الموعود هو يوم القيامة، وعد الله تعالى به وبينه في كتابه، ونصب عليه الأدلة العقلية التي تدل على أنه واقع حتمًا، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [النساء: ٤١]. قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، ذكر علماء التفسير في الشاهد والمشهود عدة أقوال يجمعها أن الله أقسم بكل شاهد وبكل مشهود، والشهود كثيرون منهم محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ شهيدًا علينا قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[الأنبياء: ١٠٤]، ومنهم هذه الأمة شهداء على الناس قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣] وأعضاء الإنسان يوم القيامة تشهد عليه بما عمل من خير وشر كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[النور: ٢٤]، ومن الملائكة يشهدون يوم القيامة فكل من شهد بحق فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ﴾، وأما ﴿المشهود﴾، فهو يوم القيامة وما يعرض فيه من الأهوال العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]؛ فأقسم الله بكل شاهد وبكل مشهود. قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، هذه الجملة جواب القسم ﴿قُتِلَ﴾ يعني: أهلك، وقيل: القتل هنا بمعنى اللعن، وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هم قوم كفار أحرقوا المؤمنين بالنار، وقد وردت قصص متعددة في هؤلاء القوم منها شيء في الشام، ومنها شيء في اليمن، والمقصود أن هؤلاء الكفار حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم، ولكنهم عجزوا فحفروا أخدودًا حُفرًا ممدودة في الأرض كالنهر وجمعوا الحطب الكثير وأحرقوا المؤمنين بها ـ والعياذ بالله ـ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، يعني: أن الأخدود هي أخدود النار. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾، أي: الحطب الكثير المتأجج. قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، يعني: أن هؤلاء الذين حفروا الأخاديد وألقوا فيها المؤمنين كانوا ـ والعياذ بالله ـ عندهم قوة وجبروت يرون النار تلتهم هؤلاء البشر وهم قعود عليها على الأسرة، فكهون كأن شيئًا لم يكن، وهذا من الجبروت أن يرى الإنسان البشر تلتهمه النار، وهو جالس على سريره يتفكه بالحديث، ولا يبالي.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، يعني: هم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين أي: حضور لا يغيب عنهم ما فعلوه بالمؤمنين؛ ولذلك استحقوا، هذا الوعيد، بل استحقوا هذه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)،وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

العقوبة أن الله أهلكهم ولعنهم وطردهم وأبعدهم عن رحمته. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، أي: ما أنكر هؤلاء الذين سعروا النار بأجساد هؤلاء المؤمنين إلا هذا أي: إلا أنهم آمنوا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾،وهذا من باب توكيد الذم بما يشبه المدح؛ لأن الإيمان بالله ليس محل إنكار، وهذا الإنكار أحق أن ينكر؛ لأن المؤمن بالله العزيز الحميد يجب أن يساعد ويعان، وأن تسهل له الطرق، أما أن يمنع ويردع حتى يصل الحد إلى أن يحرق بالنار فلا شك أن، هذا عدوان كبير، وليس، هذا بمنكر عليهم، بل هم يحمدون على ذلك؛ لأنهم عبدوا من هو أهل للعبادة، وهو الله جل وعلا، الذي خلق الخلق؛ ليقوموا بعبادته، فمن قام بهذه العبادة فقد عرف الحكمة من الخلق وأعطاها حقها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة والعزة والقهر على كل أحد، ولما قال المنافقون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾ على وزن فعيل بمعنى المحمود فالله ـ سبحانه وتعالى ـ محمود على كل حال وكان من هدي النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أنه إذا جاءه ما يُسر به قال: «الحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا جاءه خلاف ذلك قال: «الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1]، وهذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يقول عند المكروه «الحمد لله على كل حال» أما ما يقوله بعض الناس (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه) فهذا خلاف ما جاءت به السنة به، بل قل كما قال النبي ﷺ: «الحمد لله على كل حال» أما أن تقول: (الذي لا يحمد على مكروه سواه) فكأنك الآن تعلن أنك كاره ما قدر الله عليك، وهذا لا ينبغي، بل الواجب أن يصبر الإنسان على ما قدر الله عليه مما يسوؤه أو يُسره؛ لأن الذي قدره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو ربك وأنت عبده، هو مالكك وأنت مملوك له، فإذا كان الله هو الذي قدر عليك ما تكره فلا تجزع، يجب عليك الصبر وألا تسخط لا بقلبك ولا، بلسانك، ولا بجوارحك، اصبر وتحمل والأمر سيزول ودوام الحال من المحال، قال النبي ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»[2]، فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ محمود على كل حال من السراء أو الضراء؛ لأنه إن قدر السراء فهو ابتلاء وامتحان، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ولما رأى سليمان عرش، بلقيس بين يديه قال تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. فإذا أصبت بالنعمة لا تأخذها على أنها نعمة فتمرح وتفرح، هي

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٢٨٧)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة»(٢٣٨٢).

نعمة لا شك لكن اعلم أنك ممتحن بها هل تؤدي شكرها أو لا تؤدي، إن أصابتك ضراء فاصبر، فإن ذلك أيضًا ابتلاء وامتحان من الله عز وجل؛ ليبلوك هل تصبر أو لا تصبر، وإذا صبرت واحتسبت الأجر من الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾ أنه هو الحامد، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد من يستحق الحمد، يثني على عباده من المرسلين والأنبياء والصالحين، والثناء عليهم حمدٌ لهم، فهو جل وعلا حامد، وهو كذلك محمود، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها(١)؛ لأنه لولا أن الله يسر لك هذه الأكلة والشربة ما حصلت عليها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣،٦٤]. الله يسألنا، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ الجواب:، بل أنت يا ربنا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة:٦٥] بعد أن يخرج وتتعلق به النفوس يجعله الله حطامًا، ولم يأت التعبير «لو نشاء لم نبنته»؛ لأن كونه ينبت وتتعلق به النفس ثم يكون حطامًا أشد وقعًا على النفس من كونه لا ينبت أصلًا فقال الله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥:٦٧] ثم ذكر الشرب فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨،٦٩] الجواب:، بل أنت يا ربنا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾، أي: مالحًا غير عذب لا يستطيع الإنسان أن يشربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة: ٧٠]، يعني: فهلا تشكرون الله على ذلك، وهنا لم يأت التعبير «لو نشاء لم ننزله من المزن»؛ لأن كونه ينزل، ولكن لا يشرب لا يطاق أشد من كونه لم ينزل أصلًا فتأملوا القرآن الكريم تجدون فيه من الأسرار والحكم الشيء الكثير.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،أي: له وحده ملك السماوات والأرض، لا يملكها إلا هو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو يملك السماوات ومن فيها، والأراضين ومن فيها، وما بينهما، وما فيها كل شيء ملك لله، ولا يشاركه أحد في ملكه﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٢٠]، وما يضاف إلينا من الملك فيقال: مثلًا، هذا البيت ملك لفلان، هذه السيارة ملك لفلان فهو ملك قاصر وليس ملكًا حقيقيًا؛ لأنه لو أن إنسانًا أراد أن يهدم بيته بدون سبب فلا يملك ذلك؛ لأن النبي ﷺ نهى عن إضاعة المال(٢)، لو أراد إنسان أن يحرق سيارته بدون سبب فلا يملك، هذا. ولو أنه فعل لحجر القاضي عليه بمنعه من التصرف في ماله، مع أن الله منعه قبل، إذن ملكنا قاصر، والملك التام لله ـ تعالى ـ.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: مطلع - عَزَّ وَجَلَّ - على كل شيء، ومن جملته ما يفعله هؤلاء الكفار بالمؤمنين من الإحراق بالنار، وسوف يجازيهم، ولكن مع ذلك ومع فعلهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، قال بعض السلف: انظر إلى حلم الله - عَزَّ وَجَلَّ - يحرقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾. قال العلماء: ﴿فَتَنُوا﴾ بمعنى أحرقوا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فهؤلاء أحرقوا المؤمنين وأحرقوا المؤمنات في النار. وقيل: فتنوهم أي: صدوهم عن دينهم.

والصحيح: أن الآية شاملة للمعنيين جميعًا؛ لأنه ينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم معانيه أوسع من أفهامنا، وأنه مهما بلغنا من الذكاء والفطنة فلن نحيط به علمًا، والقاعدة في علم التفسير أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين لا مرجح لأحدهما على الأخر ولا يتضادان، فإنها تحمل عليهما جميعًا، فنقول: هم فتنوا المؤمنين بصدهم عن سبيل الله، وفتنوهم بالإحراق أيضًا. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: يرجعوا إلى الله من معصيته إلى طاعته ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ لأنهم أحرقوا أولياء الله فكان جزاؤهم مثل عملهم جزاء وفاقًا.

في هذه الآيات من العبر: أن الله - سبحانه وتعالى - قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكفار على المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلله تعالى في، هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملى لهم الله - سبحانه وتعالى - ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلًا نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي، فنقول: سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله على هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله - سبحانه وتعالى - ضرب لنا أمثالًا فيمن سبق يحرقون المؤمنين بالنار، فهؤلاء الذين سلطوا على إخواننا في، بلاد المسلمين، هذا رفعة درجات للمصابين، وتكفير السيئات، وهو عبرة للباقين، وهو أيضًا إغراء لهؤلاء الكافرين حتى يتسلطوا فيأخذهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - أخذ عزيز مقتدر.

وفي هذه الآيات من العبر: أن هؤلاء الكفار لم يأخذوا على المسلمين بذنب إلا شيئًا واحدًا، وهو: أنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، وهذا ليس بذنب، بل هذا هو الحق، ومن أنكره فهو الذي ينكر عليه، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينصر المسلمين في كل مكان، وأن يقينا شر أعدائنا، وأن يجعل كيدهم في نحورهم إنه على كل شيء قدير.

وفي الآية إشارة إلى أن التوبة تهدم ما قبلها، ولكن التوبة لا تكون توبة نصوحًا مقبولة عند الله

إلا إذا اشتملت على شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة خوف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورجاء ثوابه؛ لأن الإنسان قد يتوب من الذنب من أجل أن يمدحه الناس، أو من أجل دفع مذمة الناس له، أو من أجل مرتبة يصل إليها، أو من أجل مال يحصل عليه، كل هؤلاء لا تقبل توبتهم؛ لأن التوبة يجب أن تكون خالصة، وأما من أراد بعمله الدنيا، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

الثاني: من شروط كون التوبة نصوحًا: الندم على ما حصل من الذنب بمعنى ألا يكون الإنسان كأنه لم يذنب، لا يتحسر، ولا يحزن، لابد أن يندم، فإذا ذكر عظمة الله ندم، كيف أعصي ربي، وهو الذي خلقني ورزقني وهداني، فيندم.

الثالث: أن يقلع عن الذنب فلا تصح التوبة مع الإصرار على الذنب؛ لأن التائب هو الراجع، فإذا كان الإنسان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من أكل الربا، ولكنه لايزال يرابي فلا تصح توبته، لو قال: أستغفر الله من الغيبة، والغيبة ذكرك أخاك بما يكره، ولكنه في كل مجلس يغتاب الناس فلا تصح توبته، كيف تصح، وهو مصر على المعصية، فلابد أن يقلع، فإذا تاب من أكل أموال الناس وقد سرق من هذا، وأخذ مال هذا بخداع وغش فلا تصح توبته، حتى يرد ما أخذ من أموال الناس إلى الناس، لو فرضنا أن شخصًا أدخل مراسيمه في ملك جاره واقتطع جزءًا من أرضه وقال إني تائب، فنقول له: رد المراسيم إلى حدودها الأولى وإلا، فإن توبتك لا تقبل؛ لأنه لابد من الإقلاع عن الذنب الذي تاب منه.

الشرط الرابع: أن يعزم عزمًا تامًا ألا يعود إلى الذنب، فإن تاب، وهو في نفسه لو حصل له فرصة لعاد إلى الذنب، فإن توبته لا تقبل، بل لابد أن يعزم عزمًا أكيدًا على ألا يعود.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة؛ لأنه يأتي أوقات لا تقبل فيها التوبة، وذلك في حالين:

الحال الأولى: إذا حضره الموت، فإن توبته لا تقبل لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]. بعدما عاين الموت وشاهد العذاب يقول تبت فلا ينفع هذا، ومثال واقع لهذه المسألة أن فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: بالله ولم يقل آمنت بالله إذلالًا لنفسه حيث كان يحارب بني إسرائيل على الإيمان بالله، والآن يقول آمنت بالذي آمنوا به فكأنه جعل نفسه تابعًا لبني إسرائيل إلى هذا الحد، بلغ به الذل ومع ذلك قيل له ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، تتوب الآن تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس: ٩١]. إذن إذا حضر الموت، فإن التوبة لا تقبل، فلابد من المبادرة بالتوبة؛ لأنك لا تدري في أي وقت يحضرك الموت، ألم تعلم أن من الناس من نام على فراشه في صحة وعافية ثم حمل من فراشه إلى سرير تغسيله؟! ألم تعلم أن بعض الناس جلس على كرسي العمل يعمل ثم حمل من كرسي العمل إلى سرير الغسل؟! كل هذا واقع، لذا يجب أن تبادر بالتوبة قبل أن تغلق الأبواب.

الحال الثانية: إذا طلعت الشمس من مغربها، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس آمنوا لكن الله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والمراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ١١-٢٢].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، لما ذكر عقاب المجرمين ذكر ثواب المؤمنين، وهذه هي الطريقة المتبعة فيما يراد به الترغيب والترهيب، والقرآن الكريم مثاني، تذكر فيه المعاني المتقابلة، فيذكر فيه عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، صفات المؤمنين وصفات الكافرين، من أجل أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ويعرف نعمة الله عليه في الإسلام، ويعرف حكمة الله تعالى في وجود هؤلاء الكافرين المجرمين ويزداد حذرًا من ذلك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هم الذين آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فإن، هذا هو الإيمان، كما فسره النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - حين سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، وأما قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فالمراد عملوا الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة هي التي بنيت على الإخلاص لله، واتباع شريعة الله، فمن عمل عملًا أشرك به مع الله غيره فعمله مردود عليه؛ لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرويه عن ربه أنه تعالى قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2]، وأما المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، فإن من عمل عملًا ليس على شريعة الله، فإنه باطل مردود، لقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[3]، وبناء على ذلك تكون عبادة المرائي الذي يعبد الله لكن يرائي الناس أي: يظهر العبادة؛ ليراه الناس فيمدحوه، وهو لا يريد التقرب إلى الناس، يريد التقرب إلى الله لكن يريد أن يمدحه الناس على تقربه إلى الله وعبادته لله فهذا مراءٍ وعمله مردود أيضًا، كذلك من تكلم بكلام قرآن أو ذكر ورفع صوته ليسمعه الناس فيمدحوه على ذكره لله فهذا أيضًا مراءٍ، عمله مردودٌ عليه؛ لأنه أشرك فيه مع الله غيره، أراد أن يمدحه الناس على عبادة الله، أما من تعبد للناس فهذا مشرك شرك أكبر يعني: من قام يصلي أمام شخص تعظيمًا له، لا لله، وركع للشخص وسجد للشخص فهذا مشرك شركًا أكبر مخرج عن الملة، وكذلك أيضًا من ابتدع في دين الله ما ليس منه، كما لو رتب أذكارًا معينة في وقت معين، فإن ذلك لا يقبل منه، حتى ولو كان ذكر الله لو كان تسبيحًا، أو تحميدًا، أو تكبيرًا، أو تهليلًا، ولكنه رتبه على وجه لم ترد به السنة، فإن ذلك ليس مقبولًا عند الله عز وجل؛ لأنه عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله، فالمهم أن الله اشترط مع الإيمان العمل الصالح، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نركز دائمًا على العقيدة، ونقول: نحن على العقيدة الإسلامية وعلى كذا، وعلى كذا، ولا نذكر العمل؛ لأن مجرد الغقيدة لا يكفي لابد من عمل، فينبغي عندما تذكر أننا على العقيدة الإسلامية ينبغي أن تقول ونعمل العمل الصالح؛ لأن الله يقرن دائمًا بين الإيمان المتضمن للعقيدة وبين العمل الصالح، حتى لا يخلو الإنسان من عمل صالح، أما مجرد العقيدة فلا ينفع لو أن الإنسان يقول أنا مؤمن بالله لكن لا يعمل؛ فأين الإيمان بالله؟ ولهذا كان القول الراجح من أقوال العلماء أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرج عن الملة وقد بينا أدلة ذلك في رسالة لنا صغيرة، يغني عن إعادتها هنا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، و أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿لَهُمْ﴾، يعني: عند الله، قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وذلك بعد البعث، فإنهم يدخلون هذه الجنات التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]؛ لأن فيها من النعيم ما لا يتصوره الإنسان، والله تعالى يذكر في الجنات: نخل، ورمان، وفاكهة، ولحم طير، وعسل، ولبن، وماء، وخمر لكن حقائق هذه الأشياء ليست كحقائق ما في الدنيا أبدًا؛ لأنها لو كانت حقائقها كحقائق ما في الدنيا لكنا نعلم ما أخفي لنا من هذا، ولكنها أعظم وأعظم بكثير مما نتصوره، فالرمان، وإن كنا نعرف معنى الرمان، ونعرف أنه على شكل معين، وطعم معين، وذو حبات معينة، لكن ليس الرمان الذي في الآخرة كهذا فهو أعظم بكثير، لا من جهة الحجم، ولا من جهة اللون، ولا من جهة المذاق، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء فقط)، أما الحقائق فهي غير معلومة.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، قال العلماء: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت أشجارها وقصورها وإلا فهي على السطح فوق، ثم هذه الأنهار جاء في الأحاديث أنها لا تحتاج إلى حفر، ولا تحتاج إلى بناء أخدود، وفي، هذا يقول ابن القيم في النونية:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ جَرَتْ سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ

الأنهار في المعروف عندنا تحتاج إلى حفر، أو إلى أخدود تمنع من تسرب الماء يمينًا وشمالًا، لكن في الجنة لا تحتاج إلى أخدود، تجري حيث شاء الإنسان، يعني: يوجهها كما شاء بدون حفر، وبدون إقامة أخدود، والأنهار في هذه الآية وفي آيات كثيرة مجملة، لكنها فصلت في سورة القتال ـ سورة محمد ـ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه الجنات وما فيها من النعيم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني: الذي به النجاة من كل مرهوب وحصول كل مطلوب؛ لأن الفوز هو عبارة عن حصول المطلوب وزوال المكروه، والجنة كذلك فيها كل مطلوب، وقد زال عنها كل مرهوب، فلا يذوقون فيها الموت، ولا المرض، ولا السقم، ولا الهم، ولا النصب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ﴿بَطْشَ﴾ يعني: أخذه بالعقاب، والشديد القوي كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. فبطش الله يعني:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، و مسلم (٢٨٢٤).

انتقامه وأخذه شديد عظيم، ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك، فإن رحمة الله تعالى أوسع، ما أكثر ما يعفو الله عن الذنوب، ما أكثر ما يستر من العيوب، ما أكثر ما يدفع من النقم، وما أكثر ما يجري من النعم، لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١)، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] وعلى هذا فنقول: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي: فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه، فإن الله ـ تعالى ـ يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله ـ تعالى ـ سبقت غضبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني: أن الأمر إليه ابتداء وإعادة وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[الروم: ٢٧] فهو الذي بدأ الأشياء، وإليه تنتهي الأشياء، الأشياء منه وإليه في كل شيء، الخلق من الله وإليه، الشرائع من الله وإليه، كل الأمور من الله وإليه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ ولم يذكر ما الذي يبدؤه، فمعناه ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ كل شيء، ويعيد كل شيء، فكل الأمر بيده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فاعرف أيها العبد من أين أنت؟ وأنك ابتدأت من عدم، واعرف منتهاك وغايتك، وأن غايتك إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، يعني: ذا المغفرة، والمغفرة ستر الذنب والعفو عنه فليست المغفرة ستر الذنب فقط، بل ستره وعدم المؤاخذة عليه، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ حَتَّى يُقِرَّ بِهَا وَيَعْتَرِفَ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، ويُذكر أن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب الواحد منهم ذنبًا وجده مكتوبًا على باب بيته فضيحة وعارًا، لكننا نحن ولله الحمد قد ستر الله علينا، فعلينا أن نتوب إلى الله ونستغفره من الذنب فتمحى آثاره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾، أي: الستَّار لذنوب عباده المتجاوز عنها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾، مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة فهو جل وعلا ودود، ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، فهو يشمل الوجهين جميعًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهو جل وعلا وادٌّ يحب الأعمال، ويحب الأشخاص، ويحب الأمكنة، وهو كذلك أيضًا محبوب يحبه أولياؤه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلما كان الإنسان أتبع لرسول الله ﷺ كان أحب إلى الله، فهو جل وعلا واد، وهو أيضًا مودود، أي: أنه يَحِبُّ وَيُحَبُّ، يحب ـ سبحانه وتعالى ـ الأعمال ويحب العاملين، ويحب الأشخاص يعني: أن محبة الله قد تتعلق بشخص معين مثل قول الرسول ﷺ في يوم خيبر: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فبات الناس ثم غدوا إلى رسول الله ﷺ كل واحد منهم يرجو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

أن يُعطاها فقال: «أَيْنَ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ»؟ قالوا: يشتكي عينيه فدعا به؛ فأتى فبصق في عينه فبرأ كأن لم يكن به وجع في الحال، ثم أعطاه الراية وقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»(١). الشاهد قوله: (يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ) فهنا أثبت أن الله يحب، هذا الرجل بعينه علي بن أبي طالب، ولما بعث النبي ﷺ رجلًا على سرية صار يقرأ لهم في الصلاة ويختم القراءة بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ أخبروه بذلك؛ لأن عمله هذا وهو أنه يختم القراءة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ غير معروف، فقال: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ»؟ فسألوه فقال: إنها صفة الله وأنا أحب أن أقرأها؛ فقال النبي ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»(٢)، فهنا المحبة علقت بشخص معين يحبه الله، وقد تكون محبة الله بمعينين بأوصافهم مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، هذا ليست في شخص معين لكن في شخص موصوف بصفة، كذلك يحب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأماكن «أَحَبُّ البِقَاعِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا»(٣)، وأخبر النبي ﷺ أن مكة أحب البقاع إلى الله هذه المحبة متعلقة بالأماكن فالله تعالى يحب ويحب ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو الذي استوى عليه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وقد جاء في الأثر أن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة في الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، حلقة الدرع صغيرة ألقيت في فلاة من الأرض ليست بشيء بالنسبة لها «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»(٤).

إذن لا أحد يقدر سعته، وإذا كنا نشاهد من المخلوقات المشهودة الآن التباين العظيم في أحجامها، ولقد أطلعني رجل على صورة الشمس وصورة الأرض، فوجدت أن الأرض بالنسبة لهذه الشمس كنقطة غير كبيرة في صحن واسع كبير، وأنها لا تنسب إلى الشمس إطلاقا، فإذا كان هذا في الأشياء المشهودة التي تدرك بالتلسكوب وغيره فما بالك بالأشياء الغائبة عنا؛ لأن ما غاب عنا أعظم مما نشاهد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٣) حسن: أخرجه الحاكم (٧/ ١٥٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»(٣٢٧١)، بلفظ:«خير البقاع المساجد»

(٤) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

فالحاصل: أن العرش هو سقف المخلوقات كلها، عرش عظيم استوى عليه الرحمن ـ جل وعلا ـ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾، فيها قراءتان (المجيدِ) و(المجيدُ) فعلى القراءة الأولى تكون وصفًا للعرش، وعلى الثانية تكون وصفًا للرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكلاهما صحيح فالعرش مجيد، وكذلك الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مجيد، ونحن نقول في التشهد إنك حميد مجيد. قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، هذا وصف لله ـ تعالى ـ بإنه الفعال لما يريد، كل ما يريده، فإنه يفعله عز وجل؛ لأنه تام السلطان لا أحد يمانعه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. فكل ما يريده، فإنه يفعله، لكن ملوك الدنيا، وإن عظمت ملكيتهم لا يفعلون كل ما يريدون، ما أكثر ما يريدون ثم يوجد مانع يمنع، أما الرب فهو ذو السلطان الأعظم الذي لا يرد ما أراده شيء ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وفي هذا دليل على أن جميع ما وقع في الكون، فإنه بإرادة الله عز وجل؛ لأن الله هو الذي خلقه فيكون واقعًا بإرادته، ولكن الله لا يريد شيئًا إلا لحكمة، فكل ما يقع من أفعال الله، فإنه لحكمة عظيمة قد نعلمها وقد لا نعلمها فقال لهم: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يشمل كل من كفر بالله ورسوله سواء كان من المشركين، أو من اليهود، أو النصارى أو غيرهم؛ وذلك؛ لأن اليهود والنصارى الآن وبعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على دين، ولا تنفعهم أديانهم؛ لأنه ـ أي: النبي ﷺ ـ خاتم الأنبياء فمن لم يؤمن به فليس على شيء من دينه، بل إن من لم يؤمن برسول واحد من الرسل فهو كافر بجميع الرسل، فمثلًا من لم يؤمن بنوح أنه رسول ولو آمن بغيره من الأنبياء، فإنه مكذب لغيره من الرسل، فإذا ادعت اليهود أنهم على دين وأنهم يتبعون التوراة التي جاء بها موسى نقول لهم: أنتم كافرون بموسى كافرون بالتوراة، وإذا ادعت النصارى الذين يسمون أنفسهم اليوم (بالمسيحيين) أنهم مؤمنون بعيسى قلنا لهم: كذبتم أنتم كافرون بعيسى؛ لأنكم كافرون بمحمد ﷺ، والعجب أن هؤلاء اليهود والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، يعرفونه، كما يعرفون أبناءهم، لكن العناد والكبرياء والحسد منعهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالحاصل أن قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، يشمل كل من كفر بمحمد حتى من اليهود والنصارى، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ـ يعني: أمة الدعوة ـ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ

بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1]، كل الكفار في تكذيب وقال تعالى: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، فجعل التكذيب كالظرف لهم يعني: أنه محيط بهم من كل جانب ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾، يعني: أن الله تعالى محيط بهم من كل جانب لا يشذون عنه لا عن علمه، ولا سلطانه، ولا عقابه، ولكنه - عَزَّ وَجَلَّ - قد يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، ﴿بَلْ هُوَ﴾، أي: ما جاء به الرسول ﷺ ﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: ذو عظمة ومجد، ووصف القرآن بأنه مجيد لا يعني: أن المجد وصف للقرآن نفسه فقط، بل هو وصف للقرآن، ولمن تحمل هذا القرآن فحمله وقام بواجبه من تلاوته حق تلاوته، فإنه سيكون لهم المجد والعزة والرفعة.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، يعني بذلك: اللوح المحفوظ عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو أم الكتاب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]: وهذا اللوح كتب الله به مقادير كل شيء، ومن جملة ما كتب به أن هذا القرآن سينزل على محمد ﷺ فهو في لوح محفوظ، قال العلماء: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لا يناله أحد محفوظ عن التغيير والتبديل، والتبديل والتغيير إنما يكون في الكتب الأخرى؛ لأن الكتابة من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنواع:

النوع الأول: الكتابة في اللوح المحفوظ وهذه الكتابة لا تبدل، ولا تغير؛ ولهذا سماه الله لوحًا محفوظًا، لا يمكن أن يبدل أو يغير ما فيه.

النوع الثاني: الكتابة على بني آدم وهم في بطون أمهاتهم؛ لأن الإنسان في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر، بعث الله إليه ملكًا موكلًا بالأرحام، فينفخ فيه الروح بإذن الله؛ لأن الجسد عبارة عن قطعة من لحم إذا نفخت فيه الروح صار إنسانًا، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

النوع الثالث: كتابة حولية كل سنة، وهي الكتابة التي تكون في؛ ليلة القدر، فإن الله - سبحانه وتعالى - يقدر في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. فيكتب في هذه الليلة ما يكون في تلك السنة.

النوع الرابع: وهي كتابة يومية تقوم بها الملائكة حيث يكتبون كل ما يعمله الإنسان في ذلك اليوم سواء كان قولًا بلسانه أم عملًا بجوارحه أم اعتقادًا بقلبه وذلك في الصحف التي في أيدي الملائكة، وهذه الكتابة تكون بعد العمل، والكتابات الثلاث السابقة كلها قبل العمل، لكن الكتابة الأخيرة هذه تكون بعد العمل، يكتب على الإنسان ما يعمل من قول، بلسانه، أو فعل بجوارحه، أو اعتقاد بقلبه، فإن الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم أي: بحفظ أعمالهم يكتبون قال

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٧).

الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢].

فإذا كان يوم القيامة، فإنه يعطى هذا الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. يعني: تعطى الكتاب ويقال لك أنت: اقرأ وحاسب نفسك، قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك، وهذا صحيح، أي إنصاف أبلغ من أن يقال للشخص تفضل، هذا ما عملت حاسب نفسك، أليس هذا هو الإنصاف؟! بلى أكبر إنصاف هو هذا، فيوم القيامة تعطى، هذا الكتاب منشورًا مفتوحًا أمامك ليس مغلقًا، تقرأ ويتبين لك أنك عملت في يوم كذا، في مكان كذا، كذا وكذا، فهو شيء مضبوط لا يتغير، وإذا أنكرت فهناك من يشهد عليك ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾[النور:٢٤]، يقول اللسان: نطقت بكذا ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤]، تقول اليد: بطشت، تقول الرجل: مشيت بل يقول الجلد أيضًا، الجلود تشهد بما لمست ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]. فالأمر ليس بالأمر الهين - نسأل الله تعالى أن يتولانا وإياكم بعفوه ومغفرته - وإلى هنا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة التي ابتدأها الله تعالى بالقسم بالسماء ذات البروج وأنهاها بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، فمن تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة، ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، ونوجه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاة أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم، وألَّا يغرهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة، المخالفة للعدل، المخالفة لإصلاح الخلق، أن يضعوها موضع التنفيذ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وراء ظهورهم، فإن، هذا والله سبب التأخر، ولا أظن أحدًا يتصور أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر، وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة، لكن سبب ذلك لا شك معلوم هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا، وهو: التمسك بهذا القرآن العظيم، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة مخالفة للعدل، مبنية على الظلم والجور، فنحن نناشد ولاة أمور المسلمين جميعًا، أناشدهم أن يتقوا الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأن يرجعوا رجوعًا حقيقيًّا إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ حتى يستتب لهم الأمن والاستقرار، وتحصل لهم العزة والمجد والرفعة، وتطيعهم شعوبهم، ولا يكون في قلوب شعوبهم عليهم شيء وذلك؛ لأن الإنسان إذا أصلح ما بينه وبين ربه، أصلح الله ما بينه وبين الناس، فإذا كان ولاة الأمور يريدون أن تذعن لهم الشعوب، وأن يطيعوا الله فيهم، فليطيعوا الله أولًا حتى تطيعهم أممهم، وإلا فليس من المعقول أن يعصوا مالك

الملك، وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم يريدون أن تطيعهم شعوبهم، هذا بعيد جدًّا، بل كلما بَعُد القلب عن الله بعد الناس عن صاحبه، وكلما قَرُب من الله قرب الناس منه، فنسأل الله أن يعيد لهذه الأمة الإسلامية مجدها وكرامتها، وأن يذل أعداء المسلمين في كل مكان، وأن يكبتهم، وأن يردهم على أعقابهم خائبين، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الطارق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ
رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١-١٠].

❁ التفسير ❁

البسملة سبق الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ابتدأ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذه السورة بالقسم، أقسم الله تعالى بالسماء والطارق وقد يشكل على بعض الناس كيف يقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمخلوقات مع أن القسم بالمخلوقات شرك لقول النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ» أو «أَشْرَكَ»[(١)]، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ»[(٢)]. فلا يجوز الحلف بغير الله لا بالأنبياء، ولا بالملائكة، ولا بالكعبة، ولا بالوطن، ولا بأي: شيء من المخلوقات؟

والجواب على هذا الإشكال أن نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له أن يقسم بما شاء من خلقه، وإقسامه بما يقسم به من خلقه يدل على عظمة الله عز وجل؛ لأن عِظم المخلوق يدل على عِظم الخالق، وقد أقسم الله ـ تعالى ـ بأشياء كثيرة من خلقه، ومن أحسن ما رأيته تكلم على هذا الموضوع ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: **التبيان في أقسام القرآن**، وهو كتاب جيد ينفع طالب

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)،وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

العلم كثيرًا، فهنا يقسم الله ـ تعالى ـ بالسماء، والسماء هو كل ما علاك، فكل ما علاك فهو سماء، حتى السحاب الذي ينزل منه المطر يسمى سماءً، كما قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]. وإذا كان يطلق على كل ما علاك، فإنه يشمل ما بين السماء والأرض ويشمل السماوات كلها؛ لأنها كلها قد علتك وهي فوقك، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾، فهو قسم ثان، أي: أن الله أقسم بالطارق فما هو الطارق؟ ليس الطارق هو الذي يطرق أهله؛ ليلًا، بل فسره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، هذا هو الطارق، والنجم هنا يحتمل أن يكون المراد به جميع النجوم فتكون (أل) للجنس، ويحتمل أنه النجم الثاقب، أي: النجم اللامع، قوي اللمعان؛ لأنه يثقب الظلام بنوره، وأيًّا كان، فإن هذه النجوم من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الدالة على كمال قدرته، في سيرها وانتظامها، واختلاف أشكالها واختلاف منافعها أيضًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. فهي زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها.

ثم بين الله المقسم عليه بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، ﴿إِن﴾، هنا نافية يعني: ما كل نفس، و﴿لَّمَّا﴾، بمعنى (إلا) يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ من الله، وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ مهمة، هذا الحافظ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. هؤلاء الحفظة يحفظون على الإنسان عمله، ما له وما عليه، ويجده يوم القيامة كتابًا منشورًا يقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. هؤلاء الحفظة يكتبون ما يقوم به الإنسان من قول، وما يقوم به من فعل، سواء كان ظاهرًا كأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أم باطنًا حتى ما في القلب مما يعتقده الإنسان، فإنه يكتب عليه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ١٦ ـ ١٨]، هذا الحافظ يحفظ عمل بني آدم، وهناك حفظة آخرون ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، (اللام) هنا للأمر، والمراد بالنظر هنا نظر الاعتبار، وهو النظر بالبصيرة، يعني ليفكر الإنسان مما خلق؟ هل خلق من حديد؟ هل خلق من فولاذ؟ هل خلق من شيء قاسٍ قوي؟

والجواب على هذه التساؤلات: أنه ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾، وهو ماء الرجل، ووصفه الله ـ تعالى ـ في آيات أخرى بأنه ماء مهين ضعيف السيلان ليس كالماء العادي المنطلق، ووصفه الله ـ تعالى ـ في آية أخرى أنه نطفة أي: قليل من الماء هذا الذي خلق منه الإنسان، والعجب أن يخلق الإنسان من

هذا الماء المهين، ثم يكون قلبه أقسى من الحجارة - والعياذ بالله - إلا من الآن الله قلبه لدين الله، ثم بين أن هذا الماء الدافق، وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، من بين صلب الرجل وترائبه أعلى صدره، وهذا يدل على عمق مخرج هذا الماء، وأنه يخرج من مكان مكين في الجسد، وقال بعض العلماء: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: صلب الرجل، وقوله تعالى: ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ترائب المرأة، ولكن هذا خلاف ظاهر اللفظ، والصواب أن الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو ماء الرجل؛ لأن الله تعالى وصفه بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾، أي: على رجع الإنسان ﴿لَقَادِرٌ﴾، وذلك يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فالذي قدر على أن يخلق الإنسان من، هذا الماء الدافق المهين، قادر على أن يعيده يوم القيامة، وهذا من باب الاستدلال بالمحسوس على المنظور المترقب، وهو قياس عقلي، فإن الإنسان بعقله يقول: إذا كان الله قادرًا على أن يخلق الإنسان من هذا هو الماء المهين ويحييه قادر على أن يعيده مرة ثانية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ولهذا يستدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالمبدأ على المعاد؛ لأنه قياس جلي واضح، ينتقل العقل من هذا إلى هذا بسرعة وبدون كلفة، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - المنافقين معاملة المسلمين حيث كان يُستأذن في قتلهم فيقول: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، فكان لا يقتلهم، وهو يعلم أن فلانًا منافق، وفلانًا منافق، لكن العمل في الدنيا على الظاهر ويوم القيامة على الباطن ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تختبر وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح، عمل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ - يعني: أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله - لَا يَتَجَاوَزُ الإِسْلَامُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[2]، قال الحسن البصري رحمه الله: (والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة، ولا صوم، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان) والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها، وعقائدها، واتجاهاتها، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع، والحقد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

والبغضاء، وكراهة ما أنزل الله على رسوله وكراهة الصحابة - رضي الله عنهم، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ﴾، يعني: يوم القيامة ما للإنسان من قوة ذاتية ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾، وهي القوة الخارجية، هو بنفسه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع أن يدافع عنه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. في الدنيا يتساءلون، يسأل بعضهم بعضًا، ويحتمي بعضهم ببعض، لكن يوم القيامة لا أنساب يعني: لا قرابة، لا تنفع القرابة، ولا يتساءلون.

۞ قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١١-١٧].

۞ التفسير ۞

بعد أن ذكر الله تعالى الإقسام ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناك قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، هنا قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، والمناسبة بين القسمين - والله أعلم - أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم تُرمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - أما هنا؛ فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل؛ فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به، هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، الرجع هو المطر، يسمى رجعًا؛ لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾، الصدع هو الانشقاق يعني: التشقق بخروج النبات منه؛ فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فسمى الله القرآن روحًا؛ لأنه تحيى به القلوب.

يقول الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: ذات المطر. قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾، أي: ذات الانشقاق لخروج النبات منها. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وصفه الله تعالى بأنه قول فصل، وهو قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو الذي تكلم به وألقاه إلى جبريل ﷺ، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وقد أضاف الله القرآن قولًا إلى جبريل، وإلى محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال تعالى في الأول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وقال في الثاني إضافته إلى الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. ففي الأول أضاف القول إلى جبريل ﷺ؛ لأنه، بلغه عن الله إلى محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وفي الثاني أضافه إلى محمد ﷺ؛ لأنه، بلغه إلى الناس، وإلا، فإن الذي قاله ابتداءً هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المتقين والظالمين، بل إنه فصل أي: قاطع لكل من ناوأه وعاداه، ولهذا نجد المسلمين لما كانوا يجاهدون الكفار بالقرآن نجدهم غلبوا الكفار، وقطعوا دابرهم، وقضي بينهم، فلما أعرضوا عن القرآن هُزموا وأذلوا بقدر بُعدهم عن القرآن، وكلما أبعد الإنسان عن كتاب الله ابتعدت عنه العزة، وابتعد عنه النصر حتى يرجع إلى كتاب الله عزَّ وَجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: ما هو باللعب والعبث واللغو، بل هو حق، كلماته كلها حق، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وتلاوته أجر، لو تلاه الإنسان كل أوانه لم يمل منه، وإذا تلاه بتدبر وتفكر فتح الله عليه من المعاني ما لم يكن عنده من قبل، وهذا شيء مشاهد، اقرأ القرآن وتدبره، كلما قرأته وتدبرته حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لك من قبل، كل، هذا؛ لأنه فصل وليس بالهزل، لكن الكلام اللغو من كلام الناس كلما كررته مججته وكرهته ومللته أما كتاب الله فلا.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾، يعني: الكفار المكذبين للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: كيدًا عظيمًا، يكيدون للرسول ﷺ ويكيدون لمن اتبعه، وانظر ماذا كانوا يفعلون بالمؤمنين أيام كانوا في مكة من التعذيب والتوبيخ والتشريد، هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ثم هاجروا إلى المدينة كل ذلك فرارًا بدينهم من هؤلاء المجرمين، الذين آذوهم بكل كيد، وأعظم ما فعلوه بالنبي ﷺ حين الهجرة حيث اجتمع رؤساؤهم وأشرافهم يتشاورون ماذا يفعلون بمحمد؟ فكلما ذكروا رأيًا نقضوه، قالوا هذا لا يصلح، حتى أشار إليهم فيما ذكره أهل التاريخ الشيطان الذي جاء بصورة رجل وقال لهم: إني أرى أن تختاروا عشرة شبان من قبائل متفرقة، وتعطوا كل واحد منهم سيفًا حتى يقتلوا محمدًا قتلة رجل واحد، فإذا فعلوا ذلك

تفرق دمه في القبائل، فلم تستطع بنو هاشم أن تقتص من القبائل كلها فيرضخون إلى أخذ الدية. وهذا هو الذي يريدون فأجمعوا على، هذا الرأي: واستحسنوا، هذا الرأي، وفعلًا جلس الشبان العشرة ينتظرون خروج النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ليقتلوه، ولكن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ خرج من الباب وهم جلوس ولم يشاهدوه، وذكر التاريخ أنه جعل يذر التراب على رؤوسهم إذلالًا لهم، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، ولا تتعجب كيف خرج النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من بينهم ولم يشاهدوه، لا تعجب من، هذا، فها هم قريش حين اختبأ النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في الغار لما خرج من مكة يريد المدينة اختبأ في الغار ثلاثة أيام ليخف عنه الطلب؛ لأن قريشًا صارت تطلبه، وجعلت لمن جاء به مئة بعير، ولمن جاء به مع أبي بكر مئتي بعير، وهذه جائزة كبيرة، فوقفوا على الغار الذي فيه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأبو بكر، وكلنا يعلم أن الغار المفتوح إذا كان فيه أحد فسوف يُرى، ولكنهم لم يروا النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا. فقال: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(1). فاطمأن أبو بكر، هؤلاء القوم الذين وقفوا على الغار ليس عندهم قصور في السمع، ولا قصور في البصر، ولا قصور في الذكاء، ولكن أعمى الله أبصارهم عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وصاحبه، فلا تعجبوا أن خرج من بين هؤلاء الشبان العشرة، كما قال أهل التاريخ، وجعل يذر التراب على رؤوسهم ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾، يعني: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. قوله تعالى: ﴿إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا﴾، ثم قال ـ عزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، مهل وأمهل معناهما واحد يعني: انتظر بمهلة، ولا تنتظر بمهلة طويلة، ﴿رُوَيْدًۢا﴾، أي: قليلًا، ورويدًا تصغير رود أو إرواد، والمراد به الشيء القليل.

وفي هذه الآية تهديد لقريش، وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ووعد له بالنصر. وحصل الأمر، كما أخبر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خرج النبي ﷺ مهاجرًا منهم، وحصل بينه وبينهم حروب، وفي السنة الثانية من الهجرة قُتل من صناديد قريش وكبرائهم وزعمائهم نحو أربعة وعشرين رجلًا، منهم قائدهم أبو جهل، وبعد ثماني سنوات، بل أقل من ثماني سنوات دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منصورًا ظافرًا، حتى إنه قال، كما جاء في التاريخ، وهو ممسك بعضادتي باب الكعبة وقريش تحته قال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ»؟ لأن أمرهم أصبح بيده ﷺ، «ما ترون أني

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٣٨١).

فاعل بكم»؟ قالوا: أخٌ كريم، وابن أخ كريم. فقال: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسِفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ»[1]، وإنما منَّ عليهم هذه المنة ﷺ؛ لأنهم أسلموا، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن ينفعنا به، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم القيامة، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

تفسير سورة الأعلى

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى
(٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى
(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا
الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١-١٣].

التفسير

البسملة سبق الكلام عليها، وإنها آية من كتاب الله مستقلة ليست من الفاتحة، ولا من البقرة، ولا من آل عمران، ولا من أي: سورة من القرآن، لكنها آية مستقلة تنزل في ابتداء كل سورة سوى سورة (براءة) التوبة.

قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخطاب هنا للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، والخطاب الموجه للرسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يقوم الدليل على أنه خاص به فيختص به، القسم الثاني: أن يقوم الدليل على أنه عام فيعم، القسم الثالث: ألَّا يدل دليل على، هذا، ولا على، هذا، فيكون خاصًا به لفظًا، عامًّا له وللأمة حكمًا.

مثال الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١، ٢]. ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، فإن هذا من المعلوم أنه خاص بالنبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

ومثال الثاني الموجه للرسول ﷺ، وفيه قرينة تدل على العموم: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. فوجه الخطاب أولًا للرسول ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ولم يقل «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم» قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾،

ولم يقل: (يا أيها النبي إذا طلقت) بل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه له وللأمة.

وأما أمثلة الثالث: فهي كثيرة جدًا يوجه الله الخطاب للرسول ﷺ، والمراد الخطاب له لفظًا وللعموم حكمًا، هنا يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿سَبِّحِ﴾، يعني: نَزِّه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فإن التسبيح يعني: التنزيه، فإذا قلت: سبحان الله، يعني: أنني أنزه الله عن كل سوء، عن كل عيب، عن كل نقص، ولهذا كان من أسماء الله تعالى (السلام، القدوس)؛ لأنه منزه عن كل عيب، وأضرب أمثلة: من صفات الله تعالى: الحياة ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وحياة المخلوق فيها نقص، أولًا: لأنها مسبوقة بالعدم فالإنسان ليس أزليًا. وثانيًا: أنها ملحوقة بالفناء ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦].

مثال آخر: سمع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس فيه نقص يسمع كل شيء، حتى إن المرأة التي جاءت تشتكي إلى النبي ﷺ والتي ذكر الله تعالى قصتها في سورة المجادلة(١)، كانت تُحدث النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وعائشة في الحجرة يخفى عليها بعض حديثها، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]؛ ولهذا قالت عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)، إن المرأة المجادلة لتشتكي إلى النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وإنه ليخفى عليّ بعض حديثها(٢)؛ إذن معنى ﴿سَبِّحِ﴾، نزه الله عن كل عيب ونقص. وقوله تعالى: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، يعني: مسمى ربك؛ لأن التسبيح ليس للاسم، بل لله نفسه، ولكن الصحيح أن معناها: سبح ربك ذاكرًا اسمه، يعني: لا تسبحه بالقلب فقط، بل سبحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه تعالى، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]. يعني: سبح تسبيحًا مقرونًا باسم وذلك؛ لأن تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب، بالعقيدة، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يسبح بهما جميعًا بقلبه لافظًا بلسانه. وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، الرب معناه الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبر لجميع الأمور، والمشركون يقرون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وأخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم إذا سئلوا ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. فهم يقرون بأن الله له الملك، وله التدبير، وله الخلق، لكن

---

(١) تجوز (المجادِلة) بكسر الدال وفتحها (المجادَلة).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

يعبدون معه غيره، وهذا من الجهل، كيف تقر بأن الله وحده هو الخالق، المالك، المدبر للأمور كلها وتعبد معه غيره!! إذن معنى الرب هو الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور، وكل إنسان يقر بذلك يلزمه ألَّا يعبد إلا الله، كما تدل عليه الآيات الكثيرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يعني: لا تعبدوا غيره. قوله تعالى: ﴿الْأَعْلَى﴾ من العلو، وعلو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة:، فإن أكمل الصفات لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

وأما علو الذات: فهو أن الله ـ تعالى ـ فوق عباده مستو على عرشه، والإنسان إذا قال: يا الله أين يتجه؟ يتجه إلى السماء إلى فوق، فالله جل وعلا فوق كل شيء مستو على عرشه. إذن ﴿الْأَعْلَى﴾، فإذا قرأتها فاستشعر بنفسك أن الله عال بصفاته، وعال بذاته، ولهذا كان الإنسان إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، يتذكر بسفوله هو لأنه هو الآن نزل، فأشرف ما في الإنسان وأعلى ما في الإنسان هو وجهه ومع ذلك يجعله في الأرض التي تداس بالأقدام، فكان من الحكمة أن تقول: سبحان ربي الأعلى، يعني: أنزه ربي الذي هو فوق كل شيء؛ لأني نزلت أنا أسفل كل شيء، فتسبح الله الأعلى بصفاته، والأعلى بذاته، وتشعر عندما تقول: سبحان ربي الأعلى، أن ربك تعالى فوق كل شيء، وأنه أكمل كل شيء في الصفات.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، ﴿خَلَقَ﴾، يعني: أوجد من العدم، كل المخلوقات أوجدها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٢٣]، وهو مثل عظيم، كل الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا، ولو اجتمعوا له، لو يجتمع جميع الآلهة التي تعبد من دون الله وجميع السلاطين وجميع الرؤساء وجميع المهندسين على أن يخلقوا ذبابًا واحدًا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ونحن في هذا العصر وقد تقدمت الصناعة، هذا التقدم الهائل لو اجتمع كل هؤلاء الخلق أن يخلقوا ذبابًا ما استطاعوا، حتى لو أنهم، كما يقولون: صنعوا آدميًا آليًا ما يستطيعون أن يخلقوا ذبابة، هذا الآدمي الآلي ما هو إلا الآلات تتحرك فقط، لكن لا تجوع، ولا تعطش، ولا تحتر، ولا تبرد، ولا تتحرك إلا بتحريك، الذباب لا يمكن أن يخلقه كل من سوى الله، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو الخالق وبماذا يخلق؟ بكلمة واحدة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. كلمة واحدة، الخلائق كلها تموت وتفنى وتأكلها الأرض، وتأكلها السباع، وتحرقها النيران، وإذا كان يوم القيامة زجرها الله زجرة واحدة اخرجي فتخرج. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ

﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. كل العالم من إنس وجن، ووحوش وحشرات وغيرها كلها يوم القيامة تحشر بكلمة واحدة. إذن فالله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده هو الخالق، ولا أحد يخلق معه، والخلق لا يعسره، ولا يعجزه، وهو سهل عليه ويكون بكلمة واحدة. وقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾، يعني: سوى ما خلقه على أحسن صورة، وعلى الصورة المتناسبة، الإنسان مثلًا قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. لا يوجد في الخلائق شيء أحسن من خلقة الإنسان، رأسه فوق، وقلبه في الصدر، وعلى هيئة تامة، ولهذا أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ هو تسوية الإنسان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، كل شيء يسوى على الوجه الذي يكون لائقًا به. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، قدر كل شيء - عَزَّ وَجَلَّ -، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. قدره في حاله، وفي مآله، وفي ذاته، وفي صفاته، فكل شيء له قدر محدود، فالاجال محدودة، والأحوال محدودة، والأجسام محدودة، وكل شيء مقدر تقديرًا، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ يشمل الهداية الشرعية، والهداية الكونية، الهداية الكونية: أن الله هدى كل شيء لما خلق له، قال فرعون لموسى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. تجد كل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه، فالطفل إذا خرج من بطن أمه وأراد أن يرضع يهديه الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى هذا الثدي يرتضع منه، وانظر إلى أدنى الحشرات النمل مثلًا لا تصنع بيوتها إلا في مكان مرتفع على ربوة من الأرض تخشى من السيول تدخل بيوتها فتفسدها، وإذا جاء المطر وكان في جحورها، أو في بيوتها طعام من الحبوب تخرج به إذا طلعت الشمس تنشره؛ لئلا يعفن، وهي قبل أن تدخره تأكل أطراف الحبة لئلا تنبت فتفسد عليهم، وهذا الشيء مشاهد مجرب، فمن الذي هداها لذلك؟ إنه الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذه هداية كونية أي: أنه هدى كل مخلوق لما يحتاج إليه.

أما الهداية الشرعية - وهي الأهم بالنسبة لبني آدم - فهي أيضًا بينها الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى الكفار قد هداهم الله يعني: بيّن لهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. والهداية الشرعية هي المقصود من حياة بني آدم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنما أخبرنا الله بذلك؛ لأجل أن نلجأ إليه في جميع أمورنا، فإذا علمنا أنه هو الخالق بعد العدم وأصابنا المرض نلجأ إلى الله؛ لأن الذي خلقك وأوجدك من العدم قادر على أن يصحح بدنك، إذن الجأ إلى ربك، اعتمد عليه، ولا حرج أن تتناول ما أباح لك من الدواء، لكن مع اعتقاد أن، هذا الدواء سبب من الأسباب جعله الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإذا شفيت بهذا السبب فالذي شفاك هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - هو الذي جعل، هذا الدواء سببًا لشفائك، ولو شاء لجعل، هذا الدواء سببًا لهلاكك، فإذا علمنا أن الله هو الخالق فنحن نلجأ

في أمورنا كلها إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإذا علمنا أنه هو الهادي، فإننا نستهدي بهدايته، بشريعته حتى نصل إلى ما أعد لنا ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الكرامة. قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، هذا وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أنه يقرئه القرآن، ولا ينساه الرسول، وكان الرسول ﷺ يتعجل إذا جاء جبريل يُلقي عليه الوحي فقال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]. فصار النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ينصت حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه، وهنا يقول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، يعني: إلا ما شاء أن تنساه، فإن الأمر بيده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]. وربما نُسّي النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ آية من كتاب الله، ولكنه سرعان ما يذكرها ﷺ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ أي: أن الله تعالى يعلم الجهر، والجهر: ما يجهر به الإنسان ويتكلم به مسموعًا. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: ما يكون خفيًّا لا يُظهر، فإن الله يعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]. فهو يعلم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الجهر ويعلم أيضًا ما يخفى. قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وهذا أيضًا وعد من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لرسوله ﷺ أن ييسره لليسرى، واليسرى أن تكون أموره ميسرة، ولاسيما في طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولما أخبر النبي ﷺ أنه ما من أحد من الناس إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، كل بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، قالوا: (يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل؟ يعني: على ما كتب، قال: «لَا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[(١)]؛ فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥:٧] وهذا الحديث يقطع حُجة من يحتج بالقدر على معاصي الله فيعصي الله ويقول: هذا مكتوب علي وهذا ليس بحجة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» هل أحد يحجزك عن العمل الصالح لو أردته؟ أبدًا. هل أحد يجبرك على المعصية لو لم تردها؟ أبدًا لا أحد، ولهذا لو أن أحدًا أجبرك على المعصية وأكرهك عليها لم يكن عليك إثم، ولا يترتب على فعلك لها ما يترتب على فعل المختار لها، حتى إن الكفر، وهو أعظم الذنوب، قال الله تعالى فيه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ إذن نقول اعمل أيها الإنسان، اعمل الخير وتجنب الشر، حتى ييسرك الله لليسرى ويجنبك العسرى، فرسول الله ﷺ وعده الله بأن ييسره لليسرى فيسهل عليه الأمور، ولهذا لم يقع النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في شدة وضنك إلا وجد له مخرجًا ﷺ.

ثم أمره تعالى أن يذكر فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ يعني: ذكر الناس، ذكرهم بآيات الله، ذكرهم بأيام الله، عظهم، ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾، يعني: في محل تنفع فيه الذكرى، وعلى هذا فتكون ﴿إِن﴾، شرطية والمعنى إن نفعت الذكرى فذكر، وإن لم تنفع فلا تذكر؛ لأنه لا فائدة من تذكير قوم نعلم أنهم لا ينتفعون، هذا ما قيل: في هذه الآية.

وقال بعض العلماء: المعنى ذكر على كل حال، إن كان هؤلاء القوم تنفع فيهم الذكرى فيكون الشرط هنا ليس المقصود به أنه لا يُذكر إلا إذا نفعت، بل المعنى ذكر إن كان هؤلاء القوم ينفع فيهم التذكير، فالمعنى على، هذا القول: ذكر بكل حال، والذكرى سوف تنفع المؤمنين، وتنفع المُذكِّر أيضًا، فالمذكر منتفع على كل حال، والمذكر إن انتفع بها فهو مؤمن، وإن لم ينتفع بها، فإن ذلك لا ينقص من أجر المذكر شيئًا، فذكر سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع.

وقال بعض العلماء: إن ظن أن الذكرى تنفع وجبت، وإن ظن أنها لا تنفع فهو مخير إن شاء ذكر، وإن شاء لم يذكر، ولكن على كل حال نقول: لابد من التذكير حتى، وإن ظننت أنها لا تنفع، فإنها سوف تنفعك أنت، وسوف يعلم الناس أن، هذا الشيء الذي ذكرت عنه إما واجب، وإما حرام، وإذا سكتَّ والناس يفعلون المحرم، قال الناس: لو كان هذا محرمًا لذكَّر به العلماء، أو لو كان، هذا واجبًا لذكَّر به العلماء، فلابد من التذكير ولابد من نشر الشريعة سواء نفعت أم لم تنفع.

ثم ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - من سيذكر ومن لا يتذكر فقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾، فبين تعالى أن الناس ينقسمون بعد الذكرى إلى قسمين:

القسم الأول: من يخشى الله - عَزَّ وَجَلَّ - أي: يخافه خوفًا عن علم بعظمة الخالق جل وعلا، فهذا إذا ذكر بآيات ربه تذكر، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]. فمن يخش الله ويخاف الله إذا ذكر ووعظ بآيات الله اتعظ وانتفع.

أما **القسم الثاني**: فقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي: يتجنب هذه الذكرى، ولا ينتفع بها الأشقى و﴿الْأَشْقَى﴾، هنا اسم تفضيل من الشقاء، وهو ضد السعادة، كما في سورة هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود: ١٠٦]. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨]. فالأشقى المتصف بالشقاوة يتجنب الذكرى، ولا ينتفع بها، والأشقى هو البالغ في الشقاوة غايتها

وهذا هو الكافر، فإن الكافر يذكر، ولا ينتفع بالذكرى، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، الذي يصلى النار الموصوفة بأنها ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وهي نار جهنم؛ لأن نار الدنيا صغرى بالنسبة لها، فقد صح عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «أَنَّ نَارَ الدُّنْيَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ»(١) أي: أن نار الآخرة فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، والمراد بنار الدنيا كلها أشد ما يكون من نار الدنيا، فإن نار الآخرة فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا ولهذا وصفها بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، ثم إذا صلاها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، المعنى لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة سعيدة، وإلا فهم أحياء في الواقع لكن أحياء يعذبون ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾، وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، يعني: ليهلكنا ويريحنا من هذا العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ولا راحة ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾؛ لأنه قد يشكل على بعض الناس كيف يكون الإنسان لا حي، ولا ميت؟ والإنسان إما حي وإما ميت؟

فيقال: لا يموت فيها ميتة يستريح بها، ولا يحيى حياة يسعد بها، فهو في عذاب وجحيم، وشدة يتمنى الموت، ولكن لا يحصل له، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

❁ قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، ﴿أَفْلَحَ﴾، مأخوذ من الفلاح، والفلاح كلمة جامعة، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، هذا هو معنى الفلاح فهي كلمة جامعة لكل خير، دافعة لكل شر. وقوله تعالى: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، مأخوذة من التزكية، وهو التطهير، ومنه سميت الزكاة زكاة؛ لأنها تطهر الإنسان من الأخلاق الرذيلة، أخلاق البخل، كما قال تعالى:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ إذن ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تطهر، ظاهره وباطنه، يتزكى أولًا من الشرك بالنسبة لمعاملة الله، فيعبد الله مخلصًا له الدين، لا يرائي، ولا يسمع، ولا يطلب جاهًا، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة. تزكى في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل، ولا كثير، لا في الاعتقاد، ولا في الأقوال، ولا في الأفعال، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول ﷺ، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تمامًا إلا على الطريقة السلفية طريقة أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - على الطريقة السلفية الذين لا يبتدعون في العبادات القولية، ولا في العبادات الفعلية شيئًا في دين الله، تجدهم يتبعون ما جاء به الشرع، خلافًا لما يصنعه بعض المبتدعة في الأذكار المبتدعة، إما في نوعها، وإما في كيفيتها وصفتها، وإما في أدائها، كما يفعله بعض أصحاب الطرق من الصوفيةوغيرهم.

كذلك يتزكى بالنسبة لمعاملة الخلق، بحيث يطهر قلبه من الغل والحقد على إخوانه المسلمين فتجده دائمًا طاهر القلب يحب لإخوانه ما يحب لنفسه لا يرضى؛ لأحد أن يمسه سوء، بل يود أن جميع الناس سالمون من كل شر، موفقون لكل خير. فـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: من تطهر ظاهره وباطنه، فتطهر باطنه من الشرك بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ومن الشك ومن النفاق ومن العداوة للمسلمين والبغضاء، وغير ذلك مما يجب أن يتطهر القلب منه، وتطهر ظاهره من إطلاق لسانه وجوارحه في العدوان على عبادالله - عَزَّ وَجَلَّ - فلا يغتاب أحدًا، ولا ينم عن أحد، ولا يسب أحدًا، ولا يعتدي على أحد بضرب، أو جحد مال أو غير ذلك، فالتزكي كلمة عامة تشمل التطهر من كل درن ظاهر أو باطن، فصارت التزكية لها ثلاث متعلقات: الأول: في حق الله. والثاني: في حق الرسول. والثالث: في حق عامة الناس. في حق الله تعالى يتزكى من الشرك فيعبد الله تعالى مخلصًا له الدين. في حق الرسول يتزكى من الابتداع فيعبد الله على مقتضى شريعة النبي ﷺ في العقيدة، والقول، والعمل. في معاملة الناس يتزكى من الغل والحقد والعداوة والبغضاء، وكل ما يجلب العداوة والبغضاء بين المسلمين يتجنبه، ويفعل كل ما فيه المودة والمحبة ومن ذلك: إفشاء السلام الذي قال فيه الرسول ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(١)، فالسلام من أقوى الأسباب التي تجلب المحبة والمودة بين المسلمين وهذا الشيء مشاهد، لو مر بك رجل ولم يسلم عليك صار في نفسك شيء، وإذا لم تسلم عليه أنت صار في نفسه شيء، لكن لو سلمت عليه، أو سلم عليك صار، هذا كالرباط بينكما يوجب المودة والمحبة، وقد قال النبي ﷺ في السلام: «وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٤)، والترمذي (٢٦٨٨)، وأبو داود (٥١٩٣)، وابن ماجه (٦٨).

عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[(١)]، وأكثر الناس اليوم إذا سلم يسلم على من يعرف، وأما من لا يعرفه فلا يسلم عليه، وهذا غلط، لأنك إذا سلمت على من تعرف لم يكن السلام خالصًا لله، سلم على من عرفت ومن لم تعرف من المسلمين؛ حتى تنال بذلك محبة المسلمين بعضهم لبعض، وتمام الإيمان، والنهاية دخول الجنة جعلنا الله من أهلها.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: ذكر الله، ولكنه ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ الاسم من أجل أن يكون الذكر باللسان؛ لأنه ينطق فيه باسم الله فيقول مثلًا: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، فيذكر اسم الله، ويعني أيضًا ذكر اسم الله تعالى بالتعبد له، ويدخل في ذكر اسم الله الوضوء، فالوضوء من ذكر اسم الله، أولًا: لأن الإنسان لا يتوضأ إلا امتثالًا؛ لأمر الله. وثانيًا: أنه إذا ابتدأ وضوءه قال: بسم الله، وإذا انتهى قال: «أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». ومن ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خطبة الجمعة، فإن خطبة الجمعة من ذكر الله، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]. وعلى هذا قال بعض العلماء: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، يعني: الخطيب يوم الجمعة ﴿فَصَلَّىٰ﴾، أي: صلاة الجمعة. فهذه الآية تشمل كل الصلوات التي يسبقها ذكر، وما من صلاة إلا ويسبقها ذكر؛ لأن الإنسان يتوضأ قبيل الصلاة فيذكر اسم الله ثم يصلي.

لكن الصحيح: أنها أعم من هذا، وأن المراد به كل ذكر لاسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أي: كلما ذكر الإنسان اسم الله اتعظ وأقبل إلى الله وصلى. والصلاة معروفة هي عبادة ذات أقوال وأفعال، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

ثم قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، ﴿بَلۡ﴾ هنا للإضراب الانتقالي؛ لأن ﴿بَلۡ﴾ تأتي للإضراب الإبطالي، وتأتي للإضراب الانتقالي أي: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ انتقل ليبين حال الإنسان أنه مؤثر للحياة الدنيا؛ لأنها عاجلة، والإنسان خلق من عجل، ويحب ما فيه العجلة، فتجده يؤثر الحياة الدنيا، وهي في الحقيقة على وصفها دنيا، دنيا زمنًا، ودنيا وصفًا، أما كونها دنيا زمنًا؛ فلأنها سابقة على الآخرة فهي متقدمة عليها، والدنو بمعنى القرب. وأما كونها دنيا ناقصة فكذلك هو الواقع، فإن الدنيا مهما طالت بالإنسان، فإن أمدها الفناء، ومنتهاها الفناء، ومهما ازدهرت للإنسان، فإن عاقبتها الذبول، ولهذا لا يكاد يمر بك يوم في سرور إلا وعقبه حزن، وفي هذا يقول الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

تأمل حالك في الدنيا تجد أنه لا يمر بك وقت ويكون الصفو فيه دائمًا، بل لابد من كدر، ولا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

يكون السرور دائمًا، بل لابد من حزن، ولا تكون راحة دائمًا، بل لابد من تعب، فالدنيا على اسمها دنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، الآخرة خير من الدنيا وأبقى، خير بما فيها من النعيم والسرور الدائم الذي لا ينغص بكدر ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. كذلك أيضًا هي أبقى من الدنيا؛ لأن بقاء الدنيا، كما أسلفنا قليل زائل مضمحل، بخلاف بقاء الآخرة، فإنه أبد الآبدين. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: ما ذكر من كون الإنسان يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة وينسى الآخرة، وكذلك ما تضمنته الآيات من المواعظ ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: السابقة على هذه الأمة ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، وهي صحف جاء بها إبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - وفيها من المواعظ ما تلين به القلوب وتصلح به الأحوال، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاه الله عذاب النار، إنه جواد كريم.

تفسير سورة الغاشية

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ١ - ٧].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، يجوز أن يكون الخطاب موجه للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وحده وأمته تبعًا له، ويجوز أن يكون عامًا لكل من يتأتى خطابه، والاستفهام هنا للتشويق فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ويجوز أن يكون للتعظيم لعظم، هذا الحديث عن الغاشية. قوله تعالى: ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي: نبأها وخبرها، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾، هي الداهية العظيمة التي تغشى الناس، وهي يوم القيامة التي تحدث الله عنها في القرآن كثيرًا، ووصفها بأوصاف عظيمة مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. ثم قسم الله - سبحانه وتعالى - الناس في هذا اليوم إلى قسمين فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾، ﴿خَاشِعَةٌ﴾، أي: ذليلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. فمعنى خاشعة يعني: ذليلة، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، عاملة عملًا يكون به النصب، وهو التعب. قال العلماء: وذلك أنهم يكلفون يوم القيامة بجر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم، كما يخوض الرجل في

الوحل، فهي عاملة تعبة من العمل الذي تكلف به يوم القيامة؛ لأنه عمل عذاب وعقاب، وليس المعنى، كما قال بعضهم أن المراد بها: الكفار الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وذلك؛ لأن الله قيد هذا بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذ تأتي الغاشية، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة. إذن فهي عاملة ناصبة بما تكلف به من جر السلاسل والأغلال، والخوض في نار جهنم أعاذنا الله منها. قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: تدخل في نار جهنم، والنار الحامية التي، بلغت من حموها أنها فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، يعني: نار الدنيا كلها بما فيها من أشد ما يكون من حرارة نار جهنم أشد منها بتسعة وستين جزءًا، ويدلك على شدة حرارتها أن هذه الشمس حرارتها تصل إلينا مع بعد ما بيننا وبينها، ومع أنها تنفذ من خلال أجواء باردة غاية البرودة وتصل لنا هذه الحرارة التي تدرك ولاسيما في أيام الصيف، فالنار نار حامية، ولما بين مكانهم، وأنهم في نار جهنم الحامية، بين طعامهم وشرابهم فقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، ﴿تُسْقَىٰ﴾ أي: هذه الوجوه ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، أي: شديدة الحرارة، هذا بالنسبة لشرابهم، ومع هذا لا يأتي هذا الشراب بكل سهولة، أو كلما عطشوا سقوا، وإنما يأتي كلما اشتد عطشهم واستغاثوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، هذا الماء إذا قرب من وجوههم شواها وتساقط لحمها، وإذا دخل في أجوافهم قطعها، يقول عز وجل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]؛ إذن لا يستفيدون منه لا ظاهرًا، ولا باطنًا، لا ظاهرًا بالبرودة ببرد الوجوه، ولا باطنًا بالري، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ يُغاثون بهذا الماء ولهذا قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾.

فإذا قال قائل: كيف تكون هذه العين في نار جهنم والعادة أن الماء يطفىء النار؟

فالجواب: أولًا: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا، لو أنها قيست بأمور الدنيا ما استطعنا أن نتصور كيف يكون، أليس الشمس تدنو يوم القيامة من رؤوس الناس على قدر ميل؟ والميل إما ميل المكحلة، وهو نصف الإصبع أو ميل المسافة كيلو وثلث أو نحو ذلك، وحتى لو كان كذلك، فإنه لو كانت الآخرة كالدنيا لشوت الناس شيًّا، لكن الآخرة لا تقاس بالدنيا. أيضًا يحشر الناس يوم القيامة في مكان واحد، منهم من هو في ظلمة شديدة، ومنهم من هو في نور ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]. يحشرون في مكان واحد ويعرقون منهم من يصل العرق إلى كعبه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حِقويه، ومع ذلك هم في مكان واحد. إذن أحوال الآخرة لا يجوز أن تقاس بأحوال الدنيا.

ثانيًا: أن الله على كل شيء قدير. ها نحن الآن نجد أن الشجر الأخضر توقد منه النار، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. الشجر

الأخضر رَطِب، ومع ذلك إذا ضرب بعضه ببعض، أو ضرب بالزند انقدح خرج منه نار حارة يابسة، وهو رطب بارد، فالله على كل شيء قدير، فهم يسقون من عين آنية في النار، ولا يتنافى ذلك مع قدرة الله عز وجل.

أما طعامهم فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، الضريع قالوا: إنه شجر ذو شوك عظيم إذا يبس لا يرعاه، ولا البهائم، وإن كان أخضر رعته الإبل ويسمى عندنا الشبرق. فهم ـ والعياذ بالله ـ في نار جهنم ليس لهم طعام إلا من، هذا الضريع، ولكن لا تظن أن الضريع الذي في نار جهنم كالضريع الذي في الدنيا فهو يختلف عنه اختلافًا عظيمًا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾، فلا ينفع الأبدان في ظاهرها ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، فلا ينفعها في باطنها فهو لا خير فيه ليس فيه إلا الشوك، والتجرع العظيم، والمرارة، والرائحة المنتنة التي لا يستفيدون منها شيئًا.

قال الله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٦].

التفسير

ثم ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ القسم الثاني من أقسام الناس في يوم الغاشية فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي: ناعمة بما أعطاها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من السرور والثواب الجزيل؛ لأنها علمت ذلك وهي في قبورها، فإن الإنسان في قبره ينعم، يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، فهي ناعمة ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية؛ لأنها وصلت به إلى، هذا النعيم وهذا السرور وهذا الفرح، فهي راضية لسعيها بخلاف الوجوه الأولى، فإنها غاضبة ـ والعياذ بالله ـ غير راضية على ما قدمت. قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل؛ لأوليائه يوم القيامة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، إلى قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]. وقال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. فهم في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ العلو ضد السفول فهي فوق السماوات السبع، ومن المعلوم أنه في يوم القيامة تزول السماوات السبع والأرضون، ولا يبقى إلا الجنة والنار فهي عالية وأعلاها ووسطها الفردوس الذي فوقه عرش الرب جل وعلا، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾، أي: لا تسمع في هذه الجنة قولةً لاغية، أو نفسًا لاغية، بل كل ما فيها جد، كل ما فيها سلام، كل ما فيها تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس، أي: أنه لا يشق عليهم، ولا يتأثرون به، فهم دائمًا في ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتسبيح وأنس وسرور، يأتي بعضهم إلى بعض يزور بعضهم بعضًا في حبور لا نظير له، ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وهذه العين بين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنها أنهار ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. قوله تعالى: ﴿جَارِيَةٌ﴾، أي: تجري حيث أراد أهلها لا تحتاج إلى حفر ساقية، ولا إقامة أخدود، كما قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْـــدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَـــنِ الفَيَضَانِ

قال الله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، انظر للتقابل ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ عالية يجلسون عليها يتفكهون ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]. قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾، الأكواب جمع كوب، وهو الكأس ونحوه ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ يعني: ليست مرفوعة عنهم، بل هي موضوعة لهم متى شاءوا شربوا فيها من هذه الأنهار الأربعة التي سبق ذكرها. قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة أو ما يتكيء عليه. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، على أحسن وجه تلتذ العين بها قبل أن يلتذ البدن بالاتكاء إليها. قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، الزرابي أعلى أنواع الفرش ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾، منشورة في كل مكان، ولا تظن أن هذه النمارق، وهذه الأكواب، وهذه السرر، وهذه الزرابي لا تظن أنها تشبه ما في الدنيا؛ لأنها لو كانت تشبه ما في الدنيا لكنا نعلم نعيم الآخرة، ونعلم حقيقته لكنها لا تشبهه لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. إنما الأسماء واحدة والحقائق مختلفة، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط)، فنحن لا نعلم حقيقة هذه النعم المذكورة في الجنة، وإن كنا نشاهد ما يوافقها في الاسم في الدنيا لكنه فرق بين هذا وهذا.

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾
لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ١٧-٢٦].

التفسير

لما قرر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هذه السورة حديث الغاشية وهي يوم القيامة، وبين أن الناس ينقسمون إلى قسمين: وجوه خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارًا حامية، ووجوه ناعمة لسعيها راضية، وبين جزاء هؤلاء وهؤلاء، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وهذا الاستفهام للتوبيخ، أي: إن الله يوبخ هؤلاء الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة، وعن الثواب والعقاب، أنكر عليهم إعراضهم عن النظر في آيات الله تعالى التي بين أيديهم، وبدأ بالإبل؛ لأن أكثر ما يلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها إلى غير ذلك من المنافع قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾، وهي الأباعر ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، يعني: كيف خلقها الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا الجسم الكبير المتحمل، تجد البعير تمشي مسافات طويلة لا يبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس وهي متحملة، وتجد البعير أيضًا يحمل الأثقال، وهو بارك ثم يقوم في حمله لا يحتاج إلى مساعدة، والعادة أن الحيوان لا يكاد يقوم إذا حُمل، وهو بارك لكن هذه الإبل أعطاها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قوة وقدرة من أجل مصلحة الإنسان؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يحمل عليها وهي قائمة لعلوها، ولكن الله - تعالى - يسر لهم الحمل عليها وهي باركة ثم تقوم بحملها، وكما قال الله تعالى في سورة (يس): ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣]. منافعها كثيرة لا تحصى، وأهلها الذين يمارسونها أعلم منا بذلك؛ فلهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ولم يذكر سواها من الحيوان كالغنم والبقر والظبي وغيرها؛ لأنها أعم الحيوانات نفعًا وأكثرها مصلحة للعباد. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، يعني: وينظرون إلى السماء كيف رفعت بما فيها من النجوم، والشمس، والقمر وغير، هذا من الآيات العظيمة التي لم يتبين كثير منها إلى الآن، ولا نقول: إن هذه الآيات السماوية هي كل الآيات، بل لعل هناك آيات كبيرة عظيمة لا ندركها حتى الآن، وقوله تعالى:

﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي: رفعت، هذا الارتفاع العظيم، ومع هذا فليس لها عمد مع أن العادة أن السقوف لا تكون إلا على عمد، لكن، هذا السقف العظيم المحفوظ قام على غير عمد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، هذه الجبال العظيمة التي تحمل الصخور والقطع المتجاورات المتباينات، الجبال مكونة من أحجار كثيرة وأنواع كثيرة، فيها المعادن المتنوعة وهي متجاورة ومع ذلك تجد مثلًا، هذا الخط في وسط الصخر تجده يشتمل على معادن لا توجد فيما قرب منه من هذا الصخر، ويعرف، هذا علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) كيف نصب الله هذه الجبال العظيمة، ونصبها جل وعلا بهذا الارتفاع لتكون رواسي في الأرض لئلا تميد بالناس، لولا أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خلق هذه الجبال لمادت الأرض بأهلها؛ لأن الأرض في وسط الماء، الماء محيط بها من كل جانب، وما ظنك بكرة تجعلها في وسط ماء سوف تتحرك وتضطرب، وتتدحرج أحيانًا، وتنقلب أحيانًا لكن الله جعل هذه الجبال رواسي تمسك الأرض، كما تمسك الأطناب الخيمة، وهي راسية ثابتة على ما يحصل في الأرض من الأعاصير العظيمة التي تهدم البنآيات التي بناها الآدميون لكن هذه الجبال لا تتزحزح راسية ولو جاءت الأعاصير العظيمة، بل إن من فوائدها: أنها تحجب الأعاصير العظيمة البالغة التي تنطلق من البحار، أو من غير البحار لئلا تعصف بالناس، وهذا شيء مشاهد تجد الذين في سفوح الجبال وتحتها في الأرض تجدهم في مأمن من أعاصير الرياح العظيمة التي تأتي من خلف الجبل، ففيها فوائد عظيمة، وهي رواسي لو أن الخلق اجتمعوا على أن يضعوا سلسلة مثل هذه السلسلة من الجبال ما استطاعوا إلى، هذا سبيلًا مهما، بلغت صنعتهم، وقوتهم، وقدرتهم، وطال أمدهم، فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه الجبال. وقد قال بعض العلماء: إن هذه الجبال راسية في الأرض بمقدار علوها في السماء، يعني: أن الجبل له جرثومة وجذر في داخل الأرض في عمق يساوي ارتفاعه في السماء، وليس، هذا ببعيد أن يُمكِّن الله لهذا الجبل في الأرض حتى يكون بقدر ما هو في السماء لئلا تزعزعه الرياح؛ فلهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥، ١٦]. يقول عز وجل: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: وانظروا كيف سطح الله هذه الأرض الواسعة، وجعلها سطحًا واسعًا ليتمكن الناس من العيش فيه بالزراعة والبناء وغير، هذا، وما ظنكم لو كانت الأرض صببًا غير مسطحة يعني: مثل الجبال يرقى لها ويصعد لكانت شاقة، ولما استقر الناس عليها، لكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعلها سطحًا ممهدًا للخلق، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية، بل سطح ممتد لكن، هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن هناك آيات تدل على أن الأرض كروية، والواقع شاهد بذلك فيقول الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. والتكوير يعني:

التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٤]. فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ وقد جاء في الحديث أنها يوم القيامة تمد مد الأديم أي: مد الجلد حتى لا يكون فيها جبال، ولا أودية، ولا أشجار، ولا بناء، يذرها الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، فقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ والسماء لا تنشق إلا يوم القيامة وهي الآن غير منشقة إذن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ يعني: يوم القيامة فهي إذن الآن غير ممدودة، فإذا مكورة، والواقع المحسوس المتيقن الآن أنها كروية لا شك، والدليل على، هذا أنك لو سرت بخط مستقيم من هنا من المملكة متجهًا غربًا لأتيت من ناحية الشرق، تدور على الأرض ثم تأتي إلى النقطة التي انطلقت منها، وكذلك بالعكس لو سرت متجهًا نحو المشرق وجدتك راجعًا إلى النقطة التي قمت منها من نحو المغرب، فإذا فهي الآن أمر لا شك فيه أنها كروية.

فإذا قال الإنسان: إذا كانت، كما ذكرت كروية فكيف تثبت المياه، مياه البحار عليها وهي كروية؟

نقول في الجواب عن ذلك: الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه يمسك البحار أن تفيض على الناس فتغرقهم، والله على كل شيء قدير، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾، أي: حبست ومنعت من أن تفيض على الناس كالشيء الذي يُسجر (يربط)، وعلى كل حال القدرة الإلهية لا يمكن لنا أن نعارض فيها. نقول قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أمسكت هذه البحار أن تفيض على أهل الأرض فتغرقهم، وإن كانت الأرض كروية.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما بين من آياته هذه الآيات الأربع: الإبل، والسماء، والجبال، والأرض قال لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿فَذَكِّرۡ﴾، أمره الله أن يذكر ولم يخصص أحدًا بالتذكير، أي: لم يقل ذكِّر فلانًا وفلانًا فالتذكير عام؛ لأن الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بُعث إلى الناس كافة، ذكّر كل أحد في كل حال وفي كل مكان، فذكر النبي ﷺ، وذكّر خلفاؤه من بعده الذين خلفوه في أمته في العلم والعمل والدعوة، ولكن هذه الذكرى هل ينتفع بها كل الناس؟ الجواب: لا، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، أما غير المؤمن، فإن الذكرى تقيم عليه الحجة لكن لا تنفعه، لا تنفع الذكرى إلا المؤمن، ونقول إذا رأيت قلبك لا يتذكر بالذكرى فاتهمه؛ لأن الله يقول: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإذا ذُكرت ولم تجد من قلبك تأثرًا وانتفاعًا فاتهم نفسك، واعلم أن فيك نقص إيمان؛ لأنه لو كان إيمانك كاملًا لانتفعت بالذكرى؛ لأن الذكرى لابد أن تنفع المؤمنين. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾، يعني: أن محمدًا ﷺ ليس إلا مذكرًا مبلغًا، وأما الهداية فبيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي

﴿مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقد قام ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بالذكرى والتذكير إلى آخر رمق من حياته، حتى أنه في آخر حياته يقول: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم»(١)، حتى جعل يغرغر بها ﷺ، فذكّر صلوات الله وسلامه عليه منذ بعث وقيل له ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]. إلى أن توفاه الله، لم يأل جهدًا في التذكير في كل موقف، وفي كل زمان على ما أصابه من الأذى من قومه ومن غير قومه، والذي قرأ التاريخ ـ السيرة النبوية ـ يعرف ما جرى له من أهل مكة من قومه الذين هم أقرب الناس إليه، والذين كانوا يعرفونه، ويلقبونه بالأمين يلقبونه بذلك ويثقون به حتى حكّموه في وضع الحجر الأسود في الكعبة حينما هدموا الكعبة ووصلوا إلى حد الحجر قالوا من ينصب الحجر، فتنازعوا بينهم كل قبيلة تقول نحن الذين نتولى وضع الحجر في مكانه، حتى جاء النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وحكموه فيما بينهم وأمر أن يوضع رداء وأن تمسك كل طائفة من هذه القبيلة أن يمسك كل واحد من هذه القبائل بطرف من، هذا الرداء حتى يرفعوه، فإذا حاذوا محله أخذه هو بيده الكريمة ونصبه في مكانه، فكانوا يلقبونه بالأمين لكن لما أكرمه الله ـ تعالى ـ بالنبوة انقلبت المعايير، فصاروا يقولون: إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون وكذاب، ورموه بكل سب، فالرسول ﷺ يذكّر وليس عليه إلا التذكير، ومن هنا نأخذ أن الهداية بيد الله، لا يمكن أن نهدي أقرب الناس إلينا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. فلا تجزع إذا ذكّرنا إنسانًا ووجدناه يعاند، أو يخاصم، أو يقول أنا أعمل ما شئت، أو ما أشبه ذلك.

قال الله تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. لا تهلك نفسك إذا لم يؤمنوا، إيمانهم لهم وكفرهم ليس عليك ولهذا قال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، يعني: ليس لك سلطة عليهم، ولا سيطرة عليهم، السلطة لله رب العالمين، فأنت عليك البلاغ، بلغ، والسلطان والسيطرة لله عز وجل، ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾، قال العلماء: ﴿إِلَّا﴾، هنا بمعنى لكن يعني: أن الاستثناء في الآية منقطع وليس بمتصل، والفرق بين المتصل والمنقطع أن المتصل يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، والمنقطع يكون أجنبيًّا منه، فمثلًا لو قلنا إنه متصل لصار معنى الآية (لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر؛ فأنت عليهم مصيطر) وليس الأمر كذلك، بل المعنى: لكن من تولى وكفر بعد أن ذكرته فيعذبه الله العذاب الأكبر. فمن تولى وكفر بعد أن، بلغه الوحي النازل على رسول الله ﷺ، فإنه سيعذب ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، التولي يعني: الإعراض فلا يتجه للحق، ولا يقبل الحق، ولا يسمع الحق، حتى لو سمعه بأذنه لم يسمعه بقلبه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠،

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»

٢١]. أي: لا ينقادون. فهنا يقول عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾، ﴿تَوَلَّىٰ﴾، أعرض، ﴿وَكَفَرَ﴾ أي: استكبر ولم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾، والعذاب الأكبر يوم القيامة وهنا قال تعالى: ﴿الْأَكْبَرَ﴾، ولم يذكر المفضل عليه يعني: لم يقل الأكبر من كذا فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة، وكل من تولى وكفر، فإن الله يعذبه العذاب الأكبر. وهناك عذاب أصغر في الدنيا قد يبتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكل، هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾، أي: مرجعهم، فالرجوع إلى الله مهما فر الإنسان، فإنه راجع إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ - لو طالت به الحياة راجع إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. فاستعد يا أخي لهذه الملاقاة؛ لأنك سوف تلاقي ربك، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ - مباشرة بدون مترجم يكلمه الله يوم القيامة - فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ - يعني: على اليسار - فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١)، كلنا سيخلو به ربه - عَزَّ وَجَلَّ - يوم القيامة ويقرره بذنوبه، يقول: فعلت كذا في يوم كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا أقر واعترف قال الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(٢)، وكم من ذنوب سترها الله - عَزَّ وَجَلَّ - كم من ذنوب اقترفناها لم يعلم بها أحد، ولكن الله تعالى علم بها، فموقفنا من هذه الذنوب أن نستغفر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأن نكثر من الأعمال الصالحة المكفرة للسيئات حتى نلقى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ونحن على ما يرضيه - سبحانه وتعالى -. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ نحاسبهم، قال العلماء: وكيفية الحساب ليس مناقشة يناقش الإنسان؛ لأنه لو يناقش هلك، لو يناقشك الله - عَزَّ وَجَلَّ - على كل حساب هلكت، لو ناقشك في نعمة من النعم كالبصر لا يمكن أن تجد أي شيء تعمله يقابل نعمة البصر، نعمة النَّفَسِ الذي يخرج ويدخل بدون أي: مشقة، وبدون أي: عناء، الإنسان يتكلم وينام، يأكل ويشرب، ومع ذلك لا يحس بالنفس، ولا يعرف قدر النفس إلا إذا أصيب بما يمنع النفس، حينئذ يذكر نعمة الله، لكن مادام في عافية يقول هذا شيء طبيعي، لكن لو أنه أصيب بكتم النفس لعرف قدر النعمة، فلو نوقش لهلك، كما قال النبي ﷺ لعائشة: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»(٣) أو قال «عذب»، لكن كيفية الحساب: أما المؤمن، فإن الله تعالى يخلو به بنفسه ليس عندهما أحد ويقرره بذنوبه فعلت كذا فعلت كذا، فعلت كذا حتى إذا أقر بها قال الله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1]، أما الكفار فلا يحاسبون، هذا الحساب؛ لأنهم ليس لهم حسنات تمحو سيئاتهم لكنها تحصى عليهم أعمالهم، ويقررون بها أمام العالم، ويخصون بها، وينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. ـ نعوذ بالله من الخذلان ـ وبهذا ينتهي الكلام على هذه السورة العظيمة وهي إحدى السورتين اللتين كان النبي ﷺ يقرأ بهما في المجامع الكبيرة، فقد كان يقرأ في صلاتي العيدين ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، وكذلك في صلاة الجمعة، ويقرأ أحيانًا في العيدين ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، وفي الجمعة سورة الجمعة والمنافقين، ينوع مرة، هذا، ومرة، هذا، نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا ممن تكون وجوههم ناعمة لسعيها راضية، وأن يتولانا بعنايته في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

تفسير سورة الفجر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي
ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي
لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١: ١٤].

التفسير

البسملة: تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، كل هذه إقسامات بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، خمسة أشياء أقسم الله تعالى بها، الأول: الفجر ﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو النور الساطع الذي يكون في الأفق الشرقي قرب طلوع الشمس، وبينه وبين طلوع الشمس ما بين ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة، إلى ساعة وسبع عشرة دقيقة، ويختلف باختلاف الفصول، فأحيانًا تطول الحصة ما بين الفجر وطلوع الشمس، وأحيانًا تقصر حسب الفصول، والفجر فجران: فجر صادق، وفجر كاذب، والمقصود بالفجر هنا الفجر الصادق، والفرق بين الفجر الصادق والكاذب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: الفجر الكاذب يكون مستطيلًا في السماء ليس عرضًا، ولكنه طولًا، وأما الفجر الصادق يكون عرضًا يمتد من الشمال إلى الجنوب.

الفرق الثاني: أن الفجر الصادق لا ظلمة بعده، بل يزداد الضياء حتى تطلع الشمس، وأما

الفجر الكاذب، فإنه يحدث بعده ظلمة بعد أن يكون هذا الضياء، ولهذا سمي كاذبًا؛ لأنه يضمحل ويزول.

الفرق الثالث: أن الفجر الصادق متصل بالأفق، أما الفجر الكاذب فبينه وبين الأفق ظلمة، هذه ثلاثة فروق آفاقية حسية يعرفها الناس إذا كانوا في البر، أما في المدن فلا يعرفون ذلك؛ لأن الأنوار تحجب هذه العلامات.

وأقسم الله بالفجر؛ لأنه ابتداء النهار، وهو انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به؛ لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١] وأقسم الله بالفجر؛ لأنه يترتب عليه أحكام شرعية، مثل: إمساك الصائم، فإنه إذا طلع الفجر وجب على الصائم أن يمسك إذا كان صومه فرضًا أو نفلًا إذا أراد أن يتم صومه، ويترتب عليه أيضًا: دخول وقت صلاة الفجر، وهما حكمان شرعيَّان عظيمان، أهمهما دخول وقت الصلاة، أي: أنه يجب أن نراعي الفجر من أجل دخول وقت الصلاة أكثر مما نراعيه من أجل الإمساك في حالة الصوم؛ لأننا في الإمساك عن المفطرات في الصيام لو فرضنا أننا أخطأنا، فإننا بنينا على أصل، وهو بقاء الليل، لكن في الصلاة لو أخطأنا وصلينا قبل الفجر لم نكن بنينا على أصل؛ لأن الأصل بقاء الليل وعدم دخول وقت الصلاة، ولهذا لو أن الإنسان صلى الفجر قبل دخول وقت الصلاة بدقيقة واحدة فصلاته نفل، ولا تبرأ بها ذمته، ومن ثَمَّ ندعوكم إلى ملاحظة هذه المسألة، أعني العناية بدخول وقت صلاة الفجر؛ لأن كثيرًا من المؤذنين يؤذنون قبل الفجر وهذا غلط؛ لأن الأذان قبل الوقت ليس بمشروع لقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ»[1]، ويكون حضور الصلاة إذا دخل وقتها، فلو أذن الإنسان قبل دخول وقت الصلاة؛ فأذانه غير صحيح يجب عليه الإعادة، والعناية بدخول الفجر مهمة جدًا من أجل مراعاة وقت الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: المراد بـ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، عشر ذي الحجة، وأطلق على الأيام؛ ليالي؛ لأن اللغة العربية واسعة، قد تطلق الليالي ويراد بها الأيام، والأيام يراد بها الليالي، وقيل: المراد بـ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ ليال العشر الأخيرة من رمضان، أما على الأول الذين يقولون المراد بالليالي العشر عشر ذي الحجة، فلأن عشر ذي الحجة أيام فاضلة قال فيها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٨)، ومسلم (٦٧٤).

بِشَيْءٍ»(١).

وأما الذين قالوا: إن المراد بالليال العشر هي؛ ليال عشر رمضان الأخيرة فقالوا: إن الأصل في الليالي أنها الليالي وليست الأيام، وقالوا: أن ليال العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة القدر التي قال الله عنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤]، وهذا القول أرجح من القول الأول، وإن كان القول الأول هو قول الجمهور، لكن اللفظ لا يسعف قول الجمهور، وإنما يرجح القول الثاني أنها الليالي العشر الأواخر من رمضان، وأقسم الله بها لشرفها، ولأن فيها؛ ليلة القدر، ولأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذي هو وقت فريضة من فرائض الإسلام وأركان الإسلام، فلذلك أقسم الله بهذه الليالي. وقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، قيل: إن المراد به كل الخلق، فالخلق إما شفع وإما وتر، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] والعبادات إما شفع وإما وتر، فيكون المراد بالشفع والوتر كل ما كان مخلوقًا من شفع ووتر، وكل ما كان مشروعًا من شفع ووتر، وقيل: المراد بالشفع الخلق كلهم، والمراد بالوتر الله عز وجل.

واعلم أن قوله والوتر فيها قراءتان صحيحتان (والوِتر) و(الوَتر) يعني: لو قلت (والشفع والوِتر) صح ولو قلت (والشفع والوَتْر) صح أيضًا، فقالوا إن الشفع هو الخلق؛ لأن المخلوقات كلها مكونة من شيئين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، والوَتْر أو الوِتر هو الله لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(٢)، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين، ولا منافاة بينهما فلتكن لكل المعاني التي تحتملهاالآية، وهذه القاعدة في علم التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين وأحدهما لا ينافي الآخر فهي محمولة على المعنيين جميعًا. قال تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، أقسم الله أيضًا بالليل إذا يسري، والسري هو السير في الليل، والليل يسير يبدأ بالمغرب وينتهي بطلوع الفجر فهو يمشي زمنًا لا يتوقف، فهو دائمًا في سريان؛ فأقسم الله به لما في ساعاته من العبادات كصلاة المغرب، والعشاء، وقيام الليل، والوتر وغير ذلك، ولأن في الليل مناسبة عظيمة وهي أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينزل كل؛ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(٣) ولهذا نقول: إن الثلث الآخر من الليل وقت إجابة، فينبغي أن ينتهز الإنسان هذه الفرصة فيقوم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يتهجد ويدعو الله سبحانه بما شاء من خير الدنيا والآخرة لعله يصادف ساعة إجابة ينتفع بها في دنياه وأخراه.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾، لذي عقل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٩٦٩)، والترمذي (٧٥٧)، وأبو داود (٢٤٣٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، الخطاب هنا لكل من يوجه إليه هذا الكتاب العزيز وهم البشر كلهم، بل والجن أيضًا ألم ترى أيها المخاطب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، يعني: ما الذي فعل بهم؟ وعاد قبيلة معروفة في جنوب الجزيرة العربية، أرسل الله تعالى إليهم هودًا ﷺ فبلغهم الرسالة، ولكنهم عتوا وبغوا وقالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. فهم افتخروا بقوتهم، ولكن الله بين أنهم ضعفاء أمام قوة الله ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ﴾، وعبّر - والله أعلم - بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ﴾؛ ليبين ضعفهم وأنه جل وعلا أقوى منهم؛ لأن الخالق أقوى من المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]. والذي فعله الله بعاد أنه أرسل عليهم الريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فترى القوى فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وهذا الاستفهام الذي لفت الله فيه النظر إلى ما فعل بهؤلاء يراد به الاعتبار يعني: اعتبر أيها المكذب للرسول محمد ﷺ بهؤلاء كيف أذيقوا، هذا العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾، هذه اسم للقبيلة، وقيل: اسم للقرية، وقيل: غير ذلك، فسواء كانت اسم للقبيلة أم اسم للقرية، فإن الله تعالى نكل بهم نكالًا عظيمًا مع أنهم أقوياء.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني: أصحاب ﴿ٱلْعِمَادِ﴾، الأبنية القوية ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، أي: لم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم وقالوا: مَن أشد منا قوة؟ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، مع أن الذي صنعها الآدمي دليل على أن الآدمي قد يوصف بالخلق فيقال خلق كذا، ومنه قول النبي ﷺ في المصورين «يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»(١)، لكن الخلق الذي ينسب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب إلى الله. الخلق المنسوب إلى الله إيجاد بعد عدم وتحويل وتغيير، أما الخلق المنسوب لغير الله فهو مجرد تحويل وتغيير، وأضرب لكم مثلًا: هذا الباب من خشب، الذي خلق الخشب الله، ولا يمكن للبشر أن يخلقوه، لكن البشر يستطيع أن يحول جذوع الخشب وأغصان الخشب إلى أبواب إلى كرسي وما أشبه ذلك، فالخلق المنسوب للمخلوق ليس هو الخلق المنسوب للخالق؛ لأن الخلق المنسوب للخالق إيجاد من عدم وهذا لا يستطيعه أحد، والمنسوب للمخلوق تغيير وتحويل يحول الشيء من صفة إلى صفة، أما أن يغير الذوات بمعنى يجعل الذهب فضة، أو يجعل الفضة حديدًا، أو ما أشبه ذلك فهذا مستحيل لا يمكن إلا لله وحده لا شريك له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾، ثمود هم قوم صالح ومساكنهم معروفة الآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]. في سورة (آلر) ذكر الله أن ثمود كانوا في، بلاد الحجر وهي معروفة مر عليها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنّع رأسه ﷺ وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»[1]، هؤلاء القوم أعطاهم الله قوة حتى صاروا يخرقون الجبال والصخور العظيمة ويصنعون منها بيوتًا ولهذا قال تعالى: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي: وادي ثمود، وهو معروف، هؤلاء أيضًا فعل الله بهم ما فعل من العذاب والنكال حيث قيل لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم بعد الثلاثة الأيام أخذتهم الصيحة والرجفة؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فعلينا أن نعتبر بحال هؤلاء المكذبين الذين صار مآلهم إلى الهلاك والدمار، وليُعلم أن هذه الأمة لن تُهلك بما أهلكت به الأمم السابقة بهذا العذاب العام، فإن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سأل الله تعالى ألَّا يهلكهم بسنة بعامة، ولكن قد تهلك هذه الأمة بأن يجعل الله بأسهم بينهم، فتجري بينهم الحروب والمقاتلة، ويكون هلاك بعضهم على يد بعض، لا بشيء ينزل من السماء، كما صنع الله تعالى بالأمم السابقة، ولهذا يجب علينا أن نحذر الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن نبتعد عن كل ما يثير الناس بعضهم على بعض، وأن نلزم دائمًا الهدوء، وأن نبتعد عن القيل والقال وكثرة السؤال، فإن ذلك مما نهى عنه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وكم من كلمة واحدة صنعت ما تصنعه السيوف الباترة، فالواجب الحذر من الفتن، وأن نكون أمة متآلفة متحابة، يتطلب كل واحد منا العذر؛ لأخيه إذا رأى منه ما يكره. قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فرعون هو الذي أرسل الله إليه موسى ﷺ وكان قد استذل بني إسرائيل في مصر، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وقد اختلف العلماء في السبب الذي أدى به إلى هذه الفعلة القبيحة، لماذا يقتل الأبناء ويبقي النساء؟! فقال بعض العلماء: إن كهنته قالوا له إنه سيولد في بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده فصار يقتل الأبناء ويستبقي النساء.

ومن العلماء من قال: إنه فعل ذلك من أجل أن يضعف بني إسرائيل؛ لأن الأمة إذا قُتلت رجالها واستبقيت نساءها ذلت، بلا شك، فالأول تعليل أهل الأثر، والثاني تعليل أهل النظر - أهل العقل - ولا يبعد أن يكون الأمران جميعًا قد صارا علة لهذا الفعل، ولكن بقدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن، هذا الرجل الذي كان هلاك فرعون على يده تربى في نفس بيت فرعون، فإن امرأة فرعون التقطته وربته في بيت فرعون، وفرعون استكبر في الأرض وعلا في الأرض وقال لقومه:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠).

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال لهم: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني: موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وقال لقومه مقررًا لهم: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. افتخر بالأنهار وهي المياه؛ فأغرق بالماء. قوله تعالى: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾، أي: ذي القوة؛ لأن جنوده كانوا له بمنزلة الوتد، والوتد تربط به حبال الخيمة فتستقر وتثبت، فله جنود أمم عظيمة ما بين ساحر وكاهن وغير ذلك لكن الله سبحانه فوق كل شيء. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾، الطغيان مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. أي: لما زاد الماء حملناكم في الجارية يعني بذلك: السفينة التي صنعها نوح ﷺ فمعنى ﴿طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾، أي: زادوا عن حدهم واعتدوا على عباد الله. قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾، أي: الفساد المعنوي، والفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ ولهذا قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قالوا: لا تفسدوها بالمعاصي، وعلى، هذا فيكون قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: الفساد المعنوي، لكن الفساد المعنوي يتبعه الفساد الحسي، وكان فيما سبق من الأمم أن الله تعالى يدمر هؤلاء المكذبين عن آخرهم، لكن هذه الأمة رفع الله عنها، هذا النوع من العقوبة وجعل عقوبتها أن يكون بأسهم بينهم، يدمر بعضهم بعضًا، وعلى، هذا فما حصل من المسلمين من اقتتال بعضهم بعضًا، ومن تدمير بعضهم بعضًا إنما هو بسبب المعاصي والذنوب، يسلط الله بعضهم على بعض ويكون، هذا عقوبة من الله - سبحانه وتعالى - وقال الله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ الصب معروف أنه يكون من فوق، والعذاب الذي أتى هؤلا من فوق من عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ السوط هو العصا الذي يضرب به، ومعلوم أن الضرب بالعصا نوع عذاب، لكن هل، هذاالسوط الذي صبه الله تعالى على عاد، وثمود، وفرعون، هل هو العصا المعروف الذي نعرف، أو أنه عصا عذاب أهلكهم؟ الجواب: الثاني عصا عذاب أهلكهم وأبادهم. نسأل الله تعالى أن يجعل لنا فيما سبق من الأمم عبرة نتعظ بها وننتفع بها، ونكون طائعين لله - عَزَّ وَجَلَّ - غير طاغين، إنه على كل شيء قدير. قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، الخطاب هنا للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، يبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه بالمرصاد لكل من طغى واعتدى وتكبر، فإنه له بالمرصاد سوف يعاقبه ويؤاخذه، وهذا المعنى له نظائر في القرآن الكريم منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]. وكقول شعيب؛ لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩]. فسنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحدة في المكذبين لرسله، المستكبرين عن عبادته هو لهم بالمرصاد، وهذه الآية تفيد التهديد والوعيد لمن حاول، أو لمن استكبر عن عبادة الله، أو كذب خبره.

قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾[الفجر: ١٥ ـ ٢٠].

التفسير

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، الابتلاء من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يكون بالخير وبالشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فيُبتلى الإنسان بالخير؛ ليبلوه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أيشكر أم يكفر، ويبتلى بالشر؛ ليبلوه أيصبر أم يفجر، وأحوال الإنسان دائرة بين خير وشر، بين خير يلائمه ويسره، وبين شر لا يلائمه، ولا يسره، وكله ابتلاء من الله، والإنسان بطبيعته الإنسانية المبنية على الظلم والجهل إذا ابتلاه ربه؛ فأكرمه ونعمه يقول ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾، يعني: أنني أهل للإكرام، ولا يعترف بفضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. لما ذكر بنعمة الله عليه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، ولم يعترف بفضل الله، وما أكثر الناس الذين هذه حالهم إذا أكرمهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ونعمهم، قالوا: هذا إكرام من الله لنا؛ لأننا أهل لذلك، ولو أن الإنسان قال: إن الله أكرمني بكذا اعترافًا بفضله وتحدثًا بنعمته لم يكن عليه في ذلك بأس، لكن إذا قال: أكرمني، يعني: أنني أهل للإكرام كما يقول مثلًا كبير القوم إذا نزل ضيفًا على أحدهم قال: أكرمني فلان؛ لأنني أهل لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ يعني: ضيق عليه الرزق ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، يعني: يقول إن الله تعالى ظلمني؛ فأهانني ولم يرزقني، كما رزق فلانًا، ولم يكرمني، كما أكرم فلانًا،

فصار عند الرخاء لا يشكر، يعجب بنفسه ويقول، هذا حق لي وعند الشدة لا يصبر، بل يعترض على ربه ويقول ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وهذا حال الإنسان باعتباره إنسانًا، أما المؤمن فليس كذلك، المؤمن إذا أكرمه الله ونعّمه شكر ربه على ذلك، ورأى أن، هذا فضل من الله - عَزَّ وَجَلَّ - وإحسان، وليس من باب الإكرام الذي يقدم لصاحبه على أنه مستحق، وإذا ابتلاه الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقدر عليه رزقه صبر واحتسب، وقال، هذا بذنبي، والرب - عَزَّ وَجَلَّ - لم يهني ولم يظلمني، فيكون صابرًا عند البلاء، شاكرًا عند الرخاء، وفي الآيتين إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أن يتبصر فيقول مثلًا: لماذا أعطاني الله المال؟ ماذا يريد مني؟ يريد مني أن أشكر. لماذا ابتلاني الله بالفقر، بالمرض وما أشبه ذلك؟ يريد مني أن أصبر، فليكن محاسبًا لنفسه حتى لا يكون مثل حال الإنسان المبنية على الجهل والظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يعطك ما أعطاك إكرامًا لك؛ لأنك مستحق، ولكنه تفضل منه، ولم يهنك حين قدر عليك رزقه، بل، هذا مقتضى حكمته وعدله. ثم قال تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ يعني: أنتم إذا أكرمكم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالنعم لا تعطفون على المستحقين للإكرام وهم اليتامى، فاليتيم هنا اسم جنس، ليس المراد يتيمًا واحدًا، بل جنس اليتامى، واليتيم قال العلماء: هو الذي مات أبوه قبل، بلوغه من ذكر أو أنثى، وأما من ماتت أمه فليس بيتيم، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾، يشمل الفقير من اليتامى، والغني من اليتامى؛ لأنه ينبغي الإحسان إليه وإكرامه؛ لأنه انكسر قلبه بفقد أبيه ومن يقوم بمصالحه فأوصى الله تعالى به حتى يزول، هذا الكسر الذي أصابه، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، يعني: لا يحض بعضكم بعضًا على أن يطعم المسكين، وإذا كان لا يحض غيره فهو أيضًا لا يفعله بنفسه، فهو لا يطعم المسكين، ولا يحض على طعام المسكين، وفي، هذا إشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نكرم الأيتام، وأن يحض بعضنا بعضًا على إطعام المساكين؛ لأنهم في حاجة، والله - تعالى - في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قال الله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ ما يورثه الله العبد من المال، سواء ورثه عن ميت، أو باع واشترى وكسب، أو خرج إلى البر وأتى بما يأتي به من عشب وحطب وغير ذلك، فالتراث ما يرثه الإنسان، أم ما يورثه الله الإنسان من المال، فإن بني آدم يأكلونه أكلًا لمًا، وأما المال فقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، أي: عظيمًا، وهذا هو طبيعة الإنسان، لكن الإيمان له مؤثراته قد يكون الإنسان بإيمانه لا يهتم بالمال، وإن جاءه شكر الله عليه، وأدى ما يجب، وإن ذهب لا يهتم به، لكن طبيعة الإنسان من حيث هو كما وصفه الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هاتين الآيتين.

قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢١-٣٠].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾، يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس بيوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، حتى لا ترى فيها عوجًا، ولا أمتًا، تُدك الجبال، ولا بناء، ولا أشجار، تمد الأرض كمد الأديم، يكون الناس عليها في مكان واحديُسمعهم لداعي نفذهم البصر في، هذا اليوم ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ولكن قد فات الأوان؛ لأننا في الدنيا في مجال العمل في زمن المهلة يمكن للإنسان أن يكتسب لمستقره، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. متاع يتمتع به الإنسان، كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره، فهكذا الدنيا واعتبر ما يستقبل بما مضى، كل ما مضى كأنه ساعة من نهار، كأننا الآن مخلوقون، فكذلك ما يستقبل سوف يمر بنا سريعًا ويمضي جميعًا، وينتهي السفر إلى مكان آخر ليس مستقرًّا، إلى الأجداث إلى القبور ومع، هذا، فإنها ليست محل استقرار لقول الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]. سمع أعرابي رجلًا يقرأ هذه الآية فقال: (والله ما الزائر بمقيم ولابد من مفارقة لهذا المكان)، وهذا استنباط قوي وفهم جيد تؤيده الآيات الكثيرة الصريحة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]. وذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما يكون في، هذا اليوم فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، أي: صفًّا بعد صف، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، هذا المجيء هو مجيئه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا بغيره، هذه القاعدة في اللغة العربية، والقاعدة في أسماء الله وصفاته كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له نفسه لا لغيره، وعلى، هذا فالذي يأتي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ

وليس، كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا إنه جاء أمر الله، فإن، هذا إخراج للكلام عن ظاهره، بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله تعالى، ورسوله ﷺ على ظاهره وألا نحرف فيه. ونقول: إن الله ـ تعالى ـ يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف، هذا المجيء؟، هذا هو الذي لا علم لنا به لا ندري كيف يجيء؟ والسؤال عن مثل، هذا بدعة، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؛ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ـ يعني: العرق ـ لشدة، هذا السؤال على قلبه؛ لأنه سؤال عظيم سؤال متنطع، سؤال متعنت أو مبتدع يريد السوء، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، الشاهد الكلمة الأخيرة ـ السؤال عنه بدعة ـ واعتبر، هذا في جميع صفات الله فلو سألنا سائل قال: إن الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص ٧٥]. يعني: آدم، كيف خلقه بيده؟ نقول:، هذا السؤال بدعة، قال: أنا أريد العلم لا أحب أن يخفى علي شيء من صفات ربي؛ فأريد أن أعلم كيف خلقه؟ نقول: نحن نسألك أسئلة سهلة هل أنت أحرص على العلم من الصحابة ـ ـ رضي الله عنهم ـ؟ إما أن يقول نعم، وإما أن يقول لا، والمتوقع أن يقول لا. هل الذي وجهت إليه السؤال أعلم بكيفية صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أم الرسول ﷺ؟ سيقول: الرسول، فإذا الصحابة أحرص منك على العلم والمسؤول الذي يوجه إليه السؤال أعلم من الذي تسأله ومع ذلك ما سألوا؛ لأنهم يلتزمون الأدب مع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويقولون بقلوبهم وربما بألسنتهم إن الله أجل وأعظم من أن تحيط أفهامنا وعقولنا بكيفيات صفاته، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول في كتابه في الأمور المعقولة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]. وفي الأمور المحسوسة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فنقول: يا أخي الزم الأدب، لا تسأل كيف خلق الله آدم بيده؟، فإن، هذا السؤال بدعة، وكذلك بقية الصفات لو سأل كيف عين الله عز وجل؟ قلنا له: هذا بدعة، لو سأل كيف يد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قلنا:، هذا بدعة وعليك أن تلزم الأدب، وألا تسأل عن كيفية صفات الله عز وجل. لما قال هنا في الآية الكريمة ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وسأل كيف يجيء؟ نقول:، هذا بدعة ـ هذه القاعدة التزموها ـ وكل إنسان يسأل عن كيفية صفات الله فهو مبتدع متنطع، سائل عما لا يمكن الوصول إليه، فموقفنا من مثل هذه الآية ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، أن نؤمن بأن الله يجيء لكن على أي كيفية الله؟ الله أعلم. والدليل قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنحن نعلم النفي، ولا نعلم الإثبات، يعني: نعلم أنه لا يمكن أن يأتي على كيفية إتيان البشر، ولكننا لا نثبت كيفيته وهذا هو الواجب علينا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ (أل) هنا للعموم يعني: جميع الملائكة يأتون ينزلون ويحيطون بالخلق، تنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم ملائكة السماء الثانية وهلم جرا يحيطون بالخلق إظهارًا للعظمة، وإلا فإن الخلق لا يمكن أن يفروا يمينًا، ولا شمالًا لكن إظهارًا لعظمة الله

وتهويلًا لهذا اليوم العظيم، تنزل الملائكة يحيطون بالخلق، وهذا اليوم يوم مشهود يشهده الملائكة والإنس والجن والحشرات وكل شيء ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. فهو يوم عظيم لا ندركه الآن، ولا نتصوره؛ لأنه أعظم مما نتصور. الأمر الثالث مما به الإنذار في، هذا اليوم بعد أن عرفنا الأمر الأول، وهو مجيء الله، ثم صفوف الملائكة قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ﴾، ولم يذكر الجائي لكن قد دلت السنة أنه يؤتى بالنار تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام منها يقوده سبعون ألف ملك، وما أدراك ما قوة الملائكة؟ قوة ليست كقوة البشر، ولا كقوة الجن، بل هي أعظم وأعظم بكثير، ولهذا لما قال عفريت من الجن لسليمان ﴿أنا آتيك به﴾، بعرش، بلقيس ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠].

قال العلماء: لأن الرجل هذا دعا الله، فحملته الملائكة من اليمن فجاءت به إلى سليمان في الشام، فقوة الملائكة عظيمة، وهم يجرون هذه النار بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، فإذا هي عظيمة، هذه النار إذن رأت أهلها من مكان بعيد، سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، وليست كزفير الطائرات أو المعدات، زفير تنخلع منه القلوب، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]. وقال الله عز وجل: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، تكاد تقطع من شدة الغيظ على أهلها؛ فلهذا أنذرنا الله تعالى منها فهذه ثلاثة أمور كلها إنذار: مجيء الرب جل جلاله، صفوف الملائكة، الثالث: الإتيان بجهنم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني: إذا جاء الله في يوم القيامة، وجاء الملك الملائكة صفوفًا صفوفًا، وأحاطوا بالخلق، وحصلت الأهوال والأفزاع يتذكر الإنسان، يتذكر أنه وعد بهذا اليوم، وأنه أعلم به من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنذروا وخوفوا، ولكن من حقت عليه كلمة العذاب، فإنه لا يؤمن ولو جاءته كل آية، حينئذ يتذكر لكن يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أين يكون له الذكرى في، هذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتعاظ فات الأوان؟! والإيمان عن مشاهدة لا ينفع؛ لأن كل إنسان يؤمن بما شاهد، الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]. فيصدق بما أخبرت به الرسل عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وعن اليوم الاخر، في ذلك اليوم يتذكر الإنسان، ولكن قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: بعيد أن ينتفع بهذه الذكرى التي حصلت منه حين شاهد الحق يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، يتمنى أنه قدم لحياته وما هي حياته؟ أهي حياة الدنيا؟ لا والله، الحياة الدنيا انتهت وقضت، وليست الحياة الدنيا حياة في الواقع، الواقع أنها هموم وأكدار، كل صفو يعقبه كدر، كل عافية يتبعها مرض، كل اجتماع يعقبه تفرق، انظروا ما حصل أين الآباء؟ أين الإخوان؟ أين الأبناء؟ أين الأزواج؟ هل هذه حياة؟

ولهذا قال بعض الشعراء الحكماء:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالهرمِ

كل إنسان يتذكر أن مآله أحد أمرين: إما الموت، وإما الهرم، نحن نعرف أناسًا كانوا شبابًا في عنفوان الشباب عُمّروا لكن رجعوا إلى أرذل العمر، يَرِقُّ لهم الإنسان إذا رآهم في حالة بؤس، حتى، وإن كان عندهم من الأموال ما عندهم، وعندهم من الأهل ما عندهم، لكنهم في حالة بؤس، وهكذا كل إنسان إما أن يموت مبكرًا، وإما أن يُعمّر فيرد إلى أرذل العمر فهل هذه حياة؟ الحياة هي ما بينه الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يعني: لهي الحياة التامة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. يقول هذا: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، يتمني لكن لا يحصل وأنى له الذكرى؟! قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فيها قراءتان: الأولى ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، أي: لا يعذب عذاب الله أحد، بل عذاب الله أشد، ولا يوثق وثاق الله أحد، بل هو أشد. القراءة الثانية: ﴿وَلَا يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾، يعني: في هذا اليوم لا أحد يعذب عذاب، هذا الرجل، ولا أحد يوثق وثاقه، ومعلوم أن، هذا الكافر لا يعذب أحد عذابه في ذلك اليوم؛ لأنه يُلقى على أهل النار في الموقف العطش الشديد، فينظرون إلى النار كأنها السراب، والسراب هو ما يشاهده الإنسان في أيام الصيف في شدة الحر من البقاع حتى يخيل إليه أنه الماء، ينظرون إلى النار كأنها سراب وهم عطاش، فيتهافتون عليها يذهبون إليها سراعًا يريدون أي: شيء؟ يريدون الشرب، فإذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]. قد قامت عليكم الحجة فيوبخونهم قبل أن يدخلوا النار، والتوبيخ عذاب قلبي وألم نفسي قبل أن يذوقوا ألم النار، وفي النار يوبخهم الجبار - عَزَّ وَجَلَّ - توبيخًا أعظم من هذا. ويقولون ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال الله تعالى، وهو أرحم الراحمين: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]. أبلغ من، هذا الإذلال ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، يقوله أرحم الراحمين، فمن يرحمهم بعد الرحمن؟! لا راحم لهم، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بأن أهون أهل النار عذابًا من عليه نعلان يغلي منهما دماغه، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا يرى أنه أشد الناس عذابًا، وهو أهونهم عذابًا، وعليه نعلان يغلي منهما الدماغ، النعلان في أسفل البدن والدماغ في أعلاه، فإذا كان أعلى البدن يغلي من أسفله، فالوسط من باب أشد - أجارنا الله وإياكم من النار - ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ لأنهم - والعياذ بالله - يوثقون ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]. أدخلوه في هذه السلسلة تغل أيديهم - نسأل الله العافية - ولا أحد يتصور الآن ما هم فيه من البؤس والشقاء والعذاب؛ إذن على الإنسان أن يستعد قبل أن ﴿يَقُولُ

يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة بما يبهج القلب ويشرح الصدر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، يقال، هذا القول للإنسان عند النزع في آخر لحظة من الدنيا، يقال لروحه: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان، فتستبشر وتفرح، ويسهل خروجها من البدن؛ لأنها بشرت بما هو أنعم مما في الدنيا كلها، قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١)، سوط الإنسان هو العصا القصير، موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وليست دنياك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها، بما فيها من النعيم، والملك، والرفاهية وغيرها، موضع سوط خير من الدنيا وما فيها، فكيف بمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، ألفي سنة يرى أقصاه، كما يرى أدناه، نعيم لا يمكن أن ندركه بنفوسنا، ولا بتصورنا ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾، يعني: المؤمنة الآمنة؛ لأنك لا تجد نفسًا أطمن من نفس المؤمن أبدًا، المؤمن نفسه طيبة مطمئنة، ولهذا تعجب الرسول ﷺ من المؤمن قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٢)، مطمئن راض بقضاء الله وقدره، لا يسخط عند المصائب، ولا يبطر عند النعم، بل هو شاكر عند النعم، صابر عند البلاء، فتجده مطمئنًا، لكن الكافر أو ضعيف الإيمان لا يطمئن، فإذا أصابه البلاء جزع وسخط، ورأى أنه مظلوم من قبل الله ـ والعياذ بالله ـ حتى إن بعضهم ينتحر، ولا يصبر، ولا يطمئن، بل يكون دائمًا في قلق، ينظر إلى نفسه وإذا هو قليل المال، قليل العيال ليس عنده زوجة، ليس له قوم يحمونه، فيقول: أنا لست في نعمة؛ لأن فلانًا عنده مال، وعنده زوجات، وعنده أولاد، وعنده قبيلة تحميه، وأنا ليس عندي، فلا يرى لله عليه نعمة؛ لأنه ضعيف الإيمان فليس بمطمئن، دائمًا في قلق، ولهذا نجد الناس الآن يذهبون إلى كل مكان؛ ليرفهوا عن أنفسهم؛ ليزيلوا عنها الألم والتعب، لكن لايزيل ذلك حقاً إلا الإيمان، الإيمان الحقيقي الذي يؤدي إلى الطمأنينة، فالنفس المطمئنة هي المؤمنة، مؤمنة في الدنيا، آمنة من عذاب الله يوم القيامة، قال بعض السلف كلمة عجيبة قال: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، هل تجدون أنعم في الدنيا من الملوك وأبنائهم، لا يوجد أحد أنعم منهم في الظاهر يعني: نعومة الجسد، لكن قلوبهم ليست كقلوب المؤمنين، المؤمن الذي ليس عليه إلا ثوب مرقع، وكوخ لا يحميه من المطر، ولا من الحر، ولكنه مؤمن، دنياه ونعيمه في الدنيا أفضل من الملوك وأبناء الملوك؛ لأن قلبه مستنير بنور الله،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، ومسلم (١٨٨١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

بنور الإيمان.

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حبس وأوذي في الله - عَزَّ وَجَلَّ - فلما أدخل الحبس وأغلقوا عليه الباب قال رحمه الله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. يقول، هذا تحدثًا بنعمة الله لا افتخارًا ثم قال: (ما يصنع أعدائي بي - أي: أي شيء يصنعون - إن جنتي في صدري - أي: الإيمان والعلم واليقين -، وإن حبسي خلوة ونفيي - إن نفوه من البلد - سياحة وقتلي شهادة)، هذا هو اليقين، هذه الطمأنينة، والإنسان لو دخل الحبس كان يفكر ما مستقبلي، ما مستقبل أولادي، وأهلي، وقومي، وشيخ الإسلام - رحمه الله - يقول: (جنتي في صدري) وصدق. ولعل، هذا هو السر في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]. يعني: في الجنة لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ومعلوم أن الجنة لا موت فها لا أولى، ولا ثانية، لكن لما كان نعيم القلب ممتدًا من الدنيا إلى دخول الجنة صارت كأن الدنيا والآخرة كلها جنة وليس فيها إلا موتة واحدة.

قوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أعطاك الله من النعيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي: ادخلي في عبادي الصالحين، من جملتهم؛ لأن الصالحين من عباد الله الذين أنعم الله عليهم، الذين هم خير طبقات البشر، والبشر طبقاته ثلاث: منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالون، وكل هذه الطبقات مذكورة في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦،٧].

الطبقة الأولى: الذين أنعم الله عليهم وهم: النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون.

والثانية: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم اليهود وأشباه اليهود من كل من علم الحق وخالفه، فكل من علم الحق وخالفه ففيه شبه من اليهود، كما قال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود.

والثالثة: ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، وهم النصارى الذين جهلوا الحق، أرادوه لكن عموا عنه، ما اهتدوا إليه، قال ابن عيينة: وكل من فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى؛ لأن العبّاد يريدون الخير يريدون العبادة لكن لا علم عندهم، فهم ضالون.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾، أي: الطبقة الأولى المنعم عليهم. قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، أي: جنته التي أعدها الله - عز وجل - لأوليائه، أضافها الله إلى نفسه تشريفًا لها وتعظيمًا، وإعلامًا للخلق بعنايته بها - جل وعلا - والله - سبحانه وتعالى - قد خلقها خلقًا غير خلق الدنيا، خلق لنا في الدنيا فاكهة، ونخل، ورمان، وفي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، ولكن ما في الجنة ليس كالذي في الدنيا أبدًا؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ولو كان ما

في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم، فإذا هو مثله في الاسم، لكن ليس مثله في الحقيقة، ولا في الكيفية ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾؛ فأضافها الله إلى نفسه للدلالة على شرفها وعناية الله بها، وهذا يوجب للإنسان أن يرغب فيها غاية الرغبة، كما أنه يرغب في بيوت الله التي هي المساجد؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، فكذلك يرغب في هذه الدار التي أضافها الله إلى نفسه، والأمر يسير، قال رجل للرسول ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ عَظِيمٌ ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ»، وذكر الحديث، فالدين والحمد لله يسير وسهل، لكن النفوس الأمّارة بالسوء، والشهوات، والشبهات، هي التي تحول بيننا وبين ديننا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

تفسير سورة البلد

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١:١٠].

❁ التفسير ❁

البسملة: تقدم الحديث عليها.

قال الله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، ﴿لَا﴾، للاستفتاح، أي: استفتاح الكلام وتوكيده، وليست نافية؛ لأن المراد إثبات القسم، يعني: أنا أقسم بهذا البلد لكن (لا) هذه تأتي هنا للتنبيه والتأكيد و﴿أُقْسِمُ﴾، القسم تأكيد الشيء بذكر معظَّم على وجه مخصوص. فكل شيء محلوف به لابد أن يكون معظمًا لدى الحالف، وقد لا يكون معظمًا في حد ذاته. فمثلًا الذين يحلفون باللات والعزى هي معظمة عندهم، لكن هي في الواقع ليست عظيمة، ولا معظمة. فالحلف، أو القسم، أو اليمين المعنى واحد، هي تأكيد الشيء بذكر معظم عند الحالف على صفة مخصوصة، وحروف القسم هي: الباء، والواو، والتاء، والذي في الآية الكريمة هنا ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، (الباء). قوله تعالى: ﴿بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾، البلد هنا مكة، وأقسم الله بها لشرفها وعظمها، فهي أعظم بقاع الأرض حرمة وأحب بقاع الأرض إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا بعث منها رسول الله ﷺ الذي هو سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه، فجدير بهذا البلد الأمين أن يقسم به، ولكن نحن لا نقسم به؛ لأنه مخلوق، وليس لنا الحق أن نقسم بمخلوق، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ

أَوْ أَشْرَكَ»(١)، أما الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنه سبحانه يقسم بما شاء؛ ولهذا أقسم هنا بمكة ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، قيل: المعنى: أقسم بهذا البلد حال كونك حالاً فيه؛ لأن حلول النبي ﷺ في مكة يزيدها شرفًا إلى شرفها. وقيل المعنى: وأنت تستحل، هذا البلد، فيكون إقسام الله تعالى بمكة حال كونها حلاً للرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وذلك عام الفتح؛ لأن مكة عام الفتح أُحلت للرسول ﷺ ولم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعد ذلك، كما قال ﷺ: «وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ»(٢)، فيكون إقسام الله تعالى بهذا البلد مقيدًا بما إذا كانت حلاً للرسول ﷺ عام الفتح؛ لأنها في ذلك اليوم تزداد شرفًا إلى شرفها، حيث طُهِّرت من الأصنام وهزم المشركون، وفتحت عليهم، بلادهم عنوة، وصارت هذه البلد بعد أن كانت، بلد كفر صارت، بلاد إيمان، وبعد أن كانت، بلاد شرك صارت بلاد توحيد، وبعد أن كانت، بلاد عناد صارت بلاد إسلام، فأشرف حال لمكة كانت عند الفتح. قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: وأقسم بالوالد وما ولد، فمن المراد بالوالد ومن المراد بالولد؟ قيل: المراد بالوالد آدم، وبالولد بنو آدم وعلى هذا تكون (ما) بمعنى (من) أي: ووالد ومن ولد؛ لأن (من) للعقلاء، و(ما) لغير العقلاء.

وقيل: المراد بالوالد وما ولد كل والد وما ولد، الإنسان والبهائم وكل شيء؛ لأن الوالد والمولود كلاهما من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - كيف يخرج هذا المولود حيًّا سويًّا سميعًا بصيرًا من نطفة من ماء، فهذا دليل على كمال قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا الولد السوي يخرج من نطفة ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]. كذلك الحشرات وغيرها تخرج ضعيفة هزيلة، ثم تكبر إلى ما شاء الله - تعالى - من حد. والصحيح أن هذه عامة تشمل كل والد وكل مولود ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، اللام هنا واقعة في جواب القسم، لتزيد الجملة تأكيدًا، و(قد) تزيد الجملة تأكيدًا أيضًا فتكون جملة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم، واللام، وقد، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإنسان اسم جنس يشمل كل واحد من بني آدم ﴿فِى كَبَدٍ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: في استقامة، يعني: أنه خلق على أكمل وجه في الخِلقة، مستقيمًا يمشي على قدميه، ويرفع رأسه، وبدنه معتدلًا، والبهائم بالعكس الرأس على حذاء الدبر، أما بنو آدم فالرأس مرتفع أعلى البدن، فهو كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقيل: المراد بـ﴿كَبَدٍ﴾، مكابدة الأشياء ومعاناتها، وأن الإنسان يعاني المشقة في أمور الدنيا،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٤)، والترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

وفي طلب الرزق، وفي إصلاح الحرث وغير ذلك. ويعاني أيضًا معاناة أشد مع نفسه ومجاهدتها على طاعة الله، واجتناب معاصي الله، وهذا الجهاد الذي هو أشق من معاناة طلب الرزق، ولاسيما إذا ابتلي الإنسان ببيئة منحرفة وصار بينهم غريبًا، فإنه سيجد المشقة في معاناة نفسه، وفي معاناة الناس أيضًا.

فإن قال قائل: أفلا يمكن أن تكون الآية شاملة للمعنيين؟

فالجواب: بلى، وهكذا ينبغي إذا وجدت في الكتاب العزيز آية تحتمل معنيين وليس بينهما مناقضة فاحملها على المعنيين؛ لأن القرآن أشمل وأوسع، فإن كان بينهما مناقضة فانظر الراجح. فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. (قروء) جمع قرء بفتح القاف فما هو (القرء)؟ قيل: هو الحيض، وقيل: هو الطهر. هنا لا يمكن أن تحمل الآية على المعنيين جميعًا للتناقض، لكن اطلب المرجح لأحد القولين وخذ به. فهنا نقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، يصح أن تكون الآية شاملة للمعنيين أي: في حسن قامة واستقامة، و﴿فِى كَبَدٍ﴾، في معاناة لمشاق الأمور.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أن الإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يقدر عليه أحد؛ لأنه في عنفوان شبابه وقوته وكبريائه وغطرسته، فيقول لا أحد يقدر عليَّ، أنا أعمل ما شئت، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. إذن فالإنسان في حال صحته وعنفوان شبابه يظن أنه لا يقدر عليه أحد، حتى الرب -عَزَّ وَجَلَّ- يظن أنه لا يقدر عليه، وهذا لا شك بالنسبة للكافر، أما المؤمن، فإنه يعلم أن الله قادر عليه، وأنه على كل شيء قدير فيخاف منه، ﴿يَقُولُ﴾ أي: يقول الإنسان أيضًا في حال غناه وبسط الرزق له ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: مالًا كثيرًا في شهواته وفي ملذاته. يقول الله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أيظن، هذا أنه لا يراه أحد في تبذيره المال، وصرفه فيما لا ينفع، وكل، هذا تهديد للإنسان أن يتغطرس، وأن يستكبر من أجل قوته البدنية، أو كثرة ماله. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ هذه ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يعني: يبصر بهما ويرى فيهما، وهاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، فإن نظر نظرة محرمة كان آثمًا، وإن نظر نظرًا يقربه إلى الله كان غانمًا، وإذا نظر إلى ما يباح له، فإنه لا يحمد، ولا يذم ما لم يكن، هذا النظر مفضيًا إلى محظور شرعي فيكون آثمًا بهذا النظر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ لسانًا ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذه من نعم الله العظيمة؛ لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، ولولا هذا ما استطاع، لو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما ما في قلبه؟ كيف يُعْلِمُ الناس بما في نفسه؟ اللهم إلا بإشارة تتعب،

يتعب المشير ويتعب الذين أشير إليهم، ولكن من نعمة الله أن جعل له لسانًا ناطقًا، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذا من نعمة الله، وهو أيضًا من عجائب قدرته: يأتي النطق من هواء يكون من الرئة يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفًا، وإن مر بشيء آخر صار حرفًا آخر، وهو هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق، وفي الشفتين، وفي اللثة هذه الشعرات تكون الحروف. فتجد مثلًا الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في، هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة، هذا من تمام قدرة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، قيل: أي: بينا له طريق الخير، وطريق الشر. القول الثاني: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، دللناه على ما به غذاؤه، وهو الثديان، فإنهما نجدان لارتفاعهما فوق الصدر، فهداه الله تعالى، وهو رضيع لا يعرف، فمن حين أن يخرج وتضعه أمه يطلب الثدي، والذي أعلمه الله - عَزَّ وَجَلَّ - فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - منته على، هذا الإنسان من حين أن يخرج يهتدي إلى النجدين، وفي بطن أمه يتغذى عن طريق السرة؛ لأنه لا يستطيع أن يتغذى من غير، هذا، فلو تغذى عن طريق الفم لاحتاج إلى بول وغائط، وكيف ذلك؟ لكنه عن طريق السرة يأتيه الدم من دم أمه وينتشر في عروقه حتى يحيا إلى أن يأذن الله تعالى بإخراجه.

۞ قال الله تعالى:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ
ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ١١-٢٠].

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، أي: الإنسان الذي كان يقول ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ يعني: هلا اقتحم العقبة؟ والاقتحام هو التجاوز بمشقة، و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾، هي الطريق في الجبل الوعر، ولا شك أن اقتحام هذه العقبة شاق على النفوس، لا يتجاوزه أو لا يقوم به إلا من كان عنده نية صادقة في تجاوز هذه العقبة، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ هذا الاستفهام للتشويق والتفخيم أيضًا، يعني: ما الذي أعلمك شأن هذه العقبة التي قال الله عنها: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾،

بينها الله في قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هي خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: «هي فك رقبة» وفك الرقبة له معنيان:

المعنى الأول: فكها من الرق، بحيث يعتق الإنسان العبيد المملوكين سواء كانوا في ملكه فيعتقهم، أم كانوا في ملك غيره فيشتريهم ويعتقهم.

المعنى الثاني: فك رقبة من الأسير، فإن فكاك الأسير من أفضل الأعمال إلى الله عز وجل. والأسير ربما لا يفكه العدو إلا بفدية مالية، وربما تكون هذه الفدية فدية باهظة كثيرة لا يقتحمها إلا من كان عنده إيمان بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يخلف عليه ما أنفق، وأن يثيبه على ما تصدق. قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، ﴿أَوْ﴾، هذه للتنويع يعني: وإما ﴿إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي مجاعة شديدة؛ لأن الناس قد يصابون بالمجاعة الشديدة، إما لقلة الحاصل من الثمار والزروع، وإما لأمراض في أجسامهم يأكل الإنسان، ولا يشبع، وهذا قد وقع فيما نسمع عنه في البلاد النجدية وربما في غيرها أيضًا. أن الناس يأكلون، ولا يشبعون، يأكل الواحد مأكل العشرة، ولا يشبع، ويموتون من الجوع في الأسواق ويتساقطون في الأسواق من الجوع، هذه من المساغب. أو قلة المحصول، بحيث لا تثمر الأشجار، ولا تنبت الزروع، فيقل الحاصل وتحصل المسغبة، ويموت الناس جوعًا، وربما يهاجرون عن بلادهم. وقوله: ﴿يَتِيمًا﴾ اليتيم هو من مات أبوه قبل أن يبلغ سواءً كان ذكرًا أم أنثى، فإن بلغ، فإنه لا يكون يتيمًا؛ لأنه، بلغ وانفصل، وكذلك لو ماتت أمه، فإنه لا يكون يتيمًا، خلافًا لما يظنه بعض العامة، أن اليتيم من ماتت أمه وهذا ليس بصحيح، فاليتيم من مات أبوه؛ لأنه إذا مات أبوه لم يكن له كاسب من الخلق يكسب له. وقوله تعالى: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ذا قرابة من الإنسان؛ لأنه إذا كان يتيمًا كان له حظ من الإكرام والصدقات، وإذا كان قريبًا ازداد حظه من ذلك؛ لأنه يكون واجب الصلة، فمن جمع هذين الوصفين اليتم والقرابة، فإن الإنفاق عليه من اقتحام العقبة إذا كان ذلك في يوم ذي مسغبة. قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، يعني: أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، المسكين: هو الذي لا يجد قوته، ولا قوت عياله. والمتربة: مكان التراب، والمعنى: أنه مسكين ليس بيديه شيء إلا التراب. ومعلوم أنه إذا قيل عن الرجل: ليس عنده إلا التراب، فالمعنى: أنه فقير جدًا ليس عنده طعام، وليس عنده كساء، وليس عنده مال فهو مسكين ذو متربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، يعني: ثم هو بعد ذلك ليس محسنًا على اليتامى والمساكين فقط، بل هو ذو إيمان، آمن بكل ما يجب الإيمان به. وقد بيَّن الرسول ﷺ الذي يجب الإيمان به، فقال حين سأله جبريل عن الإيمان: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ

بالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهم صابرون متواصون بالصبر بهذه الأنواع: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة. وقد اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة في الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم، فها هو الرسول ﷺ صابر على طاعة الله، يجاهد في سبيل الله، ويدعو إلى الله، ويؤذى ويعتدى عليه بالضرب، حتى هم المشركون بقتله، وهو مع ذلك صابر محتسب، وهو أيضًا صابر عن معصية الله، لا يمكن أن يغدر بأحد، ولا أن يكذب أحدًا، ولا أن يخون أحدًا، وهو أيضًا متقٍ لله تعالى بقدر ما يستطيع، كذلك صابر على أقدار الله، كم أوذي في الله - عَزَّ وَجَلَّ - من أجل طاعته، أليست قريش قد آذوه حتى إذا رأوه ساجدًا تحت الكعبة أمروا من يأتي بسلا ناقة فيضعه على ظهره، وهو ساجد ﷺ؟!، وهو صابر في ذلك كله. ويوسف ﷺ صبر على أقدار الله فقد أُلقي في البئر في غيابة الجبِّ، وأوذي في الله بالسجن، ومع ذلك فهو صابر محتسب لم يتضجر ولم ينكر ما وقع به. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا أن يرحم الآخر، ورحمة الإنسان للمخلوقات تكون في البهائم وتكون في الناطق. فهو يرحم آباءه، وأمهاته، وأبناءه، وبناته، وإخوانه، وأخواته، وأعمامه، وعماته، وهكذا. ويرحم كذلك سائر البشر، وهو أيضًا يرحم الحيوان البهيم فيرحم ناقته، وفرسه، وحماره، وبقرته، وشاته، وغير ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2]. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين، الذين يُؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ﴿هُمْ﴾: الضمير هنا جاء للتوكيد، ولو قيل في غير القرآن: والذين كفروا بآياتنا أصحاب المشئمة. لصح لكن هذا من باب التوكيد. وقوله تعالى: ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾، يعني: الشمال أو الشؤم، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: عليهم نار مغلقة، لا يخرجون منها، ولا يستطيعون، نسأل الله أن يجعلنا من الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة إنه سميع مجيب.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٠)، والترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥).

تفسير سورة الشمس

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها، وهو ضوؤها لما في ذلك من الآيات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى -، وكمال علمه ورحمته فإن في هذه الشمس من الآيات ما لا يدركه بعض الناس، فإذا طلعت الشمس فكم توفر على العالم من طاقة كهربائية؟ توفر آلاف الملايين؛ لأنهم يستغنون بها عن هذه الطاقة، وكم يحصل للأرض من حرارتها، من نضج الثمار، وطيب الأشجار ما لا يعلمه إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويحصل فيها فوائد كثيرة لا أستطيع أن أعدها؛ لأن غالبها يتعلق في علم الفلك وعلم الأرض والجيولوجيا لكنها من آيات الله العظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾، قيل: إذا تلاها في السير.

وقيل: إذا تلاها في الإضاءة، ومادامت الآية تحتمل هذا وهذا، فإن القاعدة في علم التفسير: (أن الآية إذا احتملت معنيين لا تعارض بينهما وجب الأخذ بهما جميعًا)؛ لأن الأخذ بالمعنيين جميعًا أوسع للمعنى، فنقول: إذا تلاها في السير؛ لأن القمر يتأخر كل يوم عن الشمس، فبينما تجده في أول الشهر قريبًا منها في المغرب، فإذا هو في نصف الشهر أبعد ما يكون عنها في المشرق؛

لأنه يتأخر كل يوم، أو إذا تلاها في الإضاءة؛ لأنها إذا غابت بدأ ضوء القمر لاسيما في الربع الثاني إلى نهاية الربع الثالث، فإن ضوء القمر يكون بينًا واضحًا، يعني: إذا مضى سبعة أيام إلى أن يبقى سبعة أيام يكون الضوء قويًا، وأما في السبعة الأولى والأخيرة فهو ضعيف، وعلى كل حال، فإن إضاءة القمر لا تكون إلا بعد ذهاب ضوء الشمس، كما هو ظاهر؛ فأقسم الله تعالى بالشمس؛ لأنها آية النهار، وبالقمر؛ لأنه آية الليل. وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ متقابلات، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ فإذا جلى الأرض وبينها ووضحها؛ لأنه نهار تتبين به الأشياء وتتضح ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾، فإذا يغطي الأرض حتى يكون كالعباءة المفروشة على شيء من الأشياء، وهذا يتضح جليًا فيما إذا غابت الشمس وأنت في الطائرة تجد أن الأرض سوداء تحتك؛ لأنك أنت الآن تشاهد الشمس لارتفاعك، لكن الأرض التي تحتك حيث غربت عليها الشمس تجدها سوداء كأنها مغطاة بعباءة سوداء وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾، السماء والأرض متقابلات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، قال المفسرون: إن ﴿ما﴾ هنا مصدرية أي: والسماء وبناؤها؛ لأن السماء عظيمة بارتفاعها وسعتها وقوتها، وغير ذلك مما هو من آيات الله فيها، وكذلك بناؤها بناء محكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ يعني: الأرض وما سواها حتى كانت مستوية، وحتى كانت ليست لينة جدًا، وليست قوية صلبة جدًا، بل هي مناسبة للخلق على حسب ما تقوم به حوائجهم، وهذا من نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده أن سوى لهم الأرض وجعلها بين اللين والخشونة إلا في مواضع لكن هذا القليل لا يحكم به على الكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نفس هنا، وإن كانت واحدة لكن المراد العموم. يعني: كل نفس ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، يعني: سواها خِلقة وسواها فطرة، سواها خلقة حيث خلق كل شيء على الوجه الذي يناسبه ويناسب حاله. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: خلقه المناسب له ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: هداه لمصالحه، وكذلك سواه فطرة، ولا سيما البشر، فإن الله جعل فطرتهم هي الإخلاص والتوحيد، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾، أي: الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ألهم هذه النفوس ﴿فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾، بدأ بالفجور قبل التقوى مع أن التقوى لا شك أفضل، قالوا: مراعاة لفواصل الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾، الفجور هو ما يقابل التقوى، والتقوى طاعة الله، فالفجور معصية الله، فكل عاص فهو فاجر، وإن كان الفاجر خصَّ عرفًا بأنه من ليس بعفيف، لكن هو

شرعًا يعم كل من خرج عن طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].والمراد الكفار، وإلهامها تقواها هو الموافق للفطرة؛ لأن الفجور خارج عن الفطرة، لكن قد يلهمه الله بعض النفوس لانحرافها لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. والله تعالى لا يظلم أحدًا، لكن من علم منه أنه لا يريد الحق أزاغ الله قلبه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي: فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب، ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: من زكى نفسه، وليس المراد بالتزكية هنا التزكية المنهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. بل المراد بالتزكية هنا: أن يزكي نفسه بإخلاصها من الشرك وشوائب المعاصي، حتى تبقى زكية طاهرة نقية.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: من أرداها في المهالك والمعاصي، وهذا يحتاج إلى دعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يثبت الإنسان على طاعته، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فعليك دائمًا أن تسأل الله الثبات والعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الله تعالى قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

❁ قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، ثمود اسم قبيلة ونبيهم صالح ﷺ وديارهم في الحجر معروفة في طريق الناس، هؤلاء كذبوا نبيهم صالحًا، ونبيهم صالح ﷺ كغيره من الأنبياء يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأعطاه الله سبحانه آية تدل على نبوته وهي الناقة العظيمة التي تشرب من البئر يومًا وتسقيهم لبنًا في اليوم الثاني. وقد قال بعض العلماء: إنه كلما جاء إنسان وأعطاها من الماء بقدر أعطته من اللبن بقدره، ولكن الذي يظهر من القرآن خلاف ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، فالناقة تشرب من البئر يومًا، ثم تدرُّ اللبن في اليوم الثاني، ولكن لم تنفعهم هذه الآية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾، أي: بطغيانها وعتوها، والباء هنا للسببية، أي: بسبب كونها طاغية كذبت الرسول.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾، هذا بيان للطغيان الذي ذكره الله - عَزَّ وَجَلَّ - وذلك حين انبعث أشقاها.

قوله تعالى: ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾، يعني: انطلق بسرعة.

قوله تعالى: ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: أشقى ثمود أي: أعلاهم في الشقاء - والعياذ بالله - يريد أن يقضي على هذه الناقة. فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾، أي: ذروا ناقة الله، لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]. يعني: اتركوا الناقة لا تقتلوها، ولا تتعرضوا لها بسوء، ولكن كانت النتيجة بالعكس، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذبوا صالحًا وقالوا: إنك لست برسول، وهكذا كل الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم يَصِمُهُمْ أقوامهم بالعيب، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. كل الرسل قيل لهم، هذا ساحر أو مجنون، كما قيل للرسول ﷺ: ساحر، وكذاب، ومجنون، وشاعر، وكاهن، لكن ألقاب السوء التي يلقبها الأعداء لأولياء الله لا تضرهم، بل يزدادون بذلك رفعة عند الله - سبحانه وتعالى - وإذا احتسبوا الأجر أثيبوا على ذلك، فيقول عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: عقروا الناقة عقرًا حصل به الهلاك.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾، يعني: أطبق عليهم؛ فأهلكهم، كما تقول: دمدمت البئر أي: أطبقت عليها التراب، ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالذنوب سبب للهلاك والدمار والفساد؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وقال الله تعالى يخاطب أشرف الخلق وخير القرون: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالإنسان يُصاب بالمصائب من عند نفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: بسبب ذنبهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: عمها بالهلاك حتى لم يبق منهم أحد وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ يعني: أن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، ولا يخاف من تبعتهم؛ لأن له الملك وبيده كل شيء، بخلاف غيره من الملوك لو انتصروا على غيرهم،

أو عاقبوا غيرهم تجدهم في خوف يخشون أن تكون الكرة عليهم. أما الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنه لا يخاف عقباها، أي: لا يخاف عاقبة من عذبهم؛ لأنه - سبحانه وتعالى - له الملك كله، والحمد كله، فسبحانه وتعالى - ما أعظمه، وما أجل سلطانه.

تفسير سورة الليل

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:١-١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالليل إذا يغشى يعني: حين يغشى الأرض ويغطيها بظلامه؛ لأن الغشاء بمعنى الغطاء، وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، أي: إذا ظهر وبان، وذلك بطلوع الفجر الذي هو النور الذي هو مقدمة طلوع الشمس، والشمس هي آية النهار، كما أن القمر آية الليل، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾، يعني: وخَلْق الذكر والأنثى على أحد التفسيرين الذي جعل (ما) هنا مصدرية، والذي خَلَق الذكر والأنثى هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على التفسير الآخر، فعلى المعنى الأول: يكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أقسم بخلق الذكر والأنثى، وعلى الثاني: يكون الله تعالى أقسم بنفسه؛ لأنه هو الذي خلق الذكر والأنثى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ يعني: إن عملكم ﴿لَشَتَّى﴾، أي: لمتفرق تفرقًا عظيمًا.

فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أقسم بأشياء متضادة على أشياء متضادة: الليل ضد النهار، الذكر ضد الأنثى، السعي متضاد صالح وسيىء، فتناسب المقسم به والمقسم عليه، وهذا من، بلاغة القرآن. فالمعنى أن اختلاف الليل والنهار والذكر والأنثى أمر ظاهر لا يخفى، فكذلك أعمال العباد متباينة متفاوتة، منها الصالح، ومنها الفاسد، ومنها ما يخلط صالحًا وفاسدًا، كل ذلك بتقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ثم فصَّل، هذا السعي المتفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا

مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾، أي: أعطى ما أمر بإعطائه من مال، أو جاه، أو علم، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ اتقى ما أمر باتقائه من المحرمات. قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: صدق بالقولة الحسنى وهي قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقول رسوله ﷺ؛ لأن أصدق الكلام، وأحسن الكلام كلام الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السين: هنا للتحقيق أي: أن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، ولهذا تجد أيسر الناس عملًا هو من اتقى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. وكلما كان الإنسان أتقى لله كانت أموره أيسر له. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. وكلما كان الإنسان أبعد عن الله كان أشد عسرًا في أموره ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾، فلم يعط ما أمر بإعطائه ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ استغنى عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولم يتق ربَّه، بل رأى أنه في غنىً عن رحمة الله. قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالقولة الحسنى، وهي قول الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، ييسر للعسرى في أموره كلها، ولكن قد يأتي الشيطان للإنسان فيقول: نجد أن الكفار تيسر أمورهم فيقال: نعم. قد تيسر أمورهم، لكن قلوبهم تشتعل نارًا وضيقًا وحرجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ثم ما ينعمون به فهو تنعيم جسد فقط، لا تنعيم روح، ثم هو أيضًا وبال عليهم؛ لقول الله تعالى فيهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١). وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وهؤلاء عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ومع ذلك، فإن هذه الدنيا جنة لهم بالنسبة للآخرة. وقد ذكروا عن ابن حجر العسقلاني شارح البخاري بالشرح الذي سماه «فَتْحَ البَارِي» وكان قاضي القضاة بمصر، أنه مر ذات يوم، وهو على عربته تجره البغال والناس حوله، مر برجل يهودي سمان يعني: يبيع السمن والزيت، ومن المعلوم أن الذي يبيع السمن والزيت تكون ثيابه وسخة وحاله سيئة؛ فأوقف العربة وقال لابن حجر: إن نبيكم يقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنْ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ»(٢)، فكيف أنا أكون بهذه الحال وأنت بهذه الحال؟ فقال له ابن حجر على البديهة: أنا في سجن بالنسبة لما أعد الله للمؤمنين من الثواب والنعيم؛ لأن الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، وأما أنت أيها اليهودي فأنت في جنة بالنسبة لما أعد لك من العذاب إن مت على الكفر فاقتنع بذلك اليهودي وصار ذلك سببًا في إسلامه وقال: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ يعني: أي شيء يغني عنه ماله إذا بخل به وتردى هو. أي: هلك أي شيء يغني المال؟ لا يغني شيئًا.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٢:٢١].

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ فيه التزام من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه. والمراد بالهدى هنا: هدى البيان والإرشاد، فإن الله تعالى التزم على نفسه بيان ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى أن قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى؛ ولذلك التزم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يبين الهدى للإنسان ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وليُعلم أن الهُدى نوعان:

١ ـ هدى التوفيق، فهذا لا يقدر عليه إلا الله.

٢ ـ هدى إرشاد ودلالة، فهذا يكون من الله، ويكون من الخلق: من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومن العلماء.

كما قال الله لنبيه ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. أما هداية التوفيق فهي إلى الله لا أحد يستطيع أن يوفق شخصًا إلى الخير، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وإذا نظرنا إلى

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠)، ومسلم (١٨٨١).

هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وجدنا أن الله تعالى بين كل شيء. بيَّن ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في، هذا كله. حتى قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: لقد توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا. وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم حتى الخراءة، قال: أجل علمنا حتى الخراءة، يعني: حتى آداب قضاء الحاجة علمها النبي ﷺ أمته، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾،[المائدة: ٣]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، يعني: لنا الآخرة والأولى. الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، لكنه في هذه الآية أخرها لفائدتين:
الفائدة الأولى: معنوية.الفائدة الثانية: لفظية.

أما المعنوية فلأن الآخرة أهم من الدنيا، ولأن الآخرة يظهر فيها ملك الله تعالى تمامًا في الدنيا هناك رؤساء، وهناك ملوك، وهناك أمراء يملكون ما أعطاهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الملك، لكن في الآخرة لا ملك؛ لأحد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ فلهذا قدم ذكر الآخرة من أجل هذه الفائدة المعنوية.

أما الفائدة اللفظية: فهي مراعاة الفواصل يعني: أواخر الآيات كلها ألف.

فإن قيل: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، فما الفرق؟

الجواب: الفرق أن الهدى التزم الله تعالى ببيانه وإيضاحه للخلق، أما الملك فهو لله ملك الآخرة والأولى، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾، يعني: خوفتكم ﴿نَارًا﴾ يعني بها نار الآخرة، ﴿تَلَظَّىٰ﴾، تشتعل، ولها أوصاف كثيرة في القرآن والسنة. قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ يعني: لا يحترق بها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، يعني: الذي قدرت له الشقاوة. والشقاوة ضد السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨]، فالمراد بالأشقى يعني: الذي لم تكتب له السعادة، هذا هو الذي يصلى النار التي تلظى، ثم بين هذا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ التكذيب في مقابل الخبر، والتولي في مقابل الأمر والنهي، فهذا كذب الخبر ولم يصدق، قيل له: إنك ستبعث، قال: لا أبعث. قيل له: هناك جنة ونار، قال: ليس هناك جنة ونار. قيل له: سيكون كذا وكذا، قال: لا يكون، لأن هذا تكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، يعني: أعرض عن طاعة الله، وأعرض عما جاءت به رسله، فهذا هو الشقي.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يجنب هذه النار التي تلظى ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ والأتقى اسم تفضيل

من التقوى يعني: الذي اتقى الله ـ تعالى ـ حق تقاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يعني: يعطي ماله من يستحقه على وجه يتزكى به، أي: يتطهر به، قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يفيد أنه لا يبذر، ولا يبخل، وإنما يؤتي المال على وجه يكون به التزكية، وضابط ذلك ما ذكره الله في سورة الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، نجد بعض الناس يعطيه الله مالاً، ولكنه يبخل يقتر حتى الواجب عليه لزوجته وأولاده وأقاربه لا يقوم به. ونرى بعض الناس قدر الله عليه الرزق وضيق عليه بعض الشيء، ومع هذا يذهب يتدين من الناس من أجل أن يكمل بيته حتى يكون مثل: بيت فلان وفلان، أو من أجل أن يشتري سيارة فخمة كسيارة فلان وفلان، وكلا المنهجين والطريقين منهج باطل. الأول: قصَّر. والثاني: أفرط. والواجب على الإنسان أن يكون إنفاقه بحسب حاله.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يتدين الإنسان ليتصدق؟

فالجواب: لا؛ لأن الصدقة تطوع، والتزام الدّين خطر عظيم؛ لأن الدين ليس بالأمر الهين، فالإنسان إذا مات وعليه دين، فإن نفسه معلقة بدينه حتى يقضى عنه، وكثير من الورثة لا يهتم بدين الميت، تجده يتأخر يماطل وربما لا يوفيه. وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إذا قدمت إليه جنازة سأل هل عليه دين له وفاء؟ فإن قالوا لا، قال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»[1]. وأخبر ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن الشهادة في سبيل الله تكفر كل شيء إلا الدين، فالدين أمره عظيم، لا يجوز للإنسان أن يتهاون به، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ يعني: أنه لا يعطي المال مكافأة على نعمة سابقة من شخص فليس لأحد عليه فضل حتى يعطيه مكافأة، ولكنه يعطي ابتغاء وجه الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فهو لا ينفق إلا طلب وجه الله أي: طلب الوصول إلى دار كرامة الله التي يكون بها رؤية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ يعني: سوف يرضيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يعطيه من الثواب الكثير وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء البررة الأطهار الكرام، إنه على كل شيء قدير.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٩١)، والنسائي (١٩٦١).

تفسير سورة الضحى

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ
﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١:١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، ﴿الضحى﴾، هو أول النهار، وفيه النور والضياء ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: الليل إذا غطى الأرض وسدل عليها ظلامه؛ فأقسم الله ـ تعالى ـ بشيئين متباينين أولهما: الضحى إذا انتشر وملأ الأرض وفيه الضياء والنور، والثاني: الليل إذا يغشى وفيه الظلمة.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، أي: ما تركك وأهملك وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: وما أبغض، بل أحب الخلق إليه فيما نعلم محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، ولهذا اختاره الله؛ لأعظم الرسالات، وأفضل الأمم، وجعله خاتم النبيين، فلا نبي بعده ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان رسول الله ﷺ أحد الخليلين اللذين، اختصا بهذه الصفة العظيمة وهي الخلة، الخلة أعلى أنوا المحبة، وليس من عباد الله فيما تعلم من هو خليل الله إلا إبراهيم ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما قال النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. فعين الله تعالى تكلؤه وترعاه وتحميه وتحفظه، وهو الذي قال له ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. فما تركه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل أحاطه بعلمه، ورحمته، وعنايته وغير ذلك

مما يقتضي رفعته في الدنيا والآخرة، كما قال في السورة التي تليها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، هذه الجملة مؤكدة باللام - لام الابتداء - و﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ هي اليوم الذي يبعث فيه الناس، ويأوون إلى مثواهم الأخير إلى الجنة أو إلى النار، فيقول الله لنبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، أي: من الدنيا، وذلك؛ لأن الآخرة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وموضع سوط أحدنا في الجنة خير من الدنيا وما فيها، كما جاء ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -. ولهذا لما خير الله نبيه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في مرضه بين أن يعيش في الدنيا ما يعيش وبين ما عند الله، اختار ما عند الله، كما أعلن ذلك - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في خطبته حيث قال وهو على المنبر: «إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعِيشَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»[1]، فبكى أبو بكر - رضي الله عنه - وتعجب الناس من بكائه كيف يبكي من هذا، ولكنه - رضي الله عنه - كان أعلم الناس برسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -؛ علم أن المخير هو الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وأنه اختار ما عند الله وهو الآخرة، وأن هذا إيذان بقرب أجله.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، ﴿وَلَسَوْفَ﴾، اللام هذه أيضًا للتوكيد وهي موطئة للقسم، و﴿سوف﴾، تدل على تحقق الشيء لكن بعد مهلة وزمن، وقوله تعالى: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يعطيك ما يرضيك فترضى، ولقد أعطاه الله ما يرضيه ﷺ، فإن الله - تعالى - يبعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا، يحمده فيه الأولون والآخرون، حتى الأنبياء وأولو العزم من الرسل لا يستطيعون الوصول إلى ما وصل إليه. فإذا كان يوم القيامة، وعظم الكرب والغم على الخلق، وضاقت عليهم الأمور طلب بعضهم من بعض أن يلتمسوا من يشفع لهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، هؤلاء خمسة أولهم أبو البشر، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء الأربعة - عليهم الصلاة والسلام - من أولي العزم، كلهم يعتذرون عن الشفاعة للخلق حتى تصل إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع، ولا شك أن هذا عطاء عظيم لم ينله أحد من الخلق، ثم بين الله - سبحانه وتعالى - نعمه عليه السابقة حتى يستدل بها على النعم اللاحقة.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، والاستفهام هنا للتقرير، يعني: قد وجدك الله - تعالى - يتيمًا فآواك، يتيمًا من الأب، ويتيمًا من الأم، فإن أباه توفي قبل أن يولد، وأمه توفيت قبل أن تتم إرضاعه، ولكن الله تعالى تكفل به ويسر له من يقوم بتربيته والدفاع عنه، حتى وصل إلى الغاية التي أرادها الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

وقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، وجاء التعبير ـ والله أعلم ـ بـ﴿فَآوَىٰ﴾، لسبب لفظي، وسبب معنوي. أما السبب اللفظي: فلأجل أن تتوافق رؤوس الآيات من أول السورة، وأما السبب المعنوي:، فإنه لو كان التعبير (فآواك) اختص الأيواء به ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ والأمر أوسع من ذلك، فإن الله تعالى آواه، وآوى به، آوى به المؤمنين فنصرهم وأيدهم، ودفع عنهم، بل دافع عنهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾، أي: غير عالم؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم شيئًا قبل أن ينزل عليه الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فهو ﷺ لم يكن يعلم شيئًا، بل هو من الأميين ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. لا يقرأ، ولا يكتب، لكن وصل إلى هذه الغاية العظيمة بالوحي الذي أنزله الله عليه، فعلم وعلَّم وهنا قال تعالى: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يأت التعبير ـ والله أعلم ـ فهداك ليكون هذا أشمل وأوسع فهو قد هدى ﷺ وهدى الله به، فهو هاد مهدي ﷺ. إذن (فهدى) أي: فهداك وهدى بك.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: وجدك فقيرًا لا تملك شيئًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك قال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وما أكثر ما غنم المسلمون من الكفار تحت ظلال السيوف، غنائم عظيمة كثيرة كلها بسبب، هذا الرسول الكريم ﷺ حين اهتدوا بهديه، واتبعوا سنته فنصرهم الله تعالى به وغنموا من مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنى، والعزة، والقوة، ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلى حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصرة الإسلام أو خذلان الإسلام، ولا يخفى على من تأمل الوقائع التي حدثت أخيرًا أنها في الحقيقة إذلال للمسلمين، وأنها سبب لشر عظيم كبير يترقب من وراء ما حدث، ولاسيما من اليهود والنصارى الذين هم أولياء بعضهم لبعض، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. وهم ـ أعني اليهود والنصارى ـ متفقون على عداوة المسلمين، كل لا يريد الإسلام، ولا يريد أهل الإسلام، ولا يريد عز الإسلام، ولكن سينصر الله ـ تعالى ـ دينه مهما كانت الأحوال، فالله تعالى ناصر دينه وكتابه، وإن حصل للمسلمين ما يحصل، فإن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].فربما يأتي اليوم الذي يجاهد فيه المسلمون اليهود حتى يختبىء اليهودي تحت الشجر فينادي الشجر يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي تحتي، فيأتي المسلم ويقتله، وما ذلك على الله بعزيز، ولكن المسلمين يحتاجون إلى قيادة حكيمة عليمة بأحكام الشريعة قبل كل شيء؛ لأن القيادة بغير الاستفادة بنور الشريعة عاقبتها الوبال، مهما علت ولو علت إلى أعلى قمة، فإنها

سوف تنزل إلى أسفل قعر.

والهداية تكون بالإسلام، بنور الإسلام، لا بالقومية، ولا بالعصبية، ولا بالوطنية، ولا بغير ذلك، بالإسلام فقط. فالإسلام وحده هو الكفيل بعزة الأمة، لكن تحتاج إلى قيادة حكيمة تضع الأشياء مواضعها، وتتأنى في الأمور، ولا تستعجل، لا يمكن أن يصلح الناس بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك، فإنه قد أراد أن يغير الله سنته، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغير سنته، فهذا نبي الله ﷺ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ينزل عليه الوحي، ويدعو إلى الله بالتي هي أحسن، ومع ذلك في النهاية خرج من مكة خائفًا مختفيًا لم تتم الدعوة في مكة، فلماذا نريد أن نغير الأمة التي مضى عليها قرون وهي في غفلة وفي نوم بين عشية وضحاها، هذا سفه في العقل، وضلال في الدين. الأمة تحتاج إلى علاج رفيق هادىء يدعو بالتي هي أحسن، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلى الله، تحتاج إلى العلم بالواقع والفطنة والخبرة، ونظر في الأمور التي تحتاج إلى نظر بعيد؛ لأن النتائج قد لا تتبين في شهر، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتى يعرف، والأمور تحتاج أيضًا إلى عزم وتصميم وصبر؛ لأنه لابد من عزم يندفع به الإنسان، ولابد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، هذا في مقابلة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإذا كان الله آواك في يتمك فلا تقهر اليتيم، بل أكرم اليتيم، والإحسان إلى اليتامى وإكرامهم من أوامر الشريعة ومن حسنات الشريعة؛ لأن اليتيم الذي مات أبوه قبل أن يبلغ منكسر الخاطر، يحتاج إلى جبر، يحتاج إلى من يسليه، وإلى من يدخل عليه السرور لاسيما إذا كان قد، بلغ سنًّا يعرف به الأمور كالسابعة والعاشرة وما أشبه ذلك ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مقابل ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أول ما يدخل في السائل، السائل عن الشريعة عن العلم لا تنهره؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة وجب عليك أن تبينها له لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. لا تنهره إن نهرته نفرته، ثم إنك إذا نهرته وهو يعتقد أنك فوقه؛ لأنه لم يأتِ يسأل إلا أنه يعتقد أنك فوقه، فإذا نهرته، وهو يشعر أنك فوقه أصابه الرعب واختلفت حواسه، وربما لا يفقه ما يلقي إليك من السؤال، أو لا يفقه ما تلقيه إليه من الجواب، وقِسْ نفسك أنت لو كلمت رجلًا أكبر منك منزلة ثم نهرك ضاعت حواسك، ولم تستطع أن ترتب فكرك وعقلك؛ لهذا لا تنهر السائل، وربما يدخل في ذلك أيضًا سائل المال، يعني: إذا جاءك سائل يسألك مالًا فلا تنهره، لكن، هذا العموم يدخله التخصيص: إذا عرفت أن السائل في العلم إنما يريد التعنت، وأخذ رأيك وأخذ رأي فلان وفلان حتى يضرب آراء العلماء بعضها ببعض، فإذا علمت ذلك فهنا لك

الحق أن تنهره، وأن تقول: يا فلان اتق الله ألم تسأل فلانًا كيف تسألني بعدما سألته؟! أتلعب بدين الله؟! أتريد إن أفتاك الناس بما تحب سكتَّ، وإن أفتوك بما لا تحب ذهبت تسأل؟! هذا لا بأس؛ لأن هذا النهر تأديب له. وكذلك سائل المال إذا علمت أن الذي سألك المال غني فلك الحق أن تنهره ولك الحق أيضًا أن توبخه على سؤاله، وهو غني، إذن هذا العموم ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، مخصوص فيما إذا اقتضت المصلحة أن ينهر فلا بأس ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، نعمة الله - تعالى - على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ وبهذه الثلاث تتم النعم. حدِّث بنعمة الله قل: كنت يتيمًا فآواني الله، كنت ضالًّا فهداني الله، كنت عائلًا؛ فأغناني الله، لكن تحدَّث بها إظهارًا للنعمة وشكرًا للمنعم، لا افتخارًا بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخارًا على الخلق كان هذا مذمومًا، أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثًا بالنعم، وشكرًا للمنعم فهذا مما أمر الله به.

هذه كلمات يسيرة على هذه السورة العظيمة، وما نقوله نحن أو غيرنا من أهل العلم، فإنه لا يستوعب ما دل عليه القرآن من المعاني العظيمة، نسأل الله أن يرزقنا الفهم في دين الله، والعمل بما علمنا إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الشرح

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ
ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)
فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ١-٨].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينًا نعمته على نبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هذا الاستفهام يقول العلماء: إنه استفهام تقرير، واستفهام التقرير يرد في القرآن كثيرًا، ويقدَّر الفعل بفعل ماضٍ مقرون بقد. ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ يقدَّر بأن المعنى قد شرحنا لك صدرك؛ لأن الله يقرر أنه شرح له صدره، وهكذا جميع ما يمر بك من استفهام التقرير، فإنه يقدر بفعل ماضٍ مقرون بقد، أما كونه يقدر بفعل ماضٍ؛ فلأنه قد تم وحصل، وأما كونه مقرونًا بقد؛ فلأن قد تفيد التحقيق إذا دخلت على الماضي، وتفيد التقليل إذا دخلت على المضارع، وقد تفيد التحقيق، ففي قول الناس: (قد يجود البخيل) قد هذه للتقليل، لكن في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤] هذه للتحقيق ولا شك، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه، وهذا الشرح شرح معنوي ليس شرحًا حسيًّا، وشرح الصدر أن يكون متسعًا لحكم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بنوعيه، حكم الله الشرعي، وهو الدين، وحكم الله القدري، وهو المصائب التي تحدث على الإنسان؛ وذلك؛ لأن الشرع فيه مخالفة للهوى فيجد الإنسان ثقلًا في تنفيذ أوامر الله، وثقلًا في اجتناب محارم الله؛ لأنه مخالف لهوى النفس، والنفس الأمارة بالسوء لا تنشرح لأوامر الله، ولا لنواهيه، تجد بعض الناس تثقل عليه الصلاة، كما قال الله تعالى في المنافقين:

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن الناس من تخف عليه الصلاة، بل يشتاق إليها ويترقب حصولها، كما قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١)، إذنْ فالشرع فيه ثقل على النفوس، كاجتناب المحرمات، فبعض الناس يهوى أشياء محرمة عليه كالزنا وشرب الخمر وما أشبه ذلك فتثقل عليه، ومن الناس من ينشرح صدره لذلك ويبتعد عما حرم الله، وانظر إلى يوسف ﷺ لما دعته امرأة العزيز بعد أن غلقت الأبواب وقالت: هيت لك وتهيأت له بأحسن ملبس وأحسن صورة، والمكان آمن أن يدخل أحد، غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، قال: معاذ الله، استعاذ بربه؛ لأن هذه حال حرجة، شاب وامرأة العزيز، ومكان خالٍ وآمن، والإنسان بشر ربما تسوّل له نفسه أن يفعل ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف]. وفي الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٢)، والشاهد من هذا قوله: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ» فشرح الصدر للحكم الشرعي معناه قبول الحكم الشرعي والرضا به وامتثاله، وأن يقول القائل سمعنا وأطعنا، وأنت بنفسك أحيانًا تجد قلبك منشرحًا للعبادة تفعلها بسهولة وانقياد وطمأنينة ورضا، وأحيانًا بالعكس لولا خوفك من الإثم ما فعلت، فإذا كان هذا الاختلاف في الشخص الواحد فما بالك بالأشخاص؟!

وأما انشراح الصدر للحكم القدري، فالإنسان الذي شرح الله صدره للحكم الكوني تجده راضيًا بقضاء الله وقدره، مطمئنًا إليه، يقول: أنا عبد، والله رب يفعل ما يشاء، هذا الرجل الذي على هذه الحال سيكون دائمًا في سرور لا يغتم، ولا يهتم، هو يتألم لكنه لا يصل إلى أن يحمل همًّا أو غمًّا؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٣)، إذن شرح الصدر يعني: توسعته وتهيئته لأحكام الله الشرعية والقدرية، لا يضيق بأحكام الله ذرعًا إطلاقًا، ونبينا محمد ﷺ له الحظ الأوفر من ذلك، ولهذا تجده أتقى الناس لله، وأشدهم قيامًا بطاعة الله، وأكثرهم صبرًا على أقدار الله، ماذا فعل الناس به حين قام بالدعوة؟ وماذا يصيبه

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٥٢٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٣).

من الأمراض حتى إنه يوعك، كما يوعك الرجلان منا؟! يعني: من المرض يشدد عليه يعني: كرجلين منا، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلت على رسول الله ﷺ، وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: «أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ»(١)، وحتى أنه شدد عليه عند النزع عند الموت ﷺ حتى يفارق الدنيا، وهو أصبر الصابرين، والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود شيء يصبر عليه، أما الشيء اليسير البارد فلا صبر عليه، لهذا نجد الأنبياء أكثر الناس، بلاء ثم الصالحين الأمثل فالأمثل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ قد يقول قائل: إن بين الجملتين تنافر، الجملة الأولى فعل مضارع ﴿نَشْرَحْ﴾، والثانية فعل ماض ﴿وَوَضَعْنَا﴾، لكن بناء على التقرير الذي قلت، وهو أن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، بمعنى قد شرحنا فيكون عطف (ووضعنا) على نظيره ومثيله ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، وضعناه أي: طرحناه وعفونا وسامحنا وتجاوزنا عنك ﴿وِزْرَكَ﴾، أي: إثمك ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، يعني: أقضه وآلمه؛ لأن الظهر هو محل الحمل، فإذا كان هناك حمل يتعب الظهر فإتعاب غيره من باب أولى؛ لأن أقوى عضو في أعضائك للحمل هو الظهر، وانظر للفرق بين أن تحمل كيسًا على ظهرك أو تحمله بين يديك بينهما فرق، فالمعنى أن الله تعالى غفر للنبي ﷺ وزره وخطيئته حتى بقي مغفورًا له، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]. وقيل للنبي ﷺ، وهو يقوم الليل ويطيل القيام حتى تتورم قدماه أو تتفطر قيل له: أتصنع، هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»(٢)، إذن مغفرة الذنوب المتقدمة والمتأخرة ثابتة بالقرآن والسنة، وهذا من خصائص الرسول ﷺ لا أحد من الناس يغفر له ما تقدم وما تأخر إلا الرسول ﷺ، أما غيره فيحتاج إلى توبة من الذنب، وقد يغفر الله له ـ سبحانه وتعالى ـ بدون توبة ما دون الشرك، لكن الرسول ﷺ نجزم بأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، فإن قال قائل: هذه الآية وما سقناه شاهدًا لها يدل على أن الرسول ﷺ قد يذنب فهل النبي ﷺ يذنب؟ فالجواب: نعم، ولا يمكن أن نرد النصوص لمجرد أن نستبعد وقوع الذنب منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ونحن لا نقول الشأن ألا يذنب الإنسان، بل الشأن أن يغفر للإنسان، هذا هو المهم أن يغفر له، أما ألَّا يقع منه الذنب فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٣)، لابد من خطيئة لكن هناك

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩). بلى أنت عبد وأنت شكور يا رسول الله.
(٣) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٣٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

أشياء لا يمكن أن تقع من الأنبياء مثل الكذب والخيانة، فإن، هذا لا يمكن أن يقع منهم إطلاقًا؛ لأن هذا لو فرض وقوعه لكان طعنًا في رسالتهم وهذا شيء مستحيل، وسفاسف الأخلاق من الزنا وشبهه، هذا أيضًا ممتنع؛ لأنه ينافي أصل الرسالة، فالرسالة إنما وجدت لتتميم مكارم الأخلاق، كما قال ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١).

فالحاصل: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضع عن محمد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وزره، وبين أن هذا الوزر قد أنقض ظهره أي: أقضه وأتعبه، وإذا كان هذا وزر الرسول ﷺ فكيف بأوزار غيره، أوزارنا تقض ظهورنا وتنقضها وتتعبها، ولكن كأننا لم نحمل شيئًا، وذلك لضعف إيماننا وبصيرتنا وكثرة غفلتنا، نسأل الله أن يعاملنا بالعفو، في بعض الآثار أن المؤمن إذا أذنب ذنبًا صار عنده كالجبل فوق رأسه، وإن المنافق إذا أذنب ذنبًا صار عنده كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا، يعني: أنه لا يهتم، فالمؤمن تهمه خطاياه وتلحقه الهموم حتى يتخلص منها بتوبة واستغفار، أو حسنات جليلة تمحو آثار هذه السيئة، وأنت إذا رأيت من قلبك الغفلة عن ذنوبك، فاعلم أن قلبك مريض؛ لأن القلب الحي لا يمكن أن يرضى بالمرض، ومرض القلوب هي الذنوب، كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

فيجب علينا أن نهتم بأنفسنا وأن نحاسبها، وإذا كان التجار لا ينامون حتى يراجعوا دفاتر تجاراتهم، ماذا صرفوا، وماذا أنفقوا، وماذا كسبوا، فإن تجار الآخرة ينبغي أن يكونوا أشد اهتمامًا؛ لأن تجارتهم أعظم، فتجارة أهل الدنيا غاية ما تفيدهم إن أفادتهم هو إتراف البدن فقط، على أن هذه التجارة يلحقها من الهم والغم ما هو معلوم، وإذا خسر في سلعة اهتم لذلك، وإذا كان في، بلده مخاوف: قطاع طريق، أو سراق صار أشد قلقًا، لكن تجارة الآخرة على العكس من، هذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]، تنجي من العذاب، ويغفر الله بها الذنوب، ويدخل بها الجنات، جنات عدن أي: جنات إقامة، ومساكن طيبة في جنات عدن، مساكن طيبة في بنايتها وفي مادة البناء، كما قال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»(٢)، والله لو يبقى الإنسان في سجدة منذ بلغ إلى أن يموت لكان هذا ثمنًا قليلًا بالنسبة إلى هذه الغنيمة العظيمة،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٠).

ولو لم يكن إلا أن ينجو الإنسان من النار لكفى، أحيانًا الإنسان يفكر يقول: ليتني لم أولد أو يكفيني أن أنجو من النار، وها هو عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: ليتني شجرة تعضد، ليت أمي لم تلدني؛ لأن الإنسان يظن أنه آمن؛ لأنه يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويحج ويبر الوالدين وما أشبه ذلك، لكن قد يكون في قلبه حسيكة تؤدي إلى سوء الخاتمة، ـ والعياذ بالله ـ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ»(١) يعني: مدة قريبة لموته ما هو إلا ذراع في العمل؛ لأن عمله كله هباء، هو يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، كما جاء في الحديث الصحيح، لكن قوله: «حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ» ليس معناه أن عمله أوصله إلى قريب من الجنة، وإنما المعنى حتى لا يبقى عليه إلا مدة قليلة في الحياة «ثُمَّ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»(٢) لكن هذا فيما إذا كان عمل الإنسان للناس، كما قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ـ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ـ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»(٣)، والإنسان إذا مر على مثل هذه النصوص يخاف على نفسه، يخاف من الرياء، يخاف من العُجْبِ، يخاف من الإذلال. قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكر الرسول ﷺ لا أحد يشك فيه، أولًا: لأنه يُرفع ذكره عند كل صلاة في أعلى مكان وذلك في الأذان: أشهد أَلَّا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله.

ثانيًا: يرفع ذكره في كل صلاة فرضًا في التشهد، فإن التشهد مفروض، وفيه أشهد أَلَّا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثالثًا: يرفع ذكره عند كل عبادة، كل عبادة مرفوع فيها ذكر الرسول ﷺ وذلك؛ لأن كل عبادة لابد فيها من شرطين أساسيين هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ ومن المعلوم أن المتابع للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ سوف يستحضر عند العبادة أنه متبع فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فهذا من رفع ذكره.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا بشارة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولسائر الأمة، وجرى على الرسول ﷺ عسر حينما كان بمكة يضيق عليه، وفي الطائف، وكذلك أيضًا في المدينة من المنافقين فالله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، يعني:، كما شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، ورفعنا لك ذكرك، وهذه نعم عظيمة كذلك، هذا العسر الذي يصيبك لابد أن يكون له يسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، قال ابن عباس عند هذه الآية: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، وتوجيه كلامه ـ رضي الله عنه ـ مع أن العسر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٣) انظر ما قبله.

ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين. قال أهل البلاغة: توجيه كلامه أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، العسر الأول أعيد في الثانية بـ (أل)، فـ (أل) هنا للعهد الذكري، وأما يسر، فإنه لم يأت معرفًا، بل جاء منكرًا، والقاعدة: أنه إذا كرر الاسم مرتين بصيغة التعريف فالثاني هو الأول إلا ما ندر، وإذا كرر الاسم مرتين بصيغة التنكير فالثاني غير الأول؛ لأن الثاني نكرة، فهو غير الأول، إذنْ في الآيتين الكريمتين يُسران وفيهما عسر واحد؛ لأن العسر كرر مرتين بصيغة التعريف قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، هذا الكلام خبر من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وخبره جل وعلا أكمل الأخبار صدقًا، ووعده لا يخلف، فكلما تعسر عليك الأمر فانتظر التيسير، أما في الأمور الشرعية فظاهر، ففي الصلاة: صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب، فهذا تيسير، فإذا شق عليك القيام اجلس، إن شق عليك الجلوس صل وأنت على جنبك، وفي الصيام إن قدرت وأنت في الحضر فصم، وإن لم تقدر فأفطر، فإذا كنت مسافرًا فأفطر في الحج إن استطعت إليه سبيلًا فحج، وإن لم تستطع فلا حج عليك، بل إذا شرعت في الحج وأحصرت ولم تتمكن معه من إكمال الحج فتحلل، وافسخ الحج واهدِ لقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

إذنْ كل عسر يحدث للإنسان في العبادة يجد التسهيل واليسر كذلك في القضاء والقدر، يعني: تقدير الله على الإنسان من مصائب، وضيق عيش، وضيق صدر وغيره لا ييأس، فإن مع العسر يسرًا، والتيسير قد يكون أمرًا ظاهرًا حسيًّا، مثل: أن يكون الإنسان فقيرًا فتضيق عليه الأمور فييسر الله له الغنى، مثال آخر: إنسان مريض يتعب يشق عليه المرض فيشفيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذا أيضًا تيسير حسي، هناك تيسير معنوي، وهو معونة الله الإنسان على الصبر، هذا تيسير، فإذا أعانك الله على الصبر تيسر لك العسير، وصار هذا الأمر العسير الذي لو نزل على الجبال لدكها، صار بما أعانك الله عليه من الصبر أمرًا يسيرًا، وليس اليسر معناه أن ينفرج الشيء تمامًا فقط، اليسر أن ينفرج الكرب ويزول وهذا يسر حسي، وأن يعين الله الإنسان على الصبر حتى يكون هذا الأمر الشديد العسير أمرًا سهلًا عليه، نقول هذا؛ لأننا واثقون بوعد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، أي: إذا فرغت من أعمالك فانصب لعمل آخر، يعني: اتعب لعمل آخر، لا تجعل الدنيا تضيع عليك، ولهذا كانت حياة الإنسان العاقل حياة جد، كلما فرغ من عمل شرع في عمل آخر، وهكذا؛ لأن الزمن يفوت على الإنسان في حال يقظته ومنامه، وشغله وفراغه، يسير، ولا يمكن لأحد أن يمسك الزمن، لو اجتمع الخلق كلهم؛ ليوقفوا الشمس حتى يطول النهار ما تمكنوا، فالزمن لا يمكن؛ لأحد أن يمسكه، إذن اجعل حياتك حياة جد، فإذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر، فإذا فرغت من عمل الدنيا عليك بعمل الآخرة، فرغت من عمل الآخرة اشتغلت بأمر الدنيا فإذا قضيت الصلاة يوم الجمعة

فانتشر في الأرض وابتغ من فضل الله، وصلاة الجمعة يكتنفها عملان دنيويان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾، يعني: وأنتم مشتغلون في دنياكم ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾،[الجمعة: ٩، ١٠]. فإذا فرغنا من شغل اشتغلنا في آخر، وإذا فرغنا منه اشتغلنا في آخر وهكذا ينبغي أن يكون الإنسان دائمًا في جد.

فإذا قال قائل: لو أنني استعملت الجد في كل حياتي لتعبت ومللت.

قلنا: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلًا وعملًا، يعني: لا يلزم الشغل بالحركات ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملًا، المهم أن تجعل حياتك كلها جدًّا وعملًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ يعني: إذا عملت الأعمال التي فرغت منها ونصبت في الأخرى، فارغب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - في حصول الثواب، وفي حصول الأجر، وفي الإعانة كن مع الله - عَزَّ وَجَلَّ - قبل العمل وبعد العمل، قبل العمل كن مع الله تستعينه - عَزَّ وَجَلَّ - وبعده ترجو منه الثواب. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ فائدة بلاغية ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾، متعلقة من حيث الإعراب بـ (ارغب) وهي مقدمة عليها، وتقديم المعمول يفيد الحصر، يعني: إلى الله لا إلى غيره فارغب في جميع أمورك، وثق بأنك متى علقت رغبتك بالله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنه سوف ييسر لك الأمور، وكثير من الناس تنقصهم هذه الحال أي: ينقصهم أن يكونوا دائمًا راغبين إلى الله، فتجدهم يختل كثير من أعمالهم؛ لأنهم لم يكن بينهم وبين الله تعالى صلة في أعمالهم. نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا ممتثلين؛ لأوامره، مصدقين بأخباره، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة التين

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ⓵ وَطُورِ سِينِينَ ⓶ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ⓷ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ⓸ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⓹ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ ⓺ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⓻ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ١-٨].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ⓵ وَطُورِ سِينِينَ ⓶ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ إقسام الله - تعالى - بهذه الأشياء الأربعة: بالتين، والزيتون، وبطور سينين، وهذا البلد الأمين يعني: مكة؛ لأن السورة مكية فالمشار إليه قريب، وهو مكة، ﴿وَالتِّينِ﴾، هو الثمر المعروف، ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ معروف، وأقسم الله بهما؛ لأنهما يكثران في فلسطين، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، أقسم الله به؛ لأنه الجبل الذي كلم الله عنده موسى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، أقسم الله به أعني مكة؛ لأنها أحب البقاع إلى الله، وأشرف البقاع عند الله - عز وجل -.

قال بعض أهل العلم: أقسم الله بهذه الثلاثة؛ لأن الأول ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، أرض فلسطين التي فيها الأنبياء، وآخر أنبياء بني إسرائيل هو عيسى بن مريم ﷺ، وبطور سينين؛ لأنه الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى موسى حوله، وأما البلد الأمين فهو مكة الذي بعث الله منه محمدًا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال العلماء: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، أي: طور البركة؛ لأن الله تعالى وصفه أو وصف ما حوله بالوادي المقدس.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله - تعالى - أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذه الجملة التي فيها المقسم عليه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم،

واللام، وقد، أقسم الله أنه خلق الإنسان ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ في أحسن هيئة وخِلقة و﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، فطرة وقصدًا؛ لأنه لا يوجد أحد من المخلوقات أحسن من بني آدم خلقة، فالمخلوقات الأرضية كلها دون بني آدم في الخلقة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، هذه الردة التي ذكرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - تعني أن الله - تعالى - يرد الإنسان أسفل سافلين خِلقة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، فكلما ازدادت السن في الإنسان تغير إلى أردأ في القوة الجسدية، وفي الهيئة الجسدية، وفي نضارة الوجه وغير ذلك يرد أسفل سافلين، وإذا قلنا إن أحسن تقويم تشمل حتى الفطرة التي جبل الله الخلق عليها، والعبادة التي تترتب أو تنبني على هذه الفطرة، فإن هذا إشارة إلى أن من الناس من تعود به حاله - والعياذ بالله - إلى أن يكون أسفل سافلين بعد أن كان في الأعلى والقمة من الإيمان والعلم، والآية تشمل المعنيين جميعًا ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، هذا استثناء من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، يعني: إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يردون إلى أسفل السافلين؛ لأنهم متمسكون بإيمانهم وأعمالهم، فيبقون عليها إلى أن يموتوا، ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ﴾، أي: ثواب ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾، غير مقطوع، ولا ممنون به أيضًا فكلمه ﴿مَمۡنُونٖ﴾، صالحه لمعنى القطع، وصالحة لمعنى المنة، فهم لهم أجر لا ينقطع، ولا يمن عليهم به، يعني: أنهم إذا استوفوا هذا الأجر لا يمن عليهم فيقال أعطيناكم وفعلنا وفعلنا، وإن كانت المنة لله - عَزَّ وَجَلَّ - عليهم بالإيمان والعمل الصالح والثواب، كلها منّة من الله لكن لا يمن عليهم به، أي: لا يؤذون بالمن، كما يجري ذلك في أمور الدنيا، فإذا أحسن إليك أحد من الناس فربما يؤذيك بمنه عليك، في كل مناسبة يقول: فعلت بك، أعطيتك وما أشبه ذلك.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾، انتقل الله تعالى من الكلام على وجه الغيبة إلى الكلام على وجه المقابلة والخطاب قال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي أي شيء يكذبك أيها الإنسان بعد، هذا البيان ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بما أمر الله به من الدين، ولهذا كلما نظر الإنسان إلى نفسه وأصله وخلقته، وأن الله اجتباه وأحسن خلقته، وأحسن فطرته، فإنه يزداد إيمانًا بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وتصديقًا بكتابه وبما أخبرت به رسله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، وهذا الاستفهام للتقرير يقرر الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه أحكم الحاكمين، وأحكم هنا اسم تفضيل، وهو مأخوذ من الحكمة، ومن الحكم، فالحكم الأكبر الأعظم الذي لا يعارضه شيء هو حكم الله - عَزَّ وَجَلَّ - والحكمة العليا البالغة هي حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو - سبحانه وتعالى - أحكم الحاكمين قدرًا وشرعًا، وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله. نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا العلم بكتابه، وسنة رسوله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة العلق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١:٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذه الآيات أول ما نزل على الرسول ﷺ من القرآن الكريم، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حراء وكان رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أول ما بُدِئ بالوحي أنه يرى الرؤيا في المنام، فتأتي مثل فلق الصبح يعني: يحدث ما يصدق هذه الرؤيا، وأول ما كان يرى هذه الرؤيا في ربيع الأول، فبقي ستة أشهر يرى مثل هذه الرؤيا ويراها تجيء مثل فلق الصبح، وفي رمضان نزل الوحي الذي في اليقظة، والمدة بين ربيع الأول ورمضان ستة شهور، وزمن الوحي ثلاث وعشرون سنة، ولهذا جاء في الحديث «أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[1]، لما كان يرى هذه الرؤيا التي تجيء مثل فلق الصبح حُبب إليه الخلاء، يعني: أن يخلو بنفسه ويبتعد عن هذا المجتمع الجاهلي، فرأى ﷺ أن أحسن ما يخلو به هذا الغار الذي في جبل حراء، وهو غار في قمة الجبل لا يكاد يصعد إليه الإنسان القوي إلا بمشقة، فكان يصعده ﷺ ويتحنث، يتعبد لله - عَزَّ وَجَلَّ - بما فتح الله عليه في هذا الغار الليالي ذوات العدد، يعني: عدة ليال، ومعه زاد أخذه يتزود به من طعام وشراب، ثم ينزل ويتزود لمثلها من أهله، ويرجع ويتحنث لله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى أن نزل عليه الوحي، وهو في هذا الغار، أتاه جبريل

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٨٩)، وابن ماجه (٣٨٩٥).

وأمره أن يقرأ فقال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»[١] ومعنى: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يعني: لست من ذوي القراءة، وليس مراده المعصية لأمر جبريل، لكنه لا يستطيع، فإنه ليس من ذوي القراءة، إذ إنه ﷺ كان أميًّا كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. فكان لا يقرأ، ولا يكتب، وهذا من حكمة الله أنه لا يقرأ، ولا يكتب حتى تتبين حاجته وضرورته إلى هذه الرسالة، وحتى لا يبقى لشاك شك في صدقه، وقد أشار الله إلى هذه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. قال له: «ما أنا بقارىء» فغطّاه مرتين أو ثلاثًا، ثم قال له ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، خمس آيات نزلت فرجع بها النبي ﷺ يرجف فؤاده من الخوف والفزع حتى أتى إلى خديجة، وحديث الوحي وابتداؤه موجود في أول صحيح البخاري من أحب أن يرجع إليه فليرجع يقول الله عز وجل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، قوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، قيل: معناه متلبسًا بذلك، وقيل: مستعينًا بذلك، يعني: اقرأ مستعينًا باسم الله؛ لأن أسماء الله تعالى كلها خير، وكلها إعانة يستعين بها الإنسان، ويستعين بها على وضوئه، ويستعين بها على أكله، ويستعين بها على جماعه فهي كلها عون، وقال تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، دون أن يقول باسم الله؛ لأن المقام مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأمور وابتداء رسالة؛؛ فلهذا قال تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، إلا أنه ﷺ قد رباه الله تعالى تربية خاصة ورباه كذلك ربوبية خاصة. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: خلق كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. فما من شيء في السماء، ولا في الأرض، من خفي وظاهر، وصغير وكبير إلا وهو مخلوق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ﴾، وحذف المفعول إشارة للعموم؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم، إذ لو ذكر المفعول لتقيد الفعل به، لو قال خلق كذا تقيد الخلق بما ذكر فقط، لكن إذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ﴾، وأطلق صار عامًّا فهو خالق كل شيء جل وعلا.

ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ خص الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان تكريمًا للإنسان وتشريفًا له؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ فلهذا نص على خلق الإنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، أي: ابتدأ خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾، جمع، أو اسم جمع علقة، كشجر اسم جمع شجرة، والعلق: عبارة عن دودة حمراء من الدم صغيرة وهذا هو المنشأ الذي به الحياة؛ لأن الإنسان دم لو تفرغ من الدم لهلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

وقد بين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه خلق الإنسان من علق، ولكنه يتطور، وبين في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من تراب، وفي آيات أخرى خلقه من طين، وفي آيات أخرى من صلصال كالفخار، وفي آيات أخرى من ماء دافق، وفي آيات أخرى من ماء مهين، وفي هذه الآية من علق فهل في هذا تناقض؟ الجواب: ليس هناك تناقض، ولا يمكن أن يكون في كلام الله تعالى، أو ما صح عن رسوله ﷺ شيء من التناقض أبدًا، فإن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ يذكر أحيانًا مبدأ الخلق من وجه، ومبدأ الخلق من وجه آخر، فخلقه من تراب؛ لأن أول ما خلق الإنسان من التراب ثم صب عليه الماء فكان طينًا ثم استمر مدة فكان حمأ مسنونًا، ثم طالت مدته فكان صلصالًا، يعني: إذا ضربته بيدك تسمع له صلصلة كالفخار، ثم خلقه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لحمًا، وعظمًا، وعصبًا إلى آخره، هذا ابتداء الخلق المتعلق بآدم. والخلق الآخر من بنيه أول منشئهم من نطفة، وهي الماء المهين وهي الماء الدافق، هذه النطفة تبقى في الرحم أربعين يومًا، ثم تتحول شيئًا فشيئًا وبتمام الأربعين تتقلب بالتطور والتدريج حتى تكون دمًا علقة، ثم تبدأ بالنمو والثخونة وتتطور شيئًا فشيئًا، فإذا تمت ثمانين يومًا انتقلت إلى مضغة ـ قطعة من لحم بقدر ما يمضغه الإنسان ـ وتبقى كذلك أربعين يومًا فهذه مائة وعشرون يومًا، وهي بالأشهر أربعة أشهر، بعد أربعة أشهر يبعث الله إليه الملك الموكل بالأرحام، فينفخ فيه الروح، فتدخل الروح في الجسد بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والروح لا نستطيع أن نعرف كنهها وحقيقتها ومادتها، أما الجسد؛ فأصله من التراب، ثم في أرحام النساء من النطفة، لكن الروح لا نعرف من أي جوهر هي؟ ولا من أي مادة؟ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. فينفخ الملك الروح في هذا الجنين فيبدأ يتحرك؛ لأن نماءه الأول كنماء الأشجار بدون إحساس، بعد أن تنتفخ فيه الروح يكون آدميًا يتحرك؛ ولهذا إذا سقط الحمل من البطن قبل أربعة أشهر دفن في أي: مكان من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة عليه، ولا يبعث؛ لأنه ليس آدميًا، وبعد أربعة أشهر إذا سقط يجب أن يغسل، ويكفن ويصلى عليه، ويدفن في المقابر؛ لأنه صار إنسانًا، ويسمى أيضًا؛ لأنه يوم القيامة سيدعى باسمه، ويعق عنه، لكن العقيقة عنه ليست في التأكيد كالعقيقة عمن بلغ سبعة أيام بعد خروجه، على كل حال، هذا الجنين في بطن أمه يتطور حتى يكون بشرًا، ثم يأذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ له بعد المدة التي أكثر ما تكون عادة تسعة أشهر فيخرج إلى الدنيا. وبهذه المناسبة أبين أن للإنسان أربع دور:

الدار الأولى: في بطن أمه. الدار الثانية: في الدنيا. الدار الثالثة: في البرزخ. الدار الرابعة: في الجنة أو النار وهي المنتهى.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، ﴿ٱقْرَأْ﴾، تكرار للأولى لكن هل هي توكيد أو هي تأسيس؟

الصحيح أنها تأسيس وأن الأولى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قرنت بما يتعلق بالربوبية، و﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، قرنت بما يتعلق بالشرع، فالأولى بما يتعلق بالقدر، والثانية بما يتعلق بالشرع؛ لأن التعليم بالقلم أكثر ما يعتمد الشرع عليه، إذ إن الشرع يكتب ويحفظ، والقرآن يكتب ويحفظ، والسنة تكتب وتحفظ، وكلام العلماء يكتب ويحفظ؛ فلهذا أعادها الله مرة ثانية.

قال الله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ٦-١٩].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾، في القرآن الكريم ترد على عدة معانٍ منها: أن تكون بمعنى حقًّا، كما في هذه الآية فـ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى حقًّا، يعني: أن الله تعالى يثبت، هذا إثباتًا لا مرية فيه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، الإنسان هنا ليس شخصًا معينًا، بل المراد الجنس، كل إنسان من بني آدم إذا رأى نفسه استغنى، فإنه يطغى، من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فإذا رأى أنه استغنى عن رحمة الله طغى ولم يبالِ، فإذا رأى أنه استغنى عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في كشف الكربات وحصول المطلوبات صار لا يلتفت إلى الله، ولا يبالي، فإذا رأى أنه استغنى بالصحة نسي المرض، وإذا رأى أنه استغنى بالشبع نسي الجوع، فإذا رأى أنه استغنى بالكسوة نسي العري، وهكذا فالإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنى، ولكن هذا يخرج منه المؤمن؛ لأن المؤمن لا يرى أنه استغنى عن الله طرفة عين، فهو دائمًا مفتقر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل ربه كل حاجة، ويلجأ إليه عند كل مكروه، ويرى أنه إن وكله الله إلى نفسه وكله إلى ضعف وعجز وعورة، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًّا، هذا هو المؤمن، لكن الإنسان من حيث هو إنسان من طبيعته الطغيان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مهددًا هذا الطاغية ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، أي: المرجع يعني: مهما طغيت

وعلوت واستكبرت واستغنيت، فإن مرجعك إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٣ - ٢٦].

وإذا كان المرجع إلى الله في كل الأمور، فإنه لا يمكن لأحد أن يفر من قضاء الله أبدًا، ولا من ثواب الله وعدله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾، ربما نقول إنه أعم من الوعيد والتهديد يعني: أنه يشمل الوعيد والتهديد، ويشمل ما هو أعم فيكون المعنى أن إلى الله المرجع في كل شيء في الأمور الشرعية التحاكم إلى الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. والأمور الكونية المرجع فيها إلى الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. فلا رجوع للعبد إلا إلى الله، كل الأمور ترجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - يفعل ما يشاء، حتى ما يحصل بين الناس من الحروب والفتن والشرور، فإن الله هو الذي قدرها، لكنه قدرها لحكمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. إذن ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾، يكون فيها تهديد لهذا الإنسان الذي طغى حين رأى نفسه مستغنيًا عن ربه، وفيها أيضًا ما هو أشمل وأعم، وهو أن المرجع إلى الله تعالى في كل الأمور.

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ يعني: أخبرني عن حال هذا الرجل وتعجب من حال هذا الرجل الذي ينهى عبدًا إذا صلى، ففي الآية ناهٍ ومنهي، فالناهي هو طاغية قريش أبو جهل، وكان يسمى في قريش أبا الحكم؛ لأنهم يتحاكمون إليه، ويرجعون إليه فاغتر بنفسه، وشرق بالإسلام ومات على الكفر، كما هو معروف، هذا الرجل سماه النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أبا جهل ضد تسميتهم إياه أبا الحكم. وأما المنهي فهو محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وهو العبد ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾، أبو جهل قيل له: إن محمدًا يصلي عند الكعبة أمام الناس، يفتن الناس ويصدهم عن أصنامهم وآلهتهم، فمر به ذات يوم، وهو ساجد فنهى النبي ﷺ، وقال: لقد نهيتك فلماذا تفعل؟ فانتهره النبي ﷺ فرجع، ثم قيل لأبي جهل إنه أي: محمدًا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مازال يصلي فقال: والله لئن رأيته لأطأن عنقه بقدمي، ولأعفرن وجهه بالتراب، فلما رآه ذات يوم ساجدًا تحت الكعبة وأقبل عليه يريد أن يبر بيمينه وقسمه، لما أقبل عليه وجد بينه وبينه خندقًا من النار وأهوالًا عظيمة، فنكص على عقبيه وعجز أن يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - هذا العبد الذي ينهى عبدًا إذا صلى يتعجب من حاله كيف يفعل هذا؟ ولهذا جاء في آخر الآيات ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ وأنه سيجازيه.

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ﴾، يعني: أخبرني أيها المخاطب إن كان، هذا الساجد محمد ﷺ على الهدى فكيف تنهاه عنه؟! قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾، قال بعض المفسرين

﴿أَوْ﴾، هنا بمعنى الواو يعني: وأمر بالتقوى، ولكن الصحيح أنها على بابها للتنويع، يعني: أرأيت إن كان على الهدى فيما فعل من السجود والصلاة، أو أمر غيره بالتقوى؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ يأمر بالتقوى، بلا شك فهو صالح بنفسه مصلح لغيره.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ يعني: يرى المنهي، وهو الساجد محمدًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ الآمر بالتقوى ويرى هذا العبد الطاغية الذي ينهى عبدًا إذا صلى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، يرى ـ سبحانه وتعالى ـ علمًا ورؤية، فهو سبحانه يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بَعُدَ، ومهما كثر أو قل، فيعلم الآمر والناهي ويعلم المصلي والساجد، ويعلم من طغى، ومن خضع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وسيجازي كل إنسان بعمله، والمقصود من، هذا تهديد الذي ينهى عبدًا إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله، وحال من ينهاه، وسيجازي كلاًّ منهما بما يستحق، فهذا تهديد لهذا الرجل الذي كان ينهى رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ عن الصلاة، يعني: ألم يعلم هذا الرجل أن الله تعالى يراه ويعلمه، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ محيط بعمله، فيجازيه عليه إما في الدنيا، وإما في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ هذه بمعنى حقًّا، ويحتمل أن تكون للردع، أي: لردعه عن فعله السيء الذي كان يقوم به تجاه رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، أو بمعنى حقًّا ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، جملة ﴿لَنَسْفَعًا﴾، جواب لقسم مقدر والتقدير: والله لئن لم ينته لنسفعن بالناصية، وحذف جواب الشرط وبقي جواب القسم؛ لأن هذه هي القاعدة في اللغة العربية أنه إذا اجتمع قسم وشرط، فإنه يحذف جواب المتأخر، قال ابن مالك في «ألفيته»:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَم

وهنا المتأخر هو الشرط ﴿لَئِن﴾، والقسم مقدر قبله إذ تقديره: والله لئن لم ينته لنسفعن، ومعنى ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخذن بشدة و﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ مقدم الرأس و(ألـ) فيها أي: في الناصية للعهد الذهني، والمراد بالناصية هنا ناصية أبي جهل الذي توعد النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ على صلاته ونهاه عنها، أي: لنسفعن بناصيته، وهل المراد الأخذ بالناصية في الدنيا، أو في الآخرة يجر بناصيته إلى النار؟ يحتمل، هذا وهذا، يحتمل أنه يؤخذ بالناصية وقد أخذ بناصيته في يوم بدر حين قتل مع من قتل من المشركين، ويحتمل أن يكون يؤخذ بناصيته يوم القيامة فيقذف في النار، كما قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. وإذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا يناقض أحدهما الآخر، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا، كما هو المعروف والذي قررناه سابقًا، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر فالواجب الأخذ بالمعنيين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ناصية بدل من الناصية الأولى، وهي بدل نكرة من معرفة،

وهي جائزة في اللغة العربية، وإنما قال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ من أجل أن يكون ذلك توطئة للوصف الاتي بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿كَٰذِبَةٍ﴾، أي: أنها موصوفة بالكذب، ولا شك أن من أكبر ما يكون كذبًا ما يحصل من الكفار الذين يدعون أن مع الله آلهة أخرى، فإن هذا أكذب القول وأقبح الفعل، ﴿خَاطِئَةٍ﴾ أي: مرتكبة للخطأ عمدًا، وليعلم أن هناك فرقًا بين خاطىء ومخطىء، الخاطىء من ارتكب الخطأ عمدًا، والمخطىء من ارتكبه جهلًا، والثاني معذور، والأول غير معذور، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٧]. أي: المذنبون ذنبًا عن عمد، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقال الله قد فعلت، ومثل ذلك القاسط والمقسط، القاسط هو الجائر، والمقسط هو العادل، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]؛ إذن ﴿خَاطِئَةٍ﴾ أي: مرتكبة للإثم عمدًا. قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ اللام هنا للتحدي، يعني: إن كان صادقًا وعنده قوة، وعنده قدرة فليدع ناديه، والنادي هو مجتمع القوم للتحدث بينهم والتخاطب والتفاهم والاستئناس بعضهم ببعض، وكان أبو جهل معظمًا في قريش، وله نادي يجتمع الناس إليه فيه، ويتكلمون في شؤونهم فهنا يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إن كان صادقًا فليدع ناديه، وهذا لا شك أنه تحدي، كما تقول لعدوك إن كان لك قوم فتقدم وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على التحدي.

قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، يعني: عندنا من هم أعظم من نادي، هذا الرجل وهم الزبانية ملائكة النار، وقد وصف الله ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد، غلاظ في الطباع، شداد في القوة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، بل يمتثلون كل ما أمرهم الله به ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، لا يعجزون عن ذلك فوصفهم بوصفين أنهم في تمام الانقياد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، وأنهم في تمام القدرة ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وعدم تنفيذ أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للمعصية، فمثلًا: الذي لا يصلي الفرض قائمًا قد يكون للعجز، وقد يكون للعناد فهو لا ينفذ أمر الله، لكن الملائكة الذين على النار ليس عندهم عجز، بل عندهم قوة وقدرة، وليس عندهم استكبار عن الأمر، بل عندهم تمام التذلل والخضوع، هؤلاء الزبانية لا يمكن لهذا وقومه وناديه أن يقابلوهم أبدًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، فإن قال قائل: أين الواو في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ﴾؟ قلنا: إنها محذوفة لالتقاء الساكنين؛ لأن الواو ساكنة والهمزة همزة الوصل ساكنة، وإذا التقى ساكنان، فإنه إن كان الحرف صحيحًا كسر، وإن كان غير صحيح حذف، قال ابن مالك رحمه الله في «ألفيته»:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

يعني: إذا التقى ساكنان إن كان الحرف الأول صحيحًا ليس من حروف العلة كسر مثل قوله

تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وأصلها ﴿لَمْ يَكُنْ﴾؛ لأن لم إذا دخلت على الفعل جزمته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، لكن هنا التقى ساكنان، وكان الأول حرفًا صحيحًا فكسر، أما إذا كان الأول حرف؛ لين، يعني: حرف من حروف العلة، فإنه يحذف، كما في هذه الآية ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ يقال في ﴿كَلَّا﴾ ما قيل في الأولى التي قبلها والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، أي: لا تطع، هذا الذي ينهاك عن الصلاة، بل اسجد، ولا تبالي به، وإذا كان الله نهى نبيه ﷺ أن يطيع هذا الرجل فهذا يعني: أنه جل وعلا سيدافع عنه، يعني: افعل ما تؤمر، ولا يهمنك، هذا الرجل، واسجد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والمراد بالسجود هنا الصلاة، لكن عبر بالسجود عن الصلاة؛ لأن السجود ركن في الصلاة لا تصح إلا به؛ فلهذا عبر به عنها. وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرِب﴾، أي: اقترب من الله عز وجل؛ لأن الساجد أقرب ما يكون من ربه، كما قال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ حيث قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»[1]، وقال ﷺ: «أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[2]، أي: حري أن يستجاب لكم.

هذه سورة (العلق) وهي عظيمة جدًّا ابتدأها الله تعالى بما منّ به على رسوله ﷺ من الوحي، ثم اختتمها بالسجود والاقتراب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نسأل الله تعالى أن يرزقنا القيام بطاعته والقرب منه، وأن يجعلنا من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وعباده الصالحين، إنه على كل شيء قدير.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٨٧٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

تفسير سورة القدر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١:٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، الضمير هنا يعود إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - والهاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، يعود إلى القرآن، وذكر الله تعالى نفسه بالعظمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾؛ لأنه - سبحانه وتعالى - العظيم الذي لا شيء أعظم منه، والله تعالى يذكر نفسه أحيانًا بصيغة العظمة مثل هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، أحيانًا يذكر نفسه بصيغة الواحد مثل ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وذلك؛ لأنه واحد عظيم، فباعتبار الصفة يأتي ضمير العظمة، وباعتبار الوحدانية يأتي ضمير الواحد. والضمير في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، ضمير المفعول به وهي الهاء يعود إلى القرآن، وإن لم يسبق له ذكر؛ لأن، هذا أمر معلوم، ولا يمتري أحد في أن المراد بذلك إنزال القرآن الكريم، أنزله الله تعالى في؛ ليلة القدر فما معنى إنزاله في ليلة القدر؟ الصحيح أن معناها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، وليلة القدر في رمضان لا شك في، هذا ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإذا جمعت هذه الآية أعني

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ إلى هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تبين أن ليلة القدر في رمضان، وبهذا نعرف أن ما اشتهر عند بعض العامة من أن ليلة القدر هي؛ ليلة النصف من شهر شعبان لا أصل له، ولا حقيقة له فإن ليلة القدر في رمضان، وليلة النصف من شعبان كليلة النصف من رجب، وجمادى، وربيع، وصفر، ومحرم وغيرهن من الشهور لا تختص بشيء، حتى ما ورد في فضل القيام فيها فهو أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، وكذلك ما ورد من تخصيص يومها، وهو يوم النصف من شعبان بصيام، فإنها أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، لكن بعض العلماء - رحمهم الله - يتساهلون في ذكر الأحاديث الضعيفة فيما يتعلق بالفضائل: فضائل الأعمال، أو الشهور، أو الأماكن وهذا أمر لا ينبغي، وذلك؛ لأنك إذا سقت الأحاديث الضعيفة في فضل شيء ما، فإن السامع سوف يعتقد أن ذلك صحيح، وينسبه إلى الرسول ﷺ وهذا شيء كبير، فالمهم أن يوم النصف من شعبان وليلة النصف من شعبان لا يختصان بشيء دون سائر الشهور، فليلة النصف لا تختص بفضل قيام، وليلة النصف ليست؛ ليلة القدر، ويوم النصف لا يختص بصيام، نعم شهر شعبان ثبتت السنة بأن النبي ﷺ كان يكثر من الصيام فيه حتى لا يفطر منه إلا قليلًا وما سوى ذلك مما يتعلق بصيامه لم يثبت عن النبي ﷺ إلا ما لسائر الشهور كفضل صوم ثلاثة أيام من كل شهر وأن تكون في الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وهي أيام البيض.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ من العلماء من قال: القدر هو الشرف، كما يقال: (فلان ذو قدر عظيم، أو ذو قدر كبير) أي: ذو شرف كبير، ومن العلماء من قال: المراد بالقدر التقدير؛ لأنه يقدر فيها ما يكون في السنة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤]. أي: يفصل ويبين.

والصحيح: أنه شامل للمعنيين، فليلة القدر لا شك أنها ذات قدر عظيم، وشرف كبير، وأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من الإحياء والإماتة والأرزاق وغير ذلك.

ثم قال الله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾، هذه الجملة بهذه الصيغة يستفاد منها التعظيم والتفخيم، وهي مطردة في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧،١٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]. ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١:٣] فهذه الصيغة تعني التفخيم والتعظيم فهنا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾، أي: ما أعلمك؛ ليلة القدر وشأنها وشرفها وعظمها، ثم بين هذا بقوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، وهذه الجملة كالجواب للاستفهام الذي سبقها، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾، الجواب: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي: من ألف شهر ليس فيه ليلة القدر، والمراد بالخيرية هنا ثواب

العمل فيها، وما ينزل الله تعالى فيها من الخير والبركة على هذه الأمة ولذلك كان من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ثم ذكر ما يحدث في تلك الليلة فقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، أي: تنزل شيئًا فشيئًا؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة، ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلًا على أن، هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة كالمكان الذي فيه الصور، فإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، يعني: صورة محرمة؛ لأن الصورة إذا كانت ممتهنة في فراش أو مخدة؛ فأكثر العلماء على أنها جائزة، وعلى، هذا فلا تمتنع الملائكة من دخول المكان؛ لأنه لو امتنعت لكان ذلك ممنوعًا، فالملائكة تتنزل في؛ ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة. قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾، هو جبريل ـ عليه السلام ـ خصه الله بالذكر لشرفه وفضله.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره، والمراد به الإذن الكوني؛ لأن إذن الله ـ أي: أمره ـ ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي، فقوله تعالى: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. أي: ما لم يأذن به شرعًا؛ لأنه قد أذن به قدرًا، فقد شرع من دون الله، لكنه ليس بإذن الله الشرعي، وإذن قدري، كما في هذه الآية ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أي: بأمره القدري وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، قيل: إن ﴿مِّن﴾ بمعنى الباء أي: بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، الجملة هنا مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، والتقدير: «هي سلام» أي: هذه الليلة سلام، ووصفها الله تعالى بالسلام، لكثرة من يسلم فيها من الآثام وعقوباتها، قال النبي ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١)، ومغفرة الذنوب لا شك أنها سلامة من وبائها وعقوباتها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، أي: تتنزل الملائكة في هذه الليلة حتى مطلع الفجر، أي: إلى مطلع الفجر، وإذا طلع الفجر انتهت ليلة القدر.

تنبيه: سبق أن قلنا إن ليلة القدر في رمضان، لكن في أي: جزء من رمضان أفي أوله، أو وسطه، أو آخره؟ نقول في الجواب على، هذا: إن النبي ﷺ اعتكف العشر الأول، ثم العشر الأوسط تحريًا لليلة القدر، ثم قيل له: إنها في العشر الأواخر فاعتكف العشر الأواخر، إذنْ فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وفي أي ليلة منها؟ الله أعلم قد تكون في؛ ليلة إحدى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠).

وعشرين، أو في؛ ليلة الثلاثين، أو فيما بينهما، فلم يأت تحديد لها في؛ ليلة معينة كل عام، ولهذا أري النبي ﷺ ليلة القدر ليلة إحدى وعشرين ورأى في المنام أنه يسجد في صبيحتها في ماء وطين فأمطرت السماء تلك الليلة أي: ليلة إحدى وعشرين، فصلى النبي ﷺ في مسجده، وكان مسجده من عريش لا يمنع تسرب الماء من السقف، فسجد النبي ﷺ صباحها أي: في صلاة الفجر في الماء والطين، ورأى الصحابة -ـ رضي الله عنهم ـ على جبهته أثر الماء والطين، ففي تلك الليلة كانت في؛ ليلة إحدى وعشرين، ومع ذلك قال: «التَّمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ»(١)، وفي رواية: «فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ»(٢)، ورآها الصحابة ذات سنة من السنين في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ»(٣)، يعني: في تلك السنة، أما في بقية الأعوام فهي في كل العشر، فليست معينة، ولكن أرجاها ليلة سبع وعشرين، وقد تكون مثلًا في هذا العام؛ ليلة سبع وعشرين، وفي العام الثاني ليلة إحدى وعشرين، وفي العام الثالث ليلة خمس وعشرين وهكذا.، وإنما أبهمها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لفائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: بيان الصادق في طلبها من المتكاسل؛ لأن الصادق في طلبها لا يهمه أن يتعب عشر؛ ليال من أجل أن يدركها، والمتكاسل يكسل أن يقوم عشر ليال من أجل ليلة واحدة.

الفائدة الثانية: كثرة ثواب المسلمين بكثرة الأعمال؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الثواب.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى غلط كثير من الناس في الوقت الحاضر حيث يتحرون؛ ليلة سبع وعشرين في أداء العمرة، فإنك في ليلة سبع وعشرين تجد المسجد الحرام قد غص بالناس وكثروا، وتخصيص ليلة سبع وعشرين بالعمرة من البدع؛ لأن رسول الله ﷺ لم يخصصها بعمرة في فعله، ولم يخصصها أي: ليلة سبع وعشرين بعمرة في قوله، فلم يعتمر ليلة سبع وعشرين من رمضان مع أنه في عام الفتح؛ ليلة سبع وعشرين من رمضان كان في مكة ولم يعتمر، ولم يقل للأمة تحروا ليلة سبع وعشرين بالعمرة، وإنما أمر أن نتحرى؛ ليلة سبع وعشرين بالقيام فيها لا بالعمرة، وبه يتبين خطأ كثير من الناس، وبه أيضًا يتبين أن الناس ربما يأخذون دينهم كابرًا عن كابر، على غير أساس من الشرع، فاحذر أن تعبد الله إلا على بصيرة، بدليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ أو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٢٧)، ومسلم (١١٦٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠١٧).
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥).

عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباع سنتهم.

وفي هذه السورة الكريمة فضائل متعددة لليلة القدر:

الفضيلة الأولى: أن الله أنزل فيها القرآن الذي به هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

الفضيلة الثانية: ما يدل عليه الاستفهام من التفخيم والتعظيم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

الفضيلة الثالثة: أنها خير من ألف شهر.

الفضيلة الرابعة: أن الملائكة تتنزل فيها، وهم لا ينزلون إلا بالخير والبركة والرحمة.

الفضيلة الخامسة: أنها سلام، لكثرة السلامة فيها من العقاب والعذاب بما يقوم به العبد من طاعة الله -عز وجل-.

الفضيلة السادسة: أن الله أنزل في فضلها سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة.

ومن فضائل؛ ليلة القدر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1]، فقوله: «إيمانًا واحتسابًا» يعني: إيمانًا بالله وبما أعد الله من الثواب للقائمين فيها، واحتسابًا للأجر وطلب الثواب. وهذا حاصل لمن علم بها ومن لم يعلم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لم يشترط العلم بها في حصول، هذا الأجر. وبهذا انتهى الكلام على سورة القدر.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠).

تفسير سورة البينة

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ١-٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾، يعني: ما كان الكفار من ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وهم اليهود والنصارى، سموا بذلك؛ لأن صحفهم بقيت إلى أن بعث النبي ﷺ مع ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير، ولكن هم أهل الكتاب، فاليهود لهم التوراة، والنصارى لهم الإنجيل ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾، المشركون هم عبدة الأوثان من كل جنس من بني إسرائيل ومن غيرهم، لم يكن هؤلاء ﴿مُنفَكِّينَ﴾، أي: تاركين لما هم عليه من الشرك والكفر ومنفكين عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، والبينة ما يبين به الحق في كل شيء، فكل شيء يبين به الحق، فإنه يسمى بينة، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[1]، فكل ما بان به الحق فهو بينة، ويكون في كل شيء بحسبه، فما هي البينة التي ذكرها الله هنا؟ البينة قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، وهذا الرسول هو النبي محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه عليه، وجاء بصيغة النكرة ﴿رَسُولٌ﴾، تعظيمًا له؛ لأنه ﷺ جدير بأن يعظم التعظيم اللائق به من غير نقص،

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٣٤١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٩٧).

ولا غلو ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾، يعني: أن الله أرسله إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. فهو محمد ﷺ مرسل من عند الله بواسطة جبريل ﷺ؛ لأن جبريل هو رسول رب العالمين إلى رسله موكل بالوحي ينزل به على من شاء الله من عباده.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعني: يقرأ لنفسه وللناس، ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به ﴿مُطَهَّرَةً﴾، أي: منقاة من الشرك، ومن رذائل الأخلاق، ومن كل ما يسوء؛ لأنها نزيهة مقدسة ﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، كتب أي: مكتوبات قيمة، فكتب جمع كتاب، بمعنى مكتوب، والمعنى أن في هذه الصحف مكتوبات قيمة كتبها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومن المعلوم أن الإنسان إذا تصفح القرآن وجده كذلك، وجده يتضمن كتبًا أي: مكتوبات قيمة، انظر إلى ما جاء به القرآن من توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والثناء عليه، وحمده وتسبيحه تجده مملوءًا بذلك، انظر إلى ما في القرآن من وصف النبي ﷺ ووصف أصحابه المهاجرين والأنصار ووصف التابعين لهم بإحسان، انظر إلى ما جاء به القرآن من الأمر بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تجد أن كل ما جاء به القرآن فهو قيم بنفسه، وكذلك هو مقيم لغيره ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، إذن أخبر الله في هذه الآية أنه لا يمكن أن ينفك هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين حتى تأتيهم البينة، فلما جاءتهم البينة هل انفكوا عن دينهم، عن كفرهم وشركهم؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، يعني: لما جاءتهم البينة اختلفوا، منهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن النصارى من آمن مثل النجاشي ملك الحبشة، ومن اليهود من آمن أيضًا مثل عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن علم الله منه أنه يريد الخير، ويريد الدين لله آمن ووفق للإيمان، ومن لم يكن كذلك وفق للكفر، كذلك أيضًا من المشركين من آمن، وما أكثر المشركين من قريش الذين آمنوا، فصار الناس قبل بعثة الرسول ﷺ لم يزالوا على ما هم عليه من الكفر حتى جاءتهم البينة، ثم لما جاءتهم البينة تفرقوا واختلفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٦-٨].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، بين الله تعالى في هذه الآية بيانًا مؤكدًا بـ(إن) إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أي: في النار التي تسمى جهنم، وسميت جهنم، لبعد قعرها وسوادها، فهو مأخوذ من الجُهمة، وقيل: إنه اسم أعجمي عربته العرب. وأيًّا كان فإنه أعني لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنْ﴾، هنا بيان للإبهام، أعني إبهام الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعلى هذا فيقتضي أن أهل الكتاب كفار وهم (اليهود والنصارى)، والأمر كذلك، فإن اليهود والنصارى كفار حين لم يؤمنوا برسول الله محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -، وإن قالوا: إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدعون لموتاهم بالرحمة وما أشبه ذلك من العبارات التي يتزلفون بها، فإنهم كاذبون، إذ لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لآمنوا بمحمد ﷺ، بل لآمنوا برسلهم؛ لأن النبي ﷺ قد وجد وصفه في التوراة والإنجيل، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بل إن عيسى ﷺ قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فلما جاء هذا الرسول الذي بشر به عيسى بالبينات، قالوا: هذا سحر مبين، وكذبوه ولم يتبعوه إلا نفرًا قليلًا من اليهود والنصارى، فقد آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - واتبعوه. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة؛ لأن البرية هي الخليقة، وعلى هذا فيكون الكفار من بني آدم من (اليهود والنصارى والمشركين) شر البرية (شر الخلائق)

وقد بيَّن الله ذلك تمامًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢،٢٣]، فهؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين هم شر البرية عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإذا كانوا هم شر البرية فلن نتوقع منهم إلا كل شر؛ لأن الشرير ينبثق منه الشر، ولا يمكن أبدًا أن نحسن الظن بهم، قد نثق بالصادقين منهم، كما وثق النبي ﷺ بالمشرك عبدالله بن أريقط، حين استأجره ليدله على طريق الهجرة، لكن غالبهم وجمهورهم لا يوثق منهم؛ لأنهم شر، ولما ذكر الله حكم هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ذكر حكم المؤمنين فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾، والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فيؤتى بالمعنى وما يقابله، ويأتي بأصحاب النار وأصحاب الجنة، ويأتي بآيات الترهيب وآيات الترغيب، وهلم جرًّا؛ لأجل أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بين الخوف والرجاء، ولئلا يمل، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضيع لا شك أنه يعطي النفس قوة واندفاعًا، بخلاف ما لو كان الكلام على وتيرة واحدة، فإن الإنسان قد يمل، ولا تتحرك نفسه، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾، فخير خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم على طبقات أربع بينها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]. هذه الطبقات الأربع هي طبقات المؤمنين أعلاها: طبقة النبوة، وأعلى طبقات النبوة طبقة الرسالة، ثم بعد النبوة الصديقية، وعلى رأس الصديقين أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ.

الطبقة الثالثة: الشهداء، قيل: إنهم أُولو العلم. وقيل: إنهم الذين قتلوا في سبيل الله، والآية تحتمل المعنيين جميعًا بدون مناقضة، والذي ينبغي لمفسر القرآن أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين بدون مناقضة أن يحملها على المعنيين جميعًا، فالشهداء هم أولو العلم، وهم الذين قتلوا في سبيل الله، وكلهم مرتبتهم عالية فوق سائر المتبعين للرسل إلا الصديقين؛ قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وهم أدنى الطبقات، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على اختلاف طبقاتهم هم خير البرية، أي: خير ما خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من البرايا، ثم بين جزاءهم فقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، وهنا قدم الله الثناء على المؤمنين الذين عملوا الصالحات على ذكر جزائهم؛ لأن ثناء الله عليهم أعظم مرتبة وأعلى منقبة، فلذلك قدمه على الجزاء الذي هو جزاؤهم في يوم القيامة ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، ﴿جَنَّٰتُ ﴾، جمعها لاختلاف أنواعها؛ لأن النبي ﷺ قال: إن الجنات «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»، وإلى، هذا يشير قول الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ثم

ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. فلهم جنات والجنات التي ذكرها الله تعالى جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات هي عبارة عن منازل عظيمة أعدها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للمؤمنين المتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يمكن لإنسان في هذه الدنيا أن يتصور كيف نعيم الآخرة أبدًا؛ لأنه أعلى وأجل مما نتصور، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء)، لكنها الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا، قال عز وجل: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾، العدن بمعنى الإقامة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن تمام نعيم أهل الجنة أن كل واحد منهم لا يطلب تحولًا عما هو عليه من النعيم؛ لأنه لا يرى أن أحدًا أكمل منه، ولا يحس في قلبه أنه في غضاضة بالنسبة لمن هو أرقى منه وأكمل قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. أي: لا يبغون تحولًا عما هم عليه؛ لأن الله قد أقنعهم بما أعطاهم فلا يجدون أحدًا أكمل نعيمًا منهم، ولهذا سمى الله تعالى هذه الجنات جنات عدن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، قال العلماء: من تحت قصورها وأشجارها وإلا فهو على سطحها وليس أسفل، إنما هو من تحت هذه القصور والأشجار، والأنهار التي ذكرها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هنا مجملة فصلها في سورة (محمد) فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]. وقد جاء في الآثار من وصف هذه الأنهار أنها تجري بغير أخدود وبغير خنادق بمعنى أن النهر يجري على سطح الأرض يتوجه حيث وجهه الإنسان، ولا يحتاج إلى شق خنادق، ولا إلى بناء أخدود تمنع سيلان الماء يمينًا وشمالًا، وفي، هذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه النونية:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُودٍ ... سُبْحَانَ مُمْسِكُهَا عَنِ الفَيَضَانِ

قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يموتون، ولا يمرضون، ولا ييأسون، ولا يألمون، ولا يحزنون، ولا يمسهم فيها نصب، فهم في أكمل النعيم دائمًا وأبدًا ـ أبد الآبدين ـ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وهذا أكمل نعيم أن الله ـ تعالى ـ يرضى عنهم، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعده أبدًا، بل وينظرون إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بأعينهم، كما يرون القمر ليلة البدر لا يشكون في ذلك، ولا يمترون في ذلك، ولا يتضامون في ذلك، أي: لا ينضم بعضهم إلى بعض؛ ليريه الآخر، بل كل إنسان يراه في مكانه حسب ما أراد الله ـ عز وجل ـ.

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي: ذلك الجزاء لمن خشي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والخشية هي خوف الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ المقرون بالهيبة والتعظيم، ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي: العلماء بعظمته وكمال سلطانه، فالخشية أخص من الخوف، ويتضح الفرق بينهما بالمثال: إذا خفت من شخص لا

تدري هل هو قادر عليك أو لا؟ فهذا خوف، وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية. وبهذا تمت هذه السورة العظيمة وتم ما تيسر لنا من الكلام على تفسيرها، ونسأل الله أن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الزلزلة

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:١-٨].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، المراد بذلك ما ذكره الله ـ تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿زِلْزَالَهَا﴾، يعني: الزلزال العظيم الذي لم يكن مثله قط، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾، يعني: من شدة ذهولهم وما أصابهم تجدهم كأنهم سكارى، وما هم بسكارى، بل هم صحاة، لكن لشدة الهول صار الإنسان كأنه سكران لا يدري كيف يتصرف، ولا كيف يفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، المراد بهم: أصحاب القبور، فإنه إذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، يخرجون من قبورهم لرب العالمين ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾، الإنسان المراد به الجنس، يعني: أن الإنسان البشر يقول: ما

لها؟ أي شيء لها، هذا الزلزال؟ ولأنه يخرج وكأنه، كما قال الله تعالى: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]. فيقول: ما الذي حدث لها وما شأنها؟ لشدة الهول.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في ذلك اليوم إذا زلزلت ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، أي: تخبر عما فعل الناس عليها من خير أو شر، وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن المؤذن إذا أذن، فإنه لا يسمع صوته شجر، ولا مدر، ولا حجر، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، فتشهد الأرض بما صنع عليها من خير أو شر، وهذه الشهادة من أجل بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يؤاخذ الناس إلا بما عملوه، وإلا، فإن الله ـ تعالى ـ بكل شيء محيط، ويكفي أن يقول لعباده جل وعلا عملتم كذا وعملتم كذا.. لكن من باب إقامة العدل وعدم إنكار المجرم؛ لأن المجرمين ينكرون أن يكونوا مشركين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لأنهم إذا رأوا أهل التوحيد قد خلصوا من العذاب ونجوا منه أنكروا الشرك لعلهم ينجون، ولكنهم يختم على أفواههم، وتكلم الآيدي، وتشهد الأرجل والجلود والألسن كلها تشهد على الإنسان بما عمل، وحينئذ لا يستطيع أن يبقى على إنكاره، بل يقر ويعترف، إلا أنه لا ينفع الندم في ذلك الوقت. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، هوجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: بسبب أن الله أوحى لها، يعني: أذن لها في أن تحدث أخبارها، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير إذا أمر شيئًا بأمر، فإنه لابد أن يقع، يخاطب الله الجماد فيتكلم الجماد، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقال الله تعالى للقلم اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وقال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا وجه الكلام إلى شيء ولو جمادًا، فإنه يخاطب الله ويتكلم ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يومئذ تزلزل الأرض زلزالها. وقوله تعالى: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، أي: جماعات متفرقين، يصدرون كل يتجه إلى مأواه؛ فأهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ يتجهون إليها، وأهل النار ـ والعياذ بالله ـ يساقون إليها ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٧]. فيصدر الناس جماعات وزمرًا على أصناف متباينة تختلف اختلافًا كبيرًا، كما قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. قوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، يعني: يصدرون أشتاتًا فيروا أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وذلك بالحساب وبالكتاب،

فيعطى الإنسان كتابه إما بيمينه، وإما بشماله، ثم يحاسب على ضوء ما في هذا الكتاب، يحاسبه الله - عَزَّ وَجَلَّ - أما المؤمن، فإن الله تعالى يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا وكذا، وفعلت كذا، حتى يقر ويعترف، فإذا رأى أنه هلك، قال الله عز وجل: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1]، وأما الكافر - والعياذ بالله - فإنه لا يعامل هذه المعاملة، بل ينادى على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، هذا مضاف والمضاف يقتضي العموم وظاهره أنهم يرون الأعمال الصغيرة والكبيرة، وهو كذلك، إلا ما غفره الله من قبل بحسنات، أو دعاء أو ما أشبه ذلك فهذا يمحى، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. فيرى الإنسان عمله، يرى عمله القليل والكثير حتى يتبين له الأمر جليًّا ويعطى كتابه ويقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. ولهذا يجب على الإنسان ألَّا يقدم على شيء لا يرضي الله عز وجل؛ لأنه يعلم أنه مكتوب عليه، وأنه سوف يحاسب عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، ﴿من﴾، شرطية تفيد العموم، يعني أي إنسان يعمل مثقال ذرة، فإنه سيراه، سواء من الخير، أو من الشر ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة، والمراد بالذرة: صغار النمل، كما هو معروف، وليس المراد بالذرة: الذرة المتعارف عليها اليوم، كما ادعاه بعضهم؛ لأن هذه الذرة المتعارف عليها اليوم ليست معروفة في ذلك الوقت، والله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يخاطب الناس إلا بما يفهمون، وإنما ذكر الذرة؛ لأنها مضرب المثل في القلة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ومن المعلوم أن من عمل ولو أدنى من الذرة، فإنه سوف يجده، لكن لما كانت الذرة مضرب المثل في القلة قال الله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يفيد أن الذي يوزن هو الأعمال، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: فمن العلماء من قال: إن الذي يوزن العمل. ومنهم من قال: إن الذي يوزن صحائف الأعمال. ومنهم من قال: إن الذي يوزن هو العامل نفسه. ولكل دليل.

أما من قال: إن الذي يوزن هو العمل فاستدل بهذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لأن تقدير الآية فمن يعمل عملًا مثقال ذرة. واستدلوا أيضًا بقول النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيمِ»[(١)].

لكن يشكل على هذا أن العمل ليس جسمًا يمكن أن يوضع في الميزان، بل العمل عمل انتهى وانقضى، ويجاب عن هذا بأن يقال:

أولًا: على المرء أن يصدق بما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ من أمور الغيب، وإن كان عقله قد يحار فيه، ويتعجب ويقول كيف يكون، هذا؟ فعليه التصديق؛ لأن قدرة الله تعالى فوق ما نتصور، فالواجب على المسلم أن يسلم ويستسلم، ولا يقول كيف؟ لأن أمور الغيب فوق ما يتصور.

ثانيًا: أن الله تعالى يجعل هذه الأعمال أجسامًا توضع في الميزان وتثقل وتخف، والله تعالى قادر على أن يجعل الأمور المعنوية أجسامًا، كما صح عن النبي ﷺ في أن الموت يؤتى به على صورة كبش ويوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون ويطلعون ويقال: يا أهل النار فيشرئبون ويطلعون فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، مع أنه في صورة كبش والموت (معنى) ليس جسمًا، ولكن الله تعالى يجعله جسمًا يوم القيامة، فيقولون:، هذا الموت فيذبح أمامهم ويقال: يا أهل الجنة خلود، ولا موت، ويا أهل النار خلود، ولا موت، وبهذا يزول الإشكال الوارد على هذا القول.

أما من قال: إن الذي يوزن هو صحائف الأعمال فاستدلوا بحديث صاحب البطاقة الذي يؤتى يوم القيامة به، ويقال: انظر إلى عملك فتمد له سجلات مكتوب فيها العمل السيىء، سجلات عظيمة، فإذا رأى أنه قد هلك أتي ببطاقة صغيرة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال له: إنك لا تظلم شيئًا، ثم توزن البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فترجح بهن البطاقة وهي لا إله إلا الله قالوا فهذا دليل على أن الذي يوزن هو صحائف الأعمال.

وأما الذين قالوا: إن الذي يوزن هو العامل نفسه فاستدلوا بحديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان ذات يوم مع النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فهبت ريح شديدة، فقام عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فجعلت الريح تكفئه؛ لأنه نحيف القدمين والساقين، فجعل الناس يضحكون، فقال النبي ﷺ: «مِمَّا تَضْحَكُونَ؟ أو مِمَّا تَعْجَبُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ سَاقَيْهِ فِي المِيْزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[(٢)] وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل.

فيقال: نأخذ بالقول الأول: أن الذي يوزن العمل، ولكن ربما يكون بعض الناس توزن صحائف أعماله، وبعض الناس يوزن هو بنفسه.

فإن قال قائل: على هذا القول أن الذي يوزن هو العامل هل ينبني هذا على أجسام الناس في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٧٣) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح»

الدنيا وأن صاحب الجسم الكبير العظيم يثقل ميزانه يوم القيامة؟

فالجواب: لا ينبني على أجسام الدنيا، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»(1)، وقال: اقرؤا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وهذا عبدالله بن مسعود يقول النبي ﷺ: «إن ساقيه في الميزان أثقل من أحد»، فالعبرة بثقل الجسم أو عدمه، ثقله يوم القيامة بما كان معه من أعمال صالحة. يقول عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وهذه السورة كلها فيها التحذير والتخويف من زلزلة الأرض، وفيها الحث على الأعمال الصالحة، وفيها أن العمل لا يضيع مهما قل، حتى لو كان مثقال ذرة، أو أقل، فإنه لابد أن يراه الإنسان ويطلع عليه يوم القيامة. نسأل الله تعالى أن يختم لنا بالخير والسعادة والصلاح والفلاح، وأن يجعلنا ممن يحشرون إلى الرحمن وفدًا إنه على كل شيء قدير.

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

تفسير سورة العاديات

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا
(٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ
لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١-١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، هذا قسم، والعاديات صفة لموصوف محذوف فما هو هذا الموصوف؟ هل المراد الخيل يعني: (والخيل العاديات) أو المراد الإبل يعني: (والإبل العاديات)؟ في هذا قولان للمفسرين: فمنهم من قال: إن الموصوف هي الإبل، والتقدير (والإبل العاديات) ويعني بها الإبل التي تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ثم إلى منى، وذلك في مناسك الحج، واستدلوا لهذا بأن هذه السورة مكية، وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها.

أما القول الثاني لجمهور المفسرين، وهو الصحيح، فإن الموصوف هو الخيل والتقدير (والخيل العاديات) والخيل العاديات معلومة للعرب حتى قبل مشروعية الجهاد، هناك خيل تعدو على أعدائها سواء بحق أم بغير حق فيها قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فالخيل تعدوا على أعدائها بحق. يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، والعادي اسم فاعل من العدو، وهو سرعة المشي والانطلاق، وقوله تعالى: ﴿ضَبْحًا﴾، الضبح ما يسمع من أجواف الخيل حين تعدو بسرعة، يكون لها صوت يخرج من صدورها، وهذا يدل على قوة سعيها وشدته. قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، الموريات من أورى أو وري بمعنى قدح، ويعني بذلك: قدح النار حينما

يضرب الأحجار بعضها بعضًا، كما هو مشهور عندنا في حجر المرو، فإنك إذا ضربت بعضه ببعض انقدح، هذه الخيل لقوة سعيها وشدته، وضربها الأرض، فإذا ضربت الحجر ضرب الحجر الحجر الثاني ثم يقدح نارًا، وذلك؛ لقوتها وقوة سعيها وضربها الأرض. قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، أي: التي تغير على عدوها في الصباح، وهذا أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح؛ لأنه في غفلة ونوم، وحتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وعلى إعياء، فاختار الله - عَزَّ وَجَلَّ - للقسم بهذه الخيول أحسن وقت للإغارة، وهو الصباح، وكان النبي ﷺ لا يغير على قوم في الليل، بل ينتظر فإذا أصبح إن سمع أذانًا كف وإلا أغار. قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي: أثرن بهذا العدو، وهذه الإغارة ﴿نَقْعًا﴾ وهو الغبار الذي يثور من شدة السعي، فإن الخيل إذا سعت إذا اشتد عدوها في الأرض، صار لها غبار من الكر والفر، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾، أي: توسطن بهذا الغبار ﴿جَمْعًا﴾، أي: جموعًا من الأعداء أي: أنها ليس لها غاية، ولا تنتهي غايتها إلا وسط الأعداء، وهذه غاية ما يكون من منافع الخيل، مع أن الخيل كلها خير، كما قال النبي ﷺ: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]. أقسم الله تعالى بهذه العاديات - بهذه الخيل التي بلغت الغاية - وهو الإغارة على العدو وتوسط العدو، من غير خوف، ولا تعب، ولا ملل. أما المقسم عليه فهو الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي: أن جنس الإنسان، فإذا لم يوفق للهداية، فإنه ﴿لَكَنُودٌ﴾، أي: كفور لنعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، فعلى هذا يكون عامًّا أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنودًا لربه - عَزَّ وَجَلَّ - والكنود هو الكفر، أي: كافر لنعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - يرزقه الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيزداد بهذا الرزق عتوًا ونفورًا، فإن من الناس من يطغى إذا رآه قد استغنى عن الله، وما أكثر ما أفسد الغنى من بني آدم فهو كفور بنعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - يجحد نعمة الله، ولا يقوم بشكرها، ولا يقوم بطاعة الله؛ لأنه كنود لنعمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، الضمير قيل: يعود على الله، أي: أن الله تعالى يشهد على العبد بأنه كفور لنعمة الله.

وقيل: إنه عائد على الإنسان نفسه، أي: أن الإنسان يشهد على نفسه بكفر نعمة الله عز وجل.

والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضًا شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣).

٢٤]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، الخير هو المال، كما قال الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي: إن ترك مالًا كثيرًا. فالخير هو المال، والإنسان حبه للمال أمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولا تكاد تجد أحدًا يسلم من الحب الشديد للمال، أما مطلق الحب فهذا ثابت لكل أحد، ما من إنسان إلا ويحب المال، لكن الشدة ليست لكل أحد، بعض الناس يحب المال الذي تقوم به الكفاية، ويستغني به عن عباد الله، وبعض الناس يريد أكثر، وبعض الناس يريد أوسع وأوسع. فالمهم أن كل إنسان، فإنه محب للخير أي: للمال، لكن الشدة تختلف، ويختلف فيها الناس من شخص لآخر، ثم إن الله تعالى ذكّر الإنسان حالًا لابد له منها فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، فيعمل لذلك، ولا يكن همه المال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، أي: يتيقن. قوله تعالى: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾، أي: نشر وأظهر، فإن الناس يخرجون من قبورهم لرب العالمين، كأنهم جراد منتشر، يخرجون جميعًا بصيحة واحدة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. قوله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- العمدة ما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]؛ لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر، حتى المنافق يعامل، كما يعامل المسلم حقًّا، لكن في الآخرة العمل على ما في القلب، ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور، مما تكنه الصدور، فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: إن الله -عَزَّ وَجَلَّ- بهم أي: بالعباد لخبير، وجاء التعبير ﴿بِهِمْ﴾، ولم يقل (به) مع أن الإنسان مفرد، باعتبار المعنى، أي: أنه أعاد الضمير على الإنسان باعتبار المعنى؛ لأن معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أن كل إنسان، وعلق العلم بذلك اليوم ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ لأنه يوم الجزاء والحساب، وإلا، فإن الله تعالى عليم خبير في ذلك اليوم وفيما قبله، فهو جل وعلا عالم بما كان، وما يكون لو كان كيف يكون.

هذا هو التفسير اليسير لهذه السورة العظيمة، ومن أراد البسط فعليه بكتب التفاسير التي تبسط القول في هذا، ونحن إنما نشير إلى المعاني إشارة موجزة. نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن يجعلنا ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة القارعة

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١-١١].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم فاعل من قرع، والمراد: التي تقرع القلوب وتفزعها وذلك عند النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. فهي تقرع القلوب بعد قرع الأسماع، وهذه القارعة هي قارعة عظيمة لا نظير لها قبل ذلك، وهي من أسماء يوم القيامة، كما تسمى الغاشية، والحاقة، وقوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، ﴿مَا﴾، هنا استفهام بمعنى التعظيم والتفخيم يعني: ما هي القارعة التي ينوه عنها؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ هذا زيادة في التفخيم والتعظيم والتهويل، يعني أي: شيء أعلمك عن هذه القارعة؟ أي: ما أعظمها وما أشدها، ثم بين متى تكون؟ فقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: أنها تكون في ذلك الوقت، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث حين يخرجون من قبورهم. قال العلماء: يكونون كالفراش المبثوث، والفراش هو هذه الطيور الصغيرة التي تتزاحم عند وجود النار في الليل وهي ضعيفة وتكاد

تمشي بدون هدي، وتتراكم وربما لطيشها تقع في النار وهي لا تدري، فهم يشبهون الفراش في ضعفه وحيرته وتراكمه وسيره إلى غير هدى. و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾، يعني: المنتشر، فهو كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. لو تصورت، هذا المشهد يخرج الناس من قبورهم على، هذا الوجه لتصورت أمرًا عظيمًا لا نظير له، هؤلاء العالم من آدم إلى أن تقوم الساعة كلهم يخرجون خروج رجل واحد في آن واحد من هذه القبور المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها، ومن غير القبور كالذي ألقي في لجة البحر، وأكلته الحيتان، أو في فلوات الأرض، وأكلته السباع، أو ما أشبه ذلك، كلهم سيخرجون مرة واحدة، يصولون ويجولون في هذه الأرض. أما الجبال وهي تلك الجبال العظيمة الراسية الصلبة فتكون ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾، الصوف، وقيل: القطن. قوله تعالى: ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾، المبعثر أي: أن هذه الجبال بعد أن كانت صلبة قوية راسخة تكون مثل العهن الصوف، أو القطن المبعثر سواء نفشته بيدك أم بالمنداف، فإنه يكون خفيفًا يتطاير مع أدنى ريح، وقد قال الله - تعالى - في آيات أخرى أن الجبال تكون هباء منبثًا ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]. وقال جل وعلا هنا: وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾، قسم الله تعالى الناس إلى قسمين:

القسم الأول: من ثقلت موازينه، وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته. والثاني: من خفت موازينه، وهو الذي رجحت سيئاته على حسناته، أو الذي ليس له حسنة أصلًا كالكافر، يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، العيشة مأخوذة من العيش، وهو الحياة، يقال: عاش الرجل زمنًا طويلًا، أي: بقي وحيي زمنًا طويلًا، والعيشة هنا على وزن فعلة فهي هيئة وليست مصدرًا، المصدر الدال على الوحدة أن تقول عيشة، وأما إذا قلت عِيشَة فهي فعلة تدل على الهيئة، كما قال ابن مالك رحمه الله:

وَفَعْلَةٌ لِمَرَّةٍ كَجَلْسَةٍ وَفِعْلَةٌ لِهَيْئَةٍ كَجِلْسَةٍ[1]

المعنى: أنه في حياة طيبة راضية. قوله تعالى: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، قيل: إنها اسم فاعل بمعنى اسم المفعول، أي: مرضية. وقيل: إنها اسم فاعل من باب النسبة أي: ذات رضى، وكلا المعنيين واحد، والمعنى: أنها عيشة طيبة ليس فيها نكد، وليس فيها صخب، وليس فيها نصب، كاملة من كل وجه، وهذا يعني: العيش في الجنة - جعلنا الله منهم - هذا العيش لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين، لا يحزنون، ولا يخافون، في أنعم عيش، وأطيب بال، وأسر حال فهي عيشة

(١) ألفية ابن مالك: البيت رقم: ٤٥٥.

راضية. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، إما أنه الكافر الذي ليس له أي حسنة؛ لأن حسنات الكافر يجازى بها في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة، أو أنه مسلم، ولكنه مسرف على نفسه وسيئاته أكثر. قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أم هنا بمعنى مقصوده، أي: الذي يقصده الهاوية، والهاوية من أسماء النار، يعني: أنه مآله إلى نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ.

وقيل: إن المراد بالأم هنا: أم الدماغ، والمعنى: أنه يلقى في النار على أم رأسه ـ نسأل الله السلامة ـ وإذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يترجح أحدهما على الآخر، ولا يتنافيان، فإنه يؤخذ بالمعنيين جميعًا فيقال: يرمى في النار على أم رأسه، وأيضًا ليس له مأوى، ولا مقصد إلا النار. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾، هذا من باب التفخيم والتعظيم لهذه الهوية، يسأل ما هي؟ أتدري ما هي؟ إنها لشيء عظيم، إنها نار حامية في غاية ما يكون من الحمو، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»[1]. فإذا تأملت نار الدنيا كلها سواء نار الحطب، أم الورق، أم البتغاز أم أشد من ذلك، فإن نار جهنم مفضلة عليها بتسعة وستين جزءًا نسأل الله العافية. وفي هذه الآية التخويف والتحذير من هذا اليوم وأن الناس لا يخرجون عن حالين:

إما رجل رجحت حسناته، أو رجل رجحت سيئاته. وفيها أيضًا دليل على أن يوم القيامة فيه موازين، وقد جاء في بعض النصوص أنه ميزان فهل هو واحد أو متعدد؟

قال بعض أهل العلم: إنه واحد، وإنما جمع باعتبار الموزون؛ لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد.

وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان؛ فلهذا جمعت.

والأظهر ـ والله أعلم ـ: أنه ميزان واحد ـ لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد.

وفي هذه الآية دليل على: أن الإنسان إذا تساوت حسناته وسيئاته، فإنه قد سكت عنه في هذه الآية، ولكن بين الله تعالى في سورة الأعراف أنهم لا يدخلون النار، وإنما يحبسون في مكان يقال له الأعراف، وذكر الله تعالى في سورة الأعراف ما يجري بينهم وبين المؤمنين، وأنهم إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. نسأل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يجعلنا ممن رجحت حسناته على سيئاته، وأن يغفر لنا، ويعاملنا بعفوه، إنه على كل شيء قدير.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة التكاثر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ هذه الجملة جملة خبرية يخبر الله - عَزَّ وَجَلَّ - بها العباد مخاطبًا لهم يقول: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ومعنى ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أي: شغلكم حتى لهوتم عمّا هو أهم من ذكر الله تعالى والقيام بطاعته، والخطاب هنا لجميع الأمة إلا أنه يخصص بمن شغلتهم أمور الآخرة عن أمور الدنيا وهم قليل، وإنما نقول هم قليل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»[1]، واحد في الجنة والباقي في النار، وهذا عدد هائل! إذا لم يكن من بني آدم إلا واحدًا من الألف من أهل الجنة والباقون من أهل النار، إذن فالخطاب بالعموم في مثل هذه الآية جار على أصله؛ لأن الواحد من الألف ليس بشيء بالنسبة إليه، وأما قوله تعالى: ﴿التَّكَاثُرُ﴾، فهو يشمل التكاثر بالمال، والتكاثر بالقبيلة، والتكاثر بالجاه، والتكاثر بالعلم، وبكل ما يمكن أن يقع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فيه التفاخر، ويدل لذلك قول صاحب الجنة لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. فالإنسان قد يتكاثر بماله فيطلب أن يكون أكثر من الآخر مالًا وأوسع تجارة، وقد يتكاثر الإنسان بقبيلته، يقول نحن أكثر منهم عددًا، كما قال الشاعر:

وَلَسْتُ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

أكثر منهم حصى؛ لأنهم كانوا فيما سبق يعدون الأشياء بالحصى. فمثلًا: إذا كان هؤلاء حصاهم عشرة آلاف، والاخرون حصاهم ثمانية آلاف صار الأول أكثر وأعز، فيقول الشاعر:

لست بالأكثر منهم حصى، وإنما العزةُ للكاثر كذلك يتكاثر الإنسان بالعلم، فتجده يكاثر على غيره بالعلم لكن إن كان بالعلم الشرعي فهو خير، وإن كان بالعلم غير الشرعي فهو إما مباح وإما محرم. وهذا هو الغالب على بني آدم التكاثر. فيتكاثرون في هذه الأمور عما خلقوا له من عبادة الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يعني: إلى أن زرتم المقابر، يعني: إلى أن مُتم، فالإنسان مجبول على التكاثر إلى أن يموت، بل كلما ازداد به الكِبر ازداد به الأمل، فهو يشيب في السن ويشب في الأمل، حتى إن الرجل له تسعون سنة مثلًا تجد عنده من الامال وطول الأمل ما ليس عند الشاب الذي له خمس عشرة سنة، هذا هو معنى الآية الكريمة. أي: أنكم تلهوتم بالتكاثر عن الآخرة إلى أن متم.

وقيل: إن معنى ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتى أصبحتم تتكاثرون بالأموات، كما تتكاثرون بالأحياء، فيأتي الإنسان فيقول: أنا قبيلتي أكثر من قبيلتك وإذا شئت فاذهب إلى القبور عد القبور منا، وعد القبور منكم؛ فأينا أكثر؟ لكن، هذا قول ضعيف بعيد من سياق الآية. والمعنى الأول هو الصحيح أنكم تتكاثرون إلى أن تموتوا، وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ استدل به عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على أن الزائر لابد أن يرجع إلى وطنه، وأن القبور ليست بدار إقامة، وكذلك يذكر عن بعض الأعراب أنه سمع قارىء يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال: (والله ما الزائر بمقيم والله لنبعثن)؛ لأن الزائر، كما هو معروف يزور ويرجع، فقال: والله لنبعثن. وهذا هو الحق؛ وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس الآن في الجرائد وغيرها. يقول عن الرجل إذا مات: «إنه انتقل إلى مثواه الأخير»، إن هذا كلام باطل وكذب؛ لأن القبور ليس هي المثوى الخير، بل لو أن الإنسان اعتقد مدلول، هذا اللفظ لصار كافرًا بالبعث، والكفر بالبعث ردة عن الإسلام، لكن كثيرًا من الناس يأخذون الكلمات، ولا يدرون ما معناها، ولعل هذه موروثة عن الملحدين الذين لا يقرون بالبعث بعد الموت؛ لهذا يجب تجنب هذه العبارة، فلا يقال عن القبر إنه المثوى الأخير؛ لأن المثوى الأخير إما الجنة، وإما النار في يوم القيامة. ثم قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قيل: إن ﴿كَلَّا﴾، بمعنى الردع يعني: ارتدعوا عن، هذا التكاثر، وقيل: إنها بمعنى حقًا، ومعنى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سوف تعلمون

عاقبة أمركم إذا رجعتم إلى الآخرة، وأن، هذا التكاثر لا ينفعكم. وقد جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيما رواه مسلم «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي وَمَالِي - يعني: يفتخر به - وَلَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»(١)، والباقي تاركه لغيرك وهذا هو الحق، أموالنا التي بين أيدينا، إما أن نأكلها فتفنى، وإما أن نلبسها فتبلى، وإما أن نتصدق بها فنمضيها وتكون أمامنا يوم القيامة. وإما أن نتركها لغيرنا لا يمكن أن يخرج المال الذي بأيدينا عن هذه القسمة الرباعية. قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سوف تعلمون عاقبة أمركم بالتكاثر الذي ألهاكم عن الآخرة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الجملة تأكيد للردع مرة ثانية.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، يعني: حقًّا لو تعلمون علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال، ولكنكم لا تعلمون علم اليقين؛ لأنكم غافلون لاهون في هذه الدنيا،ولو علمتم علم اليقين لعرفتم أنكم في ضلال وفي خطأ عظيم. ثم قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هذه الجملة مستقلة ليست جواب «لو» ولهذا يجب على القارىء أن يقف عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، ونحن نسمع كثيرًا من الأئمة يصلون فيقولون ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، وهذا الوصل إما غفلة منهم ونسيان، وإما أنهم لم يتأملواالآية حق التأمل، وإلا لو تأملوها حق التأمل لوجدوا أن الوصل يفسد المعنى؛ لأنه إذا قال «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» صار رؤية الجحيم مشروطة بعلمهم، وهذا ليس بصحيح، لذلك يجب التنبه والتنبيه لهذا من سمع أحدًا يقرأ «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم» ينبه ويقول له: يا أخي هذا الوصل يوهم فساد المعنى، فلا تَصِلْ وَقِفْ، أولًا:؛ لأنها رأس آية، والمشروع أن يقف الإنسان عند رأس كل آية، وثانيًا: أن الوصل يفسد المعنى «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم»؛ إذنْ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، جملة مستأنفة لا صلة لها بما قبلها، وهي جملة قسمية، فيها قسم مقدر والتقدير: والله لترون الجحيم، ولهذا يقول المعربون في إعرابها: إن اللام موطئة للقسم، وجملة: «ترون» هي جواب القسم، والقسم محذوف والتقدير «والله لترون الجحيم» و﴿الْجَحِيمَ﴾ اسم من أسماء النار ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، تأكيد لرؤيتها، ومتى ترى؟ تُرى يوم القيامة، يؤتى بها تُجر بسبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، فما ظنك بهذه النار - والعياذ بالله - إنها نار كبيرة عظيمة؛ لأن فيها سبعين ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، والملائكة عظام شداد فهي نار عظيمة - أعاذنا الله منها -.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، يعني: ثم في ذلك الوقت في ذلك الموقف

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢)، والنسائي (٣٦١٣).

العظيم تسألن عن النعيم، واختلف العلماء رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، هل المراد الكافر، أو المراد المؤمن والكافر؟

والصواب: أن المراد المؤمن والكافر كل يسأل عن النعيم، لكن الكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع، والمؤمن يسأل سؤال تذكير، والدليل على أنه عام ما جرى في قصة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ، وأبي بكر وعمر، فعن أبي هريرة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟». قَالاَ الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « وَأَنَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِى الَّذِى أَخْرَجَكُمَا قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ مَرْحَباً وَأَهْلاً . فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم « أَيْنَ فُلاَنٌ ». قَالَتْ ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ . إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِىُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّى - قَالَ - فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ كُلُوا مِنْ هَذِهِ ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ »[1]. وفي رواية أخرى: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطْبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»[2]. وهذا دليل على أن الذي يُسأل المؤمن والكافر، ولكن يختلف السؤال، سؤال المؤمن سؤال تذكير بنعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليه حتى يفرح، ويعلم أن الذي أنعم عليه في الدنيا ينعم عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرم بنعمته عليه في الدنيا تكرم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافر فإنه سؤال توبيخ وتنديم. نسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل ما رزقنا عونًا على طاعته، إنه على كل شيء قدير.

١ ـ صحيح: أخرجه مسلم (٥٤٣٤).

(٢) انظر ما قبله

تفسير سورة العصر

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، أقسم الله تعالى بالعصر، والعصر قيل: إن المراد به آخر النهار؛ لأن آخر النهار أفضله، وصلاة العصر تسمى الصلاة الوسطى، أي: الفضلى، كما سماها النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ بذلك.

وقيل: إن العصر هو الزمان، وهذا هو الأصح وأقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر، ومتحدث عنه في الغائب، فالعصر هو الزمان الذي يعيشه الخلق، وتختلف أوقاته شدة ورخاء، وحربًا وسلمًا، وصحة ومرضًا، وعملًا صالحًا وعملًا سيئًا إلى غير ذلك مما هو معلوم للجميع، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، والإنسان هنا عام؛ لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل «أل» كلمة «كل» فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان، هذا هو المعنى. ومعنى الآية الكريمة أن الله أقسم قسمًا على حال الإنسان أنه في خسر أي: في خسران ونقصان في كل أحواله، في الدنيا وفي الآخرة إلا من استثنى الله ـ عز وجل ـ. وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: (إنّ) والثالث: (اللام) وأتى بقوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾؛ ليكون أبلغ من قوله: (لخاسر) وذلك أن «في» للظرفية فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب. قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، استثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هؤلاء المتصفين بهذه الصفات الأربع:

الصفة الأولى: الإيمان الذي لا يخالجه شك، ولا تردد بما بينه الرسول ﷺ حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وشرح هذا الحديث يطول وتكلمنا عليه في مواطن كثيرة، فالذين آمنوا بهذه الأصول الستة هم المؤمنون، ولكن يجب أن يكون إيمانًا لا شك معه، ولا تردد، بمعنى: أنك تؤمن بهذه الأشياء وكأنك تراها رأي: العين. والناس في، هذا المقام ثلاثة أقسام: القسم الأول: مؤمن خالص الإيمان إيمانًا لا شك فيه، ولا تردد. والقسم الثاني: كافر جاحد منكر. والقسم الثالث: متردد. والناجي من هؤلاء القسم الأول الذي يؤمن إيمانًا لا تردد فيه، يؤمن بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته، وبأسمائه وصفاته - عَزَّ وَجَلَّ - ويؤمن بالملائكة وهم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وكلفهم بأعمال منها ما هو معلوم، ومنها ما ليس بمعلوم، فجبريل عليه السلام مكلف بالوحي ينزل به من عند الله إلى الأنبياء والرسل، وميكائيل مكلف بالقطر والنبات يعني: وكله الله على المطر وكل ما يتعلق بالمطر وعلى النبات. وإسرافيل موكل بالنفخ بالصور، ومالك: موكل بالنار، ورضوان موكل بالجنة، ومن الملائكة من لا نعلم أسماءهم، ولا نعلم أعمالهم أيضًا، لكن جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - «أَنَّهُ مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ»(٢)، كذلك نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بالرسل الذين قصهم الله علينا، نؤمن بهم بأعيانهم، والذين لم يقصصهم علينا نؤمن بهم إجمالًا؛ لأن الله لم يقص علينا جميع أنباء الرسل، قال الله تعالى: ﴿مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. واليوم الآخر هو يوم البعث يوم يخرج الناس من قبورهم للجزاء حفاة عراة غرلًا بُهمًا، فالحفاة يعني: الذين ليس عليهم نعال، ولا خفاف أي: أقدامهم عارية، والعراة: الذين ليس عليهم ثياب، والغرل: الذين لم يُختنوا. والبهم: الذين ليس معهم مال يحشرون كذلك، ولما حدث النبي ﷺ بأنهم عراة قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ»(٣) أي: من أن ينظر بعضهم إلى بعض؛ لأن الناس كل مشغول بنفسه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مما يكون بعد الموت، فيجب أن تؤمن بفتنة القبر أي: بالاختبار الذي يكون للميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه، فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه، وتؤمن كذلك بأن القبر إما روضة من رياض الجنة،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وإما حفرة من حفر النار. أي: أن فيه العذاب أو الثواب، وتؤمن كذلك بالجنة والنار وكل ما يتعلق باليوم الآخر، فإنه داخل في قوله: «أن تؤمن بالله واليوم الآخر» والقدر: تقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعني: يجب أن تؤمن بأن الله تعالى قدر كل شيء وذلك أن الله خلق القلم فقال له: اكتب. قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. إذن فالإيمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يشمل الإيمان بالأصول الستة التي بينها الرسول ﷺ أما قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فمعناه: أنهم قاموا بالأعمال الصالحة: من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وبر للوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك فلم يقتصروا على مجرد ما في القلب، بل عملوا وأنتجوا و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي التي اشتملت على شيئين:

الأول: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ والثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

وذلك أن العمل إذا لم يكن خالصًا لله فهو مردود. قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قال الله: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١). فلو قمت تصلي مراءاة للناس، أو تصدقت مراءاة للناس، أو طلبت العلم مراءاة للناس، أو وصلت الرحم مراءاة للناس أو غير ذلك فالعمل مردود حتى وإن كان صالحًا في ظاهره، كذلك الاتباع لو أنك عملت عملًا لم يعمله الرسول ﷺ وتقربت به إلى الله مع الإخلاص لله، فإنه لا يقبل منك؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)؛ إذن العمل الصالح ما جمع وصفين: الأول: الإخلاص لله عز وجل. والثاني: المتابعة للرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صار بعضهم يوصي بعضًا بالحق. والحق: هو الشرع. يعني: كل واحد منهم يوصي الآخر إذا رآه مفرطًا في واجب. أوصاه وقال: يا أخي قم بالواجب، فإذا رآه فاعلًا لمحرم أوصاه قال: يا أخي اجتنب الحرام، فهم لم يقتصروا على نفع أنفسهم، بل نفعوا أنفسهم وغيرهم، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضًا بالصبر، والصبر حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وقسمه أهل العلم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صبر على طاعة الله، القسم الثاني: صبر عن محارم الله، القسم الثالث: صبر على أقدار الله.

الصبر على الطاعة، كثير من الناس يكون فيه كسل عن الصلاة مع الجماعة مثلًا: لا يذهب إلى المسجد يقول: أصلي في البيت وأديت الواجب فيكسل فقال له: يا أخي اصبر نفسك، احبسها كلفها على أن تصلي مع الجماعة. كثير من الناس إذا رأى زكاة ماله كثيرة شح وبخل وصار يتردد.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

اخرج، هذا المال الكثير، أو اتركه وما أشبه ذلك. فقال له: يا أخي اصبر نفسك على أداء الزكاة، وهكذا بقية العبادات، فإن العبادات، كما قال الله تعالى في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، أكثر عباد الله تجد أن العبادات عليهم ثقيلة، فهم يتواصون بالصبر على الطاعة، كذلك الصبر عن المعصية بعض الناس مثلًا تجره نفسه إلى أكساب محرمة إما بالربا، وإما بالغش، وإما بالتدليس أو بغير ذلك من أنواع الحرام فيقال له: اصبر يا أخي اصبر نفسك لا تتعامل على وجه محرم، بعض الناس أيضًا يبتلى بالنظر إلى النساء تجده ماشيًا في السوق وكل ما مرت امرأة أتبعها بصره فيقال له: يا أخي اصبر نفسك عن هذا الشيء، ويتواصون على أقدار الله، يصاب الإنسان بمرض في بدنه، يصاب الإنسان بفقد شيء من ماله، يصاب الإنسان بفقد أحبته فيجزع ويتسخط ويتألم فيتواصون فيما بينهم، اصبر يا أخي، هذا أمر مقدر والجزع لا يفيد شيئًا، واستمرار الحزن لا يرفع الحزن، إنسان امتحن بموت ابنه نقول: يا أخي اصبر، قدر أن، هذا الابن لم يخلق، ثم كما قال الرسول ﷺ لإحدى بناته: «إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرِ وَلْتَحْتَسِبْ»(١). الأمر كلّه لله، فإذا أخذ الله تعالى ملكه كيف تعتب على ربك؟ كيف تتسخط، فإن قيل: أي: أنواع الصبر أشق على النفوس؟

فالجواب: هذا يختلف، فبعض الناس يشق عليه القيام بالطاعة وتكون ثقيلة عليه جدًا، وبعض الناس بالعكس الطاعة هينة عليه، لكن ترك المعصية صعب، شاق مشقة كبيرة، وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، لكن لا يتحمل الصبر على المصائب بل يعجز حتى إنه قد تصل به الحال إلى أن يرتد - والعياذ بالله - كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]؛ إذن نأخذ من هذه السورة أن الله - سبحانه وتعالى - أكد بالقسم المؤكد بإن، واللام أن جميع بني آدم في خسر، والخسر محيط بهم من كل جانب، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: (لو لم ينزل الله على عباده حجة إلا هذه السورة لكفتهم). يعني: كفتهم موعظة وحثًا على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك. وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة، فكل إنسان عاقل يعرف أنه في خُسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بهذه الصفات الأربع، وإلى تخليص نفسه من الخسران. نسأل الله أن يجعلنا من الرابحين الموفقين، إنه على كل شيء قدير.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

تفسير سورة الهمزة

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ
۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦
ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، في هذه السورة يبتدىء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكلمة ﴿وَيْلٌ﴾، وهي كلمة وعيد، أي: أنها تدل على ثبوت الوعيد لمن اتصف بهذه الصفات، وقوله: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، إلى آخره، وقيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾، اسم لوادٍ في جهنم، ولكن الأول أصح. قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، كل من صيغ العموم، والهمزة واللمزة وصفان لموصوف واحد، فهل هما بمعنى واحد؟ أو يختلفان في المعنى؟

قال بعض العلماء: إنهما لفظان لمعنى واحد، يعني: أن الهمزة هو اللمزة. وقال بعضهم:، بل لكل واحد منهما معنى غير المعنى الآخر.

وثَمَّ قاعدة أحب أن أنبه عليها في التفسير وغير التفسير وهي: أنه إذا دار الأمر بين أن تكون الكلمة مع الأخرى بمعنى واحد، أو لكل كلمة معنى، فإننا نجعل لكل واحدة معنى؛ لأننا إذا جعلنا الكلمتين بمعنى واحد صار في هذا تكرار لا داعي له، لكن إذا جعلنا كل واحدة لها معنى صار هذا تأسيسًا وتفريقًا بين الكلمتين، والصحيح في هذه الآية ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، أن بينهما فرقًا فالهمزة: بالفعل. واللمز: باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. فالهمز بالفعل يعني: أنه

يسخر من الناس بفعله إما أن يلوي وجهه، أو يعبس بوجهه. أو ما أشبه ذلك، أو بالإشارة يشير إلى شخص، انظروا إليه ليعيبه أو ما أشبه ذلك، فالهمز يكون بالفعل، واللمز باللسان، وبعض الناس - والعياذ بالله - مشغوف بعيب البشر إما بفعله، وهو الهمّاز، وإما بقوله، وهو اللمّاز، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾، هذه أيضًا من أوصافه القبيحة جماع مناع، يجمع المال، ويمنع العطاء، فهو بخيل لا يعطي يجمع المال ويعدده، وقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ وقيل: معنى التعديد يعني: الإحصاء يعني: لشغفه بالمال كل مرة يذهب إلى الصندوق ويعد، يعد الدراهم في الصندوق في الصباح، وفي آخر النهار يعدها، وهو يعرف أنه لم يأخذ منه شيئًا ولم يضف إليه شيئًا لكن لشدة شغفه بالمال يتردد عليه ويعدده، ولهذا جاءت بصيغة المبالغة ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ يعني: أكثر تعداده لشدة شغفه ومحبته له يخشى أن يكون نقص، أو يريد أن يطمئن زيادة على ما سبق فهو دائمًا يعدد المال.

وقيل: معنى ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جعله عُدة له يعني: ادخره لنوائب الدهر، وهذا، وإن كان اللفظ يحتمله لكنه بعيد؛ لأن إعداد المال لنوائب الدهر مع القيام بالواجب بأداء ما يجب فيه من زكاة وحقوق ليس مذمومًا، وإنما المذموم أن يكون أكبر همِّ الإنسان هو المال، يتردد إليه ويعدده، وينظر هل زاد، هل نقص؟ فالقول بأن المراد عدده أي: جمعه للمستقبل قول ضعيف.

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، يعني: يظن هذا الرجل أن ماله سيخلده ويبقيه، إما بجسمه وإما بذكره؛ لأن عمر الإنسان ليس ما بقي في الدنيا، بل عمر الإنسان حقيقة ما يخلده بعد موته، ويكون ذكراه في قلوب الناس وعلى ألسنتهم، فيقول في هذه الآية: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾، أي: أخلد ذكره أو أطال عمره، والأمر ليس كذلك، فإن أهل الأموال إذا لم يُعرفوا بالبذل والكرم، فإنهم يخلدون لكن بالذكر السيىء. فيقال: أبخل من فلان، وأبخل من فلان ويذكر في المجالس ويعاب، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، ﴿كَلَّا﴾، هنا يسميها العلماء حرف ردع أي: تردع، هذا القائل أو، هذا الحاسب عن قوله أو عن حسبانه. ويحتمل أن تكون بمعنى حقًا «يعني: حقًا لينبذن» وكلاهما صحيح، هذا الرجل لن يخلده ماله، ولن يخلد ذكراه، بل سينسى ويطوى ذكره، وربما يذكر بالسوء لعدم قيامه بما أوجب الله عليه من البذل.

قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ اللام هذه واقعة في جواب القسم المقدر، والتقدير «والله؛ لينبذن في الحطمة» أي: يطرح طرحًا. وإذا قلنا: أن اللام لجواب القسم صارت هذه الجملة مؤكدةً باللام، ونون التوكيد، والقسم المحذوف. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، أي: تأكيد الشيء باليمين، واللام، والنون. والله تعالى يقسم بالشيء تأكيدًا له وتعظيمًا لشأنه. وقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، ما الذي يُنبذ هل هو صاحب المال أو المال؟ كلاهما ينبذ، أما صاحب المال، فإن الله يقول في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: يدفعون، وهنا يقول:

«ينبذ» أي: يطرح في الحطمة، والحطمة هي التي تحطم الشيء، أي: تفتته وتكسره فما هي؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ وهذه الصيغة للتعظيم والتفخيم ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ هذا الجواب أي: هي نار الله الموقدة، وأضافها الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى نفسه؛ لأنه يعذب بها من يستحق العذاب فهي عقوبة عدل وليست عقوبة ظلم. أي: نار يحرق الله بها من يستحق أن يُعذب بها، إذن هي نار عدل وليست نار ظلم؛ لأن الإحراق بالنار قد يكون ظلمًا وقد يكون عدلًا، فتعذيب الكافرين في النار لا شك أنه عدل، وأنه يُثنى به على الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ حيث عامل هؤلاء بما يستحقون. وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾، مع فعل، هذا الفاعل ﴿هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، حطمة، وهمزة لمزة، على وزن واحد؛ ليكون الجزاء مطابقًا للعمل حتى في اللفظ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، أي: المسجّرة المسعرة. قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾، الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب. والمعنى: أنها تصل إلى القلوب ـ والعياذ بالله ـ من شدة حرارتها، مع أن القلوب مكنونة في الصدور وبينها وبين الجلد الظاهر ما بينها من الطبقات لكن مع ذلك تصل هذه النار إلى الأفئدة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم﴾ أي: الحطمة وهي نار الله الموقدة أي: على الهمّاز واللمّاز الجمّاع للمال المناع للخير، وأعاد الضمير، بلفظ الجمع مع أن المرجع مفرد باعتبار المعنى؛ لأن ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾، عام يشمل جميع الهمّازين وجميع اللمّازين ﴿مُّؤۡصَدَةٞ﴾ أي: مغلقة، مغلقة الأبواب لا يُرجى لهم فرج ـ والعياذ بالله ـ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] يعني: يرفعون إلى أبوابها حتى يطمعوا في الخروج ثم بعد ذلك يركسون فيها ويعادون فيها، كل هذا لشدة التعذيب؛ لأن الإنسان إذا طمع في الفرج وأنه سوف ينجو ويخلص يفرح، فإذا أعيد صارت انتكاسة جديدة، فهكذا يعذبون بضمائرهم وأبدانهم، وعذاب أهل النار مذكور مفصل في القرآن الكريم والسنة النبوية. تأمل الآن لو أن إنسانًا كان في حجرة أو في سيارة اتقدت النيران فيها وليس له مهرب، الأبواب مغلقة ماذا يكون؟ في حسرة عظيمة لا يمكن أن يماثلها حسرة، فهم ـ والعياذ بالله ـ هكذا في النار، النار عليهم مؤصدة ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي: أن هذه النار مؤصدة، وعليها أعمدة ممدة أي: ممدودة على جميع النواحي والزوايا حتى لا يتمكن أحد من فتحها أو الخروج منها.

حكى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك علينا وبينه لنا في هذه السورة لا لمجرد أن نتلوه بألسنتنا، أو نعرف معناه بأفهامنا، لكن المراد أن نحذر من هذه الأوصاف الذميمة: عيب الناس بالقول، وعيب الناس بالفعل، والحرص على المال حتى كأن الإنسان إنما خلق للمال ليخلد له، أو يخلد المال له، ونعلم أن من كانت هذه حاله، فإن جزاءه هذه النار التي هي، كما وصفها الله الحطمة، تطلع على الأفئدة، مؤصدة، في عمد ممدة. نسأل الله تعالى أن يجيرنا منها، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستقامة على دينه.

تفسير سورة الفيل

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، يخاطب الله تعالى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون خطاب النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - خطاب له وللأمة؛ لأن أمته تابعة له، وعلى الثاني يكون الخطاب عام له ولأمته، ابتداءً، وعلى كلٍّ: فإن الله تعالى يقرر ما فعل - سبحانه وتعالى - بأصحاب الفيل، وأصحاب الفيل هم أهل اليمن الذين جاءوا لهدم الكعبة بفيل عظيم أرسله إليهم ملك الحبشة، وسبب ذلك أن ملك اليمن أراد أن يصد الناس عن الحج إلى الكعبة، بيت الله - عَزَّ وَجَلَّ - فبنى بيتًا يشبه الكعبة، ودعا الناس إلى حجه؛ ليصدهم عن حج بيت الله فغضب لذلك العرب، وذهب رجل منهم إلى هذا البيت الذي جعله ملك اليمن بدلًا عن الكعبة وتغوَّط فيه، ولطخ جدرانه بالقذر، فغضب ملك اليمن غضبًا شديدًا، وأخبر ملك الحبشة بذلك؛ فأرسل إليه هذا الفيل العظيم قيل: وكان معه ستة فيلة لتساعده فجاء ملك اليمن بجنوده؛ ليهدم الكعبة على زعمه، ولكن الله سبحانه حافظ بيته، فلما وصلوا إلى مكان يسمى المغمَّس وقف الفيل وحرن، وأبى أن يتجه إلى الكعبة فزجره سايسه، ولكنه أبى، فإذا وجهوه إلى اليمن انطلق يهرول، وإن

وجهوه إلى مكة وقف، وهذه آية من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ثم بقوا حتى أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال العلماء: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، يعني: جماعات متفرقة، كل طير في منقاره حجر صلب ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، وهو الطين المشوي؛ لأنه يكون أصلب، وهذا الحجر ليس كبيرًا، بل هو صغير يضرب الواحد من هؤلاء مع رأسه ويخرج من دبره - والعياذ بالله - ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، أي: كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت.

هذا مجمل هذه السورة العظيمة التي بين الله - سبحانه وتعالى - فيها ما فعل بأصحاب الفيل وأن كيدهم صار في نحورهم، وهكذا كل من أراد الحق بسوء، فإن الله تعالى يجعل كيده في نحره، وإنما حمى الله - عَزَّ وَجَلَّ - الكعبة عن هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يُسلط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجرًا حجرًا حتى تتساوى بالأرض؛ لأن قصة أصحاب الفيل مقدمة لبعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - التي يكون فيها تعظيم البيت. أما في آخر الزمان، فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره حينئذ يسلط الله عليهم من يهدمه حتى لا يبقى على وجه الأرض، ولهذا يجب على أهل مكة خاصة أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر، لئلا يُهينوا الكعبة فيذلهم الله - عز وجل - نسأل الله تعالى أن يحمي ديننا وبيته الحرام من كيد كل كائد، إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة قريش

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾
﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة لها صلة بالسورة التي قبلها، إذ أن السورة التي قبلها فيها بيان منة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على أهل مكة بما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا مكة لهدم الكعبة، فبين الله في هذه السورة نعمة أخرى كبيرة على أهل مكة (على قريش)، وهو رحلتهم مرتين في السنة، مرة في الصيف ومرة في الشتاء، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ والإلف بمعنى الجمع والضم، ويراد به التجارة التي كانوا يقومون بها مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، أما في الشتاء فيتجهون نحو اليمن للمحصولات الزراعية فيه، ولأن الجو مناسب، وأما في الصيف فيتجهون إلى الشام؛ لأن غالب تجارة الفواكه وغيرها تكون في هذا الوقت في الصيف مع مناسبة الجو البارد، فهي نعمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على قريش في هاتين الرحلتين؛ لأنه يحصل منها فوائد كثيرة ومكاسب كبيرة من هذه التجارة، أمرهم الله أن يعبدوا رب هذا البيت قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، شكرًا له على هذه النعمة، والفاء هذه إما أن تكون فاء السببية، أي: فبسبب هاتين الرحلتين؛ ليعبدوا رب هذا البيت، أو أن تكون فاء التفريع، وأيًّا كان فهي مبنية على ما سبق، أي: فبهذه النعم العظيمة يجب عليهم أن يعبدوا الله، والعبادة هي التذلل لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ محبة وتعظيمًا. أن يتعبد الإنسان لله يتذلل له بالسمع والطاعة، فإذا بلغه عن الله ورسوله أمر قال: سمعنا وأطعنا، وإذا بلغه خبر قال: سمعنا وآمنا، على وجه المحبة والتعظيم،

فبالمحبة يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبالتعظيم يترك النواهي خوفًا من هذا العظيم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذا معنى من معاني العبادة، وتطلق العبادة على نفس المتعبد به، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بهذا المعنى فقال: إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة. وقوله تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، يعني به: الكعبة المعظمة، وقد أضافها الله تعالى إلى نفسه في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]. وهنا أضاف ربوبيته إليه قال تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، وإضافة الربوبية إليه على سبيل التشريف والتعظيم ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ أضاف الله البيت إليه تشريفًا وتعظيمًا، إذن خصص البيت بالربوبية مرة، وأضافه إلى نفسة مرة أخرى تشريفًا وتعظيمًا، وفي آية ثانية قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وبعدها قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾، احتراز من أن يتوهم واهم بأنه رب البلدة وحدها فقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، ولكل مقام صيغة مناسبة، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، مناسبة بيان عموم ملكه، لئلا يدعي المشركون أنه رب للبلدة فقط، أما هنا فالمقام مقام تعظيم للبيت فناسب ذكره وحده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هذه صفة للرب، إذن فمحلها النصب، ولهذا يحسن أن تقف فتقول ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ ثم تقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم﴾؛ لأنك لو وصلت فقلت: «رب، هذا البيت الذي أطعمهم» لظن السامع أن «الذي» صفة للبيت، وهذا بعيد من المعنى، ولا يستقيم به المعنى، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، بين الله نعمته عليهم، النعمة الظاهرة والباطنة، فإطعامهم من الجوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وقاية من الخوف في الأمر الظاهر؛ لأن الخوف ظاهر، فإذا كانت البلاد محوطة بالعدو، وخاف أهلها وامتنعوا عن الخروج، وبقوا في ملاجئهم، فذكرهم الله بهذه النعمة، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، آمن مكان في الأرض هو مكة؛ ولذلك لا يُقطع شجرها، ولا يُحش حشيشها، ولا تُلتقط ساقطتها، ولا يصاد صيدها، ولا يسفك فيها دم، وهذه الخصائص لا توجد في البلاد الأخرى حتى المدينة، محرمة ولها حرم، لكن حرمها دون حرم مكة بكثير، حرم مكة لا يمكن أن يأتيه أحد من المسلمين لم يأتها، ولا مرة إلا محرمًا، والمدينة ليست كذلك، حرم مكة يحرم حشيشه وشجره مطلقًا، وأما حرم المدينة فرخص في بعض شجره للحرث ونحوه. صيد مكة حرام وفيه الجزاء، وصيد المدينة ليس فيه الجزاء؛ فأعظم مكان آمن هو مكة، حتى الأشجار آمنة فيه، وحتى الصيود آمنة فيه، ولولا أن الله تعالى يسر على عباده لكان حتى البهائم التي ليست صيودًا تحرم، لكن الله تعالى رحم

العباد وأذن لهم أن يذبحوا وينحروا في هذا المكان. وهذه النعمة ذكرهم الله بها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، يعني: أفلا يشكرون الله على هذا؟! فهذه السورة كلها تذكير لقريش بما أنعم الله عليهم في، هذا البيت العظيم، وفي الأمن من الخوف، وفي الإطعام من الجوع.

فإذا قال قائل: ما واجب قريش نحو هذه النعمة؟ وكذلك ما واجب من حلّ في مكة الآن من قريش أو غيرهم؟

قلنا: الواجب الشكر لله تعالى بالقيام بطاعته، بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ ولهذا إذا كثرت المعاصي في الحرم فالخطر على أهله أكثر من الخطر على غيرهم؛ لأن المعصية في مكان فاضل أعظم من المعصية في مكان مفضول، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فتوعد الله تعالى من أراد فيه أي: من هم به فيه بإلحاد فضلًا عمن ألحد، والواجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان، لا في مكة فحسب، فبلادنا ـ ولله الحمد ـ اليوم من آمن، بلاد العالم، وهي من أشد، بلاد العالم رغدًا وعيشًا. أطعمنا الله تعالى من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون على البر والتقوى، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وتثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه؛ لأنه ليس مشرعًا معصومًا حتى يقول إن رأيه هو الصواب وأن ما عداه هو الخطأ. الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون، كما أراد الله منه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر على ما هو عليه، ولو تبين له أنه باطل فهذا خطأ، وهذا من دأب المشركين الذين أبوا أن يتبعوا الرسول وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. نسأل الله أن يديم علينا نعمة الإسلام، والأمن في الأوطان، وأن يجعلنا إخوة متآلفين على كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إنه على كل شيء قدير.

تفسير سورة الماعون

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ﴾، الخطاب هل هو للرسول ﷺ؛ لأنه الذي أنزل عليه القرآن؟ أو هو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب؟ العموم أولى فنقول: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي﴾، عام لكل من يتوجه إليه الخطاب، ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، أي: بالجزاء، وهؤلاء هم الذين ينكرون البعث ويقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]. ويقول القائل منهم: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. هؤلاء يكذبون بيوم الدين أي: بالجزاء. قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، فجمع بين أمرين:

الأمر الأول: عدم الرحمة بالأيتام الذين هم محل الرحمة؛ لأن الأيتام هم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، وهم محل الشفقة والرحمة؛ لأنهم فاقدون لابائهم فقلوبهم منكسرة يحتاجون إلى جابر. ولهذا وردت النصوص بفضل الإحسان إلى الأيتام. لكن، هذا ـ والعياذ بالله ـ ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف؛ لأن الدع هو الدفع بعنف، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أي: دفعًا شديدًا، فتجد اليتيم إذا جاء إليه يستجديه شيئًا، أو يكلمه في شيء يحتقره ويدفعه بشدة فلا يرحمه.

الأمر الثاني: لا يحثون على رحمة الغير ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، فالمسكين الفقير المحتاج إلى الطعام لا يحض، هذا الرجل على إطعامه؛ لأن قلبه حجر قاسٍ، فقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة. فإذا ليس فيه رحمة لا للأيتام، ولا للمساكين، فهو قاسي القلب.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، ويل: هذه كلمة وعيد وهي تتكرر في القرآن كثيرًا، والمعنى الوعيد الشديد على هؤلاء، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، هؤلاء مصلون يصلون مع الناس أو أفرادًا لكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها، ولا سجودها، ولا قيامها، ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآنًا أو ذكرًا، فإذا دخل في صلاته فهو غافل، قلبه يتجول يمينًا وشمالًا، فهو ساهٍ عن صلاته، وهذا مذموم، الذي يسهو عن الصلاة ويغفل عنها ويتهاون بها لا شك أنه مذموم. أما الساهي في صلاته فهذا لا يُلام، والفرق بينهما أن الساهي في الصلاة معناه أنه نسي شيئًا، نسي عدد الركعات، نسي شيئًا من الواجبات وما أشبه ذلك؛ ولهذا وقع السهو من رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وهو أشد الناس إقبالًا على صلاته، بل إنه قال ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]، ومع ذلك سَهَا في صلاته؛ لأن السهو في الشيء معناه أنه نسي شيئًا على وجه لا يلام عليه. أما الساهي عن صلاته فهو متعمد للتهاون في صلاته، ومن السهو عن الصلاة أولئك القوم الذين يدعون للصلاة مع الجماعة، فإنهم لا شك عن صلاتهم ساهون فيدخلون في هذا الوعيد. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، أيضًا إذا فعلوا الطاعة، فإنما يقصدون بها التزلف إلى الناس، وأن يكون لهم قيمة في المجتمع، ليس قصدهم التقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهذا المرائي يتصدق من أجل أن يقول الناس ما أكرمه، هذا المصلي يحسن صلاته من أجل أن يقول الناس ما أحسن صلاته وما أشبه ذلك. هؤلاء يراءون فأصل العبادة لله، لكن يريدون مع ذلك أن يحمدهم الناس عليها، ويتقربون إلى الناس بتقربهم إلى الله، هؤلاء هم المراءون، أما من يصلي لأجل الناس بمعنى أنه يصلي بين يدي الملك مثلًا أو غيره يخضع له ركوعًا، أو سجودًا فهذا مشرك كافر قد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. لكن هذا يصلي لله مع مراعاة أن يحمده الناس على عبادته، على أنه عابد لله عز وجل. وهذا يقع كثيرًا في المنافقين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. انظر إلى هذا الوصف إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، إذن هم عن صلاتهم ساهون. يراءون الناس. وهنا يقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، فهل الذين يسمّعون مثلهم؟ يعني: إنسان يقرأ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٥٢٦١).

قرآنًا ويجهر بالقراءة ويحسن القراءة، ويحسن الأداء والصوت من أجل أن يقال ما أقرأه. هل يكون مثل الذي يرائي؟ الجواب: نعم، كما جاء في الحديث، «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ»(١)، المعنى من سمَّع فضحه الله وبين للناس أن الرجل ليس مخلصًا، ولكنه يريد أن يسمعه الناس: فيمدحوه على عبادته، ومن راءى كذلك راءى الله به، فالإنسان الذي يرائي الناس، أو يسمّع الناس سوف يفضحه الله، وسوف يتبين أمره إن عاجلًا أم آجلًا. قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، أي: يمنعون ما يجب بذله من المواعين وهي الأواني، يعني: يأتي الإنسان إليهم يستعير آنية. يقول: أنا محتاج إلى دلو، أو محتاج إلى إناء أشرب به، أو محتاج إلى مصباح كهرباء وما أشبه ذلك، فيمنع. فهذا أيضًا مذموم. ومنع الماعون ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قسم يأثم به الإنسان، **القسم الثاني**: قسم لا يأثم به، لكن يفوته الخير.

فما وجب بذله، فإن الإنسان يأثم بمنعه، وما لم يجب بذله، فإن الإنسان لا يأثم بمنعه لكن يفوته الخير. مثال ذلك: إنسان جاءه رجل مضطر يقول: أعطني ماءً أشربه، فإن لم أشرب مت، فبذل الإناء له واجب يأثم بتركه الإنسان، حتى إن بعض العلماء يقول: لو مات، هذا الإنسان، فإنه يضمنه بالدية؛ لأنه هو سبب موته ويجب عليه بذل ما طلبه.

فيجب على المرء أن ينظر في نفسه هل هو ممن اتصف بهذه الصفات أم لا؟ إن كان ممن اتصف بهذه الصفات قد أضاع الصلاة وسها عنها، ومنع الخير عن الغير فليتب وليرجع إلى الله، وإلا فليبشر بالويل ـ والعياذ بالله ـ وإن كان قد تنزه عن ذلك فليبشر بالخير، والقرآن الكريم ليس المقصود منه أن يتلوه الإنسان، ليتعبد لله تعالى بتلاوته فقط، المقصود أن يتأدب به ولهذا قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (إن النبي ﷺ كان خلقه القرآن)(٢). خُلقه يعني: أخلاقه التي يتخلق بها يأخذها من القرآن. وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة. إنه على كل شيء قدير.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٣٥)، والترمذي (٤٤٥).

تفسير سورة الكوثر

قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة قيل: إنها مكية، وقيل: إنها مدنية. والمكي هو الذي نزل قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة سواء نزل في مكة، أم في المدينة، أو في الطريق في السفر، فكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، وما نزل قبلها فهو مكي، هذا هو القول الراجح من أقوال العلماء، يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مخاطبًا النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر: في اللغة العربية هو الخير الكثير. وهكذا كان النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أعطاه الله تعالى خيرًا كثيرًا في الدنيا والآخرة. فمن ذلك النهر العظيم الذي في الجنة والذي يصبّ منه ميزابان على حوضه المورود ﷺ ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى مذاقًا من العسل، (وأطيب رائحة من المسك)، وهذا الحوض في القيامة في عرصات القيامة يرده المؤمنون من أمة النبي ﷺ وآنيته كنجوم السماء كثرة وحسنًا، فمن كان واردًا على شريعته في الدنيا كان واردًا على حوضه في الآخرة، ومن لم يكن واردًا على شريعته، فإنه محروم منه في الآخرة. ومن الخيرات الكثيرة التي أعطيها النبي ﷺ في الدنيا ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَكَانَ

النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]، هذا من الخير الكثير؛ لأن بعثه إلى الناس عامة يستلزم أن يكون أكثر الأنبياء اتباعًا، وهو كذلك فهو أكثرهم أتباعًا ﷺ ومن المعلوم أن الدال على الخير كفاعل الخير، والذي دل هذه الأمة العظيمة التي فاقت الأمم كثرة هو محمد ﷺ وعلى، هذا فيكون للرسول ﷺ من أجر كل واحد من أمته نصيب. ومن يحصي الأمة إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومن الخير الذي أعطيه في الآخرة المقام المحمود، ومنه الشفاعة العظمى، فإن الناس في يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيطلبون الشفاعة، فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى ﷺ حتى تصل إلى النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فيقوم ويشفع، ويقضي الله تعالى بين العباد بشفاعته، وهذا مقام يحمده عليه الأولون والآخرون وداخل في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ إذن الكوثر يعني: الخير الكثير، ومنه النهر الذي في الجنة، فالنهر الذي في الجنة هو الكوثر لا شك، ويسمى كوثرًا لكونه ليس هو فقط الذي أعطاه الله نبيه محمدًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من الخير، ولما ذكر منته عليه بهذا الخير الكثير قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة، أن تصلي وتنحر لله، والمراد بالصلاة هنا جميع الصلوات، وأول ما يدخل فيها الصلاة المقرونة بالنحر وهي صلاة عيد الأضحى لكنالآية شاملة عامة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، الصلوات المفروضة والنوافل. صلوات العيد والجمعة ﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: تقرب إليه بالنحر، والنحر يختص بالإبل، والذبح للبقر والغنم، لكنه ذكر النحر؛ لأن الإبل أنفع من غيرها بالنسبة للمساكين، ولهذا أهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بعير، ونحر منها ثلاثة وستين بيده، وأعطى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الباقي فنحرها. وتصدق بجميع أجزائها إلا بضعة واحدة من كل ناقة؛ فأخذها وجعلت في قدر، فطبخها؛ فأكل من لحمها، وشرب من مرقها، وأمر بالصدقة حتى بجلالها وجلودها ﷺ، والأمر في الآية أمر له وللأمة، فعلينا أن نخلص الصلاة لله، وأن نخلص النحر لله، كما أمر بذلك نبينا ﷺ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هذا في مقابل إعطاء الكوثر قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ﴿شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك، والشنئان هو البغض، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]. أي: لا يحملنكم بغضهم أن تعتدوا. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ أي: لا يحملنكم بغضهم على ترك العدل ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فشانئك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يعني: مبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الأبتر: اسم تفضيل من بتر بمعنى قطع، يعني: هو الأقطع. المنقطع من كل خير، وذلك أن كفار قريش يقولون: محمد أبتر، لا خير فيه، ولا بركة فيه، ولا في اتباعه، أبتر لما مات ابنه القاسم -رضي الله عنه- قالوا: محمد أبتر، لا يولد له، ولو ولد له فهو مقطوع النسل، فبين الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن الأبتر هو مبغض الرسول ﷺ فهو الأبتر المقطوع عن كل خير. الذي ليس فيه بركة، وحياته ندامة عليه، وإذا كان هذا في مبغضه فهو أيضًا في مبغض شرعه. فمن أبغض شريعة الرسول ﷺ أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أي طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام، فإنه كافر، خارج عن الدين لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، ولا حبوط للعمل إلا بالكفر، فمن كره فرض الصلوات فهو كافر ولو زكى، ومن كره فرض الزكاة فهو كافر ولو صلى، لكن من استثقلها مع عدم الكراهة فهذا فيه خصلة من خصال النفاق لكنه لا يكفر، وفرق بين من استثقل الشيء ومن كره الشيء.

إذنْ هذه السورة تضمنت بيان نعمة الله على رسوله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- بإعطائه الخير الكثير، ثم الأمر بالإخلاص لله -عَزَّ وَجَلَّ- في الصلوات والنحر، وكذلك في سائر العبادات، ثم بيان أن من أبغض الرسول ﷺ أو أبغض شيئًا من شريعته، فإنه هو الأقطع الذي لا خير فيه، ولا بركة فيه، نسأل الله العافية والسلامة.

تفسير سورة الكافرون

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذه السورة هي إحدى سورتي الإخلاص؛ لأن سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سُنة الفجر وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف لما تضمنتاه من الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ - والثناء عليه بالصفات الكاملة في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، يناديهم يعلن لهم بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وهذا يشمل كل كافر سواء كان من المشركين، أم من اليهود، أم من النصارى، أم من الشيوعيين أم من غيرهم. كل كافر يجب أن تناديه بقلبك أو بلسانك إن كان حاضرًا لتتبرأ منه ومن عبادته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، كُررت الجمل على مرتين مرتين ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾، أي: لا أعبد الذين تعبدونهم، وهم الأصنام ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وهو الله، و«ما» هنا في قوله تعالى: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾، بمعنى «من»؛ لأن اسم الموصول إذا عاد إلى الله، فإنه يأتي بلفظ «من» ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يعني: أنا لا أعبد أصنامكم وأنتم لا تعبدون الله. قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، قد

يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك؛ لأن الصيغة مختلفة ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، فعل. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، «عابد» و«عابدون» اسم، والتوكيد لابد أن تكون الجملة الثانية كالأولى. إذن القول بأنه كرر للتوكيد ضعيف، إذن لماذا هذا التكرار؟

قال بعض العلماء: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: الآن ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ في المستقبل، فصار ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، أي: في الحال، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، يعني: في المستقبل؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال، واسم الفاعل يدل على الاستقبال. بدليل أنه عمل، واسم الفاعل لا يعمل إلا إذا كان للاستقبال، ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ الآن ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ يعني: الان. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، يعني: في المستقبل ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، يعني: في المستقبل.

لكن أورد على هذا القول إيراد كيف قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، مع أنهم قد يؤمنون فيعبدون الله؟! وعلى، هذا فيكون في، هذا القول نوع من الضعف.

وأجابوا عن ذلك بأن قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، يخاطب المشركين الذين عَلِم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، فيكون الخطاب ليس عامًّا، وهذا مما يضعف القول بعض الشيء، فعندنا الآن قولان:الأول: إنها توكيد، والثاني: إنها في المستقبل، القول الثالث: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، أي: لا أعبد الأصنام التي تعبدونها. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: لا تعبدون الله. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: في العبادة يعني: ليست عبادتي كعبادتكم، ولا عبادتكم كعبادتي، فيكون، هذا نفي للفعل لا للمفعول به، يعني: ليس نفيًا للمعبود. لكنه نفي للعبادة أي: لا أعبد كعبادتكم، ولا تعبدون أنتم كعبادتي؛ لأن عبادتي خالصة لله، وعبادتكم عبادة شرك.

القول الرابع: واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، هذا الفعل. فوافق القول الأول في هذه الجملة، قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: في القبول، بمعنى ولن أقبل غير عبادتي، ولن أقبل عبادتكم، وأنتم كذلك لن تقبلوا. فتكون الجملة الأولى عائدة على الفعل، والجملة الثانية عائدة على القبول والرضا، يعني: لا أعبده، ولا أرضاه، وأنتم كذلك. لا تعبدون الله، ولا ترضون بعبادته.

وهذا القول إذا تأملته لا يرد عليه شيء من الهفوات السابقة، فيكون قولًا حسنًا جيدًا، ومن

هنا نأخذ أن القرآن الكريم ليس فيه شيء مكرر لغير فائدة إطلاقًا، ليس فيه شيء مكرر إلا وله فائدة؛ لأننا لو قلنا: إن في القرآن شيئًا مكررًا بدون فائدة لكان في القرآن ما هو لغو، وهو منزه عن ذلك، وعلى، هذا فالتكرار في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي سورة المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، تكرار لفائدة عظيمة، وهي أن كل آية مما بين هذه الآية المكررة، فإنها تشمل على نعم عظيمة، وآلاء جسيمة، ثم إن فيها من الفائدة اللفظية التنبيه للمخاطب حيث يكرر عليه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ويكرر عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، الذي أنتم عليه وتدينون به. ولي ديني؛ فأنا بريء من دينكم، وأنتم بريئون من ديني.

قال بعض أهل العلم: وهذه السورة نزلت قبل فرض الجهاد؛ لأنه بعد الجهاد لا يقر الكافر على دينه إلا بالجزية إن كانوا من أهل الكتاب. وعلى القول الراجح أو من غيرهم.

ولكن الصحيح أنها لا تنافي الأمر بالجهاد حتى نقول إنها منسوخة، بل هي باقية ويجب أن نتبرأ من دين اليهود والنصارى والمشركين في كل وقت وحين؛ ولهذا نقر اليهود والنصارى على دينهم بالجزية، ونحن نعبد الله، وهم يعبدون ما يعبدون، فهذه السورة فيها البراءة والتخلي من عبادة غير الله -عَزَّ وَجَلَّ- سواء في المعبود أم في نوع الفعل، وفيها الإخلاص لله -عَزَّ وَجَلَّ- وألاَّ نعبد إلا الله وحده لا شريك له. وإلى هنا ينتهي ما تيسر من الكلام على هذه السورة.

تفسير سورة النصر

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، الخطاب للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾، النصر هو تسليط الله الإنسان على عدوه، بحيث يتمكن منه ويخذله ويكبته، والنصر أعظم سرور يحصل للعبد في أعماله؛ لأن المنتصر يجد نشوة عظيمة، وفرحًا وطربًا، لكنه إذا كان بحق فهو خير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١) أي: أن عدوه مرعوب منه إذا كان بينه وبينه مسافة شهر، والرعب أشد شيء يفتك بالعدو؛ لأن من حصل في قلبه الرعب لا يمكن أن يثبت أبدًا، بل سيطير طيران الريح فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: نصر الله إياك على عدوك ﴿وَالْفَتْحُ﴾، معطوف على النصر، وعطفه على النصر مع أن الفتح من النصر تنويه بشأنه، وهو من باب عطف الخاص على العام، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] أي: في؛ ليلة القدر فجبريل من الملائكة وخصه لشرفه، و(ال) في الفتح للعهد الذهني، أي: الفتح المعهود المعروف في أذهانكم، وهو فتح مكة، وكان فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وسببه أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لما صالح قريش في الحديبية في السنة السادسة - الصلح المشهور - نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ وخرج إليهم من المدينة بنحو عشرة آلاف مقاتل خرج مختفيًا وقال:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

«اللَّهُمَّ عَمِّ أَخْبَارَنَا عَنْهُمْ» فلم يفاجأهم إلا، وهو محيط بهم ودخل مكة في العشرين من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، مظفرًا منصورًا مؤيدًا، حتى إنه في النهاية اجتمع إليه كفار قريش حول الكعبة فوقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ما يفعل؛ فأخذ بعضادتي الباب وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» وهو الذي كان قبل ثمان سنوات هاربًا منهم وكانوا الآن في قبضته وتحت تصرفه، قال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم، كما قال يوسف؛ لأخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»، فعفا عنهم ﷺ، وهذا الفتح سماه الله فتحًا مبينًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] أي: بينًا عظيمًا واضحًا، ولما حصل عرف الناس جميعًا أن العاقبة لمحمد ﷺ وأن دور قريش واتباعه قد انقضى فصار الناس ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، أي: جماعات بعد أن كانوا يدخلون فيه أفرادًا، ولا يدخل فيه الإنسان في بعض الأحوال إلا مختفيًا، صاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، وصارت الوفود ترد على النبي ﷺ في المدينة من كل جانب حتى سمي العام التاسع (عام الوفود) يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا رأيت هذه العلامة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، كان المتوقع أن يكون الجواب فاشكر الله على هذه النعمة واحمد الله عليها، ولكن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]. كان المتوقع فاشكر ربك على، هذا التنزيل وقم بحقه، ولكن قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، إيذانًا بأنه سوف ينال أذىً بواسطة إبلاغ، هذا القرآن ونشره بين الأمة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وعند التأمل تتبين الحكمة فالمعنى أنه إذا جاء نصر الله والفتح فقد قرب أجلك وما بقي عليك إلا التسبيح بحمد ربك والاستغفار، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: سبحه تسبيحًا مقرونًا بالحمد. والتسبيح: تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله. والحمد: هو الثناء عليه بالكمال مع المحبة والتعظيم. اجمع بين التنزيه وبين الحمد ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾، يعني: اسأله المغفرة؛ فأمره الله تعالى بأمرين:

الأمر الأول: التسبيح المقرون بالحمد، والثاني: الاستغفار. والاستغفار هو طلب المغفرة. والمغفرة ستر الله تعالى على عبده ذنوبه مع محوها والتجاوز عنها. وهذا غاية ما يريد العبد؛ لأن العبد كثير الذنب يحتاج إلى مغفرة إن لم يتغمده الله برحمته هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١)؛ لأن عملك، هذا لو أردت أن تجعله في مقابلة نعمة من النعم، نعمة واحدة لأحاطت به النعم، فكيف يكون عوضًا تدخل به الجنة؟ ولهذا قال بعض العارفين في نظم له:

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، أي: لم يزل -عَزَّ وَجَلَّ- توابًا على عباده، فإذا استغفرته تاب عليك، هذا هو معنى السورة.

لكن السورة لها مغزى عظيم لا يتفطن له إلا الأذكياء، ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن الناس انتقدوه في كونه يُدني عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- مع صغر سنه، ولا يدني أمثاله من شباب المسلمين، وعمر -رضي الله عنه- من أعدل الخلفاء أراد أن يبين للناس أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء، فجمع كبار المهاجرين والأنصار في يوم من الأيام ومعهم عبدالله بن عباس وقال لهم: ما تقولون في هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، حتى ختم السورة ففسروها بحسب ما يظهر فقط، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئًا. فقال: ما تقول يا ابن عباس قال: يا أمير المؤمنين هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فتح مكة فذاك علامة أجلك، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فقال عمر: (والله ما أعلم منها إلا ما تعلم)[1]. فتبين بذلك فضل ابن عباس وتميزه، وأن عنده من الذكاء والمعرفة بمراد الله -عز وجل- لما نزلت هذه السورة جعل رسول الله ﷺ الذي هو أشد الناس عبادة لله وأتقاهم لله جعل يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[2]. فنقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٢٧)، والترمذي (٣٣٦٢).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

تفسير سورة المسد

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ② سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

التفسير

البسملة تقدم الكلام عليها.

هذا القرآن فيه من الدلالات الكثيرة ما يدل دلالة واضحة على أن رسول الله ﷺ حق، ليس يدعو للملك، ولا لجاه، ولا لرئاسة قومه، وأعمام الرسول ﷺ انقسموا في معاملته ومعاملة ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى ثلاثة أقسام:

قسم آمن به وجاهد معه، وأسلم لله رب العالمين، وقسم ساند وساعد، لكنه باق على الكفر.

وقسم عاند وعارض، وهو كافر.

فأما الأول: فالعباس بن عبدالمطلب، وحمزة بن عبدالمطلب. والثاني: أفضل من الأول؛ لأن الثاني من أفضل الشهداء عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ووصفه النبي ﷺ بأنه أسد الله، وأسد رسوله، واستشهد ـ رضي الله عنه ـ في أحد في السنة الثانية من الهجرة.

أما الذي ساند وساعد مع بقائه على الكفر فهو أبو طالب؛ فأبو طالب قام مع النبي ﷺ خير قيام في الدفاع عنه ومساندته، ولكنه ـ والعياذ بالله ـ قد سبقت له كلمة العذاب، لم يُسلم حتى في آخر حياته في آخر لحظة من الدنيا عرض عليه النبي ﷺ أن يسلم لكنه أبى، بل ومات على قوله: إنه على ملة عبدالمطلب، فشفع له النبي ﷺ حتى كان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه.

أما الثالث: الذي عاند وعارض فهو أبو لهب. أنزل الله فيه سورة كاملة تُتلى في الصلوات فرضها ونفلها، في السر والعلن، يُثاب المرء على تلاوتها، على كل حرف عشر حسنات. يقول الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وهذا رد على أبي لهب حين جمعهم النبي ﷺ؛ ليدعوهم إلى الله فبشر وأنذر، قال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا، قوله: (ألهذا جمعتنا؟)(١) إشارة للتحقير، يعني: هذا أمر حقير ما يحتاج أن يُجمع له زعماء قريش وهذا كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، والمعنى تحقيره، فليس بشيء، ولا يهتم به، كما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. فالحاصل أن أبا لهب قال: تبًّا لك ألهذا جمعتنا، فرد الله عليه بهذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، والتباب الخسار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي: خسار. وبدأ بيديه قبل ذاته؛ لأن اليدين هما آلتا العمل والحركة، والأخذ والعطاء وما أشبه ذلك. وهذا اللقب أبو لهب، لقب مناسب تمامًا لحاله ومآله، وجه المناسبة أن، هذا الرجل سوف يكون في نار تلظى، تتلظى لهبًا عظيمًا مطابقة لحاله ومآله، يقول الشاعر:

قُـلْ إِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهِ

ولما أقبل سهيل بن عمرو في قصة غزوة الحديبية قال الرسول ﷺ: «هذا سهيل بن عمرو، وما أراه إلا سهل لكم من أمركم»(٢)؛ لأن الاسم مطابق للفعل. يقول الله عز وجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾، «ما» هذه يحتمل أن تكون استفهامية والمعنى أي شيء أغنى عنه ماله وما كسب؟ والجواب: لا شيء، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، أي: ما أغنى عنه، أي: لم يغنِ عنه ماله وما كسب شيئًا، وكلا المعنيين متلازمان، ومعناهما: أن ماله وما كسب لم يغنِ عنه شيئًا، مع أن العادة أن المال ينفع، فالمال يفدي به الإنسان نفسه لو تسلط عليه عدو وقال: أنا أعطيك كذا وكذا من المال وأطلقني، يطلقه، لكن قد يطلب مالًا كثيرًا أو قليلًا، ولو مرض انتفع بماله، ولو جاع انتفع بماله، فالمال ينفع، لكن النفع الذي لا ينجي صاحبه من النار، ليس بنفع. ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ يعني: من الله شيئًا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾، قيل: المعنى: وما كسب من الولد. كأنه قال: ما أغنى عنه ماله وولده. كقول نوح: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]. فجعلوا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني بذلك: الولد. وأيدوا، هذا القول بقول النبي ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(٣).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٤)، والنسائي (٢٧٧١)، وأبو داود (١٧٥٤).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣١)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، وصححه الشيخ

والصواب: أن الآية أعم من هذا وأن الآية تشمل الأولاد، وتشمل المال المكتسب الذي ليس في يده الان، وتشمل ما كسبه من شرف وجاه. وكل ما كسبه مما يزيده شرفًا وعزًّا، فإنه لا يُغني عنه شيئًا ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾، السين في قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ السين للتنفيس المفيد للحقيقة والقرب. يعني: أن الله تعالى توعده بأنه سيصلى نارًا ذات لهب عن قريب؛ لأن متاع الدنيا والبقاء في الدنيا مهما طال، فإن الآخرة قريبة، حتى الناس في البرزخ، وإن مرت عليهم السنون الطوال فكأنها ساعة ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥]. وشيء مقدر بساعة من نهار، فإنه قريب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، يعني: كذلك امرأته معه، وهي امرأة من أشراف قريش لكن لم يغنِ عنها شرفها شيئًا لكونها شاركت زوجها في العداء والإثم، والبقاء على الكفر. وقوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قُرئت بالنصب والرفع، أما النصب، فإنها تكون حالًا لامرأة، يعني: وامرأته حال كونها حمالة الحطب. أو تكون منصوبة على الذم؛ لأن النعت المقطوع يجوز نصبه على الذم. أي: أذم حمالة الحطب، وأما على قراءة الرفع فهي صفة لامرأة ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾، صيغة مبالغة أي: تحمله بكثرة، وذكروا أنها تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ من أجل أذى الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾، الجيد: العنق، والحبل معروف، والمسد: الليف. يعني: أنها متقلدة حبلًا من الليف تخرج به إلى الصحراء لتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ نعوذ بالله من ذلك، وهو إشارة إلى دنو نظرتها، وأنها أهانت نفسها، امرأة من قريش من أكابر قبائل قريش تخرج إلى الصحراء وتضع، هذا الحبل في عنقها، وهو من الليف مع ما فيه من المهانة، لكن من أجل أذية الرسول ﷺ. نسأل الله العافية. وبهذا ينتهي الكلام بما يسر الله - عَزَّ وَجَلَّ - على هذه السورة.

الألباني في «الإرواء» (١٦٢٦).

تفسير سورة الإخلاص

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

❁ التفسير ❁

البسملة سبق الكلام عليها.

ذكر في سبب نزول هذه السورة: أن المشركين أو اليهود قالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك؟؛ فأنزل الله هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، الخطاب للرسول ﷺ وللأمة أيضًا و﴿هُوَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ضمير الشأن عند المعربين. ولفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، هو خبر المبتدأ و﴿أَحَدٌ﴾، خبر ثان. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، جملة مستقلة. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أي: هو الله الذي تتحدثون عنه وتسألون عنه ﴿أَحَدٌ﴾، أي: متوحد بجلاله وعظمته، ليس له مثيل، وليس له شريك، بل هو متفرد بالجلال والعظمة عز وجل.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ جملة مستقلة، بين الله تعالى أنه ﴿الصَّمَدُ﴾، أجمع ما قيل: في معناه: أنه الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. فقد روي عن ابن عباس أن الصمد هو الكامل في علمه، الكامل في حلمه، الكامل في عزته، الكامل في قدرته، إلى آخر ما ذكر في الأثر. وهذا يعني: أنه مستغنٍ عن جميع المخلوقات؛ لأنه كامل، وورد أيضًا في تفسيرها أن الصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، وهذا يعني: أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه، وعلى، هذا فيكون المعنى الجامع للصمد هو: الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنه ـ جل وعلا ـ لا مثيل له، والولد مشتق من والده وجزء منه، كما

قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في فاطمة: «إنها بَضْعَةٌ مني»[(١)]، والله ـ جل وعلا ـ لا مثيل له، ثم إن الولد إنما يكون للحاجة إليه إما في المعونة على مكابدة الدنيا، وإما في الحاجة إلى بقاء النسل. والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مستغنٍ عن ذلك؛ فلهذا لم يلد؛ لأنه لا مثيل له؛ ولأنه مستغنٍ عن كل أحد عز وجل. وقد أشار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى امتناع ولادته أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. فالولد يحتاج إلى صاحبة تلده، وكذلك هو خالق كل شيء، فإذا كان خالق كل شيء فكل شيء منفصل عنه بائن منه. وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى؛ لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عبادالرحمن إناثًا، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، فكذبهم الله بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولودًا؟!

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، أي: لم يكن له أحد مساويًا في جميع صفاته، فنفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نفسه أن يكون والدًا، أو مولودًا، أو له مثيل، وهذه السورة لها فضل عظيم. قال النبي ﷺ: «إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[(٢)]، لكنها تعدله، ولا تقوم مقامه، فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزىء عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلًا للشيء، ولا يجزىء عنه. فها هو النبي ﷺ أخبر أن من قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، أَو مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»[(٣)]، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال، هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائمًا مقامه في الإجزاء.

هذه السورة كان الرسول ﷺ يقرأ بها في الركعة الثانية في سنة الفجر، وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف، وكذلك يقرأ بها في الوتر؛ لأنها مبنية على الإخلاص التام لله، ولهذا تسمى سورة الإخلاص.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «أيعجز أحدكم أن يقر ثلث القرآن في؛ ليلة»

(٣) متق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٤)، ومسلم (٢٦٩٣).

تفسير سورة الفلق

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

❁ التفسير ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، رب الفلق هو الله، والفلق: الإصباح. ويجوز أن يكون أعم من ذلك أن الفلق كل ما يطلقه الله تعالى من الإصباح، والنوى، والحب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: من شر جميع المخلوقات حتى من شر نفسه؛ لأن النفس أمارة بالسوء، فإذا قلت من شر ما خلق؛ فأول ما يدخل فيه نفسك، كما جاء في خطبة الحاجة «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»[1]، وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، يشمل شياطين الإنس والجن والهوام وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، الغاسق قيل: إنه الليل. وقيل: إنه القمر، والصحيح إنه عام لهذا وهذا، أما كونه الليل، فلأن الله تعالى قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والليل تكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك استعاذ من شر الغاسق أي: الليل.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٠٥)، وأبو داود (٢١١٨)، والنسائي (١٤٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وأما القمر فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ أرى عائشة القمر. وقال: «هَذَا هُوَ الغَاسِقُ»[1]، وإنما كان غاسقًا؛ لأن سلطانه يكون في الليل. وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، هو معطوف على ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الغاسق من مخلوقات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي: إذا دخل. فالليل إذا دخل بظلامه غاسق، وكذلك القمر إذا أضاء بنوره، فإنه غاسق، ولا يكون ذلك إلا بالليل.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، هن الساحرات. يعقدن الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمة فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، تعقد ثم تنفث، وهي بنفسها الخبيثة تريد شخصًا معينًا، فيؤثر، هذا السحر بالنسبة للمسحور. وذكر الله النفاثات دون النفاثين؛ لأن الغالب أن الذي يستعمل، هذا النوع من السحر هن النساء؛ فلهذا قال تعالى: ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، ويحتمل أن يقال: إن النفاثات يعني: الأنفس النفاثات فيشمل الرجال والنساء.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، فتجده يضيق ذرعًا إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك، فيحسده، ولكن الحسّاد نوعان: نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهمومًا مغمومًا من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. والشر والبلاء إنما هو بالحاسد إذا حسد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ومن حسد الحاسد العين التي تصيب المُعان يكون، هذا الرجل عنده كراهة لنعم الله على الغير فإذا أحس بنفسه أن الله أنعم على فلان بنعمة خرج من نفسه الخبيثة (معنى) لا نستطيع أن نصفه؛ لأنه مجهول، فيصيب بالعين، ومن تسلط عليه أحيانًا يموت، وأحيانًا يمرض، وأحيانًا يُجن، حتى الحاسد يتسلط على الحديد فيوقف اشتغاله، وربما يصيب السيارة بالعين وتنكسر أو تتعطل، وربما يصيب رفَّاعة الماء، أو حراثة الأرض، فالعين حق تصيب بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد؛ لأن البلاء كله في هذه الأحوال الثلاثة يكون خفيًا. الليل ستر وغشاء. قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، يكمن به الشر، ولا يعلم به. قوله

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٣٧)، والترمذي (٣٣٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩١٦).

تعالى: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، أيضًا السحر خفي لا يعلم. قوله تعالى: ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، العائن أيضًا خفي تأتي العين من شخص تظن أنه من أحب الناس إليك وأنت من أحب الناس إليه ومع ذلك يصيبك بالعين. لهذا السبب خص الله هذه الأمور الثلاثة. الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد، وإلا فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

فإذا قال قائل: ما هو الطريق للتخلص من هذه الشرور الثلاثة؟

قلنا: الطريق للتخلص أن يعلق الإنسان قلبه بربه، ويفوض أمره إليه، ويحقق التوكل على الله، ويستعمل الأوراد الشرعية التي بها يحصن نفسه ويحفظها من شر هؤلاء، وما كثر الأمر في الناس في الآونة الأخير من السحرة والحساد وما أشبه ذلك إلا من أجل غفلتهم عن الله، وضعف توكلهم على الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقلة استعمالهم للأوراد الشرعية التي بها يتحصنون، وإلا فنحن نعلم أن الأوراد الشرعية حصن منيع، أشد من سد يأجوج ومأجوج. لكن مع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يعرف عن هذه الأوراد شيئًا، ومن عرف فقد يغفل كثيرًا، ومن قرأها فقلبه غير حاضر، وكل، هذا نقص، ولو أن الناس استعملوا الأوراد على ما جاءت به الشريعة لسلموا من شرور كثيرة، نسأل الله العافية والسلامة.

تفسير سورة الناس

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③
مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ
النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١:٦].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

البسملة تقدم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو رب الناس وغيرهم، رب الناس، ورب الملائكة، ورب الجن، ورب السموات، ورب الأرض، ورب الشمس، ورب القمر، ورب كل شيء، لكن للمناسبة خص الناس. قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، أي: الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل هو الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، أي: مألوههم ومعبودهم، فالمعبود حقًّا الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه هو الله عز وجل. قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، ﴿الْوَسْوَاسِ﴾، قال العلماء: إنها مصدر يراد به اسم الفاعل أي: الموسوس.

والوسوسة هي: ما يلقى في القلب من الأفكار والأوهام والتخيلات التي لا حقيقة لها. قوله تعالى: ﴿الْخَنَّاسِ﴾، الذي يخنس وينهزم ويولي ويدبر عند ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو الشيطان. ولهذا إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب للصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا،

اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى. ولهذا جاء في الأثر: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الغيلَان فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ»[1]، والغيلان هي الشياطين التي تتخيل للمسافر في سفره وكأنها أشياء مهولة، أو عدو أو ما أشبه ذلك فإذا كبر الإنسان انصرفت.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾، أي: أن الوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجن فظاهر؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فما أكثر الذين يأتون إلى الإنسان يوحون إليه بالشر، ويزينونه في قلبه حتى يأخذ، هذا الكلام، بلبه وينصرف إليه.

هذه السور الثلاث: الإخلاص، والفلق، والناس كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفه ومسح بذلك وجهه، وما استطاع من بدنه، وربما قرأها خلف الصلوات الخمس.

فينبغي للإنسان أن يتحرى السنة في تلاوتها في مواضعها، كما ورد عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وبهذا نختم آخر جزء من القرآن، وهو جزء النبأ.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه التفسير الثمين للعلامة العثيمين
ونسأل الله أن يكون نافعًا لقائله ولكاتبه ولناشره ولقارئه
ولمن اعتنى به، وزخرًا وحجة لنا جميعًا يوم المعاد،
وأن يكون فاتحة خير لكل طالب علم
ونسأل الله تعالى أن يجزي قائله العلامة العثيمين رحمه الله تعالى
خير الجزاء على ما أثرى التراث الإسلامي بعلمه العزير

(١) ضعيف: جزء من حديث أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨١)، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٤٠) وانظر كلام الشيخ عليه هناك.

الفهرس

صدر عن مكتبة الطبري

شرح صحيح البخاري

شرحه وأملاه: فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

نسخة منقحة - مصححة

بها: تعليقات واستدراكات وتعقبات للعلامة ابن عثيمين

على كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري

رحمهما الله تعالى

صدر عن مكتبة الطبري

فتح الجليل

في شرح

حديث جبريل عليه السلام

«أتاكم يعلمكم أمر دينكم»

«الإسلام - الإيمان - الإحسان»

من أقوال الإمامين

سماحة الشيخ العلامة
عبد العزيز بن باز
رحمه الله تعالى

و

فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله تعالى

جمعه ورتبه

محمد بن بركات

صدر عن مكتبة الطبري

شرح
مختصر شعب الإيمان
للبيهقي

اختصره

الإمام أبو المعالي عمر بن عبد الرحمن القزويني

شرحه وعلق عليه

أبو يعقوب نشأت المصري